المُفَصَّلُ في فِقْهِ الجِهَادِ

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الرابعة

١٤٣٣هـ ٢٠١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فهذا كتاب عن فقه الجهاد كنت قد كتبته بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ م.

وقد جمعت فيه جل ما يتعلق بفقه الجهاد في سبيل الله لمسيس الحاجة لها في هذه الأيام فأمة الإسلام أمة مجاهدة عبر تاريخها الطويل،فقد كتب عن كل جزئيات الجهاد في سبيل الله،قبل سقوط الخلافة الإسلامية،وبشكل يدلّ على عزة الإسلام وعظمة هذا الدين.

والجهاد ركن وفريضة من فرائض الإسلام التي لاخلاف عليها بين أهل العلم..،قال تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [التوبة:٤١]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]

وقال تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]

فقد أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الكُفَّارِ حَتَّى لاَ تَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَفْتِنُونَ بِهَا المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ،وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهِ،وَالدَّعْوَةِ إِلَيهِ،وَحَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ شِرْكٌ،وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا،وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرَ العَالِيَ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ.فَإِنِ انْتَهَى المُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ،وَكَفُّوا عَنْ قِتَالِ المُسْلِمِينَ،فَلاَ سَبِيلَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلى قِتَالِهِمْ،لأَنَّ القِتَالَ إِنَّما شُرِعَ لِرَدْعِ الكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالفِتْنَةِ.وَالعُدْوَانُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ عَلَى مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالكُفْرِ وَالمَعَاصِي،وَتَجَاوَزَ العَدْلَ.[1]

---

[1] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

وجاءت فيه أحاديث كثيرة جدا تبين أحكامه وخصائصه وفضائله،فعَنِ ابْــنِ عُمَــرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّــدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[2]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَــرَ مِنَ الْعَرَبِ،قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِــرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَــهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَــاةَ حَقُّ الْمَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ،فَقَالَ عُمَرُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[3]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،مَا شَحَبَ وَجْــهٌ وَلَــا اغْبَرَّتْ قَدَمٌ فِي عَمَلٍ يُبْتَغَى بِهِ دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ كَجِهَادٍ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ،وَلَا ثَقَّلَ مِيزَانَ عَبْدٍ كَدَابَّةٍ تَنْفُقُ لَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَوْ يَحْمِــلُ عَلَيْهَــا فِي سبيل الله".[4]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:دُلَّنِي عَلَى عَمَــلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ:«لاَ أَجِدُهُ» قَالَ:«هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْــجِدَكَ

---

[2] - صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٣)(٣٦ - (٢٢)

[ش(أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم.(يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.(عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع.(إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا.(وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

[3] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٤) وصحيح مسلم (١/ ٥١)(٣٢ - (٢٠)

[ش (حق المال) أي داخل تحت الاستثناء الرافع للعصمة المبيح للقتال.(عقالا) هو الحبل الذي تشد به يد البعير مع ذراعه حتى لا يشرد.(عناقا) العناق الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة]

[4] - المنتخب من مسند عبد بن حميد ت مصطفى العدوي (١/ ١٤٦)(١١٣) حسن

فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ،وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟»،قَالَ:وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:«إِنَّ فَــرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ،فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ»[٥]

وقد هدد الله تعالى المتقاعسين عن الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام بالعذاب الألــيم والذل والهوان،{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)} [التوبة:٣٨،٣٩]

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه،ما بالكم إذا قيل لكــم:اخرجــوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم تكاسلتم ولزمتم مساكنكم؟ هل آثــرتم حظــوظكم الدنيوية على نعيم الآخرة؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل،أما نعيم الآخرة الــذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم.

إن لا تنفروا أيها المؤمنون إلى قتال عدوكم يترل الله عقوبته بكم،ويأت بقــوم آخــرين ينفرون إذا استُنْفروا،ويطيعون الله ورسوله،ولن تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد،فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه.وما يريده الله يكون لا محالة.والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم.[٦]

والذين كتبوا عن فقه الجهاد اليوم،فغالبهم متأثرون بهذا الوقع المر والأليم،ومن ثم نلحظ على كتاباتهم أنهم لم ينطلقوا من وحي النصــوص الثابتــة،ولا مــن أقــوال الفقهــاء المشهورة،بل من وحي القوانين الدولية المنافية للإسلام،ومن ثم تجد هذه الكتابات تنضح بالهزيمة والذل والتبرير.وكثير منها لا يستحق المداد الذي كتب به.

---

[٥] - صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨)(١١٠ - (١٨٧٨)

[ش (لا أجده) لا أجد عملا يعدل الجهاد.(تفتر) تنقطع.والمعنى أن المجاهد في عبادة ما دام في خروجه فلا يقابله إلا من استمر في العبادة من صيام أو قيام أو غير ذلك.(ليستن) يمرح بنشاط من الاستنان وهو العدو.(طوله) حبله الذي يشد به من طرف ويمسك طرفه الآخر ثم يرسل في المرعى.(فيكتب له حسنات) يكتب مرحه ورعيه حسنات لصاحبه]

[٦] - التفسير الميسر (١/ ١٩٣)

لكن بعضاً من أهل قد كتبوا أبحاثا قيمة عن فقه الجهاد،مثل أبحاث العلامة المودودي رحمه الله،والشهيد عبد الله عزام رحمه الله والشهيد سيد قطب رحمه الله،ومحمد خير هيكل في كتابه القيم " الجهاد والقتال في السياسة الشرعية " وهو أوفاها، ولكنه وقع بأخطاء جسيمة عندما عوَّل على فقهاء الهزيمة ، وتبنى بعض الآراء الشاذة والمنحرفة وغيرهم..

وقد أكرمني الله تعالى حيث كتبت ما يتعلق بفقه الجهاد في كتب مستقلة خلال هذه السنوات العشر المنصرمة....

وفي هذا الكتاب الكبير قد تعرضت فيه للموضوعات التالية:

الباب الأول=مقدمات عامة

الباب الثاني=أسباب الجهاد في سبيل الله

الباب الثالث=أنواع الجهاد في سبيل الله

الباب الرابع=الخلاصة في أحكام التكفير

الباب الخامس=الخلاصة في أحكام الردة

الباب السادس= الخلاصة في أحكام دار الإسلام ودار الحرب والكفر

الباب السابع= الخلاصة في أحكام الجزية

الباب الثامن=الخلاصة في أحكام أهل الذمة

الباب التاسع=طرق الجهاد:باللسان واليد والمال والنفس ماديا ومعنويا

الباب العاشر=مُحَرَّمَاتُ الْجِهَادِ وَمَكْرُوهَاتُهُ

الباب الحادي عشر=أحكام فقهية هامة

الباب الثالث عشر=الخلاصة في أحكام التقية

الباب الرابع عشر=شروط وجوب الجهاد في سبيل الله

الباب الخامس عشر=أنواع الجهاد وأقسامه

الباب السادس عشر=أحكام القتال في سبيل الله

الباب السابع عشر=النساء والجهاد

وقد قمت بشرح مفصل لهذه الفقرات في هذه الرسالةكل حسب نوعها ،
وذكرت مصدر كل معلومة بذيلها.

و لم أتأثر بالواقع ولا بالكتابات الهزيلة عن فقه الجهاد،بل من خلال النصوص القرآنيـــة والحديثية وأقوال أهل العلم المعتبرين عبر التاريخ ..

وبذا أكون بهذا الكتاب قد جمعت جل ما يتعلق بفقه الجهاد في سبيل الله من مصـــادره الرئيسة،وذلك ليكون مرجعاً لطلاب العلم والدارسين عامة والمجاهـــدين في ســـبيل الله خاصة،دون التأثر بمدرسة معينة أو اتجاه معين أو مذهب فقهي معين .

وأرجوا من الله أن تكون زادا ومعينا للمجاهدين في سبيل الله،علّها تنير لهم درب الجهاد وتؤصله في نفوسهم أكثر وتربطهم بمنهج الإسلام الشمولي .

كما أن أساله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،وأن ينفع به كاتبه وقارئـــه وناشـــره والدال عليه في الدارين.

وأن يردَّ أمة الإسلام إلى رشدها،وأن يمكنها من أعدائها،إنه نعم المولى ونعم النصير .

قال تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِـــنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَـــهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِـــمُوا بِاللَّـــهِ هُـــوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج:٧٨]

الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة للعلماء المسلمين بسورية

علي بن نايف الشحود

رجب ١٤٢٥ هـــ الموافق ١٦/٨/٢٠٠٤ م

وتمت مراجعته بشكل سريع بتاريخ ٢٥ رمضان ١٤٢٩ هـــ

وعدل تعديلا جذريا مع إضافات كثيرة بتاريخ

٢٥ ربيع الآخر ١٤٣٣ هـــ الموافق ل ١٨/٣/٢٠١٢ م

وعدل بتاريخ ١٢ رجب ١٤٣٣ هـــ الموافق ل ٣١/٥/٢٠١٢ م

الباب الأول

مقدمات عامة

المبحث الأول

أسباب سقوط الخلافة

١. سقوط الخلافة الإسلامية:

كانت هناك أسباب كثيرة داخلية وخارجية أدت على سقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية الصنم كمال أتاتورك وخلاصتها ترك المسلمين لدينهم أو فهمه فهما غير صحيح بالإضافة إلى التآمر العالمي من قبل اليهود والنصارى والملحدين والشيوعيين وغيرهم فكان الجميع حريصين على إسقاطها لأنها تمثل عزة الإسلام وقوته وكيانه السياسي المفصول عن جميع النظم الأرضية لأنه منهج إلهي رباني

٢. احتلال بلاد الإسلام وتجزئتها:

بعد أن أسقط الكفار والفجار الخلافة الإسلامية اقتسموا العالم الإسلامي بعد أن قسموه إلى كيانات مصطنعة لا قيمة لها ولا قدر من دولة واحدة إلى دول تنوف على السبعين وكانت غايتهم في هذا أن لا تقوم للمسلمين قائمة فيشغل المسلمون بهذه الكيانات المصطنعة وبحدودها وبمواردها وكان مما صنعه الأعداء نهب خيرات المسلمين فكلها بيدهم وإلى الآن ولا نملك منها إلا الفتات وكذلك القضاء على معالم الإسلام وحصره في المساجد كما فعلوا بالنصرانية في أوروبا وكذلك تفريغ الدين من محتواه وكذلك فرض مناهجهم الكفرية والشركية والضلالية باسم الحرية والتمدن والديموقراطية وحقوق الإنسان ونحو ذلك من ترهات لتنفق على الدهماء من الناس ولتكون بديلا عن الدين الحق،وفرض التعليم العلماني (اللاديني)والسيطرة التامة على وسائل الإعلام والثقافة وتوجيهها نحو مخططاتهم الجهنمية وكذلك نهب تراث المسلمين وكثير من معالم حضارتهم وإيجاد جيل من المبهورين بحضارة الغرب وفلسفته المادية لكي يكونوا القادة بعدهم وهذا الذي حدث في جميع بلدان المسلمين

فهم لم يستطيعوا البقاء طويلا وذلك لقوة المقاومة الإسلامية ر فخرجـوا ظـاهرا وسلموا البلاد ورقاب العباد لحكام شر منهم لا يرقبون في مؤمن ولا مؤمنـة إلا ولا ذمة وفوق ذلك سلموا فلسطين لليهود لقمة سائغة ومكنوا لهم فيهـا واصـطنعوا داخل بلاد المسلمين مشكلات داخلية كثيرة جدا بحيـث لا تسـتطيع دويلـة أن تتخلص منها بتاتا وربطوا الحكام بهم يتلقون منهم الأوامر والنواهي ...

٣. حكام مجرمون وأعداء حاقدون:

وأما الحكام الذين استلموا بلاد الإسلام بالحديد والنار من طنجـا إلى جاكرتهـا فكلهم لا يخافون الله ولا يحبون شرعه ولا يرتبطون بالإسـلام والمسـلمين وإنمـا يرتبطون بأعداء الإسلام ويتولونهم ويحبونهم ويقدمون لهم كل شيء كما أنهم القدر على سحق الصحوة الإسلامية فذاق المسلمون الويلات منهم من كمال أتاتورك إلى طغاة العرب والعجم فكلهم أسوأ من بعضهم

ومن هنا نقول:فإننا أمام عدوين لدودين العدو الداخلي والذي يحاول زورا وبهتانـا أن يتستر بالإسلام وهو من أشد الناس كيدا وتآمرا عليه

وعدو خارجي يتربص بنا الدوائر فهما أمران أحلاهما مر ولكن العدو الداخلي شر من العدو الخارجي بكثير

٤. التآمر على الإسلام والمسلمين والجرائم التي ترتكب بحقهم في كل مكان

ولذا فإن التآمر على الإسلام والمسلمين من قبل هذين العدوين المتحالفين كبير جدا فقد جردوا المسلمين من كل شيء وصبوا عليهم جميع الموبقات والنفايات العالميـة ويحكمونهم بالحديد والنار وينهبون خيراتهم ويذبحونهم في كل مكان إما علـى يـد حكامهم أو على أيدهم مباشرة كما في كشمير والشيشان وفلسطين والعـراق وفي البوسنة والهرسك وفي كل مكان فأرخص دم يراق هو دم المسـلم اليوم،وكـذلك تنتهك حرمات المسلمين كلها علنا دون رقيب ولا حسيب والمطلوب من المسلمين أن يباركوا هذا الذي يجري ولا يحق لهم أن يعترضوا على شيء كالشاة عندما يريد أن يذبحها الجزار فإذا تحركت أو خرج منها نقطة دم أصابته فالويل كل الويل لهـا

لأنها غير مؤدبة وإرهابية ومتطرفـــة وأمـــا إذا جـــاء ت حـــرة مختـــارة و قالـــت للجلاد:اذبحني بالطريقة التي تريد وتحلو لك فأنا في غاية السرور فهي محترمة ومؤدبة

ووجود وسائل الاتصال المرئية وغير المرئية اليوم سهل رؤية هـــذه الجـــرائم الـــتي ترتكب بحق المسلمين في كل مكان وذلك لأنهم يقولون ربي الله

فلماذا حدث هذا ولما يحدث هذا اليوم ؟

المبحث الثاني

لماذا هذا التآمر العالمي ؟

والجواب عليه من وحي القرآن الكريم

- **الجحود والنكران لهذا الدين(١)**

قال تعالى:{ وجحدوا بِها واسْتيْقنتْها أنفسهمْ ظلْمًا وعلوًّا فانظرْ كيْف كان عاقبة الْمفْسدين} (١٤) سورة النمل

وجحدوا بالآيات التي جاءتْهم منْ عنْد الله على يديْ موسى،وكان جحودهم بها ظلْماً منْ عند أنفسهمْ،واسْتكْباراً عن اتّباع الحقّ (علوّاً)،وهمْ يعلمون أنّها حقٌّ وصدْقٌ،وأنّ منْ جاء بها هو رسول اله حقّاً وصدْقاً،وإنْ قالوا عنه:ساحرٌ.فأهْلكهم الله جميعاً في صبيحةٍ واحدة.فانظرْنا يا محمّد كيف كانتْ عاقبة أمْر هؤلاء المكذّبين المفْسدين في الأرض،فاحْذروا يا منْ تكذّبون محمّداً رسول الله أنْ يصيبكمْ مثْل ما أصابهمْ.[٧]

وفي الظلال:

هذه الآيات الكثيرة العدد،الكاشفة عن الحق،حتى ليبصره كل من له عينان.ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة،فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى.ومع هذا فقد قالوا عنها:إنها سحر مبين! قالوا ذلك لا عن اقتناع به،ولا عن شبهة فيه.إنما قالوه «ظلما وعلوا» وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه:«واسْتيْقنتْها أنْفسهمْ».قالوا جحودا ومكابرة،لأنهم لا يريدون الإيمان،ولا يطلبون البرهان.استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم.

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن،ويستيقنون أنه الحق،ولكنهم يجحدونه،ويجحدون دعوة النبي - ﷺ- إياهم إلى اللّه الواحد.ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم،لما وراءها من أوضاع تسندهم،ومغانم تتوافد عليهم.وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة،التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها،ويحسونها تتزلزل

---

[٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

تحت أقدامهم،وترتج في ضمائرهم.ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب! وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه.بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم،لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم،أو الخطر على أوضاعهم،أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم.

فيقفون في وجهه مكابرين،وهو واضح مبين.

«فانْظرْ كيْف كان عاقبة الْمفْسدين»..وعاقبة فرعون وقومه معروفة،كشف عنها القرآن في مواضع أخرى.إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة،لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه،إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين.[8]

- **الجحود والنكران لهذا الدين(٢)**

قال تعالى:{ قدْ نعْلم إنّه ليحْزنك الّذي يقولون فإنّهمْ لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات اللّه يجْحدون} (٣٣) سورة الأنعام

يسلّي الله تعالى نبيّه ﷺ ويقول له:إنّنا نعْلم تكْذيب قوْمك لك،ونعْلم حزْنك وأسفك لما يقولون.

ولكنّ الظالمين الكافرين يعاندون الحقّ،ويدْفعونه بصدورهمْ،وليْستْ غايتهمْ تكْذيبك أنْت،ولكنّهمْ يكذّبون بآيات الله.(كما يقول أبو جهْلٍ للنّبيّ ﷺ:إنّنا لا نكذّبك،ولكنْ نكذّب ما جئْت به).

ويوْم بدْرٍ جاء الأخْنس بْن شريقٍ إلى أبْي جهْلٍ واخْتلى به،وقال له:ليْس بيْننا أحدٌ منْ قريْشٍ،أخبرْني يا أبا الحكم عنْ محمّد أصادقٌ هو أمْ كاذبٌ؟ فقال له أبو جهْلٍ:ويْحك والله إنّ مُحمّداً لصادقٌ،وما كذب محمّدٌ قطّ،ولكنْ إذا ذهبتْ بنو قصيٍّ باللّواء والسّقاية والحجابة والنّبوّة فماذا يبْقى لسائر قريْشٍ؟[9]

وفي الظلال:

---

[8] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٧٣)

[9] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

إن مشركي العرب في جاهليتهم – وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش – لم يكونوا يشكون في صدق محمد – ﷺ– فلقد عرفوه صادقا أمينا،ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة،كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته،وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر،ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله..

ولكنهم – على الرغم من ذلك – كانوا يرفضون إظهار التصديق،ويرفضون الدخول في الدين الجديد! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي – ﷺ– ولكن لأن في دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم..وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات اللّه،والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه..والأخبار التي تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة:

عن ابْن إسْحاق قال:حدّثني الزّهْريّ قال:حدّثْت أنّ أبا جهْلٍ،وأبا سفْيان،والْأخْنس بْن شريقٍ،خرجوا ليْلةً ليسْتمعوا منْ رسول اللّه ﷺوهو يصلّي باللّيْل في بيْته،وأخذ كلّ رجلٍ منْهمْ مجْلسًا ليسْتمع فيه،وكلٌّ لا يعْلم بمكان صاحبه،فباتوا يسْتمعون له حتّى إذا أصْبحوا وطلع الْفجْر تفرّقوا،فجمعتْهم الطّريق فتلاوموا،وقال:بعْضهمْ لبعْضٍ:لا تعودوا فلوْ رآكمْ بعْض سفهائكمْ لأوقعْتمْ في نفْسه شيْئًا،ثمّ انْصرفوا حتّى إذا كانت اللّيْلة الثّانية عاد كلّ رجلٍ منْهمْ إلى مجْلسه،فباتوا يسْتمعون له حتّى إذا طلع الْفجْر تفرّقوا،فجمعتْهم الطّريق،فقال بعْضهمْ لبعْضٍ مثْل ما قالوا أوّل مرّةٍ.،ثمّ انْصرفوا فلمّا كانت اللّيْلة الثّالثة أخذ كلّ رجلٍ منْهمْ مجْلسه،فباتوا يسْتمعون له حتّى إذا طلع الْفجْر تفرّقوا،فجمعتْهم الطّريق،فقالوا:لا نبْرح حتّى نتعاهد لا نعود،فتعاهدوا على ذلك،ثمّ تفرّقوا فلمّا أصْبح الْأخْنس بْن شريقٍ أخذ عصاه،ثمّ خرج حتّى أتى أبا سفْيان في بيْته فقال:أخْبرْني يا أبا حنْظلة عنْ رأْيك فيما سمعْت منْ محمّدٍ فقال:يا أبا ثعْلبة واللّه لقدْ سمعْت أشْياء أعْرفها وأعْرف ما يراد بها.فقال الْأخْنس:وأنا والّذي حلفْت به،ثمّ خرج منْ عنْده حتّى أتى أبا جهْلٍ،فدخل عليْه بيْته فقال:يا أبا الْحكم ما رأْيك فيما سمعْت منْ محمّدٍ ؟ فقال:ماذا سمعْت ؟ تنازعْنا نحْن وبنو عبْد منافٍ الشّرف ؛أطْعموا فأطْعمْنا،وحملوا فحملْنا،وأعْطوْا

فأعْطيْنا حتّى إذا تجاثيْنا على الرّكب وكنّا كفرسيْ رهانٍ قالوا:منّا نبيٌّ يأْتيه الْوحْي مــن السّماء،فمتى ندْرك هذه ؟ واللّه لا نؤْمن به أبدًا،ولا نصدّقه،فقام عنْه الْأخْنس بْن شــريقٍ "[10]..

وروى ابن جرير عن السّدّيّ،في قوْله:قدْ نعْلم إنّه ليحْزنك الّــذي يقولــون فــإنّهمْ لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات اللّه يجْحدون:لّما كان يوْم بدْرٍ قال الْأخْنس بْن شــريقٍ لبني زهْرة:يا بني زهْرة،إنّ محمّدًا ابْن أخْتكمْ،فأنْتمْ أحقّ منْ كفّ عنْه،فإنّه إنْ كان نبيًّا لم تقاتلونه الْيوْم ؟ وإنْ كان كاذبًا كنْتمْ أحقّ منْ كفّ عن ابْن أخْته،قفوا ههنا حتّى ألْقــى أبا الْحكم،فإنْ غلب محمّدٌ ﷺرجعْتمْ سالمين،وإنْ غلب محمّدٌ فإنّ قــوْمكمْ لا يصْــنعون بكمْ شيْئًا،فيوْمئذٍ سمّي الْأخْنس،وكان اسْمه أبيًّا.فالْتقى الْأخْنس وأبو جهْلٍ،فخلا الْأخْنس بأبي جهْلٍ،فقال:يا أبا الْحكم،أخْبرْني عنْ محمّدٍ أصادقٌ هو أمْ كاذبٌ ؟ فإنّه ليْس ههنــا منْ قريْشٍ أحدٌ غيْري وغيْرك يسْمع كلامنا.فقال أبو جهْــلٍ:ويْحك،واللّــه إنّ محمّــدًا لصادقٌ،وما كذب محمّدٌ قطّ،ولكنْ إذا ذهب بنو قصيٍّ بــاللّواء والْحجابــة والسّــقاية والنّبوّة،فماذا يكون لسائر قريْشٍ ؟ فذلك قوْله:فإنّهمْ لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات اللّه يجْحدون،فآيات اللّه محمّدٌ ﷺ[11]..

ونلاحظ:أن السورة مكية،وهذه الآية مكية لا شك في ذلك بينما الحادثــة المــذكورة كانت في المدينة يوم بدر..ولكن إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحيانا عن آية ما:«فــذلك قوله:كذا..» ويقرنون إليها حادثا ما لا للنص على أنها نزلت بسبب الحــادث الــذي يذكرونه ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث،بغض النظر عما إذا كان ســابقا أو لاحقا..فإننا لا نستغرب هذه الرواية..

وقال ابن إسحاق:حدثني يزيد بن زياد،عن محمد بن كعب القرظي قال:حدّثْت أن عتبة بن ربيعة –وكان سيدا–قال يوما وهو جالس في نادي قريش،ورسول الله ﷺجــالس في المسجد وحده:يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبــل

[10] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥١١) فيه انقطاع
[11] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١٢٠٢٥) حسن مرسل

بعضها،فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة،ورأوا أصحاب رســول الله ﷺيزيدون ويكثرون،فقالوا:بلى يا أبا الوليد،فقم إليه فكلمه .فقام إليه عتبة حتى جلــس إلى رسول الله ﷺفقال:يا ابن أخي،إنك منــا حيــث قــد علمــت مــن السّــطة في العشيرة،والمكان في النسب،وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم،فرقت به جماعتهم،وسفهت به أحلامهم،وعبت به آلهتهم ودينهم،وكفرت به من مضى من آبائهم،فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.قال:فقال له رسول الله ﷺ:"قل يــا أبــا الوليد،أسمع".قال:يا ابن أخي،إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا.وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينــا،حتى لا نقطع أمرًا دونك.وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّــا تراه لا تستطيع رده عن نفسك،طلبنا لك الطب،وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه،فإنــه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه -أو كما قال له-حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺيستمع منه قال:"أفرغت يا أبا الوليــد؟" قــال:نعــم.قــال:"فاســتمع مــني" قال:أفعل.قال:{ بسم الله الرحمن الرحيم.حم.تنزيلٌ من الرّحْمن الرّحيم.كتابٌ فصّــلتْ آياته قرْآنًا عربيًّا لقوْمٍ يعْلمون.بشيرًا ونذيرًا فأعْرض أكْثرهمْ فهمْ لا يسْمعون } ثم مضى رسول الله ﷺفيها يقرؤها عليه.فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه،ثم انتهى رسول الله ﷺإلى السجدة منها،فسجد ثم قال:"قد سمعت يــا أبا الوليد ما سمعت،فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه،فقال بعضهم لبعض:أقسم -يحلف بالله-لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.فلما جلس إليهم قالوا:مــا وراءك يا أبا الوليد؟ قال:ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط،والله ما هو بالســحر ولا بالشعر ولا بالكهانة.يا معشر قريش،أطيعوني واجعلوها لي،خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه،فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ،فإن تصبه العرب فقــد كفيتمــوه بغيركم،وإن يظهر على العرب فملْكه ملككم،وعــزه عــزكم،وكنتم أســعد النــاس به.قالوا:سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال:هذا رأيي فيه،فاصنعوا ما بدا لكم .[١٢]

[١٢] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٧ / ١٦٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢٩٣/١).حسن مرسل

وقد روى البغوي في تفسيره عنْ جابر بْن عبْد اللّه قال:قال أبو جهْلٍ والْملأ منْ قريْشٍ لقد انْتشر عليْنا أمْر محمّدٍ،فلو الْتمسْتمْ رجلًا عالمًا بالسّحْر والْكهانة والشّعْر،فكلّمه،ثمّ أتانا ببيانٍ منْ أمْره،فقال عتْبة:لقدْ سمعْت بقوْل السّحرة والْكهانة والشّعْر وعلمْت منْ ذلك علْمًا،وما يخْفى عليّ إنْ كان كذلك،فأتاه فلمّا أتاه قال له عتْبة:يا محمّد،أنْت خيْرٌ أمْ هاشمٌ ؟ أنْت خيْرٌ أمْ عبْد الْمطّلب ؟ أنْت خيْر أمْ عبْد اللّه ؟ فلمْ يجبْه قال:فيم تشْتم آلهتنا،وتضلّل آباءنا،فإنْ كنْت إنّما بك الرّئاسة عقدْنا ألْويتنا لك،فكنْت رأْسنا ما بقيت،وإنْ كان بك الْباءة زوّجْناك عشْر نسْوةٍ تخْتار منْ أيّ أبْيات قريْشٍ شئْت،وإنْ كان بك الْمال جمعْنا لك منْ أمْوالنا ما تسْتغْني بها أنْت وعقبك منْ بعْدك،ورسول اللّه ﷺساكتٌ لا يتكلّم،فلمّا فرغ قال رسول اللّه ﷺ:" بسْم اللّه الرّحْمن الرّحيم.حم تنْزيلٌ من الرّحْمن الرّحيم.كتابٌ فصّلتْ آياته قرْآنًا عربيًّا لقوْمٍ يعْلمون – فقرأ حتّى بلغ – أنْذرْتكمْ صاعقةً مثْل صاعقة عادٍ وثمود فأمْسك عتْبة على فيه وناشده الرّحم أنْ يكفّ عنْه،ولمْ يخْرجْ إلى أهْله واحْتبس عنْهمْ.فقال أبو جهْلٍ:يا معْشر قريْشٍ،واللّه ما نرى عتْبة إلّا قدْ صبا إلى محمّدٍ وأعْجبه طعامه،وما ذاك إلّا منْ حاجةٍ أصابتْه،انْطلقوا بنا إليْه فأتوْه،فقال أبو جهْلٍ:واللّه يا عتْبة،ما حسبْنا إلّا أنّك صبوْت إلى محمّدٍ،وأعْجبك أمْره،فإنْ كانتْ بك حاجةٌ جمعْنا لك منْ أمْوالنا ما يغْنيك عنْ طعام محمّدٍ،فغضب وأقْسم باللّه لا يكلّم محمّدًا أبدًا.قال:ولقدْ علمْتمْ أنّي منْ أكْثر قريْشٍ مالًا،ولكنّي أتيْته فقصّ عليْهم الْقصّة:فأجابني بشيْءٍ واللّه ما هو بسحْرٍ ولا شعْرٍ ولا كهانةٍ قرأ بسْم اللّه الرّحْمن الرّحيم حم تنْزيلٌ من الرّحْمن الرّحيم.كتابٌ فصّلتْ آياته قرْآنًا عربيًّا لقوْمٍ يعْلمون قال يحْيى:كذا قال يعْقلون حتّى بلغ،فقال:أنْذرْتكمْ صاعقةً مثْل صاعقة عادٍ وثمود فأمْسكْت بفيه وناشدْته الرّحم أنْ يكفّ،وقدْ علمْتمْ أنّ محمّدًا إذا قال شيْئًا لمْ يكْذبْ،فخفْت أنْ ينْزل بكم الْعذاب "[13]

عنْ عكْرمة أوْ سعيد بْن جبيْرٍ:أنّ الْوليد بْن الْمغيرة اجْتمع إليْه نفرٌ منْ قريْشٍ وكان ذا سنٍّ فيهمْ وقدْ حضر الْموْسم فقال لهمْ:يا معْشر قريْشٍ إنّه قدْ حضر الْموْسم وإنّ وفود

---

[13] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٠٨) حسن

الْعرب ستقْدم عليْكمْ فيه وقدْ سمعوا بأمْر صاحبكمْ هذا فأجْمعوا فيه رأْيًــا واحــدًا ولا تخْتلفوا فيكذّب بعْضكمْ بعْضًا ويردّ قوْلكمْ بعْضه بعْضًا قالوا:فأنْت يا أبا عبْد شمْسٍ فقلْ وأقمْ لنا رأْيًا نقلْ به فقال:بلْ أنْتمْ فقولوا وأسْمع قالوا:نقول إنّه كاهنٌ قال:ما هو بكاهنٍ لقدْ رأيْنا الْكهّان فما هو بزمْزمة الْكاهن ولا سجْعه قالوا:فنقول:إنّه لمجْنونٌ قال:ما هــو بمجْنونٍ لقدْ رأيْنا الْجنون وعرفْناه فما هو بخنْقه ولا تخالجه ولا وسْوسته قالوا:فنقول إنّــه شاعرٌ،قال ما هو بشاعرٍ لقدْ عرفْنا الشّعْر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقْبوضه ومبْسوطه فما هو بالشّاعر قالوا:فنقول ساحرٌ قال:ما هو بساحرٍ لقدْ رأيْنا السّحّار وسحْرهمْ فمــا هو بنفْثهمْ ولا عقْدهمْ قالوا:فما تقول يا أبا عبْد شمْسٍ ؟ قال:واللّه إنّ لقوْله لحلاوةً،وإنّ أصْله لمغْدقٌ،وإنّ فرْعه لجناةٌ وما أنْتمْ بقائلين منْ هذا شيْئًا إلّا عرف أنّه باطلٌ وإنّ أقْرب الْقوْل فيه لأنْ تقولوا ساحرٌ يفرّق بيْن الْمرْء وأبيه وبيْن الْمرْء وأخيه وبيْن الْمرْء وزوْجه وبيْن الْمرْء وعشيرته فتفرّقوا عنْه بذلك"[١٤]

وروى ابن جرير عنْ عكْرمة أنّ الْوليد بْن الْمغــيرة جــاء إلى الــنّبيّ ﷺ،فقــرأ عليْــه الْقرْآن،فكأنّه رقّ له،فبلغ ذلك أبا جهْلٍ،فقال:أيْ عمّ إنّ قوْمك يريدون أنْ يجْمعوا لــك مالًا،قال: لم ؟ قال:يعْطونكه فإنّك أتيْت محمّدًا تتعرّض لما قبله ؛قال:قدْ علمتْ قريْشٌ أنّي أكْثرها مالًا،قال:فقلْ فيه قوْلًا يعْلم قوْمك أنّك منْكرٍ لما قال،وأنّك كارهٌ له ؛قــال:فمــا أقول فيه،فواللّه ما منْكمْ رجلٌ أعْلم بالْأشْعار منّي،ولا أعْلم برجزه منّي،ولا بقصيده،ولا بأشْعار الْجنّ،واللّه ما يشْبه الّذي يقول شيْئًا منْ هذا،وواللّه إنّ لقوْله لحلاوةً،وإنّه ليحْطم ما تحْته،وإنّه ليعْلو ولا يعْلى.قال:واللّه لا يرْضى قوْمك حتّى تقول فيه،قال:فدعْني حتّــى أفكّر فيه ؛فلمّا فكّر قال:هذا سحْرٌ يأْثره عنْ غيْره،فنزلتْ ذرْني ومنْ خلقْت وحيدًا.قــال قتادة:خرج منْ بطْن أمّه وحيدًا،فنزلتْ هذه الْآية حتّى بلغ تسْعة عشر[١٥]

وعن ابْن عبّاسٍ رضي اللّه عنْهما،أنّ الْوليد بْن الْمغيرة جاء إلى الــنّبيّ ﷺ،فقــرأ عليْــه الْقرْآن،فكأنّه رقّ له،فبلغ ذلك أبا جهْلٍ،فأتاه،فقال:يا عمّ،إنّ قوْمك يروْن أنْ يجْمعوا لك

[١٤] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ (١٧٨) حسن

[١٥] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٣٢٨٢٩)حسن مرسل

مالا،قال: لم ؟ قال:ليعْطوكه،فإنّك أتيْت محمّدًا لتعْرض لما قبله،قال:قدْ علمتْ قريْشٌ أنّي منْ أكْثرها مالا،قال:فقلْ فيه قوْلا يبْلغ قوْمك أنّك منْكرٌ له أوْ أنّك كارهٌ له،قال:وماذا أقول:فواللّه ما فيكمْ رجلٌ أعْلم بالأشْعار منّي،ولا أعْلم برجزٍ ولا بقصيدةٍ منّي ولا بأشْعار الْجنّ واللّه ما يشْبه الّذي يقول شيْئًا منْ هذا وواللّه إنّ لقوْله الّذي يقول حلاوةً،وإنّ عليْه لطلاوةً،وإنّه لمثْمرٌ أعْلاه مغْدقٌ أسْفله،وإنّه ليعْلو وما يعْلى وإنّه ليحْطم ما تحْته،قال:لا يرْضى عنْك قوْمك حتّى تقول فيه،قال:فدعْني حتّى أفكّر،فلمّا فكّر،قال:هذا سحْرٌ يؤْثر يأْثره منْ غيْره،فنزلتْ ذرْني ومنْ خلقْت وحيدًا "[١٦]

وفي رواية أخرى أن قريشا قالت:لئن صبأ الوليد لتصبون قريش كلها! فقال أبو جهل:أنا أكفيكموه! ثم دخل عليه..وأنه قال – بعد التفكير الطويل – إنه سحر يؤثر.أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه.[١٧]

فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول اللّه – ﷺ– يكذبهم فيما يبلغه لهم.وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التي وردت بها الروايات،وما وراءها من السبب الرئيسي،وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب،الذي يزاولونه،وهو سلطان اللّه وحده.كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا اللّه التي يقوم عليها الإسلام.وهم كانوا يعرفون جيدا مدلولات لغتهم وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة.وهو إنما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان اللّه في حياة العباد..وصدق اللّه العظيم:« قدْ نعْلم إنّه ليحْزنك الّذي يقولون.فإنّهمْ لا يكذّبونك،ولكنّ الظّالمين بآيات اللّه يجْحدون».

والظالمون في هذا الموضع هم المشركون.كما يغلب في التعبير القرآني الكريم.

ويستطرد من تطييب خاطر الرسول – ﷺ– وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته،ومن آيات اللّه الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به..يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله – وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن – ثم ما

---

[١٦] – المستدرك للحاكم مشكلا [٣ /٢٣٢] (٣٨٧٢) صحيح

[١٧] – انظر تفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع – (١٩ / ٧٤)

كان منهم من الصبر والمضي في الطريق،حتى جاءهم نصر اللّه.ليقرر أن هذه هي سـنة الدعوات التي لا تتبدل،ولا يغير منها اقتراحات المقترحين،كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق:«ولقدْ كذّبتْ رسلٌ منْ قبْلك،فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهمْ نصْرنا،ولا مبدّل لكلمات اللّه،ولقدْ جاءك منْ نبإ الْمرْسلين»..

إن موكب الدعوة إلى اللّه موغل في القدم،ضارب في شعاب الزمن،ماض في الطريق اللاحب،ماض في الخط الواصب..مستقيم الخطى،ثابت الأقدام.يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل،ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون،ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة،وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء

والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد..والعاقبة هي العاقبة،مهما طال الزمن ومهما طال الطريق..إن نصر اللّه دائما في نهاية الطريق:«ولقدْ كذّبتْ رسلٌ منْ قبْلك،فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهمْ نصْرنا،ولا مبدّل لكلمات اللّه،ولقدْ جاءك منْ نبإ الْمرْسلين»..

كلمات يقولها اللّـه – سبحانه – لرسوله – ﷺ–..كلمات للذكرى،وللتسرية وللمواساة،والتأسية..وهي ترسم للدعاة إلى اللّه من بعد رسول اللّـه – ﷺ– طريقهم واضحا،ودورهم محددا،كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته،ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق...إنها تعلمهم أن سنة اللّه في الدعوات واحدة.كما أنها كذلك وحدة.وحدة لا تتجزأ..دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب،وتتلقى أصحابها بالأذى..وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى..

وسنة تجري بالنصر في النهاية..ولكنها تجيء في موعدها.لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب،ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم،ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة،وعلى ما ينتظرهم من دمار

وعذاب في الدنيا والآخرة..لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله.فإن اللّه لا يعجل لعجلة أحد من خلقه.ولا مبدل لكلماته.سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم،أم تعلقت بالأجل المرسوم.إنه الجد الصارم،والحسم الجازم،إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية..

ثم يبلغ الجد الصارم مداه،في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول اللّه - ﷺ- من الرغبة البشرية،المشتاقة إلى هداية قومه،المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون.وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين،والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق.وهي رغبة بشرية طبيعية.ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها،ودور الناس أجمعين،تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم:«وإنْ كان كبر عليْك إعْراضهمْ،فإن اسْتطعْت أنْ تبْتغي نفقاً في الْأرْض،أوْ سلّماً في السّماء،فتأْتيهمْ بآية! ولوْ شاء اللّه لجمعهمْ على الْهدى فلا تكوننّ من الْجاهلين.إنّما يسْتجيب الّذين يسْمعون.والْموْتى يبْعثهم اللّه،ثمّ إليْه يرْجعون»..

وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة..وما يملك الإنسان أن يدرك حقيقة هذا الأمر،إلا حين يستحضر في كيانه كله:أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم..النبي الصابر من أولي العزم من الرسل..الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا،لم يدع عليهم دعوة نوح - عليه السلام - وقد لقي منهم سنوات طويلة،ما يذهب بحلم الحليم!...تلك سنتنا - يا محمد - فإن كان قد كبر عليك إعراضهم،وشق عليك تكذيبهم،وكنت ترغب في إتيانهم بآية..إذن..فإن استطعت فابتغ لك نفقا في الأرض أو سلما في السماء،فأتهم بآية!...إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية.فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول..

ولو شاء اللّه لجمعهم على الهدى:إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى

والاستجابة إليه.وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعا.وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر اللّه عليها.

ولكنه سبحانه – لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله – خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان،لوظيفة معينة،تقتضي – في تدبيره العلوي الشامل – أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة.من بينها التنوع في الاستعدادات،والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان،والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات.في حدود من القدرة على الاتجاه،بالقدر الذي يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال..لذلك لم يجمعهم اللّه على الهدى بأمر تكويني من عنده،ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية،وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف..فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه.«ولوْ شاء اللّه لجمعهمْ على الْهدى.فلا تكوننّ من الْجاهلين».يا لهول الكلمة! ويا لحسم التوجيه! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه..

وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر اللّه الناس عليها،ولمواقفهم المختلفة في مواجهة الهدى،الذي لا تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل:«إنّما يسْتجيب الّذين يسْمعون.والْموْتى يبْعثهم اللّه.ثمّ إليْه يرْجعون»..

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند اللّه وهم فريقان:

فريق حي،أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية،عاملة،مفتوحة..وهؤلاء يستجيبون للهدى.فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه،فتستجيب له:

«إنّما يسْتجيب الّذين يسْمعون»..وفريق ميت،معطل الفطرة،لا يسمع ولا يستقبل،ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب..ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله – فدليله كامن فيه،ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه،فاستجابت إليه حتما – إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة،وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول،ولا مجال معهم للبرهان.إنما يتعلق أمرهم بمشيئة اللّه.إن شاء بعثهم

إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم،وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا،وبقوا أمواتــا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة.«والْموْتى يبْعثهم اللّه.ثمّ إليْه يرْجعون»..

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة! تكشف حقيقة الموقف كله،وتحدد واجــب الرسول وعمله،وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد.

ومن خطاب رسول اللّه – ﷺ– بهذه الحقيقة،ينتقل الســياق إلى حكايــة مــا يطلبــه المشركون من إنزال خارقة،وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة اللّه،ومن ســوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليــه! [18]

- **الاستكبار في الأرض:**

قال تعالى:{ فأمّا عادٌ فاسْتكْبروا في الْأرْض بغيْر الْحقّ وقالوا منْ أشدّ منّا قوّةً أو لمْ يروْا أنّ اللّه الّذي خلقهمْ هو أشدّ منْهمْ قوّةً وكانوا بآياتنا يجْحدون } (١٥) سورة فصلت

أمّا عادٌ فإنّهمْ بغوْا وعصوْا ربّهمْ،واغْترّوا بقوّتهمْ فقالوا:منْ أشدّ منّا قوّةً حتّى يسْــتطيع قهْرناً وإذْلالنا؟ وردّ الله تعالى عليْهمْ موبّخاً:ألا يتفكّرون فيمنْ يبارزون بالعــداوة؟ إنّــه العظيم الذي خلق الأشْياء،وركّب فيها القوّة الحاملة لها،وإنّ بطْشه شديدٌ،وإنّه قادرٌ على أنْ ينْزل فيهمْ بأْسه وعذابه.وكانوا يعْرفون أنّ آيات الله التي أنْزلها على رســله حــقٌّ لا شكّ فيها،ولكنّهمْ جحدوها،وعصوا رسل ربّهمْ. [19]

وفي الظلال:

إن الحق أن يخضع العباد للّه،وألا يستكبروا في الأرض،وهم من هم بالقياس إلى عظمــة خلق اللّه.فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق.استكبروا واغتروا «وقالوا:منْ أشدّ منّا قوّةً؟»..

---

[18] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٤٩٦)

[19] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١١٢، بترقيم الشاملة آليا)

وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة.الشعور بأنه لم تعـد هنـاك قـوة تقـف إلى قوتهم.وينسون:«أو لمْ يروْا أنّ اللّه الّذي خلقهمْ هو أشدّ منْهمْ قـوّةً؟»..إنها بديهـة أولية..إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة.لأنه هو الذي مكن لهم في هذا القـدر المحدود من القوة.ولكن الطغاة لا يذكرون:«وكانوا بآياتنا يجْحدون»..

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم! ويتباهون بقوتهم.إذا المشهد التالي في الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول:«فأرْسلْنا عليْهمْ ريحاً صرْصـراً في أيّـامٍ نحساتٍ.لنذيقهمْ عذاب الْخزْي في الْحياة الدّنْيا»..

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحـس علـيهم.وإنـه الخـزي في الحيـاة الدنيا.الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد..ذلك في الدنيا..وليسـوا بمتروكين في الآخرة:«ولعذاب الْآخرة أخْزى.وهمْ لا ينْصرون»..«وأمّا ثمود فهـديْناهمْ فاسْتحبّوا الْعمى على الْهدى »..

ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة،ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك.وإيثـارهم العمى على الهدى.والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى! «فأخذتْهمْ صـاعقة الْعـذاب الْهون بما كانوا يكْسبون».

والهوان أنسب عاقبة.فليس هو العذاب فحسب،وليس هو الهلاك فحسب.ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان.«ونجّيْنا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون»..

وتنتهي الجولة على مصرع عاد وثمود.والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب.ويتكشف لهم سلطان اللّه الذي لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن،ولا يبقي على مستكبر مريد.[٢٠]

- **البغي**

قال تعالى:{ بئْسما اشْتروْاْ به أنفسهمْ أن يكْفروا۟ بما أنزل اللّه بغْياً أن ينزّل اللّه من فضْله على من يشاء منْ عباده فبآؤوا۟ بغضبٍ على غضبٍ وللْكافرين عذابٌ مّهـينٌ } (٩٠) سورة البقرة

[٢٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٩١٩)

يقول الله تعالى:بئْسما اخْتاره هؤلاء اليهود لأنْفسهمْ من الكفْر بمـــا أنْـــزل الله علـــى محمّد،فبدلاً منْ أنْ يؤْمنوا به،ويصدّقوه وينْصروه،كفروا به وكذّبوه.وما حملهمْ على ذلك إلاّ البغْي والحسد والكراهية لاخْتيـــار الله الـــنّبيّ الـــذي يـــترّل عليـــه رســـالته مـــنْ غيْرهمْ،فاسْتحقّوا بذلك غضباً من الله لكفْرهمْ بمحمّد وقرْآنه،كما اسْتحقوا مـــنْ قبْـــل غضب الله لكفْرهمْ،ولإعْناقمْ موسى،عليه السّلام،ثمّ لكفْرهمْ بعيسى وإنْجيله،وبـــذلك يكونون قد استحقّوا غضباً على غضب.وقدْ أعدّ الله تعالى لهؤلاء اليهود الكافرين عذاباً مهيناً لهمْ،يتمثّل في الدّنيا بالخزْي والنّكال وسوء الحال،ويتمثّل في الآخرة بالخلود في نار جهنّم.[21]

وفي الظلال:

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد،ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم..إنـــه يجبههم جبها شديدا بما قالوا وما فعلوا ويجردهم من كل حججهـــم ومعـــاذيرهم،التي يسترون بها استكبارهم عن الحق،وأثرتهم البغيضة،وعزلتهم النافرة،وكراهتهم لأن ينـــال غيرهم الخير،وحسدهم أن يؤتي اللّه أحدا من فضله.جزاء موقفهم الجحودي المنكر مـــن الإسلام ورسوله الكريم..«وقالوا:قلوبنا غلْفٌ.بلْ لعنهم اللّـــه بكفْـــرهمْ فقليلًـــا مـــا يؤْمنون»..قالوا:إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة،ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيسا لمحمد - ﷺ- وللمسلمين،من دعوتهم إلى هذا الـــدين أو تعلـــيلا لعـــدم استجابتهم لدعوة الرسول..ويقول اللّه ردا على قولتهم:«بلْ لعنهم اللّه بكفْـــرهمْ»..أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم.

فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم اللّه على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبـــين الانتفـــاع بالهدى..«فقليلًا ما يؤْمنون»..أي قليلا ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق،وضلالهم القديم.أو أن هذه حالهم:أنهم كفروا فقلمـــا يقـــع منهم الإيمان،حالة لاصقة بهم يذكرها تقريرا لحقيقتهم..وكلا المعنيين يتفق مع المناســـبة والموضوع.

---

[21] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ٩٧)

وقد كان كفرهم قبيحا،لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه،واستفتحوا به على الكافرين،أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم.وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:«ولمّا جاءهمْ كتابٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ – وكانوا منْ قبْل يسْتفْتحون على الّذين كفروا – فلمّا جاءهمْ ما عرفوا كفروا به»..وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته..ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر:«فلعْنة اللّه على الْكافرين»..ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:« بئْسما اشْتروْا به أنْفسهمْ أنْ يكْفروا بما أنْزل اللّه،بغْياً أنْ يترّل اللّه منْ فضْله على منْ يشاء منْ عباده.فباؤ بغضبٍ على غضبٍ،ولْلكافرين عذابٌ مهينٌ»..

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا...لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما،يكثر أو يقل.أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع.وإن بدا تمثيلا وتصويرا.لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين.وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر،هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول اللّه – ﷺ– أن يختاره اللّه للرسالة التي انتظروها فيهم،وحقدهم لأن يترل اللّه من فضله على من يشاء من عباده.وكان هذا بغيا منهم وظلما فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب وهناك ينتظرهم عذاب مهين،جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود،طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى،التي تربط البشرية جميعا..وهكذا عاش اليهود في عزلة،يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ويتربصون بالبشرية الدوائر ويكنون للناس البغضاء،ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن،ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد

فتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض،وحروبا يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم،ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفى ء،وهلاكا يسلطونه على الناس،ويسلطه عليهم الناس..وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة:«بغْياً..أنْ يترّل اللّه منْ فضْله على منْ يشاء منْ عباده»..

«وإذا قيل لهمْ:آمنوا بما أنْزل اللّه قالوا:نؤْمن بما أنْزل عليْنا،ويكْفرون بما وراءه وهو الْحقّ مصدّقاً لما معهمْ»..وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام.كانوا يقولون «نؤْمن بما أنْزل عليْنا»..

ففيه الكفاية،وهو وحده الحق،ثم يكفرون بما وراءه.سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام،وما جاءهم به محمد خاتم النبيين.والقرآن يعجب من موقفهم هذا،ومن كفرهم بما وراء الذي معهم «وهو الْحقّ مصدّقاً لما معهمْ»..وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقا لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم،ويتعبدون لعصبيتهم.لا بل إنهم ليعبدون هواهم،فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به...ويلقن اللّه نبيه – ﷺ– أن يجبههم بهذه الحقيقة،وكشفا لموقفهم وفضحا لدعواهم:« قلْ:فلم تقْتلون أنْبياء اللّه منْ قبْل إنْ كنْتمْ مؤْمنين؟»

لم تقتلون أنبياء اللّه من قبل،إن كنتم حقا تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟ لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى – نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر –:«ولقدْ جاءكمْ موسى بالْبيّنات ثمّ اتّخذْتم الْعجْل منْ بعْده وأنْتمْ ظالمون»..فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاء كم موسى بالبينات،وفي حياة موسى نفسه،كان من وحي الإيمان؟

وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم؟

و لم تكن هذه هي المرة الوحيدة.بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة،وكان هناك التمرد والمعصية:«وإذْ أخذْنا ميثاقكمْ ورفعْنا فوْقكم الطّور:خذوا ما آتيْناكمْ بقوّةٍ واسْمعوا،قالوا:سمعْنا وعصيْنا،وأشْربوا في قلوبهم الْعجْل بكفْرهمْ»..

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية..يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم،ويلتفت إلى المؤمنين - وإلى الناس جميعا - فيطلعهم على ما كان منهم..ثم يلقن الرسول - ﷺ- أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح:«قلْ:بئْسما يأْمركمْ به إيمانكمْ إنْ كنْتمْ مؤْمنين!»..

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين:«قالوا:سمعْنا وعصيْنا»..«وأشْربوا في قلوبهم الْعجْل بكفْرهمْ»..إنهم قالوا:سمعنا.و لم يقولوا عصينا.ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق،لقد قالوا بأفواههم:سمعنا.وقالوا بأعمالهم:عصينا.والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته.وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق..وهذا التصوير الحي للواقع يومىء إلى مبدأ كلي من مبادئ الإسلام:إنه لا قيمة لقول بلا عمل.إن العمل هو المعتبر.أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة،وهي مناط الحكم والتقدير.

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها:«وأشْربوا في قلوبهم الْعجْل» فهي صورة فريدة.لقد أشربوا،أشربوا بفعل فاعل سواهم.أشربوا ماذا؟ أشربوا العجل! وأين أشربوه؟ أشربوه في قلوبهم! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة،وتلك الصورة الساخرة الهازئة:صورة العجل يدخل في القلوب إدخالا،ويحشر فيها حشرا،حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه،وهو حبهم الشديد لعبادة العجل،حتى لكأنهم أشربوه إشرابا في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور،بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر..إنه التصوير..السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.[22]

- **الحسدوالغل (١)**

قال تعالى:{أمْ يحْسدون النّاس على ما آتاهم اللّه من فضْله فقدْ آتيْنآ آل إبْراهيم الْكتاب والْحكْمة وآتيْناهم مّلْكًا عظيمًا} (٥٤) سورة النساء

---

[22] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٠)

إنّ هؤلاء يريدون أنْ يضيق فضْل الله بعباده،ولا يحبّون أنْ يكون لأمّةٍ فضْلٌ أكْثر ممّا لهمْ أوْ مثْلهمْ،لما اسْتحْوذ عليْهمْ من الغرور بنسبهمْ،وتقاليدهمْ،مع سوء حالهمْ.وإنّ حسدهمْ للرّسول ﷺ،على ما رزقه الله من النّبوّة العظيمة،هو الذي منعهمْ من التّصْديق والإيمان بما جاء به الرّسول،لأنّه من العرب،وليْس منْ بني إسْرائيل.

وإنْ يحْسدوا محمّداً على ما أوتي،فقدْ أخْطؤوا إذْ أنّ ما أتى الله محمّداً ليْس بدْعاً من الله،فقدْ آتى الله هذا آل إبْراهيم،والعرب منْ ذرّيّة إسْماعيل،فلماذا يعْجبون ممّا آتى الله محمّداً،ولمْ يعْجبوا ممّا آتى آل إبْراهيم؟ [23]

وفي الظلال:

لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب،أولى الناس أن يتبعوا الكتاب وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من اللّه هدى وأن يحكموا كتاب اللّه في حياتهم،فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به اللّه،وكل حكم ليس له من شريعة اللّه سند - ولكن اليهود - الذين كانوا يزكون أنفسهم،ويتباهون بأنهم أحباء اللّه - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به اللّه.وكانوا يؤمنون بالطاغوت وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة اللّه..وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع اللّه،تلزمه العدل والحق.فهو طغيان،وهو طاغوت والمؤمنون به والمتبعون له،مشركون أو كافرون..يعجب اللّه من أمرهم،وقد أوتوا نصيبا من الكتاب،فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب! ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت،موقفهم في صف المشركين الكفار،ضد المؤمنين الذين آتاهم اللّه الكتاب أيضا:«ويقولون للّذين كفروا:هؤلاء أهْدى من الّذين آمنوا سبيلًا»..

وعن ابن عباس قال:كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة:حيي بن أخطب،وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع،والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق،وأبو عمار،ووحْوح بن عامر،وهوذة بن قيس = فأما وحوح وأبو عمار وهوذة،فمن بني

[23] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ٥٤٧)

وائل،وكان سائرهم من بني النضير = فلما قدموا على قريش قالوا:هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول،فاسألوهم:أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم،فقالوا:بل دينكم خير من دينه،وأنتم أهدى منه وممن اتبعه! فأنزل الله فيهم:"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت"،إلى قوله:"وآتيناهم ملكًا عظيمًا"[٢٤]..

وهذا لعن لهم،وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة.

لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين.وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرهم.وقد أجابوهم،وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي - ﷺ- وأصحابه حول المدينة الخندق،وكفى اللّه شرهم «وردّ اللّه الّذين كفروا بغيْظهمْ لمْ ينالوا خيْراً.وكفى اللّه الْمؤْمنين الْقتال،وكان اللّه قويًّا عزيزاً».

وكان عجيبا أن يقول اليهود:إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه،وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب اللّه ورسوله - ﷺ- ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود..إنه موقفهم دائما من الحق والباطل،ومن أهل الحق وأهل الباطل..إنهم ذوو أطماع لا تنتهي،وذوو أهواء لا تعتدل،وذوو أحقاد لا تزول!

وهم لا يجدون عند الحق وأهله عونا لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم.إنما يجدون العون والنصرة - دائما - عند الباطل وأهله.ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ولأهل الباطل ضد أهل الحق! هذه حال دائمة،سببها كذلك قائم..وكان طبيعيا منهم ومنطقيا أن يقولوا عن الذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا!

وهم يقولونها اليوم وغدا.إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها - بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته - لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها.

---

[٢٤] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٨ /٤٦٩](٩٧٩٢) وله شاهد من مرسل عكرمة:؟ عند ابن جرير (٨ / ٤٦٩ شاكر) وإسناده رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم فيحسن به

ولكنهم أحيانا – لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث – قد لا يثنون ثناء مكشوفا على الباطل وأهله.بل يكتفون بتشويه الحق وأهله.ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه.ذلك أن ثناءهم المكشوف – في هذا الزمان – أصبح متهما،وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين،الذين يعملون لحسابهم،في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان..بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا،أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم،الذين يسحقون لهم الحق وأهله.ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام.ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم،الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة! ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله..لأن حقدهم على الإسلام،وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي،أضخم من أن يداروه..ولو للخداع والتمويه!

إنها جبلة واحدة،وخطة واحدة،وغاية واحدة..هي التي من أجلها يجبههم اللّه باللعنة والطرد،وفقدان النصير.والذي يفقد نصرة اللّه فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين:«أولئك الّذين لعنهم اللّه.ومنْ يلْعن اللّه فلنْ تجد له نصيراً»..

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود.فنسأل:وأين وعد اللّه بأنه لعنهم،وأن من يلعن اللّه فلن تجد له نصيرا؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس.ليس هو الدول.ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ.إنما الناصر الحق هو اللّه.القاهر فوق عباده:ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ! واللّه ناصر من ينصره..«ولينْصرنّ اللّه منْ ينْصره» واللّه معين من يؤمن به حق الإيمان،ويتبع منهجه حق الاتباع ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم..

ولقد كان اللّه – سبحانه – يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به،متبعة لمنهجه،محتكمة إلى شريعته.وكان يهوّن من شأن عدوها – اليهود – وناصريهم.وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم – اليهود – لا نصير لهم.وقد حقق اللّه لهم وعده.وعده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقا.والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم.فلا يهولننا ما

نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود.فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين..فليست هذه هي النصرة..ولكن كذلك لا يخدعننا هذا.فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين! وليحاول المسلمون أن يجربوا – مرة واحدة – أن يكونوا مسلمين.ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير.

أو أن ينفعهم هذا النصير! وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم وإعلان اللعنة عليهم والخذلان..يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول – ﷺ– والمسلمين وغيظهم من أن يمن اللّه عليهم هذه المنة..منة الدين والنصر والتمكين.وحسدهم لهم على ما أعطاهم اللّه من فضله.وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا! ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم واستكثار أي عطاء يناله غيرهم مع أن اللّه قد أفاض عليهم وعلى آبائهم،فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة و لم يمنعهم من الحسد والكنود:«أمْ لهمْ نصيبٌ من الْملْك؟ فإذاً لا يؤْتون النّاس نقيراً! أمْ يحْسدون النّاس على ما آتاهم اللّه منْ فضْله؟ فقدْ آتيْنا آل إبْراهيم الْكتاب والْحكْمة،وآتيْناهمْ ملْكاً عظيماً»..

يا عجبا! إنهم لا يطيقون أن ينعم اللّه على عبد من عباده بشيء من عنده..فهل هم شركاؤه – سبحانه! – هل لهم نصيب في ملكه،الذي يمنح منه ويفيض؟ لو كان لهم نصيب لضنوا – بكزازتهم وشحهم – أن يعطوا الناس نقيرا..والنقير النقرة تكون في ظهر النواة – وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس،لو كان لها في الملك نصيب! والحمد للّه أن ليس لها في الملك نصيب..وإلا لهلك الناس جميعا وهم لا يعطون حتى النقير!!!

أم لعله الحسد..حسد رسول اللّه – ﷺ– والمسلمين،على ما آتاهم اللّه من فضله..من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا،وجعل لهم وجودا إنسانيا متميزا ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين كما وهبهم النظافة والطهر،مع العز والتمكين؟

وإنه فعلا للحسد من يهود.مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين..يوم أن لم يكن لهم دين..

ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله من النبوة والـتمكين في الأرض؟ وهم غارقون في فضل اللّه من عهد إبراهيم..الذي آتاه اللّه وآله الكتـاب والحكمـة – وهي النبوة – وآتاهم الملك كذلك والسيادة.وهـم لم يرعـوا الفضـل و لم يحتفظـوا بالنعمة،و لم يصونوا العهد القديم،بل كان منهم فريق من غير المؤمنين.ومن يـؤت هـذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون! «فقدْ آتيْنا آل إبْراهيم الْكتـاب والْحكْمة وآتيْناهمْ ملْكاً عظيماً.فمنْهمْ منْ آمن به،ومنْهمْ منْ صدّ عنْه».

إنه لمن ألأم الحسد:أن يحسد ذو النعمة الموهوب! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منـه رذيلة! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة،فهذا هو الشر الأصيل العميق! شر يهـود! المتميز الفريد! ومن ثم يكون التهديد بالسعير،هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير:« وكفى بجهنّم سعيراً»[٢٥]

- **الحسد والغل (٢)**

قال تعالى:{ ودّ كثيرٌ مّنْ أهْل الْكتاب لوْ يردّونكم مّن بعْد إيمانكمْ كفّاراً حسدًا مّـنْ عند أنفسهم مّن بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ فاعْفواْ واصْفحواْ حتّى يأْتي اللّه بأمْره إنّ اللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ } (١٠٩) سورة البقرة

يحذّر الله تعالى عباده المـؤْمنين مـنْ أنّ أهْـل الكتـاب،وهم الْيهـود هنـا،يكْرهون المسْلمين،ويبْطنون لهم العداوة،وهمْ يعْملون جاهدين على ردّ المسْلمين عنْ دينهمْ،وعلى إعادهمْ إلى الكفْر،وذلك بسبب حسدهمْ للْمسْلمين،وخوْفهمْ منْ أنْ ينْتقل السّلطان إلى المسْلمين،بعْد أنْ تأكّدوا منْ أنّ الرّسول صادقٌ في رسالته،وأنّ ما أنزل إليه هو الحقّ منْ عنْد الله.ثمّ يأْمر الله المؤْمنين بأنْ يعْفوا عنْ هـؤلاء الكفّـار الحسّـاد،وبأنْ يصْـفحوا عنْهمْ،وبأنْ يحْتملوا أذاهمْ حتّى يأْتي أمْر الله بالنّصْر أو الفتْح،والله قادرٌ على كلّ شيءٍ.

(هذا المقْطع من الآية:{ فاعفوا واصفحوا حتى يأْتي الله بأمْره } منْسوخٌ بآية السّيْف،{ فاقتلوا المشركين حيْث وجدتّموهمْ } وبقوْله تعالى { قاتلواْ الذين لا يؤْمنون بـالله ولا

---

[٢٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٢٢)

باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتواْ الكتاب حتى يعْطواْ الجزية عن يدٍ وهمْ صاغرون.} [26]

وفي الظلال:

يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء،وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد،بسبب ما اختصهم به اللّه من الفضل.ليحذروا أعداءهم،ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان،ويشكروا فضل اللّه عليهم ويحفظوه:« ما يودّ الّذين كفروا منْ أهْل الْكتاب ولا الْمشْركين أنْ يترّل عليْكمْ منْ خيْرٍ منْ ربّكمْ.واللّه يخْتصّ برحْمته منْ يشاء.واللّه ذو الْفضْل الْعظيم»..

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر..وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن،ولا يود لهم الخير.وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين.هو أن يختارهم اللّه لهذا الخير ويترل عليهم هذا القرآن،ويحبوهم بهذه النعمة،ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض،وهي الأمانة الكبرى في الوجود.

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن يترل اللّه من فضله على من يشاء من عباده،حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل – عليه السلام – إذ كان يترل بالوحي على الرسول – ﷺ-:«واللّه يخْتصّ برحْمته منْ يشاء»..

فاللّه أعلم حيث يجعل رسالته فإذا اختص بها محمدا – ﷺ- والمؤمنين به،فقد علم – سبحانه – أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص.

«واللّه ذو الْفضْل الْعظيم»..وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه.وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل،وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد..وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في

[26] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ١١٦)

وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها – ويقودها – اليهود،لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين،وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!

وكانت الحملة – كما أسلفنا – تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف.وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة.الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين:« ما ننْسخْ منْ آيةٍ أوْ ننْسها نأْت بخيْرٍ منْها أوْ مثْلها»..

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة – كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها – أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف،التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة،وأحوالها المتطورة.أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة..سواء كانت هذه أم هذه أم هذه،أم هي جميعا المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة..

فإن القرآن يبين هنا بيانا حاسما في شأن النسخ والتعديل وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارها يهود،على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال – في فترة الرسالة – هو لصالح البشرية،ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها.واللّه خالق الناس،ومرسل الرسل،ومنزل الآيات،هو الذي يقدر هذا.فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان – سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكما من الأحكام،أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل – فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء.وهو مالك كل شيء،وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض..ومن ثم تجيء هذه التعقيبات:«ألمْ تعْلمْ أنّ اللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ؟ ألمْ تعْلمْ أنّ اللّه له ملْك السّماوات والْأرْض؟ وما لكمْ منْ دون اللّه منْ وليٍّ ولا نصيرٍ»..

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير،ورائحة التذكير بأن اللّه هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير...ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول – ﷺ– لا تتفق مع الثقة واليقين.

يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار:«أمْ تريدون أنْ تسْئلوا رسولكمْ كما سئل موسى منْ قبْل؟ ومنْ يتبدّل الْكفْر بالْإيمان فقدْ ضلّ سواء السّبيل»..

فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم،وطلبهم للبراهين والخوارق،وإعناهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف،على نحو ما حكى السياق عنهم في مواضع كثيرة..

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق،وهي الضلال،واستبدال الكفر بالإيمان،وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل.كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين! «ودّ كثيرٌ منْ أهْل الْكتاب لوْ يردّونكمْ منْ بعْد إيمانكمْ كفّاراً،حسداً منْ عنْد أنْفسهمْ منْ بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ»..

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس..الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون..لماذا؟

لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم.ولكنها لأنها تعلم! «حسداً منْ عنْد أنْفسهمْ منْ بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ»..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين،ومازالت تفيض،وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال.وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه،ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه،والذي أنقذهم اللّه منه بالإيمان،وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود! وهنا – في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة،وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم – هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد،والشر بالشر،ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي اللّه بأمره،وقتما يريد:«فاعْفوا واصْفحوا حتّى يأْتي اللّه بأمْره.إنّ اللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..وامضوا في طريقكم التي

اختارها اللّه لكم،واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم:«وأقيمـــوا الصّـــلاة وآتـــوا الزّكاة،وما تقدّموا لأنْفسكمْ منْ خيْرٍ تجدوه عنْد اللّه.إنّ اللّه بما تعْملون بصيرٌ»..

وهكذا..يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر،ومكمن الدسيسة ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسـد الـذميم..ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب اللّـه ينتظـرون أمره،ويعلقـون تصرفهم بإذنه..وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة،لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة.ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة..[27]

- **الحسد والغل (٣)**:

قال تعالى:{ ألمْ تر إلى الّذين أوتواْ نصيبًا مّن الْكتاب يؤْمنـون بالْجبْـت والطّـاغوت ويقولون للّذين كفرواْ هؤلاء أهْدى من الّذين آمنواْ سبيلاً} (٥١) سورة النساء

جاء بعْض رؤساء اليهود إلى قريْشٍ فسألْتهمْ قريْش:أهمْ،وما همْ عليه من الكفْر وعبـادة الأصْنام،خيْرٌ أمْ محمّدٌ وما هو عليه من الإيمان بالله؟ فقال اليهود:بـلْ قـريْشٌ أهْـدى سبيلاً.فأنْزل الله تعالى هذه الآية،يعيب فيهـا علـى اليهـود قـوْلهمْ هذا،وتفْضـيلهم الكفْر،وعبادة الأصْنام،على هدى الله،ودينه الحقّ.

الجبْت – أصْله الجبْس – وهو الرّديء الذي لا خيْر فيه أو السّحْر والأصْنام والكهّـان والخرافات.

الطّاغوت – ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطّغْيان والخروج من الحـقّ،منْ مخْلـوقٍ يعْبد،أوْ رئيسٍ يقلّد،أوْ هوىً يتّبع.وقيل إنّه الشّيْطان.[28]

وفي الظلال:

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس..الرغبة في سـلب الخـير الـذي يهتـدي إليـه الآخرون..لماذا؟

---

[27] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٦)

[28] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (ج ١ / ص ٥٤٤)

لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم.ولكنها لأنها تعلم! «حسداً منْ عنْد أنْفسهمْ منْ بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ»..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين،ومازالت تفيض،وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال.وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه،ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه،والذي أنقذهم اللّه منه بالإيمان،وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود! وهنا - في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة،وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم - هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد،والشر بالشر،ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي اللّه بأمره،وقتما يريد:«فاعْفوا واصْفحوا حتّى يأْتي اللّه بأمْره.إنّ اللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..وامضوا في طريقكم التي اختارها اللّه لكم،واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم:«وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة،وما تقدّموا لأنْفسكمْ منْ خيْرٍ تجدوه عنْد اللّه.إنّ اللّه بما تعْملون بصيرٌ»..

وهكذا..يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر،ومكمن الدسيسة ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم..ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب اللّه ينتظرون أمره،ويعلقون تصرفهم بإذنه..وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة،لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة.ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة..[٢٩]

- **الحسد والغل (٤)**

قال تعالى:{ مّا يودّ الّذين كفرواْ منْ أهْل الْكتاب ولا الْمشْركين أن ينزّل عليْكم مّنْ خيْرٍ مّن رّبّكمْ واللّه يخْتصّ برحْمته من يشاء واللّه ذو الْفضْل الْعظيم} (١٠٥) سورة البقرة

[٢٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٧)

إنّ الذين عرفْتمْ حالهمْ مع أنْبيائهمْ منْ أهْل الكتاب،همْ حســدةٌ لكــمْ لا يريــدون أنْ يصيبكمْ خيْرٌ منْ ربكمْ،ولا أنْ يترسّخْ دينكمْ،ولا أنْ تتثبّت أرْكانه،والمشْركون مثْل أهْل الكتاب في كرْههمْ لكمْ،وحسدهمْ إيّاكمْ،وتمنّيهمْ أنْ تدور على المسْلمين الــدَّوائر،وأنْ ينْتهي أمْر الإسْلام والمسْلمين.وحسد الحاسد يدلّ على أنّه ساخطٌ على ربّه،معْترضٌ على حكْمه وحكْمته،لأنّه أنْعم على المحْسود بما أنْعم،والله لا يضيره ســخط السّــاخطين،ولا يحوّل مجاري نعْمته حسد الحاسدين،فهو يخْتصّ منْ يشاء برحْمته وهو صاحب الفضْــل العظيم على من اخْتاره للنّبوّة،وهو صاحب الإحْسان والمنّة على عباده.[٣٠]

وفي الظلال:

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب.موقف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب.وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى.وكل منهما «نصــيب» مــن الكتاب باعتبار أن كتاب اللّه هو كل ما أنزل على رسله،وقرر فيــه وحــدة ألوهيتــه ووحدة قوامته.فهو كتاب واحد في حقيقته،أوتي اليهود نصيبا منه،وأوتي النصارى نصيبا منه،وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعا لأصول الدين كله،ومصدقا لمــا بين يديه من الكتاب..سؤال التعجيب من هؤلاء «الّذين أوتوا نصيباً من الْكتــاب»..ثم هم يدعون إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم في خلافاتهم،وليحكم بينهم في شؤون حيــاتهم ومعاشهم،فلا يستجيبون جميعا لهذه الدعوة،إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكــيم كتاب اللّه وشريعته.الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب اللّه والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب:«ألمْ تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الْكتاب يدْعوْن إلى كتاب اللّه ليحْكم بيْنهمْ،ثمّ يتولّى فريقٌ منْهمْ وهمْ معْرضون؟»..

هكذا يعجب اللّه من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب اللّه في أمور الاعتقاد وأمور الحياة.فكيف بمن يقولون:إنهم مسلمون،ثم يخرجــون شريعة اللّه من حياتهم كلها.ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون! إنه مثــل يضــربه اللّــه للمسلمين أيضا كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ويحذروا أن يكونــوا موضــعا

[٣٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ١١٢)

لتعجيب اللّه وتشهيره بهم.فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدّعوا الإسلام،حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب اللّه،فكيف يكون الاستنكار إذا كان «الْمسْلمون» هم الذين يعرضـون هـذا الإعـراض..إنـه العجـب الـذي لا ينقضي،والبلاء الذي لا يقدر،والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة اللّـه! والعياذ باللّه! ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض:«ذلك بأنّهمْ قالوا:لـنْ تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معْدودات،وغرّهمْ في دينهمْ ما كانوا يفْترون»..

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب اللّه والتناقض مع دعوى الإيمـان ودعوى أنهم أهل كتاب..إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة،وجديـة القسـط الإلهي الذي لايحابي ولا يميل.يتجلى هذا في قولهم:«لنْ تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معْدودات»..

وإلا فلما ذا لا تمسهم النار إلا أياما معدودات؟ لماذا وهم ينحرفون أصلا عـن حقيقـة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب اللّه؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقا بعـدل اللّه؟ بل إذا كانوا يحسون أصلا بجدية لقاء اللّه؟

إنهم لا يقولون إلا افتراء،ثم يغرهم هذا الافتراء:«وغرّهمْ في دينهمْ ما كانوا يفْترون»..

وحقا إنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء اللّه،والشعور بحقيقة هذا اللقاء،مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله..

وحقا إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من اللّه،مع الإعراض عـن الاحتكام إلى كتاب اللّه،وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة..

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون.ثم يدعون إلى كتاب اللّـه ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون.وفيهم من يتبجحون ويتوقحون،ويزعمـون أن حيـاة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة النـاس العمليـة وارتباطـاتهم الاقتصادية والاجتماعية،بل العائلية،ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن اللّه لن يعذبهم إلا تطهيرا من المعاصي،ثم يساقون إلى الجنـة! أليسوا مسلمين؟ إنه نفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء،ونفس الغرور بمـا افتروه ولا أصل له في الدين..وهؤلاء وأولئك سواء في تنصلهم من أصل الدين،وتملصهم

من حقيقته التي يرضاها اللّه:الإسلام..الاستسلام والطاعة والاتباع.والتلقي من اللّه وحده في كل شأن من شؤون الحياة:«فكيْف إذا جمعْناهمْ ليوْمٍ لا ريْب فيه،ووفّيتْ كلّ نفْسٍ ما كسبتْ،وهمْ لا يظْلمون»؟

كيف؟ إنه التهديد الرعيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء اللّه،وجدية عدل اللّه ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة..وهو بعد تهديد قائم للجميع..مشركين وملحدين،وأهل كتاب ومدعي إسلام،فهم سواء في أنهم لا يحققون في حياتهم الإسلام! «فكيْف إذا جمعْناهمْ ليوْمٍ لا ريْب فيه»..وجرى العدل الإلهي مجراه؟ «ووفّيتْ كلّ نفْسٍ ما كسبتْ»..بلا ظلم ولا محاباة؟ «وهمْ لا يظْلمون»..كما أنهم لا يحابون في حساب اللّه؟

سؤال يلقى ويترك بلا جواب..وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب![31]

- **البغض الشديد:**

قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ لا تتّخذواْ بطانةً مّن دونكمْ لا يأْلونكمْ خبالاً ودّواْ ما عنتّمْ قدْ بدت الْبغْضاء منْ أفْواههمْ وما تخْفي صدورهمْ أكْبر قدْ بيّنّا لكم الآيات إن كنتمْ تعْقلون} (١١٨) سورة آل عمران

ينْهى الله تعالى المؤْمنين عن اتّخاذ الكفّار واليهود والمنافقين بطانةً وخواصّ لهمْ منْ دون المؤْمنين،يطّلعونهمْ على سرّهمْ،وما يضْمرون لأعْدائهمْ.لأنّ هؤلاء لا يألون جهْداً،ولا يتأخّرون عنْ عملٍ فيه إيْذاءٌ وإضْرارٌ بالمؤْمنين،في دينهمْ ودنْياهمْ،وهمْ يتمنّوْن وقوع المؤْمنين في الضّيق والمشقّة.ولقدْ بدت البغْضاء والعداوة في أفْواههمْ بما يظْهر على ألْسنتهمْ منْ كلمات الحقْد،وصدورهمْ تخْفي حقْداً أكْبر،وبغْضاً أعْظم للإسْلام وأهْله،وهو أمْرٌ لا يخْفى على عاقلٍ،وقدْ بيّن الله تعالى الدّلالات الواضحة التي يعْرف يها الوليّ من العّدوّ.[32]

---

[31] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٤٧)

[32] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (ج ١ / ص ٤١١)

وفي الظلال:

إنها صورة كاملة السمات،ناطقة بدخائل النفوس،وشواهد الملامح،تسجل المشاعر الباطنة،والانفعالات الظاهرة،والحركة الذاهبة الآئبة.وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرورا في كل زمان وفي كل مكان.

ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء.يتظاهرون للمسلمين – في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم – بالمودة.فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة.وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة،وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال،ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم،والكيد لهم والدس،ما وأتتهم الفرصة في ليل أو نهار.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب،كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين،وللشر المبيت،وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا في أعداء اللّه هؤلاء،وما يزال يفضي إليهم بالمودة،وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء،لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار..فجاء هذا التنوير،وهذا التحذير،يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر،ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين،الذين لا يخلصون لها أبدا،ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة.ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على فترة تاريخية معينة،فهو حقيقة دائمة،تواجه واقعا دائما..كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود..

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم:ألا يتخذوا بطانة من دونهم.بطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة.وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة..المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعا في كل أمر،وكل شأن،وكل وضع،وكل نظام،وكل تصور،وكل منهج،وكل طريق! والمسلمون في غفلة من تحذير اللّه لهم،يوادون من حاد اللّه ورسوله ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم.

واللّه سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كمـــا يقـــول للجماعـــة المســـلمة في أي جيل:«ودّوا ما عنتّمْ قدْ بدت الْبغْضاء منْ أفْواههمْ وما تخْفي صدورهمْ أكْبر»..
واللّه سبحانه يقول:« ها أنْتمْ أولاء تحبّونهمْ ولا يحبّونكمْ،وتؤْمنون بالْكتاب كلّــه،وإذا لقوكمْ قالوا:آمنّا،وإذا خلوْا عضّوا عليْكم الْأنامل من الْغيْظ»..
واللّه سبحانه يقول:«إنْ تمْسسْكمْ حسنةٌ تسؤْهمْ،وإنْ تصبْكمْ سيّئةٌ يفْرحوا بها»..
ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة،ولكننا لا نفيق..ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر.ومرة بعد مرة تنفلت ألســـنتهم فتـــنم عـــن أحقادهم التي لا يذهب بها ود يبذله المسلمون،ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين..ومع ذلك نعود،فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق!..وتبلغ بنا المجاملـــة،أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها،وفي منهج حياتنـــا فـــلا نقيمه على أساس الإسلام،وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمـــر اللّه.ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي.ومن هنا نلقى العنـــت الـــذي يـــوده أعـــداؤنا لنا،ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا..
وها هو ذا كتاب اللّه يعلمنا – كما علم الجماعـــة المســـلمة الأولى – كيـــف نتقـــي كيدهم،وندفع أذاهم،وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم،ويفلت على ألسنتهم منـــه شواظ:«وإنْ تصْبروا وتتّقوا لا يضرّكمْ كيْدهمْ شيْئاً.إنّ اللّه بما يعْملون محيطٌ»..
فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوهم إن كانوا أقوياء وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع.الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل ولا التنازل عـــن العقيـــدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول..ثم هو التقوى:الخوف من اللّه وحده.ومراقبته وحده..هو تقوى اللّه التي تربط القلوب باللّه،فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه،ولا تعتصم بحبل إلا حبله..وحين يتصل القلب باللّه فإنه سيحقر كل قوة غير قوته وستشد هذه الرابطة من عزيمته،فلا يستسلم من قريب،ولا يواد مـــن حـــاد اللّـــه ورسوله،طلبا للنجاة أو كسبا للعزة! هذا هو الطريـــق:الصـــبر والتقـــوى..التماســـك

والاعتصام بحبل اللّه.وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة اللّه وحدها،وحققوا منهج اللّه في حياهم كلها..إلا عزوا وانتصروا،ووقاهم اللّــه كيــد أعــدائهم،وكانت كلمتهم هي العليا.وما استمســك المســلمون في تــاريخهم كلــه بعــروة أعــدائهم الطبيعيين،الذين يحاربون عقيدهم ومنهجهم سرا وجهرا،واستمعوا إلى مشورهم،واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعوانا وخبراء ومستشارين..إلا كتب اللّه عليهم الهزيمــة،ومكن لأعدائهم فيهم،وأذل رقاهم،وأذاقهم وبال أمرهم..

والتاريخ كله شاهد على أن كلمة اللّه خالدة وأن سنة اللّه نافذة.فمن عمي عن سنة اللّه المشهودة في الأرض،فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان..

هذا ينتهي هذا الدرس وينتهي كذلك المقطع الأول في السورة.وقد وصل الســياق إلى ذروة المعركة وقمة المفاصلة الكاملة الشاملة.

سماحة الإسلام في مواجهة الأعداء

ويحسن قبل أن ننهي هذا الدرس أن نقرر حقيقة أخرى،عن سماحة الإسلام في وجه كل هذا العداء.

فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء.ولكنه لا يحرضهم علــى مقابلــة الغــل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها.إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصــف المسلم،وللكينونة المسلمة..مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطــر الــذي يحيطهــا بــه الآخرون..أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا وبنظافة الإسلام يعامــل الناس جميعا وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعا يتقي الكيد ولكنــه لا يكيد،ويحــذر الحقد ولكنه لا يحقد.إلا أن يحارب في دينه،وأن يفتن في عقيدته،وأن يصد عن سبيل اللّه ومنهجه.

فحينئذ هو مطالب أن يحارب،وأن يمنع الفتنة،وأن يزيل العقبات التي تصد النــاس عــن سبيل اللّه،وعن تحقيق منهجه في الحياة.يحارب جهادا في سبيل اللّه لا انتقاما لذاته.وحبــا لخير البشر لا حقدا على الذين آذوه.وتحطيما للحواجز الحائلة دون إيصال هــذا الخــير للناس.لا حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال..وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميــع

في ظله بالعدل والسلام.لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية! هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى،وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص.

إن هذا المنهج خير.وما يصد البشرية عند إلا أعدى أعداء البشرية.الذين ينبغي لها أن تطاردهم،حتى تقصيهم عن قيادتها..وهذا هو الواجب الذي انتدبت له الجماعة المسلمة،فأدته مرة خير ما يكون الأداء.

وهي مدعوة دائما إلى أدائه،والجهاد ماض إلى يوم القيامة..تحت هذا اللواء.[٣٣].

- **لأنا نقول ربنا الله:**

قال تعالى:{ وما نقموا منْهمْ إلّا أن يؤْمنوا باللّه الْعزيز الْحميد} (٨) سورة البروج

ولمْ يكنْ لهؤلاء المؤْمنين منْ ذنْبٍ يسبّب نقْمة الطّغاة عليْهمْ إلاّ أنّهمْ آمنوا بربّهم العزيز،الذي يخْشى عقابه المنْعم،الذي يرْجى ثوابه.

عنْ صهيْبٍ،أنّ رسول الله ﷺ قال:" كان ملكٌ فيمنْ كان قبْلكمْ،وكان له ساحرٌ،فلمّا كبر،قال للْملك:إنّي قدْ كبرْت،فابْعثْ إليّ غلامًا أعلّمْه السّحْر،فبعث إليْه غلامًا يعلّمه،فكان في طريقه،إذا سلك راهبٌ فقعد إليْه وسمع كلامه،فأعْجبه فكان إذا أتى السّاحر مرّ بالرّاهب وقعد إليْه،فإذا أتى السّاحر ضربه،فشكا ذلك إلى الرّاهب،فقال:إذا خشيت السّاحر،فقلْ:حبسني أهْلي،وإذا خشيت أهْلك فقلْ:حبسني السّاحر،فبيْنما هو كذلك إذْ أتى على دابّةٍ عظيمةٍ قدْ حبست النّاس،فقال:الْيوْم أعْلم آلسّاحر أفْضل أم الرّاهب أفْضل؟ فأخذ حجرًا،فقال:اللهمّ إنْ كان أمْر الرّاهب أحبّ إليْك منْ أمْر السّاحر فاقْتلْ هذه الدّابّة،حتّى يمْضي النّاس،فرماها فقتلها،ومضى النّاس،فأتى الرّاهب فأخْبره،فقال له الرّاهب:أيْ بنيّ أنْت الْيوْم أفْضل منّي،قدْ بلغ منْ أمْرك ما أرى،وإنّك ستبْتلى،فإن ابْتليت فلا تدلّ عليّ،وكان الْغلام يبْرئ الْأكْمه والْأبْرص،ويداوي النّاس منْ سائر الْأدْواء،فسمع جليسٌ للْملك كان قدْ عمي،فأتاه بهدايا كثيرةٍ،فقال:ما هاهنا لك

---

[٣٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٢٥)

أجْمع،إنْ أنْت شفيْتني،فقال:إنّي لا أشْفي أحدًا إنّما يشْفي الله،فإنْ أنْت آمنْت بالله دعوْت الله فشفاك،فآمن بالله فشفاه الله،فأتى الْملك فجلس إليْه كما كان يجْلس،فقال له الْملك:منْ ردّ عليْك بصرك؟ قال:ربّي،قال:ولك ربٌّ غيْري؟ قال:ربّي وربّك الله،فأخذه فلمْ يزلْ يعذّبه حتّى دلّ على الْغلام،فجيء بالْغلام،فقال له الْملك:أيْ بنيّ قدْ بلغ منْ سحْرك ما تبْرئ الْأكْمه والْأبْرص،وتفْعل وتفْعل،فقال:إنّي لا أشْفي أحدًا،إنّما يشْفي الله،فأخذه فلمْ يزلْ يعذّبه [ص:٢٣٠٠] حتّى دلّ على الرّاهب،فجيء بالرّاهب،فقيل له:ارْجعْ عنْ دينك،فأبى،فدعا بالْمئْشار،فوضع الْمئْشار في مفْرق رأْسه،فشقّه حتّى وقع شقّاه،ثمّ جيء بجليس الْملك فقيل له:ارْجعْ عنْ دينك،فأبى فوضع الْمئْشار في مفْرق رأْسه،فشقّه به حتّى وقع شقّاه،ثمّ جيء بالْغلام فقيل له ارْجعْ عنْ دينك،فأبى فدفعه إلى نفرٍ منْ أصْحابه،فقال:اذْهبوا به إلى جبل كذا وكذا،فاصْعدوا به الْجبل،فإذا بلغْتمْ ذرْوته،فإنْ رجع عنْ دينه،وإلّا فاطْرحوه،فذهبوا به فصعدوا به الْجبل،فقال:اللهمّ اكْفنيهمْ بما شئْت،فرجف بهم الْجبل فسقطوا،وجاء يمْشي إلى الْملك،فقال له الْملك:ما فعل أصْحابك؟ قال:كفانيهم الله،فدفعه إلى نفرٍ منْ أصْحابه،فقال:اذْهبوا به فاحْملوه في قرْقور،فتوسّطوا به الْبحْر،فإنْ رجع عنْ دينه وإلّا فاقْذفوه،فذهبوا به،فقال:اللهمّ اكْفنيهمْ بما شئْت،فانْكفأتْ بهم السّفينة فغرقوا،وجاء يمْشي إلى الْملك،فقال له الْملك:ما فعل أصْحابك؟ قال:كفانيهم الله،فقال للْملك:إنّك لسْت بقاتلي حتّى تفْعل ما آمرك به،قال:وما هو؟ قال:تجْمع النّاس في صعيدٍ واحدٍ،وتصْلبني على جذْعٍ،ثمّ خذْ سهْمًا منْ كنانتي،ثمّ ضع السّهْم في كبد الْقوْس،ثمّ قلْ:باسْم الله ربّ الْغلام،ثمّ ارْمني،فإنّك إذا فعلْت ذلك قتلْتني،فجمع النّاس في صعيدٍ واحدٍ،وصلبه على جذْعٍ،ثمّ أخذ سهْمًا منْ كنانته،ثمّ وضع السّهْم في كبْد الْقوْس،ثمّ قال:باسْم الله،ربّ الْغلام،ثمّ رماه فوقع السّهْم في صدْغه،فوضع يده في صدْغه في موْضع السّهْم فمات،فقال النّاس:آمنّا بربّ الْغلام،آمنّا بربّ الْغلام،آمنّا بربّ الْغلام،فأتي الْملك فقيل له:أرأيْت ما كنْت تحْذر؟ قدْ والله نزل بك حذرك،قدْ آمن النّاس،فأمر بالْأخْدود في أفْواه السّكك،فخدّتْ وأضْرم النّيران،وقال:منْ

لْم يرْجعْ عنْ دينه فأحْموه فيها،أوْ قيل له:اقْتحمْ،ففعلوا حتّى جاءت امْرأةٌ ومعها صبيٌّ لها فتقاعستْ أنْ تقع فيها،فقال لها الْغلام:يا أمّهْ اصْبري فإنّك على الْحقّ "[34]

وفي الظلال:

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر:«وما نقموا منْهمْ إلّا أنْ يؤْمنوا باللّه الْعزيز الْحميد.الّذي له ملْك السّماوات والْأرْض.واللّه على كلّ شيْءٍ شهيدٌ»..فهذه جريمتهم أنهم آمنوا باللّه،العزيز:القادر على ما يريد،الحميد:المستحق للحمد في كل حال،والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له.وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور.

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود..وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين،وتهدد العتاة المتجبرين.فاللّه كان شهيدا.وكفى باللّه شهيدا.

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار،التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها،كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند اللّه وما استحقه من نقمته وغضبه.فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد،ووراءه في حساب اللّه ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة.روعة الإيمان المستعلي على الفتنة،والعقيدة المنتصرة على الحياة،والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض.فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم.ولكن كم

---

[34] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩) ٧٣ - (٣٠٠٥)

[ش (الأكمه) الذي خلق أعمى (بالمئشار) مهموز في رواية الأكثرين ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء وروى المنشار بالنون وهما لغتان صحيحتان (ذروته) ذروة الجبل أعلاه وهي بضم الذال وكسرها (فرجف بهم الجبل) أي اضطرب وتحرك حركة شديدة (قرقور) القرقور السفينة الصغيرة وقيل الكبيرة واختار القاضي الصغيرة بعد حكايته خلافا كثيرا (فانكفأت بهم السفينة) أي انقلبت (صعيد) الصعيد هنا الأرض البارزة (كبد القوس) مقبضها عند الرمي (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف (بالأخدود) الأخدود هو الشق العظيم في الأرض وجمعه أخاديد (أفواه السكك) أي أبواب الطرق (فأحموه فيها) هكذا هو في عامة النسخ فأحموه بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة ونقل القاضي اتفاق النسخ على هذا ووقع في بعض نسخ بلادنا فأقحموه بالقاف وهذا ظاهر ومعناه اطرحوه فيها كرها ومعنى الرواية الأولى ارموه فيها من قولهم أحميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار]

كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كـم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير:معنى زهادة الحياة بلا عقيدة،وبشاعتها بلا حرية،وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض.ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم،وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟[٣٥]

- **ولأننا آمنا بالله وحده:**

قال تعالى:{ قلْ يا أهْل الْكتاب هلْ تنقمون منّا إلاّ أنْ آمنّا باللّه وما أنزل إليْنا وما أنزل من قبْل وأنّ أكْثركمْ فاسقون} (٥٩) سورة المائدة

قلْ يا محمّد لهؤلاء الذين يتّخذون دينكمْ هزْواً ولعباً منْ أهْل الكتاب:هلْ لكـمْ مطْعـنٌ عليْنا،وما الذي تعيبونه عليْنا،وتنْقمونه منّا،غيْر إيماننا بربّنا،وبما أنْزله إليْنا وما أنْزله علـى أهْل الكتاب منْ قبْلنا،وغيْر إيْماننا - يا أهْل الكتاب - بأنّ أكْثركمْ فاسقون خـارجون عنْ طاعة الله،وعنْ طريق الهدْى؟

قلْ لهؤلاء المسْتهْزئين بالدّين والعبادة منْ أهْل الكتاب:هلْ تريدون أنْ أخْبركمْ بمنْ هـو شرٌّ مثوبةً عنْد الله يوْم القيامة،وبمنْ يناله عنْده أسْوأ الجزاء:أولئك هـم الـذين لعنـهم الله،وغضب عليْهمْ غضباً شديداً لا يرْضى عنْهمْ بعْده أبداً،ومسخهم فجعل منْهم القردة والخنازير وعبدة الطّاغوت...فهؤلاء همْ شرٌ مكاناً،وشرٌّ مثوبةً وجزاءً عنْـد الله،وأكْثـر ضلالاً عن الطّريق المسْتقيم [٣٦].

وفي الظلال:

إن هذا السؤال الذي وجه اللّه رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب،هو من ناحيـة سـؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم وكشف حقيقة البواعث التي تـدفع بهـم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها.وهو من ناحية سؤال استنكاري،لاستنكار

---

[٣٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٨٠٥)

[٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

هذا الواقع منهم،واستنكار البواعث الدافعة عليــه..وهـــو في الوقـــت ذاتـــه توعيـــة للمسلمين،وتنفير لهم من موالاة القوم،وتقرير لما سبق في النداءات الثلاثة من نهـــي عـــن هذه الموالاة وتحذير.

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهـــد الرســـول - ﷺ- وهـــم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي - إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون باللّـــه ومـــا أنزله اللّه إليهم من قرآن وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله اللّه من قبل من كتـــب أهـــل الكتاب..

إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى.ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله اللّه إليهم وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرســـالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم - لا ما ابتدعوه وحرفوه - ولا يؤمنون بالرســـول الأخير،وهو مصدق لما بين يديه معظم لرسل اللّه أجمعين.

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء التي لم تضع أوزارها قط،ولم يخـــب أوارهـــا طوال ألف وأربعمائة عام منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة وتميزت لهـــم شخصـــية وأصبح لهم وجود مستقل ناشئ من دينـــهم المستقل،وتصـــورهم المســـتقل،ونظامهم المستقل،في ظل منهج اللّه الفريد.

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم - قبل كل شيء - مســـلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم فيصـــبحوا غـــير مسلمين..ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتـــزمين من المسلمين! واللّه - سبحانه - يقرر هذه الحقيقة في صورة قاطعة،وهو يقول لرسوله - ﷺ- في السورة الأخرى:«ولنْ ترْضى عنْـــك الْيهـــود ولا النّصـــارى حتّـــى تتّبـــع ملّتهمْ»..ويقول له في هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقـــة بـــواعثهم وركيـــزة موقفهم:« قلْ:يا أهْل الْكتاب هلْ تنْقمون منّا إلّا أنْ آمنّا باللّه وما أنْزل إليْنا وما أنْزل منْ قبْل وأنّ أكْثركمْ فاسقون؟»..

وهذه الحقيقة التي يقررها اللّه سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين،هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب،وكثيرون ممن يسمون أنفسهم «مسلمين»..باسم تعاون «المتدينين» في وجه المادية والإلحاد كما يقولون! أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها،لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم.ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي،فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي..ولم يكن بد لهؤلاء – بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة،وفي حرب التبشير السافرة كذلك – أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير،فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين،أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت! وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا! ثم تنور العالم و«تقدم» فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة..وإنما الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب! وإذن فما يجوز للمسلمين – أو ورثة المسلمين – أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين! وحين يطمئن أهل الكتاب – وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين – إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير وحين تتميع القضية في ضمائرهم فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين للّه وللعقيدة..الغضبة التي لم يقفوا لها يوما..ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير..ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها.بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ويغلبون في معركة «المادة» بعد ما يغلبون في معركة «العقيدة»..فهما قريب من قريب..وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي،ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية،يقولون القول نفسه..لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود..وهؤلاء يقولون عن «الحروب الصليبية» ذاتها:إنها لم تكن «صليبية»!!! ويقولون عن «المسلمين» الذين خاضوها تحت راية العقيدة:إنهم لم يكونوا «مسلمين» وإنما هم كانوا «قوميين»! وفريق ثالث مستغفل مخدوع يناديه أحفاد «الصليبيين» في الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينا.تعالوا

نجتمع في ولاء لندفع عن «الدين» غائلة «الملحدين»! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخدوع ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين صفا واحدا،حينما كانت المواجهة للمسلمين! على مدار القرون! وما يزالون! وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الالحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام.ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقيم! وإنما هذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي وللانتفاع بجهد المستغفلين المخدوعين – في الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون! وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين..حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم..

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق،فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن «الدين» إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات،وهو تعليم لا مواربة فيه،ولا مجال للحيدة عنه،وفي النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول! إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية،والأحاديث النبوية،التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك.ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم والتقريرات الواعية عن بواعثهم،والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية،وخطة التنظيم،التي تحرم التناصر والموالاة،لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية،وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مع أهل الكتاب في شأن دينه – مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها – إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين،ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين..كما يقول رب العالمين..

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين يجزئونه ويمزقونه،فيأخذون منه ما يشاءون – مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها – ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب! ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله،في هذه القضية،على أن نسمع كلام

المخدوعين أو الخادعين! وكلام اللّه – سبحانه – في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين..

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى – بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل – أن بقية السبب:« وأنّ أكْثركمْ فاسقون» فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم..وهي قاعدة نفسية واقعية تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة..إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم..إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه.إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه..ومن ثم يكرهه وينقم عليه.يكره استقامته وينقم منه التزام ه ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده! إنها قاعدة مطردة،تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة،إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة..والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار،وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين،وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين..

هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب..

ولقد علم اللّه – سبحانه – أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر،وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل،وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق،وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين.

وعلم اللّه – سبحانه – أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.وأنها معركة لا خيار فيها،ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل.لأن الباطل سيهاجمه،ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه..

وغفلة – أي غفلة – أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف وأنهم يملكون تجنب المعركة وأنه يمكن أن تقوم

هناك مصالحة أو مهادنة! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة مـــن أن يستسلموا للوهم والخديعة..وهم يومئذ مأكولون مأكولون!

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه اللّه – سبحانه – لرسوله – ﷺ- لمواجهة أهـــل الكتاب،بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين..فإذا هـــو يجبههم بتاريخ لهم قديم،وشأن لهم مع ربهم،وعقاب أليم:«قلْ:هلْ أنبّئكمْ بشرٍّ منْ ذلـــك مثوبةً عنْد اللّه؟ منْ لعنه اللّه وغضب عليْـــه،وجعل مـــنْهم الْقـــردة والْخنازير،وعبـــد الطّاغوت.أولئك شرٌّ مكاناً،وأضلّ عنْ سواء السّبيل!» وهنا تطالعنا سحنة يهود،وتاريخ يهود! إنهم هم الذين لعنهم اللّه وغضب عليهم،وجعل منهم القردة والخنازير.إنهم هـــم الذين عبدوا الطاغوت..

وقصة لعنة اللّه لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير..فأما قضية عبادتهم للطاغوت،فتحتاج إلى بيان هنا،لأنها لفتة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة..

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان اللّه،وكل حكم لا يقوم على شريعة اللّه،وكل عدوان يتجاوز الحق..والعدوان على سلطان اللّه وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا،وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى..

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ولكن اتبعـــوا شـــرعهم وتركـــوا شـــريعة اللّه.فسماهم اللّه عبادا لهم وسماهم مشركين..وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعـــنى الدقيق.فهم عبدوا الطاغوت..أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها..وهم لم يعبـــدوها بمعنى السجود لها والركوع،ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة.وهي عبـــادة تخـــرج صاحبها من عبادة اللّه ومن دين اللّه[٣٧].

واللّه – سبحانه – يوجه رسوله – ﷺ- لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ،وبذلك الجـــزاء الذي استحقوه من اللّه على هذا التاريخ..كأنما هم جيـــل واحـــد بمـــا أنهـــم جبلـــة

---

[٣٧] – يراجع كتاب:«المصطلحات الأربعة» للسيد أبي الأعلى المودودي،أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ..فصل:«العبادة» ..ويراجع كتاب:«هذا الدين» فصل:«منهج متفرد» ويراجع كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» فصل:«التوحيد».«دار الشروق»

واحدة..يوجهه ليقول لهم:إن هذا شر عاقبة:«قلْ:هلْ أنبّئكمْ بشرٍّ منْ ذلك مثوبةً عنْد اللّه»..

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين،وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم.وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة اللّه وعذابه،وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل:

«أولئك شرٌّ مكاناً،وأضلّ عنْ سواء السّبيل»..[38]

- **لأننا لا نؤمن بكفرهم:**

قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكمْ أوْلياء تلْقون إليْهم بالْمودّة وقدْ كفروا بما جاءكم مّن الْحقّ يخْرجون الرّسول وإيّاكمْ أن تؤْمنوا باللّه ربّكمْ إن كنتمْ خرجْتمْ جهادًا في سبيلي وابْتغاء مرْضاتي تسرّون إليْهم بالْمودّة وأنا أعْلم بما أخْفيْتمْ وما أعْلنتمْ ومن يفْعلْه منكمْ فقدْ ضلّ سواء السّبيل} (١) سورة الممتحنة

هذه الآية نزلتْ في حاطب بْن أبي بلْتعة،وكان حاطبٌ منْ أهْل بدْرٍ،هاجر منْ مكّة،وترك فيها ماله وولده،ولْم يكنْ هو منْ قريشٍ.فلما أراد الرّسول ﷺ فتح مكّة دعا ربّه الله أنْ يعْمي الأخْبار عنْ قريشٍ،حتّى يأْخذهمْ على حين غرّةٍ،فكتب حاطبٌ كتاباً إلى قريشٍ يعرّفهمْ بعزْم الرّسول ﷺ على غزْوهمْ،وأرْسله مع امْرأةٍ ليتّخذ عنْدهمْ يداً.وأعْلم الله تعالى رسوله بالكتاب،فأرْسل الرّسول عليّاً والزّبيْر،وأمرهما بالذّهاب إلى روْضة خاخٍ ليأتياه بالكتاب من المرْأة،فلمّا جاءاها طلبا منْها الكتاب فأنْكرتْه،فهدّداها بتجْريدها منْ ثيابها لتفْتيشها،فأخْرجت الكتاب منْ ضفائر شعْرها.

وسأل الرّسول حاطباً عن الكتاب فاعْترف وقال للرّسول إنّه لْم يفْعلْ ذلك كفْراً،ولا ارْتداداً عن الإسْلام،وإنّما ليتّخذ به يداً عنْد قريشٍ يحْمي بها أهْله وولده وماله.فقال الرّسول للصّحابة إنّه صدقكمْ.وقال عمْر بن الخطّاب دعْني أضْربْ عنْق هذا المنافق.فقال

---

[38] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٣١٩)

الرّسول:إنّه قدْ شهد بدْراً،وما يدْريك لعلّ الله اطّلع على أهْل بدْرٍ فقال:اعْملوا ما شئْتمْ فقدْ غفرْت لكمْ.

ويأْمر الله تعالى المؤْمنين في هذه الآية بأنْ لا يتّخذوا الكفّار أعْواناً وأنْصاراً لهمْ يبلّغــونهمْ أخْبار الرّسول التي لا ينْبغي لأعْدائه أنْ يطّلعوا عليها،وقدْ كفر هــؤلاء الكفّــار بــالله وبرسوله وبكتابه،فكيْف بكمْ بعْد هذا تتّخذونهمْ أنْصاراً تسرّون إليهمْ بما ينْفعهمْ،ويضرّ الرّسول والمسْلمين،وقدْ أخْرجوا الرّســول وأصْــحابه مــنْ بــين أظْهــرهمْ كرْهــاً بالتّوْحيد،وإخْلاص العبادة لله،ولمْ يكنْ لهمْ ذنْبٌ يؤاخذون عليه غيْر ذلك.فإنْ كنْتمْ،يــا أيّها المؤْمنون،قدْ خرجْتمْ مجاهدين في سبيلي،وابْتغاء مرْضاتي،فلا تولوا أعْدائي،ومنْ يفْعلْ هذه الموالاة،ويفْش سرّ الرّسول لأعْدائه،فقدْ حاد عنْ قصْد الطّريق الموصلة إلى الجنّة.[٣٩]

وفي الظلال:

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحي:«يا أيّها الّذين آمنوا»..نداء من ربهم الذي آمنوا به،يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه.يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم،ويحــذرهم حبائل أعدائهم،ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم.

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه،وعدوه عدوهم:«لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكمْ أوْلياء تلْقون إليْهمْ بالْمودّة»..فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه.يعاديهم من يعاديه.فهم رجاله المنتســبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض،وهم أوداؤه وأحباؤه.فلا يجوز أن يلقوا بــالمودة إلى أعدائهم وأعدائه.

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم،وعدوانهم على هــذا كله في تجن وظلم:«وقدْ كفروا بما جاءكمْ من الْحقّ.يخْرجون الرّسول وإيّاكمْ.أنْ تؤْمنوا باللّه ربّكمْ»..

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة؟ كفروا بالحق.وأخرجــوا الرســول والمؤمنين،لا لشيء إلا لأنهم آمنوا باللّه ربهم؟ إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم.وهي التي حاربهم المشركون من أجلــها،لا مــن أجــل أي ســبب

---

[٣٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

آخر.ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب.فهـــي قضـــية العقيـــدة دون سواها.قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه،والإيمان الذي مـــن أجلـــه أخرجوهم.

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت،ذكّرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان اللّه وجهادا في سبيله:«إنْ كنْتمْ خـــرجْتمْ جهاداً في سبيلي وابْتغاء مرْضاتي»..فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في ســـبيل اللّه ابتغاء مرضاة اللّه،مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه باللّه،وهو عدو اللّـــه وعـــدو رسول اللّه! ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم،وما يسرون به إلى أعدائهم وأعـــداء اللّه من المودة،وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها:«تسرّون إليْهمْ بالْمودّة وأنا أعْلم بما أخْفيْتمْ وما أعْلنْتمْ».

ثم يهددهم تهديدا مخيفا،يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة:«ومنْ يفْعلْه منْكمْ فقدْ ضلّ سواء السّبيل»..وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعـــد الهدايـــة والوصول؟! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم ومـــا يضمرون لهم من الشر والكيد.

ثم تجيء البقية:«إنْ يثْقفوكمْ يكونوا لكمْ أعْداءً ويبْسطوا إلـــيْكمْ أيْـــديهمْ وألْســـنتهمْ بالسّوء»..

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصـــرف العـــدو الأصيل.ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكـــل وســـيلة وكل سبيل.

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى:«وودّوا لوْ تكْفرون»..

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان.فالذي يود لـــه أن يخسر هذا الكنز العزيز.كنز الإيمان.ويرتد إلى الكفر،هو أعدى من كل عـــدو يؤذيـــه باليد وباللسان!

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر،ويهتدي بنوره بعد الضلال،ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار.أو أشد.فعدو اللّه هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان،وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور.لهذا يتدرج القرآن في تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم:«ووَدّوا لوْ تكْفرون».[40].

- **لأننا لا نتبع الشهوات:**

قال تعالى:{ واللّه يريد أن يتوب عليْكمْ ويريد الّذين يتّبعون الشّهوات أن تميلواْ ميْلاً عظيمًا} (٢٧) سورة النساء

والله يريد بما شرعه لكمْ من الأحْكام أنْ يبيّن لكمْ ما فيه مصالحكمْ ومنافعكمْ،وأنْ تهْتدوا وتعْملوا صالحاً،وتتّبعوا شرْعه ليتوب عليْكمْ،ويكفّر عنْكمْ سيئاتكمْ،ويريد أتْباع الشّيْطان الضّالون أنْ تميلوا عن الحقّ إلى الباطل ميْلاً عظيماً.[41]

وفي الظلال:

إن اللّه – سبحانه – يتلطف مع عباده فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم،ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر.إنه يكرمهم – سبحانه – وهو يرفعهم إلى هذا الأفق.الأفق الذي يحدثهم فيه،ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم وليقول لهم:إنه يريد:أن يبين لهم..

«يريد اللّه ليبيّن لكمْ»..يريد اللّه ليكشف لكم عن حكمته ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة،وأن تتدبروها،وأن تقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب فهي ليست معميات ولا ألغازا وهي ليست تحكما لا علة له ولا غاية وأنتم أهل لإدراك حكمتها

---

[40] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٢٢)

[41] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢٠، بترقيم الشاملة آليا)

وأهل لبيان هذه الحكمة لكم..وهو تكريم للإنسان،يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فيدركون مدى هذا التلطف الكريم.

«ويهْديكمْ سنن الّذين منْ قبْلكمْ»..فهذا المنهج هو منهج اللّه الذي سنه للمؤمنين جميعا.وهو منهج ثابت في أصوله،موحد في مبادئه،مطرد في غاياته وأهدافه..هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد.ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى اللّه في كل زمان ومكان ويكشف عن وحدة منهج اللّه في كل زمان ومكان ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول،في الطريق اللاحب الطويل.وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه..إنه من هذه الأمة المؤمنة باللّه،تجمعها آصرة المنهج الإلهي،على اختلاف الزمان والمكان،واختلاف الأوطان والألوان وتربطها سنة اللّه المرسومة للمؤمنين في كل جيل،ومن كل قبيل.

«ويتوب عليْكمْ»..فهو - سبحانه - يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم،ليرحمكم...ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل،والتوبة من المعصية.ليمهد لكم الطريق،ويعينكم على السير فيه..

«واللّه عليمٌ حكيمٌ»...فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات.ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات.العلم بنفوسكم وأحوالكم.والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم.والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء...«واللّه يريد أنْ يتوب عليْكمْ ويريد الّذين يتّبعون الشّهوات أنْ تميلوا ميْلًا عظيماً»..وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده اللّه للناس بمنهجه وطريقته،وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات،ويحيدون عن منهج اللّه - وكل من يحيد عن منهج اللّه إنما يتبع الشهوات - فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام،وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع،وشهوة تطاع،وانحراف وفسوق وضلال.فماذا يريد اللّه بالناس،حين يبين لهم منهجه،ويشرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم.يريد أن يهديهم.

يريد أن يجنبهم المزالق.يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات،ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها اللّه،و لم يشرعها لعباده؟

إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد،والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم.

وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة:ميدان تنظيم الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة،التي يحب اللّه أن يلتقي عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور،وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون..في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده اللّه وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟

فأما ما يريده اللّه فقد بينته الآيات السابقة في السورة.وفيها إرادة التنظيم،وإرادة التطهير،وإرادة التيسير،وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال:ديني،أو أخلاقي،أو اجتماعي..يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح،من أي لون كان.السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب،ولا يسكن معه عصب،ولا يطمئن معه بيت،ولا يسلم معه عرض،ولا تقوم معه أسرة.يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم،ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة! كل هذا الدمار،وكل هذا الفساد،وكل هذا الشر باسم الحرية،وهي – في هذا الوضع – ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة! وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر اللّه المؤمنين إياه،وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات.وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي،الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف.وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي،الذي لا عاصم منه،إلا منهج اللّه،حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء اللّه.

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة اللّه بضعف الإنسان،فيما يشرعه لـــه مـــن منهج وأحكام.

والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه،ومراعاة اليسر فيما يشرع لـــه،ونفي الحـــرج والمشـــقة والضرر والضرار.

«يريد اللّه أنْ يخفّف عنْكمْ،وخلق الْإنْسان ضعيفاً»..

فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة،وما فيها مـــن تشـــريعات وأحكـــام وتوجيهات،فإرادة التخفيف واضحة تتمثـــل في الاعتـــراف بـــدوافع الفطـــرة،وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر،وفي الجو الطاهر النظيـــف الرفيع دون أن يكلف اللّه عباده عنتا في كبتها حتى المشقة والفتنـــة ودون أن يطلقهـــم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد.

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فـــإرادة التخفيـــف تبـــدو كذلك واضحة بمراعاة فطرة الإنسان،وطاقته،وحاجاته الحقيقية وإطلاق كـــل طاقاتـــه البانية.ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال! وكثيرون يحسبون أن التقيـــد بمنهج اللّه – وبخاصة في علاقات الجنسين – شاق مجهد.والانطلاق مع الـــذين يتبعـــون الشهوات ميسر مريح! وهذا وهم كبير...فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحري اللذة – واللذة وحدها – في كل تصرف وإقصاء «الواجب» الذي لا مكان له إذا كانت اللـــذة وحدها هي الحكم الأول والأخير وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الإنسان علـــى ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيـــد أخلاقي،ومن كل التزام اجتماعي..

إن هذه كلها تبدو يسرا وراحـــة وانطلاقـــا.ولكنـــها في حقيقتـــها مشـــقة وجهـــد وثقلة.وعقابيلها في حياة المجتمع – بل في حياة كل فرد – عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة..

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي «تحررت!» من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة،يكفي لإلقاء الرعب في القلوب.لو كانت هنالك قلوب! لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمـــة.حطـــم الحضـــارة

الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية.وهذه الفوضى ذاتها هـــي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة وقد ظهرت آثار التحطـــيم شـــبه كاملـــة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانجلترا،وغيرها من دول الحضارة الحديثة.

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة،مما جعلها تركع على أقـــدامها في كـــل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم،وهي في طريقها إلى الانهيار التام،كمـــا تـــدل جميع الشواهد.وهذه بعض الأمارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالميـــة الأولى:

«إن أول ما قد جر على الفرنســـيين تمكـــن الشـــهوات منـــهم:اضـــمحلال قـــواهم الجسدية،وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما.فإن الهياج الدائم قد أو هن أعصابهم وتعبـــد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قـــد أجحـــف بصحتهم.فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي،على فترة كل بضع سنين.لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام..وهذا مقياس أمين،يدلنا كدلالة مقياس الحرارة – في الصـــحة والتـــدقيق – على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية[٤٢].ومن أهـــم عوامـــل هـــذا الاضمحلال:الأمراض السرية الفتاكة.يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل،وتبعث بهم إلى المستشفيات،في السنتين الأوليين مـــن سني الحرب العالمية الأولى،لكونهم مصابين بمرض الزهري،خمسة وسبعين ألفا.وابتلي بهذا المرض وحده ٢٤٢ جنديا في آن واحد في ثكنة متوسطة.وتصور – باللّه – حال هـــذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه – بجانب – في المضـــيق الحـــرج بـــين الحيـــاة والموت،فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحـــاربين لســـلامتها

---

[٤٢] – مثل ذلك يقع الآن في أمريكا حيث لا يصلح للجندية ستة من كل سبعة ممن هم في سن التجنيد.وسنة اللّه لا تتخلف.(السيد رحمه الله)

وبقائها.وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع.

وكان – بجانب آخر – أبناؤها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع،من جراء انغماسهم في اللذات وما كفى أمتهم ذلك خسرانا،بل ضيعوا جانبا من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم،في تلك الأوضاع الحرجة.

«يقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريه:إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهري،وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة.وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق».

وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى »[٤٣].

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير:ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسي،وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد،لا تدع مجالا لتكوين الأسرة،ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسي العابر.ومن ثم يقل الزواج،ويقل التناسل،وتتدحرج فرنسا منحدرة إلى الهاوية.

«سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم.ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها.ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج،قل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض.حتى إنه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبل النكاح! ويتخذوه ولدا شرعيا! فقد كتب «بول بيورو»:من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا قبل أن يعقد بينهما النكاح،أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له.

[٤٣] – كتاب الحجاب للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ص ١١٣ – ١١٤.(السيد رحمه الله)

وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين! فصرحت:إنني كنت قد آذنت بعلي عن النكاح بأني لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدهم نتيجة اتصالي به قبل النكاح.وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة،فما كان في نيتي عند ذاك،ولا هو في نيتي الآن.ولذلك اعتزلت زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا،و لم ألتق به إلى هذا اليوم،لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية.

«قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد:إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضا.ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحرارا طلقاء.ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة،فيتزوجون بامرأة بعينها،حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته،ولذة المخادنة الحرة خارج البيت »[٤٤].

وهكذا تدهورت فرنسا.وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها،وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم.حتى تحق سنة اللّه التي لا تتخلف وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان! بالقياس إلى تعجل الإنسان! أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية،أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد،فهذه نماذج مما يجري فيها:

يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثا..بعد أن يتحدث عن «حرية الحب في السويد،وعن الرخاء المادي،والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي:

« إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوي الاقتصادي الممتاز وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة..إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه في مصر..فهل نرضى نتائجه الأخرى؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي؟ هل نقبل «حرية الحب» وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة؟

[٤٤] – المصدر السابق ١١٥ – ١١٧.(السيد رحمه الله)

«دعونا نتحدث بالأرقام...» «مع وجود كل هذه المشـجعات علـى الاسـتقرار في الحياة،وتكوين أسرة،فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض!..مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة المجانيـة حـتى يتخـرج في الجامعة،فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق! «يقابـل هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين.وارتفاع مستمر في نسبة عـدد المواليـد غـير الشرعيين.مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا.

«لقد بدأ عهد التصنيع.وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠.كانت نسـبة الأمهات – غير المتزوجات – في ذلك العام ٧ في المائة،وارتفعت هذه النسـبة في عـام ١٩٢٠ إلى ١٦ في المائة.والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها.ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة.

«وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن «الحب الحر» في السويد،فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة.والفتاة في سـن الخامسـة عشرة.وأن ٩٥ في المائة من الشبان في سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية! «وإذا أردنـا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب،فإننا نقول:إن ٧ في المائة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات،و٣٥ في المائة منها مع حبيبات! و٥٨ في المائة منها مع صديقات عابرات! «وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين.وجدنا أن ٣ في المائة من هذه العلاقات مع أزواج.و٢٧ في المائة منها مع خطيب! و٦٤ في المائة منها مع صديق عابر! «وتقول الأبحاث العلمية:إن ٨٠ في المائة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و٢٠ في المائة بقين بلا زواج! «وأدت حرية الحـب بطبيعـة الحال إلى الزواج المتأخر،وإلى الخطبة الطويلة الأجل.مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت.

«والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة..إن أهل السويد يدافعون عن «حرية الحب» بقولهم:إن المجتمع السويدي ينظر نظرة احتقار إلى الخيانة بعد الزواج،كأي مجتمع

متمدن آخر! وهذا صحيح لا ننكره! ولكنهم لا يستطيعون الـدفاع عـن الاتجـاه إلى انقراض النسل.ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق.

«إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم.إن طلاقا واحدا يحدث بين كـل ست أو سبع زيجات،طبقا للإحصـاءات الـتي أعـدها وزارة الشـؤون الاجتماعيـة بالسويد.والنسبة بدأت صغيرة،وهي مستمرة في الزيادة..في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان – ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عـام ١٩٥٢،ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤.

«وسبب ذلك أن ٣٠ في المائة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف،بعـد أن تحمل الفتاة.

والزواج بحكم «الضرورة» لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي.ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجـان أنهمـا يريـدان الطلاق.فالأمر سهل جدا،وإذا طلب أحدهما الطلاق.فإن أي سبب بسيط يقدمـه،يمكن أن يتم به الطلاق! «وإذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد..فهناك حريـة أخـرى يتمتع بها غالبية أهل السويد..إنها حرية عدم الإيمان باللّه! لقـد انتشـرت في السـويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق.وهذه الظاهرة تسـود التـرويج والدنمرك أيضا.المدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب.

«والجيل الجديد ينحرف..وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا.إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف،وإلى الإدمـان علـى المخـدرات والخمور..وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفـا.أي مـا يوازي ١٠ في المائة من مجموع أطفال العائلات كلها.

وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف..إن من يقبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و١٧ يوازي ثلاثة أمثال عـدد المقبـوض

عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما.وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء إلى أسوأ..ويتبع ذلك حقيقة رهيبة.

«إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية! ويقول أطباء السويد:

إن ٥٠ في المائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية.ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية،ويزيد من دواعي تفكك الأسرة.ويقربهم إلى هوة انقراض النسل...»

والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال.ونذر السوء تتوالى.والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر.ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها،على الرغم من هذا الرواء الظاهري وتعمل بسرعة،مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية!!!

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم،لا لأنهم في حاجة إلى المال.ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا،ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع.

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى.مؤلفة من المحامين والأطباء – أي من قمة الطبقة المثقفة – مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا،وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبسا،وهي التي أوقعته في حبائلها! كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين! وذلك في مجتمع لا يدري فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق! ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية! مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصبا يستريح!!!

وأخيرا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذي يعيشون فيه.

وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول:
«عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم.وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض،أولها:
الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة.
والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب،بل تلقنهم دروسا عملية في بابه.والثالث انحطاط المستوي الخلقي في عامة النساء،الذي يظهر في ملابسهن،بل في عريهن،وفي إكثارهن من التدخين،واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام ..هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام.ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر.فإن نحن لم نحد من طغيانها،فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان،ومن تبعهم من سائر الأمم،الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء،مع ما كانوا فيه من خمر ونساء،أو مشاغل رقص ولهو وغناء»[٤٥].
والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة،بل استسلمت لها تماما وهي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان! ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا،ليهون من انحلال شبابنا!
يقول:«انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا.وأعلن حاكم ولاية نيويورك،أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذي يقوم به في الولاية:
« وعمد الحاكم إلى إنشاء المزارع و«الإصلاحيات» التهذيبية والأندية الرياضية..إلخ»
«ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات – التي انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين! – لا يدخل في برنامجه،وأنه يترك أمره للسلطات الصحية! «وأما في انجلترا فقد كثرت في العامين الأخيرين جرائم الاعتداء على

[٤٥] – نقلا عن كتاب الحجاب للمودودي ص ١٢٩،١٣٠.(السيد رحمه الله)

النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف.وفي معظم الحالات كـــان المعتـــدي أو المجرم غلاما مراهقا.وفي بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة،وتركها جثـــة هامدة،حتى لا تفشي سره،أو تتعرف عليه،إذا عرضه عليها رجال البوليس.

«ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه إلى القرية،عندما أبصر علـــى جانـــب الطريق – وتحت شجرة – غلاما يضاجع فتاة..

«واقترب الشيخ منهما،ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه،وقال له:إن ما يفعله لا يجـــوز ارتكابه في الطريق العام! «ونهض الفتى،وركل الشيخ بكل قوته في بطنه...ووقع الشيخ.

«وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه...واستمر يركله بقسوة حتى هشم الـــرأس! «وكـــان الغلام في الخامسة عشرة،والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها!» وقد قررت لجنة الأربعـــة عشر الأمريكية التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المائة من الشعب الأمريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة مـــن مضـــادات الحيويات كالبنسلين والاستريبتومايسين!) وكتب القاضي لندسي بمدينة «دنفر» أنه من كل حالتي زواج تعرض قضية طلاق! وكتب الطبيب العالم العالمي ألكسيس كاريـــل في كتابه:«الإنسان ذلك المجهول»:

« بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفـــال والســـل والـــدفتريا والحمـــى التيفودية.إلخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال.فهناك عدد كبير مـــن أمـــراض الجهاز العصبي والقوى العقلية...ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجـــانين الـــذين يوجدون في المصحات علـــى عـــدد المرضـــى الموجـــودين في جميـــع المستشـــفيات الأخرى.وكالجنون،فإن الاضطرابات العصـــبية وضـــعف القـــوى العقليـــة آخـــذ في الازدياد.وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد،وتحطيم الأسر..إن الفســـاد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية،التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن!»..

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة،في جاهليتها الحديثة،من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج اللّه للحياة.المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف

على الإنسان الضعيف وصيانته من نزواته،وحمايته من شهواته،وهدايته إلى الطريق الآمن،والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة:«واللّه يريد أنْ يتوب علـيْكمْ ويريد الّذين يتّبعون الشّهوات أنْ تميلوا ميْلًا عظيماً.يريد اللّه أنْ يخفّف عنْكمْ وخلق الْإنْسان ضعيفاً».[46]

- ولأننا ورثنا الكتاب دونهم:

قال تعالى:{ والّذي أوْحيْنا إليْك من الْكتاب هو الْحقّ مصدّقًا لما بيْن يديْه إنّ اللّه بعباده لخبيرٌ بصيرٌ (٣١) ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه ومنْهمْ مقْتصدٌ ومنْهمْ سابقٌ بالْخيْرات بإذْن اللّه ذلك هو الْفضْل الْكبير (٣٢)[فاطر/٣١-٣٢] }

وهذا القرآن الذي أوْحاه الله إليك،يا محمّد،هو الحقّ،وهو يصدّق الكتب السّابقة فيما جاءتْ به،وهي بشّرتْ به،ونوّهتْ بذكْره فعلى المؤمنين أنْ يعْملوا بما جاء في القرآن ليفوزوا وينْجوا من العذاب الأليم،والله خبيرٌ بأحْوال العباد،بصيرٌ بما يصْلح لهمْ منْ شرْعٍ وأحْكامٍ.

ثمّ جعل الله تعالى القائمين بالقرآن العظيم،هم الذين اصْطفاهمْ منْ عباده،منْ أمّة محمّدٍ،وأوْرثهم الكتاب.وقال تعالى في مكانٍ آخر:{ كنْتمْ خيْر أمّةٍ أخْرجتْ للنّاس }،فدلّ ذلك على أنّ الذين اصْطفاهم الله للقيام بالقرآن همْ أمّة محمّدٍ ﷺ،وجعلهمْ أقساماً ثلاثةً:

- منْهمْ ظالمٌ لنفْسه مفرّطٌ في فعْل بعْض الواجبات،مرْتكبٌ بعْض المحرّمات.
- ومنْهمْ مقتصدٌ،وهو القائم بالواجبات،التّارك للْمحرّمات،وقدْ يقصّر في فعْل بعْض المسْتحبّات،ويفْعل بعْض المكْروهات.
- ومنْهمْ سابقٌ بالخيْرات- وهو الفاعل للْواجبات،والمسْتحبّات،التّارك للْمحرّمات والمكْروهات.

[46] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٩٦١)

وذلك الميراث،وذلك الاصْطفاء،فضْلٌ عظيمٌ من الله لا يقدّر قدْره.[٤٧]

لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولا وأحسنهم أفكارا،وأرقهم قلوبا،وأزكاهم أنفسا،اصطفاهم الله تعالى،واصطفى لهم دين الإسلام،وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب،ولهذا قال:{ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا} وهم هذه الأمة.{فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه} بالمعاصي،[التي] هي دون الكفر.{ومنْهمْ مقْتصدٌ} مقتصر على ما يجب عليه،تارك للمحرم.{ومنْهمْ سابقٌ بالْخيْرات} أي:سارع فيها واجتهد،فسبق غيره،وهو المؤدي للفرائض،المكثر من النوافل،التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى،لوراثة هذا الكتاب،وإن تفاوتت مراتبهم،وتميزت أحوالهم،فلكل منهم قسط من وراثته،حتى الظالم لنفسه،فإن ما معه من أصل الإيمان،وعلوم الإيمان،وأعمال الإيمان،من وراثة الكتاب،لأن المراد بوراثة الكتاب،وراثة علمه وعمله،ودراسة ألفاظه،واستخراج معانيه.

وقوله {بإذْن اللّه} راجع إلى السابق إلى الخيرات،لئلا يغتر بعمله،بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته،فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.{ذلك هو الْفضْل الْكبير} أي:وراثة الكتاب الجليل،لمن اصطفى تعالى من عباده،هو الفضل الكبير،الذي جميع النعم بالنسبة إليه،كالعدم،فأجل النعم على الإطلاق،وأكبر الفضل،وراثة هذا الكتاب[٤٨].

وفي الظلال:

..وهي كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على اللّه كما توحي إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة.وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف،فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب؟

إن اللّه سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء:«فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه.ومنْهمْ مقْتصدٌ.ومنْهمْ سابقٌ بالْخيْرات بإذْن اللّه»..

---

[٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٧٢، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٨٩)

عنْ عوْفٍ،عنْ رسول اللّه ﷺ،أنّه قال:"أمّتي ثلاثة أثْلاث:فثلْثٌ يدْخلون الْجنّــة بغيْــر حسابٍ ولا عذابٍ،وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ثمّ يدْخلون الْجنّــة،وثلْثٌ يمحّصــون ويكْشفون،ثمّ تأْتي الْملائكة فيقولون:وجدْناهمْ يقولون:لا إله إلا اللّه وحْده،يقول اللّه عزّ وجلّ:صدقوا لا إله إلا أنا،أدْخلوهم الْجنّة بقوْلهمْ لا إله إلا اللّه وحْده،واحْملوا خطاياهمْ على أهْل النّار"،وهي الّتي قال اللّه تعالى:" ولــيحْملنّ أثْقــالهمْ وأثْقالًــا مــع أثْقــالهمْ "،وتصْديقها في الّتي فيها ذكْر الْملائكة،قال اللّه تعالى:" ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا "،فجعلها ثلاثة أنْواعٍ،وهمْ أصْنافٌ كلّهمْ،فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه فهــذا الّــذي يكْشف ويمحّص"[٤٩]

وعنْ أبي الدّرْداء،قال:سمعْت رسول الله ﷺيقول:قال اللّه عزّ وجلّ:{ثمّ أوْرثْنا الْكتــاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه ومنْهمْ مقْتصدٌ ومنْهمْ سابقٌ بالْخيْرات بإذْن اللّه} فأمّا الّذين سبقوا بالْخيْرات،فأولئك الّذين يدْخلون الْجنّة بغيْر حسابٍ،وأمّا الّذين اقْتصدوا،فأولئك يحاسبون حسابًا يسيرًا،وأمّا الّذين ظلمــوا أنْفســهمْ،فأولئك الّــذين يحاسبون في طول الْمحْشر،ثمّ هم الّذين تلافاهم اللّه برحْمته،فهم الّذين يقولون:{الْحمْد للّه الّذي أذْهب عنّا الْحزن إنّ ربّنا لغفورٌ شكورٌ}،إلى قوْله:{لغوبٌ}.[٥٠]

وعنْ عوْفٍ،عنْ رسول اللّه ﷺ،أنّه قال:"أمّتي ثلاثة أثْلاث:فثلْثٌ يدْخلون الْجنّــة بغيْــر حسابٍ ولا عذابٍ،وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا ثمّ يدْخلون الْجنّــة،وثلْثٌ يمحّصــون ويكْشفون،ثمّ تأْتي الْملائكة فيقولون:وجدْناهمْ يقولون:لا إله إلا اللّه وحْده،يقول اللّه عزّ وجلّ:صدقوا لا إله إلا أنا،أدْخلوهم الْجنّة بقوْلهمْ لا إله إلا اللّه وحْده،واحْملوا خطاياهمْ على أهْل النّار"،وهي الّتي قال اللّه تعالى:" ولــيحْملنّ أثْقــالهمْ وأثْقالًــا مــع أثْقــالهمْ "،وتصْديقها في الّتي فيها ذكْر الْملائكة،قال اللّه تعالى:" ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا "،فجعلها ثلاثة أنْواعٍ،وهمْ أصْنافٌ كلّهمْ،فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه فهــذا الّــذي يكْشف ويمحّص"[٥١]

---

[٤٩] -تفسير ابن أبي حاتم [١٢ /٤٥] صحيح

[٥٠] -مسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٢٧٢] (٢١٧٢٧) ٢٢٠٧٠ حسن لغيره

[٥١] -تفسير ابن أبي حاتم [١٢ /٤٥]حسن لغيره

وعنْ عقيل بن شهاب،حدّثني عوْف بن مالكٍ،عنْ رسول اللّه ﷺ،قـال:"أمّـتي ثـلاث أثْلاث:فثلثٌ يدْخلون الْجنّة بغيْر حسابٍ ولا عذابٍ،وثلثٌ يحاسبون حسـابًا يسـيرًا،ثمّ يدْخلون الْجنّة،وثلثٌ يمحّصون ويكْشفون،ثمّ يأْتي الْملائكة،فيقولون:وجدْناهمْ يقولون:لا إله إلا اللّه وحْده،ويقول اللّه:صدقوا لا إله إلا أنا،أدْخلوهم الْجنّة بقوْل لا إلـه إلا اللّـه وحْده،واحْملوا خطاياهمْ على أهْل التّكْذيب،فهي الّتي،قال اللّه تعالى:"وليحْملنّ أثْقالهمْ وأثْقالا مع أثْقالهمْ"[العنكبوت آية ١٣] وتصْديقها في الّتي ذكر فيها الْملائكة قال اللّه عزّ وجلّ:"ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا"[فاطر آيـة ٣٢] فجعلـهمْ ثلاثـة أفْواجٍ،وهمْ أصْنافٌ كلّهمْ "فمنْهمْ ظالمٌ لنفْسه"[فاطر آية ٣٢] فهـذا الّـذي يكْشـف ويمحّص ومنْهمْ مقْتصدٌ وهو الّذي يحاسب حسابًا يسيرًا،"ومنْهمْ سابقٌ بالْخيْرات بـإذْن اللّه"[فاطر آية ٣٢] فهذا الّذي يلج الْجنّة بغيْر حسابٍ ولا عذابٍ بإذْن اللّه يـدْخلونها جميعًا لمْ يفرّق بيْنهمْ "يحلّوْن فيها منْ أساور منْ ذهبٍ ولؤْلؤًا ولباسـهمْ فيهـا حريـرٌ وقالوا:الْحمْد للّه الّذي أذْهب عنّا الْحزن إنّ ربّنا لغفورٌ شكورٌ الّذي أحلّنا دار الْمقامـة منْ فضْله لا يمسّنا فيها نصبٌ ولا يمسّنا فيها لغوبٌ،والّذين كفروا لهمْ نـار جهـنّم لا يقْضى عليْهمْ فيموتوا ولا يخفّف عنْهمْ منْ عذابها كذلك نجْزي كلّ كفورٍ"[فـاطر آيـة ٣٣].[٥٢]

فالفريق الأول – ولعله ذكر أولا لأنه الأكثر عددا – «ظالمٌ لنفْسه» تـربى سـيئاته في العمل على حسناته.

والفريق الثاني وسط «مقْتصدٌ» تتعادل سيئاته وحسناته.والفريق الثالث «سابقٌ بالْخيْرات بإذْن اللّه»،تربى حسناته على سيئاته..ولكن فضل اللّه شمل الثلاثة جميعا.فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية.على تفاوت في الدرجات.

وقال الطبري:" وأوْلى الْأقْوال في ذلك بالصّواب تأْويل منْ قال:عني بقوْلـه:ثمّ أوْرثْنـا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا منْ عبادنا الْكتب الّتي أنْزلتْ مـنْ قبْـل الْفرْقـان فـإنْ قـال قائلٌ:وكيْف يجوز أنْ يكون ذلك معْناه،وأمة محمّدٍ ﷺلا يتْلون غيْر كتابهمْ،ولا يعْملون إلّا

---

[٥٢]-المعجم الكبير للطبراني [١٢ /٤٥٤](١٤٥٧٢) حسن

بما فيه من الْأحْكام والشّرائع ؟ قيل:إنّ معْنى ذلك على غيْر الّـذي ذهبْـت إليْـه،وإنّما معْناه:ثمّ أوْرثْنا الْإيمان بالْكتاب الّذين اصْطفيْنا،فمنْهمْ مؤْمنون بكلّ كتابٍ أنْزله اللّه مـن السّماء قبْل كتابهمْ وعاملون به،لأنّ كلّ كتابٍ أنْزل من السّماء قبْل الْفرْقان،فإنّه يـأْمر بالْعمل بالْفرْقان عنْد نزوله،وباتّباع منْ جاء به،وذلك عمل منْ أقرّ بمحمّدٍ ﷺ،وبما جـاء به،وعمل بما دعاه إليْه بما في الْقرْآن،وبما في غيْره من الْكتب الّتي أنْزلـتْ قبْلـه وإنّمـا قيل:عنى بقوْله ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الْكتب الّتي ذكرْنا لأنّ اللّه جلّ ثناؤه قال لنبيّـه محمّـدٍ ﷺوالّذي أوْحيْنا إليْك من الْكتاب هو الْحقّ مصدّقًا لما بيْن يديْه ثمّ أتْبع ذلـك قوْلـه ثمّ أوْرثْنا الْكتاب الّذين اصْطفيْنا فكان معْلومًا،إذْ كان معْنى الْميراث إنّما هو انْتقال معْنًـى منْ قوْمٍ إلى آخرين،و لمْ تكنْ أمّةٌ على عهْد نبيّنا ﷺانْتقل إليْهمْ كتابٌ منْ قـوْمٍ كـانوا قبْلهمْ غيْر أمّته،أنّ ذلك معْناه وإذْ كان ذلك كذلك،فبيّن أنّ الْمصْطفين منْ عباده هـمْ مؤْمنو أمّته ؛وأمّا الظّالم لنفْسه،فإنّه لأنْ يكون منْ أهْل الذّنوب والْمعاصي الّتي هي دون النّفاق والشّرْك عنْدي أشْبه بمعْنى الْآية منْ أنْ يكون الْمنافق أو الْكافر،وذلـك أنّ اللّـه تعالى ذكْره أتْبع هذه الْآية قوْله:جنّات عدْنٍ يدْخلونها فعمّ بدخول الْجنّة جميع الْأصْناف الثّلاثة فإنْ قال قائلٌ:فإنّ قوْله يدْخلونها إنّما عنى به الْمقْتصد والسّابق ؛قيـل لـه:ومـا برْهانك على أنّ ذلك كذلك منْ خبرٍ أوْ عقْلٍ ؟ فإنْ قال:قيام الْحجّة أنّ الظّالم منْ هذه الْأمّة سيدْخل النّار،ولوْ لمْ يدْخل النّار منْ هذه الْأصْناف الثّلاثة أحدٌ وجب أنْ لا يكون لأهْل الْإيمان وعيدٌ ؛قيل:إنّه ليْس في الْآية خبرٌ أنّهمْ لا يدْخلون النّار،وإنّما فيها إخْبارٌ من اللّه تعالى ذكْره أنّهمْ يدْخلون جنّات عدْنٍ،وجائزٌ أنْ يدْخلها الظّالم لنفْسه بعْد عقوبة اللّه إيّاه على ذنوبه الّتي أصابها في الدّنْيا،وظلْمه نفْسه فيها بالنّار،أوْ بما شاء مـنْ عقابـه،ثمّ يدْخله الْجنّة،فيكون ممّنْ عمّه خبر اللّه جلّ ثناؤه بقوْله جنّات عدْنٍ يدْخلونها وقـدْ روي عنْ رسول اللّه ﷺبنحْو الّذي قلْنا في ذلك أخْبارٌ،وإنْ كان في أسانيدها نظرٌ،مع دليـل الْكتاب على صحّته على النّحْو الّذي بيّنْت ".[٥٣]

---

[٥٣]-تفسير الطبري-مؤسسة الرسالة [٢٠ /٤٦٦]

ولا ندخل هنا في تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضع[٥٤] من كرامة هـــذه الأمة باصطفائها،وكرم اللّه سبحانه في جزائها.فهذا هو الظل الـــذي تلقيـــه النصـــوص هنا،وهي النهاية التي تنتهي إليها هذه الأمة جميعا - بفضل اللّه - ونطوي ما قد يســـبق هذه النهاية من جزاء مقدر في علم اللّه.[٥٥]

- **ولأن الإسلام هو الرسالة المهيمنة على الرسالات كلها:**

قال تعالى:{ وأنزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مصدّقًا لّما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمنًا عليْـــه فاحْكم بيْنهم بما أنزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ لكلٍّ جعلْنـــا مـــنكمْ شرْعةً ومنْهاجًا ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً ولكن لّيبْلوكمْ في مآ آتاكم فاسْـــتبقوا الخيْرات إلى الله مرْجعكمْ جميعًا فينبّئكم بما كنتمْ فيه تخْتلفون} (٤٨) سورة المائدة

وأنْزل الله تعالى القرْآن (الكتاب) إليك يا محمّد بالحقّ والصّدْق الذي لا ريْب فيـــه،ولا شكّ في أنّه منْ عنْد الله،مصدّقاً للْكتب السّابقة المتضمّنة ذكْره ومدْحه،والإشارة إلى أنّه منْزلٌ منْ عنْد الله على عبْده ورسوله محمّد ﷺ،فكان نزوله كما أخْبرْت به ممّـــا زادهـــا صدْقاً عنْد حامليها منْ ذوي البصائر،الذين اتّبعوا أمْر الله وشرْعه،وصدّقوا رسله.

والقرْآن جاء أميناً على الكتب السّابقة،وشاهداً عليْها بالحقّ والصّحّة بما بيّنه منْ حقيقـــة أمْرها (مهيْمناً عليْه)،ومبيّناً حال منْ خوطبوا بها:منْ نسْيان حظٍّ عظيمٍ منْهـــا،وتحْريف كثيرٍ ممّا بقي،أوْ تأْويله،والإعْراض عن العمل به.

وبما أنّ الْرْآن جاء رقيباً وأميناً وشاهداً (مهيْمناً) على الكتب السّابقة،التي أنْزلها الله على أنْبيائه،فاحْكمْ يا محمّد بيْن أهْل الكتاب - إذا تحاكموا إليك - بما أنْزل الله إليـــك مـــن الأحْكام،دون ما أنْزله الله إليْهمْ،لأنّ شريعتك ناسخةٌ لشـــريعتهمْ،ولا تتّبـــع أهْـــواءهمْ ورغباتهمْ في الحكْم لهمْ بما يسْهل عليْهمْ،ويخفّ احْتماله.

---

[٥٤] -قلت:قد ذكرت الروايات الصحيحة في هذا لأنها تفسر القرآن الكريم

[٥٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٧٢٧)

ثمّ يذْكر الله تعالى أنّه جعل لكلّ أمّةٍ مـــن النّـــاس شـــريعةً أوْجـــب علـــيهْم إقامـــة أحْكامها،ومنْهاجاً وطريقاً فرض عليهمْ سلوكه لتزْكيـــة نفوســـهمْ (فأصْـــل الـــدّين واحدٌ،ولكنّ الشّرائع العمليّة تخْتلف باخْتلاف أحْوال البشر،وطباعهمْ واسْتعْدادهمْ).

ولوْ شاء الله أنْ يجْعل النّاس أمّةً واحدةً،ذات شريعةٍ واحـــدةٍ ومنْهـــاجٍ واحد،يســـيرون عليْه،لفعل،ولكنّه تعالى لمْ يشأْ،ليخْتبرهمْ فيما شرع لهمْ،وليثيبهمْ على طاعته،ويعاقبـــهمْ على معْصيته.

ويحثّ الله تعالى النّاس على المبادرة والإسْراع إلى طاعة الله،واتّباع شرْعه الـــذي جعلـــه ناسخاً ما قبْله من الشرائع،ويخْبرهمْ أنّ إليه مرْجعهمْ ومصيرهمْ يوْم القيامة،فيخْبرهمْ بمـــا اخْتلفوا فيه من الحقّ،ويجْزي كلّ عاملٍ بعمله.[٥٦]

وفي الظلال:

وهكذا تتبين القضية..إله واحد.وخـــالق واحـــد.ومالـــك واحـــد..وإذن فحـــاكم واحد.ومشرع واحد.

ومتصرف واحد..وإذن فشريعة واحدة،ومنهج واحد،وقانون واحد..وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل اللّه،فهو إيمان وإسلام.أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل اللّـــه،فهو كفر وظلم وفسوق..وهذا هو الدين كما أخذ اللّه ميثاق العباد جميعا عليه،وكما جاء به كل الرسل من عنده..أمة محمد والأمم قبلها على السواء..

و لم يكن بد أن يكون «دين اللّه» هو الحكم بما أنزل اللّه دون سواه.فهذا هـــو مظهـــر سلطان اللّه.مظهر حاكمية اللّه.مظهر أن لا إله إلا اللّه.

وهذه الحتمية:حتمية هذا التلازم بين «دين اللّه» و«الحكم بما أنزل اللّه» لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل اللّه خير مما يصنع البشر لأنفســـهم مـــن منـــاهج وشـــرائع وأنظمـــة وأوضاع.فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية.

وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي.إنمـــا الســـبب الأول والرئيســـي،والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل اللّه إقرار بألوهية اللّه،ونفي لهـــذه

---

[٥٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٨، بترقيم الشاملة آليا)

الألوهية وخصائصها عمن عداه.وهذا هو «الإسلام» بمعناه اللغوي:«الاستسلام» وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان..الإسلام للّه..والتجرد عن ادعـاء الألوهيـة معـه وادعاء أخص خصائص الألوهية،وهي السلطان والحاكمية،وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون.

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة اللّه.أو حتى شـريعة اللّـه نفسها بنصها،إذا هم نسبوها إلى أنفسهم،ووضعوا عليها شاراتهم ولم يردوهـا للّـه ولم يطبقوها باسم اللّه،إذعانا لسلطانه،واعترافا بألوهيته وبتفرده بهذه الألوهية.التفرد الـذي يجرد العباد من حق السلطان والحاكمية،إلا تطبيقا لشـريعة اللّـه،وتقريرا لسـلطانه في الأرض.

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة:«ومنْ لَمْ يحْكمْ بمـا أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون»..«ومنْ لمْ يحْكـمْ بمـا أنْـزل اللّـه فأولئـك هـم الظّالمون»..«ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْفاسـقون»..ذلـك أن الـذين لا يحكمون بما أنزل اللّه يعلنون رفضهم لألوهية اللّه – سبحانه – ورفضهم لإفراد اللّـه – سبحانه – بهذه الألوهية.يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ولو لم يعلنـوه بـأفواههم وألسنتهم.ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان.ومن ثم يصمهم القـرآن بالكفر والظلم والفسق،أخذا من رفضهم لألوهية اللّه – حين يرفضون حاكميته المطلقـة وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم مـا لم يأذن به اللّه.[٥٧]

لقد كمل هذا الدين،وتمت به نعمة اللّه على المسلمين.ورضيه اللّه لهم منهج حياة للناس أجمعين.ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله،ولا لترك شيء من حكمـه إلى حكم آخر،ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى.وقد علم اللّه حين رضيه للناس،أنه يسع الناس جميعا.وعلم اللّه حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا.وأنه يسع حياة الناس جميعا،إلى يوم الدين.وأي تعديل في هذا المنهج – ودعك من العدول عنـه –

[٥٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٠٥)

هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة.يخرج صاحبه من هذا الدين.ولو قال باللسان ألف مرة:إنه من المسلمين! وقد علم اللّه أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل اللّه واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين..وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل اللّه كله بلا عدول عن شيء فيه،في بعض الملابسات والظروف.فحذر اللّه نبيه – ﷺ– في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين،ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل اللّه إليه..

وأولى هذه الهواجس:الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة،والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد.ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة،والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة،أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول اللّه – ﷺ– أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم[58]...وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض..ولكن الأمر – كما هو ظاهر – أعم من حالة بعينها وعرض بعينه.فهو أمر يعرض في مناسبات شتى،ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين..وقد شاء اللّه – سبحانه – أن يحسم في هذا الأمر،وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبار ات والظروف،وتأليفا للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء.

فقال لنبيه:إن اللّه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهاجا وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة،وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا.وأن كلا منهم يسلك طريقه ثم يرجعون كلهم إلى اللّه،فينبئهم بالحقيقة،ويحاسبهم

[58] – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ:قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَابْنُ صُورِيَا وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا:يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ ، وَأَنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَنَا يَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً ، فَنُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ.فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة:٤٩] إِلَى قَوْلِهِ:{لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة:١١٨] "تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٢) فيه جهالة،وانظر الخبر بطوله في دلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٥٣٤)

على ما اتخذوا من منهج وطريق..وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شـــيء مـــن الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج..فهم لا يتجمعون:«لكلٍّ جعلْنا مـــنْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً.ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً.ولكنْ ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ.فاسْـــتبقوا الْخيْرات.إلى اللّه مرْجعكمْ جميعاً.فينبّئكمْ بما كنْتمْ فيه تخْتلفون».

بذلك أغلق اللّه – سبحانه – مداخل الشيطان كلها وبخاصة ما يبدو منها خيرا وتأليفـــا للقلوب وتجميعا للصفوف بالتساهل في شيء من شريعة اللّه في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف!

إن شريعة اللّه أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر اللّه ألا يكـــون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد،ولكل منهم مشرب،ولكل منـــهم منـــهج،ولكل منهم طريق.ولحكمة من حكم اللّه خلقوا هكذا مختلفين.

وقد عرض اللّه عليهم الهدى وتركهم يستبقون.وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه،وهم إليه راجعون وإنها لتعلة باطلة إذن،ومحاولة فاشلة،أن يحاول أحـــد تجميعهم على حساب شريعة اللّه،أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحيـــاة البشـــرية وفلاحها.فالعدول أو التعديل في شريعة اللّه لا يعني شـــيئا إلا الفســـاد في الأرض،وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم،وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر،وإلا عبودية النـــاس بعضهم لبعض،واتخاذ بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه..وهـــو شـــر عظـــيم وفســـاد عظيم..لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون لأنها غير ما قدره اللّه في طبيعة البشـــر ولأنها مضادة للحكمة التي مـــن أجلـــها قـــدر مـــا قـــدر مـــن اخـــتلاف المنـــاهج والمشارع،والاتجاهات والمشارب..وهو خالق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير.وإليـــه المرجع والمصير..

إن محاولة التساهل في شيء من شريعة اللّه،لمثل هذا الغرض،تبدو – في ظل هذا الـــنص الصادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية – محاولـــة ســـخيفة لا مبرر لها من الواقع ولا سند لها من إرادة اللّه ولا قبول لها في حس المسلم،الذي لا يحاول

إلا تحقيق مشيئة اللّه.فكيف وبعض من يسمون أنفسهم «مسلمين» يقولون:إنه لا يجـــوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر «السائحين»؟!!!

أي واللّه هكذا يقولون! ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة،ويزيدها وضـــوحا.فـــالنص الأول:«فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ»..قـــد يعـــني النهي عن ترك شريعة اللّه كلها إلى أهوائهم! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعـــض مـــا أنزل اللّه إليه:«وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه،ولا تتّبعْ أهْواءهمْ،واحْذرْهمْ أنْ يفْتنوك عنْ بعْض ما أنْزل اللّه إليْك»..

فالتحذير هنا أشد وأدق وهو تصوير للأمر على حقيقته..فهي فتنة يجب أن تحذر..والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكما بما أنزل اللّه كاملا أو أن يكون اتباعـــا للـــهوى وفتنة يحذر اللّه منها.

ثم يستمر السياق في تتبع الهواجس والخواطر فيهون على رسول اللّه – ﷺ– أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة،وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة اللّه (في ذلك الأوان حيث كـــان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتما في دار الإسلام):«فإنْ تولّوْا فاعْلمْ أنّما يريد اللّـــه أنْ يصيبهمْ ببعْض ذنوبهمْ.وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون».فإن تولوا فلا عليـــك منـــهم ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم اللّه وشريعته.ولا تجعل إعراضـــهم يفـــت في عضدك أو يحولك عن موقفك..فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن اللّه يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم.فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض:لا أنت ولا شريعة اللّه ودينه ولا الصف المسلم المستمسك بدينه..ثم إنها طبيعة البشر:«وإنّ كثيراً من النّاس لفاســـقون» فهم يخرجون وينحرفون.لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمر،ولا ذنب للشريعة! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق! وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخلـــه إلى الـــنفس المؤمنة ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشـــريعة لغرض من الأغراض في ظرف من الظروف..

ثم يقفهم على مفرق الطريق..فإنه إما حكم اللّه،وإما حكم الجاهلية.ولا وسط بين الطرفين ولا بديل

حكم اللّه يقوم في الأرض،وشريعة اللّه تنفذ في حياة الناس،ومنهج اللّه يقود حياة البشر..أو أنه حكم الجاهلية،وشريعة الهوى،ومنهج العبودية..فأيهما يريدون؟

« أفحكْم الْجاهليّة يبْغون؟ ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون؟»..إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص.فالجاهلية – كما يصفها اللّه ويحددها قرآنه – هي حكم البشر للبشر،لأنها هي عبودية البشر للبشر،والخروج من عبودية اللّه،ورفض ألوهية اللّه،والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون اللّه..

إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع.هذا الوضع يوجد بالأمس،ويوجد اليوم،ويوجد غدا،فيأخذ صفة الجاهلية،المقابلة للإسلام،والمناقضة للإسلام.

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة اللّه – دون فتنة عن بعض منها – ويقبلونها ويسلمون بها تسليما،فهم إذن في دين اللّه.وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – ويقبلونها فهم إذن في جاهلية وهم في دين من يحكمون بشريعته،وليسوا بحال في دين اللّه.

والذي لا يبتغي حكم اللّه يبتغي حكم الجاهلية والذي يرفض شريعة اللّه يقبل شريعة الجاهلية،ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق،يقف اللّه الناس عليه.وهم بعد ذلك بالخيار! ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم اللّه.«ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون؟»..

وأجل! فمن أحسن من اللّه حكما؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس،ويحكم فيهم،خيرا مما يشرع اللّه لهم ويحكم فيهم؟

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول:إن اللّه – سبحانه – وهو يشرع شريعته الأخيرة،ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين،ويجعل رسالته خاتمة الرسالات،ويجعل شريعته شريعة الأبد..كان – سبحانه – يجهل أن أحوالا ستطرا،وأن حاجات ستستجد،وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه،حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!
ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة اللّه عن حكم الحياة،ويستبدل بها شريعة الجاهلية،وحكم الجاهلية ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب،أو هوى جيل من أجيال البشر،فوق حكم اللّه،وفوق شريعة اللّه؟

ما الذي يستطيع أن يقوله..وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟..ألم يكن هذا كله في علم اللّه وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته،وأن يسيروا على منهجه،وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة اللّه عن استيعاب الحاجات الطارئة،والأوضاع المتجددة،والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم اللّه وهو يشدد هذا التشديد،ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء..ولكن المسلم..أو من يدعون الإسلام..ما الذي يقولونه من هذا كله،ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق،الذي لا معدى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال..

إما إسلام وإما جاهلية.إما إيمان وإما كفر.إما حكم اللّه وإما حكم الجاهلية..

والذين لا يحكمون بما أنزل اللّه هم الكافرون الظالمون الفاسقون.والذين لا يقبلون حكم اللّه من المحكومين ما هم بمؤمنين..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء

والأصدقاء! وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية،فلن يستقيم له ميزان ولن يتضح له منهج،ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح..وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا «المسلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم..[٥٩]

وقال العلامة ابن كثير رحمه الله:" ينْكر تعالى على منْ خرج عنْ حكْم اللّه المحْكم الْمشْتمل على كلّ خيْرٍ،النّاهي عنْ كلّ شرٍّ وعدْلٍ إلى ما سواه من الْآراء والْأهْواء والاصْطلاحات،الّتي وضعها الرّجال بلا مسْتندٍ منْ شريعة اللّه،كما كان أهْل الْجاهليّة يحْكمون به من الضّلالات والْجهالات،ممّا يضعونها بآرائهمْ وأهْوائهمْ،وكما يحْكم به التّتار من السّياسات الْملكيّة الْمأْخوذة عنْ ملكهمْ جنْكزْخان،الّذي وضع لهم اليساق (اليسق) وهو عبارةٌ عنْ كتابٍ مجْموعٍ منْ أحْكامٍ قد اقْتبسها عنْ شرائع شتّى،من الْيهوديّة والنّصْرانيّة والْملّة الْإسْلاميّة،وفيها كثيرٌ من الْأحْكام أخذها منْ مجرّد نظره وهواه،فصارتْ في بنيه شرْعًا متّبعًا،يقدّمونها على الْحكْم بكتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ.ومنْ فعل ذلك منْهمْ فهو كافرٌ يجب قتاله،حتّى يرْجع إلى حكْم اللّه ورسوله [ﷺ] فلا يحْكم سواه في قليلٍ ولا كثيرٍ،قال اللّه تعالى:{أفحكْم الْجاهليّة يبْغون} أيْ:يبْتغون ويريدون،وعنْ حكْم اللّه يعْدلون.{ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون} أيْ:ومنْ أعْدل من اللّه في حكْمه لمنْ عقل عن اللّه شرْعه،وآمن به وأيْقن وعلم أنّه تعالى أحْكم الْحاكمين،وأرْحم بخلقه من الْوالدة بولدها،فإنّه تعالى هو الْعالم بكلّ شيْءٍ،الْقادر على كلّ شيْءٍ،الْعادل في كلّ شيْءٍ."[٦٠]

وقال ابن كثيررحمه الله:" فمنْ ترك الشّرْع الْمحْكم الْمنزّل على محمّد بْن عبْد اللّه خاتم الْأنْبياء،وتحاكم إلى غيْره من الشّرائع الْمنْسوخة كفر،فكيْف بمنْ تحاكم إلى " الْياساق " وقدّمها عليْه؟ منْ فعل ذلك كفر بإجْماع الْمسْلمين.قال اللّه تعالى:{أفحكْم الْجاهليّة

---

[٥٩] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٩٣)

[٦٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون} [المائـدة:٥٠] " الْمائـدة:".وقـال تعالى:{فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ ثمّ لا يجـدوا في أنْفسـهمْ حرجًا ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليمًا} [النساء:٦٥] ".[٦١]

وقال العلامة الشنقطي رحمه الله عند قوله – تعالى –:وما اخْتلفْتمْ فيه منْ شيْءٍ فحكْمه إلى اللّه.ما دلّتْ عليْه هذه الْآية الْكريمة منْ أنّ ما اخْتلف فيه النّاس من الْأحْكام فحكْمه إلى اللّه وحْده،لا إلى غيْره – جاء موضّحًا في آياتٍ كثيرة.فالْإشْراك باللّـه في حكْمـه كالْإشْراك به في عبادته،قال في حكْمه:ولا يشْرك في حكْمـه أحـدًا [١٨ \ ٢٦].وفي قراءة ابْن عامرٍ من السّبْعة ولا تشْركْ في حكْمه أحدًا بصيغة النّهْي.

وقال في الْإشْراك به في عبادته:فمنْ كان يرْجوا لقاء ربّه فلْيعْملْ عملًا صالحًا ولا يشْـركْ بعبادة ربّه أحدًا [١٨ \ ١١٠]،فالْأمْران سواءٌ كما ترى إيضاحه – إنْ شاء اللّه –.

وبذلك تعْلم أنّ الْحلال هو ما أحلّه اللّه،والْحرام هو ما حرّمه اللّه،والدّين هو ما شـرعه اللّه،فكلّ تشْريعٍ منْ غيْره باطلٌ،والْعمل به بدل تشْريع اللّه عنْد منْ يعْتقد أنّه مثْله أوْ خيْرٌ منْه – كفْر بواحٍ لا نزاع فيه.

وقدْ دلّ الْقرْآن في آياتٍ كثيرةٍ على أنّه لا حكْم لغيْر اللّه،وأنّ اتّباع تشْريع غيْره كفْـرٌ به،فمن الْآيات الدّالّة على أنّ الْحكْم للّه وحْده قوْله – تعالى –:إن الْحكْم إلّا للّه أمر ألّا تعْبدوا إلّا إيّاه [١٢ \ ٤٠].وقوْله – تعالى –:إن الْحكْم إلّا للّه عليْه توكّلْت الْآية [١٢ \ ٦٧].وقوْله – تعالى –:إن الْحكْم إلّا للّه يقصّ الْحقّ وهـو خيْـر الْفاصـلين [٦ \ ٥٧].وقوْله:ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون [٥ \ ٤٤].وقوْله – تعالى –:ولا يشْرك في حكْمه أحدًا [١٨ \ ٢٦].وقوْله – تعالى –:كلّ شيْءٍ هالكٌ إلّا وجْهه له الْحكْم وإليْه ترْجعون [٢٨ \ ٨٨].وقوْله – تعالى –:له الْحمْد في الْأولى والْآخرة وله الْحكْم وإليْه ترْجعون [٢٨ \ ٧٠].والْآيات بمثْل ذلك كثيرةٌ.

وقدْ قدّمْنا إيضاحها في سورة «الْكهْف» في الْكلام على قوْله – تعالى –:ولا يشْـرك في حكْمه أحدًا [١٨ \ ٢٦].

---

[٦١] – البداية والنهاية ط هجر (١٧/ ١٦٢)

وأمّا الْآيات الدّالّة على أنّ اتّباع تشْريع غيْر اللّه الْمذْكور كفْرٌ،فهي كثيرةٌ جدًّا،كقوْله – تعالى –:إنّما سلْطانه على الّذين يتولّوْنه والّذين همْ به مشْركون [١٦ \ ١٠٠].وقوْلـــه – تعالى –:وإنْ أطعْتموهمْ إنّكمْ لمشْركون [١٦ \ ١٢١].وقوْله – تعالى –:ألمْ أعْهـــدْ إليْكمْ يابني آدم أنْ لا تعْبدوا الشّيْطان الْآية [٣٦ \ ٦٠].والْآيات بمثْـــل ذلـــك كـــثيرةٌ جدًّا،كما تقدّم إيضاحه في «الْكهْف»[٦٢].

- **ولأننا أمة الوسط:**

قال تعالى:{ وكذلك جعلْناكمْ أمّةً وسطًا لّتكونواْ شهداء على النّاس ويكون الرّســـول عليْكمْ شهيدًا وما جعلْنا الْقبْلة الّتي كنت عليْها إلاّ لنعْلم من يتّبع الرّسول ممّـــن ينقلـــب على عقبيْه وإن كانتْ لكبيرةً إلاّ على الّذين هدى اللّه وما كان اللّه ليضيع إيمـــانكمْ إنّ اللّه بالنّاس لرؤوفٌ رّحيمٌ} (١٤٣) سورة البقرة

كان النّاس،قبْل الإسْلام،فئتين:

– فئةً مادّيّةً لا همّ لها إلاّ تحْقيق ما يتطلّبه الجسد ولذائذه كالمشْركين واليهود،وقـــالوا إنْ هي إلاّ حياتنا الدّنيا،وما يهْلكنا إلاّ الدّهر.

وفئةً طغتْ عليها النّزعة الرّوحانيّة الخالصة،وسيْطرتْ عليها فكْرة ترْك الدّنيا وما فيها من اللّذائذ الجسديّة كالنّصارى والصابئة وبعْض طوائف الهنود.

فجاء الإسلام ليجْعل المسْلمين وسطاً بيْن هؤلاء وهؤلاء،فقال بتحقيق مطالب الجسد بلا إسْرافٍ ولا مبالغةٍ،مع المحافظة على السموّ الرّوحيّ،لأنّ الإنسان جسدٌ وروحٌ.

وقدْ جعل الله المسْلمين أمّةً وسطاً ليكونوا شهداء على المادّيّين الذين فرّطـــوا في جنْـــب الله،وأخلدوا إلى اللّذات،وصرفوا أنفسهمْ عنْ قضايا الرّوح،وشـــهداء علـــى الغـــلاة في الرّوحانيّة الذين قالوا بتخلّي الإنسان عن اللّذات الجسديّة،وبحرْمان النّفْس منْ جميع مـــا أعدّ الله لهمْ في هذه الحياة الدّنيا.

---

[٦٢] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٧)

وليكون الرّسول ﷺ،وهو القدوة والمثل الأعلى للمؤْمنين بالله،شهيداً على المســلمين إن كانوا اتّبعوا سيرته وشرْعه،او انحرفوا وحادوا عن الاعتدال.
ويقول الله تعالى إنّه إنّما شرع للنّبيّ التّوجّه إلى بيْت المقْدس أوّلاً،ثمّ صــرفه إلى البيــت الحرام ليظْهر منْ يتّبع النّبيّ ويطيعه ويتّجه حيثما اتّجه،دون تشكّكٍ ولا ارتياب،ممّن يرْتدّ عنْ دينه (ينْقلب على عقبيْه)،وإنْ كان في هذا الصّرف عنْ بيت المقْدس مشقّةٌ علــى النّفوس،غير النّفوس التي هداها الله إلى الإيمان،وليظْهر منْ يصدّق الرّسول وما جاء إليــه منْ ربّه بصورةٍ مطْلقةٍ؛وهؤلاء المؤْمنون المصدّقون يكون الأمْر عليهمْ سهْلاً يسيراً.
وردّ الله تعالى على المتسائلين على أحْوال قومٍ من المسلمين كــانوا يصــلّون إلى بيــت المقْدس،ثمّ ماتوا قبل أن تحوّل القبْلة إلى الكعْبة،فقال لهمْ:إنّ الله لا يضيع أجْــر المــؤْمنين المحْسنين فالله تعالى رؤوفٌ بالنّاس رحيمٌ.[٦٣]

وفي الظلال:

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا،فتقيم بينهم العدل والقسط وتضــع لهــم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قــيمهم وتصــوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها،وتقول:هذا حق منها وهذا باطل.لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.وهي شهيدة على الناس،وفي مقــام الحكــم العــدل بينهم..وبينما هي تشهد على الناس هكذا،فإن الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرر لهــا موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها،ويقول فيه الكلمــة الأخيرة..

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها..لتعرفها،ولتشعر بضخامتها.ولتقدر دورها حق قدره،وتستعد له استعدادا لائقا..

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضــل،أو مــن الوسط بمعنى الاعتدال والقصد،أو من الوسط بمعناه المادي الحسي..

[٦٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

«أمّةً وسطاً»..في التصور والاعتقاد..لا تغلو في التجـــرد الروحـــي ولا في الارتكـــاس المادي.إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد،أو جسد تتلبس به روح.وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد،وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها،وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعـــالم النوازع،بلا تفريط ولا إفراط،في قصد وتناسق واعتدال.

«أمّةً وسطاً»..في التفكير والشعور..لا تجمد على ما علمت وتغلـــق منافـــذ التجربـــة والمعرفة...ولا تتبع كذلك كل ناعق،وتقلد تقليد القردة المضحك..إنما تستمســـك بمـــا لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريـــب وشـــعارها الدائم:الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها،في تثبت ويقين.

«أمّةً وسطاً»..في التنظيم والتنسيق..لا تدع الحياة كلها للمشاعر،والضمائر،ولا تـــدعها كذلك للتشريع والتأديب.إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب،وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك،فلا تكل الناس إلى سوط السلطان،ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان..

ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أمّةً وسطاً»..في الارتباطات والعلاقات..لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته،ولا تلاشـــي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم لـــه إلا ذاته..إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النـــوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه.

ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو،ومن المنشطات ما يثير رغبة الفـــرد في خدمـــة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة،والجماعة كافلـــة للفرد في تناسق واتساق.

«أمّةً وسطاً»..في المكان..في سرة الأرض،وفي أوسط بقاعها.وما تزال هذه الأمة الـــتي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بـــين شـــرق وغرب،وجنوب وشمال،وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا،وتشهد علـــى النـــاس

جميعا وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الـــروح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.
«أمّةً وسطاً»..في الزمان..تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتـــها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهـــوى وتـــزاوج بـــين تراثهـــا الروحـــي مـــن عهـــود الرسالات،ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هـــذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه اللّه لها،إلا أنها تخلت عن منهج اللّه الذي اختاره لها،واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي الـــتي اختارهـــا اللّـــه لها،واصطبغت بصيغات شتى ليست صبغة اللّه واحدة منها! واللّه يريد لهـــا أن تصـــطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها،وذلك دورها،خليقة بأن تحتمل التبعـــة وتبـــذل التضـــحية،فللقيادة تكاليفها،وللقوامة تبعاتها،ولا بد أن تفتن قبل ذلـــك وتبتلى،ليتأكـــد خلوصـــها للّـــه وتجردها،واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة.

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كـــانوا عليها،بمناســـبة تحويلـــهم الآن عنها:«وما جعلْنا الْقبْلة الّتي كنْت عليْها إلّا لنعْلم منْ يتّبع الرّسول ممّـــنْ ينْقلـــب علـــى عقبيْه»..

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ اللّه بها هذه الجماعة الناشـــئة،التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة،المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة.إنه يريد لها أن تخلص له وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها وأن تتجرد من كل سماتهـــا القديمة ومن كل رغباتها الدفينة وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية،ومن كل شعار اتخذته،وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده لا يتلبس به شعار آخـــر،وأن يتوحـــد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكـــرة العقيدة وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك،ومن عصبية الجنس،إذ كـــان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس..واللّه يريده أن يكون بيت اللّه المقدس،لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره،ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته.

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى،فقـــد صـــرف اللّـــه المسلمين عنه فترة،ووجههم إلى بيت المقدس،ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القـــديم أولا ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول - ﷺ- ثانيا،ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول اللّه،والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة،فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساهم القديمة.

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة..إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكا ولا تقبل شعارا غير شعارها المفرد الصريح إنها لا تقبل راسبا من رواسب الجاهلية في أية صـــورة من الصور.جل أم صغر.

وهذا هو إيحاء ذلك النص القرآني:«وما جعلْنا الْقبْلة الّتي كنْت عليْها إلّا لنعْلم منْ يتّبـــع الرّسول ممّنْ ينْقلب على عقبيْه»..واللّه - سبحانه - يعلم كـــل مـــا يكـــون قبـــل أن يكون.ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس،حتى يحاسبهم عليه،ويأخذهم به.فهـــو - لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم،بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم.

ولقد علم اللّه أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية،والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقة.

أمر شاق،ومحاولة عسيرة..إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلـــق،وإلا أن يعين اللّه هذا القلب في محاولته فيصله به ويهديه إليه:«وإنْ كانتْ لكبيرةً إلّا على الّـــذين هدى اللّه»..

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات،وأن تـنفض عنها تلك الرواسب وأن تتجرد للّه تسمع منه وتطيع،حيثما وجهها اللّه تتجـه،وحيثما قادها رسول اللّه تقاد.

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم.إنهم ليسوا على ضـلال،وإن صـلاتهم لم تضع،فاللّه سبحانه لا يعنت العباد،ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها:«وما كان اللّـه ليضـيع إيمانكمْ،إنّ اللّه بالنّاس لرؤفٌ رحيمٌ»..

إنه يعرف طاقتهم المحدودة،فلا يكلفهم فوق طاقتهم وإنه يهدي المؤمنين،ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان،حين تصدق منهم النية،وتصح العزيمة.وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته،فاجتياز البلاء فضل رحمته:«إنّ اللّه بالنّاس لرؤفٌ رحيمٌ»..بهـذا يسـكب في قلوب المسلمين الطمأنينة،ويذهب عنها القلق،ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين..[٦٤]

- **ولأن شرعنا كامل متكامل تام:**

قال تعالى:{ الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي ورضيت لكم الإسْلام دينًا } (٣) سورة المائدة

قال الطبري:" اخْتلف أهْل التّأْويل في تأْويل ذلك،فقال بعْضـهمْ:يعْـني جـلّ ثنـاؤه بقوْله:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ} [المائدة:٣] الْيوْم أكْملْت لكمْ أيّها الْمؤْمنون فرائضي عليْكمْ وحدودي،وأمْري إيّاكمْ ونهْيي،وحلالي وحرامي،وتنْزيلي منْ ذلك ما أنْزلْت منْه في كتابي،وتبْياني ما بيّنْت لكمْ منْه بوحْيي على لسان رسولي،والْأدلّة الّتي نصبْتها لكـمْ على جميع ما بكم الْحاجة إليْه منْ أمْر دينكمْ،فأتْممْت لكمْ جميع ذلك،فلا زيادة فيه بعْد هذا الْيوْم.قالوا:وكان ذلك في يوْم عرفة،عام حجّ النّبيّ ﷺ حجّة الْوداع.وقالوا: لمْ ينْـزلْ على النّبيّ ﷺ بعْد هذه الْآية شيْءٌ من الْفرائض ولا تحْليل شيْءٍ ولا تحْريمه،وإنّ النّبيّ ﷺ لمْ يعشْ بعْد نزول هذه الْآية إلّا إحْدى وثمانين ليْلةً

---

[٦٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣٩)

عن ابْن عبّاسٍ،قوْله:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ} [المائدة:٣] وهو الْإسْلام،قال:أخْبر اللّه نبيّه ﷺ والْمؤْمنين أنّه قدْ أكْمل لهم الْإيمان فلا يحْتاجون إلى زيادةٍ أبدًا،وقدْ أتمّه اللّه عزّ ذكْره فلا ينْقصه أبدًا،وقدْ رضيه اللّه فلا يسْخطه أبدًا "

وأوْلى الْأقْوال في ذلك بالصّواب أنْ يقال:إنّ اللّه عزّ وجلّ أخْبر نبيّه ﷺ والْمؤْمنين به،أنّه أكْمل لهمْ يوْم أنْزل هذه الْآية على نبيّه دينهمْ،بإفْرادهمْ بالْبلد الْحرام،وإجْلائه عنْه الْمشْركين،حتّى حجّه الْمسْلمون دونهمْ،لا يخالطونهم الْمشْركون.فأمّا الْفرائض والْأحْكام،فإنّه قد اخْتلف فيها،هلْ كانتْ أكْملتْ ذلك الْيوْم أمْ لا؟ فروي عن ابْن عبّاسٍ والسّدّيّ ما ذكرْنا عنْهما قبْل.وروي عن الْبراء بْن عازبٍ أنّ آخر آيةٍ نزلتْ من الْقرْآن:{يسْتفْتونك قل اللّه يفْتيكمْ في الْكلالة} [النساء:١٧٦] ولا يدْفع ذو علْمٍ أنّ الْوحْي لمْ ينْقطعْ عنْ رسول اللّه ﷺ إلى أنْ قبض،بلْ كان الْوحْي قبْل وفاته أكْثر ما كان تتابعًا.فإذْ كان ذلك كذلك،وكان قوْله:{يسْتفْتونك قل اللّه يفْتيكمْ في الْكلالة} [النساء:١٧٦] آخرها نزولًا وكان ذلك من الْأحْكام والْفرائض،كان معْلومًا أنّ معْنى قوْله:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ} [المائدة:٣] على خلاف الْوجْه الّذي تأوّله منْ تأوّله،أعنّي:كمال الْعبادات والْأحْكام والْفرائض.فإنْ قال قائلٌ:فما جعْل قوْل منْ قال:قدْ نزل بعْد ذلك فرْضٌ أوْلى منْ قوْل منْ قال:لمْ ينْزلْ؟ قيل لأنّ الّذي قال لمْ ينْزلْ،مخْبرٌ أنّه لا يعْلم نزول فرْضٍ،والنّفْي لا يكون شهادةً،والشّهادة قوْل منْ قال:نزل،وغيْر جائزٍ دفْع خبر الصّادق فيما أمْكن أنْ يكون فيه صادقًا

وأتْممْت نعْمتي أيّها الْمؤْمنون بإظْهاركمْ على عدوّي وعدوّكمْ من الْمشْركين،ونفْيي إيّاهمْ عنْ بلادكمْ،وقطْعي طمعهمْ منْ رجوعكمْ،وعوْدكمْ إلى ما كنْتمْ عليْه من الشّرْك.

عن ابْن عبّاسٍ،قال:" كان الْمشْركون والْمسْلمون يحجّون جميعًا،فلمّا نزلتْ براءة،فنفى الْمشْركين عن الْبيْت،وحجّ الْمسْلمون لا يشاركهمْ في الْبيْت الْحرام أحدٌ من الْمشْركين،فكأنّ ذلك منْ تمام النّعْمة:{وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي} [المائدة:٣] "

وعنْ عامرٍ في هذه الْآية:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي} [المائدة:٣] قال:" نزلتْ على رسول اللّه ﷺ وهو واقفٌ بعرفاتٍ،وقدْ أطاف به النّاس،وتهدّمتْ منار

الْجاهليّة ومناسكهمْ،واضْمحلّ الشّرْك،ولمْ يطفْ حوْل الْبيْت عرْيانٌ،فأنْزل اللّه:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ} [المائدة:٣] "

قال:ورضيت لكم الاسْتسْلام لأمْري والانْقياد لطاعتي،على ما شرعْت لكمْ منْ حدوده وفرائضه ومعالمه {دينًا} [آل عمران:٨٥] يعْني بذلك:طاعةً منْكمْ لي.

فإنْ قال قائلٌ:أو ما كان اللّه راضيًا الْإسْلام لعباده،إلّا يوْم أنْزل هذه الْآية؟ قيل:لمْ يزل اللّه راضيًا لخلْقه الْإسْلام دينًا،ولكنّه جلّ ثناؤه لمْ يزلْ يصْرف نبيّه محمّدًا ﷺ وأصْحابه في درجاته ومراتبه درجةً بعْد درجةٍ ومرْتبةً بعْد مرْتبةٍ وحالًا بعْد حالٍ،حتّى أكْمل لهمْ شرائعه ومعالمه وبلغ بهمْ أقْصى درجاته ومراتبه،ثمّ قال حين أنْزل عليْهمْ هذه الْآية:{ورضيت لكم الْإسْلام دينًا} [المائدة:٣] بالصّفة الّتي هو بها الْيوْم،والْحالّ الّتي أنْتمْ عليْها الْيوْم منْه {دينًا} [آل عمران:٨٥] فالْزموه ولا تفارقوه.وعنْ قتادة،قال:" ذكر لنا أنّه يمثّل لأهْل كلّ دينٍ دينهمْ يوْم الْقيامة،فأمّا الْإيمان فيبشّر أصْحابه وأهْله،ويعدهمْ في الْخيْر حتّى يجيء الْإسْلام.فيقول:ربّ أنْت السّلام وأنا الْإسْلام،فيقول:إيّاك الْيوْم أقْبل،وبك الْيوْم أجْزي " وأحْسب أنّ قتادة وجّه معْنى الْإيمان بهذا الْخبر إلى معْنى التّصْديق والْإقْرار باللّسان،لأنّ ذلك معْنى الْإيمان عنْد الْعرب،ووجّه معْنى الْإسْلام إلى اسْتسْلام الْقلْب وخضوعه للّه بالتّوْحيد،وانْقياد الْجسد له بالطّاعة فيما أمر ونهى،فلذلك قيل للْإسْلام:إيّاك الْيوْم أقْبل،وبك الْيوْم أجْزي.

وعنْ طارق بْن شهابٍ،قال:قالت الْيهود لعمر:إنّكمْ تقْرءون آيةً لوْ أنْزلتْ فينا لاتّخذْناها عيدًا.فقال عمر:" إنّي لأعْلم حين أنْزلتْ،وأيْن نزلتْ،وأيْن رسول اللّه ﷺ حين أنْزلتْ؛أنْزلتْ يوْم عرفة ورسول اللّه ﷺ واقفٌ بعرفة قال سفْيان:وأشكّ،كان يوْم الْجمعة أمْ لا {الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي ورضيت لكم الْإسْلام دينًا} [المائدة:٣] "

وعنْ طارق بْن شهابٍ،قال:قال يهوديّ لعمر:لوْ علمْنا معْشر الْيهود حين نزلتْ هذه الْآية:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي ورضيت لكم الْإسْلام دينًا} [المائدة:٣] لوْ نعْلم ذلك الْيوْم اتّخذْنا ذلك الْيوْم عيدًا.فقال عمر:" قدْ علمْت الْيوْم الّذي

نزلتْ فيه والسّاعة،وأيْن رسول اللّه ﷺ حين نزلتْ؛نزلتْ ليْلة الْجمعة ونحْن مع رســـول اللّه ﷺ بعرفات."[٦٥]

{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ} بتمام النصر،وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة،الأصـــول والفروع،ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفايـــة،في أحكـــام الـــدين أصـــوله وفروعه.فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة،من علم الكلام وغيره،فهو جاهل،مبطل في دعواه،قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه،وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.{وأتْممْـــت عليْكمْ نعْمتي} الظاهرة والباطنة {ورضيت لكم الإسْلام دينًا} أي:اخترته واصـــطفيته لكم دينا،كما ارتضيتكم له،فقوموا به شكرا لربكم،واحمدوا الذي منّ عليكم بأفضـــل الأديان وأشرفها وأكملها.[٦٦]

هو نشيد النصر الأكبر،والفتح المـــبين للمســـلمين،بعد هـــذا الجهـــاد المضـــنى،والبلاء العظيم،الذي احتملوه فى مسيرتهم على طريق الدعوة الإسلامية،منذ فجرها،إلى اســـتواء شمسها..فقد كمل الدين،وتمت النعمة،ولبس المسلمون ثوب الإسلام الذي رضيه الله لهم دينا..

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجرىّ:" إنّ اللّه تعالى بعث محمّدًا ﷺ إلى النّـــاس كافّةً ليقرّوا بتوْحيده،فيقولوا:لا إله إلّا اللّه محمّدٌ رسول اللّه فكان منْ قال هذا موقنًا منْ قلْبه وناطقًا بلسانه أجْزأه،ومنْ مات على هذا فإلى الْجنّة،فلمّا آمنـــوا بذلك،وأخْلصـــوا توْحيدهمْ،فرض عليْهم الصّلاة بمكّة،فصدّقوا بذلك،وآمنوا وصـــلّوْا،ثمّ فـــرض علـــيْهم الْهجْرة،فهاجروا،وفارقوا الْأهْل والْوطن،ثمّ فرض عليْهمْ بالْمدينة الصّيام،فآمنوا وصـــدّقوا وصاموا شهْر رمضان،ثمّ فرض عليْهم الزّكاة،فآمنوا وصدّقوا،وأدّوْا ذلك كما أمـــروا،ثمّ فرض عليْهم الْجهاد،فجاهدوا الْبعيد والْقريب،وصـــبروا وصـــدّقوا،ثمّ فـــرض علـــيْهم الْحجّ،فحجّوا وآمنوا به،فلمّا آمنوا بهذه الْفرائض،وعملوا بها تصْـــديقًا بقلوبهمْ،وقوْلًـــا

---

[٦٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٧٩)

[٦٦] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢٠)

بألْسنتهمْ،وعملًا بجوارحهمْ قال اللّه تعالى:{الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت علـيْكمْ نعْمتي ورضيت لكم الْإسْلام دينًا} [المائدة:٣] ثمّ أعْلمهمْ أنّه لا يقْبل في الْآخرة إلّا ديـن الْإسْلام فقال تعالى:{ومنْ يبْتغ غيْر الْإسْلام دينًا فلنْ يقْبل منْـه،وهو في الْـآخرة مـن الْخاسرين} [آل عمران:٨٥] وقال تعـالى:{إنّ الـدّين عنْـد اللّـه الْإسْـلام} [آل عمران:١٩]،وقال النّبيّ ﷺ:" بني الْإسْلام على خمْسٍ:شهادة أنْ لا إله إلّا اللّه،وأنّ محمّدًا رسول اللّه،وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة،وصوْم شهْر رمضان،وحجّ الْبيْت الْحـرام مـن اسْتطاع إليْه سبيلًا "[٦٧]

وعن ابْن عبّاسٍ،قال:" كان الْمشْركون والْمسْلمون يحجّون جميعًا،فلمّا نزلتْ براءة،فنفى الْمشْركين عن الْبيْت،وحجّ الْمسْلمون لا يشاركهمْ في الْبيْـت الْحـرام أحـدٌ مـن الْمشْركين،فكأنّ ذلك منْ تمام النّعْمة:{وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي} [المائدة:٣] "[٦٨]

وفى إضافة الدين إلى المسلمين «دينكم» وهو فى الحقيقة دين الله- إذ يقول سبحانه:«إنّ الدّين عنْد اللّه الْإسْلام» - فى هذا ما يشعر بأن الأمة التي اختارها الله تعالى لحمل هـذا الدين،وتبليغ رسالته،هى أهل لحمل هذه الأمانة العظيمة،كما أنها مستحقة لتكون فى هذا المقام الكريم التي تقوم فيه مقام الأنبياء والمرسلين فى القيام على دين الله..[٦٩]

وفي الظلال:

اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون.اليوم أكملت لكـم ديـنكم وأتممت عليكم نعمتي،ورضيت لكم الإسلام دينًا..

وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم[٧٠]،ليعلن كمال الرسالة،وتمام النعمة،فيحس عمـر - رضي اللّه عنه - ببصيرته النافذة وبقلبه الواصل - أن أيام الرسول - ﷺ- على الأرض

---

٦٧ - الشريعة للآجري (١/ ٥٥٠)

٦٨ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٨٣) حسن

٦٩ - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١٠٣٣)

٧٠ - بل آخر مانزل من القرآن الكريم هو آية سورة البقرة قال تعالى:{وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إِلَى اللّه ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (٢٨١) سورة البقرة،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله:وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إِلَى اللَّه،ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ إِنَّهَا آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"..السنن الكبرى للإمام النسائي الرسالة [٦ /٤٦٥](١٠٩٩٢) صحيح

معدودة.فقد أدى الأمانة،وبلغ الرسالة و لم يعد إلا لقاء اللّه.فيبكي – رضوان اللّه عليه – وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق.

هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم والتحليل لبعض الذبائح وفي سياق السورة التي تضم تلك الأغراض التي أسلفنا بيانها..ما دلالة هذا؟ إن بعض دلالته أن شريعة اللّه كل لا يتجزأ.كل متكامل.سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد وما يختص بالشعائر والعبادات وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية.وأن هذا في مجموعه هو «الدين» الذي يقول اللّه عنه في هذه الآية:

إنه أكمله.وهو «النعمة» التي يقول اللّه للذين آمنوا:إنه أتمها عليهم.وأنه لا فرق في هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد وما يختص بالشعائر والعبادات وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية..فكلها في مجموعها تكوّن المنهج الرباني الذي ارتضاه اللّه للذين آمنوا والخروج عن هذا المنهج في جزئية منه،كالخروج عليه كله،خروج على هذا «الدين» وخروج من هذا الدين بالتبعية..

والأمر في هذا يرجع إلى ما سبق لنا تقريره من أن رفض شيء من هذا المنهج،الذي رضيه اللّه للمؤمنين،واستبدال غيره به من صنع البشر معناه الصريح هو رفض ألوهية اللّه – سبحانه – وإعطاء خصائص الألوهية لبعض البشر واعتداء على سلطان اللّه في الأرض،وادعاء للألوهية بادعاء خصيصتها الكبرى..الحاكمية..وهذا معناه الصريح الخروج على هذا الدين والخروج من هذا الدين بالتبعية..

«الْيوْم يئس الّذين كفروا منْ دينكمْ»..يئسوا أن يبطلوه،أو ينقصوه،أو يحرفوه.وقد كتب اللّه له الكمال وسجل له البقاء..ولقد يغلبون على المسلمين في موقعة،أو في فترة،ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين.فهو وحده الدين الذي بقي محفوظا لا يناله الدثور،ولا يناله التحريف أيضا على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه وعلى شدة ما كادوا له،وعلى عمق جهالة أهله به في بعض العصور..غير أن اللّه لا يخلي الأرض من عصبة مؤمنة تعرف هذا الدين وتناضل عنه،ويبقى فيها كاملا مفهوما محفوظا حتى تسلمه إلى من يليها.وصدق وعد اللّه في يأس الذين كفروا من هذا الدين! «فلا تخْشوْهمْ واخْشوْن»...

فما كان للذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين في ذاته أبدا.وما كان لهم أن ينـــالوا مـــن أهله إلا أن ينحرف أهله عنه فلا يكونوا هم الترجمة الحية لـــه ولا ينهضـــوا بتكاليفـــه ومقتضياته ولا يحققوا في حياهم نصوصه وأهدافه..

وهذا التوجيه من اللّه للجماعة المسلمة في المدينة،لا يقتصر على ذلك الجيل إنمـــا هـــو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان وفي كل مكان..نقول:للذين آمنوا..الذين يرتضون ما رضيه اللّه لهم من هذا الدين،بمعناه الكامل الشامل الذين يتخذون هذا الـــدين كلـــه منهجا للحياة كلها..وهؤلاء – وحدهم – هـــم المؤمنـــون..«الْيـــوْم أكْملْـــت لكـــمْ دينكمْ.وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي.ورضيت لكم الْإسْلام ديناً»..

اليوم..الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الودا ع..أكمل اللّه هذا الدين.فما عادت فيـــه زيادة لمستزيد.وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل.ورضـــي لهـــم «الإسلام» دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته – إذن – فإنما يرفض مـــا ارتضـــاه اللّـــه للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة،وتوجيهات عميقة،ومقتضيات وتكاليف..

إن المؤمن يقف أولا:أمام إكمال هذا الـــدين يســـتعرض موكـــب الإيمان،وموكـــب الرسالات،وموكب الرسل،منذ فجر البشرية،ومنذ أول رسول – آدم عليه السلام – إلى هذه الرسالة الأخيرة.رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين..فماذا يرى؟..يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل.موكب الهدى والنور.ويرى معالم الطريق،على طول الطريق.ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنما أرسل لقومه.ويرى كل رسالة – قبـــل الرســـالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمـــان..رســـالة خاصـــة،لمجموعة خاصـــة،في بيئـــة خاصة..ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفهـــا هـــذه متكيفـــة بهـــذه الظروف..كلها تدعو إلى إله واحد – فهذا هو التوحيد – وكلها تـــدعو إلى عبوديـــة واحدة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الدين – وكلها تدعو إلى التلقي عـــن هـــذا الإلـــه

الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد – فهذا هو الإسلام – ولكن لكل منها شريعة للحيـــاة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف..

حتى إذا أراد اللّه أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة،رسولا خاتم النبـــيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة،في زمان خـــاص،في ظـــروف خاصة..رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنهـــا تخاطـــب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:«فطْرت اللّه الّتي فطـــر النّـــاس عليْها لا تبْديل لخلْق اللّه ذلك الدّين الْقيّم»..وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حيـــاة «الإنسان» من جميع أطرافها،وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكـــام التفصـــيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان..وكذلك كانت هـــذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنســـان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمـــات،لكي تستمر،وتنمو،وتتطور،وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار..وقال اللّه – سبحانه – للذين آمنوا:«الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ.وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي.ورضيت لكم الْإسْلام ديناً»..

فأعلن لهم إكمال العقيدة،وإكمال الشريعة معا..فهذا هو الدين..ولم يعـــد للمـــؤمن أن يتصور أن بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصا يستدعي الإكمـــال.ولا قصـــورا يســـتدعي الإضافة.ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير..وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق اللّه وما هو بمرتض ما ارتضاه اللّه للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن،هي شريعة كل زمان،لأنها – بشهادة اللّه – شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان،في جيل من الأجيال،في مكـــان من الأمكنة،كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه،إلا أن تخرج من اطـــار

الإيمان! واللّه الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة.

فلا يقول:إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم،إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من اللّــه بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا:أمام إتمــام نعمــة اللّــه علــى المؤمنين،بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة،كما تمثل نشأته واكتمالــه.«فالإنســان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له.وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين.وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته علــى ربه،كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة اللّه وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع اللّه وبســلطانه لا مــن صــنع أحــد ولا بسلطانه.

إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هــي بــدء مولــد «الإنسان»..إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكــون «حيوانــا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمــل صورة للإنسان،إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة،وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان![٧١]

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية،لهو الذي يحقــق «للإنســان» «إنســانيته» كاملة..يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي،في اللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوســات،إلى دائــرة «التصــور» الإنساني،الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.عالم الشهادة وعالم الغيب..عالم

[٧١] – تراجع المقدمة ص ١١ – ص ١٨ وكتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

المادة وعالم ما وراء المادة..وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود![٧٢] ويحققها له وهو يخرجه بتوحيد اللّه،من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده،والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه.فإلى اللّه وحده يتجه بالعبادة،ومن اللّه وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام،وعلى اللّه وحده يتوكل ومنه وحده يخاف [٧٣]..ويحققها له،بالمنهج الرباني،حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه،ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء،والاستعلاء على نوازع الحيوان،ولذائذ البهيمة وانطلاق الأنعام! [٧٤]ولا يدرك حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين،ولا يقدرها قدرها،من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها – والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه اللّه – فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها..ويلاتها في التصور والاعتقاد،وويلاتها في واقع الحياة..هو الذي يحس ويشعر،ويرى ويعلم،ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة اللّه في هذا الدين الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى،وويلات الحيرة والتمزق،وويلات الضياع والخواء،في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان..هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.[٧٥]

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى،وويلات التخبط والاضطراب،وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.[٧٦]

---

[٧٢] – يراجع تفسير سورة الفاتحة ص ٢١ – ص ٢٣ وتفسير مطلع سورة البقرة:ص ٣٩ – ص ٤٠ الجزء الأول من الظلال.(السيد رحمه الله)

[٧٣] – راجع كتاب «هذا الدين» ص ١٥ – ص ٢٠.«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

[٧٤] – راجع تفسير قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» الجزء الثاني من الظلال:ص ٢٠٦ – ص ٢١١.(السيد رحمه الله)

[٧٥] – يراجع فصل:«تيه وركام» في كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

[٧٦] – يراجع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة،يعرفون ويدركون ويتــذوقون هــذه الكلمات.لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم،في ذات الجيل الــذي خوطــب بهــذا القرآن..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية..ذاقوا تصوراتها الاعتقادية.وذاقوا أوضاعها الاجتماعي ة.وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية.وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة اللّه علــيهم بهذا الدين وحقيقة فضل اللّه عليهم ومنته بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسار بهم في الطريــق الصــاعد،إلى القمــة السامقة – كما فصلنا ذلك في مستهل سورة النساء [٧٧] – فإذا هم على القمة ينظــرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقاديــة حــول ربوبيــة الأصنام،والملائكة،والجن،والكواكب،والأسلاف وســائر هــذه الأســاطير الســاذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد.إلى أفق الإيمان بإله واحد،قادر قــاهر،رحيم ودود،سميع بصير،عليم خبير.عادل كامل.قريب مجيب.لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد،والكل له عبيد..ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة،ومن ســلطان الرياســة،يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعي ة.مــن الفــوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قــدر مــن السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال.وما كان الشــاعر النجاشــي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه،لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

---

[٧٧] – يراجع مقدمة الحديث عن سورة النساء في الجزء الرابع من الظلال من هذه الطبعة ص ٥٥٤ – ص ٥٧١(السيد رحمه الله)

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا،وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة «وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل:إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد،فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه.وقيل:«لا حر بوادي عوف» لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره.فكلهم أحرار في حكم العبيد..» [٧٨]

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية ..كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة،والمرأة المنكودة،والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية،والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها،والثارات والغارات والنهب والسلب،مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي،كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة،وتخاذل وخذلان القبائل كلها،هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا!

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح،في كل جانب من جوانب الحياة.في جيل واحد.عرف السفح وعرف القمة.عرف الجاهلية وعرف الإسلام.ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول اللّه لهم:«الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ،وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي،ورضيت لكم الْإسْلام ديناً»..

[٧٨] - من كتاب:«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ص ١٥١(السيد رحمه الله)

ويقف المؤمن ثالثا:أمام ارتضاء اللّه الإسلام دينا للذين آمنوا..يقف أمام رعاية اللّه – سبحانه – وعنايته بهذه الأمة،حتى ليختار لها دينها ويرتضيه..وهو تعبير يشي بحب اللّه لهذه الأمة ورضاه عنها،حتى ليختار لها منهج حياتها..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا،يكافىء هذه الرعاية الجليلة..أستغفر اللّه..فما يكافىء هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه..وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة،ومعرفة المنعم..وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه،وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء اللّه الإسلام دينا لهذه الأمة،ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار.ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار..وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل – بله أن يرفض – ما رضيه اللّه له،ليختار لنفسه غير ما اختاره اللّه!..وإنها – إذن – لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء،ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له اللّه..ولقد يترك اللّه الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم،يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين..فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه..واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم اللّه..فلن يتركهم اللّه أبدا ولن يمهلهم أبدا،حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون![٧٩]

- **ولأن القرآن الكريم قد فضحهم وبين أكاذيبهم (١)**

قال تعالى:{ وقالواْ لن يدْخل الْجنّة إلاّ من كان هوداً أوْ نصارى تلْك أمانيّهمْ قلْ هاتواْ برْهانكمْ إن كنتمْ صادقين (١١١) بلى منْ أسْلم وجْهه للّه وهو محْسنٌ فله أجْره عند ربّه ولا خوْفٌ عليْهمْ ولا همْ يحْزنون (١١٢) وقالت الْيهود ليْست النّصارى على شيْءٍ وقالت النّصارى ليْست الْيهود على شيْءٍ وهمْ يتْلون الْكتاب كذلك قال الّذين لا

[٧٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٢٠)

يعْلمون مثْل قوْلهمْ فاللّه يحْكم بيْنهمْ يوْم الْقيامة فيما كانواْ فيه يخْتلفون (١١٣) }سورة البقرة

ادّعى اليهود،وادّعت النّصارى أنّه لنْ يدْخل الجنّة إلا منْ كان على ملتهمْ همْ.فــردّ الله تعالى عليْهمْ قائلاً:تلْك أشْياء يتمنّوْنها على الله بغير وجْه حقٍّ،وليْس لهمْ دليلٌ ولا حجّــةٌ على ما يقولون.فإنْ كان لدعْواهمْ هذه أساسٌ فلْيأتوا ببرْهــانٍ عليهــا.وبمــا أنّهــمْ لا يسْتطيعون إقامة الدّليل على دعْواهمْ هذه فهمْ إذاً كاذبون متخرّصون.

ويردّ الله تعالى على دعْوى اليهود والنّصارى تلْك فيقول لهمْ:بلى سيدْخل الجنّة الــذين يسْلمون وجوههمْ لله.وينْقادون لأمْره مطيعين مخْلصين،وهمْ يعْملون الصّالحات فهــؤلاء يوفّيهمْ ربّهمْ ثواب أعْمالهمْ،ويدْخلهم الجنّة،ويذْهب عنْهم الخوْف والحزن يوْم القيامة،فلا خوْفٌ عليهمْ فيما يسْتقْبلونه من الأمْر،ولا همْ يحْزنون على مــا يتْركونــه مــنْ أمْــر الدّنيا.فرحْمة الله لا يخْتصّ بها شعْبٌ دون شــعْبٍ،وكلّ مــنْ عمــل لهــا،وأخْلص في عمله،كان منْ أهْلها.

جاء وفْدٌ منْ نصارى نجْران من اليمن إلى رسول الله ﷺ فجاءهمْ أحْبار يهــود المدينــة فتنازعوا عنْد رسول الله،فقال يهوديٌّ للنّصارى:ما أنْــتمْ علــى شــيءٍ مــن الــدّين الصّحيح،وكفر بعيسى وبالإنْجيل.وقال نصْرانيٌّ من الوفْــد للْيهــود:مــا أنْــتمْ علــى شيءٍ،وكفر بنبوّة موسى وبالتّوراة.معْ أنّ عيسى جاء متمّما شرْع التّــوراة لا ناقضــاً له.وقدْ كفر كلّ فريقٍ بنبوّة نبيٍّ ورد ذكْره في كتابه هو،فاليهود كفروا بعيســى وبــيْن أيْديْهم التّوراة،وفيها أخذ الله الميثاق على بني إسْرائيل على لسان موسى بالتّصْديق بنبوّة عيسى،وجاء عيسى بتّصْديق موسى ونبوّته وكتابه ونصارى الوفْد كفروا بموســى،وهذا مخالفٌ لما في كتابهمْ،وكلّ فريقٍ يتْلو كتابه ويعْلم شريعة التّوراة والإنجيل،ولكنّهمْ تجاحدوا كفْراً وعناداً.وكذلك قال غيْر هؤلاء من الجاهلين،الذين كفــروا بالنّبوّات،مثْــل هــذه الأقْوال،وكفروا عناداً وحسداً،فالله سيجْمعهمْ يوْم القيامة،ويفْصل بيْنهمْ بقضائه العــادل فيما اخْتلفوا فيه.[٨٠]

[٨٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨، بترقيم الشاملة آليا)

وفي الظلال:

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود.ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء.ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعا! «وقالوا:لنْ يدْخل الْجنّة إلّا منْ كان هوداً أوْ نصارى »..

وهذه حكاية قوليهم مزدوجة.وإلا فقد كانت اليهود تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا – أي من يهود – وكانت النصارى تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى..

وهذه القولة كتلك،لا تستند إلى دليل،سوى الادعاء العريض! ومن ثم يلقن اللّه رسوله – ﷺ– أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل:«قلْ:هاتوا برْهانكمْ إنْ كنْتمْ صادقين»..

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد.إنما هو الإسلام والإحسان،لا الاسم والعنوان:«بلى منْ أسْلم وجْهه للّه وهو محْسنٌ،فله أجْره عنْد ربّه،ولا خوْفٌ عليْهمْ ولا همْ يحْزنون»..

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردا على قولهم:«لنْ تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معْدودةً»..فقال:«بلى ! منْ كسب سيّئةً وأحاطتْ به خطيئته فأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون»..

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة.طرفيها المتقابلين:«منْ كسب سيّئةً وأحاطتْ به خطيئته»..

فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة،في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة..

و«منْ أسْلم وجْهه للّه وهو محْسنٌ»..فأخلص ذاته كلها للّه،ووجه مشاعره كلها إليه،وخلص للّه في مقابل خلوص الآخر للخطيئة..«منْ أسْلم وجْهه للّه»..هنا تبرز سمة الإسلام الأولى:إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل – ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم.الاستسلام المعنوي والتسليم العملي.ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على

هذا الاستسلام:«وهو مُحْسنٌ»..فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك،بين العقيدة والعمل،بين الإيمان القلبي والإحسان العملي..بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله:«فله أجْره عنْد ربّه ولا خوْفٌ عليْهمْ ولا همْ يحْزنون»..

الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم..والأمن الموفور لا يساوره خوف،والسرور الفائض لا يمسه حزن..وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعا.فلا محسوبية عند اللّه سبحانه ولا محاباة!

ولقد كانوا – يهودا ونصارى – يطلقون تلك الدعوى العريضة،بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها:«وقالت الْيهود ليْست النّصارى على شيء،وقالت النّصارى ليْست الْيهود على شيْءٍ – وهمْ يتْلون الْكتاب – كذلك قال الّذين لا يعْلمون مثْل قوْلهمْ،فاللّه يحْكم بيْنهمْ يوْم الْقيامة فيما كانوا فيه يخْتلفون»..

والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام،ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيرا على خرافات العرب وأساطير هم في الشرك ونسبة الأبناء – أو البنات – للّه سبحانه فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون:إنهم ليسوا على شيء ! والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى اللّه:«فاللّه يحْكم بيْنهمْ يوْم الْقيامة فيما كانوا فيه يخْتلفون».فهو الحكم العدل،وإليه تصير الأمور..وهذه الإحالة إلى حكم اللّه هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق،ولا يعتمدون على دليل،بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة،وأنهم وحدهم المهديون![٨١]

- **ولأن القرآن الكريم قد فضحهم وبين أكاذيبهم (٢)**

---

[٨١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٠٨)

قال تعالى:{ قلْ يا أهْل الْكتاب تعالوْاْ إلى كلمةٍ سواء بيْننا وبيْنكمْ ألاّ نعْبد إلاّ اللّــه ولا نشْرك به شيْئًا ولا يتّخذ بعْضنا بعْضاً أرْبابًا مّن دون اللّه فإن تولّوْاْ فقولواْ اشْهدواْ بأنّــا مسْلمون (٦٤) يا أهْل الْكتاب لم تحآجّون في إبْراهيم وما أنزلت التّوراة والإنجيل إلاّ من بعْده أفلا تعْقلون (٦٥) هاأنتمْ هؤلاء حاججْتمْ فيما لكم به علمٌ فلم تحآجّون فيما ليْس لكم به علْمٌ واللّه يعْلم وأنتمْ لا تعْلمون (٦٦) ما كان إبْراهيم يهوديًّا ولا نصْرانيًّا ولكن كان حنيفًا مّسْلمًا وما كان من الْمشْركين (٦٧) إنّ أوْلى النّاس بإبْراهيم للّذين اتّبعــوه وهــذا النّبيّ والّذين آمنواْ واللّه وليّ الْمؤْمنين (٦٨) ودّت طّآئفةٌ مّنْ أهْل الْكتاب لــوْ يضلّونكمْ وما يضلّون إلاّ أنفسهمْ وما يشْعرون (٦٩) يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه وأنتمْ تشْهدون (٧٠) يا أهْل الْكتاب لم تلْبسون الْحقّ بالْباطل وتكْتمون الْحقّــوأنتمْ تعْلمون (٧١) وقالت طّآئفةٌ مّنْ أهْل الْكتاب آمنواْ بالّذي أنزل على الّذين آمنواْ وجْــه النّهار واكْفرواْ آخره لعلّهمْ يرْجعون (٧٢) ولا تؤْمنواْ إلاّ لمن تبع دينكمْ قلْ إنّ الْهــدى هدى اللّه أن يؤْتى أحدٌ مّثْل ما أوتيتمْ أوْ يحآجّوكمْ عند ربّكمْ قلْ إنّ الْفضْل بيــد اللّــه يؤْتيه من يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ (٧٣) يخْتصّ برحْمته من يشاء واللّه ذو الْفضْل الْعظــيم (٧٤) ومنْ أهْل الْكتاب منْ إنْ تأْمنْه بقنْطارٍ يؤدّه إليْك ومنْهمْ منْ إنْ تأْمنْــه بــدينارٍ لا يؤدّه إليْك إلّا ما دمْت عليْه قائمًا ذلك بأنّهمْ قالوا ليْس عليْنا في الْأمّيّين سبيلٌ ويقولــون على اللّه الْكذب وهمْ يعْلمون (٧٥) }سورة آل عمران

قلْ يا محمّد لأهْل الكتاب من اليهود والنّصارى:أنا وأنْتمْ نعْتقد أنّ العالم منْ صــنْع إلــهٍ واحدٍ،وهو خالقه ومدبّره،وهو الذي يرْسل الأنْبياء ليبلّغوا عنْــه مــا يريــد،فتعالوا إلى عبارةٍ،أوْ جمْلة عدْلٍ وإنْصافٍ (سواءٍ)،نسْتوي نحْن وإيّاكمْ فيها،واتّفقتْ عليها جميــع الرّسل والكتب التي أنْزلتْ إليْهمْ،وهي ألاّ نعْبد إلاّ الله وحْده،لــه السّــلْطة المطْلقــة في التّشْريعْ والتّحْريم والتّحْليل،ولا نشْرك به شيْئاً (لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا طاغوتاً) وهذه هي دعْوة جميع الرّسل،ولا يطيع بعْضنا بعْضــاً في معْصــية الله.فــإنْ رفضــوا الاسْتجابة لهذه الدّعْوة،وتولّوْا عنْها،وأبوْا إلاّ أنْ يعْبدوا غيْــر الله،واتّخــذوا الشّــركاء والوسطاء والأرْباب الذين يحلّلون ويحرّمون،فقولوا لهمْ – أنْــت والمسْــلمون معــك –

:اشْهدوا علينا بأنّنا مقيمون على دين الإسْلام الذي شرعه الله لنا،ونحْن مخْلصون لــه لا نعْبد مع الله أحداً غيْره.

ينْكر الله تعالى على اليهود والنّصارى ادّعاء كلّ فريقٍ منْهمْ بأنّ إبراهيم كان منْهمْ،وعلى دينهمْ،فقد اجْتمع وفْدٌ منْ نصارى نجْران وأحْبار يهود المدينة عنْد الـنّبيّ ﷺ فتنــازعوا حوْل إبراهيم.فأنْزل الله الآية مسْتنْكراً ادّعاءاتهمْ لأنّ إبراهيم كان قبْل نزول التّوْراة،وقبْل نزول الإنْجيل.ولمْ يكنْ إبراهيم على شيءٍ منْ تقاليد اليهود ولا النّصارى،وإنّما كــان على الإسْلام الذي يدْعوا إليه محمّدٌ ﷺ،فكيف يقولون قوْلاً على جهْلهمْ،وقصر عقولهمْ؟

لقدْ جادلْتمْ وحاجحْتمْ فيما لكمْ به علْمٌ - على ما تزْعمون - منْ أمْــر عيســى،وإذْ قامتْ عليكم الحجّة،وتبيّن أنّ منْكمْ منْ غلا وأفْرط وادّعى ألوهيّته،ومنْكمْ مــنْ فــرّط وقال:إنّه دعيٌّ كذّابٌ،ولمْ يكنْ علْمكمْ بمانعٍ لكمْ من الخطأ،فلمــاذا تحــاجّون في أمْــر إبراهيم،وليس لكمْ به علْمٌ،ولا لدينه ذكْرٌ في كتبكمْ،فمنْ أيْن أتاكم أنّه كان يهوديّــاً أوْ نصْرانيّاً؟ والله يعْلم ما غاب عنْكمْ ولمْ تشاهدوه،ولمْ تأتكمْ به الرّسل منْ أمْــر إبــراهيم وغيْره ممّا تجادلون فيه،وأنْتمْ لا تعْلمون إلاّ ما عاينْتمْ وشاهدْتمْ وأدْركْتمْ علْمه بالسّماع.

إنّ اليهود والنّصارى الذين جادلوا في إبراهيم وملّته،وقالوا:إنّــه كــان علــى ملّتــهمْ ودينهمْ،همْ كاذبون في دعْواهمْ،وإنّ الصّادق همْ أهْل الإسْــلام،فإنّهمْ وحْــدهمْ أهْــل دينه،وعلى منْهاجه وشريعته،دون سائر الملل،فقدْ كان إبراهيم مطيعاً لله،مقيماً على محجّة الهدى التي أمر بلزومها،خاشعاً لله،متذلّل القلْب،مذْعناً لما فرضه الله عليه،وألْزمه بــه،ولمْ يكنْ من المشْركين.

إنّ أحقّ النّاس بإبْراهيم ونصْرته وولايته،هم الذين اتّبعوه علــى دينه،وســلكوا طريقــه ومنْهاجه في عصْره،فوحّدوا الله مخْلصين له الــدّين،وكانظئوا حنفــاء مسْــلمين غيْــر مشْركين،ثمّ هذا النّبيّ (يعْني محمّداً ﷺ)،والذين آمنوا من المهــاجرين والأنْصــار،ومن تبعهمْ بعْدهمْ،فهؤلاء همْ أهْــل التّوْحيــد الخــالص،وهمْ المخْلصــون لله في أعْمــالهمْ وعبادتهمْ،دون شرْكٍ ولا رياءٍ،والله وليّ المؤْمنين.

يخْبر الله تعالى عنْ حســـد اليهـــود للْمؤْمنين،ورغْبتـــهمْ في إضْلالهمْ،وصـــرْفهمْ عـــن الإيمان،فقال:إنّ طائفةً منْ أحْبار اليهود ورؤسائهمْ أحبّوا أنْ يوقعوكمْ في الضّلالة بإلْقاء الشّبهات التي تشكّككمْ في دينكمْ،وتردّكمْ إلى ما كنْتمْ عليه مـــن الكفْـــر،ولكنّهمْ في الحقيقة يضلّون أنْفسهمْ،ويفْسدون فطْرهمْ باخْتيارهمْ،لأنّهمْ يشْغلون أنْفسهمْ فب البحْث عنْ وسيلةٍ لإضْلالكمْ فيصْرفون أنْفسهمْ عن النّظر في طرق الهدايـــة،ولا يشْـــعرون أنّ مكْرهمْ محيقٌ بهمْ،وانّ عاقبة سعْيهمْ لا تضرّ المؤْمنين.

ينْكر الله تعالى على اليهود كفْرهمْ بآيات الله،وبراهينه،الواضحة الدّالّة على نبوّة محمّـــدٍ ﷺ،وهمء يعْلمون أنّها حقٌّ وصدْقٌ،وكتبهمْ تشْهد بصحّتها،وقدْ جاءتْ فيهـــا البشـــارة به،وبيّنتْ أوْصافه،وهي لا تنْطبق إلاّ على محمّدٍ ﷺ.

ينْكر الله تعالى على اليهود كفْرهمْ،وخلْطهم الحقّ الذي جاء بـــه الأنْبياء،ونزلـــتْ بـــه الكتب،بالشّبهات الواهية،والتّأويلات الباطلة،وعدم إذاعتهم الحقّ صريحاً واضحاً بعيـــداً عن التّخْليط وهمْ يعْلمون أنّ عقاب الله عظيمٌ على مثْل هذه الأعْمال.

اقْترحتْ طائفةٌ من اليهود:همْ عبْد الله بْن الصّيْف،وعدسّ بْن زيْدٍ،والحارث بْن عـــوْفٍ على إخْوانهم اليهود أنْ يكيدوا للْمسْلمين،ويلْبسوا عليْهمْ أمْرهمْ،وذلك بأنْ يؤْمن فريـــقٌ من اليهود بالإسْلام أوّل النّهار (وجْه النّهار)،ثمّ يعـــودون فيرْتـــدّون عنْـــه في آخـــر النّهار،ليظنّ الجهلة من المسْلمين أنّهمْ إنّما ردّهمْ إلى دينهمْ اطّلاعهمْ على نقيصةٍ وعيْبٍ في دين الإسْلام،فيرْتدّون همْ أيْضاً

وقدْ حذّر الله تعالى رسوله ﷺ منْ هؤلاء،وأطْلعه على سرّهمْ ومكْرهمْ،حتّى لا تؤثّر هذه الحيل في قلوب ضعفاء الإيمان.

(وقال ابْن جرير:صلّت اليهود مع محمّدٍ ﷺ صلاةً الصّبْح،وكفروا آخر النّهـــار مكْـــراً منْهمْ ليروا النّاس أنّه قدْ بدتْ لهمْ الضّلالة منْه،بعْد أنْ كانوا اتّبعوه).

وتقول هذه الطّائفة منْ أهْل الكتاب:لا تطْمئنّوا ولا تظْهروا أسْرار دينكمْ،وما عنْـــدكمْ إلاّ لمتّبعي دينكمْ،ولا تظْهروا شيْئاً ممّا عنْدكمْ للْمسْلمين فيتعلّموا،ويساووكمْ به،ويحْتجّوا به عليْكمْ.

وقالوا:لا تعْترفوا أمام العرب،أوْ غيْرهمْ أنّكمْ تعْتقدون أنّه يجوز أنْ يبْعث نبيٌّ منْ غيْر بني إسْرائيل

وردّ الله سبْحانه وتعالى عليهمْ بقوْله:قلْ يا محمّد:إنّ الرّسالة فضْلٌ من الله،وهو تعالى العليم بمنْ يسْتحقّ فيعْطيه،وإنّ الله هو الذي يهْدي القلوب إلى الإيمان الكامل،بما ينْزل على عبْده محمّد من الآيات،والدّلائل،والحجج الواضحات.وإذا كنْتمْ يا أيّها اليهود تكْتمون صفة محمّد المبيّنة في كتبكمْ،ووصلتْكمْ منْ أنْبيائكمْ،فإنّ الله أعْلم بها رسوله.وقلْ لهمْ:إنّ الفضْل والأمور كلّها بيد الله،وهو المعْطي والمانع،يمنّ على منْ يشاء بالإيمان،ويضلّ منْ يشاء،والله واسع العلْم والفضْل.والله تعالى يخْتص منْ يشاء منْ عباده برحْمته،ويبْعثه نبيّاً لإبْلاغ رسالاته،وقد اخْتصّ بها محمّداً ﷺ،والله هو صاحب الفضْل العظيم،لا ينازعه فيه غيْره،ولا يحْجز عليه في عطاء.يخْبر الله تعالى عنْ خيانة اليهود،ويحذّر المؤْمنين من الاغْترار بهمْ،فمنْهمْ جماعةٌ أمناء يؤدّون ما ائْتمنوا عليْه،حتّى ولو كان قنْطاراً من المال.ومنْهمْ دون ذلك في الأمانة،فلا يؤدّون ما ائْتمنوا عليْه،إلاّ بالملازمة والإلْحاح،لاسْتخْلاص الحقّ منْهمْ،حتّى ولوْ كان ديناراً واحداً.والذي حملهمْ على ذلك هو قوْلهمْ:إنّه لا حرج عليهمْ في أكْل أمْوال العرب (الأمّيّين)،واعْتقادهمْ بأنّ الله أحلّ لهمْ أكْل أمْوال النّاس ممنْ همْ على غيْر دينهمْ بأيّة طريقة كانتْ،بالحقّ أوْ بالباطل.وقوْلهمْ هذا كذبٌ،واعْتقادهمْ باطلٌ،لأنّ الله حرّم أكْل الأمْوال إلاّ بحقها،وإنّما همْ قوْمٌ بهْتٌ،وهمْ يعْلمون كذب قوْلهمْ هذا،كما يعْلمون أنّ الله حرّم أكْل أمْوال النّاس بالباطل.[٨٢]

وفي الظلال:

وإنها لدعوة منصفة من غير شك.دعوة لا يريد بها النبي – ﷺ– أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين..كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد.لا يعلو بعضهم على بعض،ولا يتعبد بعضهم بعضا.دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد،لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم.

---

[٨٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

إنها دعوة إلى عبادة اللّه وحده لا يشركون به شيئا.لا بشرا ولا حجـــرا.ودعـــوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا من دون اللّه أربابا.لا نبيا ولا رسولا.فكلهم للّه عبيد.إنما اصطفاهم اللّه للتبليغ عنه،لا لمشاركته في الألوهية والربوبية.

«فإنْ تولّوْا فقولوا:اشْهدوا بأنّا مسْــلمون».فــإن أبــوا عبــادة اللّــه وحــده دون شريك.والعبودية للّه وحده دون شريك.وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد مـــن الألوهية..إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون..

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه،تقرر بوضـــوح حاسم من هم المسلمون.المسلمون هم الذين يعبدون اللّه وحده ويتعبدون للّه وحده ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه..

هذه هي خصيصتهم التي تميزهم من سائر الملل والنحل وتميز منهج حياتهم مـــن منـــاهج حياة البشر جميعا.

وإما أن تتحقق هذه الخصيصة فهم مسلمون،وإما ألا تتحقق فما هم بمسلمين مهما ادعوا أنهم مسلمون! إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد.والنظام الإسلامي هـــو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر..

إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه..يقـــع هـــذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء..إن أول خصائص الربوبيـــة هو حق تعبد الناس.حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين..وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس – في صورة من الصـــور – ويرجـــع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس – على أي وضع من الأوضاع – وهذه المجموعـــة الـــتي تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أربابا من دون اللّه ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبيـــة،وهم بذلك يعبدونها من دون اللّه،وإن لم يسجدوا لها ويركعوا.فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا للّه.

وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة..ويصبح حرا.حـــرا يتلقـــى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من اللّه وحده،شـــأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله.فهو وكل إنسان آخر على سواء.كلهم يقفون في مستوى واحد،ويتطلعون إلى سيد واحد،ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه.

والإسلام – بهذا المعنى – هو الدين عند اللّه.وهو الذي جاء به كل رسول مـــن عنـــد اللّه..لقد أرسل اللّه الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه.ومن جور العباد إلى عدل اللّه..فمن تولى عنه فلـــيس مســـلما بشـــهادة اللّـــه.مهمـــا أول المؤولون،وضلل المضللون..«إِنّ الدّين عنْد اللّه الْإِسْلام»..

عن ابْن عبّاسٍ،قال:" اجْتمعتْ نصارى نجْران وأحْبار يهود عنْد رسول اللّه ﷺ،فتنـــازعوا عنْده،فقالت الْأحْبار:ما كان إبْراهيم إلّا يهوديًّا،وقالت النّصارى:ما كان إبْـــراهيم إلّـــا نصْرانيًّا،فأنْزل اللّه عزّ وجلّ فيهمْ:يا أهْل الْكتاب لم تحاجّون في إبْراهيم ومـــا أنْزلـــت التّوْراة والْإنْجيل إلّا منْ بعْده أفلا تعْقلون قالـــت النّصـــارى:كـــان نصْـــرانيًّا،وقالت الْيهود:كان يهوديًّا،فأخْبرْهم اللّه أنّ التّوْراة والْإنْجيل ما أنْزلا إلّا منْ بعْده،وبعْده كانـــت الْيهوديّة والنّصْرانيّة "[٨٣]

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن،فظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب،وحجاج مع النبي – ﷺ- أو مع بعضـــهم الـــبعض في حضـــرة الرسول – – ﷺ- والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد اللّه مع إبراهيم – عليه السلام – أن يجعل في بيته النبوة واحتكار الهداية والفضل كذلك.ثم – وهذا هو الأهم – تكذيب دعوى النبي – ﷺ- أنه على دين إبراهيم،وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة.أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل..

ومن ثم يندد اللّه بهم هذا التنديد ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليـــل.فـــإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل.فكيف إذن يكون يهوديا؟ أو كيف إذن يكـــون

---

[٨٣] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٦٥٧٦) فيه جهالة

نصرانيا؟ إنها دعوى مخالفة للعقل،تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ:«يا أهْل الْكتاب لم تحاجّون في إبْراهيم وما أنْزلت التّوْراة والْإنْجيل إلّا منْ بعْده؟ أفلا تعْقلون؟».

ثم يمضي في التنديد بهم وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج،وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار:«ها أنْتمْ هؤلاء حاججْتمْ فيما لكمْ به علْمٌ،فلم تحاجّون فيما ليْس لكمْ به علْمٌ؟ واللّه يعْلم وأنْتمْ لا تعْلمون؟».

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم،ثم تولوا وهم معرضون..وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر،أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم،ووجود كتبهم ودياناتهم..فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سندا شكليا..فهو الجدل إذن لذات الجدل.وهو المراء الذي لا يسير على منهج،وهو الغرض إذن والهوى..

ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول.بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول! حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه،ونزع الثقة منهم ومما يقولون،عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها اللّه.فهو – سبحانه – الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم.وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل:«ما كان إبْراهيم يهوديًّا ولا نصْرانيًّا.ولكنْ كان حنيفاً مسْلماً.وما كان من الْمشْركين»..

فيؤكد ما قرره من قبل ضمنا من أن إبراهيم – عليه السلام – ما كان يهوديا ولا نصرانيا.وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده.ويقرر أنه كان مائلا عن كل ملة إلا الإسلام.فقد كان مسلما..مسلما بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه..

«وما كان من الْمشْركين»..وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها «ولكنْ كان حنيفاً مسْلماً»..ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

يشير أولا إلى أن اليهود والنصارى – الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة – مشركون..ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا.ولكن حنيفا مسلما!

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر.فلا يلتقيان.الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه،وكل مقتضياته.ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلا.

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أهم على دين إبراهيم،وسدنة بيته في مكة

فهو حنيف مسلم،وهم مشركون.«وما كان من الْمشْركين»!

وما دام أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين،فليس لأيّ من اليهود أو النصارى – أو المشركين أيضا – أن يدعي وراثته،ولا الولاية على دينه،وهم بعيدون عن عقيدته..والعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام.حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض،إذا أنبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان.فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه.بالنفخة التي جعلت منه إنسانا.ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه.ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج! والولاية بين فرد وفرد،وبين مجموعة ومجموعة،وبين جيل من الناس وجيل،لا ترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة.يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن.

والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة.والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان،ومن وراء فواصل الدم والنسب،والقوم والجنس ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – واللّه من ورائهم ولي الجميع:«إنّ أوْلى النّاس بإبْراهيم للّذين اتّبعوه،وهذا النّبيّ،والّذين آمنوا.واللّه وليّ الْمؤْمنين»..فالذين اتبعوا إبراهيم – في حياته – وساروا على منهجه،واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه.ثم هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة اللّه أصدق الشاهدين.ثم الذين آمنوا بهذا النبي – ﷺ– فالتقوا مع إبراهيم – عليه السلام – في المنهج والطريق.

«واللّه وليّ الْمؤْمنين»..فهم حزبه الذين ينتمون إليه،ويستظلون برايته،ويتولونه ولا يتولون أحدا غيره.وهم أسرة واحدة.وأمة واحدة.من وراء الأجيال والقرون،ومن وراء المكان والأوطان ومن وراء القوميات والأجناس،ومن وراء الأرومات والبيوت! وهذه

الصورة هي أرقى صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني.وتميزه من القطيع! كما أنها هي الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود.لأن القيد الواحد فيها اختيـــاري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية.فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتـــهي الأمر..على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه – إن كانت رابطة التجمع هي الجنس – ولا يملك أن يغير قومه – إن كانت رابطة التجمع هي القوم – ولا يملك أن يغير لونه – إن كانت رابطة التجمع هي اللون – ولا يملك بيسر أن يغير لغتـــه إن كانـــت رابطـــة التجمع هي اللغة – ولا يملك بيسر أن يغير طبقته – إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة – بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلا.ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنساني،ما لم ترد إلى رابطة الفكـــرة والعقيـــدة والتصور..الأمر المتروك للاقتناع الفردي،والذي يملك الفرد بذاته،بدون تغيير أصــــله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره،وأن ينضم إلى الصف على أساسه.

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان،بجعل رابطـــة تجمعـــه مســـألة تتعلـــق بـــأكرم عناصره،المميزة له من القطيع! والبشرية إما أن تعيش – كما يريدها الإسلام – أناســـيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور..وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية،أو حدود الجنس واللون..وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى كـــي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

إن الإحنة التي يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هي الإحنة المتعلقة بالعقيـــدة.إنهـــم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدي.يكرهون لها أن تفيء إلى عقيدتها الخاصة في قـــوة وثقـــة ويقين.ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا المنهج،والإلواء بها عـــن هـــذا الطريق:«ودّتْ طائفةٌ منْ أهْل الْكتاب لوْ يضلّونكمْ»..

فهو ود النفس ورغبة القلب والشهوة التي تهفو إليها الأهواء من وراء كـــل كيـــد،وكل دس،وكل مراء،وكل جدال،وكل تلبيس.

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر،ضلال لا شك فيه.فما تنبعث مثل هـــذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى.فهم يوقعون أنفسهم في الضلالة في اللحظة

التي يودون فيها إضلال المسلمين.فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهـيم في الضـلال البهيم:«وما يضلّون إلّا أنْفسهمْ.وما يشْعرون»..

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم هؤلاء ما استقاموا على إسلامهم وما لهم علـيهم مـن سبيل.واللّه سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين،وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقي المسلمون مسلمين.

هنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب:«يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه وأنْتمْ تشْهدون؟ يا أهْل الْكتاب لم تلْبسون الْحقّ بالْباطل وتكْتمون الْحـقّ وأنْـتمْ تعْلمون؟»..

ولقد كان أهل الكتاب وقتها – وما يزالون حتى اليوم – يشهدون الحق واضحا في هذا الدين.سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء في كتبهم عنه من بشارات وإشـارات – وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله وبعضهم يسلم بناء على هذا الذي يجـده في كتبه ويشهده متحققا أمامه – وسواء كذلك غير المطلعين،ولكنهم يجدون في الإسـلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان..غير أنهم يكفرون..لا لنقص في الـدليل.ولكـن للهوى والمصلحة والتضليل..والقرآن يناديهم:«يا أهْل الْكتاب»..لأنها الصفة التي كـان من شأنها أن تقودهم إلى آيات اللّه وكتابه الجديد.

كذلك يناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل،على علم وعن عمد وفي قصد..وهو أمر مستنكر قبيح! وهـذا الذي ندد اللّه به – سبحانه – من أعمال أهل الكتاب حينذاك،هو الأمر الذي درجـوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة..فهذا طريقهم على مدار التاريخ..اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى.ثم تابعهم الصليبيون! وفي خلال القرون المتطاولة دسوا – مع الأسـف – في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون! ولبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله – اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل اللّه بحفظه أبـد الآبـدين – والحمد للّه على فضله العظيم.

دسوا ولبسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله.ودسوا ولبسوا في الحديث النبـــوي حتى قيض اللّه له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا مـــا نـــد عـــن الجهـــد الإنســـاني المحدود.ودسوا ولبسوا في التفسير القرآني حتى تركوه تيها لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق.ودسوا ولبسوا في الرجال أيضا.فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي – وما يزالون في صورة المستشرقين وتلاميذ المستشـــرقين الـــذين يشـــغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في البلاد التي يقول أهلها:إنهم مسلمون.والعشـــرات مـــن الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية،ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هـــؤلاء الأعـــداء أن يـــؤدوه ظاهرين!

وما يزال هذا الكيد قائما ومطردا.وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي اللـيـــاذ بهـــذا الكتاب المحفوظ والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون.

كذلك يعرض بعض المحاولات التي يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة في دينها،وردها عن الهدى،من ذلك الطريق الماكر اللئـــيم:«وقالـــتْ طائفـــةٌ مـــنْ أهْـــل الْكتاب:آمنوا بالّذي أنْزل على الّذين آمنوا وجْـــه النّهـــار واكْفـــروا آخـــره لعلّهـــمْ يرْجعون.ولا تؤْمنوا إلّا لمنْ تبع دينكمْ...»

وهي طريقة ما كرة لئيمة كما قلنا.فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنـــه،يوقع بعـــض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعتـــه..يـــوقعهم في بلبلـــة واضطراب.وبخاصة العرب الأميين،الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعـــرف منـــهم بطبيعة الديانات والكتب.فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون،حسبوا أنهم إنما ارتدوا بســـبب اطلاعهم على خبيئة ونقص في هذا الدين.وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال.

وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم.في شتى الصور التي تناسب تطـــور الملابســـات والناس في كل جيل.

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة،فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى،كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة.

إن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشا جرارا من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين – وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين – يحملون أسماء المسلمين،لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة! وبعضهم من «علماء» المسلمين! هذا الجيش من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب،في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة.وتوهين قواعدها من الأساس.والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء.وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق.والدق المتصل على «رجعيتها»! والدعوة للتلفت منها.وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها! وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها.وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية.وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوي عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثرا! ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص! وهم بعد مسلمون! أليسوا يحملون أسماء المسلمين؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار.

وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره..ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم.لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم! وكان أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض:تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم.

وليكن هذا سرا بينكم لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم:«ولا تؤْمنوا إلّا لمنْ تبع دينكمْ»..

وفعل الإيمان حين يعدّى باللام يعني الاطمئنان والثقة.أي ولا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم،ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين!

وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك..إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر..هو الإجهاز على هذه العقيدة في الفرصة السانحة التي قد لا تعود..وقد لا يكون هذا التفاهم

في معاهدة أو مؤامرة.ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل! ويأمن بعضهم لبعض فيفضي بعضهم إلى بعض..ثم يتظاهرون – بعضهم على الأقل – بغير ما يريدون وما يبيتون..والجو من حولهم مهيأ،والأجهزة من حولهم معبأة..والذين يدركون حقيقة هذا الدين في الأرض كلها مغيبون أو مشردون! «ولا تؤْمنوا إلّا لمنْ تبع دينكمْ»..

وهنا يوجه اللّه نبيه – ﷺ– أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى اللّه وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبدا في أي منهج ولا في أي طريق:«قلْ:إنّ الْهدى هدى اللّه»..

ويجيء هذا التقرير ردا على مقالتهم:«آمنوا بالّذي أنْزل على الّذين آمنوا وجْه النّهار واكْفروا آخره لعلّهمْ يرْجعون» تحذيرا للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم.فهو الخروج من هدى اللّه كله.فلا هدى إلا هداه وحده.وإنما هو الضلال والكفر ما يريده بهم هؤلاء الماكرون.

يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهي السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها..ثم يمضي يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير المعترض:«أنْ يؤْتى أحدٌ مثْل ما أوتيتمْ،أوْ يحاجّوكمْ عنْد ربّكمْ»..

بهذا يعللون قولهم:«ولا تؤْمنوا إلّا لمنْ تبع دينكمْ»..فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتي اللّه أحدا من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب.وهو الخوف أن يكون في الاطمئنان للمسلمين واطلاعهم على الحقيقة التي يعرفها أهل الكتاب،ثم ينكرونها،عن هذا الدين،ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند اللّه! – كأن اللّه سبحانه لا يأخذهم بحجة إلا حجة القول المسموع! – وهي مشاعر لا تصدر عن تصور إيماني باللّه وصفاته ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والنبوات،وتكاليف الإيمان والاعتقاد! ويوجه اللّه سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم – ويعلم الجماعة المسلمة – حقيقة فضل اللّه حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول:«قلْ إنّ الْفضْل بيد اللّه يؤْتيه منْ يشاء،واللّه واسعٌ عليمٌ.يخْتصّ برحْمته منْ يشاء،واللّه ذو الْفضْل الْعظيم»..

وقد شاءت إرادته أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب بعد ما خاسوا بعهدهم مع اللّه ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل وتخلوا عن الأمانة الـــتي ناطها اللّه بهم وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب اللّه بينهم.وخلت قيادة البشرية من منهج اللّه وكتابه ورجالــه المــؤمنين..عندئـــذ ســـلم القيادة،وناط الأمانة،بالأمة المسلمة.فضلا منه ومنة.«واللّه واسعٌ عليمٌ»..«يخْتصّ برحْمته منْ يشاء»..عن سعة في فضله وعلم بمواضع رحمته..«واللّه ذو الْفضْل الْعظيم»..ولـــيس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا في كتاب.وبالخير ممثلا في رسالة..وبالرحمة ممثلة في رسول.

فإذا سمع المسلمون هذا أحسوا مدى النعمة وقيمة المنة في اختيار اللّـــه لهم،واختصاصـــه إياهم بهذا الفضل.

واستمسكوا به في إعزاز وحرص،وأخـــذوه بقـــوة وعزم،ودافعـــوا عنـــه في صـــرامة ويقين،وتيقظوا لكيد الكائدين وحقد الحاقدين.وهذا ما كان يربيهم به القـــرآن الكـــريم والذكر الحكيم.وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة في كل جيل.[٨٤]

- **ولأن القرآن الكريم قد فضحهم وبين أكاذيبهم (٣)**

قال تعالى:{ قلْ يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه واللّه شهيدٌ على ما تعْملون (٩٨) قلْ يا أهْل الْكتاب لم تصدّون عن سبيل اللّه منْ آمن تبْغونها عوجًا وأنتمْ شهداء وما اللّه بغافلٍ عمّا تعْملون(٩٩)} آل عمران

يعنّف الله تعالى أهْل الكتاب على كفْرهمْ بآيات الله،وصدّهم النّاس عنْ سبيل الله مـــع علْمهمْ بأنّ ما جاء به الرّسول حقٌّ منْ عنْد الله،والله شهيدٌ على صنيعهمْ بما خالفوا مـــا بأيْديهمْ منْ كتب الأنْبياء،وهو مجازيهمْ عليه،وذلك ممّا يوجب عليْهمْ ألاّ يجْترئوا علـــى الكفْر بالله وبآياته.

[٨٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٦٧٥)

قلْ يا محمّد لأهْل الكتاب من اليهود والنّصارى: لم تمْنعون المؤْمنين منْ سلوك طريق الإيمان المسْتقيم الموصل إلى الله،وتكّذبون بآيات الله ورسالته،كفْراً وعناداً،وكبْراً وحسداً،وتلْقون الشّبهات الباطلة في قلوب الضّعفاء من المسْلمين بغْياً وكيْداً للنّبيّ؟ هلْ تريْدون اعْوجاج الأمور،وسيادة الشرّ والفساد في الأرْض؟ وأنْتمْ شهداء على صحّة ما أقول،وعلى صدْق ما جاءني منْ عنْد الله؟ وأنْتمْ تعْلمون أنّه لا يغيب عنْ علْم الله شيءٌ ممّا تعْملون منْ صدٍّ وكفْرٍ وبغْيٍ.[٨٥]

وفي الظلال:

بعد هذا البيان يلقن الرسول – ﷺ– أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد،على موقفهم من الحق الذي يعلمونه،ثم يصدون عنه،ويكفرون بآيات اللّه.وهم شهداء على صحتها،وهم من صدقها على يقين:« قلْ:يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه،واللّه شهيدٌ على ما تعْملون؟ قلْ:يا أهْل الْكتاب لم تصدّون عنْ سبيل اللّه منْ آمن تبْغونها عوجاً وأنْتمْ شهداء؟ وما اللّه بغافلٍ عمّا تعْملون».

وقد تكرر مثل هذا التنديد في هذه السورة،وفي سور غيرها كثيرة.وأول ما يتركه هذا التنديد من أثر هو مجابهته أهل الكتاب بحقيقة موقفهم،ووصفهم بصفتهم،التي يداروها بمظهر الإيمان والتدين،بينما هم في حقيقتهم كفار.فهم يكفرون بآيات اللّه القرآنية.ومن يكفر بشيء من كتاب اللّه فقد كفر بالكتاب كله.

ولو أنهم آمنوا بالنصيب الذي معهم لآمنوا بكل رسول جاء من عند اللّه بعد رسولهم.فحقيقة الدين واحدة.من عرفها عرف أن كل ما يجيء به الرسل من بعد حق،وأوجب على نفسه الإسلام للّه على أيديهم..وهي حقيقة من شأنها أن تهزهم وأن تخوّفهم عاقبة ما هم فيه.

ثم إن المخدوعين من الجماعة المسلمة بكون هؤلاء الناس أهل كتاب،يسقط هذا الخداع عنهم،وهم يرون اللّه – سبحانه – يعلن حقيقة أهل الكتاب هؤلاء،ويدمغهم بالكفر

[٨٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩١، بترقيم الشاملة آليا)

الكامل الصريح.فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب.وهو – سبحانه – يهددهم بما يخلع القلوب:«واللّه شهيدٌ على ما تعْملون»..«وما اللّه بغافلٍ عمّا تعْملون»..

وهو تهديد رعيب،حين يحس إنسان أن اللّه يشهد عمله.وأنه ليس بغافل عنه.بينما عمله هو الكفر والخداع والإفساد والتضليل!

ويسجل اللّه تعالى عليهم معرفتهم بالحق الذي يكفرون به،ويصدون الناس عنه:«وأنْتمْ شهداء»..

مما يجزم بأنهم كانوا على يقين من صدق ما يكذّبون به،ومن صلاح ما يصدون الناس عنه.وهو أمر بشع مستنكر،لا يستحق فاعله ثقة ولا صحبة،ولا يستأهل إلا الاحتقار والتنديد![86]

- **ولأن القرآن الكريم قد فضحهم وبين أكاذيبهم (٤)**

قال تعالى:{ومن الّذين قالواْ إنّا نصارى أخذْنا ميثاقهمْ فنسواْ حظًّا مّمّا ذكّرواْ به فأغْريْنا بيْنهم الْعداوة والْبغْضاء إلى يوْم الْقيامة وسوْف ينبّئهم اللّه بما كانواْ يصْنعون (١٤) يا أهْل الْكتاب قدْ جاءكمْ رسولنا يبيّن لكمْ كثيراً مّمّا كنتمْ تخْفون من الْكتاب ويعْفو عن كثيرٍ قدْ جاءكم مّن اللّه نورٌ وكتابٌ مّبينٌ (١٥) يهْدي به اللّه من اتّبع رضْوانه سبل السّلام ويخْرجهم مّن الظّلمات إلى النّور بإذْنه ويهْديهمْ إلى صراطٍ مّسْتقيمٍ (١٦) لّقدْ كفر الّذين قآلواْ إنّ اللّه هو الْمسيح ابْن مرْيم قلْ فمن يمْلك من اللّه شيْئًا إنْ أراد أن يهْلك الْمسيح ابْن مرْيم وأمّه ومن في الأرْض جميعًا وللّه ملْك السّماوات والأرْض وما بيْنهما يخْلق ما يشاء واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ (١٧) وقالت الْيهود والنّصارى نحْن أبْناء اللّه وأحبّاؤه قلْ فلم يعذّبكم بذنوبكم بلْ أنتم بشرٌ مّمّنْ خلق يغْفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وللّه ملْك السّماوات والأرْض وما بيْنهما وإليْه الْمصير (١٨) يا أهْل الْكتاب قدْ جاءكمْ رسولنا يبيّن لكمْ على فتْرةٍ مّن الرّسل أن تقولواْ ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ فقدْ جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ (١٩)} سورة المائدة

---

[86] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٠٥)-

وكذلك أخذ الله تعالى الميثاق من النّصارى على الثّبات على طاعته،والقيام بما فرضه عليْهمْ،واتّباع رسله،والتّصْديق بهمْ،فسلكوا في ميثاق الله طريق اليهود،فبدّلوا دينهمْ،ونقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليْهمْ،ونسوا حظّاً كبيراً منْ كتابهمْ،وسبب ذلك أنّ المسيح عليه السّلام لمْ يكْتبْ ما ذكّرهمْ به من المواعظ،وتوحيد الله وتنْزيهه،ولا طرق الإرْشاد إلى عبادة الله،وكان الذين اتّبعوه من العامّة (الحواريّون كانوا من الصّيّادين)،واشْتدّ اليهود في مطاردتهمْ فتفرّقوا،ولمْ تكنْ لهمْ جماعاتٌ ذات قوّةٍ ونفوذٍ وعلْمٍ تدوّن ما حفظوه من الإنْجيل.والإنْجيل لمْ يكْتبْ إلاّ بعْد ثلاثة قرون عنْدما دخل قسْطنْطين في النّصْرانيّة،وكان ذلك سبباً في تفرّقهمْ وتعاديهمْ،واخْتلافهمْ شيعاً وطوائف،كلّ فئةٍ تكفّر الأخْرى وتعاديها.ويقول تعالى:إنّه ألْقى بيْنهم العداوة والبغْضاء بسبب ذلك،ولا يزالون مخْتلفين حتّى قيام السّاعة.

ويوْم القيامة ينْبئهم الله بما كانوا يعْملون في الدّنْيا،وبما اقْترفوه من الكذب على الله ورسوله،وبما نسبوا إليه منْ أنّ له صاحبةً وولداً سبْحانه وتعالى.

يا أهْل الكتاب إنّا أرْسلْنا محمّداً رسول الله،وخاتم النّبيّين ليبيّن لكمْ كثيراً من الأحْكام التي أنْزلها الله في التّوْراة والإنْجيل،وكنْتمْ تخْفونها (كالرّجْم للزّاني المحْصن،وكصفات محمّد،والبشارة به التي حرّفْتموها وحمّلْتموها على معانٍ أخْرى،ومثْل الأحْكام التي أخْفيْتموها ونسيتموها كنسْيان اليهود ما جاء في التّوراة منْ أخْبار الحساب والجزاء في الآخرة،وقدْ أظْهر الرّسول لهمْ كلّ ذلك) ومع هذا فقدْ كان الرّسول الكريم يعْفو عنْ كثيرٍ ممّا كانوا يخْفونه،ولا يظْهر الكثير ممّا كانوا يكْتمونه.

ثمّ يقول تعالى مخاطباً أهْل الكتاب:إنّهمْ قدْ جاءهمْ نورٌ من الله وكتابٍ مبينٌ،فالنّور هو النّبيّ الذي لوْلا ما جاء به من الهدى والقرْآن،لما عرفوا الدّين الحقّ،ولا ما طرأ على التّوْراة والإنْجيل منْ تبْديلٍ وتحْريفٍ،والكتاب هو القرآن.

يهْدي الله بالقرْآن،منْ أراد اتّباع رضوان ربّه،إلى طريق الجنّة والسّلامة،ومناهج الاسْتقامة،ويخْرجهمْ منْ ظلمات الكفْر والجهْل والظّلْم إلى نور الإيمان والحقّ والعدْل،بإذْن ربّه،ويهْديهمْ إلى الطّريق القويم.

يقول تعالى إنّ الذين قالوا:إنّ المسيح عيسى بنْ مرْيم هو الله،قدْ كفروا بذلك القوْل،لأنّ المسْيح عبْدٌ منْ عباد الله،وخلْقٌ منْ خلْقه،فقلْ لهمْ يا محمّد:منْ ذا الذي يقْدر أنْ يمْنع المسْيح وأمّه من الله،وأنْ يحْميهما منْه إنْ أراد الله أنْ يهْلكهما؟ بلْ منْ يسْتطيع أنْ يعْترض سبيل إرادة الله إنْ أراد أنْ يهْلك جميع منْ في الأرْض من الخلائق؟ فالله هو مالك السّموات والأرْض وما بيْنهما يتصرّف فيهما كيْف يشاء،وهو القادر على كلّ شيءٍ يخْلق ما يشاء ولا معقّب على تصرّفه،فإذا كان الأمْر قد التبس على هؤلاء بسبب خلْق عيسى منْ دون أبٍ،فإنّ الله تعالى خلق آدم منْ دون أبٍ ولا أمٍّ.قال كلٌّ من اليهود والنّصارى نحْن منْتسبون إلى أنْبياء الله،وهمْ بنوه،وله بهمْ عنايةٌ،وهو يحبّنا.وأوْردوا في كتابهمْ أنّ الله قال لعبْده إسْرائيل (يعْقوب) أنْت ابْني البكْر.فحملوا هذا القوْل على غيْر تأويله وحرّفوه.وقدْ ردّ عليْهمْ غيْر واحدٍ منْ عقلائهمْ:إنّ هذا القوْل يطْلق عنْدهمْ على سبيل التّكْريم والتّشْريف.وورد في الإنجيل:إنّ المسيح قال لهمْ:إنّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكمْ،يعْني ربّي وربّكمْ.

ويقول الله تعالى لمحمّدٍ ردّاً على أقْوال هؤلاء وهؤلاء أنْ يقول لهمْ:لوْ كنْتمْ كما تدّعون أبْناء الله وأحبّاءه فلم أعدّ الله لكمْ جهنّم جزاءً لكمْ على كفْركمْ وكذبكمْ وافترائكمْ؟ بلْ أنْتمْ بشرٌ ممّنْ خلق الله،ولكمْ أسْوةٌ بأمْثالكمْ،وهو سبْحانه خالق السّماوات والأرْض،والحاكم المتصرّف في جميع عباده،فيغْفر لمنْ يشاء،ويعذب منْ يشاء،ولا معقّب على حكْمه،وهو سريع الحساب.

يقول تعالى لأهْل الكتاب إنّه أرْسل إليْهمْ محمّداً رسولاً بعْد مدّةٍ متطاولةٍ ما بيْن إرْسال عيسى وإرْساله، لمْ يكنْ فيها رسولٌ (على فتْرةٍ من الرّسل)،فانْطمستْ سبل الهدى،وتغيّرت الأدْيان،وكثر عبّاد الأوْصان والنّيران،وقدْ بعثه الله إلى أهل الكتاب،بعْد أنْ بشّرهمْ به في الكتب التي أنْزلها على أنْبيائهمْ،وأخْبرهمْ به أنْبياؤهمْ،وذلك لكيْلا يحْتجّوا ويقولوا:ما جاءنا رسولٌ يبشّر بالخيْر وينْذر بالشّرّ.فها قدْ جاءكمْ محمّدٌ بشيراً ونذيراً،والله قديرٌ على عقاب منْ عصاه،وعلى إثابة منْ أطاعه.[87]

---

[87] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٨٤، بترقيم الشاملة آليا)

وفي الظلال:

ونجد هنا تعبيرا خاصا ذا دلالة خاصة:«ومن الّذين قالوا:إنّا نصارى »..ودلالة هذا التعبير:أنهم قالوها دعوى،و لم يحققوها في حياتهم واقعا..ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد اللّه.وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية في خط النصرانية التاريخي.وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذكروا به ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف.كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق،التي لا تكاد تعد.في القديم وفي الحديث (كما سنبين إجمالا بعد قليل).

وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا اللّه سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة..جزاء وفاقا على نقض ميثاقهم معه،ونسيانهم حظا مما ذكروا به..ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم اللّه بما كانوا يصنعون وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون! ولقد وقع بين الذين قالوا:إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه اللّه – سبحانه – في كتابه الصادق الكريم وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله.سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعي ة.وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات و لم تخمد هذه الحروب والجراحات..وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين،جزاء على نقضهم ميثاقهم،ونسيانهم حظا مما ذكروا به من عهد اللّه،وأول بند فيه هو بند التوحيد،الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام.لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل[88].

وحين يبلغ السياق هذا الموضع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع اللّه..وجهوا الخطاب لأهل الكتاب جميعا..هؤلاء وهؤلاء..لإعلانهم برسالة خاتم النبيين

---

[88] – يراجع كتاب:«محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.كما يراجع الجزء الثالث من الظلال ص ٣٦٥ – ص ٣٦٦(السيد رحمه الله)

وأنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين،وللناس أجمعين.فهم مخاطبون بها،مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق اللّه معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع اللّه فيه ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه،و لم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة..ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم:كقول النصارى:إن المسيح عيسى بن مريم هو اللّه.وكقولهم هم واليهود نحن أبناء اللّه وأحباؤه..

لقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبي ليس منهم..نبي من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعالمون لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون! فلما أراد اللّه الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين،وجعل فيهم الرسالة الأخيرة،الشاملة للبشر أجمعين.وعلم هؤلاء الأميين،فإذا هم أعلم أهل الأرض وأرقاهم تصورا واعتقادا وأقومهم منهجا وطريقا،وأفضلهم شريعة ونظاما،وأصلحهم مجتمعا وأخلاقا..وكان هذا كله من فضل اللّه عليهم ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم..

وما كان للأميين أن يكونوا أوصياء على هذه البشرية لولا هذه النعمة وما كان لهم - وليس لهم بعد - من زاد يقدمونه للبشرية إلا ما يزودهم به هذا الدين..وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب،يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام.مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده،كما أخذ عليهم ميثاقه.ويسجل عليهم شهادته - سبحانه - بأن هذا النبي الأمي هو رسوله إليهم - كما أنه رسول إلى العرب،وإلى الناس كافة - فلا مجال لإنكار رسالته من عند اللّه أولا ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب،أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانيا:«يا أَهْل الْكتاب قدْ جاءكمْ رسولنا،يبيّن لكمْ كثيراً ممّا كنْتمْ تخْفون من الْكتاب ويعْفوا عنْ كثيرٍ»..

فهو رسول اللّه إليكم.ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف،ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب اللّه الذي معكم..سواء في ذلك اليهود والنصارى..وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين..التوحيد..وأخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة كرجم

الزاني،وتحريم الربا كافة.كما أخفوا جميعا خبر بعثة النبي الأمي «الّذي يجدونــه مكْتوبــاً عنْدهمْ في التّوْراة والْإنْجيل»..كما أنه – ﷺ– يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه مما لم يرد به شرعه.فقد نسخ اللّه من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمــل في المجتمع الإنساني،مما كانت له وظيفة وقتية في المجتمعات الصغيرة الخاصة،التي بعث إليهــا الرسل من قبل ولفترة محدودة – في علم اللّه – من الزمان،قبل أن تجيء الرسالة الشــاملة الدائمة،وتستقر – وقد أكملها اللّه وأتم بها نعمته ورضيها للناس دينا – فلم يعــد فيهــا نسخ ولا تبديل ولا تعديل.

ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول،ووظيفته في الحياة البشرية،وما قدر اللّه من أثــره في حياة الناس:«قدْ جاءكمْ من اللّه نورٌ وكتابٌ مبينٌ.يهْدي به اللّه من اتّبع رضْوانه سبل السّلام.ويخْرجهمْ من الظّلمات إلى النّور بإذْنه،ويهْديهمْ إلى صراط مسْتقيمٍ»..وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعــة هــذا الكتــاب..القــرآن..وعلــى طبيعــة هــذا المنهج..الإسلام..من أنه «نور»..إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه وفي حياتــه وفي رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص..يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمــان في قلبه..«نور» نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف.ويشرق به كل شيء أمامــه فيتضح ويتكشف ويستقيم.

ثقلة الطين في كيانه،وظلمة التراب،وكثافة اللحم والدم،وعرامة الشهوة والــنزوة..كــل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى..تخف الثقلة،وتشــرق الظلمــة،وترق الكثافــة،وترف العرامة..

واللبس والغبش في الرؤية،والتأرجح والتردد في الخطــوة،والحيرة والشــرود في الاتجــاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه..كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى..يتضح الهــدف ويستقيم الطريق إليه وتستقيم النفس على الطريق..«نورٌ.وكتابٌ مبينٌ»..وصفان للشيء الواحد..لهذا الذي جاء به الرسول الكريم..«يهْدي به اللّه – من اتّبع رضْوانه – ســبل السّلام.ويخْرجهمْ من الظّلمات إلى النّور بإذْنه،ويهْديهمْ إلى صراطٍ مسْتقيم».لقد رضــي اللّه الإسلام دينا..وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كمــا رضــيه اللّــه

له..يهديه..«سبل السلام»..وما أدق هذا التعبير وأصدقه إنه «السلام» هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها..سلام الفرد.وسلام الجماعة.وسلام العالم..سلام الضمير،وسلام العقل،وسلام الجوارح..سلام البيت والأسرة،وسلام المجتمع والأمة،وسلام البشر والإنسانية..السلام مع الحياة.والسلام مع الكون.والسلام مع اللّه رب الكون والحياة..السلام الذي لا تجده البشرية – ولم تجده يوما – إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته،ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته.

حقا إن اللّه يهدي بهذا الدين الذي رضيه،من يتبع رضوان اللّه،«سبل السلام»..سبل السلام كلها في هذه الجوانب جميعها..ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة أو الحديثة..ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية في أعماق الضمير.وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة.

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام.إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ويلتذون هذا المذاق المريح..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويلات..من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون! ما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام فترة من تاريخنا ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا،وتحطم أخلاقنا وسلوكنا،وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا..بينما نملك الدخول في السلم التي منحها اللّه لنا حين نتبع رضوانه ونرضى لأنفسنا ما رضيه اللّه لنا! إننا نعاني من ويلات الجاهلية والإسلام منا قريب.ونعاني من حرب الجاهلية وسلام الإسلام في متناول أيدينا لو نشاء..فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام؟

إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة في شتى الصور والألوان.ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية،قبل أن ننقذ نحن أنفسنا،وقبل أن نفيء إلى ظلال

السلام،حين نفيء إلى رضوان اللّه ونتبع ما ارتضاه.فنكون من هؤلاء الذين يقول اللّـــه عنهم إنه يهديهم سبل السلام[٨٩].

«ويخْرجهمْ من الظّلمات إلى النّور بإذْنه»..والجاهلية كلها ظلمات..ظلمـــة الشـــبهات والخرافات والأساطير والتصورات.وظلمـــة الشـــهوات والنزعـــات والانـــدفاعات في التيه.وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهـــدى والوحشـــة مـــن الجنـــاب الآمـــن المأنوس.وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين.والنور هو النور..هـــو ذلك النور الذي تحدثنا عنه آنفا في الضمير وفي العقـــل وفي الكيـــان وفي الحيـــاة وفي الأمور..

«ويهْديهمْ إلى صراطٍ مسْتقيمٍ»..مســـتقيم مـــع فطـــرة الـــنفس ونواميســـها الـــتي تحكمها.مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التي تصرفه.مستقيم إلى اللّـــه لا يلتـــوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات..

إن اللّه الذي خلق الإنسان وفطرته وخلق الكون ونواميسه هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين.فطبيعي وبديهي أن يهديهم هذا المنـــهج إلى الصراط المستقيم.حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفـــانين! وصدق اللّه العظيم.الغني عن العالمين.الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم!

ذلك هو الصراط المستقيم.فأما القول بأن اللّه هو المسيح بن مريم فهو الكفر وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء اللّه وأحباؤه،فهو الافتراء الذي لا يستند إلى دليل..وهذا وذلك من مقولات أهل الكتاب،التي تخفي نصاعة التوحيد والتي جاءهم الرسول الأخير ليكشف عن الحقيقة فيها،ويرد الشاردين المنحرفين عن هذه الحقيقة إليها:«لقـــدْ كفـــر الّذين قالوا:إنّ اللّه هو الْمسيح ابْن مرْيم.قلْ:فمنْ يمْلك من اللّه شيْئاً إنْ أراد أنْ يهْلـــك

[٨٩] – يراجع بتوسع في معنى السلام الذي يهدي إليه اللّه من اتبع رضوانه ..كتاب:«السلام العالمي والإسلام» وكتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة» وفي الظلال تفسير قوله تعالى:«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» ص ٢٠٦ – ص ٢١٢ من الجزء الثاني.(السيد رحمه الله)

الْمسيح ابْن مرْيم وأمّه ومنْ في الْأرْض جميعاً؟ وللّه ملْك السّماوات والْأرْض وما بيْنهما،يخْلق ما يشاء واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..

إن الذي جاء به عيسى – عليه السلام – من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول.

والإقرار بالعبودية الخالصة للّه شأن كل رسول..ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت عليها التحريفات بسبب دخول الوثنيين في النصرانية وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد،حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

و لم تجئ هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة ولكنها دخلت على فترات وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير،الذي تحار فيه العقول.حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها! وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح – عليه السلام – في تلامذته وفي أتباعهم.وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت – وهو إنجيل برنابا – يتحدث عن عيسى – عليه السلام – بوصفه رسولا من عند اللّه.ثم وقعت بينهم الاختلافات.فمن قائل:إن المسيح رسول من عند اللّه كسائر الرسل.ومن قائل:إنه رسول نعم ولكن له باللّه صلة خاصة.ومن قائل:إنه ابن اللّه لأنه خلق من غير أب،ولكنه على هذا مخلوق للّه.ومن قائل:إنه ابن اللّه وليس مخلوقا بل له صفة القدم كالأب..

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية «مجمع نيقية» الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفا من البطارقة والأساقفة.قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية:

«وكانوا مختلفين في الآراء والأديان.فمنهم من كان يقول:إن المسيح وأمه إلهان من دون اللّه.وهم «البربرانية»..ويسمون:«الريمتيين».ومنهم من كان يقول:إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار،فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها.وهي مقالة «سابليوس» وشيعته.ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر،وإنما مرفي بطنها كما يمر الماء في الميزاب،لأن الكلمة دخلت في أذنها،وخرجت من حيث يخرج الولد من

ساعتها.وهي مقالة «إليان» وأشياعه.ومنهم من كان يقول:إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره،وإن ابتداء الابن من مريم،وإنه اصطفي ليكون مخلصا للجوهر الإنسي،صحبته النعمة الإلهية،وحلت فيه بالمحبة والمشيئة،ولذلك سمي «ابن اللّه» ويقولون:إن اللّه جوهر قديم واحد،وأقنوم واحد،ويسمونه بثلاثة أسماء،ولا يؤمنون بالكلمة،ولا بروح القدس.وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقانيون».ومنهم من كان يقول:إنهم ثلاثة آلهة لم تزل:صالح،وطالح،وعدل بينهما.وهي مقالة «مرقيون» اللعين وأصحابه! وزعموا أن «مرقيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا «بطرس».ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح.وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا [٩٠]

وقد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية و لم يكن يدري شيئا من النصرانية! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم،وشرد أصحاب سائر المذاهب وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده،وناسوتية المسيح.

وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه:« إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن اللّه موجودا فيه.وأنه لم يوجد قبل أن يولد.وأنه وجد من لا شيء.أو من يقول:إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر اللّه الآب.وكل من يؤمن أنه خلق،أو من يقول:إنه قابل للتغيير،ويعتريه ظل دوران».

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقد غلبت على القسطنطينية،وأنطاكية،وبابل،والإسكندرية،ومصر.

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم:هو إله،وقال آخرون:ليس بإله! فاجتمع «مجمع القسطنطينية الأول» سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

---

[٩٠] – نقلا عن كتاب محاضرات في النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ..وسائر ما نلخصه عن هذه المجامع فهو عن هذا المصدر والمصادر التي رجع إليها.(السيد رحمه الله)

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع،بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:«قال ثيموثاوس بطريك الإسكندرية:ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح اللّه.وليس روح اللّه شيئا غير حياته.فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق،فقد قلنا:إن روح اللّه مخلوق.وإذا قلنا:إن روح اللّه مخلوق،فقد قلنا:إن حياته مخلوقة.وإذا قلنا:إن حياته مخلوقة،فقد زعمنا أنه غير حي.وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به.ومن كفر به وجب عليه اللعن»!!!

وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع،كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية.وتم «الثالوث» من الآب.والابن.وروح القدس..ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية..أو اللاهوت والناسوت كما يقولون..فقد رأى «نسطور» بطريك القسطنطينية أن هناك أقنوما وطبيعة.فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم،فمريم أم الإنسان – في المسيح – وليست أم الإله! ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم – كما نقله عنه ابن البطريق:«إن هذا الإنسان الذي يقول:إنه المسيح..بالمحبة متحد مع الابن..ويقال:إنه اللّه وابن اللّه،ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة»..

ثم يقول:«إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة،أو هو ملهم من اللّه،فلم يرتكب خطيئة،وما أتى أمرا إدا» وخالفه في هذا الرأي أسقف رومه،وبطريرك الإسكندرية،وأساقفة أنطاكية،فاتفقوا على عقد مجمع رابع.وانعقد «مجمع أفسس» سنة ٤٣١ ميلادية.وقرر هذا المجمع – كما يقول ابن البطريق –:«أن مريم العذراء والدة اللّه.وأن المسيح إله حق وإنسان،معروف بطبيعتين،متوحد في الأقنوم»..ولعنوا نسطور! ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد،انعقد له «مجمع أفسس الثاني» وقرر:«أن المسيح طبيعة واحدة،اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت».ولكن هذا الرأي لم يسلم واستمرت الخلافات الحادة فاجتمع مجمع «خلقيدونية» سنة ٤٥١ وقرر:«أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة.وأن اللاهوت طبيعة وحدها،والناسوت طبيعة وحدها،التقتا في المسيح»..ولعنوا مجمع أفسس الثاني! و لم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع.ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» والمذهب

«الملوكاني» الذي تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية،التي سبق أن أثبتنا فيها مقالة:«سير.ت.و.أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» في مطالع تفسير سورة آل عمران [91]..

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف،وما تزال إلى اليوم ثائرة..

وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية ولتقول كلمة الفصل ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة:«لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه هو الْمسيح ابْن مرْيم»..«لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه ثالث ثلاثةٍ»..(كما سيجيء في السورة).

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع:«قلْ:فمنْ يمْلك من اللّه شيْئاً إنْ أراد أنْ يهْلك الْمسيح ابْن مرْيم،وأمّه،ومنْ في الْأرْض جميعاً؟».فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات اللّه سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه،وبين ذات عيسى – عليه السلام – وذات أمه،وكل ذات أخرى،في نصاعة قاطعة حاسمة.فذات اللّه – سبحانه – واحدة.ومشيئته طليقة،وسلطانه متفرد،ولا يملك أحد شيئا في رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا..وهو – سبحانه – مالك كل شيء،وخالق كل شيء،والخالق غير المخلوق.وكل شيء مخلوق:«وللّه ملْك السّماوات والْأرْض وما بيْنهما،يخْلق ما يشاء،واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية،ووضوحها وبساطتها..وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية.في تقرير حقيقة الألوهية،وحقيقة العبودية،والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين.

بلا غبش ولا شبهة ولا غموض..واليهود والنصارى يقولون:إنهم أبناء اللّه وأحباؤه:«وقالت الْيهود والنّصارى:نحْن أبْناء اللّه وأحبّاؤه»..

---

[91] – ص ٣٦٥ – ص ٣٦٦ من الجزء الثالث(السيد رحمه الله)

فزعموا للّه – سبحانه – أبوة،على تصور من التصورات،إلا تكن أبوة الجسد فهي أبـــوة الروح.وهي أيا كانت تلقي ظلا على عقيدة التوحيد وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية.هذا الفصل الذي لا يستقيم التصور،ولا تستقيم الحياة،إلا بتقريره.كي تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية وتتوحد الجهة التي تشرع للناس وتضع لهـــم القـــيم والمـــوازين والشـــرائع والقـــوانين،والنظم والأوضـــاع،دون أن تتـــداخل الاختصاصات،بتداخل الصفات والخصائص،وتداخل الألوهية والعبودية..فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب،إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف! واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء اللّه وأحباؤه،كانوا يقولون – تبعا لهذا – إن اللّـــه لن يعذبهم بذنوبهم! وإنهم لن يدخلوا النار – إذا دخلوا – إلا أياما معدودات.ومعنى هذا أن عدل اللّه لا يجري مجراه! وأنه سبحانه – يحابي فريقا من عباده،فيدعهم يفســـدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين! فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عـــن مثل هذا التصور؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور،وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة،ويقرر عدل اللّه الـــذي لا يحـــابي كمـــا يقـــرر بطـــلان ذلـــك الادعاء:«قلْ:فلم يعذّبكمْ بذنوبكمْ؟ بلْ أنْتمْ بشرٌ ممّنْ خلق،يغْفر لمنْ يشاء ويعذّب مـــنْ يشاء»..بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان.يقرر بطلان ادعاء البنوة فهم بشـــر ممن خلق.ويقرر عدل اللّه وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد.على مشـــيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه.لا بسبب بنوة أو صـــلة شخصـــية! ثم يكرر أن اللّه هو المالك لكل شيء،وأن مصير كل شيء إليه:«وللّه ملْـــك السّـــماوات والْأرْض وما بيْنهما وإليْه الْمصير»..والمالك غير المملوك.تتفرد ذاته – سبحانه – وتتفرد مشيئته،ويصير إليه الجميع

وينهي هذا البيان،بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب،يقطع به حجتـــهم ومعـــذرتهم ويقفهم أمام «المصير» وجها لوجه،بلا غبش ولا عذر،ولا غموض:«يا أهْل الْكتاب قدْ جاءكمْ رسولنا يبيّن لكمْ على فتْرةٍ من الرّسل..أنْ تقولوا ما جاءنـــا مـــنْ بشـــيرٍ ولا

نذيرٍ..فقدْ جاءكمْ بشيرٌ ونذيرٌ.واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..وبهذه المواجهة الحاسمـــة،لا تعود لأهل الكتاب جميعا حجة من الحجج..لا تعود لهم حجة في أن هذا الرسول الأمي لم يرسل إليهم.فاللّه – سبحانه – يقول:«يا أهْل الْكتاب قدْ جاءكمْ رسولنا»..ولا تعود لهم حجة في أنهم لم ينبهوا و لم يبشروا و لم ينذروا في مدى طويل يقع فيه النسيان ويقـــع فيه الانحراف..فقد جاءهم – الآن – بشير ونذير..

ثم يذكرهم أن اللّه لا يعجزه شيء..لا يعجزه أن يرسل رسولا من الأميين.ولا يعجـــزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون:«واللّه على كلّ شيْءٍ قديرٌ»..

وتنتهي هذه الجولة مع أهل الكتاب فتكشف انحرافاتهم عن دين اللّه الصـــحيح الـــذي جاءتهم به رسلهم من قبل.وتقرر حقيقة الاعتقاد الذي يرضاه اللّه من المؤمنين.وتبطـــل حجتهم في موقفهم من النبي الأمي وتأخذ عليهم الطريق في الاعتذار يوم الدين..

وبهذا كله تدعوهم إلى الهدى من ناحية وتضعف تأثير كيدهم في الصف المســـلم مـــن ناحية أخرى.وتنير الطريق للجماعة المسلمة ولطـــلاب الهـــدى جميعـــا..إلى الصـــراط المستقيم..

وفي نهاية الدرس يصل السياق إلى الموقف الأخير لبني إسرائيل مع رسولهم ومنقـــذهم – موسى عليه السلام – على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم اللّه وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم وكيف نقضوه وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق الوثيق.[٩٢]

- **ولأن القرآن الكريم قد فضحهم وبين أكاذيبهم (٥)**

قال تعالى:{ قلْ يا أهْل الْكتاب لسْتمْ على شيْءٍ حتّى تقيمواْ التّوْراة والإنجيل وما أنـــزل إلَيْكم مّن رّبّكمْ وليزيدنّ كثيرًا مّنْهم مّا أنزل إلَيْك من رّبّك طغْيانًا وكفْرًا فلا تأْس على الْقوْم الْكافرين } (٦٨) سورة المائدة

قلْ لأهْل الكتاب من اليهود والنّصارى فيما تبلّغهمْ إيّاه عنْ ربّهمْ:لسْتمْ على شيءٍ يعْتدّ به منْ أمْر الدّين والهدى حتّى تؤْمنوا بجميع ما بأيْديكمْ من الكتب المنْزلـــة،وتعْملوا بمـــا

---

[٩٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٤٢)

فيها،ومنْها الإيمان بمحمّد،والأمْر باتّباعه،والإيمان بمبْعثه،والاقْتداء بشريعته،وسيثير ما أنْزلْنا عليْك يا محمّد،من القرْآن والهدى،كثيراً من الحسد والحقْد والطّغْيان والكفْر في نفـــوس الكثيرين منْ هؤلاء،ولكنْ ليْس عليْك أنْ تهْتمّ بذلك،أوْ تحْزن له.[٩٣]

وفي الظلال:

إنه الأمر الجازم الحاسم للرسول - ﷺ- أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملا،وألا يجعـــل لأي اعتبار من الاعتبار ات حسابا وهو يصدع بكلمة الحق..هذا،وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة..واللّه يتولى حمايته وعصمته من الناس،ومن كان اللّه له عاصما فما ذا يملك له العباد المهازيل! إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم! إنها يجـــب أن تبلغ كاملة فاصلة وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء وليفعل من شـــاء مـــن أعدائها ما يفعل فإن كلمة الحق في العقيدة لا تملق الأهواء ولا تراعي مواقع الرغبات إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في قوة وفي نفاذ..

وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى..وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان وهي القلوب التي قد يطمع صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقـــة! «إنّ اللّـــه لا يهْدي الْقوْم الْكافرين»..

وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة..والهدى والضـــلال إنمـــا مناطهمـــا استعداد القلوب وتفتحها،لا المداهنة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو في كلمـــة الحق! إن القوة والحسم في إلقاء كلمة الحق في العقيدة،لا يعني الخشونة والفظاظة فقد أمر اللّه رسوله - ﷺ- أن يدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة - وليس هنالـــك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة - والحكمة والموعظة الحســـنة لا تجافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق.فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شيء غير مـــادة التبليغ وموضوعه.والمطلوب هو عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة،وعدم اللقاء في منتصف الطرق في الحقيقة ذاتها.فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول..

---

[٩٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٣٨، بترقيم الشاملة آليا)

ومنذ الأيام الأولى للدعوة كان الرسول - ﷺ- يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة في طريقة التبليغ،وكان يفاصل مفاصلة كاملة في العقيدة،فكان مأمورا أن يقول:«يا أيّها الْكافرون:لا أعْبد ما تعْبدون..» فيصفهم بصفتهم ويفاصلهم في الأمر،ولا يقبل أنصاف الحلول التي يعرضونها عليه،ولا يدهن فيدهنون،كما يودون! ولا يقول لهم:إنه لا يطلب إليهم إلا تعديلات خفيفة فيما هم عليه،بل يقول لهم:إنهم على الباطل المحض،وإنه على الحق الكامل..فيصدع بكلمة الحق عالية كاملة فاصلة،في أسلوب لا خشونة فيه ولا فظاظة..

وهذا النداء،وهذا التكليف،في هذه السورة:«يا أيّها الرّسول بلّغْ ما أنْزل إليْك منْ ربّك - وإنْ لمْ تفْعلْ فما بلّغْت رسالته - واللّه يعْصمك من النّاس..إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الْكافرين»..

يبدو من السياق - قبل هذا النداء وبعده - أن المقصود به مباشرة هو مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه،وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بما هم عليه..ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء..ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان..ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين:«قلْ يا أهْل الْكتاب لسْتمْ على شيْءٍ حتّى تقيموا التّوْراة والْإنْجيل وما أنْزل إليْكمْ منْ ربّكمْ..».

وحينما كلف الرسول - ﷺ- أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان..بل ليسوا على شيء أصلا يرتكن عليه! حينما كلف الرسول - ﷺ- بمواجهتهم هذه المواجهة الحاسمة الفاصلة،كانوا يتلون كتبهم وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية وكانوا يقولون:إنهم مؤمنون..ولكن التبليغ الذي كلف رسول اللّه - ﷺ- أن يواجههم به،لم يعترف لهم بشيء أصلا مما كانوا يزعمون لأنفسهم،لأن «الدين»،ليس كلمات تقال باللسان وليس كتبا تقرأ وترتل وليس صفة تورث وتدعى.إنما الدين منهج حياة.منهج يشمل العقيدة المستسرة في الضمير،والعبادة الممثلة في الشعائر،والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج..ولما لم يكن

أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه،فقد كلف «الرسول» – ﷺ– أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين وليسوا على شيء أصلا من هذا القبيل!

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم،مقتضاها الأول الدخول في دين اللّه الذي جاء به محمد – ﷺ– فقد أخذ اللّه عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه.وصفة محمد وقومه عندهم في التوراة وعندهم في الإنجيل – كما أخبر اللّه وهو أصدق القائلين – فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم:(سواء كان المقصود بقوله:«وما أُنْزل إليْهمْ منْ ربّهمْ» هو القرآن – كما يقول بعض المفسرين – أو هو الكتب الأخرى التي أنزلت لهم كزبور داود)..نقول إنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم إلا أن يدخلوا في الدين الجديد،الذي يصدق ما بين يديهم ويهيمن عليه..فهم ليسوا على شيء – بشهادة اللّه سبحانه – حتى يدخلوا في الدين الأخير..والرسول – ﷺ– قد كلف أن يواجههم بهذا القرار الإلهي في شأنهم وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم وإلا فما بلغ رسالة ربه..

ويا له من تهديد! وكان اللّه – سبحانه – يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة،وبهذه الكلمة الفاصلة،ستؤدي إلى أن تزيد كثيرا منهم طغيانا وكفرا،وعنادا ولجاجا..ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول – ﷺ– أن يواجههم بها وألا يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود بسبب مواجهتهم بها لأن حكمته – سبحانه – تقتضي أن يصدع بكلمة الحق وأن تترتب عليها آثارها في نفوس الخلق.فيهتدي من يهتدي عن بينة،ويضل من يضل عن بينة،ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة:«وليزيدنّ كثيراً منْهمْ ما أُنْزل إليْك منْ ربّك طغْياناً وكفْراً،فلا تأْس على الْقوْم الْكافرين»..وكان اللّه – سبحانه – يرسم للداعية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ويطلعه على حكمة اللّه في هذا المنهج ويسلي قلبه عما يصيب الذين لا يهتدون،إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغيانا وكفرا فهم يستحقون هذا المصير البائس لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق ولا خير في أعماقها ولا صدق.فمن حكمة اللّه أن تواجه بكلمة الحق ليظهر ما كمن فيها وما بطن ولتجهر بالطغيان والكفر ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين! ونعود إلى قضية الولاء

والتناصر والتعاون بين المسلمين وأهل الكتاب – على ضوء هذا التبليغ الـذي كلفه رسول اللّه – ﷺ– وعلى ضوء نتائجه التي قدر اللّه أن تكون في زيادة الكثيرين منهم طغيانا وكفرا..فماذا نجد..؟

نجد أن اللّه – سبحانه – يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم..وحتى يدخلوا في الدين الأخير تبعا لهذه الإقامة كما هو بديهي من دعوتهم إلى الإيمان باللّه والنبي.في المواضع الأخرى المتعددة..فهم إذن لم يعودوا على «دين اللّه» و لم يعودوا أهل «دين» يقبله اللّه.

ونجد أن مواجهتهم بهذه الحقيقة قد علم اللّه أنها ستزيد الكثيرين منهم طغيانا وكفرا..ومع هذا فقد أمر رسوله أن يواجههم بها دون مواربة.ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها! فإذا نحن اعتبرنا كلمة اللّه في هذه القضية هي كلمة الفصل – كما هو الحق والواقع – لم يبق هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب..أهل دين..يستطيع «المسلم» أن يتناصر معهم فيه للوقوف في وجه الإلحاد والملحدين كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين! فأهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم حتى يعتبرهم المسلم «على شيء » وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره اللّه:«وما كان لمؤْمنٍ ولا مؤْمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمْراً أنْ يكون لهم الْخيرة منْ أمْرهمْ»..وكلمة اللّه باقية لا تغيرها الملابسات والظروف! وإذا نحن اعتبرنا كلمة اللّه هي كلمة الفصل – كما هو الحق والواقع – لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة،في هياجهم علينا،وفي اشتداد حربهم لنا،و لم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على دين نرضاه منهم ونقرهم عليه،ونتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه – كما ندفع الإلحاد عن ديننا الذي هو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس..

إن اللّه – سبحانه – لا يوجهنا هذا التوجيه.ولا يقبل منا هذا الاعتراف.ولا يغفر لنا هذا التناصر.ولا التصور الذي ينبعث التناصر منه.لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر ونختار في أمرنا غير ما يختار ونعترف بعقائد محرفة أنها «دين» إلهي،يجتمع معنا في آصرة الدين

الإلهي..واللّه يقول:إنهم ليسوا على شيء،حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم..وهم لا يفعلون! والذين يقولون:إنهم مسلمون - ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم - هم كأهل الكتاب هؤلاء.ليسوا على شيء كذلك.فهذه كلمة اللّه عن أهل أي كتاب لا يقيمونه في نفوسهم وفي حياتهم سواء.والذي يريد أن يكون مسلما يجب عليه - بعد إقامة كتاب اللّه في نفسه وفي حياته - أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموه.وأن دعواهم أنهم على دين،يردها عليهم رب الدين.فالمفاصلة في هذا الأمر واجبة ودعوتهم إلى «الإسلام» من جديد هي واجب «المسلم» الذي أقام كتاب اللّه في نفسه وفي حياته.

فدعوى الإسلام باللسان أو بالوراثة دعوى لا تفيد إسلاما،ولا تحقق إيمانا،ولا تعطي صاحبها صفة التدين بدين اللّه،في أي ملة،وفي أي زمان! وبعد أن يستجيب هؤلاء أو أولئك ويقيموا كتاب اللّه في حياتهم يملك «المسلم» أن يتناصر معهم في دفع غائلة الإلحاد والملحدين،عن «الدين» وعن «المتدينين»..فأما قبل ذلك فهو عبث وهو تمييع،يقوم به خادع أو مخدوع! إن دين اللّه ليس راية ولا شعارا ولا وراثة!

إن دين اللّه حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء.تتمثل في عقيدة تعمر القلب،وشعائر تقام للتعبد،ونظام يصرف الحياة..ولا يقوم دين اللّه إلا في هذا الكل المتكامل ولا يكون الناس على دين اللّه إلا وهذا الكل المتكامل متمثل في نفوسهم وفي حياتهم..وكل اعتبار غير هذا الاعتبار تمييع للعقيدة،وخداع للضمير لا يقدم عليه «مسلم» نظيف الضمير! وعلى «المسلم» أن يجهر بهذه الحقيقة ويفاصل الناس كلهم على أساسها ولا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة.واللّه هو العاصم.واللّه لا يهدي القوم الكافرين..

وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن اللّه ولا يكون قد أقام الحجة للّه على الناس،إلا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته،بلا مجاملة ولا مداهنة..فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء،وأن ما هم عليه باطل كله من أساسه،وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر تماما غير ما هم عليه..يدعوهم إلى نقلة

بعيدة،ورحلة طويلة،وتغيير أساسي في تصـــوراتهم وفي أوضـــاعهم وفي نظـــامهم وفي أخلاقهم..فالناس يجب أن يعرفوا من الداعية أين هـــم مـــن الحـــق الـــذي يـــدعوهم إليه..«ليهْلك منْ هلك عنْ بيّنةٍ ويحْيى منْ حيّ عنْ بيّنةٍ»..

وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق،وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلـــهم..حـــين يفعل صاحب الدعوة هذا – مراعاة للظروف والملابسات،وحذرا من مواجهـــة واقـــع الناس الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم – فإنـــه يكـــون قـــد خـــدعهم وآذاهم،لأنه لم يعرّفهم حقيقة المطلوب منهم كله،وذلك فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه اللّه تبليغه! إن التلطف في دعوة الناس إلى اللّه،ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية،لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها..إن الحقيقة يجب أن تبلـــغ إلـــيهم كاملـــة.أمـــا الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة،ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة..

ولقد ينظر بعضنا اليوم – مثلا – فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثـــرة العدديـــة وأصحاب القوة المادية.وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايـــين في الأرض،وهم أصحاب كلمة مسموعة،في الشئون الدولية.وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمرة.

وينظر فيرى الذين يقولون:إنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب اللّـــه المنزل إليهم..فيتعاظمه الأمر،ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحـــق الفاصلة،ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء ! وأن يـــبين لهـــم «الدين» الحق! وليس هذا هو الطريق..إن الجاهلية هي الجاهلية – ولـــو عمـــت أهـــل الأرض جميعا – وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين اللّـــه الحق،وواجـــب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثـــرة الضـــلّال ولا ضـــخامة الباطـــل..فالباطـــل ركام..وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهـــل الأرض قاطبـــة:أنهـــم ليســـوا علـــى شيء..كذلك ينبغي أن تستأنف..وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعـــث اللّـــه رســـوله ﷺوناداه:«يا أيّها الرّسول بلّغْ ما أنْزل إليْك منْ ربّك – وإنْ لمْ تفْعلْ فما بلّغْت رسالته

– واللّه يعْصمك من النّاس.إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الْكافرين.قلْ:يا أهْل الْكتاب لسْتمْ على شيْءٍ حتّى تقيموا التّوْراة والْإنْجيل وما أنْزل إليْكمْ منْ ربّكمْ».[٩٤]

- **ولأننا مأمورين بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون:**

قال تعالى:{ قاتلواْ الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتواْ الْكتاب حتّى يعْطواْ الْجزْية عن يدٍ وهمْ صاغرون } (٢٩) سورة التوبة

بعْد أن اسْتقامت الأمور للْمسْلمين في جزيرة العرب،بدخول النّاس في الإسْلام،أمر الله تعالى بقتال اليهود والنّصارى،وذلك سنة تسْعٍ للْهجْرة،لذلك تجهّز الرّسول ﷺ لقتال الرّوم،ودعا النّاس إلى ذلك،وأظْهره لهمْ،وندب المؤْمنين إلى الجهاد،وتخلّف بعْض المنافقين،وكان ذلك العام عام جدْبٍ،والْوقْت في شدّة الحرّ،وخرج الرّسول وصحْبه إلى تبوك،فترل بها،وأقام فيها قرابة عشْرين يوْماً،ثمّ رجع لضيق الحال،وضعْف النّاس.

فمنْ لمْ يؤْمنْ بالإسْلام منْ أهْل الكتاب،فرض الله على المسْلمين قتاله،حتّى يعْطي الجزْية عنْ يدٍ مقْهورةٍ مغْلوبةٍ،وهو خاضعٌ صاغرٌ.

ويجب قتال أهْل الكتاب إذا اجْتمعتْ فيهمْ أرْبع صفاتٍ هي العلّة في عداوتهمْ للإسْلام والمسْلمين:

– أنّهمْ لا يؤْمنون بالله،لأنّهمْ هدموا التّوْحيد فاتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ مشرّعين،ومنْهمْ منْ عبد المسيح وعزيْراً.

– أنّهمْ لا يؤْمنون باليوْم الآخر،إذْ يقولون إنّ الحياة الآخرة هي حياةٌ روحانيّةٌ يكون فيها النّاس كالملائكة

– أنّهمْ لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله،ولا يلْتزمون العمل بما حرّم عليهمْ.

– أنّهمْ لا يدينون دين الحقّ الذي أوْحاه الله إلى أنْبيائه،وإنّما يتّبعون ديناً وضعه لهمْ أحْبارهمْ وأساقفتهمْ.

---

[٩٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٣٥)

يعْطوا الجزْية – الخراج المقدّر على رؤوسهمْ.
عنْ يدٍ – عن انْقيادٍ وخضوعٍ،أوْ منْ قهْرٍ وقوّة.
صاغرون – منْقادون لحكْم الإسْلام وهمْ أذلاّء.اهـ[٩٥]

الجزية:هى ما يفرض على أهل الذمّة من مال يؤدونه للمسلمين،وسمّيت جزية لأنها إمّا من الجزاء،فى مقابل الذنب الذي ارتكبوه بإفساد عقيدهم،وإمّا من المجازاة،فى مقابل حفظ نفوسهم،وصيانتهم من القتل.

ويجىء الأمر هنا بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر،بعد أن انكشف للمسلمين موقفهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر،وبعد أن نهاهم الله سبحانه وتعالى عن موالاة غير المؤمنين،حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم..ثم بعد أن ذكر الله سبحانه نصره لهم فى مواطن كثيرة،لم يكن بين أيديهم فيها من وسائل الغلب والنصر شيء..

وإذ يجىء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله،بعد هذا الموقف الذي أثار مشاعر المسلمين،وقوّى عزائمهم،ووثق إيمانهم– فإنه يقع موقعه من نفوسهم،ويثمر ثمرته الطيبة فيهم،إذ يقبلون على القتال،وقد خلت نفوسهم من مشاعر المودة بينهم وبين الذين لا يؤمنون بالله،ولو كانوا أقرب الناس..فلا يلتفت المجاهد إلى أهل أو مال،ولا ينظر إلى نفسه أكثر مما ينظر إلى دينه،والانتصار له،ودفع يد العدوّ عنه..

وقد جاء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فى صيغة العموم هكذا:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر..الآية».

وهذه الآية من سورة التوبة كما ترى،وقد نزلت بعد أن فتح النبيّ مكة،وبعد أن هزمت هوازن فى حنين،وبعد أن بسط الإسلام سلطانه على الجزيرة العربية كلّها..

والسؤال هنا هو:إلى من يتّجه الأمر إلى المسلمين بقتالهم،بعد أن دخل العرب فى الإسلام؟.

---

[٩٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

والجواب على هذا،هو ما تضمنه قوله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّـــه ولا بـــالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتـــاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون»

..وقد أشارت الآية الكريمة إلى ثلاثة أصناف:

فالذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر..هم الكافرون كفرا صراحا،وهم الملحدون.

والذين لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله..هم المشركون،الذين يؤمنون بالله واليوم الآخـــر إيمانا تلبّست به الضلالات،واختلطت به البدع..وذلك إيمان المشركين من العرب..الذين كانوا على دين إبراهيم،فأفسدوه بما أدخلوا عليـــه مـــن تلقّيـــات أهوائهم،ووســـاوس شياطينهم،حتى لقد عبدوا الأصنام وقالوا:«ما نعْبدهمْ إلّا ليقرّبونا إلى اللّه زلْفى».

والذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب،هم اليهود النصارى،الذين أفســـدوا دينهم بما حرّفوا من كتاب الله الذي فى أيديهم،وبما تأوّلوا من كلمات الله الـــتي بقيـــت معهم..

فهؤلاء هم الذين أمر المسلمون بقتالهم..بعد الإعذار إليهم،ودعوتهم إلى الإســـلام،دعوة قائمة إلى العدل والإحسان،داعية إلى الإخوة الإنسانية فى ظلّ الإيمان بالله.

أما الكافرون فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر،وليس معهم كتاب سماوى.

وأما المشركون،فهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر،إيمانا مشـــوبا بالضـــلال..والمثـــل الواضح للشرك ما كان عليه مشركو العرب قبل الإسلام..

وأما أهل الكتاب،فإن فى كفرهم شبهة،إذ معهم كتاب موسوم بأنه من عند الله،وهـــو وإن حرّف،وبدّل،وتأوله المتأولون على غير وجهه،لا يزال يحتفظ بأصـــول صـــالحة،لأن تكون معتقدا سليما،لو أعيد النظر فيه،على ضوء القرآن الكريم،الذي هو مصدق لهـــذا الكتاب الذي فى أيديهم،ومهيمن عليه..

ولشبهة الكفر،أو شبهة الإيمان عند أهل الكتاب،فقد أخذهم الله بحكـــم غـــير حكـــم الكافرين والمشركين..فهم ليسوا مؤمنين،وإن لم يكن الإيمان بعيدا منهم.

ومن هنا كان أمر الله فيهم أن يدعوا إلى الإيمان الحقّ،فإن استجابوا وآمنوا،كان لهم ما للمؤمنين،وعليهم ما عليهم..وإن أبوا كان على المسلمين قتالهم،حتى يستسلموا،ويصبحوا فى يد المسلمين،يجرى عليهم حكمهم،وتبسط عليهم يدهم..ثم إنه ليس للمسلمين قتلهم،كما يقتل الكافرون والمشركون..ولكن إذا سلمت لهم أنفسهم،فلن تسلم لهم أموالهم،بل عليهم أن يؤدوا منها جزية للمسلمين،وأن يؤدوها صاغرين،أي مقهورين مغلوبين.

وقد ألحقت السنّة المجوس باليهود والنصارى فى أخذ الجزية منهم بدلا من القتل المضروب على المشركين والكافرين،وغيرهم،ممن لا كتاب لهم.

يقول الإمام الشافعي- رضى الله عنه- «إنها (الجزية) تؤخذ من أهل الكتاب،عربا كانوا أو عجما،ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقا،لثبوتها فى أهل الكتاب،بالكتاب،وفى المجوس،بالخبر».

وعند أبى حنيفة أنها تؤخذ من أهل الكتاب مطلقا،ومن مشركى العجم والمجوس لا من مشركى العرب».

وهذا الذي يراه أبو حنيفة هو الأولى بأن يؤخذ به،لأنه يجرى مع الحكمة فى أخذ الجزية من أهل الكتاب،وعدم أخذها من مشركى العرب..وذلك لأن العرب قد شهدوا دلائل النبوة كاملة،واستمعوا إلى آيات الله،وعرفوا مواقع الإعجاز منها،وأن القرآن عندهم ليس بالذي يخفى عليهم علوّ متنزّله،وأنه من كلام رب العالمين..فلم يكن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسول الله إلا عن عناد واستكبار،وإلا عن حمية جاهلية..فكان أن أخذهم الإسلام بهذا الحكم إذا هم وقعوا ليد المسلمين:إما الإسلام،وإما القتل،ولا ثالث..!

فمثل هؤلاء الذين يشهدون الحقّ،ويرون آياته رأى العين،ثم لا يتبعونه،ولا يفتحون عقولهم وقلوبهم له- مثل هؤلاء،ينبغى أن تهدر آدميتهم،وأن تقام عليهم هذه الوصاية،التي تأخذهم بهذا الحكم الملزم.

أما مشركو العجم والمجوس،ممن لا كتاب معهم،فإنه لم يستبن لهم على وجه القطع من دلائل النبوة،وصدق الرسول ما استبان لمشركى العرب،فكانوا لهذا أقرب إلى أن يلحقوا

بأهل الكتاب،وأن يدخلوا فى تلك التجربة التي يدخلها أهل الكتاب- من أن يلحقوا بمشركى العرب..

أما من يؤدون الجزية ممن يدخلون فى حكمها،فقد اختلف الأئمة فيهم..

فبينما يرى مالك والأوزاعى أنها تؤخذ من جميع الواقعين تحت حكمها فردا فردا،إذ يرى أبو حنيفة أنها لا تؤخذ من امرأة،ولا صبّى،ولا زمن،ولا أعمى..

ورأى أبى حنيفة أقرب إلى سماحة الإسلام،وإلى مرامى أهدافه البعيدة.

فى تأليف القلوب،ودعوتها إليه بالتي هى أحسن.

وأخذ الجزية من أهل الكتاب،وأداؤهم لها على هذا الوجه الذي يؤدونها عليه فى ذلة وصغار هو فى الواقع ليس عن دافع من التعالي والكبر من المسلمين،وإنما هو إثارة لدوافع الإنسانية عند هؤلاء الذين يؤدون الجزية،ولتحريك الرغبة فيهم إلى الخلاص من هذا الوضع المشين،وذلك بمراجعة معتقدهم..من جهة،والنظر فى وجه الدعوة التي يدعوهم الإسلام إليها..من جهة أخرى..وهذا إن فعلوه فإنه لا بد أن يصحح عقيدتهم،ويفتح عقولهم وقلوبهم للدين الحق،دين الله،دين الإسلام.

وهذا هو السرّ فى الإبقاء على أهل الكتاب حين يقعون ليد المسلمين،وصيانة دمهم من القتل،وقبول الدّية منهم..فإن هذا التدبير إنما غايته هو وضع أهل الكتاب فى هذا الامتحان،وتلك التجربة..ولقد أثمر هذا الامتحان ونجحت تلك التجربة،فإنه ما من أحد من أهل الكتاب،دخل فى هذا الامتحان وعاش تلك التجربة،وأخذ مكانه مع المسلمين على هذا الوضع،حتى وجد الفرصة سانحة،والوقت متسعا،للبحث والنظر فى معتقده،والمعتقد الذي يدعى إليه..وكان من هذا أن دخل فى الإسلام،وآمن به عن اختيار واقتناع..

ومن بقي على دينه من أهل الكتاب- وهم قلة شاذة- فقد كانت آفة ذلك إلى تعصب أعمى،وانقياد لهوى جامح،لا يمسكه عقل،ولا يردّه رأى! فلم تكن الجزية التي فرضها الإسلام على أهل الكتاب ضربا من التحكم،ولا نزعة من نزعات القهر والتسلط،وإنما هى- كما رأينا- دعوة حكيمة من دعوات الإسلام إلى الإيمان بالله،وأسلوب من أساليبه

المحكمة،فى فتح الأبصار المغلقة،إلى النور،ولفت العقول الشاردة،إلى الهدى،وإيقاظ القلوب الغافية،لاستقبال آيات الله وكلماته..

ولو كان من شأن الإسلام التسلط والقهر،والعدوان والبغي،لأخذ أهل الكتاب الذين وقعوا ليده،ونزلوا على حكمه،بما أخذ به الكافرين والمشركين،ولما قبل منهم إلّا الإيمان أو القتل،ولما استبقاهم ابتغاء إصلاحهم،وشفائهم ممّا ألمّ بهم،من زيغ فى العقيدة،وضلال فى الدين..

فالجزية التي فرضها الإسلام على أهل الكتاب،هى دواء لداء،واستطباب لعلّة،وعملية جراحيّة لاستئصال مرض قاتل..وإنه لا بأس من أن يكون الدواء مرّا،إذا أثمر ثمرته فى شفاء الداء.

وفى قوله تعالى:«حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون» إشارة إلى علوّ يد المسلمين،وتمكنهم من عدوّهم،بما لهم من بأس،وقوة..

وهذا يعنى أن يحتفظ المسلمون دائما بتلك القوة التي مكّنت لهم،وإلا كان عليهم أن ينزلوا عن هذه المنزلة التي هم فيها،فإنهم إن لم ينزلوا عنها طائعين،نزلوا عنها مكرهين..بل وربما تحولت الحال،فكانوا تحت يد من كانوا تحت يدهم! فالمراد باليد هنا،القوة والقدرة،التي يعلو بها المسلمون على غيرهم.

والقوة التي يعتمد عليها المسلمون،تقوم دعائمها أولا وقبل كل شىء،على الإيمان بالله،وامتثال أوامره،واجتناب نواهيه..فإذا حقق المسلمون حقيقة الإيمان فى قلوبهم،مكّن الله لهم من كل أسباب العزة،والقوّة،وملأ أيديهم من خير الدنيا والآخرة جميعا،وأقامهم فى هذه الدنيا مقاما كريما،وجعل كلمتهم العليا،وكلمة الذين كفروا هى السفلى! فليس المراد بقوله تعالى:«وهمْ صاغرون» تحريضا للمسلمين على امتهان أهل الذمة وإذلالهم،بقدر ما هو تحريض للمسلمين على اكتساب القوة والاحتفاظ،بها حتى لا يكونوا يوما فى هذا المنزل الذليل المهين،الذي ينزله المغلوب على أمره بها،النازل على حكم غالبه..فهذا هو واقع الحياة،وتلك هى سنة الله فى خلقه..الغالب متحكم متسلط،والمغلوب مقهور مهين..وإذا كان هناك من المبادئ الخلقية،أو المواضعات

السياسية،ما يخفف من هذا المبدأ العامل فى الحياة،فإن سماحة الإسلام،وإنسانية شريعته،قد كان لهما فى هذا الباب ما لا يمكن أن يلحق بغباره القـــوانين الدوليـــة،أو المنظمـــات الإنسانية..ذلك أن دعوة الإسلام إلى التسامح،والرفق،والإخاء،دعوة مشدودة إلى ضمير الإنسان،موصوله بإيمانه بالله،بحيث لا يكمل إيمانه إلا بها..أمـــا مـــا تحملـــه القـــوانين الدولية،وما تنادى به المنظمات الإنسانية،فلا يعدو أن يكون مجرد نصائح ووصايا،تخاطب أذن الإنسان،دون أن تبلغ مواطن الإدراك،أو الوجدان منه.

فالقوة التي يملك بها المسلمون مصائر الأمور فى الناس،قوة رحيمة،عادلة..ومـــن الخـــير للناس جميعا،أن تنمو هذه القوة،وأن يمتد سلطانها..فحيث كانت فهى بـــر ورحمـــة،فإذا صارت تلك القوة إلى يد غير مؤمنة بالله،آخذة بشريعته،كانت قوّة ظالمة غشـــوما،تطلع على الناس كما تطلع العواصف العاتية،لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

هذا وكثير من الفقهاء والمفسّرين على أن قوله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّـــه ولا بالْيوْم الْآخر..الآية» هو أمر ملزم للمسلمين بقتال غير المسلمين،قتالا عاما،فى أي حـــال يجد فيها المسلمون قدرة على القتال.بمعنى أنهم يكونون فى حـــرب دائمـــة مـــع غـــير المسلمين،حتى يدخلوا فى الإسلام،أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون..على الوجـــه الذي أشرنا إليه.[٩٦]

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من {الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بـــالْيوْم الآخر} إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.ولا يحرمون ما حرم الله،فلا يتبعـــون شرعه في تحريم المحرمات،{ولا يدينون دين الْحقّ} أي:لا يدينون بالدين الصـــحيح،وإن زعموا أنهم على دين،فإنه دين غير الحق،لأنه إما بين دين مبدل،وهو الذي لم يشرعه الله أصلا وإما دين منسوخ قد شرعه الله،ثم غيره بشريعة محمد ﷺ،فيبقى التمسك به بعـــد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك،لأنهم يدعون إلى ما هم عليه،ويحصل الضرر الكـــثير منهم للناس،بسبب أنهم أهل كتاب.

[٩٦] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٣٢)

وغيّى ذلك القتال {حتّى يعْطوا الْجزْية} أي:المال الذي يكون جزاء لتــرك المســلمين قتالهم،وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم،بين أظهر المسلمين،يؤخذ منهم كل عام،كلٌّ على حسب حاله،من غني وفقير ومتوسط،كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره،من أمراء المؤمنين.

وقوله:{عنْ يدٍ} أي:حتى يبذلوها في حال ذلهم،وعدم اقتدارهم،ويعطوها بأيــديهم،فلا يرسلون بها خادما ولا غيره،بل لا تقبل إلا من أيديهم،{وهمْ صاغرون}

فإذا كانوا بهذه الحال،وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية،وهم تحت أحكام المســلمين وقهرهم،وحال الأمن من شرهم وفتنتهم،واستسلموا للشروط الــتي أجراهــا علــيهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم،ويوجب ذلهم وصغارهم،وجب على الإمام أو نائبــه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا،ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجــز إقــرارهم بالجزيــة،بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون:لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب،لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا،وألحق بأهل الكتــاب في أخــذ الجزيــة وإقرارهم في ديار المسلمين،المجوس،فإن النبي ﷺ،أخذ الجزية من مجوس هجر،ثم أخــذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل:إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم،لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين،والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم،فيكون هــذا القيد إخبارا بالواقع،لا مفهوما له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب،ولأنه قد تــواتر عــن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحــدى ثــلاث:إمــا الإسلام،أو أداء الجزية،أو السيف،من غير فرق بين كتابيٍّ وغيره.[٩٧]

[٩٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٤)

وفي الظلال:

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصل الجهاد في الإسلام يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد،وردهم جميعا إلى عبادة اللّه وحده وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير اللّه،والخضوع لسلطان غير سلطانه،والتحاكم إلى شرع غير شرعه..

ومن ثم نراهم يقولون مثلا:إن اللّه سبحانه يقول:«وإنْ جنحوا للسّلْم فاجْنحْ لها وتوكّلْ على اللّه»..

ويقول:«لا ينْهاكم اللّه عن الّذين لمْ يقاتلوكمْ في الدّين ولمْ يخْرجوكمْ منْ دياركمْ أنْ تبرّوهمْ وتقْسطوا إليْهمْ»..

ويقول:«وقاتلوا في سبيل اللّه الّذين يقاتلونكمْ ولا تعْتدوا إنّ اللّه لا يحبّ الْمعْتدين»...ويقول عن أهل الكتاب:{قلْ يا أهْل الْكتاب تعالوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيْننا وبيْنكمْ ألّا نعْبد إلّا اللّه ولا نشْرك به شيْئًا ولا يتّخذ بعْضنا بعْضًا أرْبابًا منْ دون اللّه فإنْ تولّوْا فقولوا اشْهدوا بأنّا مسْلمون (٦٤) } [آل عمران:٦٤]..

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددوها من الخارج! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين.وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها! ومعنى ذلك – في تصورهم المهزوم – أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض.ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون اللّه.ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه في الأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الاقليمية! وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن باللّه – سبحانه! – تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم،وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة! وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من

بعدهم عن الإسلام أصلا! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين الله القوي المتين! إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا.وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة.وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام.ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين..إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها،حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة،والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين:« براءةٌ من اللّه ورسوله إلى الّذين عاهدْتمْ من الْمشْركين،فسيحوا في الْأرْض أرْبعة أشْهرٍ واعْلموا أنّكمْ غيْر معْجزي اللّه،وأنّ اللّه مخْزي الْكافرين.وأذانٌ من اللّه ورسوله إلى النّاس يوْم الْحجّ الْأكْبر أنّ اللّه بريءٌ من الْمشْركين ورسوله،فإنْ تبْتمْ فهو خيْرٌ لكمْ،وإنْ تولّيْتمْ فاعْلموا أنّكمْ غيْر معْجزي اللّه وبشّر الّذين كفروا بعذابٍ أليمٍ.إلّا الّذين عاهدْتمْ من الْمشْركين ثمّ لمْ ينْقصوكمْ شيْئاً،ولمْ يظاهروا عليْكمْ أحداً،فأتمّوا إليْهمْ عهْدهمْ إلى مدّتهمْ إنّ اللّه يحبّ الْمتّقين.فإذا انْسلخ الْأشْهر الْحرم فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ وخذوهمْ واحْصروهمْ واقْعدوا لهمْ كلّ مرْصدٍ،فإنْ تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهمْ إنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ.

وإنْ أحدٌ من الْمشْركين اسْتجارك فأجرْه حتّى يسْمع كلام اللّه،ثمّ أبْلغْه مأْمنه ذلك بأنّهمْ قوْمٌ لا يعْلمون»..

وتقول في شأن أهل الكتاب:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه،ولا بالْيوْم الْآخر،ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله،ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب،حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون»..

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم – اللحظة وموقتا – غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال

التي يستطيعون معها تنفيذها..ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية.وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين اللّه القوي المتين.وعليهم أن يتقوا اللّه في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام! إنه دين السلم والسلام فعلا،ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير اللّه،وإدخال البشرية كافة في السلم كافة..إنه منهج اللّه هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه،والاستمتاع بخيره وليس منهج عبد من العبيد ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره..

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياقم من وضع العبيد أيضا.فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا،ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين،ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر! فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية،ووضع العبودية فيه للّه وحده وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد..فإن الأمر يختلف من أساسه.ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ويحرر البشر من العبودية للعباد ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختاروها في ظل الدينونة للّه وحده.

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير اللّه.ينسون هذه الحقيقة الكبرى..وهي أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه للّه وحده يواجه مناهج بشرية العبودية فيها للعبيد!!! إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي فليراجعها المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين.

لعل اللّه أن يرزقهم القوة من عنده وأن يجعل لهم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين! [٩٨]

والذين يتحدثون عن الجهاد في الإسلام فيصمونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد! والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع فيروحون يدفعون هذه التهمة بأن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا عن أهله في حدوده الإقليمية! هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة العالية التي يمثلها هذا التوجيه الكريم:«وإِنْ أحدٌ من الْمشْركين اسْتجارك فأجرْه حتّى يسْمع كلام اللّه،ثمّ أبْلغْه مأْمنه،ذلك بأنّهمْ قوْمٌ لا يعْلمون»..

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون،وإجارة لمن يستجيرون،حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه..ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام اللّه وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل اللّه فتحول بينهم وبين الهدى،كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد وتلجئهم إلى عبادة غير اللّه..ومتى حطم هذه القوى،وأزال هذه العقبات،فالأفراد – على عقيدتهم – آمنون في كنفه يعلمهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم..هذا كله وهم يرفضون منهج اللّه! وفي الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان! ثم يقف ناس يرون هذا في واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج اللّه بتشويه هذا المنهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام في وجه السيف والمدفع في هذا الزمان وفي كل زمان![٩٩]

وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج اللّه ومناهج الجاهلية هي عدم إمكان التعايش إلا في ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة قاعدتها ألا تقوم في وجه الإعلان العام الذي يتضمنه الإسلام لتحرير الإنسان بعبادة اللّه وحده والخروج من عبادة البشر للبشر،أية عقبات مادية من قوة الدولة،ومن نظام الحكم،ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض! ذلك أن منهج اللّه يريد أن يسيطر،ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده – كما هو

---

[٩٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٤٣)

[٩٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٧٧)

الإعلان العام للإسلام – ومناهج الجاهلية تريد – دفاعا عن وجودهـــا – أن تســـحق الحركة المنطلقة بمنهج اللّه في الأرض،وأن تقضي عليها..

وطبيعة المنهج الحركي الإسلامي أن يقابل هذا الواقع البشري بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه،في مراحل متعددة ذات وسائل متجددة..والأحكام المرحلية والأحكام النهائيـــة في العلاقات بين المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل في تلك المراحل.

ومن أجل أن يحدد السياق القرآني في هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات،حـــدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ونص على أنه «شرك» و«كفر» و«باطل» وقدم الوقـــائع التي يقوم عليها هذا الحكم،سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافـــق والتضـــاهي بينها وبين معتقدات «الّذين كفروا منْ قبْل».أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعي كذلك.

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا:أنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر.

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله.

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق.

رابعا:أن اليهود منهم قالت:عزير ابن اللّه.وأن النصارى منهم قالت:المسيح ابن اللّه وأنهم في هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل سواء من الـــوثنيين الإغريـــق،أو الوثنيين الرومان،أو الوثنيين الهنود،أو الوثنيين الفراعنة،أو غيرهم مـــن الـــذين كفـــروا (وسنفصل فيما بعد أن التثليث عند النصارى،وادعاء البنوة للّه منـــهم أو مـــن اليهـــود مقتبس من الوثنيات السابقة وليس من أصل النصرانية ولا اليهودية).

خامسا:أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه.كما اتخذوا المسيح ربا.وأنهـــم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد اللّه والدينونة له وحده،وأنهم لهـــذا «مشـــركون»! سادسا:أنهم محاربون لدين اللّه يريدون أن يطفئوا نـــور اللّـــه بـــأفواههم،وأنهم لهـــذا «كافرون»! سابعا:أن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يـــأكلون أمـــوال النـــاس بالباطـــل ويصدون عن سبيل اللّه.

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتـــاب،قرر الأحكـــام النهائية التي تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين اللّه،القائمين على منهج اللّه..

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب،مفاجئ ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة عنهم كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا،زاعمين أن رسول اللّه ﷺقد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب عندما أحس بـــالقوة والقـــدرة علـــى منازلتهم! ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية – المكية والمدنية – عـــن أهـــل الكتاب،تظهر بجلاء أنه لم يتغير شيء في أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدهم عليها،وانحرافها وبطلانها وشركهم وكفرهم بدين اللّه الصحيح – حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذي أوتوه من قبل – أما التعديلات فهي محصورة في طريقة التعامل معهم..وهذه – كما قلنا مرارا – تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة.

أما الأصل الذي تقوم عليه – وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب – فهو ثابت منذ اليـــوم الأول في حكم اللّه عليهم.

ونضرب هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقـــة مـــا هـــم عليه..ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله،تلك المواقف التي انتهت إلى هذه الأحكام النهائية في التعامل معهم:

في مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن في المجتمع..إنما كان هناك أفراد،يحكي القرآن عنهم أنهم استقبلوا الـــدعوة الجديـــدة إلى الإســـلام بـــالفرح والتصديق والقبول ودخلوا في الإسلام،وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لمـــا بـــين أيديهم..ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقي على التوحيد من النصـــارى واليهـــود وممن كان معهم شيء من بقايا الكتب المترلة..وفي أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات:

« الّذين آتيْناهم الْكتاب منْ قبْله همْ به يؤْمنون.وإذا يتْلى عليْهمْ قالوا:آمنّا به،إنّه الْحـــقّ منْ ربّنا،إنّا كنّا منْ قبْله مسْلمين»...(القصص:٥٢ – ٥٣).

«قلْ:آمنوا به أوْ لا تؤْمنوا،إنّ الّذين أوتوا الْعلْم منْ قبْله إذا يتْلى عليْهمْ يخرّون للْأذْقــان سجّداً،ويقولون:سبْحان ربّنا،إنْ كان وعْد ربّنا لمفْعولًا.ويخرّون للْأذْقان يبْكون ويزيدهمْ خشوعاً»...(الإسراء:١٠٧ – ١٠٩).

«قلْ أرأيْتمْ إنْ كان منْ عنْد اللّه وكفرْتمْ به،وشهد شاهدٌ منْ بني إسْرائيل على مثْله،فآمن واسْتكْبرْتمْ،إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين»...(الأحقاف:١٠).

«وكذلك أنْزلْنا إليْك الْكتاب،فالّذين آتيْناهم الْكتاب يؤْمنون به،ومنْ هؤلاء منْ يــؤْمن به،وما يجْحد بآياتنا إلّا الْكافرون»...(العنكبوت:٤٧).

«أفغيْر اللّه أبْتغي حكماً وهو الّذي أنْزل إليْكم الْكتاب مفصّلًا والّذين آتيْناهم الْكتــاب يعْلمون أنّه منزّلٌ منْ ربّك بالْحقّ،فلا تكوننّ من الْممْترين»...(الأنعام:١١٤).

«والّذين آتيْناهم الْكتاب يفْرحون بما أنْزل إليْك،ومن الْأحْزاب منْ ينْكر بعْضه.قلْ:إنّما أمرْت أنْ أعْبد اللّه ولا أشْرك به،إليْه أدْعوا وإليْه مآب»...(الرعد:٣٦).

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك في المدينة حكى عنــهم القــرآن بعــض المواقف في السور المدنية مع النص في بعضها على أهم من النصــارى،ذلك أن اليهــود كانوا قد اتخذوا موقفا آخر غير ما كان يتخذه أفراد منهم في مكة،عندما أحسوا خطــر الإسلام في المدينة:

«وإنّ منْ أهْل الْكتاب لمنْ يؤْمن باللّه وما أنْزل إليْكمْ وما أنْزل إليْهمْ،خاشــعين للّــه لا يشْترون بآيات اللّه ثمناً قليلًا،أولئــك لهــمْ أجْــرهمْ عنْــد ربّهــمْ،إنّ اللّــه ســريع الْحساب»...(آل عمران:١٩٩).

«لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا،ولتجدنّ أقْــربهمْ مــودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا:إنّا نصارى.ذلــك بــأنّ مــنْهمْ قسّيســين ورهْبانــاً،وأنّهمْ لا يسْتكْبرون.وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول ترى أعْينهمْ تفيض من الدّمْع ممّا عرفوا مــن الْحقّ،يقولون:ربّنا آمنّا فاكْتبْنا مع الشّاهدين.وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا من الْحــقّ ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين؟ فأثابهم اللّه بما قالوا جنّاتٍ تجْري منْ تحْتــها الْأنْهار خالدين فيها،وذلك جزاء الْمحْسنين»...(المائدة:٨٢ – ٨٥).

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب في الجزيرة – ومن اليهود منهم بصفة خاصة – فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام،منذ أن أحسوا خطره عليهم في المدينة،حربا خبيثة،يستخدمون فيها كل الوسائل التي حكاها القرآن عنهم في نصوص كثيرة كما أنهم في الوقت ذاته رفضوا الدخول في الإسلام طبعا وأنكروا وجحدوا ما في كتبهم من البشارة بالرسول – ﷺ– ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة،مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقرونه ويجاهرون به في وجه المنكرين الجاحدين!..كذلك أخذ القرآن يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان في شتى السور المدنية..على أن القرآن المكي لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب.نذكر من ذلك:

«ولمّا جاء عيسى بالْبيّنات قال:قدْ جئْتكمْ بالْحكْمة،ولأبيّن لكمْ بعْض الّذي تخْتلفون فيه،فاتّقوا اللّه وأطيعون.إنّ اللّه هو ربّي وربّكمْ فاعْبدوه،هذا صراطٌ مسْتقيمٌ.فاخْتلف الْأحْزاب منْ بيْنهمْ،فويْلٌ للّذين ظلموا منْ عذاب يوْمٍ أليمٍ»..(الزخرف:٦٣ – ٦٥) «وما تفرّقوا إلّا منْ بعْد ما جاءهم الْعلْم – بغْياً بيْنهمْ»...«ولوْلا كلمةٌ سبقتْ منْ ربّك إلى أجلٍ مسمًّى لقضي بيْنهمْ،وإنّ الّذين أورثوا الْكتاب منْ بعْدهمْ لفي شكٍّ منْه مريب»...(الشورى:١٤).

« وإذْ قيل لهم:اسْكنوا هذه الْقرْية وكلوا منْها حيْث شئْتمْ،وقولوا:حطّةٌ وادْخلوا الْباب سجّداً نغْفرْ لكمْ خطيئاتكمْ سنزيد الْمحْسنين.فبدّل الّذين ظلموا منْهمْ قوْلًا غيْر الّذي قيل لهمْ،فأرْسلْنا عليْهمْ رجْزاً من السّماء بما كانوا يظْلمون.وسْئلْهمْ عن الْقرْية الّتي كانتْ حاضرة الْبحْر إذْ يعْدون في السّبْت،إذْ تأْتيهمْ حيتانهمْ يوْم سبْتهمْ شرّعاً ويوْم لا يسْبتون لا تأْتيهمْ،كذلك نبْلوهمْ بما كانوا يفْسقون»...(الأعراف:١٦١ – ١٦٣).

«وإذْ تأذّن ربّك ليبْعثنّ عليْهمْ إلى يوْم الْقيامة منْ يسومهمْ سوء الْعذاب،إنّ ربّك لسريع الْعقاب وإنّه لغفورٌ رحيمٌ»...(الأعراف:١٦٧).

«فخلف منْ بعْدهمْ خلْفٌ ورثوا الْكتاب يأْخذون عرض هذا الْأدْنى ويقولــون:ســيغْفر لنا،وإنْ يأْتهمْ عرضٌ مثْله يأْخذوه.ألمْ يؤْخذْ عليْهمْ ميثاق الْكتاب أنْ لا يقولوا على اللّــه إلّــا الْحقّ،ودرســوا مــا فيــه؟ والــدّار الْــآخرة خيْــرٌ للّــذين يتّقــون،أفلا تعْقلون؟»...(الأعراف:١٦٩).

أما القرآن المدني فقد تضمن الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب كما حكــى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله في قطاعات طويلــة مــن سور البقرة،وآل عمران،والنساء،والمائدة،وغيرها.قبل أن يقرر الكلمة النهائية في أمــرهم كله في سورة التوبة.وسنكتفي هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة:

« أفتطْمعون أنْ يؤْمنوا لكمْ،وقدْ كان فريقٌ منْهمْ يسْمعون كلام اللّه،ثمّ يحرّفونه منْ بعْد ما عقلوه وهمْ يعْلمون؟ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا:آمنّا.وإذا خلا بعْضــهمْ إلى بعْــضٍ قالوا:أتحدّثونهمْ بما فتح اللّه عليْكمْ ليحاجّوكمْ به عنْد ربّكمْ؟ أفلا تعْقلون؟ أولا يعْلمــون أنّ اللّه يعْلم ما يسرّون وما يعْلنون؟ ومنْهمْ أمّيّون لا يعْلمون الْكتاب إلّا أمانيّ،وإنْ همْ إلّا يظنّون.فويْلٌ للّذين يكْتبون الْكتاب بأيْديهمْ ثمّ يقولون:هذا منْ عنْد اللّه ليشْتروا به ثمنــاً قليلًا،فويْلٌ لهمْ ممّا كتبتْ أيْديهمْ،وويْلٌ لهمْ ممّا يكْسبون»...(البقرة:٧٥ – ٧٩).

« ولقدْ آتيْنا موسى الْكتاب وقفّيْنا مــنْ بعْــده بالرّســل،وآتيْنا عيســى ابْــن مــرْيم الْبيّنات،وأيّدْناه بروح الْقدس،أفكلّما جاءكمْ رسولٌ بما لا تهْوى أنْفسكم اسْتكْبرْتمْ،ففريقاً كذّبْتمْ وفريقاً تقْتلون؟ وقالوا:قلوبنا غلْفٌ.بلْ لعنهم اللّه بكفْرهمْ فقليلًا ما يؤْمنون.ولمّــا جاءهمْ كتابٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ،وكانوا منْ قبْل يسْــتفْتحون علــى الّــذين كفروا،فلمّا جاءهمْ ما عرفوا كفروا به،فلعْنة اللّه على الْكافرين.بئْسما اشْتروْا به أنْفسهمْ أنْ يكْفروا بما أنْزل اللّه – بغْياً أنْ ينزّل اللّه منْ فضْله على منْ يشاء منْ عبــاده – فبــاؤ بغضبٍ على غضبٍ،وللْكافرين عذابٌ مهينٌ.وإذا قيل لهمْ:آمنوا بما أنْزل اللّه،قالوا:نــؤْمن بما أنْزل عليْنا،ويكْفرون بما وراءه وهو الْحقّ مصدّقاً لما معهمْ.قلْ:فلم تقْتلون أنْبياء اللّــه منْ قبْل إنْ كنْتمْ مؤْمنين!»...(البقرة:٨٧ – ٩١).

«قلْ:يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه؟ واللّه شهيدٌ على ما تعْملون.قلْ:يـــا أهْـــل الْكتاب لم تصدّون عنْ سبيل اللّه منْ آمن تبْغونها عوجاً وأنْتمْ شهداء؟ وما اللّه بغافـــلٍ عمّا تعْملون»...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

« ألمْ تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الْكتاب يؤْمنون بالْجبْت والطّاغوت،ويقولون للّـــذين كفروا:هؤلاء أهْدى من الّذين آمنوا سبيلًا؟ أولئك الّذين لعنهم اللّه،ومنْ يلْعن اللّه فلـــنْ تجد له نصيراً»...(النساء:٥١ – ٥٢).

«لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه هو الْمسيح ابْن مرْيم.وقال الْمسيح:يا بني إسْرائيل اعْبـــدوا اللّه ربّي وربّكمْ،إنّه منْ يشْركْ باللّه فقدْ حرّم اللّه عليْه الْجنّة،ومأْواه النّار،وما للظّـــالمين منْ أنْصارٍ.لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه ثالث ثلاثة،وما منْ إلهٍ إلّا إلهٌ واحدٌ،وإنْ لمْ ينْتهوا عمّا يقولون ليمسّنّ الّذين كفروا منْهمْ عذابٌ أليمٌ.أفلا يتوبون إلى اللّه ويسْتغْفرونه واللّه غفورٌ رحيمٌ.ما الْمسيح ابْن مرْيم إلّا رسولٌ قدْ خلتْ منْ قبْله الرّسل،وأمّه صـــدّيقةٌ،كانا يأْكلان الطّعام.انْظرْ كيْف نبيّن لهم الْآيات،ثمّ انْظرْ أنّى يؤْفكـــون!»...(المائـــدة:٧٢ – ٧٥).

من مراجعة هذه النصوص القرآنية وأمثالها – وهو كثير في القرآن المكي والمـــدني علـــى السواء – يتبين أن النظرة إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من الانحراف عن ديـــن اللّـــه الصحيح لم يتغير فيها شيء في التقريرات الأخيرة الـــواردة في الســـورة الأخـــيرة.وأن وصمهم بالانحراف والفسوق والشرك والكفر ليس جديدا،ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد..وذلك مع ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدي الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه.فقال تعالى منصفا للصالحين منهم:

« ومنْ قوْم موسى أمّةٌ يهْدون بالْحقّ وبه يعْدلون»...(الأعراف:١٥٩).

«ومنْ أهْل الْكتاب منْ إنْ تأْمنْه بقنْطارٍ يؤدّه إليْك،ومنْهمْ منْ إنْ تأْمنْه بدينارٍ لا يـــؤدّه إليْك إلّا ما دمْت عليْه قائماً،ذلك بأنّهمْ قالوا:ليْس عليْنا في الْأمّيّين سبيلٌ،ويقولون علـــى اللّه الْكذب وهمْ يعْلمون»...(آل عمران:٧٥).

«ضربتْ عليْهم الذّلّة أيْن ما ثقفوا إلّا بحبْلٍ من اللّه وحبْلٍ من النّاس،وباؤ بغضـــبٍ مـــن اللّه،وضربتْ عليْهم الْمسْكنة،ذلك بأنّهمْ كانوا يكْفرون بآيات اللّه،ويقْتلون الْأنْبياء بغيْر حقٍّ،ذلك بما عصوْا وكانوا يعْتدون.ليْسوا سواءً:منْ أهْل الْكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتْلون آيـــات اللّه آناء اللّيْل وهمْ يسْجدون.يؤْمنون باللّه والْيوْم الْآخر،ويأْمرون بالْمعْروف وينْهوْن عن الْمنْكر ويسارعون في الْخيْرات،وأولئك من الصّالحين وما يفْعلوا منْ خيْرٍ فلنْ يكْفـــروه واللّه عليمٌ بالْمتّقين»...(آل عمران:١١٢ – ١١٥).

أما الذي وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مـــع أهـــل الكتـــاب.فتـــرة بعـــد فترة.ومرحلة بعد مرحلة.

وواقعة بعد واقعة.وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين في مواجهة أحوال أهل الكتاب وتصرفاقم ومواقفهم مع المسلمين.

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين:

«ولا تجادلوا أهْل الْكتاب إلّا بالّتي هي أحْسن – إلّا الّذين ظلموا منْهمْ – وقولوا:آمنّـــا بالّـــذي أنْـــزل إليْنـــا وأنْـــزل إليْكمْ،وإلهنـــا وإلهكـــمْ واحـــدٌ،ونحْن لـــه مسْلمون»...(العنكبوت:٤٦).

«قولوا آمنّا باللّه وما أنْزل إليْنا وما أنْزل إلى إبْراهيم وإسْـــماعيل وإسْـــحاق ويعْقـــوب والْأسْباط،وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيّون منْ ربّهـــمْ،لا نفـــرّق بـــيْن أحـــدٍ منْهمْ،ونحْن له مسْلمون.فإنْ آمنوا بمثْل ما آمنْتمْ به فقد اهْتدوْا،وإنْ تولّوْا فإنّمـــا هـــمْ في شقاقٍ،فسيكْفيكهم اللّه،وهو السّميع الْعليم»...(البقرة:١٣٦ – ١٣٧).

«قلْ:يا أهْل الْكتاب تعالوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيْننا وبيْنكمْ:ألّا نعْبد إلّا اللّه ولا نشْـــرك بـــه شيْئاً،ولا يتّخذ بعْضنا بعْضاً أرْباباً منْ دون اللّه.فـــإنْ تولّـــوْا فقولـــوا:اشْـــهدوا بأنّـــا مسْلمون»...(آل عمران:٦٤).

«ودّ كثيرٌ منْ أهْل الْكتاب لوْ يردّونكمْ منْ بعْد إيمانكمْ كفّاراً حسداً منْ عنْد أنْفســـهمْ منْ بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ،فاعْفوا واصْفحوا حتّى يأْتي اللّه بأمْره،إنّ اللّه على كلّ شـــيْءٍ قديرٌ»...(البقرة:١٠٩).

ثم أتى اللّه بأمره الذي وكل المؤمنين إليه فوقعت أحداث،وتعدلت أحكام،وجرى المنهج الحركي الواقعي الإيجابي في طريقه حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة،في هذه السورة،على النحو الذي رأينا..

إنه لم يتغير شيء في نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة ومن الشرك باللّه والكفر بآياته..إنما الذي تغير هو قاعدة التعامل..وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التي أسلفنا الحديث عنها في مطلع هذا الفصل التمهيدي لهذا المقطع من سياق السورة،في هذه الفقرات:

«وهذا التعديل الأخير في قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته،إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج اللّه ومناهج الجاهلية من ناحية.ثم لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي ومراحله المتعددة،ووسائله المتجددة،المكافئة للواقع البشري المتغير،من الناحية الأخرى...إلخ».

والآن نأخذ في شيء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم سواء من الناحية الموضوعية الثابتة،أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة...فهذه هي العناصر الرئيسية التي انتهت إلى هذه الأحكام النهائية.

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها

أولا:في تقريرات اللّه - سبحانه - عنها،باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وباعتبار أن هذه التقريرات - بسبب كونها ربانية - لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء..

وثانيا:في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات اللّه سبحانه!

إن اللّه سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم..وهو تارة يتحدث عنهم - سبحانه - وحدهم،وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف - تجاه الإسلام والمسلمين - تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين.

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين..والنصوص التي تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق..وهذه نماذج منها..

«ما يودّ الّذين كفروا منْ أهْل الْكتاب ولا الْمشْركين أنْ ينزّل عليْكمْ منْ خيْرٍ منْ ربّكمْ»...(البقرة:١٠٥).

«ودّ كثيرٌ منْ أهْل الْكتاب لوْ يردّونكمْ منْ بعْد إيمانكمْ كفّاراً حسداً منْ عنْد أنْفسهمْ،منْ بعْد ما تبيّن لهم الْحقّ»...(البقرة:١٠٩).

«ولنْ ترْضى عنْك الْيهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهمْ»...(البقرة:١٢٠).

«ودّتْ طائفةٌ منْ أهْل الْكتاب لوْ يضلّونكمْ»...(آل عمران:٦٩).

«وقالتْ طائفةٌ منْ أهْل الْكتاب:آمنوا بالّذي أنْزل على الّذين آمنوا وجْه النّهار واكْفروا آخره لعلّهمْ يرْجعون،ولا تؤْمنوا إلّا لمنْ تبع دينكمْ»...(آل عمران:٧٢ – ٧٣).

«يا أيّها الّذين آمنوا إنْ تطيعوا فريقاً من الّذين أوتوا الْكتاب يردّوكمْ بعْد إيمانكمْ كافرين»...(آل عمران:١٠٠)...

«ألمْ تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الْكتاب يشْترون الضّلالة ويريدون أنْ تضلّوا السّبيل،واللّه أعْلم بأعْدائكمْ...»...(النساء:٤٤ – ٤٥).

«ألمْ تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الْكتاب يؤْمنون بالْجبْت والطّاغوت،ويقولون للّذين كفروا:هؤلاء أهْدى من الّذين آمنوا سبيلًا»...(النساء:٥١).

وفي هذه النماذج وحدها ما يكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين...فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.وهم يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى،ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف،فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا.وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين!...إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها اللّه – سبحانه – في قوله تعالى:

«ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عنْ دينكمْ إن اسْتطاعوا»...(البقرة:٢١٧).

«ودّ الّذين كفروا لوْ تغْفلون عنْ أسْلحتكمْ وأمْتعتكمْ فيميلون عليْكمْ ميْلةً واحدةً»...(النساء:١٠٢).

«إنْ يثْقفوكمْ يكونوا لكمْ أعْداءً ويبْسطوا إليْكمْ أيْديهمْ وألْسنتهمْ بالسّوء وودّوا لوْ تكْفرون»...(الممتحنة:٢).

«وإنْ يظْهروا عليْكمْ لا يرْقبوا فيكمْ إلًّا ولا ذمّةً»...(التوبة:٨).

«لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلًّا ولا ذمّةً»...(التوبة:١٠).

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين،وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين،هي بعينها – وتكاد تكون بألفاظها – هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك..مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية،تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة،لا على وصف حالة مؤقتة،كقوله تعالى في شأن المشركين:« ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عنْ دينكمْ إن اسْتطاعوا»..

وقوله تعالى في شأن أهل الكتاب:«ولنْ ترْضى عنْك الْيهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهمْ»..

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أي تأويل للنصوص،أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات،متمثلة في مواقف أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – من الإسلام وأهله،على مدار التاريخ،تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة،و لم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

إننا إذا استثنينا حالات فردية – أو حالات جماعات قليلة – من التي تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخي بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين والاقتناع بصدق رسول اللّه

- ﷺ- وصدق هذا الدين.ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين..وهي الحـالات التي أشرنا إليها فيما تقدم..فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعيـة القليلـة المحدودة،إلا تاريخا من العداء العنيد،والكيد الناصب،والحرب الدائبة،التي لم تفتـر علـى مدار التاريخ..

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيـدهم ومكـرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل.ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ..

لقد استقبل اليهود رسول اللّه - ﷺ- ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سمـاوي رسولا يعرفون صدقه،ودينا يعرفون أنه الحق..

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها في الصف المسـلم في المدينـة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود..شككوا في رسالة رسـول اللّـه - ﷺ- وهم يعرفونه واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجـو وبالتـهم والأكاذيب.وما فعلوه في حادث تحويل القبلة،وما فعلوه في حادث الإفك،وما فعلـوه في كل مناسبة،ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم..وفي مثل هذه الأفاعيـل كـان يـتترل القرآن الكريم.وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحـزاب والتوبـة وغيرها تضمنت من هذا الكثير [١٠٠]:«ولمّا جاءهمْ كتابٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ - وكانوا منْ قبْل يسْتفْتحون على الّذين كفروا - فلمّا جاءهمْ ما عرفوا كفروا به،فلعْنـة اللّه على الْكافرين.بئْسما اشْتروْا به أنْفسهمْ أنْ يكْفروا بما أنْزل اللّه - بغْياً أنْ يترّل اللّـه منْ فضْله على منْ يشاء منْ عباده - فباؤ بغضبٍ علـى غضـبٍ،وللْكافرين عـذابٌ مهينٌ»...(البقرة:٨٩ - ٩٠).

---

[١٠٠] - تراجع مقدمات سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في هذه الطبعة المنقحة من الظلال.(السيد رحمه الله)

«ولّما جاءهمْ رسولٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ نبذ فريقٌ من الّذين أوتــوا الْكتــاب كتاب اللّه وراء ظهورهمْ كأنّهمْ لا يعْلمون»...(البقرة:١٠١).

« سيقول السّفهاء من النّاس:ما ولّاهمْ عنْ قبْلتهم الّتي كانوا عليْها.قلْ:للّــه الْمشْــرق والْمغْرب يهْدي منْ يشاء إلى صراطٍ مسْتقيمٍ»...(البقرة:١٤٢).

«يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه وأنْتمْ تشْهدون.يا أهْل الْكتاب لم تلْبسون الْحقّ بالْباطل وتكْتمون الْحقّ وأنْتمْ تعْلمون؟»...(آل عمران:٧٠ – ٧١).

«وقالتْ طائفةٌ منْ أهْل الْكتاب:آمنوا بالّذي أنْزل على الّذين آمنوا وجْه النّهار واكْفروا آخره لعلّهمْ يرْجعون»...(آل عمران:٧٢).

«وإنّ منْهمْ لفريقاً يلْوون ألْسنتهمْ بالْكتاب لتحْسبوه مــن الْكتــاب ومــا هــو مــن الْكتاب،ويقولون هو منْ عنْد اللّه،وما هو منْ عنْد اللّه ويقولون على اللّه الْكذب وهــمْ يعْلمون».(آل عمران:٧٨).

«قلْ:يا أهْل الْكتاب لم تكْفرون بآيات اللّه واللّه شهيدٌ على ما تعْملون؟ قلْ يــا أهْــل الْكتاب لم تصدّون عنْ سبيل اللّه منْ آمن تبْغونها عوجاً وأنْتمْ شهداء وما اللّه بغافلٍ عمّا تعْملون»...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

{ يسْألك أهْل الْكتاب أنْ تنزّل عليْهمْ كتابًا من السّماء فقدْ سألوا موسى أكْبر منْ ذلك فقالوا أرنا اللّه جهْرةً فأخذتْهم الصّاعقة بظلْمهمْ ثمّ اتّخذوا الْعجْل منْ بعْد ما جــاءتْهم الْبيّنات فعفوْنا عنْ ذلك وآتيْنا موسى سلْطانًا مبينًا } [النساء:١٥٣]

{يريدون أنْ يطْفئوا نور اللّه بأفْواههمْ ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره ولوْ كره الْكــافرون} [التوبة:٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشهم بالمسلمين،مما أدى إلى وقائع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر.كما شهد تأليب اليهود للمشــركين في الأحزاب،مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ..كانوا عناصر أساسية في إثـارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنـه – وانتشـر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي – رضي اللّه عنه – ومعاوية..وقـادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير..وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجـه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي وهم حماة كل وضع مـن الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي! ذلك شأن اليهود،فأمـا شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب،فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شـأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون..ولكـن مـا إن ظهـر الإسلام في الجزيرة وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «المسيحية» وهو ركام من الوثنيات القديمة،والأضاليل الكنسية،متلبسا ببقايا مـن كلمات المسيح – عليه السلام – وتاريخه [101]..حتى رأينا الرومان والفرس ينسـون مـا بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة،ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا علـى هـذا الدين.وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول اللّه – ﷺ– إلى عامل بصرى من قبل الروم – وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسـول النبي ﷺوقتلوه – مما جعل رسول اللّه – ﷺ– يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة:زيـد بن حارثة،وجعفر بن أبي طالب،وعبد اللّه بن رواحة في غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعـا للروم تقول الروايات عنه:إنه مائة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مائة ألف أخرى وكان جـيش المسـلمين لا يتجـاوز ثلاثـة آلاف مقاتل.وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

[101] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

ثم كانت غزوة تبوك التي يدور عليها معظم هذه السورة (وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء اللّه تعالى).ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول اللّه - ﷺ- قبيل وفاته ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر - رضي اللّه عنه - إلى أطراف الشام لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين! ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبي منذ موقعة اليرموك الظافرة،التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض.ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ، لم تكن هي وحدها التي شنتها الكنيسة على الإسلام..لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير..لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد..

منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة.

ثم بعد ذلك في «مؤتة».ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة..ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة،وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل..وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون - وهو فرنسي مسيحي -:

« كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين،ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه،بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم.ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب،مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل،الذي رحم نصارى القدس،فلم يمسهم بأذى،والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد،أثناء مرضهما »[١٠٢].

---

[١٠٢] - نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.(السيد رحمه الله)

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا) [١٠٣]يقول:«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع،فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها.وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون،ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين،فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين،ووفى لهم بجميع عهوده،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم،حتى أن الملك العادل،شقيق السلطان،أطلق ألف رقيق من الأسرى،ومنّ على جميع الأرمن،وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة،وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال في الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية – على مدار التاريخ – ولكن يكفي أن نقول:إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية.ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثا.حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم،فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة! ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص،حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا،فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد!

ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة،وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي،ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي! ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه.

«لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة.ولكننا بعد اختبار،لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف..لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي،والخطر الأصفر،وبالخطر البلشفي.إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا.أما الشعوب الصفراء فهنالك

---

[١٠٣] – نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.(السيد رحمه الله)

دول ديمقراطية كبرى تقاومها.ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإســـلام،وفي قوتـــه على التوسع والإخضاع،وفي حيويته..إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي[١٠٤]».

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتـــها الصليبية على الإسلام وما تزال..وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال الســـابقة – بمناسبة النصوص القرآنية الكـــثيرة – عـــن طبيعـــة هـــذه المعركة،الطويلة،ومســـائلها وأشكالها.فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة ١٠٥

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع – بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عـــن طبيعـــة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان،وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركـــة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها – أن هذه الأحكـــام الأخـــيرة الواردة في هذه السورة،هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة وأنهـــا ليســـت أحكاما محددة بزمان،ولا مقيدة بحالة.وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينســـخ الأحكـــام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشـــابه الظروف والملابسات التي تنزلت فيها.فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركيـــة،التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية،بوسائل متجددة،في المراحل المتعددة.

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينـــها في الجزيرة وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك،لمواجهة تجمع الروم علـــى أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله – وهي الغزوة التي يقوم عليها محور السورة – ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة.إنما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة كما أن حربهم للإسلام والمســـلمين لم تكـــن

---

[١٠٤] – من كتاب جورج براون نقلا عن كتاب:«التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالدي،والدكتور عمر فروخ.(السيد رحمه الله)

[١٠٥] – يراجع كتاب:«الاستعمار والتبشير» للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ.وكتاب:«الغارة على العالم الإسلامي» للاستاذين اليافي ومحب الدين الخطيب.وكتاب:«الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين.وكتاب:«هل نحن مسلمون» لمحمد قطب.«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

وليدة فترة تاريخية معينة.فهي ما تزال معلنة ولن تزال..إلا أن يرتد المسلمون عن دينـــهم تماما!..

وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد،بشتى الوسائل على مدار التــاريخ! ومـــن ثم فهـــذه الأحكام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمـــان ولا مقيـــدة بمكان..ولكن العمل بالأحكام إنما يتم في اطار المنهج الحركي الإسلامي،الذي يجـــب أن يتم الفقه به،قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها.

وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم مـــن الإســـلام إلا العنـــوان – وضعفهم وانكسارهم على دين اللّه القوي المتين! إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت – وستظل دائما – وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي.والنصوص لا يمكن فهمهـــا إلا باستصحاب هذه الحقيقة..وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالـــب في فـــراغ والنصوص في صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامي.ولا بد من هذا القيد:«الحركة وفق المنهج الإسلامي» فليست هي الحركة المطلقة خارج المنهج بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيا كانت الحركة التي أنشأته،ولكن «الواقع البشري» يصبح عنصرا أساســـيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتـــاب والمجتمع المسلم وهي تتحرك الحركة الحية في مجالها الواقعي وفق ذلك المنـــهج الحركـــي الواقعي الإيجابي الشامل.

«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر،ولا يحرّمون ما حرّم اللّـــه ورســـوله،ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب،حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون»..

هذه الآية – والآيات التالية لها في السياق – كانت تمهيدا لغزوة تبوك ومواجهة الـــروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب..وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيهـــا هـــي صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة وأنها إثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة.وهذا ما يلهمه السياق القرآني في مثل هذه المواضع..فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنها شروط لقتال أهل الكتاب إنما ذكرت على أنها أمور واقعة في عقيـــدة هـــؤلاء الأقـــوام

وواقعهم وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم.ومثلهم في هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم..

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة:

أولا:أنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر.

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله.

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق.

ثم بين في الآيات التالية كيف أنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر،ولا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق.وذلك بأنهم:

أولا:قالت اليهود عزير ابن اللّه وقالت النصارى المسيح ابن اللّه وأن هذا القول يضاهئ قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين.فهم مثلهم في هذا الاعتقاد الذي لا يعد صاحبه مؤمنا باللّه ولا باليوم الآخر.

(وسنين بالضبط كيف أنه لا يؤمن باليوم الآخر)،ثانيا:اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه،والمسيح ابن مريم.وأن هذا مخالف لدين الحق..وهو الدينونة للّه وحده بلا شركاء..فهم بهذا مشركون لا يدينون دين الحق..

ثالثا:يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم.فهم محاربون لدين اللّه.ولا يحارب دين اللّه مؤمن باللّه واليوم الآخر يدين دين الحق أبدا.

رابعا:يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل.فهم إذن لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله (سواء كان المقصود برسوله رسولهم أو محمد ﷺ):

وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس إلى نصارى الشام والروم.كما أنها واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام وقالت ببنوة عيسى عليه السلام،وبتثليث الأقانيم - على كل ما بين المذاهب والفرق من خلاف يلتقي كله على التثليث! - على مدار التاريخ حتى الآن! وإذن فهو أمر عام،يقرر قاعدة مطلقة في التعامل مع أهل الكتاب،الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التي كانت قائمة في نصارى العرب ونصارى الروم..ولا يمنع من هذا العموم أن الأوامر النبوية استثنت أفرادا

وطوائف بأعيانها لتترك بلا قتال كالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان الـذين حبسوا أنفسهم في الأديرة...بوصفهم غير محاربين – فقد منع الإسلام أن يقاتـل غـير المحاربين من أية ملة – وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقـع منـهم اعتـداء بالفعل على المسلمين.ولكن لأنه ليس من شأنهم أصلا أن يقع منهم الاعتداء.فـلا محـل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلا – كمـا يقـول المهزومون الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام! – فالاعتداء قائم ابتداء.الاعتداء على ألوهية اللّه! والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير اللّه! والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية اللّه – سبحانه – والدفاع عن كرامة الإنسان في الأرض،لا بد أن تواجهـه الجاهلية بالمقاومة والحرب والعداء..ولا مفر من مواجهة طبائع الأشياء!

إن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب «الّذين لا يؤْمنـون باللّـه ولا بـالْيوْم الْآخر»..والذي يقول ببنوة عزير للّه أو بنوة المسيح للّه لا يمكن أن يقال عنه:إنه يـؤمن باللّه.وكذلك الذي يقول:إن اللّه هو المسيح ابن مريم.أو إن اللّه ثالث ثلاثة.أو إن اللّـه تجسد في المسيح...إلى آخر التصورات الكنسية التي صاغتها المجامع المقدسة على كل مـا بينها من خلاف!..والذين يقولون:إنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم أبناء اللّه وأحباؤه وشعب اللّه المختار،والذين يقولون:إن كل معصية تغفر بالاتحاد بالمسيح وتناول العشاء المقدس وأنه لا مغفرة إلا عن هذا الطريق! هـؤلاء وهؤلاء لا يقال:إنهم يؤمنون باليوم الآخر..

وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم «لا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله».وسـواء كان المقصود بكلمة «رسوله» هو رسولهم الذي أرسل إلـيهم،أو هـو الـنبي – ﷺ– فالفحوى واحدة.ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بـأنهم يـأكلون أمـوال النـاس بالباطل.وأكل أموال الناس بالباطل محرم في كل رسالة وعلى يد كل رسـول..وأقـرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية.وهو ما يأخذه رجال الكنيسـة مقابل «صك الغفران»! وهو الصد عن دين اللّه والوقوف في وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين عن دينهم.وهو تعبيد العباد لغير اللّه وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم يترلها اللّه..فهذا كله

ينطبق عليه:«ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله»..وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما يومذاك! كذلك تصفهم الآية بأهم «لا يدينون دين الْحقّ»..وهذا واضح مما سبق بيانه.فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع اللّه.كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة اللّه،وتلقي الأحكام من غير اللّه،والدينونة لسلطان غير سلطان اللّه.وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما فيهم يومذاك..

والشرط الذي يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا..فلا إكراه في الدين.ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون..فما حكمة هذا الشرط،ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال؟

إن أهل الكتاب بصفاقم تلك حرب على دين اللّه اعتقادا وسلوكا كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج اللّه ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم – وفق ما تصوره هذه الآيات – كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم وعدم إمكان التعايش بين المنهجين وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين اللّه فعلا،وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا!).

والإسلام – بوصفه دين الحق الوحيد القائم في الأرض – لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار،بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك.

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية،وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه،هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا.

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا،بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع.فإن لم يقتنع بقي على عقيدته،وأعطى الجزية.لتحقيق عدة أهداف:

أولها:أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين اللّه الحق.

وثانيها:أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم) ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها:المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل،بما في ذلك أهل الذمة،بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة.

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم.ولا عن مقادير هذه الجزية.ولا عن طريق ربطها ومواضع هذا الربط..ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم،كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها.[١٠٦]

إنها قضية تعتبر اليوم «تاريخية» وليست «واقعية»..إن المسلمين اليوم لا يجاهدون!..ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون!..

إن قضية «وجود» الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج! والمنهج الإسلامي – كما قلنا من قبل مرارا – منهج واقعي جاد يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع – لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة اللّه،ويصرّف حياته الفقه الإسلامي – ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل ويسميهم «الأرأيتيين» الذين يقولون:«أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟» إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام..أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا إله إلا اللّه،وأن محمدا رسول اللّه..ومن ثم يدينون للّه وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة..ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان..ويومئذ – ويومئذ فقط – سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات..ويومئذ – ويومئذ فقط – يجوز

---

[١٠٦] – انظر التفاصيل في كتابي الخلاصة في أحكام أهل الذمة

الدخول في تلك المباحث الفقهية،والاشتغال بصياغة الأحكام،والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل،لا في عالم النظريات! وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية – من ناحية الأصل والمبدأ – فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي.وعند هذا الحد نقف،فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه على هذا الهزال![107]

- **ولأننا مأمورون بعداوتهم:**

قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ لا تتّخذواْ الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ ومن يتولّهم مّنكمْ فإنّه منْهمْ إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين} (٥١) سورة المائدة

عنْ عبادة بْن الصّامت،قال:لّما حاربتْ بنو قيْنقاع تشبّث بأمْرهمْ عبْد اللّه بْن أبيٍّ ابْن سلول وقام دونهمْ ومشى عبادة بْن الصّامت إلى رسول اللّه ﷺ وتبرّأ إلى اللّه ورسوله منْ حلْفهمْ،وكان أحد بني عوْف بْن الْخزْرج وله منْ حلْفهمْ مثْل الّذي لهمْ منْ عبْد اللّه بْن أبيٍّ فخلعهمْ إلى رسول اللّه ﷺ وتبرّأ منْ حلْف الْكفّار وولايتهمْ.فقال:أتولّى اللّه ورسوله والْمؤْمنين وأبْرأ إلى اللّه منْ حلْف هؤلاء الْكفّار وولايتهمْ.قال:ففيه وفي عبْد اللّه بْن أبيٍّ نزلت الْقصّة في الْمائدة {يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ} [المائدة:٥١] [108]

وقال الطبري معقباً:" والصّواب من الْقوْل في ذلك عنْدنا أنْ يقال:إنّ اللّه تعالى ذكْره نهى الْمؤْمنين جميعًا أنْ يتّخذوا الْيهود والنّصارى أنْصارًا وحلفاء على أهْل الْإيمان باللّه ورسوله،وأخْبر أنّه من اتّخذهمْ نصيرًا وحليفًا ووليًّا منْ دون اللّه ورسوله والْمؤْمنين،فإنّه منْهمْ في التّحزّب على اللّه وعلى رسوله والْمؤْمنين،وأنّ اللّه ورسوله منْه بريئان.وقدْ يجوز أنْ تكون الْآية نزلتْ في شأْن عبادة بْن الصّامت وعبْد اللّه بْن أبيّ ابْن سلولٍ وحلفائهما من الْيهود،ويجوز أنْ تكون نزلتْ في أبي لبابة بسبب فعْله في بني قريْظة،ويجوز

---

[107] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٩٩)

[108] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١١٥٥) (٦٥٠٦) حسن

أنْ تكون نزلتْ في شأْن الرّجليْن اللّذيْن ذكر السّدّيّ أنّ أحدهما همّ باللّحاق بـدهْلك الْيهوديّ والْآخر بنصْرانيٍّ بالشّأْم،ولمْ يصحّ منْ هذه الْأقْوال الثّلاثة خبرٌ يثْبت بمثْله حجّةٌ فيسلّم لصحّته الْقوْل بأنّه كما قيل.فإذْ كان ذلك كذلك فالصّواب أنْ يحْكم لظاهر التّنْزيل بالْعموم على ما عمّ،ويجوز ما قاله أهْل التّأْويل فيه من الْقوْل الّذي لا علْم عنْدنا بخلافه؛غيْر أنّه لا شكّ أنّ الْآية نزلتْ في منافقٍ كان يوالي يهود أوْ نصارى،خوْفًا على نفْسه منْ دوائر الدّهْر،لأنّ الْآية الّتي بعْد هذه تدلّ على ذلك،وذلك قوْله:{فترى الّذين في قلوبهمْ مرضٌ يسارعون فيهمْ يقولون نخْشى أنْ تصيبنا دائرةٌ} [المائدة:٥٢] الْآية.وأمّا قوْله:{بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ} [المائدة:٥١] فإنّه عنى بذلك أنّ بعْض الْيهود أنْصار بعْضهمْ على الْمؤْمنين،ويدٌ واحدةٌ على جميعهمْ،وأنّ النّصارى كذلك بعْضهمْ أنْصار بعْضٍ على منْ خالف دينهمْ وملّتهمْ،معرّفًا بذلك عباده الْمؤْمنين أنّ منْ كان لهمْ أوْ لبعْضهمْ وليًّا فإنّما هو وليّهمْ على منْ خالف ملّتهمْ ودينهمْ من الْمؤْمنين،كما الْيهود والنّصارى لهمْ حرْبٌ،فقال تعالى ذكْره للْمؤْمنين:فكونوا أنْتمْ أيْضًا بعْضكمْ أوْلياء بعْضٍ،ولْليهوديّ والنّصْرانيّ حرْبًا كما همْ لكمْ حرْبٌ،وبعْضهمْ لبعْضٍ أوْلياء؛لأنّ منْ والاهمْ فقدْ أظْهر لأهْل الْإيمان الْحرْب ومنْهم الْبراءة،وأبان قطع ولايتهمْ"[109]

وقال أيضاً:"يعْني تعالى ذكْره بقوْله:{ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ} [المائدة:٥١] ومنْ يتولّ الْيهود والنّصارى دون الْمؤْمنين فإنّه منْهمْ،يقول:فإنّ منْ تولّاهمْ ونصرهمْ على الْمؤْمنين،فهو منْ أهْل دينهمْ وملّتهمْ،فإنّه لا يتولّى متولٍّ أحدًا إلّا وهو به وبدينه وما هو عليْه راضٍ،وإذا رضيه ورضي دينه فقدْ عادى ما خالفه وسخطه،وصار حكْمه حكْمه،ولذلك حكمْ منْ حكم منْ أهْل الْعلْم لنصارى بني تغْلب في ذبائحهمْ ونكاح نسائهمْ وغيْر ذلك منْ أمورهمْ بأحْكام نصارى بني إسْرائيل،لموالاتهمْ إيّاهمْ ورضاهمْ بملّتهمْ ونصرتهمْ لهمْ عليْها،وإنْ كانتْ أنْسابهمْ لأنْسابهمْ مخالفةً وأصْل دينهمْ لأصْل دينهمْ مفارقًا.وفي ذلك الدّلالة الْواضحة على صحّة ما نقول،منْ أنّ كلّ منْ كان يدين بدينٍ فله حكْم أهْل ذلك الدّين كانتْ ديْنونته به قبْل مجيء الْإسْلام أوْ بعْده،إلّا أنْ يكون

---

[109] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٧)

مسْلمًا منْ أهْل ديننا انْتقل إلى ملّةٍ غيْرها،فإنّه لا يقرّ على ما دان به فانْتقل إليْـــه،ولكنْ يقْتل لردّته عن الْإسْلام ومفارقته دين الْحقّ،إلّا أنْ يرْجع قبْل الْقتْل إلى الدّين الْحقّ،وفساد ما خالفه منْ قوْل منْ زعم أنّه لا يحْكم بحكْم أهْل الْكتابيْن لمنْ دان بدينهمْ،إلّا أنْ يكون إسْرائيليًّا أوْ منْتقلًا إلى دينهمْ منْ غيْرهمْ قبْل نزول الْفرْقان.فأمّا منْ دان بدينهمْ بعْد نزول الْفرْقان ممّنْ لمْ يكنْ منْهمْ ممّنْ خالف نسبه نسبهمْ وجنْسه جنْسهمْ،فإنّه حكْمه لحكْمهمْ مخالفٌ"[110]

وعنْ محمّد بْن سيرين،قال:قال عبْد اللّه بْن عتْبة:ليتّق أحدكمْ أنْ يكون،يهوديًّا أوْ نصْرانيًّا وهو لا يشْعر،قال:فظننّاه أنّه يريد هذه الْآية {يا أيّها الّذين آمنـــوا لا تتّخـــذوا الْيهـــود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ} [المائدة:٥١][111]

وقال الشنقطي رحمه الله:" قوْله تعالى:ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ ذكر في هـــذه الْآيـــة الْكريمة،أنّ منْ تولّى الْيهود والنّصارى من الْمسْلمين،فإنّه يكون منْهمْ بتولّيه إيّـــاهمْ،وبيّن في موْضعٍ آخر أنّ تولّيهمْ موجبٌ لسخْط اللّه،والْخلود في عذابه،وأنّ متولّيهمْ لوْ كـــان مؤْمنًا ما تولّاهمْ،وهو قوْله تعالى:ترى كثيرًا منْهمْ يتولّوْن الّذين كفروا لبئْس ما قـــدّمتْ لهمْ أنْفسهمْ أنْ سخط اللّه عليْهمْ وفي الْعذاب همْ خالدون ولوْ كانوا يؤْمنون باللّه والنّبيّ وما أنْزل إليْه ما اتّخذوهمْ أوْلياء ولكنّ كثيرًا منْهمْ فاسقون [٥ \ ٨١،٨٠].

ونهى في موْضعٍ آخر عنْ تولّيهمْ مبيّنًا سبب التّنْفير منْه ؛ وهو قوْله:يا أيّها الّذين آمنوا لا تتولّوْا قوْمًا غضب اللّه عليْهمْ قدْ يئسوا من الْآخرة كما يئس الْكفّار منْ أصْحاب الْقبور [٦٠ \ ١٣].

وبيّن في موْضعٍ آخر:أنّ محلّ ذلك،فيما إذا لمْ تكن الْموالاة بســـبب خوْفٍ،وتقيّـــة،وإنْ كانتْ بسبب ذلك فصاحبها معْذورٌ،وهو قوْله تعالى:لا يتّخذ الْمؤْمنون الْكافرين أوْليـــاء منْ دون الْمؤْمنين ومنْ يفْعلْ ذلك فليْس من اللّه في شيْءٍ إلّا أنْ تتّقوا منْهمْ تقـــاةً [٣ \ ٢٨]،فهذه الْآية الْكريمة فيها بيانٌ لكلّ الْآيات الْقاضية بمنْع موالاة الْكفّار مطْلقًا وإيضاحٌ

---

[110] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٨)

[111] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٤/ ١١٥٦) (٦٥١١) صحيح مقطوع

؛ لأنّ محلّ ذلك في حالة الاخْتيار،وأمّا عنْد الْخوْف والتّقيّة،فيرخّص في موالاتهمْ،بقدْر الْمداراة الّتي يكْتفي بها شرّهمْ،ويشْترط في ذلك سلامة الْباطن منْ تلْك الْموالاة:

ومنْ يأْتي الْأمور على اضْطرار...فليْس كمثْل آتيها اخْتيارًا

ويفْهم منْ ظواهر هذه الْآيات أنّ منْ تولّى الْكفّار عمْدًا اخْتيارًا،رغْبةً فيهمْ أنّه كافرٌ مثْلهمْ."[112]

قال ابن كثير:"ينْهى تعالى عباده الْمؤْمنين عنْ موالاة الْيهود والنّصارى،الّذين همْ أعْداء الْإسْلام وأهْله،قاتلهم اللّه،ثمّ أخْبر أنّ بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ،ثمّ هدّد وتوعّد منْ يتعاطى ذلك فقال:{ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ [إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين] }....

وقوْله:{فترى الّذين في قلوبهمْ مرضٌ} أيْ:شكٌّ،وريْبٌ،ونفاقٌ {يسارعون فيهمْ} أيْ:يبادرون إلى موالاتهمْ ومودّتهمْ في الْباطن والظّاهر،{يقولون نخْشى أنْ تصيبنا دائرةٌ} أيْ:يتأوّلون في مودّتهمْ وموالاتهمْ أنّهمْ يخْشوْن أنْ يقع أمْرٌ منْ ظفْر الْكفّار بالْمسْلمين،فتكون لهمْ أيادٍ عنْد الْيهود والنّصارى،فينْفعهمْ ذلك،عنْد ذلك قال اللّه تعالى:{فعسى اللّه أنْ يأْتي بالْفتْح} قال السّدّي:يعْني فتْح مكّة.وقال غيْره:يعْني الْقضاء والفصل {أوْ أمْرٍ منْ عنْده} قال السّدّي:يعني ضرب الجزية على الْيهود والنّصارى {فيصْبحوا} يعْني:الّذين والوا الْيهود والنّصارى من الْمنافقين {على ما أسرّوا في أنْفسهمْ نادمين} من الْموالاة {نادمين} أيْ:على ما كان منْهمْ،ممّا لمْ يجْد عنْهمْ شيْئًا،ولا دفع عنْهمْ محْذورًا،بلْ كان عيْن الْمفْسدة،فإنّهمْ فضحوا،وأظْهر اللّه أمْرهمْ في الدّنْيا لعباده الْمؤْمنين،بعْد أنْ كانوا مسْتورين لا يدْرى كيْف حالهمْ.فلمّا انْعقدت الْأسْباب الْفاضحة لهمْ،تبيّن أمْرهمْ لعباد اللّه الْمؤْمنين،فتعجّبوا منْهمْ كيْف كانوا يظْهرون أنّهمْ من الْمؤْمنين،ويحْلفون على ذلك ويتأوّلون،فبان كذبهمْ وافْتراؤهمْ."[113]

" يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة،أن لا يتخذوهم أولياء.فإن بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ يتناصرون فيما بينهم ويكونون

---

[112] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (1/ 412)

[113] – تفسير ابن كثير ت سلامة (3/ 132)

يدا على من سواهم،فأنتم لا تتخذوهم أولياء،فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم،بل لا يدخرون من مجهودهم شيئا على إضلالكم،فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم،ولهذا قال:{ومن يتولّهم منْكمْ فإنّه منْهمْ} لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم.والتولي القليل يدعو إلى الكثير،ثم يتدرج شيئا فشيئا،حتى يكون العبد منهم.

{إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين} أي:الذين وصْفهم الظلم،وإليه يرجعون،وعليه يعولون.فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك،ولا انقادوا لك.

ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم،أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم،فقال:{فترى الّذين في قلوبهم مّرضٌ} أي:شك ونفاق،وضعف إيمان،يقولون:إن تولينا إياهم للحاجة،فإننا {نخْشى أن تصيبنا دائرةٌ} أي:تكون الدائرة لليهود والنصارى،فإذا كانت الدائرة لهم،فإذا لنا معهم يد يكافؤننا عنها،وهذا سوء ظن منهم بالإسلام،قال تعالى -رادا لظنهم السيئ-:{فعسى اللّه أن يأْتي بالْفتْح} الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى،ويقهرهم المسلمون {أوْ أمْرٍ منْ عنده} ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم {فيصْبحوا على ما أسرّوا} أي:أضمروا {في أنفسهمْ نادمين} على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم،فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين،وأذل به الكفر والكافرين،فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.{ويقول الّذين آمنوا} متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض:{أهؤلاء الّذين أقْسموا باللّه جهْد أيْمانهمْ إنّهمْ لمعكمْ} أي:حلفوا وأكدوا حلفهم،وغلظوه بأنواع التأكيدات:إنهم لمعكم في الإيمان،وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة،ظهر ما أضمروه،وتبين ما أسروه،وصار كيدهم الذي كادوه،وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله -باطلا فبطل كيدهم وبطلت {أعْمالهمْ} في الدنيا {فأصْبحوا خاسرين} حيث فاتهم مقصودهم،وحضرهم الشقاء والعذاب."[١١٤]

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة.فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة..ومن ثم لا

[١١٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٣٥)

يمكن أن يقوم الولاء – وهو التناصر – بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة..ولا حتى أمام الإلحاد مثلا – كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! – وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن،ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا..يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد.لأن الإلحاد ينكر الدين كله،ويحارب التدين على الإطلاق..ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام.ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة،وحركة بهذه العقيدة،لإقامة النظام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد..الدين هو الإسلام..وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام..لأن الله – سبحانه – يقول هذا.يقول:«إِنَّ الدِّين عنْد اللّه الْإِسْلام»..ويقول:«ومنْ يبْتغ غيْر الْإِسْلام ديناً فلنْ يقْبل منْه»..وبعد رسالة محمد – ﷺ – لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام»..في صورته التي جاء بها محمد – ﷺ – وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل.كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السّلام، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته..ووجود يهود ونصارى – من أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – ليس معناه أن الله يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي..لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير..أما بعد بعثته فلا دين – في التصور الإسلامي وفي حس المسلم – إلا الإسلام..وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام..لأنه «لا إكراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين»..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هو الإسلام..وهناك «لا دين» هو غير الإسلام..ثم يكون هذا اللادين..عقيدة أصلها سماوي

ولكنها محرفة،أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها.أو إلحادا ينكر الأديان..تختلف فيما بينها كلها.ولكنها تختلف كلها مع الإسلام.ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم – كما سبق – ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن – على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته،وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم – وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة..فإن حسن المعاملة وجواز النكاح،ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله الله ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد!

إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعا،لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعا.ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام،وكبر عليهم أن يدعوا إليه،جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام،فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام،كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء.وهو غير مأذون في أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام.لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه.فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه،هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله الله..ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!..

إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين.وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقررت هذه البديهية،فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض،مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية.كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهذا البيان الذي

أسلفناه،وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسـلمين وأهـل الكتاب.ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك..فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج الله في الحياة – وهو المنهج الذي ينص عليه الإسـلام كما جاء به محمد – ﷺ – بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج،وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة..فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع مـن لا يـؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخـرى – إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام – إذ الإسـلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحا – «والّذين كفروا بربّهمْ أعْمالهمْ كرمادٍ اشْتدّتْ به الرّيح في يوْمٍ عاصفٍ»..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام..ولا يتصور إمكان انفصـال أيـة جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام..لا يتصور إمكان هـذا إلا مـن لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي..ولا يتصور أن هناك جوانب في الحيـاة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام،أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه،كما نص الله في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسـلم ليرضوا عنه!..

إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء..

ولقد كان اعتذار عبد الله بن أبي بن سلول،وهو من الذين في قلوبهم مرض،عن مسارعته واجتهاده في الولاء ليهود،والاستمساك بحلفه معها،هي قوله:إنني رجل أخشى الـدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة،وأن تنزل بنا الضائقة..وهذه الحجـة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان.فالولي هو الله والناصر هو الله والاستنصار بغيره ضلالة،كما أنه عبث لا ثمرة له..ولكن حجة ابن سلول،هي حجة كل بن سلول علـى مدار الزمان وتصوره هو تصور كـل منـافق مـريض القلـب،لا يـدرك حقيقـة الإيمان..وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا.لأنه

قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به،حيث تلقاه وضم عليه صــدره وعــض عليــه بالنواجذ عبد الله بن أبي بن سلول!

إنهما نهجان مختلفان،ناشئان عن تصورين مختلفين،وعن شــعورين متباينين،ومثــل هــذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان!

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم،المتألبين عليهم،المنافقين الــذين لا يخلصــون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم..يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذي يفصــل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق:«فعسى اللّــه أنْ يــأْتي بــالْفتْح أوْ أمْــرٍ مــنْ عنْده،فيصْبحوا على ما أسرّوا في أنْفسهمْ نادمين».وعندئذ - عند الفتح - سواء كــان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر الله - يندم أولئك الــذين في قلوبهم مرض،على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفــاق الــذي انكشف أمره،وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين،ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«ويقول الّذين آمنوا:أهؤلاء الّذين أقْسموا باللّه جهْد أيْمانهمْ إنّهــمْ لمعكــمْ؟ حبطــتْ أعْمالهمْ،فأصْبحوا خاسرين! »..

ولقد جاء الله بالفتح يوما،وتكشفت نوايا،وحبطت أعمال،وخسرت فئات.ونحن علــى وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح،كلما استمسكنا بعروة الله وحده وكلما أخلصنا الولاء لله وحده.وكلما وعينا منهج الله،وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا.وكلمــا تحركنــا في المعركة على هدى الله وتوجيهه.فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا..[١١٥]

- **ولأن الله تعالى لعنهم على لسان أنبيائه:**

قال تعالى:{ لعن الّذين كفروا من بني إسْرائيل على لسان داوود وعيسى ابْن مرْيم ذلك بما عصوا وّكانواْ يعْتدون (٧٨) كانواْ لا يتناهوْن عن مّنكرٍ فعلوه لبئْس ما كانواْ يفْعلون (٧٩) ترى كثيراً مّنْهمْ يتولّوْن الّذين كفرواْ لبئْس ما قدّمتْ لهمْ أنفسهمْ أن سخط اللّــه

---

[١١٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٠٧)

عليْهمْ وفي الْعذاب همْ خالدون (٨٠) ولوْ كانوا يؤْمنون بالله والنّبيّ وما أنزل إليْـــه مـــا اتّخذوهمْ أوْلياء ولـــكنّ كثيراً مّنْهمْ فاسقون (٨١) }المائدة

لعن الله الذين كفروا منْ بني إسْرائيل في الزّبور والإنْجيل،فقدْ لعن داود،عليْه السّلام،منْ اعْتدى منْهمْ في السّبْت،أوْ لعن العاصين المعْتدين منْهمْ عامّةً،وكذلك لعنهمْ عيسى بـــن مرْيم،وسبب ذلك اللّعْن هو تماديهمْ في العصْيان،وتمرّدهمْ عنْ طاعة الله،وتماديهمْ في الظّلْم والفساد (بما كانوا يعْتدون).

فقدْ كانوا لا ينْهى أحدٌ منْهمْ أحداً عن منْكرٍ يقْترفه مهْما بلغ من القبْح والضّرر.والنّهي عن المنْكر هو حفاظ الدّين،وسياج الفضائل والآداب،فإذا تجرّأ المسْتهْترون على إظْهـــار فسْقهمْ وفجورهمْ،ورآهم الغوْغاء من النّاس قلّدوهمْ فيه،وزال قبْحه منْ نفوسهمْ،وصار عادةً لهمْ،وزال سلْطان الدّين منْ قلوبهمْ،وتركتْ أحْكامه وراء ظهورهمْ،وفي ذلك إشارةٌ إلى فشْو المنْكرات فيهمْ.ويقـــبّح الله تعـــالى ســـوء فعْلهمْ،ويـــذمّهمْ علـــى اقْتـــراف المنْكرات،وإصْرارهمْ عليْها وسكوت الآخرين عنْها،ورضاهمْ بها.

وترى يا محمّد كثيراً منْ بني إسْرائيل،يتولّوْن الذين كفروا منْ مشْركي العرب ويحالفونهمْ عليْك،ويحرّضونهمْ على قتالك،وأنْت تؤْمن بالله،وبما أنْزل الله على رسله وأنْبيائه،وتشْهد لهمْ بصدْق الرّسالة،وأولئك لا يؤْمنون بكتابٍ ولا رسولٍ،ولا يعْبدون الله وحْـــده،ولولا اتّباع الهوى،وتزْيين الشّيْطان لهمْ أعْمالهمْ،ما فعلوا ذلك،فبئْس ما قـــدّموه لأنْفســـهمْ في آخرتهمْ من الأعْمال التي اسْتوْجبتْ سخط الله،وعظيم غضبه عليْهمْ،وســـيجْزوْن علـــى ذلك شرّ الجزاء،وسيحيط بهم العذاب،ولا يجدون عنْه مصْرفاً،ويخْلدون في النّار أبداً.

ولوْ كان هؤلاء اليهود،الذين يتولّوْن الكافرين منْ مشْركي العرب،يؤْمنون بالنّبيّ الـــذي يدّعون اتّباعه (وهو موسى عليْه السّلام)،وما أنْزل إليْه من الهدى والبيّنات،لما اتّخـــذوا أولئك الكافرين منْ عابدي الأوْثان،أوْلياءً وأنْصاراً،ولكانتْ عقيدتهمْ الدّينيّة صدّتْهمْ عنْ ذلك،ولكنّ كثيراً منْهمْ متمرّدون في النّفاق،خارجون عنْ حظيرة الدّين،ولا يريـــدون إلاّ الجاه والرّياسة،ويسْعوْن إلى تحْصيلهما بأيّة طريقةٍ كانتْ،وبأيّة وسيلةٍ قدروا عليْها.[١١٦]

[١١٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

يقول تعالى لنبيه ﷺ:{قلْ يا أهْل الْكتاب لا تغْلوا في دينكمْ غيْر الْحقّ} أي:لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل،وذلك كقولهم في المسيح،ما تقدم حكايته عنهم.

وكغلوهم في بعض المشايخ،اتباعا لـ {أهْواء قوْمٍ قدْ ضلّوا منْ قبْل} أي:تقدم ضلالهم. {وأضلّوا كثيرًا} من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين،الذي هم عليه.{وضلّوا عنْ سواء السّبيل} أي:قصد الطريق،فجمعوا بين الضلال والإضلال،وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية،وآرائهم المضلة.ثم قال تعالى:{لعن الّذين كفروا منْ بني إسْرائيل} أي:طردوا وأبعدوا عن رحمة الله {على لسان داود وعيسى ابْن مرْيم} أي:بشهادتهما وإقرارهما،بأن الحجة قد قامت عليهم،وعاندوها.{ذلك} الكفر واللعن {بما عصوْا وكانوا يعْتدون} أي:بعصيانهم لله،وظلمهم لعباد الله،صار سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله،فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلات،وأوقعت بهم العقوبات أنهم:{كانوا لا يتناهوْن عنْ منْكرٍ فعلوه} أي:كانوا يفعلون المنكر،ولا ينهى بعضهم بعضا،فيشترك بذلك المباشر،وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله،وأن معصيته خفيفة عليهم،فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه،ولغضبوا لغضبه،وإنما كان السكوت عن المنكر -مع القدرة- موجبا للعقوبة،لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها:أن مجرد السكوت،فعل معصية،وإن لم يباشرها الساكت.فإنه -كما يجب اجتناب المعصية- فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها:ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي،وقلة الاكتراث بها.

ومنها:أن ذلك يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها،فيزداد الشر،وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية،ويكون لهم الشوكة والظهور،ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر،حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أوّلا.

ومنها:أن - في ترك الإنكار للمنكر- يندرس العلم،ويكثر الجهل،فإن المعصية- مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص،وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها

ليست بمعصية،وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة،وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرّم الله حلالا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا؟ "

ومنها:أن السكوت على معصية العاصين،ربما تزينت المعصية في صدور الناس،واقتدى بعضهم ببعض،فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه،ومنها ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة،نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم،وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

{لبئْس ما كانوا يفْعلون} {ترى كثيرًا منْهمْ يتولّوْن الّذين كفروا} بالمحبة والموالاة والنصرة.

{لبئْس ما قدّمتْ لهمْ أنْفسهمْ} هذه البضاعة الكاسدة،والصفقة الخاسرة،وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء،والخلود الدائم في العذاب العظيم،فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم،وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم.

{ولوْ كانوا يؤْمنون باللّه والنّبيّ وما أنزل إليْه ما اتّخذوهمْ أوْلياء} فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه،يوجب على العبد موالاة ربه،وموالاة أوليائه،ومعاداة من كفر به وعاداه،وأوضع في معاصيه،فشرط ولاية الله والإيمان به،أن لا يتخذ أعداء الله أولياء،وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط،فدل على انتفاء المشروط.{ولكنّ كثيرًا منْهمْ فاسقون} أي:خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي.ومن فسقهم موالاة أعداء الله.[117]

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق.وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم،هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية اللّه فسمع اللّه دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المترلة وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة اللّه - كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها -

[117] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٤١)

وهم الذين نقضوا عهد اللّه معهم لينصرنّ كل رسول ويعزرونه ويتبعونه:«ذلــك بمــا عصوْا وكانوا يعْتدون»..

فهي المعصية والاعتداء يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء.وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء..كما فصل اللّه في كتابه الكريم.

و لم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية في مجتمع بني إسرائيل.ولكنــها انتــهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها وأن يسكت عنها المجتمع.ولا يقابلها بالتناهي والنكير:«كانوا لا يتناهوْن عنْ منكرٍ فعلوه لبئْس ما كانوا يفْعلون!»..

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين.فالأرض لا تخلو من الشر

والمجتمع لا يخلو من الشذوذ،ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تســمح للشــر والمنكــر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه وأن يصبحا سهلا يجترئ عليه كل من يهم بــه..وعنــدما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات ويصبح الجزاء على الشــر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه وتوقع العقوبة الرادعة عليــه..عندئــذ يــتروي الشر،وتنحسر دوافعه.وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه.وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع،ولا يسمح لها بالسيطرة وعندئذ لا تشيع الفاحشة.

ولا تصبح هي الطابع العام! والمنهج الإسلامي – بعرضه لهــذه الظــاهرة في المجتمــع الإسرائيلي – في صورة الكراهية والتنديد،يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية.قبل أن تصبح ظاهرة عامــة ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلبا في الحق،وحساسا تجاه الاعتداء عليــه ويريــد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها،فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء..ولا يخافوا لومة لائم.سواء جاء هذا الشر من الحكــام المتســلطين بالحكم أو الأغنياء المتسلطين بالمال أو الأشرار المتسلطين بالأذي أو الجماهير المتســلطة بالهوى.فمنهج اللّه هو منهج اللّه،والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء.

والإسلام يشدد في الوفاء بهذه الأمانة فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه ويجعل الأمانة في عنق كل فرد،بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

روى الإمام أحمد عنْ عبْد الله،قال:قال رسول الله ﷺ:لّمّا وقعتْ بنو إسْرائيل في الْمعاصي،نهتْهمْ علماؤهمْ،فلمْ ينْتهوا،فجالسوهمْ في مجالسهمْ،قال يزيد:أحْسبه قال:وأسْواقهمْ،وواكلوهمْ وشاربوهمْ،فضرب اللّه قلوب بعْضهمْ ببعْضٍ،ولعنهمْ على لسان داود،وعيسى ابْن مرْيم،ذلك بما عصوْا وكانوا يعْتدون،وكان رسول الله ﷺمتّكئًا،فجلس،فقال:لا،والّذي نفْسي بيده،حتّى تأْطروهمْ على الْحقّ أطْرًا."[118]

وروى أبو داود عنْ عبْد اللّه بْن مسْعودٍ قال قال رسول اللّه -ﷺ- « إنّ أوّل ما دخل النّقْص على بنى إسْرائيل كان الرّجل يلْقى الرّجل فيقول يا هذا اتّق اللّه ودعْ ما تصْنع فإنّه لا يحلّ لك ثمّ يلْقاه من الْغد فلا يمْنعه ذلك أنْ يكون أكيله وشريبه وقعيده فلمّا فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعْضهمْ ببعْضٍ ».ثمّ قال (لعن الّذين كفروا منْ بنى إسْرائيل على لسان داود وعيسى ابْن مرْيم) إلى قوْله (فاسقون) ثمّ قال « كلاّ واللّه لتأْمرنّ بالْمعْروف ولتنْهونّ عن الْمنْكر ولتأْخذنّ على يدى الظّالم ولتأْطرنّه على الْحقّ أطْرًا ولتقْصرنّه على الْحقّ قصْرًا »[119].

فليس هو مجرد الأمر والنهي،ثم تنتهي المسألة،إنما هو الإصرار،والمقاطعة،والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

وروى مسلم عنْ طارق بْن شهابٍ - وهذا حديث أبى بكْرٍ - قال أوّل منْ بدأ بالْخطْبة يوْم الْعيد قبْل الصّلاة مرْوان فقام إليْه رجلٌ فقال الصّلاة قبْل الْخطْبة.فقال قدْ ترك ما هنالك.فقال أبو سعيدٍ أمّا هذا فقدْ قضى ما عليْه سمعْت رسول اللّه -ﷺ- يقول « منْ رأى منْكمْ منْكرًا فلْيغيّرْه بيده فإنْ لمْ يسْتطعْ فبلسانه فإنْ لمْ يسْتطعْ فبقلْبه وذلك أضْعف الإيمان ».[120].

---

[118] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٤٧) (٣٧١٣) حسن

[119] - سنن أبي داود - المكنز - (٤٣٣٨) حسن -تأطر:تعطفه عليه وتوجهه إليه

[120] - صحيح مسلم- المكنز - (١٨٦)

وروى الإمام أحمد عنْ مجاهدٍ،قال:حدّثني موْلًى لنا،أنّه سمع جدّي،يقول:سمعْت رسول الله ﷺيقول:إنّ اللّه لا يعذّب الْعامّة بعمل الْخاصّة،حتّى يروْا الْمنْكر بيْن ظهْرانيْهمْ،وهمْ قادرون على أنْ ينْكروه فلا ينْكروه،فإذا فعلوا ذلك،عذّب اللّه الْخاصّة والْعامّة."[121].

وعنْ طارقٍ قال:جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺفقال:أيّ الْجهاد أفْضل ؟ قال:كلمة حقٍّ عنْد إمامٍ جائرٍ.[122]

وعنْ أبي أمامة قال:جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺوهو عنْد الْجمْرة الأولى فقال:يا رسول الله،أيّ الْجهاد أفْضل ؟ قال:فسكت عنْه و لمْ يجبْه.ثمّ سأله عنْد الْجمْرة الثّانية،فقال له مثْل ذلك،فلمّا رمى النّبيّ ﷺجمْرة الْعقبة ووضع رجْله في الْغرْز قال:أيْن السّائل ؟ قال:كلمة عدْلٍ عنْد إمامٍ جائرٍ."[123]

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها - وهو يرى المنكر يقع من غيره -:وأنا مالي؟! وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع،بحيث لا يقول أحد - وهو يرى الفساد يسري ويشيع - وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات اللّه،والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من اللّه..هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به..

وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح باللّه ومعرفة تكاليف هذا الإيمان.وإلى الإدراك الصحيح لمنهج اللّه ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة.وإلى الجد في أخذ العقيدة بقوة،والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله..فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة اللّه ويقيم حياته كلها على منهجه هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا في الخضم أو يجعله غير ممكن أصلا في كثير من الأحيان! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض والتي تقيم حياتها على تقاليد

---

[121] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٨٢)(١٧٧٢٠) ١٧٨٧٢- صحيح لغيره

[122] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٣٩٣)(١٨٨٢٨) ١٩٠٣٣- صحيح

[123] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٤٠٦)(٢٢٢٠٧) ٢٢٥٦٠- حسن

ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد وتعتبر الفسق والفجور والمعصية «مسائل شخصية»! ليس لأحد أن يتدخل في شأنها..كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه،ويعقد الألسنة،وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان..

إن الجهد الأصيل،والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير..والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج اللّه..قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية،شخصية وفردية عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله وحين تطغى الجاهلية،وحين يقوم المجتمع على غير منهج اللّه وحين يتخذ له شريعة غير شريعة اللّه.فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس،وأن تنبت من الجذور وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان اللّه في الأرض..وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئا يرتكن إلى أساس.

وهذا يحتاج إلى إيمان.وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله في نظام الحياة.فالإيمان على هذا المستوى هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله ؛ والثقة كلها بنصرته للخير – مهما طال الطريق – واحتساب الأجر عنده،فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض،ولا تقديرا من المجتمع الضال،ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان !

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم.مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله،ويتحاكم إلى شريعته،مهما وجد فيه من طغيان الحكم،في بعض الأحيان،ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان..وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ:" أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر "..فهو "إمام" ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله ؛ وبتحكيم شريعته.فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له:"إمام" إنما يقول عنه الله – سبحانه – (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)..

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله،فالمنكر الأكبر فيهـا والأهم،فهـو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات..هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة..وهـذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار،قبـل الـدخول في المنكرات الجزئية،التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر،وفرع عنه،وعرض له..

إنه لا جدوى من ضياع الجهد..جهد الخيرين الصالحين من الناس..في مقاومة المنكـرات الجزئية،الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول..منكر الجرأة علـى الله وادعـاء خصـائص الألوهية،ورفض ألوهية الله،برفض شريعته للحياة..لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال.

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأي ميزان نـزن أعمـالهم لنقول لهم:إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول:إن هذا منكر ؛ فيطلع عليك عشرة مـن هنا ومن هناك يقولون لك:كلا ! ليس هذا منكرا.لقد كان منكرا في الزمـان الخـالي ! والدنيا "تتطور"،والمجتمع "يتقدم" وتختلف الاعتبار ات !

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال،ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليهـا المعروف والمنكر.فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان ؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم – وهي متقلبة لا تثبت على حال ؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها،وإلى خضم لا معالم فيه !

فلا بد ابتداء من إقامة الميزان..ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء..

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله..

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف – ابتداء – بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحـاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله ؟

ألا يكون جهدا ضائعا،وعبثا هازلا،أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنـهى عن المنكر،في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة،تختلف عليها الموازين والقيم،وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئيا على حكم،وعلى ميزان،وعلى سلطان،وعلى جهـــة يرجـــع إليها المختلفون في الآراء والأهواء..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة.والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة..وبعد إقامة الأساس يمكـــن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن،ولتحشد كلها في جبهة واحدة،لإقامة الأســـاس الذي عليه وحده يقام البنيان !

وإن الإنسان ليرثي أحيانا ويعجب لأناس طيبين،ينفقون جهدهم في "الأمـــر بـــالمعروف والنهي عن المنكر" في الفروع ؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،مقطوع !

فما غناء أن تنهي الناس عن أكل الحرام مثلا في مجتمع يقوم اقتصاده كله علـــى الربـــا ؛ فيستحيل ماله كله حراما ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال..لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله.لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله بـــرفض شـــريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهي الناس عن الفسق مثلا في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمـــة - إلا في حالة الإكراه - ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله..لأنه ابتداء يرفض ألوهيـــة الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تـــداول وشـــرب الخمـــر،ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام.وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله.لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين ؛ في مجتمع لا يعترف بسلطان الله ؛ ولا يعبد فيه الله.إنما هو يتخذ أربابا من دونه ؛ يتزلون له شريعته وقانونه ؛ ونظامه وأوضـــاعه،وقيمة وموازينه.والساب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله.إنما هما وأهل مجتمعهما طرا في دين من يتزلون لهم الشرائع والقوانين ؛ ويضعون لهم القيم والموازين ؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر – فضلا عن أن يكون النهي عن الصغائر – والكبيرة الكبرى لا نهي عنها..كبيرة الكفر بالله ؛ برفض منهجه للحياة ؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق،مما ينفق فيه هؤلاء "الطيبون" جهدهم وطاقتهم واهتمامهم..إنه – في هذه المرحلة – ليس أمر تتبع الفرعيات – مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله.فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه.فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع ؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة..فكل جهد في الفروع ضائع ؛ وكل محاولة في الفروع عبث..والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات..

عنْ طارق بْن شهابٍ قال أوّل منْ بدأ بالْخطْبة يوْم الْعيد قبْل الصّلاة مرْوان فقام إليْه رجلٌ فقال الصّلاة قبْل الْخطْبة.فقال قدْ ترك ما هنالك.فقال أبو سعيدٍ أمّا هذا فقدْ قضى ما عليْه سمعْت رسول اللّه -ﷺ- يقول « منْ رأى منْكمْ منْكرًا فلْيغيّرْه بيده فإنْ لمْ يسْتطعْ فبلسانه فإنْ لمْ يسْتطعْ فبقلْبه وذلك أضْعف الإيمان »[١٢٤]...

وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم ؛ فيبقى أضعف الإيمان ؛ وهو تغييره بقلوبهم ؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه،إن هم كانوا حقا على الإسلام !

وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر – كما يلوح في بادىء الأمر – وتعبير الرسول ﷺبأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته.فإنكار المنكر بالقلب،معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر..إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له،ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به..وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر،ولإقامة الوضع "المعروف" في أول فرصة تسنح،وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة..وهذا كله عمل إيجابي في التغيير..وهو على كل حال أضعف الإيمان.فلا أقل من

١٢٤ - صحيح مسلم- المكنز [١ /٢١٩](١٨٦)

أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع،ولأن له ضغطا – قد يكون ساحقا – فهو الخروج من آخر حلقة،والتخلي حتى عن أضعف الإيمان ! هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل:{ لعن الّذين كفروا منْ بني إسْرائيل على لسان داوود وعيسى ابْن مرْيم ذلك بما عصوْا وكانوا يعْتدون (٧٨) كانوا لا يتناهوْن عنْ منْكرٍ فعلوه لبئْس ما كانوا يفْعلون (٧٩) }[المائدة:٧٨،٧٩][١٢٥]

- **ولأنهم أشد الناس عداء لنا:**

قال تعالى:{ لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منْهمْ قسّيسين ورهْبانًا وأنّهمْ لا يسْتكْبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول ترى أعْينهمْ تفيض من الدّمْع ممّا عرفوا من الْحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكْتبْنا مع الشّاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا من الْحقّ ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين (٨٤) فأثابهم اللّه بما قالوا جنّاتٍ تجْري منْ تحْتها الْأنْهار خالدين فيها وذلك جزاء الْمحْسنين (٨٥) والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصْحاب الْجحيم (٨٦)} [المائدة/٨٢-٨٦]

يقول تعالى:إنّ أكْثر النّاس عداوةً للْمؤْمنين (الذين آمنوا بمحمّدٍ ﷺ واتّبعوه)،هم اليهود والمشْركون.وإنّ أقْرب النّاس مودّةً للْمسْلمين هم النّصارى،الذين قالوا عنْ أنْفسهمْ إنّهمْ يتابعون المسيح على دينه،لما في قلوبهمْ من الرّقّة والرّأْفة،ولأنّ بيْنهمْ قسّيسين يتولّوْن تعْليمهمْ أحْكام الدّين،ويبصّرونهمْ بما في دينهمْ منْ سموٍّ وآدابٍ وفضائل،ولأنّ بيْنهمْ رهْباناً يضْربون لهم المثل في الزّهْد والتقشّف والإعْراض عن الدّنْيا وزخْرفها وفتْنتها،وينمّون في نفوسهم الخوْف من الله،والانْقطاع للْعبادة،وإنّهمْ لا يسْتكْبرون عن الإذْعان للْحقّ،حينما يتبيّن لهمْ أنّه حقٌّ.

(كان اليهود والمشْركون يشْتركون في بعْض الصفات التي اقْتضتْ عداوتهم الشّديدة للْمؤْمنين:كالكبْر والعتوّ والبغْيّ والأثرة والقسْوة،وضعْف العاطفة الإنْسانيّة (منْ حنانٍ

---

[١٢٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٤٦)

ورحْمة) والعصبيّة القوْميّة.وكان مشْركو العـــرب في جاهليّتـــهمْ أرقّ مـــن اليهـــود قلوباً،وأعْظم سخاءً وإيثاراً،وأكْثر حرّيّةً في الفكْر واسْتقْلالاً في الرّأْي).

وإذا سمعوا ما أنْزل الله على رسوله من القرْآن،وتلي عليْهم القرْآن،تفيض عيوهمْ بالدّمْع (أيْ يبْكون حتّى يسيل الدّمع منْ عيوهمْ)،لأنّهمْ عرفوا أنّ ما بيْنه القرْآن هو الحقّ،و لمْ يمْنعْهمْ منْ ذلك عتوٌّ ولا اسْتكْبارٌ ولا تعصّبٌ كما يمْنع غيرهمْ.وحين يسْـــمعون الحـــقّ الذي جاء به القرْآن،وهو مطابقٌ لما جاء في كتبهمْ،يتضرّعون إلى الله بأنْ يتقبّـــل مـــنْهمْ إيماهمْ وأنْ يكْتبهمْ معْ أمّة محمّد الذين جعلهم الله شهداء على النّاس،لأنّهمْ يعْلمون مـــنْ كتبهمْ،وممّا يتناقلونه عنْ أسْلافهمْ،أنّ النّبيّ الأخـــير الـــذي يكْمـــل بـــه الـــدّيْن،ويتمّ التّشْريع،يكون متّبعوه شهداء على النّاس،ويكونون حجّةً على المشْركين والمبْطلين.

ويقول هؤلاء المؤْمنون من النّصارى:وما الذي يمْنعنا منْ أنْ نؤْمن بالله وحْده لا شـــريك له،وما الذي يصدّنا عن اتّباع ما جاءنا من الحقّ على لسان رسوله ﷺ،بعْد أنْ ظهر أنّـــه روح الحقّ الذي بشّر به المسيح وإنّنا لنطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع القوْم الـــذين صـــلحتْ أحْوالهمْ بالعقائد الصّحيحة.فجازاهم الله على إيمـــاهمْ بـــه وبرســـله،وعلى تصْـــديقهمْ بالحقّ،واعْترافهمْ به بإدْخـــالهمْ في رحْمته،وإسْـــكاهمْ في جنّـــاتٍ تجْـــري في جنباهـــا الأنْهار،وسيكونون فيها خالدين أبداً وذلك هو الجزاء الذي أعـــدّه الله لمـــنْ أحْســـن عملاً.والذين كفروا بالله،وبرسله وكتبه،وجحدوا آياته وخالفوها،فأولئك سيكونون منْ أهْل النّار،وسيبْقون فيها خالدين أبداً.[١٢٦]

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين،وإلى ولايتهم ومحبتهم،وأبعـــدهم مـــن ذلك:{لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا} فهؤلاء الطائفتـــان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين،وأكثرهم سعيا في إيصال الضـــرر إليهم،وذلك لشدة بغضهم لهم،بغيا وحسدا وعنادا وكفرا.

{ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى} وذكر تعالى لـــذلك عـــدة أسباب:

---

[١٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

منها:أن {مِــنْهمْ قسّيسِــين ورهْبانًــا} أي:علمــاء متزهــدين،وعبّادًا في الصــوامع متعبدين.والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه،ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة،فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود،وشدة المشركين.

ومنها:{أنهم لا يسْتكْبرون} أي:ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقيــاد للحق،وذلــك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم،فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها:أنهم {إذا سمعوا ما أنزل إلى الرّسول} محمد ﷺ،أثر ذلك في قلــوبهم وخشــعوا له،وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه،فلذلك آمنــوا وأقــروا بــه فقالوا:{ربّنا آمنّا فاكْتبْنــا مــع الشّــاهدين} وهــم أمــة محمــد ﷺ،يشــهدون لله بالتوحيد،ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به،ويشهدون على الأمم السابقة بالتصــديق والتكذيب.

وهم عدول،شهادتهم مقبولة،كما قال تعالى:{وكذلك جعلْناكمْ أمّةً وســطًا لتكونــوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليْكمْ شهيدًا}.

فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه،فقالوا:{وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا مــن الْحقّ ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين} أي:وما الذي يمنعنــا مــن الإيمــان بالله،والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا،الذي لا يقبل الشك والريب،ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين،فأي مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبــا للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى:{فأثابهم اللّه بما قالوا} أي:بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق {جنّاتٍ تجْري منْ تحْتها الأنْهار خالدين فيها وذلك جزاء الْمحْســنين} وهــذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمــد ﷺ،كالنجاشــي وغــيره ممــن آمــن منهم.وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام،ويتبين له بطلان مــا كــانوا عليه،وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين،ذكر عقاب المسيئين قال:{والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصْحاب الْجحيم} لأنهم كفروا بالله،وكذبوا بآياته المبينة للحق.[127]

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول - ﷺ- وأن تكون كذلك خطابا عاما خرج مخرج العموم،لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان.وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم..وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى،ويجده كل من يتأمل! نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا..ولكن تقديم اليهود هنا،حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين - بما أنهم أصلا أهل كتاب - يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه - على الأقل - يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة،وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا!

ونقول:إن هذا «على الأقل».ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا..وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة،فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا!

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة.وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة.وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام - ﷺ- وعلى

---

[127] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٤١)

الأمة المسلمة في تاريخها الطويل والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا،وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا "[128]

لقد عقد الرسول – ﷺ- أول مقدمه إلى المدينة،معاهدة تعايش مع اليهود ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة..ولكنهم لم يفوا بهذا العهد – شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل،حتى قال اللّه فيهم:«ولقدْ أنْزلْنا إليْك آيات بيّنات وما يكْفر بها إلّا الْفاسقون.أوكلّما عاهدوا عهْداً نبذه فريقٌ منْهمْ؟ بلْ أكْثرهمْ لا يؤْمنون.ولّما جاءهمْ رسولٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الْكتاب كتاب اللّه وراء ظهورهمْ كأنّهمْ لا يعْلمون» « البقرة ٩٩ – ١٠١.»

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع اللّه فيه الأوس والخزرج على الإسلام،فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج،ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول اللّه – ﷺ- فلم تعد لليهود فرصة للتسلط! ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية،وأفادتها من قرون السبي في بابل،والعبودية في مصر،والذل في الدولة الرومانية.ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ،فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة:«ويقولون للّذين كفروا:هؤلاء أهْدى من الّذين آمنوا سبيلًا» « النساء:٥١.»

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق – يوم أن كان الناس مسلمين – استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه – لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب اللّه الذي تكفل بحفظه

---

[128] – يراجع جانب من هذه الإشارات والتقريرات وتفسيرها في ظلال القرآن في الصفحات التالية.(السيد رحمه الله)

سبحانه – ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين،وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار.

ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض..حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة،وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين،ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين! وصدق اللّه العظيم:«لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا»..

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم وبين قريش في مكة،وبين القبائل الأخرى في الجزيرة..يهودي..

والذي ألب العوام،وجمع الشراذم،وأطلق الشائعات،في فتنة مقتل عثمان – رضي اللّه عنه – وما تلاها من النكبات..يهودي..والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول اللّه – ﷺ– وفي الروايات والسير..يهودي..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال «الدستور» بها في عهد السلطان عبد الحميد،ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي «البطل» أتاتورك..يهودي..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود! ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية..يهودي..ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي..ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود! [١٢٩]

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا،وأعرض مجالا،من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون – على ضراوتها – قديما وحديثا..إن المعركة مع

---

[١٢٩] – يراجع فصل:اليهود الثلاثة:ماركس وفرويد ودركايم في كتاب «التطور والثبات».محمد قطب.«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها.وكذلك كانت المعركة مـــع فارس في العهد الأول.أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بـــين الوثنيـــة الهنديـــة والإسلام ضراوة ظاهرة ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية..(التي تعد الماركســـية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمـــد وعـــرض المجال إلا معركة الصليبية،التي سنتعرض لها في الفقرة التالية.

فإذا سمعنا اللّه – سبحانه – يقول:«لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا».. ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا..ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي،فإننـــا نـــدرك طرفا من حكمة اللّه في تقديم اليهود على الذين أشركوا! إنهم هـــذه الجبلـــة النكـــدة الشريرة،التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبي الإسلام،فيحذر اللّـــه نبيـــه وأهل دينه منها..ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كـــانوا أهله!..ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه..

إن هذه الآيات تصور حالة،وتقرر حكما في هذه الحالة..تصور حالة فريق مـــن أتبـــاع عيسى – عليه السّلام –:«الّذين قالوا:إنّا نصارى »..وتقرر أنهم أقرب مـــودة للـــذين آمنوا..

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك في أنها تصور حالة معينـــة،هي الـــتي ينطبق عليها هذا التقرير المعين،فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها،ويجعلون منـــها مـــادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم مـــن المعســـكرات المختلفـــة،وموقف هـــذه المعسكرات منهم..لذلك نجد من الضروري – في ظلال القرآن – أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:

إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس،قالوا:إنا نصارى.هم أقـــرب مودة للذين آمنوا:«ذلك بأنّ منْهمْ قسّيسين ورهْباناً وأنّهمْ لا يسْتكْبرون»..فمنهم مـــن يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم..ولكـــن الســـياق القرآني لا يقف عند هذا الحد،ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل مـــن قـــالوا:إنـــا نصارى..إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها:«وإذا سمعوا مـــا أنْـــزل إلى

الرّسول ترى أعْينهمْ تفيض من الدّمْع ممّا عرفوا من الْحقّ،يقولون ربّنا آمنّا،فاكْتبْنا مع الشّاهدين.وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا من الْحقّ،ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين»..فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس،الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا..إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم،ولانت قلوبهم،وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه.والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير – وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول،فيفيض الدمع،ليؤدي ما لا يؤديه القول وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان..إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا..موقف القبول لهذا الحق،والإيمان به،والإذعان لسلطانه،وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة:«يقولون:ربّنا آمنّا فاكْتبْنا مع الشّاهدين.وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا من الْحقّ،ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين؟»..

إنهم أولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه.ثم يدعونه – سبحانه – أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض..الأمة المسلمة،التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق،وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر..فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة ويدعونه – سبحانه – أن يكتبهم في سجلها..

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان باللّه أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به،ولا يأملوا – بهذا الإيمان – أن يقبلهم ربهم،ويرفع

مقامهم عنده،فيدخلهم مع القوم الصالحين:«وما لنا لا نؤْمن باللّه وما جاءنا من الْحقّ،ونطْمع أنْ يدْخلنا ربّنا مع الْقوْم الصّالحين؟»..

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل اللّه إلى رسوله من الحق..موقف الاستماع والمعرفة،ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر،ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة،مع دعاء اللّه – سبحانه – أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق الذين يؤدون شهادتهم سلوكا وعملا وجهادا لإقراره في الأرض،والتمكين له في حياة الناس.

ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد:

هو طريق الإيمان باللّه،وبالحق الذي أنزله على رسوله،والأمل – بعد ذلك – في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا:إنا نصارى وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل اللّه إلى الرسول – ﷺ– من الحق وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح،بالإيمان المعلن،والانضمام إلى الصف المسلم والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال والدعاء إلى اللّه أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين..لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.بل يتابع خطاه لتكملة الصورة،ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلا:«فأثابهم اللّه بما قالوا جنّاتٍ تجْري منْ تحْتها الْأنْهار خالدين فيها.وذلك جزاء الْمحْسنين»..

لقد علم اللّه صدق قلوبهم وألسنتهم وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه،واعتبار هم أن أداء هذه الشهادة – بكل تكاليفها في النفس والمال – منة يمن اللّه بها على من يشاء من عباده واعتبار هم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين..

لقد علم اللّه منهم هذا كله فقبل منهم قولهم،وكتب لهم الجنة جزاء لهم وشهد لهم – سبحانه – بأنهم محسنون،وأنه يجزيهم جزاء المحسنين:«فأثابهم اللّه – بما قالوا – جنّات تجْري منْ تحْتها الْأنْهار خالدين فيها..وذلك جزاء الْمحْسنين..».

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام..واللّه – جل جلاله – قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين.هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم:«ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا:إنّا نصارى »..

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه،بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة.

وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام،والانضمام للصف المسلم والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها.وهو فريق علم اللّه منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين..

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا.بل إنه ليمضي فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا:إنا نصارى.ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون،ولا يستجيبون له،ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين:«والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصْحاب الْجحيم»..

والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون – من الذين قالوا إنا نصارى – ثم لا يستجيبون..والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا في مثل هذا الموقف.سواء في ذلك اليهود والنصارى ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء ما داموا في موقف التكذيب لما أنزل اللّه على رسوله من الحق وفي موقف الامتناع عن الدخول في الإسلام الذي لا يقبل اللّه من الناس دينا سواه..نجد هذا في مثل قول اللّه سبحانه:«لمْ يكن الّذين كفروا – منْ أهْل الْكتاب والْمشْركين – منْفكّين حتّى تأْتيهم الْبيّنة»..«إنّ الّذين كفروا – منْ أهْل الْكتاب والْمشْركين – في نار جهنّم خالدين فيها أولئك همْ شرّ الْبريّة»..

«لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه ثالث ثلاثة»..

«لقدْ كفر الّذين قالوا:إنّ اللّه هو الْمسيح ابْن مرْيم»..

« لعن الّذين كفروا منْ بني إسْرائيل على لسان داود وعيسى ابْن مرْيم»..

فهو تعبير مألوف في القرآن،وحكم معهود..وهو يأتي هنا للتفرقة بين فريقين من الــذين قالوا:إنا نصارى وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا وللتفرقة كــذلك بين مصير هؤلاء وأولئك عند اللّه..هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين.وأولئك أصحاب الجحيم..

وليس كل من قالوا:إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم:«ولتجدنّ أقْــربهمْ مــودّةً للّذين آمنوا»..

كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها..إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضا،ولا ملامحها مجهلة،ولا موقفها متلبســا بموقف سواها في كثير ولا قليل..

ولقد وردت روايات لها قيمتها في تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص[١٣٠]:

عن ابْن شهاب،أخْبرني سعيد بْن الْمسيّب،وأبو بكْر بْن عبْد الرّحْمن بْن الْحــارث بْــن هشامٍ،وعرْوة بْن الزّبيْر،قالوا:"بعث رسول اللّه ﷺ عمْرو بْن أميّة الضّمْريّ،وكتب معة كتابًا إلى النّجاشيّ،فقدم على النّجاشيّ،فقرأ كتاب رسول اللّه ﷺ،ثمّ دعا جعْفر بْــن أبي طالبٍ والْمهاجرين معه،وأرْسل النّجاشيّ إلى الرّهْبان والْقسّيسين،ثمّ أمر جعْفر بْــن أبي طالبٍ فقرأ عليْهمْ سورة مرْيم،فآمنوا بالْقرْآن وفاضتْ أعْينهمْ من الدّمْع،فهم الّذين أنْزل فيهمْ " ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منْهمْ قسّيسين ورهْبانًا وأنّهمْ لا يسْتكْبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول ترى أعْينهمْ تفــيض من الدّمْع ممّا عرفوا من الْحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكْتبْنا مــع الشّــاهدين (٨٣) [المائــدة]".[١٣١]

---

[١٣٠] - **ذكرها السيد رحمه الله مختصرة من تفسير القرطبي وأتيت بها وبغيرها كاملة لتتضح الصورة تماما**

[١٣١] - تفسير ابن أبي حاتم - (٥ / ٥٦) صحيح مرسل

وعنْ عبْد الرّحْمن بْن سابطٍ قالوا:لّما قدم أصْحاب النّبيّ ﷺ مكّة من الْهجْرة الْأولى اشْتدّ عليْهمْ قوْمهمْ،وسطتْ بهمْ عشائرهمْ ولقوا منْهمْ أذًى شديدًا،فأذن لهمْ رسول اللّه ﷺ في الْخروج إلى أرْض الْحبشة مرّةً ثانيةً،فكانتْ خرْجتهم الْآخرة أعْظمها مشقّةً،ولقوا منْ قريْشٍ تعْنيفًا شديدًا،ونالوهمْ بالْأذى واشْتدّ عليْهمْ ما بلغهمْ عن النّجاشيّ منْ حسْن جواره لهمْ،فقال عثْمان بْن عفّان:يا رسول اللّه،فهجْرتنا الْأولى،وهذه الْآخرة إلى النّجاشيّ ولسْت معنا،فقال رسول اللّه ﷺ:" أنْتمْ مهاجرون إلى اللّه وإليّ،لكمْ هاتان الْهجْرتان جميعًا " قال عثْمان:فحسْبنا يا رسول اللّه،وكان عدّة منْ خرج في هذه الْهجْرة من الرّجال ثلاثةٌ وثمانين رجلًا،ومن النّساء إحْدى عشرة امْرأةً قرشيّةً،وسبْعٌ غرائب،فأقام الْمهاجرون بأرْض الْحبشة عنْد النّجاشيّ بأحْسن جوارٍ،فلمّا سمعوا بمهاجر رسول اللّه ﷺ إلى الْمدينة،رجع منْهمْ ثلاثةٌ وثلاثون رجلًا،ومن النّساء ثماني نسْوةٍ،فمات منْهمْ رجلان بمكّة،وحبس بمكّة سبْعة نفرٍ وشهد بدْرًا منْهمْ أرْبعةٌ وعشْرون رجلًا،فلمّا كان شهْر ربيعٍ الْأوّل سنة سبْعٍ منْ هجْرة رسول اللّه ﷺ إلى الْمدينة كتب رسول اللّه ﷺ إلى النّجاشيّ كتابًا يدْعوه فيه إلى الْإسْلام،وبعث به مع عمْرو بْن أميّة الضّمْريّ،فلمّا قرئ عليْه الْكتاب أسْلم،وقال:لوْ قدرْت أنْ آتيه لأتيْته،وكتب إليْه رسول اللّه ﷺ أنْ يزوّجه أمّ حبيبة بنْت أبي سفْيان بْن حرْبٍ،وكانتْ فيمنْ هاجر إلى أرْض الْحبشة مع زوْجها عبيْد اللّه بْن جحْشٍ،فتنصّر هناك ومات،فزوّجه النّجاشيّ إيّاها وأصْدق عنْه أرْبعمائة دينارٍ،وكان الّذي ولي تزْويجها خالد بْن سعيد بْن الْعاص،وكتب إليْه رسول اللّه ﷺ أنْ يبْعث إليْه منْ بقي عنْده منْ أصْحابه ويحْملهمْ ففعل وحملهمْ في سفينتيْن مع عمْرو بْن أميّة الضّمْريّ فأرْسلوا بهمْ إلى ساحل بولا وهو الْجار،ثمّ تكاروا الظّهْر حتّى قدموا الْمدينة فيجدون رسول اللّه ﷺ بخيْبر،فشخصوا إليْه،فوجدوه قدْ فتح خيْبر،فكلّم رسول اللّه ﷺ الْمسْلمين أنْ يدْخلوهمْ في سهْمانهمْ ففعلوا "[١٣٢]

وعنْ أبي إسْحاق قال:"،ثمّ قدم على رسول اللّه ﷺ عشْرون رجلًا،وهو بمكّة أوْ قريبٍ منْ ذلك من النّصارى حين ظهر خبره من الْحبشة،فوجدوه في الْمجْلس

---

١٣٢ - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (٤٨١) صحيح لغيره

فكلّموه،وساءلوه،ورجالٌ منْ قريْشٍ في أنْديتهمْ حوْل الْكعْبة،فلمّا فرغوا منْ مسْــألتهمْ رسول اللّه ﷺ عمّا أرادوا،دعاهمْ رسول اللّه ﷺ إلى اللّه عــزّ وجــلّ وتــلا علــيْهم الْقرْآن،فلمّا سمعوا فاضتْ أعْينهمْ من الدّمْع،ثمّ اسْتجابوا له،وآمنوا به،وصــدّقوه،وعرفوا منْه ما كان يوصف لهمْ في كتابهمْ منْ أمْره،فلمّا قاموا منْ عنْده اعْترضهمْ أبو جهْــلٍ في نفرٍ منْ قريْشٍ،فقالوا:خيّبكم اللّه منْ ركْبٍ:بعثكمْ منْ وراءكمْ منْ أهْل دينكمْ ترْتــادون لهمْ،فتأْتوهمْ بخبر الرّجل فلمْ نطْمئنْ مجالسكمْ عنْده حتّى فارقْتمْ دينكمْ وصدّقْتموه بما قال لكمْ،ما نعْلم ركْبًا أحْمق منْكمْ،أوْ كما قالوا لهمْ،فقالوا:سلامٌ علــيْكمْ لا نجاهلكمْ،لنــا أعْمالنا ولكمْ أعْمالكمْ،لا نأْلوا أنْفسنا خيْرًا.فيقال:إنّ النّفر النّصارى منْ أهْل نجْران،واللّه أعْلم أيّ ذلك كان.ويقال:واللّه أعْلم،إنّ فيهمْ نزلتْ هؤلاء الْآيات الّذين آتيْناهم الْكتاب منْ قبْله همْ به يؤْمنون إلى قوْله لا نبْتغي الْجاهلين "[١٣٣]

وعن ابْن عبّاسٍ:ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصــارى،قال:" كــان رسول اللّه ﷺ وهو بمكّة خاف على أصْحابه من الْمشْركين،فبعث جعْفر بْن أبي طالبٍ وابْن مسْعودٍ وعثْمان بْن مظْعونٍ في رهْطٍ منْ أصْحابه إلى النّجاشيّ ملك الْحبشــة،فلمّا بلغ ذلك الْمشْركين،بعثوا عمْرو بْن الْعاص في رهْطٍ منْهمْ،ذكر أنّهمْ ســبقوا أصْــحاب النّبيّ ﷺ إلى النّجاشيّ،فقالوا:إنّه خرج فينا رجلٌ سفّه عقول قريْشٍ وأحْلامها،زعم أنّــه نبيّ،وإنّه بعث إليْك رهْطًــا ليفْســدوا عليْــك قوْمك،فأحْببْنــا أنْ نأْتيــك ونخْــبرك خبرهمْ.قال:إنْ جاءوني نظرْت فيما يقولون.فقدم أصْحاب رسول اللّه ﷺ،فأقاموا بباب النّجاشيّ فقالوا:أتأْذن لأوْلياء اللّه ؟ فقال:ائْذنْ لهمْ،فمرْحبًا بأوْلياء اللّه،فلمّا دخلوا عليْــه سلّموا،فقال له الرّهْط من الْمشْركين:ألا ترى أيّها الْملك أنّا صدقْناك،لمْ يحيّوك بتحيّتك الّتي تحيّا بها ؟ فقال لهمْ:ما منعكمْ أنْ تحيّوني بتحيّتي ؟ فقالوا:إنّا حيّيْناك بتحيّة أهْل الْجنّة وتحيّة الْملائكة.قال لهمْ:ما يقول صاحبكمْ في عيسى وأمّه ؟ قال:يقول:هو عبْــد اللّــه وكلمةٌ من اللّه ألْقاها إلى مرْيم،وروحٌ منْه،ويقول في مرْيم:إنّها الْعذْراء الْبتول.قال:فأخــذ عودًا من الْأرْض فقال:ما زاد عيسى وأمّه على ما قال صاحبكمْ قدْر هذا الْعــود،فكره

---

١٣٣ - دَلَائِلُ النُّبوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٩٨) حسن مرسل

الْمشْركون قوْله،وتغيّرتْ وجوههمْ.قال لهمْ:هلْ تعْرفون شيْئًا ممّا أنْزل عليْكمْ ؟ قالوا:نعمْ.قال:اقْرءوا،فقرؤوا،وهنالك منْهمْ قسّيسون ورهْبانٌ وسائر النّصارى،فعرفتْ كلّ ما قرأوا،وانْحدرتْ دموعهمْ ممّا عرفوا من الْحقّ.قال اللّه تعالى ذكْره:ذلك بأنّ منْهمْ قسّيسين ورهْبانًا وأنّهمْ لا يسْتكْبرون وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول الْآية "[١٣٤]

وعن السّدّيّ:ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى الْآية.قال:" بعث النّجاشيّ إلى رسول اللّه ﷺ اثْنيْ عشر رجلًا من الْحبشة،سبْعةً قسّيسين وخمْسةً رهْبانًا،ينْظرون إليْه ويسْألونه.فلمّا لقوْه فقرأ عليْهمْ ما أنْزل اللّه بكوْا وآمنوا،فأنْزل اللّه عليْه فيهمْ:وأنّهمْ لا يسْتكْبرون وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول ترى أعْينهمْ تفيض من الدّمْع ممّا عرفوا من الْحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكْتبْنا مع الشّاهدين،فآمنوا ثمّ رجعوا إلى النّجاشيّ،فهاجر النّجاشيّ معهمْ،فمات في الطّريق،فصلّى عليْه رسول اللّه ﷺ والْمسْلمون واسْتغْفروا له "[١٣٥]

وعنْ قتادة،قوْله:ولتجدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا،فقرأ حتّى بلغ فاكْتبْنا مع الشّاهدين:" أناسٌ منْ أهْل الْكتاب كانوا على شريعةٍ من الْحقّ ممّا جاء به عيسى،يؤْمنون به وينْتهون إليْه،فلمّا بعث اللّه نبيّه محمّدًا ﷺ صدّقوا به وآمنوا،وعرفوا الّذي جاء به أنّه الْحقّ،فأثْنى عليْهمْ ما تسْمعون " والصّواب في ذلك من الْقوْل عنْدي أنّ اللّه تعالى وصف صفة قوْمٍ قالوا:إنّا نصارى،أنّ نبيّ اللّه ﷺ يجدهمْ أقْرب النّاس ودادًا لأهْل الْإيمان باللّه ورسوله،و لمْ يسمّ لنا أسْماءهمْ.وقدْ يجوز أنْ يكون أريد بذلك أصْحاب النّجاشيّ،ويجوز أنْ يكون أريد به قوْمٌ كانوا على شريعة عيسى فأدْركهم الْإسْلام فأسْلموا لّما سمعوا الْقرْآن وعرفوا أنّه الْحقّ،و لمْ يسْتكْبروا عنْه "[١٣٦]

وقيل:إن جعفرا وأصحابه قدم على النبي ﷺفي سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف،فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيراء الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقثم ودريد وأيمن،فقرأ عليهم رسول الله ﷺسورة {يس} إلى

---

[١٣٤] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١١٩٩) حسن

[١٣٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٢٠٠) حسن مرسل

[١٣٦] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٢٠٢) صحيح مرسل

آخرها،فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا،وقالوا:ما أشبه هذا بما كان يترل علـــى عيســـى فترلت فيهم {لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْــركوا ولتجـــدنّ أقْربهمْ مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى} يعني وفد النجاشي وكانوا أصـــحاب الصوامع.وقال سعيد بن جبير:وأنزل الله فيهم أيضا {الّذين آتيْناهم الْكتاب منْ قبْله همْ به يؤْمنون} إلى قوله:{أولئك يؤْتوْن أجْرهمْ مرّتيْن} إلى آخـــر الآيـــة.وقـــال مقاتـــل والكلبي:كانوا أربعين رجلا من أهل نجران من بني الحرث بن كعب،واثنان وثلاثون من الحبشة،وثمانية وستون من أهل الشام.وقال قتادة:نزلت في ناس من أهل الكتاب كـــانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى،فلما بعث الله محمـــدا ﷺآمنـــوا بـــه فـــأثنى الله عليهم."[١٣٧]

وعن ابْن الزّبيْر،قال:نزلتْ هذه الآية {وإذا سمعوا ما أنْزل إلى الرّسول ترى أعْينهمْ تفيض من الدّمْع} قال:نزلتْ في النّجاشيّ،وأصْحابه[١٣٨].

وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص والذي يدل عليه الســـياق بذاته،وتؤيـــده هـــذه الروايات التي أسلفنا،هو الذي يتفق مع بقية التقريرات في هذه السورة وفي غيرها عـــن موقف أهل الكتاب عامة – اليهود والنصارى – من هذا الدين وأهله.كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا.

إن السورة وحدة في اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها وكلام اللّه ســـبحانه لا ينـــاقض بعضه بعضا.«ولوْ كان منْ عنْد غيْر اللّه لوجدوا فيه اخْتلافاً كثيراً»..وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات،تحدد معنى هذا النص الذي نواجهه هنا وتجلوه..نذكر منها:«يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء،بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ،ومـــنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ،إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين»..

---

١٣٧ – تفسير القرطبي – دار عالم الكتب،الرياض [٦ /٢٥٥]

١٣٨ – كشف الأستار [٣ /٢٨٦](٢٧٥٨) صحيح

«قلْ:يا أهْل الْكتاب لسْتمْ على شيْءٍ حتّى تقيموا التّوْراة والْإنْجيل وما أنْزل إليْكمْ منْ ربّكمْ.وليزيدنّ كثيراً منْهمْ ما أنْزل إليْك منْ ربّك طغْياناً وكفْراً،فلا تأْس على الْقوْم الْكافرين»..

كذلك جاء في سورة البقرة:«ولنْ ترْضى عنْك الْيهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهمْ.قلْ:إنّ هدى اللّه هو الْهدى ولئن اتّبعْت أهْواءهمْ بعْد الّذي جاءك من الْعلْم ما لك من اللّه منْ وليٍّ ولا نصيرٍ»..

كذلك صدّق الواقع التاريخي ما حذر اللّه الأمة المسلمة إياه من اليهود ومن النصارى سواء.وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة في صورة كيد لم ينته و لم يكف حتى اللحظة الحاضرة وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم..فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم – فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه.وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك يلاقون من ظلمها الوبال! – أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوارها قط – إلا في الظاهر – منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك! لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان،كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس،ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في إفريقية أولا،ثم في العالم كله أخيرا..

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام – على كل ما بينهما من أحقاد – ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير:«بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ» حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة.ثم مضوا في طريقهم

ينقضون هذا الدين عروة عروة.وبعد أن أجهزوا على عروة «الحكم» هـا هـم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة «الصلاة»! ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين.فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام.عن طريق المساعدات المباشرة تارة،وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تـارة أخـرى! ولـيس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد.

وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض.وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم،ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام،في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال! هذا موجز سريع لما سجله الواقع التـاريخي طوال أربعة عشر قرنا من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام لا فرق بين هذه وتلك ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام،والحقد عليه،

والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان.

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغدا فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني – دون متابعة لبقيته ودون متابعـة لسياق السورة كله،ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة،ودون متابعة للواقـع التـاريخي الذي يصدق هذا كله – ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخـدير مشـاعر المسـلمين تجـاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها،وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئا أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة – مهما قل عددها وعدتها – فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة.وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة ولكن ضررهم لا يقل – حينئذ – عـن ضـرر أعـدى الأعداء،بل إنه ليكون أشد أذى وضرا.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وهو لا ينـــاقض بعضـــه بعضـــا،فلنقرأه إذن علـــى بصيرة..[١٣٩]

- **ولأن هذا طبعهم وديدهم معنا:**

قال تعالى:{ يسْألونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه وكفْرٌ به والْمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْه أكْبر عند اللّه والْفتْنة أكْبر مـــن الْقتْـــل ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عن دينكمْ إن اسْتطاعواْ ومن يرْتددْ منكمْ عـــن دينـــه فيمتْ وهو كافرٌ فأوْلئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والآخرة وأوْلئك أصْحاب النّار هـــمْ فيها خالدون} (٢١٧) سورة البقرة

بعث الرّسول ﷺ عبْد الله بْن جحْشٍ على سريّةٍ وأمرها بأمْرٍ،فلقيت السّريّة ابْن الحضْرميّ فقتلتْه،ولْم يعْرفْ رجال السّريّة إنْ كان ذلك اليوْم منْ رجبٍ أوْ منْ جمادى الآخرة،فقال المشْركون للْمسْلمين:قتلْتمْ في الشّهْر الحرام،فأنْزل الله هذه الآية.وفيها يقـــول ســـبْحانه للْمشْركين:إنّ القتال في الشّهر الحرام أمْرٌ كبير في نفْسه،وجرْمٌ عظيمٌ،ولكنّه إذا ارتكب لإزالة ما هو أعْظم منْه،كان له ما يبرّره،وإنّ ما فعله المشْركون من الكفْر بالله،والصّـــدّ عنْ سبيله،ومحاولة فتْنة المسْلمين عنْ دينهمْ بالتّعْذيب والتّهْديد،وإخراج المسْـــلمين مـــنْ مكّة.كلّ ذلك أكْبر عنْد الله من القتال في الشّهْر الحرام.

وقدْ كان المشْركون يفْتنون المسْلمين عنْ دينـــهمْ بالتّعْـــذيب والإخافـــة ليردّوهـــمْ إلى الكفْر،وهذا أكْبر عنْد الله من القتْل،وهمْ ما زالوا مقيمين على الكفْر،وعلى محاولة فتْنـــة المسْلمين ليردّوهمْ عنْ دينهمْ إن اسْتطاعوا،وعلى محاولة منْع الإسْـــلام مـــن الانْتشـــار والقضاء عليه،إنْ أمْكنهم ذلك،لاسْتحْكام عداوهمْ للمسْلمين.ويهدّد الله منْ يضْعف من المسْلمين أمام هجماهمْ،ومحاولاهمْ وإغْراءاهمْ فيرْتدّ عنْ دينه،ثمّ يموت وهو كافرٌ،بالعذاب الأليم الأبديّ في نار جهنّم،وبحبوط عمله في الدّنيا والآخرة.[١٤٠]

---

[١٣٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٥٨)

[١٤٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم،منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا،وقال بعض المفسرين:إنه لم ينسخ،لأن المطلق محمول على المقيد،وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقا؛ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم،بل أكبر مزاياها،تحريم القتال فيها،وهذا إنما هو في قتال الابتداء،وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم،كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل،لسرية عبد الله بن جحش،وقتلهم عمرو بن الحضرمي،وأخذهم أموالهم،وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب،عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم،وكانوا في تعييرهم ظالمين،إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين،قال تعالى في بيان ما فيهم:{وصدٌّ عنْ سبيل اللّه} أي:صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله،وفتنتهم من آمن به،وسعيهم في ردهم عن دينهم،وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام،والبلد الحرام،الذي هو بمجرده،كاف في الشر،فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟! {وإخْراج أهْله} أي:أهل المسجد الحرام،وهم النبي ﷺ وأصحابه،لأنهم أحق به من المشركين،وهم عماره على الحقيقة،فأخرجوهم {منْه} ولم يمكنوهم من الوصول إليه،مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد،فهذه الأمور كل واحد منها {أكْبر من الْقتْل} في الشهر الحرام،فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة،في تعييرهم المؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين،وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم،وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم،ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير،فهم باذلون قدرتهم في ذلك،ساعون بما أمكنهم،{ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}.

وهذا الوصف عام لكل الكفار،لا يزالون يقاتلون غيرهم،حتى يردوهم عن دينهم،وخصوصا،أهل الكتاب،من اليهود والنصارى،الذين بذلوا الجمعيات،ونشروا الدعاة،وبثوا الأطباء،وبنوا المدارس،لجذب الأمم إلى دينهم،وتدخيلهم عليهم،كل ما يمكنهم من الشبه،التي تشككهم في دينهم.

ولكن المرجو من الله تعالى،الذي منّ على المؤمنين بالإسلام،واختار لهم دينه القيم،وأكمل لهم دينه،أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام،وأن يخذل كـــل مـــن أراد أن يطفـــئ نوره،ويجعل كيدهم في نحورهم،وينصر دينه،ويعلي كلمته.

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار،كما صـــدقت علـــى مـــن قبلهم:{إنّ الّذين كفروا ينْفقون أمْوالهمْ ليصدّوا عنْ سبيل اللّه فســـينْفقونها ثمّ تكـــون عليْهمْ حسْرةً ثمّ يغْلبون والّذين كفروا إلى جهنّم يحْشرون}.

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام،بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلـــك حـــتى مات كافرا،{فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والآخرة} لعدم وجود شـــرطها وهـــو الإسلام،{وأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون}.ودلت الآية بمفهومها،أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام،أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته،وكذلك من تاب من المعاصـــي،فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.[١٤١]

وقد جاء في روايات متعددة بعث عبد الله بن جحْش الأسدىّ إلى نخْلة فى رجـــب،على رأْس سبعة عشر شهراً من الهجْرة،فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين،كلّ اثنين يعتقبـــان على بعير،فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش،وفى هذه السّريّة سمّى عبد الله بـــن جحش أمير المؤمنين،وكان رسول الله ﷺكتب له كتاباً،وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين،ثم ينظر فيه،ولما فتح الكتاب،وجد فيه:"إذا نظرْت فى كتابى هذا،فامْض حتّى تنْزل نخْلة بيْن مكّة والطّائف،فترْصد بها قريْشاً،وتعْلم لنـــا مـــنْ أخْبـــارهم" فقـــال:سمعـــاً وطاعةً،وأخبر أصحابه بذلك،وبأنه لا يستكرههم،فمن أحبّ الشهادة،فلينهض،ومن كره الموت،فليرجعْ،وأما أنا فناهض،فمضوْا كلّهم،فلما كان فى أثناء الطريق،أضلّ سعد بن أبى وقاص،وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعْتقبانه،فتخلفا فى طلبه،وبعد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة،فمرّت به عيرٌ لقريش تحْمل زبيباً وأدمـــاً وتجـــارةً فيهـــا عمْـــرو بـــن الحضْرمى،وعثمان،ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة.

---

[١٤١] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٧)

فتشاور المسلمون وقالوا:نحن فى آخر يومٍ من رجب الشهر الحرام،فإن قاتلناهم،انتـــهكنا الشهر الحرام،وإن تركناهم الليلة،دخلوا الحرم،ثم أجمعوا على ملاقـــاتهم،فرمى أحـــدهم عمْرو بن الحضرمى فقتله،وأسروا عثمان والحكم،وأفْلـــت نوفـــل،ثم قـــدموا بـــالعير والأسيرين،وقد عزلوا من ذلك الخمس،وهو أول خمس كان فى الإسلام،وأول قتيـــل فى الإسلام،وأول أسيرين فى الإسلام،وأنكر رسول الله ﷺعليهم ما فعلوه،واشـــتدّ تعنّـــت قريش وإنكارهم ذلك،وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً،فقالوا:قد أحـــلّ محمـــد الشـــهر الحرام،واشتد على المسلمين ذلك،حتى أنزل الله تعالى:{يسْئلونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه،قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ،وصدٌ عنْ سبيل الله وكفْرٌ به والمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْـــه أكْبر عنْد الله،والفتْنة أكْبر من الْقتْل} [البقرة:٢١٧].[١٤٢]

وعنْ جنْدب بْن عبْد اللّه،"أنّ رسول اللّه ﷺ بعث رهْطًا وبعث عليْهمْ أبا عبيْـــدة بْـــن الْجرّاح أوْ عبيْدة بْن الْحارث،فلمّا ذهـــب ينْطلـــق بكـــى صـــبابةً إلى رســـول اللّـــه ﷺ،فجلس،فبعث عليْهمْ مكانه عبْد اللّه بْن جحْشٍ وكتب له كتابًـــا وأمـــره ألا يقْـــرأ الْكتاب حتّى يبْلغ مكان كذا وكذا،فقال:لا تكْرهنّ أحدًا علـــى السّـــيْر معـــك مـــنْ أصْحابك.فلمّا قرأ الْكتاب،اسْترْجع،وقال:سمْعًا وطاعةً للّه ولرسوله.فخبّرهم الْخبر وقـــرأ عليْهم الْكتاب،فرجع رجلان،ومضى بقيّتهمْ،فلقوا ابْن الْحضْرميّ فقتلوه.ولمْ يـــدْروا أنّ ذلك الْيوْم منْ رجب أوْ منْ جمادى ؟ فقال الْمشْركون للْمسْـــلمين:قتلْـــتمْ في الشّـــهْر الْحرام،فأنْزل اللّه تعالى:" يسْألونك عن الشّهْر الْحرام قتالٌ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ " ".[١٤٣]

عَنْ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ،وَاسْتَفْتَيْتُهُ:" هَلْ يَصْلُحُ لِلْمُسْلمينَ أَنْ يُقَاتلُوا الْكُفَّـــارَ فِـــي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ؟ فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ:" نَعَمْ " قَالَ بُكَيْرٌ:وَقَالَ ذَلكَ سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنه:أَنَّ ذَلكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ بِمَا نَـــزَلَ فِـــي سُورَة بَرَاءَةَ كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ:حَـــدَّثَنَا عَبْـــدُ اللهِ بْـــنُ صَـــالِحٍ قَالَ:حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ،عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:{ بَرَاءَةٌ مِنَ

---

[١٤٢] - سيرة ابن هشام [١ /٦٠٢] وزاد المعاد في هدي خير العباد-مؤسسة الرسالة،بيروت [٣ /١٦٧] و تفسير ابن كثير - دار طيبة [١ /٥٧٥]

[١٤٣] - تفسير ابن أبي حاتم [٢ /٨٨] (٢٠٦٤) صحيح

اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْـأَرْضِ أَرْبَعَـةَ أَشْـهُرٍ } [التوبة:٢] قَالَ:" حَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولَهُ ﷺأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِيهَـا حَيْثُ شَاءُوا،وَحَدَّ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ انْسِلَاخَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى انْسِـلَاخِ الْمُحَرَّمِ خَمْسِينَ لَيْلَةً:{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ،وَآتَوُا الزَّكَـاةَ،فَخَلُّوا سَـبِيلَهُمْ } [التوبة:٥] فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ،أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَنْ عَاهَدَ إِنْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ،وَنَقَضَ مَا سَمَّى لَهُمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ،وَأَذْهَـبَ الْمِيقَاتَ،وَأَذْهَـبَ الشَّـرْطَ الْأَوَّلَ،ثُمَّ قَالَ:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [التوبة:٧]،يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبـة:٧]،وَقَوْلُـهُ:{ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } [التوبة:٨]،قَوْلُهُ:إِلًّا:الْقَرَابَةُ،وَالْعَهْدُ:الذِّمَّةُ فَلَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ،انْتُقِضَتِ الْعُهُودُ،وَقَاتَلَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدَهُمْ،وَقَعَدَ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ حَتَّى دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ،فَلَمْ يُؤْوَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ بَرَاءَةَ " فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَـى أَنَّ الْعُهُودَ كُلَّهَا انْقَطَعَتْ بِمَا تَلَوْنَا فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ،وَحَلَّ الْقِتَالُ فِي الزَّمَانِ كُلِّهِ،وَحَمَلْنَا عَلَى قَبُولِ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَإِنْ كَانَ لَمْ يَلْقَهُ ؛لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ عَنْـهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ،وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَاضِي قَالَ:سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ فَهْدٍ يَقُولُ:سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ:بِمِصْـرَ كِتَـابُ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ فِي التَّأْوِيلِ،لَوْ دَخَلَ رَجُلٌ إِلَى مِصْرَ،فَكَتَبَهُ،ثُمَّ انْصَرَفَ بِهِ مَـا رَأَيْـتُ رِحْلَتَهُ ذَهَبَتْ بَاطِلًا وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ". [١٤٤]

قال ابن القيم:" يقول سبحانه:هذا الذى أنكرتموه عليهم،وإن كان كبيراً،فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله،والصدِّ عن سبيله،وعن بيته،وإخراجِ المسلمين الـذين هـم أهلُـه منه،والشرك الذى أنتم عليه،والفتنة التى حصلت منكم به أكبرُ عند الله من قتـالهم فى الشهر الحرام،وأكثرُ السَلَف فسَّروا الفتنة ههنا بالشرك،كقوله تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] ويدل عليه قوله:{ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَـا

[١٤٤] - شرح مشكل الآثار [١٢ /٣٨٧]

مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام:٢٣] أى: لم يكن مآلُ شركهم،وعاقبته وآخرُ أمرهم،إلا أن تبرّؤوا منه وأنكروه.

وحقيقتها:أنها الشرك الذى يدعو صاحبُه إليه،ويُقاتِل عليه،ويُعاقب مَن لم يَفْتتِنْ به،ولهذا يُقال لهم وقتَ عذابهم بالنار وفتنتهم بها:{ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات:١٤] قال ابن عباس:"تكذيبَكم"،وحقيقته:ذوقوا نهاية فتنتكم،وغايَتَها،ومصيرَ أمرها،كقوله:{ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الزمر:٢٤]،وكما فتنوا عباده على الشرك،فُتِنُوا على النار،وقيل لهم:ذوقوا فتنتكم،ومنه قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ} [البروج:١٠] فُسِّرت الفتنةُ ههنا بتعذيبهم المؤمنين،وإحراقهم إياهم بالنار،واللَّفظُ أعمُّ من ذلك،وحقيقته:عذَّبُوا المؤمنين ليفتَتِنُوا عن دينهم،فهذه الفتنةُ المضافةُ إلى المشركين.

وأما الفتنة التى يُضيفها اللهُ سبحانه إلى نفسه أو يُضيفها رسولُه إليه،كقوله:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [الأنعام:٥٣] وقول موسى:{إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ} [الأعراف:١٥٥]،فتلك بمعنى آخر،وهى بمعنى الامتحان،والاختبار،والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر،بالنعم والمصائب،فهذه لون،وفتنةُ المشركين لون،وفتنة المؤمن فى ماله وولده وجاره لون آخر،والفتنة التى يوقعها بين أهل الإسلام،كالفتنة التى أوقعها بين أصحاب علىّ ومعاوية،وبين أهل الجمل وصفين،وبين المسلمين،حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر،وهى الفتنة التى قال فيها النبى ﷺ:"سَتَكُونُ فِتْنَةٌ،القَاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ،والقائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِى،والماشى فيها خَيْرٌ من السَّاعِى" وأحاديثُ الفتنة التى أمر رسولُ الله ﷺفيها باعتزال الطائفتين،هى هذه الفتنة.

وقد تأتى الفتنة مراداً بها المعصية كقوله تعالى:{وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلا تَفْتِنِّي} [التوبة:٤٩] يقوله الجدُّ بنُ قيس،لما ندبه رسولُ الله ﷺإلى تبوكَ،يقول:ائذن لى فى القُعود،ولا تفتنى بتعرضى لبنات بنى الأصفر،فإنى لا أَصْبِرُ عنهن،قال تعالى:{أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} [التوبة:٤٩]،أى:وقعوا فى فتنة النفاق،وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود:أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف،و لم يُبرئ أولياءَه من ارتكاب الإثم بالقتالِ في الشهر الحرام،بل أخبر أنه كبير،وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبرُ وأعظمُ مِن مجردِ القتالِ في الشهر الحرام،فهم أحقُّ بالذمِّ والعيبِ والعُقوبَةِ،لاسيما وأولياؤه كانوا متأوِّلين في قتالهم ذلك،أو مقصِّرين نوعَ تقصير يغفِره الله لهم في جنب ما فعلوه مِن التوحيد والطاعات،والهِجرة مع رسوله،وإيثارِ ما عند الله،فهم كما قيل:

وإذَا الحَبِيبُ أَتى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ...جَاءَتْ مَحَاسِنُه بِأَلْفِ شَفِيع

فكيف يُقاس ببغيضٍ عدوٍ جاء بكُلِّ قبيح،و لم يأت بشفيع واحد مِن المحاسن.[١٤٥]

« يسْئلونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه؟ قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ»..نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام،وتقرر أن القتال فيه كبيرة،نعم! ولكن:«وصدٌّ عنْ سبيل اللّه وكفْرٌ به والْمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْه أكْبر عنْد اللّه.والْفتْنة أكْبر من الْقتْل»..

إن المسلمين لم يبدأوا القتال،و لم يبدأوا العدوان.إنما هم المشركون.هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل اللّه،والكفر به وبالمسجد الحرام.لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل اللّه.ولقد كفروا باللّه وجعلوا الناس يكفرون.ولقد كفروا بالمسجد الحرام.انتهكوا حرمته فآذوا المسلمين فيه،وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة.وأخرجوا أهله منه،وهو الحرم الذي جعله اللّه آمنا،فلم يأخذوا بحرمته و لم يحترموا قدسيته..وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه من القتال في الشهر الحرام..وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند اللّه من القتل.

وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.

ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات الذين يتخذون منها ستارا حين يريدون،وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم،لأنهم عادون باغون أشرار،لا يرقبون حرمة،ولا يتحرجون أمام قداسة.وكان

---

[١٤٥] - زاد المعاد في هدي خير العباد-مؤسسة الرسالة،بيروت [٣ /١٦٨]

على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات الـتي لا احتـرام لهـا في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل.وكان التلويح بحرمـة الشـهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه،لتشويه موقـف الجماعـة المسـلمة،وإظهارها بمظهـر المعتدي..وهم المعتدون ابتداء.وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

إن الإسلام منهج واقعي للحياة،لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية.إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعيـة.يواجههـا ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد.يواجهها بحلول عملية تكـافئ واقعياتها،ولا ترفوف في خيال حالم،ورؤى مجنحة:لا تجدي على واقع الحياة شيئا! هؤلاء قوم طغاة بغـاة معتـدون.لا يقيمـون للمقدسـات وزنـا،ولا يتحرجـون أمـام الحرمات،ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة.يقفـون دون الحق فيصدون الناس عنه،ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء،ويخرجونهم مـن البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!..ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام،ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات،ويرفعون أصواتهم:انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرد المسـلمين الأخيـار مـن السـلاح،بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح،ولا يتورعون عن سلاح..!

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا،لأنه يريد مواجهة الواقع،لدفعه ورفعه.يريد أن يزيل البغي والشر،وأن يقلم أظافر الباطل والضلال.ويريد أن يسلم الأرض للقـوة الخيرة،ويسـلم القيادة للجماعة الطيبة.ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغـاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة،وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة! إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات،ويشدد في هذا المبدأ ويصـونه.ولكنـه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمـات،ويؤذون الطيبين،ويقتلـون الصالحين،ويفتنون المؤمنين،ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان! وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد..إنه يحرم الغيبة..ولكن

لا غيبة لفاسق..فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الـــذين يكتـــوون بفسقه.وهو يحرم الجهر بالسوء من القول.ولكنه يستثني «إلّا منْ ظلم»..فله أن يجهـــر في حق ظالمه بالسوء من القول،لأنه حق.ولأن السكوت عن الجهر بـــه يطمـــع الظـــالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه! ومع هذا يبقى الإسلام في مســـتواه الرفيـــع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة.ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة..إنه فقـــط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم،وإلى قتالهم وقتلهم،وإلى تطهير جو الحياة منهم..هكذا جهرة وفي وضح النهار..

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة،وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات..حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملـــة كما أرادها اللّه.

هذا هو الإسلام..صريحا واضحا قويا دامغا،لا يلف ولا يدور ولا يدع الفرصة كـــذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور.

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة،لا تتأرجح فيها أقدامهم،وهم يمضـــون في سبيل اللّه،لتطهير الأرض من الشر والفساد،ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس..هذا شر وفساد وبغي وباطل..فلا حرمة له إذن،ولا يجـــوز أن يتترس بالحرمات،ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة في سلام مع ضمائرهم،وفي سلام من اللّه..

ويمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة،وتمكين هذه القاعـــدة،وإقرار قلـــوب المســـلمين وأقدامهم..يمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم،وأصـــالة العـــدوان في نيتهم وخطتهم:«ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عنْ دينكمْ إن اسْتطاعوا»..

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم.وهو الهدف الذي لا يـــتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل..إن وجود الإسلام في الأرض هـــو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإســـلام

بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم.فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل،ويرهبه كل باغ،ويكرهه كل مفسد.إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج،ومن منهج قويم،ومن نظام سليم..إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد.ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.

ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه،ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة.ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم،وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين،وتتبع هذا المنهج،وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته،ولكن الهدف يظل ثابتا..أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا.وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره،وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها..والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام،وينبهها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد،والصبر على الحرب،وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر:«ومنْ يرْتددْ منْكمْ عنْ دينه فيمتْ وهو كافرٌ،فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والْآخرة وأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون»..

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت..والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل،فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي..يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره،وهلاكه في النهاية وبواره..مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ!

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وغرفه تحت مطارق الأذى والفتنة – مهما بلغت – هذا مصيره الذي قرره اللّه له..حبوط العمل في الدنيا والآخرة.ثم ملازمة العذاب في النار خلودا.

إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه،لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا.إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له.وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة.فاللّه رحيم.رخص للمسلم – حين يتجاوز العذاب طاقته – أن يقي نفسه بالتظاهر،مع بقاء

قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان.ولكنه لم يرخص لــه في الكفــر الحقيقــي،وفي الارتداد الحقيقي،بحيث يموت وهو كافر..والعياذ باللّه..

وهذا التحذير من اللّه قائم إلى آخر الزمان..ليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنــة فيترك دينه ويقينه،ويرتد عن إيمانه وإسلامه،ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه..وهنــاك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن اللّه.واللّه لا يترك عبــاده الــذين يؤمنــون به،ويصبرون على الأذى في سبيله.فهو معوضهم خيرا:إحــدى الحســنيين:النصــر أو الشهادة.

وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله لا ييئس منــها مــؤمن عــامر القلــب بالإيمان:«إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللّه أولئك يرْجون رحْمــت اللّه،واللّه غفورٌ رحيمٌ»..

ورجاء المؤمن في رحمة اللّه لا يخيبه اللّه أبدا..ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق،فجاهدوا وصبروا،حتى حقق اللّه لهــم وعــده بالنصــر أو الشهادة.وكلاهما خير.وكلاهما رحمة.وفازوا بمغفــرة اللّــه ورحمتــه:«واللّــه غفــورٌ رحيمٌ»..وهو هو طريق المؤمنين..[١٤٦]

- **ولأنهم إذا ظهروا علينا أهلكوا الحرث والنسل:**

قال تعالى:{ كيْف وإن يظْهروا عليْكمْ لا يرْقبواْ فيكمْ إلاًّ ولا ذمّةً يرْضونكم بــأفْواههمْ وتأْبى قلوبهمْ وأكْثرهمْ فاسقون} (٨) سورة التوبة

يبيّن الله تعالى الأسْباب التي تدْعو إلى أنْ لا يكون للْمشْركين عهْدٌ،ذلك لأنّهمْ أشْــركوا بالله وكذّبوا رسوله،ولأنّهمْ إذ انْتصروا على المسْلمين،وظهروا عليْهمْ،اجْتثوهمْ ولمْ يبْقوا على أحدٍ منْهمْ،ولمْ يرْقبوا في المسْلمين قرابةً،ولا عهْداً،في نقْض العهْد والميثــاق،وهؤلاء يخْدعون المؤْمنين بكلامهم المعْسول،وقلوبهمْ منْطويةٌ على كراهتهمْ،وأكْثرهمْ خــارجون عن الحقّ،ناقضون للْعهْد.اعْتاضوا عن اتّباع آيات الله بما التهوا به مــنْ أمــور الــدّنْيا

---

[١٤٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٣)

الخسيسة،فمنعوا أنْفسهمْ عن الإيمان بالله،وعن اتّباع الحقّ،ومنعوا النّاس من الــدّخول في الإسْلام فبئْس العمل عملهمْ،وساء ما عملوا مـــن اشْـــتراء الكفْـــر بالإيمان،والضّـــلالة بالهدى.ويجْعلهمْ كفْرهمْ لا يرْعوْن في مؤْمنٍ،يقْدرون على الفتْـــك به،قرابـــةً تقْتضـــي الودّ،ولا ذمّةً توجب الوفاء بالعهْد،ولا ربّاً يحرمّ الخيانة والغدْر،وهؤلاء هم المتجـــاوزون الحدود في الظّلْم.[١٤٧]

أي:{كيْف} يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق {و} الحال أهـــم {وإنْ يظْهـــروا عليْكمْ} بالقدرة والسلطة،لا يرحموكم،و {لا يرْقبوا فيكمْ إلا ولا ذمّةً} أي:لا ذمة ولا قرابة،ولا يخافون الله فيكم،بل يسومونكم سوء العذاب،فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم،فإنهم {يرْضونكمْ بأفْواههمْ وتأْبى قلوبهمْ} الميل والمحبة لكم،بل هم الأعداء حقا،المبغضون لكم صدقا،{وأكْثرهمْ فاسقون} لا ديانة لهم ولا مروءة.

{اشْتروْا بآيات اللّه ثمنًا قليلا} أي:اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا.على الإيمـــان بالله ورسوله،والانقياد لآيات الله.{فصدّوا} بأنفسهم،وصدوا غيرهم {عنْ سبيله إنّهـــمْ ساء ما كانوا يعْملون * لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلا ولا ذمّةً} أي لأجل عداوهم للإيمان {إلا ولا ذمّةً} أي لأجل عداوهم للإيمان وأهله،فالوصف الذي جعلهم يعـــادونكم لأجلـــه ويبغضونكم هو الإيمان فذبوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه لكم عـــدوا ومـــن نصره لكم وليا واجعلوا الحكم يدور معه وجودا وعدما لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية تميلون بهما حيثما مال الهوى وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء.[١٤٨]

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين – على مدى التاريخ – من المؤمنين.ليتكشـــف لنـــا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ:

[١٤٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٤، بترقيم الشاملة آليا)

[١٤٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٠)

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة.ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة.

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:« كيْف وإنْ يظْهروا عليْكمْ لا يرْقبوا فيكمْ إلًّا ولا ذمّةً! يرْضونكمْ بأفْواههمْ وتأْبى قلوبهمْ،وأكْثرهمْ فاسقون.اشْتروْا بآيات اللّه ثمناً قليلًا فصدّوا عنْ سبيله،إنّهمْ ساء ما كانوا يعْملون.لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلًّا ولا ذمّةً،وأولئك هم الْمعْتدون»..

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين.فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ..

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد - ﷺ- إنما ختم بهذه الرسالة.وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين اللّه على الإطلاق فإن أبعاد المعركة تترامى ويتجلى الموقف على حقيقته كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة،على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء! ماذا صنع المشركون مع نوح،وهود،وصالح،وإبراهيم،وشعيب،وموسى،وعيسى،عليهم صلوات اللّه وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد - ﷺ- والمؤمنين به كذلك؟..إنهم لم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم..

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان؟..إنهم لا يرقبون فيهم إلّا ولا ذمة،كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد..

عند ما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ «البداية والنهاية» لابن

كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ ه:ثمّ دخلت سنة ستّ وخمسين وستّمائة.فيها أخذت التّتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتّى الخليفة،وانقضت دولة بني العبّاس منها.

استهلّت هذه السّنة وجنود التّتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللّذين على مقدّمة عساكر سلطان التّتار،هولاكو خان،وجاءت إليهم أمدد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه،وكلّ ذلك خوفا على نفسه من التّتار،ومصانعة لهم- قبّحهم اللّه تعالى-،وقد سترت بغداد ونصبت المجانيق والعرّادات وغيرها من آلات الممانعة الّتي لا تردّ من قدر اللّه- سبحانه وتعالى- شيئا،كما ورد في الأثر (لن يغني حذر عن قدر)،وكما قال تعالى:إنّ أجل اللّه إذا جاء لا يؤخّر (نوح/ ٤)،وقال تعالى إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوْمٍ حتّى يغيّروا ما بأنْفسهمْ وإذا أراد اللّه بقوْمٍ سوْءاً فلا مردّ له وما لهمْ منْ دونه منْ والٍ (الرعد/ ١١)،وأحاطت التّتار بدار الخلافة يرشقونها بالنّبال من كلّ جانب حتّى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه،وكانت من جملة حظاياه،وكانت مولّدة تسمّى عرفة،جاءها سهم من بعض الشّبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة،فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعا شديدا،وأحضر السّهم الّذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب،إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرّجال والنّساء والولدان والمشايخ والكهول والشّبّان،ودخل كثير من النّاس في الآبار وأماكن الحشوش،وقنى الوسخ،وكمنوا كذلك أيّاما لا يظهرون،وكان الجماعة من النّاس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التّتار إمّا بالكسر وإمّا بالنّار،ثمّ يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة،حتّى تجري الميازيب من الدّماء في الأزقّة،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.وكذلك المساجد والجوامع والرّبط،ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذّمّة من اليهود والنّصارى[١٤٩] ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقميّ الرّافضيّ

[١٤٩] - ذلك أن اليهود والنصارى (من أهل الذمة!) كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها وممن دلّوا على عورات المدينة،وشاركوا مشاركة فعلية في هذه الكارثة واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب،ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية.(السيد رحمه الله)

وطائفة من التّجّار أخذوا لهم أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتّى سلموا وسلمت أموالهم.وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها كأنّها خراب ليس فيها إلّا القليل من النّاس،وهم في خوف وجوع وذلّة وقلّة،وكان الوزير العلقميّ قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسهمهم من الدّيوان،فكانت العساكر في آخر أيّام المستنصر قريبا من مائة ألف مقاتل،منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر،فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف،ثمّ كاتب التّتار وأطمعهم في أخذ البلاد،وسهّل عليهم ذلك،وحكى لهم حقيقة الحال،وكشف لهم ضعف الرّجال،وذلك كلّه طمعا منه أن يزيل السّنّة بالكلّيّة،وأن يظهر البدعة الرّافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميّين،وأن يبيد العلماء والمفتين،واللّه غالب على أمره،وقد ردّ كيده في نحره،وأذلّه بعد العزّة القعساء،وجعله (حوشكاشا) للتّتار بعد ما كان وزيرا للخلفاء،واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرّجال والنّساء والأطفال،فالحكم للّه العليّ الكبير،ربّ الأرض والسّماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب ممّا جرى على أهل بغداد كما قصّ اللّه تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز،حيث يقول:وقضيْنا إلى بني إسْرائيل في الْكتاب لتفْسدنّ في الْأرْض مرّتيْن ولتعْلنّ علوًّا كبيراً* فإذا جاء وعْد أولاهما بعثْنا عليْكمْ عباداً لنا أولي بأْسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الدّيار وكان وعْداً مفْعولًا (الإسراء/ ٤- ٥) الآيات.وقد قتل من بني إسرائيل خلق من الصّلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء،وخرّب بيت المقدس بعدما كان معمورا بالعبّاد والزّهّاد والأحبار والأنبياء،فصار خاويا على عروشه واهي البناء.

وقد اختلف النّاس في كمّيّة من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة،فقيل ثمانمائة ألف،وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف،وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون،ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرّم،وما زال السّيف يقتل أهلها أربعين يوما،وكان قتل الخليفة المستعصم باللّه أمير المؤمنين يوم الأربعاء،رابع عشر صفر وعفّي قبره،وكان

عمره يومئذ ستّا وأربعين سنة وأربعة أشهر،ومدّة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيّام،وقتل معه ولده الأكبر أبو العبّاس أحمد،وله خمس وعشرون سـنة،ثمّ قتـل ولـده الأوسط أبو الفضل عبد الرّحمن وله ثـلاث وعشـرون سنة،وأسـر ولـده الأصـغر مبارك،وأسرت أخواته الثّلاث:فاطمة وخديجة ومريم،وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل،واللّه أعلم،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشّيخ محيي الـدّين يوسـف ابـن الشّـيخ أبي الفـرج ابـن الجوزيّ،وكان عدوّ الوزير،وقتـل أولاده الثّلاثـة:عبـد اللّه،وعبـد الرّحمن،وعبـد الكريم،وأكابر الدّولة واحدا بعد واحد،منهم الدّيودار الصّغير مجاهد الدّين أيبك،وشهاب الدّين سليمان شاه،وجماعة من أمراء السّنّة وأكابر البلد.وكان الرّجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العبّاس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال،تجاه المنظـرة فيذبح كما تذبح الشّاة،ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.وقتل شيخ الشّيوخ مؤدّب الخليفة صدر الدّين عليّ بن النّيّار،وقتل الخطباء والأئمّة،وحملة القرآن،وتعطّلت المساجد والجمعات والمدارس والرّبط مدّة شهور ببغداد،وأراد الوزير ابن العلقميّ قبّحـه اللّـه- ولعنه،أن يعطّل المساجد والمدارس والرّبط ببغداد،ويستمرّ بالمشاهد ومحالّ الـرّفض،وأن يبني للرّافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها،فلم يقدره اللّه تعالى على ذلك بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة،وأتبعه بولـده فاجتمعا- واللّه أعلم- بالدّرك الأسفل من النّار.

ولّما انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها لـيس بها أحد إلّا الشّاذّ من النّاس،والقتلى كأنّها التّلول،وقد سقط علـيهم المطـر فتغيّـرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد،وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباء الشّديد حتّى تعـدّى وسرى في الهواء إلى بلاد الشّام،فمات خلق كثير من تغيّر الجوّ وفساد الرّيح،فاجتمع على النّاس الغلاء والوباء والفناء والطّعن والطّاعون،ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحـت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم،وقد أنكـر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه،وأخذهم الوبـاء الشـديد فتفـانوا

وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى،واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى،الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى."[١٥٠]إلخ إلخ.

هذه صورة من الواقع التاريخي،حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات،اختص بها التتار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة!..

إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد..إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند – ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق..طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية،فذبحتهم كالخراف على طول الطريق،وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش،بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة،لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد!..

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان،حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف..ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر)..وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار!..لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة،القطار في النفق.و لم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء!..وصدق قول اللّه سبحانه:«كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة»..وما تزال هذه

---

[١٥٠] – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم [١١ /٥٧٢١] والبداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبوع [١٣/ ٢٣٥]

قلت:وما فعله أعداء الإسلام اليوم في العراق وغيرهما من بلدان المسلمين أدهى وأمر أيضا

المذابح تتكرر في صور شتى ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصـين الشـيوعية وروسـيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟..لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن سـتة وعشـرين مليونا..بمعدل مليون في السنة..وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق..ذلك غـير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان.وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار..لقـد جـيء بأحـد الزعمـاء المسلمين،فحفرت له حفرة في الطريق العام.وكلف المسلمون تحـت وطـأة التعـذيب والإرهاب،أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعـام!!!) فيلقوهـا علـى الـزعيم المسـلم في حفرته..وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حـتى مـات! كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها.حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.وما تـزال عمليـات الإبـادة والتعذيب الوحشي – التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في «مفـارم» اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة مـن اللحـم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن!!! وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميـع الـدول الشيوعية والوثنية..الآن..في هذا الزمان..ويصدق قول اللّه سبحانه:«كيْف وإنْ يظْهروا عليْكمْ لا يرْقبوا فيكمْ إلًّا ولا ذمّةً؟».«لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلًّـا ولا ذمّـةً،وأولئك هـم الْمعْتدون»..

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية.ولم تكن حالة طارئة ولا وقتيـة في بغداد..إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية للّه وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير اللّه.في كل زمان وفي كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة،وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة – إلا أنهـا أبعـد مـدى في الزمـان والمكان.لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان.والأمر في تنفيذها

إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية،ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان..[١٥١]

- **ولأننا غفلنا عن أسلحتنا المادية والمعنوية:**

قال تعالى:{ وإذا كنت فيهمْ فأقمْت لهم الصّلاة فلْتقمْ طآئفةٌ مّنْهم مّعــك ولْيأْخــذواْ أسْلحتهمْ فإذا سجدواْ فلْيكونواْ من ورآئكمْ ولْتأْت طآئفةٌ أخْرى لمْ يصلّواْ فلْيصلّواْ معك ولْيأْخذواْ حذْرهمْ وأسْلحتهمْ ودّ الّذين كفرواْ لوْ تغْفلون عــنْ أسْــلحتكمْ وأمْتعــتكمْ فيميلون عليْكم مّيْلةً واحدةً ولا جناح عليْكمْ إن كان بكمْ أذًى مّــن مّطــرٍ أوْ كنــتم مّرْضى أن تضعواْ أسْلحتكمْ وخذواْ حذْركمْ إنّ اللّه أعدّ للْكافرين عذابًا مّهينًا} (١٠٢) سورة النساء

يبيّن الله تعالى في هذه الآية النّصّ المجْمل في الآية السّابقة في مشْروعيّة قصْر الصّلاة،ويبيّن هنا كيْفيّة أداء صلاة الخوْف.

والأئمّة متّفقون على أنّ صلاة الخوْف منْسوخةٌ منْ أسْباب تأخير الصّــلاة.وفي صــلاة الخوْف،إذا كان الرّسول ﷺ في الجماعة وأمّ المسْلمين في الصّلاة،تأْتي طائفةٌ من المسْلمين فتأتمّ بالرّسول وهمْ بأسْــلحتهمْ،وكامل عدّهمْ،وتصــلّي معــه الرّكْعــة الأولى مــنْ صلاته،ويسْتمرّ النّبيّ واقفاً يصلّي،وتتمّ الطائفة المؤْتمّة به صلاها بــأداء الرّكْعــة الثّانيــة لنفْسها،وتسلّم وتقوم إلى مكان الحراسة،وتأْتي الطّائفة الثّانية التي لمْ تصلّ،والتي كانــتْ في مكان الحراسة،فتأتمّ بالنّبيّ،وتصلّي معه الرّكْعة الثّانية منْ صلاته،ثمّ تتمّ الرّكْعة الثّانيــة منْ صلاها لنفْسها وتسلّم.ويحذّر الله المؤْمنين منْ غدْر الكفّار،وينبّه المسْلمين ليأخــذوا حذْرهمْ وأسْلحتهمْ،وليكونوا على أهْبة الاسْتعْداد لمقارعــة الأعْــداء إذا أرادوا الغــدْر بالمسْلمين،وهمْ في صلاهمْ،واغْتنام الفرْصة فيهمْ،وهمْ منْشغلون بها.

ثمّ يقول تعالى إنّه لا حرج إنْ كان هناك مطرٌ،أوْ كان بالمسْــلمين مــرضٌ أنْ يضــعوا أسْلحتهمْ،ولكنْ عليهمْ أنْ يحْذروا ويحْتاطوا لتكون أسْلحتهمْ قريبةً مــنْهمْ لأخْــذها إذا

[١٥١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٨٢)

احْتاجوا إلى اسْتعْمالها على عجلٍ.ويذكّر الله المؤْمنين بأنّه وليّهمْ،وأنّه ناصرهمْ ومخْـزي الكافرين،وأنّه أعدّ للْكافرين عذابا مهيناً يوْم القيامة.[152]

..وهي رغبة في نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة.والسنون تتوالى،والقرون تمر،فتؤكـد هذه الحقيقة،التي وضعها اللّه في قلوب المجموعة المؤمنة الأولى.وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة.كما يضع لها الخطة الحركية أحيانا.على هذا النحو الـذي رأينـا في صـلاة الخوف.

على أن هذا الحذر،وهذه التعبئة النفسية،وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر،ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة.فهم يأخذون منه بقدر الطاقة:« ولا جناح عليْكمْ إنْ كـان بكمْ أذىً منْ مطرٍ،أوْ كنْتمْ مرْضى،أنْ تضعوا أسْلحتكمْ» فحمل السلاح في هذه الحالـة يشق،ولا يفيد.ويكفي أخذ الحذر وتوقع عون اللّه ونصره:«وخذوا حذْركمْ.إنّ اللّه أعدّ للْكافرين عذاباً مهيناً»..

ولعل هذا الاحتياط،وهذه اليقظة،وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهـين الذي أعده اللّه للكافرين.فيكون المؤمنون هم ستار قدرته وأداة مشيئته..وهي الطمأنينـة مع ذلك الحذر والثقة في النصر على قوم أعد اللّه لهم عذابا مهينا..«فإذا قضيْتم الصّـلاة فاذْكروا اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبكمْ.فإذا اطْمأْننْتمْ فأقيموا الصّلاة.إنّ الصّلاة كانتْ على الْمؤْمنين كتاباً موْقوتاً»..

وهكذا يوجههم إلى الاتصال باللّه في كل حال،وفي كل وضع،إلى جانب الصلاة..فهذه هي العدة الكبرى،وهذا هو السلاح الذي لا يبلى..

فأما حين الاطمئنان «فأقيموا الصّلاة»..أقيموها كاملة تامة بلا قصر – قصـر الخـوف الذي تحدثنا عنه – فهي فريضة ذات وقت محدد لأدائها.ومتى زالت أسباب الرخصـة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة.

ومن قوله تعالى:«إنّ الصّلاة كانتْ على الْمؤْمنين كتاباً موْقوتاً»..يأخذ الظاهرية رأيهم في عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزي ولا تصح.لأن الصـلاة لا تصـح إلا في

---

[152] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

ميقاتها المعين.فمتى فات الميقات،فلا سبيل لإقامة الصلاة..والجمهور على صحة قضـــاء الفوائت.وعلى تحسين التبكير في الأداء،والكراهية في التأخير..[١٥٣]

{وإذا كنْت فيهمْ فأقمْت لهم الصّلاة} أي:صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم،فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسّر ذلك بقوله:{فلْتقمْ طائفةٌ منْهمْ معك} أي:وطائفة قائمة بإزاء العدو كما يدل على ذلك ما يأتي:{فإذا سجدوا} أي:الذين معك أي:أكملوا صلاتهم وعبر عن الصلاة بالسجود ليدل على فضل السجود،وأنه ركن من أركانها،بل هو أعظم أركانها.

{فلْيكونوا منْ ورائكمْ ولْتأْت طائفةٌ أخْرى لمْ يصلّوا} وهم الطائفة الذين قـــاموا إزاء العدو {فلْيصلّوا معك} ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصـــراف الطائفـــة الأولى منتظرا للطائفة الثانية،فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حـــتى يكملوا صلاتهم،ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة،وهذه الآية تدل على أن صـــلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما:أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة،وقت اشتداد الخوف من الأعـــداء وحذر مهاجمتهم،فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمـــن من باب أوْلى وأحرى.

والثاني:أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم،ويعفى فيهـــا عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها،وما ذاك إلا لتأكـــد وجـــوب الجماعة،لأنـــه لا تعارض بين واجب ومستحب،فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمـــور اللازمـــة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد.ولو تضـــمن ذلـــك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة،وذلك لأجل اجتماع كلمة المســـلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم،وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم،وأمر تعـــالى

[١٥٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١١١١)

بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف،وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة فإن فيه مصلحة راجحة وهو الجمع بين الصلاة والجهاد،والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم،ولهذا قال تعالى: {ودّ الّذين كفروا لوْ تغْفلون عنْ أسْلحتكمْ وأمْتعتكمْ فيميلون عليْكمْ ميْلةً واحدةً}.

ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه،ولكن مع أخذ الحذر فقال: {ولا جناح عليْكمْ إنْ كان بكمْ أذًى منْ مطرٍ أوْ كنْتمْ مرْضى أنْ تضعوا أسْلحتكمْ وخذوا حذْركمْ إنّ اللّه أعدّ للْكافرين عذابًا مهينًا}.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم،ويأخذوهم ويحصروهم،ويقعدوا لهم كل مرصد،ويحذروهم في جميع الأحوال،ولا يغفلوا عنهم،خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فلله أعظم حمد وثناء على ما منّ به على المؤمنين،وأيّدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية،ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: {فإذا سجدوا فلْيكونوا منْ ورائكمْ} يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين.وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام،لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه،فأخبر عن مصاحبتهم له.ثم أضاف الفعل بعْد إليهم دون الرسول،فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: {ولْتأْت طائفةٌ أخْرى لمْ يصلّوا فلْيصلّوا معك} دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا،وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى،وحكما في ركعتهم الأخيرة،فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم،ثم يسلم بهم،وهذا ظاهر للمتأمل.[١٥٤]

[١٥٤] -تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٨)

المبحث الثالث

حالنا اليوم

الابتعاد عن الدين:

فقد ابتعد المسلمون عن دينهم الحنيف بسبب البلاوى الكثيرة التي مورست ضدهم لصرفهم عن دينهم فكثير منهم اليوم لا يعرف من دينه سوى بعض الأحكام العامة

وأما الذين يعلمون أن الإسلام منهج حياة يجب أن يسود البشرية جمعاء لأنه منهج إلهي رفيع لا يدانيه منهج في هذه الأرض فهم القلة القليلة والمحاربة من قبل الكثرة التي سارت بركاب الشيطان،بل كثير منهم يظن بسبب الانبهار بحضارة الغرب العفنة والنجسة أن الإسلام قد انتهى دوره الحضاري ومن ثم يلهثون وراء حلول الأعداء وأطروحاتهم الكاذبة من ديوقراطية وحرية وحقوق إنسان وتحرير المرأة من كل القيم الإنسانية.

تحكيم شرائع الجاهلية:

لقد أقصيت الشريعة الإسلامية عن الحياة بعد سقوط الخلافة الإسلامية بالتدريج حتى لم يبق في كثير من بلدان المسلمين سوى قانون الأحوال الشخصية الذي قطع من جسم الإسلام ولا يمكن أن يؤتي ثماره الحقيقية إلا في ظل نظام الإسلام الكامل والشامل للإنسان والكون والحياة ومن ثم نجد أن القوانين المطبقة في العالم الإسلامي خليط متناقض من قوانين الغرب الوثني الكافر وفيها بعض القوانين الإسلامية المشوهة

وأما الدول التي تزعم أنها تحكم بالإسلام فما أبعدها عن الإسلام إنها عندما تطبق الحدود على الضعفاء والمساكين تظن نفسها أنها تطبق الإسلام وفات أولئك المغفلون أن الحدود لا يمكن تطبيقها إلا في ظل نظام الإسلام المتكامل عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة

لقد أساء هؤلاء إساءات بالغة للإسلام عندما كذبوا على الله وقالوا للناس هذا هو الإسلام

بينما الاقتصاد والسياسة والإعلام والمجتمع كله يسير وفق قوانين الجاهلية

ومن ثم فقد نفروا الناس من الإسلام الصحيح بإفكهم هذا

فلا يوجد دولة في بلاد الإسلام اليوم تطبق الإسلام كما أنزله الله تعالى،فكلهم كاذبون خائنون لله ولرسوله ﷺ يحسبون أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء

ومجرد رفع راية الإسلام دون مضمون لا قيمة له عند الله تعالى ولا عند العقلاء من الناس

قال تعالى:{ فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ ثمّ لا يجدواْ في أنفسهمْ حرجًا مّمّا قضيْت ويسلّمواْ تسْليمًا} (٦٥) سورة النساء

فيجب أن نحذر من تلك الدعوات الفاجرة باسم الإسلام والإسلام منها بريء

ارتكاب الموبقات:

جميع الموبقات ترتكب في بلاد المسلمين من زنا وخمور وقمار وعهر وغش وكذب وظلم ونهب وسلب وانتهاك للحرمات أمام مرأى ومسمع حكام البلاد الذين لا هم لهم سوى ارتكاب الفواحش عنْ عيٍّ السّعْديّ،قال عيٌّ:خرجْت في طلب الْعلْم حتّى قدمت الْكوفة،فإذا أنا بعبْد اللّه بْن مسْعودٍ،بيْن ظهْرانيْ أهْل الْكوفة،فسألْت عنْه،فأرْشدْت إليْه،فإذا هو في مسْجدها الْأعْظم فأتيْته،فقلْت:يا أبا عبْد الرّحْمن إنّي جئْت أضْرب إليْك ألْتمس منْك علْمًا،لعلّ اللّه أنْ ينْفعنا به بعْدك،فقال لي:ممّن الرّجل؟ قلْت:رجلٌ منْ أهْل الْبصْرة.قال:ممّنْ؟ قلْت:منْ هذا الْحيّ منْ بني سعْدٍ.فقال لي:يا سعْديّ،لأحدّثنّ فيكمْ بحديثٍ سمعتْه منْ رسول اللّه ﷺ.سمعْت رسول اللّه ﷺ،وأتاه رجلٌ فقال:يا رسول اللّه،ألا أدلّك على قوْمٍ:كثيرةٌ أمْوالهمْ،كثيرةٌ شوْكتهمْ،تصيب منْهمْ مالًا دبْرًا أوْ قال:كثيرًا؟ قال:«منْ همْ؟» قال:هذا الْحيّ منْ بني سعْدٍ،منْ أهْل الرّمال،فقال رسول اللّه:«مهْ،فإنّ بني سعْدٍ عنْد اللّه ذو حظٍّ عظيمٍ».سلْ يا سعْديّ.قلْت:أبا عبْد الرّحْمن،هلْ للسّاعة منْ علْمٍ تعْرف به السّاعة؟ قال:وكان متّكئًا فاسْتوى جالسًا،فقال:يا سعْديّ،سألْتني عمّا سألْت عنْه رسول اللّه ﷺ،قلْت:يا رسول اللّه،هلْ للسّاعة منْ علْمٍ تعْرف به السّاعة؟ فقال:«نعمْ،يا ابْن مسْعودٍ،إنّ للسّاعة أعْلامًا،وإنّ للسّاعة أشْراطًا،ألا،وإنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ يكون الْولد غيْظًا،وأنْ يكون الْمطر قيْظًا،وأنْ يفيض الْأشْراف فيْضًا.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ يؤْتمن الْخائن،وأنْ يخوّن الْأمين.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ تواصل الْأطْباق،وأنْ تقاطع الْأرْحام.يا ابْن

مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ يسود كــلّ قبيلــة منافقوها،وكــلّ ســوقٍ فجّارها.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ تحرّف الْمحاريب،وأنْ تخــرّب الْقلوب.يا ابْن مسْعودٍ إنّ منْ أعْلام السّاعة [ص:١٢٨] وأشْراطها أنْ يكون الْمؤْمن في الْقبيلة أذلّ من النّقد.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ يكْتفي الرّجــال بالرّجال،والنّساء بالنّساء.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ مــنْ أعْــلام السّــاعة وأشْــراطها ملْــك الصّبْيان،ومؤامرة النّساء.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّــاعة وأشْــراطها أنْ تكثّــف الْمساجد،وأنْ تعْلو الْمنابر.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ يعمّر خراب الدّنْيا،ويخرّب عمْرانها.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْراطها أنْ تظْهر الْمعــازف والْكبْر،وشرْب الْخمور.يا ابْن مسْعودٍ،إنّ منْ أعْلام السّاعة وأشْــراطها أنْ يكْثــر أوْلاد الزّنا».قلْت:يا أبا عبْد الرّحْمن،وهمْ مسْلمون؟ قال:نعمْ.قلْت:أبا عبْد الرّحْمن،والْقــرْآن بيْن ظهْرانيْهمْ؟ قال:نعمْ.قلْت:أبا عبْد الرّحْمن،وأنّى ذلك؟ قال:يأْتي على النّاس زمــانٌ يطلّق الرّجل الْمرْأة،ثمّ يجْحدها طلاقها،فيقيم على فرْجها،فهما زانيان ما أقاما »[155]

التفرقة والضعف:

حال المسلمين اليوم يندى لها الجبين فسبعون دويلة هشة لا قيمة لها ولا قــدر وكلــها أعضاء هيئة الأمم المتحدة على المسلمين ولذا فإن العدو لا يكترث بنا بتاتا

وقد حذرنا الله تعالى من ذلك أشد التحذير،قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ اتّقواْ اللّــه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مّسْلمون (١٠٢) واعْتصمواْ بحبْل اللّه جميعًــا ولا تفرّقــواْ واذْكرواْ نعْمت اللّه عليْكمْ إذْ كنتمْ أعْداء فألّف بيْن قلوبكمْ فأصْبحْتم بنعْمتــه إخْوانًــا وكنتمْ على شفا حفْرةٍ مّن النّار فأنقذكم مّنْها كذلك يبيّن اللّه لكمْ آياته لعلّكمْ تهْتدون (١٠٣) ولْتكن مّنكمْ أمّةٌ يدْعون إلى الْخيْر ويأْمرون بالْمعْروف وينْهوْن عــن الْمنكــر وأوْلـــئك هم الْمفْلحون (١٠٤) ولا تكونواْ كالّذين تفرّقواْ واخْتلفواْ من بعْد ما جاءهم الْبيّنات وأوْلـــئك لهمْ عذابٌ عظيمٌ (١٠٥) يوْم تبْيضّ وجوهٌ وتسْودّ وجوهٌ فأمّا الّــذين اسْودّتْ وجوههمْ أكْفرْتم بعْد إيمانكمْ فذوقواْ الْعذاب بما كنْتمْ تكْفــرون (١٠٦) وأمّــا

[155] - المعجم الأوسط (٥/ ١٢٧) (٤٨٦١) ضعيف

الّذين ابْيضّتْ وجوههمْ ففي رحْمة اللّه همْ فيها خالدون (١٠٧) تلْك آيات اللّه نتْلوها عليْك بالْحقّ وما اللّه يريد ظلْمًا لّلْعالمين (١٠٨)} آل عمران

يأمر الله تعالى المؤْمنين بأنْ يتّقوه حقّ تقاته،وذلك بأنْ يطاع فلا يعْصى،وأنْ يشْكر فلا يكْفر،وأنْ يذْكر فلا ينْسى،ويقول لهمْ:حافظوا على الإسْلام في حياتكمْ لتموتوا عليه،فمنْ مات على شيءٍ بعث عليه.

يأمر الله تعالى المؤْمنين بالتّمسّك بحبْل الله،أيْ بعهْده ودينه وذمّته وقرْآنه،وما أمرهمْ به من الإلْفة والمحبّة والاجْتماع،وينْهاهمْ عن التّفرّق،ويطْلب إليْهمْ أنْ يذْكروا نعْمته عليهمْ إذْ ألّف بيْن قلوبهمْ،وآخى بيْنهم بعْد العداوة المسْتحْكمة،والفرْقة التي كانتْ بيْن الأوْس والخزْرج،فقدْ كانوا على مثْل شفير النّار،بسبب كفْرهمْ وضلالهمْ واقْتتالهمْ،فهداهم الله وأنْقذهمْ.

وكما بيّن لهمْ ربّهمْ،في هذه الآيات،ما يضْمره لهم اليهود منْ شرٍّ وخداعٍ وغشٍّ،وما كانوا عليه في حال جاهليّتهمْ منْ كفْرٍ وفرْقةٍ واقْتتالٍ،وما صاروا إليه بفضْل الإسْلام منْ وحْدةٍ وإخاءٍ،كذلك يبيّن سائر حججه في تنْزيله على رسوله،ليعدّهمْ للاهْتداء الدّائم،حتّى لا يعودوا إلى عمل أهْل الجاهليّة من التّفرّق والعداوة والاقْتتال.

لتكنْ من المؤْمنين جماعةٌ متخصّصةٌ متميّزةٌ تعْرف أسْرار الأحْكام،وحكْمة التّشْريع وفقْهه،تتولّى القيام بالدّعْوة إلى الدّين،وتأمر بالمعْروف،وتحارب المنْكر،وتنْهى عنْه،ومنْ واجب كلّ مسْلم أنْ يحارب المنْكر ما اسْتطاع إلى ذلك،وهؤلاء هم الفائزون في الدّنْيا والآخرة.

ينْهى الله تعالى المسْلمين عنْ أنْ يكونوا كأهْل الكتاب الذين تفرّقوا في الدّين،وكانوا شيعاً تذْهب كل شيعة منْها مذْهباً تدْعو إليه،وتخطّئ غيْرها،ولذلك تعادوْا واقْتتلوا.

ولوْ كان فيهمْ جماعةٌ تأْمر بالمعْروف،وتنْهى عن المنْكر،وتتّجه إلى غايةٍ واحدة،لما تفرّقوا،ولما اخْتلفوا فيه.وهؤلاء المخْتلفون المتفرّقون لهمْ عذابٌ وخسْرانٌ في الدّنيا،وعذابٌ في نار جهنّم في الآخرة.

وفي يوْم القيامة تبْيض وجوه المؤْمنين،ويسرّون لما يعْملونه منْ حسْن العاقبة.وتسْودّ وجوه أهْل الكفْر والضّلالة والاخْتلاف،لما يروْنه منْ سوء العاقبة،وما يحلّ بهـــا مـــن النّكـــال والوبال.ويسْأل الذين اسْودّتْ وجوههمْ يوْم القيامة منْ أهْل النّفاق والاخْتلاف،ويقـــال لهمْ:أكفرْتمْ بالله،وخالفْتمْ ما أمركمْ به من الاعْتصام بحبْل الله،وبالوفاق واتّحاد الكلمـــة؟ فذوقوا العذاب الذي تسْتحقونه بسبب كفْركمْ.

وأمّا المؤْمنون الذين ابْيضّتْ وجوههمْ بالإيمان والعمل الصّـــالح،وباتّحاد الكلمة،وعـــدم التّفرّق،فيكونون في الدّنيا في نعيمٍ،ما داموا على تلْك الحـــال،ويكونون في الآخـــرة في رحْمة الله ورضْوانه،ويدْخلون الجنّة ليكونوا فيها خالدين أبداً.

وهذه آيات الله وحججه وبيّناته نتْلوها عليك،يا محمّد،مقرّرةً ما هو الحقّ الذي لا مجـــال للشّبْهة فيه (بالحقّ)،لتعْرف أمْر الدّنيا والآخرة،والله حـــاكمٌ عـــادلٌ لا يريـــد ظلْمـــاً بالعباد،لأنّه قادرٌ قاهرٌ لا يحْتاج إلى ظلْم مخالفي أمْره.[156]

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه،وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليـــه ويستقيموا إلى الممات،فإن من عاش على شيء مات عليه،فمن كان في حـــال صـــحته ونشاطه وإمكانه مداوما لتقوى ربه وطاعته،منيبا إليه على الدوام،ثبته الله عنـــد موتـــه ورزقه حسن الخاتمة،وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود:وهـــو أن يطـــاع فـــلا يعصى،ويذكر فلا ينسى،ويشكر فلا يكفر،وهذه الآية بيان لما يســـتحقه تعـــالى مـــن التقوى،وأما ما يجب على العبد منها،فكما قال تعالى:{فاتقوا الله ما استطعتم} وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدا،يجمعها [ص:١٤٢] فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه،ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتمـــاع والاعتصـــام بدين الله،وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين،فإن في اجتماع المســـلمين على دينهم،وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كـــل أمر من الأمور،ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عـــدها،من التعاون على البر والتقوى،كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهـــم

---

[156] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه،ولو أدى إلى الضرر العـــام،ثم ذكـــرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال:{واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـــداء} يقتـــل بعضكم بعضا،ويأخذ بعضكم مال بعض،حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضا،وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال،وكانوا في شر عظيم،وهذه حالة العرب قبل بعثـــة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد،من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض،ولهذا قـــال:{فـــألف بـــين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار} أي:قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها {فأنقذكم منها} بما منّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ {كذلك يبين الله لكم آياته} أي:يوضحها ويفسرها،ويبين لكم الحـــق مـــن الباطل،والهدى من الضلال {لعلكم تهتدون} بمعرفة الحق والعمل به،وفي هذه الآية مـــا يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليـــزدادوا شـــكرا لـــه ومحبة،وليزيدهم من فضله وإحسانه،وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمـــة الهدايـــة إلى الإسلام،واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

وليكن منكم أيها المؤمنون الذين منّ الله عليهم بالإيمان والاعتصـــام بحبلـــه {أمـــة} أي:جماعة {يدعون إلى الخير} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه {ويأمرون بالمعروف} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه {وينهون عن المنكر} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه،وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منـــهم جماعـــة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه،ويدخل في ذلـــك العلمـــاء المعلمـــون للدين،والوعاظ الذين يدعون أهل الأديـــان إلى الـــدخول في ديـــن الإســـلام،ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة،والمجاهدون في سبيل الله،والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصـــوم والحـــج وغـــير ذلـــك مـــن شـــرائع الإسلام،وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعـــاملات الباطلة،وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمـــة في قولـــه {ولتكن منكم أمة} إلخ أي:لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهـــم في هـــذه الأشـــياء

المذكورة،ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به،كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام،وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها،وبناء المدارس للإرشاد والعلم،ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال،وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه،وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين،ولهذا قال تعالى عنهم:{وأولئك هم المفلحون} الفائزون بالمطلوب،الناجون من المرهوب،ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم،فقال:{ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا} ومن العجائب أن اختلافهم {من بعد ما جاءهم البينات} الموجبة لعدم التفرق والاختلاف،فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين،فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله،فاستحقوا العقاب البليغ،ولهذا قال تعالى:{وأولئك لهم عذاب عظيم}.

يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل،ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال:{يوم تبيض وجوه} وهي وجوه أهل السعادة والخير،أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله {وتسود وجوه} وهي وجوه أهل الشقاوة والشر،أهل الفرقة والاختلاف،هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة،وأولئك ابيضت وجوههم،لما في قلوبهم من البهجة [ص:١٤٣] والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى:{ولقاهم نضرة وسرورا} نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم،وقال تعالى:{والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} {فأما الذين اسودت وجوههم} فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع:{أكفرتم بعد إيمانكم} أي:كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} فليس يليق بكم إلا النار،ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار.

{وأما الذين ابيضت وجوههم} فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة،وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته {ففي رحمة الله هم فيها خالــدون} وإذا كانوا خالدين في الرحمة،فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى،فهم خالدون فيها بما فيها مــن النعيم المقيم والعيش السليم،في جوار أرحم الراحمين،لما بين الله لرســوله ﷺ الأحكــام الأمرية والأحكام الجزائية قال:{تلك آيات الله نتلوها} أي:نقصها {عليك بالحق} لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها،كذلك مشتمل على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم،ولهذا قال:{وما الله يريد ظلما للعالمين} نفــى إرادتــه ظلمهم فضلا عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحدا شيئا من حسناته،ولا يزيد في ظلــم الظالمين،بل يجازيهم بأعمالهم فقط.[١٥٧]

إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة،وتؤدي بهما دورها الشــاق العظــيم.فــإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة،ولم يكن هنالك دور لها تؤديه:ركيزة الإيمان والتقوى أولا..التقوى التي تبلغ أن توفي بحق اللّه الجليل..التقوى الدائمة اليقظــة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله:«يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته»..

اتقوا اللّه - كما يحق له أن يتقى - وهي هكذا بدون تحديد تــدع القلــب مجتهــدا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها.وكلما أو غل القلب في هذا الطريق تكشــفت لــه آفاق،وجدّت له أشواق.وكلما اقترب بتقواه من اللّه،تيقظ شوقه إلى مقــام أرفــع ممــا بلغ،وإلى مرتبة وراء ما ارتقى.وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فــلا ينــام! «ولا تموتنّ إلّا وأنْتمْ مسْلمون»..

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه.فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما،وأن يكون في كل لحظة مسلما.وذكر الإسلام بعد التقــوى يشــي بمعناه الواسع:الاستسلام.الاستسلام للّه،طاعة له،واتباعا لمنهجه،واحتكاما إلى كتابه.وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها،على نحو ما أسلفنا.

---

[١٥٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٤١)

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها.إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعا جاهليا.ولا يكون هناك منهج للّه تتجمع عليه أمة،إنما تكون هناك مناهج جاهلية.ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية،إنما تكون القيادة للجاهلية.

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة..الأخوة في اللّه،على منهج اللّه،لتحقيق منهج اللّه:« واعْتصموا بحبْل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا،واذْكروا نعْمت اللّه عليْكمْ،إذْ كنْتمْ أعْداءً،فألّف بيْن قلوبكمْ،فأصْبحْتمْ بنعْمته إخْواناً.وكنْتمْ على شفا حفْرةٍ من النّار فأنْقذكمْ منْها.كذلك يبيّن اللّه لكمْ آياته لعلّكمْ تهْتدون»..

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام..من الركيزة الأولى..أساسها الاعتصام بحبل اللّه – أي عهده ونهجه ودينه – وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر،ولا على أي هدف آخر،ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

«واعْتصموا بحبْل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا»..هذه الأخوة المعتصمة بحبل اللّه نعمة يمتن اللّه بها على الجماعة المسلمة الأولى.وهي نعمة يهبها اللّه لمن يحبهم من عباده دائما.وهو هنا يذكرهم هذه النعمة.يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أعْداءً»..وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد.وهما الحيان العربيان في يثرب.يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا.ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه،ولا تعيش إلا معه.فألف اللّه بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام..وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة.وما كان إلا حبل اللّه الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة اللّه إخوانا.

وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في اللّه،تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية،والثارات القبلية،والأطماع الشخصية والرايات العنصرية،ويتجمع الصف تحت لواء اللّه الكبير المتعال..

«واذْكروا نعْمت اللّه عليْكمْ،إذْ كنْتمْ أعْداءً،فألّف بيْن قلوبكمْ،فأصْبحْتمْ بنعْمته إخْواناً»..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشـــك أن يقعـــوا فيها،إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل اللّه – الركيزة الأولى – وبالتأليف بين قلوبهم،فأصبحوا بنعمة اللّه إخوانا – الركيزة الثانية –:«وكنْتمْ على شفا حفْرةٍ من النّار فأنْقذكمْ منْها».

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط:«الْقلْب»..فلا يقول:فألف بينكم.إنما ينفذ إلى المكمن العميق:«فألّف بيْن قلوبكمْ» فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد اللّه وعلى عهده وميثاقه.كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه.بل مشهدا حيـــا متحركـــا تتحرك معه القلوب:«وكنْتمْ على شفا حفْرةٍ من النّار»..وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة،إذا بالقلوب ترى يد اللّه،وهي تدرك وتنقـــذ! وحبـــل اللّـــه وهـــو يمتـــد ويعصم.وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حـــي تتبعـــه القلوب واجفة خافقة،وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال!

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره:أن هـــذه الآيـــة نزلـــت في شـــأن الأوس والخزرج،وذلك أن رجلا من اليهود مرّ بملأ من الأوس والخزرج،فساءه ما همْ عليه مـــن الاتفاق والألْفة،فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حـــروبهم يوم بعاث وتلك الحروب،ففعل،فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القـــوم وغضـــب بعضهم على بعض،وتثاوروا،ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم،وتواعدوا إلى الحرة،فبلغ ذلك النبي ﷺفأتاهم فجعل يسكّنهم ويقول:"أبدعْوى الجاهليّة وأنا بيْن أظْهركمْ؟" وتلا عليهم هذه الآية،فندموا على ما كان منهم،واصطلحوا وتعانقوا،وألقوا السلاح،رضي الله عنهم وذكر عكْرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفْك.والله أعلم.[١٥٨].

وعن عاصم بْن عمر بْن قتادة الْمدنيّ،عنْ أشْياخٍ،منْ قوْمه،قالوا:" قدم سويْد بْن صامتٍ أخو بني عمْرو بْن عوْفٍ مكّة حاجًّا أوْ معْتمرًا.قال:وكان سويْدٌ إنّما يسمّيه قوْمه فـــيهم الْكامل لجلده وشعْره ونسبه وشرفه،قال:فتصدّى له رسول اللّه ﷺحين سمع به،فدعاه إلى اللّه عزّ وجلّ وإلى الْإسْلام،قال:فقال له سويْدٌ:فلعلّ الّذي معك مثْل الّذي معي،قال:فقال

[١٥٨] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٢ /٩٠]

له رسول اللّه ﷺ:" وما الّذي معك ؟ " قال مجلّة لقْمان يعْني حكْمة لقْمان فقـال لـه رسول اللّه ﷺ:" اعْرضْها عليّ " فعرضها عليْه،فقال:" إنّ هذا الْكلام حسنٌ،معي أفْضل منْ هذا قرْآنٌ أنْزله اللّه عليّ هدًى ونورٌ "،قال:فتلا عليْه رسول اللّه ﷺالْقرْآن ودعاه إلى الْإسْلام،فلمْ يبْعدْ منْه،وقال:إنّ هذا الْقوْل حسنٌ ثمّ انْصرف عنْه،وقدم الْمدينة،فلمْ يلْبثْ أنْ قتلتْه الْخزْرج،فإنْ كان قوْمه ليقولون:قدْ قتل وهو مسْلمٌ،وكان قتْله قبْل يوْم بعـاثٍ ".[159]

وعنْ محمّد بْن إسْحاق،قال:ثني الْحسيْن بْن عبْد الرّحْمن بْن عمْرو بْن سعْد بْن معـاذٍ أحد بني عبْد الْأشْهل أنّ محْمود بْن أسدٍ أحد بني عبْد الْأشْهل،قال:لمّا قدم أبـو الْجـيْش أنس بْن رافعٍ مكّة،ومعه فتْيةٌ منْ بني عبْد الْأشْهل فيهمْ إياس بْن معاذٍ،يلْتمسون الْحلـف منْ قريْشٍ على قوْمٍ من الْخزْرج،سمع بهمْ رسول اللّه ﷺ،فأتاهمْ فجلس إليْهمْ،فقال:" هلْ لكمْ إلى خيْرٍ ممّا جئْتمْ له ؟ " قالوا:وما ذاك ؟ قال:" أنا رسول اللّـه بعـثني إلى الْعبـاد أدْعوهمْ إلى اللّه أنْ يعْبدوا اللّه ولا يشْركوا به شيْئًا،وأنْزل عليّ الْكتاب "،ثمّ ذكر لهـم الْإسْلام،وتلا عليْهم الْقرْآن،فقال إياس بْن معاذٍ،وكان غلامًا حدثًا:أيْ قوْم،هذا واللّه خيْرٌ ممّا جئْتمْ له،قال:فأخذ أبو الْجيْش أنس بْن رافعٍ حفْنةً من الْبطْحاء فضرب بها وجْه إياس بْن معاذٍ،وقال:دعْنا منْك،فلعمْري لقدْ جئْنا لغيْر هذا،قال:فصمت إياس بْن معاذٍ،وقـام رسول اللّه ﷺ عنْهمْ،وانْصـرفوا إلى الْمدينـة،وكانتْ وقْعـة بعـاث بـيْن الْـأوْس والْخزْرج،قال:ثمّ لمْ يلْبثْ إياس بْن معاذٍ أنْ هلك قال:فلمّا أراد اللّه إظْهار دينـه،وإعْزاز نبيّه ﷺ،وإنْجاز موْعده له،خرج رسول اللّه ﷺ الْموْسم الّذي لقي فيه النّفْر من الْأنْصار يعْرض نفْسه على قبائل الْعرب كما كان يصْنع في كلّ موسمٍ،فبيْنا هو عنْد الْعقبة،إذْ لقي رهْطًا من الْخزْرج أراد اللّه لهمْ خيْرًا،قال ابْن حميْدٍ:قـال سـلمة:قـال محمّـد بْـن إسْحاق:فحدّثني عمر بْن قتادة عنْ أشْياء منْ قوْمه،قالوا:لمّا لقيهمْ رسول اللّـه ﷺ قـال لهمْ:" منْ أنْتمْ ؟ " قالوا:نفرٌ من الْخزْرج،قال:وأمنْ موالي يهود ؟ " قالوا:نعمْ،قال:" أفلا تجْلسون حتّى أكلّمكمْ ؟ " قالوا:بلى،قال:فجلسوا معه،فدعاهمْ إلى اللّه وعرض علـيْهم

---

[159] - جَامعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٦٩٠٦) صحيح مرسل

الْإسْلام،وتلا عليْهم الْقرْآن،قال:وكان ممّا صنع اللّه لهمْ به في الْإسْلام أنْ يهود كانوا معهمْ ببلادهمْ،وكانوا أهْل كتابٍ وعلْمٍ،وكانوا أهْل شرْكٍ أصْحاب أوْثانٍ،وكانوا قدْ غزوْهمْ ببلادهمْ،فكانوا إذا كان بيْنهمْ شيْءٌ،قالوا لهمْ:إنّ نبيًّا الْآن مبْعوثٌ قدْ أظلّ زمانه نتّبعه ونقْتلكمْ معه قتْل عاد وإرمٍ،فلمّا كلّم رسول اللّه ﷺأولئك النّفْر،ودعاهمْ إلى اللّه عزّ وجلّ،قال بعْضهمْ لبعْضٍ:يا قوْم تعْلمون واللّه إنّه للنّبيّ الّذي توعدكمْ به يهود،ولا يسْبقنّكمْ إليْه،فأجابوه فيما دعاهمْ إليْه بأنْ صدّقوه،وقبلوا منْه ما عرض عليْهمْ من الْإسْلام،وقالوا له:إنّا قدْ تركْنا قوْمنا،ولا قوْم بيْنهمْ من الْعداوة والشّرّ ما بيْنهمْ،وعسى أنْ يجْمعهم اللّه بك،وسنقْدم عليْهمْ،فندْعوهمْ إلى أمْرك،ونعْرض عليْهم الّذي أجبْناك إليْه منْ هذا الدّين،فإنْ يجْمعهم اللّه عليْه،فلا رجل أعزّ منْك ثمّ انْصرفوا عنْ رسول اللّه ﷺ،راجعين إلى بلادهمْ،قدْ آمنوا وصدّقوا،وهمْ فيما ذكر لي ستّة نفرٍ،قال:فلمّا قدموا الْمدينة على قوْمهمْ،ذكروا لهمْ رسول اللّه ﷺ،ودعوْهمْ إلى الْإسْلام،حتّى فشا فيهمْ،فلمْ يبْق دارٌ منْ دور الْأنْصار إلّا وفيها ذكْرٌ منْ رسول اللّه ﷺ حتّى إذا كان الْعام الْمقْبل،وافى الْموْسم من الْأنْصار اثْنا عشر رجلًا،فلقوْه بالْعقبة،وهي الْعقبة الْأولى،فبايعوا رسول اللّه ﷺعلى بيْعة النّساء،وذلك قبْل أنْ تفْترض عليْهم الْحرْب ".[١٦٠].

وكذلك بين اللّه لهم فاهتدوا،وحق فيهم قول اللّه سبحانه في التعقيب في الآية:« كذلك يبيّن اللّه لكمْ آياته لعلّكمْ تهْتدون».

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل اللّه بين المتحابين فيه،القائمين على منهجه،لقيادة البشرية في طريقه..هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة،كلما تجمعت على منهج اللّه واعتصمت بحبله.وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب.كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض.وتقطع بينهم حبل اللّه المتين،الذي يتآخون فيه مجتمعين.وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق.

---

[١٦٠] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٦٩٠٧) حسن مرسل

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة.فهي تشي – مع ما قبلها في السياق وما بعدها – بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة،وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل.والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب،ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم،ومن التفرق كما تفرقوا..هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة،ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار..وهو دأب يهود في كل زمان.وهو عملها اليوم وغدا في الصف المسلم،في كل مكان!

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها..هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج اللّه في الأرض،ولتغليب الحق على الباطل،والمعروف على المنكر،والخير على الشر..هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد اللّه وعلى عينه،ووفق منهجه..فهي التي تقررها الآية التالية:«ولْتكنْ منْكمْ أمّةٌ يدْعون إلى الْخيْر،ويأْمرون بالْمعْروف وينْهوْن عن الْمنْكر،وأولئك هم الْمفْلحون»..

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير،وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير.ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف.وهناك «نهي» عن المنكر.وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان،فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة..إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى..سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر..سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل اللّه وحبل الأخوة في اللّه..سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج اللّه في حياة البشر..وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج.ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر..فتطاع..واللّه يقول:«وما أرْسلْنا منْ رسولٍ إلّا ليطاع بإذْن اللّه»..فمنهج اللّه في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد

وبيان.فهذا شطر.أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي،على تحقيق المعـــروف ونفي المنكر من الحياة البشرية،وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كـــل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة،وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره،زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من ثم – تكليف ليس بالهين ولا باليسير،إذا نظرنا إلى طبيعته،وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم،ومصالح بعضهم ومنـــافعهم،وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهم الجبار الغاشم.وفيهم الحاكم المتسلط.وفيهم الهابط الذي يكره الصـــعود.وفـــيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد.وفيهم المنحل الذي يكره الجد.وفيهم الظالم الذي يكـــره العدل.وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة..

وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف،ويعرفون المنكر.ولا تفلح الأمة،ولا تفلح البشرية،إلا أن يسود الخير،وإلا أن يكون المعروف معروفا،والمنكر منكرا..وهذا ما يقتضـــي ســـلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى..

وتطاع..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين:الإيمان باللّه والأخوة في اللّه.لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقـــوة الحـــب والألفـــة،وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه اللّه بالجماعة المســـلمة،وكلفها بـــه هـــذا التكليف.وجعل القيام به شريطة الفلاح.فقال عن الذين ينهضون بـــه:«وأولئـــك هـــم الْمفْلحون»..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته.فهذه الجماعة هي الوســـط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية.هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير.المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل.والمنكر فيه هـــو الشـــر والرذيلة والباطل والظلم..عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر.والفضيلة فيه أقل تكـــاليف

من الرذيلة.والحق فيه أقوى من الباطل.والعدل فيه أنفع من الظلم..فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانا.وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا..ومن هنا قيمة هذا التجمع..

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد،لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه.والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة،لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص..يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا.فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة.لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي،ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور،ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية،وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه.وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل اللّه تجد من يدافعها دون منهج اللّه في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة.الإيمان باللّه كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص،وترجع إلى ميزان واحد تقوّم به كل ما يعرض لها في الحياة،وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند اللّه،وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج اللّه في الأرض..والأخوة في اللّه.كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة،وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار.الإيثار المنطلق في يسر،المندفع في حرارة،المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين..على الإيمان باللّه:ذلك الإيمان المنبثق من معرفة اللّه - سبحانه - وتمثّل صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته،واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال.وعلى

الحب.الحب الفياض الرائق،والود.الــود العــذب الجميل،والتكافــل.التكافــل الجــاد العميق..وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا،لولا أنه وقع،لعد من أحلام الحــالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة،ولكنها في طبيعتها أقــرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض.ولكنها في طبيعتها من عالم الخلــد والجنان! ١٠٦ - وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج اللّــه في الأرض في كل زمان..

ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف وينذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج اللّه قبلها - من أهل الكتاب - ثم تفرقوا واختلفوا،فنزع اللّــه الرايــة منهم،وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية..فوق ما ينتظرهم من العذاب،يوم تبيض وجوه وتسود وجوه:«ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واخْتلفوا منْ بعْد ما جاءهم الْبيّنات وأولئــك لهمْ عذابٌ عظيمٌ.يوْم تبْيضّ وجوهٌ وتسْودّ وجوهٌ.فأمّا الّذين اسْودّتْ وجوههمْ:أكفــرْتمْ بعْد إيمانكمْ؟ فذوقوا الْعذاب بما كنْتمْ تكْفرون.وأمّا الّذين ابْيضّتْ وجوههمْ ففي رحْمت اللّه همْ فيها خالدون»..

وهنا يرسم السياق مشهدا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيويــة..فــنحن في مشهد هول.هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف.ولكن يتمثل في آدميين أحيــاء.في وجوه وسمات..هذه وجوه قد أشرقت بالنور،وفاضت بالبشر،فابيضــت مــن البشــر والبشاشة،وهذه وجوه كمــدت مــن الحزن،واغــبرت مــن الغم،واســودت مــن الكآبة..وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه.ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب:«أكفرْتمْ بعْد إيمانكمْ؟ فذوقوا الْعذاب بما كنْتمْ تكْفرون!»..

«وأمّا الّذين ابْيضّتْ وجوههمْ ففي رحْمت اللّه همْ فيها خالدون».هكذا ينبض المشــهد بالحياة والحركة والحوار..على طريقة القرآن.وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المســلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف.ومعنى النعمة الإلهية الكريمة..بالإيمان والائتلاف.

وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل الكتاب،الذين تحذّر أن تطيعهم.كي لا تشاركهم هذا المصير الأليم في العذاب العظيم.يوم تبيض وجوه،وتسود وجوه..

ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيبا قرآنيا يتمشى مع خطوط السورة العريضة،يتضمن إثبات صدق الوحي والرسالة.وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة.والعدل المطلق في حكم اللّه في الدنيا والآخرة.

وملكية اللّه المفردة لما في السماوات وما في الأرض.ورجعة الأمر إليه في كل حال:«تلْك آيات اللّه نتْلوها عليْك بالْحقّ،وما اللّه يريد ظلْماً للْعالمين.وللّه ما في السّماوات وما في الْأرْض.وإلى اللّه ترْجع الْأمور»..

تلك الصور.تلك الحقائق.تلك المصائر..تلك آيات اللّه وبيناته لعباده:نتلوها عليك بالحق.فهي حق فيما تقرره من مبادئ وقيم وهي حق فيما تعرضه من مصائر وجزاءات.وهي تتترل بالحق ممن يملك تتريلها وممن له الحق في تقرير القيم،وتقرير المصائر،وتوقيع الجزاءات.وما يريد بها اللّه أن يوقع بالعباد ظلما.فهو الحكم العدل.وهو المالك لأمر السماوات والأرض.ولكل ما في السماوات وما في الأرض.وإليه مصير الأمور.إنما يريد اللّه بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق،وأن يجري العدل،وأن تمضي الأمور بالجد اللائق بجلال اللّه..لا كما يدعي أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودات! [١٦١]

وقال تعالى:{ وأطيعواْ اللّه ورسوله ولا تنازعواْ فتفْشلواْ وتذْهب ريحكمْ واصْبرواْ إنّ اللّه مع الصّابرين} (٤٦) سورة الأنفال

وأمر الله تعالى المؤْمنين بطاعته تعالى في الثّبات عنْد لقاء الأعْداء المشْركين،وبالإخْلاص له،وببذْل الجهْد في القتال،وبذكْر الله كثيراً لتطْمئنّ النّفوس وتهْدأ،ويزايلها الخوْف والتّردّد والقلق،كما أمرهمْ بطاعة رسول الله،والتزام أوامره،إنْجاحاً للْخطّة العامّة للْجيْش في

[١٦١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧١١)

المعْركة.ثمّ أمرهمْ بألاّ يتنازعوا،ولا يخْتلفوا،لأنّ في التّنازع والاخْتلاف الفشل والخـذْلان وضياع ما حقّقه المسْلمون في المعْركة { وتذْهب ريحكمْ }.ثمّ يكرّر الله تعالى أمْره للْمؤْمنين بالتزام الصّبْر،لأنّ الله مع الصّابرين.[١٦٢]

فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار.فإذا استسلم الناس للّه ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للتراع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير التراع هو اختلاف وجهات النظر،إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة،والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء!..ومن ثم هذا التعليم بطاعة اللّه ورسوله عند المعركة..إنه من عمليات «الضبط» التي لا بد منها في المعركة..إنها طاعة القيادة العليا فيها،التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها.وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد للّه،ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها للّه أصلا..والمسافة كبيرة كبيرة..[١٦٣]

غثاء كغثاء السيل:

وكذلك نحن اليوم عددنا ينوف على المليار ولكن بالأكل والشرب ليس إلا

فنحن كما قال ﷺ

فعنْ ثوْبان،قال:قال رسول اللّه ﷺ:«يوشك الْأمم أنْ تداعى عليْكمْ كما تداعى الْأكلة إلى قصْعتها»،فقال قائلٌ:ومنْ قلّةٍ نحْن يوْمئذٍ؟ قال:«بلْ أنْتمْ يوْمئذٍ كثيرٌ،ولكنّكمْ غثاءٌ كغثاء السّيْل،ولينْزعنّ اللّه منْ صدور عدوّكم الْمهابة منْكمْ،وليقْذفنّ اللّه في قلوبكم الْوهْن»،فقال قائلٌ:يا رسول اللّه،وما الْوهْن؟ قال:«حبّ الدّنْيا،وكراهية الْموْت»[١٦٤]

---

[١٦٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

[١٦٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٦٧)

[١٦٤] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

" يوشك الْأمم) أيْ:يقْرب فرق الْكفْر والضّــلالة (" أنْ تــداعى "):حــذف إحْــدى التّاءيْن،أيْ:تتداعى (عليْكمْ):بأنْ يدْعو بعْضهمْ بعْضًا لمقاتلتكمْ وكسْر شوْكتكمْ وسلْب ما ملكْتموه من الدّيار والْأمْوال (كما تداعى) أيْ:تتداعى (الْأكلة) بالْمدّ،وهي الرّوايــة على نعْت الْفئة والْجماعة أوْ نحْو ذلك،كذا روى لنا عنْ كتاب أبي داود،وهذا الْحديث منْ أفْراده،ذكره الطّيبيّ – رحمه اللّه –.ولوْ روي الْأكلة بفتْحتيْن على أنّه جمْع آكلٍ اسْم فاعلٍ لكان له وجْهٌ وجيهٌ،والْمعْنى:كما يدْعو أكلة الطّعام بعْضهمْ بعْضًا (إلى قصْــعتها) أي:الّتي يتناولون منْها بلا مانعٍ ولا منازعٍ،فيأْكلونها عفْوًا صفْوًا،كذلك يأْخذون مــا في أيْديكمْ بلا تعبٍ ينالهمْ،أوْ ضررٍ يلْحقهمْ،أوْ بأْسٍ يمْنعهمْ.

(فقال قائلٌ:ومنْ قلّة):خبر مبْتدأ محْذوف،وقوْله:(نحْن يوْمئــذ):مبْتــدأٌ وخــبرٌ صــفةٌ لها،أيْ:أذلك التّداعي لأجْل قلّةٍ نحْن عليْها يوْمئذٍ (قال:" بلْ أنْتمْ يوْمئذٍ كثْرةٌ ") أيْ:عددًا وقليلٌ مددًا،وهذا معْنى الاسْتدْراك بقوْله:(" ولكنّكمْ غثاءٌ ") بالضّمّ ممْدودًا.

قال الطّيبيّ – رحمه اللّه –:(" كغثاء السّيْل "):قال الطّيبيّ بالتّشْديد أيْضًا ما يحْمله السّيْل مــنْ زبــدٍ ووسخٍ،شــبّههمْ بــه لقلّــة شــجاعتهمْ،ودناءة قدْرهمْ،وخفّــة أحْلامهمْ،وخلاصته:ولكنّكمْ تكونون متفرّقين،ضــعيفي الْحــال،خفيفي الْبال،مشــتّتي الْآمال،ثمّ ذكر سببه بعطْف الْبيان فقال:(ولينْزعنّ) أيْ:ليخْرجنّ (اللّه منْ صدور عدوّكم الْمهابة) أي:الْخوْف والرّعْب (منْكمْ) أيْ:منْ جهتكمْ (" وليقْــذفنّ ") بضــمّ الْيــاء أيْ:وليرْمينّ أي:اللّه (" في قلوبكم الْوهْن ") أي:الضّعْف،وكأنّه أراد بالْوهْن ما يوجبه ؛ ولذلك فسّره بحبّ الدّنْيا وكراهة الْموْت حيْث قال:(قال قائلٌ:يا رسول اللّــه – ﷺ – وما الْوهْن) ؟ أيْ ما سببه وما موجبه؟ قال الطّيبيّ – رحمه اللّه –:ســؤالٌ عــنْ نــوْع الْوهْن،أوْ كأنّه أراد منْ أيّ وجْه يكون ذلك الْوهْن (قال:" حبّ الدّنْيا وكراهة الْمــوْت ") وهما متلازمان فكأنّهما شيْءٌ واحدٌ،يدْعوهمْ إلى إعْطاء الدّنيّة في الدّين مــن الْعــدوّ الْمبين،ونسْأل اللّه الْعافية فقد ابْتلينا بذلك،فكأنّما نحْن الْميّتون بما ذكر هنالك.[١٦٥]

---

١٦٥ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٥)

خليط لا قيمة لهولا قدر لأنه لا يجمعنا جامع ولا يردعنا رادع والعالم كله متآمر علينا شرقيه وغربيه جنوبه وشماله

ويقول أستاذنا الفاضل د محمد الزحيلي:

يتعرض الفرد والمجتمع والأمة دائما وباستمرار إلى عوارض متعددة،وظروف طارئة،وتطورات كثيرة،وأمراض مختلفة،ويتفاوت أثر ذلك بحسب طبيعة المؤثر الجديد،وبنيان الفرد والمجتمع،والعوامل المساعدة،وقد ينتاب الفرد أو المجتمع مرض عارض،ويزول بسرعة دون أن يترك أثرا ما،وقد يصاب الفرد بمرض معين،فيقتصر عليه ولا يمتد إلى المجتمع،ولا تحس به الأمة،وقد يتحول المرض من الفرد إلى المجتمع،فيصبح مرضا قاتلا،ووباء فتاكا،ويكون أثره إزهاق الفرد،وإبادة الأمة وسحق المجتمع.

وإن أمراض الإنسان كثيرة،منها عضوية،ومنها نفسية ومنها اجتماعية،وهي في معظمها أمراض عامة لا تخص فردا أو مجتمعا أو أمة،فإذا حلت في فرد أو مجتمع أو أمة فلا بد أن تظهر أعراضها،وينتشر خطرها،ويحس بآلامها المصاب وغيره،وقد تفتك بالمريض،وتؤدي إلى العدوى،لتفتك بالمجموع.

ومن هنا تقوم الديانات السماوية،والمفكرون في كل أمة،والمصلحون في كل مجتمع،بمجابهة هذه الأمراض،ووصف الأدوية لها،بل يسارعون إلى التحذير منها لأخذ الوقاية والمناعة قبل أن تحل وتستشري بين الناس،لأن الوقاية خير من العلاج،وبذلك ينقذون أمتهم ومجتمعهم من الأخطار المحدقة،ويجنبون الأفراد ويلات تحيق بهم،وتهدد وجودهم.

ومن هذه الأمراض الفتاكة التي يشترك فيها الفرد والمجتمع،وتنذر الأمة بالويل والدمار مرض الوهن الذي بين لنا رسول الله ﷺ أعراضه وأسبابه،وحذر منه.

والوهن في اللغة العربية الضعف،سواء أكان ماديا أم معنويا،وسواء أكان في الفرد أم في المجتمع،من وهن يهن وهنا أي ضعف،ويقال وهن عظمه،واسم التفضيل أوهن،ويقال:وهن الرجل أي جبن عن لقاء عدوه،وهذا داخل في الضعف،وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى في عدة آيات،فقال تعالى:« قال رب إني وهن العظم مني

واشتعل الرأس شيبا» مريم/ ٤،وقال تعالى:« فما وهنوا لما أصـــابهم في ســـبيل الله» آل عمران / ١٤٦،وقال تعالى:« ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون» النساء/ ١٠٤ أي لا تجبنوا،وقال تعالى:« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلـــون إن كنتم مؤمنين» آل عمران / ١٣٩،وقال تعالى:« ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن» لقمان / ١٤،وقال عز وجل:« وإن أوهن البيـــوت لبيـــت العنكبـــوت» العنكبوت /٤١.

ولكن الوهن المقصود في هذا المقال هو مرض عضال،ووباء عام بينه لنا رســـول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عنْ ثوْبان موْلى رسول الله ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ:" يوشك أنْ تداعى عليْكم الْأمم منْ كلّ أفقٍ كما تداعى الْأكلة على قصْعتها ".قال:قلْنا:يا رســـول الله،أمنْ قلّةٍ بنا يوْمئذٍ؟ قال:" أنْتمْ يوْمئذٍ كثيرٌ،ولكنْ تكونون غثاءً كغثاء السّـــيْل،تنْتزع الْمهابة منْ قلوب عدوّكمْ،ويجْعل في قلوبكم الْوهْن ".قال:قلْنا:وما الْوهْن؟ قال:" حـــبّ الْحياة وكراهية الْموْت "[١٦٦].

وهكذا يكشف الرسول ﷺ أعراض الوهن الذي يبدأ من الفرد،وينتـــهي بالمجتمع،هـــذا المرض الذي يصيب الأمم والشعوب فيقضي عـــل كيانها،ويهـــد م وجودها،ويســـقط هيبتها،ويمحو أثرها،ويزلزل أركانها،ويحطم دعائمها،فتهوى مـــن عليائهـــا وكرامتـــها واستعلائها إلى أن تركع أمام الأمم الأخرى،وتستخذل أمام الشعوب المجاورة،وتصـــبح لقمة سائغة للطامعين فيها،بل يكثر الأكلة حولها،ويجتمعون على اقتســـامها والقضـــاء عليها،كما يجتمع الجياع حول الطعام ليتناولوه،ويأخذوه،ويقتسموه،فلا يرفعون أيـــديهم عنه،وفي القصعة أثر لوجوده.

هذا المرض بأعراضه وأسبابه يصيب الدول في القديم والحـــديث،ويؤدي إلى ســـقوطها وانهيارها،وهو اليوم مقيم بين المسلمين،وقد حط بكلكله عليهم،ونزل بهم الـــوهن منـــذ أمد،وكأن الرسول ﷺ ينظر بعين الغيب (الذي يطلعه عليه الـــوحي) ويصـــور حـــال المسلمين،وقد تداعت عليهم الأمم الاستعمارية،والشعوب المعادية وتكالبت على أرضهم

[١٦٦] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٨٢)(٢٢٣٩٧) صحيح

وبلادهم،وجـــزأت أوطـــانهم وديارهم،وســـلبت نصـــيبا كـــبيرا وعزيـــزا مـــن مقدساتهم،وتآمرت،ولا تزال تتآمر،عليهم في كل قطر وجانب،وتحيك لهم المؤامرة تلـــو المؤامرة للإطاحة بهم،وفرض الاستســـلام عليهم،وضـــمان الاســـتذلال والاستســـلام لهم،وتنوع عليهم أساليب الاستغلال والابتزاز لثـــرواتهم واقتصـــادهم،وتفرض علـــيهم الأفكار الخبيثة،والمبادئ البراقة،والقيم الدخيلة،والقوانين الوضعية،وتغزوهم فكريا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا في عقر دارهم،وتتقاسمهم النفوذ ومناطق الســـيطرة،وتتقاذفهم ذات اليمين وذات اليسار،وتحفر لهم الحفر ليسقطوا فيها،وترى القطر الواحد يوما مع الشرق ويوما مع الغرب،وتارة يستورد أفكاره وقيمه وموارده وأسلحته مـــن هنا،وتـــارة مـــن هناك،والمسلمون اليوم في ضياع وتمزق،وتردد واضطراب،لا يعرفون ذاتا لأنفســـهم،ولا يعلمون هوية لشخصيتهم،ويجهلون السفينة التي تحملهم،وهم نائمون عن الريـــاح الـــتي تتقاذفهم،وقد تكسرت السواري،وسقطت الراية،وهم في بحر لجي،في ظلمات بعضـــها فوق بعض،إذا أخرجوا أصابعهم لا يكادون يرونها مـــن الحجـــب الكثيفـــة،والنظارات السوداء التي أحكم العدو ربطها على أعينهم،وشدد الخناق فيهـــا علـــى رقـــابهم،لكن أعدادهم كثيرة،وثرواتهم ضخمة،ومركزهم استراتيجي،وهم ملايـــين وملايين،ولكنـــهم غثاء كغثاء السيل،لا قيمة له،ولا يثبت على حال،ويقذفه السيل إلى الحضـــيض،ولذلك فقدوا هيبتهم،وطمع بهم القريب والبعيد،والقوى والضعيف،وسامهم الذل والهوان علـــى أيدي عصابات صهيون،وجنود المرتزقة،وتسلط العملاء.

حب الدنيا وكراهية الموت:

وقد شخص رسول الله ﷺ المرض،فبين أنه الوهن،ثم شرح أعراضه الظـــاهرة وأســـبابه القريبة والبعيدة،وهي حب الدنيا،والتعلق بها،والافتتان بزينتها،والسعي وراءهـــا،والطمع فيها،وقصور الآمال عليها،واعتبارها المبدأ والمنتهى،والظن بالخلود فيها،وحب الاستزادة من البقاء فيها،وبالتالي كراهية الموت،لأنه يقطع هذه ا لآمال والأماني وكأن لسان حال القوم يردد سخافات الجاهلية من الدهريين وغيرهم،حين يقولون:{ إنْ هي إلّـــا حياتنـــا الدّنْيا نموت ونحْيا وما نحْن بمبْعوثين} [المؤمنون:٣٧]،« وقالوا إن هي إلا حياتنا الـــدنيا

وما نحن بمبعوثين» الأنعام/ ٢٩،« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» الجاثية / ٢٤.

إن المرض واحد،ولكن له وجهان متقابلان،وصفتان متلازمتان،وعرضان متحـــدان،وهما حب الدنيا وكراهية الموت،وهـــذان العرضـــان نشـــيطان ومؤثران،ويتركـــان الآثـــار العظيمة،والنتائج الخطيرة،ويدفعان إلى أعمال جمة.

فمن آثار حب الدنيا أن تبدأ من الفرد لتصل إلى المجتمع،فتصبغه بها،وينتشر الحرص على جمع المال،والانكباب على كسبه بالطرق المشروعة وغـــير المشـــروعة،ويظهر التقاتـــل والتخاصم،والشح والبخل،والجشع والطمع،واللـــف والـــدوران في التعامل،والتحايـــل والتهرب،والسرقة والغصب،ثم يعقب ذلك التخاذل والجبن والخوف والاضطراب،والقلق الشديد من المستقبل.

ومن آثار كراهية الموت أن يعب الإنسان من طيبات الحياة مـــا اســـتطاع إلى ذ لـــك سبيلا،وألا يعد للموت عدته،ولا يقدم شيئا أمامه،ويسرف في الملذات،ويسعى لإشـــباع الشهوات،وينقاد وراء الغرائز،ولو قتل نفسه بنفسه،ثم يهلك ذاته بيده.

ويشرح القرآن الكريم هذا المرض بشقيه،مبينا أثره وخطره وعاقبته،فيقول تعالى:« ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علـــم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» التكاثر.

حقيقة الدنيا:

وإن حب الدنيا وكراهية المـــوت يعـــني أن الإنســـان يجهـــل حقيقـــة الـــدنيا،ويغتر بمظاهرها،ويفتتن بمغرياتها،وأن صاحبها قصير النظر،كليل البصر،ينظر بـــين رجليـــه،ولا يستعد لأبعد من ذلك،ولا يهيء نفسه لمستقبل أيامه،ولا يدخر سلاحه وقوتـــه لوقـــت حاجته،لذلك حرص القرآن الكريم على أن يكشف للمسلم حقيقة الدنيا،ويميط له اللثام عن مفاتنها،ويحذره من الاغترار فيها،وذلك في آيات كثيرة،قال تعالى:« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجـــب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة مـــن

الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» الحديد/ ٢٠.وقال تعالى:« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب» آل عمران/ ١٤،ويبين القرآن حقيقة الحياة،ويحذر من فتنتها،فيقول تعالى:« يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» فاطر/ ٥،كما يقرر القرآن الكريم أشياء كثيرة من زينة الحياة الدنيا،ثم يدعو الناس إلى عدم الوقوف عندها،ويطلب منهم تجاوزها إلى ما هو خير وأشمل،وأحسن وأدوم وأثمن وأبقى،فيقول تعالى:« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا» الكهف/٤٦.

فالدنيا جميلة،وفيها من المسليات والملاهي الشيء الكثير،ولكن ذلك إلى زوال،وأن الحياة الحقيقية،والسعادة الحقة هي في الدار الآخرة،فيقول تعالى:« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت/ ٦٤،ثم يحذر الرسول الكريم من مفاتن الدنيا،والانشغال بمالها وخيراتها،والتنافس فيها،والغفلة عن الله والآخرة،فيقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الأَنْصَارِيَّ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ،وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ،فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ،فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ،فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انْصَرَفَ،فَتَعَرَّضُوا لَهُ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ،وَقَالَ:«أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ؟»،قَالُوا:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،فَوَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١٦٧]

---

[١٦٧] - صحيح البخاري (٤/ ٩٦) (٣١٥٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٦ - (٢٩٦١)

وبين رسول الله ﷺ قيمة الدنيا،وهوانها عند الله تعالى،وأنه لا قدر لها إذا قصدت لذاتها،وإنما تظهر قيمتها إذا جعلت طريقا إلى الآخرة،ومزرعة للأعمال،فقال عليه الصلاة و السلام - فيما رواه الترمذي عنْ سهْل بْن سعْد،قال:قال رسول اللّه ﷺ:«لوْ كانت الدّنْيا تعْدل عنْد اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرًا منْها شرْبة ماء» وفي الباب عنْ أبي هريْرة:«هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ منْ هذا الوجْه»[١٦٨]

وحذر الرسول الكريم المؤمنين من استعباد الدنيا وزينتها لهم،فالعاقل لا يكون عبدا للدرهم والدينار،وإلا استحق السخط والغضب،يروي البخاري عنْ أبي هريْرة رضي اللّه عنْه،عن النّبيّ ﷺ،قال:«تعس عبْد الدّينار،والدّرْهم،والقطيفة،والخميصة،إنْ أعْطي رضي،وإنْ لمْ يعْط لمْ يرْض» وفي وراية عنْ أبي هريْرة،عن النّبيّ ﷺ،قال:«تعس عبْد الدّينار،وعبْد الدّرْهم،وعبْد الخميصة،إنْ أعْطي رضي،وإنْ لمْ يعْط سخط،تعس وانْتكس،وإذا شيك فلا انْتقش،طوبى لعبْد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللّه،أشْعث رأْسه،مغْبرّة قدماه،إنْ كان في الحراسة،كان في الحراسة،وإنْ كان في السّاقة كان في السّاقة،إن اسْتأْذن لمْ يؤْذنْ له،وإنْ شفع لمْ يشفّعْ»،وقال:فتعْسًا:كأنّه يقول:فأتْعسهم اللّه،طوبى:فعْلى منْ كلّ شيْء طيّب،وهي ياءٌ حوّلتْ إلى الواو وهي منْ يطيب "[١٦٩]

[ش (فوافت) من الموافاة أي أتوا وحضروا.(أجل) نعم.(تبسط) يوسع لكم فيها.(فتنافسوها) من التنافس وهو الرغبة في الشيء والانفراد به مأخوذ من الشيء النفيس الجيد في نوعه والذي يرغب فيه.(تهلككم) تجركم إلى الهلاك بسبب التنازع عليها والركون إليها والاشتغال بها عن الآخرة]

[١٦٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٦٠)(٢٣٢٠) صحيح

[١٦٩] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٦و٢٨٨٧)

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك.(عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.(القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب.(الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط.(أعطي) من المال.(رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح.(انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.(شيك) أصابته شوكة.(فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه.(طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب.(بعنان) لجام.(أشعث) متفرق الشعر غير مسرح.(إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.(كان في الحراسة) قام بها راضيا.(الساقة) مؤخرة الجيش.(تعسا) اللفظ من / محمد ٨ /.(طوبى) اللفظ من / الرعد ٢٩ /.وقيل هو اسم للجنة]

وروى مسلم عنْ أبي سعيدٍ الْخدْريّ،عن النّبيّ ﷺ،قال:«إنّ الدّنْيا حلْوةٌ خضرةٌ،وإنّ الله مسْتخْلفكمْ فيها،فينْظر كيْف تعْملون،فاتّقوا الدّنْيا واتّقوا النّساء،فإنّ أوّل فتْنة بني إسْرائيل كانتْ في النّساء».[170]

وروى البخاري ومسلم عنْ سهْلٍ،قال:جاءنا رسول اللّه ﷺ ونحْن نحْفر الخنْدق،وننْقل التّراب على أكْتادنا،فقال رسول اللّه ﷺ:«اللّهمّ لا عيْش إلّا عيْش الآخرهْ،فاغْفرْ للْمهاجرين والأنْصار»[171]

وهذه الآيات والأحاديث،وغيرها كثير،تحذير للمسلمين من الفتنة بالدنيا،والتعلق بها،والاغترار بزينتها،وليكون ذ لك وقاية لهم من الانغماس فيها،ولكن ذ لك لا يعني التخلي عن الدنيا وترك ما فيها،واعتبارها نجسا كما يحلو لأتباع بعض الديانات المحرفة،بل الدنيا مزرعة للآخرة،وأن الدنيا ميراث وتركة للمؤمن،ينفقها في سبيل الآخرة،ويشترى بها الدرجات العليا في الجنة،فعنْ يونس بْن ميْسرة الْجبْلانيّ قال:" ليْس الزّهادة في الدّنْيا بتحْريم الْحلال ولا بإضاعة الْمال،ولكنّ الزّهادة في الدّنْيا أنْ تكون بما في يد الله عزّ وجلّ أوْثق منْك بما في يدك،وأنْ يكون حالك في الْمصيبة وحالك إذا لمْ تصبْ بها سواءً،وأنْ يكون مادحك وذامّك في الْحقّ سواءً "[172].

الاستعداد للموت:

---

[170] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) ٩٩ - (٢٧٤٢)

[ش (إن الدنيا حلوة خضرة) يحتمل أن المراد به شيئان أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلبا حثيثا فكذا الدنيا والثاني سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين (إن الله مستخلفكم فيها) أي جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) هكذا هو في جميع النسخ فاتقوا الدنيا ومعناه اجتنبوا الافتتان بها وبالنساء وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن وأكثرهن فتنة الزوجات لدوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن]

[171] - صحيح البخاري (٥/ ٣٤) (٣٧٩٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٣١)١٢٦ - (١٨٠٤)

[ش (أكتادنا) جمع كتد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر والكاهل ما بين الكتف إلى موصل العنق في الصلب وفي رواية (أكبادنا) جمع كبد أي على جنوبنا مما يلي الكبد]

[172] - شعب الإيمان (١٣/ ٢٥١)(١٠٢٨٩) صحيح

وهذه النظرة الحقيقية للدنيا،وعدم التعلق بها،وسيلة تربوية حتى يكون المال وغيره في يـــد المؤمن والعاقل،وليس في قلبه،فلا يستأسره ويسيطر عليه،وإنما يستخدمه لنفـــع العبـــاد والبلاد،ويسخر ما في يده من خير ليكون أمامه يوم الـــدين والحســـاب،وليبقى ذكـــرا له،وعملا نافعا،وأجرا دائما بعد وفاته،وأن الادخار والبخل،والاكتناز والشح لا يعـــود عليه بشيء،ولن يخلد في الدنيا،وسوف ينقل إلى القبر،ويدفن تحت التراب،ويبقى المـــال لغيره،ويكشف لنا رسول الله ﷺ،هذه الحقيقة،مبينا حظ الإنسان من مالـــه،فيما يرويـــه مسلم عنْ مطرّفٍ،عنْ أبيه،قال:أتيْت النّبيّ ﷺ وهو يقْرأ:ألْهاكم التّكاثر،قال:" يقول ابْن آدم:مالي،مالي،قال:وهلْ لك،يا ابْن آدم منْ مالك إلّا ما أكلْـــت فأفْنيْـــت،أوْ لبسْـــت فأبْليْت،أوْ تصدّقْت فأمْضيْت؟ "[١٧٣]

ولذلك يستعد العاقل للموت،- ويهيئ له الأسباب المحمودة،فإن جاءه الموت كان عـــل خير حال،دون أن يغفل عن هذه الحقيقة التي تلازم البشرية،وأن الدنيا ليست مقـــرا ولا مستقرا،و لم يخلد فيها إنسان،والموت حق يقيني،ومهما جمع الإنسان في هذه الحياة،فـــإن متطلباته منها محدودة،وحصيلته مقررة،وانتفاعه محصور،والزائد عنه سيبقى لغـــيره مـــن الأحياء،ويروح المرء إلى مصيره المحتوم شاء أم أبى،وإن أنفق ماله في الشر والإيذاء فسوف يحاسب عليه،وإن كان رشيدا أنفقه في الخير،واستعد لما بعد الموت،لما روي عنْ شدّاد بْن أوْسٍ،عن النّبيّ ﷺ،قال:«الكيّس منْ دان نفْسه وعمل لما بعْد الموْت،والعاجز مـــنْ أتْبـــع نفْسه هواها وتمنّى على اللّه»[١٧٤]

وقد خلق الله الحياة ابتلاء للإنسان واختبارا له،ليستعد إلى لقاء ربـــه،ويغتنم الفرصـــة في حياته،عنْ عمْرو بْن ميْمونٍ،قال:قال رسول الله ﷺ لرجلٍ وهو يعظه:" اغْتنمْ خمْسًا قبْـــل

[١٧٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٣ - (٢٩٥٨)

[١٧٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٣٨) (٢٤٥٩) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٦٨) والمعجم الصغير للطبراني (٢/ ١٠٧)(٨٦٣) حسن لغيره

وَمَعْنَى قَوْلِهِ:مَنْ دَانَ نَفْسَهُ يَقُولُ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ القِيَامَةِ "

خمْسٍ:شبابك قبْل هرمك،وصحّتك قبْل سقمك،وغناك قبْل فقْرك،وفراغك قبْل شغْلك،وحياتك قبْل موْتك ".[١٧٥]

وكان اليهود يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه،فوضعهم الله على المحك الحقيقي،وطلب منهم تمني الموت إن كانوا صادقين في لقاء الله،فقال تعالى:{قلْ يا أيّها الّذين هادوا إنْ زعمْتمْ أنّكمْ أوْلياء للّه منْ دون النّاس فتمنّوا الْموْت إنْ كنْتمْ صادقين (٦) ولا يتمنّوْنه أبدًا بما قدّمتْ أيْديهمْ واللّه عليمٌ بالظّالمين (٧) قلْ إنّ الْموْت الّذي تفرّون منْه فإنّه ملاقيكمْ ثمّ تردّون إلى عالم الْغيْب والشّهادة فينبّئكمْ بما كنْتمْ تعْملون (٨)} [الجمعة:٦ - ٨].

وفي هذا التوجيه،والتربية الإسلامية يكون الإنسان سويا وقويا،ويضمن لنفسه العزة والكرامة،ويحقق لأمته النصر والحياة العزيزة،ويغرس في نفسه المناعة والوقاية من الوهن،ويطلب الموت لتوهب له الحياة،وينزع من قلبه حب الدنيا،ويضع الموت نصب عينيه ليحاسب نفسه قبل أن تحاسب،وفقنا الله لما يحبه ويرضاه،وردنا إلى دينه ردا جميلا،والحمد لله رب العالمين.[١٧٦]

جوع وجهل ومرض:

وكذلك فإننا نعاني اليوم من الجوع والجهل والمرض ما لا يعلمه إلا الله وحده،وليس ذلك لقلة الموارد والخيرات في بلادنا؛بل لأن الحكام المتسلطين علينا نهبوا خيرات الأمة وجوعوها وأفقروهاوجهلوها حتى يسهل قيادنا ويضحك علينا بسهولة،فالذين يموتون من الأمراض كثر وكذلك الذين يموتون من الجوع بينما حفنة متطفلة تتنعم بالمليارات ولا تدري أين تكدسها أفي بنوك أوروبا أم في بنوك أمريكا ؟؟!!!

وما انتشر الجوع والجهل والمرض في بلد إلا وفتك بها

---

[١٧٥] - السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٤٠٠) (١١٨٣٢) صحيح لغيره

[١٧٦] -من بحث لأستاذنا د- محمد الزحيلي

بينما الإسلام هو دين العلم والمعرفةوالصحة والعافية والغنى الذي لا غنى بعده ولكن بما أن هؤلاء لا يحكمون بشرع الله تعالى في حياتهم فلا بد أن يصيبهم هذا حتما مقضيا

قال تعالى:{ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) }قريش

لتشْكرْ قرْيشٌ ربّها على أنّه صدّ الفيل وأصْحابه عنْ حرمهمْ وألْحق بهم الخذْلان والدّمار.ولْتشْكر قرْيشٌ ربّها أيْضاً على أنْ جعلهمْ آمنين في بلدهمْ،وعلى أنْ جعل النّاس يحْترمونهمْ إكْراماً لبيْت الله الحرام،فقدْ كانوا يسيرون في تجارتهمْ في رحْلتيْ الشّتاء والصّيْف آمنين:في الشّتاء إلى اليمن،وفي الصّيْف إلى الشّام،بيْنما كان النّاس منْ حوْلهمْ يتخطّفون.

إذْ كانوا قدْ ألفوا القيام برحْلتينْ في العام:رحْلة الشّتاء إلى اليمن،لنقْل البضائع التي تأْتي من الهنْد وبلاد فارس،ورحْلة الصّيْف،لنقْل البضائع إلى الشّام ومْملكة الرّوم،ونقْل البضائع التي تأْتي إليْهما إلى الجزيرة العربيّة،وما وراءها منْ هنْدٍ وفارس.

فلْيعْبدوا الله ربّ هذا البيْت الذي جعل لهمْ حرماً آمناً،فهو الذي منّ عليْهمْ بالأمْن،في الحل والتّرْحال،وهو الذي جعلهمْ،بسبب ذلك،في مرْكزٍ تجاريٍّ هامٍّ،ولْيشْكروه على مننه عليْهمْ،ونعْمه التي لا تحْصى.فقدْ جعل الله مكّة في وادٍ غيْر ذي زرْعٍ لا تنْبت ولا تغلّ،ولكنّه تعالى يسّر تدفّق النّاس والتّجارة إليْها فأشْبع أهْلها،وآمنهمْ ممّا يخافه غيْرهمْ.[177]

وقال تعالى:{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} (١٩) سورة الرعد

لا يسْتوي المهْتدي من النّاس،الذي يعْلم أنّ الذي أنْزل عليْك يا محمّد منْ ربّك هو الحقّ،الذي لا شكّ فيه،مع الضّالّ،الذي لا يعْلم ذلك،لأنّه يكون كالأعْمى لا يهْتدي إلى

[177] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٧١، بترقيم الشاملة آليا)

خيْرٍ،ولا يفْهمه،ولوْ فهمه ما انْقاد إليْه،ولا صدّق بــه ولا انْتفــع.؟ فالــذين يتّعظــون ويعْتبرون همْ أصْحاب العقول السّليمة،والبصائر المدْركة (أولو الألْباب).[١٧٨]

وقال تعالى:{ وقالوا إن نّتّبع الْهدى معك نتخطّفْ منْ أرْضنا أو لمْ نمكّن لّهمْ حرمًا آمنًا يجْبى إليْه ثمرات كلّ شيْءٍ رزْقًا من لّدنّا ولكنّ أكْثرهمْ لا يعْلمون} (٥٧) سورة القصص

يخْبر الله تعالى عمّا اعتذر به بعْض المشْركين إلى النّبيّ ﷺ عــنْ ســبب عــدم إيمــانهمْ برسالته،وكان منْ هؤلاء المعتذرين الحارث بن عثْمان بْن نوْفل بْن عبْد مناف فقدْ جــاء النّبيّ ﷺ،وقال له:نحْن نعْلم أنّك على الحقّ،ولكنّنا نخاف إنْ اتّبْناك،وخالفْنــا العــرب،أنْ يخرجونامنْ أرضنا،ويغْلبونا على سلْطاننا ونحن قلّةٌ.ويردّ الله تعالى على هؤلاء بقولــه:إنّ الذي اعْتذروا به باطلٌ،لأنّ الله جعلهمْ في بلدٍ آمن،وحرمٍ معظّمٍ آمنٍ منْذ وضع.فكيــف يكون هذا الحرم آمناً لهمْ وهمْ كفّارٌ،مشْركون،ولا يكون آمنا لهمْ إذا أسْــلموا واتّبعــوا الحقّ؟ ثمّ يقول تعالى:إنّه يسّر وصول الثّمرات والأمتعة والأرْزاق منْ كلّ مكانٍ إلى أهل الحرم،وهذا كلّه بفضْل الله،ومنْ عنايته،ولكنّ أكثر هؤلاء جهلةٌ لا يعْلمون ما فيه خيرهم وسعادتهمْ،ولذلك قالوا ما قالوا.[١٧٩]

إنها النظرة السطحية القريبة،والتصور الأرضي المحدود،هو الذي أوحى لقريش وهو الذي يوحي للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة،ويغري بهم الأعداء،ويفقدهم العــون والنصير،ويعود عليهم بالفقر والبوار:«وقالوا:إنْ نتّبع الْهدى معك نتخطّفْ منْ أرْضنا»..

فهم لا ينكرون أنه الهدى،ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس.وهم ينسون الله،وينســون أنه وحده الحافظ،وأنه وحده الحامي وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهــم في حمى الله وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله.ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم،ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى،ولاختلف تقديرهم للأمور،ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله،وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هــداه.وأن هــذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة وأن هذا ليس وهما وليس قولا يقال لطمأنة القلوب

[١٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

[١٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣١٩١، بترقيم الشاملة آليا)

إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع نـــاموس الكـــون وقواه،والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة.فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق النـــاموس الذي ارتضاه له.والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هـــذا الكـــون مـــن قـــوى غـــير محدودة،ويأوي إلى ركن شديد،في واقع الحياة.

إن هدى الله منهج حياة صحيحة.حياة واقعة في هذه الأرض.وحين يتحقق هذا المنـــهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية.وميزته أنه لا انفصال فيـــه بـــين طريق الدنيا وطريق الآخرة ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة.إنما هو يربطهما معا برباط واحد:صلاح القلب وصلاح المجتمع وصـــلاح الحياة في هذه الأرض.ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة.فالدنيا مزرعة الآخرة،وعمـــارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها.بشرط اتباع هدى الله.والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه.

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحهـــا القـــوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة.أمانة الخلافـــة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه.يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم،ويشفقون من تألب الخصوم عليهم،ويشفقون من المضايقات الاقتصـــادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرســـول الله – ﷺ –:«إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا».

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقـــل مـــن الزمان.

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم.فمن الذي وهبهم الأمن؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل مـــن ثمـــرات الأرض جميعا؟ تتجمع في الحرم من كل أرض،وقـــد تفرقـــت في مواطنـــها ومواسمهـــا الكثيرة:«أو لَمْ نمكّنْ لهمْ حرماً آمناً يجْبى إليْه ثمرات كلّ شيْءٍ رزْقاً منْ لدنّا؟ »..فما بالهم

يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله،والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمـــن منذ أيام أبيهم إبراهيم؟ أفمن أمنهم وهم عصاة،يدع الناس يتخطفونهم وهـــم تقـــاة؟! «ولكنّ أكْثرهمْ لا يعْلمون»..لا يعلمون أين يكون الأمن وأيـــن تكـــون المخافـــة.ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله.

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا،وأن يأمنوا التخطف حقا،فها هي ذي علة الهـــلاك فليتقوها:«وكمْ أهْلكْنا منْ قرْيةٍ بطرتْ معيشتها فتلْك مساكنهمْ لمْ تسْكنْ منْ بعْدهمْ إلّا قليلًا،وكنّا نحْن الْوارثين»..

إن بطر النعمة،وعدم الشكر عليها،هو سبب هلاك القرى.وقد أوتوا من نعمة الله ذلـــك الحرم الآمن فليحذروا إذن أن يبطروا،وألا يشكروا،فيحل بهم الهلاك كما حل بـــالقرى التي يرونها ويعرفونها،ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية..«لمْ تسْكنْ منْ بعْدهمْ إلّا قليلًا».وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها،وتروى قصة البطر بالنعمة وقد فـــني أهلها فلم يعقبوا أحدا،ولم يرثها بعدهم أحد «وكنّا نحْن الْوارثين».على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا.فتلك هي سنته التي كتبها على نفســـه رحمة بعباده:«وما كان ربّك مهْلك الْقرى حتّى يبْعث في أمّها رســـولًا يتْلـــوا علـــيْهمْ آياتنا،وما كنّا مهْلكي الْقرى إلّا وأهْلها ظالمون»..

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى - أي كبراها أو عاصمتها - أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد.وقد أرسل النبي - ﷺ - في مكة أم القرى العربية.فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير.«وما كنّـــا مهْلكي الْقرى إلّا وأهْلها ظالمون»..يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين! على أن متاع الحياة الدنيا بكامله،وعرض الحياة الدنيا جميعه،وما مكنهم الله فيه من الأرض،وما وهبهم إياه من الثمرات،وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة،إن هـــو إلا شـــيء ضـــئيل زهيد،إذا قيس بما عند الله:«وما أوتيتمْ منْ شيْءٍ فمتاع الْحياة الدّنْيا وزينتها.وما عنْد اللّه خيْرٌ وأبْقى.أفلا تعْقلون؟ ».

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ولا لما يمــن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ولا لما وهبــه الله للقــرى ثم أهلكهــا بالتبطر فيه وحده.إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ،وحتى لو كمل،وحتى لو دام،فلم يعقبه الهلاك والدمار.إنــه كلــه «فمتــاع الْحيــاة الــدّنْيا وزينتها»..«وما عنْد اللّه خيْرٌ وأبْقى» خير في طبيعته وأبقى في مدته.«أفلا تعْقلون؟ »..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك.ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار!

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة،ولمن شاء أن يختــار:«أفمــنْ وعدْناه وعْداً حسناً فهو لاقيه كمنْ متّعْناه متاع الْحياة الدّنْيا ثمّ هو يــوْم الْقيامــة مــن الْمحْضرين؟ »..

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقيه.وهــذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد،ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضــارا للحساب.والتعبير يوحي بالإكراه «من الْمحْضرين» الذين يجاء بهم مكــرهين خــائفين يودون أن لم يكونوا محضرين،لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتــاع القصــير الزهيد!

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم:«إنْ نتّبع الْهدى معك نتخطّفْ مــنْ أرْضــنا» فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضــرين! فكيــف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين،ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هــذا الكــون.ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن.وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيــار لأنفسهم ولا يتقون البوار.[١٨٠]

---

[١٨٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٤٥٢)

وفي سنن النسائي عنْ أبي هريْرة،قال:كان رسول الله ﷺ يقول:«اللهمّ إنّي أعوذ بك من الْجوع،فإنّه بئْس الضّجيع،وأعوذ بك من الْخيانة،فإنّها بئْست الْبطانة»[١٨١]

وعنْ أبي هريْرة،كان النّبيّ ﷺ يقول:«اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الْفقْر والْقلّة والذّلّة،وأعوذ بك أنْ أظْلم أوْ أظْلم»[١٨٢]

ترك الجهاد في سبيل الله:

لقد ترك المسلمون الجهاد في سبيل الله تعالىمنذ سقطت الخلافة،بل استبدلوه بمسميات ما أنزل الله بها من سلطان.

وأخوف ما يخيف الأعداء كلمة الجهاد في سبيل الله لأن لها معنى عميقا في نفوس المسلمين

ومن ثم فإنهم جميعا متفقون على تسمية أية دعوة للجهاد في سبيل الله بأنها دعوة إرهابية متطرفة

ويشيعون بين الناس أن الإسلام هو دين السلام والوئام فقط

لقد فات هؤلاء قول الله تعالى:{ قاتلواْ الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتواْ الْكتاب حتّى يعْطواْ الْجزْية عن يدٍ وهمْ صاغرون } (٢٩) سورة التوبة

أيها المسلمون قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله،ولا يؤمنون بالبعث والجزاء،ولا يجتنبون ما نهى الله عنه ورسوله،ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام من اليهود والنصارى،حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم بأيديهم خاضعين أذلاء.[١٨٣]

حتى الذين يكتبون عن الجهاد في سبيل الله يكتبون عنه كتابة المنهزمين.

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية اللّه وحده –

---

[١٨١] – السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٢١٦)(٧٨٥١) صحيح

[١٨٢] – الأدب المفرد مخرجا (ص:٢٣٦)(٦٧٨) صحيح

[١٨٣] – التفسير الميسر (١/ ١٩١)

سبحانه – وربوبيته للعالمين..إن إعلان ربوبية اللّه وحده للعالمين معناها:الثورة الشـــاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور..أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور..ذلك أن الحكم الذي مـــرد الأمـــر فيـــه إلى البشر،ومصدر السلطات فيه هم البشر،هو تأليه للبشر،يجعل بعضهم لبعض أربابـــا مـــن دون اللّه..إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان اللّه المغتصـــب ورده إلى اللّـــه وطـــرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد..إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة اللّه في الأرض..

أو بالتعبير القرآني الكريم:«وهو الّذي في السّماء إلهٌ وفي الْأرْض إلهٌ»..

«إن الْحكْم إلّا للّه أمر ألّا تعْبدوا إلّا إيّاه..ذلك الدّين الْقيّم..»..

«قلْ:يا أهْل الْكتاب تعالوْا إلى كلمة سواءٍ بيْننا وبيْنكمْ:ألّا نعْبد إلّا اللّه ولا نشْـــرك بـــه شيْئاً،ولا يتّخذ بعْضنا بعْضاً أرْباباً منْ دون اللّه.فـــإنْ تولّـــوْا فقولـــوا:اشْـــهدوا بأنّـــا مسْلمون»..

ومملكة اللّه في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيـــالهم – هـــم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة،ولا رجال ينطقون باســـم الآلهـــة،كما كان الحال في ما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!!! – ولكنها تقوم بأن تكون شريعة اللّه هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى اللّه وفق ما قرره من شريعة مبينة.

وقيام مملكة اللّه في الأرض،وإزالة مملكة البشر.وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه مـــن العباد ورده إلى اللّه وحده.وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية..كـــل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان.

لأن المتسلطين على رقاب العباد،المغتصبين لســـلطان اللّـــه في الأرض،لا يســـلمون في سلطاهم بمجرد التبليغ والبيان.وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار ديـــن اللّـــه في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – ﷺ – وتاريخ هذا الـــدين علـــى ممـــر

الأجيال! إن هذا الإعلان العام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه،بإعلان ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا..إنما كان إعلانا حركيا واقعيا إيجابيا..إعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة اللّه ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده بلا شريك..ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل «الحركة» إلى جانب شكل «البيان»..ذلك ليواجه «الواقع» البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني،أمس واليوم وغدا،يواجه هذا الدين – بوصفه إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه – بعقبات اعتقادية تصورية.وعقبات مادية واقعية..عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية،إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة..وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد..

وإذا كان «البيان» يواجه العقائد والتصورات،فإن «الحركة» تواجه العقبات المادية الأخرى – وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية،والعنصرية والطبقية،والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة..وهما معا – البيان والحركة – يواجهان «الواقع البشري» بجملته،بوسائل مكافئة لكل مكوناته..وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض..«الإنسان» كله في «الأرض» كلها..وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى! إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب!..إن موضوعه هو «الإنسان»..نوع «الإنسان»..ومجاله هو «الأرض»..كل الأرض.إن اللّه – سبحانه – ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم..إن اللّه هو «رب العالمين»..وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم وأن ينتزعهم من العبودية لغيره.والعبودية الكبرى – في نظر الإسلام – هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر..وهذه هي «العبادة» التي يقرر أنها لا تكون إلا للّه.وأن من يتوجه بها لغير اللّه يخرج من دين اللّه مهما ادعى أنه في هذا الدين.ولقد نص رسول اللّه – ﷺ –

على أن «الاتباع» في الشريعة والحكم هو «العبادة» التي صار بها اليهـود والنصـارى «مشركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» اللّه وحده..

عنْ عدىّ بْن حاتمٍ قال أتيْت النّبىّ -ﷺ- وفى عنقى صليبٌ منْ ذهبٍ.فقال « يا عدىّ اطْرحْ عنْك هذا الْوثن ».وسمعْته يقْرأ فى سورة براءة (اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه) قال « أما إنّهمْ لمْ يكونوا يعْبدونهمْ ولكنّهمْ كانوا إذا أحلّوا لهمْ شيْئًا اسْتحلّوه وإذا حرّموا عليْهمْ شيْئًا حرّموه »[184]....

وعنْ حذيْفة،في قوْل الله عزّ وجلّ:{ اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون الله } [التوبة:31]،قال:" أما إنّهمْ لمْ يكونوا يعْبدونهمْ ولكنّهمْ أطاعوهمْ في الْمعاصي "[185].

وقال أبو الْبخْتريّ الطّائيّ:قال لي حذيْفة:" أرأيْت قوْل اللّه عزّ وجلّ اتّخذوا أحْبـارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه فقال حذيْفة:" أما إنّهمْ لمْ يصلّوا لهمْ،ولكنّهمْ كـانوا مـا أحلّوا لهمْ منْ حرامٍ اسْتحلّوه،وما حرّموا عليْهمْ من الْحرام حرّموه فتلْـك ربوبيّتـهمْ "[186]....

وتفسير رسول اللّه – ﷺ- لقول اللّه سبحانه،نص قاطع على أن الاتبـاع في الشـريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين،وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض..الأمـر الذي جاء هذا الدين ليلغيه،ويعلن تحرير «الإنسان»،في «الأرض» من العبودية لغير اللّه.. ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في «الأرض» لإزالة «الواقع» المخـالف لـذلك الإعلان العام..بالبيان وبالحركة مجتمعين..وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير اللّه – أي تحكمهم بغير شريعة اللّه وسلطانه – والتي تحـول بينـهم وبـين الاستماع إلى «البيان» واعتناق «العقيدة» بحرية لا يتعرض لها السلطان.

---

[184] – سنن الترمذى- المكنز – (3378) وشعب الإيمان – (12 / 22) (8948) حسن لغيره

[185] – شعب الإيمان – (12 / 22) (8948) ومصنف ابن أبي شيبة – (13 / 422)(36084) والتفسير من سنن سعيد بن منصور – (3 / 313) (959) صحيح

[186] – التفسير من سنن سعيد بن منصور – (3 / 313) (959) والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي – (2 / 348) (749) صحيح

ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي – بعد إزالة القوة المسيطرة – سواء كانت سياسية بحتة،أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد! إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته..ولكن الإسلام ليس مجرد «عقيدة»..

إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد.فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان..ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا – بالفعل – في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم – بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم – ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدا للعباد! وأن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه!..إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية للّه وحده وذلك بتلقي الشرائع منه وحده.ثم ليعتنق كل فرد – في ظل هذا النظام العام – ما يعتنقه من عقيدة! وبهذا يكون «الدين» كله للّه.أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها للّه..إن مدلول «الدين» أشمل من مدلول «العقيدة»..إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة.ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة..وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية للّه وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام..

والذي يدرك طبيعة هذا الدين – على النحو المتقدم – يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان – ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية – بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح «الحرب الدفاعية» – كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام – إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير «الإنسان» في «الأرض»..بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة.

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية،فلا بـــد أن نغـــير مفهوم كلمة «دفاع».

ونعتبره «دفاعا عن الإنسان» ذاته،ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره..هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات كما تتمثل في الأنظمـــة السياســـية،القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية،التي كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمـــان! وبهـــذا التوسع في مفهوم كلمة «الدفاع» نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في «الأرض» بالجهاد ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها،وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنســـان من العبودية للعباد،وتقرير ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين وتحطـــيم مملكـــة الهـــوى البشري في الأرض،وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان..

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضـــيق للمفهـــوم العصـــري للحرب الدفاعية ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانـــت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على «الوطن الإسلامي!» – وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب – فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين،ولطبيعة الدور الـــذي جاء ليقوم به في الأرض.كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجـــوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي! ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضي اللّه عنهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد،وأمام الدعوة تلك العقبات المادية – من أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمـــع العنصـــرية والطبقية،والاقتصـــادية الناشئة من الاعتبار ات العنصرية والطبقية،والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟! إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلـــن تحريـــر «الإنســـان»..نـــوع الإنســـان..في «الأرض»..كل الأرض..ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيـــان!..إنهـــا تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد،تخاطبهم بحرية،وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات..فهنا «لا إكْراه في الدّين»

أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية،فلا بد من إزالتها أولا بالقوة،للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من هذه الأغلال! إن الجهاد ضرورة للدعوة.إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي! سواء كان الوطن الإسلامي – وبالتعبير الإسلامي الصحيح:دار الإسلام – آمنا أم مهددا من جيرانه.فالإسلام حين يسعى إلى السلم،لا يقصد تلك السلم الرخيصة وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية.إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله للّه.أي تكون عبودية الناس كلهم فيها للّه والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه.والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام – بأمر من اللّه – لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها..ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم:«فاستقر أمر الكفار معه – بعد نزول براءة – على ثلاثة أقسام:محاربين له،وأهل عهد،وأهل ذمة..ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام..فصاروا معه قسمين:محاربين،وأهل ذمة.والمحاربون له خائفون منه

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به.ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب»..وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه.لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر،وأمام هجوم المستشرقين الماكر![١٨٧]

إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس.ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس،والناس عبيد الله وحده،لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه! وهذا يكفي..مع تقرير مبدأ:«لا إكْراه في الدِّين»..أي لا إكراه على اعتناق العقيدة،بعد الخروج من سلطان العبيد والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله.أو أن الدين كله لله.بهذا الاعتبار.

[١٨٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٩٣٧)

إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض.بإخراج الناس مـــن العبوديـــة للعبـــاد إلى العبودية لله وحده بلا شريك..وهذه وحدها تكفي..ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول:خرجنا ندافع عن وطننا المهدد! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة! قال سيْفٌ عنْ شيوخه:ولّما تواجه الْجيْشـــان بعـــث رسْتم إلى سعْد أنْ يبْعث إليْه برجلٍ عاقلٍ عالمٍ بما أسْأله عنْه.فبعث إليْـــه الْمغـــيرة بْـــن شعْبة،رضي اللّه عنْه،فلمّا قدم عليْه جعل رسْتم يقول له:إنّكمْ جيراننا وكنّا نحْسن إليْكمْ ونكفّ الْأذى عنْكمْ،فارْجعوا إلى بلادكمْ ولا نمْنع تجّاركمْ من الدّخول إلى بلادنا.فقـــال له الْمغيرة:إنّا ليْس طلبنا الدّنْيا،وإنّما همّنا وطلبنا الْآخرة،وقدْ بعث اللّه إليْنا رسولًا قـــال له:إنّي قدْ سلّطْت هذه الطّائفة على منْ لمْ يدنْ بديني،فأنا منْتقمٌ بهمْ منْهمْ،وأجْعل لهـــم الْغلبة ما داموا مقرّين به،وهو دين الْحقّ لا يرْغب عنْه أحدٌ إلّا ذلّ،ولا يعْتصم بـــه إلّـــا عزّ.فقال له رسْتم:فما هو؟ فقال:أمّا عموده الّذي لا يصْلح شيْءٌ منْه إلّا به،فشـــهادة أنْ لا إله إلّا اللّه وأنّ محمّدًا رسول اللّه،والْإقْرار بما جاء منْ عنْد اللّه.فقال:ما أحْسن هـــذا! وأيّ شيْءٍ أيْضًا؟ قال:وإخْراج الْعباد منْ عبادة الْعباد إلى عبـــادة اللّـــه.قـــال:وحســـنٌ أيْضًا،وأيّ شيْءٍ أيْضًا؟ قال:والنّاس بنو آدم،فهمْ إخْوةٌ لأبٍ وأمٍّ.قال:وحسنٌ أيْضًا،ثمّ قال رسْتم:أرأيْت إنْ دخلْنا في دينكمْ،أترْجعون عنْ بلادنا؟ قال:إي واللّه،ثمّ لا نقْرب بلادكمْ إلّا في تجارةٍ أوْ حاجةٍ.قال:وحسنٌ أيْضًا.قال:ولّما خرج الْمغيرة منْ عنْده ذاكـــر رسْـــتم رؤساء قوْمه في الْإسْلام،فأنفوا منْ ذلك وأبوْا أنْ يدْخلوا فيه،قبّحهم اللّه وأخْزاهمْ،وقـــدْ فعل.

قالوا:ثمّ بعث إليْه سعْدٌ رسولًا آخر بطلبه،وهو ربْعيّ بْن عامرٍ،فدخل عليْه وقـــدْ زيّنـــوا مجْلسه بالنّمارق الْمذهّبة والزّرابيّ الْحرير،وأظْهـــر الْيواقيـــت واللّـــآلئ الثّمينة،والزّينـــة الْعظيمة،وعليْه تاجه،وغيْر ذلك من الْأمْتعة الثّمينة،وقـــدْ جلـــس علـــى ســـريرٍ مـــنْ ذهبٍ،ودخل ربْعيٌّ بثيابٍ صفيقةٍ وسيْفٍ وترْسٍ وفرسٍ قصيرةٍ،ولمْ يزلْ راكبها حتّى داس بها على طرف الْبساط،ثمّ نزل وربطها ببعْض تلْك الْوسائد،وأقْبل وعليْه سلاحه ودرْعـــه

وبيْضةٌ على رأْسه،فقالوا له:ضعْ سلاحك.فقال:إنّـي لمْ آتكمْ،وإنّما جئـتكمْ حـين دعوْتموني،فإنْ تركْتموني هكذا وإلّا رجعْت.فقال رسْتم:ائْذنوا له.فأقْبل يتوكّأ على رمْحه فوْق النّمارق فخرّق عامّتها،فقالوا له:ما جاء بكمْ؟ فقال:اللّه ابْتعثْنا لنخْرج منْ شاء منْ عبادة الْعباد إلى عبادة اللّه،ومنْ ضيق الدّنْيا إلى سعتها،ومنْ جـوْر الْأدْيـان إلى عـدْل الْإسْلام،فأرْسلنا بدينه إلى خلْقه لندْعوهمْ إليْه،فمنْ قبل ذلك قبلْنا منْه ورجعْنا عنْـه،ومنْ أبى قاتلْناه أبدًا حتّى نفْضي إلى موْعود اللّه.قالوا:وما موْعود اللّه؟ قال:الْجنّة لمنْ مـات على قتال منْ أبى،والظّفر لمنْ بقي.فقال رسْتم:قدْ سمعْت مقالتكمْ،فهلْ لكم أنْ تـؤخّروا هذا الْأمْر حتّى ننْظر فيه وتنْظروا؟ قال:نعمْ،كمْ أحبّ إليْكمْ؟ أيوْمًا أوْ يوْميْن؟ قال:لا،بلْ حتّى نكاتب أهْل رأْينا ورؤساء قوْمنا.فقال:ما سنّ لنا رسول اللّه ﷺ أنْ نؤخّر الْأعْـداء عنْد اللّقاء أكْثر منْ ثلاثٍ،فانْظرْ في أمْرك وأمْرهمْ،واخْترْ واحـدةً مـنْ ثـلاثٍ بعْـد الْأجل.فقال:أسيّدهم أنْت؟ قال:لا،ولكنّ الْمسْلمون كالْجسد الْواحد يجير أدْناهمْ علـى أعْلاهمْ.فاجْتمع رسْتم برؤساء قوْمه،فقال:هلْ رأيْتمْ قطّ أعزّ وأرْجح منْ كـلام هـذا الرّجل؟ فقالوا:معاذ اللّه أنّ تميل إلى شيْءٍ منْ هذا وتدع دينك لهذا الْكلْب! أما ترى إلى ثيابه؟ ! فقال:ويْلكمْ لا تنْظروا إلى الثّياب،وانْظروا إلى الرّأْي والْكلام والسّيرة،إنّ الْعرب يسْتخفّون بالثّياب والْمأْكل،ويصونون الْأحْساب.

ثمّ بعثوا يطْلبون في الْيوْم الثّاني رجلًا،فبعث إليْهمْ حذيْفة بْن محْصنٍ،فتكلّم نحْو مـا قـال ربْعيٌّ.وفي الْيوْم الثّالث الْمغيرة بْن شعْبة،فتكلّم بكلامٍ حسنٍ طويلٍ،قـال فيـه رسْـتم للْمغيرة:إنّما مثلكمْ في دخولكمْ أرْضنا كمثل الذّباب رأى الْعسل فقال:منْ يوصلني إليْـه وله درْهمان؟ فلمّا سقط عليْه غرق فيه،فجعل يطْلب الْخلاص فلا يجده،وجعل يقول:منْ يخلّصني وله أرْبعة دراهم؟ ومثلكمْ كمثل ثعْلبٍ ضعيفٍ دخل جحْرًا في كرْمٍ،فلمّـا رآه صاحب الْكرْم ضعيفًا رحمه فتركه،فلمّا سمن أفْسد شيْئًا كثيرًا فجاء بجيْشه،واسْتعان عليْه بغلْمانه،فذهب ليخْرج فلمْ يسْتطعْ لسمنه،فضربه حتّى قتله،فهكذا تخْرجون منْ بلادنا.ثمّ اسْتشاط غضبًا،وأقْسم بالشّمْس لأقْتلنّكمْ غدًا.فقال الْمغـيرة:سـتعْلم.ثمّ قـال رسْـتم للْمغيرة:قدْ أمرْت لكمْ بكسْوةٍ،ولأميركمْ بألْف دينارٍ وكسْوةٍ ومرْكـوبٍ وتنْصـرفون

عنّا.فقال الْمغيرة:أبْعد أنْ أوْهنّا ملْككمْ وضعّفْنا عزّكمْ؟ ! ولنا مدّةٌ نحْو بلادكمْ،ونأْخـــذ الْجزْية منْكمْ عنْ يدٍ وأنْتمْ صاغرون،وستصيرون لنا عبيدًا على رغْمكمْ.فلمّا قال ذلـــك اسْتشاط غضبًا.[188]

إن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته وفي إعلانه العام،وفي منهجه الواقعي لمقابلـــة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه،في مراحل محددة،بوسائل متجـــددة..وهـــذا المبرر الذاتي قائم ابتداء – ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإســـلامية وعلـــى المسلمين فيها – إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته،وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية..لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة،وموقوتة!

وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله..«في سبيل اللّه».في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ولا يخرجه لها مغنم ذاتي..

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهـــاد الأكـــبر في نفسه مع الشيطان..مع هواه وشهواته..مع مطامعه ورغباته..مـــع مصـــالحه ومصـــالح عشيرته وقومه..

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية «الوطن الإسلامي» يغضون من شأن «المنهج» ويعتبرونه أقل من «الموطن»! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبار ات..إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي،فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيـــه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبار ات الوحيدة في الحس الإســـلامي.أمـــا الأرض – بذاتها – فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج اللّه وسلطانه فيها.وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و«دار الإسلام» ونقطة الانطلاق لتحرير «الإنسان»..

وحقيقة أن حماية «دار الإسلام» حماية للعقيدة والمنهج والمجتمـــع الـــذي يســـود فيـــه المنهج.ولكنها هي ليست الهدف النهائي.وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي.إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة اللّه فيها.ثم لاتخاذها قاعـــدة انطـــلاق إلى

[188] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٢١)

الأرض كلها،وإلى النوع الإنساني بجملتـــه.فـــالنوع الإنســـاني هـــو موضـــوع هـــذا الدين،والأرض هي مجاله الكبير! وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة،ونظام المجتمع،وأوضاع البيئة..وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة.كي يخلو له وجه الأفـــراد مـــن الناس،يخاطـــب ضـــمائرهم وأفكارهم،بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار.

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ «الجهاد»،وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية،فنروح نبحث للجهاد الإسلامي عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين،في ملابسات دفاعية وقتية،كان الجهـــاد ســـينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد! ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبار ات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي..وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية..

حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له.لأن مجرد وجوده،في صورة إعـــلان عام لربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الإنسان من العبودية لغير اللّه،وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية،وميلاد مجتمع مستقل متميـــز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية،لأن الحاكمية فيه للّه وحده..إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله،القائمة على قاعدة العبوديـــة للعباد،أن تحاول سحقه،دفاعا عن وجودها ذاته.ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه..

هذه ملابسة لا بد منها.تولد مع ميلاد الإسلام ذاته.وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا،ولا خيار له في خوضها.وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا..

هذا كله حق..ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده.ولا بـــد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضا..

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة..إن من طبيعة الوجود الإسـلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء لإنقاذ «الإنسان» في «الأرض» من العبودية لغير اللّه.ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ولا أن يـتروي داخـل حـدود عنصـرية تاركـا «الإنسان»..نوع الإنسان..في «الأرض»..كل الأرض..للشر والفساد والعبودية لغـير اللّه.

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهـاجم الإسـلام،إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ورضـي أن يـدعها وشأنها و لم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام!..ولكن الإسلام لا يهادنهـا،إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية،ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بـلا عوائـق مادية من السلطات القائمة فيها.

هذه طبيعة هذا الدين،وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية اللّه للعـالمين وتحريـر الإنسان من كل عبودية لغير اللّه في الناس أجمعين! وفرق بين تصور الإسلام على هـذه الطبيعة،وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية،لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتيـة في الانطـلاق! إن مـبررات الانطـلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الـدين هـو منـهج اللّـه للحيـاة البشرية،وليس منهج إنسان،ولا مذهب شيعة مـن النـاس،ولا نظـام جـنس مـن الأجناس!..ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حسنا هـذه الحقيقـة الهائلة..حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية اللّه وعبودية العبـاد..إنـه لا يمكـن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخـر للجهـاد الإسـلامي! والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق،بين تصور أن الإسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها،بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه.وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء،فيدخل في هذه المعركة..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة.فهو في كلتا الحـالتين سـيدخل المعركـة حتما.ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة،تغير المشاعر والمفهومـات الإسـلامية تغييرا كبيرا..خطيرا..

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجا إلهيا،جـاء ليقـرر ألوهيـة اللّـه في الأرض،وعبودية البشر جميعا لإله واحد،ويصب هذا التقرير في قالب واقعي،هو المجتمـع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد،فلا تحكمهم إلا شريعة اللّه،التي يتمثل فيها سلطان اللّه،أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته..فمن حقـه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه،ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حـواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي،أو أوضاع الناس الاجتماعية ..إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو،واعتبار ه نظاما محليا في وطن بعينه.فمن حقـه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية! هذا تصور..وذاك تصور..ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد..ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهـاد وأهدافـه ونتائجه،يختلف اختلافا بعيدا،يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صـميم الخطـة والاتجاه.

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء.فالإسلام ليس نحلة قوم،ولا نظام وطن،ولكنه منهج إله،ونظام عالم..ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغـل من حرية «الإنسان» في الاختيار.

وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته.إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة،المفسدة للفطرة،المقيدة لحرية الاختيار.

من حق الإسلام أن يخرج «الناس» من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده..ليحقق إعلانه العام بربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الناس أجمعين..وعبادة اللّه وحده لا تتحقق – في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي – إلا في ظل النظام الإسلامي.فهو وحده النظـام الـذي يشرع اللّه فيه للعباد كلهم.حـاكمهم ومحكـومهم.أسـودهم وأبيضـهم.قاصـيهم ودانيهم.فقيرهم وغنيهم تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السـواء..أمـا في سـائر

الأنظمة،فيعبد الناس العباد،لأهم يتلقون التشريع لحياهم من العباد.وهو مـــن خصـــائص الألوهية.

فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصا وعملا،سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء! وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشـــر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية،سواء سماها باسمها أم لم يسمها! والإسلام ليس مجرد عقيدة.حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان.إنما هو منهج يتمثل في تجمـــع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس.والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو.

ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام.وهذا – كما قلنا من قبل – معنى أن يكون الدين كله للّه.فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته،كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعبـــاد! إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقـــع الحاضـــر،وتحت الهجـــوم الاستشراقي الماكر،يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة.لأن المستشرقين صوروا الإســـلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة.والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيـــدا أن هـــذه ليست هي الحقيقة.ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقـــة..ومـــن ثم يقوم المنافحون – المهزومون – عن سمعة الإسلام،بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمـــس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته،وحقه في «تحريـــر الإنســـان» ابتداء.

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين – المهزومين – ذلك التصور الغـــربي لطبيعـــة «الدين»..وأنه مجرد «عقيدة» في الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة..ومـــن ثم يكون الجهاد للدين،جهادا لفرض العقيدة على الضمير! ولكن الأمر لـــيس كـــذلك في الإسلام.فالإسلام منهج اللّه للحياة البشرية.وهو منهج يقوم على إفـــراد اللّـــه وحـــده بالألوهية – متمثلة في الحاكمية – وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام.أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع،في ظل

النظام العام،بعد رفع جميع المؤثرات..ومن ثم يختلف الأمر من أساسه،وتصبح له صـــورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي،الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي،فإن اللّه يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام.مع ترك مسألة العقيـــدة الوجدانيـــة لحريـــة الوجدان..فإذا كف اللّه أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد،فهذه مســـألة خطـــة لا مسألة مبدأ.مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة.وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة،في المراحل التاريخية المتجددة.ولا نخلـــط بـــين دلالالتها المرحلية،والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.[١٨٩]

فراعنة يحكمونهم بالحديد والنار:

وكذلك فإن المسلمين اليوم وفي جميع بلاد الإسلام يحكمون بالحديد والنارمن فراعنة لا يخافون الله تعالى وضعهم أعداء الإسلام ليكونوا أداة طيعـــة بأيـــديهم ومـــن ثم فـــإنهم يسحقون بلا هوادة كل حركة أو دعوة تدعوا إلى تحكيم الإسلام كاملا،ويتهمونهم بكل التهم الجاهزة ويقولون عنهم ما قاله فرعون عن موسى عليه السلام:{وقـــال فرْعـــوْن ذروني أقْتلْ موسى ولْيدْع ربّه إنّي أخاف أن يبدّل ديـــنكمْ أوْ أن يظْهـــر في الْـــأرْض الْفساد} (٢٦) سورة غافر

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هـــي بعينـــها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد،يتكرر كلما التقى الحق والباطل،والإيمان والكفر.والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان.والقصة قديمـــة مكـــررة تعرض بين الحين والحين.[١٩٠]

---

[١٨٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٩٤٦)

[١٩٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٧٢)

عدو يتربص بهم الدوائر:

وكذلك فإن العدو يتربص بنا الدوائر وينقض علينا من كل مكان ويرصد جميع تحركاتنا ويذبح الأخيار منا ويشن الحروب علينا ويحاول إبادتنا بكل وسائل التدمير الجهنمية،يقول الله تعالى عنهم:

{ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} (٨) سورة التوبة

إن شأن المشركين أن يلتزموا بالعهود ما دامت الغلبة لغيرهم،أما إذا شعروا بالقوة على المؤمنين فإنهم لا يراعون القرابة ولا العهد،فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم،فإنهم يقولون لكم كلامًا بألسنتهم؛ لترضوا عنهم،ولكن قلوبهم تأبى ذلك،وأكثرهم متمردون على الإسلام ناقضون للعهد.[١٩١]

هذه صورة من الواقع التاريخي،حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات،اختص بها التتار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة!..

إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد..إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند – ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق..طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية،فذبحتهم كالخراف على طول الطريق،وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش،بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة،لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد!..

---

[١٩١] – التفسير الميسر (١/ ١٨٨)

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان،حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف..ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر)..وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار!..لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة،القطار في النفق.ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء!..وصدق قول اللّه سبحانه:«كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة»..وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟..لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا..بمعدل مليون في السنة..وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق..ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان.وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار..لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين،فحفرت له حفرة في الطريق العام.وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب،أن يأتوا بفضلاقم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام!!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته..وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات! كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها.حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي – التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في «مفارم» اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن!!! وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية..الآن..في هذا الزمان..ويصدق قول اللّه سبحانه:«كيْف وإنْ يظْهروا

عليْكمْ لا يرْقبوا فيكمْ إلًّا ولا ذمّةً؟».«لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلًّا ولا ذمّةً،وأولئك هم الْمعْتدون»..

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية.ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد..إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية للّه وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير اللّه.في كل زمان وفي كل مكان.ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة،وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة – إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان.لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان.والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية،ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان..[١٩٢]

التبعية العمياء للشرق والغرب:

نعم لقد أصبحنا اليوم أذنابا للغرب والشرق،فجميع الدول في بلاد الإسلام تابعة للغرب والشرق ويصدق عليهم قول الله تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ لا تتّخذواْ الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ ومن يتولّهم مّنكمْ فإنّه منْهمْ إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين (٥١) فترى الّذين في قلوبهم مّرضٌ يسارعون فيهمْ يقولون نخْشى أن تصيبنا دآئرةٌ فعسى اللّه أن يأْتي بالْفتْح أوْ أمْرٍ مّنْ عنده فيصْبحواْ على ما أسرّواْ في أنْفسهمْ نادمين (٥٢) ويقول الّذين آمنواْ أهؤلاء الّذين أقْسمواْ باللّه جهْد أيْمانهمْ إنّهمْ لمعكمْ حبطتْ أعْمالهمْ فأصْبحواْ خاسرين (٥٣)} المائدة

ينْهى الله تعالى المؤْمنين عنْ موالاة اليهود والنّصارى،واتّخاذهمْ حلفاء لهمْ على أهْل الإيمان بالله ورسوله،ويقول لهمْ إنّ منْ يتّخذهمْ نصراء وحلفاء وأوْلياء منْ دون الله ورسوله،فهو منْهمْ في التّحزّب على الله ورسوله والمؤْمنين.وإنّ الله ورسوله بريئان

---

[١٩٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٨٥)

منْه.ومنْ يتولّى أعْداء الله فهو ظالمٌ،والله لا يهْديه إلى الخيْر.واليهود والنّصارى بعْضــهمْ أوْلياء بعْضٍ،و لمْ يكنْ للْمؤْمنين منْهمْ وليٌّ ولا نصيرٌ.

وإذْ كانتْ ولاية أهْل الكتاب لا يتْبعها إلاّ الظالمون فإنّك ترى الذين في قلــوبهمْ شــكٌّ ونفاقٌ (مرضٌ) يبادرون إلى موالاتهمْ،وإلى موادّتهمْ في البــاطن والظّاهر،ويتــأوّلون في مودّتهمْ وفي موالاتهمْ،أنّهمْ يخْشون أنْ يقع أمْرٌ منْ ظفر الكافرين بالمسْلمين (تصيبنا دائرةٌ) فتكون لهمْ أيادٍ عنْد اليهود والنّصارى،فينْفعهمْ ذلك حينئذٍ.فعسى الله أنْ يــتمّ أمْــره بنصْر المسْلمين،ويحقق لهم الفتْح والغلبة،أوْ يتمّ أمْرٌ منْ عنْده كفرْض الجزْية على اليهــود والنّصارى،فيصْبح الذين والوْا اليهود والنّصارى من المنافقين نادمين على ما أســرّوا في أنْفسهمْ منْ موالاة هؤلاء تحسّباً لما لمْ يقعْ،و لمْ ينْفعْهمْ شيْئاً،ولا دفع عنْهمْ محْذوراً.

لّما التجأ هؤلاء المنافقون إلى اليهود والنّصارى يوالونهمْ ويوادّونهمْ،افْتضح أمْرهمْ لعباد الله المؤْمنين،بعْد أنْ كانوا يتستّرون،لا يدْري أحدٌ كيْف حالهمْ،فتعجّب المؤْمنون منْهمْ،كيْف كانوا يظْهرون أنّهمْ من المؤْمنين،يعاضدونهمْ ويساعدونهمْ على أعْدائهم اليهود،فلمّا جدّ الجدّ أظْهروا ما كانوا يخْفون منْ موالاتهمْ وممالأتهمْ على المؤْمنين.ولّمــا اسْــتبان حــالهمْ للْمؤْمنين قالوا:لقدْ هلكتْ أعْمال هــؤلاء المنــافقين مــنْ صــلاةٍ وصــوْمٍ وزكــاةٍ وجهادٍ،وخسروا بذلك ما كانوا يرْجونه من الثّواب.[١٩٣]

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء،واتخاذهم أولياء شيء آخر،ولكنها يختلطان على بعض المسلمين،الذين لم تتضح في نفوســهم الرؤيــة الكاملــة لحقيقــة هــذا الــدين ووظيفته،بوصفه حركة منهجية واقعية،تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض،وفــق التصــور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصــطدم – من ثم – بالتصورات والأوضاع المخالفة،كما تصطدم بشــهوات النــاس وانحــرافهم وفسوقهم عن منهج اللّه،وتدخل في معركة لا حيلة فيها،ولا بد منها،لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده،وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

---

[١٩٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢١، بترقيم الشاملة آليا)

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقـــي بحقيقـــة العقيـــدة،كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلـــون عـــن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها،فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقـــوق،وبين الولاء الذي لا يكون إلا للّه ورسوله وللجماعة المسلمة.ناسين ما يقرره القرآن الكـــريم من أن أهل الكتاب..بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة..وأن هذا شأن ثابت لهم،وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه،وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبـــع دينهم.وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة.وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر..إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب،ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصـــر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقـــي مـــع طريـــق أهـــل الكتاب،ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء علـــى دينه وتحقيق نظامه،ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة،أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحـــدين،إذا كانـــت المعركـــة مـــع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان حين يفهمـــون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجـــه الماديـــة والإلحاد – بوصفنا جميعا أهل دين! – ناسين تعليم القرآن كله وناسين تعلـــيم التـــاريخ كله.فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:«هـــؤلاء أَهْدى من الّذين آمنوا سبيلًا»..وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبـــوا المشـــركين علـــى الجماعة المسلمة في المدينة،وكانوا لهم درعا وردءا.وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام،وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس،وهم الذين شردوا العـــرب

المسلمين في فلسطين،وأحلوا اليهود محلهم،متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهـــل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان..في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر،ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية،في يوغسلافيا والصـــين والتركستان والهند،وفي كل مكان! ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر.ندفع بـــه المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن.وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم،لا بوصفه عقيدة لا يقبل اللّه من الناس غيرها،ولا بوصفه حركة إيجابيه تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم،كما وقفت له بالأمس.الموقف الذي لا يمكن تبديله.لأنه الموقف الطبيعـــي الوحيد! وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني،لنعي نحن هذا التوجيـــه القرآني الصريح:«يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء..بعْضهمْ أوْليـــاء بعْضٍ..ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ.إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين»..هذا النداء موجـــه إلى الجماعة المسلمة في المدينة – ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة..موجه لكل من ينطبـــق عليـــه ذات يـــوم صفة:«الّذين آمنوا»..ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النـــداء للـــذين آمنوا،أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعـــض أهـــل الكتاب – وبخاصة اليهود – فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف،وعلاقات اقتصـــاد وتعامل،وعلاقات جيرة وصحبة..وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام،بين أهل المدينة من العرب وبـــين اليهـــود بصـــفة خاصة..وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الـــدين وأهلـــه بكل صنوف الكيد التي عددها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص.

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته،لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة.ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة.المفاصلة التي لا تنهي الســـماحة الخلقية.فهذه صفة المسلم دائما.ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا للّه ورسوله والذين آمنوا..الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كـــل أرض وفي كل جيل.

«يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء..بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ.ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ.إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين».بعضهم أولياء بعض..إنهـــا حقيقـــة لا علاقة لها بالزمن..لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء..إنهم لن يكونوا أولياء للجماعـــة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ..وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصـــداق هذه القولة الصادقة..لقد ولي بعضهم بعضا في حرب محمد – ﷺ– والجماعة المسلمة في المدينة.وولي بعضهم بعضا في كل فجاج الأرض،على مدار التـــاريخ..و لم تختـــل هـــذه القاعدة مرة واحدة و لم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم،في صيغة الوصف الدائم،لا الحادث المفرد..واختيار الجملة الاسمية على هـــذا النحـــو..بعضـــهم أوليـــاء بعض..ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها..فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم.والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم،يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخـــر.لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:«ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ»..وكان ظالمـــا لنفســـه ولدين اللّه وللجماعة المسلمة..وبسبب من ظلمه هذا يدخله اللّـــه في زمـــرة اليهـــود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه.ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:«إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين»..لقد كان هذا تحذيرا عنيفا للجماعة المسلمة في المدينة.ولكنـــه تحذير ليس مبالغا فيه.فهو عنيف.نعم ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة.فما يمكن أن يمنح المسلم

ولاءه لليهود والنصارى – وبعضهم أولياء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه،وتبقى لـــه عضويته في الصف المسلم،الذي يتولى اللّه ورسوله والذين آمنوا..فهذا مفرق الطريق..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منـــهج الإسلام وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ثم يكون في وسعه بعد ذلـــك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف – أول ما تستهدف – إقامة نظام واقعي في الأرض فريد يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصـــور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم،الذي لا أرجحة فيه ولا تردد،بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس – بعد رسالة محمد – ﷺ- وبأن منهجه الذي كلفـــه اللّه أن يقيم الحياة عليه،منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه اللّه ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه:الاعتقادية والاجتماعية لم يـــأل في ذلك جهدا،و لم يقبل من منهجه بديلا – ولا في جزء منه صغير – و لم يخلط بينه وبـــين أي منهج آخر في تصور اعتقادي،ولا في نظام اجتماعي،ولا في أحكام تشريعية،إلا مـــا استبقاه اللّه في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو – وحده – الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج اللّه الذي رضيه للناس في وجه العقبات الشاقة،والتكاليف المضنية،والمقاومة العنيدة،والكيد الناصب،والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كـــثير مـــن الأحيان..وإلا فما العناء في أمر يغني عنـــه غـــيره – ممـــا هـــو قـــائم في الأرض مـــن جاهلية..سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك،أو في انحراف أهل الكتاب،أو في الإلحاد السافر..بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي،إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة،باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديـــان السماوية،يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح.فالدين هو الـــدين الأخير وحده عند اللّه.والتسامح يكون في المعاملات الشخصية،لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي ..إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن اللّـــه لا يقبل دينا إلا الإسلام،وبأن عليه أن يحقق منهج اللّه الممثل في الإسلام ولا يقبـــل دونـــه بديلا ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكـــريم وهـــو يقرر:«إنّ الدّين عنْد اللّه الْإسْلام»..«ومنْ يبْتـــغ غيْـــر الْإسْـــلام دينـــاً فلـــنْ يقْبـــل منْه»..«واحْذرْهمْ أنْ يفْتنوك عنْ بعْض ما أنْزل اللّه إليْك»..«يا أيّها الّـــذين آمنـــوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء..بعْضهمْ أوْلياء بعْـــضٍ ومـــنْ يتـــولّهمْ مـــنْكمْ فإنّـــه منْهمْ»..وفي القرآن كلمة الفصل..ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين! ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة والتي يترل القرآن من أجلـــها بهـــذا التحذير:«فترى الّذين في قلوبهمْ مرضٌ يســـارعون فيهمْ،يقولـــون نخْشـــى أنْ تصـــيبنا دائرةٌ»..روى ابن جرير عنْ عطيّة بْن سعْدٍ قال:جاء عبادة بْن الصّامت منْ بني الْحـــرْث بْن الْخزْرج إلى رسول اللّه ﷺ،فقال:يا رسول اللّه،إنّ لي مـــوالي مـــنْ يهـــود كـــثيرٌ عددهمْ،وإنّي أبْرأ إلى اللّه ورسوله منْ ولاية يهود وأتولّى اللّه ورسوله.فقال عبْد اللّه بْن أبيٍّ:إنّي رجلٌ أخاف الدّوائر،لا أبْرأ منْ ولاية موالي.فقال رسول اللّه ﷺلعبْد اللّـــه بْـــن أبيٍّ:" يا أباالْحباب ما بخلْت به منْ ولاية يهود على عبادة بْن الصّامت فهو إليْك دونه " قال:قدْ قبلْت.فأنْزل اللّه:يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضـــهمْ أوْلياء بعْضٍ إلى قوْله:فترى الّذين في قلوبهمْ مرضٌ "[١٩٤]...

وعن الزّهْريّ،قال:لمّا انْهزم أهْل بدْرٍ قال الْمسْلمون لأوْليائهمْ منْ يهود:آمنـــوا قبْـــل أنْ يصيبكم اللّه بيوْمٍ مثْل يوْم بدْرٍ.فقال مالك بْن صيْفٍ:غرّكمْ أنْ أصبْتمْ رهْطًا منْ قـــريْشٍ لا علْم لهمْ بالْقتال،أما لوْ أسْررْنا الْعزيمة أنْ نسْتجْمع علـــيْكمْ لمْ يكـــنْ لكـــمْ يـــدٌ أنْ تقاتلونا،فقال عبادة:يا رسول اللّه،إنّ أوْليائي من الْيهود كانتْ شديدةً أنْفســـهمْ كـــثيرًا

[١٩٤] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥١) وفيه انقطاع

سلاحهمْ شديدةً شوْكتهمْ،وإنّي أبْرأ إلى اللّه وإلى رسوله منْ ولايتهمْ،ولا موْلًى لي إلّا اللّه ورسوله.فقال عبْد اللّه بْن أبيٍّ:لكنّي لا أبْرأ منْ ولاء يهود،إنّي رجلٌ لا بدّ لي منْهمْ.فقال رسول اللّه ﷺ:" يا أبا حباب،أرأيْت الّذي نفسْت به منْ ولاء يهود على عبادة،فهو لك دونه " قال:إذنْ أقْبل.فأنْزل اللّه تعالى ذكْره:يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ إلى أنْ بلغ إلى قوْله:واللّه يعْصمك من النّاس[195]"..

وقال محمد بن إسحاق:فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺبنو قينقاع.فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال:فحاصرهم رسول الله ﷺحتى نزلوا على حكمه،فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول،حين أمكنه الله منهم،فقال:يا محمد،أحسن في موالي.وكانوا حلفاء الخزرج،قال:فأبطأ عليه رسول الله ﷺ،فقال:يا محمد،أحسن في موالي.قال:فأعرض عنه.فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ.فقال له رسول الله ﷺ."أرسلني".وغضب رسول الله ﷺحتى رئي لوجهه ظللا ثم قال:"ويحك أرسلني".قال:لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي،أربعمائة حاسر،وثلاثمائة دارع،قد منعوني من الأحمر والأسود،تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر،قال:فقال رسول الله ﷺ:"هم لك." [196]..

وقال محمد بن إسحاق:فحدثني أبي إسحاق بن يسار،عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال:لما حاربت بنو قيْنقاع رسول الله ﷺ،تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ،وقام دونهم،ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ،وكان أحد بني عوْف بن الخزرج،له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي،فجعلهم إلى رسول الله ﷺوتبرأ إلى الله ورسوله ﷺمن حلفهم،وقال:يا رسول الله،أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم،وأتولى الله ورسوله والمؤمنين،وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم.ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة:{يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ ومنْ

[195] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥٢) ضعيف جدا

[196] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط،المغرب.صحيح مرسل

يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ إنّ اللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين (٥١) فترى الّـذين في قلـوبهمْ مرضٌ يسارعون فيهمْ يقولون نخْشى أنْ تصيبنا دائرةٌ فعسى اللّه أنْ يأْتي بالْفتْح أوْ أمْرٍ منْ عنْده فيصْبحوا على ما أسرّوا في أنْفسهمْ نادمين (٥٢) ويقول الّذين آمنوا أهؤلاء الّذين أقْسموا باللّه جهْد أيْمانهمْ إنّهمْ لمعكمْ حبطتْ أعْمالهمْ فأصْبحوا خاسرين (٥٣) يا أيّها الّذين آمنوا منْ يرْتدّ منْكمْ عنْ دينه فسوْف يأْتي اللّه بقوْمٍ يحبّهمْ ويحبّونه أذلّةٍ على الْمؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائمٍ ذلك فضْل اللّه يؤْتيه منْ يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ (٥٤) إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّلاة ويؤْتون الزّكاة وهمْ راكعون (٥٥) ومنْ يتولّ اللّه ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزْب اللّه هم الْغالبون (٥٦) [المائدة:٥١ - ٥٦]}[١٩٧]..

وعنْ أسامة بْن زيْدٍ،قال:دخلْت مع رسول الله ﷺعلى عبْد الله بْن أبيٍّ في مرضه نعوده،فقال له النّبيّ ﷺ:قدْ كنْت أنْهاك عنْ حبّ يهود فقال عبْد الله:فقدْ أبْغضهمْ أسْعد بْن زرارة،فمات."[١٩٨]

فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم..غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود،ولم يجئ ذكر في الوقائع للنصارى..ولكن النص يجمل اليهود والنصارى..ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى،سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيجيء في سياق هذا الدرس)..ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في العهد النبوي،ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى:«لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا الْيهود والّذين أشْركوا،ولتجدنّ أقْربهمْ

---

[١٩٧] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط،المغرب.وانظر:السيرة النبوية لابن هشام (٤٩/٢) وتفسير الطبري (٣٩٧/١٠،٣٩٦) صحيح مرسل

[١٩٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٢٨٠)(٢١٧٥٨) ٢٢١٠١-صحيح

مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا:إنّا نصارى..إلخ»..مع هـذا الاختلاف الـذي كـان يومذاك،فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى – كما يسوي النص القادم بينـهم جميعا وبين الكفار..فيما يختص بقضية المحالفة والولاء.ذلك أن هذه القضية ترتكز علـى قاعدة أخرى ثابتة.هي:أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم ولـيس للمسـلم ولاء إلا للّه ولرسوله وللجماعة المسلمة..ويستوي بعد ذلـك كـل الفـرق في هـذا الأمر..مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف..

على أن اللّه – سبحانه – وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعـدة العامـة الحازمـة الصارمة،كان علمه يتناول الزمان كله،لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسـول اللّـه – ﷺ– وملابساتها الموقوتة..وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود..وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسـلام،فإننا نجـد الرقعـة النصرانية في الغرب،قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العـداوة والضغن،وشنت عليه من الحرب والكيد،ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيـدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسن عاهلـها اسـتقبال المهـاجرين المسـلمين واسـتقبال الإسلام،عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريهـا في هذا إلا اليهود..

وكان اللّه – سبحانه – يعلم الأمر كله.فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة.بغض النظـر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها وملابساتها الموقوتة! وبغض النظر عمـا يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به – ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء – يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكـان علـى سطح الأرض،ما يصدق قول اللّه تعالى:«بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ»..وما يحـتم أن يتـدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم.بل بأمره الجازم،ونهيه القاطع وقضـائه الحاسـم في المفاصلة الكاملة بين أولياء اللّه ورسوله،وكل معسكر آخر لا يرفع راية اللّه ورسوله..

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة.فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة..ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء – وهو التناصر – بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة..ولا حتى أمام الإلحاد مثلا – كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! – وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن،ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا..يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد.

لأن الإلحاد ينكر الدين كله،ويحارب التدين على الإطلاق..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام.ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة،وحركة بهذه العقيدة،لإقامة النظام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد..الدين هو الإسلام..وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام..لأن اللّه – سبحانه – يقول هذا.يقول:«إِنَّ الدِّين عِنْدَ اللَّه الْإِسْلام»..ويقول:«ومنْ يبْتغِ غيْر الْإِسْلام ديناً فلنْ يقْبل منْه»..وبعد رسالة محمد – ﷺ– لم يعد هناك دين يرضاه اللّه ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام»..في صورته التي جاء بها محمد – ﷺ– وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل.كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السّلام،لم يعد يقبل منهم بعد بعثته..

ووجود يهود ونصارى – من أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ– ليس معناه أن اللّه يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي..لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير..أما بعد بعثته فلا دين – في التصور الإسلامي وفي حس المسلم – إلا الإسلام..وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام..لأنه «لا إكراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين»..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هو الإسلام..وهناك «لا دين» هو غير الإسلام..ثم يكون هذا اللادين..عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة،أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها.أو إلحادا ينكر الأديان..تختلف فيما بينها كلها.ولكنها تختلف كلها مع الإسلام.ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم – كما سبق – ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن – على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته،وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم – وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة..فإن حسن المعاملة وجواز النكاح،ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ– هو دين يقبله اللّه ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد!

إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعا،لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل اللّه غيره من الناس جميعا.ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام،وكبر عليهم أن يدعوا إليه،جابههم القرآن الكريم بأن اللّه يدعوهم إلى الإسلام،فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام،كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء.وهو غير مأذون في أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام.لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه.فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه،هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ– هو دين يقبله اللّه..ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!..إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين.وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقررت هذه البديهية،فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصـــر للتمكين للدين في الأرض،مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية.كما أهنا قضية تنظيمية حركيـــة! مـــن ناحية أهنا قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهـــذا البيـــان الـــذي أسلفناه،وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المســـلمين وأهـــل الكتاب.

ومن ناحية أهنا قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك..فإذا كان سعي المؤمن كلـــه ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج اللّه في الحياة – وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد – ﷺ- بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج،وهي تشـــمل كـــل نشـــاط الإنسان في الحياة..فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع مـــن لا يـــؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخـــرى – إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام – إذ الإســـلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحا – «والّذين كفروا بربّهمْ أعْمالهمْ كرمادٍ اشْتدّتْ به الرّيح في يوْمٍ عاصفٍ»..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام..ولا يتصور إمكان انفصـــال أيـــة جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام..لا يتصور إمكان هـــذا إلا مـــن لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي..ولا يتصور أن هناك جوانب في الحيـــاة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام،أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه،كما نص اللّه في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المســـلم ليرضوا عنه!..إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء..

ولقد كان اعتذار عبد اللّه بن أبي بن سلول،وهو من الذين في قلوبهم مرض،عن مسارعته واجتهاده في الولاء ليهود،والاستمساك بحلفه معها،هي قوله:إنني رجل أخشى الـــدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة،وأن تترل بنا الضائقة..وهذه الحجـــة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان

فالولي هو اللّه والناصر هو اللّه والاستنصار بغيره ضلالة،كما أنه عبث لا ثمرة له..ولكن حجة ابن سلول،هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصـــور كـــل منافق مريض القلب،لا يدرك حقيقة الإيمان..وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت مـــن ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا.لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف بـــه،حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد اللّه بن أبي بن سلول!

إنهما نهجان مختلفان،ناشئان عن تصورين مختلفين،وعن شعورين متباينين،ومثـــل هـــذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان!

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم،المتألبين عليهم،المنافقين الذين لا يخلصـــون للّـــه اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم..يهددهم برجاء الفتح أو أمر اللّه الذي يفصـــل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق:«فعسى اللّـــه أنْ يـــأْتي بـــالْفتْح أوْ أمْـــرٍ مـــنْ عنْده،فيصْبحوا على ما أسرّوا في أنْفسهمْ نادمين».وعندئذ – عند الفتح – سواء كـــان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر اللّه – يندم أولئك الـــذين في قلوبهم مرض،على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفـــاق الـــذي انكشف أمره،وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين،ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«ويقول الّذين آمنوا:أهؤلاء الّذين أقْسموا باللّه جهْد أيْمانهمْ إنّهمْ لمعكـــمْ؟ حبطـــتْ أعْمالهمْ،فأصْبحوا خاسرين!»..

ولقد جاء اللّه بالفتح يوما،وتكشفت نوايا،وحبطت أعمال،وخسرت فئات.ونحن علـــى وعد من اللّه قائم بأن يجيء الفتح،كلما استمسكنا بعروة اللّه وحده وكلمـــا أخلصـــنا الولاء للّه وحده.وكلما وعينا منهج اللّه،وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا.وكلما تحركنـــا في المعركة على هدى اللّه وتوجيهه.فلم نتخذ لنا وليا إلا اللّه ورسوله والذين آمنوا..[١٩٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٠٢)

المبحث الرابع

لا حل إلا بالجهاد في سبيل الله

الحث على الجهاد في القرآن والسنة:

١. قال تعالى:{إنّ الّذين آمنواْ والّذين هاجرواْ وجاهدواْ في سبيل اللّه أوْلئك يرْجون رحْمت اللّه واللّه غفورٌ رّحيمٌ} (٢١٨) سورة البقرة

وعد الله تعالى المؤْمنين الذين دفعهمْ إيمانهم الصّادق إلى الهجْرة،وإلى الجهاد مع رسول الله ﷺ،لنصْر دين الله،وردّ أذى الكفّار،وإلى الصّبْر على ما يصيبهمْ منْ أذى المشْركين في سبيل عقيدتهمْ وإيمانهم،بإحْدى الحسْنييْن:النّصْر أو الشّهادة،وهؤلاء المؤْمنون الصّابرون هم الذين يرْجون رحْمة ربّهمْ،والله تعالى لا يخيّب رجاءهمْ،وهو واسع المغْفرة للتّائبين المسْتغْفرين،عظيم الرّحْمة بالمؤْمنين.[٢٠٠]

هذه الأعمال الثلاثة،هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية،وبها يعرف ما مع الإنسان،من الربح والخسران،فأما الإيمان،فلا تسأل عن فضيلته،وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة،وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد،قبلت أعمال الخير منه،وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل،ولا فرض،ولا نفل.

وأما الهجرة:فهي مفارقة المحبوب المألوف،لرضا الله تعالى،فيترك المهاجر وطنه وأمواله،وأهله،وخلانه،تقربا إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد:فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء،والسعي التام في نصرة دين الله،وقمع دين الشيطان،وهو ذروة الأعمال الصالحة،وجزاؤه،أفضل الجزاء،وهو السبب الأكبر،لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام،وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

---

[٢٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٥، بترقيم الشاملة آليا)

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله،لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة،وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة،وأما الرجاء المقارن للكسل،وعدم القيام بالأسباب،فهذا عجز وتمن وغرور،وهو دال على ضعف همة صاحبه،ونقص عقله،بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح،ووجود الغلة بلا بذر وسقي،ونحو ذلك.

وفي قوله:{ أولئك يرْجون رحْمة اللّه } إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها،ويعول عليها،بل يرجو رحمة ربه،ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه،وستر عيوبه.

ولهذا قال:{ واللّه غفورٌ } أي:لمن تاب توبة نصوحا { رحيمٌ } وسعت رحمته كل شيء،وعم جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة،حصل له مغفرة الله،إذ الحسنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة،اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة،التي هي آثار الذنوب،التي قد غفرت واضمحلت آثارها،وإذا حصلت له الرحمة،حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم،فلولا توفيقه إياهم،لم يريدوها،ولولا إقدارهم عليها،لم يقدروا عليها،ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم،فله الفضل أولا وآخرا،وهو الذي منّ بالسبب والمسبب[٢٠١].

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا..ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق،فجاهدوا وصبروا،حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة.وكلاهما خير.وكلاهما رحمة.وفازوا بمغفرة الله ورحمته:«واللّه غفورٌ رحيمٌ»..وهو هو طريق المؤمنين[٢٠٢]..

---

[٢٠١] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٩٨)

[٢٠٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٨)

٢. وقال تعالى:{يا أيّها الّذين آمنواْ اتّقواْ اللّه وابْتغواْ إليه الْوسيلة وجاهدواْ في سبيله لعلّكمْ تفْلحون} (٣٥) سورة المائدة

يأمر الله تعالى عباده المؤْمنين بتقْواه وطاعته حقّاً وصدْقاً،واتّقاء سخطه وعقابه،وذلك بعدم مخالفة شرْعه،والانْكفاف عنْ إتْيان محارمه،وترْك ما نهى عنْه،وبأنْ يتقرّبوا إليه بطاعته،وبالعمل بما يرْضيه (وابْتغوا إليه الوسيلة).ثمّ أمرهمْ بجهاد أعْدائهمْ،وأعْداء الله،الخارجين عن الطّريق المسْتقيم.ورغّبهمْ تعالى في الجهاد،بأنْ أبان لهمْ ما أعدّه للْمجاهدين في سبيله يوْم القيامة منْ جزيل الثّواب،وكريم المنْزلة،فلعلّهمْ،إنْ قاموا بأمْر ربّهمْ،أنْ يفْلحوا بالفوْز برضى الله وجنّته[٢٠٣]

والمنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده.إنما يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه إلا السيف.فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب،وتقويم الطبع.وهداية الروح - ذلك إلى جانب إقامة المجتمع المسلم إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض:هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعا.ولكن السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض.فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعا،ومثله معه ؛ ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك،لينجوا به من عذاب يوم القيامة.ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار.ثم عجزهم عن بلوغ الهدف،وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم..

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات..منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه..ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به.ومنظرهم وهم مخيبو الطلب غير مقبولي الرجاء..ومنظرهم وهم يدخلون النار..ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها..ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء.ويسدل الستار،ويتركهم مقيمين هناك ! [٢٠٤]

---

[٢٠٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٠٥، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٠٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٦٥)

٣. وقال تعالى:{ الّذين آمنواْ وهاجرواْ وجاهـدواْ في سـبيل اللّـه بـأمْوالهمْ وأنفسهمْ أعْظم درجةً عند اللّه وأوْلئك هم الْفائزون} (٢٠) سورة التوبة

الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأمْوالهمْ وأنْفسهمْ،همْ أعْظم عنْد الله درجةً ومقاماً،وأكْثر مثوبةً من الذين عمّروا المسْجد الحرام،وسقوْا الحاجّ في الجّاهلية.وهـؤلاء المؤْمنون المجاهدون في الله حقّ جهاده هم الفائزون برحْمة الله،ورضْوانه وجنّاته [٢٠٥].

أولئك هم المؤمنون حقا..فهذه هي الصورة الحقيقية التي يتمثل فيها الإيمان..هذه هـي صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقي لهذا الدين..إنه لا يوجد حقيقة بمجـرد إعـلان القاعدة النظرية ولا بمجرد اعتناقها ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها..إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي،إلا إذا تمثل في تجمع حركي..أما وجـوده في صورة عقيدة فهو وجود حكمي،لا يصبح (حقا) إلا حين يتمثـل في تلـك الصـورة الحركية الواقعية..

وهؤلاء المؤمنون حقا،لهم مغفرة ورزق كريم..والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله..وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم.بل هي أكرم الرزق الكريم.

ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين،كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد – وإن كانت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى – إنما هذا إلحاق في الولاء والعضوية في المجتمع الإسلامي:«والّذين آمنوا منْ بعْد وهاجروا وجاهدوا معكمْ فأولئك منْكمْ»..

ولقد ظل شرط الهجرة قائما حتى فتح مكـة حـين دانـت أرض العـرب للإسـلام ولقيادته،وانتظم الناس في مجتمعه.فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل.كمـا قـال رسول اللّه – ﷺ- غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفا ومائتي عام تقريبا لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام،وقيام القيادة المسـلمة علـى شريعة اللّه وسلطانه..فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية وارتفع حكـم اللّـه –

---

[٢٠٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥٦، بترقيم الشاملة آليا)

سبحانه – عن حياة الناس في الأرض،وعـــادت الحاكميـــة إلى الطـــاغوت في الأرض كلها،ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها..

الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام – كالجولة الأولى – تأخذ – في التنظيم – كـــل أحكامها المرحلية،حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ثم تمتد ظلال الإســـلام مـــرة أخرى – بإذن اللّه – فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمـــل كمـــا حـــدث في الجولـــة الأولى..[206]

---

٤. وقال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنوا ارْكعوا واسْجدوا واعْبدوا ربّكمْ وافْعلـــوا الْخيْر لعلّكمْ تفْلحون (٧٧) وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده هو اجْتباكمْ ومـــا جعـــل عليْكمْ في الدّين منْ حرجٍ ملّة أبيكمْ إبْراهيم هو سمّاكم الْمسْلمين منْ قبْل وفي هذا ليكون الرّسول شهيدًا عليْكمْ وتكونوا شهداء على النّاس فأقيموا الصّـــلاة وآتـــوا الزّكاة واعْتصموا باللّـــه هـــو مـــوْلاكمْ فـــنعْم الْمـــوْلى ونعْـــم النّصـــير (٧٨) }[الحج/٧٧،٧٨]

يأمر الله المؤمنين بعبادته،وبإقامة الصّلاة،وبالرّكوع والسجود له،وبفعْل الخيْر،لعلّ ذلـــك يوصلهمْ إلى الخيْر،لعل ذلك يوصلهمْ إلى الخيْر واللفلاح في الدّنْيا والآخرة.

يأمر الله المؤْمنين بالجهاد وأخْلصه:بالأمْوال والأنْفس والألْسنة،فقدْ اصْطفى الله المؤْمنين منْ هذه الأمّة،واخْتارهمْ على منْ سوامهم،و لمْ يكلّفْهمْ ما لا يطيقـــون،و لمْ يضـــيّق الله عليْهم في شيْءٍ منْ أمور دينهم،بلْ وسّع عليهم،في شيْء منْ أمـــور دينـــهم،بلْ وسّـــع عليْهم،كما وسّع في ملّة إبْراهيم عليْهم في شيْءٍ منْ أمور دينهم،بلْ وسّع عليْهم،كمـــا وسّع في ملّة إبْراهيم عليْه السّلامم (ونصب ملّة) على تقْدير الزموا ملّة إبْراهيم)،وقـــدْ سمّاهم الله تعالى بالمسْلمين في شرْع إبْراهيم وفي الكتب المتقدّمة،وفي هذا القرْآن (مـــنْ قبْل وفي هذا).وقدْ جعل الله المسْلمين أمّةً وسطاً عدولاً ليكونوا شهداء على النّاس يوْم القيامة،لأنّ النّاس جميعاً يعْترفون بفضْل المسْلمين في ذلك اليوْم،فلهذا تقْبـــل شـــهادهمْ

---

[206] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٠٩)

عليْهم،في أنّ الرّسل أبْلغتهم رسالة أبْلغتْهم رسالة ربّهمْ،والرّسول يشْهد على هذه الأمّــة أنّه أبْلغها ما أوْحاه الله إليه،فلْيقابل المسْلمون هذه النعْمة العظيمــة بالقيــام بشــكْر الله عليها،وأداء حقّ الله فيما فرضه عليْهم،ومنْ أهمّ ذلك إقامــة الصّــلاة وأداؤهــا حــقّ أدائها،ودفْع الزّكاة،والاعْتصام بالله،والاسْتعانه به،والاتّكال عليْه،فهو موْلاهمْ وحافظهمْ وناصرهمْ،وهو نعْم الموْلى ونعْم النّاصر على الاعْداء.[٢٠٧]

يأمر تعالى،عباده المؤمنين بالصلاة،وخص منها الركوع [ص ٥٤٧] والسجود،لفضلهما وركنيتهما،وعبادته التي هي قرة العيون،وسلوة القلب المحزون،وأن ربوبيته وإحسانه على العباد،يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة،ويأمرهم بفعل الخير عموما.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال:{ لعلّكمْ تفْلحون } أي:تفوزون بــالمطلوب المرغوب،وتنجون من المكروه المرهوب،فلا طريق للفلاح سوى الإخــلاص في عبــادة الخالق،والسعي في نفع عبيده،فمن وفق لذلك،فله القدح المعلى،من الســعادة والنجــاح والفلاح.

{ وجاهدوا في اللّه حقّ جهــاده } والجهــاد بــذل الوســع في حصــول الغــرض المطلوب،فالجهاد في الله حق جهاده،هو القيام التام بأمر الله،ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك،من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ،وغير ذلك.

{ هو اجْتباكمْ } أي:اختاركم -يا معشر المسلمين- من بــين الناس،واختــار لكــم الدين،ورضيه لكم،واختار لكم أفضل الكتب وأفضــل الرســل،فقابلوا هــذه المنحــة العظيمة،بالقيام بالجهاد فيه حق القيام،ولما كان قوله:{ وجاهدوا في اللّه حقّ جهــاده } ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق،أو تكليف ما يشــق،احترز منــه بقوله:{ وما جعل عليْكمْ في الدّين منْ حرجٍ } أي:مشقة وعســر،بل يســره غايــة التيسير،وسهله بغاية السهولة،فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس،لا يثقلــها ولا يؤودها،ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف،خفــف مــا أمــر بــه،إما بإسقاطه،أو إسقاط بعضه.ويؤخذ من هذه الآية،قاعدة شرعية وهي أن " المشقة تجلــب

---

[٢٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

التيسير " و " الضرورات تبيح المحظورات " فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية،شــيء كثير معروف في كتب الأحكام.

{ ملّة أبيكمْ إبْراهيم } أي:هذه الملة المذكورة،والأوامر المزبورة،ملة أبيكم إبــراهيم،التي ما زال عليها،فالزموها واستمسكوا بها.

{ هو سمّاكم الْمسْلمين منْ قبْل } أي:في الكتب السابقة،مذكورون ومشهورون،{ وفي هذا } أي:هذا الكتاب،وهذا الشرع.أي:ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثا،{ ليكون الرّسول شهيدًا عليْكمْ } بأعمالكم خيرها وشرها { وتكونوا شهداء علــى النّــاس } لكونكم خير أمة أخرجت للناس،أمة وسطا عدلا خيارا،تشهدون للرسل أنهــم بلغــوا أممهم،وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابــه،{ فــأقيموا الصّلاة } بأركانها وشروطها وحدودها،وجميع لوازمها،{ وآتوا الزّكــاة } المفروضــة لمستحقيها شكرا لله على ما أولاكم،{ واعْتصموا باللّه } أي:امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك،ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم،{ هو موْلاكمْ } الذي يتولى أموركم،فيــدبركم بحسن تدبيره،ويصرفكم على أحسن تقديره،{ فنعْم الْموْلى ونعْم النّصير } أي:نعم المولى لمن تولاه،فحصل له مطلوبه { ونعْم النّصير } لمن استنصره فدفع عنه المكروه.[٢٠٨]

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه اللّه لهذه الأمة،ويلخص تكاليفها التي ناطهــا بها،ويقرر مكانها الذي قدره لها،ويثبت جذورها في الماضي والحاضــر والمســتقبل،متى استقامت على النهج الذي أراده لها اللّه.

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود.وهما ركنا الصلاة البارزان.ويكــني عــن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة،وحركة ظاهرة في التعبير،ترسمها مشهدا شاخصا،وهيئة منظورة.لأن التعبير على هذا النحــو أوقــع أثــرا وأقــوى استجاشــة للشعور[٢٠٩].

---

[٢٠٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٤٦)

[٢٠٩] - يراجع فصل:«طريقة القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».«دار الشروق».

ويثني بالأمر العام بالعبادة.وهي أشمل من الصلاة.فعبادة اللّه تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى اللّه.فكل نشـــاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى اللّه.حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات.وما عليه إلا أن يذكر اللّه الذي أنعم بها،وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هـــي عبـــادات وحسنات،ولم يتحول في طبيعتها شيء،ولكن تحول القصد منها والاتجاه! ويختم بفعـــل الخير عامة،في التعامل مع الناس بعد التعامل مع اللّه بالصلاة والعبادة.

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح.فهذه هي أسباب الفلاح..العبادة تصـــلها باللّـــه فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل.وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة،الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه.

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة باللّه واستقامة الحياة،فاستقام ضـــميرها واستقامت حياتها..نهضت بالتبعة الشاقة:«وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده»..وهـــو تعـــبير شامل جامع دقيق،يصور تكليفا ضخما،يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الـــذخيرة وذلـــك الإعداد..

«وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده»..والجهاد في سبيل اللّه يشمل جهـــاد الأعـــداء،وجهاد النفس،وجهاد الشر والفساد..كلها سواء..« وجاهدوا في اللّه حـــقّ جهـــاده»..فقـــد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة،واختاركم لها من بين عباده:«هو اجْتَبـــاكُمْ»..وإن هـــذا الاختيار ليضخم التبعة،ولا يجعل هنالك مجالا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من اللّه لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليـــف محفـــوف برحمـــة اللّه:«وما جعل عليْكمْ في الدّين منْ حرجٍ»..وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته.ملحوظ فيه تلبيته تلـــك الفطـــرة.وإطـــلاق هـــذه الطاقة،والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتـــوم.ولا تنطلـــق انطلاق الحيوان الغشيم!

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية،موصول الماضي بالحاضر:«ملّة أبيكمْ إبْراهيم» وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم – عليه السلام – فلم تنقطع من الأرض،و لم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام.وقد سمى اللّه هذه الأمة الموحدة بالمسلمين.سماها كذلك من قبل وسماها كذلك في القرآن:«هو سمّاكم الْمسْلمين منْ قبْل وفي هذا»..

والإسلام إسلام الوجه والقلب للّه وحده بلا شريك.فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات.حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد – ﷺ– وحتى سلمت إليها الأمانة،وعهد إليها بالوصاية على البشرية.فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها اللّه:«ليكون الرّسول شهيداً عليْكمْ وتكونوا شهداء على النّاس»..فالرسول – ﷺ– يشهد على هذه الأمة،ويحدد نهجها واتجاهها،ويقرر صوابها وخطأها.وهي تشهد على الناس بمثل هذا،فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها،وتربيتها وفكرها عن الكون والحياة.ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج،المختار من اللّه.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية.حتى إذا انحرفت عنه،وتخلت عن تكاليفه،ردها اللّه عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة.وما تزال.ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له اللّه.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد..ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام باللّه:«فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعْتصموا باللّه.هو موْلاكمْ.فنعْم الْموْلى ونعْم النّصير»..فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد.والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد.والاعتصام باللّه العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد.

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها اللّه.وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في

الأرض.والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها،بل يدعو إلى إعدادها.ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفد،والذي لا يملكه إلا المؤمنون باللّه.فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدما إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ولا يكتفي بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية،ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى.وكذلك يريدها الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة،المستقيمة على منهج اللّه في ظل اللّه[210]..

---

٥. وقال تعالى:{ إنّما الْمؤْمنون الّذين آمنوا باللّه ورسوله ثمّ لمْ يرْتابوا وجاهدوا بأمْوالهمْ وأنفسهمْ في سبيل اللّه أوْلئك هم الصّادقون} (١٥) سورة الحجرات

ويعرّف الله تعالى للنّاس الإيمان في هذه الآية فيقرّر:إنّ المؤْمنين إيماناً حقّاً هم الذين صدّقوا الله ورسوله و لم يشكّوا،و لم يتزلْزلوا،و لم يتردّدوا،وبذلوا أنْفسهم وأمْوالهمْ للْجهاد في سبيل الله،ورفْعة شأْن الإسْلام،وهؤلاء هم المؤْمنون الصّادقون في إيمانهمْ.[211]

فالإيمان تصديق القلب باللّه وبرسوله.التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب.التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب،ولا تهجس فيه الهواجس،ولا يتلجلج فيه القلب والشعور.والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل اللّه.فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه،لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب.في واقع الحياة.في دنيا الناس.يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان،وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه،والصورة الواقعية من حوله.لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة.ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل اللّه

---

[210] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٦٨)

[211] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

بالمال والنفس.فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن.يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه،ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس.والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني،وواقعه العملي.وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف.فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله،حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية.

«أولئك هم الصّادقون»..الصادقون في عقيدهم.الصادقون حين يقولون:إنهم مؤمنون.فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب،ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة،فالإيمان لا يتحقق.والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.

ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية:«إنّما الْمؤْمنون الّذين آمنوا باللّه ورسوله – ثمّ لمْ يرْتابوا – »..إنه ليس مجرد عبارة.إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية.وعلاج لحالة تقوم في النفس.حتى بعد إيمانها..

«ثمّ لمْ يرْتابوا» وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى..«إنّ الّذين قالوا ربّنا اللّه..ثمّ اسْتقاموا..» فعدم الارتياب.والاستقامة على قولة:ربنا اللّه.تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة – تحت تأثير التجارب القاسية،والابتلاء ات الشديدة – من ارتياب ومن اضطراب.وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل،ونوازل تزعزع.والتي تثبت فلا تضطرب،وتثق فلا ترتاب،وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند اللّه.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق،وأخطار الرحلة،لتعزم أمرها،وتحتسب،وتستقيم،ولا ترتاب عند ما يدلهم الأفق،ويظلم الجو،وتناوحها العواصف والرياح!..[٢١٢]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢١٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤١٩٤)

الباب الثاني

أسباب الجهاد في سبيل الله

١. القتال في سبيل المستضعفين:

قال تعالى:{ وما لكمْ لا تقاتلون في سبيل اللّه والْمسْتضْعفين مـن الرّجـال والنّسـاء والْولْدان الّذين يقولون ربّنا أخْرجْنا منْ هذه الْقرْية الظّالم أهْلها واجْعل لّنا من لّدنك وليًّا واجْعل لّنا من لّدنك نصيرًا} (٧٥) سورة النساء

يحرّض الله تعالى عباده المؤْمنين على القتال في سبيل إعْلاء كلمتـه،وفي سـبيل إنْقـاذ المسْتضْعفين من المؤْمنين الموْجودين في مكّة،من الرّجال والنّساء والصّبْيان،المتبرّمين بالمقام فيها،ويقول لهمْ:أيّ عـذْرٍ لكـمْ يمْـنعكمْ مـنْ أنْ تقـاتلوا في سـبيل الله لتقيمـوا التّوْحيد،وتنْصروا العدْل والحقّ،وفي سبيل إنْقاذ إخْوانكم المسْتضْعفين الـذين يسْـتذلّهم الطّغاة الكفرة في مكّة،وهمْ يدْعون ربّهمْ أنْ يخْرجهمْ منْ تلْك البلْدة (القرْية) الظّـالم أهْلها،وأنْ يسخّر لهمْ منْ عنْده منْ ينْصرهمْ،وينْقذهمْ ممّا همْ فيه [٢١٣].

هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله،وأن ذلك قـد تعـين عليهم،وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه،فقال:{ وما لكمْ لا تقاتلون في سبيل اللّـه } والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الـذين لا يسـتطيعون حيلـة ولا يهتدون سبيلا ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم،فهم يدعون الله أن يخـرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك،وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله،ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القريـة الظـالم أهلها،فصـار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحـارمكم،لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار،فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ويلام المتخلف

---

٢١٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٨، بترقيم الشاملة آليا)

عنه أعظم اللوم،فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة،بحيث يكون من باب دفع الأعداء.[214]

وكيف تقعدون عن القتال في سبيل اللّه واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم،وكرامة المؤمن،ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟

هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم،والفتنة في دينهم.والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض،لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني،الذي تتبعه كرامة النفس والعرض،وحق المال والأرض! ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف،مشهد مؤثر مثير.لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد.

وهو وحده يكفي.لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات..وهو أسلوب عميق الوقع،بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس.

ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن:إن «هذه الْقَرْيَة الظّالم أهْلها» التي يعدها الإسلام – في موضعها ذاك – دار حرب،يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها،هي «مكة» وطن المهاجرين،الذين يدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها.ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام – حين لم تقم فيها شريعة اللّه ومنهجه وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم،وعذبوا في عقيدتهم..بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم «دار حرب»..دار حرب،هم لا يدافعون عنها،وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوتهم المسلمين منها..إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته.ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة اللّه فيه وأرضه التي يدفع عنها هي «

---

[214] – تفسير السعدي – (ج ١ / ص ١٨٧)

دار الإسلام» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجا للحياة..وكل تصور آخر للــوطن هــو تصور غير إسلامي،تنضح به الجاهليات،ولا يعرفه الإسلام.[215]

---

٢. نكث العهود والمواثيق من قبل أعداء الإسلام:

قال تعالى:{ ألا تقاتلون قوْمًا نّكثواْ أيْمانهمْ وهمّواْ بإخْراج الرّسول وهم بــدؤوكمْ أوّل مرّةٍ أتخْشوْنهمْ فاللّه أحقّ أن تخْشوْه إن كنتم مّؤمنين} (١٣) سورة التوبة

يحضّ الله تعالى المؤْمنين على قتال المشْركين،الذين ينْكثون عهْدهمْ،وقدْ سبق لهمْ أنْ همّوا بإخْراج الرّسول ﷺ منْ مكّة،وهم الذين بدؤوكمْ بالقتال أوّل مرّةٍ،إذْ خرجوا إلى بــدْرٍ لنصْرة عيرهمْ وإنْقاذها،ثمّ يطْلب الله تعالى إلى المؤْمنين أنْ لا يخْشوا الكفْر وأهْلــه،ويقول لهمْ:إنّ الذي يسْتحقّ الخشْية والخوْف منْه هو الله ذو السطْوة والعقوبة الشّديدة.فالمؤْمنون لا يخْشوْن أحداً غيْر الله،ولا يخافون سواه إنْ كانوا صادقين في إيمانهمْ.[216]

يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاســتقيموا لهم على الوفاء:{ وإنْ نكثوا أيْمانهمْ منْ بعْد عهْدهمْ } أي:نقضوها وحلوها،فقــاتلوكم أو أعانوا على قتالكم،أو نقصوكم،{ وطعنوا في دينكمْ } أي:عابوه،وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين،أو إلى القرآن،{ فقاتلوا أئمّة الْكفْر } أي:القادة فيه،الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن،الناصرين لــدين الشيطان،وخصــهم بالذكر لعظم جنايتهم،ولأن غيرهم تبع لهم،وليدل على أن من طعن في الدين وتصــدى للرد عليه،فإنه من أئمة الكفر.

{ إنّهمْ لا أيْمان لهمْ } أي:لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها،بل لا يزالــون خائنين،ناكثين للعهد،لا يوثق منهم.

{ لعلّهمْ } في قتالكم إياهم { ينْتهون } عن الطعن في دينكم،وربما دخلوا فيه،ثم حــث على قتالهم،وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف،التي صدرت من هؤلاء الأعــداء،والتي هــم

---

[215] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٨)

[216] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٩، بترقيم الشاملة آليا)

موصوفون بها،المقتضية لقتالهم فقال:{ ألا تقاتلون قوْمًا نكثوا أيْمانهمْ وهمّوا بإخْراج الرّسول } الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم،{ وهمْ بدءوكمْ أوّل مرّةٍ } حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم،وذلك حيث عاونتقريش -وهم معاهدون- بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول اللّه ﷺ،وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.{ أتخْشوْنهمْ } في ترك قتالهم { فاللّه أحقّ أنْ تخْشوْه إنْ كنْتمْ مؤْمنين } فإنه أمركم بقتالهم،وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر اللّه،ولا تخشوهم فتتركوا أمر اللّه،ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد،وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم [٢١٧]

تجيء هذه الفقرة بعد الفقرة السابقة التي تقرر فيها الاستنكار من ناحية المبدأ لأن يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله والأمر بتخيير المشركين في الجزيرة بين الدخول فيما دخل فيه المسلمون أو قتالهم – إلا من استجار فيجار حتى يسمع كلام اللّه ثم يبلغ مأمنه خارج دار الإسلام – وبيان علة هذا الاستنكار وهي أنهم لا يرعون إلّا ولا ذمة في مؤمن متى ظهروا على المؤمنين.

تجيء هذه الفقرة لمواجهة ما حاك في نفوس الجماعة المسلمة – بمستوياتها المختلفة التي سبق الحديث عنها – من تردد وتهيب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة! ومن رغبة وتعلل في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل! ومن خوف على النفوس والمصالح وركون إلى أيسر الوسائل!...

والنصوص القرآنية تواجه هذه المشاعر والمخاوف والتعلات باستجاشة قلوب المسلمين بالذكريات والأحداث القريبة والبعيدة.تذكرهم بنقض المشركين لما أبرموه معهم من عقود وما عقدوه معهم من أيمان.وتذكرهم بماهمّ به المشركون من إخراج الرسول – ﷺ- من مكة قبل الهجرة.وتذكرهم بأن المشركين هم الذين بدأوهم بالاعتداء في المدينة..ثم تثير فيهم الحياء والنخوة أن يكونوا إنما يخشون لقاء المشركين.

---

[٢١٧] – تفسير السعدي – (ج ١ / ص ٣٣٠)

واللّه أولى أن يخشوه إن كانوا مؤمنين..ثم تشجعهم على قتال المشركين لعـــل اللّـــه أن يعذبهم بأيديهم،فيكونوا هم ستارا لقدرة اللّه في تعذيب أعدائـــه وأعـــدائهم،وخزيانهم وقهرهم.وشفاء صدور المؤمنين الذين أوذوا في اللّه منهم..ثم تواجه التعلات التي تحيك في صدور البعض من الأمل في دخول المشـــركين البـــاقين في الإســـلام دون حـــرب ولا قتال.تواجه هذه التعلات بأن الرجاء الحقيقي في أن يفيء هـــؤلاء إلى الإســـلام أولى أن يتعلق بانتصار المسلمين،وهزيمة المشركين.فيومئذ قد يفيء بعضهم – ممن يقسم اللّه لـــه التوبة – إلى الإسلام المنتصر الظاهر الظافر!..وفي النهاية تلفتهم الآيات إلى أن سنة اللّـــه هي ابتلاء الجماعات بمثل هذه التكاليف ليظهر حقيقة ما هم عليه.وأن السنة لا تتبـــدل ولا تحيد..

«ألا تقاتلون قوْماً نكثوا أيْمانهمْ،وهمّوا بـــإخْراج الرّســـول،وهمْ بـــدؤكمْ أوّل مـــرّةٍ؟ أتخْشوْنهمْ؟ فاللّه أحقّ أنْ تخْشوْه،إنْ كنْتمْ مؤْمنين»..

إن تاريخ المشركين مع المسلمين كله نكث للإيمان،ونقض للعهود.وأقرب ما كان مـــن هذا نقضهم لعهدهم مع رسول اللّه – ﷺ- في الحديبية.ولقد قبل – ﷺ- من شروطهم – بإلهام من ربه وهداية – ما حسبه بعض أفاضل أصحابه قبولا للدنية! ووفى لهم بعهده أدق ما يكون الوفاء وأسماه.

ولكنهم هم لم يفوا،وخاسوا بالعهد بعد عامين اثنين،عند أول فرصة سنحت..كمـــا أن المشركين هم الذين هموا بإخراج الرسول – ﷺ- من قبل في مكة وبيتوا أمرهم في النهاية على قتله قبل الهجرة.

وكان هذا في بيت اللّه الحرام الذي يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله حـــتى لكـــان الواحد يلقى قاتل أخيه أو أبيه في الحرم فلا يمسه بسوء.أما محمد رسول اللّه،الـــداعي إلى الهدى والإيمان وعبادة اللّه وحده،فلم يرعوا معه هذه الخصلة وهموا بإخراجه ثم تـــآمروا على حياته وبيتوا قتله في بيت اللّه الحرام،بلا تحرج ولا تذمم مما يتحرجون منه ويتذممون مع أصحاب الثارات!..كذلك كانوا هم الذين همـــوا بقتـــال المســـلمين وحـــربهم في المدينة.فهم الذين أصروا – بقيادة أبي جهل – على ملاقاة المسلمين بعد أن نجت القافلـــة

التي خرجوا لها ثم قاتلوهم بادئين في أحـــد وفي الخنـــدق.ثم جمعـــوا لهـــم في حـــنين كذلك..وكلها وقائع حاضرة أو ذكريات قريبة وكلها تنم عن الإصرار الذي يصفه قول اللّه تعالى:«ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عنْ دينكمْ إن اسْتطاعوا» كما تنم عـــن طبيعة العلاقة بين المعسكر الذي يعبد آلهة من دون اللّه تجاه المعسكر الذي لا يعبـــد إلا اللّه..

وحين يستعرض السياق هذا الشريط الطويل من الذكريات والمواقف والأحداث،في هذه اللمسات السريعة العميقة الإيقاع في قلوب المسلمين،يخاطبهم:«أتخْشوْنهمْ؟»..

فإنهم لا يقعدون عن قتال المشركين هؤلاء إلا أن تكون هي الخشية والخوف والتـــهيب! ويعقب على السؤال بما هو أشد استجاشة للقلوب من السؤال:«فاللّه أحقّ أنْ تخْشوْه،إنْ كنْتمْ مؤْمنين»..

إن المؤمن لا يخشى أحدا من العبيد.فالمؤمن لا يخشى إلا اللّه.فإذا كانوا يخشون المشركين فاللّه أحق بالخشية،وأولى بالمخافة وما يجوز أن يكون لغيره في قلوب المؤمنين مكان! وإن مشاعر المؤمنين لتثور وهي تستجاش بتلك الذكريات والوقـــائع والأحـــداث..وهـــم يذكرون بتآمر المشركين على نبيهم ﷺ..وهم يستعرضون نكث المشـــركين لعهـــودهم معهم وتبييتهم لهم الغدر كلما التمسوا منهم غرة،أو وجدوا في مـــوقفهم ثغـــرة.وهـــم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال بطرا وطغيانا..وفي غمرة هذه الثورة يحرض المؤمنين على القتال:«قاتلوهمْ يعذّبْهم اللّه بأيْديكمْ ويخْزهمْ،وينْصرْكمْ علـــيْهمْ ويشْـــف صدور قوْمٍ مؤْمنين،ويذْهبْ غيْظ قلوبهمْ»..

قاتلوهم يجعلكم اللّه ستار قدرته،وأداة مشيئته،فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمـــة وهـــم يتخايلون بالقوة،وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون.يشفها من غيظها المكظوم،بانتصار الحـــق كاملا،وهزيمـــة الباطل،وتشـــريد المبطلين..

وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر ينتظر وثوابا آخر ينال:«ويتوب اللّه على منْ يشاء»..

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان،ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون،ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم،ويرون آثار الإيمان في مواقفهم – وهذا ما كان فعلا – وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم،وأجر هداية الضالين بأيديهم وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين:« واللّه عليمٌ حكيمٌ».

عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات.حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات.

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوي قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف،أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ.وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة،مرهوبة الجانب،عزيزة الجناب.

على أن اللّه سبحانه وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة،إلا وعدا واحدا:هو الجنة.و لم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا:هو الصبر..فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب،آتاها اللّه النصر وجعل يحرضها عليه ويشفي صدورها به.ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته.وإن هي إلا ستار لقدرته..

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة،وأن تنبذ عهود المشركين كافة وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا..لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا،ولإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة،والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب،ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة..لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير،وإعلان المفاصلة للجميع،لينكشف الذين يخبئون في قلوبهم خبيئة،ويتخذون من دون اللّه ورسوله والمؤمنين وليجة،يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين،في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة:«أمْ حسبْتمْ أنْ تتْركوا ولّما يعْلم اللّه الّذين جاهدوا منْكمْ و لمْ يتّخذوا منْ دون اللّه ولا رسوله ولا الْمؤْمنين وليجةً،واللّه خبيرٌ بما تعْملون».

لقد كان في المجتمع المسلم – كما هو الحال عادة – فئة تجيد المداورة،وتنفذ من الأسوار.وتتقن استخدام الأعذار.وتدور من خلف الجماعة،وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة،مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات.فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة،وكشفت المداخل والمسارب للأنظار.

وإنه لمن مصلحة الجماعة،ومن مصلحة العقيدة،أن تهتك الأستار وتكشف الولائج،وتعرف المداخل،فيمتاز المكافحون المخلصون،ويكشف المداورون الملتوون،ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته،وإن كان اللّه يعلمهم من قبل:«واللّه خبيرٌ بما تعْملون»..

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم.وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف،وتتمحص القلوب.ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات.[218]

---

٣. إزالة الظلم الواقع أو المتوقع على المسلمين:

قال تعالى:{ أذن للّذين يقاتلون بأنّهمْ ظلموا وإنّ اللّه على نصْرهمْ لقديرٌ (٣٩) الّذين أخْرجوا منْ ديارهمْ بغيْر حقٍّ إلّا أنْ يقولوا ربّنا اللّه ولوْلا دفْع اللّه النّاس بعْضهمْ ببعْضٍ لهدّمتْ صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذْكر فيها اسْم اللّه كثيرًا ولينْصرنّ اللّه منْ ينْصره إنّ اللّه لقويٌّ عزيزٌ (٤٠) الّذين إنْ مكّنّاهمْ في الْأرْض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالْمعْروف ونهوْا عن الْمنْكر وللّه عاقبة الْأمور (٤١) } [الحج/٣٩-٤١]

هذه أوّل آيةٍ نزلتْ في الجهاد،وقدْ نزلتْ بعْد خروج النّبيّ عليه السّلام وأصْحابه منْ مكّة إلى المدينة.يقول تعالى:إنّ المشْركين قدْ ظلموا المسْلمين في مكّة،وأخْرجوهم منْ ديارهمْ بغيْرِ حقٍّ،ولا ذنْب لهمْ إلاّ أنّهمْ آمنوا بالله،وقالوا:ربّنا الله.ولذلك أذن الله تعالى للمسْلمين في قتال المشْركين،دفْعً لأذاهم،وإضْعافاً لشوْكتهم،وتشْجيعاً لمنْ أراد الدّخول في الإسْلام

---

[218] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٨٧)

على الالْتحاق بالمسْلمين ليكونوا قوّةً تدافع عنْ نفْسها،وترهب أعْداءها الكفّــار،وإنّ الله قادرٌ وحْده على نصْر المسْلمين دون عوْنٍ منْهمْ،ولكنّه تعالى يريد من المؤْمنين أنْ يبْـذلوا جهْدهم في طاعة ربّهم،وأن يقوموا بواجبهم في الدّفاع عنْ أنْفسهم ودينه.
ويتابع الله تعالى وصْف المؤْمنين المظْلومين فيقول:إنّهم الـذين إذا مكـنّ الله لهـمْ في الأرْض،وحقّق لهم النّصْر والغلبة،وجعل لهم العاقبة،عملوا بأمْر الله،واجْتنبوا مـا نهـاهم عنْه،فأقاموا الصّلاة،وأدّوها حقّ أدائها،ودفعوا زكاة أمْـوالهمْ،وأمروا بـالمعْروف،وحثّوا النّاس على فعْل الخيْر وما يرْضي الله،ونهوْا المتجاوزين علـى حـدود الله عـنْ فعْـل المنْكر.وعنْد الله حساب النّاس جميعاً في نهاية المطاف،وله عاقبة الأمور،فيجْزي كلّ واحدٍ على عمله.[٢١٩]

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار،ومأمورين بالصبر عليهم،لحكمة إلهية،فلما هاجروا إلى المدينة،وأوذوا،وحصل لهم منعـة وقـوة،أذن لهـم بالقتال،قـال تعالى:{أذن للّذين يقاتلون} يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين،فأذن الله لهم بقتال الـذين يقاتلون،وإنما أذن لهم،لأنهم ظلموا،بمنعهم من دينهم،وأذيتـهم عليـه،وإخراجهم مـن ديارهم.
{وإنّ اللّه على نصْرهمْ لقديرٌ} فليستنصروه،وليستعينوا بـه،ثم ذكـر صـفة ظلمهـم فقال:{الّذين أخْرجوا منْ ديارهمْ} أي:ألجئوا إلى الخروج بالأذية والفتنة {بغيْر حقٍّ إلا} أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم {أنْ يقولوا ربّنا اللّه} أي:إلا أنهم وحدوا الله،وعبدوه مخلصين له الدين،فإن كان هذا ذنبا،فهو ذنبهم كقوله تعالى:{وما نقمـوا مـنْهمْ إلا أنْ يؤْمنوا باللّه الْعزيز الْحميد} وهذا يدل على حكمة الجهاد،وأن المقصود منه إقامة ديـن الله،وذب الكفار المؤذين للمؤمنين،البادئين لهم بالاعتداء،عن ظلمهم واعتدائهم،والتمكن من عبادة الله،وإقامة الشرائع الظاهرة،ولهذا قال:{ولوْلا دفْع اللّه النّاس بعْضهمْ بـبعْضٍ} فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين،{لهدّمتْ صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد} أي:لهدمت هذه المعابد الكبار،لطوائف أهل الكتاب،معابد اليهود والنصارى،والمسـاجد

[٢١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥١٨، بترقيم الشاملة آليا)

للمسلمين،{يذْكر فيها} أي:في هذه المعابد {اسْم اللّه كثيرًا} تقام فيها الصلوات،وتتلى فيها كتب الله،ويذكر فيها اسم الله بأنواع الـــذكر،فلولا دفـــع الله النـــاس بعضـــهم ببعض،لاستولى الكفار على المسلمين،فخربوا معابدهم،وفتنوهم عن دينهم،فدل هذا،أن الجهاد مشروع،لأجل دفع الصائل والمؤذي،ومقصود لغيره،ودل ذلك على أن البلـــدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله،وعمرت مساجدها،وأقيمت فيها شـــعائر الـــدين كلها،من فضائل المجاهدين وببركتهم،دفع الله عنها الكافرين،قال الله تعالى:{ولوْلا دفْـــع اللّه النّاس بعْضهمْ ببعْضٍ لفسدت الأرْض ولكنّ اللّه ذو فضْلٍ على الْعالمين}

فإن قلت:نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب،مـــع أنهـــا كـــثير منـــها إمـــارة صغيرة،وحكومة غير منظمة،مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج،بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة،وأهلها آمنون مطمئنون،مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها،والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضـــهم ببعض،لهـــدمت هـــذه المعابد،ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال،داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها،فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها،وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتـــها،وداخل في حكمها،تعتبره عضوا من أعضاء المملكة،وجزء من أجزاء الحكومة،سواء كانـــت تلـــك الأمة [ص:٥٤٠] مقتدرة بعددها أو عددها،أو مالهـــا،أو عملـــها،أو خدمتـــها،فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب،الدينية والدنيوية،وتخشى إن لم تفعل ذلـــك أن يختـــل نظامها،وتفقد بعض أركانها،فيقوم من أمر الدين بهـــذا الســـبب مـــا يقوم،خصوصـــا المساجد،فإنها -ولله الحمد- في غاية الانتظام،حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة،نظرا لخواطر رعايـــاهم المســـلمين،مع وجـــود التحاسد والتباغض بين دول النصارى،الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامـــة،فتبقى الحكومة المسلمة،التي لا تقدر تدافع عن نفسها،سالمة من [كثير] ضررهم،لقيام الحســـد عندهم،فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها،خوفا من احتمائها بالآخر،مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين،ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه [بشعور المسلمين بضـــرورة رجـــوعهم إلى دينـــهم والشعور مبدأ العمل] فنحمده ونسأله أن يتم نعمته،ولهذا قال في وعده الصادق المطـــابق للواقع:{ولينْصرنّ اللّه منْ ينْصره} أي:يقوم بنصر دينه،مخلصـــا لـــه في ذلك،يقاتـــل في سبيله،لتكون كلمة الله هي العليا.

{إنّ اللّه لقويٌّ عزيـــزٌ} أي:كامـــل القـــوة،عزيز لا يرام،قـــد قهـــر الخلائق،وأخـــذ بنواصيهم،فأبشروا،يا معشر المسلمين،فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم،وقوي عـــدد عدوكم وعددهم (٣) فإن ركنكم القوي العزيز،ومعتمدكم على من خلقكم وخلق مـــا تعملون،فاعملوا بالأسباب المأمور بها،ثم اطلبوا منه نصركم،فلا بد أن ينصركم.

{يا أيّها الّذين آمنوا إنْ تنْصروا اللّـــه ينْصـــرْكمْ ويثبّـــتْ أقْـــدامكمْ} وقوموا،أيهـــا المسلمون،بحق الإيمان والعمل الصالح،فقد {وعد اللّه الّذين آمنوا منْكمْ وعملوا الصّالحات ليسْتخْلفنّهمْ في الأرْض كما اسْتخْلف الّذين منْ قبْلهمْ وليمكّننّ لهمْ دينهم الّذي ارْتضى لهمْ وليبدّلنّهمْ منْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبدونني لا يشْركون بي شيْئًا}

ثم ذكر علامة من ينصره،وبها يعرف،أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه،ولم يتصـــف بهذا الوصف،فهو كـــاذب فقـــال:{الّـــذين إنْ مكّنّـــاهمْ في الأرْض} أي:ملكنـــاهم إياها،وجعلناهم المتسلطين عليها،من غير منازع ينازعهم،ولا معارض،{أقاموا الصّـــلاة} في أوقاتها،وحدودها،وأركانها،وشروطها،في الجمعة والجماعات.

{وآتوا الزّكاة} التي عليهم خصوصا،وعلى رعيتهم عموما،آتوهـــا أهلها،الـــذين هـــم أهلها،{وأمروا بالْمعْروف} وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا من حقـــوق الله،وحقوق الآدميين،{ونهوْا عن الْمنْكر} كل منكر شرعا وعقلا معروف قبحه،والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به،فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف علـــى تعلم وتعليم،أجبروا الناس على التعلم والتعليم،وإذا كان يتوقف علـــى تأديـــب مقـــدر شرعا،أو غير مقدر،كأنواع التعزير،قاموا بذلك،وإذا كان يتوقف علـــى جعـــل أنـــاس متصدين له،لزم ذلك،ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

{ولّله عاقبة الأمور} أي:جميع الأمور،ترجع إلى الله،وقد أخبر أن العاقبة للتقـــوى،فمن سلطه الله على العباد من الملوك،وقام بأمر الله،كانـــت لـــه العاقبـــة الحميدة،والحالـــة الرشيدة،ومن تسلط عليهم بالجبروت،وأقام فيهم هوى نفسه،فإنه وإن حصل له ملـــك موقت،فإن عاقبته غير حميدة،فولايته مشئومة،وعاقبته مذمومة.[٢٢٠]

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض،والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق اللّه الإنسان.

والشر جامح والباطل مسلح.وهو يبطش غير متحرج،ويضرب غير متورع ويملـــك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه،وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له.فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش،وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم.

و لم يشأ اللّه أن يترك الإيمان والخير والحـــق عـــزلا تكـــافح قـــوى الطغيـــان والشـــر والباطل،اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحـــق في الفطر،وعمـــق الخـــير في القلوب.فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلـــوب وتفـــتن النفـــوس وتزيـــغ الفطر.وللصبر حد وللاحتمال أمد،وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه.

واللّه أعلم بقلوب الناس ونفوسهم.ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنـــة،إلا ريثمـــا يستعدون للمقاومة،ويتهيأون للدفاع،ويتمكنون من وسائل الجهاد..وعندئذ أذن لهـــم في القتال لرد العدوان.

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الـــدفاع عنـــهم فهـــم في حمايته:«إنّ اللّه يدافع عن الّذين آمنوا»[٢٢١]..

---

٢٢٠ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٣٩)

٢٢١ - لم يذكر المؤلف رحمه الله سبب نزول الآيات، فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ"إنَّ أول آية أنزلت في القتال حين ابْتَلَى المسلمون بمكة وسطت بهم عشائرهم ليفتنوهم عَنِ الإسلام، وأخرجوهم مِنْ ديارهم وتظاهروا عَلَيْهِمْ، فأنزل الله:" أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} الآية وذلك حين أذن لرسوله بالخروج، أذن لَهُمْ بالقتال".تفسير ابن أبي حاتم [٩/ ٣٨٤](١٤٧٩٥) ذكره بلا سند

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ :" لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَجُلٌ :أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ فَنَزَلَتْ :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا الْآيَةُ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ " جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٣٠٦٨) صحيح مرسل

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما:«إنّ اللّه لا يحبّ كلّ خوّانٍ كفورٍ»..

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين:«أذن للّذين يقاتلون بأنّهمْ ظلموا»..

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية اللّه لهم ونصره إياهم:«وإنّ اللّه على نصْرهمْ لقديرٌ»..

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة،لا يعود خيرها عليهم وحدهم،إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة وذلك فوق أنهم مظلمون أخرجوا من ديارهم بغير حق:«الّذين أخْرجوا منْ ديارهمْ بغيْر حقٍّ إلّا أنْ يقولوا:ربّنا اللّه»..وهي أصدق كلمة أن تقال،وأحق كلمة بأن تقال.ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم.فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين.وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم،إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون،لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض،التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع! ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة..حاجة العقيدة إلى الدفع عنها:«ولوْلا دفْع اللّه النّاس بعْضهمْ ببعْضٍ لهدّمتْ صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذْكر فيها اسْم اللّه كثيراً»..

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان،والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع،والصلوات أماكن العبادة لليهود.والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ :" لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ :أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، لَيَهْلِكُنَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :فَأَنْزَلَ اللَّهُ :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ :فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ .وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ "جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٣٠٦٩) صحيح

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :" لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُخْرِجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَيَهْلِكُنَّ جَمِيعًا فَلَمَّا نَزَلَتْ :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا .إِلَى قَوْلِهِ :الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ عَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ "جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٣٠٧١) صحيح

وهي كلها معرضة للهدم – على قداستها وتخصيصها لعبادة اللّه – لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم اللّه يذكر فيها،ولا يحميها إلا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض.أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها،ويعتدون على أهلها.فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول.ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه،بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه.وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة،وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.

إن اللّه يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون،واعتدى عليهم المبطلون،بأن اللّه يدافع عن الذين آمنوا،وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين:«إِنَّ اللّه يدافع عن الَّذين آمنوا إنّ اللّه لا يحبّ كلّ خوّانٍ كفورٍ»..فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم.ومن يدافع اللّه عنه فهو ممنوع حتما من عدوه،ظاهر حتما على عدوه..ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح،والجهد والمشقة،والتضحية والآلام...والعاقبة معروفة،واللّه قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة،ولا تضحية ولا ألم،ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة اللّه في هذا هي العليا،وأن للّه الحجة البالغة..والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن اللّه سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من «التنابلة» الكسالى،الذين يجلسون في استرخاء،ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء،لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى اللّه بالدعاء،كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء ! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة،وأن يرتلوا القرآن،وأن يتوجهوا إلى اللّه بالدعاء في السراء والضراء.

ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة اللّه وحمايتها إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة.

والذخيرة التي يدخرونها للموقعة،والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال باللّه.

لقد شاء اللّه تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة.فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر وهي تدفع وتدافع،وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة..عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ولتؤتي أقصى ما تملكه،وتبذل آخر ما تنطوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة اللّه في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها،واحتشاد كل قواها،وتوفز كل استعدادها،وتجمع كل طاقاتها،كي يتم نموها،ويكمل نضجها،وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء،والذي يتترل هينا لينا على القاعدين المستريحين،يعطل تلك الطاقات عن الظهور،لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه.أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة.وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به و لم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه.فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة،والكر والفر،والقوة والضعف والتقدم والتقهقر.ومن المشاعر المصاحبة لها..من الأمل والألم.ومن الفرح والغم،ومن الاطمئنان والقلق.

ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة..ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة،وتدبير الأمور في جميع الحالات..وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله،ومن أجل غيره مما يعلمه اللّه..جعل اللّه دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم و لم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا اللّه.فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها اللّه.

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها،و لم يتم بعد تمامها،و لم تحشد بعد طاقاتها،و لم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات.فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا!

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة،وآخر ما تملكه من رصيد،فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا،لا تبذله هينا رخيصا في سبيل اللّه.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها،فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من اللّه لا تكفل النصر.إنما يتنزل النصر من عند اللّه عند ما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى اللّه.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها باللّه،وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سندا إلا اللّه،ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء.وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عند ما يتأذن به اللّه.فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به اللّه.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها للّه ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه،أو تقاتل حمية لذاتها،أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها.واللّه يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله،بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه.عنْ أبى موسى قال جاء رجلٌ إلى النّبىّ – ﷺ– فقال يا رسول اللّه،ما الْقتال فى سبيل اللّه فإنّ أحدنا يقاتل غضبًا،ويقاتل حميّةً.فرفع إليْه رأْسه – قال وما رفع إليْه رأْسه إلاّ أنّه كان قائمًا – فقال « منْ قاتل لتكون كلمة اللّه هى الْعلْيا فهو فى سبيل اللّه عزّ وجلّ »[٢٢٢].

---

[٢٢٢] – صحيح البخارى- المكنز [١ /٢٢١](١٢٣)

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير،يريد اللّـــه أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا،ويذهب وحده هالكا،لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار! وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما.فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة.فيشاء اللّه أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس،ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة.فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار.فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر،ولاستبقائه!

من أجل هذا كله،ومن أجل غـــيره ممـــا يعلمـــه اللّه،قـــد يبطـــئ النصر،فتتضـــاعف التضحيات،وتتضاعف الآلام.مع دفاع اللّه عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن اللّه به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه،وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه:« ولينْصرنّ اللّه منْ ينْصره إنّ اللّه لقويٌّ عزيزٌ.الّذين إنْ مكّنّـــاهمْ في الْأرْض أقاموا الصّلاة،وآتوا الزّكاة،وأمروا بالْمعْروف،ونهوْا عن الْمنْكـــر وللّـــه عاقبـــة الْأمور»..

فوعد اللّه المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره..فمـــن هـــم هؤلاء الذين ينصرون اللّه،فيستحقون نصر اللّه،القوي العزيز الذي لا يهزم من يتـــولاه؟ إنهم هؤلاء:«الّذين إنْ مكّنّاهمْ في الْأرْض»..فحققنا لهم النصر،وثبتنا لهم الأمر..«أقـــاموا الصّلاة»..فعبدوا اللّه ووثقوا صلتهم به،واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين..«وآتوا الزّكاة»..فأدوا حق المال،وانتصروا على شح النفس،وتطهروا من الحرص،وغلبوا وسوسة الشيطان،وسدوا خلة الجماعة،وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج،وحققوا لها صفة الجســـم الحي – عن النّعْمان بْن بشيرٍ قال قال رسول اللّه –ﷺ– « مثل الْمـــؤْمنين فى تـــوادّهمْ

وتراحمهمْ وتعاطفهمْ مثل الْجسد إذا اشْتكى منْه عضْوٌ تداعى له سائر الْجسد بالسّــهر والْحمّى »[٢٢٣]...

«وأمروا بالْمعْروف»..فدعوا إلى الخير والصلاح،ودفعوا إليــه النــاس..«ونهــوْا عــن الْمنْكر»..فقاوموا الشر والفساد،وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره،ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين ينصرون اللّه،إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة،معتزين باللّــه وحده دون سواه.وهؤلاء هم الذين يعدهم اللّه بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته.المشروط بتكاليفه وأعبائه..والأمر بعــد ذلــك للّه،يصرفه كيف يشاء،فيبدل الهزيمة نصرا،والنصر هزيمة،عند ما تختل القــوائم،أو تهمــل التكاليف:«وللّه عاقبة الْأمور»..

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة.من انتصار الحق والعدل والحريــة المتجهة إلى الخير والصلاح.المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلــها الأشــخاص والذوات،والمطامع والشهوات..وهو نصر له سببه.وله ثمنه.وله تكاليفه.وله شروطه.فــلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه..[٢٢٤]

---

٤. الفتنة الواقعة على المسلمين:

قال تعالى:{ وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين للّه فإن انتهوا فلا عــدْوان إلاّ على الظّالمين} (١٩٣) سورة البقرة

وأمر الله تعالى بقتال الكفّار حتّى لا تكون لهــمْ قــوّةٌ يفْتنــون بهــا المسْــلمين عــنْ دينهمْ،ويمْنعونهمْ منْ إظْهاره،والدّعْوة إليه،وحتّى لا يكون هناك شرْكٌ،وحتّى تكون كلمة الله هي العلْيا،ودينه هو الظّاهر العالي على سائر الأدْيان.فإن انْتهى المشْركون عمّا همْ فيه من الشّرْك،وكفّوا عنْ قتال المسْلمين،فلا سبيل للْمسْلمين إلى قتالهمْ،لأنّ القتال إنّما شرع

---

[٢٢٣] - صحيح مسلم- المكنز [١٦ /٤٧١]٦٧٥١ وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٥ /٨٠٢](١١٨٨٨)

[٢٢٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٣٤)

لردْع الكفْر والظّلْم والفتْنة.والعدْوان لا يكون إلاّ علـــى مـــنْ ظلـــم نفْســـه بـــالكفْر والمعاصي،وتجاوز العدْل.[٢٢٥]

ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله،وأنه ليس المقصود به،سفك دماء الكفار،وأخـــذ أموالهم،ولكن المقصود به أن {يكون الدّين للّه} تعالى،فيظهر دين الله [تعالى]،على سائر الأديان،ويدفع كل ما يعارضه،من الشرك وغيره،وهو المراد بالفتنـــة،فإذا حصـــل هـــذا المقصود،فلا قتل ولا قتال،{فإن انْتهوْا} عن قتالكم عند المسجد الحرام {فلا عدْوان إلا على الظّالمين} أي:فليس عليهم منكم اعتداء،إلا من ظلم منهم،فإنه يستحق المعاقبة،بقدر ظلمه.[٢٢٦]

وقوله تعالى:«وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين للّه» أمر بمقاتلة من بقي علـــى شركه من مشركى مكة الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات،لأنه ما دام المشركون قـــائمين فالفتنة قائمة،والفتنة هى قتل للمسلمين،وعلى هذا فلا مهادنة مع المشركين «حتّـــى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين للّه»..«فإن انْتهوْا فلا عدْوان إلّا على الظّالمين» أي فإن انتـــهوا عماهم فيه من شرك ودخلوا فى دين الله،فقد دخلوا فى السلم،لا ينالهم أحد بسوء إلّا من نكص على عقبه أو دخل الإسلام ليكيد له ولأهله.[٢٢٧]

وغاية القتال هي ضمانة ألا يفتن الناس عن دين اللّه،وألا يصرفوا عنـــه بـــالقوة أو مـــا يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام،وتسلط عليهم فيه المغريات والمضلات والمفسدات.وذلك بأن يعز دين اللّه ويقوى جانبه،ويهابه أعداؤه،فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة،ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحـــق بـــه الأذى والفتنة..والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة وحتى تصبح الغلبة لدين اللّه والمنعة:« وقاتلوهمْ حتّـــى لا تكـــون فتْنـــةٌ ويكون الدّين للّه.فإن انْتهوْا فلا عدْوان إلّا على الظّالمين»..

---

[٢٢٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٢٦] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٩)

[٢٢٧] – التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١٣)

وإذا كان النص – عند نزوله – يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة،وهي التي كانت تفتن الناس،وتمنع أن يكون الدين للّه،فإن النص عام الدلالة،مستمر التوجيه.والجهاد ماض إلى يوم القيامة.ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين،وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى اللّه،والاستجابة لها عند الاقتناع،والاحتفاظ بها في أمان.والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة وتطلق الناس أحرارا من قهرها،يستمعون ويختارون ويهتدون إلى اللّه.

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة،بعد تفظيعها واعتبار ها أشد من القتل..هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام وينشئ مبدأ عظيما يعني في حقيقته ميلادا جديدا للإنسان على يد الإسلام.

ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته،وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة،فترجح كفة العقيدة.

كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء «الإنسان»..إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه،ويؤذون مسلما بسبب إسلامه.أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج اللّه..

وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم،وأن تقتلهم حيث وجدتهم «حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين للّه»..

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما.وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور..وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان..وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور،وفي أي شكل من الأشكال،مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام،فكان ميلادا جديدا للإنسان..

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم فلا عدوان عليهم – أي لا مناجزة لهم – لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين:«فإن انْتهوْا فلا عدْوان إلّا على الظّالمين»[228].

ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية.وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين.

ثم يبين حكم القتال في الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام:«الشّهْر الْحرام بالشّهْر الْحرام والْحرمات قصاصٌ.فمن اعْتدى عليْكمْ فاعْتدوا عليْه بمثْل ما اعْتدى عليْكمْ،واتّقوا اللّه،واعْلموا أنّ اللّه مع الْمتّقين»..

فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام.وقد جعل اللّه البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان.تصان فيها الدماء،والحرمات والأموال،ولا يمس فيها حي بسوء.فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها،فجزاؤه أن يحرم هو منها.والذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته،فالحرمات قصاص..

ومع هذا فإن إباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع في حدود لا يعتدونها.فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها:«فمن اعْتدى عليْكمْ فاعْتدوا عليْه بمثْل ما اعْتدى عليْكمْ»..

بلا تجاوز ولا مغالاة..والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم.وقد كانوا يعلمون – كما تقدم – أنهم إنما ينصرون بعون اللّه.فيذكرهم هنا بأن اللّه مع المتقين.بعد أمرهم بالتقوى..وفي هذا الضمان كل الضمان..[229]

----

[228] – نزل فيما بعد في سورة براءة،الأمر بقتال المشركين في كافة الجزيرة العربية حتى يقولوا:لا إله إلا اللّه ..وهذا هو التعديل الذي اطرد مع مقتضيات موقف الإسلام والجماعة المسلمة.لتخلص الجزيرة للإسلام.فلا يدع وراءه أعداء له وهو يواجه عداوات الروم والفرس خارج الجزيرة.(السيد رحمه الله)

[229] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤١٦)

وقال تعالى:{ وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين كلّه للّه فإن انتهوْا فإنّ اللّه بما يعْملون بصيرٌ} (٣٩) سورة الأنفال

يأمر الله تعالى المؤْمنين بأنْ يقاتلوا الشّرْك وأهْله حتّى لا يكون هناك منْ يسْتطيع فتْنة المؤْمنين،عنْ دينهمْ بالعذاب والإيذاء والتّهْديد،وحتّى يكون الدّين كلّه لله.فإذا انْتهى المشْركون عمّا همْ عليْه من الكفْر،وكفّوا عنْه (وإنْ لمْ تعْلموا بواطنهمْ) فكفّوا عنْهمْ،وكلوا بواطنهمْ إلى الله،فهو بصيرٌ بما يعْملون.[230]

أما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين،فقال:{ وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ } أي:شرك وصد عن سبيل اللّه،ويذعنوا لأحكام الإسلام،{ ويكون الدّين كلّه للّه } فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين،أن يدفع شرهم عن الدين،وأن يذب عن دين اللّه الذي خلق الخلق له،حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

{ فإن انْتهوْا } عن ما هم عليه من الظلم { فإنّ اللّه بما يعْملون بصيرٌ } لا تخفى عليه منهم خافية.

{ وإنْ تولّوْا } عن الطاعة وأوضعوا في الإضاعة { فاعْلموا أنّ اللّه موْلاكمْ نعْم الْموْلى } الذي يتولى عباده المؤمنين،ويوصل إليهم مصالحهم،وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية.{ ونعْم النّصير } الذي ينصرهم،فيدفع عنهم كيد الفجار،وتكالب الأشرار.

ومن كان اللّه مولاه وناصره فلا خوف عليه،ومن كان اللّه عليه فلا عزّ له ولا قائمة له.[231]

وقوله تعالى:«وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين كلّه للّه فإن انْتهوْا فإنّ اللّه بما يعْملون بصيرٌ».

هو أمر للمسلمين،وبيان لموقفهم الذي يقفونه من المشركين،وهو الجدّ فى قتالهم،وأخذهم بالبأساء والضراء حتى تنكسر شوكتهم،وتضعف قوتهم،فلا تكون لهم يد على

---

[230] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

[231] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٢١)

المؤمنين،ولا قوة على الوقوف فى سبيل الله،وصدّ الناس عنه،وفتنتـــهم فى دينـــهم،وحتى يكون الدين كله لله،لا شريك له مما يشرك به المشركون..

وهذا الأمر الموجه للمسلمين هو احتراس من أن يهادنوا المشـــركين،ويدعوا أمـــرهم إلى الله،ليقضى فيهم قضاءه الذي قضاه فى الظالمين من قبلهم.

فهذا القضاء وإن كان واقعا لا محالة من قبل الله بأهل المنكر والضلال،إلا أنه مطلوب من أولياء الله أن يعملوا له،وأن يأخذوا بالأسباب المنفّذة لقضاء الله النافذ،ولحكمه الـــذي لا يردّ..فذلك هو البلاء الذي ابتلى به المؤمنون،ليكون لإيماهم أثره وثمرته التي يحصّـــلونها منه،وينالون الجزاء الحسن عليه..

وقوله تعالى:«فإن انْتهوْا فإنّ اللّه بما يعْملون بصيرٌ» تأكيد لهذا الأمر الذي أمـــر الله بـــه المسلمين،من الجدّ فى جهاد المشركين،وأن الله مطلع على ما يكون منهم مـــن بـــلاء فى الاستجابة لهذا الأمر،وصدق فى الوفاء به،حتى يكون من المشركين انتهاء عـــن محاربـــة الله،بعد أن يضربهم المسلمون الضربة القاضية..

وقوله سبحانه:«وإنْ تولّوْا فاعْلموا أنّ اللّه موْلاكمْ نعْم الْموْلى ونعْم النّصير»..هو تطمين للمؤمنين،وتقوية لعزائمهم على مواجهة الكافرين،ولقائهم تحت راية القتال،إذا هم أصروا على ما هم فيه من كفر،ومن محادّة لله ولرسوله وللمؤمنين..فليثبت المؤمنون فى موقفهم هذا من الكافرين،وليقاتلوهم قتالا لا هوادة فيه،حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كلـــه لله،والله سبحانه وتعالى يتولى المؤمنين،ويمدّهم بنصره وتأييده،ومن كان الله مولاه وناصره فلن يهن أبدا،ولن يخذل أبدا.

وقوله تعالى:«نعْم الْموْلى ونعْم النّصير» إما أن يكون صـــفة لله سبحانه،وصـــف بها ذاته،وإما أن يكون مقولة للمؤمنين،يلقون بها هذا الفضل العظيم الذي فضل الله علـــيهم به،فيما آذنهم به فى قوله:«فاعلموا أن مولاكم» ويكون هذا تلقينا من الله لهم،ولســـان شكر يؤدون به لله بعض ما وجب عليهم لله،إزاء هذا العطاء الكريم الجزيل..

وإما أن يكون ذلك مقولة للوجود كله،نطق بها كل موجود،إذ سمـــع قـــول الله تعـــالى للمؤمنين:«فاعْلموا أنّ اللّه موْلاكمْ» فسبح الوجود كله بحمد الله،ليكون له نصيبه مـــن

تلك الولاية،التي تولى بها الله المؤمنين من عباده..«أولئك حزْب اللّه ألا إنّ حزْب اللّه هم الْمفْلحون»..فانضم الوجود كله إلى المؤمنين وشاركهم الاستماع إلى هـذا الخطـاب الكريم من رب كريم:«فاعْلموا أنّ اللّه موْلاكمْ» فقال الوجود كله:«نعْم الْموْلى ونعْـم النّصير»..[٢٣٢]

إنه القتال للّه،لا لأي هدف آخر من الأهداف الـتي عرفتـها البشـرية في حروبها الطويلة.القتال في سبيل اللّه.لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض،ولا في سبيل المغانم والمكاسب ولا في سبيل الأسواق والخامات ولا في سبيل تسويد طبقة علـى طبقـة أو جنس على جنس..إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهـاد في الإسلام،القتال لإعلاء كلمة اللّه في الأرض،وإقرار منهجه في الحياة،وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم،أو أن يجرفهم الضلال والفساد،وما عدا هذه فهي حرب غير مشـروعة في حكم الإسلام،وليس لمن يخوضها أجر عند اللّه ولا مقام.

ومع تحديد الهدف،تحديد المدى:«ولا تعْتدوا إنّ اللّه لا يحبّ الْمعْتدين»..والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطـرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة،كالنساء والأطفال والشـيوخ والعبـاد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين..كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شـرعها الإسلام،ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء..تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام،وتأباها تقوى الإسلام.

وهذه طائفة من أحاديث الرسول - ﷺ- ووصايا أصحابه،تكشف عن طبيعـة هـذه الآداب،التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

عن ابْن عمر - رضى الله عنهما - قال وجدت امْرأةٌ مقْتولةً فى بعْض مغازى رسول اللّه - ﷺ-،فنهى رسول اللّه - ﷺ- عنْ قتْل النّساء والصّبْيان[٢٣٣].

---

[٢٣٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦١٠)

[٢٣٣] - أخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠ /١٢٢٠](٨١٢٩) وصحيح البخارى- المكتر [١١ /٥٦]

عنْ أبِى هريْرة – رضى الله عنه – عن النّبىّ – ﷺ- قال « إذا قاتل أحـــدكمْ فلْيجْتنـــب الْوجْه ».(أخرجه الشيخان)[٢٣٤].

وعنْ أبِى هريْرة – رضى الله عنه – أنّه قال بعثنا رسول اللّه – ﷺ- فِى بعْثٍ فقال « إنْ وجدْتمْ فلانًا وفلانًا فأحْرقوهما بالنّار » ثمّ قال رسول اللّه – ﷺ- حين أردْنا الْخروج « إنّى أمرْتكمْ أنْ تحْرقوا فلانًا وفلانًا،وإنّ النّار لا يعذّب بها إلاّ اللّه،فإنْ وجدْتموهما فاقْتلوهما »[٢٣٥]..

عنْ عبْد الله بْن مسْعودٍ،قال:سمعْت رسول الله ﷺيقول:إنّ أعـــفّ النّـــاس قتْلـــةً أهْـــل الإيمان[٢٣٦].

وعن عدىّ بْن ثابتٍ سمعْت عبْد اللّه بْن يزيد الأنْصارىّ – وهو جدّه أبو أمّه – قال نهى النّبىّ – ﷺ- عن النّهْبى والْمثْلة.(أخرجه البخاري)[٢٣٧].

وعنْ عبيْد بْن تعْلى،أنّه قال:غزوْنا مع عبْد الرّحْمن بْن خالد بْن الْوليد،فأتي بأرْبعة أعْلاجٍ مع الْعدوّ،فأمر بهمْ فقتلوا صبْرًا بالنّبْل،فبلغ ذلك أبا أيّوب،فقال:سمعْـــت رســـول الله ﷺ ينْهى عنْ قتْل الصّبْر،والّذي نفْسي بيده،لوْ كانتْ دجاجةٌ ما صبرْتها فبلغ ذلـــك عبْـــد الرّحْمن بْن خالدٍ،فأعْتق أرْبع رقابٍ.(أخرجه أبو داود)[٢٣٨].

عنْ مسْلم بْن الْحارث بْن مسْلمٍ التّميميّ،عنْ أبيه،قال:بعثنا رسول الله ﷺفي ســـريّةٍ،فلمّا بلغْنا الْمغار،اسْتحْثثْت فرسي،فسبقْت أصْحابي،فتلقّاني الْحيّ بالرّنين،فقلْت:قولوا:لا إلـــه إلاّ اللّه تحرّزوا،فقالوها،فلامني أصْحابي،وقالوا:حرمْنا الْغنيمة بعْد أنْ ردّتْ بأيْـــدينا،فلمّا

---

[٢٣٤] - صحيح البخارى- المكتز [٩ /٢٩٣](٢٥٥٩) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٧ /١١٦٧](١٤١٠٠)

[٢٣٥] - صحيح البخارى- المكتز [١١ /٥٨](٣٠١٦) والمسند الجامع [١٨ /٨١](١٤٦٣٣)

[٢٣٦] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /٣٣٥](٥٩٩٤) صحيح

[٢٣٧] - صحيح البخارى- المكتز [٩ /١٥٦](٢٤٧٤)

[٢٣٨] - سنن أبي داود – المكتز [٣ /١٣] (٢٦٨٩) وصحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٢ /٤٢٤](٥٦١٠) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار الفكر [٩ /٦٤٤] وهو حسن والمتن المرفوع صحيح

الأعلاج:جمع العلج وهو الشديد القوى على العمل =قتل الصبر:القتل بصفحة السيف لا بشفرته.وفيه نوع من التعذيب بالموت البطيء ..وأعتق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أربع رقاب وهي كفارة القتل الخطأ.

قدمْنا على رسول الله ﷺ،أخْبروه بما صنعْت،فدعاني،فحسّن لي ما صنعْت،وقال:أمـــا إنّ اللّه قدْ كتب لك بكلّ إنْسانٍ منْهمْ كذا وكذا.[٢٣٩]

وعن مسْلم بْن الْحارث بْن مسْلمٍ التّميميّ،أنّ أباه حدّثه:أنّ رســـول الله ﷺأرْســـلهمْ في سريّة،قال فلمّا بلغْنا الْمغار،اسْتحْثثْت فرسي،فسبقْت أصْحابي،قال:واسْـــتقْبلْنا الْحـــيّ بالرّنين،فقلْـــت لهـــمْ:قولـــوا:لا إلــه إلّـــا الله تحْرزوا،فقالوها،وجـــاء أصْـــحابي فلاموني،وقالوا:حرمْتنا الْغنيمة بعْد أنْ بردتْ في أيْدينا،قال:فلمّا قفلْنا،ذكروا ذلك لرسول الله ﷺفدعاني،فحسّن ما صنعْت،وقال:" أما إنّ الله قدْ كتب لك منْ كلّ إنْسانٍ مـــنْهمْ كذا وكذا "،قال عبْد الرّحْمن فإذا نسيت ذلك،قال:ثمّ قال رسول الله ﷺ:" أمـــا إنّـــي سأكْتب لك كتابًا وأوصي بك منْ يكون بعْدي منْ أئمّة الْمسْلمين " ففعل،وختم عليْه ودفعه إليّ،قال:وقال لي:" إذا صلّيْت الْغداة فقلْ قبْل أنْ تكلّم أحدًا:اللهمّ أجرْني من النّار سبْع مرّاتٍ،فإنّك إنْ متّ منْ يوْمك ذلك كتب الله لك جوارًا من النّـــار،وإذا صـــلّيْت الْمغْرب،فقلْ قبْل أنْ تكلّم أحدًا:اللهمّ أجرْني من النّار سبْع مرّاتٍ،فإنّك إنْ مـــتّ مـــنْ ليْلتك،كتب الله لك جوازًا من النّار " قال فلمّا قبض الله تعالى رسوله،أتيْت أبـــا بكْـــرٍ بالْكتاب،ففضّه فقرأه،وأمر لي وختم عليْه،ثمّ أتيْت به عمر ففعل مثْل ذلك،ثمّ أتيْت بـــه عثْمان ففعل مثْل ذلك.قال مسْلم بْن حارثٍ فتوفّي الْحارث في خلافـــة عثْمان،فكـــان الْكتاب عنْدنا حتّى ولي عمر بْن عبْد الْعزيز،فكتب إلى عامل قبلنا أنْ أشْخصْ إليّ مسْلم بْن الْحارث بْن مسْلمٍ التّميْميّ بكتاب رسول الله ﷺالّذي كتبه لأبيه،قال:فشخصْت بـــه إليْه فقرأه،وأمر لي،وختم عليْه،ثمّ قال:أما إنّي لمْ أبْعثْ إليْك إلّا لتحدّثني بما حـــدّثك بـــه أبوك عنْ رسول الله ﷺ،قال:فحدّثْته بالْحديث على وجْهه "[٢٤٠]

وعنْ سعيد بْن الْمسيّب،أنّ أبا بكْرٍ رضي اللّه عنْه لمّا بعث الْجنود نحْو الشّام يزيد بْن أبي سفْيان،وعمْرو بْن الْعاص،وشرحْبيل ابْن حسنة،قال:لمّا ركبوا مشى أبو بكْرٍ مع أمـــراء

---

[٢٣٩] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [٥ /٣٦٦](٢٠٢٢) حسن وضعفه بعضهم لاضطراب في سنده أي مكان الإغارة على العدو.- تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم.

[٢٤٠] - معرفة الصحابة لأبي نعيم [٢ /٧٩٤](٢٠٩٨) وقد حسن الحافظ ابن حجر الحديث كما ذكره عنه ابن علان في الفتوحات الربانية وهو كما قال- هذا زيادة مني

جنوده يودّعهمْ حتّى بلغ ثنيّة الْوداع،فقالوا:يا خليفة رسول اللّه،أتمْشي ونحْن ركْبانٌ ؟ فقال:" إنّي أحْتسب خطاي هذه في سبيل اللّه ".ثمّ جعل يوصيهمْ،فقال:" أوصيكمْ بتقْوى اللّه،اغْزوا في سبيل اللّه فقاتلوا منْ كفر باللّه،فإنّ اللّه ناصرٌ دينه،ولا تغلّوا،ولا تغْدروا،ولا تجْبنوا،ولا تفْسدوا في الْأرْض،ولا تعْصوا ما تؤْمرون،فإذا لقيتم الْعدوّ من الْمشْركين إنْ شاء اللّه فادْعوهمْ إلى ثلاث خصال،فإنْ همْ أجابوك فاقْبلوا منْهمْ وكفّوا عنْهمْ،ادْعوهمْ إلى الْإسْلام،فإنْ همْ أجابوك فاقْبلوا منْهمْ وكفّوا عنْهمْ،ثمّ ادْعوهمْ إلى التّحوّل منْ دارهمْ إلى دار الْمهاجرين،فإنْ همْ فعلوا فأخْبروهمْ أنّ لهمْ مثْل ما للْمهاجرين وعليْهمْ ما على الْمهاجرين،وإنْ همْ دخلوا في الْإسْلام واخْتاروا دارهمْ على دار الْمهاجرين فأخْبروهمْ أنّهمْ كأعْراب الْمسْلمين،يجْري عليْهمْ حكْم اللّه الّذي فرض على الْمؤْمنين،وليْس لهمْ في الْفيْء والْغنائم شيْءٌ حتّى يجاهدوا مع الْمسْلمين،فإنْ همْ أبوْا أنْ يدْخلوا في الْإسْلام فادْعوهمْ إلى الْجزْية،فإنْ همْ فعلوا فاقْبلوا منْهمْ وكفّوا عنْهمْ،وإنْ همْ أبوْا فاسْتعينوا باللّه عليْهمْ فقاتلوهمْ إنْ شاء اللّه،ولا تغْرقنّ نخْلًا ولا تحْرقنّها،ولا تعْقروا بهيمةً،ولا شجرةً تثْمر،ولا تهْدموا بيْعةً،ولا تقْتلوا الْولْدان ولا الشّيوخ ولا النّساء،وستجدون أقْوامًا حبسوا أنْفسهمْ في الصّوامع فدعوهمْ وما حبسوا أنْفسهمْ له،وستجدون آخرين اتّخذ الشّيْطان في رءوسهمْ أفْحاصًا،فإذا وجدْتمْ أولئك فاضْربوا أعْناقهمْ إنْ شاء اللّه ".[٢٤١]

[٢٤١] - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [٩ /٨٥](١٨٥٩٢) ومُوَطَّأُ مَالِكٍ (٩٧٦) مرسلا حسن لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة =التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به = الخصال:جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة = الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب = أبى:امتنع ورفض =الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جزَت عن قتله،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

قَالَ أَبُو عُبَيْد:قَوْلُهُ:فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا،يَعْنِي مِنْ،دَارِ التَّعَرُّبِ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ،يَقُولُ:إِنْ لَمْ يُهَاجِرُوا،فَهَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرَهُ فِي الْفَيْءِ،أَنَّهُ لَمْ يَرَ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالْمُهَاجِرِينَ وَيُعِينُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيُجَامِعُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ حَقًّا ثُمَّ رَوَى النَّاسُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ شُرَكَاءُ ".الْأَمْوَالُ لِابْنِ زَنْجُوَيْهِ (٥٧٩)

وعنْ عبْد اللّه بْن عبيْدة،أنّ أبا بكْرٍ الصّدّيق،رضي اللّه عنْه لمّا أمّر على الْأجْناد:يزيد بْــن أبي سفْيان على جنْدٍ،وعمْرو بْن الْعاص على جنْدٍ،وشرحْبيل ابْن حسنة على جنْــدٍ،وأمّر خالد بْن الْوليد على جنْدٍ،ثمّ جعل يزيد على الْجماعة،وخرج معه يشيّعه ويوصيه،ويزيد راكبٌ،وأبو بكْرٍ يمْشي إلى جنْبه،فقال يزيد:يا خليفة رسول اللّه إمّا أنْ ترْكب،وإمّــا أنْ أنْزل وأمْشي معك،فقال:إنّي لسْت براكبٍ،ولسْت بتاركك أنْ تنْزل،إنّي أحْتسب هــذا الْخطْو في سبيل اللّه،يا يزيد إنّكمْ ستقْدمون أرْضًا يقدّم إليْكمْ فيها ألْوان الْأطْعمة،فسمّوا اللّه إذا أكلْتمْ،واحْمدوه إذا فرغْتمْ،يا يزيد،إنّكمْ ستلْقوْن قوْمًا قــدْ فحصــوا أوْســاط رءوسهمْ فهي كالْعصائب،ففلقوا هامهمْ بالسّيوف،وستمرّون علــى قــوْمٍ في صــوامع لهمْ،احْتبسوا أنْفسهمْ فيها،فدعْهمْ حتّى يميتهم اللّه فيها على ضلالتهمْ،يا يزيد لا تقْتــلْ صبيًّا،ولا امْرأةً،ولا صغيرًا،ولا تخرّبنّ عامرًا،ولا تعْقرنّ شجرًا مثْمرًا،ولا دابّةً عجْماء،ولا بقرةً،ولا شاةً إلّا لمأْكلة،ولا تحْرقنّ نخْلًا،ولا تغرّقنّه،ولا تغْللْ،ولا تجْبنْ "[٢٤٢]

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام وهذه هي آدابه فيها وهذه هي أهدافه منها..وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل:«وقاتلوا في سبيل اللّــه الّــذين يقــاتلونكمْ،ولا تعْتدوا،إنّ اللّه لا يحبّ الْمعْتدين»..

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا ينصرون بعددهم – فعددهم قليل – ولا ينصــرون بعدهم وعتادهم – فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم – إنمــا هــم ينصــرون بإيمــانهم وطاعتهم وعون اللّه لهم.فإذا هم تخلوا عن توجيه اللّه لهم وتوجيه رسول اللّــه – ﷺ– فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه.ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل..ولما فار الغضب برســول اللّه – ﷺ– فأمر بحرق فلان وفلان (رجلين من قريش) عاد فنهى عن حرقهما،لأنــه لا يحرق بالنار إلا اللّه[٢٤٣] ،فعنْ أبي هريْرة رضي اللّه عنْه،أنّه قال:بعثنا رســول اللّــه ﷺ في بعْثٍ فقال:«إنْ وجدْتمْ فلانًا وفلانًا فأحْرقوهما بالنّار»،ثمّ قال رسول اللّه ﷺ حين أردْنــا

[٢٤٢] – سُنَنُ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢٢٠٧) حسن لغيره – زيادة مني

[٢٤٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤١١)

الخروج:«إنّي أمرْتكمْ أنْ تحْرقوا فلانًا وفلانًا،وإنّ النّار لا يعــذّب بهـــا إلّـــا اللّـــه،فإنْ وجدْتموهما فاقْتلوهما» [٢٤٤].

إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض فيزعمون أنه فرض بالســـيف،في الوقت الذي قرر فيه:أن لا إكراه في الدين..أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يـــدفع عـــن الإسلام هذه التهمة وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد ويهـــون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه وانتشاره.

ويوحي إلى المسلمين – بطريق ملتوية ناعمة ماكرة – أن لا ضـــرورة اليـــوم أو غـــدا للاستعانة بهذه الأداة!

وذلك كله في صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الإسلام!.[٢٤٥].

وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملـــون في حقـــل واحـــد في حـــرب الإسلام،وتحريف منهجه،وقتل إيحاءاته الموحية في حس المسلمين،كي يأمنوا انبعاث هـــذا الروح،الذي لم يقفوا له مرة في ميدان! والذي أمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلـــوه بشتى الوسائل،وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية في كل مكان! وألقـــوا في خلـــد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضي الجهاد! إنما هي فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد..ومن ثم فلا داعي للجهاد! لقـــد انتضى الإسلام السيف،وناضل وجاهد في تاريخه الطويل.لا ليكره أحدا على الإســـلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد.

جاهد الإسلام أولا ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفـــل لهـــم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم.وقرر ذلك المبدأ العظيم الذي سلف تقريـــره في هذه السورة – في الجزء الثاني – «والْفتْنة أشدّ من الْقتْل»..فاعتبر الاعتداء على العقيـــدة والإيذاء بسببها،وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها.فالعقيدة أعظم قيمـــة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم.وإذا كان المؤمن مأذونا في القتال ليدفع عن حياته وعن

---

[٢٤٤] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٦)

[٢٤٥] – في مقدمة هؤلاء سيرت.و.أرنولد صاحب كتاب:«الدعوة إلى الإسلام» ترجمة الدكتور إبراهيم حسن وأخيه.(السيد رحمه الله)

ماله،فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه..وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون،ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون.يسامون الفتنة عن عقيدتهم،ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى.وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم،وفتنة أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ليرتدوا إلى الكثلكة،ما ترك اسبانيا اليوم ولا ظل فيها للإسلام! ولا للمذاهب المسيحية الأخرى ذاتها! كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم..وما يزال المسلمون يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية [٢٤٦] في أنحاء من الأرض شتى..وما يزال الجهاد مفروضا عليهم لرد الفتنة إن كانوا حقا مسلمين! وجاهد الإسلام ثانيا لتقرير حرية الدعوة – بعد تقرير حرية العقيدة – فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة،وبأرقى نظام لتطوير الحياة.جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها.فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر.ولا إكراه في الدين.ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند اللّه للناس كافة.وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا.ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا.فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة..

وما يزال هذا الهدف قائما،وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين!

---

[٢٤٦] – تراجع في كتاب «دراسات إسلامية» للمؤلف الفصول الخمسة بعنوان:«المسلمون متعصبون!!!» «دار الشروق».(السيد رحمه الله)

وجاهد الإسلام ثالثا ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه..وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة للّه الكبير المتعال ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها.فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس،وتستذلهم عن طريق التشريع.إنما هنالك رب واحد للناس جميعا هو الذي يشرع لهم على السواء،وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع،كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء.فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة اللّه،موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ.حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء،لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها،وهو مظهر الألوهية في حياة البشر،فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد! هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام.وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان،حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام،وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام،وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته.ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام،ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ.

جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه.وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر،والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية - بغير حق - ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه العداء.ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع في الأرض..ثم يدع الناس في ظله أحرارا في عقائدهم الخاصة.لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية.أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار.

وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار،يزاولونها وفق عقائدهم والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم،ويصون لهم حرماتهم،في حدود ذلك النظام.

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضا على المسلمين:«حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين للّه»..فلا تكون هناك ألوهة للعبيد في الأرض،ولا دينونة لغير اللّه[٢٤٧]..

لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة و لم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنما جاهد ليقيم نظاما آمنا يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعا،ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته.

وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم،واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم.وإقامة هذا النظام الصالح وحمايته.و لم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية،ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أخبث أعدائه أن يوحوا للمسلمين!..

لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة،ولا بد للإسلام من جهاد.فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود.

«لا إكْراه في الدّين»..نعم ولكن:«وأعدّوا لهمْ ما اسْتطعْتمْ منْ قوّةٍ ومنْ رباط الْخيْل ترْهبون به عدوّ اللّه وعدوّكمْ.وآخرين منْ دونهمْ لا تعْلمونهم اللّه يعْلمهمْ»..

وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام..وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم،وحقيقة تاريخهم فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع إنما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعا،وعلى نظم الأرض جميعا،وعلى مذاهب الأرض جميعا..ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من يحرمها منه،ويحول بينها وبينه.فهذا هو أعدى أعداء البشرية،الذي ينبغي أن تطارده البشرية لو رشدت وعقلت.وإلى أن ترشد البشرية وتعقل،يجب أن يطارده المؤمنون،الذين

[٢٤٧] - لزيادة الإيضاح في شأن الجهاد يراجع كتاب «الجهاد» للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي وكتاب:«السلام العالمي في الإسلام» للمؤلف.«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

اختارهم اللّه وحباهم بنعمة الإيمان،فذلك واجبهم لأنفسهم وللبشرية كلها،وهم مطالبون بهذا الواجب أمام اللّه..[248]

---

٥. إظهار الدين في الأرض:

قال تعالى:{هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْركون} (٣٣) سورة التوبة

الله تعالى هو الذي ارْسل رسوله محمّد ﷺ بكتابٍ هو القرْآن،كفل حفْظه حتّى آخر الزّمان،فيه الهدى ودين الحقّ،وسيظْهره الله على جميع الأدْيان السّابقة،لأنّه هو الدّين الصّحيح الذي جاء بالدّعْوة الصّحيحة (التي جاءتْ بها جميع الأدْيان السّابقة) وهي دعْوة التّوْحيد والإيمان بالله وحْده لا شريك له،فبدّل النّاس،وحرّفوا فيها،فجاء الإسْلام لتصْحيح ذلك،وليعيد لدعْوة التّوْحيد صفاءها وأصالتها ولوْ كره المشْركون.[249]

ولكن الله سبحانه وتعالى بالغ أمره،ومنجز وعده الذي وعده نبيّه فى قوله سبحانه:«هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْركون» (٩:الصف) وهذا ما يشير إليه قوله تعالى هنا:«ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره ولوْ كره الْكافرون»..فهذا وعد مؤكّد من الله سبحانه،بأن يتمّ نوره،أي دينه..وأن يبلغ به غاية الكمال والتمام..وذلك يكون- وهو كائن لا شك فيه- حين يصبح الإسلام دين الإنسانية كلّها،يطلع عليها طلوع الشمس،فيغمر نوره كل صقع،ويتسرب شعاعه إلى كل قلب..!

وانظر إلى قوله سبحانه.«ويأْبى اللّه»،وإلى قوة الحقّ سبحانه وتعالى القائمة على نصرة دين الله،والتي تأبى أن يقف فى وجه هذا الدين ما يحجب ضوءه،أو يضلّ الناس عنه..«ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره» وتمام النور وكماله،هو فى أن يبسط سلطانه على الوجود الإنسانى كله..«ولوْ كره الْكافرون» وذلك مما يسوء المشركين وأهل

---

[248] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥٤٣)

[249] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٩، بترقيم الشاملة آليا)

الضلال،وإنه لا حساب لهم،ولا لما يحلّ بهم من سوء..فلترغم أنوفهم،ولتأكـــل الحســـرة قلوبهم! وهذا المعنى الذي أخذناه من الآية الكريمة،من إطلاق نور الله على الإسلام،يشهد له قوله سبحانه فى سورة الصف:«وإذْ قال عيسى ابْن مرْيم يا بني إسْرائيل إنّي رسول اللّه إلَيْكمْ مصدّقاً لما بيْن يديّ من التّوْراة ومبشّراً برسولٍ يأْتي منْ بعْدي اسْمه أحْمد فلمّــا جاءهمْ بالْبيّنات قالوا هذا سحْرٌ مبينٌ ومنْ أظْلم ممّن افْترى على اللّه الْكذب وهو يدْعى إلى الْإسْلام واللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين يريدون ليطْفؤا نور اللّه بأفْواههمْ واللّه متمّ نوره ولوْ كره الْكافرون هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّـــه ولوْ كره الْمشْركون»(٦- ٩:الصف) فهذه الآيات تكشف فى وضوح صـــريح،عن أن نور الله هو الإسلام،الذي أرسل الله به رسوله محمدا:«هو الّذي أرْسل رسوله بالْهـــدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه»..وإن هذا الدين سيظهر على كل دين،وينسخ كل معتقد! إنه نور الله،وإنه لدين الله..«واللّه متمّ نوره ولوْ كره الْكافرون».

ويلاحظ أن قوله تعالى:«ولوْ كره الْكافرون» قد جاء فى سورة التوبة..والكافرون هـــم من لم يكونوا على دين أصلا،أو كانوا على دين ولكنـــهم لا يؤمنـــون بـــالله إيمانـــا صحيحا،وهو ما عليه أهل الكتاب،الذين وصفهم الله سبحانه بقوله:«ولا يدينون ديـــن الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب»..والمشركون هم الذين يدينون بدين يجمع بـــين الإيمـــان بالله،والإيمان بشركاء مع الله..

والكافرون والمشركون هم فى مجموعهم لا يؤمنون بالله،ولا يدينون دين الحق،وهو الدين الذي جاء به الإسلام على تمامه وكماله..

فإذا تحقق وعد الله بإتمام دينه- وهو متحقق حتما- وذلك على كره من غـــير المـــؤمنين جميعا،كان معنى هذا أن الإسلام سيصبح يوما ما دين الإنســـانية كلـــها..ولـــو كـــره الكافرون والمشركون.

وهنا شبهتان قد تندفعان فى صدور أولئك الذين يأخذون الأمـــور بمـــا يلـــوح علـــى ظاهرها،دون أن ينفذ نظرهم إلى ما وراء هذا الظاهر من حق وصدق..

والشبهة الأولى:هى ما يبدو على ظاهر الحياة اليوم من انكماش ظلّ الــدين عمومــا فى النفوس،واستيلاء الإلحاد على مواقع الإيمان عند كثير من الشعوب والأفراد..

وهذا يعنى بظاهر واقعه،أن عصر الإيمان قد ولّى،وأن الناس فى طريقهم إلى إيمان آخر غير هذا الإيمان المستند إلى ما وراء المادة..إيمان بالطبيعة وبالحياة فى صورها المادية المختلفــة وما تولده منها العلوم والفنون..وهذا يعنى أيضا أنه لا الإسلام ولا غير الإســلام مــن الأديان الأخرى،سيبقى على ما هو عليه الآن،فضلا عن أن يمتد ظله،ويقوى ســلطانه!

ونقول:إن هذه الظاهرة،هى مقدمة طبيعية لإقامة الإنسانية على دين صحيح،يتجاوب مع العقل ومنطقه،ويدخل إلى عقول الناس كما تدخل الحقائق العلمية.

فالعقل الحديث الذي بعد عن الدّين،إنما بعد عن تلك المعتقدات التي لا تثبت لأدنى نظر ينظر به إليها،ثم يفرض عليه- مع هذا- أن يقبلها،وأن يتعامل معها،لأنه لا بد له من دين يعيش به،ويحيا معه..

فإذا وقف العقل من تلك المعتقدات،هذا الموقف،وإذا أبى أن يخضــع خضــوعا أعمــى لسلطانها- فذلك حق مشروع له،وإلّا فما كان لهذا العقل الذي ميّز الله الإنسان به عــن عالم الحيوان،وظيفة يؤديها للإنسان،أو عمل يعمله فى هدايته،وكشف معــالم الطريــق له،وخاصة فى أهم شأن حيوى من شئونه،وهو ما يمسّ الحياة الروحية منه.

فليس إذن هذا الموقف المنحرف الذي يقفه العقل العصرى من الدين- ليس هذا الموقف عن آفة فى هذا العقل،أو عن استغناء منه عن الدين..وإنما ذلك،لهذا الخلاف البعيد الذي بينه وبين الدّين الذي ينظر فيه،ويدعى إلى الإيمان به.

ولا تحسبنّ أن هذا العقل «العصرى» الذي بعد عن الدين هذا البعد- قد اطمأنّ إلى تلك الحياة التي يحياها بلا دين..

وكلّا،فالإنسان متديّن بطبعه،والدين مطلب من مطالب الإنسان،على أي مستوى مــن مستويات الإنسانية،كان عقله،وكان علمه..!

فالإنسان البدائى،وسقراط،وأفلاطون،وأرسطو،والفارابي،وابن سيناء،وابن رشد،هم سواء فى الحاجة إلى الدين،وإلى تصور المعتقد الديني،الذي يرضيهم،ويغذّى عاطفتــهم،ويروى

الجدب الروحي الذي يجده الإنسان– أي إنسان– إذا هو بات ليلة أو بعض ليلة على غير دين! والملحدون الذين تعجّ بهم الدنيا فى الغرب والشرق،هم أكثر الناس ظمأ إلى الدين،وتطلعا إليه،وبحثا عنه،ووسواسا به.

وليست هذه المذاهب التي يعيش فيها الماديون،من طبيعية،ووجودية،وغيرها،إلا سعيا وراء الدين،وإلا ملأ لهذا الفراغ الديني الذي يجدونه فى كيانهم،ولا يجدون الدين الحقّ الذي يملؤه! وهم فى هذا معذورون..وإلا فماذا يمنع الجائع الذي لا يجد الطعام الطيب الذي يسد جوعه،إذا هو مد يده إلى الخبيث الذي تعافه النفوس من الطعام وتستقذره؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء! والشبهة الثانية،هى:هل الدين الإسلامى دين يحمل فى كيانه من الحقائق ما يتقبله العقل «العصرى»،ويجد فيه شيئا يمسك به،ويقيمه على منطقه؟

وكيف تدّعى للإسلام هذه الدعوى،وهذه ثمراته ظاهرة فى أهله الذين يدينون به،وهى ثمرات معطوبة،لا تشتهيها نفس،ولا يستريح إليها نظر!! فحال المسلمين– فى أفرادهم وجماعاتهم وأممهم– فى المستوي الذي لا يرضى أحد من الشعوب المتقدمة أن يكون عليه،من الفقر والضعف،فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا..فكيف يكون للإسلام وجه يطلع به على الحياة العصرية،ويدعو أهلها إليه؟

والحق أن الذي ينظر إلى الإسلام من خلال أهله،ويأخذه بحسابهم،يفرّ من الإسلام،ويصرف وجهه عنه،إن لم يكن هناك طريق آخر يصله بالإسلام،وبمبادئه اتصالا مباشرا،لا يمرّ به على طريق يطلع منه على العالم الإسلامى وأحوال المسلمين..اليوم!.

إن الدين بأهله..

ولقد صغرت نفوسنا– نحن المسلمين– وضمرت ذاتيتنا،فصغر فيها كل معنى كريم،وضمر فيها كل مثل فاضل.

إن النفوس المريضة تتغير فيها حقائق الأشياء،كما تتغير حقائق المرئيات وصورها فى العين المريضة،وكما تنحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم..

والواقع أننا قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع،أفسدت حياتنا،وأنزلتنا منازل الهون فى دنيا الناس..فاستعمرت أوطاننا بالدخلاء،وصار إلى غيرنا تدبير شئوننا،وتوجيه

حياتنا..وكان من خداع المستعمر ومكره بنا،وكيده لنا،أن جعل من همّه الأول،إفساد عقيدتنا،وعزلنا عن ديننا،وخلق جفوة بيننا وبينه..إذ كان يعلم إن الدين هو الذي يقف عقبة فى سبيل إماتة مشاعر الحياة الإنسانية الكريمة فى الشعوب التي يحتلّها،وأنه ما دام للدين الإسلامى سلطان على النفوس،وتحكك بها،فإن الاستعمار لن يبلغ الغاية التي يريدها من استسلام الناس استسلاما مطلقا له،يتمكن به من تضييع معالمهم،ومسخ إنسانيتهم،وتحويلهم إلى دمّى تتحرك حسب مشيئته،وتبع إشارته..

ومن هنا كانت حرب الاستعمار للدين الإسلامى فى نفوس أهله،وفى تصويره لنا بصورة الداء الذي أصابنا فى الصميم من حياتنا،فصار بنا إلى ما نحن فيه،من ضعف وفقر وتخلّف،وإنه لولا تمسكنا به،لما كانت تلك حالنا،ولما قامت علينا تلك الوصاية القاهرة الظالمة من الأمم التي استولت على مواطن الإسلام..هكذا ألقى الاستعمار إلينا هذا الضلال المسموم،فتلقّاه كثير منّا وكأنه نصيحة ناصح أمين،وتذكرة طبيب حاذق لمريض يشفق عليه،ويلتمس الدواء لعلته القاتلة!.

ولقد عمل الاستعمار جاهدا على أن يمكّن لهذا الضلال من نفوسنا،وأن يغرى به الشباب،خاصة،بما أذاع بأساليبه وصنائعه من مفتريات على الإسلام،وهجم عليه،وازدراء لأهله،واستخفاف بمكانهم فى الحياة،وحرمانهم من كل مكان كريم فيها..

بل،وأكثر من هذا..فلقد أرانا الاستعمار صورة عملية تعيش بيننا،وتشهد لما يحدّثنا به عن الإسلام،وعن جنايته على المسلمين..!

فالاستعمار،إذ وضع يده على أوطان الإسلام كلّها،ترك فى وسط العالم الإسلامى،بلادا غير مسلمة- كالحبشة مثلا- دون أن يمدّ إليها يدا،ليرى المسلمين من ذلك أن دينهم هو الذي جعل أوطانهم- دون سائر الأوطان- على هذه الحالة من الضعف،الذي أغرى المستعمرين بهم،ومكّن له منهم،وأقامه قيّما عليهم،حتى يرشدوا ويبلغوا مبلغ الرجال..ولن يكون لهم ذلك إلا إذا تحللوا من هذا الدين،وتركوه وراءهم ظهريّا.ولكن الإسلام شيء..وأهله شيء آخر،فى هذا العصر الأقل..

وأنه إذا كانت قد عرضت للمسلمين عوارض الضعف والوهن فى فترة من فترات تاريخهم الطويل،فليس من الإنصاف للإسلام أن يقام ميزانه على حساب تلك الفترة العارضة..

وإن على الذي ينشد الحق للحق،أن ينظر إلى الإسلام أولا وقبل كل شيء..

فى مبادئه،وأحكامه،وفى تصوره للألوهية،وللحياة الآخرة،وفى دعوته الأخلاقية لبناء الكيان الإنسانى،وصلته بالمجتمع الإنسانىّ وبالحياة..فإن وجد نظاما وضعيا أو دينيا عرفته الحياة،قديما أو حديثا،فى سياسة الأمم والشعوب،وفى إقامة موازين العدل بين الناس،وفى تنظيم العلاقات بينهم فى الحرب والسلم- إن وجد نظاما وضيعا أو دينيا يقارب نظام الإسلام،فى اعتداله وتوازنه،وتواقفه مع متطلبات الناس وواقع الحياة،فليقل فى الإسلام ما يقول،وليرمه بالسّهم القاتل،وهو أنه ليس من عند الله،إذ لا يكون من عند الله شيء يكون فيه خلل أو اضطراب..!

ثم إن من ينشد الحقّ للحق،وينظر إلى الإسلام نظرا مباشرا،ينبغى ألّا يغفل عن تلك الفترة المشرقة من تاريخ المسلمين،يوم كان الإسلام قائد حياهم،وراية دولتهم،ودستورهم العامل فى حياهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية،فذلك من شأنه أن يعطى الإسلام فرصته،ليقيم بين عينى الناظر إليه،مجتمعا بشريا لم تعرف الحياة مثيلا له،فى ماضيها وحاضرها..مجتمعا ملأ يديه من طيبات الحياة فى أصفى مواردها،وأكرم منازلها،دون أن ينسى نصيبه من معطيات الروح..فكانت قدمه على الأرض،ورأسه فى السماء! والسؤال الذي نسأله هنا..هو:

إذا كانت بعض الأديان- بما دخل عليها من تبديل وتحريف- قد فضحها العلم الحديث،وانكشف للمتدينين بها ما تلبس بها من أوهام وخرافات..

فهل وقع الإسلام تحت هذا الحكم الذي أصدره العلم الحديث على هذه الأديان؟

وهل امتحن الإسلام ومحّصت حقائقه على ضوء العلم،وفى مخابير الحياة،ثم ظهر منه ما لا يرضاه العلم وما لا تقبله الحياة؟

إن الإسلام– وثوقا منه بما ضمّ عليه من حق وخير– ليفتح ذراعيه للعلم الحديث،ويرحّب به كل الترحيب،ويسعد السعادة كلها بلقاء العقول الناضجة المستنيرة له،بكل ما وضعه العلم بين يديها من سائل التمييز بين الحق والباطل،والنافع والضار،والسليم والسقيم..

فتلك هى فرصة الإسلام التي يظهر فيها كرم معدنه،وتتجلّى فيها عظمة حقائقه،ويسفر بها وجهه المشرق الكريم..

إن هذا العصر– عصر العلم والشك..عصر الامتحان لكل شيء..

عصر الإلحاد وغربلة الأديان– هو عصر الإسلام،وهو اللسان المجدّد لدعوته،حيث يجلّى حقائق هذا الدين،ويكشف عن الخير الكثير المخبوء للناس فيه..

ولا يريد الإسلام،ولا نريد له أن يتلقّى الناس دعوته قضية مسلّمة،بل إن ذلك لتأباه طبيعته،التي تدعو العقل دائما،وتأنس بصحبته،وتسعد بالحديث إليه،والاستماع له..

فالذى يريده الإسلام،ونريده له،هو أن يضع العلماء والفلاسفة والمفكرون هذه العقيدة موضع الشك أو الإنكار– إن شاءوا– ثم ليعاملوها معاملة القضايا التي ينكرونها أو يتشككون فيها،وليسلطوا عليها نظراتهم باحثة فاحصة،ثم ليقلّبوها فى أيديهم ظهرا لبطن،وبطنا لظهر،وليمتحنوها بكل ما فتح به عليهم العلم،من أساليب الامتحان..ثم ليحكموا بعد هذا على الإسلام،بما يظهر لهم على محكّ الفحص والاختبار..وإن الإسلام ليتقبّل هذا الحكم فى غبطة ورضى،لأنه لن يكون إلا شهادة بيّنة الحجة،ساطعة البرهان،على أن هذا الدين هو دين الحق،دين الله،الذي أراده لخير الإنسانية وإسعادها.

إن العلم الحديث هو فرصة الإسلام،التي تتجلّى فيها معجزته،من جوانبها العلمية،والسياسية،والاجتماعية والاقتصادية،فيرى العقل الحديث منها أنه أمام معجزة قاهرة متحدّية،لا يملك إلا التسليم لها،والسجود بين يديها..تماما كما تجلّت معجزته البيانية للأمة العربية،يوم كان سلطان البيان هو الذي يحكم هذه الأمة،ويستولى على مواطن الإدراك والشعور منها..فآمنت به،وسجدت بين يديه..

وهذا هو كتاب الإسلام،وتلك هى حجته القائمة،ودستوره المسطور فى القرآن الكريم:

إنه يقدّم نفسه لكل من يريد النظر فيه،والتعرف إليــه..غــير مســتند إلى تأويــل أو تفسير..فلسانه أفصح من كل لسان،وبيانه أوضح من كل بيان.

فالذين يعرفون العربية،يعرفون طريقهم إليه فى غير عناء،ويضعون أيديهم على حقائقه من غير معاناة..

والذين لا يعرفون العربيــة،يمكن أن تتــرجم لهــم حقائقــه،كما تتــرجم الدســاتير القانونية،والحقائق العلمية..ولا عليهم إن فاتهم إعجاز الكلمــة،ومعجزة البيــان..فــإن الحقائق التي تصل إليهم من خلال الترجمة،كافية فى الكشف عن وجــوه أخــرى مــن الإعجاز،ممثلة فى محكم أحكامه،وروعة حقائقه،وخلود مقرراته..

والإسلام- فى يسره،وسماحته،ومواءمته للفطرة الإنسانية- قريب من كل نفس،واضــح لكل ذى نظر،واقع فى فهم كل ذى فهم..تلتقى عنده عقول المتعلمين والعلمــاء،وتجتمع عليه أنظار العامة والفلاسفة،بحيث يجد فيه كل عقل ما يغنيه ويرضيه،ويأخذ منه كل نظر ما يرشده ويسعده..هكذا دائما آيات الله المبثوثة فى هذا الوجود،ممّا يمسك على النــاس حياتهم،ويحفظ وجودهم،لا تقصر عنها يد،ولا يستأثر بها إنسان دون إنسان،أو تختص بها جماعــة دون جماعــة،أو أمــة دون أمــة..إنهــا مــن الله،ولعبــاد الله..كالمــاء والهواء،والشمس،والقمر،والنجوم..وإن كان لأحد أو لجماعة أو أمة نصــيب أوفــر،أو حظ أعظم،فهو مما زاد الحاجة التي لا تتطلبها ضرورات الحياة،وإن كان فيها متعة فــوق متعة،ورضى فوق رضى..فصاحب النظر الحديد يرى من جمال الوجود وروائع آياته ما لا يراه صاحب النظر الكليل،وصاحب الشمّ السليم،يجد من طيب الزهر وعبيره،مــا لا يجده المزكوم..

ومثل هذا تماما،موقف الناس جميعا أمام القرآن الكريم،وما تحمل سوره مــن آيــات الله البينات..الناس كلهم بين يديه- على اختلاف حظوظهم من العلم والمعرفة- على مائدة طيبة،طعامها هنىء لكل عقل،وشرابها مرىء سائغ لكل قلب..من طعم منــها لا يجــد الجوع العقلي أبدا،ومن روى منها لا يعرف الظمأ الروحي أبدا..

وتلك هى معجزة القرآن القائمة على الناس أبد الدهر،وتلك هى حجة الله على من أخلى عقله وقلبه من الدين،أو دان بغير دين الحق،دين الله،الذي ارتضاه لعباده..كما يقول الحق جلّ وعلا:«ومنْ يبْتغ غيْر الْإسْلام ديناً فلنْ يقْبل منْه وهو في الْآخرة من الْخاسرين» وكما يقول سبحانه:«الْيوْم أكْملْت لكمْ دينكمْ وأتْممْت عليْكمْ نعْمتي ورضيت لكم الْإسْلام ديناً».

إن الأيام ستثبت صدق هذه الدعوى التي ندعيها لعالميّة الإسلام،لأننا لا نقيم هذه الدعوى على عاطفة دينية نحو الدّين الذي ندين به،وإنما نقيمها على ما نستشفه من كلمات الله،بل على ما تكاد تصرح به كلمات الله،لمن أصغى إليها بأذن واعية،والتفت نحوها بقلب سليم،ونظر فيها بعقل متحرر من التعصب والهوى.

وإنى لأدعوك دعوة مجدّدة إلى أن تتلو قوله تعالى:«اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْباباً منْ دون اللّه والْمسيح ابْن مرْيم وما أمروا إلّا ليعْبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبْحانه عمّا يشْركون يريدون أنْ يطْفؤا نور اللّه بأفْواههمْ ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره ولوْ كره الْكافرون هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْركون» ثم صل هذا بقوله سبحانه:«ومنْ أظْلم ممّن افْترى على اللّه الْكذب وهو يدْعى إلى الْإسْلام واللّه لا يهْدي الْقوْم الظّالمين يريدون ليطْفؤا نور اللّه بأفْواههمْ واللّه متمّ نوره ولوْ كره الْكافرون هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْركون» (٧- ٩:الصف) اتل هذه الآيات،ولا تنظر فيما حدثتك به عن بعض مفاهيمها،وأقم لنفسك فهما خاصّا،معتمدا فيه على النظر المباشر فى قسمات وجهها السماوي الوضيء،فإنك ستجد ملء مشاعرك يقينا بأنك أمام معجزة من معجزات الكتاب الكريم،تكشف لك عن مستقبل الإسلام،وتشير إلى يوم قريب فى دورة الزمن،تصبح فيه الإنسانية كلها وقد دانت بهذا الدين،ورضيت ما ارتضاه الله لها فى قوله سبحانه:«ورضيت لكم الْإسْلام ديناً».

هذا،وقد استظهر بعض العلماء المشتغلين بالدراسات الإسلامية -استظهر من مسيرة الإسلام فى فلك النبوة،والذي كانت دورته فيها ثلاثا وعشرين سنة- أن للإسلام دورة

فى فلك خارج فلك النبوّة،أشبه بهذه الدورة،مدتها ثلاثة وعشرون قرنا،أي أن كل سـنة من عصر النبوّة،تمثل قرنا كاملا فى تلك الدورة الجديدة.

كما استظهر أيضا،أن الثلاثة عشر عاما الأولى التي عاشتها الدعوة الإسلامية فى دائرتها الضيقة،وفى مواجهة الكيد لها،والمكر بها،والتضييق على أتباعها،قبل الهجرة النبوية- هذه المدة تمثل الثلاثة عشر قرنا التي انسلخت بعد عصر النبوة..والتي تحرك فيها الإسلام تحركات محدودة خلال هذه الدورة،أشبه بما كان له من تحركات فى تلك الفترة،بالهجرة إلى الحبشة،وإلى المدينة قبل الهجرة النبوية..وأن الإسلام بعد هذه القرون الثلاثة عشر،التي مضت،سينطلق من محبسه،كما انطلقت دعوته بعد الهجرة،وستكون له فتوحات فى آفاق الأرض كلها،كما كانت له فتوحاته فى الجزيرة العربية،التي دانت كلها بدين الإسلام،قبل أن يلحق النبيّ بالرفيق الأعلى،وقد تحقق له ما وعده الله سبحانه وتعالى به،فى قوله جلّ شأنه:«إذا جاء نصْر اللّه والْفتْح ورأيْت النّاس يدْخلون في دين اللّه أفْواجاً فسبّحْ بحمْد ربّك واسْتغْفرْه إنّه كان توّاباً..»

فالقرون العشرة المقبلة- كما استظهر هذا العالم العليم- هى انطلاقة جديدة للإسلام،أشبه بانطلاقته التي كانت له بعد الهجرة فى سنواتها العشر..وستكون هذه القرون العشرة،كما كانت تلك السنوات العشر،تمكينا للإسلام،وتثبيتا لقواعده،وامتدادا لدولته،حتى تدين به الجزيرة الأرضية جميعها،كما دانت له الجزيرة العربية كلها من قبل..«للّه الْأمْر منْ قبْل ومنْ بعْد ويوْمئذٍ يفْرح الْمؤْمنون بنصْر اللّه ينْصر منْ يشاء وهو الْعزيز الرّحيم وعْد اللّه لا يخْلف اللّه وعْده ولكنّ أكْثر النّاس لا يعْلمون»

أما بعد هذه القرون العشرة،فقد تبدأ دورة جديدة،للحياة الإنسانية كلها،أو قد ينتهى عمر الإنسان على هذه الأرض..وعلم ذلك عند علام الغيوب.[٢٥٠]

بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال:{هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى} الذي هو العلم النافع {ودين الْحقّ} الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمدا ﷺ مشتملا على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله،وفي

[٢٥٠] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٤٥)

أحكامه وأخباره،والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب،والأرواح والأبدان مـــن إخـــلاص الدين لله وحده،ومحبة الله وعبادته،والأمر بمكارم الأخلاق ومحاســـن الشـــيم،والأعمال الصالحة والآداب النافعة،والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمـــال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.فأرسله الله بالهدى ودين الحق {ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْــركون} أي:ليعليـــه علـــى ســـائر الأديـــان بالحجـــة والبرهان،والسيف والسنان،وإن كره المشـــركون ذلـــك،وبغوا لـــه الغوائـــل،ومكروا مكرهم،فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه،فوعد الله لا بد أن ينجزه،وما ضمنه لا بـــد أن يقوم به.[251]

وقال تعالى:{هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الـــدّين كلّـــه وكفى باللّه شهيدًا} (٢٨) سورة الفتح

والله تعالى هو الذي أرْسل رسوله بالهدى ودين الإسْلام،ليجْعل الإسْلام – وهـــو ديـــن الحقّ – ظاهراً على جميع الأدْيان في الأرْض،وقدْ وعد رسوله بدخول المسْجد الحرام مع أصْحابه،وهمْ آمنون،فحقق الله ذلك الوعْد،وسيحقق وعْده لرسوله بأنّه تعالى ســـيظْهر الإسْلام على سائر الأدْيان،وهو تعالى شاهدٌ على ذلك،ولنْ يخْلف الله وعْده أبداً.[252]

أي الذي جعل من دون ذلك فتحا قريبا،هو الله سبحانه،الذي أرسل رســـوله بالهـــدى ودين الحق،ليكون على يديه تبليغ هذا الدين،الذي سيجعله الله فوق كلّ ديـــن..وهـــذا وعد من الله سبحانه،وكفى بالله شهيدا على هذا الوعد الذي لن يخلف أبدا..[253]

{هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى} الذي هو العلم النافع،الذي يهدي من الضلالة،ويبين طرق الخير والشر.{ودين الْحقّ} أي:الدين الموصوف بالحق،وهو العـــدل والإحســـان والرحمة.وهو كل عمل صالح مـــزك للقلـــوب،مطهر للنفـــوس،مرب للأخلاق،معـــل

---

[251] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٥)

[252] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

[253] – التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٢٨)

للأقدار.{ليظْهره} بما بعثه الله به {على الدّين كلّه} بالحجة والبرهــان،ويكون داعيــا لإخضاعهم بالسيف والسنان.[٢٥٤]

فلقد ظهر دين الحق،لا في الجزيرة وحدها،بل ظهر في المعمور من الأرض كلــها قبــل مضي نصف قرن من الزمان.ظهر في امبراطورية كسرى كلها،وفي قســم كــبير مــن امبراطورية قيصر،وظهر في الهند وفي الصين،ثم في جنوب آسيا في الملايــو وغيرهــا،وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)..وكان هذا هو معظم المعمــور مــن الأرض في القــرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله – حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كــبير من الأرض التي فتحها،وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأبيض.وانحســار قــوة أهلــه في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله،من حيث هو دين.فهــو الــدين القــوي بذاته،القوي بطبيعته،الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجــات العقــل والروح،وحاجات العمران والتقدم،وحاجات البيئات المتنوعة،من ساكني الأكــواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام،ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة،وقدرته على قيادة البشرية قيــادة رشــيدة،وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..«وكفى باللّه شهيداً»..

فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعــد البعثــة المحمدية.ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة وما يزال هــذا الــدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته.بل إنه هــو الــدين الوحيــد البــاقي قــادرا علــى العمل،والقيادة،في جميع الأحوال.ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يــدركون

---

[٢٥٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٩٥)

هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها،ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب![255]

وقال تعالى:{هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه ولوْ كره الْمشْركون} (٩) سورة الصف

ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي،الحسي والمعنوي،فقال:{ هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ } أي:بالعلم النافع والعمل الصالح.بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته،ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق،ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.{ ودين الْحقّ } أي:الدين الذي يدان به،ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق،لا نقص فيه،ولا خلل يعتريه،بل أوامره غذاء القلوب والأرواح،وراحة الأبدان،وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق،أكبر دليل وبرهان على صدقه،وهو برهان باق ما بقي الدهر،كلما ازداد العاقل تفكرا،ازداد به فرحا وتبصرا.{ ليظْهره على الدّين كلّه } أي:ليعليه على سائر الأديان،بالحجة والبرهان،ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان،فأما نفس الدين،فهذا الوصف ملازم له في كل وقت،فلا يمكن أن يغالبه مغالب،أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه،وصار له الظهور والقهر،وأما المنتسبون إليه،فإنهم إذا قاموا به،واستناروا بنوره،واهتدوا بهديه،في مصالح دينهم ودنياهم،فكذلك لا يقوم لهم أحد،ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان،وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك،وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم،ويعرف هذا،من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.[256]

---

[255] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٦٥)

[256] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٥٩)

أي أن الله سبحانه وتعالى،هو الذي أرسل رسوله «محمدا» بالهدى،ودين الحق،ليظهر هذا الدين،ويعليه على الدين كله،وهو ما سبقه من أديان،ولو كره المشركون هذا الظهـــور لدين الله..

وفى هذه الآية وعد من الله سبحانه وتعالى بنصر هذا الدين،وبسط سلطانه علـــى كـــل دين،لأنه الحق،الذي بلغ بالدين غاية كماله وتمامه..إنه نور الله،والله متم نوره..[٢٥٧]

إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق،وعبادة أرباب من دون اللّه.وعدم الإيمان باللّه واليوم الآخر - وفق المفهوم الصحيح للإيمان باللّه واليوم الآخر - إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ويريدون إطفاء نور اللّه في الأرض المتمثـــل في هذا الدين،وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض،وفي المنهج الذي يصوغ على وفقـــه حياة البشر..

« يريدون أنْ يطْفؤا نور اللّه بأفْواههمْ»..فهم محاربون لنور اللّه.سواء بما يطلقونه مـــن أكاذيب ودسائس وفتن أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هـــذا الـــدين وأهله،والوقوف سدا في وجهه - كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وهذا التقرير - وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هو كذلك يصـــور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور اللّه المتمثل في دينه الحق الذي يهدي النـــاس بنور اللّه.

«ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره ولوْ كره الْكافرون»..وهو الوعد الحق من اللّه،الدال علـــى سنته التي لا تتبدل،في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشـــقة واللأواء في الطريق وعلى الكيد والحرب من الكافرين (والمراد بهم هنا هم أهل الكتـــاب السابق ذكرهم)..كما أنه يتضمن في ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مـــدار

---

[٢٥٧] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٣٦)

الزمان! ويزيد السياق هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا:«هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه،ولوْ كره الْمشْركون»..

وفي هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذي سبق في قوله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون»..هو هذا الدين الذي أرسل اللّه به رسوله الأخير.وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال..

وهذا صحيح على أي وجه أوّلنا الآية.فالمقصود إجمالا بدين الحق هو الدينونة للّه وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع – وهذه هي قاعدة دين اللّه كله،وهو الدين الممثل أخيرا فيما جاء به محمد ﷺ– فأيما شخص أو قوم لم يدينوا للّه وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع مجتمعة انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق،ودخلوا في مدلول آية القتال..مع مراعاة طبيعة المنهج الحركي للإسلام،ومراحله المتعددة،ووسائله المتجددة كما قلنا مرارا.

«هو الّذي أرْسل رسوله بالْهدى ودين الْحقّ ليظْهره على الدّين كلّه،ولوْ كره الْمشْركون»..

وهذا توكيد لوعد اللّه الأول:«ويأْبى اللّه إلّا أنْ يتمّ نوره ولوْ كره الْكافرون»..ولكن في صورة أكثر تحديدا.فنور اللّه الذي قرر سبحانه أن يتمه،هو دين الحق الذي أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله.

ودين الحق – كما أسلفنا – هو الدينونة للّه وحده في الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة.وهو متمثل في كل دين سماوي جاء به رسول من قبل..ولا يدخل فيه طبعا تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات في الاعتقاد التي عليها اليهود والنصارى اليوم.كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التي ترفع لافتة الدين،وهي تقيم في الأرض أربابا يعبدها الناس من دون اللّه،في صورة الاتباع للشرائع التي لم يترلها اللّه.

واللّه سبحانه يقول:إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله..ويجب أن نفهم «الدين» بمدلوله الواسع الذي بيناه،لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهي ومداه..

إن «الدين» هو «الدينونة»..فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء..

واللّه سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على «الدين» كله بهذا المدلول الشامل العام! إن الدينونة ستكون للّه وحده.والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة للّه وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول اللّه - ﷺ- وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة للّه تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى،المنوعة الأساليب،التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف..إن وعد اللّه قائم،ينتظر العصبة المسلمة،التي تحمل الراية وتمضي،مبتدئة من نقطة البدء،التي بدأت منها خطوات رسول اللّه - ﷺ- وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور اللّه..[٢٥٨]

---

٦. إزالة جميع الحواجز التي تقف دون وصول الإسلام للناس جميعا :

قال تعالى:{قاتلواْ الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتواْ الْكتاب حتّى يعْطواْ الْجزْية عن يدٍ وهمْ صاغرون } (٢٩) سورة التوبة

بعْد أن استْقامت الأمور للْمسْلمين في جزيرة العرب،بدخول النّاس في الإسْلام،أمر الله تعالى بقتال اليهود والنّصارى،وذلك سنة تسْعٍ للْهجْرة،لذلك تجهّز الرّسول ﷺ لقتال الرّوم،ودعا النّاس إلى ذلك،وأظْهره لهمْ،وندب المؤْمنين إلى الجهاد،وتخلّف بعْض المنافقين،وكان ذلك العام عام جدْبٍ،والْوقْت في شدّة الحرّ،وخرج الرّسول وصحْبه إلى تبوك،فنزل بها،وأقام فيها قرابة عشْرين يوْماً،ثمّ رجع لضيق الحال،وضعْف النّاس.

---

[٢٥٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٥٢)

فمنْ لمْ يؤْمنْ بالإسْلام منْ أهْل الكتاب،فرض الله على المسْلمين قتاله،حتّى يعْطي الجزْية عنْ يدٍ مقْهورةٍ مغْلوبةٍ،وهو خاضعٌ صاغرٌ.

ويجب قتال أهْل الكتاب إذا اجْتمعتْ فيهمْ أرْبع صفاتٍ هي العلّة في عداوتهمْ للإسْـــلام والمسْلمين:

- أنّهمْ لا يؤْمنون بالله،لأنّهمْ هدموا التّوْحيد فاتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ مشرّعين،ومنْهمْ منْ عبد المسيح وعزيْراً.

- أنّهمْ لا يؤْمنون باليوْم الآخر،إذْ يقولون إنّ الحياة الآخرة هي حياةٌ روحانيّةٌ يكون فيها النّاس كالملائكة

- أنّهمْ لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله،ولا يلْتزمون العمل بما حرّم عليهمْ.

- أنّهمْ لا يدينون دين الحقّ الذي أوْحاه الله إلى أنْبيائه،وإنّما يتّبعون ديناً وضـــعه لهـــمْ أحْبارهمْ وأساقفتهمْ.

يعْطوا الجزْية - الخراج المقدّر على رؤوسهمْ.

عنْ يدٍ - عن انْقيادٍ وخضوعٍ،أوْ منْ قهْرٍ وقوّةٍ.

صاغرون - منْقادون لحكْم الإسْلام وهمْ أذلاّء.[٢٥٩]

أيها المسلمون قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله،ولا يؤمنون بالبعث والجزاء،ولا يجتنبون ما نهى الله عنه ورسوله،ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام من اليهود والنصـــارى،حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم بأيديهم خاضعين أذلاء.[٢٦٠]

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من { الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر } إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.ولا يحرمون ما حرم الله،فلا يتبعـــون شرعه في تحريم المحرمات،{ ولا يدينون دين الْحقّ } أي:لا يدينون بالدين الصحيح،وإن زعموا أنهم على دين،فإنه دين غير الحق،لأنه إما بين دين مبدل،وهو الذي لم يشرعه اللّه

[٢٥٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٦٠] - التفسير الميسر - (ج ٣ / ص ٢٧١)

أصلا وإما دين منسوخ قد شرعه اللّه،ثم غيره بشريعة محمد ﷺ،فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك،لأنهم يدعون إلى ما هم عليه،ويحصل الضرر الكثير منهم للناس،بسبب أنهم أهل كتاب.وغيّى ذلك القتال { حتّى يعْطوا الْجزْية } أي:المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم،وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم،بين أظهر المسلمين،يؤخذ منهم كل عام،كلٌّ على حسب حاله،من غني وفقير ومتوسط،كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره،من أمراء المؤمنين.وقوله:{ عنْ يدٍ } أي:حتى يبذلوها في حال ذلهم،وعدم اقتدارهم،ويعطونها بأيديهم،فلا يرسلون بها خادما ولا غيره،بل لا تقبل إلا من أيديهم،{ وهمْ صاغرون } فإذا كانوا بهذه الحال،وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية،وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم،وحال الأمن من شرهم وفتنتهم،واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم،ويوجب ذلهم وصغارهم،وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.وإلا بأن لم يفوا،ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون،لم يجز إقرارهم بالجزية،بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون:لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب،لأن اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا،وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين،المجوس،فإن النبي ﷺ،أخذ الجزية من مجوس هجر،ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل:إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم،لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين،والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم،فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع،لا مفهوما له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب،ولأنه قد تـواتر عـن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحـدى ثـلاث:إمـا الإسلام،أو أداء الجزية،أو السيف،من غير فرق بين كتابيٍّ وغيره.[٢٦١]

الجزية:هي ما يفرض على أهل الذمّة من مال يؤدونه للمسلمين،وسمّيت جزية لأنها إمّـا من الجزاء،في مقابل الذنب الذي ارتكبوه بإفساد عقيدتهم،وإمّا من المجـازاة،في مقابـل حفظ نفوسهم،وصيانتهم من القتل.

ويجيء الأمر هنا بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر،بعد أن انكشـف للمسـلمين موقفهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر،وبعد أن نهاهم الله سبحانه وتعالى عـن موالاة غير المؤمنين،حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم..ثم بعـد أن ذكـر الله سبحانه نصره لهم في مواطن كثيرة، لم يكن بين أيديهم فيها من وسائل الغلب والنصـر شيء..

وإذ يجيء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله،بعد هـذا الموقـف الـذي أثـار مشـاعر المسلمين،وقوّى عزائمهم،ووثق إيمانهم- فإنه يقع موقعه من نفوسهم،ويثمر ثمرته الطيبـة فيهم،إذ يقبلون على القتال،وقد خلت نفوسهم من مشاعر المودة بينهم وبين الـذين لا يؤمنون بالله،ولو كانوا أقرب الناس..فلا يلتفت المجاهد إلى أهل أو مـال،ولا ينظـر إلى نفسه أكثر مما ينظر إلى دينه،والانتصار له،ودفع يد العدوّ عنه..

وقد جاء الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بـالله ولا بـاليوم الآخـر في صـيغة العمـوم هكذا:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر..الآية».

وهذه الآية من سورة التوبة كما ترى،وقد نزلت بعد أن فتح النبيّ مكة،وبعد أن هزمت هوازن في حنين،وبعد أن بسط الإسلام سلطانه على الجزيرة العربية كلّها..

والسؤال هنا هو:إلى من يتّجه الأمر إلى المسـلمين بقتالهم،بعـد أن دخـل العـرب في الإسلام؟.

---

[٢٦١] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٣٤)

والجواب على هذا،هو ما تضمنه قوله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّـــه ولا بـــالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتـــاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون»

..وقد أشارت الآية الكريمة إلى ثلاثة أصناف:

فالذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر..هم الكافرون كفرا صراحا،وهم الملحدون.

والذين لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله..هم المشركون،الذين يؤمنون بالله واليوم الآخـــر إيمانا تلبّست به الضلالات،واختلطت به البدع..وذلك إيمان المشركين من العرب..الذين كانوا على دين إبراهيم،فأفسدوه بما أدخلوا عليـــه مـــن تلقّيـــات أهوائهم،ووســـاوس شياطينهم،حتى لقد عبدوا الأصنام وقالوا:«ما نعْبدهمْ إلّا ليقرّبونا إلى اللّه زلْفى».

والذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب،هم اليهود النصارى،الذين أفســـدوا دينهم بما حرّفوا من كتاب الله الذي فى أيديهم،وبما تأوّلوا من كلمات الله الـــتي بقيـــت معهم..

فهؤلاء هم الذين أمر المسلمون بقتالهم..بعد الإعذار إليهم،ودعوتهم إلى الإســـلام،دعوة قائمة إلى العدل والإحسان،داعية إلى الإخوة الإنسانية فى ظلّ الإيمان بالله.

أما الكافرون فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر،وليس معهم كتاب سماوى.

وأما المشركون،فهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر،إيمانا مشـــوبا بالضـــلال..والمثـــل الواضح للشرك ما كان عليه مشركو العرب قبل الإسلام..

وأما أهل الكتاب،فإن فى كفرهم شبهة،إذ معهم كتاب موسوم بأنه من عند الله،وهـــو وإن حرّف،وبدّل،وتأوله المتأولون على غير وجهه،لا يزال يحتفظ بأصـــول صـــالحة،لأن تكون معتقدا سليما،لو أعيد النظر فيه،على ضوء القرآن الكريم،الذي هو مصدق لهـــذا الكتاب الذي فى أيديهم،ومهيمن عليه..

ولشبهة الكفر،أو شبهة الإيمان عند أهل الكتاب،فقد أخذهم الله بحكـــم غـــير حكـــم الكافرين والمشركين..فهم ليسوا مؤمنين،وإن لم يكن الإيمان بعيدا منهم.

ومن هنا كان أمر الله فيهم أن يدعوا إلى الإيمان الحقّ،فإن استجابوا وآمنوا،كان لهم مـــا للمؤمنين،وعليهم ما عليهم..وإن أبوا كان على المسلمين قتالهم،حتى يستسلموا،ويصبحوا فى يد المسلمين،يجرى عليهم حكمهم،وتبسط عليهم يدهم..ثم إنـــه لـــيس للمســـلمين قتلهم،كما يقتل الكافرون والمشركون..ولكن إذا سلمت لهم أنفسهم،فلن تســـلم لهـــم أموالهم،بل عليهم أن يؤدوا منها جزية للمسلمين،وأن يؤدوها صـــاغرين،أي مقهـــورين مغلوبين.

وقد ألحقت السّنّة المجوس باليهود والنصارى فى أخذ الجزية منهم بدلا من القتل المضروب على المشركين والكافرين،وغيرهم،ممن لا كتاب لهم.

يقول الإمام الشافعي- رضى الله عنه- «إنها (الجزية) تؤخذ من أهل الكتاب،عربا كانوا أو عجما،ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقا،لثبوتهـــا فى أهـــل الكتاب،بالكتـــاب،وفى المجوس،بالخبر».

وعند أبى حنيفة أنها تؤخذ من أهل الكتاب مطلقا،ومن مشركى العجم والمجوس لا مـــن مشركى العرب».

وهذا الذي يراه أبو حنيفة هو الأولى بأن يؤخذ به،لأنه يجرى مع الحكمة فى أخذ الجزية من أهل الكتاب،وعدم أخذها من مشركى العرب..وذلك لأن العرب قد شهدوا دلائل النبوة كاملة،واستمعوا إلى آيات الله،وعرفوا مواقع الإعجاز منها،وأن القرآن عندهم ليس بالذي يخفى عليهم علوّ متنزّله،وأنه من كلام رب العالمين..فلم يكـــن كفـــرهم بـــالله وتكذيبهم لرسول الله إلا عن عناد واستكبار،وإلا عن حمية جاهلية..فكان أن أخـــذهم الإسلام بهذا الحكم إذا هم وقعوا ليد المسلمين:إما الإسلام،وإما القتل،ولا ثالث..!

فمثل هؤلاء الذين يشهدون الحقّ،ويرون آياته رأى العين،ثم لا يتبعونـــه،ولا يفتحـــون عقولهم وقلوبهم له- مثل هؤلاء،ينبغى أن تهدر آدميتهم،وأن تقام عليهم هذه الوصاية،التي تأخذهم بهذا الحكم الملزم.

أما مشركو العجم والمجوس،ممن لا كتاب معهم،فإنه لم يستبن لهم على وجه القطع مـــن دلائل النبوة،وصدق الرسول ما استبان لمشركى العرب،فكانوا لهذا أقرب إلى أن يلحقوا

بأهل الكتاب،وأن يدخلوا فى تلك التجربة التي يدخلها أهل الكتاب– من أن يلحقوا بمشركى العرب..

أما من يؤدون الجزية ممن يدخلون فى حكمها،فقد اختلف الأئمة فيهم..

فبينما يرى مالك والأوزاعى أنها تؤخذ من جميع الواقعين تحت حكمها فردا فردا،إذ يرى أبو حنيفة أنها لا تؤخذ من امرأة،ولا صبّى،ولا زمن،ولا أعمى..

ورأى أبى حنيفة أقرب إلى سماحة الإسلام،وإلى مرامى أهدافه البعيدة.

فى تأليف القلوب،ودعوتها إليه بالتي هى أحسن.

وأخذ الجزية من أهل الكتاب،وأداؤهم لها على هذا الوجه الذي يؤدونها عليه فى ذلة وصغار هو فى الواقع ليس عن دافع من التعالي والكبر من المسلمين،وإنما هو إثارة لدوافع الإنسانية عند هؤلاء الذين يؤدون الجزية،ولتحريك الرغبة فيهم إلى الخلاص من هذا الوضع المشين،وذلك بمراجعة معتقدهم..من جهة،والنظر فى وجه الدعوة التي يدعوهم الإسلام إليها..من جهة أخرى..وهذا إن فعلوه فإنه لا بد أن يصحح عقيدتهم،ويفتح عقولهم وقلوبهم للدين الحق،دين الله،دين الإسلام.

وهذا هو السرّ فى الإبقاء على أهل الكتاب حين يقعون ليد المسلمين،وصيانة دمهم من القتل،وقبول الدّية منهم..فإن هذا التدبير إنما غايته هو وضع أهل الكتاب فى هذا الامتحان،وتلك التجربة..ولقد أثمر هذا الامتحان ونجحت تلك التجربة،فإنه ما من أحد من أهل الكتاب،دخل فى هذا الامتحان وعاش تلك التجربة،وأخذ مكانه مع المسلمين على هذا الوضع،حتى وجد الفرصة سانحة،والوقت متسعا،للبحث والنظر فى معتقده،والمعتقد الذي يدعى إليه..وكان من هذا أن دخل فى الإسلام،وآمن به عن اختيار واقتناع..

ومن بقي على دينه من أهل الكتاب– وهم قلة شاذة– فقد كانت آفة ذلك إلى تعصب أعمى،وانقياد لهوى جامح،لا يمسكه عقل،ولا يردّه رأى! فلم تكن الجزية التي فرضها الإسلام على أهل الكتاب ضربا من التحكم،ولا نزعة من نزعات القهر والتسلط،وإنما هى– كما رأينا– دعوة حكيمة من دعوات الإسلام إلى الإيمان بالله،وأسلوب من أساليبه

المحكمة،فى فتح الأبصار المغلقة،إلى النور،ولفت العقـــول الشـــاردة،إلى الهـــدى،وإيقاظ القلوب الغافية،لاستقبال آيات الله وكلماته..

ولو كان من شأن الإسلام التسلط والقهر،والعدوان والبغي،لأخذ أهل الكتاب الـــذين وقعوا ليده،ونزلوا على حكمه،بما أخذ به الكافرين والمشركين،ولما قبل منهم إلّا الإيمـــان أو القتل،ولما استبقاهم ابتغاء إصلاحهم،وشفائهم ممّا ألمّ بهم،من زيغ فى العقيدة،وضلال فى الدين..

فالجزية التي فرضها الإسلام على أهل الكتاب،هى دواء لداء،واســتطباب لعلّة،وعمليـــة جراحيّة لاستئصال مرض قاتل..وإنه لا بأس من أن يكون الدواء مرّا،إذا أثمـــر ثمرتـــه فى شفاء الداء.

وفى قوله تعالى:«حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صـــاغرون» إشـــارة إلى علـــوّ يـــد المسلمين،وتمكنهم من عدوّهم،بما لهم من بأس،وقوة..

وهذا يعنى أن يحتفظ المسلمون دائما بتلك القوة التي مكّنت لهم،وإلا كـــان علـــيهم أن يترلوا عن هذه المترلة التي هم فيها،فإنهم إن لم يترلوا عنها طائعين،نزلوا عنها مكرهين..بل وربما تحولت الحال،فكانوا تحت يد من كانوا تحت يـــدهم! فـــالمراد باليـــد هنـــا،القوة والقدرة،التي يعلو بها المسلمون على غيرهم.

والقوة التي يعتمد عليها المسلمون،تقوم دعائمها أولا وقبل كـــل شـــيء،على الإيمـــان بالله،وامتثال أوامره،واجتناب نواهيه..فإذا حقق المسلمون حقيقة الإيمان فى قلوبهم،مكّن الله لهم من كل أسباب العزة،والقوّة،وملأ أيديهم من خير الدنيا والآخرة جميعا،وأقامهم فى هذه الدنيا مقاما كريما،وجعل كلمتهم العليا،وكلمة الذين كفروا هى السفلى! فليس المراد بقوله تعالى:«وهمْ صاغرون» تحريضا للمســـلمين علـــى امتـــهان أهـــل الذمـــة وإذلالهم،بقدر ما هو تحريض للمسلمين على اكتساب القوة والاحتفاظ،بهـــا حـــتى لا يكونوا يوما فى هذا المترل الذليل المهين،الذي يترله المغلوب على أمره بها،النـــازل علـــى حكم غالبه..فهذا هو واقع الحياة،وتلك هى ســـنة الله فى خلقـــه..الغالـــب مـــتحكم متسلط،والمغلوب مقهور مهين..وإذا كان هناك من المبـــادئ الخلقيـــة،أو المواضـــعات

السياسية،ما يخفف من هذا المبدأ العامل فى الحياة،فإن سماحة الإسلام،وإنسانية شريعته،قد كان لهما فى هذا الباب ما لا يمكن أن يلحق بغباره القوانين الدولية،أو المنظمات الإنسانية..ذلك أن دعوة الإسلام إلى التسامح،والرفق،والإخاء،دعوة مشدودة إلى ضمير الإنسان،موصوله بإيمانه بالله،بحيث لا يكمل إيمانه إلا بها..أما ما تحمله القوانين الدولية،وما تنادى به المنظمات الإنسانية،فلا يعدو أن يكون مجرد نصائح ووصايا،تخاطب أذن الإنسان،دون أن تبلغ مواطن الإدراك،أو الوجدان منه.

فالقوة التي يملك بها المسلمون مصائر الأمور فى الناس،قوة رحيمة،عادلة..ومن الخير للناس جميعا،أن تنمو هذه القوة،وأن يمتد سلطانها..فحيث كانت فهى بر ورحمة،فإذا صارت تلك القوة إلى يد غير مؤمنة بالله،آخذة بشريعته،كانت قوّة ظالمة غشوما،تطلع على الناس كما تطلع العواصف العاتية،لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

هذا وكثير من الفقهاء والمفسّرين على أن قوله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر..الآية» هو أمر ملزم للمسلمين بقتال غير المسلمين،قتالا عاما،فى أي حال يجد فيها المسلمون قدرة على القتال.بمعنى أنهم يكونون فى حرب دائمة مع غير المسلمين،حتى يدخلوا فى الإسلام،أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون..على الوجه الذي أشرنا إليه..[٢٦٢]

ولسائل أن يسأل:كيف يحكم على اليهود بالكفر،مع أنهم أهل كتاب،وأنهم يؤمنون بالله،وأن الإسلام قد وضعهم وضعا خاصا فى أحكامه،فجعلهم أهل ذمّة،وسمح لهم أن يعيشوا فى المجتمع الإسلامى،وألا تهدم بيوت عبادتهم،وألا يحال بينهم وبين أن يؤدوا شعائر دينهم فيها..كيف هذا؟

والجواب من وجوه:

فأولا:هم كافرون- لا شك فى هذا- لأنهم اجترءوا الله،فنبذوا كتاب الله الذي فى أيديهم،وحرّفوه،ثم ما بقي بأيديهم منه لم يستقيموا عليه،بل تأولوه تأويلا فاسدا،يجرى

[٢٦٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٣٢)

مع أهوائهم وما يشتهون..فهم- وإن لم ينكروا الله- قد حاربوا الله،واستخفّوا بكلماته،وجعلوها تبعا لأهوائهم،ولم يجعلوا أهواءهم تبعا لها.

والكافر بالله،والمنكر له،وإن غلظ جرمه.وعظم إثمه- هو أخفّ جرما،وأقل إثما،ممن عرف الله واستخفّ به،وأعلن الحرب عليه،فشوّه وجه كلماته،وأراق دم أنبيائه.

وثانيا:هم كافرون- لا شك فى هذا أيضا- لأنهم أنكروا نبوّة النبىّ،وبهتوه،وكفروا بما أنزل عليه،وهم يعلمون- بما فى أيديهم من كتب الله- أنه رسول من عند الله،وأن الآيات التي بين يديه هى كلمات الله..وفى هذا يقول الله تعالى:«ولمّا جاءهمْ كتابٌ منْ عنْد اللّه مصدّقٌ لما معهمْ وكانوا منْ قبْل يسْتفْتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهمْ ما عرفوا كفروا به فلعْنة اللّه على الْكافرين بئْسما اشْتروْا به أنْفسهمْ أنْ يكْفروا بما أنْزل اللّه بغْياً أنْ يتزّل اللّه منْ فضْله على منْ يشاء منْ عباده فباؤ بغضبٍ على غضبٍ ولْلكافرين عذابٌ مهينٌ»

(٨٩- ٩٠:البقرة) فلقد دمغهم الله- سبحانه- بالكفر أكثر من مرة..«كفروا به»..

«فلعْنة اللّه على الْكافرين»..«بئْسما اشْتروْا به أنْفسهمْ أنْ يكْفروا بما أنْزل اللّه»..«ولْلكافرين عذابٌ مهينٌ».

فهذا بعض ما وصفهم الله به فى هاتين الآيتين،وقد توعدهم الله سبحانه باللعنة،ورماهم بالغضب بعد الغضب،ورصد لهم العذاب المهين يوم القيامة»..

وثانيا:إن تصوّر اليهود لله هو تصور خاطئ فاسد،إذ يرون الله هو إله اليهود وحدهم لا يتعامل مع غيرهم،ولا يعمل لأحد سواهم،ولا يشغل إلّا بهم وبمشكلاتهم..فهو «رب الجنود» يقودهم فى ميادين القتال،بل ويقاتل لهم وهم ينظرون،كما قالوا لموسى:«فاذْهبْ أنْت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون» (٢٤:المائدة).

وهذا تصور خاطئ لله رب العالمين..إنهم لا يرونه إلا أشبه بإنسان يملك قوى خارقة لا يملكونها،أشبه بآلهة الأساطير التي تولدت فى خيال الوثنيين لتحقق لهم أحلاما قصرت أيديهم عن تحقيقها..ولهذا،فقد طلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة،أي عيانا،فقالوا ما حكاه القرآن عنهم:«لنْ نؤْمن لك حتّى نرى اللّه جهْرةً» (٥٥ البقرة)..

هذا هو إله اليهود الذي يؤمنون به..إنه إلههم وحدهم..أما هذا الوجـــود فلـــه إلـــه أو آلهته..وذلك كفر،أو شرك،أو فسق..وقد صف صف اليهود بهذه الصفات جميعا..

ورابعا:جعل الإسلام أهل الكتاب أهل ذمّة و لم يأخذهم بما أخذ به غيرهم ممن لا كتاب لهم من المشركين والكافرين،كالصائبين والمجوس،ومشركى العرب وغيرهم،لأنهم علـــى شبهة من دين،ولهذا لم يقم عليهم حدّ القتل،إذ كان من أصول الإسلام:«درء الحـــدود بالشبهات»..

فهم- أي أهل الكتاب- كافرون،ولكن كفرهم مشوب بإيمان باهت..وهذا الإيمان على ما فيه،لا يرفع عنهم الحكم- ديانة- بأنهم كافرون،ولكنه يرفع عنهم إقامة حدّ الكفـــر عليهم بقتلهم،إذا وقعوا فى حوزة المسلمين وصـــاروا إلى أيـــديهم،وأبوا أن يـــدخلوا فى الإسلام..

فهذا الكفر المشوب بالإيمان،أو الإيمان المختلط بالكفر،يعصم دماءهم،وأموالهم،ويجعلـــهم ذمة فى يد المسلمين..وفى هذا يقول الله تعالى:«قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بـــالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتـــاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون» (٢٩:التوبة)..فهذه الجزيـــة الـــتي تؤخـــذ منهم،وهذا الصّغار الذي ينضح عليهم من الجزية التي يؤدونها- هو تعزير لهم على جناية الكفر الذي حالت دون إقامة الحدّ عليهم فيه،شبهة الإيمان المختلط بكفرهم.[٢٦٣]

قال القرطبي:

فيه خمس عشرة مسْألةً:الْأولى- قوْله تعالى:(قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّـــه ولا بـــالْيوْم الْآخر) لمّا حرّم اللّه تعالى على الْكفّار أنْ يقْربوا الْمسْجد الْحرام،وجـــد الْمسْـــلمون في أنْفسهمْ بما قطع عنْهمْ من التّجارة الّتي كان الْمشْركون يوافون بها،قال اللّه عزّ وجـــلّ:" وإنْ خفْتمْ عيْلةً" [التوبة:٢٨] الْآية.على ما تقدّم.ثمّ أحلّ في هذه الْآية الْجزْية وكانتْ لمْ تؤْخذْ قبْل ذلك،فجعلها عوضًا ممّا منعهمْ منْ موافاة الْمشْركين بتجارتهمْ.فقال اللّه عـــزّ وجلّ:" قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر" الْآية.فأمر سبْحانه وتعالى بمقاتلـــة

---

[٢٦٣] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١٥٦)

جميع الْكفّار لإصْفاقهمْ على هذا الْوصْــف،وخصّ أهْــل الْكتـــاب بالــذّكْر إكْرامًـــا لكتابهمْ،ولكوْنهمْ عالمين بالتّوْحيد والرّسل والشّرائع والْملل،وخصوصًا ذكْــر محمّــد ﷺ وملّته وأمّته.فلمّا أنْكروه تأكّدتْ عليْهم الْحجّة وعظمتْ منْهم الْجريمة،فنبّه على محلّهمْ ثمّ جعل للْقتال غايةً وهي إعْطاء الْجزْية بدلًا عن الْقتْل.وهو الصّحيح.قال ابْن الْعربيّ:سمعْت أبا الْوفاء عليّ بْن عقيلٍ في مجْلس النّظر يتْلوها ويحْتجّ بها.فقال:" قـــاتلوا" وذلـــك أمْـــرٌ بالْعقوبة.ثمّ قال:" الّذين لا يؤْمنون" وذلك بيانٌ للذّنْب الّذي أوْجب الْعقوبة.وقوْله:" ولا بالْيوْم الْآخر" تأْكيدٌ للذّنْب في جانب الاعْتقاد.ثمّ قال:" ولا يحرّمون مـــا حـــرّم اللّـــه ورسوله" زيادةٌ للذّنْب في مخالفة الْأعْمال.ثمّ قال:" ولا يدينون دين الْحـــقّ" إشـــارةٌ إلى تأْكيد الْمعْصية بالانْحراف والْمعاندة والْأنفة عن الاسْتسْلام.ثمّ قال:" من الّذين أوتـــوا الْكتاب" تأْكيدٌ للْحجّة،لأنّهمْ كانوا يجدونه مكتوبا عند هم في التّوْراة والْإنْجيل.ثمّ قال:" حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ" فبيّن الْغاية الّتي تمْتدّ إليْها الْعقوبة وعيّن الْبدل الّذي ترْتفع به.

الثّانية- وقد اخْتلف الْعلماء فيمنْ تؤْخذ منْه الْجزْية،قال الشّافعيّ رحمه اللّـــه:لا تقْبـــل الْجزْية إلّا منْ أهْل الْكتاب خاصّةً عربًا كانوا أوْ عجمًا لهذه الْآية،فإنّهمْ هم الّذين خصّوا بالذّكْر فتوجّه الْحكْم إليْهمْ دون من سوا هم لقوْله عزّ وجلّ:" فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ" [التوبـــة:٥].ولمْ يقـــلْ:حتّـــى يعْطـــوا الْجزْيـــة كمـــا قـــال في أهْـــل الْكتاب.وقال:وتقْبل من الْمجوس بالسّنّة،وبه قال أحْمد وأبو ثوْرٍ.وهو مذْهب الثّـــوْريّ وأبي حنيفة وأصْحابه.وقال الْأوْزاعيّ:تؤْخذ الْجزْية منْ كلّ عابد وثنٍ أوْ نارٍ أوْ جاحدٍ أوْ مكذّبٍ.وكذلك مذْهب مالك،فإنه رأى أن الْجزْية تؤْخذ منْ جميـــع أجْنـــاس الشّـــرْك والْجحْد،عربيًّا أوْ عجميًّا،تغْلبيًّا أوْ قرشيًّا،كائنًا منْ كان،إلّا الْمرْتدّ.وقال ابْـــن الْقاســـم وأشْهب وسحْنون:تؤْخذ الْجزْية منْ مجوس الْعرب والْأمم كلّها.وأمّا عبدة الْأوْثان مـــن الْعرب فلمْ يسْتنّ اللّه فيهمْ جزْيةً،ولا يبْقى على الْأرْض منْهمْ أحدٌ،وإنّما لهم الْقتـــال أو الْإسْلام.ويوجد لابْن الْقاسم:أنّ الْجزْية تؤْخذ منْهمْ،كما يقول مالكٌ.وذلك في التّفْريـــع لابْن الْجلّاب وهو احْتمالٌ لا نصٌّ.وقال ابن وهب:لا تقْبل الْجزْية منْ مجـــوس الْعـــرب وتقْبل منْ غيْرهمْ.قال:لأنّه ليْس في الْعرب مجوسيٌّ إلّا وجميعهمْ أسْلم،فمنْ وجد مـــنْهمْ

بخلاف الْإسْلام فهو مرْتدٌّ،يقْتل بكلّ حالٍ إنْ لْم يسْلمْ ولا تقْبل منْهمْ جزْيةٌ.وقــال ابْــن الْجهْم:تقْبل الْجزْية منْ كلّ منْ دان بغيْر الْإسْلام إلّا مــا أجْمــع عليْــه مــنْ كفّــار قريْشٍ.وذكر في تعْليل ذلك أنّه إكْرامٌ لهمْ عن الذّلّة والصّغار،لمكانهمْ منْ رســول اللّــه ﷺ.وقال غيْره:إنّما ذلك لأنّ جميعهمْ أسْلم يوْم فتْح مكّة.واللّه أعْلم.

الثّالثة- وأمّا الْمجوس فقال ابْن الْمنْذر:لا أعْلم خلافًا أنّ الْجزْيــة تؤْخــذ مــنْهمْ.وفي الْموطّإ:مالكٌ عنْ جعْفر بْن محمّدٍ عنْ أبيه أنّ عمر بْن الْخطّاب ذكــر أمْــر الْمجــوس فقال:ما أدْري كيْف أصْنع في أمْرهمْ.فقال عبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ:أشْهد لسمعْت رسول اللّه ﷺ يقول:(سنّوا بهمْ سنّة أهْل الْكتاب).قال أبو عمر:يعْني في الْجزْية خاصّةً.وفي قوْل رسول اللّه ﷺ:(سنّوا بهمْ سنّة أهْل الْكتاب) دليلٌ على أنّهمْ ليْسوا أهْل كتابٍ.وعلى هذا جمْهور الْفقهاء.وقدْ روي عن الشّافعيّ أنّهمْ كانوا أهْل كتابٍ فبدّلوا.وأظنّــه ذهــب في ذلك إلى شي روي عنْ عليّ بْن أبي طالبٍ رضي اللّه عنْه منْ وجْهٍ فيه ضعْفٌ،يدور على أبي سعيدٍ الْبقّال،ذكره عبْد الرّزّاق وغيْره.قال ابْن عطيّة:وروي أنّه قدْ كــان بعــث في الْمجوس نبيٌّ اسْمه زرادشْت.واللّه أعْلم.

الرّابعة- لْم يذْكر اللّه سبْحانه وتعالى في كتابه مقْدارًا للْجزْية الْمــأْخوذة مــنْهمْ.وقــد اخْتلف الْعلماء في مقْدار الْجزْية الْمأْخوذة منْهمْ،فقال عطاء بْن أبي ربــاحٍ:لا توْقيــت فيها،وإنّما هو على ما صولحوا عليْه.وكذلك قال يحْيى بْن آدم وأبو عبيْدٍ والطّبريّ،إلّا أنّ الطّبريّ قال:أقلّه دينارٌ وأكْثره لا حدّ له.واحْتجّوا بما رواه أهْل الصّحيح عنْ عمْرو بْــن عوْفٍ:أن رسول الله ﷺ صالح أهْل الْبحْريْن على الْجزْية.وقال الشّافعيّ:دينارٌ على الْغنيّ والْفقير من الْأحْرار الْبالغين لا ينقص منه شي واحْتجّ بما رواه أبــو داود وغيْــره عــنْ معاذٍ:أنّ رسول اللّه ﷺ بعثه إلى الْيمن وأمره أنْ يأْخذ منْ كلّ حالمٍ دينارًا في الْجزْية.قال الشّافعيّ:وهو الْمبيّن عن اللّه تعالى مراده.وهو قوْل أبي ثوْرٍ.قال الشّافعيّ:وإنْ صــولحوا على أكْثر منْ دينارٍ جاز،وإنْ زادوا وطابتْ بذلك أنْفسهمْ قبل منْهمْ.وإنْ صولحوا علــى ضيافة ثلاثة أيّامٍ جاز،إذا كانت الضّيافة معْلومةً في الْخبْز والشّعير والتّبْن والْإدام،وذكر ما على الْوسط منْ ذلك وما على الْموسر وذكر موْضــع النّــزول والْكــنّ مــن الْــبرْد

والْحرّ.وقال مالكٌ فيما رواه عنْه ابْن الْقاسم وأشْـهب ومحمّـد بْـن الْحـارث بْـن زنْجويْه:إنّها أرْبعة دنانير على أهْل الذّهب وأرْبعون درْهمًا على أهْل الْورق،الْغنيّ والْفقير سواءٌ ولوْ كان مجوسيًّا.لا يزاد ولا ينْقص على ما فرض عمر لا يؤْخذ منْهمْ غيْره.وقـدْ قيل:إنّ الضّعيف يخفّف عنْه بقدْر ما يراه الْإمام.وقال ابْن الْقاسم:لا ينْقص منْ فرْض عمر لعسْرٍ ولا يزاد عليْه لغنًى.قال أبو عمر:ويؤْخذ منْ فقرائهمْ بقدْر مـا يحْتملـون ولـوْ درْهمًا.وإلى هذا رجع مالكٌ.وقال أبو حنيفة وأصْحابه ومحمّد بْن الْحسن وأحْمـد بْـن حنْبلٍ:اثْنا عشر،وأرْبعةٌ وعشْرون،وأرْبعون.قال الثّوْريّ:جاء عنْ عمر بْـن الْخطّـاب في ذلك ضرائب مخْتلفةٌ،فللْوالي أنْ يأْخذ بأيّها شاء،إذا كانوا أهْل ذمّةٍ.وأمّا أهْل الصّلْح فما صولحوا عليْه لا غيْر.

الْخامسة- قال علماؤنا رحْمة اللّه عليْهمْ:والّذي دلّ عليْه الْقرْآن أنّ الْجزْية تؤْخذ مـن الرّجال الْمقاتلين،لأنّه تعالى قال:" قاتلوا الّذين" إلى قوْله:" حتّى يعْطوا الْجزْية" فيقتضي ذلك وجو بها على منْ يقاتل.ويدلّ على أنّه ليْس على الْعبْد وإنْ كان مقاتلًا،لأنّه لا مال له،ولأنّه تعالى قال:" حتّى يعْطوا".ولا يقال لمنْ لا يمْلك حتّى يعْطي.وهذا إجْماعٌ مـن الْعلماء على أنّ الْجزْية إنّما توضع على جماجم الرّجال الْأحْرار الْبـالغين،وهم الّـذين يقاتلون دون النّساء والذّرّيّة والْعبيد والْمجانين الْمغْلـوبين علـى عقـولهمْ والشّـيْخ الْفاني.واخْتلف في الرّهْبان،فروى ابْن وهْبٍ عنْ مالكٍ أنّها لا تؤْخذ منْهمْ.قال مطـرّفٌ وابْن الْماجشون:هذا إذا لمْ يترهّبْ بعْد فرْضها فإنْ فرضتْ ثمّ ترهّب لمْ يسْقطْها ترهّبه.

السّادسة- إذا أعْطى أهْل الْجزْية الْجزْية لمْ يؤخذ منهم شي من ثمار هم ولا تجارتهمْ ولا زروعهمْ إلّا أنْ يتّجروا في بلادٍ غيْر بلادهم الّتي أقرّوا فيها وصولحوا عليها.فإن خرجـوا تجّارًا عنْ بلادهم الّتي أقرّوا فيها إلى غير ها أخذ منْهم الْعشْر إذا باعوا ونضّ ثمن ذلـك بأيْديهمْ ولوْ كان ذلك في السّنة مرارًا إلّا في حمْلهم الطّعام الْحنْطة والزّيْت إلى الْمدينـة ومكّة خاصّةً،فإنّه يؤْخذ منْهمْ نصْف الْعشْر على ما فعل عمر.ومنْ أهْل الْمدينة مـنْ لا يرى أنْ يؤْخذ منْ أهْل الذّمّة الْعشْر في تجارتهمْ إلّا مرّةً في الْحوْل،مثْل مـا يؤْخـذ مـن

الْمسْلمين.وهو مذْهب عمر بْن عبْد الْعزيز وجماعةٍ منْ أئمّة الْفقهاء.والْأوّل قوْل مالكٍ وأصْحابه.

السّابعة– إذا أدّى أهْل الْجزْية جزْيتهمْ الّتي ضربتْ عليْهمْ أوْ صولحوا عليْها خلّي بينهم وبين أموالهم كلها،وبين كرومهم وعصر ها ما ستروا خمور هم و لمْ يعْلنوا بيْعها منْ مسْلمٍ ومنعوا منْ إظْهار الْخمْر والْخنْزير في أسْواق الْمسْلمين،فإنْ أظْهروا شيْئًا منْ ذلك أريقت الْخمْر عليْهمْ،وأدّب منْ أظْهر الْخنْزير.وإنْ أراقها مسْلمٌ منْ غيْر إظْهارها فقدْ تعدّى،ويجب عليْه الضّمان.وقيل:لا يجب ولوْ غصبها وجب عليْه ردّها.ولا يعْترض لهمْ في أحْكامهمْ ولا متاجرهمْ فيما بيْنهمْ بالرّبا.فإنْ تحاكموا إليْنا فالْحاكم مخيّرٌ،إنْ شاء حكم بيْنهمْ بما أنْزل اللّه وإنْ شاء أعْرض.وقيل:يحْكم بيْنهمْ في الْمظالم على كلّ حالٍ،ويؤْخذ منْ قويّهمْ لضعيفهمْ،لأنّه منْ باب الدّفْع عنْهمْ وعلى الْإمام أنْ يقاتل عنْهمْ عدو هم ويسْتعين بهمْ في قتالهمْ.ولا حظّ لهمْ في الْفيْء،وما صولحوا عليْه من الْكنائس لمْ يزيدوا عليْها،و لمْ يمْنعوا منْ إصْلاحٍ ما وهي منْها،ولا سبيل لهمْ إلى إحْداث غيْرها.ويأْخذون من اللّباس والْهيْئة بما يبينون به من الْمسْلمين،ويمْنعون من التّشبّه بأهْل الْإسْلام.ولا بأْس باشْتراء أوْلاد الْعدوّ منْهمْ إذا لمْ تكنْ لهمْ ذمّةٌ.ومنْ لدّ في أداء جزْيته أدّب على لدده وأخذتْ منْه صاغرًا.

الثّامنة– اخْتلف الْعلماء فيما وجبت الْجزْية عنْه،فقال علماء الْمالكيّة:وجبتْ بدلًا عن الْقتْل بسبب الْكفْر.وقال الشّافعيّ:وجبتْ بدلًا عن الدّم وسكْنى الدّار.وفائدة الْخلاف أنّا إذا قلْنا وجبتْ بدلًا عن الْقتْل فأسْلم سقطتْ عنْه الْجزْية لما مضى،ولوْ أسْلم قبْل تمام الْحوْل بيوْمٍ أوْ بعْده عنْد مالكٍ.وعنْد الشّافعيّ أنّها ديْنٌ مستقر في الذمة فلا يسقطه الْإسْلام كأجْرة الدّار.وقال بعْض الْحنفيّة بقوْلنا.وقال بعْضهمْ:إنّما وجبتْ بدلًا عن النّصْر والْجهاد.واخْتاره الْقاضي أبو زيْدٍ وزعم أنّه سرّ اللّه في الْمسْألة.وقوْل مالكٍ أصحّ،لقوْله ﷺ:(ليْس على مسْلمٍ جزْيةٌ).قال سفْيان:معْناه إذا أسْلم الذّمّيّ بعْد ما وجبت الْجزْية عليْه بطلتْ عنْه.أخْرجه التّرْمذيّ وأبو داود.قال علماؤنا:وعليْه يدلّ قوْله تعالى:" حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون" لأنّ بالْإسْلام يزول هذا الْمعْنى.ولا خلاف أنّهمْ إذا

أسْلموا فلا يؤدّون الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون.والشّافعيّ لا يأْخذ بعْد الْإسْلام علـــى الْوجْه الّذي قاله اللّه تعالى.وإنّما يقول:إنّ الْجزْية ديْنٌ،وجبتْ عليْه بسببٍ سابقٍ وهـــو السّكْنى أوْ توقّي شرّ الْقتْل،فصارتْ كالدّيون كلّها.

التّاسعة- لوْ عاهد الْإمام أهْل بلدٍ أوْ حصْنٍ ثمّ نقضوا عهْدهمْ وامْتنعـــوا مـــنْ أداء مـــا يلزمهم من الجزية وغير ها وامْتنعوا منْ حكْم الْإسْلام منْ غيْر أنْ يظْلموا وكان الْإمـــام غيْر جائرٍ عليْهمْ وجب على الْمسْلمين غزْوهمْ وقتالهمْ مع إمامهمْ.فإنْ قـــاتلوا وغلبـــوا حكم فيهمْ بالْحكْم في دار الحرب سواء.وقد قيل:هم ونساؤهم في ولا خمس فيهمْ،وهو مذْهبٌ.الْعاشرة- فإنْ خرجوا متلصّصين قاطعين الطّريق فهمْ بمنْزلة الْمحاربين الْمسْلمين إذا لمْ يمْنعوا الْجزْية.ولوْ خرجوا متظلمين نظر في أمر هم وردّوا إلى الذّمّة وأنْصفوا مـــنْ ظالمهمْ ولا يسْترقّ منْهمْ أحدٌ وهمْ أحْرارٌ.فإنْ نقض بعْضهمْ دون بعْضٍ فمنْ لمْ يـــنْقضْ على عهْده،ولا يؤْخذ بنقْض غيْره وتعْرف إقامتهمْ على العهـــد بإنكـــار هـــم علـــى النّاقضين.الْحادية عشْرة- الْجزْية وزْنها فعْلةٌ،منْ جزى يجْزي إذا كافـــأ عمّـــا أسْـــدي إليْه،فكأنّهمْ أعْطوْها جزاء ما منحوا من الْأمْن،وهي كالْقعْدة والْجلْسة.ومنْ هذا الْمعْـــنى قوْل الشّاعر:

يجْزيك أوْ يثْني عليْك وإنّ منْ...أثْنى عليْك بما فعلْت كمنْ جزى

الثّانية عشْرة- روى مسْلمٌ عنْ هشام بْن حكيم بْن حزامٍ ومرّ على ناسٍ مـــن الْأنْبـــاط بالشّام قدْ أقيموا في الشّمْس- في رواية:وصب على رؤوسهم الزّيْت- فقال:ما شـــأْنهمْ؟ فقال يحْبسون في الْجزْية.فقال هشامٌ:أشْهد لسمعْت رسول اللّه ﷺ يقول:(إنّ اللّه يعذّب الّذين يعذّبون النّاس في الدّنْيا).في رواية:وأمير هم يوْمئـــذٍ عميْـــر بْـــن ســـعْدٍ علـــى فلسْطين،فدخل عليْه فحدّثه فأمر بهمْ فخلّوا.قال علماؤنا:أمّا عقوبتهمْ إذا امْتنعـــوا مـــنْ أدائها مع التّمْكين فجائزٌ،فأمّا مع تبيّن عجْزهمْ فلا تحلّ عقوبتهمْ،لأنّ منْ عجـــز عـــن الْجزْية سقطتْ عنْه.ولا يكلّف الْأغْنياء أداءها عن الْفقراء.وروى أبو داود عنْ صفْوان بْن سليْمٍ عنْ عدّةٍ منْ أبْناء أصْحاب رسول اللّه ﷺ عنْ آبائهمْ أن رسول الله ﷺ قال:(مـــنْ

ظلم معاهدًا أو انْتقصه أوْ كلّفه فوْق طاقته أوْ أخذ شيْئًا منْه بغيْر طيب نفْسٍ فأنا حجيجه يوْم الْقيامة)

الثّالثة عشْرة- قوْله تعالى:" عنْ يدٍ" قال ابْن عبّاسٍ:يدْفعها بنفْسه غيْر مسْتنيبٍ فيها أحدًا.روى أبو الْبخْتريّ عنْ سلْمان قال:مذْمومين.وروى معْمرٌ عنْ قتادة قال:عنْ قهْرٍ وقيل:" عنْ يدٍ" عنْ إنْعامٍ منْكمْ عليْهمْ،لأنّهمْ إذا أخذتْ منْهم الْجزْية فقدْ أنْعم عليْهمْ بذلك.عكْرمة:يدْفعها وهو قائمٌ والْآخذ جالسٌ وقاله سعيد بْن جبيْرٍ.ابْن الْعربيّ:وهذا ليْس منْ قوْله:" عنْ يدٍ" وإنّما هو منْ قوْله:" وهمْ صاغرون".

الرّابعة عشْرة- روى الْأئمّة عنْ عبْد اللّه بْن عمر أنّ رسول اللّه ﷺ قال:(الْيد الْعلْيا خيْرٌ من الْيد السّفْلى والْيد الْعلْيا الْمنْفقة والسّفْلى السّائلة) وروي:(والْيد الْعلْيا هي الْمعْطية).فجعل يد الْمعْطي في الصّدقة علْيا،وجعل يد الْمعْطي في الجزية سفلي.وئد الْآخذ علْيا،ذلك بأنّه الرّافع الْخافض،يرْفع منْ يشاء ويخْفض منْ يشاء،لا إله غيْره.

الْخامسة عشْرة- عنْ حبيب بْن أبي ثابتٍ قال:جاء رجلٌ إلى ابْن عبّاسٍ فقال:إنّ أرْض الْخراج يعْجز عنْها أهْلها أفأعْمرها وأزْرعها وأؤدّي خراجها؟ فقال:لا.وجاءه آخر فقال له ذلك فقال:لا وتلا قوْله تعالى:" قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر" إلى قوْله:" وهمْ صاغرون" أيعْمد أحدكمْ إلى الصّغار في عنق أحدهمْ فينْتزعه فيجْعله في عنقه! وقال كليْب بْن وائلٍ:قلْت لابْن عمر اشْتريْت أرْضًا قال الشّراء حسنٌ.قلْت:فإنّي أعْطي عنْ كلّ جريب أرْضٍ درْهمًا وقفيز طعامٍ.قال:لا تجْعل في عنقك صغارًا.وروى ميْمون بْن مهْران عن ابْن عمر رضي اللّه عنْهما قال:ما يسرّني أنّ لي الْأرْض كلّها بجزْية خمْسة دراهم أقرّ فيها بالصّغار على نفْسي.[٢٦٤]

وفي فتح القدير:

قوْله:قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه الْآية،فيه الْأمْر بقتال منْ جمع بيْن هذه الْأوْصاف.قال أبو الْوفاء بْن عقيلٍ:إنّ قوْله:قاتلوا أمْرٌ بالْعقوبة،ثمّ قال:الّذين لا يؤْمنون باللّه فبيّن الذّنْب الّذي توجبه الْعقوبة،ثمّ قال:ولا بالْيوْم الْآخر فأكّد الذّنْب في جانب الاعْتقاد،ثمّ قال:ولا

---

[٢٦٤] - تفسير القرطبي (٨/ ١٠٩)

يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله فيه زيادةٌ للذّنْب في مخالفة الْأعْمال،ثمّ قال:ولا يدينون دين الْحقّ فيه إشارةٌ إلى تأْكيد الْمعْصية بالانْحراف والْمعاندة والْأنفة عن الاسْتسْلام،ثمّ قال:من الّذين أوتوا الْكتاب تأْكيدٌ للْحجّة عليْهمْ لأنّهمْ كانوا يجدونه مكْتوبًا عنْدهمْ في التّوْراة والْإنْجيل،ثمّ قال:حتّى يعْطوا الْجزْية فبيّن الْغاية الّتي تمْتدّ إليْها الْعقوبة.انْتهى قوْله:من الّذين أوتوا الْكتاب بيانٌ للْموْصول مع ما في حيّزه،وهمْ أهْل التّوْراة والْإنْجيل.قوْله:حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ الْجزْية،وزْنها فعْلةٌ منْ جزى يجْزي:إذا كافأ عمّا أسْدي إليْه،فكأنّهمْ أعْطوْها جزاءً عمّا منحوا من الْأمْن وقيل:سمّيتْ جزْيةً لأنّها طائفةٌ ممّا على أهْل الذّمّة أنْ يجْزوه،أيْ:يقْضوه،وهي في الشّرْع:ما يعْطيه الْمعاهد على عهده،وعنْ يدٍ في محلّ نصْبٍ على الْحال.والْمعْنى:عنْ يدٍ مواتيةٍ،غيْر ممْتنعة،وقيل:معْناه يعْطونها بأيْديهمْ غيْر مسْتنيبين فيها أحدًا وقيل:معْناه:نقْد غيْر نسيئة وقيل:عنْ قهْرٍ وقيل:معْناه عنْ إنْعامٍ منْكمْ عليْهمْ،لأنّ أخْذها منْهمْ نوْعٌ منْ أنْواع الْإنْعام عليْهمْ وقيل معْناه مذْمومون.وقدْ ذهب جماعةٌ منْ أهْل الْعلْم منْهم الشّافعيّ وأحْمد وأبو حنيفة وأصحابه الثوري وأبو ثوْرٍ إلى أنّها لا تقْبل الْجزْية إلّا منْ أهْل الْكتاب.وقال الْأوْزاعيّ ومالكٌ:إنّ الْجزْية تؤْخذ منْ جميع أجْناس الْكفرة كائنًا منْ كان،ويدْخل في أهْل الْكتاب على الْقوْل الْأوّل الْمجوس،قال ابْن الْمنْذر:لا أعْلم خلافًا في أنّ الْجزْية تؤْخذ منهم.

واختلف أهْل الْعلْم في مقْدار الْجزْية،فقال عطاءٌ:لا مقْدار لها،وإنّما تؤْخذ على ما صولحوا عليْه،وبه قال يحْيى بْن آدم وأبو عبيْدٍ وابْن جريرٍ إلّا أنّه قال:أقلّها دينارٌ وأكْثرها لا حدّ له.وقال الشّافعيّ:دينارٌ على الْغنيّ والْفقير من الْأحْرار الْبالغين لا ينْقص منْه شيْءٌ،وبه قال أبو ثوْرٍ.قال الشّافعيّ:وإنْ صولحوا على أكْثر منْ دينارٍ جاز،وإذا زادوا وطابتْ بذلك أنْفسهمْ قبل منْهمْ.وقال مالكٌ:إنّها أرْبعة دنانير على أهْل الذّهب،وأرْبعون درْهمًا على أهْل الْورق،الْغنيّ والْفقير سواءٌ،ولوْ كان مجوسيًّا،لا يزيد ولا ينْقص.وقال أبو حنيفة وأصْحابه ومحمّد بْن الْحسن وأحْمد بْن حنْبلٍ:اثْنا عشر وأرْبعةٌ وعشْرون وثمانيةٌ وأرْبعون،والْكلام في الْجزْية مقرّرٌ في مواطنه،والْحقّ منْ هذه الْأقْوال قدْ قرّرْناه في شرْحنا للْمنْتقى وغيْره منْ مؤلّفاتنا،قوْله:وهمْ صاغرون في محلّ نصْبٍ على

الْحال،والصّغار:الذّلّ.والْمعْنى:إنّ الذّمّيّ يعْطي الْجزْية حال كوْنه صاغرًا،قيل:وهـــو أنْ يأْتي بها بنفْسه ماشيًا غيْر راكبٍ،ويسلّمها وهو قائمٌ،والْمتسلّم قاعدٌ.وبالْجمْلـــة ينْبغـــي للْقابض للْجزْية أنْ يجْعل الْمسلّم لها حال قبْضها صاغرًا ذليلًا.[٢٦٥]

وفي الأم:[كتاب الْحكْم في قتال الْمشْركين ومسْألة مال الْحرْبيّ]

أخْبرنا الرّبيع قال أخْبرنا الشّافعيّ قال:الْحكْم في قتال الْمشْركين حكْمان فمنْ غزا منْهمْ أهْل الْأوْثان ومنْ عبد ما اسْتحْسن منْ غيْر أهْل الْكتاب منْ كانوا فليْس لـــه أنْ يأْخـــذ منْهمْ الْجزْية،ويقاتلهمْ إذا قوي عليْهمْ حتّى يقْتلهمْ أوْ يسْلموا وذلك لقوْل اللّه عزّ وجلّ {فإذا انْسلخ الأشْهر الْحرم} [التوبة:٥] الْآيتيْن ولقوْل رسول اللّه – ﷺ – «أمرْت أنْ أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا اللّه فإذا قالوها عصموا منّي دماءهمْ وأمْوالهمْ إلّا بحقّها وحسابهمْ على اللّه».

(قال الشّافعيّ – رحمه اللّه تعالى –):ومنْ كان منْ أهْـــل الْكتـــاب مـــنْ الْمشْـــركين الْمحاربين قوتلوا حتّى يسْلموا أوْ يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون،فإذا أعْطوْهـــا لمْ يكنْ للْمسْلمين قتْلهمْ ولا إكْراههمْ على غيْر دينهمْ لقوْل اللّه عزّ وجلّ {قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر} [التوبة:٢٩] الْآية وإذا قوتل أهْل الْأوْثان وأهْل الْكتـــاب قتلوا وسبيتْ ذراريّهمْ ومنْ لمْ يبْلغْ الْحلم والْمحيض منْهمْ ونساؤهمْ الْبوالغ وغيْر البوالغ ثمّ كانوا جميعًا فيْئًا يرْفع منْهمْ الْخمس ويقسّم الْأرْبعة الْأخْماس على منْ أوْجف علـــيْهمْ بالْخيْل والرّكاب،فإنْ أثْخنوا فيهمْ وقهروا منْ قاتلوه منْهمْ حتّى تغلّبوا علـــى بلادهـــمْ قسّمتْ الدّور والْأرضون قسْم الدّنانير والدّراهم لا يخْتلف ذلك تخمّس وتكـــون أرْبعـــة أخْماسها لمنْ حضر،وإذا أسر الْبالغون منْ الرّجال فالْإمام فيهمْ بالْخيار بيْن أنْ يقْتلهمْ إنْ لمْ يسْلم أهْل الْأوْثان أوْ يعْط الْجزْية أهْل الْكتاب،أوْ يمنّ عليْهمْ أوْ يفاديهمْ بمالٍ يأْخـــذه منْهمْ أوْ بأسْرى منْ الْمسْلمين يطْلقون لهمْ أوْ يسْترقّهمْ فإنْ اسْترقّهمْ أوْ أخذ منْهمْ مالًـــا فسبيله سبيل الْغنيمة يخمّس ويكون أرْبعة أخْماسه لأهْل الْغنيمة،فإنْ قال قائـــلٌ:كيْـــف حكمْت في الْمال والْولْدان والنّساء حكْمًا واحـــدًا وحكمْـــت في الرّجـــال أحْكامًـــا

---

[٢٦٥] – فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٠٠)

متفرّقةً،قيل «ظهر رسول اللّه – ﷺ – على قريْظة وخيْبر فقسّم عقارهما منْ الْأرضين والنّخْل قسْمة الْأمْوال وسبى رسول اللّه – ﷺ – ولْدان بني الْمصْطلق وهوازن ونساءهمْ فقسّمهمْ قسْمة الْأمْوال وأسر رسول اللّه – ﷺ – أهْل بدْرٍ فمنْهمْ منْ منّ عليْه بلا شيْءٍ أخذه منْه،ومنْهمْ منْ أخذ منْه فدْيةً ومنْهمْ منْ قتله،وكان الْمقْتولان بعْد الْإسار يوْم بدْرٍ عقْبة بْن أبي معيْطٍ والنّضْر بْن الْحارث،وكان منْ الْممْنون عليْهمْ بلا فدْيةٍ أبو عزّة الْجمحيّ تركه رسول اللّه – ﷺ – لبناته وأخذ عليْه عهْدًا أنْ لا يقاتله فأخْفره وقاتله يوْم أحدٍ فدعا رسول اللّه – ﷺ – أنْ لا يفْلت فما أسر منْ الْمشْركين رجلًا غيْره فقال يا محمّد امْننْ عليّ ودعْني لبناتي وأعْطيك عهْدًا أنْ لا أعود لقتالك فقال النّبيّ – ﷺ – لا تمْسحْ على عارضيْك بمكّة تقول قدْ خدعْت محمّدًا مرّتيْن فأمر به فضربتْ عنقه،ثمّ أسر رسول اللّه – ﷺ – ثمامة بْن أثالٍ الْحنفيّ بعْد فمنّ عليْه ثمّ عاد ثمامة بْن أثالٍ فأسْلم وحسن إسْلامه» أخْبرنا الثّقفيّ عنْ أيّوب عنْ أبي قلابة عنْ أبي الْمهلّب عنْ عمْران بْن حصيْنٍ «أنّ رسول اللّه – ﷺ – فدى رجلًا منْ الْمسْلمين برجليْن منْ الْمشْركين».[٢٦٦]

وقال الجصاص:

قال اللّه عزّ وجلّ:{قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} أخْبر تعالى عنْ أهْل الْكتاب أنّهمْ لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر مع إظْهارهمْ الْإيمان بالنّشور والْبعْث،وذلك يحْتمل وجوهًا:أحدها:أنْ يكون مراده لا يؤْمنون بالْيوْم الْآخر على الْوجْه الّذي يجْري حكْم اللّه فيه منْ تخْليد أهْل الْكتاب في النّار،وتخْليد الْمؤْمنين في الْجنّة،فلمّا كانوا غيْر مؤْمنين بذلك أطْلق الْقوْل فيهمْ بأنّهمْ لا يؤْمنون بالْيوْم الْآخر،ومراده حكْم يوْم الْآخر،وقضاؤه فيه،كما تقول أهْل الْكتاب غيْر مؤْمنين بالنّبيّ،والْمراد بنبوّة النّبيّ ﷺ.وقيل:فيه إنّه أطْلق ذلك فيهمْ على طريق الذّمّ لأنّهمْ بمنْزلة منْ لا يقرّ به في عظم الْجرْم،كما إنّهمْ بمنْزلة الْمشْركين في عبادة اللّه تعالى بكفْرهمْ الّذي اعْتقدوه.وقيل:أيْضًا:لمّا كان إقْرارهمْ عنْ غيْر معْرفةٍ لمْ يكنْ ذلك إيمانًا،وأكْثرهمْ

[٢٦٦] – الأم للشافعي (٤/ ٢٥٢)

بهذه الصّفة.وقوْله تعالى:{ولا يدينون دين الْحقّ} فإنّ دين الْحقّ هو الْإسْلام،وقال اللّــه تعالى:{إنّ الدّين عنْد اللّه الْأسْلام} [آل عمران:١٩] وهو التّسْليم لأمْر اللّه،وما جاءتْ به رسله،والانْقياد له،والْعمل به،والدّين ينْصرف علــى وجــوهٍ:منْهــا الطّاعــة،ومنْها الْقهْر،ومنْها الْجزاء؛ قال الْأعْشى:

هو دان الرّباب اذ كرهوا الدين...دراكا بغزوة وصيال

ودين الْيهود والنّصارى غيْر دين الْحقّ؛ لأنّهمْ غيْر منْقادين لأمْر اللّه ولا طــائعين لــه لجحودهمْ نبوّة نبيّنا ﷺ.فإنْ قيل:فهمْ يدينون بدين التّوْراة والْإنْجيل،ويعْترفون به منْقادين له.قيل:له:في التّوْراة والْإنْجيل ذكر نبيّنا،وأمرْنا بالْإيمان واتّباع شرائعه،وهمْ غيْر عــاملين بذلك بلْ تاركون له،فهمْ غيْر متّبعين دين الْحقّ،وأيْضًا فإنّ شريعة التّوْراة والْإنْجيل قــدْ نسختْ،والْعمل بها بعْد النّسْخ ضلالٌ فليْس هو إذًا دين الْحقّ.وأيْضًا فهمْ قــدْ غيّــروا الْمعاني وحرّفوها عنْ مواضعها،وأزالوها إلى ما تهْواه أنْفسهمْ دون ما أوْجبه عليْهمْ كتب اللّه تعالى،فهمْ غير دائنين دين الحق.

قوله تعالى:{من الّذين أوتوا الْكتاب} فإنّ أهْل الْكتاب منْ الْكفّار همْ الْيهود والنّصارى لقوْله تعالى:{أنْ تقولوا إنّما أنْزل الْكتاب على طائفتيْن منْ قبْلنا} [الأنعام:١٥٦] فلــوْ كان الْمجوس أوْ غيْرهمْ منْ أهْل الشّرْك منْ أهْل الْكتاب لكانوا ثــلاث طوائف،وقــدْ اقْتضتْ الْآية أنّ أهْل الْكتاب طائفتان؛ وقدْ بيناه فيما سلف.

وتقدّم الْكلام أيْضًــا في حكْــم الصّــابئين،وهلْ هــمْ أهْــل الْكتــاب أمْ لا،وهــمْ فريقان:أحدهما:بنواحي كسْكر والْبطائح،وهمْ فيما بلغْنا صنْفٌ منْ النّصارى،وإنْ كانوا مخالفين لهمْ في كثيرٍ منْ ديانــاتهمْ؛ لأنّ النّصــارى فــرقٌ كــثيرةٌ مــنْهمْ الْمرْقونيّــة والْآرْيوسيّة،والْمارونيّة،والْفرق الثّلاث منْ النّسْــطوريّة والْملْكيّة،والْيعْقوبيّــة يبْــرءون منْهمْ،ويحرّمونهمْ،وهمْ ينْتمون إلى يحْيى بْن زكريّا،وشيثٌ،وينْتحلون كتبًا يزْعمون أنّهــا كتب اللّه الّتي أنْزلها على شيث بْن آدم،ويحْيى بْن زكريّا،،والنّصارى تسمّيهمْ يوحنّاسيّة؛ فهذه الْفرْقة يجْعلها أبو حنيفة رحمه اللّه منْ أهْل الْكتاب،ويبيح أكْل ذبائحهمْ،ومناكحــة نسائهمْ.وفرْقةٌ أخْرى قدْ تسمّتْ بالصّابئين،وهمْ الْحرّانيّون الّذين بناحية حرّان،وهمْ عبدة

الْأوْثان،ولا ينْتمون إلى أحد منْ الْأنْبياء،ولا ينْتحلون شيْئًا منْ كتب اللّه،فهؤلاء ليْسوا أهْل الْكتاب.ولا خلاف أنّ هذه النّحْلة لا تؤْكل ذبائحهمْ،ولا تنْكح نساؤهمْ،فمذْهب أبي حنيفة في جعْله الصّابئين منْ أهْل الْكتاب محْمولٌ على مراده الْفرْقة الْأولى.وأمّا أبو يوسف ومحمّدٌ فقالا:"إنّ الصّابئين ليْسوا أهْل الْكتاب" ولْم يفصّلوا بيْن الْفريقيْن.وقدْ روي في ذلك اخْتلافٌ بيْن التّابعين.وروى هشيْمٌ أخْبرنا مطرّفٌ قال:كنّا عنْد الْحكم بْن عييْنة فحدّثه رجلٌ عنْ الْحسن الْبصْريّ أنّه كان يقول في الصّابئين همْ بمنْزلة الْمجوس،فقال الْحسن:أليْس قدْ كنْت أخْبرْتكمْ بذلك؟ وروى عبّاد بْن الْعوّام عنْ الْحجّاج عنْ الْقاسم بْن أبي بزّة عنْ مجاهدٍ قال:الصّابئون قوْمٌ منْ الْمشْركين بيْن الْيهود والنّصارى ليْس لهمْ كتابٌ،وكذلك قوْل الْأوْزاعيّ ومالك بْن أنسٍ.وروى يزيد بْن هارون عنْ حبيب بْن أبي حبيبٍ عنْ عمْرو بْن هرمٍ عنْ جابر بْن زيْدٍ أنّه سئل عنْ الصّابئين أمنْ أهْل الْكتاب همْ وطعامهمْ ونساؤهمْ حلٌّ للْمسْلمين؟ فقال:نعمْ.وأمّا الْمجوس فليْسوا أهْل كتاب بدلالة الْآية ولما روي عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال:"سنّوا بهمْ سنّة أهْل الْكتاب"،وفي ذلك دلالةٌ على أنّهمْ ليْسوا أهْل كتاب.

وقدْ اخْتلف أهْل الْعلْم فيمنْ تؤْخذ منْهمْ الْجزْية منْ الْكفّار بعْد اتّفاقهمْ على جواز إقْرار الْيهود والنّصارى بالْجزْية،فقال أصْحابنا:"لا يقْبلْ منْ مشْركي الْعرب إلّا الْإسْلام أوْ السيف،وتقْبل منْ أهْل الْكتاب منْ الْعرب،ومنْ سائر كفّار الْعجم الْجزْية".وذكر ابْن الْقاسم عنْ مالكٍ:"أنّه تقْبل منْ الْجميع الْجزْية إلّا منْ مشْركي الْعرب" وقال مالكٌ في الزّنْج،ونحْوهمْ:"إذا سبوا يجْبرون على الْإسْلام".وروي عنْ مجاهدٍ أنّه قال:يقاتل أهْل الْكتاب على الْجزْية،وأهْل الْأوْثان على الصّلاة،،ويحْتمل أنْ يريد به أهْل الْأوْثان منْ الْعرب،وقال الثّوْريّ:الْعرب لا يسْبوْن،وهوازن سبوا ثمّ تركهمْ النّبيّ ﷺ.وقال الشّافعيّ:"لا تقْبل الْجزْية إلّا منْ أهْل الْكتاب عربًا كانوا أوْ عجمًا".

قال أبو بكْرٍ:قوْله تعالى:{فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ} يقْتضي قتْل سائر الْمشْركين،فمنْ النّاس منْ يقول:إنّ عمومه مقْصورٌ على عبدة الْأوْثان دون أهْل الْكتاب والْمجوس؛ لأنّ اللّه تعالى قدْ فرّق في اللّفْظ بيْن الْمشْركين وبيْن أهْل الْكتاب والْمجوس

بقوْله تعالى:{إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصّابئين والنّصارى والْمجوس والّذين أشْركوا} [الحج:١٧] فعطف بالْمشْركين على هذه الْأصْناف،فدلّ ذلك على أنّ إطْلاق هذا اللّفْظ يخْتصّ بعبدة الْأوْثان،وإنْ كان الْجميع منْ النّصارى،والْمجوس،والصّابئين مشْركين؛ وذلك لأنّ النّصارى قدْ أشْركتْ بعبادة اللّه عبادة الْمسيح،والْمجوس مشْركون منْ حيْث جعلوا للّه ندًّا مغالبًا،والصّابئون فريقان:أحدهما:عبدة الْأوْثان،والْآخر لا يعْبدون الْأوْثان،ولكنّهمْ مشْركون في وجوه أخر،إلّا أنّ إطْلاق لفْظ الْمشْرك يتناول عبدة الْأوْثان،فلمْ يوجب قوله تعالى:{فاقْتلوا الْمشْركين} إلّا قتْل عبدة الْأوْثان دون غيْرهمْ،وقال آخرون:لّما كان معْنى الشّرْك موْجودًا في مقالات هذه الْفرق منْ النّصارى والْمجوس والصّابئين فقدْ انْتظمهمْ اللّفْظ،ولوْلا ورود آية التّخْصيص في أهْل الْكتاب خصّوا منْ الْجمْلة،ومنْ عداهمْ محْمولون على حكْم الْآية عربًا كانوا أوْ عجمًا.

ولمْ يخْتلفوا في جواز إقْرار الْمجوس بالْجزْية،وقدْ روي عنْ النّبيّ ﷺ في ذلك أخْبارٌ،وروى سفْيان بْن عييْنة عنْ عمْرٍو أنّه سمع مجالدًا يقول: لمْ يكنْ عمر بْن الْخطّاب يأْخذ الْجزْية منْ الْمجوس حتّى شهد عبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ أنّ رسول اللّه ﷺ أخذ الْجزْية منْ مجوس هجر وروى مالكٌ عنْ جعْفر بْن محمّدٍ عنْ أبيه أنّ عمر ذكر الْمجوس فقال:ما أدْري كيْف أصْنع في أمْرهمْ،فقال عبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ:أشْهد لسمعْت رسول اللّه ﷺ يقول:"سنّوا بهمْ سنّة أهْل الْكتاب".وروى يحْيى بْن آدم عنْ الْمسْعوديّ عنْ قتادة عنْ أبي مجْلز قال:كتب النّبيّ ﷺ إلى الْمنْذر "أنّه منْ اسْتقْبل قبْلتنا وصلّى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فذلك الْمسْلم الّذي له ذمّة اللّه وذمّة رسوله ومنْ أحبّ ذلك منْ الْمجوس فهو آمنٌ ومنْ أبى فعليْه الْجزْية" وروى قيْس بْن مسْلمٍ عنْ الْحسن بْن محمّدٍ:أنّ النّبيّ ﷺ كتب إلى مجوس الْبحْريْن يدْعوهمْ إلى الْإسْلام،فمنْ أسْلم منْهمْ قبل منْه،ومنْ أبى ضربتْ عليْه الْجزْية،ولا تؤْكل لهمْ ذبيحةٌ ولا تنْكح لهمْ امْرأةٌ وروى الطّحاويّ عنْ بكّار بْن قتيْبة قال:حدّثنا عبْد الرّحْمن بْن عمْران:حدّثنا عوْفٌ قال:كتب عمر بْن عبْد الْعزيز إلى عديّ بْن أرْطاة:أمّا بعْد فاسْألْ الْحسن ما منع منْ قبْلنا منْ الْأئمّة أنْ يحولوا بيْن الْمجوس وبيْن ما يجْمعون منْ النّساء اللّاتي لا يجْمعهنّ أحدٌ غيْرهمْ؟ فسأله فأخْبره أنّ رسول اللّه ﷺ قبل

منْ مجوس الْبحْريْن الْجزْية،وأقرّهمْ على مجوسيّتهمْ،وعامل رسول اللّه ﷺ يوْمئـــذٍ علـــى الْبحْريْن الْعلاء بْن الْحضْرميّ،وفعله بعْد رسول اللّه ﷺ أبو بكْرٍ وعمر وعثْمـــان.وروى معْمر عنْ الزّهْريّ:أنّ النّبيّ ﷺ صالح أهْل الْأوْثان على الْجزْية إلّا منْ كان مـــنْهمْ مـــنْ الْعرب وروى الزّهْريّ عنْ سعيد بْن الْمسيّب:أنّ رسول اللّه ﷺ أخذ الْجزْية منْ مجـــوس هجر،وأنّ عمر بْن الْخطّاب أخذها منْ مجوس السّواد،وأنّ عثْمان أخذها منْ برْبر.

وفي هذه الْأخْبار أنّ النّبيّ ﷺ أخذ الْجزْية منْ الْمجوس،وفي بعْضها أنّه أخذها منْ عبـــدة الْأوْثان منْ غيْر الْعرب،ولا نعْلم خلافًا بيْن الْفقهـــاء في جـــواز أخْـــذ الْجزْيـــة مـــنْ الْمجوس.وقدْ نقلتْ الْأمّة أخْذ عمر بْن الْخطّاب الْجزْية منْ مجوس السّواد،فمنْ النّـــاس منْ يقول إنّما أخذها لأنّ الْمجوس أهْل كتابٍ،ويحْتجّ في ذلك بما روى سفْيان بْن عييْنة عنْ أبي سعيدٍ عنْ نصْر بْن عاصمٍ عنْ على أنّ النّبيّ ﷺ وأبا بكْرٍ وعمر وعثْمان أخـــذوا الْجزْية منْ الْمجوس،وقال عليٌّ:أنا أعْلم النّاس بهمْ كانوا أهْل كتابٍ يقْرءونه وأهْل علْمٍ يدْرسونه فنزع ذلك منْ صدورهمْ.وقدْ ذكرْنا فيما تقدّم منْ الدّلالة على أنّهمْ ليْسوا أهْل كتابٍ منْ جهة الْكتاب والسّنّة.وأمّا ما روي عنْ عليٍّ في ذلـــك أنّهـــمْ كـــانوا أهْـــل كتابٍ،فإنّه إنْ صحّتْ الرّواية فإنّ الْمراد أنّ أسْلافهمْ كانوا أهْل كتابٍ لإخْبـــاره بـــأنّ ذلك نزع منْ صدورهمْ،فإذًا ليْسوا أهْل كتابٍ في هذا الْكتاب.ويدلّ على أنّهمْ ليْســـوا أهْل كتابٍ ما روي في حديث الْحسن بْن محمّد أنّ النّبيّ ﷺ قال في مجوس الْبحْريْن:"إنّ منْ أبى منْهمْ الْإسْلام ضربتْ عليْه الْجزْية،ولا تؤْكل لهمْ ذبيحةٌ،ولا تنْكح لهمْ امْرأةٌ"،ولوْ كانوا أهْل كتابٍ لجاز أكْل ذبائحهمْ،ومناكحة نسائهمْ؛ لأنّ اللّه تعالى قدْ أباح ذلك منْ أهْل الْكتاب.ولمّا ثبت أخْذ النّبيّ ﷺ الْجزْية منْ الْمجوس،وليْسوا أهْل كتابٍ ثبت جواز أخْذها منْ سائر الْكفّار أهْل كتابٍ كانوا أوْ غيْر أهْل كتابٍ إلّا عبدة الْأوْثان منْ الْعرب؛ لأنّ النّبيّ ﷺ لمْ يقْبلْ منْهمْ إلّا الْإسْلام أوْ السّيْف،وبقوْله تعالى:{فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ} وهذا في عبدة الْأوْثان منْ الْعرب،ويدلّ على جواز أخْذ الْجزْية منْ ســـائر الْمشْركين سوى مشْركي الْعرب حديث علْقمة بْن مرْثدٍ عنْ ابْن بريْدة عنْ أبيه أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا بعث سريّةً قال:"إذا لقيتمْ عدوّكمْ منْ الْمشْركين فادْعوهمْ إلى شهادة أنْ لا

إله إلّا اللّه وأنّ محمّدًا رسول اللّه فإنْ أبوْا فادْعوهمْ إلى إعْطاء الْجزْية".وذلــك عــامٌّ في سائر الْمشْركين،وخصّصْنا منْهمْ مشْركي الْعرب بالْآية وسيرة النّبيّ ﷺ فيهمْ.[٢٦٧]

باب منْ تؤْخذ منْه الْجزْية،قال اللّه تعالى:{قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الْآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله} إلى قوْله:{حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} فكان معْقولًا منْ فحوى الْآية،ومضْمونها أنّ الْجزْية مأْخوذةٌ ممّنْ كان منْهمْ مــنْ أهْــل الْقتال لاسْتحالة الْخطاب بالْأمْر بقتال منْ ليْس منْ أهْل الْقتال،إذْ الْقتال لا يكون إلّا بيْن اثْنيْن،ويكون كلّ واحدٍ منْهما مقاتلًا لصاحبه،وإذا كان كذلك ثبت أنّ الْجزْية مأْخوذةٌ ممّنْ كان منْ أهْل الْقتال،ومنْ يمْكنْه أداؤه منْ الْمحْترفين؛ ولذلك قال أصْحابنا:إنّ منْ لمْ يكنْ منْ أهْل الْقتال فلا جزْية عليْه،فقالوا:منْ كان أعْمى أوْ زمنًا أوْ مفْلوجًا أوْ شــيْخًا كبيرًا فانيًا،وهو موسرٌ فلا جزْية عليْه؛ وهو قوْلهمْ جميعًا في الرّواية الْمشْهورة.وروي عنْ أبي يوسف في الْأعْمى والزّمن والشّيْخ الْكبير أنّ عليْهمْ الْجزْية إذا كانوا موسرين،وروي عنْه مثْل قوْل أبي حنيفة.وروى ابْن رسْتم عنْ محمّدٍ في نوادره قال:قلْت:أرأيْت أهْل الذّمّة منْ بني تغْلب،وغيْرهمْ ليْس لهمْ حرْفةٌ،ولا مالٌ،ولا يقْدرون على شيْءٍ؟ قــال:لا شــيْء عليْهمْ،قال محمّدٌ:وإنّما يوضع الْخراج على الْغنيّ والْمعْتمل منْهمْ.وقال محمّدٌ في النّصْرانيّ يكْتسب،ولا يفْضل له شيْءٌ عنْ عياله:"إنّه لا يؤْخذ بخراج رأْسه".وقالوا في أصْــحاب الصّوامع،والسّيّاحين إذا كانوا لا يخالطون النّاس:فلا جزْية عليْهمْ،وإنْ كــانوا يخــالطون النّاس فعليْهمْ الْجزْية،وكذلك النّساء والصّبْيان لا جزْية علــيْهمْ إذْ ليْســوا مــنْ أهْــل الْقتال.وروى أيّوب وغيْره عنْ نافعٍ عنْ أسْلم قال:كتب عمر إلى أمراء الْجيــوش أنْ لا يقاتلوا إلّا منْ قاتلهمْ،ولا يقْتلوا النّساء والصّبْيان،ولا يقْتلــوا إلّــا مــنْ جــرتْ عليْــه الْمواسي،وكتب إلى أمراء الْأجْناد أنْ يضْربوا الْجزْيــة،ولا يضْــربوها علــى النّســاء والصّبْيان،ولا يضْربوها إلّا على منْ جرتْ عليْه الْمواسي.وروى عاصمٌ عنْ أبي،وائلٍ عنْ مسْروقٍ عنْ معاذٍ بْن جبلٍ قال:"بعثني رسول اللّه ﷺ إلى الْيمن،وأمرني أنْ آخذ منْ كلّ حالمٍ دينارًا أو عدله من المعافر"

---

[٢٦٧] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١١٧)

وأمّا مقْدار الْجزْية قال اللّه تعالى:{حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} فلمْ تكنْ في ظاهر الْآية دلالةٌ على مقْدارٍ منْها بعيْنه.وقـــدْ اخْتلـــف الْفقهـــاء في مقْـــدارها،فقال أصْحابنا:"على الْموسر منْهمْ ثمانيةٌ وأرْبعون درْهمًا،وعلى الْوســـط أرْبعـــةٌ وعشْـــرون درْهمًا،وعلى الْفقير الْمعْتمل اثْنا عشر درْهمًا"،وهو قوْل الْحســـن بْـــن صـــالحٍ.وقـــال مالكٌ:"أرْبعة دنانير على أهْل الذّهب وأرْبعون درْهمًا على أهْل الْورق الْغنيّ والْفقير سواءٌ لا يزاد ولا ينْقص".وقال الشّافعيّ:"دينارٌ على الْغنيّ والْفقير".وروى أبو إسْـــحاق عـــنْ حارثة بْن مضرّبٍ قال:بعث عمر بْن الْخطّاب عثْمان بْن حنيْفٍ فوضع على أهْل السّواد الْخراج ثمانيةً وأرْبعين درْهمًا وأرْبعةً وعشْرين درْهمًا واثْنيْ عشر درْهمًا.وروى الْأعْمش عنْ إبْراهيم بْن مهاجرٍ عنْ عمْرو بْن ميْمونٍ قال:بعث عمر بْن الْخطّاب حذيْفة بْن الْيمـــان على ما وراء دجْلة وبعث عثْمان بْن حنيْفٍ على ما دون دجْلة،فأتياه فســـألهما:كيْـــف وضعْتما على أهْل الْأرْض؟ قالا:وضعْنا علـــى كـــلّ رجْـــلٍ أرْبعـــة دراهـــم في كـــلّ شهْرٍ،قال:ومنْ يطيق هذا؟ قالا:إنّ لهمْ فصولًا فذكر عمْرو بْن ميْمـــونٍ ثمانيـــةً،وأرْبعين درْهمًا،ولمْ يفصّلْ الطّبقات،وذكر حارثة بْن مضرّبٍ تفْصيل الطّبقات الثّلاث،فالْواجـــب أنْ يحْمل ما في حديث عمْرو بْن ميْمونٍ على أنّ مراده أكْثر ما وضع منْ الْجزْية،وهو ما على الطّبقة الْعلْيا دون الْوسْطى والسّفْلى.وروى مالكٌ عنْ نافعٍ عنْ أسْلم:أنّ عمر ضرب الْجزْية على أهْل الذّهب أرْبعة دنانير،وعلى أهْل الْـــورق أرْبعـــين درْهمًـــا مـــع أرْزاق الْمسْلمين وضيافة ثلاثة أيّامٍ وهذا نحْو رواية عمْرو بْن ميْمـــونٍ لأنّ أرْزاق الْمسْـــلمين وضيافة ثلاثة أيّامٍ مع الْأرْبعين يفي ثمانيةً وأرْبعين درْهمًا،فكان الْخبر الّذي فيـــه تفْصـــيل الطّبقات الثّلاث أوْلى بالاسْتعْمال لما فيه منْ الزّيادة،وبيان حكْم كلّ طبقـــةٍ؛ ولأنّ مـــنْ وضعها على الطّبقات فهو قائلٌ بخبر الثّمانية والْأرْبعين،ومنْ اقْتصر على الثّمانية والْأرْبعين فهو تاركٌ للْخبر الّذي فيه ذكْر تمْييز الطّبقات،وتخْصيص كلّ واحدٍ بمقْدارٍ منْها.

واحْتجّ منْ قال بدينارٍ على الْغنيّ والْفقير بما روي عنْ معاذٍ:أنّ رسول اللّه ﷺ حين بعثـــه إلى الْيمن أمره أنْ يأْخذ منْ كلّ حالمٍ دينارًا أوْ عدْله منْ الْمعافر،وهذا عنْدنا فيما كـــان منْه على وجْه الصّلْح أوْ يكون ذلك جزْية الْفقراء منْهمْ،وذلك عنْدنا جائزٌ،والدّليل عليْه

ما روي في بعْض أخْبار معاذٍ أنّ النّبيّ ﷺ أمره أنْ يأْخذ منْ كلّ حالمٍ أوْ حالمةٍ دينارًا،ولا خلاف أنّ الْمرْأة لا تؤْخذ منْها الْجزْية إلّا أنْ يقع الصّلْح عليْه.وروى أبو عبيْد عنْ جريرٍ عنْ منْصورٍ عنْ الْحكم قال:كتب رسول اللّه ﷺ إلى معاذٍ،وهو بالْيمن:"إنّ في الْحالم والْحالمة دينارًا أوْ عدْله منْ الْمعافر".قال أبو عبيْد:وحدّثنا عثْمان بْن صالحٍ عنْ عبْد اللّه بْن لهيعة عنْ أبي الْأسْود عنْ عرْوة بْن الزّبيْر قال:كتب رسول اللّه ﷺ إلى أهْل الْيمن:"إنّه منْ كان على يهوديّةٍ أوْ نصْرانيّةٍ فإنّه لا ينْقل عنْها وعليْه الْجزْية وعلى كلّ حالمٍ ذكرٍ أوْ أنْثى عبْدٍ أوْ أمةٍ دينارٌ أوْ قيمته منْ الْمعافر"،ويدلّ على أنّ الْجزْية على الطّبقات الثّلاث أنّ خراج الْأرضين جعل على مقْدار الطّاقة،واخْتلف بحسب اخْتلافها في الْأرْض وغلّتها،فجعل على بعْضها قفيزًا ودرْهمًا وعلى بعْضها خمْسة دراهم وعلى بعْضها عشرة دراهم فوجب على ذلك أنْ يكون كذلك حكْم خراج الرّءوس على قدْر الْإمْكان والطّاقة،ويدلّ على ذلك قوْل عمر لحذيْفة وعثْمان بْن حنيْفٍ:لعلّكما حمّلْتما أهْل الْأرْض ما لا يطيقون؟ فقالا:بلْ تركْنا لهمْ فضْلًا.وهذا يدلّ على أنّ الاعْتبار بمقْدار الطّاقة،وذلك يوجب اعْتبار حاليْ الْإعْسار،والْيسار.وذكر يحْيى بْن آدم أنّ الْجزْية على مقْدار الاحْتمال بغيْر توْقيتٍ،وهو خلاف الْإجْماع.وحكي عنْ الْحسن بْن صالحٍ أنّه لا تجوز الزّيادة في الْجزْية على وظيفة عمر،ويجوز النّقْصان،وقال غيْره:يجوز الزّيادة،والنّقْصان على حسب الطّاقة.وقدْ روى الْحكم عنْ عمْرو بْن ميْمونٍ أنّه شهد عمر يقول لعثْمان بْن حنيْفٍ:واللّه لئنْ وضعْت عنْ كلّ جريبٍ منْ الْأرْض قفيزًا ودرْهمًا،وعلى كلّ رأْسٍ درْهميْن لا يشقّ ذلك عليْهمْ،ولا يجهدهم قال:وكانتْ ثمانيةً وأرْبعين فجعلها خمْسين.واحْتجّ منْ قال بجواز الزّيادة بهذا الْحديث،وهذا ليْس بمشْهورٍ،ولمْ تثْبتْ به روايةٌ،واحْتجّوا أيْضًا بما روى أبو الْيمان عنْ صفْوان بْن عمْرٍو عنْ عمر بْن عبْد الْعزيز:أنّه فرض على رهْبان الدّيارات على كلّ راهبٍ ديناريْن،وهذا عنْدنا على أنّه ذاهبٌ منْ الطّبقة الْوسْطى،فأوْجب ذلك عليْهمْ ما رأى منْ احْتمالهمْ له،كما روى سفْيان بْن عييْنة عنْ ابْن أبي نجيحٍ قال:سألْت مجاهدًا: لم وضع عمر على أهْل الشّام منْ الْجزْية أكْثر ممّا،وضع على أهْل الْيمن؟ قال:للْيسار في تمْييز الطّبقات

قال أبو يوسف في كتاب الْخراج:"تؤْخذ منْهمْ على الطّبقات على ما وصفْت ثمانيةً وأرْبعين على الْموسر مثْل الصّيْرفيّ والْبزّاز وصاحب الصّنْعة،والتّاجر والْمعالج والطّبيب وكلّ منْ كان في يده منْهمْ صنْعةٌ وتجارةٌ يحْترف بها أخذ منْ أهْل كلّ صناعةٍ وتجارةٍ على قدْر صناعتهمْ وتجارتهمْ ثمانيةٌ وأرْبعون على الْموسر وأرْبعةٌ وعشْرون منْ الْمتوسّط،منْ احْتملتْ صناعته ثمانيةً وأرْبعين أخذ منْه ذلك،ومنْ احْتملتْ أرْبعةً وعشْرين أخذ ذلك منْه،واثْنا عشر على الْعامل بيده مثْل الْخيّاط والصّبّاغ والْجزّار والْإسْكاف ومنْ أشْبههمْ".فلمْ يعْتبرْ الْملْك،واعْتبر الصّناعات،والتّجارات على ما جرتْ به عادة النّاس في الْموسر والْمعْسر منْهمْ.وذكر عليُّ بْن موسى الْقمّيّ منْ غيْر أنْ عزى ذلك إلى أحدٍ منْ أصْحابنا أنّ الطّبقة الْأولى منْ يحْترف،وليْس له ما يجب في مثْله الزّكاة على الْمسْلمين،وهمْ الْفقراء الْمحْترفون،فمنْ كان له أقلّ منْ مائتيْ درْهمٍ فهمْ منْ أهْل هذه الطّبقة،قال:والطّبقة الثّانية أنْ يبْلغ مال الرّجْع مائتيْ درْهمٍ فما زاد إلى أرْبعة آلاف درْهمٍ؛ لأنّ منْ له مائتا درْهمٍ غنيٌّ تجب عليْه الزّكاة لوْ كان مسْلمًا فهو خارجٌ عنْ طبْقة الْفقراء،قال:وإنّما أخذْنا اعْتبار الْأرْبعة الْآلاف منْ قوْل عليٍّ رضي اللّه عنْه وابْن عمر:"أرْبعة آلافٍ فما دونها نفقةٌ وما فوْق ذلك فهو كثيرٌ" قال:وقدْ يجوز أنْ تجْعل الطّبقة الثّانية منْ ملك مائتيْ درْهمٍ إلى عشرة آلاف درْهمٍ،وما زاد على ذلك فهو منْ الطّبقة الثّالثة لما روى حمّاد بْن سلمة عنْ طلْحة بْن عبْد اللّه بْن كريْزٍ عنْ أبي الضّيْف عنْ أبي هريْرة أنّ النّبيّ ﷺ قال:"منْ ترك عشرة آلاف درْهمٍ جعلتْ صفائح يعذّب بها يوْم الْقيامة" وهذا الّذي ذكره عليّ بْن موسى الْقمّيّ هو اجْتهادٌ يسوغ الْقوْل به لمنْ غلب في ظنّه صوابه.

وقوله تعالى:{عنْ يدٍ} قال قتادة:"عنْ قهْرٍ" كأنّه ذهب في الْيد إلى الْقوّة والْقدْرة والاسْتعْلاء فكأنّه قال:على اسْتعْلاء منْكمْ عليْهمْ،وقهْرهمْ.وقيل:{عنْ يدٍ} يعْني عنْ يد الْكافر.وإنّما ذكر الْيد ليفارق حال الْغصْب؛ لأنّه يعْطيها بيده راضيًا بها حاقنًا بها دمه،فكأنّه قال:حتّى يعْطيها،وهو راض بها.ويحتمل:{عنْ يدٍ} عنْ نعْمة،فيكون تقْديره:حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ اعْترافٍ منْهمْ بالنّعْمة فيها عليْهمْ بقبولها منهم.وقال

بعضهم:{عنْ يدٍ} يعْني عنْ نقْدٍ منْ قوْلهمْ:يدًا بيدٍ.وقال أبو عبيْدة معْمر بْن الْمثنّى:كــلّ منْ أطاع الْقاهر بشيْءٍ أعْطاه عنْ طيب نفْسٍ،وقهْرٍ له منْ يدٍ في يده فقدْ أعْطــاه عــنْ يدٍ.قال:والصّاغر الذّليل الحقير.وقوله {وهمْ صاغرون} قال ابْن عبّــاسٍ:يمْشــون بهــا ملبّبين،وقال سلْمان:مذْمومين غيْر محْمودين وقيل:إنّما كان صغارًا لأنّها مسْتحقّةٌ عليْهمْ يؤْخذون بها،ولا يثابون عليْها،وقال عكْرمة:الصّغار إعْطــاء الْجزْيــة قائمًــا والْأخْــذ جالسًا.وقيل:"الصّغار الذّلّ".ويجوز أنْ يكون الْمراد به الذّلّة الّتي ضــربها اللّــه علــيْهمْ بقوْله:{ضربتْ عليْهم الذّلّة أيْن ما ثقفوا إلّا بحبْلٍ من اللّه وحبْــلٍ مــن النّــاس} [آل عمران:١١٢] والْحبْل الذّمّة الّتي عهدها اللّه لهمْ،وأمر الْمسْلمين بها فيهمْ.وروى عبْــد الْكريم الْجزريّ عنْ سعيد بْن الْمسيّب أنّه كان يسْتحبّ أنْ يتْعب الْأنْباط في الْجزْية إذا أخذتْ منْهمْ.قال أبو بكْرٍ:ولمْ يردْ بذلك تعْذيبهمْ،ولا تكْليفهمْ فوْق طاقتــهمْ،وإنّما أراد الاسْتخْفاف بهمْ،وإذْلالهمْ.وحدّثنا عبْد الْباقي بْن قــانعٍ قــال:حــدّثنا إسْــحاق بْــن الْحسن:حدّثنا أبو حذيْفة قال:حدّثنا سفْيان عنْ سهيْلٍ عنْ أبيه عنْ أبي هريْرة قال:قــال رسول اللّه ﷺ:"إذا لقيتمْ الْمشْركين في الطّريق فلا تبْدءوهمْ بالسّــلام واضْــطرّوهمْ إلى ضيّقه" وحدّثنا عبْد الْباقي قال:حدّثنا مطيْرٌ قال:حدّثنا يوسف الصّفّار قال:حــدّثنا أبــو بكْرٍ بْن عيّاشٍ عنْ سهيْلٍ عنْ أبيه عنْ أبي هريْرة قال:قال رسول اللّه ﷺ:"لا تصــافحوا الْيهود والنّصارى" فهذا كلّه منْ الصّغار الّذي ألْبس اللّه الْكفّار بكفْرهمْ؛ ونحْــوه قوْلــه تعالى:{يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخــذوا بطانــةً مــنْ دونكــمْ} [آل عمــران:١١٨] الْآية،وقال:{لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء بعْضهمْ أوْلياء بعْضٍ ومنْ يتولّهمْ مــنْكمْ فإنّه منْهمْ} [المائدة:٥١] فنهى في هذه الْآيات عنْ موالاة الْكفّــار وإكْــرامهمْ وأمــر بإهانتهمْ وإذْلالهمْ ونهى عنْ الاسْتعانة بهمْ في أمور الْمسْلمين لما فيــه مــنْ الْعزّ،وعلــوّ الْيد.وكذلك كتب عمر إلى أبي موسى ينْهاه أنْ يسْتعين بأحدٍ مــنْ أهْــل الشّــرْك في كتابته،وتلا قوْله تعالى:{لا تتّخذوا بطانــةً مــنْ دونكــمْ لا يــألونكمْ خبــالاً} [آل عمران:١١٨] وقال:لا تردّوهمْ إلى الْعزّ بعْد إذْلالهمْ منْ اللّه.وقوْله تعالى:{حتّى يعْطــوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغر} قدْ اقْتضى وجوب قتْلهمْ إلى أنْ تؤْخذ منْهمْ الْجزْية علــى

وجْه الصّغار والذّلّة،فغيْر جائز على هذه القضية أن تكون لهمْ ذمّةٌ إذا تسلّطوا على الْمسْلمين بالْولايات ونفاذ الْأمْر والنّهْي،إذْ كان اللّه إنّما جعل لهمْ الذّمّة وحقن دماءهمْ بإعْطاء الْجزْية وكوْنهمْ صاغرين.فواجبٌ على هذا قتْل منْ تسلّط على الْمسْلمين بالْغصوب،وأخْذ الضّرائب،والظّلْم سواءٌ كان السّلْطان ولّاه ذلك أوْ فعله بغيْر أمْر السّلْطان وهذا يدلّ على أنّ هؤلاء النّصارى الّذين يتولّوْن أعْمال السّلْطان وظهر منْهمْ ظلْمٌ واسْتعْلاءٌ على الْمسْلمين،وأخْذ الضّرائب لا ذمّة لهمْ وأنّ دماءهمْ مباحةٌ،وإنْ كان آخذو الضّرائب ممّنْ ينْتحل الْإسْلام والْقعود على الْمراصد لأخْذ أمْوال النّاس يوجب إباحة دمائهمْ إذْ كانوا بمنْزلة قطّاع الطّريق،ومنْ قصد إنْسانًا لأخْذ ماله،فلا خلاف بيْن الْفقهاء أنّ له قتْله.وكذلك قال النّبيّ ﷺ:"منْ طلب ماله فقاتل فقتل فهو شهيدٌ" وفي خبرٍ آخر:"منْ قتل دون ماله فهو شهيدٌ،ومنْ قتل دون أهْله فهو شهيدٌ ومنْ قتل دون دمه فهو شهيدٌ" فإذا كان هذا حكْم منْ طلب أخْذ مال غيْره غصْبًا وهو ممّنْ ينْتحل الْإسْلام فالذّمّيّ إذا فعل ذلك اسْتحقّ الْقتْل منْ وجْهيْن:أحدهما:ما اقْتضاه ظاهر الْآية منْ وجوب قتْله،والْآخر:قصْده الْمسْلم بأخْذ ماله ظلْمًا.

قال اللّه تعالى:{قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه} إلى قوْله:{حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} ؛ فأوْجب قتالهمْ،وجعل إعْطاء الْجزْية غايةً لرفْعه عنْهمْ؛ لأنّ {حتّى} غايةٌ،هذا حقيقة اللّفْظ،والْمفْهوم منْ ظاهره،ألا ترى أنّ قوْله:{ولا تقْربوهنّ حتّى يطْهرْن} [البقرة:٢٢٢] قدْ حظر إباحة قرْبهنّ إلّا بعْد وجود طهْرهنّ.وكذلك الْمفْهوم منْ قوْل الْقائل:"لا تعْط زيْدًا شيْئًا حتّى يدْخل الدّار" منع الْإعْطاء إلّا بعْد دخوله،فثبت بذلك أنّ الْآية موجبةٌ لقتال أهْل الْكتاب مزيلةٌ ذلك عنْهمْ بإعْطاء الْجزْية،وهذا يدلّ على أنّ الْجزْية قدْ وجبتْ بعقْد الذّمّة،وكذلك كان يقول أبو الْحسن الْكرْخيّ؛ وذكر ابْن سماعة عنْ أبي يوسف قال:"لا تؤْخذ منْ الذّمّيّ الْجزْية حتّى تدْخل السّنة،ويمْضي شهْران منْها بعْض ما عليْه بشهْريْن،ونحْو ذلك يعامل في الْجزْية،بمنْزلة الضّريبة كلّما كان يمْضي شهْران أوْ نحْو ذلك أخذتْ منْه".قال أبو بكْرٍ:يعْني بالضّريبة الْأجْرة في الْإجارات؛ قال أبو يوسف:"ولا يؤْخذ ذلك منْه حين تدْخل السّنة،ولا يؤْخذ ذلك منْه حتّى تتمّ

السّنة،ولكنْ يعامل ذلك في سنته". قال أبو بكْر: ذكْره للشّهْريْن إنّما هو توْفيةٌ، وهي واجبةٌ بإقْرارنا إيّاه على الذّمّة، لما تضمّنه ظاهر الْآية. وذكر ابْن سماعة عنْ أبي يوسف عنْ أبي حنيفة أنّه قال في الذّمّيّ: "يؤْخذ منْه خراج رأْسه في سنته ما دام فيها، فإذا انْقضتْ السّنة لمْ يؤْخذْ منْه". وهذا يدلّ منْ قوْل أبي حنيفة على أنّه رآها واجبةً بعقْد الذّمّة لهمْ، وأنّ تأْخيرنا بعْض السّنة إنّما هو توْفيةٌ للْواجب وتوْسعةٌ. ألا ترى أنه قال: "فإذا انْقضتْ السّنة لمْ تؤْخذْ منْه"؟ لأنّ دخول السّنة الثّانية يوجب جزْيةً أخْرى، فإذا اجْتمعتا سقطتْ إحْداهما. وعنْ أبي يوسف ومحمّد: "اجْتماعهما لا يسْقط إحْداهما".

وجْه قوْل أبي حنيفة أنّ الْجزْية واجبةٌ على وجْه الْعقوبة لإقامتهمْ على الْكفْر مع كوْنهمْ منْ أهْل الْقتال، وحقّ الْأخْذ فيها إلى الْإمام، فأشْبهتْ الْحدود، إذْ كانتْ مسْتحقّةً في الْأصْل على وجْه الْعقوبة، وحقّ الْأخْذ إلى الْإمام، فلمّا كان اجْتماع الْحدود منْ جنْسٍ واحدٍ يوجب الاقْتصار على واحدٍ منْهما مثْل أنْ يزْني مرارًا أوْ يسْرق مرارًا ثمّ يرْفع إلى الْإمام فلا يجب إلّا حدٌّ واحدٌ بجميع الْأفْعال، كذلك حكْم الْجزْية إذْ كانتْ مسْتحقّةً على وجْه الْعقوبة بلْ هي أخفّ أمْرًا، وأضْعف حالًا منْ الْحدود؛ لأنّه لا خلاف بيْن أصْحابنا أنّ إسْلامه يسْقطها، ولا تسْقط الْحدود بالْإسْلام.

فإنْ قيل: لمّا كان ذلك ديْنًا، وحقًّا في مال الْمسْلمين لمْ يسْقطْه اجْتماعه، كالدّيون وخراج الْأرضين. قيل: له: خراج الْأرضين ليْس بصغارٍ ولا عقوبة، والدّليل عليْه أنّه يؤْخذ منْ الْمسْلمين، والْجزْية لا تؤْخذ منْ مسْلمٍ. وقدْ روي نحْو قوْل أبي حنيفة عنْ طاوسٍ، وروى ابْن جريْجٍ عنْ سليْمان الْأحْول عنْ طاوسٍ قال: "إذا تداركتْ صدقاتٌ فلا تؤْخذ الْأولى كالْجزْية".

وقدْ اخْتلف الْفقهاء في الذّمّيّ إذا أسْلم، وقدْ وجبتْ عليْه جزْيةٌ هلْ يؤْخذ بها؟ فقال أصْحابنا: "لا يؤْخذ"، وهو قوْل مالك وعبيْد اللّه بْن الْحسن. وقال ابْن شبْرمة والشّافعيّ: "إذا أسْلم في بعْض السّنة أخذ منْه بحساب ذلك". والدّليل على أنّ الْإسْلام يسْقط ما وجب منْ الْجزْية قوْله تعالى: {قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه} إلى قوْله: {حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} فانْتظمتْ هذه الْآية الدّلالة منْ وجْهيْن على صحّة

ما قلْنا أحدهما:الْأمْر بأخْذ الْجزْية ممّنْ يجب قتاله لإقامته على الْكفْر إنْ لمْ يؤدّهـــا،ومتى أسْلم لمْ يجبْ قتاله فلا جزْية عليْه.والْوجْه الثّاني:قوْله تعالى:{عنْ يدٍ وهـــمْ صـــاغرون} فأمر بأخْذها منْهمْ على وجْه الصّغار والذّلّة،وهذا الْمعْنى معْدومٌ بعْد الْإسْـــلام إذْ غيْـــر ممْكنٍ أخْذها على هذا الْوجْه،ومتى أخذْناها على غيْر هذا الْوجْه لمْ تكـــنْ جزْيـــةٌ لأنّ الْجزْية هي ما أخذ على وجْه الصّغار.وقدْ روى الثّوْريّ عنْ قابوس بْن أبي ظبْيان عنْ أبيه عنْ ابْن عبّاسٍ قال:قال رسول اللّه ﷺ:"ليْس على مسْلمٍ جزْيةٌ" فنفى ﷺ أخْـــذها مـــنْ الْمسْلم،ولمْ يفرّقْ بيْن ما وجب عليْه في حال الْكفْر،وبيْن ما لمْ يجبْ بعْد الْإسْلام،فوجب بظاهر ذلك إسْقاط الْجزْية عنْه بالْإسْلام.ويدلّ علـــى ســـقوطها أنّ الْجزْيـــة،والْجزاء واحدٌ،ومعْناه جزاء الْإقامة على الْكفْر ممّنْ كان منْ أهْل الْقتال،فمتى أسْلم ســـقط عنْـــه بالْإسْلام الْمجازاة على الْكفْر،إذْ غيْر جائزٍ عقـــاب التّائـــب في حـــال الْمهْلـــة،وبقاء التّكْليف؛ولهذا الاعْتبار أسْقطها أصْحابنا بالْموْت لفوات أخْذها منْه على وجْه الصّـــغار بعْد موْته فلا يكون ما يأْخذه جزْيةٌ،وعلى هذا قـــالوا فـــيمنْ وجبـــتْ عليْـــه زكـــاة ماله،ومواشيه فمات:إنّها تسْقط ولا يأْخذها الْإمام منْه؛ لأنّ سبيل أخْذها،وموْضوعها في الْأصْل سبيل الْعبادات يسْقطها الْموْت،وقالوا فيمنْ وجبتْ عليْه نفقة امْرأتـــه بفـــرْض الْقاضي فمات أوْ ماتتْ إنّها تسْقط؛ لأنّ موْضوعها عنْدهمْ موْضوع الصّلة إذْ ليْســـتْ بدلًا عنْ شيْءٍ،ومعْنى الصّلة لا يتأتّى بعْد الْموْت،فأسْقطوها لهذه الْعلّة.

فإنْ قيل:الْحدود واجبةٌ على وجْه الْعقوبة،والتّوْبة لا تسْـــقطها،وكذلك لـــوْ أنّ ذمّيًّـــا أسْلم،وقدْ زنى أوْ سرق في حال كفْره لمْ يكنْ إسْلامه،وتوْبته مسْقطيْن لحدّه،وإنْ كـــان وجوب الْحدّ في الْأصْل على وجْه الْعقوبة،والتّائب لا يسْتحقّ الْعقاب على فعْـــلٍ قـــدْ صحّتْ منْه توْبته.قيل له:أمّا الْحدّ الّذي كان واجبًا على وجْه الْعقوبـــة فقـــدْ ســـقط بالتّوْبة،وما نوجبه بعْدها ليْس هو الْحدّ الْمسْتحقّ على وجْه الْعقوبة بلْ هو حدٌّ واجـــبٌ على وجْه الْمحْنة بدلالةٍ قامتْ لنا على وجوبه غيْر الدّلالة الْموجبة للْحدّ الْـــأوّل علـــى وجْه الْعقوبة،فإنْ قامتْ دلالةٌ على وجوب أخْذ الْمال منْه بعْد إسْلامه لا علـــى وجْـــه الْجزْية والْعقوبة لمْ نأْب إيجابه إلّا أنّه لا يكون جزْيةٌ لأنّ اسْم الْجزْية يتضـــمّن كوْنهـــا

عقوبةً،وأنْت فإنّما تزْعم أنّه تؤْخذ منْه الْجزْية بعْد إسْلامه،فإنْ اعْترفْت بأنّ الْمأْخوذ منْه غيْر جزْيةٍ،وأنّ الْجزْية الّتي كانتْ واجبةٌ قدْ سقطتْ،وإنّما يجب مالٌ آخر غيْر الْجزْية فإنّما أنْت رجلٌ سمْتنا إيجاب مالٍ على مسْلمٍ منْ غيْر سببٍ يقْتضي إيجابه،وهذا لا نسلّم لك إلّا بدلالةٍ.وقدْ روى الْمسْعوديّ عنْ محمّد بْن عبْد اللّه الثّقفيّ:أنّ دهْقانًا أسْلم فقام إلى عليٍّ رضي اللّه عنْه فقال له عليٌّ:أمّا أنْت فلا جزْية عليْك،وأمّا أرْضك فلنا،وفي لفْظٍ آخر:إنْ تحوّلْت عنْها فنحْن أحقّ بها.وروى معْمرٌ عنْ أيّوب عنْ محمّد قال أسْلم رجلٌ فأخذ بالْخراج،وقيل له:إنّك متعوّذٌ بالْإسْلام،فقال:إنّ في الْإسْلام لمعاذًا إنْ فعلْت،فقال عمر أجلْ واللّه إنّ في الْإسْلام معاذًا إنْ فعل فرفع عنْه الْجزْية.وروى حمّاد بْن سلمة عنْ حميْد قال:كتب عمر بْن عبْد الْعزيز:منْ شهد شهادتنا واسْتقْبل قبْلتنا،واخْتتن فلا تأْخذوا منْه الْجزْية.فلمْ يفرّقْ هؤلاء السّلف بيْن الْجزْية الْواجبة قبْل الْإسْلام،وبيْن حاله بعْد الْإسْلام في نفْيها عنْ كلّ مسْلمٍ.[268]

وفي المحلى:

ولا يقْبل منْ كافرٍ إلّا الْإسْلام،أوْ السّيْف - الرّجال والنّساء في ذلك سواءٌ - حاشا أهْل الْكتاب خاصّةً،وهمْ الْيهود،والنّصارى،والْمجوس فقطْ،فإنّهمْ إنْ أعْطوا الْجزْية أقرّوا على ذلك مع الصّغار.وقال أبو حنيفة ومالكٌ:أمّا منْ لمْ يكنْ كتابيًّا منْ الْعرب خاصّةً فالْإسْلام أوْ السّيْف.

وأمّا الْأعاجم فالْكتابيّ وغيْره سواءٌ،ويقرّ جميعهمْ على الْجزْية.

قال أبو محمّد:هذا باطلٌ لقوْل اللّه تعالى:{فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ وخذوهمْ واحْصروهمْ واقْعدوا لهمْ كلّ مرْصدٍ فإنْ تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهمْ} [التوبة:٥]،وقال تعالى:{قاتلوا الّذين لا يؤْمنون باللّه ولا بالْيوْم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الْحقّ من الّذين أوتوا الْكتاب حتّى يعْطوا الْجزْية عنْ يدٍ وهمْ صاغرون} [التوبة:٢٩] فلمْ يخصّ تعالى عربيًّا منْ عجميٍّ في كلا الْحكْميْن.

---

[268] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٢٤)

وصحّ أنّه – عليْه السّلام – أخذ الْجزْية منْ مجـوس هجْرٍ؛فصـحّ أنّهـمْ مـنْ أهْـل الْكتاب،ولوْلا ذلك ما خالف رسول اللّه – ﷺ – كتاب ربّه تعالى.

فإنْ ذكروا ما روي عنْ النّبيّ – ﷺ – منْ قوْله:«إنّما أريدهمْ على كلمةٍ تدين لهمْ بها الْعرب ثمّ تؤدّي إليْها الْعجم الْجزْية» فلا حجّة لهمْ في هذا؛لأنّهمْ لا يخْتلفون في أنّ أهْـل الْكتاب منْ الْعرب يؤدّون الْجزْية،وأنّ منْ أسْلم منْ الْعجم لا يؤدّي الْجزْية.

فصحّ أنّ هذا الْخبر ليْس على عمومه،وأنّه – عليْه السّلام – إنّما عنى بأداء الْجزْية بعْض الْعجم لا كلّهمْ،وبيّن تعالى منْ همْ،وأنّهمْ أهْل الْكتاب فقطْ.

والْعجب كلّه أنّهمْ جعلوا قوْل اللّه تعالى:{فإمّا منًّا بعْد وإمّا فداءً} [محمد:٤] منْسـوخًا بقوْله تعالى:{فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ} [التوبة:٥] و لمْ يجْعلوا ذلـك مبيّنًـا لقوْله – عليْه السّلام –:«تؤدّي إليْكمْ الْجزْية» ولوْ قلبوا لأصابوا وهذا تحكّمٌ بالْباطل.

وقالوا:قال اللّه تعالى:{لا إكْراه في الدّين} [البقرة:٢٥٦] ؟ فقلْنا:أنْتمْ أوّل منْ يقول:إنّ الْعرب الْوثنيّين يكْرهون على الْإسْلام،وإنّ الْمرْتدّ يكْره على الْإسْلام.

وقدْ صحّ أنّ النّبيّ – ﷺ – أكْره مشْركي الْعرب على الْإسْلام،فصحّ أنّ [هـذه] الْآيـة ليْستْ على ظاهرها وإنّما هي فيمنْ نهانا اللّه تعالى أنْ نكْرهه،وهمْ أهْل الْكتاب خاصّـةً – وقوْلنا هذا هو قوْل الشّافعيّ،وأبي سليْمان – وباللّه تعالى التّوْفيق.

والصّغار هو أنْ يجْري حكْم الْإسْلام عليْهمْ،وأنْ لا يظْهروا شيْئًا منْ كفْرهمْ،ولا ممّا يحرّم في دين الْإسْلام قال عزّ وجلّ:{وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين كلّـه للّـه} [الأنفال:٣٩] وبنو تغْلب وغيْرهمْ سواءٌ لأنّ اللّه تعالى ورسوله – ﷺ – لمْ يفرّقا بـيْن أحدٍ منْهمْ،ويجْمع الصّغار شروط عمر – رضي اللّه عنْه – عليْهمْ.نا محمّد بْن الْحسن بْن عبْد الْوارث نا عبْد الرّحْمن بْن عمر بْن محمّد بْن النّحّاس نا أبو الْعبّاس محمّد بْن إسْحاق بْن أبي إسْحاق الصّفّار نا أبو الْفضْل الرّبيع بْن تغْلب نا يحْيى بْن عقْبة عنْ أبي الْعيْزار عنْ سفْيان الثّوْريّ عنْ طلْحة بْن مصرّفٍ عنْ مسْروقٍ عنْ عبْد الرّحْمن بْن غنْمٍ قال:كتبْـت لعمر بْن الْخطّاب – رضي اللّه عنْه – حين صالح نصارى الشّام وشرط عليْهمْ فيه:أنْ لا يحْدثوا في مدينتهمْ ولا ما حوْلها ديْرًا،ولا كنيسةً،ولا قليّةً ولا صوْمعة راهبٍ،ولا يجدّدوا

ما خرب منْها،ولا يمْنعوا كنائسهمْ أنْ ينْزلها أحدٌ منْ الْمسْلمين ثلاث ليالٍ يطْعمونهمْ،ولا يؤْووا جاسوسًا،ولا يكْتموا غشًّا للْمسْلمين،ولا يعلّموا أوْلادهمْ الْقــرْآن،ولا يظْهــروا شرْكًا،ولا يمْنعوا ذوي قراباتهمْ منْ الْإسْلام إنْ أرادوه،وأنْ يوقّروا الْمسْلمين،ويقوموا لهمْ منْ مجالسهمْ إذا أرادوا الْجلوس،ولا يتشبّهوا بالْمسْــلمين في شــيْءٍ مــنْ لباســهمْ:في قلنْسوةٍ،ولا عمامةٍ،ولا نعْليْن،ولا فرْق شعْرٍ،ولا يتكلّموا بكلام الْمسْلمين،ولا يتكنّــوْا بكناهمْ،لا يرْكبوا سرجًا،ولا يتقلّدوا سيْفًا،ولا يتّخذوا شيْئًا منْ السّــلاح،ولا ينْقشــوا خواتيمهمْ بالْعربيّة،ولا يبيعوا الْخمور،وأنْ يجزّوا مقادم رءوسهمْ،وأنْ يلْزموا زيّهمْ حيْثما كانوا،وأنْ يشدّوا الزّنانير على أوْساطهمْ،ولا يظْهروا صليبًا ولا شيْئًا منْ كتبهمْ في شيْءٍ منْ طرق الْمسْلمين،ولا يجاوروا الْمسْلمين بموْتاهمْ،ولا يضْــربوا ناقوسًــا إلّــا ضــرْبًا خفيفًا،ولا يرْفعوا أصْواتهمْ بالْقراءة في كنائسهمْ في شيْءٍ مــنْ حضْــرة الْمسْــلمين ولا يخْرجوا سعانين ولا يرْفعوا مع موْتاهمْ أصْواتهمْ،ولا يظْهروا النّيران معهمْ،ولا يشْتروا منْ الرّقيق ما جرتْ عليْه سهام الْمسْلمين.فإنْ خالفوا شيْئًا ممّا شرطوه فلا ذمّة لهمْ،وقدْ حلّ للْمسْلمين منْهمْ ما يحلّ منْ أهْل الْمعاندة والشّقاق.وعنْ عمــر أيْضًــا:أنْ لا يجاورونــا بخنْزيرٍ.قال أبو محمّدٍ:ومنْ الصّغار أنْ لا يؤْذوا مسْلمًا،ولا يسْتخْدموه،ولا يتــولّى أحــدٌ منْهمْ شيْئًا منْ أمور السّلْطان يجْري لهمْ فيه أمْرٌ على مسْلمٍ" [٢٦٩]

---

٧. مقاتلة أولياء الشيطان:

قال تعالى:{الّذين آمنواْ يقاتلون في سبيل اللّه والّذين كفــرواْ يقــاتلون في ســبيل الطّاغوت فقاتلواْ أوْلياء الشّيْطان إنّ كيْد الشّيْطان كان ضعيفًا} (٧٦) سورة النساء

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل إعْلاء كلمة الله،ونشْر دينه،لا يبْتغون غيْر رضْوان الله.أمّــا الذين كفروا،فإنّهمْ يقاتلون في سبيل الشّــيْطان (الطّــاغوت)،الــذين يــزيّن لهــم الكفْر،ويمنّيهم النّصْر.وكيْد الشّيْطان ضعيفٌ،وهو لا يسْتطيع نصْر أوْليائه.أمّا أوْليــاء الله

---

[٢٦٩] - المحلى بالآثار (٥/ ٤١٣)

فهم الأعزّة،لأنّ الله حاميهمْ وناصرهمْ ومعزّهمْ،ولذلك فعلى المؤْمنين،أوْليــاء الله،أنْ لا يخافوا أعْداءهم الكفّار،لأنّ العاقبة للْمؤْمنين المخْلصين.[٢٧٠]

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله { والّذين كفروا يقــاتلون في ســبيل الطّاغوت } الذي هو الشيطان.في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها:أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله،وإخلاصه ومتابعتــه.فالجهــاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه،كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها:أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم بــه غيره،فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم علــى باطل،فأهــل الحــق أولى بذلك،كما قال تعالى في هذا المعنى:{ إنْ تكونوا تأْلمون فإنّهمْ يأْلمون كما تأْلمون وترْجون من اللّه ما لا يرْجون } الآية.

ومنها:أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق،وهو الحق،والتوكــل علــى الله.فصاحب القوة والركن الوثيق يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل،الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة.فلهذا قال تعالى:{ فقاتلوا أوْليــاء الشّيْطان إنّ كيْد الشّيْطان كان ضعيفًا } والكيد:ســلوك الطــرق الخفيــة في ضــرر العدو،فالشيطان وإن بلغ مكْره مهما بلغ فإنه في غاية الضعف،الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.[٢٧١]

وإذ ندب الله سبحانه من عباده من يتولّون الدفاع عن المستضعفين،ويجاهدون فى ســبيل الله من أجل خلاصهم من يد البغي والعدوان،وإذ استجاب المجاهدون لما ندبهم الله لــه- فإنهم بهذا قد حققوا معنى الإيمان الذي رضوا به،واتخذوه دينا..فالمؤمن- إن صحّ إيمانه- كان دائما أبدا فى جبهة الحق،ينتصر له،ويقاتل فى سبيله:«الّذين آمنوا يقاتلون في ســبيل اللّه»..لأنهم أعطوا ولاءهم كلّه لله.

---

[٢٧٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٩، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧١] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٨٧)

وليس كذلك سبيل الكافرين..إنهم أولياء الباطل،وأتباع الضلال..ولذلك فهم يقاتلون- حين يقاتلون- لحساب الباطل،وتحت راية الطاغوت..والطاغوت..هـو مجمـع كـل شر،وملتقى كل فساد..إنه الشيطان،كما فسّرته الآية فى قوله تعـالى:«فقـاتلوا أوْليـاء الشّيْطان»..وفى قوله تعالى:«إنّ كيْد الشّيْطان كان ضعيفاً» تثبيت لأقدام المجاهـدين فى سبيل الله،وتطمين لقلوبهم،وتلويح لهم ببشائر النصر على عدوّهم..لأنهم على الحـق،وفى سبيل الحق يقاتلون،والعدو على طريق الباطل،وتحت راية الباطل يقاتل..والله سبحانه هو الحقّ،وهو مع الحق،وجند الحق،فالنصر لا يتخلف أبدا عمن يقاتلون فى سبيل الله..«فإنّ حزْب اللّه هم الْغالبون» (٢٢:الحديد) [٢٧٢].

قوْله:الّذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه هذا ترْغيبٌ للْمؤْمنين،وتنْشيطٌ لهمْ بأنّ قتالهمْ لهذا الْمقْصد لا لغيْره والّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطّـاغوت أيْ:سـبيل الشّـيْطان،أو الْكهّان،أو الْأصْنام،وتفْسير الطّاغوت هنا بالشّيْطان أوْلى،لقوْله:فقاتلوا أوْلياء الشّيْطان إنّ كيْد الشّيْطان كان ضعيفاً أيْ:مكْره ومكْر من اتّبعه من الْكفّار.[٢٧٣]

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه لتحقيق منهجه،وإقرار شريعته،وإقامة العـدل «بـين الناس» باسم اللّه.لا تحت أي عنوان آخر.اعترافا بأن اللّه وحده هو الإله ومن ثم فهـو الحاكم:

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت،لتحقيق مناهج شتى - غير منهج اللّه - وإقرار شرائع شتى - غير شريعة اللّه - وإقامة قيم شتى - غير التي أذن بهـا اللّـه - ونصـب موازين شتى غير ميزان اللّه! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية اللّه وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم،وشـتى مناهجهم،وشـتى شرائعهم،وشتى طرائقهم،وشتى قيمهم،وشتى موازينهم...فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر اللّه الذين آمنوا أن يقاتلوا أوليـاء الشـيطان ولا يخشـوا مكـرهم ولا مكـر الشيطان:«فقاتلوا أوْلياء الشّيْطان،إنّ كيْد الشّيْطان كان ضعيفاً».

---

[٢٧٢] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٣٦)

[٢٧٣] - فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٦٢)

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة،مسندين ظهورهم إلى ركن شـديد.مقتنعـي الوجدان بأنهم يخوضون معركة للّه،ليس لأنفسهم منـها نصـيب،ولا لـذواتهم منـها حظ.وليست لقومهم،ولا لجنسهم،ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء..إنمـا هـي للّـه وحده،ولمنهجه وشريعته.وأنهم يواجهون قوما أهل باطل يقاتلون لتغليب الباطـل علـى الحق.لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية - وكل مناهج البشر جاهلية - علـى شريعة منهج اللّه ولتغليب شرائع البشر الجاهلية - وكل شرائع البشر جاهلية - على اللّه ولتغليب ظلم البشر - وكل حكم للبشر من دون اللّه ظلم - على عدل اللّه،الذي هـم مأمورون أن يحكموا به بين الناس..

كذلك يخوضون المعركة،وهم يوقنون أن اللّه وليهم فيها.وأنهم يواجهون قوما،الشـيطان وليهم فهم إذن ضعاف..إن كيد الشيطان كان ضعيفا..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين،وتتحدد نهايتها.قبل أن يدخلوها.وسـواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة - فهو واثق من النتيجة - أم بقي حتى غلب،ورأى بعينيه النصر فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه،انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظهـا تاريخ الجهاد في سبيل اللّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى والتي تنـاثرت علـى مـدى التاريخ في أجيال كثيرة.وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال فهي كثيرة مشهورة..ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب،في أقصر فترة عرفت في التاريخ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الربـاني للجماعـة المسـلمة،على المعسكرات المعادية وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشـاملة الـتي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين،وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين فأمسوا مهزومين! وها نحـن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته.فلم يكن الأمر هينا.ولم يكـن مجرد كلمة تقال.ولكنه كان جهدا موصولا،لمعالجة شح النفس،وحرصها على الحيـاة -

بأي ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة..وفي الدرس بقية من هذا العلاج،وذلك الجهد الموصول.[٢٧٤]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢٧٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٩)

والتفاصيل في كتابي " الخلاصة في أهداف القتال في الإسلام "

الباب الثالث

أنواع الجهاد في سبيل الله

جهاد النفس:

قال تعالى: {والّذين جاهدوا فينا لنهْدينّهمْ سبلنا وإنّ اللّه لمع الْمحْسنين} (٦٩) سورة العنكبوت

أمّا الذين قاتلوا في سبيل الله،وجاهدوا الكفّار،وبذلوا دماءهمْ وأمْوالهمْ في سبيل نصْرة دين الله،فإنّ الله يعدهم بأنْ يزيدهمْ هدايةً إلى سبيل الخيْر،وتوفيقاً لسلوكها.والله تعالى مع منْ أحْسن عمله منْ عباده،يعينه وينْصره.[٢٧٥]

بهذه الآية الكريمة تختم السورة...فيلتقى ختامها مع بدئها،ولقد بدئت السورة بإيذان المؤمنين بالابتلاء،وملاقاة الفتن على طريق الإيمان،وأن استمساك المؤمن بإيمانه يقتضيه جهادا وتضحية،بالنفس والمال،والأهل والولد،والوطن،وكما يقول سبحانه:«أحسب النّاس أنْ يتْركوا أنْ يقولوا آمنّا وهمْ لا يفْتنون» كما يقول سبحانه فى آية أخرى:«لتبْلونّ في أمْوالكمْ وأنْفسكمْ ولتسْمعنّ من الّذين أوتوا الْكتاب منْ قبْلكمْ ومن الّذين أشْركوا أذىً كثيراً» (١٨٦:آل عمران).

وهذا الختام الذي ختمت به السورة،هو وعد كريم من الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يجاهدون فى سبيل الله،ويحتملون ما يلقاهم على طريق الجهاد من ضرّ وأذى- أن يهديهم الله،ويثبّت أقدامهم على سبيله...لأنهم سعوا إلى الله،فتلقاهم الله بإمداد عونه،وتأييده،ونصره،فكان لهم الغلب،وكانت لهم العزّة فى الدنيا،وجنات النعيم فى الآخرة.وفى قوله تعالى:«جاهدوا فينا»...إشارة إلى هذا الجهاد الذي يجاهده المؤمن،وأنه جهاد لله،وفى سبيل الله،وإعزاز دينه،ونصر كلمته..والله سبحانه وتعالى يقول:«ولينْصرنّ اللّه منْ ينْصره» (٤٠:الحج)..

ومعنى الجهاد فى الله،الجهاد فى كل ما هو لله- مما جعله حمى له،جل شأنه.

---

[٢٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩١، بترقيم الشاملة آليا)

وفى توكيد الفعل «لنهدينّهم» توكيد لوعد الله،وأنه وعد أوجبه الله سبحانه على نفسه،كما يقول سبحانه:كان حقًّا علیْنا نصْر الْمؤْمنین» (٤٧:الروم) وفى قوله سبحانه:«وإنّ اللّه لمع الْمحْسنین» تطمين لقلوب المؤمنين،وإشعار لهم بأن الله معهم،بعزته وقوته،وسلطانه..ومن كان الله معه،فهو فى أمان من أن يذلّ أو يهون:«أولئك حزْب اللّه ألا إنّ حزْب اللّه هم الْمفْلحون» (٢٢:المجادلة) وفى وصف المجاهدين فى سبيل الله بأنهم محسنون،إشارة إلى أن الجهاد فى جميع صوره،هو إحسان،وأن المجاهد محسن،لأنه يأخذ طريق الإحسان،ويسلك مسالكه،على حين أن غير المجاهد مسيء،لأنه يركب مراكب الضلال،ويهيم فى أودية الباطل...فحيثما كان الإنسان مع الله سبحانه وتعالى،فهو فى جهاد..فإذا قهر المرء أهواء نفسه،ووساوس شيطانه،فهو مع الله،وفى جهاد فى الله...وإذا انتصر الإنسان لمظلوم،فهو مع الله وعلى جهاد فى سبيل الله...وإذا قال المرء كلمة الحقّ،وردّ بها باطلا،وسفّه بها ضلالا،فهو مع الله،وفى جهاد فى الله..وإذا حمل المرء سلاحه،ودخل الحرب تحت راية المجاهدين فهو مع الله،وفى جهاد فى الله.

إن سبل الجهاد كثيرة،وميادينه متعددة...بالقول،وبالعمل،باللسان وبالسيف،ولعلّ هذا هو السرّ فى جمع السبيل فى قوله تعالى:«والّذين جاهدوا فینا لنهْدینّهمْ سبلنا»..فهناك أكثر من سبيل يصل به المؤمن إلى الله...لأنها جميعها قائمة على الحق،والعدل،والإحسان.[٢٧٦]

{والّذين جاهدوا فينا} وهم الذين هاجروا في سبيل الله،وجاهدوا أعداءهم،وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته،{لنهْديّنهمْ سبلنا} أي:الطرق الموصلة إلينا،وذلك لأنهم محسنون.

{وإنّ اللّه لمع الْمحْسنين} بالعون والنصر والهداية.دل هذا،على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد،وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية،وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي،فإنه يحصل له من الهداية

---

[٢٧٦] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٤٧٠)

والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية،خارجة عن مدرك اجتهاده،وتيسر له أمر العلم،فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله،بل هو أحد نوْعي الجهاد،الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق،وهو الجهاد بالقول واللسان،للكفار والمنافقين،والجهاد على تعليم أمور الدين،وعلى رد نزاع المخالفين للحق،ولو كانوا من المسلمين.[٢٧٧]

ختم توْبيخ الْمشْركين وذمّهمْ بالتّنْويه بالْمؤْمنين إظْهارًا لمزيد الْعناية بهمْ فلا يخْلو مقام ذمّ أعْدائهمْ عن الثّناء عليْهمْ،لأنّ ذلك يزيد الْأعْداء غيْظًا وتحْقيرًا.والّذين جاهدوا في اللّه هم الْمؤْمنون الْأوّلون فالْموْصول بمنْزلة الْمعرّف بلام الْعهْد.وهذا الْجهاد هو الصّبْر على الْفتن والْأذى ومدافعة كيْد الْعدوّ وهو الْمتقدّم في قوْله أول السّورة [العنكبوت:٦] ومنْ جاهد فإنّما يجاهد لنفْسه إذْ لمْ يكنْ يوْمئذ جهاد الْقتال كما علمْت منْ قبْل.وجيء بالْموْصول للْإيماء إلى أنّ الصّلة سبب الْخبر.ومعْنى جاهدوا فينا جاهدوا في مرْضاتنا،والدّين الّذي اخْترْناه لهمْ.والظّرْفيّة مجازيّةٌ،يقال:هي ظرْفيّة تعْليلٍ تفيد مبالغةً في التّعْليل.

والْهداية:الْإرْشاد والتّوْفيق بالتّيْسير الْقلْبيّ والْإرْشاد الشّرْعيّ،أيْ لتزيدنّهمْ هدًى.

وسبل اللّه:الْأعْمال الْموصلة إلى رضاه وثوابه،شبّهتْ بالطّرق الْموصلة إلى منْزل الْكريم الْمكْرم للضيف.

والْمراد ب الْمحْسنين جميع الّذين كانوا محْسنين،أيْ كان عمل الْحسنات شعارهمْ وهو عامٌّ.وفيه تنْويهٌ بالْمؤْمنين بأنّهمْ في عداد منْ مضى من الْأنْبياء والصّالحين.

وهذا أوْقع في إثْبات الْفوْز لهمْ ممّا لوْ قيل:فأولئك الْمحْسنون لأنّ في التّمْثيل بالْأمور الْمقرّرة الْمشْهورة تقْريرًا للْمعاني ولذلك جاء في تعْليم الصّلاة على النّبيء ﷺ قوْله:«كما صلّيْت على إبْراهيم وعلى آل إبْراهيم».والْمعيّة:هنا مجازٌ في الْعناية والاهْتمام بهمْ.والْجمْلة في معْنى التّذْييل بما فيها منْ معْنى الْعموم.وإنّما جيء بها معْطوفةً للدّلالة على أنّ الْمهمّ منْ سوْقها هو ما تضمّنتْه منْ أحْوال الْمؤْمنين،فعطفتْ على حالتهم الْأخْرى وأفادت التّذْييل بعموم حكْمها.

---

[٢٧٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٣٦)

وفي قوْله لنهْدينّهمْ سبلنا إيماءٌ إلى تيْسير طريق الْهجْرة الّتي كانوا يتأهّبون لها أيّام نــزول هذه السّورة.[278]

وقال تعالى:{ قدْ أفْلح من تزكّى} (١٤) سورة الأعلى

وقدْ أدْرك الفلاح،وظفر بالبغْية منْ زكّى نفْسه وطهّرها من الشّرْك والكفْر والمعاصي[279]

قدْ أفْلح منْ تزكّى (١٤) وذكر اسْم ربّه فصلّى (١٥)

اسْتئْنافٌ بيانيٌّ لأنّ ذكْر منْ يخْشى [الْــأعْلى:١٠] وذكرْشْــقى [الْــأعْلى:١١] يــثير اسْتشْراف السّامع لمعْرفة أثر ذلك فابْتدئ بوصْف أثر الشقاوة فوصفْ شْقى بأنّه يصْــلى النّار الْكبْرى [الْأعْلى:١٢] وأخّر ذكْر ثواب الْأتْقى تقْديمًا للْأهمّ في الْغرض وهو بيــان جزاء الْأشْقى الّذي يتجنّب الذّكْرى وبقي السّامع ينْتظر أنْ يعْلم جــزاء مــنْ يخْشــى ويتذكّر.فلمّا وفّي حــقّ الْموْعظــة والتّرْهيبــة اسْــتؤْنف الْكــلام لبيــان الْمثوبــة والتّرْغيب.فالْمراد ب منْ تزكّى هنا عيْن الْمراد ب «منْ يخْشى ويذكر» فقدْ عرف هنا بأنّه الّذي ذكر اسْم ربّه،فلا جرم أنّ ذكْر اسْم ربّه هو التّذكّر بالذّكْرى،فالتّــذكّر هــو غاية الذّكْرى الْمأْمور بها الرّسول ﷺ في قوْله تعالى:فذكّرْ [الْأعْلى:٩].

وقدْ جمعتْ أنْواع الْخيْر في قوْله:قدْ أفْلح فإنّ الْفلاح نجاح الْمرْء فيما يطْمح إليْــه فهــو يجْمع معْنيي الْفوْز والنّفْع وذلك هو الظّفــر بــالْمبْتغى مــن الْخيْر،وتقــدّم في قوْلــه تعالى:وأولئك هم الْمفْلحون في الْبقرة [٥].

والْإتْيان بفعْل الْمضيّ في قوْله أفْلح للتّنْبيه على الْمحقّق وقوعه من الْآخرة،واقْترانه بحرْف قدْ لتحْقيقه وتثْنيته كما في قوْله تعالى:قدْ أفْلح الْمؤْمنون [الْمؤْمنون:١] وقوْله:قدْ أفْلــح منْ زكّاها [الشّمْس:٩] لأنّ الْكلام موجّهٌ إلى الْأشْقيْن الّذين تجنّبوا الذّكْرى إثارةً لهمّتهمْ في الالْتحاق بالّذين خشوْا فأفْلحوا.ومعْنى تزكّى:عالج أنْ يكون زكيًّا،أيْ بذل اسْتطاعته في تطْهير نفْسه وتزْكيتها كما قال تعالى:قدْ أفْلح منْ زكّاها وقدْ خــاب مــنْ دسّــاها [الشّمْس:٩- ١٠].[280]

---

[278] – التحرير والتنوير (٢١/ ٣٦)

[279] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨٣٩، بترقيم الشاملة آليا)

[280] – التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٨٧)

ويختم السورة بصورة الفريق الآخر.الذين جاهدوا في اللّه ليصلوا إليه ويتصلوا به.الـــذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا و لم ييأسوا.الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس.الذين حملوا أعباءهم وســـاروا في ذلـــك الطريـــق الطويـــل الشـــاق الغريب..أولئك لن يتركهم اللّه وحدهم ولن يضيع إيماهم،ولن ينسى جهادهم.إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم.وسينظر إلى جهادهم إليه فيهـــديهم.وســـينظر إلى محاولتـــهم الوصول فيأخذ بأيديهم.وسينظر إلى صبرهم وإحساهم فيجازيهم خير الجزاء:«والّـــذين جاهدوا فينا لنهْديّنهمْ سبلنا.وإنّ اللّه لمع الْمحْسنين» [٢٨١]..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:"ولهذا كان الْجهاد موجبًا للْهداية الّتي هي محيطـــةٌ بأبْواب الْعلْم.كما دلّ عليْه قوْله تعالى:{ والّذين جاهدوا فينا لنهْديّنهمْ سبلنا } فجعـــل لمنْ جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى؛ولهذا قال الْإمامان عبْد اللّه بْن الْمبارك وأحْمد بْن حنْبلٍ وغيْرهما:إذا اخْتلف النّاس في شيْءٍ فانْظروا ماذا عليْه أهْـــل الثّغْـــر فـــإنّ الْحـــقّ معهمْ؛لأنّ اللّه يقول:{والّذين جاهدوا فينا لنهْديّنهمْ سبلنا} [٢٨٢]

وفي قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام:

في بيان تقْسيم الْمصالح والْمفاسد

الْمصالح والْمفاسد أقْسامٌ:

أحدها:ما تعْرفه الْأذْكياء والْأغْبياء

الثّاني ما يخْتصّ بمعْرفته الْأذْكياء،الثّالث ما يخْتصّ بمعْرفته الْأوْلياء،لأنّ اللّه تعالى ضمن لمنْ جاهد في سبيله أنْ يهْديه إلى سبيله فقال:{والّذين جاهدوا فينـــا لنهْـــديّنهمْ ســـبلنا} [العنكبوت:٦٩]،ولأنّ الْأوْلياء يهْتمّون بمعْرفة أحْكامه وشرْعه فيكون بحْـــثهمْ عنْـــه أتمّ واجْتهادهمْ فيه أكْمل،مع أنّ منْ عمل بما يعْلم ورّثه اللّه علْم ما لمْ يعْلمْ.وكيْف يسْتوي الْمتّقون والْفاســـقون؟ لا واللّـــه لا يسْـــتوون في الـــدّرجات ولا في الْمحْيـــا ولا في الْممات.والْعلماء ورثة الْأنْبياء،فينْبغي أنْ يعْرضوا عنْ الْجهلة الْأغْبياء الّذين يطْعنـــون في

---

[٢٨١]- في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٠٢)

[٢٨٢] - مجموع الفتاوى [٢٨ /٤٤٢]

علومهمْ ويلْغون في أقْوالهمْ،ويفْهمون غيْر مقْصودهمْ،كما فعل الْمشْــركون في الْقــرْآن الْمبين فقالوا:{لا تسْمعوا لهذا الْقرْآن والْغوْا فيه لعلّكمْ تغْلبون} [فصلت:٢٦].فكمــا جعل لكلّ نبيٍّ عدوًّا منْ الْمجْرمين،جعل لكلّ عالمٍ منْ الْمقرّبين عدوًّا منْ الْمجْرمين.فمنْ صبر منْ الْعلماء على عداوة الْأغْبياء كما صبر الْأنْبياء،نصر كما نصروا وأجر كما أجروا وظفر كما ظفروا وكيْف يفْلح منْ يعادي حزْب اللّه ويسْعى في إطْفــاء نــور اللّـــه؟ والْحسد يحْمل على أكْثر منْ ذلك،فإنّ الْيهود لمّا حســدوا الرّســول – ﷺ- حملــهمْ حسدهمْ على أنْ قاتلوه وعاندوه،مع أنّهمْ جحدوا رسالته وكذّبوا مقالته.[٢٨٣]

وقال ابن القيم:

"فائدة قال تعالى والّذين جاهدوا فينا لنهْدينّهمْ سبلنا علق ســبْحانه الْهدايــة،بالْجهاد فأكمل النّاس هداية أعظمهم جهادا وأفرض الْجهاد جهاد النّفس وجهاد الْهوى وجهاد الشّيْطان وجهاد الدّنْيا فمن جاهد هذه الْأرْبعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصــلة إلى جنته ومن ترك الْجهاد فاته من الْهدى بحسب ما عطل من الْجهاد قال الْجنيْد والّــذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتّوْبة لنهدينهم سبل الْإخْلاص ولا يتمكّن من جهــاد عــدوه في الظّاهر إلّا من جاهد هذه الْأعْداء باطنا فمن نصر عليْها نصر على عدوه ومن نصــرت عليْه نصر عليْه عدوه"[٢٨٤]

وقال:" ولأهْل الْجهاد في هذا من الْهداية والْكشْف ما ليْس لأهْل الْمجاهدة،ولهذا قــال الْأوْزاعيّ وابْن الْمبارك:إذا اخْتلف النّاس في شيْءٍ فانْظروا ما عليْه أهْل الثّغْر،يعْني أهْــل الْجهاد،فإنّ اللّه تعالى يقول {والّذين جاهدوا فينــا لنهْــدينّهمْ ســبلنا وإنّ اللّــه لمــع الْمحْسنين} [العنكبوت:٦٩]"[٢٨٥].

وقال ابْن الْقيّم في كتابه بدائع الْفوائد:الْهداية أرْبعة أنْواعٍ:

أحدها:الْهداية الْعامّة الْمشْتركة بيْن الْخلْق الْمذْكورة في قوْله تعالى {الّذي أعْطى كــلّ شيْءٍ خلْقه ثمّ هدى} [طه:٥٠] أيْ أعْطى كلّ شيْءٍ صــورته الّــتي لا يشْــتبه فيهــا

[٢٨٣] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٢٨)

[٢٨٤] – الفوائد لابن القيم (ص:٥٩)

[٢٨٥] – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٠٦)

بغيْره،وأعْطى كلّ عضْوٍ شكْله وهيْئته،وأعْطى كلّ موْجودٌ خلْقه الْمخْتصّ به ثمّ هداه لما خلقه منْ الْأعْمال.

قال وهذه الْهداية تعمّ الْحيوان الْمتحرّك بإرادته إلى جلْب ما ينْفعه ودفْع ما يضرّه.

قال ولْلجماد أيْضًا هدايةٌ تليق به،كما أنّ لكلّ نوْعٍ منْ الْحيوان هدايةً تليق به وإنْ اخْتلفتْ أنْواعها وصورها،وكذلك لكلّ عضْوٍ هدايةٌ تليق به،فهدى الرّجْليْن للْمشْي،واللّسان للْكلام،والْعيْن لكشْف الْمرْئيّات،وهلمّ جرًّا.

وكذلك هدى الزّوْجيْن منْ كلّ حيوانٍ إلى الازْدواج والتّناسل وترْبية الْولد،والْولد إلى الْتقام الثّدْي عنْد وضْعه،ومراتب هدايته سبْحانه لا يحْصيها إلّا هو.

الثّاني:هداية الْبيان والدّلالة والتّعْريف لنجْديْ الْخيْر والشّرّ،وطريقيْ النّجاة والْهلاك.

وهذه الْهداية لا تسْتلْزم الْهدى التّامّ فإنّها سببٌ وشرْطٌ لا موجبٌ،ولهذا ينْتفي الْهدى معها كقوْله تعالى {وأمّا ثمود فهديْناهمْ فاسْتحبّوا الْعمى على الْهدى} [فصلت:١٧] أيْ بيّنّا لهمْ وأرْشدْناهمْ ودللْناهمْ فلمْ يهْتدوا.

ومنْها قوْله تعالى {وإنّك لتهْدي إلى صراطٍ مسْتقيمٍ} [الشورى:٥٢].

الثّالث:هداية التّوْفيق والْإلْهام،وهي الْهداية الْمسْتلْزمة للاهْتداء فلا يتخلّف عنْها وهي الْمذْكورة في قوْله تعالى {يضلّ منْ يشاء ويهْدي منْ يشاء} [النحل:٩٣] وفي قوْله تعالى {إنْ تحْرصْ على هداهمْ فإنّ اللّه لا يهْدي منْ يضلّ} [النحل:٣٧] وفي قوْله - ﷺ - «منْ يهْدي اللّه فلا مضلّ له ومنْ يضْللْ اللّه فلا هادي له» وفي قوْله تعالى {إنّك لا تهْدي منْ أحْببْت ولكنّ اللّه يهْدي منْ يشاء} [القصص:٥٦] فنفى عنْه هذه الْهداية وأثْبت له هداية الدّعْوة والْبيان في قوْله {وإنّك لتهْدي إلى صراطٍ مسْتقيمٍ} [الشورى:٥٢].

(الرّابع):غاية هذه الْهداية وهي الْهداية إلى الْجنّة أوْ النّار إذا سيق أهْلهما إليْهما.قال تعالى {إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات يهْديهمْ ربّهمْ بإيمانهمْ تجْري منْ تحْتهم الأنْهار في جنّات النّعيم} [يونس:٩] وقال أهْل الْجنّة فيها {الْحمْد للّه الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهْتدي لوْلا أنْ هدانا اللّه} [الأعراف:٤٣] وقال في حقّ أهْل النّار {احْشروا الّذين

ظلموا وأزْواجهمْ وما كانوا يعْبدون - منْ دون اللّه فاهْدوهمْ إلى صــراط الْجحــيم} [الصافات:٢٢ - ٢٣].انْتهى كلام الْبيْضاويّ في الْهداية

وفي الْبيْضاويّ:الْهداية دلالةٌ بلطْفٍ،ولذلك تسْتعْمل في الْخيْر وقوْلــه {فاهْــدوهمْ إلى صراط الْجحيم} [الصافات:٢٣] على التّهكّم.ثمّ قال:وهداية اللّــه تتنــوّع أنْواعًــا لا يحْصيها عدٌّ،لكنّها تنْحصر في أجْناسٍ مترتّبة:

الْأوّل إفاضة الْقوى الّتي بها يتمكّن الْمؤْمن الاهْتداء إلى مصالحه كالْقوّة الْعقْليّة والْحواسّ الْباطنة والْمشاعر الظّاهرة.

والثّاني نصْب الدّلائل الْفارقة بيْن الْحقّ والْباطل والصّلاح والْفساد،وإليْه أشار حيْث قال {وهديْناه النّجْديْن} [البلد:١٠] وقال {فهديْناهمْ فاسْتحبّوا الْعمــى علــى الْهــدى} [فصلت:١٧].

والثّالث:الْهداية بإرْسال الرّسل وإنْزال الْكتب وإيّاها عنى بقوْله {وجعلْناهمْ أئمّةً يهْدون بأمْرنا} [الأنبياء:٧٣] وقوْله {إنّ هذا الْقرْآن يهْدي للّتي هي أقْوم} [الإسراء:٩].

والرّابع أنْ يكْشف على قلوبهمْ السّرائر ويريهمْ الْأشْياء كما هــي بــالْوحْي أوْ الْإلْهــام والْمنامات الصّادقة،وهذا قسْمٌ يخْتصّ بنيْله الْأنْبياء والْأوْلياء،وإيّاه عنى بقوْلــه {أولئــك الّذين هدى اللّه فبهداهم اقْتده} [الأنعام:٩٠] وقوْله {والّذين جاهدوا فينــا لنهْــدينّهمْ سبلنا} [العنكبوت:٦٩] انْتهى[٢٨٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وقوْله تعالى {فلا تزكّوا أنْفسكمْ هو أعْلم بمن اتّقى} دليلٌ على أنّ الزّكاة هي التّقْــوى والتّقْوى تنْتظم الْأمْريْن جميعًا؛بلْ ترْك السّيّئات مسْتلْزمٌ لفعْــل الْحســنات إذْ الْإنْســان حارثٌ همامٌ ولا يدع إرادة السّيّئات وفعْلها إلّا بإرادة الْحسنات وفعْلها؛إذْ النّفْس لا تخْلو عنْ الْإرادتيْن جميعًا؛بلْ الْإنْسان بالطّبْع مريدٌ فعّالٌ وهذا دليلٌ على أنّ هذا يكون ســببه الزّكاة والتّقْوى الّتي بها يسْتحقّ الْإنْسان الْجنّة كما في صحيح الْبخاريّ عنْ النّبيّ ﷺ أنّه قال:{منْ تكفّل لي بحفْظ ما بيْن لحْييْه ورجْليْه أتكفّل له بالْجنّة}.ومنْ تزكّى فقدْ أفْلــح

---

[٢٨٦] - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٢٩) وبدائع الفوائد (٢/ ٣٥)

فيدْخل الْجنّة؛والزّكاة متضمّنةٌ حصول الْخيْر وزوال الشّرّ فإذا حصل الْخيْر وزال الشّـــرّ - منْ الْعلْم والْعمل - حصل له نورٌ وهدًى ومعْرفةٌ وغيْر ذلك والْعمل يحْصل له محبّـــةٌ وإنابةٌ وخشْيةٌ وغيْر ذلك.هذا لمنْ ترك هذه الْمحْظورات وأتى بالْمأْمورات ويحْصل لـــه ذلك أيْضًا قدْرةً وسلْطانًا وهذه صفات الْكمال:الْعلْم والْعمل والْقدْرة.وحسْن الْـــإرادة وقدْ جاءتْ الْآثار بذلك وأنّه يحْصل لمنْ غضّ بصره نورٌ في قلْبه ومحبّةٌ كما جرّب ذلـــك الْعالمون الْعاملون.[٢٨٧]

جهاد الشيطان:

قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ ادْخلواْ في السّلْم كآفّةً ولا تتّبعواْ خطوات الشّيْطان إنّه لكمْ عدوٌّ مّبينٌ} (٢٠٨) سورة البقرة

يدْعو الله المؤْمنين إلى الأخْذ بجميع عرى الإسْلام وشرائعه،والعمل بجميع أوامره،وتـــرْك زواجره،ويرشدهمْ تعالى إلى أنّه منْ شأن المؤْمنين الاتّفاق والاتّحاد،لا التّفرّق والانْقسام.

ثمّ يأْمر الله تعالى المؤْمنين بأنْ يجْتنبوا ما يأْمرهمْ بـــه الشّـــيْطان لأنّـــه يـــأْمر بالسّـــوء والفحْشاء،ويدْعو حزْبه ليكونوا منْ أصْحاب السّعير،ولهذا كان الشّيْطان عـــدوّاً بـــيّن العداوة للإنْسان.[٢٨٨]

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا { في السّلْم كافّـــةً } أي:في جميـــع شـــرائع الدين،ولا يتركوا منها شيئا،وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه،إن وافق الأمر المشـــروع هواه فعله،وإن خالفه،تركه،بل الواجب أن يكون الهوى،تبعا للدين،وأن يفعل كـــل مـــا يقدر عليه،من أفعال الخير،وما يعجز عنه،يلتزمه وينويه،فيدركه بنيته.ولما كان الدخول في السلم كافة،لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال:{ ولا تتّبعوا خطـــوات الشّيْطان } أي:في العمل بمعاصي الله { إنّه لكمْ عدوٌّ مبينٌ } والعدو المبين،لا يـــأمر إلا بالسوء والفحشاء،وما به الضرر عليكم.ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل،قال

---

[٢٨٧] - مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٩١)

[٢٨٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٥، بترقيم الشاملة آليا)

تعالى:{ فإنْ زللْتمْ منْ بعْد ما جاءتْكم الْبيّنات } أي:على علم ويقين { فاعْلموا أنّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ }.وفيه من الوعيد الشديد،والتخويف،ما يوجب ترك الزلل،فإن العزيز القاهر الحكيم،إذا عصاه العاصي،قهره بقوته،وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته،تعذيب العصاة والجناة.[289]

هذه عدة كريمة للذين استجابوا لله وللرسول،فدخلوا فى دين الله،وأصبحوا فى أمة المؤمنين..وتحمل هذه الدعوة إليهم أن يدخلوا فى السّلم كافة،والسّلم هو الإسلام والسلام والأمن،وقد دخل المسلمون فى الإسلام،وبقي عليهم أن يحصّلوا السّلام والأمن،وذلك بالتطبيق العملي لدعوة الإسلام،والرعاية الكاملة لأوامره ونواهيه،فهذا هو الذي يحقق للمسلم ثمرة الإسلام،فيجد فى ظلّها السلام مع نفسه ومع الناس،ويستشعر فى كيانه طمأنينة الرضا،وثلج الرضوان،بما رعى من حقوق الناس،وببد أدّى من حقوق الله!.

وفى قوله تعالى:«فإنْ زللْتمْ منْ بعْد ما جاءتْكم الْبيّنات فاعْلموا أنّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ» تحذير من وساوس الشيطان،الذي يعمل بكل حوله وحيلته،على أن يغوى المستقيم،ويضل المهتدى،فليس لهجماته على الإنسان موعد،بل إنه هو الذي يتخيّر الفرصة المواتية،ويتفقد أضعف المواقع فى الإنسان لينفذ إليه منها،ويعمل أسلحته فيها.وليس مثل زلّة من عرف الحق،وارتفعت لعينيه أمارات الهداية،وأعلام الهدى..إنّها زلّة مزلزلة،وسقطة قاتلة،قلّ أن يسلم منها الإنسان إلا إذا استجمع كل قوته وإرادته،وإلا إذا استدعى غائب رشده،وعازب حكمته،وإلا إذا ذكر أنّه إنسان مهيأ للسموّ،بما فيه من نفحات علوية من عزيز حكيم،منه تستمد العزة والحكمة..فليطلبهما الإنسان فى هذا الموطن،الذي إن استسلم فيه للهزيمة هوى إلى مرتبة الحيوان،وإن جاهد وانتصر ارتفع إلى ما فوق الإنسان!.[290]

---

[289] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٩٤)

[290] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٣٠)

لّما ذكر اللّه سبْحانه أنّ النّاس ينْقسمون إلى ثلاث طوائف:مؤْمنين،وكافرين،ومنافقين،أمرهمْ بعْد ذلك بالْكوْن على ملّةٍ واحدة.وإنّما أطْلق على الثّلاث الطّوائف لفظ الإيمان،لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيّهمْ وكتابهمْ،والْمنافق مؤْمنٌ بلسانه وإنْ كان غيْر مؤْمنٍ بقلْبه.والسّلْم بفتْح السّين وكسْرها قال الْكسائيّ:ومعْناهما واحدٌ،وكذا عنْد الْبصْريّين،وهما جميعًا يقعان للْإسْلام والْمسالمة.وقال أبو عمرو بن العلاء:إنه بالفتح للْمسالمة،وبالْكسْر للْإسْلام.وأنْكر الْمبرّد هذه التّفْرقة.وقال الْجوْهريّ:السّلْم بفتْح السّين:الصّلْح،وتكْسر ويذكّر ويؤنّث،وأصْله من الاسْتسْلام والانْقياد.ورجّح الطّبريّ أنّه هنا بمعْنى الْإسْلام

فمعْناه على الْأوّل:لا يخْرج منْكمْ أحدٌ،وعلى الثّاني:لا يخْرج منْ أنْواع السّلْم شيْءٌ،بل ادْخلوا فيها جميعًا،أيْ:في خصال الْإسْلام،وهو مشْتقٌّ منْ قوْلهمْ:كففْت،أيْ:منعْت،أيْ:لا يمْتنع منْكمْ أحدٌ من الدّخول في الْإسْلام،والْكفّ:الْمنْع،والْمراد هنا:الْجميع ادْخلوا في السّلْم كافّةً أيْ:جميعًا.وقوْله:ولا تتّبعوا خطوات الشّيْطان أيْ:لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليها الشّيْطان،وقدْ تقدّم الْكلام على خطواتٍ.قوْله:زلْلتمْ أيْ:تنحّيْتمْ عنْ طريق الاسْتقامة،وأصْل الزّلل في الْقدم،ثمّ اسْتعْمل في الاعْتقادات والآراء وغير ذلك،يقال:زلّ يزلّ زللا وزلولًا،أيْ:دحضتْ قدمه.وقرئ:زلْلتمْ بكسْر اللّام،وهما لغتان،والْمعْنى:فإنْ ضللْتمْ وعرجْتمْ عن الْحقّ منْ بعْد ما جاءتْكم الْبيّنات أي:الْحجج الْواضحة،والْبراهين الصّحيحة،أنّ الدّخول في الْإسْلام هو الْحقّ فاعْلموا أنّ اللّه عزيزٌ غالبٌ لا يعْجزه الانْتقام منْكمْ حكيمٌ لا ينْتقم إلّا بحقٍّ.[٢٩١]

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان.بهذا الوصف المحبب إليهم،والذي يميزهم ويفردهم،ويصلهم بالله الذي يدعوهم..دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله،في ذوات أنفسهم،وفي الصغير والكبير من أمرهم.أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور،ومن نية أو عمل،ومن رغبة أو رهبة،لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه

[٢٩١] - فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٤١)

وقضاه.استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية.الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهـــم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير،في الـــدنيا والآخرة سواء.

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يثور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن.وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية..وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنـــوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريـــد اللّـــه بهم،وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم،في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام.عالم كله ثقة واطمئنان،وكله رضى واستقرار.لا حيرة ولا قلق،ولا شرود ولا ضلال.سلام مع النفس والضمير.سلام مع العقل والمنطق.سلام مع الناس والأحياء.سلام مع الوجود كله ومـــع كل موجود.سلام يرف في حنايا السريرة.وسلام يظلل الحياة والمجتمع.ســـلام في الأرض وسلام في السماء.وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره للّـــه ربه،ونصاعة هذا التصور وبساطته..

إنه إله واحد.يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به الســـبل،ولا تتعدد به القبل ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك – كما كان في الوثنية والجاهلية – إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح.

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر..فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيـــدة في هذا الوجود.

وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح.ولم يعد يخاف أحدا أو يخاف شيئا،وهو يعبـــد اللّه القوي القادر العزيز القاهر.ولم يعد يخشى فوت شيء.ولا يطمع في غير من يقـــدر على الحرمان والعطاء.

وهو إله عادل حكيم،فقوته وقدرته ضمان من الظلم،وضمان من الهوى،وضـمان مـن البخس.وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات.ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد،ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

وهو رب رحيم ودود.منعم وهاب.غافر الذنب وقابل التوب.يجيب المضـطر إذا دعـاه ويكشف السوء.

فالمسلم في كنفه آمن آنس،سالم غانم،مرحوم إذا ضعف،مغفور له متى تاب..

وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يـؤنس قلبه،وما يطمئن روحه،وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعـة والاستقرار والسلام

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب.وبـين الخالق والكون.

وبين الكون والإنسان..فاللّه خلق هذا الكون بالحق وخلق كـل شـيء فيـه بقـدر وحكمة.وهذا الإنسان مخلوق قصدا،وغير متروك سدى،ومهيأ له كل الظروف الكونيـة المناسبة لوجوده،ومسخر له ما في الأرض جميعا.

وهو كريم على اللّه،وهو خليفته في أرضه.واللّه معينه على هذه الخلافة.والكون من حوله صديق مأنوس،تتجاوب روحه مع روحه،حين يتجه كلاهما إلى اللّه ربه.وهو مـدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به.وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير،الذي يعج بالأصدقاء المدعوين مثلـه إلى ذلك المهرجان! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان! والعقيدة التي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة،وهي توحي إليه أن له أجرا حين يرويها من عطش،وحين يعينـها علـى النماء،وحين يزيل من طريقها العقبات..هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة.عقيـدة تسكب في روحه السلام وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ويشيع من حوله الأمن والرفق،والحب والسلام.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط..إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة..إن الحساب الختامي هناك والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب.فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه.ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس،فسوف يوفاه بميزان اللّه.ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد،فالعدل لا بد واقع.وما اللّه يريد ظلما للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات.

بلا تحرج ولا حياء.فهناك الآخرة فيها عطاء،وفيها غناء،وفيها عوض عما يفوت.وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة،وأنه مخلوق ليعبد اللّه..من شأنها - ولا شك - أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء.ترفع شعوره وضميره،وترفع نشاطه وعمله،وتنظف وسائله وأدواته.فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج اللّه فيها.فأولى به ألا يغدر ولا يفجر وأولى به ألا يغش ولا يخدع وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة.وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل،وألا يعتسف الطريق،وألا يركب الصعب من الأمور.فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة..ومن شأن هذا كله ألا تثور في نفسه المخاوف والمطامع،وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق.

فهو يعبد في كل خطوة وهو يحقق غاية وجوده في كل خطرة،وهو يرتقي صعدا إلى اللّه في كل نشاط وفي كل مجال.

وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر اللّه،في طاعة اللّه،لتحقيق إرادة اللّه..وما يسكبه هـذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق وبلا قنوط من عون اللّه ومدده وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء..ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعـداء اللّـه وأعداءه.فهو إنما يقاتل للّه،وفي سبيل اللّه،ولإعلاء كلمة اللّه ولا يقاتل لجاه أو مغـنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة.

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة اللّه مع هذا الكون كلـه.قانونـه قانونه،ووجهتـه وجهته.فلا صدام ولا خصام،ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة.وقـوى الكـون كلـه تتجمع إلى قوته،وتهتدي بالنور الذي يهتدي به،وتتجه إلى اللّه وهو معها يتجه إلى اللّه.

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطـرة ولتصـحيح الفطـرة.لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاتـه لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجـات تكوينـه الجثمـاني والروحي لا تلبيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء..ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهـة تكاليفه.يحمل منها ما يطيق حمله،ويمضي في الطريق إلى اللّه في طمأنينة وروح وسلام.

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني،في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة،والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال..كلها مما يشيع السلم وينشـر روح السلام.

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق.هذا المجتمع الذي حققـه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره.ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب،تختلف درجة صفائه،ولكنه يظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضـي والحاضر،وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الـذي تربطه آصرة واحدة – آصرة العقيدة – حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان،واللغـات والألوان،وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان..

هذا المجتمع الذي يسمع اللّه يقول له:{إنّما الْمؤْمنون إخْوةٌ فأصْلحوا بيْن أخويْكمْ واتّقوا اللّه لعلّكمْ ترْحمون} (١٠) سورة الحجرات..والذي يرى صورته في قول رسول اللّه -ﷺ- « مثل الْمؤْمنين في توادّهمْ،وتراحمهمْ،وتعاطفهمْ مثل الْجسد إذا اشْتكى منْه عضْوٌ تداعى له سائر الْجسد بالسّهر والْحمّى ».[٢٩٢]..

هذا المجتمع الذي من آدابه:{وإذا حيّيْتم بتحيّةٍ فحيّواْ بأحْسن منْها أوْ ردّوها إنّ اللّه كان على كلّ شيْءٍ حسيبًا} (٨٦) سورة النساء..{ولا تصعّرْ خدّك للنّاس ولا تمْش في الْأرْض مرحًا إنّ اللّه لا يحبّ كلّ مخْتالٍ فخورٍ} (١٨) سورة لقمان..{ولا تسْتوي الْحسنة ولا السّيّئة ادْفعْ بالّتي هي أحْسن فإذا الّذي بيْنك وبيْنه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميمٌ} (٣٤) سورة فصلت..{يا أيّها الّذين آمنوا لا يسْخرْ قومٌ مّن قوْمٍ عسى أن يكونوا خيْرًا مّنْهمْ ولا نساءٌ مّن نّساءٍ عسى أن يكنّ خيْرًا مّنْهنّ ولا تلْمزوا أنفسكمْ ولا تنابزوا بالْألْقاب بئْس الاسْم الْفسوق بعْد الْإيمان ومن لّمْ يتبْ فأوْلئك هم الظّالمون} (١١) سورة الحجرات..{يا أيّها الّذين آمنوا اجْتنبوا كثيرًا مّن الظّنّ إنّ بعْض الظّنّ إثْمٌ ولا تجسّسوا ولا يغْتب بّعْضكم بعْضًا أيحبّ أحدكمْ أن يأْكل لحْم أخيه ميْتًا فكرهْتموه واتّقوا اللّه إنّ اللّه توّابٌ رّحيمٌ} (١٢) سورة الحجرات..

هذا المجتمع الذي من ضماناته:{يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكمْ فاسقٌ بنبإٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوْمًا بجهالةٍ فتصْبحوا على ما فعلْتمْ نادمين} (٦) سورة الحجرات..{يا أيّها الّذين آمنوا لا تدْخلوا بيوتًا غيْر بيوتكمْ حتّى تسْتأْنسوا وتسلّموا على أهْلها ذلكمْ خيْرٌ لّكمْ لعلّكمْ تذكّرون} (٢٧) سورة النور..وقول رسول اللّه -ﷺ- «لا تحاسدوا،ولا تناجشوا،ولا تباغضوا،ولا تدابروا،ولا يبعْ بعْضكمْ على بيْع بعْضٍ،وكونوا عباد الله إخْوانًا الْمسْلم أخو الْمسْلم،لا يظْلمه ولا يخْذله،ولا يحْقره التّقْوى هاهنا» ويشير

---

[٢٩٢] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩) ٦٦ - (٢٥٨٦)

[ش (تداعى له سائر الجسد) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط]

إلى صدْره ثلاث مرّاتٍ «بحسْب امْرئ من الشّرّ أنْ يحْقر أخاه الْمسْلم،كلّ الْمسْلم على الْمسْلم حرامٌ،دمه،وماله،وعرْضه».[293]..

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيـه الإغـراء،ولا تروج فيه الفتنة،ولا ينتشر فيه التبرج،ولا تتلفت فيه الأعين على العورات،ولا ترف فيـه الشهوات على الحرمات،ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا..هذا المجتمـع الـذي تحكمـه التوجيهـات الربانيـة الكثيرة،والذي يسمع اللّه – سبحانه – يقول:{إنّ الّذين يحبّون أن تشـيع الْفاحشـة في الّذين آمنوا لهمْ عذابٌ أليمٌ في الدّنْيا والْآخرة واللّه يعْلم وأنتمْ لا تعْلمون} (١٩) سورة النـــور ..{الزّانية والزّاني فاجْلدوا كلّ واحدٍ مّنْهما مئة جلْدةٍ ولا تأْخذْكم بهما رأْفةٌ في دين اللّه إن كنتمْ تؤْمنون باللّه والْيوْم الْآخر ولْيشْهدْ عذابهما طائفةٌ مّن الْمـؤْمنين} (٢) سورة النـــور..{والّذين يرْمون الْمحْصنات ثمّ لمْ يأْتوا بأرْبعة شهداء فاجْلدوهمْ ثمانين جلْدةً ولا تقْبلوا لهمْ شهادةً أبدًا وأوْلئك هم الْفاسقون} (٤) سورة النـــور ..{قل لّلْمؤْمنين يغضّوا منْ أبْصارهمْ ويحْفظوا فروجهمْ ذلك أزْكى لهمْ إنّ اللّه خبيرٌ بما يصْنعون} (٣٠) سورة النـــور..{وقل لّلْمؤْمنات يغْضضْن منْ أبْصـارهنّ ويحْفظْـن فروجهنّ ولا يبْدين زينتهنّ إلّا ما ظهر منْها ولْيضْربْن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبْـدين زينتهنّ إلّا لبعولتهنّ أوْ آبائهنّ أوْ آباء بعولتهنّ أوْ أبْنائهنّ أوْ أبْناء بعولتهنّ أوْ إخْوانهنّ أوْ بني إخْوانهنّ أوْ بني أخواتهنّ أوْ نسائهنّ أوْ ما ملكتْ أيْمانهنّ أو التّابعين غيْر أوْلي الْإرْبـة من الرّجال أو الطّفْل الّذين لمْ يظْهروا على عوْرات النّساء ولا يضْربْن بأرْجلهنّ ليعْلم ما يخْفين من زينتهنّ وتوبوا إلى اللّه جميعًا أيّها الْمؤْمنون لعلّكمْ تفْلحـون} (٣١) سـورة النـــور

[293] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦) ٣٢ – (٢٥٦٤)

[ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

والذي يخاطب فيه نساء النبي – أطهر نساء الأرض في أطهر بيت في أطهر بيئة في أطهر زمان {يا نساء النّبيّ لسْتنّ كأحد مّن النّساء إن اتّقيْتنّ فلا تخْضعْن بالْقوْل فيطْمع الّـــذي في قلْبه مرضٌ وقلْن قوْلًا مّعْروفًا (٣٢) وقرْن في بيوتكنّ ولا تبرّجْن تبرّج الْجاهليّة الْأولى وأقمْن الصّلاة وآتين الزّكاة وأطعْن اللّه ورسوله إنّما يريد اللّه ليذْهب عنكم الرّجْس أهْل الْبيْت ويطهّركمْ تطْهيرًا (٣٣)} سورة الأحزاب..

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها،ويأمن الزوج على زوجته،ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم،ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم.حيث لا تقع العيون على المفاتن،ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم.فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإمـــا الرغائـــب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب..بينما المجتمع المسلم النظيف العفيـــف آمـــن ساكن،ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان!

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا،ولكل عاجز ضمانة للعـــيش الكريم،ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة،والذي يعتـــبر أهـــل كـــل حـــي مسؤولين مسؤولية جنائية لومات فيهم جائع حتى ليرى بعض فقهاء الإســـلام تغـــريمهم بالدية.

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع،بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع.فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة،ولا يتسور على أحد بيته،ولا يتجسس على أحد فيه متجسس،ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضـــيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون.كما يقوم على المســـاواة والعدالـــة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة اللّه لا بإرادة حـــاكم،ولا هوى حاشية،ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية،الذي لا يخضع البشر فيه للبشر.إنما يخضعون حاكمين ومحكومين للّه ولشريعته وينفذون حاكمين ومحكومين حكـــم اللّـــه

وشريعته.فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمـــام اللّـــه رب العـــالمين وأحكـــم الحاكمين،في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين..

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنـــوا للـــدخول فيـــه كافة.ليسلموا أنفسهم كلها للّه فلا يعود لهم منها شيء،ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ إنما تعود كلها للّه في طواعية وفي انقياد وفي تسليم..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيـــف يعربـــد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان،في المجتمعات التي لا تعـــرف الإســـلام،أو الـــتي عرفته ثم تنكرت له،وارتدت إلى الجاهلية،تحت عنوان من شـــتى العنوانـــات في جميـــع الأزمان..هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخـــاء المادي والتقدم الحضاري،وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضـــالة التصـــورات المختلة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو «السويد».حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام.وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجـــاني في المستشفيات.وحيث التعليم في جميع مراحله بالمجان،مع تقديم إعانات ملابس وقـــروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولـــة حـــوالي ثلاثمائـــة جنيـــه إعانـــة زواج لتأثيـــث البيوت..وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب..

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب من الإيمان باللّه؟

إنه شعب مهدد بالانقراض،فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطـــلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتـــبرج الفـــتن وحريـــة الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ليعـــوض خـــواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة.والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب..ثم الانتحار..والحال كهذا في أمريكا..والحال أشنع من هذا في روسيا..

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة.فــلا يذوق طعم السلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة،ولينعموا فيه بــالأمن والظــل والراحة والقرار:«يا أيّها الّذين آمنوا ادْخلوا في السّلْم كافّــةً..ولا تتّبعــوا خطــوات الشّيْطان.إنّه لكمْ عدوٌّ مبينٌ»..

ولما دعا اللّه الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة...حــذرهم أن يتبعــوا خطــوات الشيطان.فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان.إما الدخول في السلم كافة،وإما اتباع خطوات الشيطان.إما هدى وإما ضلال.إما إسلام وإما جاهلية.إما طريــق اللّــه وإمــا طريــق الشيطان.وإما هدى اللّه وإما غواية الشيطان..وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المســلم موقفه،فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها،أو يخلــط واحــدا منــها بواحد..كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته،ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة اللّــه وشريعته،ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومــن كــل شــرع آخر..إن هذا في سبيل الشيطان،سائر على خطوات الشــيطان..لــيس هنالــك حــل وسط،ولا منهج بين بين،ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هنــاك حــق وباطل.هدى وضلال.إسلام وجاهلية.منهج اللّه أو غواية الشيطان.واللّه يدعو المــؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحــذرهم في الثانيــة مــن اتبــاع خطــوات الشيطان.ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم،ويستثير مخاوفهم بتذكير هم بعداوة الشيطان لهم،تلك العداوة الواضحة البينة،التي لا ينساها إلا غافل.والغفلة لا تكون مع الإيمــان.ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان:«فإنْ زللْتمْ منْ بعْد ما جاءتْكم الْبيّنات فاعْلموا أنّ اللّــه عزيزٌ حكيمٌ»..

وتذكيرهم بأن اللّه «عزيزٌ» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة،وأنهم يتعرضون لقــوة اللّه حين يخالفون عن توجيهه..وتذكير هم بأنه «حكيمٌ»..فيه إيحاء بأن ما اختاره لهــم

هو الخير،وما نهاهم هو الشر،وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتـــهون عما نهاهم عنه..فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير في المقام..[294]

وقال تعالى:{إنّما ذلكم الشّيْطان يخوّف أوْلياءه فلا تخــافوهمْ وخــافون إن كنــتم مّؤْمنين} (١٧٥) سورة آل عمران

يبيّن الله تعالى للْمؤْمنين،أنّ الشّيْطان هو الذي يخوّفكمْ منْ أوْليائه المشْــركين،ويوهمكمْ أنّهمْ ذوو بأْسٍ وقوّة،وهو الذي قال لكمْ إنّ النّاس قدْ جمعوا لكمْ فاخْشوْهمْ،فلا تخــافوا أوْلياء الشّيْطان،وتوكّلوا على الله،والْجؤوا إليه إنْ كنْتمْ مــؤْمنين حقّاً،فإنّــه كــافيكمْ إيّاهمْ،وناصركمْ عليْهمْ.وخافوه هو فهو القادر على النّصْر وعلى الخذْلان،وعلى الضّــرّ والنّفْع [295].

لقد سكنت لذلك أفئدة المؤمنين واطمأنت،وسار النبي بأصحابه حتى نزل بدرا..وخرج أبو سفيان فيمن اجتمع له،فلما علم أن النبيّ ينتظره بالمسلمين فى بدر،قفل راجعا..

وانتظر النبيّ هناك بالمسلمين أياما،حتى انفضّت السوق التي كانت تقــام هنــاك كــل عام،وباع المسلمون واشتروا،وعادوا سالمين غانمين،وفى هذا يقول الله تعــالى:«فــانْقلبوا بنعْمةٍ من اللّه وفضْلٍ لمْ يمْسسْهمْ سوءٌ واتّبعوا رضْوان اللّه واللّه ذو فضْلٍ عظيمٍ».

وفى قوله:«الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قدْ جمعوا لكمْ» نجد فى التعبير عن المرجفين بهذا القول،والمهوّلين له،بكلمة «الناس» تحقيرا لهم،وبألّا صفة لهم فى الناس إلا أنهم على صورة الآدميين،وأنهم والمشركين من قريش على مستوى واحد من الكفر والشرك،إذ عبّر عنهم القرآن بلفظ «الناس» أيضا..«إنّ النّاس قدْ جمعوا لكمْ»..وفى قوله تعالى:«إنّما ذلكــم الشّيْطان يخوّف أوْلياءه» إشارة عامة تشمل هؤلاء الناس،الذين أذاعــوا هــذا القــول وأرجفوا به،فقالوا:«إنّ النّاس قــدْ جمعــوا لكــمْ» كمــا تشــمل المشــركين مــن قريش،وهم:الناس الذين جمعوا لاستئصال المسلمين.فهؤلاء وهؤلاء حزب واحــد..هــو

---

[294] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٠)

[295] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٨، بترقيم الشاملة آليا)

حزب الشيطان،أو هم الشيطان ذاته،فى إضلاله وإغوائه:«إنّما ذلكم الشّيْطان».والضمير فى «أوليائه» يعود إلى الشيطان،وأولياؤه هم المنافقون،الذين يتــولاهم الشــيطان،ويتخذ منهم أعوانا على الشر والفساد..وهو الذي خوفهم الجهاد فى سبيل الله،وأراهم الموت فى صورة بشعة مخيفة،فانعزلوا عن المسلمين،ونكصوا على أعقابهم..ويجوز أن يكون المفعول به التخويف هم جماعة المؤمنين،ويكون حينئذ لمفعول به الثاني محذوفا،وتقــديره:«إنّمــا ذلكم الشّيْطان يخوّف أوْلياءه»..بمعنى أن هذه الأصوات المتنادية بأن الناس قــد جمعــوا لكم،هى من فعل الشيطان على ألسنة المنافقين وغيرهم،وهو يريد بهذا أن يخوّفكم أولياءه الكفار والمشركين،ولهذا جاء قوله تعالى:«فلا تخافوهمْ وخافون إنْ كنْتمْ مــؤْمنين» ردّا على كيد الشيطان،وإفسادا لتدبيره السيء..ولهذا لم يقع هذا القول من نفوس المســلمين موقعا،بل تلقوه بالعزم والتصميم،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«فزادهمْ إيمانــاً وقــالوا حسْبنا اللّه ونعْم الْوكيل».[296]

أي:إن ترهيب من رهب من المشــركين،وقال:إنهــم جمعــوا لكــم،داع مــن دعــاة الشيطان،يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم،أو ضعف.{ فلا تخافوهم وخافون إن كنــتم مؤمنين } أي:فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان،فإن نواصيهم بيد الله،لا يتصرفون إلا بقدره،بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.وفي هذه الآيــة وجوب الخوف من الله وحده،وأنه من لوازم الإيمان،فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفــه من الله،والخوف المحمود:ما حجز العبد عن محارم الله[297].

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه،ويلبسهم لباس القوة والقــدرة،ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول،وأنهم يملكون النفع والضر..ذلك ليقضــي بهــم لباناتــه وأغراضه،وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد،وليخضع لهم الرقــاب ويطــوع لهــم القلوب،فلا يرتفع في وجوههم صــوت بالإنكــار ولا يفكــر أحــد في الانتقــاض عليهم،ودفعهم عن الشر والفساد.

---

[296] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٤٥)

[297] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٥٧)

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل،وأن يتضخم الشر،وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا،لا تقف في وجهه معارضة،ولا يصمد له مـدافع،ولا يغلبـه مـن المعارضين غالب..الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا.فتحت ستار الخوف والرهبة،وفي ظل الإرهاب والبطش،يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكرا،والمنكر معروفا،وينشرون الفساد والباطل والضلال،ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل،ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير..دون أن يجـرؤ أحـد على مناهضتهم والوقوف في وجههم،ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة.بـل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له،وجلاء الحق الذي يطمسونه..

والشيطان ماكر خادع غادر،يختفي وراء أوليائه،وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته..ومن هنا يكشفه اللّه،ويوقفه عاريا لا يسـتره ثـوب مـن كيـده ومكره.ويعرف المؤمنين الحقيقة:

حقيقة مكره ووسوسته،ليكونوا منها على حذر.فـلا يرهبـوا أوليـاء الشـيطان ولا يخافوهم.فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه،ويستند إلى قوته..إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر.هي قوة اللّه.وهي القوة التي يخشاها المؤمنون باللّه،وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء.فلا تقف لهـم قـوة في الأرض..لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان:«فلا تخـافوهمْ.وخـافون إنْ كنْـتمْ مؤْمنين»[298]..

وقال تعالى:{ يا بني آدم لا يفْتننّكم الشّيْطان كما أخْرج أبويْكم مّن الْجنّـة يـترع عنْهما لباسهما ليريهما سوْءاهما إنّه يراكمْ هو وقبيله منْ حيْث لا تروْنهمْ إنّا جعلْنـا الشّياطين أوْلياء للّذين لا يؤْمنون} (٢٧) سورة الأعراف

يحذّر الله تعالى المؤْمنين منْ إبْليس وجماعته (قبيله)،ويذكّرهمْ بعداوتـه القديمـة لآدم وزوْجه،حينما سعى في إخْراجهما مـن الجنّـة،دار السّـعادة والهنـاء،إلى الأرْض دار

[298] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٣٤)

الشّقاء،وتسبّب في هتْك ستْرهما،وكشْف عوْراهما،بعْد أنْ كانتْ مسْتورةً عنْهما،ولذلك فإنّ بني آدم عليْهمْ ألاّ يمكّنوا إبْليس منْ خداعهمْ،وإيقاعهمْ في المعاصي بوسْوسته،فإبْليس يرى البشر في حين أنّهمْ لا يروْنه همْ.والشّياطين همْ أوْلياء وأخلاّء وأصْحابٌ للْكفّار الذين لا يؤْمنون بالله من الإنْس،لاسْتعْدادهمْ لتقبّل وسْوسة الشّياطين وإغْوائهمْ.أمّا المؤْمنون المخْلصون فإنّ الشّياطين ليْس لهمْ عليْهمْ سلْطانٌ.[299]

يقول تعالى،محذرا لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم:{ يا بني آدم لا يفْتننّكم الشّيْطان } بأن يزين لكم العصيان،ويدعوكم إليه،ويرغبكم فيه،فتنقادون له { كما أخْرج أبويْكمْ من الْجنّة } وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه،فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك،ولا يألو جهده عنكم،حتى يفتنكم،إن استطاع،فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم،وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبيْنه،وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.فـ { إنّه } يراقبكم على الدوام،و { يراكمْ هو وقبيله } من شياطين الجن { منْ حيْث لا ترونهمْ إنّا جعلْنا الشّياطين أوْلياء للّذين لا يؤْمنون } فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.{ إنّه ليْس له سلْطانٌ على الّذين آمنوا وعلى ربّهمْ يتوكّلون * إنّما سلْطانه على الّذين يتولّوْنه والّذين همْ به مشْركون }.[300]

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة،وعلى إتيانه من كل صوب وجهة،وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة:«قال:فبما أغْويْتني لأقْعدنّ لهمْ صراطك الْمسْتقيم.ثمّ لآتينّهمْ منْ بيْن أيْديهمْ ومنْ خلْفهمْ وعنْ أيْمانهمْ وعنْ شمائلهمْ،ولا تجد أكْثرهمْ شاكرين»..

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد،وأن ينظر لمزاولته على المدى الطويل..اختار هذا على أن يضرع إلى اللّه أن يغفر له خطيئته في معصيته عيانا وقد سمع أمره مواجهة! ثم بين أنه سيقعد لهم على طريق اللّه لا يمكنهم من سلوكه وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه.

---

[299] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٨٢، بترقيم الشاملة آليا)

[300] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٢٨٦)

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة.ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوّي بالإيمان والذكر والتقوّي على إغوائه ووسوسته،والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى اللّه.

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية.إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى.والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة.والمعركة مع الشر والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة اللّه المصلحة للأرض..والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان.فالشيطان وراءهما جميعا! والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها،وتستبعد حاكمية اللّه وشرعه والقيم والموازين المنبثقة من دينه..إنما هي شياطين الإنس التي توحي لها شياطين الجن.والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه.وليست بعيدة عنها.

وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته.ومع أوليائه.ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشهواته وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنابهم وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم..يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها،أنه إنما يخوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية،لأن عدوه فيها مصرّ ماض في طريقه..وأن الجهاد – من ثم – ماض إلى يوم القيامة.في كل صوره ومجالاته.

وأخيرا فإن القصة والتعقيبات عليها – كما سيجيء– تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته.وهو الحياء من التعري وانكشاف سوأته:«فوسْوس لهما الشّيْطان،ليبْدي لهما ما ووري عنْهما منْ سوْآتهما»..«فدلّاهما بغرورٍ،فلمّا ذاقا الشّجرة بدتْ لهما سوْآتهما وطفقا يخْصفان عليْهما منْ ورق الْجنّة»..« يا بني آدم قدْ أنْزلْنا عليْكمْ لباساً يواري سوْآتكمْ،وريشاً،ولباس التّقْوى ذلك خيْرٌ.ذلك منْ آيات اللّه»..«يا بني آدم لا يفْتننّكم الشّيْطان كما أخْرج أبويْكمْ من الْجنّة ينْزع عنْهما لباسهما ليريهما سوْآتهما»..

وكلها توحي بأهمية هذه المسألة،وعمقها في الفطرة البشرية.فاللباس،وستر العورة،زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية.كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآهما الجسدية والنفسية،وتحرص على سترها ومواراهما..والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس،وتعرية النفس من التقوى،ومن الحياء من اللّه ومن الناس والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة – في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة – هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته،وخصائص «إنسانيته» التي بها صار إنسانا.وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة.وقد فقدت مقوماتها الإنسانية! إن العري فطرة حيوانية.ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان.وإن رؤية العري جمالا هو انتكاس في الذوق البشري قطعا.والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة.والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها،وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

والعري النفسي من الحياء والتقوى – وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام – هو النكسة والردة إلى الجاهلية.وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة الموجهة أن توسوس[٣٠١]! وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان.والحمد للّه الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية!!![٣٠٢]

وقال تعالى:{وقل لّعبادي يقولواْ الّتي هي أحْسن إنّ الشّيْطان يترغ بيْنهمْ إنّ الشّيْطان كان للإنْسان عدوًّا مّبينًا} (٥٣) سورة الإسراء

---

[٣٠١] – يراجع ما سبق في هذا الجزء عن معنى الحضارة في تفسير قوله تعالى:«كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» ص ١٢٥٩ (السيد رحمه الله)

[٣٠٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٧٢٨)

ويأْمر الله تعالى رسوله الكريم بأنْ ينْصح المؤْمنين بأنْ يقولـــوا في مخاطباتهمْ،ومحـــاورتهم الكلاميّة،العبارات الأحْسن،والكلمات الأطْيب،فإنّهمْ إنْ لمْ يفْعلوا ذلك نزع الشّـــيْطان بيْنهمْ،وأوْقع بيْنهم الشّرّ والمخاصمة،والعداوة والبغْضاء،فهو عدٌّو لذرّيّة آدم،ظاهر العداوة سافرها.[303]

وهذا من لطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال:{ وقلْ لعبادي يقولوا الّتي هي أحْسن } وهذا أمر بكل كـــلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيـــف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم،وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يـــأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

وقوله:{ إنّ الشّيْطان ينزغ بيْنهمْ } أي:يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها،وأن يلينوا فيما بينـــهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه فإنـــه يدعوهم { ليكونوا من أصحاب السعير }

وأما إخوانهم فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة فإن الحزم كل الحـــزم السعي في ضد عدوهم وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرهم ويهدون لرشدهم.[304]

«وقلْ لعبادي يقولوا الّتي هي أحْسن» على وجه الإطلاق وفي كل مجال.فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه..بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة.فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت،وبالرد السيّء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء.والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب،تندّي جفافها،وتجمعها على الود الكريم.

---

[303] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٨٣، بترقيم الشاملة آليا)

[304] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٤٦٠)

«إنّ الشّيْطان كان للْإنْسان عدوًّا مبيناً»..يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه،فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه.والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات،وتقطع عليه الطريق،وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته.[٣٠٥]

وقال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّبعوا خطوات الشّيْطان ومن يتّبعْ خطوات الشّيْطان فإنّه يأْمر بالْفحْشاء والْمنكر ولوْلا فضْل اللّه عليْكمْ ورحْمته ما زكا منكم مّنْ أحد أبدًا ولكنّ اللّه يزكّي من يشاء واللّه سميعٌ عليمٌ} (٢١) سورة النور

يأْمر الله المؤْمنين بألاّ يتّبعوا خطوات الشّيْطان ومسالكه،وما يأْمر به أوْلياءه،والشّيْطان إنّما يأْمر أوْلياءه بفعْل الفاحشة وإشاعتها وارْتكاب المنْكرات،فمنْ اتّبع خطوات الشّيْطان جرّه إلى ارْتكاب هذه الموبقات.ولوْلا أنّ الله تعالى يرْزق منْ يشاء التّوْبة،والرّجوع إليْه،ويزكّي بها النّفوس ويطهّرها منْ شرْكها وفجورها ودنسها،لم تطهّر منْكم أحدٌ منْ ذنْبه،ولكانتْ عاقبته النّكال والوبال،ولعاجلكم بالعقوبة،ولكنّ الله تعالى يزكّي منْ يشاء،والله سميعٌ لأقْوال العباد،عليمٌ بمنْ يسْتحقّ منْهم الهداية فيهْديه.[٣٠٦]

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه،وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقا غير طريقة المشئوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن،ويرتجف لها وجدانه،ويقشعر لها خياله!

ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية:«ومنْ يتّبعْ خطوات الشّيْطان فإنّه يأْمر بالْفحْشاء والْمنْكر»..وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه.وهو نموذج منفر شنيع.

وإن الإنسان لضعيف،معرض للنزعات،عرضة للتلوث.إلا أن يدركه فضل اللّه ورحمته.حين يتجه إلى اللّه،ويسير على نهجه.«ولوْلا فضْل اللّه عليْكمْ ورحْمته ما زكى منْكمْ منْ أحدٍ أبداً.ولكنّ اللّه يزكّي منْ يشاء»..فنور اللّه الذي يشرق في القلب يطهره

---

[٣٠٥] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٩١٥)

[٣٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٩٤، بترقيم الشاملة آليا)

ويزكيه.ولولا فضل اللّه ورحمته لم يزك من أحد و لم يتطهر.واللّه يسمع ويعلم،فيزكي من يستحق التزكية،ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد «واللّه سميعٌ عليمٌ» [٣٠٧]

هذه الآية وما بعدها إلى الآية (٢٦) – هى مما يتصل بحديث الإفك،ويدور حوله،ليطفىء النار المشتعلة منه،ويذهب بدخانها الذي انعقد فى سماء المجتمع الإسلامى كلّه..والآية هنا تنهى المؤمنين عن أن يتبعوا خطوات الشيطان،وأن يستجيبوا له فيما يدعوهم إليه،فإن دعوته لا تكون إلا إلى شر وبلاء..«فإنّه يأْمر بالْفحْشاء والْمنْكر» وإن مما يدعو إليه الشيطان ويأمر به،ويزينه للناس،هو إطلاق الألسنة بالسوء والفحشاء،تنهش فى أعراض المؤمنين،وتشيع الفاحشة فيهم..

فمن أراد أن يكون فى المؤمنين حقا،فليمسك لسانه عن لغو الحديث،وليصمّ أذنيه عن سماع كلمات السوء والفحش فى المؤمنين،فإنه إن لم يفعل،واستمع إلى كلمات السوء والفحش،ثم أطلق لسانه بها كان فى ركب الشيطان،يجرى وراءه،ويتبع خطواته،مع أولئك الذين استجابوا للشيطان ووقعوا فى شباكه..

وقوله تعالى:«لوْلا فضْل اللّه عليْكمْ ورحْمته ما زكى منْكمْ منْ أحدٍ أبداً»..ما زكى:أي ما طهر،وما خلص من الرجس،والإثم،وصار طيبا زكيّ النفس بعد أن تطهر،وأزال ما علق به من ريح خبيثة بما اقترف من إثم..فالزكاة تجىء بعد الطهر وغسل القذر..

وهذا يعنى أن الناس جميعا هم أبناء الخطيئة،وأنهم جميعا- بما ركّب فيهم من طبيعة حيوانية- معرّضون للزلل،وللوقوع فى الخطايا والآثام..

كما يقول الرسول الكريم:«كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون»..

ولكن الله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته بعباده،قد جعل لهم مطهّرا يتطهرون به من آثامهم التي تعلق بهم،وهم على طريق الحياة..وذلك عن طريق العبادات والطاعات والقربات..فالصلاة مثلا،هى مطهرة لما بين الفريضتين.

كما فى الحديث:«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهنّ ما لم تغش الكبائر» وقد شبهها الرسول الكريم بنهر جار،يغتسل فيه المصلى خمس مرات فى

---

[٣٠٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٣٢٣١)

اليوم،فقال ﷺ:«أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم،يغتسل منه كل يوم خمس مرات،هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا:لا يبقى من درنه،قال «فذلك مثل الصلوات الخمس،يمحو الله بهن الخطايا».

والزكاة،مطهرة...شأنها فى هذا شأن الصلاة،كما يقول الله تعالى:«خذْ منْ أمْوالهمْ صدقةً تطهّرهمْ وتزكّيهمْ بها» (١٠٣:التوبة)..

وهكذا الصوم،والحج،..وكل طاعة،وكل قربة،هى مما يتطهر به الإنسان ويتزكى من ذنوبه وآثامه..هذا إلى «التوبة» التي هى الباب الواسع الذي يدخل منه الآثمون جميعا إلى رحمة الله ومغفرته،فمن صحت توبته،صار نقيا طاهرا،كيوم ولدته أمه..«إنّ اللّه يحبّ التّوّابين ويحبّ الْمتطهّرين» (٢٢٢:البقرة).

وهذا كله مما يفتح للمؤمن الطريق إلى أن يكون فى الطاهرين الزاكين،الذي يدخلون مع الداخلين فى قوله تعالى:«ولكنّ اللّه يزكّي منْ يشاء».

وقوله تعالى:«واللّه سميعٌ عليمٌ» هو بيان للراغبين فى الطّهر والتزكّى،وذلك بالانخلاع عما هم فيه من منكرات،والرجوع إلى الله،والتقرب إليه،بالعبادات والطاعات..والله سبحانه وتعالى «سميعٌ» لما تنطق به أفواههم،وما تتحدث به خواطرهم «عليمٌ» بما فى قلوبهم من إخلاص فى العمل،وصدق فى التوبة..[٣٠٨]

الصدع بالحق:

قال تعالى:{ فاصْدعْ بما تؤْمر وأعْرضْ عن الْمشْركين} (٩٤) سورة الحجر

يأْمر الله تعالى رسوله ﷺ بإبْلاغ أمْر ربّه إلى النّاس،والصّدْع به،ومواجهة المشْركين به،وعدم الخوْف منْهمْ،لأنّ الله تعالى قدْ عصمه من النّاس،وحفظه منْ كلّ سوءٍ.[٣٠٩]

نزلتْ هذه الْآية في السّنة الرّابعة أو الْخامسة من الْبعْثة ورسول اللّه- عليْه الصّلاة والسّلام- مخْتفٍ في دار الْأرْقم بْن أبي الْأرْقم.روي عنْ عبْد اللّه بْن مسْعودٍ قال:ما زال

---

[٣٠٨] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٥٠)

[٣٠٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

النّبيء ﷺ مسْتخْفيًا حتّى نزلتْ:فاصْدعْ بما تؤْمر فخرج هو وأصْحابه.يعْني أنّ رسول اللّه ﷺ لّما نزلتْ سورة الْمدّثّر كان يدْعو النّاس خفْيةً وكان منْ أسْلم مـــن النّـــاس إذا أراد الصّلاة يذْهب إلى بعْض الشّعاب يسْتخْفي بصلاته من الْمشْركين،فلحقهم الْمشْـــركون يسْتهْزئون بهمْ ويعيبون صلاقمْ،فحدث تضاربٌ بيْنهمْ وبيْن سعْد بْن أبي وقّاصٍ أدْمى فيه سعْدٌ رجلًا من الْمشْركين.فبعْد تلْك الْوقْعة دخل رسول اللّه ﷺ وأصْـــحابه دار الْـــأرْقم عنْد الصّفا فكانوا يقيمون الصّلاة بها واسْتمرّوا كذلك ثلاث سنين أوْ تزيد،فنزل قوْلـــه تعالى:

فاصْدعْ بما تؤْمر الْآية.وبنزولها ترك الرّسول ﷺ الاخْتفاء بدار الْأرْقم وأعْلـــن بالـــدّعْوة للْإسْلام جهْرًا.

والصّدْع:الْجهْر والْإعْلان.وأصْله الانْشقاق.ومنْه انْصداع الْإناء،أي انْشقاقه.

فاسْتعْمل الصّدْع في لازم الانْشقاق وهو ظهور الْأمْر الْمحْجوب وراء الشّيْء الْمنْصدع فالْمراد هنا الْجهْر والإعلان.

وما صدق «ما تؤْمر» هو الدّعْوة إلى الْإسْلام.

وقصْد شمول الْأمْر كلّ ما أمر الرّسول- عليْه الصّلاة والسّلام- بتبْليغه هو نكْتة حـــذْف متعلّق تؤْمر،فلمْ يصرّحْ بنحْو بتبْليغه أوْ بالْأمْر به أوْ بالدّعْوة إليْه.وهو إيجازٌ بديعٌ.

والْإعْراض عن الْمشْركين الْإعْراض عنْ بعْض أحْوالهمْ لا عنْ ذواتهمْ.وذلك إبايتهم الْجهْر بدعْوة الْإسْلام بيْن ظهْرانيهمْ،وعن اسْتهْزائهمْ،وعنْ تصدّيهمْ إلى أذى الْمسْلمين.

وليْس الْمراد الْإعْراض عنْ دعْوتهمْ لأنّ قوْله تعالى:فاصْـــدعْ بمـــا تـــؤْمر مـــانعٌ مـــنْ ذلك،وكذلك جمْلة إنّا كفيْناك الْمسْتهْزئين.

وجمْلة إنّا كفيْناك الْمسْتهْزئين تعْليلٌ للْأمْر بالْإعْلان بما أمر به،فإنّ اخْتفاء النّبيء ﷺ بـــدار الْأرْقم كان بأمْرٍ من اللّه تعالى لحكْمة علمها اللّه أهمّها تعدّد الدّاخلين في الْإسْلام في تلْك الْمدّة بحيْث يغْتاظ الْمشْركون منْ وفْرة الدّاخلين في الدّين مع أنّ دعْوته مخْفيةٌ،ثمّ إنّ اللّه أمر رسوله- عليْه الصّلاة والسّلام- بإعْلان دعْوته لحكْمةٍ أعْلى تهيّأ اعْتبارها في علْمـــه تعالى.

والتّعْبير عنْهمْ بوصْف الْمسْتهْزئين إيماءٌ إلى أنّه كفاه اسْتهْزاءهمْ وهو أقلّ أنْواع الْأذى،فكفايته ما هو أشدّ منْ الاسْتهْزاء من الْأذى مفْهومٌ بطْريق الْأحْرى.
وتأْكيد الْخبر ب (إنّ) لتحْقيقه اهْتمامًا بشأْنه لا للشّكّ في تحقّقه.
والتّعْريف في الْمسْتهْزئين للْجنْس فيفيد الْعموم،أيْ كفيْناك كل مستهزء.وفي التّعْبير عنْهمْ بهذا الْوصْف إيماءٌ إلى أنّ قصارى ما يؤْذونه به الاسْتهْزاء،كقوْله تعالى:لنْ يضرّوكمْ إلّا أذىً [سورة آل عمران:١١١]،فقدْ صرفهم اللّه عنْ أنْ يؤْذوا النّبيء ﷺ بغيْر الاسْتهْزاء.وذلك لطْفٌ من اللّه برسوله ﷺ.
ومعْنى الْكفاية تولّي الْكافي مهمّ الْمكْفيّ،فالْكافي هو متولّي عملٍ عنْ غيْره لأنّه أقْدر عليْه أوْ لأنّه يبْتغي راحة الْمكْفى.يقال:كفيْت مهمّك،فيتعدّى الْفعْل إلى مفْعوليْن ثانيهما هو الْمهمّ الْمكْفي منْه.فالْأصْل أنْ يكون مصْدرًا فإذا كان اسْم ذاتٍ فالْمراد أحْواله الّتي يدلّ عليْها الْمقام،فإذا قلْت:كفيْتك عدوّك،فالْمراد:كفيْتك بأْسه،وإذا قلْت:كفيْتك غريمك،فالْمراد:كفيْتك مطالبته.فلمّا قال هنا كفيْناك الْمسْتهْزئين فهم أنّ الْمراد كفيْناك الانْتقام منْهمْ وإراحتك من اسْتهْزائهمْ.وكانوا يسْتهْزئون بصنوفٍ منْ الاسْتهْزاء كما تقدّم.[310]
الصدع:أصله الشقّ فى المواد الجامدة..ومنه قوله تعالى:«لوْ أنْزلْنا هذا الْقرْآن على جبلٍ لرأيْته خاشعاً متصدّعاً منْ خشْية اللّه» (٢١:الحشر).
والمراد بالصدع الذي أمر به النبي هنا،هو أن يكشف عما أوحى إليه من ربّه،وأن يظهره للناس،ويبلغه إياهم..والتعبير عن هذا بالصدع،يشير إلى أمرين:
فأولا:أن هذه المهمة التي يقوم بها النبي مهمة شاقة عسيرة،من شأنها أن يتصدع لها كيان الإنسان،كما تتصدع الأرض حين تنشق عن النيات المخبوء فى صدرها..كما يقول جل شأنه:«والسّماء ذات الرّجْع،والْأرْض ذات الصّدْع» (١١- ١٢:الطارق)،وإلى ثقل هذه المهمّة يشير قوله تعالى:

[310] - التحرير والتنوير (١٤/ ٨٨)

«إنّا سنلْقي عليْك قوْلًا ثقيلًا» (٥:المزمل) وثانيا:أن هذا الذي يصدع به النبيّ ويخرجه من صدره،هو مما تتزوّد به النفوس،وتحيا عليه القلوب،كما تتزود الأجساد بما تخرج الأرض من حب وثمر،يمسك وجودها،ويحفظ حياتها..

قوله تعالى:«إنّا كفيْناك الْمسْتهْزئين الّذين يجْعلون مع اللّه إلهاً آخر فسوْف يعْلمون» هو تطمين للنبيّ،وتثبيت له على طريق دعوته،وعون من الله له،على أداء مهمته الثقيلة.وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيتولى حساب هؤلاء الذين يقفون فى طريقه،يهزءون به،ويسخرون منه،وليس هذا منهم وحسب،بل إنهم ليجعلون مع الله إلها آخر..فجريمتهم جريمتان..استهزاء بالنبيّ،وكفر بالله،وواحدة منهما مهلكة لمقترفها،فكيف بمن اقترف الجريمتين معا؟.

– وفى قوله تعالى:«فسوْف يعْلمون» تهديد ووعيد لهؤلاء المستهزئين بالرسول،الكافرين بالله..[٣١١]

والرسول – ﷺ– بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك باللّه،ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق.فيغار على الدعوة ويغار على الحق،ويضيق بالضلال والشرك.

لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده،ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم.ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة،حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين..الأجل..فيمضي إلى جوار ربه الكريم:«ولقدْ نعْلم أنّك يضيق صدْرك بما يقولون (٩٧) فسبّحْ بحمْد ربّك وكنْ من السّاجدين (٩٨) واعْبدْ ربّك حتّى يأْتيك الْيقين (٩٩).

ويكون هذا ختام السورة..الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار اللّه الكريم.أولئك الكافرين الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين..

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة والجهر بكل مقوّماتها وكل مقتضياتها.ضرورة في الحركة بهذه الدعوة فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية ويوقظ المشاعر المتبلدة ويقيم الحجة على الناس «ليهْلك منْ هلك عنْ بيّنةٍ ويحْيى منْ حيّ عنْ بيّنةٍ» أما التدسس

---

[٣١١] – التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٢٦٤)

الناعم بهذه العقيدة وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكـــتم جانبـــا،لأن هـــذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهـــذه العقيدة القوية.

والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعني الغلظة المنفرة،والخشونة وقلة الذوق والجلافة! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني التدسس الناعم،وكتمان جانب من حقائق هـــذه العقيـــدة وإبداء جانب،وجعل القرآن عضين..لا هذه و لا تلك..إنما هو البيـــان الكامـــل لكـــل حقائق هذه العقيدة في وضوح جلي،وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير.

« وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهليـــة الســـائدة في الأرض،ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان.. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ولن تكون هـــذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل..فالجاهلية هي الجاهلية،والإسلام هو الإسلام..الجاهلية هي الانحراف عن العبودية للّه وحده،وعن المنهج الإلهي في الحياة،واستنباط النظم والشـــرائع والقوانين،والعادات والتقاليد والقـــيم والمـــوازين،من مصـــدر آخـــر غـــير المصـــدر الإلهي..والإسلام هو الإسلام،ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام»[٣١٢].

وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجـــب أن يصـــدع بهـــا أصـــحاب الـــدعوة الإسلامية،ولا يخفوا منها شيئا وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتململ الجماهير:«ولقدْ نعْلم أنّك يضيق صدْرك بما يقولون.فسبّحْ بحمْـــد ربّـــك وكـــنْ مـــن السّاجدين.واعْبدْ ربّك حتّى يأْتيك الْيقين»[٣١٣].

عنْ أبي أمامة،قال:عرض لرسول اللّه ﷺ رجلٌ عنْد الْجمْرة الْأولى،فقال:يا رسول اللّه أيّ الْجهاد أفْضل؟ فسكت عنْه،فلمّا رمى الْجمْرة الثّانية،سأله،فسكت عنْه،فلمّا رمى جمْـــرة

[٣١٢] - راجع بتوسع فصل:«نقلة بعيدة» في كتاب:«معالم في الطريق».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

[٣١٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨١٢)

الْعقبة،وضع رجْله في الْغرْز ليرْكب،قال:«أيْن السّائل؟» قال:أنا،يا رسول اللّه قال:«كلمة حقٍّ عنْد ذي سلْطانٍ جائرٍ»[314]

وعنْ طارق بْن شهابٍ قال:سئل رسول الله ﷺ:أيّ الْجهاد أفْضل؟ قال:" كلمة عدْلٍ عنْد إمامٍ جائرٍ "[315]

وعنْ أبي سعيدٍ الْخدْريّ،قال:خطبنا رسول اللّه ﷺ بعْد الْعصْر إلى مغيْربان الشّمْس،فلمْ يبْق شيْءٌ يكون إلى قيام السّاعة إلّا أخْبرنا به،علمه منْ علمه،وجهله منْ جهله،فقال:«أنّ الدّنْيا خضرةٌ حلْوةٌ،وإنّ اللّه مسْتخْلفكمْ فيها فناظرٌ كيْف تعْملون؟ ألا فاتّقوا الدّنْيا،واتّقوا النّساء،ألا وإنّ لكلّ غادرٍ لواءً يوْم الْقيامة بقدْر غدْرته،ولواءً عنْد اسْته،ألا وإنّ أفْضل الْجهاد كلمة حقٍّ» وربّما قال سفْيان:«كلمة عدْلٍ عنْد ذي سلْطانٍ جائرٍ» قال:ثمّ بكى أبو سعيدٍ،وقال:«فكمْ قدْ رأيْنا منْ منْكرٍ فلمْ ننْكرْه ألا وإنّ بني آدم خلقوا على طبقاتٍ،فمنْهمْ منْ يولد مؤْمنًا،ويحْيى مؤْمنًا،ويموت مؤْمنًا [ص:١٨]،ومنْهمْ منْ يولد كافرًا،ويحْيى كافرًا،ويموت كافرًا،ومنْهمْ منْ يولد مؤْمنًا،ويحْيى مؤْمنًا،ويموت كافرًا،ومنْهمْ منْ يولد كافرًا،ويحْيى كافرًا،ويموت مؤْمنًا،ومنْهمْ سريع الْغضب،سريع الْفيْء فهذه بتلْك،ومنْهمْ بطيء الْغضب،بطيء الْفيْء،فهذه بتلْك،ألا وإنّ الْغضب جمْرةٌ من النّار،فمنْ وجده منْكمْ وكان قائمًا فلْيجْلسْ،وإنْ كان جالسًا فلْيضْطجع»[316]

قال الْخطّابيّ:إنّما صار ذلك أفْضل الْجهاد،لأنّ منْ جاهد الْعدوّ كان متردّدًا بيْن رجاءٍ وخوْفٍ،لا يدْري هلْ يغْلب أوْ يغْلب،وصاحب السّلْطان مقْهورٌ في يده،فهو إذا قال الْحقّ وأمره بالْمعْروف،فقدْ تعرّض للتّلف،فصار ذلك أفْضل أنْواع الْجهاد منْ أجْل غلبة الْخوْف.[317]

وعن أبي عثْمان سعيد بْن إسْماعيل ،قال:" ينْبغي لمنْ يخاف الله عزّ وجلّ لا يأْتي باب السّلْطان حتّى يدْعى،فيأْتيه وهو خائفٌ منْ ربّه عزّ وجلّ،فيأْمرهمْ بالْمعْروف وينْهاهمْ

---

[314] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٠)(٤٠١٢) صحيح

[315] - شعب الإيمان (١٠/ ٦٨)(٧١٧٥) صحيح

[316] - مسند الحميدي (٢/ ١٧)(٧٦٩) حسن

[317] - شرح السنة للبغوي (١٠/ ٦٦)

عن الْمنْكر،ويقول الْحقّ كما جاء في الْخبر:أفْضل الْجهاد كلمة حقٍّ عنْد سلْطان جائرٍ،ثمّ ينْصرف عنْهمْ وهو خائفٌ منْ ربّه،فهذا غيْر مفْتتنْ إنّما الْمفْتتن أنْ يأْتيهمْ راغبًا طالبًا للدّنْيا طالبًا للْعزّ في الدّنْيا طالبًا للرّئاسة في النّاس يتعزّز بعزّ السّلْطان ويتكبّر بسلْطانه فإذا أتاهمْ داهنهمْ ومال إليْهمْ ورضي بسوء فعْلهمْ وأعانهمْ عليْه وصدّقهمْ على غيْر الْحقّ منْ قوْلهمْ ورجع عنْهمْ مفْتخرًا بهمْ آمنًا لمكْر الله معْتزًا بما نال من الْعزّ بهمْ،يؤْذي النّاس ويطْغى فيهمْ ويتقوّى عليْهمْ باخْتلافٍ إلى السّلْطان،فهذا الّذي افْتتن ونسي الْآخرة وعصى ربّه وآذى الْمؤْمنين ونقص منْ دينه ما لا يجْبره الدّنْيا كلّها لوْ كانتْ له "[318]

وقال تعالى:{ادْع إلى سبيل ربّك بالْحكْمة والْموْعظة الْحسنة وجادلْهم بالّتي هي أحْسن إنّ ربّك هو أعْلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعْلم بالْمهْتدين} (١٢٥) سورة النحل

ادْع يا محمّد قوْمك إلى سلوك طريق الله،طريق الحقّ الذي شرعه الله للنّاس،واسْتعْملْ في دعْوتك معْ كلّ واحدٍ منْهم الوسيلة الناجعة معه،والطّريقة المناسبة،وجادلْ أهْل الكتاب بالحجّة والقوْل اللّيّن،والعبارة الحسنة التي لا تشوبها قسْوةٌ ولا عنْفٌ،ليسْتمرّ بيْنك وبيْنهم الحوار والجدل والنّقاش،فتسْتطيع إقْناعهمْ بصحّة دعْوتك،وحمْلهمْ على اتّباعك،واترْك بعْد ذلك أمْرهمْ لله،فهو الّذي يعْلم منْ ضلّ فلا يفيد معه جدلٌ ولا دعْوةٌ،وهو الذي يعْلم منْ صفتْ نفسه،وسلم تفْكيره،فاهْتدى وآمن بما جئْت به منْ عنْد الله.[319]

ادْع إلى سبيل ربّك بالْحكْمة والْموْعظة الْحسنة وجادلْهمْ بالّتي هي أحْسن.

يتنزّل معْنى هذه الْآية منْزلة الْبيان لقوْله:أن اتّبعْ ملّة إبْراهيم حنيفاً [سورة النّحْل:١٢٣] فإنّ الْمراد بما أوحي إليْه من اتّباع ملّة إبْراهيم هو دين الْإسْلام،ودين الْإسْلام مبْنيٌّ على

---

[318] - شعب الإيمان (١٢/ ٣٨)(٨٩٧٨)

[319] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

قواعد الْحنيفيّة،فلا جرم كان الرّسول ﷺ بدعْوته النّاس إلى الْإسْلام داعيًا إلى اتّباع ملّة إبْراهيم.

ومخاطبة اللّه رسوله ﷺ بهذا الْأمْر في حين أنّه داعٍ إلى الْإسْلام وموافقٌ لأصول ملّة إبْراهيم دليلٌ على أنّ صيغة الْأمْر مسْتعْملةٌ في طلب الدّوام على الدّعْوة الْإسْلاميّة مع ما انْضمّ إلى ذلك من الْهداية إلى طرائق الدّعْوة إلى الدّين.

فتضمّنتْ هذه الْآية تثْبيت الرّسول ﷺ على الدّعْوة وأنْ لا يؤيّسه قوْل الْمشْركين له إنّما أنْت مفْترٍ [سورة النّحْل:١٠١] وقوْلهمْ:إنّما يعلّمه بشرٌ [سورة النّحْل:١٠٣] وأنْ لا يصدّه عن الدّعْوة أنّه تعالى لا يهْدي الّذين لا يؤْمنون بآيات اللّه.ذلك أنّ الْمشْركين لمْ يتْركوا حيلةً يحسبونها تثبّط النّبي ﷺ عنْ دعْوته إلّا ألْقوْا بها إليْه منْ:تصْريحٍ بالتّكْذيب،واسْتسْخارٍ،وتهْديدٍ،وبذاءةٍ،واخْتلاقٍ،وبهْتانٍ،كما ذلك محْكيٌّ في تضاعيف الْقرْآن وفي هذه السّورة،لأنّهمْ يجْهلون مراتب أهْل الاصْطفاء ويزنونهمْ بمعْيار موازين نفوسهمْ،فحسبوا ما يأْتونه من الْخزعْبلات مثبّطًا له وموشكًا لأنْ يصْرفه عنْ دعْوتهمْ.

وسبيل الرّبّ:طريقه.وهو مجازٌ لكلّ عملٍ منْ شأْنه أنْ يبلّغ عامله إلى رضى اللّه تعالى،لأنّ الْعمل الّذي يحْصل لعامله غرضٌ ما يشْبه الطّريق الْموصل إلى مكانٍ مقْصودٍ،فلذلك يسْتعار اسْم السّبيل لسبب الشّيْء.

قال الْقرْطبيّ:إنّ هذه الْآية نزلتْ بمكّة في وقْت الْأمْر بمهادنةٍ قريْشٍ،أيْ في مدّة صلْح الْحديْبية.

وحكى الْواحديّ عن ابْن عبّاسٍ:أنّها نزلتْ عقب غزْوة أحدٍ لّما أحْزن النّبيء ﷺ منْظر الْمثْلة بحمْزة- رضي اللّه عنْه- وقال:«لأقْتلنّ مكانه سبْعين رجلًا منْهمْ».وهذا يقْتضي أنّ الْآية مدنيّةٌ.

ولا أحْسب ما ذكراه صحيحًا.ولعلّ الّذي غرّ منْ رواه قوْله:وإنْ عاقبْتمْ فعاقبوا بمثْل ما عوقبْتمْ به [النّحْل:١٢٦] كما سيأْتي،بلْ موْقع الْآية متّصلٌ بما قبْله غيْر محْتاجٍ إلى إيجاد سبب نزولٍ.

وإضافة سبيل إلى ربّك باعْتبار أنّ اللّه أرْشد إليْه وأمر بالْتزامه.وهـــذه الْإضـــافة تجْريـــدٌ للاسْتعارة.وصار هذا الْمركّب علمًا بالْغلبة على دين الْإسْلام،كما في قوْلـــه تعـــالى:إنّ الّذين كفروا ينْفقون أمْوالهمْ ليصدّوا عنْ سبيل اللّه [سورة الْأنْفال:٣٦]،وهـــو الْمـــراد هنا،وفي قوْله عقبه إنّ ربّك هو أعْلم بمنْ ضلّ عنْ سبيله [سورة النّحْل:١٢٥].

ويطْلق سبيل اللّه علمًا بالْغلبة أيْضًا على نصْرة الدّيْن بالْقتال كما في قوْله تعالى:وجاهدوا بأمْوالكمْ وأنْفسكمْ في سبيل اللّه [سورة التّوْبة:٤١].

والْباء في قوْلـــه:بالْحكْمـــة للْملابســـة،كالْباء في قـــوْل الْعـــرب للْمعـــرّس:بالرّفـــاء والْبنين،بتقْدير:أعْرسْت،يدلّ عليْه الْمقام،وهي إمّا متعلّقةٌ ب ادْع،أوْ في موْضع الْحال منْ ضمير ادْع.وحذف مفْعول ادْع لقصْد التّعْميم،أوْ لأنّ الْفعْل نـــزّل منْزلـــة اللّـــازم،لأنّ الْمقْصود الدّوام على الدّعْوة لا بيان الْمدْعوّين،لأنّ ذلك أمْرٌ معْلومٌ منْ حال الدّعْوة.

ومعْنى الْملابسة يقْتضي أنْ لا تخْلو دعْوته إلى سبيل اللّه عنْ هاتيْن الْخصْلتيْن: الْحكْمة،والْموْعظة الْحسنة.

فالْحكْمة:هي الْمعْرفة الْمحْكمة،أي الصّائبة الْمجرّدة عن الْخطأ،فلا تطْلق الْحكْمة إلّـــا على الْمعْرفة الْخالصة عنْ شوائب الْأخْطـــاء وبقايـــا الْجهْـــل في تعْلـــيم النّـــاس وفي تهْذيبهمْ.ولذلك عرّفوا الْحكْمة بأنّها:معْرفة حقائق الْأشْياء على ما هي عليْـــه بحســـب الطّاقة الْبشريّة بحيْث لا تلْتبس على صاحبها الْحقائق الْمتشابهة بعْضها ببعْض ولا تخطىء في الْعلل والْأسْباب.وهي اسْمٌ جامعٌ لكلّ كلامٍ أوْ علْمٍ يراعى فيه إصْلاح حال النّـــاس واعْتقادهمْ إصْلاحًا مستمرًّا لا يتغيّر.وقدْ تقدّم الْكلام عليْها عنْد قوْله تعالى:يؤْتي الْحكْمة منْ يشاء في سورة الْبقرة [٢٦٩] مفصّلًا فانْظرْه.وتطْلق الْحكْمة على الْعلوم الْحاصـــلة للْأنْبياء،ويرادفها الْحكْم.

والْموْعظة:الْقوْل الّذي يليّن نفْس الْمقول له لعمل الْخيْر.وهي أخصّ من الْحكْمة لأنّها حكْمةٌ في أسْلوبٍ خاصٍّ لإلْقائها.وتقدّمت عنْد قوْله تعالى:فأعْرضْ عـــنْهمْ وعظْهـــمْ في سورة النّساء [٦٣].وعنْد قوْله:موْعظةً وتفْصيلًا لكلّ شيْءٍ في سورة الْأعْراف [١٤٥].

ووصْفها بالْحسْن تحْريضٌ على أنْ تكون ليّنــةً مقْبولــةً عنْــد النّــاس،أيْ حســنةً في جنْسها،وإنّما تتفاضل الْأجْناس بتفاضل الصّفات الْمقْصودة منْها.

وعطْف الْموْعظة على «الْحكْمة» لأنّها تغاير الْحكْمة بالْعموم والْخصوص الْوجْهيّ،فإنّه قدْ يسْلك بالْموْعظة مسْلك الْإقْناع،فمن الْموْعظة حكْمةٌ،ومنْها خطابةٌ،ومنْها جدلٌ.

وهي منْ حيْث ماهيّتها بيْنها وبيْن الْحكْمة الْعموم والْخصوص منْ وجْه،ولكنّ الْمقْصود بها ما لا يخْرج عن الْحكْمة والْموْعظة الْحسنة بقرينة تغْيير الْأسْلوب،إذْ لمْ يعْطفْ مصْدر الْمجادلة على الْحكْمة والْموْعظة بأنْ يقال:والْمجادلة بالّتي هي أحْسن،بلْ

جيء بفعْلها،تنْبيها على أنّ الْمقْصود تقْييد الْإذْن فيها بأنْ تكون بالّتي هي أحســن،كما قال:ولا تجادلوا أهْل الْكتاب إلّا بالّتي هي أحْسن [سورة العنكبوت:٤٦].

والْمجادلة:الاحْتجاج لتصْويب رأْيٍ وإبْطال ما يخالفه أوْ عملٍ كذلك.ولّما كان ما لقيــه النّبيء ﷺ منْ أذى الْمشْركين قدْ يبْعثه على الغلظة عليْهم في الْمجادلة أمره اللّــه بــأنْ يجادلهمْ بالّتي هي أحْسن.وتقدّمتْ قريبًا عنْــد قوْلــه:تجــادل عــنْ نفْســها [ســورة النّحْل:١١١].وتقدّمتْ منْ قبْل عنْد قوْله:ولا تجادلْ عن الّذين يخْتانون أنْفسهمْ في سورة النّساء [١٠٧].والْمعْنى:إذا ألجأتك الدّعْوة إلى محاجّة الْمشْركين فحاججْهمْ بالّتي هــي أحْسن.

والْمفضّل عليْه الْمحاجّة الصّادرة منْهمْ،فإنّ الْمجادلة تقْتضــي صــدور الْفعْــل مــن الْجانبيْن،فعلم أنّ الْمأْمور به أنْ تكون الْمحاجّة الصّادرة منْه أشدّ حسْنًا من الْمحاجّــة الصّادرة منْهمْ،كقوْله تعالى:ادْفعْ بالّتي هي أحْسن [سورة الْمؤْمنون:٩٦].

ولّما كانت الْمجادلة لا تكون إلّا مع الْمعارضين صرّح في الْمجادلة بضمير جمْع الْغــائبين الْمراد منْه الْمشْركون،فإنّ الْمشْركين متفاوتون في كيْفيّات محاجّتهمْ،فمنْهمْ منْ يحــاجّ بلينٍ،مثْل ما في الْحديث:أنّ النّبيء ﷺ قرأ الْقرْآن على الْوليد بْن الْمغيرة ثمّ قال له:«هــلْ ترى بما أقول بأْسًا» قال:لا والدماء.وقرأ النّبيء ﷺ الْقرْآن على عبْد اللّه بْــن أبيّ ابْــن سلولٍ في مجْلس قوْمه،فقال عبْد اللّه بْن أبيٍّ:أيّها الْمرْء إنْ كان ما تقول حقًّا فــاجْلسْ في بيْتك فمن جاءك فحدّثه إيّاه ومنْ لمْ يأتك فلا تغته ولا تأْتــه في مجْلســه بمــا يكْــره

منْه.وتصدّي الْمشْركين لمجادلة النّبيء ﷺ تكرّر غيْر مرّةٍ.ومنْ ذلك ما روي عـــن ابْـــن عبّاسٍ:أنّه لّما نزل قوْله تعالى:إنّكمْ وما تعْبدون منْ دون اللّه حصـــب جهـــنّم [ســـورة الْأنْبياء:٩٨] الْآية،قال عبْد اللّه الزّبعْرى:لأخْصمنّ محمّدًا،فجاءه فقال:يا محمّد قدْ عبـــد عيسى،وعبدت الْملائكة فهلْ همْ حصبٌ لجهنّم؟ فقال النّبيء ﷺ:«اقْرأْ ما بعْد إنّ الّذين سبقتْ لهمْ منّا الْحسْنى أولئك عنْها مبْعدون [سورة الْأنْبياء:١٠١].أخْرجه ابْن الْمنْـــذر وابْن مرْدويْه والطّبرانيّ،وأبو داود في كتاب «النّاسخ والْمنْسوخ».وقيّـــدت الْموْعظـــة بالْحسنة ولْم تقيّد الْحكْمة بمثْل ذلك لأنّ الْموْعظة لّما كان الْمقْصود منْهـــا غالبًـــا ردْع نفْس الْموْعوظ عنْ أعْماله السّيّئة أوْ عنْ توقّع ذلك منْه،كانتْ مظنّةً لصدور غلْظةٍ مـــن الْواعظ ولحصول انْكسارٍ في نفْس الْموْعوظ،أرشد اللّه رسوله أنْ يتوخّى في الْموْعظة أنْ تكون حسنةً،أيْ بإلانة الْقوْل وترْغيب الْموْعوظ في الْخيْر،قال تعالى خطابًـــا لموســـى وهارون:اذْهبا إلى فرْعوْن إنّه طغى فقولا له قوْلًا ليّناً لعلّه يتـــذكّر أوْ يخْشـــى [ســـورة طه:٤٣].

وفي حديث التّرْمذيّ عن الْعرْباض بْن سارية أنّه قال:«وعظنا رسول اللّـــه ﷺ موْعظـــةً وجلتْ منْها الْقلوب وذرفتْ منْها الْعيون» الْحديث.

وأمّا الْحكْمة فهي تعْليمٌ لمتطلّبي الْكمال منْ معلّمٍ يهْتمّ بتعْليم طلّابه فلا تكون إلّا في حالةٍ حسنةٍ فلا حاجة إلى التّنْبيه على أنْ تكون حسنةً.

والْمجادلة لّما كانتْ محاجّةً في فعْلٍ أوْ رأْيٍ لقصْد الْإقْناع بوجْه الْحقّ فيه فهي لا تعْـــدو أنْ تكون من الْحكْمة أوْ من الْموْعظة،ولكنّها جعلتْ قسيمًا لهما هنا بالنّظر إلى الْغرض الدّاعي إليْها.

وإذْ قدْ كانتْ مجادلة النّبيء ﷺ لهمْ منْ ذيول الدّعْوة وصفتْ بالّتي هـــي أحْســـن كمـــا وصفت الْموْعظة بالْحسنة.وقدْ كان الْمشْركون يجادلون النّبيء قصْدًا لإفْحامـــه،وتمْويهًا لتغْليطه نبّه اللّه على أسْلوب مجادلة النّبيء إيّـــاهمْ اسْـــتكْمالًا لآداب وســـائل الـــدّعْوة كلّها.فالضّمير في وجادلْهمْ عائدٌ إلى الْمشْركين بقرينة الْمقام لظهـــور أنّ الْمسْـــلمين لا يجادلون النّبيء ﷺ ولكنْ يتلقّوْن منْه تلقّي الْمسْتفيد والْمسْترْشد.وهذا موجـــب تغْـــيير

الْأسْلوب بالنّسْبة إلى الْمجادلة إذْ لمْ يقلْ:والْمجادلة الْحسنة،بلْ قال:وجادلْهمْ،وقال تعالى أيْضًا:ولا تجادلوا أهْل الْكتاب إلّا بالّتي هي أحْسن [سورة العنكبوت:٤٦].

ويندرج في «الّتي هي أحْسن» ردّ تكْذيبهمْ بكلامٍ غيْر صريحٍ في إبْطال قوْلهمْ من الْكلام الْموجّه،مثْل قوْله تعالى وإنّا أوْ إيّاكمْ لعلى هدًى أوْ في ضلالٍ مبينٍ [سورة سبأ:٢٤]،وقوْله:وإنْ جادلوك فقل اللّه أعْلم بما تعْملون اللّه يحْكم بيْنكمْ يوْم الْقيامة فيما كنْتمْ فيه تخْتلفون [سورة الْحج:٦٨].

والْآية تقْتضي أنّ الْقرْآن مشْتملٌ على هذه الطّرق الثّلاثة منْ أساليب الدّعْوة،وأنّ الرّسول ﷺ إذا دعا النّاس بغيْر الْقرْآن منْ خطبه ومواعظه وإرْشاده يسْلك معهمْ هذه الطّرق الثّلاثة.وذلك كلّه بحسب ما يقْتضيه الْمقام منْ معاني الْكلام ومنْ أحْوال الْمخاطبين منْ خاصّةٍ وعامّة.

وليْس الْمقْصود لزوم كوْن الْكلام الْواحد مشْتملًا على هذه الْأحْوال الثّلاثة بلْ قدْ يكون الْكلام حكْمةً مشْتملًا على غلْظةٍ ووعيدٍ وخاليًا عن الْمجادلة.وقدْ يكون مجادلةً غيْر موْعظةٍ،كقوْله تعالى:ثمّ أنْتمْ هؤلاء تقْتلون أنْفسكمْ وتخْرجون فريقاً منْكمْ منْ ديارهمْ تظاهرون عليْهمْ بالْإثْم والْعدْوان وإنْ يأْتوكمْ أسارى تفادوهمْ وهو محرّمٌ عليْكمْ إخْراجهمْ أفتؤْمنون ببعْض الْكتاب وتكْفرون ببعْضٍ.

وكقوْل النّبيء ﷺ «إنّك لتأْكل الْمرْباع وهو حرامٌ في دينك»،قاله لعديّ بْن حاتمٍ وهو نصْرانيٌّ قبْل إسْلامه.

ومن الْإعْجاز الْعلْميّ في الْقرْآن أنّ هذه الْآية جمعتْ أصول الاسْتدْلال الْعقْليّ الْحقّ،وهي الْبرْهان والْخطابة والْجدل الْمعبّر عنْها في علْم الْمنْطق بالصّناعات وهي الْمقْبولة من الصّناعات.وأمّا السّفْسطة والشّعْر فيرْبأ عنْهما الْحكماء الصّادقون بلْه الْأنْبياء والْمرْسلين.

قال فخْر الدّين:«إنّ الدّعْوة إلى الْمذْهب والْمقالة لا بدّ منْ أنْ تكون مبْنيّةً على حجّةٍ.والْمقْصود منْ ذكْر الْحجّة إمّا تقْرير ذلك الْمذْهب وذلك الاعْتقاد في قلوب السّامعين،وإمّا إلْزام الْخصْم وإفْحامه.

أمّا الْقسْم الْأوّل فينْقسم إلى قسْميْن لأنّ تلْك الْحجّة إمّا أنْ تكون حجّةً حقيقيّةً يقينيّةً مبرّأةً من احْتمال النّقيض،وإمّا أنْ لا تكون كذلك بلْ تكون مفيدةً ظنًّا ظاهرًا وإقْناعًا،فظهر انْحصار الْحجج في هذه الْأقْسام الثّلاثة:

أوّلها:الْحجّة الْمفيدة للْعقائد الْيقينيّة وذلك هو الْمسمّى بالْحكْمة.

وثانيها:الْأمارات الظّنّيّة وهي الْموْعظة الْحسنة.

وثالثها:الدّلائل الّتي الْقصْد منْها إفْحام الْخصْم وذلك هو الْجدل.

وهو على قسْميْن،لأنّه:إمّا أنْ يكون مركّبًا منْ مقدّمات مسلّمة عنْد الْجمْهور وهو الْجدل الْواقع على الْوجْه الْأحْسن،وإمّا أنْ يكون مركّبًا منْ مقدّماتٍ باطلةٍ يحاول قائلها ترْويجها على الْمسْتمعين بالْحيل الْباطلة.وهذا لا يليق بأهْل الْفضْل» اه.

وهذا هو الْمدْعوّ في الْمنْطق بالسّفْسطة،ومنْه الْمقدّمات الشّعْريّة وهي سفْسطةٌ مزوّقةٌ.

والْآية جامعةٌ لأقْسام الْحجّة الْحقّ جمْعًا لمواقع أنْواعها في طرق الدّعْوة،ولكنْ على وجْه التّداخل،لا على وجْه التّباين والتّقْسيم كما هو مصْطلح الْمنْطقيّين،فإنّ الْحجج الاصْطلاحيّة عنْدهمْ بعْضها قسيمٌ لبعْضٍ،فالنّسْبة بيْنها التّباين.أمّا طرق الدّعْوة الْإسْلاميّة فالنّسْبة بيْنها الْعموم والْخصوص الْمطْلق أو الْوجْهيّ.وتفْصيله يخْرج بنا إلى تطْويلٍ،وذهْنك في تفْكيكها غيْر كليلٍ.

فإلى الْحكْمة ترْجع صناعة الْبرْهان لأنّه يتألّف من الْمقدّمات الْيقينيّة وهي حقائق ثابتةٌ تقْتضي حصول معْرفة الْأشْياء على ما هي عليْه.

وإلى الْموْعظة ترْجع صناعة الْخطابة لأنّ الْخطابة تتألّف منْ مقدّماتٍ ظنّيّةٍ لأنّها مراعًى فيها ما يغْلب عنْد أهْل الْعقول الْمعْتادة.وكفى بالْمقْبولات الْعاديّة موْعظةً.ومثالها من الْقرْآن قوْله تعالى ولا تنْكحوا ما نكح آباؤكمْ من النّساء إلّا ما قدْ سلف إنّه كان فاحشةً ومقْتاً وساء سبيلًا [سورة النّساء:٢٢] فقوْله:ومقْتاً أشار إلى أنّهمْ كانوا إذا فعلوه في الْجاهليّة يسمّونه نكاح الْمقْت،فأجْري عليْه هذا الْوصْف لأنّه مقْنعٌ بأنّه فاحشةٌ،فهو اسْتدْلالٌ خطابيٌّ.

وأمّا الْجدل فما يورد في الْمناظرات والْحجاج من الْأدلّة الْمسلّمة بيْن الْمتحاجّين أوْ من الْأدلّة الْمشْهورة،فأطْلق اسْم الْجدل على الاسْتدْلال الّذي يروج في خصوص الْمجادلة ولا يلْتحق بمرْتبة الْحكْمة.وقدْ يكون ممّا يقْبل مثْله في الْموْعظة لوْ أُلْقي في غيْر حال الْمجادلة.وسمّاه حكماء الْإسْلام جدلًا تقْريبًا للْمعْنى الّذي يطْلق عليْه في اللّغة الْيونانيّة.

إنّ ربّك هو أعْلم بمنْ ضلّ عنْ سبيله وهو أعْلم بالْمهْتدين.هذه الْجمْلة تعْليلٌ للْأمْر بالاسْتمْرار على الدّعْوة بعْد الْإعْلام بأنّ الّذين لا يؤْمنون بآيات اللّه لا يهْديهم اللّه،وبعْد وصْف أحْوال تكْذيبهمْ وعنادهمْ.فلمّا كان التّحْريض بعْد ذلك على اسْتدامة الدّعْوة إلى الدّين محْتاجًا لبيان الْحكْمة في ذلك بيّنت الْحكْمة بأنّ اللّه هو أعْلم بمصير النّاس وليْس ذلك لغيْر اللّه من النّاس فما عليْك إلّا الْبلاغ،أيْ فلا تيْأسْ منْ هدايتهمْ ولا تتجاوزْ إلى حدّ الْحزْن على عدم اهْتدائهمْ لأنّ الْعلْم بمنْ يهْتدي ومنْ يضلّ موْكولٌ إلى اللّه وإنّما عليْك التّبْليغ في كلّ حالٍ.وهذا قوْلٌ فصْلٌ بيْن فريق الْحقّ وفريق الْباطل.

وقدّم الْعلْم بمنْ ضلّ لأنّه الْمقْصود من التّعْليل لأنّ دعْوتهمْ أوْكد والْإرْشاد إلى اللّين في جانبهمْ بالْموْعظة الْحسنة والْمجادلة الْحسْنى أهمّ،ثمّ أتْبع ذلك بالْعلْم بالْمهْتدين على وجْه التّكْميل.

وفيه إيماءٌ إلى أنّه لا يدْري أنْ يكون بعْض منْ أيس منْ إيمانه قدْ شرح اللّه صدْره للْإسْلام بعْد الْيأْس منْه.

وتأْكيد الْخبر بضمير الْفصْل للاهْتمام به.وأمّا إنّ فهي في مقام التّعْليل ليْستْ إلّا لمجرّد الاهْتمام،وهي قائمةٌ مقام فاء التّفْريع على ما أوْضحه عبْد الْقاهر في دلائل الْإعْجاز فإنّ إفادتها التّأْكيد هنا مسْتغْنًى عنْها بوجود ضمير الْفصْل في الْجمْلة الْمفيدة لقصْر الصّفة على الْموْصوف،فإنّ الْقصْر تأْكيدٌ على تأْكيد.

وإعادة ضمير الْفصْل في قوْله:وهو أعْلم بالْمهْتدين للتّنْصيص على تقْوية هذا الْخبر لأنّه لوْ قيل:وأعْلم بالْمهْتدين،لاحْتمل أنْ يكون معْطوفًا على جمْلة هو أعْلم بمنْ ضلّ على أنه خبر (لإنّ) غيْر داخلٍ في حيّز التّقْوية بضمير الْفصْل،فأعيد ضمير الْفصْل لدفْع هذا الاحْتمال.

و لْمْ يقلْ:وبالمهتدين،تصْريحًا بالْعلْم في جانبهمْ ليكون صريحًا في تعلّق الْعلْم به.

وهذان الْقصْران إضافيّان،أيْ ربّك أعْلم بالضّالّين والْمهْتدين،لا هؤلاء الّذين يظنّون أنّهمْ مهْتدون وأنّكمْ ضالّون.والتّفْضيل في قوْله:هو أعْلم تفْضيلٌ على علْم غيْره بـذلك.فإنّـه علْمٌ متفاوتٌ بحسب تفاوت الْعالمين في معْرفة الْحقائق.

وفي هذا التّفْضيل إيماءٌ إلى وجوب طلب كمـال الْعلْـم بالْهـدى،وتمْييز الْحـقّ مـن الْباطل،وغوْص النّظر في ذلك،وتجنّب التّسرّع في الْحكْم دون قوّة ظنٍّ بالْحقّ،والْحـذر منْ تغلّب تيّارات الْأهْواء حتّى لا تـنْعكس الْحقـائق ولا تسـير الْعقـول في بنْيـات الطّرائق،فإنّ الْحقّ باقٍ على الزّمان والْباطل تكذّبه الْحجّة والْبرْهان.

والتّخلّق بهذه الْآية هو أنّ كلّ منْ يقوم مقامًا مـنْ مقامـات الرّسـول ﷺ في إرْشـاد الْمسْلمين أوْ سياستهمْ يجب عليْه أنْ يكون سالكًا للطّرائق الثّلاث:الْحكْمة،والْموْعظـة الْحسنة،والْمجادلة بالّتي هي أحْسن،وإلّا كان منْصرفًا عن الْآداب الْإسْلاميّة وغيْر خليـقٍ بما هو فيه منْ سياسة الْأمّة،وأنْ يخْشى أنْ يعرّض مصالح الْأمّـة للتّلف،فإصْـلاح الْأمّـة يتطلّب إبْلاغ الْحقّ إليْها بهذه الْوسائل الثّلاث.والْمجْتمع الإسلامي لا يخْلو عنْ متعنّـتٍ أوْ ملبّسٍ وكلاهما يلْقي في طريق المصلحين شواك الشّبه بقصْدٍ أوْ بغيْر قصْدٍ.فسبيل تقْويمـه هو الْمجادلة،فتلْك أدْنى لإقْناعه وكشْف قناعه.

في «الْموطّأ» أنّ عمر بْن الْخطّاب- رضي اللّه عنْه- قال في خطْبةٍ خطبـها في آخـر عمْره:«أيّها النّاس قدْ سنّتْ لكـم السّنن،وفرضـتْ لكـم الْفرائض،وتـركْتمْ علـى الْواضحة،إلّا أنْ تضلّوا بالنّاس يمينًا وشمالًا» وضرب بإحْدى يديْه على الْـأخْرى.(لعلّـه ضرب بيده الْيسْرى على يده الْيمْنى الْممْسكة السّيْف أو الْعصا في حال الْخطْبة).وهـذا الضّرْب علامةٌ على أنّه ليْس وراء ما ذكر مطْلبٌ للنّاس في حكْمٍ لمْ يسْبقْ لـه بيـانٌ في الشّريعة.وقدّم ذكْر علْمه بمنْ ضلّ عنْ سبيله على ذكْر علْمـه بالْمهْتـدين لأنّ الْمقـام تعْريضٌ بالْوعيد للضّالّين،ولأنّ التّخْلية مقدّمةٌ على التّحْلية،فالْوعيد مقدّمٌ على الْوعْد.[٣٢٠]

---

[٣٢٠] - التحرير والتنوير (١٤/ ٣٢٥)

وقال السعدي:أي:ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح { بِالْحِكْمَةِ } أي:كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم،وبالأقرب إلى الأذهان والفهم،وبما يكون قبوله أتم،وبالرفق واللين،فإن انقاد بالحكمة،وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة،وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها،والنواهي من المضار وتعدادها،وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل،فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق.أو كان داعيه إلى الباطل،فيجادل بالتي هي أحسن،وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها،فإنه أقرب إلى حصول المقصود،وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها،ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.وقوله:{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } علم السبب الذي أداه إلى الضلال،وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.{ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منّ عليهم فاجتباهم.[٣٢١]

من الدعوة بالحكمة مراعاة مقتضى الحال،ومخاطبة كل قوم بما يعرفون،وأخذهم بالرفق والتلطّف،واختيار الوقت المناسب للموعظة التي يراد وعظهم بها،حتى تتقبلها النفوس،وتنتفع بما فيها من خير..إن الرسول طبيب يحمل الدواء إلى العقول،والقلوب،والأرواح..

[٣٢١] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٤٥٢)

ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة،يحتاج معها إلى بصيرة نافذة،تتدسس إلى خفايا النفس الإنسانية،وتضع يدها على موطن الداء.ثم تختار من الدواء ما يشفى العلة،ويذهب بالداء..

وقوله تعالى:«وجادلْهمْ بالّتي هي أحْسن» هو بيان لمرحلة من مراحل الدعوة،وهى المرحلة التالية،للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة..فالرسول مطالب بأن يعرض مجادلا،فذلك من شأنه أن يعمّى على الحق،وأن يسدّ المنافذ الموصلة إليه،وإنما على الرسول أن يلقى جدال المجادلين بالحسنى،وأن يصرفهم عن هذا الجدل العقيم،إلى ما هو أجدى وأنفع لهم..وقد أرى الله سبحانه وتعالى النبيّ المثل الأمثل فيما يلقى به المجادلين،حين أجاب سبحانه وتعالى عن سؤال إلى المشركين عن الأهلة،فقال تعالى:«يسْئلونك عن الْأهلّة..قلْ هي مواقيت للنّاس والْحجّ» (١٨٩:البقرة) ففى هذا الجواب الحكيم،دعوة للمشركين أن ينصرفوا عن هذا الجدل العقيم حول الأهلة،وكيف تبدو صغيرة،ثم تكبر،ثم تعود صغيرة- إلى ما فى هذه الأهلة،ودورها،من آثار يتعرفون بها المواقيت لأمور الدين والدنيا جميعا..ذلك هو الجدل بالتي هى أحسن وأقوم..وعلى هذا المنهج ينبغى أن يكون جدل النبيّ،فى كل موقف يكون بينه وبين المشركين أو الكافرين،جدال..وقوله تعالى:«إنّ ربّك هو أعْلم بمنْ ضلّ عنْ سبيله وهو أعْلم بالْمهْتدين» - هو تهديد لأولئك الذين يجادلون بغير علم،ولغير غاية،إلا المراء والإعنات..فالله أعلم بهؤلاء الضالين عن سبيله،لا يجتمعون مع المهتدين،ولا يترلون منازلهم،بل يعزلون عنهم،ويلقى بهم فى عذاب السعير.[٣٢٢]

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها،ويعين وسائلها وطرائقها،ويرسم المنهج للرسول الكريم،وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه اللّه في هذا القرآن.

---

[٣٢٢] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٩٨)

إن الدعوة دعوة إلى سبيل اللّه.لا لشخص الداعي ولا لقومه.فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه للّه،لا فضل له يتحدث به،لا على الـدعوة ولا علـى مـن يهتـدون به،وأجره بعد ذلك على اللّه.

والدعوة بالحكمة،والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم،والقدر الذي يبينه لهم في كـل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لهـا.والطريقـة الـتي يخاطبهم بها،والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها.فلا تستبد به الحماسة والانـدفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق،وتتعمق المشاعر بلطف،لا بالزجر والتأنيب في غير موجب.

ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية.فإن الرفق في الموعظة كثيرا مـا يهدي القلوب الشاردة،ويؤلف القلوب النافرة،ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن.بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح.حتى يطمـئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هـو الغلبـة في الجـدل،ولكن الإقنـاع والوصـول إلى الحق.فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها،وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنـه إلا بالرفق،حتى لا تشعر بالهزيمة.وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس،فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها.والجدل بالحسنى هـو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة.ويشعر المجادل أن ذاته مصونة،وقيمته كريمة،وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها،والاهتداء إليها.في سبيل اللّه،لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر! ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن اللّه هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتـدين.فـلا ضـرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك للّه.[٣٢٣]

----

[٣٢٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٨٧١)

وقال تعالى:{قلْ يا أهْل الْكتاب تعالوْا إلى كلمةٍ سواء بيْننا وبيْنكمْ ألاّ نعْبد إلاّ اللّــه ولا نشْرك به شيْئًا ولا يتّخذ بعْضنا بعْضاً أرْبابًا مّن دون اللّه فإن تولّوْا فقولواْ اشْهدواْ بأنّا مسْلمون} (٦٤) سورة آل عمران

قلْ يا محمّد لأهْل الكتاب من اليهود والنّصارى:أنا وأنْتمْ نعْتقد أنّ العالم منْ صــنْع إلــهٍ واحدٍ،وهو خالقه ومدبّره،وهو الذي يرْسل الأنْبياء ليبلّغوا عنْــه مــا يريــد،فتعالوا إلى عبارةٍ،أوْ جمْلة عدْلٍ وإنْصافٍ (سواءٍ)،نسْتوي نحْن وإيّاكمْ فيها،واتّفقتْ عليها جميــع الرّسل والكتب التي أنْزلتْ إليْهمْ،وهي ألاّ نعْبد إلاّ الله وحْده،لــه السّــلْطة المطْلقــة في التّشْريعْ والتّحْريم والتّحْليل،ولا نشْرك به شيْئاً (لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا طاغوتاً) وهذه هي دعْوة جميع الرّسل،ولا يطيع بعْضنا بعْضــاً في معْصــية الله.فــإنْ رفضــوا الاسْتجابة لهذه الدّعْوة،وتولّوْا عنْها،وأبوْا إلاًّ أنْ يعْبدوا غيْــر الله،واتّخــذوا الشّــركاء والوسطاء والأرْباب الذين يحلّلون ويحرّمون،فقولوا لهمْ – أنْــت والمسْــلمون معــك – :اشْهدوا علينا بأنّنا مقيمون على دين الإسْلام الذي شرعه الله لنا،ونحْن مخْلصون لــه لا نعْبد مع الله أحداً غيْره [٣٢٤].

هذه دعوة عادلة إلى أهل الكتاب..يدعوهم فيها رسول الله،إلى كلمــة يجتمــع عليهــا المسلمون وأهل الكتاب،تلك الكلمة هى:«ألّا نعْبد إلّا اللّه ولا نشْرك به شيْئاً ولا يتّخــذ بعْضنا بعْضاً أرْباباً منْ دون اللّه» فالتوحيد الخالص لله،توحيدا مصفّى من كل ضلالات الشرك وأوهامه- هو مضمون تلك الكلمة ومحتواها.

وقوله تعالى:«ولا يتّخذ بعْضنا بعْضاً أرْباباً منْ دون اللّه» هو تعريض بأتباع المسيح الذين اتخذوا المسيح- وهو بعض الناس- اتخذوه إلها من دون الله..فالمسيح هو إنســان مــن الناس،فكيف يتخذ الناس بعضهم أربابا وآلهة؟ إنه مهما بلغ تقديرنا وإعزازنــا لــبعض الناس منا،فإن ذلك لا يخرج بهم عن دائرة الإنسانية،ولا يخرج بنظرنا إليهم عن الحــدود البشرية،وإن وضعناهم على الذروة منها.

---

[٣٢٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

وقوله تعالى:«فإنْ تولّوْا فقولوا اشْهدوا بأنّا مسْلمون» إلفات للمسلمين إلى ما بين أيديهم من حقّ،في تلك الكلمة التي دعوا أهل الكتاب إليها..فإن أباها أهل الكتاب،وأعطوها ظهورهم،فإن على المسلمين أن يؤذّنوا بها في أسماع العالمين،وأن يملئوا أفواههم وقلوبهم بها،وأن يقولوها صريحة مدوية،بمحضر من هؤلاء الذين صمّوا آذانهم عنها،وأمسكوا ألسنتهم عن النطق بها..وإشهاد أهل الكتاب على إيمان المؤمنين،هو شهادة عليهم،وحجة قائمة على موقفهم العناديّ من دعوة الحق.[٣٢٥]

وقال ابن عاشور:

رجوعٌ إلى الْمجادلة،بعْد انْقطاعها بالدّعاء إلى الْمباهلة،بعث عليْه الْحرْص على إيمانهمْ،وإشارةٌ إلى شيْءٍ منْ زيْغ أهْل الْكتابيْن عنْ حقيقة إسْلام الْوجْه للّه كما تقدّم بيانه.وقدْ جيء في هذه الْمجادلة بحجّةٍ لا يجدون عنْها موئلا وهو دعْوتهمْ إلى تخْصيص اللّه بالْعبادة ونبْذ عقيدة إشْراك غيْره في الْإلهيّة.فجمْلة قلْ يا أهْل الْكتاب بمنْزلة التّأْكيد لجمْلة فقلْ تعالوْا ندْع أبْناءنا [آل عمران:٦١] لأنّ مدْلول الْأولى احْتجاجٌ عليْهمْ بضعْف ثقتهمْ بأحقّيّة اعْتقادهمْ.ومدْلول هذه احْتجاجٌ عليْهمْ بصحّة عقيدة الْإسْلام،ولذلك لمْ تعْطفْ هذه الْجمْلة.والْمراد بأهْل الْكتاب هنا النّصارى:لأنّهمْ هم الّذين اتّخذوا الْمخْلوق ربًّا وعبدوه مع اللّه.وتعالوْا هنا مسْتعْملةٌ في طلب الاجْتماع على كلمةٍ سواءٍ وهو تمْثيلٌ:جعلت الْكلمة الْمجْتمع عليْها بشبْه الْمكان الْمراد الاجْتماع عنْده.وتقدّم الْكلام على (تعالوْا) قريبًا.والْكلمة هنا أطْلقتْ على الْكلام الْوجيز كما في قوْله تعالى:كلّا إنّها كلمةٌ هو قائلها [الْمؤْمنون:١٠٠].

و (سواءٌ) هنا اسْم مصْدر الاسْتواء،قيل بمعْنى الْعدْل،وقيل بمعْنى قصْدٍ لا شطط فيها،وهذان يكونان منْ قوْلهمْ:مكانٌ سواءٌ وسوًى وسوًى بمعْنى متوسّطٍ قال تعالى:فرآه في سواء الْجحيم [الصافات:٥٥].وقال ابْن عطيّة:بمعْنى ما يسْتوي فيه جميع النّاس،فإنّ اتّخاذ بعْضهمْ بعْضًا أرْبابًا،لا يكون على اسْتواء حالٍ وهو قوْلٌ حسنٌ.وعلى كلّ معْنًى

---

[٣٢٥] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٨٥)

فالسّواء غيْر مؤنّثٍ،وصف به كلمةٍ،وهو لفْظٌ مؤنّثٌ،لأنّ الْوصْف بالْمصْدر واسْم الْمصْدر لا مطابقة فيه.

وألّا نعْبد بدلٌ منْ كلمةٍ،وقال جماعةٌ:هو بدلٌ منْ سواءٍ،وردّه ابْن هشامٍ،في النّوْع الثّاني من الْجهة السّادسة منْ جهات قواعد الْإعْراب منْ مغْني اللّبيب،واعْترضه الدّمامينيّ وغيْره.

والْحقّ أنّه مرْدودٌ منْ جهة مراعاة الاصْطلاح لا منْ جهة الْمعْنى لأنّ سواء وصف لكلمة وألّا نعْبد لوْ جعل بدلًا من سواء ءال إلى كوْنه في قوّة الْوصْف لكلمة ولا يحْسن وصْف كلمةٍ به.وضمير بيْننا عائدٌ على معْلومٍ من الْمقام:وهو النّبيء ﷺ والْمسْلمون،ولذلك جاء بعْده:فقولوا اشْهدوا بأنّا مسْلمون.

ويسْتفاد منْ قوْله:ألّا نعْبد إلّا اللّه إلى آخره،التّعْريض بالّذين عبدوا الْمسيح كلّهمْ.

وقوْله:فإنْ تولّوْا جيء في هذا الشّرْط بحرْف إنْ لأنّ التّولّي بعْد نهوض هذه الْحجّة وما قبْلها من الْأدلّة غريب الْوقوع،فالْمقام مشْتملٌ على ما هو صالحٌ لاقْتلاع حصول هذا الشّرْط،فصار فعْل الشّرْط منْ شأْنه أنْ يكون نادر الْوقوع مفْروضًا،وذلك منْ مواقع (إن) الشّرْطيّة فإنْ كان ذلك منْهمْ فقدْ صاروا بحيْث يؤْيس منْ إسْلامهمْ فأعْرضوا عنْهمْ،وأمْسكوا أنْتمْ بإسْلامكمْ،وأشْهدوهمْ أنّكمْ على إسْلامكمْ.ومعْنى هذا الْإشْهاد التّسْجيل عليْهمْ لئلّا يظْهروا إعْراض الْمسْلمين عن الاسْترْسال في محاجّتهمْ في صورة الْعجْز والتّسْليم بأحقّيّة ما عليْه أهْل الْكتاب فهذا معْنى الْإشْهاد عليْهمْ بأنا مسلمون.[٣٢٦]

وقال السعدي:

أي:قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى { تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم } أي:هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون،ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون،ليست مختصة بأحدنا دون الآخر،بل مشتركة بيننا وبينكم،وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال،ثم فسرها بقوله { ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا } فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيا ولا ملكا

---

[٣٢٦] - التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٨)

ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا { ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله } بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله،فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق،لأن ذلك جعل للمخلوقين في مترلة الربوبية،فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك،فإن أجابوا كانوا مثلكم،لهم ما لكم وعليهم ما عليكم،وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم [ص ١٣٤] أنكم مسلمون،ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة،كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين،وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم،كما قال تعالى { قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا } الآية وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه،إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه.[٣٢٧]

وإنها لدعوة منصفة من غير شك.دعوة لا يريد بها النبي - ﷺ- أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين..كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد.لا يعلو بعضهم على بعض،ولا يتعبد بعضهم بعضا.دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد،لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم.

إنها دعوة إلى عبادة اللّه وحده لا يشركون به شيئا.لا بشرا ولا حجرا.ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا من دون اللّه أربابا.لا نبيا ولا رسولا.فكلهم للّه عبيد.إنما اصطفاهم اللّه للتبليغ عنه،لا لمشاركته في الألوهية والربوبية.

«فإنْ تولّوْا فقولوا:اشْهدوا بأنّا مسْلمون».فإن أبوا عبادة اللّه وحده دون شريك.والعبودية للّه وحده دون شريك.وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية..إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون..

---

[٣٢٧] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٣٣)

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه،تقرر بوضـــوح حاسم من هم المسلمون.المسلمون هم الذين يعبدون اللّه وحده ويتعبدون للّه وحده ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه..

هذه هي خصيصتهم التي تميزهم من سائر الملل والنحل وتميز منهج حياتهم مـــن منـــاهج حياة البشر جميعا.

وإما أن تتحقق هذه الخصيصة فهم مسلمون،وإما ألا تتحقق فما هم بمسلمين مهما ادعوا أنهم مسلمون! إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد.والنظام الإسلامي هـــو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر..

إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه..يقـــع هـــذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء..إن أول خصائص الربوبيـــة هو حق تعبد الناس.حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين..وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس – في صورة من الصـــور – ويرجـــع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس – على أي وضع من الأوضاع – وهذه المجموعـــة الـــتي تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أربابا من دون اللّه ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبيـــة،وهم بذلك يعبدونها من دون اللّه،وإن لم يسجدوا لها ويركعوا.فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا للّه.

وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة..ويصبح حرا.حـــرا يتلقـــى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من اللّه وحده،شـــأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله.فهو وكل إنسان آخر على سواء.كلهم يقفون في مستوى واحد،ويتطلعون إلى سيد واحد،ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه.

والإسلام – بهذا المعنى – هو الدين عند اللّه.وهو الذي جاء به كل رسول مـــن عنـــد اللّه..لقد أرسل اللّه الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه.ومن

جور العباد إلى عدل اللّه..فمن تولى عنه فليس مسلما بشهادة اللّه.مهما أول المؤولون،وضلل المضللون..«إنّ الدّين عنْد اللّه الْإسْلام»[٣٢٨].

جهاد المبدلين لشريعة الرحمن:

١-مجاهدة من لم يحكم بما أنزل الله:

قال تعالى:{ وأنزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مصدّقًا لّما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمنًا عليْه فاحْكم بيْنهم بما أنزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ لكلٍّ جعلْنا منكمْ شرْعةً ومنْهاجًا ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً ولـكن لّيبْلوكمْ في ما آتاكم فاسْتبقوا الخيْرات إلى الله مرْجعكمْ جميعًا فينبّئكم بما كنتمْ فيه تخْتلفون (٤٨) وأن احْكم بيْنهم بما أنزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ واحْذرْهمْ أن يفْتنوك عن بعْض ما أنزل اللّه إليْك فإن تولّوْاْ فاعْلمْ أنّما يريد اللّه أن يصيبهم ببعْض ذنوبهمْ وإنّ كثيراً مّن النّاس لفاسقون (٤٩) أفحكْم الْجاهليّة يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لّقوْمٍ يوقنون (٥٠)}سورة المائدة

وأنْزل الله تعالى القرْآن (الكتاب) إليك يا محمّد بالحقّ والصّدْق الذي لا ريْب فيه،ولا شكّ في أنّه منْ عنْد الله،مصدّقاً للْكتب السّابقة المتضمّنة ذكْره ومدْحه،والإشارة إلى أنّه منْزلٌ منْ عنْد الله على عبْده ورسوله محمّدٍ ﷺ،فكان نزوله كما أخْبرْت به ممّا زادها صدْقاً عنْد حامليها منْ ذوي البصائر،الذين اتّبعوا أمْر الله وشرْعه،وصدّقوا رسله.

والقرْآن جاء أميناً على الكتب السّابقة،وشاهداً عليْها بالحقّ والصّحّة بما بيّنه منْ حقيقة أمْرها (مهيْمناً عليْه)،ومبيّناً حال منْ خوطبوا بها:منْ نسْيان حظٍّ عظيمٍ منْها،وتحْريف كثيرٍ ممّا بقي،أوْ تأْويله،والإعْراض عن العمل به.

وبما أنّ الْرْآن جاء رقيباً وأميناً وشاهداً (مهيْمناً) على الكتب السّابقة،التي أنْزلها الله على أنْبيائه،فاحْكمْ يا محمّد بيْن أهْل الكتاب – إذا تحاكموا إليك – بما أنْزل الله إليك من الأحْكام،دون ما أنْزله الله إليْهمْ،لأنّ شريعتك ناسخةٌ لشريعتهمْ،ولا تتّبع أهْواءهمْ ورغباتهمْ في الحكْم لهمْ بما يسْهل عليْهمْ،ويخفّ احْتماله.

---

[٣٢٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٧٥)

ثمّ يذْكر الله تعالى أنّه جعل لكلّ أمّةٍ مــن النّــاس شــريعةً أوْجــب علــيهْم إقامــة أحْكامها،ومنْهاجاً وطريقاً فرض عليهمْ سلوكه لتزْكيــة نفوســهمْ (فأصْــل الــدّين واحدٌ،ولكنّ الشّرائع العمليّة تخْتلف باخْتلاف أحْوال البشر،وطباعهمْ واسْتعْدادهمْ).

ولوْ شاء الله أنْ يجْعل النّاس أمّةً واحدةً،ذات شريعةٍ واحدةٍ ومنْهــاجٍ واحد،يســيرون عليْه،لفعل،ولكنّه تعالى لْم يشأْ،ليخْتبرهمْ فيما شرع لهمْ،وليثيبهمْ على طاعته،ويعاقبــهمْ على معْصيته.

ويحثّ الله تعالى النّاس على المبادرة والإسْراع إلى طاعة الله،واتّباع شرْعه الذي جعلــه ناسخاً ما قبْله من الشرائع،ويخْبرهمْ أنّ إليه مرْجعهمْ ومصيرهمْ يوْم القيامة،فيخْبرهمْ بما اخْتلفوا فيه من الحقّ،ويجْزي كلّ عاملٍ بعمله.

قال بعْض رؤساء اليهود لبعْضٍ:اذْهبوا إلى محمّد لعلّنا نفْتنه عنْ دينه.فأتوْه فقــالوا:يــا محمّد إنّك عرفْت أنّا أحْبار يهــود وأشْــرافهمْ وســادهمْ،وإنّا إن اتّبعنــا يهــود و لْم يخالفونا،وإنّ بيْننا وبيْن قوْمنا خصومةً،فنخاصمهمْ إليك فتقْضي لنا عليْهمْ،ونؤْمن لــك ونصدّقك.فأبى الرّسول ﷺ ذلك وأنْزل الله تعالى هذه الآية فيهمْ.

وفي هذه الآية يؤكّد الله تعالى على ما أمر به رسوله من الحكْم بيْن أهْل الكتــاب بمــا أنْزل الله إليْه في القرْآن،ويحذّره منْ أنْ يفْتنه اليهود،ويصْرفوه عن الحقّ،ويأمره بألاّ يغْترّ بهمْ،فهمْ كذبةٌ كفرةٌ.ثمّ يقول تعالى لنبيّه:فإنْ أعْرضوا عنْ حكْمــك بعْــد تحــاكمهمْ إليْك،فاعْلمْ أنّ ذلك كائنٌ عنْ إرادة الله،ومشيئته،وحكْمته فيهمْ،أنْ يصْرفهمْ عن الهدى ليعذّبهمْ ببعْض ذنوبهمْ في الحياة الدّنْيا قبْل الآخرة،وإنّ أكْثر النّاس خارجون عنْ طاعــة الله،مخالفون للْحقّ.

أيتولّوْن عنْ حكْمك بما أنْزل الله؟ فهلْ يريدون حكْماً كحكْم الجاهليّة المــبْني علــى التحيّز والهوى،وترْجيح جانب القويّ على الضّعيف؟ ومنْ أحْسن من الله حكْمــاً،ومنْ أعْدل منْه فصْلاً؟ لمنْ عقل شرْع الله وآمن به؟[٣٢٩]

يقول تعالى:{ وأنزلْنا إليْك الْكتاب } الذي هو القرآن العظيم،أفضل الكتب وأجلها.

[٣٢٩] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٨، بترقيم الشاملة آليا)

{ بالْحقّ } أي:إنزالا بالحق،ومشتملا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه.{ مصدّقًا لما بيْن يديْه من الْكتاب } لأنه شهد لها ووافقها،وطابقت أخباره أخبارها،وشرائعه الكبار شرائعها،وأخبرت به،فصار وجوده مصداقا لخبرها.{ ومهيْمنًا عليْه } أي:مشتملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة،وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية.فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به،وحث عليه،وأكثر من الطرق الموصلة إليه.وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين،وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة،والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة،فما شهد له بالصدق فهو المقبول،وما شهد له بالرد فهو مردود،قد دخله التحريف والتبديل،وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.{ فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنزل اللّه } من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك.{ ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ } أي:لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

{ لكلٍّ جعلْنا منكمْ } أيها الأمم جعلنا { شرْعةً ومنْهاجًا } أي:سبيلا وسنة،وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم،هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال،وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها،وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان،فإنها لا تختلف،فتشرع في جميع الشرائع.{ ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً } تبعا لشريعة واحدة،لا يختلف متأخرها و[لا] متقدمها.{ ولكن ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ } فيختبركم وينظر كيف تعملون،ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته،ويؤتي كل أحد ما يليق به،وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها،ولهذا قال:{ فاسْتبقوا الْخيْرات } أي:بادروا إليها وأكملوها،فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب،من حقوق الله وحقوق عباده،لا يصير فاعلها سابقا لغيره مستوليا على الأمر،إلا بأمرين:

المبادرة إليها،وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها،والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.ويستدل بهذه الآية،على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في

أول وقتها،وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة،بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات،التي يقدر عليها لتتم وتكمل،ويحصل بها السبق.{ إلى اللّه مرْجعكمْ جميعًا } الأمم السابقة واللاحقة،كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه.{ فينبّئكم بما كنتمْ فيه تخْتلفون } من الشرائع والأعمال،فيثيب أهل الحق والعمل الصالح،ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.{ وأن احْكم بيْنهم بما أنزل اللّه } هذه الآية هي التي قيل:إنها ناسخة لقوله:{ فاحْكم بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ }.والصحيح:أنها ليست بناسخة،وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه،وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم،فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة،وهو القسط الذي تقدم أن الله قال:{ وإنْ حكمْت فاحْكم بيْنهم بالْقسْط } ودل هذا على بيان القسط،وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام،فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط،وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

{ ولا تتّبعْ أهْواءهمْ } كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها.ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى،وهو أوسع،وهذا في مقام الحكم وحده،وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق،ولهذا قال:{ واحْذرْهمْ أن يفْتنوك عن بعْض ما أنزل اللّه إليْك } أي:إياك والاغترار بهم،وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك،فصار اتباع أهوائهم سببا موصلا إلى ترك الحق الواجب،والفرض اتباعه.{ فإن تولّوْا } عن اتباعك واتباع الحق { فاعْلمْ } أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد { أن يصيبهم ببعْض ذنوبهمْ } فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة،ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول،وذلك لفسقه.{ وإنّ كثيرًا مّن النّاس لفاسقون } أي:طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.{ أفحكْم الْجاهليّة يبْغون } أي:أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية،وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله.فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية.فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي،ولهذا أضافه الله للجاهلية،وأما حكم الله

تعالى فمبني على العلم،والعدل والقسط،والنور والهدى.{ ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًـــا لقوْمٍ يوقنون } فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز -بإيقانـــه- مـــا في حكم الله من الحسن والبهاء،وأنه يتعين -عقلا وشرعا- اتباعه.واليقين،هو العلم التـــام الموجب للعمل.[٣٣٠]

وقال القرطبي:

قوْله تعالى:(وأنْزلْنا إليْك الْكتاب) الْخطاب لمحمّدٍ ﷺ.و" الْكتاب" الْقرْآن (بـــالْحقّ) أيْ] هو [بالْأمْر الْحقّ (مصدّقاً) حالٌ (لما بـــيْن يديْـــه مـــن الْكتـــاب) أي مـــن جـــنس الكتب.(ومهيْمناً عليْه) أي عاليا عليها ومرْتفعًا.وهذا يدلّ على تأْويل منْ يقول بالتّفْضيل أيْ في كثْرة الثّواب،على ما تقدّمتْ إليْه الْإشارة في" الْفاتحة" وهو اخْتيار ابن الحصار في كتاب شرح السنة له.وقدْ ذكرْنا ما ذكره في كتابنا في شـــرْح الْأسْـــماء] الْحسْـــنى [والْحمْد للّه.وقال قتادة:المهيمن معناه المشاهد.وقيل:الْحافظ.وقال الْحسن:الْمصدّق،ومنْه قوْل الشّاعر:

إنّ الْكتاب مهيْمنٌ لنبيّنا...والْحقّ يعْرفه ذوو الْألْباب

وقال ابْن عبّاسٍ:" ومهيْمناً عليْه" أيْ مؤْتمنًا عليْه.قال سعيد بْن جبيْرٍ:الْقرْآن مؤْتمنٌ على ما قبْله من الْكتب،وعن ابْن عبّاسٍ والْحسن أيْضًا:الْمهيْمن الْأمين.قال الْمبرّد:أصْله مـــؤيْمنٌ أبْدل من الْهمْزة هاءٌ،كما قيل في أرقْت الْماء هرقْت،وقاله الزّجّاج أيْضًا وأبو عليٍّ.وقـــدْ صرف فقيل:هيمن يهين هيْمنةً،وهو مهيْمنٌ بمعْنى كان أمينًا.الْجوْهريّ:هو منْ آمن غيْره من الْخوْف،وأصْله أأْمن فهو مؤأْمنٌ بهمْزتيْن،قلبت الْهمْزة الثّانية ياءً كراهةً لاجْتماعهما فصار مؤيْمنٌ،ثمّ صيّرت الْأولى هاءً كما قالوا:هراق الْماء وأراقه،يقال منْه:هيْمن علـــى الشّيْء يهيْمن إذا كان له حافظًا،فهو مهيْمنٌ،عنْ أبي عبيْدٍ.وقرأ مجاهدٌ وابْـــن محيْصـــنٍ:" ومهيْمناً عليْه" بفتْح الْميم.قال مجاهدٌ:أيْ محمّدٌ ﷺ مؤْتمنٌ على الْقرْآن.قوْله تعالى:(فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه) يوجب الْحكْم،فقيل:هذا نسْخٌ للتّخْيير في قوْله:" فاحْكمْ بيْنـــهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ" وقيل:ليْس هذا وجوبًا،والْمعْنى:فاحْكمْ بيْنهمْ إنْ شئْت،إذْ لا يجب عليْنـــا

[٣٣٠] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٢٣٤)

الْحكْم بيْنهمْ إذا لْمْ يكونوا منْ أهْل الذّمّة.وفي أهْل الذّمّة تردّدٌ وقـدْ مضـى الْكـلام فيه.وقيل:أراد فاحْكمْ بيْن الْخلْق،فهذا كان واجبًا عليْه.قوْله تعالى:(ولا تتّبعْ أهْـواءهمْ) فيه مسْألتان:الْأولى- قوْله تعالى:(ولا تتّبعْ أهْواءهمْ) يعْني لا تعْملْ بأهْوائهمْ ومرادهمْ على ما جاءك من الْحقّ،يعْني لا تتْرك الْحكْم بما بيّن اللّه تعالى من الْقرْآن منْ بيان الحق وبيان الْأحْكام.والْأهْواء جمْع هوًى،ولا يجْمع أهْويةً،وقدْ تقدّم في" الْبقرة".فنهاه عنْ أنْ يتّـبعهمْ فيما يريدونه،وهو يدلّ على بطْلان قوْل منْ قال:تقوّم الْخمْر على منْ أتْلفها عليْهمْ،لأنّها ليْستْ مالًا لهمْ فتكون مضْمونةً على متْلفها،لأنّ إيجاب ضمانها علـى متْلفهـا حكْـمٌ بموجب أهْواء الْيهود،وقدْ أمرْنا بخلاف ذلك.ومعْنى (عمّا جاءك) على ما جاءك.(لكـلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً) يدلّ على عدم التّعلّق بشرائع الْأوّلين.والشّرْعة والشّـريعة الطّريقة الظّاهرة الّتي يتوصّل بها إلى النّجاة.والشّريعة في اللّغة:الطّريق الّذي يتوصّل منْه إلى الْماء.والشّريعة ما شرع اللّه لعباده من الدّين،وقـدْ شـرع لهـمْ يشْـرع شـرْعًا أيْ سنّ.والشّارع الطّريق الْأعْظم.والشّرْعة أيْضًا الوتر،والجمع شرع وشرع وشـراعٌ جمْـع الْجمْع،عنْ أبي عبيْدٍ،فهو مشْتركٌ.والْمنْهاج الطّريق الْمسْتمرّ،وهو الـنّهْج والْمـنْهج،أي الْبيّن،قال الرّاجز:

منْ يك ذا شكٍّ فهذا فلْج...ماءٌ رواءٌ وطريقٌ نهْج

وقال أبو الْعبّاس محمّد بْن يزيد:الشّريعة ابتداء الطريق،والمنهاج الطّريق الْمسْـتمرّ.وروي عن ابْن عبّاسٍ والْحسن وغيْرهما" شرْعةً ومنْهاجاً" سنّةً وسبيلًا.ومعْنى الْآية أنّـه جعـل التّوْراة لأهْلها،والْإنْجيل لأهْله،والْقرْآن لأهْله،وهـذا في الشّـرائع والْعبادات،والْأصْـل التّوْحيد لا اخْتلاف فيه،روي معْنى ذلك عنْ قتادة.وقال مجاهدٌ:الشّرْعة والْمنْهاج ديـن محمّد عليْه السّلام،وقدْ نسخ به كلّ ما سواه.قوْله تعالى:(ولوْ شاء اللّـه لجعلكـمْ أمّـةً واحدةً) أيْ لجعل شريعتكمْ واحدةً فكنْتمْ على الْحقّ،فبيّن أنّه أراد بالاخْتلاف إيمان قوْمٍ وكفْر قوْمٍ.(ولكنْ ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ) في الْكلام حذْفٌ تتعلّق به لام كيْ،أيْ ولكـنْ جعل شرائعكمْ مخْتلفةً ليخْتبركمْ،والابْتلاء الاخْتبار.قوْله تعالى:(فاسْتبقوا الْخيْـرات) أيْ سارعوا إلى الطّاعات،وهذا يدلّ على أنّ تقْديم الْواجبات أفْضل منْ تأْخيرها،وذلـك لا

اخْتلاف فيه في الْعبادات كلّها إلّا في الصلاة في أول الْوقْت فإنّ أبا حنيفة يرى أنّ الْأوْلى تأْخيرها،وعموم الْآية دليلٌ عليْه،قاله إلْكيا.وفيه دليلٌ على أنّ الصّوْم في السّفر أوْلى من الْفطْر،وقدْ تقدّم جميع هذا في" الْبقرة".(إلى اللّه مرْجعكمْ جميعاً فينبّئكمْ بما كنْتمْ فيه تخْتلفون) أيْ بما اخْتلفْتمْ فيه،وتزول الشكوك.

قوْله تعالى:(وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه) تقدّم الْكلام فيها،وأنّها ناسخةٌ للتّخْيير.قال ابْن الْعربيّ:وهذه دعْوى عريضةٌ،فإنّ شروط النّسْخ أرْبعةٌ:منْها معْرفة التّاريخ بتحْصيل الْمتقدّم والْمتأخّر،وهذا مجْهولٌ منْ هاتيْن الْآيتيْن،فامْتنع أنْ يدّعى أنّ واحدةً منْهما ناسخةٌ للْأخْرى،وبقي الْأمْر على حاله.قلْت:قدْ ذكرْنا عنْ أبي جعْفرٍ النّحّاس أنّ هذه الْآية متأخّرةٌ في النّزول،فتكون ناسخةً إلّا أنْ يقدّر في الْكلام" وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه" إنْ شئْت،لأنّه قدْ تقدّم ذكْر التّخْيير له،فآخر الْكلام حذف التّخْيير منْه لدلالة الْأوّل عليْه،لأنّه معْطوفٌ عليْه،فحكْم التّخْيير كحكْم الْمعْطوف عليْه،فهما شريكان وليْس الْآخر بمنْقطعٍ ممّا قبْله،إذْ لا معْنى لذلك ولا يصحّ،فلا بدّ منْ أنْ يكون قوْله:" وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه" معْطوفًا على ما قبْله منْ قوْله:" وإنْ حكمْت فاحْكمْ بيْنهمْ بالْقسْط" ومنْ قوْله:" فإنْ جاؤك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ" فمعْنى" وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه" أي احْكمْ بذلك إنْ حكمْت واخْترْت الْحكْم،فهو كلّه محْكمٌ غيْر منْسوخٍ،لأنّ النّاسخ لا يكون مرْتبطًا بالْمنْسوخ معْطوفًا عليْه،فالتّخْيير للنّبيّ ﷺ في ذلك محْكمٌ غيْر منسوخ،قاله مكي رحمه اله." وأن احْكمْ" في موْضع نصْبٍ عطْفًا على الْكتاب،أيْ وأنْزلْنا إليْك أن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه،أيْ بحكْم اللّه الّذي أنزله إليك في كتابه.(واحْذرْهمْ أنْ يفْتنوك) " أن" بدلٌ من الْهاء والْميم في" واحْذرْهمْ" وهو بدل اشْتمالٍ.أوْ مفْعولٌ منْ أجْله،أيْ منْ أجْل أنْ يفْتنوك.وعن ابْن إسْحاق قال ابْن عبّاسٍ:اجْتمع قوْمٌ من الْأحْبار منْهم ابْن صوريّا وكعب بن أسد وابن صلوبا وشأس ابن عديٍّ وقالوا:اذْهبوا بنا إلى محمّدٍ فلعلّنا نفْتنه عنْ دينه فإنّما هو بشرٌ،فأتوْه فقالوا:قدْ عرفْت يا محمّد أنّا أحْبار الْيهود،وإن اتّبعْناك لمْ يخالفْنا أحدٌ من اليهود،وإن بيننا وبين قوم خصومة فتحاكمهم إليْك،فاقْض لنا عليْهمْ حتّى نؤْمن بك،فأبى رسول اللّه ﷺ،فنزلتْ

هذه الْآية.وأصْل الْفتْنة الاختبار حسْبما تقدّم،ثمّ يخْتلف معْناها،فقوْله تعالى هنا" يفْتنوك" معْناه يصدّوك ويردّوك،وتكون الْفتْنة بمعْنى الشّرْك،ومنْه قوْله:" والْفتْنة أكْبر من الْقتْل " وقوْله:" وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ".وتكون والفتنة بمعْنى الْعبْرة،كقوْله:" لا تجْعلْنا فتْنةً للّذين كفروا ".ولا تجْعلْنا فتْنةً للْقوْم الظّالمين [يونس:٨٥].وتكون الْفتْنة الصّدّ عن السّبيل كما في هذه الْآية.وتكْرير" وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه" للتّأْكيد،أوْ هي أحْوالٌ وأحْكامٌ أمره أنْ يحْكم في كلٍّ واحدٍ بما أنْزل اللّه.وفي الْآية دليلٌ على جواز النّسْيان على النّبيّ ﷺ،لأنّه قال:" أنْ يفْتنوك" وإنّما يكون ذلك عنْ نسْيانٍ لا عنْ تعمّدٍ.وقيل:الْخطاب له والْمراد غيْره.وسيأْتي بيان هذا في" الْأنْعام" إنْ شاء اللّه تعالى ومعْنى (عنْ بعْض ما أنْزل اللّه إليْك) عنْ كلّ ما أنْزل اللّه إليْك.والْبعْض يسْتعْمل بمعْنى الْكلّ قال الشّاعر:

أوْ يعْتبطْ بعْض النّفوس حمامها

ويرْوى" أوْ يرْتبطْ".أراد كلّ النّفوس،وعليْه حملوا قوْله تعالى:" ولأبيّن لكمْ بعْض الّذي تخْتلفون فيه" [الزخرف:٦٣].قال ابْن الْعربيّ:والصّحيح أنّ" بعْض" على حالها في هذه الْآية،وأنّ الْمراد به الرّجْم أو الْحكْم الّذي كانوا أرادوه ولمْ يقْصدوا أنْ يفْتنوه عن الْكلّ.واللّه أعْلم.

قوْله تعالى:(فإنْ تولّوْا) أيْ فإنْ أبوْا حكْمك وأعْرضوا عنْه (فاعْلمْ أنّما يريد اللّه أنْ يصيبهمْ ببعْض ذنوبهمْ) أيْ يعذّبهمْ بالْجلاء والْجزْية والْقتْل،وكذلك كان.وإنّما قال:" ببعْض" لأنّ الْمجازاة بالْبعْض كانتْ كافيةً في التّدْمير عليْهمْ.(وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون) يعْني اليهود.

أفحكْم الْجاهليّة يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون (٥٠)

فيه ثلاث مسائل:الْأولى- قوْله تعالى:(أفحكْم الْجاهليّة يبْغون) " أفحكْم" نصب ب"- يبْغون" والْمعْنى:أنّ الْجاهليّة كانوا يجْعلون حكْم الشّريف خلاف حكْم الْوضيع،كما تقدّم في غيْر موْضعٍ،وكانتْ الْيهود تقيم الْحدود على الضّعفاء الْفقراء،ولا يقيمونها على الْأقْوياء الْأغْنياء،فضارعوا الْجاهليّة في هذا الْفعْل.الثّانية- روى سفْيان بْن عيْينة عن ابْن أبي نجيحٍ عنْ طاوسٍ قال:كان إذا سألوه عنْ الرّجل يفضّل بعْض ولده على بعْضٍ يقْرأ

هذه الْآية" أفحكْم الْجاهليّة يبْغون" فكان طاوسٌ يقول:ليْس لأحدٍ أنْ يفضّل بعْض ولده على بعْضٍ،فإنْ فعل لمْ ينْفذْ وفسخ،وبه قال أهْل الظّاهر.وروي عنْ أحْمد بْــن حنْبــلٍ مثْله،وكرهه،الثّوْريّ وابْن الْمبارك وإسْحاق،فإنْ فعل ذلك أحدٌ نفذ ولمْ يردّ،وأجاز ذلك مالكٌ والثّوْريّ واللّيْث والشّافعيّ وأصْحاب الرّأْي،واسْتدلّوا بفعْل الصّدّيق في نحْله عائشة دون سائر ولده،وبقوْله عليْه السّلام:(فارْجعْه)وقوْله:(فأشْهدْ على هذا غيْري).واحْــتجّ الْأوّلون بقوْله عليْه السّلام لبشيرٍ:(ألك ولدٌ سوى هذا) قال نعمْ،فقال:(أكلّهمْ وهبت له مثل هذا) فقال لا،

قال:(فلا تشْهدني إذًا فإنّي لا أشْهد على جوْرٍ) في روايةٍ (وإنّي لا أشْــهد إلّــا علــى حقٍّ).قالوا:وما كان جوْرًا وغير حق فهو باطل لا يجوز.وقول:(أشْهدْ على هذا غيْــري) ليْس إذْنًا في الشّهادة وإنّما هو زجْرٌ عنْها،لأنّه عليْه السّلام قدْ سمّاه جوْرًا وامْتنــع مــن الشّهادة فيه،فلا يمْكن أنْ يشْهد أحدٌ من الْمسْلمين في ذلك بوجْهٍ.وأمّا فعْل أبي بكْرٍ فلا يعارض به قوْل النّبيّ ﷺ،ولعلّه قدْ كان نحل أوْلاده نحْلًا يعادل ذلك.فإنْ قيــل:الْأصْــل تصرّف الْإنْسان في ماله مطْلقًا،قيل له:الْأصْل الْكلّيّ والْواقعة الْمعيّنة الْمخالفــة لــذلك الْأصْل لا تعارض بيْنهما كالْعموم والْخصوص.وفي الْأصول أنّ الصّحيح بناء الْعام علــى الْخاصّ،ثمّ إنّه ينْشأ عنْ ذلك الْعقوق الّذي هو أكْبر الْكبائر،وذلك محرّمٌ،وما يــؤدّي إلى الْمحرّم فهو ممْنوعٌ،ولذلك قال ﷺ:(اتّقوا اللّه واعْدلوا بيْن أوْلادكمْ).قال النّعْمان:فرجع أبي فردّ تلْك الصّدقة،والصّدقة لا يعْتصرها الْأب بالْإنْفاق وقوْله:(فارْجعْه) محْمولٌ علــى معْنى فارْددْه،والرّدّ ظاهرٌ في الْفسْخ،كما قال عليْه السّلام (منْ عمل عملًا ليْس عليْه أمْرنا فهو ردٌّ) أيْ مرْدودٌ مفْسوخٌ.وهذا كلّه ظاهرٌ قويٌّ،وترْجيحٌ جليٌّ في الْمنْع.الثّالثة- قــرأ ابْن وثّابٍ والنّخعيّ" أفحكْم" بالرّفْع على معْنى يبْغونه،فحذف الْهاء كما حــذفها أبــو النّجْم في قوْله:

قدْ أصْبحتْ أمّ الْخيار تدّعي...عليّ ذنْبًا كلّه لمْ أصْنع

فيمنْ روى" كلّه" بالرّفْع.ويجوز أنْ يكون التّقْدير:أفحكْم الْجاهليّة حكْمٌ يبْغونه،فحذف الْموْصوف.وقرأ الْحسن وقتادة والْأعْرج والْأعْمش" أفحكم" بنصْب الْحــاء والْكــاف

وفتْح الْميم،وهي راجعةٌ إلى معْنى قراءة الْجماعة إذْ ليْس الْمراد نفْس الْحكم،وإنّما الْمراد الْحكْم،فكأنّه قال:أفحكْم حكم الْجاهليّة يبْغون.وقدْ يكون الْحكم والْحاكم في اللّغة واحدًا وكأنّهمْ يريدون الْكاهن وما أشْبهه منْ حكّام الْجاهليّة،فيكون الْمراد بالْحكْم الشّيوع والْجنْس،إذْ لا يراد به حاكمٌ بعيْنه،وجاز وقوع الْمضاف جنْسًا كما جاز في قوْلهمْ:منعتْ مصْر إرْدبّها،وشبْهه.وقرأ ابْن عامرٍ" تبْغون" بالتّاء،الْباقون باليـاء.وقوله تعالى:(ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون) هذا اسْتفْهامٌ على جهة الْإنْكار بمعْنى:لا أحد أحسن،فهذا ابتداء وخبر.و"حكْماً" نصب على الْبيان.[لقوْله] " لقوْمٍ يوقنون" أيْ عند قوم يوقنون.[٣٣١]

وقال الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله:

قال:(الذي نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء،وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه،وتعطيل لكل ما في شريعة الله،بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة،وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا،ولعلل وأسباب انقضت،فسقطت الأحكام كلها بانقضائها)[٣٣٢].

وقال عن تعلق أهل الأهواء بكلام التابعي أبي مجْلز السدوسي السابق:(اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة،وبعد،فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا،قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله،وفي القضاء في الدماء،والأعراض،والأموال،بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه،وفي اتخاذهم قانون الكفر شريعة في بلاد الإسلام،فلما وقف على هذين الخبرين اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله،وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها والعامل بها).

---

[٣٣١] – تفسير القرطبي (٦/ ٢٠٩)

[٣٣٢] – عمدة التفسير لابن كثير ج٤/ ١٥٧

إلى أن قال:(لم يكن سؤالهم [٣٣٣]عما احتج به مبتدعة زماننا مـــن القضـــاء في الأمـــوال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام،ولا في إصدار قانون ملزم لأهـــل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ،فهـــذا الفعـــل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه،وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله ســـبحانه وتعالى،وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفـــير القائـــل بـــه والداعي إليه.ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجْلز،أهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة،فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكم حكماً وجعلـــه شريعة ملزمة للقضاء بها [٣٣٤]،هذه واحدة،وأخرى أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها،فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل،فهذا أمـــره أمـــر الجاهـــل بالشريعة،وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية،فهذا ذنـــب تنالـــه التوبـــة وتلحقـــه المغفرة)[٣٣٥].

الحكم بغير ما أنزل الله كفر ناقل عن الملة إلا في صورتين [٣٣٦]:

الإسلام دين كامل لا يتجزّأ ولا يتبعّض،فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فلا يضرّن إلا نفسه:"يا عبادي،لو أن أولكم وآخركم،وإنسكم وجنكم،كانوا على أفجر قلب رجـــل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً...الحديث".

لقد حكم الله بكفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض من اليهـــود وغيرهم،والعـــبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،فقال:{أفتؤْمنون ببعْض الْكتاب وتكْفرون ببعْضٍ فمـــا جزاء منْ يفْعل ذلك منْكمْ إلّا خزْيٌ في الْحياة الدّنْيا ويوْم الْقيامة يردّون إلى أشدّ الْعذاب وما اللّه بغافلٍ عمّا تعْملون } [البقرة:٨٥].

---

[٣٣٣] - النفر من الإباضية الذين سألوا أبا مِجْلز رحمه الله

[٣٣٤] - إلا بعد سقوط الدولة العثمانية واستعمار الكفار لديار الإسلام وبعد أن تخرج تلاميذ الكفار

[٣٣٥] - عمدة التفسير لابن كثير لأحمد محمد شاكر ج٤/ ١٥٦-١٥٧

[٣٣٦] - [الكاتب:الأمين الحاج محمد أحمد]

لم ينتقل رسولنا ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله على يديه الدين،وأتم علينا النعمة،فتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها،لا يزيغ عنها إلا هالك،وحذرنا من الالتفات إلى غيرها ولو كان موافقاً لشرعنا،مهما كانت مترلة الملتفت إلى غيره.

وعنْ خالد بْن عرْفطة قال:«كنْت جالسًا عنْد عمر إذْ أتى برجلٍ منْ عبْد الْقيْس مسْكنه بالسّوس،فقال له عمر:أنْت فلان ابْن فلان الْعبْديّ؟ قال:نعمْ.فضربه بعصًا معه،فقال الرّجل:مالي يا أمير الْمؤْمنين؟ فقال له عمر:اجْلسْ،فجلس،فقرأ عليْه (بسْم اللّه الرّحْمن الرّحيم {الر تلْك آيات الْكتاب الْمبين - إنّا أنْزلْناه قرْآنًا عربيًّا لعلّكمْ تعْقلون - نحْن نقصّ عليْك أحْسن الْقصص بما أوْحيْنا إليْك هذا الْقرْآن وإنْ كنْت منْ قبْله لمن الْغافلين} [يوسف:١ - ٣] فقرأها عليْه ثلاثًا وضربه ثلاثًا،فقال الرّجل:مالي يا أمير الْمؤْمنين؟ فقال:أنْت الّذي نسخْت كتب دانْيال؟ قال:مرْني بأمْرك أتّبعه.قال:انْطلقْ فامْحه بالْحميم والصّوف الْأبْيض،ثمّ لا تقْرأْه أنْت ولا تقْرئْه أحدًا من النّاس،فلئنْ بلغني عنْك أنّك قرأْته أوْ أقرأْته أحدًا من النّاس لأنْهكنّك عقوبةً،ثمّ قال له:اجْلسْ،فجلس بيْن يديْه.قال:انْطلقْت أنا فانْتسخْت كتابًا منْ أهْل الْكتاب ثمّ جئْت به في أديمٍ،فقال لي رسول اللّه - ﷺ -:" ما هذا الّذي في يدك يا عمر؟ " فقلْت:يا رسول اللّه،كتابٌ نسخْته لنزْداد علْمًا إلى علْمنا،فغضب رسول اللّه - ﷺ - حتّى احْمرّتْ وجنتاه،ثمّ نودي بالصّلاة جامعةٌ،فقالت الْأنْصار:أغْضب نبيّكمْ - ﷺ -؟ السّلاح السّلاح،فجاءوا حتّى أحْدقوا بمنْبر رسول اللّه - ﷺ - فقال:" يا أيّها النّاس،إنّي قدْ أوتيت جوامع الْكلم وخواتمه،واخْتصر لي اخْتصارًا،ولقدْ أتيْتكمْ بها بيْضاء نقيّةً،فلا تتهوّكوا،ولا يغْرنّكم الْمتهوّكون ".قال عمر:فقمْت فقلْت:رضيت باللّه ربًّا،وبالْإسْلام دينًا،وبك رسولًا.ثمّ نزل رسول اللّه - ﷺ» -[٣٣٧]

وعنْ أبي الدّرْداء قال:«جاء عمر بجوامع من التّوْراة إلى رسول اللّه - ﷺ - فقال:يا رسول اللّه،جوامع من التّوْراة أخذْتها منْ أخٍ لي منْ بني زريْقٍ،فتغيّر وجْه رسول اللّه،فقال

[٣٣٧] - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٨٢)(٨٥٧) وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (١/ ٢٤٩)(٣٧٧) فيه ضعف -المتهوِّكون:المتحيِّرون المتهوِّرون

عبْد اللّه بْن زيْدٍ الّذي أري الْأذان:أمسخ اللّه عقْلك؟ ألا ترى الّذي بوجْه رسول اللّه – ﷺ –؟ فقال عمر:رضينا باللّه ربًّا،وبالْإسْلام دينًا،وبمحمّدٍ نبيًّا،وبالْقرْآن إمامًا.فسرّي عنْ رسول اللّه – ﷺ – ثمّ قال:" والّذي نفْس محمّدٍ بيده،لوْ كان موسى بيْن أظْهركمْ ثمّ اتّبعْتموه وتركْتموني لضللْتمْ ضلالًا بعيدًا،أنْتمْ حظّي من الْأمم وأنا حظّكمْ من النّبيّين». [338].

قلت:إذا كان جزاء عمر رضي الله عنه الزجر،وجزاء العبدي الضرب والزجر،لمجرد أنهما نسخا ونظرا لشيء من التوراة وإلى ما نسب إلى دانيال،فكيف يكون جزاء أولئك الجراء،الأشقياء،المتفيقهون،المتطفلون،الذين سطروا الدساتير العلمانية،وكتبوا القوانين الوضعية الجاهلية على غرار دساتير وقوانين الكفار،سيما الدستور الفرنسي،الضالون المضلون،المفضّلون لزبالة أذهان الكفار ونحالة أفكارهم الساقطة،كما قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية الأسبق رحمه الله،على حكم الله ورسوله،حيث لم يكتفوا بتسوية القوانين الوضعية مع الشريعة الربانية – وذلك كفر صريح – بل فضّلوها عليها،وفتنوا الراعي والرعية؟!

جزاؤهم في الدنيا أن يقتلوا أو يصلبوا لمحاربتهم لله ورسوله،التي هي أشدّ من محاربة قطاع الطريق،وفي الآخرة فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون،حينما يعترفون بضلالهم،وتكشف عنهم أستارهم،وتقطّع الحسرة أكبادهم:{تاللّه إنْ كنّا لفي ضلالٍ مبينٍ (٩٧) إذْ نسوّيكمْ بربّ الْعالمين (٩٨) وما أضلّنا إلّا الْمجْرمون (٩٩) } [الشعراء:٩٧ – ١٠٠].

وبعد..

فإن الحكم بغير ما أنزل الله والرضا به ينقسم إلى قسمين كبيرين،هما:

١) كفر اعتقاد أكبر ناقل عن الملة،وله عدة صور.

٢) كفر عمل أصغر،وله صورتان لا ثالث لهما.

---

[338] – جامع المسانيد والسنن (٩/ ٣٤٤)(١٢٠١٢) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٧٤)(٨١٠) حسن لغيره

الحالات التي يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر ناقلاً عن الملة[٣٣٩]:

الأولى:أن يضع الحاكم دستوراً علمانياً على غرار دساتير الكفار،نحو الدستور الفرنسي،مستبدلاً الذي هو أدنى بالذي هو خير،ومستعيضاً به عن حكم الله ورسوله،سواء كانت هذه الاستعاضة كلية أو جزئية.

وهذا اعتقاد ضمني من واضعي الدستور،ومنفذيه من الحكام والقضاة،والراضين به من الرعية،على تفضيله على حكم الله ورسوله أو مساواته له.

الثانية:أن يعتقد أن حكم الله ليس بواجب عليه،وإنما هو بالخيار،إن شاء حكم به وإن شاء حكم بغيره.

الثالثة:أن يعتقد أن حكم الله واجب،ولكن القوانين الوضعية أفضل منه،وأصلح لمشاكل العصر.

الرابعة:أن يعتقد أن القوانين الوضعية المستمدة من الكفار ليست أصلح من حكم الله ولكنها مساوية له.

الخامسة:أن يعتقد أنه يجوز له أن يتحاكم للقوانين الوضعية.

السادسة:أن يتحاكم إلى ما وضعه زعماء العشائر والقبائل،من العادات،والتقاليد،والأعراف،وسوالف الجاهلية،نحو "الياسق" الذي وضعه جنكيز خان لقومه.

السابعة:أن يدع التحاكم لشرع الله خوفاً من الكفار وحرصاً على الكرسي.

الحالات التي يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أصغر:

حالتان فقط،هما:

الأولى:أن يجتهد في الوصول إلى حكم الله ولكنه لا يوفق لذلك.

الثانية:أن تحمله شهوته وهواه في قضية معينة،فيحيد عن حكم الله،مع تيقنه أن ما حاد عنه هو حكم الله.

---

[٣٣٩] – انظر رسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مصحوبة بشرح الدكتور سفر لها، ونواقض الإيمان القولية والعملية لفضيلة الشيخ الدكتور عبد العزيز العبد اللطيف

تنبيهات:

١) هذا فيما يتعلق بالحكام،والقضاة،وواضعي الدساتير والقوانين المحادة لكتاب الله وسنة رسوله،أما العامة والجمهور فمن رضي بهذا الحكم وانشرح له صدره فحكمه حكمهم،إذ الرضا بالكفر كفر،قال تعالى:{وقدْ نزّل عليْكمْ في الْكتاب أنْ إذا سمعْتمْ آيات اللّه يكْفر بها ويسْتهْزأ بها فلا تقْعدوا معهمْ حتّى يخوضوا في حديث غيْره إنّكمْ إذًا مثْلهمْ إنّ اللّه جامع الْمنافقين والْكافرين في جهنّم جميعًا } [النساء:١٤٠] فمن لم يرض وأنكر ولو بقلبه فلا حرج عليه.

٢) على هاتين الحالتين:وهما أن يجتهد في الوصول إلى حكم الله فلا يوفق لذلك وأن تحمله شهوته على مخالفة حكم الله مع إقراره بأنه حكم الله ويجب عليه التحاكم به يحمل كلام ابن عباس رضي الله عنهما،وطاوس،وعطاء،وأبي مجْلز رحمهم الله.عنْ طاوسٍ،قال:قال ابْن عبّاسٍ رضي اللّه عنْهما:إنّه " ليْس بالْكفْر الّذي يذْهبون إليْه إنّه ليْس كفْرًا ينْقل عن الْملّة {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} [المائدة:٤٤] كفْرٌ دون كفْرٍ »[٣٤٠]

وعنْ عطاءٍ،قال:«كفْرٌ دون كفْرٍ،وظلْمٌ دون ظلْمٍ،وفسْقٌ دون فسْقٍ»[٣٤١]

وعنْ عمْران بْن حديْرٍ،قال:قعد إلى أبي مجْلزٍ نفرٌ من الْإباضيّة،قال:فقالوا له:يقول اللّه:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} [المائدة:٤٤]،{فأولئك هم الظّالمون} [البقرة:٢٢٩]،{فأولئك هم الْفاسقون} [آل عمران:٨٢] قال أبو مجْلزٍ:إنّهمْ يعْملون ما يعْملون،يعْني الْأمراء،ويعْلمون أنّه ذنْبٌ.قال:وإنّما أنْزلتْ هذه الْآية في الْيهود والنّصارى.قالوا:أما واللّه إنّك لتعْلم مثْل ما نعْلم،ولكنّك تخْشاهمْ.قال:أنْتمْ أحقّ بذلك

[٣٤٠] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٤٢)(٣٢١٩) وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٥٢١)(٥٦٩) صحيح

[٣٤١] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٥٢٢)(٥٧٥) صحيح

قَالَ أَبُو عَبْد اللَّه:قَالُوا:وَقَدْ صَدَقَ عَطَاءٌ قَدْ يُسَمَّى الْكَافِرُ ظَالِمًا، وَيُسَمَّى الْعَاصِي مِنَ الْمُسْلمِينَ ظَالِمًا، فَظُلْمٌ يَنْقُلُ عَنْ مِلَّة الْإِسْلَامِ، وَظُلْمٌ لَا يَنْقُلُ.قَالَ اللَّهُ:{الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام:٨٢] وَقَالَ:{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:١٣]

منّا،أمّا نحْن فلا نعْرف ما تعْرفون ولكنّكمْ تعْرفونه،ولكنْ يمْنعكمْ أنْ تمْضوا أمْركمْ مـــنْ خشْيتهمْ " [342]

أما أن يحمل كلام هؤلاء الأئمة على الصور السبعة الأول ففي ذلك تعدٍّ وتجنٍّ.

٣) إنزال مثل هذه النصوص على حال حكام المسلمين اليوم فيه اعتداء كـــبير وعـــدم إنصاف،لأن جل البلاد الإسلامية اليوم تحكم بدساتير وقوانين علمانية من وضع البشـــر قامت على أنقاض الإسلام،بينما كان المسلمون إلى سقوط الدولة العثمانية لا يعرفـــون لحكم الله ورسوله بديلاً،و لم يكن لهم دستور ولا قانون مخالف لشرع الله،والذي كـــان يحدث من مخالفات يرجع إما إلى خطأ المجتهدين أوميل عن الحق لشهوة وهوى،فأين هذا مما نحن عليه الآن؟

٤) دعوى أن الحاكم بغير ما أنزل الله لا يكفر كفراً أكبر إلا إذا اعتقد ذلك بقلبه،هـــذه عقيدة المرجئة الكرامية الذين يقولون:الإيمان مجرد تلفظ باللسان،أو المرجئة الجهمية الذين حصروا الإيمان في معرفة القلب؛فعلى شرعهم هذا فإن إبلـــيس وفرعـــون مـــن أهـــل الإيمان،تعالى الله أن يكون إبليس وفرعون من أوليائـــه،أما أهـــل الحـــق والعـــدل،أهل السنة،فيحكمون على الناس بما ظهر منهم ويدعون سرائرهم إلى الله،إذ الكفـــر الأكـــبر ليس قاصراً على الاعتقاد فقط[343].

٥) لا يغني عمن ردّ حكم الله ورضي بحكم الطاغوت صلاة ولا صيام ولا غيرهما.

الأدلة على كفر من رفض حكم الله ورضي بحكم الطواغيت:

الأدلة على كفر من رفض حكم الله ورضي بحكم الطواغيـــت مـــن الكتـــاب كـــثيرة جداً،نشير إلى طرف منها.قوله تعالى:{ فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شـــجر بيْنهمْ ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجًا ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليمًا } [النساء:٦٥].

[342] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤٥٨) صحيح

[343] - يعني اعتقاد وقول وعمل

وقوله عن المنافقين:{ويقولون آمنّا باللّه وبالرّسول وأطعْنا ثمّ يتولّى فريقٌ منْهمْ منْ بعْد ذلك وما أولئك بالْمؤْمنين (٤٧) وإذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحْكم بيْنهمْ إذا فريقٌ منْهمْ معْرضون (٤٨) وإنْ يكنْ لهم الْحقّ يأْتوا إليْه مذْعنين (٤٩)} [النور:٤٧ - ٤٩].

وقال مادحاً المؤمنين:{إنّما كان قوْل الْمؤْمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحْكم بيْنهمْ أنْ يقولوا سمعْنا وأطعْنا وأولئك هم الْمفْلحون } [النور:٥١].

وقوله في سورة المائدة:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون } [المائدة:٤٤] إلى آخر الآيات.

وقوله:{ فمنْ يكْفرْ بالطّاغوت ويؤْمنْ باللّه فقد اسْتمْسك بالْعرْوة الْوثْقى لا انْفصام لها واللّه سميعٌ عليمٌ} [البقرة:٢٥٦].

وقوله:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت وقدْ أمروا أنْ يكْفروا به ويريد الشّيْطان أنْ يضلّهمْ ضلالًا بعيدًا } [النساء:٦٠].

أقوال أهل العلم في ذلك،قديماً وحديثاً:

لقد أطبق أهل العلم من أهل السنة قاطبة،قديماً وحديثاً،على كفر من ردّ حكم الله ورضي بحكم الطواغيت،وإليك بعضاً من أقوالهم.

١) ابن حزم رحمه الله:

قال عند قوله تعالى:{اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه} [التوبة:٣١] الآية:(فلمّا كان الْيهود والنّصارى يحرمون ما حرم أحْبارهم ورهْبانهمْ ويحلون ما أحلّوا كانت هذه ربوبية صحيحة وعبادة صحيحة قد دانوا بها وسمى الله تعالى هذا الْعمل اتّخاذ أرْبابًا من دون الله وعبادة وهذا هو الشّرك بلا خلاف)[٣٤٤] .

وما ذهب إليه ابن حزم قرّره الرسول ﷺ،فعنْ عديّ بْن حاتمٍ قال:أتيْت رسول اللّه ﷺ وفي عنقي صليبٌ منْ ذهبٍ وهو يقول {اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه}

[٣٤٤] - الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٢٥)

[التوبة:٣١] قلْت:يا رسول اللّه لمْ يكونوا يعْبدونهمْ قال:«أجلْ ولكنْ يحلّون لهمْ ما حرّم اللّه فيسْتحلّونه ويحرّمون عليْهمْ ما أحلّ اللّه فيحرّمون»[٣٤٥]

وعنْ أبي الْبخْتريّ قال:قيل لحذيْفة {اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه} [التوبة:٣١] أكانوا يعْبدونهمْ؟ قال:«لا ولكنّهمْ كانوا يحلّون لهم الْحرام فيسْتحلّونه ويحرّمون عليْهم الْحلال فيحرّمونه» وروي عنْ أبي الْعالية وأبي جعْفرٍ محمّد بْن عليّ بْن الْحسيْن والضّحّاك والسّدّيّ نحْو ذلك[٣٤٦]

وعنْ عديّ بْن حاتمٍ،قال:أتيْت رسول اللّه ﷺ وفي عنقي صليبٌ منْ ذهبٍ،فقال:«يا عديّ اطْرحْ هذا الْوثن منْ عنقك» قال:فطرحْته وانْتهيْت إليْه وهو يقْرأ في سورة براءة،فقرأ هذه الْآية:{اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه} [التوبة:٣١] قال:قلْت:يا رسول اللّه إنّا لسْنا نعبدْهمْ،فقال:«ألـيْس يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه،ويحلّون ما حرّم اللّه فتحلّونه؟» قال:قلْت:بلى.قال:«فتلْك عبادتهمْ» [٣٤٧]

وعنْ أبي الْعالية:{اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا} [التوبة:٣١] قال:قلْت لأبي الْعالية:كيْف كانت الرّبوبيّة الّتي كانتْ في بني إسْرائيل؟ قال قالوا:" ما أمرونا به ائْتمرْنا،وما نهوْنا عنّا انْتهيْنا،لقوْلهمْ:وهمْ يجدون في كتاب اللّه ما أمروا به وما نهوا عنْه،فاسْتنْصحوا الرّجال،ونبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهمْ "[٣٤٨]

فدل ذلك على أن الرضا بما يشرعه البشر ليس ناقضاً لتوحيد الألوهية فقط،بل ناقض لتوحيد الربوبية.

٢) ابن تيمية رحمه الله:

قال:"ذمّ الّذين أوتوا قسْطًا منْ الْكتاب لمّا آمنوا بما خرج عنْ الرّسالة وفضّلوا الْخارجين عنْ الرّسالة على الْمؤْمنين بها كما يفضّل ذلك بعْض منْ يفضّل الصّابئة منْ الْفلاسفة والدّول الْجاهليّة – جاهليّة التّرْك والدّيْلم والْعرب والْفرْس وغيْرهمْ – على الْمؤْمنين

---

[٣٤٥] – تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل – مخرجا (٦/ ١٧٨٤) صحيح

[٣٤٦] – تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل – مخرجا (٦/ ١٧٨٤) صحيح لغيره

[٣٤٧] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤١٨) صحيح

[٣٤٨] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٢٠) صحيح

باللّه وكتابه ورسوله وكما ذمّ الْمدّعين الْإيمان بالْكتب كلّها وهمْ يتْركون التّحـــاكم إلى الْكتاب والسّنّة ويتحاكمون إلى بعْض الطّواغيت الْمعظّمة منْ دون اللّه كما يصيب ذلك كثيرًا ممّنْ يدّعي الْإسْلام وينْتحله في تحاكمهمْ إلى مقالات الصّابئة الْفلاسفة أوْ غيْرهمْ أوْ إلى سياسة بعْض الْملوك الْخارجين عنْ شريعة الْإسْلام منْ ملوك التّرْك وغيْرهمْ وإذا قيل لهمْ:تعالوْا إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله أعْرضوا عنْ ذلك إعْراضًا وإذا أصابتْهمْ مصيبةٌ في عقولهمْ ودينهمْ ودنْياهمْ بالشّبهات والشّهوات أوْ في نفوسهمْ وأمْوالهمْ عقوبـــةً علـــى نفاقهمْ قالوا إنّما أردْنا أنْ نحْسن بتحْقيق الْعلْم بالذّوْق ونوفّق بيْن " الدّلائل الشّرْعيّة " و " الْقواطع الْعقْليّة " الّتي هي في الْحقيقة ظنونٌ وشبهاتٌ أوْ " الذّوْقيّـــة " الّـــتي هـــي في الْحقيقة أوْهام وخيالات {أولئك الّذين يعْلم اللّه ما في قلوبهمْ فأعْرضْ عـــنْهمْ وعظْهـــمْ وقلْ لهمْ في أنْفسهمْ قوْلًا بليغًا} إلى قوْله:{فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّمـــوك فيمـــا شجر بيْنهمْ ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجًا ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليمًا}"[٣٤٩].

٣) ابن القيم رحمه الله:

قال:ومن ذلك قوله تعالى {فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنـــهمْ ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجاً ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليماً} أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم مـــن الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها و لم يثبت لهـــم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفى عنهم الحرج وهو ضيق الصدر وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول و لم يثبت لهم الإيمـــان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمة بالرضى والتسليم وعدم المنازعـــة وانتفـــاء المعارضة والاعتراض"[٣٥٠]

لقدْ أقْسم اللّه جلّ جلاله في كتابه بنفْسه الْمقدّسة قسمًا عظيمًا،يعْرف مضْمونه أولـــو الْبصائر،فقلوبهمْ منْه على حذرٍ إجْلالًا له وتعْظيمًا،فقال تعالى تحْذيرًا لأوْليائه وتنْبيهًا على

[٣٤٩] - مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٩)

[٣٥٠] - التبيان في أقسام القرآن (ص:٤٣٠)

حال هؤلاء وتفْهيمًا {فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجًا ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليمًا} [النساء:٦٥].[٣٥١]

٤) العز بن عبد السلام:

قال:وكذلك لا طاعة لجهلة الْملوك والْأمراء إلّا فيما يعْلم الْمأْمور أنّه مأْذونٌ في الشّرْع. وتفرّد الْإله بالطّاعة لاخْتصاصه بنعم الْإنْشاء والْإبْقاء والتّغْذية والْإصْلاح الدّينيّ والدّنْيويّ،فما منْ خيْرٍ إلّا هو جالبه،وما منْ ضيْرٍ إلّا هو سالبه،وليْس بعْض الْعباد بأنْ يكون مطاعًا بأوْلى منْ الْبعْض،إذْ ليْس لأحدٍ منْهمْ إنْعامٌ بشيْءٍ ممّا ذكرْته في حقّ الْإله،وكذلك لا حكْم إلّا له فأحْكامه مسْتفادةٌ منْ الْكتاب والسّنّة والْإجْماع والْأقْيسة الصّحيحة والاسْتدْلالات الْمعْتبرة،فليْس لأحدٍ أنْ يسْتحْسن ولا أنْ يسْتعْمل مصْلحةً مرْسلةً،ولا أنْ يقلّد أحدًا لمْ يؤْمرْ بتقْليده:كالْمجْتهد في تقْليد الْمجْتهد أوْ في تقْليد الصّحابة وفي هذه الْمسائل اخْتلافٌ بيْن الْعلماء،ويردّ على منْ خالف في ذلك قوْله عزّ وجلّ:{إن الْحكْم إلا للّه أمر ألا تعْبدوا إلا إيّاه} [يوسف:٤٠].[٣٥٢].

٥) ابن كثير رحمه الله:

قال:(فما حكم به كتاب اللّه وسنّة رسوله وشهدا له بالصّحّة فهو الْحقّ،وماذا بعْد الْحقّ إلّا الضّلال،ولهذا قال تعالى:{إنْ كنْتمْ تؤْمنون باللّه والْيوْم الآخر} أيْ:ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله،فتحاكموا إليْهما فيما شجر بيْنكمْ {إنْ كنْتمْ تؤْمنون باللّه والْيوْم الآخر} فدلّ على أنّ منْ لمْ يتحاكمْ في مجال النّزاع إلى الْكتاب والسّنّة ولا يرْجعْ إليْهما في ذلك،فليْس مؤْمنًا باللّه ولا بالْيوْم الْآخر.[٣٥٣].

٦) ابن أبي العز الحنفي رحمه الله:

قال:(وهنا أمْرٌ يجب أنْ يتفطّن له،وهو:أنّ الْحكْم بغيْر ما أنْزل اللّه قدْ يكون كفْرًا ينْقل عن الْملّة،وقدْ يكون معْصيةً:كبيرةً أوْ صغيرةً،ويكون كفْرًا:إمّا مجازيًّا،وإمّا كفْرًا أصْغر،على الْقوْليْن الْمذْكوريْن.وذلك بحسب حال الْحاكم:فإنّه إن اعْتقد أنّ الْحكْم بما

---

[٣٥١] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣٦٠)

[٣٥٢] - قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ١٥٨)

[٣٥٣] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٤٥)

أنْزل اللّه غيْر واجبٍ،وأنّه مخيّرٌ فيه،أو اسْتهان به مع تيقّنه أنّه حكْم [اللّه].- فهذا كفْــرٌ أكْبر.وإن اعْتقد وجوب الْحكْم بما أنْزل اللّه،وعلمه في هذه الْواقعة،وعــدل عنْــه مــع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة،فهذا عاصٍ،ويسمّى كافرًا كفْرًا مجازيًّا،أوْ كفْرًا أصْــغر.وإنْ جهل حكْم اللّه فيها،مع بذْل جهْده واسْتفْراغ وسْعه في معْرفة الْحكْــم وأخطأ،فهــذا مخْطئٌ،له أجْرٌ على اجْتهاده،وخطؤه مغْفورٌ.[٣٥٤].

٧) أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي المفسّر المتوفى ٩٨٢ هــ رحمه الله:

قال عند تفسير قوله تعالى:{ومن لّمْ يحْكم بما أنزل الله} كائناً منْ كان دون المخــاطبين خاصة فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أوليّاً أي من لم يحكم بذلك مستهيناً به منكراً له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاءً بيناً {فأوْلئك} إشارةٌ إلى منْ والجمع باعتبار معناها كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها {هم الكافرون} لاستهانتهم بــه وهم إما ضمير الفصل أو مبتدأٌ وما بعده خبره والجملة خبر لأولئك وقد مر تفصــيله في مطلع سورة البقرة والجملة تذييلٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبلها أبلغ تقريرٍ وتحذيرٌ عن الإخلال به أشدّ تحذير حيث علّق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى فكيــف وقد انضم إليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفــه ووضــع غــيره موضعه وادعاء أنّه من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً[٣٥٥].

٨) القرطبي المفسّر رحمه الله:

قال:إنْ حكم بما عنْده على أنّه منْ عنْد اللّه،فهو تبْديلٌ له يوجب الْكفْر،وإنْ حكم بــه هوًى ومعْصيةً فهو ذنْبٌ تدْركه الْمغْفرة على أصْل أهْل السّنّة في الْغفْران للْمذْنبين.[٣٥٦].

٩) الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

قال:(من اعتقد أن غير هدى الرسول ﷺ أكمل من هديه،أو أن حكم غيره أحسن مــن حكمه،كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه،فهو كافر)[٣٥٧]

---

[٣٥٤] - شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص:٣٠٤) وشرح الطحاوية - ط دار السلام (ص:٣٢٣) وعقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك (ص:١١٩)

[٣٥٥] - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٤٢)

[٣٥٦] - تفسير القرطبي (٦/ ١٩١)

١٠) الشوكاني رحمه الله:

قال في تفسير قوله تعالى:"فلا وربك لايؤمنون.." الآية:(وفي هذا الْوعيد الشّديد:ما تقْشعرّ له الْجلود،وترْجف له الْأفْئدة.فإنّه أوّلًا أقْسم سبْحانه بنفْسه،مؤكّدًا لهذا الْقسم بحرْف النّفْي بأنّهمْ لا يؤْمنون،فنفى عنْهم الْإيمان الّذي هو رأْس مال صالحي عباد اللّه،حتّى تحْصل لهمْ غايةٌ،هي:تحْكيم رسول اللّه ﷺ،ثمّ لمْ يكْتف سبْحانه بذلك حتّى قال:ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجاً ممّا قضيْت فضمّ إلى التّحْكيم أمْرًا آخر،هو عدم وجود حرجٍ،أيْ حرجٍ،في صدورهمْ،فلا يكون مجرّد التّحْكيم والْإذْعان كافيًا حتّى يكون منْ صميم الْقلْب عنْ رضًا،واطْمئْنانٍ،وانْثلاج قلْبٍ،وطيب نفْسٍ،ثمّ لمْ يكْتف بهذا كلّه،بلْ ضمّ إليْه قوْله:ويسلّموا أيْ:يذْعنوا وينْقادوا ظاهرًا وباطنًا،ثمّ لمْ يكْتف بذلك،بلْ ضمّ إليْه الْمصْدر الْمؤكّد فقال:تسْليماً فلا يثْبت الْإيمان لعبْدٍ حتّى يقع منْه هذا التّحْكيم،ولا يجد الْحرج في صدْره بما قضي عليْه،ويسلّم لحكْم اللّه وشرْعه،تسْليمًا لا يخالطه ردٌّ ولا تشوبه مخالفةٌ.[٣٥٨]

١١) محمود شكري الألوسي رحمه الله:

قال:"نعم لا شك في كفر من يستحسن القانون ويفضله على الشرع ويقول:هو أوفق بالحكمة وأصلح للأمة،ويتميز غيظا ويتقصف غضبا إذا قيل له في أمر:أمر الشرع فيه كذا كما شاهدنا ذلك في بعض من خذلهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم،وهذا القانون الذي ذكروه قد نقصت منه اليوم أمور وزيدت فيه أمور وسمي بالأصول،وألفت فيها رسائل وطبعت ونشرت وفرقت وألزم العمل بما حوتها كل أمير ومأمور وعقدت مجالس الشورى عليها،ورجع في أحكام الأحكام إليها ومن خالفها نكل تنكيلا،وربما حبس حبسا طويلا،وكم قد قال لي بعض الولاة:إياك أن تقول في مجلسنا:المسألة شرعا كذا،وقد أصابني منه عامله الله بعدله لعدولي عن قوله مزيد الأذى،واتفق أن قال لي

---

[٣٥٧] - عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (٢/ ٦٧١) ومجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول) (ص:٣٨٦) ونواقض الإيمان القولية والعملية (٢/ ٤٩)

[٣٥٨] - فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٥٩)

بعض خاصته يوما:أرى ثلثي الشرع شرا،فقلت لـــه- وإن كنـــت عالمـــا أن في أذنيـــه وقرا.:نعم ظهر الشر لما أذهبتم من الشرع العين،و لم تأخذوا من اسمه سوى حرفين فتأمل العبارة وتغير وجهه لما فهم الاشارة،والذي ينبغي أن يقال في ذلك:إن ما يرجع من تلك الأصول إلى ما يتعلق بسوق الجيوش وتعبئتهم وتعليمهم ما يلزم في الحرب مما يغلب على الظن الغلبة به على الكفرة وما يتعلق بأحكام المدن والقلاع ونحو ذلك لا بأس في أكثره على ما نعلم،وكذا ما يتعلق بجزاء ذوي الجنايات التي لم يرد فيها عـــن الشـــارع حـــد مخصوص بل فرض التأديب عليها إلى رأي الإمام كأنواع التعازير،وللإمـــام أن يســـتوفي ذلك وإن عفا المجني عليه لأن الساقط به حق الآدمي والذي يستوفيه الإمام حق الله تعالى للمصلحة كما نص على ذلك العلامة ابن حجر في شرح المنهاج،والقواعد لا تأبـــاه،نعم ينبغي أن يجتنب في ذلك الإفراط والتفريط،وقد شاهدنا في العراق مما يسمونه «جزاء» ما القتل أهون منه بكثير.ومثل ذلك ظلم عظيم وتعد كبير."

وأما ما يتعلق بالحدود الإلهية كقطع السارق.ورجم الزاني المحصن.وما فصـــل في حـــق قطاع الطريق من قطع الأيدي والأرجل من خلاف وغيره مما فصل في آيتهم- إلى غـــير ذلك- فظاهر أمره دخوله في حكم الآية هنا على ما ذكره البيضاوي.

وأما ما يتعلق بالمعاملات والعقود فإن كان موافقا لما ورد عن الشارع فيها من الصـــحة وعدمها سميناه «شرعا» ولا نسميه «قانونا» و «أصولا» وإن لم يكن موافقـــا لـــذلك كالحكم في إعطاء الربا مثلا المسمى عندهم- بالكرشته- لزعم أنه تتعطل مصالح النـــاس لو لم يحكم بذلك فهو حكم بغير ما أنزل الله عز وجل.

وأما ما يتعلق بحق بيت المال في الأراضي فما كان موافقا لعمل النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم وخلفائه الراشدين فذاك وما كان مخالفا لعمل الخلفاء الصادر منهم باجتهاد فـــإن كانت مخالفته إلى ما هو أسهل وأنفع للناس فنظرا إلى زمانهم فهو مما لا بـــأس فيـــه،وإن كانت مخالفته إلى ما هو أشق ففيه بأس،ولا يجري هذا التفصيل فيما وصفه رســـول الله عليه الصلاة والسلام كالعشر في بعض الأراضي التي فتحت في زمنه الشريف صـــلّى الله تعالى عليه وسلم فإنه لا تجوز المخالفة فيه أصلا على ما ذكره أبو يوســـف في كتـــاب

الخراج وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة بحسب الظاهر بأن لم يكن منصوصا عليه كـــان يندرج في العمومات المنصوص عليها في أمر الاراضي فذاك وإلا فقبولـــه ورده باعتبـــار المدخول في العمومات الواردة في الحظر والإباحة فإن دخل في عمومات الإباحة قبل وإن في عمومات الحظر رد،وأمر تكفير العامل بالأصول المذكورة خطر فلا ينبغـــي إطـــلاق القول فيه،نعم لا ينبغي التوقف في تكفير من يستحسن ما هو بين المخالفة للشرع منـــها ويقدمه على الأحكام الشرعية متنقصا لها به،ولقد سمعت بعض خاصة أتباع بعض الولاة يقول:وإن تلك الأحكام أصول وقوانين سياسية كانت حسنة في الأزمنة المتقدمة لما كان أكثر الناس بلها،وأما اليوم فلا يستقيم أمر السياسة بها والأصول الجديدة أحسن وأوفـــق للعقل منها،ويقول كلما ذكرها:الأصول المستحسنة.وكان يرشح كلامه بنفـــي رســـالة النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم وكذا رسالة الأنبياء عليهم السلام قبله،ويزعم أنهم كانوا حكماء في أوقاتهم توصلوا إلى أغراضهم بوضع ما ادعوا فيه أنه وحي من الله تعالى،فهذا وأمثاله مما لا شك في كفره وفي كفر من يدعي للمرافعة عند القاضي فيأبى إلا المرافعـــة بمقتضى تلك الأصول عند أهل تلك الأصول راضيا بما يقضون به عليه تردد وإنما لم يجزم بكفره مع قوله تعالى:فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجاً ممّا قضيْت ويسلّموا تسْليماً"[٣٥٩].

١٢) محمد رشيد رضا رحمه الله:

قال في تفسير المنار في تفسير قوله تعالى:"وإذا قيل لهـــم تعـــالوا إلى مـــا أنـــزل الله.." الآية:والْآية ناطقةٌ بأنّ منْ صدّ وأعْرض عنْ حكْم الله ورسوله عمْدًا ولاسيّما بعْد دعْوته إليْه وتذْكيره به،فإنّه يكون منافقًا لا يعْتدّ بما يزْعمه مـــن الْإيمـــان ومـــا يدّعيـــه مـــن الْإسْلام،وهي حجّة الله الْبالغة على الْمقلّدين لبعْض النّاس فيما اسْتبان حكْمه في الْكتاب والسّنّة،ولاسيّما إذا دعوا إليْه ووعظوا به.[٣٦٠].

١٣) الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة العربية الأسبق رحمه الله:

---

[٣٥٩] – تفسير الألوسي = روح المعاني (١٤/ ٢١٥)

[٣٦٠] – تفسير المنار (٥/ ١٨٥)

قال:وقد نفى الله الأيمان عن من أراد التحاكم إلى غيرها ما جاء به الرسول (ﷺ) من المنافقين كما قال تعالى:(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلىك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيءطان أن يضلهم ضلإلا بعيداً) (١)

فإن قوله عز وجل:(يزعمون) تكذيب لهم فيما ادعوه من الأيمان فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي (ﷺ) مع الأيمان في قلب عبد أصلاً بل أحدهما ينافي الآخر.و (الطاغوت) مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد،فكل من حكم بغير ما جاء به الرسول (ﷺ) أو حاكم إلى غير ما جاء به النبي (ﷺ) فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه وذلك أنه من حد كل أحد أن يكون حاكماً ما جاء به النبي (ﷺ) فقط لا بخلافه كما أنه من حد كل أحد أن يحاكم إلى ما جاء به النبي (ﷺ) فمن حكم بخلافه أو حاكم أو حاكم غلي خلافه فقد طغى وجاوز حده حكماً أو تحكيماً فصار بذلك طاغوتاً لتجاوزه حد"[٣٦١].

١٤) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله:

قال:وما تضمّنتْه هذه الْآية الْكريمة منْ كوْن الْحكْم للّه وحْده لا شريك له فيه على كلْتا الْقراءتيْن جاء مبيّنًا في آيات أخر،كقوْله تعالى:إن الْحكْم إلّا للّه أمر ألّا تعْبدوا إلّا إيّاه [١٢ \ ٤٠]،وقوْله تعالى:إن الْحكْم إلّا للّه عليْه توكّلْت الْآية [١٢ \ ٦٧]،وقوْله تعالى:وما اخْتلفْتمْ فيه منْ شيْءٍ فحكْمه إلى اللّه [٤٢ \ ١٠]،وقوْله تعالى:ذلكمْ بأنّه إذا دعي اللّه وحْده كفرْتمْ وإنْ يشْركْ به تؤْمنوا فالْحكْم للّه الْعليّ الْكبير [٤٠ \ ١٢]،وقوْله تعالى:كلّ شيْءٍ هالكٌ إلّا وجْهه له الْحكْم وإليْه ترْجعون [٢٨ \ ٨٨]،وقوْله تعالى:له الْحمْد في الْأولى والْآخرة وله الْحكْم وإليْه ترْجعون [٢٨ \ ٧٠]،وقوْله:أفحكْم الْجاهليّة يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون [٥ \ ٥٠]،وقوْله تعالى:أفغيْر اللّه أبْتغي حكمًا وهو الّذي أنْزل إليْكم الْكتاب مفصّلًا [٦ \ ١١٤]،إلى غيْر ذلك من الْآيات.

---

[٣٦١] – فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١٢/ ٢٨٦)

ويفْهم منْ هذه الْآيات،كقوْله:ولا يشْرك في حكْمه أحدًا [١٨ \ ٢٦]،أنّ متّبعي أحْكام الْمشرّعين غيْر ما شرعه اللّه أنّهمْ مشْركون باللّه،وهذا الْمفْهوم جاء مبيّنًا في آيات أخر،كقوْله فيمن اتّبع تشْريع الشّيْطان في إباحة الْميْتة بدعْوى أنّها ذبيحة اللّه:ولا تأْكلوا ممّا لمْ يذْكر اسْم اللّه عليْه وإنّه لفسْقٌ وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوْليائهمْ ليجادلوكمْ وإنْ أطعْتموهمْ إنّكمْ لمشْركون [٦ \ ١٢١]،فصرّح بأنّهمْ مشْركون بطاعتهمْ،وهذا الْإشْراك في الطّاعة،واتّباع التّشْريع الْمخالف لما شرعه اللّه تعالى هو الْمراد بعبادة الشّيْطان في قوْله تعالى:ألمْ أعْهدْ إليْكمْ يابني آدم أنْ لا تعْبدوا الشّيْطان إنّه لكمْ عدوٌّ مبينٌ وأن اعْبدوني هذا صراطٌ مسْتقيمٌ [٣٦ \ ٦٠،٦١]،وقوْله تعالى عنْ نبيّه إبْراهيم:يا أبت لا تعْبد الشّيْطان إنّ الشّيْطان كان للرّحْمن عصيًّا [١٩ \ ٤٤]،وقوْله تعالى:إنْ يدْعون منْ دونه إلّا إناثًا وإنْ يدْعون إلّا شيْطانًا مريدًا [٤ \ ١١٧]،أيْ:ما يعْبدون إلّا شيْطانًا،أيْ:وذلك باتّباع تشْريعه،ولذا سمّى اللّه تعالى الّذين يطاعون فيما زيّنوا من الْمعاصي شركاء،في قوْله تعالى:وكذلك زيّن لكثيرٍ من الْمشْركين قتْل أوْلادهمْ شركاؤهمْ الْآية [٦ \ ١٣٧]،وقدْ بيّن النّبيّ ﷺ هذا لعديّ بْن حاتمٍ رضي اللّه عنْه لمّا سأله عنْ قوْله تعالى:اتّخذوا أحْبارهمْ ورهْبانهمْ أرْبابًا منْ دون اللّه [٩ \ ٣١]،فبيّن له أنّهمْ أحلّوا لهمْ ما حرّم اللّه،وحرّموا عليْهمْ ما أحلّ اللّه فاتّبعوهمْ في ذلك،وأنّ ذلك هو اتّخاذهمْ إيّاهمْ أرْبابًا.

ومنْ أصْرح الْأدلّة في هذا:أنّ اللّه جلّ وعلا في «سورة النّساء» بيّن أنّ منْ يريدون أنْ يتحاكموا إلى غيْر ما شرعه اللّه يتعجّب منْ زعْمهمْ أنّهمْ مؤْمنون،وما ذلك إلّا لأنّ دعْواهم الْإيمان مع إرادة التّحاكم إلى الطّاغوت بالغةٌ من الْكذب ما يحْصل منْه الْعجب ؛ وذلك في قوْله تعالى:ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت وقدْ أمروا أنْ يكْفروا به ويريد الشّيْطان أنْ يضلّهمْ ضلالًا بعيدًا [٤ \ ٦٠].

وبهذه النّصوص السّماويّة الّتي ذكرْنا يظْهر غاية الظّهور:أنّ الّذين يتّبعون الْقوانين الْوضْعيّة الّتي شرعها الشّيْطان على ألْسنة أوْليائه مخالفةً لما شرعه اللّه جلّ وعلا على ألْسنة

رسله صلّى اللّه عليْهمْ وسلّم،أنّه لا يشكّ في كفْرهمْ وشرْكهمْ إلّا منْ طمس اللّه بصيرته،وأعْماه عنْ نور الْوحْي مثْلهمْ.

اعْلمْ،أنّه يجب التّفْصيل بيْن النّظام الْوضْعيّ الّذي يقْتضي تحْكيمه الْكفْر بخالق السّماوات والْأرْض،وبيْن النّظام الّذي لا يقْتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أنّ النّظام قسْمان:إداريٌّ،وشرْعيٌّ،أمّا الْإداريّ:الّذي يراد به ضبْط الْأمور وإتْقانها على وجْهٍ غيْر مخالفٍ للشّرْع،فهذا لا مانع منْه،ولا مخالف فيه من الصّحابة،فمنْ بعْدهمْ،وقدْ عمل عمر رضي اللّه عنْه منْ ذلك أشْياء كثيرةً ما كانتْ في زمن النّبيّ ﷺ،ككتْبه أسْماء الْجنْد في ديوانٍ لأجْل الضّبْط،ومعْرفة منْ غاب ومنْ حضر كما قدّمْنا إيضاح الْمقْصود منْه في سورة «بني إسْرائيل» في الْكلام على الْعاقلة الّتي تحْمل دية الْخطأ،مع أنّ النّبيّ ﷺ لمْ يفْعلْ ذلك،ولمْ يعْلمْ بتخلّف كعْب بْن مالكٍ عنْ غزْوة تبوك إلّا بعْد أنْ وصل تبوك ﷺ،وكاشْترائه - أعْني عمر رضي اللّه عنْه - دار صفْوان بْن أميّة وجعْله إيّاها سجْنًا في مكّة الْمكرّمة،مع أنّه ﷺ لمْ يتّخذْ سجْنًا هو ولا أبو بكْرٍ،فمثْل هذا من الْأمور الْإداريّة الّتي تفْعل لإتْقان الْأمور ممّا لا يخالف الشّرْع لا بأْس به،كتنْظيم شئون الْموظّفين،وتنْظيم إدارة الْأعْمال على وجْهٍ لا يخالف الشّرْع،فهذا النّوْع من الْأنْظمة الْوضْعيّة لا بأْس به،ولا يخْرج عنْ قواعد الشّرْع منْ مراعاة الْمصالح الْعامّة.

وأمّا النّظام الشّرْعيّ الْمخالف لتشْريع خالق السّماوات والْأرْض فتحْكيمه كفْرٌ بخالق السّماوات والْأرْض،كدعْوى أنّ تفْضيل الذّكر على الْأنْثى في الْميراث ليْس بإنْصاف،وأنّهما يلْزم اسْتواؤهما في الْميراث.وكدعْوى أنّ تعدّد الزّوْجات ظلْمٌ،وأنّ الطّلاق ظلْمٌ للْمرْأة،وأنّ الرّجْم والْقطْع ونحْوهما أعْمالٌ وحْشيّةٌ لا يسوغ فعْلها بالْإنْسان،ونحْو ذلك.

فتحْكيم هذا النّوْع من النّظام في أنْفس الْمجْتمع وأمْوالهمْ وأعْراضهمْ وأنْسابهمْ وعقولهمْ وأدْيانهمْ كفْرٌ بخالق السّماوات والْأرْض،وتمرّدٌ على نظام السّماء الّذي وضعه منْ خلق الْخلائق كلّها وهو أعْلم بمصالحها سبْحانه وتعالى عنْ أنْ يكون معه مشرّعٌ آخر علوًّا كبيرًا أمْ لهمْ شركاء شرعوا لهمْ من الدّين ما لمْ يأْذنْ به اللّه [٤٢ \ ٢١]،قلْ أرأيْتمْ ما

أنْزل اللّه لكمْ منْ رزْقٍ فجعلْتمْ منْه حرامًا وحلالًا قلْ آللّه أذن لكمْ أمْ على اللّه تفْتـــرون [١٠ \ ٥٩]،ولا تقولوا لما تصف ألْسنتكم الْكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفْتروا على اللّه الْكذب إنّ الّذين يفْترون على اللّه الْكذب لا يفْلحون [١٦ \ ١١٦]،وقدْ قـــدّمْنا جمْلةً وافيةً منْ هذا النّوْع في سورة «بني إسْرائيل» في الْكلام على قوْله تعـــالى:إنّ هـــذا الْقرْآن يهْدي للّتي هي أقْوم الْآية [١٧ \ ٩]. [٣٦٢].

١٥) الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

قال في تفسيره:أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الـــدين وفروعـــه إلى الله وإلى رسوله أي:إلى كتاب الله وسنة رسوله؛فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافيـــة،إما بصريحهما أو عمومهما؛أو إيماء،أو تنبيه،أو مفهوم،أو عموم معـــنى يقـــاس عليـــه مـــا أشبهه،لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين،ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.فـــالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال:{إنْ كنْتمْ تؤْمنون باللّه والْيوْم الآخر} فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل التراع فليس بمؤمن حقيقة،بل مؤمن بالطاغوت،كما ذكر في الآية بعدها {ذلك} أي:الرد إلى الله ورسوله {خيْرٌ وأحْسن تأْويلا} فـــإن حكـــم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم. [٣٦٣].

١٦) الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله:

قال:(القرآن مملوء بأحكام وقواعد جلية،في المسائل المدنية،والتجاريـــة،وأحكام الحـــرب والسلم،وأحكام القتال،والغنائم،والأسرى،وبنصوص صريحة في الحدود والقصـــاص،فمن زعم أنه دين عبادة فقط فقد أنكر كل هذا،وأعظم على الله الفريـــة،وظن أن لشـــخص كائناً من كان،أو لهيئة كائنة من كانت،أن تنسخ ما أوجب الله مـــن طاعتـــه والعمـــل بأحكامه،وما قال ذلك مسلم ولا يقوله،ومن قاله فقد خرج عن الإسلام جملة ورفضـــه كله،وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم) [٣٦٤].

١٧) الشيخ محمود محمد شاكر رحمه الله:

---

[٣٦٢] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٥٨)

[٣٦٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٤)

[٣٦٤] - عمدة التفسير لابن كثير تعليق أحمد محمد شاكر ج٢/ ١٧١-١٧٢

قال:(الذي نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء،وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه،وتعطيل لكل ما في شريعة الله،بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجــاج علــى تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المترلة،وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا،ولعلل وأسباب انقضت،فسقطت الأحكــام كلــها بانقضائها)[٣٦٥].

وقال عن تعلق أهل الأهواء بكلام التابعي أبي مجْلز السدوسي السابق:(اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة،وبعد،فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا،قد تلمــس المعــذرة لأهــل الســلطان في تــرك الحكــم بمــا أنــزل الله،وفي القضــاء في الدماء،والأعراض،والأموال،بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه،وفي اتخاذهم قانون الكفر شريعة في بلاد الإسلام،فلما وقف على هذين الخبرين اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله،وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العــام لا تكفر الراضي بها والعامل بها).

إلى أن قال:(لم يكن سؤالهم[٣٦٦] عما احتج به مبتدعة زماننا مــن القضــاء في الأمــوال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام،ولا في إصدار قانون ملزم لأهــل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ،فهــذا الفعــل إعراض عن حكم الله ورغبة عن دينه،وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله ســبحانه وتعالى،وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفــير القائــل بــه والداعي إليه.ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجْلز،أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة،فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنّ حاكم حكماً وجعلــه شريعة ملزمة للقضاء بها [٣٦٧]،هذه واحدة،وأخرى أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها،فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل،فهذا أمــره أمــر الجاهــل

---

[٣٦٥] – عمدة التفسير لابن كثير ج٤/ ١٥٧

[٣٦٦] – النفر من الإباضية الذين سألوا أبا مِجْلز رحمه الله

[٣٦٧] – إلا بعد سقوط الدولة العثمانية واستعمار الكفار لديار الإسلام وبعد أن تخرج تلاميذ الكفار

بالشريعة،وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية،فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة)[٣٦٨].

١٨) الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:

قال وقد سئل:س هل يعتبر الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله كفارا وإذا قلنا إنهم مسلمون فماذا نقول عن قوله تعالى {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} ؟

الجواب الحكام بغير ما أنزل الله أقسام،تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم،فمن حكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أحسن من شرع الله فهو كافر عند جميع المسلمين،وهكذا من يحكّم القوانين الوضعية بدلا من شرع الله ويرى أن ذلك جائز،ولو قال إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر لكونه استحل ما حرم الله.أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعا للهوى أو لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه أو لأسباب أخرى وهو يعلم أنه عاصٍ لله بذلك وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرا أصغر وظلما أصغر وفسقا أصغر كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم.والله ولي التوفيق.[٣٦٩]

١٩) الشيخ محمد صالح العثيمين رحمه الله:

قال:من لم يحكم بما أنزل الله استخفافاً به،أو احتقاراً له،أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه،وأنفع للخلق أو مثله – فهو كافر كفراً مخرجًا عن الملة،ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير الناس عليه،فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق،إذ من المعلوم بالضرورة العقلية،والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه.

---

[٣٦٨] – عمدة التفسير لابن كثير لأحمد محمد شاكر ج٤/ ١٥٦-١٥٧

[٣٦٩] – فتاوى إسلامية (١/ ٦١) ومجموع فتاوى ابن باز (٤/ ٤١٦) ومجلة الدعوة العدد ٩٦٣ في ٥\ ١٢\ ١٤٠٥ هـ.

– ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به،و لم يحتقره،و لم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك؛فهذا ظالم وليس بكافر وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

– ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافاً بحكم الله،ولا احتقارًا،ولا اعتقادًا أن غيره أصلح،وأنفع للخلق أو مثله،وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له،أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا – فهذا فاسق،وليس بكافر؛وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله أنهم على وجهين:

أحدهما:أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم الله،وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر،وقد جعله الله ورسوله شركًا.

الثاني:أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال – كذا العبارة المنقولة عنه – ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

وهناك فرق بين المسائل التي تعتبر تشريعًا عاماً والمسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله؛لأن المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًا لا يتأتى فيها التقسيم السابق وإنما هي من القسم الأول فقط؛لأن هذا المشرع تشريعاً يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد كما سبقت الإشارة إليه.

وهذه المسألة – أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله – من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان؛فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق؛لأن المسألة خطيرة – نسأل الله تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم – كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتتبين

المحجة؛فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة،ولا يحقرن نفسه عن بيانـــه ولا يهابن أحدًا فيه؛فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.[٣٧٠]

٢٠) هيئة كبار العلماء بالسعودية:

س:من لم يحكم بما أنزل الله هل هو مسلم أم كافر كفرا أكبر وتقبل منه أعماله؟

ج:قال تعالى:{ ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون } (سورة المائدة،الآية ٤٤) وقال تعالى:{ ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الظّالمون } (سورة المائدة،الآية ٤٥) وقال تعالى:{ ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئـــك هـــم الْفاســـقون } (ســـورة المائدة،الآية ٤٧) لكن إن استحل ذلك واعتقده جائزا فهو كفر أكبر،وظلم أكبر،وفسق أكبر يخرج من الملة،أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة أو مقصد آخر وهو يعتقد تحـــريم ذلك فإنه آثم،يعتبر كافرا كفرا أصغر،وظالما ظلما أصغر،وفاسقا فسقا أصغر لا يخرجه من الملة،كما أوضح ذلك أهل العلم في تفسير الآيات المذكورة.

وبالله التوفيق.وصلى الله على نبينا محمد،وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو // نائب رئيس اللجنة // الرئيس //

عبد الله بن غديان // عبد الرزاق عفيفي // عبد العزيز بن عبد الله بن باز //[٣٧١].

٢١) سيد قطب رحمه الله:

قال:في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٨٥)

ولا يكتفي السياق بالاستنكار.ولكنه يقرر الحكم الإسلامي في مثل هذا الموقف:«ومـــا أولئك بالْمؤْمنين»..فما يمكن أن يجتمع الإيمان،وعدم تحكيم شريعة الله،أو عدم الرضـــى بحكم هذه الشريعة.والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهـــم «مؤمنـــون» ثم هـــم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم،أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم..إنما يدعون دعوى كاذبة وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع:«وما أولئك بالْمؤْمنين».فليس الأمر في هذا هو

---

[٣٧٠] - فتاوى موقع الألوكة (٢٨/ ٤) ومجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢/ ١٤٣) وموقع الإسلام سؤال وجواب (١/ ٦٤٦) وموقع الإسلام سؤال وجواب (١/ ٨٢٢)حكم تشريع القوانين الوضعية ورأي الشيخ ابن عثيمين في ذلك

[٣٧١] - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٣/ ٨)الطواغيت السؤال الحادي عشر من الفتوى رقم ٥٧٤١

أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين،يخرجهم من دائرة الإيمان،مهما ادعوه باللسان.

وهذا النص هنا يطابق النص الآخر،في سورة النساء:«فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ،ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجاً ممّا قضيْت،ويسلّموا تسْليماً»..فكلاهما يتعلق بالمحكومين لا بالحكام.وكلاهما يخرج من الإيمان،وينفي صفة الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله ورسوله،ومن يتولى عنه ويرفض قبوله.

ومرد الأمر كما قلنا في مطلع الحديث عن هذا الدرس..أن القضية هي قضية الإقرار بألوهية الله – وحده – وربوبيته وقوامته على البشر.أو رفض هذا الإقرار.وأن قبول شريعة الله والرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته وربوبيته وقوامته ورفضها والتولي عنها هو مظهر رفض هذا الإقرار.[٣٧٢]

٢٢) د.صلاح الصاوي:

قال:(إن الحالة التي تواجهها مجتمعاتنا المعاصرة هي حالة الإنكار على الإسلام أن تكون له صلة بشؤون الدولة،والحجر عليه ابتداء أن تتدخل شرائعه لتنظيم هذه الجوانب،وتقرير الحق في التشريع المطلق في هذه الأمور للبرلمانات والمجالس التشريعية،وإننا أمام قوم يدينون بالحق في السيادة العليا والتشريع المطلق للمجالس التشريعية،فالحلال ما أحلته،والحرام ما حرّمته،والواجب ما أوجبته،والنظام ما شرعته..)[٣٧٣].

٢- كفر من يتحاكم إلى الطاغوت ومجاهدته:

قال تعالى:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنواْ بما أنزل إليْك وما أنزل من قبْلك يريدون أن يتحاكمواْ إلى الطّاغوت وقدْ أمرواْ أن يكْفرواْ به ويريد الشّيْطان أن يضلّهمْ ضلالاً بعيدًا} (٦٠) سورة النساء

[٣٧٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٨٥)

[٣٧٣] – تحكيم الشريعة والدعاوى العلمانية لصلاح الصاوي ص٨١

ينْكر الله تعالى على منْ يدّعي الإيمان بالله،وكتبه ورسله،وهو معْ ذلك يريد أنْ يتحـــاكم في فصْل الخصومات إلى غيْر كتاب الله،وسنّة نبيّه.

ويذمّ الله تعالى الذين يعْدلون عنْ شرْع الله وسنّة نبيّه،إلى ما سواهما من الباطل (وهـــو المرادُ هنا بالطّاغوت)،وقدْ أمروا بأنْ يكْفروا به،وبحكْم الجاهليّة،ولكنّ الشّيْطان يدْعوهمْ إلى اتّباعه ليضلّهمْ عنْ دينهمْ وشرْعهمْ وهدى ربّهمْ،ويبْعدهمْ عنْها [٣٧٤].

وفي التفسير الميسر:ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك المنافقين الذين يدّعون الإيمان بما أنزل إليك -وهو القرآن- وبما أنزل إلى الرسل من قبلك،وهم يريدون أن يتحـــاكموا في فصْل الخصومات بينهم إلى غير ما شرع الله من الباطل،وقد أمروا أن يكفروا بالباطـــل؟ ويريد الشيطان أن يبعدهم عن طريق الحق،بعدًا شديدًا.وفي هذه الآية دليـــل علـــى أن الإيمان الصادق،يقتضي الانقياد لشرع الله،والحكم به في كل أمر من الأمور،فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله،فهو كاذب في زعمه[٣٧٥].

عنْ عامرٍ،في هذه الْآية:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت} [النساء:٦٠] قال:" كان بيْن رجـــلٍ مـــن الْيهود ورجلٍ من الْمنافقين خصومةٌ،فكان الْمنافق يدْعو إلى الْيهود لأنّه يعْلم أنّهمْ يقْبلون الرّشْوة،وكان الْيهوديّ يدْعو إلى الْمسْلمين لأنّه يعْلم أنّهمْ لا يقْبلون الرّشْوة،فاصْـــطلحا أنْ يتحاكما إلى كاهنٍ منْ جهيْنة،فأنْزل اللّه فيه هذه الْآية:{ألمْ تر إلى الّـــذين يزْعمـــون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك} [النساء:٦٠] حتّى بلغ:{ويسلّموا تسْـــليمًا} [النســـاء:٦٥] [٣٧٦]"

وعنْ عامرٍ،في هذه الْآية:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنـــوا بمـــا أنْـــزل إليْـــك} [النساء:٦٠] فذكر نحْوه،وزاد فيه:فأنْزل اللّه {ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بمـــا أنْزل إليْك} [النساء:٦٠] يعْني الْمنافقين {وما أنْزل منْ قبْلك} [البقرة:٤] يعْني الْيهود

---

[٣٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٣، بترقيم الشاملة آليا)

[٣٧٥] - التفسير الميسر - (ج ٢ / ص ٦٠)

[٣٧٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٨٩) صحيح مرسل

{يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت} [النساء:٦٠] يقول:" إلى الْكاهن {وقدْ أمروا أنْ يكْفروا به} [النساء:٦٠] أمر هذا في كتابه،وأمر هذا في كتابه أنْ يكْفر بالْكاهن "[٣٧٧]

وعن الشّعْبيّ قال:كانتْ بيْن رجلٍ ممّنْ يزْعم أنّه مسْلمٌ،وبيْن رجلٍ من الْيهود خصومةٌ،فقال الْيهوديّ:أحاكمك إلى أهْل دينك،أوْ قال:إلى النّبيّ؛لأنّه قدْ علم أنّ رسول اللّه ﷺ لا يأْخذ الرّشْوة في الْحكْم.فاخْتلفا،فاتّفقا على أنْ يأْتيا كاهنًا في جهيْنة قال:فترلتْ:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك} [النساء:٦٠] يعْني:" الّذي من الْأنْصار {وما أنْزل منْ قبْلك} [البقرة:٤] يعْني:" الْيهوديّ {يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت} [النساء:٦٠] إلى الْكاهن {وقدْ أمروا أنْ يكْفروا به} [النساء:٦٠] يعْني:" أمر هذا في كتابه،وأمر هذا في كتابه.وتلا:{ويريد الشّيْطان أنْ يضلّهمْ ضلالًا بعيدًا} [النساء:٦٠]،وقرأ:{فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ} [النساء:٦٥] إلى:{ويسلّموا تسْليمًا} [النساء:٦٥] "[٣٧٨]

وعن الْمعْتمر بْن سليْمان،عنْ أبيه،قال:زعم حضْرميّ أنّ رجلًا،من الْيهود كان قدْ أسْلم،فكانتْ بيْنه وبيْن رجلٍ [ص:١٩١] من الْيهود مدارأةٌ في حقٍّ،فقال الْيهوديّ له:انْطلقْ إلى نبيّ اللّه.فعرف أنّه سيقْضي عليْه.قال:فأبى،فانْطلقا إلى رجلٍ من الْكهّان،فتحاكما إليْه.قال اللّه:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك يريدون أنْ يتحاكموا إلى الطّاغوت} [النساء:٦٠] "

وعنْ قتادة،قوْله:{ألمْ تر إلى الّذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك} [النساء:٦٠] الْآية،حتّى بلغ:{ضلالًا بعيدًا} [النساء:٦٠] ذكر لنا أنّ هذه الْآية نزلتْ في رجليْن:رجلٍ من الْأنْصار يقال له بشْرٌ،وفي رجلٍ من الْيهود في مدارأةٍ كانتْ بيْنهما في حقٍّ،فتدارءا بيْنهما فيه،فتنافرا إلى كاهنٍ بالْمدينة يحْكم بيْنهما،وتركا نبيّ اللّه ﷺ.فعاب اللّه عزّ وجلّ ذلك.وذكر لنا أنّ الْيهوديّ كان يدْعوه إلى النّبيّ ﷺ ليحْكم بيْنهما،وقدْ علم أنّ نبيّ اللّه ﷺ لنْ يجور عليْه،فجعل الْأنْصاريّ يأْبى عليْه وهو يزْعم أنّه

[٣٧٧] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٩٠) صحيح مرسل

[٣٧٨] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٩٠) صحيح مرسل

مسْلمٌ ويدْعوه إلى الْكاهن،فأنْزل اللّه تبارك وتعالى ما تسْمعون،فعاب ذلك على الّـذي زعم أنّه مسْلمٌ،وعلى الْيهوديّ الّذي هو منْ أهْل الْكتاب،فقـال:{ألمْ تـر إلى الّـذين يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك} [النساء:٦٠] إلى قوْله:{صدودًا} [النساء:٦١] "[٣٧٩]
وقال ابن كثير:"هذا إنْكارٌ من اللّه،عزّ وجلّ،على منْ يدّعي الْإيمان بما أنْزل اللّـه علـى رسوله وعلى الْأنْبياء الْأقْدمين،وهو مع ذلك يريد التّحاكم في فصْل الْخصومات إلى غيْر كتاب اللّه وسنّة رسوله،كما ذكر في سبب نزول هذه الْآية:أنّها في رجلٍ من الْأنْصـار ورجلٍ من الْيهود تخاصما،فجعل الْيهوديّ يقول:بيْني وبيْنك محمّدٌ.وذاك يقول:بيْني وبيْنك كعْب بْن الْأشْرف.وقيل:في جماعةٍ من الْمنافقين،ممّنْ أظْهروا الْإسْلام،أرادوا أنْ يتحاكموا إلى حكّام الْجاهليّة.وقيل غيْر ذلك،والْآية أعمّ منْ ذلك كلّه،فإنّها ذامّةٌ لمنْ عـدل عـن الْكتاب والسّنّة،وتحاكموا إلى ما سواهما من الْباطل،وهو الْمراد بالطّاغوت هاهنا "[٣٨٠]

وفي الظلال:

ألم تر إلى هذا العجب العاجب..قوم..يزعمون..الإيمان.ثم يهدمون هذا الـزعم في آن؟! قوم «يزْعمون أنّهمْ آمنوا بما أنْزل إليْك وما أنْزل منْ قبْلك».ثم لا يتحـاكمون إلى مـا أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخـر،وإلى منـهج آخر،وإلى حكم آخر..يريدون أن يتحاكموا إلى..الطاغوت..الذي لا يستمد مما أنـزل إليك وما أنزل من قبلك.ولا ضابط له ولا ميزان،مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك..ومن ثم فهو..طاغوت..طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية.وطاغوت بأنه لا يقـف عند ميزان مضبوط أيضا!

وهم لا يفعلون هذا عن جهل،ولا عن ظن..إنما هم يعلمون يقينا ويعرفون تماما،أن هـذا الطاغوت محرم التحاكم إليه:«وقدْ أمروا أنْ يكْفروا به»..فليس في الأمـر جهالـة ولا ظن.بل هو العمد والقصد.

---

[٣٧٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ١٩١) صحيح مرسل

[٣٨٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٤٦)

ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم.زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب..

«ويريد الشّيْطان أنْ يضلّهمْ ضلالًا بعيداً»..فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت.وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم.لعلهم يتنبهون فيرجعوا.ويكشفه للجماعة المسلمة،لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك.

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل اللّه إلى الرسول وما أنزل من قبله..ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به:« وإذا قيل لهمْ:تعالوْا إلى ما أنْزل اللّه وإلى الرّسول،رأيْت الْمنافقين يصدّون عنْك صدوداً».يا سبحان اللّه! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري..وإلا ما كان نفاقا...

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان،أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به،وإلى من آمن به.فإذا زعم أنه آمن باللّه وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه.ثم دعي إلى هذا الذي آمن به،ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية.فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية.ويكشف عن النفاق.وينبيء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم اللّه – سبحانه – أولئك الذين يزعمون الإيمان باللّه ورسوله.ثم لا يتحاكمون إلى منهج اللّه ورسوله.بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودا! ثم يعرض مظهرا من مظاهر النفاق في سلوكهم حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل اللّه وإلى الرسول أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت.ومعاذيرهم عند ذلك.وهي معاذير النفاق:«فكيْف إذا أصابتْهمْ مصيبةٌ – بما قدّمتْ أيْديهمْ – ثمّ جاؤك يحْلفون باللّه:إنْ أردْنا إلّا إحْساناً وتوْفيقاً»..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة – يومذاك – حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم.فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسا يزعمون أنهم آمنوا باللّه وما أنزل،وبالرسول وما أنزل إليه ثم

يميلون إلى التحاكم لغير شريعة اللّه أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها..إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان.وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء وكـــل ما له من الإسلام دعوى وأسماء! أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم نتيجة التحـــاكم إلى غير نظام اللّه العادل ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضـــية من قضاياهم.أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من اللّه لهم.لعلهم يتفكرون ويهتدون..

وأياما كان سبب المصيبة فالنص القرآني،يسأل مستنكرا:فكيف يكون الحـــال حينئـــذ! كيف يعودون إلى الرسول - ﷺ-:«يحْلفون باللّه إنْ أردْنا إلّا إحْساناً وتوْفيقاً»...

إنها حال مخزية..حين يعودون شاعرين بما فعلوا...غير قادرين على مواجهة الرســـول - ﷺ- بحقيقة دوافعهم.وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين:أنهـــم مـــا أرادوا بالتحـــاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهـــي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج اللّه وشريعته:أنهم يريـــدون اتقـــاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب،التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة اللّه! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة..إنها حجة الـــذين يزعمـــون الإيمان - وهم غير مؤمنين - وحجة المنافقين الملتوين..هي هي دائما وفي كـــل حـــين! واللّه - سبحانه - يكشف عنهم هذا الرداء المستعار.ويخبر رسوله - ﷺ-،أنـــه يعلـــم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم.ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق،والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء:«أولئك الّذين يعْلم اللّه ما في قلوبهمْ.فأعْرضْ عنْهمْ وعظْهمْ،وقلْ لهمْ في أنْفسهمْ قوْلًا بليغاً»..

أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ويحتجون بهذه الحجج،ويعتـــذرون بهـــذه المعاذير.واللّه يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور..ولكن السياسة التي كانت متبعـــة - في ذلك الوقت - مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم،وأخـــذهم بـــالرفق،واطراد الموعظة والتعليم..

والتعبير العجيب:«وقلْ لهمْ..في أنْفسهمْ..قوْلًا بليغاً».تعبير مصور..كأنما القـــول يـــودع مباشرة في الأنفس،ويستقر مباشرة في القلوب.

وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف اللّه وكنف رسوله..بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ومن الصدود عن الرسول – ﷺ– حين يدعون إلى التحاكم إلى اللّه والرسول..فالتوبة باهما مفتوح،والعودة إلى اللّه لم يفت أوانها بعد واستغفارهم اللّه من الذنب،واستغفار الرسول لهم،فيه القبول!

ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية:وهي أن اللّه قد أرسل رسله ليطاعوا – بإذنه – لا يخالف عن أمرهم.ولا ليكونوا مجرد وعاظ! ومجرد مرشدين! «وما أرْسلْنا منْ رسولٍ إلّا ليطاع بإذْن اللّه.ولوْ أنّهمْ إذْ ظلموا أنْفسهمْ جاؤك،فاسْتغْفروا اللّه،واسْتغْفر لهم الرّسول،لوجدوا اللّه توّاباً رحيماً»..

وهذه حقيقة لها وزنها..إن الرسول ليس مجرد «واعظ» يلقي كلمته ويمضي.لتذهب في الهواء – بلا سلطان – كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول «الدين».

إن الدين منهج حياة.منهج حياة واقعية.بتشكيلاتها وتنظيماتها،وأوضاعها،وقيمها،وأخلاقها وآدابها.وعباداتها وشعائرها كذلك.وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان.سلطان يحقق المنهج،وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ..

واللّه أرسل رسله ليطاعوا – بإذنه وفي حدود شرعه – في تحقيق منهج الدين.منهج اللّه الذي أراده لتصريف هذه الحياة.وما من رسول إلا أرسله اللّه،ليطاع،بإذن اللّه.فتكون طاعته طاعة للّه..ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجداني،والشعائر التعبدية..فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة اللّه من إرسال الرسل.وهي إقامة منهج معين للحياة،في واقع الحياة..وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا.لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضي.يستهتر بها المستهترون،ويبتذلها المبتذلون!!!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان..كان دعوة وبلاغا.ونظاما وحكما.وخلافة بعد ذلك عن رسول اللّه – ﷺ– تقوم بقوة الشريعة والنظام،على تنفيذ الشريعة والنظام.لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول.وتحقيق إرادة اللّه من إرسال الرسول.وليست

هنالك صورة أخرى يقال لها:الإسلام.أو يقال لها:الدين.إلا أن تكون طاعة للرسول،محققة في وضع وفي تنظيم.ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف ويبقى أصلها الثابت.وحقيقتها التي لا توجد بغيرها..استسلام لمنهج اللّه،وتحقيق لمنهج رسول اللّه.وتحاكم إلى شريعة اللّه.وطاعة للرسول فيما بلغ عن اللّه،وإفراد للّه – سبحانه – بالألوهية (شهادة أن لا إله إلا اللّه) ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقا للّه،لا يشاركه فيه سواه.وعدم احتكام إلى الطاغوت.

في كثير ولا قليل.والرجوع إلى اللّه والرسول،فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة،والأحوال الطارئة حين تختلف فيه العقول..

وأمام الذين «ظلموا أنفسهم» بميلهم عن هذا المنهج،الفرصة التي دعا اللّه المنافقين إليها على عهد رسول اللّه،ﷺ- ورغبهم فيها..

« ولوْ أنّهمْ – إذْ ظلموا أنْفسهمْ – جاؤك،فاسْتغْفروا اللّه،واسْتغْفر لهم الرّسول،لوجدوا اللّه توّاباً رحيماً»..واللّه تواب في كل وقت على من يتوب.واللّه رحيم في كل وقت على من يؤوب.وهو – سبحانه – يصف نفسه بصفته.ويعد العائدين إليه،المستغفرين من الذنب،قبول التوبة وإفاضة الرحمة..والذين يتناولهم هذا النص ابتداء،كان لديهم فرصة استغفار الرسول – ﷺ- وقد انقضت فرصتها.وبقي باب اللّه مفتوحا لا يغلق.ووعده قائما لا ينقض.فمن أراد فليقدم.ومن عزم فليتقدم..

وأخيرا يجيء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم.إذ يقسم اللّه – سبحانه – بذاته العلية،أنه لا يؤمن مؤمن،حتى يحكم رسول اللّه – ﷺ- في أمره كله.ثم يمضي راضيا بحكمه،مسلما بقضائه.ليس في صدره حرج منه،ولا في نفسه تلجلج في قبوله:«فلا وربّك لا يؤْمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بيْنهمْ.ثمّ لا يجدوا في أنْفسهمْ حرجاً ممّا قضيْت،ويسلّموا تسْليماً»..

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام.يقرره اللّه سبحانه بنفسه.ويقسم عليه بذاته.فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحدّ الإسلام،ولا تأويل لمؤول.

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام..وهي أن هذا القول مرهون بزمان،وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئا ولا يفقه من التعبير القرآني قليلا ولا كثيرا.فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام جاءت في صورة قسم مؤكد مطلقة من كل قيد..وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول اللّه - ﷺ- هو تحكيم شخصه.إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه.وإلا لم يبق لشريعة اللّه وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ- وذلك قول أشد المرتدين ارتدادا على عهد أبي بكر - رضي اللّه عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين:بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير.وهو مجرد عدم الطاعة للّه ورسوله،في حكم الزكاة وعدم قبول حكم رسول اللّه فيها،بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات «الإسلام» أن يتحاكم الناس إلى شريعة اللّه وحكم رسوله..فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا،ما لم يصحبه الرضى النفسي،والقبول القلبي،وإسلام القلب والجنان،في اطمئنان! هذا هو الإسلام..وهذا هو الإيمان..فلتنظر نفس أين هي من الإسلام وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان![٣٨١]

٣-عدم الحكم بما أنزل الله:

قال تعالى:{ إنّا أنزلْنا التّوْراة فيها هدًى ونورٌ يحْكم بها النّبيّون الّذين أسْلموا۟ للّذين هادوا۟ والرّبّانيّون والأحْبار بما اسْتحْفظوا۟ من كتاب اللّه وكانوا۟ عليْه شهداء فلا تخْشوا۟ النّاس واخْشوْن ولا تشْتروا۟ بآياتي ثمنًا قليلاً ومن لّمْ يحْكم بما أنزل اللّه فأوْلـئك هم الْكافرون (٤٤) وكتبْنا عليْهمْ فيها أنّ النّفْس بالنّفْس والْعيْن بالْعيْن والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والْجروح قصاصٌ فمن تصدّق به فهو كفّارةٌ لّه ومن لّمْ يحْكم بما أنزل اللّه فأوْلـئك هم الظّالمون (٤٥) وقفّيْنا على آثارهم بعيسى ابْن مرْيم مصدّقًا لّما بيْن يديْه من التّوْراة وآتيْناه الإنجيل فيه هدًى ونورٌ ومصدّقًا لّما بيْن يديْه من التّوْراة وهدًى وموْعظةً لّلْمتّقين (٤٦) ولْيحْكمْ أهْل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه ومن لّمْ يحْكم بما أنزل اللّه فأوْلـئك هم الْفاسقون (٤٧) }سورة المائدة

---

[٣٨١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٣٨)

يمْدح الله تعالى التّوْراة،فيقول:إنّه أنْزلها وفيها هدىً ونورٌ،يحْكم بها الأنْبياء الذين أسْلموا وجوههمْ لربّهمْ مخْلصين له الدّين (وهمْ موسى ومنْ جاء بعْده منْ أنْبياء بني إسْرائيل) بيْن اليهود لا يخْرجون عنْ حكْمها،ولا يبدّلونها ولا يحرّفونها.ويحْكم بها العلماء العبّاد (الرّبّانيّون)،والعلماء (الأحْبار) بما اسْتوْدعوا (اسْتحْفظوا) منْ كتاب الله الذي أمروا بأنْ يحْفظوه من التّبْديل،وبأنْ يظْهروه،ويعْملوا بأحْكامه،ثمّ خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا في زمنْ التّنْزيل فقال:كيْف لا يخافون الله في الكتْمان والتّبْديل،بعْد أنْ قصّ الله تعالى عليْهمْ سيرة السّلف الصّالح منْ بني إسْرائيل علّهمْ يعْتبرون ويرْعوون عنْ غيّهمْ.ثمّ قال لهمْ:وإذا كان الحال كذلك أيّها الأحْبار،ولا شكّ في أنّكمْ لا تنْكرونه،فلا تخْشوا النّاس فتكْتموا ما عنْدكمْ من الكتاب،خشْية النّاس،أوْ طمعاً في منْفعة عاجلة منْه،وأخْشوْني أنا واقْتدوا بمنْ كان قبْلكمْ من الرّبّانيّين والأحْبار،واحْفظوا التّوْراة،ولا تعْدلوا عنْ ذلك،فإنّ النّفْع والضّرر بيد الله،ولا تتْركوا بيان أحْكام التّوْراة للنّاس،والعمل بها،لقاء منْفعة دنْيويّة قليلة تأْخذونها من النّاس كرشْوة أوْ جاه.

وكلّ منْ يرْغب عن الحكْم بما أنْزل الله منْ شرْعٍ،ويخْفيه ويحْكم بغيْره (كحكْم اليهود في الزّانييْن المحْصنيْن بالتّحْميم والجلْد،وكتْمان الرّجْم،وقضائهمْ في بعْض قتْلاهمْ بديةٍ كاملةٍ،وفي بعْضهمْ بنصْف ديةٍ،معْ أنّ الله قدْ سوّى بيْن الجميع في الحكْم)،فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحقّ الذي كان عليهم كشْفه وتبْيينه للنّاس.

جاءت التّوْراة بشرْعة القصاص:فالنّفْس تقْتل بالنّفْس،ولكنّ اليهود يخالفون هذا الحكْم عمْداً وعناداً:فقدْ كانتْ قبيلتا بني النّضير وبني قريْظة تتحاربان وتتقاتلان،وكانتْ قبيْلة بني النّضير قويّةً عزيزة الجانب،وكان بنو قريْظة ضعفاء أذلاّء،فكان النّضيريّ إذا قتل قرظيّاً،لمْ يكنْ ليقْتل به،بلْ يعْدل فيه إلى الدّية.أمّا إذا قتل القرظيّ نضيريّاً،فكان يقْتل به،وفي ذلك مخالفةٌ لحكْم التّوْراة.

كما خالفوا حكْم التّوْراة في ترْك رجْم الزّاني المحْصن،كما أمرتْ به التّوْراة،وعدلوا عنْه إلى الجلْد والتّحْميم.وقضت التّوْراة بأنْ تفْقأ العيْن بالعيْن،وبأنْ يجْدع الأنْف بالأنْف،وأنْ تصْلم الأذْن بالأذْن،وأنْ تترع السّنّ بالسّنّ.

أمّا الجراح فيتمّ فيها القصاص إذا كانتْ في مفْصلٍ،فقتْطع اليد والرّجْل والكفّ والقــدم ونحْو ذلك أمَّا إذا كان الجرْح في عظْمٍ وليْس في مفْصلٍ،فاختْلف في كيْفيّة التّطْبيق.
فمنْ عفا وتصدّق بحقّه في القصاص على الجاني،كان التّصدّق كفّارةً له يمْحو الله بها قدْراً منْ ذنوبه.
ثمّ يقول تعالى:ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل الله في كتبه منْ شرْعٍ،فأولئك هم الظّالمون،لأنّهمْ لمْ ينْصفوا المظْلوم من الظّالم،في أمْرٍ أمر الله بالعدْل والمساواة فيه بيْن جميع خلْقه.
وأرْسلْنا منْ بعْد هؤلاء الأنْبياء منْ بني إسْرائيل عيسى بْن مريْم مؤْمناً بالتّوْراة،وحاكماً بما فيها منْ أحْكامٍ،وأنْزلْنا عليْه الإنْجيل فيه هدًى للْحقّ،وبيانٌ للأحْكام،ونورٌ يسْتضاء به في إزالة الشّبهات،وحلّ المشْكلات.وجاء الإنْجيل مصدّقاً للتّوراة،ومتّبعاً لها،غيْر مخالفٍ لمــا فيها إلاّ في القليل ممّا بيّن لبني إسْرائيل بعْض ما كانوا يخْتلفون فيه.وجعلْنا الإنْجيل هدًى يهْتدي به المتّقون،وواعظاً وزاجراً لهمْ عن ارْتكاب ما حرّم الله،وعن اقْتراف المآثم.
يأْمر الله تعالى أهْل الإنْجيل بأنْ يؤْمنوا بجميع ما جاء فيه من الأحْكام،وبــأنْ يعْملــوا بها،ومنْ لمْ يحْكم بما أنْزل الله منْ شرْعٍ يؤْمن به،كان من الفاسقين الخارجين عنْ طاعــة الله وحكْمه [٣٨٢].

وقال ابن كثير رحمه الله:

مدح التّوْراة الّتي أنْزلها على عبْده ورسوله موسى بْن عمْران،فقال:{إنّا أنزلْنا التّوْراة فيها هدًى ونورٌ يحْكم بها النّبيّون الّذين أسْلموا للّذين هادوا} أيْ:لا يخْرجون عنْ حكْمها ولا يبدّلونها ولا يحرّفونها {والرّبّانيّون والأحْبار} أيْ:وكذلك الرّبّانيّون منْهمْ وهــم الْعبــاد الْعلماء،والْأحْبار وهم الْعلماء{بما اسْتحْفظوا منْ كتاب اللّه} أيْ:بما اسْتودعوا منْ كتاب اللّه الّذي أمروا أنْ يظْهروه ويعْملوا به {وكانوا عليْه شهداء فلا تخْشوا النّاس واخْشوْن} أيْ:لا تخافوا منْهمْ وخافوني {ولا تشْتروا بآياتي ثمنًا قليلا ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنــزل اللّــه فأولئك هم الْكافرون} فيه قوْلان سيأْتي بيانهما.سببٌ آخر لنزول هذه الْآيات الْكريمة.

٣٨٢ – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧١٤، بترقيم الشاملة آليا)

عن ابْن عبّاسٍ قال:إنّ اللّه أنْزل:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكــافرون} و {فأولئك هم الظّالمون} [الْمائدة:٤٥] {فأولئك هم الْفاسقون} [الْمائدة:٤٧] قال:قال ابْن عبّاسٍ:أنْزلها اللّه في الطّائفتيْن من الْيهود،كانتْ إحْداهما قــدْ قهــرت الْــأخْرى في الْجاهليّة،حتّى ارْتضوْا أو اصْطلحوا على أنّ كلّ قتيلٍ قتلتْه الْعزيزة من الذّليلــة فديتــه خمسون وسقا،وكلّ قتيلٍ قتلتْه الذّليلة من الْعزيزة فديته مائة وسْقٍ،فكانوا على ذلك حتّى قدم النّبيّ ﷺ الْمدينة،فذلّت الطّائفتان كلْتاهما،لمقْدم رسول اللّه ﷺ،ويوْمئذ لمْ يظْهــرْ،ولمْ يوطّئْهما عليْه،وهو في الصّلْح،فقتلت الذّليلة من الْعزيزة قتيلًــا فأرْســلت الْعزيــزة إلى الذّليلة:أن ابْعثوا لنا بمائةٍ وسْقٍ،فقالت الذّليلة:وهلْ كان هذا في حيّــيْن قــطّ دينــهما واحدٌ،ونسبهما واحدٌ،وبلدهما واحدٌ:دية بعْضهمْ نصْف دية بعْضٍ.إنّما أعْطيْناكمْ هــذا ضيْمًا منْكمْ لنا،وفرقًا منْكمْ،فأمّا إذْ قدم محمّدٌ فلا نعْطيكمْ ذلك،فكادت الْحرْب تهــيج بيْنهما،ثمّ ارْتضوْا على أنْ يجْعلوا رسول اللّه ﷺ بيْنهمْ،ثمّ ذكرت الْعزيزة فقالتْ:واللّه مــا محمّدٌ بمعْطيكمْ منْهمْ ضعْف ما يعْطيهمْ منْكمْ ولقدْ صدقوا،ما أعْطوْنا هذا إلّا ضيْمًا منّــا وقهْرًا لهمْ،فدسّوا إلى محمّدٍ:منْ يخْبر لكمْ رأْيه،إنْ أعْطاكمْ ما تريدون حكمتمــوه وإنْ لمْ يعْطكمْ حذّرتم فلمْ تحكّموه.فدسّوا إلى رسول اللّه ﷺ ناسًا من الْمنافقين ليخْــبروا لهــمْ رأْي رسول اللّه ﷺ فلمّا جاءوا رسول اللّه ﷺ أخبر اللّه رسوله ﷺ بــأمْرهمْ كلّــه،وما أرادوا،فأنْزل اللّه تعالى:{يا أيّها الرّسول لا يحْزنْك الّــذين يســارعون في الْكفْــر} إلى قوْله:{الْفاسقون} ففيهمْ -واللّه-أنْزل،وإيّاهمْ عنى اللّه،عزّ وجلّ.

وعن ابْن عبّاسٍ؛أنّ الْآيات في "الْمائدة"،قوْله:{فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْــرضْ عــنْهمْ} إلى {الْمقْسطين} إنّما أنْزلتْ (٧) في الدّية في بني النّضير وبني قريْظة،وذلك أنّ قتْلــى بــني النّضير،كان لهمْ شرفٌ،تؤدى الدّية كاملةً،وأنْ قريْظة كــانوا يــودوْن نصْــف الدّيــة فتحاكموا في ذلك إلى رسول اللّه ﷺ،فأنْزل اللّه ذلك فيهمْ،فحملهمْ رسول اللّه ﷺ على الْحقّ في ذلك،فجعل الدّية في ذلك سواءً-واللّه أعْلم أيّ ذلك كان.

وعن ابْن عبّاسٍ قال:كانتْ قريْظة والنّضير وكانت النّضير أشْرف منْ قريْظــة،فكان إذا قتل رجلٌ منْ قريْظة رجلًا من النّضير قتل به،وإذا قتل رجلٌ مــن النّضــير رجلًــا مــنْ

قريْظة،ودي مائة وسْقٍ تمْرٍ.فلمّا بعث رسول اللّه ﷺ،قتل رجلٌ من النّضير رجلًا من قريْظة،فقالوا:ادْفعوه إليْنا فقالوا:بيْننا وبيْنكمْ رسول اللّه ﷺ.فنزلتْ:{وإنْ حكمْت فاحْكمْ بيْنهمْ بالْقسْط}

وهكذا قال قتادة،ومقاتل بْن حيّان،وابْن زيْدٍ وغيْر واحدٍ.وقدْ روى العوْفيّ،وعليّ بْن أبي طلْحة الْوالبيّ،عن ابْن عبّاسٍ:أنّ هذه الْآيات نزلتْ في الْيهوديّيْن اللّذيْن زنيا،كما تقدّمت الْأحاديث بذلك.وقدْ يكون اجْتمع هذان السّببان في وقْتٍ واحدٍ،فنزلتْ هذه الْآيات في ذلك كلّه،واللّه أعْلم.

ولهذا قال بعْد ذلك:{وكتبْنا عليْهمْ فيها أنّ النّفْس بالنّفْس والْعيْن بالْعيْن} إلى آخرها،وهذا يقوّي أنّ سبب النّزول قضيّة الْقصاص،واللّه سبْحانه وتعالى أعْلم.

وقوْله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال الْبراء بْن عازبٍ،وحذيْفة بْن الْيمان،وابْن عبّاسٍ،وأبو مجْلزٍ،وأبو رجاء العطاردي،وعكْرمة،وعبيد اللّه بْن عبْد اللّه،والْحسن الْبصْريّ،وغيْرهمْ:نزلتْ في أهْل الْكتاب -زاد الْحسن الْبصْريّ:وهي عليْنا واجبةٌ.

وعنْ إبْراهيم قال:نزلتْ هذه الْآيات في بني إسْرائيل،ورضي اللّه لهذه الْأمّة بها.رواه ابْن جريرٍ.

وعنْ علْقمة ومسْروقٍ أنّهما سألا ابْن مسْعود عن الرّشْوة فقال:من السّحْت:قال:فقالا وفي الْحكْم؟ قال:ذاك الْكفْر! ثمّ تلا {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون}

وقال السّدّي:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} يقول:ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزلت فتركه عمْدًا،أوْ جار وهو يعْلم،فهو من الْكافرين [به]

وقال عليّ بْن أبي طلْحة،عن ابْن عبّاسٍ،قوْله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال:منْ جحد ما أنْزل اللّه فقدْ كفر.ومنْ أقرّ به ولمْ يحْكمْ فهو ظالمٌ فاسقٌ.رواه ابْن جريرٍ.ثمّ اخْتار أنّ الْآية الْمراد بها أهْل الْكتاب،أوْ منْ جحد حكْم اللّه الْمنزّل في الْكتاب.

وعن الشّعْبيّ: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه} قال: للْمسْلمين. وعن الشّعْبيّ: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال: هذا في الْمسْلمين، {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الظّالمون}

قال: هذا في الْيهود، {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْفاسقون} قال: هذا في النّصارى.

وكذا رواه هشيْم والثّوْريّ، عنْ زكريّا بْن أبي زائدة، عن الشّعْبيّ.

وعن ابْن طاوسٍ عنْ أبيه قال: سئل ابْن عبّاسٍ عنْ قوْله: {ومنْ لمْ يحْكمْ [بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون] } قال: هي به كفرٌ -قال ابْن طاوسٍ: وليْس كمنْ كفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله.

وعنْ عطاءٍ أنّه قال: كفْرٌ دون كفْرٍ، وظلْمٌ دون ظلْمٍ، وفسْقٌ دون فسْقٍ. رواه ابْن جريرٍ.

وعنْ طاوسٍ: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال: ليْس بكفْرٍ ينْقل عن الْملّة.

وعن ابْن عبّاسٍ في قوْله: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال: ليْس بالْكفْر الّذي يذْهبون إليْه. {وكتبْنا عليْهمْ فيها أنّ النّفْس بالنّفْس والْعيْن بالْعيْن والأنْف بالأنْف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والْجروح قصاصٌ فمنْ تصدّق به فهو كفّارةٌ له ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الظّالمون (٤٥) }

وهذا أيْضًا ممّا وبّختْ به الْيهود وقرّعوا عليْه، فإنّ عنْدهمْ في نصّ التّوْراة: أنّ النّفْس بالنّفْس. وهمْ يخالفون ذلك عمْدًا وعنادًا، ويقيدون النّضْريّ من الْقرظيّ، ولا يقيدون الْقرظيّ من النّضْريّ، بلْ يعْدلون إلى الدّية، كما خالفوا حكْم التّوْراة الْمنْصوص عنْدهمْ في رجْم الزّاني الْمحْصن، وعدلوا إلى ما اصْطلحوا عليْه من الْجلْد والتّحْميم والْإشْهار؛ ولهذا قال هناك: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} لأنّهمْ جحدوا حكْم اللّه قصْدًا منْهمْ وعنادًا وعمْدًا، وقال هاهنا: {فأولئك هم الظّالمون} لأنّهمْ لمْ ينْصفوا الْمظْلوم من الظّالم في الْأمْر الّذي أمر اللّه بالْعدْل والتّسْوية بيْن الْجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدّى بعْضهمْ على بعْضٍ.

ولهذا قال هاهنا: {ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنزل اللّه فأولئك هم الْفاسقون} أي: الْخارجون عنْ طاعة ربّهمْ، الْمائلون إلى الْباطل، التّاركون للْحقّ. وقدْ تقدّم أنّ هـذه الْآيـة نزلـتْ في النّصارى، وهو ظاهر السّياق.

{وأنزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مصدّقًا لما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمنًا عليْه فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ لكلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجًا ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً ولكنْ ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ فاسْتبقوا الْخيْرات إلى اللّـه مرْجعكمْ جميعًا فينبّئكمْ بما كنْتمْ فيه تخْتلفون (٤٨) وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنزل اللّـه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ واحْذرْهمْ أنْ يفْتنوك عنْ بعْض ما أنزل اللّه إليْك فإنْ تولّوْا فاعْلمْ أنّما يريد اللّه أنْ يصيبهمْ ببعْض ذنوبهمْ وإنّ كثيرًا من النّاس لفاسقون (٤٩) أفحكْـم الْجاهليّـة يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون (٥٠) }

وقوْله: {أفحكْم الْجاهليّة يبْغون ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون} ينْكر تعـالى على منْ خرج عنْ حكْم اللّه الْمحْكم الْمشْتمل على كلّ خيْرٍ، النّاهي عنْ كلّ شرٍّ وعـدْلٍ إلى ما سواه من الْآراء والْأهْواء والاصْطلاحات، الّتي وضعها الرّجال بلا مسْتندٍ منْ شريعة اللّه، كما كان أهْل الْجاهليّة يحْكمون به من الضّلالات والْجهالات، ممّا يضعونها بآرائهمْ وأهْوائهمْ، وكما يحْكم به التّتار من السّياسـات الْملكيّـة الْمـأْخوذة عـنْ ملكهـمْ جنْكزْخان، الّذي وضع لهم اليساق وهو عبارةٌ عنْ كتابٍ مجْموعٍ منْ أحْكامٍ قد اقْتبسها عنْ شرائع شتّى، من الْيهوديّة والنّصْرانيّة والْملّة الْإسْلاميّة، وفيها كثيرٌ من الْأحْكام أخذها منْ مجرّد نظره وهواه، فصارتْ في بنيه شرْعًا متّبعًا، يقدّمونها على الْحكْم بكتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ. ومنْ فعل ذلك منْهمْ فهو كافرٌ يجب قتاله، حتّى يرْجع إلى حكْم اللّه ورسوله [ﷺ] فلا يحْكم سواه في قليلٍ ولا كثيرٍ، قال اللّه تعالى: {أفحكْـم الْجاهليّـة يبْغـون} أيْ: يبْتغون ويريدون، وعنْ حكْم اللّه يعْدلون. {ومنْ أحْسن من اللّه حكْمًا لقوْمٍ يوقنون} أيْ: ومنْ أعْدل من اللّه في حكْمه لمنْ عقل عن اللّه شرْعه، وآمن به وأيْقن وعلم أنّه تعالى

أحْكم الْحاكمين،وأرْحم بخلقه (٧) من الْوالدة بولدها،فإنّه تعالى هو الْعالم بكلّ شيْءٍ،الْقادر على كلّ شيْءٍ،الْعادل في كلّ شيْءٍ.[٣٨٣]

وفي الظلال:

لقد جاء كل دين من عند اللّه ليكون منهج حياة.منهج حياة واقعية.جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية،وتنظيمها،وتوجيهها،وصيانتها.و لم يجئ دين من عند اللّه ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب.فهذه وتلك - على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري - لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ويؤاخذ الناس على مخالفتها،ويؤخذون بالعقوبات.

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر،كما يملك السلطان على الحركة والسلوك.ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا،كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة.

فأما حين تتوزع السلطة،وتتعدد مصادر التلقي..حين تكون السلطة للّه في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع..وحين تكون السلطة للّه في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا..

حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين،وبين اتجاهين مختلفين،وبين منهجين مختلفين..وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى:«لوْ كان فيهما آلهةٌ إلّا اللّه لفسدتا»..«ولو اتّبع الْحقّ أهْواءهمْ لفسدت السّماوات والْأرْض ومنْ فيهنّ»..«ثمّ جعلْناك على شريعةٍ من الْأمْر فاتّبعْها ولا تتّبعْ أهْواء الّذين لا يعْلمون»..

من أجل هذا جاء كل دين من عند اللّه ليكون منهج حياة.وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى،أو لأمة من الأمم،أو للبشرية كافة في جميع أجيالها،فقد جاء ومعه شريعة معينة

---
[٣٨٣] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١١٧) وما بعدها باختصار

لحكم واقع الحياة،إلى جانب العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة،إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب باللّه..وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين اللّه.حيثما جاء دين من عند اللّه.لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين اللّه هو منهج الحياة [٣٨٤]

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى،التي ربما جاءت لقرية من القرى،أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل،في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة..وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى..اليهودية،والنصرانية،والإسلام..

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددها في هذه الفقرة:«إِنّا أَنْزَلْنا التَّوْراة فيها هدىً ونورٌ»:

فالتوراة – كما أنزلها اللّه – كتاب اللّه الذي جاء لهداية بني إسرائيل،وإنارة طريقهم إلى اللّه.وطريقهم في الحياة..وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد.وتحمل شعائر تعبدية شتى.وتحمل كذلك شريعة:«يَحْكم بها النّبيّون الّذين أَسْلموا،للّذين هادوا،والرّبّانيّون والْأَحْبار،بما اسْتحْفظوا منْ كتاب اللّه وكانوا عليْه شهداء».

أنزل اللّه التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب.ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج اللّه،وتحفظ هذه الحياة في اطار هذا المنهج.ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم للّه فليس لهم في أنفسهم شيء إنما هي كلها للّه وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية – وهذا هو الإسلام في معناه الأصيل – يحكمون بها للذين هادوا – فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصفتهم هذه – كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار وهم قضاتهم وعلماؤهم.وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة

[٣٨٤] – يراجع بتوسع كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة» وكتاب «المستقبل لهذا الدين» وكتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

على كتاب اللّه،وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء،فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم،بصـــياغة حياهم الخاصة وفق توجيهاته،كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم.

وقبل أن ينتهي السياق من الحديث عن التوراة،يلتفت إلى الجماعة المســـلمة،ليوجهها في شأن الحكم بكتاب اللّه عامة،وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات النـــاس وعنـــادهم وحرهم وكفاحهم،وواجب كل من استحفظ على كتاب اللّه في مثل هذا الموقف،وجزاء نكوله أو مخالفته:«فلا تخْشوا النّاس واخْشوْن ولا تشْتروا بآياتي ثمناً قليلًا.ومنْ لمْ يحْكـــمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون»..

ولقد علم اللّه – سبحانه – أن الحكم بما أنزل اللّه ستواجهه – في كل زمان وفي كل أمة – معارضة من بعض الناس ولن تتقبلـــه نفـــوس هـــذا الـــبعض بالرضـــى والقبـــول والاستسلام..ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث.ذلك أنـــه سيترع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه ويرد الألوهية للّه خالصة،حين يترع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن بـــه اللّـــه..وســـتواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت.ذلك أن شريعة اللّه العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة..وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال.ذلك أن دين اللّه سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبـــة عليها..وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك ممن لا يرضون أن يســـود الخير والعدل والصلاح في الأرض.

علم اللّه – سبحانه – أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة وأن يصمدوا لها،وأن يحتملـــوا تكاليفها في النفس والمال..فهو يناديهم:«فلا تخْشوا النّاس واخْشوْن»..

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة اللّه.سواء من الناس أولئك الطغاة الـــذين يأبون الاستسلام لشريعة اللّه،ويرفضون الإقرار – من ثم – بتفرد اللّـــه – ســـبحانه – بالألوهية.أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة اللّه بينهم وبين الاستغلال وقد مـــردوا عليه.أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكـــام شـــريعة اللّـــه

وتشغب عليها..لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة اللّه في الحياة.فاللّه – وحده – هو الذي يستحق أن يخشوه.والخشية لا تكون إلا للّه..

كذلك علم اللّه – سبحانه – أن بعض المستحفظين على كتاب اللّه المستشهدين قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا وهم يجدون أصحاب السلطان،وأصحاب المال،وأصحاب الشهوات،لا يريدون حكم اللّه فيملقون شهوات هؤلاء جميعا،طمعا في عرض الحياة الدنيا – كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل وكما كان ذلك واقعا في علماء بني إسرائيل.

فناداهم اللّه:«ولا تشْتروا بآياتي ثمناً قليلًا»..

وذلك لقاء السكوت،أو لقاء التحريف،أو لقاء الفتاوى المدخولة! وكل ثمن هو في حقيقته قليل.ولو كان ملك الحياة الدنيا..فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة يباع بها الدين،وتشترى بها جهنم عن يقين؟! إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن وليس أبشع من تفريط المستحفظ وليس أخس من تدليس المستشهد.

والذين يحملون عنوان:«رجال الدين» يخونون ويفرطون ويدلسون،فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل اللّه،ويحرفون الكلم عن مواضعه،لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب اللّه..

«ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون»..بهذا الحسم الصارم الجازم.وبهذا التعميم الذي تحمله «من» الشرطية وجملة الجواب.بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان،وينطلق حكما عاما،على كل من لم يحكم بما أنزل اللّه،في أي جيل،ومن أي قبيل..

والعلة هي التي أسلفنا..هي أن الذي لا يحكم بما أنزل اللّه،إنما يرفض ألوهية اللّه.فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية.ومن يحكم بغير ما أنزل

اللّه،يرفض ألوهية اللّه وخصائصها في جانب،ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر..وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟

وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان،والعمل – وهو أقوى تعبيرا من الكلام – ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟! إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل،لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة.

والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه..وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم اللّه عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد.

وبعد بيان هذا الأصل القاعدي في دين اللّه كله،يعود السياق،لعرض نماذج من شريعة التوراة التي أنزلها اللّه ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا – بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء:«وكتبْنا عليْهمْ فيها:أنّ النّفْس بالنّفْس،والْعيْن بالْعيْن،والْأنْف بالْأنْف،والْأذن بالْأذن،والسّنّ بالسّنّ،والْجروح قصاصٌ»..

وقد استبقيت هذه الأحكام التي نزلت بها التوراة في شريعة الإسلام،وأصبحت جزءا من شريعة المسلمين،التي جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان.وإن كانت لا تطبق إلا في دار الإسلام،لاعتبارات عملية بحتة حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام.وحيثما كان ذلك في استطاعتها فهي مكلفة تنفيذها وتطبيقها،بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة،للأزمان كافة،كما أرادها اللّه.

ثم يمضي السياق في بيان اطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة:«وقفّيْنا على آثارهمْ بعيسى ابْن مرْيم،مصدّقاً لما بيْن يديْه من التّوْراة.وآتيْناه الْإنْجيل فيه هدىً ونورٌ،ومصدّقاً لما بيْن يديْه من التّوْراة،وهدىً وموْعظةً للْمتّقين.ولْيحْكمْ أهْل الْإنْجيل بما أنْزل اللّه فيه،ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْفاسقون»..

فقد آتى اللّه عيسى بن مريم الإنجيل،ليكون منهج حياة،وشريعة حكم..ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعا إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة.وقد جاء مصدقا لما بين يديه

من التوراة،فاعتمد شريعتها – فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة..وجعل اللّه فيه هـــدى ونورا،وهدى وموعظة..ولكن لمن؟..«للمتقين».

فالمتقون هم الذين يجدون في كتب اللّه الهدى والنور والموعظة،هم الذين تتفتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهـــدى والنور..أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة،فلا تبلغ إليها الموعظة ولا تجد في الكلمـــات معانيها ولا تجد في التوجيهات روحها ولا تجد في العقيدة مذاقها ولا تنتفع مـــن هـــذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب..إن النور موجود،ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة،وإن الهدى موجود،ولكن لا تدركـــه إلا الـــروح المستشـــرفة،وإن الموعظة موجودة،ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي.وقد جعل اللّه في الإنجيـــل هـــدى ونورا وموعظة للمتقين،وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل..

أي إنه خاص بهم،فليس رسالة عامة للبشر – شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول،قبل هذا الدين الأخير – ولكن ما طابق من شريعته – التي هي شريعة التوراة – حكم القرآن فهو من شريعة القرآن.كما مر بنا في شريعة القصاص.

وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصدقها الإنجيـــل من شريعة التوراة:

«ولْيحْكمْ أهْل الْإنْجيل بما أنْزل اللّه فيه».

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل اللّه دون سواه.وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شـــيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل – قبل الإسلام – وما أنزل إليهم من ربهم – بعد الإسلام – فكله شريعة واحدة،هم ملزمون بها،وشريعة اللّه الأخيرة هي الشريعة المعتمدة:«ومـــنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْفاسقون»..

والنص هنا كذلك على عمومه وإطلاقه..وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلـــم من قبل.وليست تعني قوما جددا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى.إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها،لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل اللّه من أي جيل،ومن أي قبيل.

الكفر برفض ألوهية اللّه ممثلا هذا في رفض شريعته.والظلم بحمل الناس على غير شـــريعة اللّه وإشاعة الفساد في حياهم.والفسق بالخروج عن منهج اللّه واتباع غير طريقه..فهـــي صفات يتضمنها الفعل الأول،وتنطبق جميعها على الفاعل.ويبوء بها جميعا دون تفريق.

وأخيرا يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة وإلى الشريعة الأخيرة..إنها الرسالة التي جـــاءت تعرض «الإسلام» في صورته النهائية الأخيرة ليكون دين البشرية كلها ولتكون شـــريعته هي شريعة الناس جميعا ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجـــع النـــهائي ولتقيم منهج اللّه لحياة البشرية حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها وتستمد منها تصورها الاعتقادي،ونظامهـــا الاجتمـــاعي،وآداب ســـلوكها الفـــردي والجماعي..

وقد جاءت كذلك ليحكم بها،لا لتعرف وتدرس،وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر! وقد جاءت لتتبع بكل دقة،ولا يترك شيء منها ويستبدل به حكم آخر في صغيرة مـــن شئون الحياة أو كبيرة..فإما هذا وإما فهي الجاهلية والهوى.ولا يشفع في هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل في الدين.فلو شاء اللّه لجعل الناس أمة واحدة.إنما يريد اللّه أن تحكم شريعته،ثم يكون من أمر الناس ما يكون:« وأنْزلْنا إليْـــك الْكتـــاب بالْحقّ،مصدّقاً لما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمناً عليْه،فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه،ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ.لكلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً.ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً.ولكنْ ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ،فاسْتبقوا الْخيْرات.إلى اللّه مرْجعكمْ جميعاً،فينبّئكمْ بما كنْتمْ فيه تخْتلفون.وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه،ولا تتّبعْ أهْواءهمْ.واحْذرْهمْ أنْ يفْتنـــوك عنْ بعْض ما أنْزل اللّه إليْك.فإنْ تولّوْا فاعْلمْ أنّما يريد اللّه أنْ يصيبهمْ ببعْض ذنوبهمْ،وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون.أفحكْم الْجاهليّة يبْغون؟ ومنْ أحْسن من اللّه حكْمـــاً لقـــوْمٍ يوقنون..»

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير،وهذا الحسم في التقرير،وهذا الاحتياط البالغ لكل ما قد يهجس في الخاطر من مبررات لترك شيء - ولو قليل - من هذه الشريعة في بعض الملابسات والظروف

يقف الإنسان أمام هذا كله،فيعجب كيف ساغ لمسلم - يدعي الإسـلام - أن يتـرك شريعة اللّه كلها،بدعوى الملابسات والظروف! وكيف ساغ له أن يظل يدعي الإسـلام بعد هذا الترك الكلي لشريعة اللّه! وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم «مسـلمين»؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم،وهم يخلعون شريعة اللّه كلها ويرفضون الإقرار لـه بالألوهية،في صورة رفضهم الإقرار بشريعته،وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابسات والظروف،وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الملابسات والظروف! «وأَنْزلْنا إلَيْك الْكتاب بالْحقّ»..

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية،وهي الجهة التي تملك حق تتريل الشرائع،وفرض القوانين..

ويتمثل الحق في محتوياته،وفي كل ما يعرض له من شئون العقيدة والشريعة،وفي كل مـا يقصه من خبر،وما يحمله من توجيه:«مصدّقاً لما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمناً عليْه»..

فهو الصورة الأخيرة لدين اللّه،وهو المرجع الأخير في هذا الشأن،والمرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس،ونظام حياتهم،بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل.

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه.سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية،أو في الشريعة الـتي جـاء هـذا الكتاب بصورتها الأخيرة.أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسـهم،فالمرجع الـذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب،ولا قيمة لآراء الرجـال مـا لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير.

وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة:«فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْـزل اللّـه،ولا تتّبـعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ»..

والأمر موجه ابتداء إلى رسول اللّه – ﷺ- فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين.ولكنه ليس خاصا بهذا السبب،بل هو عام..وإلى آخر الزمان..طالما أنه ليس هناك رسول جديد،ولا رسالة جديدة،لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير! لقد كمل هذا الدين،وتمت به نعمة اللّه على المسلمين.ورضيه اللّه لهم منهج حياة للناس أجمعين.و لم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله،ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر،ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى.وقد علم اللّه حين رضيه للناس،أنه يسع الناس جميعا.وعلم اللّه حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا.وأنه يسع حياة الناس جميعا،إلى يوم الدين.وأي تعديل في هذا المنهج – ودعك من العدول عنه – هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة.يخرج صاحبه من هذا الدين.ولو قال باللسان ألف مرة:إنه من المسلمين! وقد علم اللّه أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل اللّه واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين..وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل اللّه كله بلا عدول عن شيء فيه،في بعض الملابسات والظروف.فحذر اللّه نبيه – ﷺ- في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين،ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل اللّه إليه..

وأولى هذه الهواجس:الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة،والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد.ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة،والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة،أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول اللّه – ﷺ- أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم.وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض..ولكن الأمر – كما هو ظاهر – أعم من حالة بعينها وعرض بعينه.فهو أمر يعرض في مناسبات شتى،ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين..وقد شاء اللّه – سبحانه – أن يحسم في هذا الأمر،وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف،وتأليفا للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء.

فقال لنبيه:إن اللّه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهاجا وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة،وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا.وأن كلا منهم يسلك طريقه ثم يرجعون كلهم إلى اللّه،فينبئهم بالحقيقة،ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق..وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج..فهم لا يتجمعون:«لكلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً.ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً.ولكنْ ليبْلوكمْ في ما آتاكمْ.فاسْتبقوا الْخيْرات.إلى اللّه مرْجعكمْ جميعاً.فينبّئكمْ بما كنْتمْ فيه تخْتلفون».

بذلك أغلق اللّه – سبحانه – مداخل الشيطان كلها وبخاصة ما يبدو منها خيرا وتأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف بالتساهل في شيء من شريعة اللّه في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف!

إن شريعة اللّه أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر اللّه ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد،ولكل منهم مشرب،ولكل منهم منهج،ولكل منهم طريق.ولحكمة من حكم اللّه خلقوا هكذا مختلفين.

وقد عرض اللّه عليهم الهدى وتركهم يستبقون.وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه،وهم إليه راجعون وإنها لتعلة باطلة إذن،ومحاولة فاشلة،أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة اللّه،أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها.فالعدول أو التعديل في شريعة اللّه لا يعني شيئا إلا الفساد في الأرض،وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم،وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر،وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض،واتخاذ بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه..وهو شر عظيم وفساد عظيم..لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون لأنها غير ما قدره اللّه في طبيعة البشر ولأنها مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشارع،والاتجاهات والمشارب..وهو خالق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير.وإليه المرجع والمصير..

إن محاولة التساهل في شيء من شريعة اللّه،لمثل هذا الغرض،تبدو – في ظل هذا النص الصادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية – محاولة سخيفة لا مبرر لها من الواقع ولا سند لها من إرادة اللّه ولا قبول لها في حس المسلم،الذي لا يحاول إلا تحقيق مشيئة اللّه.فكيف وبعض من يسمون أنفسهم «مسلمين» يقولون:إنه لا يجوز تطبيق الشريعة حتى لا نخسر «السائحين»؟!!!

أي واللّه هكذا يقولون! ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة،ويزيدها وضوحا.فالنص الأول:«فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ عمّا جاءك من الْحقّ»..قد يعني النهي عن ترك شريعة اللّه كلها إلى أهوائهم! فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل اللّه إليه:«وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه،ولا تتّبعْ أهْواءهمْ،واحْذرْهمْ أنْ يفْتنوك عنْ بعْض ما أنْزل اللّه إليْك»..

فالتحذير هنا أشد وأدق وهو تصوير للأمر على حقيقته..فهي فتنة يجب أن تحذر..والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكما بما أنزل اللّه كاملا أو أن يكون اتباعا للهوى وفتنة يحذر اللّه منها.

ثم يستمر السياق في تتبع الهواجس والخواطر فيهون على رسول اللّه – ﷺ– أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة،وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة اللّه (في ذلك الأوان حيث كان هناك تخيير قبل أن يصبح هذا حتما في دار الإسلام):«فإنْ تولّوْا فاعْلمْ أنّما يريد اللّه أنْ يصيبهمْ ببعْض ذنوبهمْ.وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون».فإن تولوا فلا عليك منهم ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم اللّه وشريعته.ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك..فإنهم إنما يتولون ويعرضون لأن اللّه يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم.فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض:لا أنت ولا شريعة اللّه ودينه ولا الصف المسلم المستمسك بدينه..ثم إنها طبيعة البشر:«وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون» فهم يخرجون وينحرفون.لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمر،ولا ذنب للشريعة! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق! وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس

المؤمنة ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشـــريعة لغرض من الأغراض في ظرف من الظروف..

ثم يقفهم على مفرق الطريق..فإنه إما حكم اللّه،وإما حكم الجاهلية.ولا وســـط بـــين الطرفين ولا بديل

حكم اللّه يقوم في الأرض،وشريعة اللّه تنفذ في حياة الناس،ومنهج اللّـــه يقـــود حيـــاة البشر..أو أنه حكم الجاهلية،وشريعة الهوى،ومنهج العبودية..فأيهما يريدون؟

« أفحكْم الْجاهليّة يبْغون؟ ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون؟»..إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص.فالجاهلية – كما يصفها اللّه ويحددها قرآنه – هـــي حكـــم البشـــر للبشر،لأنها هي عبودية البشر للبشـــر،والخروج مـــن عبوديـــة اللّـــه،ورفض ألوهيـــة اللّه،والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون اللّه..

إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة مـــن الزمـــان ولكنـــها وضـــع مـــن الأوضاع.هذا الوضـــع يوجـــد بالأمس،ويوجـــد اليوم،ويوجـــد غدا،فيأخـــذ صـــفة الجاهلية،المقابلة للإسلام،والمناقضة للإسلام.

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة اللّه – دون فتنة عـــن بعض منها – ويقبلونها ويسلمون بها تسليما،فهم إذن في دين اللّه.وإما أنهـــم يحكمـــون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – ويقبلونها فهم إذن في جاهلية وهم في دين من يحكمون بشريعته،وليسوا بحال في دين اللّه.

والذي لا يبتغي حكم اللّه يبتغي حكم الجاهلية والذي يرفض شريعة اللّه يقبل شـــريعة الجاهلية،ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق،يقف اللّه الناس عليه.وهم بعد ذلك بالخيـــار! ثم يســـألهم ســـؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم اللّه.«ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً لقوْمٍ يوقنون؟»..

وأجل! فمن أحسن من اللّه حكما؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس،ويحكم فيهم،خيرا مما يشرع اللّه لهم ويحكم فيهم؟

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول:إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول:إن اللّه – سبحانه – وهو يشرع شريعته الأخيرة،ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين،ويجعل رسالته خاتمة الرسالات،ويجعل شريعته شريعة الأبد..كان – سبحانه – يجهل أن أحوالا ستطرا،وأن حاجات ستستجد،وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه،حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة اللّه عن حكم الحياة،ويستبدل بها شريعة الجاهلية،وحكم الجاهلية ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب،أو هوى جيل من أجيال البشر،فوق حكم اللّه،وفوق شريعة اللّه؟

ما الذي يستطيع أن يقوله..وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟..ألم يكن هذا كله في علم اللّه وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته،وأن يسيروا على منهجه،وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة اللّه عن استيعاب الحاجات الطارئة،والأوضاع المتجددة،والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم اللّه وهو يشدد هذا التشديد،ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء..ولكن المسلم..أو من يدعون الإسلام..ما الذي يقولونه من هذا كله،ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق،الذي لا معدى عنده من الاختيار ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال..

إما إسلام وإما جاهلية.إما إيمان وإما كفر.إما حكم اللّه وإما حكم الجاهلية..

والذين لا يحكمون بما أنزل اللّه هم الكافرون الظالمون الفاسقون.والذين لا يقبلون حكم اللّه من المحكومين ما هم بمؤمنين..

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم وألا يتردد في تطبيقهـا على واقع الناس في زمانه والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء! وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية،فلن يستقيم له ميزان ولن يتضـح له منهج،ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل ولن يخطو خطوة واحـدة في الطريـق الصحيح..وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من النـاس فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا «المسـلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم.. [٣٨٥]

وفي مشكل الآثار:

باب بيان مشْكل ما روي عنْه عليْه السّلام منْ قوْله:" سباب الْمسْلم فسوقٌ وقتاله كفْرٌ "

عنْ محمّد بْن سعْدٍ،عنْ أبيه قال:قال رسول الله ﷺ:" سباب الْمسْلم فسوقٌ،وقتاله كفْرٌ " وعنْ عمر بْن سعْدٍ قال:حدّثنا سعْد بْن أبي وقّاصٍ قال:قـال رسـول الله ﷺ،ثمّ ذكـر مثْله.فاخْتلف زكريّا بْن أبي زائدة ومعْمر بْن راشدٍ على أبي إسْحاق في ابْن سعْد الّـذي بيْنه وبيْن سعْدٍ منْ هذا الْحديث،فذكر زكريّا أنّه محمّدٌ،وذكر معْمرٌ أنّه عمر والله أعْلـم بحقيقة ذلك منْهما منْ هو

وعنْ عبْد الله قال:قال رسول الله عليْه السّلام:" سباب الْمسْلم فسوقٌ وقتاله كفْرٌ "

وعنْ عبْد الرّحْمن بْن عبْد الله بْن مسْعودٍ،عنْ أبيه قال:قال رسول الله ﷺ،ثمّ ذكر مثْلـه فتأمّلْنا هذا الْحديث فوجدْنا قوْله:" سباب الْمسْلم فسوقٌ " مكْشوف الْمعْنى،والْفسوق الْمراد فيه هو الْخروج عن الْأمْر الْمحْمود إلى الْأمْر الْمذْموم،ومثْلـه قوْلـه تعـالى في إبْليس:{ففسق عنْ أمْر ربّه} [الكهف:٥٠] أيْ فخرج عنْ أمْر ربّه،ومنْه قوْل رسـول الله ﷺ في الْفأْرة،وفيما ذكره معها ممّا أباح قتْله في الْحرم والْإحْرام:" خمْسٌ فواسق يقْتلْن

[٣٨٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٨٥)

في الْحرم والْإحْرام " فكان ذلك الْفسوق الّذي كان منْهنّ هو خروجهنّ إلى الْأذى الّذي يؤْذين به النّاس،وكان قوْله " وقتاله كفْرٌ " ليْس على الْكفْر بالله عزّ وجلّ حتّى يكون به مرْتدًّا،ولكنّه على تغْطيته به إيّاه واسْتهْلاك به إيّاه؛لأنّ الْكفْر هو [ص:٣١٥] التّغْطية للشّيْء،التّغْطية الّتي تسْتهْلكه ومنْه قوْله تعالى:{كمثل غيْث أعْجب الْكفّار نباته} [الحديد:٢٠] ولا اخْتلاف بيْن أهْل الْعلْم بالتّأْويل أنّ الْكفّار الّذين أريدوا هاهنا هم الزّرّاع؛لأنّهمْ يغطّون ما يزْرعون في الْأرْض التّغْطية الّتي يسْتهْلكونه به،وممّا يدلّ على أنّ ذلك الْكفْر الْمذْكور في هذا الْحديث لمْ يردْ به الْكفْر بالله تعالى،بلْ قدْ وجدْناه يقْتل أخاه فلا يكون بقتْله إيّاه كافرًا بالله تعالى،وإذا لمْ يكنْ بقتْله إيّاه كافرًا بالله تعالى كان بقتاله إيّاه أحْرى أنْ لا يكون به كافرًا،ومثْل ذلك ما روي عنْ رسول الله ﷺ في حديث الْكسوف

وعن ابْن عبّاسٍ في حديثه منْ كسوف الشّمْس عن النّبيّ عليْه السّلام قال:" ورأيْت النّار،فرأيْت أكْثر أهْلها النّساء " قيل: لم يا رسول الله؟ قال:" بكفْرهنّ " قيل:يكْفرْن بالله تعالى؟ قال:" يكْفرْن الْعشير،ويكْفرْن الْإحْسان،لوْ أحْسنْت إلى إحْداهنّ الدّهْر،ثمّ رأتْ منْك شيْئًا قالتْ:ما رأيْت منْك خيْرًا قطّ " فجعل رسول الله ﷺ فعْلهنّ هذا كفْرًا؛لتغْطيتهنّ به الْإحْسان الّذي قدْ تقدّم إليْهنّ،ومثْله أيْضًا ما روي عن ابْن عبّاسٍ،عنْ رسول الله ﷺ منْ غيْر هذا الْحديث

وعن ابْن عبّاسٍ قال:" كان بيْن الْأوْس والْخزْرج شيْءٌ في الْجاهليّة فتذاكروا ما كان بيْنهمْ،فثار بعْضهمْ إلى بعْضٍ بالسّيوف،فأتي رسول الله عليْه السّلام فذكر ذلك له فذهب إليْهمْ فنزلتْ هذه الْآية:{وكيْف تكْفرون وأنْتمْ تتْلى عليْكمْ آيات الله وفيكمْ رسوله} [آل عمران:١٠١]،{واعْتصموا بحبْل الله جميعًا ولا تفرّقوا} [آل عمران:١٠٣] " [ص:٣١٧] فلمْ يكنْ بما كان منْهمْ من الْقتال ممّا أنْزل الله تعالى عنْده هذه الْآية الّتي ذكر فيها ما كان منْهمْ بالْكفْر على الْكفْر بالله تعالى،ولكنْ كان على تغْطيتهمْ ما كانوا عليْه قبْل ذلك من الْألْفة والْأخوّة،حتّى إذا كان منْهمْ ما كان منْهمْ منْ ذلك فسمّي كفْرًا لا يراد به الْكفْر بالله عزّ وجلّ،ولكنّ الْكفْر الّذي ذكرْناه سواه.ومثْل ذلك ما قدْ روي عن

ابْن عبّاسٍ في تأْويله قوْل الله تعالى:{ومنْ لمْ يحْكمْ [ص:٣١٨] بما أنْزل الله فأولئك هـــم الْكافرون} [المائدة:٤٤] على ما تأوّله عليْه

وعن ابْن طاوسٍ،عنْ أبيه قال:قيل لابْن عبّاسٍ:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل الله،فأولئك هـــم الْكافرون} [المائدة:٤٤] قال:" هي كفْره،وليْس كمنْ كفر بالله والْيوْم الْآخر "

وعنْ طاوسٍ قال:قلْت لابْن عبّاسٍ:منْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل الله فهو كافرٌ؟ قال:" هـــو بـــه كفْره وليْس كمنْ كفر بالله والْيوْم الْآخر وكتبه ورسله " ومثْل ذلك أيْضًا ما قـــدْ رواه أبو هريْرة عنْ رسول الله ﷺ

وعن جعْفر بْن ربيعة الْقرشيّ،أنّ عراك بْن مالكٍ أخْبره أنّه سمع أبا هريْرة يقول:سمعْـــت رسول الله ﷺ يقول:" لا ترْغبوا عنْ آبائكمْ،فمنْ رغب عنْ أبيه فهـــو كفْـــرٌ " فـــذلك عنْدنا،والله أعْلم على مثْل ما ذكرْناه منْ مثْله منْ هذا الْباب.

وعن ابْن جابرٍ،حدّثني أبو سلامٍ،حدّثني خالد بْن زيْد قال:قال لي عقْبة:قال لي رسول الله ﷺ:" منْ ترك الرّمْي بعْدما علمه رغْبةً عنْه،فإنّها نعْمةٌ كفرها " فمثْل ذلك الْكفْر الّـــذي ذكر به الْمسْلم منْ قتاله هو هذا الْكفْر لا الْكفْر بالله عزّ وجلّ،والله نسْأله التّوْفيق[٣٨٦]

وقال الجصاص:

"قال اللّه تعالى:{سمّاعون للْكـــذب أكّـــالون للسّـــحْت} قيـــل إنّ أصْـــل السّـــحْت الاسْتئْصال،يقال:أسْحته إسْحاتًا:إذا اسْتأْصله وأذْهبه،قال اللّه عزّ وجل:{فيسْـــحتكمْ} [طه:٦١] أيْ يسْتأْصلكمْ به.ويقال:أسْحت ماله،إذا أفْسده وأذْهبه.فسمّي الْحرام سحْتًا لأنّه لا بركة فيه لأهْله ويهْلك به صاحبه هلاك الاسْتئْصال.وروى ابْن عييْنة عنْ عمّـــارٍ الدّهْنيّ عنْ سالم بْن أبي الْجعْد عنْ مسْروقٍ قال:سألْت عبْد اللّه بْن مسْعودٍ عنْ السّحْت أهو الرّشْوة في الْحكْم؟ فقال:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} ولكنّ السّحْت أنْ يسْتشْفع بك على إمامٍ فتكلّمه فيهْدي لك هديّةً فتقْبلها.وروى شعْبة عـــنْ منْصورٍ عنْ سالم بْن أبي الْجعْد عنْ مسْروقٍ قال:سألْت عبْـــد اللّـــه عـــنْ الْجـــوْر في الْحكْم،فقال:"ذلك كفْرٌ "؛ وسألْته عنْ السّحْت،فقال:"الرّشا".وروى عبْد الْأعْلى بْـــن

---

[٣٨٦] - شرح مشكل الآثار (٢/ ٣١١)(٨٤٤- ٨٥٤)

حمّاد:حدّثنا حمّادٌ عنْ أبان عنْ ابْن أبي عيّاشٍ عنْ مسْلمٍ،أنّ مسْروقًا قال:قلْت لعمر:يا أمير الْمؤْمنين أرأيْت الرّشْوة في الْحكْم منْ السّحْت؟ قال:"لا،ولكنْ كفْرٌ،إنّما السّـــحْت أنْ يكون لرجلٍ عنْد سلْطانٍ جاهٌ ومنْزلةٌ ويكون للْآخر إلى السّـــلْطان حاجـــةٌ،فلا يقْضـــي حاجته حتّى يهْدي إليْه".وروي عنْ عليّ بْن أبي طالبٍ قال:"السّحْت الرّشْوة في الْحكْم ومهْر الْبغيّ وعسْب الْفحْل وكسْب الْحجّام وثمن الْكلْب وثمن الْخمْـــر وثمـــن الْميْتـــة وحلْوان الْكاهن والاسْتجْعال في الْقضيّة".فكأنّه جعل السّحْت اسْمًا لأخْذ ما لا يطيـــب أخْذه.وقال إبْراهيم والْحسن ومجاهدٌ وقتادة والضّحّاك:"السّحْت الرّشا".وروى منْصـــورٌ عنْ الْحكم عنْ أبي وائلٍ عنْ مسْروقٍ قال:"إنّ الْقاضي إذا أخـــذ الْهديّـــة فقـــدْ أكـــل السّحْت،وإذا أكل الرّشْوة بلغتْ به الْكفْر".وقال الْأعْمش عـــنْ خيْثمـــة عـــنْ عمـــر قال:"بابان منْ السّحْت يأْكلهما النّاس:الرّشا ومهْر الزّانية".وروى إسْماعيل بْن زكريّـــا عنْ إسْماعيل بْن مسْلمٍ عنْ جابرٍ قال:قال رســـول اللّـــه ﷺ:"هـــدايا الْـــأمراء مـــنْ السّحْت".وروى أبو إدْريس الْخوْلانيّ عنْ ثوْبان قال:"لعن رســـول اللّـــه ﷺ الرّاشـــي والْمرْتشي والرّائش الّذي يمْشي بيْنهما".وروى أبو سلمة بْن عبْد الرّحْمن عنْ عبْد اللّـــه بْن عمر قال:"لعن رسول اللّه ﷺ الرّاشي والْمرْتشي".وروى أبو عوانة عنْ عمر بْـــن أبي سلمة عنْ أبي هريْرة قال:قال رسول اللّه ﷺ:"لعن اللّه الرّاشي والْمرْتشي في الْحكْم".
قال أبو بكْرٍ:اتّفق جميع الْمتأوّلين لهذه الْآية على أنّ قبول الرّشا محرّمٌ،واتّفقوا على أنّه منْ السّحْت الّذي حرّمه الله تعالى."[387]

قال اللّه تعالى:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عـــنْهمْ} ظـــاهر ذلـــك يقْتضـــي معْنييْن:أحدهما:تخْليتهمْ وأحْكامهمْ منْ غيْر اعْتراضٍ عليْهمْ،والثّاني:التّخْيير بيْن الْحكْـــم والْإعْراض إذا ارْتفعوا إليْنا.وقدْ اخْتلف السّلف في بقـــاء هـــذا الْحكْم،فقـــال قـــائلون منْهمْ:"إذا ارْتفعوا إليْنا فإنْ شاء الْحاكم حكم بيْنهمْ وإنْ شاء أعْرض عنْهمْ وردّهـــمْ إلى دينهمْ".وقال آخرون:"التّخْيير منْسوخٌ،فمتى ارْتفعوا إليْنا حكمْنا بيْنهمْ منْ غيْر تخْييرٍ".

---

[387] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٤٠)

فممّنْ أخذ بالتّخْيير عنْد مجيئهمْ إليْنا الْحسن والشّعْبيّ وإبْــراهيم روايــةً؛ وروي عــنْ الْحسن:"خلّوا بيْن أهْل الْكتاب وبيْن حاكمهمْ،وإذا ارْتفعوا إليْكمْ فأقيموا عليْهمْ مــا في كتابكمْ".وروى سفْيان بْن حسيْنٍ عنْ الْحكم عنْ مجاهدٍ عنْ ابْن عبّاسٍ قــال:"آيتــان نسختا منْ سورة الْمائدة:آية الْقلائد،وقوْله تعالى:{فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} فكان رسول اللّه ﷺ مخيّرًا إنْ شاء حكم بيْنهمْ أوْ أعْرض عنْهمْ فــردّهمْ إلى أحْكــامهمْ،حتّى نزلتْ:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ} فأمر رسول اللّه ﷺ أنْ يحْكــم بيْنهمْ بما أنْزل اللّه في كتابه".وروى عثْمان بْن عطاءٍ الْخراسانيّ عــنْ ابْــن عبّــاسٍ في قوْله:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} قال:نسخها قوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} وروى سعيد بْن جبيْرٍ عنْ الْحكم عنْ مجاهدٍ:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنــهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} قال:نسختْها:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} وروى ســفْيان عــنْ السّدّيّ عنْ عكْرمة مثْله.

قال أبو بكْرٍ:فذكر هؤلاء أنّ قوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّــه} ناســخٌ للتّخْــيير الْمذْكور في قوْله:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} ومعْلومٌ أنّ ذلك لا يقال منْ طريق الرّأْي لأنّ الْعلْم بتواريخ نزول الْآي لا يدْرك منْ طريق الرّأْي والاجْتهاد،وإنّما طريقه التّوْقيف و لمْ يقلْ منْ أثْبت التّخْيير إنّ آية التّخْيير نزلتْ بعْد قوْلــه:{وأن احْكــمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} وإنّ التّخْيير نسخه.وإنّما حكي عنْهمْ مذاهبهمْ في التّخْيير منْ غيْــر ذكْر النّسْخ،فثبت نسْخ التّخْيير بقوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} كرواية منْ ذكر نسْخ التّخْيير.ويدلّ على نسْخ التّخْيير قوْله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئــك هــم الْكافرون} [المائدة:٤٤] الْآيات،ومنْ أعْرض عنْهمْ فلمْ يحْكمْ في تلْــك الْحادثــة الّــتي اخْتصموا فيها بما أنْزل اللّه.ولا نعْلم أحدًا قال إنّ في هذه الْآيات:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه} [المائدة:٤٤] منْسوخًا إلّا ما يرْوى عنْ مجاهدٍ رواه منْصورٌ عنْ الْحكم عنْ مجاهــدٍ أنّ قوله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه} [المائدة:٤٤] نسخها ما قبلها:{فــإنْ جــاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} وقدْ روى سفْيان بْن حسيْنٍ عنْ الْحكم عنْ مجاهــدٍ أنّ قوْله:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} منْسوخٌ بقوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما

أنْزل اللّه} ويحْتمل أنْ يكون قوْله تعالى: {فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عــنْهمْ} قبْل أنْ تعْقد لهمْ الذّمّة يدْخلوا تحْت أحْكام الْإسْلام بالْجزْية فلمّا أمر اللّه بأخْذ الْجزْيــة منْهمْ وجرتْ عليْهمْ أحْكام الْإسْلام أمر بالْحكْم بيْنهمْ بما أنْزل اللّه فيكون حكْم الْآيتيْن جميعًا ثابتًا: التّخْيير في أهْل الْعهْد الّذين لا ذمّة لهمْ و لمْ يجْر عليْهمْ أحْكام الْمسْلمين كأهْل الْحرْب إذا هادنّاهمْ وإيجاب الْحكْم بما أنْزل اللّه في أهْل الذّمّة الّذين يجْري عليْهمْ أحْكام الْمسْلمين. وقدْ روي عنْ ابْن عبّاسٍ ما يدلّ على ذلك؛ روى محمّد بْن إسْحاق عنْ داود بْن الْحصيْن عنْ عكْرمة عنْ ابْن عبّاسٍ أنّ الْآية الّتي في الْمائدة قوْل اللّه تعالى: {فــاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} إنّما نزلتْ في الدّية بيْن بني قريْظة وبيْن بني النّضير، وذلك أنّ بني النّضير كان لهمْ شرفٌ يدوْن ديةً كاملةً، وأنّ بني قريْظة يودوْن نصْف الدّية؛ فتحاكموا في ذلك إلى رسول اللّه ﷺ فأنْزل اللّه ذلك فيهمْ، فحملهمْ رسول اللّه ﷺ على الْحقّ في ذلك فجعل الدّية سواءً. ومعْلومٌ أنّ بني قريْظة والنّضير لمْ تكنْ لهمْ ذمّةٌ قطّ، وقدْ أجْلى النّبيّ ﷺ بني النّضير وقتل بني قريْظة، ولوْ كان لهمْ ذمّةٌ لما أجْلاهمْ ولا قتلهمْ، وإنّما كان بيْنه وبيْنهمْ عهْدٌ وهدْنةٌ فنقضوها. فأخْبر ابْن عبّاسٍ أنّ آية التّخْيير نزلــتْ فيهمْ، فجــائزٌ أنْ يكــون حكْمها باقيًا في أهْل الْحرْب منْ أهْل الْعهْد، وحكْم الْآية الْأخْرى في وجــوب الْحكْــم بيْنهمْ بما أنْزل اللّه تعالى ثابتًا في أهْل الذّمّة فلا يكون فيها نسْخٌ. وهذا تأْويلٌ سائغٌ لوْلا ما روي عنْ السّلف منْ نسْخ التّخْيير بالْآية الْأخْرى. وروي عنْ ابْن عبّاسٍ روايــةٌ أخْــرى وعنْ الْحسن ومجاهدٍ والزّهْريّ: أنّها نزلتْ في شأْن الرّجْم حين تحاكموا إليْه وهؤلاء أيْضًا لمْ يكونوا أهْل ذمّةٍ، وإنّما تحاكموا إليْه طلبًا للرّخْصة وزوال الرّجْم، فصار الــنّبيّ ﷺ إلى بيْت مدْراسهمْ ووقفهمْ على آية الرّجْم وعلى كذبهمْ وتحْريفهمْ كتاب اللّــه، ثمّ رجــم الْيهوديّيْن وقال: "اللّهمّ إنّي أوّل منْ أحْيا سنّةً أماتوها".

وقال أصْحابنا أهْل الذّمّة محْمولون في الْبيوع والْمواريث وسائر الْعقود علــى أحْكــام الْإسْلام كالْمسْلمين، إلّا في بيْع الْخمْر والْخنْزير، فإنّ ذلك جائزٌ فيما بيْنهمْ لأنّهمْ مقــرّون على أنْ تكون مالًا لهمْ، ولوْ لمْ يجزْ مبايعتهمْ وتصرّفهمْ فيها والانْتفاع بها لخرجتْ منْ أنْ تكون مالًا لهمْ ولما وجب على مسْتهْلكها عليْهمْ ضمانٌ". ولا نعْلم خلافًا بــيْن الْفقهــاء

فيمنْ اسْتهْلك لذمّيٍّ خمْرًا أنّ عليْه قيمتها.وقدْ روي أنّهمْ كانوا يأْخذون الْخمْر منْ أهْل الذّمّة في الْعشور،فكتب إليْهمْ عمر" أنْ ولّوهمْ بيْعها وخذوا الْعشْر منْ أثْمانها" فهــذان مالٌ لهمْ يجوز تصرّفهمْ فيهما،وما عدا ذلك فهو محْمولٌ على أحْكامنا لقوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ} وروي عنْ النّبيّ ﷺ أنّه كتب إلى أهْل نجْران:"إمّــا أنْ تذروا الرّبا وإمّا أنْ تأْذنوا بحرْبٍ منْ اللّه ورسوله" فجعلهمْ النّبيّ ﷺ في حظْــر الرّبــا ومنعهمْ منْه كالْمسْلمين،قال اللّه تعالى:{وأخْذهم الرّبا وقدْ نهوا عنْه وأكْلهمْ أمْوال النّاس بالْباطل} [النساء:١٦١] فأخْبر أنّهمْ منْهيّون عنْ الرّبا وأكْل الْمال بالْباطل،كمــا قــال تعالى:{يا أيّها الّذين آمنوا لا تأْكلوا أمْوالكمْ بيْنكمْ بالْباطل إلّا أنْ تكون تجارةً عنْ تراضٍ منْكمْ} [النساء:٢٩] فسوّى بيْنهمْ وبيْن الْمسْلمين في الْمنْع منْ الرّبا والْعقود الْفاســدة الْمحْظورة،وقال تعالى:{سمّاعون للْكذب أكّالون للسّحْت} فهذا الّذي ذكرْناه مــذْهب أصْحابنا في عقود الْمعاملات والتّجارات والْحدود أهْل الذّمّة والْمسْلمون فيها سواءٌ،إلّا أنّهمْ لا يرْجمون لأنّهمْ غيْر محْصنين.وقال مالكٌ:"الْحاكم مخيّرٌ إذا احْتصموا إليْه بــيْن أنْ يحْكم بيْنهمْ بحكْم الْإسْلام أوْ يعْرض عنْهمْ فلا يحْكم بيْنهمْ" وكذلك قوْلــه في الْعقــود والْمواريث وغيْرها.

واخْتلف أصْحابنا في مناكحتهمْ فيما بيْنهمْ،فقال أبو حنيفة همْ مقرّون على أحْكامهمْ لا يعْترض عليْهمْ فيها إلّا أنْ يرْضوْا بأحْكامنا،فإنْ رضــي بهــا الزّوْجــان حمــلا علــى أحْكامنا،وإنْ أبى أحدهما لمْ يعْترضْ عليْهمْ،فإذا تراضيا جميعًا حملهما على أحْكام الْإسْلام إلّا في النّكاح بغيْر شــهودٍ والنّكــاح في الْعــدّة فإنّــه لا يفــرّق بيْنهمْ،وكــذلك إنْ أسْلموا".وقال محمّدٌ:"إذا رضي أحدهما حملا جميعًا على أحْكامنا وإنْ أبى الْآخر،إلّــا في النّكاح بغيْر شهودٍ خاصّةً".وقال أبو يوسف:"يحْملون على أحْكامنا وإنْ أبــوْا إلّــا في النّكاح بغيْر شهودٍ نجيزه إذا تراضوْا بها".فأمّا أبو حنيفة فإنّه يذْهب في إقْــرارهمْ علــى مناكحاتهمْ،إلى أنّه قدْ ثبت أنّ النّبيّ ﷺ أخذ الْجزْية منْ مجوس هجر مع علْمــه بــأنّهمْ يسْتحلّون نكاح ذوات الْمحْرم ومع علْمه بذلك لمْ يأْمرْ بالتّفْرقة بيْنهما؛ وكذلك الْيهود والنّصارى يسْتحلّون كثيرًا منْ عقود الْمناكحات الْمحرّمة و لمْ يأْمرْ بالتّفْرقة بيْنهمْ حــين

عقد لهمْ الذّمّة منْ أهْل نجْران ووادي الْقرى وسائر الْيهود والنّصارى الّذين دخلـــوا في الذّمّة ورضوا بإعْطاء الْجزْية.وفي ذلك دليلٌ على أنّه أقرّهمْ على مناكحاتهمْ كما أقـــرّهمْ على مذاهبهمْ الْفاسدة واعْتقاداتهمْ الّتي هي ضلالٌ وباطلٌ،ألا ترى أنّه لّما علم اسْتحْلالهمْ للرّبا كتب إلى أهْل نجْران:"إمّا أنْ تذروا الرّبا،وإمّا أنْ تأْذنوا بحرْبٍ منْ اللّه ورسوله".فلمْ يقرّهمْ عليْه حين علم تبايعهمْ به.وأيْضًا قدْ علمْنا أنّ عمر بْن الْخطّاب لّما فتح السّواد أقرّ أهْلها عليْها وكانوا مجوسًا،ولمْ يثْبتْ أنّه أمر بالتّفْريق بيْن ذوي الْمحارم منْهمْ مع علْمـــه بمناكحاتهمْ.وكذلك سائر الْأئمّة بعْده جروْا على منْهاجه في ترْك الاعْتراض علـــيْهمْ؛ وفي ذلك دليلٌ على صحّة ما ذكرْنا.

فإنْ قيل فقدْ روي عنْ عمر أنّه كتب إلى سعْدٍ يأْمره بالتّفْريق بيْن ذوي الْمحارم مـــنْهمْ وأنْ يمْنعهمْ منْ الْمذْهب فيه.قيل له:لوْ كان هذا ثابتًا لورد النّقْل به متواترًا كـــوروده في سيرته فيهمْ في أخْذ الْجزْية ووضْع الْخراج وسائر ما عاملهمْ به،فلمّا لمْ يردْ ذلـــك مـــنْ جهة التّواتر علمْنا أنّه غيْر ثابتٍ.ويحْتمل أنْ يكون كتابه إلى سعْدٍ بذلك إنّما كان فيمنْ رضي منْهمْ بأحْكامنا؛ وكذلك نقول إذا تراضوْا بأحْكامنا.وأيْضًا قدْ بيّنّا أنّ قوْله:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} ناسخٌ للتّخْيير الْمذْكور في قوْله:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنـــهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} والّذي ثبت نسْخه منْ ذلك هو التّخْيير،فأمّا شرْط الْمجيء منْهمْ فلمْ تقمْ الدّلالة على نسْخه،فينْبغي أنْ يكون حكْم الشّرْط باقيًا والتّخْـــيير منْســـوخًا،فيكون تقْديره مع الْآية الْأخْرى:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنهمْ أوْ أعْرضْ عنْهمْ} وإنّما قال:"إنّهمْ يحْملون على أحْكامنا إذا رضوا بها إلّا في النّكاح بغيْر شهودٍ والنّكاح في الْعدّة" منْ قبل أنّه لّما ثبت أنّه ليْس لنا اعْتراضٌ عليْهمْ قبْل التّراضي منْهمْ بأحْكامنا،فمتى تراضـــوْا بهـــا وارْتفعوا إليْنا فإنّما الْواجب إجْراؤهمْ على أحْكامنا في الْمسْتقْبل،ومعْلومٌ أنّ الْعدّة لا تمْنع بقاء النّكاح في الْمسْتقْبل وإنّما تمْنع الابْتداء لأنّ امْرأةً تحْت زوْجٍ لوْ طرأتْ عليْها عـــدّةٌ منْ وطْءٍ بشبْهةٍ لمْ يمْنعْ ما وجب منْ الْعدّة بقاء الْحكْم،فثبت أنّ الْعدّة إنّما تمْنع ابْتـــداء الْعقْد ولا تمْنع الْبقاء؛ فمنْ أجْل ذلك لمْ يفرّقْ بيْنهما.ومنْ جهةٍ أخْرى أنّ الْعدّة حقّ اللّه تعالى وهمْ غيْر مؤاخذين بحقوق اللّه تعالى في أحْكام الشّريعة،فإذا لمْ تكنْ عنْدهمْ عـــدّةٌ

واجبةٌ لَمْ تكنْ عليْها عدّةٌ،فجاز نكاحها الثّاني.وليْس كذلك نكاح ذوات الْمحارم؛ إذْ لا يخْتلف فيها حكْم الابْتداء والْبقاء في باب بطْلانه،وأمّا النّكاح بغيْر شهودٍ فإنّ الّذي هـــو شرْطٌ في صحّة الْعقْد وجود الشّهود في حال الْعقْد،ولا يحْتاج في بقائه إلى اسْتصْــحاب الشّهود؛ لأنّ الشّهود لوْ ارْتدّوا بعْد ذلك أوْ ماتوا لَمْ يؤثّرْ ذلك في الْعقْد؛ فإذا كان إنّما يحْتاج إلى الشّهود للابْتداء لا للْبقاء لَمْ يجزْ أنْ يمْنع الْبقاء في الْمسْــتقْبل لأجْــل عــدم الشّهود.ومنْ جهةٍ أخْرى أنّ النّكاح بغيْر شهودٍ مخْتلفٌ فيه بــيْن الْفقهــاء،فمنْهمْ مــنْ يجيزه،والاجْتهاد سائغٌ في جوازه،ولا يعْترض على الْمسْلمين إذا عقدوه ما لَمْ يخْتصــموا فيه،فغيْر جائزٍ فسْخه إذا عقدوه في حال الْكفْر؛ إذْ كان ذلك سائغًا جــائزًا في وقْــت وقوعه،لوْ أمْضاه حاكمٌ ما بيْن الْمسْلمين جاز و لَمْ يجزْ بعْد ذلك فسْخه وإنّما اعْتبر أبــو حنيفة تراضيهما جميعًا بأحْكامنا منْ قبل قوْل اللّه تعالى:{فإنْ جاءوك فاحْكمْ بيْنــهمْ} فشرط مجيئهمْ،فلمْ يجزْ الْحكْم على أحدهما بمجيء الْآخر.

فإنْ قال قائلٌ:إذا رضي أحدهما بأحْكامنا فقدْ لزمه حكْم الْإسْلام فيصير بمنْزلته لوْ أسْــلم فيحْمل الْآخر معه على حكْم الْإسْلام.قيل له:هذا غلطٌ،لأنّ رضاه بأحْكامنــا لا يلْزمــه ذلك إيجابًا،ألا ترى أنّه لوْ رجع عنْ الرّضا قبْل الْحكْم عليْه لَمْ يلْزمْه إيّاه وبعْد الْإسْــلام يمْكنه الرّضا بأحْكامنا؟ وأيْضًا إذا لَمْ يجزْ أنْ يعْترض عليْهمْ إلّا بعْد الرّضا بحكْمنا فمنْ لَمْ يرْض به مبْقًى على حكْمه لا يجوز إلْزامه حكْمًا لأجْل رضا غيْره.وذهب محمّــدٌ إلى أنّ رضا أحدهما يلْزم الْآخر حكْم الْإسْلام كما لوْ أسْلم.وذهب أبو يوسف إلى ظاهر قوْلــه تعالى:{وأن احْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه ولا تتّبعْ أهْواءهمْ}.

قوْله تعالى:{وكيْف يحكّمونك وعنْدهم التّوْراة فيها حكْم اللّه} يعْني:اللّه أعْلــم فيمــا تحاكموا إليْك فيه؛ فقيل:إنّهمْ تحاكموا إليْه في حدّ الزّانييْن،وقيل:في الدّية بيْن بني قريْظــة وبني النّضير؛ فأخْبر تعالى أنّهمْ لَمْ يتحاكموا إليْه تصْديقًا مــنْهمْ بنبوّتــه،وإنّما طلبــوا الرّخْصة؛ ولذلك قال:{وما أولئك بالْمؤْمنين} يعْني همْ غيْر مؤْمنين بحكْمك أنّه منْ عنْد اللّه مع جحْدهمْ بنبوّتك وعدولهمْ عمّا يعْتقدونه حكْمًا للّه ممّا في التّوْراة.ويحْتمل أنّهــمْ حين طلبوا غيْر حكْم اللّه و لَمْ يرْضوْا به فهمْ كافرون غيْر مؤْمنين.

وقوْله تعالى:{وعنْدهم التّوْراة فيها حكْم اللّه} يدلّ على أنّ حكْم التّوْراة فيما اخْتصموا فيه لمْ يكنْ منْسوخًا،وأنّه صار بمبْعث النّبيّ ﷺ شريعةً لنا لمْ ينْسخْ؛ لأنّه لوْ نسخ لمْ يطْلقْ عليْه بعْد النّسْخ أنّه حكْم اللّه،كما لا يطْلق أنّ حكْم اللّــه تحْليــل الْخمْــر أوْ تحْــريم السّبْت.وهذا يدلّ على أنّ شرائع منْ قبْلنا منْ الْأنْبياء لازمةٌ لنا ما لمْ تنْسخْ،وأنّها حكْــم اللّه بعْد مبْعث النّبيّ ﷺ.وقدْ روي عنْ الْحسن في قوْله تعالى:{فيها حكْم اللّه} بالرّجْم؛ لأنّهمْ اخْتصموا إليْه في حدّ الزّنا.وقال قتادة:فيها حكْم اللّه بالْقود لأنّهمْ اخْتصــموا في ذلك.وجائزٌ أنْ يكونوا تحاكموا إليْه فيهما جميعًا منْ الرّجْم والْقود.قوْله تعالى:{إنّا أنْزلْنا التّوْراة فيها هدىً ونورٌ يحْكم بها النّبيّون الّذين أسْلموا للّذين هادوا} روي عنْ الْحســن وقتادة وعكْرمة والزّهْريّ والسّدّيّ،أنّ النّبيّ ﷺ مرادٌ بقوْله:{يحْكم بها النّبيّــون الّــذين أسْلموا للّذين هادوا} قال أبو بكْرٍ:وذلك لأنّ النّبيّ ﷺ حكم على الزّانييْن منْهمْ بالرّجْم وقال:"اللّهمّ إنّي أوّل منْ أحْيا سنّةً أماتوها" وكان ذلك في حكْم التّوْراة؛ وحكم فيــه بتساوي الدّيات وكان ذلك أيْضًا حكْم التّوْراة؛ وهذا يدلّ على أنّه حكم عليْهمْ بحكْــم التّوْراة لا بحكْم مبْتدأ شريعةٍ.

وقوله تعالى:{وكانوا عليْه شهداء} قال ابْن عبّاسٍ:"شهداء على حكْم النّبيّ ﷺ أنّــه في التّوْراة".وقال غيْره:"شهداء على ذلك الْحكْم أنّه منْ عنْد اللّه".

وقال عزّ وجلّ:{فلا تخْشوا النّاس واخْشوْن} قال فيه السّدّيّ:لا تخْشوْهمْ في كتْمان مــا أنْزلْت".وحدّثنا عبْد الْباقي بْن قانعٍ قال:حدّثنا الْحارث بْن أبي أسامة:حدّثنا أبو عبيْــدٍ الْقاسم بْن سلامٍ:حدّثنا عبْد الرّحْمن بْن مهْديٍّ عنْ حمّاد بْن سلمة عنْ حميْدٍ عنْ الْحسن قال:"إنّ اللّه تعالى أخذ على الْحكّام ثلاثًا:أنْ لا يتبعوا الهوى،وأن يخشــوه ولا يخشــوا الناس،وأن لا يشتروا بآياته ثمنا قليلا".ثم قال:{يا داود إنّا جعلْناك خليفــةً في الْــأرْض فاحْكمْ بيْن النّاس بالْحقّ ولا تتّبع الْهوى} [ص:٢٦] الْآية،وقال:{إنّا أنْزلْنا التّوْراة فيها هدىً ونورٌ يحْكم بها النّبيّون الّذين أسْلموا للّذين هادوا} إلى قوْله:{فلا تخْشــوا النّــاس واخْشوْن ولا تشْتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكــافرون} فتضمنت هذه الآية معاني:منْها الْأخْبار بأنّ النّبيّ ﷺ قدْ حكــم علــى الْيهــود بحكْــم

التّوْراة.ومنْها:أنّ حكْم التّوْراة كان باقيًا في زمان رسول الله ﷺ وأنّ مبْعث النّبيّ ﷺ لمْ يوجبْ نسْخه؛ ودلّ ذلك على أنّ ذلك الْحكْم كان ثابتًا لمْ ينْسخْ بشريعة الرّسول ﷺ.ومنْها إيجاب الْحكْم بما أنْزل اللّه تعالى وأنْ لا يعْدل عنْه ولا يحابي فيه مخافة النّاس.ومنْها:تحْريم أخْذ الرّشا في الْأحْكام،وهو قوْله تعالى:{ولا تشْتروا بآياتي ثمناً قليلاً}. وقوْله تعالى:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه} قال ابْن عبّاسٍ:"هو في الْجاحد لحكْم اللّه".وقيل:"هي في الْيهود خاصّةً".وقال ابْن مسْعود والْحسن وإبْراهيم:"هي عامّةٌ" يعْني فيمنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه وحكم بغيْره مخْبرًا أنّه حكْم اللّه تعالى،ومنْ فعل هذا فقدْ كفر فمنْ جعلها في قوْمٍ خاصّةً وهمْ الْيهود،لمْ يجْعلْ" منْ" بمعْنى الشّرْط،وجعلها بمعْنى الّذي لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه،والْمراد قوْمٌ بأعْيانهمْ.وقال الْبراء بْن عازبٍ،وذكر قصّة رجْم الْيهود فأنْزل اللّه تعالى {يا أيّها الرّسول لا يحْزنْك الّذين يسارعون في الْكفْر} الْآيات،إلى قوْله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} قال:"في الْيهود خاصّةً" وقوْله:{فأولئك هم الظّالمون} و {فأولئك هم الْفاسقون} " في الْكفّار كلّهمْ".وقال الْحسن:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} نزلتْ في الْيهود وهي علیْنا واجبةٌ.وقال أبو مجْلزٍ:"نزلتْ في الْيهود".وقال أبو جعْفرٍ:نزلتْ في الْيهود ثمّ جرتْ فينا".وروى سفْيان عنْ حبيب بْن أبي ثابتٍ عنْ أبي الْبخْتريّ قال:قيل لحذيْفة:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} نزلتْ في بني إسْرائيل؟ قال:"نعمْ،الْإخْوة لكمْ بنو إسْرائيل،إنْ كانتْ لكمْ كلّ حلْوةٍ ولهمْ كلّ مرّةٍ،ولتسْلكنّ طريقهمْ قدّ الشّراك".قال إبْراهيم النّخعيّ:"نزلتْ في بني إسْرائيل ورضي لكمْ بها".وروى الثّوْريّ عنْ زكريّا عنْ الشّعْبيّ قال الْأولى للْمسْلمين والثّانية للْيهود والثّالثة للنّصارى".وقال طاوسٍ:"ليْس بكفْرٍ ينْقل عنْ الْملّة" وروى طاوسٍ عنْ ابْن عبّاسٍ قال:"ليْس الْكفْر الّذي يذْهبون إليْه في قوْله:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} "وقال ابْن جريْجٍ عنْ عطاءٍ كفْرٌ دون كفْرٍ وظلْمٌ دون ظلْمٍ وفسْقٌ دون فسْقٍ".وقال عليّ بْن حسيْنٍ رضي اللّه عنْهما:"ليْس بكفْر شرْكٍ ولا ظلْم شرْكٍ ولا فسْق شرْكٍ".

قال أبو بكْرٍ:قوْله تعالى:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} لا يخْلو مـــنْ أنْ يكون مراده كفْر الشّرْك والْجحود أوْ كفْرً النّعْمة منْ غيْر جحود؛ فإنْ كان الْمـــراد جحود حكْم اللّه أوْ الْحكْم بغيْره مع الْإخْبار بأنّه حكْم اللّه،فهذا كفْرٌ يخْرج عنْ الْملّـــة وفاعله مرْتدٌّ إنْ كان قبْل ذلك مسْلمًا؛ وعلى هذا تأوّله منْ قال:"إنّها نزلـــتْ في بـــني إسْرائيل وجرتْ فينا" يعْنون أنّ منْ جحد منّا حكْم اللّه أوْ حكم بغيْر حكْم اللّه ثمّ قـــال إنّ هذا حكْم اللّه،فهو كافرٌ كما كفرتْ بنو إسْرائيل حين فعلوا ذلك،وإنْ كان الْمـــراد به كفْر النّعْمة فإنّ كفْران النّعْمة قدْ يكون بترْك الشّكْر عليْها منْ غيْر جحودٍ،فلا يكون فاعله خارجًا منْ الْملّة؛ والْأظْهر هو الْمعْنى الْأوّل لإطْلاقه اسْم الْكفْر على منْ لمْ يحْكـــمْ بما أنْزل اللّه.وقدْ تأوّلتْ الْخوارج هذه الْآية على تكْفير منْ ترك الْحكْم بما أنْزل اللّه منْ غيْر جحودٍ لها،وأكْفروا بذلك كلّ منْ عصى اللّه بكبيرةٍ أوْ صـــغيرةٍ،فأدّاهمْ ذلـــك إلى الْكفْر والضّلال بتكْفيرهمْ الْأنْبياء بصغائر ذنوبهمْ.

وقوْله في نسق الْآية:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الظّالمون} دليلٌ على ثبوت هذا الْحكْم في وقْت نزول هذه الْآية منْ وجْهيْن:أحدهما:أنّه قدْ ثبت أنّ ذلك ممّا أنْـــزل اللّه ولمْ يفرّقْ بيْن شيْءٍ مـــنْ الْأزْمـــان،فهو ثابـــتٌ في كـــلّ الْأزْمـــان إلى أنْ يـــرد نسْخه.والثّاني:معْلومٌ أنّهمْ اسْتحقّوا سمة الظّلْم والْفسْق في وقْت نـــزول الْآيـــة لتـــرْكهمْ الْحكْم بما أنْزل اللّه تعالى منْ ذلك وقْت نزول الْآية،إمّا جحودًا له أوْ ترْكًا لفعْـــل مـــا أوْجب اللّه منْ ذلك،وهذا يقْتضي وجوب الْقصاص في سائر النّفوس ما لمْ تقـــمْ دلالـــة نسْخه أوْ تخْصيصه.

قوْله تعالى:{ولْيحْكمْ أهْل الْأنْجيل بما أنْزل اللّه فيه} قال أبو بكْرٍ:فيه دلالةٌ على أنّ ما لمْ ينْسخْ منْ شرائع الْأنْبياء الْمتقدّمين فهو ثابتٌ،على معْنى أنّه صـــار شـــريعةً للـــنّبيّ ﷺ لقوْله:{ولْيحْكمْ أهْل الْأنْجيل بما أنْزل اللّه فيه} ومعْلومٌ أنّه لمْ يردْ أمْرهمْ باتّباع ما أنْزل اللّه في الْإنْجيل إلّا على أنّهمْ يتّبعون النّبيّ ﷺ لأنّه صار شريعةً له؛ لأنّهمْ لوْ اسْتعْملوا مـــا في الْإنْجيل مخالفين للنّبيّ ﷺ غيْر متّبعين له لكانوا كفّارًا،فثبت بذلك أنّهـــمْ مـــأْمورون باسْتعْمال أحْكام تلْك الشّريعة على معْنى أنّها قدْ صارتْ شريعةً للنّبيّ عليْه السّلام.

قوْله تعالى:{وأنْزلْنا إليْك الْكتاب بالْحقّ مصدّقاً لما بيْن يديْه من الْكتاب ومهيْمناً عليْه} قال ابْن عبّاسٍ ومجاهدٌ وقتادة:"مهيْمنًا يعْني أمينًا" وقيل:شاهدًا،وقيل:حفيظًا،وقيل:مؤْتمنًا والْمعْنى فيه أنّه أمينٌ عليْه،ينْقل إليْنا ما في الْكتب الْمتقدّمة على حقيقته منْ غيْر تحْريفٍ ولا زيادةٍ ولا نقْصانٍ؛ لأنّ الْأمين على الشّيْء مصدّقٌ عليْه،وكذلك الشّاهد.وفي ذلك دليلٌ على أنّ كلّ منْ كان مؤْتمنًا على شيْءٍ فهو مقْبول الْقوْل فيه،منْ نحْو الْودائع والْعواريّ والْمضاربات ونحْوها؛ لأنّه حين أنْبأ عنْ وجوب التّصْديق بما أخْبر به الْقرْآن عنْ الْكتب الْمتقدّمة سمّاه أمينًا عليْها،وقدْ بيّن اللّه تعالى في سورة الْبقرة أنّ الْأمين مقْبول الْقوْل فيما اؤْتمن فيه،وهو قوْله تعالى:{فإنْ أمن بعْضكمْ بعْضاً فلْيؤدّ الّذي اؤْتمن أمانته ولْيتّق اللّه ربّه} [البقرة:٢٨٣] وقال:{ولا يبْخسْ منْه شيْئاً} [البقرة:٢٨٢] فلمّا جعله أمينًا فيه وعظه بترْك الْبخْس.

وقدْ اخْتلف في المراد بقوله:{ومهيْمناً} فقال ابْن عبّاسٍ:"هو الْكتاب،وفيه إخْبارٌ بأنّ الْقرْآن مهيْمنٌ على الْكتب الْمتقدّمة شاهدٌ عليْها".وقال مجاهدٌ:"أراد به النّبيّ" ﷺ.

قوْله تعالى:{فاحْكمْ بيْنهمْ بما أنْزل اللّه} يدلّ على نسْخ التّخْيير على ما تقدّم منْ بيانه.

قوْله تعالى:{ولا تتّبعْ أهْواءهمْ} يدلّ على بطْلان قوْل منْ يردّهمْ إلى الْكنيسة أوْ الْبيعة للاسْتحْلاف،لما فيه منْ تعْظيم الْموْضع وهمْ يهْووْن ذلك؛ وقدْ نهى اللّه تعالى عنْ اتّباع أهْوائهمْ.ويدلّ على بطْلان قوْل منْ يردّهمْ إلى دينهمْ لما فيه منْ اتّباع أهْوائهمْ والاعْتداد بأحْكامهمْ،ولأنّ ردّهمْ إلى أهْل دينهمْ إنّما هو ردٌّ لهمْ ليحْكموا فيهمْ بما هو كفْرٌ باللّه عزّ وجلّ؛ إذْ كان حكْمهمْ بما يحْكمون به كفْرًا باللّه وإنْ كان موافقًا لما أنْزل في التّوْراة والْإنْجيل لأنّهمْ مأْمورون بترْكه واتّباع شريعة النّبيّ ﷺ.

قوْله تعالى:{لكلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً} الشّرْعة والشّريعة واحدٌ،ومعْناها الطّريق إلى الْماء الّذي فيه الْحياة،فسمّى الْأمور الّتي تعبّد اللّه بها منْ جهة السّمْع شريعةً وشرْعةً لإيصالها الْعاملين بها إلى الْحياة الدّائمة في النّعيم الْباقي.

قوْله تعالى:{ومنْهاجاً} قال ابْن عبّاسٍ ومجاهدٌ وقتادة والضّحّاك:"سنّةً وسبيلًا".ويقال طريقٌ نهْجٌ إذا كان واضحًا.قال مجاهدٌ:"وأراد بقوْله:شرْعةً الْقرْآن،لأنّه لجميع النّاس"

وقال قتادة وغيْره شريعة التّوْراة وشريعة الْإنْجيل وشريعة الْقرْآن". وهذا يحْتجّ به منْ نفى لزوم شرائع منْ قبْلنا إيّانا وإنْ لمْ يثْبتْ نسْخها لإخْباره بأنّه جعل لكلّ نبيٍّ منْ الْأنْبياء شرْعةً ومنْهاجًا. وليْس فيه دليلٌ على ما قالوا؛ لأنّ ما كان شريعةً لموسى عليْه السّلام فلمْ ينْسخْ إلى أنْ بعث النّبيّ ﷺ فقدْ صارتْ شريعةً للنّبيّ عليْه السّلام وكان فيما سلف شريعةً لغيْره؛ فلا دلالة في الْآية على اخْتلاف أحْكام الشّرائع. وأيْضًا فلا يخْتلف أحدٌ في تجْويز أنْ يتعبّد اللّه رسوله بشريعة موافقة لشرائع منْ كان قبْله منْ الْأنْبياء، فلمْ ينْف قوْله: {لكلٍّ جعلْنا منْكمْ شرْعةً ومنْهاجاً} أنْ تكون شريعة النّبيّ عليْه السّلام موافقةً لكثيرٍ منْ شرائع الْأنْبياء الْمتقدّمين. وإذا كان كذلك، فالْمراد فيما نسخ منْ شرائع الْمتقدّمين منْ الْأنْبياء وتعبّد النّبيّ ﷺ بغيْرها، فكان لكلٍّ منْكمْ شرْعةٌ غيْر شرْعة الْآخر.

قوْله عزّ وجلّ: {ولوْ شاء اللّه لجعلكمْ أمّةً واحدةً} قال الْحسن: "لجعلكمْ على الْحقّ"، وهذه مشيئة الْقدْرة على إجْبارهمْ على الْقوْل بالْحقّ، ولكنّه لوْ فعل لمْ يسْتحقّوا ثوابًا، وهو كقوْله: {ولوْ شئْنا لآتيْنا كلّ نفْسٍ هداها} [السجدة:١٣] وقال قائلون: "معْناه: ولوْ شاء اللّه لجمعهمْ على شريعةٍ واحدةٍ في دعْوة جميع الْأنْبياء".

قوله تعالى: {فاسْتبقوا الْخيْرات} معْناه الْأمْر بالْمبادرة بالْخيْرات الّتي تعبّدْنا بها قبْل الْفوات بالْموْت وهذا يدلّ على أنّ تقْديم الْواجبات أفْضل منْ تأْخيرها، نحْو قضاء رمضان والْحجّ والزّكاة وسائر الْواجبات لأنّها منْ الخيرات.

قوْله تعالى: {أفحكْم الْجاهليّة يبْغون} فيه وجْهان: أحدهما: أنّه خطابٌ للْيهود لأنّهمْ كانوا إذا وجب الْحكْم على ضعفائهمْ ألْزموهمْ إيّاه، وإذا وجب على أغْنيائهمْ لمْ يأْخذوهمْ به؛ فقيل لهمْ: أفحكْم عبدة الْأوْثان تبْغون وأنْتمْ أهْل الْكتاب وقيل: إنّه أريد به كلّ منْ خرج عنْ حكْم اللّه إلى حكْم الْجاهليّة، وهو ما يقْدم عليْه فاعله بجهالةٍ منْ غيْر علْمٍ.

قوْله تعالى: {ومنْ أحْسن من اللّه حكْماً} إخْبارٌ عنْ حكْمه بالْعدْل والْحقّ منْ غيْر محاباةٍ؛ وجائزٌ أنْ يقال إنّ حكْمًا أحْسن منْ حكْمٍ كما لوْ خيّر بيْن حكْميْن نصًّا وعرف

أنّ أحدهما أفْضل منْ الْآخر كان الْأفْضل أحْسن.وكذلك قدْ يحْكمه الْمجْتهد بما غيْـره أوْلى منْه،لتقْصيرٍ منْه في النّظر أوْ لتقْليده منْ قصّر فيه.[٣٨٨]

وقال ابن العربي:

قوْله تعالى:{ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون} [المائدة:٤٤] اخْتلف فيه الْمفسّرون؛فمنْهمْ منْ قال:الْكافرون والظّالمون والْفاسقون كلّـه للْيهـود،ومنْهمْ مـنْ قال:الْكافرون للْمشْركين،والظّالمون للْيهود،والْفاسقون للنّصارى،وبه أقول؛لأنّه ظـاهر الْآيات،وهو اخْتيار ابْن عبّاس،وجابر بْن زيْد،وابْن أبي زائدة،وابْن شبْرمة.قـال طـاوسٌ وغيْره:ليْس بكفْرٍ ينْقل عنْ الْملّة،ولكنّه كفْرٌ دون كفْر.وهذا يخْتلف إنْ حكم بما عنْـده على أنّه منْ عنْد اللّه؛فهو تبْديلٌ له يوجب الْكفْر،وإنْ حكم به هوًى ومعْصيةً فهو ذنْبٌ تدْركه الْمغْفرة على أصْل أهْل السّنّة في الْغفْران للْمذْنبين.[٣٨٩]

وفي السياسة الشرعية:

إذَا عَرَفَ هَذَا،فَلَيْسَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ إلَّا أَصْلَحَ الْمَوْجُودِ،وَقَدْ لَا يَكُونُ فِي مَوْجُوده،مَنْ هُـوَ صَالِحٌ لِتِلْكَ الْوِلَايَة،فَيَخْتَارُ الْأَمْثَلَ فَالْأَمْثَلَ فِي كُلِّ مَنْصِبٍ يَحْسَبُهُ،وَإِذَا فَعَلَ ذَلِـكَ بَعْـدَ الِاجْتِهَادِ التَّامِّ،وَأَخْذه لِلْوِلَايَة بِحَقِّهَا،فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ،وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِي هَذَا،وَصَارَ فِـي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَئِمَّة الْعَدْلِ وَالْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّه،وَإِن اخْتَلَّ بَعْضُ الْأُمُورِ بِسَـبَبِ مِـنْ غَيْره،إذَا لَمْ يُمْكِنْ إلَّا ذَلِكَ،فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُـوا} [التغابن:١٦] وَيَقُولُ:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا} [البقـرة:٢٨٦].وَقَـالَ فِـي الْجِهَاد:{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّه لَا تُكَلَّفُ إلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء:٨٤].وَقَالَ:{يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ إلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّـئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [المائدة:١٠٥].

---

[٣٨٨] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٤٢)

[٣٨٩] أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ١٢٧)

فَمَنْ أَدَّى الْوَاجِبَ الْمَقْدُورَ عَلَيْهِ فَقَدْ اهْتَدَى:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ [٣٩٠] .

لَكِنْ إذَا كَانَ مِنْهُ عَجْزٌ وَلَا حَاجَةَ إلَيْهِ،أَوْ خِيَانَةٌ عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ الْأَصْلَحَ فِي كُلِّ مَنْصِبٍ،فَإِنَّ الْوِلَايَةَ لَهَا رُكْنَانِ:الْقُوَّةُ وَالْأَمَانَةُ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ قَالَتْ إحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص:٢٦] وَقَالَ صَاحِبُ مِصْرَ لِيُوسُفَ عليه السلام:{إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:٥٤]،وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ جِبْرِيلَ:{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)} [التكوير:١٩ - ٢١].

وَالْقُوَّةُ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ بِحَسَبِهَا،فَالْقُوَّةُ فِي إمَارَةِ الْحَرْبِ تَرْجِعُ إلَى شَجَاعَةِ الْقَلْبِ،وَإِلَى الْخِبْرَةِ بِالْحُرُوبِ،وَالْمُخَادَعَةِ فِيهَا،فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ [٣٩١]،وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْوَاعِ الْقِتَالِ:مِنْ رَمْيٍ وَطَعْنٍ وَضَرْبٍ،وَرُكُوبٍ وَكَرٍّ وَفَرٍّ،وَنَحْوِ ذَلِكَ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]،عن خَالِدَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:كُنْتُ رَجُلًا رَامِيًا،وَكَانَ يَمُرُّ بِي عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،فَيَقُولُ:يَا خَالِدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا نَرْمِي،فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ،فَقَالَ لِي:يَا خَالِدُ تَعَالَ أَقُولُ لَكَ مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ أُحَدِّثُكَ مَا حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَأَتَيْتُهُ،فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ الْجَنَّةَ:صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنَعَتِهِ الْخَيْرَ،وَالرَّامِي بِهِ،وَمُنْبِلُهُ،وَارْمُوا وَارْكَبُوا،وَأَنْ تَرْمُوا

---

٣٩٠ - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ - (١٣٣٧)

[ش(دعوني) اتركوني ولا تسألوني.(بسؤالهم) كثرة أسئلتهم.(ما استطعتم) قدر استطاعتكم بعد الإتيان بالقدر الواجب الذي لا بد منه.قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم هذا من قواعد الإسلام ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام]

٣٩١ - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٢٩) حديث متواتر

أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا،وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إِلَّا ثَلَاثَــةٌ:تَأْدِيــبُ الرَّجُــلِ فَرَسَــهُ،وَمُلَاعَبَتُهُ امْرَأَتَهُ،وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ،وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ كَفَرَهَا "[٣٩٢]

وَالْقُوَّةُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ،تَرْجِعُ إِلَى الْعَدْلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ،وَإِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ .

وَالْأَمَانَةُ تَرْجِعُ إِلَى خَشْيَةِ اللَّهِ،وَأَلَّا يَشْتَرِيَ بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا،وَتَرْكِ خَشْــيَةِ النَّاسِ،وَهَــذِهِ الْخِصَالُ الثَّلَاثُ الَّتِي اتَّخَذَهَا اللَّهُ عَلَى كُلِّ حَكَمٍ عَلَى النَّاسِ،في قوله تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ } [المائدة:٣]،{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:٤٤].

عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ:وَاحِدٌ فِي الْجَنَّــةِ،وَاثْنَانِ فِــي النَّارِ،فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ،وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَــارَ فِــي الْحُكْمِ،فَهُوَ فِي النَّارِ،وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ "رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ .[٣٩٣]

وَالْقَاضِي اسْمٌ لِكُلِّ مَنْ قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ وَحَكَمَ بَيْنَهُمَا،سَوَاءٌ كَانَ خَلِيفَةً أَوْ سُــلْطَانًا،أَوْ نَائِبًا،أَوْ وَالِيًا،أَوْ كَانَ مَنْصُوبًا لِيَقْضِيَ بِالشَّرْعِ،أَوْ نَائِبًا لَهُ،حَتَّى يَحْكُمَ بَيْنَ الصِّــبْيَانِ فِــي الْخُطُوطِ،إِذَا تَخَايَرُوا،هَكَذَا ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:وَهُوَ ظَاهِرٌ..[٣٩٤]

وقال:" فَحَكَمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا كلها سواء،خلافَ ما عليــه أهــل الْجَاهِلِيَّةُ.وَأَكْثَرُ سَبَبِ الْأَهْوَاءِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ النَّاسِ في البوادي والحواضر إنما هو البغي،وتركُ الْعَدْلِ،فَإِنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ يُصِيبُ بَعْضُهَا بعضاً من الأخرى دماً أو مــالاً،أو تعلــو عليها بِالْبَاطِلِ وَلَا تُنْصِفُهَا،وَلَا تَقْتَصِرُ الْأُخْرَى عَلَى اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ،فَالْوَاجِبُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا بِالْقِسْطِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ،وَمَحْوِ مَا كَــانَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ،وَإِذَا أَصْلَحَ مُصْلِحٌ بَيْنَهُمَا فَلْيُصْلِحْ بِالْعَــدْلِ،كَمَا

---

[٣٩٢] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٥٠٤)(٧٤٩٥) صحيح

[٣٩٣] - سنن أبي داود (٣/ ٢٩٩)(٣٥٧٣) وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٧٦)(٢٣١٥) وسنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٦٠٥)(١٣٢٢) والسنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٩٧)(٥٨٩١) صحيح

[٣٩٤] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٥٢) والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية -ط١ ت علي نايف الشحود (ص: ١٦)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات:٩ - ١٠]..[٣٩٥]

عنْ عبْد اللّه بْن مسْعود،أنّ نبيّ اللّه ﷺ قال:«ما منْ نبيٍّ بعثه اللّه في أمّته قبْلي إلّا كان له في أمّته حواريّون وأصْحابٌ يأْخذون بسنّته ويقْتدون بأمْره،ثمّ إنّها تخْلف منْ بعْدهمْ خلوفٌ يقولون ما لا يفْعلون،ويفْعلون ما لا يؤْمرون،فمنْ جاهدهمْ بيده فهو مؤْمنٌ،ومنْ جاهدهمْ بلسانه فهو مؤْمنٌ،ومنْ جاهدهمْ بقلْبه فهو مؤْمنٌ ليْس منْ وراء ذلك من الْإيمان حبّة خرْدلٍ»[٣٩٦]

وقال ابن تيمية رحمه الله:

وأمّا " الْمحبّة الشركية " فليْس فيها متابعةٌ للرّسول ولا بغْضٌ لعدوّه ومجاهدةٌ له كما يوجد في الْيهود والنّصارى والْمشْركين يدّعون محبّة اللّه ولا يتابعون الرّسول ولا يجاهدون عدوّه.وكذلك " أهْل الْبدع " الْمدّعون للْمحبّة لهمْ منْ الْإعْراض عنْ اتّباع الرّسول بحسب بدْعتهمْ وهذا منْ حبّهمْ لغيْر اللّه وتجدهمْ منْ أبْعد النّاس عنْ موالاة أوْلياء الرّسول ومعاداة أعْدائه والْجهاد في سبيله لما فيهمْ منْ الْبدع الّتي هي شعْبةٌ منْ الشّرْك.والّذين ادّعوْا الْمحبّة منْ " الصّوفيّة " وكان قوْلهمْ في الْقدر منْ جنْس قوْل الْجهْميّة الْمجْبرة همْ في آخر الْأمْر لا يشْهدون للرّبّ محْبوبًا إلّا ما وقع وقدّر وكلّ ما وقع منْ كفْرٍ وفسوقٍ وعصْيانٍ فهو محْبوبه عنْدهمْ فلا يبْقى في هذا الشّهود فرْقٌ بيْن موسى وفرْعوْن ولا بيْن محمّد وأبي جهْلٍ ولا بيْن أوْلياء اللّه وأعْدائه ولا بيْن عبادة اللّه وحْده وعبادة الْأوْثان؛بلْ هذا كلّه عنْد الْفاني في توْحيد الرّبوبيّة سواءٌ؛ولا يفرّق بيْن حادثٍ وحادثٍ إلّا منْ جهة ما يهْواه ويحبّه؛وهذا هو الّذي اتّخذ إلهه هواه إنّما يأْله ويحبّ ما يهْواه وهو وإنْ كان عنْده محبّةٌ للّه فقدْ اتّخذ منْ دون اللّه أنْدادًا يحبّهمْ كحبّ

---

[٣٩٥] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٧٧) والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية -ط١ ت علي نايف الشحود (ص: ١٥١)

[٣٩٦] صحيح مسلم (١٨٨) ومستخرج أبي عوانة (١/ ٤٤)(١٠٠)

اللّه وهمْ منْ يهْواه؛هذا ما دام فيه محبّةً للّه؛وقدْ ينْسلخ منْها حتّـى يصـير إلى التّعْطيـل كفرْعوْن وأمْثاله الّذي هو أسْوأ حالًا منْ مشْركي الْعرب ونحْوهمْ.ولهذا هؤلاء يحبّون بلا علْمٍ ويبْغضون بلا علْمٍ والْعلْم ما جاء به الرّسول كما قال:{فمنْ حاجّك فيه منْ بعْد ما جاءك من الْعلْم} وهو الشّرْع الْمنزّل ولهذا كان الشّيوخ الْعارفون كثيرًا مـا يوصـون الْمريدين باتّباع الْعلْم والشّرْع كما قدْ ذكرْنا قطْعـةً مـنْ كلامهـمْ في غيْـر هـذا الْموْضع؛لأنّ الْإرادة والْمحبّة إذا كانتْ بغيْر علْمٍ وشرْعٍ كانتْ منْ جنْس محبّة الْكفّـار وإرادهمْ،فهؤلاء السّالكون الْمريدون الصّوفيّة والْفقراء الزّاهدون الْعابدون الّذين سلكوا طريق الْمحبّة والْإرادة إنْ لمْ يتّبعوا الشّرْع الْمنزّل والْعلْم الْموْروث عنْ النّبيّ ﷺ فيحبّون ما أحبّ اللّه ورسوله ويبْغضون ما أبْغض اللّه ورسوله وإلّا أفْضى بهمْ الْأمْر إلى شعبٍ منْ شعب الْكفْر والنّفاق.ولا يتمّ الْإيمان والْمحبّة للّه إلّا بتصْديق الرّسول فيما أخْبر وطاعتـه فيما أمر.ومنْ الْإيمان بما أخْبر الْإيمان بما وصف به نفْسه ووصفه به رسوله فمـنْ نفـى الصّفات فقدْ كذّب خبره.ومنْ الْإيمان بما أمر فعْل ما أمر،وترْك ما حظر ومحبّة الْحسنات وبغْض السّيّئات ولزوم هذا الْفرْق إلى الْممات فمنْ لمْ يسْتحْسنْ الْحسن الْمأْمور به ولمْ يسْتقْبحْ السّيّئ الْمنْهيّ عنْه لمْ يكنْ معه منْ الْإيمان شيْءٌ.كمـا قـال ﷺ في الْحـديث الصّحيح:{منْ رأى منْكمْ منْكرًا فلْيغيّرْه بيده فإنْ لمْ يسْتطعْ فبلسانه فإنْ لمْ يسْتطعْ فبقلْبه وذلك أضْعف الْإيمان}.وكما قال في الْحديث الصّحيح عنْ عبْد اللّه بْـن مسْـعودٍ أنّ رسول اللّه ﷺ قال:{ما منْ نبيٍّ بعثه اللّه في أمّته قبْلي إلّا كان له منْ أمّتـه حواريّـون وأصْحابٌ؛يأْخذون بسنّته ويقْتدون بأمْره ثمّ إنّها تخْلف منْ بعْدهمْ خلوفٌ يقولون ما لا يفْعلون ويفْعلون ما لا يؤْمرون فمنْ جاهدهمْ بيده فهو مؤْمنٌ ومنْ جاهدهمْ بلسانه فهو مؤْمنٌ،ومنْ جاهدهمْ بقلْبه فهو مؤْمنٌ وليْس وراء ذلك منْ الْإيمان حبّـة خـرْدلٍ} رواه مسْلمٌ.فأضْعف الْإيمان الْإنْكار بالْقلْب فمنْ لمْ يكنْ في قلْبه بغْض الْمنْكر الّذي يبْغضه اللّه ورسوله لمْ يكنْ معه منْ الْإيمان شيْءٌ؛ولهذا يوجد الْمبْتدعون الّـذين يـدّعون الْمحبّـة الْمجْملة الْمشْتركة الّتي تضاهي محبّة الْمشْركين يكْرهون منْ ينْكر علـيْهمْ شـيْئًا مـنْ أحْوالهمْ ويقولون:فلانٌ ينْكر وفلانٌ ينْكر وقدْ يبْتلوْن كثيرًا بمنْ ينْكر ما معهمْ منْ حـقٍّ

وباطلٍ فيصير هذا يشْبه النّصْرانيّ الّذي يصدّق بالْحقّ والْباطل ويحبّ الْحـــقّ والْباطـــل كالْمشْرك الّذي يحبّ اللّه ويحبّ الْأنْداد وهذا كالْيهوديّ الّذي يكذّب بالْحقّ والْباطـــل ويبْغض الْحقّ والْباطل فلا يحبّ اللّه ولا يحبّ الْأنْداد؛بلْ يسْتكْبر عنْ عبادة اللّـــه كمـــا اسْتكْبر فرْعوْن وأمْثاله.[397]

وفي المحلى:

مسْألةٌ:والْأمْر بالْمعْروف والنّهْي عنْ الْمنْكر فرْضان على كلّ أحدٍ – على قدْر طاقته – بالْيد،فمنْ لمْ يقْدرْ فبلسانه،فمنْ لمْ يقْدرْ فبقلْبه،وذلك أضْعف الْإيمان ليْس وراء ذلك منْ الْإيمان شيْءٌ.قال عزّ وجلّ:{ولْتكنْ منْكمْ أمّةٌ يدْعون إلى الْخيْر ويـــأْمرون بـــالْمعْروف وينْهوْن عن الْمنْكر وأولئك هم الْمفْلحون} [آل عمران:١٠٤] وقـــال تعـــالى:{وإنْ طائفتان من الْمؤْمنين اقْتتلوا فأصْلحوا بيْنهما فإنْ بغتْ إحْداهما على الأخْرى فقاتلوا الّتي تبْغي حتّى تفيء إلى أمْر اللّه} [الحجرات:٩].حدّثنا عبْد اللّه بْن يوسف ثنا أحْمد بْـــن فتْحٍ ثنا عبْد الْوهّاب بْن عيسى ثنا أحْمد بْن محمّدٍ ثنا أحْمد بْن عليٍّ ثنـــا مسْـــلم بْـــن الْحجّاج ثنا أبو بكْر بْن أبي شيْبة ومحمّد بْن الْمثنّى قال ابْن أبي شيْبة ثنا وكيعٌ عنْ سفْيان الثّوْريّ،وقال ابْن الْمثنّى ثنا محمّد بْن جعْفرٍ ثنا شعْبة،ثمّ اتّفق سفْيان وشعْبة،كلاهما عـــنْ قيْس بْن مسْلمٍ عنْ طارق بْن شهابٍ قال:قال أبو سعيد الْخدْريّ:سمعْت رسول اللّـــه – ﷺ – يقول «منْ رأى منْكمْ منْكرًا فلْيغيّرْه بيده،فإنْ لمْ يسْتطعْ فبلسانه،فإنْ لمْ يسْـــتطعْ فبقلْبه،وذلك أضْعف الْإيمان».وبه إلى مسْلمٍ حدّثنا عبْد بْن حميْدٍ ثنا يعْقوب بْن إبْـــراهيم بْن سعْدٍ ثنا أبي عنْ صالح بْن كيْسان عنْ الْحارث هو ابْن الْفضيْل الْخطْميّ – عنْ جعْفر بْن عبْد اللّه بْن عبْد الْحكم عنْ عبْد الرّحْمن بْن الْمسْور بْن مخْرمة عنْ أبي رافعٍ هو موْلى رسول اللّه – ﷺ – عنْ عبْد اللّه بْن مسْعودٍ أنّ رسول اللّه – ﷺ – قال «ما مـــنْ نـــبيٍّ بعثه اللّه في أمّة قبْلي إلّا كان له منْ أمّته حواريّون وأصْحابٌ يأْخذون بسنّته ويقْتـــدون بأمْره،ثمّ إنّها تخلّف منْ بعْدهمْ خلوفٌ يقولون ما لا يفْعلون،ويفْعلون ما لا يؤْمرون،فمنْ جاهدهمْ بيده فهو مؤْمنٌ،ومنْ جاهدهمْ بلسانه فهو مؤْمنٌ،ومنْ جاهـــدهمْ بقلْبـــه،فهو

[397] – مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٥)

مؤْمنٌ،وليْس وراء ذلك منْ الْإيمان حبّة خرْدلٍ».قال عليٌّ: لمْ يخْتلفْ أحدٌ منْ الْمسْلمين في أنّ الْآيتيْن الْمذْكورتيْن محْكمتان غيْر منْسوختيْن،فصحّ أنّ ما عارضهما أوْ عارض الْأحاديث الّتي في معْناهما هو الْمنْسوخ بلا شكٍّ[398]

والْأمْر بالْمعْروف والنّهْي عنْ الْمنْكر فرْضٌ على كلّ مسْلمٍ إنْ قدر بيده فبيده وإنْ لمْ يقْدرْ بيده فبلسانه وإنْ لمْ يقْدرْ بلسانه فبقلْبه ولا بدّ،وذلك أضْعف الْإيمان،فإنْ لمْ يفْعلْ فلا إيمان له.

ومنْ خاف الْقتْل أوْ الضّرْب،أوْ ذهاب الْمال،فهو عذْرٌ يبيح له أنْ يغيّر بقلْبه فقطْ ويسْكت عنْ الْأمْر بالْمعْروف وعنْ النّهْي عنْ الْمنْكر فقطْ.

ولا يبيح له ذلك:الْعوْن بلسانٍ،أوْ بيدٍ على تصْويب الْمنْكر أصْلًا،لقوْل اللّه تعالى:{وإنْ طائفتان من الْمؤْمنين اقْتتلوا فأصْلحوا بيْنهما فإنْ بغتْ إحْداهما على الأخْرى فقاتلوا الّتي تبْغي حتّى تفيء إلى أمْر اللّه فإنْ فاءتْ فأصْلحوا بيْنهما بالْعدْل} [الحجرات:٩].

وقال عزّ وجلّ:{ولْتكنْ منْكمْ أمّةٌ يدْعون إلى الْخيْر ويأْمرون بالْمعْروف وينْهوْن عن الْمنْكر وأولئك هم الْمفْلحون} [آل عمران:١٠٤].

ومنْ طريق مسْلمٍ نا أبو بكْر بْن أبي شيْبة،لمحمّد بْن الْمثنّى،ومحمّد بْن الْعلاء أبو كريْبٍ قال ابْن أبي شيْبة:نا وكيعٌ عنْ سفْيان الثّوْريّ،وقال محمّد بْن الْمثنّى:نا محمّد بْن جعْفرٍ نا شعْبة،ثمّ اتّفق سفْيان،وشعْبة،كلاهما عنْ قيْس بْن مسْلمٍ عنْ طارق بْن شهابٍ،وقال أبو كريْبٍ:نا أبو معاوية نا الْأعْمش عنْ إسْماعيل بْن رجاءٍ عنْ أبيه،ثمّ اتّفق طارقٌ،ورجاءٌ،كلاهما:عنْ أبي سعيد الْخدْريّ،قال:سمعْت رسول اللّه - ﷺ - يقول:«منْ رأى منْكمْ منْكرًا فلْيغيّرْه بيده فإنْ لمْ يسْتطعْ فبلسانه فإنْ لمْ يسْتطعْ فبقلْبه وذلك أضْعف الْإيمان».

ومنْ طريق مسْلمٍ نا عمْرٌو النّاقد،وأبو بكْر بْن النّضْر،وعبْد بْن حميْدٍ واللّفْظ له،قالوا كلّهمْ:نا يعْقوب بْن إبْراهيم بْن سعْد بْن إبْراهيم بْن عبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ نا أبي عنْ صالح بْن كيْسان عنْ الْحارث هو ابْن الْفضيْل الْخطْميّ الْأنْصاريّ عنْ جعْفر بْن عبْد اللّه

---

[398] - المحلى بالآثار (١/ ٤٦)

بْن الْحكم عنْ عبْد الرّحْمن بْن الْمسْور بْن مخْرمة عنْ أبي رافعٍ موْلى رسول اللّه - ﷺ - أنّ عبْد اللّه بْن مسْعودٍ حدّثه " أنّ رسول اللّه - صلّى اللّه عليْه وآله وسلّم - قال:«ما منْ نبيٍّ بعثه اللّه في أمّةٍ قبْلي إلّا كان له منْ أمّته حواريّون وأصْحابٌ يأْخذون بسنّته ويقْتدون بأمْره ثمّ يحْدث منْ بعْدهمْ خلوفٌ يقولون ما لا يفْعلون ويفْعلون ما لا يؤْمرون فمنْ جاهدهمْ بيده فهو مؤْمنٌ ومنْ جاهدهمْ بلسانه فهو مؤْمنٌ ومنْ جاهدهمْ بقلْبه فهو مؤْمنٌ ليْس وراء ذلك منْ الْإيمان حبّة خرْدلٍ».

نا محمّد بْن سعيد بْن نباتٍ نا أحْمد بْن عبْد اللّه بْن عبْد الْبصير نا قاسم بْن أصْبغ نا محمّد بْن عبْد السّلام الْخشنيّ نا محمّد الْمثنّى نا عبْد الرّحْمن بْن مهْديٍّ نا سفْيان الثّوْريّ عنْ زبيْدٍ الْياميّ عنْ سعْد بْن عبيْدة عنْ عليّ بْن أبي طالبٍ عنْ النّبيّ - صلّى اللّه عليْه وآله وسلّم - قال:«لا طاعة لبشرٍ في معْصية اللّه»

ومنْ طريق أبي داود نا مسدّدٌ نا يحْيى بْن سعيدٍ الْقطّان عنْ عبيْد اللّه بْن عمر عنْ نافعٍ عنْ ابْن عمر قال:قال رسول اللّه - صلّى اللّه عليْه وآله وسلّم -:«السّمْع والطّاعة على الْمرْء الْمسْلم فيما أحبّ أوْ كره ما لمْ يؤْمرْ بمعْصيةٍ فإذا أمر بمعْصيةٍ فلا سمْع ولا طاعة».

وبه إلى أبي داود نا يحْيى بْن معينٍ نا عبْد الصّمد بْن عبْد الْوارث نا سليْمان بْن الْمغيرة نا حميْد بْن هلالٍ عنْ بشْر بْن عاصمٍ عنْ عقْبة بْن مالكٍ عنْ رجلٍ منْ رهْطه قال «بعث رسول اللّه - صلّى اللّه عليْه وآله وسلّم - سريّةً فسلحْت رجلًا منْهمْ سيْفًا فلمّا رجع قال:لوْ رأيْت ما لامنا رسول اللّه - صلّى اللّه عليْه وآله وسلّم - قال:أعْجزْتمْ إذْ بعثْت رجلًا فلمْ يمْض لأمْري أنْ تجْعلوا مكانه منْ يمْضي لأمْري» ".

قال أبو محمّد:عقْبة صحيح الصّحْبة،والّذي روي عنْه صاحبٌ - وإنْ لمْ يسمّه - فالصّحابة كلّهمْ عدولٌ،فإذا ثبتتْ صحّة صحْبته فهو عدْلٌ مقْطوعٌ بعدالته،لقوْل اللّه تعالى:{محمّدٌ رسول اللّه والّذين معه أشدّاء على الْكفّار} [الفتح:٢٩].

قال عليٌّ:وكلّ منْ معه منْ الصّحابة وأمّ الْمؤْمنين وطلْحة،والزّبيْر،وكلّ منْ معهمْ منْ الصّحابة،ومعاوية،وكلّ منْ معه منْ الصّحابة،وابْن الزّبيْر،والْحسيْن بْن عليٍّ - رضي اللّه عنْ جميعهمْ - وكلّ منْ قام في الْحرّة منْ الصّحابة،والتّابعين،وغيْرهمْ.

وهذا الْأحاديث ناسخةٌ للْأخْبار الّتي فيها خلاف هذا؛لأنّ تلْك موافقةٌ لما كان عليْه الدّين قبْل الْأمْر بالْقتال،ولأنّ الْأمْر بالْمعْروف والنّهْي عنْ الْمنْكر باقٍ مفْترضٌ لمْ ينْسخْ،فهو النّاسخ لخلافه بلا شكٍّ -.وباللّه تعالى التّوْفيق.[399]

وفي بريقة محمودية:

(م عنْ عبْد اللّه بْن مسْعودٍ - رضي اللّه تعالى عنْه - أنّ رسول اللّه - صلّى اللّه تعالى عليْه وسلّم - قال «ما منْ نبيٍّ بعثه اللّه في أمّةٍ قبْلي إلّا كان له في أمّته حواريّون» حواريّ الرّجل صفْوته وخاصّته سمّي بذلك لخلوص نيّته وصفاء عقيدته منْ الْحور وهو شدّة الْبياض وكان أصْحاب عيسى - عليْه الصّلاة والسّلام - قصّارين فغلب عليْهمْ الاسْم وصار كالْعلم لهمْ ثمّ اسْتعير لكلّ منْ ينْصر نبيًّا ويتّبع هدْيه حقّ اتّباعه تشْبيهاتٌ بأولئك.

«وأصْحابٌ يأْخذون بسنّته ويقْتدون بأمْره ثمّ إنّها» أيْ الْقصّة («يخْلف منْ بعْده خلوفٌ» جمْع خلْفٍ بالسّكون وهو الرّديء منْ الْأعْقاب والْخلف بالْفتْح الصّالح منْهمْ وجمْعه أخْلافٌ يقال خلف سوءٍ وخلف صدْقٍ قال اللّه تعالى {فخلف منْ بعْدهمْ خلْفٌ أضاعوا الصّلاة} [مريم:٥٩].

وقال لبيدٌ

ذهب الّذين يعاش في أكْنافهمْ...وبقيت في خلفٍ كجلْد الْأجْرب

«يقولون ما لا يفْعلون» كقوْله تعالى {كبر مقْتًا عنْد اللّه أنْ تقولوا ما لا تفْعلون} [الصف:٣] «ويفْعلون ما لا يؤْمرون» منْ الْأفْعال الْغيْر الْمرْضيّة «فمنْ جاهدهمْ» بتغْيير منْكراتهمْ «بيده فهو مؤْمنٌ» كاملٌ كان الْمؤْمن هو لا غيْر.

«ومنْ جاهدهمْ بلسانه فهو مؤْمنٌ» كذلك «ومنْ جاهدهمْ بقلْبه» بأنْ لا يرْضى بأقْوالهمْ الْمنْكرة وأفْعالهمْ الْقبيحة «فهو مؤْمنٌ وليْس وراء ذلك» أيْ الْجهاد بالْقلْب «منْ» ثمرات «الْإيمان» أوْ كماله «حبّة خرْدلٍ».

[399] - المحلى بالآثار (٨/ ٤٢٣)

وعنْ الْبيْضاويّ في شرْح الْمصابيح معْناه أنّ أدْنى مراتب الْإيمان أنْ لا يسْتحْسن الْمعاصي ويكْرهها بقلْبه وأنْ يمْتنع عنْها أوْ اشْتغل بأغْراضٍ دنْيويّة ولذّات مخْدجة عاجلة وإذا زال ذلك حتّى اسْتصْوب الْمعاصي وجوّز التّدْليس على الْخلْق والتّلْبيس في الْخلق خرج منْ دائرة الْإيمان خروج منْ اسْتحلّ محارم اللّه واعْتقد بطْلان أحْكامه انْتهى.

كما روي عنْه - عليْه الصّلاة والسّلام - «منْ حضر معْصيةً فكرهها فكأنّما غاب عنْها ومنْ غاب عنْها فأحبّها فكأنّه حضرها» ثمّ إنّه إذا لمْ يقْدرْ على الْإنْكار فلْيقلْ ثلاث مرّاتٍ اللّهمّ إنّ هذا منْكرٌ وأنا له منْكرٌ.[٤٠٠]

جهاد المرتدين:

قال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنواْ من يرْتدّ منكمْ عن دينه فسوْف يأْتي اللّه بقوْمٍ يحبّهمْ ويحبّونه أذلّةٍ على الْمؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لآئمٍ ذلك فضْل اللّه يؤْتيه من يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ} (٥٤) سورة المائدة

يخْبر الله تعالى عنْ عظيم قدْرته ويقول إنّ الذين يرْتدّون عنْ دينهمْ من الإيمان إلى الكفْر،ويتولّوْن عنْ نصْرة دينه،وإقامة شريعته،فإنّ الله سيسْتبْدل بهمْ منْ همْ خيْرٌ منْهمْ،وأشدّ منعةً،وأقْوم سبيلاً،يحبّهمْ ويحبّونه،يتّصفون بصفات المؤْمنين وهي:العزّة على الكافرين،والرّحْمة والتّواضع مع المؤْمنين،يجاهدون في سبيل الله،ولا يردّهمْ رادٌّ عنْ إذاعة أمْر الله،وإقامة حدوده،وقتال أعْدائه،يأْمرون بالمعْروف،وينْهون عن المنْكر.ومن اتّصف بهذه الصّفات كان فضْل الله عليْه كبيراً،والله واسع الفضْل،عليمٌ بمنْ يسْتحقّ ذلك فيعْطيه،ممّنْ لا يسْتحقّه فيحْرمه إيّاه [٤٠١].

يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين،وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئا،وإنما يضر نفسه.وأن لله عبادا مخلصين،ورجالا صادقين،قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم،ووعد بالإتيان بهم،وأنهم أكمل الخلق أوصافا،وأقواهم نفوسا،وأحسنهم أخلاقا،أجلّ صفاتهم أن

---

[٤٠٠] - بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٣/ ٢٥٠)

[٤٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

الله { يحبّهمْ ويحبّونه } فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه،وأفضل فضيلة،تفضل الله بها عليه،وإذا أحب الله عبدا يسر له الأسباب،وهون عليه كل عسير،ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات،وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه،أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهرا وباطنا،في أقواله وأعماله وجميع أحواله،كما قال تعالى:{ قلْ إن كنْتمْ تحبّون اللّه فاتّبعوني يحْببْكم اللّه }.

كما أن من لازم محبة الله للعبد،أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل،كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله:"وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه،ولا يزال [عبدي] يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،وبصره الذي يبصر به،ويده التي يبطش بها،ورجله التي يمشي بها،ولئن سألني لأعطينه،ولئن استعاذني لأعيذنه".

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى،والإكثار من ذكره،فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدا،بل غير موجودة وإن وجدت دعواها،ومن أحب الله أكثر من ذكره،وإذا أحب الله عبدا قبل منه اليسير من العمل،وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم { أذلّةٍ على الْمؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين } فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم،ونصحهم لهم،ولينهم ورفقهم ورأفتهم،ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم،وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله،المعاندين لآياته،المكذبين لرسله – أعزة،قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم،وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم،قال تعالى:{ وأعدّوا لهم ما اسْتطعْتمْ من قوّةٍ ومن رباط الْخيْل ترْهبون به عدوّ اللّه وعدوّكمْ } وقال تعالى:{ أشدّاء على الْكفّار رحماء بيْنهمْ } فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله،ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم،ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن.فتجتمع الغلظة عليهم،واللين في دعوتهم،وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

{ يجاهدون في سبيل اللّه } بأموالهم وأنفسهم،بأقوالهم وأفعالهم.{ ولا يخافون لوْمة لائمٍ } بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين،وهذا يدل على قوة

همهم وعزائمهم،فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة،تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين،وتفتر قوته عند عذل العاذلين.وفي قلوبهم تعبد لغير الله،بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله،فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله،حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم منّ الصفات الجليلة والمناقب العالية،المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير -أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم،وليشكروا الذي منّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله،وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب،فقال:{ ذلك فضْل اللّه يؤْتيه من يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ } أي:واسع الفضل والإحسان،جزيل المنن،قد عمت رحمته كل شيء،ويوسع على أوليائه من فضله،ما لا يكون لغيرهم،ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه،فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلا وفرعا.[402]

تقضّى تحْذيرهمْ منْ أعْدائهمْ في الدّين،وتجْنيبهمْ أسْباب الضّعْف فيه،فأقْبل على تنْبيههمْ إلى أنّ ذلك حرْصٌ على صلاحهمْ في ملازمة الدّين والذّبّ عنْه،وأنّ اللّه لا يناله نفْعٌ منْ ذلك،وأنّهمْ لو ارْتدّ منْهمْ فريقٌ أوْ نفرٌ لمْ يضرّ اللّه شيْئًا،وسيكون لهذا الدّين أتْباعٌ وأنْصارٌ وإنْ صدّ عنْه منْ صدّ،وهذا كقوْله تعالى:إنْ تكْفروا فإنّ اللّه غنيٌّ عنْكمْ ولا يرْضى لعباده الْكفْر [الزمر:7]،وقوْله:يمنّون عليْك أنْ أسْلموا قلْ لا تمنّوا عليّ إسْلامكمْ بل اللّه يمنّ عليْكمْ أنْ هداكمْ للْإيمان إنْ كنْتمْ صادقين [الحجرات:17].

فجمْلة يا أيّها الّذين آمنوا منْ يرْتدّ منْكمْ إلخْ معْترضةٌ بيْن ما قبْلها وبيْن جمْلة إنّما وليّكم اللّه [الْمائدة:55]،دعتْ لاعْتراضها مناسبة الْإنْذار في قوْله ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ [الْمائدة:51].فتعْقيبها بهذا الاعْتراض إشارةٌ إلى أنّ اتّخاذ الْيهود والنّصارى أوْلياء ذريعةٌ للارْتداد،لأنّ اسْتمْرار فريقٍ على موالاة الْيهود والنّصارى من الْمنافقين وضعفاء الْإيمان يخْشى منْه أنْ ينْسلّ عن الْإيمان فريقٌ.وأنْبأ الْمتردّدين ضعفاء الْإيمان بأنّ الْإسْلام غنيٌّ عنْهمْ إنْ عزموا على الارْتداد إلى الْكفْر.

---

[402] - تفسير السعدي - (ج 1 / ص 235)

والارْتداد مطاوع الرّدّ،والرّدّ هو الْإرْجاع إلى مكانٍ أوْ حالةٍ،قال تعالى:ردّوهــا علــيّ [ص:٣٣].وقدْ يطْلق الرّدّ بمعْنى التّصْيير ومنْكمْ منْ يردّ إلى أرْذل الْعمر [النّحْل: ٧٠].وقدْ لوحظ في إطْلاق اسْم الارْتداد على الْكفْر بعْد الْإسْلام ما كانوا عليْــه قبْــل الْإسْلام من الشّرْك وغيْره،ثمّ غلب اسْم الارْتداد على الْخروج من الْإسْلام ولوْ لمْ يسْــبقْ للْمرْتدّ عنْه اتّخاذ دينٍ قبْله.

وجمْلة فسوْف يأْتي اللّه بقوْمٍ إلخْ جواب الشّرْط،وقدْ حذف منْها الْعائد علــى الشّــرْط الاسْميّ،وهو وعْدٌ بأنّ هذا الدّين لا يعْدم أتْباعًا بررةً مخْلصين.ومعْنى هذا الْوعْد إظْهــار الاسْتغْناء عن الّذين في قلوبهمْ مرضٌ وعن الْمنافقين وقلّة الاكْتراث بهمْ،كقوْله تعالى:لوْ خرجوا فيكمْ ما زادوكمْ إلّا خبالًا وتطْمين الرّسول والْمؤْمنين الْحقّ بأنّ اللّــه يعوّضهمْ بالْمرْتدّين خيْرًا منْهمْ.فذلك هو الْمقْصود منْ جواب الشّرْط فاسْتغْني عنْه بذكْر ما يتضمّنه حتّى كان للشّرْط جوابان.

وفي نزول هذه الْآية في أواخر حياة الرّسول ﷺ إيماءٌ إلى ما سيكون من ارْتداد كثيرٍ مــن الْعرب عن الْإسْلام مثْل أصْحاب الْأسْود الْعنْسيّ بالْيمن،وأصْحاب طلْحة بْن خويْلــدٍ في بني أسدٍ،وأصْحاب مسيْلمة بْن حبيبٍ الْحنفيّ بالْيمامة.ثمّ إلى ما كان بعْد وفاة الرّســول ﷺ من ارْتداد قبائل كثيرةٍ مثْل فزارة وغطفان وبني تميمٍ وكنْدة ونحْوهمْ.

قيل:لمْ يبْق إلّا أهْل ثلاثة مساجد:مسْجد الْمدينة ومسْجد مكّة ومسْــجد (جــؤاثى) في الْبحْريْن (أيْ منْ أهْل الْمدن الْإسْلاميّة يوْمئذٍ).وقدْ صدق اللّه وعْده ونصــر الْإسْــلام فأخْلفه أجْيالًا متأصّلةً فيه قائمةً بنصْرته.

وقوْله:يأْتي اللّه بقوْمٍ،الْإتْيان هنا الْإيجاد،أيْ يوجد أقْوامًا لاتّباع هذا الدّين بقلــوبٍ تحبّــه وتجْلب له وللْمؤْمنين الْخيْر وتذود عنْهمْ أعْداءهمْ،وهؤلاء الْقوْم قدْ يكونون منْ نفْــس الّذين ارْتدّوا إذا رجعوا إلى الْإسْلام خالصةً قلوبهمْ ممّا كان يخامرها من الْــإعْراض مثْــل معْظم قبائل الْعرب وسادتهم الّذين رجعوا إلى الْإسْلام بعْد الــرّدّة زمــن أبي بكْرٍ،فــإنّ مجْموعهمْ غيْر مجْموع الّذين ارْتدّوا،فصحّ أنْ يكونوا ممّنْ شمله لفْظ بقوْمٍ،وتحقّــق فــيهم الْوصْف وهو محبّة اللّه إيّاهمْ ومحبّتهمْ ربّهمْ ودينه،فإنّ الْمحبّتيْن تتْبعــان تغيّــر أحْــوال

الْقلوب لا تغيّر الْأشْخاص فإنّ عمْرو بن معد يكرب الّذي كان منْ أكْبر عصاة الـــرّدّة أصْبح منْ أكْبر أنْصار الْإسْلام في يوْم الْقادسيّة،وهكذا.

ودخل في قوْله بقوْمٍ الْأقْوام الّذين دخلوا في الْإسْلام بعْد ذلك مثْل عـــرب الشّـــام مـــن الْغساســـــنة،وعرب الْعــــراق ونبطهمْ،وأهْــــل فارس،والْقبْط،والْبرْبر،وفرنْجـــــة إسْبانيّة،وصقلّية،وســـــــــــرْدانيّة،وتخوم فرانْســـــــــــا،ومثْل التّـــــــــرْك والْمغول،والتّتار،والْهنْد،والصّين،والْإغْريق،والرّوم،من الْأمم الّتي كان لها شأْنٌ عظـــيمٌ في خدْمة الْإسْلام وتوْسيع مملْكته بالْفتوح وتأْييده بالْعلوم ونشْـــر حضــــارته بـــيْن الْـــأمم الْعظيمة،فكلّ أمّةٍ أوْ فريقٍ أوْ قوْمٍ تحقّق فيهمْ وصْف:يحبّهمْ ويحبّونه أذلّةٍ على الْمـــؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائمٍ فهمْ من الْقوْم الْمنوّه بهمْ أمّا الْمؤْمنون الّذين كانوا منْ قبْل وثبتوا فأولئك أعْظم شـــأْنًا وأقْـــوى إيمانًـــا فأتـــاهم الْمؤيّدون زرافاتٍ ووحْدانًا.

ومحبّة اللّه عبْده رضاه عنْه وتيْسير الْخيْر له،ومحبّة الْعبْد ربّه انْفعال النّفْس نحْو

تعْظيمه والْأنْس بذكْره وامْتثال أمْره والدّفاع عنْ دينه.فهي صفةٌ تحْصل للْعبْد منْ كثْـــرة تصوّر عظمة اللّه تعالى ونعمه حتّى تتمكّن منْ قلْبه،فمنْشؤها السّمْع والتّصوّر.وليْســـتْ هي كمحبّة اسْتحْسان الذّات،ألا ترى أنّا نحبّ النّبيء ﷺ منْ كثْرة ما نسْمع منْ فضائله وحرْصه على خيْرنا في الدّنْيا والْآخرة،وتقْوى هذه الْمحبّة بمقْدار كثْرة ممارســـة أقْوالـــه وذكْر شمائله وتصرّفاته وهدْيه،وكذلك نحبّ الْخلفاء الْأرْبعة لكثْرة ما نسْمع منْ حـــبّهم الرّسول ومنْ بذْلهمْ غاية النّصْح في خيْر الْمسْلمين،وكذلك نحبّ حاتمًا لما نسْـــمع مـــنْ كرمه.وقدْ قالتْ هنْد بنْت عتْبة امْرأة أبي سفْيان لرسول الله ﷺ:ما كان أهْل خباءٍ أحبّ إليّ منْ أنْ يذلّوا منْ أهْل خبائك وقدْ أصْبحْت وما أهْل خباءٍ أحبّ إليّ منْ أنْ يعزّوا منْ أهْل خبائك.

والْأذلّة والْأعزّة وصْفان متقابلان وصف بهما الْقوْم باخْتلاف الْمتعلّق بهما،فالْأذلّة جمْـــع الذّليل وهو الْموْصوف بالذّلّ.والذّلّ- بضمّ الذّال وبكسْرها- الْهوان والطّاعة،فهو ضدّ الْعزّ ولقدْ نصركم اللّه ببدْرٍ وأنْتمْ أذلّةٌ [آل عمران:١٢٣].وفي بعْض التّفاســـير:الـــذّلّ-

بضمّ الذّال- ضدّ الْعزّ- وبكسْر الذّال- ضدّ الصّعوبة،ولا يعْرف لهذه التّفْرقة سندٌ في اللّغة.والذّليل جمْعه الْأذلّة،والصّفة الذّلّ واخْفضْ لهما جناح الذّلّ من الرّحْمة [الْإسْراء:٢٤].ويطْلق الذّلّ على لين الْجانب والتّواضع،وهو مجازٌ،ومنْه ما في هذه الْآية.

فالْمراد هنا الذّلّ بمعْنى لين الْجانب وتوْطئة الْكنف،وهو شدّة الرّحْمة والسّعْي للنّفْع،ولذلك علّق به قوْله:على الْمؤْمنين.ولتضْمين أذلّةٍ معْنى مشْفقين حانين عدّي بعلى دون اللّام،أوْ لمشاكلة (على) الثّانية في قوْله:على الْكافرين.

والْأعزّة جمْع الْعزيز فهو الْمتّصف بالْعزّ،وهو الْقوّة والاسْتقْلال»،ولأجْل ما في طباع الْعرب من الْقوّة صار الْعزّ في كلامهمْ يدلّ على معْنى الاعْتداء،ففي الْمثل (منْ عزّ بزّ).وقدْ أصْبح الْوصْفان متقابليْن،فلذلك قال السّموْأل أو الْحارثيّ:

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا...عزيزٌ وجار الْأكْثرين ذليل

وإثْبات الْوصْفيْن الْمتقابليْن للْقوْم صناعةٌ عربيّةٌ بديعيّةٌ،وهي الْمسمّاة الطّباق،وبلغاء الْعرب يغرّبون بها،وهي عزيزةٌ في كلامهمْ،وقدْ جاء كثيرٌ منْها في الْقرْآن.وفيه إيماءٌ إلى أنّ صفاتهمْ تسيّرها آراؤهم الْحصيفة فليْسوا منْدفعين إلى فعْلٍ ما إلّا عنْ بصيرةٍ،وليْسوا ممّنْ تنْبعث أخْلاقه عنْ سجيّةٍ واحدةٍ بأنْ يكون ليّنًا في كلّ حالٍ،وهذا هو معْنى الْخلق الْأقْوم،وهو الّذي يكون في كلّ حالٍ بما يلائم ذلك الْحال،قال:

حليمٌ إذا ما الْحلْم زيّن أهْله...مع الْحلْم في عيْن الْعدوّ مهيب

وقال تعالى:أشدّاء على الْكفّار رحماء بيْنهمْ [الْفتْح:٢٩].

وقوْله:يجاهدون في سبيل اللّه صفةٌ ثالثةٌ،وهي منْ أكْبر الْعلامات الدّالّة على صدْق الْإيمان.والْجهاد:إظْهار الْجهْد،أي الطّاقة في دفاع الْعدوّ،ونهاية الْجهْد التّعرّض للْقتْل،ولذلك جيء به على صيغة مصْدر فاعل لأنّه يظْهر جهْده لمنْ يظْهر له مثْله.وقوْله: ولا يخافون لوْمة لائمٍ صفةٌ رابعةٌ،وهي عدم الْخوْف من الْملامة،أيْ في أمْر الدّين،كما هو السّياق.

واللّوْمة الْواحدة من اللّوْم.وأريد بها هنا مطْلق الْمصْدر،كاللّوْم لأنّها لمّا وقعتْ في سياق النّفْي فعمّتْ زال منْها معنى الْواحدة كما يزول معْنى الْجمْع في الْجمْع الْمعمّم بدخول

الْ الْجنْسيّة لأنّ (لا) في عموم النّفْي مثْل (الْ) في عموم الْإثْبات،أيْ لا يخـافون جميـع أنْواع اللّوْم منْ جميع اللّائمين إذ اللّوْم منْه:شديدٌ،كالتّقْريع،وخفيفٌ واللّائمون: منْهم اللّائم الْمخيف،والْحبيب فنفى عنْهمْ خوْف جميع أنْواع اللّوْم.ففي الْجمْلة ثلاثـة عمومات:عموم الْفعْل في سياق النّفْي،وعموم الْمفْعول،وعموم الْمضاف إليْـه.وهـذا الْوصْف علامةٌ على صدْق إيمانهمْ حتّى خالط قلوبهمْ بحيْث لا يصْرفهمْ عنْه شـيْءٌ مـن الْإغْراء واللّوْم لأنّ الانْصياع للْملام آية ضعْف الْيقين والْعزيمة.

ولمْ يزل الْإعْراض عنْ ملام اللّائمين علامةً على الثّقة بالنّفْس وأصالة الرّأْي.وقـدْ عـدّ فقهاؤنا في وصْف الْقاضي أنْ يكون مسْتخفًّا باللّائمة على أحـد تـأْويليْن في عبـارة الْمتقدّمين،واحْتمال التّأْويليْن دليلٌ على اعْتبار كليْهما شرْعًا.

وجمْلة ذلك فضْل اللّه يؤْتيه منْ يشاء تذْييلٌ.واسْم الْإشارة إشارةٌ إلى مجْمـوع صـفات الْكمال الْمذْكورة.

وواسعٌ وصْفٌ بالسّعة،أيْ عدم نهاية التّعلّق بصفاته ذات التّعلّق،وتقدّم بيانه عنْـد قوْلـه تعالى:قلْ إنّ الْفضْل بيد اللّه يؤْتيه منْ يشاء واللّه واسعٌ علـيمٌ في سـورة آل عمـران [٧٣][٤٠٣]

وفي الظلال:

يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه،وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ويخوضـونها معه.إنها معركة العقيدة.فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكـل أعدائـه..وهـم يعادونه لعقيدته ودينه،قبل أي شيء آخر،وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين اللّه،ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين اللّه:«قلْ يا أهْل الْكتاب هلْ تنْقمون منّا إلّا أنْ آمنّا باللّه،وما أنْزل إليْنا،وما أنْزل منْ قبْل.وأنّ أكْثركمْ فاسـقون» فهذه هي العقدة وهذه هي الدوافع الأصيلة! وقيمة هذا المنهج،وقيمة هذه التوجيهـات الأساسية فيه،عظيمة.فإخلاص الولاء للّه ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة علـى هذا الأساس،ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها..أمران مهمان سواء في تحقيـق

٤٠٣ - التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٤)

شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم،أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة..فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلا،ولا يكونون في ذواتهم شيئا،ولا يحققون في واقع الأرض أمرا ما لم تتم في نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم،وما لم يتمحض ولاؤهم للّه ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به،وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم،وما لم يستيقنوا أنهم جميعا إلب عليهم،وأن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء.

والنصوص في هذا الدرس لا تقف عند كشف بواعث المعركة في نفوس أعداء الجماعة المسلمة.بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم،ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه،وليطمئن ضميره إلى المعركة التي يخوضها،وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة،وأنه لا مفر منها:« يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الْيهود والنّصارى أوْلياء..بعْضهمْ أوْلياء بعْض»..«يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الّذين اتّخذوا دينكمْ هزواً ولعباً – من الّذين أوتوا الْكتاب منْ قبْلكمْ والْكفّار – أوْلياء.واتّقوا اللّه إنْ كنْتمْ مؤْمنين.وإذا ناديْتمْ إلى الصّلاة اتّخذوها هزواً ولعباً،ذلك بأنّهمْ قوْمٌ لا يعْقلون»..«وإذا جاؤكمْ قالوا:آمنّا.وقدْ دخلوا بالْكفْر وهمْ قدْ خرجوا به،واللّه أعْلم بما كانوا يكْتمون.وترى كثيراً منْهمْ يسارعون في الْإثْم والْعدْوان،وأكْلهم السّحْت لبئْس ما كانوا يعْملون!»..«وقالت الْيهود:يد اللّه مغْلولةٌ،غلّتْ أيْديهمْ ولعنوا بما قالوا.بلْ يداه مبْسوطتان ينْفق كيْف يشاء.وليزيدنّ كثيراً منْهمْ ما أنْزل إليْك منْ ربّك طغْياناً وكفْراً»..ومن هذه صفاتهم،ومواقفهم من الجماعة المسلمة،وتألبهم عليها،واستهزاؤهم بدينها وصلاتها،لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير..

كذلك تقرر النصوص نهاية المعركة ونتيجتها،وقيمة الإيمان في مصائر الجماعات في هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء في الحياة الآخرة:«ومنْ يتولّ اللّه ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزْب اللّه هم الْغالبون»..«ولوْ أنّ أهْل الْكتاب آمنوا واتّقوْا لكفّرْنا عنْهمْ سيّئاتهمْ ولأدْخلْناهمْ

جنّات النّعيم.ولوْ أنّهمْ أقاموا التّوْراة والْإنْجيل،وما أنْزل إليْهمْ منْ ربّهمْ،لأكلــوا مــنْ فوْقهمْ ومنْ تحْت أرْجلهمْ»..

كما تقرر صفة المسلم الذي يختاره اللّه لدينه،ويمنحه هذا الفصل العظيم في اختياره لهــذا الدور الكبير:

«يا أيّها الّذين آمنوا منْ يرْتدّ منْكمْ عنْ دينه فسوْف يأْتي اللّه بقوْمٍ يحبّهمْ ويحبّونه،أذلّــةٍ على الْمؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين،يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائمٍ..ذلــك فضْل اللّه يؤْتيه منْ يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ»..وكل هذه التقريرات خطوات في المنهج،وفي صياغة الفرد المسلم،والجماعة المسلمة على الأساس المتين.[٤٠٤]

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا – على هذه الصــورة.وفي هــذا المقــام – ينصرف – ابتداء – إلى الربط بين موالاة اليهــود والنصــارى وبــين الارتــداد عــن الإسلام.وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم،منسلخا من الجماعــة المسلمة منضما إليهم:«ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فإنّه منْهمْ»..وعلى هذا الاعتبار يكون هــذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول..يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق،وهو منصب على النهي عــن مــوالاة أهــل الكتــاب والكفار،يجمع بينهم على هذا النحو،الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار ســواء،وأن تفرقة الإسلام في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار،لا تتعلق بقضية الولاء،إنمــا هــي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء..

«يا أيّها الّذين آمنوا منْ يرْتدّ منْكمْ عنْ دينه،فسوْف يأْتي اللّه بقوْمٍ يحبّهمْ ويحبّونه،أذلّــةٍ على الْمؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين،يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائــمٍ.ذلــك فضْل اللّه يؤْتيه منْ يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ»..

إن اختيار اللّه للعصبة المؤمنة،لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين اللّه في الأرض،وتمكين سلطانه في حياة البشر،وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم،وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم،وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بــذلك المنــهج وبهــذه

---

[٤٠٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٠٠)

الشريعة..إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل اللّه ومنته.فمـــن شـــاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة..فهو وذاك.واللّـــه غـــني عنـــه – وعـــن العالمين.واللّه يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم.

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا،صورة واضحة السمات قوية الملامح،وضـــيئة جذابة حبيبة للقلوب:«فسوْف يأْتِي اللّه بقوْمٍ يحبّهمْ ويحبّونه»..

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم..الحب..هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق لرائق البشوش..هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب اللّه لعبد من عبيده،أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف اللّه – سبحانه – بصفاته كما وصف نفسه،وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشـــعوره وكينونته كلها..أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي..الـــذي يعرف من هو اللّه..من هو صانع هذا الكون الهائل،وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته.ومن هو في قدرته.ومن هو في تفرده.ومـــن هـــو في ملكوته..من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل اللّه عليه منه بالحب..والعبد من صنع يديه – سبحانه – وهو الجليل العظيم،الحي الدائم،الأزلي الأبدي،الأول والآخـــر والظـــاهر والباطن.وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقهـــا..وإذا كـــان حب اللّه لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما،وفضلا غامرا جزيلا،فإن إنعام اللّه على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد،الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلـــها ولا شبيه..هو إنعام هائل عظيم..وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب اللّه لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه،فإن حب العبد لربـــه أمـــر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين..وهذا هو البـــاب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين – وهم قليل من بين ذلك الحشد

الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل - ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد،وهي تقول [٤٠٥]:

فليتك تحلو والحياة مريرة...و ليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر...و بيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين...و كل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد،والحب من العبد للمنعم المتفضل،يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض،وينطبع في كل حي وفي كل شيء،فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود،ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب..وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة..إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل:«إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيجْعل لهم الرّحْمن ودًّا»..«إنّ ربّي رحيمٌ ودودٌ»..«وهو الْغفور الْودود»..«وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيب دعْوة الدّاع إذا دعان»..«والّذين آمنوا أشدّ حبًّا للّه»..«قلْ:إنْ كنْتمْ تحبّون اللّه فاتّبعوني يحْببْكم اللّه»..وغيرها كثير...

وعجبا لقوم يمرون على هذا كله،ليقولوا:إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف،يصور العلاقة بين اللّه والإنسان علاقة قهر وقسر،وعذاب وعقاب،وجفوة وانقطاع...لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن اللّه وأقنوم الإله،فيربط بين اللّه والناس،في هذا الازدواج! إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لا تجفف ذلك الندى الحبيب،بين اللّه والعبيد،فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل،وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد،وهي علاقة الحب كما أنها علاقة

[٤٠٥] - الأبيات نسبت لشعراء عدة انظر:جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور ـــ محتويات موقع أدب - (٧٧ / ٢٤٦) وجميع دواوين الشعر العربي على مر العصور ـــ محتويات موقع أدب - (٧٩ / ١٠٤) وزهر الأكم في الأمثال و الحكم - (١ / ٩٨) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - (٢ / ٦١١)

التتريه..إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين.

وهنا – في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين – يرد ذلك النص العجيب:«يحبّهمْ ويحبّونه» ويطلق شحنته كلها في هذا الجو،الذي يحتاج إليه القلب المؤمن،وهو يضطلع بهذا العبء الشاق.شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل..

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات:«أذلّةٍ على الْمؤْمنين»..

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين..فالمؤمن ذلول للمؤمن..غير عصيّ عليه ولا صعب.

هين لين..ميسر مستجيب..سمح ودود..وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة.إنما هي الأخوة،ترفع الحواجز،وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس،فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه.فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه،فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به..وماذا يبقى له في نفسه دونهم،وقد اجتمعوا في اللّه إخوانا يحبهم ويحبونه،ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟!

«أعزّةٍ على الْكافرين»..فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء..ولهذه الخصائص هنا موضع..إنها ليست العزة للذات،ولا الاستعلاء للنفس.إنما هي العزة للعقيدة،والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير،وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين اللّه على دين الهوى وبغلبة قوة اللّه على تلك القوى وبغلبة حزب اللّه على أحزاب الجاهلية..فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك،في أثناء الطريق الطويل..

«يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائمٍ»..فالجهاد في سبيل اللّه،لإقرار منهج اللّــه في الأرض،وإعلان سلطانه على البشر،وتحكيم شريعته في الحياة،لتحقيق الخير والصــلاح والنماء للناس..هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها اللّه ليصنع بها في الأرض ما يريد..

وهم يجاهدون في سبيل اللّه لا في سبيل أنفسهم ولا في سبيل قومهم ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم..في سبيل اللّــه.لتحقيــق منــهج اللّــه،وتقرير ســلطانه،وتنفيذ شريعته،وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق..وليس لهم في هذا الأمر شــيء،وليس لأنفسهم من هذا حظ،إنما هو للّه وفي سبيل اللّه بلا شريك..

وهم يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم..وفيم الخوف من لوم الناس،وهم قــد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف النــاس،وعرف الجيل،ومتعــارف الجاهلية،وهم يتبعون سنة اللّه،ويعرضون منهج اللّه للحياة؟ إنما يخشى لوم النــاس مــن يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس أمــا من يرجع إلى موازين اللّه ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشــهواتهم وقيمهم وأما من يستمد قوته وعزته من قوة اللّه وعزته،فما يبالي ما يقول النــاس ومــا يفعلون.كائنا هؤلاء الناس ما كانوا وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان،وكائنة «حضارة» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون!

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ولما يفعل الناس ولما يملك الناس ولما يصــطلح عليــه الناس ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين..لأننــا نغفــل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم..إنه منــهج اللّــه وشريعته وحكمه..فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ولو كان عــرف ملايــين الملايين،ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون! إنه ليست قيمة أي وضع،أو أي عرف،أو أي تقليد،أو أية قيمة..أنه موجود وأنه واقع وأن ملايــين البشــر يعتنقونه،ويعيشــون به،ويتخذونه قاعدة حياتهم..فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي.

إنما قيمة أي وضع،وأي عرف،وأي تقليد،وأية قيمة،أن يكــون لهــا أصــل في منــهج اللّه،الذي منه – وحده – تستمد القيم والموازين..

ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل اللّه ولا تخاف لومة لائم..فهذه سمـة المـؤمنين المختارين..

ثم إن ذلك الاختيار من اللّه،وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين،وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم،وهذا الاطمئنان إلى اللّه في نفوسهم،والسـير علـى هـداه في جهادهم..ذلك كله من فضل اللّه:«ذلك فضْل اللّه يؤْتيه مـنْ يشـاء.واللّـه واسـعٌ عليمٌ».يعطي عن سعة،ويعطي عن علم..وما أوسع هذا العطاء الذي يختار اللّه لـه مـن يشاء عن علم وعن تقدير.

ويحدد اللّه للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان ويبين لهـم مـن يتولون:«إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا،الّذين يقيمون الصّلاة ويؤْتون الزّكاة وهمْ راكعون»..هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالا للتمحل أو التأول ولا يترك فرصة لتمييع الحركة الإسلامية أو تمييع التصور..

و لم يكن بد أن يكون الأمر كذلك! لأن المسألة في صميمها – كما قلنا – هي مسـألة العقيدة.ومسألة الحركة بهذه العقيدة.وليكون الولاء للّه خالصا،والثقة به مطلقـة،وليكون الإسلام هو «الدين».وليكون الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام دينا،ولا تجعل الإسلام منهجا للحياة.

ولتكون للحركة الإسلامية جديتها ونظامها فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة.ولا يكون التناصر إلا بين العصبة المؤمنة لأنه تناصر في المنـهج المسـتمد مـن العقيدة..

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان،أو مجرد راية وشعار،أو مجـرد كلمـة تقـال باللسان،أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة،أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكـان! فـإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا:«الّذين يقيمـون الصّـلاة ويؤْتـون الزّكاة،وهمْ راكعون»..

فمن صفتهم إقامة الصلاة – لا مجرد أداء الصلاة – وإقامة الصـلاة تعـني أداءهـا أداء كاملا،تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعـالى:«إنّ الصّـلاة تنْهـى عـن الْفحْشـاء

والْمنْكر»..والذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يقم الصلاة فلو أقامها لنهتـــه كما يقول اللّه! ومن صفتهم إيتاء الزكاة..أي أداء حق المال طاعة للّه وقربى عن رضـــى نفس ورغبة،فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية،إنما هي كذلك عبـــادة.أو هـــي عبـــادة مالية.وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي.الذي يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة.ولـــيس كذلك الأنظمة الأرضية التي تحقق هدفا وتفرط في أهداف..

إنه لا يغني في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة (مدنيـــة!) أو أن يأخـــذ المال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة،أو باسم الشعب،أو باسم جهة أرضية ما..فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفا واحدا وهو إيصال المال للمحتاجين..

فأما الزكاة..فتعني اسمها ومدلولها..إنها قبل كل شيء طهارة ونماء..إنها زكـــاة للضـــمير بكونها عبادة للّه.وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء،بما أنها عبادة للّـــه يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة،كما يرجو منها نماء المال في الحيـــاة الـــدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك.ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم إذ يشعرون أنها فضل اللّه عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء (مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكســـبون إلا من حلال ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال)..وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضي الخير الطيب..جو الزكاة والطهارة والنماء..

وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة اللّه في شئون الحياة فهي إقرار منهم بسلطان اللّه في أمرهم كله..وهذا هو الإسلام..

«وهمْ راكعون»..ذلك شأنهم،كأنه الحالة الأصـــلية لهـــم..ومـــن ثم لم يقـــف عنـــد قوله:«يقيمون الصّلاة»..فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل.إذ أنها ترسمهم للخاطر كـــأن هذا هو شأنهم الدائم.فأبرز سمة لهم هي هذه السمة،وبها يعرفون..وما أعمـــق إيحـــاءات التعبيرات القرآنية في مثل هذه المناسبات! واللّه يعد الذين آمنـــوا – في مقابـــل الثقـــة به،والالتجاء إليه،والولاء له وحده – ولرسوله وللمؤمنين بالتبعية..

ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض للّه.يعدهم النصر والغلبة:

«ومنْ يتولّ اللّه ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزْب اللّه هم الْغالبون»..وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها..وأنها هي الولاء للّه ورسوله وللمؤمنين وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتبار ه خروجا من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى،وارتدادا عن الدين..

وهنا لفتة قرآنية مطردة..فاللّه – سبحانه – يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير! لا لأنه سيغلب،أو سيمكن له في الأرض فهذه ثمرات تأتي في حينها وتأتي لتحقيق قدر اللّه في التمكين لهذا الدين لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين..والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم.لا شيء لذواتهم وأشخاصهم.وإنما هو قدر اللّه يجريه على أيديهم،ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم! فيكون لهم ثواب الجهد فيه وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين اللّه في الأرض،وصلاح الأرض بهذا التمكين..

كذلك قد يعد اللّه المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم – وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة – فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة وتخطي العقبة،والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد اللّه للأمة المسلمة،فيكون لهم ثواب الجهاد،وثواب التمكين لدين اللّه،وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين.

كذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال،بحالة الجماعة المسلمة يومذاك،وحاجتها إلى هذه البشريات.بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب اللّه..مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطاع من السورة.

ثم تخلص لنا هذه القاعدة التي لا تتعلق بزمان ولا مكان..فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن اللّه التي لا تتخلف.وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف.فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب اللّه هم الغالبون..ووعد اللّه القاطع أصدق من ظواهر الأمور في

بعض مراحل الطريق! وأن الولاء للّه ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المـؤدي لتحقـق وعد اللّه في نهاية الطريق!

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقا منوعة،لنهي الذين آمنوا عن تـولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين،ولتقرير هذه القاعدة الإيمانيـة في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم.مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي وفي الحركة الإسلامية على السواء..

وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر،وطريق التخويف من أن يأتي اللّه بالفتح أو أمر من عنده،فينكشف ستر المنافقين..وسلك في النداء الثاني طريـق التحذير من الردة بموالاة أعداء اللّه ورسوله والمؤمنين وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة.ممن يحبهم اللّه ويحبونه وطريق الوعد بالنصر لحزب اللّه الغالب..[٤٠٦]

وقال الجصاص:

في الْآية دلالةٌ على صحّة إمامة أبي بكْرٍ وعمر وعثْمان وعلي رضي الله عنهم وذلك لأنّ الّذين ارْتدّوا منْ الْعرب بعْد وفاة النّبيّ ﷺ إنّما قاتلهمْ أبو بكْرٍ وهـؤلاء الصّـحابة،وقدْ أخْبر اللّه أنّه يحبّهمْ ويحبّونه وأنّهمْ يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لوْمة لائمٍ،ومعْلـومٌ أنّ منْ كانتْ هذه صفته فهو وليّ اللّه.ولمْ يقاتلْ الْمرْتدّين بعْد الـنّبيّ ﷺ غيْـر هـؤلاء الْمذْكورين وأتْباعهمْ؛ ولا يتهيّأ لأحدٍ أنْ يجْعل الْآية في غيْر الْمرْتدّين بعْد وفاة الـنّبيّ ﷺ منْ الْعرب ولا في غيْر هؤلاء الْأئمّة؛ لأنّ اللّه تعالى لمْ يأْت بقـوْمٍ يقـاتلون الْمرْتـدّين الْمذْكورين في الْآية غيْر هؤلاء الذين قاتلوا مع أبي بكر.

ونظير ذلك أيْضًا في دلالته على صحّة إمامة أبي بكْرٍ قوْله تعالى:{قلْ للْمخلّفـين مـن الْأعْراب ستدْعوْن إلى قوْمٍ أولي بأْسٍ شديد تقاتلوهمْ أوْ يسْلمون فإنْ تطيعوا يؤْتكم اللّـه أجْراً حسناً} [الفتح:١٦] لأنّه كان الدّاعي لهمْ إلى قتال أهْل الرّدّة،وأخْبر تعالى بوجوب طاعته عليْهمْ بقوْله:{فإنْ تطيعوا يؤْتكم اللّه أجْراً حسناً وإنْ تتولّوْا كما تولّيْتمْ منْ قبْـل يعذّبْكمْ عذاباً أليماً} [الفتح:١٦].

---

[٤٠٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٣١٢)

فإنْ قال قائلٌ:يجوز أنْ يكون النّبيّ ﷺ هو الّذي دعاهمْ.قيل له:قال اللّه تعالى:{فقلْ لــنْ تخْرجوا معي أبداً ولنْ تقاتلوا معي عدوّاً} [التوبة:٨٣] فأخْبر أنّهمْ لا يخْرجون معه أبــدًا ولا يقاتلون معه عدوًّا.فإنْ قال قائلٌ جائزٌ أنْ يكون عمر هو الّذي دعاهمْ.قيــل لــه:إنْ كان كذلك فإمامة عمر ثابتةٌ بدليل الْآية،وإذا صحّتْ إمامته صحّتْ إمامة أبي بكْرٍ لأنّــه هو الْمسْتخْلف له..فإنْ قيل جائزٌ أنْ يكون عليٌّ هو الّذي دعــاهمْ إلى محاربــة مــنْ حارب.قيل له:قال اللّه تعالى:{تقاتلونهمْ أوْ يسْلمون} [الفتح:١٦] وعليٌّ رضي اللّه عنْه إنّما قاتل أهْل الْبغْي وحارب أهْل الْكتاب على أنْ يسْلموا أوْ يعْطوا الْجزْية،ولمْ يحــاربْ أحدٌ بعْد النّبيّ ﷺ على أنْ يسْلموا غيْر أبي بكْرٍ،فكانتْ الْآية دالّةً على صحّة إمامته.

قال اللّه تعالى:{إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصّــلاة ويؤْتــون الزّكاة وهمْ راكعون} روي عنْ مجاهدٍ والسّدّيّ وأبي جعْفرٍ وعتْبة بْن أبي حكيمٍ:أنّهــا نزلتْ في عليّ بْن أبي طالبٍ حين تصدّق بخاتمه وهو راكعٌ وروي عــنْ الْحســن أنّــه قال:"هذه الْآية صفة جميع الْمسْلمين؛ لأنّ قوْله تعالى:{الّذين يقيمون الصّلاة ويؤْتــون الزّكاة وهمْ راكعون} صفةٌ للْجماعة وليْستْ للْواحد".وقدْ اخْتلف في معنى قوله {وهمْ راكعون} فقيل فيه:إنّهمْ كانوا على هذه الصّفة في وقْت نزول الْآية،منْهمْ مــنْ قــدْ أتمّ الصّلاة ومنْهمْ منْ هو راكعٌ في الصلاة.وقال آخرون:"معنى {وهمْ راكعون} أنّ ذلــك منْ شأْنهمْ،وأفْرد الرّكوع بالذّكْر تشْريفًا له".وقال آخرون:"معْناه أنّهمْ يصلّون بالنّوافــل كما يقال فلانٌ يرْكع أيْ يتنفّل".فإنْ كان الْمراد فعْل الصّدقة في حال الرّكوع فإنّه يدلّ على إباحة الْعمل الْيسير في الصّلاة،وقدْ روي عنْ النّبيّ ﷺ أخْبارٌ في إباحة الْعمل الْيسير فيها،فمنْها أنّه خلع نعْليْه في الصّلاة،ومنْها أنّه مسّ لحْيته وأنّه أشار بيده،ومنْها حــديث ابْن عبّاسٍ أنّه قام على يسار النّبيّ ﷺ فأخذ بذؤابته وأداره إلى يمينه،ومنْها أنّه كان يصلّي وهو حاملٌ أمامة بنْت أبي الْعاص بْن الرّبيع،فــإذا ســجد وضــعها وإذا رفــع رأْســه حملها.فدلالة الْآية ظاهرةٌ في إباحة الصّدقة في الصّلاة لأنّه إنْ كان الْمراد الرّكوع فكان تقْديره:"الّذين يتصدّقون في حال الرّكوع فقدْ دلّتْ علــى إباحــة الصّــدقة في هــذه

الْحال،وإنْ كان الْمراد وهمْ يصلّون فقدْ دلّتْ على إباحتها في سائر أحْــوال الصّــلاة؛ فكيْفما تصرّفتْ الْحال فالْآية دالّةٌ على إباحة الصّدقة في الصّلاة.

فإنْ قال قائلٌ:فالْمراد أنّهمْ يتصدّقون ويصلّون،ولمْ يردْ به فعْل الصّدقة في الصّلاة.قيــل له:هذا تأْويلٌ ساقطٌ،منْ قبل أن قوله تعالى {وهمْ راكعون} إخْبارٌ عنْ الْحال الّتي تقــع فيها الصّدقة،كقوْلك:تكلّم فلانٌ وهو قائمٌ،وأعْطى فلانًا وهو قاعدٌ،إنّما هو إخْبارٌ عــنْ حال الْفعْل وأيْضًا لوْ كان الْمراد ما ذكرْت،كان تكْــرارًا لمــا تقــدّم ذكْــره في أوّل الخطاب.قوله تعالى:{الّذين يقيمون الصّلاة} ويكون تقْديره:"الّذين يقيمــون الصّــلاة ويصلّون" وهذا لا يجوز في كلام اللّه تعالى فثبت أنّ الْمعْنى ما ذكرْنا منْ مدْح الصّدقة في حال الرّكوع أوْ في حال الصّلاة وقوله تعالى:{ويؤْتون الزّكاة وهمْ راكعون} يدلّ على أنّ صدقة التّطوّع تسمّى زكاةً لأنّ عليًّا تصدّق بخاتمه تطوّعًا وهو نظير قوْله تعالى:{وما آتيْتمْ منْ زكاةٍ تريدون وجْه اللّه فأولئك هم الْمضْعفون} [الروم:٣٩] انْــتظم صــدقة الْفرْض والنّفل فصار اسْم الزّكاة يتناول الْفرْض والنّفل كاسْم الصّدقة وكاسْم الصّــلاة ينْتظم الأمرين.[٤٠٧]

وقال تعالى:{ يسْألونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه وكفْرٌ به والْمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْه أكْبر عند اللّه والْفتْنة أكْــبر مــن الْقتْل ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عن دينكمْ إن اسْتطاعواْ ومن يرْتددْ منكمْ عن دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأوْلئك حبطتْ أعْمــالهمْ في الــدّنْيا والآخــرة وأوْلئــك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون} (٢١٧) سورة البقرة

بعث الرّسول ﷺ عبْد الله بْن جحْشٍ على سريّةٍ وأمرها بأمْرٍ،فلقيت السّريّة ابْن الحضْرميّ فقتلتْه،ولمْ يعْرفْ رجال السّريّة إنْ كان ذلك اليوْم منْ رجبٍ أوْ منْ جمادى الآخرة،فقال المشْركون للْمسْلمين:قتلْتمْ في الشّهْر الحرام،فأنْزل الله هذه الآية.وفيها يقــول ســبْحانه للْمشْركين:إنّ القتال في الشّهر الحرام أمْرٌ كبير في نفْسه،وجرْمٌ عظيمٌ،ولكنّه إذا ارتكب

[٤٠٧] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٥٦)

لإزالة ما هو أعْظم منْه،كان له ما يبرّره،وإنّ ما فعله المشْركون من الكفْر بالله،والصّـــدّ عنْ سبيله،ومحاولة فتْنة المسْلمين عنْ دينهمْ بالتّعْذيب والتّهْديد،وإخراج المسْـــلمين مـــنْ مكّة.كلّ ذلك أكْبر عنْد الله من القتال في الشّهْر الحرام.

وقدْ كان المشْركون يفْتنون المسْلمين عنْ دينـــهمْ بالتّعْـــذيب والإخافـــة ليردّوهـــمْ إلى الكفْر،وهذا أكْبر عنْد الله من القتْل،وهمْ ما زالوا مقيمين على الكفْر،وعلى محاولة فتْنـــة المسْلمين ليردّوهمْ عنْ دينهمْ إن اسْتطاعوا،وعلى محاولة منْع الإسْـــلام مـــن الانْتشـــار والقضاء عليه،إنْ أمْكنهم ذلك،لاسْتحْكام عداوتهمْ للمسْلمين.ويهدّد الله منْ يضْعف من المسْلمين أمام هجماتهمْ،ومحاولاتهمْ وإغْراءاتهمْ فيرْتدّ عنْ دينه،ثمّ يموت وهو كافرٌ،بالعذاب الأليم الأبديّ في نار جهنّم،وبحبوط عمله في الدّنيا والآخرة[٤٠٨].

وقال السعدي:"الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم،منسوخ بـــالأمر بقتـــال المشركين حيثما وجدوا،وقال بعض المفسرين:إنه لم ينسخ،لأن المطلـــق محمـــول علـــى المقيد،وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقا؛ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم،بل أكبر مزاياها،تحريم القتال فيها،وهذا إنما هو في قتال الابتداء،وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم،كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل،لسرية عبد الله بن جحش،وقتلهم عمرو بن الحضرمي،وأخذهم أموالهم،وكان ذلك – على مـــا قيـــل – في شـــهر رجـــب،عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم،وكانوا في تعييرهم ظالمين،إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين،قال تعالى في بيان ما فيهم:{ وصدٌّ عنْ سبيل اللّه } أي:صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله،وفتنتهم من آمن به،وســـعيهم في ردهـــم عـــن دينهم،وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام،والبلد الحرام،الـــذي هـــو بمجرده،كـــاف في الشر،فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟! { وإخْراج أهْله } أي:أهل المســـجد الحرام،وهم النبي ﷺ وأصحابه،لأنهم أحق بـــه مـــن المشـــركين،وهم عمـــاره علـــى الحقيقة،فأخرجوهم { منْه } ولم يمكنوهم من الوصول إليه،مع أن هذا البيـــت ســـواء

---

[٤٠٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

العاكف فيه والباد،فهذه الأمور كل واحد منها { أكْبر من الْقتْل } في الشهر الحرام،فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة،في تعييرهم المؤمنين.ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين،وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم،وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم،ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير،فهم باذلون قدرتهم في ذلك،ساعون بما أمكنهم،ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}.

وهذا الوصف عام لكل الكفار،لا يزالون يقاتلون غيرهم،حتى يردوهم عن دينهم،وخصوصا،أهل الكتاب،من اليهود والنصارى،الذين بذلوا الجمعيات،ونشروا الدعاة،وبثوا الأطباء،وبنوا المدارس،لجذب الأمم إلى دينهم،وتدخيلهم عليهم،كل ما يمكنهم من الشبه،التي تشككهم في دينهم.

ولكن المرجو من الله تعالى،الذي منّ على المؤمنين بالإسلام،واختار لهم دينه القيم،وأكمل لهم دينه،أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام،وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره،ويجعل كيدهم في نحورهم،وينصر دينه،ويعلي كلمته.وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار،كما صدقت على من قبلهم:{ إنّ الّذين كفروا ينْفقون أمْوالهمْ ليصدّوا عنْ سبيل اللّه فسينْفقونها ثمّ تكون عليْهمْ حسْرةً ثمّ يغْلبون والّذين كفروا إلى جهنّم يحْشرون }.ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام،بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرا،{ فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والآخرة } لعدم وجود شرطها وهو الإسلام،{ وأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون }.

ودلت الآية بمفهومها،أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام،أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته،وكذلك من تاب من المعاصي،فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.[409]

وقال القرطبي:

اخْتلف الْعلماء في الْمرْتدّ هلْ يسْتتاب أمْ لا؟ وهلْ يحْبط عمله بنفْس الرّدّة أمْ لا،إلّا على الْموافاة على الْكفْر؟ وهلْ يورث أمْ لا؟ فهذه ثلاث مسائل:

---

[409] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٩٧)

الْأولى- قالتْ طائفةٌ:يسْتتاب،فإنْ تاب وإلّا قتل،وقال بعْضهمْ:ساعةٌ واحدةٌ.وقال آخرون:يسْتتاب شهْرًا.وقال آخرون:يسْتتاب ثلاثًا،على ما روي عنْ عمر وعثْمان،وهو قوْل مالكٍ رواه عنْه ابْن الْقاسم.وقال الْحسن:يسْتتاب مائة مرّةٍ،وقدْ روي عنْه أنّه يقْتل دون اسْتتابةٍ،وبه قال الشّافعيّ في أحد قوْليْه،وهو أحد قوْليْ طاوسٍ وعبيْد بْن عميْرٍ.وذكر سحْنون أنّ عبْد الْعزيز بْن أبي سلمة الْماجشون كان يقول:يقْتل الْمرْتدّ ولا يسْتتاب،واحْتجّ بحديث معاذٍ وأبي موسى،وفيه:أنّ النّبيّ ﷺ لّما بعث أبا موسى إلى الْيمن أتْبعه معاذ بْن جبلٍ فلمّا قدم عليْه قال:انْزلْ،وألْقى إليْه وسادةً،وإذا رجلٌ عنْده موثقٌ،قال:ما هذا؟ قال:هذا كان يهوديًّا فأسْلم ثمّ راجع دينه دين السّوء فتهوّد.قال:لا أجْلس حتّى يقْتل،قضاء اللّه ورسوله،فقال:اجْلسْ.قال:[نعمْ] لا أجْلس حتّى يقْتل،قضاء اللّه ورسوله- ثلاث مرّاتٍ- فأمر به فقتل،خرّجه مسْلمٌ وغيْره.وذكر أبو يوسف عنْ أبي حنيفة أنّ الْمرْتدّ يعْرض عليْه الْإسْلام فإنْ أسْلم وإلّا قتل مكانه،إلّا أنْ يطْلب أنْ يؤجّل،فإنْ طلب ذلك أجّل ثلاثة أيّامٍ،والْمشْهور عنْه وعنْ أصْحابه أنّ الْمرْتدّ لا يقْتل حتّى يسْتتاب.والزّنْديق عنْدهمْ والْمرْتدّ سواءٌ.وقال مالكٌ:وتقْتل الزّنادقة ولا يسْتتابون.وقدْ مضى هذا أوّل" الْبقرة ".واخْتلفوا فيمنْ خرج منْ كفْرٍ إلى كفْرٍ،فقال مالكٌ وجمْهور الْفقهاء:لا يتعرّض له،لأنّه انْتقل إلى ما لوْ كان عليْه في الابْتداء لأقرّ عليْه.وحكى ابْن عبْد الْحكم عن الشّافعيّ أنّه يقْتل،لقوْله عليْه السّلام:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه" ولمْ يخصّ مسْلمًا منْ كافرٍ.وقال مالكٌ:معْنى الْحديث منْ خرج من الْإسْلام إلى الْكفْر،وأمّا منْ خرج منْ كفْرٍ إلى كفْرٍ فلمْ يعْن بهذا الْحديث،وهو قوْل جماعةٍ من الْفقهاء.والْمشْهور عن الشّافعيّ ما ذكره الْمزنيّ والرّبيع أنّ الْمبدّل لدينه من أهل الذمة يلحقه الامام بأرْض الْحرْب ويخْرجه منْ بلده ويسْتحلّ ماله مع أمْوال الْحرْبيّين إنْ غلب على الدّار،لأنّه إنّما جعل له الذّمّة على الدّين الّذي كان عليْه في حين عقْد الْعهْد.واخْتلفوا في الْمرْتدّة،فقال مالكٌ والْأوْزاعيّ والشّافعيّ واللّيْث بْن سعْدٍ:تقْتل كما يقْتل الْمرْتدّ سواءٌ،وحجّتهمْ ظاهر الْحديث:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه".و" منْ" يصْلح للذّكر والْأنْثى.وقال الثّوْريّ وأبو حنيفة وأصْحابه:لا تقْتل الْمرْتدّة،وهو قوْل ابْن

شبْرمة،وإليْه ذهب ابْن عليّة،وهو قوْل عطاء والْحسن.واحْتجّوا بأنّ ابْن عبّاسٍ روى عن النّبيّ ﷺ أنّه قال:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه" ثمّ إنّ ابْن عبّاسٍ لمْ يقْتل الْمرْتدّة،ومنْ روى حديثًا كان أعْلم بتأْويله،وروي عنْ عليٍّ مثْله.ونهى ﷺ عنْ قتْل النّساء والصّبْيان.واحْتجّ الْأوّلون بقوْله عليْه السّلام:" لا يحلّ دم امْرئٍ مسْلمٍ إلّا بإحْدى ثلاثٍ كفْرٌ بعْد إيمانٍ..." فعمّ كلّ منْ كفر بعْد إيمانه،وهو أصحّ.

وقال الشّافعيّ:إنّ من ارْتدّ ثمّ عاد إلى الْإسْلام لمْ يحْبطْ عمله ولا حجّه الّذي فرغ منْه،بلْ إنْ مات على الرّدّة فحينئذٍ تحْبط أعْماله.وقال مالكٌ:تحْبط بنفْس الرّدّة،ويظْهر الْخلاف في الْمسْلم إذا حجّ ثمّ ارْتدّ ثمّ أسْلم،فقال مالكٌ:يلْزمه الْحجّ،لأنّ الْأوّل قدْ حبط بالرّدّة.وقال الشّافعيّ:لا إعادة عليْه،لأنّ عمله باقٍ.واسْتظْهر علماؤنا بقوْله تعالى:" لئنْ أشْركْت ليحْبطنّ عملك".قالوا:وهو خطابٌ للنّبيّ ﷺ والْمراد أمّته،لأنّه عليْه السّلام يسْتحيل منْه الرّدّة شرْعًا.وقال أصْحاب الشّافعيّ:بلْ هو خطاب النّبيّ ﷺ على طريق التّغْليظ على الْأمّة،وبيانٌ أنّ النّبيّ ﷺ على شرف منْزلته لوْ أشْرك لحبط عمله،فكيْف أنْتمْ! لكنّه لا يشْرك لفضْل مرْتبته،كما قال:" يا نساء النّبيّ منْ يأْت منْكنّ بفاحشةٍ مبيّنةٍ يضاعفْ لها الْعذاب ضعْفيْن " وذلك لشرف منْزلتهنّ،وإلّا فلا يتصور إتيان منْهنّ صيانةً لزوْجهنّ الْمكرّم الْمعظّم،ابْن الْعربيّ.وقال علماؤنا:إنّما ذكر اللّه الْموافاة شرْطًا ها هنا لأنّه علّق عليْها الْخلود في النّار جزاءً،فمنْ وافى على الْكفْر خلّده اللّه في النّار بهذه الْآية،ومنْ أشْرك حبط عمله بالآية الأخرى،فهما آيتان مفيدتان لمعْنييْن وحكْميْن متغايريْن.وما خوطب به عليْه السّلام فهو لأمّته حتّى يثْبت اخْتصاصه،وما ورد في أزْواجه فإنّما قيل ذلك فيهنّ ليبيّن أنّه لوْ تصوّر لكان هتْكان أحدهما لحرْمة الدّين،والثّاني لحرْمة النّبيّ ﷺ،ولكلّ هتْك حرْمةٍ عقابٌ،وينْزل ذلك منْزلة منْ عصى في الشّهْر الْحرام أوْ في الْبلد الْحرام أوْ في الْمسْجد الْحرام،يضاعف عليْه الْعذاب بعدد ما هتك من الْحرمات.واللّه أعْلم.[٤١٠]

وفي الظلال:

---

٤١٠ - تفسير القرطبي (٣/ ٤٧)

وقد جاء في روايات متعددة بعث عبد الله بن جحْش الأسديّ إلى نَخْلة فى رجــب،على رأْس سبعة عشر شهراً من الهجْرة،فى اثنى عشر رجلاً من المهاجرين،كلّ اثنين يعتقبـــان على بعير،فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش،وفى هذه السَّرِيّة سمّى عبد الله بـــن جحش أمير المؤمنين،وكان رسول الله ﷺكتب له كتاباً،وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين،ثم ينظر فيه،ولما فتح الكتاب،وجد فيه:"إذا نظرْت فى كتابى هذا،فامْض حتّى تنْزل نَخْلة بيْن مكّة والطّائف،فترْصد بها قريْشاً،وتعْلم لنـــا مـــنْ أخْبـــارهم" فقـــال:سمعـــاً وطاعةً،وأخبر أصحابه بذلك،وبأنه لا يستكرههم،فمن أحبّ الشهادة،فلينهض،ومن كره الموت،فليرجعْ،وأما أنا فناهض،فمضوْا كلّهم،فلما كان فى أثناء الطريق،أضلّ سعد بن أبى وقاص،وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعْتقبانه،فتخلفا فى طلبه،وبعد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة،فمرّت به عيرٌ لقريش تحْمل زبيباً وأدمـــاً وتجـــارةً فيهـــا عمْـــرو بـــن الحضْرمى،وعثمان،ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة.

فتشاور المسلمون وقالوا:نحن فى آخر يومٍ من رجب الشهر الحرام،فإن قاتلناهم،انتـــهكنا الشهر الحرام،وإن تركناهم الليلة،دخلوا الحرم،ثم أجمعوا على ملاقـــاتهم،فرمى أحـــدهم عمْرو بن الحضرمى فقتله،وأسروا عثمان والحكم،وأفْلـــت نوفـــل،ثم قـــدموا بـــالعير والأسيرين،وقد عزلوا من ذلك الخمس،وهو أول خمس كان فى الإسلام،وأول قتيـــل فى الإسلام،وأول أسيرين فى الإسلام،وأنكر رسول الله ﷺعليهم ما فعلوه،واشـــتدّ تعنّـــت قريش وإنكارهم ذلك،وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً،فقالوا:قد أحـــلّ محمـــد الشـــهر الحرام،واشتد على المسلمين ذلك،حتى أنزل الله تعالى:{يسْئلونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه،قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ،وصدٌ عنْ سبيل الله وكفْرٌ به والمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْـــه أكْبر عنْد الله،والفتْنة أكْبر من الْقتْل} [البقرة:٢١٧].[٤١١]

قال ابن القيم:" يقول سبحانه:هذا الذى أنكرتموه عليهم،وإن كان كبيراً،فما ارتكبتموه أنتم مِن الكفر بالله،والصدِّ عن سبيله،وعن بيتِه،وإخراجِ المسلمين الـــذين هـــم أهلُـــه

[٤١١] – سيرة ابن هشام [١ /٦٠٢] وزاد المعاد في هدي خير العباد–مؤسسة الرسالة، بيروت [٣ /١٦٧] و تفسير ابن كثير – دار طيبة [١ /٥٧٥]

منه،والشرك الذى أنتم عليه،والفتنة التى حصلت منكم به أكبرُ عند الله من قتالهم فى الشهر الحرام،وأكثرُ السَلَف فسَّروا الفتنة ههنا بالشرك،كقوله تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] ويدل عليه قوله:{ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلا أنْ قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام:٢٣] أى: لم يكن مآلُ شركهم،وعاقبته وآخرُ أمرهم،إلا أن تبرّؤوا منه وأنكروه.

وحقيقتها:أنها الشرك الذى يدعو صاحبُه إليه،ويُقاتِل عليه،ويُعاقب مَن لم يَفتتِنْ به،ولهذا يُقال لهم وقتَ عذابهم بالنار وفتنتهم بها:{ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات:١٤] قال ابن عباس:"تكذيبَكم"،وحقيقته:ذوقوا نهاية فتنتكم،وغايَتَها،ومصيرَ أمرها،كقوله:{ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الزمر:٢٤]،وكما فتنوا عباده على الشرك،فُتِنُوا على النار،وقيل لهم:ذوقوا فتنتكم،ومنه قوله تعالى:{إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ} [البروج:١٠] فُسِّرت الفتنةُ ههنا بتعذيبهم المؤمنين،وإحراقهم إياهم بالنار،واللَّفظُ أعمُّ من ذلك،وحقيقته:عذَّبُوا المؤمنين ليفتَتِنُوا عن دينهم،فهذه الفتنةُ المضافةُ إلى المشركين.

وأما الفتنة التى يُضيفها اللهُ سبحانه إلى نفسه أو يُضيفها رسولُه إليه،كقوله:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [الأنعام:٥٣] وقول موسى:{إنْ هِىَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ} [الأعراف:١٥٥]،فتلك بمعنى آخر،وهى بمعنى الامتحان،والاختبار،والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر،بالنعم والمصائب،فهذه لون،وفتنةُ المشركين لون،وفتنة المؤمن فى ماله وولده وجاره لون آخر،والفتنة التى يوقعها بين أهل الإسلام،كالفتنة التى أوقعها بين أصحاب علىّ ومعاوية،وبين أهل الجمل وصفين،وبين المسلمين،حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر،وهى الفتنة التى قال فيها النبى ﷺ:"سَتَكُونُ فِتْنَةٌ،القَاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ،والقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِى،والماشى فيها خَيْرٌ من السَّاعِى" وأحاديثُ الفتنة التى أمر رسولُ الله ﷺفيها باعتزال الطائفتين،هى هذه الفتنة.

وقد تأتى الفتنة مراداً بها المعصية كقوله تعالى:{وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّى وَلا تَفْتِنِّى} [التوبة:٤٩] يقوله الجدُّ بنُ قيس،لما ندبه رسولُ الله ﷺإلى تبوكَ،يقول:ائذن لى فى

القُعود،ولا تفتني بتعرضي لبنات بني الأصفر،فإني لا أَصْبِرُ عنهن،قال تعالى:{أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} [التوبة:٤٩]،أي:وقعوا في فتنة النفاق،وفروا إليها من فتنة بناتِ الأصفر.

والمقصود:أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف،و لم يُبرئ أولياءَه من ارتكاب الإثم بالقتالِ في الشهر الحرام،بل أخبر أنه كبير،وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبرُ وأعظمُ مِن مجردِ القتالِ في الشهر الحرام،فهم أحقُّ بالذمِّ والعيبِ والعُقوبَةِ،لا سيما وأولياؤه كانوا متأوِّلين في قتالهم ذلك،أو مقصِّرين نوعَ تقصير يغفِره الله لهم في جنب ما فعلوه مِن التوحيد والطاعات،والهجرة مع رسوله،وإيثارِ ما عند الله،فهم كما قيل:

وإذَا الحَبِيبُ أَتى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ...جَاءَتْ مَحَاسِنُه بِأَلْفِ شَفِيع

فكيف يُقاس ببغيضٍ عدوٍ جاء بكُلِّ قبيح،و لم يأت بشفيع واحد مِن المحاسن[٤١٢].

وعنْ جنْدب بْن عبْد اللّه،"أن ّرسول اللّه ﷺ بعث رهْطًا وبعث عليْهمْ أبا عبيْدة بْن الْجرّاح أوْ عبيْدة بْن الْحارث،فلمّا ذهب ينْطلق بكى صبابةً إلى رسول اللّه ﷺ،فجلس،فبعث عليْهمْ مكانه عبْد اللّه بْن جحْشٍ وكتب له كتابًا وأمره ألا يقْرأ الْكتاب حتّى يبْلغ مكان كذا وكذا،فقال:لا تكْرهنّ أحدًا على السّيْر معك منْ أصْحابك.فلمّا قرأ الْكتاب،اسْترْجع،وقال:سمْعًا وطاعةً للّه ولرسوله.فخبّرهم الْخبر وقرأ عليْهم الْكتاب،فرجع رجلان،ومضى بقيّتهمْ،فلقوا ابْن الْحضْرميّ فقتلوه.و لمْ يدْروا أنّ ذلك الْيوْم منْ رجب أوْ منْ جمادى ؟ فقال الْمشْركون للْمسْلمين:قتلْتمْ في الشّهْر الْحرام،فأنْزل اللّه تعالى:" يسْألونك عن الشّهْر الْحرام قتالٌ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ " "[٤١٣].

عَنْ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ،وَاسْتَفْتَيْتُهُ:" هَلْ يَصْلُحُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ؟ فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ:" نَعَمْ " قَالَ بُكَيْرٌ:وَقَالَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِه:أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ بِمَا نَزَلَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ

---

[٤١٢] - زاد المعاد في هدي خير العباد-مؤسسة الرسالة، بيروت [٣ /١٦٨]

[٤١٣] - تفسير ابن أبي حاتم [٢ /٨٨] (٢٠٦٤) صحيح شرح مشكل الآثار [١٢ /٣٨٧]

قَالَ:حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ،عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:{ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبة:٢] قَالَ:" حَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولَهُ ﷺأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاءُوا،وَحَدَّ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ انْسِلَاخَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى انْسِلَاخِ الْمُحَرَّمِ خَمْسِينَ لَيْلَةً:{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ،وَآتُوا الزَّكَاةَ،فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة:٥] فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ،أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ السَّيْفَ فِيمَنْ عَاهَدَ إِنْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ،وَنَقَضَ مَا سَمَّى لَهُمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ،وَأَذْهَبَ الْمِيقَاتَ،وَأَذْهَبَ الشَّرْطَ الْأَوَّلَ،ثُمَّ قَالَ:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [التوبة:٧]،يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٧]،وَقَوْلُهُ:{ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } [التوبة:٨]،قَوْلُهُ:إِلًّا:الْقَرَابَةُ،وَالْعَهْدُ:الذِّمَّةُ فَلَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ،انْتُقِضَتِ الْعُهُودُ،وَقَاتَلَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدَهُمْ،وَقَعَدَ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ حَتَّى دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ،فَلَمْ يُؤْوَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ بَرَاءَةَ " فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْعُهُودَ كُلَّهَا انْقَطَعَتْ بِمَا تَلَوْنَا فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ،وَحَلَّ الْقِتَالُ فِي الزَّمَانِ كُلِّهِ،وَحَمَلْنَا عَلَى قَبُولِ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَإِنْ كَانَ لَمْ يَلْقَهُ ؛لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ عَنْهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ،وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَقَدْ حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَاضِي قَالَ:سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ فَهْدٍ يَقُولُ:سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ:بِمِصْرَ كِتَابُ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ فِي التَّأْوِيلِ،لَوْ دَخَلَ رَجُلٌ إِلَى مِصْرَ،فَكَتَبَهُ،ثُمَّ انْصَرَفَ بِهِ مَا رَأَيْتُ رِجْلَيْهِ ذَهَبَتْ بَاطِلًا وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ".".[414]

« يسْئلونك عن الشّهْر الْحرام قتالٍ فيه؟ قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ»..نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام،وتقرر أن القتال فيه كبيرة،نعم! ولكن:«وصدٌّ عنْ سبيل اللّه وكفْرٌ به والْمسْجد الْحرام وإخْراج أهْله منْه أكْبر عنْد اللّه.والْفتْنة أكْبر من الْقتْل»..

إن المسلمين لم يبدأوا القتال،و لم يبدأوا العدوان.إنما هم المشركون.هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل اللّه،والكفر به وبالمسجد الحرام.لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن

[414] -شرح مشكل الآثار [١٢ /٣٨٧]

سبيل اللّه.ولقد كفروا باللّه وجعلوا الناس يكفرون.ولقد كفروا بالمسجد الحرام.انتهكوا حرمته فآذوا المسلمين فيه،وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة.وأخرجوا أهله منه،وهو الحرم الذي جعله اللّه آمنا،فلم يأخذوا بحرمته و لم يحترموا قدسيته..وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه من القتال في الشهر الحرام..وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند اللّه من القتل.

وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.

ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات الذين يتخذون منها ستارا حين يريدون،وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم،لأنهم عادون باغون أشرار،لا يرقبون حرمة،ولا يتحرجون أمام قداسة.وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل.وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه،لتشويه موقف الجماعة المسلمة،وإظهارها بمظهر المعتدي..وهم المعتدون ابتداء.وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

إن الإسلام منهج واقعي للحياة،لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية.إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية.يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد.يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها،ولا ترفوف في خيال حالم،ورؤى مجنحة:لا تجدي على واقع الحياة شيئا! هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون.لا يقيمون للمقدسات وزنا،ولا يتحرجون أمام الحرمات،ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة.يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه،ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء،ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!..ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام،ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات،ويرفعون أصواتهم:انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم

بحلول مثالية نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح،بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح،ولا يتورعون عن سلاح..!

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا،لأنه يريد مواجهة الواقع،لدفعه ورفعه.يريد أن يزيل البغي والشر،وأن يقلم أظافر الباطل والضلال.ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة،ويسلم القيادة للجماعة الطيبة.ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة،وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة! إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات،ويشدد في هذا المبدأ ويصونه.ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات،ويؤذون الطيبين،ويقتلون الصالحين،ويفتنون المؤمنين،ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان! وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد..إنه يحرم الغيبة..ولكن لا غيبة لفاسق..فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه.وهو يحرم الجهر بالسوء من القول.ولكنه يستثني «إلّا منْ ظلم»..فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول،لأنه حق.ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه! ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة.ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة..إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم،وإلى قتالهم وقتلهم،وإلى تطهير جو الحياة منهم..هكذا جهرة وفي وضح النهار..

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة،وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات..حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها اللّه.

هذا هو الإسلام..صريحا واضحا قويا دامغا،لا يلف ولا يدور ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور.

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة،لا تتأرجح فيها أقدامهم،وهم يمضون في سبيل اللّه،لتطهير الأرض من الشر والفساد،ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها

الهواجس وتؤذيها الوساوس..هذا شر وفساد وبغي وباطل..فلا حرمة له إذن،ولا يجوز أن يتترس بالحرمات،ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة في سلام مع ضمائرهم،وفي سلام من اللّه..

ويمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة،وتمكين هذه القاعدة،وإقرار قلوب المسلمين وأقدامهم..يمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم،وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم:«ولا يزالون يقاتلونكمْ حتّى يردّوكمْ عنْ دينكمْ إن اسْتطاعوا»..

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم.وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل..إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم.فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل،ويرهبه كل باغ،ويكرهه كل مفسد.إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج،ومن منهج قويم،ومن نظام سليم..إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد.ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.

ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه،ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة.ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم،وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين،وتتبع هذا المنهج،وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته،ولكن الهدف يظل ثابتا..أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا.وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره،وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها..والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام،وينبهها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد،والصبر على الحرب،وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر:«ومنْ يرْتددْ منْكمْ عنْ دينه فيمتْ وهو كافرٌ،فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والْآخرة وأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون»..

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت..والقــرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل،فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي..يتطــابق تضــخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره،وهلاكه في النهاية وبواره..مع تضــخم حجــم الناقــة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ!

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وغرفه تحت مطارق الأذى والفتنة – مهما بلغــت – هذا مصيره الذي قرره اللّه له..حبوط العمل في الدنيا والآخرة.ثم ملازمة العذاب في النار خلودا.

إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه،لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبــدا.إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له.وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة.فاللّــه رحيم.رخص للمسلم – حين يتجاوز العذاب طاقته – أن يقي نفسه بالتظاهر،مع بقــاء قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان.ولكنه لم يرخص لــه في الكفــر الحقيقــي،وفي الارتداد الحقيقي،بحيث يموت وهو كافر..والعياذ باللّه..

وهذا التحذير من اللّه قائم إلى آخر الزمان..ليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنــة فيترك دينه ويقينه،ويرتد عن إيمانه وإسلامه،ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه..وهنــاك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن اللّه.واللّه لا يترك عبــاده الــذين يؤمنــون به،ويصبرون على الأذى في سبيله.فهو معوضهم خيرا:إحــدى الحســنيين:النصــر أو الشهادة.

وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله لا ييئس منــها مــؤمن عــامر القلــب بالإيمان:«إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللّه أولئك يرْجون رحْمــت اللّه،واللّه غفورٌ رحيمٌ»..

ورجاء المؤمن في رحمة اللّه لا يخيبه اللّه أبدا..ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق،فجاهدوا وصبروا،حتى حقق اللّه لهــم وعــده بالنصــر أو

الشهادة.وكلاهما خير.وكلاهما رحمة.وفازوا بمغفرة اللّه ورحمته:«واللّه غفورٌ رحيمٌ»..وهو هو طريق المؤمنين..[415]

وفي مشكل الآثار:

باب بيان مشْكل ما روي عنْ رسول الله ﷺ منْ قوْله:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه "

عنْ عكْرمة أنّ عليًّا رضي الله عنْه أتي بقوْمٍ زنادقةٍ أو ارْتدّوا عن الْإسْلام،ووجدوا معهمْ كتبًا،فأمر بنارٍ فأجّجتْ فألْقاهمْ وكتبهمْ،فبلغ ذلك ابْن عبّاسٍ،فقال:لوْ أنّي كنْت أنا لقتلْتهمْ ؛ لقوْل رسول الله ﷺ ولمْ أحرّقْهمْ ؛ لنهْي رسول الله ﷺ:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه ولا تعذّبوا بعذاب الله "

وعن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنْهما عن النّبيّ ﷺ قال:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه "

وعن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنْهما قال:قال رسول الله ﷺ:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه "

وعنْ عكْرمة قال:ذكر عنْد ابْن عبّاسٍ قوْمٌ أحْرقهمْ عليٌّ،فقال:لوْ كنْت لقتلْتهمْ لقوْل رسول الله ﷺ:" منْ بدّل دينه فاقْتلوه "،ولمْ أكنْ لأحرّقهمْ بالنّار لقوْل رسول الله ﷺ:" لا يعذّب بعذاب الله أحدٌ " فبلغ ذلك عليًّا رضي الله عنْه،فكأنّه لمْ يشْتهه

وعن ابْن عبّاسٍ رضي الله عنْهما عنْ رسول الله ﷺ مثْله قال أبو جعْفرٍ:فذهب ذاهبون إلى أنّ من ارْتدّ عن الْإسْلام وجب قتْله رجع إلى الْإسْلام أوْ لمْ يرْجعْ إليْه،وجعلوا ارْتداده موجبًا عليْه الْقتْل حدًّا لما كان منْه.قالوا:كما أنّ الزّاني لا ترْفع عنْه توْبته حدّ الزّنى،وكما أنّ السّارق لا ترْفع عنْه توْبته حدّ السّرقة كان مثْل ذلك الْمرْتدّ لا ترْفع عنْه توْبته حدّ ردّته وهو الْقتْل فكان منْ حجّتنا عليْهمْ في ذلك لمخالفتهمْ فيه أنّا وجدْنا الله عزّ وجلّ أمرنا بإقامة حدّ الزّنى على الزّاني وبإقامة حدّ السّرقة على السّارق،فقال عزّ وجلّ في كتابه:{الزّانية والزّاني فاجْلدوا كلّ واحدٍ منْهما مائة جلْدةٍ}،وقال:{والسّارق والسّارقة فاقْطعوا أيْديهما} [المائدة:٣٨] فكان اسْم الزّنى غيْر مفارقٍ للزّاني،وإنْ ترك الزّنى،وكذلك اسْم السّارق لازمٌ للسّارق،وإنْ زال عن السّرقة وتركها.ووجدْنا الْمرْتدّ قدْ صار بردّته كافرًا،وكان إذا زال عن الرّدّة إلى الْإسْلام لا يجوز أنْ يقال له كافرٌ ؛ لأنّه

[415] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٣)

إنّما كان يجوز أنْ يسمّى بالْكفْر لّما كان كافرًا،فلمّا خرج عن الْكفْر وصار مسْــلمًا لمْ يجزْ أنْ يقال له:كافرٌ ؛ لأنّه لا يجوز مع ذلك أنْ يسمّى مسْلمًا،فاسْتحال أنْ يســمّى في حالٍ واحدةٍ كافرًا مسْلمًا؛وقدْ قال الله عزّ وجلّ {إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنــوا ثمّ كفروا ثمّ ازْدادوا كفْرًا} [النساء:١٣٧]،فأثْبت لهمْ عزّ وجلّ الْإيمان بعْد كفْرهم الّــذي كان منْهم ارْتدادًا عن الْإيمان،ولّما كان ما ذكرْنا كذلك كان معْقولًا أنّ منْ لزمه اسْــم معْنًى منْ هذه الْمعاني،ولمْ يزلْ عنْه ذلك الاسْم كان منْ أهْله،ووجب أنْ تقــام عليْــه عقوبته،وإنّ منْ كان منْ أهْلها في حالٍ،فزال عنْه الاسْم الّذي يسمّى به أهْلها زالتْ عنْه الْعقوبة الْواجبة على أهْل ذلك الاسْم،وقدْ وجدْنا عنْ رسول الله ﷺ ما يوجــب علــى الرّاجع من الرّدّة من الاسْم ما ذكرْنا منْ رفْع الْقتْل عنْه بذلك،فعن ابْن عبّاسٍ رضــي الله عنْهما قال:ارْتدّ رجلٌ من الْأنْصار فلحق بمكّة،ثمّ ندم،فأرْسل إلى قوْمه سلوا رســول الله ﷺ:هلْ لي منْ توْبةٍ؟ قال:فأنْزل الله عزّ وجلّ:{كيْف يهْدي الله قوْمًا كفروا بعْد إيمــانهمْ وشهدوا أنّ الرّسول حقٌّ} [آل عمران:٨٦] إلى قوْله:{إلّا الّذين تابوا منْ بعْــد ذلــك وأصْلحوا} [آل عمران:٨٩] فكتبوا بها إليْه فاسْترْجع فأسْلم قال أبو جعْفرٍ:فقال أهْــل الْمقالة الْأولى:فقدْ وجدْنا في كتاب الله عزّ وجلّ ما يدلّ على ما ذكرْنا،وهو قوْله جــلّ وعزّ {إنّه منْ يشْركْ بالله فقدْ حرّم الله عليْه الْجنّة} [المائدة:٧٢]،فأخْبر عزّ وجلّ أنّه منْ أشْرك بالله عزّ وجلّ حرمه الْجنّة،ولمْ يذْكرْ عزّ وجلّ أنّ رجوعه عنْ شرْكه يخْرجه مــنْ ذلك حتّى يعود إلى أنْ يكون منْ أهْل الْجنّة.[ص:٣٠٨] فكان جوابنا له في ذلك بتوْفيق الله عزّ وجلّ وعوْنه أنّه قدْ يجوز أنْ يكون أراد بذلك الشّرْك الّذي يكون منْ أهْله حتّى يموت على ذلك كما قال:عزّ وجلّ في الْآية الْأخْرى {ومنْ يرْتددْ منْكمْ عنْ دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ في الدّنْيا والْآخرة} [البقرة:٢١٧] الْآيــة،فبيّن عــزّ وجلّ في هذه الْآية أنّه أراد بالْوعيد الّذي فيها منْ يموت على ردّته لا منْ يرْجع منْها إلى الْإسْلام الّذي كان منْ أهْله قبْل ذلك فمثْل ذلك قوْله عزّ وجلّ {إنّه منْ يشْركْ بالله فقدْ

حرّم الله عليْه الْجنّة} [المائدة:٧٢] هو الشّرْك الّذي يموت عليْه لا الشّرْك الّذي ينْزع عنْه ويرْجع إلى الْإسْلام حتّى يموت عليْه،والله عزّ وجلّ نسْأله التّوْفيق[٤١٦]

وفي الأم:

[باب الْمرْتدّ الْكبير]

(أخْبرنا الرّبيع بْن سليْمان) قال (أخْبرنا محمّد بْن إدْريس الشّافعيّ) قال:قال اللّه تبــارك وتعالى {وقاتلوهمْ حتّى لا تكون فتْنةٌ ويكون الدّين كلّه للّه} [الأنفال:٣٩] وقال عــزّ وجلّ {فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ} [التوبة:٥] إلى قوْله {فخلّــوا ســبيلهمْ} [التوبة:٥] وقال اللّه تبارك اسْمه {ومنْ يرْتددْ منْكمْ عنْ دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأولئك حبطتْ أعْمالهمْ} [البقرة:٢١٧] الْآية وقال تعالى {ولقدْ أوحي إليْك وإلى الّــذين مــنْ قبْلك لئنْ أشْركْت ليحْبطنّ عملك ولتكوننّ من الْخاسرين} [الزمر:٦٥] أخْبرنا الثّقــة عنْ حمّاد بْن زيْدٍ عنْ يحْيى بْن سعيدٍ عنْ أبي أمامة بْن سهْلٍ عنْ عثْمان بْــن عفّــان أنّ رسول اللّه – ﷺ – قال:«لا يحلّ دم امْرئٍ مسْلمٍ إلّا بإحْدى ثلاثٍ:كفْرٌ بعْد إيمانٍ وزنًــا بعْد إحْصانٍ وقتْل نفْسٍ بغيْر نفْسٍ» (قال الشّافعيّ):فلمْ يجزْ في قوْل الــنّبيّ – ﷺ – «لا يحلّ دم امْرئٍ مسْلمٍ إلّا بإحْدى ثلاثٍ»:إحْداهنّ الْكفْر بعْد الْإيمان إلّا أنْ تكــون كلمــة الْكفْر تحلّ الدّم كما يحلّه الزّنا بعْد الْإحْصان أوْ تكون كلمة الْكفْر تحلّ الدّم إلّا أنْ يتوب صاحبه فدلّ كتاب اللّه عزّ وجلّ ثمّ سنّة رسول اللّه – ﷺ – أنّ معْنى قوْل رسول اللّه – ﷺ – «كفْرٌ بعْد إيمانٍ» إذا لمْ يتبْ منْ الْكفْر وقدْ وضعْت هذه الدّلائل مواضعها وحكم اللّه عزّ وجلّ في قتْل منْ لمْ يسْلمْ منْ الْمشْركين وما أباح جلّ ثناؤه منْ أمْوالهمْ ثمّ حكم رسول اللّه – ﷺ – في الْقتْل بالْكفْر بعْد الْإيمان يشْبه – واللّه تعالى أعْلم – أنْ يكون إذا حقن الدّم بالْإيمان ثمّ أباحه بالْخروج منْه أنْ يكون حكْمه حكْم الّذي لمْ يــزلْ كــافرًا محاربًا وأكْبر منْه؛لأنّه قدْ خرج منْ الّذي حقن به دمه ورجع إلى الّذي أبيح الــدّم فيــه والْمال والْمرْتدّ به أكْبر حكْمًا منْ الّذي لمْ يزلْ مشْركًا؛لأنّ اللّه عزّ وجلّ أحْبط بالشّرْك بعْد الْإيمان كلّ عملٍ صالحٍ قدّم قبْل شرْكه وأنّ اللّه – جلّ ثناؤه – كفّر عمّنْ لمْ يــزلْ

[٤١٦] – شرح مشكل الآثار (٧/ ٣٠٣)(٢٨٦٤ – ٢٨٦٩)

مشْركًا ما كان قبْله وأنّ رسول اللّه – ﷺ – أبان أنّ منْ لمْ يزلْ مشْركًا ثمّ أسْلم كفّــر عنْه ما كان قبْل الشّرْك «وقال لرجلٍ كان يقدّم خيْرًا في الشّرْك أسْلمْت على ما ســبق لك منْ خيْرٍ» وأنّ منْ سنّة رسول اللّه – ﷺ – فيمنْ ظفر به منْ رجال الْمشْركين أنّــه قتل بعْضهمْ،ومنّ على بعْضهمْ وفادى ببعْضٍ وأخذ الْفدْية مــنْ بعْــضٍ فلــمْ يخْتلــفْ الْمسْلمون أنّه لا يحلّ أنْ يفادى بمرْتدٍّ بعْد إيمانه ولا يمنّ عليْه ولا تؤْخذ منْــه فدْيــةٌ ولا يتْرك بحالٍ حتّى يسْلم أوْ يقْتل.واللّه أعْلم.[٤١٧]

جهاد المنافقين:

قال تعالى:{ يا أيّها النّبيّ جاهد الْكفّار والْمنافقين واغْلظْ عليْهمْ ومأْواهمْ جهنّم وبــئْس الْمصير} (٧٣) سورة التوبة

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَبْذُلَ الْجَهْدَ فِي مُقَاوَمَةِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ،الذينَ يَعيشُــونَ بَيْنَ ظَهْرانِي الْمُسْلمينَ،مثْلَما تَبْذُلُهُ هَاتَانِ الطَّائفَتَانِ فِي عَدَاوَةِ الرَّسُــولِ وَالْمُسْــلمينَ،كَمَا يَأْمُرُهُ بِمُعَامَلَتِهِمَا بِالشِّدَّةِ وَالغَلْظَةِ لِتَرْتَدِعَا،وَيَرْتَدِعَ مَنْ خَلْفَهُمَا.وَمُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ تَكُــونُ بِالسَّيْفِ،وَمُجَاهَدَةُ الْمُنَافِقِينَ تَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ،وَسَيَكُونُ مَصِيرُ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبداً،وَبِذَلِكَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.[٤١٨].

يقول تعالى لنبيه ﷺ:{يا أيّها النّبيّ جاهد الْكفّار والْمنافقين } أي:بــالغ في جهــادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.وهذا الجهــاد يــدخل فيــه الجهــاد باليد،والجهاد بالحجة واللسان،فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد،واللسان والســيف والبيان.ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد،فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويــبين لــه محاسن الإسلام،ومساوئ الشرك والكفر،فهذا ما لهم في الدنيا.{و} أما في الآخرة،فــ{ مأْواهمْ جهنّم } أي:مقرهم الذي لا يخرجون منها { وبئْس الْمصير }.[٤١٩]

---

[٤١٧] - الأم للشافعي (٦/ ١٦٨)

[٤١٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٩، بترقيم الشاملة آليا)

[٤١٩] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٤٤)

وقال ابن كثير رحمه الله:

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ،كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ،سَيْفٍ لِلْمُشْرِكِينَ:{فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التَّوْبَةِ:٥] وَسَيْفٍ لِلْكُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التَّوْبَةِ:٢٩] وَسَيْفٍ لِلْمُنَافِقِينَ:{جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التَّوْبَةِ:٧٣،التَّحْرِيمِ:٩] وَسَيْفٍ لِلْبُغَاةِ:{فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الْحُجُرَاتِ:٩]

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُجَاهَدُونَ بِالسُّيُوفِ إِذَا أَظْهَرُوا النِّفَاقَ،وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} قَالَ:بِيَدِهِ،[فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ] فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَكْفَهِرَّ فِي وَجْهِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ،وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ،وَأَذْهَبَ الرِّفْقَ عَنْهُمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ:جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ،وَاغْلُظْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ بِالْكَلَامِ،وَهُوَ مُجَاهَدَتُهُمْ.وَعَنْ مُقَاتِلٍ،وَالرَّبِيعِ مِثْلُهُ.وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ:مُجَاهَدَتُهُمْ إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ يُقَالُ:إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ،لِأَنَّهُ تَارَةً يُؤَاخِذُهُمْ بِهَذَا،وَتَارَةً بِهَذَا بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ،واللَّهُ أَعْلَمُ.[٤٢٠]

وفي الظلال:

لقد كان الرسول - ﷺ- لاين المنافقين كثيرا،وأغضى عنهم كثيرا،وصفح عنهم كثيرا..فها هو ذا يبلغ الحلم غايته،وتبلغ السماحة أجلها،ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة

---

[٤٢٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٧٨)

جديدة،ويلحقهم بالكافرين في النص،ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهادا عنيفا غليظا لا رحمة فيه ولا هوادة.

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها.فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع..وللحركة مقتضياتها،وللمنهج مراحله.واللين في بعض الأحيان قد يؤذي،والمطاولة قد تضر.وقد اختلف في الجهاد والغلظة على المنافقين.أتكون بالسيف كما روي عن علي – كرم اللّه وجهه – واختاره ابن جرير – رحمه اللّه – أم تكون في المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روي عن ابن عباس – رضي اللّه عنه – والذي وقع – كما سيجيء – أن رسول اللّه – ﷺ- لم يقتل المنافقين..

«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا.وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ،وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا»..

والنص في عمومه يستعرض حالة المنافقين في كثير من مواقفهم،ويشير إلى ما أرادوه مرارا من الشر للرسول – ﷺ- وللمسلمين..وهناك روايات تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية:عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:" يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ "إِلَى قَوْلِهِ" وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ " قَالَ:"ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلَيْنِ اقْتَتَلا،أَحَدُهُمَا مِنْ جُهَيْنَةَ،وَالآخَرُ مِنْ غِفَارَ،وَكَانَتْ جُهَيْنَةُ حُلَفَاءَ الأَنْصَارِ،فَظَهَرَ الْغِفَارِيُّ عَلَى الْجُهَنِيِّ فَنَادَى عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ:يَا بَنِي أَوْسٍ،انْصُرُوا أَخَاكُمْ،وَقَالَ:وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،وَقَالَ " لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ " فَسَعَى بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فأرسل نبي الله ﷺ،فَسَأَلَهُ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا:فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنُ " يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا " ".[٤٢١].

ويروي الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال:كان رسول الله ﷺجالسًا في ظلّ شجرة،فقال:إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان،فإذا جاء فلا تكلموه.فلم يلبث أن طلَع رجل أزرقُ،فدعاه رسول الله ﷺ،فقال:علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟

---

[٤٢١] – تفسير ابن أبي حاتم [٧ /٣٣٩][(١٠٦٢٥) صحيح مرسل

فانطلق الرجل فجاء بأصحابه،فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا،حتى تجـاوَز عنـهم،فأنزل الله:(يحلفون بالله ما قالوا)،ثم نعتهم جميعًا،إلى آخر الآية.[٤٢٢]

وعن هشام بن عروة،عن أبيه:(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر)،قال:نزلـت في الجلاس بن سويد بن الصامت،قال:"إن كان ما جاء به محمد حقًّا،لنحن أشـرُّ مـن الحُمُر!"،فقال له ابن امرأته:والله،يا عدو الله،لأخبرن رسول الله ﷺبمـا قلت،فـإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعةٌ،وأؤاخذ بخطيئتك ! فدعا الـنبي ﷺالجلاس،فقـال:"يـا جُلاس،أقلت كذا وكذا؟ فحلف ما قال،فأنزل الله تبارك وتعالى:(يحلفون بالله ما قـالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا وما نَقَموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله).[٤٢٣]..

وعن هشام بن عروة،عن أبيه قال:نزلت هذه الآية:(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم)،في الجلاس بن سويد بن الصامت،أقبل هو وابـن امرأتـه مُصْعَب من قُباء،فقال الجلاس:إن كان ما جاء به محمد حقًّا لنحن أشرُّ من حُمُرنا هـذه التي نحن عليها ! فقال مصعب:أما والله،يا عدو الله،لأخبرنَّ رسول الله ﷺبمـا قلـتَ ! فأتيتُ النبيَّ ﷺ،وخشـيت أن يـترل فيَّ القـرآن،أو تصـيبني قارعـة،أو أن أخْلَـط [بخطيئته]،قلت:يا رسول الله،أقبلت أنا والجلاس من قباء،فقال كذا وكذا،ولولا مخافة أن أُخْلَط بخطيئته،أو تصيبني قارعة،ما أخبرتك.قال:فدعا الجلاس فقال له:يا جلاس،أقلـت الذي قال مصعب؟ قال:فحلف،فأنزل الله تبارك وتعالى:(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم)،الآية[٤٢٤].

ولكن هذه الروايات لا تنسجم مع عبارة:«وهموا بما لم ينالوا»[٤٢٥] وهذه تضافر الروايات على أن المعنيّ بها ما أراده جماعة من المنافقين في أثناء العودة من الغزوة،من قتل رسـول اللّه – ﷺ– غيلة وهو عائد من تبوك.فنختار إحداها:

---

[٤٢٢] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٣٦٣](١٦٩٧٣) صحيح

[٤٢٣] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٣٦١] (١٦٩٦٧) صحيح مرسل

[٤٢٤] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٣٦٢](١٦٩٦٨) صحيح مرسل

[٤٢٥] – قلت:تعدد الترول ممكن،فلا تنافي بين هذه الروايات– علي

روى الإمام أحمد - رحمه اللّه - عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ،قَالَ:لَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى:إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَخَذَ الْعَقَبَةَ،فَلاَ يَأْخُذْهَا أَحَدٌ،فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺيَقُودُهُ حُذَيْفَةُ وَيَسُوقُ بِهِ عَمَّارٌ إِذْ أَقْبَلَ رَهْطٌ مُتَلَثِّمُونَ عَلَى الرَّوَاحِلِ،غَشَوْا عَمَّارًا وَهُوَ يَسُوقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَقْبَلَ عَمَّارٌ يَضْرِبُ وُجُوهَ الرَّوَاحِلِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِحُذَيْفَةَ:قُدْ،قُدْ،حَتَّى هَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَلَمَّا هَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺنَزَلَ وَرَجَعَ عَمَّارٌ،فَقَالَ:يَا عَمَّارُ،هَلْ عَرَفْتَ الْقَوْمَ ؟ فَقَالَ:قَدْ عَرَفْتُ عَامَّةَ الرَّوَاحِلِ وَالْقَوْمُ مُتَلَثِّمُونَ قَالَ:هَلْ تَدْرِي مَا أَرَادُوا ؟ قَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺفَيَطْرَحُوهُ،قَالَ:فَسَأَلَ عَمَّارٌ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺفَقَالَ:نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ،كَمْ تَعْلَمُ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ فَقَالَ:أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَقَالَ:إِنْ كُنْتَ فِيهِمْ فَقَدْ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ،فَعَذَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنْهُمْ ثَلاَثَةً قَالُوا:وَاللَّهِ مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ،وَمَا عَلِمْنَا مَا أَرَادَ الْقَوْمُ،فَقَالَ عَمَّارٌ:أَشْهَدُ أَنَّ الاِثْنَيْ عَشَرَ الْبَاقِينَ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ.

قَالَ الْوَلِيدُ:وَذَكَرَ أَبُو الطُّفَيْلِ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ لِلنَّاسِ:وَذُكِرَ لَهُ:أَنَّ فِي الْمَاءِ قِلَّةً فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺمُنَادِيًا فَنَادَى:أَنْ لاَ يَرِدَ الْمَاءَ أَحَدٌ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ فَوَرَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺفَوَجَدَ رَهْطًا قَدْ وَرَدُوهُ قَبْلَهُ،فَلَعَنَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺيَوْمَئِذٍ.[٤٢٦].

هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم.وسواء كانت هي أو شيء مثلها هو الذي تعنيه الآية،فإنه ليبدو عجيبا أن تنطوي صدور القوم على مثل هذه الخيانة.والنص يعجب هنا منهم:«وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»..فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها..اللهم إلا أن يكون الغنى الذي غمرهم بعد الإسلام،والرخاء الذي أصابهم بسببه هو ما ينقمون! ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم،بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل:«فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ،وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ،وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»..

[٤٢٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٨٥٣]((٢٣٧٩٢) ٢٤٢٠٢) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /١٨١] صحيح - العقبة:مرتفع في الطريق ضيق.

بعد هذا كله يظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه.فمن شاء لنفسه الخير فليــدلف إلى الباب المفتوح.

ومن أراد أن يمضي في طريقه الأعوج،فالعاقبة كذلك معروفة:العذاب الألــيم في الــدنيا والآخرة.وانعدام الناصر والمعين في هذه الأرض..ولمــن شــاء أن يختــار،وهو وحــده الملوم:«فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ،وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّــهُ عَــذاباً أَلِيمــاً فِــي الــدُّنْيا وَالْآخِرَةِ،وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»[٤٢٧]..

وقال تعالى:{يا أيّها النّبيّ جاهد الْكفّار والْمنافقين واغْلظْ عليْهمْ ومأْواهمْ جهنّم وبــئْس الْمصير (٩) } [التحريم/٩،١٠]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ الذِينَ يَقِفُونَ فِــي طَرِيــقِ انتِشَــارِ الــدَّعْوَةِ الإِسْــلاَمِيَّةِ بِالسِّلاَحِ،وَحَارِبْهُمْ حَرْباً لاَ هَوادَةَ فِيهَا،وَجَاهِد الْمُنَافِقِينَ،الــذِينَ يَتَظَــاهَرُونَ بِالإِسَــلاَمِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الكُفرِ وَالشَّكِّ والرِّيبَةِ،وَيُقُومُونَ بِالدَّسِ وَالوَقِيعَةِ والتَّثْبِــيطِ بَــيْنَ المُؤْمِنِينَ،وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ بِالقَوْلِ وَالإِنْذَارِ،وَافْضَحْهُمْ،وَبَيِّنْ لَهُمْ سُوءَ مَصِيرِهِمْ وَمُنْقَلبِهِمْ فِي الآخِرَةِ،وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُمْ وَيَرْجِعْ إِلَى اللهِ مُسْتَغْفِراً مُنِيباً،فَإِنَّ مَصِيرَهُ سَيَكُونُ فِــي نَــارِ جَهَنَّمَ،وَسَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمَصِيراً.[٤٢٨].

يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ،بجهاد الكفار والمنافقين،والإغلاظ عليهم في ذلك،وهذا شــامل لجهادهم،بإقامة الحجة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة،وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال،وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه،فإن هــذا يجاهد ويغلظ له،وأما المرتبة الأولى،فتكون بالتي هي أحسن،فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا،بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم،وعذاب النــار في الآخرة وبئس المصير،الذي يصير إليها كل شقي خاسر.[٤٢٩]

وفي المحلى:

[٤٢٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٩١)

[٤٢٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١١٦، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٢٩] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٧٤)

وَقَالَ تَعَالَى {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [النساء:٨٨] إلَى قَوْله:{وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:٩١].

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِت قَالَ:«لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – إلَى أُحُد رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ،وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه – ﷺ – فِرْقَتَيْنِ:فِرْقَةٌ تَقُولُ:نُقَاتِلُهُمْ،وَفِرْقَةٌ تَقُولُ:لَا نُقَاتِلُهُمْ،فَنَزَلَتْ {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} [النساء:٨٨] » فَهَذَا إسْنَادٌ صَحِيحٌ،وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى أُولَئِكَ:مُنَافِقِينَ.

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَة مُتَّصِلًا بِذَلِكَ {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء:٨٩] إلَى قَوْله تَعَالَى:{فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا} [النساء:٩٠] فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ تَعَالَى عَنَى بِذَلِكَ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ،وَهُوَ كَانَ الْأَظْهَرَ لَوْلَا قَوْله تَعَالَى {فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه} [النساء:٨٩] فَهَذَا يُوَضِّحُ غَايَةَ الْإِيضَاحِ أَنَّهُ ابْتِدَاءُ حُكْمٍ فِي قَوْمِ آخَرِينَ غَيْرِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ،لِأَنَّ أُولَئِكَ كَانُوا مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَة بِلَا شَكٍّ،وَلَيْسَ عَلَى سُكَّانِ الْمَدِينَةِ هِجْرَةٌ،بَلْ الْهِجْرَةُ كَانَتْ إلَى دَارِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَحُكْمُ الْآيَةِ كُلِّهَا أَنَّهَا فِي قَوْمِ كُفَّارِ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ،وَادَّعُوا أَنَّهُمْ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا،وَكَانَ الْحُكْمُ حِينَئِذ:أَنَّ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِإِيمَانِه،وَكَانَ كَافِرًا كَسَائِرِ الْكُفَّارِ وَلَا فَرْقَ،حَتَّى يُهَاجِرَ،إلَّا مَنْ أُبِيحَ لَهُ سُكْنَى بَلَده،كَمَنْ بِأَرْضِ الْحَبَشَة،وَالْبَحْرَيْنِ،وَسَائِرِ مَنْ أُبِيحَ لَهُ سُكْنَى أَرْضِه،إلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [الأنفال:٧٢].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة:٧١] فَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْوِلَايَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ،فَلَيْسُوا مُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} [النساء:٩٧] إلَى قَوْلِه {إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ} [النساء:٩٨] الْآيَةَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:مَعْنَى {حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه} [النساء:٨٩] أَيْ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَكُمْ،بخِلَاف فعْلهِمْ حينَ انْصَرَفُوا عَنْ أُحُد وَأَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا الْآيَةَ كُلَّهَا في الْمُنَافقينَ الْمُنْصَرفينَ عَنْ أُحُد؟ قيلَ لَهُ – وَبِاللَّه تَعَالَى التَّوْفيقُ –:هَذَا مُمْكنٌ،وَلَكنْ قَدْ قَالَ تَعَالَى {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [النساء:٨٩] فَأَخْبرُونَا هَلْ فَعَلَ ذَلكَ النَّبيُّ – عَلَيْه السَّلَامُ – فَقَتَلَ الرَّاجعينَ عَنْ أُحُد حَيْثُ وَجَدَهُمْ؟ وَهَلْ أَخَذَهُمْ أَمْ لَا؟ فَإِنْ قَالُوا:قَدْ فَعَلَ ذَلكَ،كَذَبُوا كَذبًا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَد،وَمَا عنْدَ مُسْلمٍ شَكٌّ في أَنَّهُ – عَلَيْه السَّلَامُ – لَمْ يَقْتُلْ منْهُمْ أَحَدًا وَلَا نَبَذَ الْعَهْدَ إلَى أَحَد منْهُمْ.

وَإِنْ قَالُوا:لَمْ يَفْعَلْ ذَلكَ – عَلَيْه السَّلَامُ – وَلَا الْمُؤْمنُونَ؟

قيلَ لَهُمْ:صَدَقْتُمْ،وَلَا يَحلُّ لمُسْلمٍ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ النَّبيَّ – عَلَيْه السَّلَامُ – خَالَفَ أَمْرَ رَبِّه،فَأَمَرَهُ تَعَالَى إنْ تَوَلَّوْا بقَتْلهمْ،حَيْثُ وَجَدَهُمْ،فَلَمْ يَفْعَلْ،وَهَذَا كُفْرٌ ممَّنْ ظَنَّهُ بلَا شَكٍّ.

فَإِنْ قَالُوا:لَمْ يَتَوَلَّوْا بَلْ تَابُوا وَرَجَعُوا وَجَاهَدُوا؟ قيلَ لَهُمْ:فَقَدْ سَقَطَ حُكْمُ النِّفَاق عَنْهُمْ – بلَا شَكٍّ – وَحَصَلَ لَهُمْ حُكْمُ الْإِعْلَام بظَاهرِ الْآيَة – بلَا شَكٍّ – فَقَدْ بَطَلَ تَعَلُّقُهُمْ بهَذه الْآيَة جُمْلَةً في أَنَّهُ – عَلَيْه السَّلَامُ – كَانَ يَعْرفُ الْمُنَافقينَ.وَلَكنْ في قَوْله تَعَالَى {إلا الَّذينَ يَصلُونَ إلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصرَتْ صُدُورُهُمْ} [النساء:٩٠] إلَى قَوْله تَعَالَى:{فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلا} [النساء:٩٠] بَيَانٌ جَليٌّ بأَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا قَطُّ منْ الْأَوْسِ وَلَا منْ الْخَزْرَجِ،لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَوْمٌ مُحَاربُونَ للنَّبيِّ – عَلَيْه السَّلَامُ – وَلَا نُسبُوا قَطُّ إلَى قَوْمٍ مُعَاهدينَ النَّبيَّ – عَلَيْه السَّلَامُ – بميثَاقٍ مَعْقُود،هَذَا مَعَ قَوْله تَعَالَى {فَإِن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتلُوكُمْ} [النساء:٩٠] إلَى قَوْله تَعَالَى {سَبيلا} [آل عمران:٩٧] فَإِنَّ هَذَا بَيَانٌ جَليٌّ عَلَى أَنَّهُمْ منْ غَيْرِ الْأَنْصَارِ،وَمنْ غَيْرِ الْمُنَافقينَ،لَكنْ منْ الْكُفَّارِ الْمُجَاهرينَ بالْكُفْر.

إلَّا أَنْ يَقُولَ قَائلٌ:إنَّ قَوْله تَعَالَى {إلا الَّذينَ يَصلُونَ إلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ} [النساء:٩٠] اسْتثْنَاءٌ مُنْقَطعٌ ممَّا قَبْلَهُ في قَوْل {آخَرينَ} [النساء:٩١] وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَقَدْ سَقَطَ حُكْمُ النِّفَاق عَلَى أُولَئكَ إنْ كَانَ هَكَذَا.

فَإِنْ قِيلَ:فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قُلْتُمْ أَنَّ فِي قَوْله تَعَالَى {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء:٨٩] أَنَّهُ فِي قَوْمٍ مِنْ الْكُفَّارِ غَيْرِ أُولَئِكَ،فَحَسْبُنَا أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ سَمَّى أُولَئِكَ الرَّاجِعِينَ " مُنَافِقِينَ " فَصَارُوا مَعْرُوفِينَ؟ قِيلَ لَهُ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ:وَقَدْ قُلْنَا إنَّ النِّفَاقَ قِسْمَانِ:قِسْمٌ لِمَنْ يُظْهِرُ الْكُفْرَ وَيُبْطِنُ الْإِيمَانَ،وَقِسْمٌ لِمَنْ يُظْهِرُ غَيْرَ مَا يُضْمِرُ فِيمَا سِوَى الدِّينِ وَلَا يَكُونُ بِذَلِكَ كَافِرًا،وَقَدْ قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ:إنَّا نَدْخُلُ عَلَى الْإِمَامِ فَيَقْضِي بِالْقَضَاءِ فَنَرَاهُ جَوْرًا فَنَمْسِكُ؟ فَقَالَ:إنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا،فَلَا نَدْرِي مَا تَعُدُّونَهُ أَنْتُمْ؟ وَقَدْ ذَكَرْنَا قَبْلُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَإِنْ صَلَّى وَإِنْ صَامَ وَقَالَ إنِّي مُسْلِمٌ».

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ،فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَقْطَعَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْإِسْلَامِ إلَّا بِنَصٍّ،وَلَكِنَّا نَقْطَعُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ اسْمِ النِّفَاقِ،وَالضَّلَالَةِ،وَالْإِرْكَاسِ،وَخِلَافِ الْهُدَى – وَلَا نَزِيدُ وَلَا نَتَعَدَّى مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِآرَائِنَا – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.[٤٣٠]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وَسُئِلَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:

مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ أَئِمَّةُ الدِّينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَأَعَانَهُمْ عَلَى إظْهَارِ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَإِخْمَادِ شُعَبِ الْمُبْطِلِينَ:فِي " النُّصَيْرِيَّةِ " الْقَائِلِينَ بِاسْتِحْلَالِ الْخَمْرِ وَتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ وَقِدَمِ الْعَالَمِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي غَيْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِأَنَّ " الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ " عِبَارَةٌ عَنْ خَمْسَةِ أَسْمَاءٍ وَهِيَ:عَلِيٌّ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحْسِنٌ وَفَاطِمَةُ.فَذِكْرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَى رَأْيِهِمْ يُجْزِئُهُمْ عَنْ الْغُسْلِ مِنْ الْجَنَابَةِ وَالْوُضُوءِ وَبَقِيَّةِ شُرُوطِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَةِ وَوَاجِبَاتِهَا.وَبِأَنَّ " الصِّيَامَ " عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ اسْمِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا وَاسْمِ ثَلَاثِينَ امْرَأَةً يَعُدُّونَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ وَيَضِيقُ هَذَا الْمَوْضِعُ عَنْ إبْرَازِهِمْ؛وَبِأَنَّ إلَهَهُمْ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ الْإِلَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْإِمَامُ فِي الْأَرْضِ فَكَانَتْ الْحِكْمَةُ فِي ظُهُورِ اللَّاهُوتِ بِهَذَا النَّاسُوتِ

---

[٤٣٠] – المحلى بالآثار (١٢/ ١٢٩)

عَلَى رَأْيِهِمْ أَنْ يُؤْنِسَ خَلْقَهُ وَعَبِيدَهُ؛لِيُعَلِّمَهُمْ كَيْفَ يَعْرِفُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ.وَبِأَنَّ النَّصِيرِيَّ عِنْدَهُمْ لَا يَصِيرُ نصيريا مُؤْمِنًا يُجَالِسُونَهُ وَيَشْرَبُونَ مَعَهُ الْخَمْرَ وَيُطْلِعُونَهُ عَلَى أَسْرَارِهِمْ وَيُزَوِّجُونَهُ مِنْ نِسَائِهِمْ:حَتَّى يُخَاطِبَهُ مُعَلِّمُهُ.وَحَقِيقَةُ الْخِطَابِ عِنْدَهُمْ أَنْ يُحَلِّفُوهُ عَلَى كِتْمَانِ دِينِهِ وَمَعْرِفَةِ مَشَايِخِهِ وَأَكَابِرِ أَهْلِ مَذْهَبِهِ؛وَعَلَى أَلَّا يَنْصَحَ مُسْلِمًا وَلَا غَيْرَهُ إلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ وَعَلَى أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ وَإِمَامَهُ بِظُهُورِهِ فِي أَنْوَارِهِ وَأَدْوَارِهِ فَيَعْرِفُ انْتِقَالَ الِاسْمِ وَالْمَعْنَى فِي كُلِّ حِينٍ وَزَمَانٍ.فَالِاسْمُ عِنْدَهُمْ فِي أَوَّلِ النَّاسِ آدَمَ وَالْمَعْنَى هُوَ شيث وَالِاسْمُ يَعْقُوبُ وَالْمَعْنَى هُوَ يُوسُفُ.وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ كَمَا يَزْعُمُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ حِكَايَةً عَنْ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ – عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فَيَقُولُونَ:أَمَّا يَعْقُوبُ فَإِنَّهُ كَانَ الِاسْمَ فَمَا قَدَرَ أَنْ يَتَعَدَّى مَنْزِلَتَهُ فَقَالَ:{سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} وَأَمَّا يُوسُفُ فَكَانَ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ فَقَالَ:{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} فَلَمْ يُعَلِّقْ الْأَمْرَ بِغَيْرِهِ؛لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ الْإِلَهُ الْمُتَصَرِّفُ وَيَجْعَلُونَ مُوسَى هُوَ الِاسْمَ وَيُوشَعَ هُوَ الْمَعْنَى وَيَقُولُونَ:يُوشَعُ رُدَّتْ لَهُ الشَّمْسُ لَمَّا أَمَرَهَا فَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ؛وَهَلْ تُرَدُّ الشَّمْسُ إلَّا لِرَبِّهَا وَيَجْعَلُونَ سُلَيْمَانَ هُوَ الِاسْمَ وآصف هُوَ الْمَعْنَى الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ.وَيَقُولُونَ:سُلَيْمَانُ عَجَزَ عَنْ إحْضَارِ عَرْشِ بلقيس وَقَدَرَ عَلَيْهِ آصف لِأَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ الصُّورَةَ وآصف كَانَ الْمَعْنَى الْقَادِرَ الْمُقْتَدِرَ وَقَدْ قَالَ قَائِلُهُمْ:هَابِيلُ شيث يُوسُفُ يُوشَعُ آصف شمعون الصَّفَا حَيْدَرُ وَيَعُدُّونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ وَاحِدًا وَاحِدًا عَلَى هَذَا النَّمَطِ إلَى زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ:مُحَمَّدٌ هُوَ الِاسْمُ وَعَلِيٌّ هُوَ الْمَعْنَى وَيُوصِلُونَ الْعَدَدَ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ فِي كُلِّ زَمَانٍ إلَى وَقْتِنَا هَذَا.فَمِنْ حَقِيقَةِ الْخِطَابِ فِي الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الرَّبُّ وَأَنْ مُحَمَّدًا هُوَ الْحِجَابُ وَأَنَّ سَلْمَانَ هُوَ الْبَابُ وَأَنْشَدَ بَعْضُ أَكَابِرِ رُؤَسَائِهِمْ وَفُضَلَائِهِمْ لِنَفْسِهِ فِي شُهُورِ سَنَةِ سَبْعِمِائَةٍ فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا حيدرة الْأَنْزَعُ الْبَطِينُ وَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ إلَّا مُحَمَّدٌ الصَّادِقُ الْأَمِينُ وَلَا طَرِيقَ إلَيْهِ إلَّا سَلْمَانُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ وَيَقُولُونَ إنَّ ذَلِكَ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ وَكَذَلِكَ الْخَمْسَةُ الْأَيْتَامُ وَالِاثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا وَأَسْمَاؤُهُمْ مَشْهُورَةٌ عِنْدَهُمْ وَمَعْلُومَةٌ مِنْ كُتُبِهِمْ الْخَبِيثَةِ وَأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يُظْهِرُونَ مَعَ الرَّبِّ وَالْحِجَابِ وَالْبَابِ فِي كُلِّ كَوْرٍ وَدَوْرٍ أَبَدًا سَرْمَدًا عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَيَقُولُونَ:إنَّ إبْلِيسَ الْأَبَالِسَةِ هُوَ

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَيَلِيه فِي رُتْبَة الإبليسية أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ عُثْمَانُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَشَرَّفَهُمْ وَأَعْلَى رُتَبَهُمْ عَنْ أَقْوَال الْمُلْحدينَ وَانْتحَال أَنْوَاعِ الضَّالِّينَ وَالْمُفْسدينَ – فَلَا يَزَالُونَ مَوْجُودينَ فِي كُلِّ وَقْت دَائمًا حَسْبَمَا ذُكرَ منْ التَّرْتيب.وَلمَذَاهبهمْ الْفَاسدَة شُعَبٌ وَتَفَاصيلُ تَرْجعُ إلَى هَذه الْأُصُول الْمَذْكُورَة.وَهَـذه الطَّائفَةُ الْمَلْعُونَةُ اسْتَوْلَتْ عَلَى جَانب كَبير منْ بلَاد الشَّام (وَهُمْ مَعْرُوفُـونَ مَشْـهُورُونَ مُتَظَاهرُونَ بهَذَا الْمَذْهَب وَقَدْ حَقَّقَ أَحْوَالَهُمْ كُلُّ مَنْ خَالَطَهُمْ وَعَـرَفَهُمْ مـنْ عُقَلَـاءَ الْمُسْلمينَ وَعُلَمَائهمْ وَمنْ عَامَّة النَّاس أَيْضًا في هَذَا الزَّمَان؛لأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مَسْـتُورَةً عَنْ أَكْثَر النَّاس وَقْتَ اسْتيلَاء الْإِفْرنْج الْمَخْذُولينَ عَلَى الْبلَاد السَّاحليَّة؛فَلَمَّا جَاءَتْ أَيَّـامُ الْإِسْلَام انْكَشَفَ حَالُهُمْ وَظَهَرَ ضَلَالُهُمْ.وَالابْتلَاءُ بهمْ كَثيرٌ جدًّا.فَهَلْ يَجُـوزُ لمُسْـلم أَنْ يُزَوِّجَهُمْ أَوْ يَتَزَوَّجَ منْهُمْ؟ وَهَلْ يَحلُّ أَكْلُ ذَبَائحهمْ وَالْحَالَةُ هَذه أَمْ لَا؟ وَمَا حُكْمُ الْجُبْن الْمَعْمُول منْ إنْفَحَة ذَبيحَتهمْ؟ وَمَا حُكْمُ أَوَانيهمْ وَمَلَابسهمْ؟ وَهَلْ يَجُوزُ دَفْـنُهُمْ بَـيْنَ الْمُسْلمينَ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يَجُوزُ اسْتخْدَامُهُمْ في ثُغُور الْمُسْلمينَ وَتَسْليمُهَا إلَيْهمْ؟ أَمْ يَجـبُ عَلَى وَليِّ الْأَمْر قَطْعُهُمْ وَاسْتخْدَامُ غَيْرهمْ منْ رجَال الْمُسْلمينَ الكفاة وَهَلْ يَأْثَمُ إذَا أَخَّـرَ طَرْدَهُمْ؟ أَمْ يَجُوزُ لَهُ التَّمَهُّلُ مَعَ أَنَّ في عَزْمه ذَلكَ؟ وَإذَا اسْتَخْدَمَهُمْ وَأَقْطَعَهُـمْ أَوْ لَـمْ يُقْطعْهُمْ هَلْ يَجُوزُ لَهُ صَرْفُ أَمْوَال بَيْت الْمَال عَلَيْهمْ وَإذَا صَرَفَهَا وَتَأَخَّرَ لبَعْضهمْ بَقيَّـةٌ منْ مَعْلُومه الْمُسَمَّى؛فَأَخَّرَهُ وَليُّ الْأَمْر عَنْهُ وَصَرَفَهُ عَلَى غَيْره منْ الْمُسْلمينَ أَوْ الْمُسْتَحقِّينَ أَوْ أَرْصَدَهُ لذَلكَ هَلْ يَجُوزُ لَهُ فعْلُ هَذه الصُّوَر؟ أَمْ يَجبُ عَلَيْه؟ وَهَلْ دمَـاءُ النُّصَـيْريَّة الْمَذْكُورينَ مُبَاحَةٌ وَأَمْوَالُهُمْ حَلَالٌ أَمْ لَا؟ وَإذَا جَاهَدَهُمْ وَليُّ الْأَمْر أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بإخْمَاد بَاطلهمْ وَقَطَعَهُمْ منْ حُصُون الْمُسْلمينَ وَحَذَّرَ أَهْلَ الْإسْـلَام مـنْ مُنَـاكَحَتهمْ وَأَكْـل ذَبَائحهمْ وَأَلْزَمَهُمْ بالصَّوْم وَالصَّلَاة وَمَنَعَهُمْ منْ إظْهَار دينهمْ الْبَاطل وَهُمْ الَّذينَ يَلُونَهُ منْ الْكُفَّار:هَلْ ذَلكَ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا منْ التَّصَدِّي وَالتَّرَصُّد لقتَال التَّتَار في بلَادهمْ وَهَـدْم بلَاد سَيسَ وَديَار الْإفْرنْج عَلَى أَهْلهَا؟ أَمْ هَذَا أَفْضَلُ منْ كَوْنه يُجَاهدُ النُّصَيْريَّة الْمَذْكُورينَ مُرَابطًا؟ وَيَكُونُ أَجْرُ مَنْ رَابَطَ في الثُّغُور عَلَى سَاحل الْبَحْر خَشْيَةَ قَصْد الفرنج أَكْبَرُ أَمْ هَذَا أَكْبَرُ أَجْرًا؟ وَهَلْ يَجبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ الْمَذْكُورينَ وَمَذَاهبَهُمْ أَنْ يُشْـهرَ أَمْـرَهُمْ

وَيُسَاعِدَ عَلَى إبْطَالِ بَاطِلِهِمْ وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ بَيْنَهُمْ فَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَ بَعْضَهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مُسْلِمِينَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْكُفْرِ الْعَظِيمِ أَمْ يَجُوزُ التَّغَافُلُ عَنْهُمْ وَالْإِهْمَالُ؟ وَمَا قَدْرُ الْمُجْتَهِدِ عَلَى ذَلِكَ وَالْمُجَاهِدِ فِيهِ وَالْمُرَابِطِ لَهُ وَالْمُلَازِمِ عَلَيْهِ؟ وَلْتَبْسُطُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مُثَابِينَ مَأْجُورِينَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَأَجَابَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد ابْنُ تَيْمِيَّةَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْمُسَمَّوْنَ بِالنُّصَيْرِيَّةِ هُمْ وَسَائِرُ أَصْنَافِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛بَلْ وَأَكْفَرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَضَرَرُهُمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ مِثْلَ كُفَّارِ التَّتَارِ والفرنج وَغَيْرِهِمْ؛فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَتَظَاهَرُونَ عِنْدَ جُهَّالِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّشَيُّعِ وَمُوَالَاةِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَلَا بِرَسُولِهِ وَلَا بِكِتَابِهِ وَلَا بِأَمْرِ وَلَا نَهْيٍ وَلَا ثَوَابٍ وَلَا عِقَابٍ وَلَا جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ وَلَا بِأَحَدِ مِنْ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا بِمِلَّةِ مِنْ الْمِلَلِ السَّالِفَةِ بَلْ يَأْخُذُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى أُمُورٍ يَفْتَرُونَهَا؛يَدَّعُونَ أَنَّهَا عِلْمُ الْبَاطِنِ؛مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ وَمِنْ غَيْرِ هَذَا الْجِنْسِ؛فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ حَدٌّ مَحْدُودٌ فِيمَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ وَتَحْرِيفِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛إذْ مَقْصُودُهُمْ إنْكَارُ الْإِيمَانِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ بِكُلِّ طَرِيقٍ مَعَ التَّظَاهُرِ بِأَنَّ لِهَذِهِ الْأُمُورِ حَقَائِقُ يَعْرِفُونَهَا مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَ السَّائِلُ وَمِنْ جِنْسِ قَوْلِهِمْ:إنَّ " الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ " مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ و " الصِّيَامَ الْمَفْرُوضَ " كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ " وَحَجَّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ " زِيَارَةُ شُيُوخِهِمْ وَأَنَّ (يَدَا أَبِي لَهَبٍ) هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَّ (النَّبَأَ الْعَظِيمَ وَالْإِمَامَ الْمُبِينَ) هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛وَلَهُمْ فِي مُعَادَاةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَقَائِعُ مَشْهُورَةٌ وَكُتُبٌ مُصَنَّفَةٌ فَإِذَا كَانَتْ لَهُمْ مُكْنَةٌ سَفَكُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ؛كَمَا قَتَلُوا مَرَّةً الْحُجَّاجَ وَأَلْقَوْهُمْ فِي بِئْرِ زَمْزَمَ وَأَخَذُوا مَرَّةً الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَبَقِيَ عِنْدَهُمْ مُدَّةً وَقَتَلُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَشَايِخِهِمْ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَصَنَّفُوا كُتُبًا كَثِيرَةً مِمَّا ذَكَرَهُ السَّائِلُ وَغَيْرُهُ وَصَنَّفَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ كُتُبًا فِي كَشْفِ أَسْرَارِهِمْ وَهَتْكِ أَسْتَارِهِمْ؛وَبَيَّنُوا فِيهَا مَا هُمْ

عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي هُمْ بِهِ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمِنْ براهمة الْهِنْدِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ.وَمَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ فِي وَصْفِهِمْ قَلِيلٌ مِنْ الْكَثِيرِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْعُلَمَاءُ فِي وَصْفِهِمْ.وَمِنْ الْمَعْلُومِ عِنْدَنَا أَنَّ السَّوَاحِلَ الشَّامِيَّةَ إنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا النَّصَارَى مِنْ جِهَتِهِمْ وَهُمْ دَائِمًا مَعَ كُلِّ عَدُوٍّ لِلْمُسْلِمِينَ؛فَهُمْ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ.وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ لِلسَّوَاحِلِ وَانْقِهَارُ النَّصَارَى؛بَلْ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّتَارِ.وَمِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِهِمْ إذَا اسْتَوْلَى - وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى - النَّصَارَى عَلَى ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى جَزِيرَةِ قُبْرُصَ يَسَّرَ اللَّهُ فَتْحَهَا عَنْ قَرِيبٍ وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " عُثْمَانَ بْنِ عفان " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَحَهَا " مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ " إلَى أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ.فَهَؤُلَاءِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَثُرُوا حِينَئِذٍ بِالسَّوَاحِلِ وَغَيْرِهَا فَاسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى السَّاحِلِ؛ثُمَّ بِسَبَبِهِمْ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ؛فَإِنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي ذَلِكَ؛ثُمَّ لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى " كَنُورِ الدِّينِ الشَّهِيدِ وَصَلَاحِ الدِّينِ " وَأَتْبَاعِهِمَا وَفَتَحُوا السَّوَاحِلَ مِنْ النَّصَارَى وَمِمَّنْ كَانَ بِهَا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا أَيْضًا أَرْضَ مِصْرَ؛فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَوْلِينَ عَلَيْهَا نَحْوَ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَاتَّفَقُوا هُمْ وَالنَّصَارَى فَجَاهَدَهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ وَمِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ.ثُمَّ إنَّ التَّتَارَ مَا دَخَلُوا بِلَادَ الْإِسْلَامِ وَقَتَلُوا خَلِيفَةَ بَغْدَادَ وَغَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ إلَّا بِمُعَاوَنَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ؛فَإِنَّ مُنَجِّمَ هُولَاكُو الَّذِي كَانَ وَزِيرَهُمْ وَهُوَ " النَّصِيرُ الطوسي " كَانَ وَزِيرًا لَهُمْ بالألموت وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِقَتْلِ الْخَلِيفَةِ وَبِوِلَايَةِ هَؤُلَاءِ.وَلَهُمْ " أَلْقَابٌ " مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ تَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمَلَاحِدَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْقَرَامِطَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْبَاطِنِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ " وتَارَةً يُسَمَّوْنَ " النُّصَيْرِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الخرمية " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمُحَمِّرَةَ " وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ مِنْهَا مَا يَعُمُّهُمْ وَمِنْهَا مَا يَخُصُّ بَعْضَ أَصْنَافِهِمْ كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ يَعُمُّ الْمُسْلِمِينَ وَلِبَعْضِهِمْ اسْمٌ يَخُصُّهُ:إمَّا لِنَسَبِ وَإِمَّا لِمَذْهَبِ وَإِمَّا لِبَلَدِ وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.وَشَرْحُ مَقَاصِدِهِمْ يَطُولُ وَهُمْ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِيهِمْ:ظَاهِرُ مَذْهَبِهِمْ

الرَّفْضُ وَبَاطِنُهُ الْكُفْرُ الْمَحْضُ.وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيٍّ مِـــنْ مِـــنْ الْأَنْبِيَـــاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛لَا بِنُوحٍ وَلَا بِإِبْرَاهِيمَ وَلَا مُوسَى وَلَا عِيسَى وَلَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَجْمَعِينَ وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ؛لَا التَّوْرَاةِ وَلَا الْإِنْجِيلِ وَلَا الْقُرْآنِ.وَلَا يُقِرُّونَ بِـــأَنَّ لِلْعَـــالَمِ خَالِقًـــا خَلَقَهُ؛وَلَا بِأَنَّ لَهُ دِينًا أَمَرَ بِهِ وَلَا أَنَّ لَهُ دَارًا يَجْزِي النَّاسَ فِيهَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ غَيْـــرَ هَـــذِهِ الدَّارِ.

وَهُمْ تَارَةً يَبْنُونَ قَوْلَهُمْ عَلَى مَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ الطَّبِيعِيِّينَ أَوْ الإلهيين وَتَارَةً يَبْنُونَهُ عَلَى قَوْلِ الْمَجُوسِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ النُّورَ وَيَضُمُّونَ إلَى ذَلِكَ الرَّفْضَ.وَيَحْتَجُّونَ لِذَلِكَ مِـــنْ كَلَـــامِ النُّبُوَّاتِ:إمَّا بِقَوْلٍ مَكْذُوبٍ يَنْقُلُونَهُ كَمَا يَنْقُلُونَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:{أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلُ} وَالْحَدِيثُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ؛وَلَفْظُهُ " {إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ:أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ.فَقَالَ لَهُ:أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ} فَيُحَرِّفُونَ لَفْظَهُ فَيَقُولُونَ " {أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّـــهُ الْعَقْلُ} لِيُوَافِقُوا قَوْلَ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَتْبَاعِ أَرِسْطُو فِي أَنَّ أَوَّلَ الصَّادِرَاتِ عَنْ وَاجِبِ الْوُجُودِ هُوَ الْعَقْلُ.وَإِمَّا بِلَفْظٍ ثَابِتٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فَيُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ كَمَا يَصْنَعُ أَصْـــحَابُ " رَسَائِلِ إخْوَانِ الصَّفَا " وَنَحْوُهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ.وَقَدْ دَخَلَ كَثِيرٌ مِنْ بَاطِلِهِمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَرَاجَ عَلَيْهِمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ طَوَائِفَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْـــمِ وَالدِّينِ؛وَإِنْ كَانُوا لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى أَصْلِ كُفْرِهِمْ؛فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ فِي إظْهَـــارِ دَعْـــوَتِهِمْ الْمَلْعُونَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا " الدَّعْوَةَ الْهَادِيَةَ " دَرَجَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَيُسَمُّونَ النِّهَايَـــةَ " الْبَلَـــاغَ الْأَكْبَرَ وَالنَّامُوسَ الْأَعْظَمَ " وَمَضْمُونُ الْبَلَاغِ الْأَكْبَرِ جَحْدُ الْخَالِقِ تَعَالَى؛وَالِاسْـــتِهْزَاءُ بِـــهِ وَبِمَنْ يُقِرُّ بِهِ حَتَّى قَدْ يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَسْفَلِ رِجْلِهِ وَفِيهِ أَيْضًا جَحْدُ شَـــرَائِعِهِ وَدِينِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَدَعْوَى أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ جِنْسِهِمْ طَالِبِينَ لِلرِّئَاسَةِ فَمِـــنْهُمْ مَـــنْ أَحْسَنَ فِي طَلَبِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ أَسَاءَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى قُتِلَ وَيَجْعَلُونَ مُحَمَّدًا وَمُوسَـــى مِـــنْ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَيَجْعَلُونَ الْمَسِيحَ مِنْ الْقِسْمِ الثَّانِي.وَفِيهِ مِنْ الِاسْتِهْزَاءِ بِالصَّـــلَاةِ وَالزَّكَـــاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَمِنْ تَحْلِيلِ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَـــارِمِ وَسَـــائِرِ الْفَـــوَاحِشِ:مَـــا يَطُـــولُ وَصْفُهُ.وَلَهُمْ إشَارَاتٌ وَمُخَاطَبَاتٌ يَعْرِفُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا.وَهُمْ إذَا كَـــانُوا فِـــي بِلَـــادِ

الْمُسْلمينَ الَّتي يَكْثُرُ فيهَا أَهْلُ الْإِيمَان فَقَدْ يَخْفَوْنَ عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ وَأَمَّا إذَا كَثُرُوا فَإِنَّهُ يَعْرِفُهُمْ عَامَّةُ النَّاسِ فَضْلًا عَنْ خَاصَّتهمْ.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلمينَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاء لَا تَجُوزُ مُنَاكَحَتُهُمْ؛وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْكحَ الرَّجُلُ مَوْلَاته منْهُمْ وَلَا يَتَزَوَّجَ منْهُمْ امْرَأَةً وَلَا تُبَاحُ ذَبَائحُهُمْ.وَأَمَّا " الْجُبْنُ الْمَعْمُولُ بإنْفَحَتهمْ " فَفيه قَوْلَان مَشْهُورَان للْعُلَمَاء كَسَائر إنْفَحَة الْمَيْتَة وَكَإِنْفَحَة ذَبيحَـــة الْمَجُوس؛وَذَبيحَـــة الفرنج الَّذينَ يُقَالُ عَنْهُمْ إنَّهُمْ لَا يُذَكُّونَ الذَّبَائحَ.فَمَذْهَبُ أَبي حَنيفَةَ وَأَحْمَد في إحْـــدَى الرِّوَايَتَيْنِ أَنَّهُ يَحلُّ هَذَا الْجُبْنُ؛لأَنَّ إنْفَحَةَ الْمَيْتَة طَاهرَةٌ عَلَى هَذَا الْقَوْل؛لأَنَّ الْإِنْفَحَـــةَ لَـــا تَمُوتُ بمَوْت الْبَهيمَة وَمُلَاقَاةُ الْوِعَاء النَّجسِ في الْبَاطنِ لَا يُـــنَجِّسُ.وَمَـــذْهَبُ مَالـــك وَالشَّافعيِّ وَأَحْمَد في الرِّوَايَة الْأُخْرَى أَنَّ هَذَا الْجُبْنَ نَجسٌ لأَنَّ الْإِنْفَحَـــةَ عنْـــدَ هَؤُلَـــاء نَجسَةٌ؛لأَنَّ لَبَنَ الْمَيْتَة وَإِنْفَحَتَهَا عنْدَهُمْ نَجسٌ.وَمَـــنْ لَـــا تُؤْكَـــلُ ذَبيحَتُـــهُ فَذَبيحَتُـــهُ كَالْمَيْتَة.وَكُلٌّ منْ أَصْحَاب الْقَوْلَيْنِ يَحْتَجُّ بآثَار يَنْقُلُهَا عَنْ الصَّحَابَة فَأَصْـــحَابُ الْقَـــوْلِ الْأَوَّل نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا جُبْنَ الْمَجُوس.وَأَصْحَابُ الْقَوْل الثاني نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا مَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ منْ جُبْنِ النَّصَارَى.فَهَذه مَسْأَلَةُ اجْتهَاد؛للْمُقَلِّد أَنْ يُقَلِّدَ مَـــنْ يُفْتـــي بأَحَـــد الْقَوْلَيْنِ.وَأَمَّا " أَوَانيهمْ وَمَلَابسُهُمْ " فَكَأَوَاني الْمَجُوسِ وَمَلَابسِ الْمَجُوسِ عَلَى مَا عُـــرِفَ منْ مَذَاهب الْأَئمَّة.وَالصَّحيحُ في ذَلكَ أَنَّ أَوَانيَهُمْ لَا تُسْتَعْمَلُ إلَّا بَعْدَ غَسْلهَا؛فَإِنَّ ذَبَائحَهُمْ مَيْتَةٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يُصيبَ أَوَانيَهُمْ الْمُسْتَعْمَلَةَ مَا يَطْبُخُونَهُ منْ ذَبَائحهمْ فَتَنْجُسُ بذَلكَ فَأَمَّـــا الْآنيَةُ الَّتي لَا يَغْلبُ عَلَى الظَّنِّ وُصُولُ النَّجَاسَة إلَيْهَا فَتُسْتَعْمَلُ منْ غَيْر غَسْلٍ كَآنيَة اللَّـــبَنِ الَّتي لَا يَضَعُونَ فيهَا طَبيخَهُمْ أَوْ يَغْسلُونَهَا قَبْلَ وَضْعِ اللَّبَنِ فيهَا وَقَدْ تَوَضَّـــأَ عُمَـــرُ بْـــنُ الْخَطَّاب رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ جَرَّة نَصْرَانيَّة.فَمَا شُكَّ في نَجَاسَته لَـــمْ يُحْكَـــمْ بنَجَاسَـــته بالشَّكِّ.وَلَا يَجُوزُ دَفْنُهُمْ في مَقَابرِ الْمُسْلمينَ وَلَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ منْهُمْ؛فَـــإِنَّ اللَّـــهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى نَبيَّهُ ﷺ عَنْ الصَّلَاة عَلَى الْمُنَافقينَ:كَعَبْد اللَّه ابْن أَبي وَنَحْوه؛وَكَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْجهَاد مَعَ الْمُسْلمينَ؛وَلَا يُظْهرُونَ مَقَالَةً تُخَـــالفُ دينَ الْإِسْلَام؛لَكنْ يُسرُّونَ ذَلكَ فَقَالَ اللَّهُ:{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَد منْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُـــمْ

عَلَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ مَعَ الزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ يُظْهِرُونَ الْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ.

وَأَمَّا اسْتِخْدَامُ مِثْلِ هَؤُلَاءِ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ حُصُونِهِمْ أَوْ جُنْدِهِمْ فَإِنَّهُ مِنْ الْكَبَائِرِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْتَخْدِمُ الذِّئَابَ لِرَعْيِ الْغَنَمِ؛فَإِنَّهُمْ مِنْ أَغَشِّ النَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِوُلَاةِ أُمُورِهِمْ وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى فَسَادِ الْمَمْلَكَةِ وَالدَّوْلَةِ وَهُمْ شَرٌّ مِنْ الْمُخَامِرِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْعَسْكَرِ؛فَإِنَّ الْمُخَامِرَ قَدْ يَكُونُ لَهُ غَرَضٌ:إمَّا مَعَ أَمِيرِ الْعَسْكَرِ وَإِمَّا مَعَ الْعَدُوِّ.وَهَؤُلَاءِ مَعَ الْمِلَّةِ وَنَبِيِّهَا وَدِينِهَا وَمُلُوكِهَا؛وَعُلَمَائِهَا وَعَامَّتِهَا وَخَاصَّتِهَا وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى تَسْلِيمِ الْحُصُونِ إلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى إفْسَادِ الْجُنْدِ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ وَإِخْرَاجِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ.وَالْوَاجِبُ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ قَطْعُهُمْ مِنْ دَوَاوِينِ الْمُقَاتِلَةِ فَلَا يُتْرَكُونَ فِي ثَغْرٍ وَلَا فِي غَيْرِ ثَغْرٍ؛فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ فِي الثَّغْرِ أَشَدُّ وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ بَدَلَهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى اسْتِخْدَامِهِ مِنْ الرِّجَالِ الْمَأْمُونِينَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ؛بَلْ إذَا كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ لَا يَسْتَخْدِمُ مَنْ يَغُشُّهُ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَكَيْفَ بِمَنْ يَغُشُّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ وَلَا يَجُوزُ لَهُ تَأْخِيرُ هَذَا الْوَاجِبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَلْ أَيُّ وَقْتٍ قَدَرَ عَلَى الِاسْتِبْدَالِ بِهِمْ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ.وَأَمَّا إذَا اُسْتُخْدِمُوا وَعَمِلُوا الْعَمَلَ الْمَشْرُوطَ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ إمَّا الْمُسَمَّى وَإِمَّا أُجْرَةُ الْمِثْلِ لِأَنَّهُمْ عوقدوا عَلَى ذَلِكَ.فَإِنْ كَانَ الْعَقْدُ صَحِيحًا وَجَبَ الْمُسَمَّى وَإِنْ كَانَ فَاسِدًا وَجَبَتْ أُجْرَةُ الْمِثْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ اسْتِخْدَامُهُمْ مِنْ جِنْسِ الْإِجَارَةِ اللَّازِمَةِ فَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْجَعَالَةِ الْجَائِزَةِ؛لَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَجُوزُ اسْتِخْدَامُهُمْ فَالْعَقْدُ عَقْدٌ فَاسِدٌ فَلَا يَسْتَحِقُّونَ إلَّا قِيمَةَ عَمَلِهِمْ.فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَمَلًا لَهُ قِيمَةٌ فَلَا شَيْءَ لَهُمْ؛لَكِنْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ مُبَاحَةٌ.

وَإِذَا أَظْهَرُوا التَّوْبَةَ فَفِي قَبُولِهَا مِنْهُمْ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ؛فَمَنْ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ إذَا الْتَزَمُوا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ أَقَرَّ أَمْوَالَهُمْ عَلَيْهِمْ.وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْهَا لَمْ تُنْقَلْ إلَى وَرَثَتِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ؛فَإِنَّ مَالَهُمْ يَكُونُ فَيْئًا لِبَيْتِ الْمَالِ؛لَكِنَّ هَؤُلَاءِ إذَا أُخِذُوا فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ التَّوْبَةَ؛لِأَنَّ أَصْلَ مَذْهَبِهِمْ التَّقِيَّةُ وَكِتْمَانُ أَمْرِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ يُعْرَفُ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ لَا يُعْرَفُ.فَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُحْتَاطَ فِي أَمْرِهِمْ فَلَا يُتْرَكُونَ مُجْتَمِعِينَ وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنْ حَمْلِ السِّلَاحِ وَلَا أَنْ يَكُونُوا مِنْ

الْمُقَاتِلَةِ وَيَلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ: مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. وَيُتْرَكُ بَيْنَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُعَلِّمِهِمْ. فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَائِرَ الصَّحَابَةِ لَمَّا ظَهَرُوا عَلَى أَهْلِ الرِّدَّةِ وَجَاءُوا إلَيْهِ قَالَ لَهُمْ الصِّدِّيقُ: اخْتَارُوا إمَّا الْحَرْبَ الْمُجْلِيَةَ وَإِمَّا السِّلْمَ الْمُخْزِيَةَ. قَالُوا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ قَالَ: تَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ وَتَشْهَدُونَ أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ وَنُقَسِّمُ مَا أَصَبْنَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَتَرُدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا وَتُنْزَعُ مِنْكُمْ الْحَلَقَةُ وَالسِّلَاحُ وَتُمْنَعُونَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ وَتُتْرَكُونَ تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرَى اللَّهُ خَلِيفَةَ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا بَعْدَ رِدَّتِكُمْ. فَوَافَقَهُ الصَّحَابَةُ فِي ذَلِكَ؛ إلَّا فِي تَضْمِينِ قَتْلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: هَؤُلَاءِ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ. يَعْنِي هُمْ شُهَدَاءُ فَلَا دِيَةَ لَهُمْ فَاتَّفَقُوا عَلَى قَوْلِ عُمَرَ فِي ذَلِكَ. وَهَذَا الَّذِي اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ هُوَ مَذْهَبُ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ وَاَلَّذِي تَنَازَعُوا فِيهِ تَنَازَعَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ. فَمَذْهَبُ أَكْثَرِهِمْ أَنَّ مَنْ قَتَلَهُ الْمُرْتَدُّونَ الْمُجْتَمِعُونَ الْمُحَارِبُونَ لَا يُضْمَنُ؛ كَمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ آخِرًا وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ. وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ. فَهَذَا الَّذِي فَعَلَهُ الصَّحَابَةُ بِأُولَئِكَ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ عَوْدِهِمْ إلَى الْإِسْلَامِ يُفْعَلُ بِمَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَالتُّهْمَةُ ظَاهِرَةٌ فِيهِ فَيُمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ وَالدِّرْعِ الَّتِي تَلْبَسُهَا الْمُقَاتِلَةُ وَلَا يُتْرَكُ فِي الْجُنْدِ مَنْ يَكُونُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا. وَيُلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَظْهَرَ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ ضُلَّالِهِمْ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ أُخْرِجَ عَنْهُمْ وَسُيِّرَ إلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا ظُهُورٌ. فَإِمَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَإِمَّا أَنْ يَمُوتَ عَلَى نِفَاقِهِ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ جِهَادَ هَؤُلَاءِ وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ وَأَكْبَرِ الْوَاجِبَاتِ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ جِهَادِ مَنْ لَا يُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّ جِهَادَ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ جِهَادِ الْمُرْتَدِّينَ وَالصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بَدَءُوا بِجِهَادِ الْمُرْتَدِّينَ قَبْلَ جِهَادِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّ جِهَادَ هَؤُلَاءِ حِفْظٌ لِمَا فُتِحَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ عَنْهُ. وَجِهَادَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ زِيَادَةِ

إظْهَارِ الدِّينِ.وَحِفْظُ رَأْسِ الْمَالِ مُقَدَّمٌ عَلَى الرِّبْحِ.وَأَيْضًا فَضَرَرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ أُولَئِكَ؛بَلْ ضَرَرُ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ ضَرَرِ مَنْ يُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَضَرَرُهُمْ فِي الدِّينِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ الْمُحَارِبِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ.وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُومَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبِ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ أَنْ يَكْتُمَ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ؛بَلْ يُفْشِيهَا وَيُظْهِرُهَا لِيَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ أَنْ يُعَاوِنَهُمْ عَلَى بَقَائِهِمْ فِي الْجُنْدِ والمستخدمين وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ السُّكُوتُ عَنْ الْقِيَامِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ أَنَّ يَنْهَى عَنْ الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى؛وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} وَهَؤُلَاءِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.وَالْمُعَاوِنُ عَلَى كَفِّ شَرِّهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ هُوَ هِدَايَتُهُمْ؛كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي الْقُيُودِ وَالسَّلَاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمْ الْإِسْلَامَ.فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ:هِدَايَةُ الْعِبَادِ لِمَصَالِحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ كَفَّ اللَّهُ ضَرَرَهُ عَنْ غَيْرِهِ.وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ.وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ:هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ ﷺ " {رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى} " وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:{إنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إلَى الْأَرْضِ أَعَدَّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ} " وَقَالَ ﷺ " {رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ} " وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا مَاتَ مُجَاهِدًا وَجَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَمِنَ الْفِتْنَةَ.وَالْجِهَادُ أَفْضَلُ مِنْ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالمينَ} {الَّذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبيلِ اللَّه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عنْدَ اللَّه وَأُولَئكَ هُمُ الْفَائزُونَ} {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ برَحْمَة منْهُ ورضْوَان وَجَنَّات لَهُمْ فيهَا نَعيمٌ مُقيمٌ} {خَالدينَ فيهَا أَبَدًا إنَّ اللَّهَ عنْدَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ}.وَالْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ وَصَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقه سَيِّدنَا مُحَمَّد وَعَلَى آله وَصَحْبه أَجْمَعينَ.[431]

وقال أيضاً:

في صفَة الْمُنَافقينَ الَّذينَ ضَرَبَ لَهُمْ الْمَثَلَ في سُورَة الْبَقَرَة أَنَّهُمْ أَبْصَرُوا ثُمَّ عَمُوا وَعَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا وَآمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا.وَكَذَلكَ قَالَ قتادة وَمُجَاهدٌ:ضَرَبَ الْمَثَلَ لإِقْبَالِهِمْ عَلَى الْمُؤْمنينَ؛وَسَمَاعهمْ مَا جَاءَ به الرَّسُولُ وَذَهَاب نُورهمْ قَالَ:{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بنُورهمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَات لَا يُبْصرُونَ} {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجعُونَ} إلَى مَا كَانُوا عَلَيْه.وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ:الْمُرَادُ بالنُّور مَا حَصَلَ في الدُّنْيَا منْ حَقْن دمَائهمْ وَأَمْوَالهمْ فَإِذَا مَاتُوا سُلبُوا ذَلكَ الضَّوْءَ كَمَا سُلبَ صَاحبُ النَّار ضَوْءَهُ؛فَلَفْظُ الْآيَة يَدُلُّ عَلَى خلَاف ذَلكَ فَإِنَّهُ قَالَ:{وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَات لَا يُبْصرُونَ} {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجعُونَ}.وَيَوْمَ الْقيَامَة يَكُونُونَ في الْعَذَاب كَمَا قَالَ تَعَالَى:{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافقُونَ وَالْمُنَافقَاتُ للَّذينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبسْ منْ نُورِكُمْ قيلَ ارْجعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمسُوا نُورًا فَضُربَ بَيْنَهُمْ بسُور لَهُ بَابٌ بَاطنُهُ فيه الرَّحْمَةُ وَظَاهرُهُ منْ قبَله الْعَذَابُ} {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} الْآيَةَ وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحد منْ السَّلَف:إنَّ الْمُنَافقَ يُعْطَى يَوْمَ الْقيَامَة نُورًا ثُمَّ يُطْفَأُ وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى:{يَوْمَ لَا يُخْزي اللَّهُ النَّبيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْديهمْ وَبِأَيْمَانهمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْممْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفرْ لَنَا}.قَالَ الْمُفَسِّرُونَ:إذَا رَأَى الْمُؤْمنُونَ نُورَ الْمُنَافقينَ يُطْفَأُ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُتمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ وَيُبَلِّغَهُمْ به الْجَنَّةَ.قَالَ ابْنُ عَبَّاس:لَيْسَ أَحَدٌ منْ الْمُسْلمينَ إلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقيَامَة؛فَأَمَّا الْمُنَافقُ فَيُطْفَأُ نُورُهُ وَأَمَّا الْمُؤْمنُ فَيُشْفقُ ممَّا رَأَى منْ إطْفَاء نُور الْمُنَافق فَهُوَ يَقُولُ:{رَبَّنَا أَتْممْ لَنَا نُورَنَا} وَهُوَ كَمَا قَالَ:فَقَدْ ثَبَتَ في " الصَّحيحَيْن " منْ حَديث أَبي هُرَيْرَةَ وَأَبي سَعيد – وَهُوَ ثَابتٌ منْ وُجُوه أُخَرَ – عَنْ

[431] – مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٥)

النَّبِيِّ ﷺ.وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَهُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ أَطْوَلُهَا - وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ أَنَّهُ {يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:لِتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ؛فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ.فَيَقُولُونَ:نَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْك وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ:فَيَقُولُونَ:أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ}.وَفِي رِوَايَةٍ:{فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ} وَفِي رِوَايَةٍ فَيَقُولُ:{هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ:نَعَمْ.فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إلَّا أَذِنَ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ نِفَاقًا وَرِيَاءً إلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ.فَتَبْقَى ظُهُورُهُمْ مِثْلَ صَيَاصِي الْبَقَرِ فَيَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ فَإِذَا نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ وَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ فَيَقُولُونَ ذَرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}.فَبَيَّنَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُحْشَرُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ وَقْتَ الْحَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ يَسْجُدُونَ لِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ السُّجُودِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَسْجُدُوا فِي الدُّنْيَا لَهُ بَلْ قَصَدُوا الرِّيَاءَ لِلنَّاسِ وَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا فَلِهَذَا أُعْطُوا نُورًا ثُمَّ طفئ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهُ.وَلِهَذَا ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ الْمَثَلَ بِذَلِكَ.وَهَذَا الْمَثَلُ هُوَ لِمَنْ كَانَ فِيهِمْ آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُعْطَوْنَ فِي الْآخِرَةِ نُورًا ثُمَّ يُطْفَأُ.وَلِهَذَا قَالَ:{فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} إلَى الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ وَقَالَ قتادة وَمُقَاتِلٌ:لَا يَرْجِعُونَ عَنْ ضَلَالِهِمْ وَقَالَ السدي:لَا يَرْجِعُونَ إلَى الْإِسْلَامِ يَعْنِي فِي الْبَاطِنِ وَإِلَّا فَهُمْ يُظْهِرُونَهُ وَهَذَا الْمَثَلُ إنَّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَهَذَا الْمَثَلُ مَضْرُوبٌ لِبَعْضِهِمْ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا.وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا مُنَافِقِينَ فَضَرَبَ لَهُمْ الْمَثَلَ الْآخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ:{أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ.فَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ اخْتَلَفُوا هَلْ الْمَثَلَانِ مَضْرُوبَانِ لَهُمْ كُلِّهِمْ أَوْ هَذَا الْمَثَلُ لِبَعْضِهِمْ؟ عَلَى " قَوْلَيْنِ ".وَ " الثَّانِي " هُوَ الصَّوَابُ لِأَنَّهُ قَالَ:{أَوْ كَصَيِّبٍ} وَإِنَّمَا يَثْبُتُ بِهَا أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ؛فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مَثَلُهُمْ هَذَا

وَهَذَا فَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْمَثَلَيْنِ بَلْ بَعْضُهُمْ يُشْبِهُ هَذَا وَبَعْضُهُمْ يُشْبِهُ هَذَا وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ يُشْبِهُونَ الْمَثَلَيْنِ لَمْ يَذْكُرْ (أَوْ بَلْ يَذْكُرْ الْوَاوَ الْعَاطِفَةَ.وَقَوْلُ مَنْ قَالَ:(أَوْ هَاهُنَا لِلتَّخْيِيرِ – كَقَوْلِهِمْ:جَالِسْ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِين – لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ التَّخْيِيرَ يَكُونُ فِي الْأَمْرِ وَالطَّلَبِ لَا يَكُونُ فِي الْخَبَرِ وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ:أَوْ بِمَعْنَى الْوَاوِ أَوْ لِتَشْكِيكِ الْمُخَاطَبِينَ أَوْ الْإِبْهَامِ عَلَيْهِمْ لَيْسَ بِشَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِالْأَمْثَالِ الْبَيَانَ وَالتَّفْهِيمَ لَا يُرِيدُ التَّشْكِيكَ وَالْإِبْهَامَ.وَالْمَقْصُودُ تَفْهِيمُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَهُمْ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ فِي " الْمَثَلِ الْأَوَّلِ ":{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} وَقَالَ فِي " الثَّانِي ":{يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فَبَيَّنَ فِي " الْمَثَلِ الثَّانِي " أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} وَفِي " الْأَوَّلِ " كَانُوا يُبْصِرُونَ ثُمَّ صَارُوا {فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}.وَفِي " الثَّانِي " {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ} الْبَرْقُ {مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} فَلَهُمْ " حَالَانِ ":حَالُ ضِيَاءٍ وَحَالُ ظَلَامٍ وَالْأَوَّلُونَ بَقُوا فِي الظُّلْمَةِ.فَالْأَوَّلُ حَالُ مَنْ كَانَ فِي ضَوْءٍ فَصَارَ فِي ظُلْمَةٍ وَالثَّانِي حَالُ مَنْ لَمْ يَسْتَقِرَّ لَا فِي ضَوْءٍ وَلَا فِي ظُلْمَةٍ بَلْ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ الَّتِي تُوجِبُ مَقَامَهُ وَاسْتِرَابَتَهُ.يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ضَرَبَ لِلْكُفَّارِ أَيْضًا مَثَلَيْنِ بِحَرْفِ (أَوْ فَقَالَ:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} " فَالْأَوَّلُ " مَثَلُ الْكُفْرِ الَّذِي يَحْسَبُ صَاحِبُهُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ وَهُوَ عَلَى بَاطِلٍ {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ؛فَلِهَذَا مَثَّلَ بِسَرَابٍ بِقِيعَةٍ وَ " الثَّانِي " مَثَلُ الْكُفْرِ الَّذِي لَا يَعْتَقِدُ صَاحِبُهُ شَيْئًا بَلْ هُوَ فِي {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} مِنْ عِظَمِ جَهْلِهِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ اعْتِقَادٌ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ؛بَلْ لَمْ يَزَلْ جَاهِلًا ضَالًّا فِي ظُلُمَاتٍ مُتَرَاكِمَةٍ.وَ " أَيْضًا " فَقَدْ يَكُونُ الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ تَارَةً مُتَّصِفًا

بِهَذَا الْوَصْفِ وَتَارَةً مُتَّصِفًا بِهَذَا الْوَصْفِ فَيَكُونُ التَّقْسِيمُ فِي الْمَثَلَيْنِ لِتَنَوُّعِ الْأَشْخَاصِ وَلِتَنَوُّعِ أَحْوَالِهِمْ وَبِكُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ مَا ضُرِبَ لَهُ هَذَا الْمَثَلُ هُوَ مُمَاثِلٌ لِمَا ضُرِبَ لَهُ هَذَا الْمَثَلُ لِاخْتِلَافِ الْمَثَلَيْنِ صُورَةً وَمَعْنًى وَلِهَذَا لَمْ يُضْرَبْ لِلْإِيمَانِ إلَّا مَثَلٌ وَاحِدٌ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ فَضُرِبَ مَثَلُهُ بِالنُّورِ وَأُولَئِكَ ضُرِبَ لَهُمْ الْمَثَلُ بِضَوْءٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.كَالسَّرَابِ بِالْقِيعَةِ أَوْ بِالظُّلُمَاتِ الْمُتَرَاكِمَةِ وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ يُضْرَبُ لَهُ الْمَثَلُ بِمَنْ أَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ أَوْ هُوَ مُضْطَرِبٌ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ مَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ.فَتَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ كَانَ آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ بَاطِنًا وَهَذَا مِمَّا اسْتَفَاضَ بِهِ النَّقْلُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالسِّيَرِ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ قَدْ آمَنُوا ثُمَّ نَافَقُوا وَكَانَ يَجْرِي ذَلِكَ لِأَسْبَابِ:

مِنْهَا أَمْرُ الْقِبْلَةِ لَمَّا حُوِّلَتْ ارْتَدَّ عَنْ الْإِيمَانِ لِأَجْلِ ذَلِكَ طَائِفَةٌ وَكَانَتْ مِحْنَةً امْتَحَنَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ.قَالَ تَعَالَى:{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} قَالَ:أَيْ إذَا حُوِّلَتْ؛وَالْمَعْنَى أَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي كَانَ فِي عِلْمِنَا أَنْ نَجْعَلَهَا قِبْلَتَكُمْ؛فَإِنَّ الْكَعْبَةَ وَمَسْجِدَهَا وَحَرَمَهَا أَفْضَلُ بِكَثِيرِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهِيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَقِبْلَةُ إبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ قَطُّ أَحَدًا أَنْ يُصَلِّيَ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَا مُوسَى وَلَا عِيسَى وَلَا غَيْرَهُمَا؛فَلَمْ نَكُنْ لِنَجْعَلَهَا لَك قِبْلَةً دَائِمَةً وَلَكِنْ جَعَلْنَاهَا أَوَّلًا قِبْلَةً لِنَمْتَحِنَ بِتَحْوِيلِك عَنْهَا النَّاسَ فَيَتَبَيَّنُ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ فَكَانَ فِي شَرْعِهَا هَذِهِ الْحِكْمَةُ.وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ارْتَدَّ طَائِفَةٌ نَافَقُوا قَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} فَقَوْلُهُ:{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} ظَاهِرٌ فِيمَنْ

أَحْدَثَ نفَاقًا وَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَنْ لَمْ يُنَافِقْ قَبْلُ وَمَنْ نَافَقَ ثُمَّ جَدَّدَ نفَاقًا ثَانيًا.وَقَوْلُهُ:{هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئذ أَقْرَبُ منْهُمْ للْإِيمَان} يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلكَ أَقْرَبَ منْهُمْ بَلْ إمَّا أَنْ يَتَسَاوَيَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا للْإِيمَان أَقْرَبَ وَكَذَلكَ كَانَ؛فَإِنَّ ابْنَ أُبَي لَمَّا انْخَزَلَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُد.انْخزَلَ مَعَهُ ثُلُثُ النَّاسِ قيلَ:كَانُوا نَحْوَ ثَلَاثمائَة وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلكَ كُلُّهُمْ مُنَافقينَ فِي الْبَاطِنِ إذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إلَى النِّفَاق.فَإِنَّ ابْنَ أبي كَانَ مُظْهِرًا لطَاعَة النَّبيِّ ﷺ وَالْإِيمَان به؛وَكَانَ كُلَّ يَوْم جُمُعَة يَقُومُ خَطيبًا في الْمَسْجد يَأْمُرُ باتِّبَاعِ النَّبيِّ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ مَا في قَلْبه يَظْهَرُ إلَّا لقَليلٍ منْ النَّاس إنْ ظَهَرَ وَكَانَ مُعَظَّمًا في قَوْمه؛كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيَجْعَلُوهُ مثْلَ الْمَلك عَلَيْهمْ؛فَلَمَّا جَاءَتْ النُّبُوَّةُ بَطَلَ ذَلكَ فَحَمَلَهُ الْحَسَدُ عَلَى النِّفَاق وَإِلَّا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلَ ذَلكَ دينٌ يَدْعُو إلَيْه؛وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا في الْيَهُود فَلَمَّا جَاءَ النَّبيُّ ﷺ بدينه وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ حُسْنَهُ وَنُورَهُ مَالَتْ إلَيْه الْقُلُوبُ لَا سيَّمَا لَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَنَصَرَهُ عَلَى يَهُود بَني قَيْنُقَاعَ صَارَ مَعَهُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا؛فَكَانَ الْمُقْتَضي للْإِيمَان في عَامَّة الْأَنْصَار قَائمًا وَكَانَ كَثيرٌ منْهُمْ يُعَظِّمُ ابْنَ أبي تَعْظيمًا كَثيرًا وَيُوَاليه وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ أبي أَظْهَرَ مُخَالَفَةً تُوجبُ الامْتيَازَ؛فَلَمَّا انْخَزَلَ يَوْمَ أُحُد وَقَالَ:يَدَعُ رَأْيي وَرَأْيَهُ وَيَأْخُذُ برَأْيِ الصِّبْيَانِ - أَوْ كَمَا قَالَ - انْخَزَلَ مَعَهُ خَلْقٌ كَثيرٌ منْهُمْ مَنْ لَمْ يُنَافقْ قَبْلَ ذَلكَ.

وَفي الْجُمْلَة:فَفي الْأَخْبَار عَمَّنْ نَافَقَ بَعْدَ إيمَانه مَا يَطُولُ ذكْرُهُ هُنَا؛فَأُولَئكَ كَانُوا مُسْلمينَ وَكَانَ مَعَهُمْ إيمَانٌ هُوَ الضَّوْءُ الَّذي ضَرَبَ اللَّهُ به الْمَثَلَ فَلَوْ مَاتُوا قَبْلَ الْمحْنَة وَالنِّفَاق مَاتُوا عَلَى هَذَا الْإِسْلَام الَّذي يُثَابُونَ عَلَيْه وَلَمْ يَكُونُوا منْ الْمُؤْمنينَ حَقًّا الَّذينَ امْتُحنُوا فَثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَان وَلَا منْ الْمُنَافقينَ حَقًّا الَّذينَ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِيمَان بالْمحْنَة.وَهَذَا حَالُ كَثيرٍ منْ الْمُسْلمينَ في زَمَاننَا أَوْ أَكْثَرهمْ إذَا ابْتُلُوا بالْمحَنِ الَّتي يَتَضَعْضَعُ فيهَا أَهْلُ الْإِيمَان يَنْقُصُ إيمَانُهُمْ كَثيرًا وَيُنَافقُ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثيرٌ منْهُمْ.وَمنْهُمْ مَنْ يُظْهرُ الرِّدَّةَ إذَا كَانَ الْعَدُوُّ غَالبًا؛وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا منْ هَذَا مَا فيه عبْرَةٌ.وَإِذَا كَانَتْ الْعَافيَةُ أَوْ كَانَ الْمُسْلمُونَ ظَاهرينَ عَلَى عَدُوِّهمْ كَانُوا مُسْلمينَ.وَهُمْ مُؤْمنُونَ بالرَّسُول بَاطنًا وَظَاهرًا لَكنْ إيمَانًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْمحْنَة.وَلهَذَا يَكْثُرُ في هَؤُلَاءِ تَرْكُ الْفَرَائضِ وَانْتهَاكُ الْمَحَارمِ.وَهَؤُلَاءِ منْ

الَّذِينَ قَالُوا: {آمَنَّا} فَقِيلَ لَهُمْ: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} أَيْ الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ الَّذِي أَهْلُهُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ إذَا أُطْلِقَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ وَالرَّيْبُ يَكُونُ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَفِي عَمَلِ الْقَلْبِ؛بِخِلَافِ الشَّكِّ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْعِلْمِ وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِالْيَقِينِ إلَّا مَنْ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا؛وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ عَالِمًا بِالْحَقِّ؛وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ أَوْ الْخَوْفَ أَوْرَثَهُ جَزَعًا عَظِيمًا لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ يَقِينٍ.قَالَ تَعَالَى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}.[٤٣٢]

جهاد الخونة والجواسيس والمتآمرين مع العدو:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) } [الممتحنة:١ - ٥]

[٤٣٢] - مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٤)

هذه الآية نزلتْ في حاطب بْن أبي بلْتعة،وكان حاطبٌ مـــنْ أهْـــل بـــدْرٍ،هاجر مـــنْ مكّة،وترك فيها ماله وولده،و لْم يكنْ هو منْ قريشٍ.فلما أراد الرّسول ﷺ فتح مكّة دعـــا ربّه الله أنْ يعْمي الأخْبار عنْ قريشٍ،حتّى يأْخْذهمْ على حين غرّةٍ،فكتب حاطبٌ كتابـــاً إلى قريشٍ يعرّفهمْ بعزْم الرّسول ﷺ على غزْوهمْ،وأرْسله مـــع امْـــرأةٍ ليتّخـــذ عنْـــدهمْ يداً.وأعْلم الله تعالى رسوله بالكتاب،فأرْسل الرّسول عليّاً والزّبيْر،وأمرهما بالـــذّهاب إلى روْضة خاخٍ ليأتياه بالكتاب من المرْأة،فلمّا جاءاها طلبا منْها الكتاب فأنْكرتْه،فهـــدّداها بتجْريدها منْ ثيابها لتفْتيشها،فأخْرجت الكتاب منْ ضفائر شعْرها.

وسأل الرّسول حاطباً عن الكتاب فاعْترف وقال للرّسول إنّه لْم يفْعلْ ذلـــك كفْـــراً،ولا ارْتداداً عن الإسْلام،وإنّما ليتّخذ به يداً عنْد قريشٍ يحْمي بها أهْله وولده ومالـــه.فقـــال الرّسول للصّحابة إنّه صدقكمْ.وقال عمْر بن الخطّاب دعْني أضْربْ عنْق هذا المنافق.فقال الرّسول:إنّه قدْ شهد بدْراً،وما يدْريك لعلّ الله اطّلع على أهْل بدْرٍ فقال:اعْملوا ما شئْتمْ فقدْ غفرْت لكمْ.

ويأْمر الله تعالى المؤْمنين في هذه الآية بأنْ لا يتّخذوا الكفّار أعْواناً وأنْصاراً لهمْ يبلّغـــونهمْ أخْبار الرّسول التي لا ينْبغي لأعْدائه أنْ يطّلعوا عليها،وقدْ كفر هـــؤلاء الكفّـــار بـــالله وبرسوله وبكتابه،فكيْف بكمْ بعْد هذا تتّخذونهمْ أنْصاراً تسرّون إليهمْ بما ينْفعهمْ،ويضرّ الرّسول والمسْلمين،وقدْ أخْرجوا الرّســـول وأصْـــحابه مـــنْ بـــين أظْهـــرهمْ كرْهـــاً بالتّوْحيد،وإخْلاص العبادة لله،و لْم يكنْ لهمْ ذنْبٌ يؤاخذون عليه غيْر ذلك.

فإنْ كنْتمْ،يا أيّها المؤْمنون،قدْ خرجْتمْ مجاهدين في ســـبيلي،وابْتغاء مرْضـــاتي،فلا تولـــوا أعْدائي،ومنْ يفْعلْ هذه الموالاة،ويفْش سرّ الرّسول لأعْدائه،فقدْ حاد عنْ قصْد الطّريـــق الموصلة إلى الجنّة.

إنْ ظفر بكمْ هؤلاء الكافرون،الذين تلْقون إليهم بالمودّة،يظْهروا لكمْ عداوتهمْ،ويمـــدّوا إليكمْ أيديهمْ وألْسنتهمْ بما يسوؤكمْ:يقاتلونكمْ ويشْتمونكمْ ويتمنّون لو تكْفرون بربّكمْ فتكونوا على مثْل دينهمْ،فكيْف تسرّون إلى هؤلاء بالمودّة وهذه هي حالهمْ؟..

ويردّ الله تعالى على ذلك الذي اعْتذر برغْبته في المحافظة على أوْلاده وأمْواله في مكّة،بأنّ الأقارب والأوْلاد،الذين توالون الكفّار منْ أجْلهمْ،لنْ ينْفعوكمْ يوْم القيامة،ولنْ يـدْفعوا عنْكمْ شيئاً منْ عذاب الله،إنْ عصيْتموه في الدّنْيا،لأنّه سيفْصل بيْنهمْ وبـيْن أقـاربهمْ في ذلك اليوْم العصيب.ويذْهل كلّ واحدٍ عمّنْ سواه،ويكون لكلّ واحدٍ شأْنٌ يغنيه في ذلك اليوْم،والله بصيرٌ بما يعْمله العباد.

أفلا تأسّى هؤلاء الذين يوادّون الكافرين بأبيهمْ إبْراهيم،وأصْحابه المؤْمنين،حين قـالوا لقوْمهم الذين كفروا بالله:إنّا برآء مـنْكمْ وممّـا تعْبـدون مـنْ دون الله مـن الآلهـة والأنْداد،وجحدْنا ما أنْتمْ عليه من الكفْر،وأنْكرْنا عبادتكمْ ما تعْبدون منْ دون الله مـنْ حجارةٍ وأوْثانٍ وأصْنامٍ،وقدْ أعْلنّا الحرْب عليْكمْ،فلا هوادة بيْننا وبيْنكمْ،وسنبْقى علـى ذلك حتّى تؤمنوا بالله وتوحّدوه،وتعْبـدوه وحْـده لا شـريك لـه،ولا صـاحبة ولا ولد،وتتخلّصوا منْ عبادة الأصْنام والأوْثان.

ولكمْ في أبيكمْ إبْراهيم وقوْمه أسْوةٌ حسنةٌ تتأسّوْن بهـا،وتعْتبرون بهـا في مسْـلككمْ وعبادتكمْ،ولا تسْتثْنوا منْ تصرّفات إبْراهيم التي تقْتدون بها إلاّ اسْتغْفاره لأبيه الذي بقي مقيماً على الكفْر،فقدْ قال إبْراهيم لأبيه:إنّه سيسْتغْفر له الله،وإنّه لا يسْـتطيع أنْ ينْفعـه بأكْثر منْ ذلك،فالأمْر مرْدودٌ إلى مشيئة الله،إنْ شاء غفر وإنْ شاء عذّب.ولكـنّ هـذا القوْل صدر عنْ إبْراهيم حينما وعده أبوه بأنّه سيؤْمن بالله،ويتْبعه فيما يعْبد.فلمّا تبـيّن إبْراهيم أنّ عدوٌ لله تبرّأ منْه.

وحينما فارق إبْراهيم والمؤْمنون معه قوْمهمْ لجؤوا إلى الله متضرّعين قـائلين:ربّنـا إنّنـا اعْتمدْنا عليْك في جميع أمورنا (توكّلْنا)،ورجعْنا إليك بالتّوْبة منْ ذنوبنا،وإليك مصيرنا حين تبْعثنا منْ قبورنا للْعرْض والحساب.فاقْتدوا بهمْ يا أيّها المؤْمنون،وقولوا مثْل قوْلهمْ.

ربّنا ولا تسلّطْ قوْمنا الكافرين علينا،ولا تجْعلْهمْ يظْهرون علينا،فيعْملوا على فتْنتنا عـنْ ديننا بالعذاب والنّكال.وهمْ يظنّون أنّهمْ إنّما ظهروا عليْنا لأنّهـمْ علـى حـقٍّ فيمـا

يقولون،وفيما يعْبدون،ربّنا واسْترْ ذنوبنا عنْ غيرك،واعْف عنّا فيما بيْننا وبينك،إنّك يـــا ربّ أنْت القويّ العزيز الذي لا يضام،الحكيم فيما تشْرع،وفيما تقْضي.[433]

وقال السعدي:

ذكر كثير من المفسرين،[رحمهم الله]،أن سبب نزول هذه الآيات الكريمـــات في قصـــة حاطب بن أبي بلتعة،حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح،فكتب حاطب إلى قـــريش يخـــبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم،ليتخذ بذلك يدا عندهم لا [شـــكا و] نفاقا،وأرســـله مـــع امرأة،فأخبر النبي ﷺ بشأنه،فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطبا،فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ،وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم،وإلقـــاء المـــودة إلـــيهم،وأن ذلـــك منـــاف للإيمان،ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام،ومناقض للعقل الذي يوجـــب الحذر كل الحذر من العدو،الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئا،وينتهز الفرصـــة في إيصال الضرر إلى عدوه،فقال تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنوا } اعملوا بمقتضى إيمـــانكم،من ولاية من قام بالإيمان،ومعاداة من عاداه،فإنه عدو لله،وعدو للمؤمنين.فلا تتخذوا عـــدو الله { وعدوّكمْ أوْلياء تلْقون إليْهمْ بالْمودّة } أي:تسارعون في مـــودهم وفي الســـعي بأسباها،فإن المودة إذا حصلت،تبعتها النصرة والموالاة،فخرج العبد من الإيمان،وصار من جملة أهل الكفران،وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر وليا،عادم المروءة أيضا،فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريـــد له إلا الشر،ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير،ويأمره به،ويحثه عليه؟! وممـــا يـــدعو المؤمن أيضا إلى معاداة الكفار،أهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق،ولا أعظـــم مـــن هذه المخالفة والمشاقة،فإهم قد كفروا بأصل دينكم،وزعموا أنكم ضلال على غير هدى. والحال أهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية،ومن رد الحق فمحال أن يوجد لـــه دليل أو حجة تدل على صحة قوله،بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول مـــن رده وفساده.

---

[433] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

ومن عداوهم البليغة أنهم { يُخْرجـــون الرّســـول وإيّـــاكمْ } أيهـــا المؤمنـــون مـــن دياركم،ويشردونكم من أوطانكم،ولا ذنب لكم في ذلك عندهم،إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته،لأنـــه ربـــاهم،وأنعم عليهم،بـــالنعم الظاهرة والباطنة،وهو الله تعالى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر،الذي هو أوجب الواجبات،وقمتم به،عادوكم،وأخرجوكم – من أجله – من دياركم،فأي دين،وأي مروءة وعقل،يبقى مع العبد إذا والى الكفـــار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟" ولا يمنعهم منه إلا خوف،أو مانع قوي.

{ إنْ كنْتمْ خرجْتمْ جهادًا في سبيلي وابْتغـــاء مرْضـــاتي } أي:إن كـــان خـــروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله،لإعلاء كلمة الله،وابتغاء مرضاة الله فاعملوا بمقتضـــى هذا،من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه،فإن هذا هو الجهاد في سبيله وهو من أعظم مـــا يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويبتغون به رضاه.

{ تسرّون إليْهمْ بالْمودّة وأنا أعْلم بما أخْفيْتمْ وما أعْلنْتمْ } أي:كيف تســـرون المـــودة للكافرين وتخفونها،مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!،فهو وإن خفي علـــى المؤمنين،فلا يخفى على الله تعالى،وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر،{ ومنْ يفْعلْه منْكمْ } أي:موالاة الكافرين بعد ما حذركم الله منها { فقدْ ضلّ سواء السّبيل } لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شـــدة عـــداوتهم،تهييجا للمـــؤمنين علـــى عـــداوتهم،{ إنْ يثْقفـــوكمْ } أي:يجدوكم،وتسنح لهم الفرصة في أذاكم،{ يكونوا لكمْ أعْداءً } ظاهرين { ويبْسطوا إليْكمْ أيْديهمْ } بالقتل والضرب،ونحو ذلك.

{ وألْسنتهمْ بالسّوء } أي:بالقول الذي يسوء،من شتم وغيره،{ وودّوا لوْ تكْفـــرون } فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتم وقلتم:نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال،فلن تغني عنكم أمـــوالكم ولا أولادكم من الله شيئا.{ والله بما تعملون بصير } فلذلك حذركم من موالاة الكـــافرين الذين تضركم موالاتهم.

قد كان لكم يا معشر المؤمنين { أسْوةٌ حسنةٌ } أي:قدوة صالحة وائتمام ينفعكم،{ في إبْراهيم والّذين معه } من المؤمنين،لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا،{ إذْ قالوا لقوْمهمْ إنّا برآء منْكمْ وممّا تعْبدون منْ دون اللّه } أي:إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومـــن معه من المؤمنين،من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوهم غاية التصريح،فقالوا:{ كفرْنا بكمْ وبدا } أي:ظهر وبان { بيْننـــا وبيْنكم الْعداوة والْبغْضاء } أي:البغض بالقلوب،وزوال مودهما،والعداوة بالأبدان،وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد،بل ذلك { أبدًا } ما دمتم مستمرين على كفركم { حتّى تؤْمنوا باللّه وحْده } أي:فإذا آمنتم بالله وحده،زالت العداوة والبغضاء،وانقلبت مودة وولاية،فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيـــام بالإيمـــان والتوحيد،والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته،وفي كل شيء تعبدوا به لله وحـــده،{ إلا } في خصلة واحدة وهي { قوْل إبْراهيم لأبيه } آزر المشـــرك،الكافر،المعاند،حين دعـــاه إلى الإيمان والتوحيد،فامتنع،فقال إبراهيم:{ لأسْتغْفرنّ لك و } الحال أني لا { أمْلك لـــك من اللّه منْ شيْءٍ } لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا،فليس لكـــم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالـــة الـــتي دعـــا بهـــا للمشـــرك،فليس لكـــم أن تـــدعوا للمشركين،وتقولوا:إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم،فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلـــك بقوله:{ وما كان اسْتغْفار إبْراهيم لأبيه إلا عنْ موْعدةٍ وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ للّه تبرّأ منْه إن إبراهيم لأواه حليم }

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه،حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه،واعترفوا بالعجز والتقصير،فقالوا:{ ربّنا عليْك توكّلْنا } أي:اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنـــا ودفع ما يضرنا،ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.{ وإليْك أنبْنا } أي:رجعنـــا إلى طاعتـــك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك،فنحن في ذلك ساعون،وبفعل الخيرات مجتهدون،ونعلم أنا إليك نصير،فسنستعد للقدوم عليك،ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك.

{ ربّنا لا تجْعلْنا فتْنةً للّذين كفروا } أي:لا تسلطهم علينا بذنوبنا،فيفتنونا،ويمنعونا ممـــا يقدرون عليه من أمور الإيمان،ويفتنون أيضا بأنفسهم،فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة،ظنوا أنهـــم

على الحق وأنا على الباطل،فازدادوا كفرا وطغيانا،{ واغْفرْ لنا } ما اقترفنا من الذنوب والسيئات،وما قصرنا به من المأمورات،{ ربّنا إنّك أنْت الْعزيز } القاهر لكل شـــيء،{ الْحكيم } الذي يضع الأشياء مواضعها،فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا،واغفر لنا ذنوبنا،وأصلح عيوبنا.[٤٣٤]

وقال الخطيب:" النداء للمؤمنين جميعا،الذين كانوا فى مواجهة المشركين مـــن قـــريش وأحلافهم،حيث كانوا يتربصون بالنبي وبالمؤمنين،ويكيدون لهم،ويســـتعدون ضـــعاف الإيمان عليهم،ويجذبونهم إليهم بالوعد وبالوعيد..وقد كشف الله سبحانه للمؤمنين عـــن وجه هؤلاء المشركين،وأنهم أعداء الله وأعداء الذين آمنوا..فمن كان مؤمنا بـــالله حقّـــا كان على ولاء لله وللمؤمنين به،الأمر الذي لا يتفق معه الولاء والمودة لأعداء الله وأعداء المؤمنين..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ» فـــإن مـــن يتصـــف بالإيمان،لا تبقى له هذه الصفة،إذا هو كان على ولاء ومودة،لمن كان عدوّا لله وعـــدوا للمؤمنين،أولياء الله..

وقوله تعالى:«تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» هو جملة حال من فاعل الفعل:«لا تَتَّخِذُوا» أو هـــو صفة لأولياء..

والإلقاء بالمودة،بذلها فى صورة رسائل،أو هدايا،أو عواطف من الحب والود،مـــع بعـــد الشقة النفيسة،التي ينبغى أن تكون بين المؤمنين بالله والكافرين به،أو بعد الشقة المكانيـــة حيث المؤمنون فى المدينة،والمشركون فى مكة..ولهذا عدّى الفعل بالباء،لتصـــمنه معـــنى تبعثون إليهم بالمودة،مع إفادته معنى السر والخفاء حيث تلقى إليهم المودة فى كلا الحالين فيتلقفونها من غير أن يراها أحد.

وقوله تعالى:«وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» أي أنكم تلقون إلى عدوّ الله وعدوكم بالمودة،فى حال قد كفر فيها هذا العدو بما جاءكم من الحق،الذي نـــزل بـــه القـــرآن الكريم،وتلاه عليكم رسول الله..بل ليس هذا فحسب،إنهم «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّـــاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» أي مع كفرهم بالحق الذي آمنتم به- وهذا وحده كاف لقطـــع

[٤٣٤] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٥٤)

كل ولاء بينكم وبينهم،فإنهم- مع هذا- يخرجون الرسول،ويخرجونكم من دياركم وأهليكم لا لجناية جناها الرسول أو جنيتموها أنتم عليهم،إلا أنكم آمنتم بالله ربكم..فتلك هى جنايتكم عند القوم..إنهم يعادونكم لإيمانكم بالله..فقوله تعالى:«وَإِيَّاكُمْ» معطوف على «الرسول» أي يخرجون الرسول ويخرجونكم.قوله تعالى:«إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي» - هو تعقيب على قوله تعالى:«أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» - أي إن كان إيمانكم هذا صادقا،وكانت هجرتكم خالصة لوجه الله،تريدون بها جهادا فى سبيله وابتغاء مرضاته..وفى هذا إلفات للمسلمين إلى هذا الإيمان الذي فى قلوبهم،وإلى تمحيصه من شوائب النفاق،حتى يكون إيمانا حقّا..فهذا الإيمان الحق من شأنه ألا يقيم بينكم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين مودة..أما إذا كان إيمانكم على غير تلك الصفة،فهو ليس الإيمان الذي خرج به النبي والمؤمنون من ديارهم،وليس هو الإيمان الذي يجعل من المشركين عدوا للمؤمنين..

فهل أنتم مؤمنون حقا؟ فإن كنتم مؤمنين حقا،فلا تتخذوا عدوا الله وعدو المؤمنين أولياء.

وفى التعبير عن إخراج المشركين للنبى والمؤمنين،بالفعل المضارع الذي يفيد تجدّد الزمن حالا بعد حال،للإشارة إلى أن المشركين ما زالوا على موقفهم من النبي والمؤمنين،وأنه لو عاد النبي والمؤمنون إلى ديارهم بمكة لأخرجهم المشركون منها،بما يلاحقونهم به من أذى وضر..كما أن المشركين لم يزل هذا موقفهم من المؤمنين الذين كانوا فى مكة،ولم تتح لهم فرصة الهجرة لسبب أو لآخر..

ويجوز أن يكون قوله تعالى:«إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي».
يجوز أن يكون منصلا بقوله تعالى:«لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ»..ويكون ما بينهما اعتراض يراد به الكشف عن وجه أعداء الله وأعداء المؤمنين،وما يرمون به النبي والمؤمنين من أذًى متلاحق..

وقوله تعالى:«تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ» هو استفهام إنكارى،أي أبعد هذا الذي علمتم أو تعلمون من أمر القوم- أبعد هذا تسرون إليهم

بالمودة؟ أي تبادلوهم المودة فى ستر وخفاء «وَأَنَا أَعْلَمُ بما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ»..فإنـــه لا يخفى على الله خافية فى الأرض ولا فى السماء:«سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ» (١٠:الرعد) وإن إسراركم هذه المودة لدليل على أنها أمر تنكرونه أنتم،وينكره المؤمنـــون عليكم،وإنـــه لـــو كـــان غـــير منكـــر لأعلنتموه..فإخفاء هذه المودة التي بين بعض المؤمنين وبين المشركين شاهد على أنها ممـــا يعاب على المؤمن،ومما ينبغى ستروه وإخفاؤه،وحسب الأمر شناعة ألا يكون له وجـــه يظهر به فى الناس،فإن ظهر كان فضيحة لصاحبه!! وقوله تعالى:«وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَـــدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» الضمير فى «يفعله» يعود إلى هذا الإسرار المودة..أي ومن يفعل هذا الإسرار بالمودة،فقد ضل سواء السبيل،لأن الإسرار بها- كما قلنا- دليل علـــى نكرهـــا وبشاعتها..وإذا امتنع الإسرار بها،فقد أصبح من المستبعد إعلانها إلّا إذا كان ذلك عـــن كفر صريح،وردّة عن الإيمان..فهذا شأن آخر غير شأن المؤمنين.

قوله تعالى:«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِـــنَتَهُمْ بِالسُّـــوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» «إِنْ يَثْقَفُوكُمْ»:أي يظفروا بكم،وينتصـــروا عليكم،ومنـــه قولـــه تعالى:«فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (٥٧ الأنفـــال) والثّقاف:ما يثقّف به الرمح،أي يعدّل ويقوّم،والمراد بثقف القوم هنا التمكن منـــهم،كما يتمكن الثقاف من الرمح.والخطاب هنا للمؤمنين الذين بينهم وبين المشركين مودة..أي أن هؤلاء المشركين الذين توادّوهم أيها الموادون لهم من المؤمنين- إن يظفروا بكـــم فى حرب بين المؤمنين وبينهم،لن يبقوا على هذا الود الذي تحسبونه قائما بينكم وبينهم،بل إنهم سيكونون لكم فى تلك الحال أعداء،يبسطون إلـــيكم أيـــديهم بالأذى،وألســـنتهم بالسوء،بل إنهم ليفعلون بكم أكثر من هـــذا،وهو حملكـــم علـــى أن تعـــودوا إلـــيهم كفارا..فهذا هو الذي يقطع عداوتهم لكم..

وفى قوله تعالى:«يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً» - إشارة إلى أن هذه المودة التي بين بعض المـــؤمنين والمشركين،هى التي تخفى هذه العداة التي فى صدور المشركين لهم- فإذا أمكنت الفرصة المشركين منهم،ظهرت هذه العداوة الكامنة..

وفى قوله تعالى:«وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» – بعطف الفعل الماضي على فعل المستقبل «يبسطوا» – فى هذا إشارة إلى أن هذه الرغبة،أي رغبة المشركين فى أن يكفر المؤمنون– هى رغبة قديمة،من يوم أن آمن هؤلاء المؤمنون..إنها رغبة لم تنقطع بالهجرة،ولا بالمودّة التي تجرى بينهم وبين هؤلاء المؤمنين،بل هى قائمة فى صدور المشركين،لن تموت أبدا إلا بعودة المؤمنين كفارا..

قوله تعالى:«لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي أنه– أيها المؤمنون– لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين أمسكوا بشركهم،فقد أصبحتم فى حزب الله،وظلّوا هم فى حزب الشيطان،ولن يجتمع حزب الله وحزب الشيطان،ولن يتبادلوا المنافع بينهم..فليس فى جانب المشركين إلا السوء والضلال..وكما فرق الإيمان بينكم وبين أرحامكم وأولادكم المشركين فى الدنيا،كذلك يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة..فأنتم فى رحمة الله ورضوانه،وهم فى سخط الله وعذابه..

قيل إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة– وهو صحابىّ ممن شهد بدرا– وكان ذلك بعد صلح الحديبية،وبعد أن نقضت قريش شروط الصلح التي صالحها عليها النبي يومئذ..وكان النبىّ يعدّ العدّة لفتح مكة،ويتجهز لهذا فى سر وخفاء،حتى لا تعلم قريش،وتستعد للحرب..

وكان حاطب بن أبى بلتعة حين هاجر من مكة قد خلّف بعض أهله بها،ولم يكن له فى مكة عصبية تحمى أهله المخلفين هناك،من أذى قريش،فأراد أن يصطنع عند قريش يدا ينتفع بها أهله عندهم،فبعث إليهم برسالة مع امرأة من مكة كانت قد وفدت إلى المدينة،فلما قفلت راجعة إلى مكة،أعطاها «حاطب» رسالة إلى قريش،يعلمهم فيها أن النبي يعد العدة لحربهم،وأوصى المرأة أن تخفى الرسالة،وأن تكتم أمرها،لقاء مال أعطاها إياه..فلما أخذت المرأة طريقها إلى مكة،جاء خبر السماء إلى النبي– ﷺ– بما كان من هذا الحدث،فبعث النبي بجماعة من أصحابه فيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه،يتبعون المرأة،ويأخذون الرسالة التي معها..فلما جىء بالرسالة إلى النبي،دعا إليه

حاطبا،وسأله عن أمر هذه الرسالة،فاعترف بها،واعتذر للنبى صادقا،بأنه لم يرد بهذا كيدا للمسلمين،ولا ممالأة للمشركين،وإنه ليعلم أن الله سيؤيد النبي بنصره،وأنه لن يغنى عن قريش أي تدبير يدبرونه فصدقه النبي،وقبل ما اعتذر به،وردّ عمر بن الخطاب حين قال:ألا أضرب عنقه يا رسول الله،بقوله- ﷺ:«وما يدريك يا عمر،لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم،فقد عفوت عنكم» وهكذا أعفا النبي عن هذا الصحابي الذي شهد بدرا،ثم تنزلت آيات الله فى مواجهة هذه الحادثة،فكان منها هذا الدرس الخالد للمسلمين،يقيم لهم دستورا حكيما،يحرس إيمانهم من أن تفسده مشاعر المودة بينهم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين بالله.[٤٣٥]

وفي الظلال:

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحي:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..نداء من ربهم الذي آمنوا به،يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه.يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم،ويحذرهم حبائل أعدائهم،ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم.

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه،وعدوه عدوهم:«لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ»..فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه.يعاديهم من يعاديه.فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض،وهم أوداؤه وأحباؤه.فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه.

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم،وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم:«وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ.يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ.أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ»..

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة؟ كفروا بالحق.وأخرجوا الرسول والمؤمنين،لا لشيء إلا لأنهم آمنوا باللّه ربهم؟ إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم.وهي التي حاربهم المشركون من أجلها،لا من أجل أي سبب آخر.ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب.فهي قضية العقيدة دون

---

[٤٣٥] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٨٩٠)

سواها.قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه،والإيمان الذي مـــن أجلـــه أخرجوهم.

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت،ذكّرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان اللّه وجهادا في سبيله:«إِنْ كُنْتُمْ خَـــرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي»..فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل اللّه ابتغاء مرضاة اللّه،مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه باللّه،وهو عدو اللّـــه وعـــدو رسول اللّه! ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم،وما يسرون به إلى أعدائهم وأعـــداء اللّه من المودة،وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها:«تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ».

ثم يهددهم تهديدا مخيفا،يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة:«وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ»..وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعـــد الهدايـــة والوصول؟! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم ومـــا يضمرون لهم من الشر والكيد.

ثم تجيء البقية:«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَـــيْكُمْ أَيْـــدِيَهُمْ وَأَلْسِـــنَتَهُمْ بِالسُّوءِ»..

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصـــرف العـــدو الأصيل.ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكـــل وســـيلة وكل سبيل.

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى:«وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»..

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان.فالذي يود لـــه أن يخسر هذا الكنز العزيز.كنز الإيمان.ويرتد إلى الكفر،هو أعدى من كل عـــدو يؤذيـــه باليد وباللسان!

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر،ويهتدي بنوره بعد الضلال،ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما

يكره أن يلقى في النار.أو أشد.فعدو اللّه هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان،وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور.لهذا يتدرج القرآن في تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم:«وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»[٤٣٦]..

وقال الجصاص:

وقَوْله تَعَالَى:{لا يَتَّخِذ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُون الْمُؤْمِنِينَ} الْآيَةَ.فيه نَهْيٌ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ؛ لأَنَّهُ جَزَمَ الْفِعْلَ،فَهُوَ إذًا نَهْيٌ وَلَيْسَ بِخَبَرٍ.قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُلَاطِفُوا الْكُفَّارَ؛ وَنَظِيرُهَا مِنْ الْآيِ قَوْله تَعَالَى:{لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً} [آل عمران:١١٨] وَقَالَ تَعَالَى:{لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} [المجادلة:٢٢] الْآيَةَ.وَقَالَ تَعَالَى {فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٦٨] وَقَالَ تَعَالَى:{فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ} [النساء:١٤٠]،وَقَالَ تَعَالَى:{وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود:١١٣] وَقَالَ تَعَالَى:{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [لنجم:٢٩] وقال تعالى:{وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [لأعراف:١٩٩].وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة:٧٣] وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة:٥١] وَقَالَ تَعَالَى:{وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [طه:١٣١] فَنَهَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُلَاطَفَتِهِمْ عَنْ النَّظَرِ إِلَى أَمْوَالِهِمْ،وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا.وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِإِبِلٍ لِبَنِي الْمُصْطَلِقِ،وَقَدْ عَبَسَتْ١ بِأَبْوَالِهَا مِنْ السِّمَنِ،فَتَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ وَمَضَى لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ} [طه:١٣١] وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة:١].وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ:"أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ

---

[٤٣٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٢٢)

مُشْرِكٍ" فَقِيلَ:لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ:لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا".وَقَالَ:"أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ أَقَامَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ".فَهَذِهِ الْآيُ وَالْآثَارُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ الْكُفَّارُ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفْوَةِ دُونَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُلَايَنَةِ،مَا لَمْ تَكُنْ حَالٌ يَخَافُ فِيهَا عَلَى تَلَفِ نَفْسِهِ أَوْ تَلَفِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ أَوْ ضَرَرًا كَبِيرًا يَلْحَقُهُ فِي نَفْسِهِ،فَإِنَّهُ إذَا خَافَ ذَلِكَ جَازَ لَهُ إظْهَارُ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُوَالَاةِ مِنْ غَيْرِ صِحَّةِ اعْتِقَادٍ.وَالْوَلَاءُ يَنْصَرِفُ عَلَى وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:مَنْ يَلِي أُمُورَ مَنْ يَرْتَضِي فِعْلَهُ بِالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالْحِيَاطَةِ،وَقَدْ يُسَمَّى بِذَلِكَ الْمُعَانَ الْمَنْصُورَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة:٢٥٧] يَعْنِي أَنَّهُ يَتَوَلَّى نَصْرَهُمْ وَمَعُونَتَهُمْ.وَالْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعَانُونَ بِنُصْرَةِ اللَّهِ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس:٦٢][٤٣٧].

وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة:٢٣]

بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ اللهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهُ،وَبَرَاءَةَ رَسُولِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَآذَنَهم بِنَبْذِ عُهُودِهِمْ،بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لاَ عُهُودَ لَهُمْ،عَزَّ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ المُسْلِمِينَ،وَتَبَرَّمَ مِنْهُ ضُعَفَاءُ الإِيمَانِ،وَكَانَ مَوْضِعَ الضَعْفِ نُصْرَةُ القَرَابَةِ وَالعَصَبِيَّةِ،فَقَالَ اللهُ تَعَالَى:إنَّ فَضْلَ الإِيمَانِ وَالهِجْرَةِ وَالجِهَادِ لاَ يَتَحَقَّقُ،وَلاَ يَكْتَمِلُ إلاَّ بِتَرْكِ وَلاَيَةِ الكَافِرِينَ،وَإِيثَارِ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،عَلَى حُبِّ الوَلَدِ وَالوَالِدِ وَالأَخِ وَالعَشِيرَةِ،فَنَهَى اللهُ المُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالاَةِ الذِينَ يَخْتَارُونَ الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ.وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتولاَّهُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ بالعِقَابِ الشَّدِيدِ،فِي هذهِ الآيَةِ،وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى،وَعَدَّ مَنْ يَتولَّى الكُفَّارَ،وَلُوْ كَانُوا آبَاءً أَوْ إِخْوَاناً،مِنَ الظَّالِمِينَ.(وَكَثِيراً مَا عَبَّرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الكُفْرِ بِالظُلْمِ وَمَاثَلَ بَيْنَهُمَا)[٤٣٨].

وقال السعدي:"يقول تعالى:{ يا أيّها الّذين آمنوا } اعملوا بمقتضى الإيمان،بأن توالوا من قام به،وتعادوا من لم يقم به.و{ لا تتّخذوا آباءكمْ وإخْوانكمْ } الذين هم أقرب

---

[٤٣٧] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ١١)

[٤٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

الناس إليكم،وغيرهم من باب أولى وأحرى،فلا تتخــذوهم { أَوْليـــاء إن اسْــتحبّوا } أي:اختاروا على وجه الرضا والمحبة { الْكفْر على الإيمان } { ومنْ يتولّهمْ منْكمْ فأولئك هم الظّالمون } لأنهم تجرؤوا على معاصي اللّه،واتخــذوا أعــداء اللّــه أولياء،وأصــل الولاية:المحبة والنصرة،وذلك أن اتخاذهم أولياء،موجب لتقديم طاعتــهم علــى طاعــة اللّه،ومحبتهم على محبة اللّه ورسوله.[439]

وقال الطبري:" يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ:لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْــوَانَكُمْ بِطَانَةً وَأَصْدِقَاءَ تُفْشُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَكُمْ وَتُطْلِعُونَهُمْ عَلَى عَوْرَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِــهِ،وَتُؤْثِرُونَ الْمُكْثَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ عَلَى الْهِجْرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ.{إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَــى الْإِيمَــانِ} [التوبة:23] يَقُولُ:إِنِ اخْتَارُوا الْكُفْرَ بِاللَّهِ عَلَى التَّصْدِيقِ بِهِ وَالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيــدِهِ.{وَمَــنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ} [المائدة:51] يَقُولُ:وَمَنْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْكُمْ بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،وَيُــؤْثِرُ الْمُقَامَ مَعَهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَدَارِ الْإِسْــلَامِ {فَأُولَئِــكَ هُــمُ الظَّــالِمُونَ} [البقرة:229] يَقُولُ:فَالَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ،فَوَضَعُوا الْوَلَايَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَعَصَوُا اللَّهَ فِي أَمْرِهِ.وَقِيلَ:إِنَّ ذَلِكَ نَزَلَ نَهْيًا مِنَ اللَّهِ الْمُــؤْمِنِينَ عَــنْ مُوَالَاةِ أَقْرِبَائِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا مِنْ أَرْضِ الشِّرْكِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ"[440]

وقال ابن كثير رحمه الله:

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ،وَإِنْ كَانُوا آبَاءً أَوْ أَبْنَاءً،وَنَهَى عَنْ مُوَالَاتِهِمْ إِذَا (اسْتَحَبُّوا) أَيْ:اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ،وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُــونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} الْآيَةَ [الْمُجَادَلَةِ:22].

وَرَوَى الْحَافِظُ [أَبُو بَكْرٍ] الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَوْذَبٍ قَالَ:جَعَلَ أَبُــو أَبِــي عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ يَنْعَتُ لَهُ الْآلِهَةَ يَوْمَ بَدْرٍ،وَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ،فَلَمَّا أَكْثَرَ الْجَرَّاحُ

[439] - تفسير السعدي - (ج 1 / ص 332)

[440] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (11/ 383)

قَصَدَهُ ابْنُهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} الْآيَةَ [الْمُجَادَلَة:٢٢][441]

فرّق الإيمان بالله،بين المؤمنين والمشركين،وجعل ولاء المؤمن للمؤمنين عامّة،أيّا كان لونهم وجنسهم،وأيّا كانت درجة القرابة فى النسب بينهم وبينه،على حين قطع ولاءه لأهله،وأقرب المقربين إليه إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسول الله.

وقبل فتح مكة كان المهاجرون بعضا من أهليهم المشركين فى مكة..

فمنهم من آمن وهاجر،وترك وراءه أبا،أو أمّا،أو إخوة،ما زالوا على شركهم،وما زالت علائق القرابة تشدّه إليهم،وتذكره بهم،وتبعث أشواقه وحنينه نحوهم..ثم بعد فتح مكة،دخل النّاس فى دين الله أفواجا،وأسلم أهل مكة ومن حولهم،ولكن لم يكن كثير منهم مؤمنا بقلبه،مطمئنا إلى الدين الجديد الذي دخل فيه،بل لقد ظل بعضهم يحمل الحقد والعداوة للإسلام،الأمر الذي دعا الرسول الكريم إلى أن يتألّفهم..ولهذا جاء قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ»

- جاء منبّها المسلمين إلى ما قد يدخل عليهم من مشاعر القرابة نحو أهليهم الذين خلّفوهم وراءهم من المشركين..تلك المشاعر التي قد تبلغ حدّ الجور على حقّ المسلمين على المسلم،من إخاء وموالاة.

وفى الآية الكريمة أمران،نحبّ أن نقف عندهما:

أولهما:أن النهى ورد مقصورا على الآباء والإخوان،ولم يذكر غيرهم من ذوى القربى،وخاصة الأبناء،الذين هم أقرب قرابة من كل قريب..فلم هذا؟

وما حكمته؟

والجواب على هذا- والله أعلم- أن المخاطبين بهذه الآية هم المهاجرون والأنصار،الذين سبقوا إلى الإسلام،وخلّفوا وراءهم أهلا وعشيرا..

---

[441] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٢١) والحديث فيه انقطاع

وهؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام- من المهاجرين والأنصار- لم يتخلّف وراءهم غالبا إلا آباؤهم وإخوانهم..إذ أبى الآباء أن يتابعوا أبناءهم،أنفا وكبرا،كما أبى الإخوة أن ينقادوا للسابقين من إخوانهم،حمية وحسدا..أما الأبناء فقلّ منهم من أسلم آباؤهم ثم لم يتابعونهم ويقفوا أثرهم..فلما دخل هؤلاء المتخلفون فى الإسلام،دخله كثير منهم بقلب مريض،ونفس متكرهة.

وعلى هذا،فإن الصورة التي كان عليها المؤمنون يومئذ،هى:أن كثيرا منهم دخل فى الإسلام تاركا وراءه أبويه وإخوته،أو أحد أبويه وبعض إخوته،وقليل منهم من دخل فى الإسلام،و لم يدخل معه أبناؤه..ومن أجل هذا كان النهى عن موالاة هؤلاء الذين آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم- كان النهى متجها إلى هؤلاء الآباء والإخوة،دون الأبناء،الذين كانوا- بصفة عامة- مع آبائهم..

وثانى الأمرين:أن النهى لم يتناول المشاعر،والأحاسيس التي يجدها المسلمون نحو آبائهم وإخوانهم من المشركين،وإنما جاء واقعا على الولاء والإيثار،وتغليب مصلحتهم على مصالح المؤمنين،فهذا هو الذي نهى عنه الإسلام،وذلك أن النهى عن المشاعر والأحاسيس أمر لا تحتمله النفوس،وإن كانت تحتمله بعض النفوس،فإن ذلك لم يكن إلا عن مشقة ومعاناة وحرج..

الأمر الذي برئت منه الشريعة الإسلامية السمحاء.

هذا،وفى الآية إشارة على أن الشبان أقرب من الشيوخ استجابة للدعوات الجديدة،والتجاوب معها،حيث كان السابقون إلى الإسلام من الشبان غالبا.[٤٤٢]

وفي الظلال:

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا فإما تجرد لها،وإما انسلاخ منها.وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة..كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب،ويخلص لها الحب،وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة،وهي المحركة والدافعة.فإذا

---

[٤٤٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢١)

تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة،على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض.فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة اللّه والطيبات من الرزق – في غير سرف ولا مخيلة – بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب،باعتباره لونا من ألوان الشكر للّه الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده،وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ – إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ – »..

وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب،إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة.وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في اللّه.فلله الولاية الأولى،وفيها ترتبط البشرية جميعا،فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك،والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين.فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ،بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى:الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها)..وفي الكفة الأخرى:حب اللّه ورسوله وحب الجهاد في سبيله.الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته.الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب،وما يتبعه من تضييق وحرمان،وما يتبعه من ألم وتضحية،وما يتبعه من جراح واستشهاد..وهو – بعد هذا كله – «الجهاد في سبيل اللّه» مجردا من الصيت والذكر والظهور.مجردا من المباهاة،والفخر والخيلاء.مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه.وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب..

«قُلْ:إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها،وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها،وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها،أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ..فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...»

ألا إنها لشاقة.ألا وإنها لكبيرة.ولكنها هي ذاك..وإلا:«فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين:«وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ»..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده،إنما تطالب به الجماعة المسلمة،والدولة المسلمة.فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في اللّه ومقتضيات الجهاد في سبيل اللّه.

وما يكلف اللّه الفئة المؤمنة هذا التكليف،إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه – فاللّه لا يكلف نفسا إلا وسعها – وإنه لمن رحمة اللّه بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها..لذة الشعور بالاتصال باللّه،ولذة الرجاء في رضوان اللّه،ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط،والخلاص من ثقلة اللحم والدم،والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء.فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.[٤٤٣]

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأَيمَانِ} فِيهِ نَهْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَنُصْرَتِهِمْ وَالِاسْتِنْصَارِ بِهِمْ وَتَفْوِيضِ أُمُورِهِمْ إلَيْهِمْ وَإِيجَابِ التَّبَرِّي مِنْهُمْ وَتَرْكِ تَعْظِيمِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ،وَسَوَاءٌ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ فِي ذَلِكَ،إلَّا أَنَّهُ قَدْ أَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إلَى الْأَبِ الْكَافِرِ،وَصُحْبَتِهِ بالمعروف بقوله تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْأَنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} إلَى قَوْلِهِ:{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً} [لقمان:١٥]،وَإِنَّمَا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ لِيَتَمَيَّزُوا مِنْ الْمُنَافِقِينَ،إذْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَوَلَّوْنَ الْكُفَّارَ،وَيُظْهِرُونَ إكْرَامَهُمْ

[٤٤٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٩١)

وَتَعْظِيمَهُمْ إذَا لَقُوهُمْ،وَيُظْهِرُونَ لَهُمْ الْوِلَايَةَ وَالْحِيَاطَةَ،فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَمَرَ بِهِ الْمُؤْمِنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَمًا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ الْمُنَافِقِ،وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ مِنْ رَبِّهِ.[٤٤٤]

وقال ابن العربي:

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:نَفَى اللَّهُ الْمُوَالَاةَ بِالْكُفْرِ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ خَاصَّةً،وَلَا قُرْبَى أَقْرَبُ مِنْهَا،كَمَا نَفَاهَا بَيْنَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ،بِقَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة:٥١]؛لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْقُرْبَ قُرْبُ الْأَدْيَانِ لَا قُرْبُ الدِّيَارِ وَالْأَبْدَانِ،وَمِثْلُهُ تُنْشِدُ الصُّوفِيَّةُ:

يَقُولُونَ لِي دَارُ الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ...وَأَنْتَ كَئِيبٌ إنَّ ذَا لَعَجِيبُ

فَقُلْت وَمَا تُغْنِي دِيَارٌ قَرِيبَةٌ...إذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:الْإِحْسَانُ بِالْهِبَةِ وَالصِّلَةِ مُسْتَثْنًى مِنْ الْوِلَايَةِ:لِحَدِيثِ أَسْمَاءَ؛قَالَتْ:«يَا رَسُولَ اللَّهِ؛إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ رَاغِبَةً،وَهِيَ مُشْرِكَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ:صِلِي أُمَّك».

وَتَمَامُهُ يَأْتِي فِي قَوْلِهِ:{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة:٨] الْآيَةَ

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ:قَوْلُهُ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣]:تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] إمَّا بِالْمَآلِ وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ،وَإِمَّا بِالْأَحْكَامِ فِي الْعَاجِلَةِ،وَذَلِكَ ظُلْمٌ أَيْ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ،وَيَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِيهِ بِاخْتِلَافِ الْمَوْضِعِ الْمَوْضُوعِ فِيهِ كُفْرًا وَإِيمَانًا.[٤٤٥]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة:١٣]

---

[٤٤٤] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١١٣)

[٤٤٥] - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٦٢)

بَعْدَ أَنْ نَهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ عَنْ مُوَادَّة المُشْرِكينَ فِي أَوَّلِ السُّورَة،عَادَ تَعَالَى فَكَرَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي آخرِهَا فَقَالَ:يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لاَ تُوَالُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالمُشْرِكينَ مِمَّنْ غَضبَ اللهُ عَلَيْهِمْ،وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَته،وَلاَ تَتَّخذُوهُمْ أَصْدقَاءَ لَكُمْ تُسِرُّونَ إِلَـيْهِمْ بِمَـا يَضُرُّ الإِسْلاَمَ وَالمُسْلمينَ،وَهَؤُلاَءِ الكُفَّارُ قَدْ يَئسُوا مِنَ الخَيْـرِ والنَّجَـاة فِـي الآخِـرَة لعِنَادهِمْ،وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ،وَتَكْذيبِهِمْ رَسُولَ الله..كَمَا يَئِسَ الكُفَّـارُ مِـنْ بَعْـث مَوْتَاهُمْ،لأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَقدُونَ بِبَعْث وَلاَ حَشْرٍ وَلاَ حِسَاب.[446]

أي:يا أيها المؤمنون،إن كنتم مؤمنين بربكم،ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه،{ لا تتولّوْا قوْمًا غضب اللّه عليْهمْ } وإنما غضب عليهم لكفرهم،وهذا شـامل لجميـع أصـناف الكفار.{ قدْ يئسوا من الآخرة } أي:قد حرموا من خـير الآخـرة،فليس لهـم منـها نصيب،فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم فتحرموا خير الآخرة كمـا حرموا.[وقوله] { كما يئس الْكفّار منْ أصْحاب الْقبور } حـين أفضـوا إلى الـدار الآخرة،ووقفوا على حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.ويحتمـل أن المعنى:قد يئسوا من الآخرة أي:قد أنكروها وكفروا بها،فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة،كما يئس الكفـار المنكـرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.[447]

الذين غضب الله عليهم،هم اليهود،وإنه حيث ذكر غضب الله فى القرآن على قـوم،أو جماعة- فالمقصود به اليهود والتولي:من الولاء،والمولاة..

وبهذه الآية الكريمة تختم السورة،وبهذا الختام يلتقى ختامها مع بدئها حيث بدئت بنـهي المؤمنين عن موالاة أعداء المؤمنين من الكفار والمشركين..

ثم كان ختامها دعوة من الله إلى مجانبة الذين غضب الله عليهم،وهم اليهود..

وبهذا لا يكون للمؤمنين ولاء مع جميع أهل العداوة لله وللمؤمنين.

---

[446] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٤١، بترقيم الشاملة آليا)

[447] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٥٨)

وفى قوله تعالى:«قوما» بالتنكير،إشارة إلى ازدراء هؤلاء القوم،وهـــوانهم،وأنهم- حيـــث كانوا- هم فى صغار وذلة وهوان..

وحسبهم صغارا وذلة وهوانا،أن يصحبهم غضب الله فى كل زمان ومكان..

ثم إن فى هذا التنكير دلالة على أن وصف القوم بغضب الله عليهم،يكشف عـــن وجـــه هؤلاء القوم،ويقوم شاهدا عليهم،إذ ليس هناك من وقعت عليه لعنة الله غيرهم..فالصفة قرينة دالة على الموصوف،إذ كانت مقصورة عليه..

قوله تعالى:«قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ» - إشـــارة إلى موقف اليهود من الحياة الآخرة،وأنهم فى شكّ منها وفى يأس من لقائها،فهم- مع إيمانهم بالله- على عقيدة بأن لا بعث بعد الموت،وأن الناس إنما يوفّون جزاءهم فى هذه الحيـــاة الدنيا..ولهذا فإنهم يستنفدون كلّ جهدهم فى العمل لما يبنى حيـــاتهم الدنيويـــة،دون أن تكون منهم لفتة إلى ماوراء هذه الحياة..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّـــا وَمـــا نَحْـــنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ»..(٣٢:الجاثية)..هذا هـــو المعتقـــد الغالـــب علـــى اليهود،فيمـــا يتصـــل بالبعث،وبالحياة الآخرة،وإن كانت شريعتهم التي جاءهم بها موســـى،تدعو إلى الإيمـــان بالحياة الآخرة،وإلى العمل لها،ولكن القوم يتـــأولون نصـــوص الشـــريعة،ويلوونها مـــع أهوائهم،حتى كانت الحياة الآخرة عندهم أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة.

وقوله تعالى:«يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ» بدلا من أن يقال كفروا بالآخرة،أو كذبوا بها،للإشارة إلى ما عندهم من علم بالآخرة،وبما يكون فيهـــا مـــن حســـاب وجزاء،وأنـــه علـــم نظرىّ،ميئوس من وقوع المعلوم منه،وتحققه..وهذا إعجاز من إعجاز القرآن،فى تصـــوير هذا المفهوم الذي يقوم عند اليهود للبعث وللحياة الآخرة..إنه انتظار لغائب لا يرجى له إياب،فوقع اليأس من لقائه..

وفى قوله تعالى:«كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ» أي أن يأس اليهود مـــن لقـــاء الآخرة،هو أشبه بيأس الكفار من أن يلتقوا يوما بموتاهم الذين أودعوهم القبور..فاليهود ينظرون إلى الآخرة،نظرة الكفار إلى الأموات فى القبـــور..إن كلّـــا منـــهم ينظـــر إلى

شيء..ولكن هذا الشيء- في زعمهم- لن يلتقوا به أبدا..الآخرة في زعم اليهود،والأموات في زعم الكفار..وكلا الزعمين باطل،فاليهود سيلتقون بالآخرة،وإن كرهوا،والكفار سيلتقون بموتاهم وإن يئسوا..[٤٤٨]

وقال الطبري:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْيَهُود.{قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآَخِرَة كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَاب الْقُبُور} [الممتحنة:١٣].وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْله:{قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَة كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَاب الْقُبُور} [الممتحنة:١٣] فَقَالَ بَعْضُهُمْ:مَعْنَى ذَلِكَ:قَدْ يَئِسَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْيَهُود مِنْ ثَوَاب اللَّهُ فِي الْآخِرَة،وَأَنْ يُبْعَثُوا،كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنْ أَمْوَاتِهِمُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُور أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [الممتحنة:١٣] الْآيَةُ،يَعْنِي مَنْ مَاتَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا،فَقَدْ يَئِسَ الْأَحْيَاءُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ،أَوْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ"

وعَنِ الْحَسَنِ،أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِه الْآيَة:{قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةَ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُور} [الممتحنة:١٣] قَالَ:الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْأَمْوَات"

وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ:قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَة أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ فِيهَا،وَيَغْفِرَ لَهُمْ،كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِي هُمْ أَصْحَابُ قُبُورٍ قَدْ مَاتُوا وَصَارُوا إِلَى الْقُبُورِ مِنْ رَحْمَة اللَّه وَعَفْوِه عَنْهُمْ فِي الْآخِرَة،لِأَنَّهُمْ قَدْ أَيْقَنُوا بِعَذَاب اللَّه لَهُمْ،قَالَ ابْنُ زَيْد،فِي قَوْل اللَّه:{لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا} [الممتحنة:١٣] الْآيَةُ،قَالَ:قَدْ يَئِسَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ آخِرَةٌ،كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ مَاتُوا الَّذِينَ فِي الْقُبُور مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ آخِرَةٌ،لَمَا عَايَنُوا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَة،فَكَمَا يَئِسَ أُولَئِكَ الْكُفَّارُ،كَذَلِكَ يَئِسَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ.قَالَ:وَالْقَوْمُ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ،يَهُودُهُمُ الَّذِينَ يَئِسُوا مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ آخِرَةٌ،كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ قَبْلَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ،لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا كِتَابَ اللَّه وَأَقَامُوا عَلَى الْكُفْرِ بِه،وَمَا صَنَعُوا وَقَدْ عَلِمُوا عَنْ مَنْصُورٍ،فِي قَوْله:{يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَة} [الممتحنة:١٣] الْآيَةُ،قَالَ:قَدْ يَئِسُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ

---

[٤٤٨] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩١٢)

ثَوَابُ الْآخِرَةِ،كَمَا يَئِسَ مَنْ فِي الْقُبُورِ مِنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْخَيْرِ،حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ وَالْهَوَانَ وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:قَدْ يَئِسَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ،وَكَرَامَتِهِ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ لِلَّهِ نَبِيٌّ،كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْهُمُ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَهُمْ فَهَلَكُوا،فَصَارُوا أَصْحَابَ الْقُبُورِ،وَهُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي هَؤُلَاءِ عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَغَيْرَهُ مِنَ الرُّسُلِ،مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ إِيَّاهُمْ.وَإِنَّمَا قُلْنَا:ذَلِكَ أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ،لِأَنَّ الْأَمْوَاتَ قَدْ يَئِسُوا مِنْ رُجُوعِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا،أَوْ أَنْ يُبْعَثُوا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكُفَّارُ،فَلَا وَجْهَ لِأَنْ يَخُصَّ بِذَلِكَ الْخَبَرِ عَنِ الْكُفَّارِ،وَقَدْ شَرَكَهُمْ فِي الْإِيَاسِ مِنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ"[٤٤٩]

____

هل يجوز للحاكم أن يبلغ بالتعزير القتل ؟

وفي تبصرة الحكام:وَإِذَا قُلْنَا:إِنَّهُ يَجُوزُ لِلْحَاكِمِ أَنْ يُجَاوِزَ الْحُدُودَ فِي التَّعْزِيرِ،فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْلُغَ بِالتَّعْزِيرِ الْقَتْلَ أَوْ لَا؟ فِيهِ خِلَافٌ،وَعِنْدَنَا يَجُوزُ قَتْلُ الْجَاسُوسِ الْمُسْلِمِ إِذَا كَانَ يَتَجَسَّسُ بِالْعَدُوِّ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ،وَأَمَّا الدَّاعِيَةُ إِلَى الْبِدْعَةِ الْمُفَرِّقُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وَقَالَ بِذَلِكَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ فِي قَتْلِ الدَّاعِيَةِ كَالْجَهْمِيَّةِ وَالرَّوَافِضِ وَالْقَدَرِيَّةِ،وَصَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِقَتْلِ مَنْ لَا يَزُولُ فَسَادُهُ إِلَّا بِالْقَتْلِ،وَذَكَرُوا ذَلِكَ فِي اللُّوطِيِّ إِذَا كَثُرَ مِنْهُ ذَلِكَ يُقْتَلُ تَعْزِيرًا،وَأَجَازَ ابْنُ الْمَوَّازِ مِنْ أَصْحَابِنَا لِلْمَرْأَةِ إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ زَوْجَهَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا،فَادَّعَتْ عَلَيْهِ فَأَنْكَرَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَخُلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَنْ تَقْتُلَهُ إِنْ خَفِيَ لَهَا ذَلِكَ وَأَمِنَتْ ظُهُورَهُ كَالْعَادِي وَالْمُحَارِبِ،وَقَالَ سَحْنُونٌ:لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ.

فَرْعٌ:وَفِي مُخْتَصَرِ الْوَاضِحَةِ قَالَ أَصْبَغُ:وَيَنْبَغِي لِلْقَاضِي إِذَا أَحْلَفَ النَّاسَ أَنْ يُحَلِّفَهُمْ قِيَامًا،وَإِذَا ضَرَبَهُمْ فِي الْحُدُودِ كُلِّهَا أَنْ يَضْرِبَهُمْ قُعُودًا،وَيَأْمُرُ الْجَلَّادَ أَنْ لَا يَرْفَعَ يَدَهُ بِالسَّوْطِ جِدًّا وَلَا يُخَفِّفَهَا جِدًّا لَكِنْ وَسَطًا مِنْ ذَلِكَ،وَضَرْبُ الشَّيْخِ وَالشَّابِّ فِي الْحُدُودِ

[٤٤٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٦٠٢)

كُلِّهَا سَوَاءٌ فِي الْإِيجَاعِ،وَإِذَا اقْتَصَّ لِلنَّاسِ فِي جِرَاحَاتِهِمْ دَعَا بِطَبِيبٍ رَفِيقٍ يَقْتَصُّ لَهُمْ وَأُجْرَتُهُ عَلَى الْمُقْتَصِّ لَهُ.[٤٥٠]

التعزير بالقتل:

الأَنْوَاعُ الْجَائِزَةُ فِي عُقُوبَةِ التَّعْزِيرِ:

يَجُوزُ فِي مَجَالِ التَّعْزِيرِ:إِيقَاعُ عُقُوبَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ،يَخْتَارُ مِنْهَا الْحَاكِمُ فِي كُلِ حَالَةٍ مَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا مُحَقِّقًا لِأَغْرَاضِ التَّعْزِيرِ.وَهَذِهِ الْعُقُوبَاتُ قَدْ تَنْصَبُّ عَلَى الْبَدَنِ،وَقَدْ تَكُونُ مُقَيِّدَةً لِلْحُرِّيَّةِ،وَقَدْ تُصِيبُ الْمَال،وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ ذَلِكَ.وَفِيمَا يَلِي بَيَانُ هَذَا الإِجْمَال.

التَّعْزِيرُ بِالْقَتْلِ:

الأَصْل:أَنَّهُ لاَ يُبْلَغُ بِالتَّعْزِيرِ الْقَتْل،وَذَلِكَ لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام:١٥١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ،يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ،إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ:النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالثَّيِّبُ الزَّانِي،وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ "[٤٥١]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ،يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:الثَّيِّبُ الزَّانِي،وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ "[٤٥٢]

---

[٤٥٠] - تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (٢/ ٢٩٧)

[٤٥١] - صحيح البخاري (٩/ ٥)(٦٨٧٨)

[ش(لا يحل دم امرئ) لا يباح قتله(النفس بالنفس) تزهق نفس القاتل عمدا بغير حق بمقابلة النفس التي أزهقها(الثيب الزاني) الثيب من سبق له زواج ذكرا أم أنثى فيباح دمه إذا زنى(المفارق) التارك المبتعد وهو المرتد.وفي رواية (والمارق من الدين) وهو الخارج منه خروجا سريعا(التارك للجماعة) المفارق لجماعة المسلمين]

[٤٥٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٢)٢٥ - (١٦٧٦)

[ش (لا يحل دم إمرئ مسلم) أي لا يحل إراقة دمه كله وهو كناية عن قتله ولو لم يرق دمه

(إلا بإحدى ثلاث) أي علل ثلاث(الزان) هكذا هو في النسخ الزان من غير ياء بعد النون وهي لغة صحيح قرئ بها في السبع كما في قوله تعالى الكبير المتعال والأشهر في اللغة إثبات الياء في كل ذلك(والنفس بالنفس) المراد به القصاص بشرطه(والتارك لدينه المفارق للجماعة) عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام قال العلماء ويتناول أيضا كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغي أو غيرهما وكذا الخوارج]

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ إِلَى جَوَازِ الْقَتْل تَعْزِيرًا فِي جَرَائِمَ مُعَيَّنَة بِشُرُوطٍ مَخْصُوصَة،مِنْ ذَلكَ:قَتْل الْجَاسُوسِ الْمُسْلِمِ إِذَا تَجَسَّسَ عَلَى الْمُسْلمينَ،وَذَهَبَ إِلَى جَوَازِ تَعْزِيرِه بِالْقَتْل مَالكٌ وَبَعْضُ أَصْحَاب أَحْمَدَ،وَمَنَعَهُ أَبُو حَنِيفَةَ،وَالشَّافعيُّ،وَأَبُو يَعْلَى منَ الْحَنَابلَة.وَتَوَقَّفَ فيه أَحْمَدُ.وَمنْ ذَلكَ:قَتْل الدَّاعيَة إِلَى الْبدَعِ الْمُخَالفَة للْكتَاب وَالسُّنَّة كَالْجَهْميَّة.ذَهَبَ إِلَى ذَلكَ كَثيرٌ منْ أَصْحَاب مَالك،وَطَائفَةٌ منْ أَصْحَاب أَحْمَدَ.وَأَجَازَ أَبُو حَنيفَةَ التَّعْزِيرَ بِالْقَتْل فيمَا تَكَرَّرَ منَ الْجَرَائم،إِذَا كَانَ جنْسُهُ يُوجبُ الْقَتْل،كَمَا يُقْتَل مَنْ تَكَرَّرَ منْهُ اللِّوَاطُ أَو الْقَتْل بِالْمُثَقَّل.[٤٥٣]

وَقَال ابْنُ تَيْميَّةَ[٤٥٤]:وَقَدْ يُسْتَدَل عَلَى أَنَّ الْمُفْسدَ إِذَا لَمْ يَنْقَطعْ شَرُّهُ إِلاَّ بِقَتْله فَإِنَّهُ يُقْتَل،لمَا رَوَاهُ مُسْلمٌ عَنْ عَرْفَجَةَ،قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَميعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحدٍ،يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ،أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ،فَاقْتُلُوهُ»[٤٥٥]

جهاد المشركين والكافرين :

قال تعالى:{ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } [التوبة:١٢]

وَإِنْ نَكَثَ هَؤُلاَءِ الُمْشرِكُونَ،الذينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ،عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهَمْ (أَيْمَانَهُمْ)،وَعَابُوا دِينَكُمْ وَانْتَقَصُوهُ (طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)،فَقَاتِلُوا زُعَمَاءَ الكُفْرِ وَأَئِمَّتَهُ،لأَنَّهُمْ لاَ عُهُودَ لَهُمْ

---

[٤٥٣] – أحكام القرآن للجصاص ١ / ٦١، وابن عابدين ٣ / ١٨٤ – ١٨٥، والقرطبي ٦ / ١٥١ – ١٥٢، وتبصرة الحكام ص ١٩٣، ٢٠٦، والمهذب ٢ / ٢٦٨، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢١٢ – ٢١٣، وكشاف القناع ٤ / ٧٤ – ٧٦ .

[٤٥٤] – السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٩٩ .

[٤٥٥] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٣)٦٠ – (١٨٥٢) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٢/ ٢٦٣)

[ش (وأمركم جميع) أي مجتمع(أن يشق عصاكم) معناه يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس]

وَلاَ مَوَاثِيقَ،لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَنِ الكُفْرِ إِنْ قَاتَلتُمُوهُمْ.(وَمِنْ هَذِهِ الآيَةِ شُرِعَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ،وَمَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الإِسْلاَمِ)[456].

وقال السعدي:

يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء:{ وإنْ نكثوا أيْمانهمْ منْ بعْد عهْدهمْ } أي:نقضوها وحلوها،فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم،أو نقصوكم،{ وطعنوا في دينكمْ } أي:عابوه،وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين،أو إلى القرآن،{ فقاتلوا أئمّة الْكفْر } أي:القادة فيه،الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن،الناصرين لدين الشيطان،وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم،ولأن غيرهم تبع لهم،وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه،فإنه من أئمة الكفر.{ إنّهمْ لا أيْمان لهمْ } أي:لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها،بل لا يزالون خائنين،ناكثين للعهد،لا يوثق منهم.{ لعلّهمْ } في قتالكم إياهم { ينْتهون } عن الطعن في دينكم،وربما دخلوا فيه،ثم حث على قتالهم،وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف،التي صدرت من هؤلاء الأعداء،والتي هم موصوفون بها،المقتضية لقتالهم فقال:{ ألا تقاتلون قوْمًا نكثوا أيْمانهمْ وهمّوا بإخْراج الرّسول } الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم،{ وهمْ بدءوكمْ أوّل مرّةٍ } حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم،وذلك حيث عاونت قريش -وهم معاهدون- بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول اللّه ﷺ،وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.[457]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:فَإِنْ نَقَضَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ عُهُودَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَاقَدُوكُمْ،أَنْ لَا يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِكُمْ {وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} [التوبة:١٢] يَقُولُ:وَقَدَحُوا فِي دِينِكُمُ الْإِسْلَامِ،فَثَلَمُوهُ وَعَابُوهُ.{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة:١٢] يَقُولُ:فَقَاتِلُوا رُؤَسَاءَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ.{إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة:١٢]

---

[456] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

[457] -تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٣٠)

يَقُولُ:إِنَّ رُؤَسَاءَ الْكُفْرِ لَا عَهْدَ لَهُمْ.{لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة:١٢] لِكَيْ يَنْتَهُوا عَنِ الطَّعْنِ فِي دِينِكُمْ وَالْمُظَاهَرَةِ عَلَيْكُمْ.[٤٥٨]

وقال ابن كثير رحمه الله:

يَقُولُ تَعَالَى:وَإِنْ نَكَثَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ أَيْمَانَهُمْ،أَيْ:عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ،{وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} أَيْ:عَابُوهُ وَانْتَقَصُوهُ.وَمِنْ هَاهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ،ﷺ،أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِتَنَقُّصٍ؛وَلِهَذَا قَالَ:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} أَيْ:يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ.

وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ:أَئِمَّةُ الْكُفْرِ كَأَبِي جَهْلٍ،وَعُتْبَةَ،وَشَيْبَةَ،وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ،وَعَدَّدَ رِجَالًا.

وَعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ:مَرَّ سَعْدٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ،فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:هَذَا مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ.فَقَالَ سَعْدٌ:كَذَبْتَ،بَلْ أَنَا قَاتَلْتُ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ.رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ.

وعَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قَالَ:مَا قُوتِلَ أهل هذه الآية بعد.وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،مِثْلُهُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ،وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فَهِيَ عَامَّةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ،واللَّهُ أَعْلَمُ.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ:أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِلَى النَّاسِ حِينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ،قَالَ:إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا مُحَوَّقَةً رُءُوسُهُمْ،فَاضْرِبُوا مَعَاقِدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ،وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[٤٥٩].

وقال القرطبي:

---

[٤٥٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٣٦٢)

[٤٥٩] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١١٦)

فيه سَبْعُ مَسَائِلَ:الأولى- قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَإِنْ نَكَثُوا) النَّكْثُ النَّقْضُ،وَأَصْلُهُ فِي كُلِّ مَا فُتِلَ ثُمَّ حُلَّ.فَهِيَ فِي الْأَيْمَانِ وَالْعُهُودِ مُسْتَعَارَةٌ.قَالَ:

وَإِنْ حَلَفَتْ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا...فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

أَيْ عَهْدٌ.وَقَوْلُهُ:(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) أي بالاستنقاض وَالْحَرْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُ.يُقَالُ:طَعَنَهُ بِالرُّمْحِ وَطَعَنَ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ فِيهِ يَطْعَنُ،بِضَمِّ الْعَيْنِ فِيهِمَا.وَقِيلَ:يَطْعُنُ بِالرُّمْحِ (بِالضَّمِّ) وَيَطْعَنُ بِالْقَوْلِ (بِالْفَتْحِ).وَهِيَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ حِينَ أَمَّرَ أُسَامَةَ:(إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ).خَرَّجَهُ الصَّحِيحُ «١».الثَّانِيَةُ- اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ كُلِّ مَنْ طَعَنَ فِي الدِّينِ،إِذْ هُوَ كَافِرٌ.وَالطَّعْنُ أَنْ يَنْسُبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ،أَوْ يَعْتَرِضُ بِالِاسْتِخْفَافِ عَلَى مَا هُوَ مِنَ الدِّينِ،لِمَا ثَبَتَ مِنَ الدَّلِيلِ الْقَطْعِيِّ عَلَى صِحَّةِ أُصُولِهِ وَاسْتِقَامَةِ فُرُوعِهِ.وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:أَجْمَعَ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ الْقَتْلُ.وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ،وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.وَقَدْ حُكِيَ عَنِ النُّعْمَانِ أَنَّهُ قَالَ:لَا يُقْتَلُ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،عَلَى مَا يَأْتِي.وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ فِي مَجْلِسِ عَلِيٍّ:مَا قُتِلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَّا غَدْرًا،فَأَمَرَ عَلِيٌّ بِضَرْبِ عُنُقِهِ.وَقَالَهُ آخَرُ فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ:أَيُقَالُ هَذَا فِي مَجْلِسِكَ وَتَسْكُتُ! وَاللَّهِ لَا أُسَاكِنُكَ تَحْتَ سَقْفٍ «٢» أبدا،ولين خَلَوْتُ بِهِ لَأَقْتُلَنَّهُ.قَالَ عُلَمَاؤُنَا:هَذَا يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ إِنْ نَسَبَ الْغَدْرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ.وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ عَلِيٌّ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا مِنْ قَائِلِ ذَلِكَ،لِأَنَّ ذَلِكَ زَنْدَقَةٌ.فَأَمَّا إِنْ نَسَبَهُ لِلْمُبَاشِرِينَ لِقَتْلِهِ بِحَيْثُ يَقُولُ:إِنَّهُمْ أَمَّنُوهُ ثُمَّ غَدَرُوهُ لَكَانَتْ هَذِهِ النِّسْبَةُ كَذِبًا مَحْضًا،فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ مَعَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَمَّنُوهُ وَلَا صَرَّحُوا لَهُ بِذَلِكَ،وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمَا كَانَ أَمَانًا،لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا وَجَّهَهُمْ لِقَتْلِهِ لَا لِتَأْمِينِهِ،وَأَذِنَ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي أَنْ يَقُولَ.وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي قَتْلِ مَنْ نَسَبَ ذَلِكَ لَهُمْ نَظَرٌ وَتَرَدُّدٌ.وَسَبَبُهُ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لَهُمْ نِسْبَتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ،لِأَنَّهُ قَدْ صَوَّبَ فِعْلَهُمْ وَرَضِيَ بِهِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِالْغَدْرِ

وَمَنْ صَرَّحَ بِذَلِكَ قتل،أولا يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لَهُمْ نِسْبَتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَا يُقْتَلُ.وَإِذَا قُلْنَا لَا يُقْتَلُ،فَلَا بُدَّ مِنْ تَنْكِيلِ ذَلِكَ الْقَائِلِ وَعُقُوبَتِهِ بِالسَّجْنِ،وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ وَالْإِهَانَةِ العظيمة.

الثَّالِثَةُ- فَأَمَّا الذِّمِّيُّ إِذَا طَعَنَ فِي الدِّينِ انْتَقَضَ عَهْدُهُ فِي الْمَشْهُورِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ،لِقَوْلِهِ:" وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ" الْآيَةَ.فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَقِتَالِهِمْ.وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي هَذَا:إِنَّهُ يُسْتَتَابُ،وَإِنَّ مُجَرَّدَ الطَّعْنِ لَا يُنْقَضُ بِهِ الْعَهْدُ إِلَّا مَعَ وُجُودِ النَّكْثِ،لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ بِشَرْطَيْنِ:أَحَدُهُمَا نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ،وَالثَّانِي طَعْنُهُمْ فِي الدِّينِ.قُلْنَا:إِنْ عَمِلُوا بِمَا يُخَالِفُ الْعَهْدَ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ،وَذِكْرُ الْأَمْرَيْنِ لا يقتضي توقف قتاله على وجود هما،فَإِنَّ النَّكْثَ يُبِيحُ لَهُمْ ذَلِكَ بِانْفِرَادِهِ عَقْلًا وَشَرْعًا.وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ عِنْدَنَا:فَإِنْ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ حَلَّ قِتَالُهُمْ،وَإِنْ لَمْ يَنْكُثُوا بَلْ طَعَنُوا فِي الدِّينِ مَعَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ حَلَّ قِتَالُهُمْ.وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رُفِعَ إِلَيْهِ:ذِمِّيٌّ نَخَسَ دَابَّةً عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ فَرَمَحَتْ فَأَسْقَطَتْهَا فَانْكَشَفَتْ بَعْضُ عَوْرَتِهَا،فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ فِي الْمَوْضِعِ.الرَّابِعَةُ- إِذَا حَارَبَ الذِّمِّيُّ نُقِضَ عَهْدُهُ وَكَانَ ماله وولده فيئا معه.وقال محمد ابن مَسْلَمَةَ:لَا يُؤَاخَذُ وَلَدُهُ بِهِ،لِأَنَّهُ نَقَضَ وَحْدَهُ.وَقَالَ:أَمَّا مَالُهُ فَيُؤْخَذُ.وَهَذَا تَعَارُضٌ لَا يُشْبِهُ مَنْصِبَ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ،لِأَنَّ عَهْدَهُ هُوَ الَّذِي حَمَى مَالَهُ وَوَلَدَهُ،فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ مَالُهُ ذَهَبَ عَنْهُ وَلَدُهُ.وَقَالَ أَشْهَبُ:إِذَا نَقَضَ الذِّمِّيُّ الْعَهْدَ فَهُوَ عَلَى عَهْدِهِ وَلَا يَعُودُ فِي الرِّقِّ أَبَدًا.وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ،وَكَأَنَّهُ رَأَى الْعَهْدَ مَعْنًى مَحْسُوسًا.وَإِنَّمَا الْعَهْدُ حُكْمٌ اقْتَضَاهُ النَّظَرُ،وَالْتَزَمَهُ الْمُسْلِمُونَ لَهُ،فَإِذَا نَقَضَهُ انْتَقَضَ كَسَائِرِ الْعُقُودِ.الْخَامِسَةُ- أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَوْ عَرَّضَ أَوِ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ،فَإِنَّا لَمْ نُعْطِهِ الذِّمَّةَ أَوِ الْعَهْدَ عَلَى هَذَا.إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيَّ وَأَتْبَاعَهُمَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا:لَا يُقْتَلُ،مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ،وَلَكِنْ يُؤَدَّبُ وَيُعَزَّرُ.وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:" وَإِنْ نَكَثُوا" الْآيَةَ.وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَمْرِهِ ﷺ بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَكَانَ مُعَاهِدًا.وَتَغَيَّظَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ:أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ! فَقَالَ:مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:أَنَّ رَجُلًا أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ،لَهُ مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ،فَكَانَتْ تَشْتُمُ

النَّبيَّ ﷺ وَتَقَعُ فيه،فَيَنْهَاهَا فَلَمْ تَنْته،وَيَزْجُرُهَا فَلَمْ تَنْزَجرْ،فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَة ذَكَرَت النَّبيَّ ﷺ فَمَا صَبَرَ سَيِّدُهَا أَنْ قَامَ إلَى معْوَل فَوَضَعَهُ في بَطْنهَا ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهَا حَتَّى أَنْفَذَهُ.فقَـــالَ النَّبيُّ ﷺ:(أَلَا اشْهَدُوا إنَّ دَمَهَا هَدَرٌ).وَفي روَايَة عَن ابْن عَبَّاس:فَقَتَلَهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ قيـــلَ ذَلكَ للنَّبيِّ ﷺ،فَقَامَ الْأَعْمَى فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه،أَنَا صَاحبُهَا،كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فيـــكَ فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهي،وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجرُ،وَلي منْهَا ابْنَان مثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْن،وَكَانَتْ بي رَفيقَـــةً فَلَمَّا كَانَ الْبَارحَةُ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فيكَ فَقَتَلْتُهَا،فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:(أَلَا اشْهَدُوا إنَّ دَمَهَا هَدَرٌ).السَّادسَةُ- وَاخْتَلَفُوا إذَا سَبَّهُ ثُمَّ أَسْلَمَ تَقيَّةً منَ الْقَتْل،فَقيلَ:يُسْقطُ إسْلَامُهُ قَتْلَهُ،وَهُوَ الْمَشْهُورُ منَ الْمَذْهَب،لأَنَّ الْإسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.بخلَاف الْمُسْلم إذَا سَبَّهُ ثُمَّ تَابَ قَالَ الله عز وجل:" قُلْ للَّذينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ" [الأنفال:٣٨].وَقيلَ:لَـــا يُسْقطُ الْإسْلَامُ قَتْلَهُ،قَالَهُ في الْعُتْبيَّة لأَنَّهُ حَقٌّ للنَّبيِّ ﷺ وَجَبَ لانْتهَاكه حُرْمَتَـــهُ وَقَصْـــده إلْحَاقَ النَّقيصَة وَالْمَعَرَّة به،فَلَمْ يَكُنْ رُجُوعُهُ إلَى الْإسْلَام بالَّذي يُسْقطُهُ،وَلَا يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا منَ المسلم.السابعة- قوله تعالى:(فَقاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر) " أَئمَّةَ" جَمْـــعُ إمَـــام،وَالْمُرَادُ صَناديدُ قُرَيْش- في قَوْل بَعْض الْعُلَمَاء- كَأَبي جَهْل وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَف.وَهَذَا بَعيدٌ،فَإنَّ الْآيَةَ في سُورَة" بَرَاءَةٌ" وَحينَ نَزَلَتْ وَقُرئَتْ عَلَى النَّاس كَانَ اللَّهُ قَد اسْتَأْصَـــلَ شَأْفَةَ قُرَيْش فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مُسْلمٌ أَوْ مُسَالمٌ،فَيَحْتَملُ أَنْ يَكُـــونَ الْمُـــرَادُ" فَقَـــاتلُوا أَئمَّـــةَ الْكُفْر".أَيْ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى نَكْث الْعَهْد وَالطَّعْن في الدِّين يَكُـــونُ أَصْـــلًا وَرَأْسًـــا فـــي الْكُفْر،فَهُوَ منْ أَئمَّة الْكُفْر عَلَى هَذَا.وَيَحْتَملُ أَنْ يُعْنَى به الْمُتَقَدِّمُونَ وَالرُّؤَسَاءُ منْهُمْ،وَأَنَّ قتَالَهُمْ قتَالٌ لأَتْبَاعهمْ وَأَنَّهُمْ لَا حُرْمَةَ لَهُمْ.

(إنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ) أَيْ لا عهود لهم،أي ليست عهود هم صَادقَةً يُوفُونَ بهَا.وَقَرَأَ ابْنُ عَامر" لَا أَيْمانَ لَهُمْ" بكَسْر الْهَمْزَة منَ الْإيمَان،أَيْ لَا إسْلَامَ لَهُمْ.وَيَحْتَملُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرَ آمَنْتُهُ إيمَانًا،منَ الْأَمْن الَّذي ضدُّهُ الْخَوْفُ،أَيْ لَا يُؤْمنُونَ،منْ أَمَنْتُهُ إيمَانًا أَيْ أَجَرْتُهُ،فَلهَـــذَا قَالَ:" فَقاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر"." لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ" أَيْ عَن الشِّرْك.قَالَ الْكَلْبيُّ:كَانَ النَّبـــيُّ ﷺ وَادَعَ أَهْلَ مَكَّةَ سَنَةً وَهُوَ بالْحُدَيْبيَة فَحَبَسُوهُ عَن الْبَيْت،ثُمَّ صَـــالَحُوهُ عَلَـــى أَنْ يَرْجـــعَ فَمَكَثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ قَاتَلَ حُلَفَاءَ رَسُول اللَّه ﷺ منْ خُزَاعَةَ حُلَفَاءُ بَنـــي أُمَيَّـــةَ مـــنْ

كِنَانَةَ،فَأَمَدَّتْ بَنُو أُمَيَّةَ حلفاء هم بِالسِّلَاحِ وَالطَّعَامِ،فَاسْتَعَانَتْ خُزَاعَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أن يُعِينَ حُلَفَاءَهُ كَمَا سَبَقَ.وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ:كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْآيَةِ- يَعْنِي" فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ"- إِلَّا ثَلَاثَةٌ،وَلَا بَقِيَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ.فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:إِنَّكُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ تُخْبِرُونَ أَخْبَارًا لَا نَدْرِي مَا هِيَ! تَزْعُمُونَ أَلَّا مُنَافِقَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ،فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا.قَالَ:أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ.أَجَلْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ،أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ لما وجد برده.

قَوْلُهُ تَعَالَى:(لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) أَيْ عَنْ كُفْرِهِمْ وَبَاطِلِهِمْ وَأَذِيَّتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ.وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْ قِتَالِهِمْ دَفْعَ ضَرَرِهِمْ لِيَنْتَهُوا عَنْ مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا.[٤٦٠]

وفي الظلال:

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله وهم لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم.ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم،وفي غير ذمة يرعونها لكم أو في غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم! فهم لا يرعون عهدا،ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكم ولا حتى الحدود المتعارف عليها في البيئة والتي يذمون لو تجاوزوها.فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم،لو أنهم قدروا عليكم.مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة.فليس الذي يمنعهم من أي فعل شائن معكم أن تكون بينكم وبينهم عهود إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم!..وإذا كانوا اليوم - وأنتم أقوياء - يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد.فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد وتأبى أن تقيم على العهد فما بهم من وفاء لكم ولا ود! «وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ.إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»..

وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم،وإضمار عدم الوفاء بعهودكم،والانطلاق في التنكيل بكم - لو قدروا - من كل تحرج ومن كل تذمم..إنه

---

[٤٦٠] - تفسير القرطبي (٨/ ٨١)

الفسوق عن دين اللّه،والخروج عن هذاه.فلقد آثروا على آيات اللّه التي جاءهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته.وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئامن مصالحهم أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم! فصدوا عن سبيل اللّه بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات اللّه.صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم (فسيجيء أنهم أئمة الكفر)..أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذي يقرر اللّه سوءه الأصيل:
«إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ!»..

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم..إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم..إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها..للإيمان ذاته..كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين،على مدار التاريخ والقرون..فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل:«وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا»..وكذلك قال رسول اللّه - ﷺ- لأهل الكتاب بتوجيه من ربه:«قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا باللّه؟» وقال سبحانه عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين:«وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».فالإيمان هو سبب النقمة،ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن،ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر:«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ»..

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم..تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه وتنتهي بالوقوف في وجهه وتربصهم بالمؤمنين وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة،إذا هم ظهروا عليهم وأمنوا بأسهم وقوتهم.وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم،ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم..وهم آمنون..!
ثم يبين اللّه كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ،وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ

مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ»..

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك.لا يقعدهم عهد معقود،ولا ذمة مرعية،ولا تحرج من مذمة،ولا إبقاء على صلة..ووراء هذا التقرير تاريخ طويل،يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل،ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم! هذا التاريخ الطويل من الواقع العملي بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج اللّه الذي يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة اللّه وحده،وبين مناهج الجاهلية التي تعبد الناس للعبيد..يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من اللّه سبحانه،بهذا الحسم الصريح:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»..«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ»..

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون،وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء.وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة ويصبح المسلمون الجدد إخوانا للمسلمين القدامى ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب! «وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»..

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون وهم المؤمنون.

وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه،وطعن في دين المسلمين.فهم إذن أئمة في الكفر،لا أيمان لهم ولا عهود.وعندئذ يكون القتال لهم لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهدى..كما سبق أن قلنا:

إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبا كثيرة إلى الصواب وتريهم الحق الغالب فيعرفونه ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق ولأن وراءه قوة اللّه وأن رسول اللّه – ﷺ– صادق فيما أبلغهم من أن اللّه غالب هو ورسله.فيقودهم هذا كله إلى التوبة

والهدى.لا كرها وقهرا،ولكن اقتناعا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب.كما وقـع وكما يقع في كثير من الأحايين.[٤٦١]

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعَهْدِ مَتَى خَالَفُوا شَيْئًا مِمَّا عُوهِدُوا عَلَيْهِ،وَطَعَنُوا فِي دِينِنَا فَقَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَذَلِكَ لِأَنَّ نَكْثَ الْأَيْمَانِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ بَعْضِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ إذَا كَانَتْ الْيَمِينُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ النَّفْيِ،كَقَوْلِهِ:"وَاَللَّهِ لَا كَلَّمْت زَيْدًا وَلَا عَمْرًا وَلَا دَخَلْت هَذِهِ الدَّارَ وَلَا هَذِهِ" أَيَّهمَا فَعَلَ حَنِثَ وَنَكَثَ يَمِينَهُ؛ ثُمَّ لَمَّا ضَمَّ إلَى ذَلِكَ الطَّعْنَ فِي الدِّينِ دَلَّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعَهْدِ مِنْ شُرُوطِ بَقَاءِ عَهْدِهِمْ تَرْكُهُمْ لِلطَّعْنِ فِي دِينِنَا،وَأَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ مَمْنُوعُونَ مِنْ إظْهَارِ الطَّعْنِ فِي دَيْنِ الْمُسْلِمِينَ،وَهُوَ يَشْهَدُ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ مِنْ الْفُقَهَاءِ إنَّ مَنْ أَظْهَرَ شَتْمَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ ووجب قتله

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ أَصْحَابُنَا:"يُعَزَّرُ وَلَا يُقْتَلُ"،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِيمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ الْيَهُودِ،وَالنَّصَارَى "قُتِلَ إلَّا أَنْ يُسْلِمَ".وَرَوَى الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ وَمَالِكٍ فِيمَنْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَا:هِيَ رِدَّةٌ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ نَكَلَ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ قُتِلَ قَالَ:يُضْرَبُ مِائَةً ثُمَّ يُتْرَكُ حَتَّى إذَا هُوَ بَرِئَ ضُرِبَ مِائَةً وَلَمْ يَذْكُرْ فَرْقًا بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالذِّمِّيِّ،وَقَالَ اللَّيْثُ فِي الْمُسْلِمِ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ:إنَّهُ لَا يُنَاظَرُ وَلَا يُسْتَتَابُ وَيُقْتَلُ مَكَانَهُ،وَكَذَلِكَ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:"وَيُشْتَرَطُ عَلَى الْمُصَالِحِينَ مِنْ الْكُفَّارِ أَنَّ مَنْ ذَكَرَ كِتَابَ اللَّهِ أَوْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا لَا يَنْبَغِي أَوْ زَنَى بِمُسْلِمَةٍ أَوْ أَصَابَهَا بِاسْمِ نِكَاحٍ أَوْ فَتَنَ مُسْلِمًا عَنْ دِينِهِ أَوْ قَطَعَ عَلَيْهِ طَرِيقًا أَوْ أَعَانَ أَهْلَ الْحَرْبِ بِدَلَالَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ آوَى عَيْنًا لَهُمْ فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ وَأُحِلَّ دَمُهُ وَبَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ".وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ سَبَّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ

[٤٦١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٨٠)

بَعْد عَهْدهمْ وَطَعَنُوا فِي دِينكُمْ فَقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر} فَجَعَلَ الطَّعْنَ فِي دِيننَا بِمَنْزِلَة نَكْث الْأَيْمَان إذْ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُردْ أَنْ يَجْعَلَ نَكْثَ الْأَيْمَان وَالطَّعْنَ فِي الدِّين بِمَجْمُوعهمَا شَرْطًا فِي نَقْض الْعَهْد؛ لأَنَّهُمْ لَوْ نَكَثُوا الْأَيْمَانَ بقتَال الْمُسْلمينَ،وَلَمْ يُظْهرُوا الطَّعْنَ فِي الدِّين لَكَانُوا نَاقضينَ للْعَهْد.وَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللَّه مُعَاوَنَةَ قُرَيْش بَني بَكْر عَلَى خُزَاعَةَ،وَهُمْ حُلَفَاءُ النَّبيِّ ﷺ نَقْضًا للْعَهْد،وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلكَ سرًّا،وَلَمْ يَكُنْ منْهُمْ إظْهَارُ طَعْنٍ فِي الدِّين؛ فَثَبَتَ بذَلكَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَة:وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ منْ بَعْد عَهْدهمْ وَطَعَنُوا فِي دِينكُمْ فَقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر.فَإِذَا ثَبَتَ ذَلكَ كَانَ مَنْ أَظْهَرَ سب النبي ﷺ من أَهْلِ الْعَهْد نَاقضًا للْعَهْد،إذْ سَبُّ رَسُول اللَّه ﷺ منْ أَكْثَر الطَّعْنِ فِي الدِّين،فَهَذَا وَجْهٌ يَحْتَجُّ بِه الْقَائلُونَ بمَا وَصَفْنَا.

وَممَّا يُحْتَجُّ به لذَلكَ مَا رَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ حُصَيْن بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ رجُلٍ عَنْ أَبي عمْرَانَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ:إنِّي سَمعْت رَاهبًا سَبَّ النَّبيَّ ﷺ.فَقَالَ:لَوْ سَمعْته لَقَتَلْته إنَّا لَمْ نُعْطهمْ الْعَهْدَ عَلَى هَذَا.وَهُوَ إسْنَادٌ ضَعيفٌ.وَجَائزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَرَطَ عَلَيْهمْ أَنْ لَا يُظْهرُوا سَبَّ النَّبيِّ ﷺ.وَقَدْ رُويَ سَعيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ يَهُوديًّا مَرَّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ:السَّامُ عَلَيْك،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:"أَتَدْرُونَ مَا قَالَ؟ " قَالُوا:نَعَمْ،ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ مثْلَ ذَلكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:"إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ منْ أَهْلِ الْكتَاب فَقُولُوا عَلَيْك" وَرَوَى الزُّهْريُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ:دَخَلَ رَهْطٌ منْ الْيَهُود عَلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالُوا:السَّامُ عَلَيْكُمْ،قَالَتْ:ففَهمْتهَا فَقُلْت:،وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ فَقَالَ النَّبيُّ:"مَهْلًا يَا عَائشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْر كُلِّه" فَقُلْت:يَا رَسُولَ اللَّه أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ النَّبيُّ ﷺ:"قُلْت عَلَيْكُمْ" وَمَعْلُومٌ أَنَّ مثْلَهُ لَوْ كَانَ منْ مُسْلمٍ لَصَارَ به مُرْتَدًّا مُسْتَحقًّا للْقَتْل،وَلَمْ يَقْتُلْهُمْ النَّبيُّ ﷺ بذَلكَ،وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ هشَامِ بْن يَزيدَ عَنْ أَنَس بْنِ مَالك:أَنَّ امْرَأَةً يَهُوديَّةً أَتَتْ النَّبيَّ ﷺ بشَاة مَسْمُومَة فَأَكَلَ منْهَا،فَجيءَ بهَا فَقَالُوا:أَلَا تَقْتُلُهَا؟

قَالَ:"لَا"،قَالَ:فَمَا زلْت أَعْرفُهَا فِي لَهَوَات رَسُولُ اللَّه ﷺ وَلَا خلَافَ بَيْنَ الْمُسْلمينَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ النَّبيَّ ﷺ بذَلكَ فَهُوَ ممَّنْ يَنْتَحلُ الْإِسْلَامَ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ يَسْتَحقُّ الْقَتْلَ،وَلَمْ يَجْعَلْ

النَّبيُّ ﷺ مُبيحَةً لدَمهَا بمَا فَعَلَتْ فَكَذَلكَ إظْهَارُ سَبِّ النَّبيِّ ﷺ مِنْ الذِّمِّيِّ مُخَالفٌ لإظْهَار الْمُسْلم لَهُ.

وَقَوْلُهُ: {فقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر} رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهدٌ أَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ،وَقَالَ قَتَادَةُ:أَبُو جَهْلٍ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَف،وَعُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ،وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،وَهُمْ الَّذينَ هَمُّوا بإخْرَاجه قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَلَمْ يُخْتَلَفْ في أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ،وَأَنَّ النَّبيَّ ﷺ بَعَثَ بهَا مَعَ عَليِّ بْنِ أَبي طَالبٍ ليَقْرَأَهَا عَلَى النَّاسِ في سَنَة تسْعٍ،وَهيَ السَّنَةُ الَّتي حَجَّ فيهَا أَبُو بَكْرٍ،وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَف،وَعُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ قَدْ كَانُوا قُتلُوا يَوْمَ بَدْرٍ،وَلَمْ يَكُنْ بَقيَ منْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ يُظْهرُ الْكُفْرَ في وَقْت نُزُول بَرَاءَةٌ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ روَايَةَ مَنْ رَوَى ذَلكَ في رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ،وَهُمْ اللَّهُمَّ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَوْمًا منْ قُرَيْشٍ قَدْ كَانُوا أَظْهَرُوا الْإسْلَامَ،وَهُمْ الطُّلَقَاءُ،منْ نَحْوِ أَبي سُفْيَانَ،وَأَحْزَابه ممَّنْ لَمْ يَنْقَ قَلْبُهُ منْ الْكُفْر،فَيَكُونُ مُرَادُ الْآيَة هَؤُلَاءِ دُونَ أَهْلِ الْعَهْد منْ الْمُشْركينَ الَّذينَ لَمْ يُظْهرُوا الْإسْلَامَ،وَهُمْ الَّذينَ كَانُوا هَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُول منْ مَكَّةَ،وَبَدَرَهُمْ بالْقتَال وَالْحَرْب بَعْدَ الْهجْرَة.وَجَائزٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ هَؤُلَاء الَّذينَ ذَكَرْنَا،وَسَائرَ رُؤَسَاء الْعَرَب الَّذينَ كَانُوا مُعَاضدينَ لقُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ النَّبيِّ ﷺ وَقتَال الْمُسْلمينَ،فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بقتَالهمْ وَقَتْلهمْ إنْ هُمْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ،وَطَعَنُوا في دين الْمُسْلمينَ.

وقَوْله تَعَالَى:{إنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ} مَعْنَاهُ:لَا أَيْمَانَ لَهُمْ وَافيَةً مَوْثُوقًا بهَا.وَلَمْ يَنْف به وُجُودَ الْأَيْمَان منْهُمْ لأَنَّهُ قَدْ قَالَ بَديًّا:{وَإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ منْ بَعْد عَهْدهمْ} وَعَطَفَ عَلَى ذَلكَ أَيْضًا قَوْلَهُ:{أَلا تُقَاتلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} أَنَّهُ لَمْ يُردْ بقَوْله:{لا أَيْمَانَ لَهُمْ} نَفْيَ الْأَيْمَان أَصْلًا،وَإنَّمَا أَرَادَ به نَفْيَ الْوَفَاء بهَا.وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَاز إطْلَاق {لَا} وَالْمُرَادُ نَفْيُ الْفَضْل دُونَ نَفْي الْأَصْل،وَلذَلكَ نَظَائرُ مَوْجُودَةٌ في السُّنَن،وَفي كَلَام النَّاس،كَقَوْله ﷺ:"لَا صَلَاةَ لجَار الْمَسْجد إلَّا في الْمَسْجد" وَ "لَيْسَ بمُؤْمنٍ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائقَهُ" و "لَا وُضُوءَ لمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّه"،وَنَحْوُ ذَلكَ،فَأَطْلَقَ الْإمَامَةَ في الْكُفْر لأَنَّ الْإمَامَ هُوَ الْمُقْتَدَى به الْمُتَّبَعُ في الْخَيْر وَالشَّرِّ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئمَّةً يَدْعُونَ إلَى النَّار} [القصص:٤١] وَقَالَ في الْخَيْر:{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرنَا}

[الأنبياء:٧٣] فَالْإِمَامُ فِي الْخَيْرِ هَادٍ مُهْتَدٍ،وَالْإِمَامُ فِي الشَّرِّ ضَالٌّ مُضِلٌّ.وَقَدْ قِيلَ:إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا غَدَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَكَثُوا مَا كَانُوا أَعْطَوْا مِنْ الْعُهُودِ وَالْأَيْمَانِ عَلَى أَنْ لَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَعْدَاءَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،وَهَمُّوا بِمُعَاوَنَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ عَلَى إخْرَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمَدِينَةِ،وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ بَدَءُوا بِالْغَدْرِ،وَنَكْثِ الْعَهْدِ،وَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ بِقَوْلِهِ:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ذَلِكَ مُرَتَّبًا عَلَى قَوْلِهِ:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانُوا نَقَضُوا الْعَهْدَ بِقوله:{أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ}[٤٦٢].

وقال ابن العربي:

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ:الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:قَوْله تَعَالَى {وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} [التوبة:١٢]:دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّاعِنَ فِي الدِّينِ كَافِرٌ،وَهُوَ الَّذِي يَنْسِبُ إلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ،أَوْ يَعْتَرِضُ بِالِاسْتِخْفَافِ عَلَى مَا هُوَ مِنْ الدِّينِ؛لِمَا ثَبَتَ مِنْ الدَّلِيلِ الْقَطْعِيِّ عَلَى صِحَّةِ أُصُولِهِ وَاسْتِقَامَةِ فُرُوعِهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:إذَا طَعَنَ الذِّمِّيُّ فِي الدِّينِ انْتَقَضَ عَهْدُهُ لِقَوْلِهِ:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} [التوبة:١٢]

إلَى:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة:١٢] فَأَمَرَ اللَّهُ بِقَتْلِهِمْ وَقِتَالِهِمْ إذَا طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ.

فَإِنْ قِيلَ:إنَّمَا أُمِرْنَا بِقِتَالِهِمْ بِشَرْطَيْنِ:أَحَدُهُمَا:نَكْثُهُمْ لِلْعَهْدِ.

وَالثَّانِي:طَعْنُهُمْ فِي الدِّينِ.قُلْنَا:الطَّعْنُ فِي الدِّينِ نَكْثٌ لِلْعَهْدِ،بَلْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ:إنْ عَمِلُوا مَا يُخَالِفُ الْعَهْدَ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ.فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رُفِعَ إلَيْهِ أَنَّ ذِمِّيًّا نَخَسَ دَابَّةً عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ،فَرَمَحَتْ،فَأَسْقَطَتْهَا،فَانْكَشَفَ بَعْضُ عَوْرَتِهَا،فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ فِي الْمَوْضِعِ وَقَالَ:أَمَّا مَالُهُ فَيُؤْخَذُ.

وَهَذَا تَعَارُضٌ لَا يُشْبِهُ مَنْصِبَ مُحَمَّدٍ؛لِأَنَّ عَهْدَهُ هُوَ الَّذِي حَمَى وَلَدِهِ وَمَالَهُ،فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ ذَهَبَ عَنْ وَلَدِهِ وَمَالِهِ.وَقَالَ أَشْهَبُ:إذَا نَقَضَ الذِّمِّيُّ الْعَهْدَ فَهُوَ عَلَى عَهْدِهِ،وَلَا يَعُودُ الْحُرُّ فِي الرِّقِّ أَبَدًا.

---

[٤٦٢] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١١٠)

وَهَذَا مِنْ الْعَجَبِ،وَكَأَنَّهُ رَأَى الْعَهْدَ مَعْنًى مَحْسُوسًا،وَإِنَّمَا الْعَهْدُ حُكْمٌ اقْتَضَاهُ النَّظَرُ،وَالْتَزَمَهُ الْمُسْلِمُونَ،فَإِذَا نَقَضَهُ انْتَقَضَ كَسَائِرِ الْعُقُود مِنْ الْبَيْعِ وَالنِّكَاحِ،فَإِنَّهَا تُعْقَدُ؛فَتُرَتَّبُ عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ؛فَإِذَا نُقِضَتْ وَنُسِخَتْ ذَهَبَتْ تِلْكَ الْأَحْكَامُ.[٤٦٣]

قتال من يلينا من الكفار:

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إِلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ،وَبذلكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ،إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ،وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ،لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ.وَهَكَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ،ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا.وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخُشُونَةً فِي القِتَالِ،لِيُدْخِلُوا الوَهَنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ،وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ.وَمِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ،رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ.وَيُخْبِرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ.[٤٦٤].

وقال السعدي:

وهذا أيضا إرشاد آخر،بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال،أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار،والغلظة عليهم،والشدة في القتال،والشجاعة والثبات.{ واعْلموا أنّ اللّه مع الْمتّقين } أي:وليكن لديكم علم أن المعونة من اللّه تنزل بحسب التقوى،فلازموا على تقوى اللّه،يعنكم وينصركم على عدوكم.وهذا العموم في

---

[٤٦٣] - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٦٠)

[٤٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

قوله:{ قاتلوا الّذين يلونكمْ من الْكفّار } مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غـــير الذين يلوننا،وأنواع المصالح كثيرة جدا.[٤٦٥]

وقال ابن كثير رحمه الله:

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمنينَ أَنْ يُقَاتلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا الْـأَقْرَبُ فَالْـأَقْرَبُ إِلَـى حَـوْزَة الْإِسْلَام؛وَلهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بقتَال الْمُشْركينَ في جَزيرَة الْعَرَب،فَلَمَّا فَـرَغَ مـنْهُمْ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْه مَكَّةَ وَالْمَدينَةَ،وَالطَّائفَ،وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ،وَهَجَرَ،وَخَيْبَرَ،وَحَضْرَمَوْتَ،وَغَيْرَ ذَلكَ منْ أَقَاليم جَزيرَة العرب،وَدَخَلَ النَّاسُ منْ سَائر أَحْيَاء الْعَـرَب فـي ديـن اللَّـه أَفْوَاجًا،شَرَعَ في قتَال أَهْل الْكتَاب،فَتَجَهَّزَ لغَزْو الرُّوم الَّذينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاس إِلَى جَزيرَة الْعَرَب،وَأَوْلَى النَّاس بالدَّعْوَة إِلَى الْإِسْلَام لكَوْنهمْ أَهْلَ الْكتَاب،فَبَلَغَ تَبُوكَ ثُمَّ رَجَعَ لأَجْل جهْد النَّاس وجَدْب الْبلَاد وَضيق الْحَال،وَكَانَ ذَلكَ سَنَةَ تسْعٍ منْ هجْرَته،عَلَيْه السَّلَامُ.

ثُمَّ اشْتَغَلَ في السَّنَة الْعَاشرَة بحَجَّته حَجَّة الْوَدَاع.ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنيَّةُ،ﷺ،بَعْدَ الْحَجَّة بأَحَدٍ وَثَمَانينَ يَوْمًا،فَاخْتَارَهُ اللَّهُ لمَا عنْدَهُ.

وَقَامَ بالْأَمْر بَعْدَهُ وَزيرُهُ وَصَديقُهُ وَخَليفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ،رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَقَدْ مَالَ الـدِّينُ مَيْلَـةً كَادَ أَنْ يَنْجَفلَ،فَثَبَّتَهُ اللَّهُ تَعَالَى به فَوَطَّدَ الْقَوَاعدَ،وَثَبَّتَ الدَّعَائمَ.وَرَدَّ شَاردَ الدِّين وَهُـوَ رَاغمٌ.وَرَدَّ أَهْلَ الرِّدَّة إِلَى الْإِسْلَام،وَأَخَذَ الزَّكَاةَ ممَّنْ مَنَعَهَا منَ الطَّغَام،وَبَيَّنَ الْحَقَّ لمَـنْ جَهلَهُ،وَأَدَّى عَن الرَّسُول مَا حَمَلَهُ.ثُمَّ شَرَعَ في تَجْهيز الْجُيُوش الْإِسْلَاميَّة إِلَى الرُّوم عَبَدَة الصُّلْبَان) وَإِلَى الْفُرْس عَبَدَة النِّيرَان،فَفَتَحَ اللَّهُ ببَرَكَة سفَارَته الْبلَادَ،وَأَرْغَمَ أَنْفُسَ كسْـرَى وَقَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا منَ الْعبَاد.وَأَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا في سَبيل اللَّه،كَمَا أَخْبَرَ بذَلكَ رَسُـولُ الْإِلَه.

وَكَانَ تَمَامُ الْأَمْر عَلَى يَدي وَصيِّه منْ بَعْـده،وَوَليِّ عَهْـده الْفَـارُوق الْأَوَّاب،شَـهيد الْمحْرَاب،أَبي حَفْصٍ عُمَرَ بْن الْخَطَّاب،فَأَرْغَمَ اللَّهُ به أُنُوفَ الْكَفَـرَة الْمُلْحـدينَ،وَقَمَعَ الطُّغَاةَ وَالْمُنَافقينَ،وَاسْتَوْلَى عَلَى الْمَمَالك شَرْقًا وَغَرْبًا.وَحُملَتْ إِلَيْه خَزَائنُ الْأَمْوَال مـنْ سَائر الْأَقَاليم بُعْدًا وقُربا.فَفَرَّقَهَا عَلَى الْوَجْه الشَّرْعيِّ،وَالسَّبيل الْمَرْضيِّ.

---

[٤٦٥] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٥٥)

ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا وَقَدْ عَاشَ حَمِيدًا،أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.عَلَى خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [أَبِي عَمْرٍو] عُثْمَانَ بن عفان شهيد الدار.فكسى الْإِسْلَامَ [بِجَلَالِهِ] رِيَاسَةَ حُلَّةٍ سَابِغَةً.وَأُمِدَّتْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ،وَظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،وَعَلَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَظَهَرَ دِينُهُ.وَبَلَغَتِ الْأُمَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ غَايَةَ مَآرِبِهَا،فَكُلَّمَا عَلَوا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدِهِمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعُتَاةِ الْفُجَّارِ،امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [أَيْ:وَلْيَجِدِ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلْظَةً] عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ،فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ،غَلِيظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الْمَائِدَة:٥٤]،وَقَالَ تَعَالَى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الْفَتْح:٢٩]،وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التَّوْبَة:٧٣،وَالتَّحْرِيم:٩]،وَفِي الْحَدِيثِ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"أَنَا الضَّحوك القَتَّال"،يعني:أنه ضَحُوك في وجه وليه،قَتَّال لِهَامَةِ عَدُوِّهِ.

وَقَوْلُهُ:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} أَيْ:قَاتِلُوا الْكُفَّارَ،وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ إِن اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ.

وَهَكَذَا الْأَمْرُ لَمَّا كَانَتِ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ،فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ،وَالْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى،لَمْ يَزَالُوا ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ،وَلَمْ تَزَلِ الْفُتُوحَاتُ كَثِيرَةً،وَلَمْ تَزَلِ الْأَعْدَاءُ فِي سَفَالٍ وَخَسَارٍ.ثُمَّ لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ وَالِاخْتِلَافَاتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ،طَمِعَ الْأَعْدَاءُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ،وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا،فَلَمْ يُمَانِعُوا لِشُغْلِ الْمُلُوكِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ،ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ،فَأَخَذُوا مِنَ الْأَطْرَافِ بُلْدَانًا كَثِيرَةً،ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا حَتَّى اسْتَحْوَذُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ،وَلِلَّهِ،سُبْحَانَهُ،الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.فَكُلَّمَا قَامَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ،وَأَطَاعَ أَوَامِرَ اللَّهِ،وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ،فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ،وَاسْتَرْجَعَ مِنَ الْأَعْدَاءِ

بِحَسَبِهِ،وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ.وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ الْمَأْمُولُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ،وَأَنْ يُعْلِيَ كَلِمَتَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ،إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ[٤٦٦].

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَاتِلُوا مَنْ وَلِيَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ دُونَ مَنْ بَعُدَ مِنْهُمْ،يَقُولُ لَهُمْ:ابْدَءُوا بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إِلَيْكُمْ دَارًا دُونَ الْأَبْعَدِ فَالْأَبْعَدِ.وَكَانَ الَّذِي يَلُونَ الْمُخَاطَبِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَوْمَئِذٍ الرُّومُ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا سُكَّانَ الشَّامِ يَوْمَئِذٍ،وَالشَّامُ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الْعِرَاقِ.فَأَمَّا بَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْبِلَادَ،فَإِنَّ الْفَرْضَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ نَاحِيَةٍ قِتَالُ مَنْ وَلِيَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ دُونَ الْأَبْعَدِ مِنْهُمْ مَا لَمْ يُضْطَرَّ إِلَيْهِمْ أَهْلُ نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ نَوَاحِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ،فَإِنِ اضْطُرُّوا إِلَيْهِمْ لَزِمَ عَوْنُهُمْ وَنَصْرُهُمْ،لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ.وَلِصِحَّةِ كَوْنِ ذَلِكَ،تَأَوَّلَ كُلُّ مَنْ تَأَوَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَّ مَعْنَاهَا إِيجَابُ الْفَرْضِ عَلَى أَهْلِ كُلِّ نَاحِيَةٍ قِتَالَ مَنْ وَلِيَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ.[٤٦٧]

وفى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» - لفت لأنظار المسلمين إلى حماية أنفسهم من خطر العدوّ المساكن لهم،أو الملاصق لمجتمعهم،وذلك لا يكون إلا بأن يدخل هذا العدو فى الإسلام،وبصبح بعضا منه،أو أن يقاتله المسلمون حتى يقتلعوا شوكته،أو يوهنوا قوته،فلا يكون يوما من الأيام قادرا على مواجهتهم بالضرّ،أو مبادأتهم بالعدوان،وذلك من شأنه أن يعطى المجتمع الإسلامى أمنا وسلاما واستقرارا فى مواطنه،الأمر الذي يتيح لكل فرد فيه أن يعمل،وأن يحسن العمل فيما هو مهيأ له،وراغب فيه..

- وفى قوله تعالى:«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»..تنبيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فيما بينهم وبين الكافرين،فلا بغى ولا عدوان،ولا مجاوزة للحدّ المطلوب لحماية الدعوة الإسلامية،ودفع كيد الكائدين لها..فإذا تحقق ذلك،فليس وراءه شىء يطلبه المسلمون لذات أنفسهم،أو لانتقام شخصى.بل يجب أن تكون تقوى الله هى

---

[٤٦٦] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٢٣٧)

[٤٦٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢/ ٨٥)

الدستور الذي يأخذ به المسلمون أنفسهم فى حربهم لعدوهم..فلا يعرضوا لامرأة،ولا لطفل،ولا لشيخ،بأذى ولا يتبعوا هاربا،ولا يقضوا على جريح،ولا يمثّلوا بقتيل،ولا يقطعوا شجرا ولا زرعا،ولا يحرقوا دورا،ولا يقتلوا حيوانا..فليس فى هذا كله عدوّ لهم،وإنما عدوهم هو الذي حمل السلاح،وقاتلهم به،فإذا ألقى السلاح،أو عجز عن حمله والقتال به،فشأنه شأن الصبيان والنساء،لا سبيل إلى العدوان عليه[٤٦٨].

وفي الظلال:

لقد سارت عليها الفتوح الإسلامية،تواجه من يلون «دار الإسلام» ويجاورونها،مرحلة فمرحلة.فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت و لم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم.ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس،فلم يتركوا وراءهم جيوبا ووحدت الرقعة الإسلامية،ووصلت حدودها،فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء،متماسكة الأطراف..ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها،وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت،أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون.وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «أمة واحدة» في «دار الإسلام» المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها،وإلى رايته الواحدة وإلا أن تتبع خطى رسول الله - ﷺ - وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين.

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»..

فنجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار.لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم..وندرك أن هذا هو الأمر الأخير،الذي يجعل «الانطلاق» بهذا

---

[٤٦٨] - التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٩٢٠)

الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد،وليس هو مجرد «الدفاع» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن..أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآني بذاته مطلق،وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام،أن يكون دقيقا في كل موضع وألا يحيل في موضع على موضع بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص.إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر،وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب،أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك[٤٦٩].

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام،يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون اللّه – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار،وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار،كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار!..يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا،فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو..

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل اللّه»..جهاد لتقرير ألوهية اللّه في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان اللّه..جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير اللّه،ومن فتنته بالقوة عن الدينونة للّه وحده والانطلاق من العبودية للعباد..«حَتَّى لا

---

[٤٦٩] – ص ١٥٦٤ – ١٥٨٣ وص ١٥٨٦ – ١٥٩٨ وص ١٦٠٦ – ١٦٠٩ وص ١٦٢٠ – ١٦٣٠ من الجزء العاشر.(السيد رحمه الله)

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ»..وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله.إنما هو جهاد لتغليب منهج اللّه على مناهج العبيد! وليس جهـــادا لتغليـــب سلطان قوم على سلطان قوم،إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللّه على ســـلطان العبيـــد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد،إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللّه في الأرض..ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «الأرض» كلها،لتحرير «الإنسان» كله.بلا تفرقة بين ما هو داخـــل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها..فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلـــق منـــهج ليكتسح كل المناهج،وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم..إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلا لا تستساغ!..لولا أن الأمر ليس كذلك.وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية.فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجـــه أنظمـــة بشرية ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعبـــاد ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية للّه وحده بلا شـــريك! ثم إنـــه يهـــولهم الأمـــر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم:إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف،وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستســـاغة..لـــولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق..إن الإسلام يقوم على قاعدة:«لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَـــدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»..ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ولماذا اشترى اللّـــه مـــن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟..إنـــه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد..بل لأمر مناقض تماما للإكراه علـــى العقيدة..إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد!..لأن الإسلام كإعلان عام لتحريـــر «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائما طواغيت في الأرض يخضـــعون العباد للعباد.ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيـــد تحـــرس هـــذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس

في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم،أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل..وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله.

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة،ويدمر هذه القوى التي تحميها..ثم ماذا؟..ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحرارا حقا في اختيار العقيدة التي يريدونها.إن شاءوا دخلوا في الإسلام،فكان لهم ما للمسلمين من حقوق،وعليهم ما عليهم من واجبات،وكانوا إخوانا في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية،إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد،وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها – كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا – لتكرههم على التنصر.وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر،فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون..وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية..وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط،أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية،أو طبيعة لاهوتية ناسوتية..إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر..وهو يهول فعلا!..فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين،وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا..ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللّه فعلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى

كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم اللّـه دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين،ونظمت على أساسه.وقبل ذلـك كلـه كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها للّه بيعة صدق،فنصرها اللّه يومـا بعـد يوم،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة..وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث اللّه محمدا – ﷺ– ليدعو الناس – في جاهليتهم – إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة.وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة..وأن بين النـاس اليـوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول..ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن اللّه..ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الـذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهـواء والـذي تتقاسمـه الرايـات القوميـة والجنسـية والعنصرية.ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية:لا إله إلا اللّـه.ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا،ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صـنع العبيـد في الأرض إنما تنطلق باسم اللّه وعلى بركة اللّه..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين،وهم في مثل ما هم فيه من الهـزال!

إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية اللّـه وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين،الذين يتعاملون مع الكتـب والأوراق الباردة!

إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق.وحفظ ما في متون الكتب.والتعامل مـع النصوص في غير حركة،لا يؤهل لفقه هذا الدين،ولم يكن مؤهلا له في يوم من الأيـام!

وأخيرا فإن الظروف التي نزل فيها قول اللّه تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُـوا قـاتِلُوا الَّـذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»..

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم..وهم أهل كتاب..ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي،بما في عقيدهم من انحراف،وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد..

وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب،المنحرفين عن كتاهم،المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم!..وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون – راضين – إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة اللّه وكتابه،في أي زمان وفي أي مكان! ثم لقد أمر اللّه المسلمين أن يقاتلوا الذين يلوهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة،وعقب على هذا الأمر بقوله:«أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»..

ولهذا التعقيب دلالته..فالتقوى هنا..التقوى التي يحب اللّه أهلها..هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار وتقاتلهم في «غلظة» أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع..حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم – وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!

إنه قتال يسبقه إعلان،وتخيير بين:قبول الإسلام،أو أداء الجزية،أو القتال..ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد – في حالة الخوف من الخيانة – (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).

وهذه آداب المعركة كلها،من وصية رسول اللّه – ﷺ-:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:اغْزُوا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تُمَثِّلُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ،أَوْ

خِلاَلٍ،فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَأْقْبَل مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ،فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ ؛فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ؛فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ.[٤٧٠]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺفَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺعَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ[٤٧١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺلَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ،قَالَ:إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَادْعُهُم الَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ.[٤٧٢]

---

[٤٧٠] - أخرجه مسلم وغيره المسند الجامع [٣ /٤٨٤](١٩٠٢) ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٦٤٠]((٢٣٠٣٠) (٢٣٤١٨

[٤٧١] - مصنف ابن أبي شيبة [١٧ /٥٦٩](٣٣٧٨٤و٣٣٧٨٥) صحيح

[٤٧٢] - أخرجه الجماعة المسند الجامع [٨ /٥٥٣](٥٩١١) وهو حديث صحيح مشهور

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه -ﷺ- « لَعَلَّكُمْ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا فَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ فَيَتَّقُونَكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ دُونَ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ فَيُصَالِحُونَكُمْ عَلَى صُلْحٍ فَلاَ تُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا فَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لَكُمْ »[٤٧٣].

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِه،يَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ الله ﷺنَزَلَ بِخَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِه،وَأَنَّ صَاحِبَ خَيْبَرَ كَانَ رَجُلا بَارِدًا مُنْكَرًا،فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا،وَتَأْكُلُوا ثَمَرَتَنَا،وَتَدْخُلُوا بُيُوتَنَا،وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ،فَقَالَ:يَا ابْنَ عَوْف،ارْكَبْ فَرَسَكَ،فَأَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنَّ الْجَنَّةَ لا تَحِلُّ إِلا لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله،وَأَنِ اجْتَمِعُوا إِلَى الصَّلاةِ قَالَ:فَاجْتَمَعْنَا لَهُ،فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحِلَّ لَكُمْ بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ،وَلا تَضْرِبُوا نِسَاءَهُمْ،أَمْ حَسِبَ امْرُؤٌ مِنْكُمْ وَقَدْ شَبِعَ حَتَّى بَطَنَ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِه،لا يَظُنُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ شَيْئًا إِلا مَا فِي الْقُرْآنِ،أَلا إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ وَوَعَظْتُ بِأَشْيَاءَ هِيَ مِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ،وَأَنَّهُ لا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ السِّبَاعِ كُلُّ ذِي نَابٍ،وَلا الْحُمُرُ،وَلا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا تَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا إِلا مَا طَابُوا لَهُ نَفْسًا،وَقَالَ:لا تَضْرِبُوا،أَوْ قَالَ:لا تَجْلِدُوا نِسَاءَهُمْ "[٤٧٤].

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ حَدَّثَ الْأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ فَتَنَاوَلَ أَصْحَابُهُ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَمَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺفَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْه،فَقَالَ:" أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ثُمَّ تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ الله أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" إِنَّ أَخْيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَتْ تُولَدُ نَسَمَةٌ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا يَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يَبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا "[٤٧٥]

---

[٤٧٣] - سنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٦](٣٠٥٣) والمسند الجامع [١٨ /١٣٤٧](١٥٧٢٦) فيه جهالة

[٤٧٤] - الآحاد والمثاني [٢ /٥٢٠](١٣٣٦) وسنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٥](٣٠٥٢) وصحيح الجامع (٧٨٤٠) حسن

[٤٧٥] - شرح مشكل الآثار [٤ /١٣](١٣٩٤) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٣ /٥٠٠] صحيح

وعن الْحَسَنَ،حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْنِ سَرِيعٍ وَكَانَ رَجُلاً مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَالَ:وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ،يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ،قَالَ:فَتَنَاوَلَ قَوْمٌ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَ مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:أَلاَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ،قَالَ:فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَوَلَيْسَ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ،إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلاَّ وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ،فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا،فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَ يُنَصِّرَانِهَا.[٤٧٦]

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ قَالَ لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَقَالُوا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَمْشِى وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ:إِنِّى أَحْتَسِبُ خُطَاىَ هَذِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ فَقَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ اغْزُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَجْبُنُوا وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَلاَ تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِى الإِسْلاَمِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِى الْفَىْءِ وَالْغَنَائِمِ شَىْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِى الإِسْلاَمِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلاَ تُغْرِقُنَّ نَحْلاً وَلاَ تُحْرِقُنَّهَا وَلاَ تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلاَ شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلاَ تَهْدِمُوا بِيعَةً وَلاَ تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلاَ الشُّيُوخَ وَلاَ

[٤٧٦] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٥٨٤](١٦٣٠٣) ١٦٤١٢ صحيح

النِّسَاءَ وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِى الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِى أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ."[٤٧٧]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً "[٤٧٨]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ أَنْ لاَ تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلاَ صَبِيًّا،وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُواسَى."[٤٧٩]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ:لاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْفَلاَّحِينَ."[٤٨٠]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:حدِّثْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتْبَعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:إِنِّي أُوصِيك بِعَشْرٍ:لاَ تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا،وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلاَ بقرة إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ،وَلاَ تُغْرِقَنَّ نَخْلاً،وَلاَ تَحْرِقَنَّهُ وَلاَ تَغْلُلْ،وَلاَ تَجْبُنْ."[٤٨١]

---

[٤٧٧] - السنن الكبرى للبيهقي- المكتر - (٩ / ٨٥) (١٨٥٩٢) صحيح لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة - التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - الخصال:جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة -الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - أبى:امتنع ورفض - الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابِي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

[٤٧٨] - شرح مشكل الآثار - (٣ / ١٤٤) صحيح لغيره

[٤٧٩] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح

[٤٨٠] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩٢) حسن

الغلول:الخيانة والسرقة -التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به

[٤٨١] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح مرسل

وعَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ،قَالَ:حَدَّثَنِي شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَسَدِيُّ،عَنِ الرَّسُولِ الَّذِي جَــرَى بَيْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ:نَــدَبَ عُمَــرُ بْــنُ الْخَطَّابِ النَّاسَ مَعَ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ بِالْحَرَّةِ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ فَارِسَ،وَقَالَ:" انْطَلِقُوا بِسْمِ اللَّهِ،وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا شَيْخًا هَمًّا،وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ،فَــإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ،فَلَهُمْ مَا لَكُمْ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ،وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَــى الْإِسْــلَامِ بِلَــا جِهَادٍ،فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ،فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَــى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ،وَضَعْ فِيهِمْ جَيْشًا يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ،وَخَلِّهِــمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ،فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ،فَإِنْ دَعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّــدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ،وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِكُمْ،ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ،فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ " فَلَمَّا قَدِمْنَا الْبِلَادَ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كُلِّ مَا أُمِرْنَا بِهِ،فَأَبَوْا،فَلَمَّا مَسَّهُمُ الْحَصْرُ نَادَوْنَا:أَعْطُونَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ،فَقُلْنَا:لَا،ولَكِنَّا نُعْطِــيكُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِنَا،ثُمَّ نَفِي لَكُمْ،فَأَبَوْا،فَقَاتَلْنَاهُمْ،فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ إِنَّ اللَّــهَ فَــتَحَ عَلَيْنَا،فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرِقَةٍ مَا شَاءُوا،ثُمَّ إِنَّ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ أَمِــيرَ الْقَوْمِ دَخَلَ،فَجَعَلَ يَتَخَطَّى بُيُوتَ نَارِهِمْ،فَإِذَا بِسَفَطَيْنِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَعْلَى الْبَيْتِ،فَقَالَ:مَا هَذَانِ السَّفَطَانِ ؟ فَقَالُوا:أَشْيَاءُ كَانَتْ تُعَظِّمُ بِهَا الْمُلُوكُ بُيُوتَ نَارِهِمْ،فَقَالَ:أَهْبِطُوهُمَا إِلَيَّ،فَــإِذَا عَلَيْهِمَا طَوَابِعُ الْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ قَالَ:مَا أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إِلَّا عَلَــى أَمْــرٍ نَفِيسٍ،عَلَــيَّ بِالْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرَهُمْ خَبَــرَ السَّــفَطَيْنِ،فَقَالَ:أَرَدْتُ أَنْ أَفُضَّــهُمَا بِمَحْضَــرٍ مِنْكُمْ،فَفَضَّهُمَا،فَإِذَا هُمَا مَمْلُوءَانِ بِمَا لَمْ يُرَ مِثْلُهُ أَوْ قَالَ:لَمْ أَرَ مِثْلَهُ،فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَــى الْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ،قَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَبْلَاكُمُ اللَّهُ فِي وَجْهِكُمْ هَذَا،فَهَلْ لَكُــمْ أَنْ تَطِيبُوا بِهَذَيْنِ السَّفَطَيْنِ أَنْفُسًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِحَوَائِجِهِ وَأُمُورِهِ وَمَــا يَنْتَابُــهُ،فَأَجَابُوهُ بِصَوْتِ رَجُلٍ وَاحِــدٍ:إِنَّــا نُشْــهِدُ اللَّــهَ أَنَّــا قَــدْ فَعَلْنَا،وَطَابَــتْ أَنْفُسُــنَا لِــأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينِ،فَدَعَانِي،فَقَالَ:قَدْ عَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحَرَّةِ،وَمَا أَوْصَانَا،وَمَا اتَّبَعْنَا مِــنْ وَصِيَّتِهِ وَأَمْرِ السَّفَطَيْنِ،وَطِيبِ أَنْفُسِ الْمُسْــلِمِينَ لَــهُ بِهِمَا،فَــأْتِ بِهِمَــا إِلَــى أَمِــيرِ

الْمُؤْمِنِينَ،وَاصْدُقْهُ الْخَبَرَ،ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ لَكَ،فَقُلْتُ:مَا لِي بُدٌّ مِنْ صَاحِبٍ،فَقَالَ:خُذْ بِيَدِ مَنْ أَحْبَبْتَ.فَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ،فَانْطَلَقْنَا بِالسَّفَطَيْنِ نَهُزُّهُمَا حَتَّى قَدِمْنَا بِهِمَا الْمَدِينَةَ،فَأَجْلَسْتُ صَاحِبِي مَعَ السَّفَطَيْنِ،وَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَإِذَا بِهِ يُغَدِّي النَّاسَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازٍ وَهُوَ يَقُولُ:" يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا،يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا "،فَجَلَسْتُ فِي عُرْضِ الْقَوْمِ لَا آكُلُ شَيْئًا فَمَرَّ بِي،فَقَالَ:" أَلَا تُصِيبُ مِنَ الطَّعَامِ ؟ " فَقُلْتُ:لَا حَاجَةَ لِي بِهِ،فَرَأَى النَّاسَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يَدُورُ فِيهِمْ،فَقَالَ:" يَا يَرْفَأُ،خُذْ خُونَكَ وَقِصَاعَكَ "،ثُمَّ أَدْبَرَ وَاتَّبَعْتُهُ،فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارٍ قَوْرَاءَ عَظِيمَةٍ،فَدَخَلَهَا،فَدَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ،ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ فَدَخَلَهَا،فَقُمْتُ مَلِيًّا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ،فَقُلْتُ:السَّلَامُ عَلَيْكَ،فَقَالَ:" وَعَلَيْكَ،فَادْخُلْ "،فَدَخَلْتُ،فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى وِسَادَةٍ مُرْتَفِقًا أُخْرَى،فَلَمَّا رَآنِي نَبَذَ إِلَيَّ الَّتِي كَانَ مُرْتَفِقًا،فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا،فَإِذَا هِيَ تَغْرِزُنِي،فَإِذَا حَشْوُهَا لِيفٌ،قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،أَطْعِمِينَا "،فَجَاءَتْ بِقَصْعَةٍ فِيهَا قِدَرٌ مِنْ خُبْزٍ يَابِسٍ،فَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا،مَا فِيهِ مِلْحٌ وَلَا خَلٌّ،فَقَالَ:" أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً أَطْعَمَتْنَا أَطْيَبَ مِنْ هَذَا "،فَقَالَ لِي:" ادْنُ "،فَدَنَوْتُ،قَالَ:فَذَهَبْتُ أَتَنَاوَلُ مِنْهَا قِدْرَةً،فَلَا وَاللَّهِ إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُجِيزَهَا،فَجَعَلْتُ أَلُوكُهَا مَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ،وَمَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ،فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُسِيغَهَا،وَأَكَلَ أَحْسَنَ النَّاسِ إِكْلَةً،إِنْ يَتَعَلَّقُ لَهُ طَعَامٌ بِثَوْبٍ أَوْ شَعْرٍ،حَتَّى رَأَيْتُهُ يَلْطَعُ جَوَانِبَ الْقَصْعَةِ،ثُمَّ قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،اسْقِينَا "،فَجَاءَتْ بِسَوِيقِ سُلْتٍ،فَقَالَ:" أَعْطِيهِ "،فَنَاوَلَتْنِيهِ،فَجَعَلْتُ إِذَا أَنَا حَرَّكْتُهُ ثَارَتْ لَهُ قُشَارٌ،وَإِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ تَنِدَ،فَلَمَّا رَآنِي قَدْ بَشِعْتُ ضَحِكَ،فَقَالَ:" مَا لَكَ أَرِنِيهِ إِنْ شِئْتَ "،فَنَاوَلْتُهُ،فَشَرِبَ حَتَّى وَضَعَ عَلَى جَبْهَتِهِ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ:" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا،وَسَقَانَا فَأَرْوَانَا،وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ "،فَقُلْتُ:قَدْ أَكَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَشَبِعَ،وَشَرِبَ فَرَوِيَ،حَاجَتِي جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ – قَالَ شَقِيقٌ:وَكَانَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ إِيَّايَ ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ،هَذَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا مَا قَالَ:لِلَّهِ أَبُوكَ فَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ:رَسُولُ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ:فَتَاللَّهِ،لَكَأَنَّمَا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِهِ تَحَنُّنًا عَلَيَّ،وَحُبًّا لِخَبَرِي عَمَّنْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ،وَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيَّ:إِيهًا لِلَّهِ

أَبُوكَ،كَيْفَ تَرَكْتَ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ ؟ كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ ؟ مَا صَنَعْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ ؟ قُلْتُ:مَا تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْخَبَرَ إِلَى أَنَّهُمْ نَاصَبُونَا الْقِتَالَ،فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَاسْتَرْجَعَ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ،وَتَرَحَّمَ عَلَى الرَّجُلِ طَوِيلًا،قُلْتُ:ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتْحًا عَظِيمًا فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرِقَةِ مَا شَاءُوا قَالَ،وَيْحَكَ كَيْفَ اللَّحْمُ بِهَا ؟ فَإِنَّهَا شَجَرَةُ الْعَرَبِ،وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بِشَجَرَتِهَا،قُلْتُ:الشَّاةُ بِدِرْهَمَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:" اللَّهُ أَكْبَرُ "،ثُمَّ قَالَ:وَيْحَكَ هَلْ أُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ آخَرُ ؟ قَالَ:جِئْتُ إِلَى ذِكْرِ السَّفَطَيْنِ،فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُمَا،فَحَلَفَ الرَّسُولُ عِنْدَهَا يَمِينًا أُخْرَى،اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَكَأَنَّمَا أُرْسِلَتْ عَلَيْهِ الْأَفَاعِي وَالْأَسَاوِدُ وَالْأَرَاقِمُ أَنْ وَثَبَ كَمَكَانِ تِيكَ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ آخِذًا بِحَقْوَتِهِ فَقَالَ:لِلَّهِ أَبُوكَ وَعَلَامَ يَكُونَانِ لِعُمَرَ ؟ وَاللَّهِ لَيَسْتَقْبِلَنَّ الْمُسْلِمُونَ الظَّمَأَ وَالْجُوعَ وَالْخَوْفَ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ،وَعُمَرُ يَغْدُو مِنْ أَهْلِهِ وَيَرُوحُ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الْمَدِينَةِ،ارْجِعْ بِمَا جِئْتَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ،فَقُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي وَبِصَاحِبِي فَاحْمِلْنَا قَالَ:لَا،وَلَا كَرَامَةَ لِلْآخَرِ مَا جِئْتَ بِمَا أُسَرُّ بِهِ فَأَحْمِلَكَ،قُلْتُ:يَا لَعِبَادِ اللَّهِ أَيُتْرَكُ رَجُلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ ؟ قَالَ:أَمَا لَوْلَا قُلْتَهَا يَا يَرْفَأُ انْطَلِقْ بِهِ فَاحْمِلْهُ وَصَاحِبَهُ عَلَى نَاقَتَيْنِ ظَهْرِيَّيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ،ثُمَّ انْخَسْ بِهِمَا حَتَّى تُخْرِجَهُمَا مِنَ الْحَرَّةِ،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ:أَمَا لَئِنْ شَتَا الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَاتِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَا بَيْنَهُمْ لَأَعْذِرَنَّ مِنْكَ وَمِنْ صُوَيْحِبِكَ،ثُمَّ قَالَ:إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْبِلَادِ فَانْظُرْ أَحْوَجَ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ إِلَيْهِ النَّاقَتَيْنِ،فَأَتَيْنَاهُ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ،فَقَالَ:ادْعُ لِي الْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَفَرَكُمْ بِسَفَطَيْكُمْ،وَرَآكُمْ أَحَقَّ بِهِمَا مِنْهُ،فَاقْتَسِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ،فَقَالُوا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمَا بَصَرٌ وَتَقْوِيمٌ وَقِسْمَةٌ فَقَالَ:وَاللَّهِ لَا تَبْرَحُونَ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي مِنْهَا بِحَجَرٍ،فَعَدَّ الْقَوْمَ وَعَدَّ الْحِجَارَةَ فَرُبَّمَا طَرَحُوا إِلَى الرَّجُلِ الْحَجَرَيْنِ،وَفَلَقُوا الْحَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ "[482]

---

[482] - سنن سعيد بن منصور - (٦ / ١١) (٢٢٩٩) حسن

الغلول:الخيانة والسرقة -التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - أبى:امتنع ورفض - الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابِي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم - الذمة

وعن حيوة بن شريح:أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث أميرا أوصاهم بتقوى الله وقال عند عقدة الولاية:بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر،وقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله،ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين،ثم لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة،ولا تسرفوا عند الظهور،ولا تنكلوا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة ولا هرما ولا وليدا،وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند جمة النهضات،وفى شن الغارات،ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم وذلك هو الفوز العظيم"[٤٨٣]

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه،وفي آدابه الرفيعة،وفي الرعاية لكرامة الإنسان.وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه.أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة،غير المحاربين أصلا وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان.وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين،ولاحترام بشرية المحاربين.إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار

والذمام:العَهْد،والأمَانِ،والضَّمان،والحُرمَة،والحقِّ – أبى:رفض وامتنع – التخلل:التحرك والتنقل بين شيئين – في إثره:بعده – مليا:وقتا طويلا –النبذ:الرمي والطرح – القصعة:وعاء يؤكل ويُثْرَدُ فيه وكان يتخذ من الخشب غالبا – الدنو:الاقتراب – الجارية:الأمة المملوكة أو الشابة من النساء – السويق:طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير بخلطه بالسمن والعسل – السُّلت:ضَرْب من الشَّعير أبيضُ لا قشْر له،وقيل هو نوعٌ من الحِنْطة –إيه:هذه كلمة يراد بها الاسْتزَادة،وهي مبنية على الكسر،فإذا وصَلْتَ نَوّنْتَ فقلت إيهٍ حدّثْنا،وإذا قلت إيهًا بالنصب فإنَّما تأمره بالسكوت أو العكس –المتاع:كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ،أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتُزَوَدَّ من سلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك – ويْح:كَلمةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ،تقالُ لمن وَقَع في هَلَكةٍ لا يَسْتَحِقُّها.وقد يقال بمعنى المدح والتَّعجُّب – الشاة:الواحدة من الغنم وقيل:الواحدة من الضأن والمَعز والظِّباءِ والبَقَر والنعامِ وحُمُرِ الوحش – في نحر العدو:في مقابلته وقتاله – الغُدُو:السير أول النهار – أُبْدِعَ بفلان:عطبت راحلتُهُ وكلَّتْ وبقي بعيدا عن الرفاق – الإبل:الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه –مشاتيهم:مواضعهم وأماكنهم – برح المكان:زال عنه وغادره

[٤٨٣] – جامع الأحاديث – (٢٦ / ١٦٣) (٢٨٧٩٦) وفيه ضعف – هناك زيادات كثيرة من عندي

فوجب استثناء حالة الحرب،بقدر ما تقتضي حالة الحرب،دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.[٤٨٤]

تفْريع فرْض الْجهاد

وفي الأم:(قَالَ الشَّافعيُّ):قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {قَاتلُوا الَّــذينَ يَلُــونَكُمْ مِــنَ الْكُفَّــار} [التوبة:١٢٣] قَالَ:فَفَرَضَ اللَّهُ جهَادَ الْمُشْركينَ ثُمَّ أَبَانَ مَنْ الَّذينَ نَبْدَأُ بجهَــادهمْ مِــنْ الْمُشْركينَ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ الَّذينَ يَلُونَ الْمُسْلمينَ وَكَانَ مَعْقُولًا في فَرْضِ اللَّه جهَادُهُمْ أَنَّ أَوْلَاهُمْ بأَنْ يُجَاهدَ أَقْرَبُهُمْ بالْمُسْلمينَ دَارًا؛لأَنَّهُمْ إذَا قَوُوا عَلَى جهَادهمْ وَجهَاد غَيْــرِهمْ كَانُوا عَلَى جهَاد مَنْ قَرُبَ منْهُمْ أَقْوَى وَكَانَ مَنْ قَرُبَ أَوْلَى أَنْ يُجَاهدَ منْ قُرْبــه مــنْ عَوْرَات الْمُسْلمينَ وَأَنَّ نكَايَةَ مَنْ قَرُبَ أَكْثَرُ منْ نكَايَة مَنْ بَعُدَ قَالَ:فَيَجبُ عَلَى الْخَليفَة إذَا اسْتَوَتْ حَالُ الْعَدُوِّ،أَوْ كَانَتْ بالْمُسْلمينَ عَلَيْهمْ قُوَّةٌ أَنْ يَبْدَأَ بأَقْرَب الْعَدُوِّ منْ ديَــار الْمُسْلمينَ؛لأَنَّهُمْ الَّذينَ يَلُونَهُمْ،وَلَا يَتَنَاوَلُ مَنْ خَلْفَهُمْ منْ طَريق الْمُسْلمينَ عَلَى عَدُوٍّ دُونَهُ حَتَّى يَحْكُمَ أَمْرَ الْعَدُوِّ دُونَهُ بأَنْ يُسْلمُوا،أَوْ يُعْطُوا الْجزْيَةَ إنْ كَانُوا أَهْلَ كتَاب وَأُحبُّ لَهُ إنْ لَمْ يُردْ تَنَاوُلَ عَدُوٍّ وَرَاءَهُمْ،وَلَمْ يُطلْ عَلَى الْمُسْلمينَ عَدُوٌّ أَنْ يَبْــدَأَ بـــأَقْرَبهمْ مــنْ الْمُسْلمينَ؛لأَنَّهُمْ أَوْلَى باسْم الَّذينَ يَلُونَ الْمُسْلمينَ،وَإنْ كَانَ كُلٌّ يَلي طَائفَةً منْ الْمُسْلمينَ فَلَا أُحبُّ أَنْ يَبْدَأَ بقتَال طَائفَة تَلي قَوْمًا منْ الْمُسْلمينَ دُونَ آخَرينَ،وَإنْ كَانَــتْ أَقْــرَبَ منْهُمْ منْ الْأُخْرَى إلَى قَوْم غَيْرهمْ.

فَإنْ اخْتَلَفَ حَالُ الْعَدُوِّ فَكَانَ بَعْضُهُمْ أَنْكَى منْ بَعْضٍ،أَوْ أَخْوَفَ منْ بَعْضٍ فَلْيَبْدَأْ الْإمَــامُ بالْعَدُوِّ الْأَخْوَف،أَوْ الأنكى وَلَا بَأْسَ أَنْ يَفْعَلَ،وَإنْ كَانَتْ دَارُهُ أَبْعَدَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَــالَى حَتَّى مَا يَخَافُ ممَّنْ بَدَأَ به ممَّا لَا يَخَافُ منْ غَيْره مثْلَهُ وَتَكُونُ هَذه بمَنْزلَة ضَرُورَة؛لأَنَّهُ يَجُوزُ في الضَّرُورَة مَا لَا يَجُوزُ في غَيْرهَا،وَقَدْ «بَلَغَ النَّبيَّ - ﷺ - عَنْ الْحَارث بْن أَبي ضرَار أَنَّهُ يَجْمَعُ لَهُ فَأَغَارَ النَّبيُّ - ﷺ - وَقُرْبُهُ عَدُوٌّ أَقْرَبُ منْهُ وَبَلَغَهُ أَنَّ خَالدَ بْــنَ أَبــي سُفْيَانَ بْن شُحٍّ يَجْمَعُ لَهُ فَأَرْسَلَ ابْنَ أُنَيْسٍ فَقَتَلَهُ وَقُرْبُهُ عَدُوٌّ أَقْرَبُ».

---

[٤٨٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٦٦)

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ لَا يَتَبَايَنُ فِيهَا حَالُ الْعَدُوِّ كَمَا وَصَفْت وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِهِ سَدُّ أَطْرَافِ الْمُسْلِمِينَ بِالرِّجَالِ،وَإِنْ قَدَرَ عَلَى الْحُصُونِ وَالْخَنَادِقِ وَكُلِّ أَمْرٍ دَفَعَ الْعَدُوَّ قَبْلَ انْتِيَابِ الْعَدُوِّ فِي دِيَارِهِمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لِلْمُسْلِمِينَ طَرَفٌ إلَّا،وَفِيهِ مَنْ يَقُومُ بِحَرْبِ مَنْ يَلِيهِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،وَإِنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَكْثَرَ فَعَلَ وَيَكُونُ الْقَائِمُ بِوِلَايَتِهِمْ أَهْلَ الْأَمَانَةِ وَالْعَقْلِ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْعِلْمِ بِالْحَرْبِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَنَاةِ وَالرِّفْقِ وَالْإِقْدَامِ فِي مَوْضِعِهِ وَقِلَّةِ الْبَطْشِ وَالْعَجَلَةِ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):فَإِذَا أَحْكَمَ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُدْخِلَ الْمُسْلِمِينَ بِلَادَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي لَا يُغَرَّرُ بِالْمُسْلِمِينَ فِيهَا وَيَرْجُو أَنْ يَنَالَ الظَّفَرَ مِنْ الْعَدُوِّ فَإِنْ كَانَتْ بِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ لَمْ أَرَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ عَامٌ إلَّا وَلَهُ جَيْشٌ أَوْ غَارَةٌ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَلُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ عَامَّةً،وَإِنْ كَانَ يُمْكِنُهُ فِي السَّنَةِ بِلَا تَغْرِيرٍ بِالْمُسْلِمِينَ أَحْبَبْت لَهُ أَنْ لَا يَدَعَ ذَلِكَ كُلَّمَا أَمْكَنَهُ وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَأْتِيَ عَلَيْهِ عَامٌ إلَّا وَلَهُ فِيهِ غَزْوٌ حَتَّى لَا يَكُونَ الْجِهَادُ مُعَطَّلًا فِي عَامٍ إلَّا مِنْ عُذْرٍ،،وَإِذَا غَزَا عَامًا قَابِلًا غَزَا بَلَدًا غَيْرَهُ،وَلَا يَتَأَتَّى الْغَزْوُ عَلَى بَلَدٍ وَيُعَطِّلُ مِنْ بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ غَيْرُهُ إلَّا أَنْ يَخْتَلِفَ حَالُ أَهْلِ الْبُلْدَانِ فَيُتَابِعُ الْغَزْوَ عَلَى مَنْ يَخَافُ نِكَايَتَهُ،أَوْ مَنْ يَرْجُو غَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بِلَادِهِ فَيَكُونُ تَتَابُعُهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَطَّلَ غَيْرَهُ بِمَعْنَى لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِثْلُهُ.

قَالَ:وَإِنَّمَا قُلْت بِمَا وَصَفْت أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَخْلُ مِنْ حِينِ فَرَضَ عَلَيْهِ الْجِهَادَ مِنْ أَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ،أَوْ غَيْرِهِ فِي عَامٍ مِنْ غَزْوَةٍ،أَوْ غَزْوَتَيْنِ،أَوْ سَرَايَا،وَقَدْ كَانَ يَأْتِي عَلَيْهِ الْوَقْتُ لَا يَغْزُو فِيهِ،وَلَا يُسْرِي سَرِيَّةً،وَقَدْ يُمْكِنُهُ،وَلَكِنَّهُ يَسْتَجِمُّ وَيُجَمُّ لَهُ وَيَدْعُو وَيُظَاهِرُ الْحُجَجَ عَلَى مَنْ دَعَاهُ.[٤٨٥]

باب الْجهاد ما يسع منْه وما لا يسع

وفي شرح السير الكبير:

[٤٨٥] – الأم للشافعي (٤/ ١٧٧)

بَابُ الْجِهَادِ مَا يَسَعُ مِنْهُ وَمَا لَا يَسَعُ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،إلَّا أَنَّهُمْ فِي سَعَةٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَحْتَاجَ إلَيْهِمْ.فَكَانَ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ:الْقِتَالُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَيْسَ بِفَرْضٍ،إلَّا أَنْ تَكُونَ الْبِدَايَةُ مِنْهُمْ،فَحِينَئِذٍ يَجِبُ قِتَالُهُمْ دَفْعًا لِظَاهِرِ قَوْلِهِ:{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١]،وَقَوْلُهُ:{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة:٣٦].وَلَكِنَّا نَسْتَدِلُّ بِقَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣] وَبِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:١٩٠]،وَبِقَوْلِهِ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ} [التوبة:٢٩]،وَبِقَوْلِهِ:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج:٧٨].وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ وَبِالْقِتَالِ نَزَلَ مُرَتَّبًا.فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - مَأْمُورًا فِي الِابْتِدَاءِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر:٩٤].وَقَالَ تَعَالَى:{فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر:٨٥].

ثُمَّ أَمَرَ بِالْمُجَادَلَةِ بِالْأَحْسَنِ كَمَا قَالَ:{اُدْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّك بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل:١٢٥]،وَقَالَ:{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلَّا بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت:٤٦] ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ بِقَوْلِهِ:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج:٣٩] ثُمَّ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ إنْ كَانَتْ الْبِدَايَةُ مِنْهُمْ بِمَا تَلَا مِنْ آيَاتٍ.

ثُمَّ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ بِشَرْطِ انْسِلَاخِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمِ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥] (٥٢ ب) ثُمَّ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٤٤].

فَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا.وَمُطْلَقُ الْأَمْرِ يَقْتَضِي اللُّزُومَ،إلَّا أَنَّ فَرِيضَةَ الْقِتَالِ لِمَقْصُودِ إعْزَازِ الدِّينِ وَقَهْرِ الْمُشْرِكِينَ،فَإِذَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِالْبَعْضِ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ،بِمَنْزِلَةِ غُسْلِ الْمَيِّتِ وَتَكْفِينِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَدَفْنِهِ.إذْ لَوْ اُفْتُرِضَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بِعَيْنِهِ،وَهَذَا فَرْضٌ غَيْرُ مُوَقَّتٍ بِوَقْتٍ،لَمْ يَتَفَرَّغْ أَحَدٌ لِشُغْلٍ آخَرَ مِنْ كَسْبٍ أَوْ تَعَلُّمٍ.وَبِدُونِ سَائِرِ الْأَشْغَالِ لَا يَتِمُّ أَمْرُ الْجِهَادِ أَيْضًا،فَلِهَذَا كَانَ فَرْضًا عَلَى الْكِفَايَةِ.

حَتَّى لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِهِ اشْتَرَكُوا فِي الْمَأْثَمِ.وَإِذَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِالْبَعْضِ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ.وَفِي مِثْلِ هَذَا يَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ النَّظَرُ لِلْمُسْلِمِينَ،لِأَنَّهُ مَنْصُوبٌ لِذَلِكَ نَائِبٌ عَـــنْ جَمَاعَتِهِمْ.فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَطِّلَ الثُّغُورَ،وَلَا يَدَعَ الدُّعَاءَ إلَى الدِّينِ وَحَثَّ الْمُسْـــلِمِينَ عَلَـــى الْجِهَادِ.

وَإِذَا نَدَبَ النَّاسَ إلَى ذَلِكَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَعْصُوهُ بِالِامْتِنَاعِ مِنْ الْخُرُوجِ.وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدَعَ الْمُشْرِكِينَ بِغَيْرِ دَعْوَةٍ إلَى الْإِسْلَامِ،أَوْ إعْطَاءِ جِزْيَةٍ إذَا تَمَكَّنَ مِـــنْ ذَلِكَ؛لِـــأَنَّ التَّكْلِيـــفَ بِحَسَبِ الْوُسْعِ.

وَإِنْ كَانُوا قَوْمًا لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ كَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَبَوْا قَاتَلَهُمْ.

وَأَمَّا الْمَجُوسُ وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ مِنْ الْعَجَمِ فِي جَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ عِنْدَنَا بِمَنْزِلَةِ أَهْـــلِ الْكِتَابِ،فَيَدْعُوهُمْ إلَى إحْدَى هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ،وَيَجِبُ الْكَفُّ عَـــنْهُمْ إذَا أَجَـــابُوا إلَـــى إحْدَاهُمَا،وَإِنْ امْتَنَعُوا مِنْهُمَا فَحِينَئِذٍ يُقَاتَلُونَ.

وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيُّ وَغَيْرُ الْعَرَبِيِّ سَوَاءٌ.لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] وَكُلُّ مُسْلِمٍ فِي هَذَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَدْ بُعِثَ دَاعِيًا إلَى مَا بَيَّنَّا،وَأُمِرَ بِالْقِتَالِ عَلَى ذَلِكَ مَعَ مَنْ أَبَى.

- قَالَ:وَإِنْ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ:وَادِعُونَا عَلَى أَنْ لَا نُقَاتِلَكُمْ وَلَـــا تُقَاتِلُونَـــا فَلَـــيْسَ يَنْبَغِـــي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْطُوهُمْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْـــتُمْ الْـــأَعْلَوْنَ} [آل عمران:١٣٩].وَلِأَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ،فَإِنَّمَا طَلَبُوا الْمُوَادَعَةَ عَلَى أَنْ تُتْرَكَ فَرِيضَةٌ،وَلَا يَجُـــوزُ إجَابَتُهُمْ إلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمُوَادَعَةِ،كَمَا لَوْ طَلَبُوا الْمُوَادَعَةَ عَلَى أَنْ لَا يُصَلُّوا وَلَا يَصُومُوا،إلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ شَدِيدَةٌ لَا يَقْوَى عَلَيْهِمْ الْمُسْلِمُونَ،فَحِينَئِذٍ لَا بَأْسَ بِأَنْ يُوَادِعَهُمْ إلَى أَنْ يَظْهَرَ لِلْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ ثُمَّ يَنْبِذُ إلَيْهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} [الأنفال:٦١].وَصَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَهْلَ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ ســـنِينَ،وَلِأَنَّ حَقِيقَـــةَ الْجِهَادِ فِي حِفْظِ الْمُسْلِمِينَ قُوَّةُ أَنْفُسِهِمْ أَوَّلًا،ثُمَّ فِي قَهْرِ الْمُشْرِكِينَ وَكَسْرِ شَوْكَتِهِمْ،فَإِذَا

كَانُوا عَاجِزِينَ (٥٣ آ) عَنْ كَسْرِ شَوْكَتِهِمْ كَانَ عَلَـيْهِمْ أَنْ يَحْفَظُـوا قُـوَّةَ أَنْفُسِـهِمْ بِالْمُوَادَعَةِ إلَى أَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ قُوَّةُ كَسْرِ شَوْكَتِهِمْ،فَحِينَئِذٍ يَنْبِذُونَ إلَيْهِمْ وَيُقَـاتِلُونَهُمْ،وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ إنْظَارِ الْمُعْسِرِ إلَى الْمَيْسَرَةِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَـى مَيْسَرَةٍ} [البقرة:٢٨٠].

وَكَذَلِكَ لَوْ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ:وَادِعُونَا عَلَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَالًا مَعْلُومًا عَلَـى أَنْ تُجْرُوا عَلَيْنَا أَحْكَامَكُمْ،فَلَيْسَ يَنْبَغِي الْمُوَادَعَةُ عَلَى ذَلِكَ،لِأَنَّهُمْ لَا يَلْتَزِمُـونَ شَـيْئًا مِـنْ أَحْكَامِنَا،وَإِنَّمَا يَنْتَهِي الْقِتَالُ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْتِزَامِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِيمَا يَرْجِعُ إلَـى الْمُعَامَلَاتِ،وَالرِّضَا مِنْهُمْ بِالْمُقَامِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَقْهُورِينَ،وَلِمَا فِيهِ مِنْ تَـرْكِ الْمُحَارَبَـةِ أَصْلًا،وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِيمَا طَلَبُوا،وَلِأَنَّهُمْ لَوْ أُجِيبُوا إلَى ذَلِكَ رُبَّمَا يَظُنُّونَ أَنَّا إنَّمَا نُقَاتِلُهُمْ طَمَعًا فِي أَمْوَالِهِمْ،بَلْ لَا يَشُكُّونَ فِي ذَلِكَ،وَلَا يَحِلُّ لِلْمُسْـلِمِينَ أَنْ يَقْصِـدُوا ذَلِـكَ أَوْ يُظْهِرُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.إلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ شَدِيدَةٌ فَحِينَئِذٍ تَجُوزُ الْمُوَادَعَةُ مَعَهُمْ بِغَيْـرِ مَالٍ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ،فَلَأَنْ يَجُوزَ بِمَالٍ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ كَانَ أَوْلَى.وَهَذَا الْمَالُ لَا يُؤْخَذُ عِوَضًا عَنْ تَرْكِ الْقِتَالِ،وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ لِأَنَّ مَالَهُمْ مُبَاحٌ لَنَا.فَبِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْإِبَاحَةِ يُؤْخَـذُ هَـذَا الْمَـالُ مِنْهُمْ.[٤٨٦]

وقال ابن العربي:

قَدْ قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إلَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَوَامِرَ مُتَعَدِّدَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْمُتَعَلِّقَاتِ،فَقَالَ:{قَاتِلُوا الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة:٢٩].

وَقَالَ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].

وَقَالَ:{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة:٣٦].

وَقَالَ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ} [التوبة:١٢٣].

[٤٨٦] - شرح السير الكبير (ص:١٨٧)

وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ مُنَاسِبٌ،وَالْمَقْصُودُ قِتَالُ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ،وَقِتَالُ الْكُفَّارِ أَيْنَمَا وُجِدُوا،وَقِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ جُمْلَتِهِمْ،وَهُمْ الرُّومُ،وَبَعْضُ الْحُبْشَانِ،وَذَلِكَ إنَّمَا يَتَكَيَّفُ لِوَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:بِالِابْتِدَاءِ مِمَّنْ يَلِي،فَيُقَاتِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مَنْ يَلِيهِ،وَيَتَّفِقُ أَنْ يَبْدَأَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ بِالْأَهَمِّ مِمَّنْ يَلِيهِمْ،أَوْ الَّذِينَ يُتَيَقَّنُ الظَّفَرُ بِهِمْ.

وَقَدْ سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ بِمَنْ نَبْدَأُ بِالرُّومِ أَوْ بِالدَّيْلَمِ؟ فَقَالَ:بِالرُّومِ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ:" اُتْرُكُوا الرَّابِضِينَ مَا تَرَكُوكُمْ " يَعْنِي الرُّومَ وَالْحَبَشَ.

وَقَوْلُ ابْنِ عُمَرَ أَصَحُّ،وَبُدَاءَتُهُ بِالرُّومِ قَبْلَ الدَّيْلَمِ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:أَحَدُهَا:أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ؛فَالْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ وَآكَدُ.

وَالثَّانِي:أَنَّهُمْ إلَيْنَا أَقْرَبُ،أَعْنِي أَهْلَ الْمَدِينَةِ.

الثَّالِثُ:أَنَّ بِلَادَ الْأَنْبِيَاءِ فِي بِلَادِهِمْ أَكْثَرُ،فَاسْتِنْقَاذُهَا مِنْهُمْ أَوْجَبُ.. [٤٨٧]

[مَسْأَلَةٌ يقاتل كُلُّ قَوْمٍ مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ الْعَدُوِّ]:

وفي المغني:

(وَيُقَاتِلُ كُلُّ قَوْمٍ مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ الْعَدُوِّ).الْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُ اللَّه تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣] وَلِأَنَّ الْأَقْرَبَ أَكْثَرُ ضَرَرًا،وَفِي قِتَالِهِ دَفْعُ ضَرَرِهِ عَنْ الْمُقَابِلِ لَهُ،وَعَمَّنْ وَرَاءَهُ،وَالِاشْتِغَالُ بِالْبَعِيدِ عَنْهُ،يُمَكِّنُهُ مِنْ انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ؛لِاشْتِغَالِهِمْ عَنْهُ.قِيلَ لِأَحْمَدَ:يَحْكُونَ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ:تَرَكْت قِتَالَ الْعَدُوِّ عِنْدَك،وَجِئْت إلَى هَاهُنَا؟ قَالَ:هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:سُبْحَانَ اللَّهِ،مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْقَوْلُ،يَتْرُكُ الْعَدُوَّ عِنْدَهُ،وَيَجِيءُ إلَى هَاهُنَا،أَفَيَكُونُ هَذَا،أَوَيَسْتَقِيمُ هَذَا،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣] لَوْ أَنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ كُلَّهُمْ عَمِلُوا عَلَى هَذَا،لَمْ يُجَاهِدْ التُّرْكَ أَحَدٌ.وَهَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ إنَّمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ لِكَوْنِهِ مُتَبَرِّعًا بِالْجِهَادِ،وَالْكِفَايَةُ حَاصِلَةٌ بِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الدِّيوَانِ وَأَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْمُتَبَرِّعُ لَهُ تَرْكُ الْجِهَادِ بِالْكُلِّيَّةِ،فَكَانَ لَهُ أَنْ يُجَاهِدَ حَيْثُ

---

[٤٨٧] - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٦٠٤)

شَاءَ،وَمَعَ مَنْ شَاءَ.إذَا ثَبَتَ هَذَا،فَإِنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ فِي الْبِدَايَةِ بِالْأَبْعَدِ؛لِكَوْنِـــهِ أَخْــوَفَ،أَوْ لِمَصْلَحَةٍ فِي الْبِدَايَةِ بِهِ لِقُرْبِهِ وَإِمْكَانِ الْفُرْصَةِ مِنْهُ،أَوْ لِكَوْنِ الْأَقْرَبِ مُهَادِنًا،أَوْ يَمْنَعُ مِـــنْ قِتَالِهِ مَانِعٌ،فَلَا بَأْسَ بِالْبِدَايَةِ بِالْأَبْعَدِ،لِكَوْنِهِ مَوْضِعَ حَاجَةٍ.

وَأَمْرُ الْجِهَادِ مَوْكُولٌ إلَى الْإِمَامِ وَاجْتِهَادِهِ،وَيَلْزَمُ الرَّعِيَّةَ طَاعَتُهُ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ.وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِتَرْتِيبِ قَوْمٍ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ يَكُفُّونَ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،وَيَأْمُرَ بِعَمَـــلِ حُصُونِهِمْ،وَحَفْرِ خَنَادِقِهِمْ،وَجَمِيعِ مَصَالِحِهِمْ،وَيُؤَمِّرَ فِي كُلِّ نَاحِيَـــةٍ أَمِيرًا،يُقَلِّـــدُهُ أَمْـــرَ الْحُرُوبِ،وَتَدْبِيرَ الْجِهَادِ،وَيَكُونُ مِمَّنْ لَهُ رَأْيٌ وَعَقْلٌ وَنَجْدَةٌ وَبَصَرٌ بِالْحَرْبِ وَمُكَايَـــدَةِ الْعَدُوِّ،وَيَكُونُ فِيهِ أَمَانَةٌ وَرِفْقٌ وَنُصْحٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛وَإِنَّمَا يَبْدَأُ بِذَلِكَ،لِأَنَّهُ لَا يَأْمَنُ عَلَيْهَا مِـــنْ الْمُشْرِكِينَ.

وَيَغْزُو كُلَّ قَوْمٍ مَنْ يَلِيهِمْ،إلَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ الْجِهَاتِ مَنْ لَا يَفِي بِهِ مَنْ يَلِيـــهِ،فَيَنْقُلَ إلَيْهِمْ قَوْمًا مِنْ آخَرِينَ.وَيَتَقَدَّمَ إلَى مَنْ يُؤَمِّرُهُ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمُسْلِمِينَ عَلَـــى مَهْلَكَـــةٍ،وَلَا يَأْمُرُهُمْ بِدُخُولِ مَطْمُورَةٍ يُخَافُ أَنْ يُقْتَلُوا تَحْتَهَا،فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ،فَقَدْ أَسَاءَ،وَيَسْتَغْفِرُ اللَّـــهَ تَعَالَى،وَلَيْسَ عَلَيْهِ عَقْلٌ وَلَا كَفَّارَةٌ إذَا أُصِيبَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِطَاعَتِهِ؛لِأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِهِ وَمَعْرِفَتِهِ.فَإِنْ عُدِمَ الْإِمَامُ،لَمْ يُؤَخَّرْ الْجِهَادُ؛لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ تَفُوتُ بِتَـــأْخِيرِهِ.وَإِنْ حَصَـــلَتْ غَنِيمَةٌ،قَسَمَهَا أَهْلُهَا عَلَى مُوجَبِ الشَّرْعِ.قَالَ الْقَاضِي:وَيُؤَخَّرُ قِسْمَةُ الْإِمَاءِ حَتَّى يَظْهَـــرَ إمَامٌ احْتِيَاطًا لِلْفُرُوجِ.

فَإِنْ بَعَثَ الْإِمَامُ جَيْشًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا،فَقُتِلَ أَوْ مَاتَ،فَلِلْجَيْشِ أَنْ يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ،كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي جَيْشِ مُؤْتَةَ،لَمَّا قُتِلَ أُمَرَاؤُهُمْ الَّذِينَ أَمَّرَهُمْ النَّبِيُّ – ﷺ – أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ،فَبَلَغَ النَّبِيَّ – ﷺ – فَرَضِيَ أَمْرَهُمْ،وَصَوَّبَ رَأْيَهُمْ،وَسَـــمَّى خَالِدًا يَوْمَئِذٍ:" سَيْفَ اللَّهِ ".

فَصْلٌ:قَالَ أَحْمَدُ:قَالَ عُمَرُ:وَفِّرُوا الْأَظْفَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ؛فَإِنَّهُ سِلَاحٌ.قَالَ أَحْمَدُ:يُحْتَاجُ إلَيْهَا فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ،أَلَا تَرَى أَنَّهُ إذَا أَرَادَ أَنْ يَحُلَّ الْحَبْلَ أَوْ الشَّيْءَ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَظْفَارٌ لَمْ يَسْتَطِعْ.

وَقَالَ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ عَمْرٍو:«أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أَنْ لَا نُحْفِيَ الْأَظْفَارَ فِي الْجِهَادِ،فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْأَظْفَارُ».[488]

قتل المشركين أينما وجدوا:

قال تعالى {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) } [البقرة]

الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ فيه إِزْهَاقٌ للأَنْفُسِ،وَقَتْلٌ للرِّجَالِ،لذلكَ نَبَّهَ اللهُ المُؤْمِنينَ إلى أَنَّ مَا اشتَمَلَ عَليه الكَافِرونَ منَ الكُفْرِ باللهِ،وَالصَّدِّ عَنْ سَبيله،هُوَ أَعْظَمُ منَ القَتْلِ،لذلكَ قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ:(الشِّرْكُ أَشَدُّ منَ القَتْلِ).وَنَهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ عَنْ قتَالِ المُشْركينَ عنْدَ المَسْجد الحَرَامِ لحُرْمَته،إلاَّ إِذَا بَدَأَهُمُ المُشْرِكُونَ بالقتَال.فإذا نَشبَت الحَرْبُ كَانَ عَلَى المُؤْمنينَ قتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ حَيْثُمَا وَجَدُوهُمْ،لأَنَّ هذا القتَالَ هُوَ دَفْعٌ للاعْتدَاء،وَجَزَاءٌ عَلَى نَكْث العَهْد،وَعَلَى مُبَاشَرَتهمْ بالاعْتدَاء عَلَى المُسْلمينَ،وَلَوْ كَانَ ذلكَ عنْدَ المَسْجد الحَرَام.وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمنينَ – إِذَا بَدَأَ المُشْركُونَ بالاعتداء عَلَى المُسْلمينَ،وَقَاتَلُوهُمْ ليَصُدُّوهُمْ عَنْ زيَارة المَسْجد الحَرَام – بأَنْ يُخرجَ المُسْلمُونَ المُشركينَ منْ مَكَّةَ،كَمَا أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَالمُؤْمنينَ منْها،لأنَّ فتْنَتَهُم المُسْلمينَ عَنْ دينهمْ بالإيذَاء وَالتَّعذيب وَالإخْرَاجِ منَ الوَطَن،وَمُصَادَرَةُ الأَمْوَال...كُلُّ ذلكَ أَشَدُّ قُبْحاً منَ القَتْلِ في البَلَد الحَرَام.وَاسْتَثْنَى اللهُ منْ قَتْلِ المُشْركينَ،في كُلِّ مَكَان أَدْرَكَهُمْ فيه المُسْلمُونَ،المَسْجدَ الحَرَامَ،فَمَنْ دَخلَهُ كَانَ آمناً،إلاَّ أَنْ يُقَاتلَ فيه وَيَنْتَهكَ حُرْمَتَهُ،فَحينَئذ لاَ يَكُونُ لَهُ أَمَانٌ،وَذلكَ جَزَاءُ الكَافرينَ المُعْتَدينَ.فَإذا تَرَكَ الكَافرُونَ الكُفْرَ،وَأَسْلَمُوا وَتَابُوا فَإنَّ الإسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ،وَإنَّ اللهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ التي ارْتَكَبُوهَا منْ قَبْلُ،وَلَوْ كَانُوا قَتَلُوا المُسْلمينَ في الحَرَمِ،لأَنَّهُ تَعَالَى لا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ.[489]

---

[488] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢٠٢)(٧٤٢٢) فما بعدها

[489] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٨، بترقيم الشاملة آليا)

وقال الطبري:" وَاقْتُلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ أَصَبْتُمْ مُقَاتِلَهُمْ وَأَمْكَنَكُمْ قَتْلَهُمْ،وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة:١٩١] وَمَعْنَى الثَّقَفَةِ بِالْأَمْرِ:الْحَذْقُ بِهِ وَالْبَصَرُ،يُقَالُ:إِنَّهُ لَثَقِفٌ لَقِفٌ إِذَا كَانَ جَيِّدَ الْحَذَرِ فِي الْقِتَالِ بَصِيرًا بِمَوَاقِعِ الْقَتْلِ.وَأَمَّا التَّثْقِيفُ فَمَعْنًى غَيْرِ هَذَا وَهُوَ التَّقْوِيمُ؛فَمَعْنَى:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة:١٩١] اقْتُلُوهُمْ فِي أَيِّ مَكَانٍ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ وَأَبْصَرْتُمْ مُقَاتِلَهُمْ،وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِمَكَّةَ،فَقَالَ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ:أَخْرِجُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ مِنْ مَسَاكِنِكُمْ وَدِيَارِهِمْ كَمَا أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا

وَيَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١] وَالشِّرْكُ بِاللَّهِ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا مَضَى أَنَّ أَصْلَ الْفِتْنَةِ الِابْتِلَاءُ،وَالِاخْتِبَارُ فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:وَابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْهُ فَيَصِيرُ مُشْرِكًا بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِ أَشَدُّ عَلَيْهِ وَأَضَرُّ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مُقِيمًا عَلَى دِينِهِ مُتَمَسِّكًا عَلَيْهِ مُحِقًّا فِيهِ

وَلَا تَبْتَدِئُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ بِهِ،فَإِنْ بَدَءُوكُمْ بِهِ هُنَالِكَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحَرَمِ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ ثَوَابَ الْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ،وَأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الْقَتْلَ فِي الدُّنْيَا،وَالْخِزْيَ الطَّوِيلَ فِي الْآخِرَةِ،عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] كَانُوا لَا يُقَاتِلُونَ فِيهِ حَتَّى يَبْدَءُوا بِالْقِتَالِ.ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٣] أَنْ يُقَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،عَلَيْهَا قَاتَلَ نَبِيُّ اللَّهِ وَإِلَيْهَا دَعَا "

وعَنْ قَتَادَةَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لَا يُقَاتِلَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَبْدَءُوا فِيهِ بِقِتَالٍ،ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فِي الْحِلِّ،وَالْحَرَمِ وَعِنْدَ الْبَيْتِ،حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ "

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:هَذِهِ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ

عَنْ مُجَاهِدٍ،{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ} [البقرة:١٩١] فِي الْحَرَمِ {فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١] لَا تُقَاتِلْ أَحَدًا فِيهِ أَبَدًا،فَمَنْ عَدَا عَلَيْكَ فَقَاتَلَكَ فَقَاتِلْهُ كَمَا يُقَاتِلُكَ " وَقَرَأَ ذَلِكَ عُظْمُ قُرَّاءِ الْكُوفِيِّينَ:(وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) بِمَعْنَى:وَلَا تَبْدَءُوهُمْ بِقَتْلٍ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ بِهِ

وعَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ،قَالَ:قُلْتُ لِلْأَعْمَشِ:أَرَأَيْتَ قِرَاءَتَكَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٩٢] إِذَا قَتَلُوهُمْ كَيْفَ يَقْتُلُونَهُمْ؟ قَالَ " إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ،قَالُوا:قُتِلْنَا،وَإِذَا ضُرِبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَالُوا:ضُرِبْنَا " وَأَوْلَى هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَصْحَابَهُ فِي حَالٍ إِذَا قَاتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِالِاسْتِسْلَامِ لَهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا بَعْدَ مَا أُذِنَ لَهُ وَلَهُمْ بِقِتَالِهِمْ،فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ بِالْإِذْنِ بِقَتْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى مِنَ الْقِرَاءَةِ بِمَا اخْتَرْنَا.وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ،فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَذِنَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ إِذَا كَانَ ابْتِدَاءُ الْقِتَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا،وَبَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا.وَقَدْ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] وَقَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَ قَوْلِ مَنْ قَالَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ،عَنْ قَتَادَةَ {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] قَالَ:نَسَخَهَا قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] " فَإِنِ انْتَهَى الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ،فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَتَابُوا،فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِذُنُوبِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَابَ مِنْ شِرْكِهِ،وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعَاصِيهِ الَّتِي سَلَفَتْ

مِنْهُ وَأَيَّامِهِ الَّتِي مَضَتْ،رَحِيمٌ بِهِ فِي آخِرَتِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِ،وَإِعْطَائِهِ مَا يُعْطِي أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنَ الثَّوَابِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى مَحَبَّتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ"[490]

وقال السعدي:{ واقْتلوهمْ حيْث ثقفْتموهمْ } هذا أمر بقتالهم،أينما وجدوا في كل وقت،وفي كل زمان قتال مدافعة،وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم { عنْد الْمسْجد الْحرام } وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال،فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم،وهذا مستمر في كل وقت،حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا،فإن الله يتوب عليهم،ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام،وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده.ولما كان القتال عند المسجد الحرام،يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام،أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك،والصد عن دينه،أشد من مفسدة القتل،فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة،وهي:أنه يرتكب أخف المفسدتين،لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله،وأنه ليس المقصود به،سفك دماء الكفار،وأخذ أموالهم،ولكن المقصود به أن { يكون الدّين للّه } تعالى،فيظهر دين الله [تعالى]،على سائر الأديان،ويدفع كل ما يعارضه،من الشرك وغيره،وهو المراد بالفتنة،فإذا حصل هذا المقصود،فلا قتل ولا قتال،{ فإن انْتهوْا } عن قتالكم عند المسجد الحرام { فلا عدْوان إلا على الظّالمين } أي:فليس عليهم منكم اعتداء،إلا من ظلم منهم،فإنه يستحق المعاقبة،بقدر ظلمه.[491]

وقوله تعالى:«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ».

---

[490] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢٩٣)

[491] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٨٩)

هو من تمام البيان لهذه القضية،قضية القتال بين المسلمين ومشركى قريش،فحين يلتقى بهم المسلمون فى ميدان القتال،فلا يتحرج المسلمون من قتلهم حيث التقوا بهم،من غير أن تعطفهم عليهم عاطفة قرابة أو نسب،ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم،أو إخوانهم،فلقد بدءوا هم المسلمين بالعدوان،وأخرجوهم من ديارهم،وفتنوا بعضهم عن دينهم،ولا يزالون يفتنون من قدروا عليه منهم،بما يسلطون عليه من عذاب ونكال «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» إذ المفتتن فى دينه قد أصيب بما هو أشد وأنكى من القتل،قد خسر الدنيا والآخرة،وذلك هو الخسران المبين!.

فإذا كان القتال فى المسجد الحرام،أي فى البلد الحرام مكة،فلا يبدؤهم المسلمون بقتال فيه حتى يكون المشركون هم الذين بدءوه،وعندئذ تحل حرمة الحرم،اقتصاصا ممن أحلوا حرمته:«وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ».وقوله تعالى:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حسم لما بين هؤلاء المشركين وبين المسلمين من خلاف،وتصفية للشر الذي وقع بينهم،وذلك إذا انتهى هؤلاء المشركون عن شركهم،وأسلموا وجوههم لله..

عندئذ تنقطع أسباب القتال،وتزول آثاره،فلا ثارات،ولا ديات،ولا عداوة،بل يصبح الجميع إخوة،تجمعهم كلمة الإسلام،وتظللهم راية الإسلام!.

وفى قوله تعالى:«فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تطييب لخاطر الفريقين جميعا،فليغفر بعضهم لبعض،وليرحم بعضهم بعضا من حمل البغضة والعداوة،ولهم عند الله المغفرة الواسعة والرحمة الشاملة،فإن الله غفور رحيم.هذا وقد نظرنا فى تفسير قوله تعالى:«فَإِنِ انْتَهَوْا» وحملناه على الانتهاء مما كانوا عليه من شرك- نظرنا فى هذا إلى قوله تعالى «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» (٢٧٥:البقرة).وهذا المعنى هو الذي يلتقى مع قوله تعالى:«فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حيث يغتسل المشركون الذين دخلوا فى الإسلام من أدران شركهم بما يفضل الله عليهم به من مغفرته ورحمته.[٤٩٢]

وقال ابن كثير رحمه الله:

[٤٩٢] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١٢)

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ،عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} قَالَ:هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ بِالْمَدِينَةِ،فَلَمَّا نَزَلَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ،وَيَكُفُّ عَمَّن كَفَّ عَنْهُ حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ بَرَاءَةٍ وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ حَتَّى قَالَ:هَذِهِ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التَّوْبَة:٥] وَفِي هَذَا نَظَرٌ؛لِأَنَّ قَوْلَهُ:{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} إِنَّمَا هُوَ تَهْيِيج وَإِغْرَاءٌ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ همّتهم قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه،أي:كما

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ،{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} الْآيَةَ [الْحَجِّ:٣٩] وَهُوَ الْأَشْهَرُ وَبِهِ وَرَدَ الْحَدِيثُ.

وَقَوْلُهُ:{وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} أَيْ:قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي -كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -مِنَ الْمُثْلة،والغُلُول،وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّيُوخِ الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ،وَالرُّهْبَانِ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ،وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ،كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ،وَغَيْرُهُمْ.وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،عَنْ بُرَيدة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:"اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلّوا،وَلَا تَغْدِروا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ".رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَث جُيُوشَهُ قَالَ:"اخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ،قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تُمَثلوا،وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ".رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:وجُدت امْرَأَةٌ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً،فَأَنْكَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قتلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وعَنْ رِبْعي ابن حِرَاش،قَالَ:سَمِعْتُ حُذَيفة يَقُولُ:ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْثَالًا وَاحِدًا،وَثَلَاثَةً،وَخَمْسَةً،وَسَبْعَةً،وَتِسْعَةً،وأحدَ عشرَ،فَضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا مَثَلًا وَتَرَكَ سائرَها،قَالَ:"إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أهلَ ضَعْف وَمَسْكَنَةٍ،قَاتَلَهُمْ أهلُ تَجَبُّرٍ وَعَدَاءٍ،فَأَظْهَرَ

اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْف عَلَيْهِمْ،فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوهم فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ" رواه أحمد.هَذَا حَدِيثٌ حَسَنُ الْإِسْنَاد.وَمَعْنَاهُ:أَنَّ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ لَمَّا قَدَرُوا عَلَى الْأَقْوِيَاءِ،فاعتَدوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِيمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ،أَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ هَذَا الِاعْتِدَاءِ.وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.[٤٩٣]

وفي الظلال:

إنه القتال للّه،لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة.القتال في سبيل اللّه.لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض،ولا في سبيل المغانم والمكاسب ولا في سبيل الأسواق والخامات ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس..إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام،القتال لإعلاء كلمة اللّه في الأرض،وإقرار منهجه في الحياة،وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم،أو أن يجرفهم الضلال والفساد،وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام،وليس لمن يخوضها أجر عند اللّه ولا مقام.

ومع تحديد الهدف،تحديد المدى:«وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»..والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة،كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين..كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام،ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء..تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام،وتأباها تقوى الإسلام.

وهذه طائفة من أحاديث الرسول - ﷺ- ووصايا أصحابه،تكشف عن طبيعة هذه الآداب،التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

---

[٤٩٣] - تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٢٣)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضى الله عنهما – قَالَ وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِى بَعْضِ مَغَازِى رَسُولِ اللَّه – ﷺ –،فَنَهَى رَسُولُ اللَّه – ﷺ- عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان[494].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ- قَالَ « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ ».(أخرجه الشيخان)[495].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّه – ﷺ- فِى بَعْث فَقَالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ- حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ « إِنِّى أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ اللَّهُ،فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا »[496]..

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:إِنَّ أَعَفَّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الإِيمَانِ[497].

وعن عَدِىَّ بْنِ ثَابِتٍ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّه بْنَ يَزِيدَ الأَنْصَارِىَّ – وَهُوَ جَدُّهُ أَبُو أُمِّهِ – قَالَ نَهَى النَّبِىُّ – ﷺ- عَنِ النُّهْبَى وَالْمُثْلَةِ.(أخرجه البخاري)[498].

وعَنْ عُبَيْدِ بْنِ تِعْلَى،أَنَّهُ قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،فَأُتِيَ بِأَرْبَعَةِ أَعْلاَجٍ مَعَ الْعَدُوِّ،فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُتِلُوا صَبْرًا بِالنَّبْلِ،فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا أَيُّوبَ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ قَتْلِ الصَّبْرِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ مَا صَبَرْتُهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَالِدٍ،فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ.(أخرجه أبو داود)[499].

---

[494] – أخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠ /١٢٢٠](٨١٢٩) وصحيح البخارى- المكتز [١١ /٥٦]

[495] – صحيح البخارى- المكتز [٩ /٢٩٣](٢٥٥٩) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٧ /١١٦٧](١٤١٠٠)

[496] – صحيح البخارى- المكتز [١١ /٥٨](٣٠١٦) والمسند الجامع [١٨ /٨١](١٤٦٣٣)

[497] – صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /٣٣٥](٥٩٩٤) صحيح

[498] – صحيح البخارى- المكتز [٩ /١٥٦](٢٤٧٤)

[499] – سنن أبي داود – المكتز [٣ /١٣] (٢٦٨٩) وصحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٢ /٤٢٤](٥٦١٠)
وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار الفكر [٩ /٦٤٤] وهو حسن والمتن المرفوع صحيح
الأعلاج:جمع العلج وهو الشديد القوى على العمل =قتل الصبر:القتل بصفحة السيف لا بشفرته.وفيه نوع من التعذيب بالموت البطيء ..وأعتق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أربع رقاب وهي كفارة القتل الخطأ.

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺفِي سَرِيَّةٍ،فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ،اسْتَحْثَثْتُ فَرَسِي،فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي،فَتَلَقَّانِي الْحَيُّ بِالرَّنِينِ،فَقُلْتُ:قُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُحَرَّزُوا،فَقَالُوهَا،فَلاَمَنِي أَصْحَابِي،وَقَالُوا:حُرِمْنَا الْغَنِيمَةَ بَعْدَ أَنْ رُدَّتْ بِأَيْدِينَا،فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَخْبَرُوهُ بِمَا صَنَعْتُ،فَدَعَانِي،فَحَسَّنَ لِي مَا صَنَعْتُ،وَقَالَ:أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ بِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا.[٥٠٠]

وعن مُسْلِمَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيِّ،أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺأَرْسَلَهُمْ فِي سَرِيَّةٍ،قَالَ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ،اسْتَحْثَثْتُ فَرَسِي،فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي،قَالَ:وَاسْتَقْبَلْنَا الْحَيَّ بِالرَّنِينِ،فَقُلْتُ لَهُمْ:قُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُحْرَزُوا،فَقَالُوهَا،وَجَاءَ أَصْحَابِي فَلَامُونِي،وَقَالُوا:حَرَمْتَنَا الْغَنِيمَةَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَتْ فِي أَيْدِينَا،قَالَ:فَلَمَّا قَفَلْنَا،ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺفَدَعَانِي،فَحَسَّنَ مَا صَنَعْتُ،وَقَالَ:" أَمَا إِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا "،قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَإِذَا نَسِيتُ ذَلِكَ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَمَا إِنِّي سَأَكْتُبُ لَكَ كِتَابًا وَأُوصِي بِكَ مَنْ يَكُونُ بَعْدِي مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ " فَفَعَلَ،وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ،قَالَ:وَقَالَ لِي:" إِذَا صَلَّيْتَ الْغَدَاةَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا:اللهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ،فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ يَوْمِكَ ذَلِكَ كَتَبَ اللهُ لَكَ جِوَارًا مِنَ النَّارِ،وَإِذَا صَلَّيْتَ الْمَغْرِبَ،فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا:اللهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ،فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ،كَتَبَ اللهُ لَكَ جِوَازًا مِنَ النَّارِ " قَالَ فَلَمَّا قَبَضَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ،أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ بِالْكِتَابِ،فَفَضَّهُ فَقَرَأَهُ،وَأَمَرَ لِي وَخَتَمَ عَلَيْهِ،ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُمَرَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ،ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ عُثْمَانَ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.قَالَ مُسْلِمُ بْنُ حَارِثٍ فَتُوُفِّيَ الْحَارِثُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ،فَكَانَ الْكِتَابُ عِنْدَنَا حَتَّى وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِ قِبَلَنَا أَنْ أَشْخِصْ إِلَيَّ مُسْلِمَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِيَّ بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺالَّذِي كَتَبَهُ لِأَبِيهِ،قَالَ:فَشَخَصْتُ بِهِ

---

[٥٠٠] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [٥ /٣٦٦](٢٠٢٢) حسن وضعفه بعضهم لاضطراب في سنده

أي مكان الإغارة على العدو.- تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم.

إِلَيْهِ فَقَرَأَهُ،وَأَمَرَ لِي،وَخَتَمَ عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:أَمَا إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ إِلَّا لِتُحَدِّثَنِي بِمَا حَدَّثَكَ بِهِ أَبُوكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِهِ "[٥٠١]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ،قَالَ:لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ،فَقَالُوا:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ ؟ فَقَالَ:" إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ".ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ،فَقَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَجْبُنُوا،وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تَحْرِقُنَّهَا،وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً،وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ،وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً،وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ،وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا،فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "..[٥٠٢]

---

[٥٠١] - معرفة الصحابة لأبي نعيم [٢ /٧٩٤](٢٠٩٨) وقد حسن الحافظ ابن حجر الحديث كما ذكره عنه ابن علان في الفتوحات الربانية وهو كما قال- هذا زيادة مني

[٥٠٢] - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [٩ /٨٥](١٨٥٩٢) ومُوَطَّأُ مَالِكٍ (٩٧٦) مرسلا حسن لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة =التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به = الخصال:جمع خصلة وهي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة = الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب = أبى:امتنع ورفض

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَّرَ عَلَى الْأَجْنَادِ:يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ،وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ،ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَخَرَجَ مَعَهُ يُشَيِّعُهُ وَيُوصِيهِ،وَيَزِيدُ رَاكِبٌ،وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ يَزِيدُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ،فَقَالَ:إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ،وَلَسْتُ بِتَارِكِكَ أَنْ تَنْزِلَ،إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ،فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ،وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَغْتُمْ،يَا يَزِيدُ،إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ،فَفَلَقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ،وَسَتَمُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ فِي صَوَامِعَ لَهُمْ،احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،يَا يَزِيدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا صَغِيرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ،وَلَا بَقَرَةً،وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ "[٥٠٣]

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام وهذه هي آدابه فيها وهذه هي أهدافه منها..وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ،وَلا تَعْتَدُوا،إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»..

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا ينصرون بعددهم – فعددهم قليل – ولا ينصرون بعدهم وعتادهم – فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم – إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون اللّه لهم.فإذا هم تخلوا عن توجيه اللّه لهم وتوجيه رسول اللّه – ﷺ– فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه.ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل..ولما فار الغضب برسول

=الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:قَوْلُهُ:فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا،يَعْنِي مِنْ،دَارِ التَّعَرُّبِ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ،يَقُولُ:إِنْ لَمْ يُهَاجِرُوا،فَهَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرُهُ فِي الْفَيْءِ،أَنَّهُ لَمْ يَرَ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالْمُهَاجِرِينَ وَيُعِينُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيُجَامِعُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ حَقًّا ثُمَّ رَوَى النَّاسُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ شُرَكَاءُ ".الْأَمْوَالُ لِابْنِ زَنْجُوَيْهِ (٥٧٩)

[٥٠٣] – سُنَنُ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢٢٠٧) حسن لغيره – زيادة مني

اللّه – ﷺ– فأمر بحرق فلان وفلان (رجلين من قريش) عاد فنهى عن حرقهما،لأنــه لا يحرق بالنار إلا اللّه[٥٠٤].

ثم يمعن السياق في توكيد القتال لهــؤلاء الــذين قــاتلوا المســلمين وفتنــو هــم في دينهم،وأخرجوهم من ديارهم،والمضي في القتال حتى يقتلو هم على أية حالــة،وفي أي مكان وجدوهم.باستثناء المسجد الحرام.إلا أن يبدأ الكفار فيه بالقتال.وإلا أن يدخلوا في دين اللّه فتكف أيدي المسلمين عنهم،مهما كانوا قد آذوهــم مــن قبــل وقــاتلوهم وفتنوهم:«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ،وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ – وَالْفِتْنَةُ أَشَــدُّ مِنَ الْقَتْلِ.وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّــى يُقــاتِلُوكُمْ فِيــهِ.فَــإِنْ قــاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ.فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية.ومن ثم فهــي أشــد مــن القتل.أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة.ويستوي أن تكون هذه الفتنــة بالتهديد والأذى الفعلي،أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل النــاس وتفســدهم وتبعدهم عن منهج اللّه،وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد،ويســن تشــريعات تبــيح المحرمات كالزنا والخمر،ويحسنها للناس بوسائل التوجيه بينما يقبح لهم اتباع الفضــائل المشروعة في منهج اللّه.ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية لا يملك الناس التفلــت منها.

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة،وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية..هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام،ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني.فغاية الوجود الإنساني هي العبادة (ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى اللّه).وأكرم ما في الإنسان

---

[٥٠٤] – فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– فِى بَعْثٍ فَقَالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ « إِنِّى أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ اللَّهُ،فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » – صحيح البخارى- المكنز [١١ /٥٨](٣٠١٦) والمسند الجامع [١٨ /٨١](١٤٦٣٣)

حرية الاعتقاد.فالذي يسلبه هذه الحرية،ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة،يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته.ومن ثم يدفعه بالقتل..

لذلك لم يقل:وقاتلوهم.إنما قال:«وَاقْتُلُوهُمْ»..«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ»..أي حيث وجدتموهم.

في أية حالة كانوا عليها وبأية وسيلة تملكونها - مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار.

ولا قتال عند المسجد الحرام،الذي كتب اللّه له الأمن،وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم (عليه السلام) وجعله مثابة يثوب إليها الناس فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام..لا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته،فيبدأون بقتال المسلمين عنده.وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم..فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين،الذين يفتنون الناس عن دينهم،ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام،الذي عاشوا في جواره آمنين.

«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..والانتهاء الذي يستأهل غفران اللّه ورحمته،هو الانتهاء عن الكفر،لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين.فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون.ولكنه لا يؤهل لمغفرة اللّه ورحمته.فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان،لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان.

وما أعظم الإسلام،وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة،ويسقط عنهم القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم،الذي قتلوا منه وفتنوا،وفعلوا بأهله الأفاعيل!!![٥٠٥]

وقال ابن العربي:

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ:الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:الْمَعْنَى حَيْثُ أَخَذْتُمُوهُمْ،وَفِي هَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قَتْلِ الْأَسِيرِ،وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - هَبَطَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ

[٥٠٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١١)

السَّلَامُ – فَقَالَ:خَيِّرْهُمْ يَعْنِي أَصْحَابَك فِي أَسْرَى بَدْرٍ:الْقَتْلَ أَوْ الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ تَقْتُلَ مِنْهُمْ قَاتِلًا مِثْلَهُمْ.قَالُوا:الْفِدَاءَ،وَيُقْتَلُ مِنَّا».

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ أَنَسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ؛فَقِيلَ لَهُ:إنَّ ابْنَ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ،فَقَالَ:اُقْتُلُوهُ».

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:قَوْله تَعَالَى {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١]:فِيهِ قَوْلَانِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ مُحْكَمٌ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ.

الثَّانِي:أَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَقَالَ قَتَادَةُ:هُوَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ:وَقَدْ حَضَرْت فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ طَهَّرَهُ اللَّهُ بِمَدْرَسَةِ أَبِي عُتْبَةَ الْحَنَفِيِّ وَالْقَاضِي الرَّيْحَانِيِّ يُلْقِي عَلَيْنَا الدَّرْسَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ،فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ بَهِيُّ الْمَنْظَرِ عَلَى ظَهْرِهِ أَطْمَارٌ،فَسَلَّمَ سَلَامَ الْعُلَمَاءِ،وَتَصَدَّرَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ بِمَدَارِعِ الرِّعَاءِ،فَقَالَ لَهُ الرَّيْحَانِيُّ:مَنْ السَّيِّدُ؟ فَقَالَ لَهُ:رَجُلٌ سَلَبَهُ الشُّطَّارُ أَمْسِ،وَكَانَ مَقْصِدِي هَذَا الْحَرَمَ الْمُقَدَّسَ،وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ صَاغَانَ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ فَقَالَ الْقَاضِي مُبَادِرًا:سَلُوهُ،عَلَى الْعَادَةِ فِي إكْرَامِ الْعُلَمَاءِ بِمُبَادَرَةِ سُؤَالِهِمْ.

وَوَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْكَافِرِ إذَا الْتَجَأَ إلَى الْحَرَمِ،هَلْ يُقْتَلُ فِيهِ أَمْ لَا؟ فَأَفْتَى بِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ،فَسُئِلَ عَنْ الدَّلِيلِ،فَقَالَ:قَوْله تَعَالَى {وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١].

قُرِئَ:وَلَا تَقْتُلُوهُمْ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ،فَإِنْ قُرِئَ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ فَالْمَسْأَلَةُ نَصٌّ،وَإِنْ قُرِئَ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ فَهُوَ تَنْبِيهٌ؛لِأَنَّهُ إذَا نَهَى عَنْ الْقِتَالِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْقَتْلِ كَانَ دَلِيلًا بَيِّنًا ظَاهِرًا عَلَى النَّهْيِ عَنْ الْقَتْلِ.

فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ الْقَاضِي الرَّيْحَانِيُّ مُنْتَصِرًا لِلشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَإِنْ لَمْ يَرَ مَذْهَبَهُمَا عَلَى الْعَادَةِ،فَقَالَ:هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].

فَقَالَ لَهُ الصَّاغَانِيُّ:هَذَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِ الْقَاضِي وَعِلْمِهِ،فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي اعْتَرَضْت بِهَا عَلَيَّ عَامَّةٌ فِي الْأَمَاكِنِ،وَالْآيَةَ الَّتِي احْتَجَجْت بِهَا خَاصَّةٌ،وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ إنَّ الْعَامَّ يَنْسَخُ الْخَاصَّ،فَأَبْهَتْ الْقَاضِي الرَّيْحَانِيُّ،وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ.

وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا أَهْلَ بِلَادِنَا،فَقَالَ لَهُمْ:إنَّ الْعَامَّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ يَنْسَخُ الْخَاصَّ،وَهَذَا الْبَائِسُ لَيْتَهُ سَكَتَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ،وَأَمْسَكَ عَمَّا لَا يَفْهَمُ،وَأَقْبَلَ عَلَى مَسَائِلَ مُجَرَّدَةٍ.

وَقَدْ رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ:إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ،فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ».

فَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْ الْقِتَالِ فِيهَا قُرْآنًا وَسُنَّةً؛فَإِنْ لَجَأَ إلَيْهَا كَافِرٌ فَلَا سَبِيلَ إلَيْهِ،وَأَمَّا الزَّانِي وَالْقَاتِلُ فَلَا بُدَّ مِنْ إقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ؛إلَّا أَنْ يَبْتَدِئَ الْكَافِرُ بِالْقِتَالِ فِيهَا فَيُقْتَلُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ:قَوْله تَعَالَى {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١]:هَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْكَافِرَ إذَا قَاتَلَ قُتِلَ بِكُلِّ حَالٍ،بِخِلَافِ الْبَاغِي الْمُسْلِمِ فَإِنَّهُ إذَا قَاتَلَ يُقَاتَلُ بِنِيَّةِ الدَّفْعِ،وَلَا يُتْبَعُ مُدْبِرٌ،وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ؛وَهَذَا بَيِّنٌ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ:قَوْله تَعَالَى:{فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٩٢]:يَعْنِي انْتَهَوْا بِالْإِيمَانِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُمْ جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ،وَيَرْحَمُ كُلًّا مِنْهُمْ بِالْعَفْوِ عَمَّا اجْتَرَمَ.

وَهَذَا مَا لَمْ يُؤْسَرْ،فَإِنْ أُسِرَ مَنَعَهُ الْإِسْلَامُ عَنْ الْقَتْلِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ الرِّقُّ،لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،«أَنَّ ثَقِيفًا كَانَتْ حُلَفَاءَ لِبَنِي عَقِيلٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَقِيلٍ وَمَعَهُ نَاقَةٌ لَهُ،فَأَتَوْا بِهِ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ؛بِمَ أَخَذْتَنِي وَأَخَذْت سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ قَالَ:أَخَذْتُك بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِك ثَقِيف وَقَدْ كَانُوا أَسَرُوا رَجُلَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَمُرُّ بِهِ وَهُوَ مَحْبُوسٌ،فَيَقُولُ:يَا مُحَمَّدُ،إنِّي مُسْلِمٌ.قَالَ:لَوْ كُنْت قُلْت ذَلِكَ وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَك أَفْلَحْت كُلَّ الْفَلَاحِ فَفَدَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِرَجُلَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،وَأَمْسَكَ النَّاقَةَ لِنَفْسِهِ».[٥٠٦]

[٥٠٦] - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (١/ ١٥١)

القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله :

قال تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) } [الأنفال:٣٩،٤٠]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُقَاتِلُوا الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَطِيعُ فِتْنَةَ المُؤْمِنِينَ،عَنْ دِينِهِمْ بِالعَذَابِ وَالإِيذَاءِ وَالتَّهْدِيدِ،وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ.فَإِذا انْتَهَى المُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ،وَكَفُّوا عَنْهُ (وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنَهُمْ) فَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَكِلُوا بِوَاطِنَهُمْ إِلَى اللهِ،فَهُوَ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

وَإِن اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلاَفِهِمْ لَكُمْ،وَمُحَارَبَتِهِمْ إِيَّاكُم فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِكُمْ،وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرُ،فَأَيْقِنُوا بِنَصْرِ اللهِ لَكُمْ،وَهُوَ مُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ،فَلاَ تُبَالُوا بِهِمْ،وَلاَ تَخْشَوْهُمْ.[٥٠٧]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ:وَإِنْ يَعُدْ هَؤُلَاءِ لِحَرْبِكَ،فَقَدْ رَأَيْتُمْ سُنَّتِي فِيمَنْ قَاتَلَكُمْ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ،وَأَنَا عَائِدٌ بِمِثْلِهَا فِيمَنْ حَارَبَكُمْ مِنْهُمْ،فَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ وَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،فَيَرْتَفِعَ الْبَلَاءُ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ الْفِتْنَةُ {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] يَقُولُ:حَتَّى تَكُونَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ خَالِصَةً دُونَ غَيْرِهِ.

يَقُولُ:فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ تَرْكِ الْكُفْرِ وَالدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ؛لِأَنَّهُ يُبْصِرُكُمْ وَيُبْصِرُ أَعْمَالَكُمْ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مُتَجَلِّيَةٌ لَهُ لَا تَغِيبُ عَنْهُ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ:مَعْنَى ذَلِكَ:فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الْقِتَالِ.وَالَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ؛لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الْقِتَالِ،فَإِنَّهُ كَانَ فَرْضًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا.

---

[٥٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

وَإِنْ أَدْبَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَمَّا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَرْكِ قِتَالِكُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ،فَأَبَوْا إِلَّا الْإِصْرَارَ عَلَى [ص:١٨٤] الْكُفْرِ وَقِتَالِكُمْ،فَقَاتِلُوهُمْ وَأَيْقِنُوا أَنَّ اللَّهَ مُعِينُكُمْ عَلَيْهِمْ وَنَاصِرُكُمْ.{نِعْمَ الْمَوْلَى} [الأنفال:٤٠] هُوَ لَكُمْ،يَقُولُ:نِعْمَ الْمُعِينُ لَكُمْ وَلِأَوْلِيَائِهِ {وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال:٤٠] وَهُوَ النَّاصِرُ[٥٠٨]

وقال الطاهر بن عاشور:

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ [الْأَنْفَال:٣٦] الْآيَةَ،وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ [الْأَنْفَال:٣٨] فَتَكُونَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي حُكْمِ جَوَابِ الشَّرْطِ.وَالتَّقْدِيرُ:فَإِنْ يَعُودُوا فَقَاتِلُوهُمْ،كَقَوْلِهِ:وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا [الْإِسْرَاء:٨]- وَقَوْلِهِ- وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ [التَّوْبَة:٣] وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ.

وَالْفِتْنَةُ اضْطِرَابُ أَمْرِ النَّاسِ وَمَرَجُهُمْ،وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا غَيْرَ مَرَّةٍ،مِنْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٠٢] وَقَوله:وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فِي سُورَةِ الْعُقُود [٧١].

وَالْمُرَادُ هُنَا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ انْتِفَاءَ والفتنة غَايَةً لِقِتَالِهِمْ،وَكَانَ قِتَالُهُمْ مَقْصُودًا مِنْهُ إِعْدَامُهُمْ أَوْ إِسْلَامُهُمْ،وَبِأَحَدِ هَذَيْنِ يَكُونُ انْتِفَاءُ الْفِتْنَةِ،فَنَتَجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ الْمُرَادَ نَفْيُهَا كَانَتْ حَاصِلَةً مِنْهُمْ وَهِيَ فِتْنَتُهُمُ الْمُسْلِمِينَ لَا مَحَالَةَ،لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْتِنُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي الدِّينِ فَإِذَا أَسْلَمُوا حَصَلَ انْتِفَاءُ فِتْنَتِهِمْ وَإِذَا أَعْدَمَهُمُ اللَّهُ فَكَذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ وَاجِبٌ حَتَّى يُسْلِمُوا،وَأَنَّهُمْ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ،وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا:حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ- وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى- قاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ [التَّوْبَة:٢٩].

[٥٠٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ١٧٨)

وَهِيَ أَيْضًا دَالَّةٌ عَلَى مَا رَآهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ مُؤَرِّخِينَا:مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ الْمُشْـــرِكِينَ إِنَّمَا كَانَ أَوَّلُهُ دِفَاعًا لِأَذَى الْمُشْرِكِينَ ضُـــعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ،وَالتَّضْـــيِيقِ عَلَـــيْهِمْ حَيْثُمَـــا حَلُّوا،فَتِلْكَ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:وَاقْتُلُوهُمْ حَيْـــثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ [الْبَقَرَة:١٩١].

وَالتَّعْرِيفُ فِي الدِّينُ لِلْجِنْسِ وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى نَظِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ،إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْآيَـــةَ زِيدَ فِيهَا اسْمُ التَّأْكِيدِ وَهُوَ كُلُّهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَسْبَقُ نُزُولًا مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ فَـــاحْتِيجَ فِيهَا إِلَى تَأْكِيدِ مُفَادِ صِيغَةِ اخْتِصَاصِ جِنْسِ الدِّينِ بِأَنَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى،لِئَلَّا يُتَـــوَهَّمَ الِاقْتِنَـــاعُ بِإِسْلَامِ غَالِبِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمَّا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْعُمُومِ وَصَارَ نَصًّا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَـــدَلَ عَـــنْ إِعَادَتِهِ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ تَطَلُّبًا لِلْإِيجَازِ.

وَقَوْلُهُ:فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيْ عَلِيمٌ كِنَايَةً عَنْ حُسْنِ مُجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى نَفْعِ أَوْلِيَائِهِ وَمُطِيعِيهِ لَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمِ الْإِخْفَاءُ حَالِ مَـــنْ يُخْلَـــصُ إِلَيْهِ،فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى انْتِهَائِهِمْ عَنِ الْكُفْرِ إِنِ انْتَهَوْا عَنْهُ وَكَانَ ذَلِكَ لَا يُظَنُّ خِلَافُهُ عُلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ لَازِمُ ذَلِكَ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ:يَعْمَلُونَ- بِيَاءِ الْغَائِبِ- وَقَرَأَهُ رُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ- بِتَاءِ الْخِطَابِ.

وَالتَّوَلِّي:الْإِعْرَاضُ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْـــبَلاغُ الْمُبِينُ فِي سُورَةِ الْعُقُودِ [٩٢].

وَالْمَوْلَى الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَ غَيْرِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُ وَفِيهِ مَعْنَى النَّصْرِ.

وَالْمَعْنَى وَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَاتِهِ الدَّعْوَةِ فَاللَّهُ مُغْنٍ لَكُمْ عَنْ وَلَائِهِمْ،أَيْ لَا يَضُـــرُّكُمْ تَـــوَلِّيهِمْ فَقَوْلُهُ:أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ يُؤْذِنُ بِجَوَابٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ:فَلَا تَخَافُوا تَوَلِّيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ يُقَدِّرُ لَكُمْ مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ.وَهَذَا كَقَـــوْلِ النَّبِـــيءِ ﷺ لِمُسَـــيْلِمَةَ الْكَذَّابِ «وَلَئِنْ تَوَلَّيْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ» وَإِنَّمَا الْخَسَارَةُ عَلَيْهِمْ إِذْ حُرِمُوا السَّلَامَةَ وَالْكَرَامَةَ.

وَافْتِتَاحُ جُمْلَةِ جَوَابِ الشَّرْطِ بِ فَاعْلَمُوا لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ بِهَذَا الْخَبَرِ وَتَحْقِيقِـــهِ،أَيْ لَـــا تَغْفُلُوا عَنْ ذَلِكَ،كَمَا مَرَّ آنِفًا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَـــرْءِ وَقَلْبِـــهِ [الْأَنْفَال:٢٤].

وَجُمْلَةُ:نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِأَنَّهَا إِنْشَاءُ ثَنَاءٍ عَلَى اللَّهِ فَكَانَتْ بِمَنْزِلَةِ التَّذْيِيلِ. وَعَطَفَ عَلَى نِعْمَ الْمَوْلى قَوْلَهُ:وَنِعْمَ النَّصِيرُ لِمَا فِي الْمَوْلَى مِنْ مَعْنَى النَّصْرِ كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ عَطْفِ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى قَوْلِه:حَسْبُنَا اللَّهُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ[٥٠٩]

وقال السعدي:" هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العبـاد ولا اسـتمرارهم في العناد،من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى،وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغـي والردى،فقال:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا} عن كفرهم وذلك بالإسلام لله وحـده لا شريك له.{يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} منهم من الجـرائم {وَإِنْ يَعُـودُوا} إلى كفـرهم وعنادهم {فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} بـإهلاك الأمـم المكذبـة،فلينتظروا مـا حـل بالمعاندين،فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون،فهذا خطابه للمكذبين،وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين،فقال:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} أي:شرك وصد عن سبيل الله،ويذعنوا لأحكام الإسلام،{وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين،أن يدفع شرهم عن الدين،وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له،حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.{فَإِنِ انْتَهَوْا} عن ما هم عليه من الظلم {فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} لا تخفى عليه منهم خافية.{وَإِنْ تَوَلَّـوْا} عـن الطاعـة وأوضعوا في الإضاعة {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَـوْلَى} الـذي يتـولى عبـاده المؤمنين،ويوصل إليهم مصالحهم،وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية.{وَنِعْمَ النَّصِـيرُ} الذي ينصرهم،فيدفع عنهم كيد الفجار،وتكالب الأشرار.ومن كان الله مولاه وناصـره فلا خوف عليه،ومن كان الله عليه فلا عزَّ له ولا قائمة له."[٥١٠]

وفي الظلال:

وهذه حدود الجهاد في سبيل اللّه في كل زمان،لا في ذلك الزمان..ومـع أن النصـوص المتعلقة بالجهاد في هذه السورة،وبقوانين الحـرب والسلام،ليسـت هـي النصـوص النهائية،فقد نزلت النصوص الأخيرة في هذا الباب في سورة براءة التي نزلـت في السـنة

---

[٥٠٩] التحرير والتنوير (٩/ ٣٤٦) -

[٥١٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢١)

التاسعة ومع أن الإسلام - كما قلنا في تقديم السورة - حركة إيجابية تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة،وأنه حركة ذات مراحل،كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية..

ومع هذا فإن قوله تعالى:«وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ»..

يقرر حكما دائما للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم..

ولقد جاء الإسلام - كما سبق في التعريف بالسورة - ليكون إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية اللّه وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين..وأن معنى هذا الإعلان:الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها،والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض،الحكم فيه للبشر في صورة من الصور...إلخ[511].

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

أولهما:دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين،ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان،ويرجعون بعبوديتهم للّه وحده،ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال..وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام،وتنفذه في عالم الواقع،وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين،أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه..

وثانيهما:تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر - في صورة من الصور - وذلك لضمان الهدف الأول،ولإعلان ألوهية اللّه وحدها في الأرض كلها،بحيث لا تكون هناك دينونة إلا للّه وحده - فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان اللّه - وليس هو مجرد الاعتقاد..

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول،على حين أن اللّه سبحانه يقول:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»..

---

[511] - ص ١٤٣٣ - ١٤٥٢ من هذا الجزء.(السيد رحمه الله)

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام – وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب:«الجهاد في سبيل اللّه» للأستاذ أبي الأعلى المودودي،ما يكفي للبيان الواضح..إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا،وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين! إن الذي يعنيه هذا النص:«ويكون الدين كله للّه»..هو إزالة الحواجز المادية،المتمثلة في سلطان الطواغيت،وفي الأوضاع القاهرة للأفراد،فلا يكون هناك – حينئذ – سلطان في الأرض لغير اللّه،ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان اللّه..فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط.على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين،ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى،ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان اللّه..إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم،على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفرادا،فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد.فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد.

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها اللّه،ولن يتحرر «الإنسان» في «الأرض»،إلا حين يكون الدين كله للّه،فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه.

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة:«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ»..

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له،قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه،و لم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره،وتركوا هذا للّه:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»..

ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان اللّه قاتله المسلمون معتمدين على نصرة اللّه:«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ.نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ»..

هذه تكاليف هذا الدين وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عالم الواقع ولتقرير ألوهية اللّه وحده في دنيا الناس..

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى! كما أنه ليس مجرد

شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه! إن هذا الدين إعلان عـــام لتحريـــر الإنسان..وهو منهج حركي واقعي،يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة..

يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان..ويواجه حـــواجز الأوضـــاع والســـلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان اللّه..

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري.والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل

بنظرية! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة،ولا بد - كي يقابلها هـــذا الـــدين بوسائل مكافئة - أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة.ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكـــون الدين كله للّه،فلا تكون هناك دينونة لسواه.

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجـــابي لهـــذا الـــدين..لا مـــا يقولـــه المهزومـــون والمخدوعون..ولو كانوا من المخلصين الطيـــبين الـــذين يريـــدون أن يكونـــوا مـــن «المسلمين»،ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين!..والحمد للّـــه الـــذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه..[٥١٢]

____

الحكم على اليهود والنصارى والمجوس بحكم أهل الإسلام:

وفي المحلى:

وَيُحْكَمُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ شَيْءٍ - رَضُوا أَمْ سَخِطُوا،أَتَوْنَا أَوْ لَمْ يَأْتُونَا - وَلَا يَحِلُّ رَدُّهُمْ إلَى حُكْمِ دِينِهِمْ،وَلَا إلَى حُكَّامِهِمْ أَصْلًا.

رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ:سَمِعْت بَجَالَـــةَ التَّمِيمِيَّ قَالَ:أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَـــنَةٍ:أَنْ اُقْتُلُـــوا كُـــلَّ سَـــاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ،وَفَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنْ الْمَجُوسِ،وَانْهَوْهُمْ عَنْ الزَّمْزَمَةِ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:أَهْلُ الذِّمَّةِ إذَا كَانُوا فِينَا فَحَدُّهُمْ كَحَدِّ الْمُسْلِمِ.

---

[٥١٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٤٨)

وَمِنْ طَرِيقِ إسْمَاعِيلَ بْنِ إسْحَاقَ الْقَاضِي نا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ نا عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي الْمَوَارِيثِ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ قَالَ:يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي كِتَابِنَا – وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ،وَأَبِي سُلَيْمَانَ،وَأَصْحَابِنَا.

وَرُوِّينَا غَيْرَ هَذَا –:كَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ قَابُوسَ بْنِ مُخَارِقِ بْنِ سُلَيْمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ كَتَبَ إلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي مُسْلِمٍ زَنَى بِنَصْرَانِيَّةٍ؟ فَكَتَبَ إلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:أَنْ يُقَامَ الْحَدُّ عَلَى الْمُسْلِمِ،وَتُرَدُّ النَّصْرَانِيَّةُ إلَى أَهْلِ دِينِهَا – وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ،وَمَالِكٍ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:هَذَا لَا يَصِحُّ عَنْ عَلِيٍّ؛لِأَنَّ فِيهِ سِمَاكَ بْنَ حَرْبٍ – وَهُوَ يَقْبَلُ التَّلْقِينَ – وَقَابُوسُ بْنُ الْمُخَارِقِ وَأَبُوهُ – مَجْهُولَانِ – فَبَطَلَ أَنْ يَصِحَّ عَنْ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – فِي هَذَا الْبَابِ غَيْرُ مَا رُوِّينَا عَنْ عُمَرَ.

وَقَالَ الْمُخَالِفُونَ:قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦] فَإِذَا حُكِمَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حُكْمِ دِينِهِمْ فَقَدْ أُكْرِهُوا عَلَى غَيْرِ دِينِهِمْ.

فَقُلْنَا:إنْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُوجِبُ أَنْ لَا يُحْكَمَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حُكْمِ دِينِهِمْ فَأَنْتُمْ أَوَّلُ مَنْ خَالَفَهَا فَأَقْرَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِخِلَافِ الْحَقِّ،وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا؛لِأَنَّكُمْ تَقْطَعُونَهُمْ فِي السَّرِقَةِ بِحُكْمِ دِينِنَا،لَا بِحُكْمِ دِينِهِمْ،وَتَحُدُّونَهُمْ فِي الْقَذْفِ بِحُكْمِ دِينِنَا لَا بِحُكْمِ دِينِهِمْ،وَتَمْنَعُونَهُمْ مِنْ إنْفَاذِ حُكْمِ دِينِهِمْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَتْلِ وَالْخَطَأِ،وَبَيْعِ الْأَحْرَارِ،فَقَدْ تَنَاقَضْتُمْ.

فَإِنْ قَالُوا:هَذَا ظُلْمٌ لَا يُقَرُّونَ عَلَيْهِ.

فَقُلْنَا لَهُمْ:وَكُلُّ مَا خَالَفُوا فِيهِ حُكْمَ الْإِسْلَامِ فَهُوَ ظُلْمٌ لَا يُقَرُّونَ عَلَيْهِ.

وَقَالُوا:قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [المائدة:٤٢]

فَقُلْنَا:هَذِهِ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة:٤٩]

فَقَالُوا:هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

قُلْنَا:نَعَمْ،رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ سُفْيَانَ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«نُسِخَتْ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ آيَتَانِ –:آيَةُ:الْقَلَائِدَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{فَإِنْ جَاءُوكَ

فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [المائدة:٤٢] فَكَانَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – مُخَيَّرًا إنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ،وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَرَدَّهُمْ إلَى أَحْكَامِهِمْ،فَنَزَلَتْ:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة:٤٩] فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا فِي كِتَابِنَا».

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:وَهَذَا مُسْنَدٌ؛لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَ بِنُزُولِ الْآيَةِ فِي ذَلِكَ – وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِد،وَعِكْرِمَةَ.

وَأَيْضًا:فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] وَالدِّينُ فِي الْقُرْآنِ وَاللُّغَةِ يَكُونُ الشَّرِيعَةَ،وَيَكُونُ الْحُكْمَ،وَيَكُونُ الْجَزَاءَ،فَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ إلَى اللَّه تَعَالَى لَا إلَيْنَا.

وَالشَّرِيعَةُ قَدْ صَحَّ أَنْ نُقِرَّهُمْ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَ إذَا كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ،فَبَقِيَ الْحُكْمُ،فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ حُكْمَ اللَّه كَمَا أَمَرَ.

فَإِنْ قَالُوا:فَاحْكُمُوا عَلَيْهِمْ بِالصَّلَاة،وَالصِّيَامِ،وَالْحَجِّ،وَالْجِهَاد،وَالزَّكَاة.

قُلْنَا:قَدْ صَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – لَمْ يُلْزِمْهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذَا فَخَرَجَ بِنَصِّهِ وَبَقِيَ سَائِرُ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ عَلَى حُكْمِ الْإِسْلَامِ وَلَا بُدَّ.

وَصَحَّ «أَنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَتَلَ يَهُودِيًّا قَوَدًا بِصَبِيَّةٍ مُسْلِمَةٍ وَرَجَمَ يَهُودِيَّيْنِ زَنَيَا» وَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَى حُكْمِ دِينِهِمْ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ بِآبِدَةٍ مُهْلِكَة،وَهِيَ أَنْ قَالُوا:إنَّمَا أَنْفَذَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – الرَّجْمَ بِحُكْمِ التَّوْرَاة،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة:٤٤].

فَقُلْنَا:هَذَا كُفْرٌ مِمَّنْ قَالَهُ،إذْ جَعَلَهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مُنَفِّذًا لِحُكْمِ الْيَهُود،تَارِكًا لِتَنْفِيذِ حُكْمِ اللَّه تَعَالَى،حَاشَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَهَبْكَ أَنَّهُ كَمَا قُلْتُمْ فَارْجُمُوهُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ نَفْسِهِ،وَإِلَّا فَقَدْ جَوَّرْتُمْ رَسُولَ اللَّه – ﷺ –.

وَأَمَّا الْآيَةُ:فَإِنَّمَا هِيَ خَبَرٌ عَنْ النَّبِيِّينَ السَّالِفِينَ فِيهِمْ،لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا لَنَا نَبِيِّينَ،إنَّمَا لَنَا نَبِيٌّ وَاحِدٌ – فَصَحَّ أَنَّهُ غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهَذِهِ الْآيَة.

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ:أَخبِرُونَا عَنْ أَحْكَامِ دِينِهِمْ أَحَقٌّ – هِيَ إِلَى الْيَوْمِ – مُحْكَمٌ أَمْ بَاطِلٌ مَنْسُوخٌ؟ وَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِهِمَا –:فَإِنْ قَالُوا:حَقٌّ مُحْكَمٌ كَفَرُوا جِهَارًا،وَإِنْ قَالُوا بَلْ بَاطِلٌ مَنْسُوخٌ.

قُلْنَا:صَدَقْتُمْ،وَأَقْرَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ رَدَدْتُمُوهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ الْمَنْسُوخِ الْحَرَامِ،وَفِي هَذَا كِفَايَةٌ.

وَقَالَ تَعَالَى:{كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ} [النساء:١٣٥] وَلَيْسَ مِنْ الْقِسْطِ تَرْكُهُمْ يَحْكُمُونَ بِالْكُفْرِ الْمُبَدَّلِ أَوْ بِحُكْمٍ قَدْ أَبْطَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى،أَوْ حَرَّمَ الْقَوْلَ بِهِ وَالْعَمَلَ بِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].

وَمَنْ رَدَّهُمْ إِلَى حُكْمِ الْكُفْرِ الْمُبَدَّلِ وَالْأَمْرِ الْمَنْسُوخِ الْمُحَرَّمِ،فَلَمْ يُعِنْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،بَلْ أَعَانَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ – وَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ الْخِذْلَانِ.وَقَالَ تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] وَالصَّغَارُ هُوَ جَرْيُ أَحْكَامِنَا عَلَيْهِمْ،فَإِذَا مَا تُرِكُوا يَحْكُمُونَ بِكُفْرِهِمْ فَمَا أَصْغَرْنَاهُمْ بَلْ هُمْ أَصْغَرُونَا – وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.[٥١٣]

الإِعْذَارُ فِي الْجِهَادِ:

الْحَرْبِيُّونَ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ بِبِلاَدِ الْكُفْرِ،وَلاَ صُلْحَ لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.[٥١٤]

فَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ يُحَارَبُونَ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣].وَشَرْطُ مُحَارَبَتِهِمْ بُلُوغُ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِمْ فَلاَ تَجُوزُ مُحَارَبَتُهُمْ قَبْل ذَلِكَ،وَهُوَ أَمْرٌ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء:١٥]

---

[٥١٣] – المحلى بالآثار (٨/ ٥٢٠)

[٥١٤] – المصباح المنير .

وَلَكِنْ هَل يَجِبُ تَكْرَارُ دَعْوَتُهُمْ إِذَا تَكَرَّرَتْ مُحَارَبَتُهُمْ ؟ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجِبُ تَكْرَارُ دَعْوَتِهِمْ،بَل يُسْتَحَبُّ.

قَال الْكَاسَانِيُّ:وَأَمَّا بَيَانُ مَا يَجِبُ عَلَى الْغُزَاةِ الافْتِتَاحُ بِهِ حَالَةَ الْوَقْعَةِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ،فَإِنَّ الأَمْرَ فِيهِ لاَ يَخْلُو مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ:إِمَّا أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ قَدْ بَلَغَتْهُمْ،وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ،فَإِنْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ لَمْ تَبْلُغْهُمْ فَعَلَيْهِمُ الافْتِتَاحُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلاَمِ بِاللِّسَانِ،لِقَوْل اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل:١٢٥] وَلاَ يَجُوزُ لَهُمُ الْقِتَال قَبْل الدَّعْوَةِ،لأَنَّ الإِيمَانَ وَإِنْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ قَبْل بُلُوغِ الدَّعْوَةِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْل،فَاسْتَحَقُّوا الْقَتْل بِالامْتِنَاعِ،لَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ قِتَالَهُمْ قَبْل بَعْثِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ،وَبُلُوغِ الدَّعْوَةِ إِيَّاهُمْ فَضْلاً مِنْهُ وَمِنَّةً،قَطْعًا لِمَعْذِرَتِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ،وَإِنْ كَانَ لاَ عُذْرَ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ،لِمَّا أَقَامَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الدَّلاَئِل الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلُوهَا حَقَّ التَّأَمُّل وَنَظَرُوا فِيهَا لَعَرَفُوا حَقَّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ،لَكِنْ تَفَضَّل عَلَيْهِمْ بِإِرْسَال الرُّسُل ﷺم أَجْمَعِينَ،لِئَلاَّ يَبْقَى لَهُمْ شُبْهَةُ عُذْرٍ فَيَقُولُونَ:{وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } [طه:١٣٤] وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَا بَيَّنَّا،وَلأَنَّ الْقِتَال مَا فُرِضَ لِعَيْنِهِ،بَل لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلاَمِ.

وَالدَّعْوَةُ دَعْوَتَانِ:دَعْوَةُ بِالْبَنَانِ وَهِيَ الْقِتَال،وَدَعْوَةُ بِالْبَيَانِ وَهِيَ اللِّسَانُ،وَذَلِكَ بِالتَّبْلِيغِ،وَالثَّانِيَةُ أَهْوَنُ مِنَ الأُولَى،لأَنَّ فِي الْقِتَال مُخَاطَرَةَ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْمَال،وَلَيْسَ فِي دَعْوَةِ التَّبْلِيغِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ،فَإِذَا احْتَمَل حُصُول الْمَقْصُودِ بِأَهْوَنِ الدَّعْوَتَيْنِ لَزِمَ الافْتِتَاحُ بِهَا،هَذَا إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ لَمْ تَبْلُغْهُمْ.فَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَفْتَتِحُوا الْقِتَال مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدِ الدَّعْوَةِ،لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ الْحُجَّةَ لاَزِمَةٌ،وَالْعُذْرُ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْقَطِعٌ،وَشُبْهَةُ الْعُذْرِ انْقَطَعَتْ بِالتَّبْلِيغِ مَرَّةً،لَكِنْ مَعَ هَذَا الأَفْضَل أَلاَّ يَفْتَتِحُوا الْقِتَال إِلاَّ بَعْدَ تَجْدِيدِ الدَّعْوَةِ

لِرَجَاءِ الإِجَابَةِ فِي الْجُمْلَةِ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:«مَا قَاتَلَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ قَوْمًا،حَتَّى يَدْعُوَهُمْ»..[515]

فِيمَا كَانَ دَعَاهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ.دَل أَنَّ الافْتِتَاحَ بِتَجْدِيدِ الدَّعْوَةِ أَفْضَل،ثُمَّ إِذَا دَعَــوْهُمْ إِلَــى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَسْلَمُوا كَفُّوا عَنْهُمُ الْقِتَال،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَــالَ:قَــالَ رَسُــولُ اللَّــهِ ﷺ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَإِذَا قَالُوهَا،وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا،وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا،فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ،إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَــابُهُمْ عَلَــى اللَّهِ»[516]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّــهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَدْ عَصَــمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "[517]

فَإِنْ أَبَوا الإِجَابَةَ إِلَى الإِسْلاَمِ دَعَوْهُمْ إِلَى الذِّمَّةِ إِلاَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ (لأَِنَّــهُ لاَ يُقْبَل مِنْهُمْ إِلاَّ الإِسْلاَمُ) فَإِنْ أَجَابُوا كَفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ أَبَوْا اسْتَعَانُوا بِاَللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَــالَى عَلَى قِتَالِهِمْ.

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ فِي الْمَشْهُورِ إِلَى أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ وُجُوبًا سَوَاءٌ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ أَمْ لاَ،مَا لَــمْ يُعَاجِلُونَا بِالْقِتَال أَوْ يَكُونُ الْجَيْشُ قَلِيلاً،قَالُوا:وَمِنْ هَذَا الْقَبِيل كَانَتْ إِغَارَةُ سَرَايَاهُ عَلَيْــهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وَلِلْحَنَابِلَةِ تَفْصِيلٌ بَيَّنَهُ ابْنُ قُدَامَةَ بِقَوْلِهِ:أَهْل الْكِتَابِ وَالْمَجُوسُ لاَ يُدْعَوْنَ قَبْل الْقِتَال،لأَِنَّ الدَّعْوَةَ قَد انْتَشَرَتْ وَعَمَّتْ،فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ إِلاَّ نَادِرًا بَعِيدًا.وَأَمَّا عَبَــدَةُ الأَوْثَانِ فَإِنَّ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ مِنْهُمْ لاَ يُدْعَوْنَ،وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ دُعِــيَ قَبْل الْقِتَال،قَال أَحْمَدُ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو إِلَى الإِسْلاَمِ قَبْل أَنْ يُحَارِبَ حَتَّى أَظْهَرَ اللَّــهُ الدِّينَ وَعَلاَ الإِسْلاَمُ،وَلاَ أَعْرِفُ الْيَوْمَ أَحَدًا يُدْعَى،قَدْ بَلَغَتِ الدَّعْوَةُ كُل أَحَدٍ،فَالرُّومُ قَــدْ

---

[515] - شرح معاني الآثار (٣/ ٢٠٧)(٥٠٨٢) صحيح

[516] - صحيح البخاري (١/ ٨٧)(٣٩٢)

[517] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٦) وصحيح مسلم (١/ ٥٢)٣٣ - (٢١)

بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَعَلِمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُمْ،وَإِنَّمَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ فِي أَوَّل الإِسْلاَمِ،وَإِنْ دَعَا فَلاَ بَأْسَ.[٥١٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الباب الرابع

الخلاصة في أحكام التكفير

تعريف التكفير:

منْ معاني التّكْفير في اللّغة:التّغْطية والسّتْر وهو أصْل الْباب.

تقول الْعرب للزّرّاع:كافرٌ،ومنْه قوْله تعالى {كمثل غيْثٍ أعْجب الْكفّار نباته} [الحديد:٢٠]

وأيْضًا يقال:التّكْفير في الْمحارب:إذا تكفّر في سلاحه،والتّكْفير أيْضًا:هو أنْ ينْحني الإنْسان ويطأْطئ رأْسه قريبًا من الرّكوع،كما يفْعل منْ يريد تعْظيم صاحبه،ومنْه حديث أبي معْشرٍ أنّه كان يكْره التّكْفير في الصّلاة [٥١٩]أي الانْحناء الْكثير في حال الْقيام.

والْكفْر في الشّرْع:

نقيض الإْيمان،وهو الْجحود،ومنْه قوْله تعالى:{وقالوا إنّا بكلٍّ كافرون} [القصص:٤٨] أيْ جاحدون.

وهو بهذا لا يخْرج عنْ معْناه اللّغويّ،لأنّ الْكافر ذو كفْرٍ،أيْ ذو تغْطيةٍ لقلْبه بكفْره،قال صاحب الدّرّ الْمخْتار:الْكفْر شرْعًا:تكْذيبه ﷺ في شيْءٍ ممّا جاء به من الدّين ضرورةً.

والتّكْفير:هو نسْبة أحد منْ أهْل الْقبْلة إلى الْكفْر.وتكْفير الذّنوب محْوها بفعْل الْحسنات ونحْوه،لقوْله تعالى:{إنّ الْحسنات يذْهبْن السّيّئات ذلك ذكْرى للذّاكرين} [هود:١١٤] وسيأْتي تفْصيله.

---

[٥١٨] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٥/ ٢٣٦) وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٠ نشر دار الكتاب العربي، والزرقاني ٣ / ١١١، وقليوبي وعميرة ٤ / ٢١٨، والدسوقي ٢ / ١٧٦، والمغني ٨ / ٣٦١ - ٣٦٢ .

[٥١٩] - حديث :" كان يكره التكفير في الصلاة " ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٤ / ١٨٨ ط الحلبي) ولم نعثر على من أخرجه .

والتّكْفير عن الْيمين:هو فعْل ما يجب بالْحنْث فيها [520].

الأْلْفاظ ذات الصّلة:

أ – التّشْريك:

مصْدر شرّك،يقال:شرّكْت بيْنهما في الْمال تشْريكًا،وشرّك النّعْل:جعل لها شراكًا.

وشرْعًا:أنْ تجْعل للّه شريكًا في ملْكه أوْ ربوبيّته.

قال تعالى حكايةً عنْ عبْده لقْمان أنّه قال لابْنه:{ وإذْ قال لقْمان لابْنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشْركْ باللّه إنّ الشّرْك لظلْمٌ عظيمٌ } [لقمان:١٣]

والْكفْر أعمّ من الشّرْك فهو أحد أفْراده [521].

والتّشْريك أيْضًا:بيْع بعْض ما اشْترى بما اشْتراه به،فهو التّوْلية بجزْء السّلْعة،والْمقْصود من الْبحْث هو الْمعْنى الأْوّل.

ب – التّفْسيق:

تفْعيلٌ من الْفسْق،وهو في اللّغة:الْخروج عن الأْمْر،ويقال:أصْله خروج الشّيْء من الشّيْء على وجْه الْفساد،يقال:فسقت الرّطبة:إذا خرجتْ منْ قشْرها،وكأنّ الْفأْرة إنّما سمّيتْ فويْسقةً لخروجها منْ جحْرها على النّاس.وهو شرْعًا:الْعصْيان والتّرْك لأمْر اللّه عزّ وجل والْخروج عنْ طريق الْحقّ،ومنْه قوْله تعالى حكايةً عنْ إبْليس {وإذْ قلْنا للْملائكة اسْجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبْليس كان من الْجنّ ففسق عنْ أمْر ربّه أفتتّخذونه وذرّيّته أوْلياء منْ دوني وهمْ لكمْ عدوٌّ بئْس للظّالمين بدلًا } [الكهف:٥٠] أيْ خرج عنْ طاعة ربّه.وقدْ يكون الْفسْق شرْكًا،أوْ كفْرًا،أوْ إثْمًا [522].

الأْحْكام الْمتعلّقة بالتّكْفير:

(أوّلاً) تكْفير الْمسْلم

[520] – لسان العرب، والمصباح المنير مادة :" كفر " .والكليات ٤ / ٧٤، وابن عابدين ٣ / ٢٨٤ .

[521] – لسان العرب، والمصباح المنير، والمغرب، مادة :" شرك " .

[522] – لسان العرب، والمصباح المنير، والمغرب، مادة :" فسق "، والكليات ٣ / ٣١٧ .

الأْصْل بقاء الْمسْلم على إسْلامه حتّى يقوم الدّليل على خلاف ذلك،لما ورد عن الــبراء بْن عازبٍ رضي اللّه عنْهما،قال:خطبنا النّبيّ ﷺ يوْم الأضْحى بعْد الصّــلاة،فقال:«مــنْ صلّى صلاتنا،ونسك نسكنا،فقدْ أصاب النّسك،ومنْ نسك قبْل الصّلاة،فإنّه قبْل الصّلاة ولا نسك له»،فقال أبو برْدة بْن نيارٍ خال البراء:يا رسول اللّه،فإنّي نسكْت شاتي قبْــل الصّلاة،وعرفْت أنّ اليوْم يوْم أكْلٍ وشرْبٍ،وأحْببْت أنْ تكون شاتي أوّل مــا يــذْبح في بيْتي،فذبحْت شاتي وتغدّيْت قبْل أنْ آتي الصّلاة،قال:«شاتك شاة لحْمٍ» قال:يــا رســول اللّه،فإنّ عنْدنا عناقًا لنا جذعةً هي أحبّ إليّ منْ شاتيْن،أفتجْزي عنّي؟ قال:«نعمْ ولــنْ تجْزي عنْ أحدٍ بعْدك»[٥٢٣].

ويجب قبْل تكْفير أيّ مسْلمٍ النّظر والتّفحّص فيما صدر منْه منْ قوْلٍ أوْ فعْلٍ،فليْس كــل قوْلٍ أوْ فعْلٍ فاسدٍ يعْتبر مكفّرًا.

ويجب كذلك على النّاس اجْتناب هذا الأمْر والْفرار منْــه وترْكــه لعلمــائهمْ لخطــره الْعظيم،فعنْ أبي هريْرة رضي اللّه عنْه:أنّ رسول اللّه ﷺ قال:«إذا قال الرّجل لأخيه يــا كافر،فقدْ باء به أحدهم[٥٢٤].

وعنْ أبي ذرٍّ رضي اللّه عنْه أنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول:«لا يرْمي رجلٌ رجلًا بالفســوق،ولا يرْميه بالكفْر،إلّا ارْتدّتْ عليْه،إنْ لمْ يكنْ صاحبه كذلك»[٥٢٥].

---

٥٢٣ - صحيح البخاري (٢/ ١٧)(٩٥٥)

[ش (نسك نسكنا) ضحى مثل ضحيتنا ونسك ذبح والنسيكة الذبحية وجمعها نسك والنسك العبادة أيضا (أصاب النسك) وافق العبادة المطلوبة منه.(شاة لحم) أي فليست أضحية وليس لها ثواب الأضحية بل هي كغيرها مما يذبح عادة للأكل.(عناقا) هي الأنثى من ولد المعز.(جذعة) سقطت أسنانها اللبنية]

٥٢٤ - صحيح البخاري (٨/ ٢٦)(٦١٠٣)ا»

[ش (باء به أحدهما) أي إن كان من رماه بالكفر أهلا له فالأمر كذلك وإلا رجع وزر ذلك عليه]

٥٢٥ - صحيح البخاري (٨/ ١٥)(٦٠٤٥)

[ش (يرمي) ينسب ويتهم.(بالفسوق) المعصية والخروج عن طاعة الله تعالى(ارتدت عليه) رجعت عليه فكان هو فاسقا أو كافرا.(صاحبه) المرمي والمتهم.(كذلك) كما رماه واتهمه.قال في الفتح تقدم صدره في مناقب قريش بالإسناد المذكور هنا فهو حديث واحد فرقه البخاري حديثين]

وعنْ أبي ذرٍّ،أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول:" ليْس منْ رجلٍ ادّعى لغيْر أبيه وهو يعْلمه إلّا كفر،ومن ادّعى ما ليْس له فليْس منّا،ولْيتبوّأْ مقْعده من النّار،ومنْ دعا رجلًا بالْكفْر،أوْ قال:عدوّ الله وليْس كذلك إلّا حار عليْه "[٥٢٦]

التّحرّز من التّكْفير:

لا ينْبغي أنْ يكفّر مسْلمٌ أمْكن حمْل كلامه على محْملٍ حسنٍ،أوْ كان في كفْره خلافٌ ولوْ كان روايةً ضعيفةً[٥٢٧].ما يشكّ في أنّه كفْرٌ لا يحْكم به،فإنّ الْمسْلم لا يخْرجه من الْإيمان إلاّ جحود ما أدْخله فيه،إذ الْإسْلام الثّابت لا يزول بالشّكّ مع أنّ الْإسْلام يعْلو،فإنْ كان في الْمسْألة وجوهٌ توجب التّكْفير ووجْهٌ واحدٌ يمْنعه فعلى الْمفْتي أنْ يميل إلى الْوجْه الّذي يمْنع التّكْفير ؛لعظم خطره وتحْسينًا للظّنّ بالْمسْلم،ولأنّ الْكفْر نهايةٌ في الْعقوبة فيسْتدْعي نهايةً في الْجناية،ومع الشّكّ والاحْتمال لا نهاية[٥٢٨].

متى يحْكم بالْكفْر:

يشْترط في تكْفير الْمسْلم أنْ يكون مكلّفًا مخْتارًا عنْد صدور ما هو مكفّرٌ منْه،فلا يصحّ تكْفير صبيٍّ ومجْنونٍ،ولا منْ زال عقْله بنوْمٍ أوْ إغْماءٍ،لعدم تكْليفهمْ،فلا اعْتداد بقوْلهمْ واعْتقادهمْ.

وكذلك لا يجوز تكْفير مكْرهٍ على الْكفْر وقلْبه مطْمئنٌّ بالإيمان،قال تعالى:{منْ كفر باللّه منْ بعْد إيمانه إلّا منْ أكْره وقلْبه مطْمئنٌّ بالْإيمان ولكنْ منْ شرح بالْكفْر صدْرًا فعليْهمْ غضبٌ من اللّه ولهمْ عذابٌ عظيمٌ } [النحل:١٠٦].

وجرى الْخلاف بيْن الْفقهاء في صحّة تكْفير الصّبيّ الْمميّز والسّكْران إذا صدر منْهما ما هو مكفّرٌ.

---

[٥٢٦] - صحيح مسلم (١/ ٧٩) ١١٢ - (٦١)

[ش (ليس من رجل ادعى لغير أبيه) فيه تأويلان أحدهما أنه في حق المستحيل والثاني كفر النعمة والإحسان وحق الله تعالى وحق أبيه وليس المراد الكفر الذي يخرجه من ملة الإسلام والتعبير بالرجل جري مجري الغالب وإلا فالمرأة كذلك (حار عليه) باء ورجع وحار بمعنى واحد]

[٥٢٧] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٩ .

[٥٢٨] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٥ .

فذهب الْحنفيّة والْحنابلة إلى صحّة تكْفير الصّبيّ الْمميّز إذا صدر منْه ما هو مكفّرٌ.
ويفْهم منْ كلام الْمالكيّة تقْييده بالصّبيّ الْمميّز الْمراهق فقطْ.
وذهب الشّافعيّة إلى عدم صحّة تكْفير الصّبيّ الْمميّز لعدم تكْليفه مع اتّفاقهمْ على أنّـه لا يقْتل بل يجْبر على الإْسْلام بالضّرْب والتّهْديد والْحبْس.
وعنْد الْحنابلة ينْتظر إلى ما بعْد الْبلوغ والاسْتتابة،فإنْ أصرّ قتل[529]،فعنْ عائشة،قالتْ:قال رسول اللّه ﷺ:«رفع الْقلم عنْ ثلاثة:عن النّائم حتّـى يسْـتيْقظ،وعن الْغـلام حتّـى يحْتلم،وعن الْمجْنون حتّى يفيق»[530]..

تكْفير السّكْران:

اتّفق الْفقهاء على أنّ السّكْران غيْر الْمتعدّي بسكْره لا يحْكم بردّته إذا صدر منْه ما هـو مكفّرٌ،واخْتلفوا في السّكْران الْمتعدّي بسكْره:
فذهب جمْهور الْفقهاء (الْمالكيّة والشّافعيّة والْحنابلة) إلى تكْفيره إذا صدر منْه ما هـو مكفّرٌ.
فعنْ عكْرمة،أنّ عمر بْن الْخطّاب،شاور النّاس في جلْد الْخمْر،وقـال:«إنّ النّـاس قـدْ شربوها واجْترءوا عليْها».فقال له عليٌّ:«إنّ السّكْران إذا سـكر هـذى،وإذا هـذى افْترى»،فاجْعلْه حدّ الْفرْية،فجعله عمر حدّ الْفرْية ثمانين"[531]
فأوْجبوا عليْه حدّ الْفرْية الّتي يأْتي بها في سكْره واعْتبروا مظنّتها،ولأنّه يصحّ طلاقه وسائر تصرّفاته فتصحّ ردّته،وذهب الْحنفيّة إلى عدم تكْفير السّكْران مطْلقًا[532].

بم يكون التّكْفير:

أ – التّكْفير بالاعْتقاد:

[529] – ابن عابدين ٣ / ٢٨٥، ٣٠٦، والدسوقي ٤ / ٣٠٨ – ٣١٠، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٧، وكشاف القناع ٦ / ١٦٨، ١٧٤ وما بعدها .

[530] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٣٥٥)(١٤٢) صحيح

[531] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٧/ ٣٧٨)(١٣٥٤٢) صحيح مرسل

[532] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٥، ٣٠٦، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٨، ٣١٠، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٧، وكشاف القناع ٦ / ١٦٨، ١٧٤ وما بعدها .

اتّفق الْفقهاء على تكْفير من اعْتقد الْكفْر باطنًا،إلاّ أنّه لا تجْري عليْه أحْكام الْمرْتدّ إلاّ إذا صرّح به.

ومنْ عزم على الْكفْر في الْمسْتقْبل،أوْ تردّد فيه،فإنّه يكْفر حالاً لانْتفاء التّصْديق بعزْمه على الْكفْر في الْمسْتقْبل،وتطرّق الشّكّ إليْه بالتّردّد في الْكفْر.ولا تجْري عليْه أحْكام الْمرْتدّ إلاّ إذا صرّح بالْكفْر أيْضًا[٥٣٣].

ب – التّكْفير بالْقوْل:

اتّفق الْعلماء على تكْفير منْ صدر منْه قوْلٌ مكفّرٌ،سواءٌ أقاله اسْتهْزاءً،أمْ عنادًا،أم اعْتقادًا لقوْله تعالى:{ولئنْ سألْتهمْ ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلْعب قلْ أباللّه وآياته ورسوله كنْتمْ تسْتهْزئون (٦٥) لا تعْتذروا قدْ كفرْتمْ بعْد إيمانكمْ إنْ نعْف عنْ طائفةٍ منْكمْ نعذّبْ طائفةً بأنّهمْ كانوا مجْرمين (٦٦)} [التوبة:٦٥،٦٦].

وهذه الأْلْفاظ الْمكفّرة قدْ تكون صريحةً كقوْله:أشْرك أوْ أكْفر باللّه،أوْ غيْر صريحةٍ كقوْله:اللّه جسْمٌ متحيّزٌ أوْ عيسى ابْن اللّه،أوْ جحد حكْمًا علم من الدّين بالضّرورة،كوجوب الصّلاة وحرْمة الزّنى.

وأمّا منْ سبق لسانه إلى الْكفْر منْ غيْر قصْدٍ لشدّة فرحٍ أوْ دهشٍ أوْ غيْر ذلك،كقوْل منْ أراد أنْ يقول:اللّهمّ أنْت ربّي وأنا عبْدك،فقال غلطًا:أنْت عبْدي وأنا ربّك،كما جاء عن أنس بْن مالكٍ،قال:قال رسول الله ﷺ:" للّه أشدّ فرحًا بتوْبة عبْده حين يتوب إليْه،منْ أحدكمْ كان على راحلته بأرْض فلاةٍ،فانْفلتتْ منْه وعليْها طعامه وشرابه،فأيس منْها،فأتى شجرةً،فاضْطجع في ظلّها،قدْ أيس منْ راحلته،فبيْنا هو كذلك إذا هو بها،قائمةً عنْده،فأخذ بخطامها،ثمّ قال منْ شدّة الْفرح:اللهمّ أنْت عبْدي وأنا ربّك،أخْطأ منْ شدّة الْفرح "[٥٣٤].

---

[٥٣٣] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٣، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠١، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٤، ١٣٦، وكشاف القناع ٦ / ١٦٧ .

[٥٣٤] – صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٤) ٧ – (٢٧٤٧)

أوْ أكْره عليْه فإنّه لا يكْفر.لقوْله تعالى:{منْ كفر باللّه منْ بعْد إيمانه إلّا منْ أكْره وقلْبه مطْمئنٌّ بالْإيمان ولكنْ منْ شرح بالْكفْر صدْرًا فعليْهمْ غضبٌ من اللّه ولهمْ عذابٌ عظيمٌ } [النحل:١٠٦]

وعن ابْن عبّاسٍ،عن النّبيّ ﷺ،قال:«إنّ اللّه وضع عنْ أمّتي الْخطأ،والنّسْيان،وما اسْتكْرهوا عليْه» [٥٣٥]

تكْفير منْ سبّ اللّه عزّ وجل:

اتّفق الْعلماء على تكْفير منْ سبّ الذّات الْمقدّسة الْعليّة أو اسْتخفّ بها أو اسْتهْزأ،لقوْله تعالى:{ولئنْ سألْتهمْ ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلْعب قلْ أباللّه وآياته ورسوله كنْتمْ تسْتهْزئون (٦٥) لا تعْتذروا قدْ كفرْتمْ بعْد إيمانكمْ إنْ نعْف عنْ طائفةٍ منْكمْ نعذّبْ طائفةً بأنّهمْ كانوا مجْرمين (٦٦)} [التوبة:٦٥،٦٦]

واخْتلفوا في قبول توْبته فذهب جمْهور الْفقهاء إلى قبولها.

وذهب الْحنابلة إلى عدم قبولها،ويقْتل بكل حال،وذلك لأنّ ذنْبه عظيمٌ جدًّا يدل على فساد عقيدته.وأمّا بالنّسْبة للآْخرة،فإنْ كان صادقًا في توْبته قبلتْ باطنًا ونفعه ذلك[٥٣٦].

تكْفير منْ سبّ الأْنْبياء عليْهمْ الصّلاة والسّلام:

ذهب الْفقهاء إلى تكْفير منْ سبّ نبيًّا من الأْنْبياء،أو اسْتخفّ بحقّه،أوْ تنقّصه،أوْ نسب إليْه ما لا يجوز عليْه،كعدم الصّدْق والتّبْليغ،والسّابّ عنْد الْحنفيّة والشّافعيّة يأْخذ حكْم الْمرْتدّ فيسْتتاب،فإنْ تاب وإلاّ قتل،وعنْد الْمالكيّة والْحنابلة يقْتل حدًّا.وإنْ تاب.ولا تقْبل توْبته.

وسبّ الْملائكة كسبّ الأْنْبياء،وقيّده الْمالكيّة بالنّبيّ أو الْملك الْمجْمع على كوْنه نبيًّا أوْ ملكًا،فإنْ سبّ منْ لمْ يجْمعْ على كوْنه نبيًّا أوْ ملكًا كالْخضر وهاروت وماروت لمْ يكْفرْ،وأدّبه الْحاكم اجْتهادًا[٥٣٧].

---

٥٣٥ – سنن ابن ماجه (١/ ٦٥٩)(٢٠٤٥) صحيح، حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٤، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠١، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٤، وكشاف القناع ٦ / ١٦٨، وشرح العقائد للتفتازاني ص ١٩٠

٥٣٦ – ابن عابدين ٣ / ٢٩٠، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣١٢، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٦٦، وكشاف القناع ٦ / ١٧٧، ١٧٨، وشرح العقائد للتفتازاني ١٩١ .

تكْفير مكفّر الصّحابة:

اتّفق الْفقهاء على أنّ منْ كفّر جميع الصّحابة فإنّه يكْفر ؛لأنّه أنْكر معْلومًا مـن الـدّين بالضّرورة وكذّب اللّه ورسوله.واتّفقوا على أنّ منْ قذف السّيّدة عائشة رضي اللّه عنْها بما برّأها اللّه منْه،أوْ أنْكر صحْبة الصّدّيق كفر،لأنّه مكذّبٌ لنصّ الْكتاب.وأمّا منْ كفّـر بعْض الصّحابة دون بعْضٍ،فذهب الْحنفيّة والْمالكيّة في الْمعْتمد عنْدهمْ والإْمام أحْمد في إحْدى الرّوايتيْن إلى عدم كفْره.وذهب الشّافعيّة والْحنابلة في الرّواية الْمشْهورة وبعْـض أهْل الْحديث وسحْنونٌ من الْمالكيّة إلى تكْفير منْ كفّر بعْض الصّحابة وتطبّـق عليْـه أحْكام الْمرْتدّ.

قال الْمرْداويّ في الإْنْصاف – وهو الصّواب – والّذي ندين اللّـه بـه،ونصّ صـاحب الْفواكه الدّواني على أنّ منْ كفّر أحد الْخلفاء الأْرْبعة فإنّه يكْفر[538] .

تكْفير منْ سبّ الشّيْخيْن:

ذهب جمْهور الْفقهاء إلى عدم تكْفير منْ سبّ أحد الشّيْخيْن أبي بكْرٍ وعمر رضي اللّـه عنْهما،وتوقّف الإْمام أحْمد في كفْره وقتْله،وقال:يعاقب ويجْلد ويحْبس حتّى يمـوت أوْ يرْجع عنْ ذلك،وعنْه:منْ سبّ صحابيًّا مسْتحلًّا كفر،وإلاّ فسّق.ونقل ابْنه عبْد اللّه عنْـه فيمنْ شتم صحابيًّا قوْله:الْقتْل أجْبن عنْه،ويضْرب،ما أراه على الإْسْلام.

وعنْد الشّافعيّة وجْهٌ حكاه الْقاضي في تكْفير منْ سبّ الشّيْخيْن رضي اللّه عنْهمـا،وممّنْ قال بتكْفيره كذلك الدّبوسيّ،وأبو اللّيْث،وجزم به صاحب الأْشْباه.

قال صاحب الدّرّ الْمخْتار:وهو الّذي ينْبغي التّعْويل عليْه في الإْفْتاء والْقضاء،رعايةً لجانب حضْرة الْمصْطفى ﷺ وهذا خلاف الْمعْتمد عنْد الْحنفيّـة،كما صـرّح بـذلك ابْـن عابدين[539] .

---

[537] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٩٠، وما بعدها، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٩، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٦٤، وكشاف القناع ٦ / ١٦٨، ١٧٧، والإنصاف ١٠ / ٣٣٢ .

[538] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٩٣، ٢٩٤، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣١٢، والفواكه الدواني ٢ / ٢٧٨، ونهاية المحتاج ٧ / ٣٩٦، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٦٤، ٧٠، وكشاف القناع ٦ / ١٦١، ١٧٠، ١٧٢، والإنصاف ١٠ / ٣٢٣، وشرح العقائد للتفتازاني ١٩٠ .

تكْفير منْكر الإجْماع:

ذهب الْفقهاء إلى تكْفير منْ جحد حكْمًا أجْمعتْ عليْه الأُمّة ممّا علم من الدّين ضرورةً،كوجوب الصّلوات الْخمْس والزّكاة بلا خلافٍ بيْنهمْ.

وأمّا ما أجْمعتْ عليْه الأُمّة و لمْ يكنْ معْلومًا بالضّرورة،كوجوب إعْطاء السّدس لبنْت الابْن مع وجود الْبنْت فلا تكْفير لمنْكره.

وأمّا الْحنفيّة فلمْ يشْرطوا للتّكْفير سوى قطْعيّة الثّبوت،وعلى هذا قالوا بتكْفير منْ جحد اسْتحْقاق بنْت الابْن السّدس مع الْبنْت في ظاهر كلامهمْ[٥٤٠].

ج – التّكْفير بالْعمل:

نصّ الْفقهاء على أفْعالٍ لوْ فعلها الْمكلّف فإنّه يكْفر بها،وهي كل ما تعمّده اسْتهْزاءً صريحًا بالدّين أوْ جحودًا له،كالسّجود لصنمٍ أوْ شمْسٍ أوْ قمرٍ،فإنّ هذه الأفْعال تدل على عدم التّصْديق،وكإلْقاء الْمصْحف في قاذورةٍ،فإنّه يكْفر وإنْ كان مصدّقًا،لأنّ ذلك في حكْم التّكْذيب،ولأنّه صريحٌ في الاسْتخْفاف بكلام اللّه تعالى،والاسْتخْفاف بالْكلام اسْتخْفافٌ بالْمتكلّم.

وقدْ ألْحق الْمالكيّة والشّافعيّة إلْقاء كتب الْحديث به.

وذهب الْمالكيّة إلى تكْفير منْ تزيّا بزيّ الْكفْر منْ لبْس غيارٍ،وشدّ زنّارٍ،وتعْليق صليبٍ.وقيّده الْمالكيّة والْحنابلة بما إذا فعله حبًّا فيه وميْلاً لأهْله،وأمّا إنْ لبسه لعبًا فحرامٌ وليْس بكفْرٍ[٥٤١].

تكْفير مرْتكب الْكبيرة:

---

[٥٣٩] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٩٣، ٢٩٤، حاشية الدسوقي ٤ / ٣١٢، وحواشي تحفة المحتاج ٩ / ٨٩، وكشاف القناع ٦ / ١٧٢، والإنصاف ١٠ / ٣٢٤، والأشباه والنظائر لابن نجيم ١٨٩، ١٩٠ ط دار الهلال .

[٥٤٠] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٤، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٣، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٥، وقليوبي وعميرة ٤ / ١٧٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٦٥، وكشاف القناع ٦ / ١٧٢، ١٧٣ .

[٥٤١] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٨٤، حاشية الدسوقي ٤ / ٣٠١، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٦، وحواشي تحفة المحتاج ٩ / ٩٠ وما بعدها، وروضة الطالبين ١٠ / ٦٩، وكشاف القناع ٦ / ١٦٩، وشرح العقائد للتفتازاني ١٤٢، ١٥٣ .

مذْهب أهْل السّنّة والْجماعة عدم تكْفير مرْتكب الْكبيرة،وعدم تخْليده في النّار إذا مات على التّوْحيد،وإنْ لْم يتبْ،فعنْ أنسٍ قال:" يشْفع محمّدٌ ﷺ حتّى يخْرج من النّار منْ كان في قلْبه مثْقال شعيرةٍ منْ خيْرٍ،ثمّ يشْفع محمّدٌ ﷺ حتّى يخْرج من النّار منْ كان في قلْبه مثْقال خرْدلةٍ منْ خيْرٍ،ثمّ يشْفع محمّدٌ ﷺ حتّى يخْرج من النّار منْ كان في قلْبه أدْنى منْ شطْر خرْدلةٍ منْ خيْرٍ ". [٥٤٢]

فلوْ كان مرْتكب الْكبيرة يكْفر بكبيرته لما سمّاه اللّه ورسوله مؤْمنًا[٥٤٣].

تكْفير السّاحر:

اتّفق الْفقهاء على تكْفير من اعْتقد إباحة السّحْر.

واخْتلفوا في تكْفير منْ تعلّمه أوْ عمله،فذهب الْجمْهور (الْحنفيّة والشّافعيّة والْحنابلة) إلى أنّه لا يكْفر بمجرّد تعلّم السّحْر وعمله ما لْم يكنْ فيه اعْتقادٌ أوْ عمل ما هو مكفّرٌ،وذهب الْمالكيّة إلى تكْفيره مطْلقًا،لما فيه من التّعْظيم لغيْر اللّه،ونسْبة الْكائنات والْمقادير إلى غيْر اللّه.

وعنْ عمْرة،قالتْ:مرضتْ عائشة فطال مرضها،فذهب بنو أخيها إلى رجلٍ فذكروا مرضها،فقال:إنّكمْ لتخْبروني خبر امْرأةٍ مطْبوبةٍ قال:فذهبوا ينْظرون فإذا جاريةٌ لها سحرتْها،وكانتْ قدْ دبّرتْها،فسألتْها فقالتْ:«ما أردْت منّي؟» فقالتْ:أردْت أنْ تموتي حتّى أعْتق،قالتْ:«فإنّ للّه عليّ أنْ تباعي منْ أشدّ الْعرب ملْكةً،فباعتْها،وأمرتْ بثمنها،أنْ يجْعل في غيْرها»[٥٤٤]

وذهب الْحنفيّة إلى وجوب قتْله،ولا يسْتتاب لعمل السّحْر،لسعْيه بالْفساد في الأْرْض،لا بمجرّد علْمه إذا لْم يكنْ في اعْتقاده ما يوجب كفْره،فعنْ جنْدبٍ قال:قال رسول اللّه ﷺ:«حدّ السّاحر ضرْبةٌ بالسّيْف»[٥٤٥]

---

[٥٤٢] - شعب الإيمان (١/ ٤٨٨)(٣٠٤) صحيح

[٥٤٣] - شرح العقيدة الطحاوية ٣٥٥ وما بعدها، ٤١٦، وما بعدها، وشرح العقائد للتفتازاني ١٤٠ وما بعدها .

[٥٤٤] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٨٣)(١٨٧٥٠) صحيح

[٥٤٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٠)(١٤٦٠) وصوب وقفه

وعن الْحسن بْن أبي الْحسن،قال:جاء جنْدبٌ وقوْمٌ يلْعبون ويأْخــذون بــأعْين النّــاس يسْحرون،قال:فضرب رجلًا منْهمْ ضرْبةً بالسّيْف فقتله،فرفع إلى السّلْطان وقال:سمعْــت رسول الله ﷺ يقول:" حدّ السّاحر ضرْبةٌ بالسّيْف "[٥٤٦]

وعنْ سالم بْن أبي الْجعْد،أنّ سعْد بْن قيْس،أوْ قيْس بْن سعْد:«قتل ساحرًا»[٥٤٧]

وعنْ بجالة،أنّ عمر كتب إلى عامله أن:«اقْتلْ كلّ ساحرٍ»[٥٤٨]

وعنْ نافعٍ:أنّ حفْصة:«سحرتْ فأمرتْ عبيْد اللّه أخاها فقتل ساحرتيْن»[٥٤٩]

وعن ابْن الْمسيّب:أنّ عمر بْن الْخطّاب:«أخذ ساحرًا،فدفنه إلى صدْره،ثمّ تركــه،حتّى مات»[٥٥٠]

فسمّاه حدًّا،والْحدّ بعْد ثبوته لا يسْقط بالتّوْبة.

وقصره الْحنابلة على السّاحر الّذي يكْفر بسحْره.

وعنْد الْمالكيّة يقْتل إنْ كان متجاهرًا به ما لمْ يتبْ،فإنْ كان يسرّه قتل مطْلقًا،ولا تقْبــل له توْبةٌ[٥٥١].

آثار التّكْفير:

يترتّب على التّكْفير آثارٌ على كلٍّ من الْمكفّر والْمكفّر فآثاره على الْمكفّر إذا ثبت عليْه الْكفْر هي:

أ – حبوط الْعمل:

قال الترمذي :" وَالصَّحِيحُ عَنْ جُنْدَبٍ مَوْقُوفًا وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وقَالَ الشَّافِعِيُّ:" إِنَّمَا يُقْتَلُ السَّاحِرُ إِذَا كَانَ يَعْمَلُ فِي سِحْرِهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الكُفْرَ، فَإِذَا عَمِلَ عَمَلًا دُونَ الكُفْرِ فَلَمْ نَرَ عَلَيْهِ قَتْلًا"

[٥٤٦] – معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٥٨٠)(١٥٨٩) فيه جهالة

[٥٤٧] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٨٣)(١٨٧٥١) صحيح

[٥٤٨] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٨٤)(١٨٧٥٦) صحيح

[٥٤٩] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٨٤)(١٨٧٥٧) صحيح

[٥٥٠] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٨٤)(١٨٧٥٥) حسن

[٥٥١] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٩٥ وما بعدها، حاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٢، وشرح روض الطالب ٤ / ١١٧، وكشاف القناع ٦ / ١٧٧، والإنصاف ١٠ / ٣٤٩ وما بعدها .

إذا ارْتدّ الْمسْلم واسْتمرّ كافرًا حتّى موْته كانتْ ردّته محْبطةً للْعمل لقوْله تعالى:{ ومــنْ يرْتددْ منْكمْ عنْ دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأولئك حبطتْ أعْمــالهمْ في الــدّنْيا والْــآخرة وأولئك أصْحاب النّار همْ فيها خالدون } [البقرة:٢١٧].

فإنْ عاد إلى الإْسْلام فمذْهب الْحنفيّة والْمالكيّة أنّه يجب عليْه إعادة الْحجّ وما بقي سببه من الْعبادات لأنّه بالرّدّة صار كالْكافر الأْصْليّ فإذا أسْلم وهو غنيٌّ فعليْه الْحجّ.ولأنّ وقْته متّسعٌ إلى آخر الْعمْر فيجب عليْه بخطاب مبْتدأٍ كما يجب عليْه الصّلاة والصّيام والزّكــاة للأْوْقات الْمسْتقْبلة،ولأنّ سببه الْبيْت الْمكرّم وهو باقٍ بخلاف غيْره من الْعبادات الّــتي أدّاها،لخروج سببها.

وما بقي سببه من الْعبادات كمنْ صلّى الظّهْر مثلاً ثمّ ارْتدّ ثمّ تاب في الْوقْت يعيد الظّهْر لبقاء السّبب وهو الْوقْت.

وذهب الشّافعيّة والْحنابلة إلى أنّه لا يجب عليْه أنْ يعيد عباداته الّتي فعلها في إسْلامه مــنْ صلاةٍ وحجٍّ وغيْرها،وذلك لأنّه فعلها على وجْهها وبرئتْ ذمّته منْهــا فــلا تعــود إلى ذمّته،كديْن الآْدميّ.والْمنْصوص عن الشّافعيّ رحمه اللّه تعالى حبوط ثواب الأْعْمــال لا نفْس الأْعْمال[٥٥٢].

ب – الْقتْل:

أجْمع الْفقهاء على أنّ منْ تحوّل عنْ دين الإْسْلام إلى غيْره فإنّه،فعنْ عكْرمــة،أنّ عليًّــا رضي اللّه عنْه،حرّق قوْمًا،فبلغ ابْن عبّاسٍ فقال:لوْ كنْت أنا لمْ أحــرّقْهمْ لأنّ الــنّبيّ ﷺ قال:«لا تعذّبوا بعذاب اللّه» ولقتلْتهمْ كما قال النّبيّ ﷺ:«منْ بدّل دينه فاقْتلوه»[٥٥٣].

وعنْ عكْرمة،قال:أتي عليٌّ رضي اللّه عنْه،بزنادقةٍ فأحْرقهمْ،فبلغ ذلك ابْن عبّاسٍ،فقال:لوْ كنْت أنا لمْ أحْرقْهمْ،لنهْي رسول اللّه ﷺ:«لا تعذّبوا بعذاب اللّه» ولقتلْتهمْ،لقوْل رسول اللّه ﷺ:«منْ بدّل دينه فاقْتلوه»[٥٥٤]

---

[٥٥٢] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٣٠٣، وحاشية الطحطاوي على الدر المختار ٢ / ٤٨٠، ومواهب الجليل ٦ / ٢٨٢ وما بعدها، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٣، وكشاف القناع ٦ / ١٨١ .

[٥٥٣] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٧)

[٥٥٤] – صحيح البخاري (٩/ ١٥)(٦٩٢٢)

قال القاري:"(بزنادقة) أيْ بقوْمٍ مرْتدّين أوْ بجمْعٍ ملْحدين في الْقاموس:الزّنْديق بالْكسْر من الثّنويّة أو الْقائل بالنّور والظّلْمة أوْ منْ لا يؤْمن بالْآخرة وبالرّبوبيّة أوْ منْ يبْطن الْكفْر ويظْهر الْإيمان أوْ هو معرّب زنْ دين أيْ دين الْمرْأة اهــ.وسئل عن الزّنْديق مــنْ هــو فأجاب:الزّنْديق هو منْ يقول ببقاء الدّهْر أيْ لا يؤْمن بالْآخرة ولا بالْخالق ويعْتقــد أنّ الْأمْوال والْحرم مشْتركةٌ،وقال في مكانٍ آخر:هو أنْ لا يعْتقد إلهًا ولا حرْمة شيْءٍ مــن الْأشْياء وفي قبول توْبته روايتان والّذي يرجّح عدم قبول توْبته كذا في الْفتاوى لقــارئ الْهداية،وقال اللّيْث:زنْديقٌ معْروفٌ وزنْدقته أنّه لا يؤْمن بالْآخرة ووحْدانيّة الْخالق،وعنْ ثعْلبٍ:ليْس زنْديقٌ ولا فرزين منْ كلام الْعرب ومعْناه على ما يقول الْعامّة ملْحدٌ دهْريٌّ (فأحْرقهمْ) أيْ أمر عليٌّ بإحْراقهمْ فأحْرقوهمْ (فبلغ ذلك ابْن عبّاسٍ قال:لوْ كنْت أنا) أنا تأْكيدٌ للضّمير الْمتّصل والْخبر محْذوفٌ أيْ لوْ كنْت أنا بدله لمْ أحْرقْهمْ لنهْي رسول اللّه ﷺ:«لا تعذّبوا بعذاب اللّه») قال الْقاضي:الزّنْديق قوْمٌ من الْمجوس ويقال لهمْ:الثّنويّــة يقولون بمبْدأيْن أحدهما النّور وهو مبْــدأ الْخيْــرات والثّــاني الظّلْمــة وهــو مبْــدأ الشّرور،ويقال:إنّه معرّبٌ مأْخوذٌ من الزّنْد وهو كتابٌ بالْفهْلويّــة كــان لزرادشْــت الْمجوسيّ ثمّ اسْتعْمل لكلّ ملْحدٍ في الدّين،والْجمْع زّنادقةٌ والْهاء فيه بدلٌ مــن الْيــاء الْمحْذوفة فإنّ أصْله زناديق والْمراد به قوْمٌ ارْتدّوا عن الْإسْلام لمــا أوْرد أبــو داود في كتابٍ أنّ عليًّا رضي اللّه عنْه أحْرق ناسًا ارْتدّوا عن الْإسْلام وقيل:قــوْمٌ مــن السّــابئة أصْحاب عبْد اللّه بْن سبأٍ أظْهر الْإسْلام ابْتغاءً للْفتْنة وتضْليلًا للْأمّة فسعى أوّلًا في إثــارة الْفتْنة على عثْمان حتّى جرى عليْه ما جرى ثمّ انْضوى إلى الشّــيعة فأخــذ في تضْــليل جهّالهمْ حتّى اعْتقدوا أنّ عليًّا رضي اللّه عنْه هو الْمعْبود فعلم بــذلك علــيٌّ فأخــذهمْ واسْتتابهمْ فلمْ يتوبوا فحفر لهمْ حفرًا وأشْعل النّــار فيهــا ثمّ أمــر بــأنْ يرْمــى بهــمْ فيها،والْإحْراق بالنّار وإنْ نهي عنْه كما ذكره ابْن عبّاسٍ لكنْ جوّز للتّشْــديد بالْكفّــار والْمبالغة في النّكاية والنّكال كالْمثْلة (ولقتلْتهمْ لقوْل رسول اللّه منْ بدّل دينه فــاقْتلوه) قال الطّيبيّ:ولقتلْتهمْ عطْفٌ على جواب لوْ ولوْ يؤْت باللّام في الثّاني وعزل عن الْأوّل لما أنّ الْجواب منْفيٌّ بلمْ وهي مانعةٌ لدخولها،أوْ لأنّ هذه اللّام تفيد معْنى التّوْكيد لا محالــة

فأدْخل في الثّاني ؛ لأنّ الْقتْل أهمّ وأحْرى منْ غيْره لورود النّصّ أنّ النّار لا يعذّب بها إلّا اللّه لأنّه أشدّ الْعذاب ولذلك أوْعد بها الْكفّار،والاجْتهاد يضْمحلّ عنْده،ولعلّ عليًّا رضي اللّه عنْه لمْ يقفْ عليْه واجْتهد حينئذ.قال التّوربشْتيّ:كان ذلك منْه عنْ رأْيٍ واجْتـــهادٍ لا عنْ توْقيفٍ ولهذا لّما بلغه قوْل ابْن عبّاسٍ:لوْ كنْت أنا لمْ أحْرقْهم الْحديث قال:ويْح أمّ ابْن عبّاسٍ،وأكْثر أهْل الْعلْم على أنّ هذا الْقوْل ورد موْرد الْمدْح والْإعْجاب بقوْله وينْصــــره ما جاء في روايةٍ أخْرى عنْ شرْح السّنّة:فبلغ ذلك عليًّا فقال:صدق ابْن عبّاسٍ.

وإذا ارْتدّ الْمسْلم عن الْإسْلام والْعياذ باللّه عرض عليْه الْإسْلام فإنْ كانتْ له شبْهةٌ أبْداها كشفتْ عنْه لأنّه عساء اعْترتْه أيْ عرضتْ له شبْهةٌ فتزاح عنْه،ودفْع شرّه بأحْسن الْأمْريْن وهما الْقتْل والْإسْلام،وأحْسنهما الْإسْلام قال ابْن الْهمام:ولّما كان ظاهر كلام الْقـــدوريّ وجوب الْعرْض على ما قال إلّا أنّ الْعرْض على ما قالوا أي الْمشايخ غيْر واجـــبٍ بـــلْ مسْتحبٌّ ؛ لأنّ الدّعْوة قدْ بلغتْه،وعرْض الْإسْلام هو الدّعْوة إليْه ودعْوة منْ بلغتْه الدّعْوة غيْر واجبة بلْ مسْتحبّةٌ قال صاحب الْهداية:ويحْبس ثلاثة أيّامٍ فإنْ أسْلم فبها وإلّا فيقْتـــل قال ابْن الْهمام:وهذا اللّفْظ أيْضًا من الْقدوريّ يوجب وجوب الانْتظار ثلاثة أيّـــامٍ،وفي الْجامع الصّغير:الْمرْتدّ يعْرض عليْه الْإسْلام فإنْ أبى قتل أيْ مكانه فإنّه يفيد أنّ إنْظـــاره الْأيّام الثّلاثة ليْس واجبًا ولا مسْتحبًّا وإنّما تعيّنت الثّلاثة لأنّها مدّةٌ ضربتْ لإبْراء الْعـــذْر بدليل حديث حيّان بْن منْقدٍ في الْخيار ثلاثة أيّامٍ ضربتْ للتّأمّل بدفْع الْفتن،وقصّة موسى مع الْعبْد الصّالح {إنْ سألْتك عنْ شيْءٍ بعْدها} [الكهف:٧٦] وهي الثّالثة إلى قوْله {قدْ بلغْت منْ لدنّي عذْرًا} [الكهف:٧٦] وعنْ عمر أنّ رجلًا أتاه منْ قبل أبي موسى فقـــال له:هلْ منْ مغْربة خبرٍ،فقال:نعمْ،رجلٌ ارْتدّ عن الْإسْلام فقتلْناه،فقال:هلّا حبسْـــتموه في بيْتٍ ثلاثة أيّامٍ وأطْعمْتموه في كلّ يوْمٍ رغيفًا لعلّه يتوب ثمّ قال:اللّهمّ إنّي لمْ أحْضـــرْ ولمْ آمرْ ولمْ أرْض.أخْرجه مالكٌ في الْموطّأ لكنّ ظاهر تبرّئ عمر يقْتضي الْوجوب وتأْويلـــه أنّه لعلّه طلب التّأْجيل،وعنْ أبي حنيفة وأبي يوسف أنّه يسْتحبّ أنْ يؤجّله ثلاثـــة أيّـــامٍ طلب ذلك أوْ لمْ يطْلبْ،وعن الشّافعيّ أنّه إذْ تاب وإلّا قتل لحديث معاذ وقوْله ﷺ:«منْ بدّل دينه فاقْتلوه» منْ غيْر تقْييدٍ بإنْظارٍ وهو اخْتيار ابْن الْمنْذر وهذا إنْ أريد به عـــدم

وجوب الْإنْظار فهو مذْهبنا والاسْتدْلال مشْتركٌ،ومن الْأدلّة أيْضًا قوْله تعالى {فاقْتلوا الْمشْركين حيْث وجدْتموهمْ} [التوبة:٥] وهذا كافرٌ حرْبيٌّ وإنْ كان أريد به نفْي اسْتحْباب الْإمْهال فنقول:هذه الْأوامر مطْلقةٌ وهي لا تقْتضي الْفوْر فيجوز التّأْخير على ما عرف،ولا فرْق في وجوب قتْل الْمرْتدّين كوْن الْمرْتدّ حرًّا أوْ عبْدًا وإنْ كان يتضمّن قتْله إبْطال حقّ الْموْلى بالْإجْماع وإطْلاق الدّلائل الّتي ذكرْناها،وكيْفيّة توْبته أنْ يتبرّأ عن الْأدْيان كلّها سوى دين الْإسْلام لأنّه لا دين له ولوْ تبرّأ عمّا انْتقل إليْه كفاه لحصول الْمقْصود،والْإقْرار بالْبعْث والنّشور مسْتحبٌّ،وبه قال الْأئمّة الثّلاثة وفي شرْح الطّحاويّ:سئل أبو يوسف عن الرّجل كيْف يسْلم فقال:يقول:أشْهد أنْ لا إله إلّا اللّه وأنّ محمّدًا عبْده ورسوله،ويقرّ بما جاء به منْ عنْد اللّه ويتبرّأ عن الدّين الّذي انْتحله ثمّ لو ارْتدّ بعْد إسْلامه ثانيًا قبلْنا توْبته أيْضًا وكذا ثالثًا ورابعًا،إلّا أنّ الْكرْخيّ قال:فإنْ عاد بعْد الثّالثة يقْتل إنْ لمْ يتبْ في الْحال،ولا يؤجّل.قال ابْن الْهمام:قوْل أصْحابنا جميعًا أنّ الْمرْتدّ يسْتتاب أبدًا،وأمّا ما ذكره الْكرْخيّ فروي في النّوادر وذلك لإطْلاق قوْله:{فإنْ تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهمْ} [التوبة:٥] وعن ابْن عمر وعليٍّ:لا تقْبل توْبة منْ كرّر ردّته كالزّنْديق.وهو قوْل مالكٍ وأحْمد واللّيْث لقوْله تعالى {إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا} [النساء:١٣٧] الْآية،قلْنا:رتّب عدم الْمغْفرة على شرْط قوْله {ثمّ ازْدادوا كفْرًا} [آل عمران:٩٠] وفي الدّراية قال في الزّنْديق:لنا روايتان في روايةٍ لا تقْبل توْبته كقوْل مالكٍ وأحْمد،وفي روايةٍ تقْبل كقوْل الشّافعيّ وهذا في حقّ أحْكام الدّنْيا أمّا فيما بيْنه وبيْن اللّه جلّ ذكْره إذا صدق قبله سبْحانه وتعالى بلا خلافٍ،وأمّا الْمرْتدّة فلا تقْتل ولكنْ تحْبس أبدًا حتّى تسْلم أوْ تموت وتضْرب خمْسةً وسبْعين سوْطًا،واخْتاره قاضيخان للْفتْوى،وعنْد الْأئمّة الثّلاثة تقْتل الْمرْتدّة لما رويْنا منْ قوْله عليْه الصّلاة والسّلام:«منْ بدّل دينه فاقْتلوه».وهو حديثٌ في صحيح الْبخاريّ وغيْره،ولنا أنّ النّبيّ ﷺ «نهى عنْ قتْل النّساء والصّبْيان».كما في الصّحيحيْن وهذا مطْلقٌ يعمّ الْكافر أصْليًّا وعارضيًّا فكان مخصّصًا لعموم ما رواه بعْد أنّ عمومه مخْصوصٌ بمنْ بدّل من الْكفْر إلى الْإسْلام،نعمْ لوْ كانت الْمرْتدّة ذات رأْيٍ وتبعٍ تقْتل لا لردّتها بلْ لأنّها حينئذٍ تسْعى في

الْأرْض بالْفساد.وقدْ روى أبو يوسف عنْ أبي حنيفة عنْ عاصم بْن أبي النّجود عــنْ أبي رزينٍ عن ابْن عبّاسٍ قال:لا تقْتل النّساء إذا هنّ ارْتددْن عن الْإسْــلام ولكــنْ يحْبسْــن ويدْعيْن إلى الْإسْلام ويجْبرْن عليْه.وأمّا ما روى الدّارقطْنيّ عنْ جابرٍ:«أنّ امْرأةً يقال لها أمّ مرْوان ارْتدّتْ عن الْإسْلام فأمر النّبيّ ﷺ أنْ يعْرض عليْها الْإسْلام فــإنْ رجعــتْ وإلّــا قتلتْ».فضعّف بمعْمر بْن بكّارٍ ومعارضٌ بآخر مثْله،وأخْرج الطّبرانيّ بسند حسنٍ «عــنْ معاذ بْن جبلٍ أنّ رسول اللّه ﷺ قال له حين بعثه إلى الْيمن:أيّما رجلٍ ارْتدّ عن الْإسْــلام فادْعه فإنْ تاب فاقْبلْ منْه فإنْ لمْ يتبْ فاضْربْ عنقه،وأيّما امْرأةٍ ارْتدّتْ عــن الْإسْــلام فادْعها فإنْ تابتْ فاقْبلْ منْها وإنْ أبتْ فاسْتتبْها».

وأمّا ما روي عن ابْن معين أنّه قال:كان الثّوْريّ يعيب على أبي حنيفة حديثًا كان يرْويه عنْ عاصمٍ عنْ أبي رزينٍ لمْ يرْوه غيْر أبي حنيْفة عنْ عاصمٍ عنْ أبي رزينٍ،فمدْفوعٌ بأنّــه أخْرجه الدّارقطْنيّ عنْ أبي مالكٍ النّخعيّ عنْ عاصمٍ به فزال انْفراد أبي حنيفة الّذي ادّعاه الثّوْريّ وأخْرج الدّارقطْنيّ عنْ عليٍّ:الْمرْتدّة تسْتتاب ولا تقْتل.وضعّف بخلافٍ.وفي شرْح مسْلمٍ للنّوويّ:اخْتلف أصْحابنا في قبول توْبة الزّنْديق وهو الّذي ينْكر الشّرْع فذكروا فيه خمْسة أوْجهٍ أصحّها،والْأصْوب منْها قبولها مطْلقًا للْأحاديث الصّحيحة الْمطْلقة،والثّاني لا يقْبل ويتحتّم قتْله لكنّه إنْ صدق في توْبته نفعه ذلك في الدّار الْآخرة فكان مــنْ أهْــل الْجنّة،والثّالث ارْتاب مرّةً واحدةً قبلتْ توْبته فإنْ تكرّر منْه ذلــك لمْ تقبــلْ،والرّابع إنْ أسْلم ابْتداءً منْ غيْر طلبٍ قبل منْه،وإنْ كان تحْت السّيْف فلا والْخامس إنْ كان داعيًــا إلى الضّلال لمْ يقْبلْ منْه وإلّا قبل منْه،واللّه تعالى أعْلم.[٥٥٥]

آثار التّكْفير على الْمكفّر:

لّما كان التّكْفير من الأُمور الْخطيرة فقدْ جعل الْفقهاء فيه التّعْزير،فمنْ نسب أحــدًا إلى الْكفْر،أوْ قذفه بوصْفٍ يتضمّن معْنى الْكفْر،كيــا يهوديّ،ويــا نصْــرانيّ،ويا مجوســيّ

[٥٥٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٩)

عزّر[556]،عنْ أبي هريْرة رضي اللّه عنْه:أنّ رسول اللّه ﷺ قال:«إذا قال الرّجل لأخيه يـــا كافر،فقدْ باء به أحدهما»[557].

وعن ابْن عمر أنّ النّبيّ ﷺ قال:" إذا قال الرّجل لأخيه:يا كافر،فقدْ باء بـــه أحـــدهما،إنْ كان الّذي قيل له كافرٌ فهو كافرٌ وإلّا رجع إلى منْ قال "[558]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[556] – ابن عابدين ١ / ٥٨٢ و ٣ / ١٨٣، وحاشية العدوي ١ / ٣٧٣، ومواهب الجليل ٦ / ٣٠٣، ومغني المحتاج ١ / ٣٤٠، وكشاف القناع ٢ / ١١٧، ١١٨ و ٦ / ١١٢ .

[557] – صحيح البخاري (٨/ ٢٦)(٦١٠٣)

[ش (باء به أحدهما) أي إن كان من رماه بالكفر أهلا له فالأمر كذلك وإلا رجع وزر ذلك عليه]

[558] – مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٣٧٥)(١٩٥٢) صحيح

الباب الخامس

الخلاصة في أحكام الردة

التّعْريف:

الرّدّة لغةً:الرّجوع عن الشّيْء،ومنْه الرّدّة عن الإْسْلام.

يقال:ارْتدّ عنْه ارْتدادًا أيْ تحوّل.والاسْم الرّدّة،والرّدّة عن الإْسْلام:الرّجوع عنْه.وارْتـدّ فلانٌ عنْ دينه إذا كفر بعْد إسْلامه[٥٥٩].

وفي الاصْطلاح:

(الرّدّة: كفْر الْمسْلم بقوْلٍ صريحٍ أوْ لفْظٍ يقْتضيه أوْ فعْلٍ يتضمّنه) [٥٦٠].

شرائط الرّدّة:

لا تقع الرّدّة من الْمسْلم إلاّ إذا توفّرتْ شرائط الْبلوغ والْعقْل والاخْتيار[٥٦١].

ردّة الصّبيّ:

ردّة الصّبيّ لا تعْتبر عنْد أبي يوسف والشّافعيّ،وهو روايةٌ عنْد أبي حنيفة على مقْتضى الْقياس،وقوْلٌ لأحْمد [٥٦٢].

وقال أبو حنيفة في الرّواية الأُخْرى ومحمّدٌ:يحْكم بردّة الصّبيّ اسْتحْسانًا[٥٦٣]،وهو مـذْهب الْمالكيّة والْمشْهور عنْ أحْمد[٥٦٤].

---

[٥٥٩] - الجمهرة ولسان العرب والصحاح وتاج العروس ومتن اللغة والمعجم الوسيط .

[٥٦٠] – تحفة الفقهاء ٧ / ١٣٤، والقليوبي وعميرة ٤ / ١٧٤، وحاشية الباجوري ٢ / ٣٢٨، ومنح الجليل ٤ / ٤٦١، وشرح الخرشي المالكي ٨ / ٦٢، وهداية الراغب ٤٣٧، والمغني لابن قدامة الحنبلي ٨ / ٥٤٠، ومنتهى الإرادات لابن النجار ٢ / ٤٩٨ .

[٥٦١] – البدائع ٧ / ١٣٤، المهذب ٢ / ٢٢٢، فيض الإله المالك ٢ / ٣٠٥، الفروع ٢ / ١٦٠

[٥٦٢] – المبسوط ١٠ / ١٢٢، وابن عابدين ٤ / ٢٥٧،ورحمة الأمة ص ٢٩٦، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٥١، والإنصاف ١٠ / ٣٢٩ .

[٥٦٣] – المبسوط ١٠ / ٦٢٢ (يحكم بردته استحسانًا لعلته لا لحكمه) .ويلاحظ أيضًا كشف الأسرار للبزدوي ٤ / ١٣٧١ .

[٥٦٤] – المغني ٨ / ٥٥١، والإنصاف ١٠ / ٣٢٩، جواهر الإكليل ١ / ٢١، ١١٦

الْمرْتدّ قبْل الْبلوغ لا يقْتل:

ذهب الْقائلون بوقوع ردّة الصّبيّ إلى أنّه لا يقْتل قبْل بلوغه[٥٦٥].

وقال الشّافعيّ:إنّ الصّبيّ إذا ارْتدّ لا يقْتل حتّى بعْد بلوغه،قال في الأُمّ:(فمنْ أقرّ بالإْيمان قبْل الْبلوغ وإنْ كان عاقلاً،ثمّ ارْتدّ قبْل الْبلوغ أوْ بعْده،ثمّ لمْ يتبْ بعْد الْبلوغ،فلا يقْتل ؛لأنّ إيمانه لمْ يكنْ وهو بالغٌ،ويؤْمر بالإْيمان،ويجْهد عليْه بلا قتْلٍ)[٥٦٦].

ردّة الْمجْنون:

اتّفق الْفقهاء على أنّه لا صحّة لإسْلام مجْنونٍ ولا لردّته[٥٦٧].

ويترتّب على ذلك:أنّ أحْكام الإْسْلام تبْقى سائرةً عليْه[٥٦٨].

لكنْ إنْ كان يجنّ ساعةً ويفيق أخْرى،فإنْ كانتْ ردّته في إفاقته وقعتْ،وإنْ كانتْ في جنونه لا تقع،كما نقل ذلك الْكاسانيّ[٥٦٩].

ردّة السّكْران:

ذهب الْحنفيّة وهو قوْلٌ للشّافعيّة:إلى أنّ ردّة السّكْران لا تعْتبر،وحجّتهمْ في ذلك:أنّ الرّدّة تبْنى على الاعْتقاد،والسّكْران غيْر معْتقدٍ لما يقول[٥٧٠].

وذهب أحْمد في أظْهر الرّوايتيْن عنْه،والشّافعيّة في الْمذْهب إلى وقوع ردّة السّكْران،وحجّتهمْ:أنّ الصّحابة أقاموا حدّ الْقذْف على السّكْران،وأنّه يقع طلاقه،فتقع ردّته،وأنّه مكلّفٌ،وأنّ عقْله لا يزول كلّيًّا،فهو أشْبه بالنّاعس منْه بالنّائم أو الْمجْنون[٥٧١].

---

[٥٦٥] – المبسوط ١٠ / ١٢٢، والتحفة ٤ / ٥٣٠، والبدائع ٧ / ١٣٥، والهداية ٢ / ١٢٦، وابن عابدين ٤ / ٢٥٧، والإنصاف ١٠ / ٣٢٠، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٧، والمغني ٨ / ٥٥١ .

[٥٦٦] – الأم ٦ / ٦٤٩ .

[٥٦٧] – البدائع ٧ / ٦٣٤، الإقناع ٤ / ٣٠١، الكافي لابن قدامة ٣ / ١٥٥، المهذب ٢ / ٢٢٢، والأم ٦ / ١٤٨، والشامل ٢ / ١٥٩ و ٦ / ١٠٢، والقليوبي وعميرة ٤ / ١٧٦ .

[٥٦٨] – المراجع السابقة .

[٥٦٩] – البدائع ٧ / ١٣٤ .

[٥٧٠] – المبسوط ١٠ / ١٢٣، وتحفة الفقهاء ٤ / ٥٣٢، والبدائع ٧ / ١٣٤، وابن عابدين ٤ / ٢٢٤، والمهذب ٢ / ٢٢٢، والقليوبي ٤ / ١٧٦ .

[٥٧١] – الإنصاف ١٠ / ٣٣١، والمغني ٨ / ٥٦٣، والأم ٦ / ١٤٨، والشامل ٦ / ١٠٢، والقليوبي ٦ / ١٧٦ .

الْمكْره على الرّدّة:

الإكْراه:اسْمٌ لفعْلٍ يفْعله الْمرْء بغيْره،فينْتفي به رضاه،أوْ يفْسد به اخْتيــاره،منْ غيْــر أنْ تنْعدم به أهْليّته،أوْ يسْقط عنْه الْخطاب[٥٧٢].

والإكْراه نوْعان:نوْعٌ يوجب الإلْجاء والاضْطرار طبْعًا،كالإكْراه بالْقتْــل أو الْقطْــع أو الضّرْب الّذي يخاف فيه تلف النّفْس أو الْعضْو،قل الضّرْب أوْ كثر.وهذا النّوْع يســمّى إكْراهًا تامًّا.

ونوْعٌ لا يوجب الإلْجاء والاضْطرار،وهو الْحبْس أو الْقيْد أو الضّرْب الّذي لا يخاف منْه التّلف،وهذا النّوْع من الإكْراه يسمّى إكْراهًا ناقصًا [٥٧٣].

واتّفق الْفقهاء على أنّ منْ أكْره على الْكفْر فأتى بكلمة الْكفْر، لمْ يصــرْ كــافرًا لقوْلــه تعالى:{مَنْ كَفَرَ باللَّه منْ بَعْد إيمَانه إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئنٌّ بالْإيمَان وَلَكنْ مَنْ شَــرَحَ بالْكُفْر صَدْرًا فَعَلَيْهمْ غَضَبٌ منَ اللَّه وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ} [النحل:١٠٦].

يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ الذي كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانه،وَشَرَحَ صَدْرَهُ بالكُفْرِ،وَاطْمَأَنَّ إِلَيْه،فَإِنَّ اللهَ قَــدْ غَضِبَ عَلَيْه،وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً أَليماً فِي الدَّارِ الآخرَة،لأَنَّهُ ارْتَدَّ عَنِ الإِيمَانِ لأَجْلِ الدُّنْيا،وَلأَنَّهُ عَلِمَ بالإِيمَانِ ثُمَّ عَدَلَ عَنْهُ،وَاللهُ لاَ يَهْدي القَوْمَ الكَافرينَ.

وَيَسْتَثْنِي اللهُ تَعَالَى منْ ذَلكَ المَصير مَنْ أُكْرِهَ عَلَى النُّطْقِ بكَلمَة الكُفْرِ،فَارْتَدَّ عَنِ الإِسْلاَمِ بلسَانه،وَوَافَقَ المُشْرِكينَ بلَفْظه مُكْرَهاً،لمَا نَالَهُ منْ أَذًى،وَبَقِيَ مُؤْمنــاً بقَلْبِــه مُطْمَئنــاً بالإِيمَان.فَمثْلُ هَذا المُكْرَه يُمْكنُ أَنْ يَغْفرُ اللهُ لَهُ،إِذَا عَلمَ صدْقَ نيَّته.[٥٧٤]

فعَنْ أَبي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّد بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسرٍ،عَنْ أَبيه،قَالَ:أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّــارَ بْــنَ يَاسرٍ،فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلهَتَهُمْ بخَيْرٍ،ثُمَّ تَرَكُوهُ،فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:" مَا وَرَاءَكَ؟ " قَالَ:شَرٌّ يَا رَسُولَ الله مَا تُرِكْتُ حَتَّى نُلْتُ منْكَ وَذَكَرْتُ آلهَتَهُمْ

[٥٧٢] - المبسوط ٢٤ / ٣٨، البدائع ٧ / ١٧٥، ومرآة الأصول ص ٣٥٩ .

[٥٧٣] - البدائع ٧ / ١٧٠، المجلة (المادة ٩٤٩) .

[٥٧٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

بخَيْرٍ،قَالَ:" كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ " قَالَ:مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ،قَالَ:" إِنْ عَادُوا فَعُدْ "[٥٧٥]،وهذا في الإكْراه التّامّ[٥٧٦].

وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُوَالِي المكرَه عَلَى الْكُفْرِ،إبْقَاءً لِمُهْجَته،وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَقْتِلَ،كَمَا كَانَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ به الْأَفَاعِيلَ،حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَضَعُونَ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ في شِدَّةِ الْحَرِّ،وَيَأْمُرُونَهُ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ:أحَد،أحَد.وَيَقُولُ:وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ.فَيَقُولُ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ:لَا أَسْمَعُ.فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ.[٥٧٧]

ومنْ أكْره على الإسْلام فأسْلم ثمّ ارْتدّ قبْل أنْ يوجد منْه ما يدل على الإسْلام طوْعًا،مثْل أنْ يثْبت على الإسْلام بعْد زوال الإكْراه،فإنْ كان ممّنْ لا يجوز إكْراههمْ على الإسْلام – وهمْ أهْل الذّمّة والْمسْتأْمنون – فلا يعْتبر مرْتدًّا،ولا يجوز قتْله ولا إجْباره على الإسْلام ؛لعدم صحّة إسْلامه ابْتداءً.

أمّا إنْ كان منْ أكْره على الإسْلام ممّنْ يجوز إكْراهه وهو الْحرْبيّ والْمرْتدّ،فإنّه يعْتبر مرْتدًّا برجوعه عن الإسْلام،ويطبّق عليْه أحْكام الْمرْتدّين[٥٧٨].

ما تقع به الرّدّة:

تنْقسم الأمور الّتي تحْصل بها الرّدّة إلى أرْبعة أقْسامٍ:

أ – ردّةٌ في الاعْتقاد.

---

[٥٧٥] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦٢)(١٦٨٩٦) صحيح

[٥٧٦] – لمبسوط ١٠ / ٦٢٣، وابن عابدين ٤ / ٢٢٤، والأم ٦ / ٦٥٢، والشامل ٦ / ١٤٨، وشرح الأنصاري ٤ / ٢٤٩، ومنح الجليل ٤ / ٤٠٧، والمغني ٨ / ٥٦١، والإقناع ٤ / ٣٠٦ .

[٥٧٧] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٦٠٦) وانظر:الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٣٢٧) وأسد الغابة لابن الأثير (١/ ٤٤٣)

[٥٧٨] – المبسوط ١٠ / ١٢٣، والبدائع ٧ / ١١٠، ١١١، وابن عابدين ٤ / ٢٤٦، ومواهب الجليل ٨ / ٢٨٢، الزرقاني ٨ / ٦٨، والشامل ٦ / ٦٤٨، والمغني ٨ / ٥٦٠، والإقناع ٤ / ٣٠٤، وكشاف القناع ٦ / ١٨٠ ط الرياض .

ب – ردّةٌ في الأقْوال.
ج – ردّةٌ في الأفْعال.
د – ردّةٌ في الترْك.
إلاّ أنّ هذه الأقْسام تتداخل،فمن اعْتقد شيْئًا عبّر عنْه بقوْلٍ،أوْ فعْلٍ،أوْ ترْكٍ.

ما يوجب الرّدّة منَ الاعْتقاد:

اتّفق الْفقهاء على أنّ منْ أشْرك باللّه،أوْ جحده،أوْ نفى صفةً ثابتةً منْ صفاته،أوْ أثْبت للّه الْولد فهو مرْتدٌّ كافرٌ[٥٧٩].

وكذلك منْ قال بقدم الْعالم أوْ بقائه،أوْ شكّ في ذلك[٥٨٠].ودليلهمْ قوْله تعالى:{ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص:٨٨].

وقال ابْن دقيق الْعيد:(لأنّ حدوث الْعالم منْ قبيل ما اجْتمع فيه الإجْماع والتّواتر،بالنّقْل عنْ صاحب الشّريعة،فيكْفر بسبب مخالفته النّقْل الْمتواتر)[٥٨١].

ويكْفر منْ جحد الْقرْآن كلّه أوْ بعْضه[٥٨٢]،ولوْ كلمةً.وقال الْبعْض:بل يحْصل الْكفْر بجحْد حرْفٍ واحدٍ[٥٨٣].كما يقع الْكفْر باعْتقاد تناقضه واخْتلافه،أو الشّكّ بإعْجازه،والْقدْرة على مثْله،أوْ إسْقاط حرْمته[٥٨٤]،أو الزّيادة فيه[٥٨٥].

أمّا تفْسير الْقرْآن وتأْويله،فلا يكْفر جاحده،ولا رادّه ؛لأنّه أمْرٌ اجْتهاديٌّ منْ فعْل الْبشر.

---

[٥٧٩] – ابن عابدين ٤ / ٢٢٣، والقليوبي وعميرة ٤ / ١٧٤، والشامل ٢ / ١٧، ومنح الجليل ٤ / ٤٦١، والدسوقي ٤ / ٣٠٢، والإقناع ٤ / ٢٩٧، والإنصاف ١٠ / ٣٢٦، المغني ٨ / ٥٦٥ .

[٥٨٠] – منح الجليل ٤ / ٤٦٢، والشامل ٢ / ١٠٢، وكفاية الأخيار ٢ / ٢٠٢، والعدة ٤ / ٣٠٠ .

[٥٨١] – العدة ٤ / ٣٠٠، وابن عابدين ٤ / ٢٢٣، والإقناع ٤ / ٢٩٧، والإنصاف ١٠ / ٣٢٧، والفروع ٢ / ١٥٩، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٤ .

[٥٨٢] – ابن عابدين ٤ / ٢٢٤، ٢٣٠، والمغني ٨ / ٥٤٨، والإقناع ٤ / ٢٩٧، وفتاوى السبكي ٢ / ٥٧٧ .

[٥٨٣] – الإعلام بقواطع الإسلام ٢ / ٤٢، إقامة البرهان ص ١٣٩ .

[٥٨٤] – ابن عابدين ٤ / ٢٢٢ .

[٥٨٥] – الفروع ٢ / ١٥٩، والإقناع ٤ / ٢٩٧، والآداب ٢ / ٢٩٨ .

وقدْ نصّ ابْن قدامة على أنّ اسْتحْلال دماء الْمعْصومين وأمْوالهمْ،إنْ جرى بتأْويل الْقرْآن – كما فعل الْخوارج – لمْ يكْفرْ صاحبه[٥٨٦].ولعل السّبب أنّ الاسْتحْلال جرى باجْتهادٍ خاطئٍ،فلا يكْفر صاحبه.

وكذلك يعْتبر مرْتدًّا من اعْتقد كذب النّبيّ ﷺ في بعْض ما جاء به،ومن اعْتقد حل شيْءٍ مجْمعٍ على تحْريمه،كالزّنا وشرْب الْخمْر،أوْ أنْكر أمْرًا معْلومًا من الدّين بالضّرورة[٥٨٧].

حكْم سبّ اللّه تعالى:

اتّفق الْفقهاء على أنّ منْ سبّ اللّه تعالى كفر،سواءٌ كان مازحًا أوْ جادًّا أوْ مسْتهْزئًا[٥٨٨].

وقدْ قال تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) } [التوبة].

واخْتلفوا في قبول توْبته:

فذهب الْحنفيّة [٥٨٩]والْحنابلة إلى قبولها [٥٩٠]،وهو الرّاجح عنْد الْمالكيّة[٥٩١].

و لمْ نجدْ للشّافعيّة تفْرقةً بيْن الرّدّة بذلك وبيْن الرّدّة بغيْره.

حكْم سبّ الرّسول ﷺ:

السّبّ هو الْكلام الّذي يقْصد به الانْتقاد والاسْتخْفاف،وهو ما يفْهم منْه السّبّ في عقول النّاس،على اخْتلاف اعْتقاداهمْ،كاللّعْن والتّقْبيح[٥٩٢].

وحكْم سابّه ﷺ أنّه مرْتدٌّ بلا خلافٍ[٥٩٣].

---

[٥٨٦] – المغني ٨ / ٥٤٨ .

[٥٨٧] – ابن عابدين ٤ / ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٠، والمغني ٨ / ٥٤٨، والإقناع ٤ / ٢٩٧، وفتاوى السبكي ٢ / ٥٧٧ .

[٥٨٨] – نيل الأوطار ٨ / ١٩٤ – ١٩٥، والسيف المشهور ورقة (٢)، والمغني ٨ / ٥٦٥، والفروع ٢ / ١٦٠، والخرشي ٨ / ٧٤، والصارم المسلول ص ٥٥٠، والشروط العمرية ص ١٤١ .

[٥٨٩] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٢ .

[٥٩٠] – المغني ٨ / ٥٦٥، والصارم المسلول ص ٥٥٠،ونقل ابن مفلح قبول التوبة بشرط أن لا تتكرر منه ثلاثًا (الفروع ٢ / ١٦٠) .

[٥٩١] – الخرشي ٨ / ٧٤ .

[٥٩٢] – الصارم المسلول ص ٥٥٦ .

ويعْتبر سابًّا له ﷺ كل منْ ألْحق به ﷺ عيْبًا أوْ نقْصًا،في نفْسه،أوْ نسبه،أوْ دينه،أوْ خصْلة منْ خصاله،أو ازْدراه،أوْ عرّض به،أوْ لعنه[٥٩٤]،أوْ شتمه،أوْ عابه،أوْ قذفه،أو اسْتخفّ به،ونحْو ذلك[٥٩٥].

هل يقْتل السّابّ ردّةً أمْ حدًّا ؟

قال الْحنفيّة [٥٩٦]والْحنابلة [٥٩٧]وابْن تيْميّة[٥٩٨]:إنّ سابّ النّبيّ ﷺ يعْتبر مرْتدًّا،كأيّ مرْتدٍّ ؛لأنّه بدّل دينه فيسْتتاب،وتقْبل توْبته.

أمّا الشّافعيّة – فيما ينْقله السّبْكيّ – فيروْن أنّ سبّ النّبيّ ﷺ ردّةٌ وزيادةٌ،وحجّتهمْ أنّ السّابّ كفر أوّلاً،فهو مرْتدٌّ،وأنّه سبّ النّبيّ ﷺ فاجْتمعتْ على قتْله علّتان كلٌّ منْهما توجب قتْله[٥٩٩]

وصرّح الْمالكيّة بأنّ سابّ النّبيّ ﷺ لا يسْتتاب إلاّ أنْ يكون كافرًا فيسْلم[٦٠٠].

حكْم سبّ الأْنْبياء عليْهمْ الصّلاة والسّلام:

من الأْنْبياء منْ همْ محل اتّفاقٍ على نبوّهمْ،فمنْ سبّهمْ فكأنّما سبّ نبيّنا ﷺ وسابّه كافرٌ،فكذا كل نبيٍّ مقْطوعٍ بنبوّته،وعلى ذلك اتّفق الْفقهاء[٦٠١].

وإنْ كان نبيًّا غيْر مقْطوعٍ بنبوّته،فمنْ سبّه زجر،وأدّب ونكّل به،لكنْ لا يقْتل،صرّح بهذا الْحنفيّة[٦٠٢].

---

[٥٩٣] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٢ – ٢٣٧، وفتاوى السبكي ٢ / ٥٧٣، والسيف المسلول ٤ – ١١، ٧٩، والشروط العمرية ص ٢١٤، والشامل ٢ / ١٧١ .

[٥٩٤] – السيف المسلول ورقة ٧٩ .

[٥٩٥] – الشامل ٢ / ١٧١ .

[٥٩٦] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٣ – ٢٣٥، والسيف المشهور ورقة ٢ .

[٥٩٧] – الهداية للكلوذاني ورقة (٢٠٢) .

[٥٩٨] – الصارم المسلول ص ٥٣، ٢٤٥، ٢٩٣، ٤٢٣، ٥٢٧ .

[٥٩٩] – السيف المسلول ورقة (٢)، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٩ .

[٦٠٠] – الدسوقي ٤ / ٣٠٩ .

[٦٠١] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٥، والسيف المشهور ورقة (٢)، والشامل ٢ / ١٧١،والصارم المسلول ص ٥٧٠، والقليوبي ٤ / ١٧٥ .

[٦٠٢] – السيف المشهور ورقة (٢) .

حكْم سبّ زوْجات النّبيّ ﷺ:

اتّفق الْفقهاء على أنّ منْ قذف عائشة رضي اللّه عنْها،فقدْ كذّب صريح الْقرْآن الّـذي نزل بحقّها،وهو بذلك كافرٌ[٦٠٣]قال تعالى في حـديث الإْفْـك بعْـد أنْ برّأهـا اللّـه منْه:{يَعظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لمثْله أَبَدًا إنْ كُنتُمْ مُؤْمنينَ } [النور:١٧].

فمنْ عاد لذلك فليْس بمؤْمنٍ[٦٠٤].

وهل تعْتبر مثْلها سائر زوْجات النّبيّ ﷺ ورضي اللّه عنْهنّ ؟ قال الْحنفيّة والْحنابلـة في الصّحيح واخْتاره ابْن تيْميّـة:إنّهـنّ مثْلـها في ذلـك[٦٠٥].واسْـتدل لـذلك بقوْلـه تعالى:{الْخَبيثَاتُ للْخَبيثينَ وَالْخَبيثُونَ للْخَبيثَات وَالطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبينَ وَالطَّيِّبُـونَ للطَّيِّبَـات أُولَئكَ مُبَرَّءُونَ ممَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفرَةٌ وَرزْقٌ كَريمٌ } [النور:٢٦].

والطّعْن بهنّ يلْزم منْه الطّعْن بالرّسول ﷺ والْعار عليْه،وذلك ممْنوعٌ.

والْقوْل الآْخر وهو مذْهبٌ للشّافعيّة والرّواية الأْخْرى للْحنابلة:إنّهنّ – سوى عائشـة – كسائر الصّحابة،وسابّهنّ يجْلد،لأنّه قاذفٌ[٦٠٦].

أمّا سابّ الْخلفاء فهو لا يكْفر،وتوْبته مقْبولةٌ[٦٠٧].

حكْم منْ قال لمسْلمٍ يا كافر:

عَنْ عَبْد اللّه بْن دينَارٍ أَنَّهُ سَمعَ ابْنَ عُمَرَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" أَيُّمَـا امْـرِئٍ قَـالَ لأَخيه:يَا كَافرُ،فَقَدْ بَاءَ بهَا أَحَدُهُمَا،إنْ كَانَ كَمَا قَالَ،وَإلَّا رَجَعَتْ عَلَيْه "[٦٠٨]

وقال الْحنفيّة بفسْق الْقائل.قال السّمرْقنْديّ:وأمّا التّعْزير فيجب في جنايةٍ ليْستْ بموجبـةٍ للْحدّ،بأنْ قال:يا كافر،أوْ يا فاسق،أوْ يا فاجر[٦٠٩].

---

[٦٠٣] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٧، وفتاوى السبكي ٢ / ٥٥٢، والإقناع ٤ / ٢٩٩، والخرشي ٨ / ٧٤، والصارم المسلول ٥٧١ .

[٦٠٤] – الصارم المسلول / ٥٧١ .

[٦٠٥] – السيف المشهور ورقة (٢)، والسيف المسلول ورقة ٨٢، والصارم المسلول ٥٧١ .

[٦٠٦] – أسنى المطالب ٤ / ١١٧، وانظر المراجع السابقة .

[٦٠٧] – ابن عابدين ٤ / ٢٣٦ – ٢٣٧ .

[٦٠٨] – صحيح مسلم (١/ ٧٩)(٦٠)

[٦٠٩] – تحفة الفقهاء ٣ / ٢٣١، الإقناع ٤ / ٢٩٧، والفروع ٢ / ١٦١ .

وقال الْحنابلة منْ أطْلق الشّارع كفْره،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَالْحَسَنِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" مَنْ أَتَى كَاهِنًا،أَوْ عَرَّافًا،فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ،فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ"[610].

فهذا كفْرٌ لا يخْرج عن الإسْلام بل هو تشْديدٌ.

وقال الشّافعيّة:منْ كفّر مسْلمًا ولوْ لذنْبه كفر ؛لأنّه سمّى الإسْلام كفْرًا،ولخبر مسْلمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ،وَمَنِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا،وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ،وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ،أَوْ قَالَ:عَدُوُّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْه "[611].أيْ رجع عليْه هذا إنْ كفّره بلا تأْويلٍ للْكفْر بكفْر النّعْمة أوْ نحْوه وإلاّ فلا يكْفر،وهذا ما نقله الأصْل عن الْمتولّي،وأقرّه،والأوْجه ما قاله النّوويّ في شرْح مسْلمٍ أنّ الْخبر محْمولٌ على الْمسْتحل فلا يكْفر غيْره،وعليْه يحْمل قوْله في أذْكاره أنّ ذلك يحرّم تحْريمًا مغلّظًا[612].

ما يوجب الرّدّة من الأفْعال:

اتّفق الْفقهاء على أنّ إلْقاء الْمصْحف كلّه في محلٍّ قذرٍ يوجب الرّدّة ؛لأنّ فعْل ذلك اسْتخْفافٌ بكلام اللّه تعالى،فهو أمارة عدم التّصْديق[613].

وقال الشّافعيّة والْمالكيّة:وكذا إلْقاء بعْضه.وكذا كل فعْلٍ يدل على الاسْتخْفاف بالْقرْآن الْكريم[614].

كما اتّفقوا على أنّ منْ سجد لصنمٍ،أوْ للشّمْس،أوْ للْقمر فقدْ كفر[615].

---

[610] - مسند أحمد ط الرسالة (١٥/ ٣٣١)(٩٥٣٦) صحيح

[611] - صحيح مسلم (١/ ٧٩) ١١٢ - (٦١)

[ش (ليس من رجل ادعى لغير أبيه) فيه تأويلان أحدهما أنه في حق المستحيل والثاني كفر النعمة والإحسان وحق الله تعالى وحق أبيه وليس المراد الكفر الذي يخرجه من ملة الإسلام والتعبير بالرجل جري مجري الغالب وإلا فالمرأة كذلك (حار عليه) باء ورجع وحار بمعنى واحد]

[612] - أسنى المطالب ٤ / ١١٨ - ط المكتبة الإسلامية .

[613] - ابن عابدين ٤ / ٢٢٢، والقليوبي ٤ / ١٧٤، والإعلام ٢ / ٣٨، وكفاية الأخيار ٢ / ٢٠١، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٤، وشرح منح الجليل ٤ / ٤٦١، والخرشي ٨ / ٦٢ .

[614] - الإعلام ٢ / ٣٨، وشرح منح الجليل ٤ / ٤٦١، وشرح الخرشي ٨ / ٦٢ .

[615] - ابن عابدين ٤ / ٢٢٢، القليوبي ٤ / ١٧٤، والإنصاف ١٠ / ٣٢٦، والشامل لبهرام ٢ / ١٧٠ .

ومنْ أتى بفعْلٍ صريحٍ في الاسْتهْزاء بالإسْلام،فقدْ كفر.قال بهذا الْحنفيّة [616] ودليلهمْ قوْله تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)} [التوبة:٦٥،٦٦].

الرّدّة لترْك الصّلاة:

لا خلاف في أنّ منْ ترك الصّلاة جاحدًا لها يكون مرْتدًّا [617]،وكذا الزّكاة والصّوْم والْحجّ ؛لأنّها من الْمجْمع عليْه الْمعْلوم من الدّين بالضّرورة [618].

وأمّا تارك الصّلاة كسلاً ففي حكْمه ثلاثة أقْوال:

أحدها:يقْتل ردّةً،وهي روايةٌ عنْ أحْمد وقوْل سعيد بْن جبيْر،وعامرٍ الشّعْبيّ،وإبْراهيم النّخعيّ،وأبي عمْرٍو،والأوْزاعيّ،وأيّوب السّخْتيانيّ،وعبْد اللّه بْن الْمبارك،وإسْحاق بْن راهويْه،وعبْد الْملك بْن حبيبٍ من الْمالكيّة،وهو أحد الْوجْهيْن منْ مذْهب الشّافعيّ،وحكاه الطّحاويّ عن الشّافعيّ نفْسه،وحكاه أبو محمّد بْن حزْمٍ عنْ عمر بْن الْخطّاب،ومعاذ بْن جبلٍ،وعبْد الرّحْمن بْن عوْفٍ،وأبي هريْرة،وغيْرهمْ من الصّحابة.

والْقوْل الثّاني:يقْتل حدًّا لا كفْرًا،وهو قوْل مالكٍ والشّافعيّ،وهي روايةٌ عنْ أحْمد [619].

والْقوْل الثّالث:أنّ منْ ترك الصّلاة كسلاً يكون فاسقًا ويحْبس حتّى يصلّي،وهو الْمذْهب عنْد الْحنفيّة [620].

جنايات الْمرْتدّ والْجناية عليْه:

جنايات الْمرْتدّ على غيْره لا تخْلو:إمّا أنْ تكون عمْدًا أوْ خطأً،وكلٌّ منْها،إمّا أنْ تقع على مسْلمٍ،أوْ ذمّيٍّ،أوْ مسْتأْمنٍ،أوْ مرْتدٍّ مثْله.

---

[616] – ابن عابدين ٤ / ٢٢٢ .

[617] – ابن القيم في كتابه :" الصلاة وحكم تاركها " .

[618] – ابن عابدين ١ / ٣٥٢ – ٣٥٣، ورسالة بدر الرشيد ورقة (٨)، وعمدة القاري ٢٤ / ٨١، والإنصاف ١ / ٤٠١، ١٠ / ٣٢٧، والمغني ٨ / ٥٤٧، والإقناع ١ / ٧١، ومنتهى الإرادات ١ / ٥٢، ٢ / ٢٩٩ .

[619] – كتاب الصلاة لابن القيم ٤٢، القليوبي وعميرة ١ / ٣١٩، كفاية الأخيار ٢ / ٢٠٤، والمغني ٨ / ٤٤٤، والشرح الصغير ١ / ٢٣٨ .

[620] – ابن عابدين ١ / ٣٥٢ – ٣٥٣

وهذه الْجنايات إمّا أنْ تكون على النّفْس بالْقتْل،أوْ على ما دونها،كالْقطْع والْجـرْح،أوْ على الْعرْض كالزّنى والْقذْف،أوْ على الْمال كالسّرقة وقطْع الطّريق.وهذه الْجنايات قـدْ تقع في بلاد الإْسْلام،ثمّ يهْرب الْمرْتدّ إلى بلاد الْحرْب،أوْ لا يهْرب،أوْ تقـع في بـلاد الْحرْب،ثمّ ينْتقل الْمرْتدّ إلى بلاد الإْسْلام.

وقدْ تقع منْه هذه كلّها في إسْلامه،أوْ ردّته،وقدْ يسْتمرّ على ردّته أوْ يعود مسْـلمًا،وقدْ تقع منْه منْفردًا،أوْ في جماعة،أوْ أهْل بلدٍ.ومثْل هذا يمْكن أنْ يقال في الْجناية على الْمرْتدّ.

جناية الْمرْتدّ على النّفْس:

إذا قتل مرْتدٌّ مسْلمًا عمْدًا فعليْه الْقصاص،اتّفاقًا[٦٢١].

أمّا إذا قتل الْمرْتدّ ذمّيًّا أوْ مسْتأْمنًا عمْدًا فيقْتل به عنْد الْحنفيّة [٦٢٢]والْحنابلـة [٦٢٣]وهـو أظْهر قوْلي الشّافعيّ [٦٢٤]؛لأنّه أسْوأ حالاً من الذّمّيّ،إذ الْمرْتدّ مهْـدر الـدّم ولا تحـل ذبيحته،ولا مناكحته،ولا يقرّ بالْجزْية.

ولا يقْتل عنْد الْمالكيّة وهو الْقوْل الأْخر للشّافعيّ لبقاء علْقة الإْسْلام ؛لأنّه لا يقرّ علـى ردّته[٦٢٥].

وإذا قتل الْمرْتدّ حرًّا مسْلمًا أوْ ذمّيًّا خطأً وجبت الدّية في ماله،ولا تكون علـى عاقلتـه عنْد الْحنفيّة والشّافعيّة والْحنابلة.

والدّية يشْترط لها عصْمة الدّم لا الإْسْلام عنْد الْحنفيّة والشّافعيّة والْحنابلة ؛لأنّه قدْ حـل دمه وصار بمنْزلة أهْل الْحرْب[٦٢٦].

---

٦٢١ – الفتاوى الهندية ٧ / ٢، والبدائع ٧ / ٢٣٣، والمغني ٨ / ٢٥٥، ٥٥٤، والإقناع ٤ / ٣٠٦، والهداية للكلوذاني ٢٠٢، والأم ٦ / ١٥٣، ومنح الجليل ٤ / ٤٦٧، والخرشي ٨ / ٦٦ .

٦٢٢ – المسلم يقتل بالذمي عند الحنفية، فمن باب أولى أن يقتل به المرتد .البدائع ٧ / ٢٣٧ والفتاوى الهندية ٧ / ٣ .

٦٢٣ – المغني ٨ / ٢٥٥، والإقناع ٤ / ١٧٥ .

٦٢٤ – الأم ٦ / ٣٣، وعدم المكافأة يتأتى من أن المرتد لا يقر على ردته، بل يحمل على الإسلام، والشامل لابن الصباغ ٦ / ١٤، ومغني المحتاج ٤ / ١٦ .

٦٢٥ – الشامل لبهرام ٨ / ٧١، والخرشي ٨ / ٦٦، ومنح الجليل ٤ / ٤٦٧، ومغني المحتاج ٤ / ١٦ .

٦٢٦ – المبسوط ١ / ١٠٨، وابن عابدين ٤ / ٢٥٢، والشامل لابن الصباغ ٦ / ٦٦، والأم ٦ / ١٥٣، والمغني ٨ / ٥٥٤، والإقناع ٤ / ٣٠٦ .

وقال الْمالكيّة:بأنّ الضّمان على بيْت الْمال ؛لأنّ بيْت الْمال يأْخذ أرْش الْجناية عليْه ممّنْ جنى فكما يأْخذ ماله يغْرم عنْه.وهذا إنْ لمْ يتبْ.فإنْ تاب فقيل:في ماله،وقيل:على عاقلته،وقيل:على الْمسْلمين،وقيل:على من ارْتدّ إليْهمْ[٦٢٧] .

جناية الْمرْتدّ على ما دون النّفْس:

قال الْمالكيّة:لا فرْق في جناية الْمرْتدّ بيْن ما إذا كانتْ على النّفْس أوْ على ما دونها،ولا يقْتل الْمرْتدّ بالذّمّيّ،وإنّما عليْه الدّية في ماله لزيادته على الذّمّيّ بالإْسْلام الْحكْميّ.

وقال ابْن قدامة:يقْتل الْمرْتدّ بالْمسْلم والذّمّيّ.وإنْ قطع طرفًا منْ أحدهما فعليْه الْقصاص فيه أيْضًا.

وقال بعْض أصْحاب الشّافعيّ:لا يقْتل الْمرْتدّ بالذّمّيّ ولا يقْطع طرفه بطرفه ؛لأنّ أحْكام الإْسْلام في حقّه باقيةٌ بدليل وجوب الْعبادات عليْه ومطالبته بالإْسْلام.

قال ابْن قدامة:ولنا:أنّه كافرٌ فيقْتل بالذّمّيّ كالأْصْليّ.

وفي مغْني الْمحْتاج:الأْظْهر قتْل الْمرْتدّ بالذّمّيّ لاسْتوائهما في الْكفْر.بل الْمرْتدّ أسْوأ حالاً من الذّمّيّ لأنّه مهْدر الدّم فأوْلى أنْ يقْتل بالذّمّيّ[٦٢٨] .

زنى الْمرْتدّ:

إذا زنى مرْتدٌّ أوْ مرْتدّةٌ وجب عليْه الْحدّ،فإنْ لمْ يكنْ محْصنًا جلد.وإنْ كان محْصنًا ففي زوال الإْحْصان بردّته خلافٌ.أساسه الْخلاف في شروط الإْحْصان،هل منْ بيْنها الإْسْلام أمْ لا ؟

قال الْحنفيّة والْمالكيّة:من ارْتدّ بطل إحْصانه،إلاّ أنْ يتوب أوْ يتزوّج ثانيةً[٦٢٩] .

وقال الشّافعيّة والْحنابلة وأبو يوسف:إنّ الرّدّة لا تؤثّر في الإْحْصان ؛لأنّ الإْسْلام ليْس منْ شروط الإْحْصان[٦٣٠] .

---

٦٢٧ - الخرشي ٨ / ٦٦، والبدائع ٧ / ٢٥٢، والشامل لبهرام ٢ / ١٧١ .

٦٢٨ - العدوي على الخرشي ٨ / ٦٦، ومنح الجليل ٤ / ٤٦٧، والمواق بهامش الحطاب ٦ / ٢٨٢، والمغني ٧ / ٦٥٧ - ٦٥٨ و ٨ / ١٤٩، ومغني المحتاج ٤ / ١٦ - ١٧، والمهذب ٢ / ٢٢٥، وينظر البدائع ٧ / ١٣٧ - ٢٣٦، ٢٥٣

٦٢٩ - التحفة ٣ / ٢١٥، والخرشي ٨ / ٦٨، ومنح الجليل ٤ / ٤٧٢ .

قذْف الْمرْتدّ غيْره:

إذا قذف الْمرْتدّ غيْره،وجب عليْه الْحدّ بشـــروطه،إلاّ أنْ يحْصـــل منْـــه ذلـــك في دار الْحرْب،حيْث لا سلْطة للْمسْلمين.والْقضيّة مبْنيّةٌ على شرائط الْقذْف،وليْس منْ بيْنـــها إسْلام الْقاذف[٦٣١].

إتْلاف الْمرْتدّ الْمال:

إذا اعْتدى مرْتدٌّ على مال غيْره – في بلاد الإْسْلام – فهو ضامنٌ بلا خلافٍ ؛لأنّ الـــرّدّة جنايةٌ،وهي لا تمْنح صاحبها حقّ الاعْتداء[٦٣٢].

السّرقة وقطْع الطّريق:

إذا سرق الْمرْتدّ مالاً،أوْ قطع الطّريق،فهو كغيْره مؤاخذٌ بذلك ؛لأنّه ليْس مـــنْ شـــرائط السّرقة أوْ قطْع الطّريق الإْسْلام.لذا فالْمسْلم والْمرْتدّ في ذلك سواءٌ[٦٣٣].

مسْئوليّة الْمرْتدّ عنْ جناياته قبْل الرّدّة:

إذا جنى مسْلمٌ على غيْره،ثمّ ارْتدّ الْجاني يكون مؤاخذًا بكل ما فعل سواءٌ اسْتمرّ علـــى ردّته أوْ تاب عنْها[٦٣٤].

الارْتداد الْجماعيّ:

الْمقْصود بالارْتداد الْجماعيّ:هو أنْ تفارق الإْسْلام جماعةٌ منْ أهْله،أوْ أهْل بلـــدٍ.كمـــا حدث على عهْد الْخليفة الرّاشد أبي بكْرٍ رضي اللّه عنْه.

فإنْ حصل ذلك،فقد اتّفق الْفقهاء على وجوب قتالهمْ مسْتدلّين بما فعله أبو بكْرٍ بأهْـــل الرّدّة[٦٣٥].

---

[٦٣٠] – الشامل للصباغ ٦ / ١٥،وكفاية الأخيار ٢ / ١٧٩، والإنصاف ١٠ / ٣٣٧، والهداية للكلوذاني ٢٠٤،والتحفة ٣ / ٢١٥ .

[٦٣١] – البدائع ٧ / ٤٠، ٤٥، والخرشي ٨ / ٦٦، وكفاية الأخيار ٢ / ١٨٤

[٦٣٢] – ابن عابدين ٤ / ٢٥٢، والكافي ٣ / ١٦٣، والخرشي المالكي ٨ / ٦٦، والشامل ٦ / ٦٠٢، والهداية للكلوذاني ٢٠٢، والشامل لابن الصباغ ٦ / ١٠٢ .

[٦٣٣] – ابن عابدين ٤ / ٢٥٢ .

[٦٣٤] – المبسوط ١ / ١٠٨، وابن عابدين ٤ / ٢٥٢، الأم ٦ / ١٥٣، والشامل لابن الصباغ ٦ / ١٤، والإقناع ٤ / ١٧٥ وقد قال بقتل المرتد، تقدمت ردته، أو تأخرت، منح الجليل ٤ / ٤٦٧، والمغني ٨ / ٥٦٤ .

فعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّه بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُود،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَب،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّه،وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّه "فَقَالَ:وَاللَّه لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَة وَالزَّكَاة،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَال،وَاللَّه لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«فَوَاللَّه مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[٦٣٦]

ثمّ اخْتلفوا بمصير دارهمْ على قوْليْن:

الأوّل للْجمْهور (الْمالكيّة والشّافعيّة والْحنابلة وأبي يوسف ومحمّد من الْحنفيّة):إذا أظْهروا أحْكام الشّرْك فيها،فقدْ صارتْ دارهمْ دار حرْبٍ ؛لأنّ الْبقْعة إنّما تنْسب إليْنا،أوْ إليْهمْ باعْتبار الْقوّة والْغلبة.فكل موْضعٍ ظهر فيه أحْكام الشّرْك فهو دار حرْبٍ،وكل موْضعٍ كان الظّاهر فيه أحْكام الإْسْلام،فهو دار إسْلامٍ.

وعنْد أبي حنيفة رضي اللّه عنْه إنّما تصير دار الْمرْتدّين دار حرْبٍ بثلاث شرائط:

أوّلاً:أنْ تكون متاخمةً أرْض الشّرْك،ليْس بيْنها وبيْن أرْض الْحرْب دارٌ للْمسْلمين.

ثانيًا:أنْ لا يبْقى فيها مسْلمٌ آمنٌ بإيمانه،ولا ذمّيٌّ آمنٌ بأمانه.

ثالثًا:أنْ يظْهروا أحْكام الشّرْك فيها.

(فأبو حنيفة يعْتبر تمام الْقهْر والْقوّة ؛لأنّ هذه الْبلْدة كانتْ منْ دار الإْسْلام محْرزةً للْمسْلمين فلا يبْطل ذلك الإْحْراز،إلاّ بتمام الْقهْر من الْمشْركين،وذلك باسْتجْماع الشّرائط الثّلاث)[٦٣٧].

[٦٣٥] - المبسوط ١٠ / ١١٣، والأم ٦ / ٣٢، ونيل الأوطار ٧ / ٢١٨ .

[٦٣٦] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٥)(١٣٩٩ و١٤٠٠) وصحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

[ش (عناقا) الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.(شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم.(فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه]

[٦٣٧] - المبسوط ١٠ / ١١٣، وابن عابدين ٤ / ١٧٤، والمغني ٨ / ٥٥٤، واختلاف الأئمة ٢٧٠، والإفصاح ٣٤٨

الْجناية على الْمرْتدّ:

اتّفق الْفقهاء على أنّه إذا ارْتدّ مسْلمٌ فقدْ أهْدر دمه،لكنّ قتْله للإْمام أوْ نائبه،ومنْ قتله من الْمسْلمين عزّر فقطْ ؛لأنّه افْتات على حقّ الإْمام ؛لأنّ إقامة الْحدّ له[٦٣٨].

وأمّا إذا قتله ذمّيٌّ،فذهب الْجمْهور (الْحنفيّة والْمالكيّة والْحنابلة والشّافعيّة في الأْظْهر) إلى أنّه لا يقْتصّ من الذّمّيّ.

وذهب الشّافعيّة في الْقوْل الأْخر إلى أنّه يقْتصّ من الذّمّيّ[٦٣٩].

الْجناية على الْمرْتدّ فيما دون النّفْس:

اتّفق الْفقهاء على أنّ الْجناية على الْمرْتدّ هدرٌ ؛لأنّه لا عصْمة له [٦٤٠].

أمّا إذا وقعت الْجناية على مسْلمٍ ثمّ ارْتدّ فسرتْ ومات منْها،أوْ وقعتْ على مرْتدٍّ ثمّ أسْلم فسرتْ ومات منْها ففيها أقْوالٌ [٦٤١]تنْظر في باب " الْقصاص " منْ كتب الْفقْه.

قذْف الْمرْتدّ:

اتّفق الْفقهاء على عدم وجوب الْحدّ على قاذف الْمرْتدّ،لأنّ منْ شروط وجوب حدّ الْقذْف:أنْ يكون الْمقْذوف مسْلمًا[٦٤٢].

ثبوت الرّدّة:

تثْبت الرّدّة بالإْقْرار أوْ بالشّهادة.

وتثْبت الرّدّة عنْ طريق الشّهادة،بشرْطيْن:

أ - شرْط الْعدد:

---

[٦٣٨] - المبسوط ١٠ / ١٠٦، والفتاوى الهندية ٧ / ٣، والأم ٦ / ١٥٤، والإنصاف ٩ / ٤٦٢، والهداية لأبي الخطاب ٢٠٣، والشامل لبهرام ٢ / ١٥٨ .

[٦٣٩] - الشامل لبهرام ٢ / ١٥٨، منح الجليل ٤ / ٣٤٤، الإنصاف ٩ / ٤٦٢، البدائع ٧ / ٢٣٦، مغني المحتاج ٤ / ١٥، ١٦، ١٧

[٦٤٠] - المبسوط ١٠ / ١٠٦، والفتاوى الهندية ٧ / ٣، الأم ٦ / ١٥٤، الإنصاف ٩ / ٤٦٢، الشامل لبهرام ٢ / ١٥٨ .

[٦٤١] - / ١٠٧، البدائع ٧ / ٢٥٣، والشامل ٢ / ١٥٩، والمغني ٨ / ٢٥٣ .

[٦٤٢] - البدائع ٧ / ٤٠، والتحفة ٣ / ٢٢٥، وكفاية الأخيار ٢ / ١٨٤، والإنصاف ١٠ / ٢٠٢، الأم ٦ / ١٥١ .

اتّفق الْفقهاء على الاكْتفاء بشاهديْن في ثبوت الرّدّة،ولمْ يخالفْ في ذلك إلاّ الْحسن،فإنّه اشْترط شهادة أرْبعة[٦٤٣].

ب – تفْصيل الشّهادة:

يجب التّفْصيل في الشّهادة على الرّدّة بأنْ يبيّن الشّهود وجْه كفْره،نظرًا للْخلاف في موجباتها،وحفاظًا على الأرْواح[٦٤٤].

وإذا ثبتت الرّدّة بالإقْرار وبالشّهادة فإنّه يسْتتاب،فإنْ تاب وإلاّ قتل.

وإنْ أنْكر الْمرْتدّ ما شهد به عليْه اعْتبر إنْكاره توْبةً ورجوعًا عنْد الْحنفيّة فيمْتنع الْقتْل في حقّه[٦٤٥].

وعنْد الْجمْهور:يحْكم عليْه بالشّهادة ولا ينْفعه إنْكاره،بل يلْزمه أنْ يأْتي بما يصير به الْكافر مسْلمًا[٦٤٦].

اسْتتابة الْمرْتدّ

حكْمها:

ذهب أبو حنيفة والشّافعيّ – في قوْل – وأحْمد في رواية والْحسن الْبصْريّ إلى أنّ اسْتتابة الْمرْتدّ غيْر واجبة.بل مسْتحبّةٌ كما يسْتحبّ الإمْهال،إنْ طلب الْمرْتدّ ذلك،فيمْهل ثلاثة أيّامٍ[٦٤٧].

وعنْد مالكٍ تجب الاسْتتابة ويمْهل ثلاثة أيّامٍ.

وهو الْمذْهب عنْد الْحنابلة[٦٤٨]،وعنْد الشّافعيّ في أظْهر الأقْوال يجب الاسْتتابة وتكون في الْحال فلا يمْهل[٦٤٩].

---

٦٤٣ – المغني ٨ / ٥٥٧ .

٦٤٤ – منح الجليل ٤ / ٤٦٥، الخرشي ٨ / ٦٤ .

٦٤٥ – ابن عابدين ٤ / ٢٤٦ .

٦٤٦ – مغني المحتاج ٤ / ١٣٨، المغني ٨ / ١٤٠ .

٦٤٧ – التحفة ٣ / ٥٣٠، والبدائع ٧ / ١٣٤، والمبسوط ١٠ / ٩٨، وابن عابدين ٤ / ٢٢٥ .

٦٤٨ – لطائف الإشارات ١٣٦، وتفسير القرطبي ٣ / ٤٧، ورحمة الأمة ٢٦٩، والخرشي ٨ / ٦٥، ومنح الجليل ٤ / ٤٦٥، والشامل لبهرام ٢ / ١٧، والإنصاف ١٠ / ٣٢٨، وهداية الراغب ٥٣٨، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٥ .

٦٤٩ – الأم ٦ / ٣٢، والمهذب ٢ / ٢٢٣، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٩، ١٤٠

وثبتتْ الاسْتتابة فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَت:ارْتَدَّتِ امْرَأَةٌ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ «أَنْ تُسْتَتَابَ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلَّا قُتِلَتْ»[٦٥٠].

وعَنِ الْحَسَنِ ؛فِي الْمُرْتَدَّةِ:تُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلاَّ قُتِلَتْ[٦٥١].

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ ؛فِي الْمَرْأَةِ تَرْتَدُّ عَنِ الإِسْلاَمِ،قَالَ:تُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلاَّ قُتِلَتْ.[٦٥٢]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ فِي الْمَرْأَةِ تَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهَا،قَالَ:«تُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَتْ وَإِلَّا قُتِلَتْ»[٦٥٣]

عَنْ عَلِيٍّ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ ثَلَاثًا،ثُمَّ قَرَأَ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [النساء:١٣٧][٦٥٤]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ ثَلَاثًا،فَإِنْ عَادَ قُتِلَ"[٦٥٥]

وعَمَّنْ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ،يَقُولُ:" يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ ثَلَاثًا"[٦٥٦]

وعَنْ عُثْمَانَ،قَالَ:يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ ثَلاَثًا.[٦٥٧]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ فَتْحُ تُسْتَرَ وَتُسْتَرُ مِنْ أَرْضِ الْبَصْرَةِ سَأَلَهُمْ:هَلْ مِنْ مُغَرِّبَةٍ،قَالُوا:رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ فَأَخَذْنَاهُ،قَالَ:مَا صَنَعْتُمْ بِهِ،قَالُوا:قَتَلْنَاهُ،قَالَ:أَفَلاَ أَدْخَلْتُمُوهُ بَيْتًا وَأَغْلَقْتُمْ عَلَيْهِ بَابًا وَأَطْعَمْتُمُوهُ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفًا،ثُمَّ اسْتَتَبْتُمُوهُ ثَلاَثًا فَإِنْ تَابَ وَإِلاَّ قَتَلْتُمُوهُ،ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ لَمْ أَشْهَدْ وَلَمْ آمُرْ وَلَمْ أَرْضَ إِذَا بَلَغَنِي،أَوَ قَالَ:حِينَ بَلَغَنِي.[٦٥٨]

كيْفيّة توْبة الْمرْتدّ:

---

[٦٥٠] - سنن الدارقطني (٤/ ١٢٨)(٣٢١٤) ضعيف

[٦٥١] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٩٨)(٢٩٦٠٥) صحيح

[٦٥٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٩٨)(٢٩٦٠٧) حسن

[٦٥٣] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ١٧٦)(١٨٧٢٥) صحيح

[٦٥٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦٠)(١٦٨٨٩) ضعيف

[٦٥٥] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦٠)(١٦٨٩٠) صحيح

[٦٥٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦٠)(١٦٨٩١) فيه جهالة

[٦٥٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٩٤)(٢٩٥٩٠) فيه انقطاع

[٦٥٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٤٢)(٣٣٤٢٤) فيه كلام

قال الْحنفيّة:توْبة الْمرْتدّ أنْ يتبرّأ عن الْأدْيان سوى الْإسْلام،أوْ عمّا انْتقل إليْه بعْد نطْقه بالشّهادتيْن،ولوْ أتى بالشّهادتيْن على وجْه الْعادة أوْ بدون التّبرّي لمْ ينْفعْه ما لمْ يرْجعْ عمّا قال إذْ لا يرْتفع بهما كفْره.

قالوا:إنْ شهد الشّاهدان على مسْلمٍ بالرّدّة وهو منْكرٌ لا يتعرّضْ له لا لتكْذيب الشّهود،بل لأنّ إنْكاره توْبةٌ ورجوعٌ،فيمْتنع الْقتْل فقطْ وتثْبت بقيّة أحْكام الرّدّة.

قال ابْن عابدين:ويحْتمل أنْ يكون الْإنْكار مع الْإقْرار بالشّهادتيْن[٦٥٩].

وإذا نطق الْمرْتدّ بالشّهادتيْن:صحّتْ توْبته عنْد الْحنفيّة،والشّافعيّة،والْحنابلة[٦٦٠]،عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ،وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "

فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»متّفقٌ عليْه[٦٦١].

وحيْث إنّ الشّهادة يثْبت بها إسْلام الْكافر الْأصْليّ فكذا الْمرْتدّ.فإذا ادّعى الْمرْتدّ الْإسْلام،ورفض النّطْق بالشّهادتيْن،لا تصحّ توْبته[٦٦٢].

---

[٦٥٩] - ابن عابدين ٤ / ٢٤٦ .

[٦٦٠] - المبسوط لمحمد ١٤٣، المبسوط للسرخسي ١٠ / ١١٢)، وابن عابدين ٤ / ٢٢٦، وقال :(يكفي للآخرة التشهد، وللدنيا التبري مما كان يعتقد) والشامل لابن الصباغ ٢ / ١٧١،

[٦٦١] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٥)(١٣٩٩) وصحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

[ش(عناقا) الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.(شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم.(فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه

[٦٦٢] - الإقناع ٤ / ٣٠٣ .

وصرّح الْحنابلة بأنّ الْمرْتدّ إنْ مات،فأقام وارثه بيّنةً أنّه صلّى بعْد الرّدّة:حكم بإسْلامه[٦٦٣].ويؤْخذ منْ ذلك أنّه تحْصل توْبة الْمرْتدّ بصلاته.

وقال الشّافعيّة والْحنابلة:لا بدّ في إسْلام الْمرْتدّ من الشّهادتيْن فإنْ كان كفْره لإنْكار شيْءٍ آخر،كمنْ خصّص رسالة محمّدٍ بالْعرب أوْ جحد فرْضًا أوْ تحْريمًا فيلْزمه مع الشّهادتيْن الإْقْرار بما أنْكر[٦٦٤].

قال الْحنابلة:ولوْ صلّى الْمرْتدّ حكم بإسْلامه إلاّ أنْ تكون ردّته بجحْد فريضةٍ،أوْ كتابٍ،أوْ نبيٍّ،أوْ ملكٍ،أوْ نحْو ذلك من الْبدع الْمكفّرة الّتي ينْتسب أهْلها إلى الإْسْلام،فإنّه لا يحْكم بإسْلامه بمجرّد صلاته ؛لأنّه يعْتقد وجوب الصّلاة ويفْعلها مع كفْره.وأمّا لوْ زكّى أوْ صام فلا يكْفي ذلك للْحكْم بإسْلامه،لأنّ الْكفّار يتصدّقون،والصّوْم أمْرٌ باطنٌ لا يعْلم[٦٦٥].

واخْتلف الْفقهاء في قبول توْبة الزّنْديق،وتوْبة منْ تكرّرتْ ردّته،وتوْبة السّاحر على أقْوالٍ ينْظر تفْصيلها في مصْطلح:(توْبة).

توْبة سابّ اللّه تعالى أوْ رسوله ﷺ:

قال الْحنفيّة بقبول توْبة سابّ اللّه تعالى[٦٦٦].وكذا الْحنابلة،مع ضرورة تأْديب السّابّ وعدم تكرّر ذلك منْه ثلاثًا[٦٦٧].

وفي الْمذْهب الْمالكيّ خلافٌ،الرّاجح عنْدهمْ قبول توْبته،وهو رأْي ابْن تيْميّة[٦٦٨].

أمّا سابّ رسول اللّه ﷺ فقدْ ذهب الْحنفيّة[٦٦٩]،والْحنابلة إلى قبول توْبته [٦٧٠].

---

٦٦٣ - الإنصاف ١٠ / ٣٣٧ - ط - ١٩٥٧

٦٦٤ - أسنى المطالب ٤ / ١٢٤، والإنصاف ١٠ / ٣٣٥، ٣٣٦

٦٦٥ - المغني ٨ / ١٤٤ ط ٣

٦٦٦ - السيف المشهور ورقة ٢، وابن عابدين ٤ / ٢٣٢ .

٦٦٧ - المغني ٨ / ٥٦٥، والفروع ٢ / ١٦٠ .

٦٦٨ - الخرشي ٨ / ٧٤، والصارم المسلول ٥٥٠

٦٦٩ - ابن عابدين ٤ / ٢٣٣، والسيف المشهور ٢

٦٧٠ - الهداية لأبي الخطاب ورقة (٢٠٢)، والصارم المسلول ٥٣، ٢٤٥، ٢٩٣، ٤٢٣، ٥٢٧

وقال الشّافعيّة:تقْبل توْبة قاذفه ﷺ على الأصحّ،وقال أبو بكْرٍ الْفارسيّ:يقْتل حـــدًّا ولا يسْقط بالتّوْبة،وقال الصّيْدلانيّ:يجْلد ثمانين جلْدةً ؛لأنّ الرّدّة ارْتفعـــتْ بإسْـــلامه وبقـــي جلْده[٦٧١].

وفي قوْلٍ عنْد الْحنابلة:لا تقْبل توْبته[٦٧٢].

وقال الْمالكيّة:مَنْ سَبَّ أَيْ:شَتَمَ نَبِيًّا مُجْمَعًا عَلَى نُبُوَّته بقُرْآن،أَوْ نَحْوه ممَّا في مَعْنَاهُ،أَوْ سَبَّ مَلَكًا كَذَلكَ،أَوْ ذَكَرَ لَفْظَةً منْ الْأَلْفَاظ الَّتي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ،وَلَـــا تُقْبَـــلُ تَوْبَتُهُ؛لأَنَّ كُفْرَهُ حينَئذ يُشْبِهُ كُفْرَ الزِّنْديق،وَيُقْتَلُ حَدًّا لَا كُفْرًا إنْ قُتلَ بَعْدَ تَوْبَته؛لأَنَّ قَتْلَـــهُ حينَئذ لأَجْلِ ازْدرَائه لَا لأَجْلِ كُفْره.[٦٧٣]

توْبة منْ تكرّرتْ ردّته:

منْ تكرّرتْ ردّته وتوْبته قال الأَحْناف والشّافعيّة:تقْبل توْبته[٦٧٤].لقوْله تعالى:{ قُلْ للَّذينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَـــدْ مَضَـــتْ سُـــنَّتُ الْـــأَوَّلينَ } [الأنفال:٣٨]

وعَن ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«أُمرْتُ أَنْ أُقَاتلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّـــا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه،وَيُقيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلكَ عَصَمُوا منِّـــي دمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بحَقِّ الإِسْلاَم،وَحسَابُهُمْ عَلَى اللَّه»[٦٧٥].

وفي قوْلٍ عنْد الْحنفيّة ورواية عنْد الْحنابلة:توْبة منْ تكرّرتْ ردّته لا تقْبل[٦٧٦].

---

[٦٧١] - السيف المسلول ورقة (٢)، ومغني المحتاج ٤ / ١٤١ .

[٦٧٢] - منار السبيل ٢ / ٤٠٩ .

[٦٧٣] - شرح مختصر خليل للخرشي (٨/ ٧٠)

[٦٧٤] - المبسوط لمحمد ١٤٤، وقال ابن عابدين (٤ / ٢٢٥) :تقبل توبته، لكنه يعذب في كل مرة، ويحبس .وقال الكرخي :هذا قول أصحابنا جميعًا، وأسنى المطالب ٤ / ١٢٢)، والأم ٦ / ١٤٧ - ١٤٨، والشامل لابن الصباغ ١٠ / ١٤٨، والسيف المسلول ٢٩

[٦٧٥] - صحيح البخاري (١/ ١٤) (٢٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٣)٣٦ - (٢٢)

[ش (أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم.(يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.(عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع.(إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا.(وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

وحجّتهمْ قوْله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء:١٣٧]

فالإِيمَانُ إِذْعَانٌ مُطْلَقٌ،وَعَمَلٌ مُسْتَمِرٌّ بالحَقِّ،فَالمُتَرَدِّدُونَ المُضْطَرِبُونَ لَيْسُوا بِمُؤْمِنينَ،لِـذَلكَ يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى أنَّ مَنْ دَخَلَ فِي الإِيمَانِ،ثُمَّ عَادَ فَكَفَرَ،ثُمَّ آمَنَ،ثُمَّ عَـادَ فَكَفَـرَ،ثُمَّ ازْدَادَ كُفْراً،فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ فَقَدَ الاسْتِعْدَادَ لِفَهْمِ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ،وَإِدْرَاكِ مَزَايَاهُ وَفَضَـائِلَهُ،وَمِثْلُهُ لاَ يُرْجَى لَهُ - بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِهِ - أنْ يَهْتَدِيَ إِلَى الخَيْرِ،وَلاَ أنْ يَرْشُدُ إِلَـى مَـا يَنْفَعُهُ،وَلاَ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ اللهِ،فَجَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَمْنَعَ اللهُ عَنْهُ رَحْمَتَهِ وَرِضْـوَانَهُ وَمَغْفِرَتَـهُ وَإِحْسَانَهُ،لأَنَّ رُوحَهُ تَكُونُ قَدْ تَدَنَّسَتْ،وَقَلْبَهُ قَدْ عَمِيَ،فَلاَ يَكُـونُ بَعْـدَ ذَلِـكَ أَهْـلاً لِلْمَغْفِرَةِ،وَلاَ لِلْرَجَاءِ فِي ثَوَابِ اللهِ.[٦٧٧]

ولأنّ تكْرار الرّدّة،دليلٌ على فساد الْعقيدة،وقلّة الْمبالاة[٦٧٨].

توْبة السّاحر:

قال الْحنفيّة والشّافعيّة:بعدم قبول توْبة السّاحر،وعنْ أحْمد روايتان [٦٧٩]

قتْل الْمرْتدّ:

إذا ارْتدّ مسْلمٌ،وكان مسْتوْفيًا لشرائط الرّدّة،أهْدر دمه،وقتْلـه للإْمـام أوْ نائبـه بعْـد الاسْتتابة[٦٨٠].فلوْ قتل قبْل الاسْتتابة فقاتله مسيءٌ،ولا يجب بقتْله شيْءٌ غيْر التّعْزير،إلاّ أنْ يكون رسولاً للْكفّار فلا يقْتل ؛لأنّ النّبيّ ﷺ لمْ يقْتل رسل مسيْلمة[٦٨١]،فعَنْ سَـلَمَةَ بْـنِ

---

[٦٧٦] - ابن عابدين ٤ / ٢٢٥، والمغني ٨ / ٥٤٣، والكافي ٣ / ١٥٩، وهداية الراغب ٤٣٩، ومنار السبيل ٢ / ٤٠٩، و لم نجد عند المالكية تعرضًا لهذه المسألة، وقد نسب إليهم في المغني وحاشية ابن عابدين القول بعدم قبول توبة من تكررت ردته .

[٦٧٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٦٧٨] - منار السبيل ٢ / ٤٠٩ .

[٦٧٩] - رسالة بدر الرشيد مخطوطة، وابن عابدين ٤ / ٢٤٠، وقد فصل فقال :يكفر الساحر بتعلمه السحر وفعله، فإن لم يعتقده لا يكفر، كأن يستعمله للتجربة .ورحمة الأمة ٢٦٧، والمغني ٨ / ١٥٣ ط ٣

[٦٨٠] - المبسوط ١٠ / ١٠٦، والأم ٦ / ١٥٤، والشامل لابن الصباغ ١ / ١٠١، والإنصاف ٩ / ٤٦٢، والشامل لبهرام ٢ / ١٥٨ .

[٦٨١] - الفروع ٢ / ١٥٩، وابن عابدين ٤ / ٦٦٨

نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ،عَنْ أَبِيهِ نُعَيْمٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُمَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ:«مَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟» قَالَا:نَقُولُ كَمَا قَالَ.قَالَ:«أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[٦٨٢].فإذا قتل الْمرْتدّ على ردّته،فلا يغسّل،ولا يصلّى عليْه،ولا يدْفن مع الْمسْلمين[٦٨٣] .

عَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،حَرَّقَ قَوْمًا،فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»،وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[٦٨٤]

وعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:أُتِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ،فَقَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ،لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ» وَلَقَتَلْتُهُمْ،لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[٦٨٥]

وفي المرقاة:"(بِزَنَادِقَةٍ) أَيْ بِقَوْمٍ مُرْتَدِّينَ أَوْ بِجَمْعٍ مُلْحِدِينَ فِي الْقَامُوسِ:الزِّنْدِيقُ بِالْكَسْرِ مِنَ الثَّنَوِيَّةِ أَوِ الْقَائِلُ بِالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ أَوْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَبِالرُّبُوبِيَّةِ أَوْ مَنْ يُبْطِنُ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُ الْإِيمَانَ أَوْ هُوَ مُعَرَّبُ زِنْ دِينَ أَيْ دِينِ الْمَرْأَةِ اهـ.وَسُئِلَ عَنِ الزِّنْدِيقِ مَنْ هُوَ فَأَجَابَ:الزِّنْدِيقُ هُوَ مَنْ يَقُولُ بِبَقَاءِ الدَّهْرِ أَيْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَلَا بِالْخَالِقِ وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَمْوَالَ وَالْحُرَمَ مُشْتَرَكَةٌ،وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ:هُوَ أَنْ لَا يَعْتَقِدَ إِلَهًا وَلَا حُرْمَةَ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَفِي قَبُولِ تَوْبَتِهِ رِوَايَتَانِ وَالَّذِي يُرَجَّحُ عَدَمُ قَبُولِ تَوْبَتِهِ كَذَا فِي الْفَتَاوَى لِقَارِئِ الْهِدَايَةِ،وَقَالَ اللَّيْثُ:زِنْدِيقٌ مَعْرُوفٌ وَزَنْدَقَتُهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَوَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ،وَعَنْ ثَعْلَبٍ:لَيْسَ زِنْدِيقٌ وَلَا فَرَزِينُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا يَقُولُ الْعَامَّةُ مُلْحِدٌ دَهْرِيٌّ (فَأَحْرَقَهُمْ) أَيْ أَمَرَ عَلِيٌّ بِإِحْرَاقِهِمْ فَأَحْرَقُوهُمْ (فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا) أَنَا تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيْ لَوْ كُنْتُ أَنَا بَدَلَهُ لَمْ أُحْرِقْهُمْ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ») قَالَ الْقَاضِي:الزِّنْدِيقُ قَوْمٌ مِنَ الْمَجُوسِ وَيُقَالُ

---

[٦٨٢] - سنن أبي داود (٣/ ٨٤)(٢٧٦١) صحيح

[٦٨٣] - كفاية الأخيار ٢ / ٢٠٤ .

[٦٨٤] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٧)

[٦٨٥] - صحيح البخاري (٩/ ١٥)(٦٩٢٢)

لَهُمْ:الثَّنَوِيَّةُ يَقُولُونَ بِمَبْدَأَيْنِ أَحَدُهُمَا النُّورُ وَهُوَ مَبْدَأُ الْخَيْرَاتِ وَالثَّانِي الظُّلْمَةُ وَهُوَ مَبْدَأُ الشُّرُورِ،وَيُقَالُ:إِنَّهُ مُعَرَّبٌ مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّنْدِ وَهُوَ كِتَابٌ بِالْفَهْلَوِيَّةِ كَانَ لِزَرَادِشْتَ الْمَجُوسِيِّ ثُمَّ اسْتُعْمِلَ لِكُلِّ مُلْحِدٍ فِي الدِّينِ،وَالْجَمْعُ زَنَادِقَةٌ وَالْهَاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ الْيَاءِ الْمَحْذُوفَةِ فَإِنَّ أَصْلَهُ زَنَادِيقُ وَالْمُرَادُ بِهِ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ لِمَا أَوْرَدَ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْرَقَ نَاسًا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَقِيلَ:قَوْمٌ مِنَ السَّابِئَةِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ ابْتِغَاءً لِلْفِتْنَةِ وَتَضْلِيلًا لِلْأُمَّةِ فَسَعَى أَوَّلًا فِي إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ عَلَى عُثْمَانَ حَتَّى جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى ثُمَّ انْضَوَى إِلَى الشِّيعَةِ فَأَخَذَ فِي تَضْلِيلِ جُهَّالِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الْمَعْبُودُ فَعَلِمَ بِذَلِكَ عَلِيٌّ فَأَخَذَهُمْ وَاسْتَتَابَهُمْ فَلَمْ يَتُوبُوا فَحَفَرَ لَهُمْ حُفَرًا وَأَشْعَلَ النَّارَ فِيهَا ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُرْمَى بِهِمْ فِيهَا،وَالْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ وَإِنْ نُهِيَ عَنْهُ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ لَكِنْ جُوِّزَ لِلتَّشْدِيدِ بِالْكُفَّارِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي النِّكَايَةِ وَالنَّكَالِ كَالْمُثْلَةِ (وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ) قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَقَتَلْتُهُمْ عَطْفٌ عَلَى جَوَابِ لَوْ وَلَوْ يُؤْتَ بِاللَّامِ فِي الثَّانِي وَعُزِلَ عَنِ الْأَوَّلِ لِمَا أَنَّ الْجَوَابَ مَنْفِيٌّ بِلَمْ وَهِيَ مَانِعَةٌ لِدُخُولِهَا،أَوْ لِأَنَّ هَذِهِ اللَّامَ تُفِيدُ مَعْنَى التَّوْكِيدِ لَا مَحَالَةَ فَأُدْخِلُ فِي الثَّانِي ؛ لِأَنَّ الْقَتْلَ أَهَمُّ وَأَحْرَى مِنْ غَيْرِهِ لِوُرُودِ النَّصِّ أَنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّهُ أَشَدُّ الْعَذَابِ وَلِذَلِكَ أَوْعَدَ بِهَا الْكُفَّارَ،وَالِاجْتِهَادُ يَضْمَحِلُّ عِنْدَهُ،وَلَعَلَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ وَاجْتَهَدَ حِينَئِذٍ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَنْ رَأْيٍ وَاجْتِهَادٍ لَا عَنْ تَوْقِيفٍ وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمُ الْحَدِيثَ قَالَ:وَيْحَ أُمِّ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَرَدَ مَوْرِدَ الْمَدْحِ وَالْإِعْجَابِ بِقَوْلِهِ وَيَنْصُرُهُ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ شَرْحِ السُّنَّةِ:فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا فَقَالَ:صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) وَكَذَا أَحْمَدُ وَالْأَرْبَعَةُ فِي الْهِدَايَةِ:وَإِذَا ارْتَدَّ الْمُسْلِمُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ عُرِضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ شُبْهَةٌ أَبْدَاهَا كُشِفَتْ عَنْهُ لِأَنَّهُ عَسَاءَ اعْتَرَتْهُ أَيْ عَرَضَتْ لَهُ شُبْهَةٌ فَتُزَاحُ عَنْهُ،وَدَفْعُ شَرِّهِ بِأَحْسَنِ الْأَمْرَيْنِ وَهُمَا الْقَتْلُ وَالْإِسْلَامُ،وَأَحْسَنُهُمَا الْإِسْلَامُ قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَلَمَّا كَانَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْقُدُورِيِّ وُجُوبَ الْعَرْضِ عَلَى مَا قَالَ إِلَّا أَنَّ الْعَرْضَ عَلَى مَا قَالُوا أَيِ الْمَشَايِخُ غَيْرُ وَاجِبٍ بَلْ مُسْتَحَبٌّ ؛

لِأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْهُ،وَعَرْضُ الْإِسْلَامِ هُوَ الدَّعْوَةُ إلَيْهِ وَدَعْوَةُ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ غَيْرُ وَاجِبَةٍ بَلْ مُسْتَحَبَّةٌ قَالَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ:وَيُحْبَسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ أَسْلَمَ فَبِهَا وَإِلَّا فَيُقْتَلُ قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَهَذَا اللَّفْظُ أَيْضًا مِنَ الْقُدُورِيِّ يُوجِبُ وُجُوبَ الِانْتِظَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،وَفِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:الْمُرْتَدُّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ فَإِنْ أَبَى قُتِلَ أَيْ مَكَانَهُ فَإِنَّهُ يُفِيدُ أَنَّ إنْظَارَهُ الْأَيَّامَ الثَّلَاثَةَ لَيْسَ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا وَإِنَّمَا تَعَيَّنَتِ الثَّلَاثَةُ لِأَنَّهَا مُدَّةٌ ضُرِبَتْ لِإِبْرَاءِ الْعُذْرِ بِدَلِيلِ حَدِيثِ حَيَّانَ بْنِ مُنْقِذٍ فِي الْخِيَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ضُرِبَتْ لِلتَّأَمُّلِ بِدَفْعِ الْفِتَنِ،وَقِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ {إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا} [الكهف:٧٦] وَهِيَ الثَّالِثَةُ إلَى قَوْلِهِ {قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا} [الكهف:٧٦] وَعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ لَهُ:هَلْ مِنْ مُغْرِبَةِ خَبَرٍ،فَقَالَ:نَعَمْ،رَجُلٌ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَتَلْنَاهُ،فَقَالَ:هَلَّا حَبَسْتُمُوهُ فِي بَيْتٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَأَطْعَمْتُمُوهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ رَغِيفًا لَعَلَّهُ يَتُوبُ ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ إنِّي لَمْ أَحْضُرْ وَلَمْ آمُرْ وَلَمْ أَرْضَ.أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ لَكِنَّ ظَاهِرَ تُبَرِّئُ عُمَرَ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ وَتَأْوِيلُهُ أَنَّهُ لَعَلَّهُ طَلَبَ التَّأْجِيلَ،وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُؤَجِّلَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ طَلَبَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَطْلُبْ،وَعَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إذْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ لِحَدِيثِ مُعَاذٍ وَقَوْلِهِ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِإِنْظَارٍ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ الْمُنْذِرِ وَهَذَا إنْ أُرِيدَ بِهِ عَدَمُ وُجُوبِ الْإِنْظَارِ فَهُوَ مَذْهَبُنَا وَالِاسْتِدْلَالُ مُشْتَرَكٌ،وَمِنَ الْأَدِلَّةِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَهَذَا كَافِرٌ حَرْبِيٌّ وَإِنْ كَانَ أُرِيدُ بِهِ نَفْيُ اسْتِحْبَابِ الْإِمْهَالِ فَنَقُولُ:هَذِهِ الْأَوَامِرُ مُطْلَقَةٌ وَهِيَ لَا تَقْتَضِي الْفَوْرَ فَيَجُوزُ التَّأْخِيرُ عَلَى مَا عُرِفَ،وَلَا فَرْقَ فِي وُجُوبِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّينَ كَوْنُ الْمُرْتَدِّ حُرًّا أَوْ عَبْدًا وَإِنْ كَانَ يَتَضَمَّنُ قَتْلُهُ إبْطَالَ حَقِّ الْمَوْلَى بِالْإِجْمَاعِ وَإِطْلَاقَ الدَّلَائِلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا،وَكَيْفِيَّةُ تَوْبَتِهِ أَنْ يَتَبَرَّأَ عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا سِوَى دِينِ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُ لَا دِينَ لَهُ وَلَوْ تَبَرَّأَ عَمَّا انْتَقَلَ إلَيْهِ كَفَاهُ لِحُصُولِ الْمَقْصُودِ،وَالْإِقْرَارُ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ مُسْتَحَبٌّ،وَبِهِ قَالَ الْأَئِمَّةُ الثَّلَاثَةُ وَفِي شَرْحِ الطَّحَاوِيِّ:سُئِلَ أَبُو يُوسُفَ عَنِ الرَّجُلِ كَيْفَ يُسْلِمُ فَقَالَ:يَقُولُ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،وَيُقِرُّ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَتَبَرَّأُ عَنِ الدِّينِ الَّذِي انْتَحَلَهُ ثُمَّ لَوِ ارْتَدَّ بَعْدَ إسْلَامِهِ ثَانِيًا قَبِلْنَا تَوْبَتَهُ أَيْضًا وَكَذَا ثَالِثًا وَرَابِعًا،إلَّا أَنَّ الْكَرْخِيَّ قَالَ:فَإِنْ عَادَ

بَعْدَ الثَّالثَة يُقْتَلُ إنْ لَمْ يَتُبْ في الْحَال،وَلَا يُؤَجَّلُ.قَالَ ابْنُ الْهُمَام:قَوْلُ أَصْحَابنَا جَميعًا أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُسْتَتَابُ أَبَدًا،وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الْكَرْخيُّ فَرُويَ في النَّوَادر وَذَلكَ لإطْلَاق قَوْله:{فَإنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُمْ} [التوبة:٥] وَعَن ابْن عُمَرَ وَعَليٍّ:لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ كَرَّرَ ردَّتَهُ كَالزِّنْديق.وَهُوَ قَوْلُ مَالك وَأَحْمَدَ وَاللَّيْث لقَوْله تَعَالَى {إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} [النساء:١٣٧] الْآيَةَ،قُلْنَا:رَتَّبَ عَدَمَ الْمَغْفرَة عَلَى شَرْط قَوْله {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [آل عمران:٩٠] وَفي الدِّرَايَة قَالَ في الزِّنْديق:لَنَا روَايَتَان في روَايَة لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ كَقَوْل مَالك وَأَحْمَدَ،وَفي روَايَة تُقْبَلُ كَقَوْل الشَّافعيِّ وَهَذَا في حَقِّ أَحْكَام الدُّنْيَا أَمَّا فيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه جَلَّ ذكْرُهُ إذَا صَدَقَ قَبلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلَا خلَاف،وَأَمَّا الْمُرْتَدَّةُ فَلَا تُقْتَلُ وَلَكنْ تُحْبَسُ أَبَدًا حَتَّى تُسْلمَ أَوْ تَمُوتَ وَتُضْرَبُ خَمْسَةً وَسَبْعينَ سَوْطًا،وَاخْتَارَهُ قَاضيخَانُ للْفَتْوَى،وَعنْدَ الْأَئمَّة الثَّلَاثَة تُقْتَلُ الْمُرْتَدَّةُ لمَا رَوَيْنَا منْ قَوْله عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:«مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فَاقْتُلُوهُ».وَهُوَ حَديثٌ في صَحيح الْبُخَاريِّ وَغَيْره،وَلَنَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ «نَهَى عَنْ قَتْل النِّسَاء وَالصِّبْيَان».كَمَا في الصَّحيحَيْن وَهَذَا مُطْلَقٌ يَعُمُّ الْكَافرَ أَصْليًّا وَعَارضيًّا فَكَانَ مُخَصِّصًا لعُمُوم مَا رَوَاهُ بَعْدُ أَنَّ عُمُومَهُ مَخْصُوصٌ بمَنْ بَدَّلَ منَ الْكُفْر إلَى الْإسْلَام،نَعَمْ لَوْ كَانَت الْمُرْتَدَّةُ ذَاتَ رَأْيٍ وَتَبَعٍ تُقْتَلُ لَا لردَّتهَا بَلْ لأَنَّهَا حينَئذٍ تَسْعَى في الْأَرْض بالْفَسَاد.وَقَدْ رَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ أَبي حَنيفَةَ عَنْ عَاصم بْن أَبي النَّجُود عَنْ أَبي رَزين عَن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ:لَا تُقْتَلُ النِّسَاءُ إذَا هُنَّ ارْتَدَدْنَ عَن الْإسْلَام وَلَكنْ يُحْبَسْنَ وَيُدْعَيْنَ إلَى الْإسْلَام وَيُجْبَرْنَ عَلَيْه.وَأَمَّا مَا رَوَى الدَّارَقُطْنيُّ عَنْ جَابر:«أَنَّ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أُمُّ مَرْوَانَ ارْتَدَّتْ عَن الْإسْلَام فَأَمَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهَا الْإسْلَامُ فَإنْ رَجَعَتْ وَإلَّا قُتلَتْ».فَضُعِّفَ بمَعْمَر بْن بَكَّارٍ وَمُعَارضٌ بآخَرَ مثْله،وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانيُّ بسَنَد حَسَنٍ «عَنْ مُعَاذ بْن جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ لَهُ حينَ بَعَثَهُ إلَى الْيَمَن:أَيُّمَا رَجُلٍ ارْتَدَّ عَن الْإسْلَام فَادْعُهُ فَإنْ تَابَ فَاقْبَلْ منْهُ فَإنْ لَمْ يَتُبْ فَاضْربْ عُنُقَهُ،وَأَيُّمَا امْرَأَة ارْتَدَّتْ عَن الْإسْلَام فَادْعُهَا فَإنْ تَابَتْ فَاقْبَلْ منْهَا وَإنْ أَبَتْ فَاسْتَتبْهَا».وَأَمَّا مَا رُويَ عَن ابْن مَعينٍ أَنَّهُ قَالَ:كَانَ الثَّوْريُّ يَعيبُ عَلَى أَبي حَنيفَةَ حَديثًا كَانَ يَرْويه عَنْ عَاصمٍ عَنْ أَبي رَزينٍ لَمْ يَرْوه غَيْرُ أَبي حُذَيْفَةَ عَنْ عَاصمٍ عَنْ أَبي رَزينٍ،فَمَدْفُوعٌ بأَنَّهُ أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنيُّ عَنْ أَبي

مَالك النَّخَعيِّ عَنْ عَاصِمٍ به فَزَالَ انْفرَادُ أَبِي حَنيفَةَ الَّذي ادَّعَاهُ الثَّوْرِيُّ وَأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ عَلِيٍّ:الْمُرْتَدَّةُ تُسْتَتَابُ وَلَا تُقْتَلُ.وَضُعِّفَ بِخِلَاف.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ:اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْديقِ وَهُوَ الَّذي يُنْكِرَ الشَّرْعَ فَذَكَرُوا فيه خَمْسَةَ أَوْجُه أَصَحُّهَا،وَالْأَصْوَبُ منْهَا قَبُولُهَا مُطْلَقًا لِلْأَحَاديث الصَّحيحَة الْمُطْلَقَة،وَالثَّاني لَا يُقْبَلُ وَيَتَحَتَّمُ قَتْلُهُ لَكنَّهُ إِنْ صَدَقَ فِي تَوْبَته نَفَعَهُ ذَلكَ فِي الدَّارِ الْآخرَة فَكَانَ منْ أَهْلِ الْجَنَّة،وَالثَّالثُ ارْتَابَ مَرَّةً وَاحدَةً قُبلَتْ تَوْبَتُهُ فَإِنْ تَكَرَّرَ منْهُ ذَلكَ لَمْ تُقْبَلْ،وَالرَّابعُ إِنْ أَسْلَمَ ابْتدَاءً منْ غَيْرِ طَلَب قُبلَ منْهُ،وَإِنْ كَانَ تَحْتَ السَّيْف فَلَا وَالْخَامسُ إِنْ كَانَ دَاعيًا إِلَى الضَّلَال لَمْ يُقْبَلْ منْهُ وَإِلَّا قُبلَ منْهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.[٦٨٦]

وعَنْ عَبْد اللَّه،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" لاَ يَحلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلمٍ،يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه،إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ:النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالثَّيِّبُ الزَّانِي،وَالمَارِقُ منَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَة "[٦٨٧].

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحمَهُ اللَّهُ:أَيْ يَحلُّ قَتْلُ النَّفْس قصَاصًا بِالنَّفْسِ الَّتي قَتَلَهَا عُدْوَانًا وَهُوَ مَخْصُوصٌ بِوَلِيِّ الدَّمِ لَا يَحلُّ قَتْلُهُ لأَحَد سوَاهُ،حَتَّى لَوْ قَتَلَهُ غَيْرُهُ لَزمَهُ الْقصَاصُ.وَقَالَ بَعْضُ الْعُرَفَاء:كَمَا كَتَبَ الْقصَاصَ فِي الْقَتْلَى كَتَبَ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَةَ فِي قَتْلَاهُ الَّذينَ بَذَلُوا الرُّوحَ الْإِنْسَانِيَّ عنْدَ شُهُود الْجَلَال الصَّمَدَانِيِّ،كَمَا قَالَ:مَنْ أَحَبَّنِي قَتَلْتُهُ،وَمَنْ قَتَلْتُهُ فَأَنَا ديَتُهُ،الْحُرُّ بِالْحُرِّ،وَالْعَبْدُ بِالْعَبْد،وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى.أَيْ مَنْ كَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَيْه بِالْكُلِّيَّة كَانَ فَيْضُهُ مُتَّصِلًا به بِالْكُلِّيَّة،وَمَنْ كَانَ فِي رِقِّ غَيْره منَ الْمُكَوِّنَات لَمْ يَتَّصِلْ بِه غَايَةَ الاتِّصَال،وَمَنْ كَانَ نَاقصًا فِي دَعْوَى مَحَبَّته لَمْ يَكُنْ مُسْتَحقًّا لكَمَال مَحَبَّته،وَمَنْ كَانَ اللَّهُ ديَتَهُ فَلَهُ حَيَاةُ الدَّارَيْنِ وَالْبَقَاءُ بِرَبِّ الثَّقَلَيْنِ،وَالْمُرَادُ بِالثَّيِّب الْمُحْصَنُ،وَهُوَ الْمُكَلَّفُ الْحُرُّ الَّذي أَصَابَ فِي نِكَاحٍ صَحيحٍ ثُمَّ زَنَى،فَإِنَّ لِلْإِمَامِ رَجْمَهُ وَلَيْسَ لآحَاد النَّاسِ ذَلكَ،لَكنْ

---

[٦٨٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٩)

[٦٨٧] - صحيح البخاري (٩/ ٥)(٦٨٧٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٢)٢٥ - (١٦٧٦)

[ش(لا يحل دم امرئ) لا يباح قتله (النفس بالنفس) تزهق نفس القاتل عمدا بغير حق بمقابلة النفس التي أزهقها(الثيب الزاني) الثيب من سبق له زواج ذكرا أم أنثى فيباح دمه إذا زنى(المفارق) التارك المبتعد وهو المرتد.وفي رواية (والمارق من الدين) وهو الخارج منه خروجا سريعا(التارك للجماعة) المفارق لجماعة المسلمين]

لَوْ قَتَلَهُ مُسْلِمٌ فَفِي وُجُوبِ الْقِصَاصِ عَلَيْهِ خِلَافٌ،وَالْأَظْهَرُ عِنْدَنَا أَنَّهُ لَا يَجِبُ ؛ لِأَنَّ إِبَاحَةَ دَمِهِ لِمُحَافَظَةِ أَنْسَابِ الْمُسْلِمِينَ،وَكَانَ لَهُ حَقًّا فِيهِ،أَمَّا لَوْ قَتَلَهُ ذِمِّيٌّ اقْتُصَّ مِنْهُ لِأَنَّـــهُ لَـــا تَسَلُّطَ لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَفِي التَّعْلِيلِ الْأَوَّلِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ إِبَاحَـــةَ دَمِ الْقَاتِلِ أَيْضًا لِمُحَافَظَةِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ،مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ قَتْلُهُ اتِّفَاقًا،ثُمَّ الدَّلِيلُ عَلَـــى الرَّجْمِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ:إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا نَبِيًّا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا وَكَـــانَ فِيمَـــا أَنْزَلَ:الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا [أَلْبَتَّةَ] نَكَالًا مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّـــهَ كَـــانَ عَزِيـــزًا حَكِيمًا،وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا الْحَدِيثَ.وَكَانَ ذَلِكَ بِمَشْهَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ،وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ فِي الزِّنَا مَفَاسِدَ مِنِ اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ وَتَضْيِيعِ الْأَوْلَادِ،وَيَثِـــبُ كُلُّ رَجُلٍ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ بِمُقْتَضَى طَبْعِهِ فَتَهِيجُ الْفِتَنُ وَالْحُرُوبُ بَعْدَ التَّشَبُّهِ بِالْبَهَائِمِ إِلَـــى غَيْرِ ذَلِكَ،وَأَمَّا الْبِكْرُ وَالْمُكَلَّفُ غَيْرُ الْمُحْصَنِ فَإِنْ كَانَ حُرًّا فَيُجْلَدُ مِائَةً،وَإِنْ كَانَ رَقِيقًـــا فَيُجْلَدُ خَمْسِينَ،وَيُرَادُ بِالْمَارِقِ لِدِينِهِ الْخَارِجُ عَنْهُ مِنَ الْمُرُوقِ وَهُوَ الْخُرُوجُ،وَمِنْهُ الْمَرَقُ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ اللَّحْمِ عِنْدَ الطَّبْخِ.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:وَهُوَ مُهْدَرٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ لَا قِصَاصَ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ،وَفِيمَا إِذَا قَتَلَهُ ذِمِّيٌّ خِلَافٌ.اهـــ.

وَالتَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِلْمَارِقِ أَيِ الَّذِي تَرَكَ جَمَاعَةَ الْمُسْـــلِمِينَ،وَخَرَجَ مِـــنْ جُمْلَتِهِمْ وَانْفَرَدَ عَنْ أَمْرِهِمْ بِالرِّدَّةِ الَّتِي هِيَ قَطْعُ الْإِسْلَامِ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا أَوِ اعْتِقَادًا،فَيُحَـــبُّ قَتْلُهُ إِنْ لَمْ يَتُبْ،وَتَسْمِيَتُهُ مُسْلِمًا مَجَازًا بِاعْتِبَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَا بِالْبِدْعَةِ أَوْ نَفْيِ الْإِجْمَـــاعِ كَالرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ.وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لِمَنْ قَالَ:لَا يُقْتَلُ أَحَـــدٌ دَخَـــلَ الْإِسْلَامَ بِشَيْءٍ سِوَى مَا عُدِّدَ كَتَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَى مَا هُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَنَا.قَالَ بَعْضُ شُـــرَّاحِ الْأَرْبَعِينَ:وَخَالَفَهُ الْجُمْهُورُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:" «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّـــدًا فَقَـــدْ كَفَرَ» ".أَيِ اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْكُفْرِ كَذَا فَسَّرَهُ الشَّافِعِيُّ.قُلْتُ:الْحَدِيثُ السَّابِقُ نَـــصٌّ فِـــي الْحَصْرِ الْمُفِيدِ لِنَفْيِ قَتْلِهِ،فَلَا يَثْبُتُ إِثْبَاتُهُ بِمِثْلِ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ مَـــعَ وُجُـــودِ غَيْـــرِهِ مِـــنَ الِاحْتِمَالِ،فَإِنَّهُ فُسِّرَ بِأَنَّهُ قَارَبَ الْكُفْرَ،أَوْ شَابَهَ عَمَلَ الْكَفَرَةِ،أَوْ يُخْشَى عَلَيْـــهِ الْكُفْـــرُ،أَوِ الْمُرَادُ بِالْكُفْرِ الْكُفْرَانُ،أَوْ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا اسْتَحَلَّ تَرْكَهُ أَوْ نَفَى فَرْضِـــيَّتَهُ،أَوْ عَلَـــى

الزَّجْرِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ،كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ إِيجَابِ الْحَجِّ:{وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران:٩٧] حَيْثُ وَضَعَ قَوْلَهُ:كَفَرَ مَوْضِعَ مَنْ لَمْ يَحُجَّ.

قَالَ النَّوَوِيُّ:الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ فِي النَّفْسِ الْقِصَاصُ بِشَرْطِهِ،وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِمْ:يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالذِّمِّيِّ وَالْحُرُّ بِالْعَبْدِ،وَالْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ مِنْهُمْ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَاللَّيْثُ وَأَحْمَدُ.قُلْتُ:وَيُؤَيِّدُ مَذْهَبَنَا أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ} [المائدة:٤٥] وَالْمَفْهُومُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} [البقرة:١٧٨] غَيْرُ مُعْتَبَرٍ عِنْدَنَا لَا سِيَّمَا عِنْدَ وُجُودِ الْمَنْطُوقِ مَعَ الِاتِّفَاقِ،عَلَى أَنْ لَا مَفْهُومَ فِي بَقِيَّةِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ:الْأُنْثَى بِالْأُنْثَى.قَالَ:وَأَمَّا قَوْلُهُ:التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ فَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِأَيَّةِ رِدَّةٍ كَانَتْ فَيَجِبُ قَتْلُهُ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَيُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ الْمَرْأَةُ ؛ فَإِنَّهَا لَا تُقْتَلُ عِنْدَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالُوا:وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ خَارِجٍ عَنِ الْجَمَاعَةِ بِبِدْعَةٍ أَوْ نَفْيِ إِجْمَاعٍ كَالرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمَا،وَخُصَّ مِنْ هَذَا الْعَامِّ الصَّائِلُ وَنَحْوُهُ،فَيُبَاحُ قَتْلُهُ فِي الدَّفْعِ،وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ،وَالْمُرَادُ لَا يَحِلُّ تَعَمُّدُ قَتْلِهِ قَصْدًا إِلَّا فِي هَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ اهـ.

وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْمَعْنَى:لَا يَخْفَى أَنَّ مَا ذُكِرَ حَالُ الْأَشْقِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقَهْرِ الْإِلَهِيِّ،وَالطَّرْدِ الْكُلِّيِّ،لَا يُفْتَحُ لَهُمْ بَابُ الْمَشْهَدِ الصَّمَدِيِّ،وَهُوَ الْقَلْبُ فَيَأْتِيهِ الْإِلْهَامُ مِنَ الرَّبِّ،وَلَا بَابُ السَّمْعِ وَالْإِبْصَارِ،فَيَدْخُلُهُمَا الْفَهْمُ وَالِاعْتِبَارُ،فَارْتَدُّوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَصِرَاطِ التَّوْحِيدِ،وَاحْتَجَبُوا بِظُلُمَاتِ الْكَثْرَةِ عَنْ نُورِ التَّفْرِيدِ،وَاسْتَحَقُّوا الْقَتْلَ وَالنَّارَ،وَحُبِسُوا فِي ظُلُمَاتِ دَارِ الْبَوَارِ،فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً اشْتَغَلَ بِالْفَضَائِلِ،وَانْتَهَى عَنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ وَسَائِرِ الرَّذَائِلِ،وَمَا أَنْفَعَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

أَيَا فَاعِلَ الْخَيْرِ عُدْ ثُمَّ عُدْ...وَيَا فَاعِلَ الشَّرِّ مَهْ لَا تَعُدْ

فَمَا سَادَ عَبْدٌ بِدُونِ التُّقَى...وَمَنْ لَمْ يَسُدْ بِالتُّقَى لَمْ يَسُدْ[٦٨٨]

---

٦٨٨ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٥٧)

أمّا الْمرْتدّة فهي عنْد جمْهور الْفقهاء كالْمرْتدّ[689]،لعموم قوْلــه ﷺ:مــنْ بــدّل دينــه فاقْتلوه،فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَت:ارْتَدَّت امْرَأَةٌ يَوْمَ أُحُد فَــأَمَرَ النَّبِــيُّ ﷺ «أَنْ تُسْــتَتَابَ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلَّا قُتِلَتْ»[690].

وعَنِ الْحَسَنِ ؛فِي الْمُرْتَدَّة:تُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلاَّ قُتِلَتْ.[691]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،فِي الْمَرْأَة تَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهَا،قَالَ:" تُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَتْ وَإِلَّا قُتِلَتْ "[692]

وذهب الْحنفيّة إلى أنّ الْمرْتدّة لا تقْتل،بل تحْبس حتّى تتوب أوْ تموت،لنهْي النّبيّ ﷺ عنْ قتْل الْكافرة الّتي لا تقاتل أوْ تحرّض على الْقتال،فعَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُــولِ اللَّه ﷺ فِي غَزْوَة فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَة قَتِيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذه لِتُقَاتِلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَــةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِــيفًا»[693]،فتقــاس الْمرْتدّة عليْها[694].

أثر الرّدّة على مال الْمرْتدّ وتصرّفاته:

ديون الْمرْتدّ:

ذهب الْحنفيّة والشّافعيّة والْحنابلة إلى أنّ الْمرْتدّ إذا مات أوْ قتل على ردّته ابْتدئ مــنْ تركته بتسْديد ديونه[695].لكنْ هل يسدّد منْ كسْبه في الْإسْلام ؟ أمْ منْ كسْبه في الرّدّة ؟ أمْ منْهما معًا ؟

---

[689] – مغني المحتاج ٤ / ١٣٩، والمغني لابن قدامة ٨ / ١٢٣ ط الرياض)، والدارقطني ٣ / ١١٩ .

[690] – سنن الدارقطني (٤/ ١٢٨)(٣٢١٤) ضعيف

[691] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٤/ ٥٩٨)(٢٩٦٠٥) صحيح مقطوع

[692] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٥٣)(١٦٨٦٨) صحيح مقطوع

[693] – سنن أبي داود (٣/ ٥٤)(٢٦٦٩) صحيح

[694] – المبسوط ١٠ / ١٠٨، ١٠٩، والبدائع ٧ / ١٣٥، والتحفة ٤ / ٥٣٠، وابن عابدين ٤ / ٢٤٧، والزرقاني على الموطأ ٢ / ٢٩٥ .

[695] – المبسوط لمحمد ١٤٢، والمهذب ٢ / ٢٢٤، ومغني المحتاج ٤ / ١٤٢، والإنصاف ١٠ / ٣٤٢، والمغني ٨ / ٥٤٥ .

اخْتلف الْحنفيّة في ذلك بناءً على اخْتلافهمْ في مصير أمْوال الْمرْتدّ وتصرّفاته،وفي ذلــك يقول السّرخْسيّ:اخْتلفت الرّوايات في قضاء ديونه،فروى أبو يوسف عــنْ أبي حنيفــة رضي اللّه عنْه أنْ تقْضى ديونه منْ كسْب الرّدّة،فإنْ لمْ يف بذلك فحينئذٍ منْ كسْــب الإسْلام ؛لأنّ كسْب الإسْلام حقّ ورثته،ولا حقّ لورثته في كسْب ردّته،بل هو خــالص حقّه،فلهذا كان فيْئًا إذا قتل،فكان وفاء الدّيْن منْ خالص حقّه أوْلى،وروى الْحسن عــنْ أبي حنيفة أنّه يبْدأ بكسْب الإسْلام في قضاء ديونه،فإنْ لم تف بذلك فحينئذٍ منْ كسْــب الرّدّة ؛لأنّ قضاء الدّيْن منْ ملْك الْمدْيون..فأمّا كسْب الرّدّة لمْ يكنْ مملوكًا له،فلا يقْضى ديْنه منْه،إلاّ إذا تعذّر قضاؤه منْ محلٍّ آخر.

وروى زفر عنْ أبي حنيفة أنّ ديون إسْلامه تقْضى منْ كسْب الإسْــلام،وما اسْــتدان في الرّدّة يقْضى منْ كسْب الرّدّة ؛لأنّ الْمسْتحقّ للْكسْبيْن مخْتلفٌ،وحصول كل واحدٍ مــن الْكسْبيْن باعْتبار السّبب الّذي وجب به الدّيْن،فيقْضى كل ديْنٍ من الْكسْب الْمكْتســب في تلْك الْحالة ؛ليكون الْغرْم بمقابلة الْغنْم،وبه قال زفر وإنْ لمْ يكنْ له مالٌ اكْتســبه في ردّته،كان ذلك كلّه فيه ؛لأنّه كسْبه فيكون مصْروفًا إلى ديْنه،ككسْب الْمكاتب[٦٩٦].

وإذا أقرّ الْمرْتدّ بديْنٍ عليْه فأبو حنيفة يقول:

إنْ أسْلم جاز،أمّا إنْ قتل على ردّته،فلا يجوز إقْراره إلاّ على ما اكْتسبه بعْد ردّته.أمّا أبو يوسف فيرى أنّ إقْراره كلّه جائزٌ إنْ قتل مرْتدًّا،أوْ تاب،وعنْد محمّد إنْ قتل على ردّته أوْ مات،فإنّ إقْراره بمنْزلة إقْرار الْمريض[٦٩٧]،يبْتدأ أوّلاً بديْن الإسْلام،فإنْ بقي شــيْءٌ كــان لأصْحاب ديون الرّدّة ؛لأنّ الْمرْتدّ إذا أهْدر دمه صار بمنْزلة الْمريض[٦٩٨].

وذهب الشّافعيّ إلى اعْتبار إقْرار الْمرْتدّ عمّا قبْل الرّدّة وخلالها،ما لمْ يوقفْ تصــرّفه،فقدْ قال الشّافعيّ:وكذلك كل ما أقرّ به قبْل الرّدّة لأحد،قال:وإنْ لمْ يعْــرف الــدّيْن ببيّنــة تقوم،ولا بإقْرارٍ منْه متقدّمٍ للرّدّة،ولمْ يعْرفْ إلاّ بإقْرارٍ منْه في الرّدّة فإقْراره جائزٌ عليْه وما

---

٦٩٦ – المبسوط ١٠ / ١٠٦، والبدائع ٧ / ١٣٩، وابن عابدين ٤ / ٢٤٨ .

٦٩٧ – المقصود مرض الموت، فلا ينفذ إقراره إلا من الثلث .

٦٩٨ – المبسوط لمحمد ١٧٧، والتحرير مخطوطة غير مرقمة ج ٢

دان[٦٩٩] في الرّدّة،قبْل وقْف ماله لزمه،وما دان بعْد وقْف ماله،فإنْ كان منْ بيْعٍ ردّ الْبيْع،وإنْ كان منْ سلفٍ وقف،فإنْ مات على الرّدّة بطل،وإنْ رجع إلى الإسْلام لزمه[٧٠٠].

أمْوال الْمرْتدّ وتصرّفاته:

ذهب الْمالكيّة والْحنابلة – غيْر أبي بكْرٍ والشّافعيّة في الأظْهر،وأبو حنيفة إلى أنّ ملْك الْمرْتدّ لا يزول عنْ ماله بمجرّد ردّته،وإنّما هو موْقوفٌ على ماله فإنْ مات أوْ قتل على الرّدّة زال ملْكه وصار فيْئًا،وإنْ عاد إلى الإسْلام عاد إليْه ماله ؛لأنّ زوال الْعصْمة لا يلْزم منْه زوال الْملْك ؛ولاحْتمال الْعوْد إلى الإسْلام.

وبناءً على ذلك يحْجر عليْه ويمْنع من التّصرّف،ولوْ تصرّف تكون تصرّفاته موْقوفةً فإنْ أسْلم جاز تصرّفه،وإنْ قتل أوْ مات بطل تصرّفه وهذا عنْد الْمالكيّة والْحنابلة وأبي حنيفة.وفصّل الشّافعيّة فقالوا:إنْ تصرّف تصرّفًا يقْبل التّعْليق كالْعتْق والتّدْبير والْوصيّة كان تصرّفه موْقوفًا إلى أنْ يتبيّن حاله،أمّا التّصرّفات الّتي تكون منجّزةً ولا تقْبل التّعْليق كالْبيْع والْهبة والرّهْن فهي باطلةٌ بناءً على بطْلان وقْف الْعقود،وهذا في الْجديد،وفي الْقديم تكون موْقوفةً أيْضًا كغيْرها.

وقال أبو يوسف ومحمّدٌ وهو قوْلٌ عنْد الشّافعيّة:لا يزول ملْكه بردّته ؛لأنّ الْملْك كان ثابتًا له حالة الإسْلام لوجود سبب الْملْك وأهْليّته وهي الْحرّيّة،والْكفْر لا ينافي الْملْك كالْكافر الأصْليّ،وبناءً على هذا تكون تصرّفاته جائزةً كما تجوز من الْمسْلم حتّى لوْ أعْتق،أوْ دبّر،أوْ كاتب،أوْ باع،أو اشْترى،أوْ وهب نفذ ذلك كلّه،إلاّ أنّ أبا يوسف قال:يجوز تصرّفه تصرّف الصّحيح،أمّا محمّدٌ فقال:يجوز تصرّفه تصرّف الْمريض مرض الْموْت ؛لأنّ الْمرْتدّ مشْرفٌ على التّلف ؛لأنّه يقْتل فأشْبه الْمريض مرض الْموْت.

وقدْ أجْمع فقهاء الْحنفيّة على أنّ اسْتيلاد الْمرْتدّ وطلاقه وتسْليمه الشّفْعة صحيحٌ ونافذٌ ؛لأنّ الرّدّة لا تؤثّر في ذلك.

---

[٦٩٩] – دان تأتي بمعنى استدان كما في القاموس .

[٧٠٠] – الأم ٦ / ١٥٣ .

والْقوْل الثّالث:عنْد الشّافعيّة – وصحّحه أبو إسْحاق الشّيرازيّ – وهو قوْل أبي بكْرٍ من الْحنابلة أنّ ملْكه يزول بردّته لزوال الْعصْمة بردّته فماله أوْلى،ولما روى طارق بْن شهابٍ أنّ أبا بكْرٍ الصّدّيق قال لوفْد بزاخة وغطفان:نغْنم ما أصبْنا منْكمْ وتردّون إليْنا ما أصبْتمْ منّا ؛ولأنّ الْمسْلمين ملكوا دمه بالرّدّة فوجب أنْ يمْلكوا ماله.

وعلى هذا فلا تصرّف له أصْلاً لأنّه لا ملْك له.

وما سبق إنّما هو بالنّسْبة للْمرْتدّ الذّكر باتّفاق الْفقهاء وهو كذلك بالنّسْبة للْمرْتدّة الأُنْثى عنْد الْمالكيّة والشّافعيّة والْحنابلة.

وعنْد الْحنفيّة لا يزول ملْك الْمرْتدّة الأُنْثى عنْ أمْوالها بلا خلافٍ عنْدهمْ فتجوز تصرّفاها ؛لأنّها لا تقْتل فلمْ تكنْ ردّها سببًا لزوال ملْكها عنْ أمْوالها[٧٠١].

أثر الرّدّة على الزّواج:

اتّفق الْفقهاء على أنّه إذا ارْتدّ أحد الزّوْجيْن حيل بيْنهما فلا يقْربها بخلْوةٍ ولا جماعٍ ولا نحْوهما.ثمّ قال الْحنفيّة:إذا ارْتدّ أحد الزّوْجيْن الْمسْلميْن بانتْ منْه امْرأته مسْلمةً كانتْ أوْ كتابيّةً،دخل بها أوْ لمْ يدْخل ؛لأنّ الرّدّة تنافي النّكاح ويكون ذلك فسْخًا عاجلاً لا طلاقًا ولا يتوقّف على قضاءٍ.

ثمّ إنْ كانت الرّدّة قبْل الدّخول وكان الْمرْتدّ هو الزّوْج فلها نصْف الْمسمّى أو الْمتْعة،وإنْ كانتْ هي الْمرْتدّة فلا شيْء لها.

وإنْ كان بعْد الدّخول فلها الْمهْر كلّه سواءٌ كان الْمرْتدّ الزّوْج أو الزّوْجة[٧٠٢].

وقال الْمالكيّة في الْمشْهور:إذا ارْتدّ أحد الزّوْجيْن الْمسْلميْن كان ذلك طلْقةً بائنةً،فإنْ رجع إلى الإسْلام لمْ ترْجعْ له إلاّ بعقْدٍ جديدٍ،ما لمْ تقْصد الْمرْأة بردّها فسْخ النّكاح،فلا ينْفسخ ؛معاملةً لها بنقيض قصْدها.

---

[٧٠١] – البدائع ٧ / ١٣٦ – ١٣٧، وجواهر الإكليل ١ / ٣٥ و ٢ / ٢٧٩، والمدونة ٢ / ٣١٨، والدسوقي ٤ / ٣٠٧، والحطاب ٦ / ٢٨٤، ومغني المحتاج ٤ / ١٤٢ – ١٤٣، والمهذب ٢ / ٢٢٤، والمغني ٨ / ١٢٨ – ١٢٩، وكشاف القناع ٦ / ١٨١ – ١٨٢

[٧٠٢] – المبسوط للسرخسي ٥ / ٤٩، والدر وابن عابدين ٢ / ٣٩٢، وبدائع الصنائع ٧ / ١٣٦ .

قلت :إذا رتدت هي كيف تستحق المهر ؟؟؟

وقيل:إنّ الرّدّة فسْخٌ بغيْر طلاقٍ[٧٠٣].

وقال الشّافعيّة:إذا ارْتدّ أحد الزّوْجيْن الْمسْلميْن فلا تقع الْفرْقة بيْنهما حتّى تمْضي عــدّة الزّوْجة قبْل أنْ يتوب ويرْجع إلى الإسْلام،فإذا انْقضتْ بانتْ منْه،وبيْنونتها منْه فسْــخٌ لا طلاقٌ،وإنْ عاد إلى الإسْلام قبْل انْقضائها فهي امْرأته[٧٠٤].

وقال الْحنابلة:إذا ارْتدّ أحد الزّوْجيْن قبْل الدّخول انْفسخ النّكاح فوْرًا وتنصّف مهْرها إنْ كان الزّوْج هو الْمرْتدّ،وسقط مهْرها إنْ كانتْ هي الْمرْتدّة.

ولوْ كانت الرّدّة بعْد الدّخول ففي روايةٍ تنْجز الْفرْقة.وفي أخْرى تتوقّف الْفرْقــة علــى انْقضاء الْعدّة[٧٠٥].

حكْم زواج الْمرْتدّ بعْد الرّدّة:

اتّفق الْفقهاء على أنّ الْمسْلم إذا ارْتدّ ثمّ تزوّج فلا يصحّ زواجه ؛لأنّه لا ملّة له،فليْس له أنْ يتزوّج مسْلمةً،ولا كافرةً،ولا مرْتدّةً[٧٠٦].

مصير أوْلاد الْمرْتدّ:

منْ حمل به في الإسْلام فهو مسْلمٌ،وكذا منْ حمل به في حال ردّة أحد أبويْــه والآخــر مسْلمٌ،قال بذلك الْحنفيّة والشّافعيّة ؛لأنّ بداية الْحمْل كان لمسْلميْن في دار الإسْلام،وإنْ ولد خلال الرّدّة[٧٠٧].

لكنْ منْ كان حمْله خلال ردّة أبويْه كليْهما،ففيه خلافٌ،فذهب الْحنفيّة والْمالكيّة،وهو الْمذْهب عنْد الْحنابلة والأظْهر عنْد الشّافعيّة،إلى أنّه يكون مرْتدًّا تبعًا لأبويْه فيسْتتاب إذا بلغ.وفي روايةٍ للْحنابلة وقوْلٍ للشّافعيّة أنّــه يقــرّ علــى دينــه بالْجزْيــة كالْكــافر

---

[٧٠٣] – الشرح الكبير والدسوقي ٢ / ٢٧٠، والشامل لبهرام ٢ / ١٧١

[٧٠٤] – الأم ٦ / ١٤٩، ١٥٠

[٧٠٥] – المحرر ٢ / ٣٠، والمغني ٨ / ٩٩، ومنتهى الإرادات ٢ / ١٩٨ .

[٧٠٦] – المبسوط ٥ / ٤٨، والأم ٥ / ٥١، ٦ / ١١٥، والمغني ٨ / ٥٤٦، الذخيرة ٢ / ٢١٣ .

[٧٠٧] – البدائع ٧ / ١٣٩، والشامل لابن الصباغ ٦ / ٦٠١ .

الأَصْليّ،واسْتثْنى الشّافعيّة ما لوْ كان في أصول أبويْه مسْلمٌ فإنّه يكــون مسْــلمًا تبعًــا له،واسْتثْنى الْمالكيّة أيْضًا ما لوْ أدْرك ولد الْمرْتدّ قبْل الْبلوغ فإنّه يجْبر على الإسْلام [708].

إرْث الْمرْتدّ:

اخْتلف الْفقهاء في مال الْمرْتدّ إذا قتل،أوْ مات على الرّدّة على ثلاثة أقْوال:

أ – أنّ جميع ماله يكون فيْئًا لبيْت الْمال،وهذا قوْل مالك[709]،والشّافعيّ[710] وأحْمد [711].

ب – أنّه يكون ماله لورثته من الْمسْلمين،سواءٌ اكْتسبه في إسْلامه أوْ ردّته،وهذا قــوْل أبي يوسف ومحمّد [712].

ج – أنّ ما اكْتسبه في حال إسْلامه لورثته من الْمسْلمين،وما اكْتسبه في حال ردّته لبيْت الْمال،وهذا قوْل أبي حنيفة[713].

ولا خلاف بيْنهمْ في أنّ الْمرْتدّ لا يرث أحدًا منْ أقاربه الْمسْــلمين لانْقطــاع الصّــلة بالرّدّة.كما لا يرث كافرًا ؛لأنّه لا يقرّ على الدّين الّذي صار إليْــه.ولا يــرث مرْتــدٌّ مثْله[714].فَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ وَلاَ الكَافِرُ الْمُسْلِمَ»[715]

قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَــرِثُ الْمُسْــلِمَ وَأَمَّــا الْمُسْلِمُ مِنَ الْكَافِرِ فَفِيهِ خِلَافٌ،فَالْجُمْهُورُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا

---

[708] – الإنصاف ١٠ / ٣٤٧، والخرشي ٨ / ٦٦، ومغني المحتاج ٤ / ١٤٢، وأسنى المطالب ٤ / ١٢٣ .

[709] – منح الجليل ٤ / ٤٦٩، والخرشي ٨ / ٦٦، الشامل لبهرام ٢ / ١٧١

[710] – الشامل لابن الصباغ ١ / ١٠١، والأم ٦ / ١٥١، ٧ / ٣٣٠ .

[711] – المغني ٦ / ٣٤٦، والهداية للكلوذاني ٢٠٣، وقد نقل عن أحمد ثلاثة أقوال كالشافعية، إلا أن صاحب الإنصاف ١٠ / ٣٣٩ قال :إن المذهب كون فيئًا حين موته .

[712] – المبسوط ١٠ / ١٠٤ .

[713] – المبسوط ١٠ / ١٠١، والبدائع ٧ / ١٣٨، ورحمة للأمة ١٩١

[714] – المغني ٦ / ٣٤٣، والإنصاف ٧ / ٣٥١ .

[715] – صحيح البخاري (٨/ ١٥٦)(٦٧٦٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٣٣)١ – (١٦١٤)

[ش (لا يرث المسلم الكافر) قال المبرد الإرث والميراث أصله العاقبة ومعناه الإنتقال من واحد إلى آخر وقد أجمع المسلمون على أن الكافر لا يرث المسلم وأما المسلم فلا يرث الكافر أيضا عند جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وذهبت طائفة إلى توريث المسلم من الكافر]

يَرِثُ أَيْضًا،وَذَهَبَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ،وَمُعَاوِيَةُ،وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،وَمَسْرُوقٌ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَغَيْرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَرِثُ مِنَ الْكُفَّارِ وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:«الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ».وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ،وَالْمُرَادُ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْلَامِ فَضْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِهِ وَلَيْسَ فِيهِ تَعَرُّضٌ لِلْمِيرَاثِ فَلَا يُتْرَكُ النَّصُّ الصَّرِيحُ،وَأَمَّا الْمُرْتَدُّ فَلَا يَرِثُ بِالْإِجْمَاعِ،وَأَمَّا الْمُسْلِمُ مِنَ الْمُرْتَدِّ فَفِيهِ أَيْضًا الْخِلَافُ فَعِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَرَبِيعَةَ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَغَيْرِهِمْ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَرِثُ مِنْهُ،وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:مَا اكْتَسَبَهُ فِي رِدَّتِهِ فَهُوَ لِبَيْتِ الْمَالِ وَمَا اكْتَسَبَهُ فِي الْإِسْلَامِ فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مُوَطَّئِهِ:لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ،وَالْكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ يَتَوَارَثُونَ بِهِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ مِلَلُهُمْ فَيَرِثُ الْيَهُودِيُّ مِنَ النَّصْرَانِيِّ وَالنَّصْرَانِيُّ مِنَ الْيَهُودِيِّ،وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَالْعَامَّةِ مِنْ فُقَهَائِنَا"[٧١٦]

ووصيّة الْمرْتدّ باطلةٌ لأنّها من الْقرب وهي تبْطل بالرّدّة[٧١٧].

أثر الرّدّة في إحْباط الْعمل:

قال تعالى:{وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧]

يُهَدِّدُ اللهُ مِنْ يَضْعُفُ مِنَ الْمُسْلمِينَ أَمَامَ هَجَمَاتِهِمْ،وَمُحَاوَلاتِهِمْ وَإِغْراءَاتِهِمْ فَيَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ،ثُمَّ يَمُوتُ وَهُوَ كَافِرٌ،بالعَذَابِ الأَلِيمِ الأَبَدِيِّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَبِحُبُوطِ عَمَلِهِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ.[٧١٨]

قال الْألوسيّ:" والظاهر أنه حمل ما كانُوا يَعْمَلُونَ على معنى ما صَنَعُوا والبطلان على عدم النفع وهو راجع إلى معنى الحبوط."[٧١٩]

وقال الرازي:" أَمَّا الْبَحْثُ الْفُرُوعِيُّ:فَهُوَ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا صَلَّى ثُمَّ ارْتَدَّ ثُمَّ أَسْلَمَ فِي الْوَقْتِ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:لَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ،وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:لَزِمَهُ قَضَاءُ مَا

---

[٧١٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢٠٢٢)

[٧١٧] - المبسوط لمحمد ١٤٢، والمغني ٨ / ٥٤٦، والشامل لبهرام ٢ / ١٧١، والخرشي ٨ / ٦٨ .

[٧١٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

[٧١٩] - تفسير الألوسي = روح المعاني (٦/ ٢٢٦)

أَدَّى وَكَذَلِكَ الْحَجُّ،حُجَّةُ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ شَرْطٌ فِي حُبُوطِ الْعَمَلِ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ كَافِرٌ،وَهَذَا الشَّخْصُ لَمْ يُوجَدْ فِي حَقِّهِ هَذَا الشَّرْطُ،فَوَجَبَ أَنْ لَا يَصِيرَ عَمَلُهُ مُحْبَطًا،فَإِنْ قِيلَ:هَذَا مُعَارَضٌ بِقَوْلِهِ:وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ [الْأَنْعَامِ:٨٨] وَقَوْلِهِ:وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ [الْمَائِدَةِ:٥] لَا يُقَالُ:حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ وَاجِبٌ.لِأَنَّا نَقُولُ:لَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ،فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ عَلَّقَ حُكْمًا بِشَرْطَيْنِ،وَعَلَّقَهُ بِشَرْطٍ أَنَّ الْحُكْمَ يترل عند أيهما وجد،كَمَنْ قَالَ لِعَبْدِهِ:أَنْتَ حُرٌّ إِذَا جَاءَ يَوْمُ الْخَمِيسِ،أَنْتَ حُرٌّ إِذَا جَاءَ يَوْمُ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ:لَا يَبْطُلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا،بَلْ إِذَا جَاءَ يَوْمُ الْخَمِيسِ عَتَقَ،وَلَوْ كَانَ بَاعَهُ فَجَاءَ يَوْمُ الْخَمِيسِ وَلَمْ يَكُنْ فِي مِلْكِهِ،ثُمَّ اشْتَرَاهُ ثُمَّ جَاءَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَهُوَ فِي مِلْكِهِ عَتَقَ بِالتَّعْلِيقِ الْأَوَّلِ.

وَالسُّؤَالُ الثَّانِي:عَنِ التَّمَسُّكِ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ عَلَى الرِّدَّةِ شَرْطٌ لِمَجْمُوعِ الْأَحْكَامِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ،وَنَحْنُ نَقُولُ بِهِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ:الْخُلُودَ فِي النَّارِ وَذَلِكَ لَا يَثْبُتُ إِلَّا مَعَ هَذَا الشَّرْطِ،وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي حَبْطِ الْأَعْمَالِ،وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ عَلَى الرِّدَّةِ شَرْطٌ فِيهِ.

وَالْجَوَابُ:أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ لَا مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ بِشَرْطٍ وَاحِدٍ وَبِشَرْطَيْنِ،لِأَنَّ التَّعْلِيقَ بِشَرْطٍ وَبِشَرْطَيْنِ إِنَّمَا يَصِحُّ لَوْ لَمْ يَكُنْ تَعْلِيقُهُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَانِعًا مِنْ تَعْلِيقِهِ بِالْآخَرِ،وَفِي مَسْأَلَتِنَا لَوْ جَعَلْنَا مُجَرَّدَ الرِّدَّةِ مُؤَثِّرًا فِي الْحُبُوطِ لَمْ يَبْقَ لِلْمَوْتِ عَلَى الرِّدَّةِ أَثَرٌ فِي الْحُبُوطِ أَصْلًا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ،فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ بِشَرْطٍ وَبِشَرْطَيْنِ بَلْ مِنْ بَابِ الْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ.

وَأَمَّا السُّؤَالُ الثَّانِي:فَجَوَابُهُ أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الرِّدَّةَ إِنَّمَا تُوجِبُ الْحُبُوطَ بِشَرْطِ الْمَوْتِ عَلَى الرِّدَّةِ،وَإِنَّمَا تُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ بِشَرْطِ الْمَوْتِ عَلَى الرِّدَّةِ،وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَذَلِكَ السُّؤَالُ سَاقِطٌ.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:قَالَ أَهْلُ اللُّغَة أَصْلُ الْحَبَطِ أَنْ تَأْكُلَ الْإِبِلُ شَيْئًا يَضُرُّهَا فَـتَعْظُمَ بُطُونُهَـا فَتَهْلكَ

وَفِي الْحَديث «وَإِنَّ ممَّا يُنْبتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلمُّ»

فَسَمَّى بُطْلَانَ الْأَعْمَال بهَذَا لأَنَّهُ كَفَسَاد الشَّيْءِ بسَبَب وُرُود الْمُفْسد عَلَيْه.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانيَةُ:الْمُرَادُ منْ إحْبَاط الْعَمَلِ لَيْسَ هُوَ إبطال نفس العمل،لأن العمل شيء كما وُجدَ فَنيَ وَزَالَ،وَإِعْدَامُ الْمَعْدُوم مُحَالٌ،ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فيه،فَقَالَ الْمُثْبتُونَ للْإِحْبَاط وَالتَّكْفير:الْمُرَادُ منْهُ أَنَّ عقَابَ الرِّدَّة الْحَادثَة يُزِيلُ ثَوَابَ الْإِيمَان السَّابق،إمَّا بشَرْط الْمُوَازَنَة عَلَى مَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي هَاشم وَجُمْهُور الْمُتَأَخِّرِينَ من المعتزلة أولا بشَرْط الْمُوَازَنَة عَلَى مَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي عَليٍّ،وَقَالَ الْمُنْكرُونَ للْإِحْبَاط بهَذَا الْمَعْنَى الْمُرَادُ منَ الْإِحْبَاط الْـوَارد في كتَاب اللَّه هُوَ أَنَّ الْمُرْتَدَّ إذَا أَتَى بالرِّدَّة فَتلْكَ الرِّدَّةُ عَمَلٌ مُحْبطٌ لأَنَّ الْآتيَ بالرِّدَّة كَانَ يُمْكنُهُ أَنْ يَأْتيَ بَدَلَهَا بعَمَلٍ يَسْتَحقُّ به ثَوَابًا فَإِذَا لَمْ يَأْت بذَلكَ الْعَمَلِ الْجَيِّد وَأَتَى بَدَلَـهُ بهَذَا الْعَمَلِ الرَّديء الَّذي لَا يَسْتَفيدُ منْهُ نَفْعًا بَلْ يَسْتَفيدُ منْهُ أَعْظَمَ الْمَضَارِّ يُقَالُ:إنَّهُ أَحْبَطَ عَمَلَهُ أَيْ أَتَى بعَمَلٍ بَاطلٍ لَيْسَ فيه فَائدَةٌ بَلْ فيه مَضَرَّةٌ،ثُمَّ قَالَ الْمُنْكرُونَ للْإِحْبَاط هَـذَا الَّذي ذَكَرْنَاهُ في تَفْسير الْإِحْبَاط،إمَّا أَنْ يَكُونَ حَقيقَةً في لَفْـظ الْإِحْبَاط،وَإمَّـا أَنْ لَـا يَكُونَ،فَإِنْ كَانَ حَقيقَةً فيه وَجَبَ الْمَصيرُ إلَيْه،وَإِنْ كَانَ مَجَازًا وَجَبَ الْمَصيرُ إلَيْـه،لأَنَّا ذَكَرْنَا الدَّلَائلَ الْقَاطعَةَ في مَسْأَلَة أَنَّ الْمُوَافَاةَ شَرْطٌ في صحَّة الْإِيمَان،عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ بـأَنَّ أَثَرَ الْفعْلِ الْحَادث يُزِيلُ أَثَرَ الْفعْلِ السَّابق مُحَالٌ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالثَةُ:أَمَّا حُبُوطُ الْأَعْمَال في الدُّنْيَا،فَهُوَ أَنَّهُ يُقْتَلُ عنْدَ الظَّفَر به وَيُقَاتَلُ إلَـى أَنْ يُظْفَرَ به وَلَا يَسْتَحقُّ منَ الْمُؤْمنينَ مُوَالَاةً وَلَا نَصْرًا وَلَا ثَنَاءً حَسَنًا،وَتَبينُ زَوْجَتُهُ منْهُ وَلَـا يَسْتَحقُّ الْميرَاثَ منَ الْمُسْلمينَ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى في قَوْله:حَبطَتْ أَعْمالُهُمْ فـي الدُّنْيا أَنَّ مَا يُرِيدُونَهُ بَعْدَ الرِّدَّة منَ الْإِضْرَار بالْمُسْلمينَ وَمُكَايَدَتهمْ بالانْتقَال عَنْ ديـنهمْ يَبْطُلُ كُلُّهُ،فَلَا يَحْصُلُونَ منْهُ عَلَى شَيْءٍ لإِعْزَاز اللَّه الْإِسْلَامَ بأَنْصَاره فَتَكُونُ الْأَعْمَالُ عَلَـى هَذَا التَّأْوِيلِ مَا يَعْمَلُونَهُ بَعْدَ الرِّدَّة،وَأَمَّا حُبُوطُ أَعْمَالهمْ في الْآخرَة فَعنْدَ الْقَائلينَ بالْإِحْبَاط مَعْنَاهُ أَنَّ هذه الردة تبطل استحقاقهم للثواب الذي اسـتقوه بأَعْمَـالهمُ السَّـالفَة،وَعنْدَ

الْمُنْكِرِينَ لِذَلِكَ مَعْنَاهُ:أَنَّهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ تِلْكَ الرِّدَّةِ ثَوَابًا وَنَفْعًا فِي الْآخِرَةِ بَلْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا أَعْظَمَ الْمَضَارِّ،ثُمَّ بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ الْمَضَرَّةِ فَقَالَ تَعَالَى:وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ."[720]

وقال النّيْسابوريّ:فمعنى حبط عمله أنه أتى بعمل ليس فيه فائدة،بل فيه مضرة عظيمة،أو المراد أنه تبين أن أعماله السابقة لم تكن معتدا بها شرعا.[721].

وقال الْحنفيّة:بأنّ الْحبوط يكون بإبْطال الثّواب،دون الْفعْل[722].

وقدْ ذهب الْحنفيّة والْمالكيّة[723] إلى أنّ مجرّد الرّدّة يوجب الْحبْط،مسْتدلّين بقوْله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة:٥]

أمّا الشّافعيّة فقالوا:بأنّ الْوفاة على الرّدّة شرْطٌ في حبوط الْعمل،أخْذًا منْ قوْله تعالى:{ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢١٧]

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ،وَيَجْحَدْ بِالدِّينِ فَقَدْ هَلَكَ عَمَلُهُ وَبَطَلَ(حَبِطَ)وَسَيَكُونُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ[724].

فإنْ عاد إلى الإْسْلام فقدْ صرّح الشّافعيّة بأنّه يحْبط ثواب الْعمل فقطْ،ولا يطالب الإْعادة إذا عاد إلى الإْسْلام ومات عليْه[725].

أثر الرّدّة على الْعبادات

تأْثير الرّدّة على الْحجّ:

يجب على من ارْتدّ وتاب أنْ يعيد حجّه عنْد الْحنفيّة[726]،والْمالكيّة[727]،وذهب الشّافعيّة إلى أنّه ليْس على من ارْتدّ ثمّ تاب أنْ يعيد حجّه[728].

---

٧٢٠ - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦/ ٣٩٣)

٧٢١ - تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٥٩٩)

٧٢٢ - ابن عابدين ٤ / ٤٠٠ .

٧٢٣ - روح المعاني ٢ / ١٥٧، والكشاف ١ / ٢٧١، وعمدة القاري ٢٤ / ٧٩، وإرشاد الساري ١٠ / ٧٦، وتفسير القرطبي ٣ / ٤٨ .

٧٢٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

٧٢٥ - القليوبي ٤ / ١٧٤ .

أمّا الْحنابلة فالصّحيح من الْمذْهب عنْدهمْ:أنّه لا يلْزمه قضاؤه،بل يجْزئ الْحجّ الّذي فعله قبْل ردّته[٧٢٩].

تأْثير الرّدّة على الصّلاة والصّوْم والزّكاة:

ذهب الْحنفيّة والْمالكيّة إلى عدم وجوب قضاء الصّلاة الّتي تركها أثْناء ردّته ؛لأنّه كان كافرًا،وإيمانه يجبّها[٧٣٠].

وذهب الشّافعيّة إلى وجوب الْقضاء[٧٣١].

ونقل عن الْحنابلة الْقضاء وعدمه.والْمذْهب عنْدهمْ عدم وجوب الْقضاء.

فإنْ كان على الْمرْتدّ الّذي تاب صلاةٌ فائتةٌ،قبْل ردّته أوْ صوْمٌ أوْ زكاةٌ فهل يلْزمه الْقضاء ؟

ذهب جمْهور الْفقهاء من الْحنفيّة[٧٣٢] والشّافعيّة [٧٣٣] والْحنابلة [٧٣٤] إلى وجوب الْقضاء ؛لأنّ ترْك الْعبادة معْصيةٌ،والْمعْصية تبْقى بعْد الرّدّة.

وخالف الْمالكيّة في ذلك،وحجّتهمْ أنّ الْإسْلام يجبّ ما قبْله،وهو بتوْبته أسْقط ما قبْل الرّدّة[٧٣٥].

تأْثير الرّدّة على الْوضوء:

ذهب الْمالكيّة والْحنابلة إلى أنّ الْوضوء ينْتقض بالرّدّة،ولمْ يذْكر الْحنفيّة ولا الشّافعيّة الرّدّة منْ بيْن نواقض الْوضوء[٧٣٦].

---

٧٢٦ – الإشارات مخطوطة مجهولة صاحبها ٢٣

٧٢٧ – الشامل لبهرام ٢ / ١٧١، والخرشي ٨ / ٦٨ .

٧٢٨ – القليوبي وعميرة ٤ / ١٧٤، ومغني المحتاج ٤ / ١٣٣ .

٧٢٩ – الإنصاف ١٠ / ٣٣٨ .

٧٣٠ – ابن عابدين ١ / ٣٥٧، ٤ / ٢٥٢، والخرشي ٨ / ٦٨ .

٧٣١ – القليوبي ١ / ١٢١، والإعلام ٢ / ٩٨، ومغني المحتاج ١ / ١٣٠ .

٧٣٢ – ابن عابدين ٣ / ٣٠٢ .

٧٣٣ – مغني المحتاج ١ / ١٣٠ .

٧٣٤ – الإنصاف ١ / ٣٩١ .

٧٣٥ – الشامل لبهرام ٢ / ١٧١، والذخيرة ٢ / ٢١٤، والخرشي ٩ / ٦٨ .

٧٣٦ – الخرشي ١ / ١٥٧ و الإنصاف ١ / ٢١٩ والمغني ١ / ١٧٦ – ط الرياض

ذبائح الْمرْتدّ:

ذبيحة الْمرْتدّ لا يجوز أكْلها ؛لأنّه لا ملّة له،ولا يقرّ على دينٍ انْتقل إليْه،حتّى ولوْ كــان دين أهْل الْكتاب[٧٣٧].

إلاّ ما نقل عن الأْوْزاعيّ،وإسْحاق،منْ أنّ الْمرْتدّ إنْ تديّن بدين أهْل الْكتــاب حلّــتْ ذبيحته[٧٣٨].

حكم الاستعانة بالمرتدين:

المرتدون كفار مشركون،وزيادة،وأعني بالزيادة:ما يختصُّ به وصف الردة مــن أحكــام يباين بها المرتدون الكفار الأصليين،ويزيدون عليهم فيها إذ قد انعقد الإجمــاع علــى أن كفر الردة أغلظُ من الكفر الأصلي[٧٣٩]،وأن المرتدين:أخبثُ الكفار للإنكار بعد الإقــرار "[٧٤٠]

قال ابن حزم:"فَصَحَّ بِهَذَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ مِنْ الْكُفَّارِ بِلَا شَكٍّ فَــإِذْ هُــوَ مِــنْهُمْ فَحُكْمُــهُ حُكْمُهُمْ"[٧٤١]

ومن ثم فإن الأدلة التي سبقت معنا من الكتاب والسنة في بيان تحريم الاستعانة بالكفــار الأصليين– على خلاف في ذلك – تتضمن – بنصها– تحريم الاستعانة بالكفار المرتــدين سواء بسواء مع فرق هام هنا؛ وهو أن تحريم الاستعانة بالكفار المرتدين ليست محل نزاع لانعقاد الإجماع على عدم جواز إقرار المرتد على ردته .

وقد نص ابن نجيم الحنفي رحمه الله على (أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،وَالْمُرْتَدِّينَ لَا تُقْبَلُ مِــنْهُمْ الْجِزْيَةُ بَلْ إمَّا الْإِسْلَامُ أَوْ السَّيْفُ فَلَا يَدْعُوَا إلَيْهَا ابْتِدَاءً لِعَدَمِ الْفَائِدَةِ)[٧٤٢]

---

[٧٣٧] – المبسوط لمحمد ١٤٢، والأم ٦ / ١٥٥، ٧ / ٢٣١، والمغني ٨ / ٥٤٩، والإنصاف ١٠ / ٣٨٩ .

[٧٣٨] – المغني ٨ / ٥٤٩ .

[٧٣٩] – الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٥٠٢) والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٨٦)

[٧٤٠] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ٢) ومجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/ ٦٣٢)

[٧٤١] – المحلى بالآثار (١٢/ ٣١و٣٣)

[٧٤٢] – البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٥/ ٨١) والجوهرة النيرة على مختصر القدوري (٢/ ٢٦٣) وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٧/ ١٠٠) وبداية المبتدي (ص: ١١٦) وتبيين الحقائق شرح كنز

قال الكمال:"وَأَمَّا الْمُرْتَدُّونَ فَلِأَنَّ كُفْرَهُمْ بَعْدَمَا هُدُوا لِلْإِسْلَامِ وَوَقَفُوا عَلَى مَحَاسِنِهِ،فَكَانَ كَذَلِكَ (فَلَا يُقْبَلُ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ إلَّا الْإِسْلَامُ أَوْ السَّيْفُ زِيَادَةً فِي الْعُقُوبَةِ) لِزِيَادَةِ الْكُفْرِ (وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يُسْتَرَقُّ مُشْرِكُو الْعَرَبِ) وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ لِأَنَّ الِاسْتِرْقَاقَ إتْلَافٌ حُكْمًا فَيَجُوزُ كَمَا يَجُوزُ إتْلَافُ نَفْسِهِ بِالْقَتْلِ.وَلَنَا قَوْلُهُ تَعَالَى {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح:١٦] أَيْ إلَى أَنْ يُسْلِمُوا."[٧٤٣]

وَقَالَ ابْنُ رُشْد:الْجِزْيَةُ تُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ وَمِنْ الْعَجَمِ بِاتِّفَاقٍ،وَلَا تُؤْخَذُ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَا مِنْ الْمُرْتَدِّينَ بِاتِّفَاقٍ.أَمَّا الْمُرْتَدُّونَ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى دِينٍ يُقَرُّونَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ»[٧٤٤]

وقال الماوردي:" وَلَا يَجُوزُ إقْرَارُ الْمُرْتَدِّ عَلَى رِدَّتِهِ بِجِزْيَةٍ وَلَا عَهْدٍ،وَلَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ،وَلَا تُنْكَحُ مِنْهُ امْرَأَةٌ."[٧٤٥]

وقال ابن قدمة:"ولا يجوز استرقاق المرتد؛ لأنه لا يجوز إقراره على ردته"[٧٤٦]

وفي إعانة الطالبين:"وخرج به الكفر الاصلي فلا يسمى ردة وهي تفارقه في أمور منها أن المرتد لا يقر على ردته فلا يقبل منه إلا الاسلام،ومنها أنه يلزم بأحكامنا لالتزامه لها بالاسلام،ومنها إنه لا يصح نكاحه،ومنها تحرم ذبيحته ولا يستقر له ملك ولا يسبى ولا يفادي ولا يمن عليه ولا يرث ولا يورث،بخلاف الكافر الاصلي في جميع ذلك"[٧٤٧]

وقال ابن حزام:"إجْمَاعُكُمْ مَعَنَا عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا يُقَرُّ عَلَى رِدَّتِهِ،بِخِلَافِ الْمُشْرِكِ الْكِتَابِيِّ الَّذِي يُقَرُّ عَلَى كُفْرِهِ إذَا أَدَّى الْجِزْيَةَ صَاغِرًا وَتَذَمَّمَ،وَأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ الْمُرْتَدِّ جِزْيَةٌ

الدقائق وحاشية الشلبي (٣/ ٢٤٩) ودرر الحكام شرح غرر الأحكام (١/ ٢٨٥) وفتح القدير للكمال ابن الهمام (٦/ ٤٩)ومجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/ ٦٤٠)

[٧٤٣] – فتح القدير للكمال ابن الهمام (٦/ ٤٩)

[٧٤٤] – التاج والإكليل لمختصر خليل (٤/ ٥٩٤)

[٧٤٥] – الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٩٥) والأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٥١)

[٧٤٦] – الكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ٦٣)

[٧٤٧] – إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (٤/ ١٥٠)

أَصْلًا عِنْدَكُمْ،وَأَنَّهُ لَا تُنْكَحُ الْمُرْتَدَّةُ بِخِلَافِ الْمُشْرِكَةِ الْكِتَابِيَّةِ،وَأَنَّهُ لَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَةُ الْمُرْتَدِّ بِخِلَافِ الْمُشْرِكِ الْكِتَابِيِّ،وَلَا يُسْتَرَقُّ الْمُرْتَدُّ إنْ سُبِيَ كَمَا يُسْتَرَقُّ الْمُشْرِكُ إنْ سُبِيَ"[٧٤٨]

وقال ابن تيمية:"وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ السُّنَّةُ بِأَنَّ عُقُوبَةَ الْمُرْتَدِّ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:مِنْهَا:أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ بِكُلِّ حَالٍ،وَلَا يُضْرَبُ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ،وَلَا تُعْقَدُ لَهُ ذِمَّةٌ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ الْقِتَالِ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي لَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ كَأَبِي حَنِيفَةَ،وَمَالِكٍ،وَأَحْمَدَ.

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ،وَالشَّافِعِيِّ،وَأَحْمَدَ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا يَرِثُ،وَلَا يُنَاكَحُ،وَلَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ،بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ،إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْكَامِ،وَإِذَا كَانَتْ الرِّدَّةُ عَنْ أَصْلِ الدِّينِ أَعْظَمَ مِنْ الْكُفْرِ بِأَصْلِ الدِّينِ،فَالرِّدَّةُ عَنْ شَرَائِعِهِ أَعْظَمُ مِنْ خُرُوجِ الْخَارِجِ الْأَصْلِيِّ عَنْ شَرَائِعِهِ،وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَعْرِفُ أَحْوَالَ التَّتَارِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ فِيهِمْ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ شَرٌّ مِنْ الْكُفَّارِ الْأَصْلِيِّينَ مِنْ التُّرْكِ وَنَحْوِهِمْ،وَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ تَرْكِهِمْ لِكَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ خَيْرٌ مِنْ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِمَّنْ كَانَ مُسْلِمَ الْأَصْلِ هُوَ شَرٌّ مِنْ التُّرْكِ الَّذِينَ كَانُوا كُفَّارًا،فَإِنَّ الْمُسْلِمَ الْأَصْلِيَّ إذَا ارْتَدَّ عَنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ كَانَ أَسْوَأَ حَالًا مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ مِثْلُ:مَانِعِي الزَّكَاةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ قَاتَلَهُمْ الصِّدِّيقُ.وَإِنْ كَانَ الْمُرْتَدُّ عَنْ بَعْضِ الشَّرَائِعِ مُتَفَقِّهًا،أَوْ مُتَصَوِّفًا أَوْ تَاجِرًا،أَوْ كَاتِبًا،أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ التُّرْكِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ وَأَصَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ،وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ عَلَى الدِّينِ مَا لَا يَجِدُونَهُ مِنْ ضَرَرِ أُولَئِكَ،وَيَنْقَادُونَ لِلْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمَ مِنْ انْقِيَادِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ بَعْضِ الدِّينِ وَنَافَقُوا فِي بَعْضِهِ،وَإِنْ تَظَاهَرُوا بِالِانْتِسَابِ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ،وَغَايَةُ مَا يُوجَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَكُونُ مُلْحِدًا نُصَيْرِيًّا،أَوْ إسْمَاعِيلِيًّا،أَوْ رَافِضِيًّا،وَخِيَارُهُمْ يَكُونُ جَهْمِيًّا اتِّحَادِيًّا أَوْ نَحْوَهُ،فَإِنَّهُ لَا يَنْضَمُّ إلَيْهِمْ طَوْعًا

---

[٧٤٨] - المحلى بالآثار (١٢/ ٣٣)

مِنْ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ إلَّا مُنَافِقٌ،أَوْ زِنْدِيقٌ،أَوْ فَاسِقٌ فَاجِرٌ،وَمَنْ أَخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكْرَهًا فَإِنَّهُ يُبْعَثُ عَلَى نِيَّتِه،وَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ الْعَسْكَرَ جَمِيعَهُ إذْ لَا يَتَمَيَّزُ الْمُكْرَهُ مِنْ غَيْرِه."[٧٤٩]

وقال أيضاً:"وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ جُرْمًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِه وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُ قَتْلُهُمْ حَتْمًا مَا لَمْ يَرْجِعُوا إلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُمْ ذِمَّةٌ وَلَا هُدْنَةٌ وَلَا أَمَانٌ وَلَا يُطْلَقُ أَسِيرُهُمْ وَلَا يُفَادَى بِمَالِ وَلَا رِجَالٍ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا يسترقون؛ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الرِّدَّةِ بِالِاتِّفَاقِ.وَيُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ؛ كَالشَّيْخِ الْهَرِمِ وَالْأَعْمَى وَالزَّمِنِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.وَكَذَا نِسَاؤُهُمْ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.وَالْكَافِرُ الْأَصْلِيُّ يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُ أَمَانٌ وَهُدْنَةٌ وَيَجُوزُ الْمَنُّ عَلَيْه وَالْمُفَادَاةُ بِه إذَا كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَيَجُوزُ إذَا كَانَ كِتَابِيًّا أَنْ يُعْقَدَ لَهُ ذِمَّةٌ وَيُؤْكَلُ طَعَامُهُمْ وَتُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا تُقْتَلُ نِسَاؤُهُمْ إلَّا أَنْ يُقَاتِلْنَ بِقَوْلِ أَوْ عَمَلٍ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.وَكَذَلِكَ لَا يُقْتَلُ مِنْهُمْ إلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْه السُّنَّةُ.فَالْكَافِرُ الْمُرْتَدُّ أَسْوَأُ حَالًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ الْكَافِرِ الْمُسْتَمِرِّ عَلَى كُفْرِه.وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ فِيهِمْ مِنْ الْمُرْتَدَّةِ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ."[٧٥٠]

وفي بدائع الصنائع:"وَكَذَا رُوِيَ أَنَّهُ – عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَمَرَ بِقَتْلِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ،وَالنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ،وَبِقَتْلِ هِلَالِ بْنِ خَطَلٍ وَمَقِيسِ بْنِ صَبَابَةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ،وَلِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْقَتْلِ لِمَا فِيه مِنْ اسْتِئْصَالِهِمْ،فَكَانَ لِلْإِمَامِ ذَلِكَ،وَإِنْ شَاءَ اسْتَرَقَّ الْكُلَّ فَخَمَسَهُمْ وَقَسَمَهُمْ،لِأَنَّ الْكُلَّ غَنِيمَةٌ حَقِيقَةً لِحُصُولِهَا فِي أَيْدِيهِمْ عَنْوَةً وَقَهْرًا بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ،فَكَانَ لَهُ أَنْ يَقْسِمَ الْكُلَّ إلَّا رِجَالَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّهُمْ لَا يُسْتَرَقُّونَ عِنْدَنَا،بَلْ يُقْتَلُونَ أَوْ يُسْلِمُونَ وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُمْ.

---

[٧٤٩] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥١) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٣٤)

[٧٥٠] – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٣)

(وَجْهُ) قَوْلِهِ أَنَّهُ يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُ مُشْرِكِي الْعَجَمِ،وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ الْعَجَمِ،وَالْعَرَبِ فَكَذَا اسْتِرْقَاقُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،وَالْمُرْتَدِّينَ،وَهَذَا لِأَنَّ لِلِاسْتِرْقَاقِ حُكْمَ الْكُفْرِ،وَهُمْ فِي الْكُفْرِ سَوَاءٌ،فَكَانُوا فِي احْتِمَالِ الِاسْتِرْقَاقِ سَوَاءٌ.

(وَلَنَا) قَوْلُهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] إلَى قَوْلِهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:٥] وَلِأَنَّ تَرْكَ الْقَتْلِ بِالِاسْتِرْقَاقِ فِي حَقِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُشْرِكِي الْعَجَمِ؛ لِلتَّوَسُّلِ إلَى الْإِسْلَامِ وَمَعْنَى الْوَسِيلَةِ لَا يَتَحَقَّقُ فِي حَقِّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ عَلَى نَحْوِ مَا بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالذَّرَارِيُّ مِنْهُمْ فَيُسْتَرَقُّونَ كَمَا يُسْتَرَقُّ نِسَاءُ مُشْرِكِي الْعَجَمِ وَذَرَارِيِّهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – اسْتَرَقَّ نِسَاءَ هَوَازِنَ وَذَرَارِيَّهُمْ،وَهُمْ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ.

وَكَذَا الصَّحَابَةُ اسْتَرَقُوا نِسَاءَ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ الْعَرَبِ وَذَرَارِيَّهُمْ،وَإِنْ شَاءَ مَنَّ عَلَيْهِمْ وَتَرَكَهُمْ أَحْرَارًا بِالذِّمَّةِ،كَمَا فَعَلَ سَيِّدُنَا عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بِسَوَادِ الْعِرَاقِ إلَّا مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْكُهُمْ بِالذِّمَّةِ وَعَقْدِ الْجِزْيَةِ،كَمَا لَا يَجُوزُ بِالِاسْتِرْقَاقِ لِمَا بَيَّنَّا،وَلَوْ شَهِدُوا بِشَهَادَةٍ قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ الْإِمَامُ ذِمَّةً لَمْ تَجُزْ شَهَادَتُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَرْبِ،فَإِنْ جَعَلَهُمْ ذِمَّةً فَأَعَادُوا الشَّهَادَةَ جَازَتْ؛ لِأَنَّ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ مَقْبُولَةٌ فِي الْجُمْلَةِ،فَأَمَّا شَهَادَةُ أَهْلِ الْحَرْبِ فَغَيْرُ مَقْبُولَةٍ أَصْلًا،وَلَيْسَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الْأَسِيرِ فَيَتْرُكَهُ مِنْ غَيْرِ ذِمَّةٍ،لَا يَقْتُلُهُ وَلَا يَقْسِمُهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَرَجَعَ إلَى الْمَنَعَةِ فَيَصِيرُ حَرْبًا عَلَيْنَا،فَإِنْ قِيلَ:إنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – مَنَّ عَلَى الزُّبَيْرِ بْنِ بَاطَالَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ."[٧٥١]

وقد نص العلماء على أنَّ من ارتد عن الإسلام:سقط من ثبْتِ عسكر الإسلام وجنده،قال الماوردي:"فأما شرط جواز إثباقم في الديوان فيراعى فيه خمسة أوصاف:

أحدها:البلوغ،فإنَّ الصبى من جملة الذراري والأتباع،فلم يجز أن يثبت في ديوان الجيش،فكان جاريًا في عطاء الذراري.

[٧٥١] – وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٧/ ١١٩)

والثاني:الحرية؛ لأنَّ المملوك تابع لسيده،فكان داخلًا في عطائه،وأسقط أبو حنيفة اعتبار الحرية،وجوَّز إفراد العبد بالعطاء في ديوان المقاتلة،وهو رأي أبي بكر وخالفه فيه عمر،واعتبر الحرية في العطاء،وبه أخذ الشافعي.

والثالث:الإسلام ليدفع عن الملّة باعتقاده،ويوثّق بنصحه واجتهاده،فإن أثبت فيهم ذميًّا لم يجز،وإن ارتدَّ منهم مسلم سقط..."[٧٥٢]

وقال الفراء:"فَأَمَّا شَرْطُ جَوَازِ إثْبَاتِهِمْ فِي الدِّيوَانِ فَيُرَاعَى فيه خمسة أوصاف ..وَالثَّالِثُ:الْإِسْلَامُ،لِيَدْفَعَ عَنْ الْمِلَّةِ باعْتِقَادِه،وَيُوَثَّقَ بنصحه واجتهاده،فإن أثبت فيهم ذمي لَمْ يَجُزْ،وَإِنْ ارْتَدَّ مِنْهُمْ مُسْلِمٌ سَقَطَ.وهذا قياس قول أحمد،لأنه منع أن يستعان بالكفار في الجهاد."[٧٥٣]

وعْن طَارِقِ بْنِ شِهَاب،قَالَ:جَاءَ وَفْدُ بُزَاخَةَ أَسَد وَغَطَفَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ،وَالسِّلْمِ الْمُخْزِيَةِ،قَالَ:فَقَالُوا:هَذَا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ،قَالَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:تُؤَدُّونَ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،وَتَتْرُكُونَ أَقْوَامًا يَتْبعُونَ أَذْنَابَ الإِبِلِ حَتَّى يُرِي اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ،وَتَدُونَ قَتْلاَنَا،وَلاَ نَدِي قَتْلاَكُمْ،وَقَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّارِ،وَتَرُدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ،فَقَالَ عُمَرُ،فَقَالَ:قَدْ رَأَيْت رَأْيًا،وَسَنُشِيرُ عَلَيْك،أَمَّا أَنْ يُؤَدُّوا الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت،وَأَمَّا أَنْ يَتْرُكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الإِبِلِ حَتَّى يَرَى اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ بِهِ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت وَأَمَّا أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّونَ مَا أَصَابُوا مِنَّا فَنِعْمَ مَا رَأَيْت،وَأَمَّا أَنَّ قَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ وَقَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت،وَأَمَّا أَنْ لاَ نَدِيَ قَتْلاَهُمْ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت،وَأَمَّا أَنْ يَدُوا قَتْلاَنَا فَلا،قَتْلاَنَا قُتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللهِ فَلاَ دِيَات لَهُمْ،فَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ."[٧٥٤]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَاب،قَالَ:قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ،مِنْ أَسَد وَغَطَفَانَ،عَلَى أَبِي بَكْرٍ،يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ وَالسِّلْمِ الْمُخْزِيَةِ فَقَالُوا لَهُ:هَذِهِ الْحَرْبُ

---

[٧٥٢] -الأحكام السلطانية للماوردي (ص: ٣٠٢)

[٧٥٣] - الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٤١)

[٧٥٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٣٢)(٣٣٤٠٠) صحيح

الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ فَقَالَ:أَنْ تُنْزَعَ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ وَتَتْرُكُوا أَقْوَامًا تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ،حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ،وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ،وَتَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا،وَتَدُوا قَتْلَانَا،وَتَكُونُ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ،فَقَامَ عُمَرُ،فَقَالَ:إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ:أَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ يُتْرَكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ بِهِ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَابُوا مِنَّا،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا وَتَكُونَ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ،فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ،لَيْسَتْ لَهُمْ دِيَاتٌ،قَالَ:فَتَابَعَ الْقَوْمُ عُمَرَ "

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَفَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَقْبَلْ إِسْلَامَهُمْ وَصُلْحَهُمْ إِلَّا بِنَزْعِ الْحَلْقَةِ وَالْكُرَاعِ مِنْهُمْ،لِمَا أَعْلَمْتُكَ؟ ثُمَّ تَابَعَهُ عُمَرُ عَلَى هَذَا،وَالْقَوْمُ مَعَهُ وَلَا نَرَاهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ إِلَّا اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَرْهًا،بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ عَلَى بَعْضِ بِلَادِهِمْ،وَلَوْ كَانَ إِسْلَامُهُمْ رَغْبَةً غَيْرَ رَهْبَةٍ لَسَلِمَتْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ،وَلَوْ لَمْ يَجْنَحُوا إِلَى السَّلْمِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ الظُّهُورَ كُلَّهُ،وَيَصِيرُوا أُسَارَى فِي أَيْدِيهِمْ،مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا وَلَكَانَتْ غَنَائِمَ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَ الْحَالَيْنِ قَدْ نَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ،فَلِهَذَا وَقَعَ الصُّلْحُ "[٧٥٥]

وَكَذَلِكَ فَعَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَهْلِ الْيَمَامَةِ،فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:وَكَانَ خَالِدٌ قَدْ نَهِكَتْهُ الْحَرْبُ،وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ،فَعَمَدَ مُجَّاعَةُ بْنُ مُرَارَةَ الْحَنَفِيُّ إِلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،فَأَلْبَسَهُمُ السِّلَاحَ وَأَقَامَهُمْ عَلَى الْحُصُونِ،فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ خَالِدٌ فَظَنَّهُمْ مَقَاتِلَةً،وَقَدْ بَلَغَتِ الْحَرْبُ مِنْهُ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا بَلَغَتْ،فَدَعَاهُ مُجَّاعَةُ إِلَى الصُّلْحِ عِنْدَ هَذَا،فَصَالَحَهُ عَلَى رُبْعِ الرَّقِيقِ،وَنِصْفِ

[٧٥٥] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٢٥٥)(٥١٠) صحيح

الصَّفْرَاءِ،وَالْبَيْضَاءِ،وَالْحَلْقَةِ،فَلَمَّا دَخَلَ خَالِدٌ الْحُصُونَ بَعْدَ الصُّلْحِ،فَلَمْ يَرَ فِيهَا إِلَّا الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ،قَالَ لِمُجَّاعَةَ:«خَدَعْتَنِي»،فَقَالَ مُجَّاعَةُ:«قَوْمِي،وَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا مَا رَأَيْتَ»[٧٥٦]

فاتفق الصاحبة رضي الله عنهم على تجريد المرتدين بعد توبتهم ورجوعهم إلى الإسلام من السلاح،وإخراجهم من المقاتلة،وعدم الاستعانة بهم في عسكر المسلمين إلى أن تتحقق توبتهم .

قال ابن تيمية رحمه الله:" فَهَذَا الَّذِي فَعَلَهُ الصَّحَابَةُ بِأُولَئِكَ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ عَوْدِهِمْ إلَى الْإِسْلَامِ يُفْعَلُ بِمَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَالتُّهْمَةُ ظَاهِرَةٌ فِيهِ،فَيُمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ وَالدِّرْعِ الَّتِي تَلْبَسُهَا الْمُقَاتِلَةُ،وَلَا يُتْرَكُ فِي الْجُنْدِ مَنْ يَكُونُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَيُلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَظْهَرَ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.وَمَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ ضَلَالِهِمْ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ أُخْرِجَ عَنْهُمْ،وَسُيِّرَ إلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا ظُهُورٌ.فَإِمَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى،وَإِمَّا أَنْ يَمُوتَ عَلَى نِفَاقِهِ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ."[٧٥٧]

وقال أيضاً:" وَلَا اسْتَعْمَلَ عُمَرُ قَطُّ؛ بَلْ وَلَا أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ:مُنَافِقًا،وَلَا اسْتَعْمَلَا مِنْ أَقَارِبِهِمَا،وَلَا كَانَ تَأْخُذُهُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ؛ بَلْ لَمَّا قَاتَلَا أَهْلَ الرِّدَّةِ وَأَعَادُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ مَنَعُوهُمْ رُكُوبَ الْخَيْلِ وَحَمْلَ السِّلَاحِ حَتَّى تَظْهَرَ صِحَّةُ تَوْبَتِهِمْ،وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ:لَا تَسْتَعْمِلْ أَحَدًا مِنْهُمْ،وَلَا تُشَاوِرْهُمْ فِي الْحَرْبِ.فَإِنَّهُمْ كَانُوا أُمَرَاءَ أَكَابِرَ:مِثْلُ طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ،وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ،وَعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ،وَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيِّ،وَأَمْثَالُهُمْ،فَهَؤُلَاءِ لَمَّا تَخَوَّفَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ نَوْعَ نِفَاقٍ لَمْ يُوَلِّهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ."[٧٥٨]

قلت:فإذا كان هذا تعامل الصحابة رضي الله عنهم جميعا مع من تاب ورجع إلى الإسلام بعد الردة ؛ فكيف بمن هو مقيم على ردته،مصرٌّ عليها ؟!!!

ومن أخطر مفاسد الاستعانة بالمرتدين:أن الاستعانة بهم قد تجرُّ إلى الركون إليهم وموالاتهم،مما هو باب الكفر الأكبر عياذاً بالله،وقد قال تعالى:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

---

[٧٥٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٢٥٦)(٥١١)

[٧٥٧] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥١١) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ١٥٨) ومختصر الفتاوى المصرية (ص: ٤٧٧)

[٧٥٨] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٥٠) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ٦٥)

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:٢٢]

والأدلة في هذا الباب:كثيرة جداً،إذ البراءة من الكفار المحادين لله ورسوله ودينه:أصلُ الإسلام وركنه الركين....

ومن شر أصناف المرتدين الذين تحرم الاستعانة بهم:الطوائف الباطنية الكافرة كالنصيرية والدروز،والإسماعلية،والقاديانية،والبهائية،والبابية،وغيرهم من الفرق التي تختلف في الاسم،وتجتمع في الكفر والردة والزندة،والحقد السود على الإسلام وأهله .

وهذه الطوائف ما فتئت حرباً على الإسلام والمسلمين بصورة معلنة لا خفاء فيها ولا مداراة،ومعاول هدم لصروح الإسلام،وسوساً ينخر في جسد الأمة،وخناجر مسمومة تطعن المسلمين من أمامهم تارة ومن خلفهم تارات أخرى،إذ دأب هذه الفرق:الولاء لكل أعداء الملة من يهود،ونصارى،ووثنيين،فهم سواعد الغدر التي ينفُذُ من خلالها أعداء الإسلام إلى ديارنا،وتاريخنا – القديم والحديث- يمتلئ بأسود صفحات الخيانة والعمالة الرخيصة لكلِّ عدوٍّ للإسلام،فالغدر شعارهم ودثارهم أبداً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْمُسَمَّوْنَ بِالنُّصَيْرِيَّةِ هُمْ وَسَائِرُ أَصْنَافِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ بَلْ وَأَكْفَرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَضَرَرُهُمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ – أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ مِثْلُ كُفَّارِ التَّتَارِ وَالْفِرِنْجِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَتَظَاهَرُونَ عِنْدَ جُهَّالِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّشَيُّعِ،وَمُوَالَاةِ أَهْلِ الْبَيْتِ،وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ،وَلَا بِرَسُولِهِ وَلَا بِكِتَابِهِ،وَلَا بِأَمْرِ وَلَا نَهْيٍ،وَلَا ثَوَابٍ وَلَا عِقَابٍ،وَلَا جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ وَلَا بِأَحَدِ مِنْ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ – ﷺ – وَلَا بِمِلَّةِ مِنْ الْمِلَلِ السَّالِفَةِ بَلْ يَأْخُذُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى أُمُورٍ يَفْتَرُونَهَا؛ يَدَّعُونَ أَنَّهَا عِلْمُ الْبَاطِنِ؛ مِنْ جِنْسِ مَا ذُكِرَ مِنْ السَّائِلِ،وَمَا غَيْرُ هَذَا الْجِنْسِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ حَدٌّ مَحْدُودٌ فِيمَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وَآيَاتِهِ،وَتَحْرِيفِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ إذْ مَقْصُودُهُمْ إنْكَارُ الْإِيمَانِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ بِكُلِّ طَرِيقٍ مَعَ التَّظَاهُرِ بِأَنَّ لِهَذِهِ الْأُمُورِ حَقَائِقَ يَعْرِفُونَهَا مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَ السَّائِلُ،وَمِنْ جِنْسِ قَوْلِهِمْ:أَنَّ " الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ " مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ،" وَالصِّيَامَ الْمَفْرُوضَ " كِتَابُ أَسْرَارِهِمْ " وَحَجَّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ " زِيَارَةُ شُيُوخِهِمْ،وَأَنَّ {يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد:١] هُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ،وَأَنَّ النَّبَأَ الْعَظِيمَ وَالْإِمَامَ الْمُبِينَ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:وَلَهُمْ فِي مُعَادَاةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَقَائِعُ مَشْهُورَةٌ وَكُتُبٌ مُصَنَّفَةٌ،فَإِذَا كَانَتْ لَهُمْ مُكْنَةٌ سَفَكُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ؛ كَمَا قَتَلُوا مَرَّةً الْحُجَّاجَ وَأَلْقَوْهُمْ فِي بِئْرِ زَمْزَمَ،وَأَخَذُوا مَرَّةً الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَبَقِيَ عِنْدَهُمْ مُدَّةً،وَقَتَلُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَشَايِخِهِمْ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَصَنَّفُوا كُتُبًا كَثِيرَةً مِمَّا ذَكَرَهُ السَّائِلُ وَغَيْرُهُ،وَصَنَّفَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ كُتُبًا فِي كَشْفِ أَسْرَارِهِمْ وَهَتْكِ أَسْتَارِهِمْ؛ وَبَيَّنُوا فِيهَا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ،الَّذِي هُمْ بِهِ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَمِنْ بَرَاهِمَةِ الْهِنْدِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ.وَمَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ فِي وَصْفِهِمْ قَلِيلٌ مِنْ الْكَثِيرِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْعُلَمَاءُ فِي وَصْفِهِمْ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ عِنْدَنَا أَنَّ السَّوَاحِلَ الشَّامِيَّةَ إنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا النَّصَارَى مِنْ جِهَتِهِمْ،وَهُمْ دَائِمًا مَعَ كُلِّ عَدُوٍّ لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَهُمْ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ لِلسَّوَاحِلِ،وَانْقِهَارِ النَّصَارَى؛ بَلْ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّتَارِ.وَمِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِهِمْ إذَا اسْتَوْلَى - وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى - النَّصَارَى عَلَى ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى جَزِيرَةُ قُبْرُصَ يَسَّرَ اللَّهُ فَتْحَهَا عَنْ قَرِيبٍ،وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ " - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -،فَتَحَهَا " مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ " إلَى أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ.

فَهَؤُلَاءِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَثُرُوا حِينَئِذٍ بِالسَّوَاحِلِ وَغَيْرِهَا فَاسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى السَّاحِلِ؛ ثُمَّ بِسَبَبِهِمْ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي ذَلِكَ؛ ثُمَّ لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى " كَنُورِ الدِّينِ الشَّهِيدِ،وَصَلَاحِ الدِّينِ " وَأَتْبَاعِهِمَا؛ وَفَتَحُوا السَّوَاحِلَ مِنْ النَّصَارَى،وَمِمَّنْ

كَانَ بِهَا مِنْهُمْ،وَفَتَحُوا أَيْضًا أَرْضَ مِصْرَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَوْلِينَ عَلَيْهَا نَحْوَ مِائَتَيْ سَنَة،وَاتَّفَقُوا هُمْ وَالنَّصَارَى،فَجَاهَدَهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ،وَمِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ.

ثُمَّ إنَّ التَّتَارَ مَا دَخَلُوا بِلَادَ الْإِسْلَامِ وَقَتَلُوا خَلِيفَةَ بَغْدَادَ وَغَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ لَا بِمُعَاوَنَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ؛ فَإِنَّ مُنَجِّمَ هُولَاكُو الَّذِي كَانَ وَزِيرَهُمْ وَهُوَ " النُّصَيْرُ الطُّوسِيُّ " كَانَ وَزِيرًا لَهُمْ بِالْأَلْمُوت،وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِقَتْلِ الْخَلِيفَةِ وَبِوِلَايَةِ هَؤُلَاءِ.

وَلَهُمْ " أَلْقَابٌ " مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ تَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمَلَاحِدَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْقَرَامِطَةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْبَاطِنِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " النُّصَيْرِيَّةَ " وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الخرمية "،وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ " الْمُحَمِّرَةَ " وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ مِنْهَا مَا يَعُمُّهُمْ،وَمِنْهَا مَا يَخُصُّ بَعْضَ أَصْنَافِهِمْ،كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ يَعُمُّ الْمُسْلِمِينَ وَلِبَعْضِهِمْ اسْمٌ يَخُصُّهُ إمَّا لِنَسَب،وَإِمَّا لِمَذْهَب،وَإِمَّا لِبَلَد،وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَشَرْحُ مَقَاصِدِهِمْ يَطُولُ،وَهُمْ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِيهِمْ:ظَاهِرُ مَذْهَبِهِمْ الرَّفْضُ،وَبَاطِنُهُ الْكُفْرُ الْمَحْضُ.وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ لَا بِنُوحِ،وَلَا إبْرَاهِيمَ،وَلَا مُوسَى،وَلَا عِيسَى وَلَا مُحَمَّد – ﷺْم أجْمَعِينَ –،وَلَا بِشَيْءِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ،لَا التَّوْرَاةِ،وَلَا الْإِنْجِيلِ،وَلَا الْقُرْآنِ.وَلَا يُقِرُّونَ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ خَالِقًا خَلَقَهُ وَلَا بِأَنَّ لَهُ دِينًا أَمَرَ بِهِ،وَلَا أَنَّ لَهُ دَارًا يَجْزِي النَّاسَ فِيهَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ عَلَى هَذِهِ الدَّارِ.

وَهُمْ تَارَةً يَبْنُونَ قَوْلَهُمْ عَلَى مَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ الطَّبِيعِيِّينَ أَوْ الْإِلَهِيِّينَ،وَتَارَةً يَبْنُونَهُ عَلَى قَوْلِ الْمَجُوسِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ النُّورَ،وَيَضُمُّونَ إلَى ذَلِكَ الرَّفْضَ.

وَيَحْتَجُّونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّاتِ:إمَّا بِقَوْلِ مَكْذُوبٍ يَنْقُلُونَهُ،كَمَا يَنْقُلُونَ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ:«أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ» وَالْحَدِيثُ.مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ؛ وَلَفْظُهُ «إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْعَقْلَ،فَقَالَ لَهُ:أَقْبِلْ،فَأَقْبَلَ.فَقَالَ لَهُ:أَدْبِرْ،فَأَدْبَرَ» فَيُحَرِّفُونَ لَفْظَهُ فَيَقُولُونَ «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ»،لِيُوَافِقُوا قَوْلَ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَتْبَاعِ أَرِسْطُو فِي أَنَّ أَوَّلَ الصَّادِرَاتِ عَنْ وَاجِبِ الْوُجُودِ هُوَ الْعَقْلُ.وَإِمَّا بِلَفْظٍ ثَابِتٍ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ –

فَيُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ،كَمَا يَصْنَعُ أَصْحَابُ " رَسَائِلِ إخْوَانِ الصَّفَا " وَنَحْوُهُمْ،فَإِنَّهُمْ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ.

وَقَدْ دَخَلَ كَثِيرٌ مِنْ بَاطِلِهِمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،وَرَاجَ عَلَيْهِمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ طَوَائِفَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ؛ وَإِنْ كَانُوا لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى أَصْلِ كُفْرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ فِي إظْهَارِ دَعْوَتِهِمْ الْمَلْعُونَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا " الدَّعْوَةَ الْهَادِيَةَ " دَرَجَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ،وَيُسَمُّونَ النِّهَايَةَ " الْبَلَاغَ الْأَكْبَرَ،وَالنَّامُوسَ الْأَعْظَمَ " وَمَضْمُونُ الْبَلَاغِ الْأَكْبَرِ جَحْدُ الْخَالِقِ تَعَالَى؛ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِ،وَبِمَنْ يُقِرُّ بِهِ،حَتَّى قَدْ يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَسْفَلِ رِجْلِهِ،وَفِيهِ أَيْضًا جَحْدُ شَرَائِعِهِ وَدِينِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ،وَدَعْوَى أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ جِنْسِهِمْ طَالِبِينَ لِلرِّئَاسَةِ،فَمِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ فِي طَلَبِهَا،وَمِنْهُمْ مَنْ أَسَاءَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى قُتِلَ،وَيَجْعَلُونَ مُحَمَّدًا وَمُوسَى مِنْ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ،وَيَجْعَلُونَ الْمَسِيحَ مِنْ الْقِسْمِ الثَّانِي.وَفِيهِ مِنْ الِاسْتِهْزَاءِ بِالصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ،وَالْحَجِّ وَمِنْ تَحْلِيلِ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،وَسَائِرِ الْفَوَاحِشِ:مَا يَطُولُ وَصْفُهُ.وَلَهُمْ إشَارَاتٌ وَمُخَاطَبَاتٌ يَعْرِفُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا.وَهُمْ إذَا كَانُوا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَقَدْ يَخْفَوْنَ عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ،وَأَمَّا إذَا كَثُرُوا فَإِنَّهُ يَعْرِفُهُمْ عَامَّةُ النَّاسِ فَضْلًا عَنْ خَاصَّتِهِمْ.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا تَجُوزُ مُنَاكَحَتُهُمْ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ مَوْلَاتَهُ مِنْهُمْ،وَلَا يَتَزَوَّجُ مِنْهُمْ امْرَأَةً،وَلَا تُبَاحُ ذَبَائِحُهُمْ.

وَأَمَّا الْجُبْنُ الْمَعْمُولُ بِإِنْفَحَتِهِمْ " فَفِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ،كَسَائِرِ إنْفَحَةِ الْمَيْتَةِ،وَكَإِنْفَحَةِ ذَبِيحَةِ الْمَجُوسِ.وَذَبِيحَةِ الْفِرِنْجِ الَّذِينَ يُقَالُ عَنْهُمْ:إنَّهُمْ لَا يُذَكُّونَ الذَّبَائِحَ.فَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ أَنَّهُ يَحِلُّ هَذَا الْجُبْنُ؛ لِأَنَّ إنْفَحَةَ الْمَيْتَةِ طَاهِرَةٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ الْإِنْفَحَةَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَهِيمَةِ،وَمُلَاقَاةُ الْوِعَاءِ النَّجِسِ فِي الْبَاطِنِ لَا يَنْجَسُ.

وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى أَنَّ هَذَا الْجُبْنَ نَجِسٌ لِأَنَّ الْإِنْفَحَةَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ نَجِسَةٌ؛ لِأَنَّ لَبَنَ الْمَيْتَةِ وَإِنْفَحَتَهَا عِنْدَهُمْ نَجِسٌ.وَمَنْ لَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ فَذَبِيحَتُهُ كَالْمَيْتَةِ.وَكُلٌّ مِنْ أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ يَحْتَجُّ بِآثَارٍ يَنْقُلُهَا عَنْ الصَّحَابَةِ فَأَصْحَابُ الْقَوْلِ

الْأَوَّلِ نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا جُبْنَ الْمَجُوسِ.وَأَصْحَابُ الْقَوْلِ الثَّانِي نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا مَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ مِنْ جُبْنِ النَّصَارَى.فَهَذِهِ مَسْأَلَةُ اجْتِهَادٍ؛ لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يُقَلِّدَ مَنْ يُفْتِي بِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ.

وَأَمَّا " أَوَانِيهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ " فَكَأَوَانِي الْمَجُوسِ وَمَلَابِسِ الْمَجُوسِ،عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَئِمَّةِ.وَالصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوَانِيَهُمْ لَا تُسْتَعْمَلُ إلَّا بَعْدَ غَسْلِهَا؛ فَإِنَّ ذَبَائِحَهُمْ مَيْتَةٌ،فَلَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَ أَوَانِيَهُمْ الْمُسْتَعْمَلَةَ مَا يَطْبُخُونَهُ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ فَتَنْجَسُ بِذَلِكَ،فَأَمَّا الْآنِيَةُ الَّتِي لَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وُصُولُ النَّجَاسَةِ إلَيْهَا فَتُسْتَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ غَسْلٍ كَآنِيَةِ اللَّبَنِ الَّتِي لَا يَضَعُونَ فِيهَا طَبِيخَهُمْ،أَوْ يَغْسِلُونَهَا قَبْلَ وَضْعِ اللَّبَنِ فِيهَا،وَقَدْ تَوَضَّأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مِنْ جَرَّةٍ نَصْرَانِيَّةٍ.فَمَا شَكَّ فِي نَجَاسَتِهِ لَمْ يَحْكُمْ بِنَجَاسَتِهِ بِالشَّكِّ.

وَلَا يَجُوزُ دَفْنُهُمْ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ – ﷺ – عَنْ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ:كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ،وَنَحْوِهِ؛ وَكَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَا يُظْهِرُونَ مَقَالَةً تُخَالِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ؛ لَكِنْ يُسِرُّونَ ذَلِكَ،فَقَالَ اللَّهُ:{وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:٨٤] فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ مَعَ الزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ يُظْهِرُونَ الْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ.

وَأَمَّا اسْتِخْدَامُ مِثْلِ هَؤُلَاءِ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ حُصُونِهِمْ أَوْ جُنْدِهِمْ فَإِنَّهُ مِنْ الْكَبَائِرِ.وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْتَخْدِمُ الذِّئَابَ لِرَعْيِ الْغَنَمِ:فَإِنَّهُمْ مِنْ أَغَشِّ النَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِوُلَاةِ أُمُورِهِمْ،وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى فَسَادِ الْمَمْلَكَةِ وَالدَّوْلَةِ وَهُمْ شَرٌّ مِنْ الْمُخَامِرِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْعَسْكَرِ؛ فَإِنَّ الْمُخَامِرَ قَدْ يَكُونُ لَهُ غَرَضٌ:إمَّا مَعَ أَمِيرِ الْعَسْكَرِ،وَإِمَّا مَعَ الْعَدُوِّ.وَهَؤُلَاءِ مَعَ الْمِلَّةِ،نَبِيِّهَا وَدِينِهَا،وَمُلُوكِهَا؛ وَعُلَمَائِهَا،وَعَامَّتِهَا،وَخَاصَّتِهَا،وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى تَسْلِيمِ الْحُصُونِ إلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ،وَعَلَى إفْسَادِ الْجُنْدِ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ،وَإِخْرَاجِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ قَطْعُهُمْ مِنْ دَوَاوِينِ الْمُقَاتِلَةِ فَلَا يُتْرَكُونَ فِي ثَغْرٍ،وَلَا فِي غَيْرِ ثَغْرٍ؛ فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ فِي الثَّغْرِ أَشَدُّ،وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ بَدَلَهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى اسْتِخْدَامِهِ مِنْ الرِّجَالِ الْمَأْمُونِينَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ،وَعَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ،وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ؛ بَلْ إذَا كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ لَا يَسْتَخْدِمُ مَنْ يَغُشُّهُ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَكَيْفَ بِمَنْ يَغُشُّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ؟،،وَلَا يَجُوزُ لَهُ تَأْخِيرُ هَذَا الْوَاجِبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ بَلْ أَيُّ وَقْتٍ قَدَرَ عَلَى الِاسْتِبْدَالِ بِهِمْ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ."[٧٥٩]

حكم الاستعانة بالفرق الضالة كالخوارج والرافضة:

لقد كانت هذه الفرق ولا تزال من أعظم أسباب ضعف الأمة وبعدها عن دينهم،مع كونهم سبباً رئيساً في كثير من الفتن التي اصطلت أمة الإسلام بنارها،ومن ثم:فخطرهم لا يقلُّ بحال عن أعداء الأمة الظاهرين من يهود ونصارى ووثنيين،إن لم نقل إن خطرهم يفوق في كثير من الأحيان خطر هؤلاء الأعداء،ولاسيما الرافضة .

ولله درُّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ يقول:"وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَحْوَالِ؛ أَنَّ أَعْظَمَ السُّيُوفِ الَّتِي سُلَّتْ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهَا وَأَعْظَمَ الْفَسَادِ الَّذِي جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ:إنَّمَا هُوَ مِنْ الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَيْهِمْ.فَهُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ وَأَبْعَدُ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلِهَذَا كَانُوا أَكْذَبَ فِرَقِ الْأُمَّةِ.فَلَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَى الْقِبْلَةِ أَكْثَرُ كَذِبًا وَلَا أَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِلْكَذِبِ وَتَكْذِيبًا لِلصِّدْقِ مِنْهُمْ وَسِيَّمَا النِّفَاقُ فِيهِمْ أَظْهَرُ مِنْهُ فِي سَائِرِ النَّاسِ.."[٧٦٠]

وقد دلَّ ظاهر قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ

---

[٧٥٩] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٠٦) والمنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص: ٧٩) والنصيرية طغاة سورية أو العلويون كما سماهم الفرنسيون (ص: ١٢) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٩)

[٧٦٠] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٧٩)

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) } [آل عمران]

على النهي عن الاستعانة بأهل الزيغ والضلال في أمور المسلمين .

قال القرطبي رحمه الله:"نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ دُخَلَاءَ وَوُلَجَاءَ،يُفَاوِضُونَهُمْ فِي الْآرَاءِ،وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ.وَيُقَالُ:كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ مَذْهَبِكَ وَدِينِكَ فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ "[٧٦١]

قال الألوسي:" والحكم عام وإن كان سبب الترول خاصا فإن اتخاذ المخالف وليا مظنة الفتنة والفساد ولهذا ورد تفسير هذه البطانة بالخوارج."[٧٦٢]

وفي قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:٥٧]

قال الشوكاني:" هذا النهي عن موالاة المتخذين الدين هزؤا وَلَعِبًا يَعُمُّ كُلَّ مَنْ حَصَلَ مِنْهُ ذَلِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَالْبَيَانُ بِقَوْلِهِ:مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَى آخِرِهِ لَا يُنَافِي دُخُولَ غَيْرِهِمْ تَحْتَ النَّهْيِ إِذَا وُجِدَتْ فِيهِ الْعِلَّةُ الْمَذْكُورَةُ الَّتِي هِيَ الْبَاعِثَةُ عَلَى النَّهْيِ."[٧٦٣]

وقد نص أهل العلم على حرمة الاستعانة بأهل الأهواء من الفرق الضالة .

قال ابن مفلح:"تَحْرُمُ الِاسْتِعَانَةُ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ أَعْظَمُ ضَرَرًا لِكَوْنِهِمْ دُعَاةً بِخِلَافِ الْيَهُودِ والنصارى نَصَّ عَلَى ذَلِكَ "[٧٦٤]

ومرادهما بقولهما (نص على ذلك) أي:نص على تحريم الاستعانة بأهل الأهواء الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة غير مدافع عليه رحمات الله المتتابعات .

---

[٧٦١] - تفسير القرطبي (٤/ ١٧٨)

[٧٦٢] - تفسير الألوسي = روح المعاني (٢/ ٢٥٣)

[٧٦٣] -فتح القدير للشوكاني (٢/ ٦٢)

[٧٦٤] - المبدع في شرح المقنع (٣/ ٣٠٦) والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٤/ ١٤٤)

وقال أبو علي بن الحسين بن أحمد بن المفضل البلخي:دخلت على أحمد بن حنبل فجاءه رسول الخليفة يسأله عن الاستعانة بأهل الأهواء فقال أحمد:لا يستعان بهم،قال:يستعان باليهود والنصارى ولا يستعان بهم؟ قال:إن النصارى واليهود لا يدعون إلى أديانهم وأصحاب الأهواء داعية،عزاه الشيخ تقي الدين إلى مناقب البيهقي وابن الجوزي يعني للإمام أحمد.وقال:فالنهي عن الاستعانة بالداعية لما فيه من الضرر على الأمة،انتهى كلامه [٧٦٥].

وكلام أهل العلم والأئمة السابق في تحريم الاستعانة بأهل الأهواء كلام عام يشمل كلَّ من يدخل تحت ترجمة الهوى والضلال،وإن صحت نسبته للقبلة،ومن فرق أهل الزيغ والضلال الذين ينبغي عدم الاستعانة بهم وجه الخصوص ((الخوارج)) لما هو معروف عنهم من تدينهم بتكفير المسلمين،واستباحة دمائهم،وأموالهم،وأعراضهم،بل هم كما وصفهم النبي ﷺ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،قَالَ:بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِاليَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا،فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحَنْظَلِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ،وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزَارِيِّ وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ العَامِرِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ وَبَيْنَ زَيْدِ الخَيْلِ الطَّائِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ،فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا:يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ،وَيَدَعُنَا قَالَ:«إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ»،فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ،نَاتِئُ الجَبِينِ،كَثُّ اللِّحْيَةِ،مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ،مَحْلُوقُ الرَّأْسِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،اتَّقِ اللَّهَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ،فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ،وَلاَ تَأْمَنُونِي»،فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ قَتْلَهُ،أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ،فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ،فَلَمَّا وَلَّى،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا،قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ،لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ،يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ،وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ،لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» [٧٦٦]
وعَنْ شَرِيكِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَلْقَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَسْأَلُهُ عَنْ الْخَوَارِجِ،فَلَقِيتُ أَبَا بَرْزَةَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقُلْتُ لَهُ:هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ

[٧٦٥] – المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٩) والآداب (١/ ٢٩٠) ف (٢/ ١٦٧) .

[٧٦٦] – صحيح البخاري (٩/ ١٢٧)(٧٤٣٢) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤١)١٤٣ – (١٠٦٤)

اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الْخَوَارِجَ؟ قَالَ:نَعَمْ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِأُذُنِي وَرَأَيْتُهُ بِعَيْنِي،أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ،فَأَعْطَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ،وَمَنْ عَنْ شِمَالِهِ،وَلَمْ يُعْطِ مَنْ وَرَاءَهُ شَيْئًا،فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ وَرَائِهِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ مَا عَدَلْتَ فِي الْقِسْمَةِ،رَجُلٌ أَسْوَدُ مَطْمُومُ الشَّعْرِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ،فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا،وَقَالَ:«وَاللهِ لَا تَجِدُونَ بَعْدِي رَجُلًا هُوَ أَعْدَلُ عَلَيْكُمْ مِنِّي» ثُمَّ قَالَ:«يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ كَأَنَّ هَذَا مِنْهُمْ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ،سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ،لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ،فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،هُمْ أَشَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»[٧٦٧]

وقال ابن تيمية رحمه الله:"وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – الْأَحَادِيثُ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ،وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ.قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ،وَقَدْ رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ،وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:حَدِيثَ عَلِيٍّ،وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،وَفِي السُّنَنِ،وَالْمَسَانِيدِ طُرُقٌ أُخَرُ مُتَعَدِّدَةٌ.وَقَدْ قَالَ – ﷺ– فِي صِفَتِهِمْ:«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ،وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ،وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ،أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» ."[٧٦٨]

ومن الحوادث الهامة هنا والتي سجلها لنا التاريخ:ما حدث مع أهل السنة في شمال إفريقيا زمن الدولة العبيدية المرتدة في ولاية القائم بالله سنة ٣٣٢ هـــ حيث أجمع علماء أهل السنة هناك يومئذ على الخروج على هذه الدولة العبدية المرتدة تحت راية الخوارج !

قال الذهبي رحمه الله:"وَقَدْ أَجمع عُلَمَاء المَغْرب عَلَى محَارِبَة آل عبيد لمَا شَهْرُوهُ مِنَ الكُفْر الصرَاح الَّذِي لاَ حِيْلَة فِيْهِ وَقَدْ رَأَيْت فِي ذَلِكَ توَاريخ عدَّة يصدق بَعْضهَا بَعْضاً وَعُوتبَ بَعْض العُلَمَاء فِي الخُرُوْجِ مَعَ أَبِي يَزِيْد الخَارِجيّ فَقَالَ:وَكَيْفَ لاَ أَخرج وَقَدْ،سَمِعْتُ

[٧٦٧] –السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٧)(٣٥٥٢) حسن

[٧٦٨] –الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٣٦) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١٢)

الكُفْر بِأُذُنِي حضرت عقداً فِيْه جمع مِنْ سنَة وَمشَارقَة وَفيهُم أَبُو قضَاعَة الدَّاعِي فَجَاءَ رَئِيْس فَقَالَ:كَبِيْر مِنْهُم إِلَى هُنَا يَا سيدي ارْتَفَع إِلَى جَانب رَسُوْل الله يَعْنِي:أَبَا قضَاعَة فَمَا نطق أَحَد،وَوجد بخَط فَقِيْه قَالَ:فِي رَجَبٍ،سَنَةَ ٣٣١ قَامَ المكوكب يقذف الصَّحَابَة وَيطعن عَلَى النَّبِيِّ – ﷺ – وَعلقت رُؤُوْس حمير وَكباش عَلَى الحوَانيت كتب عَلَيْهَا أَنَّهَا رُؤُوْس صَحَابَة."

وَخَرَجَ أَبُو إِسْحَاقَ الفَقِيْه مَعَ أَبِي يَزِيْد،وَقَالَ:هُم أَهْل القِبْلَة وَأُولئك ليسُوا أَهْل قبلَة وَهُم بَنو عَدُوّ الله فَإِن ظفرنَا بهم لَمْ ندْخل تَحْتَ طَاعَة أَبِي يَزِيْد لأَنَّه خَارِجيّ."[٧٦٩]

وقال أيضا:"فَلَمَّا قَامَ أَبُو يَزِيْدَ مَخْلَد بنَ كَنْدَاد الأَعْرَج رَأْسُ الخَوَارِج عَلَى بني عُبَيْد.خَرَجَ هَذَا الممسي مَعَهُ فِي عدد مِنْ عُلَمَاء القَيْرَوَان لفرْط مَا عَمَّهُم مِنَ البلاَء،فَإِنَّ العُبَيْدِي كَشَفَ أَمرَه،وَأَظْهَرَ مَا يُبْطنُهُ"[٧٧٠]

وقال في ترجمة:"أَبُو العَرَبِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ تَمِيْمٍ المَغْرِبِيُّ،العَلاَّمَةُ،المُفْتِي،ذُو الفُنُوْن،أَبُو العَرَبِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ تَمِيْمِ بن تَمَّام المَغْرِبِيُّ،الإِفْرِيْقِيُّ....وَكَانَ أَحَدَ مَنْ عقد الخُرُوجَ عَلَى بنِي عبيد فِي ثَوْرَة أَبِي يَزِيْدَ عَلَيْهِم."[٧٧١]

وقال القاضي عياض:"وكان في قبائل زناتة،رجل منهم،يكنى بأبي يزيد،ويعرف بالأعرج صاحب الحمار،واسمه مخلد بن كيداد،من بني يفرن،وكان يتحلى بنسك عظيم،ويلبس جبة صوف قصيرة الكمين،ويركب حماراً،وقومه له على طاعة عظيمة.وكان يبطن رأي الصفرية.ويتمذهب بمذهب الخوارج.فقام على بني عبيد،والناس يتمنون قائماً عليهم.فتحرك الناس لقيامه،واستجابوا له.وفتح البلاد،ودخل القيروان،وفرّ اسماعيل الى مدينة المهدية،فنفر الناس مع أبي يزيد،الى حربه.وخرج بهم فقهاء القيروان،وصلحاؤهم،ورأوا أن الخروج معه متعين،لكفرهم.إذ هو من أهل القبلة.وقد وجدوه يقاتلوهم معهم.وكذلك كان أبو إسحاق السبائي،يقول.ويشير بيده الى

[٧٦٩] – سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥/ ١٥٤)

[٧٧٠] – سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥/ ٣٧٣)

[٧٧١] – سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥/ ٣٩٤)

أصحاب أبي يزيد.هؤلاء من أهل القبلة لقتالهم.فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد،والله يسلط عليه إماماً عادلاً،يخرجه عنا.
وحكى أبو عبد الله بن محمد المالكي،فيمن خرج معه أبو الفضل الممسي،وربيع بن سليمان القطان،وأبو العرب بن تميم،وأبو إسحاق السبائي،وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد،وأبو حفص عمر بن محمد الغسال،وعبد الله بن محمد الشقيقي،في جماعة المدنيين،وابراهيم بن محمد المعروف بالعشّاء الحنفي،وغيرهم.و لم يخلف من فقهاء المدنيين المشهورين،إلا أبو ميسرة لعماه،ولكنه مشى شاهراً للسلاح في القيروان مع الناس،باجتماع المشيخة على الخروج."[٧٧٢]
وهذا القدر يوضح أن علماء أهل السنة يومئذ قد أجمعوا على مشروعية القتال تحت راية الخوارج لضرورة دفع العبيديين المرتدين،وأن مفسدة القتال تحت راية هؤلاء الخوارج:أقل من مفسدة ترك قتال أولئك المرتدين .
إلا ان الأمر لم يقف عند هذا الحد،فالنفسية الخارجية الخبيثة تأبى إلا الظهور .
قال الذهبي رحمه الله:"ذَكَرَ القَاضِي عَبْدُ الجَبَّارِ المُتَكَلِّم،أَنَّ القَائِمَ أظهر سبَّ الأَنْبيَاء.وَكَانَ مُنَاديه يَصيح:العنُوا الغَار وَمَا حَوَى.وَأَبَادَ عِدَّةً مِنَ العُلَمَاء.وَكَانَ يُرَاسل قَرَامِطَةَ الْبَحْرِين،وَيَأْمرهُمُ بإحرَاق المساجد والمصاحف.فتجمعت الإِبَاضِيَّةُ وَالبربر عَلَى مَخْلد،وَأَقْبَلَ،وَكَانَ نَاسكاً قَصيْر الدّلق،يَرْكَب حِمَاراً،لَكنَّهُم خوَارج،وَقَامَ مَعَهُ خَلْق مِنَ السُّنَّة وَالصُّلَحَاء،وَكَادَ أَنْ يتملَّك العَالمَ،وَرُكزت بُنودُهُم عِنْد جَامع القَيْرَوَان فِيْهَا:لاَ إِلَهَ إِلَّا الله،لاَ حُكْم إِلَّا لله.وبندان أصفرَان فِيْهِمَا:نَصْرٌ مِنَ الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ.وَبند لَمخْلَد فِيْه اللَّهُمَّ انْصُرْ وَليك عَلَى من سب نبيك وخطبهم أحمد ابن أَبِي الوَلِيْد فحضّ عَلَى الجهَاد ثُمَّ سَارُوا وَنَازلُوا المهديَّة وَلَمَّا التقَوا وَأَيقن مَخْلَد **بالنَّصْر تحَرَّكت نَفْسه الخَارجيَة.وَقَالَ لأَصْحَابِه:انكشفُوا،عَنْ أَهْل القَيْرَوَان حَتَّى ينَال مِنْهُم عدوهُم فَفَعلُوا ذَلكَ فَاسْتُشْهِدَ خَمْسَة وَثَمَانُوْنَ نَفْساً مِنَ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّاد.**

---
[٧٧٢] - ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٥/ ٣٠٣)

وخوَارج المَغْرب إباضيَّة[٧٧٣] منسوبُوْنَ إِلَى عَبْد الله بن يَحْيَى بن إباض الَّذي خَرَجَ فِي أَيَّام مَرْوَان الحِمَار وَانْتَشَر أَتْبَاعه بالمَغْرب يَقُوْلُ:أَفعَالنَا مخلوقَة لَنَا وَيكفر بِالكبَائِر وَيَقُوْلُ:لَيْسَ فِي القُرْآن خُصُوْص وَمنْ خَالَفَه حَلَّ دمه."[٧٧٤]

وقال الذهبي:"فلمَّا قَامَ أَبُو يَزِيْدَ مَخْلَد بنَ كَنْدَاد الأَعْرَج رَأْسُ الخَوَارِج عَلَى بنِي عُبَيْد،خَرَجَ هَذَا الممسي مَعَهُ فِي عدد مِنْ عُلَمَاء القَيْرَوَان؛ لَفَرْط مَا عمَّهم مِنَ البلاَء،فَإِنَّ العُبَيْدي كَشَفَ أَمرَه،وَأَظْهَرَ مَا يُبْطنُهُ،حَتَّى نصبُوا حَسَنَ الضَّرِيْر السَّبَّاب فِي الطُّرُق بأَسجَاع لقَّنوه يَقُوْلُ:العنُوا الغَار وَمَا حوَى،وَالكسَاء وَمَا وَعَى،وَغَيْر ذَلكَ،فَمَنْ أَنكر ضُرِبَتْ عُنُقُه،وَذَلكَ فِي أَوَّل دَوْلَة الثَّالث إِسْمَاعِيْل،فَخَرَجَ مَخْلَد الزَّنَاتِي المَذْكُوْر صَاحِبُ الحِمَارَة،وَكَانَ زَاهداً،فتحرَّك لقيَامه كُلُّ أَحَد،فَفَتَحَ البلاَدَ،وَأَخَذَ مَدِيْنَة القَيْرَوَان،لَكِنْ عَملَت الخَوَارِجُ كُلّ قبيحٍ حَتَّى أَتَى العُلَمَاء أَبَا يَزِيْدَ يَعيبُوْنَ عَلَيْه،فَقَالَ:نَهْبُكم حلاَلٌ لَنَا،فلاَطفُوهُ حَتَّى أَمرَهُم بالكَفِّ،وتحصَّن العُبَيْديُّ بالمهديَّة.

وَقِيْلَ:إِنَّ أَبَا يَزِيْدَ لَمَّا أَيقن بالظُّهور غَلَبَتْ عَلَيْه نَفْسه الخَارجيَّة،وَقَالَ لأُمرَائه:إِذَا لقيتُم العُبَيْديَّة فَانهزمُوا عَنِ القَيْرَوَانيين حتى ينال منهم عدوهم،ففعلوا ذلك،فاستُشْهد خَلْق،وَذَلكَ سنَة نَيِّفٍ وَثَلاَثِيْنَ وَثَلاَث مائَة.

فَالخَوَارِجُ أَعدَاءُ المُسْلِميْنَ،وَأَمَّا العُبَيْديَّة البَاطنيَة فَأَعدَاءُ الله ورسوله."[٧٧٥]

قلت:فهذه الواقعة وإن كانت تبين من جهة أن علماء اهل السنة يومئذ رأوا مشروعية القتال تحت راية الخوارج دفعاً لأعظم الضررين- وهو ضرر المرتدين- إلا أنها تبين من جهة أخرى أن ((الخوارج)) عدوٌّ لا يؤمن جانبهم،وخاصة إذا تمكنوا وكانت الدولة لهم،فينبغي الحذر منهم .[٧٧٦]

---

[٧٧٣] - الإباضية يعتبرون أقل فرق الخوارج سوءا ومع هذا فعلوا ذلك باهل السنة والجماعة فكيف بغيرهم من الخوارج المتشددين؟ !!!

[٧٧٤] - سير أعلام النبلاء ط الحديث (١١/ ٤٢٤)

[٧٧٥] - سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٢/ ٦)

[٧٧٦] - مسائل من فقه الجهاد ص(٣٥٣)

وقال السرخسي:" لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَهْلَ الشِّرْكِ مَعَ أَهْلِ الشِّرْكِ.لِأَنَّ الْفِئَتَيْنِ حِزْبُ الشَّيْطَانِ،وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ،فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَنْضَمَّ إلَى إحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَيُكَثِّرُ سَوَادُهُمْ وَيُقَاتِلُ دَفْعًا عَنْهُمْ،وَهَذَا؛ لِأَنَّ حُكْمَ الشِّرْكِ هُوَ الظَّاهِرُ،وَالْمُسْلِمُ إنَّمَا يُقَاتِلُ لِنُصْرَةِ أَهْلِ الْحَقِّ،لَا لِإِظْهَارِ حُكْمِ الشِّرْكِ.وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَاتِلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ أَحَدًا مِنْ الْخَوَارِجِ،مَعَ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنْ الْخَوَارِجِ،إذَا كَانَ حُكْمُ الْخَوَارِجِ هُوَ الظَّاهِرُ.لِأَنَّ إبَاحَةَ الْقِتَالِ مَعَ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إنْ رَجَعُوا إلَى أَمْرِ اللَّهِ وَلَا يَحْصُلُ هَذَا الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْقِتَالِ إذَا كَانَ حُكْمُ الْخَوَارِجِ هُوَ الظَّاهِرُ.وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ،مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ مَعَ الْخَوَارِجِ،الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ.لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ الْآنَ لِدَفْعِ فِتْنَةِ الْكُفْرِ،وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ،فَهَذَا قِتَالٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ،وَهُوَ إعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى،بِخِلَافِ مَا سَبَقَ،فَالْقِتَالُ هُنَاكَ لِإِظْهَارِ مَا هُوَ مَائِلٌ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ،وَهَا هُنَا لِإِثْبَاتِ أَصْلِ الطَّرِيقِ."[٧٧٧]

وقال يُونُسَ:«فِتْنَةُ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَارِقَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَلُّوا،وَأَنَّهُمْ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُمْ لِمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْبِدَعِ،وَيُكَذِّبُونَ بِالشَّفَاعَةِ وَالْحَوْضِ،وَيُنْكِرُونَ عَذَابَ الْقَبْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ،وَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَسْتَتِيبَهُمْ،فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا نَفَاهُمْ مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ»[٧٧٨]

وإذا كنا نحذر من الاستعانة بالخوارج:فإنا نحذِّر تحذيراً أشد من الاستعانة بغلاة المرجئة ؛ وقد كان الإمام العلم إبراهيم النخعي رحمه الله يقول:"«لَفِتْنَتُهُمْ عِنْدِي أَخْوَفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَارِقَةِ،يَعْنِي الْمُرْجِئَةَ»[٧٧٩]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ صَالِحٍ،قَالَ:سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ،يَقُولُ:«لَفِتْنَةُ الْمُرْجِئَةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَارِقَةِ»[٧٨٠]

وقَالَ إِبْرَاهِيمُ:«لَآثَارُ فِتْنَةِ الْمُرْجِئَةِ أَخْوَفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزَارِقَةِ»[٧٨١]

---

[٧٧٧] - شرح السير الكبير (ص: ١٥١٥)

[٧٧٨] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢١) صحيح

[٧٧٩] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٨٨٥)(١٢٢١) صحيح

[٧٨٠] - السنة لأبي بكر بن الخلال (٣/ ٥٦٢)(٩٥١) صحيح

وإذا كان أئمة السلف يخافون على هذه الأمة من فتنة ((مرجئة الفقهاء)) أعظم من خوفهم من فتنة الخوارج كما نصَّ إبراهيم النخعي رحمه الله،فبالله ماذا يقال في فتنة غلاة المرجئة اليوم من أهل التجهم الذين تدفعهم عقيدتهم الفاسدة إلى موالاة أعداء الله ومعاداة أوليائه،ونصرة الشرك وأهله،حتى غدوا حرباً على المؤمنين وسلماً للكفرة والطغاة المجرمين،ووقعوا في مظاهرة ومناصرة الكفار صراحاً بتأويلات إن دلت على شيء فإنما تدلُّ على عظيم الخذلان الذي فيه القوم،ومن خادع الله:خدعه ولا بد.

وقد حق في أولئك المخذولين:قول نصر بن سيار رحمه الله:

دع عنك دنيا وأهلا أنت تاركهم ...ما خير دنيا وأهل لا يدومونا

إلا بقية أيام إلى أجل ...فاطلب من الله أهلا لا يموتونا

وأكثر تقى الله في الأسرار مجتهدا ...إن التقى خيره ما كان مكنونا

واعلم بأنك بالأعمال مرتهن ...فكن لذاك كثير الهم محزونا

إني أرى الغبن المردى بصاحبه ...من كان في هذه الأيام مغبونا

تكون للمرء أحيانا فتمنحه ...يوما عثارا ويوما تمنح اللينا

بينا الفتى في نعيم العيش حوله ...دهر فأمسى به عن ذاك مزبونا

تحلو له مرة حتى يسر بها ...حينا وتمقره طعما أحايينا

هل غابر من بقايا الدهر تنظره ...إلا كما قد مضى فيما تقضونا

فامنح جهادك من لم يرج آخرة ...وكن عدوا لقوم لا يصلونا

واقتل مواليهم منا وناصرهم ...حينا تكفرهم والعنهم حينا

والعائبين علينا ديننا وهم ...شر العباد إذا خابرتهم دينا

والقائلين سبيل الله بغيتنا ...لبعد ما نكبوا عما يقولونا

فاقتلهم غضبا لله منتصرا ...منهم به ودع المرتاب مفتونا

إرجاؤكم لزكم والشرك في قرن ...فأنتم أهل إشراك ومرجونا

لا يبعد الله في الأحداث غيركم ...إذ كان بينكم بالشرك مقرونا

---

[٧٨١] - السنة لأبي بكر بن الخلال (٤/ ١٣٧)(١٣٦٠) صحيح

ألقى به الله رعبا في نحوركم ...والله يقضي لنا الحسنى ويعلينا

كيما نكون الموالي عند خائفة ...عما تروم به الإسلام والدينا

وهل تعيبون منا كاذبين به ...غال ومهتضم حسبي الذي فينا

يأبى الذي كان يبلى الله أولكم ...على النفاق وما قد كان يبلينا[٧٨٢]

وقال الشوكاني رحمه الله:"قَوْلُهُ:لَا تَتَّخذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَكُمْ هُزُواً هذا النهي عن موالاة المتخذين الدين هزؤا وَلَعبًا يَعُمُّ كُلَّ مَنْ حَصَلَ منْهُ ذَلكَ منَ الْمُشْرِكينَ وَأَهْلِ الْكتَاب وَأَهْلِ الْبدَع الْمُنْتَمينَ إِلَى الْإِسْلَام،وَالْبَيَانُ بقَوْله:منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتابَ إِلَى آخره لَا يُنَافِي دُخُولَ غَيْرِهِمْ تَحْتَ النَّهْيِ إِذَا وُجِدَتْ فِيهِ الْعِلَّةُ الْمَذْكُورَةُ الَّتِي هِيَ الْبَاعِثَةُ عَلَى النَّهْيِ."[٧٨٣]

ومن أظهر فرق الزيغ والانحراف فرقة الرافضة (الشيعة الإمامية) والتي يحرم الاستعانة بها في شيء .

قال البهوتي:" يَحْرُمُ اسْتعَانَةٌ (بأَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي شَيْءٍ منْ أُمُورِ الْمُسْلمينَ) منْ غَزْوٍ وَعمَالَة،أَوْ كتَابَة أَوْ غَيْرِهَا لعظَمِ الضَّرَر،لأَنَّهُمْ دُعَاةٌ يَدْعُونَ إلَى عَقَائدهمْ.وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَا يَدْعُونَ إلَى أَدْيَانهمْ نَصًّا.وَتُكْرَهُ الاسْتعَانَةُ بذمِّيٍّ فِي ذَلكَ،وَتَحْرُمُ تَوْلِيَتُهُمْ الْوِلَايَات.(وَ) تَحْرُمُ (إعَانَتُهُمْ) أَيْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ عَلَى عَدُوِّهِمْ (إلَّا خَوْفًا) منْ شَرِّهِمْ."[٧٨٤]

وقال البهوتي:"(وَيَحْرُمُ أَنْ يَسْتَعينَ) مُسْلمٌ (بأَهْلِ الْأَهْوَاءِ) كَالرَّافضَة (فِي شَيْءٍ منْ أُمُورِ الْمُسْلمينَ منْ غَزْوٍ،وَعمَالَةٍ،وَكتَابَةٍ،وَغَيْرِ ذَلكَ) ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ ضَرَرًا،لكَوْنهِمْ دُعَاةً،بخلَاف الْيَهُود وَالنَّصَارَى "[٧٨٥]

---

[٧٨٢] – الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي (ص: ١٠٥) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٧/ ١٠٠)

[٧٨٣] – فتح القدير للشوكاني (٢/ ٦٢)

[٧٨٤] – شرح منتهى الإرادات = دقائق أولي النهى لشرح المنتهى (١/ ٦٣١) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٦٣) والأسئلة والأجوبة الفقهية (٣/ ١٢٣)

[٧٨٥] – كشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٦٣)

قلت:الرافضة من دون سائر الفرق المنتسبة للملة:أهل غدر،وخيانة،ومكر،وخديعة،إذ دينهم يأمرهم بالكذب – التقية– ويحضهم عليه،فإذا كانت كل أمم الأرض على اختلاف أديانها وعقائدها تتديَّنُ بالصدق:فإن الرافضة دون العالمين تتدين بالكذب،بل ويجعلونه ذروة التدين والتعبد عندهم !!!!

فماذا ينتظر من قوم الكذب أصل دينهم ومبدؤه ؟ وكيف لعاقل أن يثق بهم أو يركن إليهم ؟!

وفوق ذلك فالرافضة يتديون بتكفير المسلمين(السنة) واستباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم،فلا حرمة لأهل الإسلام عندهم ألبتة،إذ هم عندهم:كفار مرتدون يتقربون إلى ربهم بالقضاء عليهم،والتخلص منهم "

وهم لذلك:يدٌّ مع كل أحد من أعداء الإسلام ؛ قد عقدوا غيب ضمائرهم على الغدر،وسلكوا فيه كل طريق:فلا يرعون ميثاقاً،ولا يثبتون على عهد،فهم مفطورون على النكث،مطبوعون على الخيانة،شأنهم في ذلك شأن أصلهم الذي ينحدرون منه إذ العرق يترع ولا شكَّ .

وفي كل حقب التاريخ كانوا ومازالوا مع كل عدو وغاز لهذه الأمة من اليهود والنصارى والملحدين والوثنيين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كشف خباياهم وتبيان حقيقتهم التي غفل عنها كثير من أهل عصرنا ولاسيما أهل العلم منهم:"وَهَؤُلَاءِ الرَّافِضَةُ إنْ لَمْ يَكُونُوا شَرًّا مِنْ الْخَوَارِجِ المنصوصين فَلَيْسُوا دُونَهُمْ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ إنَّمَا كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَأَتْبَاعَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَقَطْ؛ دُونَ مَنْ قَعَدَ عَنْ الْقِتَالِ أَوْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ.وَالرَّافِضَةُ كَفَّرَتْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَامَّةَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَكَفَّرُوا جَمَاهِيرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ والمتأخرين.فَيُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ اعْتَقَدَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الْعَدَالَةَ أَوْ تَرَضَّى عَنْهُمْ كَمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَلِهَذَا يُكَفِّرُونَ أَعْلَامَ الْمِلَّةِ:مِثْلَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني وَأُوَيْسٍ الْقَرْنِيِّ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ

وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِي وَمِثْلِ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِي وَأَبِي حَنِيفَةَ وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وفضيل بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوف الْكَرْخِي والْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّد وَسَهْلِ بْنِ عَبْد اللَّه التستري وَغَيْر هَؤُلَاءِ.وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ مَنْ خَرَجَ عَنْهُمْ وَيُسَمُّونَ مَذْهَبَهُمْ مَذْهَبَ الْجُمْهُورِ كَمَا يُسَمِّيه الْمُتَفَلْسِفَةُ وَنَحْوُهُمْ بِذَلِكَ وَكَمَا تُسَمِّيه الْمُعْتَزِلَةُ مَذْهَبَ الْحَشْوِ وَالْعَامَّة وَأَهْلِ الْحَدِيث.وَيَرَوْنَ فِي أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْمَغْرِب وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاق وَالْجَزِيرَة وَسَائِر بِلَاد الْإِسْلَام أَنَّهُ لَا يَحِلُّ نِكَاحُ هَؤُلَاءِ وَلَا ذَبَائِحُهُمْ وَأَنَّ الْمَائِعَاتِ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنْ الْمِيَاه وَالْأَدْهَان وَغَيْرِهَا نَجِسَةٌ وَيَرَوْنَ أَنَّ كُفْرَهُمْ أَغْلَظُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُود وَالنَّصَارَى.لِأَنَّ أُولَئِكَ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ أَصْلِيُّونَ وَهَؤُلَاءِ.مُرْتَدُّونَ وَكُفْرُ الرِّدَّة أَغْلَظُ بِالْإِجْمَاعِ مِنْ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ.وَلِهَذَا السَّبَب يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْجُمْهُورِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيُعَاوِنُونَ التَّتَارَ عَلَى الْجُمْهُور.وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي خُرُوجِ جنكيزخان مَلِك الْكُفَّارِ إلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَفِي قُدُومِ هُولَاكُو إلَى بِلَادِ الْعِرَاق؛ وَفِي أَخْذ حَلَبَ وَنَهْب الصالحية وَغَيْر ذَلِكَ بِخُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ؛ لَمَّا دَخَلَ فِيه مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرُ مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ.وَبِهَذَا السَّبَب نَهَبُوا عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِمْ وَقْتُ انْصِرَافِه إلَى مِصْرَ فِي النَّوْبَة الْأُولَى.وَبِهَذَا السَّبَب يَقْطَعُونَ الطُّرُقَات عَلَى الْمُسْلِمِينَ.وَبِهَذَا السَّبَب ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَة التَّتَار وَالْإِفْرِنْجِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْكَآبَة الشَّدِيدَة بِانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ مَا ظَهَرَ وَكَذَلِكَ لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ السَّاحِلَ – عَكَّةَ وَغَيْرَهَا – ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ الِانْتِصَارِ لِلنَّصَارَى وَتَقْدِيمِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَدْ سَمِعَهُ النَّاسُ مِنْهُمْ.وَكُلُّ هَذَا الَّذِي وَصَفْت بَعْضَ أُمُورِهِمْ وَإِلَّا فَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَحْوَال؛ أَنَّ أَعْظَمَ السُّيُوف الَّتِي سُلَّتْ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَة مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهَا وَأَعْظَمَ الْفَسَاد الَّذِي جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى أَهْلِ الْقِبْلَة:إنَّمَا هُوَ مِنْ الطَّوَائِف الْمُنْتَسِبَة إلَيْهِمْ.فَهُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِه وَأَبْعَدُ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلِهَذَا كَانُوا أَكْذَبَ فِرَق الْأُمَّة.فَلَيْسَ فِي الطَّوَائِف الْمُنْتَسِبَة إلَى الْقِبْلَة أَكْثَرُ كَذِبًا وَلَا أَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِلْكَذِب وَتَكْذِيبًا لِلصِّدْق مِنْهُمْ وَسِيَّمَا النِّفَاقُ فِيهِمْ أَظْهَرُ مِنْهُ فِي سَائِرِ النَّاسِ؛ وَهِيَ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ {آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ:إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ

أَخْلَفَ وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ} وَفِي رِوَايَةٍ:{أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ} .وَكُلُّ مَنْ جَرَّبَهُمْ يَعْرِفُ اشْتِمَالَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ؛ وَلِهَذَا يَسْتَعْمِلُونَ التَّقِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِيمَا الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَيَسْتَعْمِلونها مَعَ الْمُسْلِمِينَ {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} وَيَحْلِفُونَ مَا قَالُوا وَقَدْ قَالُوا وَيَحْلِفُونَ بِاَللَّهِ لِيَرْضَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ.وَقَدْ أَشْبَهُوا الْيَهُودَ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَاسِيَّمَا السَّامِرَةُ مِنْ الْيَهُودِ؛ فَإِنَّهُمْ أَشْبَهُ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ:يُشَبِّهُونَهُمْ فِي دَعْوَى الْإِمَامَةِ فِي شَخْصٍ أَوْ بَطْنٍ بِعَيْنِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِكُلِّ مَنْ جَاءَ بِحَقِّ غَيْرِهِ يَدْعُونَهُ وَفِي اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ أَوْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْخِيرِ الْفِطْرِ وَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَحْرِيمِ ذَبَائِحِ غَيْرِهِمْ.وَيُشْبِهُونَ النَّصَارَى فِي الْغُلُوِّ فِي الْبَشَرِ وَالْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ وَفِي الشِّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.وَهُمْ يُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَذِهِ شِيَمُ الْمُنَافِقِينَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} وَقَالَ تَعَالَى:{تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} .وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ وَلَا نَقْلٌ وَلَا دِينٌ صَحِيحٌ وَلَا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً – وَالْخَوَارِجُ كَانُوا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَجَمَاعَةً – وَهُمْ لَا يَرَوْنَ جِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ وَلَا طَاعَتَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا تَنْفِيذَ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِمْ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسُوغُ إلَّا خَلْفَ إمَامٍ مَعْصُومٍ.وَيَرَوْنَ أَنَّ الْمَعْصُومَ قَدْ دَخَلَ فِي السِّرْدَابِ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.وَهُوَ إلَى الْآنَ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا رَآهُ أَحَدٌ وَلَا عَلَّمَ أَحَدًا دِينًا وَلَا حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ بَلْ مَضَرَّةٌ.وَمَعَ هَذَا فَالْإِيمَانُ عِنْدَهُمْ لَا يَصِحُّ إلَّا بِهِ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلَّا أَتْبَاعُهُ:مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ

الضُّلَّالِ مِنْ سُكَّانِ الْجِبَالِ وَالْبَوَادِي أَوْ مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ بِالْبَاطِلِ:مِثْلُ ابْنِ الْعُودِ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ قَدْ كَتَبَ خَطَّهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ."[٧٨٦]

وقال:"كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرَّافِضَةَ الْمُحَارِبِينَ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ وَكُلٌّ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ انْتَحَلَتْ إحْدَى الثَّقَلَيْنِ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ.فَلِهَذَا كَانَتْ الْخَوَارِجُ أَقَلَّ ضَلَالًا مِنْ الرَّوَافِضِ؛ مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ مُخَالَفَةٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَمُخَالَفَةٌ لِصَحَابَتِهِ وَقَرَابَتِهِ وَمُخَالِفُونَ لِسُنَّةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَلِعِتْرَتِهِ أَهْلِ بَيْتِهِ."[٧٨٧]

وقال أيضاً:" وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَمُلُوكِهِمْ ثُمَّ الرَّافِضَةُ بَعْدَهُمْ.فَالرَّافِضَةُ يُوَالُونَ مَنْ حَارَبَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةَ وَيُوَالُونَ التَّتَارَ وَيُوَالُونَ النَّصَارَى.وَقَدْ كَانَ بِالسَّاحِلِ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَبَيْنَ الفرنج مُهَادَنَةٌ حَتَّى صَارَتْ الرَّافِضَةُ تَحْمِلُ إلَى قُبْرُصَ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ وَسِلَاحَهُمْ وَغِلْمَانَ السُّلْطَانِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ الْجُنْدِ وَالصِّبْيَانِ.وَإِذَا انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى التَّتَارِ أَقَامُوا الْمَآتِمَ وَالْحُزْنَ وَإِذَا انْتَصَرَ التَّتَارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ.وَهُمْ الَّذِينَ أَشَارُوا عَلَى التَّتَارِ بِقَتْلِ الْخَلِيفَةِ وَقَتْلِ أَهْلِ بَغْدَادَ.وَوَزِيرِ بَغْدَادَ ابْنِ العلقمي الرَّافِضِي هُوَ الَّذِي خَامَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَكَاتَبَ التَّتَارَ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ أَرْضَ الْعِرَاقِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَنَهَى النَّاسَ عَنْ قِتَالِهِمْ.وَقَدْ عَرَفَ الْعَارِفُونَ بِالْإِسْلَامِ:أَنَّ الرَّافِضَةَ تَمِيلُ مَعَ أَعْدَاءِ الدِّينِ.وَلَمَّا كَانُوا مُلُوكَ الْقَاهِرَةِ كَانَ وَزِيرُهُمْ مَرَّةً يَهُودِيًّا وَمَرَّةً نَصْرَانِيًّا أَرْمِينِيًّا وَقَوِيَتْ النَّصَارَى بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّصْرَانِيِّ الْأَرْمِينِيِّ وَبَنَوْا كَنَائِسَ كَثِيرَةً بِأَرْضِ مِصْرَ فِي دَوْلَةِ أُولَئِكَ الرَّافِضَةِ الْمُنَافِقِينَ وَكَانُوا يُنَادُونَ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ:مَنْ لَعَنَ وَسَبَّ فَلَهُ دِينَارٌ وَإِرْدَبٌّ.وَفِي أَيَّامِهِمْ أَخَذَتْ النَّصَارَى سَاحِلَ الشَّامِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى فَتَحَهُ نُورُ الدِّينِ وَصَلَاحُ الدِّينِ.وَفِي أَيَّامِهِمْ جَاءَتْ الفرنج إلَى بلبيس وَغَلَبُوا مِنْ الفرنج؛ فَإِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ وَأَعَانَهُمْ النَّصَارَى وَاَللَّهُ لَا يَنْصُرُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ يُوَالُونَ النَّصَارَى فَبَعَثُوا إلَى نُورِ الدِّينِ يَطْلُبُونَ النَّجْدَةَ فَأَمَدَّهُمْ بِأَسَدِ الدِّينِ وَابْنِ أَخِيهِ صَلَاحِ الدِّينِ.فَلَمَّا جَاءَتْ الْغُزَاةُ الْمُجَاهِدُونَ إلَى دِيَارِ مِصْرَ قَامَتْ الرَّافِضَةُ مَعَ النَّصَارَى

[٧٨٦] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٧٧)

[٧٨٧] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩٣)

فَطَلَبُوا قِتَالَ الْغُزَاةِ الْمُجَاهِدِينَ الْمُسْلِمِينَ وَجَرَتْ فُصُولٌ يَعْرِفُهَا النَّاسُ حَتَّى قَتَلَ صَلَاحُ الدِّينِ مُقَدَّمَهُمْ شَاوَرَ."[788]

وقال أيضا:""كَمَا قَدْ جَرَّبَهُ النَّاسُ مِنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي مِثْلِ إِعَانَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ التُّرْكِ،وَغَيْرِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِخُرَاسَانَ،وَالْعِرَاقِ،وَالْجَزِيرَةِ،وَالشَّامِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَإِعَانَتِهِمْ لِلنَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ،وَمِصْرَ،وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي وَقَائِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَعْظَمِهَا الْحَوَادِثُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ،وَالسَّابِعَةِ،فَإِنَّهُ لَمَّا قَدِمَ كُفَّارُ التُّرْكِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ،وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إِلَّا رَبُّ الْأَنَامِ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ،وَمُعَاوَنَةً لِلْكَافِرِينَ،وَهَكَذَا مُعَاوَنَتُهُمْ لِلْيَهُودِ أَمْرٌ شَهِيرٌ حَتَّى جَعَلَهُمُ النَّاسُ لَهُمْ كَالْحَمِيرِ."[789]

وقال أيضاً:"وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ،فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ،وَعَلِيٍّ،وَشِيعَتِهِمَا،وَالرَّافِضَةَ تَكْفِيرُ أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ،وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ،وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ،وَفِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالْإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ،وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ مِنَ الْخَوَارِجِ،وَالرَّافِضَةُ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ،وَالْعِرَاقِ،وَالشَّامِ،وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ حَرِيمِهِمْ،وَقَضِيَّةُ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتُهُمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلَادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عَكَّا وَغَيْرِهَا مِنَ السَّوَاحِلِ،وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ

---

[788] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣٦)

[789] - منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠)

النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ،وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا،وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ،وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ مِنْ النُّصَيْرِيَّةِ،وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ،وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ،وَالْعِرَاقِ،وَالشَّامِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَالرَّافِضَةُ جَهْمِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ،وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – بَلْ فِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ،وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِيُّ – ﷺ – الْخَوَارِجَ قَوْلُهُ:«فَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ»...

فَهَؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ مِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ النَّبِيُّ – ﷺ – أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ،وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ وَالْخَوَارِجُ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُونُوا يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَالرَّافِضَةُ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ،فَكَانُوا أَعْظَمَ مُرُوقًا عَنْ الدِّينِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَنَحْوِهِمْ،إذَا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،كَمَا قَاتَلَهُمْ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،فَكَيْفَ إذَا ضَمُّوا إلَى ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ كَنَائِسًا وَجِنْكِيزْ خَانْ مَلِكَ الْمُشْرِكِينَ مَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُضَادَّةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ،وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ،وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،فَكَيْفَ مِمَّنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ

وَرَسُولِهِ الْمُعَادُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ،عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ.فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدُرُوسِ شَرَائِعِهِ."[٧٩٠]

وقال أيضاً " وَلَيْسَ هَذَا بِبِدَعٍ.مِنَ الرَّافِضَةِ .،فَقَدْ عُرِفَ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ .لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ،وَمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ .،مَا يَعْرِفُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ،(* حَتَّى قِيلَ:إِنَّهُ مَا اقْتَتَلَ يَهُودِيٌّ وَمُسْلِمٌ،وَلَا نَصْرَانِيٌّ وَمُسْلِمٌ،[وَلَا مُشْرِكٌ وَمُسْلِمٌ] .إِلَّا كَانَ الرَّافِضِيُّ مَعَ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ [وَالْمُشْرِكِ]) ."[٧٩١]

وقال:"فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ دَلَّ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ سَائِرُ الْأَحَادِيثِ الْآتِيَةِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَلَى وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بِالسَّيْفِ،وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُطِيعًا لِوُلَاةِ الْأُمُورِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً،وَهَذَا ضِدُّ قَوْلِ الرَّافِضَةِ،فَإِنَّهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ مُخَالَفَةً لِوُلَاةِ الْأُمُورِ،وَأَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ طَاعَتِهِمْ إِلَّا كُرْهًا."[٧٩٢]

وقال:"وَالنِّفَاقُ وَالزَّنْدَقَةُ فِي الرَّافِضَةِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي سَائِرِ الطَّوَائِفِ،بَلْ لَا بُدَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مِنْ شُعْبَةِ نِفَاقٍ،فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ،وَأَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.وَالرَّافِضَةُ تَجْعَلُ هَذَا مِنْ أُصُولِ دِينِهَا وَتُسَمِّيهِ التَّقِيَّةَ،وَتَحْكِي هَذَا عَنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ بَرَّأَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ،حَتَّى يَحْكُوا عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَنَّهُ قَالَ:التَّقِيَّةُ دِينِي وَدِينُ آبَائِي ."[٧٩٣]

وقال أيضا:"فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ [ﷺ]،وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ،تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يَضِيقُ هَذَا الْمَوْضِعُ عَنْ بَسْطِهِ.

---

[٧٩٠] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٤٦)

[٧٩١] - منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٢)

[٧٩٢] - منهاج السنة النبوية (١/ ١١١)

[٧٩٣] - منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦)

وَالصَّحَابَةُ أَكْمَلُ الْأُمَّة فِي ذَلكَ بدَلَالَة الْكتَاب وَالسُّنَّة وَالْإِجْمَاع وَالاعْتبَار،وَلهَذَا لَا تَجدُ أَحَدًا منْ أَعْيَان الْأُمَّة إلَّا وَهُوَ مُعْترفٌ بفَضْل الصَّحَابَة عَلَيْه وَعَلَى أَمْثاله،وَتَجدُ مَنْ يُنَازعُ في ذَلكَ كَالرَّافضَة [منْ أَجْهَل] النَّاس.

وَلهَذَا لَا يُوجَدُ في أَئمَّة الْفقْه الَّذينَ يُرْجَعُ إلَيْهمْ رَافضيٌّ،وَلَا في أَئمَّة الْحَديث [وَلَا في أَئمَّة] الزُّهْد وَالْعبَادَة،وَلَا في الْجُيُوش الْمُؤَيَّدَة الْمَنْصُورَة جَيْشٌ رَافضيٌّ،وَلَا في الْمُلُوك الَّذينَ نَصَرُوا الْإسْلَامَ وَأَقَامُوهُ وَجَاهَدُوا [عَدُوَّهُ] مَنْ هُوَ رَافضيٌّ،وَلَا في الْوُزَرَاء الَّذينَ لَهُمْ سيرَةٌ مَحْمُودَةٌ مَنْ هُوَ رَافضيٌّ.

وَأَكْثَرُ مَا تَجدُ الرَّافضَةَ إمَّا في الزَّنَادقَة الْمُنَافقينَ الْمُلْحدينَ،وَإمَّا في جُهَّال لَيْسَ لَهُمْ علْمٌ لَا بالْمَنْقُولَات وَلَا بالْمَعْقُولَات،قَدْ نَشَأُوا بالْبَوَادي وَالْجبَال،أَوْ تَحَيَّزُوا عَنْ الْمُسْلمينَ فَلَمْ يُجَالسُوا أَهْلَ الْعلْم وَالدِّين،وَإمَّا في ذَوي الْأَهْوَاء ممَّنْ قَدْ حَصَلَ لَهُ بذَلكَ ريَاسَةٌ وَمَالٌ،أَوْ [لَهُ] نَسَبٌ يَتَعَصَّبُ لَهُ كَفعْل [أَهْل] الْجَاهليَّة."[٧٩٤]

وقال أيضا:"وَهُمْ غَالبًا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَر فَعَلُوهُ،بَلْ ديَارُهُمْ أَكْثَرُ الْبلَاد مُنْكَرًا منَ الظُّلْم وَالْفَوَاحش وَغَيْر ذَلكَ،وَهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الْكُفَّارَ الَّذينَ غَضبَ اللَّهُ عَلَيْهمْ،فَلَيْسُوا مَعَ الْمُؤْمنينَ وَلَا مَعَ الْكُفَّار كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضبَ اللَّهُ عَلَيْهمْ مَا هُمْ منْكُمْ وَلَا منْهُمْ} [سُورَةُ الْمُجَادَلَة:١٤] .

وَلهَذَا هُمْ عنْدَ جَمَاهير الْمُسْلمينَ نَوْعٌ آخَرُ حَتَّى أَنَّ الْمُسْلمينَ لَمَّا قَاتَلُوهُمْ بالْجَبَل الَّذي كَانُوا عَاصينَ فيه بسَاحل الشَّام،يَسْفكُونَ دمَاءَ الْمُسْلمينَ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَيَقْطَعُونَ الطَّريقَ اسْتحْلَالًا لذَلكَ وَتَدَيُّنًا به،فَقَاتَلَهُمْ صنْفٌ منَ التُّرْكُمَان فَصَارُوا يَقُولُونَ:نَحْنُ مُسْلمُونَ،فَيَقُولُونَ:لَا أَنْتُمْ جنْسٌ آخَرُ.فَهُمْ بسَلَامَة قُلُوبهمْ عَلمُوا أَنَّهُمْ جنْسٌ آخَرُ خَارجُونَ عَن الْمُسْلمينَ [لامْتيَازهمْ عَنْهُمْ] .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَيَحْلفُونَ عَلَى الْكَذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سُورَةُ الْمُجَادَلَة:١٤] وَهَذَا حَالُ الرَّافضَة،وَكَذَلكَ {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبيل اللَّه} إلَى قَوْله:{لَا تَجدُ قَوْمًا يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْم الْآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الْآيَةَ سُورَةَ

[٧٩٤] - منهاج السنة النبوية (٢/ ٨٠)

الْمُجَادَلَة:١٦ – ٢٢] وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُوَادُّ الْكُفَّارَ مِنْ وَسَطِ قَلْبِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُوَادَّتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ التُّرْكُ وَالْكُفَّارُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ فَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ وَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِهَا،كَانَتِ الرَّافِضَةُ مُعَاوِنَةً لَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَوَزِيرُ بَغْدَادَ الْمَعْرُوفُ بِالْعَلْقَمِيِّ هُوَ وَأَمْثَالُهُ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا بِالشَّامِ بِحَلَبَ وَغَيْرِهَا مِنَ الرَّافِضَةِ كَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَكَذَلِكَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ،كَانَتِ الرَّافِضَةُ مِنْ أَعْظَمِ أَعْوَانِهِمْ.وَكَذَلِكَ إِذَا صَارَ الْيَهُودُ دَوْلَةً بِالْعِرَاقِ وَغَيْرِهِ تَكُونُ الرَّافِضَةُ مِنْ أَعْظَمِ أَعْوَانِهِمْ فَهُمْ دَائِمًا يُوَالُونَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَيُعَاوِنُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَادَاتِهِمْ."[٧٩٥]

وقال أيضاً:" والرَّافِضَةُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ وَأَضَلِّهِمْ،وَأَبْعَدِ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ عَنِ الْهُدَى. كَيْفَ.وَمَذْهَبُ هَؤُلَاءِ الْإِمَامِيَّةِ قَدْ جَمَعَ عَظَائِمَ الْبِدَعِ الْمُنْكَرَةِ،فَإِنَّهُمْ جَهْمِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ رَافِضَةٌ.وَكَلَامُ السَّلَفِ وَالْعُلَمَاءِ فِي ذَمِّ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ،وَالْكُتُبُ مَشْحُونَةٌ بِذَلِكَ،كَكُتُبِ الْحَدِيثِ وَالْآثَارِ وَالْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ شَرٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ كَالْمُرْجِئَةِ وَالْحَرُورِيَّةِ."[٧٩٦]

وقال ابن القيم:"وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَى بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ،فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ،أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا آثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا،فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرِ،وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ،وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى،فَآثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ،فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ،وَكَمْ جَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ؟ وَهَلْ عَاثَتْ سُيُوفُ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ عَسْكَرِ هُولَاكُو وَذَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ

[٧٩٥] – منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٧٦)

[٧٩٦] – منهاج السنة النبوية (٤/ ١٣١)

رُءُوسِهِمْ؟ وَهَلْ عُطِّلَتِ الْمَسَاجِدُ،وَحُرِّقَتِ الْمَصَاحِفُ،وَقُتِلَ سَرَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ وَخَلِيفَتُهُمْ،إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَّائِهِمْ؟ وَمُظَاهَرَتُهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ،وَآثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ وَأَيُّهُمْ أَحَقُّ بِالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ "[٧٩٧]

وهم اليوم يساعدون جميع أعداء الإسلام ضد أهل السنة والجماعة،وقد انخدع بكذبهم الكثيرون من اهل السنة ولاسيما بحزب اللات اللبناني الرافضي المجوسي .

هذا وقد فصلت القول فيهم بعدة كتب منها:

الخلاصة في بيان رأي شيخ الإسلام ابن تيمية بالرافضة

من مخازي الرافضة عبر التاريخ

وفيهما الكفاية والحمد لله .

والخلاصة لا يجوز الاستعانة بأهل الأهواء ولاسيما الرافضة،فلا يجمع بيننا وبينهم شيء،فنحن عندنا دين وعندهم دين آخر من صنع آياتهم الشيطانية .

وفي المحلى:مَسْأَلَةٌ:الْمُرْتَدِّينَ؟

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:كُلُّ مَنْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا مُتَبَرِّئًا مِنْ كُلِّ دِينٍ – حَاشَ دِينِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ،وَخَرَجَ إلَى دِينٍ كِتَابِيٍّ،أَوْ غَيْرِ كِتَابِيٍّ،أَوْ إلَى غَيْرِ دِينٍ،فَإِنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِهِ؟ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:لَا يُسْتَتَابُ – وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:يُسْتَتَابُ،وَفَرَّقَتْ طَائِفَةٌ بَيْنَ مَنْ أَسَرَّ رِدَّتَهُ وَبَيْنَ مَنْ أَعْلَنَهَا – وَفَرَّقَتْ طَائِفَةٌ بَيْنَ مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ ارْتَدَّ،وَبَيْنَ مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرِهِ ثُمَّ ارْتَدَّ.

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ – إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى – مَا يَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لِذِكْرِهِ:فَأَمَّا مَنْ قَالَ:لَا يُسْتَتَابُونَ،فَانْقَسَمُوا قِسْمَيْنِ:

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:يُقْتَلُ الْمُرْتَدُّ،تَابَ أَوْ لَمْ يَتُبْ،رَاجَعَ الْإِسْلَامَ أَوْ لَمْ يُرَاجِعْ.

---

[٧٩٧] – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٩٤)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:إنْ بَادَرَ فَتَابَ قُبِلَتْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ،وَسَقَطَ عَنْهُ الْقَتْلُ،وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ تَوْبَتُهُ أُنْفِذَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ،فَإِنَّهُمْ انْقَسَمُوا أَقْسَامًا:فَطَائِفَةٌ قَالَتْ:نَسْتَتِيبُهُ مَرَّةً فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:نَسْتَتِيبُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَإِنْ تَابَ،وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:نَسْتَتِيبُهُ شَهْرًا،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:نَسْتَتِيبُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:نَسْتَتِيبُهُ مِائَةَ مَرَّةٍ،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:يُسْتَتَابُ أَبَدًا،وَلَا يُقْتَلُ.

فَأَمَّا مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُسِرِّ وَالْمُعْلِنِ:فَإِنَّ طَائِفَةً قَالَتْ:مَنْ أَسَرَّ رِدَّتَهُ قَتَلْنَاهُ دُونَ اسْتِتَابَةٍ،وَلَمْ نَقْبَلْ تَوْبَتَهُ،وَمَنْ أَعْلَنَهَا قَبِلْنَا تَوْبَتَهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:إنْ أَقَرَّ الْمُسِرُّ وَصَدَقَ النِّيَّةَ قَبِلْنَا تَوْبَتَهُ،وَإِنْ لَمْ يُقِرَّ وَلَا صَدَقَ النِّيَّةَ قَتَلْنَاهُ وَلَمْ نَقْبَلْ تَوْبَتَهُ – قَالَ هَؤُلَاءِ:وَأَمَّا الْمُعْلِنُ فَتُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وَطَائِفَةٌ قَالَتْ:لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمُسِرِّ وَالْمُعْلِنِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ:فَطَائِفَةٌ قَبِلَتْ تَوْبَتَهُمَا مَعًا – أَقَرَّ الْمُسِرُّ أَوْ لَمْ يُقِرَّ.

وَطَائِفَةٌ:لَمْ تَقْبَلْ تَوْبَةَ مُسِرٍّ وَلَا مُعْلِنٍ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي الْكَافِرِ الذِّمِّيِّ،أَوْ الْحَرْبِيِّ يَخْرُجَانِ مِنْ كُفْرٍ إلَى كُفْرٍ:فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:يُتْرَكَانِ عَلَى ذَلِكَ،وَلَا يُمْنَعَانِ مِنْهُ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:لَا يُتْرَكَانِ عَلَى ذَلِكَ أَصْلًا.ثُمَّ افْتَرَقَ هَؤُلَاءِ فِرْقَتَيْنِ:

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:إنْ رَجَعَ الذِّمِّيُّ إلَى دِينِهِ الَّذِي خَرَجَ عَنْهُ تُرِكَ،وَإِلَّا قُتِلَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:لَا يُقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ غَيْرُ الْإِسْلَامِ وَحْدَهُ،وَإِلَّا قُتِلَ،وَلَا يُتْرَكُ عَلَى الدِّينِ الَّذِي خَرَجَ إلَيْهِ،وَلَا يُتْرَكُ أَيْضًا أَنْ يَرْجِعَ إلَى الَّذِي خَرَجَ عَنْهُ،لَكِنْ إنْ أَسْلَمَ تُرِكَ،وَإِنْ أَبَى قُتِلَ وَلَا بُدَّ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:نا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ نا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ نا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ بي حَمَّادُ بْنُ مَسْعَدَةَ نا قُرَّةُ – هُوَ ابْنُ خَالِدٍ – عَنْ حُمَيْدِ

بْنِ هِلَالٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ثُمَّ أَرْسَلَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِلَيْكُمْ،فَأَلْقَى لَهُ أَبُو مُوسَى وِسَادَةً لِيَجْلِسَ عَلَيْهَا،فَأُتِيَ بِرَجُلٍ كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ كَفَرَ،فَقَالَ مُعَاذٌ:لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ:قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَلَمَّا قُتِلَ قَعَدَ».

وَمِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ نا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ عَنْ قُرَّةَ بْنِ خَالِدٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ أَخْبَرَنِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لَهُ «اذْهَبْ أَنْتَ يَا أَبَا مُوسَى،أَوْ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ إِلَى الْيَمَنِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ،فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ أَلْقَى لَهُ وِسَادَةً،قَالَ:وَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟ قَالَ:كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ،قَالَ:لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ:قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ» فِي حَدِيثٍ.

وَعَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ:أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:لَوْ كُنْت أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ،لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ» وَلَقَتَلْتهمْ،وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي عِجْلٍ تَنَصَّرَ،فَكَتَبَ بِذَلِكَ عُيَيْنَةُ بْنُ فَرْقَدٍ السُّلَمِيُّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،فَكَتَبَ عَلِيٌّ:أَنْ يُؤْتَى بِهِ،فَجِيءَ بِهِ حَتَّى طُرِحَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلٌ - أَشْعَرُ عَلَيْهِ ثِيَابُ صُوفٍ - مَوْثُوقٌ فِي الْحَدِيدِ،فَكَلَّمَهُ عَلِيٌّ فَأَطَالَ كَلَامَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ - فَقَالَ:لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ؟ غَيْرَ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ عِيسَى ابْنُ اللَّهِ،فَلَمَّا قَالَهَا قَامَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ فَوَطِئَهُ،فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ:أَنَّ عَلِيًّا قَدْ وَطِئَهُ قَامُوا فَوَطِئُوهُ،فَقَالَ عَلِيٌّ:أَمْسِكُوا،فَأَمْسَكُوا حَتَّى قَتَلُوهُ،ثُمَّ أَمَرَ بِهِ عَلِيٌّ فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:بَعَثَنِي أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ بِفَتْحِ تُسْتَرَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَسَأَلَنِي عُمَرُ - وَكَانَ نَفَرٌ سِتَّةٌ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ قَدْ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ وَلَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ - فَقَالَ:مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرٍ؟ قَالَ:فَأَخَذْت فِي حَدِيثٍ آخَرَ لِأُشْغِلَهُ عَنْهُمْ،فَقَالَ:مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ؟ قُلْت:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ

الْإِسْلَامِ،وَلَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ،مَا سَبِيلُهُمْ إلَّا الْقَتْلُ؟ فَقَالَ عُمَرُ:لَأَنْ أَكُونَ أَخَذْتُهُمْ سِلْمًا أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ صَفْرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ – وَذَكَرَ بَاقِيَ الْخَبَرِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ مَرَّةً،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ:لِمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:أَخَذَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَوْمًا ارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ،فَكَتَبَ فِيهِمْ إلَى عُثْمَانَ،فَرَدَّ إلَيْهِ عُثْمَانُ:أَنْ اعْرِضْ عَلَيْهِمْ دِينَ الْحَقِّ،وَشَهَادَةَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،فَإِنْ قَبِلُوهَا،فَخَلِّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوهَا،فَاقْتُلْهُمْ – فَقَبِلَهَا بَعْضُهُمْ فَتَرَكَهُ،وَلَمْ يَقْبَلْهَا بَعْضُهُمْ فَقَتَلَهُ.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ قَالَ:أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِشَيْخٍ كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ،ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ:لَعَلَّك إنَّمَا ارْتَدَدْت لِأَنْ تُصِيبَ مِيرَاثًا ثُمَّ تَرْجِعَ إلَى الْإِسْلَامِ؟ قَالَ:لَا،قَالَ:فَلَعَلَّك خَطَبْت امْرَأَةً فَأَبَوْا أَنْ يُزَوِّجُوكَهَا فَأَرَدْت أَنْ تَزَوَّجَهَا ثُمَّ تَعُودَ إلَى الْإِسْلَامِ؟ قَالَ:لَا،قَالَ:فَارْجِعْ إلَى الْإِسْلَامِ؟ قَالَ:لَا،حَتَّى أَلْقَى الْمَسِيحَ،قَالَ:فَأَمَرَ بِهِ عَلِيٌّ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ،وَدَفَعَ مِيرَاثَهُ إلَى وُلْدِهِ الْمُسْلِمِينَ.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ:أَنَّ الْمِسْوَرَ الْعِجْلِيّ تَنَصَّرَ بَعْدَ إسْلَامِهِ فَبَعَثَ بِهِ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إلَى عَلِيٍّ فَاسْتَتَابَهُ فَلَمْ يَتُبْ،فَقَتَلَهُ،فَسَأَلَهُ النَّصَارَى جِيفَتَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا،فَأَبَى عَلِيٌّ وَأَحْرَقَهُ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ:فَلِمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ:أَنَّهُ كَفَرَ إنْسَانٌ بَعْدَ إيمَانِهِ،فَدَعَاهُ إلَى الْإِسْلَامِ – ثَلَاثًا – فَأَبَى،فَقَتَلَهُ.

وَبِهِ – إلَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي حَيَّانُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ:أَنَّهُ قَالَ:إذَا أَشْرَكَ الْمُسْلِمُ دُعِيَ إلَى الْإِسْلَامِ – ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – فَإِنْ أَبَى ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ،فَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ،وَأَصْحَابِهِ،وَأَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ مَرَّةً فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ:فَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنِ حَيٍّ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ شَهْرًا فَكَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَا عُثْمَانُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ:أَنَّ عَلِيًّا اسْتَتَابَ رَجُلًا كَفَرَ بَعْدَ إسْلَامِهِ شَهْرًا؟ فَأَبَى،فَقَتَلَهُ.

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا عَنْ مَالِكٍ،وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِ مَذْهَبِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ شَهْرَيْنِ:فَكَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ:«قَدِمَ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ مِنْ الْيَمَنِ وَإِذَا بِرَجُلٍ عِنْدَهُ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ،ثُمَّ تَهَوَّدَ وَنَحْنُ نُرِيدُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ،مُنْذُ – أَحْسِبُهُ قَالَ – شَهْرَيْنِ،قَالَ مُعَاذٌ:وَاَللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَضْرِبُوا عُنُقَهُ،فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ،ثُمَّ قَالَ مُعَاذٌ:قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.»

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ – هُوَ ابْنُ عَطَاءٍ الْخَفَّافُ – أَنَا سَعِيدٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ «أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَدِمَ عَلَى أَبِي مُوسَى الْيَمَنَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ رَجُلًا قَدْ تَهَوَّدَ وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْإِسْلَامَ شَهْرَيْنِ،فَقَالَ مُعَاذٌ:وَاَللَّهِ لَا أَجْلِسُ حَتَّى أَقْتُلَهُ؛قَضَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.»

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ أَبَدًا دُونَ قَتْلٍ:فَلِمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَا الْحَجَّاجُ بْنُ الْمِنْهَالِ أَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ أَنَا دَاوُد – هُوَ ابْنُ أَبِي هِنْدٍ – عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ قَتَلَ جُحَيْنَةَ الْكَذَّابَ،وَأَصْحَابَهُ،قَالَ أَنَسٌ:فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ:مَا فَعَلَ جُحَيْنَةُ،وَأَصْحَابُهُ؟ قَالَ:فَتَغَافَلْت عَنْهُ – ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،فَقُلْت:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،وَهَلْ كَانَ سَبِيلٌ إلَّا الْقَتْلُ؟ فَقَالَ عُمَرُ:لَوْ أَتَيْت بِهِمْ لَعَرَضْت عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ،فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا اسْتَوْدَعْتهمْ السِّجْنَ.

وَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ:أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيّ عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَدِمَ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْرٍ،أَوْ شَقِيقُ بْنُ ثَوْرٍ عَلَى عُمَرَ يُبَشِّرُهُ بِفَتْحِ تُسْتَرَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:هَلْ كَانَتْ مُغْرِبَةٌ يُخْبِرُنَا بِهَا؟ قَالَ:لَا إلَّا أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ ارْتَدَّ فَضَرَبْنَا عُنُقَهُ،قَالَ عُمَرُ:وَيْحَكُمْ،فَهَلَّا طَيَّنْتُمْ عَلَيْهِ بَابًا،وَفَتَحْتُمْ لَهُ كُوَّةً فَأَطْعَمْتُمُوهُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْهَا

رَغِيفًا،وَسَقَيْتُمُوهُ كُوزًا مِنْ مَاءٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،ثُمَّ عَرَضْتُمْ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فِي الثَّالِثَةِ،فَلَعَلَّهُ أَنْ يَرْجِعَ،اللَّهُمَّ لَمْ أَحْضُرْ،وَلَمْ آمُرْ،وَلَمْ أَعْلَمْ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:أَرْبَعِينَ يَوْمًا:فَلِمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ ابْنِ وَضَّاحٍ أَنَا سَحْنُونٌ أَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ رَجُلٍ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ رَجُلًا يَهُودِيًّا أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ،فَحَبَسَهُ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَدْعُوهُ إلَى الْإِسْلَامِ،فَأَتَاهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَرَآهُ عِنْدَهُ فَقَالَ:لَا أَنْزِلُ حَتَّى تَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَلَمْ يَنْزِلْ حَتَّى ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وَأَمَّا مَنْ ارْتَدَّ مِنْ كُفْرٍ إلَى كُفْرٍ،فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ،وَمَالِكًا قَالَا جَمِيعًا:يُقَرُّ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ،وَأَبُو سُلَيْمَانَ،وَأَصْحَابُهُمَا:لَا يُقَرُّ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ:فَمَرَّةً قَالَ:إنْ رَجَعَ إلَى الْكُفْرِ الَّذِي تَذَمَّمَ عَلَيْهِ،وَإِلَّا قُتِلَ،وَإِلَّا أَنْ يُسْلِمَ – وَمَرَّةً قَالَ:لَا يُقْبَلُ مِنْهُ الرُّجُوعُ إلَى الدِّينِ الَّذِي خَرَجَ عَنْهُ،لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الْإِسْلَامِ أَوْ السَّيْفِ – وَبِهَذَا يَقُولُ أَصْحَابُنَا؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:فَنَظَرْنَا فِي قَوْلِ مَنْ قَالَ:إنَّهُ يُسْتَتَابُ مَرَّةً،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؟ فَوَجَدْنَاهُمْ يَقُولُونَ:قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ} [الحج:٧٧].

وَقَالَ تَعَالَى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ} [آل عمران:١٠٤] الْآيَةَ.

فَكَانَتْ الاسْتِتَابَةُ فِعْلَ خَيْرٍ وَدُعَاءً إلَى سَبِيلِ رَبِّنَا بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ،وَدُعَاءً إلَى الْخَيْرِ،وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيًا عَنْ الْمُنْكَرِ،فَكَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا،وَكَانَ فَاعِلُهُ مُصْلِحًا.

وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

قَالُوا:فَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُزْهَدَ فِيهِ.

قَالُوا:وَقَدْ فَعَلَهُ عَلِيٌّ،وَعُثْمَانُ،وَابْنُ مَسْعُود – وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:لَا نَعْلَمُ لَهُمْ حُجَّةً غَيْرَ هَذَا أَصْلًا،فَعَارَضَهُمْ مَنْ قَالَ:لَا أَسْتَتِيبُهُ بِأَنْ قَالُوا:بِأَنَّ الدُّعَاءَ إلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَخْلُو مِنْ

أَنْ يَجِبَ مَرَّةً،أَوْ عَدَدًا مَحْدُودًا،أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ،أَوْ أَبَدًا مَا امْتَدَّ الْعُمْرُ بِلَا نِهَايَةٍ،وَلَا سَبِيلَ إلَى قِسْمٍ رَابِعٍ.

قَالَ:فَإِنْ قُلْتُمْ:إنَّهُ يَجِبُ أَبَدًا مَا امْتَدَّ بِهِ الْعُمْرُ بِلَا نِهَايَةٍ:تَرَكْتُمْ قَوْلَكُمْ وَصِرْتُمْ إلَى قَوْلِ مَنْ رَأَى أَنْ يُسْتَتَابَ الْمُرْتَدُّ أَبَدًا،وَلَا يُقْتَلَ – وَهَذَا لَيْسَ هُوَ قَوْلَكُمْ،وَلَوْ كَانَ لَكُنَّا قَدْ أَبْطَلْنَاهُ آنِفًا،وَلَوْ كَانَ هَذَا أَيْضًا لَبَطَلَ الْجِهَادُ جُمْلَةً،لِأَنَّ الدُّعَاءَ كَانَ يَلْزَمُ أَبَدًا مُكَرَّرًا بِلَا نِهَايَةٍ،وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ أَصْلًا،وَلَيْسَ دُعَاءُ الْمُرْتَدِّ – وَهُوَ أَحَدُ الْكُفَّارِ – بِأَوْجَبَ مِنْ دُعَاءِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ الْحَرْبِيِّينَ – فَسَقَطَ هَذَا الْقَوْلُ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

وَإِنْ قُلْتُمْ:إنَّهُ يَجِبُ عَدَدًا مُحَدَّدًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ:كُنْتُمْ قَائِلِينَ بِلَا دَلِيلٍ،وَهَذَا بَاطِلٌ،لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:١١١].

وَلَيْسَ قَوْلُ مَنْ قَالَ:يُسْتَتَابُ مَرَّتَيْنِ بِأَوْلَى مِمَّنْ قَالَ:ثَلَاثَةً،وَلَا مِمَّنْ قَالَ:أَرْبَعًا،أَوْ خَمْسًا،أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِلَا بُرْهَانٍ،فَسَقَطَ هَذَا الْقَوْلُ بِلَا شَكٍّ.

فَلَمْ يَبْقَ إلَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ:يُدْعَى مَرَّةً؟ فَيُقَالُ لَهُ:إنَّ مَنْ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ:قَدْ تَقَدَّمَ دُعَاؤُهُ إلَى الْإِسْلَامِ حِينَ أَسْلَمَ بِلَا شَكٍّ،إنْ كَانَ دَخِيلًا فِي الْإِسْلَامِ،أَوْ حِينَ بَلَغَ،وَعَلِمَ شَرَائِعَ الدِّينِ،هَذَا مَا لَا شَكَّ فِيهِ.

وَقَدْ قُلْنَا:إنَّ التَّكْرَارَ لَا يَلْزَمُ،فَالْوَاجِبُ إقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْهِ،إذْ قَدْ اتَّفَقْنَا – نَحْنُ وَأَنْتُمْ – عَلَى وُجُوبِ قَتْلِهِ إنْ لَمْ يُرَاجِعْ الْإِسْلَامَ،فَالِاشْتِغَالُ عَنْ ذَلِكَ وَتَأْخِيرُهُ بِاسْتِتَابَةٍ،وَدُعَاءٍ:لَا يُلْزِمَانِ تَرْكَ الْإِقَامَةِ عَلَيْهِ – وَهَذَا لَا يَجُوزُ؟ قَالُوا:وَنَحْنُ لَمْ نَمْنَعْ مِنْ دُعَائِهِ إلَى الْإِسْلَامِ فِي خِلَالِ ذَلِكَ دُونَ تَأْخِيرٍ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ،وَلَا تَضْيِيعٍ لَهُ،وَإِنَّمَا كَلَامُنَا:هَلْ يَجِبُ دُعَاؤُهُ وَاسْتِتَابَتُهُ فَرْضًا أَمْ لَا؟ فَهَاهُنَا اخْتَلَفْنَا،فَأَوْجَبْتُمُوهُ بِلَا بُرْهَانٍ،وَلَمْ نُوجِبْ نَحْنُ وَلَا مَنَعْنَا؟ فَإِنْ قُلْتُمْ:نَدْعُوهُ مَرَّةً بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ السَّالِفِ:لَمْ تَكُونُوا بِأَوْلَى مِمَّنْ قَالَ:بَلْ أَدْعُوهُ مَرَّةً ثَانِيَةً أَيْضًا بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ؟ أَوْ مِمَّنْ قَالَ:بَلْ الثَّالِثَةُ بَعْدَ الثَّانِيَةِ.

أَوْ مِمَّنْ قَالَ:بَلْ الرَّابِعَةُ بَعْدَ الثَّالِثَةِ – وَهَكَذَا أَبَدًا.

فَبَطَلَ بِلَا شَكٍّ مَا أَوْجَبْتُمْ فَرْضًا مِنْ اسْتِتَابَتِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَأَكْثَرَ.

قَالَ:وَأَمَّا قَوْلُكُمْ:فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَصَحَّ عَنْ عُثْمَانَ،وَعَلِيٍّ،وَابْنِ مَسْعُود،بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – فَلَا حُجَّةَ لَكُمْ فِي هَذَا:أَمَّا الرِّوَايَةُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ – فَلَا تَصِحُّ،لِأَنَّ الطَّرِيقَ فِي كِلْتَيْ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ ابْنِ لَهِيعَةَ وَهُوَ سَاقِطٌ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الرِّدَّةِ:فَهُوَ أَمْرٌ مَشْهُورٌ،نَقْلُ الْكَوَافِّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إنْكَارِهِ،إلَّا أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَكُمْ فِيهِ،لِأَنَّ أَهْلَ الرِّدَّةِ كَانُوا قِسْمَيْنِ:قِسْمًا لَمْ يُؤْمِنْ قَطُّ كَأَصْحَابِ مُسَيْلِمَةَ،وَسَجَاحَ،فَهَؤُلَاءِ حَرْبِيُّونَ لَمْ يُسْلِمُوا قَطُّ،لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي أَنَّهُمْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ وَإِسْلَامُهُمْ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي:قَوْمٌ أَسْلَمُوا وَلَمْ يَكْفُرُوا بَعْدَ إسْلَامِهِمْ،لَكِنْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ مِنْ أَنْ يَدْفَعُوهَا إلَى أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَعَلَى هَذَا قُوتِلُوا.

وَلَا يَخْتَلِفُ الْحَنَفِيُّونَ،وَلَا الشَّافِعِيُّونَ:فِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ حُكْمُ الْمُرْتَدِّ أَصْلًا،وَهُمْ قَدْ خَالَفُوا فِعْلَ أَبِي بَكْرٍ فِيهِمْ،وَلَا يُسَمِّيهِمْ أَهْلَ رِدَّةٍ.

وَدَلِيلُ مَا قُلْنَا:شِعْرُ الْحُطَيْئَةِ الْمَشْهُورُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا...فَيَا لَهْفَنَا مَا بَالُ دِينِ أَبِي بَكْرٍ

أَيُورِثُهَا بَكْرًا إذْ مَاتَ بَعْدَهُ...فَتِلْكَ لَعَمْرُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

وَإِنَّ الَّتِي طَالَبْتُمْ فَمُنِعْتُمْ...لَكَالتَّمْرِ أَوْ أَحْلَى لَدَيَّ مِنْ التَّمْرِ

فِدًا لِبَنِي بَكْرِ بْنِ ذُودَانَ رَحْلِي وَنَا...قَتِي عَشِيَّةَ يَحْدِي بِالرِّمَاحِ أَبُو بَكْرِ

فَهُوَ مُقِرٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – كَمَا تَرَى،فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْأَشْعَثُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُ وَمَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ قَوْمٌ ارْتَدُّوا جُمْلَةً،كَمَنْ آمَنَ بِطُلَيْحَةَ،وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ،إلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَنْسَنِدُ؟ فَلَوْ صَحَّ لَمَا كَانَتْ فِيهِ حُجَّةٌ،لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ مَوْجُودٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –.

وَمَنْ قَالَ:بِقَتْلِ الْمُرْتَدِّ وَلَا بُدَّ،دُونَ ذِكْرِ اسْتِتَابَةٍ أَوْ قَبُولِهَا:كَمَا أَوْرَدْنَا عَنْ مُعَاذٍ،وَأَبِي مُوسَى،وَأَنَسٍ،وَابْنِ عَبَّاسٍ،وَمَعْقِلِ بْنِ مُقَرِّنٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:بِالِاسْتِتَابَةِ أَبَدًا وَإِيدَاعِ السِّجْنِ فَقَطْ:كَمَا قَدْ صَحَّ عَنْ عُمَرَ مِمَّا قَدْ أَوْرَدْنَا قَبْلُ،وَوُجُوبُ الْقِتَالِ:هُوَ حُكْمٌ آخَرُ غَيْرُ وُجُوبِ الْقَتْلِ بَعْدَ الْقُدْرَةِ،فَإِنَّ قِتَالَ مَنْ بَغَى عَلَى

الْمُسْلِمِ،أَوْ مَنَعَ حَقًّا قِبَلَهُ،وَحَارَبَ دُونَهُ:فَرْضٌ وَاجِبٌ بِلَا خِلَافٍ - وَلَا حُجَّةَ فِي قِتَالِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَهْلَ الرِّدَّةِ،لِأَنَّهُ حَقٌّ بِلَا شَكٍّ،وَلَمْ نُخَالِفْكُمْ فِي هَذَا،وَلَا يَصِحُّ - أَصْلًا - عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ ظَفِرَ بِمُرْتَدٍّ عَنْ الْإِسْلَامِ غَيْرِ مُمْتَنِعٍ بِاسْتِتَابَةٍ،فَتَابَ،فَتَرَكَهُ،أَوْ لَمْ يَتُبْ فَقَتَلَهُ - هَذَا مَا لَا يَجِدُونَهُ.

وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ كُفْرًا بِكُفْرٍ آخَرَ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَنْ خَرَجَ مِنْ كُفْرٍ إلَى كُفْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ،وَمَالِكٌ وَأَبُو ثَوْرٍ:أَنَّهُمْ يُقَرُّونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِمْ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ،وَأَبُو سُلَيْمَانَ،وَأَصْحَابُهُمَا:لَا يُقَرُّونَ عَلَى ذَلِكَ أَصْلًا.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا - فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ:يُنْبَذُ إلَيْهِ عَهْدُهُ،وَيُخْرَجُ إلَى دَارِ الْحَرْبِ،فَإِنْ ظُفِرَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَمَرَّةً قَالَ:إنْ رَجَعَ إلَى دِينِهِ الْكِتَابِيِّ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ أُقِرَّ عَلَى حُرِّيَّتِهِ وَتُرِكَ.

وَمَرَّةً قَالَ:لَا يُتْرَكُ بَلْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ إلَّا الْإِسْلَامُ أَوْ السَّيْفُ.

وَبِهَذَا يَقُولُ أَصْحَابُنَا - إلَّا أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ إلْحَاقَهُ بِدَارِ الْحَرْبِ،بَلْ يُجْبَرُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَّا قُتِلَ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:فَلَمَّا اخْتَلَفُوا نَظَرْنَا فِي ذَلِكَ:فَوَجَدْنَا مَنْ قَالَ:إنَّهُمْ يُقَرُّونَ عَلَى ذَلِكَ،يَحْتَجُّونَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال:٧٣] وَأَمْرِهِ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ مُخَاطِبًا لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ - وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون:١ - ٣]،إلَى آخِرِ السُّورَةِ.

قَالُوا:فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْكُفْرَ كُلَّهُ دِينًا وَاحِدًا.

قَالُوا:وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦] فَكَانَ هَذَا ظَاهِرًا يَمْنَعُ مِنْ إكْرَاهِهِ عَلَى تَرْكِ كُفْرِهِ.

قَالُوا:وَلَا يَخْلُو إذَا أُجْبِرَ عَلَى تَرْكِ الْكُفْرِ الَّذِي خَرَجَ إلَيْهِ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ،وَلَا ثَالِثَ لَهُمَا:إمَّا أَنْ يُجْبَرَ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى دِينِهِ الَّذِي خَرَجَ عَنْهُ - كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ - أَوْ يُجْبَرَ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى الْإِسْلَامِ،كَمَا قَالَ هُوَ فِي قَوْلِهِ الثَّانِي،وَأَصْحَابُكُمْ،فَإِنْ أُجْبِرَ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى دِينِهِ فَقَدْ أُجْبِرَ عَلَى اعْتِقَادِ الْكُفْرِ،وَعَلَى الرُّجُوعِ إلَى الْكُفْرِ.

قَالُوا:وَاعْتِقَادُ جَوَازِ هَذَا كُفْرٌ؟ قَالُوا:إنْ أُكْرِهَ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى الْإِسْلَامِ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُجْبَرَ عَلَى ذَلِكَ دُونَ سَائِرِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،فَهُوَ كَافِرٌ،وَهُمْ كُفَّارٌ،وَلَا فَرْقَ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:وَهَذَا كُلُّ مَا شَغَبُوا بِهِ مِنْ النُّصُوصِ،إلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ:أَرَأَيْت مَنْ أَحْدَثَ فِي نَصْرَانِيَّةٍ،أَوْ يَهُودِيَّةٍ،أَوْ مَجُوسِيَّةٍ:رَأْيًا لَمْ يَخْرُجْ بِهِ عَنْ جُمْلَتِهِمْ أَتُجْبِرُونَهُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ الرَّأْيِ وَالرُّجُوعِ إلَى جُمْلَتِهِمْ،أَوْ إلَى الْإِسْلَامِ؟ وَأَرَأَيْتُمْ مَنْ خَرَجَ مِنْ مَلْكَانِيَّةٍ إلَى نُسْطُورِيَّةٍ،أَوْ يَعْقُوبِيَّةٍ،أَوْ قَادُونِيَّةٍ،أَوْ مَعْدُونِيَّةٍ،فَدَانَ بِعُبُودِيَّةِ الْمَسِيحِ،وَأَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ،وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ أَتُجْبِرُونَهُ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى التَّثْلِيثِ،أَوْ إلَى الرُّجُوعِ إلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَبَّانِيَّةٍ إلَى عَامَانِيَّةٍ،أَوْ إلَى عِيسَوِيَّةٍ،أَتُجْبِرُونَهُ عَلَى الرُّجُوعِ عَنْ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّد – ﷺ – إلَى الْكُفْرِ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:هَذَا كُلُّ مَا مَوَّهُوا بِهِ مِنْ التَّشْنِيعِ وَكُلُّ هَذَا عَائِدٌ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا نُبَيِّنُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال:٧٣] فَحَقٌّ،وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ،لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إلَّا أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فَقَطْ،وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمُ إقْرَارِهِمْ،وَلَا حُكْمُ قَتْلِهِمْ،وَلَا حُكْمُ مَا يُفْعَلُ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ أَصْلًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون:١] إلَى آخِرِهَا لَيْسَ فِيهَا أَيْضًا إلَّا أَنَّنَا مُبَايِنُونَ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي الْعِبَادَةِ،وَالدِّينِ،وَلَيْسَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِهِمْ،لَا مِنْ إقْرَارِهِمْ وَلَا مِنْ تَرْكِ إقْرَارِهِمْ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَنَا {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] فَمَنْ تَوَلَّاهُمْ مِنَّا فَهُوَ مِنْهُمْ،كَمَا قَالَ تَعَالَى إنَّ {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة:٥١].

فَهَلَّا تَرَكُوا الْمُرْتَدَّ إلَيْهِمْ مِنَّا عَلَى رِدَّتِهِ؟ بِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْهُمْ،فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةً فِي إقْرَارِ الْمُرْتَدِّ مِنَّا إلَيْهِمْ عَلَى ذَلِكَ،ذَانِكَ النَّصَّانِ لَيْسَا بِحُجَّةٍ فِيمَا أَرَادُوا التَّمْوِيهَ بِإِيرَادِهِمَا مِنْ أَنَّ الْخَارِجَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ إلَى كُفْرٍ يُقَرُّ عَلَى ذَلِكَ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦] فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ،لِأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ مِنْ الْأُمَّةِ كُلِّهَا فِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ

لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا؛لِأَنَّ الْأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ عَلَى إكْرَاهِ الْمُرْتَدِّ عَنْ دِينِهِ،فَمِنْ قَائِلٍ:يُكْرَهُ وَلَا يُقْتَلُ،وَمِنْ قَائِلٍ،يُكْرَهُ وَيُقْتَلُ.

فَإِنْ قَالُوا:خَرَجَ الْمُرْتَدُّ مِنَّا بِدَلِيلٍ آخَرَ عَنْ حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ؟ قُلْنَا لَهُمْ:وَكَذَلِكَ إنْ خَرَجَ الْمُرْتَدُّ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ إلَى كُفْرٍ بِدَلِيلٍ آخَرَ عَنْ حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ،وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قُلْتُمْ،وَإِنَّ الْمُحْتَجِّينَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال:٧٣] وَبِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:٦] فِي أَنَّ الْكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ وَشَيْءٌ وَاحِدٌ:هُمْ أَوَّلُ مَنْ نَقَضَ الاحْتِجَاجَ وَخَالَفَهُ،وَفَرَّقُوا بَيْنَ أَحْكَامِ أَهْلِ الْكُفْرِ،فَكُلُّهُمْ مُجْمِعٌ مَعَنَا عَلَى:أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ مَنْ تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ،وَتُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ،وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ،وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:وَأَمَّا قَوْلُهُمْ:لَا يَخْلُو مَنْ أُجْبِرَ عَلَى تَرْكِ الْكُفْرِ الَّذِي خَرَجَ إلَيْهِ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ:إمَّا أَنْ يُجْبَرَ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى الْكُفْرِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،وَإِمَّا أَنْ يُجْبَرَ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ فَنَعَمْ:أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِهِمَا – وَالَّذِي نَقُولُ بِهِ:فَإِنَّهُ يُجْبَرُ عَلَى الرُّجُوعِ إلَى الْإِسْلَامِ وَلَا بُدَّ،وَلَا يُتْرَكُ يَرْجِعُ إلَى الدِّينِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ:كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُجْبَرَ عَلَى الْإِسْلَامِ مَعَ مَا ذَكَرْنَا؟

فَجَوَابُنَا – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ:أَنَّهُ إنْ لَمْ يَقُمْ بُرْهَانٌ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وُجُوبِ إجْبَارِهِ،وَإِلَّا فَهُوَ قَوْلُكُمْ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ:إنْ خَرَجَ مِنْ فِرْقَةٍ مِنْ النَّصَارَى إلَى فِرْقَةٍ أُخْرَى فَإِنَّنَا لَا نَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ – إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَبَقِيَ الْآنَ الْكَلَامُ فِي احْتِجَاجِهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦] فَوَجَدْنَا النَّاسَ عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا:أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ،وَالثَّانِي:أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ:إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ،فَيَحْتَجُّ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَقْبَلْ مِنْ الْوَثَنِيِّينَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ – لَمْ يَخْتَلِفْ مُسْلِمَانِ فِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَقْبَلْ

مِنْ الْوَثَنِيِّينَ مِنْ الْعَرَبِ إلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ – إلَى أَنْ مَاتَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَهُوَ إكْرَاهٌ فِي الدِّينِ،فَهَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:إنَّهَا مَخْصُوصَةٌ،فَإِنَّهُمْ قَالُوا:إنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى خَاصَّةً،كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ لِعَجُوزٍ نَصْرَانِيَّةٍ:أَيَّتُهَا الْعَجُوزُ أَسْلِمِي تَسْلَمِي،إنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إلَيْنَا مُحَمَّدًا – ﷺ – بِالْحَقِّ؟ فَقَالَتْ الْعَجُوزُ:وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ وَأَمُوتُ إلَى قَرِيبٍ؟ قَالَ عُمَرُ:اللَّهُمَّ اشْهَدْ،لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ.

وَبِمَا رُوِّينَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:كَانَتْ امْرَأَةٌ تَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إنْ عَاشَ وَلَدُهَا تُهَوِّدُهُ،فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ،فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ:لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦].

فَقَدْ صَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَدْ قَاتَلَ الْكُفَّارَ إلَى أَنْ مَاتَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَتَّى أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ.

وَصَحَّ عَنْهُ الْإِكْرَاهُ فِي الدِّينِ،ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] الْآيَةَ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:٥].

وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [التوبة:٢٩] إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال:٥٨].

فَيُقَالُ لَهُمْ:لَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزُولِ " بَرَاءَةٌ " فَإِذْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَإِنَّ " بَرَاءَةٌ " نَسَخَتْ كُلَّ حُكْمٍ تَقَدَّمَ،وَأَبْطَلَتْ كُلَّ عَهْدٍ سَلَفَ بِقَوْلِ تَعَالَى {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [التوبة:٧] وَإِنَّمَا كَانَتْ آيَةُ النَّبْذِ عَلَى سَوَاءٍ أَيَّامَ كَانَتْ الْمُهَادَنَاتُ جَائِزَةً،وَأَمَّا بَعْدَ نُزُولِ {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] فَلَا يَحِلُّ تَرْكُ مُشْرِكٍ أَصْلًا،إلَّا بِأَنْ يُقْتَلَ،أَوْ يُسْلِمَ،أَوْ يُنْبَذَ إلَيْهِ عَهْدُهُ بَعْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ قَتْلِهِ حَيْثُ وُجِدَ،إلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فَيُقَرَّ عَلَى الْجِزْيَةِ وَالصَّغَارِ،كَمَا أَمَرَ اللَّهُ

تَعَالَى،أَوْ يَكُونَ مُسْتَجِيرًا فَيُجَارَ حَتَّى يُقْرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ،ثُمَّ يُرَدَّ إلَى مَأْمَنِهِ وَلَا بُدَّ،إلَى أَنْ يُسْلِمَ،وَلَا يُتْرَكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ،أَوْ رَسُولًا فَيُتْرَكَ مُدَّةَ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ،وَأَخْذِ جَوَابِهِ،ثُمَّ يُرَدَّ إلَى بَلَدِهِ،وَمَا عَدَا هَؤُلَاءِ فَالْقَتْلُ وَلَا بُدَّ،أَوْ الْإِسْلَامُ،كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَصِّ الْقُرْآنِ،وَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -.

فَإِنْ ذَكَرُوا:مَا أَنَا حُمَامٌ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاجِيَّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ أَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَشْوَرِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْحُذَافِيُّ أَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ:حَيْثُ رُفِعَ إلَى عَلِيٍّ فِي يَهُودِيٍّ تَزَنْدَقَ وَنَصْرَانِيٍّ تَزَنْدَقَ؟ قَالَ:دَعُوهُ يُحَوِّلُ مِنْ دِينٍ إلَى دِينٍ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:هَذَا لَمْ يَصِحَّ عَنْ عَلِيٍّ؛لِأَنَّهُ مُنْقَطِعٌ وَلَمْ يُولَدْ ابْنُ جُرَيْجٍ إلَّا بَعْدَ نَحْوِ نَيِّفٍ وَثَلَاثِينَ عَامًا مِنْ مَوْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَا حُجَّةَ فِي أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَكَمْ مِنْ قَوْلَةٍ لِعَلِيٍّ صَحِيحَةٍ قَدْ خَالَفُوهَا - وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

مَسْأَلَةٌ:مِيرَاثُ الْمُرْتَدِّ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مِيرَاثِهِ:فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:هُوَ لِوَرَثَتِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ:كَمَا أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ نَبَاتٍ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْبَصِيرِ أَنَا قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الْخُشَنِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى أَنَا مُوسَى بْنُ مَسْعُودٍ أَبُو حُذَيْفَةَ أَنَا سُفْيَانُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ دِثَارِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيِّ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ:مِيرَاثُ الْمُرْتَدِّ لِوَلَدِهِ.

وَعَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ:أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِشَيْخٍ كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ،ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ:لَعَلَّك إنَّمَا ارْتَدَدْت،لِأَنْ تُصِيبَ مِيرَاثًا ثُمَّ تَرْجِعَ إلَى الْإِسْلَامِ،قَالَ:لَا،قَالَ:فَلَعَلَّك خَطَبْت امْرَأَةً فَأَبَوْا أَنْ يُزَوِّجُوكَهَا فَأَرَدْت أَنْ تَزَوَّجَهَا ثُمَّ تَعُودَ إلَى الْإِسْلَامِ،قَالَ:لَا،قَالَ:فَارْجِعْ إلَى الْإِسْلَامِ؟ قَالَ:لَا،حَتَّى أَلْقَى الْمَسِيحَ؟ فَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ،فَدَفَعَ مِيرَاثَهُ إلَى وَلَدِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ - وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِمِثْلِهِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ بِهَذَا،مِنْهُمْ:اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ،وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيِّ:إنْ قُتِلَ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ فَمَالُهُ لِوَرَثَتِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:إنْ كَانَ لَهُ وَارِثٌ عَلَى دِينِهِ فَهُوَ أَحَــقُّ بِــهِ،وَإِلَّا فَمَالُــهُ لِوَرَثَتِــهِ مِــنْ الْمُسْلِمِينَ:كَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ إسْحَاقَ بْنِ رَاشِدٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ فِي رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أُسِرَ فَتَنَصَّرَ إذَا عَلِمَ ذَلِكَ تَرِثُ مِنْهُ امْرَأَتُهُ،وَتَعْتَــدُّ ثَلَاثَــةَ قُرُوءٍ،وَدَفْعُ مَالِهِ إلَى وَرَثَتِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَا أَعْلَمُهُ،قَالَ:إلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ وَارِثٌ عَلَى دِينِــهِ فِي أَرْضٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:مِيرَاثُهُ لِأَهْلِ دِينِهِ فَقَطْ:كَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ:مِيرَاثُ الْمُرْتَدِّ لِأَهْلِ دِينِهِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ:أَنْبَأَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ:النَّاسُ فَرِيقَانِ،مِنْهُمْ مَنْ يَقُــولُ:مِــيرَاثُ الْمُرْتَــدِّ لِلْمُسْلِمِينَ،لِأَنَّهُ سَاعَةَ يَكْفُرُ يُوقَفُ،فَلَا يُقْدَرُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُنْظَرَ أَيُسْلِمُ أَمْ يَكْفُــرُ؟ مِنْهُمْ النَّخَعِيُّ:وَالشَّعْبِيُّ،وَالْحَكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ - وَفَرِيقٌ يَقُولُ:لِأَهْلِ دِينِهِ.وَقَالَــتْ طَائِفَــةٌ:إنْ رَاجَعَ الْإِسْلَامَ فَمَالُهُ لَهُ،وَإِنْ قُتِلَ فَمَالُهُ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ لَا لِوَرَثَتِهِ مِنْ الْكُفَّارِ - قَــالَ بِهَذَا رَبِيعَةُ،وَمَالِكٌ،وَابْنُ أَبِي لَيْلَى،وَالشَّافِعِيُّ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:إنْ رَاجَعَ الْإِسْلَامَ فَمَالُهُ لَهُ،وَإِنْ قُتِلَ فَمَالُهُ لِوَرَثَتِهِ مِنْ الْكُفَّارِ - قَالَ بِهَذَا أَبُو سُلَيْمَانَ،وَأَصْحَابُنَا.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ:إنْ قُتِلَ الْمُرْتَدُّ فَمَالُهُ لِوَرَثَتِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،وَتَرِثُهُ زَوْجَتُهُ كَسَائِرِ وَرَثَتِهِ،وَإِنْ فَرَّ وَلَحِقَ بِأَرْضِ الْحَرْبِ وَتَرَكَ مَالَهُ عِنْدَنَا فَإِنَّ الْقَاضِيَ يَقْضِي بِــذَلِكَ،وَيُعْتِقُ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ وَمُدَبَّرِهِ وَيَقْسِمُ مَالَهُ بَيْنَ وَرَثَتِهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى،فَــإِنْ جَاءَ مُسْلِمًا أَخَذَ مِنْ مَالِهِ مَا وَجَدَ فِي أَيْدِي وَرَثَتِهِ،وَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِمْ فِيمَا اسْتَهْلَكُوهُ،هَذَا فِيمَا كَانَ بِيَدِهِ قَبْلَ الرِّدَّةِ - وَأَمَّا مَا اكْتَسَبَهُ فِي حَالِ رِدَّتِهِ ثُمَّ قُتِلَ أَوْ مَاتَ فَهُــوَ فَــيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:مَالُ الْمُرْتَدِّ سَاعَةَ يَرْتَدُّ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - قُتِلَ،أَوْ مَاتَ،أَوْ لَحِقَ بِــأَرْضِ الْحَرْبِ،أَوْ رَاجَعَ الْإِسْلَامَ - كُلُّ ذَلِكَ سَوَاءٌ.

وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ مَالِكٍ،ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ شَعْبَانَ عَنْهُ،وَأَشْهَبُ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:فَلَمَّا اخْتَلَفُوا نَظَرْنَا فِي ذَلِكَ،فَكَانَ الثَّابِتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ أَنَّهُ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ:مَانِعًا مِنْ تَوْرِيثِ وَلَدِ الْمُرْتَدِّ – وَهُمْ مُسْلِمُونَ – مَالَ أَبِيهِمْ الْمُرْتَدِّ،لِأَنَّهُ كَافِرٌ وَهُمْ مُسْلِمُونَ – أَنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ جَمَاعَةٌ،وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ:مَا أَنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ بْنِ السُّلَيْمِ أَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ أَنَا أَبُو دَاوُد أَنَا مُسَدَّدٌ أَنَا سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ».

هَذَا عُمُومٌ مِنْهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمْ يُخَصَّ مِنْهُ مُرْتَدٌّ مِنْ غَيْرِهِ {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم:٦٤] وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخُصَّ الْمُرْتَدَّ مِنْ ذَلِكَ لَمَا أَغْفَلَهُ،وَلَا أَهْمَلَهُ،بَلْ قَدْ حَضَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١].

فَسَقَطَ هَذَا الْقَوْلُ جُمْلَةً – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

مَسْأَلَةٌ:وَصِيَّةُ الْمُرْتَدِّ وَتَدْبِيرِهِ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد:كُلُّ وَصِيَّةٍ أَوْصَى بِهَا قَبْلَ رِدَّتِهِ،أَوْ فِي حِينِ رِدَّتِهِ،بِمَا يُوَافِقُ الْبِرَّ وَدِينَ الْإِسْلَامِ،فَكُلُّ ذَلِكَ نَافِذٌ فِي مَالِهِ الَّذِي لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ حَتَّى قُتِلَ،لِأَنَّهُ مَالُهُ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ – فَإِذَا قُتِلَ أَوْ مَاتَ،فَقَدْ وَجَبَتْ فِيهِ وَصَايَاهُ بِمَوْتِهِ قَبْلَ أَنْ يُقْدَرَ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ.

وَأَمَّا إذَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِهِ مِنْ عَبْدٍ،وَذِمِّيٍّ،أَوْ مَالٍ،فَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ كُلُّهُ،لَا تَنْفُذُ فِيهِ وَصِيَّةٌ،لِأَنَّهُ إذَا وَجَبَتْ الْوَصِيَّةُ بِمَوْتِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَالُ لَهُ بَعْدُ،وَلَا تَنْفُذُ وَصِيَّةُ أَحَدٍ فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ.

مَسْأَلَةٌ:مَنْ صَارَ مُخْتَارًا إلَى أَرْضِ الْحَرْبِ،مُشَاقًّا لِلْمُسْلِمِينَ أَمُرْتَدٌّ هُوَ بِذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَمَنْ اعْتَضَدَ بِأَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ – وَإِنْ لَمْ يُفَارِقْ دَارَ الْإِسْلَامِ – أَمُرْتَدٌّ هُوَ بِذَلِكَ أَمْ لَا؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد:أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ قُدَامَةَ عَنْ جَرِيرٍ عَنْ مُغِيرَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ:كَانَ جَرِيرٌ يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – «إذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ،وَإِنْ مَاتَ مَاتَ كَافِرًا،فَأَبَقَ غُلَامٌ لِجَرِيرٍ،فَأَخَذَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ».

وَبِهِ - إلَى أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَنَا قُتَيْبَةُ أَنَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «إذَا أَبَقَ الْعَبْدُ إلَى الشِّرْكِ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ».

وَمِنْ طَرِيقِ مُسْلِمٍ أَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ أَنَا إسْمَاعِيلُ - يَعْنِي ابْنَ عُلَيَّةَ - عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَرِيرٍ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ:أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْهِمْ - قَالَ مَنْصُورٌ:قَدْ وَاَللَّهِ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ يُرْوَى عَنِّي هَاهُنَا بِالْبَصْرَةِ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ أَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ أَنَا أَبُو دَاوُد أَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ أَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ - هُوَ ابْنُ أَبِي خَازِمٍ الضَّرِيرُ - عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَرِيَّةً إلَى خَثْعَمَ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ،وَقَالَ:أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَتَرَاءَى نَارُهُمَا».

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:حَدِيثُ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَرِيرٍ الَّذِي قَدَّمْنَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ الشَّعْبِيِّ مَوْقُوفٌ عَلَى جَرِيرٍ،فَلَا وَجْهَ لِلِاشْتِغَالِ بِهِ.

وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ مُغِيرَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ مُسْنَدٌ،إلَّا أَنَّ فِيهِ:إنَّ الْعَبْدَ بِإِقَامَتِهِ يَكُونُ كَافِرًا،فَظَاهِرُهُ فِي الْمَمْلُوكِ،لِأَنَّ الْحُرَّ لَا يُوصَفُ بِإِبَاقٍ - فِي الْمَعْهُودِ - لَكِنَّ رِوَايَةَ أَبِي إسْحَاقَ عَنْ الشَّعْبِيِّ فِي هَذَا الْخَبَرِ بَيَانُ أَنَّهُ فِي الْحُرِّ وَالْمَمْلُوكِ،وَبَيَانُ الْإِبَاقِ الَّذِي يَكْفُرُ بِهِ،وَهُوَ إبَاقُهُ إلَى أَرْضِ الشِّرْكِ،وَالْبُعْدُ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ،لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ عَبْدُ اللَّهِ تَعَالَى:كَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ مُسْلِمٍ أَنَا إسْحَاقُ بْنُ إبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ أَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ " سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ:«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ،وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ،فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،قَالَ اللَّهُ:حَمِدَنِي عَبْدِي».

فَقَوْلُهُ تَعَالَى (إذَا قَالَ الْعَبْدُ) عَنِيَ بِهِ الْحُرَّ وَالْمَمْلُوكَ - بِلَا شَكٍّ -.

وَالْإِبَاقُ مُطْلَقٌ عَلَى الْحُرِّ أَيْضًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [الصافات:١٤٠] فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ رَسُولِهِ الْحُرِّ يُونُسَ بْنِ مَتَّى - ﷺ - أَنَّهُ أَبَقَ إذْ خَرَجَ مُغَاضِبًا لِأَمْرِ رَبِّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنْ دَارِ الْإِسْلَامِ إلَى دَارِ الْحَرْبِ فَقَدْ أَبَقَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى،وَعَنْ إمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَاعَتِهِمْ،وَيُبَيِّنُ هَذَا حَدِيثُهُ - ﷺ - «أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ» وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَبْرَأُ إلَّا مِنْ كَافِرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة:٧١].

قَالَ أَبُو مُحَمَّد - رَحِمَهُ اللَّهُ -:فَصَحَّ بِهَذَا أَنَّ مَنْ لَحِقَ بِدَارِ الْكُفْرِ وَالْحَرْبِ مُخْتَارًا مُحَارِبًا لِمَنْ يَلِيهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،فَهُوَ بِهَذَا الْفِعْلِ مُرْتَدٌّ لَهُ أَحْكَامُ الْمُرْتَدِّ كُلُّهَا:مِنْ وُجُوبِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ،مَتَى قُدِرَ عَلَيْهِ،وَمِنْ إبَاحَةِ مَالِهِ،وَانْفِسَاخِ نِكَاحِهِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ،لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَمْ يَبْرَأْ مِنْ مُسْلِمٍ.

وَأَمَّا مَنْ فَرَّ إلَى أَرْضِ الْحَرْبِ لِظُلْمٍ خَافَهُ،وَلَمْ يُحَارِبْ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا أَعَانَهُمْ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُجِيرُهُ،فَهَذَا لَا شَيْءَ عَلَيْهِ،لِأَنَّهُ مُضْطَرٌّ مُكْرَهٌ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الزُّهْرِيَّ مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِم بْنِ شَهَاب:كَانَ عَازِمًا عَلَى أَنَّهُ إنْ مَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَحِقَ بِأَرْضِ الرُّومِ،لِأَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ كَانَ نَذَرَ دَمَهُ إنْ قَدَرَ عَلَيْهِ،وَهُوَ كَانَ الْوَالِي بَعْدَ هِشَامٍ فَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ مَعْذُورٌ.

وَكَذَلِكَ:مَنْ سَكَنَ بِأَرْضِ الْهِنْدِ،وَالسِّنْدِ،وَالصِّينِ،وَالتُّرْكِ،وَالسُّودَانِ وَالرُّومِ،مِنْ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ هُنَالِكَ لِثِقَلِ ظَهْرٍ،أَوْ لِقِلَّةِ مَالٍ،أَوْ لِضَعْفِ جِسْمٍ،أَوْ لِامْتِنَاعِ طَرِيقٍ،فَهُوَ مَعْذُورٌ.

فَإِنْ كَانَ هُنَاكَ مُحَارِبًا لِلْمُسْلِمِينَ مُعِينًا لِلْكُفَّارِ بِخِدْمَةٍ،أَوْ كِتَابَةٍ:فَهُوَ كَافِرٌ - وَإِنْ كَانَ إنَّمَا يُقِيمُ هُنَالِكَ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا،وَهُوَ كَالذِّمِّيِّ لَهُمْ،وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى اللِّحَاقِ بِجَمْهَرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَرْضِهِمْ،فَمَا يَبْعُدُ عَنْ الْكُفْرِ،وَمَا نَرَى لَهُ عُذْرًا - وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

وَلَيْسَ كَذَلِكَ:مَنْ سَكَنَ فِي طَاعَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ الْغَالِيَةِ؛وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ،لِأَنَّ أَرْضَ مِصْرَ وَالْقَيْرَوَانِ،وَغَيْرَهُمَا،فَالْإِسْلَامُ هُوَ الظَّاهِرُ،وَوُلَاتُهُمْ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ لَا يُجَاهِرُونَ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ الْإِسْلَامِ،بَلْ إلَى الْإِسْلَامِ يَنْتَمُونَ،وَإِنْ كَانُوا فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ كُفَّارًا.

وَأَمَّا مَنْ سَكَنَ فِي أَرْضِ الْقَرَامِطَةِ مُخْتَارًا فَكَافِرٌ بِلَا شَكٍّ،لِأَنَّهُمْ مُعْلِنُونَ بِالْكُفْرِ وَتَرْكِ الْإِسْلَامِ – وَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَنْ سَكَنَ فِي بَلَدٍ تَظْهَرُ فِيهِ بَعْضُ الْأَهْوَاءِ الْمُخْرِجَةِ إلَى الْكُفْرِ،فَهُوَ لَيْسَ بِكَافِرٍ،لِأَنَّ اسْمَ الْإِسْلَامِ هُوَ الظَّاهِرُ هُنَالِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ،مِنْ التَّوْحِيدِ،وَالْإِقْرَارِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ – وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ دِينٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ،وَصِيَامِ رَمَضَانَ،وَسَائِرِ الشَّرَائِعِ الَّتِي هِيَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ – وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ أَقَامَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ» يُبَيِّنُ مَا قُلْنَاهُ،وَأَنَّهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – إنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ دَارَ الْحَرْبِ،وَإِلَّا فَقَدْ اسْتَعْمَلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عُمَّالَهُ عَلَى خَيْبَرَ،وَهُمْ كُلُّهُمْ يَهُودُ.

وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الذِّمَّةِ فِي مَدَائِنِهِمْ لَا يُمَازِجُهُمْ غَيْرُهُمْ فَلَا يُسَمَّى السَّاكِنُ فِيهِمْ – لِإِمَارَةٍ عَلَيْهِمْ،أَوْ لِتِجَارَةٍ – بَيْنَهُمْ:كَافِرًا،وَلَا مُسِيئًا،بَلْ هُوَ مُسْلِمٌ حَسَنٌ،وَدَارُهُمْ دَارُ إسْلَامٍ،لَا دَارُ شِرْكٍ،لِأَنَّ الدَّارَ إنَّمَا تُنْسَبُ لِلْغَالِبِ عَلَيْهَا،وَالْحَاكِمُ فِيهَا،وَالْمَالِكُ لَهَا.

وَلَوْ أَنَّ كَافِرًا مُجَاهِدًا غَلَبَ عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِ الْإِسْلَامِ،وَأَقَرَّ الْمُسْلِمِينَ بِهَا عَلَى حَالِهِمْ،إلَّا أَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لَهَا،الْمُنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ فِي ضَبْطِهَا،وَهُوَ مُعْلِنٌ بِدِينٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ لَكَفَرَ بِالْبَقَاءِ مَعَهُ كُلُّ مَنْ عَاوَنَهُ،وَأَقَامَ مَعَهُ – وَإِنْ ادَّعَى أَنَّهُ مُسْلِمٌ – لِمَا ذَكَرْنَا.

وَأَمَّا مَنْ حَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الثَّغْرِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَعَانَ بِالْمُشْرِكِينَ الْحَرْبِيِّينَ،وَأَطْلَقَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى قَتْلِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ عَلَى أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ،أَوْ سَبْيِهِمْ،فَإِنْ كَانَتْ يَدُهُ هِيَ الْغَالِبَةُ وَكَانَ الْكُفَّارُ لَهُ كَأَتْبَاعٍ،فَهُوَ هَالِكٌ فِي غَايَةِ الْفُسُوقِ،وَلَا يَكُونُ بِذَلِكَ كَافِرًا،لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ شَيْئًا أَوْجَبَ بِهِ عَلَيْهِ كُفْرًا:قُرْآنٌ أَوْ إجْمَاعٌ،وَإِنْ كَانَ حُكْمُ الْكُفَّارِ جَارِيًا عَلَيْهِ فَهُوَ بِذَلِكَ كَافِرٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا،فَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَجْرِي حُكْمُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فَمَا نَرَاهُ بِذَلِكَ كَافِرًا – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ – وَإِنَّمَا الْكَافِرُ الَّذِي بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ

– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – هُوَ الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ – وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.[٧٩٨]

حول قتل الزنديق:

وَالزِّنْدِيقُ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ،وَأَظْهَرَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْإِسْلَامَ خَشْيَةَ الْقَتْلِ،فَهَذَا أَصْلُ الزَّنْدَقَةِ.وَأَطْلَقَ جَمَاعَةٌ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ الزَّنْدَقَةَ عَلَى مَنْ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَيُخْفِي الْكُفْرَ مُطْلَقًا.وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي الرَّوْضَةِ:الزِّنْدِيقُ:الَّذِي لَا يَنْتَحِلُ دِينًا.وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الَّذِينَ وَقَعَ لَهُمْ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَا وَقَعَ.

قَوْلُهُ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» هَذَا ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ فِي كُلِّ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ التَّبْدِيلُ وَلَكِنَّهُ عَامٌّ وَيُخَصُّ مِنْهُ مَنْ بَدَّلَهُ فِي الْبَاطِنِ وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ فَإِنَّهُ تُجْرَى عَلَيْهِ أَحْكَامُ الظَّاهِرِ وَيُسْتَثْنَى مِنْهُ مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فِي الظَّاهِرِ وَلَكِنْ مَعَ الْإِكْرَاهِ،هَكَذَا فِي الْفَتْحِ.قَالَ فِيهِ:وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى قَتْلِ الْمُرْتَدَّةِ كَالْمُرْتَدِّ،وَخَصَّهُ الْحَنَفِيَّةُ بِالذَّكَرِ وَتَمَسَّكُوا بِحَدِيثِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ.

وَحَمَلَ الْجُمْهُورُ النَّهْيَ عَلَى الْكَافِرَةِ الْأَصْلِيَّةِ إِذَا لَمْ تُبَاشِرْ الْقِتَالَ لِقَوْلِهِ فِي بَعْضِ طُرُقِ حَدِيثِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ لَمَّا رَأَى امْرَأَةً مَقْتُولَةً مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ،ثُمَّ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ.وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ مَنْ الشَّرْطِيَّةَ لَا تَعُمُّ الْمُؤَنَّثَ.وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَاوِي الْخَبَرِ وَقَدْ قَالَ بِقَتْلِ الْمُرْتَدَّةِ،وَقَتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي خِلَافَتِهِ امْرَأَةً ارْتَدَّتْ كَمَا تَقَدَّمَ وَالصَّحَابَةُ مُتَوَافِرُونَ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ.وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ:أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – «لَمَّا أَرْسَلَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ:أَيُّمَا رَجُلٍ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ فَادْعُهُ،فَإِنْ عَادَ وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ،وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ ارْتَدَّتْ عَنْ الْإِسْلَامِ فَادْعُهَا،فَإِنْ عَادَتْ وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُنُقَهَا».قَالَ الْحَافِظُ:وَسَنَدُهُ حَسَنٌ وَهُوَ نَصٌّ فِي مَوْضِعِ النِّزَاعِ فَيَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ.وَيُؤَيِّدُهُ اشْتِرَاكُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الْحُدُودِ كُلِّهَا:الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ

---

[٧٩٨] – المحلى بالآثار (١٢/ ١٠٨)

وَالْقَذْفِ وَمِنْ صُوَرِ الزِّنَا رَجْمُ الْمُحْصَنِ حَتَّى يَمُوتَ،فَإِنَّ ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ فَيُسْتَثْنَى قَتْلُ الْمُرْتَدَّةِ مِثْلَهُ.

وَاسْتَدَلَّ بِالْحَدِيثِ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ مَنْ انْتَقَلَ مِنْ مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الْكُفْرِ إِلَى مِلَّةٍ أُخْرَى.وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْحَدِيثَ مَتْرُوكُ الظَّاهِرِ فِيمَنْ كَانَ كَافِرًا ثُمَّ أَسْلَمَ اتِّفَاقًا مَعَ دُخُولِهِ فِي عُمُومِ الْخَبَرِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ الَّذِي هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ،لِأَنَّ الدِّينَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} [آل عمران:١٩].وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ الْكُفْرَ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ،فَإِذَا انْتَقَلَ الْكَافِرُ مِنْ مِلَّةٍ كُفْرِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى مِثْلِهَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ دِينِ الْكُفْرِ،وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران:٨٥].وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهُ:«مَنْ خَالَفَ دِينُهُ دِينَ الْإِسْلَامِ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ» وَاسْتَدَلَّ بِالْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ الزِّنْدِيقُ مِنْ غَيْرِ اسْتِتَابَةٍ.وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – اسْتَتَابَهُمْ كَمَا فِي الْفَتْحِ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَرِيكٍ الْعَامِرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قِيلَ لِعَلِيٍّ:إِنَّ هُنَا قَوْمًا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ رَبُّهُمْ،فَدَعَاهُمْ فَقَالَ لَهُمْ:وَيْلَكُمْ مَا تَقُولُونَ؟ قَالُوا أَنْتَ رَبُّنَا وَخَالِقُنَا وَرَازِقُنَا،قَالَ:وَيْلَكُمْ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكُمْ آكُلُ الطَّعَامَ كَمَا تَأْكُلُونَ،وَأَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُونَ،إِنْ أَطَعْت اللَّهَ أَثَابَنِي إِنْ شَاءَ،وَإِنْ عَصَيْته خَشِيت أَنْ يُعَذِّبَنِي،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا،فَأَبَوْا،فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ غَدَوْا عَلَيْهِ فَجَاءَ قَنْبَرٌ فَقَالَ:قَدْ وَاَللَّهِ رَجَعُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ الْكَلَامَ،فَقَالَ:أَدْخِلْهُمْ،فَقَالُوا كَذَلِكَ فَلَمَّا كَانَ الثَّالِثُ قَالَ لَئِنْ قُلْتُمْ ذَلِكَ لَأَقْتُلَنَّكُمْ بِأَخْبَثِ قِتْلَةٍ،فَأَبَوْا إِلَّا ذَلِكَ فَأَمَرَ عَلِيٌّ أَنْ يُخَدَّ لَهُمْ أُخْدُودٌ بَيْنَ بَابِ الْمَسْجِدِ وَالْقَصْرِ وَأَمَرَ بِالْحَطَبِ أَنْ يُطْرَحَ فِي الْأُخْدُودِ وَيُضْرَمَ بِالنَّارِ،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:إِنِّي طَارِحُكُمْ فِيهَا أَوْ تَرْجِعُوا،فَأَبَوْا أَنْ يَرْجِعُوا،فَقَذَفَ بِهِمْ حَتَّى إِذَا احْتَرَقُوا قَالَ:

إِنِّي إِذَا أُرِيت أَمْرًا مُنْكَرًا...أَوْقَدْت نَارِي وَدَعَوْت قَنْبَرًا

قَالَ الْحَافِظُ:إِنَّ إِسْنَادَ هَذَا صَحِيحٌ.

وَزَعَمَ أَبُو مُظَفَّرٍ الْإِسْفَرَايِينِيّ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ أَنَّ الَّذِينَ أَحْرَقَهُمْ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – طَائِفَةٌ مِنْ الرَّوَافِضِ ادَّعَوْا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ وَهُمْ السَّبَئِيَّةُ وَكَانَ كَبِيرُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَإٍ يَهُودِيًّا ثُمَّ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَابْتَدَعَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ،وَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ أَنَّهُمْ أُنَاسٌ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فِي السِّرِّ فَسَنَدُهُ مُنْقَطِعٌ،فَإِنْ ثَبَتَ حُمِلَ عَلَى قِصَّةٍ أُخْرَى،وَقَدْ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إلَى أَنَّهُ يُسْتَتَابُ الزِّنْدِيقُ كَمَا يُسْتَتَابُ غَيْرُهُ.وَعَنْ أَحْمَدَ وَأَبِي حَنِيفَةَ رِوَايَتَانِ إحْدَاهُمَا:لَا يُسْتَتَابُ،وَالْأُخْرَى:إنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ،وَهُوَ قَوْلُ اللَّيْثِ وَإِسْحَاقَ.وَحُكِيَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ،قَالَ الْحَافِظُ:وَلَا يَثْبُتُ عَنْهُ بَلْ قِيلَ:إنَّهُ تَحْرِيفٌ مِنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهْوَيْهِ،وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ الْمَالِكِيَّةِ.وَحُكِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ إنْ جَاءَ تَائِبًا قُبِلَ وَإِلَّا فَلَا،وَبِهِ قَالَ أَبُو يُوسُفَ،وَاخْتَارَهُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيّ وَأَبُو مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ.

وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ:إنْ كَانَ دَاعِيَةً لَمْ يُقْبَلْ وَإِلَّا قُبِلَ.وَحُكِيَ فِي الْبَحْرِ عَنْ الْعِتْرَةِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَمُحَمَّدٍ أَنَّهَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الزِّنْدِيقِ لِعُمُومِ {إنْ يَنْتَهُوا}.وَعَنْ مَالِكٍ وَأَبِي يُوسُفَ وَالْجَصَّاصِ:لَا تُقْبَلُ إذْ يُعْرَفُ مِنْهُمْ التَّظَهُّرُ تَقِيَّةً بِخِلَافِ مَا يَنْطِقُونَ بِهِ.قَالَ الْمَهْدِيُّ:فَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ حِينَئِذٍ فَيُرْجَعُ إلَى الْقَرَائِنِ،لَكِنَّ الْأَقْرَبَ الْعَمَلُ بِالظَّاهِرِ،وَإِنْ الْتَبَسَ الْبَاطِنُ،لِقَوْلِهِ – ﷺ – لِمَنْ اسْتَأْذَنَهُ فِي قَتْلِ مُنَافِقٍ:«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ» الْخَبَرَ وَنَحْوِهِ.قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَاسْتَدَلَّ مَنْ مَنَعَ مِنْ قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} [البقرة:١٦٠] فَقَالَ:الزِّنْدِيقُ لَا يُطَّلَعُ عَلَى إصْلَاحِهِ لِأَنَّ الْفَسَادَ إنَّمَا أَتَى مِمَّا أَسَرَّهُ،فَإِذَا اُطُّلِعَ عَلَيْهِ وَأَظْهَرَ الْإِقْلَاعَ عَنْهُ لَمْ يُرَدَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ،وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ} [النساء:١٣٧].وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْمُرَادَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.أَخْرَجَهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ.وَاسْتَدَلَّ لِمَنْ قَالَ بِالْقَبُولِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [المنافقون:٢] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ إظْهَارَ الْإِيمَانِ يُحَصِّنُ مِنْ الْقَتْلِ.قَالَ الْحَافِظُ:وَكُلُّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الظَّاهِرِ وَاَللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ،وَقَدْ قَالَ – ﷺ – لِأُسَامَةَ:«هَلَّا شَقَقْت عَنْ قَلْبِهِ» وَقَالَ لِلَّذِي سَارَّهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ:«أَلَيْسَ يُصَلِّي؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيت عَنْ قَتْلِهِمْ» «وَقَالَ – ﷺ – لِخَالِدٍ لَمَّا اسْتَأْذَنَهُ فِي قَتْلِ

الَّذي أَنْكَرَ الْقِسْمَةَ:إنِّي لَمْ أُومَرْ بِأَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ» وَهَــذِهِ الْأَحَادِيــثُ فِــي الصَّحِيحِ،وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ.[799]

[طَائفَة كَانُوا يَرَوْنَ مَذْهَبَ النُّصَيْرِيَّة]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:مَسْأَلَةٌ:فِي طَائِفَةٍ مِنْ رَعِيَّةِ الْبِلَادِ كَــانُوا يَــرَوْنَ مَذْهَبَ النُّصَيْرِيَّةِ،ثُمَّ أَجْمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَاخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ فِيهِ،فَمِنْهُمْ مَــنْ يَــزْعُمُ أَنَّــهُ إلَهٌ،وَمِنْهُمْ مِنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ،وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ مُحَمَّــدُ بْــنُ الْحَسَــنِ،يَعْنُونَ الْمَهْدِيَّ،وَأَمَرُوا مَنْ وَجَدَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ،وَأَعْلَنُوا بِالْكُفْرِ بِذَلِكَ،وَسَبِّ الصَّــحَابَةِ،وَأَظْهَرُوا الْخُرُوجَ عَنْ الطَّاعَةِ،وَعَزَمُوا عَلَى الْمُحَارَبَةِ،فَهَلْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُ مُقَاتِلَتِهِمْ،وَهَلْ تُبَاحُ ذَرَارِيُّهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ.هَؤُلَاءِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ مَا دَامُوا مُمْتَنِعِينَ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّ النُّصَيْرِيَّةَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كُفْرًا بِدُونِ اتِّبَاعِهِمْ لِمِثْلِ هَذَا الدَّجَّالِ،فَكَيْفَ إذَا اتَّبَعُوا مِثْلَ هَذَا الدَّجَّالِ.وَهُمْ مُرْتَدُّونَ مِنْ أَسْوَإِ النَّاسِ رِدَّةً،تُقْتَلُ مُقَاتِلُهُمْ وَتَغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ.وَسَبْيُ الذُّرِّيَّةِ فِيهِ نِزَاعٌ،لَكِنَّ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ تُسْبَى الصِّغَارُ مِنْ أَوْلَادِ الْمُرْتَدِّينَ،وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّــتْ عَلَيْهِ سِيرَةُ الصِّدِّيقِ فِي قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ.

وَكَذَلِكَ قَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي اسْتِرْقَاقِ الْمُرْتَدِّ،وَطَائِفَةٌ تَقُولُ:إنَّهَا تُسْتَرَقُّ كَقَــوْلِ أَبِــي حَنِيفَةَ،وَطَائِفَةٌ تَقُولُ لَا تُسْتَرَقُّ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ،وَالْمَعْرُوفُ عَنْ الصَّــحَابَةِ هُــوَ الْأَوَّلُ،وَأَنَّهُ تُسْتَرَقُّ مِنْهُنَّ الْمُرْتَدَّاتُ نِسَاءُ الْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّ الْحَنَفِيَّةَ الَّتِي تَسَرَّى بِهَا عَلِيُّ بْــنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أُمُّ ابْنِهِ مُحَمَّد بْنِ الْحَنَفِيَّةِ مِنْ سَبْيِ بَنِي حَنِيفَةَ الْمُرْتَــدِّينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَالصَّحَابَةُ لَمَّا بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيــدِ فِي قِتَالِهِمْ.

وَالنُّصَيْرِيَّةُ لَا يَكْتُمُونَ أَمْرَهُمْ،بَلْ هُمْ مَعْرُوفُونَ عِنْدَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،لَا يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ،وَلَا يَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ،وَلَا يَحُجُّونَ الْبَيْتَ،وَلَا يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ وَلَــا يُقِــرُّونَ

---

[799] – نيل الأوطار (٧/ ٢٢٧)

بِوُجُوبِ ذَلِكَ،وَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ وَغَيْرَهَا مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ،وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِلَهَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَيَقُولُونَ:

نَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا...حَيْدَرَةُ الْأَنْزَعُ الْبَطِينُ

وَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ إلَّا...مُحَمَّدٌ الصَّادِقُ الْأَمِينُ

وَلَا طَرِيقَ إلَيْهِ إلَّا...سَلْمَانُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

وَأَمَّا إذَا لَمْ يُظْهِرُوا الرَّفْضَ،وَأَنَّ هَذَا الْكَذَّابَ هُوَ الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ،وَامْتَنَعُوا،فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ أَيْضًا،لَكِنْ يُقَاتَلُونَ كَمَا يُقَاتَلُ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَكَمَا يُقَاتَلُ الْمُرْتَدُّونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،فَهَؤُلَاءِ يُقَاتَلُونَ مَا دَامُوا مُمْتَنِعِينَ،وَلَا تُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ،وَلَا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ الَّتِي لَمْ يَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى الْقِتَالِ،وَأَمَّا مَا اسْتَعَانُوا بِهِ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَيْلٍ وَسِلَاحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَفِي أَخْذِهِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ نَهَبَ عَسْكَرُهُ مَا فِي عَسْكَرِ الْخَوَارِجِ،فَإِنْ رَأَى وَلِيُّ الْأَمْرِ أَنْ يَسْتَبِيحَ مَا فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ الْمَالِ كَانَ هَذَا سَائِغًا.هَذَا مَا دَامُوا مُمْتَنِعِينَ،فَإِنْ قَدَرَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَهُمْ وَيَحْسِمَ مَادَّةَ شَرِّهِمْ،وَإِلْزَامُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ،وَقَتْلُ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الرِّدَّةِ مِنْهُمْ،وَأَمَّا قَتْلُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ كُفْرًا مِنْهُ،وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفُقَهَاءُ الزِّنْدِيقَ،فَأَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ،كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي أَظْهَرِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ،وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ.

وَمَنْ كَانَ دَاعِيًا مِنْهُمْ إلَى الضَّلَالِ لَا يَنْكَفُّ شَرُّهُ إلَّا بِقَتْلِهِ،قُتِلَ أَيْضًا،وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ،وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ بِكُفْرِهِ كَأَئِمَّةِ الرَّفْضِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ،كَمَا قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ غَيْلَانَ الْقَدَرِيَّ،وَالْجَعْدَ بْنَ دِرْهَمٍ وَأَمْثَالَهُمَا مِنْ الدُّعَاةِ.فَهَذَا الدَّجَّالُ يُقْتَلُ مُطْلَقًا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[٨٠٠]

قوله في قتال التتار

مَا تَقُولُ الْفُقَهَاءُ أَئِمَّةُ الدِّينِ:فِي هَؤُلَاءِ التَّتَارِ الَّذِينَ قَدِمُوا سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَفَعَلُوا مَا اشْتَهَرَ مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ بَعْضِ الذَّرَارِيِّ وَالنَّهْبِ لِمَنْ وَجَدُوهُ مِنْ

---

[٨٠٠] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥١٣)

الْمُسْلِمِينَ وَهَتَكُوا حُرُمَاتِ الدِّينِ مِنْ إذْلَالِ الْمُسْلِمِينَ وَإِهَانَةِ الْمَسَاجِدِ لَا سِيَّمَا " بَيْتُ الْمَقْدِسِ " وَأَفْسَدُوا فِيهِ وَأَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ الْحِمْلَ الْعَظِيمَ وَأَسَرُوا مِنْ رِجَالِ الْمُسْلِمِينَ الْجَمَّ الْغَفِيرَ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ أَوْطَانِهِمْ.وَادَّعَوْا مَعَ ذَلِكَ التَّمَسُّكَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَادَّعَوْا تَحْرِيمَ قِتَالِ مُقَاتِلِهِمْ لَمَّا زَعَمُوا مِنْ اتِّبَاعِ أَصْلِ الْإِسْلَامِ وَلِكَوْنِهِمْ عَفَوْا عَنْ اسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ.فَهَلْ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ أَوْ يَجِبُ وَأَيُّمَا كَانَ فَمِنْ أَيِّ الْوُجُوهِ جَوَازُهُ أَوْ وُجُوبُهُ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ،كُلُّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ الْتِزَامِ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَهُ وَإِنْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَمُلْتَزِمِينَ بَعْضَ شَرَائِعِهِ كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَانِعِي الزَّكَاةِ.وَعَلَى ذَلِكَ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ بَعْدَهُمْ بَعْدَ سَابِقَةِ مُنَاظَرَةِ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْقِتَالِ عَلَى حُقُوقِ الْإِسْلَامِ عَمَلًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ الْحَدِيثُ عَنْ الْخَوَارِجِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ مَعَ قَوْلِهِ:{تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ} فَعُلِمَ أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِصَامِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ عَدَمِ الْتِزَامِ شَرَائِعِهِ لَيْسَ بِمُسْقِطٍ لِلْقِتَالِ.فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ.فَمَتَى كَانَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ.فَأَيُّمَا طَائِفَةٍ امْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ أَوْ الصِّيَامِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالْمَيْسِرِ أَوْ عَنْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ جِهَادِ الْكُفَّارِ أَوْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ وَمُحَرَّمَاتِهِ - الَّتِي لَا عُذْرَ لِأَحَدِ فِي جُحُودِهَا وَتَرْكِهَا - الَّتِي يَكْفُرُ الْجَاحِدُ لِوُجُوبِهَا.فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ تُقَاتَلُ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَتْ مُقِرَّةً بِهَا.وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ إذَا أَصَرَّتْ عَلَى تَرْكِ بَعْضِ السُّنَنِ كَرَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ - عِنْدَ مَنْ لَا يَقُولُ بِوُجُوبِهَا - وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الشَّعَائِرِ.هَلْ تُقَاتَلُ الطَّائِفَةُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَى تَرْكِهَا أَمْ لَا؟ فَأَمَّا الْوَاجِبَاتُ وَالْمُحَرَّمَاتُ

الْمَذْكُورَةُ وَنَحْوُهَا فَلَا خِلَافَ فِي الْقِتَالِ عَلَيْهَا.وَهَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ الْعُلَمَاءِ لَيْسُوا بِمَنْزِلَةِ الْبُغَاةِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ أَوْ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ؛كَأَهْلِ الشَّامِ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.فَإِنَّ أُولَئِكَ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ إمَامٍ مُعَيَّنٍ أَوْ خَارِجُونَ عَلَيْهِ لِإِزَالَةِ وِلَايَتِهِ.وَأَمَّا الْمَذْكُورُونَ فَهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الْإِسْلَامِ؛بِمَنْزِلَةِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَبِمَنْزِلَةِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَلِهَذَا افْتَرَقَتْ سِيرَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِتَالِهِ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ وَالشَّامِ وَفِي قِتَالِهِ لِأَهْلِ النهروان:فَكَانَتْ سِيرَتُهُ مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَالشَّامِيِّينَ سِيرَةَ الْأَخِ مَعَ أَخِيهِ وَمَعَ الْخَوَارِجِ بِخِلَافِ ذَلِكَ.وَثَبَتَتْ النُّصُوصُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ إجْمَاعُ الصَّحَابَةِ مِنْ قِتَالِ الصِّدِّيقِ وَقِتَالِ الْخَوَارِجِ؛بِخِلَافِ الْفِتْنَةِ الْوَاقِعَةِ مَعَ أَهْلِ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ؛فَإِنَّ النُّصُوصَ دَلَّتْ فِيهَا بِمَا دَلَّتْ وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ اخْتَلَفُوا فِيهَا.عَلَى أَنَّ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْأَئِمَّةِ مَنْ يَرَى أَنَّ أَهْلَ الْبَغْيِ الَّذِينَ يَجِبُ قِتَالُهُمْ هُمْ الْخَارِجُونَ عَلَى الْإِمَامِ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ؛لَا الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَتِهِ.وَآخَرُونَ يَجْعَلُونَ الْقِسْمَيْنِ بُغَاةً وَبَيْنَ الْبُغَاةِ وَالتَّتَارِ فَرْقٌ بَيِّنٌ.فَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَلْتَزِمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ؛فَلَا أَعْلَمُ فِي وُجُوبِ قِتَالِهِمْ خِلَافًا.فَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الْمَسْئُولُ عَنْهُمْ عَسْكَرُهُمْ مُشْتَمِلٌ عَلَى قَوْمٍ كُفَّارٍ مِنْ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ وَعَلَى قَوْمٍ مُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ - وَهُمْ جُمْهُورُ الْعَسْكَرِ - يَنْطِقُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ إذَا طُلِبَتْ مِنْهُمْ وَيُعَظِّمُونَ الرَّسُولَ وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُصَلِّي إلَّا قَلِيلًا جِدًّا وَصَوْمُ رَمَضَانَ أَكْثَرُ فِيهِمْ مِنْ الصَّلَاةِ وَالْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهِ وَلِلصَّالِحِينَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ قَدْرٌ وَعِنْدَهُمْ مِنْ الْإِسْلَامِ بَعْضُهُ وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ؛لَكِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَّتُهُمْ وَالَّذِي يُقَاتِلُونَ عَلَيْهِ مُتَضَمِّنٌ لِتَرْكِ كَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَكْثَرِهَا؛فَإِنَّهُمْ أَوَّلًا يُوجِبُونَ الْإِسْلَامَ وَلَا يُقَاتِلُونَ مَنْ تَرَكَهُ؛بَلْ مَنْ قَاتَلَ عَلَى دَوْلَةِ الْمَغُولِ عَظَّمُوهُ وَتَرَكُوهُ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ دَوْلَةِ الْمَغُولِ أَوْ عَلَيْهَا اسْتَحَلُّوا قِتَالَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ.فَلَا يُجَاهِدُونَ الْكُفَّارَ وَلَا يُلْزِمُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْجِزْيَةِ وَالصَّغَارِ وَلَا يَنْهَوْنَ أَحَدًا مِنْ عَسْكَرِهِمْ أَنْ يَعْبُدَ مَا شَاءَ مِنْ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛بَلْ الظَّاهِرُ مِنْ سِيرَتِهِمْ أَنَّ الْمُسْلِمَ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَدْلِ أَوْ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَوْ الْمُتَطَوِّعِ فِي الْمُسْلِمِينَ

وَالْكَافِرُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْفَاسِقِ فِي الْمُسْلِمِينَ أَوْ بِمَنْزِلَةِ تَارِكِ التَّطَوُّعِ.وَكَذَلِكَ أَيْضًا عَامَّتُهُمْ لَا يُحَرِّمُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ؛إلَّا أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْهَا سُلْطَانُهُمْ أَيْ لَا يَلْتَزِمُونَ تَرْكَهَا وَإِذَا نَهَاهُمْ عَنْهَا أَوْ عَنْ غَيْرِهَا أَطَاعُوهُ لِكَوْنِهِ سُلْطَانًا لَا بِمُجَرَّدِ الدِّينِ.وَعَامَّتُهُمْ لَا يَلْتَزِمُونَ أَدَاءَ الْوَاجِبَاتِ؛لَا مِنْ الصَّلَاةِ وَلَا مِنْ الزَّكَاةِ وَلَا مِنْ الْحَجِّ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ.وَلَا يَلْتَزِمُونَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ؛بَلْ يَحْكُمُونَ بِأَوْضَاعٍ لَهُمْ تُوَافِقُ الْإِسْلَامَ تَارَةً وَتُخَالِفُهُ أُخْرَى.وَإِنَّمَا كَانَ الْمُلْتَزِمُ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الشيزبرون وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَفَاضَ عِنْدَ النَّاسِ.وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَدَخَلُوا فِيهِ وَمَا الْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ.

وَقِتَالُ هَذَا الضَّرْبِ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ مَنْ عَرَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَعَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ؛فَإِنَّ هَذَا السِّلْمَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ وَدِينَ الْإِسْلَامِ لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَدًا.وَإِذَا كَانَ الْأَكْرَادُ وَالْأَعْرَابُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ لَا يَلْتَزِمُونَ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَتَعَدَّ ضَرَرُهُمْ إلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ.نَعَمْ يَجِبُ أَنْ يُسْلَكَ فِي قِتَالِهِ الْمَسْلَكُ الشَّرْعِيُّ مِنْ دُعَائِهِمْ إلَى الْتِزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ إنْ لَمْ تَكُنْ الدَّعْوَةُ إلَى الشَّرَائِعِ قَدْ بَلَغَتْهُمْ كَمَا كَانَ الْكَافِرُ الْحَرْبِيُّ يُدْعَى أَوَّلًا إلَى الشَّهَادَتَيْنِ إنْ لَمْ تَكُنْ الدَّعْوَةُ قَدْ بَلَغَتْهُ.فَإِنْ اتَّفَقَ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ فَهُوَ الْغَايَةُ فِي رِضْوَانِ اللَّهِ وَإِعْزَازِ كَلِمَتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ فُجُورٌ وَفَسَادُ نِيَّةٍ بِأَنْ يَكُونَ يُقَاتِلُ عَلَى الرِّيَاسَةِ أَوْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَكَانَتْ مَفْسَدَةُ تَرْكِ قِتَالِهِمْ أَعْظَمُ عَلَى الدِّينِ مِنْ مَفْسَدَةِ قِتَالِهِمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ:كَانَ الْوَاجِبُ أَيْضًا قِتَالَهُمْ دَفْعًا لِأَعْظَمِ الْمُفْسِدَتَيْنِ بِالْتِزَامِ أَدْنَاهُمَا؛فَإِنَّ هَذَا مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهَا.وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْغَزْوُ مَعَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ؛فَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ وَبِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّهُ إذَا لَمْ يَتَّفِقْ الْغَزْوُ إلَّا مَعَ الْأُمَرَاءِ الْفُجَّارِ أَوْ مَعَ عَسْكَرٍ كَثِيرِ الْفُجُورِ؛فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:إمَّا تَرْكُ الْغَزْوِ مَعَهُمْ فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ اسْتِيلَاءُ الْآخَرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَعْظَمُ ضَرَرًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَإِمَّا الْغَزْوُ مَعَ الْأَمِيرِ الْفَاجِرِ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ دَفْعُ الْأَفْجَرِينَ وَإِقَامَةُ أَكْثَرِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ؛وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ إقَامَةُ جَمِيعِهَا.فَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَكُلِّ مَا أَشْبَهَهَا؛بَلْ كَثِيرٌ مِنْ الْغَزْوِ

الْحَاصِلِ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَمْ يَقَعْ إلَّا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.وَثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ {الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ:الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ} فَهَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ {الْغَزْوُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ} وَمَا اسْتَفَاضَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:{لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ الَّتِي اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا فِي جِهَادِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجِهَادَ مَعَ الْأُمَرَاءِ أَبْرَارِهِمْ وَفُجَّارِهِمْ؛بِخِلَافِ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ الْخَارِجِينَ عَنْ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.هَذَا مَعَ إخْبَارِهِ ﷺ بِأَنَّهُ {سَيَلِي أُمَرَاءُ ظَلَمَةٌ خَوَنَةٌ فَجَرَةٌ.فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْت مِنْهُ وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ.وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ.وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ}.فَإِذَا أَحَاطَ الْمَرْءُ عِلْمًا بِمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الْجِهَادِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْأُمَرَاءُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبِمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ إعَانَةِ الظَّلَمَةِ عَلَى ظُلْمِهِمْ:عَلِمَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْوُسْطَى الَّتِي هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْمَحْضِ جِهَادُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجِهَادَ كَهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَسْئُولِ عَنْهُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ وَطَائِفَةٍ هِيَ أَوْلَى بِالْإِسْلَامِ مِنْهُمْ إذَا لَمْ يُمْكِنْ جِهَادُهُمْ إلَّا كَذَلِكَ وَاجْتِنَابُ إعَانَةِ الطَّائِفَةِ الَّتِي يَغْزُو مَعَهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ؛بَلْ يُطِيعُهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا يُطِيعُهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إذْ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.وَهَذِهِ طَرِيقَةُ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ.وَهِيَ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ طَرِيقِ الحرورية وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ يسلك مَسْلَكَ الْوَرَعِ الْفَاسِدِ النَّاشِئِ عَنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ وَبَيْنَ طَرِيقَةِ الْمُرْجِئَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ مُطْلَقًا وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَبْرَارًا.وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.[٨٠١]

[التَّتَار الَّذِينَ يَقْدَمُونَ إلَى الشَّامِ وَقَدْ نَطَقُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ]

[٨٠١] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠١)

مَسْأَلَةٌ:ما تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ أَئِمَّةُ الدِّينِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ –،وَأَعَانَهُمْ عَلَى بَيَانِ الْحَقِّ الْمُبِينِ،وَكَشْفِ غَمَرَاتِ الْجَاهِلِينَ وَالزَّائِغِينَ فِي:هَؤُلَاءِ التَّتَارِ الَّذِينَ يَقْدُمُونَ إلَى الشَّامِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَقَدْ تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَانْتَسَبُوا إلَى الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُبْقُوا عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَهَلْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ أَمْ لَا؟ وَمَا الْحُجَّةُ عَلَى قِتَالِهِمْ،وَمَا مَذَاهِبُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ؟ وَمَا حُكْمُ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِمَّنْ يَفِرُّ إلَيْهِمْ مِنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ الْأُمَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ؟ وَمَا حُكْمُ مَنْ قَدْ أَخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكْرَهًا؟ وَمَا حُكْمُ مَنْ يَكُونُ مَعَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ،وَالْفِقْهِ،وَالْفَقْرِ،وَالتُّصُوصِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمَا يُقَالُ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ وَالْمُقَاتِلُونَ لَهُمْ مُسْلِمُونَ وَكِلَاهُمَا ظَالِمٌ،فَلَا يُقَاتِلُ مَعَ أَحَدِهِمَا.وَفِي قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ كَمَا تُقَاتَلُ الْبُغَاةُ الْمُتَأَوِّلُونَ،وَمَا الْوَاجِبُ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَأَهْلِ الْقِتَالِ وَأَهْلِ الْأَمْوَالِ فِي أَمْرِهِمْ.

أَفْتُونَا فِي ذَلِكَ بِأَجْوِبَةٍ مَبْسُوطَةٍ شَافِيَةٍ،فَإِنَّ أَمْرَهُمْ قَدْ أَشْكَلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،بَلْ عَلَى أَكْثَرِهِمْ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِهِمْ،وَتَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ – ﷺ – فِي مِثْلِهِمْ،وَاَللَّهُ الْمُيَسِّرُ لِكُلِّ خَيْرٍ بِقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؟

الْجَوَابُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،نَعَمْ يَجِبُ قِتَالُ هَؤُلَاءِ بِكِتَابِ اللَّهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:أَحَدُهُمَا:الْمَعْرِفَةُ بِحَالِهِمْ.وَالثَّانِي:مَعْرِفَةُ حُكْمِ اللَّهِ فِي مِثْلِهِمْ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ:فَكُلُّ مَنْ بَاشَرَ الْقَوْمَ بِعِلْمِ حَالِهِمْ،وَمَنْ لَمْ يُبَاشِرْهُمْ يَعْلَمُ ذَلِكَ بِمَا بَلَغَهُ مِنْ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ،وَأَخْبَارِ الصَّادِقِينَ،وَنَحْنُ نَذْكُرُ جُلَّ أُمُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ نُبَيِّنَ الْأَصْلَ الْآخَرَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَتِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَنَقُولُ:كُلُّ طَائِفَةٍ خَرَجَتْ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ تَكَلَّمَتْ بِالشَّهَادَتَيْنِ،فَإِذَا أَقَرُّوا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُصَلُّوا،وَإِنْ امْتَنَعُوا عَنْ الزَّكَاةِ،وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يُؤَدُّوا الزَّكَاةَ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ

الزِّنَا،أَوْ الْمَيْسرِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الشَّرِيعَةِ وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْحُكْمِ فِي الدِّمَاءِ،وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ،وَالْأَبْضَاعِ،وَنَحْوِهَا بِحُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَكَذَلِكَ إنْ امْتَنَعُوا عَنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ،وَجِهَادِ الْكُفَّارِ إلَى أَنْ يُسْلِمُوا وَيُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَكَذَلِكَ إنْ أَظْهَرُوا الْبِدَعَ الْمُخَالِفَةَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،وَاتِّبَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِثْلُ:أَنْ يُظْهِرُوا الْإِلْحَادَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ،أَوْ التَّكْذِيبَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ،أَوْ التَّكْذِيبَ بِقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ أَوْ التَّكْذِيبَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،أَوْ الطَّعْنَ فِي السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ أَوْ مُقَاتَلَةِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِمْ الَّتِي تُوجِبُ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ،وَكَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا وَصَلَّوْا وَصَامُوا،لَكِنْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِتَرْكِ مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا،وَقَالَ:{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] وَقَدْ قُرِئَ {فَأْذَنُوا} وَ {آذَنُوا} وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ،وَالرِّبَا آخِرُ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْقُرْآنِ،وَهُوَ مَا يُوجَدُ بِتَرَاضِي الْمُتَعَامِلِينَ،فَإِذَا كَانَ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُ مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي هِيَ أَسْبَقُ تَحْرِيمًا وَأَعْظَمُ تَحْرِيمًا.

وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - الْأَحَادِيثُ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ،وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ.قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ،وَقَدْ رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ،وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:حَدِيثَ عَلِيٍّ،وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،وَفِي السُّنَنِ،وَالْمَسَانِيدِ طُرُقٌ أُخَرُ مُتَعَدِّدَةٌ.وَقَدْ قَالَ - ﷺ - فِي

صِفَتِهِمْ:«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ،وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ،وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ،أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وَهَؤُلَاءِ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَاتَّفَقَ عَلَى قِتَالِهِمْ سَلَفُ الْأُمَّةِ،وَأَئِمَّتُهَا لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي قِتَالِهِمْ كَمَا تَنَازَعُوا فِي الْقِتَالِ يَوْمَ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ،فَإِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ:قَوْمٌ قَاتَلُوا مَعَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -،وَقَوْمٌ قَاتَلُوا مَعَ مَنْ قَاتَلَ،وَقَوْمٌ قَعَدُوا عَنْ الْقِتَالِ لَمْ يُقَاتِلُوا الْوَاحِدَةَ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ.

وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا نَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ.

وَفِي الصَّحِيحِ:عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ:«تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ».وَفِي لَفْظٍ:«أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إلَى الْحَقِّ».

فَبِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ثَبَتَ أَنَّ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ كَانُوا أَقْرَبَ إلَى الْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ،وَأَنَّ تِلْكَ الْمَارِقَةَ الَّتِي مَرَقَتْ مِنْ الْإِسْلَامِ لَيْسَ حُكْمُهَا حُكْمَ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،بَلْ أَمَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - بِقِتَالِ هَذِهِ الْمَارِقَةِ،وَأَكَّدَ الْأَمْرَ بِقِتَالِهَا،وَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،كَمَا أَمَرَ بِقِتَالِ هَذِهِ،بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ:مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَسَنِ:«إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ».

فَمَدَحَ الْحَسَنَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ،حِينَ تَرَكَ الْقِتَالَ وَقَدْ بُويِعَ لَهُ وَاخْتَارَ الْأَصْلَ وَحَقَنَ الدِّمَاءَ مَعَ نُزُولِهِ عَنْ الْأَمْرِ،فَلَوْ كَانَ الْقِتَالُ مَأْمُورًا بِهِ لَمْ يَمْدَحْ الْحَسَنَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِتَرْكِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَفِعْلِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْعُلَمَاءُ لَهُمْ فِي قِتَالِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقِتَالَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ طَرِيقَانِ:مِنْهُمْ مَنْ يَرَى قِتَالَ عَلِيٍّ يَوْمَ حَرُورَاءَ،وَيَوْمَ الْجَمَلِ،وَصِفِّينَ،كُلُّهُ مِنْ بَابِ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ،وَكَذَلِكَ يَجْعَلُ قِتَالَ أَبِي بَكْرٍ لِمَانِعِي الزَّكَاةِ،وَكَذَلِكَ قِتَالُ سَائِرِ مَنْ قُوتِلَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْقِبْلَةِ،كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ

مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ،وَالشَّافِعِيِّ،وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ،وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ لَيْسُوا فُسَّاقًا بَلْ هُمْ عُدُولٌ.

فَقَالُوا:إنَّ أَهْلَ الْبَغْيِ عُدُولٌ مَعَ قِتَالِهِمْ،وَهُمْ مُخْطِئُونَ خَطَأَ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْفُرُوعِ،وَخَالَفَتْ فِي ذَلِكَ طَائِفَةٌ كَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ.

فَذَهَبُوا إلَى تَفْسِيقِ أَهْلِ الْبَغْيِ،وَهَؤُلَاءِ نَظَرُوا إلَى مَنْ عَدُّوهُ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي زَمَنِهِمْ،فَرَأَوْهُمْ فُسَّاقًا،وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَا يُدْخِلُونَ الصَّحَابَةَ فِي ذَلِكَ،وَإِنَّمَا يُفَسِّقُ الصَّحَابَةَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ،كَمَا يُكَفِّرُهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَذْهَبِ الْأَئِمَّةِ وَالْفُقَهَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ،وَلَا يَقُولُونَ:إنَّ أَمْوَالَهُمْ مَعْصُومَةٌ كَمَا كَانَتْ،وَمَا كَانَ ثَابِتًا بِعَيْنِهِ رُدَّ إلَى صَاحِبِهِ،وَمَا أُتْلِفَ فِي حَالِ الْقِتَالِ لَمْ يُضْمَنْ،حَتَّى إنَّ جُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ:لَا يَضْمَنُ لَا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ.

كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مُتَوَافِرُونَ،فَأَجْمَعُوا أَنَّ كُلَّ مَالٍ أَوْ دَمٍ أُصِيبَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ هَدَرٌ،وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَانَ بِسِلَاحِهِمْ فِي حَرْبِهِمْ إذَا لَمْ يَكُنْ إلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ يَجُوزُ وَالْمَنْعُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَالرُّخْصَةُ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ،وَاخْتَلَفُوا فِي قَتْلِ أُسَرِهِمْ وَاتِّبَاعِ مُدْبِرِهِمْ وَالتَّذْفِيفِ عَلَى جَرِيحِهِمْ إذَا كَانَ لَهُمْ فِئَةٌ يَلْجَئُونَ إلَيْهَا،فَجَوَّزَ ذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ،وَمَنَعَهُ الشَّافِعِيُّ،وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَفِي مَذْهَبِهِ وَجْهٌ أَنَّهُ يُتَّبَعُ مُدْبِرُهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْقِتَالِ،وَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ،فَلَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ،وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ،كَمَا رَوَاهُ سَعِيدٌ وَغَيْرُهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ:خَرَجَ صَارِخٌ،لَعَلَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ،لَا يُقْتَلَنَّ مُدْبِرٌ،وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ.

فَمَنْ سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فَقَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ التَّتَارَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمُتَأَوِّلِينَ وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ،كَمَا أَدْخَلَ مَنْ أُدْخِلَ فِي هَذَا الْحُكْمِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجَ وَسَنُبَيِّنُ فَسَادَ هَذَا التَّوَهُّمِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ،وَالْخَوَارِجِ،وَنَحْوِهِمْ:لَيْسَ كَقِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ،وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُونَهُ فِي

اعْتِقَاد أَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة،وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْمَدِينَة:كَمَالك،وَغَيْرِه،وَمَذْهَبُ أَئِمَّة الْحَديث كَأَحْمَدَ وَغَيْرِه،وَقَدْ نَصُّوا عَلَى الْفَرْق بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضعٍ حَتَّى فِي الْأَمْوَال فَإِنَّ منْهُمْ مَنْ أَبَاحَ غَنِيمَةَ أَمْوَالِ الْخَوَارِجِ.

وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ فِي رِوَايَة أَبِي طَالب فِي حَرُورِيَّةٍ كَانَ لَهُمْ سَهْمٌ فِي قَرْيَة فَخَرَجُوا يُقَاتلُونَ الْمُسْلمينَ فَقَتَلَهُمْ الْمُسْلمُونَ فَأَرْضُهُمْ فَيْءٌ للْمُسْلمينَ،فَيُقَسَّمُ خُمُسُهُ عَلَى خَمْسَة وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسه للَّذينَ قَاتَلُوا يُقَسَّمُ بَيْنَهُمْ،أَوْ يَحْملُ الْأَميرُ الْخَرَاجَ عَلَى الْمُسْلمينَ،وَلَا يُقَسِّمُ مثْلَ مَا أَخَذَ عُمَرُ السَّوَادَ عَنْوَةً،وَوَقَفَهُ عَلَى الْمُسْلمينَ فَجَعَلَ أَحْمَدُ الْأَرْضَ الَّتِي للْخَوَارِجِ إذَا غُنمَتْ بمَنْزلَة مَا غُنمَ منْ أَمْوَال الْكُفَّار،وَبِالْجُمْلَة فَهَذه الطَّرِيقَةُ هِيَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ به؛فَإِنَّ النَّصَّ وَالْإِجْمَاعَ فَرَّقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا،وَسيرَةُ عَليٍّ – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ – تُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا،فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْخَوَارِجَ بِنَصٍّ رَسُولِ اللَّه – ﷺ – وَفَرِحَ بذَلكَ،وَلَمْ يُنَازِعْهُ فيه أَحَدٌ منْ الصَّحَابَة،وَأَمَّا الْقتَالُ يَوْمَ صفِّينَ فَقَدْ ظَهَرَ منْهُ منْ كَرَاهَته وَالذَّمِّ عَلَيْه مَا ظَهَرَ،وَقَالَ منْ أَهْلِ الْجَمَلِ وَغَيْرِهِمْ:إخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا طَهَّرَهُمْ السَّيْفُ،وَصَلَّى عَلَى قَتْلَى الطَّائفَتَيْن.

وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَفِي الصَّحِيحَيْن:عَنْ عَليِّ بْنِ أَبِي طَالب قَالَ:سَمعْت رَسُولَ اللَّه – ﷺ – يَقُولُ:«سَتَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخرِ الزَّمَان حدَاثُ الْأَسْنَان،سُفَهَاءُ الْأَحْلَام،يَقُولُونَ منْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّة لَا يُجَاوِزُ إيمَانُهُمْ حَنَاجرَهُمْ،يَمْرُقُونَ منْ الدِّين كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ منْ الرَّمِيَّة،فَأَيْنَمَا لَقيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلهِمْ أَجْرًا لمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقيَامَة».

وَفِي صَحيحِ مُسْلمٍ:عَنْ زَيْد بْنِ وَهْب أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذي كَانُوا مَعَ عَليٍّ الَّذينَ سَارُوا إلَى الْخَوَارِجِ فَقَالَ عَليٌّ:أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي سَمعْت رَسُولَ اللَّه – ﷺ – يَقُولُ:«يَخْرُجُ قَوْمٌ منْ أُمَّتي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،لَيْسَ قرَاءَتُكُمْ إلَى قرَاءَتهمْ بشَيْءٍ؛وَلَا صَلَاتُكُمْ إلَى صَلَاتهمْ بشَيْءٍ،وَلَا صيَامُكُمْ إلَّا صيَامهمْ بشَيْءٍ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ،وَهُوَ عَلَيْهمْ،لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقيَهُمْ،يَمْرُقُونَ منْ الْإِسْلَام كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ منْ الرَّميَّة لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذينَ يُصيبُونَهُمْ مَا قُضيَ لَهُمْ عَلَى لسَان مُحَمَّد نَبيِّهمْ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ،وَآيَةُ ذَلكَ أَنَّ فيهمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ لَيْسَ لَهُ ذرَاعٌ عَلَى عَضُده مثْلُ حَلَمَة

الثَّدْيِ،عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بيضٌ قَالَ:فَيَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَيَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،وَاَللَّهِ إنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ،وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ،فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

قَالَ:فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ رَئِيسًا فَقَالَ لَهُمْ:أَلْقُوا الرِّمَاحَ،وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ حُقُوقِهَا،فَإِنِّي أُنَاشِدُكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ،فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ،وَسَلُّوا السُّيُوفَ،وَسَجَرَهُمْ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ.

قَالَ:وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَمَا أُصِيبَ مِنْ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إلَّا رَجُلَانِ:فَقَالَ عَلِيٌّ:الْتَمِسُوا فِيهِ الْمَخْدَعَ.فَالْتَمَسُوهُ،فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَامَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.قَالَ:أَخِّرُوهُمْ فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ:صَدَقَ اللَّهُ،وَبَلَّغَ رَسُولُهُ.

قَالَ:فَقَامَ إلَيْهِ عُبَيْدَةُ السَّلْمَانِيُّ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ أَسَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:إي وَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ أَيْضًا.

فَإِنَّ الْأُمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَمِّ الْخَوَارِجِ وَتَضْلِيلِهِمْ،وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي تَكْفِيرِهِمْ،عَلَى تَكْفِيرِهِمْ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ،وَأَحْمَدَ،وَفِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَيْضًا نِزَاعٌ فِي كُفْرِهِمْ،وَلِهَذَا كَانَ فِيهِمْ وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُولَى:أَحَدُهُمَا:أَنَّهُمْ بُغَاةٌ.

وَالثَّانِي:أَنَّهُمْ كُفَّارٌ كَالْمُرْتَدِّينَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ ابْتِدَاءً وَقَتْلُ أَمِيرِهِمْ،وَاتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ اُسْتُتِيبَ كَالْمُرْتَدِّ،فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ،كَمَا أَنَّ مَذْهَبَهُ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ إذَا قَاتَلُوا الْإِمَامَ عَلَيْهَا،هَلْ يَكْفُرُونَ مَعَ الْإِقْرَارِ بِوُجُوبِهَا عَلَى رِوَايَتَيْنِ،وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ قِتَالَ الصِّدِّيقِ لِمَانِعِي الزَّكَاةِ،وَقِتَالَ عَلِيٍّ الْخَوَارِجَ لَيْسَ مِثْلَ الْقِتَالِ يَوْمَ الْجَمَلِ،وَصِفِّينَ،فَكَلَامُ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ فِي الْخَوَارِجِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَيْسُوا كُفَّارًا كَالْمُرْتَدِّينَ عَنْ أَصْلِ الْإِسْلَامِ.

وَهَذَا هُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ الْأَئِمَّةِ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ،وَلَيْسُوا مَعَ ذَلِكَ حُكْمُهُمْ كَحُكْمِ أَهْلِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ،بَلْ هُوَ نَوْعٌ ثَالِثٌ وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ فِيهِمْ،وَمِمَّنْ قَاتَلَهُمْ الصَّحَابَةُ مَعَ إقْرَارِهِمْ الشَّهَادَتَيْنِ،وَالصَّلَاةِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مَانِعُوا الزَّكَاةِ،كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ أَبِي

هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب قَالَ لأَبي بَكْر:يَا خَليفَةَ رَسُول اللَّه،كَيْفَ تُقَاتلُ النَّاسَ،وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ –:«أُمرْت أَنْ أُقَاتلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه،فَإذَا قَالُوهَا عَصَمُوا منِّي دمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،إلَّا بحَقِّهَا.» فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْر:أَلَمْ يَقُلْ لَك «إلَّا بحَقِّهَا» فَإنَّ الزَّكَاةَ منْ حَقِّهَا،وَاَللَّه لَوْ مَنَعُوني عنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُول اللَّه – ﷺ – لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعهَا قَالَ عُمَرُ:فَمَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت أَنَّ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبي بَكْر للْقتَال فَعَلمْت أَنَّهُ الْحَقُّ.

وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَى قتَال مَانعي الزَّكَاة وَإنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَهَؤُلَاء لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُبْهَةٌ سَائغَةٌ،فَلهَذَا كَانُوا مُرْتَدِّينَ وَهُمْ يُقَاتلُونَ عَلَى مَنْعهَا،وَإنْ أَقَرُّوا بالْوُجُوب كَمَا أَمَرَ اللَّهُ.

وَقَدْ حُكيَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا:إنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبيَّهُ بأَخْذ الزَّكَاة بقَوْله:{خُذْ منْ أَمْوَالهمْ صَدَقَةً} [التوبة:١٠٣] وَقَدْ تَسْقُطُ بمَوْته.

وَكَذَلكَ «أَمَرَ النَّبيُّ – ﷺ – بقتَال الَّذينَ لَا يَنْتَهُونَ عَنْ شُرْب الْخَمْر».

وَأَمَّا الْأَصْلُ الْآخَرُ وَهُوَ مَعْرفَةُ أَحْوَالهمْ:فَقَدْ عُلمَ أَنَّ هَؤُلَاء الْقَوْمَ جَارُوا عَلَى الشَّام في الْمَرَّة الْأُولَى عَامَ تسْعَة وَتسْعينَ،وَأَعْطَوْا النَّاسَ الْأَمَانَ وَقَرَءُوهُ عَلَى الْمنْبَر بدمَشْقَ،وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَلَبُوا منْ ذَرَاريّ الْمُسْلمينَ،مَا يُقَالُ:إنَّهُ مائَةُ أَلْف،أَوْ يَزيدُ عَلَيْه،وَفَعَلُوا ببَيْت الْمَقْدس،وَبجَبَل الصَّالحيَّة،وَنَابُلُسَ،وَحمْصَ،وَدَاريَّا،وَغَيْر ذَلكَ منْ الْقَتْل وَالسَّبْي مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ حَتَّى يُقَالَ:إنَّهُمْ سَبَوْا منْ الْمُسْلمينَ قَريبًا منْ مائَة أَلْف وَجَعَلُوا يَفْجُرُونَ بخيَار نسَاء الْمُسْلمينَ في الْمَسَاجد وَغَيْرهَا:كَالْمَسْجد الْأَقْصَى،وَالْأُمَويِّ،وَغَيْره،وَجَعَلُوا الْجَامعَ الَّذي بالْعُقَيْبَة دَكًّا،وَقَدْ شَاهَدْنَا عَسْكَرَ الْقَوْم فَرَأَيْنَا جُمْهُورَهُمْ لَا يُصَلُّونَ،وَلَمْ نَرَ في عَسْكَرهمْ مُؤَذِّنًا وَلَا إمَامًا.

وَقَدْ أَخَذُوا منْ أَمْوَال الْمُسْلمينَ وَذَرَاريِّهمْ،وَخَرَّبُوا منْ ديَارهمْ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ في دَوْلَتهمْ إلَّا مَنْ كَانَ منْ شَرِّ الْخَلْق،إمَّا زنْديقٌ مُنَافقٌ لَا يَعْتَقدُ دينَ الْإسْلَام في الْبَاطن،وَإمَّا مَنْ هُوَ منْ شَرِّ أَهْل الْبدَع كَالرَّافضَة وَالْجَهْميَّة وَالاتِّحَاديَّة وَنَحْوهمْ.

وَإِمَّا مَنْ هُوَ أَفْجَرُ النَّاسِ وَأَفْسَقُهُمْ،وَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ لَـا يَحُجُّـونَ الْبَيْـتَ الْعَتِيقَ،وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُصَلِّي وَيَصُومُ،فَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ إِقَامَ الصَّـلَاةِ وَلَـا إِيتَـاءَ الزَّكَاةِ،وَهُمْ يُقَاتِلُونَ عَلَى مُلْكِ جِنْكِيزْ خَانْ،فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ جَعَلُوهُ وَلِيًّا لَهُمْ،وَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَمَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ جَعَلُوهُ عَدُوًّا لَهُمْ،وَإِنْ كَانَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْـلِمِينَ وَلَـا يُقَاتِلُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يَضَعُونَ الْجِزْيَةَ،وَالصَّغَارَ،بَلْ غَايَةُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مِـنْ أَكَابِرِ أُمَرَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ،كَمَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ مِـنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

كَمَا قَالَ أَكْبَرُ مُقَدَّمِيهِمْ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى الشَّامِ،وَهُوَ يُخَاطِبُ رُسُلَ الْمُسْـلِمِينَ،وَيَتَقَرَّبُ إلَيْهِمْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فَقَالَ:هَذَانِ آيَتَانِ عَظِيمَتَانِ جَاءَا مِنْ عِنْـدِ اللَّـهِ:مُحَمَّـدٌ،وَجِنْكِيزْ خَانْ،فَهَذَا غَايَةُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ أَكْبَرُ مُقَدَّمِيهِمْ إلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ رَسُـولِ اللَّـهِ أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ،وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ،وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ،وَبَيْنَ مَلِكٍ كَافِرٍ مُشْرِكٍ مِـنْ أَعْظَـمِ الْمُشْرِكِينَ،كُفْرًا وَفَسَادًا وَعُدْوَانًا مِنْ جِنْسِ بُخْتَ نَصَّرَ وَأَمْثَالِهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ هَؤُلَاءِ التَّتَارِ كَانَ فِي جِنْكِيزْ خَانْ عَظِيمًا فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْتَقِدُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ،وَيَقُولُونَ:إنَّ الشَّمْسَ حَبَّلَتْ أُمَّهُ،وَأَنَّهَا كَانَتْ فِـي خَيْمَةٍ فَنَزَلَتْ الشَّمْسُ مِنْ كُوَّةِ الْخَيْمَةِ فَدَخَلَتْ فِيهَا حَتَّى حَبِلَتْ،وَمَعْلُومٌ عِنْدَ كُـلِّ ذِي دِينٍ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنًا،وَأَنَّ أُمَّهُ زَنَتْ فَكَتَمَتْ زِنَاهَا،وَأَخْفَتْ هَذَا حَتَّى تَدْفَعَ عَنْهَـا مَعَرَّةَ الزِّنَا،وَهُمْ مَعَ هَذَا يَجْعَلُونَهُ أَعْظَمَ رَسُولٍ عِنْدَ اللَّهِ فِي تَعْظِيمِ مَا سَنَّهُ لَهُمْ،وَشَـرَعَهُ بِظَنِّهِ،وَهُوَ حَتَّى يَقُولُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْمَالِ هَذَا رِزْقُ جِنْكِيزْ خَانْ،وَيَشْـكُرُونَهُ عَلَـى أَكْلِهِمْ وَشُرْبِهِمْ،وَهُمْ يَسْتَحِلُّونَ قَتْلَ مَنْ عَادَى مَا سَنَّهُ لَهُمْ هَذَا الْكَافِرُ الْمَلْعُونُ الْمُعَادِي لِلَّهِ وَلِأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُقَدَّمِيهِمْ كَانَ غَايَتُهُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَجْعَلَ مُحَمَّدًا - ﷺ - بِمَنْزِلَةِ هَـذَا الْمَلْعُونِ،وَمَعْلُومٌ أَنَّ " مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ " كَانَ أَقَلَّ ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا،وَادَّعَى أَنَّهُ شَرِيكُ مُحَمَّدٍ فِـي الرِّسَـالَةِ،وَبِهَذَا اسْـتَحَلَّ الصَّـحَابَةُ قِتَالَـهُ،وَقِتَالَ أَصْـحَابِهِ

الْمُرْتَدِّينَ،فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ فِيمَا يُظْهِرُهُ مِنْ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُ مُحَمَّدًا كَجِنْكِيزْ خَانْ،وَإِلَّا فَهُمْ مَعَ إظْهَارِهِمْ لِلْإِسْلَامِ يُعَظِّمُونَ أَمْرَ " جِنْكِيزْ خَانْ " عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّبِعَةِ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ وَلَا يُقَاتِلُونَ أُولَئِكَ الْمُتَّبِعِينَ لِمَا سَنَّهُ " جِنْكِيزْ خَانْ " كَمَا يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ بَلْ أَعْظَمَ.

أُولَئِكَ الْكُفَّارُ يَبْذُلُونَ لَهُ الطَّاعَةَ وَالِانْقِيَادَ،وَيَحْمِلُونَ إلَيْهِ الْأَمْوَالَ،وَيُقِرُّونَ لَهُ بِالنِّيَابَةِ،وَلَا يُخَالِفُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ إلَّا كَمَا يُخَالِفُ الْخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ الْإِمَامِ لِلْإِمَامِ،وَهُمْ يُحَارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيُعَادُونَهُمْ أَعْظَمَ مُعَادَاةٍ وَيَطْلُبُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الطَّاعَةَ لَهُمْ وَبَذْلَ الْأَمْوَالِ وَالدُّخُولَ فِيمَا وَضَعَهُ لَهُمْ،ذَلِكَ الْمَلِكُ الْكَافِرُ الْمُشْرِكُ الْمُشَابِهُ لِفِرْعَوْنَ أَوْ النُّمْرُودِ وَنَحْوِهِمَا.بَلْ هُوَ أَعْظَمُ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ مِنْهُمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٤].

وَهَذَا الْكَافِرُ عَلَا فِي الْأَرْضِ يَسْتَضْعِفُ أَهْلَ الْمِلَلِ كُلَّهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،وَالْيَهُودِ،وَالنَّصَارَى وَمَنْ خَالَفَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِقَتْلِ الرِّجَالِ،وَسَبْيِ الْحَرِيمِ،وَيَأْخُذُ الْأَمْوَالَ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ،وَالنَّسْلَ،وَاَللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ،وَيَرُدُّ النَّاسَ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سُلْكِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ إلَى أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا ابْتَدَعَهُ مِنْ سُنَّتِهِ الْجَاهِلِيَّةِ وَشَرِيعَتِهِ الْكُفْرِيَّةِ،فَهُمْ يَدَّعُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَيُعَظِّمُونَ دِينَ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيُطِيعُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ أَعْظَمَ بِكَثِيرِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَمُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحُكْمُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَ أَكَابِرِهِمْ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ،لَا بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَكَذَلِكَ الْأَكَابِرُ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَغَيْرِهِمْ يَجْعَلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ كَدِينِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَنَّ هَذِهِ كُلَّهَا طُرُقٌ إلَى اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ دِينَ الْيَهُودِ أَوْ دِينَ النَّصَارَى،وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ دِينَ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ فَاشٍ غَالِبٌ فِيهِمْ حَتَّى فِي فُقَهَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ،لَا سِيَّمَا الْجَهْمِيَّةُ مِنْ الِاتِّحَادِيَّةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ،فَإِنَّهُ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ الْفَلْسَفَةُ وَهَذَا مَذْهَبُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ وَعَلَى هَذَا كَثِيرٌ مِنْ النَّصَارَى أَوْ أَكْثَرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْ الْيَهُودِ أَيْضًا.

بَلْ لَوْ قَالَ الْقَائِلُ:إنْ غَابَ خَوَاصُّ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ وَالْعُبَّادُ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ لَمَا أُبْعِدَ.

وَقَدْ رَأَيْت مِنْ ذَلِكَ وَسَمِعْت مَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ،وَمَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَبِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ سَوَّغَ اتِّبَاعَ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ اتِّبَاعِ شَرِيعَةٍ غَيْرِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - فَهُوَ كَافِرٌ،وَهُوَ كَكُفْرِ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا} [النساء:١٥٠] {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء:١٥١].

وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى دَاخِلُونَ فِي ذَلِكَ،وَكَذَلِكَ الْمُتَفَلْسِفَةُ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ،وَمَنْ تَفَلْسَفَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَبْقَى كُفْرُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ.

وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ وُزَرَائِهِمْ الَّذِينَ يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ،فَإِنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا مُتَفَلْسِفًا ثُمَّ انْتَسَبَ إلَى الْإِسْلَامِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ الْيَهُودِيَّةِ وَالتَّفَلْسُفِ،وَضَمَّ إلَى ذَلِكَ الرَّفْضَ فَهَذَا هُوَ أَعْظَمُ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي الْأَقْلَامِ وَذَاكَ أَعْظَمُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي السَّيْفِ فَلْيَعْتَبِرْ الْمُؤْمِنُ بِهَذَا.

وَبِالْجُمْلَةِ:فَمَا مِنْ نِفَاقٍ وَزَنْدَقَةٍ وَإِلْحَادٍ إلَّا وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي اتِّبَاعِ التَّتَارِ؛لِأَنَّهُمْ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَقَلِّهِمْ مَعْرِفَةً بِالدِّينِ وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ وَأَعْظَمِ الْخَلْقِ اتِّبَاعًا لِلظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ.

وَقَدْ قَسَّمُوا النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ يال رُبَاع وداشمند وطاط،أَيْ صَدِيقُهُمْ وَعَدُوُّهُمْ وَالْعَالِمُ وَالْعَامِّيُّ،فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ الْجَاهِلِيَّةِ وَسُنَّتِهِمْ الْكُفْرِيَّةِ كَانَ صَدِيقَهُمْ،وَمَنْ خَالَفَهُمْ كَانَ عَدُوَّهُمْ.

وَلَوْ كَانَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ،وَكُلُّ مَنْ انْتَسَبَ إلَى عِلْمٍ أَوْ دِينٍ سَمَّوْهُ " داشمند " كَالْفَقِيهِ،وَالزَّاهِدِ،وَالْقِسِّيسِ،وَالرَّاهِبِ،وَدَنَّانِ الْيَهُودِ،وَالْمُنَجِّمِ،وَالسَّاحِرِ،وَالطَّبِيبِ،وَالْكَاتِبِ،وَالْحَاسِبِ،فَيُدْرِجُونَ سَادِنَ الْأَصْنَامِ فَيُدْرِجُونَ فِي هَذَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ،وَأَهْلِ الْبِدَعِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ،وَيَجْعَلُونَ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ نَوْعًا وَاحِدًا،بَلْ يَجْعَلُونَ الْقَرَامِطَةَ الْمَلَاحِدَةَ الْبَاطِنِيَّةَ الزَّنَادِقَةَ الْمُنَافِقِينَ

كَالطُّوسِيِّ وَأَمْثَاله،هُمْ الْحُكَّامُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ انْتَسَبَ إلَى عِلْمٍ أَوْ دِينٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُود وَالنَّصَارَى.

وَكَذَلكَ وَزِيرُهُمْ السَّفِيهُ الْمُلَقَّبُ بالرَّشيد،يَحْكُمُ عَلَى هَذه الْأَصْنَاف وَيُقَدِّمُ شرَارَ الْمُسْلمينَ كَالرَّافضَة وَالْمَلَاحدَة عَلَى خيَار الْمُسْلمينَ أَهْلِ الْعلْمِ وَالْإِيمَان،حَتَّى تَوَلَّى قَضَاءَ الْقُضَاة مَنْ كَانَ أَقْرَبَ إلَى الزَّنْدَقَة وَالْإِلْحَاد وَالْكُفْر باللَّه وَرَسُوله،بحَيْثُ تَكُونُ مُوَافقَةً للْكُفَّار وَالْمُنَافقينَ منْ الْيَهُود وَالْقَرَامطَة،وَالْمَلَاحدَة،وَالرَّافضَة عَلَى مَا يُريدُونَهُ أَعْظَمَ منْ غَيْره وَيَتَظَاهَرُ منْ شَريعَة الْإِسْلَام بمَا لَا بُدَّ لَهُ منْهُ لأَجْلِ مَنْ هُنَاكَ منْ الْمُسْلمينَ حَتَّى إنَّ وَزيرَهُمْ هَذَا الْخَبيثَ الْمُلْحدَ الْمُنَافقَ صَنَّفَ مُصَنَّفًا مَضْمُونُهُ أَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - رَضيَ بدين الْيَهُود وَالنَّصَارَى،وَأَنَّهُ لَا يُنْكرُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَذُمُّونَ،وَلَا يَنْهَوْنَ دينَهُمْ،وَلَا يُؤْمَرُونَ بالانْتقَال إلَى الْإِسْلَام وَاسْتَدَلَّ الْخَبيثُ الْجَاهلُ بقَوْله:{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافرُونَ} [الكافرون:١] {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون:٢] {وَلا أَنْتُمْ عَابدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون:٣] {وَلا أَنَا عَابدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [الكافرون:٤] {وَلا أَنْتُمْ عَابدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون:٥] {لَكُمْ دينُكُمْ وَليَ دين} [الكافرون:٦].

وَزَعَمَ أَنَّ هَذه الْآيَةَ تَقْتَضي أَنَّهُ يَرْضَى دينَهُمْ،وَقَالَ:وَهَذه الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً،وَجَرَتْ بسَبَب ذَلكَ أُمُورٌ،وَمنْ الْمَعْلُوم أَنَّ هَذَا جَهْلٌ منْهُ،فَإنَّ قَوْلَهُ لَكُمْ دينُكُمْ وَليَ دينٌ لَيْسَ فيه مَا يَقْتَضي أَنْ يَكُونَ دينُ الْكُفَّار حَقًّا وَلَا مَرْضيًّا لَهُ،وَإنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَبْرئَة منْ دينهمْ،وَلهَذَا قَالَ - ﷺ - في هَذه السُّورَة إنَّهَا بَرَاءَةٌ منْ الشِّرْك كَمَا قَالَ في الْآيَة الْأُخْرَى:{وَإنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لي عَمَلي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَريئُونَ ممَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَريءٌ ممَّا تَعْمَلُونَ} [يونس:٤١].

فَقَوْلُهُ:{لَكُمْ دينُكُمْ وَليَ دين} [الكافرون:٦] كَقَوْله لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ.وَقَدْ اتَّبَعَ ذَلكَ بمُوجبه وَمُقْتَضَاهُ حَيْثُ قَالَ:أَنْتُمْ بَريئُونَ ممَّا أَعْمَلُ،وَأَنَا بَريءٌ ممَّا تَعْمَلُونَ،وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ في هَذه السُّورَة مَا يَقْتَضي أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بتَرْك دينهمْ فَقَدْ عُلمَ بالاضْطرَار منْ دين الْإسْلَام بالنُّصُوص الْمُتَوَاترَة وَبإجْمَاع الْأُمَّة أَنَّهُ أَمَرَ الْمُشْركينَ وَأَهْلَ الْكتَاب بالْإيمَان به،وَأَنَّهُ جَاءَهُمْ عَلَى ذَلكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَافرُونَ يَخْلُدُونَ في النَّار.

وَقَدْ أَظْهَرُوا الرَّفْضَ وَمَنَعُوا أَنْ نَذْكُرَ عَلَى الْمَنَابِرِ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ،وَذَكَرُوا عَلِيًّا وَأَظْهَرُوا الدَّعْوَةَ لِلِاثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ تَزْعُمُ الرَّافِضَةُ أَنَّهُمْ أَئِمَّةٌ مَعْصُومُونَ وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ: كُفَّارٌ،وَفُجَّارٌ،ظَالِمُونَ لَا خِلَافَةَ لَهُمْ،وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ،فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ،وَعَلِيٍّ،وَشِيعَتِهِمَا،وَالرَّافِضَةَ تَكْفِيرُ أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ،وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ،وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ،وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالْإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ،وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ مِنْ الْخَوَارِجِ،وَالرَّافِضَةِ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إسْلَامِهِمْ إلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ،وَالْعِرَاقِ،وَالشَّامِ،وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ حَرِيمِهِمْ،وَقَضِيَّةُ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتُهُمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلَادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عَكَّا وَغَيْرِهَا مِنْ السَّوَاحِلِ،وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ،وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا،وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ،وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ مِنْ النُّصَيْرِيَّةِ،وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ،وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ،وَالْعِرَاقِ،وَالشَّامِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَالرَّافِضَةُ جَهْمِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ،وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بَلْ فِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ،وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ - الْخَوَارِجَ قَوْلُهُ:«فَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ».

كَمَا أُخْرِجَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:«بَعَثَ عَلِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ يَعْنِي مِنْ أُمَرَاءِ نَجْدٍ فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ قَالُوا:يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا،قَالَ:إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ،كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ؛فَقَالَ:مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْته أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ فَمَنَعَهُ،فَلَمَّا وَلَّى قَالَ:إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ،يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ،وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ،لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنهُمْ قَتْلَ عَادٍ» وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ «أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ يُقَسِّمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ،وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اعْدِلْ.فَقَالَ:وَيْلَك فَمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَتَأْذَنُ لِي فِيهِ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ.فَقَالَ:دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ،يَنْظُرُ إلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ،ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ،ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ،آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ،أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ،وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ،فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ،فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْت إلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الَّذِي نَعَتَهُ،فَهَؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ مِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ،وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ وَالْخَوَارِجُ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُونُوا يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَالرَّافِضَةُ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ،فَكَانُوا أَعْظَمَ مُرُوقًا عَنْ الدِّينِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَنَحْوِهِمْ،إذَا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،كَمَا قَاتَلَهُمْ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –،فَكَيْفَ إذَا ضَمُّوا إلَى ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ كَنَائِسًا وَجِنْكِيزْ خَانْ مَلِكَ الْمُشْرِكِينَ مَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُضَادَّةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ،وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ،وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،فَكَيْفَ مِمَّنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ لَوْ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُعَادُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ،عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ.فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدُرُوسِ شَرَائِعِهِ.

أَمَّا الطَّائِفَةُ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَنَحْوِهِمَا فَهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُقَاتِلُونَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ،وَهُمْ مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ دُخُولًا فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ – ﷺ – بِقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ عَنْهُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ:«لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ».

وَالنَّبِيُّ – ﷺ – تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ بِمَدِينَتِهِ النَّبَوِيَّةِ،فَغَرْبُهُ مَا يَغْرُبُ عَنْهَا،وَشَرْقُهُ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا،فَإِنَّ التَّشْرِيقَ وَالتَّغْرِيبَ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ،إذْ كُلُّ بَلَدٍ لَهُ شَرْقٌ وَغَرْبٌ،وَلِهَذَا إذَا قَدِمَ الرَّجُلُ إلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ الْغَرْبِ يَقُولُونَ:سَافَرَ إلَى الشَّرْقِ،وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُسَمُّونَ أَهْلَ الشَّامِ أَهْلَ الْغَرْبِ،وَيُسَمُّونَ أَهْلَ نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ أَهَلَ الشَّرْقِ،كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا.وَفِي رِوَايَةٍ:«مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ».

وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:أَهْلُ الْغَرْبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ.يَعْنِي هُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ كَمَا أَنَّ نَجْدًا وَالْعِرَاقَ أَوَّلُ الشَّرْقِ،وَكُلُّ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ الشَّرْقِ،وَكُلُّ مَا يَغْرُبُ عَنْ الشَّامِ مِنْ مِصْرَ وَغَيْرِهَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْغَرْبِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ:أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ،وَهُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا أَصْلُ الْمَغْرِبِ،وَهُمْ فَتَحُوا سَائِرَ الْمَغْرِبِ:كَمِصْرِ،وَالْقَيْرَوَانِ،وَالْأَنْدَلُسِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَإِذَا كَانَ غَرْبُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يَقْرُبُ عَنْهَا فَالنَّيِّرَةُ وَنَحْوُهَا عَلَى مُسَامَتَةِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا أَنَّ حَرَّانَ وَالرَّقَّةَ وسمنصاط وَنَحْوَهَا عَلَى مُسَامَتَةِ مَكَّةَ،فَمَا يَغْرُبُ عَنْ النَّيِّرَةِ فَهُوَ مِنْ الْغَرْبِ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ النَّبِيُّ - ﷺ - لِمَا تَقَدَّمَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي صِفَةِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ أَنَّهُمْ بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ،وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ هِيَ الَّتِي بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ الْيَوْمَ وَمَنْ يَدَّبَّرُ أَحْوَالَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ هِيَ أَقْوَمُ الطَّوَائِفِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَجِهَادًا عَنْ شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا،فَإِنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الشَّوْكَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،وَأَهْلِ الْكِتَابِ،وَمَغَازِيهِمْ مَعَ النَّصَارَى،وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ،وَمَعَ الزَّنَادِقَةِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ الدَّاخِلِينَ فِي الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ:كَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ،وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْقَرَامِطَةِ،مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَالْعِزُّ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ بِمَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ بِعِزِّهِمْ وَلِهَذَا لَمَّا هُزِمُوا سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ الذُّلِّ وَالْمُصِيبَةِ بِمَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ،وَالْحِكَايَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا،وَذَلِكَ أَنَّ سُكَّانَ الْيَمَنِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ضِعَافٌ عَاجِزُونَ عَنْ الْجِهَادِ أَوْ مُضَيِّعُونَ لَهُ،وَهُمْ مُطِيعُونَ لِمَنْ مَلَكَ هَذِهِ الْبِلَادَ حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِهَؤُلَاءِ،وَمَلِكُ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا جَاءَ إلَى حَلَبَ جَرَى بِهَا مِنْ الْقَتْلِ مَا جَرَى.

وَأَمَّا سُكَّانُ الْحِجَازِ فَأَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الشَّرِيعَةِ،وَفِيهِمْ مِنْ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالْفُجُورِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ،وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفُونَ عَاجِزُونَ،وَإِنَّمَا تَكُونُ لَهُمْ الْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ لِغَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِهَذِهِ الْبِلَادِ،فَلَوْ ذَلَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْحِجَازِ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ لَا سِيَّمَا وَقَدْ غَلَبَ فِيهِمْ الرَّفْضُ،وَمَلَكَ هَؤُلَاءِ التَّتَارُ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْآنَ مَرْفُوضُونَ فَلَوْ غَلَبُوا لَفَسَدَ الْحِجَازُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا بِلَادُ إفْرِيقِيَّةَ فَأَعْرَابُهَا غَالِبُونَ عَلَيْهَا،وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ بَلْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْجِهَادِ وَالْغَزْوِ.

وَأَمَّا الْغَرْبُ الْأَقْصَى فَمَعَ اسْتِيلَاءِ الْإِفْرِنْجِ عَلَى أَكْثَرِ بِلَادِهِمْ لَا يَقُومُونَ بِجِهَادِ النَّصَارَى الَّذِينَ هُنَاكَ بَلْ فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ النَّصَارَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصُّلْبَانَ خَلْقٌ عَظِيمٌ لَوْ اسْتَوْلَى التَّتَارُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ لَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ مَعَهُمْ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ لَا سِيَّمَا وَالنَّصَارَى تَدْخُلُ مَعَ التَّتَارِ فَيَصِيرُونَ حِزْبًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ،فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الَّتِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ كَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ،وَعِزُّهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ،وَذُلُّهُمْ ذُلُّ الْإِسْلَامِ،فَلَوْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ التَّتَارُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ عِزٌّ وَلَا كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ،وَلَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ يَخَافُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ تُقَاتِلُ عَنْهُ،فَمَنْ قَفَزَ عَنْهُمْ إلَى التَّتَارِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقِتَالِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ التَّتَارِ،فَإِنَّ التَّتَارَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُ الْمُكْرَهِ.

وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ السُّنَّةُ بِأَنَّ عُقُوبَةَ الْمُرْتَدِّ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:مِنْهَا:أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ بِكُلِّ حَالٍ،وَلَا يُضْرَبُ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ،وَلَا تُعْقَدُ لَهُ ذِمَّةٌ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ الْقِتَالِ بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي لَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ كَأَبِي حَنِيفَةَ،وَمَالِكٍ،وَأَحْمَدَ.

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ يُقْتَلُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ،وَالشَّافِعِيِّ،وَأَحْمَدَ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا يَرِثُ،وَلَا يُنَاكَحُ،وَلَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ،بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ،إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْكَامِ،وَإِذَا كَانَتْ الرِّدَّةُ عَنْ أَصْلِ الدِّينِ أَعْظَمَ مِنْ الْكُفْرِ بِأَصْلِ الدِّينِ،فَالرِّدَّةُ عَنْ شَرَائِعِهِ أَعْظَمُ مِنْ خُرُوجِ الْخَارِجِ الْأَصْلِيِّ عَنْ شَرَائِعِهِ،وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَعْرِفُ أَحْوَالَ التَّتَارِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ فِيهِمْ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ شَرٌّ مِنْ الْكُفَّارِ الْأَصْلِيِّينَ مِنْ التُّرْكِ وَنَحْوِهِمْ،وَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ تَرْكِهِمْ لِكَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ خَيْرٌ مِنْ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِمَّنْ كَانَ مُسْلِمَ الْأَصْلِ هُوَ شَرٌّ مِنْ التُّرْكِ الَّذِينَ كَانُوا كُفَّارًا،فَإِنَّ الْمُسْلِمَ الْأَصْلِيَّ إذَا ارْتَدَّ عَنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ كَانَ أَسْوَأَ حَالًا مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ

فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ مِثْلُ:مَانِعِي الزَّكَاة وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ قَاتَلَهُمْ الصِّدِّيقُ.وَإِنْ كَانَ الْمُرْتَدُّ عَنْ بَعْضِ الشَّرَائِعِ مُتَفَقِّهًا،أَوْ مُتَصَوِّفًا أَوْ تَاجِرًا،أَوْ كَاتِبًا،أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ التُّرْك الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي تِلْكَ الشَّرَائِعِ وَأَصَرُّوا عَلَى الْإِسْلَام،وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ عَلَى الدِّينِ مَا لَا يَجِدُونَهُ مِنْ ضَرَرِ أُولَئِكَ،وَيَنْقَادُونَ لِلْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمَ مِنْ انْقِيَادِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ بَعْضِ الدِّينِ وَنَافَقُوا فِي بَعْضِهِ،وَإِنْ تَظَاهَرُوا بِالِانْتِسَابِ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ،وَغَايَةُ مَا يُوجَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَكُونُ مُلْحِدًا نُصَيْرِيًّا،أَوْ إسْمَاعِيلِيًّا،أَوْ رَافِضِيًّا،وَخِيَارُهُمْ يَكُونُ جَهْمِيًّا اتِّحَادِيًّا أَوْ نَحْوَهُ،فَإِنَّهُ لَا يَنْضَمُّ إلَيْهِمْ طَوْعًا مِنْ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ إلَّا مُنَافِقٌ،أَوْ زِنْدِيقٌ،أَوْ فَاسِقٌ فَاجِرٌ،وَمَنْ أَخْرَجُوهُ مَعَهُمْ مُكْرَهًا فَإِنَّهُ يُبْعَثُ عَلَى نِيَّتِهِ،وَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ الْعَسْكَرَ جَمِيعَهُ إذْ لَا يَتَمَيَّزُ الْمُكْرَهُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:«يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ مِنْ النَّاسِ،فَبَيْنَمَا هُمْ بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ إذْ خُسِفَ بِهِمْ فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إنَّ فِيهِمْ الْمُكْرَهَ.فَقَالَ:يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».

وَالْحَدِيثُ مُسْتَفِيضٌ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَخْرَجَهُ أَرْبَابُ الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ،وَحَفْصَةَ،وَأُمِّ سَلَمَةَ.فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ:«قَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ -:يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْت فَيُبْعَثُ إلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ فَقُلْت:يَا رَسُولَ اللَّه،فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا.قَالَ:يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ» وَفِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:«عَبَثَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - فِي مَنَامِهِ فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّه،صَنَعْت شَيْئًا فِي مَنَامِك لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ.فَقَالَ:الْعَجَبُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ هَذَا الْبَيْتَ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ،وَقَدْ لَجَأَ إلَى الْبَيْت حَتَّى إذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ.فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّه،إنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ.قَالَ:نَعَمْ،فِيهِمْ الْمُسْتَنْصِرُ وَالْمَجْنُونُ وَابْنُ السَّبِيلِ فَيَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى،يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ:عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:«قَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ -:يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَة فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ.قَالَتْ:قُلْت:يَا رَسُولَ اللَّه،يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ،وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ.قَالَ:يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ

وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:عَنْ حَفْصَةَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّـــهِ – ﷺ – قَالَ:سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ – يَعْنِي الْكَعْبَةَ – قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ،يُبْعَثُ إلَيْهِمْ جَيْشٌ يَوْمَئِذٍ حَتَّى إذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ».قَـــالَ يُوسُـــفُ بْـــنُ مَاهَكَ:وَأَهْلُ الشَّامِ يَوْمَئِذٍ يَسِيرُونَ إلَى مَكَّةَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ:أَمَا وَاَللَّهِ مَـــا هُـــوَ بِهَذَا الْجَيْشِ فَاَللَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ الْجَيْشَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَنْتَهِكَ حُرُمَاتِهِ الْمُكْرَهَ فِيهِمْ وَغَيْـــرَ الْمُكْرَهِ.

مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ مَعَ أَنَّهُ يَبْعَثُهُمْ عَلَى نِيَّاتِهِمْ.فَكَيْفَ يَجِبُ عَلَـــى الْمُـــؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ أَنْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْمُكْرَهِ وَغَيْرِهِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بَلْ لَوْ ادَّعَى مُـــدَّعٍ أَنَّـــهُ خَرَجَ مُكْرَهًا لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ.

كَمَا رُوِيَ «أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ لِلنَّبِيِّ – ﷺ – لَمَّا أَسَرَهُ الْمُسْـــلِمُونَ يَـــوْمَ بَدْرٍ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إنِّي،كُنْت مُكْرَهًا.فَقَالَ:أَمَّا ظَاهِرُك فَكَانَ عَلَيْنَا وَأَمَّا سَـــرِيرَتُك فَـــإِلَى اللَّهِ».

بَلْ لَوْ كَانَ فِيهِمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ وَلَمْ يُمْكِنْ قِتَالُهُمْ إلَّا بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ لَقُتِلُـــوا أَيْضًا فَإِنَّ الْأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ تَتَرَّسُوا بِمُسْلِمِينَ وَخِيفَ عَلَى الْمُسْـــلِمِينَ إذَا لَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ نَرْمِيَهُمْ وَنَقْصِدَ الْكُفَّارَ،وَلَوْ لَمْ نَخَفْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَازَ وَهِيَ أُولَئِكَ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا فِي أَحَدِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ.

وَمَنْ قُتِلَ لِأَجْلِ الْجِهَادِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ هُـــوَ فِـــي الْبَـــاطِنِ مَظْلُـــومٌ كَـــانَ شَهِيدًا،وَبُعِثَ عَلَى نِيَّتِهِ،وَلَمْ يَكُنْ قَتْلُهُ أَعْظَمَ فَسَادًا مِنْ قَتْلِ مَنْ يُقْتَـــلُ مِـــنْ الْمُـــؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ،وَإِذَا كَانَ الْجِهَادُ وَاجِبًا وَإِنْ قُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا شَاءَ اللَّهُ فَقَتْلُ مَنْ يُقْتَلُ فِي صَفِّهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِحَاجَةِ الْجِهَادِ لَيْسَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا،بَلْ قَـــدْ أَمَـــرَ النَّبِـــيُّ – ﷺ – الْمُكْرَهَ فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ بِكَسْرِ سَيْفِهِ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَاتِلَ،وَإِنْ قُتِلَ،كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمعَنْ أَبِي بَكْرَةَ «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:إنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي،وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي،أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ،وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ،وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ

بِأَرْضِهِ،قَالَ:فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرَأَيْت مَنْ لَمْ يَكُنْ لَـهُ إبِلٌ،وَلَـا غَنَمٌ،وَلَـا أَرْضٌ قَالَ:يَعْمِدُ إلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ،ثُمَّ لِيَنْجُ إنْ اسْتَطَاعَ النَّجَـاةَ.اللَّهُـمَّ هَـلْ بَلَّغْت،اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت.فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرَأَيْت إنْ أُكْرِهْت حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إلَى إحْدَى الصَّفَّيْنِ أَوْ إحْدَى الْفِئَتَيْنِ فَيَضْـرِبُنِي رَجُـلٌ بِسَـيْفِهِ أَوْ بِسَـهْمِهِ فَيَقْتُلَنِي.قَالَ:يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِك،وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ نَهَى عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ أَمَرَ بِمَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْقِتَالُ مِنْ الِاعْتِزَالِ أَوْ إفْسَادِ السِّلَاحِ الَّذِي يُقَاتِلُ بِهِ.

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُهُ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْمُكْرَهَ إذَا قُتِلَ ظُلْمًا كَانَ الْقَاتِلُ قَـدْ بَـاءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ الْمَقْتُولِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ عَنْ الْمَظْلُومِ {إنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُـوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٢٩] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا صَالَ صَائِلٌ عَلَى نَفْسِهِ جَازَ لَهُ الدَّفْعُ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَإِنَّمَا تَنَـازَعُوا هَـلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الدَّفْعُ بِالْقِتَالِ عَلَى قَوْلَيْنِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ:إحْدَاهُمَا:يَجِبُ الدَّفْعُ عَـنْ نَفْسِهِ وَلَوْ لَمْ يَحْضُرْ الصَّفَّ.

وَالثَّانِيَةُ:يَجُوزُ لَهُ الدَّفْعُ عَنْ نَفْسِهِ.

وَأَمَّا الِابْتِدَاءُ بِالْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ فَلَا يَجُوزُ بِلَا رَيْبٍ،وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ إذَا كَانَ الْمُكْـرَهُ عَلَـى الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَاتِلَ،بَلْ عَلَيْهِ إفْسَادُ سِلَاحِهِ،وَأَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يُقْتَلَ مَظْلُومًـا فَكَيْفَ بِالْمُكْرَهِ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الطَّائِفَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْـلَامِ:كَمَـانِعِي الزَّكَاةِ،وَالْمُرْتَدِّينَ،وَنَحْوِهِمْ،فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ إذَا أُكْرِهَ عَلَى الْحُضُورِ أَنْ لَـا يُقَاتِلَ وَإِنْ قَتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَمَا لَوْ أَكْرَهَهُ الْكُفَّـارُ عَلَـى حُضُـورِ صَـفِّهِمْ لِيُقَاتِـلَ الْمُسْلِمِينَ،وَكَمَا لَوْ أَكْرَهَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ مَعْصُومٍ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ أَكْرَهَهُ بِالْقَتْلِ فَإِنَّهُ لَيْسَ حِفْظُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ ذَلِكَ الْمَعْصُـومِ أَوْلَـى مِـنْ الْعَكْسِ،فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَظْلِمَ غَيْرَهُ فَيَقْتُلَهُ،لِئَلَّا يُقْتَلَ هُوَ،بَلْ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ الْقَـوَدُ عَلَـى الْمُكْرِهِ جَمِيعًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَـاءِ:كَأَحْمَدَ،وَمَالِكٍ،وَالشَّـافِعِيِّ،فِي أَحَـدِ قَوْلَيْـهِ،وَفِي الْآخَرِ:يَجِبُ الْقَوَدُ عَلَى الْمُكْرِهِ فَقَطْ كَقَوْلِ:أَبِي حَنِيفَةَ،وَمُحَمَّدٍ،وَقِيلَ:الْقَوَدُ عَلَى الْمُكْرَهِ

الْمُبَاشِرِ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ زُفَرَ،وَأَبُو يُوسُفَ:يُوجِبُ الضَّمَانَ بِالدِّيَةِ بَدَلَ الْقَوَدِ وَلَمْ يُوجِبْهُ.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ:عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قِصَّةَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَفِيهَا أَنَّ الْغُلَامَ أَمَرَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ ظُهُورِ الدِّينِ،وَلِهَذَا جَوَّزَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ أَنْ يَنْغَمِسَ الْمُسْلِمُ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ إذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ،فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَفْعَلُ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْجِهَادِ مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ نَفْسَهُ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ لِغَيْرِهِ كَانَ مَا يُفْضِي إلَى قَتْلِ غَيْرِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ إلَّا بِذَلِكَ وَدَفْعِ ضَرَرِ الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا،الَّذِي لَا يَنْدَفِعُ إلَّا بِذَلِكَ أَوْلَى وَإِذَا كَانَتْ السُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مُتَّفِقَيْنِ عَلَى أَنَّ الصَّائِلَ الْمُسْلِمَ إذَا لَمْ يَنْدَفِعْ صَوْلُهُ إلَّا بِالْقَتْلِ قُتِلَ وَإِنْ كَانَ الْمَالُ الَّذِي يَأْخُذُهُ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ،كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ حَرَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».

فَكَيْفَ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ صَوْلُهُمْ وَبَغْيُهُمْ أَقَلُّ مَا فِيهِمْ،فَإِنَّ قِتَالَ الْمُعْتَدِينَ الصَّائِلِينَ ثَابِتٌ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ،وَهَؤُلَاءِ مُعْتَدُونَ صَائِلُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ،وَأَمْوَالِهِمْ،وَحُرَمِهِمْ،وَدِينِهِمْ،وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ يُبِيحُ قِتَالَ الصَّائِلِ عَلَيْهَا،وَمَنْ قُتِلَ دُونَهَا فَهُوَ شَهِيدٌ،فَكَيْفَ بِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا كُلِّهَا وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ الظَّالِمِينَ،لَكِنْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ كَمَا تُقَاتَلُ الْبُغَاةُ الْمُتَأَوِّلُونَ فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً قَبِيحًا وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا فَإِنَّ أَقَلَّ مَا فِي الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ خَرَجُوا بِهِ.

وَلِهَذَا قَالُوا:إنَّ الْإِمَامَ يُرَاسِلُهُمْ،فَإِنْ ذَكَرُوا شُبْهَةً بَيَّنَهَا،وَإِنْ ذَكَرُوا مَظْلَمَةً أَزَالَهَا،فَأَيُّ شُبْهَةٍ لِهَؤُلَاءِ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ السَّاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا،وَالْخَارِجِينَ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ أَنَّهُمْ أَقْوَمُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَعَمَلًا مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بَلْ هُوَ مَعَ دَعْوَاهُمْ الْإِسْلَامَ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ أَعْلَمُهُمْ بِإِسْلَامٍ مِنْهُمْ،وَأَتْبَعُ لَهُ مِنْهُمْ،وَكُلُّ

مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُنْـذِرُونَ الْمُسْـلِمِينَ بِالْقِتَالِ،فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ شُبْهَةٌ بَيِّنَةٌ يَسْتَحِلُّونَ بِهَا قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ وَهُمْ قَدْ سَبَوْا غَالِبَ حَرِيمِ الرَّعِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوهُمْ؟ حَتَّى إنَّ النَّاسَ قَـدْ رَأَوْهُـمْ يُعَظِّمُـونَ الْبُقْعَـةَ وَيَأْخُذُونَ مَا فِيهَا مِنْ الْأَمْوَالِ،وَيُعَظِّمُونَ الرَّجُلَ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ،وَيَسْلُبُونَهُ مَـا عَلَيْـهِ مِـنْ الثِّيَابِ،وَيَسْبُونَ حَرِيمَهُ وَيُعَاقِبُونَهُ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي لَا يُعَاقَبُ بِهَا إلَّا أَظْلَـمُ النَّـاسِ وَأَفْجَرُهُمْ،وَالْمُتَأَوِّلُ تَأْوِيلًا دِينِيًّا لَا يُعَاقِبُ إلَّا مَنْ يَرَاهُ عَاصِيًا لِلدِّينِ،وَهُمْ يُعَظِّمُـونَ مَـنْ يُعَاقِبُونَهُ فِي الدِّينِ،وَيَقُولُونَ:إنَّهُ أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْهُمْ،فَأَيُّ تَأْوِيلٍ بَقِيَ لَهُمْ،ثُمَّ لَوْ قُـدِّرَ أَنَّهُـمْ مُتَأَوِّلُونَ لَمْ يَكُنْ تَأْوِيلُهُمْ سَائِغًا،بَلْ تَأْوِيلُ الْخَوَارِجِ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ أَوْجَهُ مِنْ تَأْوِيلِهِمْ،أَمَّا الْخَوَارِجُ فَإِنَّهُمْ ادَّعَوْا اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ،وَأَنَّ مَا خَالَفَهُ مِنْ السُّنَّةِ لَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِهِ.

وَأَمَّا مَانِعُوا الزَّكَاةِ فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوا:إنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ:خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً وَهَـذَا خِطَابٌ لِنَبِيِّهِ فَقَطْ فَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَدْفَعَهَا لِغَيْرِهِ فَلَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَهَا لِـأَبِي بَكْـرٍ وَلَـا يُخْرِجُونَهَا لَهُ،وَالْخَوَارِجُ لَهُمْ عِلْمٌ وَعِبَادَةٌ وَلِلْعُلَمَاءِ مَعَهُمْ مُنَاظَرَاتٌ كَمُنَـاظَرَتِهِمْ مَـعَ الرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ،وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَلَا يُنَاظِرُونَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَلَوْ كَانُوا مُتَـأَوِّلِينَ لَـمْ يَكُنْ لَهُمْ تَأْوِيلٌ يَقُولُهُ ذُو عَقْلٍ،وَقَدْ خَاطَبَنِي بَعْضُهُمْ بِأَنْ قَالَ:مَلِكُنَا مَلِكٌ ابْنُ مَلِكٍ ابْـنُ مَلِكٍ إلَى سَبْعَةِ أَجْدَادٍ،وَمَلِكُكُمْ ابْنُ مَوْلًى فَقُلْت:لَهُ:آبَاءُ ذَلِكَ الْمَلِكِ كُلُّهُـمْ كُفَّارٌ،وَلَـا فَخْرَ بِالْكَافِرِ،بَلْ الْمَمْلُوكُ الْمُسْلِمُ خَيْرٌ مِنْ الْمَلِكِ الْكَافِرِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَلَعَبْدٌ مُـؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} [البقرة:٢٢١].

فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا حُجَجُهُمْ،وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ الْمُسْـلِمَ وَلَـوْ كَانَ عَبْدًا وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ».

وَدِينُ الْإِسْلَامِ إنَّمَا يُفَضِّلُ الْإِنْسَانَ بِإِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ لَا بِآبَائِهِ،وَلَوْ كَانُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَهْـلِ بَيْتِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَإِنَّهُ خَلَقَ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا،وَخَلَقَ النَّارَ لِمَـنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ شَرِيفًا قُرَشِيًّا.وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:١٣] وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:«لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ،وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ،وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ،وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إلَّا بِالتَّقْوَى،النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِقَبِيلَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ:«إنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي إنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ».

فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنَّ مُوَالَاتَهُ لَيْسَتْ بِالْقَرَابَةِ وَالنَّسَبِ،بَلْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى،فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي قَرَابَةِ الرَّسُولِ فَكَيْفَ بِقَرَابَةِ جِنْكِيزْ خَانْ الْكَافِرِ الْمُشْرِكِ،وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ إيمَانًا وَتَقْوًى كَانَ أَفْضَلَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى،وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَسْوَدَ حَبَشِيًّا وَالثَّانِي عَلَوِيًّا أَوْ عَبَّاسِيًّا.[٨٠٢]

حول الامتناع عن قتال التتار بحجة الإكراه:

وسئل - رحمه اللّه ورضي عنه -:عنْ أجْناد يمْتنعون عنْ قتال التّتار ويقولون:إنّ فيهمْ منْ يخْرج مكْرهًا معهمْ وإذا هرب أحدهمْ هلْ يتْبع أمْ لا ؟

مَسْأَلَةٌ:فِي أَجْنَادٍ يَمْتَنِعُونَ عَنْ قِتَالِ التَّتَارِ،وَيَقُولُونَ:إنَّ فِيهِمْ مَنْ يَخْرُجُ مُكْرَهًا مَعَهُمْ وَإِذَا هَرَبَ أَحَدُهُمْ هَلْ يُتَّبَعُ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.قِتَالُ التَّتَارِ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى بِلَادِ الشَّامِ وَاجِبٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ،فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩].

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ لَمَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ،لَكِنْ امْتَنَعُوا مِنْ تَرْكِ الرِّبَا فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ إذَا لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ الرِّبَا،وَالرِّبَا هُوَ

---

[٨٠٢] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٣٤)

آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ،وَهُوَ مَالٌ يُؤْخَذُ بِرِضَا صَاحِبِهِ،فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يَجِبُ جِهَادُهُمْ،فَكَيْفَ بِمَنْ يَتْرُكُ كَثِيرًا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَكْثَرَهَا كَالتَّتَارِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا امْتَنَعَتْ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ،فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،أَوْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،أَوْ عَنْ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،أَوْ عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،أَوْ عَنْ اسْتِحْلَالِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ،أَوْ الرِّبَا،أَوْ الْمَيْسِرِ،أَوْ الْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ،أَوْ عَنْ ضَرْبِهِمْ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:أَنَّ عُمَرَ لَمَّا نَاظَرَ أَبَا بَكْرٍ فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ:كَيْفَ لَا أُقَاتِلُ مَنْ تَرَكَ الْحُقُوقَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَإِنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ كَالزَّكَاةِ.

وَقَالَ لَهُ:فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا،قَالَ عُمَرُ،فَمَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - ذَكَرَ الْخَوَارِجَ وَقَالَ فِيهِمْ:«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وَقَدْ اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ،وَأَوَّلُ مَنْ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -،وَمَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ يُقَاتِلُونَ فِي صَدْرِ خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ مَعَ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً،وَكَانَ الْحَجَّاجُ وَنُوَّابُهُ مِمَّنْ يُقَاتِلُونَهُمْ،فَكُلُّ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ يَأْمُرُونَ بِقِتَالِهِمْ وَالتَّتَارُ وَأَشْبَاهُهُمْ أَعْظَمُ خُرُوجًا عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَانِعِي

الزَّكَاة وَالْخَوَارِجِ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنْ تَرْكِ الرِّبَا،فَمَنْ شَكَّ فِي قِتَالِهِمْ فَهُوَ أَجْهَلُ النَّاسِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ،وَحَيْثُ وَجَبَ قِتَالُهُمْ قُوتِلُوا وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ،كَمَا «قَالَ الْعَبَّاسُ لَمَّا أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إنِّي خَرَجْت مُكْرَهًا،فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:أَمَّا ظَاهِرُك فَكَانَ عَلَيْنَا وَأَمَّا سَرِيرَتُك فَإِلَى اللَّهِ».

وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ جَيْشَ الْكُفَّارِ إذَا تَتَرَّسُوا بِمَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَخِيفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرُ إذَا لَمْ يُقَاتَلُوا،وَإِنْ أَفْضَى ذَلِكَ إلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَتَرَّسُوا بِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يُخَفْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَفِي جَوَازِ الْقِتَالِ الْمُفْضِي إلَى قَتْلِ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ،وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ إذَا قُتِلُوا كَانُوا شُهَدَاءَ وَلَا يُتْرَكُ الْجِهَادُ الْوَاجِبُ لِأَجْلِ مَنْ يُقْتَلُ شَهِيدًا،فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إذَا قَاتَلُوا الْكُفَّارَ فَمَنْ قُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَكُونُ شَهِيدًا،وَمَنْ قُتِلَ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ لَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ كَانَ شَهِيدًا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:«يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ إذْ خُسِفَ بِهِمْ.فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَفِيهِمْ الْمُكْرَهُ فَقَالَ:يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».فَإِذَا كَانَ الْعَذَابُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِالْجَيْشِ الَّذِي يَغْزُو الْمُسْلِمِينَ يُنْزِلُهُ بِالْمُكْرَهِ،فَكَيْفَ بِالْعَذَابِ الَّذِي يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِهِ أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة:٥٢].

وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ الْمُكْرَهَ وَلَا نَقْدِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ فَإِذَا قَتَلْنَاهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ كُنَّا فِي ذَلِكَ مَأْجُورِينَ وَمَعْذُورِينَ وَكَانُوا هُمْ عَلَى نِيَّاتِهِمْ،فَمَنْ كَانَ مُكْرَهًا لَا يَسْتَطِيعُ الامْتِنَاعَ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ عَلَى نِيَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَإِذَا قُتِلَ لِأَجْلِ قِيَامِ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَعْظَمَ مِنْ قَتْلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا إذَا هَرَبَ أَحَدُهُمْ فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ قِتَالَهُمْ بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ،وَهَؤُلَاءِ إذَا كَانَ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ فَهَلْ يَجُوزُ اتِّبَاعُ مُدْبِرِهِمْ وَقَتْلُ أَسِيرِهِمْ وَالْإِجْهَازُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ مَشْهُورَيْنِ،فَقِيلَ:لَا يُفْعَلُ ذَلِكَ؛لِأَنَّ مُنَادِيَ عَلِيٍّ

بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَادَى يَوْمَ الْجَمَلِ:لَا يُتْبَعُ مُـدْبِرٌ،وَلَا يُجْهَـزُ عَلَـى جَرِيحٍ،وَلَـا يُقْتَـلُ أَسِيرٌ،وَقِيلَ:بَلْ يُفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ الْقِتَالِ دَفْعَهُمْ،فَلَمَّا انْدَفَعُوا لَمْ يَكُنْ إلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ بِمَنْزِلَةِ دَفْعِ الصَّائِلِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ يَوْمَ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ كَانَ أَمْرُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ،فَمَنْ جَعَلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْبُغَـاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ جَعَلَ فِيهِمْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَـيْسَ لَهُـمْ تَأْوِيـلٌ سَـائِغٌ أَصْـلًا،وَإِنَّمَا هُـمْ مِـنْ جِـنْسِ الْخَـوَارِجِ الْمَارِقِينَ،وَمَـانِعِي الزَّكَاةِ،وَأَهْـلِ الطَّائِفِ،وَالْخُرَّمِيَّةِ،وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ قُوتِلُوا عَلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ مِنْ شَـرَائِعِ الْإِسْـلَامِ،وَهَذَا مَوْضِعٌ اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُصَنِّفِينَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ جَعَلُوا قِتَـالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ،وَقِتَالَ الْخَوَارِجِ،وَقِتَالَ عَلِيٍّ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ،وَقِتَالَهُ لِمُعَاوِيَةَ وَأَتْبَاعِهِ مِنْ قِتَـالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَأْمُورٌ بِهِ،وَفَرَّعُوا مَسَائِلَ ذَلِكَ تَفْرِيعَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ،وَقَدْ غَلِطُـوا بَـلْ الصَّـوَابُ مَـا عَلَيْـهِ أَئِمَّـةُ الْحَدِيثِ،وَالسُّـنَّةِ،وَأَهْلِ الْمَدِينَـةِ النَّبَوِيَّةِ،كَالْأَوْزَاعِيِّ،وَالثَّوْرِيِّ،وَمَالِكٍ،وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ،وَغَيْرِهِمْ،أَنَّهُ يُفَـرَّقُ بَـيْنَ هَـذَا وَهَذَا،فَقِتَالُ عَلِيٍّ لِلْخَوَارِجِ ثَابِتٌ بِالنُّصُوصِ الصَّـرِيحَةِ عَـنْ النَّبِـيِّ - ﷺ - بِاتِّفَـاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا الْقِتَالُ يَوْمَ صِفِّينَ وَنَحْوِهِ فَلَمْ يَتَّفِقْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ،بَلْ صَدَّ عَنْهُ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ مِثْـلُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ،وَمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ،وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،وَغَيْرِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي الْعَسْكَرَيْنِ مِثْلُ سَعْدِ بْنِ أَبِـي وَقَّاصٍ،وَالْأَحَادِيـثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - تَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ تَيْنِـكَ الطَّائِفَتَيْنِ،لَـا الِاقْتِتَالُ بَيْنَهُمَا.

كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ:أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ وَالْجَيْشُ مَعَهُ فَقَالَ:«إنَّ ابْنِي هَـذَا سَيِّدٌ وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَأَصْلَحَ اللَّهُ بِالْحَسَنِ بَيْنَ أَهْـلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ» فَجَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - الْإِصْلَاحَ بِهِ مِنْ فَضَائِلِ الْحَسَنِ،مَعَ أَنَّ الْحَسَنَ نَزَلَ عَنْ الْأَمْرِ وَسَلَّمَ الْأَمْرَ إلَى مُعَاوِيَةَ،فَلَوْ كَانَ الْقِتَالُ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ دُونَ تَرْكِ الْخِلَافَـةِ

وَمُصَالَحَة مُعَاوِيَةَ لَمْ يَمْدَحْهُ النَّبِيُّ - ﷺ - عَلَى تَرْك مَا أُمِرَ به،وَفعْلِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ به وَلَا مَدَحَهُ عَلَى تَرْك الْأَوْلَى وَفعْلِ الْأَدْنَى،فَعُلمَ أَنَّ الَّذي فَعَلَهُ الْحَسَنُ هُوَ الَّذي كَانَ يُحبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَا الْقتَالُ.

وَقَدْ ثَبَتَ في الصَّحيح:أَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - كَانَ يَضَعُهُ وَأُسَامَةَ عَلَى فَخذَيْه وَيَقُولُ:«اللَّهُمَّ إنِّي أُحبُّهُمْ فَأَحبَّهُمَا وَأَحبَّ مَنْ يُحبُّهُمَا».

وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ مَحَبَّة رَسُول اللَّه - ﷺ - لَهُمَا بكَرَاهَتهمَا الْقتَالَ في الْفتْنَة،فَإِنَّ أُسَامَةَ امْتَنَعَ عَنْ الْقتَال مَعَ وَاحدَة منْ الطَّائفَتَيْن،وَكَذَلكَ الْحَسَنُ كَانَ دَائمًا يُشيرُ عَلَى عَليٍّ بأَنَّهُ لَا يُقَاتلُ وَلَمَّا صَارَ الْأَمْرُ إلَيْه فَعَلَ مَا كَانَ يُشيرُ به عَلَى أَبيه - رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعينَ -.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ - ﷺ - في الصَّحيحِ أَنَّهُ قَالَ:«تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حينِ فُرْقَةٍ منْ الْمُسْلمينَ تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائفَتَيْنِ بالْحَقِّ».

فَهَذه الْمَارقَةُ هُمْ الْخَوَارجُ،وَقَاتَلَهُمْ عَليُّ بْنُ أَبي طَالب،وَهَذَا يُصَدِّقُهُ بَقيَّةُ الْأَحَاديث الَّتي فيهَا الْأَمْرُ بقتَال الْخَوَارجِ،وَتُبَيِّنُ أَنَّ قَتْلَهُمْ ممَّا يُحبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.وَأَنَّ الَّذينَ قَاتَلُوهُمْ مَعَ عَليٍّ أَوْلَى بالْحَقِّ منْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابه،مَعَ كَوْنهمْ أَوْلَى بالْحَقِّ،فَلَمْ يَأْمُرْ النَّبيُّ - ﷺ - بالْقتَال لوَاحدَة منْ الطَّائفَتَيْنِ كَمَا أَمَرَ بقتَال الْخَوَارجِ،بَلْ مَدَحَ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبيِّ - ﷺ - منْ كَرَاهَة الْقتَال في الْفتَن وَالتَّحْذير منْهَا منْ الْأَحَاديث الصَّحيحَة مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضعُهُ كَقَوْله:«سَتَكُونُ فتْنَةٌ الْقَاعدُ فيهَا خَيْرٌ منْ الْقَائم،وَالْقَائمُ فيهَا خَيْرٌ منْ الْمَاشي،وَالْمَاشي خَيْرٌ منْ السَّاعي» وَقَالَ «يُوشكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَال الْمُسْلم غَنَمٌ يَتَّبعُ بهَا شَعَفَ الْجبَال وَمَوَاقعَ الْقَطْر،يَفرُّ بدينه منْ الْفتَنِ».

فَالْفتَنُ مثْلُ الْحُرُوب الَّتي تَكُونُ بَيْنَ مُلُوك الْمُسْلمينَ وَطَوَائف الْمُسْلمينَ،مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحدَة منْ الطَّائفَتَيْنِ مُلْتَزِمَةٌ لشَرَائعِ الْإِسْلَامِ مثْلُ مَا كَانَ أَهْلُ الْجَمَلِ وَصفِّينَ وَإِنَّمَا اقْتَتَلُوا لشُبَه وَأُمُور عَرَضَتْ.

وَأَمَّا قتَالُ الْخَوَارجِ وَمَانعي الزَّكَاة وَأَهْل الطَّائف الَّذينَ لَمْ يَكُونُوا يُحَرِّمُونَ الرِّبَا فَهَؤُلَاء يُقَاتَلُونَ حَتَّى يَدْخُلُوا في الشَّرَائعِ الثَّابتَة عَنْ النَّبيِّ - ﷺ - وَهَؤُلَاء إذَا كَانَ لَهُمْ طَائفَةٌ مُمْتَنعَةٌ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُ أَسيرهمْ وَاتِّبَاعُ مُدْبرهمْ وَالْإِجْهَازُ عَلَى جَريحهمْ،فَإِنَّ هَؤُلَاء

إِذَا كَانُوا مُقِيمِينَ بِبِلَادِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْصِدُوهُمْ فِي بِلَادِهِمْ لِقِتَالِهِمْ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ التَّتَارَ لَا يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ بَلْ يُقَاتِلُونَ النَّاسَ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِمْ،فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ كَفُّوا عَنْهُ.وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ كَانَ عَدُوًّا لَهُمْ وَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَهُ الْكُفَّارَ وَيُوَالُوا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ،فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْيَمَنِ وَالْمَغْرِبِ جَمِيعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ،وَلَيْسَ لِبَعْضِهِمْ أَنْ يُقَاتِلَ بَعْضًا بِمُجَرَّدِ الرِّيَاسَةِ وَالْأَهْوَاءِ فَهَؤُلَاءِ التَّتَارُ أَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ الْكَافِرِينَ،وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ قِتَالِ مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،وَيَتَعَاوَنُونَ هُمْ وَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ.

وَأَيْضًا لَا يُقَاتِلُ مَعَهُمْ غَيْرُ مُكْرَهٍ إلَّا فَاسِقٌ،أَوْ مُبْتَدِعٌ،أَوْ زِنْدِيقٌ،كَالْمَلَاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ،وَكَالرَّافِضَةِ السَّبَّابَةِ،وَكَالْجَهْمِيَّةِ الْمُعَطِّلَةِ مِنْ النُّفَاةِ الْحُلُولِيَّةِ،وَمَعَهُمْ مِمَّنْ يُقَلِّدُونَهُ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ،فَإِنَّ التَّتَارَ جُهَّالٌ يُقَلِّدُونَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ بِهِ الظَّنَّ،وَهُمْ لِضَلَالِهِمْ وَغَيِّهِمْ يَتَّبِعُونَهُ فِي الضَّلَالِ الَّذِي يَكْذِبُونَ بِهِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَيُبَدِّلُونَ دِينَ اللَّهِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ،وَلَوْ وَصَفْتُ مَا أَعْلَمُهُ مِنْ أُمُورِهِمْ لَطَالَ الْخِطَابُ.

وَبِالْجُمْلَةِ:فَمَذْهَبُهُمْ وَدِينُ الْإِسْلَامِ لَا يَجْتَمِعَانِ،وَلَوْ أَظْهَرُوا دِينَ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيِّ الَّذِي بُعِثَ الرَّسُولُ بِهِ لَاهْتَدَوْا وَأَطَاعُوا مِثْلُ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ.فَإِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:«لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ:«لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ وَأَوَّلُ الْغَرْبِ مَا يُسَامِتُ النَّثْرَةَ وَنَحْوَهَا».

فَإِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ،فَمَا يَغْرُبُ عَنْهَا فَهُوَ غَرْبٌ كَالشَّامِ وَمِصْرَ وَمَا شَرَّقَ عَنْهَا فَهُوَ شَرْقٌ كَالْجَزِيرَةِ وَالْعِرَاقِ وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ

الشَّام أَهْلَ الْمَغْرِب،وَيُسَمُّونَ أَهْلَ الْعِرَاق أَهْلَ الْمَشْرِق.وَهَذِه الْجُمْلَةُ الَّتِي ذَكَرْتهَا فِيهَا مِنْ الْآثَارِ وَالْأَدِلَّة الشَّرْعِيَّة فِيهَا مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ،وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[٨٠٣]

[مَسْأَلَةٌ فِي قَوْمٍ ذَوِي شَوْكَةٍ مُقِيمِينَ بِأَرْضٍ]

مَسْأَلَةٌ:فِي قَوْمٍ ذَوِي شَوْكَة مُقِيمِينَ بِأَرْض،وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ الصَّلَوَات الْمَكْتُوبَات،وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَسْجِدٌ وَلَا أَذَانٌ وَلَا إقَامَةٌ،وَإِنْ صَلَّى أَحَدُهُمْ صَلَّى الصَّلَاةَ غَيْرَ الْمَشْرُوعَة،وَلَا يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ مَعَ كَثْرَة أَمْوَالِهِمْ مِنْ الْمَوَاشِي وَالزُّرُوع،وَهُمْ يَقْتَتِلُونَ فَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَيَنْهَبُونَ مَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا،وَيَقْتُلُونَ الْأَطْفَالَ،وَقَدْ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنْ سَفْك الدِّمَاء وَأَخْذ الْأَمْوَال،لَا فِي شَهْر رَمَضَانَ،وَلَا فِي الْأَشْهُر الْحُرُم،وَلَا غَيْرِهَا،وَإِذَا أَسَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بَاعُوا أَسْرَاهُمْ لِلْإِفْرِنْجِ،وَيَبِيعُونَ رَقِيقَهُمْ مِنْ الذُّكُور وَالْإِنَاث لِلْإِفْرِنْج عَلَانِيَةً،وَيَسُوقُونَهُمْ كَسَوْق الدَّوَابِّ وَيَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ فِي عِدَّتِهَا،وَلَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ،وَلَا يَنْقَادُونَ لِحَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ،وَإِذَا دُعِيَ أَحَدُهُمْ إلَى الشَّرْعِ قَالَ جَاءَنَا الشَّرْعُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهَلْ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ وَالْحَالَةُ هَذِه،وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إلَى دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ مَعَ مَا ذُكِرَ.

الْجَوَابُ:نَعَمْ يَجُوزُ بَلْ يَجِبُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ كُلِّ طَائِفَة مُمْتَنِعَة عَنْ شَرِيعَة مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَام الظَّاهِرَة الْمُتَوَاتِرَة،مِثْلُ الطَّائِفَة الْمُمْتَنِعَة عَنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ أَوْ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاة الْمَفْرُوضَة إلَى الْأَصْنَاف الثَّمَانِيَة الَّتِي سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِه،وَعَنْ صِيَامِ شَهْر رَمَضَانَ أَوْ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ عَنْ سَفْك دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْذ أَمْوَالِهِمْ،أَوْ لَا يَتَحَاكَمُونَ بَيْنَهُمْ بِالشَّرْعِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِه رَسُولَهُ،كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فِي مَانِعِ الزَّكَاة،وَكَمَا قَاتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ - ﷺ - الْخَوَارِجَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ:«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَام كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّة،أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّه لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة» وَذَلِكَ بِقَوْلِه تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا

---

[٨٠٣] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥٦)

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٣].وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩] .وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا.وَيُدْعَوْنَ قَبْلَ الْقِتَالِ إلَى الْتِزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنْ الْتَزَمُوهَا اسْتَوْثَقَ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ كَمَا فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَذَلَّهُمْ،وَقَالَ اخْتَارُوا إمَّا الْحَرْبَ وَإِمَّا السِّلْمَ الْمُخْزِيَةَ،وَقَالَ أَنَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالُوا هَذِهِ حَرْبُ الْحِيلَةِ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ،قَالَ تَشْهَدُونَ أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ وَنَنْزِعُ مِنْكُمْ الْكُرَاعَ يَعْنِي الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ،حَتَّى يَرَى خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَالْمُؤْمِنُونَ أَمْرًا بَعْدُ،فَهَكَذَا الْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ،إذَا أَظْهَرُوا الطَّاعَةَ يُرْسِلُ إلَيْهِمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَيُقِيمُ بِهِمْ الصَّلَوَاتِ،وَمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،وَإِمَّا أَنْ يَسْتَخْدِمَ بَعْضَ الْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ فِي جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ،وَيَجْعَلَهُمْ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ السِّلَاحَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ وَيُمْنَعُونَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ،وَإِمَّا أَنَّهُمْ يَضَعُونَهُ حَتَّى يَسْتَقِيمُوا،وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَ الْمُمْتَنِعُ مِنْهُمْ الْتِزَامَ الشَّرِيعَةِ،وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ،وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. [٨٠٤]

نفع الجهاد في الإسلام:

إنَّ نَفْعَ الْجِهَادِ عَامٌّ لِفَاعِلِهِ وَلِغَيْرِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَمُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَتَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ لَهُ وَالصَّبْرِ وَالزُّهْدِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ:عَلَى مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَمَلٌ آخَرُ.وَالْقَائِمُ بِهِ مِنَ الشَّخْصِ وَالْأُمَّةِ بَيْنَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ دَائِمًا.إمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ.

---

٨٠٤ - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٧٢)

فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَحْيَا وَمَمَات فَفيه اسْتعْمَالُ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتهمْ فِي غَايَة سَعَادَتهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخرَة وَفِي تَرْكه ذَهَابُ السَّعَادَتَيْنِ أَوْ نَقْصُهُمَا؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَعْمَال الشَّديدَة فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا مَعَ قلَّة مَنْفَعَتهَا،فَالْجهَادُ أَنْفَعُ فيهمَا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَديد وَقَدْ يَرْغَبُ فِي تَرْفيه نَفْسه حَتَّى يُصَادفَهُ الْمَوْتُ فَمَوْتُ الشَّهِيدِ أَيْسَرُ مِنْ كُلِّ ميتَة وَهيَ أَفْضَلُ الْميتَات.

وَإِذَا كَانَ أَصْلُ الْقتَال الْمَشْرُوعِ هُوَ الْجهَادُ وَمَقْصُودُهُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للَّه وَأَنْ تَكُونَ كَلمَةُ اللَّه هيَ الْعُلْيَا فَمَنْ امْتَنَعَ منْ هَذَا قُوتلَ باتِّفَاق الْمُسْلمينَ.[٨٠٥]

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ منْ أَهْلِ الْمُمَانَعَة وَالْمُقَاتلَة كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالرَّاهبِ وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْأَعْمَى وَالزَّمِنِ وَنَحْوِهِمْ فَلَا يُقْتَلُ عنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ؛ إلَّا أَنْ يُقَاتلَ بقَوْله أَوْ فعْله وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَرَى إبَاحَةَ قَتْلِ الْجَميعِ لمُجَرَّد الْكُفْرِ؛ إلَّا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ؛ لكَوْنهمْ مَالًا للْمُسْلمينَ.وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ؛ لأَنَّ الْقتَالَ هُوَ لمَنْ يُقَاتلُنَا[٨٠٦] إذَا أَرَدْنَا إظْهَارَ دينِ اللَّه كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ وَقَاتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذينَ يُقَاتلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحبُّ الْمُعْتَدينَ } [البقرة:١٩٠].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ في غَزْوَة فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمعينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَة

[٨٠٥] - الْقَصْدُ مِن الْجِهادِ دعْوةُ غيْرِ الْمُسْلمين إلى الإِسْلامِ، أوِ الدُّخُول فِي ذمّة الْمُسْلمين ودفْعِ الْجزْية، وجريانُ أحْكامِ الإِسْلامِ عليْهِمْ، وبِذلِك ينْتهِي تعرُّضُهُمْ للْمُسْلمين، واعْتداؤُهُمْ على بلادِهِمْ، ووُقُوفُهُمْ فِي طرِيقِ نشْرِ الدّعْوة الإِسْلاميّة، وينْقطِعُ دابرُ الْفسادِ، قال تعالى: {وقاتلُوهُمْ حتّى لا تكُون فتْنةٌ ويكُون الدِّينُ للّه فإِن انْتهوْا فلا عُدْوان إلّا على الظّالمين} [البقرة:١٩٣].وقال عزّ وجل: {هُو الّذي أرْسل رسُولهُ بِالْهُدى ودِينِ الْحقِّ لِيُظْهِرهُ على الدِّينِ كُلِّه ولوْ كره الْمُشْرِكُون} [التوبة:٣٣].وقدْ مضتْ سُنّةُ رسُول اللّه - صلى الله عليه وسلم - وسيرتُهُ، وسيرةُ الْخُلفاءِ الرّاشدِين مِنْ بعْدِهِ على جهادِ الْكُفّارِ، وتخْيِيرِهِمْ بيْن ثلاثةِ أُمُورٍ مُرتّبةٍ وهِي: قبُول الدُّخُول فِي الإِسْلامِ، أوِ الْبقاءُ على دِينِهِمْ مع أداءِ الْجزْيةِ، وعقْدُ الذِّمّة.فإِنْ لمْ يقْبلُوا، فالْقتال.ولا ينْطبِقُ هذا على مُشْرِكِي الْعربِ.المفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص: ١٤٢٥) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٢)

[٨٠٦] - يعني من غير المقاتلين كالنساء والأطفال ونحوهم، ولقد احتج فقهاء الهزيمة بهذا الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية لإنكار جهاد الطلب على حدِّ زعمهم، ونسوا قوله المحكم الصريح في بداية الكلام وهو قوله : " فَمَنْ امْتَنَعَ منْ هَذَا قُوتلَ باتِّفَاقِ الْمُسْلمينَ"

قَتيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذه لتُقَاتلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لخَالد لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسيفًا»[٨٠٧] .

وَفيها عَنْ خَالد بْنِ الْفِزْرِ،حَدَّثَني أَنَسُ بْنُ مَالك،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«انْطَلقُوا باسْمِ اللَّه وَباللَّه وَعَلَى ملَّة رَسُول اللَّه،وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانيًا وَلَا طفْلًا وَلَا صَغيرًا وَلَا امْرَأَةً،وَلَا تَغُلُّوا،وَضُمُّوا غَنَائمَكُمْ،وَأَصْلحُوا وَأَحْسنُوا إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُحْسنينَ».[٨٠٨]

وعَنْ خَالد بْنِ الْفَزْرِ،قَالَ:حَدَّثَني أَنَسُ بْنُ مَالك،قَالَ:كُنْتُ أَحْملُ سَفْرَةَ أَصْحَابي،وَكُنَّا إذَا اسْتُنفرْنَا نَزَلْنَا بظَهْرِ الْمَدينَة،حَتَّى يَخْرُجَ إلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺفَيَقُولُ:انْطَلقُوا بسْمِ الله،وَفي سَبيلِ الله تُقَاتلُونَ أَعْدَاءَ الله في سَبيلِ الله،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانيًا،وَلاَ طفْلاً صَغيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا.[٨٠٩]

وَذَلكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَ منْ قَتْلِ النُّفُوسِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْه في صَلَاحِ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ وَالْفتْنَةُ أَكْبَرُ منَ الْقَتْلِ } [البقرة:٢١٧].أَيْ أَنَّ الْقَتْلَ وَإنْ كَانَ فيه شَرٌّ وَفَسَادٌ فَفي فتْنَة الْكُفَّارِ منَ الشَّرِّ وَالْفَسَاد مَا هُوَ أَكْبَرُ منْهُ،فَمَنْ لَمْ يَمْنَعْ الْمُسْلمينَ منْ إقَامَة دينِ للَّه لَمْ تَكُنْ مَضَرَّةَ كُفْره إلَّا عَلَى نَفْسه؛ وَلهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ:إنَّ الدَّاعيَةَ إلَى الْبدَعِ الْمُخَالفَة للْكتَاب وَالسُّنَّة يُعَاقَبُ بمَا لَا يُعَاقَبُ به السَّاكتُ.[٨١٠]

وَجَاءَ في الْحَديث عَنْ بلَال بْنِ سَعْد قَالَ:«إنَّ الْخَطيئَةَ إذَا أُخْفيَتْ لَمْ تَضُرَّ إلَّا أَهْلَهَا،وَإذَا أُظْهرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّت الْعَامَّةَ»[٨١١].

وَلهَذَا أَوْجَبَتْ الشَّرِيعَةُ قتَالَ الْكُفَّارِ وَلَمْ تُوجبْ قَتْلَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهمْ منْهُمْ؛ بَلْ إذَا أُسرَ الرَّجُلُ منْهُمْ في الْقتَال أَوْ غَيْرِ الْقتَال مثْلَ أَنْ تُلْقيَهُ السَّفينَةُ إلَيْنَا أَوْ يَضلَّ الطَّرِيقَ أَوْ يُؤْخَذَ بحيلَة فَإنَّهُ يَفْعَلُ فيه الْإمَامُ الْأَصْلَحَ منْ قَتْله أَوْ اسْتعْبَادَهُ أَوْ الْمَنَّ عَلَيْه أَوْ مُفَادَاتَهُ بمَالٍ أَوْ

---

[٨٠٧] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٩) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١١٢)(٤٧٩١) صحيح

[٨٠٨] - سنن أبي داود (٣/ ٣٨)(٢٦١٤) حسن

[٨٠٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) حسن — زيادة مني

[٨١٠] - انظر :الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٢/ ٢٦٣) التَّعْزِيرُ بِالْقَتْل

[٨١١] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٢٢) صحيح مقطوع

نَفْسٍ عِنْدَ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.وَإِنْ كَانَ مِنْ الْفُقَهَاءِ مَنْ يَرَى الْمَنَّ عَلَيْهِ وَمُفَادَاتَهُ مَنْسُوخًا.[812]

\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-\-

يقاتل أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أن يعطوا الجزية

فَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسُ فَيُقَاتَلُونَ،حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.[813]وَمَنْ سِوَاهُمْ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ،إلَّا أَنَّ عَامَّتَهُمْ لَا يَأْخُذُونَهَا مِنِ الْعَرَبِ[814].

وجوب قتال الطوائف الممتنعة حتى يكون الدين كله لله

وَأَيُّمَا طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ انْتَسَبَتْ إلَى الْإِسْلَامِ وَامْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ جِهَادُهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ:

كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَانِعِي الزَّكَاةِ – وَكَانَ قَدْ تَوَقَّفَ فِي قِتَالِهِمْ بَعْضُ الصَّحَابَةِ – ثُمَّ اتَّفَقُوا،حَتَّى قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ،فَقَالَ عُمَرُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[815].

---

[812] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٣)

[813] - لقوله تعالى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة: ٢٩]

وانظر : المفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص: ٩٠١)قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية

[814] - المفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص: ٩٨٦) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٥/ ١٧١)

[815] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٤) وصحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

[ش (حق المال) أي داخل تحت الاستثناء الرافع للعصمة المبيح للقتال.(عقالا) هو الحبل الذي تشد به يد البعير مع ذراعه حتى لا يشرد.(عناقا) العناق الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة]

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺمِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا،فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ،أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ،وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،فَإِنَّ الحَرْبَ خِدْعَةٌ،وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ،أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ،سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ،يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ،لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ،كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ،فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٨١٦].

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عن زَيْدَ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِيِّ،أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ،فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ،وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ،وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ،لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»،لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ،مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ،لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ،«وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ،وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ،عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ،عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ» فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،وَاللهِ،إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ،فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ،وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ،فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ.قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ:فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا،حَتَّى قَالَ:مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ،فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ،فَقَالَ:لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ،وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا،فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ،فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ،وَسَلُّوا السُّيُوفَ،وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ،قَالَ:وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ،فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ،فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ،فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ

---

[٨١٦] - صحيح البخاري (٩/ ١٦)(٦٩٣٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٧)١٥٥ - (١٠٦٦)

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،قَالَ:أَخِّرُوهُمْ،فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ،فَكَبَّرَ،ثُمَّ قَالَ:صَدَقَ اللهُ،وَبَلَّغَ رَسُولُهُ،قَالَ:فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،أَللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ:إِي،وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا،وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ "[817]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،قَالَ:بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ،فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ وَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ،حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ،أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ ابْنِ أَبِي نُعْمٍ،عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ،قَالَ:بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِاليَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا،فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحَنْظَلِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ،وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزَارِيِّ وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ العَامِرِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ وَبَيْنَ زَيْدِ الخَيْلِ الطَّائِيِّ،ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ،فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا:يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ،وَيَدَعُنَا قَالَ:«إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ»،فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ،نَاتِئُ الجَبِينِ،كَثُّ اللِّحْيَةِ،مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ،مَحْلُوقُ الرَّأْسِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،اتَّقِ اللَّهَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ،فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ،وَلاَ تَأْمَنُونِي»،فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ قَتْلَهُ،أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ،فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ،فَلَمَّا وَلَّى،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا،قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ،لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ،يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ،وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ،لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ [818]

---

[817] - صحيح مسلم (٢/ ٧٤٨)١٥٦ - (١٠٦٦) – ذكرها مختصرة

[ش (لا تجاوز صلاتهم تراقيهم) المراد بالصلاة هنا القراءة لأنها جزؤها (وأغاروا في سرح الناس) السرح والسارح والسارحة الماشية أي أغاروا على مواشيهم السائمة (فنزلني زيد بن وهب منزلا) هكذا هو في معظم النسخ منزلا مرة واحدة وفي نادر منها منزلا منزلا مرتين وهو وجه الكلام أي ذكر لي مراحلهم بالجيش منزلا منزلا حتى بلغ القنطرة التي كان القتال عندها (وسلوا سيوفكم من جفونها) أي أخرجوهامن أغمادها جمع جفن وهو الغمد (فإني أخاف أن يناشدوكم) يقال نشدتك الله وناشدتك الله أي سألتك بالله وأقسمت عليك (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعد منهم ودخلوا فيهم بالسيوف حتى لا يجدوا فرصة (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنوهم بها ومنه التشاجر في الخصومة وسمي الشجر شجرا لتداخل أغصانه والمراد بالناس أصحاب علي (حتى استحلفه ثلاثا) قال الإمام النووي وإنما استحلفه ليسمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم ويظهر لهم المعجزة التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر لهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفتين بالحق وأنهم محقون في قتالهم]

[818] - صحيح البخاري (٩/ ١٢٧)(٧٤٣٢) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤١)١٤٣ - (١٠٦٤) – ذكره مختصراً

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ،فَيَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»[819]

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رضي الله عنه لَمَّا حَصَلَتْ الْفُرْقَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحَرُورِيَّةَ.بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺأَنَّ كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ الْمُفْتَرِقَتَيْنِ مِنْ أُمَّتِهِ وَأَنَّ أَصْحَابَ عَلِيٍّ أَوْلَى بِالْحَقِّ،وَلَمْ يُحَرِّضْ إلَّا عَلَى قِتَالِ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ،وَفَارَقُوا الْجَمَاعَةَ،وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ،فَثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ،أَنَّهُ يُقَاتَلُ مَنْ خَرَجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ،وَإِنْ تَكَلَّمَ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

هل تقاتل الطائفة الممتنعة التاركة للسنن الراتبة ؟

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الطَّائِفَةِ الْمُمْتَنِعَةِ،لَوْ تَرَكَتْ السُّنَّةَ الرَّاتِبَةَ كَرَكْعَتَيْ الْفَجْرِ،هَلْ يَجُوزُ قِتَالُهَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَأَمَّا الْوَاجِبَاتُ وَالْمُحَرَّمَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْمُسْتَفِيضَةُ،فَيُقَاتَلُ عَلَيْهَا بِالِاتِّفَاقِ:

[ش (بذهبة) هكذا هو في جميع نسخ بلادنا بذهبة بفتح الذال وكذا نقله القاضي عن جميع رواة مسلم عن الجلودى (في تربتها) صفة لذهبة يعني أهاغير مسبوكة لم تخلص من ترابها (وزيد الخير) كذا هو في جميع النسخ الخير وفي الرواية التي بعدها زيد الخيل وكلاهما صحيح يقال بالوجهين كان يقال له في الجاهلية زيد الخيل فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام زيد الخير (صناديد نجد) أي ساداتها واحدها صنديد (كث اللحية) قال ابن الأثير الكثاثة في اللحية أن تكون غير دقيقة ولا طويلة وفيها كثافة يقال رجل كث اللحية بالفتح وقوم كث بالضم (مشرف الوجنتين) أي غليظهما والوجنتان تثنية وجنة والوجنة من الإنسان ما ارتفع من لحم خده (غائر العينين) أي أن عينيه داخلتان في محاجرهما لاصقتان بقعر الحدقة (ناتئ الجبين) أي بارز الجبين من النتوء وهو الإرتفاع ولعل الجبين وقع هنا غلطا من الجبهة والرواية الصحيحة هي ما يأتي بعد هذه من قوله ناشز الجبهة أو ناتئ الجبهة فإن الجبين جانب الجبهة ولكل إنسان جبينان يكتنفان الجبهة وهما لا يوصفان بالنتوء (محلوق الرأس) وحلق الرأس إذ ذاك مخالف للعرب فإنهم لا يحلقون رؤوسهم وكانوا يفرقون شعورهم (إن من ضئضئى هذا) هو أصل الشيء وهكذا هو في جميع نسخ بلادنا وحكاه القاضي عن الجمهور وعن بعضهم أنه ضبطه بالمعجمتين والمهملتين جميعا وهذا صحيح في اللغة قالوا ولأصل الشيء أسماء كثيرة منها الضئضئى بالمعجمتين والمهملتين والنجار والنحاس والسنخ والعنصر والعيص والأرومة (قتل عاد) أي قتلا عاما مستأصلا كما قال تعالى فهل ترى لهم من باقية]

[819] - صحيح مسلم (٢/ ٧٤٦)١٥٢ - (١٠٦٤)

حَتَّى يَلْتَزِمُوا أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ،وَيُؤَدُّوا الزَّكَاةَ،وَيَصُومُوا شَهْرَ رَمَضَانَ،وَيَحُجُّوا الْبَيْتَ،وَيَلْتَزِمُوا تَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنْ نِكَاحِ الْأَخَوَاتِ وَأَكْلِ الْخَبَائِث،وَالاعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقِتَالُ هَؤُلَاءِ وَاجِبٌ ابْتِدَاءً،بَعْدَ بُلُوغِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺإِلَيْهِمْ،بِهَا يُقَاتَلُونَ عَلَيْهِ.فَأَمَّا إذَا بَدَءُوا الْمُسْلِمِينَ،فَيَتَأَكَّدُ قِتَالُهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي قِتَالِ الْمُمْتَنِعِينَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ قُطَّاعِ الطُّرُقِ وَأَبْلَغُ.

الجهاد الواجب ابتداءً ودفعاً

الْجِهَادِ الْوَاجِبُ لِلْكُفَّارِ،وَالْمُمْتَنِعِينَ عَنْ بَعْضِ الشَّرَائِعِ،كَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَنَحْوِهِمْ،يَجِبُ ابْتِدَاءً وَدَفْعًا.فَإِذَا كَانَ ابْتِدَاءً،فَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ[820]،إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ الْفَرْضُ عَنِ الْبَاقِينَ،وَكَانَ الْفَضْلُ لِمَنْ قَامَ بِهِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء:٩٥].

متى يصير الجهاد فرض عين ؟

فَأَمَّا إِذَا أَرَادَ الْعَدُوُّ الْهُجُومَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يَصِيرُ دَفْعُهُ وَاجِبًا عَلَى الْمَقْصُودِينَ كُلِّهِمْ،وَعَلَى غَيْرِ الْمَقْصُودِينَ،لِإِعَانَتِهِمْ:كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال:٧٢] وَكَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺبِنَصْرِ الْمُسْلِمِ،وَسَوَاءٌ أَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ لِلْقِتَالِ[821] أَوْ لَمْ يَكُنْ،وَهَذَا يَجِبُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ،مَعَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ،وَالْمَشْيِ وَالرُّكُوبِ،كَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ،لَمَّا قَصَدَهُمْ الْعَدُوُّ عَامَ الْخَنْدَقِ وَلَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ فِي تَرْكِهِ أَحَدًا كَمَا أَذِنَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ابْتِدَاءً لِطَلَبِ الْعَدُوِّ،الَّذِي قَسَّمَهُمْ فِيهِ إِلَى قَاعِدٍ

---

[820] - يعني جهاد الطلب – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٢)

[821] - المرتزقة للقتال أي المتطوعون في الجيش وياخذون راتبا دائما من الدولة المسلمة

وَخَارِجٍ.بَلْ ذَمَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) } [الأحزاب:١٣ - ١٥]

فَهَذَا دَفْعٌ عَنِ الدِّينِ وَالْحُرْمَةِ وَالْأَنْفُسِ،وَهُوَ قِتَالُ اضْطِرَارٍ،وَذَلِكَ قِتَالُ اخْتِيَارٍ[٨٢٢] ؛ لِلزِّيَادَةِ فِي الدِّينِ وَإِعْلَائِهِ وَلِإِرْهَابِ الْعَدُوِّ،كَغُزَاةِ تَبُوكَ وَنَحْوِهَا،فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعُقُوبَةِ،هُوَ لِلطَّوَائِفِ الْمُمْتَنِعَةِ.[٨٢٣]

____

وجوب إلزام الطوائف غير المتنعة بشرائع الإسلام

فَأَمَّا غَيْرُ الْمُمْتَنِعِينَ مِنْ أَهْلِ دِيَارِ الْإِسْلَامِ وَنَحْوِهِمْ فَيَجِبُ إلْزَامُهُمْ بِالْوَاجِبَاتِ الَّتِي هِيَ مَبَانِي الْإِسْلَامِ الْخَمْسُ وَغَيْرُهَا،مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.فَمَنْ كَانَ لَا يصلي من جميع الناس:من رِجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ فَإِنَّهُ يُؤْمَرُ بِالصَّلَاةِ،فَإِنِ امْتَنَعَ عُوقِبَ حَتَّى يُصَلِّيَ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ.ثُمَّ إنَّ أَكْثَرَهُمْ يُوجِبُونَ قَتْلَهُ إذَا لَمْ يُصَلِّ،فَيُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.وَهَلْ يُقْتَلُ كَافِرًا أَوْ مُرْتَدًّا أَوْ فَاسِقًا؛ عَلَى قَوْلَيْنِ

---

[٨٢٢] - يقصد جهاد الطلب

[٨٢٣] - إِذَا اسْتَوْلَى الْكُفَّارُ عَلَى بُقْعَةٍ مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ صَارَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ النَّاحِيَةِ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْكُفَّارُ، رِجَالاً وَنِسَاءً، صِغَارًا وَكِبَارًا، أَصِحَّاءَ وَمَرْضَى، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَهْل النَّاحِيَةِ دَفْعَ الْعَدُوِّ عَنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ، صَارَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَهْل النَّوَاحِي الأُْخْرَى مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ، وَهَكَذَا حَتَّى يَكُونَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يَجُوزُ تَمْكِينُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ .وَيَأْثَمُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا تَرَكُوا غَيْرَهُمْ يَسْتَوْلِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ .

وَيَجِبُ عَلَى أَهْل بُلْدَانِ دَارِ الإِْسْلاَمِ، وَقُرَاهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِقَامَةُ شَعَائِرِ الإِْسْلاَمِ، وَإِظْهَارُهَا فِيهَا كَالْجُمُعَةِ، وَالْجَمَاعَةِ، وَصَلاَةِ الْعِيدَيْنِ، وَالأَْذَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ الإِْسْلاَمِ، فَإِنْ تَرَكَ أَهْل بَلَدٍ أَوْ قَرْيَةٍ إِقَامَةَ هَذِهِ الشَّعَائِرِ أَوْ إِظْهَارَهَا قُوتِلُوا وَإِنْ أَقَامُوهَا سِرًّا .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٠/ ٢٠١)

مَشْهُورَيْنِ فِي مذهب أحمد وغيره.والمنقول عن أَكْثَرِ السَّلَفِ يَقْتَضِي كُفْرَهُ،وَهَذَا مَعَ الْإِقْرَارِ بِالْوُجُوبِ.فَأَمَّا مَنْ جَحَدَ الْوُجُوبَ فَهُوَ كَافِرٌ بِالِاتِّفَاقِ ."[824]

رأيه بمن يؤله عليًّا رضي الله عنه:

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ:عَمَّنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِمَامَ الْحَقَّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَصَّ عَلَى إمَامَتِهِ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ ظَلَمُوهُ وَمَنَعُوهُ حَقَّهُ وَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ.فَهَلْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ؟ وَيَكْفُرُونَ بِهَذَا الِاعْتِقَادِ أَمْ لَا؟.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مُمْتَنِعَةٍ عَنْ شَرِيعَةٍ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.فَلَوْ قَالُوا:نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي أَوْ نُصَلِّي الْخَمْسَ وَلَا نُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَلَا الْجَمَاعَةَ أَوْ نَقُومُ بِمَبَانِي الْإِسْلَامِ الْخَمْسِ وَلَا نُحَرِّمُ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ أَوْ لَا نَتْرُكُ الرِّبَا وَلَا الْخَمْرَ وَلَا الْمَيْسِرَ أَوْ نَتَّبِعُ الْقُرْآنَ وَلَا نَتَّبِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا نَعْمَلُ بِالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ أَوْ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى خَيْرٌ مِنْ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ أَهْلَ الْقِبْلَةِ قَدْ كَفَرُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ إلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ أَوْ قَالُوا:إنَّا لَا نُجَاهِدُ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَمَا عَلَيْهِ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ.فَإِنَّهُ يَجِبُ جِهَادُ هَذِهِ الطَّوَائِفِ جَمِيعِهَا كَمَا جَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَجَاهَدُوا الْخَوَارِجَ وَأَصْنَافَهُمْ وَجَاهَدُوا الخرمية وَالْقَرَامِطَةَ وَالْبَاطِنِيَّةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَصْنَافِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ.وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}.فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.وَقَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} فَلَمْ يَأْمُرْ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِمْ إلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَبَعْدَ إقَامِ

---

[824] - مجموع الفتاوى (28/ 353)

الصَّلَاة وَإِيتَاء الزَّكَاة.وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا لَمْ تَنْتَهِ عَنْ الرِّبَا فَقَدْ حَارَبَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالرِّبَا آخِرُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَمَا حَرَّمَهُ قَبْلَهُ أَوْكَدُ.وَقَالَ تَعَالَى:{إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}.

فَكُلُّ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ عَنْ الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ عَمِلَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فَقَدْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا؛وَلِهَذَا تَأَوَّلَ السَّلَفُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْكُفَّارِ وَعَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ؛حَتَّى أَدْخَلَ عَامَّةُ الْأَئِمَّةِ فِيهَا قُطَّاعَ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يُشْهِرُونَ السِّلَاحَ لِمُجَرَّدِ أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَجَعَلُوهُمْ بِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْقِتَالِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَاعِينَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا.وَإِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ مَا فَعَلُوهُ وَيُقِرُّونَ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ.فَاَلَّذِي يَعْتَقِدُ حِلَّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ وَيَسْتَحِلُّ قِتَالَهُمْ.أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَاعِيًا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مِنْ هَؤُلَاءِ.كَمَا أَنَّ الْكَافِرَ الْحَرْبِيَّ الَّذِي يَسْتَحِلُّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ وَيَرَى جَوَازَ قِتَالِهِمْ:أَوْلَى بِالْمُحَارَبَةِ مِنْ الْفَاسِقِ الَّذِي يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ.وَكَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ الَّذِي خَرَجَ عَنْ بَعْضِ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَاسْتَحَلَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ وَأَمْوَالِهِمْ:هُوَ أَوْلَى بِالْمُحَارَبَةِ مِنْ الْفَاسِقِ وَإِنْ اتَّخَذَ ذَلِكَ دِينًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ.كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَتَّخِذُ مُحَارَبَةَ الْمُسْلِمِينَ دِينًا تَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ.وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْبِدَعَ الْمُغَلَّظَةَ شَرٌّ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي يَعْتَقِدُ أَصْحَابُهَا أَنَّهَا ذُنُوبٌ.وَبِذَلِكَ مَضَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ عَنْ السُّنَّةِ وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْأَئِمَّةِ وَظُلْمِهِمْ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ مَعَ ذُنُوبِهِمْ وَشَهِدَ لِبَعْضِ الْمُصِرِّينَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى بَعْضِ الذُّنُوبِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَنَهَى عَنْ لَعْنَتِهِ وَأَخْبَرَ عَنْ ذِي الخويصرة وَأَصْحَابِهِ – مَعَ عِبَادَتِهِمْ وَوَرَعِهِمْ – أَنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ.وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَرْضَى بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمِيعِ مَا يَشْجُرُ بَيْنَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَحَتَّى لَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ حَرَجٌ مِنْ حُكْمِهِ.وَدَلَائِلُ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ كَثِيرَةٌ.وَبِذَلِكَ جَاءَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ.فَفِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:" لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ مِنْ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {:أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ} ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَلَمْ يَقُلْ إلَّا بِحَقِّهَا؟ فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا.وَاَللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا.فَقَالَ عُمَرُ:فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت أَنَّ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ ".فَاتَّفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قِتَالِ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ إذَا امْتَنَعُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ.وَهَذَا الِاسْتِنْبَاطُ مِنْ صِدِّيقِ الْأُمَّةِ قَدْ جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ.فَفِي الصَّحِيحَيْنِ:عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا} فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ حَتَّى يُؤَدُّوا هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ.وَهَذَا مُطَابِقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ.وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْرَجَ مِنْهَا أَصْحَابُ الصَّحِيحِ عَشَرَةَ أَوْجُهٍ ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا الْبُخَارِيُّ غَيْرَ وَجْهٍ.وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد - رَحِمَهُ اللَّهُ -:صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ.قَالَ ﷺ {يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ.يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ مَاذَا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ}.وَفِي رِوَايَةٍ {لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ} وَفِي رِوَايَةٍ:{شَرَّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ.خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ}.وَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ

أَبِي طَالِبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ بحرورا لَمَّا خَرَجُوا عَنْ السُّـــنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ؛فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حباب وَأَغَـــارُوا عَلَى مَاشِيَةِ الْمُسْلِمِينَ.فَقَامَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَخَطَـــبَ النَّـــاسَ وَذَكَـــرَ الْحَدِيثَ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْأَمْوَالَ فَاسْتَحَلَّ قِتَالَهُمْ وَفَرِحَ بِقَتْلِهِمْ فَرَحًا عَظِيمًـــا وَلَمْ يَفْعَلْ فِي خِلَافَتِهِ أَمْرًا عَامًّا كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ قِتَالِ الْخَوَارِجِ.وَهُمْ كَانُوا يُكَفِّـــرُونَ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا.وَكَانُوا يَعْمَلُونَ بِالْقُرْآنِ فِي زَعْمِهِـــمْ وَلَـــا يَتَّبِعُونَ سُنَّةَ رَسُولِ ﷺ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُخَالِفُ الْقُرْآنَ.كَمَا يَفْعَلُهُ سَائِرُ أَهْلِ الْبِدَعِ - مَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ وَوَرَعِهِمْ.وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ نَحْوِ ثَمَـــانِينَ وَجْهًا أَنَّهُ قَالَ:خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا:أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ.وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّـــهُ حَـــرَّقَ غَالِيَـــةَ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ.وَرُوِيَ عَنْهُ بِأَسَانِيدَ جَيِّدَةٍ أَنَّهُ قَالَ:لَا أُوتَى بِأَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلَّا جَلَدْته حَدَّ الْمُفْتَرِي.وَعَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَبَأٍ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لِيَقْتُلَهُ فَهَرَبَ مِنْهُ.وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجُلٍ فَضَّلَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُجْلَدَ لِذَلِكَ.وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِصَبِيغِ بْنِ عِسْلٍ؛لَمَّا ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ الْخَوَارِجِ:لَوْ وَجَدْتُك مَحْلُوقًا لَضَرَبْت الَّذِي فِيهِ عَيْنَاك.فَهَذِهِ سُنَّةُ أَمِيرِ الْمُـــؤْمِنِينَ عَلِـــيٍّ وَغَيْرُهُ قَدْ أَمَرَ بِعُقُوبَةِ الشِّيعَةِ:الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ وَأَخَفُّهُمْ الْمُفَضِّـــلَةُ.فَـــأَمَرَ هُـــوَ وَعُمَـــرُ بِجَلْدِهِمْ.وَالْغَالِيَةُ يُقْتَلُونَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ الْإِلَهِيَّةَ وَالنُّبُوَّةَ فِي عَلِـــيٍّ وَغَيْرِهِ مِثْلَ النُّصَيْرِيَّةِ والْإِسْماعيلِيَّةُ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ:بَيْتُ صَاد وَبَيْتُ سِينٍ وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ مِنْ الْمُعَطِّلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الصَّانِعِ أَوْ يُنْكِـــرُونَ الْقِيَامَـــةَ أَوْ يُنْكِـــرُونَ ظَـــوَاهِرَ الشَّرِيعَةِ:مِثْلَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَيَتَأَوَّلُونَ ذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِمْ وَكِتْمَانِ أَسْرَارِهِمْ وَزِيَارَةِ شُيُوخِهِمْ.وَيَرَوْنَ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَـــالٌ لَهُـــمْ وَنِكَاحُ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ حَلَالٌ لَهُمْ.فَإِنَّ جَمِيعَ هَؤُلَـــاءِ الْكُفَّـــارِ أَكْفَـــرُ مِـــنْ الْيَهُـــودِ وَالنَّصَارَى.فَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ عَنْ أَحَدِهِمْ ذَلِكَ كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَمَنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ كَانَ أَشَدَّ مِنْ الْكَافِرِينَ كُفْرًا.فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَرَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَا بِجِزْيَةٍ وَلَا ذِمَّةٍ وَلَا يَحِلُّ نِكَاحُ نِسَائِهِمْ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ؛لِأَنَّهُمْ مُرْتَـــدُّونَ مِـــنْ شَـــرِّ

الْمُرْتَدِّينَ.فَإِنْ كَانُوا طَائِفَةً مُمْتَنِعَةً وَجَبَ قِتَالُهُمْ كَمَا يُقَاتَلُ الْمُرْتَدُّونَ كَمَا قَاتَلَ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَإِذَا كَانُوا فِي قُرَى الْمُسْلِمِينَ فُرِّقُوا وَأُسْكِنُوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَأُلْزِمُوا بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.وَلَيْسَ هَذَا مُخْتَصًّا بِغَالِيَةِ الرَّافِضَةِ بَلْ مَنْ غَلَا فِي أَحَدٍ مِنْ الْمَشَايِخِ وَقَالَ:إنَّهُ يَرْزُقُهُ أَوْ يُسْقِطُ عَنْهُ الصَّلَاةَ أَوْ أَنَّ شَيْخَهُ أَفْضَلُ مِنْ النَّبِيِّ أَوْ أَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّ لَهُ إلَى اللَّهِ طَرِيقًا غَيْرَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمَشَايِخِ يَكُونُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى.وَكُلُّ هَؤُلَاءِ كُفَّارٌ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلُ الْوَاحِدِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ مِنْهُمْ.وَأَمَّا الْوَاحِدُ الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ مِنْ الْخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمَا – أَعْنِي عُمَرَ وَعَلِيًّا – قَتْلُهُمَا أَيْضًا.وَالْفُقَهَاءُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي قَتْلِ الْوَاحِدِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ مِنْ هَؤُلَاءِ فَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي وُجُوبِ قَتْلِهِمْ إذَا كَانُوا مُمْتَنِعِينَ.فَإِنَّ الْقِتَالَ أَوْسَعُ مِنْ الْقَتْلِ كَمَا يُقَاتَلُ الصَّائِلُونَ الْعُدَاةُ وَالْمُعْتَدُونَ الْبُغَاةُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إذَا قُدِرَ عَلَيْهِ لَمْ يُعَاقَبْ إلَّا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ.وَهَذِهِ النُّصُوصُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْخَوَارِجِ قَدْ أَدْخَلَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى مَنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛بَلْ بَعْضُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية؛مِثْلُ الخرمية وَالْقَرَامِطَةِ وَالنُّصَيْرِيَّةِ وَكُلِّ مِنْ اعْتَقَدَ فِي بَشَرٍ أَنَّهُ إلَهٌ أَوْ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَقَاتَلَ عَلَى ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ:فَهُوَ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية.وَالنَّبِيُّ ﷺ إنَّمَا ذَكَرَ الْخَوَارِجَ الحرورية لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ خَرَجُوا بَعْدَهُ؛بَلْ أَوَّلُهُمْ خَرَجَ فِي حَيَاتِهِ.فَذَكَرَهُمْ لِقُرْبِهِمْ مِنْ زَمَانِهِ كَمَا خَصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَشْيَاءَ بِالذِّكْرِ لِوُقُوعِهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِثْلَ قَوْلِهِ:{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلَاقٍ}.وَقَوْلُهُ:{مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} وَنَحْوَ ذَلِكَ.وَمِثْلَ تَعْيِينِ النَّبِيِّ ﷺ قَبَائِلَ مِنْ الْأَنْصَارِ وَتَخْصِيصِهِ أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَجُهَيْنَةَ وَتَمِيمًا وَأَسَدًا وغطفان وَغَيْرَهُمْ بِأَحْكَامِ؛لِمَعَانٍ قَامَتْ بِهِمْ وَكُلُّ مَنْ وُجِدَتْ فِيهِ تِلْكَ الْمَعَانِي أُلْحِقَ بِهِمْ؛لِأَنَّ التَّخْصِيصَ بِالذِّكْرِ لَمْ يَكُنْ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْحُكْمِ؛بَلْ لِحَاجَةِ الْمُخَاطَبِينَ إذْ ذَاكَ إلَى تَعْيِينِهِمْ؛هَذَا إذَا لَمْ تَكُنْ أَلْفَاظُهُ شَامِلَةً لَهُمْ.وَهَؤُلَاءِ الرَّافِضَةُ إنْ لَمْ يَكُونُوا شَرًّا مِنْ الْخَوَارِجِ المنصوصين فَلَيْسُوا

دُونَهُمْ؛فَإِنَّ أُولَئِكَ إِنَّمَا كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَأَتْبَاعَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَقَطْ؛دُونَ مَنْ قَعَدَ عَنْ الْقِتَالِ أَوْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ.وَالرَّافِضَةُ كَفَّرَتْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَامَّةَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَكَفَّرُوا جَمَاهِيرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ والمتأخرين.فَيُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ اعْتَقَدَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الْعَدَالَةَ أَوْ تَرَضَّى عَنْهُمْ كَمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَلِهَذَا يُكَفِّرُونَ أَعْلَامَ الْمِلَّةِ:مِثْلَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني وَأُوَيْسٍ الْقَرْنِيِّ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِي وَمِثْلِ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِي وَأَبِي حَنِيفَةَ وَحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وفضيل بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي والْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّه التستري وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ.وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ مَنْ خَرَجَ عَنْهُمْ وَيُسَمُّونَ مَذْهَبَهُمْ مَذْهَبَ الْجُمْهُورِ كَمَا يُسَمِّيه الْمُتَفَلْسِفَةُ وَنَحْوُهُمْ بِذَلِكَ وَكَمَا تُسَمِّيه الْمُعْتَزِلَةُ مَذْهَبَ الْحَشْوِ وَالْعَامَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.وَيَرَوْنَ فِي أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْمَغْرِبِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ وَالْجَزِيرَةِ وَسَائِرِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ نِكَاحُ هَؤُلَاءِ وَلَا ذَبَائِحُهُمْ وَأَنَّ الْمَائِعَاتِ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنْ الْمِيَاهِ وَالْأَدْهَانِ وَغَيْرِهَا نَجِسَةٌ وَيَرَوْنَ أَنَّ كُفْرَهُمْ أَغْلَظُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.لِأَنَّ أُولَئِكَ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ أَصْلِيُّونَ وَهَؤُلَاءِ مُرْتَدُّونَ وَكُفْرُ الرِّدَّةِ أَغْلَظُ بِالْإِجْمَاعِ مِنْ الْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ.وَلِهَذَا السَّبَبِ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْجُمْهُورِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيُعَاوِنُونَ التَّتَارَ عَلَى الْجُمْهُورِ.وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي خُرُوجِ جنكيزخان مَلِكِ الْكُفَّارِ إلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَفِي قُدُومِ هُولَاكُو إلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ؛وَفِي أَخْذِ حَلَبَ وَنَهْبِ الصالحية وَغَيْرِ ذَلِكَ بِخُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ؛لَمَّا دَخَلَ فِيهِ مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرُ مَنْ تَوَزَّرَ مِنْهُمْ.وَبِهَذَا السَّبَبِ نَهَبُوا عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِمْ وَقْتُ انْصِرَافِهِ إلَى مِصْرَ فِي النَّوْبَةِ الْأُولَى.وَبِهَذَا السَّبَبِ يَقْطَعُونَ الطُّرُقَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.وَبِهَذَا السَّبَبِ ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ التَّتَارِ وَالْإِفْرِنْجِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْكَآبَةِ الشَّدِيدَةِ بِانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ مَا ظَهَرَ وَكَذَلِكَ لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ السَّاحِلَ – عَكَّةَ وَغَيْرَهَا – ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ الِانْتِصَارِ لِلنَّصَارَى

وَتَقْدِيمِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَدْ سَمِعَهُ النَّاسُ مِنْهُمْ.وَكُلُّ هَذَا الَّذِي وَصَفْت بَعْضَ أُمُورِهِمْ وَإِلَّا فَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَحْوَالِ؛أَنَّ أَعْظَمَ السُّيُوفِ الَّتِي سُلَّتْ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهَا وَأَعْظَمَ الْفَسَادِ الَّذِي جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ:إنَّمَا هُوَ مِنْ الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَيْهِمْ.فَهُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ وَأَبْعَدُ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلِهَذَا كَانُوا أَكْذَبَ فِرَقِ الْأُمَّةِ.فَلَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَى الْقِبْلَةِ أَكْثَرُ كَذِبًا وَلَا أَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِلْكَذِبِ وَتَكْذِيبًا لِلصِّدْقِ مِنْهُمْ وَسِيَّمَا النِّفَاقُ فِيهِمْ أَظْهَرُ مِنْهُ فِي سَائِرِ النَّاسِ؛وَهِيَ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ {آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ:إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ} وَفِي رِوَايَةٍ:{أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ}.وَكُلُّ مَنْ جَرَّبَهُمْ يَعْرِفُ اشْتِمَالَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ؛وَلِهَذَا يَسْتَعْمِلُونَ التَّقِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِيمَا الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ وَيَسْتَعْمِلونها مَعَ الْمُسْلِمِينَ {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} وَيَحْلِفُونَ مَا قَالُوا وَقَدْ قَالُوا وَيَحْلِفُونَ بِاَللَّهِ لِيَرْضَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ.وَقَدْ أَشْبَهُوا الْيَهُودَ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا سِيَّمَا السَّامِرَةُ مِنْ الْيَهُودِ؛فَإِنَّهُمْ أَشْبَهُ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ:يُشَبِّهُونَهُمْ فِي دَعْوَى الْإِمَامَةِ فِي شَخْصٍ أَوْ بَطْنٍ بِعَيْنِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِكُلِّ مَنْ جَاءَ بِحَقِّ غَيْرِهِ يَدْعُونَهُ وَفِي اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ أَوْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْخِيرِ الْفِطْرِ وَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَحْرِيمِ ذَبَائِحِ غَيْرِهِمْ.وَيُشْبِهُونَ النَّصَارَى فِي الْغُلُوِّ فِي الْبَشَرِ وَالْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ وَفِي الشِّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.وَهُمْ يُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهَذِهِ شِيَمُ الْمُنَافِقِينَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} وَقَالَ تَعَالَى:{تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}.وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ وَلَا نَقْلٌ وَلَا دِينٌ صَحِيحٌ وَلَا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً –

وَالْخَوَارِجُ كَانُوا يُصَلُّونَ جُمُعَةً وَجَمَاعَةً - وَهُمْ لَا يَرَوْنَ جِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ وَلَا طَاعَتَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا تَنْفِيذَ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِمْ؛لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسُوغُ إلَّا خَلَفَ إمَامٍ مَعْصُومٍ.وَيَرَوْنَ أَنَّ الْمَعْصُومَ قَدْ دَخَلَ فِي السِّرْدَابِ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعمِائَة وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.وَهُوَ إلَى الْآنِ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا رَآهُ أَحَدٌ وَلَا عَلَّمَ أَحَدًا دِينًا وَلَا حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ بَلْ مَضَرَّةٌ.وَمَعَ هَذَا فَالْإِيمَانُ عِنْدَهُمْ لَا يَصِحُّ إلَّا بِهِ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلَّا أَتْبَاعُهُ:مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ الضُّلَّالِ مِنْ سُكَّانِ الْجِبَالِ وَالْبَوَادِي أَوْ مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ بِالْبَاطِلِ:مِثْلُ ابْنِ الْعُودِ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ قَدْ كَتَبَ خَطَّهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.مِنْ الْمُخَازِي عَنْهُمْ وَصَرَّحَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُمْ وَبِأَكْثَرَ مِنْهُ.وَهُمْ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ يُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكُلِّ مَنْ آمَنَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ:فَآمَنَ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَمَشِيئَتِهِ الشَّامِلَةِ وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.وَأَكْثَرُ مُحَقِّقِيهِمْ عِنْدَهُمْ - يَرَوْنَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَكْثَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ؛مَا آمَنُوا بِاَللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ؛لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ الْكُفْرُ عِنْدَهُمْ يَكُونُ بَاطِلًا مِنْ أَصْلِهِ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ.وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ فَرْجَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي جَامَعَ بِهِ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَمَسَّهُ النَّارُ لِيُطَهَّرَ بِذَلِكَ مِنْ وَطْءِ الْكَوَافِرِ عَلَى زَعْمِهِمْ؛لِأَنَّ وَطْءَ الْكَوَافِرِ حَرَامٌ عِنْدَهُمْ.وَمَعَ هَذَا يَرُدُّونَ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّابِتَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ عَنْهُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِثْلَ أَحَادِيثِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَيَرَوْنَ أَنَّ شِعْرَ شُعَرَاءِ الرَّافِضَةِ:مِثْلُ الْحِمْيَرِيِّ وكوشيار الدَّيْلَمِيَّ وَعِمَارَةَ الْيَمَنِيِّ خَيْرًا مِنْ أَحَادِيثِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ.وَقَدْ رَأَيْنَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ وَقَرَابَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْنَا مِنْ الْكَذِبِ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.وَهُمْ مَعَ هَذَا يُعَطِّلُونَ الْمَسَاجِدَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ فَلَا يُقِيمُونَ فِيهَا جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً وَيَبْنُونَ عَلَى الْقُبُورِ الْمَكْذُوبَةِ وَغَيْرِ الْمَكْذُوبَةِ مَسَاجِدَ يَتَّخِذُونَهَا مَشَاهِدَ.وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ اتَّخَذَ الْمَسَاجِدَ عَلَى الْقُبُورِ وَنَهَى أُمَّتَهُ عَنْ ذَلِكَ.وَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ:{إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ.أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ}.وَيَرَوْنَ أَنَّ

حَجَّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْمَكْذُوبَةِ وَغَيْرِ الْمَكْذُوبَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ حَتَّى أَنَّ مِنْ مَشَايِخِهِمْ مَنْ يُفَضِّلُهَا عَلَى حَجِّ الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.وَوَصْفُ حَالِهِمْ يَطُولُ.فَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُمْ شَرٌّ مِنْ عَامَّةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَأَحَقُّ بِالْقِتَالِ مِنْ الْخَوَارِجِ.وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِيمَا شَاعَ فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ:أَنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ هُمْ الرَّافِضَةُ:فَالْعَامَّةُ شَاعَ عِنْدَهَا أَنَّ ضِدَّ السُّنِّيِّ هُوَ الرافضي فَقَطْ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُ مُعَانَدَةً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرَائِعِ دِينِهِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ.

وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ كَانُوا يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ بِمُقْتَضَى فَهْمِهِمْ وَهَؤُلَاءِ إنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْإِمَامَ الْمَعْصُومَ عِنْدَهُمْ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ.فَمُسْتَنَدُ الْخَوَارِجِ خَيْرٌ مِنْ مُسْتَنَدِهِمْ.وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ زِنْدِيقٌ وَلَا غَالٍ وَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الزَّنَادِقَةِ وَالْغَالِيَةِ مَنْ لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ.وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَبْدَأَ الرَّفْضِ إنَّمَا كَانَ مِنْ الزِّنْدِيقِ:عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ؛فَإِنَّهُ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ الْيَهُودِيَّةَ وَطَلَبَ أَنْ يُفْسِدَ الْإِسْلَامَ كَمَا فَعَلَ بولص النَّصْرَانِيُّ الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا فِي إفْسَادِ دِينِ النَّصَارَى.وَأَيْضًا فَغَالِبُ أَئِمَّتِهِمْ زَنَادِقَةٌ؛إنَّمَا يُظْهِرُونَ الرَّفْضَ.لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَتْهُ أَئِمَّةُ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ أَذْرَبِيجَانَ فِي زَمَنِ الْمُعْتَصِمِ مَعَ بَابك الخرمي وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ " الخرمية " وَ " الْمُحَمِّرَةَ " " وَالْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ " الَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ الْعِرَاقِ وَغَيْرِهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَأَخَذُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَبَقِيَ مَعَهُمْ مُدَّةً.كَأَبِي سَعِيدٍ الجنابي وَأَتْبَاعِهِ.وَالَّذِينَ خَرَجُوا بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ ثُمَّ جَاوَزُوا إلَى مِصْرَ وَبَنَوْا الْقَاهِرَةَ وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ فاطميُّونَ مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ أَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّ نَسَبَهُمْ مُتَّصِلٌ بِالْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِدِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ أَبْعَدُ عَنْ دِينِهِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.بَلْ الْغَالِيَةُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ إلَهِيَّةَ عَلِيٍّ وَالْأَئِمَّةِ.وَمِنْ أَتْبَاعِ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ أَهْلِ دُورِ الدَّعْوَةِ:الَّذِينَ كَانُوا بِخُرَاسَانَ وَالشَّامِ وَالْيَمَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ مَنْ أَعَانَ التَّتَارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ:بِالْمُؤَازَرَةِ وَالْوِلَايَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛لِمُبَايَنَةِ قَوْلِهِمْ لِقَوْلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛وَلِهَذَا كَانَ مَلِكُ الْكُفَّارِ هُولَاكُو " يُقَرِّرُ أَصْنَامَهُمْ.وَأَيْضًا فَالْخَوَارِجُ كَانُوا مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَأَوْفَاهُمْ بِالْعَهْدِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ وأنقضهم لِلْعَهْدِ.وَأَمَّا ذِكْرُ

الْمُسْتَفْتِي أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَهَذَا عَيْنُ الْكَذِبِ؛بَلْ كَفَرُوا مِمَّا جَاءَ بِهِ بِمَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ:فَتَارَةً يُكَذِّبُونَ بِالنُّصُوصِ الثَّابِتَةِ عَنْهُ.وَتَارَةً يُكَذِّبُونَ بِمَعَانِي التَّنْزِيلِ.وَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمَا لَمْ نُذْكَرْهُ مِنْ مَخَازِيهِمْ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الثَّنَاءِ عَلَى الصَّحَابَةِ وَالرِّضْوَانِ عَلَيْهِمْ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِحَقِيقَتِهِ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْجُمُعَةِ وَالْأَمْرِ بِالْجِهَادِ وَبِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُوَادَّتِهِمْ وَمُؤَاخَاتِهِمْ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ مَا هُمْ عَنْهُ خَارِجُونَ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَمُوَادَّتِهِمْ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ تَحْرِيمِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَتَحْرِيمِ الْغِيبَةِ وَالْهَمْزِ وَاللَّمْزِ:مَا هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ اسْتِحْلَالًا لَهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْجَمَاعَةِ والائتلاف وَالنَّهْيِ عَنْ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ مَا هُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَحَبَّتِهِ وَاتِّبَاعِ حُكْمِهِ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ حُقُوقِ أَزْوَاجِهِ مَا هُمْ بَرَاءٌ مِنْهُ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِ الْمُلْكِ لَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْهُ.فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ تَعْظِيمًا لِلْمَقَابِرِ الَّتِي أُتُّخِذَتْ أَوْثَانًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ وَصْفُهُ.وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّهْيِ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ.وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ:مَا هُمْ كَافِرُونَ بِهِ.وَلَا تَحْتَمِلُ الْفَتْوَى إلَّا الْإِشَارَةَ الْمُخْتَصَرَةَ.وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ إيمَانَ الْخَوَارِجِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ مِنْ إيمَانِهِمْ.فَإِذَا كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ قَتَلَهُمْ وَنَهَبَ عَسْكَرَهُ مَا فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ وَالْأَمْوَالِ فَهَؤُلَاءِ أَوْلَى أَنْ يُقَاتَلُوا وَتُؤْخَذَ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخَذَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمْوَالَ الْخَوَارِجِ.وَمَنْ اعْتَقَدَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّ قِتَالَ هَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ قِتَالِ الْبُغَاةِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ بِتَأْوِيلِ سَائِغٍ كَقِتَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِأَهْلِ الْجَمَلِ وصفين:فَهُوَ غالط جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَتَخْصِيصِهِ هَؤُلَاءِ

الْخَارِجِينَ عَنْهَا.فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَوْ سَاسُوا الْبِلَادَ الَّتِي يَغْلِبُونَ عَلَيْهَا بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ كَانُوا مُلُوكًا كَسَائِرِ الْمُلُوكِ؛وَإِنَّمَا هُمْ خَارِجُونَ عَنْ نَفْسِ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ شَرًّا مِنْ خُرُوجِ الْخَوَارِجِ الحرورية وَلَيْسَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ سَائِغٌ؛فَإِنَّ التَّأْوِيلَ السَّائِغَ هُوَ الْجَائِزُ الَّذِي يُقِرُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ جَوَابٌ كَتَأْوِيلِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي مَوَارِدِ الاجْتِهَادِ.وَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَلَكِنَّ لَهُمْ تَأْوِيلٌ مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلِ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.وَتَأْوِيلُهُمْ شَرُّ تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ.وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَقِّهَةِ لَمْ يَجِدُوا تَحْقِيقَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي مُخْتَصَرَاتِهِمْ.وَكَثِيرٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْمُصَنِّفِينَ فِي الشَّرِيعَةِ لَمْ يَذْكُرُوا فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ قِتَالَ الْخَارِجِينَ عَنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ الاعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ كَمَانِعِي الزَّكَاةِ وَالْخَوَارِجِ وَنَحْوِهِمْ إلَّا مِنْ جِنْسِ قِتَالِ الْخَارِجِينَ عَلَى الْإِمَامِ كَأَهْلِ الْجَمَلِ وصفين.وَهَذَا غَلَطٌ؛بَلْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ فَرْقٌ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ.وَأَيْضًا فَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا يَشْمَلُهُمْ وَغَيْرَهُمْ؛مِثْلَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ ﷺ اللَّهِ:{مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ:مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عمية؛يَغْضَبُ لِلْعَصَبِيَّةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبِيَّةِ:فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي} فَقَدْ ذَكَرَ ﷺ الْبُغَاةَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ وَعَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَذَكَرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذَا مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً؛فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَكُونُوا يَجْعَلُونَ عَلَيْهِمْ أَئِمَّةً؛بَلْ كُلُّ طَائِفَةٍ تُغَالِبُ الْأُخْرَى.ثُمَّ ذَكَرَ قِتَالَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ كَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْأَنْسَابِ مِثْلَ قَيْسٍ وَيُمَنٍّ وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ قُتِلَ تَحْتَ هَذِهِ الرَّايَاتِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِهِ ثُمَّ ذَكَرَ قِتَالَ الْعُدَاةِ الصَّائِلِينَ وَالْخَوَارِجِ وَنَحْوَهُمْ وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ.وَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا هَذِهِ الثَّلَاثَةَ الْأَوْصَافَ وَزَادُوا عَلَيْهَا.فَإِنَّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ:يَقْتُلُونَ الْمُؤْمِنَ وَالْمُعَاهِدَ لَا يَرَوْنَ لِأَحَدِ مِنْ وُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ طَاعَةً سَوَاءٌ كَانَ عَدْلًا أَوْ فَاسِقًا؛إلَّا لِمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ.وَهُمْ يُقَاتِلُونَ لِعَصَبِيَّةِ شَرٍّ مِنْ عَصَبِيَّةِ ذَوِي الْأَنْسَابِ:وَهِيَ الْعَصَبِيَّةُ لِلدِّينِ الْفَاسِدِ؛فَإِنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِلِّ وَالْغَيْظِ عَلَى كِبَارِ

الْمُسْلِمِينَ وَصِغَارِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ وَغَيْرِ صَالِحِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِ أَحَدٍ.وَأَعْظَمُ عِبَادَتِهِمْ عِنْدَهُمْ لَعْنُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ:مُسْتَقْدِمُهُمْ وَمُسْتَأْخِرُهُمْ.وَأَمْثَلُهُمْ عِنْدَهُمْ الَّذِي لَا يَلْعَنُ وَلَا يَسْتَغْفِرُ.وَأَمَّا خُرُوجُهُمْ يَقْتُلُونَ الْمُؤْمِنَ وَالْمُعَاهِدَ:فَهَذَا أَيْضًا حَالُهُمْ؛مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَسَائِرُ الْأُمَّةِ كُفَّارٌ.وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ شريح قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {إنَّهُ سَتَكُونُ هناة وهناة فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَفِي لَفْظٍ:فَاقْتُلُوهُ} وَفِي لَفْظٍ:{مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ وَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ}.وَهَؤُلَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى تَفْرِيقِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛فَإِنَّهُمْ لَا يُقِرُّونَ لِوَلِيِّ أَمْرٍ بِطَاعَةِ سَوَاءٌ كَانَ عَدْلًا أَوْ فَاسِقًا؛وَلَا يُطِيعُونَهُ لَا فِي طَاعَةٍ وَلَا فِي غَيْرِهَا؛بَلْ أَعْظَمُ أُصُولِهِمْ عِنْدَهُمْ التَّكْفِيرُ وَاللَّعْنُ وَالسَّبُّ لِخِيَارِ وُلَاةِ الْأُمُورِ؛كَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَشَايِخِهِمْ؛لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فَمَا آمَنَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ.وَإِنَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ شَرًّا مِنْ الْخَوَارِجِ الحرورية وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لِاشْتِمَالِ مَذَاهِبِهِمْ عَلَى شَرٍّ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُ الْخَوَارِجِ؛وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَوَارِجَ الحرورية كَانُوا أَوَّلَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ خُرُوجًا عَنْ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛مَعَ وُجُودِ بَقِيَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَبَقَايَا الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَظُهُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَدْلِ فِي الْأُمَّةِ وَإِشْرَاقِ نُورِ النُّبُوَّةِ وَسُلْطَانِ الْحُجَّةِ وَسُلْطَانِ الْقُدْرَةِ؛حَيْثُ أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بِالْحُجَّةِ وَالْقُدْرَةِ.وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مَا فَعَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ الْأَنْوَاعِ الَّتِي فِيهَا تَأْوِيلٌ فَلَمْ يَحْتَمِلُوا ذَلِكَ وَجَعَلُوا مَوَارِدَ الِاجْتِهَادِ.بَلْ الْحَسَنَاتِ ذُنُوبًا وَجَعَلُوا الذُّنُوبَ كُفْرًا وَلِهَذَا لَمْ يَخْرُجُوا فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لِانْتِفَاءِ تِلْكَ التَّأْوِيلَاتِ وَضَعْفِهِمْ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كُلَّمَا ظَهَرَ نُورُ النُّبُوَّةِ كَانَتْ الْبِدْعَةُ الْمُخَالِفَةُ أَضْعَفَ فَلِهَذَا كَانَتْ الْبِدْعَةُ الْأَوْلَى أَخَفَّ مِنْ الثَّانِيَةِ والمستأخرة تَتَضَمَّنُ مِنْ جِنْسِ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْأُولَى وَزِيَادَةً عَلَيْهَا.كَمَا أَنَّ السُّنَّةَ كُلَّمَا كَانَ أَصْلُهَا أَقْرَبَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ أَفْضَلَ.فَالسُّنَنُ ضِدُّ الْبِدَعِ فَكُلُّ مَا قَرُبَ مِنْهُ ﷺ مِثْلَ سِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَ أَفْضَلَ مِمَّا تَأَخَّرَ كَسِيرَةِ

عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَالْبِدَعُ بِالضِّدِّ كُلُّ مَا بَعُدَ عَنْهُ كَانَ شَرًّا مِمَّا قَرُبَ مِنْهُ وَأَقْرَبُهَا مِنْ زَمَنِهِ الْخَوَارِجُ.فَإِنَّ التَّكَلُّمَ بِبِدْعَتِهِمْ ظَهَرَ فِي زَمَانِهِ؛وَلَكِنْ لَمْ يَجْتَمِعُوا وَتَصِيرُ لَهُمْ قُوَّةٌ إلَّا فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.ثُمَّ ظَهَرَ فِي زَمَنِ عَلِيٍّ التَّكَلُّمُ بِالرَّفْضِ؛لَكِنْ لَمْ يَجْتَمِعُوا وَيَصِيرُ لَهُمْ قُوَّةٌ إلَّا بَعْدَ مَقْتَلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلْ لَمْ يَظْهَرْ اسْمُ الرَّفْضِ إلَّا حِينَ خُرُوجِ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بَعْدَ الْمِائَةِ الْأُولَى لَمَّا أَظْهَرَ التَّرَحُّمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَضَتْهُ الرَّافِضَةُ فَسُمُّوا " رَافِضَةً " وَاعْتَقَدُوا أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ هُوَ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ.وَاتَّبَعَهُ آخَرُونَ فَسُمُّوا " زَيْدِيَّةً " نِسْبَةً إلَيْهِ.ثُمَّ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ نَبَغَ التَّكَلُّمُ بِبِدْعَةِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِئَةِ فَرَدَّهَا بَقَايَا الصَّحَابَةِ؛كَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي سَعِيدٍ وَوَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ وَغَيْرِهِمْ؛وَلَمْ يَصِرْ لَهُمْ سُلْطَانٌ وَاجْتِمَاعٌ حَتَّى كَثُرَتْ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْمُرْجِئَةُ بَعْدَ ذَلِكَ.ثُمَّ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ التَّابِعِينَ ظَهَرَ التَّكَلُّمُ بِبِدْعَةِ الْجَهْمِيَّةِ نفاة الصِّفَاتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ اجْتِمَاعٌ وَسُلْطَانٌ إلَّا بَعْدَ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ فِي إمَارَةِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُلَقَّبِ بِالْمَأْمُونِ؛فَإِنَّهُ أَظْهَرَ التَّجَهُّمَ وَامْتَحَنَ النَّاسَ عَلَيْهِ وَعَرَّبَ كُتُبَ الْأَعَاجِمِ:مِنْ الرُّومِ واليونانيين وَغَيْرِهِمْ.وَفِي زَمَنِهِ ظَهَرَتْ " الخرمية ".وَهُمْ زَنَادِقَةٌ مُنَافِقُونَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ وَتَفَرَّعُوا بَعْدَ ذَلِكَ إلَى الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ والْإِسْمَاعِيلِيَّةِ.وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ يَنْتَحِلُونَ الرَّفْضَ فِي الظَّاهِرِ.وَصَارَتْ الرَّافِضَةُ الْإِمَامِيَّةُ فِي زَمَنِ بَنِي بويه بَعْدَ الْمِائَةِ الثَّالِثَةِ فِيهِمْ عَامَّةً هَذِهِ الْأَهْوَاءُ الْمُضِلَّةُ:فِيهِمْ الْخُرُوجُ وَالرَّفْضُ وَالْقَدَرُ وَالتَّجَهُّمُ.وَإِذَا تَأَمَّلَ الْعَالِمُ مَا نَاقَضُوهُ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا يُحْصِيهِ إلَّا اللَّهُ.فَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ فِيهِمْ مَا فِي الْخَوَارِجِ الحرورية وَزِيَادَاتٍ.وَأَيْضًا فَإِنَّ الْخَوَارِجَ الحرورية كَانُوا يَنْتَحِلُونَ اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ بِآرَائِهِمْ وَيَدَّعُونَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُخَالِفُ الْقُرْآنَ.وَالرَّافِضَةُ تَنْتَحِلُ اتِّبَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَتَزْعُمُ أَنَّ فِيهِمْ الْمَعْصُومَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ الْعِلْمِ وَلَا يُخْطِئُ.لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا وَلَا رُشْدًا.وَاتِّبَاعُ الْقُرْآنِ وَاجِبٌ عَلَى الْأُمَّةِ؛بَلْ هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَهُدَى اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ وَكَذَلِكَ أَهْلُ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَجِبُ مَحَبَّتُهُمْ " وَمُوَالَاتُهُمْ وَرِعَايَةُ حَقِّهِمْ.وَهَذَانِ الثَّقَلَانِ اللَّذَانِ وَصَّى بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.فَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ {زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِغَدِيرِ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ

وَالْمَدِينَةِ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛إنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ} - وَفِي رِوَايَةٍ {أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنْ الْآخَرِ - كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ} فَرَغِبَ فِي كِتَابِ اللَّهِ " وَفِي رِوَايَةٍ:{هُوَ حَبْلُ اللَّهِ مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي.أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي}.فَقِيلَ لِزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ:مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ قَالَ:أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حَرَّمَ الصَّدَقَةَ:آلُ الْعَبَّاسِ وَآلُ عَلِيٍّ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَقِيلٍ.وَالنُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ مِنْ أَنَّ تُذْكَرَ هُنَا.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ حِسَانٍ أَنَّهُ قَالَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ:{وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ مِنْ أَجْلِي} وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ بِالصَّلَاةِ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَطَهَّرَهُمْ مِنْ الصَّدَقَةِ الَّتِي هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَجَعَلَ لَهُمْ حَقًّا فِي الْخُمُسِ وَالْفَيْءِ وَقَالَ ﷺ فِيمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:{إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بَنِي إسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ بَنِي إسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَأَنَا خَيْرُكُمْ نَفْسًا وَخَيْرُكُمْ نَسَبًا}.وَلَوْ ذَكَرْنَا مَا رُوِيَ فِي حُقُوقِ الْقَرَابَةِ وَحُقُوقِ الصَّحَابَةِ لَطَالَ الْخِطَابُ فَإِنَّ دَلَائِلَ هَذَا كَثِيرَةٌ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِ الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ وَتَبَرَّءُوا مِنْ النَّاصِبَةِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَيُفَسِّقُونَهُ وَيَنْتَقِصُونَ بِحُرْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ؛مِثْلَ مَنْ كَانَ يُعَادِيهِمْ عَلَى الْمُلْكِ أَوْ يُعْرِضُ عَنْ حُقُوقِهِمْ الْوَاجِبَةِ أَوْ يَغْلُو فِي تَعْظِيمِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.وَتَبَرَّءُوا مِنْ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَجُمْهُورِ الْمُؤْمِنِينَ؛وَيُكَفِّرُونَ عَامَّةَ صَالِحِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ ذَنْبًا وَضَلَالًا مِنْ أُولَئِكَ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرَّافِضَةَ الْمُحَارِبِينَ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ وَكُلٌّ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ انْتَحَلَتْ إحْدَى الثَّقَلَيْنِ؛لَكِنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ.فَلِهَذَا كَانَتْ الْخَوَارِجُ أَقَلَّ ضَلَالًا مِنْ الرَّوَافِضِ؛مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ مُخَالِفَةٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَمُخَالِفَةٌ لِصَحَابَتِهِ وَقَرَابَتِهِ وَمُخَالِفُونَ لِسُنَّةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَلِعِتْرَتِهِ أَهْلِ بَيْتِهِ.وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ فِي إجْمَاعِ الْخُلَفَاءِ وَفِي إجْمَاعِ الْعِتْرَةِ هَلْ هُوَ حُجَّةٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهَا؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّ كِلَيْهِمَا حُجَّةٌ.فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:{عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي

تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ} وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ فِي السُّنَنِ.وَقَالَ ﷺ {إنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ:كِتَابُ اللَّهِ وَعِتْرَتِي وَأَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ} رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَفِيهِ نَظَرٌ.وَكَذَلِكَ إجْمَاعُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ هُوَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفَ الْمُحَارِبِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ هُمْ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ نَصَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قِتَالِهِمْ وَرَغَّبَ فِيهِ.وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ الْعَارِفِينَ بِحَقِيقَتِهِ.ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ لَفْظَ الرَّسُولِ ﷺ شَمَلَ الْجَمِيعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُمْ دَخَلُوا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ وَالْفَحْوَى أَوْ مِنْ بَابِ كَوْنِهِمْ فِي مَعْنَاهُمْ.فَإِنَّ الْحَدِيثَ رُوِيَ بِأَلْفَاظٍ مُتَنَوِّعَةٍ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَوَاَللَّهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ وإذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ وَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:{سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حِدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ.فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:" عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِينَ سَارُوا إلَى الْخَوَارِجِ.فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:{يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءِ وَلَا صَلَاتُكُمْ إلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءِ وَلَا صِيَامُكُمْ إلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءِ.يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ.لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ لَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ}.وَاَللَّهُ إنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ؛فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ.فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ.وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إلَى آخِرِهِ.وَفِي مُسْلِمٍ أَيْضًا " عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ كَاتِبِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ

الحرورية لَمَّا خَرَجَتْ وَهُوَ مَعَ عَلِيٍّ قَالُوا:لَا حُكْمَ إلَّا لِلَّه.فَقَالَ عَلِيٌّ:كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ.إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَصَفَ نَاسًا إنِّي لَأَعْرِفُ صِفَتَهُمْ فِي هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يُجَاوِزُ هَذَا مِنْهُمْ وَأَشَارَ إلَى حَلْقِه مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّه إلَيْه مِنْهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إحْدَى يَدَيْه طُبْيُ شَاة أَوْ حَلَمَةُ ثَدْيٍ.فَلَمَّا قَتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ طَالِبٍ قَالَ:اُنْظُرُوا.فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا.فَقَالَ:ارْجِعُوا فَوَاَللَّه مَا كَذَبْت وَلَا كَذَبْت - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ وَجَدُوهُ فِي خَرِبَةٍ فَأَتَوْا بِه حَتَّى وَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْه ".وَهَذِه الْعَلَامَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ هِيَ عَلَامَةُ أَوَّلِ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهُمْ لَيْسُوا مَخْصُوصِينَ بِأُولَئِكَ الْقَوْمِ.فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيث أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ إلَى زَمَنِ الدَّجَّالِ.وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْخَوَارِجَ لَيْسُوا مُخْتَصِّينَ بِذَلِكَ الْعَسْكَرِ.وَأَيْضًا فَالصِّفَاتُ الَّتِي وَصَفَهَا تَعُمُّ غَيْرَ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ؛وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَرْوُونَ الْحَدِيثَ مُطْلَقًا مِثْلَ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ:أَنَّهُمَا أَتَيَا أَبَا سَعِيدٍ فَسَأَلَاهُ عَنْ الحرورية:هَلْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّه ﷺ يَذْكُرُهَا؟ قَالَ:لَا أَدْرِي؛وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:{يَخْرُجُ فِي هَذِه الْأُمَّة - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ أَوْ حُلُوقَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّة فَيَنْظُرُ الرَّامِي إلَى سَهْمِه إلَى نَصْلِه إلَى رِصَافِه:فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَة هَلْ عَلِقَ بِهَا شَيْءٌ مِنْ الدَّمِ} اللَّفْظُ لِمُسْلِمِ.وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:{بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللَّه ذُو الخويصرة التَّمِيمِيُّ - وَفِي رِوَايَةٍ أَتَاهُ ذُو الخويصرة رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ - فَقَالَ:اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّه.فَقَالَ:وَيْلك مَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ.قَالَ:دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّة يَنْظُرُ إلَى نَصْلِه فَلَا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى رِصَافِه فَلَا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى نَضِيِّه - وَهُوَ قِدْحُهُ - فَلَا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى قُذَذِه فَلَا يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ.قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ}.وَذَكَرَ مَا فِي الْحَدِيث.فَهَؤُلَاءِ أَصْلُ ضَلَالِهِمْ:اعْتِقَادُهُمْ فِي أَئِمَّة الْهُدَى وَجَمَاعَة الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الْعَدْلِ وَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ وَهَذَا مَأْخَذُ الْخَارِجِينَ عَنْ السُّنَّة مِنْ الرَّافِضَة

وَنَحْوِهِمْ ثُمَّ يَعُدُّونَ مَا يَرَوْنَ أَنَّهُ ظُلْمٌ عِنْدَهُمْ كُفْرًا.ثُمَّ يُرَتِّبُونَ عَلَى الْكُفْرِ أَحْكَامًا ابْتَدَعُوهَا.فَهَذِهِ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ لِلْمَارِقِينَ مِنْ الحرورية وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ.فِي كُلِّ مَقَامٍ تَرَكُوا بَعْضَ أُصُولِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَتَّى مَرَقُوا مِنْهُ كَمَا مَرَقَ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ:{يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ؛لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلُهُمْ قَتْلَ عَادٍ} وَهَذَا نَعْتُ سَائِرِ الْخَارِجِينَ كَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ؛فَإِنَّهُمْ يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِلُّونَ مِنْ دِمَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُرْتَدِّينَ؛لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ شَرٌّ مَنْ غَيْرِهِ.وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ:أَنَّ {النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ قَوْمًا يَكُونُونَ فِي أُمَّتِهِ:يَخْرُجُونَ فِي فِرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ سِيمَاهُمْ التَّحْلِيقُ.قَالَ:هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ أَوْ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ تَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إلَى الْحَقِّ} وَهَذِهِ السِّيمَا سِيمَا أَوَّلِهِمْ كَمَا كَانَ ذُو الثدية؛لِأَنَّ هَذَا وَصْفٌ لَازِمٌ لَهُمْ.

وَأَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثَهُمْ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حنيف بِهَذَا الْمَعْنَى وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ وَرَافِعِ بْنِ عَمْرٍو وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِمْ وَرَوَى النِّسَائِيُّ {عَنْ أَبِي بَرْزَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ:هَلْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْخَوَارِجَ؟ قَالَ:نَعَمْ.سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِي وَرَأَيْته بِعَيْنِي:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِمَالِ فَقَسَمَهُ فَأَعْطَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَمَنْ عَنْ شِمَالِهِ؛وَلَمْ يُعْطِ مَنْ وَرَاءَهُ شَيْئًا.فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ وَرَائِهِ فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ؛مَا عَدَلْت فِي الْقِسْمَةِ - رَجُلٌ أَسْوَدُ مَطْمُومُ الشَّعْرِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ - فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ:وَاَللَّهِ لَا تَجِدُونَ بَعْدِي رَجُلًا هُوَ أَعْدَلُ مِنِّي ثُمَّ قَالَ:يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ كَأَنَّ هَذَا مِنْهُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ سِيمَاهُمْ التَّحْلِيقُ لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الدَّجَّالِ.فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ} وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {إنَّ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي - أَوْ سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي - قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ}.قَالَ ابْنُ الصَّامِتِ:فَلَقِيت رَافِعَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ

أَخَا الْحَكَمِ بْنِ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ قُلْت:مَا حَدِيثٌ سَمِعْته مِنْ أَبِي ذَرٍّ كَذَا وَكَذَا؟ فَـذَكَرْت لَهُ الْحَدِيثَ فَقَالَ:وَأَنَا سَمِعْته مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.فَهَذِهِ الْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ فِي أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِي غَيْرِهِمْ.وَإِنَّمَا قَوْلُنَا:إنَّ عَلِيًّا قَاتَلَ الْخَـوَارِجَ بِـأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا يُقَالُ:إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَاتَلَ الْكُفَّارَ أَيْ قَاتَلَ جِنْسَ الْكُفَّارِ وَإِنْ كَـانَ الْكُفْرُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً.وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْآلِهَةُ الَّتِـي كَانَـتْ الْعَرَبُ تَعْبُدُهَا هِيَ الَّتِي تَعْبُدُهَا الْهِنْدُ وَالصِّينُ وَالتُّـرْكُ؛لَكِنْ يَجْمَعُهُـمْ لَفْـظُ الشِّـرْكِ وَمَعْنَاهُ.وَكَذَلِكَ الْخُرُوجُ وَالْمُرُوقُ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي مَعْنَى أُولَئِكَ وَيَجِبُ قِتَـالُهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا وَجَبَ قِتَالُ أُولَئِكَ.وَإِنْ كَانَ الْخُرُوجُ عَنْ الدِّينِ وَالْإِسْـلَامِ أَنْوَاعًـا مُخْتَلِفَةً وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ خُرُوجَ الرَّافِضَةِ وَمُرُوقَهُمْ أَعْظَمُ بِكَثِيرِ.

فَأَمَّا قَتْلُ الْوَاحِدِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ مِنْ الْخَوَارِجِ؛كالحرورية وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ:فَهَـذَا فِيـهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد.وَالصَّـحِيحُ أَنَّـهُ يَجُـوزُ قَتْـلُ الْوَاحِـدِ مِنْهُمْ؛كَالدَّاعِيَةِ إلَى مَذْهَبِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّنْ فِيهِ فَسَادٌ.فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:{أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} وَقَالَ:{لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ} وَقَالَ عُمَرُ لِصَبِيغِ بْـنِ عِسْـلٍ:لَـوْ وَجَدْتُك مَحْلُوقًا لَضَرَبْت الَّذِي فِيهِ عَيْنَاك.وَلِأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ طَلَبَ أَنْ يَقْتُلَ عَبْـدَ اللَّهِ بْنَ سَبَأٍ أَوَّلَ الرَّافِضَةِ حَتَّى هَرَبَ مِنْهُ.وَلِأَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ.فَإِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ فَسَادُهُمْ إلَّا بِالْقَتْلِ قُتِلُوا وَلَا يَجِبُ قَتْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إذَا لَمْ يَظْهَرْ هَذَا الْقَوْلُ أَوْ كَانَ فِي قَتْلِهِ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ.وَلِهَذَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ ذَلِكَ الْخَارِجِيِّ ابْتِـدَاءً لِئَلَّـا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " وَلَمْ يَكُنْ إذْ ذَاكَ فِيهِ فَسَادٌ عَامٌّ؛وَلِهَذَا تَرَكَ عَلِيٌّ قَتْلَهُمْ أَوَّلَ مَا ظَهَرُوا لِأَنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا كَثِيرًا وَكَانُوا دَاخِلِينَ فِي الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ظَاهِرًا لَمْ يُحَارِبُوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَتَبَيَّنْ لَهُ أَنَّهُمْ هُمْ.

وَأَمَّا تَكْفِيرُهُمْ وَتَخْلِيدُهُمْ:فَفِيهِ أَيْضًا لِلْعُلَمَاءِ قَوْلَانِ مَشْـهُورَانِ:وَهُمَـا رِوَايَتَـانِ عَـنْ أَحْمَد.وَالْقَوْلَانِ فِي الْخَوَارِجِ وَالْمَارِقِينَ مِنْ الحرورية وَالرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ.وَالصَّـحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الَّتِي يَقُولُونَهَا الَّتِي يُعْلَمُ أَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كُفْـرٌ وَكَـذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ هِيَ كُفْرٌ أَيْضًا.وَقَدْ ذَكَرْت دَلَائِـلَ

ذَلكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضعِ؛لَكنْ تَكْفيرُ الْوَاحدِ الْمُعَيَّنِ منْهُمْ وَالْحُكْمُ بتَخْليده فِي النَّـــارِ مَوْقُوفٌ عَلَى ثُبُوت شُرُوط التَّكْفير وَانْتفَاء مَوَانعه.فَإِنَّا نُطْلقُ الْقَـــوْلَ بنُصُـــوص الْوَعْـــد وَالْوَعيد وَالتَّكْفير وَالتَّفْسيق وَلَا نَحْكُمُ للْمُعَيَّنِ بدُخُوله فِي ذَلكَ الْعَامِّ حَتَّى يَقُـــومَ فيـــه الْمُقْتَضَى الَّذي لَا مَعَارِضَ لَهُ.وَقَدْ بَسَطْت هَذه الْقَاعدَةَ فِي " قَاعدَة التَّكْفير ".وَلهَذَا لَـــمْ يَحْكُمْ النَّبيُّ ﷺ بكُفْرِ الَّذي قَالَ:إذَا أَنَا مُتّ فَأَحْرِقُوني ثُمَّ ذروني فِي الْيَمِّ فَوَاَللَّه لَأَنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبُني عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا منْ الْعَالَمينَ مَعَ شَكِّه فِي قُدْرَة اللَّه وَإِعَادَته؛وَلهَذَا لَا يُكَفِّرُ الْعُلَمَاءُ منْ اسْتَحَلَّ شَيْئًا منْ الْمُحَرَّمَات لقُرْب عَهْده بالْإِسْلَام أَوْ لنَشْأَته ببَاديَـــة بَعيدَة؛فَإِنَّ حُكْمَ الْكُفْر لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ بُلُوغ الرِّسَالَة.وَكَثيرٌ منْ هَؤُلَاء قَدْ لَا يَكُونُ قَـــدْ بَلَغَتْهُ النُّصُوصُ الْمُخَالفَةُ لمَا يَرَاهُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ بَعَثَ بذَلكَ فَيُطْلقُ أَنَّ هَذَا الْقَـــوْلَ كُفْرٌ وَيُكَفِّرُ مَتَى قَامَتْ عَلَيْه الْحُجَّةُ الَّتي يَكْفُرُ تَاركُهَا؛دُونَ غَيْره.وَاَللَّهُ أَعْلَمُ؟[٨٢٥].

[٨٢٥] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٦٨)

الاتِّجَارُ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ:

تَدُلُّ عِبَارَاتُ الْفُقَهَاءِ عَلَى جَوَازِ الاتِّجَارِ مَعَ الْحَرْبِيِّينَ [٨٢٦]،فَلِلْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ دُخُول دَارِ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ لِلتِّجَارَةِ،وَلِلْحَرْبِيِّ دُخُول دَارِنَا تَاجِرًا بِأَمَانٍ،وَتُؤْخَذُ الْعُشُورُ عَلَى التِّجَارَةِ الْعَابِرَةِ عِنْدَ اجْتِيَازِ حُدُودِ دَارِ الإِسْلاَمِ.وَلَكِنْ لاَ يَجُوزُ إِمْدَادُ الْمُحَارِبِينَ بِمَا يُقَوِّيهِمْ مِنَ السِّلاَحِ وَالآْلاَتِ وَالْمَوَادِّ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا السِّلاَحُ،كَمَا لاَ يَجُوزُ السَّمَاحُ بِالاتِّجَارِ بِالْمَحْظُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ كَالْخُمُورِ وَالْخَنَازِيرِ وَسَائِرِ الْمُنْكَرَاتِ ؛لأَِنَّهَا مَفَاسِدُ مَمْنُوعَةٌ شَرْعًا،وَيَجِبُ مُقَاوَمَتُهَا.وَلَيْسَ لِلْحَرْبِيِّ الْمُسْتَأْمَنِ شِرَاءُ الأَسْلِحَةِ مِنْ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ[٨٢٧].

وَفِيمَا عَدَا هَذِهِ الْقُيُودِ يَجُوزُ أَنْ تَظَل حُرِّيَّةُ التِّجَارَةِ قَائِمَةً،إِلاَّ أَنَّ الْمَالِكِيَّةَ انْفَرَدُوا بِالْقَوْل بِمَنْعِ التَّصْدِيرِ مِنْ بِلاَدِنَا،وَمُتَاجَرَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُهُمْ تَجْرِي عَلَى التُّجَّارِ ؛لأَِنَّ فِي تَصْدِيرِ أَيِّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛وَلأَِنَّ الْمُسْلِمَ مَمْنُوعٌ مِنَ الإِقَامَةِ فِي دَارِ الشِّرْكِ،فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[٨٢٨].

كَمَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَصْدِيرُ الأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا إِلاَّ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ هُدْنَةٌ مَعَ الْعَدُوِّ،أَمَّا فِي غَيْرِ الْهُدْنَةِ فَلاَ يَجُوزُ.[٨٢٩]

وَالأَدِلَّةُ عَلَى جَوَازِ التَّصْدِيرِ مِنْ بِلاَدِنَا مِنْهَا:ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ إِسْلَامُ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا اللهَ حِينَ عَرَضَ لِرَسُولِ

---

[٨٢٦] - انظر مثلا المبسوط ١٠ / ٩١، شرح السير الكبير ٣ / ٢٧٣ - ٢٧٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والمغني ٨ / ٤٨٩، ٥٢٢ .

[٨٢٧] - الخراج لأبي يوسف ص ١٩٩، شرح السير الكبير ٣ / ١٧٧، وحاشية الطحطاوي ٢ / ٤٤٥، وفتح القدير ٤ / ٣٤٧ وما بعدها، والفتاوى الهندية ٢ / ٢١٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٧، والشرح الكبير مع المغني ١٠ / ٤٠٨ .

[٨٢٨] - سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) صحيح

[٨٢٩] - المدونة ١٠ / ١٠٢، والمقدمات الممهدات ٢ / ٢٨٥، وفتح العلي المالك ١ / ٣٣١، ومواهب الجليل ٣ / ٣٦٤، و ٣٧٩ .

اللهِ ﷺ بِمَا عَرَضَ لَهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ اللهُ مِنْهُ،وَكَانَ عَرَضَ لَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ فَأَرَادَ قَتْلَهُ،فَأَقْبَلَ ثُمَامَةُ مُعْتَمِرًا وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَتَحَيَّرَ فِيهَا حَتَّى أُخِذَ،وَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَأَمَرَ بِهِ فَرُبِطَ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِ الْمَسْجِدِ،فَخَرَجَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:" مَا لَكَ يَا ثُمَامَةُ هَلْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْكَ؟ ".قَالَ:وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ،وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهُ.فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَرَكَهُ،حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِهِ،فَقَالَ:" مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟ ".فَقَالَ:خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ،وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهُ.ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:فَجَعَلْنَا – الْمَسَاكِينَ – نَقُولُ بَيْنَنَا:مَا نَصْنَعُ بِدَمِ ثُمَامَةَ؟،وَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ جَزُورٍ سَمِينَةٍ مِنْ فِدَائِهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ،فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:" مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟ ".فَقَالَ:خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ،وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهُ.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَطْلِقُوهُ فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ يَا ثُمَامَ ".فَخَرَجَ ثُمَامَةُ حَتَّى أَتَى حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ،فَاغْتَسَلَ فِيهِ وَتَطَهَّرَ وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ،ثُمَّ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،وَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ وَمَا وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،وَلَا دِينَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ،وَلَا بَلَدَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،ثُمَّ لَقَدْ أَصْبَحْتَ وَمَا وَجْهٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،وَلَا دِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ،وَلَا بَلَدَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا وَأَنَا عَلَى دِينِ قَوْمِي،فَبَشِّرْنِي صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ فِي عُمْرَتِي.فَبَشَّرَهُ وَعَلَّمَهُ،فَخَرَجَ مُعْتَمِرًا،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَسَمِعَتْهُ قُرَيْشٌ يَتَكَلَّمُ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْإِسْلَامِ،قَالُوا:صَبَأَ ثُمَامَةُ،فَأَغْضَبُوهُ،فَقَالَ:إِنِّي وَاللهِ مَا صَبَوْتُ،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ مُحَمَّدًا،وَآمَنْتُ بِهِ،وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ ثُمَامَةَ بِيَدِهِ لَا يَأْتِيكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ،وَكَانَتْ رِيفَ مَكَّةَ،مَا بَقِيتُ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ.وَانْصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ،وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشٌ،فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يُخَلِّي إِلَيْهِمْ حَمْلَ الطَّعَامِ،فَفَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "[٨٣٠]

[٨٣٠] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١١٣)(١٨٠٣١) صحيح

فَهَذَا يَدُل عَلَى جَوَازِ تَصْدِيرِ الأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا إِلَى الأَعْدَاءِ،حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ حَالَةُ الْحَرْبِ قَائِمَةً مَعَهُمْ.

وَمِنَ الأَدِلَّة أَيْضًا الأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي بَحْث الصَّدَقَة عَلَى أَهْل الْحَرْب وَالْوَصِيَّةِ لَهُمْ (قِصَّةُ إِهْدَاءِ التَّمْرِ لِأَبِي سُفْيَانَ،وَصِلَةُ أَسْمَاءَ أُمَّهَا الْمُشْرِكَةَ،وَإِطْعَامُ الْمُسْلِمِينَ الأَسْرَى).

أَمَّا الدَّلِيل عَلَى حَظْرِ تَصْدِيرِ الأَسْلِحَةِ وَنَحْوِهَا،فَمِنْهُ:عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ»[٨٣١]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،" أَنَّهُ كَرِهَ بَيْعَ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ "[٨٣٢]

وَالْفِتْنَةُ:الْحُرُوبُ الدَّاخِلِيَّةُ،وَفِتْنَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ،فَكَانَ أَوْلَى أَلاَّ يُبَاعَ لَهُمْ.

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْمِلَ إِلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ طَعَامًا،وَلاَ سِلاَحًا يُقَوِّيهِمْ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فَاسِقٌ.

وعَنْ عَطَاءٍ ؛أَنَّهُ كَرِهَ حَمْلَ السِّلاَحِ إِلَى الْعَدُوِّ،قَالَ:قُلْتُ لَهُ:تُحْمَلُ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ ؟ قَالَ:فَأَبَى ذَلِكَ،وَقَالَ:أَمَّا مَا يُقَوِّيهِمْ لِلْقِتَالِ فَلاَ،وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلاَ بَأْسَ.وَقَالَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ.

وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:نَهَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ تُحْمَلَ الْخَيْلُ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ.

وعَنِ الْحَسَنِ ؛أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُحْمَلَ السِّلاَحُ،أَوْ الْكُرَاعُ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ لِلتِّجَارَةِ.

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ ؛أَنَّهُ كَانَ يُكْرَهُ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ سِلاَحٌ،أَوْ مَنْفَعَةٌ.

وعَنِ الْحَسَنِ،وَابْنِ سِيرِينَ ؛أَنَّهُمَا كَرِهَا بَيْعَ السِّلاَحِ فِي الْفِتْنَةِ.

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:لاَ يُبْعَثُ إِلَى أَهْلِ الْحَرْبِ شَيْءٌ مِنَ السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ،وَلاَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ.

وعَنْ قَتَادَةَ،قَالَ:كَانَ يُكْرَهُ بَيْعُ السِّلاَحِ فِي الْقِتَالِ.

وَقَال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:لاَ يَحِل لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْمِل إِلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ سِلاَحًا يُقَوِّيهِمْ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ كُرَاعًا،وَلاَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ.[٨٣٣]

---

[٨٣١] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٣٦)(٢٨٦) حسن لغيره

[٨٣٢] - السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٥٣٥)(١٠٧٧٩) صحيح موقوف

هَذَا وَإِنَّ فِي بَيْعِ السِّلاَحِ لِلأَعْدَاءِ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى قِتَال الْمُسْلِمِينَ،وَبَاعِثًا لَهُمْ عَلَى شَـــنِّ الْحُرُوبِ،وَمُوَاصَلَةِ الْقِتَال لاِسْتِعَانَتِهِمْ بِهِ،وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْمَنْعَ [٨٣٤].

----

[٨٣٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٩٧)١٣٢- مَا يُكْرَه أَنْ يُحْمَل إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، يَتَقَوَّى به.(٣٤٠٤٦- ٣٤٠٥٤) وكلها صحيحة

[٨٣٤] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١١٢)

الباب السادس

الخلاصة في أحكام دار الإسلام ودار الحرب والكفر

المبحث الأول

أحكام دار الإسلام

تَعْرِيفُ دَارِ الْإِسْلَامِ:

دَارُ الْإِسْلَامِ هِيَ: كُل بُقْعَةٍ تَكُونُ فِيهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ ظَاهِرَةً [٨٣٥].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ: هِيَ كُل أَرْضٍ تَظْهَرُ فِيهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ - وَيُرَادُ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ: كُل حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِهِ غَيْرِ نَحْوِ الْعِبَادَاتِ كَتَحْرِيمِ الزِّنَى وَالسَّرِقَةِ - أَوْ يَسْكُنُهَا الْمُسْلِمُونَ وَإِنْ كَانَ مَعَهُمْ فِيهَا أَهْل ذِمَّةٍ، أَوْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَأَقَرُّوهَا بِيَدِ الْكُفَّارِ، أَوْ كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، ثُمَّ أَجَلاَهُمُ الْكُفَّارُ عَنْهَا .[٨٣٦]

الأَْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ - دَارُ الْحَرْبِ:

دَارُ الْحَرْبِ هِيَ: كُل بُقْعَةٍ تَكُونُ فِيهَا أَحْكَامُ الْكُفْرِ ظَاهِرَةً[٨٣٧] .

ب - دَارُ الْعَهْدِ:

دَارُ الْعَهْدِ: وَتُسَمَّى دَارَ الْمُوَادَعَةِ وَدَارَ الصُّلْحِ وَهِيَ: كُل نَاحِيَةٍ صَالَحَ الْمُسْلِمُونَ أَهْلَهَا بِتَرْكِ الْقِتَال عَلَى أَنْ تَكُونَ الأَْرْضُ لِأَهْلِهَا[٨٣٨].

ج - دَارُ الْبَغْيِ:

دَارُ الْبَغْيِ هِيَ: نَاحِيَةٌ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ تَحَيَّزَ إِلَيْهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ شَوْكَةٌ خَرَجَتْ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ بِتَأْوِيلٍ[٨٣٩].

---

[٨٣٥] - بدائع الصنائع ٧ / ١٣٠ - ١٣١، ابن عابدين ٣ / ٢٥٣، المبسوط ١٠ / ١١٤، كشاف القناع ٣ / ٤٣، الإنصاف ٤ / ١٢١، المدونة ٢ / ٢٢ .

[٨٣٦] - حاشية البجيرمي ٤ / ٢٢٠ وهو ما يفهم من نهاية المحتاج ٨ / ٨١ وما بعدها .

[٨٣٧] - المصادر السابقة .

[٨٣٨] - الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧٨، وفتح القدير ٥ / ٣٣٤ .

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

إِذَا اسْتَوْلَى الْكُفَّارُ عَلَى بُقْعَة مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ صَارَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ النَّاحِيَةِ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْكُفَّارُ،رِجَالاً وَنِسَاءً،صِغَارًا وَكِبَارًا،أَصِحَّاءَ وَمَرْضَى،فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَهْلُ النَّاحِيَةِ دَفْعَ الْعَدُوِّ عَنْ دَارِ الإِسْلاَمِ،صَارَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَهْلِ النَّوَاحِي الأُخْرَى مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ،وَهَكَذَا حَتَّى يَكُونَ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجُوزُ تَمْكِينُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ .وَيَأْثَمُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا تَرَكُوا غَيْرَهُمْ يَسْتَوْلِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ .

وَيَجِبُ عَلَى أَهْلِ بُلْدَانِ دَارِ الإِسْلاَمِ،وَقُرَاهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِقَامَةُ شَعَائِرِ الإِسْلاَمِ،وَإِظْهَارُهَا فِيهَا كَالْجُمُعَةِ،وَالْجَمَاعَةِ،وَصَلاَةِ الْعِيدَيْنِ،وَالأَذَانِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلاَمِ،فَإِنْ تَرَكَ أَهْلُ بَلَدٍ أَوْ قَرْيَةٍ إِقَامَةَ هَذِهِ الشَّعَائِرِ أَوْ إِظْهَارَهَا قُوتِلُوا وَإِنْ أَقَامُوهَا سِرًّا [٨٤٠] .

وَلاَ يَجُوزُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ دُخُولُ دَارِ الإِسْلاَمِ إِلاَّ بِإِذْنٍ مِنَ الإِمَامِ أَوْ أَمَانٍ فِي مُسْلِمٍ .وَلاَ يَجُوزُ لَهُمْ إِحْدَاثُ دُورِ عِبَادَةٍ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ:كَالْكَنَائِسِ،وَالصَّوَامِعِ،وَبَيْتِ النَّارِ،عَلَى تَفْصِيلٍ سَيَأْتِي [٨٤١] .

تَحَوُّل دَارِ الإِسْلاَمِ إِلَى دَارِ كُفْرٍ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَحَوُّلِ دَارِ الإِسْلاَمِ إِلَى دَارٍ لِلْكُفْرِ .

فَقَال الشَّافِعِيَّةُ:لاَ تَصِيرُ دَارُ الإِسْلاَمِ دَارَ كُفْرٍ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَال،وَإِنِ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْكُفَّارُ،وَأَجْلَوُا الْمُسْلِمِينَ عَنْهَا،وَأَظْهَرُوا فِيهَا أَحْكَامَهُمْ [٨٤٢] .

---

[٨٣٩] - الأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٨، فتح القدير ٥ / ٣٣٤، بدائع الصنائع ٧ / ١٣٠ - ١٣١، أسنى المطالب ٤ / ١١١ .

[٨٤٠] - أسنى المطالب ٤ / ١٧٤، روضة الطالبين ١٠ / ٢١٧، بدائع الصنائع ١ / ٢٣٢، و ٧ / ٩٨، وكشاف القناع ١ / ١٣٤، ونهاية المحتاج ٢ / ١٣٦ - ١٣٧ .

[٨٤١] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٠/ ٢٠٤)

[٨٤٢] - نهاية المحتاج ٨ / ٨٢، وأسنى المطالب ٤ / ٢٠٤ .

وعَنْ عَائذ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّهُ جَاءَ يَوْمَ الْفَتْحِ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ،فَقَالُوا:هَذَا أَبُو سُفْيَانَ وَعَائذُ بْنُ عَمْرٍو،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" هَذَا عَائذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ،الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى "[٨٤٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ،تَكُونُ تَحْتَ النَّصْرَانِيِّ أَوِ الْيَهُودِيِّ،فَتُسْلِمُ هِيَ،قَالَ «يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا،الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ»[٨٤٤]

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ،وَالْحَنَابِلَةُ،وَصَاحِبَا أَبِي حَنِيفَةَ (أَبُو يُوسُفَ،وَمُحَمَّدٌ):تَصِيرُ دَارُ الإِْسْلاَمِ دَارَ كُفْرٍ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فِيهَا.[٨٤٥]

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّهُ لاَ تَصِيرُ دَارَ كُفْرٍ إِلاَّ بِثَلاَثِ شَرَائِطَ:

١ - ظُهُورُ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فِيهَا .

٢ - أَنْ تَكُونَ مُتَاخِمَةً لِدَارِ الْكُفْرِ .

٣ - أَنْ لاَ يَبْقَى فِيهَا مُسْلِمٌ،وَلاَ ذِمِّيٌّ آمِنًا بِالأَْمَانِ الأَْوَّل،وَهُوَ أَمَانُ الْمُسْلِمِينَ .

وَوَجْهُ قَوْل الصَّاحِبَيْنِ وَمَنْ مَعَهُمَا أَنَّ دَارَ الإِْسْلاَمِ وَدَارَ الْكُفْرِ:أُضِيفَتَا إِلَى الإِْسْلاَمِ وَإِلَى الْكُفْرِ لِظُهُورِ الإِْسْلاَمِ أَوِ الْكُفْرِ فِيهِمَا،كَمَا تُسَمَّى الْجَنَّةُ دَارَ السَّلاَمِ،وَالنَّارُ دَارَ الْبَوَارِ،لِوُجُودِ السَّلاَمَةِ فِي الْجَنَّةِ،وَالْبَوَارِ فِي النَّارِ،وَظُهُورُ الإِْسْلاَمِ وَالْكُفْرِ إِنَّمَا هُوَ بِظُهُورِ أَحْكَامِهِمَا،فَإِذَا ظَهَرَتْ أَحْكَامُ الْكُفْرِ فِي دَارٍ فَقَدْ صَارَتْ دَارَ كُفْرٍ،فَصَحَّتِ الإِْضَافَةُ،وَلِهَذَا صَارَتِ الدَّارُ دَارَ إِسْلاَمٍ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الإِْسْلاَمِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ شَرِيطَةٍ أُخْرَى،فَكَذَا تَصِيرُ دَارَ كُفْرٍ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ فِيهَا .

وَوَجْهُ قَوْل أَبِي حَنِيفَةَ:أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ إِضَافَةِ الدَّارِ إِلَى الإِْسْلاَمِ وَالْكُفْرِ لَيْسَ هُوَ عَيْنُ الإِْسْلاَمِ وَالْكُفْرِ،وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُوَ:الأَْمْنُ،وَالْخَوْفُ،وَمَعْنَاهُ:أَنَّ الأَْمْنَ إِنْ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدَّارِ عَلَى الإِْطْلاَقِ وَالْخَوْفَ لِغَيْرِهِمْ عَلَى الإِْطْلاَقِ فَهِيَ دَارُ إِسْلاَمٍ،وَإِنْ كَانَ الأَْمْنُ فِيهَا لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الإِْطْلاَقِ وَالْخَوْفُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الإِْطْلاَقِ فَهِيَ دَارُ

---

[٨٤٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٣٨)(١٢١٥٥) حسن لغيره

[٨٤٤] - شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥٧)(٥٢٦٧ صحيح

[٨٤٥] - بدائع الصنائع ٧ / ١٣٠ - ١٣١، وابن عابدين ٣ / ٢٥٣، وكشاف القناع ٣ / ٤٣، والإنصاف ٤ / ١٢١، والمدونة ٢ / ٢٢ .

كُفْرٍ،فَالْأَحْكَامُ عِنْدَهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْأَمَانِ وَالْخَوْفِ،لاَ عَلَى الْإِسْلاَمِ وَالْكُفْرِ،فَكَانَ اعْتِبَارُ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ أَوْلَى .[846]

وقال ابن تيمية:"وَكَوْنُ الْأَرْضِ دَارَ كُفْرٍ وَدَارَ إيمَانٍ أَوْ دَارَ فَاسِقِينَ لَيْسَتْ صِفَةً لَازِمَةً لَهَا؛ بَلْ هِيَ صِفَةٌ عَارِضَةٌ بِحَسَبِ سُكَّانِهَا فَكُلُّ أَرْضٍ سُكَّانُهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هِيَ دَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكُلُّ أَرْضٍ سُكَّانُهَا الْكُفَّارُ فَهِيَ دَارُ كُفْرٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكُلُّ أَرْضٍ سُكَّانُهَا الْفُسَّاقُ فَهِيَ دَارُ فُسُوقٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَإِنْ سَكَنَهَا غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا وَتَبَدَّلَتْ بِغَيْرِهِمْ فَهِيَ دَارُهُمْ.وَكَذَلِكَ الْمَسْجِدُ إذَا تَبَدَّلَ بِخَمَّارَةِ أَوْ صَارَ دَارَ فِسْقٍ أَوْ دَارَ ظُلْمٍ أَوْ كَنِيسَةً يُشْرَكُ فِيهَا بِاَللَّهِ كَانَ بِحَسَبِ سُكَّانِهِ؛ وَكَذَلِكَ دَارُ الْخَمْرِ وَالْفُسُوقِ وَنَحْوُهَا إذَا جُعِلَتْ مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ جَلَّ وَعَزَّ كَانَ بِحَسَبِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ يَصِيرُ فَاسِقًا وَالْكَافِرُ يَصِيرُ مُؤْمِنًا أَوْ الْمُؤْمِنُ يَصِيرُ كَافِرًا أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ كُلٌّ بِحَسَبِ انْتِقَالِ الْأَحْوَالِ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل:١١٢]الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ لَمَّا كَانَتْ دَارَ كُفْرٍ وَهِيَ مَا زَالَتْ فِي نَفْسِهَا خَيْرَ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبَّ أَرْضِ اللَّهِ إلَيْهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ سُكَّانَهَا....وَلِهَذَا كَانَ أَفْضَلُ الْأَرْضِ فِي حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ أَرْضٌ يَكُونُ فِيهَا أَطْوَعَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَلَا تَتَعَيَّنُ أَرْضٌ يَكُونُ مُقَامُ الْإِنْسَانِ فِيهَا أَفْضَلَ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَفْضَلُ فِي حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ بِحَسَبِ التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالْحُضُورِ "[847]

وقال أيضاً:"فَإِنَّ كَوْنَ الْأَرْضِ " دَارَ كُفْرٍ " أَوْ " دَارَ إسْلَامٍ أَوْ إيمَانٍ " أَوْ " دَارَ سِلْمٍ " أَوْ " حَرْبٍ " أَوْ " دَارَ طَاعَةٍ " أَوْ مَعْصِيَةٍ " أَوْ " دَارَ الْمُؤْمِنِينَ " أَوْ " الْفَاسِقِينَ " أَوْصَافٌ عَارِضَةٌ؛ لَا لَازِمَةٌ.فَقَدْ تَنْتَقِلُ مِنْ وَصْفٍ إلَى وَصْفٍ كَمَا يَنْتَقِلُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ مِنْ الْكُفْرِ إلَى الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ.وَأَمَّا الْفَضِيلَةُ الدَّائِمَةُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَمَكَانٍ فَفِي

---

[846] - المصادر السابقة .

[847] - مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٢)

الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة:٦٢].وَقَالَ تَعَالَى:{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) } [البقرة:١١١،١١٢].وقال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء:١٢٥]"[٨٤٨]

وقال ابن قدامة:"وَمَتَى ارْتَدَّ أَهْلُ بَلَد،وَجَرَتْ فِيهِ أَحْكَامُهُمْ،صَارُوا دَارَ حَرْبٍ فِي اغْتِنَامِ أَمْوَالِهِمْ،وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمْ الْحَادِثِينَ بَعْدَ الرِّدَّةِ،وَعَلَى الْإِمَامِ قِتَالُهُمْ،فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ بِجَمَاعَةِ الصَّحَابَةِ،وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ،وَهَؤُلَاءِ أَحَقُّهُمْ بِالْقِتَالِ؛ لِأَنَّ تَرْكَهُمْ رُبَّمَا أَغْرَى أَمْثَالَهُمْ بِالتَّشَبُّهِ بِهِمْ وَالِارْتِدَادِ مَعَهُمْ،فَيَكْثُرُ الضَّرَرُ بِهِمْ.وَإِذَا قَاتَلَهُمْ،قَتَلَ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ،وَيَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ،وَيُجْهِزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَتُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ.وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:لَا تَصِيرُ دَارَ حَرْبٍ حَتَّى تُجْمَعَ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ؛ أَنْ تَكُونَ مُتَاخِمَةً لِدَارِ الْحَرْبِ،لَا شَيْءَ بَيْنَهُمَا مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ.الثَّانِي:أَنْ لَا يَبْقَى فِيهَا مُسْلِمٌ وَلَا ذِمِّيٌّ آمِنٌ.الثَّالِثُ:أَنْ تَجْرِيَ فِيهَا أَحْكَامُهُمْ.وَلَنَا،أَنَّهَا دَارُ كُفَّارٍ،فِيهَا أَحْكَامُهُمْ،فَكَانَتْ دَارَ حَرْبٍ – كَمَا لَوْ اجْتَمَعَ فِيهَا هَذِهِ الْخِصَالُ –،أَوْ دَارَ الْكَفَرَةِ الْأَصْلِيِّينَ."[٨٤٩]

وقال السرخسي:"قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ وَحَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ،وَغَلَبُوا عَلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِهِمْ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ،وَمَعَهُمْ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ،فَإِنَّهُ تُقْتَلُ رِجَالُهُمْ،وَتُسْبَى نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – إنَّمَا تَصِيرُ دَارُهُمْ دَارَ الْحَرْبِ بِثَلَاثِ شَرَائِطَ:أَحَدُهَا:أَنْ تَكُونَ مُتَاخِمَةً أَرْضَ التُّرْكِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْحَرْبِ دَارٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَالثَّانِي:أَنْ لَا يَبْقَى فِيهَا مُسْلِمٌ آمِنٌ بِإِيمَانِهِ،وَلَا

---

[٨٤٨] – مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٥)

[٨٤٩] – المغني لابن قدامة (٩/ ١٧)

ذِمِّيٌّ آمِنٌ بِأَمَانِه،وَالثَّالِثُ:أَنْ يُظْهِرُوا أَحْكَامَ الشِّرْكِ فِيهَا،وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى إذَا أَظْهَرُوا أَحْكَامَ الشِّرْكِ فِيهَا فَقَدْ صَارَتْ دَارُهُمْ دَارَ حَرْبٍ؛ لِأَنَّ الْبُقْعَةَ إنَّمَا تُنْسَبُ إلَيْنَا أَوْ إلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ الْقُوَّةِ وَالْغَلَبَةِ،فَكُلُّ مَوْضِعٍ ظَهَرَ فِيهِ حُكْمُ الشِّرْكِ فَالْقُوَّةُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ لِلْمُشْرِكِينَ فَكَانَتْ دَارَ حَرْبٍ،وَكُلُّ مَوْضِعٍ كَانَ الظَّاهِرُ فِيهِ حُكْمُ الْإِسْلَامِ فَالْقُوَّةُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَكِنْ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - يَعْتَبِرُ تَمَامَ الْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْبَلْدَةَ كَانَتْ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ مُحْرَزَةً لِلْمُسْلِمِينَ فَلَا يَبْطُلُ ذَلِكَ الْإِحْرَازُ إلَّا بِتَمَامِ الْقَهْرِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،وَذَلِكَ بِاسْتِجْمَاعِ الشَّرَائِطِ الثَّلَاثِ؛ لِأَنَّهَا إذَا لَمْ تَكُنْ مُتَّصِلَةً بِالشِّرْكِ فَأَهْلُهَا مَقْهُورُونَ بِإِحَاطَةِ الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،فَكَذَلِكَ إنْ بَقِيَ فِيهَا مُسْلِمٌ أَوْ ذِمِّيٌّ آمِنٌ فَذَلِكَ دَلِيلُ عَدَمِ تَمَامِ الْقَهْرِ مِنْهُمْ،وَهُوَ نَظِيرُ مَا لَوْ أَخَذُوا مَالَ الْمُسْلِمِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ لَا يَمْلِكُونَهُ قَبْلَ الْإِحْرَازِ بِدَارِهِمْ لِعَدَمِ تَمَامِ الْقَهْرِ،ثُمَّ مَا بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ آثَارِ الْأَصْلِ فَالْحُكْمُ لَهُ دُونَ الْعَارِضِ كَالْمَحَلَّةِ إذَا بَقِيَ فِيهَا وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْخِطَّةِ فَالْحُكْمُ لَهُ دُونَ السُّكَّانِ وَالْمُشْتَرِينَ.

وَهَذِهِ الدَّارُ كَانَتْ دَارَ إسْلَامٍ فِي الْأَصْلِ فَإِذَا بَقِيَ فِيهَا مُسْلِمٌ أَوْ ذِمِّيٌّ فَقَدْ بَقِيَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الْأَصْلِ فَيَبْقَى ذَلِكَ الْحُكْمُ،وَهَذَا أَصْلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَتَّى قَالَ:إذَا اشْتَدَّ الْعَصِيرُ،وَلَمْ يَقْذِفْ بِالزَّبَدِ لَا يَصِيرُ خَمْرًا لِبَقَاءِ صِفَةِ السُّكُونِ،وَكَذَلِكَ حُكْمُ كُلِّ مَوْضِعٍ مُعْتَبَرٌ بِمَا حَوْلَهُ فَإِذَا كَانَ مَا حَوْلَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ كُلُّهُ دَارَ إسْلَامٍ لَا يُعْطَى لَهَا حُكْمُ دَارِ الْحَرْبِ كَمَا لَوْ لَمْ يَظْهَرْ حُكْمُ الشِّرْكِ فِيهَا،وَإِنَّمَا اسْتَوْلَى الْمُرْتَدُّونَ عَلَيْهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ،ثُمَّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لَمْ تَصِرْ الدَّارُ دَارَ حَرْبٍ،فَإِذَا ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا قَتَلُوا الرِّجَالَ،وَأَجْبَرُوا النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ عَلَى الْإِسْلَامِ،وَلَمْ يُسَبّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ،وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ صَارَ دَارَ حَرْبٍ فَالنِّسَاءُ،وَالذَّرَارِيُّ،وَالْأَمْوَالُ فَيْءٌ فِيهِ الْخُمُسُ،وَيُجْبَرُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ لِرِدَّتِهِمْ فَلَا يَحِلُّ لِمَنْ وَقَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ فِي سَهْمِهِ أَنْ يَطَأَهَا مَا دَامَتْ مُرْتَدَّةً،وَإِنْ كَانَتْ مُتَهَوِّدَةً أَوْ مُتَنَصِّرَةً؛ لِأَنَّ الرِّدَّةَ تُنَافِي الْحِلَّ،وَإِنَّمَا يَحِلُّ بِمِلْكِ الْيَمِينِ مَنْ يَحِلُّ بِالنِّكَاحِ،فَإِنْ كَانَ عَلَيْهَا دَيْنٌ فَقَدْ بَطَلَ بِالسَّبْيِ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ أَمَةً،وَمَا كَانَ مِنْ الدَّيْنِ عَلَى حُرَّةٍ لَا يَبْقَى بَعْدَ أَنْ تَصِيرَ أَمَةً؛ لِأَنَّ بِالرِّقِّ تَتَبَدَّلُ نَفْسُهَا،وَلِأَنَّ الدَّيْنَ لَا يَجِبُ عَلَى

الْمَمْلُوك إلَّا شَاغلًا مَاليَّةَ رَقَبَته وَهَذه مَاليَّةٌ حَادثَةٌ بالسَّبْيِ فَتَخْلُصُ للسَّابِي؛ فَلهَذَا لَا يَبْقَى الدَّيْنُ عَلَيْهَا."[٨٥٠]

وقال الكاساني:"وَأَمَّا بَيَانُ الْأَحْكَام الَّتِي تَخْتَلفُ باخْتلَاف الدَّارَيْن،فَنَقُولُ:لَا بُدَّ أَوَّلًا منْ مَعْرِفَة مَعْنَى الدَّارَيْن،دَار الْإسْلَامِ وَدَار الْكُفْر؛ لتُعْرَفَ الْأَحْكَامُ الَّتِي تَخْتَلفُ باخْتلَافهمَا،وَمَعْرفَةُ ذَلكَ مَبْنيَّةٌ عَلَى مَعْرِفَة مَا به،تَصيرُ الدَّارُ دَارَ إسْلَام أَوْ دَارَ كُفْر فَنَقُولُ:لَا خلَافَ بَيْنَ أَصْحَابنَا في أَنَّ دَارَ الْكُفْر تَصيرُ دَارَ إسْلَام بظُهُور أَحْكَامِ الْإسْلَامِ فيهَا وَاخْتَلَفُوا في دَار الْإسْلَام،إنَّهَا بمَاذَا تَصيرُ دَارَ الْكُفْر؟ قَالَ أَبُو حَنيفَةَ:إنَّهَا لَا تَصيرُ دَارَ الْكُفْر إلَّا بثَلَاث شَرَائطَ،أَحَدُهَا:ظُهُورُ أَحْكَامِ الْكُفْر فيهَا وَالثَّاني:أَنْ تَكُونَ مُتَاخمَةً لدَار الْكُفْر وَالثَّالثُ:أَنْ لَا يَبْقَى فيهَا مُسْلمٌ وَلَا ذمِّيٌّ آمنًا بالْأَمَان الْأَوَّل،وَهُوَ أَمَانُ الْمُسْلمينَ.

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ – رَحمَهُمَا اللَّهُ:إنَّهَا تَصيرُ دَارَ الْكُفْر بظُهُور أَحْكَامِ الْكُفْر فيهَا.

(وَجْهُ) قَوْلهمَا أَنَّ قَوْلَنَا دَارُ الْإسْلَام وَدَارُ الْكُفْر إضَافَةُ دَار إلَى الْإسْلَام وَإلَى الْكُفْر،وَإنَّمَا تُضَافُ الدَّارُ إلَى الْإسْلَامِ أَوْ إلَى الْكُفْر لظُهُور الْإسْلَامِ أَوْ الْكُفْر فيهَا،كَمَا تُسَمَّى الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَام،وَالنَّارُ دَارَ الْبَوَار؛ لوُجُود السَّلَامَة في الْجَنَّة،وَالْبَوَار في النَّار وَظُهُورُ الْإسْلَام وَالْكُفْر بظُهُور أَحْكَامهمَا،فَإذَا ظَهَرَ أَحْكَامُ الْكُفْر في دَار فَقَدْ صَارَتْ دَارَ كُفْر فَصَحَّتْ الْإضَافَةُ،وَلهَذَا صَارَتْ الدَّارُ دَارَ الْإسْلَام بظُهُور أَحْكَام الْإسْلَام فيهَا منْ غَيْر شَريطَة أُخْرَى،فَكَذَا تَصيرُ دَارَ الْكُفْر بظُهُور أَحْكَام الْكُفْر فيهَا وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَعْلَمُ.

(وَجْهُ) قَوْل أَبي حَنيفَةَ – رَحمَهُ اللَّهُ – أَنَّ الْمَقْصُودَ منْ إضَافَة الدَّار إلَى الْإسْلَامِ وَالْكُفْر لَيْسَ هُوَ عَيْنَ الْإسْلَامِ وَالْكُفْر،وَإنَّمَا الْمَقْصُودُ هُوَ الْأَمْنُ وَالْخَوْفُ.

وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَمَانَ إنْ كَانَ للْمُسْلمينَ فيهَا عَلَى الْإطْلَاق،وَالْخَوْفُ للْكَفَرَة عَلَى الْإطْلَاق،فَهيَ دَارُ الْإسْلَام،وَإنْ كَانَ الْأَمَانُ فيهَا للْكَفَرَة عَلَى الْإطْلَاق،وَالْخَوْفُ للْمُسْلمينَ عَلَى الْإطْلَاق،فَهيَ دَارُ الْكُفْر وَالْأَحْكَامُ مَبْنيَّةٌ عَلَى الْأَمَان وَالْخَوْف لَا عَلَى الْإسْلَامِ

[٨٥٠] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ١١٣)

وَالْكُفْرِ،فَكَانَ اعْتِبَارُ الْأَمَانِ وَالْخَوْفِ أَوْلَى،فَمَا لَمْ تَقَعْ الْحَاجَةُ لِلْمُسْلِمِينَ إلَى الاسْتِئْمَانِ بَقِيَ الْأَمْنُ الثَّابِتُ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ،فَلَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ،وَكَذَا الْأَمْنُ الثَّابِتُ عَلَى الْإِطْلَاقِ لَا يَزُولُ إلَّا بِالْمُتَاخَمَةِ لِدَارِ الْحَرْبِ،فَتَوَقَّفَ صَيْرُورَتُهَا دَارَ الْحَرْبِ عَلَى وُجُودِهِمَا مَعَ أَنَّ إضَافَةَ الدَّارِ إلَى الْإِسْلَامِ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ لِمَا قُلْتُمْ،وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ لِمَا قُلْنَا،وَهُوَ ثُبُوتُ الْأَمْنِ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ لِلْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ لِلْكَفَرَةِ بِعَارِضِ الذِّمَّةِ وَالاسْتِئْمَانِ،فَإِنْ كَانَتْ الْإِضَافَةُ لِمَا قُلْتُمْ تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ بِمَا قُلْتُمْ.

وَإِنْ كَانَتْ الْإِضَافَةُ لِمَا قُلْنَا لَا تَصِيرُ دَارَ الْكُفْرِ إلَّا بِمَا قُلْنَا،فَلَا تَصِيرُ مَا بِهِ دَارُ الْإِسْلَامِ بِيَقِينٍ دَارَ الْكُفْرِ بِالشَّكِّ وَالاحْتِمَالِ عَلَى الْأَصْلِ الْمَعْهُودِ أَنَّ الثَّابِتَ بِيَقِينٍ لَا يَزُولُ بِالشَّكِّ وَالاحْتِمَالِ،بِخِلَافِ دَارِ الْكُفْرِ حَيْثُ تَصِيرُ دَارَ الْإِسْلَامِ؛ لِظُهُورِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِيهَا؛ لِأَنَّ هُنَاكَ التَّرْجِيحَ لِجَانِبِ الْإِسْلَامِ؛ لِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى» فَزَالَ الشَّكُّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إنْ كَانَتْ بِاعْتِبَارِ ظُهُورِ الْأَحْكَامِ،لَكِنْ لَا تَظْهَرُ أَحْكَامُ الْكُفْرِ إلَّا عِنْدَ وُجُودِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ – أَعْنِي الْمُتَاخَمَةَ وَزَوَالَ الْأَمَانِ الْأَوَّلِ – لِأَنَّهَا لَا تَظْهَرُ إلَّا بِالْمَنَعَةِ،وَلَا مَنَعَةَ إلَّا بِهِمَا وَاَللَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَعْلَمُ وَقِيَاسُ هَذَا الاخْتِلَافِ فِي أَرْضٍ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ظَهَرَ عَلَيْهَا الْمُشْرِكُونَ،وَأَظْهَرُوا فِيهَا أَحْكَامَ الْكُفْرِ،أَوْ كَانَ أَهْلُهَا أَهْلَ ذِمَّةٍ فَنَقَضُوا الذِّمَّةَ.

وَأَظْهَرُوا أَحْكَامَ الشِّرْكِ،هَلْ تَصِيرُ دَارَ الْحَرْبِ؟ فَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ الاخْتِلَافِ،فَإِذَا صَارَتْ دَارَ الْحَرْبِ فَحُكْمُهَا إذَا ظَهَرْنَا عَلَيْهَا،وَحُكْمُ سَائِرِ دُورِ الْحَرْبِ سَوَاءٌ،وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَلَوْ فَتَحَهَا الْإِمَامُ ثُمَّ جَاءَ أَرْبَابُهَا،فَإِنْ كَانَ قَبْلَ الْقِسْمَةِ أَخَذُوا بِغَيْرِ شَيْءٍ،وَإِنْ كَانَ بَعْدَ الْقِسْمَةِ أَخَذُوا بِالْقِيمَةِ إنْ شَاءُوا لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ وَعَادَ الْمَأْخُوذُ عَلَى حُكْمِهِ الْأَوَّلِ الْخَرَاجِيُّ عَادَ خَرَاجِيًّا،وَالْعُشْرِيُّ عَادَ عُشْرِيًّا؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ اسْتِحْدَاثَ الْمِلْكِ،بَلْ هُوَ عَوْدُ قَدِيمِ الْمِلْكِ إلَيْهِ،فَيَعُودُ بِوَظِيفَتِهِ إلَّا إذَا كَانَ الْإِمَامُ وَضَعَ عَلَيْهَا الْخَرَاجَ قَبْلَ ذَلِكَ،فَلَا يَعُودُ عَشْرِيًّا؛ لِأَنَّ تَصَرُّفَ الْإِمَامِ صَدَرَ عَنْ وِلَايَةٍ شَرْعِيَّةٍ،فَلَا يَحْتَمِلُ النَّقْضَ وَاَللَّهُ – تَعَالَى – أَعْلَمُ."[٨٥١]

---

[٨٥١] – بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٧/ ١٣٠)

وقال ابن عابدين:"(قَوْلُهُ لَا تَصِيرُ دَارُ الْإِسْلَامِ دَارَ حَرْبٍ إلَخْ) أَيْ بِأَنْ يَغْلِبَ أَهْلُ الْحَرْبِ عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِنَا أَوْ ارْتَدَّ أَهْلُ مِصْرَ وَغَلَبُوا وَأَجْرُوا أَحْكَامَ الْكُفْرِ أَوْ نَقَضَ أَهْلُ الذِّمَّةِ الْعَهْدَ،وَتَغَلَّبُوا عَلَى دَارِهِمْ،فَفِي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ لَا تَصِيرُ دَارَ حَرْبٍ،إلَّا بِهَذِهِ الشُّرُوطِ الثَّلَاثَةِ وَقَالَا:بِشَرْطٍ وَاحِدٍ لَا غَيْرَ وَهُوَ إظْهَارُ حُكْمِ الْكُفْرِ وَهُوَ الْقِيَاسُ هِنْدِيَّةٌ،وَيَتَفَرَّعُ عَلَى كَوْنِهَا صَارَتْ دَارَ حَرْبٍ أَنَّ الْحُدُودَ وَالْقَوَدَ لَا يَجْرِي فِيهَا وَأَنَّ الْأَسِيرَ الْمُسْلِمَ يَجُوزُ لَهُ التَّعَرُّضُ لِمَا دُونَ الْفَرْجِ،وَتَنْعَكِسُ الْأَحْكَامُ إذَا صَارَتْ دَارُ الْحَرْبِ دَارَ الْإِسْلَامِ فَتَأَمَّلْ ط وَفِي شَرْحِ دُرَرِ الْبِحَارِ قَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ:إذَا تَحَقَّقَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ فِي مِصْرِ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ حَصَلَ لِأَهْلِهِ الْأَمَانُ،وَنُصِّبَ فِيهِ قَاضٍ مُسْلِمٌ يُنَفِّذُ أَحْكَامَ الْمُسْلِمِينَ عَادَ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فَمَنْ ظَفِرَ مِنْ الْمُلَّاكِ الْأَقْدَمِينَ بِشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ بِعَيْنِهِ،فَهُوَ لَهُ بِلَا شَيْءٍ وَمَنْ ظَفِرَ بِهِ بَعْدَمَا بَاعَهُ مُسْلِمٌ أَوْ كَافِرٌ مِنْ مُسْلِمٍ،أَوْ ذِمِّيٍّ أَخَذَهُ بِالثَّمَنِ إنْ شَاءَ وَمَنْ ظَفِرَ بِهِ بَعْدَمَا وَهَبَهُ مُسْلِمٌ،أَوْ كَافِرٌ لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ وَسَلَّمَهُ إلَيْهِ أَخَذَهُ بِالْقِيمَةِ إنْ شَاءَ.اهـــ.قُلْت:حَاصِلُهُ أَنَّهُ لَمَّا صَارَ دَارَ حَرْبٍ صَارَ فِي حُكْمِ مَا اسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ فِي دَارِهِمْ (قَوْلُهُ بِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ أَهْلِ الشِّرْكِ) أَيْ عَلَى الِاشْتِهَارِ وَأَنْ لَا يُحْكَمَ فِيهَا بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ هِنْدِيَّةٌ،وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَوْ أُجْرِيَتْ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ،وَأَحْكَامُ أَهْلِ الشِّرْكِ لَا تَكُونُ دَارَ حَرْبٍ ط (قَوْلُهُ وَبِاتِّصَالِهَا بِدَارِ الْحَرْبِ) بِأَنْ لَا يَتَخَلَّلَ بَيْنَهُمَا بَلْدَةٌ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ هِنْدِيَّةٌ ط وَظَاهِرُهُ أَنَّ الْبَحْرَ لَيْسَ فَاصِلًا،بَلْ قَدَّمْنَا فِي بَابِ اسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ أَنَّ بَحْرَ الْمِلْحِ مُلْحَقٌ بِدَارِ الْحَرْبِ،خِلَافًا لِمَا فِي فَتَاوَى قَارِئِ الْهِدَايَةِ.قُلْت:وَبِهَذَا ظَهَرَ أَنَّ مَا فِي الشَّامِ مِنْ جَبَلِ تَيْمِ اللَّهِ الْمُسَمَّى بِجَبَلِ الدُّرُوزِ وَبَعْضُ الْبِلَادِ التَّابِعَةِ كُلُّهَا دَارُ إسْلَامٍ لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ لَهَا حُكَّامٌ دُرُوزٌ أَوْ نَصَارَى،وَلَهُمْ قُضَاةٌ عَلَى دِينِهِمْ وَبَعْضُهُمْ يُعْلِنُونَ بِشَتْمِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ لَكِنَّهُمْ تَحْتَ حُكْمِ وُلَاةِ أُمُورِنَا وَبِلَادُ الْإِسْلَامِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ الْأَمْرِ تَنْفِيذَ أَحْكَامِنَا فِيهِمْ نَفَّذَهَا (قَوْلُهُ بِالْأَمَانِ الْأَوَّلِ) أَيْ الَّذِي كَانَ ثَابِتًا قَبْلَ اسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ لِلْمُسْلِمِ بِإِسْلَامِهِ وَلِلذِّمِّيِّ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ هِنْدِيَّةٌ ط."[٨٥٢]

---

[٨٥٢] - الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ١٧٤)

وقال ابن حزم:"وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الذِّمَّةِ فِي مَدَائِنِهِمْ لَا يُمَازِجُهُمْ غَيْرُهُمْ فَلَا يُسَمَّى السَّاكِنُ فِيهِمْ - لِإِمَارَةٍ عَلَيْهِمْ،أَوْ لِتِجَارَةٍ - بَيْنَهُمْ:كَافِرًا،وَلَا مُسِيئًا،بَلْ هُوَ مُسْلِمٌ حَسَنٌ،وَدَارُهُمْ دَارُ إسْلَامٍ،لَا دَارُ شِرْكٍ،لِأَنَّ الدَّارَ إنَّمَا تُنْسَبُ لِلْغَالِبِ عَلَيْهَا،وَالْحَاكِمُ فِيهَا،وَالْمَالِكُ لَهَا. وَلَوْ أَنَّ كَافِرًا مُجَاهِدًا غَلَبَ عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِ الْإِسْلَامِ،وَأَقَرَّ الْمُسْلِمِينَ بِهَا عَلَى حَالِهِمْ،إلَّا أَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لَهَا،الْمُنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ فِي ضَبْطِهَا،وَهُوَ مُعْلِنٌ بِدِينٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ لَكَفَرَ بِالْبَقَاءِ مَعَهُ كُلُّ مَنْ عَاوَنَهُ،وَأَقَامَ مَعَهُ - وَإِنْ ادَّعَى أَنَّهُ مُسْلِمٌ - لِمَا ذَكَرْنَا."[٨٥٣]

وقال الشوكاني:"الاعتبار بظهور الكلمة فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام بحيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهر بكفره إلا لكونه مأذونا له بذلك من أهل الإسلام فهذه دار إسلام ولا يضر ظهور الخصال الكفرية فيها لأنها لم تظهر بقوة الكفار ولا بصولتهم كما هو مشاهد في أهل الذمة من اليهود والنصارى والمعاهدين الساكنين في المدائن الإسلامية وإذا كان الأمر العكس فالدار بالعكس."[٨٥٤]

وفي فتاوى محمد بن إبراهيم آل الشيخ:" هل تجب الهجرة من بلاد المسلمين التي يحكم فيها بالقانون.

ج:البلد التي يحكم فيها بالقانون ليست بلد إسلام.تجب الهجرة منها،وكذلك إذا ظهرت الوثنية من غير نكير ولا غيرت فتجب الهجرة فالكفر بفشو الكفر وظهوره.هذه بلد كفر.

أما إذا كان قد يحكم فيها بعض الأفراد أو وجود كفريات قليلة لا تظهر فهي بلد إسلام.(تقرير)

ما الذي سلط الأعداء على المسلمين؟

إذا كان نفس الشيء الذي نقمه الرسول هو المقدم عندهم واستغنوا باسم الإسلام وصلاة ونحو ذلك.

إن في القرآن والسنة والشفاء والبيان.

---

[٨٥٣] - المحلى بالآثار (١٢/ ١٢٦)

[٨٥٤] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص: ٩٧٦)

شيء واضح بينه القرآن ووضحه في عدة مواضع أن المشركين مقرين بالربوبية،ثم آيات أخر عينت الشيء الذي طلبوه،فهذا هو الذي أنكره القرآن عليهم من جهة العقيدة.

ولعلك أن تقول:لو قال من حكم القانون:أنا أعتقد أنه باطل.فهذا لا أثر له،بل هو عزل للشرع،كما لو قال أحد:أنا أعبد الأوثان،وأعتقد أنها باطل.وإذا قدر على الهجرة من بلاد تقام فيها القوانين وجب ذلك (تقرير)"[855]

الدولة الفاطمية دولة كافرة ودارهم دار كفر

" قلت:ويوم استولى العبيديون على المغرب ثم مصر ورغم انتسابهم للإسلام- بل لآل البيت – وإظهارهم لشعائره،إلا أنهم لما أظهروا الكفر،وعطلوا بعض احكام الشرع:أجمع أهل العلم يومئذ على كفرهم وردتهم،وأن تلك البلاد غدت باستيلائهم عليها،وعلوِّ كلمتهم فيها:دار كفر وحرب "[856]

قال الذهبي:" وَقَدْ أَجمع عُلَمَاء المَغْرب عَلَى محَاربَة آل عبيد لَمَا شَهْروهُ منَ الكُفْر الصرَاح الَّذي لاَ حيْلَة فيْه وَقَدْ رَأَيْت فِي ذَلكَ توَاريخ عدَّة يصدق بَعْضهَا بَعْضاً وَعُوتبَ بَعْض العُلَمَاء فِي الخُرُوْجِ مَعَ أَبِي يَزِيْد الخَارجيّ فَقَالَ:وَكَيْفَ لاَ أَخرج وَقَدْ،سَمعْتُ الكُفْر بأُذُنَي حضرت عقداً فيْه جمع منْ سنَة وَمشَارقَة وَفيهُم أَبُو قضَاعَة الدَّاعي فَجَاءَ رَئيْس فَقَالَ:كَبيْر منْهُم إِلَى هُنَا يَا سيدِي ارْتَفَع إِلَى جَانب رَسُوْل الله يَعْنِي:أَبَا قضَاعَة فَمَا نطق أَحَد ،وَوجد بخَط فَقيْه قَالَ:فِي رَجَب،سَنَةَ ٣٣١ قَامَ المكوكب يقذف الصَّحَابَة وَيطعن عَلَى النَّبيِّ – ﷺ – وَعلقت رُؤُوْس حمير وَكباش عَلَى الحوَانيت كتب عَلَيْهَا أَنَّهَا رُؤُوْس صَحَابَة.

وَخَرَجَ أَبُو إِسْحَاقَ الفَقيْه مَعَ أَبِي يَزِيْد،وَقَالَ:هُم أَهْل القبْلَة وَأولئك ليسُوا أَهْل قبلَة وَهُم بَنو عَدُوّ الله فَإِن ظفرنَا بهم لَمْ ندْخل تَحْتَ طَاعَة أَبِي يَزِيْد لأَنَّه خَارجيّ.

قَالَ أَبُو مَيْسَرَة الضَّرِيْر:أَدخلنِي الله فِي شَفَاعَة أَسود رمَى هَؤُلاَءِ القَوْم بحجر.

وَقَالَ السبَائِي:أَي وَالله نجد فِي قتل الْمُبدل للدين.

---

[855] – فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (٦/ ١٨٨)

[856] – مسائل من فقه الجهاد ص ١٦

وَتسَارع الفُقَهَاء وَالعبَاد فِي أهبَة كَامِلَة بِالطبول وَالبنود وَخطبهُم فِي الجمعَة أَحْمَد بن أَبِي الوَلِيْد وَحرضهُم وَقَالَ:

جَاهدُوا منْ كفر بِاللهِ وَزعم أَنَّهُ ربّ منْ دُوْنَ الله وَغَيّر أَحْكَام الله وَسب نَبِيّه وَأَصْحَاب نَبِيّه فَبَكَى النَّاس بكَاء شَدِيْداً وَقَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا القرمطِي الكَافِر المَعْرُوْف بِابْنِ عُبَيْدِ الله المدعي الرُّبُوبِيَّة جَاحد لنعْمَتك كَافِر بِرُبُوبِيَّتك طَاعن عَلَى رسلك مُكَذب بِمُحَمَّد نَبِيّك سَافك للدمَاء فَالعنه لعناً وَبيلاً وَاخزه خزيّاً طَوِيْلاً وَاغضب عَلَيْه بكرَة وَأَصيلاً ثُمَّ نزل فَصَلَّى بهم الجمعَة .

وَركب ربيع القَطَّان فرسه مُلبساً وَفِي عُنُقه المُصْحَف وَحَوْلَهُ جمع كَبِيْر وَهُوَ يَتْلُو آيَات جِهَاد الكفرَة فَاسْتُشْهِدَ ربيع فِي خلق منَ النَّاس يَوْم المَصَافّ فِي صَفَرٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَكَانَ غَرَض هَؤُلاَءِ المَجُوْس بني عبيد أَخذه حَيّاً لِيُعَذِّبوهُ."[٨٥٧]

قَالَ القَاضِي عِيَاض:أَجمع العُلَمَاءُ بِالقَيْرَوَان،أَنَّ حَالَ بَنِي عُبَيْد حَال المرتَدِّينَ وَالزَّنَادقَة.[٨٥٨]

وقال يوسف الرُعيني:أجمع العلماء بالقَيْروان على أنّ حال بني عُبيد حال المرتدّين والزّنادقة؛ لما أظهروا من خلاف الشريعة.[٨٥٩]

وقال أبو يوسف بن عبد الله الرعيني في كتابه:أجمع علماء القيروان أبو محمد،وأبو الحسن القابسي،وأبو القاسم ابن شبلون،وأبو علي بن خلدون،وأبو بكر الطبني،وأبو بكر بن عذرة:أن حال بني عبيد،حال المرتدين والزنادقة،بما أظهروه من خلاف الشريعة،فلا يورثون بالإجماع،وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل.فيقتلون بالزندقة،قالوا:ولا يقدر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم،بخلاف سائر أنواع الكفر.لأنه أقام بعد علمه بكفرهم،ولا يجوز له ذلك،إلا أن يختار القتل،دون أن يدخل في الفكر.على هذا الرأي أصحاب سحنون يفتون المسلمين.قال أبو القاسم الدهان:وهم بخلاف الكفار،لأن كفرهم خالطه سحر بمن اتصل بهم،خالطه السحر.ولما حمل أهل طرابلس الى بني

---

[٨٥٧] – سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٥/ ١٥٤)

[٨٥٨] – سير أعلام النبلاء ط الحديث (١١/ ٤٢٤)

[٨٥٩] – تاريخ الإسلام ت بشار (٩/ ٣٣٧)

عبيد،أضمروا أن يدخلوا في دينهم،عند الإكراه.ثم ردوا من الطريق سالمين.فقال ابن أبي زيد رضي الله عنه:هم كفّار لاعتقادهم ذلك.[٨٦٠]

وحكى أبو عبد الله بن محمد المالكي،فيمن خرج معه أبو الفضل الممسي،وربيع بن سليمان القطان،وأبو العرب بن تميم،وأبو إسحاق السبائي،وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد،وأبو حفص عمر بن محمد الغسال،وعبد الله بن محمد الشقيقي،في جماعة المدنيين،وابراهيم بن محمد المعروف بالعشّاء الحنفي،وغيرهم.و لم يخلف من فقهاء المدنيين المشهورين،إلا أبو ميسرة لعماه،ولكنه مشى شاهراً للسلاح في القيروان مع الناس،باجتماع المشيخة على الخروج.ووجهوا الى الممسي ليروا رأيه في ذلك.وكان عباس الممسي في ذلك الحين مريضاً،بمنزله.وأنذر الناس الى الجامع فحضروا،وتكلموا في الأمر.فذكر ربيع جبر والديه،وذكر العشّاء ثقل وضوئه.

فقال العباس الممسي:قد تعلمون أنه يشق عليّ من الوضوء والوالدة،أكثر مما ذكرتم.وغير ذلك من علتي هذه الظاهرة.ولكن لما بلغني من رد الناس الأمر إلي زالت العذُر،وإن عزمتم عزيمة رجل واحد،فلا أضن عليكم،لما وجب علي من جهادكم.فقال أبو إسحاق السبائي:جزاك الله،يا أبا الفضل عن الإسلام وأهله خيراً.إنا والله نشمر ونجد في قتال اللعين المبدل للدين.فلعل الله أن يكفر عنا بجهادنا،تفريطنا وتقصيرنا عن واجب جهادهم.فكلمهم أبو الفضل واحداً واحداً.فقال ربيع القطان:أنا أول من يسارع ويندب الناس.وتسارع جميع الناس الى ذلك.وذلك يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت بجمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين.وعقدوا أمرهم على الخروج الى المصلى بالسلاح الشاك.فلما كان الغد،خرجوا واجتمعوا بالمصلى بالعدة الظاهرة،فضاق بهم الفضاء من كثرتهم.وتواعدوا للخروج والنظر في الازواء.ثم اجتمعوا يوم الأربعاء في السلاح.فركب ربيع فرساً،عليه درع مصبوغ.وتقلد سيفاً،وحبس رمحاً،وقد تعمم بعمامة حمراء،وأبو سعيد ابن أخي هشام يمشي معه على عنقه السيف مصلتاً.وركب أبو العرب،وتقلد مصحفاً.وركب غيرهما في السلاح الشاك.وشقوا القيروان،ينادون بالجهاد،وقد شهروا

---

[٨٦٠] – ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/ ٢٧٧)

السلاح،وأعلنوا بالتهليل والتكبير،وتلاوة القرآن،والصلاة على النبي ﷺ وعلى آله،والترحم على أصحابه،وأزواجه رضي الله تعالى عنهم.فاستنهضوا الناس للجهاد،ورغبوهم فيه.فلما كان يوم الجمعة،ركبوا بالسلاح التام،والبنود والطبول،وأتوا حتى ركزوا بنودهم قبالة الجامع.وكانت سبعة بنود.بند أحمر للممسي فيه مكتوب:لا إله إلا الله محمد رسول الله.لا حكم إلا لله،وهو خير الحاكمين.

وبندان أحمران لربيع،في أحدهما:بسم الله الرحمن الرحيم.لا إله إلا الله محمد رسول الله.وفي أحدهما:نصر من الله وفتح قريب،على يد الشيخ أبي يزيد.اللهم انصر وليك على من سب نبيّك،وأصحاب نبيّك.وبند أصفر لأبي العرب متكوب فيه:بسم الله الرحمن الرحيم." قاتلوا أئمّة الكُفر " الآية.وبند أخضر لأبي نصر الزاهد،فيه:لا إله إلا الله.قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.وبند أبيض للسبائي،فيه:بسم الله الرحمن الرحيم.محمد رسول الله،وأبو بكر الصديق،وعمر الفاروق.وبند أبيض للعشّاء،وهو أكبرهم،فيه مكتوب:لا إله إلا الله." ألا تنصروه فقد نصره الله " الآية.وحضرت صلاة الجمعة،فخطب خطيبهم،أحمد بن أبي الوليد،خطبة بليغة.وحرّض الناس على الجهاد.وسب بني عبيد،ولعنهم وأغرى بهم.وتلا:" لا يستوي القاعدون من المؤمنين " الآية.وأعلم الناس بالخروج من غدهم،يوم السبت.فخرج الناس مع أبي يزيد لجهادهم.فرزقوا الظفر بهم،وحصروهم في مدينة المهدية.فلما رأى أبو يزيد ذلك،ولم يشك في غلبته،أظهر ما أكنّه من الخارجية.فقال لأصحابه:إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان،حتى يتمكن أعداؤهم منهم.فقتلوا منهم،من أراد الله سعادته،ورزقه الشهادة.فمنهم الممسي،وربيع،ومحمد بن علي البقال.وكان نبيلاً من أهل العلم،في خمسة وثلاثين رجلاً،من الفقهاء والصالحين.وذلك في رجب سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.ففارق الناس أبا يزيد بالقيروان.وأظهروا السنّة وحلّقوا بالجامع.فكان لربيع حلقة يجتمع إليه فيها،للفقه من علماء المالكية:أبو الأزهر بن معتب،ومحمد بن أحمد السيوري،وابن أخي هشام،وعمر بن محمد الغسال،وعبد الله بن عامر بن عبد الله بن الحداد،وأبو الليث مولى

ابن اللباد،وأبو محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى،وعبد الله بن الأجدابي.فلما ظفر اسماعيل بأبي يزيد ودخل القيروان،سلط الله به على جماعة منهم،سوط عذاب.[861]
وقال ابن تيمية عنهم:"وَلِأَجْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الزَّنْدَقَةِ وَالْبِدْعَةِ بَقِيَتْ الْبِلَادُ الْمِصْرِيَّةُ مُدَّةَ دَوْلَتِهِمْ نَحْوَ مِائَتَيْ سَنَةٍ قَدْ انْطَفَأَ نُورُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ،حَتَّى قَالَتْ فِيهَا الْعُلَمَاءُ:إنَّهَا كَانَتْ دَارَ رِدَّةٍ وَنِفَاقٍ،كَدَارِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ.وَالْقَرَامِطَةُ " الْخَارِجِينَ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ الَّذِينَ كَانُوا سَلَفًا لِهَؤُلَاءِ الْقَرَامِطَةِ ذَهَبُوا مِنْ الْعِرَاقِ إلَى الْمَغْرِبِ،ثُمَّ جَاءُوا مِنْ الْمَغْرِبِ إلَى مِصْرَ؛ فَإِنَّ كُفْرَ هَؤُلَاءِ وَرِدَّتَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالرِّدَّةِ،وَهُمْ أَعْظَمُ كُفْرًا وَرِدَّةً مِنْ كُفْرِ أَتْبَاعِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَنَحْوُهُ مِنْ الْكَذَّابِينَ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالشَّرَائِعِ مَا قَالَهُ أَئِمَّةُ هَؤُلَاءِ."[862]
وقال محمد بن عبد الوهاب:"ولو ذهبنا نعدد من كفره العلماء،مع ادعائه الإسلام،وأفتوا بردته وقتله،لطال الكلام؛ لكن من آخر ما جرى قصة بني عبيد،ملوك مصر وطائفتهم،وهم يدعون أنهم من أهل البيت،ويصلون الجمعة والجماعة،ونصبوا القضاة والمفتين،وأجمع العلماء على كفرهم،وردهم،وقتالهم،وأن بلادهم بلاد حرب،يجب قتالهم ولو كانوا مكرهين،مبغضين لهم."[863]
وقال أبو شامة:"الحافظُ أَبُو الْقَاسِم فِي تَارِيخه وَمَا كَانَت ولَايَة هَؤُلَاءِ الملاعين إِلَّا محنة من الله تَعَالَى وَلِهَذَا طَالَتْ مدتهم مَعَ قلَّة عددهم فَإِن عددهمْ عدَّة خلفاء بني أُميَّة أَرْبَعَة عشر وَأُولَئِكَ بقوا نيّفاً وَتسْعين سنة وَهَؤُلَاء بقوا مئتي سنة وثمانياً وَستِّينَ سنة فَالْحَمْد لله على مَا يسر من هُلكهم وإبادة ملكهم وَرَضِي الله عَمَّن سعى فِي ذَلِك وأزالهم ورحم مَنْ بيّن مَخْرقتهم وكذبهم ومحالهم
وَقد كشف أَيْضا حَالهم الإِمَام أَبُو الْقَاسِم عبد الرَّحمن بن عَليّ بن أبي نصر الشَّاشِي فِي كتاب الرَّدِّ على الباطنية وَذكر قبائح مَا كَانُوا عَلَيْهِ من الْكفْر والمنكرات وَالْفَوَاحِش فِي

[861] – ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٥/ ٣٠٤)
[862] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٩٩)
[863] – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٦٨)

أَيَّام نزار وَمَا بعده وَوصل الْأَمر إِلَى أَن وصف بَعضهم مَا كَانُوا فِيهِ فِي قصيدة سَمَّاهَا الْإِيضَاح عَن دَعْوَة القدّاح أوَّلها

(حيَّ على مصر إِلَى خلع الرَّسَنْ ...فثمَّ تَعْطِيل فروض وَسنَن)

وَقَالَ لَو وُفّق مُلُوك الْإِسْلَام لصرفوا أَعِنَّة الْخَيل إِلَى مصر لغزو الباطنية الملاعين فَإِنَّهُم من شَرّ أَعدَاء دين الْإِسْلَام وَقد خرجت من حد الْمُنَافِقين إِلَى حدّ المجاهرين لما ظهر فِي ممالك الْإِسْلَام من كفرها وفسادها وتعيّن على الكافة فرض جهادها وضرر هَؤُلَاءِ أَشد على الْإِسْلَام وَأَهله من ضَرَر الْكفَّار إِذْ لم يقم بجهادها أحد إِلَى هَذِه الْغَايَة مَعَ الْعلم بعظيم ضررها وفسادها فِي الأَرْض وَالله الْمُوفق"[٨٦٤]

مناطُ الحكم على الدار:

مناط الحكم على الدار بأنها دار حرب:هو ظهور أحكام الكفر فيها لا محاربتها للمسلمين ؛ فكل دار كفر:هي دار حرب إلا أن يكون هناك عهدٌ بين أهلها وبين المسلمين.

قال السرخسي:" وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى إذَا أَظْهَرُوا أَحْكَامَ الشِّرْكِ فِيهَا فَقَدْ صَارَتْ دَارُهُمْ دَارَ حَرْبٍ؛ لِأَنَّ الْبُقْعَةَ إنَّمَا تُنْسَبُ إلَيْنَا أَوْ إلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ الْقُوَّةِ وَالْغَلَبَةِ،فَكُلُّ مَوْضِعٍ ظَهَرَ فِيهِ حُكْمُ الشِّرْكِ فَالْقُوَّةُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ لِلْمُشْرِكِينَ فَكَانَتْ دَارَ حَرْبٍ،وَكُلُّ مَوْضِعٍ كَانَ الظَّاهِرُ فِيهِ حُكْمُ الْإِسْلَامِ فَالْقُوَّةُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ"[٨٦٥]

وحكم الهجرة باق لا ينقطع إلى يوم القيامة وكل بلد فتح لا تبقى منه هجرة إنما الهجرة إليه وتجب على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر [٨٦٦]

قَوْلُهُ (وَتَجِبُ الْهِجْرَةُ عَلَى مَنْ يَعْجِزُ عَنْ إظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ) بِلَا نِزَاعٍ فِي الْجُمْلَةِ.وَدَارُ الْحَرْبِ:مَا يَغْلِبُ فِيهَا حُكْمُ الْكُفْرِ.زَادَ بَعْضُ الْأَصْحَابِ مِنْهُمْ:صَاحِبُ الرِّعَايَتَيْنِ،وَالْحَاوِيَيْنِ أَوْ بَلَدُ بُغَاةٍ أَوْ بِدْعَةٍ.كَرَفْضٍ وَاعْتِزَالٍ.قُلْت:وَهُوَ الصَّوَابُ.وَذَلِكَ

---

٨٦٤ – عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (٢/ ٢٢٢)

٨٦٥ – المبسوط للسرخسي (١٠/ ١١٤)

٨٦٦ – الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٧)

مُقَيَّدٌ.بِمَا إذَا أَطَاقَهُ.فَإِذَا أَطَاقَهُ وَجَبَتْ الْهِجْرَةُ وَلَوْ كَانَ امْرَأَةً فِي الْعِدَّةِ.وَلَوْ بِلَا رَاحِلَةٍ وَلَا مَحْرَمٍ.[867]

وتسمية الفقهاء كافة بغير مخالف لدار الكفر ب "دار الحرب":إنما هو بناء على أصل العلاقة بين المسلمين والكفار أينما كانوا،وأن الواجب:إنما هو قتالهم لإخضاعهم لحكم الإسلام ؛ فالأرض كل الأرض:لله سبحانه وتعالى وحده وليست للكفرة الفجرة الأنجاس،قال تعالى:{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف:١٢٨]

والإسلامُ:هو دينه الذي لا يقبل ولا يرتضي غيره؛قال تعالى:{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:١٩] فليس لأهل الأرض أجمع مع الإسلام إلا ان يخضعوا لحكمه بالإسلام أو المسالمة قال تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]،هذا حكم الله شاء من شاء،وأبى من أبى ؛ ومن رضيَ فله الرضا،ومن سخِطَ ففي جهنم متسع للكافرين ![868]

وقالَ ابن السَّمعانِيّ:وأَمّا حَملهم الحَديث عَلَى المُستَأمَن فَلا يَصِحّ لأَنَّ العِبرَة بِعُمُومِ اللَّفظ حَتَّى يَقُوم دَلِيل عَلَى التَّخصِيص،ومِن حَيثُ المَعنَى أَنَّ الحُكم الَّذِي يُبنَى فِي الشَّرع عَلَى الإِسلام والكُفر إِنَّما هُو لِشَرَف الإِسلام أَو لِنَقصِ الكُفر أَو لَهُما جَمِيعًا فَإِنَّ الإِسلام يَنبُوع الكَرامَة والكُفر يَنبُوع الهَوان،وأَيضًا إِباحَة دَم الذِّمِّيّ شُبهَة قائِمَة لِوُجُود الكُفر المُبِيح لِلدَّمِ والذِّمَّةُ إِنَّما هِيَ عَهدٌ عارِضٌ مَنَعَ القَتل مَعَ بَقاء العِلَّة فَمِن الوفاء بِالعَهدِ أَن لا يَقتُل المُسلِمُ ذِمِّيًّا فَإِن اتَّفَقَ القَتل لَم يُتَّجَه القَول بِالقَودِ لأَنَّ الشُّبهَة المُبِيحَة لِقَتلِهِ مَوجُودَة ومَعَ قِيام الشُّبهَة لا يُتَّجَه القَود.[869]

---

[867] - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٤/ ١٢١) والمبدع شرح المقنع -دار عالم الكتب (٣/ ٢٣١) والمبدع في شرح المقنع (٣/ ٢٨٦) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٤٣)

[868] - انظر مسائل من فقه الجهاد ص (١٨)

[869] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٢/ ٢٦١)

وقال ابن القيم:"الْكُفَّارُ إِمَّا أَهْلُ حَرْبٍ وَإِمَّا أَهْلُ عَهْدٍ،وَأَهْلُ الْعَهْدِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:[١ -] أَهْلُ ذِمَّةٍ.[٢ -] وَأَهْلُ هُدْنَةٍ.[٣ -] وَأَهْلُ أَمَانٍ.وَقَدْ عَقَدَ الْفُقَهَاءُ لِكُلِّ صِنْفٍ بَابًا،فَقَالُوا:بَابُ الْهُدْنَةِ،بَابُ الْأَمَانِ،بَابُ عَقْدِ الذِّمَّةِ."[٨٧٠]

فكلٌّ من لم يكن من الكفار من أهل العهد مع المسلمين:فهو من أهل الحرب ولا بدَّ .

وقد كان النبي ﷺ يقوم بتوجيه الدعوة إلى ملوك الأمم ورؤسائها يدعوهم للدخول في الإسلام،والإذعان بالطاعة:

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ،قَالَ:حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ،مِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ،قَالَ:انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ،إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ،قَالَ:وَكَانَ دَحْيَةُ الكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ،فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى،فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ،قَالَ:فَقَالَ هِرَقْلُ:هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالُوا:نَعَمْ،قَالَ:فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ،فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ،فَقَالَ:أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:فَقُلْتُ:أَنَا،فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ،وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي،ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ،فَقَالَ:قُلْ لَهُمْ:إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ،فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ،قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:وَايْمُ اللَّهِ،لَوْلاَ أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الكَذِبَ لَكَذَبْتُ،ثُمَّ قَالَ:لِتَرْجُمَانِهِ،سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ:قُلْتُ:هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ،قَالَ:فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ:قُلْتُ:لاَ،قَالَ:فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ:لاَ،قَالَ:أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ:قُلْتُ:بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ،قَالَ:يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ:قُلْتُ لاَ بَلْ يَزِيدُونَ،قَالَ:هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ:قُلْتُ:لاَ،قَالَ:فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ:قُلْتُ:نَعَمْ،قَالَ:فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ:قُلْتُ:تَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ،قَالَ:فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ:قُلْتُ:لاَ،وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا،قَالَ:وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ،قَالَ:فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ:لاَ،ثُمَّ قَالَ

---

[٨٧٠] - أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٧٣)

لِتُرْجُمَانه:قُلْ لَهُ:إِنِّي [ص:٣٦] سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ،فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ،وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا،وَسَأَلْتُكَ:هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ،فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ،فَقُلْتُ:لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ،قُلْتُ:رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ،وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ،فَقُلْتَ:بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ،وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ،وَسَأَلْتُكَ:هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ،فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ،ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ،وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ،فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ،وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ،وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ،فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ،وَسَأَلْتُكَ:هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ،فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ،وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ،وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لاَ يَغْدِرُ،وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ،وَسَأَلْتُكَ:هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ،فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ،فَقُلْتُ:لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ،قُلْتُ:رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ:بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ:قُلْتُ:يَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالعَفَافِ،قَالَ:إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا،فَإِنَّهُ نَبِيٌّ،وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ،وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ،وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ،وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ،وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ،قَالَ:ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ:" فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ،سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى،أَمَّا بَعْدُ:فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ،أَسْلِمْ تَسْلَمْ،وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ،فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ،وَ:{يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ} إِلَى قَوْلِهِ:{اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤] " فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ،ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ،وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا،قَالَ:فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا:لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ،إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ،فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ،قَالَ الزُّهْرِيُّ:فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الرُّومِ،هَلْ لَكُمْ فِي الفَلاَحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ

الأَبَد،وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ،قَالَ:فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ،فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ،فَقَالَ:عَلَيَّ بِهِمْ،فَدَعَا بِهِمْ فَقَالَ:إِنِّي إِنَّمَا اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ،فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الَّذِي أَحْبَبْتُ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ"[٨٧١]

وقد ترجم البخاري لهذا الحديث:"بَابُ قُلْ:يَا {أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ} "سَوَاءٍ:قَصْد "[٨٧٢]

وبَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالنُّبُوَّةِ،وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ} [آل عمران:٧٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[٨٧٣]

وفي صحيح مسلم بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ[٨٧٤]

قلت:وقال هرقل:" إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا،فَإِنَّهُ نَبِيٌّ،وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ،وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ،وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ،وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ،وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ"[٨٧٥]

وعَنْ أَنَسٍ:«أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى،وَإِلَى قَيْصَرَ،وَإِلَى النَّجَاشِيِّ،وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى»،وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ"[٨٧٦]

---

[٨٧١] - صحيح البخاري (٦/ ٣٥)(٤٥٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣)٧٤ - (١٧٧٣)

[ش (آخر الأبد) إلى آخر الزمان.(الذي أحببت) الشيء الذي أحببته وهو ثباتكم على دينكم]

[٨٧٢] - صحيح البخاري (٦/ ٣٥)

[٨٧٣] - صحيح البخاري (٤/ ٤٥)

[٨٧٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣)٢٦ -

[٨٧٥] - صحيح البخاري (٦/ ٣٦)

[٨٧٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧)٧٥ - (١٧٧٤)

[ش (كسرى) بفتح الكاف وكسرها وهو لقب لكل من ملك من ملوك الفرس(قيصر) لقب من ملك الروم(النجاشي) لقب لكل من ملك الحبشة]

(وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ) : أَتَى بِهِ اخْتِصَارًا ؛ أَيْ: كِسْرَى وَأَمْثَالِهِ (يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ) : فِي الْمَوَاهِبِ: أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَإِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، وَإِلَى مَلِكِ عُمَانَ، وَإِلَى صَاحِبِ الْيَمَامَةِ، الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ، وَلِأَهْلِ جَرْبَا وَأَذْرُحَ، وَإِلَى أَهْلِ وَجٍّ وَلِأُكَيْدِرٍ، وَصُورَةُ الْمَكَاتِيبِ مَكْتُوبَةٌ فِيهِ (وَلَيْسَ) : أَيِ: النَّجَاشِيُّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ (بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)، يَعْنِي وَقَدْ وَهِمَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ النَّجَاشِيُّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ

وفي صحيح مسلم:٢٧ - بَابُ كُتُبِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مُلُوكِ الْكُفَّارِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[877]

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ " بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى،فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ قَالَ:فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ»[878]

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ خَلَطَ رَاوِيهِ، فَإِنَّهُمَا اثْنَانِ وَكِلَاهُمَا مُسْلِمَانِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٧)

[877] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧)

[878] - صحيح البخاري (١/ ٢٣)(٦٤)

[ش (رجلا) هو عبد الله بن حذاقة السهمي.(يدفعه) يعطيه.(عظيم البحرين) أميرها.(كسرى) لقب ملك الفرس.(كل ممزق) غاية التمزيق ومنتهاه وهو هنا التفريق والتشتيت]

(فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ) وَهُوَ بَلَدٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ قَرِيبَ الْبَصْرَةِ (فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى) : قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: الْفَاءُ فِي فَدَفَعَهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مُقَدَّرَاتٍ مَعْدُودَةٍ) ؛ أَيْ: فَذَهَبَ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ، ثُمَّ بَعَثَهُ الْعَظِيمُ إِلَى كِسْرَى فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ (فَلَمَّا قَرَأَ) : أَيْ: قَرَأَهُ كَمَا فِي نُسْخَةٍ (مَزَّقَهُ) : أَيْ: قَطَّعَهُ (قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ) : فِي الْبُخَارِيِّ، قَالَ الرَّاوِي: فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: (فَدَعَا عَلَيْهِمْ) : أَيْ: عَلَيْهِ وَعَلَى أَتْبَاعِهِ مِمَّنْ حَمَلَهُ عَلَى التَّمْزِيقِ (رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ) : قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: أَيْ: يُفَرَّقُوا كُلَّ نَوْعٍ مِنَ التَّفْرِيقِ، وَأَنْ يُبَدَّدُوا كُلَّ وَجْهٍ، وَالْمُمَزَّقُ مَصْدَرٌ كَالتَّمَزُّقِ، وَالَّذِي مَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ أَبْرَوِيزُ بْنُ هُرْمُزَ بْنِ أَنُوشِرْوَانَ، قَتَلَهُ ابْنُهُ شِيرَوَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ قَتْلِهِ إِلَّا سِتَّةَ أَشْهُرٍ، يُقَالُ: إِنَّ أَبْرَوِيزَ لَمَّا أَيْقَنَ بِالْهَلَاكِ، وَكَانَ مَأْخُوذًا عَلَيْهِ فَتَحَ خِزَانَةَ الْأَدْوِيَةِ وَكَتَبَ عَلَى حُقَّةٍ: السُّمُّ الدَّوَاءُ النَّافِعُ لِلْجِمَاعِ، وَكَانَ ابْنُهُ مُولَعًا بِذَلِكَ فَاحْتَالَ فِي هَلَاكِهِ، فَلَمَّا قَتَلَ أَبَاهُ فَتَحَ الْخِزَانَةَ، فَرَأَى الْحُقَّةَ حَاوَلَ مِنْهَا، فَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ، وَيَزْعُمُ الْفُرْسُ أَنَّهُ مَاتَ أَسَفًا عَلَى قَتْلِهِ أَبَاهُ، وَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ بَعْدَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ بِالتَّمْزِيقِ أَمْرٌ نَافِذٌ، بَلْ أَدْبَرَ عَنْهُمُ الْإِقْبَالُ وَمَالَتْ عَنْهُمُ الدَّوْلَةُ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمُ النُّحُوسَةُ حَتَّى انْقَرَضُوا عَنْ آخِرِهِمْ اهـــ.وَكَانَ فَتْحُ بِلَادِ الْعَجَمِ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِلْكُهُمْ فِي ذَلِكَ فِي يَزْدَجِرْدَ بْنِ شَهْرَيَارَ بْنِ شِيرَوَيْهِ بْنِ أَبْرَوِيزَ، وَتَزَوَّجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِنْتَ يَزْدَجِرْدَ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) .

وَفِي الْمَوَاهِبِ: «كَتَبَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى كِسْرَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ، فَلَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَزَّقَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: مَزَّقَ مُلْكَهُ»، قِيلَ: بَعَثَهُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ هُوَ الصَّحِيحُ،

وفي صحيح البخاري:"بَابُ دَعْوَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَعَلَى مَا يُقَاتَلُونَ عَلَيْهِ،وَمَا كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى كِسْرَى،وَقَيْصَرَ،وَالدَّعْوَةِ قَبْلَ القِتَالِ"[879]

وعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:" إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً،فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمْكُمُ اللهُ،وَلَا تَخْتَلِفُوا كَمَا اخْتَلَفَ الْحَوَارِيُّونَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،فَإِنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى مِثْلِ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ،فَأَمَّا مَنْ قَرُبَ مَكَانُهُ فَإِنَّهُ أَجَابَ وَأَسْلَمَ،وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ مَكَانُهُ فَكَرِهَهُ،فَشَكَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ذَلِكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَصْبَحُوا وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ الَّذِينَ وُجِّهَ إِلَيْهِمْ،فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:هَذَا أَمْرٌ قَدْ عَزَمَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِ،فَامْضُوا فَافْعَلُوا " فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ:نَحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ نُؤَدِّي عَنْكَ،فابْعَثْنَا حَيْثُ شِئْتَ،فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ حُذَافَةَ إِلَى كِسْرَى،وَبَعَثَ سَلِيطَ بْنَ عَمْرٍو إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ صَاحِبِ الْيَمَامَةِ،وَبَعَثَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى صَاحِبِ هَجَرَ،وَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ إِلَى جَيْفَرَ،وَعَبَّادِ ابْنَي جَلَنْدَا مَلِكَيْ عُمَانَ،وَبَعَثَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى قَيْصَرَ،وَبَعَثَ شُجَاعَ بْنَ وَهْبٍ الْأَسَدِيَّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ الْغَسَّانِيِّ،وَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ

وَفِي كِتَابِ الْأَمْوَالِ لِأَبِي عُبَيْدٍ مِنْ مُرْسَلِ عُمَرَ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَأَمَّا كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ مَزَّقَهُ.وَأَمَّا قَيْصَرُ ؛ فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ طَوَاهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيُمَزَّقُونَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَسَيَكُونُ لَهُمْ بَقِيَّةٌ.رَوَى أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ جَوَابُ كِسْرَى قَالَ: مَزَّقَ مُلْكَهُ، وَلَمَّا جَاءَهُ جَوَابُ هِرَقْلَ قَالَ: ثَبَّتَ مُلْكَهُ.

وَذُكِرَ فِي فَتْحِ الْبَارِي عَنْ سَيْفِ الدِّينِ الْمَنْصُورِيِّ، أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى مَلِكِ الْغَرْبِ بِهَدِيَّةٍ مِنَ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ، فَأَرْسَلَهُ مَلِكُ الْغَرْبِ إِلَى الْفِرِنْجِ فِي شَفَاعَةٍ، وَأَنَّهُ قَبِلَهُ وَكَرَّمَهُ، وَقَالَ: لَأُتْحِفَنَّكَ بِتُحْفَةٍ سَنِيَّةٍ، فَأَخْرَجَ لَهُ صُنْدُوقًا مُصَفَّحًا بِذَهَبٍ، فَأَخْرَجَ لَهُ مِقْلَمَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا كِتَابًا قَدْ زَالَتْ أَكْثَرُ حُرُوفِهِ، وَقَدْ أُلْصِقَتْ عَلَيْهِ خِرْقَةُ حَرِيرٍ فَقَالَ: هُنَا كِتَابُ نَبِيِّكُمْ لِجَدِّي قَيْصَرَ مَا زِلْنَا نَتَوَارَثُهُ إِلَى الْآنَ، وَأَوْصَانَا آبَاؤُنَا عَنْ آبَائِهِمْ إِلَى قَيْصَرَ، أَنَّهُ مَا دَامَ هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَنَا لَا يَزَالُ الْمُلْكُ فِينَا، فَنَحْنُ نَحْفَظُهُ غَايَةَ الْحِفْظِ وَنُعَظِّمُهُ وَنَكْتُمُهُ عَنِ النَّصَارَى لِيَدُومَ الْمُلْكُ فِيمَا قَالَ الْقَسْطَلَّانِيُّ: هَمَّ قَيْصَرُ بِالْإِسْلَامِ، فَلَمْ تُوَافِقْهُ الرُّومُ فَخَافَهُمْ عَلَى مُلْكِهِ فَأَمْسَكَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٧)

[879] - صحيح البخاري (٤/ ٤٥)

الضَّمْرِيَّ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَرَجَعُوا جَمِيعًا قَبْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ،فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ"[٨٨٠]

وقد نصَّ الفقهاء بل ونقلوا الاتفاق على وجوب قصد الكفار بالقتل والقتال في ديارهم وإن لم يتعرضوا بأي أذى للمسلمين .

قال المرغياني:"الْجِهَاد فرض على الْكِفَايَة إِذا قَامَ بِهِ فريق من النَّاس سقط عَن البَاقِينَ فَإِن لم يقم بِهِ أحد أَثم جَمِيع النَّاس بِتَرْكِهِ إِلَّا أَن يكون النفير عَاما وقتال الْكفَّار الَّذين لم يسلمُوا وهم من مُشْركي الْعَرَب أَو لم يسلمُوا وَلم يُعْطوا الْجِزْيَة من غَيرهم وَاجِب"[٨٨١]

وقال ابن الهمام:"وَقِتَالُ الْكُفَّارِ) الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ أَوْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ (وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَبْدَءُونَا) لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْمُوجِبَةَ لَهُ لَمْ تُقَيِّدْ الْوُجُوبَ بِبَدَاءَتِهِمْ،وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ (لِلْعُمُومَاتِ) لَا عُمُومُ الْمُكَلَّفِينَ،لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُفِيدُ الْوُجُوبَ عَلَى كُلٍّ وَاحِدٍ فَقَطْ فَالْمُرَادُ إِطْلَاقُ الْعُمُومَاتِ فِي بَدَاءَتِهِمْ وَعَدَمِهَا خِلَافًا لِمَا نُقِلَ عَنْ الثَّوْرِيِّ ."[٨٨٢]

وقال القاري:" «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ»):أَيْ:قَاتِلُوهُمْ،وَهُوَ بِظَاهِرِهِ يَشْمَلُ الْحَرَمَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ وَالْبَدْءَ بِالْقِتَالِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَقِتَالُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،أَوْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَبْدَؤُونَا ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْمُوجِبَةَ لَهُ لَمْ تُقَيِّدِ الْوُجُوبَ بِبَدْئِهِمْ خِلَافًا لِمَا نُقِلَ عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَغَيْرِهَا سَوَاءٌ خِلَافًا لِعَطَاءٍ،وَلَقَد اسْتُبْعِدَ مَا عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَتَمَسُّكُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَسْخُهُ وَصَرِيحُ قَوْلِهِ – ﷺ – فِي الصَّحِيحَيْنِ:" «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» " الْحَدِيثَ.تُوجِبُ ابْتِدَاءَهُمْ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ،وَحَاصَرَ – ﷺ – الطَّائِفَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ ذِي

---

[٨٨٠] – المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٨)(١٢) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٤٨٦)(٣٧٧٤) وفتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٨/ ١٢٧) والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/ ٤٤٥)(٦٢٠) حسن

[٨٨١] – بداية المبتدي (ص: ١١٤)

[٨٨٢] – فتح القدير (١٢/ ٣٨٥)

الْحِجَّةِ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ،أَوْ إِلَى شَهْرٍ،وَقَدِ اسْتُدِلَّ عَلَى نَسْخِ الْحُرْمَةِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى التَّحَرُّزِ بِلَفْظِ:حَيْثُ فِي الزَّمَانِ،وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَثِيرٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ."[٨٨٣]

وقال ابن رشد:"فَأَمَّا الَّذِينَ يُحَارَبُونَ فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُمْ جَمِيعُ الْمُشْرِكِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩]،إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ:لَا يَجُوزُ ابْتِدَاءُ الْحَبَشَةِ بِالْحَرْبِ وَلَا التُّرْكِ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَالَ:«ذَرُوا الْحَبَشَةَ مَا وَذَرَتْكُمْ»[٨٨٤] .وَقَدْ سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ صِحَّةِ هَذَا الْأَثَرِ،فَلَمْ يَعْتَرِفْ بِذَلِكَ،لَكِنْ قَالَ:لَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَتَحَامَوْنَ غَزْوَهُمْ."[٨٨٥]

وقال ابن رشد:"وإنما يقاتل الكفار على الدين ليدخلوا من الكفر إلى الإسلام لا على الغلبة.قال رسول الله – ﷺ –:«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» .ولهذا تجب الدعوة قبل القتال ليبين لهم علام يقاتلون لا من أجل أن دعوة الإسلام لم تبلغهم.والصحيح أن دعوة الإسلام قد بلغت جميع العالم،والدليل على ذلك قول الله عز وجل:{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر:٢٤]،وقوله عز وجل:{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ – قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الملك:٨ – ٩]،وقال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [الإسراء:١٥]،فالأصل في دعاء العدو قبل القتال إلى الإسلام «حديث علي بن أبي طالب – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ – إذ أعطاه النبي – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – الراية قال له:"اذهب حتى تنزل بساحتهم

---

[٨٨٣] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٥)

[٨٨٤] – غير معروف بهذا اللفظ ولفظه المشهور عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اتْرُكُوا الْحَبَشَةَ مَا تَرَكُوكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَخْرِجُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ إِلَّا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ"السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٩٧)(١٨٥٩٨) صحيح

[٨٨٥] – بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢/ ١٤٤)

فادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس»" .[886]

وفي التاج والإكليل:"فَكُلُّ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَقَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ إلَّا أَنَّ الْجِهَادَ إذَا أُطْلِقَ لَا يَقَعُ إلَّا عَلَى مُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ،وَإِنَّمَا يُقَاتَلُ الْكُفَّارُ عَلَى الدِّينِ لِيَدْخُلُوا مِنَ الْكُفْرِ إلَى الْإِسْلَامِ لَا عَلَى الْغَلَبَةِ،فَيَنْبَغِي لِلْمُجَاهِدِ أَنْ يَعْقِدَ نِيَّتَهُ أَنْ يُقَاتِلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ،فَإِذَا عَقَدَ نِيَّتَهُ عَلَى هَذَا فَلَا يَضُرُّهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ الْخَطَرَاتُ الَّتِي تَقَعُ فِي الْقَلْبِ وَلَا تُمْلَكُ لِحَدِيثِ «مُعَاذٍ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ إلَّا مُقَاتِلٌ؛ مِنْهُمْ مَنْ الْقِتَالُ طَبِيعَتُهُ،وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ رِيَاءً،وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ احْتِسَابًا،فَأَيُّ هَؤُلَاءِ شَهِيدٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:يَا مُعَاذُ مَنْ قَاتَلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ وَأَصْلُ أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَقُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» .رُوِيَ أَنَّ «رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُخْفِيهِ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ فَيُسِرُّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:لَهُ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ»[887] .انْتَهَى مِنْ ابْنِ رُشْدٍ."[888]

وقال ابن رشد:"يقاتل جميع أهل الكفر من أهل الكتاب وغيرهم من القبط والبرك والحبشة والفزاريه والصقالبة والبربر والمجوس وسائر الكفار من العرب والعجم يقاتلون حتى يسلموا أويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ويسترق الغرب الكفار أن سبوا كالعجم وقيل:لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس لا غير من بين سائر أهل الكفر ولا يقبل من غير هؤلاء إلا الإسلام أو القتل قاله جماعة من أهل المدينة وأهل الحجاز والعراق وإليه ذهب ابن وهب وهو قول الشافعي وكل من بلغته دعوة الإسلام من الكفار لم يحتج إلى أن يدعى وكل من لم تبلغه الدعوة لم يقاتل حتى يدعى إلى الإسلام وكان مالك يستحب إلا يقاتل العدو حتى يدعوا إلى الإسلام بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم إلا أن يعجلوا عن ذلك فيقاتلوا.

---

[886] – المقدمات الممهدات (١/ ٣٥١)

[887] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٩٩)(٣٧٥) حسن

[888] – التاج والإكليل لمختصر خليل (٤/ ٥٣٦)

ولا يجوز تبييت من لم تبلغه الدعوة وأما الروم فلا بأس بتبييتهم لبلوغ دعوة الإسلام إليهم وقرب دارهم وكل من أبى من الدخول في الإسلام أو أبى إعطاء الجزية قوتل فيقتل الرجال المقاتلة وغير المقاتلة إذا كانوا بالغين ولا يقتل النساء ولا الصبيان ولا العجائز ولا الشيوخ الزمنى ولا المجانين ويسبون فإن كان الشيخ ذا رأي ومكر ومكيده يؤلب بذلك على المسلمين جاز قتله وإلا فلا .."[٨٨٩]

وقال الشوكاني:" أما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية ولأجله بعث الله رسله وأنزل كتبه ومازال رسول الله ﷺ منذ بعثه الله سبحانه إلى أن قبضه إليه جاعلا لهذا الأمر من أعظم مقاصده ومن أهم شئونه وأدلة الكتاب والسنة في هذا لا يتسع لها المقام ولا لبعضها وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين بما ورد من إيجاب المقاتلة لهم على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم إلى ديارهم."[٨٩٠]

دار الكفر دار إباحة للمسلمين:

لقد انعقد إجماع أهل الإسلام كافة على أن دار الكفر:دار إباحة للمسلمين،فإذا دخلوها بغير أمان:فلهم التعرض لدماء الكفار وأموالهم بما شاؤوا .

قال الشافعي:"(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):أَمَّا مَا اُحْتُجَّ بِهِ مِنْ قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَفِيهِمْ الْأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ وَالرُّهْبَانُ وَمَنْ نَهَى عَنْ قَتْلِهِ فَإِنَّ «رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ غَارِّيْنِ فِي نَعَمِهِمْ.وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يَبِيتُونَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ فَقَالَ هُمْ مِنْهُمْ» يَعْنِي – ﷺ – أَنَّ الدَّارَ مُبَاحَةٌ لِأَنَّهَا دَارُ شِرْكٍ وَقِتَالُ الْمُشْرِكِينَ مُبَاحٌ،وَإِنَّمَا يَحْرُمُ الدَّمُ بِالْإِيمَانِ كَانَ الْمُؤْمِنُ فِي دَارِ حَرْبٍ أَوْ دَارِ إسْلَامٍ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ إذَا قُتِلَ الْكَفَّارَةَ وَتُمْنَعُ الدَّارُ مِنْ الْغَارَةِ إذَا كَانَتْ دَارَ إسْلَامٍ أَوْ دَارَ أَمَانٍ بِعَقْدٍ يَعْقِدُ عَقْدَهُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْهَا،وَلَهُ أَنْ يَقْصِدَ قَصْدَ مَنْ

[٨٨٩] – الكافي في فقه أهل المدينة (١/ ٤٦٦)

[٨٩٠] – السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص: ٩٤٥)

حَلَّ دَمُهُ بِغَيْرِ غَارَةٍ عَلَى الدَّارِ فَلَمَّا كَانَ الْأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ وَإِنْ نَهَى عَنْ قَتْلِهِمْ لَا مَمْنُوعِي الدِّمَاءِ بِإِسْلَامِهِمْ وَلَا إسْلَامِ آبَائِهِمْ وَلَا مَمْنُوعِي الدِّمَاءِ بِأَنَّ الدَّارَ مَمْنُوعَةٌ اسْتَدْلَلْنَا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – إنَّمَا نَهَى عَنْ قَصْدِ قَتْلِهِمْ بِأَعْيَانِهِمْ إذَا عُرِفَ مَكَانُهُمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ؟ قِيلَ فَإِغَارَتُهُ وَأَمْرُهُ بِالْغَارَةِ وَمَنْ أَغَارَ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ أَنْ يُصِيبَ وَقَوْلُهُ هُمْ مِنْهُمْ يَعْنِي أَنْ لَا كَفَّارَةَ فِيهِمْ أَيْ أَنَّهُمْ لَمْ يُحْرِزُوا بِالْإِسْلَامِ وَلَا الدَّارِ وَلَا يَخْتَلِفُ الْمُسْلِمُونَ فِيمَا عَلِمْته أَنَّ مَنْ أَصَابَهُمْ فِي الْغَارَةِ فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ "[891]

وقال الجصاص:"وَإِنَّمَا اُعْتُبِرَ مَا يُوجَدُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ مَالًا مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْأَمْلَاكَ الصَّحِيحَةَ هِيَ الَّتِي تُوجَدُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَمَا كَانَ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلَيْسَ بِمِلْكٍ صَحِيحٍ لِأَنَّهَا دَارُ إبَاحَةٍ وَأَمْلَاكُ أَهْلِهَا مُبَاحَةٌ فَلَا يَخْتَلِفُ فِيهَا حُكْمُ مَا كَانَ مِنْهُ مَالًا مَمْلُوكًا وَمَا كَانَ مِنْهُ مُبَاحًا فَلِذَلِكَ سَقَطَ اعْتِبَارُ كَوْنِهَا مُبَاحَةً فِي دَارِ الْحَرْبِ فَاعْتُبِرَ حُكْمُ وُجُودِهَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ فَلَمَّا لَمْ تُوجَدْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ إلَّا مَالًا كَانَتْ كَسَائِرِ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَيْسَتْ مُبَاحَةَ الْأَصْلِ."[892]

وقال الكمال:فَإِنَّ دَارَ الْحَرْبِ دَارُ إبَاحَةٍ لَا عِصْمَةٍ "[893]

وقال الشوكاني:"ولا يخفى أن دار الحرب دار إباحة يملك كل فيها ما ثبتت يده عليه كما سيأتي في السير سواء كان الأخذ على جهة القسر أو الختل من غير فرق بين الأشخاص والأموال والرجال والنساء والأطفال وأما إذا كان من دار الإسلام أو دخلها بأمان فهو معصوم الدم والمال"[894]

ولأن كون دار الحرب دارُ إباحة:أصلٌ مقرر عند كافة أهل الإسلام حدث الخلاف فيمن قتل مسلماً،فيها يظنه كافراً ؛ هل تجب عليه الدية أم لا ؟ على قولين مشهورين .

وفي المغني المحتاج:"إذَا (قَتَلَ مُسْلِمًا ظَنَّ كُفْرَهُ) كَأَنْ رَآهُ يُعَظِّمُ آلِهَتَهُمْ،أَوْ كَانَ عَلَيْهِ زِيُّ الْكُفَّارِ (بِدَارِ الْحَرْبِ) أَوْ بِصِفَةِ الْمُحَارِبِينَ بِدَارِنَا كَمَا سَيَأْتِي (لَا قِصَاصَ) عَلَيْهِ جَزْمًا

---

[891] – الأم للشافعي (٧/ ٣٦٩)

[892] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٣٢)

[893] – فتح القدير للكمال ابن الهمام (٦/ ٢٥)

[894] – السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص: ٧٠٦)

لِلْعُذْرِ الظَّاهِرِ،نَعَمْ إنْ قَتَلَهُ ذِمِّيٌّ لَمْ يَسْتَعِنْ بِهِ الْمُسْلِمُونَ لَزِمَهُ الْقِصَاصُ كَمَا قَالَهُ الْبُلْقِينِيُّ قَالَ وَفِي نَصِّ الشَّافِعِيِّ مَا يَشْهَدُ لَهُ (وَكَذَا لَا دِيَةَ فِي الْأَظْهَرِ) لِأَنَّهُ أَسْقَطَ حُرْمَةَ نَفْسِهِ بِمُقَامِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْإِبَاحَةِ وَسَوَاءٌ عَلِمَ فِي دَارِهِمْ مُسْلِمًا أَمْ لَا،عَيَّنَ شَخْصًا أَمْ لَا،وَالثَّانِي تَجِبُ الدِّيَةُ،لِأَنَّهَا تَثْبُتُ مَعَ الشُّبْهَةِ.أَمَّا الْكَفَّارَةُ فَتَجِبُ جَزْمًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} [النساء:٩٢] فَإِنَّ " مِنْ " بِمَعْنَى " فِي " كَمَا نَقَلَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ."[٨٩٥]

وقال القرطبي:"رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ:" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ" أَهْلُ الْحُدَيْبِيَةِ أُمِرُوا بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَهُمْ.وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ،أُمِرَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ إِذْ لَا يُمْكِنُ سِوَاهُ.أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ بَيَّنَهَا فِي سُورَةِ" بَرَاءَةٌ" بِقَوْلِهِ:" قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ" [التوبة:١٢٣] وَذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ أَوَّلًا كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ فَتَعَيَّنَت الْبُدَاءَةُ بِهِمْ،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ كَانَ الْقِتَالُ لِمَنْ يَلِي مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي حَتَّى تَعُمَّ الدَّعْوَةُ وَتَبْلُغَ الْكَلِمَةُ جَمِيعَ الْآفَاقِ وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ الْكَفَرَةِ،وَذَلِكَ بَاقٍ مُتَمَادٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،مُمْتَدٌّ إِلَى غَايَةٍ هِيَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:(الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ).وقيل:غايته نزول عيسى بن مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ،لِأَنَّ نُزُولَهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ."[٨٩٦]

دُخُول الْحَرْبِيِّ دَارَ الْإِسْلَامِ:

لَيْسَ لِلْحَرْبِيِّ دُخُول دَارِ الإِسْلاَمِ إِلاَّ بِإِذْنٍ مِنَ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ،فَإِنِ اسْتَأْذَنَ فِي دُخُولِهَا فَإِنْ كَانَ فِي دُخُولِهِ مَصْلَحَةٌ،كَإِبْلاَغِ رِسَالَةٍ،أَوْ سَمَاعِ كَلاَمِ اللَّهِ تَعَالَى،أَوْ حَمْل مِيرَةٍ أَوْ مَتَاعٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا الْمُسْلِمُونَ،جَازَ الإِذْنُ لَهُ بِدُخُول دَارِ الإِسْلاَمِ إِلاَّ الْحَرَمَ،وَلاَ يُقِيمُ فِي الْحِجَازِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ،لأَنَّ مَا زَادَ عَلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ فِي حُكْمِ الإِقَامَةِ،وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ

---

[٨٩٥] - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٥/ ٢٢٧) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٢/ ٣٢٩)

[٨٩٦] - تفسير القرطبي (٢/ ٣٥٠)

.وَفِي غَيْرِ الْحِجَازِ يُقِيمُ قَدْرَ الْحَاجَةِ .أَمَّا الْحَرَمُ فَلاَ يَجُوزُ دُخُول كَافِرٍ فِيهِ وَإِنْ كَانَ ذِمِّيًّا بِحَالٍ مِنَ الأَْحْوَال عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ[٨٩٧] .

لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٢٨].[٨٩٨]

مَال الْمُسْتَأْمَنِ وَأَهْلُهُ:

إِذَا دَخَل الْحَرْبِيُّ دَارَ الإِْسْلاَمِ بِأَمَانٍ مِنَ الإِْمَامِ كَانَ مَا مَعَهُ مِنْ مَالٍ،وَزَوْجَةٍ،وَأَوْلاَدٍ صِغَارٍ فِي أَمَانٍ،أَمَّا مَا خَلَّفَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلاَ يَدْخُل فِي الأَْمَانِ،إِلاَّ بِالشَّرْطِ فِي عَقْدِ الأَْمَانِ .

وَإِنْ نَقَضَ الْعَهْدَ وَالْتَحَقَ بِدَارِ الْحَرْبِ بَقِيَ الأَْمَانُ لِمَا تَرَكَهُ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَلَهُ أَنْ يَدْخُل فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ لِتَحْصِيل مَا تَرَكَهُ مِنْ دَيْنٍ وَوَدِيعَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَإِنْ مَاتَ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَتَرِكَتُهُ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ لِوَرَثَتِهِ[٨٩٩] .

وَإِنْ دَخَل لِتِجَارَةٍ جَازَ لِلإِْمَامِ أَنْ يَشْتَرِطَ عَلَيْهِ عُشْرَ مَا مَعَهُ مِنْ مَال التِّجَارَةِ،وَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِغَيْرِ شَيْءٍ.[٩٠٠]

اسْتِيطَانُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ دَارَ الإِْسْلاَمِ:

قَسَّمَ الْفُقَهَاءُ دَارَ الإِْسْلاَمِ إِلَى قِسْمَيْنِ:جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا:فَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ لاَ يُمَكَّنُ غَيْرُ الْمُسْلِمِ مِنَ الاسْتِيطَانِ فِيهَا،وَهَذَا مَحَل اتِّفَاقٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ[٩٠١] .

فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ قَالَ " لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ "[٩٠٢]

---

[٨٩٧] - الأم للشافعي ٤ / ١٧٧، ونهاية المحتاج ٨ / ٩١، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤، وكشاف القناع ٣ / ١١٨ - ١٣٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٩، وأسنى المطالب ٤ / ٢١٤ وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٧٥، وبدائع الصنائع ٧ / ١١٤ .

[٨٩٨] - وَلِلتَّفْصِيل يُنْظَرُ : (أَرْضُ الْعَرَبِ، حَرَمٌ)

[٨٩٩] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٨٩، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٠، ٨٩، وأسنى المطالب ٤ / ٢٠٦، ومواهب الجليل ٣ / ٣٦٢، وابن عابدين ٣ / ٢٤٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

[٩٠٠] - روضة الطالبين ١٠ / ٣١٩، ونهاية المحتاج ٨ / ٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٣٧ .

[٩٠١] - بدائع الصنائع ٧ / ١١٤، ومواهب الجليل ٣ / ٣٨١ .

وعن سَعيدَ بْنِ جُبَيْرٍ،سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،يَقُولُ:يَوْمُ الخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الخَمِيسِ،ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الحَصَى،قُلْتُ يَا أَبَا عَبَّاسٍ:مَا يَوْمُ الخَمِيسِ؟ قَالَ:اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ،فَقَالَ:«ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»،فَتَنَازَعُوا،وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ،فَقَالُوا:مَا لَهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ؟ فَقَالَ:«ذَرُونِي،فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»،فَأَمَرَهُمْ بِثَلاَثٍ،قَالَ:«أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَأَجِيزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ» وَالثَّالِثَةُ خَيْرٌ،إِمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا،وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيتُهَا،قَالَ سُفْيَانُ:هَذَا مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ[٩٠٣]

لَمَّا حُضِرَ رَسُولُ اللَّهِ،ﷺ):بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ أَيْ:حَضَرَهُ الْمَوْتُ،وَفِيهِ تَجَوُّزٌ فَإِنَّهُ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ،وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ إِلَى يَوْمِ الِاثْنَيْنِ،وَقِيلَ:التَّقْدِيرُ لَمَّا حَضَرَهُ هَمُّ الْمَوْتِ (وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ)،أَيْ:كَثِيرَةٌ (وَفِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ):جُمْلَتَانِ حَالِيَّتَانِ مُعْتَرِضَتَانِ بَيْنَ لَمَّا وَجَوَابِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ:(قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:(هَلُمُّوا)،أَيْ:تَعَالَوْا وَاحْضُرُوا (أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا):بِالْجَزْمِ جَوَابًا وَقَوْلُهُ (لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ) .صِفَةٌ لِكِتَابًا قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ:اعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - مَعْصُومٌ مِنَ الْكَذِبِ،وَمِنْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَمَرَضِهِ،وَمَعْصُومٌ مِنْ تَرْكِ بَيَانِ مَا أُمِرَ بِبَيَانِهِ وَتَبْلِيغِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَبْلِيغَهُ،وَلَيْسَ هُوَ مَعْصُومًا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ الْعَارِضَةِ لِلْأَجْسَامِ مِمَّا لَا نَقْصَ فِيهِ

---

[٩٠٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٣/ ٣٧١)(٢٦٣٥٢) صحيح

[٩٠٣] - صحيح البخاري (٤/ ٩٩)(٣١٦٨)و(٦/ ٩)(٤٤٣١) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٥٧)٢٠ - (١٦٣٧)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: وَأَيُّمَا مِصْرٍ مَصَّرَتْهُ الْعَرَبُ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَبْنُوا فِيهِ بَيْعَةً، وَلَا يُبَاعَ فِيهِ خَمْرٌ، وَلَا يُقْتَنَى فِيهِ خِنْزِيرٌ، وَلَا يُضْرَبَ فِيهِ بِنَاقُوسٍ، وَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُوَفُّوا لَهُمْ بِهِ "

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: فَقَوْلُهُ: كُلُّ مِصْرٍ مَصَّرَتْهُ الْعَرَبُ، يَكُونُ التَّمْصِيرُ عَلَى وُجُوهٍ: فَمِنْهَا الْبِلَادُ الَّتِي يُسْلِمُ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، مِثْلُ الْمَدِينَةِ وَالطَّائِفِ، وَالْيَمَنِ، وَمِنْهَا كُلُّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَهْلٌ فَاخْتَطَّهَا الْمُسْلِمُونَ اخْتِطَاطًا ثُمَّ نَزَلُوهَا، مِثْلَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَكَذَلِكَ الثُّغُورُ، وَمِنْهَا كُلُّ قَرْيَةٍ افْتُتِحَتْ عَنْوَةً، فَلَمْ يَرَ الْإِمَامُ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَى الَّذِينَ أُخِذَتْ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ قَسَمَهَا بَيْنَ الَّذِينَ افْتَتَحُوهَا كَفِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَهْلِ خَيْبَرَ، فَهَذِهِ أَمْصَارُ الْمُسْلِمِينَ، الَّتِي لَا حَظَّ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ فِيهَا، إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَعْطَى خَيْبَرَ الْيَهُودَ مُعَامَلَةً لِحَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اسْتُغْنِيَ عَنْهُمْ أَجْلَاهُمْ عُمَرُ، وَعَادَتْ كَسَائِرِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، فَهَذَا حُكْمُ أَمْصَارِ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا نَرَى أَصْلَ هَذَا مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَفِي ذَلِكَ آثَارٌ "الأموال للقاسم بن سلام (ص: ١٢٧)(٢٦٩)

بِمَنْزِلَتِه،وَلَا فَسَادَ لِمَا تَمَهَّدَ مِنْ شَرِيعَتِه،وَقَدْ سُحِرَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَتَّى صَارَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ،وَلَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ فِي هَذَا الْحَالِ كَلَامٌ فِي الْأَحْكَامِ مُخَالِفٌ لِمَا سَبَقَ،فَإِذَا عَلِمْتَ مَا ذَكَرْنَاهُ،فَقَد اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرَادَ كِتَابَتَهُ فَقِيلَ:أَرَادَ أَنْ يَنُصَّ عَلَى الْخِلَافَةِ فِي إِنْسَانٍ مُعَيَّنٍ لِئَلَّا يَقَعَ نِزَاعٌ.قُلْتُ:هَذَا بَعِيدٌ جِدًّا إِذِ التَّنْصِيصُ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ أَوْ عُمَرَ أَوِ الْعَبَّاسِ أَوْ عَلِيٍّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابَةٍ،بَلْ كَانَ مُجَرَّدُ الْقَوْلِ كَافِيًا،وَلِلْمَقْصُودِ وَافِيًا،مَعَ أَنَّهُ قَدْ أَشَارَ إِلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِنِيَابَةِ الْإِمَامَةِ مَعَ التَّصْرِيحِ بِقَوْلِه:(«يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ») نَعَمْ،لَوْ قِيلَ إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ الْخِلَافَةَ الْمُسْتَمِرَّةَ خَلْفَ وَفَاتِه لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى خُرُوجِ الْمَهْدِيِّ وَظُهُورِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ،وَنَبِيهٌ،وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ الْأَمْرَ مَسْتُورًا،وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا،وَقِيلَ:أَرَادَ كِتَابًا يُبَيِّنُ فِيهِ مُهِمَّاتِ الْأَحْكَامِ مُلَخَّصَةً لِيَرْتَفِعَ النِّزَاعُ وَيَحْصُلَ الِاتِّفَاقُ عَلَى الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ.قُلْتُ:لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِه نِزَاعٌ لِيَرْتَفِعَ وَلَا خِلَافٌ لِيَنْدَفِعَ،وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الزَّمَانِ مِمَّا سَيَقَعُ مِنَ الِاخْتِلَافِ فِي كُلِّ مَكَانٍ،فَقَدْ أَخْبَرَ بِوُقُوعِه بِقَوْلِه:(«اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ») [٩٠٤] وَبِقَوْلِه:(«أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ») وَبِقَوْلِه:(«عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ») وَبِقَوْلِه («وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونُ») .وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ – إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود:١١٨ – ١١٩] عَلَى أَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ الْمُتَفَرِّقَةَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً كَيْفَ تَصِيرُ مُلَخَّصَةً مَنْصُوصَةً فِي سَاعَةٍ بِحَيْثُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا اخْتِلَافُ الْأُمَّةِ.نَعَمْ لَوْ أُرِيدَ بِهِ قَصْدُ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا يُبَيِّنُ فِيهِ بَعْضَ الْأَحْكَامِ الَّتِي قَدْ تُوجَدُ فِي الْأَزْمِنَةِ الْآتِيَةِ مِمَّا لَيْسَ بِمَذْكُورٍ فِي الْكِتَابِ،وَلَا بِمَحْفُوظٍ فِي السُّنَّةِ لَا يَبْعُدُ مِنْ طَرِيقِ الرَّأْفَةِ وَسَبِيلِ الرَّحْمَةِ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَالْعَامَّةِ،أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا يُبَيِّنُ فِيهِ طَرِيقَ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ،وَيُفَصِّلُ فِيهِ أَحْوَالَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالرَّافِضَةِ وَسَائِرِ الْمُبْتَدِعَةِ.

[٩٠٤] – هذا الحديث لا أصل له في المرفوع ، وإن كان معناه صحيحاً ، وقد صح نحوه عن بعض التابعين ، والمقصود الاختلاف في الأحكام الشرعية الفرعية ، وقد فصلت القول في معنها في الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليد

(فَقَالَ عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ):أَرَادَ بِمَا ذَكَرَهُ التَّخْفِيفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – عِنْدَ شِدَّةِ الْوَجَعِ وَقَوْلُهُ:(وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ حَسْبُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ) .أَيْ:كَافِيكُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا} [آل عمران:١٠٣] وَهُوَ خِطَابٌ لِمَنْ نَازَعَهُ فِي ذَلِكَ وَرَدٌّ عَلَيْهِ لَا عَلَى النَّبِيِّ – ﷺ – مَعَ أَنَّهُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لَهُ مُوَافَقَاتٌ وُفِّقَ بِهَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ،فَيُمْكِنُ حَمْلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عَلَى الْمُوَافَقَةِ فَتَرْتَفِعُ الْمُخَالَفَةُ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سُكُوتُهُ – ﷺ – عَلَى تِلْكَ الْمَقَالَةِ،وَصَرْفُ عِنَانِهِ عَنْ أَمْرِ الْكِتَابَةِ،هَذَا وَقَدْ عَرَفَ عُمَرُ أَنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ حَزْمًا مِنْهُ.بَلْ رِعَايَةً لِمَصَالِحِهِمْ،وَكَانَ أَصْحَابُهُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ غَيْرَ حَازِمٍ يُرَاجِعُونَهُ فِيهِ،وَكَانَ يَتْرُكُهُ بِرَأْيِهِمْ.(فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ)،أَيْ:مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ عِنْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ (وَاخْتَصَمُوا،فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ:قَرِّبُوا)،أَيِ:الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ (يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) بِالْجَزْمِ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ أَيْ:يُمْلِ عَلَيْكُمْ مَا أَرَادَ كِتَابَتَهُ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ) .أَيْ:مِنَ الْمَنْعِ لِشِدَّةِ الْوَجَعِ (فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ):بِفَتْحَتَيْنِ أَيِ:الصَّوْتُ الَّذِي لَا يُفْهَمُ مَبْنَاهُ،وَلَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ (وَالِاخْتِلَافَ)،أَيِ:الْمُوجِبَ لِلنِّزَاعِ وَالْخِلَافِ (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:(قُومُوا عَنِّي)،أَيْ:فَإِنِّي تَرَكْتُ قَصْدَ الْكِتَابَةِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا ثَبَتَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.قَالَ النَّوَوِيُّ.وَكَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – هَمَّ بِالْكِتَابِ حِينَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ أَوْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ،ثُمَّ ظَهَرَ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ تَرْكُهُ أَوْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ وَنُسِخَ،وَأَمَّا قَوْلُ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:حَسْبُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ،فَقَد اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ مِنْ دَلَائِلِ فِقْهِهِ وَفَضَائِلِهِ وَدَقَائِقِ نَظَرِهِ وَفَهْمِهِ،لِأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَكْتُبَ النَّبِيُّ – ﷺ – أُمُورًا رُبَّمَا عَجَزُوا عَنْهَا،وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ عَلَيْهَا لِكَوْنِهَا مَنْصُوصَةً لَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهَا،وَأَشَارَ قَوْلُهُ:حَسْبُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام:٣٨] وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] .

(قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ)،أَيِ:ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الْهُزَلِيُّ،وَلَدُ أَخِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،وَهُوَ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ،سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَخَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ.(فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ:إِنَّ الرَّزِيئَةَ):بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِ الزَّايِ بَعْدَهَا يَاءٌ سَاكِنَةٌ ثُمَّ

هَمْزَةٌ،وَقَدْ يُسَهَّلُ فَتُشَدَّدُ الْيَاءُ عَلَى مَا فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ أَيِ الْمُصِيبَةَ (كُلَّ الرَّزِيئَةِ)،أَيْ:تَمَامَهَا وَكَمَالَهَا (مَا حَالَ)،أَيِ:الْحَالُ الَّذِي وَقَعَ حَائِلًا وَصَارَ مَانِعًا (بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ ذَلِكَ الْكِتَابَ لِاخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ) .مُتَعَلِّقٌ بِحَالَ،وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَالَ إِلَى خِلَافِ مَا قَالَ عُمَرُ،وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ فَتَدَبَّرْ.قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ:إِنَّمَا قَصَدَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِذَلِكَ التَّخْفِيفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ غَلَبَ الْوَجَعُ عَلَيْهِ،وَلَوْ كَانَ مُرَادُهُ - ﷺ - أَنْ يَكْتُبَ مَا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ لَمْ يَتْرُكْهُ لِاخْتِلَافِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة:٦٧] كَمَا لَمْ يَتْرُكِ التَّبْلِيغَ لِمُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَهُ،وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ،وَكَمَا أَمَرَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ بِإِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَعْنِي بِمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.قَالَ:وَقَدْ حَكَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَبْلَهُ أَنَّهُ - ﷺ - أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ اسْتِخْلَافَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ اعْتِمَادًا عَلَى عِلْمِهِ مِنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ،كَمَا هَمَّ بِالْكِتَابَةِ فِي أَوَّلِ مَرَضِهِ حِينَ قَالَ:وَارَأْسَاهْ! ثُمَّ تَرَكَ الْكِتَابَةَ وَقَالَ:(«يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ») وَذَلِكَ بِسَبَبِ اسْتِخْلَافِهِ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ.وَقَالَ:أَيْضًا:وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ بَيَانَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَرَفْعَ الْخِلَافِ فِيهَا فَقَدْ عَلِمَ عُمَرُ حُصُولَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:٣] وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا تَقَعُ وَاقِعَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَفِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَيَانُهَا نَصًّا أَوْ دَلَالَةً،وَفِي تَكَلُّفِ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي مَرَضِهِ مَعَ شِدَّةِ وَجَعِهِ كِتَابَةُ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ،فَرَأَى الِاقْتِصَارَ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ تَخْفِيفًا عَلَيْهِ،وَلَا يَنْسَدُّ بَابُ الِاجْتِهَادِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِاسْتِنْبَاطِ،وَإِلْحَاقِ الْفُرُوعِ بِالْأُصُولِ ؛ فَرَأَى عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ الصَّوَابَ تَرْكُ الْكِتَابَةِ تَخْفِيفًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَفَضِيلَةً لِلْمُجْتَهِدِينَ،وَفِي تَرْكِهِ - ﷺ - الْإِنْكَارَ عَلَى عُمَرَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِصْوَابِ رَأْيِهِ،وَكَانَ عُمَرُ أَفْقَهَ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُوَافِقِيهِ.

(وَفِي رِوَايَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَحْوَلِ):قَالَ الْمُؤَلِّفُ:هُوَ خَالُ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ تَابِعِيٌّ مِنْ أَثْبَاتِ الْحِجَازِيِّينَ وَأَئِمَّتِهِمْ سَمِعَ طَاوُسًا وَأَبَا سَلَمَةَ.وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَشُعْبَةُ.(قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ؟ يَوْمُ الْخَمِيسِ):مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَوْ عَكْسُهُ

وَقَوْلُهُ:(وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ) ؟ يُسْتَعْمَلُ عِنْدَ إِرَادَةِ تَفْخِيمِ الْأَمْرِ وَالشِّدَّةِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْهُ كَقَوْلِه تَعَالَى:{الْحَاقَّةُ - مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة:١ - ٢] وَ {الْقَارِعَةُ - مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة:١ - ٢] (ثُمَّ بَكَى)،أَي:ابْنُ عَبَّاسٍ (حَتَّى بَلَغَ دَمْعُهُ الْحَصَى)،أَيْ حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ بِلَا إِحْصَاءٍ،وَوَصَلَتْ إِلَى مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَصَى،ثُمَّ بُكَاؤُهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِتَذَكُّرِ وَفَاتِه،وَفُقْدَانِ حَيَاتِه - ﷺ - بِتَجَدُّدِ الْحُزْنِ عَلَيْه،أَوْ لِفَوَاتِ مَا فَاتَ فِي مُعْتَقَدِه مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي كَانَ يَحْصُلُ لَوْ كَانَ كُتِبَ ذَلِكَ الْكِتَابُ،وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ فِي الْمَقَامِ وَالْأَنْسَبُ فِيمَا أَرَادَهُ مِنَ الْمَرَامِ.(قُلْتُ:؟ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ) ؟ قَالَ مِيرَكُ:قَائِلُهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الرَّاوِي،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.وَظَاهِرُ إِيرَادِ الْمُصَنِّفِ يَقْتَضِي أَنَّ قَائِلَهُ سُلَيْمَانُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ،وَهَذَا ظَاهِرٌ مِنْ سِيَاقِ الْبُخَارِيِّ (قَالَ:اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَجَعُهُ)،أَيْ:فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.فَقَالَ:(ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا):بِالْجَزْمِ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الْحَاضِرَةِ الْمُصَحَّحَةِ الْمَقْرُوءَةِ فَعَلَى هَذَا يَشْكُلُ جَزْمُ قَوْلِه:(لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا) .وَلَعَلَّ وَجْهَهُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِشَرْطٍ مُقَدَّرٍ،أَيْ:إِنْ كُتِبَ لَكُمْ وَعَمِلْتُمْ بِه لَا تَضِلُّوا أَيْ:لَا تَصِيرُوا ضَالِّينَ،وَفِي نُسْخَةٍ أَنْ لَا تَضِلُّوا وَهُوَ وَاضِحٌ جِدًّا أَيْ لِئَلَّا تَضِلُّوا،أَوْ مَخَافَةَ أَنْ لَا تَضِلُّوا (فَتَنَازَعُوا)،أَيْ:أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ،وَاخْتَلَفُوا فِي رَأْيِهِمْ (وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ):قِيلَ:هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ،وَيُؤَيِّدُهُ مَا تَقَدَّمَ فِي الْعِلْمِ بِلَفْظِ:وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُدْرَجًا مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَهُوَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ.(فَقَالُوا)،أَيْ:بَعْضُهُمْ (مَا شَأْنُهُ) ؟ أَيْ حَالُهُ - ﷺ - (أَهَجَرَ) ؟ بِفَتَحَاتٍ أَي:اخْتَلَفَ كَلَامُهُ مِنْ جِهَةِ الْمَرَضِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ.وَفِي النِّهَايَةِ أَيْ:هَلْ تَغَيَّرَ كَلَامُهُ وَاخْتَلَطَ لِأَجْلِ مَا بِه مِنَ الْمَرَضِ،وَلَا يُجْعَلُ إِخْبَارًا فَيَكُونُ مِنَ الْفُحْشِ وَالْهَذَيَانِ،وَالْقَائِلُ عُمَرُ،وَلَا يُظَنُّ بِه ذَلِكَ.قَالَ الْخَطَّابِيُّ:وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُ عُمَرَ عَلَى أَنَّهُ تَوَهَّمَ الْغَلَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَوْ ظَنَّ بِه غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِحَالِه،لَكِنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا غَلَبَ عَلَيْه - ﷺ - مِنَ الْوَجَعِ وَقُرْبِ الْوَفَاةِ،مَعَ مَا غَشِيَهُ مِنَ الْكَرْبِ خَافَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِمَّا يَقُولُهُ الْمَرِيضُ مِمَّا لَا عَزِيمَةَ لَهُ فِيه،فَيَجِدُ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ سَبِيلًا إِلَى الْكَلَامِ فِي الدِّينِ،وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُهُ يُرَاجِعُونَهُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ قَبْلَ أَنْ يَجْزِمَ فِيهَا بِتَحَتُّمٍ،كَمَا

رَاجَعُوهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الْخِلَافِ وَفِي كِتَابِ الصُّلْحِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ،فَأَمَّا إِذَا أَمَرَ بِالشَّيْءِ أَمْرَ عَزِيمَةٍ،فَلَا يُرَاجِعُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ،وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ – ﷺ – وَإِنْ كَانَ اللَّهُ – تَعَالَى – رَفَعَ دَرَجَتَهُ فَوْقَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ لَمْ يُنَزِّهْهُ مِنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ وَالْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ وَقَدَّسَهَا فِي الصَّلَاةِ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّفَ فِي مِثْلِ هَذَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَقِيقَتَهُ،فَلِهَذَا الْمَعْنَى وَشِبْهِهِ رَاجَعَهُ عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –.

وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:أَهَجَرَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – هَكَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ:أَهَجَرَ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ،وَهُوَ أَصَحُّ مِنْ رِوَايَةِ مَنْ رَوَى هَجَرَ بِغَيْرِ هَمْزٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ مِنْهُ – ﷺ – لِأَنَّ مَعْنَى هَجَرَ هَذَى،وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا مِنْ قَائِلِهِ اسْتِفْهَامًا لِلْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ:لَا تَكْتُبُوا أَيْ:لَا تَتْرُكُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَتَجْعَلُوهُ كَأَمْرِ مَنْ هَجَرَ فِي كَلَامِهِ ؛ لِأَنَّهُ – ﷺ – لَا يَهْجُرُ،وَإِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى كَانَتْ خَطَأً مِنْ قَائِلِهَا لِأَنَّهُ قَالَهَا بِغَيْرِ ثَبْتٍ لِمَا أَصَابَهُ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالدَّهْشَةِ لِعِظَمِ مَا شَاهَدَهُ مِنَ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَفَاتِهِ.وَخَوْفِ الْفِتَنِ وَالضَّلَالِ بَعْدَ حَيَاتِهِ.أَقُولُ:لَوْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ لَزِمَ حَمْلُهَا عَلَى تَقْدِيرِ الِاسْتِفْهَامِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:(اسْتَفْهِمُوهُ) .بِكَسْرِ الْهَاءِ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِفَتْحِهَا،وَهَذَا فَتْحُ الْبَارِي قَوْلُهُ:أَهَجَرَ؟ بِهَمْزَةٍ عِنْدَ جَمِيعِ رُوَاةِ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي،وَفِي رِوَايَةٍ فِي الْجِهَادِ بِلَفْظِ قَالُوا:هَجَرَ بِغَيْرِ هَمْزَةٍ،وَعِنْدَ الْكُشْمِيهَنِيِّ فَقَالُوا:هَجَرَ هَجَرَ.

قَالَ الْقَاضِي:مَعْنَى أَهَجَرَ أَفَحَشَ،يُقَالُ:هَجَرَ الرَّجُلُ إِذَا هَذَى،وَأَهَجَرَ إِذَا فَحَشَ وَتَعَسَّفَ،فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ سُكُونَ الْهَاءِ وَالرِّوَايَاتُ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ بِفَتْحِهَا،وَقَدْ تَكَلَّمَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ،فَلَخَصَّهُ الْقُرْطُبِيُّ تَلْخِيصًا حَسَنًا،ثُمَّ لَخَّصْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ.وَحَاصِلُهُ أَنَّ قَوْلَهُ:هَجَرَ الرَّاجِحُ فِيهِ إِثْبَاتُ الْهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِيَّةِ،وَبِفَتَحَاتٍ عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ،وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا مَا يَقَعُ مِنْ كَلَامِ الْمَرِيضِ مِمَّا لَا يَنْتَظِمُ،وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ لِعَدَمِ فَائِدَتِهِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ مِنْهُ – ﷺ – مُسْتَحِيلٌ ؛ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي صِحَّتِهِ وَمَرَضِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى – إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣ – ٤] وَلِقَوْلِهِ – ﷺ –:(«إِنِّي لَا أَقُولُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا إِلَّا حَقًّا») .وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا مَالَ مَنْ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى مَنْ يَتَوَقَّفُ فِي

امْتِثَالِ أَمْرِهِ بِإِحْضَارِ أَسْبَابِ الْكِتَابَةِ،فَكَأَنَّهُ قَالَ:أَتَتَوَقَّفُ فِي ذَلِكَ،أَتَظُنُّ أَنَّهُ بِتَغَيُّرِهِ يَقُولُ الْهَذَيَانَ فِي مَرَضِهِ امْتَثِلْ أَمْرَهُ وَأَحْضِرْ مَا طَلَبَهُ،فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ،وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَجْوِبَةِ.قَالَ:وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَنْ شَكٍّ عَرَضَ لَهُ،وَلَكِنْ يَبْعُدُ أَنْ لَا يُنْكِرَهُ الْبَاقُونَ عَلَيْهِ مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَلَوْ أَنْكَرُوهُ لَنُقِلَ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُ قَالَ ذَلِكَ مِنْ دَهْشَتِهِ وَحَيْرَتِهِ،كَمَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنْهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ.وَقَالَ غَيْرُهُ:يُحْتَمَلُ أَنَّ الْقَائِلَ ذَلِكَ أَرَادَ اشْتِدَادَ وَجَعِهِ،فَأَطْلَقَ اللَّازِمَ،وَأَرَادَ الْمَلْزُومَ لِأَنَّ الْهَذَيَانَ الَّذِي يَقَعُ مِنَ الْمَرِيضِ يَنْشَأُ عَنْ شِدَّةِ مَرَضِهِ وَاشْتِدَادِ وَجَعِهِ.وَقِيلَ،قَالَ:لِإِرَادَةِ سُكُوتِ الَّذِينَ لَغَطُوا وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ،فَكَأَنَّهُ قَالَ:إِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِيهِ وَيُفْضِي فِي الْعَادَةِ إِلَى ذَلِكَ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ:أَهَجَرَ فِعْلًا مَاضِيًا مِنَ الْهَجْرِ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ أَيِ الْحَيَاةَ،وَذُكِرَ بِلَفْظِ الْمَاضِي مُبَالَغَةً لِمَا رَأَى مِنْ عَلَامَاتِ الْمَوْتِ عَلَيْهِ.قُلْتُ:وَيَظْهَرُ تَرْجِيحُ ثَالِثِ الِاحْتِمَالَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ،وَيَكُونُ قَائِلُ ذَلِكَ بَعْضَ مَنْ قَرُبَ دُخُولُهُ فِي الْإِسْلَامِ اه.وَأَقُولُ:هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْمَرَامِ وَمَقَامِ الْكِرَامِ،فَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ مَعَ الْأَصْحَابِ الْفِخَامِ،وَعَلَى التَّنَزُّلِ فَلَا يَسْكُتُونَ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ زَجْرٍ وَلَوْ بِالْكَلَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْمَرَامِ.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:يَوْمُ الخَمِيسِ،وَمَا يَوْمُ الخَمِيسِ؟ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ،فَقَالَ:«ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»،فَتَنَازَعُوا وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ،فَقَالُوا:مَا شَأْنُهُ،أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ؟ فَذَهَبُوا يَرُدُّونَ عَلَيْهِ،فَقَالَ:«دَعُونِي،فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ» وَأَوْصَاهُمْ بِثَلاَثٍ،قَالَ:«أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَأَجِيزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ» وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَ فَنَسِيتُهَا "

(فَذَهَبُوا)،أَيْ:فَشَرَعَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ (يَرُدُّونَ عَلَيْهِ)،أَيْ:هَذَا الرَّأْيَ صَرِيحًا بِخِلَافِ قَوْلِ عُمَرَ فَإِنَّهُ كَانَ تَلْوِيحًا (فَقَالَ:(دَعُونِي)،أَيِ اتْرُكُونِي (ذَرُونِي)،بِمَعْنَاهُ تَأْكِيدٌ لَهُ،وَالْمَعْنَى دَعُونِي مِنَ النِّزَاعِ وَاللَّغَطِ الَّذِي شَرَعْتُمْ فِيهِ (فَالَّذِي أَنَا فِيهِ)،أَيْ:مِنْ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ،تَعَالَى،وَالتَّأَهُّبِ لِلِقَائِهِ،وَالتَّفَكُّرِ فِي ذَلِكَ وَنَحْوِهِ (خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) .أَيْ أَفْضَلُ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَاللَّغَطِ.قَالَ الْخَطَّابِيُّ:وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ:(

«اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ») .وَالِاخْتِلَافُ فِي الدِّينِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:أَحَدُهَا فِي إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ،وَإِنْكَارُ ذَلِكَ كُفْرٌ،وَثَانِيهَا:فِي صِفَاتِهِ وَإِنْكَارُهَا بِدْعَةٌ.وَثَالِثُهَا:فِي أَحْكَامِ الْفُرُوعِ الْمُحْتَمِلَةِ وُجُوهًا،فَهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ،تَعَالَى،رَحْمَةً وَكَرَامَةً لِلْعُلَمَاءِ.وَقَالَ الْمَازِرِيُّ:إِنْ قِيلَ:كَيْفَ جَازَ لِلصَّحَابَةِ الِاخْتِلَافُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَعَ قَوْلِهِ:(ائْتُونِي أَكْتُبْ) فَالْجَوَابُ:أَنَّ الْأَوَامِرَ يُقَارِنُهَا قَرَائِنُ تَنْقُلُهَا مِنَ النَّدْبِ إِلَى الْوُجُوبِ عِنْدَ مَنْ قَالَ أَصْلُهَا النَّدْبُ،وَمِنَ الْوُجُوبِ إِلَى النَّدْبِ عِنْدَ مَنْ قَالَ أَصْلُهَا الْوُجُوبُ،فَلَعَلَّهُ ظَهَرَ مِنْهُ - ﷺ - مِنَ الْقَرَائِنِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،بَلْ جَعَلَهُ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ،فَاخْتَلَفَ اخْتِيَارُهُمْ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ،وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى رُجُوعِهِمْ إِلَى الِاجْتِهَادِ فِي الشَّرْعِيَّاتِ،وَأَدَّى اجْتِهَادُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الِامْتِنَاعِ،وَلَعَلَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُ - ﷺ - مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ جَازِمٍ،وَكَانَ هَذَا قَرِينَةً فِي إِرَادَةِ عَدَمِ الْوُجُوبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(فَأَمَرَهُمْ بِثَلَاثٍ)،أَيْ:خِصَالٍ (فَقَالَ):تَفْسِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ (أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)،مَرَّ بَيَانُهُ فِي بَابِ إِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ (وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ)،أَيْ:أَكْرِمُوا الْوَافِدِينَ عَلَيْكُمْ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْكُمْ مِنْ حَوَالَيْكُمْ،وَأَعْطُوهُمُ الْجَائِزَةَ وَالْعَطِيَّةَ فِيمَا لَدَيْكُمْ (بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ) .أَيْ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً وَالتَّمْيِيزُ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَلِيقُ بِهِمْ.قَالَ النَّوَوِيُّ:أَمَرَ - ﷺ - بِإِكْرَامِ الْوُفُودِ وَضِيَافَتِهِمْ تَطْيِيبًا لِنُفُوسِهِمْ،وَتَرْغِيبًا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ وَقَالُوا:سَوَاءٌ كَانَ الْوَفْدُ مُسْلِمِينَ أَوْ كُفَّارًا ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِنَّمَا يَفِدُ غَالِبًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِنَا وَمَصَالِحِهِ.(وَسَكَتَ)،أَيِ:ابْنُ عَبَّاسٍ (عَنِ الثَّالِثَةِ)،أَيْ:نِسْيَانًا مِنْهُ أَوِ اقْتِصَارًا (أَوْ قَالَهَا) أَيْ ذَكَرَهَا (فَنَسِيتُهَا) .وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمِّ النُّونِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ (قَالَ سُفْيَانُ) .الظَّاهِرُ أَنَّهُ ابْنُ عُيَيْنَةَ (هَذَا)،أَيْ:قَوْلُهُ سَكَتَ (مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ) .أَيِ الْأَحْوَالِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:السَّاكِتُ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَالنَّاسِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.قَالَ مُهَلَّبٌ:وَالثَّالِثَةُ تَجْهِيزُ جَيْشِ أُسَامَةَ.وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَوْلُهُ - ﷺ -:(«لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»)[905]

[905] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٥٠)

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .فَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:الْمُرَادُ بِالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْحِجَازُ،فَتَجُوزُ إِقَامَتُهُمْ فِي غَيْرِ الْحِجَازِ مِنَ الْجَزِيرَةِ،لأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخُلَفَاءِ لَمْ يُخْرِجِ الْكُفَّارَ مِنَ الْيَمَنِ،وَتَيْمَاءَ،وَنَجْرَانَ .وَقَال غَيْرُهُمْ:الْمُرَادُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ كُلُّهَا مِنْ عَدَنِ أَبْيَنَ إِلَى رِيفِ الْعِرَاقِ[٩٠٦] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٩٠٦] - نهاية المحتاج ٨ ٩٠، وأسنى المطالب ٤ / ١١٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٩، وكشاف القناع ٣ / ١٣٦ .وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ : (أَرْضُ الْعَرَبِ) .

المبحث الثاني

أحكام دار الحرب

دار الْحرْب:

هِيَ كُل بُقْعَة تَكُونُ أَحْكَامُ الْكُفْرِ فِيهَا ظَاهِرَةً.[٩٠٧]

الأَحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِدَارِ الْحَرْبِ:

الْهِجْرَةُ:

قَسَّمَ الْفُقَهَاءُ النَّاسَ فِي شَأْنِ الْهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى ثَلاَثَةِ أَضْرُبٍ:

أ – مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ،وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا،وَلاَ يُمْكِنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ مَعَ الْمُقَامِ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى لاَ تَجِدُ مَحْرَمًا،إِنْ كَانَتْ تَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهَا فِي الطَّرِيقِ،أَوْ كَانَ خَوْفُ الطَّرِيقِ أَقَل مِنْ خَوْفِ الْمُقَامِ فِي دَارِ الْحَرْبِ.[٩٠٨]

لقَوْله تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٧ – ٩٩].

كَانَ فِي مَكَّةَ قَوْمٌ قَدْ أَسْلَمُوا،وَأَخفُوا إِسْلاَمَهُمْ،فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ إلى قِتَالِ الْمُسْلمِينَ،فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ،فَقَالَ الْمُسْلمُونَ كَانَ أَصْحَابُنا هَؤُلاءِ مُسْلمِينَ،وَأُكرِهُوا فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ.فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ.فَكَتَبَ الْمُسْلمُونَ إلى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلمِينَ الْمُسْتَخْفِينَ فِي مَكَّةَ:أَنَّهُمْ لاَ عُذْرَ لَهُمْ،وَأَنَّ عَلَيْهِم الهِجْرَةَ.

---

[٩٠٧] – بدائع الصنائع ٧ / ٣٠ – ٣١، كشاف القناع ٣ / ٤٣، الإنصاف ٤ / ١٢١، المدونة ٢ / ٢٢ .

[٩٠٨] – نهاية المحتاج ٨ / ٨٢، كشاف القناع ٣ / ٤٣، أسنى المطالب ٤ / ٢٠٤، المغني ٨ / ٤٥٦، عمدة القاري ١ / ٣٥، الإنصاف ٤ / ١٢١، فتح العلي المالك ١ / ٣١٣ مطبعة مصطفى محمد .

والآيَةَ عَامَّةٌ تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ أقَامَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ،وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الهِجْرَةِ،وَلَيسَ مُتَمكِّناً فِي مَوطنه مِنْ إقَامَة أمُورِ دِينه،فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسه،مُرْتَكِبٌ حَرَاماً بالإجْمَاعِ.وَظُلْمُهُمْ لأَنْفُسِهِمْ هُوَ تَرْكُهُمُ العَمَلَ بالحَقِّ خَوْفاً مِنَ الأَذَى،وَفَقْدِ الكَرَامَةِ عِنْدَ ذَوِي قُرْبَاهُمْ مِنَ الْمُبْطِلِينَ،وَهَذا الاعْتِذَارُ مِمَّا يَعْتَذِرُ بِه الذينَ يُسَايِرُونَ أَصْحَابَ البِدَعِ بحُجَّة دَفْعِ الأَذَى عَنْ أَنْفُسِهِمْ بمُدَارَاة الْمُبْطِلِينَ،وَهَذَا لا يُعْتَدُّ بِه،لأَنَّ الوَاجبَ يَقْضِي عَلَيهِمْ بِإقَامَةِ الحَقِّ مَعَ احْتِمَالِ الأَذَى فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوِ الهِجْرَةِ إلى حَيْثُ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِمْ.

وَمَعْنَى الآية:إِّن الذينَ تَحْضُرُهُمُ الوَفَاةُ،وَهُمْ مُقِيمُونَ فِي أَرْضِ الشِّرْك لاَ يَسْتَطِيعُونَ إِقَامَة الشَّعَائِرِ الدِّينيَّة،وَلاَ إِظْهَارَهَا (وَقَدْ عَدّ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاءِ ظَالمينَ أَنْفُسَهُمْ بتَرْكِهِمُ الهِجْرَةَ إلى دَارِ الأَمْنِ وَالإِسْلاَمِ)،فَتَسْأَلُهُمُ المَلائكَةُ الكِرَامُ:لِمَ لبِثْتُمْ مُقِيمِينَ فِي أَرْضِ الكُفْرِ،وَتَرَكْتُمُ الهِجْرَةَ؟ فَيُجِيبُونَ:إِنَّهُم كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ،لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ البَلَدِ،وَلا الذَّهَابِ فِي الأَرْضِ.فَتَقُولُ لَهُمُ المَلائكَةُ:أَلَيْسَتْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا إلى حَيْثُ الأَمْنِ وَالحُرِّيَّةُ،وَالقُدْرَةُ عَلَى إِظْهَارِ الإيمَانِ؟ وَيَقُولُ تَعَالَى:إنَّ هَؤُلاءِ الظَّالمِينَ لأَنْفُسِهِمْ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ،وَسَاءَتْ مَصِيراً.

وَاسْتَثْنَى اللهُ تَعَالَى مِنْ سُوءِ المَصِيرِ،الذِي يَنْتَظِرُ القَاعِدِينَ عَنِ الهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الشِّرْكِ – وَهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ إِقَامَةَ شَعَائِرِ دِينِهِم – الْمُسْتَضْعَفِينَ الذينَ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ،وَالذينَ لَوْ قَدِرُوا عَلَى التَّخَلُّصِ لَمَا اسْتَطَاعُوا الاهْتِدَاءَ إلى سُلُوكِ الطَّرِيق،وَإِيجَاد السَّبِيلِ،كَالعَجَزَة وَالمَرْضَى وَالنِّسَاءِ وَالمُرَاهِقِينَ الذين عَقَلُوا.فَهَؤُلاءِ المَعْذُورُونَ قَدْ يَتَجَاوَزُ اللهُ عَنْهُمْ بتَرْك الهِجْرَة مِنْ دَارِ الكُفْرِ،وَاللهُ كَثِيرُ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ[٩٠٩].

وَفِي الْآيَة وَعِيدٌ شَدِيدٌ،وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لاَ يَكُونُ إلاَّ فِي ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمِ وَتَرْكِ الْوَاجِبِ.

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْد اللَّه،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا

---

٩٠٩ – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[910]

وعَنِ ابْنِ السَّعْدِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتَلُ "فَقَالَ مُعَاوِيَةُ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ:إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ،وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ.وَلا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ،وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ،فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ،وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ "[911]

أَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[912]

فَمَعْنَاهُ لاَ هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ فَتْحِهَا،لِصَيْرُورَةِ مَكَّةَ دَارَ إِسْلاَمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ب - مَنْ لاَ هِجْرَةَ عَلَيْهِ:وَهُوَ مَنْ يَعْجِزُ عَنْهَا،إِمَّا لِمَرَضٍ،أَوْ إِكْرَاهٍ عَلَى الإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكُفْرِ،أَوْ ضَعْفٍ كَالنِّسَاءِ،وَالْوِلْدَانِ.لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{لَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٨،٩٩].

ج - مَنْ تُسْتَحَبُّ لَهُ الْهِجْرَةُ،وَلاَ تَجِبُ عَلَيْهِ،وَهُوَ:مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الْهِجْرَةِ وَيَتَمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَهَذَا يُسْتَحَبُّ لَهُ الْهِجْرَةُ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْجِهَادِ،وَتَكْثِيرِ الْمُسْلِمِينَ.[913]

د - وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ قِسْمًا رَابِعًا:وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَيَقْدِرُ عَلَى الاعْتِزَالِ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ،وَالامْتِنَاعِ مِنَ الْكُفَّارِ،فَهَذَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ،لِأَنَّ مَكَانَ

---

[910] -سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) صحيح

[911] - مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٢٠٦)(١٦٧١) حسن

[912] - صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧)٨٥ - (١٣٥٣)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة]

[913] - المصادر الفقهية السابقة .

اعْتِزَالِه صَارَ دَارَ إِسْلَامٍ بِامْتِنَاعِه،فَيَعُودُ بِهِجْرَتِه إِلَى حَوْزَةِ الْكُفَّارِ،وَهُوَ أَمْرٌ لاَ يَجُوزُ،لِأَنَّ كُل مَحَلٍّ قَدَرَ أَهْلُهُ عَلَى الامْتِنَاعِ مِنَ الْكُفَّارِ صَارَ دَارَ إِسْلَامٍ.[914]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لاَ تَجِبُ الْهِجْرَةُ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ لِخَبَرِ:لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ[915] .

بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْهِجْرَةِ وَهَلْ قَطَعَهَا فَتْحُ مَكَّةَ أَمْ لَمْ يَقْطَعْهَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ:" لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا "

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ:حَدَّثَنِي مُجَاشِعٌ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ الْفَتْحِ بِأَخِي أَبِي مَعْبَدٍ لِيُبَايِعَهُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،جِئْتُ بِأَخِي أَبِي مَعْبَدٍ لِتُبَايِعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ،فَقَالَ:" ذَهَبَ أَهْلُ الْهِجْرَةِ بِمَا فِيهَا "،فَقُلْتُ:فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُبَايِعُهُ؟ قَالَ:" عَلَى الْإِيمَانِ أَوْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ " قَالَ:فَلَقِيتُ أَبَا مَعْبَدٍ بَعْدُ،وَكَانَ أَكْبَرَهُمَا فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ صَدَقَ مُجَاشِعٌ

وعَنْ مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُودٍ الْبَهْزِيِّ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِابْنِ أَخِيهِ لِيُبَايِعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا بَلْ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ،وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ "

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَوْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَفْوَانَ قَالَ:لَمَّا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ جَاءَ بِأَبِيهِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،اجْعَلْ لِأَبِي نَصِيبًا مِنَ الْهِجْرَةِ،فَقَالَ:" لَا هِجْرَةَ الْيَوْمَ "،فَدَخَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ فَخَرَجَ الْعَبَّاسُ فِي قَمِيصٍ لَيْسَ عَلَيْهِ رِدَاءٌ،فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ،صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمَ،قَدْ عَرَفْتَ فُلَانًا وَالَّذِي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأَنَّهُ جَاءَ بِأَبِيهِ فَمَا يَمْنَعُهُ؟ قَالَ:" لَا هِجْرَةَ "،فَقَالَ الْعَبَّاسُ:أَقْسَمْتُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:فَمَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَأَدْخَلَ يَدَهُ،وَقَالَ:" أَبْرَرْتُ عَمِّي وَلَا هِجْرَةَ "

---

[914] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٨٢، نهاية المحتاج ٨ / ٨٢ .

[915] - المبسوط م ٥ ج ١٠ / ٦، والحديث تقدم تخريجه .

وعَنْ أُمِّ يَحْيَى ابْنَة يَعْلَى،عَنْ أَبِيهَا،قَالَ:جِئْتُ بِأَبِي يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،هَذَا أَبِي يُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَة.قَالَ:" لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ "

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ يَعْلَى بْنِ مُنْيَةَ أَنَّ أَبَاهُ،أَخْبَرَهُ أَنَّ يَعْلَى،قَالَ:جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي أَبِي أُمَيَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،بَايِعْ أَبِي عَلَى الْهِجْرَة.قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" بَلْ أُبَايِعُهُ عَلَى الْجِهَادِ فَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ "

وعَنْ مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَذَا مُجَالِدُ بْنُ مَسْعُودٍ فَبَايِعْهُ عَلَى الْهِجْرَة.قَالَ:" لَا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَلَكِنْ أُبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ "

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّه عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ:لَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ خَطَبَ النَّاسَ،فَقَالَ فِي خُطْبَتِه:" لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَفِي هَذِه الْآثَارِ إِخْبَارُ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مِنْ قَوْلِهِمَا وَذِكْرِهِمَا السَّبَبَ الَّذِي بِه انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالسَّبَبَ الَّذِي كَانَ يَكُونُ بِه الْهِجْرَةُ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:" انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ بَعْدَ الْفَتْحِ "

وعَنْ عَطَاءٍ،قَالَ:دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ،فَقَالَ لَهَا:يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ،هَلْ مِنْ هِجْرَةٍ الْيَوْمَ؟ قَالَتْ:" لَا وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،إِنَّمَا كَانَتِ الْهِجْرَةُ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِينَة يَفِرُّ الرَّجُلُ بِدِينِه إِلَى رَسُولِ الله ﷺ " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَأَخْبَرَتْ عَائِشَةُ بِالْمَعْنَى الَّذِي بِه كَانَتْ تَكُونُ الْهِجْرَةُ وَأَنَّهُ قَدِ انْقَطَعَ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَدَلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا مَا قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ قَوْلِه لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْه إِلَى الْمَدِينَة حِينَ قِيلَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ إِنَّهُ لَا دِينَ لِمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ وَمِنْ إِطْلَاقِه لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى مَكَّةَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْحُكْمُ حِينَئِذٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى لَمَا أَطْلَقَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا كَمَا لَمْ يُطْلِقْ ذَلِكَ لِلْمُهَاجِرِينَ إِلَيْه إِلَى الْمَدِينَة قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ حَتَّى جَعَلَ لَهُمْ إِذَا قَدِمُوهَا لِحَجِّهِمْ إِقَامَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الصَّدْرِ لَا زِيَادَةَ عَلَيْهَا

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حُمَيْدٍ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ مَا سَمِعْتُ فِي سُكْنَى مَكَّةَ لِلْمُهَاجِرِ؟ فَقَالَ:قَالَ:الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" ثَلَاثٌ بَعْدَ الصَّدْرِ لِلْمُهَاجِرِ "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَحَتَّى كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يُشْفِقُونَ مِنْ إِدْرَاكِ الْمَوْتِ إِيَّاهُمْ بِهَا وَيُعَظِّمُونَ ذَلِكَ وَيَخْشَوْنَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:مَرِضْتُ عَامَ الْفَتْحِ مَرَضًا أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ،فَأَتَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُخَلَّفُ عَنْ هِجْرَتِي؟ قَالَ:" إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي،فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ اللهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ "

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ قَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى خَتَمَهَا،ثُمَّ قَالَ:" أَنَا وَأَصْحَابِي حَيِّزٌ وَالنَّاسُ حَيِّزٌ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ " قَالَ:أَبُو سَعِيدٍ فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَكَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ،فَقَالَ:كَذَبْتَ وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ وَهُمَا مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ،فَقُلْتُ:أَمَا إِنَّ هَذَيْنِ لَوْ شَاءَا حَدَّثَاكَ وَلَكِنَّ هَذَا يَعْنِي زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ يَخَافُ أَنْ تَعْزِلَهُ عَنِ الصَّدَقَةِ،وَهَذَا يَخَافُ أَنْ تَعْزِلَهُ عَنْ عِرَافَةِ قَوْمِهِ يَعْنِي رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ وَهُمَا مَعَهُ،قَالَ فَشَدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ بِدِرَّتِهِ،فَلَمَّا رَأَيَا ذَلِكَ قَالَا صَدَقَ.فَقَالَ قَائِلٌ:أَفَيُخَالِفُ هَذَا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

وعَنْ أَبِي الْخَيْرِ أَنَّ جُنَادَةَ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ،حَدَّثَهُ،أَنَّ رَجُلًا،حَدَّثَهُ،أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا كَانَ الْجِهَادُ "

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّعْدِيِّ قَالَ:وَفَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ،فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَضَوْا حَوَائِجَهُمْ،وَخَلَّفُونِي فِي رِحَالِهِمْ،فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:يَا

رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي عَنْ حَاجَتِي،فَقَالَ:" وَمَا حَاجَتُكَ؟ " فَقُلْتُ:انْقَطَعَت الْهِجْرَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَنْتَ خَيْرُهُمْ حَاجَةً "،أَوْ قَالَ:" حَاجَتُكَ خَيْرُ حَاجَاتِهِمْ لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْكُفَّارُ "

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِشَيْءٍ مِمَّا قَدْ تَقَدَّمَتْ رِوَايَتُنَا إِيَّاهُ فِي هَذَا الْبَابِ؛لِأَنَّهُ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِذَلِكَ الْكُفَّارَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ حَتَّى فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَلَيْهِمْ.قَالَ:أَفَيُخَالِفُ هَذَا

وعَنْ أَبِي هِنْدٍ الْبَجَلِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا.قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذِهِ الْهِجْرَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَيْسَت الْهِجْرَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْأَحَادِيثِ الْأُوَلِ إِنَّمَا هِيَ هِجْرَةُ السُّوءِ لَا الْهِجْرَةُ الْأُخْرَى الْمَذْكُورَةُ فِي الْآثَارِ الْأُوَلِ،أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ أَيْ إِنَّهَا الْهِجْرَةُ الَّتِي يُهْجَرُ بِهَا مَا كَانَ قَبْلَهَا مَا قَطَعَتْهُ التَّوْبَةُ وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا فِيهِ تَفْرِقَةٌ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْهِجْرَتَيْنِ

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ.إِحْدَاهُمَا أَنْ يَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ،وَأَنْ يُهَاجِرَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ،وَلَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ،وَلَا تَزَالُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا،فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ " وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا عَنِ الْحَارِثِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يُبَايِعُ النَّاسَ عَلَى الْهِجْرَةِ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تُبَايِعُ هَذَا؟ قَالَ:" وَمَنْ هَذَا؟ " قُلْتُ:ابْنُ عَمِّي حَوْطُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ:" لَا إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَا تُهَاجِرُونَ إِلَى أَحَدٍ،وَلَكِنَّ النَّاسَ يُهَاجِرُونَ إِلَيْكُمْ "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَهَذَا عِنْدَنَا،وَاللهُ أَعْلَمُ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِشَيْءٍ مِمَّا قَدْ تَقَدَّمَتْ رِوَايَتُنَا لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ؛لِأَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَكَانَ وَقْتَ مُهَاجِرٍ وَلَيْسَ مَا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ كَذَلِكَ.وَقَدْ رُوِيَ أَيْضًا فِي الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ،فعَنْ صَالِحِ بْنِ بَشِيرِ بْنِ

فُدَيْك قَالَ:خَرَجَ فُدَيْكٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ هَلَكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا فُدَيْكُ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ وَاهْجُرِ السُّوءَ وَاسْكُنْ مِنْ أَرْضِ قَوْمِكَ حَيْثُ شِئْتَ تَكُنْ مُهَاجِرًا " فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تِبْيَانُ الْهِجْرَةِ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا مَنْ يَدْخُلُ فِيهَا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَأَنَّهَا بِهَجْرِ السُّوءِ وَأَنَّهَا لَا تَمْنَعُ مِنَ السُّكْنَى بِغَيْرِ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهَا خِلَافُ الْهِجْرَةِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ السُّكْنَى فِي الدَّارِ الَّتِي كَانَ الْمُهَاجِرُ مِنْهَا وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ هَذَا بَيَانٌ لِمَا وَصَفْنَا وَقَدْ وَجَدْنَا مَا هُوَ أَدَلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ هَذَا وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠]فَأَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ السَّابِقِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَكَانَ مَعْقُولًا أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الدَّارِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنْ دُورِ الْكُفْرِ مِنْ مَكَّةَ وَمِمَّنْ سِوَاهَا إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ،وَكَانَ مَعْقُولًا أَنَّ الْأَنْصَارَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِيهَا هُمُ الَّذِينَ قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَانَ مِنْهُمْ فِي أَمْرِهِ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالتَّصْدِيقِ لَهُ وَالْبَذْلَةِ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لَهُ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ أَعْظَمَ الدُّورِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْكُفَّارُ بِهِ،وَالرَّاغِبُونَ عَنْهُ وَالْمُقَاتِلُونَ لَهُ وَكَانَ مَعْقُولًا أَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ وَبَعْدَ أَنْ صَارَتْ مَكَّةُ دَارَ إِسْلَامٍ.وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِمُجَاشِعٍ لَمَّا أَتَاهُ بِأَخِيهِ بَعْدَ الْفَتْحِ لِيُبَايِعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ:" لَا بَلْ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ " وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[٩١٦]

أَمَّا حَدِيثُ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ

---

[٩١٦] - شرح مشكل الآثار (٧/ ٣٠)

مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَـنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُـمْ إِلَـى الْإِسْـلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَـلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُـمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَـوْا أَنْ يَتَحَوَّلُـوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْـرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْـتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّـةَ نَبِيِّـهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَـكَ وَذِمَّـةَ أَصْـحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّـةَ اللهِ وَذِمَّـةَ رَسُـولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْـمَ اللهِ فِـيهِمْ أَمْ لَـا»[٩١٧] فَمَنْسُـوخٌ بِحَدِيثِ:لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ.

التَّزَوُّجُ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى كَرَاهَةِ التَّزَوُّجِ فِي دَارِ الْحَرْبِ لِمَنْ دَخَـلَ فِيهَـا مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ بِأَمَانٍ،لِتِجَارَةٍ،أَوْ لِغَيْرِهَا،وَلَوْ بِمُسْلِمَةٍ،وَتَشْتَدُّ الْكَرَاهَةُ إِذَا كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ.

---

[٩١٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا (في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا (ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة (ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد (ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان (وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل (ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ (ذمة الله) الذمة هنا العهد (أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ الْكَرَاهَةُ تَحْرِيمِيَّةٌ فِي الْحَرْبِيَّةِ لافْتِتَاحِ بَابِ الْفِتْنَةِ،وَتَنْزِيهِيَّةٌ فِي غَيْرِهَا،لأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا للذُّرِّيَّةِ لفَسَادٍ عَظِيمٍ،إِذْ أَنَّ الْوَلَدَ إِذَا نَشَأَ فِي دَارِهِمْ لاَ يُؤْمَنُ أَنْ يَنْشَأَ عَلَى دِينِهِمْ،وَإِذَا كَانَت الزَّوْجَةُ مِنْهُمْ فَقَدْ تَغْلِبُ عَلَى وَلَدِهَا فَيَتْبَعُهَا عَلَى دِينِهَا.[٩١٨]

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ أَسِيرًا فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَلاَ يَحِل لَهُ التَّزَوُّجُ مَا دَامَ أَسِيرًا،لأَنَّهُ إِذَا وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ كَانَ لَهُمْ رَقِيقًا.[٩١٩]

الرِّبَا فِي دَارِ الْحَرْبِ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ:إِلَى أَنَّ الرِّبَا حَرَامٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ كَحُرْمَتِهِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَمَا كَانَ حَرَامًا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،كَانَ حَرَامًا فِي دَارِ الْحَرْبِ،سَوَاءٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ،أَوْ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لَمْ يُهَاجِرَا مِنْ دَارِ الْحَرْبِ،وَبِهَذَا قَال الشَّافِعِيُّ،وَمَالِكٌ،وَأَبُو يُوسُفَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ،وَقَالُوا:إِنَّ النُّصُوصَ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا عَامَّةٌ،وَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ دَارٍ وَدَارٍ،وَلاَ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ[٩٢٠] .

وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ:لاَ يَحْرُمُ الرِّبَا فِي دَارِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَأَهْلِ الْحَرْبِ،وَلاَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لَمْ يُهَاجِرَا مِنْ دَارِ الْحَرْبِ.[٩٢١] لِحَدِيثِ:لاَ رِبَا بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْحَرْبِيِّ فِي دَارِ الْحَرْبِ[٩٢٢]

وقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:«الرِّبَا عَلَيْهِ حَرَامٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا؛لأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ» وَضَعَ مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ مِنْ ذَلِكَ،فَكَانَ أَوَّلُ رِبًا وَضَعَهُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ

---

[٩١٨] – المغني ٨ / ٤٥٥، أسنى المطالب / ١٦١، الخرشي ٣ / ٢٢٦، المبسوط م ٥ ج ١٠ / ٩٦، ورد المحتار ٢ / ٢٨٩ .

[٩١٩] – المغني ٨ / ٤٥٥ .

[٩٢٠] – المجموع شرح المهذب ٩ / ١٩١، المغني ٤ / ٤٥، ٨ / ٤٥٨، المدونة ٤ / ٢٧١ .

[٩٢١] – شرح فتح القدير ٦ / ١٧٧ .

[٩٢٢] – نصب الراية (٤/ ٤٤) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٥٨)(٧٩٨)

قُلْتُ:غَرِيبٌ، وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَعْرِفَةِ فِي كِتَابِ السِّيَرِ عَنْ الشَّافِعِيِّ، قَالَ:قَالَ أَبُو يُوسُفَ:إنَّمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ هَذَا لِأَنَّ بَعْضَ الْمَشْيَخَةِ حَدَّثَنَا عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:"لَا رِبَا بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ"، أَظُنُّهُ قَالَ:"وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ"، قَالَ الشَّافِعِيُّ:وَهَذَا لَيْسَ بِثَابِتٍ، وَلَا حُجَّةَ فِيهِ، انْتَهَى كَلَامُهُ.

الْمُطَّلب «،فَكَيْفَ يَسْتَحلُّ الْمُسْلمُ أَكْلَ الرِّبَا فِي قَوْمٍ قَدْ حُرِّمَ عَلَيْه دمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ،وَقَدْ كَانَ الْمُسْلمُ يُبَايعُ الْكَافرَ فِي عَهْد رَسُول اللَّه ﷺ وَلَا يَسْتَحلُّ ذَلكَ»
ووَقَالَ أَبُو يُوسُفَ:«الْقَوْلُ مَا قَالَ الْأَوْزَاعيُّ»
وَإِنَّمَا أَحَلَّ أَبُو حَنيفَةَ هَذَا لأَنَّ بَعْضَ الْمَشْيَخَة حَدَّثَنَا عَنْ مَكْحُولٍ،عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَا ربَا بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْب»،أَظُنُّهُ قَالَ:«وَأَهْلِ الْإِسْلَام»
قَالَ الشَّافعيُّ:الْقَوْلُ كَمَا قَالَ الْأَوْزَاعيُّ وَأَبُو يُوسُفَ،وَمَا احْتَجَّ به أَبُو يُوسُفَ لأَبي حَنيفَةَ لَيْسَ بثَابت،فَلَا حُجَّةَ فيه[٩٢٣]

وَلأَنَّ مَالَهُمْ مُبَاحٌ فِي دَارهمْ،فَبِأَيِّ طَريقٍ أَخَذَهُ الْمُسْلمُ أَخَذَ مَالاً مُبَاحًا إِذَا لَمْ يَكُنْ فيه غَدْرٌ،وَلأَنَّ مَال أَهْل الْحَرْب مُبَاحٌ بغَيْر عَقْد،فَبالْعَقْد الْفَاسد أَوْلَى.
وَلأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ خَاطَرَ قُرَيْشًا قَبْلَ الْهجْرَة حينَ أَنْزَل اللَّهُ تَعَالَى:{الم (١) غُلبَت الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ منْ بَعْد غَلَبهمْ سَيَغْلبُونَ (٣)} [الروم:١ - ٣]
فعَنْ نيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الأَسْلَميِّ،قَالَ:" لَمَّا نَزَلَتْ {الم غُلبَت الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ منْ بَعْد غَلَبهمْ سَيَغْلبُونَ فِي بضْعِ سنينَ} [الروم:٢] فَكَانَتْ فَارسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذه الآيَةُ قَاهرينَ للرُّوم،وَكَانَ الْمُسْلمُونَ يُحبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كتَاب،وَفي ذَلكَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى:{وَيَوْمَئذ يَفْرَحُ الْمُؤْمنُونَ بنَصْر اللَّه يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزيزُ الرَّحيمُ} [الروم:٤] فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحبُّ ظُهُورَ فَارسَ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بأَهْلِ كتَابٍ وَلَا إِيمَانٍ ببَعْث،فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذه الآيَةَ،خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصيحُ فِي نَوَاحي مَكَّةَ {الم غُلبَت الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ منْ بَعْد غَلَبهمْ سَيَغْلبُونَ [ص:٣٤٥] فِي بضْعِ سنينَ} [الروم:١] قَالَ نَاسٌ منْ قُرَيْشٍ لأَبي بَكْرٍ:فَذَلكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،زَعَمَ صَاحبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلبُ فَارسَ فِي بضْعِ سنينَ،أَفَلَا نُرَاهنُكَ عَلَى ذَلكَ،قَالَ:بَلَى،وَذَلكَ قَبْلَ تَحْريمِ الرِّهَان،فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْركُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ،وَقَالُوا لأَبي بَكْرٍ:كَمْ تَجْعَلُ الْبضْعُ ثَلَاثُ سنينَ إِلَى تسْعِ سنينَ،فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهي إِلَيْه،قَالَ:فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ ستَّ سنينَ،قَالَ:فَمَضَت السِّتُّ سنينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا،فَأَخَذَ الْمُشْركُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ،فَلَمَّا

[٩٢٣] - معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٧٦)(١٨١٦٧ -١٨١٦٩)

دَخَلَت السَّنَةُ السَّابعَةُ ظَهَرَت الرُّومُ عَلَى فَارِسَ،فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْــرٍ تَسْــمِيَةَ ستِّ سنينَ،لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي بِضْعِ سِنِينَ،قَالَ:وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ "[٩٢٤].

وَكَانَتْ مَكَّةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْت دَارَ حَرْبٍ،فَدَل ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلْمُسْلِمِ أَخْذَ مَال الْحَرْبِيِّ فِي دَارِ الْحَرْبِ مَا لَمْ يَكُنْ غَدْرًا.[٩٢٥]

إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى مَنْ زَنَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ سَرَقَ،أَوْ قَذَفَ مُسْلِمًا،أَوْ شَرِبَ خَمْرًا فِي دَارِ الْحَرْبِ.

فَقَال الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ:يَجِبُ عَلَى الإِمَامِ إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْهِ،لأَنَّ إِقَامَةَ الْحُــدُود فَــرْضٌ كَالصَّلاَةِ،وَالصَّوْمِ،وَالزَّكَاةِ،وَلاَ تُسْقِطُ دَارُ الْحَرْبِ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

إِذَا قَتَل مُسْلِمٌ مُسْلِمًا فِي دَارِ الْحَرْبِ يَسْتَوْفِي مِنْهُ الْقِصَاصَ،وَيَكُونُ الْحُكْمُ كَمَا لَوْ كَانُوا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ [٩٢٦].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ،وَلَوْ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:" لَا تُقَامُ الْحُدُودُ فِي دَارِ الْحَرْبِ مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَ أَهْلُهَا بِالْعَدُوِّ ".[٩٢٧]

وَقَوْلِهِ:مَنْ زَنَى أَوْ سَرَقَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَأَصَابَ بِهَا حَدًّا ثُمَّ هَرَبَ فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَإِنَّــهُ لاَ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ.[٩٢٨]

وَلأَنَّ الإِمَامَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُود فِي دَارِ الْحَرْب لِعَدَمِ الْوِلاَيَةِ،وَلاَ يُقَامُ عَلَيْهِ بَعْــدَ الرُّجُوعِ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،لأَنَّ الْفِعْل لَمْ يَقَعْ مُوجِبًا أَصْلاً،وَكَذَلِكَ إِذَا قَتَل مُسْلِمًا فِيهَا لاَ يُؤْخَذُ بِالْقِصَاصِ وَإِنْ كَانَ الْقَتْل عَمْدًا لِتَعَذُّرِ الاِسْتِيفَاءِ،وَلأَنَّ كَوْنَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْرَثَ شُبْهَةً فِي الْوُجُوبِ،وَالْقِصَاصُ لاَ يَجِبُ مَعَ الشُّبْهَةِ،وَيَضْمَنُ الدِّيَةَ وَتَكُونُ فِي مَالِهِ لاَ عَلَى

---

[٩٢٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٤٤)(٣١٩٤) حسن

[٩٢٥] - حاشية الطحطاوي ٣ / ١١٢، بدائع الصنائع ٥ / ١٩٢ .

[٩٢٦] - الخرشي ٣ / ١١١، والأم ٤ / ٢٤٨ .

[٩٢٧] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٧٨)(١٨٢٢٥) ضعيف

[٩٢٨] - لم أجد هذا الحديث

الْعَاقِلَة،لِأَنَّ الدِّيَةَ تَجِبُ عَلَى الْقَاتِلِ ابْتِدَاءً،ثُمَّ الْعَاقِلَةُ تَتَحَمَّل عَنْهُ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَاصُرِ،وَلاَ تَنَاصُرَ عِنْدَ اخْتِلاَفِ الدَّارِ.[929]

وَقَال الْحَنَابِلَةُ أَيْضًا:تَجِبُ الْحُدُودُ وَالْقِصَاصُ،وَلَكِنَّهَا لاَ تُقَامُ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَتُقَامُ عَلَيْهِ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ[930].وَاسْتَدَلُّوا بِمَا رَوَاهُ سَعِيدٌ فِي سُنَنِهِعَنِ الْأَحْوَصِ بْنِ حَكِيمٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ إِلَى النَّاسِ:«أَنْ لَا يَجْلِدَنَّ أَمِيرُ جَيْشٍ وَلَا سَرِيَّةٍ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَدًّا وَهُوَ غَازٍ حَتَّى يَقْطَعَ الدَّرْبَ قَافِلًا لِئَلَّا تَحْمِلَهُ حَمِيَّةُ الشَّيْطَانِ فَيَلْحَقَ بِالْكُفَّارِ»[931].

وعنْ حُمَيْدِ بْنِ فُلَانِ بْنِ رُومَانَ ؛أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ نَهَى أَنْ يُقَامَ عَلَى أَحَدٍ حَدٌّ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ[932]

وعَنْ عَلْقَمَةَ،قَالَ:غَزَوْنَا أَرْضَ الرُّومِ وَمَعَنا حُذَيْفَةُ،وَعَلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ،فَشَرِبَ الْخَمْرَ،فَأَرَدْنَا أَنْ نَحُدَّهُ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَتَحُدُّونَ أَمِيرَكُمْ،وَقَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ،فَيَطْمَعُونَ فِيكُمْ ؟ فَقَالَ:لأَشْرَبَنَّهَا،وَإِنْ كَانَتْ مُحَرَّمَةً،وَلأَشْرَبَنَّهَا عَلَى رَغْمِ مَنْ رَغِمَ.[933]

حَدُّ مَنْ أَصَابَ حَدًّا مِنْ أَفْرَادِ الْجَيْشِ:

قَال الْحَنَفِيَّةُ:إِذَا أَصَابَ أَحَدُ أَفْرَادِ الْجَيْشِ حَدًّا،أَوْ قَتَل مُسْلِمًا خَطَأً أَوْ عَمْدًا فِي دَارِ الْحَرْبِ خَارِجَ الْمُعَسْكَرِ لاَ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ أَوِ الْقِصَاصُ،أَمَّا إِذَا زَنَى أَحَدُهُمْ فِي مُعَسْكَرِ الْجَيْشِ لَمْ يَأْخُذْهُ أَمِيرُ الْجَيْشِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الإِمَامُ لَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْهِ إِقَامَةَ الْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ،إِلاَّ أَنَّهُ يُضَمِّنُهُ الْمَسْرُوقَ وَالدِّيَةَ فِي الْقَتْل،لِأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِيفَاءِ ضَمَانِ الْمَال.

---

[929] - بدائع الصنائع ٧ / ١٣١، وابن عابدين ٣ / ١٥٦، وفتح القدير ٤ / ١٥٣، ونصب الراية ٣ / ٣٤٣ .

[930] - المغني ٨ / ٤٧٣ - ٤٧٤ .

[931] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٣٥)(٢٥٠٠) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٥٧)(٢٩٤٦٤) ضعيف

[932] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٥٧)(٢٩٤٦٥) ضعيف

[933] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٥٥٧)(٢٩٤٦٦) صحيح

أَمَّا إِذَا غَزَا مَنْ لَهُ وِلاَيَةُ إِقَامَةِ الْحُدُودِ،سَوَاءٌ غَزَا الْخَلِيفَةُ بِنَفْسِهِ،أَوْ أَمِيرُ مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ،فَفَعَلَ رَجُلٌ مِنَ الْجَيْشِ ذَلِكَ فِي مُعَسْكَرِهِ أَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ،وَاقْتَصَّ مِنْهُ فِي الْعَمْدِ،وَضَمَّنَهُ الدِّيَةَ فِي الْخَطَأِ فِي مَالِهِ،لأَنَّ إِقَامَةَ الْحُدُودِ إِلَى الإِمَامِ،وَبِمَا لَهُ مِنَ الشَّوْكَةِ،وَانْقِيَادِ الْجُيُوشِ لَهُ يَكُونُ لِعَسْكَرِهِ حُكْمُ دَارِ الإِسْلاَمِ[934].

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ:إِذَا أَصَابَ الرَّجُل حَدًّا وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِلْعَدُوِّ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ.وَقَالُوا:وَلاَ يَمْنَعُنَا الْخَوْفُ عَلَيْهِ مِنَ اللُّحُوقِ بِالْمُشْرِكِينَ أَنْ نُقِيمَ حُدُودَ اللَّهِ.وَلَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ تَوَقِّيًا مِنْ أَنْ يَغْضَبَ مَا أَقَمْنَا الْحَدَّ أَبَدًا،لأَنَّهُ يُمْكِنُهُ مِنْ أَيِّ مَوْضِعٍ أَنْ يَلْحَقَ بِدَارِ الْحَرْبِ فَيُعَطِّل حُكْمُ اللَّهِ،ثُمَّ إِنَّ الرَّسُول ﷺ قَدْ أَقَامَ الْحُدُودَ بِالْمَدِينَةِ وَالشِّرْكُ قَرِيبٌ مِنْهَا،وَفِيهَا مُشْرِكُونَ مُوَادِعُونَ.وَضَرَبَ الشَّارِبَ بِحُنَيْنٍ.وَالشِّرْكُ قَرِيبٌ مِنْهَا.[935]

حُصُول الْفُرْقَةِ بِاخْتِلاَفِ الدَّارِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ:

اخْتِلاَفُ الْفُقَهَاءِ فِي انْقِطَاعِ عِصْمَةِ الزَّوْجِيَّةِ بِاخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ.

فَقَال الْجُمْهُورُ:لاَ تَقَعُ الْفُرْقَةُ بِاخْتِلاَفِ الدَّارِ،فَإِنْ أَسْلَمَ زَوْجُ كِتَابِيَّةٍ،وَهَاجَرَ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَبَقِيَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَهُمَا عَلَى نِكَاحِهِمَا،لأَنَّ نِكَاحَ الْكِتَابِيَّةِ يَجُوزُ ابْتِدَاؤُهُ فَالاسْتِمْرَارُ أَوْلَى،سَوَاءٌ كَانَ قَبْل الدُّخُول،أَوْ بَعْدَهُ.وَإِنْ أَسْلَمَتْ كِتَابِيَّةٌ تَحْتَ كِتَابِيٍّ،أَوْ غَيْرِهِ،أَوْ أَسْلَمَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ غَيْرَ الْكِتَابِيِّينَ،قَبْل الدُّخُول حَصَلَتِ الْفُرْقَةُ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة:١٠] وَإِنْ أَسْلَمَ أَحَدُهُمَا بَعْدَ الدُّخُول،وَقَفَ الأَمْرُ عَلَى انْتِهَاءِ

---

[934] - بدائع الصنائع ٧ / ١٣١ - ١٣٢، وابن عابدين ٣ / ١٥٦، وفتح القدير ٤ / ١٥٣ .

[935] - الأم للشافعي ٤ / ٢٤٨، الخرشي ٣ / ١١٧ .

الْعِدَّة،فَإِنْ أَسْلَمَ الْآخَرُ فِي الْعِدَّة بَقِيَ نِكَاحُهُمَا،وَإِلاَّ تَبَيَّنَّا فَسْخَهُ مُنْذُ أَسْلَمَ الأَوَّل،لأَنَّ سَبَبَ الْفُرْقَة اخْتلاَفُ الدِّين لاَ اخْتلاَفُ الدَّار.[٩٣٦]

وَاسْتَدَلُّوا بِمَا رَوَاهُ ابْنُ شُبْرُمَةَ قَال:كَانَ النَّاسُ عَلَى عَهْد رَسُول اللَّه ﷺ يُسْلمُ الرَّجُل قَبْل الْمَرْأَة،وَالْمَرْأَةُ قَبْلَهُ،فَأَيُّهُمَا أَسْلَمَ قَبْل انْقضَاء الْعدَّة فَهِيَ امْرَأَتُهُ،وَإِنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْعدَّة فَلاَ نكَاحَ بَيْنَهُمَا،وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الأَثَرِ دَارَ حَرْبٍ،وَلاَ دَارَ إِسْلاَمٍ،فَسَبَبُ الْفُرْقَة إِذًا اخْتلاَفُ الدِّين.

فَكَوْنُ أَحَد الزَّوْجَيْنِ فِي دَار الْحَرْبِ لاَ يُوجِبُ فُرْقَةً[٩٣٧].

وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إِلَى أَنَّ الْفُرْقَةَ تَحْصُل باخْتلاَف الدَّارَيْنِ،فَإِنْ خَرَجَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى دَار الإِسْلاَمِ مُسْلمًا أَوْ ذمِّيًّا،وَتَرَكَ الآخَرَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَقَعَت الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا،لأَنَّهُ باخْتلاَف الدَّارَيْنِ يَخْرُجُ الْملْكُ منْ أَنْ يَكُونَ مُنْتَفَعًا به،لعَدَمِ التَّمَكُّنِ منَ الانْتفَاعِ عَادَةً،فَلَمْ يَكُنْ فِي بَقَائه فَائدَةٌ.[٩٣٨]

قسْمَةُ الْغَنيمَة فِي دَارِ الْحَرْب:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي صحَّة قَسْمِ الْغَنيمَة فِي دَارِ الْحَرْب.فَذَهَبَ الْمَالكيَّةُ،وَالشَّافعيَّةُ،وَالْحَنَابلَةُ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ قسْمَتُهَا فِي دَارِ الْحَرْب،وَتَبَايُعُهَا فيهَا،وَاسْتَدَلُّوا بِمَا رَوَى أَبُو إِسْحَاقَ الْفَزَاريُّ قَال:قُلْتُ للأَوْزَاعيِّ:هَل قَسَّمَ رَسُول اللَّه ﷺ شَيْئًا منَ الْغَنَائمِ بالْمَدينَة ؟ فَقَال:لاَ أَعْلَمُهُ،إِنَّمَا كَانَ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ غَنَائمَهُمْ،وَيَقْسمُونَهَا فِي أَرْضِ عَدُوِّهِمْ،وَلَمْ يَغْفُل رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ غَزَاة قَطُّ أَصَابَ فيهَا غُنَيْمَةً إِلاَّ خَمَّسَهَا وَقَسَّمَهَا منْ قَبْل أَنْ يَغْفُل،منْ ذَلكَ غُزَاةُ بَنِي الْمُصْطَلق،وَهَوَازِنَ،وَخَيْبَرَ،وَلأَنَّ الْملْكَ يَثْبُتُ فيهَا بِالْقَهْرِ وَالاسْتيلاَء فَصَحَّتْ قسْمَتُهُ،وَلأَنَّ

---

[٩٣٦] – كشاف القناع ٥ / ١١٨ – ١١٩، القوانين الفقهية ص ٢٠١، أسنى المطالب ٣ / ١٦٣، شرح الزرقاني ٣ / ٢٢٥ .

[٩٣٧] – المصادر السابقة .

[٩٣٨] – بدائع الصنائع ٢ / ٣٣٨ – ٣٣٩، رد المحتار ٢ / ٥٣٧ .

قِسْمَةَ أَمْوَالِهِمْ فِي دَارِهِمْ أَنْكَى لَهُمْ،وَأَطْيَبُ لِقُلُوبِ الْمُجَاهِدِينَ،وَأَحْفَظُ لِلْغَنِيمَةِ،وَأَرْفَقُ بِهِمْ فِي التَّصَرُّفِ[939].

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:الْقِسْمَةُ نَوْعَانِ:

١ - قِسْمَةُ حَمْلٍ وَنَقْلٍ.

٢ - وَقِسْمَةُ مِلْكٍ.

أَمَّا قِسْمَةُ الْحَمْل،فَهِيَ إِنْ عَزَّتِ الدَّوَابُّ،وَلَمْ يَجِد الإِمَامُ حَمُولَةً يُفَرِّقُ الْغَنَائِمَ عَلَى الْغُزَاةِ فَيَحْمِل كُل رَجُلٍ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِهِ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،ثُمَّ يَسْتَرِدُّهَا مِنْهُمْ،فَيَقْسِمُهَا قِسْمَةَ مِلْكٍ.

أَمَّا قِسْمَةُ الْمِلْكِ فَلاَ تَجُوزُ فِي دَارِ الْحَرْبِ حَتَّى يُخْرِجُوهَا إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَيُحْرِزُوهَا،وَقَالُوا:إِنَّ الْحَقَّ يَثْبُتُ بِنَفْسِ الأَخْذِ،وَيَتَأَكَّدُ بِالإِحْرَازِ،وَيَتَمَكَّنُ بِالْقِسْمَةِ كَحَقِّ الشَّفِيعِ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ بِالْبَيْعِ،وَيَتَأَكَّدُ بِالطَّلَبِ،وَيَتِمُّ الْمِلْكُ بِالأَخْذِ،وَمَا دَامَ الْحَقُّ ضَعِيفًا لاَ تَجُوزُ الْقِسْمَةُ لأَنَّهُ دُونَ الْمِلْكِ الضَّعِيفِ فِي الْمَبِيعِ قَبْل الْقَبْضِ،وَلأَنَّ السَّبَبَ هُوَ الْقَهْرُ،وَقَبْل الإِحْرَازِ هُمْ قَاهِرُونَ يَدًا مَقْهُورُونَ دَارًا،وَالثَّابِتُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ يَكُونُ ضَعِيفًا.[940]

وَيَنْبَنِي عَلَى هَذَا الْخِلاَفِ بَيْنَ الْحَنَفِيَّةِ،وَالْجُمْهُورِ أَحْكَامٌ.

مِنْهَا:أَنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُ الْغَانِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ لاَ يُورَثُ مِنَ الْغَنِيمَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ يُورَثُ.

وَمِنْهَا:إِذَا لَحِقَ الْجَيْشَ أَحَدٌ بَعْدَ الْحِيَازَةِ فِي دَارِ الْحَرْبِ لاَ يُشَارِكُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ يُشَارِكُهُمْ إِذَا لَحِقَ قَبْل الْحِيَازَةِ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ.

---

[939] - المغني ٨ / ٤٢٢، كشاف القناع ٣ / ٨٢، الإنصاف ٤ / ١٦٢، الخرشي ٣ / ١٣٦، نهاية المحتاج ٨ / ٧٦، مغني المحتاج ٤ / ٢٣٤ .

[940] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢١، المبسوط م ٥ ج ١٠ / ٣٣ .

وَإِذَا أَتْلَفَ أَحَدُ الْغَانمينَ شَيْئًا منَ الْغَنيمَة في دَارِ الْحَرْبِ يَضْمَنُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،وَلاَ يَضْمَنُ عِنْدَ الْحَنَفيَّة.[941]

اسْتيلاَءُ الْكُفَّار عَلَى أَمْوَال الْمُسْلمينَ،وَأَثَرُ الدَّار في ذَلكَ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ في تَمَلُّك أَهْل الْحَرْب أَمْوَال الْمُسْلمينَ بالاسْتيلاَء عَلَيْهَا،فَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ إلَى أَنَّهُمْ لاَ يَمْلكُونَهَا وَإِنْ أَحْرَزُوهَا بدَارهمْ،لأَنَّهُ مَالٌ مَعْصُومٌ طَرَأَتْ عَلَيْه يَدٌ عَاديَةٌ،فَلَمْ يَمْلكْ بهَا كَالْغَصْب.وَإِذَا كَانَ الْمُسْلمُ لاَ يَمْلكُ مَالَ الْمُسْلم بالاسْتيلاَء عَلَيْه بغَصْب،فَالْمُشْركُ أَوْلَى أَلاَّ يَمْلكَ.[942]

واستدلوا بحديث عمْرَانَ بْن حُصَيْن،قَالَ:كَانَتْ ثَقيفُ حُلَفَاءَ لبَنى عُقَيْل،فَأَسَرَتْ ثَقيفُ رَجُلَيْن منْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ،وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُول الله ﷺ،رَجُلًا منْ بَني عُقَيْل،وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ،فَأَتَى عَلَيْه رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ في الْوَثَاق،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَ:بمَ أَخَذْتَني،وَبمَ أَخَذْتَ سَابقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ:«إعْظَامًا لذَلكَ أَخَذْتُكَ بجَريرَة حُلَفَائكَ ثَقيفَ»،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحيمًا رَقيقًا،فَرَجَعَ إلَيْه،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إنِّي مُسْلمٌ،قَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاح»،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إنِّي جَائعٌ فَأَطْعمْني،وَظَمْآنُ فَأَسْقني،قَالَ:«هَذه حَاجَتُكَ»،فَفُديَ بالرَّجُلَيْن،قَالَ:وَأُسرَت امْرَأَةٌ منَ الْأَنْصَار وَأُصيبَت الْعَضْبَاءُ،فَكَانَت الْمَرْأَةُ في الْوَثَاق وَكَانَ الْقَوْمُ يُريحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتهمْ،فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَة منَ الْوَثَاق،فَأَتَت الْإبلَ،فَجَعَلَتْ إذَا دَنَتْ منَ الْبَعير رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهيَ إلَى الْعَضْبَاء،فَلَمْ تَرْغُ،قَالَ:وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ في عَجُزهَا،ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ،وَنَذرُوا بهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ،قَالَ:وَنَذَرَتْ للَّه إنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدمَت الْمَدينَةَ رَآهَا النَّاسُ،فَقَالُوا:الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُول الله ﷺ،فَقَالَتْ:إنَّهَا نَذَرَتْ إنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ،فَذَكَرُوا ذَلكَ لَهُ،فَقَالَ:«سُبْحَانَ

---

[941] – نهاية المحتاج ٨ / ٧٤، بدائع الصنائع ٧ / ١٢١، والمغني ٨ / ٤١٩ – ٤٢٠، مغني المحتاج ٤ / ٢٣٢ – ٢٣٤ .

[942] – الأم للشافعي ٤ / ٢٥٥ .

اللهِ،بِئْسَمَا جَزَتْهَا،نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ،وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ»،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ:«لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[943]

وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَمْلِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَمْوَالَهُمْ لَمَلَكَتِ الأَنْصَارِيَّةُ النَّاقَةَ.لأَنَّهَا تَكُونُ أَخَذَتْ مَالاً غَيْرَ مَعْصُومٍ فِي دَارِ حَرْبٍ وَأَحْرَزُوهُ بِدَارِهِمْ،وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهَا نَذَرَتْ فِيمَا لاَ تَمْلِكُ وَأَخَذَ نَاقَتَهُ،وَبِهِ قَالَ أَبُو الْخَطَّابِ مِنَ الْحَنَابِلَةِ،قَالَ:وَهُوَ ظَاهِرُ كَلاَمِ أَحْمَدَ[944].

وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ،وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى مِنَ الْحَنَابِلَةِ:إِنَّ أَهْلَ دَارِ الْحَرْبِ إِذَا دَخَلُوا دَارَ الإِسْلاَمِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُحْرِزُوهَا بِدَارِهِمْ لاَ يَمْلِكُونَهَا،أَمَّا إِذَا أَحْرَزُوهَا بِدَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَمْلِكُونَهَا.وَقَالُوا:لأَنَّ مِلْكَ الْمُسْلِمِ يَزُولُ بِالإِحْرَازِ بِدَارِ الْحَرْبِ،فَتَزُولُ الْعِصْمَةُ،فَكَأَنَّهُمُ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَالٍ مُبَاحٍ غَيْرِ مَمْلُوكٍ،لأَنَّ الْمِلْكَ هُوَ:الاخْتِصَاصُ بِالْمَحَلِّ فِي حَقِّ التَّصَرُّفِ،أَوْ شُرِعَ لِلتَّمَكُّنِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمَحَلِّ،وَقَدْ زَالَ بِالإِحْرَازِ بِالدَّارِ.فَإِذَا زَالَ مَعْنَى الْمِلْكِ أَوْ مَا شُرِعَ لَهُ الْمِلْكُ،يَزُولُ الْمِلْكُ ضَرُورَةً[945].

وَقَالَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي قَوْلٍ:يَمْلِكُونَهَا بِالاسْتِيلاَءِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ.وَقَالُوا:لأَنَّ الْقَهْرَ سَبَبٌ يَمْلِكُ بِهِ الْمُسْلِمُ مَالَ الْكَافِرِ،فَمَلَكَ بِهِ الْكَافِرُ مَالَ الْمُسْلِمِ كَالْبَيْعِ،وَلأَنَّ الاسْتِيلاَءَ سَبَبُ الْمِلْكِ فَيَثْبُتُ قَبْلَ الْحِيَازَةِ إِلَى الدَّارِ،كَاسْتِيلاَءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَالِ الْكُفَّارِ،وَلأَنَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِلْمِلْكِ أَثْبَتَ الْمِلْكَ حَيْثُ وُجِدَ،كَالْهِبَةِ وَالْبَيْعِ.[946]

---

[943] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٦٢)٨ - (١٦٤١)

[ش (وأصابوا معه العضباء) أي أخذوها وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (سابقة الحاج) أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك(لو قلتها وأنت تملك أمرك) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء

(وناقة منوقة) أي مذللة(ونذروا بها) أي علموا وأحسوا بهربها]

[944] - المصدر السابق، المغني ٨ / ٤٣٤ .

[945] - بدائع الصنائع ٧ / ٢٢٧ - ٢٢٨، المبسوط م ٥ ج ١٠ / ٥٢ .

[946] - المغني ٨ / ٤٣٤، الإنصاف ٤ / ١٦٢، المدونة ٢ / ١٢، الخرشي ٣ / ١٣٨ .

وَيَنْبَنِي عَلَى هَذَا الْخلاَف،اخْتلاَفُهُمْ فِي حُكْمِ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْه أَهْل دَارِ الْحَرْب منْ أَمْوَال الْمُسْلمينَ ثُمَّ اسْتَرَدَّهُ الْمُسْلمُونَ،فَمَنْ رَأَى أَنَّهُمْ يَمْلكُونَ أَمْوَال الْمُسْلمينَ:يَرَى أَنَّهُ إذَا وَجَدَهُ مَالكُهُ الْمُسْلمُ أَوِ الذِّمِّيُّ قَبْل الْقسْمَة أَخَذَهُ بدُون رَدِّ قيمَته،أَمَّا إذَا وَجَدَهُ بَعْدَ الْقسْمَة فَإِنَّهُ يَأْخُذُهُ بقيمَته.وَمَنْ ذَهَبَ إلَى أَنَّهُمْ لاَ يَمْلكُونَهُ:يَرَى أَنَّ الْمُسْلمَ إذَا وَجَدَ مَالَهُ في الْغَنيمَة أَخَذَهُ قَبْل الْقسْمَة وَبَعْدَ الْقسْمَة بلاَ رَدِّ شَيْء.[947]

قَضَاءُ الْقَاضِي الْمُسْلمِ فِي مُنَازَعَات حَدَثَتْ أَسْبَابُهَا فِي دَارِ الْحَرْب:

إذَا دَخَل مُسْلمٌ دَارَ الْحَرْب بأَمَان،وَأَخَذَ مَالاً منْ حَرْبيٍّ فِي دَارِ الْحَرْب مُضَارَبَةً،أَوْ وَديعَةً،أَوْ بشرَاءٍ أَوْ ببَيْعٍ فِي الذِّمَّة أَوْ قَرْضٍ،فَالثَّمَنُ فِي ذمَّته،عَلَيْه أَدَاؤُهُ إلَيْه بمُقْتَضَى الْعَقْد،وَإذَا خَرَجَ الْحَرْبيُّ إلَى دَارِ الإسْلاَم مُسْتَأْمَنًا قَضَى الْقَاضِي عَلَى الْمُسْلمِ بمَاله كَمَا يَقْضِي به للْمُسْلمِ وَالذِّمِّيِّ فِي دَارِ الإسْلاَم،لأَنَّ الْحُكْمَ جَارٍ عَلَى الْمُسْلمِ حَيْثُ كَانَ،لاَ تُزيل الْحَقَّ عَنْهُ بأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضعٍ منَ الْمَوَاضعِ.كَمَا لاَ تَزُول الصَّلاَةُ عَنْهُ بأَنْ يَكُونَ فِي دَارِ الْحَرْب،وَكَذَلكَ إن اقْتَرَضَ حَرْبيٌّ منْ حَرْبيٍّ أَوْ مُسْلمٍ مَالاً ثُمَّ دَخَل إلَيْنَا فَأَسْلَمَ،فَعَلَيْه الْبَدَل وَيُقْضَى عَلَيْه لاِلْتزَامه بعَقْد[948].

أَمَّا إنْ أَتْلَفَ عَلَيْه مَالَهُ أَوْ غَصَبَهُ منْهُ فِي دَارِ الْحَرْب،فَقَدمَا إلَيْنَا بإسْلاَم،أَوْ أَمَان،فَلاَ ضَمَانَ عَلَيْه فِي الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة،وَهُوَ مُقْتَضَى مَذْهَب الْحَنَابلَة،لأَنَّهُ لَمْ يَلْتَزمْ شَيْئًا،وَالإتْلاَفُ لَيْسَ عَقْدًا يُسْتَدَامُ،وَلأَنَّ مَال الْحَرْبيِّ لاَ يَزيدُ عَلَى مَال الْمُسْلمِ،وَهُوَ لاَ يُوجبُ الضَّمَانَ عَلَى الْحَرْبيِّ،وَمُقَابل الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة أَنْ يَضْمَنَ.[949]

وَقَال الْحَنَفيَّةُ:لَيْسَ للْقَاضِي الْمُسْلمِ الْقَضَاءُ منْ حَرْبيَّيْنِ إذَا خَرَجَا إلَيْنَا مُسْتَأْمَنَيْنِ،لأَنَّ الْمُدَايَنَةَ فِي دَارِ الْحَرْب وَقَعَتْ هَدَرًا لاِنْعدَامِ ولاَيَتنَا عَلَيْهِمْ.أَمَّا لَوْ خَرَجَا إلَيْنَا مُسْلمَيْنِ فَإِنَّهُ يَقْضِي بَيْنَهُمَا لثُبُوتِ الْولاَيَة،أَمَّا فِي الْغَصْب وَالإتْلاَف فَلاَ يَقْضِي،وَإنْ خَرَجَا إلَيْنَا مُسْلمَيْنِ.[950]

---

[947] – المصادر السابقة، الأم للشافعي ٤ / ٢٨٣ .

[948] – الأم للشافعي ٤ / ٢٨٨، كشاف القناع ٣ / ١٠٩، مغني المحتاج ٤ / ٢٣٠ .

[949] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٠، والمغني ٨ / ٤٨٣ ط الرياض .

[950] – بدائع الصنائع ٧ / ١٣٢ – ١٣٣ .

عِصْمَةُ الأَنْفُسِ وَالأَمْوَالِ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

الأَصْلُ أَنَّ أَمْوَالَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَدِمَاءَهُمْ مُبَاحَةٌ لاَ عِصْمَةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ،وَلِلْمُسْلِمِينَ الاسْتِيلاَءُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِشَتَّى الطُّرُقِ،لأَنَّهُمْ يَسْتَبِيحُونَ دِمَاءَنَا وَأَمْوَالَنَا،وَهَذَا مَحَل اتِّفَاقٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ،وَلَكِنْ ذَكَرُوا حَالاَتٍ تُثْبِتُ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَمْوَالِهِمُ الْعِصْمَةَ وَهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ،مِنْهَا:

أ – إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ أَوْ بِأَسْرٍ،وَائْتَمَنُوهُ عَلَى نَفْسٍ أَوْ مَالٍ لَمْ يحل لَهُ خِيَانَتُهُمْ فِي شَيْءٍ،لأَنَّهُمْ أَعْطَوْهُ الأَمَانَ مَشْرُوطًا بِتَرْكِهِ خِيَانَتَهُمْ،وَأَمْنِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ نَفْسِهِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي اللَّفْظِ،فَهُوَ مَعْلُومٌ فِي الْمَعْنَى،فَلَمْ يحل لَهُ خِيَانَتُهُمْ،لأَنَّهُ غَدْرٌ،وَلاَ يَصْلُحُ الْغَدْرُ فِي الإِسْلاَمِ،فَإِنْ سَرَقَ مِنْهُمْ شَيْئًا أَوْ غَصَبَ،وَجَبَ رَدُّهُ إِلَى أَرْبَابِهِ،فَإِنْ جَاءَ أَرْبَابُهُ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ بِأَمَانٍ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ،وَإِلاَّ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِمْ،لأَنَّهُ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهٍ مُحَرَّمٍ فَلَزِمَهُ رَدُّهُ،كَمَا لَوْ أَخَذَ مَال مُسْلِمٍ[٩٥١].

وَإِذَا أَسْلَمَ الْحَرْبِيُّ فِي دَارِ الْحَرْبِ حُقِنَ دَمُهُ،وَأَحْرَزَ مَالَهُ وَأَوْلاَدَهُ الصِّغَارَ مِنَ السَّبْيِ،فَإِذَا قَتَلَهُ مُسْلِمٌ عَمْدًا اقْتُصَّ مِنْهُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ،وَإِنْ قَتَلَهُ خَطَأً فَعَلَيْهِ الدِّيَةُ وَالْكَفَّارَةُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي يُوسُفَ لِعُمُومِ الأَدِلَّةِ فِي عِصْمَةِ دَمِ الْمُسْلِمِ وَمَالِهِ أَيْنَمَا كَانَ وَحَيْثُ وُجِدَ.[٩٥٢]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِذَا قَتَلَهُ مُسْلِمٌ عَمْدًا فِي دَارِ الْحَرْبِ،أَوْ خَطَأً فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ إِلاَّ الْكَفَّارَةَ فِي الْخَطَأِ،وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:٩٢]وَلَمْ يَذْكُرِ الدِّيَةَ.

---

[٩٥١] – البدائع ٧ / ١٣٣، والخرشي ٢ / ١١٦، والأم للشافعي ٤ / ٢٤٨ – ٢٤٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٩، والمغني لابن قدامة ٨ / ٤٥٨ .

[٩٥٢] – المغني ٨ / ٩٤، ٤٢٨، كشاف القناع ٣ / ٥٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٦، الأم للشافعي ٤ / ٢٤٥، الخرشي ٣ / ١٤٢ .

أَمَّا أَوْلاَدُهُ الصِّغَارُ فَأَحْرَارٌ مُسْلِمُونَ تَبَعًا لَهُ أَمَّا مَالُهُ فَمَا كَانَ بِيَدِهِ مِنْ مَنْقُولٍ فَهُوَ لَهُ. وَكَذَلِكَ مَا كَانَ بِيَدِ مُسْلِمٍ وَدِيعَةً،أَوْ بِيَدِ ذِمِّيٍّ فَهُوَ لَهُ،لِأَنَّ يَدَ الْمُودَعِ كَيَدِ الْمَالِكِ فَكَانَ مَعْصُومًا.

أَمَّا الْعَقَارُ مِنْ مَالِهِ فَإِنْ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى دَارِ الْحَرْبِ فَهِيَ غَنِيمَةٌ،لِأَنَّهَا بُقْعَةٌ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ فَجَازَ اغْتِنَامُهَا[953].

ب – وَإِذَا أَسْلَمَ الْحَرْبِيُّ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،أَوْ خَرَجَ إِلَيْهَا،وَلَهُ أَوْلاَدٌ صِغَارٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ صَارُوا مُسْلِمِينَ،وَلَمْ يَجُزْ سَبْيُهُمْ،وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ.وَقَالُوا:إِنَّهُمْ أَوْلاَدُ مُسْلِمٍ،فَيَجِبُ أَنْ يَتْبَعُوهُ فِي الإِسْلاَمِ كَمَا لَوْ كَانُوا مَعَهُ فِي الدَّارِ،وَلِأَنَّ مَالَهُ مَال مُسْلِمٍ فَلاَ يَجُوزُ اغْتِنَامُهُ كَمَا لَوْ كَانَ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ.[954]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَهَاجَرَ إِلَيْنَا ثُمَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الدَّارِ،فَأَمْوَالُهُ فَيْءٌ،إِلاَّ مَا كَانَ فِي يَدِ مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ وَدِيعَةً.

وَإِنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الدَّارِ فَجَمِيعُ أَمْوَالِهِ وَأَوْلاَدِهِ الصِّغَارِ فَيْءٌ،لِأَنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارِ يَمْنَعُ التَّبَعِيَّةَ،وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ أَيْضًا.[955]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ فَأَصَابَ مَالاً،ثُمَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الدَّارِ فَحُكْمُهُ حُكْمُ الَّذِي أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يُهَاجِرْ إِلَيْنَا.[956]

التِّجَارَةُ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لَيْسَ لِلتَّاجِرِ أَنْ يَحْمِل إِلَى دَارِ الْحَرْبِ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى الْحَرْبِ،كَالسِّلاَحِ بِأَنْوَاعِهِ،وَالسُّرُوجِ،وَالنُّحَاسِ،وَالْحَدِيدِ،وَكُل مَا مِنْ شَأْنِهِ تَقْوِيَتِهِمْ فِي الْحَرْبِ،لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِمْدَادَهُمْ وَإِعَانَتَهُمْ عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَيْسَ

---

[953] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٥، رد المحتار ٣ / ٢٣٣ .

[954] – المصادر السابقة .

[955] – المدونة ٢ / ١٩، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٥ – ١٠٦ .

[956] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٥ – ١٠٦ .

لِلْحَرْبِيِّ إِذَا دَخَل دَارَ الإِسْلاَمِ أَنْ يَشْتَرِيَ سِلاَحًا،وَإِذَا اشْتَرَى لاَ يُمَكَّنُ مِنْ إِدْخَالِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ[957].

أَمَّا الاتِّجَارُ بِغَيْرِ السِّلاَحِ وَنَحْوِهِ مِمَّا لاَ يُسْتَخْدَمُ فِي الْحَرْبِ فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَلاَ بَأْسَ بِهِ،كَالثِّيَابِ،وَالطَّعَامِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ لاِنْعِدَامِ عِلَّةِ الْمَنْعِ مِنَ الْبَيْعِ.إِلاَّ أَنْ يَحْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلْعَةِ فَلاَ يُحْمَل إِلَيْهِمْ،وَجَرَتِ الْعَادَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ التُّجَّارِ،وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَدْخُلُونَ دَارَ الْحَرْبِ لِلتِّجَارَةِ مِنْ غَيْرِ ظُهُورِ الْمَنْعِ وَلاَ إِنْكَارَ عَلَيْهِمْ،وَلَكِنَّ الأَفْضَل أَنْ يَتْرُكُوا ذَلِكَ،لأَنَّهُمْ يَسْتَخِفُّونَ بِالْمُسْلِمِينَ،وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ،فَكَانَ الْكَفُّ وَالإِمْسَاكُ عَنِ الدُّخُول فِي دَارِهِمْ مِنْ بَابِ صِيَانَةِ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَانِ،وَالدِّينِ عَنِ الزَّوَال.[958]

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:يُكْرَهُ الْمُتَاجَرَةُ فِي دَارِ الْحَرْبِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً،وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى بِلاَدِهِمْ حَيْثُ تَجْرِي أَحْكَامُ الْكُفْرِ عَلَيْهِ.[959]

أَثَرُ اخْتِلاَفِ الدَّارِ فِي أَحْكَامِ الأُسْرَةِ وَالتَّوَارُثِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ الْمُسْلِمَ يَرِثُ الْمُسْلِمَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَالآْخَرُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،وَاخْتَلَفُوا فِي تَوَارُثِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي الدَّارِ[960].

النهي عن الإقامة في دار الكفر:

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[961]

---

[957] - المدونة ٤ / ٢٧٠، ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، قليوبي ٢ / ١٥٦، الفتاوى الهندية ٢ / ١٩٢، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٢، جواهر الإكليل ٢ / ٣ .

[958] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٢ .

[959] - المدونة ٤ / ٢٧٠ .

[960] - الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٠/ ٢١٦)

[961] - سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) صحيح

قلت:مع أن هؤلاء لم يقاتلوا المسلمين ولم يدلّوا عليهم،بل مجرد وجودهم بين أظهر المشركين فقط

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ:إنَّمَا أَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ،وَلَمْ يُكْمِلْ لَهُمُ الدِّيَةَ بَعْدَ عِلْمِهِ بِإِسْلامِهِمْ،لأَنَّهُمْ قَدْ أَعَانُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمُقَامِهِمْ بَيْنَ أَظْهُرِ الْكُفَّارِ،فَكَانُوا كَمَنْ هَلَكَ بِجِنَايَةِ نَفْسِهِ،وَجِنَايَةِ غَيْرِهِ،فَتُسْقَطُ حِصَّةُ جِنَايَتِهِ مِنَ الدِّيَةِ.

قَالَ الإِمَامُ:الْمُسْلِمُ مَضْمُونُ الدَّمِ إِنْ لَمْ يَسْقُطْ ضَمَانُ دَمِهِ بِالْمُقَامِ فِيمَا بَيْنَ الْكُفَّارِ أَصْلا،فَلا يَجُوزُ أَنْ يُنْتَقَصَ بِهِ الضَّمَانِ أَصْلا،أَلا تَرَى أَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا عَرَفَهُ مُسْلِمًا مُقِيمًا فِيمَا بَيْنَهُمْ،فَقَتَلَهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ،أَوْ كَمَالُ الدِّيَةِ،وَلا تُجْعَلُ إِقَامَتُهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشَارَكَةً لِقَاتِلِهِ فِي قَتْلِهِ،فَيَحْتَمِلُ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ،أَنْ تَكُونَ الدِّيَةُ غَيْرَ وَاجِبَةٍ بِقَتْلِهِمْ،لأَنَّ مُجَرَّدَ الاعْتِصَامِ بِالسُّجُودِ لَا يَكُونُ إِسْلامًا،فَإِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُعِ وَالانْقِيَادِ،فَلا يَحْرُمُ بِهِ قَتْلُ الْكَافِرِ،فَهَؤُلاءِ لَمْ يَحْرُمْ قَتْلُهُمْ بِمُجَرَّدِ سُجُودِهِمْ،إِنَّمَا سَبِيلُ الْمُسْلِمِينَ فِي حَقِّهِمُ التَّثَبُّتُ وَالتَّوَقُّفُ،فَإِنْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا،ثُمَّ اعْتَصَمُوا بِالسُّجُودِ،فَقَدْ قَتَلُوا مُسْلِمًا مُقِيمًا بَيْنَ أَظْهُرِ الْكُفَّارِ لَمْ يَعْرِفُوا إِسْلامَهُ،فَلا دِيَةَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَمَرَ بِنِصْفِ الدِّيَةِ اسْتِطَابَةً لأَنْفُسِ أَهْلِيهِمْ،أَوْ زَجْرًا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ تَرْكِ التَّثَبُّتِ عِنْدَ وُقُوعِ الشُّبْهَةِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَسِيرَ الْمُسْلِمَ فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ إِذَا وَجَدَ إِمْكَانَ الْخَلاصِ وَالانْفِلاتِ،لَمْ يَحِلَّ لَهُ الْمُقَامُ فِيمَا بَيْنَهُمْ،فَإِنْ حَلَّفُوهُ أَنَّهُمْ إِنْ خَلَّوْهُ لَا يَخْرُجُ،فَحَلَفَ،فَخَلَّوْهُ،يَجِبُ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ،وَيَمِينُهُ يَمِينُ مُكْرَهٍ،لَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ فِيهَا،وَإِنْ حَلَفَ اسْتِطَابَةً لِنُفُوسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَلِّفُوهُ،فَعَلَيْهِ الْخُرُوجُ إِلَى دَارِ الإِسْلامِ،وَيَلْزَمُهُ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ،وَإِنْ حَلَّفُوهُ أَنَّهُ إِنْ خَرَجَ إِلَى دَارِ الإِسْلامِ يَعُودُ إِلَيْهِمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ،وَلا يَدَعُهُ الإِمَامُ أَنْ يَعُودَ،وَلَوِ امْتَنَعُوا مِنْ تَخْلِيَتِهِ إِلا عَلَى مَالٍ يُعْطِيهِمْ،فَضَمِنَ،لَا يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ،وَلَوْ فَعَلَ فَحَسَنٌ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى كَرَاهِيَةِ الْمُسْلِمِ دُخُولَ دَارِ الْحَرْبِ لِلتِّجَارَةِ وَالْمُقَامِ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مُقَامِ السَّفَرِ.

وَقَوْلُهُ:«لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا» يَعْنِي:لَا يُسَاكِنُ الْمُسْلِمُ الْكُفَّارَ فِي بِلادِهِمْ بِحَيْثُ لَوْ أَوْقَدُوا نَارًا تَرَى كُلُّ طَائِفَةٍ نَارَ الأُخْرَى،فَجَعَلَ الرُّؤْيَةَ لِلنَّارِ،وَلا رُؤْيَةَ لَهَا،وَمَعْنَاهُ:أَنْ تَدْنُوَا هَذِهِ مِنْ هَذِهِ،كَمَا يُقَالُ:دَارِي تَنْظُرُ إِلَى دَارِ فُلانٍ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ:لَا يَسْتَوِي حُكْمَاهُمَا،يَقُولُ:كَيْفَ يُسَاكِنُهُمْ فِي بِلادِهِمْ وَحُكْمُ دِينِهِمَا مُخْتَلِفٌ؟ وَقِيلَ:أَرَادَ نَارَ الْحَرْبِ،قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ} [الْمَائِدَة:٦٤]،يَقُولُ:كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ وَنَارُ حَرْبِهِمَا مُخْتَلِفٌ،هَذَا يَدْعُو إِلَى الرَّحْمَنِ،وَيُحَارِبُ عَلَيْهِ،وَهَذَا يَدْعُو إِلَى الشَّيْطَانِ،وَيُحَارِبُ عَلَيْهِ.وَفِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ:«لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ»،قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ:النَّارُ هَهُنَا:الرَّأْيُ،يَقُولُ:لَا تُشَاوِرُوهُمْ،وَيُقَالُ:مَعْنَى النَّارِ:السِّمَةُ،يُقَالُ:مَا نَارُ بَعِيرِكَ؟ أَيْ:مَا سِمَتُهُ،وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ:نَارُهَا نِجَارُهَا،يُرِيدُ:أَنَّ مِيسَمَهَا يَدُلُّ عَلَى جَوْهَرِهَا وَكَرَمِهَا،فَمَعْنَى قَوْلِهِ:«لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا» يَقُولُ:لَا يَتَّسِمُ الْمُسْلِمُ بِسِمَةِ الْمُشْرِكِ،وَلا يَتَشَبَّهُ بِهِ فِي هَدْيِهِ،وَشَكْلِهِ،وَخُلُقِهِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ نَزَعَ صِغَارَ كَافِرٍ مِنْ عُنُقِهِ،فَجَعَلَهُ فِي عُنُقِهِ،فَقَدْ وَلَّى الإِسْلامَ ظَهْرَهُ»،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ:لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الآخِرَةِ.[٩٦٢]

بَابُ الْمُسْلِمِ يُقِيمُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَيُقْتَلُ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَيْنَا

قال الجصاص:"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} رَوَى إسْرَائِيلُ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} قَالَ:"يَكُونُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كُفَّارًا فَلَا دِيَةَ لَهُ وَلَكِنْ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ".قَالَ أَبُو بَكْرٍ:هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى الَّذِي يُسْلِمُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَيُقْتَلُ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إلَيْنَا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ فِي الْمُؤْمِنِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ إذَا قُتِلَ وَلَهُ أَقَارِبُ كُفَّارٌ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ عَلَى قَاتِلِهِ الدِّيَةَ لِبَيْتِ الْمَالِ،وَأَنَّ كَوْنَ أَقْرِبَائِهِ كُفَّارًا لَا يُوجِبُ سُقُوطَ دِيَتِهِ لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْوَاتِ حَيْثُ لَا يَرِثُونَهُ.

وَرَوَى عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ أَبِي يَحْيَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ} الْآيَةَ،قَالَ:"كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فَيُسْلِمَ،ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى قَوْمِهِ فَيَكُونُ فِيهِمْ فَيُصِيبُهُ

[٩٦٢] – شرح السنة للبغوي (١٠/ ٢٤٥)

الْمُسْلِمُونَ خَطَأً فِي سَرِيَّةٍ أَوْ غُزَاةٍ،فَيَعْتِقُ الَّذِي يُصِيبُهُ رَقَبَةً".قَالَ أَبُو بَكْرٍ:إذَا أَسْلَمَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ لَمْ تَسْقُطْ دِيَتُهُ بِرُجُوعِهِ إلَى دَارِ الْحَرْبِ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْقَرَابَةِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي إسْقَاطِ قِيمَةِ دَمِهِ،كَسَائِرِ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ إذَا دَخَلُوا دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ،عَلَى الْقَاتِلِ الدِّيَةُ.وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عِيَاضٍ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.وَقَالَ قَتَادَةُ:"هُوَ الْمُسْلِمُ يَكُونُ فِي الْمُشْرِكِينَ فَيَقْتُلُهُ الْمُؤْمِنُ وَلَا يَدْرِي فَفِيهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَلَيْسَ فِيهِ دِيَةٌ".وَهَذَا عَلَى أَنْ يُقْتَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ.وَرَوَى مُغِيرَةُ عَنْ إبْرَاهِيمَ:{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ} قَالَ:"هُوَ الْمُؤْمِنُ يُقْتَلُ وَقَوْمُهُ مُشْرِكُونَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ،فَعَلَيْهِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ،وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَهْدٌ أَدَّى دِيَتَهُ إلَى قَرَابَتِهِ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَهْدٌ".قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ،مِنْ قِبَلِ أَنَّ أَقْرِبَاءَهُ لَا يَرِثُونَهُ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ وَهُوَ مُسْلِمٌ فَكَيْفَ يَأْخُذُونَ دِيَتَهُ وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ أَهْلَ حَرْبٍ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ فَالدِّيَةُ وَاجِبَةٌ لِبَيْتِ الْمَالِ كَمُسْلِمٍ قُتِلَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَلَا وَارِثَ لَهُ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِيمَنْ قُتِلَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ،فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ فِي الرِّوَايَةِ الْمَشْهُورَةِ وَمُحَمَّدٌ فِي الْحَرْبِيِّ يُسَلِّمُ.فيقتله مسلم

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي أَنَّ مَنْ أَصَابَ مُسْلِمًا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهُ مُسْلِمًا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ،وَإِنْ عَلِمَ بِإِسْلَامِهِ أُقِيدَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ إذَا ثَبَتَ أَنَّ لِدَمِهِ قِيمَةً لَمْ يَخْتَلِفْ حُكْمُ الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ فِي وُجُوبِ بَدَلِهِ فِي الْعَمْدِ وَدِيَتِهِ فِي الْخَطَإِ،فَإِذَا لَمْ يَجِبْ فِي الْخَطَإِ شَيْءٌ كَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ فِيهِ.وَلَمَّا ثَبَتَ بِمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا قِيمَةَ لِدَمِ الْمُقِيمِ فِي دَارِ الْحَرْبِ بَعْدَ إسْلَامِهِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إلَيْنَا وَكَانَ مُبْقًى عَلَى حُكْمِ الْحَرْبِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورَ الدَّمِ أَجْرَوْهُ أَصْحَابُنَا مُجْرَى الْحَرْبِيِّ فِي إسْقَاطِ الضَّمَانِ عَنْ مُتْلِفِ مَالِهِ؛ لِأَنَّ دَمَهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْ مَالِهِ،وَلَا ضَمَانَ عَلَى مُتْلِفِ نَفْسِهِ.فَمَالُهُ أَحْرَى أَنْ لَا يَجِبَ فِيهِ ضَمَانٌ،وَأَنْ يَكُونَ كَمَالُ الْحَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ؛ وَلِذَلِكَ أَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ مُبَايَعَتَهُ عَلَى سَبِيلِ مَا يَجُوزُ مُبَايَعَةُ الْحَرْبِيِّ مِنْ بَيْعِ الدِّرْهَمِ بِالدِّرْهَمَيْنِ فِي دَارِ الْحَرْبِ.وَأَمَّا الْأَسِيرُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَجْرَاهُ مُجْرَى الَّذِي أَسْلَمَ هُنَاكَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ وَذَلِكَ لِأَنَّ

إِقَامَتَهُ هُنَاكَ لَا عَلَى وَجْهِ الْأَمَانِ وَهُوَ مَقْهُورٌ مَغْلُوبٌ،فَلَمَّا اسْتَوَيَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ اسْتَوَى حُكْمُهُمَا فِي سُقُوطِ الضَّمَانِ عَنْ قَاتِلِهِمَا؛ وَاَللَّهُ أعلم.[٩٦٣]

حكم التجارة مع دار الحرب:

وفي المحلى:

[مَسْأَلَةٌ التِّجَارَةُ إلَى أَرْضِ الْحَرْبِ]

مَسْأَلَةٌ:وَلَا تَحِلُّ التِّجَارَةُ إلَى أَرْضِ الْحَرْبِ إذَا كَانَتْ أَحْكَامُهُمْ تَجْرِي عَلَى التُّجَّارِ،وَلَا يَحِلُّ أَنْ يُحْمَلَ إلَيْهِمْ سِلَاحٌ،وَلَا خَيْلٌ،وَلَا شَيْءٌ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَعَطَاءٍ،وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ،وَغَيْرِهِمْ.رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ أَبِي دَاوُد نَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ نَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ -:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ»

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:مَنْ دَخَلَ إلَيْهِمْ لِغَيْرِ جِهَادٍ،أَوْ رِسَالَةٍ مِنْ الْأَمِيرِ فَإِقَامَةُ سَاعَةٍ إقَامَةٌ،قَالَ تَعَالَى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢]،وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠] فَفَرَضَ عَلَيْنَا إرْهَابَهُمْ،وَمَنْ أَعَانَهُمْ بِمَا يَحْمِلُ إلَيْهِمْ فَلَمْ يُرْهِبْهُمْ؛بَلْ أَعَانَهُمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

[مَسْأَلَةٌ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا غَنِمَ الْجَيْشُ]

مَسْأَلَةٌ:وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ مِمَّا غَنِمَ جَيْشٌ،أَوْ سَرِيَّةٌ شَيْئًا خَيْطًا فَمَا فَوْقَهُ

وَأَمَّا الطَّعَامُ فَكُلُّ مَا أَمْكَنَ حَمْلُهُ فَحَرَامٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إلَّا مَا اُضْطُرُّوا إلَى أَكْلِهِ وَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا غَيْرَهُ.وَأَمَّا مَا يُقْدَرُ عَلَى حَمْلِهِ فَجَائِزٌ إفْسَادُهُ وَأَكْلُهُ،وَإِنْ لَمْ يُضْطَرُّوا إلَيْهِ.وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا مَلَكُوهُ،وَأَمَّا مَا لَمْ يَمْلِكُوهُ مِنْ صَيْدٍ،أَوْ حَجَرٍ،أَوْ عَوْدِ شَعْرٍ،أَوْ ثِمَارٍ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ،فَهُوَ كُلُّهُ مُبَاحٌ كَمَا هُوَ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ وَلَا فَرْقَ،قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران:١٦١].

---

[٩٦٣] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٣٠١)

رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدِ الدِّيلِيِّ عَنْ أَبِي الْغَيْثِ مَوْلَى ابْنِ مُطِيعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ «أُهْدِيَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – عَبْدٌ أَسْوَدُ يُقَالُ لَهُ:مِدْعَمٌ،حَتَّى إذَا كَانُوا بِوَادِي الْقُرَى فَبَيْنَا مِدْعَمٌ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – إذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَأَصَابَهُ فَقَتَلَهُ؛فَقَالَ النَّاسُ:هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – كَلَّا وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنْ الْغَنَائِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا؛فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ،أَوْ شِرَاكَيْنِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ لَهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – :شِرَاكٌ،أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» وَالطَّعَامُ مِنْ جُمْلَةِ أَمْوَالِهِمْ.

فَإِنْ ذَكَر ذَاكِرٌ مَا رُوِّينَاهُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عُمَرَ «غَنِمَ جَيْشٌ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – طَعَامًا وَعَسَلًا فَلَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُمْ الْخُمُسُ» فَهَذَا عَلَيْهِمْ؛لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ:إنْ كَثُرَ ذَلِكَ وَأَمْكَنَ حَمْلُهُ خُمِّسَ وَلَا بُدَّ،وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّ الْآيَةَ زَائِدَةٌ عَلَى مَا فِي هَذَا الْخَبَرِ،وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى} [الأنفال:٤١].

وَحَدِيثُ الْغُلُولِ زَائِدٌ عَلَيْهِ،فَيَخْرُجُ هَذَا الْخَبَرُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ نُزُولِ الْخُمْسِ لَا يَجُوزُ إلَّا هَذَا؛لِأَنَّ الْأَخْذَ بِالزَّائِدِ فَرْضٌ لَا يَحِلُّ تَرْكُهُ،وَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْآيَةَ،وَحَدِيثَ الْغُلُولِ غَيْرُ مَنْسُوخَيْنِ مُذْ نَزَلَا.

فَإِنْ ذَكَرُوا أَيْضًا حَدِيثَ ابْنِ عُمَرَ " كُنَّا نُصِيبُ فِي مَغَازِينَا الْعِنَبَ وَالْعَسَلَ فَنَأْكُلُهُ وَلَا نَرْفَعُهُ " فَهَذَا بَيِّنٌ وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ؛إذْ لَمْ يَرْفَعُوهُ فَأَكْلُهُ خَيْرٌ مِنْ إفْسَادِهِ،أَوْ تَرْكِهِ،وَهَكَذَا نَقُولُ.

فَإِنْ ذَكَرُوا حَدِيثَ ابْنِ مُغَفَّلٍ فِي جِرَابِ الشَّحْمِ،فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مُخَالِفٍ لَهُ فَيَقُولُونَ:لَا يَحِلُّ أَخْذُ الْجِرَابِ وَإِنَّمَا يَحِلُّ عِنْدَ بَعْضِهِمْ الشَّحْمُ فَقَطْ.وَهَذَا خَبَرٌ قَدْ رُوِّينَاهُ بِزِيَادَةِ بَيَانٍ،كَمَا رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَيْمَنَ نَا أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ نَا عَفَّانَ بْنُ مُسْلِمٍ،وَمُسْلِمُ بْنُ إبْرَاهِيمَ قَالَا:نَا شُعْبَةُ عَنْ حَمِيدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ «كُنَّا مُحَاصِرِي خَيْبَرَ فَدُلِّيَ إلَيْنَا جِرَابٌ فِيهِ شَحْمٌ فَأَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ وَنَوَيْنَا

أَنْ لَا نُعْطِيَ أَحَدًا مِنْهُ شَيْئًا فَالْتَفَتُّ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - خَلْفِي يَبْتَسِمُ،فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ آخُذَهُ».

ثُمَّ لَوْ صَحَّ أَنَّهُ أَخَذَهُ لَكَانَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ الْحَاجَةِ إلَيْهِ.يُبَيِّنُ ذَلِكَ مَا رُوِّينَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ نَا عَلِيُّ بْنُ الْحَكَمِ الْأَنْصَارِيُّ نَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:«كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِذِي الْحُلَيْفَةِ فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ فَأَصَابُوا إبِلًا وَغَنَمًا وَالنَّبِيُّ - ﷺ - فِي أُخْرَيَاتِ النَّاسِ فَعَجَّلُوا فَذَبَحُوا وَنَصَبُوا الْقُدُورَ فَأَمَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - بِالْقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ،ثُمَّ قَسَّمَ فَعَدَلَ عَشَرَةً مِنْ الْغَنَمِ بِبَعِيرٍ» فَلَمْ يُبِحْ لَهُمْ أَكْلَ شَيْءٍ إذْ قَدْ كَانَتْ الْقِسْمَةُ قَدْ حَضَرَتْ فَيَصِلُ كُلُّ ذِي حَقٍّ إلَى حَقِّهِ - وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

مَسْأَلَةٌ:وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَغَنِمَ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ سَوَاءٌ كَانَ وَحْدَهُ أَوْ فِي أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ بِإِذْنِ الْإِمَامِ وَبِغَيْرِ إذْنِهِ فَكُلُّ ذَلِكَ سَوَاءٌ،وَالْخُمْسُ فِيمَا أُصِيبَ،وَالْبَاقِي لِمَنْ غَنِمَهُ؛لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال:٤١]،وقَوْله تَعَالَى:{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ} [الأنفال:٦٩].

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:لَا خُمُسَ إلَّا فِيمَا أَصَابَتْهُ جَمَاعَةٌ.

قَالَ أَبُو يُوسُفَ:تِسْعَةٌ فَأَكْثَرُ - وَهَذِهِ أَقْوَالٌ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ لِمُخَالَفَتِهَا الْقُرْآنَ،وَالسُّنَنَ،وَالْمَعْقُولَ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة:١٢٣] فَلَمْ يَخُصَّ بِأَمْرِ الْإِمَامِ وَلَا بِغَيْرِ أَمْرِهِ وَلَوْ أَنَّ إمَامًا نَهَى عَنْ قِتَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ لَوَجَبَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي ذَلِكَ،لِأَنَّهُ أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ لَهُ.

وَقَالَ تَعَالَى:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ} [النساء:٨٤] وَهَذَا خِطَابٌ مُتَوَجِّهٌ إلَى كُلِّ مُسْلِمٍ،فَكُلُّ أَحَدٍ مَأْمُورٌ بِالْجِهَادِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ،وَقَالَ تَعَالَى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} [التوبة:٤١]،وَقَالَ تَعَالَى:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} [النساء:٧١].[٩٦٤]

----

[٩٦٤] - المحلى بالآثار (٥/ ٤١٨)

حكم المسلم الذي يقيم بين أظهر الكفار:

[إِقْلِيم مِنْ الْمُسْلِمِينَ هَجَمَ الْكَافِرُ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَخَذَهَا وَتَمَلَّكَ بِهَا]

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيم مَسَائِلُ الْجِهَاد

(مَا قَوْلُكُمْ) فِي إقْلِيمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ هَجَمَ الْكَافِرُ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَخَذَهَا وَتَمَلَّكَ بِهَا وَبَقِيَتْ جِبَالٌ فِي طَرَفِ الْإِقْلِيمِ الْمَذْكُورِ لَمْ يَصِلْهَا،وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وَهِيَ مَحْرُوسَةٌ بِأَهْلِهَا وَهَاجَرَ إلَيْهَا بَعْضُ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْمَذْكُورِ بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ وَبَقِيَ مَنْ بَقِيَ تَحْتَ حُكْمِ الْكَافِرِ وَفِي رَعِيَّتِهِ،وَضَرَبَ عَلَيْهِمْ خَرَاجًا يُشْبِهُ الْجِزْيَةَ الْمَعْلُومَةَ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،وَفِيمَنْ هَاجَرَ بَعْضٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَفِيمَنْ بَقِيَ بَعْضٌ كَذَلِكَ فَصَارَ التَّشَاجُرُ بَيْنَ فَرِيقَيْ الْعُلَمَاءِ،فَمَنْ هَاجَرَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إلَى الْجِبَالِ الْمَذْكُورَةِ يَقُولُ:الْهِجْرَةُ وَاجِبَةٌ وَيُفْتِي بِأَنَّ مَنْ بَقِيَ تَحْتَ الْكَافِرِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْهِجْرَةِ يُبَاحُ دَمُهُ وَمَالُهُ وَسَبْيُ أَهْلِهِ وَذَرَارِيِّهِ مُسْتَدِلًّا هَذَا الْقَائِلُ بِأَنَّ مَنْ بَقِيَ مَعَهُ صَارَ مُعِينًا لَهُ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَنَهْبِ أَمْوَالِهِمْ وَسَاعِيًا فِي غَلَبَةِ الْكَافِرِ عَلَيْهِمْ وَبِأَدِلَّةٍ غَيْرِ ذَلِكَ،وَمَنْ بَقِيَ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي جُمْلَةِ مَنْ بَقِيَ تَحْتَ الْكَافِرِ،وَلَمْ يُهَاجِرْ يَقُولُ:الْهِجْرَةُ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ وَيَسْتَدِلُّ بِدَلَائِلَ مِنْ جُمْلَتِهَا قَوْلِهِ تَعَالَى {إلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران:٢٨] وَقَوْلُهُ – ﷺ – «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» وَغَيْرُ ذَلِكَ.فَأَفِيدُوا الْجَوَابَ الْوَافِيَ بِالدَّلِيلِ الشَّافِي الَّذِي لَا غُبَارَ عَلَيْهِ وَلَكُمْ الثَّوَابُ مِنْ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ.

فَأَجَبْت بِمَا نَصُّهُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ فِي الْمِعْيَارِ إنَّ الْهِجْرَةَ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ إلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ فَرِيضَةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَكَذَلِكَ الْهِجْرَةُ مِنْ أَرْضِ الْحَرَامِ وَالْبَاطِلِ بِظَنٍّ،أَوْ فِتْنَةٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ،يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالْمُوَطَّأُ وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيُّ[٩٦٥] ،وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ لَا يُقِيمُ أَحَدٌ فِي مَوْضِعٍ يُعْمَلُ فِيهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[٩٦٦]

[٩٦٥] – صحيح البخاري (١/ ١٣)(١٩) والمسند الجامع (٦/ ٥١٧)(٤٧١٠)

قَالَ فِي الْعَارِضَةِ:فَإِنْ قِيلَ:فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ بَلَدٌ إلَّا كَذَلِكَ قُلْنَا يَخْتَارُ الْمَرْءُ أَقَلَّهَا إثْمًا مِثْلُ أَنْ يَكُونَ بَلَدٌ فِيهِ كُفْرٌ فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ خَيْرٌ مِنْهُ،أَوْ بَلَدٌ فِيهِ عَدْلٌ وَحَرَامٌ فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ وَحَلَالٌ خَيْرٌ مِنْهُ لِلْمُقَامِ،أَوْ بَلَدٌ فِيهِ مَعَاصٍ فِي حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَوْلَى مِنْ بَلَدٍ فِيهِ مَعَاصٍ فِي مَظَالِمِ الْعِبَادِ،وَهَذَا الْأُنْمُوذَجُ دَلِيلٌ عَلَى مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ – فُلَانٌ بِالْمَدِينَةِ وَفُلَانٌ بِمَكَّةَ وَفُلَانٌ بِالْعِرَاقِ وَفُلَانٌ بِالشَّامِ امْتَلَأَتْ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا اهـ[967].

وَلَا يُسْقِطُ هَذِهِ الْهِجْرَةَ الْوَاجِبَةَ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَوْلَى الطَّاغِيَةُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَعَاقِلِهِمْ وَبِلَادِهِمْ إلَّا تَصَوُّرُ الْعَجْزِ عَنْهَا بِكُلِّ وَجْهٍ وَحَالٍ لَا الْوَطَنُ وَالْمَالُ،فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مُلْغًى فِي نَظَرِ الشَّرْعِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا

[ش (يوشك) يقرب.(غنم) اسم جنس يقع على الذكور والإناث جميعا وعلى الذكور وحدها والإناث وحدها.(شغف الجبال) رؤوس الجبال والمفرد شعفة.(مواقع القطر) مواضع نزول المطر.(يفر بدينه من الفتن) يهرب خوفا من أن يفتن في دينه ويخوض في الفساد مع الخائضين]

(" غَنَمٌ ") أَيْ: قِطْعَةٌ مِنَ الْغَنَمِ.قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ: غَنَمٌ نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، وَهُوَ اسْمُ يَكُونُ، وَالْخَبَرُ قَوْلُهُ: " خَيْرَ مَالِ " مُعَرَّفٌ، فَلَا يَجُوزُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالْمُسْلِمِ الْجِنْسُ، فَلَا يُعْتَبَرُ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَفَائِدَةُ التَّقْدِيمِ أَنَّ الْمَطْلُوبَ حِينَئِذٍ الِاعْتِزَالُ وَتَحَرِّي الْخَبَرِ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ اهـ.وَقِيلَ: (يَجُوزُ رَفْعُ " خَيْرُ، وَغَنَمٌ " عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ فِي " يَكُونَ " ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَذَا الْمَفَاتِيحُ (" يَتَّبِعُ ") بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِسُكُونِهَا وَفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ أَيْ: يَتَتَبَّعُ (" بِهَا ") أَيْ: مَعَ الْغَنَمِ أَوْ بِسَبَبِهَا (" شَعَفَ الْجِبَالِ ") بِفَتْحِ الشِّينِ وَالْعَيْنِ أَيْ: رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَوْ أَعَالِيهَا، وَأَحَدُهَا شَعَفَةٌ (" وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ") بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ أَيْ: مَوَاضِعَ الْمَطَرِ وَآثَارَهُ مِنَ النَّبَاتِ وَأَوْرَاقَ الشَّجَرِ، يُرِيدُ بِهَا الْمَرْعَى مِنَ الصَّحْرَاءِ وَالْجِبَالِ، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ، وَفِي تَقْدِيمِ شَعَفِ الْجِبَالِ إِشْعَارٌ بِالْمُبَالَغَةِ فِي فَضِيلَةِ الِاعْتِزَالِ عَنِ الْخَلْقِ فِي تِلْكَ الْحَالِ.(" يَفِرُّ بِدِينِهِ ") أَيْ: بِسَبَبِ حِفْظِهِ مِنَ الْفِتَنِ أَيِ الْمِحَنِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ يَهْرُبُ (" مِنَ الْفِتَنِ ") الدُّنْيَوِيَّةِ مَصْحُوبًا بِدِينِهِ لِيَتَخَلَّصَ بِإِقَامَتِهِ هُنَاكَ عَنْهَا. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٨٦)

[966] – أَلْحَقَ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ بِدَارِ الْحَرْبِ فِي الْحُكْمِ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ مِنْهَا عَلَى مَنْ أَطَاقَهَا وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ فِي إِقَامَتِهِ بِهَا دَارَ الْبُغَاةِ وَدَارَ الْبِدْعَةِ .وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ أَنَّ الْهِجْرَةَ مِنْ أَرْضِ الْحَرَامِ وَالْبَاطِلِ بِظُلْمٍ أَوْ فِتْنَةٍ فَرِيضَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ لِقَوْل النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَال الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَال وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ، وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَال : لاَ يُقِيمُ أَحَدٌ فِي مَوْضِعٍ يُعْمَل فِيهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .قَال ابْنُ الْعَرَبِيِّ : فَإِنْ قِيل : فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ بَلَدٌ إِلاَّ كَذَلِكَ ؟ قُلْنَا : يَخْتَارُ الْمَرْءُ أَقَلَّهَا إِثْمًا، مِثْل أَنْ يَكُونَ بَلَدٌ بِهِ كُفْرٌ، فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ خَيْرٌ مِنْهُ، أَوْ بَلَدٌ فِيهِ عَدْلٌ وَحَرَامٌ، فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ وَحَلاَلٌ خَيْرٌ مِنْهُ لِلْمُقَامِ، أَوْ بَلَدٌ فِيهِ مَعَاصٍ فِي حُقُوقِ اللَّهِ فَهُوَ أَوْلَى مِنْ بَلَدٍ فِيهِ مَعَاصٍ فِي مَظَالِمِ الْعِبَادِ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤٢/ ١٩٠)

[967] – عَارِضَة الْأَحْوَذِيّ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٧ / ٨٨ وَمَا بَعْدَهَا

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} [النساء:٩٨] {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء:٩٩]،فَهَذَا الاسْتِضْعَافُ الْمَعْفُوُّ عَمَّنْ اتَّصَفَ بِهِ غَيْرُ الاسْتِضْعَافِ الْمُعْتَذَرِ بِهِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ وَصَدْرِهَا،وَهُوَ قَوْلُ الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ الاعْتِذَارَ بِهِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنْ وَجْهٍ مَا وَعَفَا عَنْ ذِي الاسْتِضْعَافِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مَعَهُ حِيلَةٌ وَلَا يُهْتَدَى سَبِيلٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ} [النساء:٩٩] وَعَسَى مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَاجِبَةٌ فَالْمُسْتَضْعَفُ الْمُعَاقَبُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ هُوَ الْقَادِرُ مِنْ وَجْهٍ وَالْمُسْتَضْعَفُ الْمَعْفُوُّ عَنْهُ فِي عَجُزِهَا هُوَ الْعَاجِزُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَإِذَا عَجَزَ الْمُبْتَلَى بِهَذِهِ الْإِقَامَةِ عَنْ الْفِرَارِ بِدِينِهِ،وَلَمْ يَسْتَطِعْ سَبِيلًا إلَيْهِ وَلَا ظَهَرَتْ لَهُ حِيلَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ وَلَا حَالٍ وَكَانَ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ وَالْمَأْسُورِ وَكَانَ مَرِيضًا جِدًّا،أَوْ ضَعِيفًا فَحِينَئِذٍ يُرْجَى لَهُ الْعَفْوُ وَيَصِيرُ بِمَثَابَةِ الْمُكْرَهِ عَلَى التَّلَفُّظِ بِالْكُفْرِ وَمَعَ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ قَائِمَةٌ أَنَّهُ لَوْ قَدَرَ وَتَمَكَّنَ لَهَاجَرَ وَعَزَمَ مُسْتَصْعِبٌ أَنَّهُ إنْ ظَفِرَ بِحِيلَةٍ وَقْتًا مَا فَيُهَاجِرُ.

وَأَمَّا الْمُسْتَطِيعُ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ وَبِأَيِّ حِيلَةٍ تَمَكَّنَتْ فَهُوَ غَيْرُ مَعْذُورٍ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إنْ أَقَامَ حَسْبَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} [الممتحنة:١] إلَى قَوْلِهِ {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة:١].

وَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران:١١٨]،وَقَالَ تَعَالَى {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران:٢٨]

وَقَالَ تَعَالَى:{وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ} [هود:١١٣] وَقَالَ تَعَالَى:{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا - الَّذِينَ

يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء:١٣٨ – ١٣٩] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} [النساء:١٤١]،وَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١]

وَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة:٥٧] {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [المائدة:٥٨] وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥] {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة:٥٦]،وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧] {إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} [النساء:٩٨] {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء:٩٩]

وَقَالَ تَعَالَى {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ – وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٨٠ – ٨١].

وَالظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِنَّمَا هُمْ التَّارِكُونَ لِلْهِجْرَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا حَسْبَمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء:٩٧] فَظُلْمُهُمْ أَنْفُسَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِتَرْكِهَا،وَهَذِهِ الْإِقَامَةُ مَعَ الْكُفَّارِ وَتَكْثِيرُ سَوَادِهِمْ وقَوْلِهِ تَعَالَى {تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ} [النساء:٩٧] فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْمُوَبَّخَ عَلَى ذَلِكَ وَالْمُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَى هَذِهِ الْإِقَامَةِ،وَأَنَّ مَنْ تَابَ عَنْ ذَلِكَ وَهَاجَرَ وَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ،وَلَوْ بِالطَّرِيقِ فَتَوَفَّاهُ الْمَلَكُ خَارِجًا عَنْهُمْ يُرْجِي قَبُولَ تَوْبَتِهِ وَلَا يَمُوتُ ظَالِمًا

لِنَفْسِهِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١٠٠] فَهَذِهِ الْآيُ الْقُرْآنِيَّةُ كُلُّهَا،أَوْ أَكْثَرُهَا مَا سِوَى قَوْلِهِ تَعَالَى {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ} [المائدة:٨٠] نُصُوصٌ فِي تَحْرِيمِ الْمُوَالَاةِ الْكُفْرَانِيَّةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١] فَمَا أَبْقَتْ مُتَعَلِّقًا إِلَى التَّطَرُّقِ لِهَذَا التَّحْرِيمِ،وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة:٥٧] وَتَكْرَارُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَجَرْيُهَا عَلَى نَسَقٍ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ مُؤَكِّدٌ لِلتَّحْرِيمِ وَرَافِعٌ لِاحْتِمَالِ التَّطَرُّقِ إِلَيْهِ.

فَإِنَّ الْمَعْنَى إِذَا نُصَّ عَلَيْهِ وَأُكِّدَ بِالتَّكْرَارِ،فَقَدْ ارْتَفَعَ الاحْتِمَالُ لَا شَكَّ فَتَعَاضَدَتْ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى هَذَا النَّهْيِ فَلَا تَجِدُ فِي تَحْرِيمِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ،وَهَذِهِ الْمُوَالَاةِ الْكُفْرَانِيَّةِ مُخَالِفًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» فَهُوَ تَحْرِيمٌ مَقْطُوعٌ بِهِ مِنْ الدِّينِ كَتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَأَخَوَاتِهِ مِنْ الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ الَّتِي أَطْبَقَ أَرْبَابُ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ عَلَى تَحْرِيمِهَا،وَمَنْ خَالَفَ فِي ذَلِكَ وَرَامَ الْخِلَافَ مِنْ الْمُقِيمِينَ مَعَهُمْ وَالرَّاكِنِينَ إِلَيْهِمْ بِجَوَازِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ وَاسْتَخَفَّ أَمْرَهَا فَهُوَ مَارِقٌ مِنْ الدِّينِ وَمُفَارِقٌ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَحْجُوجٌ بِمَا لَا مَدْفَعَ فِيهِ لِمُسْلِمٍ وَمَسْبُوقٌ بِالْإِجْمَاعِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى مُخَالَفَتِهِ وَخَرْقِهِ.

قَالَ زَعِيمُ الْفُقَهَاءِ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – فِي أَوَّلِ كِتَابِ التِّجَارَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَرْبِ مِنْ مُقَدِّمَاتِهِ فَرْضُ الْهِجْرَةِ لَيْسَ سَاقِطًا بَلْ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ لَازِمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِدَارِ الْحَرْبِ أَنْ لَا يُقِيمَ بِهَا حَيْثُ تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُشْرِكِينَ بَلْ يَهْجُرُهُ وَيَلْحَقُ بِدَارِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ تَجْرِي

عَلَيْه أَحْكَامُهُمْ[٩٦٨]،عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ،فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ،وَقَالَ:" أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مُقِيمٍ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ "،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَلِمَ؟ قَالَ:" لَا تَرَايَا نَارَاهُمَا "[٩٦٩]

---

[٩٦٨] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢٦٤)

[٩٦٩] – شعب الإيمان (١٢/ ١٠)(٨٩٢٩) صحيح

(فَاعْتَصَمَ) أَيْ تَمَسَّكَ وَشَرَعَ (نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ) أَيْ بِالصَّلَاةِ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ وَلَمَّا رَأَوُا الْجَيْشَ أَسْرَعُوا بِالسُّجُودِ (فَأُسْرِعَ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ (فِيهِمُ الْقَتْلُ) أَيْ قَتَلَهُمُ الْجَيْشُ وَلَمْ يُبَالُوا بِسُجُودِهِمْ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيذُونَ مِنَ الْقَتْلِ بِالسُّجُودِ (فَبَلَغَ ذَلِكَ) أَيْ خَبَرُ قَتْلِهِمْ (النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ) قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا لَمْ يُكْمِلْ لَهُمُ الدِّيَةَ بَعْدَ عِلْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِسْلَامِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَعَانُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمُقَامِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْكُفَّارِ وَكَانُوا كَمَنْ هَلَكَ بِجِنَايَةِ نَفْسِهِ وَجِنَايَةِ غَيْرِهِ فَتَسْقُطُ حِصَّةُ جِنَايَتِهِ مِنَ الدِّيَةِ.(وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مُقِيمٍ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ) أَيْ بَيْنَهُمْ (وَأَظْهُرِ) مُقْحَمٌ قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْبَرَاءَةَ مِنْ دَمِهِ وَأَنْ يَكُونَ الْبَرَاءَةَ مِنْ مُوَالَاتِهِ (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِمَ) بِحَذْفِ أَلِفِ مَا الِاسْتِفْهَامِيَّةِ، أَيْ لِأَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ بَرِيئًا أَوْ أَمَرْتَ بِنِصْفِ الْعَقْلِ (قَالَ لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا) اسْتِئْنَافٌ فِيهِ تَعْلِيلٌ، وَإِسْنَادُ التَّرَائِي مَجَازٌ وَالنَّفْيُ مَعْنَاهُ النَّهْيُ أَيْ يَتَبَاعَدُ مَنْزِلَاهُمَا حَتَّى لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا، قَالَ الطِّيبِيُّ: هُوَ عِلَّةٌ لِبَرَاءَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعْنِي لَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَاكِنَ الْكَافِرَ وَيَقْرُبَ مِنْهُ وَلَكِنْ يَبْعُدُ بِحَيْثُ لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْبُعْدِ الْبَعِيدِ وَذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا أَوَّلُهَا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: أَيْ لَا يَنْزِلُ الْمُسْلِمُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي يَرَى نَارَهُ الْمُشْرِكُ إِذَا أَوْقَدَ وَلَكِنْ يَنْزِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكَ لَا عَهْدَ لَهُ وَلَا أَمَانَ وَثَانِيهِمَا قَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ: أَيْ لَا يَتَّسِمُ الْمُسْلِمُ بِسِمَةِ الْمُشْرِكِ وَلَا يَتَشَبَّهُ بِهِ فِي هَدْيِهِ وَشَكْلِهِ وَلَا يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِ مِنْ قَوْلِكَ: مَا نَارُ نَعَمِكَ؟ أَيْ: مَا سِمَتُهَا؟ وَثَالِثُهَا قَالَ أَبُو حَمْزَةَ: أَيْ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْآخِرَةِ لِبُعْدِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ.وَرَابِعُهَا قَالَ الْفَائِقُ: مَعْنَاهُ يَجِبُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَبَاعَدَ مَنْزِلَاهُمَا بِحَيْثُ إِذَا أُوقِدَتْ فِيهِمَا نَارَانِ لَمْ تَلُحْ إِحْدَاهُمَا لِلْأُخْرَى وَإِسْنَادُ التَّرَائِي إِلَى النَّارِ كَقَوْلِهِمْ دُورُ بَنِي فُلَانٍ مُتَنَاظِرَةٌ، وَالتَّرَائِي تَفَاعُلٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ يُقَالُ تَرَاءَى الْقَوْمُ إِذَا رَأَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا قُلْتُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} [الشعراء: ٦١] وَ {تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ} [الأنفال: ٤٨] وَخَامِسُهَا قَالَ الْقَاضِي: أَيْ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَسْكُنَ مُسْلِمٌ حَيْثُ سَكَنَ كَافِرٌ وَلَا يَدْنُو مِنْهُ بِحَيْثُ تَتَقَابَلُ نَارَاهُمَا وَتَقْرُبُ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى حَتَّى يَرَى كُلٌّ مِنْهُمَا نَارَ الْآخَرِ فَنَزَّلَ رُؤْيَةَ الْمَوْقِدِ مَنْزِلَةَ رُؤْيَتِهَا إِنْ كَانَ لَهَا وَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَسَادِسُهَا قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ: أَرَادَ نَارَ الْحَرْبِ أَيْ مَا عَلَى طَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُحَارِبُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَعَ الشَّيْطَانِ وَحِزْبِهِ وَيَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِحِزْبِهِ وَالْكَافِرُ يُحَارِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَدْعُو إِلَى الشَّيْطَانِ فَكَيْفَ يَتَّفِقَانِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَجْتَمِعَا قَالَ الْخَطِيبُ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ إِنْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ وَأَمْكَنَهُ الْخَلَاصُ وَالِانْفِلَاتُ مِنْهُمْ لَمْ يَحِلَّ لَهُ الْمَقَامُ مَعَهُمْ وَإِنْ حَلَّفُوهُ أَنْ لَا يَخْرُجَ كَانَ الْوَاجِبَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَّا أَنَّهُ إِنْ كَانَ مُكْرَهًا عَلَى الْيَمِينِ لَمْ تَلْزَمْهُ الْكَفَّارَةُ قُلْتُ وَعِنْدَنَا تَلْزَمُهُ الْكَفَّارَةُ" مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣١٨)

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْهِجْرَةَ لَا يَحْرُمُ عَلَى الْمُهَاجِرِ بِهَا الرُّجُوعُ إِلَى وَطَنِهِ إِنْ عَادَ إِلَى دَارِ إِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ كَمَا حُرِّمَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الرُّجُوعُ إِلَى مَكَّةَ لِلَّذِي ادَّخَرَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ الْفَضْلِ فِي ذَلِكَ.

قَالَ:فَإِذَا وَجَبَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِدَارِ الْحَرْبِ أَنْ يَهْجُرَهُ وَيَلْحَقَ بِدَارِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَثْوِي بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَيُقِيمُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ لِئَلَّا تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُهُمْ فَكَيْفَ يُبَاحُ لِأَحَدٍ الدُّخُولُ إِلَى بِلَادِهِمْ حَيْثُ تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُهُمْ فِي تِجَارَةٍ،أَوْ غَيْرِهَا،وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنْ يَسْكُنَ أَحَدٌ بِبَلَدٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلَفُ فَكَيْفَ بِبَلَدٍ يُكْفَرُ فِيهِ بِالرَّحْمَنِ وَتُعْبَدُ فِيهِ مِنْ دُونِهِ الْأَوْثَانُ لَا تَسْتَقِرُّ نَفْسُ أَحَدٍ عَلَى هَذَا إِلَّا مُسْلِمٌ مَرِيضُ الْإِيمَانِ اهـ[970].

فَإِنْ قُلْت الْمُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْمُقَدِّمَاتِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ صُورَةُ طُرُوِّ الْإِسْلَامِ عَلَى الْإِقَامَةِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ وَالصُّورَةُ الْمَسْئُولُ عَنْهَا هِيَ طُرُوُّ الْإِقَامَةِ عَلَى أَصَالَةِ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ الصُّورَتَيْنِ بَوْنٌ فَلَا يَحْسُنُ الِاسْتِدْلَال عَلَى الصُّورَةِ الْمَسْئُولِ عَنْ حُكْمِهَا.

قُلْت:تَفَقُّهُ الْمُتَقَدِّمِينَ إِنَّمَا هُوَ فِي تَارِكِ الْهِجْرَةِ مُطْلَقًا وَمَثَّلُوا ذَلِكَ بِصُورَةٍ مِنْ صُوَرِهِ،وَهُوَ مَنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَأَقَامَ،وَهَذِهِ الْمَسْئُولُ عَنْهَا أَيْضًا صُورَةٌ ثَانِيَةٌ مِنْ صُوَرِهِ لَا تُخَالِفُ الْأُولَى الْمُمَثَّلَ بِهَا إِلَّا فِي طُرُقِ الْإِقَامَةِ خَاصَّةً فَالصُّورَةُ الْأُولَى الْمُمَثَّلُ بِهَا عِنْدَهُمْ طَرَأَ الْإِسْلَامُ فِيهَا عَلَى الْإِقَامَةِ وَالصُّورَةُ الثَّانِيَةُ الْمُلْحَقَةُ بِهَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا طَرَأَتْ الْإِقَامَةُ فِيهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَاخْتِلَافُ الطُّرُوِّ فَرْقٌ صُورِيٌّ،وَهُوَ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فِي اسْتِدْعَاءِ نَصِّ الْحُكْمِ عَلَيْهِ وَانْتِهَائِهِ إِلَيْهِ،وَإِنَّمَا خَصَّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى الْمُقْتَدَى بِهِمْ الْكَلَامَ بِصُورَةِ مَنْ أَسْلَمَ،وَلَمْ يُهَاجِرْ؛لِأَنَّ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ الشِّرْكِيَّةَ كَانَتْ مَفْقُودَةً فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَعِزَّتِهِ،وَلَمْ تَحْدُثْ عَلَى مَا قِيلَ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ مِئِينَ مِنْ السِّنِينَ وَبَعْدَ انْقِرَاضِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمُجْتَهِدِينَ فَلِذَلِكَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَحْكَامِهَا الْفِقْهِيَّةِ أَحَدٌ مِنْهُمْ،وَإِنَّمَا نَبَغَتْ هَذِهِ الْمُوَالَاةُ النَّصْرَانِيَّةُ فِي

[970] - انظر :الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٣١٢) والشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٤/ ٤٢٦)

الْمِائَة الْخَامِسَة وَبَعْدَهَا مِنْ تَارِيخِ الْهِجْرَة وَقْتَ اسْتِيلَاء مَلَاعِينِ النَّصَارَى دَمَّرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى جَزِيرَة صِقِلِّيَّةَ وَبَعْضِ كُوَرِ الْأَنْدَلُس.سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُ الْفُقَهَاءِ وَاسْتَفْهَمُوهُ عَنْ الْأَحْكَام الْفِقْهِيَّة الْمُتَعَلِّقَة بِمُرْتَكِبِهَا فَأَجَابَ بِأَنَّ أَحْكَامَهُمْ جَارِيَةٌ مَعَ أَحْكَامِ مَنْ أَسْلَمَ،وَلَمْ يُهَاجِرْ وَأَلْحَقُوا هَؤُلَاءِ الْمَسْئُولَ عَنْهُمْ وَالْمَسْكُوتَ عَنْ حُكْمِهِمْ بِهِمْ وَسُوِّيَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّة الْمُتَعَلِّقَة بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ،وَلَمْ يَرَوْا فِيهَا فَرْقًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فِي مُوَالَاة الْأَعْدَاءِ وَمُسَاكَنَتِهِمْ وَمُدَاخَلَتِهِمْ وَمُلَابَسَتِهِمْ وَعَدَمِ مُبَايَنَتِهِمْ وَتَرْكِ الْهِجْرَة الْوَاجِبَة لِهَذِهِ الْأَحْكَام الْمَسْكُوت عَنْهَا فِي الصُّورَة الْمَسْئُولِ عَنْ فَرْضِهَا بِمَثَابَة وَاحِدَة فَأَلْحَقُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - الْأَحْكَامَ الْمَسْكُوتَ عَنْهَا فِي هَؤُلَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُمْ بِالْأَحْكَامِ الْمُتَفَقَّهِ فِيهَا فِي أُولَئِكَ فَصَارَ اجْتِهَادُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي مُجَرَّدِ إلْحَاقِ لِمَسْكُوت عَلَيْهِ بِمَنْطُوق بِهِ مُسَاوٍ لَهُ فِي الْمَعْنَى مِنْ كُلِّ وَجْه،وَهُوَ مِنْهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَدْلٌ مِنْ النَّظَرِ وَاحْتِيَاطٌ فِي الِاجْتِهَادِ وَرُكُونٌ إلَى الْوُقُوفِ مَعَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَئِمَّة الْهُدَى الْمُقْتَدَى بِهِمْ فَكَانَ غَايَةً فِي الْحُسْنِ وَالدِّين.

وَأَمَّا الِاحْتِجَاجُ عَلَى تَحْرِيمِ هَذِهِ الْإِقَامَة مِنْ السُّنَّة فَمَا خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُود،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[971] وَفِي الْبَاب عَنْ سَمُرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«لَا تُسَاكِنُوا الْمُشْرِكِينَ،وَلَا تُجَامِعُوهُمْ،فَمَنْ سَاكَنَهُمْ أَوْ جَامَعَهُمْ،فَهُوَ مِنْهُمْ»[972]

وَالتَّنْصِيصُ فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ عَلَى الْمَقْصُود بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَد مِمَّنْ لَهُ نَظَرٌ سَلِيمٌ وَتَرْجِيحٌ مُسْتَقِيمٌ،وَقَدْ ثَبَتَا فِي الْحِسَان مِنْ الْمُصَنَّفَات السِّتَّة الَّتِي يَدُورُ عَلَيْهَا رَحَى الْإِسْلَامِ قَالُوا:وَلَا مُعَارِضَ لَهُمَا لَا نَاسِخَ وَلَا مُخَصِّصَ وَلَا غَيْرَهُمَا وَمُقْتَضَاهُمَا لَا مُخَالِفَ

---

[971] - سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٥٥)(١٦٠٤) صحيح

[972] - المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢١٧)(٦٩٠٥) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١٥٤)(٢٦٢٧) صحيح

لَهُمَا فِيهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ كَافٍ فِي الِاحْتِجَاجِ بِهِمَا هَذَا مَعَ اعْتِضَادِهِمَا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَقَوَاعِدِ الشَّرْعِ وَشَهَادَتِهِمَا لَهُمَا.

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ أَبِي هِنْدٍ الْبَجَلِيِّ قَالَ:قَالَ مُعَاوِيَةُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ،وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ» [٩٧٣]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ افْتَتَحَ مَكَّةَ:«لاَ هِجْرَةَ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ،فَانْفِرُوا..» [٩٧٤]

---

[٩٧٣] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٦٧)(٨٦٥٨) وسنن أبي داود (٣/ ٣)(٢٤٧٩)

" لَا تَنْقَطِعُ) : بِالتَّأْنِيثِ وَيُذَكَّرُ (الْهِجْرَةُ) أَيْ: مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ (حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ) أَيْ: صِحَّتُهَا بِأَنْ يُغَرْغِرَ صَاحِبُهَا.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَرَادَ بِالْهِجْرَةِ هُنَا الِانْتِقَالَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمِنْ دَارِ الشِّرْكِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ.قُلْتُ: الْأَخِيرُ تَعْمِيمٌ يَشْمَلُ الْكُلَّ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ: لَمْ يُرِدِ الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا انْقَطَعَتْ، وَلَا الْهِجْرَةَ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَ: وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا لِأَنَّهَا نَفْسُ التَّوْبَةِ.قُلْتُ: لَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْكَمَالِ لَا تَنْقَطِعُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الْهِجْرَةُ مِنْ مَكَانٍ لَا يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةِ حُدُودِ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً، وَفِيهِ أَنَّ كَوْنَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مَعَ كَوْنِ خُرُوجِهِ عَنْهُ مِنَ الْإِمْكَانِ مَعْصِيَةً خَاصَّةً، وَالْحَمْلُ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ لَا يُلَائِمُ الْغَايَةَ لِقَوْلِهِ: حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَالِاسْتِشْهَادُ بِالْآيَةِ غَيْرُ صَحِيحٍ.لِأَنَّهُ نَزَلَ فِي الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ أَيْ: لَمْ تَنْقَطِعْ وُجُوبًا حَتَّى يَنْقَطِعَ قَبُولُهَا.(وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ) أَيْ: صِحَّتُهَا أَوْ قَبُولُهَا (حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٢٥)

[٩٧٤] - صحيح البخاري (٣/ ١٥)(١٨٣٤) وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٦)٤٤٥ - (١٣٥٣)

(لَا هِجْرَةَ) مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَفْرُوضَةً (بَعْدَ الْفَتْحِ) كَمَا كَانَتْ قَبْلَهُ، بَلْ قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ (وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ) أَيْ بَقِيَ فَرْضُ الْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ الْخَالِصَةِ، يَعْنِي الْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ الشَّامِلِ لِلْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِهِمَا، وَقِيلَ: أَيُّ قَصْدٍ وَعَزْمٍ عَلَى إِعْلَاءِ الدِّينِ بِالْهِجْرَةِ عَنِ الْمَعَاصِي قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَتِ الْهِجْرَةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ انْقَطَعَتْ تِلْكَ الْهِجْرَةُ الْمَفْرُوضَةُ، فَلَا تُنَالُ بِالْهِجْرَةِ تِلْكَ الدَّرَجَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لِلْمُهَاجِرِينَ، لَكِنْ يُنَالُ الْأَجْرُ بِالْجِهَادِ وَإِحْسَانِ النِّيَّةِ، وَأَمَّا الْهِجْرَةُ الَّتِي تَكُونُ لِصَلَاحِ دِينِ الْمُسْلِمِ فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ مَدَى الدَّهْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ وَهُوَ إِخْبَارُهُ أَنَّ مَكَّةَ تَدُومُ دَارَ الْإِسْلَامِ، فَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هِجْرَةٌ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ (وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ، أَيْ إِذَا طُلِبْتُمْ لِلنَّفْرِ وَهُوَ الْخُرُوجُ إِلَى الْجِهَادِ، وَوَقَعَ فِي أَصْلِ ابْنِ حَجَرٍ: فَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ.بِالْفَاءِ مُخَالِفًا لِلْأُصُولِ الْمُتَعَمَّدَةِ فَتَكَلَّفَ بِقَوْلِهِ مُقَدِّرًا وَإِذَا وَجَبَ الْجِهَادُ مَعَ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ فَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ (فَانْفِرُوا) بِكَسْرِ الْفَاءِ أَيِ اخْرُجُوا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٨٦٣)

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ:كَانَتْ الْهِجْرَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ مَنْدُوبًا إلَيْهَا غَيْـــرَ مَفْرُوضَـــةٍ وَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَـــثِيرًا وَسَعَةً} [النساء:١٠٠] نَزَلَتْ حِينَ اشْتِدَادِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ وَجَبَتْ الْهِجْرَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ - إلَى الْمَدِينَةِ وَأُمِرُوا بِالانْتِقَالِ إلَـــى حَضْـــرَتِهِ - ﷺ - لِيَكُونُوا مَعَهُ فَيَتَعَاوَنُوا وَيَتَظَاهَرُوا؛لأَنَّ حِزْبَهُمْ أُمِرَ وَلْيَعْلَمُوا أَمْرَ دِينِهِمْ وَيَتَفَقَّهُوا فِيهِ وَكَانَ عِظَمُ الْخَوْفِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّـــةَ وَأُتْحِفَـــتْ بِالطَّاعَةِ إلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ارْتَفَعَ وُجُوبُ الْهِجْرَةِ وَعَادَ الْأَمْرُ فِيهَا إلَى النَّدْبِ وَالاسْتِحْبَابِ فَهُمَا هِجْرَتَانِ فَالْمُنْقَطِعَةُ مِنْهُمَا هِيَ الْفَرْضُ وَالْبَاقِيَةُ هِيَ النَّدْبُ،فَهَذَا وَجْهُ الْجَمْـــعِ بَـــيْنَ الْحَدِيثَيْنِ عَلَى أَنَّ بَيْنَ الْإِسْنَادَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا إسْنَادُ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مُتَّصِلٌ صَحِيحٌ وَإِسْنَادُ مُعَاوِيَةَ فِيهِ مَقَالٌ اهـــ.[٩٧٥]

قُلْت:هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ اللَّتَانِ تَضَمَّنَهُمَا حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ هُمَا الْهِجْرَتَانِ اللَّتَانِ انْقَطَعَ فَرْضُهُمَا بِفَتْحِ مَكَّةَ فَالْهِجْرَةُ الْأُولَى هِجْرَةٌ مِنْ الْخَوْفِ عَلَى الدِّينِ وَالـــنَّفْسِ كَهِجْرَةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَصْحَابِهِ الْمَكِّيِّينَ،فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَرِيضَةً لَا يُجْزَى إيمَانٌ دُونَهَا.

وَالثَّانِيَةُ الْهِجْرَةُ إلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فِي دَارِهِ الَّتِي اسْتَقَرَّ فِيهَا،فَقَدْ بَايَعَ مِنْ قَصَـــدَهُ عَلَـــى الْهِجْرَةِ وَبَايَعَ آخَرِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا الْهِجْرَةُ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ فَهِيَ فَرِيضَةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِـــي الْأَحْكَـــامِ الذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ يَنْقَسِمُ إلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ:

الْأُولَى:الْهِجْرَةُ وَهِيَ الْخُرُوجُ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إلَى دَارِ السَّلَامِ وَكَانَتْ فَرْضًا فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ - ﷺ -،وَهَذِهِ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ مَفْرُوضَةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالَّتِي انْقَطَعَتْ بِالْفَتْحِ هِيَ الْقَصْـــدُ إلَى النَّبِيِّ - ﷺ - حَيْثُ كَانَ،فَإِنْ بَقِيَ فِي دَارِ الْحَرْبِ عَصَى وَيُخْتَلَفُ فِي حَالِهِ وَانْظُـــرْ بَقِيَّةَ أَقْسَامِ الْهِجْرَةِ فِيهَا.

---

[٩٧٥] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٢/ ١٧٩)

وَقَالَ فِي الْعَارِضَة إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقِيمُوا بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ وَافْتَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِالنَّبِيِّ – ﷺ – بِالْمَدِينَة فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ سَقَطَتْ الْهِجْرَةُ وَبَقِيَ تَحْرِيمُ الْمُقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَصَمُوا بِالسُّجُود لَمْ يَكُونُوا أَسْلَمُوا وَأَقَامُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ إنَّمَا كَانَ اعْتِصَامُهُمْ فِي الْحَالِ نَعَمْ إنَّهُ لَا يَحِلُّ قَتْلُ مَنْ بَادَرَ لِلْإِسْلَامِ إذَا رَأَى وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَنْ أَسْلَمَ وَبَقِيَ بِدَارِ الْحَرْب فَقُتِلَ،أَوْ سُبِيَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ فَقَالَ مَالِكٌ بِحَقْنِ دَمه وَمَالُهُ لِمَنْ أَخَذَهُ حَتَّى يَحْدُثَ بِدَارِ الْإِسْلَام.

وَقِيلَ عَنْهُ أَنَّهُ يَحُوزُ مَالَهُ وَأَهْلَهُ وَبِه قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالْمَسْأَلَةُ مُحَقَّقَةٌ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الْحَرْبِيَّ هَلْ يَمْلِكُ مِلْكًا صَحِيحًا أَمْ لَا؟ وَأَنَّ الْعَاصِمَ هَلْ هُوَ الْإِسْلَامُ،أَوْ الدَّارُ؟ فَمَنْ ذَهَبَ إلَى أَنَّهُ يَمْلِكُ مِلْكًا صَحِيحًا تَمَسَّكَ بِحدِيث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه،أَيْنَ تَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ:«وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ»،وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ،وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلاَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،شَيْئًا لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ،وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ،فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:لاَ يَرِثُ المُؤْمِنُ الكَافِرَ،قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:وَكَانُوا يَتَأَوَّلُونَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال:٧٢] الآيَة[٩٧٦]

---

[٩٧٦] – صحيح البخاري (٢/ ١٤٧)(١٥٨٨)

[ش(رباع) جمع ربع وهو المحلة المشتملة على عدة بيوت.(يقول) وهذا المذكور موقوفا على عمر رضي الله عنه هنا ثبت مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم في المغازي رقم ٤٠٣٢.والمراد أنه كان يقول ذلك بناء على ما أقره صلى الله عليه وسلم من عدم وراثة علي وجعفر رضي الله عنهما من أبي طالب.(يتأولون) يفسرون الولاية في هذه الآية بولاية الميراث.(آووا) أنزلوا المهاجرين وأسكنوهم في ديارهم.(أولياء) في الميراث والنصرة.(الآية) الآنفال ٧٢.وتتمتها {والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير}.(ولايتهم) من ميراثهم أو توريثهم.(استنصروكم) استغاثوا بكم وطلبوا نصرتكم على من يؤذونهم في دينهم من المشركين.(النصر) أن تنصروهم على من قاتلهم.(ميثاق) عهد]

وبحديث الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "[٩٧٧]

فَسَوَّى بَيْنَ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَأَضَافَهَا إلَيْهِمْ وَالْإِضَافَةُ تَقْتَضِي التَّمْلِيكَ ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ مَعْصُومٌ وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ سَبِيلٌ.وَتَمَسَّكَ أَيْضًا مَنْ أَتْبَعَهُ مَالَهُ بِقَوْلِهِ – ﷺ – «مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ»[٩٧٨] وَبِقَوْلِهِ – ﷺ – " لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ "[٩٧٩].

وَأَمَّا مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ،وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمَا فَعِنْدَهُمْ أَنَّ الْعَاصِمَ إنَّمَا هُوَ الدَّارُ فَمَا لَمْ يَحُزْ الْمُسْلِمُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ بِدَارِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَمَا أُصِيبَ مِنْ ذَلِكَ بِدَارِ الْكُفْرِ فَهُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَأَنَّ الْكُفَّارَ عِنْدَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ بَلْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ حَلَالٌ لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَدِمَائِهِمْ فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَحُزْ مَالًا وَلَا وَلَدًا بِدَارِ الْإِسْلَامِ فَكَأَنَّهُ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ وَكَانَ الْيَدُ لِلْكَافِرِ كَمَا أَنَّ الدَّارَ لَهُمْ وَلَيْسَتْ يَدُ صَاحِبِهِ الْإِسْلَامِيِّ يَدًا إذَا كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ أَيْضًا الْعَاصِمُ لِدَمِ الْمُسْلِمِ الْإِسْلَامُ وَلِمَالِهِ الدَّارُ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ الْعَاصِمُ لَهُمَا جَمِيعًا هُوَ الْإِسْلَامُ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الْعَاصِمُ الْمُقَوِّمُ لَهُمَا هُوَ الدَّارُ وَالْمُؤْثِمُ هُوَ الْإِسْلَامُ.وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ مَنْ أَسْلَمَ،وَلَمْ يُهَاجِرْ حَتَّى قُتِلَ،فَإِنَّهُ تَجِبُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ عِنْدَهُ دُونَ الدِّيَةِ وَالْقَوَدِ وَلَوْ هَاجَرَ لَوَجَبَتْ الْكَفَّارَةُ وَالدِّيَةُ عَلَى قَاتِلِهِ.

قِيلَ:فَعَلَى هَذَا دَمُهُ مَحْقُونٌ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَقَتْلُهُ خَطَأٌ لَا دِيَةَ فِيهِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ،وَإِنَّمَا فِيهِ الْكَفَّارَةُ خَاصَّةً،وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ وَاحْتَجُّوا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [الأنفال:٧٢] وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

[٩٧٧] – صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٦)

[٩٧٨] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٢٣)(٣٤١١٧) ومسند أبي يعلى الموصلي (١٠/ ٢٢٦)(٥٨٤٧) وسنن سعيد بن منصور (١/ ٩٦)(١٨٩و١٩٠) صحيح لغيره

[٩٧٩] – شعب الإيمان (٧/ ٣٤٦)(٥١٠٥) صحيح

مُؤْمِنَةٍ} [النساء:٩٢]،وَلَمْ يَذْكُرْ دِيَةً.قَالُوا:وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْمُؤْمِنِ إنَّمَا هُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَمْ يُهَاجِرْ؛لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي قَوْمٍ أَعْدَاءٍ فَهُوَ مِنْهُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] فَهُوَ مُؤْمِنٌ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ،فَلَمَّا ذَكَرَ الدِّيَةَ أَوَّلَ الْآيَةِ فِي الْمُؤْمِنِ الْمُطْلَقِ وَفِي آخِرِهَا فِي الْمُؤْمِنِ الَّذِي قَوْمُهُ تَحْتَ عَهْدِنَا وَمِيثَاقِنَا وَهُمْ الذِّمِّيُّونَ وَسَكَتَ عَنْهَا فِي هَذَا الْمُؤْمِنِ الَّذِي بَيْنَ الْأَعْدَاءِ دَلَّ عَلَى سُقُوطِهَا،وَأَنَّهُ إنَّمَا أَوْجَبَ فِيهِ الْكَفَّارَةَ خَاصَّةً هَذَا حُكْمُ دَمِهِ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ خُرَاسَانِيَّةٌ عَظْمًا لَمْ تَبْلُغْهَا الْمَالِكِيَّةُ وَلَا عَرَفَتْهَا الْأَئِمَّةُ الْعِرَاقِيَّةُ فَكَيْفَ بِالْمَفَازَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ.

احْتَجَّ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّ الْعَاصِمَ الدَّارُ بِأَنَّ التَّحَرُّزَ وَالاعْتِصَامَ وَالامْتِنَاعَ إنَّمَا يَكُونُ بِالْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ،وَأَنَّ الْكَافِرَ إذَا صَارَ فِي دَارِنَا عُصِمَ دَمُهُ وَمَالُهُ فَصَارَ كَالْمَالِ إذَا كَانَ مَطْرُوحًا عَلَى الطَّرِيقِ لَمْ يَلْزَمْ فِيهِ قَطْعٌ،وَإِذَا حَرَزَ بِحِرْزِهِ كَانَ مَضْمُونًا بِالْقَطْعِ.

وَاحْتَجَّ الشَّافِعِيُّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ – ﷺ – «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ» الْحَدِيثَ نَصَّ عَلَى أَنَّ الْعِصْمَةَ لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ إنَّمَا تَكُونُ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَلَوْ أَنَّ مُسْلِمًا دَخَلَ إلَى دَارِ الْحَرْبِ،فَإِنَّهُ مَعْصُومُ الدَّمِ وَالْمَالِ،وَالدَّارُ مَعْدُومَةٌ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَصْحَابِنَا إنَّ الْإِسْلَامَ عَاصِمٌ لِلنَّفْسِ دُونَ الْوَلَدِ وَالْمَالِ وَقَوْلُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ إنَّ التَّحَرُّزَ وَالتَّعَصُّمَ يَكُونُ بِالْقِلَاعِ فَكَلَامٌ فَاسِدٌ؛لِأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِالْعِصْمَةِ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا الْكَافِرُ وَالْمُحَارِبُ وَلَا يَعْتَبِرُهَا الشَّرْعُ،وَإِنَّمَا الْكَلَامُ عَلَى مَا يَعْتَبِرُهُ الشَّرْعُ.أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُحَارِبَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ يَتَحَصَّنَانِ بِالْقِلَاعِ وَدَمُهُمَا وَأَمْوَالُهُمَا مُبَاحَانِ أَحَدُهُمَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالثَّانِي بِشَرْطَيْنِ أَنْ يَسْتَقِرَّ وَلَا يَقَعَ وَيَتَمَادَى وَيَتَمَنَّعَ وَلَكِنَّ الْمَالَ إنَّمَا يَمْنَعُهُ إحْرَازُ صَاحِبِهِ لَهُ بِكَوْنِهِ مَعَهُ فِي حِرْزٍ.

قُلْت:بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ قَالَ أَشْهَبُ وَسَحْنُونٌ،وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ حَسْبَمَا تَضَمَّنَ كَلَامُهُ الْآنَ.وَبِقَوْلِ مَالِكٍ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ وَاخْتَارَهُ ابْنُ رُشْدٍ،وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ مَالِكٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ –،وَمَنْشَأُ الْخِلَافِ مَا مَرَّ تَقْرِيرُهُ.

وَأَجْرَى الْفَقِيهُ الْقَاضِي الشَّهِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْحَاجِّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مَـــالَ هَـــذَا الْمُسْلِمِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ الْمُقِيمِ بِدَارِ الْحَرْبِ،وَلَمْ يَبْرَحْ عَنْهَا بَعْدَ اسْتِيلَاءِ الطَّاغِيَةِ عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الْخِلَافِ الْمُتَقَدِّمِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ فِي مَالِ مَنْ أَسْلَمَ وَأَقَامَ بِدَارِ الْحَرْبِ ثُمَّ فَـــرَّقَ ابْنِ الْحَاجِّ بَعْدَ الْإِلْحَاقِ وَالتَّسْوِيَةِ فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ اللَّاحِقَةِ بِأَنَّ مَالَ مَنْ أَسْلَمَ كَانَ مُبَاحًا قَبْلَ إسْلَامِهِ بِخِلَافِ مَالِ الْمُسْلِمِ؛لِأَنَّ يَدَهُ لَمْ تَزَلْ وَلَا يُعْزَى لَهُ فِي وَقْتٍ مَا كَفَرَ مُبِيحٌ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمَا مِنْ سَبِيلٍ،وَهُوَ رَاجِحٌ مِنْ الْقَوْلِ وَاضِـــحٌ مِـــنْ الِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ وَظَاهِرٌ عِنْدَ التَّأَمُّلِ لِمَنْشَأِ الْخِلَافِ الَّذِي تَقَدَّمَ بَيَانُهُ عَلَى مَا لَا يَخْفَـــى وَيُعْتَضَدُ هَذَا الْفَرْقُ بِنَصٍّ آخَرَ.

مَسْأَلَةٌ مِنْ سَمَاعِ يَحْيَى مِنْ كِتَابِ الْجِهَادِ وَلَفْظُهُ:وَسَأَلْته عَمَّنْ تَخَلَّفَ مِنْ أَهْلِ بَرْشَلُونَةَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَنْ الِارْتِحَالِ عَنْهُمْ بَعْدَ السَّنَةِ الَّتِي أُجِّلَتْ لَهُمْ يَوْمَ فُتِحَتْ فِي ارْتِحَـــالِهِمْ فَأَغَارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَفَرُّدًا مِمَّا يَخَافُ مِنْ الْقَتْلِ إنْ ظَفِرَ بِهِ.

فَقَالَ:مَا أَرَاهُ إلَّا بِمَنْزِلَةِ الْمُحَارِبِ الَّذِي يَتَلَصَّصُ بِدَارِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّـــهُ مُقِيمٌ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أُصِيبَ فَأَمْرُهُ إلَى الْإِمَامِ يَحْكُمُ فِيهِ بِمِثْلِ مَا يَحْكُمُ فِي أَهْـــلِ الْفَسَادِ وَالْحِرَابَةِ،وَأَمَّا مَالُهُ فَلَا أَرَاهُ لِأَحَدٍ أَصَابَهُ اهـــ.مَحَلُّ الْحَاجَةِ مِنْهُ ابْنُ رُشْـــدٍ قَوْلُـــهُ إنَّهُمْ فِي إغَارَتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَنْزِلَةِ الْمُحَارِبِينَ صَحِيحٌ لَا خِلَافَ فِيهِ؛لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إذَا حَارَبَ سَوَاءٌ كَانَتْ حِرَابَتُهُ فِي بَلَدِ الْإِسْلَامِ،أَوْ فِي بَلَدِ الْكُفْرِ الْحُكْمُ فِيهِ سَوَاءٌ،وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي مَالِهِ إنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَصَابَهُ فَهُوَ خِلَافٌ ظَاهِرٌ.

قَوْلُ مَالِكٍ فِي الْمُدَوَّنَةِ الَّذِي يُسْلِمُ فِي دَارِ الْحَرْبِ ثُمَّ يَغْزُو الْمُسْـــلِمُونَ تِلْـــكَ الـــدَّارَ فَيُصِيبُونَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَوَلَدَهُ إذَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ فَيْءٌ إذْ لَمْ يُفَرِّقْ فِيهَا بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْجَـــيْشُ غَنِمَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ قَبْلَ خُرُوجِهِ،أَوْ بَعْدَ خُرُوجِهِ اهـــ.

قُلْت:فَظَاهِرُ كَلَامِ ابْنِ رُشْدٍ هَذَا يُؤْذِنُ بِتَرْجِيحِ خِلَافِ مَا رَجَّحَهُ مُعَاصِرُهُ وَبَلَدِيُّهُ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْحَاجِّ فِي مَالِ هَؤُلَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَتَأَمَّلْـــهُ وَقَـــالَ بَعْـــضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ الشُّيُوخِ يَظْهَرُ أَنَّ الْأَحْكَامَ الْمُلْحَقَةَ بِهِمْ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَوْلَـــادِ وَالْـــأَمْوَالِ جَارِيَةٌ عَلَى الْمُقِيمِينَ مَعَ النَّصَارَى الْحَرْبِيِّينَ عَلَى حَسَبِ مَا تَقَرَّرَ مِنْ الْخِلَافِ وَتَمَهَّدَ مِنْ

التَّرْجيحِ ثُمَّ إنْ حَارَبُونَا مَعَ أَوْلِيَائِهِمْ تَرَجَّحَتْ حِينَئِذٍ اسْتِبَاحَةُ دِمَائِهِمْ،وَإِنْ أَعَانُوهُمْ بِالْمَالِ عَلَى قِتَالِنَا تَرَجَّحَتْ اسْتِبَاحَةُ أَمْوَالِهِمْ،وَقَدْ تَرَجَّحَ سَبْيُ ذَرَارِيِّهِمْ بِالِاسْتِخْلَاصِ مِنْ أَيْدِيهِمْ وانْشِبَابِهِمْ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ آمِنِينَ مِنْ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ مَعْصُومِينَ مِنْ مَعْصِيَةِ تَرْكِ الْهِجْرَةِ.

وَمَا ذَكَرْتُمْ فِي السُّؤَالِ مِنْ حُصُولِ النَّدَمِ وَالتَّسَخُّطِ لِبَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِيِّينَ إلَى دَارِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا زَعَمُوا مِنْ ضِيقِ الْمَعَاشِ وَعَدَمِ الِانْتِعَاشِ زَعْمٌ فَاسِدٌ وَتَوَهُّمٌ كَاسِدٌ فِي نَظَرِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ فَلَا يَتَوَهَّمُ هَذَا الْمَعْنَى وَيَعْتَبِرُهُ وَيَجْعَلُهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ إلَّا ضَعِيفُ الْيَقِينِ بَلْ عَدِيمُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ وَكَيْفَ يَتَخَيَّلُ هَذَا الْمَعْنَى وَيُدْلِي بِهِ حُجَّةً فِي إسْقَاطِ الْهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ وَفِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَعْلَى اللَّهُ كَلِمَتَهُ مَجَالٌ رَحْبٌ لِلْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَالثَّقِيلِ وَالْخَفِيفِ.

وَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى الْبِلَادَ فَيَسْتَجِيرُ بِهَا مَنْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الصَّدْمَةُ الْكُفْرَانِيَّةُ وَالصَّاعِقَةُ النَّصْرَانِيَّةُ فِي الدِّينِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ،فَقَدْ هَاجَرَ مِنْ عَامَّةِ الصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِهِمْ – رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ – إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فِرَارًا بِدِينِهِمْ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ أَهْلِ مَكَّةَ جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ وَزُمْرَةٌ كَرِيمَةٌ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ – وَحَالُ أَرْضِ الْحَبَشَةِ غَيْرُ مَقَرِّهِمْ وَهَاجَرَ آخَرُونَ إلَى غَيْرِهَا وَهَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَآبَاءَهُمْ وَنَبَذُوهُمْ وَقَاتَلُوهُمْ وَحَارَبُوهُمْ تَمَسُّكًا مِنْهُمْ بِدِينِهِمْ وَرَفْضًا لِدُنْيَاهُمْ فَكَيْفَ بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِهَا لَا يُخِلُّ تَرْكُهُ بِتَكَسُّبٍ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يُؤَثِّرُ رَفْضُهُ فِي مُتَّسَعِ الْمُسْتَرْزِقِينَ وَلَا سِيَّمَا هَذَا الْقُطْرُ الدِّينِيُّ الْمَغْرِبِيُّ صَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَزَادَهُ عِزًّا وَشَرَفًا وَوَقَاهُ مِنْ الْأَغْيَارِ وَالْأَكْدَارِ وَسَطًا وَطَرَفًا،فَإِنَّهُ مِنْ أَخْصَبِ أَرْضِ اللَّهِ أَرْضًا وَأَشْبَعِهَا بِلَادًا طُولًا وَعَرْضًا وَخُصُوصًا حَاضِرَةُ فَاسَ،وَأَنْظَارُهَا نَوَاحِيهَا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَأَقْطَارِهَا.

وَلَئِنْ سَلِمَ هَذَا الْوَهْمُ وَعَدِمَ صَاحِبُهُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى الْعَقْلَ الرَّاجِحَ وَالرَّأْيَ النَّاجِحَ وَالْفَهْمَ،فَقَدْ أَقَامَ عِلْمًا وَبُرْهَانًا عَلَى نَفْسِهِ الْخَسِيسَةِ الرَّدِيَّةِ بِتَرْجِيحِ عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ حُطَامِي مُحْتَقَرٍ عَلَى عِلْمٍ دِينِيٍّ أُخْرَوِيٍّ مُدَّخَرٍ وَبِئْسَ هَذِهِ الْمُفَاضَلَةُ وَالْأَرْجَحِيَّةُ وَخَابَ وَخَسِرَ

مَنْ آثَرَهَا وَوَقَعَ فيهَا.أَمَا عَلمَ الْمَغْبُونُ في صَفْقَته النَّادمِ عَلَى هجْرَته منْ دَارٍ يُدْعَى فيهَا التَّثْليثُ وَيُضْرَبُ فيهَا النَّوَاقيسُ وَيُعْبَدُ فيهَا الشَّيْطَانُ وَيُكْفَرُ بالرَّحْمَنِ أَنْ لَيْسَ للْإنْسَان إلَّا دينُهُ إذْ به نَجَاتُهُ الْأَبَديَّةُ وَسَعَادَتُهُ الْأُخْرَويَّةُ وَعَلَيْه يَبْذُلُ نَفْسَهُ النَّفيسَةَ فَضْلًا عَنْ جُمْلَة حَاله قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذكْرِ اللَّه وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْخَاسرُونَ} [المنافقون:٩] وَقَالَ تَعَالَى {إنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فتْنَةٌ وَاللَّهُ عنْدَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ} [التغابن:١٥] وَأَعْظَمُ فَوَائد الْمَال وَأَجَلُّهَا عنْدَ الْعُقَلَاء إنْفَاقُهُ في سَبيلِ اللَّه تَعَالَى وَابْتغَاءَ مَرْضَاته وَكَيْفَ يَقْتَحمُ بالتَّشَبُّث وَيَتَرَاءَى وَيَتَطَارَحُ،أَوْ يَتَسَارَعُ منْ أَجْله إلَى مُوَالَاة الْعُدَاة،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {فَتَرَى الَّذينَ في قُلُوبهمْ مَرَضٌ يُسَارعُونَ فيهمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصيبَنَا دَائرَةٌ} [المائدة:٥٢] وَالدَّائرَةُ في هَذه النَّازلَة فَوَاتُ التَّمَسُّك بعَقَار الْمَال فَوُصفَ بمَرَضِ الْقَلْب وَضَعْف الْيَقين،وَلَوْ كَانَ قَويَّ الدِّين صَحيحَ الْيَقين وَاثقًا باللَّه تَعَالَى مُعْتَمدًا عَلَيْه وَمُسْندًا ظَهْرَهُ إلَيْه لَمَا أَهْمَلَ قَاعدَةَ التَّوَكُّلِ عَلَى عُلُوِّ رُتْبَتهَا وَنُمُوِّ ثَمَرَتهَا وَشَهَادَتهَا بصحَّة الْإيمَان وَرُسُوخِ الْيَقين.

وَإذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَلَا رُخْصَةَ لأَحَد ممَّنْ ذَكَرْت في الرُّجُوعِ وَلَا في عَدَمِ الْهجْرَة بوَجْه وَلَا حَال،وَأَنَّهُ لَا يُعْذَرُ مَهْمَا تَوَصَّلَ إلَى ذَلكَ بمَشَقَّة فَادحَة،أَوْ حيلَة دَقيقَة بَلْ مَهْمَا وَجَدَ السَّبيلَ إلَى التَّخَلُّصِ منْ ربْقَة الْكُفْرِ،وَهُوَ لَا يَجدُ عَشيرَةً تَذُبُّ عَنْهُ وَحَمَاةً يَحْنُونَ عَلَيْه وَرَضيَ بالْمَقَامِ بمَكَان فيه الضَّيْمُ عَلَى الدِّين وَالْمَنْعُ منْ إظْهَار شَعَائر الْمُسْلمينَ فَهُوَ مَارقٌ منْ الدِّينِ وَمُنْخَرِطٌ في سلْك الْمُلْحدينَ وَالْوَاجبُ الْفرَارُ منْ دَارٍ غَلَبَ عَلَيْهَا أَهْلُ الشِّرْك وَالْخُسْرَان إلَى دَار الْأَمْنِ وَالْإيمَان وَلذَلكَ قُوبلُوا في الْجَوَاب عنْدَ الاعْتذَار بقَوْله تَعَالَى {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّه وَاسعَةً فَتُهَاجرُوا فيهَا} [النساء:٩٧]:أَيْ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ الْمُهَاجرُ،وَإنْ كَانَ ضَعيفًا،فَإنَّهُ يَجدُ أَرْضَ اللَّه وَاسعَةً وَمُتَّصلَةً فَلَا عُذْرَ بوَجْه لمُسْتَطيعٍ،وَإنْ كَانَ بمَشَقَّة في الْعَمَلِ،أَوْ في الْحيلَة،أَوْ في اكْتسَاب الرِّزْق،أَوْ ضيقٍ في الْمَعيشَة إلَّا الْمُسْتَضْعَفُ الْعَاجزُ رَأْسًا الَّذي لَا يَسْتَطيعُ حيلَةً وَلَا يَهْتَدي سَبيلًا،وَمَنْ بَادَرَ إلَى الْفرَار وَسَارَعَ في الانْتقَال منْ دَار الْبَوَار إلَى دَار الْأَبْرَار فَذَلكَ أَمَارَةٌ ظَاهرَةٌ في الْحَال الْعَاجلَة لمَا يَصيرُ إلَيْه حَالُهُ في الْحَال الْآجلَة؛لأَنَّ مَنْ يُسرَّ لَهُ الْعَمَلُ الصَّالحُ كَانَ

مَأْمُولًا لَهُ الظَّفْرُ وَالْفَوْزُ،وَمَنْ تَيَسَّرَ لَهُ الْعَمَلُ الْخَبِيثُ كَانَ مَخُوفًا عَلَيْهِ الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ تَيَسَّرَ لِلْيُسْرَى وَانْتَفَعَ بِالذِّكْرَى وَمَا ذَكَرْت عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ وَسَبِّ دَارِ الْإِسْلَامِ وَتَمَنِّي الرُّجُوعِ إلَى دَارِ الشِّرْكِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْفَوَاحِشِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي لَا تُصْدَرُ إلَّا مِنْ اللِّئَامِ يُوجِبُ لَهُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيُنْزِلُهُمْ أَسْوَأَ الْمَنَازِلِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ مَكَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ وَيَسَّرَهُ لِلْيُسْرَى أَنْ يَقْبِضَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَيُرْهِقُهُمْ الْعُقُوبَةَ الشَّدِيدَةَ وَالتَّنْكِيلَ الْمُبَرِّحَ ضَرْبًا وَسِجْنًا حَتَّى لَا يَتَعَدَّوْا حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى؛لِأَنَّ فِتْنَةَ هَؤُلَاءِ فِي الْأُمَّةِ أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْ فِتْنَةِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ وَنَهْبِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ هَلَكَ هَالِكٌ فَإِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرِيمِ عَفْوِهِ مَنْ هَلَكَ دِينُهُ فَإِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظِيمِ سَخَطِهِ،فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمُوَالَاةِ الشِّرْكِيَّةِ وَالْمُسَاكَنَةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى رَفْضِ الْهِجْرَةِ وَالرُّكُونِ إلَى الْكُفَّارِ وَالرِّضَا بِدَفْعِ الْجِزْيَةِ إلَيْهِمْ وَنَبْذِ الْعِزَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالطَّاعَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَيْعَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَظُهُورِ السُّلْطَانِ النَّصْرَانِيِّ عَلَيْهَا وَإِذْلَالِهِ إيَّاهَا بِفَوَاحِشَ عَظِيمَةٍ مُهْلِكَةٍ قَاصِمَةِ الظُّهُورِ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا – وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى – وَأَمَّا جُرْحَةُ الْمُقِيمِ وَالرَّاجِحِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ وَالْمُتَمَنِّي الرُّجُوعِ وَتَأْخِيرُهُ عَنْ الْمَرَاتِبِ الْكَمَالِيَّةِ مِنْ قَضَاءٍ وَشَهَادَةٍ وَإِمَامَةٍ فَمِمَّا لَا خَفَاءَ وَلَا امْتِرَاءَ عَمَّنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٌ مِنْ الْفُرُوعِ الِاجْتِهَادِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ الْفِقْهِيَّةِ وَكَمَا لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ كَذَلِكَ لَا يُقْبَلُ خِطَابُ حُكَّامِهِمْ.

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – وَشَرْطُ قَبُولِ خِطَابِ الْقَاضِي صِحَّةُ وِلَايَتِهِ مِمَّنْ تَصِحُّ تَوْلِيَتُهُ بِوَجْهِ احْتِرَازًا مِنْ مُخَاطَبَةِ قُضَاةِ أَهْلِ الْجِبَالِ كَقُضَاةِ مُسْلِمِي بُلُنْسِيَةَ وَطَرْطُوشَةَ وَخَوْصَرَةَ عِنْدَنَا وَنَحْوَ ذَلِكَ اهـ.

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَازِرِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – عَنْ أَحْكَامٍ تَأْتِي فِي زَمَانِهِ مِنْ صِقِلِّيَّةَ مِنْ عِنْدِ قَاضِيهَا أَوْ شُهُودِ عُدُولِهَا هَلْ يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَمْ لَا مَعَ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ وَلَا تُدْرَى إقَامَتُهُمْ هُنَاكَ تَحْتَ أَهْلِ الْكُفْرِ هَلْ هِيَ اضْطِرَارٌ،أَوْ اخْتِيَارٌ.

(فَأَجَابَ) الْقَادِحُ فِي هَذَا وَجْهَانِ:الْأَوَّلُ يَشْمَلُ الْقَاضِيَ وَبَيِّنَاتِهِ مِنْ نَاحِيَةِ اخْتِلَالِ الْعَدَالَةِ إذْ لَا يُبَاحُ الْمُقَامُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فِي قِيَادِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالثَّانِي مِنْ نَاحِيَةِ الْوِلَايَةِ إذْ الْقَاضِي

مُوَلًّى مَنْ قِبَلِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْأَوَّلُ لَهُ قَاعِدَةٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَشَبَهُهَا وَهِيَ تَحْسِينُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ وَمُبَاعَدَةُ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ فَلَا يُعْدَلُ عَنْهَا لِاحْتِمَالَاتٍ كَاذِبَةٍ وَتَوَهُّمَاتٍ وَاهِيَةٍ كَتَجْوِيزِ مَنْ ظَاهِرُهُ الْعَدَالَةُ،وَقَدْ يَجُوزُ فِي الْخَفَاءِ وَنَفْسُ الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً إِلَّا مَنْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى عِصْمَتِهِ،وَهَذَا التَّجْوِيزُ مَطْرُوحٌ وَالْحُكْمُ لِلظَّاهِرِ إِذْ هُوَ الْأَرْجَحُ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ مِنْ الْحَالِ مَا يُوجِبُ الْخُرُوجَ عَنْ الْعَدَالَةِ فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ حِينَئِذٍ حَتَّى يَظْهَرَ بِأَيِّ وَجْهٍ زَوَالُ مُوجِبِ رَاجِعِيَّةِ الْعَدَالَةِ وَيَبْقَى الْحُكْمُ لِغَلَبَةِ الظَّنِّ بَعْدَ ذَلِكَ،وَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَرَائِنَ مَحْصُورَةٍ فَيَعْمَلُ عَلَيْهَا وَقَرَائِنُ الْعَدَالَةِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ أَمْرٍ مُطْلَقٍ مُتَلَقًّى،وَقَدْ أَمْلَيْتُ مِنْ هَذَا طَرَفًا فِي شَرْحِ الْبُرْهَانِ وَذَكَرْتُ طَرِيقَةَ أَبِي الْمَعَالِي لَمَّا تَكَلَّمَ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنْ الْوَقَائِعِ وَالْفِتَنِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ –،وَهَذَا الْمُقِيمُ بِبَلَدِ الْحَرْبِ إِنْ كَانَ اضْطِرَارًا فَلَا إِشْكَالَ أَنَّهُ لَا يَقْدَحُ فِي عَدَالَتِهِ،وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ صَحِيحًا مِثْلُ إِقَامَتِهِ بِبَلَدِ الْحَرْبِ لِرَجَاءِ فِدَايَةِ الْحَرْبِ وَنَقْلِهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَاقِلَّانِيُّ وَكَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَصْحَابُ مَالِكٍ فِي تَجْوِيزِ الدُّخُولِ لِفِكَاكِ الْأَسِيرِ،وَأَمَّا لَوْ أَقَامَ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ التَّأْوِيلِ اخْتِيَارًا،فَهَذَا قَدْحٌ فِي عَدَالَتِهِ،وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَذْهَبِ فِي رَدِّ شَهَادَةِ الدَّاخِلِ اخْتِيَارَ التِّجَارَةِ فَمَنْ ظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ مِنْهُمْ وَشَكَّ فِي إِقَامَتِهِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ فَالْأَصْلُ عُذْرُهُ؛لِأَنَّ جُلَّ الِاحْتِمَالَاتِ السَّابِقَةِ تَشْهَدُ لِعُذْرِهِ فَلَا تُرَدُّ لِاحْتِمَالٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنْ تُوجَدَ قَرَائِنُ تَشْهَدُ أَنَّ إِقَامَتَهُ كَانَتْ اخْتِيَارًا لَا لِوَجْهٍ،وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي،وَهُوَ تَوْلِيَةُ الْكَافِرِ لِلْقُضَاةِ وَالْأُمَنَاءِ وَغَيْرِهِمْ لِحَجْزِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ،فَقَدْ ادَّعَى بَعْضُ أَهْلِ الْمَذْهَبِ أَنَّهُ وَاجِبٌ عَقْلًا،وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا تَوْلِيَةَ الْكَافِرِ لِهَذَا الْقَاضِي.

وَإِمَّا بِطَلَبِ الرَّعِيَّةِ لَهُ،أَوْ إِقَامَتِهِ لَهُمْ لِلضَّرُورَةِ لِذَلِكَ فَلَا يُطْرَحُ حُكْمُهُ وَيُنَفَّذُ كَمَا لَوْ وَلَّاهُ سُلْطَانٌ مُسْلِمٌ وَفِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ فِي مَسْأَلَةِ الْحَالِفِ لَيَقْضِيَنَّكَ حَقَّكَ إِلَى أَجَلٍ أَقَامَ شُيُوخُ الْمَكَانِ مَقَامَ السُّلْطَانِ عِنْدَ فَقْدِهِ لِمَا يَخَافُ مِنْ فَوَاتِ الْقَضِيَّةِ وَعَنْ مُطَرِّفٍ وَابْنِ الْمَاجِشُونِ فِيمَنْ خَرَجَ عَلَى الْإِمَامِ وَغَلَبَ عَلَى بَلَدٍ فَوَلَّى قَاضِيًا عَدْلًا فَأَحْكَامُهُ نَافِذَةٌ اهـ.

قُلْت:وَأَفْتَى شُيُوخُ الْأَنْدَلُسِ فِيمَنْ فِي وِلَايَةِ الْعَاصِي الْمَارِقِ عُمَرَ بْنِ حَفْصُون أَنَّهُ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُمْ وَلَا قَبُولُ خِطَابٍ وَاخْتُلِفَ فِي وِلَايَةِ وَقَبُولِ الْقَضَاءِ مِنْ الْأَمِيرِ غَيْرِ الْعَدْلِ فَفِي رِيَاضِ النُّفُوسِ فِي طَبَقَاتِ عُلَمَاءِ إفْرِيقِيَّةَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ الْمَالِكِيِّ قَالَ سَحْنُونٌ اخْتَلَفَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَرُّوخَ وَابْنُ غَانِمٍ قَاضِي إفْرِيقِيَّةَ وَهُمَا مِنْ رُوَاةِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - فَقَالَ ابْنُ فَرُّوخَ لَا يَنْبَغِي لِقَاضٍ إذَا وَلَّاهُ أَمِيرٌ غَيْرُ عَدْلٍ أَنْ يَلِيَ الْقَضَاءَ وَقَالَ ابْنُ غَانِمٍ يَجُوزُ أَنْ يَلِيَ،وَإِنْ كَانَ الْإِمَامُ غَيْرَ عَدْلٍ فَكَتَبَ بِهَا إلَى مَالِكٍ فَقَالَ مَالِكٌ أَصَابَ الْفَارِسِيُّ يَعْنِي ابْنَ فَرُّوخَ وَأَخْطَأَ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ يَعْنِي ابْنَ غَانِمٍ اهـ.

وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ:لَمْ يَجْعَلُوا قَبُولَ الْوِلَايَةِ لِلْمُتَغَلِّبِ الْمُخَالِفِ لِلْإِمَامِ جُرْحَةً لِخَوْفِ تَعْطِيلِ أَحْكَامٍ اهـ.

هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ مِنْ الْأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ،وَأَمَّا الْأُخْرَوِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِمَنْ أَفْنَى شَيْبَهُ وَشَبَابَهُ فِي مُسَاكَنَتِهِمْ وَتُوَلِّيهِمْ،وَلَمْ يُهَاجِرْ،أَوْ هَاجَرَ ثُمَّ رَجَعَ إلَى وَطَنِ الْكُفْرِ وَأَصَرَّ عَلَى ارْتِكَابِ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ الْكَبِيرَةِ إلَى حِينِ وَفَاتِهِ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى فَاَلَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَجُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ،وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُخَلَّدِينَ فِي الْعَذَابِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ الْحَقُّ فِي انْقِطَاعِ عَذَابِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ وَتَخْلِيصِهِمْ بِشَفَاعَةِ سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ - ﷺ - الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ حَسْبَمَا وَرَدَتْ بِهِ صِحَاحُ الْأَخْبَارِ،وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨] وَقَوْلِهِ تَعَالَى {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} [الرعد:٦] إلَّا أَنَّ قَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ»[٩٨٠].

وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - «فَمَنْ سَاكَنَهُمْ،أَوْ جَامَعَهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ جِدًّا عَلَيْهِمْ» وَمَا ذَكَرْتُمْ عَنْ سَخِيفِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ قَوْلِهِ إلَى هَاهُنَا يُهَاجِرُ فِي قَالَبِ الِازْدِرَاءِ وَالتَّهَكُّمِ،وَقَوْلُ السَّفِيهِ الْآخَرِ إنْ جَازَ صَاحِبُ فشتالة إلَى هَذِهِ النَّوَاحِي فَسِرْ إلَيْهِ

[٩٨٠] - مر تخريجه

إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ الْبَشِيعِ وَلَفْظِهِ الشَّنِيعِ لَا يَخْفَى عَلَى سِيَادَتِكُمْ مَا فِي كَلَامِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ السَّمَاجَةِ وَالتَّعْيِيرِ وَالْهُجْنَةِ وَسُوءِ النَّكِيرِ إذْ لَا يَتَفَوَّهُ بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَبِيحُهُ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَفَقَدَ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى حِسَّهُ وَرَامَ رَفْعَ مَا صَحَّ ذَمُّهُ بِذَلِكَ،وَلَمْ يُخَالِفْ أَحَدٌ فِي جَمِيعِ مَعْمُورِ الْأَرْضِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إلَى مَغْرِبِهَا إلَّا لِأَغْرَاضٍ فَاسِدَةٍ فِي نَظَرِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا وَهَنَ بِهَا وَلَا رَيْبَ فَلَا تَصْدُرُ هَذِهِ الْأَغْرَاضُ الْهَوْسِيَّةُ إلَّا مِنْ قَلْبٍ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَسُكْنَاهُ مِنْ الْأَوْطَانِ،وَمَنْ ارْتَبَكَ فِي هَذَا وَتَوَرَّطَ فِيهِ،فَقَدْ اسْتَعْجَلَ لِنَفْسِهِ الْخَبِيثَةِ الْخِزْيَ الْمَضْمُونَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ إلَّا أَنَّهُ لَا يُسَاوَى فِي الْعِصْيَانِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْمَقْتِ وَالسَّمَاجَةِ وَالْإِبْعَادِ وَالِاسْتِنْقَاصِ وَاسْتِحْقَاقِ الْمَلَامَةِ وَالْمَذَمَّةِ الْكُبْرَى التَّارِكَ لِلْهِجْرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ بِمُوَالَاةِ الْأَعْدَاءِ وَالسُّكْنَى بَيْنَ أَظْهُرِ الْبُعَدَاءِ؛لِأَنَّ غَايَةَ الْحَاصِلِ مِنْ هَذَيْنِ الْخَبِيثَيْنِ عَزْمٌ،وَهُوَ التَّصْمِيمُ وَتَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى الْفِعْلِ وَهُمَا لَمْ يَفْعَلَا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ الْأَشَاعِرَةُ فِي الْمُؤَاخَذَةِ بِهِ فَنَقَلَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَازِرِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – عَنْ كَثِيرٍ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِهِ وَاحْتَجَّ لَهُ بِحَدِيثِ «إذَا اصْطَفَّ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ فَأَثِمُوا بِالْحِرْصِ»،فَأُجِيبُ بِأَنَّ اللِّقَاءَ وَإِشْهَارَهُ السِّلَاحَ فِعْلٌ،وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْحِرْصِ وَقَالَ فِي الْإِكْمَالِ يَقُولُ:الْقَاضِي قَالَ عَامَّةُ السَّلَفِ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ لِكَثْرَةِ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُؤَاخَذَةِ بِعَمَلِ الْقَلْبِ وَحَمَلُوا الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الْهَمِّ قِيلَ لِلثَّوْرِيِّ أَنُؤَاخَذُ بِالْهِمَّةِ قَالَ إذَا كَانَتْ عَزْمًا قَالُوا:إنَّمَا يُؤَاخَذُ بِسَيِّئَةِ الْعَزْمِ؛لِأَنَّهَا مَعْصِيَةٌ كَسَيِّئَةِ الْمَعْزُومِ عَلَيْهِ؛لِأَنَّهَا لَمْ تُفْعَلْ،فَإِنْ فُعِلَتْ كُتِبَتْ سَيِّئَةً ثَانِيَةً،وَإِنْ كُفَّ عَنْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً لِحَدِيثِ «إنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»[٩٨١] وَقَالَ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ تَظَاهَرَتْ النُّصُوصُ بِالْمُؤَاخَذَةِ بِالْعَزْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا} [النور:١٩] وقَوْله تَعَالَى

[٩٨١] - شعب الإيمان (١/ ٥١٤)(٣٢٩) صحيح

{اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} [الحجرات:١٢]،وَقَدْ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى حُرْمَةِ الْحَسَدِ وَاحْتِقَارِ النَّاسِ وَإِرَادَةِ الْمَكْرُوهِ بِهِمْ اهـ.

وَاعْتَرَضَ هَذَا الْأَشْيَاخُ بِأَنَّ الْعَزْمَ الْمُخْتَلَفَ فِيهِ مَا لَهُ صُورَةٌ فِي الْخَارِجِ كَالزِّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ،وَأَمَّا مَا لَا صُورَةَ لَهُ فِي الْخَارِجِ كَالِاعْتِقَادَاتِ وَضَغَائِنِ النَّفْسِ مِنْ الْحَسَدِ وَنَحْوِهِ فَلَيْسَ مِنْ صُوَرِ مَحَلِّ الْخِلَافِ؛لِأَنَّ النَّهْيَ عَنْهُ فِي نَفْسِهِ بِهِ وَقَعَ التَّكْلِيفُ فَلَا يُحْتَجُّ بِالْإِجْمَاعِ الَّذِي فِيهِ وَلْيَكُنْ هَذَا آخِرَ مَا ظَهَرَ كَتْبُهُ مِنْ الْجَوَابِ عَنْ السُّؤَالِ الْمُفِيدِ الْمُوَجَّهِ مِنْ قِبَلِ الْفَقِيهِ الْمُعَظَّمِ الْخَطِيبِ الْفَاضِلِ الْقُدْوَةِ الصَّالِحِ الْبَقِيَّةِ وَالْجُمْلَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ السَّيِّدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُطْبَةَ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى سُمُوَّهُ وَرُقِيَّهُ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَرْجَمَ هَذَا الْجَوَابُ وَيُسَمَّى بِأَسْنَى الْمَتَاجِرِ فِي بَيَانِ أَحْكَامِ مَنْ غَلَبَ عَلَى وَطَنِهِ النَّصَارَى،وَلَمْ يُهَاجِرْ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ الْعُقُوبَاتِ وَالزَّوَاجِرِ وَاَللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُنَفِّعَ بِهِ وَيُضَاعِفَ الْأَجْرَ بِسَبَبِهِ،قَالَهُ وَخَطَّهُ الْعَبْدُ الْمُسْتَغْفِرُ الْفَقِيرُ الْمُسْلِمُ عُبَيْدُ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْوَنْشَرِيسِيُّ وَفَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى،وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ كَتْبِهِ يَوْمَ الْأَحَدِ التَّاسِعَ عَشَرَ لِذِي الْقَعْدَةِ الْحَرَامِ عَامَ سَنَةٍ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ عَرَّفَنَا اللَّهُ خَيْرَهُ اهـ.

وَنَصُّ السُّؤَالِ الْمُجَابِ عَنْهُ بِهَذَا الْجَوَابِ:الْحَمْدُ لِلَّهِ جَوَابُكُمْ يَا سَيِّدِي - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْكُمْ - وَمَتَّعَ الْمُسْلِمِينَ بِحَيَاتِكُمْ فِي نَازِلَةٍ،وَهِيَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ الْأَنْدَلُسِ وَتَرَكُوا هُنَالِكَ الدُّورَ وَالْأَرْضِينَ وَالْجَنَّاتِ وَالْكُرُومَاتِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأُصُولِ وَبَذَلُوا عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةً كَثِيرَةً مِنْ نَاضِّ الْمَالِ وَخَرَجُوا مِنْ تَحْتِ الْمِلَّةِ الْكَافِرَةِ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ فَرُّوا إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِإِيمَانِهِمْ،وَأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا بَقِيَ بِأَيْدِيهِمْ أَوْ بِأَيْدِي بَعْضِهِمْ مِنْ الْأَمْوَالِ وَاسْتَقَرُّوا بِحَمْدِ اللَّهِ بِدَارِ الْإِسْلَامِ تَحْتَ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ وَحُكْمِ الذِّمَّةِ الْمُسْلِمَةِ نَدِمُوا عَلَى الْهِجْرَةِ بَعْدَ حُضُورِهِمْ بِدَارِ الْإِسْلَامِ وَسَخِطُوا وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ وَجَدُوا الْحَالَ عَلَيْهِمْ ضَيِّقَةً،وَأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا بِدَارِ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ الْمَغْرِبُ هَذِهِ صَانَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَحَرَسَ أَوْطَانَهَا وَنَصَرَ سُلْطَانَهَا بِالنِّسْبَةِ إلَى التَّسَبُّبِ فِي طَلَبِ أَنْوَاعِ الْمَعَاشِ عَلَى الْجُمْلَةِ رِفْقًا وَلَا يُسْرًا وَلَا مُرْتَفِقًا وَلَا إلَى التَّصَرُّفِ فِي الْأَقْطَارِ أَمْنًا لَائِقًا وَصَرَّحُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى بِأَنْوَاعٍ مِنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ الدَّالِّ عَلَى ضَعْفِ

دِينِهِمْ وَعَدَمِ صِحَّةِ يَقِينِهِمْ فِي مُعْتَقَدِهِمْ،وَأَنَّ هَجْرَتَهُمْ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا زَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتْ لِدُنْيَا يُصِيبُونَهَا عَاجِلًا عِنْدَ وُصُولِهِمْ جَارِيَةً عَلَى وَفْقِ أَهْوَائِهِمْ فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوهَا وَفْقَ أَغْرَاضِهِمْ صَرَّحُوا بِذَمِّ دَارِ الْإِسْلَامِ وَشَأْنِهِ وَشَتْمِ الَّذِي كَانَ السَّبَبَ فِي هَذِهِ الْهِجْرَةِ وَسَبِّهِ وَبِمَدْحِ دَارِ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ وَالنَّدَمِ عَلَى مُفَارَقَتِهِ وَرُبَّمَا حُفِظَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ لِلْهِجْرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ هَذَا الْوَطَنُ صَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَاهُنَا يُهَاجَرُ مِنْ هُنَاكَ بَلْ مِنْ هَاهُنَا تَجِبُ الْهِجْرَةُ إِلَى هُنَاكَ.

وَعَنْ آخَرَ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ إِنْ جَازَ صَاحِبُ فشتالة إِلَى هَذِهِ النَّوَاحِي نَسِرْ إِلَيْهِ فَنَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَرُدَّنَا إِلَى هُنَاكَ يَعْنِي إِلَى دَارِ الْكُفْرِ،وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَيْضًا يَرُومُونَ أَعْمَالَ الْحِيلَةِ فِي الرُّجُوعِ إِلَى دَارِ الْكُفْرِ وَمُعَاوَدَةِ الدُّخُولِ تَحْتَ الذِّمَّةِ الْكَافِرَةِ كَيْفَ أَمْكَنَهُمْ فَمَا الَّذِي يَلْحَقُهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْإِثْمِ وَنَقْصِ رُتْبَةِ الدِّينِ وَالْجُرْحَةِ وَهَلْ هُمْ بِهِ مُرْتَكِبُونَ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي كَانُوا فَرُّوا مِنْهَا إِنْ تَمَادَوْا عَلَى ذَلِكَ،وَلَمْ يَتُوبُوا،وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَكَيْفَ بِمَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْحُصُولِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ إِلَى دَارِ الْكُفْرِ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ وَهَلْ يَجِبُ عَلَى مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ بِالتَّصْرِيحِ بِذَلِكَ،أَوْ بِمَعْنَاهُ شَهَادَةُ أَدَبٍ أَوْ لَا حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْوَعْظِ وَالْإِنْذَارِ عَنْ ذَلِكَ فَمَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرْجَى لَهُ قَبُولُ التَّوْبَةِ،وَمَنْ تَمَادَى عَلَيْهِ أُدِّبَ،أَوْ يُعْرِضُ عَنْهُمْ وَيَتْرُكُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمَا اخْتَارَهُ فَمَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ رَاضِيًا فَلَهُ نِيَّتُهُ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَنْ اخْتَارَ الرُّجُوعَ إِلَى دَارِ الْكُفْرِ وَمُعَاوَدَةَ الذِّمَّةِ الْكَافِرَةِ يَذْهَبُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَمَنْ ذَمَّ دَارَ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ صَرِيحًا،أَوْ مَعْنًى تَرَكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ بَيِّنُوا لَنَا حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ،وَهَلْ مِنْ شَرْطِ الْهِجْرَةِ أَنْ لَا يُهَاجِرَ إِلَّا إِلَى دُنْيَا مَضْمُونَةٍ يُصِيبُهَا عَاجِلًا عِنْدَ وُصُولِهِ جَارِيَةً عَلَى وَفْقِ غَرَضِهِ حَيْثُ حَلَّ أَبَدًا فِي نَوَاحِي الْإِسْلَامِ،أَوْ لَيْسَ ذَلِكَ بِشَرْطٍ بَلْ تُجِبُ عَلَيْهِمْ الْهِجْرَةَ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ إِلَى حُلْوٍ،أَوْ مُرٍّ،أَوْ وَسِعٍ،أَوْ ضَيِّقٍ أَوْ يُسْرٍ،أَوْ عُسْرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَحْوَالِ الدُّنْيَا،وَإِنَّمَا الْمَقْصِدُ بِهَا سَلَامَةُ الدِّينِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ مَثَلًا وَالْخُرُوجُ مِنْ حُكْمِ الْمِلَّةِ الْكَافِرَةِ إِلَى حُكْمِ الْمِلَّةِ الْمُسْلِمَةِ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حُلْوٍ،أَوْ مُرٍّ،أَوْ ضِيقِ عَيْشٍ،أَوْ سِعَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بَيَانًا شَافِيًا مُجَرَّدًا مَشْرُوحًا كَافِيًا

يَأْجُرُكُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَعْتَمِدُ مَقَامَكُمْ الْعَالِيَ وَرَحْمَةُ اللَّــهِ تَعَــالَى وَبَرَكَاتُهُ.

ثُمَّ قَالَ فِي الْمِعْيَارِ عَقِبَ الْجَوَابِ السَّابِقِ مَا نَصُّهُ وَكَتَبَ إِلَى الْفَقِيــهِ أَبُــو عَبْــدِ اللَّــهِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا بِمَا نَصُّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ جَوَابُكُمْ يَا سَــيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَمَتَّعَ الْمُسْلِمِينَ بِحَيَاتِكُمْ فِي نَازِلَةٍ وَهِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ آفِلَةَ مَعْــرُوفٌ بِالْفَضْلِ وَالدِّينِ تَخَلَّفَ عَنْ الْهِجْرَةِ مَعَ أَهْلِ بَلَدِهِ لِيَبْحَثَ عَنْ أَخٍ لَهُ،فَقَدْ قُتِلَ فِــي قِتَــالِ الْعَدُوِّ بِأَرْضِ الْحَرْبِ فَبَحَثَ عَنْ خَبَرِهِ إِلَى الْآنَ فَلَمْ يَجِدْهُ وَأَيِسَ مِنْهُ فَــأَرَادَ أَنْ يُهَــاجِرَ فَعَرَضَ لَهُ سَبَبٌ آخَرُ،وَهُوَ أَنَّهُ لِسَانُ عَوْنٍ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الذِّمِّيِّينَ حَيْثُ سُــكْنَاهُ وَلِمَــنْ جَاوَرَهُمْ أَيْضًا مِنْ أَمْثَالِهِمْ بِقَرْيَةِ الْأَنْدَلُسِ يَتَكَلَّمُ عَنْهُمْ مَعَ حُكَّامِ النَّصَارَى فِيمَا يَعْــرِضُ لَهُمْ مَعَهُمْ مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ وَيُخَاصِمُ عَنْهُمْ وَيُخَلِّصُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مِنْ وَرَطَــاتٍ عَظِيمَــةٍ بِحَيْثُ إِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ مِنْهُمْ أَكْثَرُهُمْ قَلَّ مَا يَجِدُونَ مِثْلَهُ فِي ذَلِــكَ الْفَــنِّ إِنْ هَاجَرَ وَبِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَلْحَقُهُمْ فِي فَقْدِهِ ضَرَرٌ كَثِيرٌ إِنْ فَقَدُوهُ فَهَلْ يُرَخَّصُ لَهُ فِي الْإِقَامَــةِ مَعَهُمْ تَحْتَ حُكْمِ الْمِلَّةِ الْكَافِرَةِ لِمَا فِي إِقَامَتِهِ هُنَالِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ لِأُولَئِكَ الْمَسَــاكِينِ قِبَلَ الذِّمِّيِّينَ مَعَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْهِجْرَةِ مَتَى شَاءَ،أَوْ لَا يُرَخَّصُ لَهُ إِذْ لَا رُخْصَةَ لَهُمْ أَيْضًــا فِي إِقَامَتِهِمْ هُنَاكَ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْكُفْرِ لَا سِيَّمَا،وَقَدْ سُمِحَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ مَعَ أَنَّ الْأَكْثَرَ قَادِرُونَ عَلَيْهَا مَتَى أَحَبُّوا،وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فَهَلْ يُرَخَّصُ لَهُ أَيْضًا فِي الصَّلَاةِ بِثِيَابِهِ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِهِ إِذْ لَا تَخْلُو فِي الْغَالِبِ عَنْ نَجَاسَةٍ لِكَثْرَةِ مُخَالَطَةِ النَّصَارَى وَتَصَرُّفِهِ بَيْنَهُمْ وَرُقَادِهِ وَقِيَامِهِ فِي دِيَارِهِمْ فِي خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْــدَ الــذِّمِّيِّينَ حَسْبَمَا ذُكِرَ بَيِّنُوا لَنَا حُكْمَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَأْجُورِينَ مَشْكُورِينَ إِنْ شَاءَ اللَّــهُ تَعَــالَى وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَعْتَمِدُ مَقَامَكُمْ الْعَالِيَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

فَأَجَبْت بِمَا نَصُّهُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ الْجَوَابُ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِــيُّ التَّوْفِيــقِ بِفَضْلِهِ أَنَّ إِلَهَنَا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ قَدْ جَعَلَ الْجِزْيَةَ وَالصَّغَارَ فِي أَعْنَاقِ مَلَاعِينِ الْكُفْرِ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا يَطُوفُونَ بِهَا فِي الْأَقْطَارِ وَفِي أُمَّهَاتِ الْمَدَائِنِ وَالْأَمْصَارِ إِظْهَــارًا لِعِــزَّةِ الْإِسْــلَامِ وَشَرَفِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ،فَمَنْ حَاوَلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَصَمَهُمْ اللَّهُ وَوَفَّــرَهُمْ انْقِلَــابَ تِلْــكَ

السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ فِي عُنُقِه،فَقَدْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَرَّضَ بِنَفْسِه إِلَى سَخَطِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ وَحَقِيقٌ أَنْ يُكَبْكِبَهُ مَعَهُمْ فِي النَّارِ {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيـــزٌ} [المجادلة:٢١]

فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ السَّعْيُ فِي حِفْظِ رَأْسِ الْإِيمَانِ بِالْبُعْـــدِ وَالْفِرَارِ عَنْ مُسَاكَنَةِ أَعْدَاءِ حَبِيبِ الرَّحْمَنِ وَالاعْتِلَالُ لِإِقَامَةِ الْفَاضِلِ الْمَذْكُورِ بِمَا عَـــرَضَ مِنْ عَرَضِ التَّرْجَمَةِ بَيْنَ الطَّاغِيَةِ وَأَهْلِ ذِمَّتِه مِنْ الذِّمِّيِّينَ الْعُصَاةِ لَا يَخْلُصُ مِـــنْ وَاجِـــبِ الْهِجْرَةِ وَلَا يُتَوَهَّمُ مُعَارَضَةُ مَا سُطِّرَ فِي السُّؤَالِ مِنْ الْأَوْصَافِ الطَّرْدِيَّةِ بِحُكْمِهَا الْوَاجِبِ إلَّا مُتَجَاهِلٌ أَوْ جَاهِلٌ مَعْكُوسُ الْفِطْرَةِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ مَدَارِكِ الشَّرْعِ خِبْرَةٌ؛لِـأَنَّ مُسَـــاكَنَةَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَالصِّغَارُ لَا تَجُوزُ وَلَا تُبَاحُ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ لِمَا تُنْتِجُـــهُ مِـــنْ الْأَدْنَاسِ وَالْأَضْرَارِ وَالْمَفَاسِدِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ طُولَ الْأَعْمَارِ:

مِنْهَا أَنَّ غَرَضَ الشَّرْعِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ وَشَهَادَةُ الْحَقِّ قَائِمَةً عَلَى ظُهُورِهَا عَالِيَـــةً عَلَى غَيْرِهَا مُنَزَّهَةً عَنْ الازْدِرَاءِ بِهَا وَمِنْ ظُهُورِ شَعَائِرِ الْكُفْرِ عَلَيْهَا وَمُسَـــاكَنَتِهِمْ تَحْـــتَ الذِّلَّةِ وَالصِّغَارِ تَقْتَضِي وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّرْعِيَّةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ الْمُنِيفَةُ سَافِلَةً لَا عَالِيَةً وَمُزْدَرًى بِهَا لَا مُنَزَّهَةً وَحَسْبُك بِهَذِهِ الْمُخَالَفَةِ لِلْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُصُـــولِ،وَمَنْ يَتَحَمَّلُهَا وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا طُولَ عُمْرِهِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا إكْرَاهٍ وَمِنْهَا إكْمَالُ الصَّلَاةِ الَّتِـــي تَلِي الشَّهَادَتَيْنِ فِي الْفَضْلِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِعْلَانِ وَالظُّهُورُ لَا يَكُونُ وَلَا يُتَصَوَّرُ إلَّـــا بِكَمَـــالِ الظُّهُورِ وَالْعُلَا وَالنَّزَاهَةِ مِنْ الازْدِرَاءِ وَالاحْتِقَارِ فِي مُسَاكَنَةِ الْكُفَّـــارِ وَمُلَابَسَـــةِ الْفُجَّـــارِ تَعْرِيضُهَا لِلْإِضَاعَةِ وَالازْدِرَاءِ وَالْهُزُؤِ وَاللَّعِبِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَـــى الصَّـــلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ} [المائدة:٥٨] وَحَسْبُك بِهَذِهِ الْمُخَالَفَـــةِ أَيْضًا.

وَمِنْهَا إيتَاءُ الزَّكَاةِ وَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي بَصِيرَةٍ وَسَرِيرَةٍ مُسْتَنِيرَةٍ أَنَّ إخْرَاجَ الزَّكَاةِ لِلْإِمَـــامِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَشَعَائِرِ الْأَنَامِ وَحَيْثُ لَا إمَامَ فَلَا إخْرَاجَ لِعَدَمِ شَرْطِهَا فَلَا زَكَاةَ لِفَقْـــدِ مُسْتَحِقِّهَا،فَهَذَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ مُنْهَدِمٌ بِهَذِهِ الْمُوَالَاةِ الْكُفْرِيَّةِ،وَأَمَّا إخْرَاجُهَا لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَخْفَى أَيْضًا مَا فِيهِ مِنْ الْمُنَاقَضَةِ لِلْمُتَعَبَّدَاتِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّيًّا

وَمِنْهَا صِيَامُ رَمَضَانَ وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ وَزَكَاةُ الْأَبْدَانِ وَهِيَ مَشْرُوطَةٌ بِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ ابْتِدَاءً وَانْقِضَاءً وَفِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ إنَّمَا تَثْبُتُ الرُّؤْيَةُ بِالشَّهَادَةِ وَالشَّهَادَةُ لَا تُؤَدَّى إلَّا عِنْدَ الْأَئِمَّةِ وَخُلَفَائِهِمْ وَحَيْثُ لَا إمَامَ وَلَا خَلِيفَةَ فَلَا شَهَادَةَ فَيَكُونُ الشَّهْرُ إذْ ذَاكَ مَشْكُوكُ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ فِي الْعَمَلِ الشَّرْعِيِّ وَمِنْهَا حَجُّ الْبَيْتِ،وَالْحَجُّ وَإِنْ كَانَ سَاقِطًا عَنْهُمْ لِعَدَمِ الِاسْتِطَاعَةِ؛لِأَنَّهَا مَوْكُولَةٌ إلَيْهِمْ بِالْجِهَادِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ،وَمَحْوُ الْكُفْرِ مِنْ قَوَاعِدِ الْأَعْمَالِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ وَعِنْدَ مَسِيسِ الْحَاجَةِ وَلَا سِيَّمَا بِمَوَاضِعِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا وَمَا يُجَاوِرُهَا لِمِثْلِهِمْ إنَّمَا هُوَ ضَرُورَةٌ مَانِعَةٌ مِنْهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ كَالْعَازِمِ عَلَى تَرْكِهِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَالْعَازِمُ عَلَى التَّرْكِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ كَالتَّارِكِ قَصْدًا مُخْتَارًا،وَأَمَّا مُقْتَحِمُو نَقِيضِهِ بِمُعَاوَنَةِ أَوْلِيَائِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إمَّا بِالنُّفُوسِ.

وَإِمَّا بِالْأَمْوَالِ فَيَصِيرُونَ حِينَئِذٍ حَرْبِيِّينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَحَسْبُك بِهَذَا مُنَاقَضَةً وَضَلَالًا،وَقَدْ اتَّضَحَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ نَقْصُ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ وَزَكَاتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَإِخْلَالِهِمْ بِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَهَادَةِ الْحَقِّ وَإِهْمَالِهِمْ لِإِجْلَالِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَتَنْزِيهِهَا عَنْ ازْدِرَاءِ الْكُفَّارِ وَتُلَاعِبْ الْفُجَّارِ فَكَيْفَ يَتَوَقَّفُ مُتَشَرِّعٌ،أَوْ يَشُكُّ مُتَوَرِّعٌ فِي تَحْرِيمِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ مَعَ اسْتِلْزَامِهَا لِمُخَالَفَةِ جَمِيعِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَلِيلَةِ مَعَ مَا يَنْضَمُّ إلَيْهَا وَيَقْتَرِنُ بِهَذِهِ الْمُسَاكَنَةِ الْمَقْهُورَةِ مِمَّا لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا غَالِبًا مِنْ التَّنْقِيصِ الدُّنْيَوِيِّ وَتَحَمُّلِ الذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ،وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُخَالِفٌ لِمَعْهُودِ عِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَرِفْعَةِ أَقْدَارِهِمْ وَدَاعٍ إلَى احْتِقَارِ الدِّينِ وَاهْتِضَامِهِ وَمِنْ أُمُورٍ تُصَمُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ مِنْهَا الْإِخْلَالُ وَالِاحْتِقَارُ وَالْإِهَانَةُ،وَقَدْ قَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» وَقَالَ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى» وَمِنْهَا الِازْدِرَاءُ وَالِاسْتِهْزَاءُ وَلَا يَتَحَمَّلُهُمَا ذُو مُرُوءَةٍ فَاضِلَةٍ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَمِنْهَا السَّبُّ وَالْإِذَايَةُ فِي الْعِرْضِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِي الْبَدَنِ وَالْمَالِ وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنْ خِسَّةِ الْهِمَّةِ وَالْمُرُوءَةِ وَمِنْهَا الِاسْتِقْرَارُ فِي مُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرَاتِ وَالتَّعَرُّضِ لِمُلَابَسَةِ النَّجَاسَاتِ وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُتَشَابِهَاتِ وَمِنْهَا مَا يُتَوَقَّعُ مَخُوفًا فِي هَذِهِ الْإِقَامَةِ وَهِيَ أُمُورٌ أَيْضًا مِنْهَا نَقْضُ الْعَهْدِ مِنْ الْمَلِكِ وَالتَّسَلُّطُ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْمَالِ:وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ – نَهَى عَنْ الْإِقَامَةِ

بجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ رِبَاطًا لَا يُجْهَلُ فَضْلُهُ وَمَعَ مَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْقُوَّةِ وَالظُّهُورِ وَوُفُورِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ نَهَى عَنْهُ خَلِيفَةُ الْوَقْتِ الْمُتَّفَقُ عَلَى دِينِهِ وَفَضْلِهِ وَصَلَاحِهِ وَنَصِيحَتِهِ لِرَعِيَّتِهِ خَوْفَ التَّغْرِيرِ فَكَيْفَ بِمَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ بِأَيْدِيهِمْ عِنْدَ قُوَّتِهِمْ وَظُهُورِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَوُفُورِ عَدَدِهِمْ اعْتِمَادًا عَلَى وَفَاءِ عَهْدِهِمْ فِي شَرِيعَتِهِمْ وَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ بِالْإِضَافَةِ إلَيْهِمْ فَضْلًا عَنْ قَبُولِهَا بِالْإِضَافَةِ إلَيْنَا وَكَيْفَ يُعْتَمَدُ عَلَى زَعْمِهِمْ بِالْوَفَاءِ مَعَ مَا وَقَعَ مِنْ هَذَا الْمُتَوَقَّعِ وَمَعَ مَا يَشْهَدُ لَهُ مِنْ الْوَقَائِعِ عِنْدَ مَنْ بَحَثَ وَاسْتَقْرَأَ الْأَخْبَارَ فِي مَعْمُورِ الْأَقْطَارِ.

وَمِنْهَا الْخَوْفُ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْمَالِ أَيْضًا مِنْ شِرَارِهِمْ وَسُفَهَائِهِمْ وَمُغْتَالِيهِمْ هَذَا عَلَى فَرْضِ وَفَاءِ دَهَاقِينِهِمْ وَمَلِكِهِمْ،وَهَذَا أَيْضًا تَشْهَدُ لَهُ الْعَادَةُ وَيُقَرِّرُهُ الْوَاقِعُ وَمِنْهَا الْخَوْفُ مِنْ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَهَبْ أَنَّ الْكِبَارَ الْعُقَلَاءَ قَدْ يَأْمَنُونَهَا فَمَنْ يُؤَمِّنُ الصِّغَارَ وَالسُّفَهَاءَ وَضَعَفَةَ النِّسَاءِ إذَا انْتُدِبَ إلَيْهِمْ دَهَاقِينُ الْأَعْدَاءِ وَشَيَاطِينُهُمْ.

وَمِنْهَا الْخَوْفُ مِنْ الْفِتْنَةِ عَلَى الْأَبْضَاعِ وَالْفُرُوجِ وَمَتَى يَأْمَنُ ذُو زَوْجَةٍ،أَوْ ابْنَةٍ،أَوْ قَرِيبَةٍ وَضِيئَةٍ أَنْ يَعْثُرَ عَلَيْهَا وَضِيءٌ مِنْ كِلَابِ الْأَعْدَاءِ وَخَنَازِيرِ الْبُعَدَاءِ فَيَغُرَّهَا فِي نَفْسِهَا وَيَغْتَرَّهَا فِي دِينِهَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهَا وَتُطَاوِعُهُ وَيُحَالُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلِيِّهَا بِلَا امْتِرَاءٍ وَالْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ مُكْنَةُ الْمُعْتَدِينَ عَادَ،وَمَنْ بِهَا مِنْ الْأَوْلَادِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ الْبَلَاءِ وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَمِنْهَا الْخَوْفُ مِنْ سَرَيَانِ سِيَرِهِمْ وَلِسَانِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ الْمَذْمُومَةِ إلَى الْمُقِيمِينَ مَعَهُمْ بِطُولِ السِّنِينَ كَمَا عَرَضَ لِأَهْلِ آيلَةَ وَغَيْرِهِمْ وَفُقِدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ جُمْلَةً،وَإِذَا فُقِدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ جُمْلَةً فُقِدَتْ مُتَعَبِّدَاتُهُ وَنَاهِيك مِنْ فَوَاتِ الْمُتَعَبِّدَاتِ اللَّفْظِيَّةِ مَعَ كَثْرَتِهَا أَوْ كَثْرَةِ فَضَائِلِهَا.

وَمِنْهَا الْخَوْفُ مِنْ التَّسَلُّطِ عَلَى الْمَالِ بِإِحْدَاثِ الْوَظَائِفِ الثَّقِيلَةِ وَالْمَغَارِمِ الْمُجْحِفَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إلَى اسْتِغْرَاقِ الْمَالِ وَإِحَاطَةِ الضَّرَّابِينَ الْكُفْرِيَّةِ بِهِ فِي دَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي صُورَةِ ضَرُورَةٍ فِتْنَةٍ،أَوْ دَفْعِ اسْتِنَادٍ إلَى تَلْفِيقٍ مِنْ الْعُذْرِ وَالتَّأْوِيلِ وَلَا يُسْتَطَاعُ مُرَاجَعَتُهُمْ فِيهِ وَلَا مُنَاظَرَتُهُمْ عَلَيْهِ،وَإِنْ كَانَ فِي غَايَةٍ مِنْ الضَّعْفِ وَوُضُوحِ الْوَهْنِ وَالْفَسَادِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِتَحْرِيكِ دَوَاعِي الْحِقْدِ وَدَاعِيَةً لِنَقْضِ الْعَهْدِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى

النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ،وَهَذَا يَشْهَدُ لَهُ الْوُقُوعُ عِنْدَ مَنْ بَحَثَ بَلْ رُبَّمَا وَقَعَ فِـي مَوْضِـعِ النَّازِلَةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا وَفِي غَيْرِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ،فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذِهِ الْمَفَاسِدِ الْوَاقِعَةِ وَالْمُتَوَقَّعَةِ تَحْرِيمُ هَذِهِ الْإِقَامَةِ وَخَطَرِ هَذِهِ الْمُسَاكَنَةِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ الاسْتِقَامَةِ مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَاضِـدَةٍ مُؤَدِّيَةٍ إلَى مَعْنًى وَاحِدٍ بَلْ نَقَلَ الْأَئِمَّةُ حُكْمَ هَذَا الْأَصْلِ إلَى غَيْرِهِ لِقُوَّتِهِ وَظُهُـورِهِ فِـي التَّحْرِيمِ فَقَالَ إمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْـهُ – إنَّ آيَةَ الْهِجْرَةِ تُعْطَى أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ الْبِلَادِ الَّتِي تَغَيَّرُ فِيهَا السُّنَنُ وَيُعْمَلُ فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَضْلًا عَنْ الْخُرُوجِ وَالْفِرَارِ مِنْ بِلَادِ الْكَفَرَةِ وَبِقَاعِ الْهِجْرَةِ وَمَعَاذَ اللَّـهِ أَنْ تَرْكَنَ لِأَهْلِ التَّثْلِيثِ أُمَّةٌ فَاضِلَةٌ تُوَحِّدُ وَتَرْضَى بِالْمُقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْأَنْجَاسِ وَالْأَرْجَاسِ وَهِيَ تُعَظِّمُهُ وَتُمَجِّدُهُ فَلَا فُسْحَةَ لِلْفَاضِلِ الْمَذْكُورِ فِي إقَامَتِهِ بِالْمَوْضِـعِ الْمَـذْكُورِ لِلْغَـرَضِ الْمَذْكُورِ وَلَا رُخْصَةَ لَهُ وَلَا لِأَصْحَابِهِ فِيمَا يُصِيبُ ثِيَابَهُمْ وَأَبْـدَانَهُمْ مِـنْ النَّجَاسَـاتِ وَالْأَخْبَاثِ إذَا الْعَفْوُ عَنْهَا مَشْرُوطٌ بِعُسْرِ التَّوَقِّي وَالتَّحَرُّزِ وَلَا عُسْرَ مَعَ اخْتِيَارِهِمْ لِلْإِقَامَـةِ وَالْعَمَلِ عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَكَتَبَهُ مُسْلِمًا عَلَى مَـنْ يَقِفُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ الْعَبْدُ الْمُسْتَغْفِرُ الْفَقِيرُ الْحَقِيرُ الرَّاغِبُ فِي بَرَكَةِ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيَنْتَهِي إلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْوَنْشَرِيسِيُّ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى اهـ.

مِنْ خَدِيمِ الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنُ مُحْيِي الدِّينِ إلَى سَادَتِنَا الْعُلَمَاءِ الْأَبْرَارِ الْأَفَاضِلِ الْأَخْيَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَأَرْضَاكُمْ وَجَعَلَ الْجَنَّـةَ مَنْـزِلَكُمْ وَمَثْـوَاكُمْ جَوَابُكُمْ عَمَّا فَعَلَهُ بِنَا سُلْطَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَا تُتَوَقَّعُ مِنْ مُطْلَـقِ النَّاسِ فَضْلًا عَنْ أَعْيَانِهِمْ فَأَمْعِنُوا نَظَرَكُمْ فِيهَا شَافِيًا وَأَجِيبُونَا جَوَابًا كَافِيًا شَافِيًا خَالِيًا عَنْ الْخِلَافِ لِيَخْلُوَ قَلْبُ سَامِعِهِ عَنْ الاعْتِسَافِ،وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَوْلَى عَدُوُّ اللَّهِ الْفَرَانْسِـيسُ عَلَى الْجَزَائِرِ وَخَلَتْ الْإِيَالَةُ عَنْ الْأَمِيرِ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ وَعُطِّلَتْ الْأَسْبَابُ وَطَالَتْ شَوْكَةُ الْكَافِرِ اجْتَمَعَ ذَوُو الرَّأْيِ وَتَقَاضَوْا عَلَى أَنْ يُقَدِّمُوا رَجُلًا مِنْ سَادَاتِهِمْ يُؤَمِّنُ السُّبُلَ وَيَكُفُّ الظَّالِمَ وَيَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ لِلْجِهَادِ لِئَلَّا يَبْقَى الْكَافِرُ فِي رَاحَةٍ فَتَمْتَدُّ يَدُهُ فَاخْتَـارُوا رَجُلًـا مِنْهُمْ وَقَدَّمُوهُ لِذَلِكَ فَتَقَدَّمَ وَعَمِلَ جَهْدَهُ فِيمَا قَدَّمُوهُ لَهُ فَتَأَمَّنَتْ السُّـبُلُ بِحَمْـدِ اللَّـهِ

وَتَيَسَّرَتْ الْأَسْبَابُ بعَوْنه وَجَاهَدَ في سَبيله،وَذَلكَ منْ لَدُنْ سَنَة السِّتَّة وَالْأَرْبَعينَ إلَى سَنَة ثَلَاث وَستِّينَ هَذه وَلَنْ نَزَالُ كَذَلكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ،فَإذَا بسُلْطَان الْمَغْرب فَعَلَ بنَا الْأَفْعَالَ الَّتي تُقَوِّي حزْبَ الْكَافر عَلَى الْإسْلَام وَتُضْعفُنَا وَأَضَرَّ بنَا الضَّرَرَ الْكَثيرَ،وَلَمْ يَلْتَفتْ إلَى قَوْل رَسُول اللَّه – ﷺ – « الْمُسْلمُ أَخُو الْمُسْلم لاَ يَظْلمُهُ وَلاَ يُسْلمُهُ »[٩٨٢] وَلَا إلَى قَوْله – عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «الْمُؤْمنُ لأَخيه كَالْبُنْيَان الْمَرْصُوص يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» وَلَا إلَى قَوْله – عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «الْمُؤْمنُونَ تَتَكَافَأُ دمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بذمَّتهمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سوَاهُمْ»[٩٨٣] إلَى غَيْر ذَلكَ منْ الْأَحَاديث الشَّريفَة فَأَوَّلُ مَا فَعَلَ بنَا أَنَّنَا لَمَّا كُنَّا حَاصَرْنَا الْكَافرُ في جَميع ثُغُوره نَحْوًا منْ ثَلَاث سنينَ وَقَطَعْنَا عَلَيْه السُّبُلَ وَمَادَّةَ الْبُرِّ منْ الْحَبِّ وَالْحَيَوَان وَغَيْرهمَا تَضْييقًا عَلَيْه وَتَضْعيفًا لَهُ خُصُوصًا منْ جهَة الْحَيَوَان؛لأَنَّ قَانُونَ عَسْكَره أَنَّهُمْ إذَا لَمْ يَأْكُلُوا اللَّحْمَ يَوْمَيْن،أَوْ ثَلَاثَةً يَفرُّونَ عَنْ طَاغيَتهمْ وَلَا يُقَاتلُونَ وَلَا يُلَامُونَ حَتَّى بَلَغَتْ قيمَةُ الثَّوْر عنْدَهُمْ مائَةُ ريَال دورو،فَإذَا بالسُّلْطَان الْمَذْكُور أَمَدَّهُمْ وَهُمْ في الضِّيق الشَّديد بأُلُوف منْ الْبَقَر وَغَيْرهَا.

الثَّاني أَنَّهُ غَصَبَ منْ عَاملنَا أَلْفًا وَخَمْسَمائَة بُنْدُقَة إنْجليزيَّةً.

الثَّالثُ أَنَّهُ غَصَبَ منْ وَكيلنَا أَرْبَعمائَة كسْوَة جُوخٍ أَعْدَدْنَاهَا للْمُجَاهدَيْن.

الرَّابعُ أَنَّ بَعْضَ الْمُحبِّينَ في اللَّه وَرَسُوله منْ رَعيَّته قَطَعَ قطْعَةً منْ مَاله الْخَاصِّ به ليُعينَ به الْمُجَاهدينَ،فَإذَا بالسُّلْطَان الْمَذْكُور زَجَرَهُ وَنَزَعَهَا منْهُ وَقَالَ أَنَا أَحَقُّ بهَا وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يُجَاهدْ وَأَيْضًا أَنَّ بَعْضَ الْقَبَائل منْ رَعيَّته عَزَمُوا عَلَى إعَانَتنَا بأَنْفُسهمْ في سَبيل اللَّه فَمَنَعَهُمْ منْ ذَلكَ وَأَعَانَنَا آخَرُ منْ رَعيَّته بسُيُوفٍ في سَبيل اللَّه فَحَبَسَهُ إلَى الْآنَ زَجْرًا لَهُ وَرَدْعًا لغَيْره.

الْخَامسُ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ لهَذَا السُّلْطَان مُقَاتَلَتُهُ مَعَ الْفرَانْسيس أَيَّامًا قَلَائلَ ثُمَّ تَصَالَحَا وَاشْتَرَطَ عَلَيْه الْفرَانْسيسُ أَنْ لَا يُتمَّ الصُّلْحَ بَيْنَهُمَا إلَّا إذَا حَلَّ أَمْرُ هَذه الْعصَابَة الْمُحَمَّديَّة الْمُجَاهدينَ وَيَقْبضُ رَئيسَهُمْ،فَإمَّا أَنْ يَحْبسَهُ طُولَ عُمْره،وَإمَّا أَنْ يَقْتُلَهُ.

---

[٩٨٢] – صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٢)

[٩٨٣] – مسند أحمد ط الرسالة (٢/ ٢٦٨) صحيح

وَإِمَّا أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ يَدِ الْفَرَانْسِيسِ،أَوْ يُجْلِيَهُ مِنْ الْأَرْضِ فَأَجَابَهُ السُّلْطَانُ إلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ثُمَّ أَمَرَنِي بِتَرْكِ الْجِهَادِ فَأَبَيْت؛لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَلَيَّ وِلَايَةٌ وَلَا أَنَا مِنْ رَعِيَّتِهِ ثُمَّ قَطَعَ عَنْ الْمُجَاهِدِينَ الْكَيْلَ حَتَّى هَامَ جُوعًا مَنْ لَمْ يَجِدْ صَبْرًا وَأَسْقَطَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ رُكْنًا ثُمَّ أَخَذَ يَسْعَى فِي قَبْضِي فَحَفِظَنِي اللَّهُ مِنْهُ،وَلَوْ ظَفِرَ بِي لَقَتَلَنِي،أَوْ لَفَعَلَ بِي مَا اشْتَرَطَهُ عَلَيْهِ الْفَرَانْسِيسُ،ثُمَّ أَمَرَ بَعْضَ الْقَبَائِلِ مِنْ رَعِيَّتِهِ أَنْ يَقْتُلُونَا وَيَأْخُذُوا أَمْوَالَنَا وَكَأَنَّهُ اسْتَحَلَّ ذَلِكَ فَأَبَوْا جَزَاهُمْ اللَّهُ خَيْرًا،فَإِذَا تَصَوَّرْتُمْ أَيُّهَا السَّادَاتُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الَّتِي تَتَفَطَّرُ مِنْهَا الْأَكْبَادُ وَتَتَأَثَّرُ عِنْدَ سَمَاعِهَا الْعِبَادُ فَهَلْ يَحْرُمُ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيَضْمَنُ مَا غَصَبَ وَيُقْتَلُ بِنَا إنْ قَتَلَنَا حَسْبَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْمِعْيَارُ فِي أَوَّلِ بَابِ الْجِهَادِ وَزُبْدَتُهُ أَنَّهُ إذَا نَزَلَ الْكَافِرُ بِسَاحَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ إنْ لَمْ تُعْطُونِي فُلَانًا،أَوْ مَالَهُ أَوْ يُقْتَلُ اسْتَأْصَلْتُكُمْ،فَإِنَّهُ لَا يَسْعَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ،وَلَوْ خَافُوا اسْتِئْصَالَهُ،فَإِنْ أَعْطَى مَالَهُ ضَمِنَهُ الْآمِرُ بِهِ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ نُصُوصِ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ،وَكَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا الشَّيْخُ مَيَّارَةُ فِي شَرْحِ لَامِيَّةِ الزَّقَّاقِ فِي آخِرِ بَابِ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى وَنَصُّهُ قَالَ ابْنُ رُشْدٍ إذَا أَمَرَ الْإِمَامُ بَعْضَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِ رَجُلٍ ظُلْمًا فَفَعَلَ فَلَا خِلَافَ أَنَّهُمَا يُقْتَلَانِ مَعًا نَقَلَهُ الْمَوَّاقُ عِنْدَ قَوْلِ خَلِيلٍ فِي بَابِ الْجِنَايَاتِ كَمُكْرِهٍ وَمُكْرَهٌ،فَإِنْ فَعَلَ الْمَأْمُورُ ذَلِكَ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ،فَإِنَّهُ لَا يُعْذَرُ بِذَلِكَ قَالَ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضًا الْإِكْرَاهُ عَلَى الْأَفْعَالِ إنْ كَانَ يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقٌّ لِمَخْلُوقٍ كَالْقَتْلِ وَالْغَصْبِ فَلَا خِلَافَ أَنَّ الْإِكْرَاهَ غَيْرُ نَافِعٍ نَقَلَهُ أَيْضًا عِنْدَ قَوْلِهِ فِي الطَّلَاقِ لَا قَتْلَ مُسْلِمٍ وَقَطْعَهُ وَنَقَلَهُ الْحَطَّابُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ الثَّانِي وَنَصُّهُ فِي آخِرِ مُعِينِ الْحُكَّامِ وَمَنْ هُدِّدَ بِقَتْلٍ،أَوْ غَيْرِهِ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا،أَوْ يَقْطَعَ يَدَهُ،أَوْ يَأْخُذَ مَالَهُ،أَوْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ أَوْ يَبِيعَ مَتَاعَ رَجُلٍ فَلَا يَسَعُهُ ذَلِكَ،وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إنْ عَصَى وَقَعَ بِهِ ذَلِكَ،فَإِنْ فَعَلَ فَعَلَيْهِ الْقَوَدُ وَيُغَرَّمُ مَا أَتْلَفَ وَيُحَدُّ إنْ زَنَى وَيُضْرَبُ إنْ ضَرَبَ وَيَأْثَمُ اهـ.

وَهَلْ الْمُهَادَنَةُ الَّتِي أَوْقَعَهَا فَاسِدَةٌ،وَمَنْقُوضَةٌ؛لِأَنَّ الْجِهَادَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُ الْعَدُوُّ بِسَبَبِ قُرْبِنَا مِنْهُ وَعَجْزِنَا عَنْ الْجِهَادِ وَلِأَنَّ مَنْفَعَتَهَا عَائِدَةٌ عَلَى الْكُفَّارِ وَوَبَالُهَا عَلَى الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ حَسْبَمَا نُصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمِعْيَارِ أَيْضًا فِي بَابِ الْجِهَادِ فِي الْجَوَابِ عَنْ سُؤَالِ التِّلِمْسَانِيِّ وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ أَوْقَعَ الصُّلْحَ مَعَ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمُونَ

لَا يَرَوْنَ إِلَّا الْجِهَادَ فَأَجَابَهُ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ مُهَادَنَتَهُ مَنْقُوضَةٌ وَفِعْلَهُ مَرْدُودٌ وَنَقَلَ عَلَى ذَلِكَ نُصُوصًا وَهَلْ يُحْمَلُ بَيْعُ الْبَقَرِ لَهُمْ فِي وَقْتِ حَصْرِهِمْ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حُرْمَةِ بَيْعِ الْخَيْلِ لَهُمْ وَالشَّعِيرِ وَآلَةِ الْحَرْبِ أَمْ لَا،وَعَلَى أَنَّهُ لَمْ تَسَعْهُ مُخَالَفَةُ الْفَرَنْسِيسِ فِيمَا شَرَطَهُ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِنَا وَتَفْرِيقِ جَمَاعَتِنَا وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الْجِهَادِ بِالْكُلِّيَّةِ،وَاقْتَحَمَ الْأَمْرَ وَشَقَّ الْعَصَا وَجَاءَنَا بِالْجَيْشِ لِيَقْتُلَنَا وَيَأْخُذَ أَمْوَالَنَا وَيُفَرِّقُ جَمْعَنَا فَهَلْ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقَاتِلَهُ بِمُقْتَضَى مَا نَقَلَهُ الشَّيْخُ مَيَّارَةُ أَيْضًا فِي شَرْحِهِ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ وَنَصُّهُ اُنْظُرْ إذَا خَلَا الْوَقْتُ مِنْ الْأَمِيرِ وَأَجْمَعَ النَّاسُ رَأْيَهُمْ عَلَى بَعْضِ كُبَرَاءِ الْوَقْتِ لِيُمَهِّدَ سَبِيلَهُمْ وَيَرُدَّ قَوِيَّهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ فَقَامَ بِذَلِكَ قَدْرَ جَهْدِهِ وَطَاقَتِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقِيَامَ عَلَيْهِ لَا يَجُوزُ وَالْمُتَعَرِّضُ لَهُ يُرِيدُ شَقَّ عَصَا الْإِسْلَامِ وَتَفْرِيقَ جَمَاعَتِهِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ عَرْفَجَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ،فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ،فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ»[٩٨٤]،وعَنْ عَرْفَجَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ،يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ،أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ،فَاقْتُلُوهُ»[٩٨٥] .

---

[٩٨٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٩)٥٩ - (١٨٥٢)

[ش (هنات وهنات) الهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة(فاضربوه بالسيف كائنا من كان) فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرا فقوله صلى الله عليه وسلم فاضربوه بالسيف وفي الرواية الأخرى فاقتلوه معناه إذا لم يندفع إلا بذلك]

[٩٨٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦٠ - (١٨٥٢)

[ش (وأمركم جميع) أي مجتمع(أن يشق عصاكم) معناه يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس]

مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ أَمْرَكُمْ مُجْتَمِعٌ (عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ) أَيْ لَهُ أَهْلِيَّةُ الْخِلَافَةِ أَوْ لَهُ التَّسَلُّطُ وَالْغَلَبَةُ (يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ) فِي النِّهَايَةِ يُقَالُ: شَقَّ الْعَصَا إِذَا فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَقَوْلُهُ (أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ) لِلشَّكِّ مِنَ الرَّاوِي أَوْ لِلتَّنْوِيعِ فَإِنَّ التَّفْرِيقَ غَيْرُ الْمُفَارَقَةِ وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا الْمُلَازَمَةُ، وَقَالَ الطِّيبِيُّ: شَقُّ الْعَصَا تَمْثِيلٌ شَبَّهَ اجْتِمَاعَ النَّاسِ وَاتِّفَاقَهُمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ بِالْعَصَا إِذَا لَمْ تُشَقَّ وَافْتِرَاقُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ بِشَقِّ الْعَصَا ثُمَّ كَنَّى بِهِ عَنْهُ فَضَرَبَ مَثَلًا لِلتَّفْرِيقِ يَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ: أَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ، حَيْثُ أَسْنَدَ الْجَمِيعَ إِلَى الْأَمْرِ إِسْنَادًا مَجَازِيًّا ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ (فَاقْتُلُوهُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٠٠) .

أَمْ لَا يَجُوزُ لَنَا ذَلكَ وَنَتْرُكُ الْجهَادَ لَيْسَ إلَّا جَوَابُكُمْ تُؤْجَرُونَ وَتُحْمَدُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ فِي الْبَدْءِ وَالْختَامِ وَالْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ.

فَأَجَبْت بمَا نَصَّهُ:الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد وَآله الْمُهْتَدينَ نَعَمْ يَحْرُمُ عَلَى السُّلْطَان الْمَذْكُورِ أَصْلَحَ اللَّهُ أَحْوَالَهُ جَميعَ ذَلكَ الَّذي ذَكَرْتُمْ حُرْمَةٌ مَعْلُومَةٌ منْ الدِّينِ بالضَّرُورَة لَا يَشُكُّ فيهَا مَنْ في قَلْبه مثْقَالُ ذَرَّة منْ الْإِيمَان وَمَا كَانَ يَخْطُرُ ببَالنَا أَنْ يُصْدرُ منْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَبْد الرَّحْمَنِ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مثْلَ هَذه الْأُمُورِ مَعَ مثْلكُمْ،فَإِنَّا للَّه،وَإِنَّا إلَيْه رَاجعُونَ وَمَا قَدَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خُصُوصًا،وَأَنْتُمْ جسْرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّه،وَإنْ كُنَّا في اطْمئْنَان عَلَى إقْليمه منْ اسْتيلَاء عَدُوِّ اللَّه عَلَيْه بمَا في الْأَحَاديث الصَّحيحَة منْ بَقَاء أَهْله عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومُ الْقيَامَةُ منْهَا مَا وَجَدَ بخَطِّ الشَّيْخِ الْمُقْري وَنَصُّهُ منْ خَطِّ الْفَقيه الْمُحَدِّث الْعَالم أَبي الْقَاسمِ الْعَبْدُوسيِّ حَفظَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا نَصُّهُ وَجَدْت في ظَهْرِ تَقْييد الشَّيْخِ أَبي الْحَسَنِ الصَّغيرِ عَلَى الْمُدَوَّنَة بخَطِّ مَنْ يُقْتَدَى به قَالَ ذَكَرَ صَاحبُ كتَاب نَقْط الْعَرُوس عَنْ أَبي مُطَرِّف قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَوَّازِ عَنْ ابْنِ الْقَاسمِ عَنْ مَالك بْنِ أَنَسٍ عَنْ ابْنِ شهَاب عَنْ سَعيد بْنِ الْمُسَيِّب عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – «سَتَكُونُ بالْمَغْرب مَدينَةٌ يُقَالُ لَهَا فَاسُ أَقْوَمُ أَهْلِ الْمَغْرب قبْلَةً وَأَكْثَرُهُمْ صَلَاةً أَهْلُهَا قَائمُونَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ إلَى يَوْمِ الْقيَامَة» اهـ[٩٨٦].

وَكَذَا ضَمَانُهُ لَمَّا غَصَبَ ضَرُوريٌّ لَا يَشُكُّ فيه مُسْلمٌ،وَكَذَا اسْتحْقَاقُهُ الْقصَاصَ منْهُ بقَتْله مُؤْمنًا عَمْدًا عُدْوَانًا مُبَاشَرَةً أَوْ بإكْرَاه غَيْره عَلَيْه مَعْلُومٌ منْ الدِّين بالضَّرُورَة وَالنُّصُوصُ الَّتي ذَكَرْتُمْ صَحيحَةٌ صَريحَةٌ لَا تَقْبَلُ التَّأْويلَ وَالْمُهَادَنَة الَّتي أَوْقَعَهَا فَاسدَةً مَنْقُوصَةً وَمَا نَسَبْتُمْ للْمعْيَارِ هُوَ كَذَلكَ فيه وَبَيْعُ الْبَقَر وَسَائر الْحَيَوَان وَالطَّعَامِ وَالْعُرُوضِ وَكُلِّ مَا يَنْتَفعُونَ به في النَّازِلَة الْمَذْكُورَة حَرَامٌ قَطْعًا إجْمَاعًا ضَرُورَةً لَا يَشُكُّ فيه مُسْلمٌ سَوَاءٌ في حَال حَصْرِ الْمُسْلمينَ إيَّاهُمْ وَفي حَال عَدَمه إذْ قتَالُهُمْ فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ مَنْ فيه قُدْرَةٌ عَلَيْه وَلَوْ منْ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان منْ أَهْلِ تلْكَ الْبلَاد وَمَنْ قَرُبَ منْهَا كَأَهْلِ عَمَلِ السُّلْطَانِ

[٩٨٦] – قلت : هذا الحديث لا أصل له

الْمَذْكُورِ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَكَيْفَ يَتَخَيَّلُ مُسْلِمٌ أَنَّ مُعَامَلَتَهُمْ بِمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَيَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى الْبَقَاءِ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ جَائِزَةٌ مَعَ ذَلِكَ قَالَ الْحَطَّابُ:وَأَمَّا بَيْعُ الطَّعَامِ يَعْنِي لِلْحَرْبِيِّينَ فَقَالَ ابْنُ يُونُسَ عَنْ ابْنِ حَبِيبٍ يَجُوزُ فِي الْهُدْنَةِ،وَأَمَّا مِنْ غَيْرِ الْهُدْنَةِ فَلَا،قَالَهُ ابْنُ الْمَاجِشُونِ اهـ وَظَاهِرُ أَنَّ هَذَا فِيمَا يَذْهَبُونَ بِهِ لِبِلَادِهِمْ فِيمَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى الْبَقَاءِ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ وَقِتَالِ أَهْلِهِ أَوْلَى بِالْمَنْعِ،وَإِنْ اقْتَحَمَ الْأَمْرَ وَشَقَّ الْعَصَا وَأَتَاكُمْ بِجَيْشِهِ وَجَبَ عَلَيْكُمْ قِتَالُهُ وُجُوبًا عَيْنِيًّا إذْ هُوَ حِينَئِذٍ كَالْعَدُوِّ وَالْبُغَاةِ الْمُتَغَلِّبِينَ الْفَاجِئِينَ الْقَاصِدِينَ الْأَنْفُسِ وَالْحَرِيمِ لِعُدْوَانِهِ وَتَجَارِبِهِ عَلَى مَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِهِ،وَهُوَ أَنْفُسُكُمْ وَحَرِيمُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَمَنَعَكُمْ مِمَّا هُوَ مُتَعَيَّنٌ عَلَيْكُمْ بِالْإِجْمَاعِ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ الْفَاجِئِينَ لَكُمْ وَالْمَقْتُولُ مِنْكُمْ فِي قِتَالِهِ كَالْمَقْتُولِ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إلَّا طُلُوعُ الرُّوحِ فَصَمِّمُوا عَلَى قِتَالِهِ وَأَعِدُّوا لَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ نَصَرَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ،وَعَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَبَارَكَ فِيكُمْ وَفِي كُلِّ مَنْ أَعَانَكُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَخَذَلَ كُلَّ مَنْ عَادَاكُمْ وَخَذَلَكُمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَجَعَلَ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ.

وَنَصُّ مَا فِي الْمِعْيَارِ وَسُئِلَ بَعْضُ فُقَهَاءِ تِلِمْسَانَ جَوَابُكُمْ سَيِّدِي عَمَّا عَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى فِي بِلَادِنَا وَعَظُمَ مِنْ أَجْلِهِ الْخَطْبُ وَاتَّسَعَتْ فِيهِ الْمَقَالَاتُ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ أَصْلَحَ اللَّهُ صَالَحَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ أَخَذُوا سَوَاحِلَنَا إلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ وَالْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّ جِهَادَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ فَصَارُوا يُغِيرُونَ عَلَى أَطْرَافِ بِلَادِهِمْ فَيَقْتُلُونَ وَيُضَيِّقُونَ بِهِمْ هَلْ ذَلِكَ طَاعَةٌ،أَوْ مَعْصِيَةٌ وَالْفَرْضُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يُوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ أَجِيبُونَا أُرْشِدْتُمْ وَوُفِّقْتُمْ.

فَأَجَابَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَيَّدَ الدِّينَ الْمُحَمَّدِيَّ بِالْجِهَادِ وَوَعَدَ السَّاعِيَ فِيهِ بِالْوُصُولِ إلَى أَسْنَى الْمُرَادِ وَالشَّهِيدُ بِالْحَيَاةِ الْمَحْفُوفَةِ بِالرِّزْقِ وَالْحُسْنِ فِي بَرْزَخِ الْمَوْتِ وَالْإِمْدَادِ فَمَا مِنْ مَيِّتٍ إلَّا يَتَمَنَّى الْعَوْدَ إلَى الدُّنْيَا إلَّا الشَّهِيدُ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ مِنْ ذِي الْعَرْشِ الْمَجِيدِ فَيَطْلُبُهَا لِيُزَادَ لَهُ مِنْ الْكَرَامَةِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَعْدَ الْمَعَادِ فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ وَصْفٍ لَا تُحْصَى فَضَائِلُهُ إذْ قَدِمْت عَلَى نَوَافِلِ الْخَيْرِ الْمُعَلَّى نَوَافِلُهُ عِنْدَ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ لِجَمِيعِ

الْخَلَائِقِ الْمَبْعُوث بِجَمِيلِ الْخَلَائِقِ الْقَامِعِ بِلِسَانِه وَسَيْفِه وَبُرْهَانِه أَهْلَ الْبَاطِلِ وَالْعِنَاد،وَعَلَى آله وَأَصْحَابِه الَّذِينَ وَازَرُوهُ عَلَى إِظْهَارِ الْخِزْيِ عَنْهُ مِنْ الْأَضْدَاد فَجَلَبُوا بِبَرَكَتِـــه لِأُمَّتِـــه الْمَصَالِحَ وَبَذَلُوا لَهُمْ النَّصَائِحَ وَدَفَعُوا الْفَسَادَ صَلَاةً وَسَلَامًا فَنَالَ بِبَرَكَتِهِمَا مِنْ الْخَيْـــرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ مَا يَخْرُجُ عَنْ الْمُعْتَاد.

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ مَسْجِدُهُ الْجَمِيلُ مُعْتَقَدُهُ،فَإِنَّ جَوَابَ سُؤَالِك يَتَوَقَّفُ عَلَى تَقْرِيرِ مُقَدِّمَةٍ بِتَقْرِيرِهَا يَتَبَيَّنُ مَا يَتَّضِحُ بِه الْمَسْئُولُ عَنْهُ فَنَقُولُ الصُّلْحُ الْوَاقِعُ بَيْنَ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ عَلَى ضَرْبَيْنِ:الضَّرْبُ الْأَوَّلُ حَيْثُ يَكُونُ الْجِهَادُ فَرْضَ كِفَايَةٍ.

وَالثَّانِي حَيْثُ يَكُونُ فَرْضَ عَيْنٍ.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَحَيْثُ يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ طَالِبِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ الْحَرْبِيِّينَ فَالصُّلْحُ لِمَصْلَحَةٍ يَرَاهَا الْإِمَامُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِه جَائِزٌ عِنْدَ الْمَالِكِيِّينَ وَنَقَلَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ سَحْنُونَ أَنَّهُ قَالَ لَـــا يَبْعُدُ فِي الْمُدَّةِ وَنَقَلَ ابْنُ شَاسٍ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّهُ اسْتَحَبَّ أَنْ لَا تَكُونَ الْمُدَّةُ أَكْثَرَ مِـــنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ إِلَّا مَعَ الْعَجْزِ.

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي فَمَهْمَا تَعَيَّنَ الْجِهَادُ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَجُزْ فِيه الصُّلْحُ كَمَا لَوْ كَانَ الْعَدُوُّ طَالِبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَقَدْ يَفْجَأُ مَوْضِعَهُمْ،وَهُوَ ضِعْفُ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ فَأَقَلُّ لَا شِدَّةً وَعُدَّةً عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فَيَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ نَزَلَ بِهِمْ،وَمَنْ قَارَبَهُمْ دَفْعُهُمْ فِي الْحِـــينِ وَنَقَلَ اللَّخْمِيُّ عَنْ الدَّاوُدِيِّ فَرْضِيَّةَ الْجِهَادِ عَلَى مَنْ يَلِي الْعَدُوَّ وَيَسْقُطُ عَمَّنْ بَعُـــدَ عَنْـــهُ وَقَرَّرَهُ الْمَازِرِيُّ بِأَنَّهُ بَيَانٌ لِتَعَلُّقِ فَرْضِ الْكِفَايَةِ لِمَنْ حَضَرَ مَحَلَّ تَعَلُّقِه قَادِرًا عَلَيْه دُونَ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ لِعُسْرِه،فَإِنْ عَصَى الْحَاضِرُ تَعَلَّقَ بِمَنْ يَلِيه وَحَاصِلُ كَلَامِ الْمَـــازِرِيِّ أَنَّ فَـــرْضَ الْكِفَايَةِ الَّذِي هُوَ حُكْمُ الْجِهَادِ قَدْ يَعْرِضُ لَهُ مَا يُوجِبُهُ عَلَى الْأَعْيَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وَفِي تَلْقِينِ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ قَدْ يَتَعَيَّنُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَى مَنْ يَفْجَؤُهُمْ الْعَدُوُّ.

وَفِي نَوَازِلِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ عَنْ سَحْنُونَ إِنْ نَزَلَ أَمْرٌ يُحْتَاجُ فِيه إِلَى الْجَمِيعِ كَـــانَ عَلَـــيْهِمْ فَرْضًا

وَلَوْ سَبَى الْمُشْرِكُونَ النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ وَالْأَمْوَالَ وَجَبَ اسْتِنْقَاذُهُمْ عَلَى مَنْ قَوِيَ عَلَيْه مَا لَمْ يَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ،أَوْ عَلَى أَهْلِيهِمْ بِرُؤْيَةِ سُفُنٍ،أَوْ خَبَرٍ عَنْهَا فَكُلُّ مَا نُقِلَ فِـــي تَعَـــيُّنِ

فَرْضِ الْجِهَادِ مَانِعٌ مِنْ الصُّلْحِ لِاسْتِلْزَامِهِ لِإِبْطَالِ فَرْضِ الْعَيْنِ الَّذِي هُوَ الْجِهَادُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الاسْتِنْقَاذُ

وَفِي الْعُتْبِيَّةِ سُئِلَ مَالِكٌ أَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ افْتِدَاءُ مَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ قَالَ نَعَمْ أَلَيْسَ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوا حَتَّى يَسْتَنْقِذُوهُمْ قَالَ بَلَى قَالَ فَكَيْفَ لَا يَفْدُونَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَفِي مِثْلِ هَذَا أَعْنِي حَيْثُ يَتَعَيَّنُ الْجِهَادُ،حَكَى الْقَاضِي ابْنُ رُشْدٍ الاتِّفَاقَ عَلَى أَنَّهُ أَقْوَى مِنْ الذَّهَابِ إلَى حَجَّةِ الْفَرِيضَةِ؛لِأَنَّ الْجِهَادَ إنْ تَعَيَّنَ كَانَ عَلَى الْفَوْرِ وَالْحَجُّ قَدْ قِيلَ فِيهِ إنَّهُ عَلَى التَّرَاخِي وَلَمَّا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ النُّصُوصِ لِلْأَئِمَّةِ تَعَيَّنَ بِهَا أَنَّ الْجِهَادَ فَرْضُ عَيْنٍ فِي مَسْأَلَةِ السُّؤَالِ فَيُمْتَنَعُ فِيهِ الصُّلْحُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا سِيَّمَا إنْ طَالَتْ مُدَّتُهُ،فَقَدْ عَادَتْ عَلَى الْعَدُوِّ أَهْلَكَهُ اللَّهُ مَصْلَحَتُهُ،وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَفْسَدَتُهُ،وَإِنْ تَخَيَّلَتْ فِيهِ مَصْلَحَةً فَهِيَ لِلْعَدُوِّ أَعْظَمُ مِنْ وُجُوهٍ مُكَمِّلَةٍ،فَإِنَّهُ يَتَحَصَّنُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَيُكْثِرُ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ وَالْعُدَّةِ فَيَتَعَذَّرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الاسْتِنْقَاذُ وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ الْمُرَادِ بَعْدَ تَيَسُّرِهِ لَوْ سَاعَدَ التَّوْفِيقُ وَلَكِنَّ الْمَوْلَى جَلَّ جَلَالُهُ الْمَسْئُولُ فِي هِدَايَتِهِ إلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ فَمَا وَقَعَ مِنْ الصُّلْحِ هُوَ مَفْسَدَةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ فَلَا يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إبْرَامٌ فَالصُّلْحُ الْمَذْكُورُ يَجِبُ نَقْضُهُ؛لِأَنَّهُ بِمُقْتَضَى الشَّرْعِ غَيْرُ مُنْبَرِمٍ فَحُكْمُهُ غَيْرُ لَازِمٍ عِنْدَ كُلِّ مَنْ حَقَّقَ أُصُولَ الشَّرِيعَةِ قَالَ فِي التَّلْقِينِ وَلَا يَجُوزُ تَرْكُ الْجِهَادِ لِهُدْنَةٍ إلَّا مِنْ عُذْرٍ لَا يُقَالُ الصُّلْحُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ دَاخِلٌ فِي الْمُسْتَثْنَى مِنْ كَلَامِ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ.

وَالصُّلْحُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يَكُونُ فِي الْغَالِبِ إلَّا مِنْ عُذْرٍ عَلَى أَنَّهُ حُكْمٌ اجْتِهَادِيٌّ مِنْ إمَامٍ فَلَا سَبِيلَ إلَى نَقْضِهِ؛لِأَنَّا نَقُولُ وَقَعَ ذَلِكَ عَقِبَ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ وَهِيَ انْتِهَازُ الْعَدُوِّ دَمَّرَهُ اللَّهُ الْفُرْصَةَ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ مَعَ تَوَفُّرِ الْإِسْلَامِ وَالْعَدَدِ وَالْعَدُوُّ لَيْسَ لَهُ فِيهَا مَدَدٌ وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَقْصِرُونَ عَنْ ضِعْفِ الْعَدُوِّ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ عَدُوُّهُمْ ضِعْفَهُمْ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الصُّلْحُ لِخَوْفِ اسْتِئْصَالِ الْكَافِرِينَ بَقِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِمَّا لِلْخَوْفِ مِنْ الْمُحَارَبِينَ وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ لِمُخَالَفَتِهِ الْفَرْضَ وَالثَّانِي كَذَلِكَ أَيْضًا؛لِأَنَّ الْخَوْفَ مِنْ الْمُحَارِبِ بِالْفَرْضِ مَعَ إمْكَانِ انْقِسَامِ الْعَدَدِ وَاتِّصَالِ الْمُسْلِمِينَ بِحُصُولِ الْمَدَدِ فَالْوَاجِبُ الْقِتَالُ،وَإِنْ كَانَ الْعَدُوُّ ذَا جَلَدٍ وَمَعَهُ كَثْرَةُ الْعَدَدِ فَلَا يَدْخُلُ الصُّلْحُ فِي

الْمُسْتَثْنَى مِنْ كَلَامِ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ وَحُكْمُ الْجِهَادِ يُنْتَقَضُ إذَا تُبَيِّنَ فِيهِ الْخَطَأُ كَمَا نُقِلَ عَنْ سَحْنُونَ وَطُولُ الْمُدَّةِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ خَطَأٌ فَيُنْتَقَضُ الصُّلْحُ وَذَلِكَ أَيْضًا؛لِأَنَّ الصُّلْحَ الْمَذْكُورَ فِيهِ تَرْكُ الْجِهَادِ الْمُتَعَيَّنِ وَتَرْكُ الْجِهَادِ لِيُسَكِّنَّهُ مُمْتَنِعٌ فَالصُّلْحُ الْمَذْكُورُ مُمْتَنَع وَكُلُّ مُمْتَنِع غَيْرُ لَازِمٍ وَالْجِهَادُ فِي الْمَوْضُوعِ الْمَذْكُورِ لَمْ يَزَلْ مُتَعَيَّنًا مِنْ زَمَنِ الْوَخْزَةِ إلَى الْآنِ وَعَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ إنْ طَمِعَ قَوْمٌ فِي فُرْصَةٍ فِي عَدُوٍّ قُرْبَهُمْ وَخَشُوا إنْ أَعْلَمُوا الْإِمَامَ يَمْنَعُهُمْ فَوَاسِعٌ خُرُوجُهُمْ وَأَحَبَّ إلَى أَنْ يَسْتَأْذِنُوهُ قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ سَمِعْت أَهْلَ الْعِلْمِ يَقُولُونَ إنْ نَهَى الْإِمَامُ عَنْ الْقِتَالِ لِمَصْلَحَةٍ حُرِّمَتْ مُخَالَفَتُهُ إلَّا أَنْ يَـزْحَمَهُمْ الْعَدُوُّ وَقَالَ ابْنُ رُشْد طَاعَةُ الْإِمَامِ لَازِمَةٌ،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ عَدْلٍ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ وَمِنْ الْمَعْصِيَةِ النَّهْيُ عَنْ الْجِهَادِ الْمُتَعَيِّنِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.[٩٨٧]

---

[٩٨٧] - فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك (١/ ٣٧٥)

المبحث الثالث

الخلاصة في أحكام اختلاف الدار

التَّعْرِيفُ:

الدَّارُ لُغَةً:الْمَحَل.وَتَجْمَعُ الْعَرْصَةَ وَالْبِنَاءَ،[988]

وَتُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْبَلْدَة.[989]

وَاخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ بِمَعْنَى اخْتِلاَف الدَّوْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمَا الشَّخْصَان. فَإِنْ كَانَ اخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ شَيْئًا ؛لأَنَّ دِيَارَ الإِسْلاَمِ كُلَّهَا دَارٌ وَاحِدَةٌ.قَال السَّرَخْسِيُّ:" أَهْل الْعَدْل مَعَ أَهْل الْعَدْل يَتَوَارَثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ؛لأَنَّ دَارَ الإِسْلاَمِ دَارُ أَحْكَامٍ،فَبِاخْتِلاَفِ الْمَنَعَةِ وَالْمَلِكِ لاَ تَتَبَايَنُ الدَّارُ فِيمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛لأَنَّ حُكْمَ الإِسْلاَمِ يَجْمَعُهُمْ ".وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ السَّرَخْسِيُّ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُنْقَل فِيهِ خِلاَفٌ،إِلاَّ مَا قَال الْعَتَّابِيُّ:إِنَّ مَنْ أَسْلَمَ وَلَمْ يُهَاجِرْ إِلَيْنَا لاَ يَرِثُ مِنَ الْمُسْلِمِ الأَصْلِيِّ سَوَاءٌ كَانَ فِي دَارِنَا،أَوْ كَانَ مُسْتَأْمَنًا بِدَارِ الْحَرْبِ.قَال ابْنُ عَابِدِينَ:وَقَوْل الْعَتَّابِيِّ مَدْفُوعٌ بِأَنَّ هَذَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الإِسْلاَمِ حِينَ كَانَتِ الْهِجْرَةُ فَرِيضَةً.فَقَدْ نَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْوِلاَيَةَ بَيْنَ مَنْ هَاجَرَ وَمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ فَقَال:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال:٧٢]،فَلَمَّا كَانَتِ الْوِلاَيَةُ بَيْنَهُمَا مُنْتَفِيَةً كَانَ الْمِيرَاثُ مُنْتَفِيًا ؛لأَنَّ الْمِيرَاثَ عَلَى الْوَلاَيَة.فَأَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّ حُكْمَ الْهِجْرَةِ قَدْ نُسِخَ.قَال النَّبِيُّ ﷺ:لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ.[990]

---

[988] - لسان العرب - (دور) .

[989] - محيط المحيط .

[990] - ابن عابدين ٥ / ٤٩٠ ط ١٢٧٢هـ

قَال السَّرَخْسِيُّ:" فَأَمَّا دَارُ الْحَرْبِ فَلَيْسَتْ بِدَارِ أَحْكَامٍ،وَلَكِنْ دَارُ قَهْرٍ.فَبِاخْتِلاَفِ الْمَنَعَةِ وَالْمَلِكِ تَخْتَلِفُ الدَّارُ فِيمَا بَيْنَهُمْ،وَبِتَبَايُنِ الدَّارِ يَنْقَطِعُ التَّوَارُثُ.وَكَذَلِكَ إِذَا خَرَجُوا إِلَيْنَـــا بِأَمَانٍ،لِأَنَّهُمْ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ وَإِنْ كَانُوا مُسْتَأْمَنِينَ فِينَا،فَيُجْعَل كُل وَاحِدٍ فِي الْحُكْمِ كَأَنَّهُ فِي مَنَعَةِ مَلِكِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِأَمَانٍ "[991].

أَمَّا أَهْل الذِّمَّةِ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَهْل دَارِ الإِسْلاَمِ،وَلِذَا فَهُمْ مُخَالِفُونَ فِي الدَّارِ لِأَهْل الْحَرْبِ.

أَمَّا الْحَرْبِيُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ دُورَهُمْ قَدْ تَتَّفِقُ وَقَدْ تَخْتَلِفُ.قَال ابْنُ عَابِدِينَ شَارِحًا مَعْنَى اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ:" اخْتِلاَفُهُمَا بِاخْتِلاَفِ الْمَنَعَةِ أَيِ الْعَسْكَرِ،وَاخْتِلاَفُ الْمَلِكِ،كَأَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْمَلِكَيْنِ فِي الْهِنْدِ،وَلَهُ دَارٌ وَمَنَعَةٌ،وَالآْخَرُ فِي التُّرْكِ،وَلَهُ دَارٌ وَمَنَعَةٌ أُخْرَى،وَانْقَطَعَتِ الْعِصْمَةُ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَسْتَحِل كُلٌّ مِنْهُمْ قِتَال الآْخَرِ.فَهَاتَانِ الـــدَّارَانِ مُخْتَلِفَتَـــانِ،فَتَنْقَطِعُ بِاخْتِلاَفِهِمَا الْوِرَاثَةُ ؛لِأَنَّهَا تَنْبَنِي عَلَى الْعِصْمَةِ وَالْوِلاَيَةِ.أَمَّا إِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا تَنَاصُرٌ وَتَعَــاوُنٌ عَلَى أَعْدَائِهِمَا كَانَتِ الدَّارُ وَالْوِرَاثَةُ ثَابِتَةً "[992]

وَدَارُ الإِسْلاَمِ مُخَالِفٌ لِدَارِ الْحَرْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا تَنَاصُرٌ وَتَعَاوُنٌ.

أَنْوَاعُ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ:

عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ:قَــدْ تَخْتَلِــفُ الــدَّارَانِ حَقِيقَـــةً فَقَــطْ،أَوْ حُكْمًـــا فَقَــطْ،أَوْ حَقِيقَـــةً وَحُكْمًا:فَاخْتِلاَفُهُمَا حَقِيقَةً فَقَطْ،كَمُسْتَأْمَنٍ فِي دَارِنَا وَحَرْبِيٍّ فِي دَارِهِمْ،فَإِنَّ الــدَّارَ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ حَقِيقَةً لَكِنِ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ حُكْمًا.فَهُمَا مُتَّحِدَانِ حُكْمًا.

وَأَمَّا اخْتِلاَفُهُمَا حُكْمًا فَكَمُسْتَأْمَنٍ وَذِمِّيٍّ فِي دَارِنَا،فَإِنَّهُمَا وَإِنْ كَانَا فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ حَقِيقَةً إِلاَّ أَنَّهُمَا فِي دَارَيْنِ حُكْمًا ؛لِأَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ حُكْمًا،لِتَمَكُّنِهِ مِنَ الرُّجُــوعِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ.

وَأَمَّا اخْتِلاَفُهُمَا حَقِيقَةً وَحُكْمًا فَكَالْحَرْبِيِّ فِي دَارِهِمْ وَالذِّمِّيِّ فِي دَارِنَا.وَكَالْحَرْبِيَّيْنِ فِـــي دَارَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ.[993]

---

[991] – المبسوط للسرخسي ٣٠ / ٣٣ .وانظر أيضا حاشية ابن عابدين ٥ / ٤٩٠

[992] – رد المحتار حاشية ابن عابدين على الدر المختار ٥ / ٤٨٩، وشرح السراجية ٨١

[993] – رد المحتار ٥ / ٤٩٠

هَذَا وَإِنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارَيْنِ بَيْنَ كَافِرٍ وَكَافِرٍ يَسْتَتْبِعُ فِي الْفِقْهِ الإِسْلاَمِيِّ أَحْكَامًا مُخْتَلِفَةً نَعْرِضُ جُمْلَةً مِنْهَا فِيمَا يَلِي:

التَّوَارُثُ:

اخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ حُكْمًا فَقَطْ،أَوْ حُكْمًا وَحَقِيقَةً،أَحَدُ مَوَانِعِ التَّوَارُثِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،فَلاَ يَرِثُ الذِّمِّيُّ حَرْبِيًّا وَلاَ مُسْتَأْمَنًا،وَلاَ الْحَرْبِيُّ وَالْمُسْتَأْمَنُ ذِمِّيًّا وَلَو اتَّفَقَ دِينُهُمَا،وَلاَ يَرِثُ الْحَرْبِيُّ حَرْبِيًّا إِن اخْتَلَفَتْ دَارَاهُمَا.وَيَثْبُتُ التَّوَارُثُ بَيْنَ مُسْتَأْمَنَيْنِ فِي دَارِنَا إِنْ كَانَا مِنْ دَارٍ وَاحِدَةٍ،كَمَا يَثْبُتُ بَيْنَ مُسْتَأْمَنٍ فِي دَارِنَا وَحَرْبِيٍّ فِي دَارِهِمْ لاتِّحَادِ الدَّارِ بَيْنَهُمَا حُكْمًا.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ قَرِيبٌ مِنْ مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ،فَلاَ تَوَارُثَ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ذِمِّيٍّ وَحَرْبِيٍّ،أَمَّا الْمُسْتَأْمَنُ وَالْمُعَاهَدُ فَهُمَا عَلَى الأَصَحِّ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ فِي حُكْمِ أَهْلِ الذِّمَّةِ،لِلْقُرْبِ بَيْنَهُمْ وَلِعِصْمَتِهِمْ بِالْعَهْدِ وَالأَمَانِ،كَالذِّمِّيِّ،فَيَرِثَانِ الذِّمِّيَّ وَيَرِثُهُمَا،وَلاَ تَوَارُثَ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَبَيْنَ الْحَرْبِيِّينَ.وَفِي قَوْلٍ آخَرَ:الْمُسْتَأْمَنُ وَالْمُعَاهَدُ كَالْحَرْبِيِّ.

أَمَّا مَذْهَبُ الْحَنَابِلَةِ،وَمِثْلُهُ مَذْهَبُ الْمَالِكِيَّةِ – فِيمَا نَقَلَهُ صَاحِبُ الْعَذْبِ الْفَائِضِ وَلَمْ نَجِدْهُمْ صَرَّحُوا بِهِ بِمَا اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ كَلاَمِهِمْ – فَلاَ يَمْنَعُ اخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ التَّوَارُثَ مَا دَامَتِ الْمِلَلُ مُتَّفِقَةً.وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ قَوْلٌ آخَرُ هُوَ لِلْقَاضِي أَبِي يَعْلَى:إِنَّ الْحَرْبِيَّ لاَ يَرِثُ ذِمِّيًّا،وَلاَ الذِّمِّيُّ حَرْبِيًّا،فَأَمَّا الْمُسْتَأْمَنُ فَيَرِثُهُ أَهْلُ دَارِ الْحَرْبِ وَأَهْلُ دَارِ الإِسْلاَمِ،وَيَرِثُ أَهْلُ الْحَرْبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَوَاءٌ اتَّفَقَتْ دِيَارُهُمْ أَو اخْتَلَفَتْ.[٩٩٤]

دِينُ الْوَلَدِ:

بَيَانُ مَنْ يَتْبَعُهُ الْوَلَدُ فِي دِينِهِ يُذْكَرُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (ر:اخْتِلاَفُ الدِّينِ)،وَقَد اشْتَرَطَ الْحَنَفِيَّةُ فِي تَبَعِيَّةِ الْوَلَدِ لِخَيْرِ وَالِدَيْهِ فِي الدِّينِ أَنْ تَتَّحِدَ الدَّارُ بَيْنَ التَّابِعِ وَالْمَتْبُوعِ،وَإِلاَّ فَلاَ تَبَعِيَّةَ.فَلَوْ كَانَ الْوَلَدُ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَوَالِدُهُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَأَسْلَمَ الْوَالِدُ،لاَ يَتْبَعُهُ الْوَلَدُ،وَلاَ يَكُونُ مُسْلِمًا ؛لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ جَعْلُ الْوَالِدِ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ،بِخِلاَفِ مَا إِذَا

---

[٩٩٤] – حاشية ابن عابدين ٥ / ٤٩٠، وشرح السراجية ص ٨١، ٨٢، ونهاية المحتاج ٦ / ٢٧ ط مصطفى الحلبي، والمغني ٧ / ١٦٨ – ١٧٠، والعذب الفائض ١ / ٣٦، وانظر أحكام الذميين والمستأمنين ص ٥٢٩ – ٥٣٣

كَانَ الْوَالِدُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَأَسْلَمَ،وَوَلَدُهُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَإِنَّهُ يَتْبَعُهُ ؛لأَنَّ الْوَالِدَ الْمُسْلِمَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الإِسْلاَمِ حُكْمًا.[995]

الْفُرْقَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ:

يَرَى الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّ الْفُرْقَةَ لاَ تَقَعُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ لِمُجَرَّدِ اخْتِلاَفِهِمَا دَارًا.وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ اخْتِلاَفَ دَارَيِ الزَّوْجَيْنِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا مُوجِبٌ لِلْفُرْقَةِ بَيْنَهُمَا.فَلَوْ تَزَوَّجَ حَرْبِيٌّ حَرْبِيَّةً ثُمَّ دَخَل أَحَدُهُمَا دَارَ الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمَ أَوْ عَقَدَ الذِّمَّةَ،وَتَرَكَ زَوْجَهُ الآْخَرَ فِي دَارِ الْحَرْبِ،انْفَسَخَ نِكَاحُهُ لاِخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا.بِخِلاَفِ مَا لَوْ دَخَل أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمَنًا فَإِنَّ نِكَاحَهُ لاَ يَنْفَسِخُ.وَلَوْ تَزَوَّجَ مُسْلِمٌ حَرْبِيَّةً فِي دَارِ الْحَرْبِ ثُمَّ خَرَجَ عَنْهَا وَحْدَهُ بَانَتْ.وَيَقْتَضِي مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ – كَمَا قَال ابْنُ قُدَامَةَ – أَنَّ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ الذِّمِّيَّيْنِ إِذَا دَخَل دَارَ الْحَرْبِ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ،وَتَرَكَ زَوْجَهُ الآْخَرَ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،يَنْفَسِخُ نِكَاحُهُمَا ؛لأَنَّ الدَّارَيْنِ اخْتَلَفَتَا بِهِمَا فِعْلاً وَحُكْمًا،فَوَجَبَ أَنْ تَقَعَ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا،كَمَا لَوْ أَسْلَمَتْ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ قَبْل الدُّخُول.

وَاحْتَجَّ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّهُ مَعَ تَبَايُنِ الدَّارَيْنِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا لاَ تَنْتَظِمُ الْمَصَالِحُ،وَالنِّكَاحُ شُرِعَ لِمَصَالِحِهِ لاَ لِعَيْنِهِ،فَلاَ يَبْقَى عِنْدَ عَدَمِهَا،كَالْمَحْرَمِيَّةِ إِذَا اعْتَرَضَتْ عَلَيْهِ.وَهَذَا لأَنَّ أَهْل الْحَرْبِ كَالْمَوْتَى – أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْل دَارِ الإِسْلاَمِ – فَلاَ يُشْرَعُ النِّكَاحُ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ.

وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ عَلَى زَوْجِهَا بِالنِّكَاحِ الأَوَّل،وَكَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ قَبْلَهُ بِسَنَتَيْنِ،وَقِيل بِسِتِّ سِنِينَ،وَهَاجَرَتْ وَبَقِيَ هُوَ بِمَكَّةَ.وَأَسْلَمَتِ امْرَأَةُ صَفْوَانَ وَامْرَأَةُ عِكْرِمَةَ عَامَ الْفَتْحِ،وَفَرَّا هُمَا وَغَيْرُهُمَا دُونَ أَنْ يُسْلِمُوا،ثُمَّ أَسْلَمُوا فَأُقِرُّوا عَلَى أَنْكِحَتِهِمْ.[996]

[995] – الهندية ١ / ٣٣٩ ط بولاق ١٣١٠ هـ ؛ والزيلعي ٢ / ١٧٣ ط بولاق ١٣١٥ هـ

[996] – الزيلعي ٢ / ١٧٦، والهندية ١ / ٣٣٨، والمدونة الكبرى ٤ / ١٥٠ ط القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ، والمغني ف ٥٤٤٠ ط خامسة ٧ / ١٥٧، والحديث أخرجه الترمذي ببعض الزيادات من حديث ابن عباس .وقال :هذا حديث ليس بإسناده بأس، ولكن لا نعرف وجه هذا الحديث، ولعله قد جاء هذا من قبل داود بن حصين من

النَّفَقَةُ:

لاَ يَمْنَعُ اخْتِلاَفُ الدَّارِ وُجُوبَ نَفَقَةِ الزَّوْجَةِ عِنْدَ أَحَدٍ مِمَّنْ أَثْبَتَ النِّكَاحَ مَعَ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ.أَمَّا نَفَقَةُ الأَقَارِبِ فَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ يَمْنَعُ اخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ وُجُوبَ نَفَقَةِ الْقَرَابَةِ عَلَى الأُصُولِ وَالْفُرُوعِ وَالْحَوَاشِي.قَال الزَّيْلَعِيُّ:لاَ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ نَفَقَةُ أَبَوَيْهِ الْحَرْبِيَّيْنِ،وَلاَ يُجْبَرُ الْحَرْبِيُّ عَلَى نَفَقَةِ أَبِيهِ الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ ؛لأَنَّ الاسْتِحْقَاقَ بِطَرِيقِ الصِّلَةِ،وَلاَ تُسْتَحَقُّ الصِّلَةُ لِلْحَرْبِيِّ أَوِ الذِّمِّيِّ لِلنَّهْيِ عَنْ بِرِّهِمْ.وَفِي الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّةِ:لاَ يُجْبَرُ أَحَدُهُمَا عَلَى النَّفَقَةِ وَلَوْ كَانَ الْحَرْبِيُّ مُسْتَأْمَنًا بِدَارِ الإِسْلاَمِ.وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنْ لاَ نَفَقَةَ بَيْنَ الْحَرْبِيِّ الَّذِي أَسْلَمَ بِدَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يُهَاجِرْ،وَبَيْنَ قَرِيبِهِ الْمُسْلِمِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ ؛لاخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ.

وَهَذَا الَّذِي نَقَلْنَاهُ مِنْ مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ خَالَفَ فِي بَعْضِهِ صَاحِبُ الْبَدَائِعِ،فَرَأَى أَنَّ نَفَقَةَ الأُصُولِ وَالْفُرُوعِ خَاصَّةً لاَ يَمْنَعُ وُجُوبَهَا اخْتِلاَفُ الدَّارَيْنِ.قَال:لأَنَّ وُجُوبَ نَفَقَةِ غَيْرِ الأُصُولِ وَالْفُرُوعِ بِطَرِيقِ الصِّلَةِ،وَلاَ تَجِبُ الصِّلَةُ مَعَ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ،وَتَجِبُ فِي قَرَابَةِ الْوِلاَدَةِ ؛وَلأَنَّ وُجُوبَ النَّفَقَةِ هُنَاكَ بِحَقِّ الْوِرَاثَةِ،وَلاَ وِرَاثَةَ – أَيْ عِنْدَهُمْ – مَعَ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ،وَالْوُجُوبُ فِي قَرَابَةِ الْوِلاَدَةِ بِحَقِّ الْوِلاَدَةِ،وَهُوَ لاَ يَخْتَلِفُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِيَّةِ وُجُوبُ النَّفَقَةِ بَيْنَ الذِّمِّيِّ وَالْمُسْتَأْمَنِ فِي قَرَابَةِ الأُصُولِ وَالْفُرُوعِ،وَكَذَا بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْمُسْتَأْمَنِ.أَمَّا الْحَرْبِيُّ غَيْرُ الْمُسْتَأْمَنِ فَلاَ تَجِبُ النَّفَقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَرِيبِهِ الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ لِعَدَمِ عِصْمَتِهِ.وَأَمَّا قَرَابَةُ مَا عَدَا الأُصُولِ وَالْفُرُوعَ فَلاَ يَجِبُ بِهَا نَفَقَةٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَصْلاً.وَظَاهِرُ مَذْهَبِ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارِ لاَ يَمْنَعُ وُجُوبَ نَفَقَةِ الأَقَارِبِ إِذَا تَحَقَّقَتْ شُرُوطُهَا.وَلَمْ يَتَّضِحْ لَنَا قَوْل الْمَالِكِيَّةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.[٩٩٧]

الْوَصِيَّةُ:

قبل حفظه، وقال صاحب تحفة الأحوذي :وحديث ابن عباس هذا صححه الحاكم .قال ابن كثير في الإرشاد :" هو حديث جيد قوي " (تحفة الأحوذي٤ / ٢٩٦، ٢٩٧ ط السلفية) .

[٩٩٧] – بدائع الصنائع ٤ / ٣٧، والزيلعي على الكنز ٣ / ٦٣، والهندية ١ / ٥٦٨، ونهاية المحتاج ٧ / ٢٠٨، والخرشي ٤ / ٢٠١ وما بعدها ط ١٣١٦ هـــ، والمغني ٩ / ٢٥٩، ٢٦١، وانظر أحكام الذميين والمستأمنين ص ٤٧٨ – ٤٨١

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ أَوْ الذِّمِّيِّ لِلْحَرْبِيِّ،فَرَأَى الْحَنَابِلَةُ جَوَازَهَا مُطْلَقًا.وَلِلشَّافِعِيَّةِ قَوْلاَنِ أَصَحُّهُمَا الصِّحَّةُ.وَهِيَ الْمَذْهَبُ.وَلِلْمَالِكِيَّةِ قَوْلاَنِ،وَعَدَمُ الصِّحَّةِ هُوَ الْمُعْتَمَدُ.وَمَنَعَهَا الْحَنَفِيَّةُ إِذَا كَانَ الْمُوصِي فِي دَارِ الإِسْلاَمِ وَالْمُوصَى لَهُ حَرْبِيٌّ فِي دَارِ الْحَرْبِ.فَإِنْ كَانَ الْمُوصِي وَالْمُوصَى لَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَقَدِ اخْتَلَفَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ فِي ذَلِكَ.

وَوُجْهَةُ مَنْ مَنَعَ الْوَصِيَّةَ لَهُمْ أَنَّ التَّبَرُّعَ لَهُمْ بِتَمْلِيكِهِمُ الْمَالَ إِعَانَةٌ لَهُمْ عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ.وَأَيْضًا نَحْنُ قَدْ أُمِرْنَا بِقَتْلِ الْحَرْبِيِّ وَأَخْذِ مَالِهِ،فَلاَ مَعْنَى لِلْوَصِيَّةِ لَهُ.وَمِنْ أَجَلِ هَذَا صَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِعَدَمِ جَوَازِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَلَوْ أَجَازَهَا الْوَرَثَةُ،وَلَوْ جَاءَ الْحَرْبِيُّ لِدَارِ الإِسْلاَمِ لِأَخْذِ وَصِيَّتِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ.

وَالَّذِينَ أَجَازُوهَا نَظَرُوا إِلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ تَمْلِيكٌ،وَلاَ يَمْتَنِعُ التَّمْلِيكُ لِلْحَرْبِيِّ،قِيَاسًا لَهُ عَلَى الْبَيْعِ [٩٩٨].

أَمَّا الْحَرْبِيُّ الْمُسْتَأْمَنُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،لَوْ أَوْصَى لَهُ مُسْلِمٌ أَوْ ذِمِّيٌّ صَحَّتِ الْوَصِيَّةُ لَهُ عَلَى ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ.وَرُوِيَ أَنَّهَا لاَ تَجُوزُ ؛لِأَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ عَلَى قَصْدِ الرُّجُوعِ،وَيُمَكَّنُ مِنْهُ،وَلاَ يُمَكَّنُ مِنْ زِيَادَةِ الْمُقَامِ عَلَى السَّنَةِ إِلاَّ بِجِزْيَةٍ.

وَلَوْ أَوْصَى الْمُسْتَأْمَنُ لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ فَقَدْ صَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِجَوَازِهِ - وَهُوَ مَا يَقْتَضِيهِ كَلاَمُ غَيْرِهِمْ - لِأَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ مُلْتَزِمٌ لِأَحْكَامِ الإِسْلاَمِ.وَيَقُولُ الْحَنَفِيَّةُ:إِنَّ الْمُسْتَأْمَنَ لَوْ أَوْصَى لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ بِكُلِّ مَالِهِ،وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ أَحَدٌ جَازَ،وَلاَ عِبْرَةَ بِوَرَثَتِهِ الَّذِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ ؛لِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ فِي حَقِّنَا ؛وَلِأَنَّهُ لاَ عِصْمَةَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلاَ لِأَمْوَالِهِمْ،فَلأَنْ لاَ يَكُونَ لِحَقِّهِمُ الَّذِي فِي مَالِ مُوَرِّثِهِمْ عِصْمَةٌ أَوْلَى.فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَرَثَتِهِ مَعَهُ وَقَفَ الْجَوَازُ عَلَى إِجَازَتِهِمْ.[٩٩٩]

الْقِصَاصُ:

---

[٩٩٨] - الهندية ٦ / ٩٢، والدسوقي على الشرح الكبير ٤ / ٤٢٦ ط عيسى الحلبي، والعدوى علي الخرشي ٨ / ١٧٠، وكشاف القناع ٤ / ٢٩٦ مطبعة أنصار السنة ١٣٧٢ هـ

[٩٩٩] - الدر المختار بحاشية الطحطاوي ٤ / ٣٣٦ ط بولاق ؛ والبدائع ١ / ٣٣٥ ؛ وانظر العناية على الهداية ط بولاق ٨ / ٤٨٨

إِذَا قَتَل الذِّمِّيُّ مُسْتَأْمَنًا وَجَبَ عَلَيْه الْقصَاصُ وكَذَلكَ إِذَا قَتَل الْمُسْتَأْمَنُ ذمِّيًّا.وَهَذَا باتِّفَاق الْمَذَاهب الأَرْبَعَة،إِلاَّ أَنَّ الْحَنَفيَّةَ اسْتَثْنَوْا حَالَةَ كَوْن الْقَاتل ذمِّيًّا وَالْمَقْتُول مُسْتَأْمَنًا،فَلاَ قصَاصَ عنْدَهُمْ،قَال صَاحبُ الْبَدَائع:لأَنَّ عصْمَةَ الْمُسْتَأْمَن لَمْ تَثْبُتْ مُطْلَقًا،بَل مَوْقُوتَةٌ إِلَى غَايَة مُقَامه بدَار الإسْلاَم ؛لأَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ منْ أَهْل دَار الْحَرْب وَإِنَّمَا دَخَل دَارَ الإسْلاَم لاَ بقَصْد الإقَامَة بَل لحَاجَة يَقْضيهَا ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَطَنه.فَكَانَ في عصْمَته شُبْهَةُ الإبَاحَة.وَرُويَ عَنْ أَبي يُوسُفَ أَنَّهُ قَال:يُقْتَل به قصَاصًا لقيَام الْعصْمَة وَقْتَ الْقَتْل.وَلاَ يُقْتَل الذِّمِّيُّ بالْحَرْبيِّ اتِّفَاقًا ؛لأَنَّهُ لاَ عصْمَةَ لَهُ أَصْلاً،وَلاَ خلاَفَ في ذَلكَ،كَمَا في الْمُغْني.وَلَمْ يُصَرِّحُوا بحُكْم الْمُسْتَأْمَن إِذَا قَتَل حَرْبيًّا،وَالظَّاهرُ أَنَّهُ لاَ يُقْتَل به ؛لأَنَّ الْحَرْبيَّ لاَ عصْمَةَ لَهُ أَصْلاً.[1000]

الْعَقْل (حَمْل الدِّيَة):

عنْدَ الشَّافعيَّة:يَعْقل الذِّمِّيُّ الْيَهُوديُّ أَو الْمُعَاهَدُ أَو الْمُسْتَأْمَنُ عَن النَّصْرَانيِّ الْمُعَاهَد أَو الْمُسْتَأْمَن،وَبالْعَكْس،في الأَظْهَر عنْدَهُمْ.أَمَّا الْحَرْبيُّ فَلاَ يَعْقل عَنْ نَحْو ذمِّيٍّ،وَعَكْسُهُ ؛لانْقطَاع النُّصْرَة بَيْنَهُمَا ؛لاخْتلاَف الدَّار.

وَالْمُقَدَّمُ عنْدَ الْحَنَابلَة أَنَّ الذِّمِّيَّ لاَ يَعْقل عَن الْحَرْبيِّ،كَمَا لاَ يَعْقل الْحَرْبيُّ عَن الذِّمِّيِّ.وَالْقَوْل الآْخَرُ:إِنْ تَوَارَثَا تَعَاقَلاَ وَإِلاَّ فَلاَ[1001].

وَالظَّاهرُ أَنَّ الْحَرْبيَّ في كَلاَمهمْ هَذَا شَاملٌ للْمُسْتَأْمَن.وَلَمْ نَجدْ في كَلاَم كُلٍّ منَ الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة تَعَرُّضًا لهَذه الْمَسْأَلَة.

حَدُّ الْقَذْف:

لاَ حَدَّ عَلَى الْمُسْلم أَوْ الذِّمِّيِّ إِذَا قَذَفَ حَرْبيًّا وَلَوْ مُسْتَأْمَنًا،باتِّفَاق الْمَذَاهب الأَرْبَعَة ؛لعَدَم إِحْصَان الْمَقْذُوف،بسَبَب كُفْره.

أَمَّا لَوْ قَذَفَ الْمُسْتَأْمَنُ مُسْلمًا فَعَلَيْه الْحَدُّ ؛لأَنَّهُ بدُخُوله دَارَ الإسْلاَم بالأَمَان الْتَزَمَ إِيفَاءَ حُقُوق الْعبَاد،وَحَدُّ الْقَذْف حَقٌّ للْعَبْد،وَهَذَا مَا اتَّفَقَ عَلَيْه الْفُقَهَاءُ عنْدَ الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة

[1000] - بدائع الصنائع ٧ / ٢٣٦ ؛ والخرشي ٧ / ٤، والأم للشافعي ط بولاق ٦ / ٤٠ .ومطالب أولي النهى ٦ / ٣١ ط المكتب الإسلامي بدمشق .وانظر أحكام الذميين والمستأمنين ص ٢٤٨ وما بعدها

[1001] - نهاية المحتاج ٧ / ٣٣٥، وكشاف القناع ٦ / ٤٨، والفروع ٣ / ٤٤٨ ط المنار .

– مَا عَدَا أَشْهَبَ – وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ.وَفِي الْمُدَوَّنَةِ:إِذَا قَذَفَ الْحَرْبِـــيُّ فِـــي دَارِ الْحَرْبِ مُسْلِمًا بِالزِّنَا ثُمَّ أَسْلَمَ وَدَخَل دَارَ الإِسْلاَمِ فَإِنَّهُ لاَ حَدَّ عَلَيْهِ[١٠٠٢].

[١٠٠٢] – المدونة ١٦ / ٢٢، والخرشي ٨ / ٨٦، والمهذب ٢ / ٢٧٣ ط ١٣٧٩ هـ،الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٣٠٣)

المبحث الرابع

الخلاصة في أحكام أهل الحرب

التَّعْرِيفُ:

أَهْل الْحَرْبِ أَوِ الْحَرْبِيُّونَ:هُمْ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ،وَلاَ يَتَمَتَّعُونَ بِأَمَانِ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ عَهْدِهِمْ.[١٠٠٣]

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – أَهْل الذِّمَّةِ:

أَهْل الذِّمَّةِ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ أُقِرُّوا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِالْتِزَامِ الْجِزْيَةِ وَنُفُوذِ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ فِيهِمْ.[١٠٠٤]

ب – أَهْل الْبَغْيِ:

أَهْل الْبَغْيِ أَوِ الْبُغَاةُ:هُمْ فِرْقَةٌ خَرَجَتْ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْعِ حَقٍّ،أَوْ لِخَلْعِهِ،وَهُمْ أَهْل مَنَعَةٍ[١٠٠٥].

وَالْبَغْيُ:هُوَ الاِمْتِنَاعُ مِنْ طَاعَةِ مَنْ ثَبَتَتْ إِمَامَتُهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ بِمُغَالَبَةٍ،وَلَوْ تَأَوُّلاً.[١٠٠٦]

ج – أَهْل الْعَهْدِ:

[١٠٠٣] – فتح القدير ٤ / ٢٧٨، ٢٨٤، والفتاوى الهندية ٢ / ١٧٤، ومواهب الجليل ٣ / ٣٤٦ – ٣٥٠، والشرح الصغير ٢ / ٢٦٧، وما بعدها، ونهاية المحتاج ٧ / ١٩١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٠٩، ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٠٨، وكشاف القناع ٣ / ٢٨، والمغني ٨ / ٣٥٢، ٣٦١ وما بعدها .

[١٠٠٤] – جواهر الإكليل ١ / ١٠٥، وكشاف القناع ١ / ٧٠٤ .

[١٠٠٥] – مواهب الجليل ٦ / ٢٧٦، والشرح الكبير مع الدسوقي ٤ / ٣٠٠، والشرح الصغير ٤ / ٤٢٦، والقوانين الفقهية ص ٣٩٣، والأم ٤ / ٢١٤ وما بعدها ط الأزهرية، ومغني المحتاج ٤ / ١٢٣ وما بعدها، والمغني ٨ / ١٠٤ وما بعدها .

[١٠٠٦] – مواهب الجليل ٦ / ٢٧٨ .

هُمُ الَّذينَ صَالَحَهُمْ إمَامُ الْمُسْلمينَ عَلَى إنْهَاءِ الْحَرْبِ مُدَّةً مَعْلُومَةً لمَصْلَحَة يَرَاهَا،وَالْمُعَاهَدُ:منَ الْعَهْد:وَهُوَ الصُّلْحُ الْمُؤَقَّتُ،وَيُسَمَّى الْهُدْنَةَ وَالْمُهَادَنَةَ وَالْمُعَاهَدَةَ وَالْمُسَالَمَةَ وَالْمُوَادَعَةَ[1007].

د – الْمُسْتَأْمَنُونَ:

الْمُسْتَأْمَنُ في الأَصْل:الطَّالبُ للأَمَان،وَهُوَ الْكَافرُ يَدْخُل دَارَ الإسْلاَم بأَمَانٍ،أَو الْمُسْلمُ إذَا دَخَل دَارَ الْكُفَّار بأَمَان.[1008]

انْقلاَبُ الذِّمِّيِّ أَو الْمُعَاهَد أَو الْمُسْتَأْمَن حَرْبيًّا:

يُصْبحُ الذِّمِّيُّ وَالْمُعَاهَدُ وَالْمُسْتَأْمَنُ في حُكْم الْحَرْبيِّ باللَّحَاق باخْتيَاره بدَار الْحَرْب مُقيمًا فيهَا،أَوْ إذَا نَقَضَ عَهْدَ ذمَّته فَيَحل دَمُهُ وَمَالُهُ،[1009] وَيُحَاربُهُ الإمَامُ بَعْدَ بُلُوغه مَأْمَنَهُ[1010] وُجُوبًا عنْدَ الْجُمْهُور،وَجَوَازًا عنْدَ الشَّافعيَّة.

وَلاَ خلاَفَ في مُحَارَبَته إذَا حَارَبَ الْمُسْلمينَ أَوْ أَعَانَ أَهْل الْحَرْب،وَللإمَام أَنْ يُبْدئَهُ بالْحَرْب،قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ وَإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ منْ بَعْد عَهْدهمْ وَطَعَنُوا في دينكُمْ فَقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر إنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } [التوبة:١٢]،وَحينَمَا نَقَضَتْ قُرَيْشٌ صُلْحَ الْحُدَيْبيَة،سَارَ إلَيْهمُ الرَّسُول ﷺ عَامَ الْفَتْح سَنَةَ ثَمَانٍ منَ الْهجْرَة،حَتَّى فَتَحَ مَكَّةَ.وَعنْدَمَا نَقَضَ بَنُو قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ سَنَةَ خَمْسٍ،قَتَل النَّبيُّ ﷺ رجَالَهُمْ،وَسَبَى ذَرَاريِّهمْ،وَأَخَذَ

[1007] – فتح القدير ٤ / ٢٩٣ وما بعدها، والفتاوى الهندية ١ / ١٨١، والخرشي ٣ / ١٧٥ ط الأولى، وفتح العلي المالك للشيخ عليش ١ / ٣٣٣، والشرح الكبير للدردير ٢ / ١٩٠، والقوانين الفقهية ص ١٥٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٦٠ وما بعدها، والأم ٤ / ١١٠ وما بعدها ط الأميرية، ونهاية المحتاج ٧ / ٢٣٥، وكشاف القناع ٣ / ١٠٣، وما بعدها، والمغني ٨ / ٤٥٩ – ٤٦١، وزاد المعاد لابن القيم ٢ / ٧٦، والمحرر في الفقه الحنبلي ٢ / ١٨٢، والاختيارات العلمية لابن تيمية ص ١٨٨ .

[1008] – درر الحكام ١ / ٢٦٢، وحاشية أبي السعود (فتح الله المعين) على منلا مسكين ٣ / ٤٤٠، والدر المختار ٣ / ٢٤٧ ط بولاق .

[1009] – الدر المختار ورد المحتار ٣ / ٢٧٥، ٣٠٣، والشرح الصغير ٢ / ٣١٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٨ – ٢٦٢، والمغني ٨ / ٤٥٨ وما بعدها و ٥٢٤ وما بعدها .

[1010] – إبلاغ المأمن :هو الإبعاد من دار الإسلام .والمأمن :كل مكان يأمن فيه الشخص على نفسه وماله .وإبلاغ المأمن نوع من الوفاء بالعهد .

أَمْوَالَهُمْ،وَكَذَلِكَ بَنُو النَّضِيرِ لَمَّا نَقَضُوا الْعَهْدَ،حَاصَرَهُمُ الرَّسُول ﷺ سَنَةَ أَرْبَعٍ،وَأَجَلاَهُمْ.[1011]

وَهُنَاكَ اتِّجَاهَان فِي أَسْبَابِ نَقْضِ الذِّمَّة:[1012]

الأَوَّل،مَذْهَبُ الْحَنَفِيَّة:وَهُوَ أَنَّهُ لاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُ الذِّمِّيِّينَ،إلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَنَعَةٌ يُحَارِبُونَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ يَلْحَقُونَ بِدَارِ الْحَرْبِ،أَوْ يَغْلِبُونَ عَلَى مَوْضِعٍ،فَيُحَارِبُونَنَا.

الثَّانِي،مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ:تُنْتَقَضُ الذِّمَّةُ بِمُخَالَفَةِ مُقْتَضَى الْعَهْدِ عَلَى مَا يَأْتِي فِي مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّة).

انْقِلاَبُ الْحَرْبِيِّ ذِمِّيًّا:

يُصْبِحُ الْحَرْبِيُّ ذِمِّيًّا إِمَّا بِالتَّرَاضِي،أَوْ بِالإِقَامَةِ لِمُدَّةِ سَنَةٍ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،أَوْ بِالزَّوَاجِ،أَوْ بِالْغَلَبَةِ وَالْفَتْحِ،عَلَى خِلاَفٍ وَتَفْصِيلٍ يَأْتِي بَيَانُهُ فِي مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّةِ).

انْقِلاَبُ الْمُسْتَأْمَنِ إِلَى حَرْبِيٍّ:

الْمُسْتَأْمَنُ:هُوَ الْحَرْبِيُّ الْمُقِيمُ إِقَامَةً مُؤَقَّتَةً فِي دِيَارِ الإِسْلاَمِ[1013]،فَيَعُودُ حَرْبِيًّا لِأَصْلِهِ بِانْتِهَاءِ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ الْمُقَرَّرَةِ لَهُ فِي بِلاَدِنَا،لَكِنْ يَبْلُغُ مَأْمَنَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤]،أَوْ بِنَبْذِ الْعَهْدِ،أَيْ نَقْضِهِ مِنْ جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ؛لِوُجُودِ دَلاَلَةٍ عَلَى الْخِيَانَةِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (} [الأنفال:٥٨]،وَهِيَ فِي أَهْلِ الْهُدْنَةِ أَوِ الأَمَانِ،لاَ فِي أَهْلِ جِزْيَةٍ،فَلاَ يُنْبَذُ عَقْدُ الذِّمَّةِ ؛لِأَنَّهُ مُؤَبَّدٌ،وَعَقْدُ مُعَاوَضَةٍ فَهُوَ آكَدُ مِنْ عَقْدِ الْهُدْنَةِ.

[1011] – انظر هذه الحوادث في سيرة ابن هشام ٢ / ١٩٠ – ١٩٢، ٢٣٣ – ٢٤٠، ٣٨٧ – ٤٠٦ .

[1012] – فتح القدير ٤ / ٣٨١ وما بعدها، ومجمع الأنهر ١ / ٥١٩، والمدونة ٣ / ٢١، والشرح الكبير مع الدسوقي ٢ / ١٨٨ وما بعدها، والخرشي ٣ / ١٤٩، والفروق ٣ / ١٣، والأم ٤ / ١٠٩، ط الأميرية، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٨، والمهذب ٢ / ٢٥٧، والمغني ٨ / ٥٢٥، ومطالب أولي النهى ٢ / ٦٢١ – ٦٢٣، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٥، المحرر في الفقه الحنبلي ٢ / ١٨٧ .

[1013] – شرح السير الكبير ١ / ٢٠٧، والبدائع ٥ / ٢٨١، و ٧ / ٣٢٦ .

وَقَدْ يُصْبِحُ الْمُسْتَأْمَنُ حَرْبِيًّا بِنَقْضِ الأَمَانِ مِنْ جَانِبِهِ هُوَ،أَوْ بِعَوْدَتِهِ لِدَارِ الْحَــرْبِ بِنِيَّــةِ الإِقَامَةِ،لاَ التِّجَارَةِ أَوِ التَّنَزُّهِ أَوْ لِحَاجَةٍ يَقْضِيهَا،ثُمَّ يَعُودُ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،فَإِذَا رَجَعَ إِلَــيْهِمْ وَلَوْ لِغَيْرِ دَارِهِ،انْتَهَى أَمَانُهُ.[١٠١٤]

هَذَا،وَكُل مَا يُنْتَقَضُ بِهِ عَهْدُ الذِّمِّيِّ،يُنْتَقَضُ بِهِ أَمَانُ الْمُسْتَأْمَنِ،عَلَى حَسَبِ الاتِّجَــاهَيْنِ السَّابِقَيْنِ ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ أَمَانٌ مُؤَبَّدٌ،وَآكَدُ مِنَ الأَمَانِ الْمُؤَقَّتِ،وَلأَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ كَالــذِّمِّيِّ يَلْتَزِمُ بِتَطْبِيقِ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ.

وَمَنْ نَقَضَ أَمَانَهُ بِنَقْضِ الْعَهْدِ يُنْبَذُ إِلَيْهِ وَيَبْلُغُ الْمَأْمَنَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،وَيُخَيَّرُ الإِمَامُ فِي شَأْنِهِ كَالأَسِيرِ الْحَرْبِيِّ،مِنْ قَتْلٍ وَمَنٍّ وَفِدَاءٍ وَغَيْرِهِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ.[١٠١٥]

انْقِلاَبُ الْحَرْبِيِّ إِلَى مُسْتَأْمَنٍ:

يَصِيرُ الْحَرْبِيُّ مُسْتَأْمَنًا بِالْحُصُول عَلَى أَمَانٍ مِنْ كُل مُسْلِمٍ بَالِغٍ عَاقِلٍ عِنْدَ الْجُمْهُــورِ،أَوْ حَتَّى مِنْ مُمَيِّزٍ عِنْدَ آخَرِينَ [١٠١٦].

دُخُول الْحَرْبِيِّ بِلاَدَ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ أَمَانٍ:

لَيْسَ لأَهْل الْحَرْبِ دُخُول دَارِ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ ؛لأَنَّهُ لاَ يُؤْمَنُ أَنْ يَدْخُل جَاسُوسًــا،أَوْ مُتَلَصِّصًا،أَوْ لِشِرَاءِ سِلاَحٍ،فَيَضُرُّ بِالْمُسْلِمِينَ[١٠١٧].

فَإِنْ قَال:دَخَلْتُ لِسَمَاعِ كَلاَمِ اللَّهِ تَعَالَى،أَوْ دَخَلْتُ رَسُولاً،سَوَاءٌ أَكَانَ مَعَهُ كِتَابٌ أَمْ لَمْ يَكُنْ،أَوْ دَخَلْتُ بِأَمَانِ مُسْلِمٍ،صُدِّقَ وَلاَ يَتَعَرَّضُ لَهُ ؛لاِحْتِمَال مَا يَدَّعِيهِ،وَقَصْدُ ذَلِكَ يُؤَمِّنُهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى تَأْمِينٍ ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبــة:٦]،وَهَــذَا قَــوْل الشَّافِعِيَّةِ.[١٠١٨]

[١٠١٤] - الدر المختار ورد المحتار ٣ / ٢٧٥، والمغني ٨ / ٤٠٠ .

[١٠١٥] - المدونة ٣ / ٤٢، والفروق ٣ / ٧٤، والشرح الكبير والدسوقي ٢ / ١٧٢، وتحفة المحتاج ٨ / ٩٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، و ٢٦٢، وفتح القدير ٤ / ٣٠٠، وتصحيح الفروع ٣ / ٦٦، وكشاف القناع ٣ / ١٠٠ .

[١٠١٦] - الاتجاه الأول للجمهور :أبي حنيفة وأبي يوسف والشافعي وأحمد في رواية عنه .والاتجاه الثاني للإمام مالك وأحمد ومحمد بن الحسن .واللجنة ترى أن المرجع الأخير لولي الأمر مراعيا في ذلك مصلحة الدولة المسلمة

[١٠١٧] - المغني ٨ / ٥٢٣، والمهذب ٢ / ٢٥٩ .

[١٠١٨] - مغني المحتاج ٤ / ٢٤٣ .واللجنة ترى أن هذا الأمر من الخطورة بمكان، ولا بد من التثبت من صدق ادعائه .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِن ادَّعَى الأَمَانَ لاَ يُصَدَّقُ فِيه،بَل يُطَالَبُ بِبَيِّنَةٍ ؛لإِمْكَانِهَا غَالِبًا،وَلأَنَّ الثَّابِتَ بِالْبَيِّنَة كَالثَّابِت بِالْمُعَايَنَة.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْل الْحَنَابِلَة:إِنَّ مَنْ دَخَل مِنَ الْحَرْبِيِّينَ دَارَ الإِسْلاَم بِغَيْرِ أَمَان،وَادَّعَى أَنَّهُ رَسُولٌ،أَوْ تَاجِرٌ وَمَعَهُ مَتَاعٌ يَبِيعُهُ،قُبِل مِنْهُ،وَيُحْقَنُ دَمُهُ،إِنْ صَدَّقَتْهُ عَادَةٌ،كَدُخُول تُجَّارِهِمْ إِلَيْنَا وَنَحْوِه ؛لأَنَّ مَا ادَّعَاهُ مُمْكِنٌ،فَيَكُونُ شُبْهَةً فِي دَرْءِ الْقَتْل ؛وَلأَنَّهُ يَتَعَذَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَة عَلَى ذَلِكَ،فَلاَ يَتَعَرَّضُ لَهُ،وَلِجَرَيَان الْعَادَة مَجْرَى الشَّرْط.

فَيَصْدُقُ إِنْ كَانَ مَعَهُ تِجَارَةٌ يَتَّجِرُ بِهَا ؛لأَنَّ التِّجَارَةَ لاَ تَحْصُل بِغَيْرِ مَالٍ،وَيُصَدَّقُ مُدَّعِي الرِّسَالَة إِنْ كَانَ مَعَهُ رِسَالَةٌ يُؤَدِّيهَا.وَإِنْ قَال:أَمَّنَنِي مُسْلِمٌ،فَفِيه وَجْهَان:

أَحَدُهُمَا:يُقْبَل تَغْلِيبًا لِحَقْنِ دَمِه،كَمَا يُقْبَل مِنَ الرَّسُول وَالتَّاجِر.

وَالثَّانِي:لاَ يُقْبَل ؛لأَنَّ إِقَامَةَ الْبَيِّنَة عَلَيْه مُمْكِنَةٌ.فَإِنْ قَال مُسْلِمٌ:أَنَا أَمَّنْتُهُ،قُبِل قَوْلُهُ،لأَنَّهُ يَمْلِكُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ،فَقُبِل قَوْلُهُ فِيه،كَالْحَاكِم إِذَا قَال:حَكَمْتُ لِفُلاَن عَلَى فُلاَن بِحَقٍّ.[1019]

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:إِنْ أُخِذَ الْحَرْبِيُّ بِأَرْضِ الْحَرْبِيِّينَ حَال كَوْنِه مُقْبِلاً إِلَيْنَا،أَوْ قَال:جِئْتُ أَطْلُبُ الأَمَانَ مِنْكُمْ،أَوْ أُخِذَ بِأَرْضِنَا وَمَعَهُ تِجَارَةٌ،وَقَال لَنَا:إِنَّمَا دَخَلْتُ أَرْضَكُمْ بِلاَ أَمَان،لأَنِّي ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ لاَ تَتَعَرَّضُونَ لِتَاجِر،أَوْ أُخِذَ عَلَى الْحُدُود بَيْنَ أَرْضِنَا وَأَرْضِهِمْ،وَقَال مَا ذُكِرَ،فَيُرَدُّ لِمَأْمَنِه فِي هَذِه الْحَالاَت.فَإِنْ وُجِدَتْ قَرِينَةُ كَذِبٍ،لَمْ يُرَدَّ لِمَأْمَنِه [1020].

أَمَّا إِنْ دَخَل الْحَرْبِيُّ بِلاَدَ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ أَمَان،وَلَمْ تَتَحَقَّقْ حَالَةٌ مِنَ الْحَالاَت السَّابِقَة،فَعِنْدَ الْجُمْهُور يُعْتَبَرُ كَالأَسِير أَوِ الْجَاسُوس،فَيُخَيَّرُ فِيه الإِمَامُ بَيْنَ الْقَتْل

[1019] - المبسوط ١٠ / ٩٣، ورد المحتار ٣ / ٢٤٨، وشرح السير الكبير ١ / ١٩٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وكشاف القناع ٣ / ١٠٠، والمغني ٨ / ٤٣٧، ٥٢٣ .والحنفية ومعهم الحنابلة اشترطوا لتصديق الرسول أن يكون معه كتاب يشبه أن يكون كتاب مليكه، وإن احتمل أنه مفتعل، لأن الرسول آمن، كما جرى به عرف الجاهلية والإسلام، وأما الشافعية فلم يشترطوا وجود كتاب معه، كما ذكر أعلاه .

[1020] - الشرح الكبير ٢ / ١٨٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٩ .

وَالاسْتِرْقَاق وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ.وَفِي قَوْل أَبِي حَنِيفَةَ يَكُونُ فَيْئًا لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.[1021]

دِمَاءُ أَهْل الْحَرْب وَأَمْوَالُهُمْ:

الْحَرْبُ – كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ – حَالَةُ عَدَاءٍ وَكِفَاحٍ مُسَلَّحٍ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ،تَقْتَضِي إِبَاحَةَ الدِّمَاءِ وَالأَمْوَال،وَهَذَا يَقْتَضِي بَحْثَ حَالَةِ الْعَدُوِّ فِي غَيْرِ حَالَةِ الْعَهْدِ،وَفِي حَالَةِ الْعَهْدِ:

أ – فِي غَيْرِ حَالَةِ الْعَهْدِ:الْحَرْبِيُّ غَيْرُ الْمُعَاهَدِ مُهْدَرُ الدَّمِ وَالْمَال،فَيَجُوزُ قَتْل الْمُقَاتِلِينَ ؛لأَنَّ كُل مَنْ يُقَاتِل فَإِنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهُ،وَتُصْبِحُ الأَمْوَال مِنْ عَقَارَاتٍ وَمَنْقُولاَتٍ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ،وَتَصِيرُ بِلاَدُ الْعَدُوِّ بِالْغَلَبَةِ أَوِ الْفَتْحِ مِلْكًا لِلْمُسْلِمِينَ،وَيَكُونُ وَلِيُّ الأَمْرِ مُخَيَّرًا فِي الأَسْرَى بَيْنَ أُمُورٍ:هِيَ الْقَتْل،وَالاسْتِرْقَاقُ،وَالْمَنُّ (إِطْلاَقُ سَرَاحِ الأَسِيرِ بِلاَ مُقَابِلٍ)،وَالْفِدَاءُ (تَبَادُل الأَسْرَى أَوْ أَخْذُ الْمَال فِدْيَةً عَنْهُمْ)،وَفَرْضُ الْجِزْيَةِ عَلَى الرِّجَال الْقَادِرِينَ [1022].

فَإِنْ قَبِلُوا الْجِزْيَةَ وَعَقَدَ الإِمَامُ لَهُمُ الذِّمَّةَ،أَصْبَحُوا أَهْل ذِمَّةٍ،وَيَكُونُ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الإِنْصَافِ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الانْتِصَافِ،وقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَنْ كَانَتْ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدِمَائِنَا».[1023]

وعَنْ أَبِي الْجَنُوبِ الْأَسَدِيِّ،قَالَ:أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،قَالَ:فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ،فَجَاءَ أَخُوهُ فَقَالَ:إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ،قَالَ:فَلَعَلَّهُمْ هَدَّدُوكَ وَفَرَقُوكَ وَفَزَعُوكَ،قَالَ:لَا،وَلَكِنْ قَتْلُهُ لَا يَرُدُّ عَلَيَّ

[1021] – المبسوط ١٠ / ٩٣، وشرح السير الكبير ١ / ١٩٨، والفتاوى الهندية ٢ / ١٨٦، ورد المحتار ٣ / ٢٤٩، والشرح الكبير ٢ / ١٨٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٩، والمهذب ٢ / ٢٥٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٠، والمغني ٨ / ٥٢٣ .وهذه مسائل زمنية، واللجنة ترى أنه يراعي الآن ما هو الأصلح .

[1022] – فتح القدير ٤ / ٢٧٨، وما وبعدها، ٢٨٤ وما بعدها، و ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٣٨، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٨، والدر المختار ٣ / ٢٣٩، ٢٤٦، والقوانين الفقهية ص ١٤٨، والشرح الصغير ٢ / ٢٧٥، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٦ وما بعدها، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٢ وما بعدها، و ٢٣٠ وما بعدها، والمغني ٨ / ٤٧٨، وما بعدها، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣١، ومسائل الإمام أحمد ص ٢٣٦ وما بعدها .

[1023] – سنن الدارقطني (٤/ ١٧٩)(٣٢٩٦) ضعيف

أَخِي،وَعَوَّضُونِي فَرَضِيتُ.قَالَ:" أَنْتَ أَعْلَمُ مَنْ كَانَ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدَمِنَا،وَدِيَتُهُ كَـدِيَتِنَا ".[١٠٢٤]

وَلاَ تَتَحَقَّقُ هَذِهِ الأَحْكَامُ إِلاَّ بِمَشْرُوعِيَّةِ الْجِهَادِ،كَمَا ذَكَرَ فِي الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّةِ،[١٠٢٥] فَفِيهَا:يُشْتَرَطُ لإِبَاحَةِ الْجِهَادِ شَرْطَانِ:

أَحَدُهُمَا:امْتِنَاعُ الْعَدُوِّ عَنْ قَبُول مَا دُعِيَ إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ،وَعَدَمِ الأَمَانِ وَالْعَهْدِ بَيْنَنَـا وَبَيْنَهُمْ.

وَالثَّانِي:أَنْ يَرْجُوَ الإِمَامُ الشَّوْكَةَ وَالْقُوَّةَ لأَهْل الإِسْلاَمِ،بِاجْتِهَادِهِ أَوْ بِاجْتِهَادِ مَـنْ يُعْتَـدُّ بِاجْتِهَادِهِ وَرَأْيِهِ.وَإِنْ كَانَ لاَ يَرْجُو الْقُوَّةَ وَالشَّوْكَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَال،فَإِنَّهُ لاَ يَحِل لَـهُ الْقِتَال ؛لِمَا فِيهِ مِنْ إِلْقَاءِ النَّفْسِ فِي التَّهْلُكَةِ.

ب – فِي حَالَةِ الْعَهْدِ:الْعَهْدُ مِنْ ذِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ أَوْ أَمَانٍ يَعْصِـمُ الـدَّمَ وَالْمَـال بِالنِّسْـبَةِ لِلْحَرْبِيِّ،فَإِنْ وُجِدَ عَهْدٌ عَصَمَ دَمَهُ وَمَالَهُ،وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فَهُوَ عَلَى الأَصْل مُهْـدَرُ الـدَّمِ وَالْمَال.وَتُبْحَثُ هُنَا أُمُورٌ:

أَوَّلاً:قَتْل الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ حَرْبِيًّا:

جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ[١٠٢٦] عَلَى أَنَّهُ لاَ يُقْتَصُّ مِنَ الْمُسْلِمِ وَالذِّمِّيِّ بِقَتْـل الْحَرْبِيِّ،وَلَـوْ كَـانَ مُسْتَأْمَنًا،كَمَا لاَ دِيَةَ عَلَيْهِمَا بِقَتْل الْحَرْبِيِّ غَيْرِ الْمُسْتَأْمَنِ ؛بِسَبَبِ وُجُودِ الشُّبْهَةِ فِي إِبَاحَةِ دَمِ الْحَرْبِيِّ،وَلِكَوْنِهِ مُبَاحَ الدَّمِ فِي الأَصْل.وَشَرْطُ الْقِصَاصِ وَوُجُوبِ الدِّيَةِ:كَوْنُ الْمَقْتُول مَعْصُومَ الدَّمِ أَوْ مَحْقُونَ الدَّمِ،أَيْ يَحْرُمُ الاعْتِدَاءُ عَلَى حَيَاتِهِ،بَل لاَ تَجِبُ الْكَفَّـارَةُ عِنْـدَ الْقَائِلِينَ بِلُزُومِهَا فِي حَالَةِ قَتْل مُبَاحِ الدَّمِ – كَالْحَرْبِيِّ – قَتْلاً عَمْدًا.[١٠٢٧]

[١٠٢٤] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٦٢)(١٥٩٣٤) ضعيف

[١٠٢٥] – الفتاوى الهندية ٢ / ١٧٤ .

[١٠٢٦] – البدائع ٧ / ٢٣٥ وما بعدها، و ٢٥٢ وما بعدها، والدر المختار ٥ / ٣٧٨ وما بعدها، وتكملة فتح القدير ٨ / ٢٥٤ وما بعدها، والشرح الكبير ٤ / ٢٣٧، و ٢٤٢ وما بعدها، والقوانين الفقهية ص ٣٤٥، وبداية المجتهد ٢ / ٣٩١، ومواهب الجليل ٦ / ٢٣٢ وما بعدها، ومغني المحتاج ٤ / ١٥ وما بعدها، والمهذب ٢ / ١٧٣، والروضة للنووي ٩ / ١٤٨، و ١٥٠، ١٥٦ والمغني ٧ / ٦٤٨، و ٦٥٢، ٦٥٧، وكشاف القناع ٥ / ٥٨٥، و ٥٨٧، ٦٠٧، ومطالب أولي النهى ٦ / ٢٨٠ .

[١٠٢٧] – وهم الشافعية (مغني المحتاج ٤ / ١٠٧، المهذب ٢ / ٢١٧) .

ثَانيًا:حُصُول الْمُسْلمِ أَوِ الذِّمِّيِّ عَلَى شَيْءٍ منْ مَال الْحَرْبِيِّ بمُعَامَلَة يُحَرِّمُهَا الإسْلاَمُ:

إِذَا دَخَل الْمُسْلمُ أَوِ الذِّمِّيُّ دَارَ الْحَرْب بأَمَان فَعَاقَدَ حَرْبيًّا عَقْدًا مثْل الرِّبَا،أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْعُقُود الْفَاسدَة في حُكْمِ الإسْلاَمِ،أَوْ أَخَذَ مَالَهُ بالْمَيْسر وَنَحْوه ممَّا حَرَّمَهُ الإسْلاَمُ،لَمْ يَحل لَهُ ذَلكَ عنْدَ الْجُمْهُور،وَمنْهُمْ أَبُو يُوسُفَ منَ الْحَنَفيَّة [١٠٢٨].

وَاسْتَدَلُّوا بأَنَّ حُرْمَةَ الرِّبَا ثَابتَةٌ في حَقِّ الْمُسْلمِ وَالْحَرْبيِّ،أَمَّا بالنِّسْبَة للْمُسْلمِ فَظَاهرٌ ؛لأَنَّ الْمُسْلمَ مُلْتَزمٌ بأَحْكَامِ الإسْلاَمِ حَيْثُمَا يَكُونُ،وَأَمَّا بالنِّسْبَة للْحَرْبيِّ ؛فَلأَنَّهُ مُخَاطَبٌ بالْمُحَرَّمَات،قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ وَأَخْذهمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلهمْ أَمْوَالَ النَّاس بالْبَاطلِ وَأَعْتَدْنَا للْكَافرينَ منْهُمْ عَذَابًا أَليمًا} [النساء:١٦١]،وَآيَاتُ تَحْريم الرِّبَا،مثْل قَوْله تَعَالَى:{وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة:٢٧٥]،وَسَائرُ الآْيَات وَالأَخْبَار الدَّالَّة عَلَى تَحْريمِ الرِّبَا،وَهيَ عَامَّةٌ تَتَنَاوَل الرِّبَا في كُل مَكَانٍ وَزَمَانٍ.وَذَهَبَ أَبُو حَنيفَةَ وَمُحَمَّدٌ إلَى جَوَازِ ذَلكَ،مُسْتَدلِّينَ بأَنَّ الْمُسْلمَ يَحل لَهُ أَخْذُ مَال الْحَرْبيِّ منْ غَيْر خيَانَةٍ وَلاَ غَدْرٍ ؛لأَنَّ الْعصْمَةَ مُنْتَفيَةٌ عَنْ مَاله،فَإتْلاَفُهُ مُبَاحٌ،وَفي عَقْد الرِّبَا وَنَحْوه الْمُتَعَاقدَان رَاضيَان،فَلاَ غَدْرَ فيه،وَالرِّبَا وَنَحْوُهُ كَإتْلاَف الْمَال،وَهُوَ جَائزٌ.قَال مُحَمَّدٌ في السِّيَر الْكَبير:وَإذَا دَخَل الْمُسْلمُ دَارَ الْحَرْب بأَمَانٍ،فَلاَ بَأْسَ بأَنْ يَأْخُذَ منْهُمْ أَمْوَالَهُمْ بطيب أَنْفُسهمْ بأَيِّ وَجْهٍ كَانَ ؛لأَنَّهُ إنَّمَا أَخَذَ الْمُبَاحَ عَلَى وَجْهٍ عَرَا عَن الْغَدْر،فَيَكُونُ ذَلكَ طَيِّبًا منْهُ.

وَأَمَّا خيَانَةُ الْمُسْلمِ الْمُسْتَأْمَن عنْدَهُمْ فَمُحَرَّمَةٌ ؛لأَنَّهُمْ إنَّمَا أَعْطَوُا الأَمَانَ للْمُسْلمِ أَوِ الذِّمِّيِّ مَشْرُوطًا بتَرْكه خيَانَتَهُمْ،وَإنْ لَمْ يَكُنْ ذَلكَ مَذْكُورًا في اللَّفْظ،فَهُوَ مَعْلُومٌ في الْمَعْنَى،وَلذَلكَ مَنْ جَاءَنَا منْهُمْ بأَمَانٍ فَخَانَنَا،كَانَ نَاقضًا لعَهْده.وَإذَا ثَبَتَ هَذَا لَمْ تَحل للْمُسْلمِ خيَانَةُ الْحَرْبيِّينَ إذَا دَخَل دَارَهُمْ بأَمَانٍ ؛لأَنَّهُ غَدْرٌ،وَلاَ يَصْلُحُ في ديننَا الْغَدْرُ،فعَنْ كَثير بْنِ عَبْد الله الْمُزَنيِّ،عَنْ أَبيه،عَنْ جَدِّه قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" الْمُسْلمُونَ عنْدَ شُرُوطهمْ إلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا "[١٠٢٩]

[١٠٢٨] - المبسوط ١٠ / ٩٥، وشرح السير الكبير ٤ فقرة ٢٩٠٣، والرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف ص ٩٦، والبدائع ٥ / ١٩٢، و ٧ / ١٣٠ - ١٣٤، ورد المحتار ٣ / ٣٥٠، والفروق للقرافي ٣ / ٢٠٧، ط الحلبي، والأم ٤ / ١٦٥، و ٧ / ٢٢٢ - ٣٢٣ ط الأميرية، وغاية المنتهى ٢ / ٦٤، ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٨٢، المغني ٨ / ٤٥٨ .

[١٠٢٩] - السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٤٠٦)(١٤٤٣٣و١٤٤٣٤ و١٤٤٣٥) من طرق حسن لغيره

فَإِنْ خَانَهُمْ،أَوْ سَرَقَ مِنْهُمْ،أَوِ اقْتَرَضَ شَيْئًا،وَجَبَ عَلَيْهِ رَدُّ مَا أَخَذَ إِلَى أَرْبَابِهِ،فَإِنْ جَاءَ أَرْبَابُهُ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ بِأَمَانٍ،أَوْ إِيمَانٍ،رَدَّهُ عَلَيْهِمْ،وَإِلاَّ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِمْ ؛لأَنَّهُ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهٍ حَرُمَ عَلَيْهِ أَخْذُهُ،فَلَزِمَهُ رَدُّ مَا أَخَذَ،كَمَا لَوْ أَخَذَهُ مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ.قَال الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي الأُمِّ[١٠٣٠]:وَمِمَّا يُوَافِقُ التَّنْزِيل وَالسُّنَّةَ وَيَعْقِلُهُ الْمُسْلِمُونَ،وَيَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ،أَنَّ الْحَلاَل فِي دَارِ الإِسْلاَمِ حَلاَلٌ فِي بِلاَدِ الْكُفْرِ،وَالْحَرَامَ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ حَرَامٌ فِي بِلاَدِ الْكُفْرِ،فَمَنْ أَصَابَ حَرَامًا،فَقَدْ حَدَّهُ اللَّهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنْهُ،وَلاَ تَضَعُ عَنْهُ بِلاَدُ الْكُفْرِ شَيْئًا.

ثَالِثًا:إِتْلاَفُ مُمْتَلَكَاتِ أَهْل الْحَرْبِ:

أ – فِي حَالَةِ الأَمَانِ أَوِ الْعَهْدِ:

الْعَهْدُ يَعْصِمُ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَال،وَيُوجِبُ الْكَفَّ عَنْ أَعْمَال الْقِتَال،قَال بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ[١٠٣١]:

إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ تَاجِرًا (بِأَمَانٍ)،فَلاَ يَحل لَهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَلاَ مِنْ دِمَائِهِمْ ؛لأَنَّهُ ضَمِنَ أَلاَّ يَتَعَرَّضَ لَهُمْ بِالاِسْتِئْمَانِ،فَالتَّعَرُّضُ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ غَدْرًا وَالْغَدْرُ حَرَامٌ،إِلاَّ إِذَا غَدَرَ بِهِ مَلِكُهُمْ،فَأَخَذَ أَمْوَالَهُ أَوْ حَبَسَهُ،أَوْ فَعَل ذَلِكَ غَيْرُ الْمَلِكِ بِعِلْمِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَمْنَعْهُ ؛لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ،بِخِلاَفِ الأَسِيرِ ؛لأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَأْمَنٍ،فَيُبَاحُ لَهُ التَّعَرُّضُ لِلْمَال وَالدَّمِ،وَإِنْ أَطْلَقُوهُ طَوْعًا.

ب – فِي حَالَةِ عَدَمِ الْعَهْدِ وَالأَمَانِ:

فِي حَال الْحَرْبِ يَجُوزُ بِالاِتِّفَاقِ إِتْلاَفُ أَشْجَارِ الْعَدُوِّ،وَذَبْحُ مَوَاشِيهِمْ،وَإِتْلاَفُ سَائِرِ أَمْوَالِهِمْ إِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ،كَإِتْلاَفِ مَا يَتَقَوَّوْنَ بِهِ مِنَ الآْلِيَّاتِ وَالْحُصُونِ وَالسِّلاَحِ وَالْخَيْل،وَإِتْلاَفِ الشَّجَرِ الَّذِي يَسْتَتِرُونَ بِهِ،أَوْ يَعُوقُ الْعَمَلِيَّاتِ الْحَرْبِيَّةَ،أَوْ يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ لِقَطْعِهِ لِتَوْسِيعِ طَرِيقٍ،أَوْ تَمَكُّنٍ مِنْ سَدِّ ثُغْرَةٍ،أَوِ احْتَاجُوا إِلَيْهِ لِلأَكْل،أَوْ يَكُونُ الْكُفَّارُ يَفْعَلُونَ بِنَا ذَلِكَ،فَنَفْعَل بِهِمْ مِثْلَهُ لِيَنْتَهُوا،فَهَذَا يَجُوزُ بِغَيْرِ خِلاَفٍ.

١٠٣٠ – الأم ٤ / ١٦٥، ٧ / ٢٢٢، ٣٢٣ .

١٠٣١ – الهداية وفتح القدير ٤ / ٣٤٧ وما بعدها .

وَأَمَّا إِتْلاَفُ ذَلكَ لغَيْرِ مَصْلَحَة إلاَّ لمُغَايَظَة الْكُفَّار وَالإِضْرَار بهِمْ وَالإِفْسَاد عَلَيْهِمْ،فَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلكَ.فَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَة فِي الأَشْجَار وَالزُّرُوع:إلَى أَنَّ ذَلكَ جَائزٌ ؛لقَوْل اللَّه تَعَالَى:{ مَا قَطَعْتُمْ منْ لينَة أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائمَةً عَلَى أُصُولهَا فَبإِذْن اللَّه وَليُخْزِيَ الْفَاسقينَ } [الحشر:٥].وقَوْله تَعَالَى { مَا كَانَ لأَهْل الْمَدينَة وَمَنْ حَوْلَهُمْ منَ الْأَعْرَاب أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللَّه وَلَا يَرْغَبُوا بأَنْفُسهمْ عَنْ نَفْسه ذَلكَ بأَنَّهُمْ لَا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبيل اللَّه وَلَا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتبَ لَهُمْ به عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللَّهَ لَا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ} [التوبة:١٢٠]،لَكنْ قَال ابْنُ الْهُمَام:هَذَا إذَا لَمْ يَغْلبْ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُمْ مَأْخُوذُونَ بغَيْر ذَلكَ،فَإِنْ كَانَ الظَّاهرُ أَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ،وَأَنَّ الْفَتْحَ بَادٍ (أَيْ ظَاهرٌ قَريبٌ) كُرِهَ ذَلكَ ؛لأَنَّهُ إِفْسَادٌ فِي غَيْر مَحَل الْحَاجَة،وَمَا أُبيحَ إلاَّ لَهَا.

وَقَال الْحَنَابلَةُ فِي رِوَايَةٍ وَالأَوْزَاعيُّ وَاللَّيْثُ وَأَبُو ثَوْرٍ:لاَ يَجُوزُ ذَلكَ لأَنَّهُ إتْلاَفٌ مَحْضٌ.[١٠٣٢]

عَمَل مَا يَنْفَعُ أَهْل الْحَرْب وَيُقَوِّيهمْ:

أ – الْوَصيَّةُ لأَهْل الْحَرْب:

هُنَاكَ اتِّجَاهَان فِي الْوَصيَّة لأَهْل الْحَرْب:

الاتِّجَاهُ الأَوَّل:لاَ تَصحُّ الْوَصيَّةُ للْحَرْبيِّ إذَا كَانَ فِي دَار الْحَرْب ؛لأَنَّ فِي ذَلكَ قُوَّةً لَهُمْ،فَالتَّبَرُّعُ بتَمْليكه الْمَال،يَكُونُ إعَانَةً لَهُ عَلَى الْحَرْب،وَأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ،وَلقَوْله تَعَالَى:{إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّين وَأَخْرَجُوكُمْ منْ ديَاركُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إخْرَاجكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ } [الممتحنة:٩].

فَدَل ذَلكَ عَلَى أَنَّ مَنْ قَاتَلَنَا لاَ يَحل برُّهُ،وَهَذَا اتِّجَاهُ الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة[١٠٣٣].

[١٠٣٢] – المغني ٨ / ٤٥١ – ٤٥٥ ط الرياض، وفتح القدير ٤ / ٢٨٦ ط بولاق، والشرح الكبير مع الدسوقي ٢ / ١٧٧، والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٥، والشرح الصغير ٢ / ٢٨١، وبداية المجتهد ١ / ٣٠٧، والأم ٤ / ٢٨٧، ط الأزهرية، والمهذب ٢ / ٢٥١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣، و ٢٢٦ – ٢٢٧، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٩، وجامع الترمذي بشرح ابن العربي ٧ / ٤٠، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣٣ وما بعدها .

[١٠٣٣] – البدائع ٧ / ٣٤١، التاج والإكليل مع مواهب الجليل ٦ / ٢٤ .

وَالاتِّجَاهُ الثَّانِي[١٠٣٤]:للشَّافِعيَّة فِي الأَصَحِّ وَالْحَنَابلَة – يُجيزُ الْوَصيَّةَ لحَرْبيٍّ مُعَيَّنٍ،لاَ لعَامَّة الْحَرْبيِّينَ،سَوَاءٌ أَكَانَ بدَارِ الْحَرْبِ أَمْ بِدَارِنَا ؛لأَنَّهُ تَصِحُّ الْهِبَةُ وَالصَّدَقَةُ لَهُ،فَصَحَّتْ لَهُ الْوَصيَّةُ كَالذِّمِّيِّ،

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب،رَأَى حُلَّةً سيَرَاءَ عنْدَ بَاب المَسْجد،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه لَو اشْتَرَيْتَ هَذه،فَلَبسْتَهَا يَوْمَ الجُمُعَة وَللْوَفْد إذَا قَدمُوا عَلَيْكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إنَّمَا يَلْبَسُ هَذه مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ في الآخرَة» ثُمَّ جَاءَتْ رَسُولَ اللَّه ﷺ منْهَا حُلَلٌ،فَأَعْطَى عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،منْهَا حُلَّةً،فقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّه،كَسَوْتَنيهَا وَقَدْ قُلْتَ في حُلَّة عُطَارد مَا قُلْتَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لتَلْبَسَهَا» فَكَسَاهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَخًا لَهُ بمَكَّةَ مُشْركًا"[١٠٣٥]

وعن أَسْمَاءَ بنْت أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق،رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ:أَتَتْني أُمِّي رَاغبَةً،في عَهْد النَّبيِّ ﷺ،فَسَأَلْتُ النَّبيَّ ﷺ:آصلُهَا؟ قَالَ:«نَعَمْ» قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ:فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فيهَا:{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتلُوكُمْ في الدِّين} [الممتحنة:٨][١٠٣٦]

وَمَعْنَى رَاغبَة:أَيْ طَامعَةٌ تَسْأَلُني شَيْئًا.

فَهَذَان فيهمَا صلَةُ أَهْل الْحَرْب وَبرُّهُمْ،ثُمَّ قَدْ حَصَل الإجْمَاعُ عَلَى جَوَاز الْهبَة،وَالْوَصيَّةُ في مَعْنَاهَا.وَمنْ أَدلَّة الْجَوَاز:قَوْله تَعَالَى:{وَإنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْركَ بي مَا لَيْسَ لَكَ به علْمٌ فَلَا تُطعْهُمَا وَصَاحبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبعْ سَبيلَ مَنْ أَنَابَ إلَيَّ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [لقمان:١٥].

ب – الْوَقْفُ عَلَى أَهْل الْحَرْب:

[١٠٣٤] – مغني المحتاج ٣ / ٤٣، والمغني ٦ / ١٠٤ وما بعدها، ومطالب أولي النهى ٤ / ٤٦٧ .

[١٠٣٥] – صحيح البخاري (٢/ ٤)(٨٨٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٨)٦ – (٢٠٦٨)

[ش(حلة) إزاء ورداء.(سيراء) ذات خطوط وقد كانت من الحرير.(للوفد) جمع وافد وهو القادم أو هو من كان مرسلا من قومه نائبا عنهم.(عطارد) هو ابن حاجب صاحب الحلة التي كانت تباع.(أخا له) من أمه وهو عثمان بن حكيم]

[١٠٣٦] – صحيح البخاري (٨/ ٤)(٥٩٧٨) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٦)٥٠ – (١٠٠٣)

[ش (لا ينهاكم الله..) لم يمنعكم من الإكرام وحسن الصلة لغير المسلمين طالما أنهم لم يناصبوكم العداء و لم يسعوا في إيذائكم و لم يقاتلوكم بسبب دينكم لا سيما إن كانوا أقرباء وذوي رحم./ الممتحنة ٨ /]

اتَّفقَ فُقَهَاءُ الْمَذَاهبِ الأَرْبَعَةِ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الْوَقْفُ عَلَى الْحَرْبِيِّينَ،وَالْوَقْفُ بَاطِلٌ ؛لأَنَّ أَمْوَالَهُمْ مُبَاحَةٌ فِي الأَصْلِ،وَيَجُوزُ أَخْذُهَا مِنْهُمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ،فَمَا يَتَجَدَّدُ لَهُمْ أَوْلَى،وَالْوَقْفُ لاَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبَاحَ الأَخْذِ ؛لأَنَّهُ تَحْبِيسُ الأَصْلِ ؛وَلأَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الْوَقْفِ أَنْ يَكُونَ قُرْبَةً فِي ذَاتِهِ،وَعِنْدَ التَّصَرُّفِ،وَالْوَقْفُ عَلَى الْحَرْبِيِّ مَعْصِيَةٌ وَلَيْسَ قُرْبَةً[١٠٣٧] .

ج – الصَّدَقَةُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ:

اتَّفقَ الأَئمَّةُ الأَرْبَعَةُ عَلَى صِحَّةِ الصَّدَقَةِ أَوِ الْهِبَةِ لِلْحَرْبِيِّ[١٠٣٨] ؛قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَبِلَ هَدِيَّةَ أَبِي سُفْيَانَ.فعَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى إِلَى أَبِي سُفْيَانَ تَمْرَ عَجْوَةٍ،وَهُوَ بِمَكَّةَ مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَهْدِيهِ أُدْمًا،فَأَهْدَى إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ " [١٠٣٩]

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَإِنَّمَا وَجْهُ هَذَا عِنْدَنَا أَنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ فِي الْهُدْنَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ فَتْحِهَا،فَأَمَّا مَعَ الْمُحَارَبَةِ فَلَا،وَكَذَلِكَ قَبُولُهُ هَدِيَّةَ الْمُقَوْقَسِ صَاحِبِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ،وَكَانَ عَظِيمَ الْقِبْطِ يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ،أَكْرَمَ حَاطِبًا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ،وَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ،وَإِنْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ،وَأَهْدَى إِلَيْهِ مَارِيَةَ الَّتِي وَلَدَتْ إِبْرَاهِيمَ،وَبَغْلَةً وَأَشْيَاءَ سِوَى ذَلِكَ.

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَنَرَى ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ أَقَرَّ بِالنُّبُوَّةِ وَلَمْ يُظْهِرِ التَّكْذِيبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،وَلَمْ يُؤَيِّسْهُ مِنَ الْإِسْلَامِ،فَلِهَذَا نَرَى النَّبِيَّ ﷺ قَبِلَ هَدِيَّتَهُ،فَأَمَّا النَّجَاشِيُّ فَقَدْ كَانَ أَسْلَمَ،وَأَهْدَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَبِلَ هَدِيَّتَهُ،وَكَذَلِكَ الْأُكَيْدِرُ،إِلَّا أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ عَلَى شَرْطٍ لَهُ وَشَرَطَ عَلَيْهِ فَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ كِتَابًا،وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ – فِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ كُتُبِ النَّبِيِّ ﷺ.

[١٠٣٧] – الفتاوى الهندية ٢ / ٢٩٧، والدر المختار ٣ / ٣٩٥، والتاج والإكليل ٦ / ٢٤، ومغني المحتاج ٢ / ٣٨٠، والمغني ٥ / ٥٨٩ .

[١٠٣٨] – الفتاوى الهندية ٤ / ٣٨٧ وما بعدها، والشرح الصغير ٤ / ١٤١، ومغني المحتاج ٢ / ٣٩٧، و ٤٠٠، والمغني ٦ / ١٠٤ .

[١٠٣٩] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٨٩)(٩٦٨) صحيح مرسل

قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَالثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْبَلْ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ مُحَارِبٍ وَقَدْ بَيَّنَّا فَصْلَ مَا بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ،فَأَمَّا الصَّدَقَةُ،فَلَيْسَتْ تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ مِنْ حُكْمِ هَذَيْنِ الْمَالَيْنِ،إِنَّمَا هِيَ زَكَاةُ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَمَوَاضِعُهَا الْأَصْنَافُ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ،وَلَا تَكُونُ عَطَاءً لِلْمُقَاتِلَةِ،فَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:سَمِعْتُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ،قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ:إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ،قَدْ أَمَرَ بِأُعْطِيَاتِكُمْ وَافِرَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ،وَقَدِ اجْتَهَدَ نَفْسَهُ لَكُمْ،وَقَدْ عَجَزَ مِنَ الْمَالِ مِائَةُ أَلْفٍ،وَذَلِكَ لِمَا دَخَلَ فِيكُمْ مِنَ الْإِلْحَاقِ وَالْفَرَائِضِ،وَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ آخُذَهَا مِنْ صَدَقَةِ مَالِ الْيَمَنِ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْنَا،قَالَ:فَجَثَا النَّاسُ عَلَى رُكَبِهِمْ،فَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ:لَا وَاللَّهِ،مَا نَأْخُذُ مِنْهَا دِرْهَمًا وَاحِدًا،إِنَّا نَأْخُذُ حَقَّ غَيْرِنَا،إِنَّمَا مَالُ الْيَمَنِ صَدَقَةٌ،وَالصَّدَقَةُ لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ،وَإِنَّمَا عَطَاؤُنَا مِنَ الْجِزْيَةِ،فَاكْتُبْ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَبْعَثُ إِلَيْنَا بِبَقِيَّةِ عَطَائِنَا،فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ،فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ بِبَقِيَّتِهِ "[١٠٤٠]

وفي شرح السير:"بَابُ صِلَةِ الْمُشْرِكِ وَذَكَرَ عَنْ أَبِي مَرْوَانَ الْخُزَاعِيِّ قَالَ:قُلْت لِمُجَاهِدٍ:رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ،وَلِي عَلَيْهِ مَالٌ،أَدَعُهُ لَهُ؟ قَالَ:نَعَمْ،وَصِلْهُ.

وَبِهِ نَأْخُذُ فَنَقُولُ:لَا بَأْسَ بِأَنْ يَصِلَ الْمُسْلِمُ الْمُشْرِكَ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا،مُحَارِبًا كَانَ أَوْ ذِمِّيًّا لِحَدِيثِ «سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ:صَلَّيْت الصُّبْحَ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ – فَوَجَدْت مَسَّ كَفٍّ بَيْنَ كَتِفِي،فَالْتَفَتّ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ:هَلْ أَنْتَ وَاهِبٌ لِي ابْنَةَ أُمِّ قِرْفَةَ؟ قُلْت:نَعَمْ.فَوَهَبْتهَا لَهُ.فَبَعَثَ بِهَا إلَى خَالِهِ حَزَنَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ،وَهُوَ مُشْرِكٌ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ.وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ إلَى مَكَّةَ حِينَ قَحَطُوا،وَأَمَرَ بِدَفْعِ ذَلِكَ إلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لِيُفَرِّقَا عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ.فَقَبِلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ،وَأَبَى صَفْوَانُ وَقَالَ:مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إلَّا أَنْ يَخْدَعَ شُبَّانَنَا».

وَلِأَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحْمُودٌ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ وَفِي كُلِّ دِينٍ،وَالْإِهْدَاءَ إلَى الْغَيْرِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.وَقَالَ – ﷺ –:«بُعِثْت لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».فَعَرَفْنَا أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ جَمِيعًا.

[١٠٤٠] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٨٩)(٩٦٨) والحديث حسن

- ثُمَّ ذَكَرَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:«قَدِمَ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ أَخُو الْبَرَاءِ وَهُوَ مُشْرِكٌ.فَأَهْدَى لِلنَّبِيِّ - ﷺ - فَرَسَيْنِ وَحُلَّتَيْنِ،فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -:لَا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ».

وَقَدْ رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ يَقْبَلُ هَدَايَا الْمُشْرِكِينَ».«وَأَنَّهُ أَهْدَى مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ إلَى أَبِي سُفْيَانَ تَمْرَ عَجْوَةٍ،وَاسْتَهْدَاهُ أَدَمًا،فَقَبِلَ هَدِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَهْدَى لَهُ الْأُدْمَ».

«وَأَنَّ نَصْرَانِيًّا أَهْدَى إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَرِيرًا يَتَلَأْلَأُ،فَقَبِلَ هَدِيَّتَهُ».«وَأَنَّ عِيَاضَ بْنَ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيَّ أَهْدَى إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ لَهُ:أَسْلَمْت يَا عِيَاضُ؟ فَقَالَ:لَا.قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -:إنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَانِي أَنْ أَقْبَلَ زَبْدَ الْمُشْرِكِينَ»،أَيْ عَطَايَاهُمْ.

ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ زَبْدِ الْمُشْرِكِينَ»،أَيْ عَنْ قَبُولِ هَدِيَّتِهِمْ،فَتَأْوِيلُ مَا رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ وُجُوهٍ:أَحَدُهَا:أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مِمَّنْ كَانَ يَطْمَعُ فِي إيمَانِهِ إذَا رَدَّ هَدِيَّتَهُ لِيَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يُؤْمِنَ ثُمَّ يَقْبَلَ هَدِيَّتَهُ.أَوْ لَمْ يَقْبَلْ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُطَالِبُ بِالْعِوَضِ وَلَا يَرْضَى بِالْمُكَافَأَةِ بِمِثْلِ مَا أَهْدَى.وَبَيَانُ هَذَا فِي قَوْلِهِ - ﷺ - :«لَقَدْ هَمَمْت أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةَ الْأَعْرَابِ».وَفِي رِوَايَةٍ:«لَا أَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ إلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ»

وَأَيَّدَ هَذَا مَا رُوِيَ «أَنَّ عَامِرَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ أَهْدَى إلَيْهِ فَرَسَيْنِ قَدْ كَانَ أَحَدُهُمَا لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ،فَعَوَّضَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَوْقَ هَدِيَّتِهِ،فَجَعَلَ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي خُطْبَتِهِ:مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَهْدُونَ مَا نَعْرِفُهُ أَنَّهُ لَنَا.ثُمَّ لَا يَرْضَوْنَ بِالْمُكَافَأَةِ بِالْمِثْلِ».وَإِنَّمَا لَمْ يَقْبَلْ هَدِيَّةَ عَامِرٍ لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ أَجَارَ سَبْعِينَ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ قَتَلَهُمْ قَوْمُهُ،وَهُمْ أَصْحَابُ بِئْرِ مَعُونَةَ.وَفِي هَذَا قِصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ،فَلِهَذَا رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - هَدِيَّتَهُ.[1041]

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)} [الإنسان:٨،٩].قَال الْحَسَنُ كَانَ

[1041] - شرح السير الكبير (ص:٩٦)، المبسوط ١٠ / ٩٢

رَسُول اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بالأَسِيرِ،فَيَدْفَعُهُ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلمينَ،فَيَقُول:" أَحْسِنْ إِلَيْه " فَيَكُــونُ عِنْدَهُ الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلاَثَةَ،فَيُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِه.وَعِنْدَ عَامَّة الْعُلَمَاءِ:يَجُوزُ الإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،وَعَنْ قَتَادَةَ:كَانَ أَسِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُشْرِكَ.[1042]

د – تَوَارُثُ الذِّمِّيِّ وَالْحَرْبِيِّ:

يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارَيْنِ لاَ يَمْنَعُ مِنَ التَّوَارُثِ بَيْنَ الْكُفَّارِ،وَيَرَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارَيْنِ يَمْنَعُ التَّوَارُثَ.[1043]

هـ – إِرْثُ الْمُسْلِمِ الْحَرْبِيَّ،وَالْحَرْبِيِّ الْمُسْلِمَ:

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ كَافِرًا،وَالْكُفَّارُ مُسْلِمًا[1044]،وَفِي ذَلِكَ خِــلاَفٌ وَتَفْصِيلٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي:(إِرْثٍ).

و – الاتِّجَارُ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ:

تَدُل عِبَارَاتُ الْفُقَهَاءِ عَلَى جَوَازِ الاتِّجَارِ مَعَ الْحَرْبِيِّينَ،[1045] فَلِلْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ دُخُــول دَارِ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ لِلتِّجَارَةِ،وَلِلْحَرْبِيِّ دُخُول دَارِنَا تَاجِرًا بِأَمَانٍ،وَتُؤْخَذُ الْعُشُــورُ عَلَــى التِّجَارَةِ الْعَابِرَةِ عِنْدَ اجْتِيَازِ حُدُودِ دَارِ الإِسْلاَمِ.وَلَكِنْ لاَ يَجُوزُ إِمْدَادُ الْمُحَــارِبِينَ بِمَــا يُقَوِّيهِمْ مِنَ السِّلاَحِ وَالآْلاَتِ وَالْمَوَادِّ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا السِّلاَحُ،كَمَا لاَ يَجُــوزُ السَّــمَاحُ بِالاتِّجَارِ بِالْمَحْظُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ كَالْخُمُورِ وَالْخَنَازِيرِ وَسَائِرِ الْمُنْكَرَاتِ ؛لأَِنَّهَــا مَفَاسِــدُ مَمْنُوعَةٌ شَرْعًا،وَيَجِبُ مُقَاوَمَتُهَا.وَلَيْسَ لِلْحَرْبِيِّ الْمُسْتَأْمَنِ شِرَاءُ الأَسْــلِحَةِ مِــنْ بِــلاَدِ الإِسْلاَمِ.[1046]

[1042] – تفسير الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٩٦، ط الحلبي .

[1043] – تبيين الحقائق ٦ / ٢٤٠، والدر المختار ٣ / ٢٤٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٩٠، والقوانين الفقهية / ٣٩٤ وما بعدها، والبجيرمي على المنهج ٣ / ٢٣٥، وحاشية الشرقاوي ٢ / ١٨٨، والأم ٤ / ٤، ومطالب أولي النهى ٤ / ٥٤٤ .

[1044] – شرح السراجية ص ٢١، والقوانين الفقهية / ٣٩٤، ومغني المحتاج ٣ / ٢٤ وما بعدها، والمغني ٦ / ٢٩٤ .

[1045] – انظر مثلا المبسوط ١٠ / ٩١، شرح السير الكبير ٣ / ٢٧٣ – ٢٧٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والمغني ٨ / ٤٨٩، ٥٢٢ .

[1046] – الخراج لأبي يوسف ص ١٩٩، شرح السير الكبير ٣ / ١٧٧، وحاشية الطحطاوي ٢ / ٤٤٥، وفتح القدير ٤ / ٣٤٧ وما بعدها، والفتاوى الهندية ٢ / ٢١٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٧، والشرح الكبير مع المغني ١٠ / ٤٠٨ .

وَفِيمَا عَدَا هَذِهِ الْقُيُودِ يَجُوزُ أَنْ تَظَل حُرِّيَّةُ التِّجَارَةِ قَائِمَةً،إلاَّ أَنَّ الْمَالِكِيَّةَ انْفَرَدُوا بِالْقَوْلِ بِمَنْعِ التَّصْدِيرِ مِنْ بِلاَدِنَا،وَمُتَاجَرَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُهُمْ تَجْرِي عَلَى التُّجَّارِ ؛لأَنَّ فِي تَصْدِيرِ أَيِّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛وَلأَنَّ الْمُسْلِمَ مَمْنُوعٌ مِنَ الإِقَامَةِ فِي دَارِ الشِّرْكِ،عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا.[1047]

كَمَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَصْدِيرُ الأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا إِلاَّ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ هُدْنَةٌ مَعَ الْعَدُوِّ،أَمَّا فِي غَيْرِ الْهُدْنَةِ فَلاَ يَجُوزُ.[1048]

وَالأَدِلَّةُ عَلَى جَوَازِ التَّصْدِيرِ مِنْ بِلاَدِنَا مِنْهَا:ما جاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ،فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ:ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ،سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ،فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ،إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ:مَا قُلْتُ لَكَ،إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ،فَقَالَ:«مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ،إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»،فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ،فَاغْتَسَلَ،ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،يَا مُحَمَّدُ،وَاللهِ،مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ،وَاللهِ،مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ

[1047] - سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) صحيح

[1048] - المدونة ١٠ / ١٠٢، والمقدمات الممهدات ٢ / ٢٨٥، وفتح العلي المالك ١ / ٣٣١، ومواهب الجليل ٣ / ٣٦٤، و ٣٧٩ .

دينكَ،فَأَصْبَحَ دينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّه إِلَيَّ،وَاللهِ،مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ،وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ:أَصَبَوْتَ،فَقَالَ:لَا،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَلَا وَاللهِ،لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ"[١٠٤٩]

فَهَذَا يَدُل عَلَى جَوَازِ تَصْدِيرِ الأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا إِلَى الأَعْدَاءِ،حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ حَالَةُ الْحَرْبِ قَائِمَةً مَعَهُمْ.

وَمِنَ الأَدِلَّة أَيْضًا الأَحَاديثُ السَّابِقَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي بَحْث الصَّدَقَة عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ وَالْوَصِيَّةِ لَهُمْ (قِصَّةُ إِهْدَاءِ التَّمْرِ لِأَبِي سُفْيَانَ،وَصِلَةُ أَسْمَاءَ أُمَّهَا الْمُشْرِكَةَ،وَإِطْعَامُ الْمُسْلِمِينَ الأَسْرَى).

أَمَّا الدَّلِيل عَلَى حَظْرِ تَصْدِيرِ الأَسْلِحَةِ وَنَحْوِهَا،فَمِنْهُ:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،" أَنَّهُ كَرِهَ بَيْعَ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ "[١٠٥٠]

وعَنِ الْحَسَنِ،وَابْنِ سِيرِينَ ؛أَنَّهُمَا كَرِهَا بَيْعَ السِّلاَحِ فِي الْفِتْنَةِ.

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:لاَ يُبْعَثُ إِلَى أَهْلِ الْحَرْبِ شَيْءٌ مِنَ السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ،وَلاَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ.[١٠٥١]

[١٠٤٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٦)٥٩ - (١٧٦٤)

[ش (ماذا عندك؟ يا ثمامة) أي من الظن بي أن أفعل بك؟(إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره أي لرياسته وفضيلته وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم وقال آخرون معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله(فانطلق إلى نخل) هكذا هو في البخاري ومسلم وغيرهما نخل بالخاء المعجمة وتقديره انطلق إلى نخل فيه ماء فاغتسل منه(أصبوت) هكذا هو في الأصول أصبوت وهي لغة والمشهور أصبأت بالهمز وعلى الأول جاء قولهم الصباة كقاض وقضاة والمعنى أخرجت من دينك]

[١٠٥٠] - السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٥٣٥)(١٠٧٧٩) صحيح

[١٠٥١] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٩٨)(٣٤٠٥٢و٣٤٠٥٣) صحيح

وَالْفتْنَةُ:الْحُرُوبُ الدَّاخليَّةُ،وَفتْنَةُ غَيْرِ الْمُسْلمينَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ،فَكَانَ أَوْلَى أَلاَّ يُبَاعَ لَهُمْ.هَذَا وَإِنَّ فِي بَيْعِ السِّلَاحِ للأَعْدَاءِ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى قِتَال الْمُسْلمينَ،وَبَاعثًا لَهُمْ عَلَى شَنِّ الْحُرُوب،وَمُوَاصَلَة الْقتَال لاسْتعَانَتهِمْ به،وَذَلكَ يَقْتَضِي الْمَنْعَ.

وفِي الْهِدَايَة:وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَاعَ السِّلَاحُ منْ أَهْلِ الْحَرْب إِذَا حَضَرُوا مُسْتَأْمَنينَ،وَلَا يُجَهَّزَ إِلَيْهِمْ مَعَ التُّجَّارِ إِلَى دَارِ الْحَرْب ؛ لأَنَّهُ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ منْ أَهْلِ الْحَرْب وَحَمْله إِلَيْهِمْ.قَالَ ابْنُ الْهُمَام:الْمَعْرُوفُ مَا فِي سيَرِ الْبَيْهَقيِّ،وَمُسْنَد الْبَزَّار،وَمُعْجَم الطَّبَرَانيِّ،عَنْ عمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفتْنَة.قَالَ الْبَيْهَقيُّ:الصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.قَالَ صَاحبُ الْهِدَايَة:وَهُوَ الْقيَاسُ فِي الطَّعَامِ ؛ أَيِ الْقيَاسُ فيه أَنْ يُمْنَعَ منْ حَمْله إِلَى دَارِ الْحَرْب ؛ لأَنَّهُ به التَّقَوِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،وَالْمَقْصُودُ إِضْعَافُهُمْ إِلَّا أَنَّا عَرَفْنَا نَقْلَ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ بِالنَّصِّ يَعْنِي حَديثَ ثُمَامَةَ،وَحَديثَ أُسَامَةَ،رَوَاهُ الْبَيْهَقيُّ منْ طَرِيقِ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ،عَنْ سَعيد الْمَقْبُرِيِّ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،فَذَكَرَ قصَّةَ إِسْلَامِ ثُمَامَةَ.وَفِي آخره قَوْلُهُ لأَهْلِ مَكَّةَ حينَ قَالَ لَهُ قَائلٌ:صَبَوْتَ.فَقَالَ:«إِنِّي وَاللَّه مَا صَبَوْتُ،وَلَكنِّي أَسَلَّمْتُ وَصَدَّقْتُ مُحَمَّدًا وَآمَنْتُ به،وَايْمُ اللَّه الَّذي نَفْسُ ثُمَامَةَ بِيَده لَا تَأْتيكُمْ حَبَّةٌ منَ الْيَمَامَة،وَكَانَتْ قَرِيبَ مَكَّةَ حَتَّى يَأْذَنَ فيهَا مُحَمَّدٌ،فَانْصَرَفَ إِلَى بَلَده،وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشٌ،فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّه – ﷺ – يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يَحْملُ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ،فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ» –.وَذَكَرَهُ ابْنُ هشَامٍ فِي آخرِ السِّيَرِ،وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا:«أَصَبَأْتَ؟ فَقَالَ:لَا وَاللَّه وَلَكنِّي اتَّبَعْتُ خَيْرَ الدِّينِ دينِ مُحَمَّد،وَاللَّه لَا تَصلُ إِلَيْكُمْ حَبَّةٌ منَ الْيَمَامَة حَتَّى يَأْذَنَ فيهَا رَسُولُ اللَّه – ﷺ» – إِلَى أَنْ قَالَ:«فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْه وَسَلَّمَ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصلَة الرَّحمِ وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا،فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – إِلَيْه أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ»[١٠٥٢]

نكَاحُ الْمُسْلمِ الْحَرْبِيَّةَ الْكتَابيَّةَ:

[١٠٥٢] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٥٠)

صَرِيحُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَحِل لِلْمُسْلِمِ التَّزَوُّجُ بِالْمَرْأَةِ الْكِتَابِيَّةِ،وَيَدْخُل فِي ذَلِكَ الذِّمِّيَّاتُ مِنْهُنَّ،كَمَا تَدْخُل الْحَرْبِيَّاتُ الْكِتَابِيَّاتُ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ،وَذَلِكَ لِقَوْلِه تَعَالَى:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة:٥]

عَلَى أَنَّ فِي ذَلِكَ خِلاَفًا وَتَفْصِيلاً يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي بَحْثِ (نِكَاحٍ) [١٠٥٣].

قلت:الصواب منع الزواج من الحربية ولاسيما في دار الحرب لأنه لا تؤتمن على شيء،وهو ضعيف أمامها لا حول له ولا طول.

النَّفَقَةُ عَلَى الزَّوْجَةِ وَالأَقَارِبِ الْحَرْبِيِّينَ:

أَوَّلاً:نَفَقَةُ الزَّوْجَةِ الْحَرْبِيَّةِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوبِ النَّفَقَةِ لِلزَّوْجَةِ مُطْلَقًا،فَالْكِتَابِيَّةُ كَالْمُسْلِمَةِ فِي اسْتِحْقَاقِ النَّفَقَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ حُقُوقِ الزَّوَاجِ،سَوَاءٌ كَانَتِ الزَّوْجَةُ فِي أَثْنَاءِ الزَّوَاجِ فِعْلاً،أَمْ فِي الْعِدَّةِ ؛لاشْتِرَاكِهِمَا (أَيِ الْمُسْلِمَةِ وَغَيْرِهَا) فِي رَابِطَةِ الزَّوْجِيَّةِ،وَفِي سَبَبِ الاسْتِحْقَاقِ وَشَرْطِهِ،فَهِيَ مَحْبُوسَةٌ عَلَى الزَّوْجِ يَمْنَعُهَا مِنَ التَّصَرُّفِ وَالاكْتِسَابِ،فَوَجَبَتْ نَفَقَتُهَا عَلَيْهِ.وَاللَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلزَّوْجَةِ حَقَّ النَّفَقَةِ عَلَى زَوْجِهَا ؛لِقَوْلِه عَزَّ وَجَل:{ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق:٧]،وَلَمْ تُفَرِّقِ النُّصُوصُ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ.[١٠٥٤]

ثَانِيًا:نَفَقَةُ الأَقَارِبِ الْحَرْبِيِّينَ:

[١٠٥٣] - حاشية ابن عابدين ٢ / ٢٩٧، والشرح الكبير للدردير ٢ / ٢٦٧، ومغني المحتاج ٣ / ١٨٧، والمغني ٦ / ٥٨٩ وما بعدها .

[١٠٥٤] - البدائع ٤ / ١٦، وفتح القدير ٣ / ٣٢١، ومواهب الجليل ٤ / ١٨١، وما بعدها، والشرح الصغير ٢ / ٧٢٩ - ٧٣٠، وبداية المجتهد ٢ / ٥٣، والقوانين الفقهية ص ٢٢٣، والأم ٥ / ٨٧ ط الأزهرية ٥ / ١٩٧ ط الأميرية، ومغني المحتاج ٣ / ١٨٨، المغني ٧ / ٥٦٣ وما بعدها، ومطالب أولي النهى ٦ / ٦١٧، وكشاف القناع ٥ / ٥٣٢ وما بعدها .

يَرَى الْمَالِكِيَّةُ عَلَى الْمَشْهُورِ وَالشَّافِعِيَّةُ أَنَّهُ تَجِبُ عَلَى الْمُوسِرِ الْمُسْلِمِ نَفَقَةُ أَقَارِبِهِ الْمُعْسِرِينَ،وَلَوْ كَانُوا كُفَّارًا،أَيْ وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ اخْتِلاَفٌ فِي الدِّينِ،لَكِنْ بَعْضُ أَصْحَابِ هَذَا الاتِّجَاهِ يَقْصُرُونَ إيجَابَ النَّفَقَةِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْوَلَدِ فَقَطْ،فَتَجِبُ عِنْدَهُمُ النَّفَقَةُ عَلَى الْوَلَدِ لِأَبَوَيْهِ الْمُعْسِرَيْنِ فَقَطْ،كَمَا تَجِبُ نَفَقَةُ الْوَلَدِ الْمُعْسِرِ عَلَى أَبِيهِ الْمُوسِرِ،سَوَاءٌ أَكَانَ الْوَلَدُ كَافِرًا وَالأَبَوَانِ مُسْلِمَيْنِ،أَمْ كَانَ الْوَلَدُ مُسْلِمًا وَالأَبَوَانِ كَافِرَيْنِ [١٠٥٥].

وَالشَّافِعِيَّةُ يُوجِبُونَ نَفَقَةَ الْوَالِدِ وَإِنْ عَلاَ،وَنَفَقَةُ الْوَلَدِ وَإِنْ سَفَلَ،وَإِنِ اخْتَلَفَتْ مِلَّتُهُمَا.

وَدَلِيل الْفَرِيقَيْنِ:وُجُودُ الْمُوجِبِ لِلنَّفَقَةِ،وَهُوَ الْجُزْئِيَّةُ وَالْبَعْضِيَّةُ بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ،كَالْحُكْمِ بِرَدِّ لِشَّهَادَةِ بِسَبَبِ الْوِلاَدَةِ.(ر:نَفَقَةٌ).

وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:أَنَّهُ لاَ تَجِبُ النَّفَقَةُ بِسَبَبِ اخْتِلاَفِ الدِّينِ،فَلاَ تَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ نَفَقَةُ أَبَوَيْهِ الْحَرْبِيَّيْنِ،وَلاَ يُجْبَرُ الْحَرْبِيُّ عَلَى الإِنْفَاقِ عَلَى أَبِيهِ الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ ؛لِأَنَّ اسْتِحْقَاقَ النَّفَقَةِ بِطَرِيقِ الصِّلَةِ وَالْبِرِّ وَالْمُوَاسَاةِ،وَلاَ تُسْتَحَقُّ الصِّلَةُ لِلْحَرْبِيِّ ؛لِلنَّهْيِ عَنْ بِرِّهِمْ،فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)} [الممتحنة:٨،٩] ؛وَلِأَنَّهُمَا غَيْرُ مُتَوَارِثَيْنِ،فَلَمْ يَجِبْ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ نَفَقَتُهُ بِالْقَرَابَةِ.

وَتَخْتَلِفُ عَنْ نَفَقَةِ الزَّوْجَاتِ ؛لِأَنَّ نَفَقَةَ الزَّوْجَاتِ عِوَضٌ تَجِبُ مَعَ الإِعْسَارِ،فَلَمْ يُنَافِهَا اخْتِلاَفُ الدِّينِ كَالصَّدَاقِ وَالأُجْرَةِ ؛وَلِأَنَّ نَفَقَةَ الْوَالِدَيْنِ صِلَةٌ وَمُوَاسَاةٌ كَمَا ذُكِرَ،فَلاَ تَجِبُ مَعَ اخْتِلاَفِ الدِّينِ،كَأَدَاءِ زَكَاتِهِ إِلَيْهِ،وَإِرْثِهِ مِنْهُ.[١٠٥٦]

[١٠٥٥] - مواهب الجليل ٤ / ٢٠٩، والشرح الصغير ٢ / ٧٥٠، وما بعدها، والأم ٥ / ١٠٠ ط الأزهرية، ومغني المحتاج ٣ / ٤٤٦ وما بعدها .

[١٠٥٦] - الفتاوى الهندية ١ / ٤٩٩ - ٥٠٠، وتبيين الحقائق ٣ / ٦٣، والبدائع ٤ / ٣٦ - ٣٧، والمغني ٧ / ٥٨٤ وما بعدها، وكشاف القناع ٥ / ٥٥٩، وغاية المنتهى ٣ / ٢٤٢، ومسائل الإمام أحمد ص ٢١٧ .

لَكنْ يَقُول الْحَنَابلَةُ،وَالْكَاسَانيُّ منَ الْحَنَفيَّة:تَجبُ النَّفَقَةُ بَيْنَ الذِّمِّيِّ وَالْمُسْتَأْمَن،أَوْ بَيْنَ الْمُسْتَأْمَنينَ في قَرَابَة الأُصُول وَالْفُرُوع ؛لأَنَّ اخْتلاَفَ الدِّين لاَ يَمْنَعُ منَ الإلْزَام بالنَّفَقَة في حَقِّ الْولاَدَة.[1057]

قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية:

قال تعالى:{ قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلَا بالْيَوْم الْآخر وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغرُونَ } [التوبة:٢٩]

بَعْدَ أَن اسْتَقَامَت الأمُورُ للْمُسْلمينَ في جَزيرَة العَرَب،بدُخُول النَّاس في الإسْلاَم،أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بقتَال اليَهُود وَالنَّصَارَى،وَذَلكَ سَنَةَ تسْع للْهجْرَة،لذَلكَ تَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ لقتَال الرُّوم،وَدَعَا النَّاسَ إلَى ذَلكَ،وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ،وَنَدَبَ الْمُؤْمنينَ إلَى الجهَاد،وَتَخَلَّفَ بَعْضُ الْمُنَافقينَ،وَكَانَ ذَلكَ العَامُ عَامَ جَدْب،وَالْوَقْتُ في شدَّة الحَرِّ،وَخَرَجَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ إلَى تَبُوكَ،فَنَزَلَ بهَا،وَأَقَامَ فيهَا قُرَابَةَ عشْرينَ يَوْماً،ثُمَّ رَجَعَ لضيق الحَال،وَضَعْف النَّاس.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمنْ بالإسْلاَم منْ أَهْل الكتَاب،فَرَضَ اللهُ عَلَى الْمُسْلمينَ قتَالَهُ،حَتَّى يُعْطيَ الجزْيَةَ عَنْ يَد مَقْهُورَة مَغْلُوبَة،وَهُوَ خَاضعٌ صَاغرٌ.

وَيَجبُ قتَالُ أَهْل الكتَاب إذَا اجْتَمَعَتْ فيهمْ أَرْبَعُ صفَاتٍ هيَ العلَّةُ في عَدَاوَتهمْ للإسْلاَم وَالْمُسْلمينَ:

- أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمنُونَ باللهِ،لأَنَّهُمْ هَدَمُوا التَّوْحيدَ فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ مُشَرِّعينَ،وَمنْهُمْ مَنْ عَبَدَ المَسيحَ وَعُزَيْراً.
- أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمنُونَ باليَوْم الآخر،إذْ يَقُولُونَ إنَّ الحَيَاةَ الآخرَةَ هيَ حَيَاةٌ رُوحَانيَّةٌ يَكُونُ فيهَا النَّاسُ كَالمَلاَئكَة
- أَنَّهُمْ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولَهُ،وَلاَ يَلْتَزمُونَ العَمَلَ بمَا حَرَّمَ عَلَيهمْ.

[1057] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٠٤) فما بعدها

– أَنَّهُمْ لاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ الذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى أَنْبِيَائِه،وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ دِيناً وَضَعَهُ لَهُمْ أَحْبَارُهُمْ وَأَسَاقِفَتُهُمْ.[1058]

[الْأَصْلُ فِيمَنْ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْهُ وَمَنْ لَا تُؤْخَذُ]

وفي الأم:

(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ – ﷺ – بِمَكَّةَ وَهِيَ بِلَادُ قَوْمِهِ وَقَوْمُهُ أُمِّيُّونَ،وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ حَوْلَهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ،وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ الْعَجَمِ إلَّا مَمْلُوكٌ،أَوْ أَجِيرٌ،أَوْ مُجْتَازٌ،أَوْ مَنْ لَا يُذْكَرُ قَالَ:اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [الجمعة:٢] الْآيَةُ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ فِي أَوَّلِ مَا بُعِثَ أَعْدَى لَهُ مِنْ عَوَامِّ قَوْمِهِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ،وَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ جِهَادَهُمْ فَقَالَ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] فَقِيلَ:فِيهِ فِتْنَةُ شِرْكٍ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ وَاحِدًا لِلَّهِ وَقَالَ:فِي قَوْمٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ شَيْءٌ {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ} [التوبة:٥] الْآيَةَ مَعَ نَظَائِرَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ:«لَا أَزَالُ أُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ مساحق عَنْ أَبِي عِصَامٍ الْمُزَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – كَانَ إذَا بَعَثَ سَرِيَّةً قَالَ:إنْ رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا،أَوْ سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا» أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ أَلَيْسَ قَالَ:رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» قَالَ:أَبُو بَكْرٍ هَذَا مِنْ حَقِّهَا لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا مِمَّا أَعْطَوْا رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَقَاتَلْتهمْ عَلَيْهِ ".

[1058] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):يَعْنِي مَنْ مَنَعَ الصَّدَقَةَ،وَلَمْ يَرْتَدَّ أَخْبَرَنَا الثِّقَةُ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ:لِأَبِي بَكْرٍ هَذَا الْقَوْلَ أَوْ مَا مَعْنَاهُ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):وَهَذَا مِثْلُ الْحَدِيثَيْنِ قَبْلَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ مُطْلَقًا،وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ مُشْرِكُو أَهْلِ الْأَوْثَانِ،وَلَمْ يَكُنْ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَلَا قُرْبِهِ أَحَدٌ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ الْكِتَابِ إلَّا يَهُودَ الْمَدِينَةِ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَنْصَارِ،وَلَمْ تَكُنْ أَنْصَارٌ اجْتَمَعَتْ أَوَّلَ مَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إسْلَامًا فَوَادَعَتْ يَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَلَمْ تَخْرُجْ إلَى شَيْءٍ مِنْ عَدَاوَتِهِ بِقَوْلٍ يَظْهَرُ،وَلَا فِعْلٍ حَتَّى كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ فَكَلَّمَ بَعْضُهَا بَعْضًا بِعَدَاوَتِهِ وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهِ فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِيهِمْ،وَلَمْ يَكُنْ بِالْحِجَازِ عَلِمْته إلَّا يَهُودِيٌّ،أَوْ نَصْرَانِيٌّ بِنَجْرَانَ وَكَانَتْ الْمَجُوسُ بِهَجَرَ وَبِلَادِ الْبَرْبَرِ وَفَارِسَ نَائِينَ عَنْ الْحِجَازِ دُونَهُمْ مُشْرِكُونَ أَهْلُ أَوْثَانٍ كَثِيرٌ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ فَرْضَ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة:٢٩] الْآيَةَ.فَفَرَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا شَاءَ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ بَيْنَ قِتَالِ أَهْلِ الْأَوْثَانِ فَفَرَضَ أَنْ يُقَاتَلُوا حَتَّى يُسْلِمُوا وَقَتْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَفَرَضَ أَنْ يُقَاتَلُوا حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ،أَوْ أَنْ يُسْلِمُوا وَفَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قِتَالِهِمْ أَخْبَرَنَا الثِّقَةُ يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبَانَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ إذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا أَمَّرَ عَلَيْهِمْ قَالَ:إذَا لَقِيت عَدُوًّا مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،أَوْ ثَلَاثِ خِلَالٍ - شَكَّ عَلْقَمَةُ - اُدْعُهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوك فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ اُدْعُهُمْ إلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَجَابُوك فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ،وَإِنْ اخْتَارُوا الْمُقَامَ فِي دَارِهِمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ شَيْءٌ إلَّا أَنْ

يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ لَمْ يُجِيبُوك إلَى الْإِسْلَامِ فَادْعُهُمْ إلَى إعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَدَعْهُمْ،فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):حَدَّثَنِي عَدَدٌ كُلُّهُمْ ثِقَةٌ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ كُلُّهُمْ ثِقَةٌ لَا أَعْلَمُ إلَّا أَنَّ فِيهِمْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ عَنْ عَلْقَمَةَ بِمِثْلِ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ لَا يُخَالِفُهُ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَهَذَا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً دُونَ أَهْلِ الْأَوْثَانِ وَلَيْسَ يُخَالِفُ هَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»،وَلَكِنَّ أُولَئِكَ النَّاسَ أَهْلُ الْأَوْثَانِ وَاَلَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ أَهْلُ الْكِتَابِ،وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا وَصَفْت مِنْ فَرْقِ اللَّهِ بَيْنَ الْقِتَالَيْنِ،وَلَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُقَاتِلَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ وَيُقْتَلُوا حَيْثُ وُجِدُوا حَتَّى يَتُوبُوا وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ،وَلَا تُنْسَخُ وَاحِدَةٌ مِنْ الْآيِ غَيْرَهَا،وَلَا وَاحِدَ مِنْ الْحَدِيثَيْنِ غَيْرَهُ وَكُلٌّ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ سَنَّ رَسُولُهُ فِيهِ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَلَوْ جَهِلَ رَجُلٌ فَقَالَ:إنَّ أَمْرَ اللَّهِ بِالْجِزْيَةِ نَسَخَ أَمْرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُسْلِمُوا جَازَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ جَاهِلٌ مِثْلُهُ بَلْ الْجِزْيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُسْلِمُوا،وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهِمَا نَاسِخٌ لِصَاحِبِهِ،وَلَا مُخَالِفٌ.

[مَنْ يُلْحَقُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ]

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):انْتَوَتْ قَبَائِلُ مِنْ الْعَرَبِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا – ﷺ – وَيُنَزِّلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانَ فَدَانَتْ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ الْعَرَبَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَدَانَ بَعْضُهُمْ دِينَهُمْ وَكَانَ مَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَرْضَ قِتَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ حَتَّى يُسْلِمَ مُخَالِفًا دِينَ مَنْ وَصَفْته دَانَ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ – ﷺ – لِتَمَسُّك أَهْلِ الْأَوْثَانِ بِدِينِ آبَائِهِمْ «فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – الْجِزْيَةَ مِنْ أُكَيْدِرَ دُومَةَ»،وَهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ مِنْ غَسَّانَ أَوْ مِنْ كِنْدَةَ «وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – الْجِزْيَةَ مِنْ ذِمَّةِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَعَامَّتِهِمْ عَرَبٌ وَمِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ،وَفِيهِمْ عَرَبٌ» فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَا وَصَفْت مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَكُنْ وَهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ بَلْ دَائِنِينَ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ مُخَالِفِينَ دِينَ

أَهْلِ الْأَوْثَانِ وَكَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لَيْسَتْ عَلَى النَّسَبِ إنَّمَا هِيَ عَلَى الدِّينِ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْعَامَّةِ أَهْلُ التَّوْرَاةِ مِنْ الْيَهُودِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ النَّصَارَى وَكَانُوا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):فَكَانَتْ الْمَجُوسُ يَدِينُونَ غَيْرَ دِينِ أَهْلِ الْأَوْثَانِ وَيُخَالِفُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي بَعْضِ دِينِهِمْ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ دِينِهِمْ وَكَانَ الْمَجُوسُ بِطَرَفٍ مِنْ الْأَرْضِ لَا يَعْرِفُ السَّلَفُ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ مِنْ دِينِهِمْ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ دِينِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَكَانُوا وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَهْلَ كِتَابٍ يَجْمَعُهُمْ اسْمٌ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي سَعْدٍ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ:قَالَ فَرْوَةُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ عَلَامَ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ الْمَجُوسِ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ؟ فَقَامَ إلَيْهِ الْمُسْتَوْرِدُ فَأَخَذَ بِلُبِّهِ وَقَالَ:يَا عَدُوَّ اللَّهِ تَطْعَنُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْنِي عَلِيًّا،وَقَدْ أَخَذُوا مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ فَذَهَبَ بِهِ إلَى الْقَصْرِ فَخَرَجَ عَلِيٌّ عَلَيْهِمَا فَقَالَ:أَلْبِدَا فَجَلَسَا فِي ظِلِّ الْقَصْرِ فَقَالَ:عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْمَجُوسِ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ يَعْلَمُونَهُ وَكِتَابٌ يَدْرُسُونَهُ،وَإِنَّمَا مَلِكُهُمْ سَكِرَ فَوَقَعَ عَلَى ابْنَتِهِ،أَوْ أُخْتِهِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ فَلَمَّا صَحَا خَافَ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ فَامْتَنَعَ مِنْهُمْ فَدَعَا أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ فَلَمَّا أَتَوْهُ قَالَ:تَعْلَمُونَ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِ آدَمَ؟ وَقَدْ كَانَ آدَم يَنْكِحُ بَنِيهِ بَنَاتِهِ وَأَنَا عَلَى دِينِ آدَمَ مَا يَرْغَبُ بِكُمْ عَنْ دِينِهِ؟ فَتَابَعُوهُ وَقَاتَلُوا الَّذِينَ خَالَفُوهُ حَتَّى قَتَلُوهُمْ فَأَصْبَحُوا،وَقَدْ أُسْرِيَ عَلَى كِتَابِهِمْ فَرُفِعَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَذَهَبَ الْعِلْمُ الَّذِي فِي صُدُورِهِمْ فَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ،وَقَدْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):وَمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ مِنْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا وَصَفْت أَنَّ الْمَجُوسَ أَهْلُ كِتَابٍ وَدَلِيلٌ أَنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مَا خَبَّرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَأْخُذُ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ إلَّا وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ،وَلَا مِنْ بَعْدِهِ،فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَقَالَ:عَلِيٌّ الْجِزْيَةُ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ،أَوْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ،وَلَمْ أَعْلَمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا أَجَازَ أَنْ تُؤْخَذَ الْجِزْيَةُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَخْبَرَنَا

سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ بَجَالَةَ يَقُولُ:وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ الْمَجُوسِ حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ أَهْلِ هَجَرَ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):وَحَدِيثُ بَجَالَةَ مُتَّصِلٌ ثَابِتٌ؛لِأَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ وَكَانَ رَجُلًا فِي زَمَانِهِ كَاتِبًا لِعُمَّالِهِ وَحَدِيثِ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - مُتَّصِلٌ وَبِهِ يَأْخُذُ،وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ الْحِجَازِ حَدِيثَانِ مُنْقَطِعَانِ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ الْمَجُوسِ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذُكِرَ لَهُ الْمَجُوسُ فَقَالَ:مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ فَقَالَ:لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَشْهَدُ لَسَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):إنْ كَانَ ثَابِتًا فَنُفْتِي فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ؛لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ لَا أَنَّهُ يُقَالُ إذَا قَالَ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ فِي أَنْ تُنْكَحَ نِسَاؤُهُمْ وَتُؤْكَلَ ذَبَائِحُهُمْ قَالَ:وَلَوْ أَرَادَ جَمِيعُ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَقَالَ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ سُنُّوا بِجَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَلَكِنْ لَمَّا قَالَ:سُنُّوا بِهِمْ،فَقَدْ خَصَّهُمْ،وَإِذَا خَصَّهُمْ فَغَيْرُهُمْ مُخَالِفٌ،وَلَا يُخَالِفُهُمْ إلَّا غَيْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ الْبَحْرَيْنِ» وَأَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَخَذَهَا مِنْ الْبَرْبَرِ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):- رَحِمَهُ اللَّهُ - وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ عُمَرُ عَنْ الْمَجُوسِ وَيَقُولَ مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِهِمْ،وَهُوَ يَجُوزُ عِنْدَهُ أَنْ تُؤْخَذَ الْجِزْيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ جَائِزٌ لَهُ،وَلَكِنَّهُ سَأَلَ عَنْ الْمَجُوسِ إذْ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ كِتَابِهِمْ مَا عَرَفَ مِنْ كِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَتَّى أُخْبِرَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - بِأَخْذِهِ الْجِزْيَةَ وَأَمْرِهِ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ فَيَتَّبِعُهُ،وَفِي كُلِّ مَا حَكَيْت مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسَعُهُ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

[تَفْرِيعُ مَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ]

(أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ) قَالَ:(قَالَ الشَّافِعِيُّ):فَكُلُّ مَنْ دَانَ وَدَانَ آبَاؤُهُ،أَوْ دَانَ بِنَفْسِهِ،وَإِنْ لَمْ يَدِنْ آبَاؤُهُ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيَّ كِتَابٍ كَانَ قَبْلَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ وَخَالَفَ دِينَ أَهْلِ الْأَوْثَانِ قَبْلَ

نُزُولِ الْفُرْقَانِ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ وَعَلَى الْإِمَامِ إذَا أَعْطَاهُ الْجِزْيَةَ،وَهُوَ صَاغِرٌ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُ عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ عَجَمِيًّا

وَكُلُّ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ،وَلَا يَدِينُ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّنْ كَانَ عَرَبِيًّا،أَوْ عَجَمِيًّا،فَأَرَادَ أَنْ تُؤْخَذَ مِنْهُ الْجِزْيَةُ وَيُقَرَّ عَلَى دِينِهِ،أَوْ يَحْدُثَ أَنْ يَدِينَ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلَيْسَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الْجِزْيَةَ،وَعَلَيْهِ أَنْ يُقَاتِلَهُ حَتَّى يُسْلِمَ كَمَا يُقَاتِلُ أَهْلَ الْأَوْثَانِ حَتَّى يُسْلِمُوا.

قَالَ:وَأَيُّ مُشْرِكٍ مَا كَانَ إذَا لَمْ يَدَعْ أَهْلَ دِينِهِ دِينِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَهُوَ كَأَهْلِ الْأَوْثَانِ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ يَعْبُدَ الصَّنَمَ وَمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ وَمَنْ يُعَطِّلُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ.

وَمَنْ غَزَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّنْ يَجْهَلُونَ دِينَهُ فَذَكَرُوا لَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ سُئِلُوا مَتَى دَانُوا بِهِ وَآبَاؤُهُمْ،فَإِنْ ذَكَرُوا أَنَّ ذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَبِلُوا قَوْلَهُمْ إلَّا أَنْ يَعْلَمُوا غَيْرَ مَا قَالُوا،فَإِنْ عَلِمُوا بِبَيِّنَةٍ تَقُومُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ،وَلَمْ يَدَعُوهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا،أَوْ يَقْتُلُوا،وَإِنْ عَلِمُوهُ بِإِقْرَارٍ فَكَذَلِكَ،وَإِنْ أَقَرَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَدِنْ،وَلَمْ يَدِنْ آبَاؤُهُ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ إلَّا فِي وَقْتٍ يَذْكُرُونَهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ – ﷺ – أَقْرَرْنَاهُمْ عَلَى دِينِهِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ،وَلَا يَكُونُ الْإِمَامُ أَخَذَهَا إلَّا أَنْ يَقُولَ آخُذُهَا مِنْكُمْ حَتَّى أَعْلَمَ إنْ لَمْ تَدِينُوا وَآبَاؤُكُمْ هَذَا الدِّينَ إلَّا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَإِذَا عَلِمْته لَمْ آخُذْهَا مِنْكُمْ فِيمَا أَسْتَقْبِلُ وَنَبَذْت إلَيْكُمْ فَإِمَّا أَنْ تُسْلِمُوا وَإِمَّا أَنْ تُقْتَلُوا فَإِذَا أَخْبَرَنَا مِنْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْهُمْ قَوْمًا عُدُولًا فَاثْبُتُوا لَنَا عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخَذْت مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ بِقَوْلِهِمْ بِأَنْ لَمْ يَدِينُوا دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِحَالٍ إلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ،وَإِنْ شَهِدَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الْمُسْلِمُونَ،أَوْ اثْنَانِ مِنْهُمْ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ إنْ لَمْ يَدِينُوا دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ إلَّا فِي وَقْتِ كَذَا وَأَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا يَدِينُونَ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ نَبَذْت إلَى مَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَدِنْ دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ إلَّا فِي وَقْتِ كَذَا وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ،قَالَ:وَلَمْ يَنْبِذْ إلَى صِغَارِهِمْ إذْ كَانَ آبَاؤُهُمْ دَانُوا دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ.

وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرَ الْعُدُولَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا دَانُوا دِينَ أَهْلِ الْكِتَابِ إلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْفُرْقَانِ كَانَ إقْرَارًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا أَجْعَلُهُ شَهَادَةً عَلَى غَيْرِهِمْ،وَلَا أَقْبَلُ

الشَّهَادَةَ عَلَى أَحَد منْهُمْ إلَّا بأَنْ يُثْبتُوهَا عَلَيْه أَنَّ الْفُرْقَانَ نَزَلَ،وَلَا يَدينُ دينَ أَهْلِ الْكتَاب،فَإذَا فَعَلُوا لَمْ أَقْبَلْ منْهُ الْجزْيَةَ،وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ منْ أَهْلِ الْكتَاب؛لأَنَّهُ لَا يَكُونُ دينُهُ دينَ آبَائه إذَا بَلَغَ إنَّمَا يَكُونُ مُقَرًّا عَلَى دين آبَائه مَا لَمْ يَبْلُغْ،فَلَوْ شَهدُوا أَنَّ أَبَا رَجُلَيْن مَاتَ عَلَى دين أَهْلِ الْكتَاب يَهُوديًّا أَوْ نَصْرَانيًّا وَلَهُ ابْنٌ بَالغٌ مُخَالفٌ دينَ أَهْلِ الْكتَاب وَابْنٌ صَغيرٌ وَنَزَلَ الْفُرْقَانُ وَهُمَا بتلْكَ الْحَال فَبَلَغَ الصَّغيرُ وَدَانَ دينَ أَهْلِ الْكتَاب وَعَادَ الْبَالغُ إلَى دينهمْ أَخَذْت الْجزْيَةَ منْ الصَّغير؛لأَنَّهُ كَانَ يُقرُّ عَلَى دين أَبيه،وَلَمْ يَدنْ بَعْدَ الْبُلُوغ دينًا غَيْرَهُ،وَلَا آخُذُهَا منْ الْكَبير الَّذي نَزَلَ الْفُرْقَانُ،وَهُوَ عَلَى دين غَيْر دين أَهْلِ الْكتَاب.

[مَنْ تُرْفَعُ عَنْهُ الْجزْيَةُ]

(قَالَ الشَّافعيُّ):قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {قَاتلُوا الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلا بالْيَوْم الآخر وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ} [التوبة:٢٩] قَالَ:فَكَانَ بَيِّنًا في الْآيَة وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَنَّ الَّذينَ فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قتَالَهُمْ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ الَّذينَ قَامَتْ عَلَيْهمْ الْحُجَّةُ بالْبُلُوغ فَتَرَكُوا دينَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَأَقَامُوا عَلَى مَا وَجَدُوا عَلَيْه آبَاءَهُمْ منْ أَهْلِ الْكتَاب وَكَانَ بَيِّنًا أَنَّ الَّذينَ أَمَرَ اللَّهُ بقتَالهمْ عَلَيْهَا الَّذينَ فيهمْ الْقتَالُ وَهُمْ الرِّجَالُ الْبَالغُونَ.

(قَالَ الشَّافعيُّ - رَحمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):ثُمَّ أَبَانَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - مثْلَ مَعْنَى كتَاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَأَخَذَ الْجزْيَةَ منْ الْمُحْتَلمينَ دُونَ مَنْ دُونَهُمْ وَدُونَ النِّسَاء «وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - أَنْ لَا تُقْتَلَ النِّسَاءُ منْ أَهْلِ الْحَرْب،وَلَا الْولْدَانُ وَسَبَاهُمْ» فَكَانَ ذَلكَ دَليلًا عَلَى خلَاف بَيْنَ النِّسَاء وَالصِّبْيَان وَالرِّجَال،وَلَا جزْيَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَبْلُغْ منْ الرِّجَال،وَلَا عَلَى امْرَأَة،وَكَذَلكَ لَا جزْيَةَ عَلَى مَغْلُوب عَلَى عَقْله منْ قبَلِ أَنَّهُ لَا دينَ لَهُ تَمَسَّكَ به تَرَكَ لَهُ الْإسْلَامُ،وَكَذَلكَ لَا جزْيَةَ عَلَى مَمْلُوك؛لأَنَّهُ لَا مَالَ لَهُ يُعْطي منْهُ الْجزْيَةَ فَأَمَّا مَنْ غَلَبَ عَلَى عَقْله أَيَّامًا ثُمَّ أَفَاقَ،أَوْ جُنَّ فَتُؤْخَذُ منْهُ الْجزْيَةُ؛لأَنَّهُ يَجْري عَلَيْه الْقَلَمُ في حَال إفَاقَته وَلَيْسَ يَخْلُو بَعْضُ النَّاس منْ الْعلَّة يَغْرُبُ بهَا عَقْلُهُ ثُمَّ يُفيقُ،فَإذَا أَخَذْت منْ صَحيح ثُمَّ غَلَبَ عَقْلُهُ حَسَبَ لَهُ منْ يَوْم غَلَبَ عَلَى عَقْله فَإنْ أَفَاقَ لَمْ تُرْفَعْ عَنْهُ الْجزْيَةُ،وَإنْ لَمْ يُفقْ رُفعَتْ

عَنْهُ مِنْ يَوْمِ غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِ قَالَ:وَإِذَا صُولِحُوا عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا عَنْ أَبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ سِوَى مَا يُؤَدُّونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِ الرِّجَالِ فَذَلِكَ جَائِزٌ،وَهُوَ كَمَا اُزْدِيدَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقَلِّ الْجِزْيَةِ وَمِنْ الصَّدَقَةِ وَمِنْ أَمْوَالِهِمْ إذَا اخْتَلَفُوا وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَلْزَمُهُمْ إذَا شَرَطُوهُ لَنَا،وَإِنْ كَانُوا عَلَى أَنْ يُؤَدُّوهَا مِنْ أَمْوَالِ نِسَائِهِمْ،أَوْ أَبْنَائِهِمْ الصِّغَارِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،وَلَا لَنَا أَنْ نَأْخُذَهُ مِنْ أَبْنَائِهِمْ،وَلَا نِسَائِهِمْ بِقَوْلِهِمْ فَلَا شَيْئًا عَلَيْك فَإِنْ قَالَتْ:فَإِنْ أُؤَدِّي بَعْدَ عِلْمِهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْهَا وَمَتَى امْتَنَعْت،وَقَدْ شَرَطَتْ أَنْ تُؤَدِّيَ لَمْ يَلْزَمْهَا الشَّرْطُ مَا أَقَامَتْ فِي بِلَادِهَا،وَكَذَلِكَ لَوْ تَجَرَتْ بِمَالِهَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا أَنْ تُؤَدِّيَ إلَّا أَنْ تَشَاءَ،وَلَكِنَّهَا تُمْنَعُ الْحِجَازَ فَإِنْ قَالَتْ أَدْخُلُهَا عَلَى شَيْءٍ يُؤْخَذُ مِنِّي فَأَلْزَمَتْهُ نَفْسَهَا جَازَ عَلَيْهَا؛لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا دُخُولُ الْحِجَازِ.

وَإِذَا صَالَحَتْ عَلَى أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ مَالِهَا شَيْءٌ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْحِجَازِ فَإِنْ أَدَّتْهُ قُبِلَ،وَإِنْ مَنَعَتْهُ بَعْدَ شَرْطِهِ فَلَهَا مَنْعُهُ؛لِأَنَّهُ لَا يَبِينُ لِي أَنَّ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يُمْنَعُوا مِنْ غَيْرِ الْحِجَازِ وَلَوْ شَرَطَ هَذَا صَبِيٌّ،أَوْ مَغْلُوبٌ عَلَى عَقْلِهِ لَمْ يَجُزْ الشَّرْطُ عَلَيْهِ،وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ مَالِهِ،وَكَذَلِكَ لَوْ شَرَطَ أَبُو الصَّبِيِّ،أَوْ الْمَعْتُوهِ أَوْ وَلِيُّهُمَا ذَلِكَ عَلَيْهِمَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا وَلَنَا أَنْ نَمْنَعَهُمَا مِنْ أَنْ يَخْتَلِفَا فِي بِلَادِ الْحِجَازِ،وَكَذَلِكَ يُمْنَعُ مَالُهُمَا مَعَ الَّذِي لَا يُؤَدِّي شَيْئًا عَنْ نَفْسِهِ،وَلَا يَكُونُ لَنَا مَنْعُهُ مِنْ مُسْلِمٍ،وَلَا ذِمِّيٍّ يُؤَدِّي عَنْ مَالِهِ وَتُمْنَعُ أَنْفُسُهُمَا.

قَالَ:وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ دَارٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ امْتَنَعَ رِجَالُهُمْ مِنْ أَنْ يُصَالِحُوا عَلَى جِزْيَةٍ،أَوْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ الْحُكْمُ وَأَطَاعُوا بِالْجِزْيَةِ وَلَنَا قُوَّةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ فِي صُلْحِهِمْ نَظَرٌ فَسَأَلُوا أَنْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ دُونَهُمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا،وَإِنْ صَالَحُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَالصُّلْحُ مُنْتَقَضٌ،وَلَا نَأْخُذُ مِنْهُمْ شَيْئًا إنْ سَمَّوْهُ عَلَى النِّسَاءِ وَالْأَبْنَاءِ؛لِأَنَّهُمْ قَدْ مَنَعُوا أَمْوَالَهُمْ بِالْأَمَانِ وَلَيْسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ جِزْيَةٌ،وَكَذَلِكَ لَا نَأْخُذُهَا مِنْ رِجَالِهِمْ،وَإِنْ شَرَطَهَا رِجَالُهُمْ،وَلَمْ يَقُولُوا مِنْ أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا أَخَذْنَاهَا مِنْ أَمْوَالِ مَنْ شَرَطَهَا بِشَرْطِهِ،وَكَذَلِكَ لَوْ دَعَا إلَى هَذَا النِّسَاءُ وَالْأَبْنَاءُ لَمْ يُؤْخَذْ هَذَا مِنْهُمْ،وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ النِّسَاءُ وَالْأَبْنَاءُ أخلياء مِنْ رِجَالِهِمْ فَفِيهَا قَوْلَانِ:أَحَدُهُمَا لَيْسَ لَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ وَلَنَا أَنْ نَسْبِيَهُمْ؛لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إنَّمَا أَذِنَ بِالْجِزْيَةِ مَعَ قَطْعِ حَرْبِ الرِّجَالِ وَأَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ الْحُكْمُ،وَلَا حَرْبَ

فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ إنَّمَا هُنَّ غَنِيمَةٌ وَلَيْسُوا فِي الْمَعْنَى الَّذِي أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ بِهِ،وَالْقَوْلُ الثَّانِي:لَيْسَ لَنَا سِبَاؤُهُمْ وَعَلَيْنَا الْكَفُّ عَنْهُمْ إذَا أَقَرُّوا بِأَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ الْحُكْمُ وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا،وَإِنْ أَخَذْنَاهُ فَعَلَيْنَا رَدُّهُ،قَالَ:وَتُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ الرُّهْبَانِ وَالشَّيْخِ الْفَانِي الزَّمِنِ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ مِنْ رِجَالِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ.

وَإِذَا صَالَحَ الْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْجِزْيَةِ ثُمَّ بَلَغَ مِنْهُمْ مَوْلُودٌ قَبْلَ حَوْلِهِمْ بِيَوْمٍ،أَوْ أَقَلَّ،أَوْ أَكْثَرَ فَرَضِيَ بِالصُّلْحِ سُئِلَ فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِالْأَدَاءِ لِحَوْلِ قَوْمِهِ أُخِذَتْ مِنْهُ،وَإِنْ لَمْ تَطِبْ نَفْسُهُ فَحَوْلُهُ حَوْلُ نَفْسِهِ؛لِأَنَّهُ إنَّمَا وَجَبَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ بِالْبُلُوغِ وَالرِّضَا وَيَأْخُذُ مِنْهُ الْإِمَامُ مِنْ حِينِ رَضِيَ عَلَى حَوْلِهِ أَصْحَابُهُ وَفَضَلَ إنْ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سَنَةٍ قَبْلَهَا لِئَلَّا تَخْتَلِفَ أَحْوَالُهُمْ كَأَنْ بَلَغَ قَبْلَ الْحَوْلِ بِشَهْرٍ فَصَالَحَهُ عَلَى دِينَارٍ كُلِّ حَوْلٍ فَيَأْخُذُ مِنْهُ إذَا حَالَ حَوْلُ أَصْحَابِهِ نِصْفَ سُدُسِ دِينَارٍ،وَفِي حَوْلٍ مُسْتَقْبَلٍ مَعَهُمْ دِينَارٌ،فَإِذَا أَخَّرَهُ أُخِذَ مِنْهُ فِي حَوْلِ أَصْحَابِهِ دِينَارٌ وَنِصْفُ سُدُسِ دِينَارٍ.

[الصَّغَارُ مَعَ الْجِزْيَةِ]

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] قَالَ:فَلَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْ تُؤْخَذَ الْجِزْيَةُ مِمَّنْ أَمَرَ بِأَخْذِهَا مِنْهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا عَنْ يَدٍ صَاغِرًا.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَسَمِعْت عَدَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ الصَّغَارُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَمَا أَشْبَهَ مَا قَالُوا بِمَا قَالُوا لِامْتِنَاعِهِمْ مِنْ الْإِسْلَامِ،فَإِذَا جَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ،فَقَدْ أُصْغِرُوا بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْهُ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَإِذَا أَحَاطَ الْإِمَامُ بِالدَّارِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِيَ أَهْلَهَا،أَوْ قَهَرَ أَهْلَهَا الْقَهْرَ الْبَيِّنَ،وَلَمْ يَسْبِهِمْ،أَوْ كَانَ عَلَى سَبْيِهِ بِالْإِحَاطَةِ مِنْ قَهْرِهِ لَهُمْ،وَلَمْ يَغْزُهُمْ لِقُرْبِهِمْ أَوْ قِلَّتِهِمْ،أَوْ كَثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِ فَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَلَى أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ لَزِمَهُ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ،وَلَوْ سَأَلُوهُ أَنْ يُعْطُوهَا عَلَى أَنْ لَا يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ

وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا،أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ وَهُمْ صَاغِرُونَ بِأَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ قَالَ فَإِنْ سَأَلُوهُ أَنْ يَتْرُكُوا مِنْ شَيْءٍ مِنْ حُكْمِ الْإِسْلَامِ إذَا طَلَبَهُمْ بِهِ غَيْرُهُمْ،أَوْ وَقَعَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ غَيْرِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ إلَيْهِ،وَلَا يَأْخُذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ فَأَمَّا إذَا كَانَ فِي غَزْوِهِمْ مَشَقَّةٌ،أَوْ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ يَنْتَابُهُمْ عَنْهُمْ ضَعْفٌ،أَوْ بِهِمْ انْتِصَافٌ فَلَا بَأْسَ أَنْ يُوَادِعُوا،وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا شَيْئًا أَوْ أَعْطَوْهُ عَلَى النَّظَرِ،وَإِنْ لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ كَمَا يَجُوزُ تَرْكُ قِتَالِهِمْ وَمُوَادَعَتِهِمْ عَلَى النَّظَرِ،وَهَذَا مَوْضُوعٌ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ دُونَ الْجِزْيَةِ.

[مَسْأَلَةُ إعْطَاءِ الْجِزْيَةَ بَعْدَمَا يُؤْسَرُونَ]

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَإِذَا أَسَرَ الْإِمَامُ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَحَوَى نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ فَسَأَلُوهُ تَخْلِيَتَهُمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَاءَهُمْ عَلَى إعْطَاءِ الْجِزْيَةِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ فِي نِسَائِهِمْ،وَلَا أَوْلَادِهِمْ،وَلَا مَا غَلَبَ مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،وَإِذَا سَأَلُوهُ إعْطَاءَ الْجِزْيَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ لَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ؛لِأَنَّهُمْ صَارُوا غَنِيمَةً،أَوْ فَيْئًا وَكَانَ لَهُ الْقَتْلُ وَالْمَنُّ وَالْفِدَاءُ كَمَا كَانَ ذَلِكَ لَهُ فِي أَحْرَارِ رِجَالِهِمْ الْبَالِغِينَ خَاصَّةً؛لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَدْ مَنَّ وَفَادَى وَقَتَلَ أَسْرَى الرِّجَالِ وَأَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ فِيهِمْ فَقَالَ:{فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد:٤].

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَلَوْ كَانَ أَسَرَ أَكْثَرَ الرِّجَالِ وَحَوَى أَكْثَرَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيّ وَالْأَمْوَالِ وَبَقِيَتْ مِنْهُمْ بَقِيَّةٌ لَمْ يَصِلْ إلَى أَسْرِهِمْ بِامْتِنَاعٍ فِي مَوْضِعٍ،أَوْ هَرَبٍ كَانَ لَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ الْمُمْتَنِعِينَ أَحَدَ الْجِزْيَةِ وَالْأَمَانَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ إنْ لَمْ يَكُنْ أَحْرَزَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَإِنْ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ مُطْلَقًا فَكَانَ قَدْ أَحْرَزَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ لَهُ الْوَفَاءُ بِهِ وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْسِمَ مَا أَحْرَزَ لَهُمْ وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا لَمْ يُحْرِزْ لَهُمْ أَوْ يَنْبِذْ إلَيْهِمْ.

وَلَوْ جَاءَ الْإِمَامَ رُسُلُ بَعْضِ أَهْلِ الْحَرْبِ فَأَجَابَهُمْ إلَى أَمَانِ مَنْ جَاءُوا عِنْدَهُ مِنْ بَلَدِ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَخْذِ الْجِزْيَةِ وَخَالَفَ الرُّسُلُ مَنْ غَزَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَافْتَتَحُوهَا وَحَوَوْا بِلَادَهُمْ نُظِرَ فَإِنْ كَانَ الْأَمَانُ كَانَ لَهُمْ قَبْلَ الْفَتْحِ وَقَبْلَ أَنْ يَحْوُوا الْبِلَادَ خَلَّى سَبِيلَهُمْ وَكَانَتْ لَهُمْ

الذِّمَّةُ عَلَى مَا أَعْطَوْا،وَلَوْ أَعْطَوْا ذِمَّةً مُنْتَقِصَةً خَلَّى سَبِيلَهُمْ وَنَبَذَ إلَيْهِمْ،وَإِنْ كَانَ سَبَاؤُهُمْ وَالْغَلَبَةُ عَلَى بِلَادِهِمْ كَانَ قَبْلَ إعْطَاءِ الْإِمَامِ إيَّاهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ مَضَى عَلَيْهِمْ السِّبَاءُ وَبَطَلَ مَا أَعْطَى الْإِمَامُ؛لِأَنَّهُ أَعْطَى الْأَمَانَ مَنْ كَانَ رَقِيقًا وَمَا لَهُ غَنِيمَةً،أَوْ فَيْئًا كَمَا لَوْ أَعْطَى قَوْمًا حَوَوْا أَنْ يَرُدَّ إلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ.[١٠٥٩]

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى:{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ:نَسَخَتْهَا {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].وَحَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ قال:حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بْنِ الْيَمَانِ قَالَ:قُرِئَ عَلَى أَبِي عُبَيْدٍ وَأَنَا أَسْمَعُ قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى:{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية:٢٢] وقَوْله تَعَالَى:{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق:٤٥] وقَوْله تَعَالَى:{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائدة:١٣] وقَوْله تَعَالَى:{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} [الجاثية:١٤].قَالَ:نَسَخَ هَذَا كُلَّهُ قَوْله تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وقَوْله تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ} [التوبة:٢٩] الْآيَةُ،وَمِثْلُهُ قَوْله تَعَالَى:{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} وقَوْله تَعَالَى:{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥] {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} وقَوْله تَعَالَى:{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً} [الفرقان:٦٣] يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مُتَارَكَةً.فَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا أُنْزِلَتْ قَبْلَ لُزُومِ فَرْضِ الْقِتَالِ،وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الْغَرَضُ الدُّعَاءَ إلَى الدِّينِ حِينَئِذٍ بِالْحِجَاجِ وَالنَّظَرِ فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ،وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يُوجَدُ مَعَ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ،وَنَحْوُهُ قَوْله تَعَالَى:{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} [سبأ:٤٦] وقَوْله تَعَالَى:{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} [الزخرف:٢٤] وقَوْله تَعَالَى:{أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي

[١٠٥٩] - الأم للشافعي (٤/ ١٨١)

الصُّحُف الْأُولَى فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [طه:١٣٣] {أَفَلا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٤] {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس:٣٢] وَنَحْوُهَا مِنْ الْآيِ الَّتِي فِيهَا الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ وَالدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ ثُمَّ لَمَّا هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقِتَالِ بَعْدَ قَطْعِ الْعُذْرِ فِي الْحِجَاجِ وَتَقْرِيرِهِ عِنْدَهُمْ حِينَ اسْتَقَرَّتْ آيَاتُهُ وَمُعْجِزَاتُهُ عِنْدَ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي وَالدَّانِي وَالْقَاصِي بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُسْتَفِيضَةِ الَّتِي لَا يُكَذِّبُ مِثْلُهَا وَسَنَذْكُرُ فَرْضَ الْقِتَالِ عِنْدَ مَصِيرِنَا إلَى الْآيَاتِ الْمُوجِبَةِ لَهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.[١٠٦٠]

وقال أيضا:"بَابُ فَرْضِ الْجِهَادِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:لَمْ تَخْتَلِفْ الْأُمَّةُ أَنَّ الْقِتَالَ كَانَ مَحْظُورًا قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَوْلِهِ:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت:٣٤ – ٣٥] وَقَوْلِهِ:{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائدة:١٣] وَقَوْلِهِ:{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥] وَقَوْلِهِ:{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [آل عمران:٢٠] وَقَوْلِهِ:{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً} [الفرقان:٦٣].وَرَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ،عَنْ عِكْرِمَةَ،عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ كَانَتْ أَمْوَالُهُمْ بِمَكَّةَ فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا فِي عِزَّةٍ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّاءَ،فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:"إنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ" فَلَمَّا حَوَّلَهُ إلَى الْمَدِينَةِ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ} [النساء:٧٧].وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ:حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن اليمان قال:حدثنا أبو عبيد قال:حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ،عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ،عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قوله عز وجل:{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية:٢٢]

[١٠٦٠] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١/ ٧٢)

وَقَوْله:{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق:٥] وَقَوْله:{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائـــدة:١٣] وَقَوْله:{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّه} [الجاثية:١٤] قَالَ:نَسَخَ هَـــذَا كُلَّهُ قَوْله تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وقَوْله تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلا بِالْيَوْمِ الْــآخِرِ} [التوبـــة:٢٩] إلَـــى قَوْلِـــه:{صَـــاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي أَوَّلِ آيَة نَزَلَتْ فِي الْقِتَال،فَرُوِيَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِه أَنَّ قَوْلَهُ:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} أَوَّلُ آيَة نَزَلَـــتْ.وَرُوِيَ عَـــنْ جَمَاعَة آخَرِينَ،مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالزُّهْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:أَنَّ أَوَّلَ آيَة نَزَلَتْ فِـــي الْقِتَالِ {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج:٣٩] الْآيَةُ؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ {وَقَـــاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه} أَوَّلَ آيَة نَزَلَتْ فِي إبَاحَة قِتَالِ مَنْ قَاتَلَهُمْ،وَالثَّانِيَةُ فِي الْإِذْنِ فِي الْقِتَالِ عَامَّةٌ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْله:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} فَقَالَ الرَّبِيـــعُ بْـــنُ أَنَسٍ:هِيَ أَوَّلُ آيَة نَزَلَتْ فِي الْقِتَال بِالْمَدِينَة،وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يُقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَيَكُفُّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُ إلَى أَنْ أُمِرَ بِقِتَالِ الْجَمِيعِ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهُوَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَة قَوْله:{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بِمِثْلِ مَا اعْتَـــدَى عَلَيْكُمْ} وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ أُمِرَ أَبُو بَكْرٍ بِقِتَالِ الشَّمَامِسَة لِأَنَّهُمْ يَشْـــهَدُونَ الْقِتَالَ وَأَنَّ الرُّهْبَانَ مِنْ رَأْيِهِمْ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا،فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ بِأَنْ لَا يُقَاتَلُوا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} فَكَانَتْ الْآيَةُ عَلَى تَأْوِيلِـــه ثَابِتَةَ الْحُكْمِ لَيْسَ فِيهَا نَسْخٌ،وَعَلَى قَوْلِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ كَـــانُوا مَأْمُورِينَ بَعْدَ نُزُولِ الْآيَة بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَنْ كَفَّ،سَوَاءٌ كَانَ مِمَّنْ يَتَدَيَّنُ بِالْقِتَالِ أَوْ لَا يَتَدَيَّنُ.وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْد الْعَزِيز فِي قَوْله:{وَقَاتِلُوا فِـــي سَـــبِيلِ اللَّـــه الَّـــذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} أَنَّهُ فِي النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّة وَمَنْ لَمْ يَنْصِبْ لَكَ الْحَرْبَ مِنْهُمْ،كَأَنَّهُ ذَهَبَ إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِه مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ فِي الْأَغْلَبِ لِضَعْفِه وَعَجْزِه؛ لِأَنَّ ذَلِكَ حَالُ النِّسَـــاءِ وَالذُّرِّيَّة؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي آثَارٍ شَائِعَة النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْـــدَان.وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ أَصْحَابِ الصَّوَامِعِ رَوَاهُ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْـــنِ

عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ،فَإِنْ كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى مَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ أَنَّهُ أُمِرَ فِيهَا بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَ وَالْكَفِّ عَمَّنْ لَا يُقَاتِلُ،فَإِنَّ قَوْلَهُ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣] نَاسِخٌ لِمَنْ يَلِي،وَحُكْمُ الْآيَةِ كَانَ بَاقِيًا فِيمَنْ لَا يَلِينَا مِنْهُمْ،ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} إلَى قَوْلِهِ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فَكَانَ ذَلِكَ أَعَمَّ مِنْ الْأَوَّلِ الَّذِي فِيهِ الْأَمْرُ بِقِتَالِ مَنْ يَلِينَا دُونَ مَنْ لَا يَلِينَا،إلَّا أَنَّ فِيهِ ضَرْبًا مِنْ التَّخْصِيصِ بِحَظْرِهِ الْقِتَالَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَّا عَلَى شَرْطِ أَنْ يُقَاتِلُونَا فِيهِ بِقَوْلِهِ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ فَرْضَ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة:٣٦] وَقَوْلُهُ:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:٢١٦] وقَوْله تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إنَّ قَوْلَهُ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} منسوخ بقوله:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}،وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ:هَذَا الْحُكْمُ ثَابِتٌ،لَا يُقَاتَلُ فِي الْحَرَمِ إلَّا مَنْ قَاتَلَ،وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ:"إنَّ مَكَّةَ حَرَامٌ حَرَّمَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ" فَإِنْ تَرَخَّصَ مُتَرَخِّصٌ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا،فَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ عَادَتْ حَرَامًا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ بَاقٍ غَيْرُ مَنْسُوخٍ وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ نَبْتَدِئَ فِيهَا بِالْقِتَالِ لِمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَقَدْ كَانَ الْقِتَالُ مَحْظُورًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ بِقَوْلِهِ:{يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ} [البقرة:٢١٧]،ثُمَّ نَسَخَ بِقَوْلِهِ {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥]،وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ:هُوَ غَيْرُ مَنْسُوخٍ وَالْحَظْرُ بَاقٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} فَإِنَّهُ أَمْرٌ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ إذَا أُظْفِرْنَا بِهِمْ،وَهِيَ عَامَّةٌ فِي قِتَالِ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ مَنْ قَاتَلَنَا مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْنَا بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ مَحْظُورٌ،وَقَدْ نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَعَنْ قَتْلِ أَهْلِ الصَّوَامِعِ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} الْأَمْرَ بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَنَا مِمَّنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ دُونَ مَنْ كَفَّ عَنَّا مِنْهُمْ،وَكَانَ قَوْلُهُ:{وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} نَهْيًا عَنْ قِتَالِ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْنَا،فَهِيَ لَا مَحَالَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} لِإِيجَابِهِ قَتْلَ مَنْ حُظِرَ قَتْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا} إِذْ كَانَ الاعْتِدَاءُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ قِتَالَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْ.

وَقَوْلُهُ:{وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ:مِنْ مَكَّةَ إنْ أَمْكَنَكُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا آذَوْا الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ حَتَّى اضْطَرُّوهُمْ إلَى الْخُرُوجِ فَكَانُوا مُخْرِجِينَ لَهُمْ،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال:٣٠]،فَأَمَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ فَرْضِهِ الْقِتَالَ بِإِخْرَاجِهِمْ إذَا تَمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ؛ إذْ كَانُوا مَنْهِيِّينَ عَنْ الْقِتَالِ فِيهَا إلَّا أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ،فيكون قوله:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} عَامًّا فِي سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ إلَّا فِيمَنْ كَانَ بِمَكَّةَ،فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا إلَّا لِمَنْ قَاتَلَهُمْ،فَإِنَّهُ أُمِرَ بِقِتَالِهِمْ حِينَئِذٍ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} فثبت أن قوله:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} فِيمَنْ كَانَ بِغَيْرِ مَكَّةَ.

وقوله:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِتْنَةِ هَهُنَا الْكُفْرُ،وَقِيلَ إنَّهُمْ كَانُوا يَفْتِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّعْذِيبِ وَيُكْرِهُونَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ،ثُمَّ عَيَّرُوا الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ قَتَلَ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ وَكَانَ مُشْرِكًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ،وَقَالُوا:قَدْ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} يَعْنِي كُفْرَهُمْ وَتَعْذِيبَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ مَأْثَمًا مِنْ الْقَتْلِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} فإن المراد بقوله:{حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} حَتَّى يَقْتُلُوا بَعْضَكُمْ،كَقَوْلِهِ:{وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات:١١] يَعْنِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَأْمُرَ بِقَتْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ كُلَّهُمْ،وَقَدْ أَفَادَتْ الْآيَةُ حَظْرَ الْقَتْلِ بِمَكَّةَ لِمَنْ لَمْ يُقْتَلْ فِيهَا،فَيُحْتَجُّ بِهَا فِي حَظْرِ قَتْلِ

الْمُشْرِكِ الْحَرْبِيِّ إذَا لَجَأَ إلَيْهَا وَلَمْ يُقَاتِلْ،وَيُحْتَجُّ أَيْضًا بِعُمُومِهَا فِيمَنْ قَتَلَ وَلَجَأَ إلَى الْحَرَمِ فِي أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ مَنْ قَتَلَ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يَقْتُلْ فِي حَظْرِ قَتْلِ الْجَمِيعِ،فَلَزِمَ بِمَضْمُونِ الْآيَةِ أَنْ لَا نَقْتُلَ مَنْ وَجَدْنَا فِي الْحَرَمِ سَوَاءٌ كَانَ قَاتِلًا أَوْ غَيْرَ قَاتِلٍ إلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ،فَحِينَئِذٍ يُقْتَلُ بِقَوْلِهِ:{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}.

فَإِنْ قِيلَ:هُوَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}،قِيلَ لَهُ:إذَا أَمْكَنَ اسْتِعْمَالُهَا لَمْ يَثْبُتْ النَّسْخُ،لَا سِيَّمَا مَعَ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي نَسْخِهِ،فَيَكُونُ قَوْلُهُ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} فِي غَيْرِ الْحَرَمِ،نَظِيرُهُ فِي حَظْرِ قَتْلِ مَنْ لَجَأَ إلَى الْحَرَمِ وَإِنْ كَانَ جَانِيًا،قوله:{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً} [آل عمران:٩٧] وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ أَمْنًا مِنْ خَوْفِ الْقَتْلِ،فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ:مَنْ دَخَلَهُ وَقَدْ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ أَنَّهُ يَأْمَنُ بِدُخُولِهِ،وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً} [البقرة:١٢٥] كُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى أَنَّ اللَّاجِئَ إلَى الْحَرَمِ الْمُسْتَحِقَّ لِلْقَتْلِ يَأْمَنُ بِهِ وَيَزُولُ عَنْهُ الْقَتْلُ بِمَصِيرِهِ إلَيْهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ قَوْلَهُ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} إذَا كَانَ نَازِلًا مَعَ أَوَّلِ الْخِطَابِ عِنْدَ قوله:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ نَاسِخًا لَهُ لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَصِحُّ إلَّا بَعْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ الْفِعْلِ،وَغَيْرُ جَائِزٍ وُجُودُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي خِطَابٍ وَاحِدٍ،وَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ مَذْكُورًا فِي خِطَابٍ وَاحِدٍ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ نَسَقُ التِّلَاوَةِ وَنِظَامُ التَّنْزِيلِ،فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ إثْبَاتُ تَارِيخِ الْآيَتَيْنِ وَتَرَاخِي نُزُولِ إحْدَاهُمَا عَنْ الْأُخْرَى إلَّا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ.وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا دَعْوَى نَقْلٍ صَحِيحٍ فِي ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فَقَالَ:هُوَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} وَقَالَ قَتَادَةُ:هُوَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥]،وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ،تَأْوِيلًا مِنْهُ وَرَأْيًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} لَا مَحَالَةَ نَزَلَ بَعْدَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ النَّقْلِ فِي ذَلِكَ،وَلَيْسَ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى النَّسْخِ لِإِمْكَانِ اسْتِعْمَالِهِمَا بِأَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥] مُرَتَّبًا عَلَى قَوْلِهِ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فَيَصِيرُ قَوْلُهُ:اُقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ إلَّا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،إلَّا أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ

فَاقْتُلُوهُمْ،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ:"أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي،وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ عَادَتْ حَرَامًا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ:"فَإِنْ تَرَخَّصَ مُتَرَخِّصٌ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ" فَثَبَتَ بِذَلِكَ حَظْرُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ إلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا،وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إدْرِيسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ قَالَ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ هَذَا الْحَدِيثَ،وَقَالَ فِيهِ:"وَإِنَّمَا أُحِلَّ لِي الْقِتَالُ بِهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"،وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ يَوْمَئِذٍ حِينَ قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ رَجُلًا مِنْ هُذَيْلٍ،ثُمَّ قَالَ:"إنَّ أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ،وَرَجُلٌ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ،وَرَجُلٌ قَتَلَ بِذَحْلِ الْجَاهِلِيَّةِ" وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْقَتْلِ فِي الْحَرَمِ لِمَنْ لَمْ يَجْنِ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:عُمُومُ الذَّمِّ لِلْقَاتِلِ فِي الْحَرَمِ،وَالثَّانِي:قَدْ ذَكَرَ مَعَهُ قَتْلَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ الْقَتْلُ،فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ قَتْلُ مَنْ اسْتَحَقَّ الْقَتْلُ فَلَجَأَ،وَأَنَّ ذَلِكَ إخْبَارٌ مِنْهُ بِأَنَّ الْحَرَمَ يَحْظُرُ قَتْلَ مَنْ لَجَأَ إلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْآيُ الَّتِي تَلَوْنَاهَا فِي حَظْرِ قَتْلِ مَنْ لَجَأَ إلَى الْحَرَمِ فِي أَنَّ دَلَالَتَهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى حَظْرِ الْقَتْلِ فَحَسْبُ وَلَا دَلَالَةَ فِيهَا عَلَى حُكْمِ مَا دُونَ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:{وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} مَقْصُورٌ عَلَى حُكْمِ الْقَتْلِ؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً} [آل عمران:٩٧] وَقَوْلُهُ:{مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً} [البقرة:١٢٥] ظَاهِرُهُ الْأَمْنُ مِنْ الْقَتْلِ،وَإِنَّمَا يَدْخُلُ مَا سِوَاهُ فِيهِ بِدَلَالَةٍ لِأَنَّ قَوْلَهُ:{وَمَنْ دَخَلَهُ} [آل عمران:٩٧] اسْمٌ لِلْإِنْسَانِ،وَقَوْلُهُ:{كَانَ آمِناً} [آل عمران:٩٧] رَاجِعٌ إلَيْهِ،فَالَّذِي اقْتَضَتْ الْآيَةُ أَمَانَهُ هُوَ الْإِنْسَانُ لَا أَعْضَاؤُهُ،وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ مُقْتَضِيًا لِلنَّفْسِ فَمَا دُونَهَا،فَإِنَّمَا خَصَّصْنَا مَا دُونَهَا بِدَلَالَةٍ وَحُكْمُ اللَّفْظِ بَاقٍ فِي النَّفْسِ،وَلَا خِلَافَ أَيْضًا أَنَّ مَنْ لَجَأَ إلَى الْحَرَمِ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ أَنَّهُ يُحْبَسُ بِهِ وَأَنَّ دُخُولَهُ الْحَرَمَ لَا يَعْصِمُهُ مِنْ الْحَبْسِ،كَذَلِكَ كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ نَفْسًا مِنْ الْحُقُوقِ فَإِنَّ الْحَرَمَ لَا يَعْصِمُهُ مِنْهُ قِيَاسًا عَلَى الدُّيُونِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَل:{فَإِن انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يَعْنِي فَإِنْ انْتَهُوا عَنْ الْكُفْرِ فَــإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُمْ؛ لأَنَّ قَوْلَهُ:{فَإِن انْتَهَوْا} شَرْطٌ يَقْتَضِي جوَابًا،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَاتِلَ الْعَمْدِ لَهُ تَوْبَةٌ؛ إذْ كَانَ الْكُفْرُ أَعْظَمَ مَأْثَمًا مِنْ الْقَتْلِ،وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْهُ وَيَغْفِرُ لَهُ.

وقَوْله تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه} يُوجِبُ فَرْضَ قِتَالَ الْكُفَّارِ حَتَّى يَتْرُكُوا الْكُفْرَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْــنُ أَنَــسٍ:الْفِتْنَــةُ هَهُنَــا الشِّرْكُ.وَقِيلَ:إنَّمَا سُمِّيَ الْكُفْرُ فِتْنَةً لأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى الْهَلَاكِ كَمَا يُؤَدِّي إلَيْهِ الْفِتْنَةُ.وَقِيلَ:إنَّ الْفِتْنَةَ هِيَ الاخْتِبَارُ،وَالْكُفْرُ عِنْدَ الاخْتِبَارِ إظْهَارُ الْفَسَادِ،وَأَمَّا الدِّينُ فَهُــوَ الانْقِيَــادُ لِلَّــهِ بِالطَّاعَةِ،وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ يَنْقَسِمُ إلَى مَعْنَيَيْنِ:أَحَدُهُمَا:الانْقِيَادُ،كَقَوْلِ الْأَعْشَى:

هُوَ دَانَ الرَّبَابَ إذْ كَرَّ هُوَ الدِّينُ...دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

ثُمَّ دَانَتْ بَعْدَ الرَّبَابِ وَكَانَتْ...كَعَذَابٍ عُقُوبَةَ الْأَقْوَالِ

وَالْآخَرُ:الْعَادَةُ،مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي...أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي

وَالدِّينُ الشَّرْعِيُّ هُوَ الانْقِيَادُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَل وَالاسْتِسْلَامُ لَهُ عَلَى وَجْهِ الْمُدَاوَمَةِ وَالْعَادَةِ.وَهَذِهِ الْآيَةُ خَاصَّةٌ فِي الْمُشْرِكِينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ لأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخِطَابِ جَرَى بِذِكْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} وَذَلِكَ صِــفَةُ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ،فَلَمْ يَدْخُلْ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي هَــذَا الْحُكْمِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُشْــرِكِي الْعَــرَبِ لَــا يُقْبَــلُ مِــنْهُمْ إلَّــا الْإِسْــلَامُ أَوْ السَّيْفُ،لِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} يعني كفرا {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} وَدِينُ اللَّهِ هُوَ الْإِسْلَامُ،لِقَوْلِهِ:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأسْلامُ} [آل عمران:١٩].

وَقَوْلُهُ:{فَإِن انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} الْمَعْنَى:فَلَا قَتْلَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ.يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ:الْقَتْلُ الْمَبْدُوءُ بِذِكْرِهِ فِي قَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ} وَسَمَّى الْقَتْلَ الَّــذِي يَسْــتَحِقُّونَهُ بِكُفْرِهِمْ عُدْوَانًا لأَنَّهُ جَزَاءُ الظُّلْمِ فَسُمِّيَ بِاسْمِهِ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}

[الشورى:٤٠] وَقَوْله:{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْجَزَاءُ اعْتِدَاءً وَلَا سَيِّئَةً.[١٠٦١]

وقال أيضا:" بَابُ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ إظْهَارِهِمْ الْإِيمَانَ بِالنُّشُورِ وَالْبَعْثِ،وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وُجُوهًا:أَحَدُهَا:أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَجْرِي حُكْمُ اللَّهِ فِيهِ مِنْ تَخْلِيدِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي النَّارِ،وَتَخْلِيدِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ،فَلَمَّا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ أَطْلَقَ الْقَوْلَ فِيهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَمُرَادُهُ حُكْمُ يَوْمِ الْآخِرِ،وَقَضَاؤُهُ فِيهِ،كَمَا تَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ،وَالْمُرَادُ بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.وَقِيلَ:فِيهِ إنَّهُ أَطْلَقَ ذَلِكَ فِيهِمْ عَلَى طَرِيقِ الذَّمِّ لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يُقِرُّ بِهِ فِي عِظَمِ الْجُرْمِ،كَمَا إنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُفْرِهِمْ الَّذِي اعْتَقَدُوهُ.وَقِيلَ:أَيْضًا:لَمَّا كَانَ إقْرَارُهُمْ عَنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إيمَانًا،وَأَكْثَرُهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ.وقَوْله تَعَالَى:{وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} فَإِنَّ دِينَ الْحَقِّ هُوَ الْإِسْلَامُ،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ} [آل عمران:١٩] وَهُوَ التَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ،وَمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ،وَالِانْقِيَادُ لَهُ،وَالْعَمَلُ بِهِ،وَالدِّينُ يَنْصَرِفُ عَلَى وُجُوهٍ:مِنْهَا الطَّاعَةُ،وَمِنْهَا الْقَهْرُ،وَمِنْهَا الْجَزَاءُ؛ قَالَ الْأَعْشَى:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ اذ كرهوا الدين...دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

يَعْنِي:قَهَرَ الرِّبَابَ إذْ كَرِهُوا طَاعَتَهُ وَأَبَوْا الِانْقِيَادَ لَهُ.وقَوْله تَعَالَى:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:٤] قِيلَ:إنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ،وَمِنْهُ:كَمَا تدين تدان.

وَدِينُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى غَيْرُ دِينِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْقَادِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلَا طَائِعِينَ لَهُ لِجُحُودِهِمْ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ.فَإِنْ قِيلَ:فَهُمْ يَدِينُونَ بِدِينِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ،وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ مُنْقَادِينَ لَهُ.قِيلَ:لَهُ:فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ذِكْرَ نَبِيِّنَا،وَأُمِرْنَا بِالْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ شَرَائِعِهِ،وَهُمْ غَيْرُ

[١٠٦١] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١/ ٣١١)

عَاملينَ بذَلكَ بَلْ تَاركُونَ لَهُ،فَهُمْ غَيْرُ مُتَّبعينَ دينَ الْحَقِّ،وَأَيْضًا فَــإِنَّ شَــرِيعَةَ التَّــوْرَاة وَالْإِنْجيلِ قَدْ نُسخَتْ،وَالْعَمَلُ بهَا بَعْدَ النَّسْخِ ضَلَالٌ فَلَيْسَ هُوَ إذًا دينَ الْحَقِّ.وَأَيْضًا فَهُــمْ قَدْ غَيَّرُوا الْمَعَانيَ وَحَرَّفُوهَا عَنْ مَوَاضعهَا،وَأَزَالُوهَا إلَى مَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ دُونَ مَا أَوْجَبَــهُ عَلَيْهِمْ كُتُبُ اللَّه تَعَالَى،فَهُمْ غير دائنين دين الحق.

قوله تعالى:{منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ} فَإِنَّ أَهْلَ الْكتَاب منْ الْكُفَّار هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لقَوْله تَعَالَى:{أَنْ تَقُولُوا إنَّمَا أُنْزلَ الْكتَابُ عَلَى طَائفَتَيْنِ منْ قَبْلنَا} [الأنعام:١٥٦] فَلَــوْ كَانَ الْمَجُوسُ أَوْ غَيْرُهُمْ منْ أَهْلِ الشِّرْك منْ أَهْلِ الْكتَاب لَكَانُوا ثَلَــاثَ طَوَائفَ،وَقَــدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنَّ أَهْلَ الْكتَاب طَائفَتَان؛ وَقَدْ بيناه فيما سلف.[1062]

وقال أيضاً:" بَابُ حُكْمُ نَصَارَى بَني تَغْلبَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{قَاتلُوا الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلا بالْيَوْم الْآخر} إلى قوله:{مــنَ الَّــذينَ أُوتُوا الْكتَابَ} وَنَصَارَى بَني تَغْلبَ منْهُمْ لأَنَّهُمْ يَنْتَحلُونَ نحْلَــتَهُمْ،وَإِنْ لَــمْ يَكُونُــوا مُتَمَسِّكينَ بجَميعِ شَرَائعهمْ،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَــنْ يَتَــوَلَّهُمْ مــنْكُمْ فَإِنَّــهُ مــنْهُمْ} [المائدة:٥١] فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَتَوَلَّى قَوْمًا منْهُمْ في حُكْمهمْ؛ وَلذَلكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ في نَصَارَى بَني تَغْلبَ:إنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا منْهُمْ إلَّــا بالْوِلَايَــة لَكَــانُوا مــنْهُمْ لقَوْلــه تَعَالَى:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ} [المائدة:٥١] وَذَلكَ حينَ قَالَ عَليٌّ رَضــيَ اللَّــهُ عَنْهُ:إنَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّقُوا منْ النَّصْرَانيَّة إلَّا بشُرْب الْخَمْر،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلكَ وَقَالَ النَّبــيُّ ﷺ لعَديِّ بْنِ حَاتمٍ حينَ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ:"أَمَا تَقُولُ إلَّا أَنْ يُقَالَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؟ " فَقَالَ:إنَّ لــي دينًا،فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:"أَنَا أَعْلَمُ به منْك أَلَسْت رَكُوسيًّا؟ " قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:"أَلَسْــت تَأْخُــذُ الْمرْبَاعَ؟ " قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:"فَإِنَّ ذَلكَ لَا يَحلُّ لَك في دينك" فَنَسَبَهُ إلَــى صــنْف مــنْ النَّصَارَى مَعَ إخْبَاره بأَنَّهُ غَيْرُ مُتَمَسِّك به بأَخْذه الْمرْبَاعَ،وَهُوَ رُبْعُ الْغَنيمَة،وَالْغَنيمَةُ غَيْــرُ مُبَاحَةٍ في دينِ النَّصَارَى،فَثَبَتَ بذَلكَ أَنَّ انْتحَالَ بَني تَغْلبَ لدينِ النَّصَــارَى يُوجــبُ أَنْ يَكُونَ حُكْمُهُمْ حُكْمَهُمْ،وَأَنْ يَكُونُوا أَهْلَ كتَابٍ،وَإِذَا كَانُوا منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَجَبَ أَخْذُ الجزية منهم.

[1062] – أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١١٧)

وَالْجزْيَةُ وَالْجَزَاءُ وَاحدٌ،وَهُوَ أَخْذُ الْمَال منْهُمْ عُقُوبَةً وَجَزَاءً عَلَى إقَامَتهمْ عَلَى الْكُفْر وَلَمْ يَذْكُرْ في الْآيَة لَهَا مقْدَارًا مَعْلُومًا،وَمَهْمَا أُخذَ منْهُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْه فَإنَّ اسْمَ الْجزْيَة يَتَنَاوَلُهُ.وَقَدْ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ مُتَوَاترَةٌ عَنْ أَئمَّة السَّلَف في تَضْعيف الصَّدَقَة في أَمْوَالهمْ عَلَى مَا يُؤْخَذُ منْ الْمُسْلمينَ،وَهُوَ قَوْلُ أَهْل الْعرَاق وَأَبي حَنيفَةَ وَأَصْحَابه وَالثَّوْريِّ،وَهُوَ قَوْلُ الشَّافعيِّ،وَقَالَ مَالكٌ في النَّصْرَانيِّ إذَا أَعْتَقَهُ الْمُسْلمُ:"فَلَا جزْيَةَ عَلَيْه وَلَوْ جُعلَتْ عَلَيْه الْجزْيَةُ لَكَانَ الْعتْقُ قَدْ أَضَرَّ به وَلَمْ يَنْفَعْهُ شَيْئًا"،وَلَا يُحْفَظُ عَنْ مَالك في بَني تَغْلبَ شَيْئًا.وَرَوَى يَحْيَى بْنُ آدَمَ قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَام عَنْ أَبي إسْحَاقَ الشَّيْبَانيِّ عَنْ السَّفَّاح عَنْ دَاوُد بْن كُرْدُوس عَنْ عُمَارَةَ بْن النُّعْمَان أَنَّهُ قَالَ لعُمَرَ بْن الْخَطَّاب:يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ إنَّ بَني تَغْلبَ قَدْ علمْت شَوْكَتَهُمْ،وَأَنَّهُمْ بإزَاء الْعَدُوِّ،فَإنْ ظَاهَرُوا عَلَيْك الْعَدُوَّ اشْتَدَّتْ مُؤْنَتُهُمْ؛ فَإنْ رَأَيْت أَنْ تُعْطيَهُمْ شَيْئًا فَافْعَلْ فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَغْمسُوا أَوْلَادَهُمْ في النَّصْرَانيَّة،وَتُضَاعَفُ عَلَيْهمْ الصَّدَقَةُ؛ قَالَ:وَكَانَ عُمَارَةُ يَقُولُ:قَدْ فَعَلُوا فَلَا عَهْدَ لَهُمْ.وَهَذَا خَبَرٌ مُسْتَفيضٌ عنْدَ أَهْل الْكُوفَة قَدْ وَرَدَتْ به الرِّوَايَةُ وَالنَّقْلُ الشَّائعُ عَمَلًا،وَهُوَ مثْلُ أَخْذ الْجزْيَة منْ أَهْل السَّوَاد عَلَى الطَّبَقَات الثَّلَاث،وَوَضْع الْخَرَاج عَلَى الْأَرَضينَ،وَنَحْوهَا منْ الْعُقُود الَّتي عَقَدَهَا عَلَى كَافَّة الْأُمَّة فَلَمْ يَخْتَلفُوا في نَفَاذهَا وَجَوَازهَا.وَقَدْ رُويَ عَنْ عَليٍّ أَنَّهُ قَالَ:لَئنْ بَقيَتْ لنَصَارَى بَني تَغْلبَ لَأَقْتُلَنَّ الْمُقَاتلَةَ،وَلَأَسْبيَنَّ الذُّرِّيَّةَ وَذَلكَ أَنِّي كَتَبْت الْكتَابَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُول اللَّه ﷺ أَنْ لَا يُنَصِّرُوا أَوْلَادَهُمْ وَلَمْ يُخَالفْ عَليًّا في ذَلكَ أَحَدٌ منْ الصَّحَابَة،فَانْعَقَدَ به إجْمَاعُهُمْ،وَثَبَتَ به اتِّفَاقُهُمْ،وَقَالَ النَّبيُّ ﷺ في حَديث عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبيه عَنْ جَدِّه:"الْمُسْلمُونَ تَتَكَافَأُ دمَاؤُهُمْ،وَيَسْعَى بذمَّتهمْ أَدْنَاهُمْ،وَيَعْتَقدُ عَلَيْهمْ أَوَّلُهُمْ"،وَمَعْنَاهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ جَوَازُ عُقُود أَئمَّة الْعَدْل عَلَى الْأُمَّة.

فَإنْ قيلَ:أَمَرَ اللَّهُ بأَخْذ الْجزْيَة منْهُمْ فَلَا يَجُوزُ لَنَا الاقْتصَارُ بهمْ عَلَى أَخْذ الصَّدَقَة منْهُمْ،وَإعْفَاؤُهُمْ منْ الْجزْيَة.قيلَ لَهُ:الْجزْيَةُ لَيْسَ لَهَا مقْدَارٌ مَعْلُومٌ فيمَا يَقْتَضيه ظَاهرُ لَفْظهَا،وَإنَّمَا هيَ جَزَاءٌ وَعُقُوبَةٌ عَلَى إقَامَتهمْ عَلَى الْكُفْر وَالْجَزَاءُ لَا يَخْتَصُّ بمقْدَار دُونَ غَيْره،وَلَا بنَوْعٍ منْ الْمَال دُونَ مَا سوَاهُ،وَالْمَأْخُوذُ منْ بَني تَغْلبَ هُوَ عنْدَنَا جزْيَةٌ لَيْسَتْ بصَدَقَةٍ،وَتُوضَعُ مَوَاضعَ الْفَيْء؛ لأَنَّهُ لَا صَدَقَةَ لَهُمْ،إذْ كَانَ سَبيلُ الصَّدَقَة وُقُوعَهَا عَلَى

وَجْه الْقُرْبَة وَلَا قُرْبَةَ لَهُمْ،وَقَدْ قَالَ بَنُو تَغْلبَ:نُؤَدِّي الصَّدَقَةَ مُضَاعَفَةً،وَلَا نَقْبَلُ أَدَاءَ الْجزْيَة،فَقَالَ عُمَرُ:هُوَ عنْدَنَا جزْيَةٌ،وَسَمُّوهَا أَنْتُمْ مَا شئْتُمْ.فَأَخْبَرَ عُمَرُ أَنَّهَا جزْيَةٌ.وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا مَأْخُوذًا منْ مَوَاشيهمْ وَزَرْعهمْ.

فَإِنْ قيلَ:لَوْ كَانَتْ جزْيَةً لَمَا أُخذَتْ منْ نسَائهمْ لأَنَّ النِّسَاءَ لَا جزْيَةَ عَلَيْهِنَّ.قيلَ:لَهُ:يَجُوزُ أَخْذُ الْجزْيَة منْ النِّسَاء عَلَى وَجْه الصُّلْح،كَمَا رُويَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ أنه أمر بعض أُمَرَائه عَلَى بَعْض بُلْدَان الْيَمَن أَنْ يَأْخُذَ منْ كُلِّ حَالمٍ أَوْ حَالمَة دينَارًا أَوْ عَدْلَهُ منْ الْمَعَافر.وَقَالَ أَصْحَابُنَا:تُؤْخَذُ منْ مَوَالي بَني تَغْلبَ إذْ كَانُوا كُفَّارًا الْجزْيَةُ،وَلَا تُضَاعَفُ عَلَيْهِمْ الْحُقُوقُ،وَفي أَمْوَالهمْ؛ لأَنَّ عُمَرَ إنَّمَا صَالَحَ بَني تَغْلبَ عَلَى ذَلكَ،وَلَمْ يَذْكُرْ فيه الْمَوَاليَ،فَمَوَاليهمْ بَاقُونَ عَلَى حُكْم سَائر أَهْلِ الذِّمَّة في أَخْذ جزْيَة الرُّءُوس منْهُمْ عَلَى الطَّبَقَات الْمَعْلُومَة،وَلَيْسَ بوَاجب أَنْ يَكُونُوا في حُكْمِ مَوَاليهمْ كَمَا أَنَّ الْمُسْلمَ إذَا أَعْتَقَ عَبْدًا نَصْرَانيًّا لَا يَكُونُ في حُكْم مَوْلَاهُ في بَاب سُقُوط الْجزْيَة عَنْهُ.

فَإِنْ قيلَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:"مَوَالي الْقَوْم منْ أَنْفُسهمْ" قيلَ:لَهُ:مُرَادُهُ أَنَّهُ منْهُمْ في الانْتسَاب إلَيْهمْ،نَحْوُ مَوْلَى بَني هَاشمٍ يُسَمَّى هَاشميًّا،وَمَوْلَى بَني تَميمٍ يُسَمَّى تَميميًّا،وَفي النُّصْرَة وَالْعَقْلِ كَمَا يَعْقلُ عَنْهُ ذَوُو الْأَنْسَاب،فَهَذَا مَعْنَى قَوْله:"مَوَالي الْقَوْم منْهُمْ" وَلَا دَلَالَةَ فيه عَلَى أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُهُمْ في إيجَاب الْجزْيَة وَسُقُوطهَا.وَأَمَّا شَرْطُ عُمَرَ عَلَيْهمْ أَنْ لَا يَغْمسُوا أَوْلَادَهُمْ في النَّصْرَانيَّة فَإِنَّهُ قَدْ رُويَ في بَعْضِ الْأَخْبَار أَنَّهُ شَرَطَ أَنْ لَا يَصْبُغُوا أَوْلَادَهُمْ في النَّصْرَانيَّة إذَا أَرَادُوا الْإسْلَامَ،فَإِنَّمَا شَرَطَ عَلَيْهمْ بذَلكَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوا أَوْلَادَهُمْ الْإسْلَامَ إذَا أَرَادُوهُ.[١٠٦٣]

وقال أيضاً:"بَابُ فَرْضُ النَّفير وَالْجهَاد

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذَا قيلَ لَكُمُ انْفرُوا في سَبيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُمْ إلَى الْأَرْضِ} إلَى قَوْله:{إلاّ تَنْفرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَليماً وَيَسْتَبْدلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ}.اقْتَضَى ظَاهرُ الْآيَة وُجُوبَ النَّفير عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَنْفرْ،وَقَالَ في آيَةٍ بَعْدَهَا:{انْفرُوا خفَافاً

[١٠٦٣] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٢١)

وَثِقَالاً}.فَأَوْجَبَ النَّفِيرَ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِشَرْطِ الاِسْتِنْفَارِ،فَاقْتَضَى ظَاهِرُهُ وُجُوبَ الْجِهَادِ عَلَى كُلِّ مُسْتَطِيعٍ لَهُ.

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ:حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان قال:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ وَحَجَّاجٌ كِلَاهُمَا عَنْ جَرِيرِ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَةَ،وَابْنِ أَبِي بِلَالٍ عَنْ أَبِي رَاشِدٍ الْحُبْرَانِيِّ أَنَّهُ وَافَى الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ،وَهُوَ يُجَهِّزُ،قَالَ:فَقُلْت:يَا أَبَا الْأَسْوَدِ قَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إلَيْك،أَوْ قَالَ:قَدْ عَذَرَك اللَّهُ،يَعْنِي فِي الْقُعُودِ عَنْ الْغَزْوِ؛ فَقَالَ:أَتَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ بَرَاءَةٌ:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً}.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَحَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ إبْرَاهِيمَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ:أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،ثُمَّ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزَاةِ الْمُسْلِمِينَ إلَّا عَامًا وَاحِدًا،فَإِنَّهُ اُسْتُعْمِلَ عَلَى الْجَيْشِ رَجُلٌ شَابٌّ،ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:وَمَا عَلَيَّ مَنْ اُسْتُعْمِلَ عَلَيَّ فَكَانَ يَقُولُ:قَالَ اللَّهُ:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً} فَلَا أَجِدُنِي إلَّا خَفِيفًا أَوْ ثَقِيلًا.وَبِإِسْنَادِهِ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:حَدَّثَنَا يَزِيدُ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زيد عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَرَأَ هذه الآية:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً} قَالَ:مَا أَرَى اللَّهَ إلَّا يَسْتَنْفِرُنَا شُبَّانًا وَشُيُوخًا،جَهِّزُونِي فَجَهَّزْنَاهُ،فَرَكِبَ الْبَحْرَ،وَمَاتَ فِي غَزَاتِهِ تِلْكَ فَمَا وَجَدْنَا لَهُ جَزِيرَةً نَدْفِنُهُ فِيهَا أَوْ قَالَ:يَدْفِنُونَهُ فِيهَا إلَّا بَعْدَ سَابِعِهِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ:قَالُوا فِينَا الثَّقِيلُ وَذُو الْحَاجَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالْمُنْتَشِرُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً}.

فَتَأَوَّلَ هَؤُلَاءِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى فَرْضِ النَّفِيرِ ابْتِدَاءً،وَإِنْ لَمْ يَسْتَنْفِرُوا،وَالْآيَةُ الْأُولَى يَقْتَضِي ظَاهِرُهَا وُجُوبَ فَرْضِ النَّفِيرِ إذَا اُسْتُنْفِرُوا،وَقَدْ ذُكِرَ فِي تَأْوِيلِهِ وُجُوهٌ:أَحَدُهَا:أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ لَمَّا نَدَبَ إلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إلَيْهَا فَكَانَ النَّفِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَرْضًا عَلَى مَنْ اسْتَنْفَرَ،وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ:{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة:١٢٠] قَالُوا:وَلَيْسَ كَذَلِكَ حُكْمُ النَّفِيرِ مَعَ غَيْرِهِ.

وَقِيلَ:إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ.حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ:حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيِّ قَالَ:حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:{إلاَّ تَنْفرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَليماً وَيَسْتَبْدلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ} وَ {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدينَة وَمَنْ حَوْلَهُمْ منَ الْأَعْرَاب أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللَّه} [التوبة:١٢٠].نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتي تَليهَا:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمنُونَ ليَنْفرُوا كَافَّةً} [التوبة:١٢٢].وَقَالَ آخَرُونَ:لَيْسَ في وَاحدَة منْهُمَا نَسْخٌ،وَحُكْمُهُمَا ثَابتٌ في حَالَيْن،فَمَتَى لَمْ يُقَاومْ أَهْلُ الثُّغُور الْعَدُوَّ،وَاسْتُنْفرُوا فَفَرضَ عَلَى النَّاس النَّفيرُ إلَيْهمْ حَتَّى يَسْتَحْيُوا الثُّغُورَ،وَإنْ اُسْتُغْنيَ عَنْهُمْ باكْتفَائهمْ بمَنْ هُنَاكَ سَوَاءٌ اُسْتُنْفرُوا أَوْ لَمْ يُسْتَنْفَرُوا،وَمَتَى قَامَ الَّذينَ في وَجْه الْعَدُوِّ بفَرْض الْجهَاد،وَاسْتَغْنَوْا بأَنْفُسهمْ عَمَّنْ وَرَاءَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ فَرْضُ الْجهَاد إلَّا أَنْ يَشَاءَ مَنْ شَاءَ منْهُمْ الْخُرُوجَ للْقتَال فَيَكُونَ فَاعلًا للْفَرْض،وَإنْ كَانَ مَعْذُورًا في الْقُعُود بَديًّا لأَنَّ الْجهَادَ فَرْضٌ عَلَى الْكفَايَة،وَمَتَى قَامَ به بعضهم سقط عن الباقين.وقد حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ:حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبي شَيْبَةَ قَالَ:حَدَّثَنَا جَريرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهد عَنْ طَاوُسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ:"لَا هجْرَةَ،وَلَكنْ جهَادٌ وَنيَّةٌ وَإنَّ اُسْتُنْفرْتُمْ فَانْفرُوا"،فَأَمَرَ بالنَّفير عنْدَ الاسْتنْفَار،وَهُوَ مُوَافقٌ لظَاهر قَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذَا قيلَ لَكُمُ انْفرُوا في سَبيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُمْ إلَى الْأَرْض} وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا منْ الاسْتنْفَار للْحَاجَة إلَيْهمْ لأَنَّ أَهْلَ الثُّغُور مَتَى اكْتَفَوْا بأَنْفُسهمْ،وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ حَاجَةٌ إلَى غَيْرهمْ فَلَيْسَ يَكَادُونَ يُسْتَنْفَرُونَ،وَلَكنْ لَوْ اسْتَنْفَرَهُمْ الْإمَامُ مَعَ كفَايَة مَنْ في وَجْه الْعَدُوِّ منْ أَهْلِ الثُّغُور وَجُيُوش الْمُسْلمينَ لأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَغْزُوَ أَهْلَ الْحَرْب وَيَطَأَ ديَارَهُمْ فَعَلَى منْ اُسْتُنْفرَ منْ الْمُسْلمينَ أَنْ يَنْفرُوا.وَهَذَا هُوَ مَوْضعُ الْخلَاف بَيْنَ الْفُقَهَاء في فَرْض الْجهَاد،فَحُكيَ عَنْ ابْن شُبْرُمَةَ وَالثَّوْريِّ في آخَرينَ أَنَّ الْجهَادَ تَطَوُّعٌ وَلَيْسَ بفَرْض،وَقَالُوا:{كُتبَ عَلَيْكُمُ الْقتَالُ} [البقرة:٢١٦] لَيْسَ عَلَى الْوُجُوب بَلْ عَلَى النَّدْب،كَقَوْله تَعَالَى:{كُتبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصيَّةُ للْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبينَ} [البقرة:١٨٠].وَقَدْ رُويَ فيه عَنْ ابْنِ عُمَرَ نَحْوُ ذَلكَ،وَإنْ كَانَ مُخْتَلَفًا في صحَّة الرِّوَايَة عَنْهُ،وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا جعفر بن محمد بن الحكم قال:حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان قال:حدثنا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا عَليُّ بْنُ مَعْبَد عَنْ أَبي الْمَليحِ الرَّقِّيِّ

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ:كُنْت عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ،فَجَاءَ رَجُلٌ إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَسَأَلَهُ عَنْ الْفَرَائِضِ،وَابْنُ عُمَرَ جَالِسٌ حَيْثُ يَسْمَعُ كَلَامَهُ،فَقَالَ:الْفَرَائِضُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَالَ:فَكَأَنَّ ابْنَ عُمَرَ غَضِبَ مِنْ ذَلِكَ،ثُمَّ قَالَ:الْفَرَائِضُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ قَالَ:وَتَرَكَ الْجِهَادَ.وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ نَحْوُهُ،حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بن "محمد بن" اليمان قال:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ:قُلْتُ لِعَطَاءٍ:أَوَاجِبٌ الْغَزْوُ عَلَى النَّاسِ؟ فَقَالَ هُوَ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ مَا عَلِمْنَاهُ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ،وَسَائِرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ:"إنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،إلَّا أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ كَانَ الْبَاقُونَ فِي سَعَةٍ مِنْ تَرْكِهِ".،وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ كَانَ يَقُولُ:لَيْسَ بِفَرْضٍ،وَلَكِنْ لَا يَسَعُ النَّاسَ أَنْ يُجْمِعُوا عَلَى تَرْكِهِ،وَيَجْزِي فِيهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،فَإِنْ كَانَ هَذَا قَوْلَ سُفْيَانَ فَإِنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِ أَصْحَابِنَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.وَمَعْلُومٌ فِي اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ إذَا خَافَ أَهْلُ الثُّغُورِ مِنْ الْعَدُوِّ،وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مُقَاوَمَةٌ لَهُمْ فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ أَنَّ الْفَرْضَ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ أَنْ يَنْفِرُ إلَيْهِمْ مَنْ يَكُفُّ عَادِيَتَهُمْ عَنْ الْمُسْلِمِينَ.وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ،إذْ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إبَاحَةُ الْقُعُودِ عَنْهُمْ حَتَّى يَسْتَبِيحُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيَ ذَرَارِيِّهِمْ،وَلَكِنَّ مَوْضِعَ الْخِلَافِ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ مَتَى كَانَ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ مُقَاوِمِينَ لَهُ،وَلَا يَخَافُونَ غَلَبَةَ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ هَلْ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ تَرْكُ جِهَادِهِمْ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ؟ فَكَانَ مِنْ قول ابن عمر وعطاء وعمرو بن دينار وَابْنِ شُبْرُمَةَ أَنَّهُ جَائِزٌ لِلْإِمَامِ وَالْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يَغْزُوهُمْ،وَأَنْ يَقْعُدُوا عَنْهُمْ،وَقَالَ آخَرُونَ:"عَلَى الْإِمَامِ وَالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزُوَهُمْ أَبَدًا حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ}،وَهُوَ مَذْهَبُ أَصْحَابِنَا،وَمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ السَّلَفِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَأَبُو طَلْحَةَ فِي آخَرِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ،وَالتَّابِعِينَ.وَقَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ:"الْإِسْلَامُ ثَمَانِيَةُ أَسْهُمٍ"،وَذَكَرَ سَهْمًا مِنْهَا الْجِهَادُ.وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ:حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ"مُحَمَّدِ بْنِ"

الْيَمَان قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد قَالَ:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ:قَالَ مَعْمَرٌ:كَانَ مَكْحُولٌ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ ثُمَّ يَحْلِفُ عَشْرَ أَيْمَان أَنَّ الْغَزْوَ وَاجِبٌ،ثُمَّ يَقُولُ:إنْ شِئْتُمْ زِدْتُكُمْ.وَحَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد:حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَارِث أَوْ غَيْرِه عَنْ ابْنِ شِهَاب قَالَ:كَتَبَ اللَّهُ الْجِهَادَ عَلَى النَّاسِ غَزَوْا أَوْ قَعَدُوا،فَمَنْ قَعَدَ فَهُوَ عِدَّةٌ إنْ اُسْتُعِينَ بِه أَعَانَ،وَإِنْ اُسْتُنْفِرَ نَفَرَ،وَإِنْ اسْتَغْنَى عَنْهُ قَعَدَ،وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ مَنْ يَرَاهُ فَرْضًا عَلَى الْكِفَايَة.وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ وَعَطَاءٍ وَعَمْرِو بْنِ دِينَار فِي أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ يَعْنُونَ بِه أَنَّهُ لَيْسَ فَرْضُهُ مُتَعَيَّنًا عَلَى كُلِّ أَحَد كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ،وَأَنَّهُ فُرِضَ عَلَى الْكِفَايَة.

وَالْآيَاتُ الْمُوجِبَةُ لِفَرْضِ الْجِهَاد كَثِيرَةٌ،فَمِنْهَا قَوْلِه تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه} [البقرة:١٩٣] فَاقْتَضَى ذَلِكَ وُجُوبَ قِتَالِهِمْ حَتَّى يُجِيبُوا إلَى الْإِسْلَام،وَقَالَ:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ} الْآيَةَ،وَقَالَ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} الْآيَةَ،وَقَالَ:{فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ} [محمد:٣٥] وَقَالَ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} وَ {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}.وَقَالَ:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه} وَقَالَ:{إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ} وَقَالَ:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً} [النساء:٧١] وَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَرَسُولِه وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} [الصف:١١] فَأَخْبَرَ أَنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِه إنَّمَا هِيَ بِالْإِيمَان بِاللَّه وَرَسُولِه وَبِالْجِهَاد فِي سَبِيلِه بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ؛ فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ الدَّلَالَةَ عَلَى فَرْضِ الْجِهَاد مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ قَرَنَهُ إلَى فَرْضِ الْإِيمَان،وَالْآخَرُ:الْإِخْبَارُ بِأَنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَاب اللَّه بِه وَبِالْإِيمَان،وَالْعَذَابُ لَا يُسْتَحَقُّ إلَّا بِتَرْكِ الْوَاجِبَات،وَقَالَ:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:٢١٦] وَمَعْنَاهُ:فُرِضَ،كَقَوْلِه:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة:١٨٣].فَإِنْ قِيلَ هُوَ كَقَوْلِه:{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة:١٨٠] وَإِنَّمَا هِيَ نَدْبٌ لَيْسَتْ بِفَرْضٍ.قِيلَ لَهُ:قَدْ كَانَتْ الْوَصِيَّةُ وَاجِبَةً

بِهَذِهِ الْآيَةِ،وَذَلِكَ قَبْلَ فَرْضِ اللَّهِ الْمَوَارِيثَ،ثُمَّ نُسِخَتْ بَعْدَ الْمِيرَاثِ،وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ فِي حُكْمِ اللَّفْظِ الْإِيجَابَ إلَّا أَنْ تَقُومَ دَلَالَةٌ لِلنَّدْبِ،وَلَمْ تَقُمْ الدَّلَالَةُ فِي الْجِهَادِ أَنَّهُ نَدْبٌ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:فَأَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فَرْضَ الْجِهَادِ عَلَى سَائِرِ الْمُكَلَّفِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ،وَبِغَيْرِهَا عَلَى حَسَبِ الْإِمْكَانِ،فَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:٨٤] فَأَوْجَبَ عَلَيْهِ فَرْضَ الْجِهَادِ مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:بِنَفْسِهِ،وَمُبَاشَرَةِ الْقِتَالِ وَحُضُورِهِ،وَالْآخَرُ:بِالتَّحْرِيضِ وَالْحَثِّ وَالْبَيَانِ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ فَلَمْ يَذْكُرْ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ إنْفَاقَ الْمَالِ،وَقَالَ لِغَيْرِهِ:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} فَأَلْزَمَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ وَلَهُ مَالٌ فَرْضَ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ،ثُمَّ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى:{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} فَلَمْ يَخْلُ مَنْ أَسْقَطَ عَنْهُ فَرْضَ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ لِلْعَجْزِ وَالْعُدْمِ مِنْ إيجَابِ فَرْضِهِ بِالنُّصْحِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ،فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْمُكَلَّفِينَ إلَّا وَعَلَيْهِ فَرْضُ الْجِهَادِ عَلَى مَرَاتِبِهِ الَّتِي وَصَفْنَا.

وَقَدْ رُوِيَ فِي تَأْكِيدِ فَرْضِهِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ،فَمِنْهَا مَا حُدِّثْنَا عَنْ عَمْرِو بْنِ حَفْصٍ السَّدُوسِيِّ قَالَ:حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ:حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ جَبَلَةَ بْنِ سُحَيْمٍ عَنْ مُؤْثِرِ بْنِ عَفَازَةَ عَنْ بَشِيرِ ابْنِ الْخَصَاصِيَةِ قَالَ:أَتَيْت النَّبِيَّ ﷺ أُبَايِعُهُ فَقُلْت لَهُ:عَلَامَ تُبَايِعُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَمَدَّ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ فَقَالَ:"عَلَى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ الْمَكْتُوبَاتِ لِوَقْتِهِنَّ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ وَتُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"،فَقُلْت:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَلَّا لَا أُطِيقُ إلَّا اثْنَتَيْنِ إيتَاءُ الزَّكَاةِ فَمَا لِي إلَّا حُمُولَةَ أَهْلِي،وَمَا يَقُومُونَ بِهِ،وَأَمَّا الْجِهَادُ فَإِنِّي رَجُلٌ جَبَانٌ فَأَخَافُ أَنْ تَخْشَعَ نَفْسِي فَأَفِرَّ فَأَبُوءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ؛ فَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ،وَقَالَ:"يَا بَشِيرُ لَا جِهَادَ وَلَا صدقة فبما تَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ " فَقُلْت:يَا رَسُولَ اللَّهِ اُبْسُطْ يَدَك فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْته عَلَيْهِنَّ.وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ:حَدَّثَنَا إبراهيم بن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:حَدَّثَنَا

حَجَّاجٌ قَالَ:حَدَّثَنَا حَمَّادٌ:أَخبَرَنَا حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ" فَأَوْجَبَ الْجِهَادَ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَ الْجِهَادُ بِهِ.وَلَيْسَ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَرْضٌ آكَدُ وَلَا أَوْلَى بِالْإِيجَابِ مِنْ الْجِهَادِ،وَذَلِكَ أَنَّهُ بِالْجِهَادِ يُمْكِنُ إظْهَارُ الْإِسْلَامِ وَأَدَاءُ الْفَرَائِضِ،وَفِي تَرْكِ الْجِهَادِ غَلَبَةُ الْعَدُوِّ وَدُرُوسُ الدِّينِ،وَذَهَابُ الْإِسْلَامِ،إلَّا أَنَّ فَرْضَهُ عَلَى الْكِفَايَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّا.

فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِمَا رَوَى عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ"،فَذَكَرَ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَصَوْمَ رَمَضَانَ،فَذَكَرَ هَذِهِ الْخَمْسَ،وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ الْجِهَادَ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِفَرْضٍ.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهَذَا حَدِيثٌ فِي الْأَصْلِ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ رَوَاهُ وَهْبٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:وَجَدْت الْإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ،وَقَوْلُهُ:"وَجَدْت" دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَالَ مِنْ رَأْيِهِ،وَجَائِزٌ أَنْ يَجِدَ غَيْرُهُ مَا هُوَ أَكْثَرَ مِنْهُ؛ وَقَوْلُ حُذَيْفَةَ:بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَسْهُمٍ أَحَدُهَا الْجِهَادُ يُعَارِضُ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ.

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ رَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى قَالَ:أَخبَرَنَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ:سَمِعْت عِكْرِمَةَ بْنَ خَالِدٍ يُحَدِّثُ طَاوُسًا قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إلَى ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَلَا تَغْزُو؟ فَقَالَ:إنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ"،فَهَذَا حَدِيثٌ مُسْتَقِيمُ السَّنَدِ مَرْفُوعٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ.قِيلَ لَهُ:جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ إنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى خَمْسَةٍ لِأَنَّهُ قَصَدَ إلَى ذِكْرِ مَا يَلْزَمُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ دُونَ مَا يَكُونُ مِنْهُ فَرْضًا عَلَى الْكِفَايَةِ،أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ،وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ،وَتَعَلُّمَ عُلُومِ الدِّينِ،وَغَسْلَ الْمَوْتَى وَتَكْفِينَهُمْ وَدَفْنَهُمْ كُلُّهَا فُرُوضٌ،وَلَمْ يَذْكُرْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بُنِيَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ؟ وَلَمْ يُخْرِجْهُ تَرْكُ ذِكْرِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فَرْضًا؛ لِأَنَّهُ ﷺ إنَّمَا قَصَدَ إلَى بَيَانِ ذِكْرِ الْفُرُوضِ اللَّازِمَةِ لِلْإِنْسَانِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ فِي أَوْقَاتٍ مُرَتَّبَةٍ،وَلَا يَنُوبُ غَيْرُهُ عَنْهَا فِيهِ،وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي بَيَّنَّا،فَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْهُ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهِ،وَهُوَ مَا حُدِّثْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شيرَوَيْهِ قَالَ:حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ قَالَ:أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ،وَمَا نَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَّا أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،حَتَّى إنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ الْيَوْمَ أَحَبُّ إلَى أَحَدِنَا مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،،وَقَدْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"إذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ،وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ،وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَتَرَكُوا الْجِهَادَ أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ".

وَحُدِّثْنَا عَنْ خَلَفِ بْنِ عَمْرٍو الْعُكْبَرِيِّ قَالَ:حَدَّثَنَا الْمُعَلَّى بْنُ مَهْدِيٍّ:حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ:حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوُهُ فَقَدْ اقْتَضَى هَذَا اللَّفْظُ وُجُوبَ الْجِهَادِ لِإِخْبَارِهِ بِإِدْخَالِ اللَّهِ الذُّلَّ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ عُقُوبَةٍ عَلَى الْجِهَادِ،وَالْعُقُوبَاتُ لَا تُسْتَحَقُّ إلَّا عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَذْهَبَ ابْنِ عُمَرَ فِي الْجِهَادِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،وَأَنَّ الرِّوَايَةَ الَّتِي رُوِيَتْ عَنْهُ فِي نَفْيِ فَرْضِ الْجِهَادِ إنَّمَا هِيَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} وَقَوْلُهُ:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً} [النساء:٧١] وَقَوْلُهُ:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء:٩٥] فَلَوْ كَانَ الْجِهَادُ فَرْضًا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ لَمَا كَانَ الْقَاعِدُونَ مَوْعُودِينَ بِالْحُسْنَى بَلْ كَانُوا يَكُونُونَ مَذْمُومِينَ مُسْتَحِقِّينَ لِلْعِقَابِ بِتَرْكِهِ.وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ:حدثنا حجاج عن ابن جريج،وعثمان بن عَطَاءٍ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً} [النساء:٧١] وَفِي قَوْلِهِ:{انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً} قَالَ:نَسَخَتْهَا {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} قَالَ:تَنْفِرُ طَائِفَةٌ وَتَمْكُثُ طَائِفَةٌ مَعَ

النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:فَالْمَاكِثُونَ هُمْ الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيُنْذِرُونَ إخْوَانَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ مِنْ الْغَزْوِ بِمَا نَزَلَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَحُدُودِهِ.وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ "مُحَمَّدِ بْنِ" الْيَمَانِ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ:"يَعْنِي مِنْ السَّرَايَا كَانَتْ تَرْجِعُ،وَقَدْ نَزَلَ بَعْدَهُمْ قُرْآنٌ تَعَلَّمَهُ الْقَاعِدُونَ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ فَتَمْكُثُ السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُمْ،وَيَبْعَثُ سَرَايَا أُخَرَ" قَالَ:فَذَلِكَ قَوْلُهُ:{لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ}.فَثَبَتَ بِمَا قَدَّمْنَا لُزُومُ فَرْضِ الْجِهَادِ،وَأَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،وَلَيْسَ بِلَازِمٍ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَمَالِهِ إذَا كَفَاهُ ذَلِكَ غَيْرُهُ.[١٠٦٤]

وقال ابن العربي:

قَوْله تَعَالَى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣]:إبَاحَةٌ لِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ إلَى غَايَةٍ هِيَ الْإِيمَانُ؛فَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ وَابْنُ وَهْبٍ:لَا تُقْبَلُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ جِزْيَةٌ.

وَقَالَ سَائِرُ عُلَمَائِنَا:تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ؛وَهُوَ الصَّحِيحُ،وَسَمِعْت الشَّيْخَ الْإِمَامَ أَبَا عَلِيٍّ الْوَفَاءَ بْنَ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيَّ إمَامَهُمْ بِبَغْدَادَ يَقُولُ فِي قَوْله تَعَالَى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

إنَّ قَوْله تَعَالَى {قَاتِلُوا} [التوبة:٢٩] أَمْرٌ بِالْقَتْلِ.

وقَوْله تَعَالَى {الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [التوبة:٢٩] سَبَبٌ لِلْقِتَالِ وقَوْله تَعَالَى {وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [التوبة:٢٩] إلْزَامٌ لِلْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ الثَّابِتِ بِالدَّلِيلِ.

وقَوْله تَعَالَى:{وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة:٢٩] بَيَانُ أَنَّ فُرُوعَ الشَّرِيعَةِ كَأُصُولِهَا وَأَحْكَامَهَا كَعَقَائِدِهَا.

[١٠٦٤] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٤٤)

وقَوْله تَعَالَى {وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} [التوبة:٢٩] أَمْرٌ بِخَلْعِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إلَّا دَيْنَ الْإِسْلَامِ.

وقَوْله تَعَالَى:{مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة:٢٩] تَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ،ثُمَّ بَيَّنَ الْغَايَةَ وَبَيَّنَ إعْطَاءَ الْجِزْيَةِ،وَثَبَتَ «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ».خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

«وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فِي قِتَالِهِ لِفَارِسَ:إنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَمَرَنَا أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ».«وَقَالَ النَّبِيُّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِبُرَيْدَةَ:اُدْعُهُمْ إلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،وَذَكَرَ الْجِزْيَةَ»،وَذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحٌ.

فَإِنْ قِيلَ:فَهَلْ يَكُونُ هَذَا نَسْخًا أَوْ تَخْصِيصًا؟ فَلَنَا:هُوَ تَخْصِيصٌ؛لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَبَاحَ قِتَالَهُمْ وَأَمَرَ بِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ كُفْرٌ،ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:[{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ} [التوبة:٢٩]]؛فَخَصَّصَ مِنْ الْحَالَةِ الْعَامَّةِ حَالَةً أُخْرَى خَاصَّةً،وَزَادَ إلَى الْغَايَةِ الْأُولَى غَايَةً أُخْرَى،وَهَذَا كَقَوْلِهِ – ﷺ –:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ».

وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ».

ثُمَّ ذَكَرَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ الصَّوْمَ وَالْحَجَّ،وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَسْخًا،وَإِنَّمَا كَانَ بَيَانًا وَكَمَالًا.

وَكَذَلِكَ:«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:كُفْرٌ بَعْدَ إيمَانٍ،أَوْ زِنًا بَعْدَ إحْصَانٍ،أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»،ثُمَّ بَيَّنَ الْقَتْلَ فِي مَوَاضِعَ لِعَشَرَةِ أَسْبَابٍ سَنُبَيِّنُهَا فِي مَوْضِعِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.[١٠٦٥]

وقال أيضاً:" [الْآيَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] فِيهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً:

[١٠٦٥] – أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (١/ ١٥٦)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:قَوْلُهُ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [التوبة:٢٩]:أَمْرٌ بِمُقَاتَلَةِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ؛فَإِنَّ كُلَّهُمْ قَدْ أَطْبَقَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ،مِنْ الْكُفْرِ بِاَللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَقَدْ قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥].وَقَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِيهِ.

وَقَالَ تَعَالَى:{جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التوبة:٧٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣].

وَالْكُفْرُ وَإِنْ كَانَ أَنْوَاعًا مُتَعَدِّدَةً مَذْكُورَةً فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِأَلْفَاظٍ مُتَفَرِّقَةٍ،فَإِنَّ اسْمَ الْكُفْرِ يَجْمَعُهَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [الحج:١٧].

وَخَصَّ النَّبِيُّ – ﷺ – الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ بِالْبَيَانِ فَقَالَ:«أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ».وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ وَالْغَايَةُ الْقُصْوَى.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:قَوْلُهُ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [التوبة:٢٩] الْآيَةَ:نَصٌّ فِي تَحْقِيقِ الْكُفْرِ،وَذَلِكَ أَنْ نَقُولَ:الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ أَصْلَانِ فِي تَرْتِيبِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهِمَا فِي الدِّينِ،وَهُمَا فِي وَضْعِ اللُّغَةِ مَعْلُومَانِ.

وَالْإِيمَانُ هُوَ التَّصْدِيقُ لُغَةً أَوْ التَّأْمِينُ.وَالْكُفْرُ هُوَ السِّتْرُ،وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ حِسًّا،وَقَدْ يَكُونُ بِالْإِنْكَارِ وَالْجَحْدِ مَعْنًى،وَكِلَاهُمَا حَقِيقَةٌ،أَوْ حَقِيقَةٌ وَمَجَازٌ،حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْأَمَدِ الْأَقْصَى " وَغَيْرِهِ.وَقَدْ قَالَ شَيْخُ السُّنَّةِ وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ:إنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْعِلْمُ بِاَللَّهِ،وَذَلِكَ لَا يَصِحُّ لُغَةً،وَقَدْ أَفَدْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ.

فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ كُفْرَ الْمَعَانِي جُحُودُهَا وَإِنْكَارُهَا فَالشَّرْعُ لَمْ يُعَلِّقْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى كُلِّ مَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ كُفْرٍ،وَإِنَّمَا عَلَّقَهُ عَلَى بَعْضِهَا،وَهِيَ الْكُفْرُ بِاَللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [التوبة:٢٩] الْآيَةَ.

فَقَوْلُهُ:{لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [التوبة:٢٩] نَصٌّ فِي الْكُفْرِ بِذَاتِهِ يَقِينًا،وَفِي الْكُفْرِ بِالصِّفَاتِ ظَاهِرًا:لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوْجُودُ الَّذِي لَهُ الصِّفَاتُ الْعُلَا وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى؛فَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ

وُجُودَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ،وَقَوْلُهُ:{وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [التوبة:٢٩] نَصٌّ فِي صِفَاتِهِ،فَإِنَّ الْيَوْمَ الْآخِرَ عَرَفْنَاهُ بِقُدْرَتِهِ وَبِكَلَامِهِ؛فَأَمَّا عِلْمُنَا لَهُ بِقُدْرَتِهِ فَإِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْيَوْمِ الْأَوَّلِ دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَأَمَّا عِلْمُنَا لَهُ بِالْكَلَامِ فَبِإِخْبَارِهِ أَنَّهُ فَاعِلُهُ،فَإِذَا أَنْكَرَ أَحَدٌ الْبَعْثَ فَقَدْ أَنْكَرَ الْقُدْرَةَ وَالْكَلَامَ،وَكَفَرَ قَطْعًا بِغَيْرِ كَلَامٍ،وَقَوْلُهُ:{وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة:٢٩] نَصٌّ فِي أَفْعَالِهِ الَّتِي مِنْ أُمَّهَاتِهَا إِرْسَالُ الرُّسُلِ،وَتَأْيِيدُهُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ النَّازِلَةِ مَنْزِلَةَ قَوْلِهِ:صَدَقْتُمْ أَيُّهَا الرُّسُلُ،فَإِذَا أَنْكَرَ أَحَدٌ الرُّسُلَ أَوْ كَذَّبَهُمْ فِيمَا يُخْبِرُونَ عَنْهُ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ،وَالْأَوَامِرِ وَالنَّدْبِ،فَهُوَ كَافِرٌ،وَكُلُّ جُمْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ لَهُ تَفْصِيلٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي أَشَرْنَا،بِهَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي التَّكْفِيرِ بِذَلِكَ التَّفْصِيلِ،وَالتَّفْسِيقِ وَالتَّخْطِئَةِ وَالتَّصْوِيبِ؛وَذَلِكَ كَالْقَوْلِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالْجِهَةِ،أَوْ الْخَوْضِ فِي إِنْكَارِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ،وَالْإِرَادَةِ وَالْكَلَامِ وَالْحَيَاةِ،فَهَذِهِ الْأُصُولُ يَكْفُرُ جَاحِدُهَا بِلَا إِشْكَالٍ.

وَكَقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ:إِنَّ الْعِبَادَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ،وَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا لَا يُرِيدُهُ اللَّهُ،وَإِنَّ نُفُوذَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ عَلَى الْخَلْقِ بِالنَّارِ جَوْرٌ.

وَكَقَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ:إِنَّ الْبَارِيَ جِسْمٌ،وَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِجِهَةٍ،وَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْمُحَالِ،وَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ نَصَّ عَلَى كُلِّ حَادِثَةٍ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَهَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ صُرَاحٌ،وَبَعْدَ هَذَا تَفَاصِيلُ يَنْبَنِي عَلَيْهَا وَيُجَرُّ إِلَيْهَا،وَفِي التَّكْفِيرِ بِهَا تَدْقِيقٌ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْإِشَارَةِ بِقَوْلِهِ:وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِخْبَارُ عَنْ النَّصَارَى الَّذِينَ يَقُولُونَ:إِنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ وَعَذَابَ النَّارِ مَعَانٍ؛كَالسُّرُورِ وَالْهَمِّ،وَلَيْسَتْ صُوَرًا،وَلَا فِيهَا أَكْلٌ وَلَا شُرْبٌ،وَلَا وَطْءٌ وَلَا حَيَاةٌ،وَلَا مُهْلٌ يُشْرَبُ،وَلَا نَارٌ تَلَظَّى.

وَقَوْلُهُ:{وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة:٢٩] إِخْبَارٌ عَمَّا كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ مِنَ التَّحْرِيمِ بِعُقُولِهَا فِي السَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ،وَمَا يَخْتَصُّ بِتَحْرِيمِهِ الْإِنَاثُ دُونَ الذُّكُورِ،إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ الزُّورِ،وَعَمَّا كَانَتْ الرُّهْبَانُ تَفْعَلُهُ،وَالْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ تَبْتَدِعُهُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي الْإِنْجِيلِ وَالتَّوْرَاةِ،أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: {وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} [التوبة:٢٩] إشَارَةً إلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ الِاعْتِقَادِ لِلْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الشَّرْعِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْله تَعَالَى: {مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة:٢٩]: وَفِي ذِكْرِهِمْ هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أُمِرُوا بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، فَأُمِرُوا أَيْضًا بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، لِمَا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ مِنْ ذِكْرِ الرَّسُولِ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ تَخْصِيصًا لِمَا تَنَاوَلَهُ اللَّفْظُ الْعَامُّ عَلَى مَعْنَى التَّأْكِيدِ.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: {مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة:٢٩] تَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ مُقَدَّمَةٌ مِنْ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، فَجَاءَهُمْ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَجْأَةً عَلَى جَهَالَةٍ.

فَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَقَدْ كَانُوا عَالِمِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّسُلِ وَالشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ، وَخُصُوصًا ذِكْرَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - وَمِلَّتِهِ وَأُمَّتِهِ؛ فَلَمَّا أَنْكَرُوهُ تَأَكَّدَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ، وَعَظُمَتْ مِنْهُمْ الْجَرِيمَةُ، فَنَبَّهَ عَلَى مَحَلِّهِمْ بِذَلِكَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ تَخْصِيصَهُمْ بِالذِّكْرِ إنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ قَوْله تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

وَالَّذِينَ يُخْتَصُّونَ بِفَرْضِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ صِنْفِ الْكُفَّارِ، وَهَذَا صَحِيحٌ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؟ قُلْنَا: عَنْهُ جَوَابَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمْ، وَإِنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ، وَلَمْ يُحَرِّمُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا دَانُوا بِدِينِ الْحَقِّ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْله تَعَالَى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} [التوبة:٢٩]: فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا عَطِيَّةٌ مَخْصُوصَةٌ.

الثَّانِي: أَنَّهَا جَزَاءٌ عَلَى الْكُفْرِ.

الثَّالِثُ:أَنَّ اشْتِقَاقَهَا مِنْ الْإِجْزَاءِ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ،كَمَا تَقُولُ:جَزَى كَذَا عَنِّي يَجْزِي إذَا قَضَى.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ:فِي تَقْدِيرِهَا:رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ،وَأَشْهَبُ،وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ زَنْجُوَيْهِ،وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهَا أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ،وَأَرْبَعُونَ دِرْهَمًا عَلَى الْوَرِقِ،وَإِنْ كَانُوا مَجُوسًا.

وَكَذَلِكَ رَوَى مَالِكٌ،عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ضَرَبَ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ،وَعَلَى أَهْلِ الْوَرِقِ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،مَعَ ذَلِكَ أَرْزَاقُ الْمُسْلِمِينَ وَضِيَافَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

وَقِيلَ:إنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُقَدَّرٍ،وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى قَدْرِ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ وَيَجْتَهِدُ فِيهِ؛مِنْ الْغِنَى وَالْفَقْرِ،وَالْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ،وَالِاقْتِدَاءُ بِعُمَرَ أُسْوَةٌ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي نُجَيْمٍ قُلْت لِمُجَاهِدٍ:مَا بَالُ أَهْلِ الشَّامِ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ،وَعَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ دِينَارٌ؟ قَالَ:إنَّمَا جُعِلَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْيَسَارِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاذ:«خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَافِرِيَّ»،ثُمَّ ضَرَبَ الْجِزْيَةَ عُمَرُ فِي زَمَانِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ؛فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ الثَّرْوَةُ وَالْقِلَّةُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ:فِي مَحِلِّ الْجِزْيَةِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ:أَنَّهَا تُقْبَلُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَرَبًا كَانُوا أَوْ غَيْرَهُمْ.

الثَّانِي:قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ:إذَا رَضِيَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا بِالْجِزْيَةِ قُبِلَتْ مِنْهُمْ.

الثَّالِثُ:قَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ:لَا تُقْبَلُ.

الرَّابِعُ:قَالَ ابْنُ وَهْبٍ:لَا تُقْبَلُ مِنْ مَجُوسِ الْعَرَبِ،وَتُقْبَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَجْهُ مَنْ قَالَ:إنَّهَا تُقْبَلُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَرَبًا كَانُوا أَوْ غَيْرَهُمْ تَخْصِيصُ اللَّهِ بِالذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ:إنَّهَا تُقْبَلُ مِنْ الْأُمَمِ كُلِّهَا فَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ

سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا.ثُمَّ قَالَ:أُغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،أُغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا.وَإِذَا لَقِيت عَدُوَّك مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إلَى ثَلَاثِ خِلَالٍ،فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوك إلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ:اُدْعُهُمْ إلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ اُدْعُهُمْ إلَى التَّحَوُّلِ عَنْ دَارِهِمْ إلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ؛فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ،إلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ،وَإِنْ هُمْ أَجَابُوك فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».

وَذَكَرْنَا فِي الْحَدِيثِ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الصَّحِيحِ «أَنَّ عُمَرَ تَوَقَّفَ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ الْمَجُوسِ،حَتَّى أَخْبَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ».

وَوَجْهُ قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَجُوسٌ؛لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ أَسْلَمَ،فَمَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ؛يُقْتَلُ بِكُلِّ حَالٍ إنْ لَمْ يُسْلِمْ،وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ جِزْيَةٌ.

وَالصَّحِيحُ قَبُولُهَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ،وَفِي كُلِّ حَالٍ عِنْدَ الدُّعَاءِ إلَيْهَا وَالْإِجَابَةِ بِهَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ:[مَحِلُّ الْجِزْيَةِ]:وَمَحِلُّهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ الْأَحْرَارُ الْبَالِغُونَ الْعُقَلَاءُ دُونَ الْمَجَانِينِ،وَهُمْ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ،دُونَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ لِذَلِكَ.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّهْبَانِ؛فَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهَا لَا تُؤْخَذُ مِنْهُمْ.

قَالَ مُطَرِّفٌ،وَابْنُ الْمَاجِشُونِ:هَذَا إذَا لَمْ يَتَرَهَّبْ بَعْدَ فَرْضِهَا،فَإِنْ فُرِضَتْ،لَمْ يُسْقِطْهَا تَرَهُّبُهُ.

وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ:وَسَتَجِدُ قَوْمًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ،فَذَرْهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،فَإِذَا لَمْ يَهِيجُوا،وَلَمْ يَقْتُلُوا لَمْ تُطْلَبْ مِنْهُمْ جِزْيَةٌ؛لِأَنَّهَا بَدَلٌ عَنْ الْقَتْلِ.

الْمَسْأَلَةُ التَّاسعَةُ:قَوْله تَعَالَى {حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد} [التوبة:٢٩]:فيه خَمْسَةَ عَشَرَ قَوْلًا:الْأَوَّلُ:أَنْ يُعْطِيَهَا وَهُوَ قَائمٌ وَالْآخذُ جَالسٌ؛قَالَهُ عكْرِمَةُ الثَّاني:يُعْطُونَهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَيْديهِمْ يَمْشُونَ بهَا؛قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.الثَّالثُ:يَعْني منْ يَده إلَى يَد آخذه،كَمَا تَقُولُ:كَلَّمْتُهُ فَمًا لفَمٍ،ولَقيتُهُ كفَّةً كفَّةً،وأَعْطَيْته يَدًا عَنْ يَد.الرَّابعُ:عَنْ قُوَّة منْهُمْ.الْخَامسُ:عَنْ ظُهُورٍ.السَّادسُ:غَيْرَ مَحْمُودينَ وَلَا مَدْعُوٍّ لَهُمْ.السَّابعُ:تُوجَأُ عُنُقُهُ.

الثَّامنُ:عَنْ ذُلٍّ.التَّاسعُ:عَنْ غنًى.الْعَاشرُ:عَنْ عَهْد.الْحَاديَ عَشَرَ:نَقْدًا غَيْرَ نَسيئَة.الثَّانيَ عَشَرَ:اعْترَافًا منْهُمْ أَنَّ يَدَ الْمُسْلمينَ فَوْقَ أَيْديهِمْ.الثَّالثَ عَشَرَ:عَنْ قَهْرٍ.الرَّابعَ عَشَرَ:عَنْ إنْعَامٍ بقَبُولهَا عَلَيْهِمْ.الْخَامسَ عَشَرَ:مُبْتَدئًا غَيْرَ مُكَافئٍ.

قَالَ الْإِمَامُ:هَذه الْأَقْوَالُ منْهَا مُتَدَاخلَةٌ،وَمنْهَا مُتَنَافرَةٌ،وَتَرْجعُ إلَى مَعْنَيَيْن:أَحَدُهُمَا:أَنْ يَكُون الْمُرَادُ بالْيَد الْحَقيقَةَ،وَالْآخَرُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بالْيَد الْمَجَازَ.

فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ به الْحَقيقَةَ فَيَرْجعُ إلَى مَنْ قَالَ:إنَّهُ يَدْفَعُهَا بنَفْسه غَيْرَ مُسْتَنيبٍ في دَفْعهَا أَحَدًا.

وَأَمَّا جهَةُ الْمَجَاز فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُريدَ به التَّعْجيلَ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُريدَ به الْقُوَّةَ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُريدَ به الْمنَّةَ وَالْإِنْعَامَ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ:وَهُوَ قَائمٌ وَالْآخذُ جَالسٌ فَلَيْسَ منْ قَوْله عَنْ يَد،وَإِنَّمَا هُوَ منْ قَوْله:عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ وَهيَ:الْمَسْأَلَةُ الْعَاشرَةُ:وَكَذَلكَ قَوْلُهُ:يَمْشُونَ بهَا وَهُمْ كَارهُونَ،منْ الصَّغَار.

وَكَذَلكَ قَوْلُ أَبي عُبَيْدَةَ:وَلَا مَقْهُورينَ يَعُودُ إلَى الصَّغَار وَالْيَد،وَحَقيقَةُ الصَّغَار تَقْليلُ الْكَثير منْ الْأَجْسَام،أَوْ منْ الْمَعَاني في الْمَرَاتب وَالدَّرَجَات.

الْمَسْأَلَةُ الْحَاديَةَ عَشْرَةَ:اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فيمَا وَجَبَتْ الْجزْيَةُ عَنْهُ؛فقَالَ عُلَمَاءُ الْمَالكيَّة:وَجَبَتْ بَدَلًا عَنْ الْقَتْلِ بسَبَبِ الْكُفْرِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحَنَفيَّة بقَوْلنَا.

وَقَالَ الشَّافعيُّ:بَدَلًا عَنْ حَقْنِ الدَّمِ وَسُكْنَى الدَّارِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ منْ أَهْلِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ:إنَّمَا وَجَبَتْ بَدَلًا عَنْ النُّصْرَة بالْجهَاد.

وَاخْتَارَهُ الْقَاضِي أَبُو زَيْد،وَزَعَمَ أَنَّهُ سِرُّ اللَّه فِي الْمَسْأَلَة.

وَاسْتَدَلَّ عُلَمَاؤُنَا عَلَى أَنَّهَا عُقُوبَةٌ [بِأَنَّهَا] وَجَبَتْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ،وَهُوَ جِنَايَةٌ؛فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مُسَبَّبُهَا عُقُوبَةً؛وَلِذَلِكَ وَجَبَتْ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ،وَهُمْ الْبَالِغُونَ الْعُقَلَاءُ الْمُقَاتِلُونَ.

وَقَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ:الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا وَجَبَتْ بَدَلًا عَنْ حَقْنِ الدَّمِ،وَسُكْنَى الدَّارِ أَنَّهَا تَجِبُ بِالْمُعَاقَدَةِ وَالتَّرَاضِي،وَلَا تَقِفُ الْعُقُوبَاتُ عَلَى الِاتِّفَاقِ وَالرِّضَا.

وَأَيْضًا فَإِنَّهَا تَخْتَلِفُ بِالْيَسَارِ وَالْإِعْسَارِ،وَلَا تَخْتَلِفُ الْعُقُوبَاتُ بِذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْجِزْيَةَ تَجِبُ مُؤَجَّلَةً،وَالْعُقُوبَاتُ تَجِبُ مُعَجَّلَةً؛وَهَذَا لَا يَصِحُّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ:إنَّهَا وَجَبَتْ بِالرِّضَا فَغَيْرُ مُسَلَّمٍ؛لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِقِتَالِهِمْ حَتَّى يُعْطُوهَا قَسْرًا.

وَأَمَّا إنْكَارُهُمْ اخْتِلَافَ الْعُقُوبَاتِ بِالْقِلَّةِ وَالْيَسَارِ فَذَلِكَ بَاطِلٌ مِنْ الْإِنْكَارِ؛لِأَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يَبْعُدُ فِي الْعُقُوبَاتِ الْبَدَنِيَّةِ دُونَ الْمَالِيَّةِ،أَلَا تَرَى أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الْبَدَنِيَّةَ تَخْتَلِفُ بِالثُّيُوبَةِ،وَالْبَكَارَةِ،وَالْإِنْكَارِ،فَكَمَا اخْتَلَفَتْ عُقُوبَةُ الْبَدَنِ بِاخْتِلَافِ صِفَةِ الْمُوجَبِ عَلَيْهِ لَا يُسْتَنْكَرُ أَنْ يَخْتَلِفَ عُقُوبَةُ الْمَالِ بِاخْتِلَافِ صِفَةِ الْمَالِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ.

وَأَمَّا تَأْجِيلُهَا فَإِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ مَصْلَحَةً،وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَرْبَةِ لَازِبٍ فِيهَا.وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

وَفَائِدَتُهَا أَنَّا إذَا قُلْنَا:إنَّهَا بَدَلٌ عَنْ الْقَتْلِ فَإِذَا أَسْلَمَ سَقَطَتْ عَنْهُ لِسُقُوطِ الْقَتْلِ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا دَيْنٌ اسْتَقَرَّ فِي الذِّمَّةِ فَلَا يُسْقِطُهُ الْإِسْلَامُ كَأُجْرَةِ الدَّارِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:شَرَطَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ،وَهُمَا قَوْلُهُ:{عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]؛لِلْفَرْقِ بَيْنَ مَا يُؤَدَّى عُقُوبَةً وَهِيَ الْجِزْيَةُ،وَبَيْنَ مَا يُؤَدَّى طُهْرَةً وَقُرْبَةً وَهِيَ الصَّدَقَةُ،حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –:«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى».

وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُعْطِيَةُ،وَالْيَدُ السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ "؛فَجَعَلَ يَدَ الْمُعْطِي فِي الصَّدَقَةِ عُلْيَا،وَجَعَلَ يَدَ الْمُعْطِي فِي الْجِزْيَةِ صَاغِرَةً سُفْلَى،وَيَدَ الْآخِذِ عُلْيَا،ذَلِكَ بِأَنَّهُ الرَّافِعُ

الْخَافِضُ،يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ وَيَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ،وَكُلُّ فِعْلٍ أَوْ حُكْمٍ يَرْجِعُ إلَى الْأَسْمَاءِ حَسْبَمَا مَهَّدْنَاهُ فِي الْأَمَدِ الْأَقْصَى ".

فَإِنْ قِيلَ؛وَهِيَ:الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ:إذَا بَذَلَ الْجِزْيَةَ فَحَقَنَ دَمَهُ بِمَالٍ يَسِيرٍ مَعَ إقْرَارِهِ عَلَى الْكُفْرِ بِاَللَّهِ؛هَلْ هَذَا إلَّا كَالرِّضَا بِهِ؟ فَالْجَوَابُ أَنَا نَقُولُ:فِي ذَلِكَ وَجْهَانِ مِنْ الْحِكْمَةِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ فِي أَخْذِهَا مَعُونَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْوِيَةً لَهُمْ،وَرِزْقٌ حَلَالٌ سَاقَهُ اللَّهُ إلَيْهِمْ.الثَّانِي:أَنَّهُ لَوْ قَتَلَ الْكَافِرُ لَيَئِسَ مِنْ الْفَلَاحِ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْهَلَكَةُ؛فَإِذَا أَعْطَى الْجِزْيَةَ وَأُمْهِلَ لَعَلَّهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْحَقَّ،وَيَرْجِعَ إلَى الصَّوَابِ،لَا سِيَّمَا بِمُرَاقَبَةِ أَهْلِ الدِّينِ،وَالتَّدَرُّبِ بِسَمَاعِ مَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ؛أَلَا تَرَى أَنَّ عَظِيمَ كُفْرِهِمْ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ إدْرَارِ رِزْقِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –:«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى مِنْ اللَّهِ،يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ،وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ».

وَقَدْ بَيَّنَ عُلَمَاءُ خُرَاسَانَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ،فَقَالُوا:إنَّ الْعُقُوبَاتِ تَنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ.

أَحَدُهُمَا:مَا فِيهِ هَلَكَةُ الْمُعَاقَبِ.

وَالثَّانِي:مَا يَعُودُ بِمَصْلَحَةٍ عَلَيْهِ،مِنْ زَجْرِهِ عَمَّا ارْتَكَبَ،وَرَدِّهِ عَمَّا اعْتَقَدَ وَفَعَلَ.[١٠٦٦]

تحقّق الْأمْن لغيْر الْمسْلمين:

مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ حُكْمَ الإِسْلاَمِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا هُوَ عِصْمَةُ النَّفْسِ وَالْمَالِ،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَإِذَا قَالُوهَا،وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا،وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا،فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ،إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[١٠٦٧]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ

[١٠٦٦] – أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٧٣)

[١٠٦٧] – صحيح البخاري (١/ ٨٧)(٣٩٢)

الْعَرَب،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّه،وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّه "

فَقَالَ:وَاللَّه لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَة وَالزَّكَاة،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَال،وَاللَّه لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«فَوَاللَّه مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[١٠٦٨]

وَبِهَذَا يَتَقَرَّرُ الأَمْنُ لِلْمُسْلِمِ فِي نَفْسِه وَمَالِه.

أَمَّا غَيْرُ الْمُسْلِمِ فَإِنَّهُ يَتَحَقَّقُ لَهُ الأَمْنُ بِتَأْمِينِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ وَإِعْطَائِه الأَمَانَ ؛لِأَنَّ حُكْمَ الأَمَانِ هُوَ ثُبُوتُ الأَمْنِ لِلْكَفَرَة عَنِ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالاِسْتِغْنَامِ،فَيَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَتْلُ رِجَالِهِمْ وَسَبْيُ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَاسْتِغْنَامُ أَمْوَالِهِمْ.وَالأَصْلُ فِي إِعْطَاءِ الأَمَانِ لِلْكُفَّارِ قَوْلُه تَعَالَى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } [التوبة:٦].

وَالأَمَانُ قِسْمَانِ الأَوَّلُ:أَمَانٌ يَعْقِدُهُ الإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ،وَهُوَ نَوْعَانِ:مُؤَقَّتٌ،وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالْهُدْنَة وَبِالْمُعَاهَدَة وَبِالْمُوَادَعَة – وَهُوَ عَقْدُ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِه عَلَى تَرْكِ الْقِتَال مُدَّةً مَعْلُومَةً – مَعَ اخْتِلاَف الْفُقَهَاءِ فِي مِقْدَارِ مُدَّة الْمُوَادَعَة.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَادَعَ أَهْلَ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَة عَلَى أَنْ تُوضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ عَشْرَ سِنِينَ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي:الأَمَانُ الْمُؤَبَّدُ،وَهُوَ مَا يُسَمَّى عَقْدَ الذِّمَّة،وَهُوَ إِقْرَارُ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِشَرْطِ بَذْلِ الْجِزْيَة وَالْتِزَامِ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ وَالأَصْلُ فِيهِ قَوْلُه تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ

[١٠٦٨] – صحيح البخاري (٢/ ١٠٥)(١٣٩٩) وصحيح مسلم (١/ ٥١) ٣٢ – (٢٠)

[(عناقا) الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.(شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم.(فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه]

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].[١٠٦٩]

هَذَا مَعَ اخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ فِي غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ،هَلْ تُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ وَيُقَرُّونَ عَلَى حَالِهِمْ أَمْ لاَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِلاَّ الإِسْلاَمُ،فَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا قُتِلُوا.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الأَمَانِ:

هُوَ الأَمَانُ الَّذِي يُصْدَرُ مِنْ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ لِعَدَدٍ مَحْصُورٍ مِنَ الْكُفَّارِ،وَيَدُلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ،قَالَ:انْطَلَقْتُ أَنَا وَالْأَشْتَرُ،إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَام،فَقُلْنَا:هَلْ عَهِدَ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً؟ قَالَ:لَا،إِلَّا مَا فِي كِتَابِي هَذَا،قَالَ مُسَدَّدٌ:قَالَ:فَأَخْرَجَ كِتَابًا،وَقَالَ أَحْمَدُ:كِتَابًا مِنْ قِرَابِ سَيْفِهِ،فَإِذَا فِيهِ «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،أَلَا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ،مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَى نَفْسِهِ،وَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[١٠٧٠]

وفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:يُرِيدُ بِهِ أَنَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْقِصَاصِ،يُقَادُ الشَّرِيفُ مِنْهُمْ بِالْوَضِيعِ،وَالْكَبِيرُ بِالصَّغِيرِ،وَالْعَالِمُ بِالْجَاهِلِ،وَالْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ،وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ شَرِيفًا أَوْ عَالِمًا،وَالْقَاتِلُ وَضِيعًا أَوْ جَاهِلًا،وَلَا يُقْتَلُ بِهِ غَيْرُ قَاتِلِهِ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ،وَكَانُوا لَا يَرْضَوْنَ فِي دَمِ الشَّرِيفِ بِالِاسْتِقَادَةِ مِنْ قَاتِلِهِ الْوَضِيعِ،حَتَّى يَقْتُلُوا عِدَّةً مِنْ قَبِيلَةِ الْقَاتِلِ.

وَالْمَعْنَى إِذَا أَعْطَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَمَانًا فَلَيْسَ لِلْبَاقِينَ إِخْفَارُهُ أَيْ نَقْضُ عَهْدِهِ وَأَمَانِهِ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:أَيْ إِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا أَمَّنَ كَافِرًا حَرُمَ عَلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ

[١٠٦٩] – وانظر :بدائع الصنائع ٧ / ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩ – ١١١، ومنح الجليل ١ / ٧٥٦، ٧٦٥، ٧٦٦، والمهذب ٢ / ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦٢، ونهاية المحتاج ٨ / ١٠٠، ١٠٢، والمغني ٨ / ٤٥٩، ٤٦٣، ٥٣٥، وشرح منتهى الإرادات ٢ / ١٢٢ – ١٣٠

[١٠٧٠] – سنن أبي داود (٤/ ١٨٠)(٤٥٣٠) صحيح

قَالَ أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ:فَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ» :هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي إِذَا أَعْطَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، جَازَ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ نَقْضُهُ وَلَا رَدُّهُ حَتَّى جَاءَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ بِذَلِكَ فِي النِّسَاءِ"الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٢)

دَمُهُ،وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمُجِيرُ أَدْنَاهُمْ،مِثْلَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَسِيفًا تَابِعًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ،فَلَا يَخْفِرُ ذِمَّتَهُ.

فِي شَرْحِ السُّنَّةِ فِيهِ وَجْهَانِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ قَاصِيَ الدَّارِ عَنْ بِلَادِ الْكُفْرِ إِذَا عَقَدَ لِلْكَافِرِ عَقْدًا فِي الْأَمَانِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ نَقْضُهُ،وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ دَارًا مِنَ الْمَعْقُودِ لَهُ،وَثَانِيهِمَا:إِذَا دَخَلَ الْعَسْكَرُ دَارَ الْحَرْبِ،فَوَجَّهَ الْإِمَامُ سَرِيَّةً مِنْهُمْ،فَمَا غَنِمَتْ مِنْ شَيْءٍ أَخَذَتْ مِنْهُ مَا سَمَّى لَهَا،وَيَرُدُّ عَلَى الْعَسْكَرِ الَّذِينَ خَلْفَهُمْ،لِأَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْهَدُوا الْغَنِيمَةَ كَانُوا رِدْءًا لِلسَّرَايَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَكَذَا فِي النِّهَايَةِ،وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِي،وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ لِمَا يَلْزَمُ مِنَ الثَّانِي التَّعْمِيَةُ وَالْإِلْغَازُ ؛ لِأَنَّ مَفْعُولَ يَرُدُّ غَيْرُ مَذْكُورٍ،وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ،لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَرِينَتَيْنِ تَكْرَارٌ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى يُجِيرُ بِعَهْدِهِمْ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدُهُمْ مَنْزِلًا،وَيَنْصُرُ الْوَجْهَ الثَّانِي الْحَدِيثُ السَّادِسُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي فِي بَابِ الدِّيَاتِ وَسَيَجِيءُ بَيَانُهُ.(" وَهُمْ):أَيِ الْمُسْلِمُونَ (يَدٌ "):أَيْ كَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ.(" عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ):قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:أَيِ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسَعُهُمُ التَّخَاذُلُ،بَلْ يُعَاوِنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ.

(" «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ» "):أَيْ بِحَرْبِيٍّ بِدَلِيلِ عَطْفِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ،فَلَا يُنَافِيهِ مَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ مِنْ أَنَّهُ يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالذِّمِّيِّ،وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ مُطْلَقًا (" وَلَا ذُو عَهْدٍ "):أَيْ لَا يُقْتَلُ (" فِي عَهْدِهِ "):أَيْ فِي زَمَانِهِ وَحَالِهِ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:أَيْ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ ابْتِدَاءً مَا دَامَ فِي الْعَهْدِ.قَالَ الْقَاضِي:أَيْ لَا يُقْتَلُ لِكُفْرِهِ مَا دَامَ مُعَاهِدًا غَيْرَ نَاقِضٍ.وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ:مَعْنَاهُ لَا يُقْتَلُ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ بِكَافِرٍ قِصَاصًا،وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَافِرَ الَّذِي لَا يُقْتَلُ بِهِ الْمُعَاهِدُ هُوَ الْحَرْبِيُّ دُونَ الذِّمِّيِّ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَافِرِ الَّذِي لَا يُقْتَلُ بِهِ الْمُسْلِمُ هُوَ الْحَرْبِيُّ تَسْوِيَةً بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ.

قُلْتُ:ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي.قَالَ:وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ إِضْمَارٌ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ،وَلَا دَلِيلَ يَقْتَضِيهِ،وَأَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ غَيْرُ لَازِمٍ.قُلْتُ:عَدَمُ لُزُومِهِ مُسَلَّمٌ لَكِنَّهُ مُسْتَحْسَنٌ،فَالْمَبْنِيُّ عَلَيْهِ أَحْسَنُ،وَهُوَ الدَّلِيلُ الْمُقْتَضِي لِلْإِضْمَارِ،فَضَعُفَ قَوْلُهُ مِنْ غَيْرِ

حَاجَة.قَالَ:ثُمَّ إِنَّهُ يُفْضِي إِلَى أَنْ يُؤَوَّلَ قَوْلُهُ:لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ إِلَى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِحَرْبِيٍّ،فَيَكُونُ لَغْوًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ.قُلْتُ:بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِذِمِّيٍّ عِنْدَنَا،فَيَتَعَيَّنُ هَذَا التَّأْوِيلُ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:لَوْلَا أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَصْحَابُ لَكَانَ الْكَلَامُ خَالِيًا عَنِ الْفَائِدَةِ لِحُصُولِ الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الْمُعَاهِدَ لَا يُقْتَلُ فِي عَهْدِهِ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فَائِدَتُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَسْقَطَ الْقَوَدَ عَنِ الْمُسْلِمِ إِذَا قَتَلَ الْكَافِرَ أَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْهِينَ حُرْمَةِ دِمَاءِ الْكُفَّارِ،فَلَمْ يُؤْمَنْ مِنْ وُقُوعِ شُبْهَةٍ لِبَعْضِ السَّامِعِينَ فِي حُرْمَةِ دِمَائِهِمْ وَإِقْدَامِ الْمُسْرِعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَتْلِهِمْ،فَأَعَادَ الْقَوْلَ فِي حَظْرِ دِمَائِهِمْ دَفْعًا لِلشُّبْهَةِ،وَقَطْعًا لِتَأْوِيلِ الْمُتَأَوِّلِ اهـ.

وَلَا يَخْفَى ضَعْفُهُ وَإِنْ قَوَّاهُ الطِّيبِيُّ مِمَّا تَكَلَّفَهُ.قَالَ الْأَشْرَفُ:قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُوسَى:يَحْتَمِلُ هَذَا الْحَدِيثُ وَجْهًا آخَرَ،وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِأَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ،وَلَا مُعَاهِدٌ بِبَعْضِ الْكُفَّارِ وَهُوَ الْحَرْبِيُّ،وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ يُعْطَفُ عَلَيْهَا سِيمَاءَانِ يَكُونُ أَحَدُهُمَا رَاجِعًا إِلَى جَمِيعِهَا،وَالْآخَرُ إِلَى بَعْضِهَا.قُلْتُ:لَا شَكَّ أَنَّهُ حِينَئِذٍ يُحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ فِي الْكَلَامِ لِيَظْهَرَ بِهِ الْمَرَامُ،وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَائِنَا فِي شَرْحِهِ:قَوْلُهُ:ذُو عَهْدٍ.عَطْفٌ عَلَى مُسْلِمٍ،وَالْمُرَادُ بِهِ:ذُو أَمَانٍ لَا ذُو إِيمَانٍ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ،وَإِلَّا يَصِيرُ مَعْنَاهُ:لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ إِلَّا أَنَّ فِيهِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا تَقْدِيرُهُ:لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ بِكَافِرٍ،وَالْمُرَادُ بِالْكَافِرِ الْحَرْبِيُّ دُونَ الذِّمِّيِّ ؛ لِأَنَّهُ يُقْتَلُ الذِّمِّيُّ بِمِثْلِهِ إِجْمَاعًا.[1071]

مَنْ يَصِحُّ لَهُ عَقْدُ الذِّمَّةِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى جَوَازِ عَقْدِ الذِّمَّةِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ،كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِهِ لِلْمُرْتَدِّ.أَمَّا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ فَقَدِ اخْتَلَفُوا:

فَقَالَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ:لَا يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّةِ لِغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ،بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

[1071] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٧٤) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٦/ ٢٧٧)

وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥] وَهَذَا عَامٌّ خُصَّ مِنْهُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِآيَةِ الْجِزْيَةِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ،وَخُصَّ مِنْهُمُ الْمَجُوسُ بحديث جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ:«مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ؟» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[١٠٧٢]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ الْبَحْرَيْنِ،وَأَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخَذَهَا مِنَ الْبَرْبَرِ،زَادَ ابْنُ وَهْبٍ فِي رِوَايَتِهِ أَنَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ فَارِسَ" [١٠٧٣]

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ لِلْمُهَاجِرِينَ مَجْلِسٌ فِي الْمَسْجِدِ يَجْلِسُونَ فِيهِ،فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْلِسُ مَعَهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ عَمَّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآفَاقِ،فَجَلَسَ مَعَهُمْ يَوْمًا فَقَالَ:مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ؟ فَوَثَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَقَامَ قَائِمًا،فَقَالَ:نَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَالَ:«سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[١٠٧٤]

وعن سُفْيَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ عَمْرًا،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا مَعَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ،وَعَمْرِو بْنِ أَوْسٍ فَحَدَّثَهُمَا بَجَالَةُ،- سَنَةَ سَبْعِينَ،عَامَ حَجَّ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ عِنْدَ دَرَجِ زَمْزَمَ -،قَالَ:كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ،عَمِّ الأَحْنَفِ،فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ،فَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ مِنَ المَجُوسِ،وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الجِزْيَةَ مِنَ المَجُوسِ،حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ "[١٠٧٥]

[١٠٧٢] - موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٧٨)(٤٢) صحيح لغيره

[١٠٧٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٠)(١٨٦٥٥) صحيح مرسل

[١٠٧٤] - تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٥٣) صحيح مرسل

[١٠٧٥] - صحيح البخاري (٤/ ٩٦)(٣١٥٦و٣١٥٧)

[ش (فرقوا..) أي بين من كانت بينهما زوجية من المحارم.(المجوس) وهم عبدة النار.(هجر) اسم بلد في البحرين يذكر فيصرف وهو الأكثر ويؤنث فيمنع من الصرف.[المصباح]]

فَمَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ يَبْقَى عَلَى بَقِيَّةِ الْعُمُومِ.[1076]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ:يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّةِ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ،إِلاَّ عَبَدَةَ الأَوْثَانِ مِنَ الْعَرَبِ ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ لِرَجَاءِ الإِسْلاَمِ عَنْ طَرِيقِ الْمُخَالَطَةِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ،وَهَذَا لاَ يَحْصُل بِعَقْدِ الذِّمَّةِ مَعَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ؛لأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَل بِلُغَتِهِمْ،وَحَمَلُوا الرِّسَالَةَ،فَلَيْسَ لَهُمْ أَدْنَى شُبْهَةٍ فِي رَفْضِهِمُ الإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،فَتَعَيَّنَ السَّيْفُ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَلِهَذَا لَمْ يَقْبَل رَسُول اللَّهِ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ.[1077]

وَفِي الْمَشْهُورِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ:يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ،لاَ فَرْقَ بَيْنَ كِتَابِيٍّ وَغَيْرِهِ،وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ وَثَنِيٍّ عَرَبِيٍّ،وَوَثَنِيٍّ غَيْرِ عَرَبِيٍّ.[1078]

مُجَاهَدَةُ أَهْل الْكِتَابِ:

قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُقَاتَلَةِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ لإِجْمَاعِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ،وَخَصَّ أَهْل الْكِتَابِ بِالذِّكْرِ لِتَعَاظُمِ مَسْئُولِيَّتِهِمْ ؛لِمَا أُوتُوا مِنْ كُتُبٍ سَمَاوِيَّةٍ،وَلِكَوْنِهِمْ عَالِمِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّسُل وَالشَّرَائِعِ وَالْمِلَل،وَخُصُوصًا ذِكْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمِلَّتِهِ وَأُمَّتِهِ،فَلَمَّا أَنْكَرُوهُ تَأَكَّدَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ،وَعَظُمَتْ مِنْهُمُ الْجَرِيمَةُ،فَنَبَّهَ عَلَى مَحَلِّهِمْ،ثُمَّ جَعَل لِلْقِتَال غَايَةً،وَهِيَ إِعْطَاءُ الْجِزْيَةِ بَدَلاً مِنَ الْقَتْل.[1079]

[1076] - القليوبي ٤ / ٢٢٩، والمغني ٨ / ٤٩٦، ٥٠١، والأم ٤ / ٢٤٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٨٩ .

[1077] - البدائع ٧ / ١١١، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، والحطاب ٣ / ٣٨٠، والمغني ٨ / ٥٠٠ .

[1078] - الحطاب ٣ / ٣٨٠، ٣٨١، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، ٢٦٧ .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٢٢)

وترى اللجنة قوة هذا الرأي ووجاهته تاريخيا، لأن قواد العرب دائما كانوا قبل أن يقاتلوا أي قوم يعرضون عليهم الإسلام أو الجزية .

[1079] - تفسير القرطبي ٨ / ١٠٩ - ١١٠ .

وَلاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ الْجزْيَةَ تُؤْخَذُ منَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى إذَا طَلَبُوا الْكَفَّ عَـن الْقتَال،لَكنَّ الْخلاَفَ في غَيْرِهمْ عَلَى تَفْصيلٍ يُنْظَرُ في (أَهْل الْحَرْب،وَأَهْل الذِّمَّة،وَجزْيَةٌ).

وَقَال الْحَنَابلَةُ:إنَّ قتَال أَهْل الْكتَاب أَفْضَل منْ قتَال غَيْرِهمْ،وَكَانَ ابْنُ الْمُبَارَك يَأْتي مـنْ مَرْوَ لغَزْو الرُّوم،فَقيل لَهُ في ذَلكَ،فَقَال:هَؤُلاَء يُقَاتلُونَ عَلَى دين.[1080]

وعَنْ عَبْد الْخَبير بْن ثَابت بْن قَيْس بْن شَمَّاس،عَنْ أَبيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:جَاءَت امْرَأَةٌ إلَـى النَّبيِّ ﷺ يُقَالُ لَهَا أُمُّ خَلَّاد وَهيَ مُنْتَقبَةٌ،تَسْأَلُ عَن ابْنهَا،وَهُوَ مَقْتُولٌ،فَقَالَ لَهَـا بَعْـضُ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ:جئْت تَسْأَلينَ عَن ابْنك وَأَنْت مُنْتَقبَةٌ؟ فَقَالَتْ:إنْ أُرْزَأَ ابْني فَلَـنْ أُرْزَأَ حَيَائي،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«ابْنُك لَهُ أَجْرُ شَهيدَيْنِ»،قَالَتْ:ولمَ ذَاكَ يَا رَسُـولَ اللَّـه؟ قَالَ:«لأَنَّهُ قَتَلَهُ أَهْلُ الْكتَاب»[1081]

[1080] - المغني ٨ / ٣٥٠ .

[1081] - سنن أبي داود (٣/ ٥)(٢٤٨٨) ضعيف، الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٤٤)

الباب السابع

الخلاصة في أحكام الجزية

تَعْرِيفُ الجزية:

قَال الْجَوْهَرِيُّ:الْجِزْيَةُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ،وَالْجَمْعُ الْجِزَى (بِالْكَسْرِ) مِثْل لِحْيَةٍ وَلِحًى.

وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَال الَّذِي يُعْقَدُ الذِّمَّةُ عَلَيْهِ لِلْكِتَابِيِّ.وَهِيَ فِعْلَةٌ مِنَ الْجَزَاءِ كَأَنَّهَا جَزَتْ عَنْ قَتْله.وَقَال ابْنُ مَنْظُور:الْجِزْيَةُ أَيْضًا خَرَاجُ الأَرْضِ[١٠٨٢].

قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }[التوبة:٢٩].

وَقَال النَّوَوِيُّ:الْجِزْيَةُ (بِكَسْرِ الْجِيمِ) جَمْعُهَا جِزًى (بِالْكَسْرِ) أَيْضًا كَقِرْبَةٍ وَقِرَبٍ وَنَحْوِهِ،وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَزَاءِ كَأَنَّهَا جَزَاءُ إِسْكَانِنَا إِيَّاهُ فِي دَارِنَا،وَعِصْمَتِنَا دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِيَالَهُ.وَقِيل:هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ جَزَى يَجْزِي إِذَا قَضَى.قَال اللَّهُ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:٤٨] أَيْ لاَ تَقْضِي[١٠٨٣].

وَقَال الْخُوَارِزْمِيُّ:جَزَاءُ رُءُوسِ أَهْل الذِّمَّةِ جَمْعُ جِزْيَةٍ وَهُوَ مُعَرَّبٌ:كَزَيْتٍ،وَهُوَ الْخَرَاجُ بِالْفَارِسِيَّةِ[١٠٨٤].

[١٠٨٢] - لسان العرب، والمصباح المنير، والمطلع على أبواب المقنع ص ١٤٠ ط المكتب الإسلامي، وأساس البلاغة، وجامع البيان في تفسير القرآن ١٠ / ٧٧ - دار المعرفة ببيروت، وزاد المسير في علم التفسير ٣ / ٤٢٠ - المكتب الإسلامي ببيروت - ط ١ / ١٩٦٤ .

[١٠٨٣] - تهذيب الأسماء واللغات ٣ / ٥١ - دار الكتب العلمية ببيروت، وحاشية القليوبي على شرح المنهاج ٢ / ٢٢٨ - مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة، والمغني ٨ / ٤٩٥ - مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

[١٠٨٤] - مفاتيح العلوم ص ٣٩ - ٤٠ نشر الطباعة المنيرية - مطبعة الشرق بالقاهرة، روح المعاني ١٠ / ٧٨ - دار إحياء التراث العربي ببيروت - مصور عن الطبعة المنيرية .

وَقَد اخْتَلَفَتْ وُجْهَاتُ نَظَرِ الْفُقَهَاءِ فِي تَعْرِيفِ الْجِزْيَةِ اصْطِلاَحًا تَبَعًا لاخْـــتِلاَفِهِمْ فِـــي طَبِيعَتِهَا،وَفِي حُكْمِ فَرْضِهَا عَلَى الْمَغْلُوبِينَ الَّذِينَ فُتِحَتْ أَرْضُهُمْ عَنْـــوَةً (أَيْ قَهْـــرًا لاَ صُلْحًا).

فَعَرَّفَهَا الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّهَا:" اسْمٌ لِمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَهُوَ عَامٌّ يَشْمَل كُل جِزْيَةٍ سَوَاءٌ أَكَانَ مُوجِبُهَا الْقَهْرَ وَالْغَلَبَةَ وَفَتْحَ الأَرْضِ عَنْوَةً،أَوْ عَقْدَ الذِّمَّةِ الَّذِي يَنْشَأُ بِالتَّرَاضِي ".

وَعَرَّفَهَا الْحِصْنِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ بِأَنَّهَا:" الْمَال الْمَأْخُوذُ بِالتَّرَاضِي لإِسْـــكَانِنَا إِيَّـــاهُمْ فِـــي دِيَارِنَا،أَوْ لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،أَوْ لِكَفِّنَا عَنْ قِتَالِهِمْ " وَعَرَّفَهَـــا الْحَنَابِلَـــةُ بِأَنَّهَا:" مَالٌ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الصَّغَارِ كُل عَامٍ بَدَلاً عَنْ قَتْلِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ بِدَارِنَا ".

قَال الْقَلْيُوبِيُّ:" تُطْلَقُ – أَيِ الْجِزْيَةَ – عَلَى الْمَال وَعَلَى الْعَقْدِ وَعَلَيْهِمَا مَعًا".[١٠٨٥]

هَذَا وَيُطْلِقُ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْجِزْيَةِ عِدَّةَ مُصْطَلَحَاتٍ وَأَلْفَاظٍ مِنْهَا:

أ – خَرَاجُ الرَّأْسِ:

قَال السَّرَخْسِيُّ:" إِذَا جَعَل الإِمَامُ قَوْمًا مِنَ الْكُفَّارِ أَهْل ذِمَّةٍ وَضَعَ الْخَرَاجَ عَلَـــى رُءُوسِ الرِّجَال،وَعَلَى الأَرَضِينَ بِقَدْرِ الاحْتِمَال،أَمَّا خَرَاجُ الرُّءُوسِ فَثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:أَمَّـــا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَـــةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]

[١٠٨٥] – الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤ – دار إحياء التراث العربي ببيروت، واللباب في شرح الكتاب ٤ / ١٤٣ – دار الحديث ببيروت، وعمدة القاري ١٥ / ٧٧ – دار الفكر ببيروت، وجواهر الإكليل شرح مختصر خليل ١ / ٢٦٦ – دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، وشرح منح الجليل ١ / ٧٥٦ – مكتبة النجاح بليبيا وحاشية البجيرمي على شرح المنهج ٤ / ٢٦٨ – المكتبة الإسلامية بتركيا، كفاية الأخيار ٢ / ١٣٣ – دار المعرفة ببيروت، المبدع في شرح المقنع ٣ / ٤٠٤ – المكتب الإسلامي ببيروت، وحاشية القليوبي ٤ / ٢٢٨، وكشاف القناع ٣ / ١١٧ – مطبعة النصر الحديثة بالرياض، والمغني ٨ / ٤٩٥ ط الرياض .

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَمَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّد،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَــى مَجُــوسِ هَجَرَ،يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَمَنْ أَسْلَمَ قَبِلَ مِنْهُ،وَمَنْ أَبَى ضُرِبَتْ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ.فِــي أَنْ لَــا يُؤْكَلَ لَهُمْ ذَبِيحَةٌ،وَلَا تُنْكَحَ لَهُمُ امْرَأَةٌ"[1086].

وَقَال ابْنُ الْقَيِّمِ فِي أَحْكَامِ أَهْل الذِّمَّةِ:

الْجِزْيَةُ هِيَ الْخَرَاجُ الْمَضْرُوبُ عَلَى رُءُوسِ الْكُفَّارِ إِذْلاَلاً وَصِغَارًا "[1087].

ب – الْجَالِيَةُ:

الْجَالِيَةُ فِي اللُّغَةِ:مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْجَلاَءِ،فَيُقَال:جَلَوْتُ عَنِ الْبَلَدِ جَلاَءً إِذَا خَرَجْتُ.وَتُطْلَــقُ الْجَالِيَةُ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَمِنْهُ قِيل:لِأَهْل الذِّمَّةِ الَّذِينَ أَجْلاَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّــهُ عَنْهُ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ الْجَالِيَةَ،وَقَدْ لَزِمَهُمْ هَذَا الاسْمُ أَيْنَمَا حَلُّوا،ثُمَّ لَزِمَ كُل مَنْ لَزِمَتْــهُ الْجِزْيَةُ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ بِكُل بَلَدٍ،وَإِنْ لَمْ يَجْلُوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ.ثُمَّ أُطْلِقَتْ " الْجَالِيَةُ " عَلَى الْجِزْيَةِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ،فَقِيل:اسْتُعْمِل فُلاَنٌ عَلَى الْجَالِيَةِ.أَيْ عَلَى جِزْيَةِ أَهْــل الذِّمَّةِ.وَجَمْعُ الْجَالِيَةِ الْجَوَالِي[1088].

وَقَدْ عَرَّفَهَا الْقَلْقَشَنْدِيُّ بِأَنَّهَا:" مَا يُؤْخَذُ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ عَنِ الْجِزْيَةِ الْمُقَرَّرَةِ عَلَى رِقَــابِهِمْ فِي كُل سَنَةٍ ".

وَقَد اسْتُخْدِمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ،وَفِي الإِيصَالاَتِ الَّتِي كَانَتْ تُعْطَى لِأَهْل الذِّمَّةِ بَعْدَ دَفْعِ الْجِزْيَةِ مُنْذُ عَصْرِ الْمَمَالِيكِ.

قَال الْمَقْرِيزِيُّ:فَأَمَّا الْجِزْيَةُ فَتُعْرَفُ فِي زَمَنِنَا بِالْجَوَالِي،فَإِنَّهَا تُسْتَخْرَجُ سَلَفًا وَتَعْجِيلاً فِي غُرَّةِ السَّنَةِ،وَكَانَ يَتَحَصَّل مِنْهَا مَالٌ كَثِيرٌ فِيمَا مَضَى.

قَال الْقَاضِي الْفَاضِل فِي مُتَجَدِّدَاتِ الْحَوَادِثِ:الَّذِي انْعَقَدَ عَلَيْهِ ارْتِفَاعُ الْجَوَالِي لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِائَةُ أَلْفٍ وَثَلاَثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ،وَأَمَّا فِي وَقْتِنَا هَذَا،فَإِنَّ الْجَوَالِيَ قَلَّــتْ

[1086] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٦)(١٢٤) صحيح مرسل

[1087] - الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٦ – مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة ط ٣، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٦٢ – مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة، والمبسوط ١٠ / ٧٧ – دار المعرفة ببيروت، وأحكام أهل الذمة ١ / ٢٢، دار العلم للملايين ببيروت

[1088] - لسان العرب، والمصباح المنير .

جدًّا،لكَثْرَةِ إظْهَارِ النَّصَارَى لِلإِسْلاَمِ فِي الْحَوَادِثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهِمْ.وَقَالَ ابْنُ عَابِدِينَ:تُسَمَّى – أَيْ الْجِزْيَةَ – جَالِيَةً.[١٠٨٩]

ج – مَال الْجَمَاجِمِ:

الْجَمَاجِمُ جَمْعُ جُمْجُمَةٍ:وَهِيَ عَظْمُ الرَّأْسِ الْمُشْتَمِل عَلَى الدِّمَاغِ،وَرُبَّمَا عُبِّرَ بِهَا عَنِ الإِنْسَانِ،فَيُقَال:خُذْ مِنْ كُل جُمْجُمَةٍ دِرْهَمًا،كَمَا يُقَال:خُذْ مِنْ كُل رَأْسٍ دِرْهَمًا.[١٠٩٠]

وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَى الْجِزْيَةِ مَال الْجَمَاجِمِ ؛لأَنَّهَا تُفْرَضُ عَلَى الرُّءُوسِ.

قَال ابْنُ سَعْدٍ فِي تَرْجَمَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" هُوَ أَوَّل مَنْ مَسَحَ السَّوَادَ وَأَرْضَ الْجَبَل،وَوَضَعَ الْخَرَاجَ عَلَى الأَرَضِينَ،وَالْجِزْيَةَ عَلَى جَمَاجِمِ أَهْل الذِّمَّةِ فِيمَا فُتِحَ مِنْ الْبُلْدَانِ.[١٠٩١]

وَقَال الْخُوَارِزْمِيُّ:وَيُسَمَّى – أَيُّ خَرَاجُ الرَّأْسِ – فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ مَال الْجَمَاجِمِ،وَهِيَ جَمْعُ جُمْجُمَةٍ،وَهِيَ الرَّأْسُ.[١٠٩٢]

وَجَاءَ فِي خُطَطِ الْمَقْرِيزِيِّ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ خَرَاجِ مِصْرَ:" أَوَّل مَنْ جَبَى خَرَاجَ مِصْرَ فِي الإِسْلاَمِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَكَانَتْ جِبَايَتُهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ بِفَرِيضَةِ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ مِنْ كُل رَجُلٍ،ثُمَّ جَبَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ...أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ..وَهَذَا الَّذِي جَبَاهُ عَمْرٌو ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ هُوَ مِنَ الْجَمَاجِمِ خَاصَّةً دُونَ الْخَرَاجِ[١٠٩٣].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ بِالْجِزْيَةِ:

أ – الْغَنِيمَةُ:

الْغَنِيمَةُ:اسْمٌ لِلْمَأْخُوذِ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى سَبِيل الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ.[١٠٩٤]

[١٠٨٩] – القلقشندي :صبح الأعشى ٣ / ٤٥٨ – نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة، والخطط ١ / ١٠٧، رد المحتار على الدر المختار ٤ / ١٩٥ – دار الفكر ببيروت .

[١٠٩٠] – لسان العرب، والمصباح المنير .

[١٠٩١] – الطبقات الكبرى ٣ / ٢٨٢ – دار صادر ببيروت .

[١٠٩٢] – مفاتيح العلوم ص ٤٠ .

[١٠٩٣] – الخطط للمقريزي ١ / ٩٨ .

[١٠٩٤] – بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٤٥ – مطبعة الإمام بالقاهرة .

وَيَدْخُل فِيهَا الأَمْوَال وَالأَسْرَى مِنْ أَهْل الْحَرْبِ إِذَا اسْتُرِقُّوا فَالْغَنِيمَةُ مُبَايِنَةٌ لِلْجِزْيَةِ لِأَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ،وَالْغَنِيمَةَ لاَ تَكُونُ إِلاَّ فِي الْقِتَال.

ب – الْفَيْءُ:

الْفَيْءُ:كُل مَا صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قِبَل الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوجَفَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ أَوْ رِجْلٍ (مُشَاة) – أَيْ بِغَيْرِ قِتَالٍ – "

وَالْفَيْءُ ضَرْبَانِ:أَحَدُهُمَا:مَا انْجَلَوْا عَنْهُ:أَيْ هَرَبُوا عَنْهُ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ بَذَلُوهُ لِلْكَفِّ عَنْهُمْ.وَالثَّانِي:مَا أُخِذَ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ:كَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ الصُّلْحِيِّ وَالْعُشُورِ.فَبَيْنَ الْفَيْءِ وَالْجِزْيَةِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ،فَالْفَيْءُ أَعَمُّ مِنَ الْجِزْيَةِ[١٠٩٥] .

ج – الْخَرَاجُ:

الْخَرَاجُ هُوَ مَا يُوضَعُ عَلَى الأَرْضِ غَيْرِ الْعُشْرِيَّةِ مِنْ حُقُوقٍ تُؤَدَّى عَنْهَا إِلَى بَيْتِ الْمَال،وَوَجْهُ الصِّلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِزْيَةِ أَنَّهُمَا يَجِبَانِ عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ،وَيُصْرَفَانِ فِي مَصَارِفِ الْفَيْءِ.

وَمِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَهُمَا:أَنَّ الْجِزْيَةَ تُوضَعُ عَلَى الرُّءُوسِ،أَمَّا الْخَرَاجُ فَيُوضَعُ عَلَى الأَرْضِ،وَالْجِزْيَةُ تَسْقُطُ بِالإِسْلاَمِ،أَمَّا الْخَرَاجُ فَلاَ يَسْقُطُ بِالإِسْلاَمِ،وَيَبْقَى مَعَ الإِسْلاَمِ وَالْكُفْرِ[١٠٩٦] .

د – الْعُشُورُ:

الْعُشُورُ فِي الاِصْطِلاَحِ نَوْعَانِ:أَحَدُهُمَا:عُشُورُ الزَّكَاةِ وَهِيَ مَا يُؤْخَذُ فِي زَكَاةِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ عَلَى مَا يُعْرَفُ فِي بَابِهِ،وَالثَّانِي:مَا يُفْرَضُ عَلَى الْكُفَّارِ فِي أَمْوَالِهِمُ الْمُعَدَّةِ لِلتِّجَارَةِ إِذَا انْتَقَلُوا بِهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِكَوْنِ الْمَأْخُوذِ عُشْرًا،أَوْ مُضَافًا إِلَى الْعُشْرِ:كَنِصْفِ الْعُشْرِ.

وَوَجْهُ الصِّلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجِزْيَةِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَجِبُ عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ وَأَهْل الْحَرْبِ الْمُسْتَأْمَنِينَ،وَيُصْرَفُ فِي مَصَارِفِ الْفَيْءِ[١٠٩٧] .

[١٠٩٥] – مغني المحتاج ٣ / ٩٢، ٩٣، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٢ .

[١٠٩٦] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٢، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٥٣ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعُشُورِ وَالْجِزْيَةِ أَنَّ الْجِزْيَةَ عَلَى الرُّءُوسِ وَهِيَ مِقْدَارٌ مَعْلُــومٌ لاَ يَتَفَــاوَتُ بِحَسَبِ الشَّخْصِ،وَالْعُشْرُ عَلَى الْمَال.

وَلِهَذَا جَهَّزَ رَسُول اللَّه ﷺ لِقِتَال الرُّومِ وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى ذَلِكَ،وَنَدَبَ الأَعْرَابَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ حَوْل الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ إِلَى قِتَالِهِمْ،فَأَوْعَبُوا مَعَهُ وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوُ ثَلاَثِينَ أَلْفًا،وَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْــرِهِمْ.وَخَــرَجَ رَسُول اللَّه ﷺ بِمَنْ مَعَهُ يُرِيدُ الشَّامَ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ،فَبَلَغَ تَبُوكَ وَنَزَل بِهَا،وَأَقَامَ فِيهَا نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا،يُبَايِعُ الْقَبَائِل الْعَرَبِيَّةَ عَلَى الإِسْلاَمِ،وَيَعْقِدُ الْمُعَاهَــدَاتِ مَــعَ الْقَبَائِل الأُخْرَى عَلَى الْجِزْيَةِ إِلَى أَنْ تَمَّ خُضُوعُ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ لِحُكْمِ الإِسْلاَمِ.[١٠٩٨]

قَال الطَّبَرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْجِزْيَةِ:" نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّــهِ ﷺ فــي أَمْــرِهِ بِحَــرْبِ الرُّومِ،فَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ نُزُولِهَا غَزْوَةَ تَبُوكَ،فعَنْ مُجَاهِد:" {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّــذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] حِينَ أُمِرَ مُحَمَّــدٌ وَأَصْحَابُهُ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ "[١٠٩٩]

بِهَذِهِ الآْيَةِ تَمَّ تَشْرِيعُ الْجِزْيَةِ،وَقَد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَقْتِ تَشْرِيعِهَا تَبَعًا لاِخْتِلاَفِهِمْ فِــي وَقْتِ نُزُول الآْيَةِ.فَذَهَبَ ابْنُ الْقَيِّمِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لَمْ تُؤْخَذْ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ إِلاَّ بَعْــدَ نُزُول آيَةِ سُورَةِ بَرَاءَةٍ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

قال ابن كثير:"وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ [نَزَلَتْ] أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ،بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا،فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ أَمَرَ اللَّــهُ وَرَسُولُهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْــعٍ؛وَلِهَذَا تَجَهَّــزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ،وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ،وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَــرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَنَدَبَهُمْ،فَأَوْعَبوا مَعَهُ،وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوٌ [مِنْ] ثَلَاثِينَ أَلْفًــا،وَتَخَلَّفَ

[١٠٩٧] - الفتاوى الهندية ١ / ١٨٣، والكافي لابن عبد البر في فقه أهل المدينة - ١ / ٤٨٠، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض - ط ٢ - ١٤٠٠ هـ .والمغني ٨ / ٥١٦ .

[١٠٩٨] - انظر السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٣)

[١٠٩٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٤٠٧)

بعضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ،وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَدْبٍ،وَوَقْتِ قَيْظٍ وَحَرٍّ،وَخَرَجَ،عَلَيْهِ السَّلَامُ،يُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ،فَبَلَغَ تَبُوكَ،فَنَزَلَ بِهَا وَأَقَامَ عَلَى مَائِهَا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا،ثُمَّ اسْتَخَارَ اللَّهَ فِي الرُّجُوعِ،فَرَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ لِضِيقِ الْحَالِ وَضَعْفِ النَّاسِ،كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَقَد استدلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَن يَرَى أَنَّهُ لَا تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،أَوْ مِنْ أَشْبَاهِهِمْ كَالْمَجُوسِ،لِمَا صَحَّ فِيهِمُ الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ وَهَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ،وَأَحْمَدَ -فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ -وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ،رَحِمَهُ اللَّهُ:بَلْ تُؤْخَذُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعَاجِمِ،سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَلَا تُؤْخَذُ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ:بَلْ يَجُوزُ أَنْ تُضْرَبَ الْجِزْيَةُ عَلَى جَمِيعِ الْكُفَّارِ مِن كتابيٍّ،ومجوسي،ووثني،وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَلِمَأْخَذِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ وَذِكْرِ أَدِلَّتِهَا مَكَانٌ غَيْرُ هَذَا،واللَّهُ أَعْلَمُ.[1100]

هَذَا وَلَمْ يَأْخُذْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِزْيَةً مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْجِزْيَةِ،فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَهَا مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ،وَمَجُوسِ هَجَرَ،ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ،وَأَذْرُحَ،وَأَهْلِ أَذْرِعَاتٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.[1101]

وعَنِ ابْنِ سِيرِينَ،أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ،الَّذِينَ صَالَحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِزْيَةِ،أَسْلَمَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،لَيْسَتْ عَلَيَّ جِزْيَةٌ،فَقَالَ عُمَرُ:لَأَنْتَ مُتَعَوِّذٌ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْجِزْيَةِ؟،فَقَالَ:الرَّجُلُ:أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ مُتَعَوِّذًا بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْجِزْيَةِ – كَمَا تَقُولَ – أَمَا فِي الْإِسْلَامِ مَا يُعِيذُنِي؟ قَالَ:فَوَضَعَ عَنْهُ الْجِزْيَةَ "[1102]

[1100] – تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٣٢) وانظر زاد المعاد في هدي خير العباد ٢ / ٨٨ – دار إحياء التراث العربي ببيروت

[1101] – نجران (بفتح النون وسكون الجيم وفتح الراء) :بلدة ما بين مكة واليمن على نحو سبع مراحل من مكة (تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣ / ١٧٦) .

[1102] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٧٢)(١٨٥) صحيح مرسل

وقال ابن القيم:" وَأَمَّا هَدْيُهُ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ وَأَخْذِ الْجِزْيَةِ،فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ جِزْيَةً إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ (سُورَةِ بَرَاءَةٌ) فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ،فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْجِزْيَةِ،أَخَذَهَا مِنَ الْمَجُوسِ،وَأَخَذَهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَأَخَذَهَا مِنَ النَّصَارَى،وَبَعَثَ معاذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ،فَعَقَدَ لِمَنْ لَمْ يُسْلِمْ مِنْ يَهُودِهَا الذِّمَّةَ،وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ وَلَمْ يَأْخُذْهَا مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ،فَظَنَّ بَعْضُ الْغَالِطِينَ الْمُخْطِئِينَ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ مُخْتَصٌّ بِأَهْلِ خَيْبَرَ،وَأَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ جِزْيَةٌ وَإِنْ أُخِذَتْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَهَذَا مِنْ عَدَمِ فِقْهِهِ فِي السِّيَرِ وَالْمَغَازِي،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ وَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يُقِرَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ وَلَمْ تَكُنِ الْجِزْيَةُ نَزَلَتْ بَعْدُ،فَسَبَقَ عَقْدُ صُلْحِهِمْ وَإِقْرَارُهُمْ فِي أَرْضِ خَيْبَرَ نُزُولَ الْجِزْيَةِ،ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُقَاتِلَ أَهْلَ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا يَهُودُ خَيْبَرَ إِذْ ذَاكَ،لِأَنَّ الْعَقْدَ كَانَ قَدِيمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى إِقْرَارِهِمْ،وَأَنْ يَكُونُوا عُمَّالًا فِي الْأَرْضِ بِالشَّطْرِ،فَلَمْ يُطَالِبْهُمْ بِشَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ وَطَالَبَ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَقْدٌ كَعَقْدِهِمْ بِالْجِزْيَةِ،كَنَصَارَى نَجْرَانَ،وَيَهُودِ الْيَمَنِ،وَغَيْرِهِمْ.فَلَمَّا أَجْلَاهُمْ عمر إِلَى الشَّامِ،تَغَيَّرَ ذَلِكَ الْعَقْدُ الَّذِي تَضَمَّنَ إِقْرَارَهُمْ فِي أَرْضِ خَيْبَرَ،وَصَارَ لَهُمْ حُكْمُ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ."[1103]

وَيَقْصِدُ مَجُوسَ الْبَحْرَيْنِ[1104] أَوْ مَجُوسَ هَجَرَ.[1105]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الأَنْصَارِيَّ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ،وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى البَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ العَلاَءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ،فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ،فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ،فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الفَجْرَ انْصَرَفَ،فَتَعَرَّضُوا

[1103] - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٣٧)

[1104] - كان المراد بالبحرين في ذلك العهد ما بين عمان إلى البصرة (معجم البلدان لياقوت ١ / ٣٤٧، وتهذيب الأسماء ٣ / ٣٧، واللسان ١ / ٦٦) .

[1105] - هجر (بفتح الهاء والجيم) :اسم بلد بالبحرين، وتعتبر هجر قاعدة البحرين، وقيل :ناحية البحرين كلها هجر .(معجم البلدان ٥ / ٣٩٣) .

لَهُ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حينَ رَآهُمْ،وَقَالَ:«أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَـدْ جَـاءَ بشَيْءٍ؟»،قَالُوا:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّه،قَالَ:«فَأَبْشرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،فَوَاللَّه لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،وَلَكنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسـطَتْ عَلَـى مَـنْ كَـانَ قَبْلَكُمْ،فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1106]

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَهَا ﷺ منْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَمَجُوسِ هَجَرَ أَخَـذَهَا مـنْ بَعْـضِ الْقَبَائـلِ الْيَهُوديَّة،وَالنَّصْرَانيَّة في تَبُوكَ في السَّنَة التَّاسعَة للْهجْرَة فَأَخَذَهَا منْ أَهْل أَيْلَةَ[1107]

حَيْثُ قَدمَ يُوحَنَّا بْنُ رُؤْبَةَ عَلَى رَسُول اللَّه ﷺ في تَبُوكَ،وَصَالَحَهُ عَلَى كُل حَالمٍ بَـالغٍ بأَرْضه في السَّنَة دينَارٌ،وَاشْتَرَطَ عَلَيْهمْ قرَى مَنْ مَرَّ بهمْ منَ الْمُسْلمينَ،وَكَتَبَ لَهُمْ كتَابًا بأَنْ يُحْفَظُوا وَيُمْنَعُوا.[1108]

وَأَخَذَهَا منْ أَهْل أَذْرُحَ[1109] وَأَهْل الْجَرْبَاء[1110] وَأَهْل تَبَالَةَ وَجَرَشَ،وَأَهْل أَذْرِعَـاتٍ[1111] وَأَهْل مَقْنَا،[1112] وَكَانَ أَهْلُهَا يَهُودًا،فَصَالَحَهُمْ رَسُول اللَّه ﷺ عَلَى رُبُعِ غُزُولهمْ وَثمَارهمْ وَمَا يَصْطَادُونَ عَلَى الْعَرُوك[1113].

[1106] - صحيح البخاري (٤/ ٩٦)(٣١٥٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٦ - (٢٩٦١)

[ش (فوافت) من الموافاة أي أتوا وحضروا.(أجل) نعم.(تبسط) يوسع لكم فيها.(فتنافسوها) من التنافس وهو الرغبة في الشيء والانفراد به مأخوذ من الشيء النفيس الجيد في نوعه والذي يرغب فيه.(تهلككم) تجركم إلى الهلاك بسبب التنازع عليها والركون إليها والاشتغال بها عن الآخرة]

[1107] - أيلة (بفتح الهمزة وإسكان الياء) :بلدة معروفة على ساحل البحر آخر الحجاز وأول الشام .وتعرف اليوم بالعقبة (معجم البلدان ١ / ٢٩٢، وتهذيب الأسماء للنووي ١ / ١٩) .

[1108] - حديث قدوم " يوحنة بن رؤبة على رسول الله في تبوك ..." أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٤ / ١٦٩ ط مصطفى الحلبي) وفي سنده انقطاع .وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١ / ٢٩٠ ط دار بيروت) وفي سنده الواقدي وهو متكلم فيه .وانظر فتوح البلدان ص ٧١ - دار الكتب العلمية ببيروت، والطبقات ١ / ٢٩٠، الواقدي :المغازي - عالم الكتب ببيروت ٣ / ١٠٣١، والأموال لأبي عبيد ص ٢٨٧، والأموال لابن زنجويه ٢ / ٤٦٣ .

[1109] - أذرح (بفتح الهمزة وسكون الذال وضم الراء) :اسم بلد من أطراف الشام من نواحي البلقاء .(معجم البلدان ١ / ١٢٩) .

[1110] - الجرباء :قرية من قرى أذرح في أطراف الشام (معجم البلدان ٢ / ١١٨) .

[1111] - أذرعات (بالفتح ثم السكون وكسر الراء) :بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان .(معجم البلدان ١ / ١٣٠)

[1112] - مقنا :قرية قرب أيلة .(معجم البلدان ٥ / ١٨٧) .

وعَنْ مُعَاذ قَالَ:بَعَثَني النَّبيُّ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ " وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ منْ كُلِّ حَالمٍ دينَارًا أَوْ عدْلَهُ مَعَافرَ،وَأَمَرَني أَنْ آخُذَ منْ كُلِّ أَرْبَعينَ بَقَرَةً مُسنَّةً،وَمنْ ثَلَاثينَ بَقَرَةً تَبِيعًا حَوْلِيًّا،وَأَمَرَني فيمَا سَقَت السَّمَاءُ الْعُشْرَ،وَمَا سُقيَ بالدَّوَالي نصْفَ الْعُشْرِ "[1114].

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:حَدَّثَني عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّد بْن عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ،قَالَ:هَذَا كتَابُ رَسُولِ الله ﷺ عنْدَنَا الَّذي كَتَبَهُ لعَمْرو بْنِ حَزْمٍ حينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ،فَذَكَرَهُ وَفي آخره " وَأَنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ منْ يَهُوديٍّ أَوْ نَصْرَانيٍّ إِسْلَامًا خَالصًا منْ نَفْسه فَدَانَ دينَ الْإِسْلَام فَإِنَّهُ منَ الْمُؤْمنينَ،لَهُ مَا لَهُمْ،وَعَلَيْه مَا عَلَيْهِمْ،وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانيَّة أَوْ يَهُوديَّة فَإِنَّهُ لَا يُفْتَنُ عَنْهَا،وَعَلَى كُلِّ حَالمٍ،ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى،حُرٍّ أَوْ عَبْد دينَارٌ وَافٍ،أَوْ عَرْضُهُ منَ الثِّيَابِ،فَمَنْ أَدَّى ذَلكَ فَإِنَّ لَهُ ذمَّةَ الله وَذمَّةَ رَسُوله،وَمَنْ مَنَعَ ذَلكَ فَإِنَّهُ عَدُوُّ الله وَرَسُوله وَالْمُؤْمنينَ ".[1115]

الأَدلَّةُ عَلَى مَشْرُوعيَّة الْجزْيَة:

ثَبَتَتْ مَشْرُوعيَّةُ الْجزْيَة بالْكتَاب وَالسُّنَّة وَالإجْمَاع.

أَمَّا الْكتَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلَا بالْيَوْمِ الْآخرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ } [التوبة:٢٩].

فَالآْيَةُ تَدُل عَلَى مَشْرُوعيَّة أَخْذ الْجزْيَة منْ أَهْل الْكتَاب الَّذينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بالصِّفَات الْمَذْكُورَة فيهَا.وَلهَذَا شَرَعَ اللَّهُ مُجَاهَدَةَ الْكَافرينَ،وَمُقَاتَلَتَهُمْ حَتَّى يَرْجعُوا عَنْ تلْكَ الصِّفَات،وَيَدْخُلُوا الدِّينَ الْحَقَّ،أَوْ يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغرُونَ[1116].

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ وَرَدَتْ أَحَاديثُ كَثيرَةٌ سَبَقَ بَعْضُهَا.

[1113] - فتوح البلدان ص ٧١، والطبقات ١ / ٢٩٠، والعروك :الخشب الذي يصطادون عليه .وحديث :" فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربع غزولهم وثمارهم " أخرجه ابن سعد في الطبقات (١ / ٢٩٠ ط دار بيروت) وفي سنده الواقدي وهو متكلم فيه .

[1114] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٦٥)(٢٢٠٣٧) صحيح

[1115] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٧)(١٨٦٧٤) صحيح مرسل

[1116] - تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان – على هامش تفسير الطبري ١٠ / ٦٦ .

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[١١١٧]

فَقَوْلُهُ:فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ يَدُل عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْجِزْيَةِ وَإِقْرَارِهَا.

[١١١٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا (في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

أَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ أَحَادِيثَ تَدُل عَلَى أَنَّهُ لاَ يُقْبَل مِنَ الْكُفَّارِ إِلاَّ الإِسْلاَمُ أَوِ السَّيْفُ: كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ"[1118].

فَقَدْ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهَا كَانَتْ فِي بِدَايَةِ الإِسْلاَمِ قَبْل نُزُول آيَةِ بَرَاءَةٍ، وَسُورَةُ بَرَاءَةٍ مِنْ آخِرِ مَا نَزَل مِنَ الْقُرْآنِ، قَال أَبُو عُبَيْدٍ: " وَإِنَّمَا تُوَجَّهُ هَذِهِ الأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا قَال ذَلِكَ فِي بَدْءِ الإِسْلاَمِ، وَقَبْل أَنْ تَنْزِل سُورَةُ بَرَاءَةٍ، وَيُؤْمَرَ فِيهَا بِقَبُول الْجِزْيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]، وَإِنَّمَا نَزَل هَذَا فِي آخِرِ الإِسْلاَمِ، وَفِيهِ أَحَادِيثُ، مِنْهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَال: " كَانَتْ بَرَاءَةٌ مِنْ آخِرِ مَا نَزَل مِنَ الْقُرْآنِ[1119]

وعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ

[1118] - صحيح مسلم (١/ ٥١)٣٢ - (٢٠)

[ش (وحسابه على الله) معناه أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة (عقالا) قد اختلف العلماء قديما وحديثا فيها فذهب جماعة منهم إلى أن المراد بالعقال زكاة عام وهو معروف في اللغة بذلك وذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير]

[1119] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١١٣)(٩٤) صحيح

يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] قَالَ:«نَزَلَتْ حِينَ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ»[١١٢٠]

وَأَمَّا الإِجْمَاعُ فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ أَخْذِهَا فِي الْجُمْلَةِ،وَقَدْ أَخَذَهَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَائِرُ الْخُلَفَاءِ دُونَ إِنْكَارٍ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ إِجْمَاعًا[١١٢١] .

الْحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الْجِزْيَةِ:

١ – الْجِزْيَةُ عَلاَمَةُ خُضُوعٍ وَانْقِيَادٍ لِحُكْمِ الْمُسْلِمِينَ:

قَال ابْنُ مَنْظُورٍ:قَوْلُهُ عَزَّ وَجلَّ{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ} [التوبة:٢٩]

قِيل:مَعْنَاهُ عَنْ ذُلٍّ وَعَنِ اعْتِرَافٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ أَيْدِيَهُمْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ،وَقِيل عَنْ يَدٍ:أَيْ عَنْ إِنْعَامٍ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ؛لأَنَّ قَبُول الْجِزْيَةِ وَتَرْكَ أَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَدٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ جَزِيلَةٌ.وَقِيل:عَنْ يَدٍ أَيْ عَنْ قَهْرٍ وَذُلٍّ وَاسْتِسْلاَمٍ كَمَا تَقُول:الْيَدُ فِي هَذَا لِفُلاَنٍ أَيِ الأَمْرُ النَّافِذُ لِفُلاَنٍ.وَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ الْبَزِّيِّ:عَنْ يَدٍ قَال:نَقْدًا عَنْ ظَهْرِ يَدٍ لَيْسَ بِنَسِيئَةٍ

وَقَال أَبُو عُبَيْدَةَ:كُل مَنْ أَطَاعَ لِمَنْ قَهَرَهُ فَأَعْطَاهُ عَنْ غَيْرِ طِيبَةِ نَفْسِهِ،فَقَدْ أَعْطَاهَا عَنْ يَدٍ "[١١٢٢] .

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ عَنْ يَدٍ }،فَقَال النَّيْسَابُورِيُّ: { عَنْ يَدٍ } إِنْ أُرِيدَ بِهَا يَدُ الْمُعْطِي فَالْمُرَادُ:عَنْ يَدٍ مُؤَاتِيَةٍ غَيْرِ مُمْتَنِعَةٍ،يُقَال أَعْطَى بِيَدِهِ إِذَا انْقَادَ وَأَصْحَبَ،أَوِ الْمُرَادُ حَتَّى يُعْطُوهَا عَنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ نَقْدًا غَيْرَ نَسِيئَةٍ وَلاَ مَبْعُوثًا عَلَى يَدِ أَحَدٍ.وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا يَدُ الآخِذِ فَمَعْنَاهُ حَتَّى يُعْطُوهَا عَنْ يَدٍ قَاهِرَةٍ مُسْتَوْلِيَةٍ أَيْ بِسَبَبِهَا،أَوِ الْمُرَادُ عَنْ إِنْعَامٍ عَلَيْهِمْ،فَإِنَّ قَبُول الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ بَدَلاً عَنْ أَرْوَاحِهِمْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْهِمْ.[١١٢٣]

[١١٢٠] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١١٣)(٩٦) صحيح

[١١٢١] – المغني ٨ / ٤٩٥، والمبدع ٣ / ٤٠٥، وأحكام أهل الذمة ١ / ١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٢، – مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٨، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٣ – دار المعرفة ببيروت .

[١١٢٢] – لسان العرب ٣ / ١٠٠٧، المفردات في غريب القرآن ص ٥٥١ .

[١١٢٣] – تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٠ / ٦٦ .

وَفَسَّرَ الشَّافِعِيُّ الصَّغَارَ بِإِجْرَاءِ حُكْمِ الإِسْلاَمِ عَلَيْهِمْ حَيْثُ قَال:سَمِعْتُ رِجَالاً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ:الصَّغَارُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الإِسْلاَمِ وَمَا أَشْبَهَ مَا قَالُوا بِمَا قَالُوا،لاِمْتِنَاعِهِمْ مِنَ الإِسْلاَمِ.فَإِذَا جَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ فَقَدْ أَصْغَرُوا بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْهُ،فَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ دَفْعُ الْجِزْيَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْخُضُوعُ لِسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ مُوجِبًا لِلصَّغَارِ.[1124]

٢ - الْجِزْيَةُ وَسِيلَةٌ لِهِدَايَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ:

قَال الْقَرَافِيُّ:" إِنَّ قَاعِدَةَ الْجِزْيَةِ مِنْ بَابِ الْتِزَامِ الْمَفْسَدَةِ الدُّنْيَا لِدَفْعِ الْمَفْسَدَةِ الْعُلْيَا وَتَوَقُّعِ الْمَصْلَحَةِ،وَذَلِكَ هُوَ شَأْنُ الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ،بَيَانُهُ:أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا قُتِل انْسَدَّ عَلَيْهِ بَابُ الإِيمَانِ،وَبَابُ مَقَامِ سَعَادَةِ الإِيمَانِ،وَتَحَتَّمَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ وَالْخُلُودُ فِي النَّارِ،وَغَضَبُ الدَّيَّانِ،فَشَرَعَ اللَّهُ الْجِزْيَةَ رَجَاءَ أَنْ يُسْلِمَ فِي مُسْتَقْبَل الأَزْمَانِ،لاَ سِيَّمَا بِاطِّلاَعِهِ عَلَى مَحَاسِنِ الإِسْلاَمِ" [1125].

وَتَظْهَرُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ فِي تَشْرِيعِ الْجِزْيَةِ مِنْ جَانِبَيْنِ:

الأَوَّل:الصَّغَارُ الَّذِي يَلْحَقُ أَهْل الذِّمَّةِ عِنْدَ دَفْعِ الْجِزْيَةِ.

وَقَال إِلْكِيَا الْهِرَّاسِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ:" فَكَمَا يَقْتَرِنُ بِالزَّكَاةِ الْمَدْحُ وَالإِعْظَامُ وَالدُّعَاءُ لَهُ،فَيَقْتَرِنُ بِالْجِزْيَةِ الذُّل وَالذَّمُّ،وَمَتَى أُخِذَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى أَنْ لاَ يَثْبُتُوا عَلَى الْكُفْرِ لِمَا يَتَدَاخَلُهُمْ مِنَ الأَنَفَةِ وَالْعَارِ،وَمَا كَانَ أَقْرَب إِلَى الإِقْلاَعِ عَنِ الْكُفْرِ فَهُوَ أَصْلَحُ فِي الْحِكْمَةِ وَأَوْلَى بِوَضْعِ الشَّرْعِ.[1126]

وَالثَّانِي:مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى دَفْعِ الْجِزْيَةِ مِنْ إِقَامَةٍ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ وَاطِّلاَعٍ عَلَى مَحَاسِنِهِ.

[1124] - تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٤٧، وزاد المسير ٣ / ٤٢٠، وأحكام القرآن للشافعي ٢ / ٦١ .

[1125] - الفروق للقرافي ٣ / ٢٣ .

[1126] - أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ١٩٠)، وشرح الموطأ ٣ / ١٣٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٠، وحاشية البجيرمي ٤ / ٢٦٨، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٢، نيل الأوطار ٨ / ٦٥ .

وَقَال الْحَطَّابُ – فِي بَيَانِ الْحِكْمَة –:الْحِكْمَةُ فِي وَضْعِ الْجِزْيَةِ أَنَّ الذُّل الَّذِي يَلْحَقُهُمْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الدُّخُول فِي الإِسْلاَمِ مَعَ مَا فِي مُخَالَطَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الاِطِّلاَعِ عَلَى مَحَاسِنِ الإِسْلاَمِ.[1127]

٣ – الْجِزْيَةُ وَسِيلَةٌ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ الاسْتِئْصَال وَالاضْطِهَاد:

الْجِزْيَةُ نِعْمَةٌ عُظْمَى تُسْدَى لِأَهْل الذِّمَّة،فَهِيَ تَعْصِمُ أَرْوَاحَهُمْ وَتَمْنَعُ عَنْهُمْ الاضْطِهَادَ،وَقَدْ أَدْرَكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ أَهْل الذِّمَّة الأَوَائِل،فَلَمَّا رَدَّ أَبُو عُبَيْدَةَ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْل حِمْصَ لِعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ تَوْفِيرَ الْحِمَايَةِ لَهُمْ فعن سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَال:" بَلَغَنِي أَنَّهُ لَمَّا جَمَعَ هِرَقْل لِلْمُسْلِمِينَ الْجُمُوعَ،وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ إِقْبَالُهُمْ إِلَيْهِمْ لِوَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ رَدُّوا عَلَى أَهْل حِمْصَ مَا كَانُوا أَخَذُوا مِنْهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ.وَقَالُوا:قَدْ شُغِلْنَا عَنْ نُصْرَتِكُمْ وَالدَّفْعِ عَنْكُمْ،فَأَنْتُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ،فَقَال أَهْل حِمْصَ:لَوِلاَيَتُكُمْ وَعَدْلُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَشْمِ.وَلَنَدْفَعَنَّ جُنْدَ هِرَقْل عَنِ الْمَدِينَةِ مَعَ عَامِلِكُمْ،وَنَهَضَ الْيَهُودُ فَقَالُوا:وَالتَّوْرَاةِ لاَ يَدْخُل عَامِل هِرَقْل مَدِينَةَ حِمْصَ إِلاَّ أَنْ نُغْلَبَ وَنَجْهَدَ فَأَغْلَقُوا الأَبْوَابَ وَحَرَسُوهَا ".وَكَذَلِكَ فَعَل أَهْل الْمُدُنِ الَّتِي صُولِحَتْ مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُود.وَقَالُوا:إِنْ ظَهَرَ الرُّومُ وَأَتْبَاعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ صِرْنَا إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ،وَإِلاَّ فَإِنَّا عَلَى أَمْرِنَا مَا بَقِيَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدَدٌ،فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْكَفَرَةَ وَأَظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ فَتَحُوا مُدُنَهُمْ وَأَخْرَجُوا الْمُقَلِّسِينَ،فَلَعِبُوا وَأَدَّوُا الْخَرَاجَ [1128]..

فَقَدْ أَقَرَّ أَهْل حِمْصَ بِأَنَّ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ خِلاَفِهِمْ لَهُمْ فِي الدِّين،أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ حُكْمِ أَبْنَاءِ دِينِهِمْ،وَذَلِكَ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ ذَلِكَ الْحُكْمُ مِنْ ظُلْمٍ وَجَوْرٍ وَاضْطِهَادٍ وَعَدَمِ احْتِرَامٍ لِلنَّفْسِ الإِنْسَانِيَّة

فَإِذَا قَارَنَّا بَيْنَ الْجِزْيَةِ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ صَغَار،وَبَيْنَ تِلْكَ الأَعْمَال الْوَحْشِيَّة الَّتِي يُمَارِسُهَا أَهْل الْعَقَائِد مَعَ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ فِي الْمُعْتَقَد،تَكُونُ الْجِزْيَةُ نِعْمَةً مُسْدَاةً إِلَى أَهْل الذِّمَّة،وَرَحْمَةً مُهْدَاةً إِلَيْهِمْ،وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ شُكْرَ اللَّه تَعَالَى،وَالاعْتِرَافَ بِالْجَمِيل لِلْمُسْلِمِينَ.

[1127] – الحطاب ٣ / ٣٨٠، وشرح الموطأ ٣ / ١٣٨ .

[1128] – انظر فتوح البلدان (ص:١٣٩)

وقال العز رحمه الله : " التَّقْرِيرُ بِالْجِزْيَةِ، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ لِإِيمَانِهِمْ بِالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي يُوَافِقُ أَعْظَمُ أَحْكَامِهَا أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ فَخَفَّ كُفْرُهُمْ لِإِيمَانِهِمْ بِتِلْكَ الْأَحْكَامِ، بِخِلَافِ مَنْ جَحَدَهَا فَإِنَّهُ كَذَّبَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مُعْظَمِ أَحْكَامِهِ وَكَلَامِهِ، فَكَانَ كُفْرُهُ أَغْلَظَ، بِخِلَافِ مَنْ آمَنَ بِالْأَكْثَرِ وَكَفَرَ بِالْأَقَلِّ، وَلَا تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ عِوَضًا عَنْ تَقْرِيرِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، إذْ لَيْسَ مِنْ إجْلَالِ الرَّبِّ أَنْ تُؤْخَذَ الْأَعْوَاضُ عَلَى التَّقْرِيرِ عَلَى سَبِّهِ وَشَتْمِهِ وَنِسْبَتِهِ إلَى مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ، وَمَنْ ذَهَبَ إلَى ذَلِكَ فَقَدْ أَبْعَدَ، وَإِنَّمَا الْجِزْيَةُ مَأْخُوذَةٌ عِوَضًا عَنْ حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَصِيَانَةِ أَمْوَالِهِمْ وَحَرَمِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، مَعَ الذَّبِّ عَنْهُمْ إنْ كَانُوا فِي دِيَارِنَا، وَلَيْسَتْ مَأْخُوذَةً عَنْ سُكْنَى دَارِ الْإِسْلَامِ إذْ يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّةِ مَعَ تَقْرِيرِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ." [1129] .

٤ – الْجِزْيَةُ مَوْرِدٌ مَالِيٌّ تَسْتَعِينُ بِهِ الدَّوْلَةُ

الإِسْلاَمِيَّةُ فِي الإِنْفَاقِ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْحَاجَاتِ الأَسَاسِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ.

تُعْتَبَرُ الْجِزْيَةُ مَوْرِدًا مَالِيًّا مِنْ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ،تُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْحَاجَاتِ الأَسَاسِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ:كَالدِّفَاعِ عَنِ الْبِلاَدِ،وَتَوْفِيرِ الأَمْنِ فِي الْمُجْتَمَعِ،وَتَحْقِيقِ التَّكَافُلِ الاِجْتِمَاعِيِّ،وَالْمَرَافِقِ الْعَامَّةِ:كَبِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْجُسُورِ وَالطُّرُقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الْجِزْيَةِ:" إذَا بَذَلَ الْجِزْيَةَ فَحَقَنَ دَمَهُ بِمَالٍ يَسِيرٍ مَعَ إقْرَارِهِ عَلَى الْكُفْرِ بِاَللَّهِ؛هَلْ هَذَا إلَّا كَالرِّضَا بِهِ؟ فَالْجَوَابُ أَنَا نَقُولُ:فِي ذَلِكَ وَجْهَانِ مِنْ الْحِكْمَةِ:أَحَدُهُمَا:أَنَّ فِي أَخْذِهَا مَعُونَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْوِيَةً لَهُمْ،وَرِزْقٌ حَلَالٌ سَاقَهُ اللَّهُ إلَيْهِمْ.الثَّانِي:أَنَّهُ لَوْ قَتَلَ الْكَافِرُ لَيَئِسَ مِنْ الْفَلَاحِ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْهَلَكَةُ؛فَإِذَا أَعْطَى الْجِزْيَةَ وَأُمْهِلَ لَعَلَّهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْحَقَّ،وَيَرْجِعَ إلَى الصَّوَابِ،لَا سِيَّمَا بِمُرَاقَبَةِ أَهْلِ الدِّينِ،وَالتَّدَرُّبِ بِسَمَاعِ مَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ؛أَلَا تَرَى أَنَّ عَظِيمَ كُفْرِهِمْ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ إدْرَارِ رِزْقِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ" [1130] .

[1129] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١١٠)

[1130] – أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٨٢)

وَجَاءَ فِي مُغْنِي الْمُحْتَاجِ:" وَلَيْسَتْ هِيَ مَأْخُوذَةٌ فِي مُقَابَلَةِ الْكُفْرِ وَلَا التَّقْرِيرِ عَلَيْهِ،بَلْ هِيَ نَوْعُ إذْلَالٍ لَهُمْ وَمَعُونَةٌ لَنَا،وَرُبَّمَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْلَامِ مَعَ مُخَالَطَةِ الْمُسْلِمِينَ الدَّاعِيَةِ إلَى مَعْرِفَةِ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ،وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُخْرِجَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " [1131].

وقال البجيرمي:" إنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَيَّا قِتَالَهُمْ بِإِعْطَائِهَا فِي قَوْلِهِ:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} [التوبة:٢٩] وَلَيْسَتْ فِي مُقَابَلَةِ تَقْرِيرِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ جَزْمًا بَلْ فِيهَا نَوْعُ إذْلَالٍ لَهُمْ "[1132]

وَجِبَايَةُ الْمَالِ لَيْسَتْ هِيَ الْهَدَفُ الأَسَاسِيُّ مِنْ تَشْرِيعِ الْجِزْيَةِ،وَإِنَّمَا الْهَدَفُ الأَسَاسِيُّ هُوَ تَحْقِيقُ خُضُوعِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِلَى حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْعَيْشُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ لِيَطَّلِعُوا عَلَى مَحَاسِنِ الإِسْلاَمِ وَعَدْلِ الْمُسْلِمِينَ،فَتَكُونَ هَذِهِ الْمَحَاسِنُ بِمَثَابَةِ الأَدِلَّةِ الْمُقْنِعَةِ لَهُمْ عَلَى الإِقْلاَعِ عَنِ الْكُفْرِ وَالدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ،وَالَّذِي يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ عَمَّنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ بِمُجَرَّدِ دُخُولِهِ فِي الإِسْلاَمِ،وَأَنَّ الْحُكُومَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ لاَ تُقْدِمُ عَلَى فَرْضِ الْجِزْيَةِ عَلَى الأَفْرَادِ إِلاَّ بَعْدَ تَخْيِيرِهِمْ بَيْنَ الإِسْلاَمِ وَالْجِزْيَةِ،وَهِيَ تُفَضِّلُ دُخُولَ أَهْلِ الْبِلاَدِ الْمَفْتُوحَةِ فِي الإِسْلاَمِ وَإِعْفَاءَهُمْ مِنَ الْجِزْيَةِ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْكُفْرِ وَدَفْعِ الْجِزْيَةِ ؛لأَنَّهَا دَوْلَةُ هِدَايَةٍ لاَ جِبَايَةٍ.

جَاءَ فِي تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ عَنْ زِيَادِ بْنِ جُزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ قَالَ:" كَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ..فَاعْرِضْ عَلَى صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَنْ يُعْطِيَكَ الْجِزْيَةَ عَلَى أَنْ تُخَيِّرُوا مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ سَبْيِهِمْ بَيْنَ الإِسْلاَمِ وَبَيْنَ دِينِ قَوْمِهِ،فَمَنِ اخْتَارَ مِنْهُمُ الإِسْلاَمَ فَهُوَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ،وَمَنِ اخْتَارَ دِينَ قَوْمِهِ وُضِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِزْيَةِ مَا يُوضَعُ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ " ثُمَّ قَالَ:" فَجَمَعْنَا مَا فِي أَيْدِينَا مِنَ السَّبَايَا وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى،فَجَعَلْنَا نَأْتِي بِالرَّجُلِ مِمَّنْ فِي أَيْدِينَا،ثُمَّ نُخَيِّرُهُ بَيْنَ الإِسْلاَمِ وَبَيْنَ النَّصْرَانِيَّةِ،فَإِذَا اخْتَارَ الإِسْلاَمَ كَبَّرْنَا تَكْبِيرَةً هِيَ أَشَدُّ مِنْ تَكْبِيرِنَا حِينَ نَفْتَحُ الْقَرْيَةَ،ثُمَّ نَحُوزُهُ إِلَيْنَا.وَإِذَا اخْتَارَ النَّصْرَانِيَّةَ نَخَرَتِ النَّصَارَى – أَيْ أَخْرَجُوا أَصْوَاتًا مِنْ أُنُوفِهِمْ – ثُمَّ حَازُوهُ إِلَيْهِمْ

[1131] – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٦٠)

[1132] – حاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٢٧٤)

وَوَضَعْنَا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ،وَجَزِعْنَا مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا حَتَّى كَأَنَّهُ رَجُلٌ خَرَجَ مِنَّا إِلَيْهِمْ..فَكَانَ ذَلِكَ الدَّأْبُ حَتَّى فَرَغْنَا مِنْهُمْ "[1133].

أَنْوَاعُ الْجِزْيَةِ:

قَسَّمَ الْفُقَهَاءُ الْجِزْيَةَ - بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ - إِلَى أَقْسَامٍ،فَقَسَّمُوهَا - بِاعْتِبَارِ رِضَا الْمَأْخُوذِ مِنْهُ وَعَدَمِ رِضَاهُ - إِلَى صُلْحِيَّةٍ وَعَنْوِيَّةٍ.

وَقَسَّمُوهَا - بِاعْتِبَارِ مَحَلِّهَا:هَل تَكُونُ عَلَى الرُّءُوسِ أَوْ عَلَى الأَمْوَال الَّتِي يَكْتَسِبُهَا الذِّمِّيُّ ؟ إِلَى جِزْيَةِ رُءُوسٍ وَجِزْيَةٍ عُشْرِيَّةٍ.

وَقَسَّمُوهَا - بِاعْتِبَارِ النَّظَرِ إِلَى طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَوْصَافِهِمْ وَعَدَمِ النَّظَرِ إِلَيْهَا - إِلَى جِزْيَةِ أَشْخَاصٍ،وَجِزْيَةِ طَبَقَاتٍ أَوْ أَوْصَافٍ.

أَوَّلاً - الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ وَالْعَنْوِيَّةُ:

صَرَّحَ بِهَذَا التَّقْسِيمِ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ،[1134] وَلاَ يَرِدُ هَذَا التَّقْسِيمُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ عَدَمَ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ عَلَى الْمَغْلُوبِينَ بِدُونِ رِضَاهُمْ.[1135]

فَالْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ:هِيَ الَّتِي تُوضَعُ عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ بِالتَّرَاضِي وَالصُّلْحِ[1136] .

وَعَرَّفَهَا الْعَدَوِيُّ بِأَنَّهَا:مَا الْتَزَمَ كَافِرٌ قَبْل الاِسْتِعْلاَءِ عَلَيْهِ أَدَاءَهُ مُقَابِل إِبْقَائِهِ فِي بِلاَدِ الإِسْلاَمِ[1137]

وَيُمَثَّل لِهَذَا النَّوْعِ بِمَا وَقَعَ مِنْ صُلْحِ النَّبِيِّ ﷺ لأَهْل نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ،فعَنْ أَبِي الْمُلَيْحِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالَحَ أَهْلَ نَجْرَانَ،وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لأَهْلِ نَجْرَانَ إِذْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ أَنَّ فِيَ كُلِّ سَوْدَاءَ وَبَيْضَاءَ وَصَفْرَاءَ وَثَمَرَةٍ وَرَقِيقٍ،أَوْ أُفْضِلَ عَلَيْهِمْ،وَتُرِكَ لَهُمْ،عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ،فِي كُلِّ صَفَرٍ

[1133] - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٤/ ٢٩٢) والموسوعة التاريخية - الدرر السنية (١/ ١٦٢، بترقيم الشاملة آليا) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٤/ ١٠٥)

[1134] - انظر :ابن رشد :بداية المجتهد ١ / ٤٠٥، الزيلعي :تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٦، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٦، الميداني :اللباب ٤ / ١٤٣، المرغيناني :الهداية ٢ / ١٥٩، ابن رشد :المقدمات ١ / ٣٩٤، ٣٩٥ .

[1135] - الرملي :نهاية المحتاج ٨ / ٦٨، ابن قدامة :المغني ٨ / ٣٧٢ .

[1136] - الزيلعي :تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٦، ابن مودود :الاختيار ٤ / ١٣٧ .

[1137] - حاشية العدوي على شرح الخرشي على مختصر خليل دار صادر ببيروت ٣ / ١٤٣ .

أَلْفُ حُلَّة،وَفِي كُلِّ رَجَب أَلْفُ حُلَّة،كُلُّ حُلَّة أُوقِيَّةٌ،مَا زَادَ الْخَرَاجُ أَوْ نَقَصَ،فَعَلَى الْأُوَاقِ يُحْسَبُ،وَمَا قَضَوْا مِنْ رِكَاب أَوْ خَيْلٍ أَوْ دِرْعٍ،أُخِذَ مِنْهُمْ بِحِسَاب،وَعَلَى نَجْرَانَ مَثْوَى رُسُلِي عِشْرِينَ لَيْلَةً فَمَا دُونَهَا،وَعَلَيْهِمْ عَارِيَةٌ ثَلَاثِينَ فَرَسًا،وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا،وَثَلَاثِينَ دِرْعًا،إِذَا كَانَ كَيْدٌ بِالْيَمَنِ دُونَ مَعْذِرَة،وَمَا هَلَكَ مِمَّا أَعَارُوا رُسُلِي،فَهُوَ ضَمَانٌ عَلَى رُسُلِي حَتَّى يُؤَدُّوهُ إِلَيْهِمْ،وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا ذِمَّةُ اللَّه وَذِمَّةُ رَسُوله.عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَرَهْبَانِيَّتِهِمْ وَأَسَاقِفَتِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَغَائِبِهِمْ،وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِير،عَلَى أَنْ لَا يُغَيِّرَهُ أُسْقُفٌ مِنْ سِقِّيفَاهُ،وَلَا وَاقِفٌ مِنْ وِقِّيفَاهُ،وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّته،وَعَلَى أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا،وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ،مَنْ سَأَلَ مِنْهُم حَقًّا فَالنِّصْفُ بَيْنَهُمْ بِنَجْرَانَ،وَعَلَى أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَا،فَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ،فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ،وَعَلَيْهِمُ الْجَهْدُ وَالنُّصْحُ فِيمَا اسْتَقْبَلُوا غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مَعْنُوف عَلَيْهِمْ " شَهِدَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَمُعَيْقِيبٌ،وَكَتَبَ قَالَ:فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَتَوْا أَبَا بَكْر فَوَفَّى لَهُمْ،وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا نَحْوًا مِنْ كِتَاب النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا وُلِّيَ عُمَرُ،أَصَابُوا الرِّبَا فِي زَمَانه،فَأَجْلَاهُمْ،وَكَتَبَ لَهُمْ:أَمَّا بَعْدُ،فَمَنْ وَقَعُوا بِه مِنْ أُمَرَاءِ الشَّامِ أَوِ الْعِرَاقِ فَلْيُوسِّعْهُمْ مِنْ خَرِيبِ الْأَرْضِ،فَمَا اعْتَمَلُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَهُمْ لِوَجْه اللَّه وَعُقْبَى مِنْ أَرْضِهِمْ فَأَتَوْا الْعِرَاقَ فَاتَّخَذُوا النَّجْرَانِيَّةَ،فَكَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى الْوَلِيد:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ الْعَاقِبَ وَالْأُسْقُفَّ وَسُرَاةَ أَهْلِ نَجْرَانَ أَتَوْنِي بِكِتَاب رَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَرَوْنِي شَرْطَ عُمَرَ،وَقَدْ سَأَلْتُ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْف،فَأَنْبَأَنِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ بَحَثَ عَنْ ذَلكَ،فَوَجَدَهُ مَضَارَّةً وَظُلْمًا لِتَرَدُّعِهِمُ الدَّهَّاقِينَ عَنْ أَرْضِيهِمْ،وَإِنِّي وَضَعْتُ عَنْهُمْ مِنْ جِزْيَتِهِمْ مِائَتَيْ حُلَّة،الْمِائَتَيْنِ تَرِيكٌ لِوَجْه اللَّه،وَعُقْبَى لَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ،وَإِنِّي أُوصِيكَ بِهِمْ خَيْرًا،فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَهُمُ الذِّمَّةُ."

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه كَتَبَ لِأَهْلِ نَجْرَانَ «مِنْ مُحَمَّد النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّه» ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوًا مِنْ هَذه السُّنَّة إِلَّا أَنَّهُمَا اخْتَلَفَا فِي حُرُوف فِي حَدِيث ابْنِ لَهِيعَةَ،فَكَانَ قَوْلُهُ:«كُلُّ حُلَّة أُوقِيَّةٌ»:كُلُّ حُلَّة وَافِيَةٌ،وَلَمْ يَذْكُرْ سِقِّيفَاهُ وَلَا وِقِّيفَاهُ،وَلَيْسَ فِي حَدِيثِه قِصَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ،وَفِي آخرِ حَدِيث ابْنِ لَهِيعَةَ:شَهِدَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ

وَغَيْلَانُ بْنُ عَمْرٍو،وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مِنْ بَنِي نَصْرٍ،وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.[١١٣٨]

وَكَذَا مَا وَقَعَ مِنْ صُلْحِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَأَمَّا الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ:فَهِيَ الَّتِي تُوضَعُ عَلَى أَهْلِ الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ عَنْوَةً بِدُونِ رِضَاهُمْ،فَيَضَعُهَا الإِمَامُ عَلَى الْمَغْلُوبِينَ الَّذِينَ أَقَرَّهُمْ عَلَى أَرْضِهِمْ.[١١٣٩]

وَقَدْ عَرَّفَهَا ابْنُ عَرَفَةَ بِأَنَّهَا:" مَا لَزِمَ الْكَافِرَ مِنْ مَالٍ لِأَمْنِهِ بِاسْتِقْرَارِهِ تَحْتَ حُكْمِ الإِسْلَامِ وَصَوْنِهِ،وَيُمَثَّلُ لِهَذَا النَّوْعِ بِمَا فَرَضَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي سَوَادِ الْعِرَاقِ.[١١٤٠]

الْفَرْقُ بَيْنَ الْجِزْيَةِ الصُّلْحِيَّةِ وَالْجِزْيَةِ الْعَنْوِيَّةِ:

تَفْتَرِقُ الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ عَنِ الْجِزْيَةِ الْعَنْوِيَّةِ مِنْ عِدَّةِ وُجُوهٍ وَهِيَ:

١ - الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ تُوضَعُ عَلَى أَهْلِ الصُّلْحِ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ طَلَبُوا بِاخْتِيَارِهِمْ وَرِضَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُصَالَحَةَ عَلَى الْجِزْيَةِ.

أَمَّا الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي تُفْرَضُ عَلَى الْمَغْلُوبِينَ بِدُونِ رِضَاهُمْ.

[١١٣٨] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٧)(٧٣٢ و٧٣٣) صحيح مرسل

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:قَوْلُهُ:«كُلُّ حُلَّةٍ أُوقِيَّةٌ» :قِيمَتُهَا أُوقِيَّةٌ، وَقَوْلُهُ:«فَمَا زَادَ الْخَرَاجُ أَوْ نَقَصَ فَعَلَى الْأَوَاقِي» يَعْنِي الْخَرَاجَ:الْحُلَلَ، يَقُولُ:إِنْ نَقَصَتْ مِنَ الْأَلْفَيْنِ أَوْ زَادَتْ فِي الْعِدَّةِ أُخِذَتْ بِقِيمَةِ أَلْفَيْ أُوقِيَّةٍ، فَكَأَنَّ الْخَرَاجَ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الْأَوَاقِي، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهَا حُلَلًا، لِأَنَّهَا أَسْهَلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَالِ وَنَرَى أَنَّ عُمَرَ حِينَ كَانَ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي الْجِزْيَةِ، وَأَنَّ عَلِيًّا حِينَ كَانَ يَأْخُذُ الْمَتَاعَ فِي الْجِزْيَةِ إِنَّمَا ذَهَبَا إِلَى هَذَا وَقَوْلُهُ:" وَمَا قَضَوْا مِنْ رِكَابٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ دُرُوعٍ، أُخِذَ مِنْهُمْ بِحِسَابٍ، يَقُولُ:إِنْ لَمْ تُمَكِّنْهُمُ الْحُلَلُ أَيْضًا فِي الْخَرَاجِ، فَأُعْطُوا الْخَيْلَ وَالرِّكَابَ وَالدُّرُوعَ، أُخِذَ مِنْهُمْ بِحِسَابِ الْأَوَاقِي حَتَّى يَبْلُغَ أَلْفَيْنِ وَقَوْلُهُ «مَنْ أَكَلَ مِنْهُمُ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ، فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ» :لَا نَرَاهُ غَلَّظَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الرِّبَا خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ الْمَعَاصِي كُلِّهَا بِمِثْلِ حَالِهِمْ - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، مِنَ الشِّرْكِ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِ - إِلَّا دَفْعًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ، أَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ بِهِ، فَيَأْكُلُ الْمُسْلِمُونَ الرِّبَا، وَلَوْلَا الْمُسْلِمُونَ مَا كَانَ أَكْلُ أُولَئِكَ الرِّبَا إِلَّا كَسَائِرِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي، بَلِ الشِّرْكُ أَعْظَمُ وَإِنَّمَا أَجْلَاهُمْ عُمَرُ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لَهُمْ عَهْدًا مُؤَكَّدًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِتَرْكِهِمْ مَا شَرَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا

[١١٣٩] - الزيلعي :المرجع السابق، ابن مودود :المرجع السابق .

[١١٤٠] - حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١ .

٢ – الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ مُحَدَّدَةُ الْمِقْدَارِ عِنْدَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ كَمَا سَنُبَيِّنُ فِي مِقْدَارِ الْجِزْيَةِ.أَمَّا الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ فَلَيْسَ لَهَا حَدٌّ مُعَيَّنٌ وَإِنَّمَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الاتِّفَاقُ.

٣ – الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ يُشْتَرَطُ لَهَا شُرُوطٌ مُعَيَّنَةٌ كَالْعَقْلِ وَالْبُلُوغِ وَالذُّكُورَةِ أَمَّا الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ فَلاَ يُشْتَرَطُ لَهَا هَذِهِ الشُّرُوطُ،فَإِذَا صَالَحَ الإِمَامُ أَهْل بَلَدٍ عَلَى أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ أَوْلاَدِهِمُ الصِّغَارِ،وَعَنِ النِّسَاءِ جَازَ لِلإِمَامِ أَخْذُهَا مِنْهُمْ.

٤ – الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ تُضْرَبُ عَلَى الأَشْخَاصِ وَلاَ تُضْرَبُ عَلَى الأَمْوَال،أَمَّا الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ فَيَجُوزُ أَنْ تُضْرَبَ عَلَى الأَمْوَال كَمَا تُضْرَبُ عَلَى الأَشْخَاصِ،فَيَجُوزُ ضَرْبُهَا عَلَى الْمَاشِيَةِ وَأَرْبَاحِ الْمِهَنِ الْحُرَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

٥ – الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ تُضْرَبُ عَلَى الأَشْخَاصِ تَفْصِيلاً وَلاَ تُضْرَبُ عَلَيْهِمْ إِجْمَالاً،أَمَّا الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ فَيَجُوزُ ضَرْبُهَا عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً،فَيَجُوزُ ضَرْبُهَا عَلَى أَهْل بَلَدٍ بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ يَدْفَعُونَهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُل سَنَةٍ،كَالصُّلْحِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَأَهْل نَجْرَانَ،فَقَدْ صَالَحَهُمْ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ فِي السَّنَةِ.

ثانيًا – جِزْيَةُ الرُّءُوسِ،وَالْجِزْيَةُ عَلَى الأَمْوَال:

قَسَّمَ الْفُقَهَاءُ الْجِزْيَةَ – بِاعْتِبَارِ الْمَحَل الَّذِي تَجِبُ فِيهِ – إِلَى جِزْيَةِ رُءُوسٍ وَجِزْيَةٍ عَلَى الأَمْوَال.

فَجِزْيَةُ الرُّءُوسِ تُوضَعُ عَلَى الأَشْخَاصِ:كَدِينَارٍ عَلَى كُل شَخْصٍ،وَمِنْ ذَلِكَ جِزْيَةُ أَهْل الْيَمَنِ،عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ:" مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا،وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا،وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا وَدَعَا دَعْوَتَنَا،فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ،وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ،فَلَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ،وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ،وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ:عَلَى كُلِّ حَالِمٍ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى،حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ،دِينَارٌ وَافٍ أَوْ قِيمَتُهُ مِنَ الْمَعَافِرِ فِي كُلِّ عَامٍ"[1141].

[1141] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٢٥)(١٠٨) صحيح مرسل

وعَنِ الْحَكَمِ،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالْيَمَنِ " عَلَى كُلِّ حَالِمٍ أَوْ حَالِمَةٍ دِينَارًا أَوْ قِيمَتَهُ،وَلَا يُفْتَنُ يَهُودِيٌّ عَنْ يَهُودِيَّتِهِ ".[1142]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرَضَ الْجِزْيَةَ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ دِينَارًا دِينَارًا"[1143]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ،قَالَ:هَذَا كِتَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَنَا الَّذِي كَتَبَهُ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ،فَذَكَرَهُ وَفِي آخِرِهِ " وَأَنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِسْلَامًا خَالِصًا مِنْ نَفْسِهِ فَدَانَ دِينَ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،لَهُ مَا لَهُمْ،وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ،وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ فَإِنَّهُ لَا يُفْتَنُ عَنْهَا،وَعَلَى كُلِّ حَالِمٍ،ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى،حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ دِينَارٌ وَافٍ،أَوْ عَرْضُهُ مِنَ الثِّيَابِ،فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَدُوُّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ".[1144]

وعَنْ مُجَاهِدٍ:أَنَّ عُمَرَ:«فَرَضَ عَلَى مَنْ كَانَ بِالْيَمَنِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ دِينَارًا عَلَى كُلِّ حَالِمٍ،وَعَلَى مَنْ كَانَ بِالشَّامِ مِنَ الرُّومِ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ،وَعَلَى أَهْلِ السَّوَادِ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا»[1145]

قَالَ الشَّافِعِيُّ:فَسَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ خَالِدٍ،وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ مُسْلِمٍ،وَعَدَدًا مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْيَمَنِ،فَكُلُّهُمْ حَكَى لِي عَنْ عَدَدٍ مَضَوْا قَبْلَهُمْ،يَحْكُونَ عَنْ عَدَدٍ مَضَوْا قَبْلَهُمْ،كُلُّهُمْ ثِقَةٌ:أَنَّ صُلْحَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ كَانَ لِأَهْلِ ذِمَّةِ الْيَمَنِ عَلَى دِينَارٍ كُلَّ سَنَةٍ،وَلَا يُثْبِتُونَ أَنَّ النِّسَاءَ

[1142] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٥)(١٨٦٧٠) صحيح مرسل

قَالَ يَحْيَى:وَلَمْ أَسْمَعْ أَنَّ عَلَى النِّسَاءِ جِزْيَةً إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.قَالَ الشَّيْخُ:وَهَذَا مُنْقَطِعٌ ، وَلَيْسَ فِي رِوَايَةِ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ مُعَاذٍ " حَالِمَةٍ " وَلَا فِي رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ مُعَاذٍ ، إِلَّا شَيْئًا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنِ الْأَعْمَشِ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ مُعَاذٍ، وَمَعْمَرٌ إِذَا رَوَى عَنْ غَيْرِ الزُّهْرِيِّ يَغْلَطُ كَثِيرًا وَاللهُ أَعْلَمُ ،وَقَدْ حَمَلَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ إِنْ كَانَ مَحْفُوظًا عَلَى أَخْذِهَا مِنْهَا إِذَا طَابَتْ بِهَا نَفْسًا.وَرَوَاهُ أَبُو شَيْبَةَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُثْمَانَ عَنِ الْحَكَمِ مَوْصُولًا وَأَبُو شَيْبَةَ ضَعِيفٌ

[1143] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٦)(١٨٦٧٣) حسن

[1144] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٧)(١٨٦٧٤) صحيح مرسل

[1145] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٨٩)(١٠٠٩٨) فيه انقطاع

كُنَّ فِيمَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ،وَقَالَ عَامَّتُهُمْ:وَلَمْ تُؤْخَذْ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ زُرُوعٌ،وَلَا مِنْ مَوَاشِيهِمْ شَيْئًا عَلِمْنَاهُ،وَقَالَ لِي بَعْضُهُمْ:قَدْ جَاءَنَا بَعْضُ الْوُلَاةِ فَخَمَسَ زُرُوعَهُمْ أَوْ أَرَادَهَا فَأُنْكِرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ،فَكُلُّ مَنْ وَصَفْتُ أَخْبَرَنِي أَنَّ عَامَّةَ ذِمَّةِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ حِمْيَرَ.قَالَ:وَسَأَلْتُ عَدَدًا كَثِيرًا مِنْ ذِمَّةِ أَهْلِ الْيَمَنِ مُتَفَرِّقِينَ فِي بُلْدَانِ الْيَمَنِ فَكُلُّهُمْ أَثْبَتَ لِي لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُمْ أَنَّ مُعَاذًا أَخَذَ مِنْهُمْ دِينَارًا عَنْ كُلِّ بَالِغٍ مِنْهُمْ،وَسَمَّوَا الْبَالِغَ حَالِمًا قَالُوا:وَكَانَ فِي كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ مُعَاذٍ " أَنَّ عَلَى كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا "[1146]

قال ابن زنجزويه:" وَفِي بَعْضِ كُتُبِهِ:«الْحَالِمُ وَالْحَالِمَةُ» فَنَرَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمَحْفُوظَ الْمُثْبَتَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي لَا ذِكْرَ لِلْحَالِمَةِ فِيهِ،لِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.وَبِهِ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ.فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ الْحَالِمَةِ مَحْفُوظًا،فَإِنَّ وَجْهَهُ عِنْدِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ،إِذْ كَانَ مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادِهِمْ يُقْتَلُونَ مَعَ رِجَالِهِمْ.وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ثُمَّ نُسِخَ وَذَكَرَ الْحُجَجَ فِي ذَلِكَ،فعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ».وَسَأَلْتُهُ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ،أَنَقْتُلُهُمْ مَعَهُمْ؟ قَالَ:«نَعَمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ»،ثُمَّ «نَهَى عَنْ قَتْلِهِمْ يَوْمَ خَيْبَرَ»"[1147]

وَالْجِزْيَةُ الْعُشْرِيَّةُ:مَا يُفْرَضُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي أَمْوَالِهِمْ:كَالْعُشْرِ أَوْ نِصْفِ الْعُشْرِ،فعن طلحة الأبلى أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ لا يَزْدَادُ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ عَلَى ثَلاثِمائَةِ دِينَارٍ شَيْئًا،وَصَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ أَذْرُحَ عَلَى مِائَةِ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ،وَصَالَحَ أَهْلَ الْجَرْبَاءِ عَلَى الْجِزْيَةِ وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا،وَصَالَحَ أَهْلَ مَقْنَا عَلَى رُبُعِ عُرُوكِهِمْ وَغُزُولِهِمْ وَالْعُرُوكُ خَشَبٌ يُصْطَادُ عَلَيْهِ وَرُبُعُ كُرَاعِهِمْ وَحَلَقَتِهِمْ وَعَلَى رُبُعِ ثِمَارِهِمْ،وَكَانُوا يهودا "[1148]

وَانْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى تَبُوكَ،فَأَتَى يُوحَنَّا بْنَ رُؤْبَةَ صَاحِبَ أَيْلَةَ،فَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ،وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا،فَبَلَغَتْ جِزْيَتُهُمْ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ،ثُمَّ زَادَ فِيهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي

[1146] - السنن الكبرى للبيهقي (9/ 326)(18672)

[1147] - الأموال لابن زنجويه (1/ 152)

[1148] - فتوح البلدان (ص:67) ضعيف

أُمَيَّةَ.فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُمْ غَيْرَ ثَلَاثمائة،وَصَالَحَ أَهْلَ أَذْرُحَ عَلَى مائَة دينَارٍ في كُلِّ رَجَبٍ.وَصَالَحَ أَهْلَ جَرْبَاءَ عَلَى الْجِزْيَة،وَصَالَحَ أَهْلَ مَقْنَا عَلَى رُبْعِ ثمَارِهِمْ.[1149]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:بَعَثَنِي عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْهُمْ نِصْفَ عُشْرِ أَمْوَالِهِمْ،وَنَهَانِي أَنْ أَعْشُرَ مُسْلِمًا أَوْ ذَا ذِمَّةٍ يُؤَدِّي الْخَرَاجَ.قَالَ:يَعْنِي فِيمَا أَظُنُّ بِقَوْلِهِ مُسْلِمًا يَقُولُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ،لِأَنَّهُ إِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَى نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ،وَقَوْلُهُ أَوْ ذَا ذِمَّةٍ يُؤَدِّي الْخَرَاجَ يَقُولُ:إِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يُعْرَضُ لَهُمْ فِي مَوَاشِيهِمْ وَلَا فِي عُشْرِ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ إِلَّا بَنِي تَغْلِبَ؛لِأَنَّهُمْ صُولِحُوا عَلَى ذَلِكَ.قَالَ الشَّيْخُ:وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي صُلْحِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا فِي وِلَايَتِهِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ تَعْشِيرُ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي يَتَّجِرُونَ بِهَا"[1150]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:«إِنَّ أَوَّلَ عَشَّارٍ عَشَّرَ فِي الْإِسْلَامِ لَأَنَا».قُلْتُ:فَمَنْ كُنْتُمْ تَعْشُرُونَ؟ قَالَ:«مَا كُنَّا نَعْشُرُ مُعَاهَدًا وَلَا مُسْلِمًا»،قُلْتُ:فَمَنْ كُنْتُمْ تَعْشُرُونَ؟ قَالَ:«نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ»[1151]

فَالْجِزْيَةُ الْعُشْرِيَّةُ – بِهَذَا الْوَصْفِ – تَدْخُل تَحْتَ الْجِزْيَةِ الصُّلْحِيَّةِ الَّتِي تَتِمُّ بِالاتِّفَاقِ بَيْنَ الإمَامِ أَوْ نَائِبِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَيَجُوزُ الصُّلْحُ عَلَى جُزْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ كَمَا يَجُوزُ عَلَى أَشْخَاصِهِمْ.وَيُرْجَعُ لِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهَا إِلَى مُصْطَلَحِ:(عُشْرٌ).

تضعيف الصدقة على بني تغلب:

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَأَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ،عَنْ شُعْبَةَ،عَنِ الْحَكَمِ،عَنْ إِبْرَاهِيمَ،عَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،أَنَّ عُمَرَ،«أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ الْعُشْرَ،وَمِنْ نَصَارَى أَهْلِ الْكِتَابِ نِصْفَ الْعُشْرِ»[1152]

[1149] – الكامل في التاريخ (٢/ ١٤٨) والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (١٢/ ٩٤)

العروك :جمع عرك .وهو ما يصطادون عليه من خشب .

[1150] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٦٥)(١٨٨٠٥) وفتوح البلدان (ص:١٨٣) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٦/ ٥٦١)(١٠٦٨٣) حسن

[1151] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٢)(١١٥) حسن

وعَنِ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ قَالَ:سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ يُحَدِّثُ،عَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،وكَانَ،زِيَادٌ يَوْمَئِذ حَيًّا:«أَنَّ عُمَرَ بَعَثَهُ مُصَدِّقًا،فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ الْعُشْرَ،وَمِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ نِصْفَ الْعُشْرِ»[١١٥٣]

وعَنِ السَّفَّاحِ الشَّيْبَانِيِّ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ الْجِزْيَةَ،فَهَرَبُوا حَتَّى لَحِقُوا بِأَرْضٍ مِنَ الْأَرَضِينَ،فَقَالَ لَهُ زُرْعَةُ بْنُ النُّعْمَانِ أَوِ النُّعْمَانُ بْنُ زُرْعَةَ التَّغْلِبِيُّ:أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَنِي تَغْلِبَ،هُمْ وَاللَّهِ الْعَرَبُ،يَأْنَفُونَ مِنَ الْجِزْيَةِ،وَهُمْ قَوْمٌ شَدِيدَةٌ نِكَايَتُهُمْ،فَلَا تُعِنْ عَدُوَّكَ بِهِمْ،وَهُمْ قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ – أَظُنُّهُ قَالَ – أَمْوَالٌ وَإِنَّمَا هُمْ أَصْحَابُ مَاشِيَةٍ فَضَعْ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةَ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَرَجَعُوا فَضَعَّفَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةَ " قَالَ:وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ عَنِ السَّفَّاحِ،وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَا يُنَصِّرُوا أَوْلَادَهُمْ[١١٥٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ جَدِّي زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ،فَمَرَّ بِنَا مُشْرِكٌ مَعَهُ فَرَسٌ،فَقَوَّمَهُ عِشْرِينَ أَلْفًا،فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ:«إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْنَاكَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَأَخَذْنَا الفَرَسَ،وَإِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَنَا أَلْفَيْنِ» – وَكَانَ عَامِلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَالْعَمَلُ عَلَى حَدِيثِ دَاوُدَ بْنِ كُرْدُوسٍ،أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمُ الضَّعْفُ مِمَّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ.أَلَا تَسْمَعُهُ يَقُولُ:مِنْ كُلِّ عِشْرِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمٌ،وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا مَرُّوا بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى الْعَاشِرِ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمٌ فَذَلِكَ ضِعْفُ هَذَا،وَهُوَ الْمُضَاعَفُ الَّذِي اشْتَرَطَهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَمْوَالِهِمْ،مِنَ الْمَوَاشِي وَالْأَرَضِينَ يَكُونُ عَلَيْهَا فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ الضَّعْفُ أَيْضًا،فَيَكُونُ فِي كُلِّ خَمْسٍ مِنَ الْإِبِلِ شَاتَانِ،وَفِي الْعَشْرِ أَرْبَعُ شِيَاهٍ،ثُمَّ عَلَى هَذَا مَا زَادَتْ،وَكَذَلِكَ الْغَنَمُ وَالْبَقَرُ،وَعَلَى هَذَا الْحَبُّ وَالثِّمَارُ،فَيَكُونُ مَا سَقَتْهُ السَّمَاءُ فِيهِ عُشْرَانِ،وَمَا سُقِيَ بِالْغُرُوبِ،وَالدَّوَالِي فِيهِ عُشْرٌ.وَفِي مَذْهَبِ حَدِيثِ عُمَرَ،وَشَرْطِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَمْوَالِ نِسَائِهِمْ وَصِبْيَانِهِمْ مِثْلَ مَا عَلَى أَمْوَالِ رِجَالِهِمْ وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الْحِجَازِ.فَقَالُوا أَيْضًا:إِنْ أَسْلَمَ التَّغْلِبِيُّ أَوِ

[١١٥٢] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٠)(١١٤) حسن

[١١٥٣] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٩٩)(١٠١٢٥) حسن

[١١٥٤] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٠)(١١٣) مرسل

اشْتَرَى مُسْلِمٌ أَرْضَهُ.تَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ إِلَى الْعُشْرِ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ.وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِرَاقِ

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ،يُخْبِرُ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ،قَالَ:«أَمَّا نِسَاؤُهُمْ فَهُنَّ بِمَنْزِلَةِ رِجَالِهِمْ،وَأَمَّا صِبْيَانُهُمْ فَإِنَّمَا يَكُونُونَ مِثْلُهُمْ فِيمَا يَجِبُ عَلَى الْأَرْضِ خَاصَّةً فَأَمَّا الْمَوَاشِي وَمَا يَمُرُّونَ بِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الْعَاشِرِ فَلَا شَيْءٌ عَلَيْهِمْ فِيهِ» قَالَ:«وَإِذَا أَسْلَمَ التَّغْلِبِيُّ أَوِ اشْتَرَى مُسْلِمٌ أَرْضَهُ فَإِنَّ عَلَيْهَا الْعُشْرَ مُضَاعَفًا عَلَى الْحَالِ الْأَوَّلِ».

و قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَمَعْنَى حَدِيثُ عُمَرَ بِقَوْلِ أَهْلِ الْحِجَازِ أَشْبَهُ،لِأَنَّهُ عَمَّهُمْ بِالصُّلْحِ،وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْهُمْ صَغِيرًا دُونَ كَبِيرٍ وَهُوَ جَائِزٌ عَلَى أَوْلَادِهِمْ كَمَا يَجُوزُ عَلَى نِسَائِهِمْ؛لِأَنَّ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ جَمِيعًا مِنَ الذُّرِّيَّةِ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدْ أَمِنُوا بِهَذَا الصُّلْحِ عَلَى ذَرَارِيهِمْ مِنَ السِّبَاءِ كَمَا أَمِنُوا بِهِ عَلَى رِجَالِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي أَرْضِهِ،أَنَّهُ إِذَا أَسْلَمَ أَوِ اشْتَرَاهَا مُسْلِمٌ أَنَّهَا تَكُونُ عَلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ،فَإِنَّ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ لِلنَّاسِ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ غَيْرُ هَذَا،أَلَا تَرَى أَنَّ كُتُبَهُ،إِنَّمَا كَانَتْ تَجْرِي عَلَى النَّاسِ،أَنَّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ،كَانَ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا شَرْعًا سَوَاءٌ [1155]

وعن سَعِيدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِجَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ الْغَسَّانِيِّ:قَالَ:يَا جُبَيْلَةُ.فَلَمْ يُجِبْهُ.ثُمَّ قَالَ:جُبَيْلَةُ،فَلَمْ يُجِبْهُ،ثُمَّ قَالَ:يَا جَبَلَةُ.فَأَجَابَهُ،فَقَالَ:اخْتَرْ مِنِّي إِحْدَى ثَلَاثٍ،إِمَّا أَنْ تُسْلِمَ فَيَكُونُ لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ،وَإِمَّا أَنْ تُؤَدِّيَ الْخَرَاجَ،وَإِمَّا أَنْ تَلْحَقَ بِالرُّومِ "،قَالَ:فَلَحِقَ بِالرُّومِ

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَعَلَى هَذَا تَتَابَعَتِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ،فِي الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ:إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوِ الْقَتْلُ،كَمَا قَالَ الْحَسَنُ،وَأَمَّا الْعَجَمُ،فَتُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ،وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ

[1155] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٢)(١١٦و١١٧و١١٨) و الأموال للقاسم بن سلام (ص:٣٧)(٧٢) حسن

الْكِتَابِ،بِالسُّنَّةِ،الَّتِي جَاءَتْ عَنْ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْمَجُوسِ،وَلَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ.وَقُبِلَتْ بَعْدَهُ مِنَ الصَّابِئِينَ فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذَيْنِ الْحُكْمَيْنِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ"[1156]

طَبِيعَةُ الْجِزْيَةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حَقِيقَةِ الْجِزْيَةِ،هَل هِيَ عُقُوبَةٌ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ،أَمْ أَنَّهَا عِوَضٌ عَنْ مُعَوَّضٍ،أَمْ أَنَّهَا صِلَةٌ مَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ عِوَضًا عَنْ شَيْءٍ ؟

فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَبَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا وَجَبَتْ عُقُوبَةً عَلَى الإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ،وَلِهَذَا لاَ تُقْبَل مِنَ الذِّمِّيِّ إِذَا بَعَثَ بِهَا مَعَ شَخْصٍ آخَرَ،بَل يُكَلَّفُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا بِنَفْسِهِ،فَيُعْطِي قَائِمًا وَالْقَابِضُ مِنْهُ قَاعِدٌ.[1157]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].

قَال ابْنُ عَبَّاسٍ – فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ:{ عَنْ يَدٍ } – يَدْفَعُهَا بِنَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَنِيبٍ فِيهَا أَحَدًا.[1158]

فَلاَ بُدَّ مِنْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ وَهُوَ بِحَالَةِ الذُّل وَالصَّغَارِ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ.

وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَزَاءِ،وَهُوَ إِمَّا أَنْ يُطْلَقَ عَلَى الثَّوَابِ بِسَبَبِ الطَّاعَةِ،وَإِمَّا أَنْ يُطْلَقَ عَلَى الْعُقُوبَةِ بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ.وَلاَ شَكَّ فِي انْتِفَاءِ الأَوَّل،لأَنَّ الْكُفْرَ مَعْصِيَةٌ وَشَرٌّ،وَلَيْسَ طَاعَةً فَيَتَعَيَّنُ الثَّانِي لِلْجَزَاءِ:وَهُوَ الْعُقُوبَةُ بِسَبَبِ الْكُفْرِ [1159].

قَال ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَاسْتَدَلَّ عُلَمَاؤُنَا عَلَى أَنَّهَا عُقُوبَةٌ [بِأَنَّهَا] وَجَبَتْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ،وَهُوَ جِنَايَةٌ؛فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مُسَبَّبُهَا عُقُوبَةً؛وَلِذَلِكَ وَجَبَتْ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ،وَهُمْ الْبَالِغُونَ الْعُقَلَاءُ الْمُقَاتِلُونَ.[1160].

[1156] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٥)(١٢٠ و١٢١) مرسل

[1157] – الهداية ٢ / ١٦١، فتح القدير ٥ / ٢٩٦، الاختيار ٤ / ١٣٩، أحكام القرآن للجصاص ٣ / ١٠١، المقدمات ١ / ٣٩٤، أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٩٢٤ .

[1158] – تفسير القرطبي (٨/ ١١٥)

[1159] – فتح القدير ٥ / ٢٩٦ .

[1160] – أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٨١)

وَلأَنَّ الْوَاجِبَ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ ابْتِدَاءً هُوَ الْقَتْل عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ،فَلَمَّا دُفِـعَ عَـنْهُمُ الْقَتْل بِعَقْدِ الذِّمَّةِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْجِزْيَةَ،صَارَتِ الْجِزْيَةُ عُقُوبَةً بَدَل عُقُوبَةِ الْقَتْل.

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ:إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَجِبُ عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ عِوَضًا عَـنْ مُعَـوَّضٍ،ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمُعَوَّضِ الَّذِي تَجِبُ الْجِزْيَةُ بَدَلاً عَنْهُ.

فَقَال بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ:الْجِزْيَةُ تَجِبُ عِوَضًا عَنِ النُّصْرَةِ:وَيَقْصِـدُونَ بِـذَلِكَ نُصْـرَةَ الْمُقَاتِلَةِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِحِمَايَةِ دَارِ الإِسْلاَمِ وَالدِّفَاعِ عَنْهَا.

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِأَنَّ النُّصْرَةَ تَجِبُ عَلَى جَمِيعِ رَعَايَا الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَمِنْهُمْ أَهْل الذِّمَّةِ. فَالْمُسْلِمُونَ يَقُومُونَ بِنُصْرَةِ الْمُقَاتِلَةِ:إِمَّا بِأَنْفُسِهِمْ،وَإِمَّا بِأَمْوَالِهِمْ،فَيَخْرُجُونَ مَعَهُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيل اللَّهِ،وَيُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيل اللَّهِ،قَال تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِـي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيـبٌ وَبَشِّـرِ الْمُـؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف:١٠ - ١٣].

وَلَمَّا فَاتَتِ النُّصْرَةُ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ بِأَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ،تَعَيَّنَتْ عَلَـيْهِمُ النُّصْرَةُ بِالْمَال:وَهِيَ الْجِزْيَةُ.

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَبَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ:الْجِزْيَةُ تَجِبُ بَدَلاً عَنِ الْعِصْمَةِ أَوْ حَقْنِ الدَّمِ،كَمَا تَجِبُ عِوَضًا عَنْ سُكْنَى دَارِ الإِسْلاَمِ وَالإِقَامَةِ فِيهَا.

فَإِذَا كَانَتْ عِوَضًا عَنِ الْعِصْمَةِ وَحَقْنِ الدَّمِ تَكُونُ فِي مَعْنَى بَدَل الصُّلْحِ عَنْ دَمِ الْعَمْدِ.

وَإِذَا كَانَتْ عِوَضًا عَنِ السُّكْنَى فِي دَارِ الإِسْلاَمِ وَالإِقَامَةِ فِيهَا،تَكُونُ فِـي مَعْنَـى بَـدَل الإِجَارَةِ.[١١٦١]

[١١٦١] - الكمال بن الهمام ٥ / ٢٩٧، وحاشية الشلبي على تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٧، نهاية المحتاج ٨ / ٨١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٣، حاشية البجيرمي ٤ / ٢٦٩، المغني ٨ / ٤٩٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، والهداية ٢ / ١٦٠، والبدائع ٩ / ٤٣٣٢، والمقدمات ١ / ٣٩٥ .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى كَوْنِهَا بَدَلاً عَنِ الْعِصْمَة أَوْ حَقْنِ الدَّمِ بِآيَةِ الْجِزْيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ،فَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى دِمَاءَ الْكُفَّارِ ثُمَّ حَقَنَهَا بِالْجِزْيَةِ،فَكَانَتِ الْجِزْيَةُ عِوَضًا عَنْ حَقْنِ الدَّمِ.

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى كَوْنِهَا عِوَضًا عَنْ سُكْنَى الدَّارِ بِأَنَّ الْكُفَّارَ مَعَ الإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ وَعَدَمِ الْخُضُوعِ لِأَحْكَامِ الإِسْلاَمِ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ لاَ يُقَرُّونَ فِي دَارِنَا،وَلاَ يَصِيرُونَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الدَّارِ إِلاَّ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ وَأَدَاءِ الْجِزْيَةِ.فَتَكُونُ الْجِزْيَةُ بِذَلِكَ بَدَلاً عَنْ سُكْنَى دَارِ الإِسْلاَمِ.

وَقَدْ رَدَّ ابْنُ الْقَيِّمِ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.وَذَهَبَ بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ صِلَةٌ مَالِيَّةٌ تَجِبُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ،وَلَيْسَتْ بَدَلاً عَنْ شَيْءٍ،فَهِيَ لَيْسَتْ بَدَلاً عَنْ حَقْنِ الدَّمِ ؛لِأَنَّ قَتْلَ الْكَافِرِ جَزَاءٌ مُسْتَحَقٌّ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى،فَلاَ يَجُوزُ إِسْقَاطُهُ بِعِوَضٍ مَالِيٍّ أَصْلاً كَالْحُدُودِ،وَلِذَا لاَ تَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ الْعَاجِزِ وَتَسْقُطُ بِالْمَوْتِ قَبْلَ الأَدَاءِ.وَهِيَ لَيْسَتْ بَدَلاً عَنْ سُكْنَى الدَّارِ ؛لِأَنَّ الذِّمِّيَّ يَسْكُنُ مِلْكَ نَفْسِهِ.[١١٦٢]

عَقْدُ الذِّمَّةِ:

يَتَرَتَّبُ عَلَى عَقْدِ الذِّمَّةِ لُزُومُ الْجِزْيَةِ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ.

فَعَقْدُ الذِّمَّةِ هُوَ:الْتِزَامُ تَقْرِيرِ الْكُفَّارِ فِي دَارِنَا وَحِمَايَتِنَا لَهُمْ،وَالذَّبِّ عَنْهُمْ بِشَرْطِ بَذْلِ الْجِزْيَةِ[١١٦٣].

إِجَابَةُ الْكَافِرِ إِلَى عَقْدِ الذِّمَّةِ بِالْجِزْيَةِ:

قَالَ النَّوَوِيُّ:إِذَا طَلَبَتْ طَائِفَةٌ عَقْدَ الذِّمَّةِ وَكَانَتْ مِمَّنْ يَجُوزُ إِقْرَارُهُمْ بِدَارِ الإِسْلاَمِ بِالْجِزْيَةِ وَجَبَتْ إِجَابَتُهُمْ مَا لَمْ تُخَفْ غَائِلَتُهُمْ،أَيْ غَدْرُهُمْ بِتَمْكِينِهِمْ مِنَ الإِقَامَةِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَلاَ يَجُوزُ عَقْدُهَا لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ عَلَيْنَا،وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنَابِلَةِ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

[١١٦٢] - أحكام أهل الذمة ١ / ٢٥، والمبسوط ١٠ / ٨٠، أحكام القرآن ٣ / ١٠١، وحاشية البجيرمي ٤ / ٢٦٩، وحاشية الجمل على شرح المنهج ٥ / ٢١٣ .

[١١٦٣] - الخراج ص ١٢٢، والفتاوى الهندية ٢ / ٢٢٤، والبدائع ٩ / ٤٣٣٠، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٠، والكافي ١ / ٤٧٩، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٣، ورحمة الأمة للدمشقي ٢ / ١٧٩، والميزان للشعراني ٢ / ١٨٤، كشاف القناع ٣ / ١١٦، والإفصاح لابن هبيرة ٢ / ٢٩٢، والمذهب الأحمد لابن الجوزي ص ٢٠٩، أحكام أهل الذمة ١ / ٣٩ .

وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩] فَجَعَل إِعْطَاءَ الْجِزْيَةِ غَايَةً لِقِتَالِهِمْ فَمَتَى بَذَلُوهَا لَمْ يَجُزْ قِتَالُهُمْ.

وَبِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ:"وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ". [١١٦٤]

وَفِي كِتَابِ (الْبَيَانِ) وَغَيْرِهِ لِلشَّافِعِيَّةِ وَجْهٌ أَنَّهَا لاَ تَجِبُ إِلاَّ إِذَا رَأَى الإِمَامُ فِيهَا مَصْلَحَةً كَمَا فِي الْهُدْنَةِ. [١١٦٥]

رُكْنَا عَقْدِ الذِّمَّةِ:

وَرُكْنَا عَقْدِ الذِّمَّةِ:إِيجَابٌ وَقَبُولٌ:إِيجَابٌ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ،وَصِيغَتُهُ إِمَّا لَفْظٌ صَرِيحٌ يَدُل عَلَيْهِ مِثْل لَفْظِ الْعَهْدِ وَالْعَقْدِ عَلَى أُسُسٍ مُعَيَّنَةٍ،وَإِمَّا فِعْلٌ يَدُل عَلَى قَبُول الْجِزْيَةِ،كَأَنْ يَدْخُل حَرْبِيٌّ دَارَ الإِسْلاَمِ بِأَمَانٍ وَيَمْكُثَ فِيهَا سَنَةً،فَيُطْلَبُ مِنْهُ إِمَّا أَنْ يَخْرُجَ أَوْ يُصْبِحَ ذِمِّيًّا.

وَأَمَّا الْقَبُول فَيَكُونُ مِنْ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ مَنْ يَنُوبُ عَنْهُ،وَلِذَا لَوْ قَبِل عَقْدَ الذِّمَّةِ مُسْلِمٌ بِغَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ لَمْ يَصِحَّ الْعَقْدُ،وَيَكُونُ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ عَقْدِ الأَمَانِ لاَ عَقْدِ الذِّمَّةِ،فَيُمْنَعُ ذَلِكَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنَ الْقَتْل وَالأَسْرِ. [١١٦٦]

[١١٦٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ – (١٧٣١)

[١١٦٥] – الروضة ١٠ / ٢٩٧، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، والمغني ٨ / ٥٠٤ .

[١١٦٦] – تبيين الحقائق ٢ / ٢٧٦، والقوانين الفقهية ص ١٧٥، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٧، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، والمغني ٨ / ٥٠٥ .

وَيُشْتَرَطُ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ التَّأْبِيدُ:فَإِنْ وُقِّتَ الصُّلْحُ لَمْ يَصِحَّ الْعَقْدُ لِأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِعِصْمَةِ الإِنْسَانِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ بَدِيلٌ عَنِ الإِسْلاَمِ،وَالإِسْلاَمُ مُؤَبَّدٌ،فَكَذَا بَدِيلُهُ،وَهُوَ عَقْدُ الذِّمَّةِ.وَهَذَا شَرْطٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.[1167]

وَعَقْدُ الذِّمَّةِ عَقْدٌ مُؤَبَّدٌ لاَ يَمْلِكُ الْمُسْلِمُونَ نَقْضَهُ مَا دَامَ الطَّرَفُ الآْخَرُ مُلْتَزِمًا بِهِ،وَيَنْتَقِضُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِأُمُورٍ اخْتُلِفَ فِيهَا،وَلاَ يَنْتَقِضُ الْعَهْدُ بِغَيْرِ ذَلِكَ ؛لِأَنَّ الْتِزَامَ الْجِزْيَةِ بَاقٍ،وَيَسْتَطِيعُ الْحَاكِمُ أَنْ يَجْبُرَهُ عَلَى أَدَائِهَا،وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْمُخَالَفَاتِ فَهِيَ مَعَاصٍ ارْتَكَبُوهَا،وَهِيَ دُونَ الْكُفْرِ،وَقَدْ أَقْرَرْنَاهُمْ عَلَيْهِ،فَمَا دُونَهُ أَوْلَى.[1168]

فَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّ الْعَقْدَ يَنْتَقِضُ بِالاِمْتِنَاعِ عَنْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ،أَوْ بِالاِجْتِمَاعِ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ بِالاِمْتِنَاعِ عَنْ جَرَيَانِ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ عَلَيْهِمْ،أَوْ سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ قَتْلِ مُسْلِمٍ أَوِ الزِّنَا بِمُسْلِمَةٍ،أَوْ بِإِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِالْمُسْلِمِينَ،وَإِطْلاَعِ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَذَلِكَ لِأَنَّ ارْتِكَابَ هَذِهِ الأُْمُورِ يُخَالِفُ مُقْتَضَى عَقْدِ الذِّمَّةِ.

وَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ أَنَّ الْعَقْدَ يَنْتَقِضُ بِقِتَالِهِمْ لَنَا أَوِ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،أَوْ مِنْ جَرَيَانِ حُكْمِ الإِسْلاَمِ عَلَيْهِمْ.

أَمَّا لَوْ زَنَى الذِّمِّيُّ بِمُسْلِمَةٍ أَوْ دَل أَهْل الْحَرْبِ عَلَى عَوْرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ،أَوْ فَتَنَ مُسْلِمًا عَنْ دِينِهِ،أَوْ طَعَنَ فِي الإِسْلاَمِ أَوِ الْقُرْآنِ،أَوْ ذَكَرَ الرَّسُول ﷺ بِسُوءٍ فَالأَْصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ إِنْ شُرِطَ انْتِقَاضُ الْعَهْدِ بِهَا انْتَقَضَ وَإِلاَّ فَلاَ يَنْتَقِضُ.

وَيَنْتَقِضُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ بِأَحَدِ أُمُورٍ ثَلاَثَةٍ:وَهِيَ أَنْ يُسْلِمَ الذِّمِّيُّ،أَوْ يَلْحَقَ بِدَارِ الْحَرْبِ،أَوْ يَغْلِبَ الذِّمِّيُّونَ عَلَى مَوْضِعٍ فَيُحَارِبُونَنَا.[1169]

مَحَل الْجِزْيَةِ:

[1167] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٠، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٩، الزرقاني على مختصر خليل ٢ / ١٤٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، كشاف القناع ٣ / ١١٦ .

[1168] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٤، وفتح القدير ٥ / ٣٠٢ - ٣٠٣، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢ .

[1169] - الكافي ١ / ٤٨٣، جواهر الإكليل ١ / ٢٦٨ - ٢٦٩، والزرقاني على مختصر خليل ٢ / ١٤٦ - ١٤٧، والأحكام السلطانية ص ١٥٨، والمغني ٨ / ٥٢٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٩٨ - ٩٩، وحاشية القليوبي ٤ / ٢٣٦ .

الْجزْيَةُ تُفْرَضُ عَلَى رُءُوسِ الْكُفَّارِ الَّذينَ يُقيمُونَ في دَارِ الإسْلاَم،وَلاَ تُؤْخَذُ منَ الْمُسْتَأْمَنِ الَّذي يَدْخُل دَارَ الإسْلاَم بعَقْد أَمَان مُؤَقَّت لقَضَاء غَرَضٍ ثُمَّ يَرْجعُ،قَال أَبُو يُوسُفَ:إذَا أَطَال الْمُسْتَأْمَنُ الْمُقَامَ في دَارِ الإسْلاَمِ فَيُؤْمَرُ بالْخُرُوجِ،فَإنْ أَقَامَ بَعْدَ ذَلكَ حَوْلاً وُضعَتْ عَلَيْه الْجزْيَةُ.

فَمَحَل الْجزْيَة إذَا هَمَّ الذِّمِّيُّونَ الَّذينَ يُقيمُونَ في دَارِ الإسْلاَمِ إقَامَةً دَائمَةً أَوْ طَويلَةً،وَكَذَلكَ الْمُسْتَأْمَنُونَ الَّذينَ يُقيمُونَ في دَارِ الإسْلاَمِ أَكْثَرَ منْ سَنَة فَتُضْرَبُ عَلَيْهمُ الْجزْيَةُ،وَيُشْتَرَطُ في الذِّمِّيِّ الَّذي يَجُوزُ لَهُ الإقَامَةُ بالْجزْيَة في دَارِ الإسْلاَم أَنْ يَكُونَ منَ الطَّوَائف الَّتي يُسْمَحُ لَهَا بالإقَامَة في دَارِ الإسْلاَمِ،وَالَّتي تُقْبَل منْهَا الْجزْيَةُ [١١٧٠].

الطَّوَائفُ الَّتي تُقْبَل منْهَا الْجزْيَةُ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجزْيَةَ تُقْبَل منْ أَهْل الْكتَابِ وَالْمَجُوسِ،وَاخْتَلَفُوا في الْمُشْركينَ وَعَبَدَة الأَوْثَان،كَمَا اخْتَلَفُوا في أَوْصَاف أَهْل الْكتَابِ وَالْمَجُوسِ الَّذينَ تُقْبَل منْهُمُ الْجزْيَةُ[١١٧١].

أَهْل الْكتَاب:

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في الْمُرَاد بأَهْل الْكتَاب:

فَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بهمْ:كُل مَنْ يُؤْمنْ بنَبيٍّ وَيُقرُّ بكتَاب،وَيَدْخُل في ذَلكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى،وَمَنْ آمَنَ بزَبُور دَاوُدَ عَلَيْه السَّلاَمُ وَصُحُف إبْرَاهيمَ عَلَيْه السَّلاَمُ،وَذَلكَ لأَنَّهُمْ يَعْتَقدُونَ دينًا سَمَاويًّا مُنَزَّلاً بكتَاب.

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاء إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بهمُ:الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بجَميع فرَقهمُ الْمُخْتَلفَة دُونَ غَيْرهمْ ممَّنْ لاَ يُؤْمنُ إلاَّ بصُحُف إبْرَاهيمَ وَزَبُور دَاوُدَ.وَاسْتَدَلُّوا لذَلكَ بقَوْله تَعَالَى:{وَهَذَا كتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إنَّمَا أُنْزلَ الْكتَابُ عَلَى طَائفَتَيْنِ منْ قَبْلنَا وَإنْ كُنَّا عَنْ درَاسَتهمْ لَغَافلينَ (١٥٦)} [الأنعام:١٥٥،١٥٦]فَالطَّائفَتَان اللَّتَان أُنْزل عَلَيْهمَا الْكتَابُ منْ قَبْلنَا هُمَا الْيَهُودُ

[١١٧٠] - الخراج ص ١٨٩، والاختيار ٤ / ١٣٦، وحاشية الخرشي على مختصر خليل ٣ / ١٤٤، ومنح الجليل ١ / ٧٥٧، الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٢، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٥٣ .

[١١٧١] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٥/ ١٦٦)

وَالنَّصَارَى، كَمَا قَال ابْنُ عَبَّاسٍ،وَمُجَاهِدٌ،وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.وَأَمَّا صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَدَاوُدَ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاعِظَ وَأَمْثَالاً لاَ أَحْكَامَ فِيهَا،فَلَمْ يَثْبُتْ لَهَا حُكْمُ الْكُتُبِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى أَحْكَامٍ.قَال الشِّهْرِسْتَانِيُّ:أَهْل الْكِتَابِ:الْخَارِجُونَ عَنِ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ،وَالشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ،مِمَّنْ يَقُول بِشَرِيعَةٍ وَأَحْكَامٍ وَحُدُودٍ وَأَعْلاَمٍ...وَمَا كَانَ يَنْزِل عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا كَانَ يُسَمَّى كِتَابًا،بَل صُحُفًا.[١١٧٢]

أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَرَبِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى قَبُول الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَجَمِ،وَاخْتَلَفُوا فِي قَبُولِهَا مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَرَبِ.

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إِلَى قَبُول الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَرَبِ[١١٧٣].

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِإِطْلاَقِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].

وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبِلَهَا مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَرَبِ،فَقَدْ أَخَذَهَا مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ،وَيَهُودِ الْيَمَنِ،وَأُكَيْدِرِ دَوْمَةِ الْجَنْدَل.

فعَنِ ابْنِ سِيرِينَ،أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ،الَّذِينَ صَالَحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِزْيَةِ،أَسْلَمَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،لَيْسَتْ عَلَيَّ جِزْيَةٌ،فَقَالَ عُمَرُ:لَأَنْتَ مُتَعَوِّذٌ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْجِزْيَةِ؟،فَقَالَ:الرَّجُلُ:أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ مُتَعَوِّذًا

[١١٧٢] - حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، والمنتقى ٢ / ١٧٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٤، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣، والأحكام السلطانية للفراء ص ١٥٣، كشاف القناع ٣ / ١١٧، والمحلى ٧ / ٥٦٢، وجامع البيان في تفسير القرآن ٨ / ٦٩، والملل والنحل - دار المعرفة ببيروت - ١٤٠٢ هـ - ١ / ٢٠٨ - ٢١٠ .

[١١٧٣] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٢٩، والهداية ٢ / ١٦٠، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٣، والمقدمات على هامش المدونة ١ / ٤٠٠، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٤، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، والمبدع ٣ / ٤٠٤، والمحلى ٧ / ٥٦٢ .

بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْجِزْيَةِ – كَمَا تَقُولَ – أَمَا فِي الْإِسْلَامِ مَا يُعِيذُنِي؟ قَالَ:فَوَضَعَ عَنْهُ الْجِزْيَةَ"[١١٧٤]

وَأَهْلُ نَجْرَانَ عَرَبٌ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ.وَقَدْ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مُعَاذٍ – وَهُوَ بِالْيَمَنِ – أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِ حَالِمٍ دِينَارًا،أَوْ عَدْلَهُ مِنَ الْمَعَافِرِ،[١١٧٥]

وعَنِ الْحَكَمِ،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَهُوَ بِالْيَمَنِ:«وَفِي الْحَالِمِ وَالْحَالِمَةِ دِينَارٌ أَوْ عِدْلُهُ مِنْ قِيمَةِ الْمَعَافِرِ،وَلَا يُفْتَنَنَّ يَهُودِيٌّ عَنْ يَهُودِيَّتِهِ»[١١٧٦]

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَقَدْ قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَهُمْ عَرَبٌ إِذْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ.

كَمَا اسْتَدَلُّوا بِالإِجْمَاعِ قَال ابْنُ قُدَامَةَ:" إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَبِلاَ الْجِزْيَةَ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ وَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمَا أَحَدٌ.فَكَانَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا.

وَقَدْ ثَبَتَ بِالْقَطْعِ وَالْيَقِينِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ وَيَهُودِهِمْ كَانُوا فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ فِي بِلاَدِ الإِسْلاَمِ،وَلاَ يَجُوزُ إِقْرَارُهُمْ فِيهَا بِغَيْرِ جِزْيَةٍ،فَثَبَتَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَخَذُوا الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ.[١١٧٧]

وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُقْبَل مِنْ أَهْل الْكِتَابِ الْعَرَبِ.وَقَدْ نَسَبَ الطَّبَرِيُّ هَذَا الْمَذْهَبَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.[١١٧٨]

الْمَجُوسُ:

وَالْمَجُوسُ هُمْ عَبَدَةُ النَّارِ الْقَائِلُونَ أَنَّ لِلْعَالَمِ أَصْلَيْنِ اثْنَيْنِ مُدَبِّرَيْنِ،يَقْتَسِمَانِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ،وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ،وَالصَّلاَحَ وَالْفَسَادَ،أَحَدُهُمَا النُّورُ،وَالآْخَرُ الظُّلْمَةُ.وَفِي الْفَارِسِيَّةِ " يَزْدَانَ " " وَأَهْرَمَنَ"[١١٧٩] .

[١١٧٤] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٧٢)(١٨٥) صحيح مرسل

[١١٧٥] – قد مرَّ

[١١٧٦] – المراسيل لأبي داود (ص:١٣٣)(١١٧) صحيح مرسل

[١١٧٧] – الأموال ص ٤٠، والسنن الكبرى ٩ / ١٨٧، والتلخيص الحبير ٤ / ١٤٢، والمغني ٨ / ٤٩٩ .

[١١٧٨] – المغني ٨ / ٤٩٩، ومعالم السنن ٣ / ٣٦، وروح المعاني ١٠ / ٧٩، والسنن الكبرى ٩ / ١٨٨، واختلاف الفقهاء ص ٢٠٣ .

[١١٧٩] – الشهرستاني :الملل والنحل ١ / ٢٣٢ .

وَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمَجُوسِ.

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ،وَالْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ،إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُقْبَل مِنَ الْمَجُوسِ سَوَاءٌ أَكَانُوا عَرَبًا أَمْ عَجَمًا.[1180]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَبِلَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ أَوِ الْبَحْرَيْنِ.عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّد ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى مَجُوسِ الْبَحْرَيْنِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ قَبِلَ مِنْهُ،وَمَنْ أَبَى ضُرِبَتْ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ،وَلَا تُؤْكَلُ لَهُمْ ذَبِيحَةٌ،وَلَا تُنْكَحُ لَهُمُ امْرَأَةٌ.فَقَالَ هَذَا الْقَائِلُ:فَقَدْ رُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ فِي ذَلِكَ،فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ:" لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ أَصْحَابِي أَخَذُوا مِنَ الْمَجُوسِ،يَعْنِي الْجِزْيَةَ،مَا أَخَذْتُ مِنْهُمْ،وَتَلَا:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة:٢٩] الْآيَةَ.قَالَ فَهَذَا حُذَيْفَةُ قَدْ قَالَ فِيهَا مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.فَكَانَ جَوَابَنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ وَعَوْنِه:أَنَّ حُذَيْفَةَ لَمْ يَقِفْ عَلَى مَا وَقَفَ عَلَيْهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ،فَقَالَ مَا قَالَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ،غَيْرَ أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ سَمِعَ لَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ،وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ،رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[1181].

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ:«مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ؟» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ:أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1182]

[1180] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٢٩، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٧٧، والهداية ٢ / ١٦٠، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧٠، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، والخراج ص ١٢٩، والمدونة ١ / ٤٠٦، والمقدمات على هامش المدونة ١ / ٤٠٠، والمنتقى ٢ / ١٧٢، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٢، وحاشية قليوبي ٤ / ٢٢٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٤، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، والمبدع ٣ / ٤٠٥، والمغني ٨ / ٤٩٨، والمحلى ٧ / ٥٦٧ .

[1181] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٣٦)(١٢٤) وشرح مشكل الآثار (٥/ ٢٦٨)(٢٠٣٣) صحيح مرسل

[1182] - موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٧٨)(٤٢) صحيح مرسل

قَال ابْنُ عَبْد الْبَرِّ:هَذَا منَ الْكَلاَم الْعَامِّ الَّذي أُريدَ به الْخَاصُّ ؛لأَنَّ الْمُــرَادَ سُــنَّةُ أَهْــل الْكتَاب في أَخْذ الْجزْيَة فَقَطْ،أَيْ تُؤْخَذُ منْهُمُ الْجزْيَةُ،كَمَا تُؤْخَذُ منْ أَهْل الْكتَــاب،وَلاَ تُؤْكَل ذَبَائحُهُمْ وَلاَ تُنْكَحُ نسَاؤُهُمْ.[1183]

وعَن ابْنِ شِهَاب قَالَ:بَلَغَني أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ «أَخَذَ الْجزْيَةَ منْ مَجُوسِ الْبَحْــرَيْن»،وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب أَخذَهَا منْ مَجُوسِ فَارسَ،وَأَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَخَذَهَا منَ الْبَرْبَر[1184]

وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَخْذ الْجزْيَة منَ الْمَجُوس،وَعَمل به الْخُلَفَاءُ الرَّاشدُونَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ منْ غَيْر نَكيرٍ وَلاَ مُخَالفٍ.وَقَدْ نَقَــل هَــذَا الإجْمَــاعَ أَكْثَــرُ مِــنْ وَاحد:منْهُمُ ابْنُ الْمُنْذر وَابْنُ قُدَامَةَ.[1185]

وَذَهَبَ ابْنُ الْمَاجشُون الْمَالكيُّ إلَى أَنَّ الْجزْيَةَ لاَ تُؤْخَذُ إلاَّ منْ أَهْل الْكتَاب:منَ الْيَهُــود وَالنَّصَارَى،وَلاَ تُقْبَل منَ الْمَجُوس،لقَوْله تَعَالَى:{ قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلَا بِــالْيَوْم الْآخر وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَــابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ} [التوبة:٢٩].

فَإنَّ مَفْهُومَهَا أَنَّ غَيْرَ أَهْل الْكتَاب منَ الْمَجُوس وَغَيْرهمْ لاَ يُشَــارِكُونَهُمْ فِــي حُكْــم الآيَة[1186].

وَذَهَبَ ابْنُ وَهْب الْمَالكيُّ إلَى أَنَّ الْجزْيَةَ لاَ تُقْبَل منَ الْمَجُوس الْعَرَب ؛لأَنَّهُ لَــيْسَ فِــي الْعَرَب مَجُوسٌ إلاَّ وَجَميعُهُمْ أَسْلَمَ،فَمَنْ وُجدَ منْهُمْ بخلاَف الإسْلاَم فَهُوَ مُرْتَــدٌّ.وَقَــدْ نُسبَ هَذَا الْمَذْهَبُ أَيْضًا إلَى الْحَسَن الْبَصْريِّ.[1187]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَان قَالَ:" لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ أَصْــحَابي أَخَــذُوا مِــنَ الْمَجُــوس،يَعْني الْجزْيَةَ،مَا أَخَذْتُ منْهُمْ،وَتَلَا:{قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللهِ وَلَا بالْيَوْم الْآخر} [التوبة:٢٩]

[1183] - فتح الباري ٧ / ٧٠، والجامع لأحكام القرآن ٨ / ١١١، ونيل الأوطار ٨ / ٦٤ .

[1184] - موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٧٨)(٤١) صحيح مرسل، الموطأ مع شرح الزرقاني ٣ / ١٣٩، وأبو عبيد :الأموال ص ٤٥ .والبربر :قوم من أهل المغرب كالأعراب في القسوة والغلظة، والجمع برابرة وهو معرب

[1185] - المغني ٨ / ٤٩٨، والإجماع لابن المنذر ص ٥٩ .

[1186] - أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٩٢١، وشرح الترمذي ٧ / ٨٥، والقوانين الفقهية ص ١٧٥ .

[1187] - أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٩٢١، وشرح سنن الترمذي ٧ / ٨٥، والجامع لأحكام القرآن، ٨ / ١١٠، ومعالم السنن ٣ / ٣٦، والمغني ٨ / ٤٩٩، والطبري :اختلاف الفقهاء ص ٢٠٣ .

الْآيَةَ.

قَالَ فَهَذَا حُذَيْفَةُ قَدْ قَالَ فِيهَا مَا فِي هَذَا الْحَدِيث.فَكَانَ جَوَابَنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيــقِ اللهِ وَعَوْنِه:أَنَّ حُذَيْفَةَ لَمْ يَقِفْ عَلَى مَا وَقَفَ عَلَيْهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ وَمَنْ ســوَاهُمْ مِمَّنْ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ،فَقَالَ مَا قَالَ مِــنْ أَجْلِ ذَلِكَ،غَيْرَ أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ سَمِعَ لَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ،وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا مَا عَلَــيْهِمْ فِعْلُهُ،رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[١١٨٨]

قَبُول الْجِزْيَة مِنَ الصَّابِئَة:

ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ الصَّابِئَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ الزَّبُــورَ،وَلاَ يَعْبُــدُونَ الْكَوَاكِبَ،وَلَكِنْ يُعَظِّمُونَهَا كَتَعْظِيمِ الْمُسْلِمِينَ الْكَعْبَةَ فِي اسْتِقْبَالِهَا.

وَاسْتَدَل لِذَلِكَ بِقَوْل أَبِي الْعَالِيَة،وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،وَالسُّدِّيِّ،وَأَبِي الشَّعْثَاءِ،وَجَابِرِ بْنِ زَيْــدٍ وَالضَّحَّاك.فَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ كَمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَهْل الْكِتَاب[١١٨٩].

وَذَهَبَ الصَّاحِبَانِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْل كِتَابٍ،لِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ،وَعَابِدُ الْكَوَاكِبِ كَعَابِدِ الْوَثَنِ،فَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ إِذَا كَانُوا مِنَ الْعَجَمِ.[١١٩٠]

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ مُعْتَقِدُونَ تَأْثِيرَ النُّجُومِ،وَأَنَّهَــا فَعَّالَةٌ،فَلَيْسُــوا أَهْــل كِتَابٍ،وَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ،لِأَنَّهَا تُقْبَل مِنْ غَيْرِ أَهْل الْكِتَابِ عِنْدَ مَالِك[١١٩١].

وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إِلَى أَنَّهُ يُنْظَرُ فِيهِمْ،فَإِنْ كَانُوا يُوَافِقُونَ أَحَدَ أَهْل الْكِتَابَيْنِ فِــي تَــدَيُّنِهِمْ وَكِتَابِهِمْ فَهُمْ مِنْهُمْ،وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي ذَلِكَ فَلَيْسُوا مِنْهُمْ،فَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَــةُ إِذَا أَقَــرَّ النَّصَارَى بِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ وَلَمْ يُكَفِّرُوهُمْ،فَإِنْ كَفَّرُوهُمْ لَمْ تُؤْخَذْ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ.[١١٩٢]

[١١٨٨] - شرح مشكل الآثار (٥/ ٢٦٩)

[١١٨٩] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٠، وفتح القدير ٥ / ٢٩١، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧٠ .

[١١٩٠] - الخراج ص ١٢٢، والمراجع السابقة .

[١١٩١] - الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٣٥ .

[١١٩٢] - الأحكام السلطانية ص ١٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٥، والغاية القصوى في دراية الفتوى - دار النصر للطباعة الإسلامية بالقاهرة ٢ / ٩٥٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٤ .

وَذَهَبَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ إِلَى أَنَّهُمْ مِنَ النَّصَارَى ؛لِأَنَّهُمْ يَدِينُونَ بِالإِنْجِيلِ.وَاسْتَدَلَ لِـذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.فَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ كَالنَّصَارَى.وَذَهَبَ فِي رِوَايَةٍ ثَانِيَةٍ إِلَى أَنَّهُمْ مِنَ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ يُسْبِتُونَ،وَاسْتَدَلَ لِذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:هُمْ يُسْبِتُونَ.فَتُؤْخَـذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ كَمَا تُؤْخَذُ مِنَ الْيَهُودِ.[١١٩٣]

أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ فِي أَظْهَرِ الرِّوَايَتَيْنِ عَـنْ أَحْمَـدَ وَابْـنِ الْمَاجِشُونِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُقْبَلُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مُطْلَقًا،أَيْ سَوَاءٌ أَكَانُوا مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مِنَ الْعَجَمِ،وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِلاَّ الإِسْلاَمُ،فَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا قُتِلُوا.[١١٩٤]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُـونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَـةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].فَالآْيَةُ تَقْضِي بِجَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ خَاصَّةً،وَلاَ دَلاَلَةَ لِلَّفْظِ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.[١١٩٥]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَـيِّبِ،أَنَّ أَبَـا هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّـا اللَّـهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ،إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ".[١١٩٦]

فَالْحَدِيثُ عَامٌّ يَقْتَضِي عَدَمَ قَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ،وَلَمْ يُخَصِّصْ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ إِلاَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسَ فَمَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ يَبْقَى عَلَى قَضِيَّةِ الْعُمُـومِ،فَلاَ تُقْبَـلُ الْجِزْيَةُ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ سَوَاءٌ أَكَانُوا عَرَبًا أَمْ عَجَمًا وَلِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ لَمْ

[١١٩٣] - المغني ٨ / ٤٩٦، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، والمبدع ٣ / ٤٠٤ .

[١١٩٤] - روضة الطالبين ١٠ / ٣٠٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٤، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٣، والمبدع ٣ / ٤٠٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٨، والمغني ٨ / ٥٠٠، والقوانين الفقهية ص ١٧٥، والمحلى ٧ / ٥٦٣ .

[١١٩٥] - أحكام القرآن لألكيا الهراس ٤ / ٤٠ .

[١١٩٦] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٦)

يَكُنْ عِنْدَهُمْ مُقَدِّمَةٌ (سَابِقَةٌ) مِنَ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَشَرِيعَةِ الإِسْلاَمِ،فَلاَ حُرْمَةَ لِمُعْتَقَدِهِمْ.[1197]

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَمَالِكٌ فِي رِوَايَةٍ حَكَاهَا عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ،وَأَخَذَ بِهَا هُوَ وَأَشْهَبُ وَسَحْنُونٌ وَكَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ حَكَاهَا عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ ثَوَابٍ،ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُقْبَل مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلاَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.[1198]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:5] فَهُوَ خَاصٌّ بِمُشْرِكِي الْعَرَبِ،لِأَنَّهُ مُرَتَّبٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} وَهِيَ الأَشْهُرُ الأَرْبَعَةُ الَّتِي كَانَ الْعَرَبُ يُحَرِّمُونَ الْقِتَال فِيهَا.وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْخُذِ الْجِزْيَةَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:«صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ عَلَى الْجِزْيَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَرَبِ،وَقَبِلَ الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ،وَكَانُوا مَجُوسًا»[1199]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَوَّلُ مَنْ أَعْطَى الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَهْلُ نَجْرَانَ،فِيمَا بَلَغَنَا،وَكَانُوا نَصَارَى،وَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ،وَكَانُوا مَجُوسًا،ثُمَّ أَدَّى أَهْلُ أَيْلَةَ وَأَهْلُ أَذْرُحَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْجِزْيَةَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ،ثُمَّ بَعَثَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى أَهْلِ دُومَةِ الْجَنْدَلِ فَأَسَرُوا رَئِيسَهُمْ أُكَيْدِرَ،فَبَايَعُوهُ عَلَى الْجِزْيَةِ"[1200]

وَقَال ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ:" أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَبَى أَخْذَ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ.مِنَ الْعَرَبِ،وَلَمْ يَقْبَل مِنْهُمْ إِلاَّ الإِسْلاَمَ أَوِ السَّيْفَ[1201] .

[1197] - الغاية القصوى 2 / 955، وأحكام القرآن لابن العربي 2 / 919 .

[1198] - بدائع الصنائع 9 / 4329، وتبيين الحقائق 3 / 277، وحاشية ابن عابدين 4 / 198، ومجمع الأنهر 1 / 670، والمغني 8 / 500، والجامع لأحكام القرآن 8 / 110، والمنتقى 2 / 173 .

[1199] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (6/ 86)(10091) صحيح مرسل

[1200] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:41)(84) صحيح مرسل

[1201] - الأموال لأبي عبيد ص 43، واختلاف الفقهاء للطبري ص 200 .

وَاسْتَدَلُّوا مِنَ الْمَعْقُول:
بِأَنَّ كُفْرَهُمْ قَدْ تَغَلَّظَ،لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ،وَالْقُرْآنَ نَزَل بِلُغَتِهِمْ،فَالْمُعْجِزَةُ فِي حَقِّهِمْ أَظْهَرُ،لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْرَفَ بِمَعَانِيهِ وَوُجُوهِ الْفَصَاحَةِ فِيهِ.وَكُل مَنْ تَغَلَّظَ كُفْرُهُ لاَ يُقْبَل مِنْهُ إِلاَّ الإِسْلاَمُ،أَوِ السَّيْفُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [الفتح:١٦] أَيْ تُقَاتِلُونَهُمْ إِلَى أَنْ يُسْلِمُوا.[١٢٠٢]

وَذَهَبَ مَالِكٌ فِي قَوْلٍ وَهُوَ الرَّاجِحُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ،وَالأَوْزَاعِيِّ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُقْبَل مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ،وَمِنْهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ،سَوَاءٌ أَكَانُوا مِنَ الْعَرَبِ،أَمْ مِنَ الْعَجَمِ،وَسَوَاءٌ أَكَانُوا قُرَشِيِّينَ أَمْ غَيْرَ قُرَشِيِّينَ.[١٢٠٣]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِحَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ..".[١٢٠٤]

[١٢٠٢] – العناية على الهداية مع فتح القدير ٥ / ٢٩٢، ومجمع الزوائد ٥ / ٣٣٢، والأموال ص ١٩٧ .

[١٢٠٣] – المدونة ١ / ٤٠٦، والمنتقى ٢ / ١٧٣، ومنح الجليل ١ / ٧٥٧، والجامع لأحكام القرآن ٨ / ١١٠، أحكام أهل الذمة ١ / ٦ .

[١٢٠٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

فَقَوْلُهُ ﷺ:عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَاصًّا بِعَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَامًّا فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ.وَعَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ وَهُوَ قَبُولُ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ ؛لأَنَّهُ لَوِ اخْتَصَّ بِغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ.فَالْحَدِيثُ يُفِيدُ قَبُولَ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ،وَإِذَا كَانَ عَامًّا فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَيْضًا قَبُولُ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ.

وَاسْتَدَلُّوا لِقَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ بِالْقِيَاسِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ.وَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْجِزْيَةَ تُقْبَلُ مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ إِلاَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ.وَقَدْ أَخَذَ بِهَذَا النَّقْلِ كُلٌّ مِنِ ابْنِ رُشْدٍ صَاحِبِ الْمُقَدِّمَاتِ،وَابْنِ الْجَهْمِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.[1205]

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمَالِكِيَّةُ فِي تَعْلِيلِ عَدَمِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ:فَعَلَّلَهُ ابْنُ الْجَهْمِ بِأَنَّ ذَلِكَ إِكْرَامٌ لَهُمْ،لِمَكَانِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.وَعَلَّلَهُ الْقَرَوِيُّونَ بِأَنَّ قُرَيْشًا أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ قَبْلَ تَشْرِيعِ الْجِزْيَةِ،فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى الشِّرْكِ،فَمَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الشِّرْكِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ،فَلاَ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ.[1206]

أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ تُقْبَلُ الْجِزْيَةُ مِنَ الْمُرْتَدِّ عَنِ الإِسْلاَمِ [1207].

الأَمَاكِنُ الَّتِي يُقَرُّ الْكَافِرُونَ فِيهَا بِالْجِزْيَةِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى جَوَازِ إِقْرَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ بِالْجِزْيَةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ مَا عَدَا جَزِيرَةَ الْعَرَبِ:وَهِيَ مِنْ أَقْصَى عَدَنِ أَبْيَنَ جَنُوبًا إِلَى أَطْرَافِ الشَّامِ شَمَالاً،وَمِنْ جُدَّةَ وَمَا وَالاَهَا مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ غَرْبًا إِلَى رِيفِ الْعِرَاقِ شَرْقًا[1208].

[1205] – مواهب الجليل ٣ / ٣٨١، وبلغة السالك ١ / ٣٦٦، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، والمقدمات على هامش المدونة ١ / ٤٠٠، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٤ .

[1206] – الكافي ١ / ٤٧٩، ومواهب الجليل ٣ / ٣٨١ .

[1207] – العيني :عمدة القاري ١٤ / ٢٦٤، والشوكاني :نيل الأوطار ٧ / ٢١٩، البهوتي :كشاف القناع ٣ / ١١٨، والشيرازي :المهذب مع المجموع ١٨ / ١٩٨

[1208] – فتح القدير ٥ / ٣٠١ .

كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ إِقْرَارِهِمْ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ وَهِيَ:مَكَّــةُ وَالْمَدِينَــةُ وَالْيَمَامَــةُ وَمَخَالِيفُهَا[1209] .

وَاخْتَلَفُوا فِي إِقْرَارِهِمْ بِالْجِزْيَةِ فِيمَا عَدَا بِلَادِ الْحِجَازِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَالْيَمَنِ وَغَيْرِهَا.

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ إِقْرَارِهِمْ بِالْجِزْيَةِ فِيمَا عَدَا بِلَادَ الْحِجَــازِ مِــنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ؛لِأَنَّهُمْ مَمْنُوعُونَ مِنَ السُّكْنَى فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا.[1210]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِحَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:يَــوْمُ الخَمِيسِ،وَمَــا يَــوْمُ الخَمِيسِ؟ اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ،فَقَالَ:«ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْــدَهُ أَبَدًا»،فَتَنَازَعُوا وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ،فَقَالُوا:مَا شَأْنُهُ،أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ؟ فَذَهَبُوا يَرُدُّونَ عَلَيْــهِ،فَقَالَ:«دَعُونِي،فَالَّــذِي أَنَــا فِيــهِ خَيْــرٌ مِمَّــا تَــدْعُونِي إِلَيْــهِ» وَأَوْصَــاهُمْ بِثَلاَثٍ،قَالَ:«أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَأَجِيزُوا الوَفْــدَ بِنَحْــوِ مَــا كُنْــتُ أُجِيزُهُمْ» وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَ فَنَسِيتُهَا ".[1211]

[1209] - تهذيب الأسماء واللغات ٣ / ٨٠ .

[1210] - فتح القدير ٥ / ٣٠١، حاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠٣، الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٧، مواهب الجليل ٣ / ٣٨١، منح الجليل ١ / ٧٥٨، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، بلغة السالك ١ / ٣٦٧، الزرقاني على مختصر خليل ٢ / ١٤١ .

[1211] - صحيح البخاري (٦/ ٩)(٤٤٣١) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٥٧)٢٠ - (١٦٣٧)

[ش (يوم الخميس وما يوم الخميس) معناه تفخيم أمره في الشدة والمكروه فيما يعتقده ابن عباس وهو امتناع الكتاب ولهذا قال ابن عباس إن الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب هذا الكتاب هذا مراد ابن عباس وإن كان الصواب ترك الكتاب(فقال ائتوني أكتب لكم كتابا) اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الكذب ومن تغير شيء من الأحكام الشرعية في حال صحته وحال مرضه ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه وليس معصوما من الأمراض والأسقام العارضة للأجسام ونحوها مما لا نقص فيه لمترلته ولا فساد لما تمهد من شريعته وقد سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى صار يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله ولم يصدر منه صلى الله عليه وسلم في هذا الحال كلام في الأحكام مخالف لما سبق من الأحكام التي قررها فإذا علمت ما ذكرناه فقد اختلف العلماء في الكتاب الذي هم النبي صلى الله عليه وسلم به فقيل أراد أن ينص على الخلافة في إنسان معين لئلا يقع فيه نزاع وفتن وقيل أراد كتابا يبين فيه مهمات الأحكام ملخصة ليرتفع التراع فيها ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه وكان النبي صلى الله عليه وسلم هم بالكتاب حين ظهر له أنه مصلحة أو أوحي إليه بذلك ثم ظهر أن المصلحة تركه أو أوحي إليه بذلك ونسخ ذلك الأمر الأول وأما كلام عمر رضي الله عنه فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث على أنه من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره لأنه خشي أن يكتب صلى الله عليه وسلم أمورا ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها فقال عمر حسبنا

وَقَال يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّد سَأَلْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،فَقَـال:مَكَّـةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْيَمَامَةُ وَالْيَمَنُ،وَقَال يَعْقُوبُ:وَالْعَرْجُ أَوَّل تِهَامَةَ.فَقَوْلُهُ ﷺ:أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ يَدُل عَلَى وُجُوبِ إِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا.وَهُوَ عَامٌّ فِي كُل مُشْرِكٍ سَوَاءٌ أَكَانَ وَثَنِيًّا،أَمْ يَهُودِيًّا،أَمْ نَصْرَانِيًّا،أَمْ مَجُوسِيًّا.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيـه:" قَاتَـلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ،لَا يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَـرَبِ "،فَلَمَّـا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجْلَى أَهْلَ نَجْرَانَ إِلَـى الْبَحْرَانِيَّةِ،وَاشْـتَرَى عُقَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،وَأَجْلَى أَهْلَ فَدَكٍ وَتَيْمَاءَ وَأَهْلَ خَيْبَرَ،وَاسْتَعْمَلَ يَعْلَى بْنَ مُنْيَـةَ،فَأَعْطَى

كتاب الله لقوله تعالى {ما فرطنا في الكتاب من شيء} وقوله {اليوم أكملت لكم دينكم} فعلم أن الله تعالى أكمل دينه فأمن الضلال على الأمة وأراد الترفيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عمر أفقه من ابن عباس وموافقيه قال الخطابي ولا يجوز أن يحمل قول عمر على أنه توهم الغلط على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ظن به غير ذلك مما لا يليق به بحال لكنه لما رأى ما غلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوجع وقرب الوفاة مع ما اعتراه من الكرب خاف أن يكون ذلك القول مما يقوله المريض مما لا عزيمة له فيه فيجد المنافقون بذلك سبيلا إلى الكلام في الدين وقد كان أصحابه صلى الله عليه وسلم يراجعونه في بعض الأمور قبل أن يجزم فيها بتحتيم كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف وفي كتاب الصلح بينه وبين قريش فأما إذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالشيء أمر عزيمة فلا يراجعه فيه أحد منهم وقال القاضي عياض قوله أهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا هو في صحيح مسلم وغيره أهجر؟ على الاستفهام وهو أصح من رواية من روى هجر يهجر لأن هذا كله لا يصح منه صلى الله عليه وسلم لأن معنى هجر هذى وإنما جاء هذا من قائله استفهاما للإنكار على من قال لا تكتبوا أي لا تتركوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجعلوه كأمر من هجر في كلامه؟ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يهجر وقول عمر رضي الله عنه حسبنا كتاب الله رد على من نازعه لا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم(دعوني فالذي أنا فيه خير) معناه دعوني من النزاع واللغط الذي شرعتم فيه فالذي أنا فيه من مراقبة الله تعالى والتأهب للقائه والفكر في ذلك ونحوه أفضل مما أنتم فيه(جزيرة العرب) قال أبو عبيد قال الأصمعي جزيرة العرب ما بين أقصى عدن إلى ريف العراق في الطول وأما في العرض فمن جدة وما والاها إلى أطراف الشأم وقال أبو عبيدة هي ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى اليمن في الطول وأما في العرض فما بين رمل يبرين إلى منقطع السماوة قالوا وسميت جزيرة لإحاطة البحار بها من نواحيها وانقطاعها عن المياه العظيمة وأصل الجزر في اللغة القطع وأضيفت إلى العرب لأنها الأرض التي كانت بأيديهم قبل الإسلام وديارهم التي هي أوطانهم وأوطان أسلافهم(وأجيزوا الوفد بنحو ما كنتم أجيوهم) قال العلماء هذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بإجازة الوفود وضيافتهم وإكرامهم تطييبا لنفوسهم وترغيبا لغيرهم من المؤلفة قلوبهم ونحوهم وإعانة لهم على سفرهم(وسكت عن الثالثة أو قالها فأنسيتها) الساكت هو ابن عباس والناسي هو سعيد بن جبير قال المهلب الثالثة هي تجهيز جيش أسامة رضي الله عنه]

الْبَيَاضَ عَلَى أَنْ كَانَ الْبَذْرُ وَالْبَقَرُ وَالْحَدِيدُ مِنْ عُمَرَ،فَلِعُمَرَ الثُّلُثَانِ وَلَهُمُ الثُّلُثُ،وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فَلَهُمُ الشَّطْرُ،وَأَعْطَى النَّخْلَ وَالْعِنَبَ عَلَى أَنَّ لِعُمَرَ الثُّلُثَيْنِ وَلَهُمُ الثُّلُثَ "[١٢١٢]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ".قَالَ مَالِكٌ:قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:فَفَحَصَ عَنْ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَاهُ الثَّلَجُ وَالْيَقِينُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ "،فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ.قَالَ مَالِكٌ:قَدْ أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَهُودَ نَجْرَانَ وَفَدَكَ[١٢١٣]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ قَالَ " لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ "[١٢١٤]

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ،وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا»[١٢١٥]

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى إِقْرَارِ مَنْ تُقْبَل مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ عَلَى السُّكْنَى فِي بِلاَدِ الإِسْلاَمِ فِيمَا عَدَا الْحِجَازَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،فَتَجُوزُ لَهُمْ سُكْنَى الْيَمَنِ وَغَيْرِهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مِمَّا لاَ يَدْخُل فِي بِلاَدِ الْحِجَازِ.[١٢١٦]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بحديث أَبِي عُبَيْدَةَ،قَالَ:آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ:" أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ،وَأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ "[١٢١٧] .

قَالُوا:فَقَوْلُهُ ﷺ:أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْل الْحِجَازِ يَدُل عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ لِمَنْ تُقْبَل مِنْهُ الْجِزْيَةُ سُكْنَى الْحِجَازِ وَالإِقَامَةُ فِيهِ،كَمَا لاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَنْ يُصَالِحَهُمْ عَلَى الإِقَامَةِ فِيهِ

[١٢١٢] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٢٤)(١١٧٤٠) صحيح مرسل

[١٢١٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٥٠)(١٨٧٥١) صحيح مرسل

[١٢١٤] - مسند أحمد ط الرسالة (٤٣/ ٣٧١)(٢٦٣٥٢) صحيح

[١٢١٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨)٦٣ - (١٧٦٧)

[١٢١٦] - حاشية قليوبي ٤ / ٢٣٠، نهاية المحتاج ٨ / ٨٥، المغني ٨ / ٥٣٠، كشاف القناع ٣ / ٢٣٤، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ١٧٩ - ١٨٥ .

[١٢١٧] - مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٢٢١)(١٦٩١) صحيح

بجزْيَة،وَإِنْ فَعَل ذَلكَ كَانَ الصُّلْحُ فَاسدًا.وَالْمُرَادُ بِالْحِجَازِ - كَمَا سَبَقَ - مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْيَمَامَةُ وَمَخَاليفُهَا.وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ أَخْرِجُوا أَهْل نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.

فَيُحْمَل عَلَى أَنَّ بِلاَدَهُمْ - وَهِيَ الْيَمَنُ - مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا ؛لأَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَهُ ﷺ عَلَيْهِمْ،وَكَانَ قَدْ صَالَحَهُمْ عَلَى أَلاَ يُحْدِثُوا حَدَثًا،وَلاَ يَأْكُلُوا الرِّبَا،فَأَكَلُوا الرِّبَا،وَنَقَضُوا الْعَهْدَ،فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا السَّبَبِ،لاَ لِكَوْنِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ لاَ تَصْلُحُ لِسُكْنَى أَهْل الذِّمَّةِ.[١٢١٨]

عَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَجْلَى اليَهُودَ،وَالنَّصَارَى مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ إِخْرَاجَ اليَهُودِ مِنْهَا،وَكَانَتِ الأَرْضُ حِينَ ظَهَرَ عَلَيْهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ،وَأَرَادَ إِخْرَاجَ اليَهُودِ مِنْهَا،فَسَأَلَتِ اليَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُقِرَّهُمْ بِهَا،أَنْ يَكْفُوا عَمَلَهَا،وَلَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا»،فَقَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلاَهُمْ عُمَرُ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَاءَ"[١٢١٩]

وَلأَنَّهُ لَمْ يُنْقَل عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ أَنَّهُ أَجْلَى مَنْ كَانَ بِالْيَمَنِ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ،فَقَدْ أَجَلاَهُمْ عُمَرُ مِنَ الْحِجَازِ وَأَقَرَّهُمْ بِالْيَمَنِ.[١٢٢٠]

شُرُوطُ مَنْ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ:

اشْتَرَطَ الْفُقَهَاءُ لِفَرْضِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ عِدَّةَ شُرُوطٍ مِنْهَا:الْبُلُوغُ،وَالْعَقْل،وَالذُّكُورَةُ،وَالْحُرِّيَّةُ،وَالْمَقْدِرَةُ الْمَالِيَّةُ،وَالسَّلاَمَةُ مِنَ الْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَةِ.

وَفِيمَا يَلِي تَفْصِيل الْقَوْل فِي هَذِهِ الشُّرُوطِ.

أَوَّلاً:الْبُلُوغُ:

[١٢١٨] - المهذب مع المجموع ٨ / ٢٦٧ .

[١٢١٩] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٧)(٢٣٣٨) وصحيح مسلم (٣/ ١١٨٧)٦ - (١٥٥١)

[ش (ظهر) غلب وانتصر.(لله ولرسوله وللمسلمين) وذلك أن خيبر فتح بعضها صلحا وبعضها عنوة فالذي فتح عنوة كان خمسه لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وأربعة أخماسه للمسلمين الغانمين والذي فتح صلحا كان لليهود ثم صار للمسلمين بعقد الصلح.(تيماء) موضع على طريق المدينة من الشام.(أريحاء) قرية من بلاد الشام]

[١٢٢٠] - نهاية المحتاج ٨ / ٩٠ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُضْرَبُ عَلَى صِبْيَانِ أَهْلِ الذِّمَّةِ[1221] .
قَال ابْنُ قُدَامَةَ:لاَ نَعْلَمُ بَيْنَ أَهْل الْعِلْمِ خِلاَفًا فِي هَذَا،وَبِهِ قَال أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو ثَوْرٍ،وَقَال ابْنُ الْمُنْذِرِ،لاَ أَعْلَمُ عَنْ غَيْرِهِمْ خِلاَفَهُمْ[1222]
وَاسْتَدَلُّوا لِهَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:29]آيَةَ الْجِزْيَةِ.
فَالْمُقَاتَلَةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْقِتَال تَسْتَدْعِي أَهْلِيَّةَ الْقِتَال مِنَ الْجَانِبَيْنِ،فَلاَ تَجِبُ عَلَى مَنْ لَيْسَ أَهْلاً لِلْقِتَال،وَالصِّبْيَانُ لَيْسُوا مِنْ أَهْل الْقِتَال فَلاَ تَجِبُ الْجِزْيَةُ عَلَيْهِمْ.[1223]
وَبِحَدِيثِ مُعَاذٍ السَّابِقِ.حَيْثُ أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُل حَالِمٍ دِينَارًا،أَوْ عَدْلَهُ مِنَ الْمَعَافِرِ.
وَالْحَالِمُ:مَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ بِالاِحْتِلاَمِ،أَوْ غَيْرِهِ مِنْ عَلاَمَاتِ الْبُلُوغِ،فَمَفْهُومُ الْحَدِيثِ يَدُل عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَجِبُ عَلَى الصِّبْيَانِ.
فعَنْ نَافِعٍ،أَنَّ أَسْلَمَ،أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْجِزْيَةِ «أَلَّا يَضْرِبُوا الْجِزْيَةَ،إِلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي،وَلَا يَضْرِبُوهَا عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[1224]
قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِيمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ وَمَنْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ.أَلَا تَرَاهُ إِنَّمَا جَعَلَهَا عَلَى الذُّكُورِ الْمُدْرِكِينَ،دُونَ الْإِنَاثِ وَالْأَطْفَالِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ كَانَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ،لَوْ لَمْ يُؤَدُّوهَا،وَأَسْقَطَهَا عَنْ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ الْقَتْلَ وَهُمُ الذُّرِّيَّةُ.وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مُعَاذٍ بِالْيَمَنِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ:«أَنَّ عَلَى كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا»،مَا فِيهِ تَقْوِيَةٌ لِقَوْلِ

[1221] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٠، الهداية ٢ / ١٦٠، الاختيار ٤ / ٣٨، الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤، الجوهرة النيرة ٢ / ٣٥١، حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، مجمع الأنهر ١ / ٦٧١، الخراج ص ١٢٢، المنتقى ٢ / ١٧٦، المقدمات لابن رشد ١ / ٣٩٧، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، البداية لابن رشد ١ / ٤٠٤، القوانين الفقهية ص ١٧٥، حاشية قليوبي ٤ / ٢٢٨٩، الأم ٤ / ٢٧٩، رحمة الأمة ٢ / ١٨٢، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢٢٧، كشاف القناع ٣ / ١١٩، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٤٢، المبدع ٣ / ٤٠٨، المحلى ٧ / ٥٦٦ .

[1222] - المغني ٨ / ٥٠٧ .

[1223] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٠ .

[1224] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٥٠)(١٤٣) صحيح

عُمَرَ.أَلَا تَرَى أَنَّهُ ﷺ خَصَّ الْحَالِمَ دُونَ الْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ وَفِي بَعْضِ كُتُبِهِ:«الْحَالِمُ وَالْحَالِمَةُ» فَنَرَى – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّ الْمَحْفُوظَ الْمُثْبَتَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي لَا ذِكْرَ لِلْحَالِمَةِ فِيهِ،لِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.وَبِهِ كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ.فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ الْحَالِمَةِ مَحْفُوظًا،فَإِنَّ وَجْهَهُ عِنْدِي – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ،إِذْ كَانَ مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادِهِمْ يُقْتَلُونَ مَعَ رِجَالِهِمْ.وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ثُمَّ نُسِخَ وَذَكَرَ الْحُجَجَ فِي ذَلِكَ[1225]

وَقَدْ مَضَتِ السُّنَّةُ عَلَى أَنْ لاَ جِزْيَةَ عَلَى الصِّبْيَانِ،وَعَمِلَ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ.[1226]

فَقَدْ صَالَحَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَهْلَ بُصْرَى عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا عَنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا وَجَرِيبَ حِنْطَةٍ،وَصَالَحَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَهْلَ أَنْطَاكِيَةَ عَلَى الْجِزْيَةِ أَوِ الْجَلَاءِ،فَجَلَا بَعْضُهُمْ وَأَقَامَ بَعْضُهُمْ،فَأَمَّنَهُمْ وَوَضَعَ عَلَى كُلِّ حَالِمٍ مِنْهُمْ دِينَارًا وَجَرِيبًا.

وَوَضَعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ وَأَخْرَجَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ[1227]

وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ لِحَقْنِ الدَّمِ،وَالصِّبْيَانُ دِمَاؤُهُمْ مَحْقُونَةٌ بِدُونِهَا.[1228]

وَإِذَا بَلَغَ الصَّبِيُّ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَهَلْ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِئْنَافِ عَقْدٍ أَمْ يَكْفِي عَقْدُ أَبِيهِ

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي وَجْهٍ إِلَى أَنَّهُ يَكْفِي عَقْدُ أَبِيهِ ؛لِأَنَّ الْعَقْدَ الأَوَّلَ يَتَنَاوَلُ الْبَالِغِينَ وَمَنْ سَيَبْلُغُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ أَبَدًا،وَعَلَى هَذَا اسْتَمَرَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ فِي جَمِيعِ الأَعْصَارِ،وَلَمْ يُفْرِدُوا كُلَّ مَنْ بَلَغَ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ.[1229]

[1225] – المصدر السابق

[1226] – الأموال لأبي عبيد ص ٥٤ .

[1227] – فتوح البلدان ص ١٢٠، ١٥٤، ٢٢٠ .

[1228] – المغني ٨ / ٥٠٧ .

[1229] – حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧١، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، والمقدمات لابن رشد ١ / ٣٩٧، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، والمغني ٨ / ٥٠٨، وكشاف القناع ٣ / ١٢١، وأحكام أهل الذمة ١ / ٤٥ .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الْوَجْهِ الصَّحِيحِ عِنْدَهُمْ إِلَى أَنَّ الصَّبِيَّ إِذَا بَلَغَ يُخَيَّرُ بَيْنَ الْتِزَامِ الْعَقْدِ وَبَيْنَ أَنْ يُرَدَّ إِلَى مَأْمَنِهِ،فَإِنِ اخْتَارَ الذِّمَّةَ عُقِدَتْ لَهُ،وَإِنِ اخْتَارَ اللَّحَاقَ لِمَأْمَنِهِ أُجِيبَ إِلَيْهِ.[1230]

وَإِذَا كَانَ الْبُلُوغُ فِي أَوَّلِ حَوْلِ قَوْمِهِ وَأَهْلِهِ أُخِذَتْ مِنْهُ الْجِزْيَةُ فِي آخِرِهِ مَعَهُمْ،وَإِذَا كَانَتْ فِي أَثْنَائِهِ أُخِذَ مِنْهُ فِي آخِرِهِ بِقِسْطِهِ.

ثَانِيًا:الْعَقْلُ:

نَقَلَ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَابْنُ قُدَامَةَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ اتِّفَاقَ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُؤْخَذُ مِنْ مَجَانِينِ أَهْلِ الذِّمَّةِ[1231].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ:هَذَا إِجْمَاعٌ،لَكِنَّ ابْنَ رُشْدٍ ذَكَرَ خِلاَفًا فِي الْمَجْنُونِ،وَذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ نَقْلاً عَنِ الْبَيَانِ وَجْهًا ضَعِيفًا لِلشَّافِعِيَّةِ لِأَنَّهُ كَالْمَرِيضِ وَالْهَرِمِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:وَلَيْسَ بِشَيْءٍ.[1232]

ثَالِثًا:الذُّكُورَةُ:

جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُضْرَبُ عَلَى نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ.لِمَا سَبَقَ مِنَ الأَدِلَّةِ[1233].

رَابِعًا:الْحُرِّيَّةُ:

جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُؤْخَذُ مِنْ عَبِيدِ أَهْلِ الذِّمَّةِ،وَسَوَاءٌ كَانَ الْعَبْدُ مَمْلُوكًا لِمُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ.وَقَدْ نَقَلَ هَذَا الاتِّفَاقَ ابْنُ الْمُنْذِرِ،وَابْنُ هُبَيْرَةَ وَابْنُ قُدَامَةَ وَابْنُ رُشْدٍ.

[1230] - روضة الطالبين ١٠ / ٣٠٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٥ .

[1231] - البدائع ٩ / ٤٣٣٠، وفتح القدير ٥ / ٢٩٣، والخراج مع شرحه الرتاج ٢ / ١٠٥، وكتاب السير لمحمد بن الحسن ص ٢٦٣، والفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧١، والكافي ١ / ٤٧٩، مختصر خليل ص ١١٧، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، بلغة السالك ١ / ٣٦٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٩، وحاشية قليوبي ٤ / ٢٢٩، والغاية القصوى ٢ / ٩٥٦، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٤، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٢، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٥، والمغني ٨ / ٥٠٧، وكشاف القناع ٣ / ١١٩، المبدع ٣ / ٤٠٨، والإنصاف ٤ / ٢٢٢، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٤٢، ٤٧ .

[1232] - الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١١٢، بداية المجتهد ١ / ٤٠٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٩ .

[1233] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٠، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، والاختيار ٤ / ١٣٨، والهداية ٢ / ١٦٠، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٨، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٢ والقوانين الفقهية ص ١٧٥، والمنتقى ٢ / ١٧٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٢، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٥ ورحمة الأمة ٢ / ١٨٢، والميزان ٢ / ١٨٩، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٤٢، وكشاف القناع ٣ / ١١٩، والإفصاح ٢ / ٢٩٤، الخراج لابن آدم ص ٦٧ .

لِأَنَّ الْجِزْيَةَ شُرِعَتْ بَدَلاً عَنِ الْقَتْلِ فِي حَقِّهِمْ،وَعَنِ النُّصْرَةِ فِي حَقِّنَا،وَالْعَبْدُ مَحْقُونُ الدَّمِ بِدُونِ دَفْعِ الْجِزْيَةِ.وَالْعَبْدُ أَيْضًا لاَ تَلْزَمُهُ النُّصْرَةُ ؛لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْهَا،فَإِذَا امْتَنَعَ الأَصْلُ فِي حَقِّهِ امْتَنَعَ الْبَدَلُ،فَلاَ تَجِبُ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ.[1234]

وَذَهَبَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ إِلَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مَمْلُوكًا لِسَيِّدٍ كَافِرٍ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ سَيِّدِهِ الْكَافِرِ،وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" لَا تَشْتَرُوا رَقِيقَ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ خَرَاجٍ يُؤَدِّي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ،وَأَرْضِيهِمْ فَلَا تَبْتَاعُوهَا،وَلَا يُقِرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِالصَّغَارِ بَعْدَ إِذْ نَجَّاهُ اللهُ مِنْهُ ".

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَرَادَ فِيمَا نَرَى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ لَهُ مَمَالِيكُ وَأَرْضٌ وَأَمْوَالٌ ظَاهِرَةٌ كَانَتْ أَكْثَرَ لِجِزْيَتِهِ،وَكَانَتْ سُنَّةُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِمْ إِنَّمَا كَانَتْ يَضَعُ الْجِزْيَةَ عَلَى قَدْرِ الْيَسَارِ وَالْعُسْرِ،فَلِهَذَا كَرِهَ أَنْ يُشْتَرَى رَقِيقُهُمْ،وَأَمَّا شِرَاءُ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى الْخَرَاجِ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ:وَلَا يُقِرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِالصَّغَارِ بَعْدَ إِذْ نَجَّاهُ اللهُ مِنْهُ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَقَدْ رَخَّصَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ عُمَرَ رِجَالٌ مِنْ أَكَابِرِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ،مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَتْ لَهُ أَرْضٌ بِرَاذَانَ،وَخَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ وَغَيْرُهُمَا[1235]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:«لَا تَشْتَرُوا رَقِيقَ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا أَرَضِيهِمْ»،قَالَ:فَقُلْتُ لِلْحَسَنِ وَلِمَ؟ قَالَ:لِأَنَّهُمْ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ"[1236]

قَال أَحْمَدُ:أَرَادَ أَنْ يُوَفِّرَ الْجِزْيَةَ ؛لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا اشْتَرَاهُ سَقَطَ عَنْهُ أَدَاءُ مَا يُؤْخَذُ مِنْهُ،وَالذِّمِّيُّ يُؤَدِّي عَنْهُ وَعَنْ مَمْلُوكِهِ خَرَاجَ جَمَاجِمِهِمْ.[1237]

[1234] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، الهداية ٢ / ١٦٤، وفتح القدير ٥ / ٢٩٤، والاختيار ٤ / ١٣٨، والمقدمات ١ / ٣٩٧، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، ومنح الجليل ١ / ٧٥٧، وبلغة السالك ١ / ٣٦٧، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، والمهذب مع المجموع ١٨ / ٢٣٢، وحاشية قليوبي ٤ / ٢٢٩، وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٣، والمغني ٨ / ٥١٠، وكشاف القناع ٣ / ١٢٠، والأحكام السلطانية للفراء ص ١٥٤، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٥٥، الإفصاح لابن هبيرة ٢ / ٢٩٤، ورحمة الأمة للدمشقي ٢ / ١٨٢، والميزان للشعراني ٢ / ١٨٤، والإجماع لابن المنذر ص ٥٩ .

[1235] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٣٦)(١٨٤٠٠) حسن لغيره

[1236] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٩٩)(١٩٦) حسن لغيره

وَلِأَنَّ الْعَبْدَ ذَكَرٌ مُكَلَّفٌ قَوِيٌّ مُكْتَسِبٌ،فَوَجَبَتْ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ كَالْحُرِّ.[1238]

خَامسًا:الْمَقْدِرَةُ الْمَالِيَّةُ:

اشْتَرَطَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ لِوُجُوبِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ الْمَقْدِرَةُ الْمَالِيَّةُ،فَلاَ تَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ الْعَاجِزِ عَنِ الْعَمَلِ.

وَقَد اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُوضَعُ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِلِ[1239]:وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى الْعَمَلِ.وَاخْتَلَفُوا فِي الْفَقِيرِ غَيْرِ الْمُعْتَمِلِ.

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيُّ فِي قَوْلٍ غَيْرِ مَشْهُورٍ لَهُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُوضَعُ عَلَى الْفَقِيرِ غَيْرِ الْمُعْتَمِلِ،وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:٢٨٦]

وَجْهُ الاسْتِدْلَالِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْفَقِيرَ الْعَاجِزَ عَنِ الْكَسْبِ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَدْفَعَ الْجِزْيَةَ،وَمَتَى كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَلاَ يُكَلَّفُ بِهَا.وَقَدْ وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْجِزْيَةَ عَلَى رُءُوسِ الرِّجَالِ عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْفَقِيرِ الْمُكْتَسِبِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا.

فعَنْ أَسْلَمَ،مَوْلَى عُمَرَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أُمَرَاءِ أَهْلِ الْجِزْيَةِ:«أَنْ لَا يَضَعُوا الْجِزْيَةَ إِلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ أَوْ مَرَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَوَاسِي،وَجِزْيَتُهُمْ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا عَلَى أَهْلِ الْوَرِقِ مِنْهُمْ،وَأَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ،وَعَلَيْهِمْ أَرْزَاقُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْحِنْطَةِ مُدَّيْنِ وَثَلَاثَةُ أَقْسَاطِ زَيْتٍ،لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْجِزْيَةِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ أَرْدَبٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كُلَّ شَهْرٍ،وَمِنَ الْوَدَكِ وَالْعَسَلِ شَيْءٌ لَمْ نَحْفَظْهُ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْبَزِّ الَّتِي كَانَ يَكْسُوهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ النَّاسَ شَيْءٌ لَمْ نَحْفَظْهُ،وَيُضَيِّفُونَ مَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،وَعَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ

[1237] - الإجماع لابن المنذر ص ٥٩، والمغني ٨ / ٥١٠، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٥٦، وكتاب الروايتين والوجهين – ٢ / ٣٨٢، مكتبة المعارف بالرياض ط ١ – ١٤٠٥ هـ .

[1238] - المغني ٨ / ٥١٠ .

[1239] - المعتمل :المتكسب .

خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا،لِكُلِّ إِنْسَانٍ،وَكَانَ عُمَرُ لَا يَضْرِبُ الْجِزْيَةَ عَلَى النِّسَاءِ،وَكَانَ يَخْتِمُ فِي أَعْنَاقِ رِجَالِ أَهْلِ الْجِزْيَةِ»[1240]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَذَكَرَهُ قَالَ:ثُمَّ أَتَاهُ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ فجَعَلَ يُكَلِّمُهُ مِنْ وَرَاءِ الْفُسْطَاطِ يَقُولُ:وَاللهِ لَئِنْ وَضَعْتَ عَلَى كُلِّ جَرِيبٍ مِنْ أَرْضٍ دِرْهَمًا وَقَفِيزًا مِنْ طَعَامٍ،وَزِدْتَ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ دِرْهَمَيْنِ لَا يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلَا يُجْهِدُهُمْ.قَالَ:نَعَمْ،فَكَانَ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ فَجَعَلَهَا خَمْسِينَ وَرَوَى الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْقَدِيمِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ،عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا اسْتَغْنَى أَهْلُ السَّوَادِ زَادَ عَلَيْهِمْ،وَإِذَا افْتَقَرُوا وَضَعَ عَنْهُمْ"[1241]

وعَنْ أَبِي عَوْنٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،يَعْنِي فِي الْجِزْيَةِ عَلَى رُءُوسِ الرِّجَالِ،عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْوَسَطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ،وَعَلَى الْفَقِيرِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا"[1242]

فَقَدْ فَرَضَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى طَبَقَاتٍ ثَلَاثٍ أَدْنَاهَا الْفَقِيرُ الْمُعْتَمِلُ،فَدَل بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ غَيْرِ الْمُعْتَمِل.وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِمَحْضَرِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ،فَهُوَ إِجْمَاعٌ.[1243]

وَقَالُوا:إِنَّ الْجِزْيَةَ مَالٌ يَجِبُ بِحُلُول الْحَوْل،فَلاَ يَلْزَمُ الْفَقِيرَ الْعَاجِزَ عَنِ الْكَسْبِ كَالزَّكَاةِ وَالدِّيَةِ.[1244]

[1240] - السنن الصغير للبيهقي (٤/ ٧)(٢٩٣٩) صحيح

[1241] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٩)(١٨٦٨٤) صحيح والثاني مرسل

[1242] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٩)(١٨٦٨٥) حسن لغيره

[1243] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، الهداية ٢ / ١٦٠، فتح القدير ٥ / ٢٩٤، الاختيار ٤ / ١٣٨، الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤، حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٧، مجمع الأنهر ١ / ٦٧٢، الخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، القوانين الفقهية ص ١٧٥، الكافي ١ / ٤٧٩، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٥، منح الجليل ١ / ٧٥٧، بلغة السالك ١ / ٣٦٧، المغني ٨ / ٥٠٩، المبدع ٣ / ٤٠٩، الإنصاف ٤ / ٢٢٤، كشاف القناع ٣ / ١٢١، مغني ذوي الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام ص ١٠٤، أحكام أهل الذمة ١ / ٤٨، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٦ .

[1244] - المغني ٨ / ٥٠٩، والمبسوط ١٠ / ٧٩، وفتح القدير ٥ / ٢٩٤ .

وَأَنَّ الْعَاجزَ عَنِ الأَدَاءِ مَعْذُورٌ شَرْعًا فِيمَا هُوَ حَقُّ الْعِبَاد،لقَوْله تَعَالَى:{ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢٨٠] فَفِي الْجِزْيَة أَوْلَى.

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَأَبُو ثَوْرٍ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُوضَعُ عَلَى الْفَقِيرِ غَيْرِ الْمُعْتَمِلِ،كَمَا تُوضَعُ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِلِ،إِلاَّ أَنَّ غَيْرَ الْمُعْتَمِلِ تَكُونُ دَيْنًا فِي ذِمَّته حَتَّى يُوسِرَ،فَإِذَا أَيْسَرَ طُولِبَ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ جِزْيَةٍ.وَاسْتَدَلُّوا بِعُمُومِ قَوْله تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩] وَعُمُومِ حَدِيثِ مُعَاذ السَّابِقِ:أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا.

وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ بَدَلٌ عَنِ الْقَتْلِ،وَالسُّكْنَى فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَلَمْ يُفَارِقِ الْمَعْذُورُ فِيهَا غَيْرَهُ،فَتُؤْخَذُ مِنَ الْفَقِيرِ كَمَا تُؤْخَذُ مِنَ الْغَنِيِّ.[١٢٤٥]

سَادسًا:أَلاَ يَكُونَ مِنَ الرُّهْبَانِ الْمُنْقَطِعِينَ لِلْعِبَادَةِ فِي الصَّوَامِعِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الرُّهْبَانَ الْمُخَالِطِينَ لِلنَّاسِ،وَالْمُشَارِكِينَ لَهُمْ فِي الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ وَالْمَكَايِدِ الْحَرْبِيَّة وَالْفِكْرِيَّة تُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ،وَهُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ عَوَامِّهِمْ،فَإِنَّهُمْ رُءُوسُ الْكُفْرِ،وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ عُلَمَائِهِمْ.

وَاخْتَلَفُوا فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الرُّهْبَانِ الَّذِينَ انْقَطَعُوا لِلْعِبَادَةِ فِي الصَّوَامِعِ،وَلَمْ يُخَالِطُوا النَّاسَ فِي مَعَايِشِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ.

فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي رِوَايَةِ الْقُدُورِيِّ،وَمَالِكٌ،وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَة،وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْه إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُفْرَضُ عَلَيْهِمْ.وَسَوَاءٌ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ أَمْ غَيْرَ قَادِرِين ؛لأَنَّ الرُّهْبَانَ لاَ يُقْتَلُونَ وَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُمْ،لِمَا جَاءَ فِي وَصِيَّة أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى الشَّامِ:" لاَ تَقْتُلْ صَبِيًّا وَلاَ امْرَأَةً وَسَتَمُرُّونَ عَلَى أَقْوَامٍ فِي الصَّوَامِعِ احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ عَلَى ضَلاَلَتِهِمْ،وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ.

[١٢٤٥] - روضة الطالبين ١٠ / ٣٠٧، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢٣٢، الأحكام السلطانية ص ١٤٥، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٦، نهاية المحتاج ٨ / ٨٥، رحمة الأمة ٢ / ١٨٠، الميزان للشعراني ٢ / ١٨٥ .

فَإِذَا كَانَ الرَّاهِبُ لاَ يُقْتَل فَهُوَ مَحْقُونُ الدَّمِ بِدُون عَقْد الذِّمَّة،وَالْجزْيَةُ إِنَّمَا وَجَبَتْ لِحَقْنِ الدَّمِ،فَلَمْ تَجِبْ عَلَيْه،كَمَا لاَ تَجبُ عَلَى الصَّبِيِّ وَالْمَرْأَةِ ؛وَلِأَنَّ الرَّاهِبَ مِنْ جُمْلَةِ الْفُقَـــرَاءِ ؛لِأَنَّهُ إِنَّمَا تُرِكَ لَهُ مِنَ الْمَال الْيَسِيرُ.[1246]

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي رِوَايَةٍ نَقَلَهَا عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ،وَهُوَ قَوْل أَبِي يُوسُفَ وَأَحْمَـــدَ فِي رِوَايَةٍ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُوضَعُ عَلَى الرُّهْبَان إِذَا كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَـــل.قَـــال أَبُـــو يُوسُفَ:" الْمُتَرَهِّبُونَ الَّذِينَ فِي الدِّيَارَات إِذَا كَانَ لَهُمْ يَسَارٌ أُخِذَ مِنْهُمْ،وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَـــا هُمْ مَسَاكِينُ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ أَهْل الْيَسَارِ مِنْهُمْ لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُمْ،وَكَذَلِكَ أَهْل الصَّـــوَامِعِ إِنْ كَانَ لَهُمْ غِنًى وَيَسَارٌ،وَإِنْ كَانُوا قَدْ صَيَّرُوا مَا كَانَ لَهُمْ لِمَنْ يُنْفِقُهُ عَلَى الدِّيَارَاتِ وَمَـــنْ فِيهَا مِنَ الْمُتَرَهِّبِينَ وَالْقُوَّامِ أُخِذَت الْجِزْيَةُ مِنْهُمْ ".

وَقَد اسْتَدَل مَنْ قَيَّدَ أَخْذَ الْجِزْيَةِ مِنَ الرُّهْبَانِ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَل بِأَمْرَيْنِ:

الأَوَّل – أَنَّ الْمُعْتَمِل إِذَا تَرَكَ الْعَمَل تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ،فَكَذَلِكَ الرَّاهِـــبُ الْقَـــادِرُ عَلَـــى الْعَمَل.

وَالثَّانِي:أَنَّ الأَرْضَ الْخَرَاجِيَّةَ الصَّالِحَةَ لِلزِّرَاعَةِ لاَ يَسْقُطُ عَنْهَا الْخَرَاجُ بِتَعْطِيل الْمَالِك لَهَا عَنِ الزِّرَاعَةِ،فَكَذَلِكَ الرَّاهِبُ الْقَادِرُ عَلَى الْعَمَل لاَ تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ إِذَا تَرَكَ الْعَمَل.

هَذَا بِالإِضَافَة إِلَى الأَدِلَّة الَّتِي اسْتَدَل بِهَا أَصْحَابُ الْمَذْهَبِ الأَوَّل عَلَى عَدَمِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الرَّاهِبِ،فَقَد اسْتَدَل بِهَا أَصْحَابُ هَذَا الْمَذْهَبِ،وَحَمَلُوهَا عَلَى الرَّاهِبِ غَيْرِ الْمُعْتَمِل الَّذِي يَعِيشُ عَلَى صَدَقَاتِ الْمُوسِرِينَ.[1247]

[1246] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، البدائع ٩ / ٤٣٣١، فتح القدير ٥ / ٢٩٥، حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٩، اللباب ٤ / ١٤٥، مجمع الأنهر ١ / ٦٧٢، بداية المجتهد ١ / ٤٠٤، حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، الكافي لابن عبد البر ١ / ٤٧٩، المنتقى ٢ / ١٧٦، مواهب الجليل ٣ / ٣٨١، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٢، مغني المحتاج ٤ / ٢٦٤، المغني ٨ / ٥١٠، كشاف القناع ٣ / ١٢٠، المبدع ٣ / ٤١٠، الاختيارات جمع البعلي ص ٣١٩ .

[1247] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، الهداية ٢ / ١٦١، فتح القدير ٥ / ٢٩٤ – ٢٩٥، بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣١، الخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج – ٢ / ٩٩ – ١٠١، الإرشاد ببغداد – ١٩٧٥ م، والجوهرة النيرة ٢ / ٣٥١، الاختيار ٤ / ١٣٨ .

وَذَهَبَ الشَّافعيُّ فِي الْقَوْلِ الْمَعْمُولِ بِهِ عِنْدَ الشَّافعِيَّةِ وَأَبُو ثَوْرٍ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَجِبُ عَلَى الرُّهْبَانِ الَّذِينَ يَنْقَطِعُونَ لِلْعِبَادَةِ فِي الأَدْيِرَةِ وَالصَّوَامِعِ،سَوَاءٌ أَكَانُوا مُوسِرِينَ أَوْ غَيْرَ مُوسِرِينَ،قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ أَمْ غَيْرَ قَادِرِينَ.

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] فَهُوَ يَشْمَلُ الرُّهْبَانَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ وَغَيْرَ الْقَادِرِينَ،الْمُوسِرِينَ وَغَيْرَ الْمُوسِرِينَ.وَبِعُمُومِ الأَحَادِيثِ الْقَاضِيَةِ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ كُلِّ بَالِغٍ كَحَدِيثِ مُعَاذٍ السَّابِقِ:أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا.وَحَدِيثِ عُمَرَ السَّابِقِ:وَلاَ يَضْرِبُوهَا إِلاَّ عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى،وَبِمَا رَوَى أَبُو عُبَيْدٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،أَنَّهُ فَرَضَ عَلَى رُهْبَانِ أَهْلِ الدِّيَارَاتِ،عَلَى كُلِّ رَاهِبٍ دِينَارَيْنِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَلَا أَرَى عُمَرَ فَعَلَ هَذَا إِلَّا لِعِلْمِهِ بِطَاقَتِهِمْ لَهُ،وَإِنَّ أَهْلَ دِينِهِمْ يَتَحَمَّلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ،كَمَا أَنَّهُمْ يَكْفُونَهُمْ جَمِيعَ مُؤْنَاتِهِمْ". [١٢٤٨]

وَأَمَّا الْمَعْقُولُ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ:أَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ الدَّمِ،وَالرَّاهِبُ غَيْرُ مَحْقُونِ الدَّمِ،فَتَجِبُ عَلَيْهِ الْجِزْيَةُ لِحَقْنِ الدَّمِ.وَالثَّانِي:أَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ سُكْنَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَالرَّاهِبُ كَغَيْرِهِ فِي الانْتِفَاعِ بِالدَّارِ،فَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ. [١٢٤٩]

سَابِعًا:السَّلاَمَةُ مِنَ الْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَةِ:

إِذَا أُصِيبَ الْمُطَالَبُ بِالْجِزْيَةِ بِعَاهَةٍ مُزْمِنَةٍ،كَالْمَرَضِ،أَوِ الْعَمَى،أَوِ الْكِبَرِ الْمُقْعِدِ عَنِ الْعَمَلِ وَالْقِتَالِ،فَهَل تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ أَمْ لاً ؟

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ:

فَظَاهِرُ الرِّوَايَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَمَذْهَبُ أَحْمَدَ،وَالشَّافعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ:أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُؤْخَذُ مِنْ هَؤُلاَءِ وَلَوْ كَانُوا مُوسِرِينَ.وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا

[١٢٤٨] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٦٣)(١٦٦ و١٦٧) صحيح

[١٢٤٩] - روضة الطالبين ١٠ / ٣٠٧، نهاية المحتاج ٨ / ٨٥، الأم ٤ / ٢٨٦، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢٣٢، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٦، نهاية المحتاج ٨ / ٨٥، والأموال لأبي عبيد ص ٥٨، والأموال لابن زنجويه ١ / ١٦٣ .

بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].

فَفَحْوَى الآيَةِ يَدُل عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِمَّنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِتَال ؛لاسْتِحَالَةِ الْخِطَابِ بِالأَمْرِ بِقِتَال مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْقِتَال،إِذِ الْقِتَال لاَ يَكُونُ إِلاَّ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَمَنْ يُمْكِنُهُ أَدَاؤُهُ مِنَ الْمُحْتَرِفِينَ،وَلِذَلِكَ لاَ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْل الْقِتَال:كَالأَعْمَى وَالزَّمِنِ وَالْمَفْلُوجِ وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ الْفَانِي:سَوَاءٌ أَكَانَ مُوسِرًا أَمْ غَيْرَ مُوسِرٍ ؛وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِمَّنْ أُبِيحَ قَتْلُهُ مِنَ الْحَرْبِيِّينَ،وَهَؤُلاَءِ لاَ يُقْتَلُونَ[1250].

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَأَبُو يُوسُفَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنَ الزَّمْنَى وَالْعُمْيَانِ وَالشُّيُوخِ الْكِبَارِ إِذَا كَانَ لَهُمْ مَالٌ.[1251]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِأَنَّ هَؤُلاَءِ الْمُصَابِينَ بِالْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَةِ أَهْلٌ لِلْقِتَال،إِذْ إِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ إِذَا كَانُوا ذَوِي رَأْيٍ فِي الْحَرْبِ وَالْقِتَال،فَتَجِبُ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ،كَمَا تَجِبُ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ تَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِل،وَوُجُودُ الْمَال عِنْدَ هَؤُلاَءِ الْمُصَابِينَ أَكْثَرُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَل،فَتَجِبُ عَلَيْهِمِ الْجِزْيَةُ إِذَا كَانُوا مُوسِرِينَ،وَلاَ تَجِبُ عَلَيْهِمْ إِذَا كَانُوا مُعْسِرِينَ.[1252]

وَيَدُل عَلَى ذَلِكَ مَا فِي كِتَابِ الصُّلْحِ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَهْل الْحِيرَةِ:" هَذَا كِتَابٌ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لأَهْلِ الْحِيرَةِ،أَنَّ خَلِيفَةَ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ تعاى عَنْهُ أَمَرَنِي أَنْ أَسِيرَ بَعْدَ مُنْصَرَفِي مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ بِأَنْ أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ،وَإِلَى رَسُوله عَلَيْهِ الصَّلاَة وَالسَّلاَم وَأُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ وَأُنْذِرُهُمْ مِنَ النَّارِ؛فَإِنْ أَجَابُوا فَلَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى

[1250] – البدائع ٩ / ٤٣٣١، فتح القدير ٥ / ٢٩٣، حاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠١، مجمع الأنهر ١ / ٦٧١، الاختيار ٤ / ١٣٨، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٤٩، كشاف القناع ٣ / ١٢٠، الإنصاف ٤ / ٢٢٢، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٦، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ٩٦ .

[1251] – الكافي لابن عبد البر ١ / ٤٧٩، حاشية الزرقاني على مختصر خليل ٢ / ١٤١، الشرح الكبير على هامش حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، منح الجليل ١ / ٧٥٧، بلغة السالك ١ / ٣٦٧، الخراج لأبي يوسف ص ١٢٣، الهداية ٢ / ١٦٠، فتح القدير ٥ / ٢٩٣، الاختيار ٤ / ١٣٨ .

[1252] – الاختيار ٤ / ١٣٨، الأموال لابن زنجويه ١ / ١٦٣ – ١٦٤ .

الْمُسْلمينَ،وَإِنِّي انْتَهَيْتُ إِلَى الْحيرَة فَخَرَجَ إِلَيَّ إِيَاسُ بْنُ قَبِيصَةَ الطَّائِيُّ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْحيرَة منْ رُؤَسَائِهِمْ،وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ إِلَى اللَّه وَإِلَى رَسُوله فَأَبَوْا أَنْ يُجِيبُوا فعرضت عَلَيْهِم الجزمية أَو الْحَرْبَ فَقَالُوا:لَا حَاجَةَ لَنَا بحَرْبك؛وَلَكنْ صَالحْنَا عَلَى مَا صَالَحْتَ عَلَيْه غَيْرَنَا منْ أَهْلِ الْكتَاب فِي إِعْطَاءِ الْجزْيَة،وَإِنِّي نَظَرْتُ فِي عدَّتهمْ فَوَجَدْتُ عدَّتَهُمْ سَبْعَةَ آلاف رَجُلٍ،ثُمَّ مَيَّزْتُهُمْ فَوَجَدْتُ مَنْ كَانَتْ به زَمَانَةٌ أَلْفَ رَجُلٍ فَأَخْرَجْتُهُمْ منَ الْعدَّة؛فَصَارَ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْه الْجزْيَةُ ستَّةَ آلاف؛فَصَالَحُوني عَلَى ستِّينَ أَلْفًا،وَشَرَطْتُ عَلَيْهِمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ عَهْدَ اللَّه وَميثَاقَهُ الَّذي أَخَذَ عَلَى أَهْلِ التَّوْرَاة وَالإِنْجيل:أَنْ لَا يُخَالفُوا وَلا يُعينُوا كَافرًا عَلَى مُسْلمٍ منَ الْعَرَب وَلا منَ الْعَجَم،وَلا يَدُلُّوهُمْ عَلَى عَوْرَات الْمُسْلمين،عَلَيْهِمْ بِذَلكَ عَهْدُ اللَّه وَميثَاقه الَّذي أَخَذَهُ أَشَدَّ مَا أَخَذَهُ عَلَى نَبيٍّ منْ عَهْد أَوْ ميثَاق أَوْ ذمَّة؛فَإِنْ هُمْ خَالَفُوا فَلا ذمَّةَ لَهُمْ وَلا أَمَانَ،وَإِنْ هُمْ حَفظُوا ذَلكَ وَرَعَوْهُ وَأَدَّوْهُ إِلَى الْمُسْلمينَ؛فَلَهُمْ مَا للْمُعَاهَد وَعَلَيْنَا الْمَنْعُ لَهُمْ؛فَإِنْ فَتَحَ الله علينا فهم على ذمَّته من؛فَلهم بذلك عهد الله أَشَدَّ مَا أَخَذَ عَلَى نَبيٍّ منْ عَهْد أَوْ ميثَاق،وَعَلَيْهِمْ مثْلُ ذَلكَ لَا يُخَالفُوا؛فَإِنْ غُلبُوا فَهُمْ في سعَة يَسَعُهُمْ مَا وَسعَ أَهْلُ الذِّمَّة.وَلا يَحلُّ فيمَا أُمرُوا به أَنْ يُخَالفُوا وَجَعَلْتُ لَهُمْ أَيُّمَا شَيْخٍ ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ منَ الآفَات أَوْ كَانَ غَنيا فَافْتَقَرَ وَصَارَ أَهْلُ دينه يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْه طَرَحْتُ جزْيَتَهُ وَعيلَ منْ بَيْت مَال الْمُسْلمينَ.

وَعيَالُهُ مَا أَقَامَ بدَارِ الْهجْرَة وَدَار الإِسْلام؛فَإِنْ خَرَجُوا إِلَى غَيْر دَار الْهجْرَة وَدَار الإِسْلام؛فَلَيْسَ عَلَى الْمُسْلمينَ النَّفَقَةَ عَلَى عيَالهمْ.وَأَيُّمَا عَبْد منْ عَبيدهمْ أَسْلَمَ أُقيمَ في أَسْوَاق الْمُسْلمينَ فَبيعَ بأَعْلَى مَا يُقَدَّرُ عَلَيهمْ في غَيْر الْوَكْس وَلا تَعْجيل وَدُفعَ ثَمَنُهُ إِلَى صَاحبه،وَلَهُمْ كُلُّ مَا لَبسُوا منَ الزِّيِّ إلا زيَّ الْحَرْب منْ غَيْر أَنْ يَتَشَبَّهُوا بالْمُسْلمينَ في لبَاسهمْ.وَأَيُّمَا رَجُلٍ منْهُمْ وُجدَ عَلَيْه شَيْءٌ منْ زيِّ الْحَرْب سُئلَ عَنْ لبْسه ذَلكَ فَإِنْ جَاءَ منْهُ بمَخْرَجٍ؛وَإِلا عُوقبَ بقَدْر مَا عَلَيْه منْ زيِّ الْحَرْب.وَشُرطَتْ عَلَيْهِمْ جبابة مَا صالحتهم عَلَيْه حَتَّى يؤدوه إِلَى بَيْت مَال الْمُسْلمينَ عُمَّالُهُمْ منْهُمْ؛فَإِنْ طَلَبُوا عَوْنًا منَ الْمُسْلمينَ أُعينُوا به وَمَئُونَةُ الْعَوْن منْ بَيْت مَال الْمُسْلمينَ"..[١٢٥٣]

[١٢٥٣] - الخراج لأبي يوسف (ص:١٥٧)، والأموال لأبي عبيد ١ / ٤٦ ط حجازي .

وَمَذْهَبُ أَبِي ثَوْرٍ أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنَ الْمُصَابِينَ بِالْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَةِ،وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مُوسِرِينَ.وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩] فَهُوَ يَشْمَل الزَّمْنَى وَالْعُمْيَانَ وَالشُّيُوخَ الْكِبَارَ.

وَبِعُمُومِ الأَحَادِيثِ الْقَاضِيَةِ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ كُل حَالِمٍ،كَحَدِيثِ مُعَاذٍ السَّابِقِ.الَّذِي أَمَرَهُ فِيهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُل حَالِمٍ دِينَارًا،وَحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ السَّابِقِ:وَلاَ يَضْرِبُوهَا إِلاَّ عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى،وَاسْتَدَلُّوا مِنَ الْمَعْقُول بِأَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ الدَّمِ،وَهَؤُلاَءِ كَغَيْرِهِمْ فِي الاِنْتِفَاعِ بِحَقْنِ الدَّمِ،فَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُمُ الْجِزْيَةُ بِتِلْكَ الإِصَابَاتِ،وَأَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ سُكْنَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَهَؤُلاَءِ كَغَيْرِهِمْ فِي الاِنْتِفَاعِ بِالدَّارِ،فَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُمُ الْجِزْيَةُ،كَمَا أَنَّ الأُجْرَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنْ أَصْحَابِ الأَعْذَارِ.[١٢٥٤]

ضَبْطُ أَسْمَاءِ أَهْل الذِّمَّةِ وَصِفَاتِهِمْ فِي دِيوَانٍ:

يَسْتَوْفِي الْعَامِل الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ وَفْقَ دِيوَانٍ يَشْتَمِل عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَمَا يَجِبُ عَلَى كُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ.قَال الشِّيرَازِيُّ فِي الْمُهَذَّبِ:" وَيُثْبِتُ الإِمَامُ عَدَدَ أَهْل الذِّمَّةِ وَأَسْمَاءَهُمْ،وَيُحَلِّيهِمْ بِالصِّفَاتِ الَّتِي لاَ تَتَغَيَّرُ بِالأَيَّامِ فَيَقُول:طَوِيلٌ،أَوْ قَصِيرٌ،أَوْ رَبْعَةٌ،وَأَبْيَضُ،أَوْ أَسْوَدُ،أَوْ أَسْمَرُ،أَوْ أَشْقَرُ،وَأَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ،أَوْ مَقْرُونُ الْحَاجِبَيْنِ،أَوْ أَقْنَى الأَنْفِ.

وَيَكْتُبُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ،وَيَجْعَل عَلَى كُل طَائِفَةٍ عَرِيفًا،لِيَجْمَعَهُمْ عِنْدَ أَخْذِ الْجِزْيَةِ،وَيَكْتُبُ مَنْ يَدْخُل مَعَهُمْ فِي الْجِزْيَةِ بِالْبُلُوغِ،وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْهُمْ بِالْمَوْتِ [١٢٥٥].

مِقْدَارُ الْجِزْيَةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مِقْدَارِ الْجِزْيَةِ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:جِزْيَةٌ تُوضَعُ بِالتَّرَاضِي وَالصُّلْحِ،وَجِزْيَةٌ يَبْتَدِئُ الإِمَامُ وَضْعَهَا عَلَى الْكُفَّارِ إِذَا فَتَحَ بِلاَدَهُمْ عَنْوَةً.

[١٢٥٤] - الأم ٤ / ٢٧٩، روضة الطالبين ١٠ / ٣٠٧، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢٣٢، نهاية المحتاج ٨ / ٨٥، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٦ .

[١٢٥٥] - المهذب مع المجموع ١٨ / ١٣٦، كشاف القناع ٣ / ١٢٥ .

فَالضَّرْبُ الأَوَّل:الْجزْيَةُ الصُّلْحيَّةُ لَيْسَ لَهَا حَدٌّ مُعَيَّنٌ بَل تَتَقَدَّرُ بِحَسَبِ مَـــا يَقَـــعُ عَلَيْـــهِ الاتِّفَاقُ بَيْنَ الإِمَامِ وَأَهْل الذِّمَّة.[١٢٥٦]

تَاريخُ تَشْرِيعِ الْجزْيَةِ فِي الإِسْلَامِ:

بَعْدَ أَنْ تَمَّ فَتْحُ مَكَّةَ فِي أَوَاخرِ السَّنَة الثَّامنَة للْهجْرَة،وَدَخَل النَّاسُ فِي دِينِ اللَّـــه أَفْوَاجًـــا وَاسْتَقَرَّت الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى دِينِ اللَّه تَعَالَى أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُـــولَهُ الْكَـــرِيمَ بِمُجَاهَدَة أَهْل الْكتَاب منَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى فِي قَوْله تَعَالَى:{ قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُـــونَ باللَّه وَلَا بالْيَوْمِ الْآخرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ منَ الَّـــذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ } [التوبة:٢٩]

وَاسْتَدَلُّوا لذَلكَ باخْتلاَف مَقَادير الْجزْيَة الصُّلْحيَّة منْ مَجْمُوعَة إِلَى مَجْمُوعَة أُخْرَى.

فَقَدْ صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْل نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّة،النِّصْفُ فِي صَفَرٍ،وَالْبَقِيَّةُ فِـــي رَجَـــبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمُسْلمينَ.

وَأَمَرَ مُعَاذًا أَنْ يَأْخُذَ منْ أَهْل الْيَمَنِ منْ كُل حَالمٍ دينَارًا،وَعَدْلَهُ منَ الْمَعَافرِ.

وَصَالَحَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَنِي تَغْلبَ عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا ضِـــعْفَ زَكَـــاة الْمُسْـــلمينَ.رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عن عُبَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ التَّغْلبِيِّ،أَنَّهُ قَالَ لعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:يَا أَمِـــيرَ الْمُؤْمنينَ،إِنَّ بَنِي تَغْلبَ مَنْ قَدْ عَلمْتَ شَوْكَتَهُمْ،وَإِنَّهُمْ بإِزَاءِ الْعَدُوِّ،فَإِنْ ظَـــاهَرُوا عَلَيْـــكَ الْعَدُوَّ اشْتَدَّتْ مُؤْنَتُهُمْ،فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ شَيْئًا.قَالَ:فَافْعَلْ.قَالَ:فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ لَـــا يَغْمسُوا أَحَدًا منْ أَوْلَادهمْ فِي النَّصْرَانيَّة،وَتُضَاعَفَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ.قَـــالَ:وَكَـــانَ عُبَـــادَةُ يَقُولُ:قَدْ فَعَلُوا وَلَا عَهْدَ لَهُمْ"

وقَالَ الشَّافعيُّ عُقَيْبَ هَذَا الْحَديث:وَهَكَذَا حَفظَ أَهْلُ الْمَغَازِي وَسَاقُوهُ أَحْسَنَ منْ هَـــذَا السِّيَاق فَقَالُوا:رَامَهُمْ عَلَى الْجزْيَة فَقَالُوا:نَحْنُ عَرَبٌ لَا نُؤَدِّي مَا يُؤَدِّي الْعَجَمُ،وَلَكنْ خُذْ منَّا كَمَا يَأْخُذُ بَعْضُكُمْ منْ بَعْضٍ،يَعْنُونَ الصَّدَقَةَ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:لَا،هَذَا فَـــرْضٌ

[١٢٥٦] – فتح القدير ٥ / ٢٨٨، تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٦، الهداية ٢ / ١٥٩، الاختيار ٤ / ١٣٧، بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣١ .

عَلَى الْمُسْلِمِينَ.فَقَالُوا:فَزِدْ مَا شِئْتَ بِهَذَا الِاسْمِ لَا بِاسْمِ الْجِزْيَةِ.فَفَعَلَ فَتَرَاضَى هُوَ وَهُمْ عَلَى أَنْ ضَعَّفَ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةَ "[1257].

وقال البغوي:"وَلَو صَالحهمْ على خراج ضربه على أراضيهم يجوز إِذا لم ينقُص فِي حق كُل حالم عنْ دِينار،وَلَا يجوز أَن يُصالحهم على عشور زُرُوعهمْ وثمارهم،لِأَنَّهَا مَجْهُولَة،وقدْ تُصيبها الآفة،فَلَا يحصل مِنْهَا مَا يبلغ أقلّ الْجِزْيَة إِلَّا أَن يشرط أنّها إِن لم تبلغ أقل الْجِزْيَة أكملوها،وإِذا استنكفوا عن اسْم الْجِزْيَة،فضعّف الإِمام عَلَيْهِم الصَّدَقَة،فَجَائِز،وهُو أَن كُل صنف من المَال يجب على الْمُسلم فِيهِ حق لله،فَيَأْخُذ مِنْهُم من ذلك المَال ضعف مَا يَأْخُذ من الْمُسلم،فَيَأْخُذ من أَرْبَعِينَ شَاة شَاتين،وَمن خمس من الإِبِل شَاتين وَمن ثَلَاثِينَ من الْبَقر تبيعين،وَمن زُرُوعهمْ وثمارهم الْخمس،وَمن الدَّرَاهِم وَالدَّنَانِير وَمَال التِّجَارَة نصف الْعشْر،وَمن الرِّكَاز خمسين،وَمن لم يكن لَهُمْ مِنْهُم شَيْء من جنس مَال الزَّكَاة،أَخذ مِنْهُ أقل الْجِزْيَة،رُوِي عنْ عُمر بْن الخطّاب رضِي اللهُ عنْهُ رام نَصَارَى الْعَرَب على الْجِزْيَة،فقالُوا:نَحن عرب لَا نُؤَدِّي مَا يُؤَدِّي الْعَجم،وَلَكِن خُذ منا كَمَا يَأْخُذ بَعْضكُم من بعْض،يعنون:الصَّدَقَة،فَقَالَ عُمر:هَذَا فرض الله على الْمُسْلمين،قالُوا:فزد مَا شِئْت بِهذا الِاسْم،لَا باسم الْجِزْيَة فراضاهم على أَن ضعّف عَلَيْهِم الصَّدَقَة."[1258]

وَالضَّرْبُ الثَّانِي:الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ وَهِيَ مُقَدَّرَةُ الأَقَل وَالأَكْثَر،فَيَضَعُ عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ،وَعَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِلِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا.وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بما جاء عَنْ أَبِي عَوْنٍ مُحَمَّد بْن عَبْد الله الثَّقَفِيِّ قَالَ:وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،يَعْنِي فِي الْجِزْيَةِ عَلَى رُءُوسِ الرِّجَالِ،عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْوَسَطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ،وَعَلَى الْفَقِيرِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا"[1259].

[1257] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٦٣)(١٨٧٩٦) فيه جهالة

[1258] - شرح السنة للبغوي (١١/ ١٧٤)

[1259] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٩)(١٨٦٨٥) حسن لغيره

قَال الْحَنَفِيَّةُ:" وَنَصْبُ الْمَقَادِيرِ بِالرَّأْيِ لاَ يَكُونُ،فَعَرَفْنَا أَنَّ عُمَرَ اعْتَمَدَ السَّمَاعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخَذْنَا بِهِ " وَقَدْ فَعَل عُمَرُ ذَلِكَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.[١٢٦٠]

وَاسْتَدَلُّوا بِقِيَاسِ الْجِزْيَةِ عَلَى خَرَاجِ الأَرْضِ،فَقَدْ جَعَل الْخَرَاجَ عَلَى مِقْدَارِ الطَّاقَةِ،وَاخْتَلَفَ بِحَسَبِ اخْتِلاَفِ الأَرْضِ وَطَاقَتِهَا الإِنْتَاجِيَّةِ فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْجِزْيَةُ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ وَالإِمْكَانِ،فَتَخْتَلِفُ بِحَسَبِ طَاقَةِ الشَّخْصِ وَإِمْكَانَاتِهِ الْمَالِيَّةِ.

وَبِأَنَّ الْجِزْيَةَ إِنَّمَا وَجَبَتْ عِوَضًا عَنِ النُّصْرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ،وَالنُّصْرَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَتَفَاوَتُ،فَالْفَقِيرُ يَنْصُرُ دَارَ الإِسْلاَمِ رَاجِلاً،وَمُتَوَسِّطُ الْحَال يَنْصُرُهَا رَاجِلاً وَرَاكِبًا،وَالْمُوسِرُ يَنْصُرُهَا بِالرُّكُوبِ بِنَفْسِهِ وَإِرْكَابِ غَيْرِهِ.فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْجِزْيَةُ عَلَى قَدْرِ طَاقَةِ الشَّخْصِ وَإِمْكَانَاتِهِ الْمَالِيَّةِ.[١٢٦١]

اخْتَلَفَ الْحَنَفِيَّةُ فِي الْمُرَادِ بِالْغَنِيِّ وَالْمُتَوَسِّطِ وَالْفَقِيرِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ:

الأَوَّل:مَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ:مَنْ لَمْ يَمْلِكْ نِصَابًا تَجِبُ فِي مِثْلِهِ الزَّكَاةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَهُوَ مِائَتَا دِرْهَمٍ فَهُوَ فَقِيرٌ.وَمَنْ مَلَكَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَهُوَ مِنَ الأَوَاسِطِ.وَمَنْ مَلَكَ أَرْبَعَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ فَصَاعِدًا،فَهُوَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ،لِمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالاَ:أَرْبَعَةُ آلاَفٍ فَمَا دُونَهَا نَفَقَةٌ،وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ كَنْزٌ.

وَالثَّانِي:مَا قَالَهُ الْكَرْخِيُّ:مَنْ لَمْ يَمْلِكْ نِصَابًا فَهُوَ فَقِيرٌ،وَمَنْ مَلَكَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ إِلَى أَقَل مِنْ عَشَرَةِ آلاَفٍ فَهُوَ مِنَ الأَوْسَاطِ،وَمَنْ مَلَكَ زِيَادَةً عَلَى عَشَرَةِ آلاَفٍ فَهُوَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ.

وَالثَّالِثُ:مَا قَالَهُ بِشْرُ بْنُ غِيَاثٍ:مَنْ كَانَ يَمْلِكُ قُوتَهُ وَقُوتَ عِيَالِهِ وَزِيَادَةً فَهُوَ مُوسِرٌ،وَإِنْ مَلَكَ بِلاَ فَضْلٍ فَهُوَ الْوَسَطُ،وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرُ الْكِفَايَةِ فَهُوَ الْفَقِيرُ الْمُعْتَمِل أَوِ الْمُكْتَسِبُ.

وَالرَّابِعُ:مَا قَالَهُ أَبُو يُوسُفَ فِي كِتَابِ الْخَرَاجِ:" فَأَمَّا أَمْرُ الأَمْصَارِ -مِثْل مَدِينَةِ السَّلاَمِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا- فَإِنِّي أَرَى أَنْ يُصَيِّرَهُ الْإِمَامُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَحِ فِي كُلِّ مِصْرٍ وَمِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالثِّقَةِ مِمَّنْ يُوثَقُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ وَيُصَيِّرَ مَعَهُ أَعْوَانًا يَجْمَعُونَ إِلَيْهِ

[١٢٦٠] - المبسوط ١٠ / ٧٨، البدائع ٩ / ٤٣٣٢ .

[١٢٦١] - العناية على الهداية ٥ / ٢٩٠، أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٩٧، فتح القدير ٥ / ٢٩٠ .

أَهْلَ الأَدْيَانِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالصَّابِئِينَ وَالسَّامِرَةِ؛فَيَأْخُذَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّبَقَاتِ عَلَى مَا وَصَفْتُ:ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا عَلَى الْمُوسِرِ مثل الصَّيْرَفِي والبزال وَصَاحِب الشِّيعَة وَالتَّاجِرِ وَالْمُعَالِجِ الطَّبِيب،وَكُلِّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِيَدِهِ صِنَاعَةٌ وَتِجَارَةٌ يَحْتَرِفُ بِهَا أَخَذَ مِنْ أَهْلِ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَتِجَارَةٍ عَلَى قَدْرِ صناعتهم وتجارتهم:ثَمَانِيَة وَأَرْبَعُونَ درهما على الْمُوسِر وَأَرْبَعَة وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا عَلَى الْوَسَط.مَنِ احْتَمَلَتْ صناعته ثَمَانِيَة أَرْبَعِينَ درهما أخذ من ذَلِكَ،وَمَنِ احْتَمَلَتْ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ درهما أخذ ذلك مِنْهُ،وَاثنا عَشَرَ دِرْهَمًا عَلَى الْعَامِلِ بِيَدِهِ مثل الْخياط والصباغ والإسكاف والخزاز وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ؛فَإِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَى الْوُلاة عَلَيْهَا حَمَلُوهَا إِلَى بَيْت المَال."[١٢٦٢]

وَالْخَامِسُ:مَا قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ:إِنَّهُ يُنْظَرُ إِلَى عَادَة كُل بَلَد فِي ذَلِكَ،فَصَاحِبُ خَمْسِينَ أَلْفًا بِبَلْخٍ يُعَدُّ مِنَ الْمُكْثِرِينَ،وَفِي الْبَصْرَة لاَ يُعَدُّ مُكْثِرًا.فَهُوَ يُعْتَبَرُ فِي كُل بَلْدَة عُرْفُهَا،فَمَنْ عَدَّهُ النَّاسُ فِي بَلَدهِمْ فَقِيرًا،أَوْ وَسَطًا،أَوْ غَنِيًّا فَهُوَ كَذَلِكَ،وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّة،قَال الْمَوْصِلِيُّ:" وَالْمُخْتَارُ أَنْ يُنْظَرَ فِي كُل بَلَدٍ إِلَى حَال أَهْله،وَمَا يَعْتَبِرُونَهُ فِي ذَلِكَ،فَإِنَّ عَادَةَ الْبِلاَدِ فِي ذَلِكَ مُخْتَلِفَةٌ ".[١٢٦٣]

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ ضَرْبَان:صُلْحِيَّةٌ،وَعَنْوِيَّةٌ:

فَالضَّرْبُ الأَوَّل:الْجِزْيَةُ الصُّلْحِيَّةُ:وَهِيَ الَّتِي عُقِدَتْ مَعَ الَّذِينَ مَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَبِلاَدَهُمْ مِنْ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ بِالْقِتَال،وَهِيَ تَتَقَدَّرُ بِحَسَبِ مَا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ الطَّرَفَان.وَلاَ حَدَّ لأَقَلِّهَا وَلاَ أَكْثَرِهَا عِنْدَ بَعْضِ الْمَالِكِيَّة،وَاسْتَظْهَرَ ابْنُ رُشْد أَنَّ الصُّلْحِيَّ إِنْ بَذَل الْقَدْرَ الَّذِي عَلَى الْعَنْوِيِّ أَنَّهُ يَلْزَمُ الإِمَامَ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ،وَيَحْرُمُ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يُقَاتِلَهُ.وَاسْتَدَلُّوا بِأَدِلَّة الْحَنَفِيَّة السَّابِقَة.

وَالضَّرْبُ الثَّانِي:الْجِزْيَةُ الْعَنْوِيَّةُ:وَهِيَ الَّتِي تُفْرَضُ عَلَى أَهْل الْبِلاَد الْمَفْتُوحَة عَنْوَةً،وَتُقَدَّرُ بِأَرْبَعَة دَنَانِيرَ عَلَى أَهْل الذَّهَب،وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا عَلَى أَهْل الْفِضَّة،بِلاَ زِيَادَة وَلاَ نُقْصَانٍ.وَنَحْوُ هَذَا رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ فِيهَا أَنَّهَا عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَعَلَى

[١٢٦٢] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٢، فتح القدير ٥ / ٢١٩،الخراج لأبي يوسف (ص:١٣٧)

[١٢٦٣] - فتح القدير ٥ / ٢٩١، الاختيار ٤ / ١٣٧، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٧ .

الْوَسَطِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ،وَعَلَى الْفَقِيرِ اثْنَا عَشَرَ،وَهَذِهِ اخْتِيَارُ الْخِرَقِيِّ،وَيُرْجَعُ إِلَى الْعُـــرْفِ مِنَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ.

وَقَد اسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا رَوَى الإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ ضَـــرَبَ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ،وَعَلَى أَهْلِ الْوَرِقِ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَمَعَ ذَلِـــكَ أَرْزَاقُ الْمُسْلِمِينَ،وَضِيَافَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ.قَال الْبَاجِيُّ الْمُرَادُ بِأَرْزَاقِ الْمُسْلِمِينَ أَقْوَاتُ مَنْ عِنْدَهُمْ مِنْ أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْمُرَادُ بِالضِّيَافَةِ ضِيَافَةُ الْمُجْتَازِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ.

وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدَّرَهَا بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَذَلِكَ لِمَا رَآهُ مِنَ الاجْتِهَـــادِ وَالنَّظَـــرِ لِلْمُسْـــلِمِينَ وَاحْتِمَال أَحْوَال أَهْل الْجِزْيَة.[١٢٦٤]

وَأَمَّا أَرْزَاقُ الْمُسْلِمِينَ وَالضِّيَافَةُ،فَقَدْ قَال مَالِكٌ:" أَرَى أَنْ تُوضَعَ عَنْهُمُ الْيَـــوْمَ الضِّـــيَافَةُ وَالأَرْزَاقُ،لِمَا حَدَثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَوْرِ "،وَذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ،وَنَقَل الدُّسُوقِيُّ عَنِ الْبَاجِيِّ وَأَقَرَّهُ أَنَّهُ إِنِ انْتَفَى الظُّلْمُ فَلاَ تَسْقُطُ [١٢٦٥].

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَهُوَ رِوَايَةُ يَعْقُوبَ بْنِ بُخْتَانَ عَنْ أَحْمَدَ إِلَى أَنَّ أَقَل الْجِزْيَةِ دِينَارٌ ذَهَبِيٌّ خَالِصٌ،وَلاَ حَدَّ لِأَكْثَرِهَا،فَلاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ التَّرَاضِي مَعَ أَهْل الذِّمَّةِ عَلَى أَقَل مِنْ دِينَارٍ فِي حَالَةِ الْقُوَّةِ،وَتَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى الدِّينَارِ،بَل تُسْتَحَبُّ الْمُمَاكَسَةُ فِي الزِّيَادَةِ:بِـــأَنْ يَطْلُـــبَ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِنْ دِينَارٍ إِنْ ظَنَّ إِجَابَتَهُمْ إِلَيْهَا،أَمَّا إِذَا عَلِمَ أَوْ ظَنَّ أَنَّهُمْ لاَ يُجِيبُونَهُ إِلَى تِلْـــكَ الزِّيَادَةِ،فَلاَ مَعْنَى لِلْمُمَاكَسَةِ.وَفِي حَالَةِ الضَّعْفِ يَجُوزُ لِلإِمَامِ التَّرَاضِي مَعَ أَهْل الذِّمَّةِ عَلَى أَقَل مِنَ الدِّينَارِ.

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِحَدِيثِ مُعَاذٍ السَّابِقِ:أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُل حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عَدْلَـــهُ مِـــنَ الْمَعَافِرِ.

فَالْحَدِيثُ يَدُل عَلَى تَقْدِيرِ الْجِزْيَةِ بِالدِّينَارِ مِنَ الذَّهَبِ عَلَى كُل حَالِمٍ،وَظَـــاهِرُ إِطْلاَقِـــهِ سَوَاءٌ أَكَانَ غَنِيًّا أَمْ مُتَوَسِّطًا أَمْ فَقِيرًا.

[١٢٦٤] – القوانين الفقهية ص ١٧٥، بداية المجتهد ١ / ٤٠٤، المقدمات لابن رشد ١ / ٣٩٥، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٥، بلغة السالك ١ / ٣٦٧، حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، الموطأ مع تنوير الحوالك ١ / ٢٦٤، والمنتقى ٢ / ١٧٣ .

[١٢٦٥] – حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، بلغة السالك ١ / ٣٦٧ .

وَقَدْ أَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِ " أَيْلَةَ "،حَيْثُ قَدِمَ يُوحَنَّا بْنُ رُؤْبَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَبُوكَ،وَصَالَحَهُ عَلَى كُلِ حَالِمٍ بِأَرْضِهِ فِي السَّنَةِ دِينَارًا،وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ قِرَى مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ أَخَذَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ أَلْفَيْ حُلَّةٍ نِصْفُهَا فِي صَفَرٍ وَالْبَقِيَّةُ فِي رَجَبٍ.قَالَ الشَّافِعِيُّ:سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ يَذْكُرُ أَنَّ قِيمَةَ مَا أُخِذَ مِنْ كُلِ وَاحِدٍ دِينَارٌ.[١٢٦٦]

عَنْ أَبِي الْحُوَيْرِثِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ عَلَى نَصْرَانِيٍّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ مَوْهَبٌ دِينَارًا كُلَّ سَنَةٍ،وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ عَلَى نَصَارَى أَيْلَةَ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ كُلَّ سَنَةٍ،وَأَنْ يُضَيِّفُوا مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثًا،وَأَنْ لَا يَغُشُّوا مُسْلِمًا.

وعن إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ،فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ كُلَّ سَنَةٍ،قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَ نَجْرَانَ عَلَى حُلَلٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ،فَدَلَّ صُلْحُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى غَيْرِ الدَّنَانِيرِ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ مَا صُولِحُوا عَلَيْهِ"[١٢٦٧]

وَاسْتَدَلُّوا لِجَوَازِ عَقْدِهَا مَعَ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى أَقَل مِنْ دِينَارٍ فِي حَالَةِ الضَّعْفِ بِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ شَرْعًا:" أَنَّ تَصَرُّفَ الإِمَامِ عَلَى الرَّعِيَّةِ مَنُوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ " فَإِذَا كَانَ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ عَلَى أَقَل مِنْ دِينَارٍ مَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ وَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ.[١٢٦٨]

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ – نَقَلَهَا عَنْهُ الأَثْرَمُ –:أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي الْجِزْيَةِ إِلَى الإِمَامِ،فَلَهُ أَنْ يَزِيدَ وَيُنْقِصَ عَلَى قَدْرِ طَاقَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ،وَعَلَى مَا يَرَاهُ.وَهَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ كَمَا قَال الْمِرْدَاوِيُّ فِي الإِنْصَافِ،وَقَال الْخَلاَّل:الْعَمَل فِي قَوْل أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مَا رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ بِأَنَّهُ لاَ بَأْسَ لِلإِمَامِ أَنْ يَزِيدَ فِي ذَلِكَ وَيُنْقِصَ عَلَى مَا رَوَاهُ أَصْحَابُهُ عَنْهُ فِي عَشَرَةِ مَوَاضِعَ،فَاسْتَقَرَّ قَوْلُهُ عَلَى ذَلِكَ.

[١٢٦٦] – روضة الطالبين ١٠ / ٣١١، الغاية القصوى ٢ / ٩٥٧، حاشية قليوبي ٤ / ٢٣٣، نهاية المحتاج ٨ / ٨٧ – ٨٨، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٨، الأحكام السلطانية ص ١٤٤، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢١٢، حاشية البجيرمي ٤ / ٢٧٢، سبل السلام ٤ / ٦٩، الأم ٤ / ١٧٩ .

[١٢٦٧] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٢٨)(١٨٦٧٨) وسنده ضعيف جدا

[١٢٦٨] – الخراج لابن آدم ص ٧٣، المنثور في القواعد ١ / ٣٠٩

وَهَذَا قَوْل الثَّوْرِيِّ وَأَبِي عُبَيْد.وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].فَلَفْظُ الْجِزْيَةِ فِي الآْيَةِ مُطْلَقٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى عَلَى إِطْلاَقِهِ،غَيْرَ أَنَّ الإِمَامَ لَمَّا كَانَ وَلِيَّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ جَازَ لَهُ أَنْ يَعْقِدَ مَعَ أَهْل الذِّمَّةِ عَقْدًا عَلَى الْجِزْيَةِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةَ الْمُسْلِمِينَ ؛لأَنَّ تَصَرُّفَ الإِمَامِ عَلَى الرَّعِيَّةِ مَنُوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ.

وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:أَمَرَ مُعَاذًا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُل حَالِمٍ دِينَارًا وَصَالَحَ أَهْل نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ،النِّصْفُ فِي صَفَرٍ وَالْبَاقِي فِي رَجَبٍ.

وَجَعَل عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْجِزْيَةَ عَلَى ثَلاَثِ طَبَقَاتٍ عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا،وَعَلَى الْفَقِيرِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا،وَصَالَحَ بَنِي تَغْلِبَ عَلَى ضِعْفِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الزَّكَاةِ.

فَهَذَا الاِخْتِلاَفُ يَدُل عَلَى أَنَّهَا إِلَى رَأْيِ الإِمَامِ،لَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَتْ عَلَى قَدْرٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَخْتَلِفَ.وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ قَالَ:قُلْتُ لِمُجَاهِد:«مَا شَأْنُ أَهْلِ الشَّامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ فِي الْجِزْيَةِ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ،وَمِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ دِينَارٌ؟» قَالَ:ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْيَسَارِ "[١٢٦٩]

وَلأَنَّ الْمَال الْمَأْخُوذَ عَلَى الأَمَانِ ضَرْبَانِ:هُدْنَةٌ وَجِزْيَةٌ،فَلَمَّا كَانَ الْمَأْخُوذُ هُدْنَةً إِلَى اجْتِهَادِ الْحَاكِمِ،فَكَذَلِكَ الْمَأْخُوذُ جِزْيَةً وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ،فَلَمْ تَتَقَدَّرْ بِمِقْدَارٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ كَالأُجْرَةِ.[١٢٧٠]

اسْتِيفَاءُ الْجِزْيَةِ:

وَقْتُ اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَةِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تُؤْخَذُ مِنَ الذِّمِّيِّ إِلاَّ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي السَّنَةِ وَلاَ تَتَكَرَّرُ.وَالسَّنَةُ الْمُعْتَبَرَةُ شَرْعًا هِيَ السَّنَةُ الْقَمَرِيَّةُ ؛لأَنَّهَا هِيَ الْمُرَادَةُ شَرْعًا عِنْدَ الإِطْلاَقِ،أَمَّا إِذَا عَيَّنَ الإِمَامُ كَوْنَهَا شَمْسِيَّةً أَوْ قَمَرِيَّةً فَيَجِبُ اتِّبَاعُ مَا عَيَّنَهُ.

[١٢٦٩] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٨٧)(١٠٠٩٤) وصحيح البخاري (٤/ ٩٦) معلقا صحيح

[١٢٧٠] - المغني ٨ / ٥٠٢، كشاف القناع ٣ / ١٢١، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٢٧، المبدع ٣ / ٤١١، المذهب الأحمد ص ٢١٠، الإنصاف ٤ / ٢٢٧، كتاب الرواتين والوجهين ٢ / ٣٨٢، الأموال لأبي عبيد ص ٥٧ .

وَقْتُ وُجُوب الْجزْيَة:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ وَقْتَ وُجُوب الالْتزَام بالْجزْيَة عَقبَ عَقْد الذِّمَّــة مُبَاشَــرَةً،إلاَّ أَنَّ الشَّافعيَّةَ قَالُوا:تَجبُ بالْعَقْد وُجُوبًا غَيْرَ مُسْتَقرٍّ وَتَسْتَقرُّ بانْقضَاء الزَّمَن كَالأُجْرَة،فَكَلَّمَــا مَضَتْ مُدَّةٌ منَ الْحَوْل اسْتَقَرَّ قسْطُهَا منْ جزْيَة الْحَوْل،حَتَّى تَسْتَقرَّ جزْيَةُ الْحَــوْل كُلِّــه بانْقضَائه ؛لأَنَّ الْجزْيَةَ عوَضٌ عَنْ مَنْفَعَة حَقْــن الــدَّم،فَتَجبُ بالْعَقْــد وُجُوبًــا غَيْــرَ مُسْتَقرٍّ،وَتَسْتَقرُّ بمُضيِّ الْمُدَّة شَيْئًا فَشَيْئًا كَالأُجْرَة[1271].

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ في وَقْت وُجُوب أَدَاء الْجزْيَة:

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاء منَ الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة إلَى أَنَّ وَقْتَ وُجُوب الأَدَاء آخرُ الْحَوْل[1272]

وَاسْتَدَلُّوا لذَلكَ بمَا وَقَعَ منَ النَّبيِّ ﷺ في الْجزْيَة،فَقَدْ ضَرَبَهَا عَلَى أَهْل الذِّمَّة وَالْمَجُوس بَعْدَ نُزُول آيَة الْجزْيَة،وَلَمْ يُطَالبْهُمْ بأَدَائهَا في الْحَال،بَل كَانَ يَبْعَثُ رُسُلَهُ وَسُــعَاتَهُ فــي آخر الْحَوْل لجبَايَتهَا.

رَوَى الْبُخَاريُّ عَن المسْوَر بْن مَخْرَمَةَ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْف الأَنْصَــاريَّ وَهُــوَ حَليفٌ لبَني عَامر بْن لُؤَيٍّ،وَكَانَ شَهدَ بَدْرًا،أَخْبَرَهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْــنَ الجَرَّاح إلَى البَحْرَيْن يَأْتي بجزْيَتهَا،وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْن،وَأَمَّــرَ عَلَيْهمُ العَلاَءَ بْنَ الحَضْرَميِّ،فَقَدمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بمَال منَ البَحْرَيْن،فَسَمعَت الأَنْصَارُ بقُــدُوم أَبي عُبَيْدَةَ،فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْح مَعَ النَّبيِّ ﷺ،فَلَمَّا صَلَّى بهمُ الفَجْــرَ انْصَرَفَ،فَتَعَرَّضُــوا لَهُ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حينَ رَآهُمْ،وَقَالَ:«أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَــدْ جَــاءَ بشَيْءٍ؟»،قَالُوا:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّه،قَالَ:«فَأَبْشرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،فَوَاللَّه لاَ الفَقْرَ أَخْشَى

[1271] – البدائع ٩ / ٤٣٣٠، القوانين الفقهية ص ١٧٥، جواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، نهاية المحتاج ٨ / ٨٧، المغني ٨ / ٥٠٠ .

[1272] – بداية المجتهد ١ / ٤٠٥، المقدمات لابن رشد ١ / ٣٩٧، المنتقى ٢ / ١٧٦، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٥، منح الجليل ١ / ٧٥٨، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢١٨، رحمة الأمة ٢ / ١٨١، الميزان ٢ / ١٨٥، الإفصاح ٢ / ٢٩٤، المغني ٨ / ٥٠٤، المبدع ٣ / ٤١٠، المذهب الأحمد ص ٢١٠، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٣٩، كشاف القناع ٣ / ١٢١، الإنصاف ٤ / ٢٢٩ .

عَلَيْكُمْ،وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1273].

وَتَدُل سيرَةُ الْخُلَفَاءِ وَالأُمَرَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْعَثُونَ الْجُبَاةَ فِي آخرِ الْعَامِ لجبَايَةِ الْجزْيَة.فَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبَا هُرَيْرَةَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ،فَقَدِمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَدِمْتُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَأَتَيْتُ عُمَرَ،فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،فَسَأَلَنِي عَنِ النَّاسِ فَأَخْبَرْتُهُ،فَقَالَ:مَاذَا جِئْتَ بِهِ؟ قُلْتُ:جِئْتُ بِخَمْسمِائَة أَلْف،قَالَ:وَهَلْ تَدْرِي،مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ:نَعَمْ،فَجَعَلْتُ أَعُدُّهَا بِيَدِي مِائَةَ أَلْفٍ مِائَةَ أَلْف،فَقَالَ:إِنَّكَ نَاعِسٌ،ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَنَمْ،فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي،فَأَتَيْتُهُ،فَقَالَ:مَاذَا جِئْتَ بِهِ؟ قُلْتُ:جِئْتُ بِخَمْسمِائَة أَلْف،قَالَ:تَدْرِي مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ:نَعَمْ،مِائَة أَلْف،مِائَة أَلْف،حَتَّى عَدَّهَا بِأَصَابِعِه،قَالَ:أَطَيِّبٌ؟ قُلْتُ:لَا أَعْلَمُ إِلَّا ذَاكَ.قَالَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ،فَحَمِدَ اللَّه وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّهُ قَدْ جَاءَنَا مَالٌ كَثِيرٌ،فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَكِيلَ لَكُمْ كَيْلًا،وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعُدَّ لَكُمْ عَدَدًا،فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الْأَعَاجِمَ يُدَوِّنُونَ دِيوَانًا لَهُمْ،فَدَوَّنَ الدِّيوَانَ،فَفَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ خَمْسَةَ آلَاف،وَلِلْأَنْصَارِ أَرْبَعَةَ آلَاف،أَرْبَعَةَ آلَاف،وَلِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا،اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا "[1274]

وعَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ لِأُنَاسَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد:يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّد،إِذَا تَخَلَّفْتُمْ عَنِ الْأَمْرِ بِمَنْ أَسْتَعِينُ،أَوْ مَنْ أَبْعَثُ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:فَأَمَّرَنِي عَلَى الْبَحْرَيْنِ،قَالَ:فَأَتَاهُ بِثَمَانمِائَة أَلْفَ دِرْهَمٍ،فَقَالَ عُمَرُ:مَا رَأَيْتُ مَالًا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا،مَا فِي هَذَا دَعْوَةُ مَظْلُومٍ أَوْ مَالُ يَتِيمٍ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:بِئْسَ الْمَرْءُ أَنَا،إِنْ كَانَ الْمَهْنَأُ لَكَ وَكَانَتْ عَلَيَّ الْمُؤْنَةُ،وَلَكِنْ - وَاللَّه - مَا أَلَوْتُ أَنْ أُطِيبَ،فَقَالَ عُمَرُ:لِلَّهِ الْحَمْدُ،فَقَالَ أَبُو

[1273] - صحيح البخاري (٤/ ٩٦)(٣١٥٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣)٦ - (٢٩٦١)

[ش(فوافت) من الموافاة أي أتوا وحضروا.(أجل) نعم.(تبسط) يوسع لكم فيها.(فتنافسوها) من التنافس وهو الرغبة في الشيء والانفراد به مأخوذ من الشيء النفيس الجيد في نوعه والذي يرغب فيه.(تهلككم) تجركم إلى الهلاك بسبب التنازع عليها والركون إليها والاشتغال بها عن الآخرة]

[1274] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٥٠٤)(٨٠٢) صحيح

هُرَيْرَةَ:وَاللَّه لَا أَرْجِعُ،فَقَالَ لَهُ:لِمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ:لِأَنِّي أَخَافُ اثْنَتَيْنِ - أَظُنُّهُ قَالَ:فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ - أَخَافُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّه أَنْ أَقُولَ بِغَيْرِ حُكْمٍ،وَأَقْضِيَ بِغَيْرِ حَقٍّ،وَأَخَافُ ثَلَاثًا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ،إِنْ أَصَبْتُ شَيْئًا فَلَا تُحِلَّهُ لِي،وَأَتَعَقَّبُ مِنْ مَالٍ فَلَا تَعْقُبُهُ لِي،وَإِنْ حَدَّثْتُكَ فَلَا تُصَدِّقْنِي"[1275]

وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ حَقٌّ مَالِيٌّ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الْحَوْلِ،فَوَجَبَ بِآخِرِهِ كَالزَّكَاةِ.

وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ جَزَاءً عَلَى تَأْمِينِهِمْ وَإِقْرَارِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ،فَلاَ تَجُوزُ الْمُطَالَبَةُ بِهَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَتَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي طُولِ السَّنَةِ.

وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ سُكْنَى الدَّارِ فَوَجَبَ أَنْ تُؤْخَذَ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْمَنْفَعَةِ وَانْقِضَاءِ الْمُدَّةِ.[1276]

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ وَقْتَ وُجُوبِ الأَدَاءِ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ،فَتَجِبُ وُجُوبًا مُوَسَّعًا كَالصَّلاَةِ،وَلِلإِمَامِ الْمُطَالَبَةُ بِهَا بَعْدَ عَقْدِ الذِّمَّةِ.[1277]

واستدلوا بقوله اللَّهُ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} إِلَى قَوْلِهِ:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} ؛ فَأَوْجَبَ قِتَالَهُمْ،وَجَعَلَ إعْطَاءَ الْجِزْيَةِ غَايَةً لِرَفْعِهِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ {حَتَّى} غَايَةٌ،هَذَا حَقِيقَةُ اللَّفْظِ،وَالْمَفْهُومُ مِنْ ظَاهِرِهِ،أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ:{وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} [البقرة:٢٢٢] قَدْ حَظَرَ إبَاحَةَ قُرْبِهِنَّ إلَّا بَعْدَ وُجُودِ طُهْرِهِنَّ.وَكَذَلِكَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:"لَا تُعْطِ زَيْدًا شَيْئًا حَتَّى يَدْخُلَ الدَّارَ" مَنَعَ الْإِعْطَاءَ إلَّا بَعْدَ دُخُولِهِ،فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ مُوجِبَةٌ لِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ مُزِيلَةٌ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ قَدْ وَجَبَتْ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ،وَكَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَبُو الْحَسَنِ الْكَرْخِيُّ؛ وَذَكَرَ ابْنُ سِمَاعَةَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ قَالَ:"لَا تُؤْخَذُ مِنْ الذِّمِّيِّ الْجِزْيَةُ حَتَّى تَدْخُلَ السَّنَةُ،وَيَمْضِيَ شَهْرَانِ مِنْهَا بَعْضُ مَا عَلَيْهِ بِشَهْرَيْنِ،وَنَحْوُ ذَلِكَ يُعَامَلُ فِي الْجِزْيَةِ،بِمَنْزِلَةِ الضَّرِيبَةِ كُلَّمَا كَانَ يَمْضِي شَهْرَانِ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ أُخِذَتْ مِنْهُ".قَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَعْنِي بِالضَّرِيبَةِ

[1275] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٦٠٦)(٩٩٨) فيه انقطاع

[1276] - المغني ٨ / ٥٠٤، المنتقى ٢ / ١٧٦، المقدمات ١ / ٣٩٧، المهذب مع المجموع ١٨ / ٢١٩ .

[1277] - فتح القدير ٥ / ٢٩٨، البدائع ٩ / ٤٣٣١، الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤، حاشية ابن عابدين ٤ / ١٩٦، مجمع الأنهر ١ / ٦٧٢، والاختيار ٤ / ١٣٧ .

الْأُجْرَةَ فِي الْإِجَارَات؛ قَالَ أَبُو يُوسُفَ:"وَلَا يُؤْخَذُ ذَلكَ منْهُ حينَ تَدْخُلُ السَّنَةُ،وَلَا يُؤْخَذُ ذَلكَ منْهُ حَتَّى تَتمَّ السَّنَةُ،وَلَكنْ يُعَامَلُ ذَلكَ في سَنَته".قَالَ أَبُو بَكْر:ذكْرُهُ للشَّهْرَيْن إنَّمَا هُوَ تَوْفيَةٌ،وَهيَ وَاجبَةٌ بإقْرَارنَا إيَّاهُ عَلَى الذِّمَّة،لمَا تَضَمَّنَهُ ظَاهرُ الْآيَة.وَذَكَرَ ابْنُ سَمَاعَةَ عَنْ أَبي يُوسُفَ عَنْ أَبي حَنيفَةَ أَنَّهُ قَالَ في الذِّمِّيِّ:"يُؤْخَذُ منْهُ خَرَاجُ رَأْسه في سَنَته مَا دَامَ فيهَا،فَإذَا انْقَضَتْ السَّنَةُ لَمْ يُؤْخَذْ منْهُ".وَهَذَا يَدُلُّ منْ قَوْل أَبي حَنيفَة عَلَى أَنَّهُ رَآهَا وَاجبَةً بعَقْد الذِّمَّة لَهُمْ،وَأَنَّ تَأْخيرَنَا بَعْضَ السَّنَة إنَّمَا هُوَ تَوْفيَةٌ للْوَاجب وَتَوْسعَةٌ.أَلَا تَرَى أنه قال:"فَإذَا انْقَضَتْ السَّنَةُ لَمْ تُؤْخَذْ منْهُ"؟ لأَنَّ دُخُولَ السَّنَة الثَّانيَة يُوجبُ جزْيَةً أُخْرَى،فَإذَا اجْتَمَعَتَا سَقَطَتْ إحْدَاهُمَا.وَعَنْ أَبي يُوسُفَ وَمُحَمَّد:"اجْتمَاعُهُمَا لَا يُسْقطُ إحْدَاهُمَا".

وَجْهُ قَوْل أَبي حَنيفَةَ أَنَّ الْجزْيَةَ وَاجبَةٌ عَلَى وَجْه الْعُقُوبَة لإقَامَتهمْ عَلَى الْكُفْر مَعَ كَوْنهمْ منْ أَهْل الْقتَال،وَحَقُّ الْأَخْذ فيهَا إلَى الْإمَام،فَأَشْبَهَتْ الْحُدُودَ،إذْ كَانَتْ مُسْتَحَقَّةً في الْأَصْل عَلَى وَجْه الْعُقُوبَة،وَحَقُّ الْأَخْذ إلَى الْإمَام،فَلَمَّا كَانَ اجْتمَاعُ الْحُدُود منْ جنْس،وَاحد يُوجبُ الاقْتصَارَ عَلَى وَاحد منْهُمَا مثْلَ أَنْ يَزْنيَ مرَارًا أَوْ يَسْرقَ مرَارًا ثُمَّ يُرْفَعُ إلَى الْإمَام فَلَا يَجبُ إلَّا حَدٌّ وَاحدٌ بجَميع الْأَفْعَال،كَذَلكَ حُكْمُ الْجزْيَة إذْ كَانَتْ مُسْتَحَقَّةً عَلَى وَجْه الْعُقُوبَة بَلْ هيَ أَخَفُّ أَمْرًا،وَأَضْعَفُ حَالًا منْ الْحُدُود؛ لأَنَّهُ لَا خلَافَ بَيْنَ أَصْحَابنَا أَنَّ إسْلَامَهُ يُسْقطُهَا،وَلَا تَسْقُطُ الْحُدُودُ بالْإسْلَام.

فَإنْ قيلَ:لَمَّا كَانَ ذَلكَ دَيْنًا،وَحَقًّا في مَال الْمُسْلمينَ لَمْ يُسْقطْهُ اجْتمَاعُهُ،كَالدُّيُون وَخَرَاج الْأَرَضينَ.قيلَ:لَهُ:خَرَاجُ الْأَرَضينَ لَيْسَ بصَغَار وَلَا عُقُوبَة،وَالدَّليلُ عَلَيْه أَنَّهُ يُؤْخَذُ منْ الْمُسْلمينَ،وَالْجزْيَةُ لَا تُؤْخَذُ منْ مُسْلم.وَقَدْ رُويَ نَحْو قَوْل أَبي حَنيفَةَ عَنْ طَاوُس،وَرَوَى ابْنُ جُرَيْج عَنْ سُلَيْمَانَ الْأَحْوَل عَنْ طَاوُس قَالَ:"إذَا تَدَارَكَتْ صَدَقَاتٌ فَلَا تُؤْخَذُ الْأُولَى كَالْجزْيَة".[١٢٧٨]

وعَنْ جُبَيْر بْن حَيَّةَ،قَالَ:بَعَثَ عُمَرُ النَّاسَ في أَفْنَاء الأَمْصَار،يُقَاتلُونَ الْمُشْركينَ،فَأَسْلَمَ الهُرْمُزَانُ،فَقَالَ:إنِّي مُسْتَشيرُكَ في مَغَازيَّ هَذه؟ قَالَ:نَعَمْ مَثَلُهَا وَمَثَلُ مَنْ فيهَا منَ النَّاس منْ عَدُوِّ الْمُسْلمينَ مَثَلُ طَائر لَهُ رَأْسٌ وَلَهُ جَنَاحَان وَلَهُ رجْلَان،فَإنْ كُسرَ أَحَدُ الجَنَاحَيْن

[١٢٧٨] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٢٩)

نَهَضَتِ الرِّجْلاَنِ بِجَنَاحٍ وَالرَّأْسُ،فَإِنْ كُسِرَ الجَنَاحُ الآخَرُ نَهَضَتِ الرِّجْلاَنِ وَالرَّأْسُ،وَإِنْ شُدِخَ الرَّأْسُ ذَهَبَتِ الرِّجْلاَنِ وَالجَنَاحَانِ وَالرَّأْسُ،فَالرَّأْسُ كِسْرَى،وَالجَنَاحُ قَيْصَرُ،وَالجَنَاحُ الآخَرُ فَارِسُ،فَمُرِ المُسْلِمِينَ،فَلْيَنْفِرُوا إِلَى كِسْرَى،- وَقَالَ بَكْرٌ،وَزِيَادٌ جَمِيعًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ - قَالَ:فَنَدَبَنَا عُمَرُ،وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ،حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَرْضِ العَدُوِّ،وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلُ كِسْرَى فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا،فَقَامَ تَرْجُمَانٌ،فَقَالَ:لِيُكَلِّمْنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ،فَقَالَ المُغِيرَةُ:سَلْ عَمَّا شِئْتَ؟ قَالَ:مَا أَنْتُمْ؟ قَالَ:نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ العَرَبِ،كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلاَءٍ شَدِيدٍ،نَمَصُّ الجِلْدَ وَالنَّوَى مِنَ الجُوعِ،وَنَلْبَسُ الوَبَرَ وَالشَّعَرَ،وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ،فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرَضِينَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ - إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ،فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ «أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ،أَوْ تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ،وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا،أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ،وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ»،فَقَالَ النُّعْمَانُ:رُبَّمَا أَشْهَدَكَ اللَّهُ مِثْلَهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمْ يُنَدِّمْكَ،وَلَمْ يُخْزِكَ،وَلَكِنِّي شَهِدْتُ القِتَالَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ «إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ،انْتَظَرَ حَتَّى تَهُبَّ الأَرْوَاحُ،وَتَحْضُرَ الصَّلَوَاتُ»[١٢٧٩]

فَوَقْتُ وُجُوبِ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ عَقِبَ الْعَقْدِ مُبَاشَرَةً.

وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ بَدَلاً عَنِ الْقَتْلِ فِي حَقِّهِمْ،فَتَجِبُ فِي الْحَالِ كَالْوَاجِبِ بِالصُّلْحِ عَنْ دَمِ الْعَمْدِ.وَلأَنَّ الْمُعَوَّضَ قَدْ سُلِّمَ لَهُمْ،فَوَجَبَ أَنْ يُسْتَحَقَّ الْعِوَضُ عَلَيْهِمْ كَالثَّمَنِ.وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ بَدَلاً مِنَ النُّصْرَةِ فِي حَقِّنَا،وَهِيَ لاَ تَتَحَقَّقُ فِي الْمَاضِي،وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ فِي

[١٢٧٩] - صحيح البخاري (٤/ ٩٧)(٣١٥٩)

[ش (أفناء) نواحي.(الأمصار) جمع مصر وهي البلد الكبير.(الهرمزان) أحد ملوك العجم.(شدخ) كسر.(كسرى) لقب ملك الفرس.(قيصر) لقب ملك الروم.(فارس) اسم للعجم المعروفين بهذا الاسم في ذاك الوقت.(ترجمان) هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى.(النوى) عجم التمر.(الوبر) هو شعر الإبل.(فقال النعمان) للمغيرة لما أنكر عليه تأخير القتال.(أشهدك) أحضرك.(مثلها) مثل هذه الوقعة.(يندمك) على التأني والصبر وفيما لقيت معه من الشدة.(ولم يخزك) من الإخزاء وهو الذل والهوان.(تهب الأرواح) جمع ريح.(تحضر الصلوات) يعني بعد زوال الشمس وذهاب شدة الحر حتى يطيب القتال ويسهل على المقاتلين]

الْمُسْتَقْبَل ؛لِأَنَّ نُصْرَةَ الْمَاضِي يُسْتَغْنَى عَنْهَا بِانْقِضَائِه.فَإِذَا تَعَذَّرَ إِيجَابُ الْجِزْيَةِ بَعْدَ الْحَوْل تَجبُ فِي أَوَّله[١٢٨٠].

تَعْجيل الْجِزْيَة:

الْمَقْصُودُ بِتَعْجِيل الْجِزْيَة:اسْتِيفَاؤُهَا مِمَّنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ قَبْل وَقْتِ وُجُوبِهَا بِسَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ،فَهَل يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَنْ يَسْتَعْجِل أَخْذَ الْجِزْيَةِ أَوْ يَسْتَسْلِفَهَا ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ:

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي وَجْه،إِلَى جَوَازِ تَعْجِيلهَا لِسَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ بِرِضَا أَهْل الذِّمَّة،وَيَجُوزُ اشْتِرَاطُ تَعْجِيلِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَالْخَرَاجِ،وَلِأَنَّهَا عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ دِمَائِهِمْ فَأَشْبَهَت الأُجْرَةَ.

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي وَجْه إِلَى عَدَمِ جَوَازِ اشْتِرَاط تَعْجِيلِهَا،وَيَجُوزُ تَعْجِيلُهَا بِرِضَا أَهْل الذِّمَّة.وَاسْتَدَلُّوا بِقِيَاسِ الْجِزْيَة عَلَى الزَّكَاة،فَلاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَنْ يَسْتَسْلِفَ الزَّكَاةَ إِلاَّ بِرِضَا رَبِّ الْمَال،بَل الْجِزْيَةُ أَوْلَى بِالْمَنْعِ،لأَنَّهَا تَتَعَرَّضُ لِلسُّقُوط قَبْل الْحَوْل وَبَعْدَهُ،فَتَسْقُطُ بِالإِسْلاَمِ وَالْمَوْتِ أَثْنَاءَ السَّنَة وَتَتَدَاخَل بِالاجْتِمَاعِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ[١٢٨١].

تَأْخِيرُ الْجِزْيَة:

إِذَا تَأَخَّرَ الذِّمِّيُّ عَنْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ فِي وَقْتِهَا الْمُحَدَّدِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُوسِرًا،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُعْسِرًا.

فَإِنْ كَانَ مُوسِرًا وَمَطَل بِهَا جَازَ لِلإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَبْسِ وَغَيْرِه.

قَال الْقُرْطُبِيُّ:أَمَّا عُقُوبَتُهُمْ إِذَا امْتَنَعُوا مِنْ أَدَائِهَا مَعَ التَّمَكُّنِ فَجَائِزٌ،فَأَمَّا مَعَ تَبَيُّنِ عَجْزِهِمْ فَلاَ تَحِل عُقُوبَتُهُمْ ؛لأَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْجِزْيَة سَقَطَتْ عَنْهُ[١٢٨٢].

مَنْ لَهُ حَقُّ اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَة:

[١٢٨٠] - الاختيار ٤ / ١٣٧، فتح القدير ٥ / ٢٩٨، العناية على الهداية على هامش فتح القدير ٥ / ٢٩٨ .

[١٢٨١] - الاختيار ٤ / ١٣٩، مواهب الجليل ٣ / ٣٨٢، روضة الطالبين ١٠ / ٣١٣، المبدع ٣ / ٤١٢، الإنصاف ٤ / ٢٢٩، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٩٩ .

[١٢٨٢] - الجامع لأحكام القرآن ٨ / ١١٥، المذهب الأحمد ص ٢١١، الاختيارات الفقهية لابن تيمية جمع البعلي ص ٣١٩،الإنصاف ٤ / ٢٥٢ .

الْجِزْيَةُ مِنَ الأَمْوَال الْعَامَّة الَّتِي يَتَوَلَّى أَمْرَهَا الأَئِمَّةُ وَالسَّلَاطِينُ،فَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي قَــدَّرَ الْجِزْيَةَ عِنْدَ الْجُمْهُور،وَقِيل:يُقَدِّرُهَا الإِمَامُ.

وَالإِمَامُ يَعْقِدُ الذِّمَّةَ وَيُطَالِبُ بِالْجِزْيَــةِ وَيَصْــرِفُهَا فِــي مَصَــالِحِ الْمُسْــلِمِينَ الْعَامَّــةِ بِاجْتِهَادِه،وَذَلِكَ لأَنَّ الإِمَامَ الْعَدْل وَكِيلٌ عَنِ الأُمَّة فِي اسْتِيفَاءِ حُقُوقِهَا مِمَّــنْ وَجَبَــتْ عَلَيْه،وَفِي تَدْبِيرِ شُئُونِهَا.قَال الْقُرْطُبِيُّ:" الأَمْوَال الَّتِي للأَئِمَّة وَالْوُلاَة فِيهَا مَــدْخَلٌ ثَلاَثَــةُ أَضْرُب:الأَوَّل:مَا أُخِذَ مِــنَ الْمُسْــلِمِينَ عَلَــى طَرِيــقِ الــتَّطْهِيرِ لَهُــمْ كَالصَّــدَقَات وَالزَّكَوَات.وَالثَّانِي:الْغَنَائِمُ وَمَا يَحْصُل فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَال الْكَافِرِينَ بِــالْحَرْبِ وَالْقَهْرِ وَالْغَلَبَة.وَالثَّالِثُ:الْفَيْءُ،وَهُوَ مَا رَجَعَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَال الْكُفَّارِ عَفْوًا صَفْوًا مِــنْ غَيْرِ قِتَال وَلاَ إِيجَاف كَالصُّلْحِ وَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَالْعُشُورِ الْمَأْخُوذَة مِنْ أَهْل الذِّمَّة[١٢٨٣].

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَحَقُّ اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَة لِلإِمَامِ،فَيُطَالِبُ بِهَا وَيَجِبُ عَلَى أَهْل الذِّمَّة الــدَّفْعُ إِلَيْه.

وَالإِمَامُ الْمُطَالِبُ بِالْجِزْيَة إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَادِلاً،أَوْ جَائِرًا ظَالِمًا،أَوْ بَاغِيًا،أَوْ خَارِجًا عَلَــى إِمَامِ الْعَدْل،أَوْ مُحَارِبًا وَقَاطِعًا لِلطَّرِيق.

١- حُكْمُ دَفْعِ الْجِزْيَة إِلَى أَئِمَّة الْعَدْل:

الإِمَامُ الْعَادِل:هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ الْمُسْلِمُونَ لِلإِمَامَة وَبَايَعُوهُ،وَقَامَ بِتَدْبِيرِ شُئُون الأُمَّة وَفْــقَ شَرْعِ اللَّه عَزَّ وَجَل.فَإِذَا طَلَبَ مِنْ ذَوِي الأَمْوَال مَالاً لاَ يَطْلُبُهُ إِلاَّ بِحَقٍّ،وَإِذَا قَسَمَ أَمْــوَالاً عَامَّةً قَسَمَهَا وَفْقَ شَرْعِ اللَّه وَحَسَبَ مَا تَقْتَضِيه الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَاللهِ،مَا أُعْطِيكُمْ،وَلَا أَمْنَعُكُمْ،وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُهُ حَيْثُ أُمِرْتُ "[١٢٨٤]

وَقَال أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَذَا الْمَال بِمَنْزِلَة وَالِي الْيَتِيمِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَال:{وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْــتَعْفِفْ وَمَــنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النِّسَاء:٦] وَاللَّهِ مَا أَرَى أَرْضًا يُؤْخَذُ مِنْهَا شَاةٌ فِي كُل يَوْمٍ إِلاَّ اسْتَسْرَعَ خَرَابُهَا.

[١٢٨٣] - الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ١٤ .

[١٢٨٤] - مسند أحمد ط الرسالة (١٦/ ١٨٠)(١٠٢٥٧) صحيح

وَبنَاءً عَلَى ذَلكَ إذَا طَلَبَ الإمَامُ الْعَادل الْجزْيَةَ منْ أَهْل الذِّمَّة وَجَبَ عَلَيْهمُ الدَّفْعُ إلَيْه،وَلاَ يَجُوزُ لأَحَد تَفْرقَةُ خَرَاج رَأْسه بنَفْسه،وَإذَا أَدَّى شَخْصٌ الْجزْيَةَ إلَى مُسْتَحقِّ الْفَيْء بنَفْسه فَللإمَام أَخْذُهَا منْهُ ثَانيَةً ؛لأَنَّ حَقَّ الأَخْذ لَهُ.[1285]

٢- حُكْمُ دَفْع الْجزْيَة إلَى أَئمَّة الْجَوْر وَالظُّلْم:

الإمَامُ الْجَائرُ:هُوَ الَّذي يَقُومُ بتَدْبير شُئُون الأُمَّة وَفْقَ هَوَاهُ،فَيَقَعُ منْهُ الْجَوْرُ وَالظُّلْمُ عَلَى النَّاس

وَإذَا طَلَبَ الإمَامُ الْجَائرُ الْجزْيَةَ منْ أَهْل الذِّمَّة وَجَبَ عَلَيْهمْ أَدَاؤُهَا إلَيْه عنْدَ جَمَاهير الْفُقَهَاء منَ الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة وَإذَا أَدَّى الذِّمِّيُّ الْجزْيَةَ إلَى الإمَام الْجَائر سَقَطَتْ عَنْهُ وَلاَ يُطَالَبُ بهَا مَرَّةً ثَانيَةً منْ قبَل الإمَام الْعَادل.

قَال الْكَاسَانيُّ:وَأَمَّا سَلاَطينُ زَمَاننَا الَّذينَ أَخَذُوا الصَّدَقَات وَالْعُشُورَ وَالْخَرَاجَ لاَ يَضَعُونَهَا مَوَاضعَهَا،فَهَل تَسْقُطُ هَذه الْحُقُوقُ عَنْ أَرْبَابهَا ؟

اخْتَلَفَ الْمَشَايخُ فيه،ذَكَرَ الْفَقيهُ أَبُو جَعْفَر الْهنْدُوَانيُّ أَنَّهُ يَسْقُطُ ذَلكَ كُلُّهُ،وَإنْ كَانُوا لاَ يَضَعُونَهَا في أَهْلهَا،لأَنَّ حَقَّ الأَخْذ لَهُمْ فَيَسْقُطُ عَنْهُ بأَخْذهمْ،ثُمَّ إنَّهُمْ إنْ لَمْ يَضَعُوهَا مَوَاضعَهَا فَالْوَبَال عَلَيْهمْ.

قَال الشَّيْخُ أَبُو بَكْر بْنُ سَعيد:إنَّ الْخَرَاجَ يَسْقُطُ،وَلاَ تَسْقُطُ الصَّدَقَاتُ لأَنَّ الْخَرَاجَ يُصْرَفُ إلَى الْمُقَاتلَة،وَهُمْ يَصْرفُونَ إلَى الْمُقَاتلَة وَيُقَاتلُونَ الْعَدُوَّ،أَلاَ تَرَى أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ الْعَدُوُّ فَإنَّهُمْ يُقَاتلُونَ وَيَذُبُّونَ عَنْ حَريم الْمُسْلمينَ،فَأَمَّا الزَّكَوَاتُ وَالصَّدَقَاتُ فَإنَّهُمْ لاَ يَضَعُونَهَا في أَهْلهَا[1286] .

وَاسْتَدَلُّوا لوُجُوب طَاعَة الإمَام الْجَائر في طَلَب الْجزْيَة وَالْخَرَاج بمَا يَلي:

أ - عَنْ فُرَات الْقَزَّاز،قَالَ:سَمعْتُ أَبَا حَازم،قَالَ:قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سنينَ،فَسَمعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ،قَالَ:«كَانَتْ بَنُو إسْرَائيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبيَاءُ،كُلَّمَا هَلَكَ نَبيٌّ خَلَفَهُ

[1285] - الخراج لأبي يوسف (ص:٤٦) صحيح مرسل، والاختيار ٤ / ١٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ١٤، الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٦، الأحكام السلطانية للفراء ص ٢٨ .

[1286] - بدائع الصنائع ٢ / ٨٨٤، مواهب الجليل ٢ / ٣٦٤، مغني المحتاج ٤ / ١٣٢ .

نَبيٌّ،وَإِنَّهُ لاَ نَبيَّ بَعْدي،وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا:فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:«فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ،أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ».[1287]

قَال الشَّوْكَانيُّ:فِي بَيَانِ مَعْنَى " أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ " – أَي ادْفَعُوا إِلَى الأُمَرَاءِ حَقَّهُمُ الَّـذِي لَهُمُ الْمُطَالَبَةُ به وَقَبْضُهُ،سَوَاءٌ كَانَ يَخْتَصُّ بِهِمْ أَوْ يَعُمُّ،وَذَلِكَ مِـنَ الْحُقُـوقِ الْوَاجِبَـةِ كَالزَّكَاة،وَفِي الأَنْفُسِ كَالْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَاد.[1288]

وَقَوْلُهُ:اسْتَرْعَاهُمْ أَيْ طَلَبَ منْهُمْ أَنْ يَكُونَ رَاعِيَهُمْ وَأَميرَهُمْ،وَقَالَ الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:مَـنِ اسْتَرْعَيْتُهُ الشَّيْءَ فَرَعَاهُ وَفِي الْمَثَلِ:مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ،وَالرَّاعِي الْوَالِي،وَالرَّعِيَّـةُ الْعَامَّةُ.[1289]

ب – عَنْ عَبْد الله،قَالَ:قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ:«إِنَّهَـا سَـتَكُونُ بَعْـدي أَثَـرَةٌ وَأُمُـورٌ تُنْكرُونَهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ الله،كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ منَّا ذَلكَ؟ قَالَ:«تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّـذي عَلَيْكُمْ،وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذي لَكُمْ» [1290].

ج – عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،عَنْ جَدَّته أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَ:سَمعْتُهَا تَقُولُ:حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ،فَرَأَيْتُهُ حينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَة،وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحلَته وَمَعَهُ بلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ،وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَـهُ عَلَـى رَأْسِ رَسُـولِ الله ﷺ مِـنَ

[1287] – صحيح البخاري (٤/ ١٦٩)(٣٤٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٤ – (١٨٤٢)

[ش (تسوسهم) تتولى أمورهم والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه.(فيكثرون) أي يكون أكثر من حاكم واحد للمسلمين في زمن واحد.(فوا) من الوفاء.(ببيعة الأول فالأول) أي إن الذي تولى الأمر وبويع قبل غيره هو صاحب البيعة الصحيحة التي يجب الوفاء بها وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها مطلقا.(أعطوهم حقهم) أطيعوهم في غير معصية.(سائلهم) محاسبهم بالخير والشر عن حال رعيتهم]

[1288] – نيل الأوطار ٧ / ١٩٤ .

[1289] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٩٨)

[1290] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢)٤٥ – (١٨٤٣)

[ش (ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها) هذا من معجزات النبوة وقد وقع الإخبار متكررا ووجد مخبره متكررا وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالما عسوفا فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه والمراد بالأثرة هنا استئثار الأمراء بأموال بيت المال]

الشَّمْسِ،قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا،ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ - أَسْوَدُ،يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[١٢٩١]

٣ - دَفْعُ الْجِزْيَةِ إِلَى الْبُغَاةِ:

الْبُغَاةُ:هُمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى التَّأْوِيلِ وَيَخْرُجُونَ عَلَى الإِمَامِ (العادل)،أَوْ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الدُّخُولِ فِي طَاعَتِهِ،أَوْ يَمْنَعُونَ حَقًّا وَجَبَ عَلَيْهِمْ كَالزَّكَاةِ وَشِبْهِهَا،فَيُدْعَوْنَ إِلَى الرُّجُوعِ لِلْحَقِّ[١٢٩٢].

فَإِذَا غَلَبَ أَهْلُ الْبَغْيِ عَلَى بَلَدٍ وَنَصَبُوا إِمَامًا،فَجَبَى الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى سُقُوطِ الْجِزْيَةِ عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِدَفْعِهَا إِلَى الْبُغَاةِ،وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ.[١٢٩٣]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ:

بِأَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ لَمْ يُطَالِبْهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا جُبِيَ مِنْهُمْ.

قَال الشَّافِعِيَّةُ:وَلِأَنَّ حَقَّ الإِمَامِ فِي الْجِبَايَةِ مَرْهُونٌ بِالْحِمَايَةِ،وَهِيَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَ تَغَلُّبِ الْبُغَاةِ عَلَى بَلْدَةٍ مُعَيَّنَةٍ[١٢٩٤].

وَلِأَنَّ فِي تَرْكِ احْتِسَابِهَا ضَرَرًا عَظِيمًا وَمَشَقَّةً كَبِيرَةً،فَإِنَّ الْبُغَاةَ قَدْ يَغْلِبُونَ عَلَى الْبِلاَدِ السِّنِينَ الْكَثِيرَةَ وَتَتَجَمَّعُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ مَبَالِغُ طَائِلَةٌ لاَ يُطِيقُونَهَا.وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ

[١٢٩١] - صحيح مسلم (٢/ ٩٤٤) ٣١١ - (١٢٩٨)

[ش (عبد مجدع) أي مقطع الأعضاء والتشديد للتكثير وإلا فالجدع قطع الأنف والأذن والشفة والذي قطع منه ذلك أجدع والأنثى جدعاء والمقصود التنبيه على نهاية خسته فإن العبد خسيس في العادة ثم سواده نقص آخر وجدعه نقص آخر ومن هذه الصفات مجموعة فيه فهو في نهاية الخسة والعادة أن يكون ممتهنا في أرذل الأعمال]

[١٢٩٢] - القوانين الفقهية ص ٣٩٣ .

[١٢٩٣] - البدائع ٩ / ٤٤٠٢، كتاب السير ص ٢٢٩، القوانين الفقهية ص ٣٩٤، الأم ٤ / ٢٢٠، مغني المحتاج ٤ / ١٣٣ الأحكام السلطانية للفراء ص ٥٥، الإنصاف ١٠ / ٣١٨ .

[١٢٩٤] - حاشية القليوبي ٤ / ٢٣٤ .

يَجبُ عَلَى مَنْ دَفَعَ الْجزْيَةَ إلَى الْبُغَاة الإعَادَةُ،لأَنَّهُ أَعْطَاهَا إلَى مَنْ لاَ ولاَيَةَ لَهُ صَحيحَةٌ فَأَشْبَهَ مَا لَوْ أَخَذَهَا آحَادُ الرَّعيَّة غَصْبًا[١٢٩٥].

٤ – حُكْمُ دَفْعِ الْجزْيَةِ إلَى الْمُحَارِبِينَ " قُطَّاعِ الطُّرُق ":

الْمُحَارِبُونَ:هُمُ الَّذينَ يَعْرضُونَ للنَّاس بالسِّلاَحِ فَيَغْصبُونَ الْمَال مُجَاهَرَةً أَوْ يَقْتُلُونَ أَوْ يُخيفُونَ الطَّريقَ فَإذَا أَخَذَ الْمُحَارِبُونَ الْجزْيَةَ منْ أَهْل الذِّمَّة لَمْ يَقَعْ ذَلكَ مَوْقعَهُ،وَلَمْ تَسْقُط الْجزْيَةُ عَنْهُمْ بأَدَائهَا إلَى الْمُحَاربينَ ؛لأَنَّ الْمَأْخُوذَ منْهُمْ كَالْمَأْخُوذ غَصْبًا.[١٢٩٦]

طُرُقُ اسْتيفَاء الْجزْيَة:

إذَا كَانَ الإمَامُ هُوَ صَاحبَ الْحَقِّ في اسْتيفَاء الْجزْيَة،فَلاَ يَعْني ذَلكَ أَنَّهُ سَيُبَاشرُ جَميعَ الأَعْمَال الَّتي تَتَعَلَّقُ بهَا منْ حَيْثُ تَقْديرُهَا وَتَدْوينُهَا وَجَمْعُهَا وَصَرْفُهَا ؛لأَنَّ ذَلكَ يَصْعُبُ عَلَيْه وَلاَ يَسْتَطيعُهُ،بَل يَعْني تَوْليَةَ مَنْ يَجْمَعُهَا وَالإشْرَافَ عَلَيْهَا وَمُتَابَعَةَ مَنْ يَقُومُ باسْتيفَائهَا وَصَرْفهَا.وَمنْ طُرُق الاسْتيفَاء الَّتي كَانَتْ مُتَّبَعَةً في ذَلكَ،الْعمَالَةُ عَلَى الْجزْيَة،وَالْقَبَالَةُ (التَّضْمينُ).

الطَّريقَةُ الأُولَى:الْعمَالَةُ عَلَى الْجزْيَة:

الْعمَالَةُ عَلَى الْجزْيَة ولاَيَةٌ منَ الْولاَيَات الشَّرْعيَّة الصَّادرَة عَن الإمَام يَتمُّ بمُقْتَضَاهَا اسْتيفَاءُ الْجزْيَة وَقَبْضُهَا.

وَعَامل الْجزْيَة وَكيلٌ عَن الإمَام في اسْتيفَاء الْجزْيَة وَقَبْضهَا،وَجبَايَتُهُ للْجزْيَة مُحَدَّدَةٌ بمَا رَسَمَهُ لَهُ الإمَامُ،وَلعَامل الْجزْيَة شُرُوطٌ أَهَمُّهَا:الإسْلاَمُ وَالْحُرِّيَّةُ،وَالأَمَانَةُ،وَالْكفَايَةُ،وَالْعلْمُ وَالْفقْهُ.

وَللتَّفْصيل تُنْظَرُ الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ في:(جبَايَةٌ).

مَا يُرَاعيه الْعَامل في جبَايَة الْجزْيَة:

الرِّفْقُ بأَهْل الذِّمَّة:

للْفُقَهَاء في هَذه الْمَسْأَلَة اتِّجَاهَان:

[١٢٩٥] – المدونة ١ / ٢٤٤، مواهب الجليل ٢ / ٣٦٤، الفروق ٤ / ١٧١ .

[١٢٩٦] – المبدع ٩ / ١٤٤، الأحكام السلطانية للماوردي ص ٦٣، الأحكام السلطانية للفراء ص ٥٨ .

الأَوَّل:أَنَّهُ يَنْبَغِي لِعَامِلِ الْجِزْيَةِ أَنْ يَكُونَ رَفِيقًا بِأَهْلِ الذِّمَّةِ عِنْدَ اسْتِيفَائِهِ لِلْجِزْيَةِ:بِأَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُمْ بِتَلَطُّفٍ دُونَ تَعْذِيبٍ أَوْ ضَرْبٍ،وَأَنْ يُؤَخِّرَهُمْ إِلَى غَلاَّتِهِمْ،وَأَنْ يُقَسِّطَهَا عَلَيْهِمْ،وَأَنْ يَقْبَل مِنْهُمُ الْقِيمَةَ بَدَلاً مِنَ الْعَيْنِ.وَالصَّغَارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩] مَعْنَاهُ عِنْدَهُمُ الْتِزَامُ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ[١٢٩٧].

وَالاِتِّجَاهُ الآْخَرُ:مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَهُوَ أَنَّ الْجِزْيَةَ تُسْتَوْفَى مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ بِإِهَانَةٍ وَإِذْلاَلٍ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].[١٢٩٨]

الأَمْوَال الَّتِي تُسْتَوْفَى مِنْهَا الْجِزْيَةُ:

لاَ يَتَعَيَّنُ فِي اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَةِ ذَهَبٌ وَلاَ فِضَّةٌ وَلاَ نَوْعٌ بِعَيْنِهِ،بَل يَجُوزُ أَخْذُهَا مِمَّا تَيَسَّرَ مِنْ أَمْوَال أَهْل الذِّمَّةِ:كَالسِّلاَحِ وَالثِّيَابِ وَالْحُبُوبِ وَالْعُرُوضِ فِيمَا عَدَا ثَمَنَ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ. وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ.[١٢٩٩]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا يَلِي:

١ - عَنْ إِبْرَاهِيمَ،قَالَا:قَالَ مُعَاذُ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ،فَأَمَرَنِي أَنْ «آخُذَ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ بَقَرَةً ثَنِيَّةً،وَمِنْ كُلِّ ثَلَاثِينَ تَبِيعًا أَوْ تَبِيعَةً،وَمِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عَدْلَهُ مَعَافِرَ»[١٣٠٠] فَهُوَ يَدُل عَلَى جَوَازِ أَخْذِ الْقِيمَةِ فِي الْجِزْيَةِ مِنَ الثِّيَابِ الْمَصْنُوعَةِ بِالْيَمَنِ وَالْمَنْسُوبَةِ إِلَى قَبِيلَةِ مَعَافِرَ.قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ،أَنَّ عَلَى كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عَدْلَهُ مِنَ الْمَعَافِرِ،تَقْوِيَةً لِفِعْلِ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاذٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،أَلَا تَرَاهُ

[١٢٩٧] - الأم ٤ / ١٢٧، والأموال ص ٥٩، وابن زنجويه في الأموال ١ / ١٦٤، والخراج ص ١٢٥ .

[١٢٩٨] - انظر :الاختيار ٤ / ١٣٩، حاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠١، المنتقى ٢ / ١٧، حاشية الخرشي ٣ / ١٤٥، روضة الطالبين ١٠ / ٣١٥، مغني المحتاج ٤ / ٢٤٩، كفاية الأخيار ٢ / ١٣٥، كشاف القناع ٣ / ١٢٣، المبدع ٣ / ٤١٢، الإنصاف ٤ / ٢٢٩، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٧، معالم القربى ص ٩٩، منح الجليل ١ / ٧٥٩، جامع البيان ١٠ / ٧٧ - ٧٨، زاد المسير ٣ / ٤٢١ .

[١٢٩٩] - انظر :الخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، الرتاج للرحبي ٢ / ٩٨، المنتقى للباجي ٢ / ١٧٥، ونهاية المحتاج للرملي ٨ / ٨٧، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٠٤، زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٩٠، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٢٩، وكشاف القناع للبهوتي ٣ / ١٢٢، والمبدع لابن مفلح ٣ / ٤١١ .

[١٣٠٠] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٢٥)(١٠٥) صحيح لغيره

قَدْ أَخَذَ مِنْهُمُ الثِّيَابَ،وَهِيَ الْمَعَافِرُ،مَكَانَ الدَّنَانِيرِ؟ وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهَذَا كُلِّــهِ،الرِّفْقُ بِأَهْــلِ الذِّمَّةِ،وَأَنْ لَا يُبَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَتَاعِهِمْ شَيْءٌ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِمَّا سَهُلَ عَلَــيْهِمْ بِالْقِيمَــةِ،أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ عَدْلُهُ مِنَ الْمَعَافِرِ،فَقَدْ بَيَّنَ لَــكَ ذِكْــرَ الْعَــدْلِ أَنَّــهُ الْقِيمَةُ"[1301]

٢ - عَنْ أَبِي الْمُلَيْحِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالَحَ أَهْلَ نَجْرَانَ،وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا:بِسْمِ اللَّــهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِأَهْلِ نَجْرَانَ إِذْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمُــهُ أَنَّ فِيَ كُلِّ سَوْدَاءَ وَبَيْضَاءَ وَصَفْرَاءَ وَثَمَرَةٍ وَرَقِيقٍ،أَوْ أُفْضِلَ عَلَيْهِمْ،وَتُرِكَ لَهُمْ،عَلَى أَلْفَــيْ حُلَّةٍ،فِي كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ،وَفِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ،كُلُّ حُلَّةٍ أُوقِيَّةٌ،مَا زَادَ الْخَرَاجُ أَوْ نَقَصَ،فَعَلَى الْأُوَاقِ يُحْسَبُ،وَمَا قَضَوْا مِــنْ رِكَــابٍ أَوْ خَيْــلٍ أَوْ دِرْعٍ،أُخِــذَ مِــنْهُمْ بِحِسَابٍ،وَعَلَى نَجْرَانَ مَثْوَى رُسُلِي عِشْرِينَ لَيْلَةً فَمَا دُونَهَــا،وَعَلَيْهِمْ عَارِيَــةٌ ثَلَــاثِينَ فَرَسًا،وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا،وَثَلَاثِينَ دِرْعًا،إِذَا كَانَ كَيْدٌ بِالْيَمَنِ دُونَ مَعْذِرَةٍ،وَمَا هَلَكَ مِمَّا أَعَــارُوا رُسُلِي،فَهُوَ ضَمَانٌ عَلَى رُسُلِي حَتَّى يُؤَدُّوهُ إِلَيْهِمْ،وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا ذِمَّةُ اللَّــهِ وَذِمَّــةُ رَسُولِهِ.عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَبِــيَعِهِمْ وَرَهْبَــانِيَّتِهِمْ وَأَسَــاقِفَتِهِمْ وَشَــاهِدِهِمْ وَغَائِبِهِمْ،وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ،عَلَى أَنْ لَا يُغَيِّرَهُ أُسْقُفٌ مِنْ سِقِّيفَاهُ،وَلَا وَاقِفٌ مِنْ وِقِّيفَاهُ،وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ،وَعَلَى أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَــا يُعْشَــرُوا،وَلَا يَطَــأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ،مَنْ سَأَلَ مِنْهُم حَقًّا فَالنِّصْفُ بَيْنَهُمْ بِنَجْرَانَ،وَعَلَى أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَــا،فَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا مِنْ ذِي قَبْلٍ،فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ،وَعَلَيْهِمُ الْجَهْدُ وَالنُّصْحُ فِيمَــا اسْــتَقْبَلُوا غَيْــرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مَعْنُوفٍ عَلَيْهِمْ " شَهِدَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَمُعَيْقِيبٌ،وَكَتَبَ قَالَ:فَلَمَّا تُــوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَوْا أَبَا بَكْرٍ فَوَفَّى لَهُمْ،وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا نَحْوًا مِنْ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّــا وُلِّيَ عُمَرُ،أَصَابُوا الرِّبَا فِي زَمَانِهِ،فَأَجْلَاهُمْ،وَكَتَبَ لَهُمْ:أَمَّا بَعْدُ،فَمَنْ وَقَعُوا بِهِ مِنْ أُمَــرَاءِ الشَّامِ أَوِ الْعِرَاقِ فَلْيُوسِّعْهُمْ مِنْ خَرِيبِ الْأَرْضِ،فَمَا اعْتَمَلُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَهُمْ لِوَجْهِ اللَّــهِ وَعُقْبَى مِنْ أَرْضِهِمْ فَأَتَوْا الْعِرَاقَ فَاتَّخَذُوا النَّجْرَانِيَّةَ،فَكَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى الْوَلِيدِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ الْعَاقِبَ وَالْأُسْقُفَّ وَسُرَاةَ أَهْلِ نَجْرَانَ أَتَوْنِي بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّــهِ ﷺ وَأَرَوْنِــي شَــرْطَ

[1301] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٦٩)

عُمَرَ،وَقَدْ سَأَلْتُ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْف،فَأَنْبَأَنِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ بَحثَ عَنْ ذَلِكَ،فَوَجَدَهُ مَضَارَّةً وَظُلْمًا لتَرَدُّعِهِمُ الدَّهَّاقِينَ عَنْ أَرْضِيهِمْ،وَإِنِّي وَضَعْتُ عَنْهُمْ مِنْ جِزْيَتِهِمْ مِائَتَيْ حُلَّة،الْمائَتَيْنِ تَرِيكٌ لِوَجْهِ اللَّهِ،وَعُقْبَى لَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ،وَإِنِّي أُوصِيكَ بِهِمْ خَيْرًا،فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ لَهُمُ الذِّمَّةُ.[1302]

٣ – مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ النَّعَمَ فِي الْجِزْيَةِ.[1303]

٤ – عَنْ عَنْتَرَةَ،قَالَ:عَلِيٌّ يَأْخُذُ الْجِزْيَةَ مِنْ كُلِّ ذِي صُنْعٍ:مِنْ صَاحِبِ الْإِبَرِ إِبَرًا،وَمِنْ صَاحِبِ الْمَسَانِّ مَسَانَّ،وَمِنْ صَاحِبِ الْحِبَالِ حِبَالًا،ثُمَّ يَدْعُو الْعُرَفَاءَ فَيُعْطِيهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَيَقْتَسِمُونَهُ،ثُمَّ يَقُولُ:«خُذُوا هَذَا فَاقْتَسِمُوهُ»،فَيَقُولُونَ:لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ،فَيَقُولُ:«أَخَذْتُمْ خِيَارَهُ،وَتَرَكْتُمْ عَلَيَّ شِرَارَهُ،لَتَحْمِلُنَّهُ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَإِنَّمَا يُوجَدُ هَذَا مِنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَأْخُذُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأَمْتِعَةَ بِقِيمَتِهَا مِنَ الدَّرَاهِمِ الَّتِي عَلَيْهِمْ مِنْ جِزْيَةِ رُءُوسِهِمْ وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى بَيْعِهَا،ثُمَّ يَأْخُذُ ذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ،إِرَادَةَ الرِّفْقِ بِهِمْ وَالتَّخْفِيفِ عَلَيْهِمْ،وَهَذَا مِثْلُ حَدِيثِ مُعَاذٍ،حِينَ قَالَ بِالْيَمَنِ:ائْتُونِي بِخَمِيسٍ أَوْ لَبِيسٍ آخُذُهُ مِنْكُمْ مَكَانَ الصَّدَقَةِ،فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ وَأَنْفَعُ لِلْمُهَاجِرِينَ بِالْمَدِينَةِ،وَكَذَلِكَ فَعَلَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ كَانَ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي الْجِزْيَةِ[1304]

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَأَرَاهُمَا أَرْخَصَا فِي أَخْذِ الْعُرُوضِ وَالْحَيَوَانِ مَكَانَ الْجِزْيَةِ،وَإِنَّمَا أَصْلُهَا الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ،وَكَذَلِكَ كَانَ رَأْيُهُمَا فِي الدِّيَاتِ،مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحُلَلِ،إِنَّمَا أَرَادَا التَّسْهِيلَ عَلَى النَّاسِ،فَجَعَلَا عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ مَا يُمْكِنُهُمْ.أَنَا حُمَيْدٌ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَالصَّدَقَةُ عِنْدَنَا عَلَى هَذَا،أَنَّ الْأَسْنَانَ يُؤْخَذُ بَعْضُهَا مَكَانَ بَعْضٍ،إِذَا لَمْ تُوجَدِ السِّنُّ الَّتِي تَجِبُ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ،وَمَا كَانَ يَأْخُذُ بِهِ سُفْيَانُ؛لِأَنَّ فِيهِ تَيْسِيرًا عَلَى الَّذِينَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ،وَوَفَاءً لِلَّذِينَ يُؤْخَذُ لَهُمْ.أَنَا حُمَيْدٌ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا مَا جَاءَ فِي فَرَائِضِ الْإِبِلِ،إِذَا كَانَتْ كُلُّهَا مَسَانَّ وَخَالَطَتْهَا صِغَارٌ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالصِّقَابِ،فَإِذَا كَانَتْ كُلُّهَا صِغَارًا،لَا مُسِنَّةَ فِيهَا،فَإِنَّ فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا أَرْبَعَةً:قَالَ سُفْيَانُ:يُؤْخَذُ مِنْهَا كَمَا يُؤْخَذُ

[1302] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٧)(٧٣٢) وسنده واه

[1303] – الأموال لأبي عبيد ص ٦٣ .

[1304] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٦)(١١٧)حسن لغيره – العريف :قائد الجماعة من الناس

مِنَ الْكِبَارِ مِنَ الْأَسْنَانِ،إِلَّا إِنَّهُ يَرُدُّ الْمُصَدِّقُ عَلَى رَبِّ الْمَالِ فَضْلَ مَا بَيْنَ السِّنِّ الَّتِي أَخَذَ،وَبَيْنَ الرُّبُعِ وَالسَّقْبِ الَّذِي وَجَبَ فِي الْمَالِ،وَقَالَ مَالِكٌ:يُؤْخَذُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يُؤْخَذُ مِنَ الْمَسَانِّ مِنَ الْأَسْنَانِ،وَلَا يَرُدُّ الْمُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَضْلَ عَلَى رَبِّ الْمَالِ،وَقَالَ غَيْرُهُمَا قَوْلًا ثَالِثًا:أَنَّهُ لَا صَدَقَةَ فِي الصِّغَارِ وَلَا شَيْءَ عَلَى رَبِّهَا[١٣٠٥]

وعَنْ حُمَيْدٍ الطَّوِيلِ،قَالَ:كَانَ عَلِيٌّ يَأْخُذُ الْجِزْيَةَ مِنْ كُلِّ ذِي صَنَعٍ،مِنْ صَاحِبِ الْأَبَرِ أَبَرٌ،وَمِنْ صَاحِبِ الْمَسَالِّ مَسَالٌّ،وَمِنْ صَاحِبِ الْحِبَالِ حِبَالٌ،ثُمَّ يَدْعُو الْعُرَفَاءَ فَيُعْطِيهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ،فَيَقْسِمُونَهُ،ثُمَّ يَقُولُ:«خُذُوا هَذَا فَاقْتَسِمُوهُ»،فَيَقُولُونَ:لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ فَيَقُولُ:«أَخَذْتُمْ خِيَارَهُ وَتَرَكْتُمْ عَلَيَّ شِرَارَهُ،لَتُحْمَلَنَّ».

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَإِنَّمَا تُوُجِّهَ هَذَا مِنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَأْخُذُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأَمْتِعَةَ بِقِيمَتِهَا مِنَ الدَّرَاهِمِ الَّتِي عَلَيْهِمْ مِنْ جِزْيَةِ رُءُوسِهِمْ،وَلَا يَحْمِلُهُمْ إِلَى بَيْعِهَا،ثُمَّ يَأْخُذُ ذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ إِرَادَةَ الرِّفْقِ بِهِمْ،وَالتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ،وَهَذَا مِثْلُ حَدِيثِ مُعَاذٍ حِينَ قَالَ:بِالْيَمَنِ:ائْتُونِي بِخَمِيسٍ أَوْ لَبِيسٍ آخُذُهُ مِنْكُمْ مَكَانَ الصَّدَقَةِ؛فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ،وَأَنْفَعُ لِلْمُهَاجِرِينَ بِالْمَدِينَةِ.وَكَذَلِكَ فَعَلَ عُمَرُ حِينَ كَانَ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي الْجِزْيَةِ[١٣٠٦]

اسْتِيفَاءُ الْجِزْيَةِ مِنْ ثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ:

اسْتِيفَاءُ الْجِزْيَةِ مِنْ أَعْيَانِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ لاَ يَجُوزُ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ لِأَنَّهُمَا لَيْسَا بِمَالٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،وَمَالٌ غَيْرُ مُتَقَوَّمٍ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،فَلاَ يَجُوزُ أَخْذُهَا فِي الْجِزْيَةِ.

وَأَمَّا اسْتِيفَاءُ الْجِزْيَةِ مِنْ ثَمَنِ مَا بَاعُوهُ مِنَ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِهِ.

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ إِلَى جَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ ثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ إِذَا تَوَلَّى الذِّمِّيُّ بَيْعَهَا [١٣٠٧].

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا يَلِي:

[١٣٠٥] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٨١٧)(١٤٢٤ و١٤٢٥)

[١٣٠٦] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٦٧)(١٧٥) حسن لغيره

[١٣٠٧] – الخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، وكتاب السير لمحمد بن الحسن ص ٢٦٣، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٦١، والمغني ٨ / ٥٢١ .

١ - عَنْ سُوَيْد بْنِ غَفَلَةَ،قَالَ:بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب أَنَّ نَاسًا يَأْخُذُونَ الْجزْيَةَ مِنَ الْخَنَازِير،وَقَامَ بلَالٌ فَقَالَ:إنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ،فَقَالَ عُمَرُ:«لَا تَفْعَلُوا،وَلُّوهُمْ بَيْعَهَا»[1308]

وعَن الشَّيْبَانيِّ،عَنْ أَبيه،قَالَ:حَدَّثَني عَمْرُو بْنُ أَبي قُرَّةَ،قَالَ:«جَاءَنَا كتَابُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أَنَّ نَاسًا،يَأْخُذُونَ منْ هَذَا الْمَال يُجَاهدُونَ في سَبيل اللَّه،ثُمَّ يُخَالفُونَ وَلَا يُجَاهدُونَ،فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ منْهُمْ،فَنَحْنُ أَحَقُّ بمَاله حَتَّى نَأْخُذَ منْهُ مَا أَخَذَ»،قَالَ إسْحَاقُ:فَقُمْتُ إلَى أَسَد بْنِ عَمْرٍو فَقُلْتُ:أَلَا تَرَى إلَى مَا حَدَّثَني به عَمْرُو بْنُ أَبي قُرَّةَ وَحَدَّثْتُ به؟ فَقَالَ:صَدَقَ،جَاءَ به كتَابُ عُمَرَ[1309]

وعَنْ سُوَيْد بْنِ غَفَلَةَ،أَنَّ بلَالًا قَالَ لعُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب:إنَّ عُمَّالَكَ يَأْخُذُونَ الْخَمْرَ وَالْخَنَازِيرَ في الْخَرَاجِ فَقَالَ:لَا تَأْخُذُوا منْهُمْ،وَلَكنْ وَلُّوهُمْ بَيْعَهَا،وَخُذُوا أَنْتُمْ منَ الثَّمَن "

قَالَ أَبُو عُبَيْد:يُريدُ أَنَّ الْمُسْلمينَ كَانُوا يَأْخُذُونَ منْ أَهْلِ الذِّمَّة الْخَمْرَ وَالْخنْزِيرَ،منْ جزْيَة رُءُوسهمْ وَخَرَاجِ أَرَضيهمْ،بقيمَتهَا،ثُمَّ يَتَوَلَّى الْمُسْلمُونَ بَيْعَهَا فَهَذَا الَّذي أَنْكَرَهُ بلَالٌ،وَنَهَى عَنْهُ عُمَرُ،ثُمَّ رَخَّصَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا ذَلكَ منْ أَثْمَانهَا،إذَا كَانَ أَهْلُ الذِّمَّة الْمُتَوَلِّينَ لبَيْعهَا؛لأَنَّ الْخَمْرَ وَالْخَنَازِيرَ مَالٌ منْ أَمْوَال أَهْلِ الذِّمَّة،وَلَا تَكُونُ مَالًا للْمُسْلمينَ وَممَّا يُبَيِّنُ ذَلكَ حَديثٌ لعُمَرَ آخَرُ،فعَنِ اللَّيْث بْنِ أَبي سُلَيْم،أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ إلَى الْعُمَّال،«يَأْمُرُهُمْ بقَتْلِ الْخَنَازِير وَتُقْتَصُّ أَثْمَانُهَا لأَهْلِ الْجزْيَة منْ جزْيَتهمْ» قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَهُوَ لَمْ يَجْعَلْهَا قصَاصًا منَ الْجزْيَة إلَّا وَهُوَ يَرَاهَا مَالًا منْ أَمْوَالهمْ.وَأَمَّا إذَا مَرَّ الذِّمِّيُّ بالْخَمْر وَالْخنْزِير عَلَى الْعَاشر،فَإنَّهُ لَا يَطيبُ لَهُ أَنْ يُعَشِّرَهَا،وَلَا يَأْخُذَ ثَمَنَ الْعُشْر منْهَا وَإنْ كَانَ الذِّمِّيُّ هُوَ الْمُتَوَلِّي لبَيْعهَا أَيْضًا.وَقَالَ أَبُو عُبَيْد:وَهَذَا لَيْسَ منَ الْبَاب الْأَوَّل،وَلَا يُشْبهُهُ؛لأَنَّ ذَلكَ حَقٌّ وَجَبَ عَلَى رقَابهمْ وَأَرْضيهمْ،وَإنَّ الْعُشْرَ هَاهُنَا إنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يُوضَعُ عَلَى الْخَمْر وَالْخَنَازِير أَنْفُسهَا،فَكَذَلكَ ثَمَنُهَا لَا يَطيبُ،لقَوْل رَسُول اللَّه ﷺ:إنَّ اللَّه إذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ.وَقَدْ رُويَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أَنَّهُ أَفْتَى في هَذَا بغَيْر مَا أَفْتَى به في ذَلكَ وَكَذَلكَ قَالَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْد الْعَزِيز،فعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ هُبَيْرَةَ السَّبَائيِّ،أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ فَرْقَد

[1308] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦٢)(١٢٨) صحيح

[1309] - مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٤٨)(٣٢٨٢٦) صحيح

بَعَثَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ،صَدَقَةَ الْخَمْرِ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ:بَعَثْتَ إِلَيَّ بِصَدَقَةِ الْخَمْرِ،وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّاسَ،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَا اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى شَيْءٍ بَعْدَهَا،قَالَ:فَتَرَكَهُ

وعَنِ الْمُثَنَّى بْنِ سَعِيدٍ الضُّبَعِيِّ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ:أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ بِفَضْلِ الْأَمْوَالِ الَّتِي قِبَلَكَ مِنْ أَيْنَ دَخَلَتْ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ،وَصَنَّفَهُ لَهُ:فَكَانَ فِيمَا كَتَبَ إِلَيْهِ:مِنْ عُشْرِ الْخَمْرِ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ،قَالَ:فَلَبِثْنَاهَا مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ جَاءَ جَوَابُ كِتَابِهِ إِنَّكَ كَتَبْتَ إِلَيَّ تَذْكُرُ مِنْ عُشُورِ الْخَمْرِ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ،وَإِنَّ الْخَمْرَ لَا يُعَشِّرُهَا مُسْلِمٌ،وَلَا يَشْرَبُهَا وَلَا يَبِيعُهَا،فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاطْلُبِ الرَّجُلَ فَارْدُدْهَا عَلَيْهِ فَهُوَ أَوْلَى بِمَا كَانَ فِيهَا،فَطَلَبَ الرَّجُلَ فَرُدَّتْ عَلَيْهِ الْأَرْبَعَةُ الْآلَافِ،وَقَالَ:أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ،إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا عِنْدِي الَّذِي عَلَيْهِ الْعَمَلُ،وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ قَدْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ" [١٣١٠]

٢ - وَلِأَنَّ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ مَالٌ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي نُقِرُّهُمْ عَلَى اقْتِنَائِهَا،وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا،فَجَازَ أَخْذُ أَثْمَانِهَا مِنْهُمْ كَثِيَابِهِمْ. [١٣١١]

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الْقَوْلِ الْمُعْتَمَدِ عِنْدَهُمْ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَةِ مِنْ ثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ. [١٣١٢]

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ،وَثَمَنَهَا،وَحَرَّمَ الْمَيْتَةَ،وَثَمَنَهَا،وَحَرَّمَ الْخِنْزِيرَ،وَثَمَنَهُ». [١٣١٣]

٢ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا عِنْدَ الرُّكْنِ،قَالَ:فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحِكَ،فَقَالَ:«لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ،ثَلَاثًا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا

[١٣١٠] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦٢)(١٢٩) صحيح

[١٣١١] - المغني ٨ / ٥٢١ .

[١٣١٢] - مغني المحتاج ٤ / ٢٥٣ .

[١٣١٣] - مستخرج أبي عوانة (٣/ ٣٧٢)(٥٣٦٣) صحيح

أَثْمَانَهَا،وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَمَنَهُ» وَلَمْ يَقُلْ فِي حَدِيثِ خَالِد بْنِ عَبْد اللَّه الطَّحَّان:«رَأَيْتُ» وَقَالَ:«قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ»[١٣١٤]

٣ – وَلِأَنَّ ثَمَنَ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي اعْتِقَادِنَا فَحَرُمَ عَلَيْنَا أَخْذُ الثَّمَنِ عِنْدَ الْعِلْمِ بِهِ كَالْمَسْرُوقِ وَالْمَغْصُوبِ[١٣١٥].

تَأْخِيرُهُمْ إِلَى غَلاَّتِهِمْ:

مِمَّا يُرَاعَى فِي اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَةِ تَأْخِيرُ مَنْ فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ إِلَى غَلاَّتِهِمْ،أَيْ حَتَّى تَنْضَجَ الثِّمَارُ،وَتُحْصَدَ الزُّرُوعُ فَيَتَمَكَّنُوا مِنْ بَيْعِهَا وَأَدَاءِ الْجِزْيَةِ.وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا جاء عن سَعِيدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،قَالَ:قَدِمَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حِذْيَمٍ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَلَمَّا أَتَاهُ عَلَاهُ بِالدِّرَّةِ،فَقَالَ سَعِيدٌ:سَبَقَ سَيْلُكَ مَطَرَكَ،إِنْ تُعَاقِبْ نَصْبِرْ،وَإِنْ تَعْفُ نَشْكُرْ،وَإِنْ تَسْتَعْتِبْ نُعْتِبْ،فَقَالَ:«مَا عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا هَذَا،مَا لَكَ تُبْطِئُ بِالْخَرَاجِ؟» قَالَ:أَمَرْتَنَا أَنْ لَا نَزِيدَ الْفَلَّاحِينَ عَلَى أَرْبَعَةِ دَنَانِيرَ،فَلَسْنَا نَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ،وَلَكِنَّا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَى غَلَّاتِهِمْ،فَقَالَ عُمَرُ:«لَا عَزَلْتُكَ مَا حَيِيتُ» قَالَ أَبُو مُسْهِرٍ:لَيْسَ لِأَهْلِ الشَّامِ حَدِيثٌ فِي الْخَرَاجِ غَيْرُ هَذَا" قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَإِنَّمَا وَجْهُ التَّأْخِيرِ إِلَى الْغَلَّةِ لِلرِّفْقِ بِهِمْ،وَلَمْ نَسْمَعْ فِي اسْتِيدَاءِ الْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَقْتًا مِنَ الزَّمَانِ يُجْتَبَى فِيهِ غَيْرَ هَذَا.[١٣١٦]

اسْتِيفَاءُ الْجِزْيَةِ عَلَى أَقْسَاطٍ:

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي اسْتِيفَاءِ الْجِزْيَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ أَخْذُهَا مِنْهُمْ عَلَى أَقْسَاطٍ،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ شَهْرِيًّا مِنْ بَابِ التَّخْفِيفِ وَالتَّيْسِيرِ عَلَيْهِمْ.

قَالَ الْمَرْغِينَانِيُّ:" يَأْخُذُ فِي كُلِ شَهْرٍ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ – أَيْ عَلَى الْغَنِيِّ – لِأَجْلِ التَّسْهِيلِ عَلَيْهِ ".

وَقَالَ الزَّيْلَعِيُّ:" يُوضَعُ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ اثْنَا عَشَرَ دِرْهَمًا يُؤْخَذُ مِنْهُ فِي كُلِ شَهْرٍ دِرْهَمٌ،ثُمَّ قَالَ:نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَالصَّحَابَةُ مُتَوَاتِرُونَ

[١٣١٤] – سنن أبي داود (٣/ ٢٨٠)(٣٤٨٨) صحيح

[١٣١٥] – مغني المتحاج ٤ / ٢٥٣ .

[١٣١٦] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٥)(١١٥) والأموال لابن زنجويه (١/ ١٦٧)(١٧٤) وفيه انقطاع

وترى اللجنة أن ظاهر كلام الفقهاء إن الجزية تؤخذ في مواعيدها لكن يجوز تأخير المعسر إلى اليسار كما تقدم .

وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَصَارَ إِجْمَاعًا.وَظَاهِرُ كَلاَمِ غَيْرِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهَا تُؤْخَذُ مِنْهُمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً كُل عَامٍ.[١٣١٧]

كِتَابَةُ عَامِل الْجِزْيَةِ بَرَاءَةً لِلذِّمِّيِّ:

إِذَا اسْتُوْفِيَت الْجِزْيَةُ كُتِبَ لِلذِّمِّيِّ بَرَاءَةٌ،لِتَكُونَ حُجَّةً لَهُ إِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا[١٣١٨].

التَّعَفُّفُ عَنْ أَخْذِ مَا لَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ:

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَامِل الْجِزْيَةِ عَفِيفَ النَّفْسِ،فَلاَ يَقْبَل هَدِيَّةً مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ وَلاَ رِشْوَةً لِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:«لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي»[١٣١٩].

أَيْ:مُعْطِي الرِّشْوَةِ وَآخُذَهَا،وَهَى الْوَصْلَةُ إِلَى الْحَاجَةِ بِالْمُصَانَعَةِ،وَأَصْلُهُ مِنَ الرِّشَاءِ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَاءِ،قِيلَ:الرِّشْوَةُ مَا يُعْطَى لِإِبْطَالِ حَقٍّ،أَوْ لِإِحْقَاقِ بَاطِلٍ،أَمَّا إِذَا أَعْطَى لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى حَقٍّ،أَوْ لِيَدْفَعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ظُلْمًا فَلَا بَأْسَ بِهِ،وَكَذَا الْآخِذُ إِذَا أَخَذَ لِيَسْعَى فِي إِصَابَةِ صَاحِبِ الْحَقِّ فَلَا بَأْسَ بِهِ،لَكِنَّ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ الْقُضَاةِ وَالْوُلَاةِ ؛ لِأَنَّ السَّعْيَ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ إِلَى مُسْتَحِقِّهِ،وَدَفْعِ الظَّالِمِ عَنِ الْمَظْلُومِ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ،فَلَا يَجُوزُ لَهُمُ الْأَخْذُ عَلَيْهِ،كَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمَلَكِ،وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلَامِ الْخَطَّابِيِّ إِلَّا قَوْلَهُ:وَكَذَا الْآخِذُ"[١٣٢٠]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ،يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ،فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ:هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي،قَالَ:«فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ،فَيَنْظُرُ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ،إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ،أَوْ

[١٣١٧] - الهداية ٤ / ١٤٣، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٣٦، والمهذب ٢ / ٢٥٢ .

[١٣١٨] - المهذب مع المجموع ١٨ / ٢٣٦، وكشاف القناع ٣ / ١٢٦، المبدع ٣ / ٤١٥، اختلاف الفقهاء للطبري ص ٢٣٢، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ١٨، الخراج لأبي يوسف ص ١٢٧ .

[١٣١٩] - سنن أبي داود (٣/ ٣٠٠)(٣٥٨٠) صحيح

[١٣٢٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٣٧)

بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ،أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ:«اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ،اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثَلاَثًا[1321].

(فِي شَرْحِ السُّنَّةِ) وَعَلَيْهِ الْإِمَامُ مَالِكٌ،وَفُرِّعَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ فِي الْمُوَطَّأِ أَمْثِلَةٌ:مِنْهَا أَنَّ الرَّجُلَ يُعْطِي صَاحِبَهُ الذَّهَبَ الْجَيِّدَ وَيَجْعَلُ مَعَهُ رَدِيئًا،وَيَأْخُذُ مِنْهُ ذَهَبًا مُتَوَسِّطًا مِثْلًا بِمِثْلٍ،فَقَالَ:هَذَا لَا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ أَخَذَ فَضْلَ جَيِّدِهِ مِنَ الرَّدِيءِ وَلَوْلَاهُ لَمْ يُبَايِعْهُ.اهـ وَمَا قَالَهُ فِي الْكُلِّيَّةِ الْأُولَى فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِنَا،وَمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ لِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ أَنَّ لِلْوَسَائِلِ حُكْمُ الْمَقَاصِدِ،فَوَسِيلَةُ الطَّاعَةِ طَاعَةٌ،وَوَسِيلَةُ الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ،وَأَمَّا مَا قَالَهُ مِنَ الْكُلِّيَّةِ الثَّانِيَةِ فَإِنَّمَا يَلِيقُ بِمَذْهَبِ مَنْ مَنَعَ الْحِيَلَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَى الْخُرُوجِ عَنِ الرِّبَا،أَوْ غَيْرِهِ كَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ،مِمَّنْ يَرَى إِبَاحَةَ الْحِيَلِ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الدَّخِيلِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - عَلَّمَ عَامِلَهُ عَلَى خَيْبَرَ،وَقَدْ قَالَ لَهُ:إِنَّهُ يُشْتَرَى صَاعُ تَمْرٍ جَيِّدٍ بِصَاعَيْ رَدِيءٍ حِيلَةٌ تُخْرِجُهُ عَنِ الرِّبَا،وَهِيَ أَنْ يَبِيعَ الرَّدِيءَ بِدَرَاهِمَ وَيَشْتَرِيَ بِهَا الْجَيِّدَ،فَافْهَمْ أَنَّ كُلَّ عَقْدٍ تَوَسَّطَ فِي مُعَامَلَةٍ أَخْرَجَهَا عَنِ الْمُعَامَلَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الرِّبَا جَائِزٌ،هَذَا وَقَدْ حَكَى الْغَزَالِيُّ أَنَّ مَنْ أَعْطَى غَيْرَهُ شَيْئًا وَلَيْسَ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَيَاءَ مِنَ النَّاسِ كَأَنْ سُئِلَ بِحَضْرَتِهِمْ شَيْئًا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ لَمْ يُعْطِهِ،الْإِجْمَاعُ عَلَى حُرْمَةِ أَخْذِهِ مِثْلَ هَذَا،لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ مِلْكِهِ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ مُكْرَهٌ بِسَبَبِ الْحَيَاءِ،فَهُوَ كَالْمُكْرَهِ بِالسَّيْفِ،وَقَالَ غَيْرُهُ:مَنْ أَعْطَى غَيْرَهُ شَيْئًا مُدَارَاةً عَنْ عِرْضِهِ حُكْمُهُ كَذَلِكَ،وَكَذَا مَنْ أَعْطَى حَاكِمًا أَوْ سَاعِيًا أَوْ أَسِيرًا شَيْئًا عَلِمَ الْمُعْطَى مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ لَهُ بِالْحَقِّ أَوْ لَا يَأْخُذُ مِنْهُ الْحَقَّ إِلَّا إِنْ أَخَذَ شَيْئًا فَفِي كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ وَمَا أَشْبَهَهَا لَا يَمْلِكُ الْآخِذُ لِقَوْلِهِ - ﷺ - «هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ»،وَلِضَعْفِ دَلَالَةِ الْإِعْطَاءِ عَلَى الْمِلْكِ أَثَّرَ الْقَصْدُ الْمُخْرِجُ لَهُ عَنْ مُقْتَضَاهُ بِخِلَافِ الْعَقْدِ فَإِنَّهُ دَالٌّ قَوِيٌّ عَلَى الْمِلْكِ،فَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ

[1321] - صحيح البخاري (٣/ ١٦٠)(٢٥٩٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٣)٢٦ - (١٨٣٢)

[ش (استعمل) وظف.(الصدقة) الزكاة.(هذا لكم) ما جمعته زكاة تأخذونه لتعطوه الفقراء المستحقين.(منه) من المال الذي يهدى له بسبب عمله ووظيفته.(جاء به) حشر مصاحبا له.(رغاء) صوت ذوات الخف.(خوار) صوت البقر.(تيعر) من اليعار وهو صوت الشاة.(عفرة إبطيه) بياض ما تحت الإبط وسمي عفرة لأنه بياض غير ناصع كأنه معفر بالتراب.(ثلاثا) أي كررها ثلاث مرات]

قَصْدٌ قَارَنَهُ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ هَاهُنَا صَالِحٌ،وَهُوَ التَّخَلُّصُ عَنِ الرِّبَــا،وَفِي تِلْــكَ الصُّــوَرِ فَاسِدٌ،وَهُوَ أَخْذُ مَالِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ.[1322]

فَهُوَ يَدُل عَلَى أَنَّ الْهَدَايَا الَّتِي يُقَدِّمُهَا أَهْل الْجِزْيَةِ لِلْعُمَّال حَرَامٌ وَلاَ يَجُوزُ لَهُمْ قَبُولُهَا.قَال الْخَطَّابِيُّ:" فِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ هَدَايَا الْعُمَّال سُحْتٌ وَأَنَّهُ لَيْسَ سَبِيلُهَا سَبِيل سَــائِرِ الْهَــدَايَا الْمُبَاحَاتِ،وَإِنَّمَا يُهْدَى إِلَيْهِ لِلْمُحَابَاةِ وَلِيُخَفِّفَ عَنِ الْمُهْدِي وَيُسَوِّغَ لَهُ بَعْضَ الْوَاجِــبِ عَلَيْهِ وَهُوَ خِيَانَةٌ مِنْهُ وَبَخْسٌ لِلْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ اسْتِيفَاؤُهُ لِأَهْلِهِ "[1323].

الرِّقَابَةُ عَلَى عُمَّال الْجِزْيَةِ:

عَلَى الإِمَامِ مُشَارَفَةُ الأُمُورِ وَتَصَفُّحُ الأَحْوَال،وَمِنْ مُقْتَضَيَاتِ هَذَا الْوَاجِبِ:الرِّقَابَةُ الْفَعَّالَةُ عَلَى عُمَّال الْجِزْيَةِ،وَضَرُورَةُ مَنْحِهِمْ رَوَاتِبَ تَكْفِيهِمْ.

قَال أَبُو يُوسُفَ فِي نَصِيحَتِهِ الَّتِي كَتَبَهَا لِهَارُونَ الرَّشِيد:قَالَ أَبُو يُوسُــف:وَأَنَــا أَرَى أَنْ تَبْعَثَ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الصَّلاحِ وَالْعَفَافِ مِمَّنْ يُوثَقُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ يَسْأَلُونَ عَنْ سرة الْعُمَّــالِ وَمَا عَمِلُوا بِهِ فِي الْبِلادِ وَكَيْفَ جَبَوُا الْخَرَاجَ عَلَى مَا أُمِرُوا بِهِ وَعَلَى مَا وُظِّفَ عَلَى أَهْلِ الْخَرَاجِ وَاسْتَقَرَّ؛فَإِذَا ثَبُتَ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَصَحَّ أُخِذُوا بِمَا اسْتَفْضَلُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الأَخْــذِ حَتَّى يُؤَدُّوهُ بَعْدَ الْعُقُوبَةِ الْمُوجِعَةِ وَالنَّكَالِ حَتَّى لَا يَتَعَدُّوا مَا أُمِرُوا بِهِ وَمَا عَهِــدَ إِلَــيْهِمْ فِيهِ؛فَإِنَّ كُلَّ مَا عَمِلَ بِهِ وَالِي الْخَرَاجِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعَسَفِ؛فَإِنَّمَا يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَمَــرَ بِهِ،وَقَدْ أَمَرَ بِغَيْرِهِ،وَإِنْ أَحْلَلْتَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمُ الْعُقُوبَةَ الْمُوجِعَةَ انْتَهَى غَيْرُهُ وَاتَّقَى وَخَــافَ وَإِنْ لَمْ يفعل هَذَا بِهِمْ تَعَدَّوْا عَلَى أَهْلِ الْخَرَاجِ وَاجْتَرَءُوا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَتَعَسُّفِهِمْ وَأَخْذِهِمْ بِمَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ.وَإِذَا صَحَّ عِنْدَكَ مِنَ الْعَامِلِ وَالْوَالِي تَعَدٍّ بِظُلْمٍ وَعَسْفٍ وَخِيَانَةٍ لَك فِي رعيتك وَاحْتَاجَ شَيْءٍ مِنَ الْفَيْءِ أَوْ خُبْثَ طُعْمَتِهِ أَوْ سُوءَ سِيرَتِهِ فَحَرَامٌ عَلَيْكَ اسْــتِعْمَالُهُ وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ،وَأَنْ تُقَلِّدَهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ رَعِيَّتِكَ أَوْ تُشْرِكَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ؛بَلْ عَاقِبْــهُ عَلَى ذَلِكَ عُقُوبَةً تَرْدَعُ غَيْرَهُ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ،وَإِيَّاكَ وَدَعْــوَةَ الْمَظْلُــومِ فَإِنَّهَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ.

[1322] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٧٠)

[1323] – معالم السنن للخطأبي ٣ / ٨ .

حَدَّثَنِي مِسْعَرٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ:قَالَ لِي مُعَاذٌ:"صَلِّ وَنَمْ،وَاطْعَمْ وَاكْتَسِبْ حَلالا،وَلا تَأْثَمْ وَلا تَمُوتَنَّ إِلَّا وَأَنت مُسلم،إياك وَدَعَوَاتِ -أَوْ دَعْوَةَ- الْمَظْلُومِ".

قَالَ:وَحَدَّثَنِي مَنْصُورٌ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:إِنِّي لآمركم بِالْأَمر وَلَا أَفْعَلُهُ؛وَلَكِنِّي أَرْجُو فِيهِ الْخَيْرَ،وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَظْلِمَهُ الَّذِي لَا يَسْتَعِينُ عَلَيَّ إِلَّا بِاللَّه[١٣٢٤].

وَلاجْتِنَابِ وُقُوعِ عُمَّالِ الْجِزْيَةِ فِي الرِّشْوَةِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ،يَصْرِفُ الإِمَامُ لَهُمْ أُجُورًا (رَوَاتِبَ) مُجْزِيَةً تَفِي بِحَاجَاتِهِمْ،وَتَكْفِي نَفَقَاتِهِمْ.

وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو يُوسُفَ فِي كِتَابِ الْخَرَاجِ حَيْثُ قَال:"قَالَ:وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْد قَالَ:حَدَّثَنَا أَشْيَاخُنَا أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:دَنَّسْتَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:يَا أَبَا عُبَيْدَةَ إِذَا لَمْ أَسْتَعِنْ بِأَهْلِ الدِّينِ عَلَى سَلامَةِ دِينِي فَبِمَنْ أَسْتَعِينُ؟ قَالَ:أَمَا إِنْ فَعَلْتَ فَأَغْنِهِمْ بِالْعِمَالَةِ عَنِ الْخِيَانَةِ،يَقُولُ:إِذَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَأَجْزِلْ لَهُمْ فِي الْعَطَاءِ وَالرِّزْقُ لَا يَحْتَاجُونَ.

قَالَ:وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَمَّنْ حَدَّثَهُ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ:بَعَثَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ:يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إِنَّ عَامِلَ حِمْصٍ هَلَكَ،وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ،وَالْخَيْرُ قَلِيلٌ،وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ فدعوتك لأستعملك عَلَيْهَا،وَفِي نفس مِنْكَ شَيْءٌ أَخَافُهُ وَلَمْ أَرَهُ مِنْكَ وَأَنَا أَخْشَاهُ عَلَيْكَ؛فَمَا رَأْيُكَ فِي الْعَمَلِ؟ قَالَ قُلْتُ:فَإِنِّي لَا أَرَى أَنْ أَعْمَلَ لَكَ عَمَلا حَتَّى تُخْبِرَنِي بِمَا فِي نَفْسِكَ.قَالَ:وَمَا تُرِيدُ إِلَى ذَلِكَ؟ قَالَ:أُرِيدُ إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا مِنْ مِثْله عَرَفْتُ أَنِّي لَسْتُ مِنْ أَهْلِه،وَإِنْ كُنْتُ مِمَّنْ أَخْشَى عَلَى نَفْسِي خَشِيتُ عَلَيْهَا مِثْلَ الَّذِي خَشِيتَ عَلَيَّ؛فَقَلَّمَا رَأَيْتُكَ ظَنَنْتَ شَيْئًا إِلا جَاءَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ.فَقَالَ:يَا ابْنَ عَبَّاسٍ،إِنِّي أَطْمَحُ حَالَكَ أَنَّكَ لَا تَجِدُنِي إِلا قريب الْحد وَإِنِّي خشيت عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِي عَلَى الْفَيْءِ الَّذِي هُوَ هُوَ آت وَأَنْتَ فِي عَمَلِكَ؛فَيُقَالُ لَكَ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا هَلُمَّ إِلَيْكُمْ دُونَ غَيْرِكُمْ،إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

[١٣٢٤] - الخراج لأبي يوسف (ص:١٢٤)

اسْتَعْمَلَ النَّاسَ وَتَرَكَكُمْ.قَالَ قُلْتُ:وَاللَّه لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذي رَأَيْتَ،وَلَمَ تَرَاهُ فَعَـلَ ذَلـكَ؟ فَقَالَ:وَاللَّه مَا أَدْرِي أَصرَفَكُمْ عَنِ الْعَمَلِ وَأَرْفَعَكُمْ عَنْهُ وَأَنْتُمْ أَهْلُ ذَلـكَ،أَمْ خَشـيَ أَنْ تَعَاوَنُوا لمَكَانكُمْ منْهُ فَيَقَعَ الْعتَابُ عَلَيْكُمْ،وَلا بُدَّ منْ عَتَّاب؛فَقَدْ فَرَّغْتَ لِي وَفَرَّغْتُ لَكَ فَمَا رَأْيُكَ؟ قُلْتُ:لَا أَرَى أَنْ أَعْمَلَ لَكَ قَالَ:لمَ؟ قُلْتُ:لأَنِّي إنْ عَملْتُ لَكَ وَفِي نَفْسكَ مَا فِي نَفْسكَ لَمْ أَبْرَحْ قَذَاةً فِي عَيْنكَ.قَالَ:فَأَشرْ عَلَى،قَالَ قُلْتُ:أُشيرُ عَلَيْـكَ أَنْ تَسْـتَعْمِلَ صَحيحا منْك صَحيحا عَلَيْك.[1325]

الطَّرِيقَةُ الثَّانيَةُ لاسْتيفَاء الْجزْيَة:الْقَبَالَةُ (أَو التَّقْبِيل) وَتُسَمَّى التَّضْمِينَ أَو الالْتزَامَ:

هيَ فِي اللُّغَة – بالْفَتْح الْكَفَالَةُ،وَهيَ فِي الأَصْل مَصْدَرُ قَبَل بفَتْحِ الْبَاءِ إذَا كَفَـل وَقَبُـل بضَمِّهَا إذَا صَارَ قَبيلاً أَيْ كَفيلاً.[1326]

قَال الزَّمَخْشَرِيُّ:كُل مَنْ يَقْبَل بشَيْءٍ مُقَاطَعَةً وَكُتبَ عَلَيْه بذَلكَ كتَابٌ،فَالْكتَابُ الَّـذي يُكْتَبُ هُوَ الْقَبَالَةُ بالْفَتْحِ وَالْعَمَل قبَالَةٌ بالْكَسْر ؛لأَنَّهُ صنَاعَةٌ،وَفي الاصْـطلاَح:أَنْ يَـدْفَعَ السُّلْطَانُ أَوْ نَائبُهُ صَقْعًا أَوْ بَلْدَةً أَوْ قَرْيَةً إلَى رَجُلٍ مُدَّةَ سَنَة مُقَاطَعَةً بمَال يُؤَدِّيه إلَيْه عَـنْ خَرَاجِ أَرْضهَا،وَجزْيَة رُءُوسِ أَهْلهَا إنْ كَانُوا أَهْل ذمَّةٍ،فَيَقْبَل ذَلكَ،وَيَكْتُبُ عَلَيْه بـذَلكَ كتَابًا.

وَقَدْ يَقَعُ فِي جبَايَة الْجزْيَة بهَذه الطَّرِيقَة ظُلْمٌ لأَهْل الذِّمَّة أَوْ غَبْنٌ لبَيْت الْمَال،وَلذَلكَ مَال بَعْضُ الْفُقَهَاءِ إلَى مَنْعهَا،قَال أَبُو يُوسُفَ " وَأَمَّا السَّوَادُ فَتُقَدِّمَ إلَى وُلاتكَ عَلَى الْخَرَاجِ أَنْ يَبْعَثُوا رجَالا منْ قبَلهمْ يَثقُونَ بدينهمْ وَأَمَانَتهمْ يأْتونَ الْقرْيَة فيأمرون صَاحبهَا بجمع مَـنْ كَانَ فيهَا منَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس وَالصَّابئينَ وَالسَّامرَة؛فَإذَا جَمَعُـوهُمْ إلَـيْهمْ أَخذُوا منْهُمْ عَلَى مَا وَصَفْتُ لَكَ منَ الطَّبَقَات،وَتُقَدِّمْ إلَيْهمْ فِي امْتثَال مَا رَسَمْتُهُ وَوَصَفْتُهُ حَتَّى لَا يَتَعَدَّوْهُ إلَى مَا سوَاهُ،وَلا يَأْخُذُوا مَنْ لَمْ تَرَ الْجزْيَةَ وَاجبَةٌ عَلَيْه بشَيْءٍ،وَلا يَقْصُدُوا بظُلْمٍ وَلا تَعَسُّفٍ.

[1325] – الخراج لأبي يوسف (ص:١٢٦)

[1326] – ابن الأثير النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٠ .

فَإِنْ قَالَ صَاحِبُ الْقَرْيَةِ أَنَا أُصَالِحُكُمْ عَنْهُمْ وَأُعْطِيكُمْ ذَلِكَ لَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا سَأَلَ؛لأَنَّ ذهَابَ الْجِزْيَةِ مَنْ هَذَا أَكْثَرَ لَعَلَّ صَاحِبَ الْقَرْيَةِ يُصَالِحَهُمْ عَلَى خَمْسمائة درْهَم وفِيها منْ أَهْلِ الذِّمَّة مَنْ إِذَا أَخَذْتَ منْهُمُ الْجِزْيَةَ بَلَغَتْ أَلْفَ درْهَمٍ أَوْ أَكْثَرَ،وَهَذَا ممَّا لَا يَحلُّ وَلا يَسَعُ مَعَ مَا يَنَالُ الْخَرَاجَ منْهُ منَ النُّقْصَانِ لَعَلَّهُ أَنْ يَجْبِيَ مَنْ بِضَيْعَته أَهْلُ الذِّمَّة فَيُصيبُ الْوَاحدَ منْهُمْ أَقَلَّ منِ اثْنَيْ عَشَرَ درْهَمًا وَلا يَحلُّ أَنْ يَنْقُصَ منْ ذَلكَ؛بَلْ لَعَلَّ فيهِمْ منَ الْمَيَاسيرِ مَنْ تَلْزَمُهُ ثَمَانيَةٌ وَأَرْبَعُونَ درْهَمًا وَيَحْملُهَا وُلاةُ الْخَرَاجِ مَعَ الْخَرَاجِ إِلَى بَيت المَال لأَنَّهُ فَيْءٌ للْمُسلمين.".[١٣٢٧]

مُسْقطَاتُ الْجِزْيَة:

تَسْقُطُ الْجِزْيَةُ بالإِسْلاَم،أَوِ الْمَوْت،أَوِ التَّدَاخُل،أَوِ الْعَجْزِ الْمَاليِّ،أَوْ عَجْزِ الدَّوْلَة عَنْ تَوْفيرِ الْحِمَايَة لأَهْلِ الذِّمَّة،أَوِ الإِصَابَة بِالْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَة،أَوِ اشْتِرَاكِ الذِّمِّيِّينَ فِي الْقِتَال،وَفِي بَعْضِ هَذه الأُمُورِ خلاَفٌ يَتَبَيَّنُ بِمَا يَلِي:

الأَوَّل:الإِسْلاَمُ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ عَمَّنْ دَخَل فِي الإِسْلاَمِ منْ أَهْل الذِّمَّة،فَلاَ يُطَالَبُ بهَا فيمَا يُسْتَقْبَل منَ الزَّمَان.[١٣٢٨]

وَاسْتَدَلُّوا لذَلكَ بمَا يَلي:

١ - رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ جزْيَةٌ» [١٣٢٩].

قَوْله «لَيْس على المُسْلمِ جزْيَةٌ»،يتَأَوَّل على وَجْهَيْن،أَحدهمَا:معنى الْجِزْيَة هُو الْخراج،وذلك أَن الإِمام إِذا فتح بَلَدا صلحا على أَن تكون الْأَرَاضي لأَهْلهَا،وَضرب

[١٣٢٧] - الرتاج ٢ / ٣ - ٤، و الخراج لأبي يوسف (ص:١٣٧) .

[١٣٢٨] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٢، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، والقوانين الفقهية ص ١٧٦، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٥، حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، والكافي لابن عبد البر ١ / ٤٧٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٣١٢، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٩، ورحمة الأمة للدمشقي ٢ / ١٨١، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٥٧، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢، والمذهب الأحمد لابن الجوزي ص ٢١٠، والمبدع ٣ / ٤١٢ .

[١٣٢٩] - سنن أبي داود (٣/ ١٧١)(٣٠٥٣) حسن

عليْها خراجًا مَعْلُوما،فهُو جزْيَة،فإذا أسلم أَهلهَا،سقط عنْهُمْ ذلك،كَمَا تسْــقط جزْيَــة رُءُوسهم،وَيجوز لَهُمْ بيعُ تلْك الْأَرَاضِي،أما إذا صَالحهمْ على أَن تكون الْأَرَاضِــي لأهــل الإسْلام،وهُو يسكنوها بخراج مَعْلُوم،وضع عَلَيْهِم،فَــذَلك أُجْــرَة الأرْض لَــا تسْــقط بالْإِسْلَام،وَلَا يجوز لَهُمْ بيعُ شيْء من تلْك الْأَرَاضِي،لأَنَّهَا مُلك للمُسْلمين،وكذلك إذا أَرَادَ فتحهَا عنْوَة،وَصَارَت أراضيها للْمُسلمين،فأسكنها الْمسْلمُون جمَاعَة من أهل الذِّمَّة بخراج مَعْلُوم يؤدونه،فَذَلك لَا يسْقط بالْإِسْلَام.

والتأول الثَّاني:وهُو أَن الذِّمِّيّ إذا تمّ عليْه الحولُ،فَأسلم قبل أَدَاء جزْيَة ذلك الْحول،سقط عَنهُ تلْك الْجزْيَة،واخْتلف أهْلُ الْعلْم فيه،فَذهب أَكْثَرهم إلى سُقُوطهَا،رُوي ذلــك عــنْ عُمر،وإليْه ذهب أبُو حنيفة،وَأَبُو عُبيد،حتّى قَالَ أبُو حنيفة:لَو مَاتَ الذِّمِّيّ بعد الْحول لَا تُؤْخَذ من تركته،وَعند الشّافعي:لَا تسْقط بالْإِسْلَامِ وَلَا بالْمَوْت،لأَنَّهُ دينٌ حلّ عليْه أجلــهُ كَسَائر الدُّيُون،فَأَما إذا أسلم في خلال الْحول،أوْ مَاتَ،فَاخْتلف قولُه في أنّهُ هَل يُطَالب بحصَّة مَا مضى من الْحول؟ أصح قوليه أنّــهُ لَــا يُطالب،وَالثَّــاني:يُطَالــب كَــأُجْرَة الدَّار،ورُوي عن الزُّبيْر بْن عدي،قَالَ:أسلم دهقان على عهد علي رضي اللهُ عنْــهُ،فَقَالَ لهُ:إن أَقمت في أَرْضك،رفعنَا الْجزْيَة عنْ رَأسك،وأخذناها من أَرْضــك،وَإن تحولــت عنْها،فَنحْن أحقُّ بها.

قَالَ الإمامُ:وَوجه عنْدي،والله أعْلمُ،أَن تكون الأرْض فَيْئا للْمُسلمين يســكنهَا الــذِّمِّيّ بالخراج والجزية،فَتسقط عَنهُ بالْإِسْلَامِ جزْيَة رَأسه دُون خراج أرضه،لأَنَّهُ بمَنْزلَة الْــأُجْرَة تلْزمهُ مَا دَامَ يسكنهَا،لأَن ملكها لغيره.[١٣٣٠]

٢ - الإِجْمَاعُ:قَال ابْنُ الْمُنْذِرِ:" أَجْمَعُوا - يَعْنِي الْفُقَهَاءَ - عَلَى أَنْ لاَ جِزْيَةَ عَلَى مُسْلِمٍ".[١٣٣١]

٣ - وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ وَسِيلَةً إِلَى الإِسْلاَمِ فَلاَ تَبْقَى بَعْدَهُ.

[١٣٣٠] - شرح السنة للبغوي (١١/ ١٧٦)

[١٣٣١] - الإجماع لابن المنذر ص ٥٩ .

٤ - وَلأَنَّ الْجزْيَةَ وَجَبَتْ عُقُوبَةً عَلَى الْكُفْرِ أَوْ بَدَلاً عَنِ النُّصْرَةِ،فَلاَ تُقَامُ الْعُقُوبَـةُ بَعْـدَ الدُّخُول فِي الإِسْلاَمِ.وَلاَ يُطَالَبُ بِالْجِزْيَةِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى النُّصْرَةِ بِالدُّخُول فِـي الإِسْلاَمِ.[١٣٣٢]

هَذَا الاِتِّجَاهُ الْفِقْهِيُّ هُوَ السَّائِدُ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ،وَلَكِنَّ بَعْضَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِهِ،فَقَدْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْجِزْيَةَ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ وَيَعْتَبِرُونَهَا بِمَنْزِلَةِ الضَّرِيبَةِ عَلَى الْعَبِيدِ.

وَنَقَل أَبُو بَكْرٍ الْجَصَّاصُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِالْعِرَاقِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ دَاعِيًا وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَابِيًا،فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَارْفَعِ الْجِزْيَةَ عَمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ.[١٣٣٣]

حُكْمُ أَخْذِ الْجِزْيَةِ عَمَّا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ بَعْدَ دُخُول الذِّمِّيِّ فِي الإِسْلاَمِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ،فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّـةِ وَالْمَالِكِيَّـةِ وَالْحَنَابِلَـةِ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو عُبَيْدٍ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ عَمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ،سَوَاءٌ أَسْلَمَ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْل أَوْ بَعْدَهُ،وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ جِزْيَةُ سِنِينَ [١٣٣٤].

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا يَلِي:

١ - قَوْله تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُـمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]

تَدُل هَذِهِ الآْيَةُ عَلَى سُقُوطِ الْجِزْيَةِ عَمَّنْ أَسْلَمَ ؛لأَنَّ الأَمْرَ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِمَّنْ يَجِبُ قِتَالُـهُ عَلَى الْكُفْرِ إِنْ لَمْ يُؤَدِّهَا،وَمَتَى أَسْلَمَ لَمْ يَجِبْ قِتَالُهُ،فَلاَ جِزْيَةَ عَلَيْهِ.

[١٣٣٢] - البدائع ٩ / ٤٣٣٢ .والبحر الرائق شرح كتر الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٥/ ١١٩) والبناية شرح الهداية (٧/ ٢٤١) وتبيين الحقائق شرح كتر الدقائق وحاشية الشلبي (٣/ ٢٧٨) وفتح القدير (١٣/ ١٦٦)

[١٣٣٣] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٣٢)

[١٣٣٤] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، والهداية ٢ / ١٦١، وفتح القدير ٥ / ٢٩٥، وبدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٢، وحاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠٠، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧٢، والاختيار ٤ / ١٣٨، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٥، والقوانين الفقهية ص ١٧٦، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، والكافي لابن عبد البر ١ / ٤٧٩، والمقدمات على هامش المدونة لابن رشد ١ / ٤٠٠، والمنتقى للباجي ٢ / ١٧٥، والمبدع ٣ / ٤١٢، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٥٧، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢، والإنصاف ٤ / ٢٢٨، والمذهب الأحمد ص ٢١٠ .

٢ - قَوْله تَعَالَى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُــودُوا فَقَــدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ } [الأنفال:٣٨]

فَالآيَةُ تَدُل عَلَى أَنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ،وَأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا أَسْلَمَ لاَ يُطَالَبُ بِقَضَاءِ مَا فَاتَــهُ مِنْ صَلاَةٍ أَوْ زَكَاةٍ،وَكَذَا لاَ يُطَالَبُ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ جِزْيَةٍ قَبْل إِسْلاَمِه.[١٣٣٥]

قَال مَالِكٌ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يُونُسَ عَنْ أَشْهَبَ عَنْهُ:" الصَّوَابُ عِنْدِي أَنْ يُوضَــعَ عَمَّنْ أَسْلَمَ الْجِزْيَةُ حِينَ يُسْلِمُ،وَلَوْ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنَ السَّنَةِ إِلاَّ يَوْمٌ وَاحِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى { قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا...} يَعْنِي مَا قَدْ مَضَى قَبْل الإِسْلاَمِ مِــنْ دَمٍ أَوْ مَــالٍ أَوْ شَــيْءٍ ".[١٣٣٦]

٣ - وَيُرْوَى فِي ذَلِكَ بَعْضُ الآْثَارِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.[١٣٣٧]

٤ - وَاسْتَدَلُّوا بِالْمَعْقُول مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّل:أَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ وَسِيلَةً إِلَى الإِسْلاَمِ،فَلاَ تَبْقَى بَعْدَ الإِسْلاَمِ.

وَالثَّانِي:أَنَّ الْجِزْيَةَ إِنَّمَا وَجَبَتْ عُقُوبَةً عَلَى الْكُفْرِ،وَلِهَذَا سُمِّيَتْ جِزْيَةً:أَيْ جَزَاءَ الإِقَامَــةِ عَلَى الْكُفْرِ،فَوَجَبَ أَنْ تَسْقُطَ بِالإِسْلاَمِ.[١٣٣٨]

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَأَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ شُبْرُمَةَ وَأَبُو يُوسُفَ مِنَ الْحَنَفِيَّــةِ إِلَــى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ إِذَا أَسْلَمَ بَعْدَ انْتِهَــاءِ الْحَوْل،أَمَّــا إِذَا أَسْــلَمَ فِــي أَثْنَــاءِ الْحَوْل،فَتَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ وَلاَ يُطَالَبُ بِقِسْطِ مَا مَضَى مِنَ السَّنَةِ وَهَــذَا قَــوْلٌ عِنْــدَ

[١٣٣٥] - الإكليل في استنباط التتريل للسيوطي ص ١١٤ .

[١٣٣٦] - اختلاف الفقهاء للطبري ص ٢٠١ .

[١٣٣٧] - أحكام القرآن للجصاص ٣ / ١٠١، والأموال لأبي عبيد ص ٦٦ - ٦٨، والأموال لابن زنجويه ١ / ١٧٣، والموطأ بشرح السيوطي ١ / ٢٦٥ .

[١٣٣٨] - بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٢، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ١٠١، وفتح القدير ٥ / ٢٩٦، والاختيار ٤ / ١٣٨، والمنتقى ٢ / ١٧٦ .

الشَّافعيَّة،وَللشَّافعيَّة قَوْلٌ آخَرُ وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَهُمْ:وَهُوَ أَنَّهَا تُؤْخَذُ مِنْهُ بِقِسْطِ مَا مَضَى مِنَ السَّنَة كَالأُجْرَة.[1339]

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا يَلِي:

١ – أَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ حَقْنِ الدَّمِ،وَقَدْ وَصَلَ إِلَى الذِّمِّيِّ الْمُعَوَّضُ وَهُوَ حَقْنُ الدَّمِ،فَصَارَ الْعِوَضُ وَهُوَ الْجِزْيَةُ دَيْنًا فِي ذِمَّته،فَلاَ يَسْقُطُ عَنْهُ بالإِسْلاَمِ كَسَائِرِ الدُّيُون.

٢ – أَنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ سُكْنَى الدَّارِ،وَقَدِ اسْتَوْفَى الذِّمِّيُّ مَنَافِعَ الدَّارِ الْمُسْتَأْجَرَة،فَلاَ تَسْقُطُ الأُجْرَةُ بِإِسْلاَمِ الذِّمِّيِّ.

٣ – وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ عِنْدَ الشَّافعيَّة تَجِبُ بِالْعَقْد وُجُوبًا غَيْرَ مُسْتَقِرٍّ،وَتَسْتَقِرُّ بِانْقِضَاءِ الزَّمَنِ كَالأُجْرَة،فَكُلَّمَا مَضَتْ مُدَّةٌ مِنَ الْحَوْل اسْتَقَرَّ قِسْطُهَا مِنْ جِزْيَة الْحَوْل.[1340]

الثَّاني:الْمَوْتُ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي سُقُوط الْجِزْيَة بِالْمَوْت،فَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ بِالْمَوْت مُطْلَقًا،سَوَاءٌ أَحَصَلَ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْل أَمْ بَعْدَ انْتهَائه[1341].

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ:

بِأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ عُقُوبَةً عَلَى الْكُفْر،فَتَسْقُطُ بِالْمَوْت كَالْحُدُود.

وَلأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ وَسِيلَةً إِلَى الإِسْلاَم،وَهَذَا الْمَعْنَى لاَ يَتَحَقَّقُ بَعْدَ الْمَوْت[1342].

وَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ بِالْمَوْت إِذَا حَصَلَ بَعْدَ انْتهَاءِ الْحَوْل.بَل تُؤْخَذُ مِنَ التَّرِكَة كَسَائِرِ الدُّيُون.أَمَّا إِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاء الْحَوْل،فَلاَ تَسْقُطُ بِهِ أَيْضًا فِي الْقَوْل الْمُعْتَمَد عِنْدَ الشَّافعيَّة،وَتُؤْخَذُ مِنْ تَرِكَته بِقِسْط مَا مَضَى مِنَ

[1339] – حاشية قليوبي ٤ / ٢٣٢، والأم ٤ / ٢٨٦، والمهذب مع المجموع ١٨ / ٢١٩، رحمة الأمة ٢ / ١٨١، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٩، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ١٠٠، واختلاف الفقهاء للطبري ص ٢١٢ .

[1340] – العناية شرح الهداية على هامش فتح القدير ٥ / ٢٩٥، ونهاية المحتاج للرملي ٨ / ٨٧ .

[1341] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، والهداية ٢ / ١٦١، وفتح القدير ٥ / ٢٩٥، والبدائع ٩ / ٤٣٣٢، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٣، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، والمنتقى للباجي ٢ / ١٧٦، ومنح الجليل ١ / ٧٥٩ .

[1342] – البدائع للكاساني ٩ / ٤٣٣٢، والاختيار ٤ / ١٣٨، والمنتقى للباجي ٢ / ١٧٦ .

الْحَوْل.وَتَسْقُطُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي قَوْلٍ آخَرَ لِأَنَّهَا لاَ تَجِبُ وَلاَ تُؤْخَذُ قَبْل كَمَال حَوْلِهَا،[١٣٤٣]

وَاسْتَدَلُّوا لِعَدَمِ سُقُوطِهَا بِالْمَوْتِ بِالأَدِلَّةِ الْآتِيَة:

١ - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُنَادَةَ،كَاتِبِ حَيَّانَ بْنِ سُرَيْجٍ وَكَانَ حَيَّانُ بَعَثَهُ إِلَى عُمَرَ بْـــنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَكَتَبَ يَسْتَفْتِيهِ:أَيَجْعَلُ جِزْيَةَ مَوْتَى الْقِبْطِ عَلَى أَحْيَائِهِمْ؟ فَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ عِرَاكَ بْنَ مَالِكٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يَسْمَعُ فَقَالَ:" مَا سَمِعْتُ لَهُمْ بِعَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ،إِنَّمَا أُخِـــذُوا عَنْوَةً،بِمَنْزِلَةِ الصَّيْدِ،فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى حَيَّانَ بْنِ سُرَيْجٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَجْعَلَ جِزْيَةَ الْأَمْوَاتِ عَلَى الْأَحْيَاءِ،قَالَ ابْنُ عُفَيْرٍ:وَكَانَ حَيَّانُ وَالِيَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى مِصْرَ". [١٣٤٤]

٢ - وَلِأَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ فِي ذِمَّتِهِ بَدَلاً عَنِ الْعِصْمَةِ وَالسُّكْنَى،فَلَمْ تَسْقُطْ بِمَوْتِهِ كَسَائِرِ دُيُونِ الْآدَمِيِّينَ. [١٣٤٥]

الثَّالِثُ:اجْتِمَاعُ جِزْيَةِ سَنَتَيْنِ فَأَكْثَرَ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَدَاخُلِ الْجِزَى:

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَالصَّاحِبَانِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى عَدَمِ التَّدَاخُلِ وَتَجِبُ الْجِزَى كُلُّهَا [١٣٤٦].

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ:

بِأَنَّ الْجِزْيَةَ حَقٌّ مَالِيٌّ يَجِبُ فِي آخِرِ كُل حَوْلٍ،فَلَمْ تَتَدَاخَل كَالزَّكَاةِ وَالدِّيَةِ وَغَيْرِهِمَا.

وَلِأَنَّ الْمُدَّةَ لاَ تَأْثِيرَ لَهَا فِي إِسْقَاطِ الْوَاجِبِ كَخَرَاجِ الأَرْضِ.[١٣٤٧]

[١٣٤٣] - روضة الطالبين ١٠ / ٣١٢، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٩، وحاشية القليوبي ٤ / ٢٣٢، ورحمة الأمة ٢ / ١٨١، والميزان للشعراني ٢ / ١٨٥، والمغني ٨ / ١١، والمبدع ٣ / ٤١٢، وكشاف القناع ٣ / ١٢٣، والإنصاف ٤ / ٢٢٨، والمذهب الأحمد لابن الجوزي ص ٢١٠ .

[١٣٤٤] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٦١)(١٢٧) حسن

[١٣٤٥] - الأموال لأبي عبيد ص ٦٨ - ٦٩، الأموال لابن زنجويه ١ / ١٧٨، أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٦٠ .

[١٣٤٦] - حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، والمنتقى للباجي ٢ / ١٧٦، ومنح الجليل ١ / ٧٥٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٣١٢، ورحمة الأمة للدمشقي ٢ / ١٨١، وأحكام القرآن لإليكا الهراسي ٤ / ٤٩، والمغني ٨ / ٥١٢، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٦١، والمبدع ٣ / ٤١٢، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٣، والسير لمحمد بن الحسن ص ٢٦٣ .

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّهُ إِذَا مَضَتْ عَلَى الْجِزْيَةِ سَنَةٌ وَدَخَلَتْ ثَانِيَةٌ فَإِنَّ الْجِزَى تَتَدَاخَل،فَتَسْقُطُ جزَى السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ وَيُطَالَبُ بِجِزْيَةِ السَّنَةِ الْحَالِيَّةِ.[١٣٤٨]

وَاسْتَدَل لِذَلِكَ:

بِأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ عُقُوبَةً عَلَى الْكُفْرِ،وَالْعُقُوبَاتُ إِذَا تَرَاكَمَتْ تَدَاخَلَتْ خَاصَّةً إِذَا كَانَتْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ كَالْحُدُود.أَلاَ تَرَى أَنَّ مَنْ زَنَى مِرَارًا ثُمَّ رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى الإِمَامِ لَمْ يَسْتَوْفِ مِنْهُ إِلاَّ حَدًّا وَاحِدًا بِجَمِيعِ الأَفْعَال.

وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ وَجَبَتْ بَدَلاً عَنْ حَقْنِ الدَّمِ فِي الْمُسْتَقْبَل،فَإِذَا صَارَ دَمُهُ مَحْقُونًا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ،فَلاَ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ لِأَجْلِهَا،لانْعِدَامِ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ،كَمَا إِذَا أَسْلَمَ أَوْ مَاتَ تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ،لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَى الْحَقْنِ بِالْجِزْيَةِ ؛وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ مَا وَجَبَتْ إِلاَّ لِرَجَاءِ الإِسْلاَمِ،وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ حَتَّى دَخَلَتْ سَنَةٌ أُخْرَى انْقَطَعَ الرَّجَاءُ فِيمَا مَضَى،وَبَقِيَ الرَّجَاءُ فِي الْمُسْتَقْبَل فَيُؤْخَذُ لِلسَّنَةِ الْمُسْتَقْبَلَة.[١٣٤٩]

الرَّابِعُ:طُرُوءُ الإِعْسَار:

الإِعْسَارُ:ضِيقُ الْحَال مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الْمَال.[١٣٥٠]

وَقَد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ بِالإِعْسَارِ الطَّارِئِ سَوَاءٌ أَطَرَأَ عَلَيْهِ الإِعْسَارُ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْل أَمْ بَعْدَ انْتِهَائِه.وَبِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعْسَرَ أَكْثَرَ الْحَوْل ؛لِأَنَّ الإِعْسَارَ مَانِعٌ مِنْ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ ابْتِدَاءً.[١٣٥١]

[١٣٤٧] – روضة الطالبين ١٠ / ٣١٢، والمغني ٨ / ٥١٢، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٦١ .

[١٣٤٨] – الهداية ٢ / ١٦١، وفتح القدير ٥ / ٢٩٧، والبدائع ٩ / ٤٣٣، وحاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠٠، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٧٩ .

[١٣٤٩] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٩، والبدائع ٩ / ٤٣٣٣، والاختيار ٤ / ١٣٩ .

[١٣٥٠] – الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٣٧٣ .

[١٣٥١] – بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣١، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٢، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٥، بلغة السالك ١ / ٣٦٧ – ٣٦٨، ومنح الجليل ١ / ٧٥٨، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢ .

وَالْمَذْهَبُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ بِالإِعْسَارِ الطَّارِئِ لِأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَبِرُونَ الإِعْسَارَ مَانِعًا مِنْ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ ابْتِدَاءً.[1352]

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلاَ تَسْقُطُ الْجِزْيَةُ عَنْهُ،وَتُعْتَبَرُ دَيْنًا فِي ذِمَّتِهِ،وَيُمْهَل إِلَى وَقْتِ يَسَارٍ يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الأَدَاءِ.أَخْذًا بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة:٢٨٠].

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ بِالإِعْسَارِ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْل لِأَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَجِبُ،وَلاَ تُؤْخَذُ قَبْل كَمَال الْحَوْل،أَمَّا إِذَا كَانَ الإِعْسَارُ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَوْل،فَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ،وَتُصْبِحُ دَيْنًا فِي ذِمَّتِهِ،وَيُنْظَرُ وَيُمْهَل إِلَى وَقْتِ يَسَارٍ يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الأَدَاءِ.[1353]

الْخَامِسُ:التَّرَهُّبُ وَالاِنْعِزَال عَنِ النَّاسِ:

إِذَا تَرَهَّبَ الذِّمِّيُّ بَعْدَ عَقْدِ الذِّمَّةِ،فَانْعَزَل عَنِ النَّاسِ وَانْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ فِي الأَدْيِرَةِ وَالصَّوَامِعِ،فَهَل تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَابْنُ الْقَاسِمِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تَسْقُطُ بِالتَّرَهُّبِ،لِأَنَّهُ مَانِعٌ مِنْ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ ابْتِدَاءً فَأَشْبَهَ الْعَجْزَ وَالْجُنُونَ،فَتَسْقُطُ عَنْهُ مُطْلَقًا وَلَوْ مُتَجَمِّدَةً عَنْ سِنِينَ.

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالأَخَوَانِ (مُطَرِّفٌ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ) مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ بِالتَّرَهُّبِ الطَّارِئِ ؛لِأَنَّهُ لاَ يُعْتَبَرُ مَانِعًا مِنْ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ ابْتِدَاءً،فَلاَ يُعْتَبَرُ عُذْرًا لِإِسْقَاطِ الْجِزْيَةِ عَمَّنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ.وَعَلَّلَهُ الأَخَوَانِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ بِأَنَّهُ قَدْ يَتَّخِذُهُ وَسِيلَةً لِلتَّهَرُّبِ مِنْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ،فَلاَ تَسْقُطُ الْجِزْيَةُ بِهِ.

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ التَّرَهُّبَ الطَّارِئَ لاَ يُسْقِطُ الْجِزْيَةَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَوْل،وَتُصْبِحُ دَيْنًا فِي ذِمَّتِهِ.أَمَّا إِذَا تَرَهَّبَ أَثْنَاءَ الْحَوْل فَتَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ ؛لِأَنَّهَا لاَ تَجِبُ وَلاَ تُؤْخَذُ قَبْل كَمَال الْحَوْل.

[1352] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٨٨، والأم ٤ / ٢٧٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٦، وحاشية القليوبي ٤ / ٢٣٢، والمحلى ٧ / ٥٦٦ .

[1353] – كشاف القناع ٣ / ١٢٢ .

وَقَالُوا:الْمُرَادُ بِالرَّاهِبِ الَّذِي تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ،هُوَ مَنْ لاَ يَبْقَى بِيَدِهِ مَالٌ إلاَّ بُلْغَتَهُ فَقَطْ وَيُؤْخَذُ مِمَّا بِيَدِهِ زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ،وَأَمَّا الرُّهْبَانُ الَّذِينَ يُخَالِطُونَ النَّاسَ وَيَتَّخِذُونَ الْمَتَاجِرَ وَالْمَزَارِعَ فَحُكْمُهُمْ كَسَائِرِ النَّصَارَى تُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ اتِّفَاقًا.[١٣٥٤]

السَّادِسُ:الْجُنُونُ:

إذَا أُصِيبَ الذِّمِّيُّ – بَعْدَ الالْتِزَامِ بِالْجِزْيَةِ – بِالْجُنُونِ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيَّةِ إلَى سُقُوطِهَا بِالْجُنُونِ الطَّارِئِ إذَا اسْتَمَرَّ أَكْثَرَ الْعَامِ،لأَنَّهُ يَمْنَعُ وُجُوبَ الْجِزْيَةِ ابْتِدَاءً – كَمَا بَيَّنَّا فِي شُرُوطِ وُجُوبِ الْجِزْيَةِ – وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الْمُعْتَمَدِ عِنْدَهُمْ إلَى أَنَّ الْجُنُونَ الطَّارِئَ إنْ كَانَ يَسِيرًا كَسَاعَةٍ مِنْ شَهْرٍ أَوْ يَوْمٍ مِنْ سَنَةٍ فَلاَ تَسْقُطُ.وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا كَيَوْمٍ إفَاقَةً وَيَوْمٍ جُنُونًا فَإِنَّ الإِفَاقَةَ تُلَفَّقُ فَإِذَا بَلَغَتْ سَنَةً وَجَبَتِ الْجِزْيَةُ.

أَمَّا الْجِزْيَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الذِّمَّةِ فَلاَ تَسْقُطُ بِالْجُنُونِ طِبْقًا لِمَذْهَبِهِمْ فِي عَدَمِ تَدَاخُلِ الْجِزْيَةِ كَمَا سَبَقَ.

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيَّةِ إلَى أَنَّ الْجُنُونَ الطَّارِئَ لاَ يُسْقِطُ الْجِزْيَةَ إذَا كَانَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَوْلِ.أَمَّا إذَا طَرَأَ الْجُنُونُ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْلِ فَتَسْقُطُ الْجِزْيَةُ ؛لأَنَّهَا لاَ تَجِبُ وَلاَ تُؤْخَذُ قَبْلَ كَمَالِ الْحَوْلِ.[١٣٥٥]

السَّابِعُ:الْعَمَى وَالزَّمَانَةُ وَالشَّيْخُوخَةُ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ تَبَعًا لاخْتِلاَفِهِمْ فِي اشْتِرَاطِ السَّلاَمَةِ مِنَ الْعَاهَاتِ الْمُزْمِنَةِ الَّتِي سَبَقَ الْكَلاَمُ عَنْهَا فِي شُرُوطِ الْجِزْيَةِ.

[١٣٥٤] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، والاختيار ٣ / ١٤٢، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٢، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، ومنح الجليل ١ / ٧٥٩، والجامع لأحكام القرآن ٨ / ١١٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٣٠٧، ومغني المحتاج ٤ / ٣٤٦، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢ .

[١٣٥٥] – فتح القدير ٥ / ٢٩٥، وحاشية الخرشي ٣ / ١٤٤، ومنح الجليل ١ / ٧٥٩، وشرح المحلي على المنهاج ٤ / ٢٢٩، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢ .

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجزْيَةَ تَسْقُطُ بِهَذِهِ الْعَاهَاتِ،سَوَاءٌ أَكَانَ مَا أُصِيبَ بِهِ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْلِ أَمْ بَعْدَ انْتِهَائِهِ،وَاشْتَرَطُوا أَنْ تَكُونَ إِصَابَتُهُ بِإِحْدَى تِلْكَ الْعَاهَاتِ أَكْثَرَ السَّنَةِ،وَهُوَ مُقَابِلُ الْمَذْهَبِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ مُطْلَقًا.

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَأَبُو يُوسُفَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْجزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ الَّذِي أُصِيبَ بِإِحْدَى تِلْكَ الْعَاهَاتِ إِلاَّ إِذَا كَانَ فَقِيرًا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى أَدَاءِ الْجزْيَةِ.

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْجزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ الَّذِي أُصِيبَ بِإِحْدَى تِلْكَ الْعَاهَاتِ ؛لأَنَّهَا لاَ تُعْتَبَرُ مَانِعًا مِنْ وُجُوبِ الْجزْيَةِ ابْتِدَاءً.

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهَا لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّ بَعْدَ تَمَامِ الْحَوْلِ،أَمَّا إِذَا أُصِيبَ بِإِحْدَى الْعَاهَاتِ السَّابِقَةِ أَثْنَاءَ الْحَوْلِ،فَتَسْقُطُ عَنْهُ الْجزْيَةُ،لأَنَّهَا لاَ تَجِبُ إِلاَّ بِكَمَالِ الْحَوْلِ [١٣٥٦].

الثَّامِنُ:عَدَمُ حِمَايَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ:

عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي مُقَابِلِ الْجزْيَةِ تَوْفِيرُ الْحِمَايَةِ لأَهْلِ الذِّمَّةِ،وَالذَّبُّ عَنْهُمْ،وَمَنْعُ مَنْ يَقْصِدُهُمْ بِالاعْتِدَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ،وَاسْتِنْقَاذُ مَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ،وَاسْتِرْجَاعُ مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَعِيشُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَمْ كَانُوا مُنْفَرِدِينَ فِي بَلَدٍ لَهُمْ.فَإِنْ لَمْ تَتَمَكَّنِ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ مِنْ حِمَايَتِهِمْ وَالدَّفْعِ عَنْهُمْ حَتَّى مَضَى الْحَوْلُ،فَهَل يُطَالَبُونَ بِالْجزْيَةِ أَمْ تَسْقُطُ عَنْهُمْ ؟

صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّ الْجزْيَةَ تَسْقُطُ عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا لَمْ تَتَمَكَّنِ الدَّوْلَةُ مِنْ حِمَايَةِ الذِّمِّيِّينَ لأَنَّهُمْ بَذَلُوا الْجزْيَةَ،لِحِفْظِهِمْ وَحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ،فَإِنْ لَمْ تَدْفَعِ الدَّوْلَةُ عَنْهُمْ،لَمْ تَجِبِ الْجزْيَةُ عَلَيْهِمْ ؛لأَنَّ الْجزْيَةَ لِلْحِفْظِ وَذَلِكَ لَمْ يُوجَدْ،فَلَمْ يَجِبْ مَا فِي مُقَابَلَتِهِ،كَمَا لاَ تَجِبُ الأُجْرَةُ إِذَا لَمْ يُوجَدِ التَّمْكِينُ مِنَ الْمَنْفَعَةِ.

وَلَمْ نَجِدْ لِغَيْرِ الشَّافِعِيَّةِ تَصْرِيحًا بِالسُّقُوطِ إِذَا لَمْ تَحْصُلِ الْحِمَايَةُ مَعَ قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ الْحِمَايَةِ.

[١٣٥٦] - حاشية ابن عابدين ٤ / ٢٠٠، والاختيار ٤ / ١٣٨، شرح المحلي ٤ / ٢٣٠، والشرح الكبير على هامش حاشية الدسوقي ٢ / ٢٠١، ومنح الجليل ١ / ٧٥٧، الخراج لأبي يوسف ص ١٢٣، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، وكشاف القناع ٣ / ١٢٢ .

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو يُوسُفَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أنه كتب إِلَى كُلِّ وَالٍ مِمَّنْ خَلَّفَهُ فِي الْمُدُنِ الَّتِي صَالَحَ أَهْلَهَا يَأْمُرُهُمْ أَنْ يردوا عَلَيْهِم مَا جبي مِنْهُمْ مِنَ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ،وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا لَهُمْ:إِنَّمَا رَدَدْنَا عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ؛لأَنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا مَا جُمِعَ لَنَا مِنَ الجموع،وَأَنَّكُمُ اشْتَرَطْتُمْ عَلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَكُمْ،وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ،وَقَدْ رَدَدْنَا عَلَيْكُمْ مَا أَخَذْنَا مِنْكُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ عَلَى الشَّرْطِ وَمَا كَتَبْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ نَصَرَنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لَهُمْ،وَرَدُّوا عَلَيْهِمُ الأَمْوَالَ الَّتِي جَبَوْهَا مِنْهُمْ،قَالُوا:رَدَّكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَنَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ..[١٣٥٧]
وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافِعِيَّةِ وَهُوَ الرَّابِعُ عِنْدَهُمْ أَنَّهَا تَسْقُطُ وَلاَ تَجِبُ.
وَقَال الْبَلاَذِرِيُّ:حَدَّثَنِي أَبُو حَفْصٍ الدِّمَشْقِيُّ قَال:حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَال:" بَلَغَنِي أَنَّهُ لَمَّا جَمَعَ هِرَقْل لِلْمُسْلِمِينَ الْجُمُوعَ،وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ إِقْبَالُهُمْ إِلَيْهِمْ لِوَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ رَدُّوا عَلَى أَهْل حِمْصَ مَا كَانُوا أَخَذُوا مِنْهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ.وَقَالُوا:قَدْ شُغِلْنَا عَنْ نُصْرَتِكُمْ وَالدَّفْعِ عَنْكُمْ،فَأَنْتُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ،فَقَال أَهْل حِمْصَ:لَوِلاَيَتُكُمْ وَعَدْلُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَشْمِ.وَلَنَدْفَعَنَّ جُنْدَ هِرَقْل عَنِ الْمَدِينَةِ مَعَ عَامِلِكُمْ،وَنَهَضَ الْيَهُودُ فَقَالُوا:وَالتَّوْرَاةِ لاَ يَدْخُل عَامِل هِرَقْل مَدِينَةَ حِمْصَ إِلاَّ أَنْ نُغْلَبَ وَنَجْهَدَ فَأَغْلَقُوا الأَبْوَابَ وَحَرَسُوهَا ".وَكَذَلِكَ فَعَل أَهْل الْمُدُنِ الَّتِي صُولِحَتْ مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ.وَقَالُوا:إِنْ ظَهَرَ الرُّومُ وَأَتْبَاعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ صِرْنَا إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ،وَإِلاَّ فَإِنَّا عَلَى أَمْرِنَا مَا بَقِيَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدَدٌ،فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْكَفَرَةَ وَأَظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ فَتَحُوا مُدُنَهُمْ وَأَخْرَجُوا الْمُقَلِّسِينَ،فَلَعِبُوا وَأَدَّوُا الْخَرَاجَ.[١٣٥٨]
وَجَاءَ فِي كِتَابِ صُلْحِ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ مَعَ أَهْل تَفْلِيسَ[١٣٥٩]:"...وَإِنْ عَرَضَ لِلْمُسْلِمِينَ شُغْلٌ عَنْكُمْ فَقَهَرَكُمْ عَدُوُّكُمْ فَغَيْرُ مَأْخُوذِينَ بِذَلِكَ.[١٣٦٠]

[١٣٥٧] - الخراج لأبي يوسف (ص:١٥٣) والبدائع ٩ / ٤٤٠٢، والقوانين الفقهية ص ١٧٦، والفروق للقرافي ٣ / ١٤ - ١٥، والمهذب للشيرازي ١٨ / ٢٥١، وبشرح المجموع الطبعة المصرية، مطالب أولي النهى ٢ / ٦٠٢، ٦٠٣، والكافي لابن قدامة ٣ / ٣٦٤ .

[١٣٥٨] - فتوح البلدان ص ١٤٣، قال في النهاية المقلسون :هم الذين يلعبون بين يدي الأمير إذا وصل البلد، والواحد :مقلس .(النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤ / ١٠٠) ط .دار الفكر ببيروت .

[١٣٥٩] - تفليس (بفتح التاء وسكون الفاء) :بلد بأرمينية الأولى .(معجم البلدان لياقوت ٢ / ٣٥ - ٣٦) .

[١٣٦٠] - فتوح البلدان (ص:٢٠١)

هَذه السَّوَابقُ التَّاريخيَّةُ حَدَثَتْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،وَعَلمُوا بهَا وَسَكَتُوا عَنْهَا،فَيُعْتَبَرُ إجْمَاعًا سُكُوتيًّا.

وَقَدْ نَقَل الإجْمَاعَ عَلَى ذَلكَ ابْنُ حَزْمٍ حَيْثُ قَال فِي مَرَاتب الإجْمَاع:" إنَّ مَنْ كَانَ في الذِّمَّة،وَجَاءَ أَهْل الْحَرْب إلَى بلاَدنَا يَقْصدُونَهُ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ لقتَالهمْ بالْكُرَاعِ وَالسِّلاَح،وَنَمُوتُ دُونَ ذَلكَ،صَوْنًا لمَنْ هُوَ فِي ذمَّة اللَّه تَعَالَى وَذمَّة رَسُوله ﷺ،فَإنَّ تَسْليمَهُ دُونَ ذَلكَ إهْمَالٌ لعَقْد الذِّمَّة " وَحُكيَ فِي ذَلكَ إجْمَاعُ الأُمَّة.[١٣٦١]

التَّاسعُ:اشْترَاكُ الذِّمِّيِّينَ فِي الْقتَال مَعَ الْمُسْلمينَ:

صَرَّحَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بأَنَّ الْجزْيَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنِ الذِّمِّيِّينَ بالاشْترَاك فِي الْقتَال مَعَ الْمُسْلمينَ.

قَال الشَّلَبيُّ فِي حَاشيَته عَلَى شَرْحِ كَنْزِ الدَّقَائق:" أَلاَ تَرَى أَنَّ الإمَامَ لَو اسْتَعَانَ بأَهْل الذِّمَّة سَنَةً،فَقَاتَلُوا مَعَهُ لاَ تَسْقُطُ عَنْهُمْ جزْيَةُ تلْكَ السَّنَة ؛لأَنَّهُ يَلْزَمُ حينَئذ تَغْييرُ الْمَشْرُوعِ،وَلَيْسَ للإمَامِ ذَلكَ،وَهَذَا لأَنَّ الشَّرْعَ جَعَل طَرِيقَ النُّصْرَة فِي حَقِّ الذِّمِّيِّ الْمَال دُونَ النَّفْس.

وَكَرهَ الْمَالكيَّةُ الاسْتعَانَةَ بأَهْل الذِّمَّة في الْقتَال.

فَقَال الْبَاجيُّ فِي الْمُنْتَقَى:" الْجهَادُ أَنْ يُقَاتَل النَّاسُ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَالْمُشْركُ لاَ يُقَاتل لذَلكَ ؛وَلأَنَّهُ ممَّنْ يَلْزَمُ أَنْ يُقَاتَل عَنْهُ وَتُمْنَعُ الاسْتعَانَةُ به فِي الْحَرْب وَإن اسْتُعينَ به فِي الأَعْمَال وَالصَّنَائع وَالْخدْمَة.[١٣٦٢]

وَالأَصْل فِي ذَلكَ مَا رُويَ عَنْ عَائشَةَ - قَالَ يَحْيَى:- إنَّ رَجُلًا منَ الْمُشْركينَ لَحقَ بالنَّبيِّ ﷺ ليُقَاتلَ مَعَهُ فَقَالَ:«ارْجعْ»«إنَّا لَا نَسْتَعينُ بمُشْرك»[١٣٦٣]

مَصَارفُ الْجزْيَة:

[١٣٦١] - الفروق ٣ / ١٤ .

[١٣٦٢] - حاشية الشلبي على شرح كتر الدقائق مع تبيين الحقائق ٣ / ٢٧٨، الأم ٤ / ٢٧٩، وكشاف القناع ٣ / ١٢٥، والمنتقى ٣ / ١٧٩ .

[١٣٦٣] - سنن أبي داود (٣/ ٧٥)(٢٧٣٢) صحيح

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُصْرَفُ فِي مَصَارِفِ الْفَيْءِ،حَتَّى رَأَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ اسْــمَ الْفَيْءِ شَامِلٌ لِلْجِزْيَةِ.وَيُصْرَفُ الْفَيْءُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْــلِمِينَ الْعَامَّــةِ وَمَرَافِــقِ الدَّوْلَــةِ الْهَامَّةِ:كَأَرْزَاقِ الْمُجَاهِــدِينَ وَذَرَارِيِّهِــمْ وَسَــدِّ الثُّغُورِ،وَبِنَــاءِ الْجُسُورِ،وَالْمَسَــاجِدِ وَالْقَنَاطِرِ،وَإِصْلاَحِ الأَنْهَارِ الَّتِي لاَ مَالِكَ لَهَا،وَرَوَاتِبِ الْمُوَظَّفِينَ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْمُدَرِّسِــينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُفْتِينَ وَالْعُمَّالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.[١٣٦٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٣٦٤] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٨٣، والخراج لأبي يوسف ص ١٢٤، وبدائع الصنائع ٢ / ٩٥٩، وحاشية ابن عابدين ٤ / ٢١٧، الهداية ٢ / ١٦٤، والاختيار ٤ / ١٤١، ومجمع الأنهر ١ / ٦٧٧، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٧، الأم ٤ / ١٤٠، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٤ وروضة الطالبين ٦ / ٣٥٤، ورحمة الأمة للدمشقي ٢ / ١٧٩، وكفاية الأخيار للحصني ٢ / ٣٢ .

الباب الثامن
الخلاصة في أحكام أهل الذمة

المبحث الأول
الأحكام الفقهية لأهل الذمة

تَعْرِيفُ أَهْل الذِّمَّة:

الذِّمَّةُ فِي اللُّغَة:الأَمَانُ وَالْعَهْدُ،فَأَهْل الذِّمَّة أَهْل الْعَهْد،وَالذِّمِّيُّ:هُوَ الْمُعَاهَدُ[1365].وَالْمُرَادُ بِأَهْل الذِّمَّة فِي اصْطِلاَحِ الْفُقَهَاءِ الذِّمِّيُّونَ،وَالذِّمِّيُّ نِسْبَةٌ إِلَى الذِّمَّة،أَي الْعَهْد مِنَ الإِمَامِ – أَوْ مِمَّنْ يَنُوبُ عَنْهُ – بِالأَمْنِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ نَظِيرَ الْتِزَامِهِ الْجِزْيَةَ وَنُفُوذَ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ[1366].

وَتَحْصُل الذِّمَّةُ لأَهْل الْكِتَابِ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ بِالْعَقْدِ أَوِ الْقَرَائِنِ أَوِ التَّبَعِيَّة،فَيَقَرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ فِي مُقَابِل الْجِزْيَة،كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ.

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – أَهْل الْكِتَاب:

قَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:أَهْل الْكِتَاب هُمُ:الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ،فَيَدْخُل فِي الْيَهُودِ السَّامِرَةُ ؛لأَنَّهُمْ يَدِينُونَ بِالتَّوْرَاة وَيَعْمَلُونَ بِشَرِيعَة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ،وَيَدْخُل فِي النَّصَارَى كُل مَنْ دَانَ بِالإِنْجِيل وَانْتَسَبَ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِالادِّعَاءِ وَالْعَمَل بِشَرِيعَتِهِ.وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ:أَهْل الْكِتَاب هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى[1367].

[1365] – المصباح المنير ولسان العرب والقاموس مادة :" ذمم "

[1366] – جواهر الإكليل ١ / ١٠٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢ / ٤٧٥ .

[1367] – ابن عابدين ٣ / ٢٦٨، والقرطبي ٢ / ١٤٠، والقليوبي ٣ / ٢٥٠، والمهذب ٢ / ٢٠٥، والمغني ٨ / ٤٩٦، ٥٠١ .

وَأَهْل الذِّمَّة قَدْ يَكُونُونَ مِنْ أَهْل الْكِتَاب،وَقَدْ يَكُونُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْمَجُوسِ،فَالنِّسْبَةُ بَيْنَ أَهْل الذِّمَّة وَأَهْل الْكِتَاب:أَنَّ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَعَمُّ مِنَ الآْخَرِ مِنْ وَجْهٍ،وَأَخَصُّ مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ،فَيَجْتَمِعَانِ فِي الْكِتَابِيِّ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ.

ب – أَهْل الأَْمَانِ (الْمُسْتَأْمَنُونَ):

الْمُرَادُ بِالْمُسْتَأْمَنِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ:مَنْ دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ عَلَى أَمَانٍ مُؤَقَّتٍ مِنْ قِبَل الإِْمَامِ أَوْ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ،عَلَى تَفْصِيلٍ يُذْكَرُ فِي مُصْطَلَحِهِ،وَعَلَى ذَلِكَ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْل الذِّمَّةِ:أَنَّ الأَْمَانَ لأَِهْل الذِّمَّةِ مُؤَبَّدٌ،وَلِلْمُسْتَأْمَنِينَ مُؤَقَّتٌ[١٣٦٨].

ج – أَهْل الْحَرْبِ:

الْمُرَادُ بِأَهْل الْحَرْبِ:الْكُفَّارُ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنْ قَبُول دَعْوَةِ الإِْسْلاَمِ،وَلَمْ يُعْقَدْ لَهُمْ عَقْدُ ذِمَّةٍ وَلاَ أَمَانٍ،وَيَقْطُنُونَ فِي دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي لاَ تُطَبَّقُ فِيهَا أَحْكَامُ الإِْسْلاَمِ.فَهُمْ أَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُعْلَنُ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُل عَامٍ[١٣٦٩].

مَا يَكُونُ بِهِ غَيْرُ الْمُسْلِمِ ذِمِّيًّا:

يَصِيرُ غَيْرُ الْمُسْلِمِ ذِمِّيًّا بِالْعَقْدِ،أَوْ بِقَرَائِنَ مُعَيَّنَةٍ تَدُل عَلَى رِضَاهُ بِالذِّمَّةِ،أَوْ بِالتَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِهِ،أَوْ بِالْغَلَبَةِ وَالْفَتْحِ.

وَفِيمَا يَأْتِي تَفْصِيل هَذِهِ الْحَالاَتِ:

أَوَّلاً – عَقْدُ الذِّمَّةِ:

عَقْدُ الذِّمَّةِ:إِقْرَارُ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِ بِشَرْطِ بَذْل الْجِزْيَةِ وَالْتِزَامِ أَحْكَامِ الإِْسْلاَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ،وَالْغَرَضُ مِنْهُ:أَنْ يَتْرُكَ الذِّمِّيُّ الْقِتَال،مَعَ احْتِمَال دُخُولِهِ الإِْسْلاَمَ عَنْ طَرِيقِ

[١٣٦٨] – البدائع ٧ / ١٠٦، وابن عابدين ٣ / ٢٤٨، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٨، والشرح الصغير للدردير ٢ / ٢٨٣، والقليوبي ٤ / ٢٢٥، والمغني ١٠ / ٤٣٢، ٤٣٣ .

[١٣٦٩] – فتح القدير ٥ / ١٩٥، والبدائع ٧ / ١٠٠، والشرح الصغير للدردير ٢ / ٢٦٧، ٢٧٢، والمهذب ٢ / ١٨٨، والمغني ٨ / ٣٥٢ .

مُخَالَطَته بِالْمُسْلمينَ،وَوُقُوفه عَلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ.فَكَانَ عَقْدُ الذِّمَّة لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلاَمِ،لاَ لِلرَّغْبَة أَوِ الطَّمَعِ فِيمَا يُؤْخَذُ منْهُمْ منَ الْجزْيَة[١٣٧٠].

وَيَنْعَقدُ هَذَا الْعَقْدُ بِإِيجَاب وَقَبُول بِاللَّفْظ،أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ،وَلاَ تُشْتَرَطُ كِتَابَتُهُ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي سَائِرِ الْعُقُود،وَمَعَ هَذَا فَكِتَابَةُ الْعَقْد أَمْرٌ مُسْتَحْسَنٌ لأَجْل الإِثْبَات،وَدَفْعًا لِمَضَرَّة الإِنْكَار وَالْجُحُود[١٣٧١].

مَنْ يَتَوَلَّى إِبْرَامَ الْعَقْد:

جُمْهُورُ الْفُقَهَاء:الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة عَلَى أَنَّ عَقْدَ الذِّمَّة مَعَ غَيْرِ الْمُسْلمِ يَتَوَلَّى إِبْرَامَهُ الإِمَامُ أَوْ نَائبُهُ،فَلاَ يَصحُّ منْ غَيْرِهمَا ؛لأَنَّ ذَلكَ يَتَعَلَّقُ بِنَظَرِ الإِمَامِ وَمَا يَرَاهُ مِنَ الْمَصْلَحَة ؛وَلأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّة عَقْدٌ مُؤَبَّدٌ،فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُفْتَاتَ بِه عَلَى الإِمَام[١٣٧٢].

وَأَجَازَ ذَلكَ الْحَنَفيَّةُ لِكُلِّ مُسْلمٍ ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّة خَلَفٌ عَنِ الإِسْلاَم،فَهُوَ بِمَنْزِلَة الدَّعْوَة إِلَيْه ؛وَلأَنَّهُ مُقَابِلُ الْجزْيَة،فَتَتَحَقَّقُ فيه الْمَصْلَحَةُ ؛وَلأَنَّهُ مَفْرُوضٌ عِنْدَ طَلَبِهِمْ لَهُ،وَفِي انْعقَاده إِسْقَاطُ الْفَرْضِ عَنِ الإِمَامِ وَعَامَّةِ الْمُسْلمينَ،فَيَجُوزُ لِكُلِّ مُسْلمٍ[١٣٧٣].

مَنْ يَصحُّ لَهُ عَقْدُ الذِّمَّة:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى جَوَازِ عَقْد الذِّمَّة لأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ،كَمَا اتَّفَقُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِه لِلْمُرْتَدِّ.أَمَّا فِيمَا عَدَا ذَلكَ فَقَد اخْتَلَفُوا:

فَقَال الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ فِي الْمَشْهُور عِنْدَهُمْ:لاَ يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّة لِغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَاب وَالْمَجُوسِ،بِدَلِيل قَوْله تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:٥] وَهَذَا عَامٌّ خُصَّ مِنْهُ أَهْل

[١٣٧٠] - البدائع ٧ / ١١١، وابن عابدين ٣ / ٢٧٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، والخرشي ٣ / ١٤٣، والحطاب ٣ / ٢٨١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٢ .

[١٣٧١] - مغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، والمغني ٨ / ٥٣٤، وتاريخ الطبري ٥ / ٢٢٨، والأموال لأبي عبيد ٨٧، والمهذب ٢ / ٢٥٤، والأحكام السلطانية للماوردي ١٤٥، والبدائع ٧ / ١١٠

[١٣٧٢] - الخرشي ٣ / ١٤٣، والقليوبي ٤ / ٢٢٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٠٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٦ .

[١٣٧٣] - فتح القدير والعناية على الهداية ٥ / ٢١٣، ٢١٤ .

الْكِتَاب بِآيَة الْجِزْيَة فِي سُورَةِ التَّوْبَة،وَخُصَّ مِنْهُمُ الْمَجُوسُ بما جاء عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد،عَنْ أَبِيه،قَالَ:كَانَ لِلْمُهَاجِرِينَ مَجْلِسٌ فِي الْمَسْجِد يَجْلِسُونَ فِيه،فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْلِسُ مَعَهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ عَمَّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآفَاق،فَجَلَسَ مَعَهُمْ يَوْمًا فَقَالَ:مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ؟ فَوَثَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَقَامَ قَائِمًا،فَقَالَ:نَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ لَقَالَ:«سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَاب»[١٣٧٤]

وعن عَمْرًا،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا مَعَ جَابِرِ بْنِ زَيْد،وَعَمْرِو بْنِ أَوْسٍ فَحَدَّثَهُمَا بَجَالَةُ،- سَنَةَ سَبْعِينَ،عَامَ حَجَّ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِأَهْلِ الْبَصْرَة عِنْدَ دَرَجِ زَمْزَمَ -،قَالَ:كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ،عَمِّ الأَحْنَف،فَأَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب قَبْلَ مَوْتِه بِسَنَة،فَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ مِنَ المَجُوس،وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الجِزْيَةَ مِنَ المَجُوسِ،حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ "[١٣٧٥]

فَمَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ يَبْقَى عَلَى بَقِيَّة الْعُمُوم[١٣٧٦] .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عِنْدَ الْمَالِكِيَّة،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ:يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّة لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ،إِلاَّ عَبَدَةَ الأَوْثَان مِنَ الْعَرَب ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّة لِرَجَاءِ الإِسْلاَم عَنْ طَرِيقِ الْمُخَالَطَة بِالْمُسْلِمِينَ وَالْوُقُوف عَلَى مَحَاسِنِ الدِّين،وَهَذَا لاَ يَحْصُل بِعَقْد الذِّمَّة مَعَ مُشْرِكِي الْعَرَب ؛لأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَل بِلُغَتِهِمْ،وَحَمَلُوا الرِّسَالَةَ،فَلَيْسَ لَهُمْ أَدْنَى شُبْهَةٍ فِي رَفْضِهِمُ الإِيمَانَ بِاللَّه وَرَسُوله،فَتَعَيَّنَ السَّيْفُ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَلِهَذَا لَمْ يَقْبَل رَسُول اللَّه مِنْهُمُ الْجِزْيَة[١٣٧٧] .

[١٣٧٤] - تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٥٣) صحيح لغيره

[١٣٧٥] - صحيح البخاري (٤/ ٩٦)(٣١٥٦ و٣١٥٧)

[ش (فرقوا..) أي بين من كانت بينهما زوجية من المحارم.(المجوس) وهم عبدة النار.(هجر) اسم بلد في البحرين يذكر فيصرف وهو الأكثر ويؤنث فيمنع من الصرف.[المصباح]]

[١٣٧٦] - القليوبي ٤ / ٢٢٩، والمغني ٨ / ٤٩٦، ٥٠١، والأم ٤ / ٢٤٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٨٩ .

[١٣٧٧] - البدائع ٧ / ١١١، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، والحطاب ٣ / ٣٨٠، والمغني ٨ / ٥٠٠ .

وَفِي الْمَشْهُورِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ:يَجُوزُ عَقْدُ الذِّمَّةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ،لاَ فَرْقَ بَيْنَ كِتَابِيٍّ وَغَيْرِهِ،وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ وَثَنِيٍّ عَرَبِيٍّ،وَوَثَنِيٍّ غَيْرِ عَرَبِيٍّ [١٣٧٨] .

شُرُوطُ عَقْدِ الذِّمَّةِ:

جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ أَنْ يَكُونَ مُؤَبَّدًا ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ فِي إِفَادَةِ الْعِصْمَةِ كَالْخَلَفِ عَنْ عَقْدِ الإِسْلاَمِ،وَعَقْدُ الإِسْلاَمِ لاَ يَصِحُّ إِلاَّ مُؤَبَّدًا،فَكَذَا عَقْدُ الذِّمَّةِ.وَفِي قَوْلٍ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يَصِحُّ مُؤَقَّتًا.

وَكَذَلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْعَقْدِ قَبُولُ وَالْتِزَامُ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ،مِنْ حُقُوقِ الآْدَمِيِّينَ فِي الْمُعَامَلاَتِ وَغَرَامَةِ الْمُتْلَفَاتِ،وَكَذَا مَا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ كَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ،كَمَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الرِّجَالِ مِنْهُمْ قَبُولُ بَذْلِ الْجِزْيَةِ كُل عَامٍ [١٣٧٩] .

وَذَكَرَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ شُرُوطًا أُخْرَى لَمْ يَذْكُرْهَا الآْخَرُونَ.قَال الْمَاوَرْدِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ:يُشْتَرَطُ عَلَيْهِمْ سِتَّةُ أَشْيَاءَ:

(١) أَلاَّ يَذْكُرُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِطَعْنٍ وَلاَ تَحْرِيفٍ لَهُ.

(٢) وَأَلاَّ يَذْكُرُوا رَسُول اللَّهِ ﷺ بِتَكْذِيبٍ لَهُ وَلاَ ازْدِرَاءٍ.

(٣) وَأَلاَّ يَذْكُرُوا دِينَ الإِسْلاَمِ بِذَمٍّ لَهُ وَلاَ قَدْحٍ فِيهِ.

(٤) وَأَلاَّ يُصِيبُوا مُسْلِمَةً بِزِنًى وَلاَ بِاسْمِ نِكَاحٍ.

(٥) وَأَلاَّ يَفْتِنُوا مُسْلِمًا عَنْ دِينِهِ وَلاَ يَتَعَرَّضُوا لِمَالِهِ.

(٦) وَأَلاَّ يُعِينُوا أَهْل الْحَرْبِ وَلاَ يُؤْوُوا لِلْحَرْبِيِّينَ عَيْنًا (جَاسُوسًا).

قَال الْمَاوَرْدِيُّ:فَهَذِهِ حُقُوقٌ مُلْتَزَمَةٌ،فَتَلْزَمُهُمْ بِغَيْرِ شَرْطٍ،وَإِنَّمَا تُشْتَرَطُ إِشْعَارًا لَهُمْ وَتَأْكِيدًا لِتَغْلِيظِ الْعَهْدِ عَلَيْهِمْ،وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا بَعْدَ الشَّرْطِ نَقْضًا لِعَهْدِهِمْ [١٣٨٠] .

[١٣٧٨] - الحطاب ٣ / ٣٨٠، ٣٨١، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، ٢٦٧ .وترى اللجنة قوة هذا الرأي ووجاهته تاريخيا، لأن قواد العرب دائما كانوا قبل أن يقاتلوا أي قوم يعرضون عليهم الإسلام أو الجزية .

[١٣٧٩] - البدائع ٧ / ١١١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٢، ٢٤٣، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٠٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، ١٢١ .

[١٣٨٠] - الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، وانظر مغني المحتاج ٤ / ٢٤٣ .

وَمِثْلُهُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَى مِنَ الْحَنَابِلَةِ[١٣٨١] .وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهَا الْآخَرُونَ لِدُخُولِهَا فِي شَرْطِ الْتِزَامِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ[١٣٨٢] .

هَذَا،وَزَادَ بَعْضُهُمْ شُرُوطًا أُخْرَى كَاسْتِضَافَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَعَدَمِ إظْهَارِ مُنْكَرٍ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهَا،وَاخْتَلَفُوا فِي وُجُوبِ أَوِ اسْتِحْبَابِ اشْتِرَاطِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الشُّرُوطِ،وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ عِنْدَ الْعَقْدِ أَنْ يَشْتَرِطَ عَلَيْهِمْ شُرُوطًا نَحْوَ مَا شَرَطَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَقَدْ رُوِيَتْ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ،عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ،قَالَ:كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ صَالَحَ أَهْلَ الشَّامِ:بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا،إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمُ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا،وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَةً وَلَا قَلَّايَةً[١٣٨٣] وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ،وَلَا نُجَدِّدَ مَا خَرِبَ مِنْهَا،وَلَا نُحْيِيَ مَا كَانَ مِنْهَا فِي خُطَطِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ لَا نَمْنَعَ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ،وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ،وَأَنْ نُنْزِلَ مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَنُطْعِمَهُمْ،وَأَنْ لَا نُؤَمِّنَ فِي كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا،وَلَا نَكْتُمَ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَا نُعَلِّمَ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ،وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا وَلَا نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا،وَلَا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادَهُ،وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ نَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِنْ أَرَادُوا جُلُوسًا،وَلَا نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ مِنْ قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا فَرْقِ شَعَرٍ،وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ،وَلَا نَتَكَنَّى بِكُنَاهُمْ،وَلَا نَرْكَبَ السُّرُوجَ،وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ،وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ،وَلَا نَحْمِلَهُ مَعَنَا،وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِيمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ،وَلَا نَبِيعَ الْخُمُورَ،وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِيمَ رُءُوسِنَا،وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُ مَا كُنَّا،وَأَنْ نَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا،وَأَنْ لَا نُظْهِرَ صُلُبَنَا

[١٣٨١] - الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٢ .

[١٣٨٢] - واللجنة ترى أن المذاهب الفقهية الأخرى وإن لم تصرح باشتراط هذه الشروط إلا أنهم يقولون بوجوب التزام أهل الذمة بهذه الشروط، وأن عهدهم يكون منقوضا إذا فعلوا شيئا مما ذكر .

[١٣٨٣] - القلاية :ما يبنى لراهب وحده، وتكون مرتفعة كالمنارة، وليست للاجتماع بل للانفراد.(أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢ / ٦٦٨) .

وَكُتُبَنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْـوَاقِهِمْ،وَأَنْ لَـا نُظْهِـرَ الصَّـلِيبَ عَلَـى كَنَائِسِنَا،وَأَنْ لَا نَضْرِبَ بِنَاقُوسٍ فِي كَنَائِسِنَا بَيْنَ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ لَا نُخْرِجَ سَعَانِينًا وَلَا بَاعُوثًا،وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ أَمْوَاتِنَا،وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَـيْءٍ مِـنْ طَرِيـقِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نُجَاوِزَهُمْ مَوْتَانَا،وَلَا نَتَّخِذَ مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْـلِمِينَ،وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ.فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ:وَأَنْ لَا نَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،شَرَطْنَا لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا وَقَبِلْنَـا مِنْهُمُ الْأَمَانَ،فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا شَيْئًا مِمَّا شَرَطْنَاهُ لَكُمْ فَضَمِنَّاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا فَلَا ذِمَّةَ لَنَا،وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مَا يَحِلُّ لَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشَّقَاوَةِ"[١٣٨٤]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ قَالَ:كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِـينَ صَـالَحَ نَصَارَى الشَّامِ:بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُـؤْمِنِينَ مِـنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا،إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَـأَلْنَاكُمُ الْأَمَـانَ لِأَنْفُسِـنَا وَذَرَارِيِّنَـا وَأَمْوَالِنَا،وَأَهْلِ مِلَّتِنَا وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا:أَنْ لَا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا،وَلَا فِيمَا حَوْلَهَـا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَةً وَلَا قِبْلَةً،وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ،وَلَا نُجَدِّدَ مَا خَرِبَ مِنْهَا،وَلَا نُحْيِيَ مَا كَـانَ مِنْهَا مِنْ خُطَطِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نَمْنَعَ كَنَايِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَـاثَ لَيَـالٍ نُطْعِمُهُمْ وَلَا نُئْوِي فِي مَنَازِلِنَا وَلَا كَنَائِسِنَا جَاسُوسًا،وَلَا نَكْتُمَ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَا نُعَلِّـمَ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ،وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا،وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا،وَلَا نَمْنَعَ مِنْ ذَوِي قَرَابَاتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ،وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ،وَنَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِذَا أَرَادُوا الْجُلُوسَ،وَلَـا نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ فِي قَلَنْسُوَةٍ،وَلَا عِمَامَةٍ،وَلَا نَعْلَيْنِ،وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ،وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ،وَلَا نَتَكَنَّى بِكُنَاهُمْ،وَلَا نَرْكَبَ السُّرُجَ،وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ،وَلَا نَتَّخِذَ شَـيْئًا مِـنَ السِّلَاحِ،وَلَا نَحْمِلَهُ مَعَنَا،وَلَا نَنْقُشَ عَلَى خَوَاتِيمِنَا بِالْعَرَبِيَّةِ،وَلَا نَبِيعَ الْخُمُـورَ،وَأَنْ نَجُـزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا،وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُ مَا كُنَّا وَأَنْ نَشُدَّ زَنَانِيرَنَا عَلَى أَوْسَاطِنَا،وَأَنْ لَا نُظْهِـرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا وَلَا كُتُبَنَا وَلَا نَجْلِسَ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ،وَلَا نَضْرِبَ بِنَوَاقِيسِنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِـي

[١٣٨٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٣٩)(١٨٧١٧) حسن

شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نُخْرِجَ سَعَانِينَا وَلَا بَاعُوثَنَا[١٣٨٥] وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا،وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ،وَلَا نُجَاوِرَهُمْ بِمَوْتَانَا،وَلَا نَتَّخِذَ مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ:وَلَا نَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ شَرَطْنَا ذَلِكَ لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ،فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا عَنْ شَيْءٍ مِمَّا شَرَطْنَاهُ لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا فَلَا ذِمَّةَ لَنَا،وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ[١٣٨٦]"

وعَنِ الْعَلَاءِ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:أَنْ سَلْ أَهْلَ الرُّهَا:هَلْ عِنْدَهُمْ صُلْحٌ؟ قَالَ:فَسَأَلْتُهُمْ،فَأَتَانِي أُسْقُفُّهُمْ بِدَرَجٍ،أَوْ حُقٍّ،فِيهِ كِتَابُ صُلْحِهِمْ،فَإِذَا فِي الْكِتَابِ:هَذَا كِتَابٌ مِنْ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِأَهْلِ الرُّهَا:أَنِّي أَمَّنْتُهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،وَذَرَارِيِّهِمْ،وَنِسَائِهِمْ،وَمَدِينَتِهِمْ،وَطَوَاحِينِهِمْ،إِذَا أَدُّوا الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ شَهِدَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ قَالَ:فَأَجَازَهُ لَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ"[١٣٨٧]

ومِنْهَا مَا رَوَاهُ الْخَلاَّلُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ قَالَ:حَدَّثَنَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،قَالُوا:كَتَبَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غُنْمٍ:أَنَّا حِينَ قَدِمْنَا مِنْ بِلاَدِنَا طَلَبْنَا إِلَيْكَ الأَمَانَ لأَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا،عَلَى أَنَّا شَرَطْنَا لَك عَلَى أَنْفُسِنَا أَلاَّ نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا كَنِيسَةً وَلاَ فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلاَ قَلاَيَةً وَلاَ صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ وَلاَ نُجَدِّدُ مَا خَرِبَ مِنْ كَنَائِسِنَا،وَلاَ مَا كَانَ مِنْهَا فِي خُطَطِ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ نَمْنَعُ كَنَائِسَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْزِلُوهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ،وَلاَ نُؤْوِي فِيهَا وَلاَ فِي مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا،وَأَلاَّ نَكْتُمَ أَمْرَ مَنْ غَشَّ الْمُسْلِمِينَ،وَأَلاَّ نَضْرِبَ نَوَاقِيسَنَا إِلاَّ ضَرْبًا خَفِيًّا

[١٣٨٥] - الباعوث :استسقاء النصارى .كما في القاموس، والشعانين :أعياد لهم كما في أحكام أهل الذمة لابن القيم ص ٧٢١ .

[١٣٨٦] - معجم ابن الأعرابي (١/ ٢٠٨)(٣٦٥) حسن

((باعوثا)) البَاعوث للنصارى كالاسْتِسقاء للمسلمين، وهو اسم سُرْياني .وقيل هو بالغين المعجمة والتاء فوقها نُقْطتان .

[١٣٨٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٢٦٧)(٥٢١) صحيح

فِي جَوْفِ كَنَائسنَا وَلاَ نُظْهِرَ عَلَيْهَا صَلِيبًا،وَلاَ نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا فِي الصَّلاَةِ وَلاَ الْقِرَاءَةِ فِي كَنَائسنَا فِيمَا يَحْضُرُهُ الْمُسْلِمُونَ،وَلاَ نُخْرِجَ صَلِيبَنَا وَلاَ كِتَابَنَا فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَلاَّ نُخْرِجَ بَاعُوثًا وَلاَ شَعَانِينَ وَلاَ نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا مَعَ أَمْوَاتِنَا،وَلاَ نُظْهِرُ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَلاَّ نُجَاوِرَهُمْ بِالْخَنَازِيرِ وَلاَ بِبَيْعِ الْخُمُورِ،وَلاَ نُظْهِرَ شِرْكًا،وَلاَ نُرَغِّبَ فِي دِينِنَا وَلاَ نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا،وَلاَ نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ الرَّقِيقِ الَّذِينَ جَرَتْ عَلَيْهِمْ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ،وَأَلاَّ نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَقْرِبَائنَا إِذَا أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الإِسْلاَمِ،وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا،وَأَلاَّ نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ قَلَنْسُوَةٍ وَلاَ عِمَامَةٍ وَلاَ نَعْلَيْنِ وَلاَ فَرْقِ شَعْرٍ وَلاَ فِي مَرَاكِبِهِمْ،وَلاَ نَتَكَلَّمُ بِكَلاَمِهِمْ،وَأَلاَّ نَتَكَنَّى بِكُنَاهُمْ،وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا،وَلاَ نُفَرِّقَ نَوَاصِيَنَا،وَنَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا،وَلاَ نَنْقُشَ خَوَاتِيمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ،وَلاَ نَرْكَبَ السُّرُوجَ،وَلاَ نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلاَحِ،وَلاَ نَحْمِلَهُ،وَلاَ نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ،وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ،وَنُرْشِدَ الطَّرِيقَ،وَنَقُومَ لَهُمْ عَنِ الْمَجَالِسِ إِذَا أَرَادُوا الْمَجَالِسَ،وَلاَ نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ،وَلاَ نُعَلِّمَ أَوْلاَدَنَا الْقُرْآنَ،وَلاَ يُشَارِكَ أَحَدٌ مِنَّا مُسْلِمًا فِي تِجَارَةٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ إِلَى الْمُسْلِمِ أَمْرُ التِّجَارَةِ،وَأَنْ نُضَيِّفَ كُل مُسْلِمٍ عَابِرَ سَبِيلٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ،وَنُطْعِمَهُ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَجِدُ،ضَمَّنَّا ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَزْوَاجِنَا وَمَسَاكِنِنَا،وَإِنْ نَحْنُ غَيَّرْنَا أَوْ خَالَفْنَا عَمَّا شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَقَبِلْنَا الأَمَانَ عَلَيْهِ فَلاَ ذِمَّةَ لَنَا،وَقَدْ حَل لَك مِنَّا مَا يَحِل لأَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ.فَكَتَبَ بِذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غُنْمٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَكَتَبَ لَهُمْ عُمَرُ:أَنْ أَمْضِ لَهُمْ مَا سَأَلُوهُ[1388].

وَلاَ شَكَّ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَاجِبٌ،وَيُنْقَضُ بِمُخَالَفَتِهِ عَقْدُ الذِّمَّةِ كَمَا سَيَأْتِي.

ثَانِيًا:حُصُول الذِّمَّةِ بِالْقَرَائِنِ:

وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

أ – الإِقَامَةُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ:

[1388] – شروط النصارى لابن زبر الربعي (ص:٢٦)(١٣) حسن لغيره، وانظر :البناية على الهداية ٥ / ٨٣٧، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٢٤، ٥٢٥، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣، ولأبي يعلى ص ١٤٣ .

الأَصْل أَنَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِ الَّذي لَمْ يَحْصُل عَلَى الذِّمَّة لاَ يُمَكَّنُ مِنَ الإِقَامَة الدَّائمَة فـي دَارِ الإِسْلاَم،وَإِنَّمَا يُمَكَّنُ مِنَ الإِقَامَة الْيَسيرَة بالأَمَان الْمُؤَقَّت،وَيُسَمَّى صَـاحِبُ الأَمَـان (الْمُسْتَأْمَنُ)،وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاء (الْحَنَفيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ) عَلَى أَنَّ مُدَّةَ الإِقَامَة فـي دَارِ الإِسْلاَمِ لِلْمُسْتَأْمَنِ لاَ تَبْلُغُ سَنَةً،فَإِذَا أَقَامَ فِيهَا سَنَةً كَاملَةً أَوْ أَكْثَرَ تُفْرَضُ عَلَيْه الْجزْيَةُ وَيَصيرُ بَعْدَهَا ذمِّيًّا.

فَطُول إقَامَة غَيْرِ الْمُسْلمِينَ قَرِينَةٌ عَلَى رِضَاهُمْ بِالإِقَامَةِ الدَّائِمَة وَقَبُولِهِمْ شُـرُوطَ أَهْـل الذِّمَّة[1389].

هَذَا،وَقَدْ فَصَّل فُقَهَاءُ الْحَنَفيَّة في هَذَا الْمَوْضُوعِ فَقَالُوا:الأَصْل أَنَّ الْحَرْبِيَّ إذَا دَخَـل دَارَ الإِسْلاَم بأَمَان يَنْبَغي لِلإِمَامِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَيْه،فَيَضْربَ لَهُ مُدَّةً مَعْلُومَةً،عَلَى حَسَب مَا يَقْتَضيه رَأْيُهُ،وَيَقُول لَهُ:إنْ جَاوَزْتَ الْمُدَّةَ جَعَلْتُكَ منْ أَهْل الذِّمَّة،فَإذَا جَاوَزَهَا صَارَ ذمِّيًّا،فَإِذَا أَقَامَ سَنَةً منْ يَوْمِ مَا قَال لَهُ الإِمَامُ أُخذَتْ منْهُ الْجزْيَةُ[1390].وَإِذَا لَمْ يَضْربْ لَهُ مُدَّةً قَال أَكْثَـرُ الْحَنَفيَّة:يَصيرُ ذمِّيًّا بإقَامَته سَنَةً،وَقَال بَعْضُهُمْ:إنْ أَقَامَ الْمُسْـتَأْمَنُ،فَأَطَال الْمُقَـامَ أُمِـرَ بالْخُرُوجِ،فَإِنْ أَقَامَ بَعْدَ ذَلكَ حَوْلاً وُضعَتْ عَلَيْه الْجزْيَةُ،وَعَلَى هَذَا فَاعْتبَارُ السَّـنَة مِـنْ تَاريخِ إنْذَارِ الإِمَامِ لَهُ بالْخُرُوجِ،فَلَوْ أَقَامَ سنينَ منْ غَيْرِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَيْه الإِمَامُ بالْخُرُوجِ،فَلَهُ الرُّجُوعُ إلَى دَارِ الْحَرْب،وَلاَ يَصيرُ ذمِّيًّا[1391].وَلَمْ نَجدْ نَصًّا لِلْمَالِكيَّةِ في تَقْـديرِ مُـدَّةِ الأَمَان لِلْمُسْتَأْمَنِ وَصَيْرُورَته ذمِّيًّا.

ب – زَوَاجُ الْحَرْبِيَّة منَ الْمُسْلمِ أَو الذِّمِّيِّ:

صَرَّحَ الْحَنَفيَّةُ بأَنَّ الْحَرْبِيَّةَ الْمُسْتَأْمَنَةَ إذَا تَزَوَّجَتْ مُسْلمًا أَوْ ذمِّيًّا فَقَدْ تَوَطَّنَتْ وَصَـارَتْ ذمِّيَّةً ؛لأَنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْمَسْكَنِ تَابعَةٌ لِلـزَّوْجِ،أَلاَ تَـرَى أَنَّهَـا لاَ تَمْلـكُ الْخُـرُوجَ إلاَّ بإذْنه،فَجَعْلُهَا نَفْسَهَا تَابعَةً لمَنْ هُوَ في دَارِنَا رِضًى بالتَّوَطُّنِ في دَارِنَا عَلَى التَّأْبيد،وَرِضَاهَا بذَلكَ دَلاَلَةٌ كَالرِّضَى بطَرِيقِ الإِفْصَاحِ،فَلهَذَا صَارَتْ ذمِّيَّةً.بخلاَف الْمُسْتَأْمَنِ إذَا تَـزَوَّجَ

[1389] – البدائع ٧ / ١١٠، والأحكام السلطانية للماوردي ١٤٦، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ١٤٥ .

[1390] – البدائع ٧ / ١١٠ .

[1391] – فتح القدير على الهداية ٥ / ٢٧٢، والخراج لأبي يوسف ص ١٨٩ .

ذمِّيَّةً ؛لأَنَّ الزَّوْجَ لاَ يَكُونُ تَابِعًا لامْرَأَتِه فِي الْمُقَامِ،فَزَوَاجُهُ مِنَ الذِّمِّيَّةِ لاَ يَدُل عَلَى رِضَاهُ بِالْبَقَاءِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،فَلاَ يَصِيرُ[1392].

وَأَمَّا الْحَنَابِلَةُ،فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ خَالَفُوا الْحَنَفِيَّةَ فِي هَذَا الْحُكْمِ،قَال صَاحِبُ الْمُغْنِي:إِذَا دَخَلَت الْحَرْبِيَّةُ إِلَيْنَا بِأَمَانٍ،فَتَزَوَّجَتْ ذِمِّيًّا فِي دَارِنَا،ثُمَّ أَرَادَت الرُّجُوعَ لَمْ تُمْنَعْ إِذَا رَضِيَ زَوْجُهَا أَوْ فَارَقَهَا،وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ:تُمْنَعُ.وَلَنَا،أَنَّهُ عَقْدٌ لَا يَلْزَمُ الرَّجُلَ الْمُقَامُ بِهِ،فَلَا يَلْزَمُ الْمَرْأَةَ كَعَقْدِ الْإِجَارَةِ.[1393]

وَلَمْ نَعْثُرْ فِي كُتُبِ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ.

ج – شِرَاءُ الأَْرَاضِي الْخَرَاجِيَّةِ:

قَرَّرَ الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ إِذَا اشْتَرَى أَرْضًا خَرَاجِيَّةً فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ فَزَرَعَهَا،يُوضَعُ عَلَيْهِ خَرَاجُ الأَْرْضِ وَيَصِيرُ ذِمِّيًّا ؛لأَنَّ وَظِيفَةَ الْخَرَاجِ تَخْتَصُّ بِالْمُقَامِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،فَإِذَا قَبِلَهَا فَقَدْ رَضِيَ بِكَوْنِهِ مِنْ أَهْل دَارِ الإِْسْلاَمِ فَيَصِيرُ ذِمِّيًّا.وَلَوْ بَاعَهَا قَبْل أَنْ يَجْبِيَ خَرَاجَهَا لاَ يَصِيرُ ذِمِّيًّا ؛لأَنَّ دَلِيل قَبُول الذِّمَّةِ وُجُوبُ الْخَرَاجِ لاَ نَفْسُ الشِّرَاءِ،فَمَا لَمْ يُوضَعْ عَلَيْهِ الْخَرَاجُ لاَ يَصِيرُ ذِمِّيًّا.

وَقَال بَعْضُهُمْ:إِنَّمَا يَصِيرُ ذِمِّيًّا بِشَرْطِ تَنْبِيهِهِ عَلَى أَنَّهُ فِي حَالَةِ عَدَمِ بَيْعِهِ الأَْرْضَ وَرُجُوعِهِ إِلَى بِلاَدِهِ سَيَكُونُ ذِمِّيًّا،إِذْ لاَ يَصِحُّ جَعْلُهُ ذِمِّيًّا بِلاَ رِضًى مِنْهُ أَوْ قَرِينَةٍ مُعْتَبَرَةٍ تَكْشِفُ عَنْ رِضَاهُ[1394].

هَذَا،وَلَمْ نَجِدْ لِسَائِرِ الْفُقَهَاءِ رَأْيًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

ثَالِثًا – صَيْرُورَتُهُ ذِمِّيًّا بِالتَّبَعِيَّةِ:

هُنَاكَ حَالاَتٌ يَصِيرُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ ذِمِّيًّا تَبَعًا لِغَيْرِهِ ؛لِعَلاَقَةٍ بَيْنَهُمَا تَسْتَوْجِبُ هَذِهِ التَّبَعِيَّةَ فِي الذِّمَّةِ مِنْهَا:

أ – الأَْوْلاَدُ الصِّغَارُ وَالزَّوْجَةُ:

[1392] – المبسوط للسرخسي ١٠ / ٨٤، والبدائع ٧ / ١١٠، والسير الكبير ٥ / ١٨٦٥، والزيلعي ٢ / ٢٦٩ .البناية شرح الهداية (٥/ ٦٥٦)

[1393] – الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٥٦٨) والمغني لابن قدامة (٩/ ٢٤٦)

[1394] – البدائع ٧ / ١١٠، وابن عابدين ٣ / ٣٤٦، والزيلعي ٢ / ٢٦٩

صَرَّحَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ:(الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ) أَنَّ الأَْوْلاَدَ الصِّغَارَ يَدْخُلُونَ فِي الذِّمَّةِ تَبَعًا لآبَائِهِمْ أَوْ أُمَّهَاتِهِمْ إِذَا دَخَلُوا فِي الذِّمَّةِ[1395] ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ فِيهِ الْتِزَامُ أَحْكَامِ الإِْسْلاَمِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْمُعَامَلاَتِ،وَالصَّغِيرُ فِي مِثْل هَذَا يَتْبَعُ خَيْرَ الْوَالِدَيْنِ،كَمَا عَلَّلَهُ الْحَنَفِيَّةُ،وَهَذَا مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلاَمِ الْمَالِكِيَّةِ،حَيْثُ قَالُوا:لاَ تُعْقَدُ الذِّمَّةُ إِلاَّ لِكَافِرٍ حُرٍّ بَالِغٍ ذَكَرٍ،فَأَمَّا الْمَرْأَةُ وَالْعَبْدُ وَالصَّبِيُّ فَهُمْ أَتْبَاعٌ[1396] .

وَإِذَا بَلَغَ صِبْيَانُ أَهْل الذِّمَّةِ تُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى عَقْدٍ جَدِيدٍ،وَهَذَا مَذْهَبُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ وَجْهٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ ؛لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلاَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ خُلَفَائِهِ تَجْدِيدُ الْعَقْدِ لِهَؤُلاَءِ وَلأَنَّهُمْ تَبِعُوا الأَْبَ فِي الأَْمَانِ،فَتَبِعُوهُ فِي الذِّمَّةِ[1397] .

وَالأَْصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ يَسْتَأْنِفُ لَهُ عَقْدَ الذِّمَّةِ ؛لأَنَّ الْعَقْدَ الأَْوَّل كَانَ لِلأَْبِ دُونَهُ،فَعَلَى هَذَا جِزْيَتُهُ عَلَى مَا يَقَعُ عَلَيْهِ التَّرَاضِي[1398] .

وَمِثْل هَذَا الْحُكْمِ أَنَّ التَّبَعِيَّةَ فِي الذِّمَّةِ يَجْرِي عَلَى الزَّوْجَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،فَإِنَّهُمْ قَالُوا:لَوْ أَنَّ زَوْجَيْنِ مُسْتَأْمَنَيْنِ دَخَلاَ دَارَ الإِْسْلاَمِ بِالأَْمَانِ،أَوْ تَزَوَّجَ مُسْتَأْمَنٌ مُسْتَأْمَنَةً فِي دَارِنَا ثُمَّ صَارَ الرَّجُل ذِمِّيًّا،أَوْ دَخَلَتْ حَرْبِيَّةٌ دَارَ الإِْسْلاَمِ بِأَمَانٍ فَتَزَوَّجَتْ ذِمِّيًّا،صَارَتْ ذِمِّيَّةً تَبَعًا لِلزَّوْجِ ؛لأَنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْمُقَامِ تَابِعَةٌ لِزَوْجِهَا[1399] .

ب – اللَّقِيطُ:

إِذَا وُجِدَ اللَّقِيطُ فِي مَكَانِ أَهْل الذِّمَّةِ،كَقَرْيَتِهِمْ أَوْ بِيعَةٍ أَوْ كَنِيسَةٍ يُعْتَبَرُ ذِمِّيًّا تَبَعًا لَهُمْ،وَلَوِ الْتَقَطَهُ مُسْلِمٌ فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ[1400] .

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:إِذَا وُجِدَ اللَّقِيطُ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ – وَفِيهَا أَهْل ذِمَّةٍ – أَوْ بِدَارٍ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ وَأَقَرُّوهَا بِيَدِ الْكُفَّارِ صُلْحًا،أَوْ أَقَرُّوهَا بِيَدِهِمْ بَعْدَ مِلْكِهَا بِجِزْيَةٍ وَفِيهَا

[1395] – السير الكبير ٥ / ١٨٧٠، والمهذب للشيرازي ٢ / ٢٥١، ٢٥٣، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٠٨ .

[1396] – القوانين الفقهية لابن جزي ص ١٠٤ .

[1397] – السير الكبير ٥ / ١٨٧٠، والقوانين الفقهية ص ١٠٤، والمهذب ٢ / ٢٥٣، والروضة ٨ / ٣٠٠، والمغني ٨ / ٥٠٨ .

[1398] – المهذب للشيرازي ٢ / ٢٥٣، والروضة ٨ / ٣٠٠ .

[1399] – السير الكبير ٥ / ١٨٦٥، والفتاوى الهندية ٢ / ٢٣٥ .

[1400] – ابن عابدين ٣ / ٣٢٦، والحطاب ٦ / ٨٢، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٢٠ .

مُسْلِمٌ – وَلَوْ وَاحِدًا – حُكِمَ بِإِسْلَامِ اللَّقِيطِ ؛لِأَنَّهُ يُحْتَمَل أَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ الْمُسْلِمِ تَغْلِيبًا لِلْإِسْلَامِ.وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا فَتَحُوهَا مُسْلِمٌ فَاللَّقِيطُ كَافِرٌ[1401].

رَابِعًا – الذِّمَّةُ بِالْغَلَبَةِ وَالْفَتْحِ:

هَذَا النَّوْعُ مِنَ الذِّمَّةِ يَتَحَقَّقُ فِيمَا إِذَا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بِلاَدًا غَيْرَ إِسْلاَمِيَّةٍ،وَرَأَى الْإِمَامُ تَرْكَ أَهْل هَذِهِ الْبِلاَدِ أَحْرَارًا بِالذِّمَّةِ،وَضَرَبَ الْجِزْيَةَ عَلَيْهِمْ،كَمَا فَعَل عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي فَتْحِ سَوَادِ الْعِرَاقِ[1402].

حُقُوقُ أَهْلِ الذِّمَّةِ

الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي حُقُوقِ أَهْل الذِّمَّةِ:أَنَّ لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا،وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ جَرَتْ عَلَى لِسَانِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،وَتَدُل عَلَيْهَا عِبَارَاتُ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ[1403].وَيُؤَيِّدُهَا بَعْضُ الْآثَارِ عَنِ السَّلَفِ،فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الْجَنُوبِ،قَالَ:قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَنْ كَانَتْ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدَمَائِنَا».[1404].

وعَنْ أَبِي الْجَنُوبِ الْأَسَدِيِّ،قَالَ:أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،قَالَ:فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ،فَجَاءَ أَخُوهُ فَقَالَ:إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ،قَالَ:فَلَعَلَّهُمْ هَدَّدُوكَ وَفَرَقُوكَ وَفَزَعُوكَ،قَالَ:لَا،وَلَكِنْ قَتْلُهُ لَا يَرُدُّ عَلَيَّ أَخِي،وَعَوَّضُونِي فَرَضِيتُ.قَالَ:" أَنْتَ أَعْلَمُ مَنْ كَانَ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدَمِنَا،وَدِيَتُهُ كَدِيَتِنَا "[1405]

قلت:والذي ثبت هو بحق المسلمين فيما بينهم،عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،فَإِذَا

[1401] – حاشية القليوبي ٣ / ١٢٦، والمغني لابن قدامة ٥ / ٧٤٨ .

[1402] – الكاساني ٧ / ١١١، ١١٩، وحاشية القليوبي ٣ / ١٢٦، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ١٠٥ .

[1403] – بدائع الصنائع للكاساني ٦ / ١١١، والقوانين الفقهية لابن جزي ص ١٠٥، والمهذب للشيرازي ٢ / ٢٥٦، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٧، والمغني لابن قدامة ٨ / ٤٤٥، ٥٣٥ .

[1404] – سنن الدارقطني (٤/ ١٧٩)(٣٢٩٦) ضعيف

[1405] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٦٢)(١٥٩٣٤) ضعيف

شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا،وَصَلُّوا صَلَاتَنَا،فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ،لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»[١٤٠٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَيَسْتَقْبِلُوا قِبْلَتَنَا،وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا،وَصَلُّوا صَلَاتَنَا حُرِّمَتْ عَلَيْنَا وعن حُمَيْدَ الطَّوِيلِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ،يَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَصَلُّوا صَلَاتَنَا،وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا،وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا حُرِّمَتْ عَلَيْنَا أَمْوَالُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا،لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ»[١٤٠٧]

لَكِنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ غَيْرُ مُطَبَّقَةٍ عَلَى إِطْلَاقِهَا،فَالذِّمِّيُّونَ لَيْسُوا كَالْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ،وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعَدَمِ الْتِزَامِهِمْ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ.

وَفِيمَا يَلِي نَذْكُرُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ أَهْلُ الذِّمَّةِ مِنَ الْحُقُوقِ:

أَوَّلاً – حِمَايَةُ الدَّوْلَةِ لَهُمْ:

يُعْتَبَرُ أَهْلُ الذِّمَّةِ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ ؛لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَ أَعْطَوْهُمُ الذِّمَّةَ فَقَدِ الْتَزَمُوا دَفْعَ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَالْمُحَافَظَةَ عَلَيْهِمْ،وَصَارُوا أَهْلَ دَارِ الْإِسْلَامِ،كَمَا صَرَّحَ الْفُقَهَاءُ بِذَلِكَ[١٤٠٨].

وَعَلَى ذَلِكَ فَلِأَهْلِ الذِّمَّةِ حَقُّ الْإِقَامَةِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ،وَعَلَى الْإِمَامِ حِمَايَتُهُمْ مِنْ كُلِّ مَنْ أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ الْحَرْبِ أَوْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛لِأَنَّهُ الْتَزَمَ بِالْعَهْدِ حِفْظَهُمْ مِنَ الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ،فَيَجِبُ عَلَيْهِ الذَّبُّ عَنْهُمْ،وَمَنْعُ مَنْ يَقْصِدُهُمْ بِالْأَذَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوِ الْكُفَّارِ،وَاسْتِنْقَاذُ مَنْ أُسِرَ

[١٤٠٦] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٣/ ٢١٥)(٥٨٩٥) صحيح

[١٤٠٧] – الإيمان لابن منده (١/ ١٧٢)(٣١) والإيمان لابن منده (١/ ٣٥٥)(١٩١) صحيح مشهور

[١٤٠٨] – البدائع للكاساني ٥ / ٢٨١، وشرح السير الكبير ١ / ١٤٠، والمغني ٥ / ٥٦٦ .

مِنْهُمْ،وَاسْتِرْجَاعُ مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ،سَوَاءٌ كَانُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَمْ مُنْفَرِدِينَ عَنْهُمْ فِي بَلَدٍ لَهُمْ ؛لأَنَّهُمْ بَذَلُوا الْجِزْيَةَ لِحِفْظِهِمْ وَحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ[1409].

وَمِنْ مُقْتَضَيَاتِ عَقْدِ الذِّمَّةِ أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لاَ يُظْلَمُونَ وَلاَ يُؤْذَوْنَ،عَنْ عِدَّةٍ،مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا،أَوِ انْتَقَصَهُ،أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ،أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ،فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1410]

وعَنْ ثَلَاثِينَ،مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ،أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ،فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِصْبُعِهِ إِلَى صَدْرِهِ «أَلَا وَمَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ،حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ،وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ سَبْعِينَ عَامًا»[1411]

حَتَّى إِنَّ الْفُقَهَاءَ صَرَّحُوا بِأَنَّ أَهْلَ الْحَرْبِ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَسَبَوْهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ،ثُمَّ قَدَرَ عَلَيْهِمْ،وَجَبَ رَدُّهُمْ إِلَى ذِمَّتِهِمْ،وَلَمْ يَجُزِ اسْتِرْقَاقُهُمْ،وَهَذَا فِي قَوْل عَامَّةِ أَهْل الْعِلْمِ،كَمَا قَال صَاحِبُ الْمُغْنِي:لأَنَّ ذِمَّتَهُمْ بَاقِيَةٌ،وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهَا،وَحُكْمُ أَمْوَالِهِمْ حُكْمُ أَمْوَال الْمُسْلِمِينَ فِي حُرْمَتِهَا[1412].

ثَانِيًا – حَقُّ الإِقَامَةِ وَالتَّنَقُّل:

لأَهْل الذِّمَّةِ أَنْ يُقِيمُوا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ مَا يُنْتَقَضُ بِهِ عَهْدُهُمْ ؛لأَنَّهُمْ إِنَّمَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا وَدِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا،وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ.

[1409] – البدائع ٧ / ١١١، والشرح الصغير للدردير ٢ / ٢٧٣ و ٤ / ٣٣٥، والمهذب ٢ / ٢٥٦، وكشاف القناع ٣ / ١٣٩، والمغني ٨ / ٥٣٥ .

[1410] – سنن أبي داود (٣/ ١٧١)(٣٠٥٢) صحيح

[1411] – الأموال لابن زنجويه (١/ ٣٧٩)(٦٢١) صحيح

[1412] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٣، ٢٤٤، والمهذب ٢ / ٢٥٣، والمغني ٨ / ٤٤٤

لَكِنَّ الْفُقَهَاءَ اتَّفَقُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ إِقَامَةِ الذِّمِّيِّ وَاسْتِيطَانِهِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ،عَلَى خِلاَفٍ وَتَفْصِيلٍ فِيمَا سِوَاهُمَا،يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ (أَرْضُ الْعَرَبِ)[1413]،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:أَجْلَى عُمَرُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،وَقَالَ:لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ،وَضَرَبَ لِمَنْ قَدِمَ مِنْهُمْ أَجَلًا قَدْرَ مَا يَبِيعُونَ سِلَعَهُمْ"[1414]

وقَالَ الزُّهْرِيُّ:فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ،أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:«لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ»،فَفَحَصَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْخَبَرِ فِي ذَلِكَ حَتَّى وَجَدَ عَلَيْهِ الثَّبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ - يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَأْتِ بِهِ أُنْفِذْ لَهُ عَهْدَهُ وَأُقِرُّهُ،وَمَنْ لَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذِنَ فِي إِجْلَائِكُمْ،أَوْ بِجَلَائِكُمْ» فَأَجْلَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَهُودَ الْحِجَازِ إِلَى الشَّامِ"[1415]

وعَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ:«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَفَعَ خَيْبَرَ إِلَى الْيَهُودِ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا فِيهَا،وَلَهُمْ شَطْرُهَا» قَالَ:فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ،وَصَدْرٌ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ،ثُمَّ أُخْبِرَ عُمَرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:«لَا يَجْتَمِعُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ أَوْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ دِينَانِ»،فَفَحَصَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى وَجَدَ عَلَيْهِ الثَّبْتَ،فَقَالَ:مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَأْتِ بِهِ،وَإِلَّا فَإِنِّي مُجْلِيكُمْ قَالَ:«فَأَجْلَاهُمْ»،وَقَدْ كَانَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ"[1416]

وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ،أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ:آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى،اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ،لَا يَبْقَى أَوْ لَا يَجْتَمِعُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ دِينَانِ»[1417]

[1413] - الموسوعة الفقهية في الكويت ٣ / ١٢٦ .

[1414] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢٨)(٢٧٢) صحيح

[1415] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ١٨٤) صحيح لغيره

[1416] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٤/ ١٢٥)(٧٢٠٨) صحيح

[1417] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٥٤)(٩٩٨٧) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَجْلَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ إِخْرَاجَ الْيَهُودِ مِنْهَا،فَسَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُقِرَّهُمْ بِهَا عَلَى أَنْ يَكْفُوهُ عَمَلَهَا وَلَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ،وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«نُقِرُّكُمْ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا»،فَقَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ إِلَى تَيْمَاءَ،وَأَرِيحَاءَ "

وعَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دفَعَ خَيْبَرَ إِلَى الْيَهُودِ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا فِيهَا،وَلَهُمْ شَطْرُ ثَمَرِهَا،فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ،وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ،ثُمَّ أُخْبِرَ عُمَرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ مِنْهُ:" لَا يَجْتَمِعُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ دِينَانِ،أَوْ قَالَ:بِأَرْضِ الْحِجَازِ دِينَانِ "،فَفَحَّصَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى وَجَدَ عَلَيْهِ الثَّبْتَ ثُمَّ دَعَاهُمْ،فَقَالَ:مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَأْتِ بِهِ،وَإِلَّا فَإِنِّي مُجْلِيكُمْ قَالَ:فَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ"[١٤١٨]

وقال أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:أَخْبَرَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ،وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا»[١٤١٩]

وعَنْ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَتْرُكَ فِيهَا إِلَّا مُسْلِمًا»[١٤٢٠]

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[١٤٢١]

أَمَّا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمُدُنِ وَالْقُرَى فِي دَارِ الإِسْلَامِ فَيَجُوزُ لأَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَسْكُنُوا فِيهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مُنْفَرِدِينَ،لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ رَفْعُ بِنَائِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقَصْدِ التَّعَلِّي،وَإِذَا لَزِمَ

[١٤١٨] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٥٥)(٩٩٨٩ و٩٩٩٠) صحيح

[١٤١٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨)٦٣ - (١٧٦٧)

[١٤٢٠] - فوائد أبي محمد الفاكهي (ص:٣٥٣)(١٥٣) صحيح

[١٤٢١] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢٦١)(٦٧٠٧) صحيح وينظر :ابن عابدين ٣ / ٢٧٥، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٧، والماوردي ص ١٦٧، والمغني ٨ / ٥٢٩، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ١٧٦ - ١٨٦ .

مِنْ سُكْنَاهُمْ فِي الْمِصْرِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ تَقْلِيل الْجَمَاعَةِ أُمِرُوا بِالسُّكْنَى فِي نَاحِيَةٍ – خَارِجَ الْمِصْرِ – لَيْسَ فِيهَا جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا ظَهَرَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي ذَلِكَ[1422].

وَأَمَّا حَقُّ التَّنَقُّل فَيَتَمَتَّعُ أَهْل الذِّمَّةِ بِهِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ أَيْنَمَا يَشَاءُونَ لِلتِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا،إِلاَّ أَنَّ فِي دُخُولِهِمْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَأَرْضَ الْحِجَازِ تَفْصِيلٌ سَبَقَ بَيَانُهُ فِي مُصْطَلَحِ (أَرْضُ الْعَرَبِ).

ثَالِثًا – عَدَمُ التَّعَرُّضِ لَهُمْ فِي عَقِيدَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ:

إِنَّ مِنْ مُقْتَضَى عَقْدِ الذِّمَّةِ أَلاَّ يَتَعَرَّضَ الْمُسْلِمُونَ لأَهْل الذِّمَّةِ فِي عَقِيدَتِهِمْ وَأَدَاءِ عِبَادَتِهِمْ دُونَ إِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ،فَعَقْدُ الذِّمَّةِ إِقْرَارُ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِشَرْطِ بَذْل الْجِزْيَةِ وَالْتِزَامِ أَحْكَامِ الْمِلَّةِ،وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ احْتِمَال دُخُول الذِّمِّيِّ فِي الإِسْلاَمِ عَنْ طَرِيقِ مُخَالَطَتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ وَوُقُوفِهِ عَلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ،فَهَذَا يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ لاَ عَنْ طَرِيقِ الإِكْرَاهِ،وَقَدْ قَال اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]،وَفِي كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ لأَهْل نَجْرَانَ:" وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَأَنْ لَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ،وَلَا يغيّروا أسقف من أسقفيته وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ،وَلَا وَاقِهًا مِنْ وُقَيْهَاهُ.." [1423]

وعَنْ أَبِي الْفَتْحِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَالَحَ أَهْلَ نَجْرَانَ،وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا:«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِأَهْلِ نَجْرَانَ إِذَا كَانَ حُكْمُهُ عَلَيْهِمْ،أَنَّ فِي كُلِّ سَوْدَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ وَصَفْرَاءَ وَتَمْرَةٍ وَرَقِيقٍ،وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ وَتَرَكَ ذَلِكَ لَهُمْ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ،فِي كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ،وَفِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ،مَعَ كُلِّ حُلَّةٍ أُوقِيَّةٌ،مَا زَادَتْ عَلَى الْخَرَاجِ أَوْ نَقَصَتْ عَلَى الْأَوَاقِي فَبِحِسَابٍ،وَمَا قَضَوْا مِنْ دُرُوعٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ رِكَابٍ أَوْ عَرَضٍ أُخِذَ مِنْهُمْ بِحِسَابٍ،وَعَلَى نَجْرَانَ مَثْوَاةُ رُسُلِي وَمُتْعَتُهُمْ بِهَا عِشْرِينَ فَدُونَهُ،وَلَا يُحْبَسُ رَسُولٌ فَوْقَ شَهْرٍ،وَعَلَيْهِمْ عَارِيَةٌ ثَلَاثِينَ دِرْعًا،وَثَلَاثِينَ فَرَسًا،وَثَلَاثِينَ

[1422] – ابن عابدين ٣ / ٢٧٥، ٢٧٦، والأحكام السلطانية للماوردي ١٤٥، ١٦٨، ولأبي يعلى ص ١٤٣، والمغني ٨ / ٥٢٤، ٥٣٠، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٧، وكشاف القناع ٣ / ١٣٦ .

[1423] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٥/ ٣٨٩) حسن

بَعيرًا،إذَا كَانَ كَيْدٌ بالْيَمَنِ وَمَعْذرَةٌ.وَمَا هَلَكَ ممَّا أَعَارُوا رَسُولي منْ دُرُوعٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ رِكَابٍ فَهُوَ ضَمَانٌ عَلَى رَسُولي حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إلَيْهِمْ،وَلنَجْرَانَ وَحَسَبهَا جوَارُ اللَّه وَذمَّةُ مُحَمَّد النَّبيِّ عَلَى أَنْفُسهمْ وَملَّتهمْ وَأَرْضهمْ وَأَمْوَالهمْ وَغَائبهمْ وَشَاهدهمْ وَعَشيرَتهمْ وَتَبَعهمْ،وَأَلَّا يُغَيَّرُوا ممَّا كَانُوا عَلَيْه،وَلَا يُغَيَّرَ حَقٌّ منْ حُقُوقهمْ وَلَا ملَّتهمْ،وَلَا يُغَيَّرَ أَسْقُفٌ منْ أَسْقُفيَّته،وَلَا رَاهبٌ منْ رَهْبَانيَّته،وَلَا وَاقهٌ منْ وَقْهيَّته وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْديهمْ منْ قَليلٍ أَوْ كَثيرٍ،وَلَيْسَ عَلَيْهمْ رُبِّيَّةٌ وَلَا دَمُ جَاهليَّة،وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ،وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ،وَمَنْ سَأَلَ منْهُمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ النَّصَفُ غَيْرُ ظَالمينَ وَلَا مَظْلُومينَ،وَمَنْ أَكَلَ ربًا منْ ذي قَبْلُ فَذمَّتي منْهُ بَريئَةٌ،وَلَا يُؤْخَذُ رَجُلٌ منْهُمْ بظُلْمِ آخَرَ،وَعَلَى مَا في هَذه الصَّحيفَة جوَارُ اللَّه وَذمَّةُ مُحَمَّد النَّبيِّ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَأْتيَ اللَّهُ بأَمْره مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فيمَا عَلَيْهمْ غَيْرَ مُنْقَلبينَ بظُلْمٍ»[١٤٢٤]

وَهَذَا الأَصْل مُتَّفَقٌ عَلَيْه بَيْنَ الْفُقَهَاء،لَكنْ هُنَاكَ تَفْصيلٌ وَخلاَفٌ في بَعْضِ الْفُرُوعِ نَذْكُرُهُ فيمَا يَلي:

أ – مَعَابدُ أَهْل الذِّمَّة:

قَسَّمَ الْفُقَهَاءُ أَمْصَارَ الْمُسْلمينَ عَلَى ثَلاَثَة أَقْسَامٍ[١٤٢٥]:

الأَوَّل:مَا اخْتَطَّهُ الْمُسْلمُونَ وَأَنْشَئُوهُ كَالْكُوفَة وَالْبَصْرَة وَبَغْدَادَ وَوَاسطَ،فَلاَ يَجُوزُ فيه إحْدَاثُ كَنيسَة وَلاَ بيعَة وَلاَ مُجْتَمَعٍ لصَلاَتهمْ وَلاَ صَوْمَعَة بإجْمَاعِ أَهْل الْعلْمِ،وَلاَ يُمَكَّنُونَ فيه منْ شُرْب الْخَمْرِ وَاتِّخَاذ الْخَنَازيرِ وَضَرْب النَّاقُوسِ ؛عن كثير بن مرة الحضرمي قال سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله (ﷺ) يقول لا تبنى بيعة في الإسلام وَلاَ يُجَدَّدُ مَا خَربَ منْهَا "[١٤٢٦]

[١٤٢٤] – تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٥٨٥)والأموال للقاسم بن سلام (ص:٢٤٤)(٥٠٣) حسن لغيره

[١٤٢٥] – الخراج لأبي يوسف ص ٧٢، والبدائع ٧ / ١١٣، والدسوقي ٢ / ٢٠٤، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، ١٣٣ .

[١٤٢٦] – تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠/ ٥٣) حسن

وَلأَنَّ هَذَا الْبَلَدَ مِلْكٌ لِلْمُسْلمينَ فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَبْنُوا فِيهِ مَجَامِعَ لِلْكُفْرِ،وَلَوْ عَاقَدَهُمُ الإِْمَامُ عَلَى التَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ فَالْعَقْدُ بَاطِلٌ[١٤٢٧] .

الثَّاني:مَا فَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ عَنْوَةً،فَلاَ يَجُوزُ فِيهِ إِحْدَاثُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِالاِتِّفَاقِ ؛لأَنَّهُ صَارَ مِلْكًا لِلْمُسْلمينَ،وَمَا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ هَل يَجِبُ هَدْمُهُ ؟[١٤٢٨]قَال الْمَالِكِيَّةُ:وَهُوَ وَجْهٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:لاَ يَجِبُ هَدْمُهُ ؛لأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَحُوا كَثِيرًا مِنَ الْبِلاَدِ عَنْوَةً فَلَمْ يَهْدِمُوا شَيْئًا مِنَ الْكَنَائِسِ.

وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا وُجُودُ الْكَنَائِسِ وَالْبِيَعِ فِي الْبِلاَدِ الَّتِي فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ عَنْوَةً،وَقَدْ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عُمَّالِهِ:أَلاَّ يَهْدِمُوا بِيعَةً وَلاَ كَنِيسَةً وَلاَ بَيْتَ نَارٍ.

وَفِي الأَْصَحِّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ،وَهُوَ وَجْهٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:يَجِبُ هَدْمُهُ،فَلاَ يَقَرُّونَ عَلَى كَنِيسَةٍ كَانَتْ فِيهِ ؛لأَنَّهَا بِلاَدٌ مَمْلُوكَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ،فَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَكُونَ فِيهَا بِيعَةٌ،كَالْبِلاَدِ الَّتِي اخْتَطَّهَا الْمُسْلِمُونَ.

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهَا لاَ تُهْدَمُ،وَلَكِنْ تَبْقَى بِأَيْدِيهِمْ مَسَاكِنَ،وَيُمْنَعُونَ مِنَ اتِّخَاذِهَا لِلْعِبَادَةِ[١٤٢٩] .

الثَّالِثُ:مَا فَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ صُلْحًا،فَإِنْ صَالَحَهُمُ الإِْمَامُ عَلَى أَنَّ الأَْرْضَ لَهُمْ وَالْخَرَاجَ لَنَا،فَلَهُمْ إِحْدَاثُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِيهَا مِنَ الْكَنَائِسِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ الأَْصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ ؛لأَنَّ الْمِلْكَ وَالدَّارَ لَهُمْ،فَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا.وَفِي مُقَابِل الأَْصَحِّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:الْمَنْعُ ؛لأَنَّ الْبَلَدَ تَحْتَ حُكْمِ الإِْسْلاَمِ.

وَإِنْ صَالَحَهُمْ عَلَى أَنَّ الدَّارَ لَنَا،وَيُؤَدُّونَ الْجِزْيَةَ،فَالْحُكْمُ فِي الْكَنَائِسِ عَلَى مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الصُّلْحُ،وَالأَْوْلَى أَلاَّ يُصَالِحَهُمْ إِلاَّ عَلَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ صُلْحُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَدَمِ إِحْدَاثِ شَيْءٍ مِنْهَا.

[١٤٢٧] - فتح القدير ٥ / ٣٠٠، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٣، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٢٦ .

[١٤٢٨] - المهذب ٢ / ٢٥٦، والدسوقي ٢ / ٢٠٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٨، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٢٧ .

[١٤٢٩] - فتح القدير ٥ / ٣٠٠، وابن عابدين ٣ / ٢٦٣ ط بولاق، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٤، وأسنى المطالب ٤ / ٢٢٠، وقليوبي ٤ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وَإِنْ وَقَعَ الصُّلْحُ مُطْلَقًا،لاَ يَجُوزُ الإِحْدَاثُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ:(الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ)،وَيَجُوزُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ.

وَلاَ يَتَعَرَّضُ لِلْقَدِيمَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ كَلاَمِ الْمَالِكِيَّةِ،وَالأَْصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ الْمَنْعُ مِنْ إِبْقَائِهَا كَنَائِسَ[١٤٣٠] .

ب – إِجْرَاءُ عِبَادَاتِهِمْ:

الأَْصْل فِي أَهْل الذِّمَّةِ تَرْكُهُمْ وَمَا يَدِينُونَ،فَيُقَرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ وَعَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْتَبِرُونَهَا مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ،كَضَرْبِ النَّاقُوسِ خَفِيفًا فِي دَاخِل مَعَابِدِهِمْ،وَقِرَاءَةِ التَّوْرَاةِ وَالإِْنْجِيل فِيمَا بَيْنَهُمْ،وَلاَ يُمْنَعُونَ مِنَ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُونَ بِجَوَازِهَا،كَشُرْبِ الْخَمْرِ،وَاتِّخَاذِ الْخَنَازِيرِ وَبَيْعِهَا،أَوِ الأَْكْل وَالشُّرْبِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ،وَغَيْرِ ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ،أَوْ إِذَا انْفَرَدُوا بِقَرْيَةٍ.وَيُشْتَرَطُ فِي جَمِيعِ هَذَا أَلاَّ يُظْهِرُوهَا وَلاَ يَجْهَرُوا بِهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،وَإِلاَّ مُنِعُوا وَعُزِّرُوا،وَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْمَذَاهِبِ،فَقَدْ جَاءَ فِي شُرُوطِ أَهْل الذِّمَّةِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غُنْمٍ:" وَأَنْ لَا نُظْهِرَ صُلُبَنَا وَكُتُبَنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ،وَأَنْ لَا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا،وَأَنْ لَا نَضْرِبَ بِنَاقُوسٍ فِي كَنَائِسِنَا بَيْنَ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ لَا نُخْرِجَ سَعَانِينًا وَلَا بَاعُوثًا،وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ أَمْوَاتِنَا،وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نُجَاوِزَهُمْ مَوْتَانَا،وَلَا نَتَّخِذَ مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ " إِلَخْ [١٤٣١]

هَذَا،وَقَدْ فَصَّل بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ بَيْنَ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْقُرَى،فَقَالُوا:لاَ يُمْنَعُونَ مِنْ إِظْهَارِ شَيْءٍ مِنْ بَيْعِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ وَالصَّلِيبِ وَضَرْبِ النَّاقُوسِ فِي قَرْيَةٍ،أَوْ مَوْضِعٍ لَيْسَ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَوْ كَانَ فِيهِ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْل الإِْسْلاَمِ،وَإِنَّمَا يُكْرَهُ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ،وَهِيَ الَّتِي تُقَامُ فِيهَا الْجُمَعُ وَالأَْعْيَادُ وَالْحُدُودُ ؛لأَِنَّ الْمَنْعَ مِنْ إِظْهَارِ

[١٤٣٠] – فتح القدير ٥ / ٣٠٠، والدسوقي ٢ / ٢٠٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٨، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٤، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٢٦، ٥٢٧ .

[١٤٣١] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٤٠) حسن، البناية على الهداية ٤ / ٨٣٧، وابن عابدين ٣ / ٢٧٢، والدسوقي ٢ / ٢٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٧، وكشاف القناع ٣ / ١٣٣ .

هَذه الأَشْيَاءِ لكَوْنه إظْهَارَ شَعَائِرِ الْكُفْرِ فِي مَكَانِ إظْهَارِ شَعَائِرِ الإسْلاَمِ،فَيَخْتَصُّ الْمَنْعُ بالْمَكَانِ الْمُعَدِّ لإظْهَارِ الشَّعَائِرِ،وَهُوَ الْمصْرُ الْجَامعُ [١٤٣٢] .

وَفَصَّلَ الشَّافعيَّةُ بَيْنَ الْقُرَى الْعَامَّة وَالْقُرَى الَّتي يَنْفَرِدُ بهَا أَهْلُ الذِّمَّة،فَلاَ يُمْنَعُونَ فِي الأَخيرَة منْ إظْهَارِ عبَادَاتِهِمْ[١٤٣٣] .

رَابعًا – اخْتيَارُ الْعَمَل:

يَتَمَتَّعُ الذِّمِّيُّ باخْتيَارِ الْعَمَلِ الَّذي يَرَاهُ مُنَاسبًا للتَّكَسُّبِ،فَيَشْتَغلُ بالتِّجَارَة وَالصِّنَاعَة كَمَا يَشَاءُ،فَقَدْ صَرَّحَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الذِّمِّيَّ فِي الْمُعَامَلاَت كَالْمُسْلم،هَذَا هُوَ الأَصْلُ،وَهُنَاكَ اسْتثْنَاءَاتٌ فِي هَذَا الْمَجَال سَتَأْتي فِي بَحْث مَا يُمْنَعُ منْهُ الذِّمِّيُّونَ.

أَمَّا الأَشْغَالُ وَالْوَظَائفُ الْعَامَّةُ،فَمَا يُشْتَرَطُ فِيه الإسْلاَمُ كَالْخلاَفَة،وَالإمَارَة عَلَى الْجهَاد،وَالْوزَارَة وَأَمْثَالهَا،فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُعْهَدَ بذَلكَ إلَى ذمِّيٍّ،وَمَا لاَ يُشْتَرَطُ فيه الإسْلاَمُ كَتَعْليمِ الصِّغَارِ الْكتَابَةَ،وَتَنْفيذ مَا يَأْمُرُ به الإمَامُ أَو الأَميرُ،يَجُوزُ أَنْ يُمَارسَهُ الذِّمِّيُّونَ[١٤٣٤] .

الاسْتعَانَةُ بغَيْرِ الْمُسْلمينَ فِي غَيْرِ الْقتَال:

تَجُوزُ الاسْتعَانَةُ فِي الْجُمْلَة بغَيْرِ الْمُسْلمِ،سَوَاءٌ أَكَانَ منْ أَهْلِ الْكتَابِ أَمْ منْ غَيْرِهِمْ فِي غَيْرِ الْقُرُبَات،كَتَعْليمِ الْخَطِّ وَالْحسَابِ وَالشِّعْرِ الْمُبَاحِ،وَبنَاءِ الْقَنَاطرِ وَالْمَسَاكنِ وَالْمَسَاجد وَغَيْرِهَا فيمَا لاَ يُمْنَعُ منْ مُزَاوَلَته شَرْعًا.وَلاَ تَجُوزُ الاسْتعَانَةُ به فِي الْقُرُبَات كَالأَذَان وَالْحَجِّ وَتَعْليمِ الْقُرْآن،وَفي الأُمُورِ الَّتي يُمْنَعُ منْ مُزَاوَلَتهَا شَرْعًا،كَاتِّخَاذه فِي ولاَيَة عَلَى الْمُسْلمينَ،أَوْ عَلَى أَوْلاَدهمْ.

وَقَدْ تُبَاحُ الاسْتعَانَةُ بأَهْلِ الْكتَاب،دُونَ غَيْرِهمْ منَ الْمُشْرِكينَ وَالْمَجُوس وَمَنْ عَلَى شَاكلَتهمْ فِي بَعْضِ الأُمُورِ،مثْلِ الصَّيْد وَالذَّبْحِ،أَمَّا الْمُشْرِكُ وَالْمَجُوسيُّ فَلاَ يَتَوَلَّى

[١٤٣٢] – بدائع الصنائع للكاساني ٧ / ١١٣ .

[١٤٣٣] – المهذب ٢ / ٢٥٦ .

[١٤٣٤] – ابن عابدين ٣ / ٢٧٦، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٥٤، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢١ – ٢٥، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٣ – ١٥ .وَتَفْصيل هَذه الْوَظَائف فِي مُصْطَلَحَاتهَا .وَانْظُرْ كَذَلكَ مُصْطَلَحَ :(اسْتعَانَةٍ) .

الاصْطِيَادَ وَالذَّبْحَ لِمُسْلِمٍ،وَتَفْصِيل ذَلِكَ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي مُصْطَلَحِ (إِجَارَةٌ) (وَصَيْدٌ) (وَذَبَائِحُ) (وَأَطْعِمَةٌ) (وَوَكَالَةٌ)[١٤٣٥].

الْمُعَامَلاَتُ الْمَالِيَّةُ لأَهْل الذِّمَّة:

الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ أَنَّ أَهْل الذِّمَّةِ فِي الْمُعَامَلاَتِ كَالْبُيُوعِ وَالإِْجَارَةِ وَسَائِرِ التَّصَرُّفَاتِ الْمَالِيَّةِ كَالْمُسْلِمِينَ (إِلاَّ مَا اسْتُثْنِيَ مِنَ الْمُعَامَلَةِ بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ وَنَحْوِهِمَا كَمَا سَيَأْتِي).وَذَلِكَ لأَنَّ الذِّمِّيَّ مُلْتَزِمٌ أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْمُعَامَلاَتِ الْمَالِيَّةِ،فَيَصِحُّ مِنْهُمُ الْبَيْعُ وَالإِْجَارَةُ وَالْمُضَارَبَةُ وَالْمُزَارَعَةُ وَنَحْوُهَا مِنَ الْعُقُودِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الَّتِي تَصِحُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ تَصِحُّ مِنْهُمْ عُقُودُ الرِّبَا وَالْعُقُودُ الْفَاسِدَةُ وَالْمَحْظُورَةُ الَّتِي لاَ تَصِحُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،كَمَا صَرَّحَ بِهِ فُقَهَاءُ الْمَذَاهِبِ.

قَال الْجَصَّاصُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ:إِنَّ الذِّمِّيِّينَ فِي الْمُعَامَلاَتِ وَالتِّجَارَاتِ كَالْبُيُوعِ وَسَائِرِ التَّصَرُّفَاتِ كَالْمُسْلِمِينَ[١٤٣٦]،وَمِثْلُهُ مَا قَالَهُ الإِْمَامُ السَّرَخْسِيُّ فِي الْمَبْسُوطِ،وَصَرَّحَ بِهِ الْكَاسَانِيُّ فِي الْبَدَائِعِ حَيْثُ قَال:كُل مَا جَازَ مِنْ بُيُوعِ الْمُسْلِمِينَ جَازَ مِنْ بُيُوعِ أَهْل الذِّمَّةِ،وَمَا يَبْطُل أَوْ يَفْسُدُ مِنْ بُيُوعِ الْمُسْلِمِينَ يَبْطُل وَيَفْسُدُ مِنْ بُيُوعِهِمْ،إِلاَّ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ[١٤٣٧].

بَل إِنَّ الشَّافِعِيَّةَ صَرَّحُوا بِبُطْلاَنِ بَيْعِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ بَيْنَهُمْ أَيْضًا قَبْل الْقَبْضِ.وَكَلاَمُ الْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ أَيْضًا يَدُل عَلَى صِحَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي الْجُمْلَةِ ؛لأَنَّ أَهْل الذِّمَّةِ مِنْ أَهْل دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَمُلْتَزِمُونَ أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ فِي الْمُعَامَلاَتِ[١٤٣٨].

[١٤٣٥] – فتح القدير ٤ / ٣٢٧، وكشاف القناع ٣ / ٤٨، وابن عابدين ٣ / ٢٣٥ .

(٤) المغني ١ / ٨٣، ٥ / ٥٠٦، ٥٠٩، ٦ / ٥٩١ ط الرياض، وابن عابدين ٢ / ٣٨، ٤ / ٤٠٠، ٥ / ١٨٩، وقليوبي وعميرة ٢ / ١٥٦، ٣٣٧، و ٣ / ٧٤، ١٧٨ .

[١٤٣٦] – تفسير الأحكام للجصاص ٢ / ٤٣٦، وانظر ابن عابدين ٣ / ٢٧٦ .

[١٤٣٧] – المبسوط للسرخسي ١٠ / ٨٤، والبدائع للكاساني ٤ / ١٧٦ .

[١٤٣٨] – المغني ٨ / ٥٠٥، ٥ / ٥١٥، وكشاف القناع ٣ / ١١٧، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٥، ١٨١ .

قَال الإِمَامُ الشَّافعِيُّ فِي الأُمِّ:تَبْطُل بَيْنَهُمُ الْبُيُوعُ الَّتِي تَبْطُل بَيْنَ الْمُسْلمِينَ كُلِّهَا،فَإِذَا مَضَتْ وَاسْتُهْلكَتْ لَمْ نُبْطلْهَا وَقَال:فَإِنْ جَاءَ رَجُلاَن منْهُمْ قَدْ تَبَايَعَا خَمْرًا وَلَمْ يَتَقَابَضَاهَا أَبْطَلْنَا الْبَيْعَ،وَإِنْ تَقَابَضَاهَا لَمْ نَرُدَّهُ ؛لأَنَّهُ قَدْ مَضَى[1439].

إِلاَّ أَنَّ هُنَاكَ مَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ نُجْمِلُهُ فِيمَا يَلِي:

أ – الْمُعَامَلَةُ بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ تَجُوزُ الْمُعَامَلَةُ بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ بَيْنَ الْمُسْلمِينَ مُطْلَقًا ؛لأَنَّهُمَا لاَ يُعْتَبَرَان مَالاً مُتَقَوِّمًا عنْدَ الْمُسْلمِينَ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ:سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ عَامَ الفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ:«إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ،وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ»،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ،فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ،وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ،وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ:«لاَ،هُوَ حَرَامٌ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ:«قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ،ثُمَّ بَاعُوهُ،فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»[1440]،لَكِنَّهُمْ أَقَرُّوا الْمُعَامَلَةَ بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ بَيْنَ أَهْل الذِّمَّةِ،بِنَحْوِ شُرْبٍ أَوْ بَيْعٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ مِثْلِهَا،بِشَرْطِ عَدَمِ الإِظْهَارِ ؛لأَنَّ مُقْتَضَى عَقْدِ الذِّمَّةِ:أَنْ يُقَرَّ الذِّمِّيُّ عَلَى الْكُفْرِ مُقَابِل الْجِزْيَةِ،وَيُتْرَكَ هُوَ وَشَأْنُهُ فِيمَا يَعْتَقِدُهُ مِنَ الْحِل وَالْحُرْمَةِ،وَالْمُعَامَلَةُ بِالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ مِمَّا يَعْتَقِدُ جَوَازَهَا.وَهَذَا مَحَل اتِّفَاقٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي الْجُمْلَةِ[1441].

وَيَسْتَدِل الْحَنَفِيَّةُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ:إِنَّ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ مَالٌ مُتَقَوِّمٌ فِي حَقِّهِمْ،كَالْخَل وَالشَّاةِ لِلْمُسْلِمِينَ،فَيَجُوزُ بَيْعُهُ،وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عُشَّارِهِ

[1439] – الأم للشافعي ٤ / ٢١١ .

[1440] – صحيح البخاري (٣/ ٨٤)(٢٢٣٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٠٧)(٧١ – (١٥٨١)

[ش (يطلى) يدهن.(يستصبح بها الناس) يجعلونها في مصابيحهم يستضيئون بها.(شحومها) شحوم الميتة أو شحوم البقر والغنم كما أخبر تعالى بقوله {ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما}./ الأنعام ١٤٦ /.(جملوه) أذابوه واستخرجوا دهنه]

[1441] – البدائع للكاساني ٥ / ١٤٣، وجواهر الإكليل ١ / ٤٧٠، وحاشية الجمل ٣ / ٤٨١، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٥، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٣، والمغني لابن قدامة ٥ / ٢٢٣ .

بالشَّام:أَنْ وَلُّوهُمْ بَيْعَهَا،وَخُذُوا الْعُشْرَ مِنْ أَثْمَانِهَا،وَلَوْ لَمْ يَجُزْ بَيْعُ الْخَمْرِ مِنْهُمْ لِمَا أَمَرَهُمْ بِتَوْلِيَتِهِمُ الْبَيْعَ[1442].

ب – ضَمَانُ الإِتْلاَفِ:

إِذَا أَتْلَفَ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ لِمُسْلِمٍ فَلاَ ضَمَانَ اتِّفَاقًا ؛لِعَدَمِ تَقَوُّمِهِمَا فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ.وَكَذَلِكَ إِتْلاَفُهُمَا لأَهْلِ الذِّمَّةِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ ؛لأَنَّ مَا لاَ يَكُونُ مَضْمُونًا فِي حَقِّ الْمُسْلِمِ لاَ يَكُونُ مَضْمُونًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ[1443].

لَكِنَّ الْحَنَفِيَّةَ صَرَّحُوا بِضَمَانِ مُتْلِفِهِمَا لأَهْلِ الذِّمَّةِ ؛لأَنَّهُمَا مَالٌ مُتَقَوِّمٌ فِي حَقِّهِمْ،وَبِهَذَا قَالَ الْمَالِكِيَّةُ،إِذَا لَمْ يُظْهِرِ الذِّمِّيُّ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ.[1444]

ج – اسْتِئْجَارُ الذِّمِّيِّ مُسْلِمًا لِلْخِدْمَةِ:

تَجُوزُ مُعَامَلَةُ الإِيجَارِ وَالاِسْتِئْجَارِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْجُمْلَةِ،لَكِنَّهُ إِذَا اسْتَأْجَرَ الذِّمِّيُّ مُسْلِمًا لإِجْرَاءِ عَمَلٍ،فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ الَّذِي يُؤَاجِرُ الْمُسْلِمَ لِلْقِيَامِ بِهِ مِمَّا يَجُوزُ لِنَفْسِهِ كَالْخِيَاطَةِ وَالْبِنَاءِ وَالْحَرْثِ فَلاَ بَأْسَ بِهِ،أَمَّا إِذَا كَانَ لاَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْمَلَهُ كَعَصْرِ الْخُمُورِ وَرَعْيِ الْخَنَازِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلاَ يَجُوزُ.

وَقَال بَعْضُ الْفُقَهَاءِ:لاَ يَجُوزُ اسْتِئْجَارُ الْمُسْلِمِ لِخِدْمَةِ الذِّمِّيِّ الشَّخْصِيَّةِ ؛لِمَا فِيهِ مِنْ إِذْلاَل الْمُسْلِمِ لِخِدْمَةِ الْكَافِرِ[1445].وَتَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ:(إِجَارَة) [1446]

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الأَجِيرُ ذِمِّيًّا وَالْمُسْتَأْجِرُ مُسْلِمًا بِلاَ خِلاَفٍ.أَمَّا أَنْ يَكُونَ الأَجِيرُ مُسْلِمًا وَالْمُسْتَأْجِرُ ذِمِّيًّا فَقَدْ أَجَازَهُ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ،غَيْرَ أَنَّهُمْ وَضَعُوا مِعْيَارًا خَاصًّا هُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ الَّذِي يُؤَجِّرُ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ بِهِ مِمَّا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ لِنَفْسِهِ،كَالْخِيَاطَةِ وَالْبِنَاءِ وَالْحَرْثِ.أَمَّا إِذَا كَانَ لاَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْمَلَهُ لِنَفْسِهِ،كَعَصْرِ الْخَمْرِ،وَرَعْيِ الْخَنَازِيرِ،وَنَحْوِ

[1442] – البدائع ٥ / ١٤٣ .

[1443] – مغني المحتاج ٢ / ٢٨٥، والمغني لابن قدامة ٥ / ٢٢٣ .

[1444] – البدائع ٥ / ١٦، ١١٣، والزرقاني على خليل ٣ / ١٤٦ .وَتَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ :(ضَمَانٌ) .

[1445] – البدائع ٤ / ١٨٩، والشرح الصغير ٤ / ٣٥، وجواهر الإكليل ٢ / ١٨٨، والقليوبي ٣ / ٦٧، والمغني ٦ / ١٣٨ .

[1446] – ر :(إجارة) في الموسوعة الفقهية (١ / ٢٨٨ ف ١٠٤) .

ذَلكَ،فَإِنَّهُ لاَ يَجُوزُ.فَإِنْ فَعَل فَإِنَّ الإِْجَارَةَ تُرَدُّ قَبْل الْعَمَل.وَإِنْ عَمل فَإِنَّ الأُْجْرَةَ تُؤْخَذُ مِنَ الْكَافِرِ وَيَتَصَدَّقُ بهَا.وَلاَ يَسْتَحِلُّهَا لنَفْسه إلاَّ أَنْ يُعْذَرَ لأَجْل الْجَهْل.

وَالْمعْيَارُ عنْدَ الْحَنَابلَة أَنْ يَكُونَ الْعَمَل غَيْرَ الْخدْمَة الشَّخْصيَّة.أَمَّا إنْ كَانَت الإِْجَارَةُ عَلَى أَنْ يَقُومَ بخدْمَته منْ نَحْوِ تَقْديمِ الطَّعَامِ لَهُ،وَالْوُقُوف بَيْنَ يَدَيْه،فَقَال الْبَعْضُ:لاَ يَجُوزُ ؛لأَنَّهُ عَقْدٌ يَتَضَمَّنُ حَبْسَ الْمُسْلمِ عنْدَ الْكَافر،وَإِذْلاَلَهُ في خدْمَته.وَهُوَ فيمَا يَبْدُو الْمَقْصُودُ مِـــنَ الْقَوْل بالْجَوَازِ عنْدَ الْحَنَفيَّة لأَنَّهُ عَقْدُ مُعَاوَضَة - كَالْبَيْع - مَعَ الْكَرَاهَة الَّتي عَلَّلُوهَا بِـــأَنَّ الاسْتخْدَامَ اسْتذْلاَلٌ،وَلَيْسَ للْمُسْلمِ أَنْ يُذل نَفْسَهُ،خُصُوصًا بخدْمَة الْكَافر.

وَقَال بَعْضُ الْحَنَابلَة:يَجُوزُ ؛لأَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ إجَارَةُ نَفْسه في غَيْرِ الْخدْمَة،فَجَازَ فيهَا.وَهُـــوَ أَحَدُ قَوْلَي الشَّافعيِّ.وَفي حَاشيَة الْقَلْيُوبيِّ وَالشِّرْوَانيِّ يَصحُّ مَعَ الْكَرَاهَة أَنْ يَسْتَأْجرَ الذِّمِّيُّ مُسْلمًا،وَلَوْ إجَارَةَ عَيْنٍ وَيُؤْمَرُ وُجُوبًا بإجَارَته لمُسْلمٍ.وَللْحَاكمِ مَنْعُهُ منْهَـــا.وَلاَ يَجُـــوزُ لمُسْلمٍ خدْمَةُ كَافرٍ وَلَوْ غَيْرَ إجَارَة.وَفي الْمُهَذَّب أَنَّ منَ الشَّافعيَّة مَنْ قَال:لَـــو اسْـــتَأْجَرَ الْكَافرُ مُسْلمًا فَفيه قَوْلاَن،وَمنْهُمْ مَنْ قَال:يَصحُّ قَوْلاً وَاحدًا.[١٤٤٧]

د - وَكَالَةُ الذِّمِّيِّ في نكَاحِ الْمُسْلمَة:

لاَ يَصحُّ أَنْ يُوَكِّل مُسْلمٌ كَافرًا في عَقْد النِّكَاحِ لَهُ منْ مُسْلمَة عنْدَ الشَّـــافعيَّة وَالْحَنَابلَـــة ؛لأَنَّ الذِّمِّيَّ لاَ يَمْلكُ عَقْدَ هَذَا النِّكَاحِ لنَفْسه فَلاَ يَجُوزُ وَكَالَتُهُ.

وَقَال الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ:تَصحُّ هَذه الْوَكَالَةُ ؛لأَنَّ الشَّرْطَ لصحَّة الْوَكَالَة:أَنْ يَكُونَ الْمُوَكِّل ممَّنْ يَمْلكُ فعْل مَا وُكِّل به،وَأَنْ يَكُونَ الْوَكيل عَاقلاً،مُسْلمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُسْلمٍ[١٤٤٨].

هـــ - عَدَمُ تَمْكين الذِّمِّيِّ منْ شرَاء الْمُصْحَف وَكُتُب الْحَديث:

لاَ يَجُوزُ تَمْكينُ الذِّمِّيِّ منْ شرَاءِ الْمُصْحَف أَوْ دَفْتَرٍ فيه أَحَاديثُ عنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَـــاءِ (الْمَالكيَّةِ وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة) لأَنَّ ذَلكَ قَدْ يُؤَدِّي إلَى ابْتذَاله[١٤٤٩].

[١٤٤٧] - الشرح الصغير ٤ / ٣٥، وشرح الخرشي ٧ / ١٩، ٢٠، والبدائع ٤ / ١٨٩، وحاشية القليوبي ٣ / ٦٧، والمهذب ١ / ٣٩٥، والمغني ٦ / ١٣٨، ١٣٩، والتحفة بحاشية الشرواني ٦ / ١٢٢،الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١/ ٢٨٨)

[١٤٤٨] - البدائع ٦ / ٢٠، ٢٢، والزرقاني على خليل ٣ / ١٢٨، والمغني لابن قدامة ٥ / ٨٨ .

[١٤٤٩] - جواهر الإكليل ٢ / ٣، والأم للشافعي ٤ / ٢١٢، والمغني ١ / ٦٢٤ .

وَلَمْ نَعْثُرْ فِي كُتُبِ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى مَا يَمْنَعُ ذَلِكَ،إلاَّ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ وَأَبَا يُوسُفَ يَمْنَعَانِ الذِّمِّيَّ مِنْ مَسِّ الْمُصْحَفِ،وَجَوَّزَهُ مُحَمَّدٌ إذَا اغْتَسَل لِذَلِكَ.[١٤٥٠]

مَنْعُ الْكَافِرِ مِنْ تَمَلُّك الْمُصْحَفِ وَالتَّصَرُّف فِيهِ:

لاَ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِيَ الْكَافِرُ مُصْحَفًا،لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الإْهَانَة فَإِنِ اشْتَرَاهُ فَالشِّرَاءُ فَاسِدٌ،وَاحْتَجَّ الْفُقَهَاءُ لِذَلِكَ بِحَدِيث عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ "[١٤٥١].

وَالشَّافِعِيَّةُ يَرَوْنَ حُرْمَةَ بَيْعَ الْمُصْحَفِ لِلْكَافِرِ،لَكِنْ إنْ بَاعَهُ لَهُ فَفِي صِحَّة الْبَيْعِ عِنْدَهُمْ وَجْهَانِ:أَظْهَرُهُمَا:لاَ يَصِحُّ الْبَيْعُ،وَالثَّانِي:يَصِحُّ وَيُؤْمَرُ فِي الْحَال بِإِزَالَة مِلْكِه عَنْهُ [١٤٥٢].

قَال الْقَلْيُوبِيُّ:وَلَوْ وَكَّل الْكَافِرُ مُسْلِمًا بِشِرَاءِ مُصْحَفٍ لَمْ يَصِحَّ لأَنَّ الْمِلْكَ لَهُ يَقَعُ،وَلَوْ وَكَّل الْمُسْلِمُ كَافِرًا بِالشِّرَاءِ صَحَّ لأَنَّهُ يَقَعُ لِلْمُسْلِمِ،وَكَذَا لَوْ قَارَضَ مُسْلِمٌ كَافِرًا فَاشْتَرَى الْكَافِرُ مُصْحَفًا لِلْقِرَاضِ صَحَّ،لأَنَّهُ لِلْقِرَاضِ،وَلاَ مِلْكَ لِلْمُضَارِبِ فِيهِ.[١٤٥٣]

وَلاَ تَصِحُّ هِبَةُ الْكَافِرِ مُصْحَفًا وَلاَ الْوَصِيَّةُ لَهُ بِهِ.[١٤٥٤]

وَلاَ يَصِحُّ وَقْفُ الْمُصْحَفِ عَلَى كَافِرٍ[١٤٥٥].

وَيَحْرُمُ أَنْ يُعْطِيَ كَافِرًا مُصْحَفًا عَارِيَّةً لِيَقْرَأَ فِيهِ وَيَرُدَّهُ،وَلاَ تَصِحُّ الإْعَارَةُ،وَقَال الرَّمْلِيُّ:تَصِحُّ الإْعَارَةُ فِيهِ مَعَ الْحُرْمَة.[١٤٥٦]

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَسُئِلَ مَالِكٌ:أَيُسَافَرُ الرَّجُلُ بِالْمُصْحَفِ؟ فَقَالَ:أَمَّا فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ فَلَا،وَأَمَّا فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ فَنَعَمْ.وَقَالَ أَحْمَدُ:لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْزُوَ الرَّجُلُ مَعَهُ مُصْحَفٌ.قَالَ أَبُو

[١٤٥٠] - ابن عابدين ١ / ١١٩ .

[١٤٥١] - صحيح البخاري (٤/ ٥٦)(٢٩٩٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٠)٩٢ - (١٨٦٩)

[ش(بالقرآن) أي المكتوب في المصحف لا المحفوظ في الصدور.وهذا إذا خيف عليه أن يناله العدو لقلة الجيش المسلم ونحو ذلك وإلا فلا مانع منه]

[١٤٥٢] - التبيان في آداب حملة القرآن ص ١١٣ .

[١٤٥٣] - القليوبي على شرح المنهاج ٢ / ١٥٦، ٣ / ٥٧ .

[١٤٥٤] - المغني ٦ / ١٠٤ .

[١٤٥٥] - شرح المنهاج وحاشية القليوبي ٣ / ٩٩ .

[١٤٥٦] - شرح المنهاج وحاشية القليوبي ٣ / ١٩ .

بَكْرٍ:وَخَالَفَ النُّعْمَانُ الْخَبَرَ الثَّابِتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ،وَمَا جَاءَ فِي ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فَقَالَ:لَا بَأْسَ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ[1457]

وفي مشكل الآثار:"بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ نَهْيِهِ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:" نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ "

قَالَ:فَكَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ نَهْيُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ،فقَدْ تَحَقَّقَ عِنْدَنَا أَنَّ الْخَوْفَ الَّذِي فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْقُرْآنِ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ حَتَّى نَهَى عَنِ السَّفَرِ بِهِ إِلَى دَارِهِمْ مِنْ أَجْلِهِ،مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا مِنْ سِوَاهُ مِنْ رُوَاةِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي السَّفَرِ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ،فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى إِبَاحَةِ ذَلِكَ،مِنْهُمْ:أَبُو حَنِيفَةَ،وَأَبُو يُوسُفَ،وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ.كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ قَالَ:حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ،عَنْ يَعْقُوبَ،عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَلَمْ يَحْكِ خِلَافًا بَيْنَهُمْ،وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى كَرَاهَةِ ذَلِكَ،وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ،وَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بِأَخِرَةٍ فِي سِيَرِهِ الْكَبِيرِ،إِلَى أَنَّهُ إِنْ كَانَ مَأْمُونًا عَلَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ فَلَا بَأْسَ بِالسَّفَرِ بِهِ إِلَى أَرْضِهِمْ،وَإِنْ كَانَ مَخُوفًا عَلَيْهِ مِنْهُمْ فَلَا يَنْبَغِي السَّفَرُ بِهِ إِلَى أَرْضِهِمْ،وَلَمْ يَحْكِ هُنَاكَ خِلَافًا فِي ذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَاحْتُمِلَ أَنْ يَكُونَ مَا فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى الَّتِي رَوَيْنَاهَا مِنْ إِبَاحَةِ السَّفَرِ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ عِنْدَ الْأَمَانِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ،وَهَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْبَابِ،وَاللهَ تَعَالَى نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ "[1458]

قلت:لقد صار المصحف في كل مكان،ويطبع في كل الدول،وترجمت معانيه للغات الحية،فلا يخاف عليه من التحريف أو التبديل،ومنع أهل الذمة من الاطلاع على القرآن وكتب الحديث وغيرها لا دليل عليه،والصواب الجواز،فقد يدخل كثير منهم في الإسلام

[1457] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٨٨)

[1458] - شرح مشكل الآثار (٥/ ١٦٢)(١٩٠٤ -١٩١١)

بسبب ذلك،وإذا ظهرت أية إهانة لهما نعاقبهم على ذلك.لا أن نمنعهم من هـذا الخـير العميم،قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [سبأ:٢٨]

مَسُّ الْكَافِرِ الْمُصْحَفَ وَعَمَلُهُ فِي نَسْخِ الْمَصَاحِفِ وَتَصْنِيعِهَا:

يُمْنَعُ الْكَافِرُ مِنْ مَسِّ الْمُصْحَفِ،كَمَا يُمْنَعُ مِنْهُ الْمُسْـلِمُ الْجُنُبُ،بَـل الْكَـافِرُ أَوْلَـى بِالْمَنْعِ،وَيُمْنَعُ مِنْهُ مُطْلَقًا،أَيْ سَوَاءٌ اغْتَسَل أَوْ لَمْ يَغْتَسِل،وَفِي الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّةِ:أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَال:إِنِ اغْتَسَل جَازَ أَنْ يَمَسَّهُ،وَحُكِيَ فِي الْبَحْرِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِـي يُوسُـفَ الْمَنْـعَ مُطْلَقًا[١٤٥٩].

وَيُمْنَعُ الْكَافِرُ مِنَ الْعَمَلِ فِي تَصْنِيعِ الْمَصَاحِفِ،وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَال الْقَلْيُوبِيُّ:يُمْنَعُ الْكَافِرُ مِنْ تَجْلِيدِ الْمُصْحَفِ وَتَذْهِيبِهِ،لَكِنْ قَال الْبُهُوتِيُّ:يَجُوزُ أَنْ يَنْسَخَ الْكَافِرُ الْمَصَاحِفَ دُونَ مَسٍّ أَوْ حَمْلٍ[١٤٦٠].

و – شَهَادَةُ أَهْل الذِّمَّةِ:

لاَ تُقْبَل شَهَادَةُ أَهْل الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اتِّفَاقًا،إِلاَّ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ إِذَا لَمْ يُوجَـدْ غَيْرُهُمْ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ.وَيُعَلِّل الْفُقَهَاءُ عَدَمَ قَبُول الشَّهَادَةِ مِنْهُمْ بِأَنَّ الشَّهَادَةَ فِيهَـا مَعْنَـى الْوِلاَيَةِ،وَلاَ وِلاَيَةَ لِلْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ.

كَذَلِكَ لاَ تُقْبَل شَهَادَةُ أَهْل الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ جُمْهُـورِ الْفُقَهَـاءِ:الْمَالِكِيَّـةِ وَالشَّـافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،بِـدَلِيل قَوْلِـهِ تَعَـالَى: {وَأَشْـهِدُوا ذَوَيْ عَـدْلٍ مِـنْكُمْ } [الطلاق:٢]،وَالْكَافِرُ لَيْسَ بِذِي عَدْلٍ.وَأَجَازَهَا الْحَنَفِيَّةُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ مِلَلُهُمْ،مَـا دَامُـوا عُدُولاً فِي دِينِهِمْ ؛عَنِ الشَّعْبِيِّ،أَنَّ رَجُلًا،مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بِدَقُوقَا هَـذِهِ،وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْهَدُ عَلَى وَصِيَّتِهِ،فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ،فَقَـدِمَا الْكُوفَةَ فَأَتَيَا الْأَشْعَرِيَّ فَأَخْبَرَاهُ،وَقَدِمَا بِتَرِكَتِهِ وَوَصِيَّتِهِ،فَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ:هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ

[١٤٥٩] – الفتاوى الهندية ٥ / ٣٢٣، وابن عابدين ١ / ١١٩، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٧٤ .

[١٤٦٠] – شرح منتهى الإرادات ١ / ٧٤، والقليوبي على شرح المنهاج ٣ / ١٩، ومغني المحتاج ١ / ٣٨ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٨/ ١٩)

الَّذي كَانَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَحْلَفَهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ بِاللهِ مَا خَانَا وَلَا كَذَبَا وَلَا بَدَّلَا وَلَا كَتَمَا،وَلَا غَيَّرَا،وَإِنَّهَا لَوَصِيَّةُ الرَّجُلِ وَتَرِكَتُهُ،فَأَمْضَى شَهَادَتَهُمَا ".[١٤٦١]

وعَنْ جَابِرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:" أَجَازَ شَهَادَةَ الْيَهُودِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ".وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبْدَانَ:أَجَازَ شَهَادَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ"[١٤٦٢]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:" كَانَ شُرَيْحٌ يُجِيزُ شَهَادَةَ كُلِّ مِلَّةٍ عَلَى مِلَّتِهَا،وَلَا يُجِيزُ شَهَادَةَ الْيَهُودِيِّ عَلَى النَّصْرَانِيِّ،وَلَا النَّصْرَانِيِّ عَلَى الْيَهُودِيِّ،إِلَّا الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ كَانَ يُجِيزُ شَهَادَتَهُمْ عَلَى الْمِلَلِ كُلِّهَا "[١٤٦٣]

وعَنْ شُرَيْحٍ،فِي قَوْلِهِ:{أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ} [المائدة:١٠٦] قَالَ:" إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ فَلَمْ يَجِدْ مُسْلِمًا فَأَشْهَدَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ شَاهِدَيْنِ،فَشَهَادَتُهُمَا جَائِزَةٌ،فَإِنْ جَاءَ مُسْلِمَانِ فَشَهِدَا بِخِلَافِ ذَلِكَ أُخِذَ بِشَهَادَةِ الْمُسْلِمَيْنِ،وَرُدَّتْ شَهَادَتُهُمَا "[١٤٦٤]

،وَلأَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،فَتُقْبَل شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ[١٤٦٥] .

هَذَا،وَهُنَاكَ اسْتِثْنَاءَاتٌ أُخْرَى فِي مَسَائِل الْوَصِيَّةِ وَإِثْبَاتِ الشُّفْعَةِ وَالتَّمَلُّكِ بِإِحْيَاءِ الْمَوَاتِ وَنَحْوِهَا،تُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحَاتِهَا وَفِي مَظَانِّهَا مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ.

أَنْكِحَةُ أَهْل الذِّمَّةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا:

لاَ يَخْتَلِفُ أَحْكَامُ نِكَاحِ أَهْل الذِّمَّةِ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ،إِلاَّ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَزَوَّجَ كِتَابِيَّةً.

وَلاَ يَجُوزُ زَوَاجُ الْمُسْلِمَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ،وَلَوْ كَانَ ذِمِّيًّا أَوْ كِتَابِيًّا.وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ

[١٤٦١] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٨)(٢٠٦٢٦) حسن

[١٤٦٢] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٩)(٢٠٦٢٧) حسن

[١٤٦٣] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٩)(٢٠٦٢٨) حسن

[١٤٦٤] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٩)(٢٠٦٢٩) صحيح

[١٤٦٥] - البدائع ٦ / ٢٨٠، والفتاوى الهندية ٣ / ٣٩٦، والخرشي على خليل ٧ / ١٧٦، والمهذب ٢ / ٣٢٥، والمغني لابن قدامة ٩ / ١٨٢ - ١٨٤

أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [البقرة:٢٢١] وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة:١٠] وَلاَ يَجُوزُ زَوَاجُ مُسْلِمٍ مِنْ ذِمِّيَّةٍ غَيْرِ كِتَابِيَّةٍ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة:٢٢١] وَيَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَزَوَّجَ ذِمِّيَّةً،إِذَا كَانَتْ كِتَابِيَّةً كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة:٥] وَتَفْصِيل ذَلِكَ فِي النِّكَاحِ وَغَيْرِهِ[١٤٦٦].

وَاجِبَاتُ أَهْلِ الذِّمَّةِ الْمَالِيَّةِ:

عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَاجِبَاتٌ وَتَكَالِيفُ مَالِيَّةٌ يَلْتَزِمُونَ بِهَا قِبَلَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ مُقَابِلَ مَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ الْحِمَايَةِ وَالْحُقُوقِ،وَهَذِهِ الْوَاجِبَاتُ عِبَارَةٌ عَنِ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَالْعُشُورِ،وَفِيمَا يَلِي نُجْمِل أَحْكَامَهَا:

أ – الْجِزْيَةُ:

[١٤٦٦] – الجصاص ٢ / ٣٢٤، والبدائع ٢ / ٢٥٣، والخرشي ٣ / ٢٢٦، ٨ / ٦٩، والمهذب ٢ / ٤٥، ٤٦، ٢٥٥، والإقناع ٢ / ٧١، ٧٢، والمغني ٦ / ٥٨٩، ٧ / ٨٠٠، وابن عابدين ٢ / ٣٩٤، والزيلعي ٢ / ١٧٣

وَهِيَ الْمَال الَّذي تُعْقَدُ عَلَيْه الذِّمَّةُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ لأَمْنِه وَاسْتِقْرَارِه،تَحْتَ حُكْمِ الإِسْلاَمِ وَصَوْنِه[1467].وَتُؤْخَذُ كُل سَنَة مِنَ الْعَاقِل الْبَالِغِ الذَّكَرِ،وَلاَ تَجِبُ عَلَى الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْمَجَانِينِ اتِّفَاقًا،كَمَا يُشْتَرَطُ فِي وُجُوبِهَا:السَّلاَمَةُ مِنَ الزَّمَانَةِ وَالْعَمَى وَالْكِبَرِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ.وَفِي مِقْدَارِهَا وَوَقْتِ وُجُوبِهَا وَمَا تَسْقُطُ بِهِ الْجِزْيَةُ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَحْكَامِ تَفْصِيلٌ وَخِلاَفٌ يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ:(جِزْيَةٌ)[1468].

ب – الْخَرَاجُ:

وَهُوَ مَا وُضِعَ عَلَى رِقَابِ الأَرْضِ مِنْ حُقُوقٍ تُؤَدَّى عَنْهَا[1469].

وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَرَاجُ الْوَظِيفَةِ الَّذِي يُفْرَضُ عَلَى الأَرْضِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مِسَاحَتِهَا وَنَوْعِ زِرَاعَتِهَا،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَرَاجُ الْمُقَاسَمَةِ الَّذِي يُفْرَضُ عَلَى الْخَارِجِ مِنَ الأَرْضِ كَالْخُمُسِ أَوِ السُّدُسِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ[1470]،كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي مُصْطَلَحِ:(خَرَاجٌ)[1471].

ج – الْعُشُورُ:

وَهِيَ الَّتِي تُفْرَضُ عَلَى أَمْوَال أَهْل الذِّمَّة الْمُعَدَّة لِلتِّجَارَة،إِذَا انْتَقَلُوا بِهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ دَاخِل دَارِ الإِسْلاَمِ،وَمِقْدَارُهَا نِصْفُ الْعُشْرِ،وَتُؤْخَذُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي السَّنَة حِينَ الانْتِقَال عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،خِلاَفًا لِلْمَالِكِيَّة حَيْثُ أَوْجَبُوهَا فِي كُل مَرَّةٍ يَنْتَقِلُونَ بِهَا[1472].وَتَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ:(عُشْرٍ)[1473].

مَا يُمْنَعُ مِنْهُ أَهْل الذِّمَّة:

يَجِبُ عَلَى أَهْل الذِّمَّة الامْتِنَاعُ عَمَّا فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَانْتِقَاصُ دِينِ الإِسْلاَمِ،مِثْل ذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْ كِتَابِهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ دِينِهِ بِسُوءٍ لأَنَّ إِظْهَارَ هَذِهِ

[1467] – ابن عابدين ٣ / ٢٦٦، والنهاية لابن الأثير ١ / ١٦٢، ومنح الجليل ١ / ٧٥٦، وقليوبي ٤ / ٢٢٨، والمغني ٨ / ٤٩٥ .

[1468] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٥/ ١٤٩) فما بعدها

[1469] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٦، ولأبي يعلى ص ١٤٦ .

[1470] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٦، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٠، وقليوبي ٤ / ٢٢٤، والمغني ٢ / ٧١٦ .

[1471] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٩/ ٥١)

[1472] – الفتاوى الهندية ١ / ١٨٣، والمغني ٨ / ٥١٨، والأموال لأبي عبيد ص ٥٣٣ .

[1473] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٠/ ١٠١)

الأَفْعَال اسْتِخْفَافٌ بِالْمُسْلِمِينَ وَازْدِرَاءٌ بِعَقِيدَتِهِمْ.وَعَدَمُ الْتِزَامِ الذِّمِّيِّ بِمَا ذُكِرَ يُؤَدِّي إِلَى انْتِقَاضِ ذِمَّتِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،خِلاَفًا لِلْحَنَفِيَّةِ،كَمَا سَيَأْتِي فِي بَحْثِ مَا يُنْتَقَضُ بِهِ عَهْدُ الذِّمَّةِ.

كَذَلِكَ يُمْنَعُ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنْ إِظْهَارِ بَيْعِ الْخُمُورِ وَالْخَنَازِيرِ فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ إِدْخَالِهَا فِيهَا عَلَى وَجْهِ الشُّهْرَةِ وَالظُّهُورِ.وَيُمْنَعُونَ كَذَلِكَ مِنْ إِظْهَارِ فِسْقٍ يَعْتَقِدُونَ حُرْمَتَهُ كَالْفَوَاحِشِ وَنَحْوِهَا.

وَيُؤْخَذُ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالتَّمْيِيزِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي زِيِّهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ وَمَلاَبِسِهِمْ،وَلاَ يُصَدَّرُونَ فِي مَجَالِسَ،وَذَلِكَ إِظْهَارًا لِلصِّغَارِ عَلَيْهِمْ،وَصِيَانَةً لِضَعَفَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الاغْتِرَارِ بِهِمْ أَوْ مُوَالاَتِهِمْ[١٤٧٤].

وَتَفْصِيل مَا يُمَيِّزُ بِهِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الزِّيِّ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ تُنْظَرُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ،عِنْدَ الْكَلاَمِ عَنِ الْجِزْيَةِ وَعَقْدِ الذِّمَّةِ.

جَرَائِمُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَعُقُوبَاتُهُمْ

أَوَّلاً – مَا يَخْتَصُّ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْحُدُودِ:

إِذَا ارْتَكَبَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ جَرِيمَةً مِنْ جَرَائِمِ الْحُدُودِ،كَالزِّنَى أَوِ الْقَذْفِ أَوِ السَّرِقَةِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ،يُعَاقَبُ بِالْعِقَابِ الْمُحَدَّدِ لِهَذِهِ الْجَرَائِمِ شَأْنُهُمْ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْمُسْلِمِينَ،إِلاَّ شُرْبَ الْخَمْرِ حَيْثُ لاَ يُتَعَرَّضُ لَهُمْ فِيهِ ؛لِمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ حِلِّهَا،وَمُرَاعَاةً لِعَهْدِ الذِّمَّةِ،إِلاَّ إِنْ أَظْهَرُوا شُرْبَهَا،فَيُعَزَّرُونَ،وَهَذَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ فِي الْجُمْلَةِ،إِلاَّ أَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ الأَحْكَامِ يَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ الذِّمَّةِ نُجْمِلُهَا فِيمَا يَأْتِي:

أ – ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَأَبُو يُوسُفَ إِلَى الْمُسَاوَاةِ فِي تَطْبِيقِ عُقُوبَةِ الرَّجْمِ عَلَى الذِّمِّيِّ وَالْمُسْلِمِ،وَلَوْ كَانَ مُتَزَوِّجًا مِنْ ذِمِّيَّةٍ،لِعُمُومِ النُّصُوصِ فِي تَطْبِيقِ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ،فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ

[١٤٧٤] – البناية على الهداية ٤ / ٨٤٠، والبدائع للكاساني ٧ / ١١٣، ١١٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٨، ٢٦٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٦، ٢٥٧، وكشاف القناع ٣ / ١٢٦، ١٢٧، والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٠، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٤، ١٤٥ .

الرَّجْمِ».فَقَالُوا:نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ:كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا،فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ،فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ:ارْفَعْ يَدَكَ،فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ،فَقَالُوا:صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ،فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ،فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ عَلَى المَرْأَةِ يَقِيهَا الحِجَارَةَ "[١٤٧٥]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا،فَقَالَ:«كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَا مِنْكُمْ؟»،قَالُوا:كَذَا وَكَذَا،قَالَ زُهَيْرٌ كَلِمَةً:وَنَضْرِبُهُمَا،فَقَالَ:«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ»،فَقَالُوا:مَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا،فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَّامٍ:كَذَبْتُمْ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمُ،فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَوَضَعَ الَّذِي يَدْرُسُهَا كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا،وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ،فَنَزَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَّامٍ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ،فَقَالَ:مَا هَذَا؟،فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ،قَالُوا:هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ،فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ الْجَنَائِزُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَحْنِي عَلَيْهَا لِيَقِيَهَا الْحِجَارَةَ."[١٤٧٦]

وَصَرَّحَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ بِأَنَّ الزَّانِيَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا كَانَ مُتَزَوِّجًا لاَ يُرْجَمُ ؛لاشْتِرَاطِ الإِسْلاَمِ فِي تَطْبِيقِ الرَّجْمِ عِنْدَهُمَا،وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الْمُتَزَوِّجُ بِالْكِتَابِيَّةِ لاَ يُرْجَمُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ ؛لأَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الإِحْصَانِ:الإِسْلاَمُ وَالزَّوَاجُ مِنْ مُسْلِمَةٍ [١٤٧٧]مُسْتَدِلًّا بِمَا جاء عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ،يَتَزَوَّجَ،يَهُودِيَّةً فَقَالَ:لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَزَوَّجْهَا؛فَإِنَّهَا لَا تُحَصِّنُكَ»[١٤٧٨]

[١٤٧٥] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠٦)(٣٦٣٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٢٦)٢٦ - (١٦٩٩)

[ش (في شأن الرجم) في أمره وحكمه.(نفضحهم) نكشف مساويهم.(يجنأ) يكب عليها ليقيها وفي نسخة (يحنأ) يغطيها وفي نسخة (يحني) وكلها راجعة إلى الوقاية]

[١٤٧٦] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ١٤٣)(٦٣١١) صحيح

[١٤٧٧] - البدائع ٧ / ٣٨، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٢٠، والمنتقى شرح الموطأ ٣ / ٣٣١، والمهذب ٢ / ٢٦٨، والمغني لابن قدامة ١٠ / ١٢٩ .

[١٤٧٨] - المراسيل لأبي داود (ص:١٨١)(٢٠٦) ضعيف

وعَنْ حَمَّاد قَالَ:سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ نِكَاحِ الْيَهُودِيَّةِ،وَالنَّصْرَانِيَّةِ،فَقَالَ:" لَا بَأْسَ بِهِ قَالَ:قُلْتُ:فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ:{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ} [البقرة:٢٢١]،فَقَالَ:أَهْلُ الْأَوْثَانِ وَالْمَجُوسِ " قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«فَالْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مِنَ الرُّخْصَةِ فِي نِكَاحِ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّحْلِيلَ هُوَ النَّاسِخُ لِلتَّحْرِيمِ،وَمَعَ هَذَا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِاجْتِنَابِهِنَّ وَذَلِكَ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنْهُنَّ غَيْرَ مُحَرِّمٍ لَهُنَّ»[١٤٧٩]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:بَلَغَنَا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَارِظٍ،تَزَوَّجَ فِي وِلَايَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَوَلَدَتْ لَهُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،" تَنَزَّهْ عَنْهَا وَانْكِحِ امْرَأَةً مَسْلَمَةً قَالَ:فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مُسْلِمَةً "

وعَنْ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ:تَزَوَّجَ حُذَيْفَةُ يَهُودِيَّةً بِالْمَدَائِنِ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ:أَنْ خَلِّ سَبِيلَهَا،فَكَتَبَ إِلَيْهِ حُذَيْفَةُ:أَحَرَامٌ هِيَ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ:«لَا وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تُوَاقِعُوا الْمُومِسَاتِ مِنْهُنَّ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:يَعْنِي:الْعَوَاهِرَ،فَنَرَى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى مَا فِي الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [المائدة:٥]،فَيَقُولُ:إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا اشْتَرَطَ الْعَفَائِفَ مِنْهُنَّ وَهَذِهِ لَا يُؤْمَنُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ عَفِيفَةً"

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:" وَقَدْ كَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَتَأَوَّلُونَهُ فِي إِحْصَانِ الرَّجْمِ عَلَى الزَّانِي،وَهَذَا مِنْ أَوْحَشِ مَا يُتَأَوَّلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَصْحَابِهِ أَنْ يَظُنَّ بِهِمُ الزِّنَا،لَيْسَ هَذَا مِنْ مَذَاهِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا كَلَامِهِمْ،وَلَكِنَّهُ أَرَادَ عِنْدَنَا تَنْزِيهَهُ عَنْهَا لِلْآيَةِ الَّتِي فِيهَا شَرْطُ الْمُحْصَنَاتِ أَيْضًا،فَقَوْلُهُ:«إِنَّهَا لَا تُحْصِنُكَ» يَقُولُ:إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُشْرِكَةُ لَا تُؤْمَنُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ عَفِيفَةٍ لَمْ تَضَعْكَ مِنْ جِمَاعِهَا بِمَوْضِعِ الْحَصَانَةِ مِنْهَا،وَلَكِنَّهَا تَكُونُ قَدْ أَوْطَأَتْكَ مِنْ نَفْسِهَا غَيْرَ عَفَافٍ،وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَى حُذَيْفَةَ بِمَا كَتَبَ،وَكَذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ "

[١٤٧٩] - الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام - مخرجا (ص:٩٠)(١٥٤) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:«لَا يُحْصِنُ أَهْلُ الشِّرْكِ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يُوَجِّهُ هَذَا الْحَدِيثَ أَيْضًا عَلَى إِحْصَانِ الرَّجْمِ وَكَيْفَ يُفْتِي ابْنُ عُمَرَ هَذِهِ الْفُتْيَا،وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَجَمَ يَهُودِيًّا،وَيَهُودِيَّةً هَذَا لَا يَكُونُ،وَإِنَّمَا أَرَادَ عِنْدَنَا مَا أَعْلَمْتُكَ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَحَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَلَا تَرَى أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَكْرَهُ نِكَاحَهُنَّ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«فَهَذَا مَا فِي نِكَاحِ الْكِتَابِيَّاتِ مِنْ ذَوَاتِ الذِّمَّةِ،فَأَمَّا نِسَاءُ الْحَرْبِ فَلَا يَدْخُلْنَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ،وَإِنْ كُنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»

وعَنِ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ قَالَ:قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ:هَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ يَحْرُمُ،فَقَالَ:لَا.فَقَالَ الْحَكَمُ:وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ أَبِي عِيَاضٍ «أَنَّ» نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَحْرُمُ نِكَاحُهُنَّ فِي بِلَادهنَّ " قَالَ:فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ فَصَدَّقَ بِهِ وَأَعْجَبَهُ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«وَهَذَا هُوَ الْمَعْمُولُ بِهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ،لَا أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ فِي كَرَاهَتِهِ اخْتِلَافًا» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«قَدْ ذَكَرْنَا مَا فِي نِكَاحِ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَأَمَّا الْمَجُوسِيَّاتُ وَالْوَثَنِيَّاتُ فَنِكَاحُهُنَّ مُحَرَّمٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا لَمْ يَنْسَخْ تَحْرِيمَهُنَّ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ عَلِمْنَاهَا»[١٤٨٠]

ب – لاَ حَدَّ عَلَى مَنْ قَذَفَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،بَل يُعَزَّرُ،سَوَاءٌ كَانَ الْقَاذِفُ مُسْلِمًا أَمْ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ ؛لأَِنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الْقَذْفِ أَنْ يَكُونَ الْمَقْذُوفُ مُسْلِمًا،وَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ[١٤٨١].

ج – يُطَبَّقُ حَدُّ السَّرِقَةِ عَلَى السَّارِقِ الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ،سَوَاءٌ أَكَانَ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ مُسْلِمًا أَمْ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ اتِّفَاقًا،إِلاَّ إِذَا كَانَ الْمَسْرُوقُ خَمْرًا أَوْ خِنْزِيرًا،لِعَدَمِ تَقَوُّمِهِمَا[١٤٨٢].

[١٤٨٠] – الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام – مخرجا (ص:٩٠)(١٥٥)فما بعدها

[١٤٨١] – ابن عابدين ٣ / ١٦٨، والبدائع للكاساني ٧ / ٤٠، والحطاب ٦ / ٢٩٨، ٢٩٩، والمهذب ٢ / ٢٧٣، والمغني ٨ / ٢١٦ .

[١٤٨٢] – البدائع ٧ / ٦٧، والخرشي ٨ / ٩٢، والمهذب ٢ / ٢٨١، والمغني ٨ / ٢٦٨ .

د – إِذَا بَغَى جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْل الذِّمَّة مُنْفَرِدِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ عِنْدَ جُمْهُـــورِ الْفُقَهَاءِ،إِلاَّ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ عَنْ ظُلْمٍ رَكِبَهُمْ عِنْدَ الْمَالِكِيَّة،وَإِذَا بَغَوْا مَعَ الْبُغَاةِ الْمُسْـــلِمِينَ فَفِيه تَفْصِيلٌ وَخِلاَفٌ [١٤٨٣]يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ:(بَغْيٌ)[١٤٨٤] .

هَذَا،وَيُعَاقَبُ أَهْل الذِّمَّة بِعُقُوبَةِ قَطْعِ الطَّرِيقِ (الْحِرَابَة) إِذَا تَوَفَّرَتْ شُرُوطُهَا كَالْمُسْلِمِينَ بِلاَ خِلاَف[١٤٨٥] .

ثَانِيًا – مَا يَخْتَصُّ بِأَهْل الذِّمَّة فِي الْقِصَاص:

أ – إِذَا ارْتَكَبَ الذِّمِّيُّ الْقَتْل الْعَمْدَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ،إِذَا كَانَ الْقَتِيل مُسْلِمًا أَوْ مِـــنْ أَهْل الذِّمَّة بِلاَ خِلاَف،وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ الْقَتِيل مُسْتَأْمَنًا عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،خِلاَفًا لأَِبِي حَنِيفَةَ حَيْثُ قَال:إِنَّ عِصْمَةَ الْمُسْتَأْمَنِ مُؤَقَّتَةٌ،فَكَانَ فِي حَقْنِ دَمِه شُبْهَةٌ تُسْقِطُ الْقِصَاصَ.

أَمَّا إِذَا قَتَل مُسْلِمٌ ذِمِّيًّا أَوْ ذِمِّيَّةً عَمْدًا،فَقَدْ قَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:لاَ قِصَاصَ عَلَى الْمُسْلِمِ فعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:هَلْ عِنْدَكُمْ شَـــيْءٌ مِـــنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ:«لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ،وَبَرَأَ النَّسَمَةَ،مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًـــا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّـــحِيفَةِ»،قُلْـــتُ:وَمَـــا فِـــي الصَّـــحِيفَةِ؟ قَالَ:«العَقْلُ،وَفَكَاكُ الأَسِيرِ،وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[١٤٨٦]،وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّة يُقْـــتَصُّ مِـــنَ الْمُسْلِمِ لِلذِّمِّيِّ،وَهَذَا قَوْل الْمَالِكِيَّة أَيْضًا إِذَا قَتَلَهُ الْمُسْلِمُ غِيلَـــةً (خَدِيعَـــةً) أَوْ لأَِجْـــل الْمَال،وَتَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ (قِصَاصٌ)[١٤٨٧] .

وفي المرقاة:" (وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ):أَيْ:غَيْرِ ذِمِّيٍّ عِنْدَ مَنْ يَرَى قَتْلَ الْمُسْلِمِ بِالذِّمِّيِّ كَأَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ.قَالَ الْقَاضِي قَوْلُهُ:وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ عَامٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ

[١٤٨٣] – البدائع ٧ / ١١٣، ومغني المحتاج ٤ / ١٢٨، ٢٥٩، والخرشي ٣ / ١٤٩، والمغني ٨ / ١٢١، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٥

[١٤٨٤] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٨/ ١٣٠)

[١٤٨٥] – المبسوط ٩ / ٩٥، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٩، والمغني ٨ / ٢٩٨ .

[١٤٨٦] – صحيح البخاري (٤/ ٦٩)(٣٠٤٧)

[ش (فلق الحبة) شقها في الأرض حتى تنبت ثم تثمر.(برأ) خلق.(النسمة) النفس]

[١٤٨٧] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٩، والبدائع ٧ / ٢٣٦، ومغني المحتاج ٤ / ١٦، والمهذب ٢ / ١٨٥، ١٨٦، والخرشي ٨ / ٣ – ٦، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٥٥، والمغني ٧ / ٦٥٢، ٦٥٣ .

لَا يُقْتَلُ بِكَافِرٍ قِصَاصًا،سَوَاءٌ الْحَرْبِيُّ وَالذِّمِّيُّ،وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ،وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الثَّوْرِيُّ وَابْنُ شُبْرُمَةَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ،وَقِيلَ:يُقْتَلُ بِالذِّمِّيِّ،وَالْحَدِيثُ مَخْصُوصٌ بِغَيْرِهِ،وَهُوَ قَوْلُ النَّخَعِيِّ وَالشَّعْبِيِّ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ لِمَا رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ السَّلْمَانِيِّ «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:" أَنَا أَحَقُّ مَنْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ ".ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ».وَأُجِيبَ عَنْهُ:بِأَنَّهُ مُنْقَطِعٌ لَا احْتِجَاجَ بِهِ،ثُمَّ إِنَّهُ أَخْطَأَ إِذْ قِيلَ:إِنَّ الْقَاتِلَ كَانَ عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ،وَقَدْ عَاشَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَنَتَيْنِ وَمَتْرُوكٌ بِالْإِجْمَاعِ ؛ لِأَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ الْكَافِرَ كَانَ رَسُولًا،فَيَكُونُ مُسْتَأْمَنًا وَالْمُسْتَأْمَنُ لَا يُقْتَلُ بِهِ الْمُسْلِمُ وِفَاقًا،وَإِنْ صَحَّ فَهُوَ مَنْسُوخٌ،لِأَنَّهُ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْفَتْحِ،وَقَدْ «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عَلَى دَرَجِ الْبَيْتِ:" وَلَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ» ".[١٤٨٨]

ب – لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالذِّمِّيِّ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ فِي الْقَتْل الْخَطَأِ وَشِبْهِ الْعَمْدِ وَشِبْهِ الْخَطَأِ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِل،سَوَاءٌ أَكَانَ الْقَتِيل مُسْلِمًا أَمْ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ.

وَفِي مِقْدَارِ دِيَةِ الذِّمِّيِّ الْمَقْتُول،وَمَنْ يَشْتَرِكُ فِي تَحَمُّلِهَا مِنْ عَاقِلَةِ الذِّمِّيِّ الْقَاتِل تَفْصِيلٌ وَخِلاَفٌ [١٤٨٩].

وَلاَ تَجِبُ الْكَفَّارَةُ عَلَى الذِّمِّيِّ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ ؛لِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى الْقُرْبَةِ،وَالْكَافِرُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا،وَيَجِبُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ لأَنَّهَا حَقٌّ مَالِيٌّ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُسْلِمُ وَالذِّمِّيُّ،لاَ إِنْ كَانَتْ صِيَامًا[١٤٩٠].

ج – لاَ يُقْتَصُّ مِنَ الْمُسْلِمِ لِلذِّمِّيِّ فِي جَرَائِمِ الاعْتِدَاءِ فِيمَا دُونَ النَّفْسِ،مِنَ الْجُرْحِ وَقَطْعِ الأَعْضَاءِ،إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْل الذِّمَّةِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَيُقْتَصُّ مِنَ الذِّمِّيِّ

[١٤٨٨] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٢٦٦)

[١٤٨٩] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٩، والبدائع ٧ / ٢٥٤، والخرشي ٨ / ٣١، ٣٢، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٧١، والقليوبي ٤ / ١٥٥، والمغني ٧ / ٧٩٣ .يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ :(دِيَةٌ) (وَعَاقِلَةٌ)

[١٤٩٠] – البدائع ٧ / ٢٥٢، والخرشي ٨ / ٤٩، ومغني المحتاج ٤ / ١٠٧، والمغني لابن قدامة ٨ / ٩٤ .

لِلْمُسْلِمِ،وَقَال الْحَنَفِيَّةُ بِالْقِصَاصِ بَيْنَهُمْ مُطْلَقًا إِذَا تَوَفَّرَت الشُّرُوطُ،وَمَنَعَ الْمَالِكِيَّةُ الْقِصَاصَ فِيمَا دُونَ النَّفْسِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ أَهْل الذِّمَّة مُطْلَقًا،بِحُجَّة عَدَمِ الْمُمَاثَلَة.

وَلاَ خِلاَفَ فِي تَطْبِيقِ الْقِصَاصِ إِذَا كَانَت الْجُرُوحُ فِيمَا بَيْنَ أَهْل الذِّمَّةِ [1491] وَتَوَفَّرَتِ الشُّرُوطُ.

ثَالِثًا – التَّعْزِيرَاتُ:

الْعُقُوبَاتُ التَّعْزِيرِيَّةُ يُقَدِّرُهَا وَلِيُّ الأْمْرِ حَسَبَ ظُرُوفِ الْجَرِيمَةِ وَالْمُجْرِمِ،فَتُطَبَّقُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَهْل الذِّمَّة،وَيَكُونُ التَّعْزِيرُ مُنَاسِبًا مَعَ الْجَرِيمَةِ شِدَّةً وَضَعْفًا وَمَعَ حَالَةِ الْمُجْرِمِ [1492].

خُضُوعُ أَهْل الذِّمَّة لِوِلاَيَةِ الْقَضَاءِ الْعَامَّة

جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَة عَلَى عَدَمِ جَوَازِ تَقْلِيدِ الذِّمِّيِّ الْقَضَاءَ عَلَى الذِّمِّيِّينَ،وَإِنَّمَا يَخْضَعُونَ إِلَى جِهَةِ الْقَضَاءِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَخْضَعُ لَهَا الْمُسْلِمُونَ.وَقَالُوا:وَأَمَّا جَرَيَانُ الْعَادَةِ بِنَصْبِ حَاكِمٍ مِنْ أَهْل الذِّمَّة عَلَيْهِمْ،فَإِنَّمَا هِيَ رِئَاسَةٌ وَزَعَامَةٌ،لاَ تَقْلِيدُ حُكْمٍ وَقَضَاءٍ،فَلاَ يَلْزَمُهُمْ حُكْمُهُ بِإِلْزَامِه،بَل بِالْتِزَامِهِمْ.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِنْ حَكَمَ الذِّمِّيُّ بَيْنَ أَهْل الذِّمَّة جَازَ،فِي كُل مَا يُمْكِنُ التَّحْكِيمُ فِيه ؛لأَنَّهُ أَهْلٌ لِلشَّهَادَةِ بَيْنَ أَهْل الذِّمَّة،فَجَازَ تَحْكِيمُهُ بَيْنَهُمْ.إِلاَّ أَنَّهُمُ اتَّفَقُوا عَلَى:أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَحْكِيمُ أَهْل الذِّمَّة فِيمَا هُوَ حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّه تَعَالَى كَحَدِّ الزِّنَى،وَأَمَّا تَحْكِيمُهُمْ فِي الْقِصَاصِ فَفِيه خِلاَفٌ بَيْنَ الْحَنَفِيَّة [1493].

وَإِذَا رُفِعَت الدَّعْوَى إِلَى الْقَضَاءِ الْعَامِّ يَحْكُمُ الْقَاضِي الْمُسْلِمُ فِي خُصُومَاتِ أَهْل الذِّمَّةِ وُجُوبًا،إِذَا كَانَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ مُسْلِمًا بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ.أَمَّا إِذَا كَانَ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْل الذِّمَّة،فَيَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ الْحَنَفِيَّة وَالشَّافِعِيَّة،وَهُوَ رِوَايَةٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَة،بِدَلِيل قَوْله تَعَالَى:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ

[1491] – ابن عابدين ٥ / ٣٥٦، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٥٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥ .

[1492] – ابن عابدين ٣ / ١٧٧، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٩٦، وقليوبي ٤ / ٢٠٥، والمغني ٨ / ٣٢٤ – ٣٢٦ .

[1493] – الفتاوى الهندية ٣ / ٣٩٧، وابن عابدين ٤ / ٢٩٩، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٢١، ومغني المحتاج ٤ / ٣٧٧، والمغني لابن قدامة ٨ / ٣٩ .

بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة:٤٩] وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِلْحَنَابِلَةِ:الْقَاضِي مُخَيَّرٌ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ:الْحُكْمِ أَوِ الإِعْرَاضِ [١٤٩٤] بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [المائدة:٤٢].

أَمَّا الْمَالِكِيَّةُ فَقَدِ اشْتَرَطُوا التَّرَافُعَ مِنْ قِبَلِ الْخَصْمَيْنِ فِي جَمِيعِ الدَّعَاوَى،وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُخَيَّرُ الْقَاضِي فِي النَّظَرِ فِي الدَّعْوَى أَوْ عَدَمِ النَّظَرِ فِيهَا [١٤٩٥].

وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ إِذَا حَكَمَ الْقَاضِي الْمُسْلِمُ بَيْنَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لاَ يَحْكُمُ إِلاَّ بِالشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩].

مَا يُنْقَضُ بِهِ عَهْدُ الذِّمَّةِ

يَنْتَهِي عَهْدُ الذِّمَّةِ بِإِسْلاَمِ الذِّمِّيِّ ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ عُقِدَ وَسِيلَةً لِلإِسْلاَمِ،وَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ.

وَيُنْتَقَضُ عَهْدُ الذِّمَّةِ بِلُحُوقِ الذِّمِّيِّ دَارَ الْحَرْبِ،أَوْ بِغَلَبَتِهِمْ عَلَى مَوْضِعٍ يُحَارِبُونَنَا مِنْهُ ؛لأَنَّهُمْ صَارُوا حَرْبًا عَلَيْنَا،فَيَخْلُو عَقْدُ الذِّمَّةِ عَنِ الْفَائِدَةِ،وَهُوَ دَفْعُ شَرِّ الْحَرْبِ.وَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْمَذَاهِبِ [١٤٩٦].

وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ يُنْتَقَضُ أَيْضًا بِالاِمْتِنَاعِ عَنِ الْجِزْيَةِ ؛لِمُخَالَفَتِهِ مُقْتَضَى الْعَقْدِ [١٤٩٧].

[١٤٩٤] - البدائع ٢ / ٣١٢، والقليوبي ٣ / ٢٥٦، ومغني المحتاج ٣ / ١٩٥، والمغني لابن قدامة ٨ / ٢١٤، ٢١٥، ٥٣٥ .

[١٤٩٥] - جواهر الإكليل ١ / ٢٩٦، ٢ / ٢١٧ .

[١٤٩٦] - الهداية مع الفتح ٥ / ٣٠٣، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٨، ٢٥٩، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٣، ١٤٤ .

[١٤٩٧] - جواهر الإكليل ١ / ٢٦٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٨، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ١٤٥ .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لَو امْتَنَعَ الذِّمِّيُّ عَنْ إعْطَاءِ الْجزْيَة لاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُ ؛لأَنَّ الْغَايَةَ الَّتي يَنْتَهِي بهَا الْقتَال الْتزَامُ الْجزْيَة لاَ أَدَاؤُهَا،وَالالْتزَامُ بَاقٍ،وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُونَ الامْتنَاعُ لعُذْرِ الْعَجْزِ الْمَاليِّ،فَلاَ يُنْقَضُ الْعَهْدُ بالشَّكِّ[1498].

وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخْرَى اعْتَبَرَهَا بَعْضُ الْفُقَهَاء نَاقضَةً للْعَهْد مُطْلَقًا،وَبَعْضُهُمْ بشُرُوط:
فَقَدْ قَال الْمَالكيَّةُ:يُنْقَضُ عَهْدُ الذِّمَّة بالتَّمَرُّد عَلَى الأَحْكَام الشَّرْعيَّة،بإظْهَار عَدَم الْمُبَالاَة بهَا،وَبإكْرَاه حُرَّةٍ مُسْلمَةٍ عَلَى الزِّنَى بهَا إذَا زَنَى بهَا بالْفعْل،وَبغُرُورهَا وَتَزَوُّجهَا وَوَطْئهَا،وَبتَطَلُّعه عَلَى عَوْرَات الْمُسْلمينَ،وَبسَبِّ نَبيٍّ مُجْمَعٍ عَلَى نُبُوَّته عنْدَنَا بمَا لَمْ يُقَرَّ عَلَى كُفْره به[1499].فَإنْ سَبَّ بمَا أُقرَّ عَلَى كُفْره به لَمْ يُنْتَقَضْ عَهْدُهُ،كَمَا إذَا قَال:عيسَى إلَهٌ مَثَلاً،فَإنَّهُ لاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُ.

وَقَال الشَّافعيَّةُ:لَوْ زَنَى ذمِّيٌّ بمُسْلمَة،أَوْ أَصَابَهَا بنكَاحٍ،أَوْ دَل أَهْل الْحَرْب عَلَى عَوْرَة الْمُسْلمينَ،أَوْ فَتَنَ مُسْلمًا عَنْ دينه،أَوْ طَعَنَ في الإْسْلاَم أَو الْقُرْآن،أَوْ ذَكَرَ الرَّسُول ﷺ بسُوءٍ،فَالأَصَحُّ أَنَّهُ إنْ شَرَطَ انْتقَاضَ الْعَهْد بهَا انْتَقَضَ،وَإلاَّ فَلاَ يُنْتَقَضُ ؛لمُخَالَفَته الشَّرْط في الأَوَّل دُونَ الثَّاني.[1500]

وَقَال الْحَنَابلَةُ في الرِّوَايَة الْمَشْهُورَة،وَهُوَ وَجْهٌ عنْدَ الشَّافعيَّة:إنْ فَعَلُوا مَا ذُكرَ أَوْ شَيْئًا منْهُ نُقضَ الْعَهْدُ مُطْلَقًا،وَلَوْ لَمْ يُشْتَرَطْ عَلَيْهمْ ؛لأَنَّ ذَلكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَقْد[1501].

أَمَّا الْحَنَفيَّةُ فَقَدْ صَرَّحُوا بأَنَّ الذِّمِّيَّ لَوْ سَبَّ النَّبيَّ ﷺ لاَ يُنْقَضُ عَهْدُهُ إذَا لَمْ يُعْلن السَّبَّ ؛لأَنَّ هَذَا زيَادَةُ كُفْرٍ،وَالْعَقْدُ يَبْقَى مَعَ أَصْل الْكُفْر،فَكَذَا مَعَ الزِّيَادَة،وَإذَا أَعْلَنَ قُتل،وَلَو امْرَأَةً،وَلَوْ قَتَل مُسْلمًا أَوْ زَنَى بمُسْلمَةٍ لاَ يُنْقَضُ عَهْدُهُ،بَل تُطَبَّقُ عَلَيْه عُقُوبَةُ الْقَتْل وَالزِّنَى

[1498] – البدائع ٧ / ١١٣، وفتح القدير على الهداية ٥ / ٣٠٢، ٣٠٣ .

[1499] – جواهر الإكليل ١ / ٢٦٩ .

[1500] – مغني المحتاج ٤ / ٢٥٨، ٢٥٩ .

[1501] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤٣ – ١٤٥، والمغني لابن قدامة ٨ / ٥٢٥، وكشاف القناع ٣ / ١٤٣ .

؛لأَنَّ هَذه مَعَاصٍ ارْتَكَبُوهَا،وَهِيَ دُونَ الْكُفْرِ فِي الْقُبْحِ وَالْحُرْمَةِ،وَبَقِيَت الذِّمَّةُ مَعَ الْكُفْرِ،فَمَعَ الْمَعْصِيَة أَوْلَى[1502] .

حُكْمُ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ منْهُمْ:

إِذَا نَقَضَ الذِّمِّيُّ الْعَهْدَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُرْتَدِّ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِه،وَيُحْكَمُ بِمَوْته بِاللَّحَاقِ بِدَارِ الْحَرْبِ،لأَنَّهُ الْتَحَقَ بِالأَمْوَاتِ،وَتَبِينُ منْهُ زَوْجَتُهُ الذِّمِّيَّةُ الَّتِي خَلَّفَهَا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،وَتُقْسَمُ تَرِكَتُهُ،وَإِذَا تَابَ وَرَجَعَ تُقْبَل تَوْبَتُهُ وَتَعُودُ ذمَّتُهُ،إِلاَّ أَنَّهُ لَوْ غَلَبَ عَلَيْه الْمُسْلِمُونَ وَأُسِرَ يُسْتَرَقُّ،بِخِلاَفِ الْمُرْتَدِّ،وَهَذَا كُلُّهُ عنْدَ الْحَنَفيَّة[1503] .

وَفَصَّل الْمَالكِيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ فِي حُكْمِ نَاقِضِ الْعَهْد،حَسَبَ اخْتلاَف أَسْبَابِ النَّقْضِ،فَقَال الْمَالكِيَّةُ:قُتِل بِسَبِّ نَبِيٍّ بِمَا لَمْ يَكْفُرْ بِه وُجُوبًا،وَبِغَصْب مُسْلمَةٍ عَلَى الزِّنَى،أَوْ غُرُورِهَا بِإِسْلاَمه فَتَزَوَّجَتْهُ،وَهُوَ غَيْرُ مُسْلمٍ،وَأَبَى الإِسْلاَمَ بَعْدَ ذَلكَ،أَمَّا الْمُطَّلعُ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلمينَ فَيَرَى الإِمَامُ فيه رَأْيَهُ بِقَتْلٍ أَو اسْترْقَاق.وَمَن الْتَحَقَ بِدَارِ الْحَرْب ثُمَّ أَسَرَهُ الْمُسْلمُونَ جَازَ اسْترْقَاقُهُ،وَإِنْ خَرَجَ لِظُلْمٍ لَحقَهُ لاَ يُسْتَرَقُّ وَيُرَدُّ لجزْيَته[1504] .

وَقَال الشَّافعيَّةُ:مَن انْتَقَضَ عَهْدُهُ بِقتَال يُقْتَل،وَإِن انْتَقَضَ عَهْدُهُ بِغَيْره لَمْ يَجِبْ إِبْلاَغُهُ مَأْمَنَهُ فِي الأَظْهَر،بَل يَخْتَارُ الإِمَامُ فيه قَتْلاً أَوْ رِقًّا أَوْ مَنًّا أَوْ فدَاءً[1505] .

أَمَّا الْحَنَابِلَةُ،فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَسْبَابِ النَّقْضِ فِي الرِّوَايَة الْمَشْهُورَة،وَقَالُوا:خُيِّرَ الإِمَامُ فيه بَيْنَ أَرْبَعَة أَشْيَاءَ:الْقَتْل وَالاسْترْقَاق وَالْفدَاء وَالْمَنِّ،كَالأَسِيرِ الْحَرْبِيِّ ؛لأَنَّهُ كَافرٌ قَدَرْنَا عَلَيْه فِي دَارِنَا بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلاَ عَقْدٍ،فَأَشْبَهَ اللِّصَّ الْحَرْبِيَّ،وَيَحْرُمُ قَتْلُهُ بِسَبَبِ نَقْضِ الْعَهْد إِذَا أَسْلَمَ.[1506]

[1502] - البدائع ٧ / ١١٣، والهداية مع فتح القدير ٥ / ٣٠٢، ٣٠٣ .

[1503] - ابن عابدين ٣ / ٢٧٧، والبناية على الهداية ٥ / ٨٤٢ .

[1504] - جواهر الإكليل ١ / ٢٦٩، والشرح الكبير للدردير على هامش الدسوقي ٢ / ٢٠٥ .

[1505] - مغني المحتاج ٤ / ٢٥٨، ٢٥٩ .

[1506] - كشاف القناع ٣ / ١٤٤، والمغني ٨ / ٤٥٩، ٥٢٩ .

هَذَا،وَلاَ يَبْطُل أَمَانُ ذُرِّيَّتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ بِنَقْضِ عَهْدِهِمْ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَــاءِ (الْحَنَفِيَّــةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ) لأَنَّ النَّقْضَ إِنَّمَا وُجِدَ مِنَ الرِّجَال الْبَالِغِينَ دُونَ الذُّرِّيَّــةِ،فَيَجِبُ أَنْ يَخْتَصَّ حُكْمُهُ بِهِمْ.وَيُفْهَمُ مِنْ كَلاَمِ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ تُسْتَرَقُّ ذُرِّيَّتُهُمْ.[١٥٠٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٥٠٧] - ابن عابدين ٣ / ٢٧٧، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٩، وكشاف القناع ٣ / ١٤٤ .

المبحث الثاني

أحكام أَهْل الْكِتَابِ

التَّعْرِيفُ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ (أَهْل الْكِتَابِ) هُمُ:الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِفِرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ (١).

وَتَوَسَّعَ الْحَنَفِيَّةُ فَقَالُوا:إِنَّ أَهْل الْكِتَابِ هُمْ:كُل مَنْ يُؤْمِنُ بِنَبِيٍّ وَيُقِرُّ بِكِتَابٍ،وَيَشْمَل الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى،وَمَنْ آمَنَ بِزَبُورِ دَاوُدَ،وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَشِيثٍ.وَذَلِكَ لأَِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ دِينًا سَمَاوِيًّا مُنَزَّلاً بِكِتَابٍ.

وَاسْتَدَل الْجُمْهُورُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦)} [الأنعام:١٥٥،١٥٦] قَالُوا:وَلأَِنَّ تِلْكَ الصُّحُفَ كَانَتْ مَوَاعِظَ وَأَمْثَالاً لاَ أَحْكَامَ فِيهَا،فَلَمْ يَثْبُتْ لَهَا حُكْمُ الْكُتُبِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى أَحْكَامٍ.

وَالسَّامِرَةُ مِنَ الْيَهُودِ،وَإِنْ كَانُوا يُخَالِفُونَهُمْ فِي أَكْثَرِ الأَْحْكَامِ.

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الصَّابِئَةِ،فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ أَوِ النَّصَارَى.وَفِي قَوْلٍ لأَِحْمَدَ،وَهُوَ أَحَدُ وَجْهَيْنِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:أَنَّهُمْ جِنْسٌ مِنَ النَّصَارَى.

وَالْمَذْهَبُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ،وَهُوَ مَا صَحَّحَهُ ابْنُ قُدَامَةَ مِنَ الْحَنَابِلَةِ:أَنَّهُمْ إِنْ وَافَقُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي أُصُول دِينِهِمْ،مِنْ تَصْدِيقِ الرُّسُل وَالإِْيمَانِ بِالْكُتُبِ كَانُوا مِنْهُمْ،وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي أُصُول دِينِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْهُمْ،وَكَانَ حُكْمُهُمْ حُكْمَ عَبَدَةِ الأَْوْثَانِ[١٥٠٨] .

[١٥٠٨] – ابن عابدين ٣ / ٢٦٨، وفتح القدير ٣ / ٣٧٣ ط بولاق، وتفسير القرطبي ٢٠ / ١٤٠ ط دار الكتب، والمهذب ٢ / ٢٥٠ ط الحلبي، والمغني مع الشرح الكبير ٧ / ٥٠١ .المغني ٨ / ٤٩٦، ٤٩٧ ط الرياض .والقليوبي ٤ / ٢٢٩ .

أَمَّا الْمَجُوسُ،فَقَد اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَإِنْ كَانُوا يُعَامَلُونَ مُعَامَلَتَهُمْ فِي قَبُولِ الْجِزْيَةِ فَقَطْ.وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلاَّ أَبُو ثَوْرٍ،فَاعْتَبَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُلِ أَحْكَامِهِمْ.

وَاسْتَدَلَ الْجُمْهُورُ بِحَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ لِلْمُهَاجِرِينَ مَجْلِسٌ فِي الْمَسْجِدِ يَجْلِسُونَ فِيهِ،فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْلِسُ مَعَهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ عَمَّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآفَاقِ،فَجَلَسَ مَعَهُمْ يَوْمًا فَقَالَ:مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ؟ فَوَثَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَقَامَ قَائِمًا،فَقَالَ:نَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَالَ:«سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[١٥٠٩] فَإِنَّهُ يَدُل عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُهُمْ،وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَا تَوَقَّفَ عُمَرُ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ حَتَّى رُوِيَ لَهُ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ[١٥١٠] .

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الْكُفَّارُ

الْكُفَّارُ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ:قِسْمٌ أَهْل كِتَابٍ،وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُمْ،وَقِسْمٌ لَهُمْ شُبْهَةُ كِتَابٍ،وَهُمُ الْمَجُوسُ،وَقِسْمٌ لاَ كِتَابَ لَهُمْ وَلاَ شُبْهَةَ كِتَابٍ،وَهُمْ مَنْ عَدَا هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ.وَعَلَى ذَلِكَ فَأَهْل الْكِتَابِ مِنَ الْكُفَّارِ.فَالْكُفَّارُ أَعَمُّ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ ؛لأَنَّهُ يَشْمَل أَهْل الْكِتَابِ وَغَيْرَهُمْ[١٥١١] .

ب – أَهْل الذِّمَّةِ:

أَهْل الذِّمَّةِ هُمُ:الْمُعَاهَدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يُقِيمُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ.وَيُقِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ بِشَرْطِ بَذْل الْجِزْيَةِ وَالْتِزَامِ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ[١٥١٢] .

فَلاَ تَلاَزُمَ بَيْنَ أَهْل الذِّمَّةِ وَأَهْل الْكِتَابِ،فَقَدْ يَكُونُ ذِمِّيًّا غَيْرَ كِتَابِيٍّ،وَقَدْ يَكُونُ كِتَابِيًّا غَيْرَ ذِمِّيٍّ،وَهُمْ مَنْ كَانَ فِي غَيْرِ دَارِ الإِسْلاَمِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

التَّفَاوُتُ بَيْنَ أَهْل الْكِتَابِ:

[١٥٠٩] – تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٥٣) صحيح لغيره

[١٥١٠] – ابن عابدين ٤ / ٣٣٦، وأحكام أهل الذمة ١ / ٢، والمغني ٨ / ٤٩٨ ط الرياض .

[١٥١١] – المغني ٨ / ٤٩٦ .

[١٥١٢] – القاموس وكشاف القناع ٣ / ١١٦ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ (الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) إِذَا قُوبِلُوا بِالْمَجُوسِ.فَالْمَجُوسِيَّةُ شَرٌّ[1513]،وَأَمَّا الْيَهُودِيَّةُ إِذَا قُوبِلَتْ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ عَلَى الاتِّجَاهَاتِ التَّالِيَةِ:

الاتِّجَاهُ الأَوَّلُ:أَنَّهُ لاَ تَفَاوُتَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ.

وَهَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ أَقْوَالِ أَصْحَابِ التَّفَاسِيرِ وَالْفُقَهَاءِ،الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِمَّنْ رَتَّبُوا أَحْكَامًا فِقْهِيَّةً كَثِيرَةً عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى دُونَ أَيِّ تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُمَا،وَعَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ،مِثْلُ:جَوَازِ الْمُنَاكَحَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ،كَأَهْلِ الْمَذَاهِبِ فِيمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،وَجَوَازِ شَهَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ،وَجَوَازِ أَكْلِ ذَبِيحَتِهِمْ،وَحِلِّ نِكَاحِ نِسَائِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّةِ ؛لأَنَّهُمْ أَهْلُ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ نِحَلُهُمْ ؛وَلأَنَّهُ يَجْمَعُهُمُ اعْتِقَادُ الشِّرْكِ وَالإِنْكَارِ لِنُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ[1514].

الاتِّجَاهُ الثَّانِي:أَنَّ النَّصْرَانِيَّةَ شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ.

وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،مِنْهُمُ ابْنُ نُجَيْمٍ وَصَاحِبُ الدُّرَرِ وَابْنُ عَابِدِينَ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ،وَفَرَّعُوا عَلَى هَذَا الْفَرْقِ بِقَوْلِهِمْ:يَلْزَمُ عَلَى هَذَا كَوْنُ الْوَلَدِ الْمُتَوَلِّدِ مِنْ يَهُودِيَّةٍ وَنَصْرَانِيٍّ أَوْ عَكْسِهِ تَبَعًا لِلْيَهُودِيِّ لاَ النَّصْرَانِيِّ.

وَفَائِدَتُهُ خِفَّةُ الْعُقُوبَةِ فِي الآخِرَةِ،حَيْثُ إِنَّ فِي الآخِرَةِ يَكُونُ النَّصْرَانِيُّ أَشَدَّ عَذَابًا ؛لأَنَّ نِزَاعَ النَّصَارَى فِي الإِلَهِيَّاتِ،وَنِزَاعَ الْيَهُودِ فِي النُّبُوَّاتِ.

وَكَذَا فِي الدُّنْيَا ؛لِمَا ذَكَرَهُ الْوَلْوَالِجِيُّ مِنْ كِتَابِ الأُضْحِيَّةِ أَنَّهُ:يُكْرَهُ الأَكْلُ مِنْ طَعَامِ الْمَجُوسِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ ؛لأَنَّ الْمَجُوسِيَّ يَطْبُخُ الْمُنْخَنِقَةَ وَالْمَوْقُوذَةَ وَالْمُتَرَدِّيَةَ،وَالنَّصْرَانِيَّ لاَ ذَبِيحَةَ لَهُ،وَإِنَّمَا يَأْكُلُ ذَبِيحَةَ الْمُسْلِمِ أَوْ يَخْنُقُهَا،وَلاَ بَأْسَ بِطَعَامِ الْيَهُودِيِّ ؛لأَنَّهُ لاَ يَأْكُلُ

[1513] – المبسوط ٥ / ٤٨، وفتح القدير ٣ / ٢٨٧ .

[1514] – المبسوط ٤ / ٢١٠، و ٥ / ٣٢، ٣٨، ٤٤، والمغني ٨ / ٥٦٧، ٥٦٨، وروضة الطالبين ٧ / ١٣٥، ١٣٦، والحطاب ٣ / ٤٤٧، والمدونة الكبرى ٤ / ٣٠٦ .

إلاَّ مِنْ ذَبِيحَةِ الْيَهُودِيِّ أَوِ الْمُسْلِمِ،فَعُلِمَ أَنَّ النَّصْرَانِيَّ شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِيِّ فِي أَحْكَامِ الـدُّنْيَا أَيْضًا[1515].

وَالاتِّجَاهُ الثَّالِثُ:اليهود شر من النصارى

وهو مَا ذَكَرَهُ فِي الذَّخِيرَةِ،مَنْقُولاً عَنِ الْخُلاَصَةِ أَيْضًا،وَهُوَ قَوْلٌ لِبَعْضِ الْمُفَسِّـرِينَ:أَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ أَغْلَظُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى ؛لأَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَنُبُوَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ،وَكُفْرُ النَّصَارَى أَخَفُّ لأَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ ؛وَلأَنَّ الْيَهُودَ أَشَـدُّ جَمِيعِ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ،وَأَصْلَبُهُمْ فِي ذَلِكَ،وَأَمَّا النَّصَارَى فَهُمْ أَلْيَنُ عَرِيكَـةً مِـنَ الْيَهُودِ،وَأَقْرَبُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ[1516].

قلت:الثالث هو الصواب لقول الله تعالى:{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَـا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّـالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) } [المائدة]

يَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ أَكْثَر النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (الذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاتَّبَعُوهُ)،هُمُ اليَهُودُ وَالُمشْرِكُونَ.وَإِنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مَوَدَّةً لِلْمُسْلِمِينَ هُمُ النَّصَارَى،الذِينَ قَالُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ يُتَابِعُونَ المَسِيحَ عَلَى دِينِه،لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرِّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ،وَلأَنَّ بَيْنَهُمْ قِسِّيسِينَ يَتَوَلَّـوْنَ تَعْلِيمَهُمْ أَحْكَامَ الدِّينِ،وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِمَا فِي دِينِهِمْ مِنْ سُمُوٍّ وَآدَابٍ وَفَضَائِلَ،وَلأَنَّ بَيْـنَهُمْ رُهْبَاناً يَضْرِبُونَ لَهُمُ المَثَلَ فِي الزُّهْدِ وَالتَقَشُّـفِ وَالإِعْـرَاضِ عَـنِ الـدُّنْيا وَزُخْرُفِهَـا

[1515] – ابن عابدين ٢ / ٣٩٥، والبحر الرائق ٣ / ٢٢٥، ٢٢٦، وشرح الدرر ١ / ٢٣٥، والتفسير الكبير ١٢ / ٦٧ .

[1516] – المصادر السابقة، وفتح القدير للشوكاني ٢ / ٦٣، ٦٥ .

وَفِتْنَتِهَا،وَيُنَمُّونَ فِي نُفُوسِهِمُ الخَوْفَ مِنَ اللهِ،وَالانْقِطَاعَ لِلْعِبَادَةِ،وَإِنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ الإِذْعَانِ لِلْحَقِّ،حِينَمَا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُ حَقٌّ.

(كَانَ اليَهُودُ وَالمُشْرِكُونَ يَشْتَرِكُونَ فِي بَعْضِ الصِفَاتِ التي اقْتَضَتْ عَدَاوَتَهُمُ الشَّدِيدَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ:كَالكِبْرِ وَالعُتُوِّ وَالبَغْيِ وَالأَثَرَةِ وَالقَسْوَةِ،وَضَعْفِ العَاطِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ (مِنْ حَنَانٍ وَرَحْمَةٍ) وَالعَصَبِيَّةِ القَوْمِيَّةِ.وكَانَ مُشْرِكُو العَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ أَرَقَّ مِنَ اليَهُودِ قُلُوباً،وَأَعْظَمَ سَخَاءً وَإِيثَاراً،وَأَكْثَرَ حُرِّيَّةً فِي الفِكْرِ وَاسْتِقْلالاً فِي الرَّأْيِ).

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ القُرْآنِ،وَتُلِيَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ،تُفِيضُ عُيُونُهُمْ بِالدَّمْعِ (أَيْ يَبْكُونَ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمْعُ مِنْ عُيُونِهِمْ)،لأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ مَا بَيَّنَهُ القُرْآنُ هُوَ الحَقُّ،وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ عُتُوٌّ وَلاَ اسْتِكْبَارٌ وَلا تَعَصُّبٌ كَمَا يَمْنَعُ غَيرَهُمْ.وَحِينَ يَسْمَعُونَ الحَقَّ الذي جَاءَ بِهِ القُرْآنُ،وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ فِي كُتُبِهِمْ،يَتَضَرَّعُونَ إلى اللهِ بِأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ إِيمَانَهُمْ وَأَنْ يَكْتُبَهُمْ مَعْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ الذينَ جَعَلَهُمُ اللهُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،لأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ،وَمِمَّا يَتَنَاقَلُونَهُ عَنْ أَسْلاَفِهِمْ،أَنَّ النَّبِيَّ الأَخِيرَ الذي يَكْمُلُ بِهِ الدِّيْنُ،وَيَتِمُّ التَّشْرِيعُ،يَكُونُ مُتَّبِعُوهُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،وَيَكُونُونَ حُجَّةً عَلَى المُشْرِكِينَ وَالمُبْطِلِينَ.

وَيَقُولُ هَؤُلاَءِ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّصَارَى:وَمَا الذي يَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نُؤْمِنَ بِاللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَمَا الذي يَصُدُّنَا عَنِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ،بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ أَنَّهُ رُوحُ الحَقِّ الذي بَشَّرَ بِهِ المَسِيحُ وَإِنَّنَا لَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الذِينَ صَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ بِالعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ.

فَجَازَاهُمُ اللهُ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِهِ وَبِرُسُلِهِ،وَعَلَى تَصْدِيقِهِمْ بِالحَقِّ،وَاعْتِرَافِهِمْ بِهِ بِإِدْخَالِهِمْ فِي رَحْمَتِهِ،وَإِسْكَانِهِمْ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي فِي جَنَبَاتِهَا الأَنْهَارُ،وَسَيَكُونُونَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً وَذَلِكَ هُوَ الجَزَاءُ الذي أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.وَالذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ،وَبِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ،وَجَحَدُوا آيَاتِهِ وَخَالَفُوهَا،فَأُولَئِكَ سَيَكُونُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،وَسَيَبْقَونَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبداً.[1517]

[1517] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

لتجدنَّ -أيها الرسول- أشدَّ الناس عداوة للذين صدَّقوك وآمنوا بك واتبعوك،اليهــودَ؛ لعنادهم،وجحودهم،وغمطهم الحق،والذين أشــركوا مــع الله غيره،كعبــدة الأوثــان وغيرهم،ولتجدنَّ أقربهم مودة للمسلمين الذين قالوا:إنا نصارى،ذلك بأن منهم علمــاء بدينهم متزهدين وعبَّادًا في الصوامع متنسكين،وأنهم متواضعون لا يستكبرون عن قَبــول الحق،وهؤلاء هم الذين قبلوا رسالة محمد ﷺ،وآمنوا بها.ومما يدل على قــرب مــودتهم للمسلمين أن فريقًا منهم (وهم وفد الحبشة لما سمعوا القرآن) فاضت أعينهم من الــدمع فأيقنوا أنه حقٌّ منزل من عند الله تعالى،وصدَّقوا بالله واتبعوا رسوله،وتضرعوا إلى الله أن يكرمهم بشرف الشهادة مع أمَّة محمد عليه السلام على الأمم يوم القيامة.وقالوا:وأيُّ لوم علينا في إيماننا بالله،وتصديقنا بالحق الذي جاءنا به محمد ﷺ مــن عنــد الله،واتباعنــا له،ونرجو أن يدخلنا ربنا مع أهل طاعته في جنته يوم القيامة؟

فجزاهم الله بما قالوا من الاعتزاز بإيمانهم بالإســلام،وطلبهم أن يكونــوا مــع القــوم الصالحين،جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار،ماكثين فيهــا لا يخرجــون منها،ولا يُحوَّلون عنها،وذلك جزاء إحسانهم في القول والعمل.والذين جحدوا وحدانية الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ،وكذَّبوا بآياته المنزلة على رسله،أولئك هم أصــحاب النــار الملازمون لها.[١٥١٨]

رأي الشهيد سيد قطب رحمه الله:

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول - ﷺ- وأن تكون كذلك خطابا عاما خرج مخرج العموم،لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان.وهي صــيغة لهــا نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم..وهي في كلتا الحــالتين تفيــد معناها الظاهر الذي تؤديه..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشــوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى،ويجده كل من يتأمل! نعم إن العطف بــالواو في التعــبير

[١٥١٨] - التفسير الميسر (١/ ١٢١)

العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا..ولكن تقديم اليهود هنا،حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين – بما أنهم أصلا أهل كتاب – يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه – على الأقل – يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة،وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا!

ونقول:إن هذا «على الأقل».ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا..وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة،فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا!

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة.وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة.وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام – ﷺ- وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا،وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا "[١٥١٩]

لقد عقد الرسول – ﷺ- أول مقدمه إلى المدينة،معاهدة تعايش مع اليهود ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة..ولكنهم لم يفوا بهذا العهد – شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل،حتى قال اللّه فيهم:«وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ.أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما

[١٥١٩] – يراجع جانب من هذه الإشارات والتقريرات وتفسيرها في ظلال القرآن في الصفحات التالية.(السيد رحمه الله)

مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» « البقرة ٩٩ – ١٠١.»

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع اللّه فيه الأوس والخزرج على الإسلام،فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج،ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول اللّه – ﷺ– فلم تعد لليهود فرصة للتسلط! ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية،وأفادها من قرون السبي في بابل،والعبودية في مصر،والذل في الدولة الرومانية.ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ،فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة:«وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» « النساء:٥١.»

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق – يوم أن كان الناس مسلمين – استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه – لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب اللّه الذي تكفل بحفظه سبحانه – ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين،وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار.

ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض..حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة،وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين،ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين! وصدق اللّه العظيم:«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا»..

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم وبين قريش في مكة،وبين القبائل الأخرى في الجزيرة..يهودي..

والذي ألب العوام،وجمع الشراذم،وأطلق الشائعات،في فتنة مقتل عثمان – رضي اللّه عنه – وما تلاها من النكبات..يهودي..والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول اللّه – ﷺ– وفي الروايات والسير..يهودي..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال «الدستور» بها في عهد السلطان عبد الحميد،ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي «البطل» أتاتورك..يهودي..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود! ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية..يهودي..ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي..ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود! [١٥٢٠]

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا،وأعرض مجالا،من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون – على ضراوتها – قديما وحديثا..إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها.وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول.أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية..(التي تعد الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية،التي سنتعرض لها في الفقرة التالية.

فإذا سمعنا اللّه – سبحانه – يقول:«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا»..ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا..ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي،فإننا ندرك طرفا من حكمة اللّه في تقديم اليهود على الذين أشركوا! إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة،التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبي الإسلام،فيحذر اللّه نبيه

[١٥٢٠] – يراجع فصل:اليهود الثلاثة:ماركس وفرويد ودركايم في كتاب «التطور والثبات».محمد قطب.«دار الشروق».

وأهل دينه منها..و لم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كـــانوا أهله!..ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه..

«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى.ذلِكَ بِأَنَّ مِـــنْهُمْ قِسِّيسِــــينَ وَرُهْباناً،وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ.وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِـــنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ،يَقُولُونَ:رَبَّنا آمَنَّا،فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ.وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّـــهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ،وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ.فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِمـــا قـــالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ.وَالَّـــذِينَ كَفَـــرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»..

إن هذه الآيات تصور حالة،وتقرر حكما في هذه الحالة..تصور حالة فريق مـــن أتبـــاع عيسى – عليه السّلام –:«الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى »..وتقرر أنهم أقرب مـــودة للـــذين آمنوا..

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك في أنها تصور حالة معينـــة،هي الـــتي ينطبق عليها هذا التقرير المعين،فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها،ويجعلون منـــها مـــادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم مـــن المعســـكرات المختلفـــة،وموقف هـــذه المعسكرات منهم..لذلك نجد من الضروري – في ظلال القرآن – أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:

إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس،قالوا:إنا نصارى.هم أقـــرب مودة للذين آمنوا:«ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ»..فمنهم مـــن يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم..ولكـــن الســـياق القرآني لا يقف عند هذا الحد،ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل مـــن قـــالوا:إنـــا نصارى..إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها:«وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَـــى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ،يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا،فَاكْتُبْنا مَـــعَ الشَّاهِدِينَ.وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ،وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَـــعَ الْقَـــوْمِ الصَّالِحِينَ»..فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس،الذين هم

أقرب مودة للذين آمنوا..إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم،ولانت قلوبهم،وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه.والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير – وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول،فيفيض الدمع،ليؤدي ما لا يؤديه القول وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان..إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا..موقف القبول لهذا الحق،والإيمان به،والإذعان لسلطانه،وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة:«يَقُولُونَ:رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ.وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ،وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ؟»..

إنهم أولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه.ثم يدعونه – سبحانه – أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض..الأمة المسلمة،التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق،وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر..فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة ويدعونه – سبحانه – أن يكتبهم في سجلها..

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان باللّه أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به،ولا يأملوا – بهذا الإيمان – أن يقبلهم ربهم،ويرفع مقامهم عنده،فيدخلهم مع القوم الصالحين:«وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ،وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ؟»..

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل اللّه إلى رسوله من الحق..موقف الاستماع والمعرفة،ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر،ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة،مع دعاء اللّه – سبحانه – أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق الذين يؤدون شهادتهم سلوكا وعملا وجهادا لإقراره في الأرض،والتمكين له في حياة الناس.

ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد:

هو طريق الإيمان باللّه،وبالحق الذي أنزله على رسوله،والأمل – بعد ذلك – في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا:إنا نصارى وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل اللّه إلى الرسول – ﷺ– من الحق وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح،بالإيمان المعلن،والانضمام إلى الصف المسلم والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال والدعاء إلى اللّه أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين..لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.بل يتابع خطاه لتكملة الصورة،ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلا:«فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها.وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ»..

لقد علم اللّه صدق قلوبهم وألسنتهم وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه،واعتبار هم أن أداء هذه الشهادة – بكل تكاليفها في النفس والمال – منة يمن اللّه بها على من يشاء من عباده واعتبار هم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين..

لقد علم اللّه منهم هذا كله فقبل منهم قولهم،وكتب لهم الجنة جزاء لهم وشهد لهـــم – سبحانه – بأنهم محسنون،وأنه يجزيهم جزاء المحسنين:«فَأَثابَهُمُ اللَّهُ – بِما قالُوا – جَنَّـــاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدينَ فيها..وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنينَ..».

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام..واللّه – جل جلاله – قد شهد لهذا الفريـــق من الناس أنه من المحسنين.هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنـــه القـــرآن الكريم:«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى »..

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه،بل يستجيب له تلـــك الاســـتجابة العميقـــة الجاهرة الصريحة.

وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام،والانضمام للصف المسلم والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليهـــا والجهـــاد لإقرارها وتمكينها.وهو فريق علم اللّه منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين..

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق المقصود مـــن الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا.بل إنه ليمضي فيميزه من الفريق الآخر مـــن الذين قالوا:إنا نصارى.ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكـــذبون،ولا يســـتجيبون له،ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين:«وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـــحابُ الْجَحِيمِ»..

والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون – من الـــذين قالوا إنا نصارى – ثم لا يستجيبون..والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا في مثل هذا الموقف.سواء في ذلك اليهود والنصارى ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء ما داموا في موقف التكذيب لما أنزل اللّه على رسوله من الحق وفي موقف الامتناع عـــن الدخول في الإسلام الذي لا يقبل اللّه من الناس دينا سواه..نجد هذا في مثل قـــول اللّـــه سبحانه:«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا – مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ – مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَـــأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ»..

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا – مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ – فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ»..

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ»..

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»..

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ»..

فهو تعبير مألوف في القرآن،وحكم معهود..وهو يأتي هنا للتفرقة بين فريقين من الذين قالوا:إنا نصارى وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا وللتفرقة كذلك بين مصير هؤلاء وأولئك عند اللّه..هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين.وأولئك أصحاب الجحيم..

وليس كل من قالوا:إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم:«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا»..

كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها..إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضا،ولا ملامحها مجهلة،ولا موقفها متلبسا بموقف سواها في كثير ولا قليل..

ولقد وردت روايات لها قيمتها في تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص[١٥٢١]:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ،وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،قَالُوا:"بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ،وَكَتَبَ معة كِتَابًا إِلَى النَّجَاشِيِّ،فَقَدِمَ عَلَى النَّجَاشِيِّ،فَقَرَأَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،ثُمَّ دَعَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالْمُهَاجِرِينَ مَعَهُ،وَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى الرُّهْبَانِ وَالْقِسِّيسِينَ،ثُمَّ أَمَرَ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ مَرْيَمَ،فَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ وَفَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ،فَهُمُ الَّذِينَ أُنْزِلَ فِيهِمْ " وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ

[١٥٢١] – **ذكرها السيد رحمه الله مختصرة من تفسير القرطبي وأتيت بها وبغيرها كاملة لتتضح الصورة تماما**

تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَــعَ الشَّــاهِدِينَ (٨٣) [المائدة]".[١٥٢٢]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ قَالُوا:لَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ مَكَّةَ مِنَ الْهِجْرَةِ الْـأُولَى اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْمُهُمْ،وَسَطَتْ بِهِمْ عَشَائِرُهُمْ وَلَقُوا مِنْهُمْ أَذًى شَدِيدًا،فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخُرُوجِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مَرَّةً ثَانِيَــةً،فَكَانَتْ خَــرْجَتُهُمُ الْـآخِرَةُ أَعْظَمَهَــا مَشَقَّةً،وَلَقُوا مِنْ قُرَيْشٍ تَعْنِيفًا شَدِيدًا،وَنَالُوهُمْ بِالْأَذَى وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ مَــا بَلَغَهُــمْ عَــنِ النَّجَاشِيِّ مِنْ حُسْنِ جِوَارِهِ لَهُمْ،فَقَالَ عُثْمَانُ بْــنُ عَفَّــانَ:يَــا رَسُــولَ اللَّــهِ،فَهِجْرَتُنَا الْأُولَى،وَهَذِهِ الْآخِرَةُ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَلَسْتَ مَعَنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَنْتُمْ مُهَــاجِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيَّ،لَكُمْ هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ جَمِيعًا " قَالَ عُثْمَانُ:فَحَسْبُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَكَانَ عِدَّةُ مَنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الْهِجْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانِينَ رَجُلًا،وَمِنَ النِّسَاءِ إِحْدَى عَشَرَةَ امْرَأَةً قُرَشِيَّةً،وَسَبْعٌ غَرَائِبُ،فَأَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِأَحْسَنِ جِوَارٍ،فَلَمَّا سَمِعُوا بِمُهَاجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ،رَجَعَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا،وَمِنَ النِّسَــاءِ ثَمَانِي نِسْوَةٍ،فَمَاتَ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِمَكَّةَ،وَحُبِسَ بِمَكَّةَ سَبْعَةُ نَفَرٍ وَشَهِدَ بَدْرًا مِنْهُمْ أَرْبَعَــةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلًا،فَلَمَّا كَانَ شَهْرُ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّــهِ ﷺ إِلَــى الْمَدِينَةِ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَبَعَثَ بِهِ مَــعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ،فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ الْكِتَــابُ أَسْــلَمَ،وَقَالَ:لَــوْ قَــدَرْتُ أَنْ آتِيَــهُ لَأَتَيْتُهُ،وَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ،وَكَانَتْ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَــا عُبَيْــدِ اللَّــهِ بْــنِ جَحْشٍ،فَتَنَصَّــرَ هُنَــاكَ وَمَاتَ،فَزَوَّجَهُ النَّجَاشِيُّ إِيَّاهَا وَأَصْدَقَ عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ،وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ تَزْوِيجَهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ،وَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ مَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَحْمِلُهُمْ فَفَعَلَ وَحَمَلَهُمْ فِي سَفِينَتَيْنِ مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ فَأَرْسَلُوا بِهِــمْ إِلَــى سَاحِلِ بُولَا وَهُوَ الْجَارُ،ثُمَّ تَكَارُوا الظَّهْرَ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَيَجِدُونَ رَسُولَ اللَّــهِ ﷺ

[١٥٢٢] - تفسير ابن أبي حاتم - (٥ / ٥٦) صحيح مرسل

بِخَيْبَرَ،فَشَخَصُوا إِلَيْهِ،فَوَجَدُوهُ قَدْ فَتَحَ خَيْبَرَ،فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُدْخِلُوهُمْ فِي سُهْمَانِهِمْ فَفَعَلُوا "[1523]

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ:"،ثُمَّ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِشْرُونَ رَجُلًا،وَهُوَ بِمَكَّةَ أَوْ قَرِيبٍ مِنْ ذَلِكَ مِنَ النَّصَارَى حِينَ ظَهَرَ خَبَرُهُ مِنَ الْحَبَشَةِ،فَوَجَدُوهُ فِي الْمَجْلِسِ فَكَلَّمُوهُ،وَسَاءَلُوهُ،وَرِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ،فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَمَّا أَرَادُوا،دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ،فَلَمَّا سَمِعُوا فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ،ثُمَّ اسْتَجَابُوا لَهُ،وَآمَنُوا بِهِ،وَصَدَّقُوهُ،وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يُوصَفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ،فَلَمَّا قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ،فَقَالُوا:خَيَّبَكُمُ اللَّهُ مِنْ رَكْبٍ:بَعَثَكُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ لَهُمْ،فَتَأْتُونَهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ فَلَمْ نَطْمَئِنْ مَجَالِسَكُمْ عِنْدَهُ حَتَّى فَارَقْتُمْ دِينَكُمْ وَصَدَّقْتُمُوهُ بِمَا قَالَ لَكُمْ،مَا نَعْلَمُ رَكْبًا أَحْمَقَ مِنْكُمْ،أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُمْ،فَقَالُوا:سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نُجَاهِلُكُمْ،لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ،لَا نَأْلُوا أَنْفُسَنَا خَيْرًا.فَيُقَالُ:إِنَّ النَّفَرَ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ.وَيُقَالُ:وَاللَّهُ أَعْلَمُ،إِنَّ فِيهِمْ نَزَلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ "[1524]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى،قَالَ:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ خَافَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَبَعَثَ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَابْنَ مَسْعُودٍ وَعُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ،فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ،بَعَثُوا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فِي رَهْطٍ مِنْهُمْ،ذَكَرَ أَنَّهُمْ سَبَقُوا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ،فَقَالُوا:إِنَّهُ خَرَجَ فِينَا رَجُلٌ سَفَّهَ عُقُولَ قُرَيْشٍ وَأَحْلَامَهَا،زَعَمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ،وَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيْكَ رَهْطًا لِيُفْسِدُوا عَلَيْكَ قَوْمَكَ،فَأَحْبَبْنَا أَنْ نَأْتِيَكَ وَنُخْبِرَكَ خَبَرَهُمْ.قَالَ:إِنْ جَاءُونِي نَظَرْتُ فِيمَا يَقُولُونَ.فَقَدِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَقَامُوا بِبَابِ النَّجَاشِيِّ فَقَالُوا:أَتَأْذَنُ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ:ائْذَنْ لَهُمْ،فَمَرْحَبًا بِأَوْلِيَاءِ

[1523] - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (٤٨١) صحيح لغيره

[1524] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٩٨) حسن مرسل

اللَّهِ،فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَلَّمُوا،فَقَالَ لَهُ الرَّهْطُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:أَلَا تَرَى أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّا صَدَقْنَاكَ،لَمْ يُحَيُّوكَ بِتَحِيَّتِكَ الَّتِي تُحَيَّا بِهَا ؟ فَقَالَ لَهُمْ:مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُحَيُّونِي بِتَحِيَّتِي ؟ فَقَالُوا:إِنَّا حَيَّيْنَاكَ بِتَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتَحِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ.قَالَ لَهُمْ:مَا يَقُولُ صَاحِبُكُمْ فِي عِيسَى وَأُمِّهِ ؟ قَالَ:يَقُولُ:هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ،وَرُوحٌ مِنْهُ،وَيَقُولُ فِي مَرْيَمَ:إِنَّهَا الْعَذْرَاءُ الْبَتُولُ.قَالَ:فَأَخَذَ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ:مَا زَادَ عِيسَى وَأُمُّهُ عَلَى مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ قَدْرَ هَذَا الْعُودِ،فَكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ قَوْلَهُ،وَتَغَيَّرَتْ وجُوهُهُمْ.قَالَ لَهُمْ:هَلْ تَعْرِفُونَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ ؟ قَالُوا:نَعَمْ.قَالَ:اقْرَءوا،فَقَرَؤُوا،وَهُنَالِكَ مِنْهُمْ قِسِّيسُونَ وَرُهْبَانٌ وَسَائِرُ النَّصَارَى،فَعَرَفَتْ كُلُّ مَا قَرَأُوا،وَانْحَدَرَتْ دُمُوعُهُمْ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ الْآيَةَ "[١٥٢٥]

وعَنِ السُّدِّيِّ:ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى الْآيَةَ.قَالَ:" بَعَثَ النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَبَشَةِ،سَبْعَةً قِسِّيسِينَ وَخَمْسَةً رُهْبَانًا،يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ.فَلَمَّا لَقَوْهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَكَوْا وَآمَنُوا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيهِمْ:وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ،فَآمَنُوا ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ،فَهَاجَرَ النَّجَاشِيُّ مَعَهُمْ،فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ،فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ "[١٥٢٦]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا،فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ:" أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ مِمَّا جَاءَ بِهِ عِيسَى،يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَنْتَهُونَ إِلَيْهِ،فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ صَدَّقُوا بِهِ وَآمَنُوا،وَعَرَفُوا الَّذِي جَاءَ بِهِ أَنَّهُ الْحَقُّ،فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ مَا تَسْمَعُونَ " وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ صِفَةَ قَوْمٍ قَالُوا:إِنَّا نَصَارَى،أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَجِدُهُمْ أَقْرَبَ النَّاسِ وِدَادًا لِأَهْلِ

[١٥٢٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١١٩٩) حسن

[١٥٢٦] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٢٠٠) حسن مرسل

الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَلَمْ يُسَمِّ لَنَا أَسْمَاءَهُمْ.وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِذَلِكَ أَصْحَابُ النَّجَاشِيِّ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِهِ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى شَرِيعَةِ عِيسَى فَأَدْرَكَهُمُ الْإِسْلَامُ فَأَسْلَمُوا لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ،وَلَمْ يَسْتَكْبِرُوا عَنْهُ "[1527]

وقيل:إن جعفرا وأصحابه قدم على النبي ﷺفي سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف،فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيراء الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقثم ودريد وأيمن،فقرأ عليهم رسول الله ﷺسورة {يس} إلى آخرها،فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا،وقالوا:ما أشبه هذا بما كان يترل على عيسى فترلت فيهم {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} يعني وفد النجاشي وكانوا أصحاب الصوامع.وقال سعيد بن جبير:وأنزل الله فيهم أيضا {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ} إلى قوله:{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ} إلى آخر الآية.وقال مقاتل والكلبي:كانوا أربعين رجلا من أهل نجران من بني الحرث بن كعب،واثنان وثلاثون من الحبشة،وثمانية وستون من أهل الشام.وقال قتادة:نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى،فلما بعث الله محمدا ﷺآمنوا به فأثنى الله عليهم."[1528]

وعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تُفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} قَالَ:نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ،وَأَصْحَابِهِ[1529].

وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص والذي يدل عليه السياق بذاته،وتؤيده هذه الروايات التي أسلفنا،هو الذي يتفق مع بقية التقريرات في هذه السورة وفي غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة – اليهود والنصارى – من هذا الدين وأهله.كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا.

[1527] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٢٠٢) صحيح مرسل

[1528] – تفسير القرطبي – دار عالم الكتب،الرياض [٦ /٢٥٥]

[1529] – كشف الأستار [٣ /٢٨٦](٢٧٥٨) صحيح

إن السورة وحدة في اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها وكلام اللّه سبحانه لا يناقض بعضه بعضا.«وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»..وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات،تحدد معنى هذا النص الذي نواجهه هنا وتجلوه..نذكر منها:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ،بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ،إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»..

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ.وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً،فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

كذلك جاء في سورة البقرة:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.قُلْ:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»..

كذلك صدّق الواقع التاريخي ما حذر اللّه الأمة المسلمة إياه من اليهود ومن النصارى سواء.وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم..فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم - فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه.وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك يلاقون من ظلمها الوبال! - أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوارها قط - إلا في الظاهر - منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك! لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان،كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام

والمسلمين في الأندلس،ثم في حملات الاستعمار والتبشير علـــى الممالـــك الإســـلامية في إفريقية أولا،ثم في العالم كله أخيرا..

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام - على كل ما بينهما من أحقاد - ولكنهم كانوا في حربهم للإســـلام كمـــا قـــال عنـــهم العلـــيم الخبير:«بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة.ثم مضـــوا في طـــريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة.وبعد أن أجهزوا على عروة «الحكم» هـــا هـــم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة «الصلاة»! ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين.فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام.عن طريق المســـاعدات المباشرة تارة،وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تـــارة أخـــرى! ولـــيس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد.

وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض.وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم،ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام،في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال! هذا موجز سريع لما سجله الواقع التـــاريخي طوال أربعة عشر قرنا من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام لا فرق بين هذه وتلك ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام،والحقد عليه،

والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان.

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغدا فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني - دون متابعة لبقيته ودون متابعـــة لسياق السورة كله،ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة،ودون متابعة للواقـــع التـــاريخي الذي يصدق هذا كله - ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخـــدير مشـــاعر المســـلمين تجـــاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها،وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئا أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة – مهما قل عددها وعدها – فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة.وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة ولكن ضررهم لا يقل – حينئذ – عـــن ضـــرر أعـــدى الأعداء،بل إنه ليكون أشد أذى وضرا.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وهو لا يناقض بعضه بعضا،فلنقرأه إذن على بصـــيرة [١٥٣٠]..

عَقْدُ الذِّمَّة لأَهْل الْكتَاب:

يَجُوزُ لإِمَامِ الْمُسْلمينَ أَوْ نَائبه أَنْ يُبْرِمَ عَقْدَ الذِّمَّة مَعَ أَهْل الْكتَاب،عَلَى الْخلاَف السَّابق في الْمُرَاد بهمْ،وَاخْتُلفَ في غَيْرِهمْ منَ الْكُفَّار،وَدَليل الاتِّفَاق عَلَى جَوَازِ عَقْد الذِّمَّة لأَهْل الْكتَاب قَوْله تَعَالَى: {قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلَا بالْيَوْمِ الْآخرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَـــرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَـــد وَهُمْ صَاغرُونَ } [التوبة:٢٩].وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الْعَقْد أَنْ يَلْتَزمُوا أَحْكَـــامَ الإْمَـــام،وَالْمُرَادُ بالْتزَامِ الأْحْكَام:قَبُول مَا يَحْكُمُ به عَلَيْهِمْ منْ أَدَاءِ حَقٍّ أَوْ تَرْك مُحَرَّمٍ،وَأَنْ يُعْطُوا الْجزْيَـــةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ،وَالْمُرَادُ بالإْعْطَاء:الْتزَامُهُ وَالإْجَابَةُ إلَى بَذْله،لاَ حَقيقَةَ الإْعْطَاءِ وَلاَ جَرَيَانَ الأْحْكَامِ فعْلاً،وَبالْعَقْد تُعْصَمُ دمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّة كَالْخَلَف عَـــنِ الإْسْلاَمِ في إفَادَة الْعصْمَة [١٥٣١] .

وَقَال الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ:إذَا طَلَبَ أَهْل الْكتَـــاب عَقْـــدَ الذِّمَّـــة،وَكَانَ فيـــه مَصْـــلَحَةٌ للْمُسْلمينَ،وَجَبَ عَلَى الإْمَامِ إجَابَتُهُمْ إلَيْه [١٥٣٢] .

ذَبَائحُ أَهْل الْكتَاب:

[١٥٣٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٣٥٩)

[١٥٣١] – الكاساني ٧ / ١١١، والمغني ٨ / ٥٠٠، والخرشي ٣ / ١٤٣ – ١٤٤ .

[١٥٣٢] – المهذب ٢ / ٢٥٣ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٤٢) وَلتَفْصيل أَحْكَام عَقْد الذِّمَّة، وَمَا يَنْعَقدُ به، وَمقْدَارُ الْجزْيَة، وَعَلَى مَنْ تُفْرَضُ، وَبمَ تَسْقُطُ، وَمَا يُنْتَقَضُ به عَقْدُ الذِّمَّة يُرْجَعُ إلَى مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّة) (وَجزْيَةٌ) .

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:أَجْمَعَ أَهْل الْعِلْمِ عَلَى إِبَاحَةِ ذَبَائِحِ أَهْل الْكِتَاب ؛لِقَوْل اللَّه تَعَالَى:{الْيَـوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة:٥] يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ.

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدٍ الْكَلَاعِيِّ قَالَ:سَأَلْتُ مَكْحُولًا عَنْ ذَبَائِحِ عِيدَاتِ أَهْـلِ الْكِتَـابِ وَالْمُرَتَّبَاتِ لِكَنَائِسِهِمْ،فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَـامُ الَّـذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ} [المائدة:٥] قَالَ:«طَعَامُهُمْ ذَبَائِحُهُمْ»[١٥٣٣]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:طَعَـامُهُمْ ذَبَـائِحُهُمْ.،وَكَـذَلِكَ قَـال مُجَاهِـدٌ وَقَتَادَةَ[١٥٣٤]،وَرُوِيَ مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَأَكْثَرُ أَهْل الْعِلْمِ يَرَوْنَ إِبَاحَةَ صَيْدِهِمْ أَيْضًا،قَال ذَلِكَ عَطَاءٌ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ،وَلاَ نَعْلَمُ أَحَدًا ثَبَتَ عَنْهُ تَحْرِيمُ صَيْدِ أَهْل الْكِتَابِ.

وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ الْعَدْل وَالْفَاسِقِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْل الْكِتَابِ.

وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ الْحَرْبِيِّ وَالذِّمِّيِّ فِي إِبَاحَةِ ذَبِيحَةِ الْكِتَـابِيِّ مِنْهُمْ،وَتَحْـرِيمِ ذَبِيحَـةِ مَـنْ سِوَاهُ.وَسُئِل أَحْمَدُ عَنْ ذَبَائِحِ نَصَارَى أَهْل الْحَرْبِ فَقَال:لاَ بَـأْسَ بِهَـا.وَقَـال ابْـنُ الْمُنْذِرِ:أَجْمَعَ عَلَى هَذَا كُل مَنْ نَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْل الْعِلْمِ،مِـنْهُمْ مُجَاهِـدٌ وَالثَّـوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو ثَوْرٍ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ،وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ الْكِتَـابِيِّ الْعَرَبِـيِّ وَغَيْرِهِمْ ؛لِعُمُومِ الآْيَةِ فِيهِمْ.

فَإِنْ كَانَ أَحَدُ أَبَوَيِ الْكِتَابِيِّ مِمَّنْ لاَ تَحِل ذَبِيحَتُهُ،وَالآْخَرُ مِمَّـنْ تَحِـل ذَبِيحَتُـهُ،قَال الْحَنَابِلَةُ:لاَ يَحِل صَيْدُهُ وَلاَ ذَبِيحَتُهُ.وَقَال الشَّافِعِيُّ:إِنْ كَانَ الأَْبُ غَيْرَ كِتَابِيٍّ لاَ تَحِل،وَإِنْ كَانَ الأَْبُ كِتَابِيًّا فَفِيهِ قَوْلاَنِ:أَحَدُهُمَا:تُبَاحُ،وَهُوَ قَوْل مَالِكٍ وَأَبِي ثَوْرٍ.وَالثَّانِي:لاَ تُبَـاحُ ؛لأَِنَّهُ وَجَدَ مَا يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ وَالإِْبَاحَةَ،فَغَلَبَ مَا يَقْتَضِي التَّحْرِيمُ.

[١٥٣٣] - التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٤/ ١٤٤٠)(٧١٤) صحيح

[١٥٣٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٤٧٤)(١٩١٥٢) حسن

وَقَال أَبُو حَنيفَةَ:تُبَاحُ ذَبِيحَتُهُ بِكُل حَالٍ لِعُمُومِ النَّصِّ ؛وَلأَنَّهُ كِتَابِيٌّ يُقَرُّ عَلَى دِينِهِ،فَتَحِل ذَبِيحَتُهُ،كَمَا لَوْ كَانَ ابْنَ كِتَابِيَّيْنِ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ ابْنَ وَثَنِيَّيْنِ أَوْ مَجُوسِيَّيْنِ (وَهُوَ مِنْ أَهْل الْكِتَاب) فَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الأَْئِمَّةِ الثَّلاَثَة تَحْرِيمُهُ،وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ حِلُّهُ ؛لأَنَّ الاعْتِبَارَ بِدِينِ الذَّابِحِ لاَ بِدِينِ أَبِيه،بِدَلِيل أَنَّ الاعْتِبَارَ فِي قَبُول الْجِزْيَة بِذَلِكَ،وَلِعُمُومِ النَّصِّ وَالْقِيَاس [1535]

وَأَمَّا ذَبْحُ الْكِتَابِيِّ لِمَا يَمْلِكُهُ الْمُسْلِمُ،فَقَد اخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْمَالِكِيَّة فِي إِبَاحَة ذَلِكَ أَوْ مَنْعه عَلَى قَوْلَيْنِ،وَجَعَل ابْنُ عَرَفَةَ الْكَرَاهَةَ قَوْلاً ثَالِثًا،وَالرَّاجِحُ مِنْ تِلْكَ الأَْقْوَال الْقَوْل بِالْكَرَاهَة[1536] .

أَمَّا غَيْرُ الْمَالِكِيَّة فَلَمْ نَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى نَصٍّ فِي ذَلِكَ،وَإِنَّمَا أَطْلَقُوا الْقَوْل فِي حِل ذَبِيحَة الْكِتَابِيِّ كَمَا سَبَقَ.وَلَمْ يُفَصِّلُوا كَمَا فَصَّل الْمَالِكِيَّةُ.وَالظَّاهِرُ مِنْ عِبَارَاتِهِمُ الْحِل.

نِكَاحُ نِسَاءِ أَهْل الْكِتَاب:

فُقَهَاءُ الْمَذَاهِب مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ نِكَاحِ الْمُسْلِمِ لِلْكِتَابِيَّة لِلآْيَة السَّابِقَة {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَان} [المائدة:٥] وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ تَحْرِيمُ نِكَاحِ نِسَاءِ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ.وَالصَّحِيحُ عَنْهُ:أَنَّهُمْ كَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْل الْكِتَاب.وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ خَصَّ الْجَوَازَ بِنِسَاءِ أَهْل الْعَهْدِ دُونَ أَهْل الْحَرْب.وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْحَرْبِيَّة وَغَيْرِهَا[1537] .

اسْتِعْمَال آنِيَة أَهْل الْكِتَاب:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ،وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَة:إِلَى جَوَازِ اسْتِعْمَال آنِيَة أَهْل الْكِتَاب إِلاَّ إِذَا تَيَقَّنَ عَدَمَ طَهَارَتِهَا.وَصَرَّحَ الْقَرَافِيُّ الْمَالِكِيُّ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَصْنَعُهُ أَهْل الْكِتَاب مِنَ الأَْطْعِمَةِ وَغَيْرِهَا مَحْمُولٌ عَلَى الطَّهَارَةِ.وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّة،وَالرِّوَايَةُ الأُْخْرَى

[1535] - المغني ٨ / ٥٦٧، ٥٦٨ .

[1536] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٠٢ .

[1537] - الجصاص ١ / ٣٩١ - ٣٩٦، والشرح الكبير ٢ / ٣٦٧، ونهاية المحتاج ٦ / ٢٨٤، والمغني ٨ / ١٧، والقرطبي ٦ / ٧٩ .وَانْظُرْ لِلتَّفْصِيل مُصْطَلَحَ (نِكَاحٍ) .

عِنْدَ الْحَنَابِلَة:أَنَّهُ يُكْرَهُ اسْتِعْمَال أَوَانِي أَهْل الْكِتَاب،إِلاَّ أَنْ يَتَيَقَّنَ طَهَارَتَهَا فَلاَ كَرَاهَةَ،وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيل الأَْحْكَامِ فِي مُصْطَلَحِ (آنِيَة)[١٥٣٨]

دِيَةُ أَهْل الْكِتَاب:

دِيَةُ الْكِتَابِيِّ نِصْفُ دِيَة الْمُسْلِمِ عِنْدَ مَالك وَأَحْمَدَ،وَالْمَرْأَةُ مِنْهُمْ عَلَى النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ،وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّة دِيَةُ الْكِتَابِيِّ ثُلُثُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ،وَدِيَةُ الْمَرْأَة نِصْفُ ذَلِكَ،وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ دِيَتُهُ كَدِيَة الْمُسْلِمِ[١٥٣٩].

مُجَاهَدَةُ أَهْل الْكِتَاب:

قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُقَاتَلَة جَمِيعِ الْكُفَّارِ لإِجْمَاعِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ،وَخَصَّ أَهْل الْكِتَاب بِالذِّكْرِ لِتَعَاظُمِ مَسْئُولِيَّتِهِمْ ؛لِمَا أُوتُوا مِنْ كُتُبٍ سَمَاوِيَّة،وَلِكَوْنِهِمْ عَالِمِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّسُل وَالشَّرَائِعِ وَالْمِلَل،وَخُصُوصًا ذِكْرُ مُحَمَّد ﷺ وَمِلَّته وَأُمَّته،فَلَمَّا أَنْكَرُوهُ تَأَكَّدَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ،وَعَظُمَتْ مِنْهُمُ الْجَرِيمَةُ،فَنَبَّهَ عَلَى مَحَلِّهِمْ،ثُمَّ جَعَل لِلْقِتَال غَايَةً،وَهِيَ إِعْطَاءُ الْجِزْيَة بَدَلاً مِنَ الْقَتْل[١٥٤٠].

وَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِذَا طَلَبُوا الْكَفَّ عَنِ الْقِتَال،لَكِنَّ الْخِلاَفَ فِي غَيْرِهِمْ عَلَى تَفْصِيلٍ يُنْظَرُ فِي (أَهْل الْحَرْبِ،وَأَهْل الذِّمَّة،وَجِزْيَةٌ).

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:إِنَّ قِتَال أَهْل الْكِتَاب أَفْضَل مِنْ قِتَال غَيْرِهِمْ،وَكَانَ ابْنُ الْمُبَارَك يَأْتِي مِنْ مَرْوَ لِغَزْوِ الرُّومِ،فَقِيل لَهُ فِي ذَلِكَ،فَقَال:هَؤُلاَءِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينٍ[١٥٤١].

[١٥٣٨] - الموسوعة الفقهية - الكويت ١ / ١٤ - ١٥ .

[١٥٣٩] - الكاساني ٧ / ٢٣٧، والشرح الكبير ٤ / ٢٣٨، والمهذب ٢ / ١٧٣، وكشاف القناع ٦ / ٢١ .

[١٥٤٠] - تفسير القرطبي ٨ / ١٠٩ - ١١٠ .

[١٥٤١] - المغني ٨ / ٣٥٠ .

وعَنْ عَبْد الْخَبير بْن ثَابت بْنِ قَيْس بْنِ شَمَّاس،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:جَاءَت امْرَأَةٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ يُقَالُ لَهَا أُمُّ خَلَّاد وَهِيَ مُنْتَقِبَةٌ،تَسْأَلُ عَنِ ابْنِهَا،وَهُوَ مَقْتُولٌ،فَقَالَ لَهَا بَعْضُ أَصْحَاب النَّبِيِّ ﷺ:جِئْت تَسْأَلِينَ عَنِ ابْنِك وَأَنْت مُنْتَقِبَةٌ؟ فَقَالَتْ:إِنْ أُرْزَأَ ابْنِي فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَائِي،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«ابْنُكِ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ»،قَالَتْ:وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«لِأَنَّهُ قَتَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ»[1542].

الاسْتِعَانَةُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْقِتَالِ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ،وَالْحَنَابِلَةُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْمَذْهَبِ،وَالشَّافِعِيَّةُ مَا عَدَا ابْنَ الْمُنْذِرِ،وَابْنَ حَبِيبٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الإِْمَامِ مَالِك إِلَى:جَوَازِ الاسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْقِتَالِ عِنْدَ الْحَاجَةِ[1543].فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعَارَ مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ أَدْرَاعًا وَسِلَاحًا فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ؟،قَالَ:«عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ»[1544]

وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِأَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَعْرِفَ الإِْمَامُ حُسْنَ رَأْيِهِمْ فِي الْمُسْلِمِينَ وَيَأْمَنَ خِيَانَتَهُمْ،فَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مَأْمُونِينَ لَمْ تَجُزِ الاسْتِعَانَةُ بِهِمْ ؛لأَِنَّنَا إِذَا مَنَعْنَا الاسْتِعَانَةَ بِمَنْ لاَ يُؤْمَنُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْل الْمُخْذِل وَالْمُرْجِف،فَالْكَافِرُ أَوْلَى[1545].

كَمَا شَرَطَ الإِْمَامُ الْبَغَوِيُّ وَآخَرُونَ شَرْطًا آخَرَ،وَهُوَ:أَنْ يَكْثُرَ الْمُسْلِمُونَ،بِحَيْثُ لَوْ خَانَ الْمُسْتَعَانُ بِهِمْ،وَانْضَمُّوا إِلَى الَّذِينَ يَغْزُونَهُمْ،أَمْكَنَهُمْ مُقَاوَمَتُهُمْ جَمِيعًا.

وَشَرَطَ الْمَاوَرْدِيُّ:أَنْ يُخَالِفُوا مُعْتَقَدَ الْعَدُوِّ،كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[1546].

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ مَا عَدَا ابْنَ حَبِيبٍ،وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،مِنْهُمُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَالْجُوزَجَانِيُّ:أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الاسْتِعَانَةُ بِمُشْرِكٍ ؛لحديث عَائِشَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا

[1542] - سنن أبي داود (٣/ ٥)(٢٤٨٨) فيه ضعف

[1543] - ابن عابدين ٣ / ٢٣٥، والمبسوط ١٠ / ٣٣، وفتح القدير ٥ / ٢٤٢، ٢٤٣، والحطاب ٣ / ٣٥٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢١، والإنصاف ٤ / ١٤٣، والمغني ٨ / ٤١٤ .

[1544] - سنن الدارقطني (٣/ ٤٥١)(٢٩٥١) صحيح لغيره

[1545] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، والمغني ٨ / ٤١٤، وكشاف القناع ٣ / ٤٨ .

[1546] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩ .

قَالَتْ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قبلَ بَدْرٍ،فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُـذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ،فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ،فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ:جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ،وَأُصِيبَ مَعَكَ،قَالَ لَهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ:«تُـؤْمِنُ بِـاللهِ وَرَسُـولِهِ؟» قَالَ:لَا،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَتْ:ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَ:ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ:«تُؤْمِنُ بِـاللهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَانْطَلِقْ»[1047].

وَلاَ بَأْسَ أَنْ يَكُونُوا فِي غَيْرِ الْمُقَاتِلَةِ،بَل فِي خَدَمَاتِ الْجَيْشِ[1048].

تَرْكُ أَهْل الْكِتَابِ وَمَا يَدِينُونَ:

إِنْ كَانَ أَهْل الْكِتَابِ أَهْل ذِمَّةٍ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،فَتَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْمُسْـلِمِينَ فِـي حُقُوقِ الآْدَمِيِّينَ فِي الْعُقُودِ وَالْمُعَامَلاَتِ وَغَرَامَاتِ الْمُتْلَفَاتِ،وَيُتْرَكُونَ وَمَا يَدِينُونَ فِيمَـا يَتَعَلَّقُ بِعَقَائِدِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ بِشُرُوطٍ.وَتَفْصِيل ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّةِ)[1049].

الأَْحْكَامُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ أَهْل الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ:

يَشْتَرِكُ أَهْل الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكُونَ فِي أَحْكَامٍ مِنْهَا:

أ – أَنَّهُ يُمْنَعُ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْل الْكِتَابِ مِنْ دُخُول الْحَرَمِ،وَلَوْ دَخَل الْمُشْـرِكُ الْحَـرَمَ مُتَسَتِّرًا وَمَاتَ،نُبِشَ قَبْرُهُ،وَأُخْرِجَتْ عِظَامُهُ،فَلَيْسَ لَهُمُ الاسْتِيطَانُ وَلاَ الاجْتِيَازُ.فَإِذَا جَـاءَ رَسُولٌ مِنْهُمْ خَرَجَ الإِْمَامُ إِلَى الْحِل لِيَسْمَعَ مَا يَقُول.وَأَمَّا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ،فَقَـال مَالِـكٌ وَالشَّافِعِيُّ:يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ مَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ دِينِ الإِْسْلاَمِ،وَلاَ يُمْنَعُـونَ مِـنَ التَّرَدُّدِ مُسَافِرِينَ،وَيُضْرَبُ لَهُمْ أَجَلٌ لِلْخُرُوجِ خِلاَل ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ،كَمَا ضَرَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ

[1047] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٠)(١٥٠ – (١٨١٧)

[ش (بحرة الوبرة) هكذا ضبطناه بفتح الباء وكذا نقله القاضي عن جميع رواة مسلم قال وضبطه بعضهم بإسكانها وهو موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة(حتى إذا كنا بالشجرة) هكذا هو في النسخ حتى إذا كنا فيحتمل أن عائشة كانت مع المودعين فرأت ذلك ويحتمل أنها أرادت بقولها كنا كان المسلمون]

[1048] – الحطاب ٣ / ٣٥٢، والمدونة الكبرى ٣ / ٤٠، وفتح القدير ٥ / ٢٤٢، ٢٤٣، والمغني ٨ / ٤١٤ .

[1049] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٤٥) والمجموع شرح المهذب (١٩/ ٤٠٨) والمهذب في فقة الإمام الشافعي للشيرازي (٣/ ٣١٢)

عَنْهُ حِينَ أَجَلاَهُمْ.وَفِيمَا يُعْتَبَرُ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمَا لاَ يُعْتَبَرُ،وَأَحْكَامُ دُخُول الْكُفَّارِ إِلَيْهَا يُنْظَرُ (أَرْضُ الْعَرَبِ) [1550].

قَالَ النَّوَوِيُّ:أَوْجَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ إِخْرَاجَ الْكَافِرِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَقَالُوا لَا يَجُوزُ تَمْكِينُهُمْ سُكْنَاهَا وَلَكِنَّ الشَّافِعِيَّ خَصَّ هَذَا الْحُكْمَ بِالْحِجَازِ وَهُوَ عِنْدَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْيَمَامَةِ وَأَعْمَالِهَا دُونَ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِ وَقَالُوا:لَا يُمْنَعُ الْكُفَّارُ مِنَ التَّرَدُّدِ مُسَافِرِينَ فِي الْحِجَازِ،وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنَ الْإِقَامَةِ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ،قَالَ الشَّافِعِيُّ:إِلَّا مَكَّةَ وَحَرَمَهَا فَلَا يَجُوزُ تَمْكِينُ كَافِرٍ مِنْ دُخُولِهَا بِحَالٍ،فَإِنْ دَخَلَهَا بِخُفْيَةٍ وَجَبَ إِخْرَاجُهُ فَإِنْ مَاتَ وَدُفِنَ فِيهَا نُبِشَ،وَأُخْرِجَ مِنْهَا مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ،وَجَوَّزَ أَبُو حَنِيفَةَ دُخُولَهُمُ الْحَرَمَ،وَحُجَّةُ الْجَمَاهِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [التوبة:٢٨] اهـ.وَفِي الْمَعَالِمِ:أَرَادَ مَنْعَهُمْ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ دَخَلُوا الْحَرَمَ فَقَدْ قَرُبُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.قَالَ وَجَوَّزَ أَهْلُ الْكُوفَةِ لِلْمُعَاهَدِ دُخُولَ الْحَرَمِ،وَفِي الْمَدَارِكِ:فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَلَا يَحُجُّوا وَلَا يَعْتَمِرُوا كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَهُوَ عَامُ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ حَيْثُ أُمِّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمَوْسِمِ وَهُوَ مَذْهَبُنَا،وَلَا يُمْنَعُونَ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَسَائِرِ الْمَسَاجِدِ عِنْدَنَا،وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يُمْنَعُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ خَاصَّةً،وَعِنْدَ مَالِكٍ يُمْنَعُونَ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ [1551]

ب – وَمِنْهَا أَنْ يُمْنَعَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ دُخُولِ الْمَسَاجِدِ كُلِّهَا،وَبِذَلِكَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عُمَّالِهِ مُسْتَدِلًّا بِالْآيَةِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٢٨]

[1550] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣/ ١٣٣) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٤٥)

[1551] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٦٣١)

يا معشر المؤمنين إنما المشركون رِجْس وخَبَث فلا تمكنوهم من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة،وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم،فإن الله سيعوضكم عنها،ويكفيكم من فضله إن شاء،إن الله عليم بحالكم،حكيم في تدبير شؤونكم.[١٥٥٢]

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى:{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [النور:٣٦] إلَخْ،وَدُخُول الْكُفَّارِ فِيهَا يُنَاقِضُ رَفْعَهُمَا.

وَعِنْدَ الإِْمَامِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ الآْيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ،خَاصَّةً بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،فَلاَ يُمْنَعُونَ مِنْ غَيْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ فِي دُخُول الْمُشْرِكِينَ وَأَهْل الْكِتَابِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ رِوَايَتَانِ:إِحْدَاهُمَا فِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ بِالْمَنْعِ.وَالثَّانِيَةُ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِعَدَمِ الْمَنْعِ.وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُمْ يُمْنَعُونَ مِنَ الْحَرَمِ بِكُل حَالٍ.فَإِذَا امْتَنَعَ أَهْل الْكِتَابِ مِنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ يُقَاتَلُونَ كَمَا يُقَاتَل الْمُشْرِكُونَ ؛لأَِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْصِمُونَ دِمَاءَهُمْ بِدَفْعِ الْجِزْيَةِ.فَإِذَا مَنَعُوهَا سَاوَوُا الْمُشْرِكِينَ فِي إِهْدَارِ دَمِهِمْ[١٥٥٣] .

ج – وَمِنَ الأُْمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ أَلاَّ يُحْدِثُوا مَعْبَدًا فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَأَلاَّ يُدْفَنَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ[١٥٥٤] .

وِلاَيَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ:

لاَ وِلاَيَةَ لِكَافِرٍ عَلَى مُسْلِمٍ،لاَ وِلاَيَةً عَامَّةً وَلاَ خَاصَّةً،فَلاَ يَكُونُ الْكَافِرُ إِمَامًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ قَاضِيًا عَلَيْهِمْ،وَلاَ شَاهِدًا،وَلاَ وِلاَيَةَ لَهُ فِي زَوَاجِ مُسْلِمَةٍ،وَلاَ حَضَانَةَ لَهُ لِمُسْلِمٍ،وَلاَ يَكُونُ وَلِيًّا عَلَيْهِ وَلاَ وَصِيًّا.[١٥٥٥]

[١٥٥٢] – التفسير الميسر (١/ ١٩١)

[١٥٥٣] – ابن عابدين ١ / ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٣، والقرطبي ٨ / ١٠٤، والمهذب ٢ / ٢٥٧، والمغني ٨ / ٥٣١ .

[١٥٥٤] – ابن عابدين ٣ / ٢٧١

[١٥٥٥] – البناية شرح الهداية (٥/ ١٠٠) وفتح القدير (١٢/ ٤٤٧) والشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٤/ ٤٠١) وأسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣/ ٦٨) والغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٤/ ٤٩) والفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (٤/ ٦٣) والمجموع شرح المهذب (١٥/ ٢٩٤) وشرح البهجة الوردية (١٣/ ٤٧٠) ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٤/ ١١٧) والكافي في فقه الإمام أحمد (٢/ ٢٠٤) والمغني لابن قدامة (٦/ ١٢٠) وحاشية الروض المربع (٥/ ٥٢٢)

وَالأُصْل فِي ذَلكَ قَوْل اللَّه تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْليَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ منَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمنُوا باللَّه رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جهَادًا في سَبِيلي وَابْتغَاءَ مَرْضَاتي تُسرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ منْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة:١].

وَالتَّوْلِيَةُ شَقِيقَةُ التَّوَلِّي،فَكَانَتْ تَوْلِيَتُهُمْ نَوْعًا منْ تَوَلِّيهِمْ،وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ مَنْ تَوَلاَّهُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ،وَلاَ يَتِمُّ الإِيمَانُ إلاَّ بِالْبَرَاءَة منْهُمْ،وَالْوِلاَيَةُ تُنَافِي الْبَرَاءَةَ،فَلاَ تَجْتَمِعُ الْبَرَاءَةُ وَالْوِلاَيَةُ أَبَدًا.

وَالْوِلاَيَةُ إِعْزَازٌ،فَلاَ تَجْتَمِعُ هِيَ وَإِذْلاَل الْكُفْرِ أَبَدًا.

وَالْوِلاَيَةُ صِلَةٌ،فَلاَ تُجَامِعُ مُعَادَاةَ الْكُفَّارِ.[١٥٥٦]

بُطْلاَنُ زَوَاجِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْمُسْلِمَات:

وَالأُصْل فِي هَذَا قَوْل اللَّه تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمنَاتُ مُهَاجرَات فَامْتَحنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانهنَّ فَإِنْ عَلمْتُمُوهُنَّ مُؤْمنَات فَلَا تَرْجعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسكُوا بعصَمِ الْكَوَافرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلكُمْ حُكْمُ اللَّه يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ} [الممتحنة:١٠]،قَال الْمُفَسِّرُونَ في تَفْسيرِ الآيَة قَوْلُهُ { فَلاَ تَرْجعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ } الآيَةَ:أَيْ لَمْ يُحِل اللَّهُ مُؤْمنَةً لكَافرٍ،وَلاَ نكَاحَ مُؤْمنٍ لمُشْركَة[١٥٥٧].

يُبَيِّنُ تَعَالَى للْمُؤْمنينَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَكُمْ،يَا أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ،النِّسَاءُ مُؤْمنَات مُهَاجرَات منْ بَيْنِ الكُفَّار،فَاخْتَبرُوا حَالَهُنَّ،لتَعْلَمُوا صدْقَ إِيمَانهنَّ،لأنَّ الكُفَّارَ لاَ يَحلُّونَ للْمُؤْمنَات،وَالْمُؤْمنَاتُ لاَ يَحْللْنَ للكُفَّارِ.

[١٥٥٦] – أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٢٤٢ ط دار العلم للملايين، بيروت .

[١٥٥٧] – القرطبي ١٨ / ٦٣، ٦٤ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِ الْمُهَاجِرَاتِ مِنْكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ.ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الحُكْمَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ:

فَقَالَ:أَعطُوا أَزْوَاجَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الكُفَّارِ مِثْلَ مَا دَفَعُوا مِنَ الْمُهُورِ،وَلاَ إِثْمَ عَلَى الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يَنْكِحُوا هَؤُلاَءِ الْمُهَاجِرَاتِ،بِشَرْطِ أَنْ يَتَعَهَّدُوا بِأَنْ يُؤَدُّوا إِلَيهِنَّ مُهُورَهُنَّ،وَلاَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ،وَلاَ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِعَقْدِ زَوْجِيَّةِ الكَافِرَاتِ البَاقِيَاتِ فِي دَارِ الشِّرْكِ،وَإِذَا لَحِقَتْ امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ هِيَ زَوْجَةٌ لِمُسْلِمٍ بِالكُفَّارِ - بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ - فَلِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْأَلُوا الكُفَّارَ مَهْرَهَا الَّذِي دَفَعَهُ زَوْجُهَا الْمُسْلِمُ،وَلْيَسْأَلْكُمُ الكُفَّارُ دَفْعَ مُهُورِ نِسَائِهِمْ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ.وَذَلِكَ الذي ذُكِرَ هُوَ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَاتَّبِعُوهُ،وَاللهُ عَلِيمٌ فَلاَ يَشْرَعُ إِلاَّ مَا فِيهِ الحِكْمَةُ.[1558]

الْعَدْلُ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ الْمُسْلِمَاتِ وَالْكِتَابِيَّاتِ:

بَيْنَ الزَّوْجَاتِ - وَلَوْ مُخْتَلِفَاتٍ فِي الدِّينِ - وَاجِبٌ.قَال ابْنُ الْمُنْذِرِ:أَجْمَعَ كُل مَنْ نَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْل الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْقَسَمَ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَالذِّمِّيَّةِ سَوَاءٌ،وَذَلِكَ لأَنَّ الْقَسَمَ مِنْ حُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ،فَاسْتَوَتْ فِيهِ الْمُسْلِمَةُ وَالْكِتَابِيَّةُ،كَالنَّفَقَةِ وَالسُّكْنَى،وَهَذَا عِنْدَ جَمِيعِ الْفُقَهَاءِ.[1559]

حُكْمُ التَّعَامُل مَعَ أَهْل الْكِتَابِ:

التَّعَامُل مَعَ أَهْل الْكِتَابِ جَائِزٌ،فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بُرْدَيْنِ قِطْرِيَّيْنِ،فَكَانَ إِذَا جَلَسَ فَعَرِقَ فِيهِمَا ثَقُلَا عَلَيْهِ،وَقَدِمَ لِفُلَانٍ الْيَهُودِيِّ بَزٌّ مِنَ الشَّأْمِ،فَقُلْتُ:لَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيْهِ فَاشْتَرَيْتَ مِنْهُ ثَوْبَيْنِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ؟،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ،قَالَ:قَدْ عَلِمْتُ مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ،إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ بِمَالِي،أَوْ يَذْهَبَ بِهِمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَذَبَ،قَدْ عَلِمَ أَنِّي مِنْ أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ،وَآدَاهُمْ لِلْأَمَانَةِ»[1560]

[1558] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٣٨، بترقيم الشاملة آليا)

[1559] - ابن عابدين ٢ / ٤٠٠، والشرح الكبير ٢ / ٣٣٩، والمهذب ٢ / ٦٨، والمغني ٧ / ٣٦ .

[1560] - السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٦٥)(٦١٧٩) صحيح

قال السندي:قولها:إلى الميسرة:لعلها كانت متوقعة إلى أجل معلوم، وإلا، فجهالة الأجل مُفسدة عند أهل العلم.قلنا:وقولها:قِطْريان -بكسر القاف- هو ضرب من البرود، فيه حمرة، ولها أعلام فيها بعض الخشونة، وقيل:هي

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:«اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا بِنَسِيئَةٍ،وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ»[1561]

فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ مُعَامَلَتِهِمْ،وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ " زَارَعَهُمْ وَسَاقَاهُمْ "[1562] وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ " أَكَل مِنْ طَعَامِهِمْ " وَهُنَاكَ وَقَائِعُ كَثِيرَةٌ غَيْرَ مَا ذُكِرَ،وَهُنَاكَ تَفْصِيلاَتٌ فِي مُشَارَكَتِهِمْ يُرْجَعُ إِلَيْهَا فِي مَوَاضِعِهَا[1563]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

حُلَلٌ جياد، تُحمل من قبل البحرين، وقال الأزهري:في أعراض البحرين قرية، يقال لها:قَطَر، وأحسب الثياب القطرية نسبت إليها، فكسروا القاف للنسبة، وخفَّفُوا.قاله ابن الأثير في "النهاية".

[1561] - صحيح البخاري (٣/ ٦٢)(٢٠٩٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٢٦)١٢٤ - (١٦٠٣)

[ش (بنسيئة) النسيئة التأخير أي مع تأخير دفع الثمن إلى أجل]

[1562] - أحكام أهل الذمة لابن القيم ١ / ٢٦٩ - ٢٧٠ ط دار الملايين .

[1563] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١٤٧)

المبحث الثالث

الخلاصة في أحكام المجوس

التَّعْرِيفُ:

الْمَجُوسُ:فِرْقَةٌ مِنَ الْكَفَرَةِ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّارَ[١٥٦٤].

وَلاَ يَخْرُجُ الْمَعْنَى الاصْطِلاَحِيُّ عَنِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ.

الأَْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أَهْل الذِّمَّةِ:

الذِّمَّةُ:الأَْمَانُ،فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ،وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" المَدِينَةُ حَرَمٌ،مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا،مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا،فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ،وَقَالَ:ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ،وَلاَ عَدْلٌ،وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ،فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ،وَلاَ عَدْلٌ " قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:" عَدْلٌ:فِدَاءٌ ".[١٥٦٥]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ،قَالَ:كُنْتُ فِي جَيْشٍ فِيهِ سَلْمَانُ،فَحَاصَرْنَا قَصْرًا فَفَتَحْنَاهُ،وَصَالَحْنَا أَهْلَهُ،وَخَلَفْنَا فِيهِ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَرِيضًا،فَجَاءَ مِنْ بَعْدِنَا جَيْشٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ،فَهَابُوهُمْ،فَأَغْلَقُوا الْبَابَ دُونَهُمْ،فَقَاتَلُوهُمْ،فَافْتَتَحُوا الْقَصْرَ،وَاحْتَمَلُوا الذُّرِّيَّةَ،وَقَتَلُوا الرَّجُلَ،فَسُئِلَ سَلْمَانُ عَنْ ذَلِكَ،فَقَالَ:أَرَى أَنْ تُحْمَلَ الذُّرِّيَّةُ إِلَى حَيْثُ جِيءَ بِهِمْ،ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،وَأَمَّا الدَّمُ فَيَقْضِي فِيهِ عُمَرُ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَفَلَا تَرَى أَنَّ سَلْمَانَ،جَعَلَ مُصَالَحَتَهُ إِيَّاهُمْ عَهْدًا لَهُمْ،صَارُوا بِهِ أَحْرَارًا،مُحَرَّمًا سِبَاؤُهُمْ،وَلَمْ يَرَ مَا كَانَ مِنْ قِتَالِهِمُ الْجَيْشَ نَكْثًا،لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ

[١٥٦٤] - المعجم الوسيط، وقواعد الفقه للبركتي .

[١٥٦٥] - صحيح البخاري (٣/ ٢٠)(١٨٧٠)

[ش (عائر) هو عير.(آوى محدثا) أجار جانيا وحماه من خصمه.(صرف ولا عدل) توبة ولا فدية أو نافلة ولا فريضة.(ذمة) عهد وأمان.(تولى) اتخذهم أولياء ونصراء.(مواليه) حلفائه أو الذين أعتقوه من الرق]

عَلَى جِهَةِ الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ،لَا عَلَـــى التَّعَمُّـــدِ،وَرَأَى ذِمَّـــتَهُمْ وَاجِبَـــةً عَلَـــى الْمُسْلِمِينَ،وَقَالَ:ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،وَالْأَصْلُ فِي هَذَا سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ[1566]

وَالذِّمَّةُ أَيْضًا الضَّمَانُ وَالْعَهْدُ،وَعَهْدُ الذِّمَّةِ:إِقْرَارُ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِ بِشَـــرْطِ بَـــذْلِ الْجِزْيَةِ،وَأَهْلُ الذِّمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ[1567].

وَالْمَجُوسِيُّ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِنْ عَقَدَ مَعَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ عَقْدَ الذِّمَّةِ.

الأَحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْمَجُوسِ:

آنِيَةُ الْمَجُوسِيِّ:

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ غَسْل آنِيَةِ الْمَجُوسِيِّ لأَِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ فَلاَ يُقَرَّبُ لَهُـــمْ طَعَامٌ[1568] وَحُجَّتُهُمْ ما جاء فعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ،قَالَ:سُـــئِلَ رَسُـــولُ اللَّـــهِ ﷺ عَـــنْ قُـــدُورِ الْمَجُوسِ،فَقَالَ:«أَنْقُوهَا غَسْلًا،وَاطْبُخُوا فِيهَا،وَنَهَى عَنْ كُلِّ سَبُعٍ ذِي نَابٍ»[1569]

ذَبِيحَةُ الْمَجُوسِيِّ:

لاَ يَحِل لِلْمُسْلِمِ أَكْل ذَبِيحَةِ الْمَجُوسِيِّ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَهُوَ قَوْل ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلِيٍّ وَجَابِرٍ وَأَبِي بُرْدَةَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَعَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْـــرٍ وَمُـــرَّةَ الْهَمَذَانِيِّ وَالزُّهْرِيِّ[1570].

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

[1566] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٣٩)(٧١٧) صحيح

[1567] - المصباح المنير، وكشاف القناع ٣ / ١١٦، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢ / ٤٧٥ .

[1568] - شرح ابن العربي على الترمذي ٨ / ٥٠، والمجموع شرح المهذب ١ / ٢٦٣ - ٢٦٤، والمغني لابن قدامة ١ / ٦٢ - طبعة مكتبة القاهرة

[1569] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢٥٥)(١٧٩٦) صحيح

[1570] - بداية المجتهد، ونهاية المقتصد - مكتبة دار الكتب الحديثة - القاهرة ١ / ٤٨٩، البناية شرح الهداية ٩ / ١٢ - ١٣، والشرح الصغير ١ / ٣١٣، والشرح الكبير ٢ / ٩٩، والمجموع ٩ / ٧٥ .

وَاحْتَجُّوا بِمَفْهُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ } [المائدة:٥] لأَنَّ إِبَاحَةَ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ يَقْتَضِي تَحْرِيمَ طَعَامِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

وعَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَةُ الْمَجُوسِيِّ»[١٥٧١].

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:«لَا تُؤْكَلْ ذَبِيحَةُ الْمَجُوسِيِّ،وَإِنْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا»

وعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ:«لَا تُؤْكَلْ ذَبِيحَةُ الْمَجُوسِيِّ،وَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ»[١٥٧٢]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ سَكَنٍ الأَسَدِيِّ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللهِ:إِنَّكُمْ نَزَلْتُمْ بَيْنَ فَارِسَ وَالنَّبَطِ،فَإِذَا اشْتَرَيْتُمْ لَحْمًا،فَإِنْ كَانَ ذَبِيحَةَ يَهُودِيٍّ،أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَكُلُوهُ،وَإِنْ ذَبَحَهُ مَجُوسِيٌّ فَلاَ تَأْكُلُوهُ.[١٥٧٣].

وعَنْ قَيْسِ بْنِ السَّكَنِ،أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ:«إِنَّكُمْ نَزَلْتُمْ أَرْضًا لَا يَقْصِبُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ،إِنَّمَا هُمُ النَّبَطُ،وَفَارِسُ،فَإِذَا اشْتَرَيْتُمْ لَحْمًا فَسَلُوا،فَإِنْ كَانَ ذَبِيحَةَ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَكُلُوهُ،فَإِنَّ طَعَامَهُمْ لَكُمْ حِلٌّ»[١٥٧٤]

وَخَالَفَ أَبُو ثَوْرٍ وَأَبَاحَ ذَبِيحَةَ الْمَجُوسِ مُحْتَجًّا بما جاء عَنْ جَعْفَرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ.[١٥٧٥]

وَمِنْ حَيْثُ الْمَعْقُول فَلأَنَّهُمْ يُقَرُّونَ عَلَى الْجِزْيَةِ كَمَا يُقَرُّ لأَهْلِ الْكِتَابِ فَيُقَاسُونَ عَلَيْهِمْ فِي حِلِ ذَبَائِحِهِمْ[١٥٧٦].

صَيْدُ الْمَجُوسِيِّ وَحْدَهُ أَوْ بِالاِشْتِرَاكِ مَعَ الْمُسْلِمِ

[١٥٧١] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٢١)(١٠١٩٤) صحيح مرسل

[١٥٧٢] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٢١)(١٠١٩٢ و١٠١٩٣) صحيح

[١٥٧٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٢٠)(٣٣٣٦٢) صحيح

[١٥٧٤] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١١٧)(١٠١٧٦) صحيح

[١٥٧٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٧/ ٧١)(١٠٨٧٠) صحيح لغيره

[١٥٧٦] - شرح الزرقاني على الموطأ ٢ / ١٣٩ .

أ – صَيْدُ الْمَجُوسِيِّ وَحْدَهُ:

إِذَا صَادَ الْمَجُوسِيُّ وَحْدَهُ بِسَهْمِهِ أَوْ كَلْبِهِ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ صَيْدِهِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

الْقَوْل الأَْوَّل:ذَهَبَ عَامَّةُ أَهْل الْعِلْمِ إِلَى الْقَوْل بِتَحْرِيمِ صَيْدِ الْمَجُوسِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا كَانَ الصَّيْدُ مِمَّا لَهُ زَكَاةٌ،أَمَّا مَا لَيْسَتْ لَهُ زَكَاةٌ كَالسَّمَكِ وَالْجَرَادِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا:بِحِلِّهِ.

الْقَوْل الثَّانِي:ذَهَبَ أَبُو ثَوْرٍ إِلَى حِل صَيْدِ الْمَجُوسِيِّ،كَمَا قَال بِحِل ذَبِيحَتِهِ،وَدَلِيلُهُ هُوَ مَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ فِي ذَبِيحَتِهِ[١٥٧٧].

قلت:والصواب قول الجمهور

ب – صَيْدُ الْمَجُوسِيِّ مُشْتَرِكًا مَعَ الْمُسْلِمِ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا اشْتَرَكَ مَجُوسِيٌّ مَعَ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلصَّيْدِ فَإِنَّ الصَّيْدَ حَرَامٌ لاَ يُؤْكَل،وَذَلِكَ لِقَاعِدَةِ تَغْلِيبِ جَانِبِ الْحُرْمَةِ عَلَى جَانِبِ الْحِل[١٥٧٨].

نِكَاحُ الْمَجُوسِيِّ:

أ – زَوَاجُ الْمُسْلِمِ بِالْمَجُوسِيَّةِ

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى حُرْمَةِ زَوَاجِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْمَجُوسِيَّةِ وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة:٢٢١].

وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } [الممتحنة:١٠] وَذَهَبَ أَبُو ثَوْرٍ إِلَى حِل نِكَاحِ الْمُسْلِمِ بِالْمَجُوسِيَّةِ

[١٥٧٧] – البناية شرح الهداية ٩ / ٦٣٦، والشرح الكبير ٢ / ١٠٥، قوانين الأحكام الشرعية ١٩٨، وبداية المجتهد ٤٧٩ – ٤٨٠، والمغني لابن قدامة ٩ / ٣٦٢، ٣٧٥، ٣٧٦ .

[١٥٧٨] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٥٠)

وَقَال ابْنُ الْقَصَّارِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ:قَال بَعْضُ أَصْحَابِنَا:يَجِبُ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ لَهُمْ كِتَابًا أَنْ تَجُوزَ مُنَاكَحَتُهُمْ.

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الْمَجُوسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَهُمْ مِنْ أَهْل الْكِتَابِ [١٥٧٩] وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة:٥].

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:«يَعْرِضُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَإِنْ أَبَتْ فَلْيُصِبْهَا إِنْ شَاءَ إِذَا اسْتَبْرَأَهَا،وَإِنْ كَانَتْ مَجُوسِيَّةً وَلَكِنَّهُ يُكْرِهُهَا عَلَى الْغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ» [١٥٨٠]

وعَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ:«لَا بَأْسَ أَنْ يَطَأَ الرَّجُلُ جَارِيَتَهُ الْمَجُوسِيَّةَ» [١٥٨١]

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَمِنْ أَبْيَنِ الْخَطَأِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ أَنْ لَا تُقْبَلَ جِزْيَةٌ مِنْ مُشْرِكٍ إلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَلَا أَنْ تُنْكَحَ مُشْرِكَةٌ إلَّا الْكِتَابِيَّةُ وَأَنْ لَا تُؤْكَلَ ذَبِيحَةُ مُشْرِكٍ إلَّا كِتَابِيٌّ،ثُمَّ يُفَرَّقُ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الْمَذْكُورَةِ،فَيُمْنَعُ مِنْ بَعْضِهَا وَيُبِيحُ بَعْضَهَا - وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ. [١٥٨٢]

قلت:الصواب قول الجمهور،وهذه الأدلة التي ساقوها قياس مع الفارق،فعَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ إِلَى مَجُوسِ أَهْلِ هَجَرَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمَ الإِسْلاَمَ فَمَنْ أَسْلَمَ قَبِلَ مِنْهُ وَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ ضَرَبَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ غَيْرَ نَاكِحِي نِسَائِهِمْ وَلاَ آكِلِي ذَبَائِحِهِمْ. [١٥٨٣]

[١٥٧٩] - المبسوط للسرخسي ٤ / ٢١١، البحر الرائق شرح كتر الدقائق لابن نجيم ٣ / ١٠٢، وتفسير القرطبي ٣ / ٧٠، والشرح الكبير ٢ / ٢٦٧، والحطاب ٣ / ٤٧٧، والمجموع ١٦ / ١٣٦، وروضة الطالبين ٧ / ١٣٦، والمغني لابن قدامة ٧ / ١٣١ .

[١٥٨٠] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٧/ ١٩٧)(١٢٧٥٩) صحيح

[١٥٨١] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٧/ ١٩٧)(١٢٧٦٠) حسن

[١٥٨٢] - المحلى بالآثار (٩/ ١٨)

[١٥٨٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٩/ ١١٨)(١٦٥٨١) صحيح مرسل

وعَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّد ابْنِ الْحَنَفِيَّة،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَجُوسِ هَجَرَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ،فَمَنْ أَسْلَمَ قَبِلَ مِنْهُ،وَمَنْ أَبَى ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ عَلَى أَنْ لَا تُؤْكَلَ لَهُمْ ذَبِيحَةٌ وَلَا تُنْكَحُ لَهُمُ امْرَأَةٌ.هَذَا مُرْسَلٌ وَإِجْمَاعُ أَكْثَرِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِ يُؤَكِّدُهُ[١٥٨٤]

ب – زَوَاجُ الْمَجُوسِيِّ بِالْمُسْلِمَةِ:

يَحْرُمُ بِالإْجْمَاعِ زَوَاجُ الْمَجُوسِيِّ بِالْمُسْلِمَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [البقرة:٢٢١].

وَهَذَا الْحُكْمُ لاَ اسْتِثْنَاءَ فِيهِ بِخِلاَفِ مَا قَبْلَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ } حَيْثُ اسْتُثْنِيَ مِنْهُ أَهْلُ الْكِتَابِ[١٥٨٥].

ج – إِسْلاَمُ زَوْجَةِ الْمَجُوسِيِّ:

إِذَا أَسْلَمَتْ زَوْجَةُ الْمَجُوسِيِّ قَبْل زَوْجِهَا فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ[١٥٨٦].

وَإِذَا أَسْلَمَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ الْوَثَنِيَّيْنِ،أَوِ الْمَجُوسِيَّيْنِ،أَوْ كِتَابِيٌّ مُتَزَوِّجٌ بِوَثَنِيَّةٍ،أَوْ مَجُوسِيَّةٌ قَبْل الدُّخُول،تَعَجَّلَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ حِينِ إِسْلاَمِهِ،وَيَكُونُ ذَلِكَ فَسْخًا لاَ طَلاَقًا.وَهَذَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لاَ تَتَعَجَّل الْفُرْقَةُ،بَل إِنْ كَانَا فِي دَارِ الإْسْلاَمِ عُرِضَ الإْسْلاَمُ عَلَى الآْخَرِ،فَإِنْ أَبَى وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ حِينَئِذٍ،وَإِنْ أَسْلَمَ اسْتَمَرَّتِ الزَّوْجِيَّةُ،وَإِنْ كَانَا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَقَفَ ذَلِكَ عَلَى انْقِضَاءِ ثَلاَثِ حِيَضٍ،أَوْ مُضِيِّ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ،وَلَيْسَتْ عِدَّةً،فَإِنْ لَمْ يُسْلِمِ الآْخَرُ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ.وَقَال مَالِكٌ:إِنْ كَانَتْ هِيَ الْمُسْلِمَةُ عُرِضَ عَلَيْهِ الإْسْلاَمُ،فَإِنْ أَسْلَمَ وَإِلاَّ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ،وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُسْلِمُ تَعَجَّلَتِ الْفُرْقَةُ.[١٥٨٧]

[١٥٨٤] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٤٧٩)(١٩١٧١) صحيح مرسل

[١٥٨٥] – الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٤ / ٣٣٠ .

[١٥٨٦] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٥١)

[١٥٨٧] – المغني ٧ / ٥٣٢، ٥٥٨، وابن عابدين ٢ / ٣٩٠ .

أَمَّا إِنْ كَانَ إِسْلاَمُ أَحَد الزَّوْجَيْنِ الْـوَثَنِيَّيْنِ أَوِ الْمَجُوسِـيَّيْنِ أَوْ زَوْجَـةِ الْكِتَابِيِّ،بَعْـدَ الدُّخُول،فَفِي الْمَسْأَلَة ثَلاَثَةُ اتِّجَاهَات:

الأَْوَّل:يَقِفُ الأَْمْرُ عَلَى انْقِضَاء الْعِدَّة،فَإِنْ أَسْلَمَ الآْخَـرُ قَبْـل انْقِضَـائِهَا فَهُمَـا عَلَـى النِّكَاحِ،وَإِنْ أَسْلَمَ حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ مُنْذُ اخْتَلَفَ الدِّينَان،فَلاَ يَحْتَاجُ إِلَـى اسْتِئْنَاف الْعِدَّة.وَهَذَا قَوْل الشَّافِعِيِّ،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.

الثَّانِي.تَتَعَجَّل الْفُرْقَةُ.وَهَذَا رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ وَقَوْل الْحَسَنِ وَطَاوُوس.

الثَّالِثُ:يُعْرَضُ الإِْسْلاَمُ عَلَى الآْخَرِ إِنْ كَانَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَهُوَ قَوْل أَبِي حَنِيفَةَ،كَقَوْلِـهِ فِي إِسْلاَمِ أَحَدِهِمَا قَبْل الدُّخُول،إِلاَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَانْقَضَتْ مُـدَّةُ التَّرَبُّصِ،وَهِيَ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ أَوْ ثَلاَثَةُ حِيَضٍ،وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ،وَلاَ عِدَّةَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ،لأَِنَّـهُ لاَ عِدَّةَ عَلَى الْحَرْبِيَّة.

وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْمُسْلِمَةُ،فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا مُهَاجِرَةً،فَتَمَّتِ الْحِيَضُ هُنَا،فَكَذَلِكَ عِنْـدَ أَبِـي حَنِيفَةَ.وَقَال الصَّاحِبَان:عَلَيْهَا الْعِدَّةُ.[١٥٨٨]

تَشْبِيهُ الْمُسْلِمِ زَوْجَتَهُ بِالْمَجُوسِيَّة:

هَذَا الظِّهَار عَلَى الأَْقْوَال الآْتِيَة:

الْقَوْل الأَْوَّل:لَيْسَ ذَلِكَ بِظِهَارٍ وَهُوَ قَوْل الْحَنَفِيَّة وَالشَّافِعِيَّة،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ،وَوَجْهُ هَذَا الْقَوْل أَنَّهَا غَيْرُ مُحَرَّمَةٍ عَلَى التَّأْبِيد فَلَمْ تُشْبِهِ الأُْمَّ فَلاَ يَكُونُ ظِهَارًا،وَبِقِيَاسِ حُرْمَةِ وَطْئِهَا عَلَى حُرْمَةِ وَطْءِ الْحَائِضِ وَالْمُحْرِمَة.

الْقَوْل الثَّانِي:هُوَ ظِهَارٌ،وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنَابِلَة وَقَوْلٌ لِبَعْضِ الْمَالِكِيَّة.

الْقَوْل الثَّالِثُ:لِلْمَالِكِيَّة أَنَّهُ إِنْ شَبَّهَ الزَّوْجَةَ بِظَهْرِ الْمَجُوسِيَّة وَهِيَ مِنَ الْمُحَرَّمَات مُؤَقَّتًـا فَهُوَ كِنَايَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي الظِّهَار،إِنْ نَوَاهُ يُقْبَل قَوْلُهُ فِي الْفَتْوَى وَالْقَضَاء،وَإِنْ شَـبَّهَ الزَّوْجَـةَ بِالْمَجُوسِيَّةِ دُونَ كَلِمَةِ الظَّهْرِ،فَإِنَّهُ إِنْ نَوَى الظِّهَارَ قُبِل قَوْلُهُ فِي الْفَتْوَى،وَوَجْهُ هَذَا الْقَوْل

[١٥٨٨] - المغني ٧ / ٥٣٤، وابن عابدين ٢ / ٣٩٠ .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢٦١)

أَنَّ الْمَجُوسِيَّةَ لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى التَّأْبِيدِ،فَلاَ يَكُونُ اللَّفْظُ صَرِيحًا فِي الظِّهَارِ.وَلَمَّا كَانَ يُقْصَدُ بِهِ الظِّهَارُ كَانَ كِنَايَةً فِيهِ[1589].

ظِهَارُ الْمَجُوسِيِّ:

إِذَا ظَاهَرَ الْمَجُوسِيُّ مِنْ زَوْجَتِهِ فَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ:

الْقَوْلُ الأَوَّلُ:

لاَ يَصِحُّ ظِهَارُهُ،وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ،وَحُجَّتُهُمْ:أ - قَوْلُهُ تَعَالَى:{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [المجادلة:٢].وَوَجْهُ الاسْتِدْلاَلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{ منكم } فَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ الظِّهَارِ بِالْمُسْلِمِينَ.

ب - الْمَجُوسِيُّ لَيْسَ أَهْلاً لِلْكَفَّارَةِ فَلاَ يَصِحُّ ظِهَارُهُ لأَنَّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى النِّيَّةِ وَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا.

الْقَوْلُ الثَّانِي:

يَصِحُّ ظِهَارُ الْمَجُوسِيِّ وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،حُجَّتُهُمْ:

أ - قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [المجادلة:٣].

وَوَجْهُ الدَّلاَلَةِ أَنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ فَيَدْخُلُ فِيهَا الْكَافِرُ أَيْضًا،فَصَحَّ ظِهَارُهُ.

ب - الظِّهَارُ لَفْظٌ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ فَيَصِحُّ مِنَ الْمَجُوسِيِّ كَمَا يَصِحُّ مِنْهُ الطَّلاَقُ.

ج - الْكَفَّارَةُ فِيهَا شَائِبَةُ غَرَامَةٍ فَيَصِحُّ مِنْهُ الإِعْتَاقُ[1590].

وَصِيَّةُ الْمَجُوسِيِّ وَالْوَصِيَّةُ لَهُ:

تَأْخُذُ كُلٌّ مِنْ وَصِيَّةِ الْمَجُوسِيِّ وَالْوَصِيَّةُ لَهُ حُكْمَ وَصِيَّةِ الْكَافِرِ وَالْوَصِيَّةِ لَهُ،وَذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ[1591]

[1589] - البناية شرح الهداية ٤ / ٦٩٤، وروضة الطالبين ٨ / ٢٦٥، والشرح الكبير على حاشية الدسوقي ٢ / ٤٣٣، المغني ٨ / ٦ .

[1590] - البحر الرائق ٤ / ٩٣ - ٩٤، وحاشية الدسوقي ٢ / ٤٣٩، ومغني المحتاج ٣ / ٣٥٢، والمغني ٧ / ٤ .

[1591] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٥٢)

لاَ يُشْتَرَطُ إِسْلاَمُ الْمُوصِي لِصِحَّةِ الْوَصِيَّةِ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ فِي الْجُمْلَةِ،فَتَصِحُّ وَصِيَّةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ بِمَا تَصِحُّ بِهِ وَصِيَّةُ الْمُسْلِمِ.وَنَصَّ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى صِحَّةِ وَصِيَّةِ الْكَافِرِ وَلَوْ كَانَ مُرْتَدًّا أَوْ حَرْبِيًّا وَلَوْ كَانَ بِدَارِ الْحَرْبِ وَقَيَّدَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الأْصَحِّ عِنْدَهُمْ صِحَّةَ وَصِيَّةِ الْمُرْتَدِّ بِأَنْ لاَ يَمُوتَ أَوْ يُقْتَل كَافِرًا لأِنَّ مِلْكَهُ مَوْقُوفٌ.وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّ وَصِيَّةَ الْمُرْتَدِّ فِي حَال رِدَّتِهِ بَاطِلَةٌ [١٥٩٢].

وَقْفُ الْمَجُوسِيِّ:

يَصِحُّ وَقْفُ الْمَجُوسِيِّ مَا دَامَ بَالِغًا عَاقِلاً أَهْلاً لِلتَّبَرُّعِ إِذَا كَانَ الْمَوْقُوفُ عَلَيْهِ قُرْبَةً عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَ الْمَجُوسِ.أَمَّا إِذَا كَانَ الْوَقْفُ عَلَى مَعْصِيَةٍ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَ الْمَجُوسِ فَإِنَّ الْوَقْفَ يَكُونُ بَاطِلاً.[١٥٩٣]

تَوَارُثُ الْمَجُوسِيِّ وَالْمُسْلِمِ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ الْمَجُوسِيَّ لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمَ وَلاَ يَرِثُهُ الْمُسْلِمُ،لأَنَّهُ كَافِرٌ،لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ:لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلاَ يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ (١) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ وَلاَ الكَافِرُ الْمُسْلِمَ»[١٥٩٤].

الْقِصَاصُ بَيْنَ الْمَجُوسِيِّ وَغَيْرِهِ:

الْمَجُوسِيُّ كَافِرٌ،وَحُكْمُهُ فِي الْقِصَاصِ حُكْمُ الْكَافِرِ،وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ فِي الْقِصَاصِ لَهُ أَوْ مِنْهُ [١٥٩٥]،وَالتَّفْصِيل فِي (قِصَاصٌ ف ١٣ وَمَا بَعْدَهَا)[١٥٩٦]

دِيَةُ الْمَجُوسِيِّ:

[١٥٩٢] - الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّة ٦ / ١٣١، وَالْخَرَشِيّ ٨ / ١٦٨ وَمُغْنِي الْمُحْتَاج ٣ / ٣٩، وَكَشَّاف الْقِنَاع ٤ / ٣٥٢ - ٣٥٣، وَمُطَالَب أُولِي النُّهَى ٦ / ١٨٥ .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٣/ ٢٣٦)

[١٥٩٣] - المغني ٦ / ٣٨، ومغني المحتاج ٢ / ٣٧٦، ٣٨٠، والبحر الرائق ٥ / ١٨٩ - ١٩٠، والدر المختار وحاشية رد المحتار ٤ / ٣٤٢، والشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٤ / ٧٨ - ٧٩، والتاج والإكليل ٦ / ٢٤، ومواهب الجليل ٦ / ٢٤ .

[١٥٩٤] - صحيح البخاري (٨/ ١٥٦)(٦٧٦٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٣٣)١ - (١٦١٤)

[١٥٩٥] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٥٢)

[١٥٩٦] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٣/ ٢٦٣) الْمُكَافَأَةُ بَيْنَ الْقَاتِل وَالْقَتِيل :

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي دِيَةِ الْمَجُوسِيِّ الذِّمِّيِّ أَوِ الْمُسْتَأْمَنِ عَلَى تَفْصِيلٍ يُنْظَرُ فِي (دِيَاتٌ ف ٣٢)[١٥٩٧].

تَوْلِيَةُ الْمَجُوسِيِّ الْقَضَاءَ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَجُوسِيَّ لاَ يَتَوَلَّى الْقَضَاءَ عَلَى الْمُسْلِمِ لأَنَّ الْقَضَاءَ وِلاَيَةٌ بَل مِنْ أَعْظَمِ الْوِلاَيَات – وَلاَ وِلاَيَةَ لِكَافِرٍ عَلَى مُسْلِمٍ[١٥٩٨].لِقَوْله تَعَالَى:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١].وَأَمَّا تَوْلِيَةُ الْمَجُوسِيِّ الْقَضَاءَ عَلَى الْمَجُوسِيِّ فَاخْتَلَفَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ،وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (قَضَاءٌ ف ٢٢).

قَضَاءُ الْقَاضِي الْمُسْلِمِ بَيْنَ الْمَجُوسِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ قَضَاءِ الْقَاضِي الْمُسْلِمِ بَيْنَ الْمَجُوسِ إِذَا تَرَافَعُوا إِلَيْنَا وَكَانُوا أَهْل ذِمَّةٍ أَوْ عَدَمِ وُجُوبِهِ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا تَحَاكَمَ الْمَجُوسُ وَهُمْ مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ إِلَى الإِْمَامِ،لَيْسَ لَهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ،وَنَصُّوا عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْل الذِّمَّةِ سَوَاءٌ فِي عُقُودِ الْمُعَامَلاَتِ وَالتِّجَارَاتِ وَالْحُدُودِ،إِلاَّ أَنَّهُمْ لاَ يُرْجَمُونَ لأَنَّهُمْ غَيْرُ مُحْصَنِينَ.

وَاخْتَلَفَ الْحَنَفِيَّةُ فِي مُنَاكَحَاتِهِمْ،فَقَال أَبُو حَنِيفَةَ:هُمْ مُقَرُّونَ عَلَى أَحْكَامِهِمْ لاَ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِمْ فِيهَا،إِلاَّ أَنْ يَرْضَوْا بِأَحْكَامِنَا.وَقَال مُحَمَّدٌ:إِذَا رَضِيَ أَحَدُهُمَا حُمِلاَ جَمِيعًا عَلَى أَحْكَامِنَا،وَإِنْ أَبَى الآْخَرُ إِلاَّ فِي النِّكَاحِ بِغَيْرِ شُهُودٍ خَاصَّةً.وَقَال أَبُو يُوسُفَ:يُحْمَلُونَ عَلَى أَحْكَامِنَا وَإِنْ أَبَوْا إِلاَّ فِي النِّكَاحِ بِغَيْرِ شُهُودٍ نُجِيزُهُ إِذَا تَرَاضَوْا بِهَا[١٥٩٩].

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:إِذَا كَانَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَ ذِمِّيَّيْنِ خُيِّرَ الْقَاضِي فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَبِحُكْمِ الإِْسْلاَمِ فِي الْمَظَالِمِ مِنَ الْغَصْبِ وَالتَّعَدِّي وَجَحْدِ الْحُقُوقِ.

[١٥٩٧] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٦/ ١٥٢) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢١/ ٦٠) والفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة (١/ ٣٥٦

[١٥٩٨] – البحر الرائق ٦ / ٢٦٠، والشرح الكبير ٤ / ١٢٩، ١٦٥، ومغني المحتاج ٤ / ٣٧٥، وكشاف القناع ٦ / ٢٩٥ .

[١٥٩٩] – تفسير الجصاص ٢ / ٤٣٤ – ٤٣٦، والقرطبي ٦ / ١٨٦ .

وَإِنْ تَخَاصَمُوا فِي غَيْرِ ذَلِكَ رُدُّوا إِلَى أَهْلِ دِينِهِمْ إِلاَّ أَنْ يَرْضَوْا بِحُكْمِ الإِسْلاَمِ،وَإِنْ كَانَت الْخُصُومَةُ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَذِمِّيٍّ وَجَبَ عَلَى الْقَاضِي الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا[١٦٠٠] .

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:لَوْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا مَجُوسِيٌّ ذِمِّيٌّ أَوْ مُعَاهَدٌ أَوْ مُسْتَأْمَنٌ وَمُسْلِمٌ يَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا بِشَرْعِنَا قَطْعًا،طَالِبًا كَانَ الْمُسْلِمُ أَوْ مَطْلُوبًا،لأَنَّهُ يَجِبُ رَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمُسْلِمِ،وَالْمُسْلِمُ لاَ يُمْكِنُ رَفْعُهُ إِلَى حَاكِمِ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلاَ تَرْكُهُمَا مُتَنَازِعَيْنِ،فَرَدَدْنَا مَنْ مَعَ الْمُسْلِمِ إِلَى حَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ،لأَنَّ الإِسْلاَمَ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ.

وَلَوْ تَرَافَعَ مَجُوسِيَّانِ ذِمِّيَّانِ وَلَمْ نَشْتَرِطْ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ لَهُمَا الْتِزَامَ أَحْكَامِنَا وَجَبَ عَلَيْنَا الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا فِي الأَظْهَرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩].وَلأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِمَامِ مَنْعُ الظُّلْمِ عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَوَجَبَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ كَالْمُسْلِمِينَ وَالثَّانِي:وَهُوَ مُقَابِلُ الأَظْهَرِ لاَ يَجِبُ عَلَى الْقَاضِي الْحُكْمُ بَل يَتَخَيَّرُ لِقَوْل اللَّه تَعَالَى:{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [المائدة:٤٢].

أَمَّا لَوْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا مَجُوسِيَّانِ شُرِطَ فِي عَقْدِ الذِّمَّةِ لَهُمَا الْتِزَامُ أَحْكَامِنَا فَإِنَّهُ يَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا جَزْمًا عَمَلاً بِالشَّرْطِ.وَإِنْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا ذِمِّيَّانِ اخْتَلَفَتْ مِلَّتُهُمَا،وَأَحَدُهُمَا مَجُوسِيٌّ،فَيَجِبُ كَذَلِكَ عَلَى الْقَاضِي الْمُسْلِمِ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا جَزْمًا،لأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا لاَ يَرْضَى مِلَّةَ الآخَرِ.

وَاسْتَثْنَى الشِّرْبِينِيُّ الْخَطِيبُ وَغَيْرُهُ مَا لَوْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا أَهْل الذِّمَّةِ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ فَإِنَّهُمْ لاَ يُحَدُّونَ وَإِنْ رَضُوا بِحُكْمِنَا،لأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ[١٦٠١] .

[١٦٠٠] - القوانين الفقهية ١٩٦، والجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٨٤ .

[١٦٠١] - مغني المحتاج ٣ / ١٩٥ .

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:إِذَا تَحَاكَمَ إِلَيْنَا أَهْل الذِّمَّةِ أَيْ وَمِنْهُمُ الْمَجُوسُ الذِّمِّيُّونَ إِذَا اسْتَعْدَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَالْحَاكِمُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ إِحْضَارِهِمْ وَالْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ تَرْكِهِمْ سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ أَهْل دِينٍ وَاحِدٍ أَوْ مِنْ أَهْل أَدْيَانٍ.

وَحَكَى أَبُو الْخَطَّابِ عَنْ أَحْمَدَ رِوَايَةً أَنَّهُ يَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ،وَإِنْ تَحَاكَمَ مُسْلِمٌ وَذِمِّيٌّ - مَجُوسِيٌّ - وَجَبَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا بِغَيْرِ خِلاَفٍ لأَِنَّهُ يَجِبُ دَفْعُ الظُّلْمِ،كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ[1602].

شَهَادَةُ الْمَجُوسِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي جَوَازِ شَهَادَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمَجُوسِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ لأَِنَّ الْمُسْلِمَ أَهْلٌ لِلْوِلاَيَةِ عَلَى الْمَجُوسِيِّ وَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا فِي عَدَمِ جَوَازِ شَهَادَةِ الْمَجُوسِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِ لاَ فِي حَضَرٍ وَلاَ سَفَرٍ وَلاَ وَصِيَّةٍ وَلاَ غَيْرِهَا.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ } [الطلاق:٢] وَالْمَجُوسِيُّ لَيْسَ مِنَّا وَلَيْسَ عَدْلاً فَلاَ تَجُوزُ شَهَادَتُهُ عَلَى الْمُسْلِمِ[1603]..

عَقْدُ الذِّمَّةِ لِلْمَجُوسِيِّ:

إِذَا دُعِيَ الْمَجُوسِيُّ إِلَى الإِْسْلاَمِ فَأَبَى ثُمَّ دُعِيَ إِلَى الْجِزْيَةِ فَقَبِلَهَا عُقِدَتْ لَهُمُ الذِّمَّةُ.

وَأَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنَ الْمَجُوسِيِّ ثَابِتٌ بِالإِْجْمَاعِ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ وَعَمِل بِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ وَلاَ مُخَالِفٍ،وَبِهِ يَقُول أَهْل الْعِلْمِ[1604].وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:مَا أَدْرِي مَا أَصْنَعُ بِالْمَجُوسِ،وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1605]..

[1602] - المغني ٨ / ٢١٤ - ٢١٥ .

[1603] - بدائع الصنائع ٦ / ٢٨٠، والشرح الكبير ٤ / ١٦٥، ومغني المحتاج ٤ / ٤٢٧، وكشاف القناع ٦ / ٤١٧ .(وَانْظُرْ شَهَادَةٌ - ف ٥)

[1604] - بدائع الصنائع ٧ / ١١٠، والمغني ٩ / ٣٣١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٤، والشرح الكبير ٢ / ٢٠٠ - ٢٠١

[1605] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٤٠)(٧٨) صحيح لغيره، وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (جِزْيَةٌ ف ٢٨ -٢٩)

المبحث الرابع

حكم غير أهل الكتاب وا لمجوس في ا لمجتمع المسلم

هناك فرق عديدة في بلاد الإسلام،ليسوا من أهل الكتاب،وليسوا مجوساً،مثل الدروز والإسماعلية والنصيرية ونحوهم،فما هو حكم الإسلام بهم ؟

أقول وبالله التوفيق:

هؤلاء فيما أرى ندعوهم ونسألهم ما أنتم ؟ فإن قالوا:نحن مسلمين،نلزمهم بأحكام الإسلام الظاهرة،ونقيم الحجة عليهم،ونبني لهم مساجد ونضع لهم أئمة من أهل السنة والجماعة يعلمونهم أمور الإسلام،ولهم ما لنا وعليهم ما علينا،عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا،وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّه وَذِمَّةُ رَسُولِه،فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِه»[1606]

وعَنْ عَبْدِ الله قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى:مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا،وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا،وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا،فَذَاكُمُ الْمُسْلِمُ،لَهُ ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ "[1607]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه،وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه»[1608]

وفي هذه الحال يجب حرق كل الكتاب التي بحوزتهم وتخالف دين الإسلام.

[1606] - صحيح البخاري (1/ 87)(391)

[ش (أكل ذبيحتنا) تنويه باليهود الذين لا يأكلون ذبيحة المسلمين.(ذمة) هي الأمن والعهد وذمة الله أمانه وضمانه وقد يراد بها الذمام وهو الحرمة.(تحقروا الله) تغدروا به وتنقضوا عهده]

[1607] - المعجم الكبير للطبراني (10/ 152)(10291) صحيح

[1608] - صحيح البخاري (1/ 14)(25)

[ش(أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم.(يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.(عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع.(إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا.(وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

وإن قالوا:نحن من أهل الكتاب،نعاملهم معاملة أهل الكتاب تماما،وإن قالوا:نحن مجوس،نعاملهم معاملة المجوس،غير آكلي لحومهم ولا ناكحي نسائهم...

وعندئذ لا يجوز الاستعانة بهم ولا مشاركتهم في الجهاد،ولا في الولايات العامة..

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ،أَنَّ أَبَا مُوسَى،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفَدَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ،فَأَعْجَبَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا رَأَى مِنْ حِفْظِهِ،فَقَالَ:" قُلْ لِكَاتِبِكَ يَقْرَأُ لَنَا كِتَابًا "،قَالَ:إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ،لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ،فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَهَمَّ بِهِ،وَقَالَ:" لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ،وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ،وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ "[1609]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ،وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ،يَرْفَعُ إِلَيْهِ ذَلِكَ،فَعَجِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَقَالَ:" إِنَّ هَذَا لَحَافِظٌ " وَقَالَ:" إِنَّ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ،وَكَانَ جَاءَ مِنَ الشَّامِ فَادْعُهُ فَلْيَقْرَأْ "،قَالَ:أَبُو مُوسَى:إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَجُنُبٌ هُوَ؟ "،قَالَ:لَا،بَلْ نَصْرَانِيٌّ قَالَ:فَانْتَهَرَنِي،وَضَرَبَ فَخِذِي،وَقَالَ:" أَخْرِجْهُ "،وَقَرَأَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١] " قَالَ أَبُو مُوسَى:وَاللهِ مَا تَوَلَّيْتُهُ،إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ قَالَ:أَمَا وَجَدْتَ [ص:٢١٧] فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟ لَا تُدْنِهِمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ،وَلَا تَأْمَنْهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ،وَلَا تُعِزَّهُمْ بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللهُ،فَأَخْرِجْهُ "[1610]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ،وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ،يَرْفَعُ إِلَيْهِ ذَلِكَ،فَعَجِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَقَالَ:" إِنَّ هَذَا لَحَافِظٌ " وَقَالَ:" إِنَّ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ،وَكَانَ جَاءَ مِنَ الشَّامِ فَادْعُهُ فَلْيَقْرَأْ "،قَالَ:أَبُو مُوسَى:إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ

[1609] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦)(٢٠٤٠٩) صحيح

[1610] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦) حسن

اللهُ عَنْهُ:" أَجُنُبٌ هُوَ؟ "،قَالَ:لَا،بَلْ نَصْرَانِيٌّ قَالَ:فَانْتَهَرَنِي،وَضَرَبَ فَخِذِي،وَقَالَ:" أَخْرِجْهُ "،وَقَرَأَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١] " قَالَ أَبُو مُوسَى:وَاللهِ مَا تَوَلَّيْتُهُ،إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ قَالَ:أَمَا وَجَدْتَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟ لَا تُدْنِهِمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ،وَلَا تَأْمَنْهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ،وَلَا تُعِزَّهُمْ بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللهُ،فَأَخْرِجْهُ "[١٦١١]

وعَنْ أَبِي الدِّهْقَانَةِ،قَالَ:قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:إِنَّ هَاهُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ،لَمْ يُرَ قَطُّ أَحْفَظُ مِنْهُ،وَلَا أَكْتَبُ مِنْهُ،فَإِنْ رَأَيْت أَنْ تَتَّخِذَهُ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْك،إِذَا كَانَتْ لَكَ الْحَاجَةُ شَهِدَك،قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ:قَدَ اتَّخَذْت إِذًا بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ." [١٦١٢]

وعَنِ الْأَزْهَرِ بْنِ رَاشِدٍ،قَالَ:كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ،فَإِذَا حَدَّثَهُمْ بِحَدِيثٍ لَا يَدْرُونَ مَا هُوَ،أَتَوُا الْحَسَنَ فَفَسَّرَ لَهُمْ،فَحَدَّثَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا "،فَأَتَوَا الْحَسَنَ،فَقَالُوا:إِنَّ أَنَسًا حَدَّثَنَا الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ،لَا نَدْرِي مَا هُوَ؟ قَالَ:وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ فَذَكَرُوهُ،قَالَ:نَعَمْ،أَمَّا قَوْلُهُ:" لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا،فَإِنَّهُ يَقُولُ:لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ مُحَمَّدًا،وَأَمَّا قَوْلُهُ:" لَا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ " فَإِنَّهُ يَقُولُ:لَا تَسْتَشِيرُوا الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِكُمْ،وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] "[١٦١٣]

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية بالنصيرية وغيرهم:

هَؤُلَاءِ الدُّرْزِيَّةُ وَالنُّصَيْرِيَّةُ كُفَّارٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ،لَا يَحِلُّ أَكْلُ ذَبَائِحِهِمْ،وَلَا نِكَاحُ نِسَائِهِمْ؛بَلْ وَلَا يَقَرُّونَ بِالْجِزْيَةِ؛فَإِنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ،لَيْسُوا مُسْلِمِينَ؛وَلَا يَهُودَ،وَلَا نَصَارَى،لَا يُقِرُّونَ بِوُجُوبِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،وَلَا وُجُوبِ صَوْمِ رَمَضَانَ،وَلَا

[١٦١١] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦) حسن

[١٦١٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٢٣٣)(٢٦٣٩٢) فيه ضعف

[١٦١٣] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦)(٢٠٤٠٨) صحيح

وُجُوبِ الْحَجِّ؛وَلَا تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْمَيْتَةِ وَالْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا.وَإِنْ أَظْهَرُوا الشَّهَادَتَيْنِ مَعَ هَذِهِ الْعَقَائِدِ فَهُمْ كُفَّارٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.[١٦١٤]

١ – كفرهم وبيان شرهم وضررهم على أمة الإسلام:

فَإِنَّ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ عَلَى هَؤُلَاءِ الطَّغَامِ هُوَ مِنْ عَزَائِمِ الْأُمُورِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ.وَذَلِكَ:أَنَّ هَؤُلَاءِ وَجِنْسَهُمْ مِنْ أَكَابِرِ الْمُفْسِدِينَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.فَإِنَّ اعْتِقَادَهُمْ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَأَهْلَ بَدْرٍ وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ وَجُمْهُورَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَئِمَّةَ الْإِسْلَامِ وَعُلَمَاءَهُمْ أَهْلَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرَهُمْ وَمَشَايِخَ الْإِسْلَامِ وَعُبَّادَهُمْ وَمُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ وَأَجْنَادَهُمْ وَعَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْرَادَهُمْ.كُلُّ هَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ مُرْتَدُّونَ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛لِأَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ عِنْدَهُمْ وَالْمُرْتَدُّ شَرٌّ مِنْ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ.وَلِهَذَا السَّبَبِ يُقَدِّمُونَ الفرنج وَالتَّتَارَ عَلَى أَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ.وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ التَّتَارُ إلَى الْبِلَادِ وَفَعَلُوا بِعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحْصَى مِنْ الْفَسَادِ وَأَرْسَلُوا إلَى أَهْلِ قُبْرُصَ فَمَلَكُوا بَعْضَ السَّاحِلِ وَحَمَلُوا رَايَةَ الصَّلِيبِ وَحَمَلُوا إلَى قُبْرُصَ مِنْ خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسِلَاحِهِمْ وَأَسْرَاهُمْ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إلَّا اللَّهُ وَأُقِيمَ سُوقُهُمْ بِالسَّاحِلِ عِشْرِينَ يَوْمًا يَبِيعُونَ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَالْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ عَلَى أَهْلِ قُبْرُصَ وَفَرِحُوا بِمَجِيءِ التَّتَارِ هُمْ وَسَائِرُ أَهْلِ هَذَا الْمَذْهَبِ الْمَلْعُونِ مِثْلَ أَهْلِ جَزِّينَ وَمَا حَوَالَيْهَا.وَجَبَلِ عَامِلٍ وَنَوَاحِيهِ.

٢ – موالاتهم لأعداء الإسلام:

وَلَمَّا خَرَجَتْ الْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ظَهَرَ فِيهِمْ مِنْ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا عَرَفَهُ النَّاسُ مِنْهُمْ.وَلَمَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ النُّصْرَةَ الْعُظْمَى عِنْدَ قُدُومِ السُّلْطَانِ كَانَ بَيْنَهُمْ شَبِيهُ بِالْعَزَاءِ.كُلُّ هَذَا وَأَعْظَمُ مِنْهُ عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي خُرُوجِ جنكسخان إلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَفِي اسْتِيلَاءِ هُولَاكُو عَلَى بَغْدَادَ وَفِي قُدُومِهِ إلَى حَلَبَ وَفِي نَهْبِ الصالحية وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَدَاوَةِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

٣ – بعض كفرياتهم:

[١٦١٤] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥١٣)

لِأَنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ.وَمَنْ اسْتَحَلَّ الْفُقَّاعَ فَهُوَ كَافِرٌ.وَمَنْ مَسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَمَنْ حَرَّمَ الْمُتْعَةَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَمَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ أَوْ عُمَرَ أَوْ عُثْمَانَ أَوْ تَرَضَّى عَنْهُمْ أَوْ عَنْ جَمَاهِيرِ الصَّحَابَةِ:فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُنْتَظِرِهِمْ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَهَذَا الْمُنْتَظَرُ صَبِيٌّ عُمْرُهُ سَنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ أَوْ خَمْسٌ.يَزْعُمُونَ أَنَّهُ دَخَلَ السِّرْدَابَ بِسامرا مِنْ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعمائَة سَنَة.وَهُوَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَهُوَ شَيْءٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الْوُجُودِ قَطُّ.وَعِنْدَهُمْ مَنْ قَالَ:إنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ كَافِرٌ.وَمَنْ قَالَ:إنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ حَقِيقَةً فَهُوَ كَافِرٌ.وَمَنْ قَالَ:إنَّ اللَّهَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ فَهُوَ كَافِرٌ.وَمَنْ آمَنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَقَالَ:إنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ اللَّهَ يُقَلِّبُ قُلُوبَ عِبَادِهِ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.وَعِنْدَهُمْ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِحَقِيقَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَافِرٌ.هَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ الَّذِي تُلَقِّنُهُ لَهُمْ أَئِمَّتُهُمْ.مِثْلَ بَنِي الْعُودِ؛فَإِنَّهُمْ شُيُوخُ أَهْلِ هَذَا الْجَبَلِ.وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَيُفْتُونَهُمْ بِهَذِهِ الْأُمُورِ.وَقَدْ حَصَلَ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ طَائِفَةٌ مِنْ كُتُبِهِمْ تَصْنِيفُ ابْنِ الْعُودِ وَغَيْرِهِ.وَفِيهَا هَذَا وَأَعْظَمُ مِنْهُ.وَهُمْ اعْتَرَفُوا لَنَا بِأَنَّهُمْ الَّذِينَ عَلَّمُوهُمْ وَأَمَرُوهُمْ لَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا يُظْهِرُونَ التَّقِيَّةَ وَالنِّفَاقَ.وَيَتَقَرَّبُونَ بِبَذْلِ الْأَمْوَالِ إلَى مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُمْ.وَهَكَذَا كَانَ عَادَةُ هَؤُلَاءِ الْجَبَلِيَّةِ؛فَإِنَّمَا أَقَامُوا بِجَبَلِهِمْ لَمَّا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ مِنْ النِّفَاقِ وَيَبْذُلُونَهُ مِنْ الْبِرْطِيلِ لِمَنْ يَقْصِدُهُمْ.وَالْمَكَانُ الَّذِي لَهُمْ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ.ذَكَرَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ؛وَلِهَذَا كَثُرَ فَسَادُهُمْ فَقَتَلُوا مِنْ النُّفُوسِ وَأَخَذُوا مِنْ الْأَمْوَالِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ.

٤– أذاهم لجيرانهم وقطع الطرق:

وَلَقَدْ كَانَ جِيرَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِقَاعِ وَغَيْرِهَا مَعَهُمْ فِي أَمْرٍ لَا يُضْبَطُ شَرُّهُ كُلَّ لَيْلَةٍ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ وَيَفْعَلُونَ مِنْ الْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا رَبُّ الْعِبَادِ.كَانُوا فِي قَطْعِ الطُّرُقَاتِ وَإِخَافَةِ سُكَّانِ الْبُيُوتَاتِ عَلَى أَقْبَحِ سِيرَةٍ عُرِفَتْ مِنْ أَهْلِ الْجِنَايَاتِ يَرِدُّ إلَيْهِمْ

النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ قُبْرُصَ فَيُضَيِّفُونَهُمْ وَيُعْطُونَهُمْ سِلَاحَ الْمُسْلِمِينَ وَيَقَعُونَ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.فَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يَسْلُبُوهُ.وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يَفْلِتُ مِنْهُمْ بِالْحِيلَةِ.

٥- النصيرية شر أعداء الإسلام:

وَهُمْ شَرٌّ مِنْ التَّتَارِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛لَكِنَّ التتر أَكْثَرُ وَأَقْوَى.فَلِذَلِكَ يَظْهَرُ كَثْرَةُ شَرِّهِمْ.وَكَثِيرٌ مِنْ فَسَادِ التتر هُوَ لِمُخَالَطَةِ هَؤُلَاءِ لَهُمْ كَمَا كَانَ فِي زَمَنِ قازان وَهُولَاكُوَ وَغَيْرِهِمَا؛فَإِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ أَضْعَافَ مَا أَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.وَأَرْضِهِمْ فَيْئًا لِبَيْتِ الْمَالِ.وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ:إنَّ الرَّافِضَةَ لَا حَقَّ لَهُمْ مِنْ الْفَيْءِ؛لِأَنَّ اللَّهَ إنَّمَا جَعَلَ الْفَيْءَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)} [الحشر:١٠،١١] فَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيمًا لَهُمْ وَلِسَانُهُ مُسْتَغْفِرًا لَهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ.وَقُطِعَتْ أَشْجَارُهُمْ فعن يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ،يَعْنِي بِبَنِي النَّضِيرِ،تَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ،فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخْلِ،وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا،فَنَادَوْهُ:يَا مُحَمَّدُ،قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ،فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] [١٦١٥].

٦- ضرر هؤلاء على المسلمين أكثر من ضرر أعداء الإسلام الصرحاء:

وَأَيْضًا فَضَرَرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ أُولَئِكَ؛بَلْ ضَرَرُ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ ضَرَرِ مَنْ يُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ،وَضَرَرُهُمْ فِي الدِّينِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ الْمُحَارِبِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ.

٧- وجوب تعريتهم وفضحهم:

[١٦١٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥١٠) صحيح مرسل

وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُومَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبِ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ أَنْ يَكْتُمَ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ؛بَلْ يُفْشِيهَا وَيُظْهِرهَا لِيَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُعَاوِنَهُمْ عَلَى بَقَائِهِمْ فِي الْجُنْدِ وَالْمُسْتَخْدَمِينَ،وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ السُّكُوتُ عَنْ الْقِيَامِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ.وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْهَى عَنْ الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى:وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - ﷺ -:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة:٧٣] وَهَؤُلَاءِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَالْمُعَاوِنُ عَلَى كَفِّ شَرِّهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى:فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ هُوَ هِدَايَتُهُمْ:كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران:١١٠] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ،قَالَ:«خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ،حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ»[١٦١٦].

فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ،وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ،وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ؛هِدَايَةُ الْعِبَادِ لِمَصَالِحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ،فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ كَفَّ اللَّهُ ضَرَرَهُ عَنْ غَيْرِهِ.[١٦١٧].

٨- تحريم نكاحهم وذبائحهم:

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا تَجُوزُ مُنَاكَحَتُهُمْ؛وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ مَوْلَاتَهُ مِنْهُمْ،وَلَا يَتَزَوَّجُ مِنْهُمْ امْرَأَةً،وَلَا تُبَاحُ ذَبَائِحُهُمْ.

٩- تحريم الجبن الذي عملوه:

[١٦١٦] - صحيح البخاري (٦/ ٣٨)(٤٥٥٧)

[ش (أخرجت) أظهرت / آل عمران ١١٠ /.(تأتون بهم) أي أسرى مقيدين.(حتى يدخلوا في الإسلام) يكون أسركم لهم سبب إسلامهم وتحصيل سعادة الدنيا والآخرة لهم]

[١٦١٧] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٠٨) فما بعدها

وَأَمَّا الْجُبْنُ الْمَعْمُولُ بِإِنْفَحَتِهِمْ " فَفِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ،كَسَائِرِ إنْفَحَةِ الْمَيْتَةِ،وَكَإِنْفَحَةِ ذَبِيحَةِ الْمَجُوسِ.وَذَبِيحَةِ الْفِرِنْجِ الَّذِينَ يُقَالُ عَنْهُمْ:إنَّهُمْ لَا يُذَكُّونَ الذَّبَائِحَ.فَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ أَنَّهُ يَحِلُّ هَذَا الْجُبْنُ؛لِأَنَّ إنْفَحَةَ الْمَيْتَةِ طَاهِرَةٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ؛لِأَنَّ الْإِنْفَحَةَ لَا تَمُوتُ بِمَوْتِ الْبَهِيمَةِ،وَمُلَاقَاةُ الْوِعَاءِ النَّجِسِ فِي الْبَاطِنِ لَا يَنْجَسُ.

وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى أَنَّ هَذَا الْجُبْنَ نَجِسٌ لِأَنَّ الْإِنْفَحَةَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ نَجِسَةٌ؛لِأَنَّ لَبَنَ الْمَيْتَةِ وَإِنْفَحَتَهَا عِنْدَهُمْ نَجِسٌ.وَمَنْ لَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ فَذَبِيحَتُهُ كَالْمَيْتَةِ.وَكُلٌّ مِنْ أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ يَحْتَجُّ بِآثَارٍ يَنْقُلُهَا عَنْ الصَّحَابَةِ فَأَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا جُبْنَ الْمَجُوسِ.وَأَصْحَابُ الْقَوْلِ الثَّانِي نَقَلُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا مَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ مِنْ جُبْنِ النَّصَارَى.فَهَذِهِ مَسْأَلَةُ اجْتِهَادٍ؛لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يُقَلِّدَ مَنْ يُفْتِي بِأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ.

١٠- أوانيهم وملابسهم مثل أواني وملابس المجوس:

وَأَمَّا " أَوَانِيهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ " فَكَأَوَانِي الْمَجُوسِ وَمَلَابِسِ الْمَجُوسِ،عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَئِمَّةِ.وَالصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوَانِيَهُمْ لَا تُسْتَعْمَلُ إلَّا بَعْدَ غَسْلِهَا؛فَإِنَّ ذَبَائِحَهُمْ مَيْتَةٌ،فَلَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَ أَوَانِيَهُمْ الْمُسْتَعْمَلَةَ مَا يَطْبُخُونَهُ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ فَتَنْجَسُ بِذَلِكَ،فَأَمَّا الْآنِيَةُ الَّتِي لَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وُصُولُ النَّجَاسَةِ إلَيْهَا فَتُسْتَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ غَسْلٍ كَآنِيَةِ اللَّبَنِ الَّتِي لَا يَضَعُونَ فِيهَا طَبِيخَهُمْ،أَوْ يَغْسِلُونَهَا قَبْلَ وَضْعِ اللَّبَنِ فِيهَا،وَقَدْ تَوَضَّأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ جَرَّةِ نَصْرَانِيَّةٍ[١٦١٨].فَمَا شَكَّ فِي نَجَاسَتِهِ لَمْ يَحْكُمْ بِنَجَاسَتِهِ بِالشَّكِّ.

١١- تحريم دفنهم في مقابر المسلمين أو الصلاة عليهم والاستغفار لهم:

وَلَا يَجُوزُ دَفْنُهُمْ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ؛فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ - ﷺ - عَنْ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ:كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ،وَنَحْوِهِ؛وَكَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛وَلَا يُظْهِرُونَ مَقَالَةً تُخَالِفُ

[١٦١٨] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١/ ٣١٤)(٢٣٧) صحيح

دِينَ الْإِسْلَامِ؛لَكِنْ يُسِرُّونَ ذَلِكَ،فَقَالَ اللَّهُ: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:٨٤] فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ مَعَ الزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ يُظْهِرُونَ الْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ.

١٢- تحريم استخدامهم في الجهاد ونحوه:

وَأَمَّا اسْتِخْدَامُ مِثْلِ هَؤُلَاءِ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ حُصُونِهِمْ أَوْ جُنْدِهِمْ فَإِنَّهُ مِنْ الْكَبَائِرِ.وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْتَخْدِمُ الذِّئَابَ لِرَعْيِ الْغَنَمِ:فَإِنَّهُمْ مِنْ أَغَشِّ النَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِوُلَاةِ أُمُورِهِمْ،وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى فَسَادِ الْمَمْلَكَةِ وَالدَّوْلَةِ وَهُمْ شَرٌّ مِنْ الْمُخَامِرِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْعَسْكَرِ؛فَإِنَّ الْمُخَامِرَ قَدْ يَكُونُ لَهُ غَرَضٌ:إمَّا مَعَ أَمِيرِ الْعَسْكَرِ،وَإِمَّا مَعَ الْعَدُوِّ.وَهَؤُلَاءِ مَعَ الْمِلَّةِ،نَبِيِّهَا وَدِينِهَا،وَمُلُوكِهَا؛وَعُلَمَائِهَا،وَعَامَّتِهَا،وَخَاصَّتِهَا،وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى تَسْلِيمِ الْحُصُونِ إلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ،وَعَلَى إفْسَادِ الْجُنْدِ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ،وَإِخْرَاجِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ.

١٣- وجوب منعهم من الثغور لضررهم:

وَالْوَاجِبُ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ قَطْعُهُمْ مِنْ دَوَاوِينِ الْمُقَاتِلَةِ فَلَا يُتْرَكُونَ فِي ثَغْرٍ،وَلَا فِي غَيْرِ ثَغْرٍ؛فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ فِي الثَّغْرِ أَشَدُّ،وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ بَدَلَهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى اسْتِخْدَامِهِ مِنْ الرِّجَالِ الْمَأْمُونِينَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ،وَعَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ،وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ؛بَلْ إذَا كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ لَا يَسْتَخْدِمُ مَنْ يَغُشُّهُ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَكَيْفَ بِمَنْ يَغُشُّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ؟،وَلَا يَجُوزُ لَهُ تَأْخِيرُ هَذَا الْوَاجِبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛بَلْ أَيُّ وَقْتٍ قَدَرَ عَلَى الاسْتِبْدَالِ بِهِمْ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

١٤- يجوز أن نستخدمهم بالعمل العادي:

وَأَمَّا إذَا اُسْتُخْدِمُوا وَعَمِلُوا الْعَمَلَ الْمَشْرُوطَ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ إمَّا الْمُسَمَّى وَإِمَّا أُجْرَةُ الْمِثْلِ،لِأَنَّهُمْ عُوقِدُوا عَلَى ذَلِكَ.فَإِنْ كَانَ الْعَقْدُ صَحِيحًا وَجَبَ الْمُسَمَّى وَإِنْ كَانَ فَاسِدًا وَجَبَتْ أُجْرَةُ الْمِثْلِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ اسْتِخْدَامُهُمْ مِنْ جِنْسِ الْإِجَارَةِ اللَّازِمَةِ فَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْجَعَالَةِ الْجَائِزَةِ؛لَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَجُوزُ اسْتِخْدَامُهُمْ،فَالْعَقْدُ عَقْدٌ فَاسِدٌ،فَلَا يَسْتَحِقُّونَ إلَّا

قِيمَةَ عَمَلِهِمْ.فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَمَلًا لَهُ قِيمَةٌ فَلَا شَيْءَ لَهُمْ؛لَكِنْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ مُبَاحَةٌ.

١٥- الخلاف في قبول توبتهم:

وَإِذَا أَظْهَرُوا التَّوْبَةَ فَفِي قَبُولِهَا مِنْهُمْ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ؛فَمَنْ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ إذَا الْتَزَمُوا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ أَقَرَّ أَمْوَالَهُمْ عَلَيْهِمْ.وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْهَا لَمْ تُنْقَلْ إلَى وَرَثَتِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ؛فَإِنَّ مَالَهُمْ يَكُونُ فَيْئًا لِبَيْتِ الْمَالِ؛لَكِنْ هَؤُلَاءِ إذَا أُخِذُوا فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ التَّوْبَةَ؛لِأَنَّ أَصْلَ مَذْهَبِهِمْ التَّقِيَّةُ وَكِتْمَانُ أَمْرِهِمْ،وَفِيهِمْ مَنْ يُعْرَفُ،وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ لَا يُعْرَفُ.

١٦- وجوب الحيطة والحذر في أمرهم:

فَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُحْتَاطَ فِي أَمْرِهِمْ،فَلَا يُتْرَكُونَ مُجْتَمِعِينَ،وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنْ حَمْلِ السِّلَاحِ،وَلَا أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُقَاتِلَةِ،وَيُلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ:مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.وَيُتْرَكُ بَيْنَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ،وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُعَلِّمِهِمْ.

١٧- الحرب المجلية أو السلم المخزية:

فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَسَائِرَ الصَّحَابَةِ لَمَّا ظَهَرُوا عَلَى أَهْلِ الرِّدَّةِ،وَجَاءُوا إلَيْهِ،فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَدِمَ وَفْدُ بُزَاخَةَ،مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ،عَلَى أَبِي بَكْرٍ،يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ وَالسِّلْمِ الْمُخْزِيَةِ فَقَالُوا لَهُ:هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا السِّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ فَقَالَ:أَنْ تُنْزَعَ مِنْكُمُ الْحَلْقَةُ وَالْكُرَاعُ وَتَتْرُكُوا أَقْوَامًا تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ،حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ،وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ،وَتَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا،وَتَدُوا قَتْلَانَا،وَتَكُونُ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ،فَقَامَ عُمَرُ،فَقَالَ:إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ:أَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ يُتْرَكُوا أَقْوَامًا يَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَهُمْ بِهِ،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا مَا أَصَابُوا مِنَّا،فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ،وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا وَتَكُونَ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ،فَإِنَّ قَتْلَانَا قُتِلُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّهِ،لَيْسَتْ لَهُمْ دِيَاتٌ،قَالَ:فَتَابَعَ الْقَوْمُ عُمَرَ" قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:أَفَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَقْبَلْ إِسْلَامَهُمْ

وَصُلْحَهُمْ إِلَّا بِنَزْعِ الْحَلْقَةِ وَالْكُرَاعِ مِنْهُمْ،لِمَا أَعْلَمْتُكَ؟ ثُمَّ تَابَعَهُ عُمَرُ عَلَى هَـذَا،وَالْقَوْمُ مَعَهُ وَلَا نَرَاهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ إِلَّا اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَأَشْبَاهِهَا مِـنَ الْقُرَى الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَرْهًا،بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ عَلَى بَعْضِ بِلَـادِهِمْ،وَلَوْ كَـانَ إِسْلَامُهُمْ رَغْبَةً غَيْرَ رَهْبَةٍ لَسَلِمَتْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ،وَلَوْ لَـمْ يَجْنَحُوا إِلَى السَّلْمِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ الظُّهُورَ كُلَّهُ،وَيَصِـيرُوا أُسَـارَى فِـي أَيْدِيهِمْ،مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا وَلَكَانَتْ غَنَائِمَ لِلْمُسْـلِمِينَ،وَلَكِنَّهُمْ كَـانُوا بَـيْنَ الْحَالَيْنِ قَدْ نَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ،فَلِهَذَا وَقَعَ الصُّلْحُ"[١٦١٩].

١٨- حكم ما أتلفه المرتدون وحكم استخدامهم لو تابوا:

وَهَذَا الَّذِي اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ هُوَ مَذْهَبُ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ،وَالَّذِي تَنَازَعُوا فِيهِ تَنَـازَعَ فِيـهِ الْعُلَمَاءُ.فَمَذْهَبُ أَكْثَرِهِمْ أَنَّ مَنْ قَتَلَهُ الْمُرْتَدُّونَ الْمُجْتَمِعُونَ الْمُحَارِبُونَ لَا يُضْـمَنُ؛كَمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ آخِرًا،وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ.وَمَذْهَبُ الشَّـافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ،فَهَذَا الَّذِي فَعَلَهُ الصَّحَابَةُ بِأُولَئِكَ الْمُرْتَـدِّينَ بَعْدَ عَوْدِهِمْ إلَى الْإِسْلَامِ يُفْعَلُ بِمَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَالتُّهْمَةُ ظَاهِرَةٌ فِيهِ،فَيُمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مِـنْ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ وَالدِّرْعِ الَّتِي تَلْبَسُهَا الْمُقَاتِلَةُ،وَلَا يُتْرَكُ فِي الْجُنْدِ مَنْ يَكُونُ يَهُودِيًّـا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَيُلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَظْهَرَ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.وَمَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ ضَلَالِهِمْ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ أُخْرِجَ عَنْهُمْ،وَسُيِّرَ إلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَيْسَ لَهُـمْ فِيهَـا ظُهُورٌ.فَإِمَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى،وَإِمَّا أَنْ يَمُوتَ عَلَى نِفَاقِهِ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ.

١٩- وجوب جهاد هؤلاء:

وَلَا رَيْبَ أَنَّ جِهَادَ هَؤُلَاءِ وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ وَأَكْبَرِ الْوَاجِبَاتِ،وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ جِهَادِ مَنْ لَا يُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ؛فَإِنَّ جِهَادَ هَؤُلَـاءِ مِنْ جِنْسِ جِهَادِ الْمُرْتَدِّينَ،وَالصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بَدَءُوا بِجِهَادِ الْمُرْتَدِّينَ قَبْلَ جِهَـادِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛فَإِنَّ جِهَادَ هَؤُلَاءِ حِفْظٌ لِمَا فُتِحَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ يَـدْخُلَ

[١٦١٩] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٢٥٥)(٥١٠) صحيح

فِيهِ مَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ عَنْهُ.وَجِهَادُ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ زِيَادَةِ إظْهَارِ الدِّينِ.وَحِفْظُ رَأْسِ الْمَالِ مُقَدَّمٌ عَلَى الرِّبْحِ.

٢٠- وجوب قتال الممتنعين منهم:

فَإِنْ رَأَى وَلِيُّ الْأَمْرِ أَنْ يَسْتَبِيحَ مَا فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ الْمَالِ كَانَ هَذَا سَائِغًا.هَذَا مَا دَامُوا مُمْتَنِعِينَ،فَإِنْ قَدَرَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَهُمْ وَيَحْسِمَ مَادَّةَ شَرِّهِمْ،وَإِلْزَامُهُمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ،وَقَتْلُ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الرِّدَّةِ مِنْهُمْ،وَأَمَّا قَتْلُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ كُفْرًا مِنْهُ،وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفُقَهَاءُ الزِّنْدِيقَ،فَأَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ،كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي أَظْهَرِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ،وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ.

٢١- جواز قتل الداعي منهم:

وَمَنْ كَانَ دَاعِيًا مِنْهُمْ إلَى الضَّلَالِ لَا يَنْكَفُّ شَرُّهُ إلَّا بِقَتْلِهِ،قُتِلَ أَيْضًا،وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ،وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ بِكُفْرِهِ كَأَئِمَّةِ الرَّفْضِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ،كَمَا قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ غَيْلَانَ الْقَدَرِيَّ،وَالْجَعْدَ بْنَ دِرْهَمٍ وَأَمْثَالَهُمَا مِنْ الدُّعَاةِ.فَهَذَا الدَّجَّالُ يُقْتَلُ مُطْلَقًا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[1620]

٢٢- وجوب قتال هؤلاء والفرق بينهم وبين قتال الخوارج:

فَأَعَانَ اللَّهُ وَيَسَّرَ بِحُسْنِ نِيَّةِ السُّلْطَانِ وَهِمَّتِهِ فِي إقَامَةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَعِنَايَتِهِ بِجِهَادِ الْمَارِقِينَ أَنْ غَزَوْا غَزْوَةً شَرْعِيَّةً كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَعْدَ أَنْ كُشِفَتْ أَحْوَالُهُمْ وَأُزِيحَتْ عِلَلُهُمْ وَأُزِيلَتْ شُبَهُهُمْ وَبَذَلَ لَهُمْ مِنْ الْعَدْلِ وَالْأَنْصَافِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَطْمَعُونَ بِهِ وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ غَزْوَهُمْ اقْتِدَاءً بِسِيرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِتَالِ الحرورية الْمَارِقِينَ الَّذِينَ تَوَاتَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ الْأَمْرُ بِقِتَالِهِمْ وَنَعَتَ حَالَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ.أَخْرَجَ مِنْهَا أَصْحَابُ الصَّحِيحِ عَشَرَةَ أَوْجُهٍ:مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبِي سَعِيد الخدري وَسَهْلِ بْنِ حنيف وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ وَرَافِعِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.قَالَ فِيهِمْ:{يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ

[1620] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥١٥)

الرَّمِيَّةِ؛لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَاد.لَوْ يَعْلَمُ الَّذينَ يُقَاتلُونَهُمْ مَاذَا لَهُمْ عَلَى لسَان مُحَمَّد ﷺ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ.يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَام وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانَ.يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَديم السَّمَاء.خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ}[١٦٢١].

وَأَوَّلُ مَا خَرَجَ هَؤُلَاءِ زَمَنَ أَميرِ الْمُؤْمنينَ عَليٍّ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَكَانَ لَهُمْ منْ الصَّلَاة وَالصِّيَامِ وَالْقرَاءَة وَالْعبَادَة وَالزَّهَادَة مَا لَمْ يَكُنْ لعُمُومِ الصَّحَابَة؛لَكنْ كَانُوا خَارجينَ عَنْ سُنَّة رَسُول اللَّه ﷺ وَعَنْ جَمَاعَة الْمُسْلمينَ.وَقَتَلُوا منْ الْمُسْلمينَ رَجُلًا اسْمُهُ عَبْدُ اللَّه بْنُ خباب وَأَغَارُوا عَلَى دَوَابِّ الْمُسْلمينَ.وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ كَانُوا أَقَلَّ صَلَاةً وَصيَامًا.وَلَمْ نَجدْ في جَبَلهمْ مُصْحَفًا وَلَا فيهمْ قَارئًا للْقُرْآن؛وَإِنَّمَا عنْدَهُمْ عَقَائدُهُمْ الَّتي خَالَفُوا فيهَا الْكتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَبَاحُوا بهَا دمَاءَ الْمُسْلمينَ.وَهُمْ مَعَ هَذَا فَقَدْ سَفَكُوا منْ الدِّمَاء وَأَخَذُوا منْ الْأَمْوَال مَا لَا يُحْصي عَدَدَهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى.فَإِذَا كَانَ عَليُّ بْنُ أَبي طَالب قَدْ أَبَاحَ لعَسْكَره أَنْ يَنْهَبُوا مَا في عَسْكَرِ الْخَوَارِجِ مَعَ أَنَّهُ قَتَلَهُمْ جَميعَهُمْ كَانَ هَؤُلَاء أَحَقَّ بأَخْذ أَمْوَالهمْ.وَلَيْسَ هَؤُلَاء بمَنْزِلَة الْمُتَأَوِّلينَ الَّذينَ نَادَى فيهمْ عَليُّ بْنُ أَبي طَالب يَوْمَ الْجَمَلِ:أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ مُدْبرَهُمْ وَلَا يُجْهزُ عَلَى جَريحهمْ وَلَا يَغْنَمُ لَهُمْ مَالًا وَلَا يَسْبي لَهُمْ ذُرِّيَّةً[١٦٢٢].لأَنَّ مثْلَ أُولَئكَ لَهُمْ تَأْويلٌ سَائغٌ وَهَؤُلَاء لَيْسَ لَهُمْ تَأْويلٌ سَائغٌ.وَمثْلَ أُولَئكَ إنَّمَا يَكُونُونَ خَارجينَ عَنْ طَاعَة الْإِمَام.وَهَؤُلَاء خَرَجُوا عَنْ شَريعَة رَسُول اللَّه ﷺ وَسُنَّته.

٢٣- جواز قطع الشجر وتخريب العامر في الحرب:

وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ قَطْعِ الشَّجَرِ وَتَخْريب الْعَامر عنْدَ الْحَاجَة إلَيْه.فَلَيْسَ ذَلكَ بأَوْلَى منْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَمَا أَمْكَنَ غَيْرُ ذَلكَ.فَإِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَحْضُرُوا كُلُّهُمْ منْ الْأَمَاكنِ الَّتي اخْتَفَوْا فيهَا وأيسوا منْ الْمَقَام في الْجَبَلِ إلَّا حينَ قُطعَتْ الْأَشْجَارُ.وَإِلَّا كَانُوا يَخْتَفُونَ حَيْثُ لَا يُمْكنُ الْعلْمُ بهمْ.وَمَا أَمْكَنَ أَنْ يَسْكُنَ الْجَبَلَ غَيْرُهُمْ؛لأَنَّ التُّرْكُمَانَ إنَّمَا قَصْدُهُمْ الرَّعْيُ وَقَدْ صَارَ لَهُمْ مَرْعًى وَسَائرُ الْفَلَّاحينَ لَا يَتْرُكُونَ عمَارَةَ أَرْضهمْ وَيَجيئُونَ إلَيْه.

٢٤- من فوائد تلك الغزوة لهم:

[١٦٢١] - المسند الجامع (٢/ ٢٨٢)(١٢٢٤) وصحيح البخاري (٤/ ٢٠٠)(٣٦١٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٤)(١٤٨ - ١٠٦٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٢٥)(١٦٧٨٣)

[١٦٢٢] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٤)(١٦٧٤٦) صحيح

فَالْحَمْدُ للَّه الَّذي يَسَّرَ هَذَا الْفَتْحَ في دَوْلَة السُّلْطَان بهمَّته وَعَزْمه وَأَمْره وَإِخْلَاء الْجَبَل منْهُمْ وَإِخْرَاجهمْ منْ ديَارهمْ.وَهُمْ يُشْبهُونَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ في قَوْله { هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْل الْكتَاب منْ ديَارهمْ لأَوَّل الْحَشْر مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ منَ اللَّه فَأَتَاهُمُ اللَّهُ منْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبهمُ الرُّعْبَ يُخْربُونَ بُيُوتَهُمْ بأَيْديهمْ وَأَيْدي الْمُؤْمنينَ فَاعْتَبرُوا يَا أُولي الْأَبْصَار (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الْآخرَة عَذَابُ النَّار (٣) ذَلكَ بأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَديدُ الْعقَاب (٤) مَا قَطَعْتُمْ منْ لينَة أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائمَةً عَلَى أُصُولهَا فَبإِذْن اللَّه وَليُخْزيَ الْفَاسقينَ (٥) } [الحشر]،وأيضا فَإِنَّهُ بهَذَا قَدْ انْكَسَرَ منْ أَهْل الْبدَع وَالنِّفَاق بالشَّام وَمصْرَ وَالْحجَاز وَالْيَمَن وَالْعرَاق مَا يَرْفَعُ اللَّهُ به دَرَجَات السُّلْطَان وَيُعزُّ به أَهْلَ الْإِيمَان.

٢٥- جواز قتل رؤوس الفتنة فيهم لقطع دابر الشر:

تَمَامُ هَذَا الْفَتْح وَبَرَكَتُهُ تُقَدِّمُ مَرَاسمَ السُّلْطَان بحَسْم مَادَّة أَهْل الْفَسَاد وَإِقَامَة الشَّريعَة في الْبلَاد؛فَإِنَّ هَؤُلَاء الْقَوْمَ لَهُمْ منْ الْمَشَايخ وَالْإِخْوَان في قُرًى كَثيرَة مَنْ يَقْتَدُونَ بهمْ وَيَنْتَصرُونَ لَهُمْ.وَفي قُلُوبهمْ غلٌّ عَظيمٌ وَإِبْطَانُ مُعَادَاة شَديدَة لَا يُؤْمنُونَ مَعَهَا عَلَى مَا يُمْكنُهُمْ.وَلَوْ أَنَّهُ مباطنة الْعَدُوِّ.فَإِذَا أَمْسَكَ رُءُوسَهُمْ الَّذينَ يُضلُّونَهُمْ – مثْلَ بَني الْعُود – زَالَ بذَلكَ منْ الشَّرِّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ.

٢٦ – إلزامهم بشرائع الإسلام وإقامة الحجة عليهم:

وَيَتَقَدَّمُ إلَى قُرَاهُمْ.وَهيَ قُرًى مُتَعَدِّدَةٌ بأَعْمَال دمَشْقَ وَصَفَدَ؛وَطَرَابُلُس؛وَحَمَاةَ وَحمْصَ وَحَلَبَ:بأَنْ يُقَامَ فيهمْ شَرَائعُ الْإِسْلَام.وَالْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ وَقرَاءَةُ الْقُرْآن وَيَكُونُ لَهُمْ خُطَبَاءُ وَمُؤَذِّنُونَ كَسَائر قُرَى الْمُسْلمينَ وَتُقْرَأُ فيهمْ الْأَحَاديثُ النَّبَويَّةُ وَتُنْشَرُ فيهمْ الْمَعَالمُ الْإِسْلَاميَّةُ وَيُعَاقَبُ مَنْ عُرفَ منْهُمْ بالْبدْعَة وَالنِّفَاق بمَا تُوجبُهُ شَريعَةُ الْإِسْلَام.فَإِنَّ هَؤُلَاء الْمُحَاربينَ وَأَمْثَالَهُمْ قَالُوا:نَحْنُ قَوْمٌ جُهَّالٌ.وَهَؤُلَاء كَانُوا يُعَلِّمُونَنَا وَيَقُولُونَ لَنَا:أَنْتُمْ إذَا قَاتَلْتُمْ هَؤُلَاء تَكُونُونَ مُجَاهدينَ وَمَنْ قُتلَ منْكُمْ فَهُوَ شَهيدٌ.وَفي هَؤُلَاء خَلْقٌ كَثيرٌ لَا يُقرُّونَ بصَلَاة وَلَا صيَامٍ وَلَا حَجٍّ وَلَا عُمْرَة وَلَا يُحَرِّمُونَ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخنْزير وَلَا

يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.مِنْ جِنْسِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَالْنُصَيْرِيَّةِ وَالْحَاكِمِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَهُمْ كُفَّارٌ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.فَتَقَدَّمَ الْمَرَاسِيمُ السُّلْطَانِيَّةُ بِإِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ:مِنْ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَبْلِيغِ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُرَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ.وَأَبْلَغِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.وَذَلِكَ سَبَبٌ لِانْقِمَاعِ مَنْ يبـاطن الْعَدُوَّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَدُخُولِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.وَهُوَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُعِينُ اللَّهُ بِهَا عَلَى قَمْعِ الْأَعْدَاءِ.فَإِنَّ مَا فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي أَرْضِ " سِيسَ " نَوْعٌ مِنْ غَدْرِهِمْ الَّذِي بِهِ يَنْصُرُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ.وَفِي ذَلِكَ لِلَّهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَنُصْرَةٌ لِلْإِسْلَامِ جَسِيمَةٌ.عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«خَمْسٌ بِخَمْسٍ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ:«مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ،وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ،وَلَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ،وَلَا طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ»[١٦٢٣].

وَلَوْلَا هَذَا وَأَمْثَالُهُ مَا حَصَلَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ الْعَزْمِ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وَلِلْعَدُوِّ مِنْ الْخِذْلَانِ مَا يَنْصُرُ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُذِلُّ بِهِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ.وَاَللَّهُ هُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ خَاصَّةً وَعَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً.وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا."[١٦٢٤]

٢٧- الفرق بين حكم ملوك السنة وملوك الرفض ونحوهم:

يُوجَدُ فِي الْحِجَازِ وَسَوَاحِلِ الشَّامِ مِنَ الرَّافِضَةِ مَنْ يَنْتَحِلُونَ الْمَعْصُومَ.وَقَدْ رَأَيْنَا حَالَ مَنْ كَانَ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ،مِثْلِ جَبَلِ كَسْرُوانَ وَغَيْرِهِ،وَبَلَغَنَا أَخْبَارُ غَيْرِهِمْ،فَمَا رَأَيْنَا فِي الْعَالَمِ طَائِفَةً أَسْوَأَ مِنْ حَالِهِمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا،وَرَأَيْنَا الَّذِينَ هُمْ تَحْتَ سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ عَلَى الْإِطْلَاقِ خَيْرًا مِنْ حَالِهِمْ.

[١٦٢٣] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٤٥)(١٠٩٩٢) حسن

[١٦٢٤] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٠٠) فما بعدها

فَمَنْ كَانَ تَحْتَ سِيَاسَةِ مُلُوكِ الْكُفَّارِ حَالُهُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَحْسَنُ مِنْ أَحْوَالِ مَلَاحِدَتِهِمْ،كَالنُّصَيْرِيَّةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْغُلَاةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِلَهِيَّةَ وَالنُّبُوَّةَ فِي غَيْرِ الرَّسُولِ،أَوْ يَتَخَلَّوْنَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ وَيَعْتَقِدُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ،كَالْإِمَامِيَّةِ وَالزَّيْدِيَّةِ.

فَكُلُّ طَائِفَةٍ تَحْتَ سِيَاسَةِ مُلُوكِ السُّنَّةِ،وَلَوْ أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ أَظْلَمَ الْمُلُوكِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا،حَالُهُ خَيْرٌ مِنْ حَالِهِمْ،فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ أَهْلُ السُّنَّةِ،وَيَمْتَازُونَ بِهِ عَنِ الرَّافِضَةِ،تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُ الْمُدُنِ وَأَهْلِهَا عَلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ.وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ الرَّافِضَةُ وَيَمْتَازُونَ بِهِ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فَلَا تَقُومُ بِهِ مَصْلَحَةُ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا قَرْيَةٍ،وَلَا تَجِدُ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَلَا قَرْيَةٍ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الرَّفْضُ،إِلَّا وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِهِمْ:إِمَّا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ،وَإِمَّا مِنَ الْكُفَّارِ.

وَإِلَّا فَالرَّافِضَةُ وَحْدَهُمْ لَا يَقُومُ أَمْرُهُمْ [قَطُّ]،كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ وَحْدَهُمْ لَا يَقُومُ أَمْرُهُمْ قَطُّ،بِخِلَافِ أَهْلِ السُّنَّةِ،فَإِنَّ مَدَائِنَ كَثِيرَةً مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُومُونَ بِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،لَا يُحْوِجُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى كَافِرٍ وَلَا رَافِضِيٍّ.

وَالْخُلَفَاءُ الثَّلَاثَةُ فَتَحُوا الْأَمْصَارَ،وَأَظْهَرُوا الدِّينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ رَافِضِيٌّ.

بَلْ بَنُو أُمَيَّةَ بَعْدَهُمْ،مَعَ انْحِرَافِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عَنْ عَلِيٍّ وَسَبِّ بَعْضِهِمْ لَهُ،غَلَبُوا عَلَى مَدَائِنِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا،مِنْ مَشْرِقِ الْأَرْضِ إِلَى مَغْرِبِهَا،وَكَانَ الْإِسْلَامُ فِي زَمَنِهِمْ أَعَزَّ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ،وَلَمْ يَنْتَظِمْ بَعْدَ انْقِرَاضِ دَوْلَتِهِمُ الْعَامَّةِ لَمَّا جَاءَتْهُمُ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ،صَارَ إِلَى الْغَرْبِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ هِشَامٍ الدَّاخِلُ إِلَى الْمَغْرِبِ،الَّذِي يُسَمَّى صَقْرَ قُرَيْشٍ،وَاسْتَوْلَى هُوَ – وَمَنْ بَعْدَهُ – عَلَى بِلَادِ الْغَرْبِ،وَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ فِيهَا وَأَقَامُوهُ وَقَمَعُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،وَكَانَتْ لَهُمْ مِنَ السِّيَاسَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ.وَكَانُوا مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ،فَضْلًا عَنْ أَقْوَالِ الشِّيعَةِ،وَإِنَّمَا كَانُوا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،وَكَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ عَلَى مَذْهَبِ الْأَوْزَاعِيِّ وَأَهْلِ الشَّامِ،وَكَانُوا يُعَظِّمُونَ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ،وَيَنْصُرُهُ بَعْضُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ،وَهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَذْهَبِ

الشِّيعَةِ،وَكَانَ فِيهِمْ مِنَ الْهَاشِمِيِّينَ الْحُسَيْنِيِّينَ كَثِيرٌ،وَمِنْهُمْ مَنْ صَارَ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ عَلَــى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.[١٦٢٥]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٦٢٥] - منهاج السنة النبوية (٦/ ٤١٨)

المبحث الخامس

الخلاصة في أحكام المستأمن

التَّعْرِيفُ:

الْمُسْتَأْمِنُ فِي اللُّغَة بِكَسْرِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ اسْمُ فَاعِلٍ أَيْ:الطَّالِبُ لِلأَمَانِ،وَيَصِحُّ بِالْفَتْحِ اسْمَ مَفْعُولٍ وَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلصَّيْرُورَة،أَيْ صَارَ مُؤَامَنًا[1626]،يُقَالُ:اسْتَأْمَنَهُ:طَلَبَ مِنْهُ الأَمَانَ،وَاسْتَأْمَنَ إِلَيْه:دَخَل فِي أَمَانه[1627].

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الْمُسْتَأْمِنُ:مَنْ يَدْخُل إِقْلِيمَ غَيْرِه بِأَمَانٍ مُسْلِمًا كَانَ أَمْ حَرْبِيًّا[1628].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – الذِّمِّيُّ:

الذِّمِّيُّ فِي اللُّغَة:الْمُعَاهَدُ الَّذِي أُعْطِيَ عَهْدًا يَأْمَنُ بِهِ عَلَى مَالِه وَعِرْضِه وَدِينِه،وَالذِّمِّيُّ نِسْبَةٌ إِلَى الذِّمَّة،بِمَعْنَى الْعَهْد[1629].

وَالذِّمِّيُّ فِي الاِصْطِلاَحِ هُوَ الْمُعَاهَدُ مِنَ الْكُفَّارِ لأَنَّهُ أُومِنَ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ وَدِينِهِ بِالْجِزْيَة[1630].

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمِنِ وَالذِّمِّيِّ:أَنَّ الأَمَانَ لِلْمُسْتَأْمِنِ مُؤَقَّتٌ وَلِلذِّمِّيِّ مُؤَبَّدٌ[1631].

ب – الْحَرْبِيُّ:

الْحَرْبِيُّ مَنْسُوبٌ إِلَى الْحَرْب،وَهِيَ الْمُقَاتَلَةُ وَالْمُنَازَلَةُ،وَدَارُ الْحَرْب:بِلاَدُ الأَعْدَاء،وَأَهْلُهَا:حَرْبِيٌّ وَحَرْبِيُّونَ[1632].وَالصِّلَةُ بَيْنَهُمَا التَّبَايُنُ.

[1626] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

[1627] – المصباح المنير .

[1628] – الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، وقواعد الفقه للبركتي .

[1629] – المعجم الوسيط، والمصباح المنير .

[1630] – قواعد الفقه للبركتي .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٦٨)

[1631] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١١٠ .

[1632] – قواعد الفقه للبركتي .

مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَأْمِنِ مِنْ أَحْكَامٍ:

يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَأْمِنِ أَحْكَامٌ مِنْهَا:

أَمَانُ الْمُسْتَأْمِنِ:

١ – مَشْرُوعِيَّةُ الأَمَانِ وَالْحِكْمَةُ فِيهَا:

الأَصْلُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ أَمَانِ الْمُسْتَأْمِنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) } [التوبة:٦]،وعن إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،حَدَّثَنِي أَبِي،قَالَ:خَطَبَنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ آجُرٍّ وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ،فَقَالَ:وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فَنَشَرَهَا،فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الإِبِلِ،وَإِذَا فِيهَا:«المَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا،فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»،وَإِذَا فِيهِ:«ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»،وَإِذَا فِيهَا:«مَنْ وَالَى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»[١٦٣٣] .

وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فِي مَشْرُوعِيَّتِهِ كَمَا نَصَّ عَلَيْهَا النَّوَوِيُّ:قَدْ تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةُ الأَمَانَ لاسْتِمَالَةِ الْكَافِرِ إِلَى الإِسْلاَمِ،أَوْ إِرَاحَةِ الْجَيْشِ،أَوْ تَرْتِيبِ أَمْرِهِمْ،أَوْ لِلْحَاجَةِ إِلَى دُخُولِ الْكُفَّارِ،أَوْ لِمَكِيدَةٍ وَغَيْرِهَا[١٦٣٤] .

ب – حُكْمُ طَلَبِ الأَمَانِ أَوْ إِعْطَائِهِ لِلْمُسْتَأْمِنِ:

إِعْطَاءُ الأَمَانِ لِلْمُسْتَأْمِنِ أَوْ طَلَبِهِ لِلأَمَانِ مُبَاحٌ وَقَدْ يَكُونُ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا.

وَبِالأَمَانِ يَثْبُتُ لِلْمُسْتَأْمِنِ الأَمْنُ عَنِ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَغُنْمِ الْمَالِ،فَيَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَتْلُ رِجَالِهِمْ وَسَبْيُ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَاغْتِنَامُ أَمْوَالِهِمْ[١٦٣٥] .

[١٦٣٣] – صحيح البخاري (٩/ ٩٧)(٧٣٠٠) ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، وفتح القدير ٤ / ٢٩٨، والمغني ٨ / ٣٩٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦

[١٦٣٤] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨ .

[١٦٣٥] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧ .

ج – مَنْ يَحقُّ لَهُ إِعْطَاءُ الأَمَان لِلْمُسْتَأْمَن

الأَمَانُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَوْ مِنَ الأَمِيرِ،أَوْ مِنْ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ.

أَوْلاً – أَمَانُ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِه:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ وَآحَادِهِمْ،لأَنَّ وِلاَيَتَهُ عَامَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يُعْطِيَ الْكُفَّارَ الأَمَانَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِمَصْلَحَةٍ اقْتَضَتْهُ تَعُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،لاَ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ[1636].

قلت:هذا إذا كان حاكماً للمسلمين يحكم بما أنزل الله تعالى ويقيم الحدود،ويجاهد في سبيل الله،ولا يوالي أعداء الإسلام،ولم يرتكب ناقضا من وناقض الإسلام،فإن حصل واحد من هذه فهو ليس بولي لنا وأمانه لا قيمة له بتاتاً،ولا عبرة بما يسوقه فقهاء الهزيمة منإسباغ الأمان لهؤلاء الحكام الذي فرضوا على الأمة بالقوة ولا يحكمون بما أنزل الله...

(التَّصَرُّفُ عَلَى الرَّعِيَّةِ مَنُوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ)

إن نفاذ تصرف الراعي على الرعية،ولزومه عليهم شاؤوا أو أبوا معلق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه،دينية كانت أو دنيوية،فإن تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذه،وإلا ردّ،لأن الراعي ناظر،وتصرفه حينئذٍ متردد بين الضرر والعبث وكلاهما ليس من النظر في شيء.

والمراد من الراعي:كل من ولي أمراً من أمور العامة،عاماً كان كالسلطان الأعظم،أو خاصاً كمن دونه من العمال،فإن نفاذ تصرفات كل منهم على العامة مترتب على وجود المنفعة في ضمنها،لأنه مأمور من قبل الشارع – – ﷺ – أن يحوطهم بالنصح،ومتوعد من قبله على ترك ذلك بأعظم وعيد.

وهذه القاعدة ترسم حدود الإدارات العامة والسياسة الشرعية في سلطان الولاة وتصرفاتهم على الرعية،فتفيد أن أعمال الولاة النافذة على الرعية يجب أن تبنى على المصلحة للجماعة وخيرها،لأن الولاة من الخليفة فمن دونه ليسوا عمالاً لأنفسهم،وإنما

[1636] – الشرح الصغير ٢ / ٢٨٥، ٢٨٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥، وفتح القدير ٤ / ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠ .

هم وكلاء عن الأمة في القيام بأصلح التدابير لإقامة العدل،ودفع الظلم،وصيانة الحقــوق والأخلاق،وضبط الأمن،ونشر العلم،وتطهير المجتمع من الفساد،وتحقيق كل خير للأمــة بأفضل الوسائل،مما يعبر عنه بالمصلحة العامة،فكل عمل أو تصرف مــن الــولاة علــى خلاف هذه المصلحة مما يقصد به استثمار أو استبداد،أو يؤدي إلى ضرر أو فســاد،هو غير جائز.

والأصل في هذه القاعدة ما جاء عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَــارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،قَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُــولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِــنْ عَبْــدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً،يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».[١٦٣٧]

وعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ،فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ:إِنِّــي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَــا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ،وَيَنْصَحُ،إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»[١٦٣٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَــدْ خَــانَ اللَّــهَ وخــانَ رَسُــولَهُ وخــانَ الْمُؤْمِنِينَ»[١٦٣٩]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا مِنَ الْمُسْــلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْــهُ وَأَعْلَــمُ بِكِتَــابِ اللهِ وَسُــنَّةِ نَبِيِّهِ،فَقَــدْ خَــانَ اللهَ،وَرَسُولَهُ،وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ "[١٦٤٠]

[١٦٣٧] - صحيح مسلم (١/ ١٢٥)(٢٢٧ - (١٤٢)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم]

[١٦٣٨] - صحيح مسلم (١/ ١٢٦)(١٤٢)

[١٦٣٩] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٠٤)(٧٠٢٣) حسن لغيره

[١٦٤٠] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٠١)(٢٠٣٦٤) حسن

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ،إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَلَا سَمْعَ عَلَيْهِ وَلَا طَاعَةَ»[1641]

ثَانِيًا – أَمَانُ الأَْمِيرِ:

نَصَّ الْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ الأَْمِيرِ لأَِهْل بَلْدَةٍ جُعِل بِإِزَائِهِمْ،أَيْ:وَلِيَ قِتَالَهُمْ ؛لأَِنَّ لَهُ الْوِلاَيَةَ عَلَيْهِمْ فَقَطْ،وَأَمَّا فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ فَهُوَ كَآحَادِ الرَّعِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ؛لأَِنَّ وِلاَيَتَهُ عَلَى قِتَال أُولَئِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ[1642] .

قلت:لا بد من توفر الشروط الشرعية به حتى يصح أمانه.

ثَالِثًا – أَمَانُ آحَادِ الرَّعِيَّةِ

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الأَْصَحِّ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ آحَادِ الرَّعِيَّةِ بِشُرُوطِهِ،لِوَاحِدٍ وَعَشَرَةٍ،وَقَافِلَةٍ وَحِصْنٍ صَغِيرَيْنِ عُرْفًا كَمِائَةٍ فَأَقَل:لأَِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَجَازَ أَمَانَ الْعَبْدِ لأَِهْل الْحِصْنِ،وَلاَ يَصِحُّ أَمَانُ أَحَدِ الرَّعِيَّةِ لأَِهْل بَلْدَةٍ كَبِيرَةٍ،وَلاَ رُسْتَاقٍ،وَلاَ جَمْعٍ كَبِيرٍ ؛لأَِنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَعْطِيل الْجِهَادِ،وَالاِفْتِيَاتِ عَلَى الإِْمَامِ.

قَال الْمَالِكِيَّةُ:إِنْ أَمَّنَ غَيْرُ الإِْمَامِ إِقْلِيمًا أَيْ عَدَدًا غَيْرَ مَحْصُورٍ،أَوْ أَمَّنَ عَدَدًا مَحْصُورًا بَعْدَ فَتْحِ الْبَلَدِ،نَظَرَ الإِْمَامُ فِي ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ صَوَابًا أَبْقَاهُ وَإِلاَّ رَدَّهُ.

وَقَال النَّوَوِيُّ:وَضَابِطُهُ:أَنْ لاَ يَنْسَدَّ بَابُ الْجِهَادِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ فَإِذَا تَأَتَّى الْجِهَادُ بِغَيْرِ تَعَرُّضٍ لِمَنْ أُمِّنَ،نَفَذَ الأَْمَانُ ؛لأَِنَّ الْجِهَادَ شِعَارُ الدِّينِ،وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَكَاسِبِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي مُقَابِل الأَْصَحِّ لِلشَّافِعِيَّةِ:لاَ يَجُوزُ أَمَانُ وَاحِدٍ لأَِهْل قَرْيَةٍ وَإِنْ قَل عَدَدُ مَنْ فِيهَا[1643] .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ يَصِحُّ الأَْمَانُ مِنَ الْوَاحِدِ سَوَاءٌ أَمَّنَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً أَوْ قَلِيلَةً،أَوْ أَهْل مِصْرٍ أَوْ قَرْيَةٍ،وَعِبَارَةُ فَتْحِ الْقَدِيرِ:أَوْ أَهْل حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ[1644] .

[1641] – السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٧١)(٨٦٦٧) صحيح

[1642] – كشاف القناع ٣ / ١٠٥، والمغني ٨ / ٣٩٨ .

[1643] – الشرح الصغير ٢ / ٢٨٥، ٢٨٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥

[1644] – فتح القدير ٤ / ٢٩٨، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦ .

عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ،أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ،تَقُولُ:ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ،فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ،قَالَتْ:فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،فَقَالَ:«مَنْ هَذِهِ»،فَقُلْتُ:أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ:«مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ»،فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ،قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،فَلَمَّا انْصَرَفَ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ،فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ» قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:وَذَاكَ ضُحًى"[١٦٤٥]

وعَنْ أَنَسٍ:أَنَّ زَيْنَبَ هَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَزَوْجُهَا كَافِرٌ،فَأَسَرَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ فَقَالَتْ زَيْنَبُ:إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ جِوَارَهَا،وَقَالَ:«إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ»[١٦٤٦]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ:أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ اسْتَأْذَنَتْ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ حِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُهَاجِرًا أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ فَأَذِنَ لَهَا،فَقَدِمَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ لَحِقَهَا بِالْمَدِينَةِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا أَنْ خُذِي مِنْ أَبِيكِ أَمَانًا فَأَطْلَعَتْ رَأْسِهَا مِنْ بَابِ حُجْرَتِهَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَقَالَتْ:أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا زَيْنَبُ،وَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ،فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ،قَالَ:«إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ بِهَذَا حَتَّى سَمِعْتُهُ الْآنَ وَإِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ»[١٦٤٧]

د – مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِعْطَاءِ الأَمَانِ:

[١٦٤٥] – صحيح البخاري (١/ ٨١)(٣٥٧) وصحيح مسلم (١/ ٤٩٨)٨٢ – (٣٣٦)

[ش (انصرف) أي من الصلاة.(ابن أمي) أي وأبي وهو علي رضي الله عنه.(أجرته) أدخلته في جواري وهو الأمان.(فلان) هو جعدة ولد زوجها من غيرها على ما قيل.(ضحى) وقت الضحى]

[١٦٤٦] – المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٤٢٦)(١٠٤٩) صحيح

[١٦٤٧] – المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٤٢٥)(١٠٤٧) حسن

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ الأَمَانُ مِنَ الإِمَامِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ بِشُرُوطِهِ،وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا الْوَفَاءُ بِهِ،فَلاَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ،وَلاَ أَسْرُهُمْ،وَلاَ أَخْذُ شَيْءٍ مِـــنْ مَـــالِهِمْ،وَلاَ التَّعَرُّضُ لَهُمْ،لِعِصْمَتِهِمْ،وَلاَ أَذِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ وَجْهٍ شَرْعِيٍّ[١٦٤٨] .

وَأَمَّا سِرَايَةُ حُكْمِ الأَمَانِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤَمَّنِ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ:فَقَدْ نَصَّ الْحَنَابِلَةُ،وَالشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِلِ الأَصَحِّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أُمِّنَ مَنْ يَصِحُّ أَمَانُهُ سَرَى الأَمَانُ إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ،وَمَا مَعَهُ مِنْ مَالٍ،إِلاَّ أَنْ يَقُول مُؤَمِّنُهُ:أَمَّنْتُكَ وَحْدَكَ وَنَحْوَهُ،مِمَّا يَقْتَضِي تَخْصِيصَهُ بِالأَمَانِ،فَيَخْتَصُّ بِهِ[١٦٤٩] .

هَذَا بِالنِّسْبَةِ لأَهْلِهِ وَمَالِهِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلاَ يَسْـــرِي إِلَيْهِ الأَمَانُ جَزْمًا عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ[١٦٥٠] .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَصَحِّ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَسْرِي الأَمَانُ إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ وَمَا مَعَهُ مِـــنْ مَالٍ إِلاَّ بِالشَّرْطِ،لِقُصُورِ اللَّفْظِ عَنِ الْعُمُومِ[١٦٥١] .

وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ فَقَالُوا:الْمُرَادُ بِمَا مَعَهُ مِنْ مَالِهِ غَيْرُ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ مُدَّةَ أَمَانِهِ،أَمَّا الْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيَدْخُل وَلَوْ بِلاَ شَرْطٍ،وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي حِرْفَتِهِ مِنَ الآلاَتِ،وَمَرْكُوبِـــهِ إِنْ لَـــمْ يَسْتَغْنِ عَنْهُ،هَذَا إِذَا أَمَّنَهُ غَيْرُ الإِمَامِ،فَإِنْ أَمَّنَهُ الإِمَامُ دَخَل مَا مَعَهُ بِلاَ شَرْطٍ،وَلاَ يَدْخُل مَـــا خَلَّفَهُ بِدَارِ الْحَرْبِ إِلاَّ بِشَرْطٍ مِنَ الإِمَامِ،أَمَّا إِذَا كَانَ الأَمَانُ لِلْحَرْبِيِّ بِدَارِهِمْ:فَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِدَارِهِمْ دَخَلاَ وَلَوْ بِلاَ شَرْطٍ إِنْ أَمَّنَهُ الإِمَامُ،وَإِنْ أَمَّنَهُ غَيْرُهُ لَمْ يَدْخُل أَهْلُـــهُ وَلاَ مَا لاَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ إِلاَّ بِشَرْطٍ،وَلاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَا مَعَهُ مِـــنْ مَالِـــهِ أَوْ مَـــال غَيْرِهِ[١٦٥٢] .

هـــ – مَا يَنْعَقِدُ بِهِ الأَمَانُ:

[١٦٤٨] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٣٢٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[١٦٤٩] – كشاف القناع ٣ / ١٠٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[١٦٥٠] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[١٦٥١] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١ .

[١٦٥٢] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الأَمَانَ يَنْعَقدُ بكُل لَفْظ يُفيدُ الْغَرَضَ،وَهُوَ اللَّفْظُ الدَّال عَلَى الأَمَان نَحْوُ قَوْل الْمُقَاتل مَثَلاً:آمَنْتُكُمْ،أَوْ أَنْتُمْ آمنُونَ،أَوْ أَعْطَيْتُكُمُ الأَمَانَ،وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى.

وَزَادَ الْحَصْكَفِيُّ منَ الْحَنَفيَّة:وَإِنْ كَانَ الْكُفَّارُ لاَ يَعْرِفُونَهُ،بَعْدَ مَعْرِفَة الْمُسْلمينَ كَوْنَ ذَلكَ اللَّفْظ أَمَانًا بشَرْط سَمَاع الْكُفَّار ذَلكَ منَ الْمُسْلمينَ،فَلاَ أَمَانَ لَوْ كَانَ بالْبُعْد منْهُمْ.كَمَا ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الأَمَانُ بأَيِّ لُغَة كَانَ،بالصَّريح منَ اللَّفْظ كَقَوْله:أَجَرْتُكَ،أَوْ آمَنْتُكَ،أَوْ أَنْتَ آمنٌ وَبالْكنَايَة:كَقَوْله:أَنْتَ عَلَى مَا تُحبُّ،أَوْ كُنْ كَيْفَ شئْتَ وَنَحْوَهُ.

وَزَادَ بَعْضُ الشَّافعيَّة كَالرَّمْليِّ وَالشِّرْبينيِّ الْخَطيب اشْترَاطَ النِّيَّة في الْكنَايَة.

وَيَجُوزُ الأَمَانُ بالْكتَابَة لأَثَر فيه عَنْ عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ،وَقَال الشِّرْبينيُّ الْخَطيبُ:وَلاَ بُدَّ فيهَا منَ النِّيَّة لأَنَّهَا كنَايَةٌ.

كَمَا يَجُوزُ بالرِّسَالَة:لأَنَّهَا أَقْوَى منَ الْكتَابَة،قَال الشِّرْبينيُّ:سَوَاءٌ كَانَ الرَّسُول مُسْلمًا أَمْ كَافرًا ؛لأَنَّ بنَاءَ الْبَاب عَلَى التَّوْسعَة في حَقْن الدَّم،وَكَذَلكَ بإِشَارَة مُفْهمَة وَلَوْ منْ نَاطق:لقَوْل عُمَرَ رَضيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:وَاللَّه لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَشَارَ بأُصْبُعه إِلَى السَّمَاء إِلَى مُشْرك،فَنَزَل بأَمَانه فَقَتَلَهُ،لَقَتَلْتُهُ به،وَلأَنَّ الْحَاجَةَ دَاعيَةٌ إِلَى الإِشَارَة ؛لأَنَّ الْغَالبَ فيهمْ عَدَمُ فَهْم كَلاَم الْمُسْلمينَ،وَكَذَا الْعَكْسُ.

فَلَوْ أَشَارَ مُسْلمٌ لكَافر فَظَنَّ أَنَّهُ أَمَّنَهُ،فَأَنْكَرَ الْمُسْلمُ أَنَّهُ أَمَّنَهُ بهَا،فَالْقَوْل قَوْلُهُ ؛لأَنَّهُ أَعْلَمُ بمُرَاده،وَلَكنْ لاَ يُغْتَال بَل يَلْحَقُ بمَأْمَنه،وَإِنْ مَاتَ الْمُشيرُ قَبْل أَنْ يُبَيِّنَ الْحَال فَلاَ أَمَانَ،وَلاَ اغْتيَال فَيَبْلُغُ الْمَأْمَنَ[١٦٥٣] .

وَيَصحُّ إِيجَابُ الأَمَان مُنَجَّزًا كَقَوْله:أَنْتَ آمنٌ،وَمُعَلَّقًا بشَرْط،كَقَوْله:مَنْ فَعَل كَذَا فَهُوَ آمنٌ[١٦٥٤]،لقَوْل عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ،قَالَ:وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاويَةَ وَذَلكَ في رَمَضَانَ،فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لبَعْضٍ الطَّعَامَ،فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ ممَّا يُكْثرُ أَنْ يَدْعُوَنَا إِلَى رَحْله،فَقُلْتُ:أَلَا

[١٦٥٣] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وابن عابدين ٣ / ٢٧٧، والقوانين الفقهية ١٥٩، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، الوجيز ٢ / ١٩٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والقليوبي ٤ / ٢٢٦، وروض الطالب ٤ / ٢٠٣، والمغني ٨ / ٣٩٨ - ٤٠٠، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥ .

[١٦٥٤] - كشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمراجع السابقة .

أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ،ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ،فَقُلْتُ:الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ،فَقَالَ:سَبَقْتَنِي،قُلْتُ:نَعَمْ،فَدَعَوْتُهُمْ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:أَلَا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ،فَقَالَ:أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ،فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ،وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى،وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ،فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي،وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ،قَالَ:فَنَظَرَ فَرَآنِي،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:قُلْتُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،فَقَالَ:«لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ» - زَادَ غَيْرُ شَيْبَانَ -،فَقَالَ:«اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ»،قَالَ:فَأَطَافُوا بِهِ،وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا،وَأَتْبَاعًا،فَقَالُوا:نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ،فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ،وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ،وَأَتْبَاعِهِمْ»،ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى،ثُمَّ قَالَ:«حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا»،قَالَ:فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ،وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ [ص:١٤٠٦] يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا،قَالَ:فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ،لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»،فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ،وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا،فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ،فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ» قَالُوا:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:" قُلْتُمْ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟ " قَالُوا:قَدْ كَانَ ذَاكَ،قَالَ:«كَلَّا،إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ،هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ،وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»،فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ:وَاللهِ،مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ،وَيَعْذِرَانِكُمْ»،قَالَ:فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ،وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ،قَالَ:وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ،فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ،قَالَ:فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ،قَالَ:وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْسٌ وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ،فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ،وَيَقُولُ:{جَاءَ

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء:٨١]،فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا،فَعَلَا عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ،وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ"[١٦٥٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ،جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ قُرَيْشٌ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»[١٦٥٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ،قَالَ:وَفَدْنَا إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَفِينَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَكَانَ هَذَا يَصْنَعُ يَوْمَ الطَّعَامِ فَيَدْعُو هَذَا،وَيَصْنَعُ هَذَا يَوْمَ الطَّعَامِ فَيَدْعُو هَذَا،قُلْتُ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،الْيَوْمُ يَوْمِي فَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ الطَّعَامُ فَقُلْتُ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،حَدِّثْنَا بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يُدْرَكَ طَعَامُنَا،قَالَ:شَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ،فَقَالَ:«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،ادْعُ لِيَ الْأَنْصَارَ».فَدَعَوْتُهُمْ فَجَاءُوا يُهَرْوِلُونَ،فَقَالَ:«هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ النَّاسِ؟»

[١٦٥٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)(٨٤ - (١٧٨٠)

[ش (المجنبتين) هما الميمنة والميسرة ويكون القلب بينهما (الحسر) أي الذين لا دروع لهم(فأخذوا بطن الوداي) أي جعلوا طريقهم في بطن الوادي(في كتيبة) الكتيبة القطعة العظيمة من الجيش(اهتف لي بالأنصار) أي صح بهم وادعهم لي(فأطافوا به) أي فجاءوا وأحاطوا به وإنما خصهم لثقته بهم ورفعا لمراتبهم وإظهارا لجلالتهم وخصوصيتهم(ووبشت قريش أوباشا لها) أي جمعت جموعا من قبائل شتى(ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى) فيه إطلاق القول على الفعل أي أشار إلى هيئتهم المجتمعة(فما شاء أحد منا الخ) أي لا يدفع أحد منهم عن نفسه(أبيحت خضراء قريش) كذا في هذه الرواية أبيحت وفي التي بعدها أبيت وهما متقاربتان أي استؤصلت قريش بالقتل وأفنيت وخضراؤهم بمعنى جماعتهم ويعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة ومنه السواد الأعظم(فقالت الأنصار بعضهم لبعض) معنى هذا أنهم رأوا رأفة النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة وكف القتل عنهم فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائما ويرحل عنهم ويهجر المدينة فشق ذلك عليهم فأوحى الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم فأعلمهم بذلك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتم كذا وكذا قالوا نعم قد قلنا هذا(كلا) معنى كلا هنا حقا ولها معنيان أحدهما حقا والآخر النفي(هاجرت إلى الله وإليكم الخ) معناه أني هاجرت إلى الله تعالى وإلى دياركم لاستيطانها فلا أتركها ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى بل أنا ملازم لكم المحيا محياكم والممات مماتكم أي لا أحيا إلا عندكم ولا أموت إلا عندكم فلما قال لهم هذا بكوا واعتذروا وقالوا والله ما قلنا كلامنا السابق إلا حرصا عليك وعلى مصاحبتك ودوامك عندنا لنستفيد منك ونتبرك بك وتهدينا الصراط المستقيم

(إلا الضن) هو الشح(بسية القوس) أي بطرفها المنحني قال في المصباح هي خفيفة الياء ولا مها محذوفة وترد في النسبة فيقال سيوي والهاء عوض عنها ويقال لسيتها العليا يدها ولسيتها السفلى رجلها]

[١٦٥٦] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣)(٧٢٦٧) صحيح

قَالُوا:نَعَمْ.قَالَ:«فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا،فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا،ثُمَّ مَوْعِدُكُمُ الصَّفَا».قَالَ:وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ،وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَاسْتَعْمَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ عَلَى النَّادِفَةِ فِي بَطْنِ الْوَادِي،فَلَمَّا جَاءَ الْقَوْمُ لَقِينَاهُمْ فَمَا تَقَدَّمَ أَحَدٌ إِلَّا أَنَامُوهُ وَفُتِحَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَجَاءَ فَصَعِدَ الصَّفَا،وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ فَأَطَافُوا بِالصَّفَا،وَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،فَقَالَ:«مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»[١٦٥٧]

وَأَمَّا الْقَبُول فَلاَ يُشْتَرَطُ،وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ الْبُلْقِينِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ فَقَال:إِنَّ الإِْمَامَ الشَّافِعِيَّ لَمْ يَعْتَبِرِ الْقَبُول وَقَال:وَهُوَ مَا عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ لأَِنَّ بِنَاءَ الْبَابِ عَلَى التَّوْسِعَةِ،فَيَكْفِي السُّكُوتُ،وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ مَعَ السُّكُوتِ مَا يُشْعِرُ بِالْقَبُول،وَهُوَ الْكَفُّ عَنِ الْقِتَال كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْمَاوَرْدِيُّ،وَتَكْفِي إِشَارَةٌ مُفْهِمَةٌ لِلْقَبُول وَلَوْ مِنْ نَاطِقٍ.

قَال الشِّرْبِينِيُّ:إِنَّ مَحَل الْخِلاَفِ فِي اعْتِبَارِ الْقَبُول:إِذَا لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ اسْتِيجَابٌ،فَإِنْ سَبَقَ مِنْهُ لَمْ يُحْتَجْ لِلْقَبُول جَزْمًا[١٦٥٨] .

و – شَرْطُ إِعْطَاءِ الأَْمَانِ لِلْمُسْتَأْمَنِ

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ شَرْطَ الأَْمَانِ انْتِفَاءُ الضَّرَرِ،وَلَوْ لَمْ تَظْهَرِ الْمَصْلَحَةُ[١٦٥٩] .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يُشْتَرَطُ فِي الأَمَانِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ[١٦٦٠] .

ز – شُرُوطُ الْمُؤَمِّنِ

لِلْمُؤَمِّنِ شُرُوطٌ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

الشَّرْطُ الأَْوَّل:الإِْسْلاَمُ:

[١٦٥٧] – المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣)(٧٢٦٦) صحيح

[١٦٥٨] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٧ .

[١٦٥٩] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٨٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، ٢٣٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والفروع ٦ / ١٤٨، ٢٤٩ .

[١٦٦٠] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الأَمَانُ مِنْ مُسْلِمٍ فَلاَ يَصِحُّ مِنْ كَافِرٍ،وَزَادَ الْكَاسَانِيُّ:وَإِنْ كَانَ يُقَاتِل مَعَ الْمُسْلِمِينَ ؛لأَنَّهُ مُتَّهَمٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ فَلاَ تُؤْمَنُ خِيَانَتُهُ،وَلأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُتَّهَمًا فَلاَ يَدْرِي أَنَّهُ بَنَى أَمَانَهُ عَلَى مُرَاعَاةِ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ التَّفَرُّقِ عَنْ حَال الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ أَمْ لاَ،فَيَقَعُ الشَّكُّ فِي وُجُودِ شَرْطِ الصِّحَّةِ،فَلاَ يَصِحُّ مَعَ الشَّكِّ[1661]،وَنَصُّوا عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ وَلَوْ كَانَ ذِمِّيًّا،وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،أَنَّهُ قَالَ:لَيْسَ عِنْدَنَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِتَابٍ شَيْءٌ إِلَّا كِتَابَ اللهِ،وَشَيْءٌ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ:«ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ،لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ» قَالَ عَبْدُ اللهِ:فَالْعَدْلُ:هِيَ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ،وَالصَّرْفُ:صَلَاةُ التَّطَوُّعِ،قَالَ عَبْدُ اللهِ:وَيُقَالُ:الْعَدْلُ:الْفِدْيَةُ،وَالصَّرْفُ:التَّوْبَةُ،[1662] وَوَجْهُ الاسْتِدْلاَل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَل الذِّمَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ،فَلاَ تَحْصُل لِغَيْرِهِمْ،وَلأَنَّ كُفْرَهُ يَحْمِلُهُ عَلَى سُوءِ الظَّنِّ،وَلأَنَّهُ مُتَّهَمٌ عَلَى الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ،فَأَشْبَهَ الْحَرْبِيَّ،وَلأَنَّهُ كَافِرٌ فَلاَ وِلاَيَةَ لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَزَادَ الْحَنَفِيَّةُ:إِلاَّ إِذَا أَمَرَهُ بِهِ مُسْلِمٌ – سَوَاءٌ كَانَ الآْمِرُ أَمِيرَ الْعَسْكَرِ أَوْ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ – بِأَنْ قَال الْمُسْلِمُ لِلذِّمِّيِّ:آمِنْهُمْ،فَقَال الذِّمِّيُّ:قَدْ آمَنْتُكُمْ،لأَنَّ أَمَانَ الذِّمِّيِّ إِنَّمَا لاَ يَصِحُّ لِتُهْمَةِ مَيْلِهِ إِلَيْهِمْ،وَتَزُول التُّهْمَةُ إِذَا أَمَرَهُ بِهِ مُسْلِمٌ،وَكَذَلِكَ إِذَا قَال الذِّمِّيُّ:إِنَّ فُلاَنًا الْمُسْلِمَ قَدْ آمَنَكُمْ،لأَنَّهُ صَارَ مَالِكًا لِلأَمَانِ بِهَذَا الأَمْرِ،فَيَكُونُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ مُسْلِمٍ آخَرَ[1663].

الشَّرْطُ الثَّانِي:الْعَقْل:

[1661] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والقوانين الفقهية / ١٥٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[1662] – الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٥٨)(٦٦٦٢) صحيح

[1663] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦، ٢٣٧ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْمَجْنُونِ لأَنَّ الْعَقْل شَرْطُ أَهْلِيَّةِ التَّصَرُّفِ،وَلأَنَّ كَلاَمَهُ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فَلاَ يَثْبُتُ بِهِ حُكْمٌ[١٦٦٤].

الشَّرْطُ الثَّالِثُ:الْبُلُوغُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الطِّفْل وَكَذَلِكَ الصَّبِيُّ الْمُرَاهِقُ إِذَا كَانَ لاَ يَعْقِل الإِْسْلاَمَ قِيَاسًا عَلَى الْمَجْنُونِ.فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ:عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ،وَعَنِ الْغُلَامِ حَتَّى يَحْتَلِمَ،وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ».[١٦٦٥]

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مُمَيِّزًا يَعْقِل الإِْسْلاَمَ،وَلَكِنَّهُ كَانَ مَحْجُورًا عَنِ الْقِتَال،فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ فِي وَجْهٍ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُهُ ؛لأَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ الأَْمَانِ أَنْ يَكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ،وَبِالْكُفْرِ قُوَّةٌ،وَهَذِهِ حَالَةٌ خَفِيَّةٌ وَلاَ يُوقَفُ عَلَيْهَا إِلاَّ بِالتَّأَمُّل وَالنَّظَرِ،وَلاَ يُوجَدُ ذَلِكَ مِنَ الصَّبِيِّ،وَلاِشْتِغَالِهِ بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ،وَلأَنَّهُ لاَ يَمْلِكُ الْعُقُودَ،وَالأَْمَانُ عَقْدٌ،وَمَنْ لاَ يَمْلِكُ أَنْ يَعْقِدَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ،فَفِي حَقِّ غَيْرِهِ أَوْلَى،وَلأَنَّ قَوْلَهُ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ كَطَلاَقِهِ وَعَتَاقِهِ.

وَقَال الْحَنَابِلَةُ فِي وَجْهٍ آخَرَ وَمُحَمَّدٌ:يَصِحُّ،لأَنَّ أَهْلِيَّةَ الأَْمَانِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَهْلِيَّةِ الإِْيمَانِ،وَالصَّبِيُّ الْمُمَيِّزُ الَّذِي يَعْقِل الإِْسْلاَمَ مِنْ أَهْل الإِْيمَانِ،فَيَكُونُ مِنْ أَهْل الأَْمَانِ كَالْبَالِغِ[١٦٦٦].

وَإِنْ كَانَ مَأْذُونًا فِي الْقِتَال فَالأَْصَحُّ أَنَّهُ يَصِحُّ بِالاِتِّفَاقِ بَيْنَ الْحَنَفِيَّةِ ؛لأَنَّهُ تَصَرُّفٌ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ،فَيَمْلِكُهُ الصَّبِيُّ الْمَأْذُونُ[١٦٦٧].

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ فِي الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ خِلاَفٌ،قِيل:يَجُوزُ وَيَمْضِي وَقِيل:لاَ يَجُوزُ ابْتِدَاءً،وَيُخَيَّرُ فِيهِ الإِْمَامُ إِنْ وَقَعَ:إِنْ شَاءَ أَمْضَاهُ،وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ[١٦٦٨].

[١٦٦٤] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦، ٢٣٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤ .

[١٦٦٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٥٥)(١٤٢) صحيح

[١٦٦٦] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وفتح القدير ٤ / ٣٠٢، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

[١٦٦٧] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، ٢٢٧، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وفتح القدير ٤ / ٣٠٢ .

[١٦٦٨] - الشرح الصغير ٢ / ٢٨٧ .

وَقَال الشَّافعيَّةُ:لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الصَّبِيِّ وَفِي الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ وَجْهٌ كَتَدْبِيرِه[١٦٦٩] .

وَمَنْ زَال عَقْلُهُ بِنَوْمٍ أَوْ سُكْرٍ أَوْ إِغْمَاءٍ،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ فِي حُكْمِ الصَّبِيِّ غَيْرِ الْمُمَيِّزِ ؛لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الْمَصْلَحَةَ مِنْ غَيْرِهَا،وَلأَنَّ كَلاَمَهُمْ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فَلاَ يَثْبُتُ بِهِ حُكْمٌ[١٦٧٠] .

الشَّرْطُ الرَّابِعُ:الاخْتِيَارُ

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ الأَْمَانُ مِنْ مُكْرَهٍ لأَنَّهُ قَوْلٌ أُكْرِهَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَلَمْ يَصِحَّ كَالإِْقْرَارِ[١٦٧١] .عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ،وَالنِّسْيَانَ،وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[١٦٧٢]

الشَّرْطُ الْخَامِسُ:عَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الْكَفَرَةِ:

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِل الأَْصَحِّ إِلَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ الأَْسِيرِ إِذَا عَقَدَهُ غَيْرُ مُكْرَهٍ،لِدُخُولِهِ فِي عُمُومِ الْخَبَرِ،وَلأَنَّهُ مُسْلِمٌ مُكَلَّفٌ مُخْتَارٌ فَأَشْبَهَ غَيْرَ الأَْسِيرِ،قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَكَذَلِكَ يَصِحُّ أَمَانُ الأَْجِيرِ،وَالتَّاجِرِ فِي دَارِ الْحَرْبِ

وَيَرَى الشَّافعيَّةُ فِي الأَْصَحِّ عَدَمَ جوَازِ أَمَانِ الأَْسِيرِ،قَال الشِّرْبِينِيُّ الْخَطِيبُ:مَحَل الْخِلاَفِ فِي الأَْسِيرِ الْمُقَيَّدِ وَالْمَحْبُوسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُكْرَهًا ؛لأَنَّهُ مَقْهُورٌ بِأَيْدِيهِمْ لاَ يَعْرِفُ وَجْهَ الْمَصْلَحَةِ،وَلأَنَّ وَضْعَ الأَْمَانِ أَنْ يَأْمَنَ الْمُؤَمِّنُ،وَلَيْسَ الأَْسِيرُ آمِنًا،وَأَمَّا أَسِيرُ الدَّارِ،وَهُوَ الْمُطْلَقُ بِدَارِ الْكُفْرِ الْمَمْنُوعُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا فَيَصِحُّ أَمَانُهُ[١٦٧٣] .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ مَنْ كَانَ مَقْهُورًا عِنْدَ الْكُفَّارِ كَالأَْسِيرِ وَالتَّاجِرِ فِيهِمْ،وَمَنْ أَسْلَمَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ فِيهِمْ ؛لأَنَّهُمْ مَقْهُورُونَ عِنْدَهُمْ،فَلاَ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَيَانِ،وَلاَ يَخَافُهُمُ الْكُفَّارُ،وَالأَْمَانُ يَخْتَصُّ بِمَحَل الْخَوْفِ،وَلأَنَّهُمْ يُجْبَرُونَ عَلَيْهِ،فَيُعْرَى

[١٦٦٩] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

[١٦٧٠] - المغني ٨ / ٣٩٨ .

[١٦٧١] - الشرح الصغير ٢ / ٢٨٧،والقوانين الفقهية ١٥٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمغني ٨ / ٣٩٨ .

[١٦٧٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٠٢)(٧٢١٩) صحيح

[١٦٧٣] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، والقليوبي ٤ / ٢٢٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والقوانين الفقهية ١٥٣، والمغني ٨ / ٣٩٧ .

الأَمَانُ عَنِ الْمَصْلَحَة،وَلأَنَّهُ لَو انْفَتَحَ هَذَا الْبَابُ لاَنْسَدَّ بَابُ الْفَتْحِ ؛لأَنَّهُمْ كُلَّمَا اشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَيْهِمْ،لاَ يُخَلُّونَ عَنْ أَسِيرٍ أَوْ تَاجِرٍ فَيَتَخَلَّصُونَ بِه،وَفِيه ضَرَرٌ ظَاهِرٌ.

قَال ابْنُ عَابِدِينَ:نُقِل فِي الْبَحْرِ عَنِ الذَّخِيرَة أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الأَسِيرِ فِي حَقِّ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى كَانَ لَهُمْ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ،أَمَّا فِي حَقِّهِ هُوَ فَصَحِيحٌ،قَال ابْنُ عَابِدِينَ:وَالظَّاهِرُ أَنَّ التَّاجِرَ الْمُسْتَأْمِنَ كَذَلِكَ[١٦٧٤] .

ح – أَمَانُ الْعَبْد وَالْمَرْأَة وَالْمَرِيض

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَمَانِ الْعَبْدِ وَالْمَرْأَةِ وَالْمَرِيضِ عَلَى التَّفْصِيل الآتِي:

أَوْلاً – الْعَبْدُ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَمَانُ الْعَبْد،وَاسْتَدَلُّوا بحديث إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب،فَقَالَ:مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرَؤُهُ إِلَّا كِتَابَ اللهِ وَهَذِه الصَّحِيفَةَ،قَالَ:وَصَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي قِرَابِ سَيْفِه،فَقَدْ كَذَبَ،فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ،وَأَشْيَاءُ مِنَ الْجِرَاحَات،وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ،فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا،فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا،وَلَا عَدْلًا،وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ،أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيه،فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا،وَلَا عَدْلًا»[١٦٧٥] ،وَفَسَّرَهُ مُحَمَّدٌ بِالْعَبْد،وعَنْ فُضَيْلِ بْنِ زَيْدٍ الرَّقَاشِيِّ،وَقَدْ كَانَ غَزَا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَبْعَ غَزَوَات،قَالَ:بَعَثَ عُمَرُ جَيْشًا فَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ،فَحَاصَرْنَا أَهْلَ سِهْرِيَاجٍ،فَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّا سَنَفْتَحُهَا مِنْ يَوْمِنَا ذَلِكَ،قُلْنَا:نَرْجِعُ فَنُقِيلُ،ثُمَّ نَرُوحُ فَنَفْتَحُهَا،فَلَمَّا رَجَعْنَا تَخَلَّفَ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ الْمُسْلِمِينَ،فَرَاطَنَهُمْ فَرَاطَنُوهُ،فَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانًا فِي صَحِيفَة،ثُمَّ شَدَّهُ فِي سَهْمٍ فَرَمَى بِه إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا.فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنَ الْعَشِيِّ وَجَدْنَاهُمْ قَدْ خَرَجُوا،قُلْنَا لَهُمْ:مَا لَكُمْ ؟ قَالُوا:أَمَّنْتُمُونَا،قُلْنَا:مَا فَعَلْنَا،إِنَّمَا الَّذِي أَمَّنَكُمْ عَبْدٌ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ،فَارْجِعُوا حَتَّى نَكْتُبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ

[١٦٧٤] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وفتح القدير ٤ / ٣٠٠، وشرح السير الكبير ١ / ٢٦٦ ط .مطبعة مصر، وابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والاختيار ٤ / ١٢٣ .

[١٦٧٥] - صحيح مسلم (٢/ ١١٤٧)٢٠ - (١٣٧٠)

الْخَطَّاب،فَقَالُوا:مَا نَعْرِفُ عَبْدَكُمْ مِنْ حُرِّكُمْ،مَا نَحْنُ بِرَاجِعِينَ،إِنْ شِئْتُمْ فَاقْتُلُونَا،وَإِنْ شِئْتُمْ ففُوا لَنَا،قَالَ:فَكَتَبْنَا إِلَى عُمَرَ،فَكَتَبَ عُمَرُ:إِنَّ عَبْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُمْ،قَالَ:فَأَجَازَ عُمَرُ أَمَانَهُ.[١٦٧٦]

وعَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَالِ،قَالَ:سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ زَيْدٍ الرَّقَاشِيَّ،قَالَ:كُنَّا بِسَيْرَافَ مُصَافِّي الْعَدُوِّ،فَعَمَدَ مَمْلُوكٌ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَتَبَ فِي سَهْمٍ أَمَانًا،ثُمَّ رَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ،فَجَاءُوا بِهِ،فَقَالُوا:قَدْ أَمَّنْتُمُونَا،فَقَالُوا:أَمَّنَكُمْ عَبْدٌ فَارْجِعُوا إِلَى مَأْمَنِكُمْ،فَقَالُوا:لَا نَعْرِفُ عَبْدَكُمْ مِنْ حُرِّكُمْ،فَأَبَوْا،فَكُتِبَ فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ،فَكَتَبَ:«إِنَّ الْعَبْدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُمْ»[١٦٧٧]

وعَنْ فُضَيْلِ بْنِ زَيْدٍ الرَّقَاشِيِّ،قَالَ:حَاصَرْنَا حِصْنًا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَرَمَى عَبْدٌ مِنَّا بِسَهْمٍ فِيهِ أَمَانٌ،فَخَرَجُوا،فَقُلْنَا:مَا أَخْرَجَكُمْ؟ فَقَالُوا:أَمَّنْتُمُونَا،فَقُلْنَا:مَا ذَاكَ إِلَّا عَبْدٌ،وَلَا نُجِيزُ أَمْرَهُ،فَقَالُوا:مَا نَعْرِفُ الْعَبْدَ مِنْكُمْ مِنَ الْحُرِّ،فَكَتَبْنَا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ،فَكَتَبَ «أَنَّ الْعَبْدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذِمَّتُهُ ذِمَّتُكُمْ»[١٦٧٨]

وعَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَالِ،قَالَ:حَدَّثَنِي فُضَيْلٌ الرَّقَاشِيُّ،قَالَ:حَاصَرْنَا حِصْنًا يُقَالُ لَهُ:صَهْرَتَاجُ،فَحَاصَرْنَاهُمْ،فَقُلْنَا:نَرُوحُ إِلَيْهِمْ،فَكَتَبَ عَبْدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْمٍ فِي أَمَانِهِمْ،فَرَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ،فَخَرَجْنَا إِلَيْهِمْ فِي مَوَانِهِ إِلَيْنَا فَكَفَفْنَا عَنْهُمْ،وَكَتَبْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَكَتَبَ:«أَنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ،أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُمْ فَوَفِّيْنَا لَهُمْ»

وَمِمَّنْ أَجَازَ أَمَانَ الْعَبْدِ وَلَمْ يَشْرِطْ كَانَ مِمَّنْ يُقَاتِلُ أَوْ لَمْ يَكُنْ:الْأَوْزَاعِيُّ،وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ،وَالشَّافِعِيُّ،وَأَحْمَدُ،وَإِسْحَاقُ وَابْنُ الْقَاسِمِ صَاحِبُ مَالِكٍ،وَأَبُو ثَوْرٍ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ،وَأَبُو ثَوْرٍ:قَاتَلَ أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ أَرَى أَنْ يُجَازَ جِوَارُهُ،أَوْ رُدَّ إِلَى مَأْمَنِهِ.وَقَالَتْ طَائِفَةٌ:أَمَانُ الْعَبْدِ إِذَا كَانَ يُقَاتِلُ جَائِزٌ،وَإِنْ كَانَ لَا يُقَاتِلُ،وَإِنَّمَا يَخْدُمُ مَوْلَاهُ،فَأَمَّنَهُمْ،لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ أَمَانًا لَهُمْ،هَذَا قَوْلُ النُّعْمَانِ،وَيَعْقُوبَ،ثُمَّ قَالَا:وَأَمَّا الْأَجِيرُ،أَوِ الْوَكِيلُ،أَوِ الْمُسْتَوْفِي إِذَا كَانُوا أَحْرَارًا،فَأَمَانُهُمْ جَائِزٌ،قَاتَلُوا،أَوْ لَمْ يُقَاتِلُوا.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَاللَّازِمُ إِذَا كَانَ يُجِيزُونَ أَمَانَ الْأَجِيرِ،وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَكَانَ فِي خِدْمَةِ صَاحِبِهِ،أَنْ

[١٦٧٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٥)(٣٤٠٧٥) صحيح

[١٦٧٧] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٤)(٧٢٥) صحيح

[١٦٧٨] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٧٤)(٢٦٠٨) صحيح

يَكُونَ كَذَلِكَ أَمَانُ الْعَبْدِ يَلْزَمُ،وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِي الْعَبْدِ أَنْ يُقَاتِلَ،فَالْأَجِيرُ الَّذِي لَا يُقَاتِلُ،لَمْ يَجُزْ أَمَانُهُ.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَبِظَاهِرِ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَقُولُ،وَهُوَ قَوْلُهُ:«يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ» قَوْلُهُ:«يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ» وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ قَاتَلَ،أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَكَذَلِكَ لَمَّا أَجَازَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَانَ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ،لَمْ يَذْكُرْ قَاتَلَ،أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ،وَلَوْ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَرْقٌ لَذَكَرَهُ،وَهُمْ قَدْ يُجِيزُونَ أَمَانَ الْمَرْأَةِ،وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلْ،وَأَمَانَ الرَّجُلِ الْمَرِيضِ،وَالْجَبَانِ،وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلُوا،وَقَوْلُهُمْ:خَارِجٌ عَنْ ظَاهِرِ الْأَخْبَارِ،مُخَالِفٌ لَهَا،وَاللهُ أَعْلَمُ ".[1679]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:أَمَانُ الْمَرْأَةِ وَالْمَمْلُوكِ جَائِزٌ.[1680]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ "[1681]،وَلأَنَّهُ مُسْلِمٌ مُكَلَّفٌ،فَصَحَّ أَمَانُهُ كَالْحُرِّ.وَزَادَ النَّوَوِيُّ:يَصِحُّ أَمَانُ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ وَإِنْ كَانَ سَيِّدُهُ كَافِرًا.

وَفِي قَوْلٍ لِلْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْعَبْدِ ابْتِدَاءً وَإِذَا أُمِّنَ فَيُخَيَّرُ الإِْمَامُ بَيْنَ إِمْضَائِهِ وَرَدِّهِ[1682] .

وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ فِي رِوَايَةٍ:لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الْعَبْدِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ مَوْلاَهُ فِي الْقِتَال،لأَِنَّهُ مَحْجُورٌ عَنِ الْقِتَال فَلاَ يَصِحُّ أَمَانُهُ ؛لأَِنَّهُمْ لاَ يَخَافُونَهُ فَلَمْ يُلاَقِ الأَْمَانُ مَحَلَّهُ،بِخِلاَفِ الْمَأْذُونِ لَهُ فِي الْقِتَال ؛لأَِنَّ الْخَوْفَ مِنْهُ مُتَحَقِّقٌ،وَلأَِنَّهُ مَجْلُوبٌ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ،فَلاَ يُؤْمَنُ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ تَقْدِيمَ مَصْلَحَتِهِمْ[1683] .

ثانيًا – الْمَرْأَةُ:

[1679] – الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٥٩)(٦٦٦٣) صحيح

[1680] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٠٥)(٣٤٠٧٦) صحيح

[1681] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤٧٨)(٢٢١٥٥) صحيح لغيره

[1682] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وفتح القدير ٤ / ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، وابن عابدين ٣ / ٢٦٦، ٢٢٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، وبداية المجتهد ١ / ٣٩٣، والمغني ٨ / ٣٩٧، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

[1683] – فتح القدير ٤ / ٣٠٠، ٣٠١، والمغني ٨ / ٣٩٦ .

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَة إِلَى أَنَّ الذُّكُورَةَ لَيْسَتْ بشَرْط لصحَّة الأَمَان،فَيَصِحُّ أَمَانُ الْمَرْأَة،فعَنْ أَبِي النَّضْرِ،مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْد اللَّه،أَنَّ أَبَا مُرَّةَ،مَوْلَى أُمِّ هَانِئ بِنْت أَبِي طَالب،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمعَ أُمَّ هَانئ بنْتَ أَبِي طَالب،تَقُولُ:ذَهَبْتُ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ عَامَ الفَتْحِ،فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسلُ وَفَاطمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ،فَسَلَّمْتُ عَلَيْه،فَقَالَ:«مَنْ هَذه؟»،فَقُلْتُ:أَنَا أُمُّ هَانئ بنْتُ أَبِي طَالب،فَقَالَ:«مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ»،فَلَمَّا فَرَغَ منْ غُسْله،قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَات مُلْتَحفًا في ثَوْب وَاحد،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَليٌّ أَنَّهُ قَاتلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنُ بْنُ هُبَيْرَةَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْت يَا أُمَّ هَانِئٍ»،قَالَتْ أُمُّ هَانئ:وَذَلكَ ضُحًى"[1684]

وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ،قَالَ:حَدَّثَتْني،قَالَتْ:فَرَّ إِلَيَّ رَجُلاَن منْ أَحْمَائي يَوْمَ الْفَتْحِ،فَأَجَرْتُهُمَا،فَدَخَلَ عَلَيَّ أَخي،فَقَالَ:لأَقْتُلَنَّهُمَا،فَأَغْلَقْتُ عَلَيْهمَا،ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبيُّ ﷺ،قَالَ:مَرْحَبًا،وَأَهْلاً بِأُمِّ هَانِئٍ،مَا جَاءَ بك ؟ فَأَخْبَرْتُهُ،فَقَالَ:قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْت،وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْت،قَالَتْ:فَجئْتُ فَمَنَعْتُهُمَا.[1685]

وعَنْ عَائشَةَ،قَالَتْ:إنْ كَانَت الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْقَوْم.[1686]

وعَنْ عَائشَةَ،قَالَتْ:إنْ كَانَت الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْمُسْلمينَ.[1687]

وعَنْ عُمَرَ،قَالَ:إنْ كَانَت الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْمُسْلمينَ،فَيَجُوزُ أَمَانُهَا.[1688]

ومر حديث زينب قبل قليل،وَلأَنَّ الْمَرْأَةَ لاَ تَعْجزُ عَنِ الْوُقُوف عَلَى حَال الْقُوَّة وَالضَّعْف[1689].

وَفِي قَوْل الْمَالكيَّة أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْمَرْأَة ابْتِدَاءً،فَإِنْ أَمَّنَتْ نَظَرَ الإْمَامُ فِي ذَلكَ فَإِنْ شَاءَ أَبْقَاهُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ[1690].

[1684] - صحيح البخاري (٤/ ١٠٠)(٣١٧١) وصحيح مسلم (١/ ٤٩٨)٨٢ - (٣٣٦)

[1685] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٢) صحيح

[1686] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٣) صحيح

[1687] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٤) صحيح

[1688] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٦)(٣٤٠٧٧) صحيح

[1689] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦، والقوانين الفقهية ١٥٩، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمغني ٨ / ٣٩٧

وَنَصَّ النَّوَوِيُّ عَلَى أَنَّهُ فِي جوَازِ عَقَد الْمَرْأَة اسْتقْلاَلاً وَجْهَان.
وَقَال الشِّرْبِينِيُّ الْخَطِيبُ:أَرْجَحُهُمَا الْجَوَازُ كَمَا جَزَمَ بِهِ الْمَاوَرْدِيُّ[١٦٩١].

ثالثًا الْمَرِيضُ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ لصحَّة الأَمَان السَّلاَمَةُ عَنِ الْعَمَى وَالزَّمَانَة وَالْمَرَض،فَيَصحُّ أَمَانُ الأَعْمَى وَالزَّمِنُ وَالْمَرِيضُ مَا دَامَ سَلِيمَ الْعَقْل،لأَنَّ الأَصْل فِي صحَّة الأَمَان صُدُورُهُ عَنْ رَأْيٍ وَنَظَرٍ فِي الأَحْوَال الْخَفِيَّة منَ الضَّعْف وَالْقُوَّة،وَهَذه الْعَوَارِضُ لاَ تَقْدَحُ فيه[١٦٩٢].

ط – الأَمَانُ عَلَى الشَّرْط:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا حَاصَرَ الْمُسْلمُونَ.حصْنًا فَنَادَاهُمْ رَجُلٌ وَقَال:أَمِّنُوني أُفْتَحْ لَكُمُ الْحصْنَ،جَازَ أَنَّ يُعْطُوهُ أَمَانًا،لمَا رُوِيَ أَنَّ زِيَادَ بْنَ لَبِيد لَمَّا حَاصَرَ النُّجيْرَ،قَال الأَشْعَثُ بْنُ قَيْس:أَعْطُونِي الأَمَانَ لعَشَرَة أَفْتَحْ لَكُمْ الْحصْنَ فَفَعَلُوا،فَإِنْ أَشْكَل الَّذي أُعْطِيَ الأَمَانُ – وَادَّعَاهُ كُل وَاحد منْ أَهْل الْحصْنِ – فَإِنْ عَرَفَ صَاحبُ الأَمَان عَمل عَلَى ذَلكَ،وَإِنْ لَمْ يَعْرفْ صَاحبُ الأَمَان الْمُؤَمِّنَ،لَمْ يَجُزْ قَتْل وَاحد منْهُمْ ؛لأَنَّ كُل وَاحد منْهُمْ يُحْتَمَل صدْقُهُ وَقَد اشْتَبَهَ الْمُبَاحُ بِالْمُحَرَّمِ فِيمَا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْه فَحُرِّمَ الْكُل،كَمَا لَو اشْتَبَهَتْ مَيِّتَةٌ بِمُذَكَّاة وَنَحْوهَا[١٦٩٣].

وَإِذَا لَمْ يُوَفِّ الشَّرْطَ فَلَهُمْ ضَرْبُ عُنُقه كَمَا إِذَا قَال الرَّجُل:كُفَّ عَنِّي حَتَّى أَدُلَّكَ عَلَى كَذَا،فَبُعثَ مَعَهُ قَوْمٌ لِيَدُلَّهُمْ فَامْتَنَعَ منَ الدَّلاَلَة أَوْ خَانَهُمْ،فَالإِمَامُ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ

[١٦٩٠] – بداية المجتهد ١ / ٣٩٣، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧ .

[١٦٩١] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧ .

[١٦٩٢] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤ .

[١٦٩٣] – شرح السير الكبير ١ / ٢٧٨، والخرشي ٣ / ١٢١، ١٢٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٣، والمغني ٨ / ٤٠٢ .

جَعَلَهُ فَيْئًا ؛لِأَنَّ إِعْطَاءَ الأَمَانِ لَهُ كَانَ بِشَرْطٍ،وَلَمْ يُوجَدْ،وَلِأَنَّهُ كَانَ مُبَاحَ الدَّمِ،وَعُلِّقَ حُرْمَةُ دَمِهِ بِالدَّلاَلَةِ وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ،فَإِنِ انْعَدَمَ الشَّرْطُ،بَقِيَ حِل دَمِهِ عَلَى مَا كَانَ[1694] .

ي – مُدَّةُ الأَمَانِ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافِعِيَّةِ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ الإِْقَامَةِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ لِلْمُسْتَأْمِنِ لاَ تَبْلُغُ سَنَةً،وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يَجُوزُ التَّوْقِيتُ مَا دُونَ السَّنَةِ كَشَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ،لَكِنْ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَلْحَقَ الْمُسْتَأْمِنَ ضَرَرٌ وَعُسْرٌ بِتَقْصِيرِ الْمُدَّةِ جِدًّا،خُصُوصًا إِذَا كَانَ لَهُ مُعَامَلاَتٌ يَحْتَاجُ فِي اقْتِضَائِهَا إِلَى مُدَّةٍ أَطْوَل[1695] .

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:يُشْتَرَطُ أَنْ لاَ تَزِيدَ مُدَّةُ الأَمَانِ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ[1696] .

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يَجِبُ أَنْ لاَ تَزِيدَ مُدَّةُ الأَمَانِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ،فَإِنْ زَادَ عَلَيْهَا بَطَل فِي الزَّائِدِ[1697] .

ك – مَا يُنْتَقَضُ بِهِ الأَمَانُ:

يُنْتَقَضُ الأَمَانُ بِأُمُورٍ هِيَ:

أَوَّلاً – نَقْضُ الإِْمَامِ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الإِْمَامَ لَوْ رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي نَبْذِ الأَمَانِ وَكَانَ بَقَاؤُهُ شَرًّا لَهُ أَنَّ يَنْقُضَهُ،لأَنَّ جَوَازَ الأَمَانِ – مَعَ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَرْكَ الْقِتَال الْمَفْرُوضِ – لِلْمَصْلَحَةِ،فَإِذَا صَارَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي النَّقْضِ نَقَضَهُ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } [الأنفال:٥٨] لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِالنَّقْضِ

[1694] – شرح السير الكبير ١ / ٢٧٨، والخرشي ٣ / ١٢١، ١٢٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٣، والمغني ٨ / ٤٠٢ .

[1695] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٤٨، ٢٤٩، وفتح القدير ٤ / ٣٥١، ٣٥٢، والاختيار ٤ / ١٣٦، والأحكام السلطانية للماوردي ١٤٦ ط .دار الكتب العلمية، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ط .دار الكتب العلمية – بيروت ١٦١، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١

[1696] – كشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[1697] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

وَإِعَادَتِهِمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْل الأَْمَانِ،ثُمَّ يُقَاتِلُهُمْ لِئَلاَّ يَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَـــدْرٌ فِـــي الْعَهْدِ[١٦٩٨].

ثَانِيًا – رَدُّ الْمُسْتَأْمِنِ لِلأَْمَانِ:

إِذَا جَاءَ أَهْل الْحِصْنِ بِالأَْمَانِ إِلَى الإِْمَامِ فَنَقَضَهُ،فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَنْبَغِي لِلإِْمَامِ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِْسْلاَمِ،فَإِنْ أَبَوْا فَإِلَى الذِّمَّةِ،فَإِنْ أَبَوْا رَدَّهُمْ إِلَى مَأْمَنِهِمْ،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ.

قَال النَّوَوِيُّ:إِنَّ الْمُسْتَأْمِنَ إِذَا نَبَذَ الْعَهْدَ،وَجَبَ تَبْلِيغُهُ الْمَأْمَنَ،وَلاَ يُتَعَرَّضُ لِمَا مَعَـــهُ بِـــلاَ خِلاَفٍ[١٦٩٩].

ثَالِثًا – مُضِيُّ مُدَّةِ الأَْمَانِ:

يَنْقَضِي الأَْمَانُ بِمُضِيِّ الْوَقْتِ إِذَا كَانَ الأَْمَانُ مُؤَقَّتًا إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ مِنْ غَيْرِ الْحَاجَةِ إِلَى النَّقْضِ[١٧٠٠].

رَابِعًا – عَوْدَةُ الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ أَمَانَ الْمُسْتَأْمِنِ يُنْتَقَضُ فِي نَفْسِهِ دُونَ مَالِهِ بِـــالْعَوْدَةِ إِلَـــى الْكُفَّارِ،وَلَوْ إِلَى غَيْرِ دَارِهِ مُسْتَوْطِنًا أَوْ مُحَارِبًا،وَأَمَّا إِنْ عَادَ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ لِتِجَـــارَةٍ،أَوْ مُتَنَزِّهًا أَوْ لِحَاجَةٍ يَقْضِيهَا،ثُمَّ يَعُودُ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى أَمَانِهِ[١٧٠١].

خَامِسًا – ارْتِكَابُ الْخِيَانَةِ:

صَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِأَنَّ مَنْ جَاءَنَا بِأَمَانٍ،فَخَانَنَا،كَانَ نَاقِضًا لأَِمَانِهِ لِمُنَافَاةِ الْخِيَانَةِ لَهُ،وَلأَِنَّـــهُ لاَ يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ[١٧٠٢].

ل – مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى رُجُوعِ الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ:

[١٦٩٨] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٨١ – ٢٩٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[١٦٩٩] – المراجع السابقة .

[١٧٠٠] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦، وشرح السير الكبير ١ / ٢٦٤، وفتح القدير ٤ / ٣٠٠، والقوانين الفقهية ١٦٠، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، ٢٩٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٦، ١١١ .

[١٧٠١] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٠، ٢٥١، والزيلعي ٣ / ٢٦٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٠٠ .

[١٧٠٢] – كشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

ذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الصَّحِيحِ – وَهُوَ مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلاَمِ الْحَنَفِيَّةِ – إِلَى أَنَّ مَنْ دَخَل دَارَ الْحَرْبِ مُسْتَوْطِنًا،بَقِيَ الأَْمَانُ فِي مَالِهِ،وَإِنْ بَطَل فِي نَفْسِهِ.وَاسْتَدَل الْحَنَابِلَةُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ:لأَِنَّهُ بِدُخُولِهِ دَارَ الإِْسْلاَمِ بِأَمَانٍ ثَبَتَ الأَْمَانُ لِمَالِهِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ،فَإِذَا بَطَل فِي نَفْسِهِ بِدُخُولِهِ دَارَ الْحَرْبِ بَقِيَ فِي مَالِهِ،لاِخْتِصَاصِ الْمُبْطِل بِنَفْسِهِ،فَيَخْتَصُّ الْبُطْلاَنُ بِهِ.

وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ كَمَا نَقَلَهُ النَّوَوِيُّ عَنِ ابْنِ الْحَدَّادِ:لِلْمُسْتَأْمِنِ أَنْ يَدْخُل دَارَ الإِْسْلاَمِ مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدِ أَمَانٍ لِتَحْصِيل ذَلِكَ الْمَال،وَالدُّخُول لِلْمَال يُؤَمِّنُهُ كَالدُّخُول لِرِسَالَةٍ،وَسَمَاعِ كَلاَمِ اللَّهِ تَعَالَى،وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعَجِّل فِي تَحْصِيل غَرَضِهِ،وَكَذَا لاَ يُكَرِّرُ الْعَوْدَ لأَِخْذِ قِطْعَةٍ مِنَ الْمَال فِي كُل مَرَّةٍ،فَإِنْ خَالَفَ تَعَرَّضَ لِلْقَتْل وَالأَْسْرِ،وَقَال غَيْرُ ابْنِ الْحَدَّادِ:لَيْسَ لَهُ الدُّخُول،لأَِنَّ ثُبُوتَ الأَْمَانِ فِي الْمَال لاَ يُوجِبُ ثُبُوتَهُ فِي النَّفْسِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى عَدَمِ بُطْلاَنِ الأَْمَانِ فِي مَالِهِ أَنَّهُ إِنْ طَلَبَهُ صَاحِبُهُ بُعِثَ إِلَيْهِ.

وَإِنْ تَصَرَّفَ فِيهِ بِبَيْعٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا صَحَّ تَصَرُّفُهُ.

وَإِنْ مَاتَ فِي دَارِ الْحَرْبِ انْتَقَل إِلَى وَارِثِهِ مَعَ بَقَاءِ الأَْمَانِ فِيهِ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْحَنَابِلَةُ،وَهُوَ الأَْظْهَرُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ قِيَاسًا عَلَى سَائِرِ الْحُقُوقِ مِنَ الرَّهْنِ وَالشُّفْعَةِ،وَبِهِ قَال الْحَنَفِيَّةُ كَمَا يَأْتِي.

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ:يَبْطُل الأَْمَانُ فِي الْحَال فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَيَكُونُ فَيْئًا لِبَيْتِ الْمَال ؛لأَِنَّهُ قَدْ صَارَ لِوَارِثِهِ،وَلَمْ يَعْقِدْ فِيهِ أَمَانًا،فَوَجَبَ أَنْ يَبْطُل فِيهِ كَسَائِرِ أَمْوَالِهِ،وَلأَِنَّ الأَْمَانَ يَثْبُتُ فِي الْمَال تَبَعًا.وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ،صَارَ فَيْئًا كَمَا قَال الْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ فِي بَقَاءِ الأَْمَانِ فِي مَالِهِ قَوْلٌ ثَالِثٌ:وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلأَْمَانِ فِي مَالِهِ حَصَل الأَْمَانُ فِيهِ تَبَعًا،فَيَبْطُل فِيهِ تَبَعًا،وَإِنْ ذَكَرَهُ فِي الأَْمَانِ لَمْ يَبْطُل.

وَأَمَّا الأَْوْلاَدُ فَقَدْ نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُسْبَى أَوْلاَدُهُ،فَإِذَا بَلَغُوا وَقَبِلُوا الْجِزْيَةَ تُرِكُوا،وَإِلاَّ بَلَغُوا الْمَأْمَنَ[١٧٠٣] .

[١٧٠٣] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٩ – ٢٩٠، والمغني ٨ / ٤٠٠ – ٤٠١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

أَمَّا إِنْ أُسِرَ،بِأَنْ وَجَدَهُ مُسْلِمٌ فَأَسَرَهُ،أَوْ غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ،فَأَخَذُوهُ أَوْ قَتَلُوهُ،وَكَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ أَوْ وَدِيعَةٌ عِنْدَهُمَا،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يَسْقُطُ دَيْنُهُ ؛لأَنَّ إِثْبَاتَ الْيَدِ عَلَى الدَّيْنِ بِالْمُطَالَبَةِ،وَقَدْ سَقَطَتْ،وَيَدُ مَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ أَسْبَقُ إِلَيْهِ مِنْ يَدِ الْعَامَّةِ،فَيَخْتَصُّ بِهِ فَيَسْقُطُ،وَلاَ طَرِيقَ لِجَعْلِهِ فَيْئًا ؛لأَنَّهُ الَّذِي يُؤْخَذُ قَهْرًا،وَلاَ يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِي الدَّيْنِ.

وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ لَوْ أَسْلَمَ إِلَى مُسْلِمٍ دَرَاهِمَ عَلَى شَيْءٍ،وَمَا غُصِبَ مِنْهُ،وَأُجْرَةِ عَيْنٍ أَجَّرَهَا،وَكُل ذَلِكَ لِسَبْقِ الْيَدِ.

وَأَمَّا وَدِيعَتُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا،وَمَا عِنْدَ شَرِيكِهِ وَمُضَارِبِهِ وَمَا فِي بَيْتِهِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ فَيَصِيرُ فَيْئًا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ ؛لأَنَّ الْوَدِيعَةَ فِي يَدِهِ تَقْدِيرًا،لأَنَّ يَدَ الْمُودِعِ كَيَدِهِ فَيَصِيرُ فَيْئًا تَبَعًا لِنَفْسِهِ،وَكَذَلِكَ مَا عِنْدَ شَرِيكِهِ وَمُضَارِبِهِ وَمَا فِي بَيْتِهِ.

وَاخْتَلَفَ الْحَنَفِيَّةُ فِي الرَّهْنِ:فَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ لِلْمُرْتَهِنِ بِدَيْنِهِ،وَعِنْدَ مُحَمَّدٍ يُبَاعُ وَيُسْتَوْفَى دَيْنُهُ،وَالزِّيَادَةُ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ،قَال ابْنُ عَابِدِينَ:وَيَنْبَغِي تَرْجِيحُ قَوْل مُحَمَّدٍ،لأَنَّ مَا زَادَ عَلَى قَدْرِ الدَّيْنِ فِي حُكْمِ الْوَدِيعَةِ.

وَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِل بِلاَ غَلَبَةٍ عَلَيْهِ،فَمَالُهُ مِنَ الْقَرْضِ وَالْوَدِيعَةِ لِوَرَثَتِهِ لأَنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَصِرْ مَغْنُومَةً فَكَذَا مَالُهُ،كَمَا لَوْ ظَهَرَ عَلَيْهِ فَهَرَبَ فَمَالُهُ لَهُ،وَكَذَا دَيْنُهُ حَال حَيَاتِهِ قَبْل الأَسْرِ [١٧٠٤].

م – مَا يَجُوزُ لِلْمُسْتَأْمِنِ حَمْلُهُ فِي الرُّجُوعِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُمَكَّنُ الْمُسْتَأْمِنُ إِذَا أَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ أَنْ يَحْمِل مَعَهُ سِلاَحًا اشْتَرَاهُ مِنْ دَارِ الإِسْلاَمِ،لأَنَّهُمْ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجُوزُ إِعْطَاءُ الأَمَانِ لَهُ لِيَكْتَسِبَ بِهِ مَا يَكُونُ قُوَّةً لأَهْل الْحَرْبِ عَلَى قِتَال الْمُسْلِمِينَ،وَلَهُ أَنْ يَخْرُجَ بِالَّذِي دَخَل بِهِ.فَإِنْ بَاعَ سَيْفَهُ وَاشْتَرَى بِهِ قَوْسًا أَوْ نُشَّابًا أَوْ رُمْحًا مَثَلاً لاَ يُمَكَّنُ مِنْهُ،وَكَذَا لَوِ اشْتَرَى سَيْفًا أَحْسَنَ مِنْهُ،فَإِنْ كَانَ مِثْل الأَوَّل أَوْ دُونَهُ مُكِّنَ مِنْهُ [١٧٠٥].

[١٧٠٤] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٢ .

[١٧٠٥] – المبسوط ١٠ / ٩١، ٩٢، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، ٣٥٣ .

الدُّخُول إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَان:

يَخْتَلِفُ حُكْمُ مَنْ دَخَل دَارَ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ بِاخْتِلاَفِ الأَحْوَال عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

أ – ادِّعَاءُ كَوْنِه رَسُولاً:

مَنْ دَخَل دَارَ الإِسْلاَمِ وَقَال:أَنَا رَسُول الْمَلِكِ إِلَى الْخَلِيفَة،لَمْ يَصَدَّقْ كَمَا صَـرَّحَ بِـه الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلاَّ إِذَا أَخْرَجَ كِتَابًا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ مَلِكِهِمْ،فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يُبَلِّـغَ رِسَالَتَهُ وَيَرْجِعَ ؛لأَنَّ الرَّسُول آمِنٌ كَمَا جَرَى بِهِ الرَّسْمُ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلاَمًا،وَلأَنَّ الْقِتَـال أَوِ الصُّلْحَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالرُّسُل،فَلاَ بُدَّ مِنْ أَمَانِ الرَّسُول لِيُتَوَصَّل إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ،وَإِنْ لَـمْ يُخْرِجْ كِتَابًا أَوْ أَخْرَجَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كِتَابُ مَلِكِهِمْ،فَهُوَ وَمَا مَعَهُ فَيْءٌ ؛لأَنَّ الْكِتَابَ قَـدْ يُفْتَعَل[١٧٠٦].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:يُصَدَّقُ سَوَاءٌ كَانَ مَعَهُ كِتَـابٌ أَمْ لاَ،وَلاَ يُتَعَـرَّضُ لَـهُ لاِحْتِمَـال مَـا يَدَّعِيه[١٧٠٧].

وَذَكَرَ الرُّويَانِيُّ تَفْصِيلاً فِي الرَّسُول فَقَال:وَمَا اشْتُهِرَ أَنَّ الرَّسُول آمِنٌ هُوَ فِي رِسَالَةٍ فِيهَا مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ هُدْنَة وَغَيْرِهَا،فَإِنْ كَانَ رَسُولاً فِي وَعِيـد وَتَهْدِيـد،فَلاَ أَمَـانَ لَهُ،وَيَتَخَيَّرُ الإِمَامُ فِيهِ بَيْنَ الْخِصَال الأَرْبَعِ كَأَسِيرٍ،أَيِ الْقَتْل،أَوِ الاسْتِرْقَاق،أَوِ الْمَنِّ عَلَيْهِ،أَوِ الْمُفَادَاة بِمَالٍ أَوْ نَفْسٍ،إِلاَّ أَنَّ الْمُعْتَمَدَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّة الأَوَّل[١٧٠٨].

ب – ادِّعَاءُ كَوْنِه تَاجِرًا:

لَوْ دَخَل الْحَرْبِيُّ دَارَنَا وَقَال:إِنَّهُ تَاجِرٌ وَقَال:ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ لاَ تَعْرِضُونَ لِتَاجِرٍ،وَالْحَال أَنَّـهُ تَاجِرٌ،فَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يُقْبَل مِنْهُ،وَيَرُدُّهُ إِلَـى مَأْمَنِه،وَكَـذَلِكَ الْحُكْـمُ إِذَا أَخَـذَ بِأَرْضِهِمْ،أَوْ بَيْنَ أَرْضِ الْعَدُوِّ وَأَرْضِنَا،وَادَّعَى التِّجَارَةَ،أَوْ قَال:جِئْتُ أَطْلُبُ الأَمَانَ،حَيْـثُ يُرَدُّ لِمَأْمَنِه[١٧٠٩].

[١٧٠٦] – المبسوط ١٠ / ٩٢، وابن عابدين ٣ / ٢٢٧، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٥٢٢، ٤٠٠ .

[١٧٠٧] – مغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٠ .

[١٧٠٨] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٥١، ٢٩٩ .

[١٧٠٩] – حاشية الخرشي ٣ / ١٢٤ .

وَقَال الشَّافعيَّةُ:قَصْدُ التِّجَارَة لاَ يُفيدُ الأْمَانَ،وَلَكنْ لَوْ رَأَى الإْمَامُ مَصْلَحَةً فِي دُخُول التُّجَّار،فَقَال:مَنْ دَخَل تَاجرًا فَهُوَ آمنٌ،جَازَ،وَمثْل هَذَا الأْمَانُ لاَ يَصحُّ منَ الآْحَاد.

وَكَذَلكَ لَوْ قَال:ظَنَنْتُ أَنَّ قَصْدَ التِّجَارَة يُفيدُ الأْمَانَ فَلاَ أَثَرَ لظَنِّه،وَلَوْ سَمعَ مُسْلمًا يَقُول:مَنْ دَخَل تَاجرًا فَهُوَ آمنٌ،فَدَخَل وَقَال:ظَنَنْتُ صحَّتَهُ،فَالأْصَحُّ أَنَّهُ يُقْبَل قَوْلُهُ،وَلاَ يُغْتَال[1710].

وَقَال الْحَنَابلَةُ:لَوْ دَخَل وَادَّعَى أَنَّهُ تَاجرٌ وَكَانَ مَعَهُ مَتَاعٌ يَبيعُهُ،قُبل منْهُ،إنْ صَدَّقَتْهُ عَادَةٌ،كَدُخُول تجَارَتهمْ إلَيْنَا وَنَحْوه،لأَنَّ مَا ادَّعَاهُ مُمْكنٌ،فَيَكُونُ شُبْهَةً فِي دَرْءِ الْقَتْل،وَلأَنَّهُ يُتَعَذَّرُ إقَامَةُ الْبَيِّنَة عَلَى ذَلكَ،فَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُ،وَلجَرَيَان الْعَادَة مَجْرَى الشَّرْط،وَإنْ لَمْ يُوجَدْ مَعَهُ مَتَاعٌ،وَانْتَفَت الْعَادَةُ،لَمْ يُقْبَل قَوْلُهُ،لأَنَّ التِّجَارَةَ لاَ تَحْصُل بغَيْر مَالٍ،وَيَجبُ بَقَاؤُهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه منْ عَدَم الْعصْمَة[1711].

ج – ادِّعَاءُ كَوْنه مُؤَمَّنًا:

مَنْ دَخَل دَارَنَا وَقَال:أَمَّنَني مُسْلمٌ،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ في وَجْه عَلَى أَنَّهُ لاَ يُصَدَّقُ،لأَنَّ حَقَّ الْمُسْلمينَ قَدْ ثَبَتَ فيه حَيْنَ تَمَكَّنُوا منْهُ منْ غَيْر أَمَانٍ ظَاهرٍ لَهُ،فَلاَ يُصَدَّقُ في إبْطَال حَقِّهمْ،وَلَكنْ إنْ قَال مُسْلمٌ:أَنَا أَمَّنْتُهُ قُبل قَوْلُهُ ؛لأَنَّهُ يَمْلكُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ،فَقُبل قَوْلُهُ فيه كَالْحَاكم إذَا قَال:حَكَمْتُ لفُلاَن عَلَى فُلاَن.

وَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ في الأْصَحِّ وَالْحَنَابلَةُ في وَجْه آخَرَ إلَى أَنَّهُ يُصَدَّقُ بلاَ بَيِّنَة،تَغْليبًا لحَقْن دَمه،فَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُ،لاحْتمَال كَوْنه صَادقًا فيمَا يَدَّعيه؛لأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّهُ لاَ يَدْخُل بغَيْر أَمَانٍ،وَفي مُقَابل الأْصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة:يُطَالَبُ ببَيِّنَةٍ لإمْكَانهَا غَالبًا[1712].

نكَاحُ الْمُسْلم بالْمُسْتَأْمنَة:

صَرَّحَ الْحَنَفيَّةُ بأَنَّ الْحَرْبيَّةَ الْمُسْتَأْمنَةَ إذَا تَزَوَّجَتْ مُسْلمًا أَوْ ذمِّيًّا فَقَدْ تَوَطَّنَتْ وَصَارَتْ ذمِّيَّةً[1713].

[1710] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٨٠ .

[1711] – المغني ٨ / ٥٢٣، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

[1712] – المبسوط ١٠ / ٩٣، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٩، والمغني ٨ / ٥٢٣ .

مَا يَتَرَتَّبُ لَلْمُسْتَأْمِنَة عَلَى النِّكَاحِ مِنْ حُقُوق:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الزَّوْجَةَ الْمُسْتَأْمِنَةَ الْكِتَابِيَّةَ كَمُسْلِمَةٍ فِي نَفَقَةٍ وَقَسْمٍ وَطَلاَقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مُسْلِمًا،لاشْتِرَاكِهِمَا فِي الزَّوْجِيَّة[١٧١٤].

وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحَات:(نِكَاحٌ،وَمَهْرٌ،وَقَسْمٌ بَيْنَ الزَّوْجَات،وَكُفْرٌ،وَنَفَقَةٌ،وَظِهَارٌ،وَلِعَانٌ،وَعِدَّةٌ،وَحَضَانَةٌ،وَإِحْصَانٌ).

التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمِنِ وَزَوْجَتِه لاخْتِلاَف الدَّار

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الْحَرْبِيَّ إِذَا خَرَجَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمِنًا،أَوِ الْمُسْلِمَ إِذَا دَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ لَمْ تَقَعِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِه ؛لأَنَّ اخْتِلاَفَ الدَّارِ عِبَارَةٌ عَنْ تَبَايُنِ الْوِلاَيَاتِ وَذَلِكَ لاَ يُوجِبُ ارْتِفَاعَ النِّكَاحِ،وَلأَنَّ الْحَرْبِيَّ الْمُسْتَأْمِنَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ،وَإِنَّمَا دَخَلَ دَارَ الإِسْلاَمِ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِه لاَ لِلتَّوَطُّنِ[١٧١٥].

التَّوَارُثُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمِنِينَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ يَثْبُتُ التَّوَارُثُ بَيْنَ مُسْتَأْمَنَيْنِ فِي دَارِنَا إِنْ كَانَا مِنْ دَارٍ وَاحِدَة،كَمَا يَثْبُتُ بَيْنَ مُسْتَأْمِنٍ فِي دَارِنَا وَحَرْبِيٍّ فِي دَارِهِمْ،لاتِّحَادِ الدَّارِ بَيْنَهُمَا حُكْمًا،هَذَا فِي الْجُمْلَة[١٧١٦].

الْمُعَامَلاتُ الْمَالِيَّةُ لِلْمُسْتَأْمِن:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ كَالذِّمِّيِّ إِلاَّ فِي وُجُوبِ الْقِصَاص،وَعَدَمِ مُؤَاخَذَتِه بِالْعُقُوبَات غَيْرَ مَا فِيه حَقُّ الْعَبْد،وَفِي أَخْذِ الْعَاشِرِ مِنْهُ الْعُشْرَ،لأَنَّهُ الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِسْلاَمِ أَوْ أُلْزِمَ بِهَا مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِه،لإِمْكَانِ إِجْرَاءِ الأَحْكَامِ عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي دَار

[١٧١٣] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨٤)

[١٧١٤] – حاشية ابن عابدين ٢ / ٤٠٠، والمبسوط ٥ / ٢١٨، ومغني المحتاج ٣ / ١٨٨، وروضة الطالبين ٧ / ١٣٦، والمغني ٧ / ٣٦، ٦ / ٦٣٧ .

[١٧١٥] – المبسوط للسرخسي (٥/ ٥١) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨١)

[١٧١٦] – حاشية ابن عابدين ٥ / ٤٩٠ ط .بولاق، ونهاية المحتاج ٦ / ٢٦، ٢٧، والمغني ٧ / ١٦٥ وما بعدها .

الْإِسْلَامِ،فَيَلْزَمُهُ مَا يَلْزَمُ الذِّمِّيَّ فِي مُعَامَلَاتِهِ مَعَ الْآخَرِينَ[1717]،وَعَلَى هَذَا فَلاَ يَحِل أَخْذُ مَالِهِ بِعَقْدٍ فَاسِدٍ بِخِلاَفِ الْمُسْلِمِ الْمُسْتَأْمَنِ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَإِنَّ لَهُ أَخْذُ مَالِهِمْ بِرِضَاهُمْ وَلَوْ بِرِبًا أَوْ قِمَارٍ ؛لأَنَّ مَالَهُمْ مُبَاحٌ لَنَا إِلاَّ أَنَّ الْغَدْرَ حَرَامٌ،وَمَا أُخِذَ بِرِضَاهُمْ لَيْسَ غَدْرًا مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ بِخِلاَفِ الْمُسْتَأْمِنِ مِنْهُمْ فِي دَارِنَا ؛لأَنَّ دَارَنَا مَحَل إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ،فَلاَ يَحِل لِمُسْلِمٍ فِي دَارِنَا أَنْ يَعْقِدَ مَعَ الْمُسْتَأْمِنِ إِلاَّ مَا يَحِل مِنَ الْعُقُودِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ شَيْءٌ لاَ يَلْزَمُهُ شَرْعًا وَإِنْ جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ[1718].

قِصَاصُ الْمُسْتَأْمَنِ بِقَتْل الْمُسْلِمِ وَعَكْسُهُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ يُقْتَل الْمُسْتَأْمَنُ بِقَتْل الْمُسْلِمِ،وَكَذَلِكَ بِقَتْل الذِّمِّيِّ،وَلَوْ مَعَ اخْتِلاَفِ أَدْيَانِهِمْ،لأَنَّ الْكُفْرَ يَجْمَعُهُمْ.[1719]

وَاخْتَلَفُوا فِي قِصَاصِ الْمُسْلِمِ وَالذِّمِّيِّ بِقَتْل الْمُسْتَأْمَنِ:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُقْتَل الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمَنِ،لأَنَّ الأَعْلَى لاَ يُقْتَل بِالأَدْنَى فعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ:«لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ،وَبَرَأَ النَّسَمَةَ،مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»،قُلْتُ:وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ:«العَقْلُ،وَفَكَاكُ الأَسِيرِ،وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[1720].

وَيُقْتَل الذِّمِّيُّ وَالْمُسْتَأْمَنُ بِقَتْل الْمُسْتَأْمَنِ،كَمَا يُقْتَل الْمُسْتَأْمَنُ بِقَتْل الْمُسْتَأْمَنِ وَالذِّمِّيِّ[1721].

[1717] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩، ٢ / ٥٠٦، وتكملة فتح القدير ٨ / ٤٨٨، وبدائع الصنائع ٦ / ٨١، ٧ / ٣٣٥ .

[1718] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ .

[1719] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ ط .بولاق، والخرشي ٨ / ٦، ١٤،والأم ٦ / ٣٨،٣٧ ط .دار المعرفة، كشاف القناع ٥ / ٥٢٤ .

[1720] – صحيح البخاري (٤/ ٦٩)(٣٠٤٧)

[ش (فلق الحبة) شقها في الأرض حتى تنبت ثم تثمر.(برأ) خلق.(النسمة) النفس]

[1721] – حاشية الدسوقي ٤ / ٢٣٩، ومغني المحتاج ٤ / ١٦، وكشاف القناع ٥ / ٥٢٤ .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ إِلَى أَنَّهُ لاَ قِصَاصَ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ بِقَتْلِ مُسْتَأْمِنٍ،لأَنَّهُمُ اشْتَرَطُوا فِي الْقِصَاصِ أَنْ يَكُونَ الْمَقْتُول فِي حَقِّ الْقَاتِل مَحْقُونَ الدَّمِ عَلَى التَّأْبِيدِ،وَالْمُسْتَأْمِنُ عِصْمَتُهُ مُؤَقَّتَةٌ،لأَنَّهُ مَصُونُ الدَّمِ فِي حَال أَمَانِهِ فَقَطْ،وَلأَنَّهُ مِنْ دَارِ أَهْل الْحَرْبِ حُكْمًا ؛لِقَصْدِهِ الانْتِقَال إِلَيْهَا،فَلاَ يُمْكِنُ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْل دَارِنَا فِي الْعِصْمَةِ،وَالْقِصَاصُ يَعْتَمِدُ الْمُسَاوَاةَ،وَلَكِنْ عَلَيْهِ دِيَةٌ[١٧٢٢] .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ يُقْتَل الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمِنِ[١٧٢٣]،وَاسْتَدَل بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ } [التوبة:٦].

وَنَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ يُقْتَل بِقَتْل مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ قِيَاسًا،وَوَجْهُ الْقِيَاسِ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ حَقْنُ الدَّمِ،وَلاَ يُقْتَل اسْتِحْسَانًا،لِقِيَامِ الْمُبِيحِ وَهُوَ عَزْمُهُ عَلَى الْمُحَارَبَةِ بِالْعَوْدِ[١٧٢٤] .

قَال الْكَاسَانِيُّ:وَرَوَى ابْنُ سَمَاعَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ:أَنَّهُ لاَ يُقْتَل[١٧٢٥] .

هَذَا فِي النَّفْسِ،وَأَمَّا الْجِنَايَةُ عَلَى مَا دُونَ النَّفْسِ فَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ الْفُقَهَاءِ فِي اشْتِرَاطِ التَّكَافُؤِ فِي الدِّينِ.[١٧٢٦]

دِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ بِقَتْل الْمُسْتَأْمِنِ،وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ دِيَةَ الْكِتَابِيِّ الْمُعَاهَدِ نِصْفُ دِيَةِ الْحُرِّ الْمُسْلِمِ،وَدِيَةَ الْمَجُوسِيِّ ثَمَانُمِائَةِ دِرْهَمٍ،وَكَذَلِكَ دِيَةُ جِرَاحِ أَهْل الْكِتَابِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ جِرَاحِ الْمُسْلِمِينَ.

[١٧٢٢] – بدائع الصنائع ٧ / ٢٣٦، وحاشية ابن عابدين ٥ / ٣٤٣، ٣ / ٢٤٩، وفتح القدير ٤ / ٣٥٧ .

[١٧٢٣] – بدائع الصنائع ٧ / ٢٣١ .

[١٧٢٤] – حاشية ابن عابدين ٥ / ٣٤٣، ٣٤٤ .

[١٧٢٥] – بدائع الصنائع ٧ / ٢٣٦ .

[١٧٢٦] – وَتَفْصِيلُهُ يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ (جِنَايَةٌ عَلَى مَا دُونَ النَّفْسِ ف ٧)

وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ وَالْمُسْلِمَ فِي الدِّيَةِ سَوَاءٌ.
وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:دِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ الْكِتَابِيِّ ثُلُثُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ نَفْسًا وَغَيْرَهَا،وَدِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ الْوَثَنِيِّ وَالْمَجُوسِيِّ وَعَابِدِ الْقَمَرِ وَالزِّنْدِيقِ ثُلُثَا عُشْرِ دِيَةِ الْمُسْلِمِ هَذَا فِي الذُّكُورِ.
أَمَّا الْمُسْتَأْمَنَاتُ الإِنَاثُ فَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ دِيَتَهُنَّ نِصْفُ دِيَةِ الذُّكُورِ مِنْهُمْ.[١٧٢٧]
وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَكَانَ مُسْتَأْمَنًا،فَقَال الْبَهُوتِيُّ مِنَ الْحَنَابِلَةِ:إِنَّ دِيَتَهُ دِيَةُ أَهْل دِينِهِ،لأَنَّهُ مَحْقُونُ الدَّمِ،فَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ دِينُهُ فَكَمَجُوسِيٍّ ؛لأَنَّهُ الْيَقِينُ،وَمَا زَادَ عَلَيْهِ مَشْكُوكٌ فِيهِ[١٧٢٨].
زِنَا الْمُسْتَأْمِنِ وَزِنَا الْمُسْلِمِ بِالْمُسْتَأْمَنَةِ:
اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ الْحَدِّ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ إِذَا زَنَى بِالْمُسْلِمَةِ أَوِ الذِّمِّيَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ:
فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،وَأَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ،وَأَبُو يُوسُفَ فِي قَوْلٍ،وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الْمَشْهُورِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُحَدُّ الْمُسْتَأْمِنُ إِذَا زَنَى.
وَأَضَافَ الْمَالِكِيَّةُ:إِذَا كَانَتِ الْمُسْلِمَةُ طَائِعَةً فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ عُقُوبَةً شَدِيدَةً وَتُحَدُّ الْمُسْلِمَةُ وَإِنِ اسْتَكْرَهَ الْمُسْلِمَةَ فَإِنَّهُ يُقْتَل لِنَقْضِهِ الْعَهْدَ.
وَقَال الْحَنَابِلَةُ:لاَ يُحَدُّ لأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُقْتَل لِنَقْضِ الْعَهْدِ،وَلاَ يَجِبُ مَعَ الْقَتْل حَدٌّ سِوَاهُ.
وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي وَجْهٍ آخَرَ،وَأَبُو يُوسُفَ فِي قَوْلٍ:يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ.
وَأَمَّا إِذَا زَنَى الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمَنَةِ فَقَدْ نَصَّ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ يُحَدُّ الْمُسْلِمُ دُونَ الْمُسْتَأْمَنَةِ لأَنَّ تَعَذُّرَ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى الْمُسْتَأْمَنَةِ لَيْسَ لِلشُّبْهَةِ فَلاَ يَمْنَعُ إِقَامَتُهُ عَلَى الرَّجُل،وَذَهَبَ أَبُو يُوسُفَ إِلَى أَنَّهُ تُحَدُّ الْمُسْتَأْمَنَةُ أَيْضًا[١٧٢٩].
قَذْفُ الْمُسْتَأْمِنِ لِلْمُسْلِمِ:

١٧٢٧ - وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (دِيَاتٌ ف ٣٢)

١٧٢٨ - كشاف القناع ٦ / ٢١ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٣)

١٧٢٩ - المبسوط ٩ / ٥٥، ٥٦، ٥٧، والخرشي ٨ / ٧٥، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣١٣، والفواكه الدواني ٢ / ٢٨٤، والبناني على الزرقاني ٨ / ٧٥، وروضة الطالبين ١٠ / ١٤٢، ومغني المحتاج ٤ / ١٤٧، والمغني ٨ / ٢٦٨، وكشاف القناع ٦ / ٩١ .وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (زِنًا ف ٢٨)

لَوْ دَخَل حَرْبِيٌّ دَارَنَا بِأَمَانٍ فَقَذَفَ مُسْلمًا لَمْ يُحَدَّ فِي قَوْل أَبِي حَنِيفَـةَ الأَْوَّل،وَذَهَـبَ الصَّاحِبَان أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَهُوَ قَوْلٌ آخَرُ لأَِبِي حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّهُ يُحَدُّ.وعند المالكيـة:" وَأَمَّا وَإِنْ أَتَى حَرْبِيٌّ بِأَمَانٍ فَقَذَفَ مُسْلمًا فَإِنَّهُ يُحَدُّ"[١٧٣٠]

سَرِقَةُ الْمُسْتَأْمِنِ مَال الْمُسْلِمِ وَعَكْسُهُ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ لإِقَامَةِ حَدِّ السَّرِقَةِ تَوَافُرُ شُرُوطٍ مِنْهَا:كَوْنُ السَّارِقِ مُلْتَزِمًـا أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ.

وَعَلَى هَذَا فَإِنْ سَرَقَ الْمُسْتَأْمِنُ مِنْ مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ مَالاً لاَ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِعَدَمِ الْتِـزَامِ أَيٍّ مِنْهُمَا أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ،وَأَمَّا إِنْ سَرَقَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ فَفِي إِقَامَةِ الْحَـدِّ عَلَيْـهِ أَقْـوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ.[١٧٣١]

فَإِنْ سَرَقَ الْمُسْلِمُ مَال الْمُسْتَأْمِنِ فَلاَ يُحَدُّ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ – عَدَا زُفَرَ – وَالشَّافِعِيَّةِ،لأَنَّ فِي مَالِهِ شُبْهَةَ الإِْبَاحَةِ.وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَزُفَرُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَـدُّ لأَِنَّ مَال الْمُسْتَأْمِنِ مَعْصُومٌ.[١٧٣٢]

النَّظَرُ فِي قَضَايَا الْمُسْتَأْمِنِينَ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لَوْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا مُسْلِمٌ وَمُسْتَأْمِنٌ بِرِضَاهُمَا،أَوْ رِضَا أَحَـدِهِمَا فِي نِكَاحٍ أَوْ غَيْرِهِ وَجَبَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا بِشَرْعِنَا،طَالِبًا كَانَ الْمُسْلِمُ أَوْ مَطْلُوبًا،وَاسْـتَدَل لِذَلِكَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِقَوْلِهِمْ:لأَنَّهُ يَجِبُ رَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمُسْلِمِ،وَالْمُسْلِمُ لاَ يُمْكِـنُ رَفْعُهُ إِلَى حَاكِمِ أَهْل الذِّمَّةِ،وَلاَ يُمْكِنُ تَرْكُهُمَا مُتَنَازِعَيْنِ،فَرَدَدْنَا مَنْ مَعَ الْمُسْـلِمِ إِلَـى

[١٧٣٠] – الفقه على المذاهب الأربعة (٥/ ٢٠١) والبناية شرح الهداية (٦/ ٣٨٦) والجوهرة النيرة على مختصر القدوري (٢/ ١٦١) والدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ٤٥) والمبسوط للسرخسي (٩/ ١١٩) وفتح القدير (١٢/ ١٣٦) والذخيرة للقرافي (١٢/ ١١١٢) وتهذيب المدونة (٣/ ٤٨٥) ومنح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٧٠) وَالتَّفْصِيل فِي (قَذْفٌ ف ١٥) .

[١٧٣١] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٤) والعناية شرح الهداية (٦/ ١٤) يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ (سَرِقَةٌ ف ١٢)

[١٧٣٢] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٤) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (سَرِقَةٌ ف ٢٥) .

حَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ لأَنَّ الإِسْلاَمَ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ،وَلأَنَّ فِي تَرْكِ الإِجَابَةِ إِلَيْهِ تَضْيِيعًا لِلْحَقِّ[1733] .

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا إِذَا كَانَ طَرَفَا الدَّعْوَى غَيْرَ مُسْلِمَيْنِ،فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ إِنْ تَحَاكَمَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمَنَانِ،أَوِ اسْتَعْدَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ خُيِّرَ الْحَاكِمُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَتَرْكِهِ،وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [المائدة:٤٢].

وَقَال مَالِكٌ:وَتَرْكُ ذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ،وَقَيَّدَهُ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنْ تَتَّفِقَ مِلَّتَاهُمَا كَنَصْرَانِيَّيْنِ مَثَلاً،وَيُشْتَرَطُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ اتِّفَاقُهُمَا،فَإِنْ أَبَى أَحَدُهُمَا،لَمْ يُحْكَمْ لِعَدَمِ الْتِزَامِهِمَا حُكْمَنَا،وَرُوِيَ التَّخْيِيرُ عَنِ النَّخَعِيِّ،وَالشَّعْبِيِّ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ.

وَإِذَا حَكَمَ فَلاَ يَحْكُمُ إِلاَّ بِحُكْمِ الإِسْلاَمِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة:٤٢].

وَإِنْ لَمْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْنَا لَيْسَ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَتَّبِعَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِهِمْ وَلاَ يَدْعُوهُمْ إِلَى حُكْمِنَا،لِظَاهِرِ الآيَةِ:{ فَإِنْ جَاءُوكَ } [1734].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ إِلَى أَنَّ عَلَى الْحَاكِمِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ،وَلاَ يُشْتَرَطُ تَرَافُعُ الْخَصْمَيْنِ،وَبِهِ قَال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ،وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ،وَالزُّهْرِيُّ.

غَيْرَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَال فِي نِكَاحِ الْمَحَارِمِ وَالْجَمْعُ بَيْنَ خَمْسِ نِسْوَةٍ وَالأُخْتَيْنِ:يُشْتَرَطُ مَجِيئُهُمْ لِلْحُكْمِ عَلَيْهِمْ،فَإِذَا جَاءَ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخَرِ،لَمْ يُوجَدِ الشَّرْطُ وَهُوَ مَجِيئُهُمْ،فَلاَ يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ.

[1733] - مغني المحتاج ٣ / ١٩٥، وكشاف القناع ٣ / ١٤٠، وتفسير القرطبي ٦ / ١٨٤، ١٨٥، والمدونة الكبرى ٤ / ٤٠٠، وأحكام القرآن للجصاص ٢ / ٥٢٨، والمبسوط ١٠ / ٩٣ .

[1734] - المراجع السابقة .

وَقَال مُحَمَّدٌ:لاَ يُشْتَرَطُ تَرَافُعُ الْخَصْمَيْنِ،بَل يَكْفِي لِوُجُوبِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَرْفَعَ أَحَدُهُمَا الدَّعْوَى إِلَى الْقَاضِي الْمُسْلِمِ،لأَنَّهُ لَمَّا رَفَعَ أَحَدُهُمَا الدَّعْوَى،فَقَدْ رَضِيَ بِحُكْمِ الإِسْلاَمِ،فَيَلْزَمُ إِجْرَاءُ حُكْمِ الإِسْلاَمِ فِي حَقِّهِ،فَيَتَعَدَّى إِلَى الآْخَرِ كَمَا إِذَا أَسْلَمَ أَحَدُهُمَا.

وَقَال أَبُو يُوسُفَ:لاَ يُشْتَرَطُ التَّرَافُعُ فِي الأَْنْكِحَةِ الْفَاسِدَةِ أَصْلاً،وَيُفَرِّقُ الْحَاكِمُ بَيْنَهُمَا إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ،سَوَاءٌ تَرَافَعَا أَوْ لَمْ يَتَرَافَعَا،أَوْ رَفَعَ أَحَدُهُمَا دُونَ الآْخَرِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩]،وَوَجْهُ الاِسْتِدْلاَل أَنَّ الأَْمْرَ مُطْلَقٌ عَنْ شَرْطِ الْمُرَافَعَةِ [١٧٣٥].

شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ وَعَكْسُهُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي جَوَازِ شَهَادَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ،سَوَاءٌ الْمُسْتَأْمِنُ وَغَيْرُهُ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،أَحْسِبُهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَرِثُ أَهْلُ مِلَّةٍ مِلَّةً،وَلَا تَجُوزُ شَهَادَةُ مِلَّةٍ عَلَى مِلَّةٍ إِلَّا أُمَّتِي،تَجُوزُ شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ "[١٧٣٦]،وَلأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلْمُؤْمِنِينَ شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة:١٤٣]،وَلَمَّا قُبِلَتْ شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ،فَعَلَى الْكَافِرِ أَوْلَى.

كَمَا أَنَّهُ لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي عَدَمِ جَوَازِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ[١٧٣٧].

شَهَادَةُ الْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَال الْجُمْهُورُ بِعَدَمِ الْجَوَازِ[١٧٣٨].

[١٧٣٥] - بدائع الصنائع ٢ / ٣١١، ٣١٢، وأحكام القرآن للجصاص ٢ / ٥٢٨، ومغني المحتاج ٣ / ١٩٥ .

[١٧٣٦] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٥)(٢٠٦١٨) فيه ضعف وصح عن كثير من الصحابة التابعين مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٥٧٣)

[١٧٣٧] - بدائع الصنائع ٦ / ٢٨٠، ٢٨١، والمبسوط ١٦ / ١٣٣، وحاشية الدسوقي ٤ / ١٧١.والفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٨/ ٦٠٣٦) والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/ ٦٣٢) وحاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٤٢٧) والنكت والفوائد السنية على مشكل المحرر (٢/ ٣٠٤) وشرح زاد المستقنع للشنقيطي (٣٧٧/ ٣، بترقيم الشاملة آليا) وَيُنْظَرُ فِي ذَلِكَ مُصْطَلَحُ (شَهَادَةٌ ف ٢٠)

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى الْجَوَازِ،وَذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ الآْتِي:

أ – شَهَادَةُ الذِّمِّيِّ عَلَى الْمُسْلمِينَ

الأْصْل عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّ حُكْمَ الْمُسْتَأْمِنِ مَعَ الذِّمِّيِّ فِي الشَّهَادَةِ كَحُكْمِ الذِّمِّيِّ مَعَ الْمُسْلِمِ،وَعَلَيْهِ فَتُقْبَل شَهَادَةُ الذِّمِّيِّ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّ الذِّمِّيَّ أَعْلَى حَالاً مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّهُ قَبِل خَلَفَ الإْسْلاَمِ وَهُوَ الْجِزْيَةُ،فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الإْسْلاَمِ مِنْهُ،وَلأَنَّ الذِّمِّيَّ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ صَارَ كَالْمُسْلِمِ فِي قَبُول شَهَادَتِهِ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ[1739].

ب – شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى الذِّمِّيِّ:

بِنَاءً عَلَى الأْصْل الْمَذْكُورِ لاَ تُقْبَل شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى الذِّمِّيِّ،وَلأَنَّهُ لاَ وِلاَيَةَ لَهُ عَلَيْهِ ؛لأَنَّ الذِّمِّيَّ مِنْ أَهْل دَارِنَا بِخِلاَفِ الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دَارِ الإْسْلاَمِ حَقِيقَةً،وَإِنَّهُ فِيهَا صُورَةً،فَكَانَ الذِّمِّيُّ أَعَلَى حَالاً مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ[1740].

ج – شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ

تُقْبَل شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِينَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِذَا كَانُوا مِنْ أَهْل دَارٍ وَاحِدَةٍ،وَأَمَّا إِنْ كَانُوا مِنْ دَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فَلاَ تُقْبَل[1741].

إِسْلاَمُ الْمُسْتَأْمِنِ فِي دَارِنَا:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَخَل الْحَرْبِيُّ دَارَنَا بِأَمَانٍ،وَلَهُ امْرَأَةٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَأَوْلاَدٌ صِغَارٌ وَكِبَارٌ،وَمَالٌ أَوْدَعَ بَعْضَهُ ذِمِّيًّا،وَبَعْضَهُ مُسْلِمًا وَبَعْضَهُ حَرْبِيًّا،فَأَسْلَمَ فِي دَارِنَا،ثُمَّ ظَهَرَ عَلَى دَارِ الْحَرْبِ فَهُوَ فَيْءٌ.

أَمَا الْمَرْأَةُ وَالأْوْلاَدُ الْكِبَارُ فَلِكَوْنِهِمْ حَرْبِيِّينَ كِبَارًا،وَلَيْسُوا بِأَتْبَاعٍ لِلَّذِي خَرَجَ،وَكَذَلِكَ مَا فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ لَوْ كَانَتْ حَامِلاً لأَنَّهُ جُزْؤُهَا.

[1738] –) الخرشي ٧ / ١٧٦، ومغني المحتاج ٤ / ٤٢٧، والمغني ٩ / ١٨٤، ١٨٥، كشاف القناع ٦ / ٤١٧ .

[1739] – الفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧، وفتح القدير ٦ / ٤٣، ٤٤ ط .بولاق .

[1740] – بدائع الصنائع ٦ / ٢٨١، والفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧، وفتح القدير ٦ / ٤٣، ٤٤ .

[1741] – بدائع الصنائع ٦ / ٢٨١، والفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧ .

وَأَمَّا الأَْوْلاَدُ الصِّغَارُ،فَلأَنَّ الصَّغِيرَ إنَّمَا يَصِيرُ مُسْلِمًا تَبَعًا لإِسْلاَمِ أَبِيهِ إذَا كَانَ فِي يَدِهِ،وَتَحْتَ وِلاَيَتِهِ،وَلاَ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ مَعَ تَبَايُنِ الدَّارَيْنِ،وَأَمَّا أَمْوَالُهُ فَلأَنَّهَا لاَ تَصِيرُ مُحْرَزَةً لإِحْرَازِ نَفْسِهِ بِالإِْسْلاَمِ لاخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ،فَيَبْقَى الْكُل فَيْئًا وَغَنِيمَةً[1742] .

وَأَمَّا لَوْ دَخَل مَعَ امْرَأَتِهِ وَمَعَهُمَا أَوْلاَدٌ صِغَارٌ،فَأَسْلَمَ أَحَدُهُمَا،أَوْ صَارَ ذِمِّيًّا،فَالصِّغَارُ تَبَعٌ لَهُ،بِخِلاَفِ الْكِبَارِ وَلَوْ إنَاثًا،لاِنْتِهَاءِ التَّبَعِيَّةِ بِالْبُلُوغِ عَنْ عَقْلٍ.وَلَوْ أَسْلَمَ وَلَهُ أَوْلاَدٌ صِغَارٌ فِي دَارِهِمْ لَمْ يَتْبَعُوهُ إلاَّ إذَا خَرَجُوا إلَى دَارِنَا قَبْل مَوْتِ أَبِيهِمْ[1743] .

مَوْتُ الْمُسْتَأْمِنِ فِي دَارِنَا:

لَوْ مَاتَ الْمُسْتَأْمِنُ فِي دَارِنَا وَلَهُ وَرَثَةٌ فِي بِلاَدِهِ،وَمَالٌ فِي دَارِنَا،فَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَرِكَتِهِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِْمَامِ إرْسَال مَال الْمُسْتَأْمِنِ الْمُتَوَفَّى إلَى وَرَثَتِهِ إلَى دَارِ الْحَرْبِ،بَل يُسَلِّمُهُ إلَيْهِمْ إذَا جَاءُوا إلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَأَقَامُوا الْبَيِّنَةَ عَلَى أَنَّهُمْ وَرَثَتُهُ ؛لأَنَّ حُكْمَ الأَْمَانِ بَاقٍ فِي مَالِهِ،فَيُرَدُّ عَلَى وَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ،قَالُوا:وَتُقْبَل بَيِّنَةُ أَهْل الذِّمَّةِ هُنَا اسْتِحْسَانًا،لأَنَّ أَنْسَابَهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ لاَ يَعْرِفُهَا الْمُسْلِمُونَ،فَصَارَ كَشَهَادَةِ النِّسَاءِ فِيمَا لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الرِّجَال،وَلاَ يُقْبَل كِتَابُ مَلِكِهِمْ وَلَوْ ثَبَتَ أَنَّهُ كِتَابُهُ،لأَنَّ شَهَادَتَهُ وَحْدَهُ لاَ تُقْبَل،فَكِتَابَتُهُ بِالأَْوْلَى[1744] .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ كَمَا قَال الدَّرْدِيرُ إلَى أَنَّهُ إنْ مَاتَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَنَا فَمَالُهُ لِوَارِثِهِ إنْ كَانَ مَعَهُ وَارِثُهُ عِنْدَنَا – دَخَل عَلَى التَّجْهِيزِ أَمْ لاَ – وَإِلاَّ يَكُنْ مَعَهُ وَارِثُهُ أُرْسِل الْمَال لِوَارِثِهِ بِأَرْضِهِمْ إنْ دَخَل عِنْدَنَا عَلَى التَّجْهِيزِ لِقَضَاءِ مَصَالِحِهِ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا،لاَ عَلَى الإِْقَامَةِ عِنْدَنَا،وَلَمْ تَطُل إقَامَتُهُ عِنْدَنَا،وَإِلاَّ بِأَنْ دَخَل عَلَى الإِْقَامَةِ أَوْ عَلَى التَّجْهِيزِ،وَلَكِنْ طَالَتْ إقَامَتُهُ عِنْدَنَا فَفَيْءٌ مَحَلُّهُ بَيْتُ مَال الْمُسْلِمِينَ.

قَال الصَّاوِيُّ:أَشَارَ الْمُصَنِّفُ،(الدَّرْدِيرُ) إلَى الْحَالَةِ الأُْولَى بِقَوْلِهِ:وَإِنْ مَاتَ عِنْدَنَا فَمَالُهُ لِوَارِثِهِ..إلَخْ،وَلَمْ يَسْتَوْفِ الأَْحْوَال الأَْرْبَعَةَ،وَنَحْنُ نُبَيِّنُهَا فَنَقُول:أَمَا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ:وَهِيَ مَا

[1742] – فتح القدير ٤ / ٣٥٤، ٣٥٥ .

[1743] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ .

[1744] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٥٠، وفتح القدير ٤ / ٣٥٣، والمبسوط ١٠ / ٩١ .

إِذَا مَاتَ فِي بَلَدِهِ وَكَانَ لَهُ عِنْدَنَا نَحْوُ وَدِيعَةٍ،فَإِنَّهَا تُرْسَل لِوَارِثِهِ،وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ:وَهِيَ أَسْرُهُ وَقَتْلُهُ،فَمَالُهُ لِمَنْ أَسَرَهُ وَقَتَلَهُ حَيْثُ حَارَبَ فَأَسَرَهُ ثُمَّ قُتِل،وَأَمَّا الْحَالَةُ الرَّابِعَةُ:وَهِيَ مَا إِذَا قُتِل فِي مَعْرَكَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ أَسْرٍ،فِي مَالِهِ قَوْلاَنِ،قِيل:يُرْسَل لِوَارِثِهِ،وَقِيل:فَيْءٌ،وَمَحَلُّهُمَا إِذَا دَخَل عَلَى التَّجْهِيزِ[1745]،أَوْ كَانَتِ الْعَادَةُ ذَلِكَ وَلَمْ تَطُل إِقَامَتُهُ،فَإِنْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ وَقُتِل فِي مَعْرَكَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ مَالُهُ وَلَوْ وَدِيعَةً فَيْئًا قَوْلاً وَاحِدًا[1746].

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لَوْ مَاتَ الْمُسْتَأْمِنُ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ فَالْمَذْهَبُ الْقَطْعُ بِرَدِّ الْمَال إِلَى وَارِثِهِ،لأَِنَّهُ مَاتَ،وَالأَْمَانُ بَاقٍ فِي نَفْسِهِ فَكَذَا فِي مَالِهِ،وَفِي قَوْلٍ عِنْدَهُمْ:يَكُونُ فَيْئًا.

قَالُوا:وَفِي حُكْمِهِ لَوْ خَرَجَ الْمُسْتَأْمِنُ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ غَيْرُ نَاقِضٍ لِلْعَهْدِ،بَل لِرِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ وَمَاتَ هُنَاكَ،فَهُوَ كَمَوْتِهِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ[1747].

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ يُبْعَثُ مَال الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى مَلِكِهِمْ،يَقُول ابْنُ قُدَامَةَ:وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ الأَْثْرَمِ فِيمَنْ دَخَل إِلَيْنَا بِأَمَانٍ،فَقُتِل أَنَّهُ يُبْعَثُ بِدِيَتِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ حَتَّى يَدْفَعَهَا إِلَى الْوَرَثَةِ[1748].

أَخْذُ الْعُشْرِ مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ إِذَا دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ بِتِجَارَةٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ عُشْرُ تِجَارَتِهِ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَقَل عَلَى اخْتِلاَفِ الأَْقْوَال بَيْنَ الْمَذَاهِبِ.وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي شُرُوطِ أَخْذِ الْعُشْرِ مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ مِنَ الْبُلُوغِ وَالْعَقْل وَالذُّكُورَةِ.كَمَا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْمِقْدَارِ الْوَاجِبِ فِي تِجَارَتِهِ وَالْمُدَّةِ الَّتِي يُجْزِئُ عَنْهَا الْعُشْرَ،وَوَقْتِ اسْتِيفَائِهِ[1749].

مَا يُرْضَخُ لِلْمُسْتَأْمِنِ مِنْ مَال الْغَنِيمَةِ:

[1745] - أي ليتجهز ويرجع، فإن كان تاجرًا باع ما جاب واشترى ما يخرج به فيكون على نية الإقامة المؤقتة .

[1746] - الشرح الصغير مع حاشية الصاوي ٢ / ٢٩٠ .

[1747] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٩٠ .

[1748] - المغني ٦ / ٢٩٧ .

[1749] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (عُشْرٌ ف ١١، ١٥ ،١٦ ،١٧ ،٢٦ ،٢٩ ،٣٠)

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَوْ بَاشَرَ الْمُسْتَأْمِنُ الْقِتَال بِإِذْنِ الإِمَامِ،فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَهْل الذِّمَّةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الرَّضْخِ.وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:لاَ يُرْضَخُ لِلْمُسْتَأْمِنِ كَمَا لاَ يُسْهَمُ لِلذِّمِّيِّ[1750].

مَا يَسْتَحِقُّهُ الْمُسْتَأْمِنُ مِنَ الْكَنْزِ وَالْمَعْدِنِ:

إِذَا وَجَدَ الْمُسْتَأْمِنُ فِي دَارِنَا كَنْزًا أَوْ مَعْدِنًا فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلُّهُ،لأَنَّ ذَا فِي مَعْنَى الْغَنِيمَةِ،وَلاَ حَقَّ لأَهْل الْحَرْبِ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ رَضْخًا وَلاَ سَهْمًا.

وَإِنْ عَمِل فِي الْمَعْدِنِ بِإِذْنِ الإِمَامِ،أَخَذَ مِنْهُ الْخُمُسَ،وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَهُ،لأَنَّ الإِمَامَ شَرَطَ لَهُ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ،فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِمَا شَرَطَ،كَمَا لَوِ اسْتَعَانَ بِهِمْ فِي قِتَال أَهْل الْحَرْبِ فَرَضَخَ لَهُمْ،فَهَذَا مِثْلُهُ[1751].

تَحَوُّل الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى ذِمِّيٍّ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ يَصِيرُ ذِمِّيًّا بِأَنْ يَمْكُثَ الْمُدَّةَ الْمَضْرُوبَةَ لَهُ،أَوْ بِأَنْ يَشْتَرِيَ أَرْضَ خَرَاجٍ وَوُضِعَ عَلَيْهِ الْخَرَاجُ،أَوْ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةُ الْمُسْتَأْمِنَةُ مُسْلِمًا،أَوْ ذِمِّيًّا،لأَنَّهَا الْتَزَمَتِ الْبَقَاءَ تَبَعًا لِلزَّوْجِ.[1752]

اسْتِئْمَانُ الْمُسْلِمِ

إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْكُفَّارِ بِأَمَانٍ صَارَ مُسْتَأْمَنًا كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَيَتَرَتَّبُ عَلَى اسْتِئْمَانِهِ أَحْكَامٌ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

أ – حُرْمَةُ خِيَانَةِ الْكُفَّارِ وَالْغَدْرِ بِهِمْ:

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ تَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي دَخَل دَارَ الْكُفَّارِ بِأَمَانٍ خِيَانَتُهُمْ،فَلاَ يَحِل لَهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَفُرُوجِهِمْ،لحديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ،وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ»[1753].،وَلأَنَّهُ بِالاِسْتِئْمَانِ ضَمِنَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضَ بِهِمْ،وَإِنَّمَا أَعْطَوْهُ الأَمَانَ

[1750] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (غَنِيمَةٌ ف ٣) .

[1751] – المبسوط ٢ / ٢١٥، ٢١٦ .

[1752] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَيُنْظَرُ تَفْصِيل ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّةِ ف ١٢ – ١٥) .

[1753] – سنن الدارقطني (٣/ ٤٢٦)(٢٨٩٠) صحيح لغيره

بِشَرْطِ عَدَمِ خِيَانَتِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْكُورًا فِي اللَّفْظِ،فَهُوَ مَعْلُومٌ فِي الْمَعْنَى،وَلاَ يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ[1754].

وَاسْتَثْنَى الْحَنَفِيَّةُ حَالَةَ مَا إِذَا غَدَرَ بِالْمُسْلِمِ مَلِكُهُمْ،فَأَخَذَ أَمْوَالَهُ أَوْ حَبَسَهُ،أَوْ فَعَلَ غَيْرُ الْمَلِكِ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَمْنَعْهُ،لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ [1755].

فَإِنْ خَانَ الْمُسْلِمُ الْمُسْتَأْمَنُ الْكُفَّارَ،أَوْ سَرَقَ مِنْهُمْ،أَوِ اقْتَرَضَ مِنْهُمْ شَيْئًا،فَنَصَّ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّ مَا أَخَذَ إِلَى أَرْبَابِهِ،فَإِنْ جَاءَ أَرْبَابُهُ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ بِأَمَانٍ أَوْ إِيمَانٍ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ،وَإِلاَّ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِمْ لأَنَّهُ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهٍ حَرُمَ عَلَيْهِ أَخْذُهُ فَلَزِمَهُ رَدُّ مَا أَخَذَ،كَمَا لَوْ أَخَذَهُ مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ،وَلأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ التَّعَرُّضُ لَهُمْ إِذَا دَخَلَ بِأَمَانٍ[1756].

وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ:إِذَا دَخَلَ الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ وَأَخْرَجَ إِلَيْنَا شَيْئًا مَلَكَهُ مِلْكًا حَرَامًا،لأَنَّهُ مَلَكَهُ بِالْغَدْرِ،فَيَتَصَدَّقُ بِهِ وُجُوبًا،وَلَوْ لَمْ يُخْرِجْهُ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ [1757].

ب – مُعَامَلاَتُ الْمُسْتَأْمَنِ الْمُسْلِمِ الْمَالِيَّةِ:

نَصَّ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَدَانَ حَرْبِيٌّ الْمُسْلِمَ الْمُسْتَأْمَنَ دَيْنًا بِبَيْعٍ أَوْ قَرْضٍ،أَوْ أَدَانَ هُوَ حَرْبِيًّا،أَوْ غَصَبَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ مَالاً،ثُمَّ خَرَجَ الْمُسْلِمُ إِلَيْنَا وَاسْتَأْمَنَ الْحَرْبِيُّ فَخَرَجَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمَنًا،لَمْ يُقْضَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ بِشَيْءٍ.

أَمَا الإِدَانَةُ:فَلأَنَّ الْقَضَاءَ يَعْتَمِدُ الْوِلاَيَةَ،وَلاَ وِلاَيَةَ وَقْتَ الإِدَانَةِ أَصْلاً عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا،إِذْ لاَ قُدْرَةَ لِلْقَاضِي فِيهِ عَلَى مَنْ هُوَ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَلاَ وَقْتَ الْقَضَاءِ عَلَى الْمُسْتَأْمَنِ،لأَنَّهُ مَا الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِسْلاَمِ فِيمَا مَضَى مِنْ أَفْعَالِهِ وَإِنَّمَا الْتَزَمَهُ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ.

وَأَمَّا أَنَّهُ لاَ يَقْضِي بِالْغَصْبِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا فَلأَنَّ الْمَالَ الْمَغْصُوبَ صَارَ مِلْكًا لِلَّذِي غَصَبَهُ،سَوَاءٌ كَانَ الْغَاصِبُ كَافِرًا فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ مُسْلِمًا مُسْتَأْمَنًا وَاسْتَوْلَى

[1754] – فتح القدير ٤ / ٣٤٧، ٣٤٨، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، والاختيار ٤ / ١٣٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[1755] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

[1756] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[1757] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

عَلَيْه،لِمُصَادَفَته مَالاً مُبَاحًا غَيْرَ مَعْصُوم،فَصَارَ كَالإِدَانَة.وَقَال أَبُو يُوسُفَ يَقْضِي بالـدِّينِ عَلَى الْمُسْلِمِ دُونَ الْغَصْبِ لأَنَّهُ الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِسْلاَمِ حَيْثُ كَانَ [١٧٥٨].

قَال الْحَصْكَفِيُّ نَقْلاً عَنِ الزَّيْلَعِيِّ،وَالْكَمَال ابْنِ الْهُمَامِ:وَيُفْتَى بِرَدِّ الْمَغْصُوبِ وَالدَّيْنِ دِيَانَةً لاَ قَضَاءً،لأَنَّهُ غَدْرٌ [١٧٥٩].

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّة وَالْحَنَابِلَة يَجِبُ رَدُّ مَا أَخَذَ إِلَى أَرْبَابِه [١٧٦٠].

ج – قِتَال الْمُسْلِمِ الْمُسْتَأْمِنِ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَغَارَ قَوْمٌ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى أَهْل الدَّارِ الَّتِي فِيهَا الْمُسْلِمُ الْمُسْتَأْمَنُ،لاَ يَحِل لَهُ قِتَال هَؤُلاَءِ الْكُفَّارِ إِلاَّ إِنْ خَافَ عَلَى نَفْسِه،لأَنَّ الْقِتَال لَمَّا كَانَ تَعْرِيضًا لِنَفْسِه عَلَى الْهَلاَكِ لاَ يَحِل إِلاَّ لِذَلِكَ،أَوْ لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللَّه،وَهُوَ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى نَفْسِه،لَيْسَ قِتَالُهُ لِهَؤُلاَءِ إِلاَّ إِعْلاَءً لِلْكُفْرِ.

وَلَوْ أَغَارَ أَهْل الْحَرْبِ الَّذِينَ فِيهِمْ مُسْلِمُونَ مُسْتَأْمَنُونَ عَلَى طَائِفَة مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَأَسَرُوا ذَرَارِيَّهُمْ،فَمَرُّوا بِهِمْ عَلَى أُولَئِكَ الْمُسْتَأْمَنِينَ،وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْقُضُوا عُهُودَهُمْ،وَيُقَاتِلُوهُمْ إِذَا كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَيْه،لأَنَّهُمْ لاَ يَمْلِكُونَ رِقَابَهُمْ فَتَقْرِيرُهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ تَقْرِيرٌ عَلَى الظُّلْمِ،وَلَمْ يَضْمَنِ الْمُسْلِمُونَ الْمُسْتَأْمَنُونَ ذَلِكَ لَهُمْ،بِخِلاَفِ الأَمْوَال،لأَنَّهُمْ مَلَكُوهَا بِالإِحْرَازِ وَقَدْ ضَمِنُوا لَهُمْ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضُوا لأَمْوَالِهِمْ.وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ الْمَأْخُوذُ ذَرَارِيَّ الْخَوَارِجِ،لأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ [١٧٦١].

د – قَتَل الْمُسْتَأْمَنُ الْمُسْلِمُ مُسْلِمًا آخَرَ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَخَل مُسْلِمَانِ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ فَقَتَل أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً،فَعَلَى الْقَاتِل الدِّيَةُ فِي مَالِه فِي الْقَتْل الْعَمْد،أَمَا الْقِصَاصُ فَيَسْقُطُ لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ اسْتِيفَاؤُهُ إِلاَّ بِمَنَعٍ،وَلاَ مَنَعَةَ دُونَ الإِمَامِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ فِي دَارِ

[١٧٥٨] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، ٢٤٨، وفتح القدير ٤ / ٣٤٩، والاختيار ٤ / ١٣٥

[١٧٥٩] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٨ .

[١٧٦٠] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[١٧٦١] – فتح القدير ٤ / ٣٤٨، وبدائع الصنائع ٧ / ١٣٣ .

الْحَرْب،فَلاَ فَائدَةَ في الْوُجُوب فَيَسْقُطُ الْقصَاصُ وَتَجبُ الدِّيَةُ،وَأَمَّا وُجُوبُهَا فِي مَالِه فَلأَنَّ الْعَوَاقل لاَ تَعْقل الْعَمْدَ.

وَفي الْقَتْل الْخَطَأ تَجبُ الدِّيَةُ في مَاله وَالْكَفَّارَةُ،أَمَا الدِّيَةُ فَلأَنَّ الْعصْمَةَ الثَّابتَةَ بِالإِحْرَاز بدَار الإِسْلاَم لاَ تَبْطُل بعَارض الدُّخُول إلَى دَار الْحَرْب بالأَمَان،وَأَمَّا في مَالِه فَلتَعَذُّر الصِّيَانَة عَلَى الْعَاقلَة مَعَ تَبَايُن الدَّارَيْن،وَأَمَّا وُجُوبُ الْكَفَّارَة فَلإِطْلاَق قَوْله تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لمُؤْمنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمنًا إلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمنًا خَطَأً فَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة وَديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أَهْله إلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإنْ كَانَ منْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمنٌ فَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة وَإنْ كَانَ منْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ فَديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أَهْله وَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة فَمَنْ لَمْ يَجدْ فَصيَامُ شَهْرَيْن مُتَتَابعَيْن تَوْبَةً منَ اللَّه وَكَانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا } [النساء:٩٢] بلاَ تَقْييدٍ بدَار الإِسْلاَم أَو الْحَرْب [١٧٦٢].

وَنَصَّ الشَّافعيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ الْمُسْلمُونَ مُسْتَأْمَنينَ في دَار الْحَرْب،فَقَتَل بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ قَذَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ زَنَوْا بغَيْر حَرْبيَّة،فَعَلَيْهِمْ في هَذَا كُلِّه الْحُكْمُ كَمَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ لَوْ فَعَلُوهُ في بلاَد الإِسْلاَم،وَلاَ تُسْقطُ دَارُ الْحَرْب عَنْهُمْ فَرْضًا كَمَا لاَ تُسْقطُ عَنْهُمْ صَوْمًا وَلاَ صَلاَةً وَلاَ زَكَاةً،وَالْحُدُودُ فَرْضٌ عَلَيْهِمْ كَمَا هَذه فَرْضٌ عَلَيْهِمْ،وَإنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُمْ حَدُّ الزِّنَا لَوْ زَنَى بحَرْبيَّةٍ إذَا ادَّعَى الشُّبْهَةَ [١٧٦٣].

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٧٦٢] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٨، وفتح القدير ٤ / ٣٥٠ .

[١٧٦٣] - الأم ٤ / ٢٨٧، ٢٨٨ .

الباب التاسع

طرق الجهاد :باللسان واليد والمال والنفس ماديا ومعنويا

عَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[١٧٦٤] أَيْ:قَاتِلُوهُمْ،وَهُوَ بِظَاهِرِهِ يَشْمَلُ الْحَرَمَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ وَالْبَدْءَ بِالْقِتَالِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَقِتَالُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،أَوْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَبْدَؤُونَا ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْمُوجِبَةَ لَهُ لَمْ تُقَيِّدِ الْوُجُوبَ بِبَدْئِهِمْ خِلَافًا لِمَا نُقِلَ عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَغَيْرِهَا سَوَاءٌ خِلَافًا لِعَطَاءٍ،وَلَقَدِ اسْتُبْعِدَ مَا عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَتَمَسُّكُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَسْخُهُ وَصَرِيحُ قَوْلِهِ - ﷺ - فِي الصَّحِيحَيْنِ:" «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» " الْحَدِيثَ.تُوجِبُ ابْتِدَاءَهُمْ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ،وَحَاصَرَ - ﷺ - الطَّائِفَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ،أَوْ إِلَى شَهْرٍ،وَقَدِ اسْتُدِلَّ عَلَى نَسْخِ الْحُرْمَةِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى التَّحَرُّزِ بِلَفْظِ:حَيْثُ فِي الزَّمَانِ،وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَثِيرٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ.وَقَوْلُهُ:(بِأَمْوَالِكُمْ):أَيْ:بِالتَّجْهِيزِ (وَأَنْفُسِكُمْ):أَيْ:بِالْمُبَاشَرَةِ (وَأَلْسِنَتِكُمْ):أَيْ:بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:جَاهِدُوهُمْ بِهَا ؛ أَيْ:بِأَنْ تَذُمُّوهُمْ وَتَعِيبُوهُمْ وَتَسُبُّوا أَصْنَامَهُمْ وَدِينَهُمُ الْبَاطِلَ،وَبِأَنْ تُخَوِّفُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَخْذِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ،فَإِنْ قُلْتَ:هَذَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ تَعَالَى:{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام:١٠٨] قُلْتُ:كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ فَنُهُوا،لِئَلَّا يَكُونَ سَبُّهُمْ سَبَبًا لِسَبِّ اللَّهِ تَعَالَى،وَالنَّهْيُ مُنْصَبٌّ عَلَى الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ،فَإِذَا لَمْ يُؤَدِّ السَّبُّ إِلَى سَبِّ اللَّهِ تَعَالَى جَازَ اه.

وَفِيهِ أَنَّهُ سَبَبٌ غَالِبِيٌّ،وَعَدَمُ كَوْنِهِ سَبَبًا أَمْرٌ مَوْهُومٌ فَيَتَعَيَّنُ النَّهْيُ،لَا سِيَّمَا مَبْنَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى أُمُورِ الْغَالِبِيَّةِ،مَعَ أَنَّ حَالَةَ الِاسْتِوَاءِ،بَلْ وَقْتُ الِاحْتِمَالِ يُرَجِّحُ النَّهْيَ،نَعَمْ

[١٧٦٤] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٦٩)(٤٢٨٩) صحيح

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ وَارِدًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الِابْتِدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا لِسَبِّهِمْ،أَمَّا إِذَا كَانَ الِابْتِدَاءُ مِنْهُمْ فَلَيْسَ كَذَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الْخَوْفَ فِي الَّذِينَ غَلَبَ الْجَهْلُ وَالسَّفَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،أَمَّا أَكْثَرُهُمْ فَيُعَظِّمُونَ اللَّهَ! وَيَقُولُونَ:{هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:١٨ - ٢٥][١٧٦٥]

وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْمُجَاهَدَةِ لِلْكُفَّارِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَيْدِي وَالْأَلْسُنِ.وَقَدْ ثَبَتَ الْأَمْرُ الْقُرْآنِيُّ بِالْجِهَادِ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ فِي مَوَاضِعَ،وَظَاهِرُ الْأَمْرِ الْوُجُوبُ.[١٧٦٦]

وقال الصنعاني:"الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَهُوَ بِالْخُرُوجِ وَالْمُبَاشَرَةِ لِلْكُفَّارِ،وَالْمَالِ وَهُوَ بَذْلُهُ لِمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ وَالسِّلَاحِ وَنَحْوِهِ،وَهَذَا هُوَ الْمُفَادُ مِنْ عِدَّةِ آيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} [التوبة:٤١] وَالْجِهَادُ بِاللِّسَانِ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَدُعَائِهِمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَبِالْأَصْوَاتِ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَالزَّجْرِ وَنَحْوِهِ مِنْ كُلِّ مَا فِيهِ نِكَايَةٌ لِلْعَدُوِّ {وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠] «وَقَالَ - ﷺ - لِحَسَّانَ إنَّ هَجْوَ الْكُفَّارِ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ» ".[١٧٦٧]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَسَّانَ:«اهْجُ الْمُشْرِكِينَ،فَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ»[١٧٦٨]

وعن البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانَ:«اهْجُهُمْ - أَوْ هَاجِهِمْ - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ»

وفي رواية عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:«اهْجُ الْمُشْرِكِينَ،فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ»[١٧٦٩]

[١٧٦٥] -مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٥)

[١٧٦٦] - نيل الأوطار (٧/ ٢٥١)

[١٧٦٧] -سبل السلام (٢/ ٤٦٠)

[١٧٦٨] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٣٦٦)(٨٢٣٧) صحيح

[١٧٦٩] - صحيح البخاري (٥/ ١١٣)(٤١٢٣ و٤١٢٤)

قَالَ الْمُؤَلِّفُ:أَنْصَارِيٌّ خَزْرَجِيٌّ،شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ،أَجْمَعَت الْعَرَبُ عَلَى أَنَّ أَشْعَرَ أَهْلِ الْمَدَرِ حَسَّانُ بْنُ ثَابت،رَوَى عَنْهُ عُمَرُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةُ،مَاتَ في خلَافَة عَليٍّ وَلَهُ مائَةٌ وَعشْرُونَ سَنَةً،عَاشَ منْهَا ستِّينَ سَنَةً في الْجَاهليَّة،وَستِّينَ في الْإِسْلَام.(اهْجُ الْمُشْرِكينَ):أَمْرٌ بِالْهَجْوِ ابْتِدَاءً أَوْ جَوَابًا (فَإِنَّ جبْرِيلَ):بِكَسْرِ الْجيمِ،وَفيه أَرْبَعُ قرَاءَات مُتَوَاتِرَات ذَكَرْنَاهَا سَابقًا أَيِ:الرُّوحُ الْأَمينُ (مَعَكَ) أَيْ:مُعينٌ لَكَ وَمُلْهِمٌ إِيَّاكَ،وَالْحَديثُ إِلَى هُنَا مُتَّفَقٌ عَلَيْه منْ حَديث الْبَرَاءِ،وَأَمَّا مَا بَعْدَهُ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْه منْ حَديث أَبِي هُرَيْرَةَ كَمَا سَيَأْتي بَيَانُهُ.

(وَكَانَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - يَقُولُ لحَسَّانَ:أَجبْ عَنِّي) أَيْ:منْ قبَلي وَعوَضًا عَنْ جَانبِي (اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ) أَيْ:قَوِّ حَسَّانَ (بِرُوحِ الْقُدُسِ):بِضَمِّ الدَّال،وَيُسَكَّنُ أَيْ:بجبْرِيلَ سُمِّيَ به؛لأَنَّهُ كَانَ يَأْتي الْأَنْبيَاءَ بمَا فيه حَيَاةُ الْقُلُوب،فَهُوَ كَالْمَبْدَأ لحَيَاة الْقَلْب،كَمَا أَنَّ الرُّوحَ مَبْدَأُ حَيَاة الْجَسَد،وَالْقُدُسُ صفَةٌ للرُّوحِ،وَإِنَّمَا أُضيفَ إِلَيْه؛لأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى الطَّهَارَة،وَالنَّزَاهَة عَنِ الْعُيُوب،وَقيلَ:الْقُدُسُ بمَعْنَى الْمُقَدَّس،وَهُوَ اللَّهُ،وَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْه للتَّشْرِيف،ثُمَّ تَأْييدُهُ إِمْدَادُهُ لَهُ بِالْجَوَاب،وَإِلْهَامُهُ لمَا هُوَ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ،قيلَ:لَمَّا دَعَاهُ أَعَانَهُ جبْرِيلُ بِتسْعِينَ بَيْتًا.[1770]

أهمّيّة الْجدال بالْحقّ:

الْجدَال بالْحَقِّ لإِقَامَة الْحُجَّة عَلَى أَهْل الإلْحَاد وَالْبدَع منَ الْجهَاد في سَبيل اللَّه كَمَا رُويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال:جَاهدُوا الْمُشْركينَ بأَمْوَالكُمْ وَأَنْفُسكُمْ وَأَلْسنَتكُمْ".وَإِنَّمَا يَكُونُ الْجهَادُ باللِّسَان بتبْيَان الْحَقِّ بالْحُجَّة وَالْبُرْهَان لاَ بالشَّغَب وَالْهَذَيَان وَالسَّبِّ وَالشَّتْم،وَالْقُرْآنُ أَبْلَغُ في حُجَجه وَبَرَاهينه،وَلهَذَا أُمرَ الرَّسُول ﷺ أَنْ يُجَاهدَ الْكُفَّارَ بالْقُرْآن،قَال تَعَالَى:{ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان:٥٢].

وَالْجدَال بالْحَقِّ منَ النَّصيحَة في الدِّين،وَفي قصَّة نُوحٍ عَلَيْه السَّلَامُ قَوْلُهُمْ لَهُ:{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا

[1770] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠١٥)

يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) } [هود].

وَقَال ابْنُ الْقَيِّمِ فِي قِصَّةِ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ فَوَائِدَ مَا نَصُّهُ:

وَمِنْهَا: جَوَازُ مُجَادَلَةِ أَهْل الْكِتَابِ وَمُنَاظَرَتِهِمْ، بَل اسْتِحْبَابُ ذَلِكَ، بَل وُجُوبُهُ إِذَا ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ مِنْ إِسْلاَمِ مَنْ يُرْجَى إِسْلاَمُهُ مِنْهُمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلاَ يَهْرُبُ مِنْ مُجَادَلَتِهِمْ إِلاَّ عَاجِزٌ عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، فَلْيُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِهِ (أَيِ الْقَادِرِينَ عَلَيْهِ).

وَقَال الشَّوْكَانِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ } [غافر:٤]، أَيْ مَا يُخَاصِمُ فِي دَفْعِ آيَاتِ اللَّهِ وَتَكْذِيبِهَا إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَالْمُرَادُ: الْجِدَال بِالْبَاطِل، وَالْقَصْدُ إِلَى دَحْضِ الْحَقِّ، فَأَمَّا الْجِدَال لاِسْتِيضَاحِ الْحَقِّ، وَرَفْعِ اللَّبْسِ، وَتَمْيِيزِ الرَّاجِحِ مِنَ الْمَرْجُوحِ، وَدَفْعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُبْطِلُونَ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُتَقَرِّبُونَ، وَبِذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فَقَال: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } [آل عمران:١٨٧]. [١٧٧١]

التركيز على رؤس الكفر والضلال والنفاق أولا :

قال تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } [التوبة:١٢]

وَإِنْ نَكَثَ هَؤُلاَءِ الْمُشْرِكُونَ، الذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ، عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهَمْ (أَيْمَانَهُمْ)، وَعَابُوا دِينَكُمْ وَانْتَقَصُوهُ (طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)، فَقَاتِلُوا زُعَمَاءَ الكُفْرِ وَأَئِمَّتَهُ، لأَنَّهُمْ لاَ عُهُودَ لَهُمْ وَلاَ مَوَاثِيقَ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَنِ الكُفْرِ إِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ. (وَمِنْ هَذِهِ الآيَةِ شُرِعَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الإِسْلاَمِ). [١٧٧٢]

[١٧٧١] - زاد المعاد ٣ / ٤٢، وفتح القدير للشوكاني ٣ / ٤٢ .والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٥/ ١٢٧)

[١٧٧٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

لَمَّا اسْتَوْفَى الْبَيَانَ لِأَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ عَهْدِهِمْ بِقَوْلِهِ:أَنَّ اللَّـهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- إِلَى قَوْلِهِ- وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [التَّوْبَة:٣] وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِإِبْطَانِهِمُ الْغَدْرَ،وَالَّذِينَ أَمَرَ بِإِتْمَامِ عَهْدِهِمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ مَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ بِقَوْلِهِ: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ [التَّوْبَة:٤] الْآيَات،وَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ عَطَفَ عَلَى أُولَئِكَ بَيَانَ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ بِنَكْثِ الْعَهْدِ،وَيُعْلِنُونَ بِمَا يُسْخِطُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَوْلِهِمْ،وَهَذَا حَالٌ مُضَادٌّ لِحَالِ قَوْلِهِ:وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ [التَّوْبَة:٨].

وَالنَّكْثُ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ فِي الْأَعْرَافِ [١٣٥].

وَعَبَّرَ عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ بِنَكْثِ الْأَيْمَانِ تَشْنِيعًا لِلنَّكْثِ،لِأَنَّ الْعَهْدَ كَانَ يُقَارِنُهُ الْيَمِينُ عَلَى الْوَفَاءِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَهْدُ حِلْفًا.

وَزِيدَ قَوْلُهُ:مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ زِيَادَةً فِي تَسْجِيلِ شَنَاعَةِ نَكْثِهِمْ:بِتَذْكِيرِ أَنَّهُ غَدْرٌ لِعَهْدٍ،وَحَنْثٌ بِالْيَمِينِ.وَالطَّعْنُ حَقِيقَتُهُ خَرْقُ الْجِسْمِ بِشَيْءٍ مُحَدَّدٍ كَالرُّمْحِ،وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا بِمَعْنَى الثَّلْبِ.

وَالنِّسْبَةُ إِلَى النَّقْصِ،بِتَشْبِيهِ عِرْضِ الْمَرْءِ،الَّذِي كَانَ مُلْتَئِمًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ،بِالْجَسَدِ السَّلِيمِ.
فَإِذَا أُظْهِرَتْ نَقَائِصُهُ بِالثَّلْبِ وَالشَّتْمِ شُبِّهَ بِالْجِلْدِ الَّذِي أُفْسِدَ الْتِحَامُهُ.

وَالْأَمْرُ،هُنَا:لِلْوُجُوبِ،وَهِيَ حَالَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِذْنِ الْمُتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ [التَّوْبَة:٥] فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ ذَبًّا عَنْ حُرْمَةِ الدِّينِ،وَقَمْعًا لِشَرِّهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ.

وأَئِمَّةَ جَمْعُ إِمَامٍ،وَهُوَ مَا يُجْعَلُ قُدْوَةً فِي عَمَلٍ يُعْمَلُ عَلَى مِثَالِهِ،أَوْ عَلَى مِثَالِ عَمَلِهِ،قَالَ تَعَالَى:وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً [الْقَصَص:٥] أَيْ مُقْتَدًى بِهِمْ،وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وَالْإِمَامُ الْمِثَالُ الَّذِي يُصْنَعُ عَلَى شَكْلِهِ،أَوْ قَدْرِهِ،مَصْنُوعٌ،فَأَئِمَّةُ الْكُفْرِ،هُنَا:الَّذِينَ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِيهِ،بِحَيْثُ صَارُوا قُدْوَةً لِأَهْلِ الْكُفْرِ.

وَالْمُرَادُ بِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ:الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ،فَوُضِعَ هَذَا الاسْمُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ حِينَ لَمْ يُقَلْ:فَقَاتِلُوهُمْ،لِزِيَادَةِ التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ بِبُلُوغِهِمْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ مِنَ الْكُفْرِ،وَهِيَ أَنَّهُمْ قُدْوَةٌ لِغَيْرِهِمْ،لِأَنَّ الَّذِينَ أَضْمَرُوا النَّكْثَ يَبْقَوْنَ مُتَرَدِّدِينَ بِإِظْهَارِهِ، فَإِذَا ابْتَدَأَ بَعْضُهُمْ بِإِظْهَارِ النَّقْضِ اقْتَدَى بِهِمُ الْبَاقُونَ،فَكَانَ النَّاقِضُونَ أَئِمَّةً لِلْبَاقِينَ.

وَجُمْلَةُ:إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ تَعْلِيلٌ لِقِتَالِهِمْ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوهُ لِأَجْلِ اسْتِخْفَافِهِمْ بِالْأَيْمَانِ الَّتِي حَلَفُوهَا عَلَى السَّلْمِ،فَغَدَرُوا،وَفِيهِ بَيَانٌ لِلْمُسْلِمِينَ كَيْلَا يَشْرَعُوا فِي قِتَالِهِمْ غَيْرَ مُطَّلِعِينَ عَلَى حِكْمَةِ الْأَمْرِ بِهِ،فَيَكُونُ قِتَالُهُمْ لِمُجَرَّدِ الِامْتِثَالِ لِأَمْرِ اللَّهِ،فَلَا يَكُونُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْظِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا يُشَحِّذُ شِدَّتَهُمْ عَلَيْهِمْ.

وَنَفْيُ الْأَيْمَانِ لَهُمْ:نَفْيٌ لِلْمَاهِيَّةِ الْحَقِّ لِلْيَمِينِ،وَهِيَ قَصْدُ تَعْظِيمِهِ وَالْوَفَاءِ بِهِ،فَلَمَّا لَمْ يُوفُوا بِأَيْمَانِهِمْ،نَزَلَتْ أَيْمَانُهُمْ مَنْزِلَةَ الْعَدَمِ لفقدان أخصّ خواصّها وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا اقْتَضَتْهُ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ،وَابْنُ كَثِيرٍ،وَأَبُو عَمْرٍو،وَرُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ.أَيِّمَةَ بِتَسْهِيلِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْيَاءِ.وَقَرَأَ الْبَقِيَّةُ:بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ.وَقَرَأَ هِشَامٌ عَنِ عَامِرٍ،وَأَبُو جَعْفَرٍ:بِمَدٍّ بَيْنَ الْهَمْزَتَيْنِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ لَا أَيْمانَ لَهُمْ بِفَتْحِ هَمْزَةِ أَيْمانَ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ يَمِينٍ.وَقَرَأَهُ ابْنُ عَامِرٍ-بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ-،أَيْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ،وَمَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ لَا عَهْدَ لَهُ لِانْتِفَاءِ الْوَازِعِ.

وَعَطْفُ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ عَطْفُ قَسِيمٍ عَلَى قَسِيمِهِ،فَالْوَاوُ فِيهِ بِمَعْنَى (أَوْ).فَإِنَّهُ إِذَا حَصَلَ أَحَدُ هَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ:الَّذَيْنِ هُمَا نَكْثُ الْأَيْمَانِ،وَالطَّعْنُ فِي الدِّينِ،كَانَ حُصُولُ أَحَدِهِمَا مُوجِبًا لِقِتَالِهِمْ،أَيْ دُونَ مُصَالَحَةٍ،وَلَا عَهْدٍ،وَلَا هُدْنَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَذِكْرُ طَعْنِهِمْ فِي دين الْمُسلمين ينبىء بِأَنَّ ذَلِكَ الطَّعْنَ كَانَ مِنْ دَأْبِهِمْ فِي مُدَّةِ الْمُعَاهَدَةِ،فَأُرِيدَ صَدُّهُمْ عَنِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ.وَلَمْ أَقِفْ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَشْرُوطًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عُقُودِ الْمُصَالَحَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يَطْعَنُوا فِي الْإِسْلَامِ،فِي غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ،فَكَانَ هَذَا شَرْطًا عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ،لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَصْبَحُوا فِي قُوَّةٍ.

وَقَوله:فقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أَمْرٌ لِلْوُجُوبِ.

وَجُمْلَةُ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ يَجُوزُ أَنْ تكون تعليلا للحملة فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أَيْ قِتَالَهُمْ لِرَجَاءِ أَنْ يَنْتَهُوا،وَظَاهِرٌ أَنَّ الْقِتَالَ يُفْنِي كَثِيرًا مِنْهُمْ،فَالِانْتِهَاءُ الْمَرْجُوُّ انْتِهَاءُ الْبَاقِينَ أَحْيَاءً بَعْدَ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا.

وَلَمْ يُذْكَرْ مُتَعَلِّقُ فِعْلِ يَنْتَهُونَ وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الِانْتِهَاءُ عَنْ نَكْثِ الْعَهْدِ،لِأَنَّ عَهْدَهُمْ لَا يُقْبَلُ بَعْدَ أَنْ نَكَثُوا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ،وَلَا أَنْ يَكُونَ الِانْتِهَاءُ عَنِ الطَّعْنِ فِي الدِّينِ،لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ طَعْنُهُمْ فِي دِينِنَا حَاصِلًا فِي مُدَّةِ قِتَالِهِمْ فَلَا جَدْوَى لِرَجَاءِ انْتِهَائِهِمْ عَنْهُ،وَإِنْ كَانَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ إِذْ لَا غَايَةَ لِتَنْهِيَةِ الْقَتْلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَهُمْ،فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ:لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَنِ الْكُفْرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا لَا اتِّصَالَ لَهَا بِجُمْلَةِ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ الْآيَةَ،بَلْ نَاشِئَةً عَنْ قَوْلِهِ:فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ- إِلَى قَوْلِهِ- أَئِمَّةَ الْكُفْرِ [التَّوْبَة:٥- ١٢].

وَالْمَعْنَى:الْمَرْجُوُّ أَنَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَنِ الشِّرْكِ وَيُسْلِمُونَ،وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ،وَبَعْدَ حُنَيْنٍ،وَلَمْ يَقَعْ نَكْثٌ بَعْدَ ذَلِكَ،وَدَخَلَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا فِي سنة الْوُفُود.[١٧٧٣]

قوله تعالى:«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» هذا هو الوجه الآخر الذي يلقى به المؤمنون،المتمردين من المشركين،الناكثين للعهد،وهو أنه إذا لم يستقم المشركون على الوفاء بالعهد،ونكثوه،أو همّوا بنكثه،وأطلقوا ألسنتهم بقالة السوء فى الإسلام والمسلمين،أو مدّوا أيديهم إلى المسلمين بأذى- فعندئذ ينبغى على المسلمين أن يحلّوا أنفسهم من أي عقد عقدوه مع هؤلاء المشركين،وأن يضربوهم بيد باطشة قاهرة،لعلّ فى هذا ما يقطع ألسنتهم وأيديهم المتطاولة على الدين،ويقصّر من خطوهم إلى التمادي فى الشرك والضلال.وفى العدول عن الضمير إلى الظاهر فى قوله تعالى:«فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» بدلا من أن يجىء النظم «فقاتلوهم» - فى هذا ما يكشف عن وجه هؤلاء المشركين،ذلك

[١٧٧٣] - التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٩)

الوجه،الذي لا يستحق غير الخزي والهوان..إنه وجه يطلّ منه الكفر فى أنكـــر صـــورة وأبشعها..وإنه،وجه تنعقد على جبينه أمارة الزعامة،والإمامة،لدولة الكفر والضلال.[١٧٧٤]

وقال ابن كثير:" يَقُولُ تَعَالَى:وَإِنْ نَكَثَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ أَيْمَانَهُمْ،أَيْ:عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ،{وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} أَيْ:عَابُوهُ وَانْتَقَصُوهُ.وَمِـــنْ هَاهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ،ﷺ،أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِتَنَقُّصٍ؛وَلِهَذَا قَالَ:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} أَيْ:يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ.

وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ:أَئِمَّةُ الْكُفْرِ كَأَبِي جَهْلٍ،وَعُتْبَةَ،وَشَيْبَةَ،وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ،وَعَدَّدَ رِجَالًا.

وَعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ:مَــرَّ سَــعْدٌ بِرَجُــلٍ مِــنَ الْخَوَارِجِ،فَقَــالَ الْخَارِجِيُّ:هَذَا مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ.فَقَالَ سَعْدٌ:كَذَبْتَ،بَلْ أَنَا قَاتَلْتُ أَئِمَّةَ الْكُفْــرِ.رَوَاهُ ابْــنُ مَرْدَوَيْهِ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ،عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قَالَ:مَا قُوتِلَ أهل هذه الآية بعد.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،مِثْلُهُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ،وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا مُشْرِكِي قُــرَيْشٍ فَهِــيَ عَامَّــةٌ لَهُــمْ وَلِغَيْرِهِمْ،واللَّهُ أَعْلَمُ.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ:أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِلَى النَّــاسِ حِينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ،قَالَ:إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا مُحَوَّقَــةً رُءُوسُهُمْ،فَاضْــرِبُوا مَعَاقِــدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِــنْ غَيْرِهِمْ،وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ."[١٧٧٥]

وقال السعدي:" يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا علـــى عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} أي:نقضـــوها وحلوها،فقاتلوكم أو أعانوا على قتـــالكم،أو نقصـــوكم،{وَطَعَنُـــوا فِـــي دِيـــنِكُمْ}

[١٧٧٤] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧١٠)

[١٧٧٥] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١١٦)

أي:عابوه،وسخروا منه.ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين،أو إلى القرآن،{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} أي:القادة فيه،الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن،الناصرين لدين الشيطان،وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم،ولأن غيرهم تبع لهم،وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه،فإنه من أئمة الكفر.{إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ} أي:لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها،بل لا يزالون خائنين،ناكثين للعهد،لا يوثق منهم.{لَعَلَّهُمْ} في قتالكم إياهم {يَنْتَهُونَ} عن الطعن في دينكم،وربما دخلوا فيه،ثم حث على قتالهم،وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف،التي صدرت من هؤلاء الأعداء،والتي هم موصوفون بها،المقتضية لقتالهم."[1776]

وقال الطبري:" يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:فَإِنْ نَقَضَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ عُهُودَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَاقَدُوكُمْ،أَنْ لَا يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِكُمْ {وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} [التوبة:١٢] يَقُولُ:وَقَدَحُوا فِي دِينِكُمُ الْإِسْلَامِ،فَثَلَمُوهُ وَعَابُوهُ.{فقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة:١٢] يَقُولُ:فَقَاتِلُوا رُؤَسَاءَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ.{إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة:١٢] يَقُولُ:إِنَّ رُؤَسَاءَ الْكُفْرِ لَا عَهْدَ لَهُمْ.{لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة:١٢] لِكَيْ يَنْتَهُوا عَنِ الطَّعْنِ فِي دِينِكُمْ وَالْمُظَاهَرَةِ عَلَيْكُمْ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:" {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} [التوبة:١٢] إِلَى:{لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة:١٢] يَعْنِي:أَهْلَ الْعَهْدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،سَمَّاهُمْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ،وَهُمْ كَذَلِكَ.يَقُولُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ:وَإِنْ نَكَثُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَقَاتِلْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ؛لِأَنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ،لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ "

وعَنْ قَتَادَةَ:" {وَإِنْ نَكَثُوا} [التوبة:١٢] أَيْمَانَهُمْ [ص:٣٦٤] مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ إِلَى:{يَنْتَهُونَ} [التوبة:١٢] فَكَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ:أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ،وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ،وَأَبُو سُفْيَانَ،وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،وَهُمُ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ "

[1776] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٠)

وعَنِ السُّدِّيِّ:" {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} [التوبة:١٢] إِلَى:{يَنْتَهُونَ} [التوبة:١٢] هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ،يَقُولُ:إِنْ نَكَثُوا عَهْدَهُمُ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَطَعَنُوا فِيهِ،فَقَاتِلُوهُمْ "[١٧٧٧]

قال القرطبي:

فِيهِ سَبْعُ مَسَائِلَ:الاولى- قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَإِنْ نَكَثُوا) النَّكْثُ النَّقْضُ،وَأَصْلُهُ فِي كُلِّ مَا فُتِلَ ثُمَّ حُلَّ.فَهِيَ فِي الْأَيْمَانِ وَالْعُهُودِ مُسْتَعَارَةٌ.قَالَ:

وَإِنْ حَلَفَتْ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا...فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

أَيْ عَهْدٌ.وَقَوْلُهُ:(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) أي بالاستنقاض وَالْحَرْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُ.يُقَالُ:طَعَنَهُ بِالرُّمْحِ وَطَعَنَ بِالْقَوْلِ السَّيِّءِ فِيهِ يَطْعَنُ،بِضَمِّ الْعَيْنِ فِيهِمَا.وَقِيلَ:يَطْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَمَّرَ أُسَامَةَ:(إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَايْمِ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ).خَرَّجَهُ الصَّحِيحُ.الثَّانِيَةُ- اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ كُلِّ مَنْ طَعَنَ فِي الدِّينِ،إِذْ هُوَ كَافِرٌ.وَالطَّعْنُ أَنْ يَنْسُبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ،أَوْ يَعْتَرِضُ بِالِاسْتِخْفَافِ عَلَى مَا هُوَ مِنَ الدِّينِ،لِمَا ثَبَتَ مِنَ الدَّلِيلِ الْقَطْعِيِّ عَلَى صِحَّةِ أُصُولِهِ وَاسْتِقَامَةِ فُرُوعِهِ.وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:أَجْمَعَ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ الْقَتْلُ.وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ،وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.وَقَدْ حُكِيَ عَنِ النُّعْمَانِ أَنَّهُ قَالَ:لَا يُقْتَلُ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ،عَلَى مَا يَأْتِي.وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ فِي مَجْلِسِ عَلِيٍّ:مَا قُتِلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَّا غَدْرًا،فَأَمَرَ عَلِيٌّ بِضَرْبِ عُنُقِهِ.وَقَالَهُ آخَرُ فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ:أَيُقَالُ هَذَا فِي مَجْلِسِكَ وَتَسْكُتُ! وَاللَّهِ لَا أُسَاكِنُكَ تَحْتَ سَقْفٍ أبدا،ولين خَلَوْتُ بِهِ لَأَقْتُلَنَّهُ.قَالَ عُلَمَاؤُنَا:هَذَا يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ إِنْ نَسَبَ الْغَدْرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ.وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ عَلِيٌّ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا مِنْ قَائِلِ ذَلِكَ،لِأَنَّ ذَلِكَ زَنْدَقَةٌ.فَأَمَّا إِنْ نَسَبَهُ لِلْمُبَاشِرِينَ لِقَتْلِهِ بِحَيْثُ يَقُولُ:إِنَّهُمْ أَمَّنُوهُ ثُمَّ غَدَرُوهُ لَكَانَتْ هَذِهِ النِّسْبَةُ كَذِبًا مَحْضًا،فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ مَعَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَمَّنُوهُ وَلَا صَرَّحُوا لَهُ بِذَلِكَ،وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمَا كَانَ أَمَانًا،لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا وَجَّهَهُمْ لِقَتْلِهِ لَا لِتَأْمِينِهِ،وَأَذِنَ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي أَنْ

[١٧٧٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٣٦٢)

يَقُولَ.وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي قَتْلِ مَنْ نَسَبَ ذَلِكَ لَهُمْ نَظَرٌ وَتَرَدُّدٌ.وَسَبَبُهُ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لَهُمْ نِسْبَتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ،لِأَنَّهُ قَدْ صَوَّبَ فِعْلَهُمْ وَرَضِيَ بِهِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِالْغَدْرِ وَمَنْ صَرَّحَ بِذَلِكَ قتل،أولا يَلْزَمُ مِنْ نِسْبَةِ الْغَدْرِ لَهُمْ نِسْبَتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَا يُقْتَلُ.وَإِذَا قُلْنَا لَا يُقْتَلُ،فَلَا بُدَّ مِنْ تَنْكِيلِ ذَلِكَ الْقَائِلِ وَعُقُوبَتِهِ بِالسَّجْنِ،وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ وَالْإِهَانَةِ العظيمة.

الثَّالِثَةُ– فَأَمَّا الذِّمِّيُّ إِذَا طَعَنَ فِي الدِّينِ انْتَقَضَ عَهْدُهُ فِي الْمَشْهُورِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِك،لِقَوْلِهِ:" وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ" الْآيَةَ.فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَقِتَالِهِمْ.وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي هَذَا:إِنَّهُ يُسْتَتَابُ،وَإِنَّ مُجَرَّدَ الطَّعْنِ لَا يُنْقَضُ بِهِ الْعَهْدُ إِلَّا مَعَ وُجُودِ النَّكْثِ،لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ بِشَرْطَيْنِ:أَحَدُهُمَا نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ،وَالثَّانِي طَعْنُهُمْ فِي الدِّينِ.قُلْنَا:إِنْ عَمِلُوا بِمَا يُخَالِفُ الْعَهْدَ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ،وَذِكْرُ الْأَمْرَيْنِ لا يقتضي توقف قتاله على وجود هما،فَإِنَّ النَّكْثَ يُبِيحُ لَهُمْ ذَلِكَ بِانْفِرَادِهِ عَقْلًا وَشَرْعًا.وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ عِنْدَنَا:فَإِنْ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ حَلَّ قِتَالُهُمْ،وَإِنْ لَمْ يَنْكُثُوا بَلْ طَعَنُوا فِي الدِّينِ مَعَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ حَلَّ قِتَالُهُمْ.وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رُفِعَ إِلَيْهِ:ذِمِّيٌّ نَخَسَ دَابَّةً عَلَيْهَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ فَرَمَحَتْ فَأَسْقَطَتْهَا فَانْكَشَفَتْ بَعْضُ عَوْرَتِهَا،فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ فِي الْمَوْضِعِ.

الرَّابِعَةُ– إِذَا حَارَبَ الذِّمِّيُّ نُقِضَ عَهْدُهُ وَكَانَ ماله وولده فيئا معه.وقال محمد ابن مَسْلَمَةَ:لَا يُؤَاخَذُ وَلَدُهُ بِهِ،لِأَنَّهُ نَقَضَ وَحْدَهُ.وَقَالَ:أَمَّا مَالُهُ فَيُؤْخَذُ.وَهَذَا تَعَارُضٌ لَا يُشْبِهُ مَنْصِبَ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ،لِأَنَّ عَهْدَهُ هُوَ الَّذِي حَمَى مَالَهُ وَوَلَدَهُ،فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ مَالُهُ ذَهَبَ عَنْهُ وَلَدُهُ.وَقَالَ أَشْهَبُ:إِذَا نَقَضَ الذِّمِّيُّ الْعَهْدَ فَهُوَ عَلَى عَهْدِهِ وَلَا يَعُودُ فِي الرِّقِّ أَبَدًا.وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ،وَكَأَنَّهُ رَأَى الْعَهْدَ مَعْنًى مَحْسُوسًا.وَإِنَّمَا الْعَهْدُ حُكْمٌ اقْتَضَاهُ النَّظَرُ،وَالْتَزَمَهُ الْمُسْلِمُونَ لَهُ،فَإِذَا نَقَضَهُ انْتَقَضَ كَسَائِرِ الْعُقُودِ.

الْخَامِسَةُ– أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَوْ عَرَّضَ أَوِ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِهِ أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ،فَإِنَّا لَمْ نُعْطِهِ الذِّمَّةَ أَوِ الْعَهْدَ عَلَى هَذَا.إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيَّ وَأَتْبَاعَهُمَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا:لَا يُقْتَلُ،مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ،وَلَكِنْ يُؤَدَّبُ وَيُعَزَّرُ.وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:" وَإِنْ نَكَثُوا" الْآيَةَ.وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَمْرِهِ ﷺ بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَكَانَ مُعَاهِدًا.وَتَغَيَّظَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَجُلٍ

مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ:أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ! فَقَالَ:مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:أَنَّ رَجُلًا أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ،لَهُ مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ،فَكَانَتْ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ،فَيَنْهَاهَا فَلَمْ تَنْتَهِ،وَيَزْجُرُهَا فَلَمْ تَنْزَجِرْ،فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ذَكَرَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَمَا صَبَرَ سَيِّدُهَا أَنْ قَامَ إِلَى مِعْوَلٍ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهَا حَتَّى أَنْفَذَهُ.فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:(أَلَا اشْهَدُوا إِنَّ دَمَهَا هَدَرٌ).وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:فَقَتَلَهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَامَ الْأَعْمَى فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَنَا صَاحِبُهَا،كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي،وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ،وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ،وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةُ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَقَتَلْتُهَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:(أَلَا اشْهَدُوا إِنَّ دَمَهَا هَدَرٌ).

السَّادِسَةُ- وَاخْتَلَفُوا إِذَا سَبَّهُ ثُمَّ أَسْلَمَ تَقِيَّةً مِنَ الْقَتْلِ،فَقِيلَ:يُسْقِطُ إِسْلَامُهُ قَتْلَهُ،وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ،لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ إِذَا سَبَّهُ ثُمَّ تَابَ قَالَ الله عز وجل:" قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ" [الأنفال:٣٨].وَقِيلَ:لَا يُسْقِطُ الْإِسْلَامُ قَتْلَهُ،قَالَهُ فِي الْعُتْبِيَّةِ لِأَنَّهُ حَقٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَجَبَ لِانْتِهَاكِهِ حُرْمَتَهُ وَقَصْدِهِ إِلْحَاقَ النَّقِيصَةِ وَالْمَعَرَّةِ بِهِ،فَلَمْ يَكُنْ رُجُوعُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالَّذِي يُسْقِطُهُ،وَلَا يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ المسلم.

السابعة- قوله تعالى:(فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) " أَئِمَّةَ" جَمْعُ إِمَامٍ،وَالْمُرَادُ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ- فِي قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ- كَأَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ.وَهَذَا بَعِيدٌ،فَإِنَّ الْآيَةَ فِي سُورَةِ" بَرَاءَةٌ" وَحِينَ نَزَلَتْ وَقُرِئَتْ عَلَى النَّاسِ كَانَ اللَّهُ قَد اسْتَأْصَلَ شَأْفَةَ قُرَيْشٍ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ،فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ" فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ".أَيْ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى نَكْثِ الْعَهْدِ وَالطَّعْنِ فِي الدِّينِ يَكُونُ أَصْلًا وَرَأْسًا فِي الْكُفْرِ،فَهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ عَلَى هَذَا.وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُعْنَى بِهِ الْمُتَقَدِّمُونَ وَالرُّؤَسَاءُ مِنْهُمْ،وَأَنَّ قِتَالَهُمْ قِتَالٌ لِأَتْبَاعِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا حُرْمَةَ لَهُمْ.وَالْأَصْلُ أَأْمِمَةٌ كَمِثَالٍ وَأَمْثِلَةٍ،ثُمَّ أُدْغِمَتِ الْمِيمُ فِي الْمِيمِ وَقُلِبَتِ الْحَرَكَةُ عَلَى الهمزة فاجتمعت هَمْزَتَانِ،فَأُبْدِلَتْ مِنَ الثَّانِيَةِ يَاءً.وَزَعَمَ الْأَخْفَشُ أَنَّكَ تَقُولُ:هَذَا أَيَمُّ مِنْ هَذَا،بِالْيَاءِ.وَقَالَ الْمَازِنِيُّ:أَوَمُّ مِنْ هَذَا،بِالْوَاوِ.وَقَرَأَ حَمْزَةُ" أَئِمَّةَ".وَأَكْثَرُ النَّحْوِيِّينَ يَذْهَبُ

إِلَى أَنَّ هَذَا لَحْنٌ،لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ هَمْزَتَيْنِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.(إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ) أَيْ لا عهود لهم،أي ليست عهود هم صَادِقَةً يُوفُونَ بِهَا.وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ" لَا أَيْمانَ لَهُمْ" بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ مِنَ الْإِيمَانِ،أَيْ لَا إِسْلَامَ لَهُمْ.وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرَ آمَنْتُهُ إِيمَانًا،مِنَ الْأَمْنِ الَّذِي ضِدُّهُ الْخَوْفُ،أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ،مِنْ أَمَنْتُهُ إِيمَانًا أَيْ أَجَرْتُهُ،فَلِهَذَا قَالَ:" فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ". " لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ" أَيْ عَنِ الشِّرْكِ.قَالَ الْكَلْبِيُّ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَادَعَ أَهْلَ مَكَّةَ سَنَةً وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَةِ فَحَبَسُوهُ عَنِ الْبَيْتِ،ثُمَّ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فَمَكَثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ قَاتَلَ حُلَفَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ خُزَاعَةَ حُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنْ كِنَانَةَ،فَأَمَدَّتْ بَنُو أُمَيَّةَ حلفاء هم بِالسِّلَاحِ وَالطَّعَامِ،فَاسْتَعَانَتْ خُزَاعَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أن يُعِينَ حُلَفَاءَهُ كَمَا سَبَقَ.وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ:كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْآيَةِ- يَعْنِي" فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ"- إِلَّا ثَلَاثَةٌ،وَلَا بَقِيَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ.فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:إِنَّكُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ تُخْبِرُونَ أَخْبَارًا لَا نَدْرِي مَا هِيَ! تَزْعُمُونَ أَلَّا مُنَافِقَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ،فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعَلَاقَنَا.قَالَ:أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ.أَجَلْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ،أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ لما وجد برده ".[1778]

وقال الكيا الهراسي:

قوله تعالى:(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)،الآية/ ١٢.

يدل على أن المعاهد لا يقتل في عهده ما لم ينكث،وذكر الأمرين لا يقتضي توقف قتالهم على وجودهما،فان النكث يقتضي ذلك بانفراده عقلا وشرعا.

فالمراد به على هذا الوجه التمييز في الجمع،وتقديره:

فإن نكثوا حل قتالهم وإن لم ينكثوا وطعنوا في الدين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم.

وهذا يقوي مذهب الشافعي،فإن المعاهد إذا جاهر بسب الرسول وطعن في الدين فإنه يحل قتله وقتاله..وأبو حنيفة رأى أن مجرد الطعن في الدين لا ينقض به العهد،ولا شك أن

[1778] - تفسير القرطبي (٨/ ٨١)

دلالة الآية قوية فيما قاله الشافعي.فإن قيل:فلم قال:فقاتلوا أئمة الكفر؟ و لم خصصهم بذلك مع وجود القتال من جميعهم؟

الجواب:أن من المحتمل أن يكون المراد به أن المقدم على الطعن في الدين ونكث العهد صار أصلا ورأسا في الكفر،فهو من أئمة الكفر على هذا التأويل،أو عنى به المقدمين والرؤساء منهم،وأن قتالهم قتال أتباعهم،وأبان أنهم لا يحترمون ولا يهابون.وقد قيل:عنى به صناديد قريش،كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية ابن خلف.وهذا بعيد:فإن الآية في سورة براءة،وحين نزلت وقرئت على الناس استؤصل شأفة قريش فلم يبق منهم إلا مسلم أو مسالم.

قوله تعالى:(إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ) أي لا أيمان لهم يفون بها،ويثبتون عليها.

قوله تعالى:(لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) أبان به أن الغرض من قتال الكفار يجب أن يكون طلب إسلامهم،فمن رجا منهم الإسلام وتطلب تعريف الحق يجب السعي في بيان ذلك،لأن قوله:(لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)،أي كي ينتهوا عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين،وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم،إما دفع ضررهم فينتهون عن قتالنا،وإما الانتهاء عن كفرهم بإظهار الإسلام.

وقد قيل:قوله (أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)،نزل في اليهود الذين غدروا برسول الله ﷺ،ونكثوا ما كانوا أعطوا من العهود والأيمان،على أن لا يعينوا عليه أعداءه من المشركين،وهموا بمعاونة المنافقين والكفار على إخراج النبي عليه الصلاة والسلام،فأخبر أنهم بدءوا بالنكث والنقض.[١٧٧٩]

وفي المحلى:

وَلَا يُقْبَلُ مِنْ يَهُودِيٍّ،وَلَا نَصْرَانِيٍّ،وَلَا مَجُوسِيٍّ:جِزْيَةٌ،إلَّا بِأَنْ يُقِرُّوا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إلَيْنَا،وَأَنْ لَا يَطْعَنُوا فِيهِ،وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛لِحَدِيثِ ثَوْبَانَ الَّذِي ذَكَرْنَا آنفًا وَلِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ}

[١٧٧٩] - أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ١٨٢)

[التوبة:١٢] وَهُوَ قَوْلُ مَالك،قَالَ فِي الْمُسْتَخْرَجَة:مَنْ قَالَ منْ أَهْلِ الذِّمَّة:إنَّمَا أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ إِلَيْكُمْ لَا إِلَيْنَا فَلَا شَيْءَ عَلَيْه،قَالَ:فَإِنْ قَالَ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قُتلَ.[١٧٨٠]

مَسْأَلَةٌ:كَافرٌ قَذَفَ مُسْلمًا أَوْ كَافرًا؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد:قَدْ ذَكَرْنَا وُجُوبَ الْحَدِّ عَلَى مَنْ قَذَفَ كَافرًا فَإِذَا قَذَفَ الْكَافرُ مُسْلمًا،قَدْ ذَكَرْنَا فيمَا سَلَفَ منْ كتَابنَا هَذَا وُجُوبَ الْحُكْمِ عَلَى الْكُفَّارِ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ،لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة:٤٩].

وَبِقَوْله تَعَالَى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه} [الأنفال:٣٩].

وَقَدْ ذَكَرْنَا وُجُوبَ قَتْلِ مَنْ سَبَّ مُسْلمًا منْ الْكُفَّارِ لنَقْضهِمْ الْعَهْدَ وَفَسْخهِمْ الذِّمَّةَ،لقَوْلِ اللَّه تَعَالَى {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].فَافْتَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى إصْغَارَهُمْ،فَإِذَا خَرَجُوا عَنْ الصَّغَارِ فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ،وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ ذِمَّةٌ فَقَتْلُهُمْ وَسَبْيُهُمْ،وَأَمْوَالُهُمْ:حَلَالٌ،وَإِذَا سَبُّوا مُسْلمًا فَقَدْ خَرَجُوا عَنْ الصَّغَارِ،وَأَصْغَرُوا الْمُسْلمَ،فَقَدْ بَرِئَتْ الذِّمَّةُ ممَّنْ فَعَلَ ذَلكَ منْهُمْ،وَلَا ذِمَّةَ لَهُ:حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيد بْنِ نَبَات نا عَبْدُ اللَّه بْنُ نَصْرٍ نا قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ نا ابْنُ وَضَّاحٍ نا مُوسَى بْنُ مُعَاوِيَةَ نا وَكِيعٌ نا إسْحَاقُ بْنُ خَالد،قَالَ:سَأَلْت الشَّعْبِيَّ عَنْ يَهُودِيَّة افْتَرَتْ عَلَى مُسْلمٍ؟ قَالَ:تُضْرَبُ الْحَدَّ.

وَبِه - إلَى وَكِيعٍ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ طَارِق بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ قَالَ:شَهِدْت الشَّعْبِيَّ ضَرَبَ نَصْرَانِيًّا قَذَفَ مُسْلمًا،فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ؟ قَالَ أَبُو مُحَمَّد:أَمَّا الْحَدُّ - فَوَاجِبٌ بِلَا شَكٍّ،لِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّه تَعَالَى عَلَى كُلِّ قَاذِف،وَالْقَتْلُ وَاجِبٌ كَمَا ذَكَرْنَا لنَقْضِ الذِّمَّة سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً لَا بُدَّ منْ قَتْلهِمَا،إلَّا أَنْ يُسْلمَا فَيُتْرَكَا عَنْ الْقَتْلِ لَا عَنْ الْحَدِّ.

فَإِنْ قَالَ قَائلٌ:هَلَّا أَوْقَفْتُمْ الْمَرْأَةَ وَلَمْ تَقْتُلُوهَا،لِنَهْيِ رَسُول اللَّه - ﷺ - عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ؟ وَلِأَنَّهَا إذَا نَقَضَتْ ذِمَّتَهَا بِسَبِّ الْمُسْلمِ فَقَدْ عَادَتْ حَرْبِيَّةً،وَإِذَا عَادَتْ حَرْبِيَّةً فَلَا ذِمَّةَ لَهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إلَّا الاسْتِرْقَاقُ؟

قُلْنَا - وَبِاَللَّه تَعَالَى التَّوْفِيقُ -:إنَّ حُكْمَ الْحَرْبِيِّ قَبْلَ التَّذَمُّمِ غَيْرُ حُكْمه بَعْدَ نَقْضهِمْ الذِّمَّةَ،لِأَنَّ حُكْمَهُمْ قَبْلَ التَّذَمُّمِ الْمُقَاتَلَةُ،فَإِذَا قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ،فَإِمَّا الْمَنُّ وَإِمَّا الْفِدَاءُ،وَإِمَّا

[١٧٨٠] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٧٥)

الْقَتْلُ،وَإِمَّا الْإِبْقَاءُ عَلَى الذِّمَّة - هَذَا فِي الرِّجَال،وَكَذَلكَ فِي النِّسَاء حَاشَ الْقَتْلَ،وَأَمَّا بَعْدَ نَقْضِ الذِّمَّة فَلَيْسَ إلَّا الْقَتْلُ،أَوْ الْإِسْلَامُ فَقَطْ،لقَوْل اللَّه تَعَالَى {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ منْ بَعْد عَهْدهمْ وَطَعَنُوا في دينكُمْ فقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْر} [التوبة:١٢] فَافْتَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى قتَالَهُمْ بَعْدَ نَكْث أَيْمَانهمْ منْ بَعْد عَهْدهمْ حَتَّى يَنْتَهُوا - وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخَصَّ الانْتهَاءُ هَاهُنَا عَنْ بَعْضِ مَا هُمْ عَلَيْه دُونَ جَميع مَا هُمْ عَلَيْه،إذْ لَا دَليلَ يُوجبُ ذَلكَ،وَنَحْنُ عَلَى يَقين أَنَّنَا إذَا انْتَهَوْا عَنْ الْكُفْر فَقَدْ حُرِّمَتْ دمَاؤُهُمْ،وَلَا نَصَّ مَعَنَا وَلَا إجْمَاعَ عَلَى أَنَّهُمْ إنْ انْتَهَوْا عَنْ بَعْضِ مَا هُمْ عَلَيْه دُونَ بَعْضٍ عَادُوا إلَى حُكْم الاسْتبْقَاء -.

وَقَدْ تَقَصَّيْنَا هَذَا في " كتَاب الْجهَاد " في مَوَاضعَ منْ ديوَاننَا وَحُكْمُ الْمَرْأَة في ذَلكَ حُكْمُهَا إذَا أَتَتْ بَعْدَ الذِّمَّة بشَيْءٍ يُبِيحُ الدَّمَ منْ زنًى بَعْدَ إحْصَان،وَقَتْلِ نَفْس،أَوْ غَيْر ذَلكَ.وَأَمَّا إذَا قَذَفَ الْكَافرُ كَافرًا فَلَيْسَ إلَّا الْحَدُّ فَقَطْ،عَلَى عُمُوم أَمْر اللَّه تَعَالَى فيمَنْ قَذَفَ مُحْصَنَةً بنَصِّ الْقُرْآن؟

قَالَ أَبُو مُحَمَّد - رَحمَهُ اللَّهُ -:وَالْعَجَبُ ممَّنْ يَرَى أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى كَافرٍ إذَا زَنَى بمُسْلمَة،وَلَا عَلَى كَافرَة إذَا زَنَى بهَا مُسْلمٌ،وَلَا يَرَى الْحَدَّ عَلَى كَافرٍ في شُرْب الْخَمْر - ثُمَّ يَرَى الْحَدَّ عَلَى الْكَافرِ إذَا قَذَفَ مُسْلمًا أَوْ مُسْلمَةً،فَلَيْتَ شعْري مَا الَّذي فَرَّقَ بَيْنَ أَحْكَام هَذه الْحُدُود عنْدَهُمْ؟

فَإِنْ قَالُوا:إنَّ الْحَدَّ في الْقَذْف حَقٌّ للْمُسْلم؟

قُلْنَا لَهُمْ:وَقُولُوا أَيْضًا:إنَّ حَدَّ الْكَافرِ إذَا زَنَى بمُسْلمَة حَقٌّ لأَبي تلْكَ الْمُسْلمَة،وَلزَوْجهَا،وَأُمِّهَا وَلَا فَرْقَ - وَالْعَجَبُ أَيْضًا ممَّنْ قَطَعَ يَدَ الْكَافرِ إذَا سَرَقَ منْ كَافرٍ،ثُمَّ لَا يَحُدُّهُ لَهُ إذَا قَذَفَهُ،وَهَذه عَجَائبُ لَا نَظيرَ لَهَا؟ خَالَفُوا فيهَا نُصُوصَ الْقُرْآن،وَتَرَكُوا الْقيَاسَ الَّذي إلَيْه يَدْعُونَ،وَبه يَحْتَجُّونَ،إذْ فَرَّقُوا بَيْنَ هَذه الْأَحْكَام،وَلَمْ يَقيسُوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ بغَيْر دَليلٍ في كُلِّ ذَلكَ - وَبَاللَّه تَعَالَى التَّوْفيقُ.[١٧٨١]

قَالَ:وَسَتَلْقَى أَقْوَامًا قَدْ حَلَقُوا أَوْسَاطَ رُءُوسهمْ،فَافْلقُوهَا بالسَّيْف.وَالْمُرَادُ الشَّمَامسَةُ،وَهُمْ بمَنْزلَة الْعَلَويَّة فينَا.وَهُمْ أَوْلَادُ هَارُونَ - عَلَيْه السَّلَامُ -.فَقَدْ أَشَارَ في هَذَا الْحَديث بطَريقٍ

[١٧٨١] - المحلى بالآثار (١٢/ ٢٣٥)

آخَرَ:وَتَرَكُوا شُعُورًا كَالْعَصَائِبِ.يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي الْقِتَالِ وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ،فَمِنْهُمْ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ،فَقَتْلُهُمْ أَوْلَى مِنْ قَتْلِ غَيْرِهِمْ.وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِطَرِيقٍ آخَرَ فَقَالَ:فَاضْرِبُوا مَقَاعِدَ الشَّيَاطِينِ مِنْهَا بِالسُّيُوفِ أَيْ فِي أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ الْمَحْلُوقَةِ.وَاَللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة:١٢] وَالْمُرَادُ بِمَقَاعِدِ الشَّيَاطِينِ شَعْرُ رُءُوسِهِمْ،وَذَلِكَ يَكُونُ فِي الرَّأْسِ،كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي إقَامَةِ الْحَدِّ:اضْرِبُوا الرَّأْسَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ فِي الرَّأْسِ.[١٧٨٢]

جواز اغتيال الكفرة والفجرة:

اغتيال كعب بن الشرف

قَالَ عَمْرٌو:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ،فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»،فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:فَأْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا،قَالَ:«قُلْ»،فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ:إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً،وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ،قَالَ:وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ،قَالَ:إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ،فَلاَ نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ،وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ – وحَدَّثَنَا عَمْرٌو غَيْرَ مَرَّةٍ فَلَمْ يَذْكُرْ وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ أَوْ:فَقُلْتُ لَهُ:فِيهِ وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ؟ فَقَالَ:أُرَى فِيهِ وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ – فَقَالَ:نَعَمِ،ارْهَنُونِي،قَالُوا:أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ قَالَ:ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ،قَالُوا:كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ العَرَبِ،قَالَ:فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ،قَالُوا:كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا،فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ،فَيُقَالُ:رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ،هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا،وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ – قَالَ سُفْيَانُ:يَعْنِي السِّلاَحَ – فَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ،فَجَاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَبُو نَائِلَةَ،وَهُوَ أَخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ،فَدَعَاهُمْ إِلَى الحِصْنِ،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ،فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ:أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ،وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ،وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو،قَالَتْ:أَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقْطُرُ

[١٧٨٢] – شرح السير الكبير (ص:٤١)

مِنْهُ الدَّمُ،قَالَ:إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ إِنَّ الكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لَأَجَابَ،قَالَ:وَيُدْخِلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ - قِيلَ لِسُفْيَانَ:سَمَّاهُمْ عَمْرٌو؟ قَالَ:سَمَّى بَعْضَهُمْ - قَالَ عَمْرٌو:جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ،وَقَالَ:غَيْرُ عَمْرٍو:أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ،وَالحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ،وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ،قَالَ عَمْرٌو:جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْنِ،فَقَالَ:إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ،فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ،فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ،وَقَالَ مَرَّةً:ثُمَّ أُشِمُّكُمْ،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُتَوَشِّحًا وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ،فَقَالَ:مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ رِيحًا،أَيْ أَطْيَبَ،وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو:قَالَ:عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ العَرَبِ وَأَكْمَلُ العَرَبِ،قَالَ عَمْرٌو:فَقَالَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَشَمَّهُ ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ،ثُمَّ قَالَ:أَتَأْذَنُ لِي؟ قَالَ:نَعَمْ،فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ،قَالَ:دُونَكُمْ،فَقَتَلُوهُ،ثُمَّ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ"[١٧٨٣]

وَكَانَ سبب قتله أَنَّهُ كَانَ رجلا شاعرا يهجو النَّبِيّ - ﷺ - وأصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم.فلما كانت وقعة بدر كبت وذل وَقَالَ:بطن الأرض خير من ظهرها اليوم.فخرج حتى قدم مكّة فبكى قتلى قريش وحرضهم بالشعر.ثُمَّ قدم المدينة [فَقَالَ رَسُول الله.ص:اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار.وَقَالَ أيضا:من لي بابن الأشرف فقد آذاني؟ فَقَالَ مُحَمَّد بْن مسلمة:أَنَا به يا رسول اللَّه وأنا أقتله.فَقَالَ:افعل وشاور سعد بْن معاذ في أمره] .

[١٧٨٣] - صحيح البخاري (٥/ ٩١)(٤٠٣٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٥)١١٩ - (١٨٠١)

[ش (من لكعب بن الأشرف) أي من كائن لقتله(ائذن لي فلأقل) معناه ائذن لي أن أقول عني وعنك ما رأيته مصلحة من التعريض وغيره(قد عنانا) أي أوقعنا في العناء وهو التعب والمشقة وكلفنا ما يشق علينا قال النووي هذا من التعريض الجائز بل المستحب لأن معناه في الباطن أنه أدبنا بآداب الشرع التي فيها تعب لكنه تعب في مرضاة الله تعالى فهو محبوب لنا والذي فهم المخاطب منه العناء الذي ليس بمحبوب(لتملنه) أي لتضجرن منه أكثر من هذا الضجر(بوسقين) الوسق بفتح الواو وكسرها وأصله الحمل(كأنه صوت دم) أي صوت طالب دم أو صوت سافك دم(إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة) هكذا هو في جميع النسخ قال القاضي رحمه الله تعالى قال لنا شيخنا القاضي الشهيد صوابه أن يقال إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعا لمحمد بن مسلمة]

واجتمع مُحَمَّد بْن مسلمة ونفر مِن الأوس منهم عباد بْن بشر وأبو نائلة سلكان بْن سلامة والحارث بْن أوس بْن معاذ وأبو عبس بْن جبر فقالوا:يا رَسُول اللَّه نَحْنُ نقتله فاذن لنا فلنقل.فَقَالَ:قولوا.وكان أَبُو نائلة أخا كعب بْن الأشرف مِن الرضاعة فخرج إِلَيْهِ.فأنكره كعب وذعر منه فَقَالَ:أَنَا أَبُو نائلة إنما جئت أخبرك أن قدوم هذا الرجل كَانَ علينا مِن البلاء.حاربتنا العرب ورمتنا عَن قوس واحدة ونحن نريد التنحي منه.ومعي رجال مِن قومي عَلَى مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاما وتمرا ونرهنك ما يكون لك فِيهِ ثقة.فسكن إلى قوله وقال:جيء بهم متى شئت.فخرج مِن عنده عَلَى ميعاد فأتى أصحابه فأخبرهم.

فأجمعوا أمرهم عَلَى أن يأتوه إذا أمسى.ثُمَّ أَتَوْا رَسُول اللَّهِ - ﷺ - فأخبروه فمشى معهم حتى أتى البقيع ثُمَّ وجههم وَقَالَ:[امضوا عَلَى بركة اللَّه وعونه] .قَالَ:وفي ليلة مقمرة.فمضوا حتى انتهوا إلى حصنه.فهتف لَهُ أَبُو نائلة فوثب.فأخذت امرأته بملحفته وقالت:أَيْنَ تذهب؟ إنك رَجُل محارب! وكان حديث عهد بعرس.قَالَ:ميعاد عَلِيّ وإنما هُوَ أخي أَبُو نائلة.وضرب بيده الملحفة وَقَالَ:لو دعي الفتى لطعنة أجاب.ثُمَّ نزل إليهم فحادثوه ساعة حتى انبسط إليهم وأنس بهم.ثُمَّ أدخل أَبُو نائلة يده فِي شعره وأخذ بقرون رأسه وَقَالَ لأصحابه:اقتلوا عدو اللَّه! فضربوه بأسيافهم فالتفت عَلَيْهِ فلم تغن شيئا ورد بعضها بعضا ولصق بأبي نائلة.قَالَ مُحَمَّد بْن مسلمة:فذكرت مغولا كَانَ فِي سيفي فانتزعته فوضعته فِي سرته ثُمَّ تحاملت عَلَيْهِ فقططته حتى انتهى إلى عانته.فصاح عدو اللَّه صيحة ما بقي أطم مِن آطام يهود إلا أوقدت عَلَيْهِ نار.ثُمَّ حزوا راسه وحملوه معهم.فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا وقد قَامَ رَسُول اللَّهِ - ﷺ - تلك الليلة يصلي.فلما سَمِعَ تكبيرهم كبر وعرف أن قد قتلوه.ثُمَّ انتهوا إلى رَسُول اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ:[أفلحت الوجوه! فقالوا:ووجهك يا رَسُول اللَّهِ.ورموا برأسه بين يديه.فحمد اللَّه عَلَى قتله.فلما أصبح قَالَ:مِن ظفرتم بِهِ مِن رجال يهود فاقتلوه!] فخافت اليهود فلم يطلع منهم أحد ولم ينطقوا وخافوا أن يبيتوا كما بيت ابن الأشرف.[١٧٨٤]

[١٧٨٤] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٢/ ٢٤) بلا سند

قال الخطابي:" قلت في هذا من الفقه اسقاط الحرج عمن تأول الكلام فأخبر عن الشيء بما لم يكن إذا كان يريد بذلك استصلاح أمر دينه أو الذب عن نفسه وذويه.ومثل هـذا الصنيع جائز في الكافر الذي لا عهد له كما جاز البيات والإغارة عليهم في أوقات الغرة وأوان الغفلة وكان كعب هذا قد لهج بسب النبي ﷺ وهجائه فاستحق القتل مع كفره بسببه رسول الله ﷺ وقد ذهب معنى ذلك على قوم فتوهموا أن ذلك الصنيع من قتله كان غدرا أو فتكاً،وقد حرم رسول الله ﷺ الفتك.

أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الإيمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن.

قلت الفتك إنما هو فجأة قتل من له أمان وكان كعب بن الأشرف ممن خلع الأمان ونقض العهد وقد روي لنا في أمره قصة عن بعض من داخلته الشبهة فتوهم أن قتله كان غدراً.

وكان كعب بن الأشرف لعنه الله يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه فعاهده أن لا يعين عليه ولحق بمكة ثم نقض العهد وجاء معلناً بمعاداة رسول الله ﷺ فاستحق القتل لغدره ولنقضه العهد مع كفره."[١٧٨٥]

قلت:

وفي هذه القصة جواز كافة الطرق والوسائل والأساليب من الخدع والحيل والمكر الممكنة من قلع الرؤوس الكافرة غيلةً،والفتك بها كأعظم ما يكون الفتك،وأشده غضباً لله ورسوله ﷺ،ودينه،مع كون الخدع والحيل والمكر هنا:من أعظم ما يحبه الله ويرضاه ويقرِّبُ إليه .

وفي عون المعبود:"وَالْمَقْصُودُ مِنْ عَقْدِ هَذَا الْبَابِ أَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ وَالْخَدِيعَةَ وَأَشْبَاهَهَا تَجُوزُ لِقَتْلِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ لَكِنْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ بِالْعَدُوِّ بَعْدَ الْأَمَانِ وَالصُّلْحِ وَالذِّمَّةِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ فِي الْبَابِ

وَبَعْدَ الْأَمَانِ يَجُوزُ ذَلِكَ بِمَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ وَأَعَانَ عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا فَعَلَ بِكَعْبٍ الْيَهُودِيِّ،وَقِصَّتُهُ كَمَا عِنْدَ بن إِسْحَاقَ وَغَيْرِهِ أَنَّ كَعْبًا كَانَ شَاعِرًا وَكَانَ يَهْجُو رَسُولَ

[١٧٨٥] - معالم السنن (٢/ ٣٣٧)

اللَّه ﷺ وَيُحَرِّضُ عَلَيْه كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَكَانَ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَكَانَ الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ يُؤْذُونَ الْمُسْلمينَ أَشَدَّ الْأَذَى فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُسْلمينَ بالصَّبْر فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَف أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَاهُ وَقَدْ كَانَ عَاهَدَ النَّبيُّ ﷺ قَبْلَ أَنْ لَا يُعِينَ عَلَيْه أَحَدًا فَنَقَضَ كَعْبٌ الْعَهْدَ وَسَبَّهُ وَسَبَّ أَصْحَابَهُ وَكَانَ منْ عَدَاوَته أَنَّهُ لَمَّا قَدمَ الْبَشيرَان بقَتْلِ مَنْ قَتَلَ ببَدْرٍ وَأَسْرِ مَنْ أَسْرَ قَالَ كَعْبٌ أَحَقٌّ هَذَا أَتَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَتَلَ هَؤُلَاءِ الَّذينَ يُسَمِّي هَذَان الرَّجُلَان فَهَؤُلَاءِ أَشْرَافُ الْعَرَب وَمُلُوكُ النَّاسِ وَاللَّه لَئنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَصَابَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ منْ ظَهْرِهَا فَلَمَّا أَيْقَنَ الْخَبَرَ وَرَأَى الْأَسْرَى مُقَرَّنينَ كُبِتَ وَذَلَّ وَخَرَجَ إِلَى قُرَيْشٍ يَبْكي عَلَى قَتْلَاهُمْ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى قتَاله ﷺ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدينَة فَشَبَّبَ بنسَاء الْمُسْلمينَ حَتَّى آذَاهُم"[1786]

وَالْحَديثُ الْمَذْكُورُ قَدْ اُسْتُدلَّ به عَلَى جَوَازِ الْكَذب في الْحَرْب وَكَذَلكَ بَوَّبَ عَلَيْه الْبُخَاريُّ بَابَ الْكَذب في الْحَرْب.قَالَ ابْنُ الْمُنيرُ:التَّرْجَمَةُ غَيْرُ مُطَابقَة،لأَنَّ الَّذي وَقَعَ بَيْنَهُمْ في قَتْلِ كَعْب بْنِ الْأَشْرَف يُمْكنُ أَنْ يَكُونَ تَعْريضًا،ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الَّذي وَقَعَ في حَديث الْبَاب لَيْسَ فيه شَيْءٌ منْ الْكَذب وَأَنَّ مَعْنَى مَا في الْحَديث هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ في تَفْسيرِ أَلْفَاظه وَهُوَ صدْقٌ.قَالَ الْحَافظُ:وَالَّذي يَظْهَرُ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ منْهُمْ فيمَا قَالُوهُ شَيْءٌ منْ الْكَذب أَصْلًا،وَجَميعُ مَا صَدَرَ منْهُمْ تَلْويحٌ كَمَا سَبَقَ،لَكنْ تَرْجَمَ يَعْني الْبُخَاريُّ لقَوْلِ مُحَمَّد بْنِ مَسْلَمَةَ أَوَّلًا ائْذَنْ لي أَنْ أَقُولَ،قَالَ:قُلْ،فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فيه الْإِذْنُ في الْكَذب تَصْريحًا وَتَلْويحًا.

قَوْلُهُ:(إلَّا في الْحَرْب...إلَخْ) قَالَ الطَّبَريُّ:ذَهَبَتْ طَائفَةٌ إلَى جَوَازِ الْكَذب لقَصْد الْإِصْلَاح،وَقَالُوا:إنَّ الثَّلَاثَ الْمَذْكُورَةَ كَالْمثَال،وَقَالُوا:إنَّ الْكَذبَ الْمَذْمُومَ إنَّمَا هُوَ فيمَا فيه مَضَرَّةٌ وَلَيْسَ فيه مَصْلَحَةٌ.وَقَالَ آخَرُونَ:لَا يَجُوزُ الْكَذبُ في شَيْءٍ مُطْلَقًا،وَحَمَلُوا الْكَذبَ الْمُرَادَ هُنَا عَلَى التَّوْريَة وَالتَّعْريضِ كَمَنْ يَقُولُ للظَّالم:دَعَوْتُ لَكَ أَمْسِ،هُوَ يُريدُ قَوْلَهُ:اللَّهُمَّ اغْفرْ للْمُسْلمينَ،وَيَعدُ امْرَأَتَهُ بعَطيَّة شَيْءٍ وَيُريدُ إنْ قَدَّرَ اللَّهُ ذَلكَ،وَأَنْ يُظْهرَ منْ نَفْسه قُوَّةَ قَلْب،وَبِالْأَوَّلِ جَزَمَ الْخَطَّابيِّ،وَبِالثَّاني جَزَمَ الْمُهَلَّبُ وَالْأَصيليُّ وَغَيْرُهُمَا.قَالَ

[1786] - عون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٣٢١)

النَّوَوِيُّ:الظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ فِي الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ لَكِنَّ التَّعْرِيضَ أَوْلَى.وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:الْكَذِبُ فِي الْحَرْبِ مِنْ الْمُسْتَثْنَى الْجَائِزِ بِالنَّصِّ رِفْقًا بِالْمُسْلِمِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهِ مَجَالٌ وَلَوْ كَانَ تَحْرِيمُ الْكَذِبِ بِالْعَقْلِ مَا انْقَلَبَ حَلَالًا،انْتَهَى.

وَلَا يُعَارِضُ مَا وَرَدَ فِي جَوَازِ الْكَذِبِ فِي الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ مَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ مِنْ طَرِيقِ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ فِي قِصَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَقَوْلُ الْأَنْصَارِ لِلنَّبِيِّ – ﷺ – لَمَّا كَفَّ عَنْ بَيْعَتِهِ هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ» لِأَنَّ طَرِيقَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمَأْذُونَ فِيهِ بِالْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ حَالَةُ الْحَرْبِ خَاصَّةً،وَأَمَّا حَالَةُ الْمُبَايَعَةِ فَلَيْسَتْ بِحَالَةِ حَرْبٍ كَذَا قِيلَ وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ قِصَّةَ الْحَجَّاجِ بْنِ عِلَاطٍ أَيْضًا لَمْ تَكُنْ فِي حَالِ حَرْبٍ قَالَ الْحَافِظُ وَالْجَوَابُ الْمُسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ الْمَنْعُ مُطْلَقًا مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ – ﷺ – فَلَا يَتَعَاطَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا لِغَيْرِهِ وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِهَا فَإِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَمْرًا فَلَا يُظْهِرُهُ كَأَنْ يُرِيدَ أَنْ يَغْزُوَ جِهَةَ الْمَشْرِقِ فَيَسْأَلَ عَنْ أَمْرٍ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ وَيَتَجَهَّزَ لِلسَّفَرِ فَيَظُنُّ مَنْ يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ أَنَّهُ يُرِيدُ جِهَةَ الْمَغْرِبِ،وَأَمَّا أَنَّهُ يُصَرِّحُ بِإِرَادَتِهِ الْمَغْرِبَ وَمُرَادُهُ الْمَشْرِقُ فَلَا.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ:سَأَلْت بَعْضَ شُيُوخِي عَنْ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ الْكَذِبُ الْمُبَاحُ فِي الْحَرْبِ مَا يَكُونُ فِي الْمَعَارِيضِ لَا التَّصْرِيحِ بِالتَّأْمِينِ مَثَلًا.وَقَالَ الْمُهَلَّبُ لَا يَجُوزُ الْكَذِبُ الْحَقِيقِيُّ فِي شَيْءٍ مِنْ الدِّينِ أَصْلًا قَالَ:وَمُحَالٌ أَنْ يَأْمُرَ بِالْكَذِبِ مَنْ يَقُولُ:«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» وَيَرُدُّهُ مَا تَقَدَّمَ.قَالَ الْحَافِظُ:وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَذِبِ فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا لَا يُسْقِطُ حَقًّا عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا أَوْ أَخْذِ مَا لَيْسَ لَهُ أَوْ لَهَا وَكَذَا فِي الْحَرْبِ فِي غَيْرِ التَّأْمِينِ وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ الْكَذِبِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ كَمَا لَوْ قَصَدَ ظَالِمٌ قَتْلَ رَجُلٍ وَهُوَ مُخْتَفٍ عِنْدَهُ فَلَهُ أَنْ يَنْفِيَ كَوْنَهُ عِنْدَهُ وَيَحْلِفَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَأْثَمُ.انْتَهَى.وَقَالَ الْقَاضِي زَكَرِيَّا:وَضَابِطُ مَا يُبَاحُ مِنْ الْكَذِبِ وَمَا لَا يُبَاحُ أَنَّ الْكَلَامَ وَسِيلَةٌ إلَى الْمَقْصُودِ فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٌ إنْ أَمْكَنَ التَّوَصُّلُ إلَيْهِ

بالصِّدْق فَالْكَذبُ فيه حَرَامٌ وَإِنْ لَمْ يُمْكنْ إلَّا بِالْكَذبِ فَهُوَ مُبَاحٌ إنْ كَانَ الْمَقْصُودُ مُبَاحًا وَوَاجبٌ إنْ كَانَ الْمَقْصُودُ وَاجبًا.انْتَهَى.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْكَذبَ حَرَامٌ كُلُّهُ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّة منْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ مَا كَانَ منْهُ فـي مَقْصدٍ مَحْمُودٍ أَوْ غَيْرِ مَحْمُودٍ وَلَا يُسْتَثْنَى منْهُ إلَّا مَا خَصَّهُ الدَّليلُ منْ الْأُمُورِ الْمَـذْكُورَة في أَحَاديث الْبَاب"[1787]

وفيها الأثر العظيم التي تحدثه مثل هذه العمليات في صفوف أعداء الدين حيث توقع في قلوبهم من الرعب والخوف من العصبة المؤمنة وسيوفها ما الله به عليم مما يكـون لـه – بإذن الله تعالى– دور كبير في كف وصرف الكثير من المخططات والمؤامرات والكيـد عن الدين وأهله،فضلاً عما تتضمنه هذه العمليات من إعلاء كلمة الله،وإعزاز ظاهر لدينه وجنده،وشفاء لصدور المؤمنين .[1788]

وعَنْ مُحَيِّصَةَا،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:«مَنْ ظَفرْتُمْ به منْ رجَال يَهُودَ فَـاقْتُلُوهُ» فَوَثَـبَ مُحَيِّصَةُ عَلَى ابْنِ سُنَيْنَةَ – رَجُلٌ منْ تُجَّارِ يَهُودَ كَانَ يُلَابسُهُمْ وَيُبَايعُهُمْ – فَقَتَلَـهُ،وَكَانَ حُوَيِّصَةُ إذْ ذَاكَ لَمْ يُسْلمْ،وَكَانَ أَسَنَّ منْ مُحَيِّصَةَ،فَلَمَّا قَتَلَـهُ جَعَـلَ حُوَيِّصَـةُ يَضْـرِبُهُ وَيَقُولُ:أَيْ عَدُوَّ الله قَتَلْتَهُ؟ أَمَا وَالله لَرُبَّ شَحْمٍ في بَطْنكَ منْ مَاله،فَقُلْتُ:«وَالله لَوْ أَمَرَني بقَتْلكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ»،قَالَ:فَوَالله إنْ كَانَ لَأَوَّلَ إسْلَامِ حُوَيِّصَةَ،قَالَ:وَالله لَـئنْ أَمَـرَكَ مُحَمَّدٌ بقَتْلي لَتَقْتُلَني؟ قَالَ مُحَيِّصَةُ:«نَعَمْ وَالله»،قَالَ حُوَيِّصَةُ:فَوَالله إنَّ دينًا بَلَغَ هَذَا إنَّـهُ لَعَجَبٌ،فَأَسْلَمَ حُوَيِّصَةُ"[1789]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ،وَقَدمَ الْمَدينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ في سُوقِ [ص:١٥٥] بَني قَيْنُقَاعَ فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ يَهُودَ،أَسْلمُوا قَبْلَ أَنْ يُصيبَكُمْ مثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا»،قَالُوا:يَا مُحَمَّدُ،لَا يَغُرَّنَّكَ منْ نَفْسكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا منْ قُـرَيْشٍ كَـانُوا أَغْمَارًا،لَا يَعْرِفُونَ الْقتَالَ،إنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ،وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مثْلَنَا،فَـأَنْزَلَ

[1787] – نيل الأوطار (٧/ ٣٠٢)

[1788] – انظر مسائل من فقه الجهاد ص (٦٧)

[1789] – المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣١١)(٧٤١) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٢٠٠) وسنن أبي داود (٣/ ١٥٥)(٣٠٠٢) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٨٩٨)(٢٣١٨) فيه جهالة

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ} [آل عمران:١٢] قَرَأَ مُصَرِّفٌ إِلَى قَوْلِهِ {فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [آل عمران:١٣] بِبَدْرٍ {وَأُخْرَى كَافِرَةٌ} [آل عمران:١٣][١٧٩٠]

وعَنْ جَابِرٍ،وَذَكَرَ الْقِصَّةَ قَالَ:«ففَزِعَتْ يَهُودُ وَمَنْ مَعَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَصْبَحُوا فَقَالُوا:قَدْ طَرَقَ صَاحِبُنَا اللَّيْلَةَ وَهُوَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا،[قُتِلَ غِيلَةً] بِلَا جُرْمٍ وَلَا حَدَثٍ عَلِمْنَاهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّهُ لَوْ قَرَّ كَمَا قَرَّ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِهِ مَا اغْتِيلَ،وَلَكِنَّهُ نَالَ مِنَّا الْأَذَى وَهَجَانَا بِالشِّعْرِ،وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا كَانَ لِلسَّيْفِ ".وَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُمْ كِتَابًا يَنْتَهُونَ إِلَى مَا فِيهِ،فَكَتَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا تَحْتَ الْعَذْقِ فِي دَارِ رَمْلَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ،فَحَذِرَتْ يَهُودُ وَخَافَتْ وَذَلَّتْ مِنْ يَوْمِ قَتْلِ ابْنِ الْأَشْرَفِ»[١٧٩١] .

فكان من أثر اغتيال ابن الأشرف:استيلاء الرعب،والفزع،والخوف الشديد على زعماء اليهود وسراهم،خوفاً من امتداد اليد التي اغتالت ابن الأشرف إليهم واحداً واحداً،مما دفعهم إلى مسالمة المسلمين بالمسارعة إلى الدخول في عهد معهم .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام دالٌّ على ما لسلاح الاغتيال من أثر في نفوس الأعداء،وهو ما جاء في ثنايا رسالته التي سطَّرها رحمه الله إلى سرجون عظيم أهل قبرص بشأن أسرى المسلمين الذين كانوا بأيديهم لَمَّا بلغه أن النصارى يسئون معاملتهم،فكتب هذه الرسالة الوثائقية النادرة والتي تظهر عظيم اهتمام شيخ الإسلام ابن تيمية بأمر الإسلام والمسلمين،وكونها يعيش الدين واقعاً حيًّا بين الناس،وقد كتب هذه الرسالة ليستحثَّ ملك قبرص فيها على الإحسان إلى الأسرى والعطف عليهم .

وقد كان أسلوبه رحمه الله في هذه الرسالة يدور بين الترغيب والترهيب،والوعد والوعيد،والاستمالة والتهديد .

[١٧٩٠] - سنن أبي داود (٣/ ١٥٥)(٣٠٠١) فيه جهالة

[١٧٩١] - أحكام أهل الذمة (٣/ ١٤١٩)

وكان من تلك السهام التي صوَّبها شيخ الإسلام رحمه الله إلى نحـــر ســـرجون تهديـــداً وتخويفاً وتحذيراً من مغبة الإساءة لأسرى المسلمين،قوله:"ثُمَّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الرِّجَـــالِ الفداوية الَّذِينَ يَغْتَالُونَ الْمُلُوكَ فِي فُرُشِهَا وَعَلَى أَفْرَاسِهَا:مَنْ قَدْ بَلَغَ الْمَلِكُ خَبَرُهُمْ؛ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.وَفِيهِمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ لَا يَرُدُّ اللَّهُ دَعَوَاتِهِمْ وَلَا يُخَيِّبُ طَلَبَاتِهِمْ الَّذِينَ يَغْضَـــبُ الرَّبُّ لِغَضَبِهِمْ وَيَرْضَى لِرِضَاهُمْ.وَهَؤُلَاءِ التَّتَارُ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَانْتِسَابِهِمْ إلَى الْمُسْلِمِينَ لَمَّـــا غَضِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ الْبَلَاءِ مَا يَعْظُمُ عَنْ الْوَصْفِ.فَكَيْفَ يَحْسُنُ أَيُّهَـــا الْمَلِكُ بِقَوْمِ يُجَاوِرُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَكْثَرِ الْجِهَاتِ أَنْ يُعَامِلُوهُمْ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ الَّتِي لَـــا يَرْضَاهَا عَاقِلٌ؛ لَا مُسْلِمٌ وَلَا مُعَاهَدٌ.هَذَا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ أَصْلًا؛ بَـــلْ هُمْ الْمَحْمُودُونَ عَلَى مَا فَعَلُوهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي أَطْبَقَتْ الْعُقَلَاءُ عَلَى الْإِقْرَارِ بِفَضْلِهِ هُوَ دِيـــنُهُمْ حَتَّى الْفَلَاسِفَةُ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَطْرُقْ الْعَالَمَ دِينٌ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الدِّينِ.فَقَـــدْ قَامَـــتْ الْبَرَاهِينُ عَلَى وُجُوبِ مُتَابَعَتِهِ.ثُمَّ هَذِهِ الْبِلَادُ مَا زَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ السَّاحِلُ؛ بَلْ وَقُبْرُصُ أَيْضًا مَا أُخِذَتْ مِنْهُمْ إلَّا مِنْ أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَقَدْ وَعَدَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.فَمَا يُؤْمِنُ الْمَلِكُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى الْمَظْلُومِينَ بِبَلْدَتِهِ يَنْـــتَقِمُ لَهُـــمْ رَبُّ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ كَمَا يَنْتَقِمُ لِغَيْرِهِمْ وَمَا يُؤَمِّنُهُ أَنْ تَأْخُذَ الْمُسْلِمِينَ حَمِيَّةُ إسْلَامِهِمْ فَيَنَالُوا مِنْهَا مَا نَالُوا مِنْ غَيْرِهَا وَنَحْنُ إذَا رَأَيْنَا مِنْ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ مَا يَصْلُحُ عَامَلْنَاهُمْ بِالْحُسْنَى وَإِلَّا فَمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ."[1792]

هذا؛ وقد تضمنت قصة اغتيال ابن الشرف صفحةً ناصعةً من صفحات الولاء والـــبراء متمثلة في قتل أبي نائلة رضي الله عنه لأخيه من الرضاعة كعب،بل كان هذا الاختيار من أسباب نجاح العملية لاطمئنان كعب،وسكونه إليه ![1793]

وكذلك اغتيال ابن أبي الحقيق

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِـــعٍ اليَهُـــودِيِّ رِجَالًـــا مِـــنَ الأَنْصَارِ،فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ،وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّـــهِ ﷺ وَيُعِـــينُ

[1792] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢٢)

[1793] - انظر مسائل من فقه الجهاد ص (٧٢- ٧٣)

عَلَيْه،وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الحِجَازِ،فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ،وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ،وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّه لِأَصْحَابه:اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ،فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ،وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّاب،لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ،فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ البَاب،ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِه كَأَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً،وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ،فَهَتَفَ بِه البَوَّابُ،يَا عَبْدَ اللَّه:إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ،فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ البَابَ،فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ،فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ البَابَ،ثُمَّ عَلَّقَ الأَغَالِيقَ عَلَى وَتَد،قَالَ:فَقُمْتُ إِلَى الأَقَالِيد فَأَخَذْتُهَا،فَفَتَحْتُ البَابَ،وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ،وَكَانَ فِي عَلاَلِيَّ لَهُ،فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِه صَعِدْتُ إِلَيْه،فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ،قُلْتُ:إِنِ القَوْمُ نَذِرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْه،فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيَالِه،لاَ أَدْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ البَيْت،فَقُلْتُ:يَا أَبَا رَافِعٍ،قَالَ:مَنْ هَذَا؟ فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْت فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْف وَأَنَا دَهِشٌ،فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا،وَصَاحَ،فَخَرَجْتُ مِنَ البَيْت،فَأَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيد،ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْه،فَقُلْتُ:مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ فَقَالَ:لِأُمِّكَ الوَيْلُ،إِنَّ رَجُلًا فِي البَيْت ضَرَبَنِي قَبْلُ بِالسَّيْف،قَالَ:فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثْخَنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ،ثُمَّ وَضَعْتُ ظِبَةَ السَّيْف فِي بَطْنِه حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِه،فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ،فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبْوَابَ بَابًا بَابًا،حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَة لَهُ،فَوَضَعْتُ رِجْلِي،وَأَنَا أُرَى أَنِّي قَد انْتَهَيْتُ إِلَى الأَرْضِ،فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَة مُقْمِرَة،فَانْكَسَرَتْ سَاقِي فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَة،ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى البَاب،فَقُلْتُ:لاَ أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ:أَقَتَلْتُهُ؟ فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّور،فَقَالَ:أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الحِجَازِ،فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي،فَقُلْتُ:النَّجَاءَ،فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ،فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ،فَقَالَ:«ابْسُطْ رِجْلَكَ» فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا،فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ"[١٧٩٤]

[١٧٩٤] - صحيح البخاري (٥/ ٩١)(٤٠٣٩)

[ش (راح الناس بسرحهم) رجعوا بمواشيهم التي ترعى.(تقنع) جعله كالقناع فتغطى بثوبه ليخفي شخصه حتى لا يعرف.(فهتف) فنادى.(عبد الله) لم يرد اسمه لأنه لم يعرفه وإنما أراد المعنى الحقيقي وهو أنه عبد للله تعالى.(فكمنت) اختبأت.(الأغاليق) المفاتيح جمع غلق وهو ما يغلق به الباب.(وتد) خشبة تجعل في الحائط ويبقى قسم منها بارزا ليعلق عليه المفاتيح ونحوها.(الأقاليد) المفايتح.(يسمر عنده) يتحدثون عنده بعد العشاء.(علالي) جمع علية وهي الغرفة.(نذروا بي) عملوا من الإنذار وهو الإعلام بالشيء الذي يحذر منه.(لم يخلصوا) لم يصلوا.(ما أغنيت شيئا) أي لم أقتله فلم

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُتْبَةَ،فِي نَاسٍ مَعَهُمْ،فَانْطَلَقُوا حَتَّى دَنَوْا مِنَ الحِصْنِ» فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ:امْكُثُوا أَنْتُمْ حَتَّى أَنْطَلِقَ أَنَا فَأَنْظُرَ،قَالَ:فَتَلَطَّفْتُ أَنْ أَدْخُلَ الحِصْنَ،فَفَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ،قَالَ:فَخَرَجُوا بِقَبَسٍ يَطْلُبُونَهُ،قَالَ:فَخَشِيتُ أَنْ أُعْرَفَ،قَالَ:فَغَطَّيْتُ رَأْسِي وَجَلَسْتُ كَأَنِّي أَقْضِي حَاجَةً،ثُمَّ نَادَى صَاحِبُ البَابِ،مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فَلْيَدْخُلْ قَبْلَ أَنْ أُغْلِقَهُ،فَدَخَلْتُ ثُمَّ اخْتَبَأْتُ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ عِنْدَ بَابِ الحِصْنِ،فَتَعَشَّوْا عِنْدَ أَبِي رَافِعٍ،وَتَحَدَّثُوا حَتَّى ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ،فَلَمَّا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ،وَلاَ أَسْمَعُ حَرَكَةً خَرَجْتُ،قَالَ:وَرَأَيْتُ صَاحِبَ البَابِ،حَيْثُ وَضَعَ مِفْتَاحَ الحِصْنِ فِي كَوَّةٍ،فَأَخَذْتُهُ فَفَتَحْتُ بِهِ بَابَ الحِصْنِ،قَالَ:قُلْتُ:إِنْ نَذِرَ بِي القَوْمُ انْطَلَقْتُ عَلَى مَهَلٍ،ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ،فَغَلَّقْتُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ ظَاهِرٍ،ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى أَبِي رَافِعٍ فِي سُلَّمٍ،فَإِذَا البَيْتُ مُظْلِمٌ،قَدْ طَفِئَ سِرَاجُهُ،فَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ الرَّجُلُ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا رَافِعٍ قَالَ:مَنْ هَذَا؟ قَالَ:فَعَمَدْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ وَصَاحَ،فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا،قَالَ:ثُمَّ جِئْتُ كَأَنِّي أُغِيثُهُ،فَقُلْتُ:مَا لَكَ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي،فَقَالَ:أَلاَ أُعْجِبُكَ لِأُمِّكَ الوَيْلُ،دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ فَضَرَبَنِي بِالسَّيْفِ،قَالَ:فَعَمَدْتُ لَهُ أَيْضًا فَأَضْرِبُهُ أُخْرَى،فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا،فَصَاحَ وَقَامَ أَهْلُهُ،قَالَ:ثُمَّ جِئْتُ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي كَهَيْئَةِ المُغِيثِ فَإِذَا هُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ،فَأَضَعُ السَّيْفَ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَنْكَفِئُ عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ العَظْمِ ثُمَّ خَرَجْتُ دَهِشًا حَتَّى أَتَيْتُ السُّلَّمَ،أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ فَأَسْقُطُ مِنْهُ،فَانْخَلَعَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا،ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي أَحْجُلُ،فَقُلْتُ:انْطَلِقُوا فَبَشِّرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِنِّي لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ،فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ صَعِدَ النَّاعِيَةُ،فَقَالَ:أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ،قَالَ:فَقُمْتُ أَمْشِي مَا بِي قَلَبَةٌ،فَأَدْرَكْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَبَشَّرْتُهُ"[١٧٩٥]

أفعل ما يجدي.(أثخنته) بالغت في جراحته.(ظبة) حرف حد السيف.(صاح الديك) أي كان وجه الصبح.(النجاء) أسرعوا وانجوا بأنفسكم.(فكأنها لم أشتكها) لم أشعر بألم منها وكأنها لم تصب بشيء]

[١٧٩٥] - صحيح البخاري (٥/ ٩٢)(٤٠٤٠)

[ش (بقبس) شعلة من نار.(مهل) رفق وتؤدة.(ألا أعجبك) أقول لك ما تعجب منه وتنكره.(أنكفئ) أنقلب عليه وأرجع.(أحجل) من الحجلان وهو المشي المقيد أو مشى على رجل رافعا الأخرى]

وعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَهْطًا مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى أَبِي رَافِعٍ لِيَقْتُلُوهُ»،فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ،فَدَخَلَ حِصْنَهُمْ،قَالَ:فَدَخَلْتُ فِي مَرْبِطِ دَوَابَّ لَهُمْ،قَالَ:وَأَغْلَقُوا بَابَ الحِصْنِ،ثُمَّ إِنَّهُمْ فَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ،فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ،فَخَرَجْتُ فِيمَنْ خَرَجَ أُرِيهِمْ أَنَّنِي أَطْلُبُهُ مَعَهُمْ،فَوَجَدُوا الحِمَارَ،فَدَخَلُوا وَدَخَلْتُ وَأَغْلَقُوا بَابَ الحِصْنِ لَيْلًا،فَوَضَعُوا المَفَاتِيحَ فِي كَوَّةٍ حَيْثُ أَرَاهَا،فَلَمَّا نَامُوا أَخَذْتُ المَفَاتِيحَ،فَفَتَحْتُ بَابَ الحِصْنِ،ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ:يَا أَبَا رَافِعٍ،فَأَجَابَنِي،فَتَعَمَّدْتُ الصَّوْتَ فَضَرَبْتُهُ،فَصَاحَ،فَخَرَجْتُ،ثُمَّ جِئْتُ،ثُمَّ رَجَعْتُ كَأَنِّي مُغِيثٌ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا رَافِعٍ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي،فَقَالَ:مَا لَكَ لِأُمِّكَ الوَيْلُ،قُلْتُ:مَا شَأْنُكَ؟،قَالَ:لاَ أَدْرِي مَنْ دَخَلَ عَلَيَّ،فَضَرَبَنِي،قَالَ:فَوَضَعْتُ سَيْفِي فِي بَطْنِهِ،ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى قَرَعَ العَظْمَ،ثُمَّ خَرَجْتُ وَأَنَا دَهِشٌ،فَأَتَيْتُ سُلَّمًا لَهُمْ لِأَنْزِلَ مِنْهُ،فَوَقَعْتُ فَوُثِئَتْ رِجْلِي،فَخَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي،فَقُلْتُ:مَا أَنَا بِبَارِحٍ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ،فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى سَمِعْتُ نَعَايَا أَبِي رَافِعٍ تَاجِرِ أَهْلِ الحِجَازِ،قَالَ:فَقُمْتُ وَمَا بِي قَلَبَةٌ حَتَّى أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ،فَأَخْبَرْنَاهُ"[١٧٩٦]

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة منها:

أولًا:من وسائل الدعوة:بعث البعوث:لا ريب أن بعث البعوث للدعوة والجهاد من أهم وسائل الدعوة إلى الله عَزَّ وجَلَّ ؛ ولهذا اعتنى النبي ﷺ ببعث البعوث ومن ذلك ما جاء في هذا الحديث:« بعث رسول الله ﷺ رهطًا من الأنصار إلى أبي رافع؛ ليقتلوه » .فينبغي العناية بهذه الوسيلة؛ لأهميتها في الدعوة إلى الله عَزَّ وجَلَّ .ثانيًا:من صفات الداعية:الفطنة والذكاء:ظهر في هذا الحديث أهمية الفطنة والذكاء،وأن الداعية ينبغي له أن يتصف بهذه الصفة الحميدة؛ ولهذه الصفة عمل عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمورًا تدل على

[١٧٩٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٣)(٣٠٢٢)

[ش (رهطا) جماعة من الرجال ما بين الثلاثة إلى التسعة.(من الأنصار) وهم عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة والأسود الخزاعي ومسعود بن سنان وعبد الله بن عقبة وكان معهم أسعد بن حرام حليف بني سوادة رضي الله عنهم.(رجل) هو عبد الله بن عتيك.(كوة) ثقب في جدار البيت.(الويل) الهلاك.(تحاملت عليه) تكلفته على مشقة.(قرع العظم) أصابه وأصل القرع الضرب.(دهش) متحير مدهوش.(فوثئت) من الوثء وهو أن يصيب العظم صدع من غير بينونة.(ببارح) بذاهب.(الناعية) من النعي وهو الإخبار بالموت.(قلبة) علة]

ذكائه وفطنته:منها:دخوله في مربط الدواب؛ ليتمكن من دخول الحصن،وخروجه مع من يخرج يبحث معهم عن الحمار؛ ليظهر لهم أنه يطلبه معهم،وانتباهه لمكان المفاتيح؛ ليتمكن من قبضها،وتقنعه بثوبه كأنه يقضي حاجته حتى لا يفطن له،وأخذه المفاتيح وإغلاقه أبواب بيوقم عليهم من ظاهر وإغلاقه الأبواب على نفسه من داخل حتى لا يستطيعوا الوصول إليه إذا علموا به،ونداؤه لأبي رافع عندما لم يستطع الحصول على مكانه في البيت المظلم،وتغييره لصوته ونداؤه مرة أخرى لأبي رافع؛ ليعرف مكانه ثم يجهز عليه فيتحقق من قتله،وهذه أمور تدل على ذكاء عبد الله بن عتيك وفطنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.فينبغي للداعية أن يكون ذكيا فطنًا منتبها.والله المستعان .

ثالثًا:من صفات الداعية:الشجاعة:ظهرت صفة الشجاعة في هذا الحديث من فعل عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،لأنه عمل أعمالًا تدل على شجاعته وقوة قلبه وعقله؛ حيث دخل في حصن أبي رافع بن أبي الحقيق،وكان متسترًا في تلك الجموع الكثيرة:من الحراس،والضيوف وغيرهم،فتجسس على هذا الطاغية حتى قتله؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:"وفي هذا الحديث جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرقم،والأخذ بالشدة في محاربة المشركين،وجواز إبمام القول للمصلحة ..." .

فينبغي للداعية أن يكون شجاعًا عقليًّا وقلبيًّا في أموره كلها،والله الموفق .

رابعًا:من وسائل الدعوة:قتل الإمام كل من آذى الله ورسوله ﷺ:دل هذا الحديث على أن من وسائل الدعوة قتل كل من صدر منه أذىً لله أو لرسوله ﷺ؛ ولهذا « بعث رسول الله ﷺ رهطًا إلى أبي رافع ليقتلوه » ؛ لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ،ويعاديه،ويؤلب عليه الناس ؛ قال ابن حجر رحمه الله:"وفي الحديث من الفوائد جواز ...قتل من أعان على رسول الله ﷺ:بيده،أو ماله،أو لسانه". وهذا يؤكد أهمية قتل من آذى الله ورسوله ﷺ.وهو من أهم وسائل الدعوة؛ لأنه يزيل العوائق التي في طريقها،وفيه نصرة لله ولرسوله ﷺ،وكذلك قتل الإمام للمرتدين بعد استتابتهم،وإقامة القصاص في قتل العمد،وتنفيذ الحدود،كل هذه الأمور من الوسائل الدعوية المهمة .

خامسًا:الابتلاء والامتحان لأولياء الله عَزَّ وجَلَّ:ظهر في هذا الحديث أن من سنة الله عَزَّ وجَلَّ أن يبتلي عباده بالسراء والضراء؛ وقد حصل لعبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذلك بعض الابتلاء،فانكسرت ساقه بعد أن قتل صاحب الأذية البالغة لرسول الله ﷺ " أبا رافع:عبد الله بن أبي الحقيق،ويقال:سلام بن أبي الحقيق اليهودي ".وهذا يؤكد على الدعاة إلى الله عَزَّ وجَلَّ أن يعلموا أن الله عز وجل يبتلي عباده بالسراء والضراء،فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط،أسأل الله لي ولجميع المسلمين العافية في الدنيا والآخرة .

سادسًا:الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:دل هذا الحديث على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ ولهذا أخذ عبد الله بن عتيك بالأسباب في عدة أمور منها:أنه اختفى من الحرس وأهل الحصن،وعمل بالمكر لهم،وأغلق عليهم الأبواب،وأغلق على نفسه من الداخل،وعصب رجله عندما انكسرت،وغير ذلك،وهذا يؤكد أهمية الأخذ بالأسباب مع اعتماد القلب على الله وحده سبحانه وتعالى.

سابعًا:أهمية الحرص على الأخذ باليقين في الأمور كلها:إن طرح الشك والأخذ باليقين من أهم القواعد الدعوية التي ينبغي للداعية أن يعمل بها في كل شيء من أمور حياته؛ ولهذه الأهمية عمل عبد الله بن عتيك في هذا الحديث بهذه القاعدة،فعندما ضرب أبا رافع بالسيف شك هل قتله أم لا،فرجع وغير صوته وقال:ما هذا الصوت يا أبا رافع فتأكد أنه لم يمت فوضع ظبة السيف في بطنه حتى سمع صوت العظم،وهذا يدل على رغبة عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اليقين؛ ولهذا أراد أن يزداد يقينه فقال لأصحابه:ما أنا ببارح حتى أسمع الناعية،فبقي حتى صاح الديك فقام الناعي على السور فقال:أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز،فعندما تيقن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجع إلى النبي ﷺ،وهذا يؤكد أهمية العمل باليقين وطرح الشك .

.ثامنًا:من صفات الداعية:إثبات النعم لله والثناء عليه بها:لا شك أن من الأدب إثبات النعم لله ونسبتها إليه،والثناء عليه بها؛ لأنه سبحانه الذي أعطى النعم؛ ولهذا قال الله عَزَّ وجَلَّ:{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } .وقد ظهرت

تلك الصفة في قول عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:"فانطلقت إلى أصحابي فقلت:النجاء فقد قتل الله أبا رافع " وهذا يدل على صدقه وإخلاصه لله،وأدبه الكامل؛ لأنه لم يقل:قتلت وإنما قال:قتل الله،فنسب هذه النعمة لله عَزَّ وجَلَّ .فينبغي للداعية أن ينسب جميع النعم لله ويثني عليه بها .

.تاسعًا:من معجزات الرسول ﷺ:شفاء المرضى بإذن الله عَزَّ وجَلَّ:إن من دلائل النبوة الحسية التي تدل على صدق النبي ﷺ ما جعل الله على يد محمد ﷺ من شفاء بعض المرضى،ومن ذلك ما فعله مع عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما انكسرت ساقه،قال عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:« فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال:"ابسط رجلك" فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط » وقد حصل للنبي ﷺ مثل ذلك في وقائع كثيرة .

.عاشرًا:أهمية البشارة في الدعوة إلى الله عَزَّ وجَلَّ:إن البشارة لها أهمية بالغة في الدعوة إلى الله عَزَّ وجَلَّ؛ لما لها من إدخال السرور والفرح المحمود على المسلم؛ ولهذا رغب عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أن يكون هو الذي يبشر رسول الله ﷺ بقتل أبي رافع،فقال لأصحابه:"انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ،فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية،فلما كان في وجه الصبح صعد الناعية فقال:أنعى أبا رافع،قال فقمت أمشي ما بي قلبه فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته".وهذا يدل على رغبة عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أن يكون هو الذي يبشر رسول الله ﷺ ويدخل السرور عليه"[١٧٩٧]

وقال الحافظ في الفتح:"وفِي هَذا الحَدِيث مِنَ الفَوائِد جَوازُ اغتِيال الُمشرِك الَّذِي بَلَغَتهُ الدَّعوةُ وأَصَرَّ،وقَتلُ مَن أَعانَ عَلَى رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ أَو مالِهِ أَو لِسانِهِ،وجَوازُ التَّجسِيسِ عَلَى أَهلِ الحَربِ وتَطَلُّبُ غِرَّتِهِم .والأَخذُ بِالشِّدَّةِ فِي مُحارَبَة الُمشرِكِينَ،وجَوازُ إِبهامِ القَولِ لِلمَصلَحَةِ،وتَعَرُّضِ القَلِيلِ مِنَ الُمسلِمِينَ لِلكَثِيرِ مِنَ الُمشرِكِينَ ؛ والحُكمُ بِالدَّلِيلِ

[١٧٩٧] - فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (٣/ ٩٣) فما بعد

والعَلامَةِ لاستدلالِ ابنِ عَتِيكٍ عَلَى أَبِي رافِعٍ بِصَوتِهِ،واعتِمادِهِ عَلَى صَوتِ النّاعِي بِمَوتِهِ،واللهُ أَعلَمُ."[1798]

قال الدوسري:" إن القرآن الكريم يشمخ برءوسنا في عالم السياسة إلى أسمى مدارج الكمال،وهو وحده الذي يرفع رءوس أهله ويهيب بهم،ألا يستعينوا بغيرهم في دفع أي عادية،أو ردع أي عدو،أو قمع أي ظالم،أو إخراج أي متعصب،بل يعتمدوا على الله،ثم على أنفسهم بعد الأخذ بالأسباب،وإعداد القوة الموجبة عليهم في قتال كل باغٍ وظالم مستعينين بالله وحده،بنية خالصة،وألسنة صادقة لإعلاء كلمته،وبجوارح طاهرة من معصيته،وقلوب محشوة بمحبته وتعظيمه،سليمة من محبة ما يبغضه،وموالاة من يعاديه.

وبذلك ينالون مدده وحصانته ونصره على أعدائهم مهما كانوا،كما أجرى سنته بذلك،حيث قال في أوليائه:وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الفتح:٢٢،٢٣].

بتحقيق عبودية الله وفق مدلول هذه الآية يتحقق كيان المسلمين بين الأمم ويكون لهم هدف صحيح ناجح نصب أعينهم،يفرضونه على من سواهم،وتكون حركاتهم منوطة به،وإنفاقهم المال في سبيل نصرته،والزحف به لوجه الله،ولا ريب أن من ليس له هدف في الحياة يفقد كيانه بين الأمم،ويكون عولاً عليهم أو على بعضهم.

ولذا أرشد الله عباده المؤمنين إلى هذا الهدف السامي الذي يبرزون فيه بين الأمم،ويتفوقون عليهم،ويتميزون منهم،بالطموح والشموخ عن كل خوف أو تقليد؛ لأن الله العليم الحكيم خط لهم الخطة الروحية بصراطه المستقيم بين سائر أهل الأرض،من الماديين عباد الأشخاص،وعباد الشهوات،وعباد الهوى والدرهم والدينار.

وأصحاب المبادئ العصبية والمادية عباد الفرد،أصحاب العواطف والتصفيق،الذين تميل بهم الأهواء والشهوات إلى تقديس هذا تارة،وإلى لعنة ذاك تارة والولوع بغيره،وتجعلهم الأنانية يعيشون في دوامة من التقلبات،ويدورون في حلقة مفرغة من التجارب المخفقة،ويشقى معهم من يدور في فلكهم بالتقليد الأعمى.

[1798] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٧/ ٣٤٥)

فوضع الله صراط السلامة لعباده المؤمنين من شقاوة هؤلاء وحظوظهم الدنيئة،وارتفع بمستواهم إلى هدف رفيع،متسع الأفق،سامي المقاصد،لا يقبل عبادة الفـــرد و لاخســـة الشهوة،ولا خنوع الخوف،ولا استسلام الذل،ولا طمع المادة،ولا عار التقليد،الـــذي لا يحس به غيرهم.

ذلك أنهم لا يلتقون مع عدوهم بهذا الهدف،ولا يستوردون منه أي نظام أو فكرة،بل جميع أفكارهم وتصوراتهم نابعة من معاني هذا الهدف العظيم) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(فسلوكهم السياسي والاجتماعي منحصر على مدلول ذلك،ومنهلهم الثقافي منبثق مـــن ينبوعه،وجميع ارتكازاتهم في سائر نواحي الحياة عليه،واتجاهاتهم شاخصة إليه،يعتقـــدون الكفاية التامة في وحي الله،والنقص والخسران فيما سواه،ويعتبرون غيرهم مفلساً ضـــالاً كافراً،مستعبداً لغير الله من بعضه البعض،نشوان بسكر الهوى والعماية.

ذلك السكر المعنوي الذي لا تحصل إفاقة أهله من طريقهم،فيسعون لرفع إفلاســـهم الأرضي بالتجارة السماوية،وإلى هدايتهم من الكفر والضلال بهـــا،وإلى تحريـــرهم مـــن عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الله وحده،ويفيقونهم من سكرهم،بحشو قلوبهم بـــذكر الله وحبه وتعظيمه،مع محبـــة رســـوله ﷺ وتعظيمـــه،وإنارتها بنـــور الـــوحي المطهـــر للضمائر،والمصلح للأعمال،موجبين على أنفسهم أن يكونوا أهل التصدير للهدايـــة إلى جميع المعمورة،متنزهين عن الاستيراد من أحد،باذلين في ذلك أقصى مجهودهم،ومرخصين أموالهم وأرواحهم.

هكذا أصحاب الهدف الرباني الصحيح الذي تمليـــه هـــذه الآيـــة الكريمـــة علـــى أهلها،والذي فهمه الصحابة منها والتابعون لهم بإحسان،ممن انحازوا وتميـــزوا بـــه عـــن غيرهم،وقطعوا لتحقيقه الفيافي والقفار،وركبوا متون البحـــار شـــرقاً وغرباً،وخاطـــب قائدهم البحر أمامه بما معناه:لو نعلم أن أناساً وراءك لمخرناك.

بهذا الهدف الصادق نالوا المجد،وصاغوا الأجيال،وصنعوا المعجزات حتى إذا فتـــرت همتهم وقف زحفهم،وتسلطت عليهم الأعداء بأنواع الغزو العسكري والفكري."

وقال أيضاً:"إن إعداد القوة حسب المستطاع من واجبات الدين ولوازم إقامته،فالعابد الصحيح لله لا يعتوره التسويف في هذا فضلا عن تركه أو التساهل فيه،وأيضاً فالعابد لله المصمم على الجهاد في ذاته يكون منفذاً للغيلة في أئمة الكفر من دعاة الإلحاد والإباحية،وكل طاعن في وحي الله،أو مسخر قلمه أو دعايته ضد الدين الحنيف ؛ لأن هذا مؤذٍ لله ورسوله لا يجوز للمسلمين في جميع بقاع الأرض من خصوص وعموم أن يدعوه على قيد الحياة ؛ لأنه أضر من (ابن الحقيق) وغيره ممن ندب رسول الله ﷺ إلى اغتيالهم .

فترك اغتيال ورثتهم في هذا الزمان تعطيل لوصية المصطفى ﷺ،وإخلال فظيع بعبودية الله،وسماح صارخ شنيع للمعاول الهدامة في دين الله،لا يفسر صدوره إلا من عدم الغيرة لدين الله،والغضب لوجهه الكريم،وذلك نقص عظيم في حب الله ورسوله وتعظيمهما،لا يصدر من محقق لعبودية الله بمعناها الصحيح المطلوب ."[١٧٩٩]

هل يرتبط الاغتيال بوجود الإمام ؟

قد ذهب بعض المبتدعة إلى أن مشروعية اغتيال الكفار مشروطة بوجود دولة الإسلام التي يقف على رأسها إمام المسلمين الشرعي،ولو سكت هؤلاء لكان استر لهم،غير أن اهلوى يردي صاحبه في الباطل المنادى عليه جزاءً وفاقاً!

وقد ثبت في الحديث الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:أَتَتْهَا بَرِيرَةُ تَسْأَلُهَا فِي كِتَابَتِهَا فَقَالَتْ:إِنْ شِئْتِ أَعْطَيْتُ أَهْلَكِ وَيَكُونُ الوَلاَءُ لِي،فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَكَّرْتُهُ ذَلِكَ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ابْتَاعِيهَا،فَأَعْتِقِيهَا،فَإِنَّمَا الوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ،فَقَالَ:«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ،مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ،وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ شَرْطٍ»[١٨٠٠]

وقد قال العلامة عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في بيان بطلان هذا الشرط:" بأي كتاب،أم بآية حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام متبع؟! هذا من الفرية

[١٧٩٩] - صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري

[١٨٠٠] - صحيح البخاري (٣/ ١٩٨)(٢٧٣٥) وصحيح مسلم (٢/ ١١٤٢)٨ - (١٥٠٤)

في الدين،والعدول عن سبيل المؤمنين؛ والأدلة على إبطال هذا القـول أشـهر مـن أن تذكر،من ذلك عموم الأمر بالجهاد،والترغيب فيه،والوعيد في تركه،قال تعالى:{وَلَـوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [سورة البقرة آية:٢٥١]،وقال في سورة الحج:{وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَـوَامِعُ} الآيـة [سـورة الحـج آية:٤٠].وكل من قام بالجهاد في سبيل الله،فقد أطاع الله وأدى ما فرضه الله،ولا يكون الإمام إماماً إلا بالجهاد،لأنه لا يكون جهاد إلا بإمام،والحق عكس ما قلته يا رجل،وقـد قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} الآية [سـورة سـبأ آية:٤٦]،وقال:{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} [سورة العنكبوت آية:٦"][1801] .

وقال صديق حسن خان:" الأدلة الدالة على وجوب الجهاد من الكتاب والسنة وعلـى فضيلته والترغيب فيه وردت غير مقيدة بكون السلطان أو أمير الجيش عادلا بـل هـذه فريضة من فرائض الدين أوجبها الله على عبادة المسلمين من غير تقيد بزمن أو مكان أو شخص أو عدل أو جور فتخصيص وجوب الجهاد يكون السلطان عادلا ليس عليه أثارة من علم "[1802] .

فالجهاد ماض إلى قيام الساعة،سواء وجد إمام أو لم يوجد،وسواء وجدت هناك راية أو لم توجد.

وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم،وعبد الرحمن بن حسن وغيرهـم مـن الأئمة،بقصة أبي بصير ــرضي الله عنهــ وجهاده المشركين بمن معه من المؤمنين،وقطعهم الطريق عليهم،قال ابن القيم:" وَمِنْهَا:أَنَّ الْمُعَاهَدِينَ إِذَا عَاهَدُوا الْإِمَامَ فَخَرَجَـتْ مِـنْهُمْ طَائِفَةٌ،فَحَارَبَتْهُمْ وَغَنِمَتْ أَمْوَالَهُمْ،وَلَمْ يَتَحَيَّزُوا إِلَى الْإِمَامِ،لَمْ يَجِبْ عَلَى الْإِمَامِ دَفْعُهُـمْ عَنْهُمْ وَمَنْعُهُمْ مِنْهُمْ،وَسَوَاءٌ دَخَلُوا فِي عَقْدِ الْإِمَامِ وَعَهْدِهِ وَدِينِهِ أَوْ لَـمْ يَدْخُلُوا،وَالْعَهْـدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُنْ عَهْـدًا بَـيْنَ أبي بصـير وَأَصْـحَابِهِ

[1801] - الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١٩٩) و وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (٧/ ٤٠٢) وفتاوى واستشارات الإسلام اليوم (٧/ ٤٧١

[1802] - الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية (ص: ٢١٨) والروضة الندية شرح الدرر البهية ط المعرفة (٢/ ٣٣٣) و الدراري المضية شرح الدرر البهية (٢/ ٤٤٠)

وَبَيْنَهُمْ،وَعَلَى هَذَا فَإِذَا كَانَ بَيْنَ بَعْضِ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ عَهْدٌ جَازَ لِمَلِكٍ آخَرَ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزُوَهُمْ وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ،كَمَا أَفْتَى بِهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي نَصَارَى مَلَطْيَةَ وَسَبْيِهِمْ،مُسْتَدِلًّا بِقِصَّةِ أَبِي بصير مَعَ الْمُشْرِكِينَ."[1803]

حتى قال النبي ـ ﷺ ـ في شأنه "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ،لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ،فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ قَالَ:وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ،فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ،فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ،حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ،فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا،فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ.."[1804]

و لم يكن أبو بصير ـ رضي الله عنه ـ تحت ولاية النبي ـ ﷺ ـ ولا في دار الإسلام،و لم يكن إماماً،و لم تكن معه راية،بل كان يُغيرُ على المشركين ويقاتلهم ويغنم منهم واستقل بحربهم،ومع ذلك أقره النبي ـ ﷺ ـ وأثنى عليه،قال عبد الرحمن بن حسن مستدلاً بهذه القصة:" فهل قال رسول الله ﷺ:أخطأتم في قتال قريش،لأنكم لستم مع إمام؟ سبحان الله ما أعظم مضرة الجهل على أهله؟ عياذاً بالله من معارضة الحق بالجهل والباطل!!"[1805].

ولعمرو الله ؛ عندما يترل العدو الكافر،ويحل بالعقر من بلاد المسلمين،ويستولي عليها،ويستبيح بيضتها،ويصبح هو الآمر الناهي،الحاكم بأمره،عندئذ ماذا يعني القول باشتراط وجود دولة الإسلام التي يقف على رأسها إمام المسلمين الشرعي لدفع هذا العدو الكافر ؟؟!!!

ألا يعني هذا القول بصورة ظاهرة لا يُختلف فيها:إلا إسلام البلاد والعباد لفتنة الكفر والفساد،وترك العدو الكافر يصول ويجول بكل الحرية والأمان ليردَّ الأمة عن دينها من

[1803] - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٧٤)

[1804] - صحيح البخاري (٣/ ١٩٣)(٢٧٣١)

[1805] - الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٢٠٠) وانظر الأحكام الشرعية للثورات العربية ط١ (ص: ٨٢٦) فما بعدها

خلال مكر الليل والنهار،والكيد الدائب المنوع الذي يُقتلع به الدين من قلوب وعقول أبناء هذه الأمة،وهذا بالطبع مع تسليطه وتمكينه من الأنفس والأموال والحرمات ليعبث بها كما شاء،وهو آمن مطمئن،مما يكدِّر عليه صفوه فضلاً عن أن يقف في وجهه،ويفسد عليه مخططاته.

وهل دولة الإسلام التي يقف على رأسها إمام المسلمين الشرعي المحَكِّم لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ستنزل على المسلمين من السماء على طبقٍ من ذهبٍ جزاءً لهم على تقاعسهم وقعودهم عن الجهاد؟!!!

أم سيقيمها لهم عدوهم الكافر الساعي بكل ما أوتي من قوة لتجريدهم حتى من مجرد الانتساب للإسلام ؟!!!

والله إن المرء ليعجب من مثل هذه الترهات،كيف تستسيغها عقول أصحابها ولا يجد من مبرر لذلك إلا أن يكون الخذلان عقوبةً قدريةً من الله سبحانه وتعالى لاتباع الهوى مع ما تظهره هذه الأقوال الخبيثة بوضوح من الغيبوبة التامة التي يعيشها أصحابها عن واقعهم،وعن دينهم،وإنهم – حقًّا– يعيشون خارج الواقع القائم بمساحات شاسعة من الزمان والمكان،ولله في خلقه شؤون،وحسبنا الله ونعم الوكيل .[١٨٠٦]

الإصابة في مقتل:

قال تعالى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)} [محمد:٤ – ٦]

يُرشدُ اللهُ تَعَالى الْمُؤْمنينَ إلى وُجُوب قتَال الْمُشْركينَ الذينَ يَكْفُرُونَ باللهِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيله حَتَّى يَنْخَذلَ الشِّرْكُ وَأَهْلُهُ،وَيُبيِّنُ لَهُمُ الأَسْلُوبَ الذي يَعْتَمدُونَهُ في قتَالهمْ فَيَقُولُ

[١٨٠٦] – انظر مسائل من فقه الجهاد ص (٧٢– ٧٣) وكتابي " فصل المقال في عمليات الاغتيال "

تَعَالى:إذا لَقيتُمُ الُمشْركين في سَاحَة الحَرب فَاحْصُدُوهُم حَصْداً بالسيُّوف،حَتَّى إذا تَمَّـــتْ لَكُمُ الغَلَبَةُ عَلَيهِم،وَقَهَرْتُم مَنْ تَبَقَّى منْهُمْ حَيّاً،وَصَارُوا أسْرى في أيديكم،شُدُّوا وِثَـــاقَهُمُ لكَيلاَ يَعْمَدُوا إلى الهَرَب،أو العَوْدة إلى القتَال،وَبَعْدَ انتهَاء الحَرْب فأنْتُم بالخيار بَيْنَ المَـــنِّ عَلَيهم وإطْلاق سَرَاحهمْ بدُون فدَاء،وَبَينُ مُفَادَاتهمْ.وَقَدْ تَكُونُ المُفَادَاةُ بمال يُؤْخَذُ منْهُمْ لإضْعَاف شَوْكَتهْم،وَقَدْ تَكُونُ بأسْرى منَ المُسْلمينَ.وهذه هيَ السُّنَّةُ في قتَال المُشْـــركينَ والكُفَّار حَتى تَنْتهيَ الحَرْبُ وَتَضعَ أوْزَارَها،وَلَوْ شَاءَ الله أَنْ يَنْتَقمَ منهُمْ بعُقُوبة عَاجلَـــة لَفعَلَ،وَلَكَفَاكُمْ أَمْرَهُمْ،وَلكنَّهُ شَرَعَ الجهَادَ،وَقتَالَ الأعداء،لختَبرَ المُؤمنينَ وَصَبْرَهُمْ عَلَـــى القتَال،وَيخْتَبرَ المُشركينَ،فَيُعَاقبَ مَنْ شَاءَ منْهُمْ بأيدي المُؤْمنينَ،وَيَتَّعظَ منْهُمْ مَـــنْ شَـــاءَ وَيَرْجعَ إلى الحَقِّ.واللهُ يَجْزي الشَّهَداءَ الذينَ قُتلُـــوا في سَـــبيله تَعَالى،وَيَتَجَـــاوزُ عَـــنْ سَيِّئَاتهمْ،وَيُثَمِّرُ لَهُمْ أعْمالَهُمْ وَيُنَمِّيها لَهُمْ.

وسَيَهْدي اللهُ الشُهَدَاءَ في سَبيله إلى طَريق الجَنَّة،ويُصْلحُ حَالَهم في الآخرَة.

وَيدُخْلهُمَ ربُّهم الجَنَّةَ،فَيَجدُ كُلُّ وَاحد فيها مَقَرَّهُ لا يَضلُّ في طَلَبه،وَكَأنَّـــهُ يَعْرفُـــهُ مـــنْ قَبْلُ.[١٨٠٧]

وقال السعدي:

يقول تعالى -مرشدا عباده إلى ما فيه صلاحهم،ونصرهم على أعدائهم-:{فَإِذا لَقِيـــتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} في الحرب والقتال،فاصدقوهم القتال،واضـــربوا منـــهم الأعنـــاق،حَتَّى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شـــرهم،فإذا فعلـــتم ذلـــك،ورأيتم الأســـر أولى وأصلح،{فَشُدُّوا الْوَثاقَ} أي:الرباط،وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا،فإذا شد منـــهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم،فإذا كانوا تحت أسركم،فأنتم بالخيار بين المن عليهم،وإطلاقهم بلا مال ولا فداء،وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشـــتروا أنفسهم،أو يشتريهم أصحابهم بمال،أو بأسير مسلم عندهم.

[١٨٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

وهذا الأمر مستمر {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} أي:حتى لا يبقى حرب،وتبقــون في المسألة والمهادنة،فإن لكل مقام مقالا ولكل حال حكما،فالحال المتقدمة،إنما هي إذا كان قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات،لا حرب فيه لسبب من الأسباب،فلا قتل ولا أسر.

{ذَلِكَ} الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين،ومداولــة الأيــام بينهم،وانتصــار بعضهم على بعض {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ} فإنه تعالى على كل شيء قدير،وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا،حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

{وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ليقوم سوق الجهاد،ويتبين بذلك أحوال العباد،الصادق من الكاذب،وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن بصيرة،لا إيمانا مبنيــا علــى متابعــة أهــل الغلبة،فإنه إيمان ضعيف جدا،لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لهم ثواب جزيل،وأجر جميل،وهم الذين قاتلوا من أمــروا بقتالهم،لتكون كلمة الله هي العليا.فهؤلاء لــن يضــل الله أعمــالهم،أي:لــن يحبطهــا ويبطلها،بل يتقبلها وينميها لهم،ويظهر من أعمالهم نتائجها،في الدنيا والآخرة.

{سَيَهْدِيهِمْ} إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنــة،{وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} أي:حــالهم وأمورهم،وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه،ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} أي:عرفها أولا بأن شوقهم إليها،ونعتها لهم،وذكر لهــم الأعمال الموصلة إليها،التي من جملتها القتل في سبيله،ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه،ثم إذا دخلوا الجنة،عرفهم منازلهم،وما احتوت عليــه مــن النعــيم المقيم،والعــيش السليم.[١٨٠٨]

أصْل فرْض الْجهاد:

(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):وَلَمَّا مَضَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مُدَّةٌ مِنْ هِجْرَتِهِ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا عَلَى جَمَاعَةٍ بِاتِّبَاعِهِ حَدَثَتْ لَهُمْ بِهَا مَعَ عَوْنِ اللَّهِ قُوَّةٌ بِالْعَدَدِ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهَا فَفَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ الْجِهَادَ بَعْدَ إذْ كَانَ إبَاحَةً لَا فَرْضًا فَقَالَ تَبَــارَكَ وَتَعَــالَى

[١٨٠٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٨٥)

{كُتبَ عَلَيْكُمُ الْقتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة:٢١٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى منَ الْمُؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [التوبة:١١١] الْآيَةَ.وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {وَقَاتلُوا في سَبيلِ اللَّه وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ} [البقرة:٢٤٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {وَجَاهدُوا في اللَّه حَقَّ جهَاده} [الحج:٧٨] وَقَالَ {فَإذَا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد:٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {مَا لَكُمْ إذَا قيلَ لَكُمُ انْفرُوا في سَبيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُمْ} [التوبة:٣٨] إلَى قَديرٌ وَقَالَ {انْفرُوا خفَافًا وَثقَالا وَجَاهدُوا بأَمْوَالكُمْ وَأَنْفُسكُمْ} [التوبة:٤١] الْآيَةَ،ثُمَّ ذَكَرَ قَوْمًا تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللَّه – ﷺ – ممَّنْ كَانَ يُظْهرُ الْإسْلَامَ فَقَالَ {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَريبًا وَسَفَرًا قَاصدًا لاتَّبَعُوكَ} [التوبة:٤٢] الْآيَةَ،فَأَبَانَ في هَذه الْآيَة أَنَّ عَلَيْهِمْ الْجهَادَ فيمَا قَرُبَ وَبَعُدَ بَعْدَ إبَانَته ذَلكَ في غَيْر مَكَان في قَوْله {ذَلكَ بأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ} [التوبة:١٢٠] قَرَأَ الرَّبيعُ إلَى {أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢١] وَسَنُبَيِّنُ منْ ذَلكَ مَا حَضَرَنَا عَلَى وَجْهه إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {فَرحَ الْمُخَلَّفُونَ بمَقْعَدهمْ خلافَ رَسُول اللَّه} [التوبة:٨١] قَرَأَ الرَّبيعُ الْآيَةَ وَقَالَ {إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقَاتلُونَ في سَبيله صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤] وَقَالَ {وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتلُونَ في سَبيلِ اللَّه} [النساء:٧٥] مَعَ مَا ذُكرَ به فَرْضُ الْجهَاد وَأُوجبَ عَلَى الْمُتَخَلِّف عَنْهُ.[١٨٠٩]

وقال الجصاص:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَإذَا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب} قَالَ أَبُو بَكْرٍ:قَدْ اقْتَضَى ظَاهرُهُ وُجُوبَ الْقَتْلِ لَا غَيْرُ إلَّا بَعْدَ الْإثْخَان،وَهُوَ نَظيرُ قَوْله تَعَالَى:{مَا كَانَ لنَبيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخنَ في الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ الْحَكَمِ قال:حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بن صالح عن معاوية بن صالح عَنْ عَليِّ بْنِ أَبي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ في قَوْله تَعَالَى:{مَا كَانَ لنَبيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخنَ في الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] قَالَ:"ذَلكَ يَوْمُ بَدْرٍ

[١٨٠٩] – الأم للشافعي (٤/ ١٧٠)

وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ،فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - بَعْدَ هَذَا فِي الْأُسَارَى:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} فَجَعَلَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْأُسَارَى بِالْخِيَارِ،إِنْ شَاءُوا قَتَلُوهُمْ،وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ،وَإِنْ شَاءُوا فَادُوهُمْ شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ فِي "،وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ".وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو مَهْدِيٍّ وَحَجَّاجٌ كِلَاهُمَا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ:سَمِعْت السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قوله:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} قَالَ:هِيَ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَهَا قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَمَّا قَوْلُهُ:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} وَقَوْلُهُ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] وَقَوْلُهُ:{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الأنفال:٥٧] فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حُكْمًا ثَابِتًا غَيْرَ مَنْسُوخٍ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْإِثْخَانِ بِالْقَتْلِ وَحَظَرَ عَلَيْهِ الْأَسْرَ إلَّا بَعْدَ إذْلَالِ الْمُشْرِكِينَ وَقَمْعِهِمْ،وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،فَمَتَى أُثْخِنَ الْمُشْرِكُونَ وَأُذِلُّوا بِالْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ جَازَ الِاسْتِبْقَاءُ.فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُكْمًا ثَابِتًا إذَا وُجِدَ مِثْلُ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَحَدَ شَيْئَيْنِ مِنْ مَنٍّ أَوْ فِدَاءٍ،وَذَلِكَ يَنْفِي جَوَازَ الْقَتْلِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي ذَلِكَ،حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا جعفر بن محمد بن اليمان قال:حدثنا أبو عبيد قال:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ مُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَرِهَ قَتْلَ الْأَسِيرِ وَقَالَ:"مُنَّ عَلَيْهِ أَوْ فاده".وَحَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ قَالَ:أَخْبَرَنَا أَشْعَثُ قَالَ:سَأَلْت عَطَاءً عَنْ قَتْلِ الْأَسِيرِ،فَقَالَ:"مُنَّ عَلَيْهِ أَوْ فاده" قَالَ:وَسَأَلْت الْحَسَنَ،قَالَ:"يُصْنَعُ بِهِ مَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُسَارَى بَدْرٍ،يُمَنُّ عَلَيْهِ أَوْ يُفَادَى بِهِ" وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ دُفِعَ إلَيْهِ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ إصْطَخْرَ لِيَقْتُلَهُ،فَأَبَى أَنْ يَقْتُلَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}.وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ كَرَاهَةَ قَتْلِ الْأَسِيرِ،وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ السُّدِّيِّ أَنَّ قَوْلَهُ:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} مَنْسُوخٌ

بِقَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ،حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ:"هِيَ مَنْسُوخَةٌ" وَقَالَ:قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:اتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ الْأَسِيرِ لَا نَعْلَمُ بَيْنَهُمْ خِلَافًا فِيهِ،وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَتْلِهِ الْأَسِيرَ،مِنْهَا قَتْلُهُ عقبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَالنُّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ بَعْدَ الْأَسْرِ يَوْمَ بَدْرٍ،وَقَتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ أَبَا عَزَّةَ الشَّاعِرَ بَعْدَمَا أُسِرَ،وَقَتَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ نُزُولِهِمْ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.فَحَكَمَ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَمَنَّ عَلَى الزُّبَيْرِ بْنِ بَاطَا مِنْ بَيْنِهِمْ،وَفَتَحَ خَيْبَرَ بَعْضَهَا صُلْحًا وَبَعْضَهَا عَنْوَةً،وَشَرَطَ عَلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ أَنْ لَا يَكْتُمَ شَيْئًا فَلَمَّا ظَهَرَ عَلَى خِيَانَتِهِ وَكِتْمَانِهِ قَتَلَهُ،وَفَتَحَ مَكَّةَ وَأَمَرَ بِقَتْلِ هِلَالِ بْنِ خَطَلٍ وَمَقِيسِ بْنِ صَبَابَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَآخَرِينَ وَقَالَ:"اُقْتُلُوهُمْ،وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ" وَمَنَّ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَلَمْ يَغْنَمْ أَمْوَالَهُمْ.وَرُوِيَ عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ يَقُولُ:"وَدِدْتُ أَنِّي يَوْمَ أُتِيتُ بِالْفُجَاءَةِ لَمْ أَكُنْ أَحْرَقْتُهُ وَكُنْتُ قَتَلْتُهُ صَرِيحًا أَوْ أَطْلَقْتُهُ نَجِيحًا" وَعَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّهُ قَتَلَ دِهْقَانَ السُّوسِ بَعْدَمَا أَعْطَاهُ الْأَمَانَ عَلَى قَوْمٍ سَمَّاهُمْ وَنَسِيَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُدْخِلْهَا فِي الْأَمَانِ فَقَتَلَهُ فَهَذِهِ آثَارٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ الصَّحَابَةِ فِي جَوَازِ قَتْلِ الْأَسِيرِ وَفِي اسْتِبْقَائِهِ وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى ذَلِكَ،وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي فِدَائِهِ،فَقَالَ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا:"يُفَادَى الْأَسِيرُ بِالْمَالِ وَلَا يُبَاعُ السَّبْيُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ فَيَرُدُّوا حَرْبًا" وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:لَا يُفَادُونَ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا وَلَا يُرَدُّونَ حَرْبًا أَبَدًا" وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ:"لَا بَأْسَ أَنْ يُفَادَى أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِأَسْرَى الْمُشْرِكِينَ"،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:"لَا بَأْسَ بِبَيْعِ السَّبْيِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَلَا يُبَاعُ الرِّجَالُ إلَّا أَنْ يُفَادَى بِهِمْ الْمُسْلِمُونَ" وَقَالَ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيِّ:"لِلْإِمَامِ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُفَادِي بِهِمْ".

فَأَمَّا الْمُجِيزُونَ لِلْفِدَاءِ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمَالِ فَإِنَّهُمْ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}،وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي جَوَازَهُ بِالْمَالِ وَبِالْمُسْلِمِينَ،وَبِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَدَى أُسَارَى بَدْرٍ

بالْمَال،وَيَحْتَجُّونَ للْفدَاء بالْمُسْلمينَ بمَا رَوَى ابْنُ الْمُبَارَك عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبي قلَابَةَ عَنْ أَبي الْمُهَلَّب عَنْ عمْرَانَ بْن حَصين قَالَ:أَسَرَتْ ثَقيفُ رَجُلَيْن منْ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ وَأَسَرَ أَصْحَابُ النَّبيِّ ﷺ رَجُلًا منْ بَني عَامر بْن صَعْصَعَةَ،فَمُرَّ به عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ مُوثَقٌ،فَأَقْبَلَ إلَيْه رَسُولُ اللَّه ﷺ فقَالَ:عَلَامَ أُحْبَسُ؟ " قَالَ:"بجَريرَة حُلَفَائك" فَقَالَ الْأَسيرُ:إنِّي مُسْلمٌ،فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:"لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلكُ أَمْرَك لَأَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاح" ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺ فَنَادَاهُ أَيْضًا،فَأَقْبَلَ فقَالَ:إنِّي جَائعٌ فَأَطْعمْني فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:"هَذه حَاجَتُك"،ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ فَدَاهُ بالرَّجُلَيْن اللَّذَيْن كَانَتْ ثَقيفٌ أَسَرَتْهُمَا.وَرَوَى ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبي قلابة عَنْ أَبي المهلب عن عمران بن حصين:أن النَّبيَّ ﷺ فَدَى رَجُلَيْن منْ الْمُسْلمينَ برَجُلٍ منْ الْمُشْركينَ منْ بَني عَقيلٍ وَلَمْ يَذْكُرْ إسْلَامَ الْأَسير،وَذَكَرَهُ في الْحَديث الْأَوَّل وَلَا خلَافَ أَنَّهُ لَا يُفَادَى الْآنَ عَلَى هَذَا الْوَجْه؛ لأَنَّ الْمُسْلمَ لَا يُرَدُّ إلَى أَهْل الْحَرْب،وَقَدْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ شَرَطَ في صُلْح الْحُدَيْبيَة لقُرَيْشٍ أَنَّ مَنْ جَاءَ منْهُمْ مُسْلمًا رَدَّهُ عَلَيْهمْ،ثُمَّ نُسخَ ذَلكَ وَنَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنْ الْإقَامَة بَيْنَ أَظْهُر الْمُشْركينَ وَقَالَ:"أَنَا بَريءٌ منْ كُلِّ مُسْلمٍ مَعَ مُشْرك" وَقَالَ:"مَنْ أَقَامَ بَيْنَ أَظْهُر الْمُشْركينَ فَقَدْ بَرئَتْ منْهُ الذِّمَّةُ".وَأَمَّا مَا في الْآيَة منْ ذكْر الْمَنِّ أَوْ الْفدَاء وَمَا رُويَ في أُسَارَى بَدْر،فَإنَّ ذَلكَ مَنْسُوخٌ بقَوْله:{فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد فَإنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُمْ} [التوبة:٥].وَقَدْ رَوَيْنَا ذَلكَ عَنْ السُّدِّيِّ وَابْن جُرَيْجٍ وقَوْله تَعَالَى:{قَاتلُوا الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلا بالْيَوْم الْآخر} إلَى قَوْله تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ} [التوبة:٢٩] فَتَضَمَّنَتْ الْآيَتَان وُجُوبَ الْقتَال للْكُفَّار حَتَّى يُسْلمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجزْيَةَ،وَالْفدَاءُ بالْمَال أَوْ بغَيْره يُنَافي ذَلكَ وَلَمْ يَخْتَلفْ أَهْلُ التَّفْسير وَنَقَلَةُ الْآثَار أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَة بَعْدَ سُورَة مُحَمَّد ﷺ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ فيهَا نَاسخًا للْفدَاء الْمَذْكُور في غَيْرهَا.

قَوْله تَعَالَى:{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} قَالَ الْحَسَنُ" "حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ به غَيْرُهُ" وَقَالَ سَعيدُ بْنُ جُبَيْر:"خُرُوجُ عيسَى ابْن مَرْيَمَ عَلَيْه السَّلَامُ فَيَكْسرُ الصَّليبَ وَيَقْتُلُ الْخنْزيرَ وَيَلْقَى الذِّئْبُ الشَّاةَ فَلَا يَعْرضُ لَهَا وَلَا تَكُونُ عَدَاوَةٌ بَيْن اثْنَيْن" وَقَالَ

الْفَرَّاءُ:"آثَامُهَا وَشِرْكُهَا حَتَّى لَا يَكُونَ إلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ" قَالَ أَبُو بَكْرٍ:فَكَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ إيجَابُ الْقِتَالِ إلَى أَنْ لَا يَبْقَى مَنْ يُقَاتِلُ.[1810]

وفي الظلال:

واللقاء المقصود في الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء.فحتى نزول هذه السورة كان المشركون في الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد و لم تكن بعد قد نزلت سورة «بَراءَةٌ» التي تنهي عهود المشركين المحددة الأجل إلى أجلها،والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر وتأمر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا في أنحاء الجزيرة - قاعدة الإسلام - أو يسلموا.كي تخلص القاعدة للإسلام.

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا.وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة،وبالحركة التي تمثلها،تمشيا مع جو السورة وظلالها.

«حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ»..والإثخان شدة التقتيل،حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى،فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع.وعندئذ - لا قبله - يؤسر من استأسر ويشد وثاقه.فأما والعدو ما يزال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر.

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف - كما رأى معظم المفسرين - بين مدلول هذه الآية،ومدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول - ﷺ - والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر.والتقتيل كان أولى.وذلك حيث يقول تعالى:«ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ،تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ،وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»..

فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته وبعد ذلك يكون الأسر.والحكمة ظاهرة،لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال.وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة.وكانت الكثرة للمشركين.وكان قتل

[1810] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ٥١٩)

محارب يساوي شيئا كبيرا في ميزان القوى حينذاك.والحكم ما يزال ساريا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو،وتعجيزه عن الهجوم والدفاع.

فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك،فتحدده هذه الآية.وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى:«فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً»..أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين.وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين.وليس في الآية حالة ثالثة.كالاسترقاق أو القتل.بالنسبة لأسرى المشركين.

ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله – ﷺ – والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم في حالات معينة.[1811]

جواز قتلهم في أي مكان وجدوا :

قال تعالى:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) } [البقرة]

الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ فِيهِ إِزْهَاقٌ لِلأَنْفُسِ،وَقَتْلٌ لِلرِّجَالِ،لِذَلِكَ نَبَّهَ اللهُ المُؤْمِنِينَ إِلى أَنَّ مَا اشتَمَلَ عَلَيهِ الكَافِرونَ مِنَ الكُفْرِ بِاللهِ،وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ،هُوَ أَعْظَمُ مِنَ القَتْلِ،لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ:(الشِّرْكُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ).وَنَهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَنْ قِتَالِ المُشْرِكِينَ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ لِحُرْمَتِهِ،إِلاَّ إِذَا بَدَأَهُمُ المُشْرِكُونَ بِالقِتَالِ.فَإِذا نَشَبَتِ الحَرْبُ كَانَ عَلَى المُؤْمِنِينَ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ حَيْثُمَا وَجَدُوهُمْ،لأَنَّ هذا القِتَالَ هُوَ دَفْعٌ لِلاعْتِدَاءِ،وَجَزَاءٌ عَلَى نَكْثِ العَهْدِ،وَعَلَى مُبَاشَرَتِهِمْ بِالاعْتِدَاءِ عَلَى المُسْلِمِينَ،وَلَوْ كَانَ ذلِكَ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ.وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ – إِذَا بَدَأَ المُشْرِكُونَ بِالاعتِدَاءِ عَلَى المُسْلِمِينَ،وَقَاتَلُوهُمْ

[1811] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٨٦)

لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ زِيَارة المَسْجد الحَرَامِ – بِأَنْ يُخْرِجَ المُسْلمُونَ المُشرِكينَ مِنْ مَكَّةَ،كَمَا أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَالمُؤْمنينَ منْها،لأنَّ فتْنَتَهُم المُسْلمينَ عَنْ دينهمْ بالإيذَاءِ وَالتَّعذيب وَالإخْرَاجِ منَ الوَطَنِ،وَمُصَادَرَةُ الأَمْوَال...كُلُّ ذلكَ أَشَدُّ قُبْحاً منَ القَتْلِ في البَلَد الحَرَام.

وَاسْتَثْنَى اللهُ منْ قَتْلِ المُشْركينَ،في كُلِّ مَكَانٍ أَدْرَكَهُمْ فيه المُسْلمُونَ،المَسْجدَ الحَرَامَ،فَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمناً،إلاَّ أَنْ يُقَاتلَ فيه وَيَنْتَهِكَ حُرْمَتَهُ،فَحينَئذٍ لاَ يَكُونُ لَهُ أَمَانٌ،وَذلكَ جَزَاءُ الكَافرينَ المُعْتَدينَ.

فَإذا تَرَكَ الكَافرُونَ الكُفْرَ،وَأَسْلَمُوا وَتَابُوا فَإنَّ الإسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ،وَإنَّ اللهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ التي ارْتَكَبُوهَا منْ قَبْلُ،وَلَوْ كَانُوا قَتَلُوا المُسْلمينَ في الحَرَمِ،لأَنَّهُ تَعَالَى لا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ.

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى بقتَالِ الكُفَّارِ حَتَّى لاَ تَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَفْتنُونَ بهَا المُسْلمينَ عَنْ دينهمْ،وَيَمْنَعُونَهُمْ منْ إظْهَاره،وَالدَّعْوَة إلَيه،وَحَتَّى لاَ يَكُونَ هُنَاكَ شرْكٌ،وَحَتَّى تَكُونَ كَلمَةُ الله هيَ العُلْيَا،وَدينُهُ هُوَ الظَّاهرَ العَاليَ عَلَى سَائرِ الأَدْيَان.فَإن انْتَهَى المُشْركُونَ عَمَّا هُمْ فيه منَ الشِّرْك،وَكَفُّوا عَنْ قتَال المُسْلمينَ،فَلاَ سَبيلَ للْمُسْلمينَ إلى قتَالهمْ،لأَنَّ القتَالَ إنَّما شُرعَ لرَدْعِ الكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالفتْنَة.وَالعُدْوَانُ لاَ يَكُونُ إلاَّ عَلَى مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بالكُفرِ وَالمَعَاصي،وَتَجَاوَزَ العَدْلَ.[١٨١٢]

وقال ابن عاشور:

هَذَا أَمْرٌ بقَتْلِ مَنْ يُعْثَرُ عَلَيْه منْهُمْ وَإنْ لَمْ يَكُنْ في سَاحَة الْقتَال،فَإنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بقتَال مَنْ يُقَاتلُهُمْ عَمَّمَ الْمَوَاقعَ وَالْبقَاعَ زيَادَةً في أَحْوَال الْقَتْلِ وَتَصْريحًا بتَعْميمِ الْأَمَاكنِ فَإنَّ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الْغَرَضِ تَبْعَثُ عَلَى عَدَم الاكْتفَاء باقْتضَاء عُمُوم الْأَشْخَاص تَعْميمَ الْأَمْكنَة ليَكُونَ الْمُسْلمُونَ مَأْذُونينَ بذَلكَ فَكُلُّ مَكَانٍ يَحُلُّ فيه الْعَدُوُّ فَهُوَ مَوْضعُ قتَالٍ،فَالْمَعْنَى وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقفْتُمُوهُمْ إنْ قَاتَلُوكُمْ.

وَعُطفَت الْجُمْلَةُ عَلَى الَّتي قَبْلَهَا وَإنْ كَانَتْ هيَ مُكَمِّلَةً لَهَا باعْتبَار أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ قَتْلٌ خَاصٌّ غَيْرُ قتَال الْوَغَى فَحَصَلَت الْمُغَايرَةُ الْمُقْتَضيَةُ الْعَطْفَ،وَلذَلكَ قَالَ هُنَا وَاقْتُلُوهُمْ وَلَمْ

[١٨١٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٨، بترقيم الشاملة آليا)

يَقُلْ:وَقَاتِلُوهُمْ مِثْلَ الْآيَةِ قَبْلَهَا تَنْبِيهًا عَلَى قَتْلِ الْمُحَارِبِ وَلَوْ كَانَ وَقْتَ الْعُثُورِ عَلَيْهِ غَيْرَ مُبَاشِرٍ لِلْقِتَالِ وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ مُحَارِبًا فَهُوَ قَاتِلٌ وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْ.

وثَقِفْتُمُوهُمْ بِمَعْنَى لَقِيتُمُوهُمْ لِقَاءَ حَرْبٍ وَفِعْلُهُ كَفَرِحَ،وَفَسَّرَهُ فِي «الْكَشَّافِ» بِأَنَّهُ وُجُودٌ عَلَى حَالَةِ قَهْرٍ وَغَلَبَةٍ.

وَقَوْلُهُ:وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ أَيْ يَحِلُّ لَكُمْ حِينَئِذٍ أَنْ تُخْرِجُوهُمْ مِنْ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا،وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعْدٌ بِفَتْحِ مَكَّةَ،فَيَكُونُ هَذَا اللِّقَاءُ لِهَذِهِ الْبُشْرَى فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَسْعَوْا إِلَيْهِ حَتَّى يُدْرِكُوهُ وَقَدْ أَدْرَكُوهُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ،وَفِيهِ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنَّصْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ [الْفَتْح:٢٧] الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ:وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ تَذْيِيلٌ وأل فِيهِ لِلْجِنْسِ تَدُلُّ عَلَى الاسْتِغْرَاقِ فِي الْمَقَامِ الْخِطَابِيِّ،وَهُوَ حُجَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَنَفْيٌ لِلتَّبِعَةِ عَنْهُمْ فِي الْقِتَالِ بِمَكَّةَ إِنِ اضْطُرُّوا إِلَيْهِ.

وَالْفِتْنَةُ إِلْقَاءُ الْخَوْفِ وَاخْتِلَالُ نِظَامِ الْعَيْشِ وَقَدْ تَقَدَّمَتْ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ [الْبَقَرَة:١٠٢]،إِشَارَةٌ إِلَى مَا لَقِيَهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَكَّةَ مِنَ الْأَذَى بِالشَّتْمِ وَالضَّرْبِ وَالسُّخْرِيَةِ إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُ الْإِخْرَاجَ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ،فَالْمُشْرِكُونَ مَحْقُوقُونَ مِنْ قَبْلُ فَإِذَا خَفَرُوا الْعَهْدَ اسْتَحَقُّوا الْمُؤَاخَذَةَ بِمَا مَضَى فِيمَا كَانَ الصُّلْحُ مَانِعًا مِنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا كَانَت الْفِتْنَةُ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ لِتَكَرُّرِ إِضْرَارِهَا بِخِلَافِ أَلَمِ الْقَتْلِ،وَيُرَادُ مِنْهَا أَيْضًا الْفِتْنَةُ الْمُتَوَقَّعَةُ بِنَاءً عَلَى تَوَقُّعِ أَنْ يَصُدُّوهُمْ عَنِ الْبَيْتِ أَوْ أَنْ يَغْدُرُوا بِهِمْ إِذَا حَلُّوا بِمَكَّةَ،وَلِهَذَا اشْتَرَطَ الْمُسْلِمُونَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْعَامَ الْقَابِلَ بِالسُّيُوفِ فِي قِرَابِهَا،وَالْمَقْصِدُ مِنْ هَذَا إِعْلَانُ عُذْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالِهِمُ الْمُشْرِكِينَ وَإِلْقَاءُ بُغْضِ الْمُشْرِكِينَ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا عَلَى أُهْبَّةِ قِتَالِهِمْ وَالانْتِقَامِ مِنْهُمْ بِصُدُورٍ حَرِجَةٍ حَنِقَةٍ.وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْفِتْنَةِ خُصُوصَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الدِّيَارِ،لِأَنَّ التَّذْيِيلَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَعَمَّ مِنَ الْكَلَامِ الْمُذَيَّلِ.

وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢).

الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَة وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ الَّتِي أَفَادَت الْأَمْرَ بِتَتَبُّعِ الْمُقَاتِلِينَ بِالتَّقْتِيلِ حَيْثُمَا حَلُّوا سَوَاءٌ كَانُوا مُشْتَبِكِينَ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ أَمْ كَانُوا فِي حَالَة تَنَقُّلٍ أَوْ تَطَلُّعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ لِأَنَّ أَحْوَالَ الْمُحَارِب لَا تَنْضَبِطُ وَلَيْسَتْ فِي الْوَقْت سَعَةٌ لِلنَّظَرِ فِي نَوَايَاهُ وَالتَّوَسُّمِ فِي أَغْرَاضِه،إِذْ قد يبادره إِلَى اغْتِيَالِ عَدُوِّه فِي حَالِ تَرَدُّدِّه وَتَفَكُّرِه،فَخَصَّ الْمَكَانَ الَّذي عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ مِنْ عُمُومِ الْأَمْكِنَة الَّتِي شَمِلَهَا قَوْلُهُ:حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ أَيْ إِنْ ثَقِفْتُمُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ غَيْرَ مُشْتَبِكِينَ فِي قِتَالٍ مَعَكُمْ فَلَا تَقْتُلُوهُمْ،وَالْمَقْصِدُ مِنْ هَذَا حِفْظُ حُرْمَة الْمَسْجِد الْحَرَامِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُ بِقَوْله:مَقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً [آل عمران:٩٧]،فَاقْتَضَت الْآيَةُ مَنْعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ،وَتَدُلُّ عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ أَنْ يَقْتُلُوا أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ دُونَ قِتَالٍ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ بِدَلَالَة لَحْنِ الْخطَاب أَوْ فَحْوَى الْخطَاب.

وَجُعِلَتْ غَايَةَ النَّهْيِ بِقَوْله:حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ أَيْ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ عِنْدَ الْمَسْجِد فَاقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ،لِأَنَّهُمْ خَرَقُوا حُرْمَةَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ فَلَوْ تُرِكَتْ مُعَامَلَتُهُمْ بِالْمِثْلِ لَكَانَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى هَزِيمَة الْمُسْلِمِينَ.فَإِنْ قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ عَادَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ بِمُقَاتَلَتِهِمْ إِلَى مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا النَّهْيِ فَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ وَقَتْلُ مَنْ ثُقِفُوا مِنْهُمْ كَذَلِكَ.

وَفِي قَوْله تَعَالَى:فَاقْتُلُوهُمْ تَنْبِيهٌ عَلَى الْإِذْنِ بِقَتْلِهِمْ حِينَئِذ وَلَوْ فِي غَيْرِ اشْتِبَاك مَعَهُمْ بِقِتَالٍ،لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا حُرْمَةَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ وَسِيلَةً لِهَزْمِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِقَوْله:فَاقْتُلُوهُمْ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ الْقَتْلَ بِدُون قِتَالٍ وَالْقَتْلَ بِقِتَالٍ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى:فَإِنْ قاتَلُوكُمْ أَيْ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرَامِ فَاقْتُلُوهُمْ هُنَالِكَ،أَيْ فَاقْتُلُوا مَنْ ثَقِفْتُمْ مِنْهُمْ حِينَ الْمُحَارَبَة،وَلَا يَصُدُّكُمُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ عَنْ تَقَصِّي آثَارِهِمْ لِئَلَّا يَتَّخِذُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَام ملْجأ يلجؤون إِلَيْه إِذَا انْهَزَمُوا.

وَقَد احْتَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي انْتِظَامِ هَذِه الْآيَاتِ مِنْ قَوْله:وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [الْبَقَرَة:١٩٠] إِلَى قَوْله هُنَا- كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ حَتَّى لَجَأَ بَعْضُهُمْ إِلَى دَعْوَى نَسْخِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فَزَعَمَ أَنَّ آياتٍ مُتَقَارِنَةً بَعْضَهَا نَسَخَ بَعْضًا مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ الْآيَاتِ

الْمُتَقَارِنَةَ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ نَزَلَتْ كَذَلِكَ وَمَعَ مَا فِي هَاتِهِ الْآيَاتِ مِنْ حُرُوفِ الْعَطْفِ الْمَانِعَةِ مِنْ دَعْوَى كَونِ بَعْضِهَا قَدْ نَزَلَ مُسْتَقِلًّا عَنْ سَابِقِهِ وَلَيْسَ هُنَا مَا يُلْجِئُ إِلَى دَعْوَى النَّسْخِ،وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى تَفْسِيرِ الْمُفْرَدَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّرَاكِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ وَأَعْرَضَ عَنْ بَيَانِ الْمَعَانِي الْحَاصِلَةِ مِنْ مَجْمُوعِ هَاتِهِ الْآيَاتِ.

وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ وَالْقَتْلِ لِلْمُقَاتِلِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَلَمْ يَعْبَأْ بِمَا جَعَلَهُ لِهَذَا الْمَسْجِدِ مِنَ الْحُرْمَةِ لِأَنَّ حُرْمَتَهُ حُرْمَةُ نِسْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَمَّا كَانَ قِتَالُ الْكُفَّارِ عِنْدَهُ قِتَالًا لِمَنْعِ النَّاسِ مِنْهُ وَمُنَاوَاةً لِدِينِهِ فَقَدْ صَارُوا غَيْرَ مُحْتَرِمِينَ لَهُ وَلِذَلِكَ أَمَرَنَا بِقِتَالِهِمْ هُنَالِكَ تَأْيِيدًا لِحُرْمَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ:(وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) ثَلَاثَتُهَا بِأَلِفٍ بَعْدَ الْقَافِ،وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ:(وَلَا تَقْتُلُوهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ) بِدُونِ أَلِفٍ بَعْدَ الْقَافِ،فَقَالَ الْأَعْمَشُ لِحَمْزَةَ أَرَأَيْتَ قِرَاءَتَكَ هَذِهِ كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ قَاتِلًا بَعْدَ أَنْ صَارَ مَقْتُولًا؟ فَقَالَ حَمْزَةُ:إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَالُوا قتلنا اهــ يُرِيدُ أَنَّ الْكَلَامَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ مِنَ الْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ:

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ...يَوْمَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ

وَالْمَعْنَى وَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوا بَعْضَكُمْ فَإِنْ قَتَلُوا بَعْضَكُمْ فَاقْتُلُوا مَنْ تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ (قَتَلُوا) إِلَى ضَمِيرِ جَمَاعَةِ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ بِمَعْنَى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسْنِدُ فِعْلَ بَعْضِ الْقَبِيلَةِ أَوِ الْمِلَّةِ أَوِ الْفِرْقَةِ لِمَا يَدُلُّ عَلَى جَمِيعِهَا مِنْ ضَمِيرٍ كَمَا هُنَا أَوِ اسْمٍ ظَاهِرٍ نَحْوَ قَتَلَتْنَا بَنُو أَسَدٍ.وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تَقْتَضِي أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ الْقَتْلُ فَيَشْمَلُ الْقَتْلَ بِاشْتِبَاكِ حَرْبٍ وَالْقَتْلَ بِدُونِ مَلْحَمَةٍ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ بِالنَّصِّ عَلَى إِبَاحَةِ قَتْلِ الْمُحَارِبِ إِذَا حَارَبَ فِي الْحَرَمِ أَوِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ لِأَنَّ الِاسْتِيلَاءَ مُقَاتَلَةٌ فَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ لَوِ اسْتَوْلَى عَلَى مَكَّةَ عَدُوٌّ وَقَالَ:لَا أُقَاتِلُكُمْ وَأَمْنَعُكُمْ مِنَ الْحَجِّ وَلَا أَبْرَحُ مِنْ مَكَّةَ لَوَجَبَ قِتَالُهُ وَإِنْ لَمْ يَبْدَأْ بِالْقِتَالِ نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنِ ابْنِ خُوَيْزِ مَنْدَادَ مِنْ مَالِكِيَّةِ الْعِرَاقِ.قَالَ ابْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادَ:وَأَمَّا قَوْلُهُ:وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ:وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ [الْبَقَرَة:١٩٣].

وَاخْتَلَفُوا فِي دَلَالَتِهَا عَلَى جَوَازِ قَتْلِ الْكَافِرِ الْمُحَارِبِ إِذَا لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ بِدُون أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ وَكَذَا الْجَانِي إِذَا لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ فَارًّا مِنَ الْقِصَاصِ وَالْعُقُوبَةِ فَقَالَ مَالِكٌ:بِجَوَازِ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ [التَّوْبَة:٥] الْآيَةَ قَدْ نَسَخَ هَاتِهِ الْآيَةَ وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلٍ بِنَاءً عَلَى تَأَخُّرِ نُزُولِهَا عَنْ وَقْتِ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَالْعَامُّ الْمُتَأَخِّرُ عَنِ الْعَمَلِ يَنْسَخُ الْخَاصَّ اتِّفَاقًا.

وَبِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ فِي «الْمُوَطَّأِ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَ أَبُو بَرْزَةَ فَقَالَ:ابْنُ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:اقْتُلُوهُ» وَابْنُ خَطَلٍ هَذَا هُوَ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ خَطَلٍ التَّيْمِيُّ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ ثُمَّ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ وَجَعَلَ دَأْبَهُ سَبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْإِسْلَامَ فَأَهْدَرَ النَّبِيءُ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ دَمَهُ فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ عَاذَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَأَمَرَ النَّبِيءُ ﷺ بِقَتْلِهِ حِينَئِذٍ،فَكَانَ قَتْلُ ابْنِ خَطَلٍ قَتْلَ حَدٍّ لَا قَتْلَ حَرْبٍ لِأَنَّ النَّبِيءَ ﷺ قَدْ وَضَعَ الْمِغْفَرَ عَنْ رَأْسِهِ وَقَدِ انْقَضَتِ السَّاعَةُ الَّتِي أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ فِيهَا مَكَّةَ.

وَبِالْقِيَاسِ وَهُوَ أَنَّ حُرْمَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مُتَقَرِّرَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ بِقَتْلِ مَنْ قَاتَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلِمْنَا أَنَّ الْعِلَّةَ هِيَ أَنَّ الْقِتَالَ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِحُرْمَتِهِ لِلِاسْتِخْفَافِ،فَكَذَلِكَ عِيَاذُ الْجَانِي بِهِ،وَبِمِثْلِ قَوْلِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ،لَكِنْ قَالَ الشَّافِعِيُّ إِذَا الْتَجَأَ الْمُجْرِمُ الْمُسْلِمُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ فَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ جَازَ قَتْلُهُ،وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:لَا يُقْتَلُ الْكَافِرُ إِذَا الْتَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ إِلَّا إِذَا قَاتَلَ فِيهِ لِنَصِّ هَاتِهِ الْآيَةِ وَهِيَ مُحْكَمَةٌ عِنْدَهُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ وَهُوَ قَول طَاوُوس وَمُجَاهِد.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «الْأَحْكَام»:حَضَرْتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمَدْرَسَةِ أَبِي عُقْبَةَ الْحَنَفِيِّ وَالْقَاضِي الزِّنْجَانِيُّ يُلْقِي عَلَيْنَا الدَّرْسَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ أَطْمَارٌ فَسَلَّمَ سَلَامَ الْعُلَمَاءِ وَتَصَدَّرَ فِي الْمَجْلِسِ،فَقَالَ الْقَاضِي الزِّنْجَانِيُّ:مَنِ السَّيِّدُ؟

فَقَالَ:رَجُلٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِصَاغَانَ سَلَبَهُ الشُّطَّارُ أَمْسِ،وَمَقْصِدِي هَذَا الْحَــرَمُ الْمُقَــدَّسُ فَقَالَ الْقَاضِي الزِّنْجَانِيُّ:سَلُوهُ عَنِ الْعَادَةِ فِي مُبَادَرَةِ الْعُلَمَاءِ بِمُبَــادَرَةِ أَسْــئِلَتِهِمْ،وَوَقَعَت الْقُرْعَةُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْكَافِرِ إِذَا الْتَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ هَلْ يُقْتَلُ أَمْ لَا؟ فَأَجَابَ بِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ،فَسُئِلَ عَنِ الدَّلِيلِ فَقَالَ:قَوْلُهُ تَعَالَى:وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَــإِنْ قُرِئَ (وَلَا تَقْتُلُوهُمْ) فَالْآيَةُ نَصٌّ وَإِنْ قُرِئَ (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ) فَهِيَ تَنْبِيهٌ،لِأَنَّهُ إِذَا نَهَــى عَــنِ الْقِتَالِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْقَتْلِ كَانَ دَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى النَّهْيِ

عَنِ الْقَتْلِ فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ الزِّنْجَانِيُّ مُنْتَصِرًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَإِنْ لَمْ يَرَ مَــذْهَبَهُمَا عَلَــى الْعَادَةِ،فَقَالَ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:فَاقْتُلُوا الْمُشْــرِكِينَ حَيْــثُ وَجَــدْتُمُوهُمْ [التَّوْبَة:٥] فَقَالَ الصَّاغَانِيُّ هَذَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِ الْقَاضِي،فَإِنَّ الْآيَةَ الَّتِي اعْتَرَضْتَ بِهَا عَامَّةٌ فِي الْأَمَاكِنِ وَالَّتِي احْتَجَجْتُ بِهَا خَاصَّةٌ وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ:إِنَّ الْعَامَّ يَنْسَخُ الْخَاصَّ فَأُبْهِتَ الْقَاضِي الزِّنْجَانِيُّ،وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ اهــ.

وَجَوَابُ هَذَا أَنَّ الْعَامَّ الْمُتَأَخِّرَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْخَاصِّ نَاسِخٌ وَحَدِيثُ ابْنِ خَطَلٍ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي بَرَاءَةَ نَاسِخَةٌ لِآيَةِ الْبَقَرَةِ.وَأَمَّا قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ وَبَعْضِ الْمَالِكِيَّةِ:إِنَّ قَتْــلَ ابْــنِ خَطَلٍ كَانَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ فِيهِ مَكَّةَ فَيَدْفَعُهُ أَنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ انْتَهَتْ بِالْفَتْحِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ نَزَعَ حِينَئِذٍ الْمِغْفَرَ وَذَلِكَ أَمَارَةُ انْتِهَاءِ سَاعَةِ الْحَرْبِ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «الْأَحْكَامِ»:الْكَافِرُ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ وَلَمْ يَجْنِ جِنَايَةً وَلَجَأَ إِلَى الْحَــرَمِ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ،يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْقَتْلَ الَّذِي اقْتَضَتْهُ آيَةُ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَهُوَ مِمَّــا شَمَلَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:لَا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ.

وَقَوْلُهُ:كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ،الْإِشَارَةُ إِلَى الْقَتْلِ الْمَأْخُوذِ مِنْ قَوْلِهِ:فَاقْتُلُوهُمْ أَيْ كَــذَلِكَ الْقَتْلُ جَزَاؤُهُمْ عَلَى حَدِّ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ:وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً [الْبَقَــرَة:١٤٣] وَنُكْتَةُ الْإِشَارَةِ تَهْوِيلُهُ أَيْ لَا يَقِلُّ جَزَاءُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْقَتْلِ وَلَا مَصْلَحَةٌ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ،فَقَوْلُهُ كَذلِكَ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ لِلِاهْتِمَامِ وَلَيْسَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [الْبَقَرَة:١٩٠] لِأَنَّ الْمُقَاتَلَةَ لَيْسَتْ جَزَاءً إِذْ لَا انْتِقَامَ فِيهَا بَلِ الْقِتَالُ سِجَالٌ يَوْمًا بِيَوْمٍ.

وَقَوْلُهُ:فَإِن انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَيْ فَإِن انْتَهَوْا عَنْ قِتَالِكُمْ فَلَا تَقْتُلُوهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ غَفُور رَحِيم،فينبغي أَنْ يَكُونَ الْغُفْرَانُ سُنَّةَ الْمُؤْمِنينَ،فَقَوْلُهُ:فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ جَوَابُ الشَّرْطِ وَهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ إِذْ كُلُّ سَامِعٍ يَعْلَمُ أَنَّ وَصْفَ اللَّه بِالْمَغْفِرَة وَالرَّحْمَة لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الانْتِهَاءِ فَيُعْلَمُ أَنَّهُ تَنْبِيهٌ لِوُجُوبِ الْمَغْفِرَةِ لَهُمْ إِن انْتَهَوْا بِمَوْعِظَةٍ وَتَأْيِيدٍ لِلْمَحْذُوف،وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْحَذْف.

وَالانْتِهَاءُ:أَصْلُهُ مُطَاوِعُ نَهَى يُقَالُ:نَهَاهُ فَانْتَهَى ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيه فَأُطْلِقَ عَلَى الْكَفِّ عَنْ عَمَلٍ أَوْ عَنْ عَزْمٍ لِأَنَّ النَّهْيَ هُوَ طَلَبُ تَرْكِ فِعْلٍ سَوَاءٌ كَانَ الطَّلَبُ بَعْدَ تَلَبُّسِ الْمَطْلُوبِ بِالْفِعْلِ أَوْ قَبْلَ تَلَبُّسه به قَالَ النَّابِغَةُ:

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذُبْيَانَ عَنْ أُقُرٍ...وَعَنْ تَرَبُّعِهِمْ فِي كُلِّ إِصْفَارِ

أَيْ عَنِ الْوُقُوعِ فِي ذَلك.

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

عَطْفٌ عَلَى جُمْلَة وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ [الْبَقَرَة:١٩٠] وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَلَّا تُعْطَفَ هَذه الْجُمْلَةُ لِأَنَّهَا مُبَيِّنَةٌ لِمَا أُجْمِلَ مِنْ غَايَةِ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَلَكِنَّهَا عُطِفَتْ لِمَا وَقَعَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمْلَة الْمُبَيِّنَة.

وَقَدْ تَضَمَّنَت الْجُمَلُ السَّابِقَةُ مِنْ قَوْله:وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِد الْحَرام [الْبَقَرَة: ١٩١] إِلَى هُنَا تَفْصِيلًا لِجُمْلَة وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ لِأَنَّ عُمُومَ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ تَنْشَأُ عَنْهُ احْتمَالَاتٌ فِي الْأَحْوَال وَالْأَزْمنَة وَالْبِقَاعِ وَقَد انْقَضَى بَيَانُ أَحْوَال الْبِقَاعِ وَأَفْضَت التَّوْبَةُ الْآنَ إِلَى بَيَان تَحْديد الْأَحْوَال بِغَايَة أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ.فَإِذَا انْتَهَت الْفِتْنَةُ فَتِلْكَ غَايَةُ الْقِتَال،أَيْ إِنْ خَاسُوا بِالْعَهْد وَخَفَرُوا الذِّمَّةَ فِي الْمُدَّة الَّتي بَيْنَكُمْ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ عَهْدهمْ فَلَكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدُ يَفْتِنُونَكُمْ بِهَا وَحَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَام،فَهَذَا كُلُّهُ مُعَلَّقٌ بِالشَّرْط الْمُتَقَدِّمِ فِي قَوْله:فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ [الْبَقَرَة:١٩١]،فَإِعَادَةُ فِعْلِ وَقاتِلُوهُمْ لِتُبْنَى عَلَيْه الْغَايَةُ بِقَوْله:حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَبِتِلْكَ الْغَايَةِ حَصَلَت الْمُغَايَرَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه

وَهِيَ الَّتِي بِاعْتِبَارِهَا سَاغَ عَطْفُهُ عَلَى مِثْلِهِ.فَ (حَتَّى) فِي قَوْلِهِ:حَتَّى لَا تَكُونَ إِمَّا أَنْ تُجْعَلَ لِلْغَايَةِ مُرَادِفَةَ إِلَى،وَإِمَّا أَنْ تُجْعَلَ بِمَعْنَى كَيِ التَّعْلِيلِيَّةِ وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ لِأَنَّ الْقِتَالَ لما غيي بِذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الْغَايَةَ هِيَ الْمَقْصِدُ،وَمَتَّى كَانَتِ الْغَايَةُ غَيْرَ حِسِّيَّةٍ نَشَأَ عَنْ (حَتَّى) مَعْنَى التَّعْلِيلِ،فَإِنَّ الْعِلَّةَ غَايَةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ [الْبَقَرَة:٢١٧].وأيّا مَا كَانَ فَالْمُضَارِعُ مَنْصُوبٌ بعد (حَتَّى) بِأَن مُضْمَرَةً لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَرَتُّبِ الْغَايَةِ.

وَالْفِتْنَةُ تَقَدَّمَتْ قَرِيبًا.وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا كَالْمُرَادِ بِهَا هُنَالِكَ،وَلَمَّا وَقَعَتْ هُنَا فِي سِيَاقِ النَّفْيِ عَمَّتْ جَمِيعَ الْفِتَنِ فَلِذَلِكَ سَاوَتِ الْمَذْكُورَةُ هُنَا الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ [الْبَقَرَة:١٩١] فَإِعَادَةُ الْفِتْنَةِ مُنَكَّرَةً هُنَا لَا يَدُلُّ عَلَى الْمُغَايَرَةِ كَمَا هُوَ الشَّائِعُ بَيْنَ الْمُعْرِبِينَ فِي أَنَّ الْمَعْرِفَةَ إِذَا أُعِيدَتْ نَكِرَةً فَهِيَ غَيْرُ الْأُولَى لِأَنَّ وُقُوعَهَا فِي سِيَاقِ النَّفْيِ أَفَادَ الْعُمُومَ فَشَمَلَ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْفِتْنَةِ مُسَاوِيًا لِلْفِتْنَةِ الْمُعَرَّفَةِ بِلَامِ الِاسْتِغْرَاقِ إِلَّا أَنَّهُ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ فَتَقَيَّدَ بِثَلَاثَةِ قُيُودٍ بِالْقَرِينَةِ أَيْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَإِلَّا فَقَدْ وَقَعَتْ فِتَنٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ كَمَا

فِي حَدِيثٍ:«ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ»

.وَانْتِفَاءُ الْفِتْنَةِ يَتَحَقَّقُ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:إِمَّا بِأَنْ يَدْخُلَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْإِسْلَامِ فيترل فِتْنَتُهُمْ فِيهِ،وَإِمَّا بِأَنْ يُقْتَلُوا جَمِيعًا فَتَزُولَ الْفِتْنَةُ بِفَنَاءِ الْفَاتِنِينَ.وَقَدْ يُفْرَضُ انْتِفَاءُ الْفِتْنَةِ بِظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ وَمَصِيرِ الْمُشْرِكِينَ ضُعَفَاءَ أَمَامَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ،بِحَيْثُ يَخْشَوْنَ بَأْسَهُمْ،إِلَّا أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا كَانَتْ نَاشِئَةً عَنِ التَّصَلُّبِ فِي دِينِهِمْ وَشِرْكِهِمْ لَمْ تَكُنْ بِالَّتِي تَضْمَحِلُّ عِنْدَ ضَعْفِهِمْ،لِأَنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى إِرْضَاءِ الْعَقِيدَةِ يَصْدُرُ حَتَّى مِنَ الضَّعِيفِ كَمَا صَدَرَ مِنَ الْيَهُودِ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْمَدِينَةِ فِي مِثْلِ قِصَّةِ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ،وَقَتْلِهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ الْحَارِثِيَّ فِي خَيْبَرَ،وَلِذَلِكَ فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا إِلَّا أَحَدَ أَمْرَيْنِ:إِمَّا دُخُولُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَإِمَّا إِفْنَاؤُهُمْ بِالْقَتْلِ،

وَقَدْ حَصَلَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ فِي الْمُشْرِكِينَ فَفَرِيقٌ أَسْلَمُوا،وَفَرِيقٌ قُتلُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْغَزَوَات،وَمِنْ ثَمَّ قَالَ عُلَمَاؤُنَا:لَا تقبل من مُشْرِكين الْعَرَب الْجِزْيَةُ،وَمِنْ ثَمَّ فَسَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الْفِتْنَةَ هُنَا بِالشِّرْكِ تَفْسِيرًا بِاعْتِبَارِ الْمَقْصُود مِنَ الْمَعْنَى لَا بِاعْتِبَارِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ.

وَقَوْلُهُ:وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه عَطْفٌ عَلَى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَهُوَ مَعْمُول لِأَن الْمُضْمَرَة بَعْدَ (حَتَّى) أَيْ وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ لِلَّه،أَيْ حَتَّى لَا يَكُونَ دِينٌ هُنَالِكَ إِلَّا لِلَّه أَيْ وَحْدَهُ.

فَالتَّعْرِيفُ فِي الدِّينِ تَعْرِيفُ الْجِنْس،لِأَنَّ الدِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَوَاهِي الَّتِي لَا أَفْرَادَ لَهَا فِي الْخَارِجِ فَلَا يَحْتَمِلُ تَعْرِيفُهُ مَعْنَى الِاسْتِغْرَاق.

وَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَة لَامُ الِاخْتِصَاصِ أَيْ حَتَّى يَكُونَ جِنْسُ الدِّينِ مُخْتَصًّا بِاللَّه تَعَالَى عَلَى نَحْوِ مَا قَرَّرَ فِي قَوْله:الْحَمْدُ لِلَّه [الْفَاتِحَة:٢]،وَذَلِكَ يَئُولُ إِلَى مَعْنَى الِاسْتِغْرَاق وَلَكِنَّهُ لَيْسَ عَيْنَهُ،إِذْ لَا نَظَرَ فِي مِثْلِ هَذَا لِلْأَفْرَاد،وَالْمَعْنَى:وَيَكُونَ دِينُ الَّذِينَ تُقَاتِلُونَهُمْ خَالِصًا لِلَّه لَا حَظَّ لِلْإِشْرَاك فِيه.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَخْلِيصُ بِلَاد الْعَرَب مِنْ دِينِ الشِّرْك وَعُمُومُ الْإِسْلَام لَهَا لِأَنَّ اللَّهَ اخْتَارَهَا لِأَنْ تَكُونَ قَلْبَ الْإِسْلَامِ وَمَنْبَعَ مَعِينِهِ فَلَا يَكُونُ الْقَلْبُ صَالِحًا إِذَا كَانَ مَخْلُوطَ الْعَنَاصِر.

وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ أَثَرًا جَيِّدًا قَالَ:جَاءَ رَجُلَان إِلَى ابْنِ عُمَرَ أَيَّامَ فِتْنَة ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا:إِنَّ النَّاسَ صَنَعُوا مَا تَرَى وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيءِ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ:يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي،فَقَالَا:أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:قَاتَلْنَا مَعَ رَسُول اللَّه حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّه وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّه،قَالَ ابْنُ عُمَرَ:كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِه إِمَّا قَتَلُوهُ وَإِمَّا عَذَّبُوهُ حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ.وَسَيَأْتِي بَيَانٌ آخَرُ فِي نَظِيرِ هَذِه الْآيَة مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَال.

وَقَوْلُهُ:فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ،أَيْ فَإِن انْتَهَوْا عَنْ نَقْضِ الصُّلْحِ أَوْ فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الشِّرْك بِأَنْ آمَنُوا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ،وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِمَفْهُومِ قَوْله:الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ [الْبَقَرَة:١٩٠] وَاحْتِيجَ إِلَيْه لِبُعْدِ الصِّفَة بِطُولِ الْكَلَامِ وَلِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ التَّصْرِيحَ بِأَهَمِّ

الْغَايَتَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ آخِرَ الْكَلَامِ نَسَخَ أَوَّلَهُ وَأَوْجَبَ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَوْلُهُ:فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ قَائِمٌ مَقَامَ جَوَابِ الشَّرْطِ لِأَنَّهُ عِلَّةُ الْجَوَابِ الْمَحْذُوفِ،وَالْمَعْنَى فَإِنِ انْتَهَوْا عَنْ قِتَالِكُمْ وَلَمْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ فَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِالظِّنَّةِ وَلَا تَبْدَءُوهُمْ بِالْقِتَالِ،لِأَنَّهُمْ غَيْرُ ظَالِمِينَ وَإِذْ لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ،وَهُوَ مَجَازٌ بَدِيعٌ.

وَالْعُدْوَانُ هُنَا إِمَّا مَصْدَرُ عَدَا بِمَعْنَى وَثَبَ وَقَاتَلَ أَيْ فَلَا هُجُومَ عَلَيْهِمْ،وَإِمَّا مَصْدَرُ عَدَا بِمَعْنَى ظَلَمَ كَاعْتَدَى فَتَكُونُ تَسْمِيَتُهُ عُدْوَانًا مُشَاكَلَةً لِقَوْلِهِ:عَلَى الظَّالِمِينَ كَمَا سُمِّيَ جَزَاءُ السَّيِّئَةِ بِالسُّوءِ سَيِّئَةً.وَهَذِهِ المشاكلة تقديرية.[1813]

وقال السعدي:

{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} هذا أمر بقتالهم،أينما وجدوا في كل وقت،وفي كل زمان قتال مدافعة،وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم {عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال،فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم،وهذا مستمر في كل وقت،حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا،فإن الله يتوب عليهم،ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام،وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام،يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام،أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك،والصد عن دينه،أشد من مفسدة القتل،فليس عليكم – أيها المسلمون – حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة،وهي:أنه يرتكب أخف المفسدتين،لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله،وأنه ليس المقصود به،سفك دماء الكفار،وأخذ أموالهم،ولكن المقصود به أن {يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} تعالى،فيظهر دين الله [تعالى]،على سائر الأديان،ويدفع كل ما يعارضه،من الشرك وغيره،وهو المراد بالفتنة،فإذا حصل هذا

[1813] -التحرير والتنوير (٢/ ٢٠١)

المقصود،فلا قتل ولا قتال،{فَإِنِ انْتَهَوْا} عن قتالكم عند المسجد الحرام {فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ} أي:فليس عليهم منكم اعتداء،إلا من ظلم منهم،فإنه يستحق المعاقبة،بقدر ظلمه.[١٨١٤]

نحن على رأينا من أنه ليس فى القرآن نسخ،وأن كتاب الله الذي فى أيدينا لا نسخ فيه،وأن آياته كلها عاملة أبد الدّهر.

وآيات القتال من الآيات التي أكثر المفسرون من القول بتوارد النسخ عليها! وهذا رأى- كما قلنا- لا نأخذ به ولا نقيم نظرنا عليه! فقوله تعالى:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ» ليس بالمنسوخ بالآية التي بعدها،كما يقول المفسّرون،ولا وجه لنسخه..فالأمر بالقتال فى سبيل الله قائم ما قامت الحياة.وإذا كان القتال يقوم بين الناس فى وجوه كثيرة فى سبل غير سبيل الله،فالقتال فى سبيل الله أوجب القتال وأبرّه،وأعدله،وأكرمه،إذ كان ولا غاية له إلا الانتصار للحق،والتمكين له..ثم إذا كان هذا القتال لم يكن مبادأة ولا هجوما،بل كان دفاعا وقصاصا،فهو القتال الذي لا بد منه،ولا بديل له،إن لم يطلبه الدين طلبته الدنيا..ثم أيضا،إذا كان هذا القتال- مع مشروعيته دنيا وديانة،ومع حجزه عن المبادأة بالعدوان- غير متلبس بمجاوزة الحدّ فى القصاص،فهو القتال الذي لا يحسم الشر غيره،ولا يقيم الأمن والسلام سواه..

«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

فهذه ثلاث دعائم من العدل،يقوم عليها هذا القتال:قتال فى سبيل الله،بين الإيمان والشرك،ودفع لعدوان المشركين على المؤمنين،ووقوف بالقتال عن مجاوزة إلى اعتداء المؤمنين على المشركين! تلك هى الدعائم التي يقوم عليها قتال المسلمين أبدا مع مقاتليهم على أية ملة،وفى أي زمان ومكان..فماذا ينسخ من تلك الدعائم،وما داعية نسخها؟ لا نجد جوابا مقنعا.

[١٨١٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٩)

وقوله تعالى:«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ».

هو من تمام البيان لهذه القضية،قضية القتال بين المسلمين ومشركى قريش،فحين يلتقى بهم المسلمون فى ميدان القتال،فلا يتحرج المسلمون من قتلهم حيث التقوا بهم،من غير أن تعطفهم عليهم عاطفة قرابة أو نسب،ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم،أو إخوانهم،فلقد بدءوا هم المسلمين بالعدوان،وأخرجوهم من ديارهم،وفتنوا بعضهم عن دينهم،ولا يزالون يفتنون من قدروا عليه منهم،بما يسلطون عليه من عذاب ونكال «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» إذ المفتتن فى دينه قد أصيب بما هو أشد وأنكى من القتل،قد خسر الدنيا والآخرة،وذلك هو الخسران المبين!.

فإذا كان القتال فى المسجد الحرام،أي فى البلد الحرام مكة،فلا يبدؤهم المسلمون بقتال فيه حتى يكون المشركون هم الذين بدءوه،وعندئذ تحل حرمة الحرم،اقتصاصا ممن أحلوا حرمته:«وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ».

وقوله تعالى:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حسم لما بين هؤلاء المشركين وبين المسلمين من خلاف،وتصفية للشر الذي وقع بينهم،وذلك إذا انتهى هؤلاء المشركون عن شركهم،وأسلموا وجوههم لله..

عندئذ تنقطع أسباب القتال،وتزول آثاره،فلا ثارات،ولا ديات،ولا عداوة،بل يصبح الجميع إخوة،تجمعهم كلمة الإسلام،وتظللهم راية الإسلام!.

وفى قوله تعالى:«فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تطييب لخاطر الفريقين جميعا،فليغفر بعضهم لبعض،وليرحم بعضهم بعضا من حمل البغضة والعداوة،ولهم عند الله المغفرة الواسعة والرحمة الشاملة،فإن الله غفور رحيم.

هذا وقد نظرنا فى تفسير قوله تعالى:«فَإِنِ انْتَهَوْا» وحملناه على الانتهاء مما كانوا عليه من شرك- نظرنا فى هذا إلى قوله تعالى «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» (٢٧٥:البقرة).

وهذا المعنى هو الذي يلتقى مع قوله تعالى:«فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حيث يغتسل المشركون الذين دخلوا فى الإسلام من أدران شركهم بما يفضل الله عليهم به من مغفرته ورحمته.

وقوله تعالى:«وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» أمر بمقاتلة من بقي على شركه من مشركى مكة الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات،لأنه ما دام المشركون قائمين فالفتنة قائمة،والفتنة هى قتل للمسلمين،وعلى هذا فلا مهادنة مع المشركين «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ»..«فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» أي فإن انتهوا عماهم فيه من شرك ودخلوا فى دين الله،فقد دخلوا فى السلم،لا ينالهم أحد بسوء إلّا من نكص على عقبه أو دخل الإسلام ليكيد له ولأهله.[١٨١٥]

وقال الطبري:" يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَاقْتُلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ أَصَبْتُمْ مُقَاتَلَهُمْ وَأَمْكَنَكُمْ قَتْلُهُمْ،وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة:١٩١] وَمَعْنَى الثَّقَفَةِ بِالْأَمْرِ:الْحَذْقُ بِهِ وَالْبَصَرُ،يُقَالُ:إِنَّهُ لَثَقِفٌ لَقِفٌ إِذَا كَانَ جَيِّدَ الْحَذَرِ فِي الْقِتَالِ بَصِيرًا بِمَوَاقِعِ الْقَتْلِ.وَأَمَّا التَّثْقِيفُ فَمَعْنًى غَيْرُ هَذَا وَهُوَ التَّقْوِيمُ؛فَمَعْنَى:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة:١٩١] اقْتُلُوهُمْ فِي أَيِّ مَكَانٍ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ وَأَبْصَرْتُمْ مُقَاتَلَهُمْ،وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِمَكَّةَ،فَقَالَ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ:أَخْرِجُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ مِنْ مَسَاكِنِكُمْ وَدِيَارِهِمْ كَمَا أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١] يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ:{وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:١٩١] وَالشِّرْكُ بِاللَّهِ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا مَضَى أَنَّ أَصْلَ الْفِتْنَةِ الِابْتِلَاءُ،وَالِاخْتِبَارُ فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:وَابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْهُ فَيَصِيرُ مُشْرِكًا بِاللَّهِ مِنْ [ص:٢٩٤] بَعْدِ إِسْلَامِهِ أَشَدُّ عَلَيْهِ وَأَضَرُّ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مُقِيمًا عَلَى دِينِهِ مُتَمَسِّكًا عَلَيْهِ مُحِقًّا فِيهِ

[١٨١٥] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١١)

وَالْقُرَّاءُ مُخْتَلِفَةٌ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ،فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] بِمَعْنَى:وَلَا تَبْتَدِئُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ بِهِ،فَإِنْ بَدَءُوكُمْ بِهِ هُنَالِكَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحَرَمِ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ ثَوَابَ الْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ،وَأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةَ الْقَتْلَ فِي الدُّنْيَا،وَالْخِزْيَ الطَّوِيلَ فِي الْآخِرَةِ

عَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] كَانُوا لَا يُقَاتِلُونَ فِيهِ حَتَّى يَبْدَءُوا بِالْقِتَالِ.ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] حَتَّى لَا يَكُونَ [ص:٢٩٦] شِرْكٌ {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٣] أَنْ يُقَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،عَلَيْهَا قَاتَلَ نَبِيُّ اللَّهِ وَإِلَيْهَا دَعَا "

وعَنْ قَتَادَةَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لَا يُقَاتِلَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَبْدَءُوا فِيهِ بِقِتَالٍ،ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فِي الْحِلِّ،وَالْحَرَمِ وَعِنْدَ الْبَيْتِ،حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

عَنِ الرَّبِيعِ،قَوْلَهُ {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] فَكَانُوا لَا يُقَاتِلُونَهُمْ فِيهِ،ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بَعْدُ،فَقَالَ:{قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] " وَقَالَ بَعْضُهُمْ:هَذِهِ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ

عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ،عَنْ [ص:٢٩٧] مُجَاهِدٍ،{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ} [البقرة:١٩١] فِي الْحَرَمِ {فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١] لَا تُقَاتِلْ أَحَدًا فِيهِ أَبَدًا،فَمَنْ عَدَا عَلَيْكَ فَقَاتَلَكَ فَقَاتِلْهُ كَمَا يُقَاتِلُكَ " وَقَرَأَ ذَلِكَ عُظْمُ قُرَّاءِ الْكُوفِيِّينَ:(وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) بِمَعْنَى:وَلَا تَبْدَءُوهُمْ بِقَتْلٍ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ بِهِ

وعَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ،قَالَ:قُلْتُ لِلْأَعْمَشِ:أَرَأَيْتَ قِرَاءَتَكَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٩٢] إِذَا قَتَلُوهُمْ كَيْفَ يَقْتُلُونَهُمْ؟ قَالَ " إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ،قَالُوا:قُتِلْنَا،وَإِذَا ضُرِبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَالُوا:ضُرِبْنَا " وَأَوْلَى هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَصْحَابَهُ فِي حَالِ إِذَا قَاتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِالِاسْتِسْلَامِ لَهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا بَعْدَ مَا أُذِنَ لَهُ وَلَهُمْ بِقِتَالِهِمْ،فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ بِالْإِذْنِ بِقَتْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى مِنَ الْقِرَاءَةِ بِمَا اخْتَرْنَا.وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ،فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَذِنَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ إِذَا كَانَ ابْتِدَاءُ الْقِتَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا،وَبَعْدَ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا.وَقَدْ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [البقرة:١٩٣] وَقَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَ قَوْلِ مَنْ قَالَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ،عَنْ قَتَادَةَ {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] قَالَ:نَسَخَهَا قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] "

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ،فِي قَوْلِهِ:{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} [البقرة:١٩١] قَالَ «حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ كَانَ هَذَا قَدْ حُرِّمَ،فَأَحَلَّ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ،فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا حَتَّى أَمَرَهُ اللَّهُ بِقِتَالِهِمْ بَعْدُ»

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:١٩٢] يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ:فَإِنِ انْتَهَى الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ،فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَتَابُوا،فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِذُنُوبِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَابَ مِنْ شِرْكِهِ،وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعَاصِيهِ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُ وَأَيَّامِهِ الَّتِي [ص:٢٩٩] مَضَتْ،رَحِيمٌ بِهِ فِي آخِرَتِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِ،وَإِعْطَائِهِ مَا يُعْطِي أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنَ الثَّوَابِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى مَحَبَّتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ"[١٨١٦]

وفي الظلال:

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية.ومن ثم فهي أشد من القتل.أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة.ويستوي أن تكون هذه الفتنة

[١٨١٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢٩٣)

بالتهديد والأذى الفعلي،أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل النـــاس وتفســـدهم وتبعدهم عن منهج الله،وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد،ويســـن تشـــريعات تبـــيح المحرمات كالزنا والخمر،ويحسنها للناس بوسائل التوجيه بينما يقبح لهم اتباع الفضـــائل المشروعة في منهج الله.ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية لا يملك النـــاس التفلـــت منها.

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة،وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية..هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام،ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني.فغاية الوجود الإنساني هي العبادة (ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله).وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد.فالذي يسلبه هذه الحرية،ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواســـطة،يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته.ومن ثم يدفعه بالقتل..لذلك لم يقـــل:وقـــاتلوهم.إنمـــا قال:«وَاقْتُلُوهُمْ»..«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ»..أي حيث وجدتموهم.

في أية حالة كانوا عليها وبأية وسيلة تملكونها - مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار.

ولا قتال عند المسجد الحرام،الذي كتب الله له الأمن،وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم (عليه السلام) وجعله مثابة يثوب إليها الناس فينالون فيه الأمن والحرمـــة والسلام..لا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته،فيبدأون بقتال المسلمين عنده.وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم..فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين،الذين يفتنون الناس عن دينهم،ولا يرعـــون حرمـــة للمســـجد الحرام،الذي عاشوا في جواره آمنين.

«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..والانتهاء الذي يســـتأهل غفـــران الله ورحمتـــه،هو الانتهاء عن الكفر،لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين.فالانتهاء عـــن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهـــادنهم المســـلمون.ولكنـــه لا يؤهـــل لمغفـــرة الله

ورحمته.فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان،لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان.

وما أعظم الإسلام،وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة،ويسقط عنهم القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم،الذي قتلوا منه وفتنوا،وفعلوا بأهله الأفاعيل!!![١٨١٧]

جواز قتل المنافقين والخائنين:

قال تعالى:{ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } [النساء:٩١]

وَهُنَاكَ فِئَةٌ مُنَافِقَةٌ،يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ الإِسْلاَمَ،لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ،وَيُصَانِعُونَ الكُفَّارَ فِي البَاطِنِ،فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ،وَهُمْ فِي البَاطِنِ مَعْ أُولَئِكَ،وَكُلَّمَا دُعُوا إلى الشِّرْكِ (الفِتْنَةِ) أَوْغَلُوا فِيهِ وَانْهَمَكُوا،وَتَحَوَّلُوا إِلَيهِ أَقْبَحَ تَحوُّلٍ،فَهَؤُلاَءِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِقِتَالِهِمْ إلى أنْ يَعْتَزِلُوا القِتَالَ،وَيَقْبَلُوا بِالصُّلْحِ وَالمُهَادَنَةِ،وَيُلْقُوا إلى المُسْلِمِينَ زِمَامَ المُسَالَمَةِ وَالمُهَادَنَةِ،وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِلمُؤْمِنِينَ سُلْطَاناً وَاضِحاً عَلَى قِتَالِهِمْ.[١٨١٨].

هَؤُلَاءِ فَرِيقٌ آخَرُ لَا سَعْيَ لَهُمْ إِلَّا فِي خُوَيْصَّتِهِمْ،وَلَا يَعْبَأُونَ بِغَيْرِهِمْ،فَهُمْ يُظْهِرُونَ الْمَوَدَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ لِيَأْمَنُوا غَزْوَهُمْ،وَيُظْهِرُونَ الْوُدَّ لِقَوْمِهِمْ لِيَأْمَنُوا غَائِلَتَهُمْ،وَمَا هُمْ بِمُخْلِصِينَ الْوُدَّ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ،وَلِذَلِكَ وُصِفُوا بِإِرَادَةِ أَنْ يَأْمَنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ قَوْمِهِمْ،فَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا حُظُوظُ أَنْفُسِهِمْ،يَلْتَحِقُونَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي قَضَاءِ لُبَانَاتٍ لَهُمْ فَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قَوْمِهِمْ فَيَرْتَدُّونَ إِلَى الْكُفْرِ،وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها [النِّسَاء:٩١].وَقَدْ مَرَّ بَيَانُ مَعْنَى (أُرْكِسُوا) قَرِيبًا.وَهَؤُلَاءِ هُمْ غَطَفَانُ وَبَنُو أَسَدٍ مِمَّنْ

[١٨١٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٥)

[١٨١٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨٤، بترقيم الشاملة آليا)

كَانُوا حَوْلَ الْمَدِينَة قَبْلَ أَنْ يَخْلُصَ إسْلَامُهُمْ،وَبَنُو عَبْد الدَّار منْ أَهْل مَكَّةَ،كَانُوا يَـأْتُونَ الْمَدينَةَ فَيُظْهِرُونَ الْإسْلَامَ وَيَرْجعُونَ إلَى مَكَّةَ فَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ.وَأَمْرُ اللَّه الْمُؤْمنينَ في مُعَامَلَة هَؤُلَاء وَمُعَامَلَة الْفَرِيق الْمُتَقَدِّمِ في قَوْله:إلَّا الَّذينَ يَصلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْـنَكُمْ وَبَيْـنَهُمْ ميثاقٌ [النِّسَاء:٩٠] أَمْرٌ وَاحدٌ،وَهُوَ تَرْكُهُمْ إذَا تَرَكُوا الْمُؤْمنينَ وَسَـالَمُوهُمْ،وَقتَالُهُمْ إذَا نَاصَبُوهُمُ الْعَدَاءَ،إلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الشَّرْطَ الْمَفْرُوضَ بالنِّسْبَة إلَـى الْـأَوَّلينَ:أَنَّهُـمْ يَعْتَزِلُونَ الْمُسْلمينَ،وَيُلْقُونَ إلَيْهِمُ السَّلَمَ،وَلَا يُقَاتلُونَهُمْ،وَجَعَلَ الشَّرْطَ الْمَفْرُوضَ بالنِّسْـبَة إلَى هَؤُلَاء أَنَّهُمْ لَا يَعْتَزِلُونَ الْمُسْلمينَ،وَلَا يُلْقُونَ إلَـيْهِمُ السَّـلَمَ،وَلَا يَكُفُّـونَ أَيْـديَهُمْ عَنْهُمْ،نَظَرًا إلَى الْحَالَة الْمُتَرَقَّبَة منْ كُلِّ فَرِيقٍ منَ الْمَذْكُورينَ.وَهُوَ افْتنَانٌ بَديعٌ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ اخْتلَافٌ في الْحُكْمِ وَلَكنْ صَرَّحَ باخْتلَاف الْحَالَيْنِ،وَبوَصْف مَا في ضَميرِ الْفَرِيقَيْنِ.

وَالْوِجْدَانُ في قَوْله:سَتَجدُونَ آخَرِينَ بمَعْنَى الْعُثُورِ وَالاطِّلَاعِ،أَيْ سَتَطَّلعُونَ عَلَـى قَـوْمٍ آخَرِينَ،وَهُوَ منَ اسْتعْمَالِ وَجَدَ،وَيَتَعَدَّى إلَى مَفْعُولٍ وَاحدٍ،فَقَوْلُهُ:يُرِيدُونَ جُمْلَـةٌ فـي مَوْضعِ الْحَالِ،وَسَيَأْتي بَيَانُ تَصَاريف اسْتعْمَالِ الْوجْـدَانِ فـي كَلَـامهمْ عنْـدَ قَوْلـه تَعَالَى:لَتَجدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً للَّذينَ آمَنُوا في سُورَة الْمَائـدَة [٨٢].وَجـيءَ باسْـمِ الْإشَارَة في قَوْله:وَأُولئكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبيناً لزِيَادَة تَمْييـزهمْ.(وَالسُّـلْطَانُ الْمُبينُ) هُوَ الْحُجَّةُ الْوَاضحَةُ الدَّالَّةُ عَلَى نفَاقهمْ،فَلَا يُخْشَى أَنْ يُنْسَبَ الْمُسْـلمُونَ فـي قتَالهمْ إلَى اعْتدَاءٍ وتفريق الجامعة.[١٨١٩]

وفيه بيان لما تكشف عنه التجربة من أمر هؤلاء المنـافقين،وأن جماعـة منهم،ركبـها النفاق،وغلب عليها حكمه،فلم تكن موادعتها للمسـلمين إلا ضـربا مـن ضـروب النفاق،تريد به أن تضمن السلامة والعافية،وأنه إذا انتصر المسلمون على قومهم،كانوا هم بمأمن مما يجرى على قومهم من حكم الإسلام فيهم،من قتل،وسبى،ومغنم..وإذا انتصـر قومهم،كان لهم من صلتهم بهم وقرابتهم لهم،ما يدفع عنهم بأسهم،وضرهم..

فهذه الجماعة من المنافقين إن لم تتحرر من نفاقها،وإن لم تقم أمرها على وجه واحد مع المسلمين،كان علـى المسـلمين أن يأخـذوهم بمـا يأخـذون بـه أعـداءهم،لأنهم

[١٨١٩] – التحرير والتنوير (٥/ ١٥٤)

مخادعون،مضللون،يتخذون من خداعهم وتضليلهم جنّة يدفعون بها ما يتوقع من المسلمين من نصر،وما وراء هذا النصر من بأساء وضراء تحيط بهم![1820]

هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ،وَلَكِنْ نِيَّةُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أُولَئِكَ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مُنَافِقُونَ يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأَصْحَابِهِ الْإِسْلَامَ؛لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ وَيُصَانِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ،فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ،لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ،وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ أُولَئِكَ،كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ [إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ] } [الْبَقَرَةِ:١٤] وَقَالَ هَاهُنَا:{كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} أَيْ:انْهَمَكُوا فِيهَا.

وَقَالَ السُّدِّيُّ:الْفِتْنَةُ هَاهُنَا:الشِّرْكُ.وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ،عَنْ مُجَاهِدٍ:أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ،كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيُسَلِّمُونَ رِيَاءً،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ فَيَرْتَكِسُونَ فِي الْأَوْثَانِ،يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَاهُنَا وَهَاهُنَا،فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوا وَيُصْلِحُوا؛وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ} أَيْ:عَنِ الْقِتَالِ {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} أَيْ:أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ {وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} أَيْ:بَيِّنًا وَاضِحًا.[1821]

هؤلاء قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم،وهم الذين قال الله فيهم:{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ} أي:من هؤلاء المنافقين.{يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ} أي:خوفا منكم {وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} أي:لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم،وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم،وازداد كفرهم ونفاقهم،وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية،وفي الحقيقة مخالفة لها.فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفا على أنفسهم،وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما،بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين،فإنهم مستعدون لانتهازها،فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك

[1820] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٦٠)

[1821] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٧٣)

قتالهم،فإنهم يقاتلون،ولهذا قال:{فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} أي:المسالمة والموادعة {وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} أي:حجة بينة واضحة،لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة،فلا يلوموا إلا أنفسهم.[١٨٢٢]

وقال الطبري:" وَهَؤُلَاءِ فَرِيقٌ آخَرُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِيَأْمَنُوا بِهِ عِنْدَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالسِّبَاءِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَهُمْ كُفَّارٌ،يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَوْمُهُمْ،إِذَا لَقُوهُمْ كَانُوا مَعَهُمْ وَعَبَدُوا مَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَأْمَنُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ،يَقُولُ اللَّهُ:{كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} يَعْنِي:" كُلَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ ارْتَدُّوا فَصَارُوا مُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ.وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الَّذِينَ عُنُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:هُمْ نَاسٌ كَانُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا عَلَى مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ التَّقِيَّةِ وَهُمْ كُفَّارٌ،لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ،يَقُولُ اللَّهُ:{كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} يَعْنِي:«كُلَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ ارْتَدُّوا،فَصَارُوا مُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ لِيَأْمَنُوا عِنْدَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ»

عَنْ مُجَاهِدٍ:{يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ،وَيَأْمَنُوا،قَوْمَهُمْ} [النساء:٩١] قَالَ نَاسٌ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ،فَيُسْلِمُونَ رِيَاءً،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ فَيَرْتَكِسُونَ فِي الْأَوْثَانِ،يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَهُنَا وَهَهُنَا،فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوا وَيُصْلِحُوا "

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} يَقُولُ:" كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ فِتْنَةٍ أُرْكِسُوا فِيهَا.وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُوجَدُ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ،فَيُقَرَّبُ إِلَى الْعُودِ وَالْحَجَرِ وَإِلَى الْعَقْرَبِ وَالْخُنْفُسَاءِ،فَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ لِذَلِكَ الْمُتَكَلِّمِ بِالْإِسْلَامِ:قُلْ هَذَا رَبِّي،لِلْخُنْفُسَاءِ وَالْعَقْرَبِ " وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ هُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا طَلَبُوا الْأَمَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَأْمَنُوا عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ وَعِنْدَ الْمُشْرِكِينَ

[١٨٢٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٢)

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ} [النساء:٩١] قَالَ:" حَيٌّ كَانُوا بِتِهَامَةَ،قَالُوا:يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَا نُقَاتِلُكَ وَلَا نُقَاتِلُ قَوْمَنَا،وَأَرَادُوا أَنْ يَأْمَنُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ.فَأَبَى اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،فَقَالَ: {كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} يَقُولُ:«كُلَّمَا عَرَضَ لَهُمْ بَلَاءٌ هَلَكُوا فِيهِ»

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا}عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،فِي قَوْلِهِ: {كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} قَالَ:«كُلَّمَا ابْتُلُوا بِهَا عُمُّوا فِيهَا»

عَنْ قَتَادَةَ:«كُلَّمَا عَرَضَ لَهُمْ بَلَاءٌ هَلَكُوا فِيهِ» وَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ بَيَّنْتُ قَبْلُ،وَذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ:الْاخْتِبَارُ،وَالْإِرْكَاسُ:الرُّجُوعُ فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الاخْتِبَارِ لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ رَجَعُوا إِلَيْهِ

فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ،وَهِيَ كُلَّمَا دُعُوا إِلَى الشِّرْكِ أَجَابُوا إِلَيْهِ،وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ،وَلَمْ يَسْتَسْلِمُوا إِلَيْكُمْ فَيُعْطُوكُمُ الْمَقَادَ وَيُصَالِحُوكُمْ.

عَنِ الرَّبِيعِ: {فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [النساء:٩١] قَالَ:" الصُّلْحَ. {وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ} [النساء:٩١] يَقُولُ:" وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [النساء:٩١] يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوهُمْ أَيْنَ أَصَبْتُمُوهُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَقِيتُمُوهُمْ فِيهَا فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ دِمَاءَهُمْ لَكُمْ حِينَئِذٍ حَلَالٌ {وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:٩١] يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ،إِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ،جَعَلْنَا لَكُمْ حُجَّةً فِي قَتْلِهِمْ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ،بِمُقَامِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَرْكِهِمْ هِجْرَةَ دَارِ الشِّرْكِ {مُبِينًا} [النساء:٢٠] يَعْنِي أَنَّهَا تُبِينُ عَنِ اسْتِحْقَاقِهِمْ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَإِصَابَتِكُمُ الْحَقَّ فِي قَتْلِهِمْ،وَذَلِكَ قَوْلُهُ: {سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:٩١]،وَالسُّلْطَانُ:هُوَ الْحُجَّةُ."[١٨٢٣]

قال الجصاص:

[١٨٢٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٣٠٠)

قَوْله تَعَالَى: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ}،قال مجاهد:"نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيُسْلِمُونَ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إلَى قُرَيْشٍ فَيَرْتَكِسُونَ فِي الْأَوْثَانِ يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَهُنَا وَهَهُنَا،فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إنْ لَمْ يَعْتَزِلُوا يُصْلِحُوا".وَذَكَرَ أَسْبَاطٌ عَنْ السُّدِّيِّ قَالَ:"نَزَلَتْ فِي نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ،وَكَانَ يَأْمَنُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فَيَنْقُلُ الْحَدِيثَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ،فَقَالَ: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ}.وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ إذَا جَاءُوا إلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَى قَوْمِهِمْ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ،لِقَوْله تَعَالَى: {كُلَّ مَا رُدُّوا إلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا}،والفتنة ههنا الشرك؛ وقوله: {أُرْكِسُوا فِيهَا} يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ كَانُوا مُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ،فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفِّ عَنْ هَؤُلَاءِ أَيْضًا إذَا اعْتَزَلُونَا وَأَلْقَوْا إلَيْنَا السَّلَمَ،وَهُوَ الصُّلْحُ،كَمَا أَمَرَنَا بِالْكَفِّ عَنْ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلَى قَوْمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَعَنْ الَّذِينَ جَاءُونَا وَقَدْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ؛ وَكَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ} [الممتحنة:٨] وَكَمَا قَالَ: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة:١٩٠]،فَخَصَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِمَنْ يُقَاتِلُنَا دُونَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْنَا،ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ الرِّوَايَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ وَجَائِزٌ لِلْمُسْلِمِينَ تَرْكُ قِتَالِ مَنْ لَا يُقَاتِلُهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ،إذْ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي النَّهْيِ عَنْ قِتَالِ مَنْ اعْتَزَلَنَا وَكَفَّ عَنْ قِتَالِنَا مَنْسُوخٌ.وَمِمَّنْ حُكِيَ عَنْهُ أَنَّ فَرْضَ الْجِهَادِ غَيْرُ ثَابِتٍ ابْنُ شُبْرُمَةَ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ،وَسَنَذْكُرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.إلَّا أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا حَظْرُ قِتَالِ مَنْ كَفَّ عَنْ قِتَالِنَا مِنْ الْكُفَّارِ،وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْفُقَهَاءِ يَحْظُرُ قِتَالَ مَنْ اعْتَزَلَ قِتَالَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي جَوَازِ تَرْكِ قِتَالِهِمْ لَا فِي حَظْرِهِ فَقَدْ حَصَلَ

الاتِّفَاقُ مِنْ الْجَمِيعِ عَلَى نَسْخِ حَظْرِ الْقِتَالِ لِمَنْ كَانَ وَصْفُهُ مَا ذَكَرْنَا وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.[١٨٢٤]

وفي الظلال:

هناك طائفة أخرى،لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح.لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى.وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق.فالإسلام إزاءها إذن طليق.يأخذها بما أخذ به طائفة المنافقين الأولى:«سَتَجِدُونَ آخَرِينَ،يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ.كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها.فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ،وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ،وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ،وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً»..

حكى ابن جرير عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلَهُ:"- " يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ " أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺفَيُسْلِمُونَ رِيَاءً،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ،فَيَرْتَكِسُونَ فِي الأَوْثَانِ،يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ هُنَا وَهَا هُنَا،فَأُمِرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوا وَيُصْلِحُوا"[١٨٢٥].

فأمر بقتلهم - إن لم يعتزلوا ويصلحوا - ولهذا قال تعالى:«فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (المهادنة والصلح) وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ (أي عن القتال) فَخُذُوهُمْ (أسراء) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (أي حيث وجدتموهم) وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً».

وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته،إلى جانب سماحته ونغاضيه..هذه في موضعها،وتلك في موضعها.وطبيعة الموقف،وحقيقة الواقعة،هي التي تحدد هذه وتلك..

ورؤية هاتين الصفحتين - على هذا النحو - كفيلة بأن تنشئ التوازن في شعور المسلم كما تنشئ التوازن في النظام الإسلامي - السمة الأساسية الأصيلة - فأما حين يجيء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفا وحماسة وشدة واندفاعا فليس هذا هو الإسلام! وأما حين يجيء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد في الإسلام،كأن الإسلام في قفص

[١٨٢٤] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٢٧٧)

[١٨٢٥] - تفسير ابن أبي حاتم [٤ /٢٩١](٥٨٠٤) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٨ /٢٧][١٠٠٧٨) صحيح مرسل

الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلما وإغضاء وعفوا ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامي وعن جماعة المسلمين – وليس دفعا عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية في الأرض بلا عقبة.وليس تأمينا لأي فرد في كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة.وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم في ظله،من اختار عقيدته ومن لم يخترها سواء..فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام.

وفي هذه الطائفة من أحكام المعاملات الدولية بلاغ وبيان..[1826]

جواز التحريق وقطع الأشجار وغيرها :

قال تعالى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [الحشر:5]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:«حَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ،وَهِيَ البُوَيْرَةُ» فَنَزَلَتْ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّه} [الحشر:5][1827]

لَمَّا حَاصَرَ الرَّسُولُ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ فِي حُصُونِهِمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخْلِهِمْ إِرْعَاباً لَهُمْ،فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُونَ:إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الفَسَادِ،فَمَا بَالُكَ تَأْمُرُ بِقَطْعِ الأَشْجَارِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَفِيهَا يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ:إِنَّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ،وَمَا

[1826] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:1091)

[1827] - صحيح البخاري (5/ 88)(4031) وصحيح مسلم (3/ 1365)29 - (1746)

[ش (حرق نخل بني النضير وقطع) أي أكثر إحراقها بالنار وقطع بعضها وبنو النضير طائفة من اليهود (البويرة) موضع نخل بني النضير(لينة) هي أنواع التمر كلها إلا العجوة وقيل كرام النخل وقيل كل النخل وقيل كل الأشجار للينها وأصله لونة فقلبت الواو ياء لكسرة اللام(أصولها) جذورها.(فبإذن الله) تركها وقطعها بمشيئة الله تعالى أو المراد هو الذي أباح لكم ذلك./ الحشر 5 /]

تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعٍ فَالجَمِيعُ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ،وَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلاَ حَرَجَ،وَفِيهِ نِكَايَةٌ وَخِزْيٌ وَنَكَالٌ لِلفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ.[١٨٢٨]

وقال القرطبي:

فِيهِ خَمْسُ مَسَائِلَ:

الْأُولَى- قَوْلُهُ تَعَالَى:(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ) مَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِ قَطَعْتُمْ،كأنه قال:أي شي قَطَعْتُمْ.وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ عَلَى حُصُونِ بَنِي النَّضِيرِ- وهي البؤيرة- حِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ بِمَعُونَةِ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ،أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ وَإِحْرَاقِهَا.وَاخْتَلَفُوا فِي عَدَدِ ذَلِكَ،فَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ:إِنَّهُمْ قَطَعُوا مِنْ نَخِيلِهِمْ وَأَحْرَقُوا سِتَّ نَخَلَاتٍ.وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:إِنَّهُمْ قَطَعُوا نَخْلَةً وَأَحْرَقُوا نَخْلَةً.وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ إِقْرَارِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ بِأَمْرِهِ،إِمَّا لِإِضْعَافِهِمْ بها وإما لِسَعَةِ الْمَكَانِ بِقَطْعِهَا.فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا- وَهُمْ يَهُودُ أَهْلِ الْكِتَابِ-:يَا مُحَمَّدُ،أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ تُرِيدُ الصَّلَاحَ،أَفَمِنَ الصَّلَاحِ قطع الخل وَحَرْقُ الشَّجَرِ؟ وَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ إِبَاحَةَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.وَوَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى اخْتَلَفُوا،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:لَا تَقْطَعُوا مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا.وَقَالَ بَعْضُهُمُ:اقْطَعُوا لِنَغِيظَهُمْ بِذَلِكَ.فَنَزَلَتِ الْآيَةُ بِتَصْدِيقِ مَنْ نَهَى عَنِ الْقَطْعِ وَتَحْلِيلِ مَنْ قَطَعَ مِنَ الْإِثْمِ،وَأَخْبَرَ أَنَّ قَطْعَهُ وَتَرْكَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ.وَقَالَ شَاعِرُهُمْ سِمَاكٌ الْيَهُودِيُّ فِي ذَلِكَ:

أَلَسْنَا وَرِثْنَا الْكِتَابَ الْحَكِيمَ...عَلَى عَهْدِ مُوسَى و لم نصدف

وأنتم رعاء الشاء عجَاف...بِسَهْلِ تِهَامَةَ وَالْأَخْيَفِ

تَرَوْنَ الرِّعَايَةَ مَجْدًا لَكُمْ...لَدَى كُلِّ دَهْرٍ لَكُمْ مُجْحِفِ

فَيَا أَيُّهَا الشَّاهِدُونَ انْتَهُوا...عَنِ الظُّلْمِ وَالْمَنْطِقِ الْمُؤْنِفِ

لَعَلَّ اللَّيَالِي وَصَرْفَ الدُّهُورْ...يُدِلْنَ مِنَ الْعَادِلِ الْمُنْصِفِ

بِقَتْلِ النَّضِيرِ وَإِجْلَائِهَا...وَعَقْرِ النَّخِيلِ وَلَمْ تُقْطَفِ

فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

[١٨٢٨] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٩، بترقيم الشاملة آليا)

تَفَاقَدَ مَعْشَرٌ نصروا قريشا...وليس لهم ببلدهم نصير
همو أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ...وَهُمْ عُمْيٌ عَنِ التَّوْرَاةِ بُورُ
كَفَرْتُمْ بِالْقُرَانِ وَقَدْ أَبَيْتُمْ...بِتَصْدِيقِ الَّذي قال النذير
وهان على سراة بني لوي...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ
فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:
أَدَامَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ...وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ
سَتَعْلَمُ أينا منها بتره...ونعلم أَيَّ أَرْضَيْنَا تَصِيرُ
فَلَوْ كَانَ النَّخِيلُ بِهَا رِكَابًا...لَقَالُوا لَا مُقَامَ لَكُمْ فَسِيرُوا

الثَّانِيَةُ- كَانَ خُرُوجُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ أَوَّلَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ،وَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ،وَأَمَرَ بِقَطْعِ النَّخْلِ وَإِحْرَاقِهَا،وَحِينَئِذٍ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ.ودس عبد الله بن أبي بن سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ:إِنَّا مَعَكُمْ،وَإِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ،وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ،فَاغْتَرُّوا بِذَلِكَ.فَلَمَّا جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ خَذَلُوهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ وَأَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ،وَسَأَلُوا رسول الله ﷺ أن يكف عن دِمَائِهِمْ وَيُجْلِيَهُمْ،عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا السِّلَاحَ،فَاحْتَمَلُوا كَذَلِكَ إِلَى خَيْبَرَ،وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ.وَكَانَ مِمَّنْ سَارَ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ أَكَابِرُهُمْ،كَحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ،وَسَلَّامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ،وَكِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيعِ.فَدَانَتْ لَهُمْ خَيْبَرُ.الثَّالِثَةُ:ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ.وَلَهَا يقول حسان:

وهان على سراة بني لوي...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتْ:مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ الْآيَةَ.وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَخْرِيبِ دَارِ الْعَدُوِّ وَتَحْرِيقِهَا وَقَطْعِ ثِمَارِهَا عَلَى قولين:الأول- أن ذلك جائز،قال فِي الْمُدَوَّنَةِ.الثَّانِي- إِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا،وَإِنْ يَئِسُوا فَعَلُوا،قَالَهُ مَالِكٌ فِي الْوَاضِحَةِ.وَعَلَيْهِ يُنَاظِرُ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ.ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ.وَقَدْ عَلِمَ رسول الله ﷺ أن نَخْلَ بَنِي

النَّضِيرِ لَهُ،وَلَكِنَّهُ قَطَعَ وَحَرَّقَ لِيَكُونَ ذَلِكَ نِكَايَةً لَهُمْ وَوَهْنًا فِيهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْهَا.وَإِتْلَافُ بَعْضِ الْمَالِ لِصَلَاحِ بَاقِيهِ مَصْلَحَةٌ جَائِزَةٌ شَرْعًا،مَقْصُودَةٌ عَقْلًا.

الرَّابِعَةُ- قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ:إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ.وَقَالَهُ الْكِيَا الطَّبَرِيُّ قَالَ:وَإِنْ كَانَ الِاجْتِهَادُ يَبْعُدُ فِي مِثْلِهِ مَعَ وُجُودِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ،وَلَا شَكَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى ذَلِكَ وَسَكَتَ،فَتَلَقَّوُا الْحُكْمَ مِنْ تَقْرِيرِهِ فَقَطْ.قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَهَذَا بَاطِلٌ،لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مَعَهُمْ،وَلَا اجْتِهَادَ مَعَ حُضُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى اجْتِهَادِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ،أَخْذًا بِعُمُومِ الْأَذِيَّةِ لِلْكُفَّارِ،وَدُخُولًا فِي الْإِذْنِ للكل بما يَقْضِي عَلَيْهِمْ بِالِاجْتِيَاحِ وَالْبَوَارِ،وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ.

الْخَامِسَةُ:اخْتُلِفَ فِي اللِّينَةِ مَا هِيَ،عَلَى أَقْوَالٍ عَشَرَةٍ:الْأَوَّلُ- النَّخْلُ كُلُّهُ إِلَّا الْعَجْوَةَ،قَالَهُ الزُّهْرِيُّ وَمَالِكٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَالْخَلِيلُ.وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ:أَنَّهَا النَّخْلُ كُلُّهُ،وَلَمْ يَسْتَثْنُوا عَجْوَةً وَلَا غَيْرَهَا.وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا:أَنَّهَا لَوْنٌ مِنَ النَّخْلِ.وَعَنِ الثَّوْرِيِّ:أَنَّهَا كِرَامُ النَّخْلِ.وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ:أَنَّهَا جَمِيعُ أَلْوَانِ التَّمْرِ سِوَى الْعَجْوَةِ وَالْبَرْنِيِّ.وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ:إِنَّهَا الْعَجْوَةُ خَاصَّةً.وَذُكِرَ أَنَّ الْعَتِيقَ وَالْعَجْوَةَ كَانَتَا مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ.وَالْعَتِيقُ:الْفَحْلُ.وَكَانَتِ الْعَجْوَةُ أَصْلَ الْإِنَاثِ كُلِّهَا فَلِذَلِكَ شَقَّ عَلَى الْيَهُودِ قَطْعُهَا،حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيُّ....[1829]

قتْل النّساء والصّبْيان في أرْض الْعدوّ:

وفي المدونة:

قُلْت لِابْنِ الْقَاسِمِ:هَلْ كَانَ مَالِكٌ يَكْرَهُ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ؟

قَالَ:نَعَمْ.قُلْت:فَهَلْ كَانَ مَالِكٌ يَكْرَهُ قَتْلَ الرُّهْبَانِ الْمُحْبَسِينَ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ؟ قُلْت:أَرَأَيْت الرَّاهِبَ هَلْ يُقْتَلُ؟

[1829] - تفسير القرطبي (١٨/ ٦)

قَالَ:سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ لَا يُقْتَلُ الرَّاهِبُ،قَالَ مَالِكٌ:وَأَرَى أَنْ يُتْرَكَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا يَعِيشُونَ بِهِ لَا يَأْخُذُوا مِنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ كُلَّهَا فَلَا يَجِدُونَ مَا يَعِيشُونَ بِهِ فَيَمُوتُونَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ لَهِيعَةَ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ عَنْ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – إذَا بَعَثَ سَرِيَّةً قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ».مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ ابْنًا لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ أَخْبَرَهُ قَالَ:«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – النَّفَرَ الَّذِينَ قَتَلُوا ابْنَ أَبِي الْحَقِيقِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» مَالِكٌ وَغَيْرُهُ عَنْ نَافِعٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – رَأَى فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.» ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ،قَالَ حَدَّثَنِي الْمُرَقَّعُ بْنُ صَيْفِيٍّ أَنَّ جَدَّهُ رَبَاحَ بْنَ رَبِيعٍ أَخَا حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ أَخْبَرَهُ،أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا كَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ فِيهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَمَرَّ رَبَاحٌ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتْ الْمُقَدِّمَةَ،فَوَقَفُوا عَلَيْهَا يَنْظُرُونَ إلَيْهَا وَيَعْجَبُونَ مِنْ خَلْقِهَا حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَانْفَرَجُوا عَنْ الْمَرْأَةِ،فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – ثُمَّ قَالَ:«هَاهْ مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ،قَالَ:ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ الْحَقْ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَلَا يَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا».

مَالِكٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جَيْشًا إلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ عَلَى رُبْعٍ مِنْ الْأَرْبَاعِ،فَقَالَ يَزِيدُ لِأَبِي بَكْرٍ:إمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ؟ فَقَالَ لَهُ:مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ احْتَسِبْ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَقَالَ:إنَّك سَتَجِدُ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا عَنْ أَوَاسِطِ رُءُوسِهِمْ مِنْ الشَّعْرِ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ،وَسَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى فَدَعْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ:لَا تَقْتُلْنَ امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعْنَ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبْنَ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرْنَ شَاةً،وَلَا بَعِيرًا إلَّا لِمَأْكَلِهِ،وَلَا تُحْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُغْرِقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ،وَذُكِرَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ:لَا تَقْتُلُوا هَرِمًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا وَتَوَقَّوْا قَتْلَهُمْ إذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ،وَعِنْدَ حُمَّةِ النَّهَضَاتِ،وَفِي شَنِّ

الْغَارَات قُلْت لِابْنِ الْقَاسِمِ:هَلْ كَانَ مَالِكٌ يَكْرَهُ أَنْ تُحَرَّقَ قُرَاهُمْ وَحُصُونُهُمْ بِالنِّيرَانِ أَوْ تُغْرَقَ بِالْمَاءِ؟

قَالَ:قَالَ مَالِكٌ:لَا بَأْسَ أَنْ تُحَرَّقَ قُرَاهُمْ وَحُصُونُهُمْ بِالنِّيرَانِ وَتُغْرَقَ بِالْمَاءِ وَتُخَرَّبَ.

قَالَ سَحْنُونٌ:وَأَصْلُ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فِي النَّهْيِ عَنْ قَطْعِ الشَّجَرِ وَخَرَابِ الْعَامِرِ،أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِي بَكْرٍ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ نَظَرًا لِلشِّرْكِ وَأَهْلِهِ،وَالْحِيطَةَ لَهُمْ وَلَا ذَبًّا عَنْهُمْ،وَلَكِنْ أَرَادَ النَّظَرَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْحِيطَةَ لَهُمْ وَالتَّوْهِينَ لِلشِّرْكِ،وَلِأَنَّهُ رَجَا أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ،وَإِنَّ خَرَابَهُ وَهْنٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِلَّذِي رَجَاهُ مِنْ كَوْنِهِ لِلْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ خَرَابَهُ ضَرَرٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَلَمْ يُرِدْ بِهِ نَظَرًا لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَمَنْعِ نَوَاحِيهِ،وَكُلُّ بَلَدٍ لَا رَجَاءَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الظُّهُورِ عَلَيْهَا وَالْمَقْدِرَةِ فَوَهْنُ ذَلِكَ وَضَرُورَةٌ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ،وَهُوَ أَصْلُ قَوْلِ مَالِكٍ وَأَصْلُ هَذَا الْمُلْكِ،وَقَدْ اخْتَلَفَ عَنْ مَالِكٍ فِي الرُّهْبَانِ،فَقَالَ مَالِكٌ:فِيهِمْ التَّدْبِيرُ وَالنَّظَرُ وَالْبُغْضُ لِلدِّينِ وَالْحُبُّ لَهُ،وَالذَّبُّ عَنْ النَّصْرَانِيَّةِ فَهُمْ أَنْكَى مِمَّنْ يُقَاتِلُ بِدِينِهِ،وَأَضَرُّ بِالْمُسْلِمِينَ،وَالْأَكْثَرُ وَالْغَالِبُ أَنَّهُمْ لَا يُقْتَلُونَ يَعْنِي الرُّهْبَانَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ.ابْنُ وَهْبٍ وَذَكَرَ مَخْرَمَةُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:سَأَلْت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْقَاسِمِ وَنَافِعًا مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ عَنْ شَجَرِ الْعَدُوِّ:هَلْ تُقْطَعُ وَهَلْ تُهْدَمُ بُيُوتُهُمْ؟ قَالَ:نَعَمْ.قُلْت لِابْنِ الْقَاسِمِ:فَقَطْعُ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ وَغَيْرِ الْمُثْمِرِ أَكَانَ مَالِكٌ يَرَى بِهِ بَأْسًا؟

قَالَ:قَالَ مَالِكٌ:يُقْطَعُ الشَّجَرُ فِي بِلَادِهِمْ الْمُثْمِرُ وَغَيْرُ الْمُثْمِرِ وَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ،قُلْت:وَهَلْ كَانَ يَرَى حَرْقَ قُرَاهُمْ وَحُصُونِهِمْ وَقَطْعَ شَجَرِهِمْ وَخَرَابَ بِلَادِهِمْ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ؟

قَالَ:لَا أَدْرِي،وَلَكِنِّي سَمِعْته يَقُولُ:لَا بَأْسَ بِذَلِكَ وَكَانَ يَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] وَيَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ إذَا ذَكَرَ قَطْعَ الشَّجَرِ وَخَرَابَ بِلَادِهِمْ،وَقَدْ ذَكَرَ مَالِكٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَحْرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ،وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ لَهِيعَةَ عَنْ عَبْدِ الْجَلِيلِ بْنِ عُبَيْدٍ الْيَحْصُبِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ شِهَابٍ يَقُولُ:إنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَمَرَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ بَعَثَهُ إلَى الشَّامِ أَنْ يَسِيرَ حَتَّى يَأْتِيَ أُبْنَى فَيُحَرِّقُ وَيُهْرِيقُ دَمًا فَفَعَلَ ذَلِكَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ.ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ،أَنَّ بُكَيْرًا حَدَّثَهُ قَالَ:سَمِعْت سُلَيْمَانَ بْنَ يَسَارٍ يَقُولُ:أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى جَيْشٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُحَرِّقَ فِي أُبْنَى.[١٨٣٠]

قول الشافعي في تحريق شجر العدو لمصلحة:

وفي الأم:

سَأَلْت الشَّافِعِيَّ عَنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا غَزَوْا أَهْلَ الْحَرْبِ هَلْ يُكْرَهُ لَهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا الشَّجَرَ الْمُثْمِرَ وَيُخَرِّبُوا مَنَازِلَهُمْ وَمَدَائِنَهُمْ وَيُغْرِقُوهَا وَيُحَرِّقُوهَا وَيُخَرِّبُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ ثِمَارِهِمْ وَشَجَرِهِمْ وَتُؤْخَذُ أَمْتِعَتُهُمْ؟ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):كُلُّ مَا كَانَ مِمَّا يَمْلِكُوا لَا رُوحَ لَهُ فَإِتْلَافُهُ مُبَاحٌ بِكُلِّ وَجْهٍ وَكُلُّ مَا زَعَمْت أَنَّهُ مُبَاحٌ فَحَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِعْلُهُ وَغَيْرُ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ وَأُحِبُّ إذَا غَزَا الْمُسْلِمُونَ بِلَادَ دَارِ الْحَرْبِ وَكَانَتْ غُزَاتُهُمْ غَارَةً أَوْ كَانَ عَدُوُّهُمْ كَثِيرًا وَمُتَحَصِّنًا مُمْتَنِعًا لَا يُغْلَبُ عَلَيْهِمْ أَنْ تَصِيرَ دَارُهُمْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَلَا دَارَ عَهْدٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْحُكْمُ أَنْ يَقْطَعُوا وَيُحَرِّقُوا وَيُخَرِّبُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ ثِمَارِهِمْ وَشَجَرِهِمْ وَيُؤْخَذُ مَتَاعُهُمْ وَمَا كَانَ يُحْمَلُ مِنْ خَفِيفِ مَتَاعِهِمْ فَقَدَرُوا عَلَيْهِ اخْتَرْت أَنْ يَغْنَمُوهُ وَمَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ حَرَّقُوهُ وَغَرَّقُوهُ وَإِذَا كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِمْ أَنَّهَا سَتَصِيرُ دَارَ الْإِسْلَامِ أَوْ دَارَ عَهْدٍ يَجْرِي عَلَيْهِمْ الْحُكْمُ اخْتَرْت لَهُمْ الْكَفَّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ لِيَغْنَمُوهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ تَحْرِيقُهَا وَلَا تَخْرِيبُهَا حَتَّى يَصِيرُوا مُسْلِمِينَ أَوْ ذِمَّةً أَوْ يَصِيرَ مِنْهَا فِي أَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِمَّا يُحْمَلُ فَيُنْقَلُ فَلَا يَحِلُّ تَحْرِيقُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُحَرِّقُوا مَا سِوَاهُ مِمَّا لَا يُحْمَلُ وَإِنَّمَا زَعَمْت أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ تَحْرِيقُ شَجَرِهِمْ وَعَامِرِهِمْ وَإِنْ طَمِعَ بِهِمْ لِأَنَّهُ قَدْ يَطْمَعُ بِالْقَوْمِ ثُمَّ يَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى غَيْرِ مَا عَلَيْهِ الطَّمَعُ وَإِنَّهَا حُرِّقَتْ وَلَمْ يُحْرِزْهَا الْمُسْلِمُونَ وَإِنَّمَا زَعَمْت أَنَّ لَهُمْ الْكَفَّ عَنْ تَحْرِيقِهَا لِأَنَّ هَكَذَا أَصْلُ الْمُبَاحِ وَقَدْ حَرَّقَ

[١٨٣٠] – المدونة (١/ ٤٩٩)

النَّبيُّ - ﷺ - عَلَى قَوْمٍ وَلَمْ يُحَرِّقْ عَلَى آخَرِينَ وَإِنْ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْــوَالِهِمْ فَلَمْ يَقْتَسِمُوهُ حَتَّى أَدْرَكَهُمْ عَدُوٌّ وَخَافُوا غَلَبَتَهُمْ عَلَيْهِ فَلَا بَأْسَ أَنْ يُحَرِّقُوهُ بِأَنْ أَجْمَعُــوا عَلَى ذَلِكَ وَكَذَلِكَ لَوْ اقْتَسَمُوهُ لَمْ أَرَ بَأْسًا عَلَى أَحَدٍ صَارَ فِي يَدِهِ أَنْ يُحَرِّقَهُ وَإِنْ كَــانُوا يَرْجُونَ مَنْعَهُ لَمْ أُحِبَّ أَنْ يُعَجِّلُوا بِتَحْرِيقِهِ وَالْبَيْضُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فِرَاخٌ مِنْ غَيْــرِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ بِمَعْنَى الْكُفَّارِ وَمَا ذَبَحُوا مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ حَتَّى زَايَلَهُ الرُّوحُ بِمَنْزِلَةِ مَا لَا رُوحَ لَهُ فَيُحْرَقُ كُلُّهُ إنْ أَدْرَكَهُمْ الْعَدُوُّ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَا وَصَفْت إنْ شَاءُوا ذَلِكَ وَإِنْ شَاءُوا تَرَكُوهُ فَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَرْوَاحِ مِنْ الْخَيْلِ وَالْبَقَرِ وَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَلَا تُحْرَقُ وَلَا تُعْقَــرُ وَلَا تُغْرَقُ إلَّا بِمَا يَحِلُّ بِهِ ذَبْحُهَا أَوْ فِي مَوْضِعِ ضَرُورَةٍ فَقُلْت كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ سُنَّةُ نَبِيِّهِ - ﷺ - قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَنِي النَّضِيرِ حِينَ حَارَبَهُمْ رَسُولُ اللَّــهِ - ﷺ - {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [الحشر:٢] قَرَأَ إلَى {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} [الحشر:٢] فَوَصَفَ إخْرَابَهُمْ مَنَازِلَهُمْ بِأَيْــدِيهِمْ وَإِخْــرَابَ الْمُؤْمِنِينَ بُيُوتَهُمْ وَوَصَفَهُ إيَّاهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ كَالرِّضَا بِهِ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِقَطْعِ نَخْلٍ مِنْ أَلْوَانِ نَخْلِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:رِضًا بِمَا صَنَعُوا مِنْ قَطْعِ نَخِيلِهِمْ {مَا قَطَعْــتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِــقِينَ} [الحشــر:٥] فَرَضِيَ الْقَطْعَ وَأَبَاحَ التَّرْكَ فَالْقَطْعُ وَالتَّرْكُ مَوْجُودَانِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَتَرَكَ وَقَطَعَ نَخْلَ غَيْرِهِمْ وَتَرَكَ وَمِمَّنْ غَزَا مَــنْ لَــمْ يَقْطَعْ نَخْلَهُ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):أَخْبَرَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْــنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ» (قَالَ الشَّافِعِيُّ):أَخْبَرَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدِ بْنِ إبْرَاهِيمَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّــهِ - ﷺ - حَرَّقَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ فَقَالَ قَائِلٌ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

» فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:وَلَعَلَّ النَّبِيَّ - ﷺ - حَرَّقَ مَالَ بَنِي النَّضِيرِ ثُمَّ تَرَكَ قِيلَ عَلَى مَعْنَى مَــا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ قَطَعَ وَحَرَّقَ بِخَيْبَرَ وَهِيَ بَعْدَ النَّضِيرِ وَحَرَّقَ بِالطَّائِفِ وَهِيَ آخِــرُ غَزَاةٍ قَاتَلَ بِهَا وَأَمَرَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ أَنْ يُحَرِّقَ عَلَى أَهْلِ أُبْنَى (قَالَ الشَّافِعِيُّ):- رَحِمَهُ اللَّهُ

تَعَالَى – أَخْبَرَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ الْأَزْهَرِيِّ قَالَ:سَمِعْت ابْنَ شِهَابٍ يُحَدِّثُ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ:«أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – أَنْ أَغْزُوَ صَبَاحًا عَلَى أَهْلِ أُبْنَى وَأُحَرِّقَ.» الْخِلَافُ فِي التَّحْرِيقِ قُلْت لِلشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:فَهَلْ خَالَفَ مَا قُلْت فِي هَذَا أَحَدٌ؟ فَقَالَ:نَعَمْ بَعْضُ إخْوَانِنَا مِنْ مُفْتِي الشَّامِيِّينَ فَقُلْت:إلَى أَيِّ شَيْءٍ ذَهَبُوا؟ قَالَ:إلَى أَنَّهُمْ رَوَوْا عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُخَرَّبَ عَامِرٌ وَأَنْ يُقْطَعَ شَجَرٌ مُثْمِرٌ فِيهَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ قُلْت:فَمَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِ؟ قَالَ:مَا وَصَفْت مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقُلْت:عَلَامَ تَعُدُّ نَهْيَ أَبِي بَكْرٍ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَمَّا الظَّنُّ بِهِ فَإِنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – ﷺ – يَذْكُرُ فَتْحَ الشَّامِ فَكَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْهُ فَأَمَرَ بِتَرْكِ تَخْرِيبِ الْعَامِرِ وَقَطْعِ الْمُثْمِرِ لِيَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ لَا لِأَنَّهُ رَآهُ مُحَرَّمًا لِأَنَّهُ قَدْ حَضَرَ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ – تَحْرِيقَهُ بِالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ وَالطَّائِفِ فَلَعَلَّهُمْ أَنْزَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ وَالْحُجَّةُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَنِيعِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:وَكُلُّ شَيْءٍ فِي وَصِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ سِوَى هَذَا فِيهِ نَأْخُذُ.[1831]

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:لَا بَأْسَ بِقَطْعِ شَجَرِ الْمُشْرِكِينَ وَنَخِيلِهِمْ وَتَحْرِيقِ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [الحشر:٥] وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ أَبُو بَكْرٍ يَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ وَعَمِلَ بِهِ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ أَخْبَرَنَا الثِّقَةُ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – أَنَّهُمْ كَانُوا وَهُمْ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ إذَا غَلَبُوا عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِهِمْ أَحْرَقُوهَا فَكَانَ بَنُو قُرَيْظَةَ يَخْرُجُونَ فَيَنْقُضُونَهَا وَيَأْخُذُونَ حِجَارَتَهَا لِيَرْمُوا بِهَا الْمُسْلِمِينَ وَقَطَعَ الْمُسْلِمُونَ نَخْلًا مِنْ نَخْلِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} [الحشر:٢] وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا} [الحشر:٥] قَالَ وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُسَيْطٍ قَالَ لَمَّا بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إلَى طُلَيْحَةَ وَبَنِي تَمِيمٍ قَالَ أَيَّ وَادٍ أَوْ دَارٍ غَشِيتَهَا فَأَمْسِكْ عَنْهَا إنْ سَمِعْتَ أَذَانًا حَتَّى تَسْأَلَهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا يَنْقِمُونَ وَأَيَّ دَارٍ غَشَيْتَهَا فَلَمْ تَسْمَعْ مِنْهَا أَذَانًا فَشُنَّ

[1831] – الأم للشافعي (٤/ ٢٧٢)

عَلَيْهِمْ الْغَارَةَ وَاقْتُلْ وَحَرِّقْ وَلَا نَرَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ نَهَى عَنْ ذَلِكَ بِالشَّامِ إلَّا لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ سَيَظْهَرُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى ذَلِكَ لَهُمْ فَنَهَى عَنْهُ لِذَلِكَ فِيمَا نَرَى لَنَا أَنَّ تَخْرِيبَ ذَلِكَ وَتَحْرِيقَهُ لَا يَحِلُّ وَلَكِنْ مِنْ مِثْلِ هَذَا تَوْجِيهٌ.حَدَّثَنَا بَعْضُ أَشْيَاخِنَا عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ أَنَّهُ قِيلَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إنَّ الرُّومَ يَأْخُذُونَ مَا حَسَرَ مِنْ خَيْلِنَا فيستلقحونها وَيُقَاتِلُونَ عَلَيْهَا أَفَنَعْقِرُ مَا حَسَرَ مِنْ خَيْلِنَا؟ قَالَ لَيْسُوا بِأَهْلٍ أَنْ يَنْقُصُوا مِنْكُمْ إنَّمَا هُمْ غَدًا رِقُّكُمْ وَأَهْلُ ذِمَّتِكُمْ.قَالَ أَبُو يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إنَّمَا الْكَرَاهِيَةُ عِنْدَنَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَشُكُّونَ فِي الظَّفَرِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ الْأَمْرَ فِي أَيْدِيهِمْ لِمَا رَأَوْا مِنْ الْفَتْحِ فَأَمَّا إذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُمْ وَامْتَنَعُوا فَإِنَّا نَأْمُرُ بِحَسِيرِ الْخَيْلِ أَنْ يُذْبَحَ ثُمَّ يُحَرَّقُ لَحْمُهُ بِالنَّارِ حَتَّى لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلَا يَتَقَوَّوْنَ مِنْهُ بِشَيْءٍ وَأَكْرَهُ أَنْ نُعَذِّبَهُ أَوْ نَعْقِرَهُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُثْلَةٌ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):يُقَطَّعُ النَّخْلُ وَيُحَرَّقُ وَكُلُّ مَا لَا رُوحَ فِيهِ كَالْمَسْأَلَةِ قَبْلَهَا وَلَعَلَّ أَمْرَ أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يَكُفُّوا عَنْ أَنْ يَقْطَعُوا شَجَرًا مُثْمِرًا إنَّمَا هُوَ لِأَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يُخْبِرُ أَنَّ بِلَادَ الشَّامِ تُفْتَحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَلَمَّا كَانَ مُبَاحًا لَهُ أَنْ يَقْطَعَ وَيَتْرُكَ اخْتَارَ التَّرْكَ نَظَرًا لِلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ «قَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ بَنِي النَّضِيرِ فَلَمَّا أَسْرَعَ فِي النَّخْلِ قِيلَ لَهُ قَدْ وَعَدَكَهَا اللَّهُ فَلَوْ اسْتَبْقَيْتَهَا لِنَفْسِك فَكَفَّ الْقَطْعَ» اسْتِبْقَاءً لَا أَنَّ الْقَطْعَ مُحَرَّمٌ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:قَدْ تَرَكَ فِي بَنِي النَّضِيرِ قِيلَ ثُمَّ قَطَعَ بِالطَّائِفِ وَهِيَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَآخِرُ غَزَاةٍ لَقِيَ فِيهَا قِتَالًا.[1832]

ما عجز الْجيْش عنْ حمْله منَ الْغنائم

قُلْت لِلشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:أَفَرَأَيْت مَا ظَفِرَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْخَيْلِ وَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَاشِيَةِ فَقَدَرُوا عَلَى إتْلَافِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْنَمُوهُ أَوْ غَنِمُوهُ فَأَدْرَكَهُمْ الْعَدُوُّ فَخَافُوا أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُمْ وَيَقْوَوْا بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَيَجُوزُ لَهُمْ إتْلَافُهُ بِذَبْحٍ أَوْ عَقْرٍ أَوْ تَحْرِيقٍ أَوْ تَغْرِيقٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَحْوَالِ؟ (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):لَا يَحِلُّ عِنْدِي أَنْ يَقْصِدَ قَصْدَهُ بِشَيْءٍ يُتْلِفُهُ إذَا كَانَ لَا رَاكِبَ

[1832] - الأم للشافعي (٧/ ٣٧٦)

عَلَيْه فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ وَلِمَ قُلْت وَإِنَّمَا هُوَ مَالٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ لَا يُقْصَدُ قَصْدُهُ بِالتَّلَف؟ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):لِفِرَاقه مَا سِوَاهُ مِنْ الْمَال لِأَنَّهُ ذُو رُوحٍ يَأْلَمُ بِالْعَذَاب وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَلَيْسَ كَمَا لَا رُوحَ لَهُ يَأْلَمُ بِالْعَذَاب مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ نُهِيَ عَنْ ذَوَات الْأَرْوَاحِ أَنْ يُقْتَلَ مَا قُدِرَ عَلَيْه مِنْهَا إلَّا بِالذَّبْحِ لِتُؤْكَلَ وَمَا امْتَنَعَ بِمَا نِيلَ مِنْ السِّلَاحِ لِتُؤْكَلَ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَدَاءً وَضَارًّا لِلضَّرُورَة قُلْت لِلشَّافِعِيِّ:اُذْكُرْ مَا وَصَفْت فَقَالَ:أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - قَالَ:«مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَتْلِهَا» (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):فَلَمَّا كَانَ قَتْلُ ذَوَات الْأَرْوَاحِ مِنْ الْبَهَائِمِ مَحْظُورًا إلَّا بِمَا وَصَفْت كَانَ عَقْرُ الْخَيْلِ وَالدَّوَابِّ الَّتِي لَا رُكْبَانَ عَلَيْهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ دَاخِلًا فِي مَعْنَى الْحَظْرِ خَارِجًا مِنْ مَعْنَى الْمُبَاحِ فَلَمْ يَجُزْ عِنْدِي أَنْ تَعْقِرَ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ إلَّا عَلَى مَا وَصَفْت فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَفِي ذَلِكَ غَيْظُ الْمُشْرِكِينَ وَقَطْعٌ لِبَعْضِ قُوَّتِهِمْ قِيلَ لَهُ:إنَّمَا يُنَالُ مِنْ غَيْظ الْمُشْرِكِينَ بِمَا كَانَ غَيْرَ مَمْنُوعٍ مِنْ أَنْ يُنَالَ فَأَمَّا الْمَمْنُوعُ فَلَا يُغَاظُ أَحَدٌ بِأَنْ يَأْتِيَ الْغَائِظُ لَهُ مَا نُهِيَ عَنْ إتْيَانه أَلَا تَرَى أَنَّا لَوْ سَبَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَوِلْدَانَهُمْ فَأَدْرَكُونَا فَلَمْ نَشُكَّ فِي اسْتِنْفَاذهمْ إيَّاهُمْ مِنَّا لَمْ يَجُزْ لَنَا قَتْلُهُمْ وَقَتْلُهُمْ أَغْيَظُ لَهُمْ وَأَنْكَى مِنْ قَتْلِ دَوَابِّهِمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَقَرَ عِنْدَ الْحَرْب؟ فَلَا أَحْفَظُ ذَلِكَ مِنْ وَجْه يَثْبُتُ عَلَى الِانْفِرَاد وَلَا أَعْلَمُهُ مَشْهُورًا عِنْدَ عَوَامِّ أَهْلِ الْعِلْم بِالْمَغَازِي قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:أَفَرَأَيْت الْفَارِسَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَلِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْقِرَهُ؟ قَالَ:نَعَمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ هَذِه مَنْزِلَةٌ يَجِدُ السَّبِيلُ بِهَا إلَى قَتْلِ مَنْ أُمِرَ بِقَتْله فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَاذْكُرْ مَا يُشْبِهُ هَذَا قِيلَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يَرْمِيَ الْمُشْرِكَ بِالنَّبْلِ وَالنَّارِ وَالْمَنْجَنِيق فَإِذَا صَارَ أَسِيرًا فِي يَدَيْه لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِه وَكَانَ لَهُ قَتْلُهُ بِالسَّيْف وَكَذَلِكَ لَهُ أَنْ يَرْمِيَ الصَّيْدَ فَيَقْتُلَهُ فَإِذَا صَارَ فِي يَدَيْه لَمْ يَقْتُلْهُ إلَّا بِالذَّكَاءِ الَّتِي هِيَ أَخَفُّ عَلَيْه وَقَدْ أُبِيحَ لَهُ دَمُ الْمُشْرِك بِالْمَنْجَنِيق وَإِنْ أَصَابَ ذَلِكَ بَعْضَ مَنْ مَعَهُمْ مِمَّنْ هُوَ مَحْظُورُ الدَّمِ لِلْمَرْءِ فِي دَفْعه عَنْ نَفْسه عَدُوَّهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَإِنْ قَالَ:فَهَلْ فِي هَذَا خَبَرٌ؟ قِيلَ:نَعَمْ عَقَرَ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِب بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُدٍ فَرَسَهُ فَانْعَكَسَتْ بِه وَصُرِعَ عَنْهَا فَجَلَسَ حَنْظَلَةُ عَلَى صَدْرِه وَعَطَفَ ابْنُ شُعُوبٍ عَلَى حَنْظَلَة

فَقَتَلَهُ وَذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمْ نَعْلَمْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا نَهَاهُ وَلَا نَهَى غَيْرَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):وَلَكِنَّهُ إذَا صَارَ إلَى أَنْ يُفَارِقَهُ فَارِسُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْرُهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ لَا يُقَاتِلُ لَمْ يَعْقِرْ إنَّمَا يَعْقِرُ لِمَعْنَى أَنْ يُوَصِّلَ إلَى فَارِسِهِ لِيُقْتَلَ أَوْ لِيُؤْسَرَ قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ:فَهَلْ سَمِعْت فِي هَذَا حَدِيثًا عَمَّنْ بَعْدَ النَّبِيِّ - ﷺ -؟ فَقَالَ:إنَّمَا الْغَايَةُ أَنْ يُوجَدَ عَلَى شَيْءٍ دَلَالَةٌ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ وَقَدْ وَصَفْت لَك بَعْضَ مَا حَضَرَنِي مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَزِيدُهُ شَيْءٌ وَافَقَهُ قُوَّةً وَلَا يُوهِنُهُ شَيْءٌ خَالَفَهُ وَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّهُ أَوْصَى ابْنَهُ لَا يَعْقِرُ جَسَدًا وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ نَهَى عَنْ عَقْرِ الدَّابَّةِ إذَا هِيَ قَامَتْ وَعَنْ قَبِيصَةَ أَنَّ فَرَسًا قَامَ عَلَيْهِ بِأَرْضِ الرُّومِ فَتَرَكَهُ وَنَهَى عَنْ عَقْرِهِ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَخْبَرَنَا مَنْ سَمِعَ هِشَامَ بْنَ الْغَازِي يَرْوِي عَنْ مَكْحُولٍ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْهُ فَنَهَاهُ وَقَالَ:«إنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - نَهَى عَنْ الْمُثْلَةِ» قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت مَا أَدْرَكَ مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ؟ قَالَ:لَا تَعْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا إلَّا أَنْ تَذْبَحُوهُ لِتَأْكُلُوا كَمَا وَصَفْت بِدَلَالَةِ السُّنَّةِ وَأَمَّا مَا فَارَقَ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ فَيَصْنَعُونَ فِيمَا خَافُوا أَنْ يُسْتَنْقَذَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيهِ مَا شَاءُوا مِنْ تَحْرِيقٍ وَكَسْرٍ وَتَغْرِيقٍ وَغَيْرِهِ قُلْت:أَوْ يَدَعُونَ أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ؟ فَقَالَ:نَعَمْ إذَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِنْقَاذِهِمْ مِنْهُمْ فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت إنْ كَانَ السَّبْيُ وَالْمَتَاعُ قُسِّمَ؟ قَالَ:كُلُّ رَجُلٍ صَارَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَهُوَ مُسَلَّطٌ عَلَى مَالِهِ وَيَدَعُ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ إنْ لَمْ يَقْوَ عَلَى سَوْقِهَا وَعَلَى مَنْعِهَا وَيَصْنَعُ فِي غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مَا شَاءَ فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت الْإِمَامَ إذَا أَحْرَزَ مَا يُحْمَلُ مِنْ الْمَتَاعِ فَحَرَّقَهُ فِي بِلَادِ الشِّرْكِ وَهُوَ يُقَاتِلُ أَوْ حَرَّقَهُ عِنْدَ إدْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ وَخَوَّفَهُ أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَ وَبَعْدَمَا قُسِمَ؟ فَقَالَ:كُلُّ ذَلِكَ فِي الْحُكْمِ سَوَاءٌ إنْ أَحْرَقَهُ بِإِذْنِ مَنْ مَعَهُ حَلَّ لَهُ وَلَمْ يَضْمَنْ لَهُمْ سِوَاهُ وَيُعْزَلُ الْخُمُسُ لِأَهْلِهِ فَإِنْ سَلَّمَ بِهِ دَفَعَهُ إلَيْهِمْ خَاصَّةً وَإِنْ لَمْ يُسَلِّمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَمَتَى حَرَّقَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِمْ ضَمِنَهُ لَهُمْ إنْ شَاءُوا وَكَذَلِكَ

رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إنْ حَرَّقَهُ يَضْمَنُ مَا حَرَّقَ مِنْهُ إنْ حَرَّقَهُ بَعْدَ أَنْ يَحُوزَهُ الْمُسْلِمُونَ فَأَمَّا إذَا أَحْرَقَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِزَ فَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ.[١٨٣٣]

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَإِذَا أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ غَنَمٍ فَعَجَزُوا عَنْ حَمْلِهِ ذَبَحُوا الْغَنَمَ وَحَرَقُوا الْمَتَاعَ وَحَرَقُوا لُحُومَ الْغَنَمِ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ نَهَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ تُعْقَرَ بَهِيمَةٌ إلَّا لِمَأْكَلَةٍ وَأَخَذَ بِذَلِكَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَاعَتُهُمْ حَتَّى إنْ كَانَ عُلَمَاؤُهُمْ لَيَكْرَهُونَ لِلرَّجُلِ ذَبْحَ الشَّاةِ وَالْبَقَرَةِ لِيَأْكُلَ طَائِفَةً مِنْهَا وَيَدَعَ سَائِرَهَا.وَبَلَغَنَا أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَحْلًا ذَهَبَ رُبُعُ أَجْرِهِ وَمَنْ عَقَرَ جَوَادًا ذَهَبَ رُبُعُ أَجْرِهِ وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ قَوْلُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ قَالَ اللَّهُ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] وَاللِّينَةُ فِيمَا بَلَغَنَا النَّخْلَةُ وَكُلُّ مَا قُطِعَ مِنْ شَجَرِهِمْ وَحُرِّقَ مِنْ نَخْلِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ فَهُوَ مِنْ الْعَوْنِ عَلَيْهِمْ وَالْقُوَّةِ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠] وَإِنَّمَا كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُحَرِّقُوا النَّخْلَ وَالشَّجَرَ لِأَنَّ الصَّائِفَةَ كَانَتْ تَغْزُو كُلَّ عَامٍ فَيَتَقَوَّوْنَ بِذَلِكَ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَلَوْ حَرَّقُوا ذَلِكَ خَافُوا أَنْ لَا تَحْمِلَهُمْ الْبِلَادُ وَالَّذِي فِي تَخْرِيبِ ذَلِكَ مِنْ خِزْيِ الْعَدُوِّ وَنِكَايَتِهِمْ أَنْفَعُ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَبْلَغُ مَا يَتَقَوَّى بِهِ الْجُنْدُ فِي الْقِتَالِ حَدَّثَنَا بَعْضُ مَشَايِخِنَا «عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ حِينَ حَاصَرَ الطَّائِفَ أَمَرَ بِكَرْمٍ لِبَنِي الْأَسْوَدِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنْ يُقْطَعَ حَتَّى طَلَبَ بَنُو الْأَسْوَدِ إلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَطْلُبُوا إلَى النَّبِيِّ - ﷺ - أَنْ يَأْخُذَهَا لِنَفْسِهِ وَلَا يَقْلَعَهَا فَكَفَّ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):أَمَّا كُلُّ مَا لَا رُوحَ فِيهِ لِلْعَدُوِّ فَلَا بَأْسَ أَنْ يُحَرِّقَهُ الْمُسْلِمُونَ وَيُخَرِّبُوهُ بِكُلِّ وَجْهٍ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مُعَذَّبًا إنَّمَا الْمُعَذَّبُ مَا يَأْلَمُ بِالْعَذَابِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ قَدْ قَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَهَا وَقَطَعَ مِنْ أَعْنَابِ الطَّائِفِ وَهِيَ آخِرُ غَزَاةٍ غَزَاهَا النَّبِيُّ - ﷺ - لَقِيَ فِيهَا حَرْبًا وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَرْوَاحِ فَإِنْ زَعَمَ أَنَّهَا قِيَاسٌ عَلَى مَا لَا رُوحَ فِيهِ فَلْيَقُلْ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُحَرِّقُوهَا كَمَا لَهُمْ أَنْ يُحَرِّقُوا

[١٨٣٣] - الأم للشافعي (٤/ ٢٧٢)

النَّخلَ وَالْبُيُوتَ فَإِنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ذَبَحُوا مَا يُذْبَحُ مِنْهَا فَإِنَّهُ إنَّمَا أَحَلَّ ذَبْحَهَا لِلْمَنْفَعَةِ أَنْ تَكُونَ مَأْكُولَةً.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):وَقَدْ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا بِغَيْرِ حَقِّهَا حُوسِبَ بِهَا قِيلَ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ أَنْ يَذْبَحَهَا فَيَأْكُلَهَا وَلَا يَقْطَعَ رَأْسَهَا فَيَرْمِيَ بِهِ».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ الْمَصْبُورَةِ عَنْ أَكْلِهَا فَقَدْ أَحَلَّ إمَاتَةَ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ لِمَعْنَيَيْنِ أَحَدهمَا أَنْ يَقْتُلَ مَا كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ لِضَرَرِهِ وَمَا كَانَ فِيهِ الْمَنْفَعَةُ لِلْأَكْلِ مِنْهُ وَحَرَّمَ أَنْ تُعَذَّبَ الَّتِي لَا تَضُرُّ لِغَيْرِ مَنْفَعَةِ الْأَكْلِ فَإِذَا ذَبَحْنَا غَنَمَ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي نَصِلُ فِيهِ إلَى أَكْلِ لُحُومِهَا فِيهِ فَهُوَ قَتْلٌ لِغَيْرِ مَنْفَعَةٍ وَهُمْ يَتَقَوَّوْنَ بِلُحُومِهَا وَجُلُودِهَا فَلَمْ نَشُكَّ فِي أَنْ يَتَقَوَّى بِهَا الْمُشْرِكُونَ حِينَ ذَبَحْنَاهَا وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَذْبَحَهَا قَطْعًا لِقُوتِهِمْ فَإِنْ قَالَ فَفِي ذَبْحِهَا قَطْعٌ لِلْمَنْفَعَةِ لَهُمْ فِيهَا فِي الْحَيَاةِ قِيلَ قَدْ تَنْقَطِعُ الْمَنْفَعَةُ عَنْهُمْ بِأَبْنَائِهِمْ لَوْ ذَبَحْنَاهُمْ وَشُيُوخَهُمْ وَالرُّهْبَانُ لَوْ ذَبَحْنَاهُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَا قَطَعَ الْمَنْفَعَةَ وَبَلَغَ غَيْظَهُمْ حَلَّ لَنَا فَمَا حَلَّ لَنَا مِنْهُ فَعَلْنَاهُ وَمَا حَرُمَ عَلَيْنَا تَرَكْنَاهُ وَمَا شَكَكْنَا فِيهِ أَنَّهُ يَحِلُّ أَوْ يَحْرُمُ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا كَانَ يَحِلُّ لَنَا لَوْ أَطْعَمْنَاهُمْ مِنْ طَعَامِنَا فَلَيْسَ يَحْرُمُ عَلَيْنَا لَوْ تَرَكْنَا أَشْيَاءَ لَهُمْ إذَا لَمْ نَقْدِرْ عَلَى حَمْلِهَا كَمَا لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ عَلَيْنَا أَنْ نَتْرُكَ مَسَاكِنَهُمْ أَوْ نَخِيلَهُمْ لَا نُحَرِّقُهَا فَإِذَا كَانَ مُبَاحًا أَنْ نَتْرُكَ هَذَا لَهُمْ وَكُنَّا مَمْنُوعِينَ أَنْ نَقْتُلَ ذَا الرُّوحِ الْمَأْكُولِ إلَّا لِلْمَنْفَعَةِ بِالْأَكْلِ كَانَ الْأَوْلَى بِنَا أَنْ نَتْرُكَهُ إذَا كَانَ ذَبْحُهُ لِغَيْرِ مَنْفَعَةٍ.[١٨٣٤]

قطْع الشّجر وحرْق الْمنازل:

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):وَلَا بَأْسَ بِقَطْعِ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ وَتَخْرِيبِ الْعَامِرِ وَتَحْرِيقِهِ مِنْ بِلَادِ الْعَدُوِّ وَكَذَلِكَ لَا بَأْسَ بِتَحْرِيقِ مَا قَدَرَ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَطَعَامٍ لَا رُوحَ فِيهِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَأَهْلِ خَيْبَرَ وَأَهْلِ الطَّائِفِ وَقَطَعَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَنِي النَّضِيرِ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥] الْآيَةُ فَأَمَّا مَالَهُ رُوحٌ فَإِنَّهُ يَأْلَمُ مِمَّا أَصَابَهُ فَقَتْلُهُ مُحَرَّمٌ إلَّا بِأَنْ يُذْبَحَ فَيُؤْكَلَ وَلَا

[١٨٣٤] - الأم للشافعي (٧/ ٣٧٥)

يَحِلُّ قَتْلُهُ لِمُغَايَظَةِ الْعَدُوِّ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْهَا قِيلَ:وَمَا حَقُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلَا يَقْطَعَ رَأْسَهَا فَيَرْمِيَ بِهِ» وَلَا يُحَرِّقُ نَحْلًا وَلَا يُغْرِقُ لِأَنَّهُ لَهُ رُوحٌ..[١٨٣٥]

قول الطحاوي في تحريق نخل بني النضير:

بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قَطْعِ الْمُسْلِمِينَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا،وَفِي السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ:" أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ "

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،" أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ،وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ " وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،" أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ " وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فَأَجَابَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ...وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَقَالَ قَائِلٌ:فِي حَدِيثِ يُونُسَ الَّذِي رَوَيْتَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ نُزُولَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} [الحشر:٥] الْآيَةَ،إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْقَطْعِ وَالتَّحْرِيقِ مَا كَانَ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُحَالٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ شَيْئًا إِلَّا مَا يُفِيدُ بِهِ أُمَّتَهُ،يَعْنِي لِيَسْتَعْمِلُوهُ فِي فَرَائِضِهِ عَلَيْهِمْ وَفِي تَعَبُّدِهِ إِيَّاهُمْ.فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَمْ يَسْتَوْعِبِ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ،وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ

[١٨٣٥] - الأم للشافعي (٤/ ٣٠٦)

نُزُولِهَا مَا كَانَ مِنْ نُزُولِهَا فِيهِ عَلَيْهِمْ أَكْبَرُ الْفَائِدَةِ وَلَمْ نَجِدْهُ إِلَّا فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥] قَالَ:" اللِّينَةُ النَّخْلُ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ قَالَ:اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ،فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ وَمَا عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ؟ فَأَنْزَلَ جَلَّ وَعَزَّ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥] الْآيَةَ " قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ:كَانَ عَفَّانُ يُحَدِّثُنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ،عَنْ حَبِيبٍ ثُمَّ رَجَعَ فَحَدَّثَنَا بِهِ عَنْ حَفْصٍ.[ص:١٤٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَعَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَنْزَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَعْلَمَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ قَطْعِهِمْ لَمَّا قَطَعُوا مِنْ نَخْلِ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ،وَأَنَّ الَّذِي تَرَكُوهُ مِنْهَا فَلَمْ يَقْطَعُوهُ وَلَمْ يُحَرِّقُوهُ مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ،فَبَانَ بِذَلِكَ مَوْضِعُ الْفَائِدَةِ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.وَقَالَ قَائِلٌ آخَرُ:قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيمَا كَانَ تَقَدَّمَ بِهِ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ لَمَّا وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَذَكَرَ مَا حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ:حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ:حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً " [ص:١٤٦] قَالَ هَذَا الْقَائِلُ:فَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ،وَقَدْ قَرَأَهَا أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ،وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ سِوَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ قَرَءُوا هَذِهِ الْآيَةَ أَيْضًا،وَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ تَكُنْ نَزَلَتْ فِي الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ فِي حَدِيثَيِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ فِيهِ.فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ وَعَوْنِهِ أَنَّ الَّذِي

فِي ذَيْنِكَ الْحَدِيثَيْنِ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِيهِمَا،وَأَنَّ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عَوْدِ الشَّامِ إِلَى أَيْدِيهِمْ وَمِنْ فَتْحِهِمْ لَهَا وَمِنْ غَلَبَتِهِمُ الرُّومَ عَلَيْهَا بِمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ ذَلِكَ

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" تُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ،وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ،وَتُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ،وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ،وَتُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ،وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ الْفَقْرَ وَالْعُرْيَ وَقِلَّةَ الشَّيْءِ،فَقَالَ:" أَبْشِرُوا،فَوَاللهِ لَأَنَا وَكَثْرَةُ الشَّيْءِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنْ قِلَّتِهِ،وَاللهِ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِيكُمْ حَتَّى تُفْتَحَ لَكُمْ أَرْضُ فَارِسَ وَالرُّومِ وَأَرْضُ حِمْيَرَ،وَحَتَّى تَكُونُوا أَجْنَادًا ثَلَاثَةً:جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ،وَحَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ الْمِائَةَ الدِّينَارَ فَيَسْخَطَهَا "،قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يَسْتَطِيعُ الشَّامَ وَبِهَا الرُّومُ ذَوَاتُ الْقُرُونِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" وَاللهِ لَيَسْتَخْلِفُنَّكُمُ اللهُ فِيهَا حَتَّى تَظَلَّ الْعِصَابَةُ مِنْهُمُ الْبِيضُ قُمُصُهُمُ الْمُحَلَّقَةُ أَقْفَاؤُهُمْ قِيَامًا عَلَى الرَّجُلِ الْأَسْوَدِ مِنْكُمُ الْمَحْلُوقِ،وَإِنَّ بِهَا الْيَوْمَ رِجَالًا لَأَنْتُمْ أَحْقَرُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقِرْدَانِ فِي أَعْجَازِ الْإِبِلِ "،قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،خِرْ لِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ،قَالَ:" أَخْتَارُ لَكَ الشَّامَ فَإِنَّهَا صَفْوَةُ اللهِ مِنْ بِلَادِهِ،وَاللهُ يَجْتَبِي صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،فَعَلَيْكُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّ صَفْوَةَ اللهِ مِنَ الْأَرْضِ الشَّامُ فَمَنْ أَبَى فَيَسْقِي بِغُدُرِ الْيَمَنِ فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ " فَسَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ:فَعَرَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ نَعْتَ هَذَا الْحَدِيثِ فِي جُزْءِ بْنِ سُهَيْلٍ السُّلَمِيِّ وَكَانَ وَلِيَّ الْأَعَاجِمِ،وَكَانَ أُوَيْدِمًا قَصِيرًا فَكَانُوا يَمُرُّونَ وَتِلْكَ الْأَعَاجِمُ قِيَامٌ لَا يَأْمُرُهُمْ بِالشَّيْءِ إِلَّا فَعَلُوهُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَكَانَ أَمْرُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُمَرَاءَ الْأَجْنَادِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ لِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ،وَلِمَا قَدْ حَضَّهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ بِإِيلِيَاءَ وَمِنْ شَدِّ الْمَطَايَا إِلَيْهَا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا،وَلِمَا قَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ:" وَمُنِعَتِ الشَّامُ مُدَّيْهَا وَدِينَارَهَا " أَيْ أَنَّهَا سَتُمْنَعُ مُدَّيْهَا وَدِينَارَهَا الْوَاجِبَيْنِ فِي أَرْضِهَا وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ افْتِتَاحِهِمْ إِيَّاهَا وَغَلَبَتِهِمْ عَلَيْهَا،وَسَنَذْكُرُ هَذَا الْحَدِيثَ فِيمَا بَعْدُ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ.وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ".[1836]

ما لا يمْكن تحْصيل مصْلحته إلّا بإفْساد صفة منْ صفاته:

وفي قواعد الأحكام للعز:

وَأَمَّا مَا لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُ مَصْلَحَتِهِ إلَّا بِإِفْسَادِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَكَقَطْعِ الْخُفَّيْنِ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فِي الْإِحْرَامِ؛فَإِنَّ حُرْمَةَ الْإِحْرَامِ آكَدُ مِنْ حُرْمَةِ سَلَامَةِ الْخُفَّيْنِ.

وَأَمَّا إتْلَافُ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ بِالتَّحْرِيقِ وَالتَّخْرِيبِ وَقَطْعِ الْأَشْجَارِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ لِإِخْزَائِهِمْ وَإِرْغَامِهِمْ،بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥]،وَمِثْلُهُ قَتْلُ خُيُولِهِمْ وَإِبِلِهِمْ،إذَا كَانَتْ تَحْتَهُمْ فِي حَالِ الْقِتَالِ.

وَكَذَلِكَ قَتْلُ أَطْفَالِهِمْ إذَا تَتَرَّسُوا بِهِمْ،لِأَنَّهُ أَشَدُّ إخْزَاءً لَهُمْ مِنْ تَحْرِيقِ دِيَارِهِمْ وَقَطْعِ أَشْجَارِهِمْ.[1837]

إتْلاف مْتلكات أهْل الْحرْب:

أ – فِي حَالَةِ الْأَمَانِ أَوِ الْعَهْدِ:

الْعَهْدُ يَعْصِمُ الدِّمَاءَ وَالأَمْوَال،وَيُوجبُ الْكَفَّ عَنْ أَعْمَالِ الْقِتَالِ،قَال بَعْضُ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ: إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ تَاجِرًا (بِأَمَانٍ)،فَلاَ يَحِل لَهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَلاَ مِنْ دِمَائِهِمْ ؛لِأَنَّهُ ضَمِنَ أَلاَّ يَتَعَرَّضَ لَهُمْ بِالاِسْتِئْمَانِ،فَالتَّعَرُّضُ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ غَدْرًا

[1836] – شرح مشكل الآثار (٣/ ١٤٠)

[1837] – قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٩٢)

وَالْغَدْرُ حَرَامٌ،إلاَّ إذَا غَدَرَ به مَلكُهُمْ،فَأَخَذَ أَمْوَالَهُ أَوْ حَبَسَهُ،أَوْ فَعَل ذَلكَ غَيْرُ الْمَلك بعلْم الْمَلك وَلَمْ يَمْنَعْهُ ؛لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ،بخلاَف الأَسير ؛لأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَأْمَنٍ،فَيُبَاحُ لَهُ التَّعَرُّضُ للْمَال وَالدَّم،وَإنْ أَطْلَقُوهُ طَوْعًا.[١٨٣٨]

ب – في حَالَة عَدَم الْعَهْد وَالأَمَان:

في حَال الْحَرْب يَجُوزُ بالاتِّفَاق إتْلاَفُ أَشْجَار الْعَدُوِّ،وَذَبْحُ مَوَاشيهمْ،وَإتْلاَفُ سَائر أَمْوَالهمْ إنْ كَانَ في ذَلكَ مَصْلَحَةٌ للْمُسْلمينَ،كَإتْلاَف مَا يَتَقَوَّوْنَ به منَ الآْلَيَّات وَالْحُصُون وَالسِّلاَح وَالْخَيْل،وَإتْلاَف الشَّجَر الَّذي يَسْتَترُونَ به،أَوْ يَعُوقُ الْعَمَليَّات الْحَرْبيَّةَ،أَوْ يَحْتَاجُ الْمُسْلمُونَ لقَطْعه لتَوْسيع طَريقٍ،أَوْ تَمَكُّنٍ منْ سَدِّ ثُغْرَة،أَو احْتَاجُوا إلَيْه للأَكْل،أَوْ يَكُونُ الْكُفَّارُ يَفْعَلُونَ بنَا ذَلكَ،فَنَفْعَل بهمْ مثْلَهُ ليَنْتَهُوا،فَهَذَا يَجُوزُ بغَيْر خلاَف.

وَأَمَّا إتْلاَفُ ذَلكَ لغَيْر مَصْلَحَةٍ إلاَّ لمُغَايَظَة الْكُفَّار وَالإضْرَار بهمْ وَالإفْسَاد عَلَيْهمْ،فَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ في ذَلكَ.فَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ وَأَحْمَدُ في روَايَةٍ في الأَشْجَار وَالزُّرُوع:إلَى أَنَّ ذَلكَ جَائزٌ ؛لقَوْل اللَّه تَعَالَى:{مَا قَطَعْتُمْ منْ لينَة أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائمَةً عَلَى أُصُولهَا فَبإذْن اللَّه وَليُخْزيَ الْفَاسقينَ } [الحشر:٥].وقَوْله تَعَالَى {مَا كَانَ لأَهْل الْمَدينَة وَمَنْ حَوْلَهُمْ منَ الْأَعْرَاب أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول اللَّه وَلَا يَرْغَبُوا بأَنْفُسهمْ عَنْ نَفْسه ذَلكَ بأَنَّهُمْ لَا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ في سَبيل اللَّه وَلَا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتبَ لَهُمْ به عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللَّهَ لَا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ } [التوبة:١٢٠]،لَكنْ قَال ابْنُ الْهُمَام:هَذَا إذَا لَمْ يَغْلبْ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُمْ مَأْخُوذُونَ بغَيْر ذَلكَ،فَإنْ كَانَ الظَّاهرُ أَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ،وَأَنَّ الْفَتْحَ بَادٍ (أَيْ ظَاهرٌ قَريبٌ) كُرهَ ذَلكَ ؛لأَنَّهُ إفْسَادٌ في غَيْر مَحَل الْحَاجَة،وَمَا أُبيحَ إلاَّ لَهَا.

وَقَال الْحَنَابلَةُ في روَايَةٍ وَالأَوْزَاعيُّ وَاللَّيْثُ وَأَبُو ثَوْرٍ:لاَ يَجُوزُ ذَلكَ لأَنَّهُ إتْلاَفٌ مَحْضٌ[١٨٣٩].

[١٨٣٨] – الهداية وفتح القدير ٤ / ٣٤٧ وما بعدها .

[١٨٣٩] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٧/ ١١٠) والمغني ٨ / ٤٥١ – ٤٥٥ ط الرياض، وفتح القدير ٤ / ٢٨٦ ط بولاق، والشرح الكبير مع الدسوقي ٢ / ١٧٧، والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٥، والشرح

مشروعية خطف الكفار الحربيين:

الخطف لأفراد العدو،وجماعاته:هو من الأمور المشروعة في ديننا الحنيف باعتباره عملاً من أعمال الحرب؛ وتكييف الخطف من الناحية الشرعية أنه:أخذُ الحربيين بالقهر،وإلقاؤهم في أسر المسلمين تحقيقاً لمصلحة ما يسعى إليها المسلمون،وقد يتمُّ هذا الأخذ للكفار في البر أو الجو أو البحر ....

قال تعالى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد** فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥]

وفي البحر المحيط:"وَفِي إِطْلَاقِ الْأَمْرِ بِالْقَتْلِ دَلِيلٌ عَلَى قَتْلِهِمْ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ،وَقَدْ قَتَلَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَ الرِّدَّةِ بِالْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ،وَبِالْحِجَارَةِ،وَبِالرَّمْيِ مِنْ رؤوس الْجِبَالِ،وَالتَّنْكِيسِ فِي الْآبَارِ.وَتَعَلَّقَ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ،وَأَحْرَقَ عَلِيٌّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ،وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُثْلَةِ.

وَلَفْظُ الْمُشْرِكِينَ عَامٌّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ،وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِاسْتِثْنَاءِ الْأَطْفَالِ وَالرُّهْبَانِ وَالشُّيُوخِ الَّذِينَ لَيْسُوا ذَوِي رَأْيٍ فِي الْحَرْبِ،وَمَنْ قَاتَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ قُتِلَ.وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ:يَعْنِي الَّذِينَ نَقَضُوكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ.وَلَفْظُ:«حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» عَامٌّ فِي الْأَمَاكِنِ مِنْ حِلٍّ وَحَرَمٍ.

«وَخُذُوهُمْ» عِبَارَةٌ عَنِ الْأَسْرِ،وَالْأَخِيذُ الْأَسِيرُ.وَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِ أَسْرِهِمْ:وَاحْصُرُوهُمْ،قَيِّدُوهُمْ وَامْنَعُوهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْبِلَادِ وَقِيلَ:اسْتَرِقُّوهُمْ.وَقِيلَ:مَعْنَاهُ حَاصِرُوهُمْ إِنْ تَحَصَّنُوا.وقرىء:فَحَاصِرُوهُمْ شَاذًّا،وَهَذَا الْقَوْلُ يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.وَعَنْهُ أَيْضًا:حُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.وَقِيلَ:امْنَعُوهُمْ

الصغير ٢ / ٢٨١، وبداية المجتهد ١ / ٣٠٧، والأم ٤ / ٢٨٧، ط الأزهرية، والمهذب ٢ / ٢٥١، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣، و ٢٢٦ – ٢٢٧، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٩، وجامع الترمذي بشرح ابن العربي ٧ / ٤٠، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣٣ وما بعدها .

عَنْ دُخُولِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا إِلَّا بِإِذْنٍ.قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي قَوْلِهِ:«وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ اغْتِيَالِهِمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ،لِأَنَّ الْمَعْنَى اقْعُدُوا لَهُمْ مَوَاضِعَ الْغِرَّةِ،وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ إِيصَالُ الْأَذَى إِلَيْهِمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ،إِمَّا بِطَرِيقِ الْقِتَالِ،وَإِمَّا بِطَرِيقِ الِاغْتِيَالِ.وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَوَازِ السَّرِقَةِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ،وَإِسْلَالِ خَيْلِهِمْ،وَإِتْلَافِ مَوَاشِيهِمْ إِذَا عُجِزَ عَنِ الْخُرُوجِ بِهَا إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ،إِلَّا أَنْ يُصَالِحُوا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.[١٨٤٠]

وفي التنوير والتحرير:"وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ شَرْعُ الْجِهَادِ وَالْإِذْنُ فِيهِ وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ غَيْرُ الْإِسْلَامِ.وَهَذِهِ الْآيَةُ نَسَخَتْ آيَاتِ الْمُوَادَعَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ.وَقَدْ عَمَّتِ الْآيَةُ جَمِيعَ الْمُشْرِكِينَ وَعَمَّتِ الْبِقَاعَ إِلَّا مَا خَصَّصَتْهُ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالْأَخْذُ:الْأَسْرُ.

وَالْحَصْرُ:الْمَنْعُ مِنْ دُخُولِ أَرْضِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَالْقُعُودُ مَجَازٌ فِي الثَّبَاتِ فِي الْمَكَانِ،وَالْمُلَازَمَةِ لَهُ،لِأَنَّ الْقُعُودَ ثُبُوتٌ شَدِيدٌ وَطَوِيلٌ.

فَمَعْنَى الْقُعُودِ فِي الْآيَةِ الْمُرَابَطَةُ فِي مَظَانِّ تَطَرُّقِ الْعَدُوِّ الْمُشْرِكِينَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ،وَفِي مَظَانِّ وُجُودِ جَيْشِ الْعَدُوِّ وَعُدَّتِهِ.

وَالْمَرْصَدُ مَكَانُ الرَّصْدِ.وَالرَّصْدُ:الْمُرَاقَبَةُ وَتَتَبُّعُ النَّظَرِ.

وَكُلَّ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي تَعْمِيمِ الْمَرَاصِدِ الْمَظْنُونِ مُرُورُهُمْ بِهَا،تَحْذِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ إِضَاعَتِهِمُ الْحِرَاسَةَ فِي الْمَرَاصِدِ فَيَأْتِيهِمُ الْعَدُوُّ مِنْهَا،أَوْ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي بَعْضِ مَمَارِّ الْعَدُوِّ فَيَنْطَلِقُ الْأَعْدَاءُ آمِنِينَ فَيَسْتَخِفُّوا بِالْمُسْلِمِينَ وَيَتَسَامَعُ جَمَاعَاتُ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسُوا بِذَوِي بَأْسٍ وَلَا يَقَظَةٍ،فَيُؤَوَّلُ مَعْنَى كُلَّ هُنَا إِلَى مَعْنَى الْكَثْرَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الِاجْتِهَادِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْمَرَاصِدِ "[١٨٤١]

وقال الخطيب:"وقوله تعالى:«وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» دعوة للمسلمين بالجد فى طلب المشركين،وأخذهم بكل قوّة،وملاحقتهم فى كل مكان،حتى لا

[١٨٤٠] - البحر المحيط في التفسير (٥/ ٣٧٢)

[١٨٤١] - التحرير والتنوير (١٠/ ١١٥)

يكون لهم مهرب..وفى هذا إرهاص بما سيحلّ بالمشركين من بلاء واقع،لا وجه لهم من الإفلات منه..بعد أن ينتهى الأجل المضروب لهم،وذلك من شأنه أن يلقى الرّعب فى قلوب المشركين،وأن يفتح للكثير منهم طريقا إلى الإسلام،حيث يجد العافية،والأمن والسلام.."[١٨٤٢]

"وخذوهم أسرى حرب،واحصروهم حالة كونكم مانعين لهم من الأسفار والتقلب في البلاد،واقعدوا لهم كل مرصد وممر،وترصدوا لهم في كل طريق حتى تملأوا قلوبهم خوفا ورهبة منكم،فيخشى الواحد منهم لقاءكم حتى بينه وبين نفسه،والحكمة في ذلك محو الشرك من جزيرة العرب بالقوة لتكون معقل الإسلام..."[١٨٤٣]

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يرى أن هذه الوسائل الأربع- القتل والأسر والمحاصرة والمراقبة- هي الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء،ولا يخلو عصر من العصور من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة.

وهكذا نرى تعاليم الإسلام تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة لكيد أعدائهم،والعمل على هزيمتهم..،ما دام هؤلاء الأعداء مستمرين في طغيانهم وعدوانهم وانتهاكهم لحدود الله- تعالى-.[١٨٤٤]

" وَقَوْلُهُ: {وَخُذُوهُمْ} أَيْ:وَأْسِرُوهُمْ،إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا.

وَقَوْلُهُ: {وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أَيْ:لَا تَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ وِجْدَانِكُمْ لَهُمْ،بَلِ اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَاقِلِهِمْ وَحُصُونِهِمْ،وَالرَّصْدِ فِي طُرُقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ،وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوِ الْإِسْلَامِ"[١٨٤٥]

"فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الناكثين.حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ من حل أو حرم.وَخُذُوهُمْ وأسروهم،والأخيذ الأسير.وَاحْصُرُوهُمْ واحبسوهم أو حيلوا بينهم وبين المسجد

[١٨٤٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٠٢)

[١٨٤٣] - التفسير الواضح (١/ ٨٥٥)

[١٨٤٤] - التفسير الوسيط لطنطاوي (٦/ ٢٠٧)

[١٨٤٥] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١١١)

الحرام.وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ كل ممـــر لـــئلا يتبســـطوا في البلاد،وانتصـــابه علـــى الظرف."[1846]

" قَوْلُهُ:وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [النِّسَاءِ:٨٩] وَذَلِكَ أَمْرٌ بِقَتْلِهِمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ،فِي أَيِّ وَقْت،وَأَيِّ مَكَانٍ.قَوْلُهُ:وَخُذُوهُمْ أَيْ بِالْأَسْرِ،وَالْأَخِيذُ الْأَسِيرُ.قَوْلُهُ:وَاحْصُـــرُوهُمْ مَعْنَـــى الْحَصْرِ الْمَنْعُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ مُحِيطٍ.قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:يُرِيدُ إِنْ تَحَصَّنُوا فَاحْصُرُوهُمْ.وَقَالَ الْفَرَّاءُ:حَصْرُهُمْ أَنْ يُمْنَعُوا مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ.وَرَابِعُهَا:قَوْلُهُ تَعَالَى:وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ وَالْمَرْصَدُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُرْقَبُ فِيهِ الْعَدُوُّ مِنْ قَوْلِهِمْ:رَصَدْتُ فُلَانًا أَرْصُدُهُ إِذَا تَرَقَّبْتُـــهُ،قَالَ الْمُفَسِّرُونَ:الْمَعْنَى اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى كُلِّ طَرِيقٍ يَأْخُذُونَ فِيهِ إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الصَّحْرَاءِ أَوْ إِلَى التِّجَارَةِ"[1847]

"{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} في أي مكان وزمان،{وَخُـــذُوهُمْ} أســـرى {وَاحْصُرُوهُمْ} أي:ضيقوا عليهم،فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه،التي جعلها [الله] معبدا لعباده.فهؤلاء ليسوا أهلا لسكناها،ولا يستحقون منـــها شـــبرا،لأن الأرض أرض الله،وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله،المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض مـــن دينه،ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أي:كـــل ثنية وموضع يمرون عليه،ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك،ولا تزالـــوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم."[1848]

" وقوله:(وَخُذُوهُمْ) يدل عليه.وَالْأَخْذُ هُوَ الْأَسْرُ.وَالْأَسْرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْقَتْلِ أَوِ الْفِـــدَاءِ أَوِ الْمَنِّ عَلَى مَا يَرَاهُ الامام.ومعنى (احْصُرُوهُمْ) يُرِيدُ عَنِ التَّصَرُّفِ إِلَى بِلَادِكُمْ وَالـــدُّخُولِ إِلَيْكُمْ،إِلَّا أَنْ تَأْذَنُوا لَهُمْ فَيَدْخُلُوا إِلَيْكُمْ بِأَمَانٍ.الرَّابِعَةُ- قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَاقْعُدُوا لَهُـــمْ كُـــلَّ مَرْصَدٍ) الْمَرْصَدُ:الْمَوْضِعُ الَّذِي يُرْقَبُ فِيهِ الْعَدُوُّ،يُقَالُ:رَصَدْتُ فُلَانًا أَرْصُدُهُ،أَيْ رَقَبْتُهُ.أَيِ

[1846] - تفسير البيضاوي = أنوار التتريل وأسرار التأويل (٣/ ٧١)

[1847] - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٥/ ٥٢٨)

[1848] -تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٩)

اقْعُدُوا لَهُمْ فِي مَوَاضِعِ الْغِرَّةِ حَيْثُ يُرْصَدُونَ...وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اغْتِيَالِهِمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ."[1849]

"{وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} فيه وجهان:أحدهما:أن يطلبوا في كل مكان فيكون القتل إذا وجدوا،والطلب إذا بعدوا.والثاني:أن يفعل بهم كل ما أرصده الله تعالى لهم فيما حكم به تعالى عليهم من قتل أو استرقاق أو مفاداة أو منٍّ ليعتبر فيها فعل الأَصلح منها."[1850]

" أي فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم عليكم فيها قتال المشركين،فافعلوا معهم كل ما ترونه موافقا للمصلحة من تدابير الحرب وشئونها،لأن الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي منحتموه،وذلك بعمل أحد الأمور الآتية:

(١) قتلهم فى أي مكان وجدوا فيه من حلّ وحرم.

(٢) أخذهم أسارى،وقد أبيح هنا الأسر الذي حظر فى سورة الأنفال بقوله: «ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» لأن الإثخان وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد.

(٣) حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمعقل أو حصن،بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانفلات حتى يسلموا وينزلوا على حكمهم بشرط ترضونه أو بدون شرط.

(٤) القعود لهم كل مرصد:أي مراقبتهم فى كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه،ورؤية تجوالهم وتقلّبهم فى البلاد."[1851]

" أَيْ:وَافْعَلُوا بِهِمْ كُلَّ مَا تَرَوْنَهُ مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ مِنْ تَدَابِيرِ الْقِتَالِ وَشُئُونِ الْحَرْبِ الْمَعْهُودَةِ،وَأَهَمُّهَا وَأَشْهَرُهَا هَذِهِ الثَّلَاثَةُ:وَأَوَّلُهَا:أَخْذُهُمْ أُسَارَى،فَكَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْأَسْرِ بِالْأَخْذِ وَيُسَمُّونَ الْأَسِيرَ (أَخِيذًا) وَالْأَخْذُ أَعَمُّ مِنَ الْأَسْرِ،فَإِنَّ مَعْنَى الثَّانِي الشَّدُّ بِالْأُسَارِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ،فَالْأَسِيرُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هُوَ الْأَخِيذُ الَّذِي يُشَدُّ.وَقَدْ أُبِيحَ هُنَا الْأَسْرُ الَّذِي حُظِرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ:مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ (٨:٦٧) لِحُصُولِ شَرْطِهِ وَهُوَ الْإِثْخَانُ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْغَلَبِ

[1849] - تفسير القرطبي (٨/ ٧٣)

[1850] - تفسير الماوردي = النكت والعيون (٢/ ٣٤١)

[1851] - تفسير المراغي (١٠/ ٥٨)

وَالْقُوَّةِ وَالسِّيَادَةِ،فَمَنْ يُسَمِّي مِثْلَ هَذَا نَسْخًا فَلَهُ أَنْ يَقُولَ بِهِ هُنَا،وَالصَّوَابُ أَنَّهُ مِنَ الْمُقَيَّدِ بِالشَّرْطِ أَوِ الْوَقْتِ أَوِ الْأَذَانِ.

وَالثَّانِي:الْحَصْرُ وَهُوَ حَبْسُ الْعَدُوِّ حَيْثُ يَعْتَصِمُونَ مِنْ مَعْقِلٍ وَحِصْنٍ،بِأَنْ يُحَاطَ بِهِمْ وَيُمْنَعُوا مِنَ الْخُرُوجِ وَالِانْفِلَاتِ إِذَا كَانَ فِي مُهَاجَمَتِهِمْ فِيهِ خَسَارَةٌ كَبِيرَةٌ،

فَاحْصُرُوهُمْ إِلَى أَنْ يُسْلِمُوا،وَيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِكُمْ بِشَرْطٍ تَرْضَوْنَهُ أَوْ بِغَيْرِ شَرْطٍ.

وَالثَّالِثُ:قُعُودُ الْمَرَاصِدِ أَيِ الرَّصْدِ الْعَامِّ،وَهُوَ مُرَاقَبَةُ الْعَدُوِّ بِالْقُعُودِ لَهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُمْكِنُ الْإِشْرَافُ عَلَيْهِمْ،وَرُؤْيَةُ تَجْوَالِهِمْ وَتَقَلُّبِهِمْ فِي الْبِلَادِ مِنْهُ فَالْمَرْصَدُ اسْمُ مَكَانٍ،وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِطُرُقِ مَكَّةَ،وَالْفِجَاجِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا لِئَلَّا يَعُودُوا إِلَيْهَا لِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا،أَوْ لِلشِّرْكِ فِي الْبَيْتِ وَالطَّوَافِ فِيهِ عُرَاةً.وَالصَّوَابُ أَنَّهُ عَامٌّ،وَهَذَا أَهَمُّ أَفْرَادِهِ.وَلَعَلَّ الْقَائِلَ بِهَذَا التَّخْصِيصِ لَمْ يَذْكُرِ الْمَدِينَةَ وَهِيَ الْعَاصِمَةُ؛ لِأَنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْهَا فِي عَهْدِ قُوَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ." [١٨٥٢]

"{وَخُذُوهُمْ} [التوبة:٥] يَقُولُ:وَأْسِرُوهُمْ {وَاحْصُرُوهُمْ} [التوبة:٥] يَقُولُ:وَامْنَعُوهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَدُخُولِ مَكَّةَ.{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥] يَقُولُ:وَاقْعُدُوا لَهُمْ بِالطَّلَبِ لِقَتْلِهِمْ أَوْ أَسْرِهِمْ كُلَّ مَرْصَدٍ.يَعْنِي:كُلَّ طَرِيقٍ وَمَرْقَبٍ،وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ رَصَدْتُ فُلَانًا أَرْصُدُهُ رَصْدًا،بِمَعْنَى:رَقَبْتُهُ."[١٨٥٣]

"{وَخُذُوهُمْ} أي أيسروهم والأَخيذُ الأسير{واحصروهم} أي قيّدوهم أو امنعوهم من التقلب في البلاد

قال ابن عباس رضي الله عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام{واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أي كلَّ ممرٍ ومُجتازٍ يجتازون منه في أسفارهم وانتصابُه على الظرفية أي ارصُدوهم وارقبُوهم حتى لا يمروا به"[١٨٥٤]

[١٨٥٢] - تفسير المنار (١٠/ ١٤٩)

[١٨٥٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٣٤٣)

[١٨٥٤] - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ٤٣) وتفسير الألوسي = روح المعاني (٥/ ٢٤٦) والبحر المحيط في التفسير (٥/ ٣٧٣) وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التتريل (٢/ ٢٤٧) وتفسير النسفي = مدارك التتريل وحقائق التأويل (١/ ٦٦٤)

"قولــــــه:فَــــاقْتُلُوا الْمُشْــــــرِكِينَ حَيْــــــثُ وَجَــــــدْتُمُوهُمْ،فِي الْحِــــــلِّ وَالْحَرَمِ،وَخُذُوهُمْ،وَأْسِرُوهُمْ،وَاحْصُرُوهُمْ،أَيِ:احْبِسُوهُمْ.قَالَ ابْنُ عَبَّــاسٍ رَضِــيَ اللَّــهُ عَنْهُ:يُرِيدُ إِنْ تَحَصَّنُوا فَاحْصُرُوهُمْ،أَيِ:امْنَعُوهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ.وَقِيلَ:امْنَعُوهُمْ مِنْ دُخُــولِ مَكَّةَ وَالتَّصَرُّفِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ.وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ،أَيْ:عَلَى كُلِّ طَرِيقٍ،وَالْمَرْصَــدُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَرْقُبُ فِيهِ الْعَدُوَّ مِنْ رَصَدْتُ الشَّيْءَ أَرْصُدُهُ إِذَا تَرَقَّبْتُهُ،يُرِيدُ كُونُــوا لَهُــمْ رَصْدًا لِتَأْخُذُوهُمْ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ تَوَجَّهُوا."[1855]

فهذه الآية كما يظهر من تفسير أهل العلم لها:متضــمنة لمشــروعية خطــف الكفــار الحربيين،بل والأمر بذلك،والحرص على السعي فيه بقوة وجدٍّ {حَتَّى لَا تَكُــونَ فِتْنَــةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٣]

قال ابن العربي:"قَوْلُهُ:{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥]:قَالَ عُلَمَاؤُنَا:فِي هَذَا دَلِيــلٌ عَلَى جَوَازِ اغْتِيَالِهِمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ"[1856]

قلت:وإذا جاز اغتيالهم جاز خطفهم من باب أولى .

وعن إِيَاسَ بْنِ سَلَمَةَ،حَدَّثَنِي أَبِي،قَالَ:قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً،وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا،قَالَ:فَقَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَــى جَبَــا الرَّكِيَّــةِ،فَإِمَّا دَعَا،وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا،قَالَ:فَجَاشَتْ،فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا،قَالَ:ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ [ص:١٤٣٤]،قَالَ:فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ،ثُمَّ بَايَعَ،وَبَايَعَ،حَتَّى إِذَا كَانَ فِــي وَسَطٍ مِنَ النَّاسِ،قَالَ:«بَايِعْ يَا سَلَمَةُ» قَالَ:قُلْتُ:قَدْ بَايَعْتُكَ يَــا رَسُــولَ اللهِ فِــي أَوَّلِ النَّاسِ،قَالَ:«وَأَيْضًا»،قَالَ:وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلًا - يَعْنِــي لَــيْسَ مَعَــهُ سِــلَاحٌ - ،قَالَ:فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَجَفَةً - أَوْ دَرَقَةً -،ثُمَّ بَايَعَ،حَتَّى إِذَا كَــانَ فِــي آخِــرِ النَّاسِ،قَالَ:«أَلَا تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ؟» قَالَ:قُلْتُ:قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ،وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ،قَالَ:«وَأَيْضًا»،قَالَ:فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ،ثُمَّ قَالَ لِي:«يَا سَلَمَةُ،أَيْنَ حَجَفَتُــكَ - أَوْ

[1855] - التفسير المظهري (٤/ ١٣٩) واللباب في علوم الكتاب (١٠/ ١٩) وتفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ٣١٨) وتفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٣٣٧) وتفسير العدل والإعتدال (٢/ ٢٢٢) وفتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ٢٣٧) وشرح السنة للبغوي (١١/ ٧٥)

[1856] -أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٤٥٧) وتفسير القرطبي (٨/ ٧٣)

دَرَقَتُكَ - الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟»،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلًا،فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا،قَالَ:فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَقَالَ:" إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ:اللهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي "،ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ،وَاصْطَلَحْنَا،قَالَ:وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ أَسْقِي فَرَسَهُ،وَأَحُسُّهُ،وَأَخْدِمُهُ،وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ،وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ،قَالَ:فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ،وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ،أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا،قَالَ:فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ،فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَبْغَضْتُهُمْ،فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى،وَعَلَّقُوا [ص:١٤٣٥] سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا،فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي،يَا لَلْمُهَاجِرِينَ،قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ،قَالَ:فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي،ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ،فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ،فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي،قَالَ:ثُمَّ قُلْتُ،وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ،لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ،قَالَ:ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ،يُقَالُ لَهُ:مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ،مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«دَعُوهُمْ،يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ،وَثِنَاهُ»،فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَأَنْزَلَ اللهُ:{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح:٢٤] الْآيَةَ كُلَّهَا،قَالَ:ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ،فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ،وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ،فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ،قَالَ سَلَمَةُ:فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ،فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِظَهْرِهِ مَعَ رَبَاحٍ [ص:١٤٣٦] غُلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَنَا مَعَهُ،وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسِ طَلْحَةَ أُنَدِّيهِ مَعَ الظَّهْرِ،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعَ،وَقَتَلَ رَاعِيَهُ،قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَبَاحُ،خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ،وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ،قَالَ:ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكَمَةٍ،فَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ،فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا:يَا صَبَاحَاهْ،ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ

وَأَرْتَجِزُ،أَقُولُ:أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ،فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّ سَهْمًا فِي رَحْلِهِ،حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ،قَالَ:قُلْتُ:خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ قَالَ:فَوَاللهِ،مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ،فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً،فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا،ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ بِهِ،حَتَّى إِذَا تَضَايَقَ الْجَبَلُ،فَدَخَلُوا فِي تَضَايُقِهِ،عَلَوْتُ الْجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بِالْحِجَارَةِ،قَالَ:فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي،وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً،وَثَلَاثِينَ رُمْحًا،يَسْتَخِفُّونَ وَلَا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،حَتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِنْ ثَنِيَّةٍ،فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ فُلَانُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ،فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ – يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ – وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ،قَالَ الْفَزَارِيُّ:مَا هَذَا الَّذِي أَرَى؟ قَالُوا:لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرْحَ،وَاللهِ،مَا فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا،قَالَ:فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ،قَالَ:فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ،قَالَ:فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنَ الْكَلَامِ،قَالَ:قُلْتُ:هَلْ تَعْرِفُونِي؟ قَالُوا:لَا،وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:قُلْتُ:أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ،وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ،لَا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ،وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكَنِي،قَالَ أَحَدُهُمْ:أَنَا أَظُنُّ،قَالَ:فَرَجَعُوا،فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ،قَالَ:فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ،عَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ،وَعَلَى إِثْرِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ،قَالَ:فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الْأَخْرَمِ،قَالَ:فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ،قُلْتُ:يَا أَخْرَمُ،احْذَرْهُمْ لَا يَقْتَطِعُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،قَالَ:يَا سَلَمَةُ،إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ،وَالنَّارَ حَقٌّ،فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ،قَالَ:فَخَلَّيْتُهُ،فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ،قَالَ:فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ،وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ،وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ،وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ،فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ،فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ،لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيَّ حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ،وَلَا غُبَارِهِمْ شَيْئًا حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ:ذَو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ وَهُمْ عِطَاشٌ،قَالَ:فَنَظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ،فَخَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ – يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عَنْهُ – فَمَا

ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً،قَالَ:وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ فِي ثَنِيَّةٍ،قَالَ:فَأَعْدُو فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّهُ بِسَهْمٍ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ،قَالَ:قُلْتُ:خُذْهَاوَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ قَالَ:يَا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ،أَكْوَعُهُ بُكْرَةَ؟ قَالَ:قُلْتُ:نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ،أَكْوَعُكَ بُكْرَةَ،قَالَ:وَأَرْدَوْا فَرَسَيْنِ عَلَى ثَنِيَّةٍ،قَالَ:فَجِئْتُ بِهِمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ فِيهَا مَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ،وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ،فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ،ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلَّأْتُهُمْ عَنْهُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الْإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ،وَإِذَا بِلَالٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنَ الْإِبِلِ الَّذِي اسْتَنْقَذْتُ مِنَ الْقَوْمِ،وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،خَلِّنِي فَأَنْتَخِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ،فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا قَتَلْتُهُ،قَالَ:فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ،فَقَالَ:«يَا سَلَمَةُ،أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلًا؟» قُلْتُ:نَعَمْ،وَالَّذِي أَكْرَمَكَ،فَقَالَ:«إِنَّهُمُ الْآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ»،قَالَ:فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ،فَقَالَ:نَحَرَ لَهُمْ فُلَانٌ جَزُورًا فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا،فَقَالُوا:أَتَاكُمُ الْقَوْمُ،فَخَرَجُوا هَارِبِينَ،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ،وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ»،قَالَ:ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَهْمَيْنِ سَهْمَ الْفَارِسِ،وَسَهْمَ الرَّاجِلِ،فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا،ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ،قَالَ:فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ،قَالَ:وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يُسْبَقُ شَدًّا،قَالَ:فَجَعَلَ يَقُولُ:«أَلَا مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ؟ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ؟» فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ قَالَ:فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ،قُلْتُ:أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا،وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا،قَالَ:لَا،إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،بِأَبِي وَأُمِّي،ذَرْنِي فَلِأُسَابِقَ الرَّجُلَ،قَالَ:«إِنْ شِئْتَ»،قَالَ:قُلْتُ:اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ،فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ،قَالَ:فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا – أَوْ شَرَفَيْنِ – أَسْتَبْقِي نَفَسِي،ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ،فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا – أَوْ شَرَفَيْنِ –،ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ [ص:١٤٤٠]،قَالَ:فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ،قَالَ:قُلْتُ:قَدْ سُبِقْتَ وَاللهِ،قَالَ:أَنَا أَظُنُّ،قَالَ:فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ،قَالَ:فَوَاللهِ،مَا لَبِثْنَا إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بِالْقَوْمِ تَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا

اهْتَدَيْنَا،وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا،وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا،فَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا،وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ هَذَا؟» قَالَ:أَنَا عَامِرٌ،قَالَ:«غَفَرَ لَكَ رَبُّكَ»،قَالَ:وَمَا اسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ يَخُصُّهُ إِلَّا اسْتُشْهِدَ،قَالَ:فَنَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ:يَا نَبِيَّ اللهِ،لَوْلَا مَا مَتَّعْتَنَا بِعَامِرٍ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ،قَالَ:خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ،وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ،قَالَ:وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ،فَقَالَ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ،قَالَ:فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ،فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ،وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ،فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ،فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ،فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ،قَالَ سَلَمَةُ:فَخَرَجْتُ،فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،يَقُولُونَ:بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ،قَتَلَ نَفْسَهُ،قَالَ:فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟» قَالَ:قُلْتُ:نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ،قَالَ:«كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ،بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ "[١٨٥٧]

[١٨٥٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٣٣)١٣٢ - (١٨٠٧)

[ش (جبا الركية) الجبا ما حول البئر والركي البئر والمشهور في اللغة ركي بغير هاء ووقع هنا الركية بالهاء وهي لغة حكاها الأصمعي وغيره(وإما بسق) هكذا هو في النسخ بسق وهي صحيحة يقال بزق وبصق وبسق ثلاث لغات بمعنى والسين قليلة الاستعمال(فجاشت) أي ارتفعت وفاضت يقال جاش الشيء يجيش جيشانا إذا ارتفع(عزلا) ضبطوه بوجهين أحدهما فتح العين مع كسر الزاي والثاني ضمهما وقد فسره في الكتاب بالذي لا سلاح معه ويقال أيضا أعزل وهو الأشهر استعمالا(حجفة أو درقة) هما شبيهتان بالترس(إنك كالذي قال الأول) الذي صفة لمحذوف أي أنك كالقول الذي قاله الأول فالأول بالرفع فاعل والمراد به هنا المتقدم بالزمان يعني أن شأنك هذا مع ابن عمك يشبه فحوى القول الذي قاله الرجل المتقدم زمانه(أبغني) أعطني(راسلونا) هكذا هو في أكثر النسخ راسلونا من المراسلة أي أرسلنا إليهم وأرسلوا إلينا في أمر الصلح(مشى بعضنا في بعض) في هنا بمعنى إلى أي مشى بعضنا إلى بع وربما كانت بمعنى مع فيكون المعنى مشى بعضنا مع بعض(كنت تبيعا لطلحة) أي خادما أتبعه(وأحسه) أي أحك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه(فكسحت شوكها) أي كنست ما تحتها من الشوك(فاخترطت سيفي) أي سللته(شددت) حملت وكررت(ضغثا) الضغث الحزمة يريد أنه أخذ سلاحهم وجمع بعضه إلى بعض حتى جعله في يده حزمة قال في المصباح الأصل في الضغث أن يكون له قضبان يجمعها أصل واحد ثم كثر حتى استعمل فيما يجمع(الذي فيه عيناه) يريد رأسه(العبلات) أي عليه تجفاف وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه السلاح وجمعه تجافيف(يكن لهم بدء الفجور وثناه) البدء وهو الابتداء وأما ثناه فمعناه عودة ثانية قال في النهاي أي أوله وآخره والثني الأمر يعاد

ولا نجد وصفاً لما فعله سلمة رضي الله عنه في لغة العصر إلا:الخطف تحت تهديد السلاح.

وعن سَعِيدَ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ،فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ،فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ،إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ:مَا قُلْتُ لَكَ:إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ،فَقَالَ:«أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ،فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،يَا مُحَمَّدُ،وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ،وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ،فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ،وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ،وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ،فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ:صَبَوْتَ،قَالَ:لاَ،وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَلاَ وَاللَّهِ،لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ،حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ"[1858]

مرتين(وهم المشركون) هذه اللفظة ضبطوها بوجهين ذكرهما القاضي وغيره أحدهما وهم المشركون على الابتداء والخبر والثاني وهم المشركون أي هموا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخافوا غائلتهم يقال همني الأمر وأهمني وقيل همني أذابني وأهمني أغمني وقيل معناه هم أمر المشركين النبي صلى الله عليه وسلم خوف أن يبيتوهم لقربهم منهم(بظهره) الظهر الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال(أنديه) معناه أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلا ثم ترسل في المرعى ثم ترد الماء فترد قليلا ثم ترد إلى المرعى(فأصك سهما في رحله) أي أضرب(أرميهم وأعقر بهم) أي أرميهم بالنبل وأعقر خيلهم أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف ثم اتسع حتى استعمل في القتل كما وقع هنا وحتى صار يقال عقرت البعير أي نحرته(حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه) التضايق ضد الاتساع أي تدانى فدخلوا في تضايقه أي المحل المتضايق منه بحيث استتروا به عنه فصار لا يبلغهم ما يرميهم به من السهام(فجعلت أرديهم بالحجارة) يعني لما امتنع على رميهم بالسهام عدلت عن ذلك إلى رميهم من أعلى الجبل بالحجارة التي تسقطهم وتهورهم يقال ردى الفرس راكبه إذا أسقطه وهوره"

[1858] - صحيح البخاري (٥/ ١٧٠)(٤٣٧٢)وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٦)٥٩ - (١٧٦٤)

[ش(نخل) وفي نسخة (نجل) أي ماء.(صبوت) ملت إلى دين غير دينك ودين آبائك]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ،فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ:ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ،سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ،فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ،إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ:مَا قُلْتُ لَكَ،إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ،فَقَالَ:«مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ:عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ،إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»،فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ،فَاغْتَسَلَ،ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،يَا مُحَمَّدُ،وَاللهِ،مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ،وَاللهِ،مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ،فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ،وَاللهِ،مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ،وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ:أَصَبَوْتَ،فَقَالَ:لَا،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَلَا وَاللهِ،لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ"[١٨٥٩]

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –):أَيْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ (خَيْلًا:هُوَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ ؛ أَيْ فُرْسَانَ الْخَيْلِ،وَفِي الْحَدِيثِ:يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي ؛ أَيْ يَا فُرْسَانَ خَيْلِ اللَّهِ،أَوْ سُمِّيَتِ

١٨٥٩ – صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٦)٥٩ – (١٧٦٤)

[ش (ماذا عندك؟ يا ثمامة) أي من الظن بي أن أفعل بك؟(إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره أي لرياسته وفضيلته وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم وقال آخرون معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله(فانطلق إلى نخل) هكذا هو في البخاري ومسلم وغيرهما نخل بالخاء المعجمة وتقديره انطلق إلى نخل فيه ماء فاغتسل منه(أصبوت) هكذا هو في الأصول أصبوت وهي لغة والمشهور أصبأت بالهمز وعلى الأول جاء قولهم الصباة كقاض وقضاة والمعنى أخرجت من دينك]

الْجَمَاعَةُ خَيْلًا ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَرَّدُوا لِمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا سُمِّيَت الرَّبِيئَةُ عَيْنًا (قِبَلَ نَجْدٍ)،بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ ؛ أَيْ:حِذَاءَهُ وَجَانِبَهُ.فِي الْقَامُوسِ:النَّجْدُ وَبِضَمٍّ جيمه مُذَكَّرٌ وَهُوَ مَا خَالَفَ الْغَوْرَ ؛ أَيْ تِهَامَةَ،أَعْلَاهُ تِهَامَةُ وَالْيَمَنُ،وَأَسْفَلُهُ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَوَّلُهُ مِنْ جِهَةِ الْحِجَازِ ذَاتُ عِرْقٍ،(فَجَاءَتْ):أَيِ الْخَيْلُ (بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ،يُقَالُ،لَهُ:ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ) بِضَمٍّ أَوَّلِهِمَا (سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ):فِي الْقَامُوسِ:هِيَ بِلَادُ الْجَوِّ مَنْسُوبَةٌ إِلَى جَارِيَةٍ زَرْقَاءَ كَانَتْ تُبْصِرُ الرَّاكِبَ مِنْ مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَسُمِّيَتْ بِاسْمِهَا،أَكْثَرُ نَخِيلًا مِنْ سَائِرِ الْحِجَازِ،وَبِهَا تَنَبَّأَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ،وَهِيَ دُونَ الْمَدِينَةِ فِي وَسَطِ الشَّرْقِ عَنْ مَكَّةَ عَلَى سِتَّ عَشْرَةَ مَرْحَلَةً مِنَ الْبَصْرَةِ،وَعَنِ الْكُوفَةِ نَحْوُهَا وَالنِّسْبَةُ يَمَامِيٌّ.(فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ):أَيْ أُسْطُوَانَةٍ (مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ) ؛ أَيِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ (فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:مَاذَا عِنْدَكَ) ؟ أَيْ مِنَ الظَّنِّ فِي أَنْ أَفْعَلَ بِكَ (يَا ثُمَامَةُ) ؟ قَالَ الطِّيبِيُّ:فِيهِ وَجْهَانِ أَنْ تَكُونَ مَا اسْتِفْهَامِيَّةً،وَذَا مَوْصُولًا وَعِنْدَكَ صِلَتَهُ ؛ أَيْ:مَا الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ مِنَ الظَّنِّ فِيمَا أَفْعَلُ بِكَ (قَالَ:عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ! خَيْرٌ) ؛ لِأَنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ تَظْلِمُ بَلْ مِمَّنْ تُحْسِنُ وَتُنْعِمُ،وَأَنْ يَكُونَ مَاذَا بِمَعْنَى " أَيُّ شَيْءٍ " مُبْتَدَأً وَعِنْدَكَ خَبَرَهُ،وَقَوْلُهُ:(إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ)،تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ:خَيْرٌ ؛ لِأَنَّ فِعْلَ الشَّرْطِ إِذَا كُرِّرَ فِي الْجَزَاءِ دَلَّ عَلَى فَخَامَةِ الْأَمْرِ.قَالَ النَّوَوِيُّ،قَوْلُهُ ذَا دَمٍ فِيهِ وُجُوهٌ:أَحَدُهَا:مَعْنَاهُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ صَاحِبَ الدَّمِ،لِدَمِهِ مَوْقِعٌ يَشْتَفِي بِقَتْلِهِ قَاتِلُهُ،وَيُدْرِكُ قَاتِلُهُ بِثَأْرِهِ ؛ أَيْ لِرِيَاسَتِهِ وَفَضْلِهِ،وَحُذِفَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَهُ فِي عُرْفِهِمْ،وَثَانِيهَا:إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ مَنْ عَلَيْهِ دَمٌ مَطْلُوبٌ بِهِ،وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ عَلَيْهِ فَلَا عَتْبَ عَلَيْكَ،وَثَالِثُهَا ذَا ذَمٍّ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ ؛ أَيْ:ذَا ذِمَامٍ وَحُرْمَةٍ فِي قَوْمِهِ،وَرَوَاهَا بَعْضُهُمْ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ كَذَلِكَ:قَالَ الْقَاضِي:وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَقْلِبُ الْمَعْنَى،فَإِنَّ احْتِرَامَهُ يَمْنَعُ الْقَتْلَ.قَالَ الشَّيْخُ:وَيُمْكِنُ تَصْحِيحُهَا بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ؛ أَيْ تَقْتُلْ رَجُلًا جَلِيلًا يَحْتَفِلُ قَاتِلُهُ بِقَتْلِهِ،بِخِلَافِ مَا إِذَا قَتَلَ حَقِيرًا مَهِينًا،فَإِنَّهُ لَا فَضِيلَةَ وَلَا يُدْرِكُ بِهِ قَاتِلُهُ ثَأْرَهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَاخْتَارَ الشَّيْخُ التُّورِبِشْتِيُّ،الْوَجْهَ الثَّانِيَ،حَيْثُ قَالَ:الْمَعْنَى إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ مَنْ تَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ بِمَا أَصَابَهُ مِنْ دَمٍ،وَرَآهُ أَوْجَهَ لِلْمُشَاكَلَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ:وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،(وَإِنْ كُنْتَ

تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ):بِالْهَمْزِ وَالنَّقْلِ (تُعْطَ):بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ (مِنْهُ):أَيْ مِنَ الْمَالِ وَهُوَ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ:(مَا شِئْتَ.فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -):أَيْ عَلَى حَالِهِ (حَتَّى كَانَ):أَوْ وَقَعَ (الْغَدُ)،وَفِي نُسْخَةٍ بِالنَّصْبِ ؛ أَيْ كَانَ الزَّمَانُ الْغَدَ («فَقَالَ لَهُ:مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ:إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ.فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ»):قَالَ الطِّيبِيُّ:اسْمُ كَانَ ضَمِيرٌ عَائِدٌ إِلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ حُكْمًا ؛ أَيْ:حَتَّى كَانَ مَا هُوَ عَلَيْهِ ثُمَامَةُ بَعْدَ الْغَدِ («قَالَ لَهُ:مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ:عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ:إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ»):قَالَ الْأَشْرَفُ:فِي تَقْدِيمِ قَوْلِهِ:إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ عَلَى قِسْمَيْهِ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ،وَتَوْسِيطِهِ بَيْنَهُمَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ مَا يُرْشِدُ إِلَى حَذَاقَتِهِ وَحَدْسِهِ،فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى غَضَبَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَدَّمَ فِيهِ الْقَتْلَ تَسْلِيَةً،فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ رَجَا أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْهِ فَقَدَّمَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ قَوْلَهُ:إِنْ تُنْعِمْ:قَالَ الطِّيبِيُّ:وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّهُ لَمَّا نَفَى الظُّلْمَ عَنْ سَاحَتِهِ - ﷺ - وَنَظَرَ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ الْقَتْلَ قَدَّمَهُ،وَحِينَ نَظَرَ إِلَى لُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخَّرَ الْقَتْلَ،وَهَذَا أَدْعَى لِلِاسْتِعْطَافِ وَالْعَفْوِ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة:١١٨] أَقُولُ:وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ:الْمُنَاسِبُ لِلْمُجْرِمِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِذَنْبِهِ،ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ أَوَّلًا،فَلِذَا قَدَّمَ الْقَتْلَ،ثُمَّ يَطْلُبُ الْعَفْوَ وَلَا يَنْسَى الذَّنْبَ،وَلِذَا أَخَّرَهُ فِيمَا بَعْدَهُ،وَحَاصِلُ كَلَامِ الطِّيبِيِّ أَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ كَانَ الْخَوْفُ غَالِبًا عَلَيْهِ،وَفِي الْيَوْمَيْنِ الْآخَرَيْنِ كَانَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ،وَالْإِنَاءُ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيهِ،وَهَذَا يُظْهِرُ وَجْهَ التَّنْظِيرِ بِقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،فَإِنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ غَلَبَةِ الْخَوْفِ أَوَّلًا.أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا} [النحل:١١١] حَتَّى تَقُولَ الْأَنْبِيَاءُ:نَفْسِي نَفْسِي،ثُمَّ لَهُمْ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:أَطْلِقُوا):أَيْ حُلُّوا (ثُمَامَةَ):وَخَلُّوا سَبِيلَهُ (فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ):بِنُونٍ مَفْتُوحَةٍ وَسُكُونِ خَاءٍ مُعْجَمَةٍ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالْجِيمِ ؛ أَيْ مَاءٍ قَلِيلِ النَّبْعِ (قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ) .قَالَ النَّوَوِيُّ قَوْلُهُ:نَخْلٍ هَكَذَا فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ

وَغَيْرِهِمَا بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ،وَتَقْدِيرُهُ انْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ فِيهِ مَـاءٌ فَاغْتَسَـلَ.قَـالَ الْقَاضِـي عِيَاضٌ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:صَوَابُهُ نَجْـلٍ بِـالْجِيمِ وَهُـوَ الْمَـاءُ الْقَلِيـلُ الْمُنْبَعِثُ،وَقِيـلَ الْجَارِي.قُلْتُ:بَلِ الصَّوَابُ الْأَوَّلُ ؛ لِأَنَّ الرِّوَايَاتِ صَحَّتْ بِهِ وَلَمْ تُرْوَ إِلَّا هَكَـذَا.وَهُـوَ صَحِيحٌ فَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُ،(ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ! مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ):بِالنَّصْبِ ؛ أَيْ أَكْثَرَ مَبْغُوضًا (مِنْ وَجْهِكَ،فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ) .

قَالَ الطِّيبِيُّ:وَجْهٌ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ وَجْهٍ وَهُوَ اسْمُ كَانَ،عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَبَرُهُ،وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ:أَحَبَّ الْوُجُوهِ خَبَرُ أَصْبَحَ قَطْعًا،وَقَدْ قُوبِلَ بِهِ،وَلِأَنَّ أَبْغَضَ فِـي الْقَرِينَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ وَقَعَ خَبَرًا لِكَانَ،وَلِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْأَبْغَضِيَّةِ لَا أَنَّ وَجْهَهُ أَبْغَـضُ كَائِنًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،فَإِذَا قُلْنَا:بِجَوَازِ وُقُوعِ الْحَالِ مِنِ اسْمِ كَانَ،فَقَوْلُهُ عَلَـى وَجْـهِ الْأَرْضِ كَانَ صِفَةً لِقَوْلِهِ وَجْهٌ،فَقُدِّمَ فَصَارَ حَالًا،وَإِذَا مَنَعْنَاهُ قُلْنَا إِنَّهُ ظَـرْفُ لَغْـوٍ قُـدِّمَ لِلِاهْتِمَامِ لِيُؤْذِنَ فِي بَدْءِ الْحَالِ بِاهْتِمَامٍ فَصَارَ الْعُمُـومُ وَالشُّـمُولُ كَمَـا فِـي قَوْلِـهِ تَعَالَى:{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} [الزمر:٦٧] («وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِـنْ دِينِكَ،فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ،وَوَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ») .يَعْنِي الْمَدِينَةَ (فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهِ إِلَيَّ،وَإِنَّ خَيْلَـكَ أَخَـذَتْنِي وَأَنَـا أُرِيـدُ الْعُمْرَةَ)،جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ (فَمَاذَا تَرَى) ؟ أَيْ مِنَ الرَّأْيِ فِي حَقِّي (فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -) ؛ أَيْ بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ بِالْإِسْلَامِ،وَأَنَّهُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْآثَامِ (وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ،قَالَ لَهُ قَائِلٌ،أَصَبَوْتَ؟):مِنَ الصَّبْوَةِ وَالصَّبْوُ الْمَيْلُ إِلَى الْجَهْلِ.كَـذَا فِي تَاجِ الْمَصَادِرِ لِلْبَيْهَقِيِّ،وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:أَصَبَأْتَ وَهُوَ مَهْمُوزٌ فَفِي النِّهَايَـةِ:صَـبَأَ فُلَانٌ إِذَا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينِ غَيْرِهِ،وَكَذَا فِـي الْفَـائِقِ.وَفِـي الْمَشَـارِقِ لِلْقَاضِـي عِيَاضٍ.قَوْلُهُ:أَصَبَوْتَ هَكَذَا الرِّوَايَةُ ؛ أَيْ أَصَبَأْتَ،وَقُرَيْشٌ كَانَتْ لَا تَهْمِزُ وَتُسَهِّلُ الْهَمْزَةَ ؛ أَيْ أَخْرَجْتَ عَنْ دِينِكَ؟ وَقَالَ النَّوَوِيُّ:أَصَبَوْتَ هَكَذَا فِي الْأُصُولِ أَصَـبَوْتَ،وَهِيَ لُغَـةٌ وَالْمَشْهُورُ أَصَبَأْتَ بِالْهَمْزِ اهـ.

وَفِيهِ أَنَّ الاعْتِمَادَ عَلَى الْأُصُولِ لَا وَجْهَ مَعَ ثُبُوتِهَا إِلَى الْعُدُولِ،ثُمَّ الْمُتَبَادَرُ مِنْ قَوْلِهِ " وَهِيَ لُغَةٌ " أَنَّهُ لُغَةٌ فِي صَبَأْتَ وَهُوَ غَيْرُ ظَاهِرٍ مَادَّةً وَمَعْنًى،وَالْعَجَبُ مِنَ الطِّيبِي أَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى صَبَأْتَ بِالْهَمْزِ (فَقَالَ:لَا،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -)،فَإِنْ قُلْتَ:كَيْفَ قَالَ:لَا،وَهُوَ قَدْ خَرَجَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ؟ قُلْتُ:هُوَ مِنَ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ كَأَنَّهُ قَالَ:مَا خَرَجْتُ مِنَ الدِّينِ ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى دِينٍ فَأَخْرُجَ مِنْهُ،بَلِ اسْتَحْدَثْتُ دِينَ اللَّهِ،وَأَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.فَإِنْ قُلْتَ:مَعَ يَقْتَضِي إِحْدَاثَ الْمُصَاحَبَةِ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ الْمُصَاحَبَةُ وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ،وَقَدْ قِيلَ:الْفِعْلُ بِهَا فَيَجِبُ الاشْتِرَاكُ فِيهِ،كَذَا نَصَّ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْكَشَّافِ فِي الصَّافَّاتِ.قُلْتُ:لَا يَبْعُدُ ذَلِكَ،فَلَعَلَّهُ - ﷺ - وَافَقَهُ،فَيَكُونُ مِنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ اسْتِدَامَةً وَمِنْهُ اسْتِحْدَاثًا:أَقُولُ:هَذَا لَا يَبْعُدُ عَقْلًا،لَكِنْ يُسْتَبْعَدُ نَقْلًا،فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَنُقِلَ فِيهِ،أَوْ فِي غَيْرِهِ إِلَيْنَا،وَفِي الْمَعِيَّةِ يُكْتَفَى بِالْمُشَارَكَةِ الْفِعْلِيَّةِ،كَمَا فِي قَوْلِ بِلْقِيسَ:{وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل:٤٤]،ثُمَّ جَوَابُ سُؤَالِهِ الْأَوَّلِ مَبْنِيٌّ عَلَى نُسْخَةِ " صَبَأْتَ " لَا عَلَى " صَبَوْتَ " كَمَا لَا يَخْفَى،وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مُرَادَهُمْ مِنْ صَبَأْتَ ؛ أَيْ مِنْ دِينِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ،فَجَوَابُهُ بِلَا مُطَابِقٌ لِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَحَقِيقَةِ الْحَقِّ.(وَلَا):قَالَ الطِّيبِيُّ:لَا يَقْتَضِي مَنْفِيًّا وَالْوَاوُ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ ؛ أَيْ لَا أُوَافِقُكُمْ فِي دِينِكُمْ.وَلَا أَرْفُقُ بِكُمْ فِي هَذِهِ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةِ،ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ:(«وَاللَّهِ لَا تَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .رَوَاهُ مُسْلِمٌ،وَاخْتَصَرَهُ الْبُخَارِيُّ) .فِي الْهِدَايَةِ:وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَاعَ السِّلَاحُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ إِذَا حَضَرُوا مُسْتَأْمَنِينَ،وَلَا يُجَهَّزَ إِلَيْهِمْ مَعَ التُّجَّارِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَحَمْلِهِ إِلَيْهِمْ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:الْمَعْرُوفُ مَا فِي سِيَرِ الْبَيْهَقِيِّ،وَمُسْنَدِ الْبَزَّارِ،وَمُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ،عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ.قَالَ الْبَيْهَقِيُّ:الصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.قَالَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ:وَهُوَ الْقِيَاسُ فِي الطَّعَامِ ؛ أَيِ الْقِيَاسُ فِيهِ أَنْ يُمْنَعَ مِنْ حَمْلِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُ بِهِ التَّقَوِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،وَالْمَقْصُودُ إِضْعَافُهُمْ إِلَّا أَنَّا عَرَفْنَا نَقْلَ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ بِالنَّصِّ يَعْنِي حَدِيثَ ثُمَامَةَ،وَحَدِيثَ أُسَامَةَ،رَوَاهُ

الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،فَذَكَرَ قِصَّةَ إِسْلَامِ ثُمَامَةَ.وَفِي آخِرِهِ قَوْلُهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ:صَبَوْتَ.فَقَالَ:«إِنِّي وَاللَّهِ مَا صَبَوْتُ،وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ مُحَمَّدًا وَآمَنْتُ بِهِ،وَايْمُ اللَّهِ الَّذِي نَفْسُ ثُمَامَةَ بِيَدِهِ لَا تَأْتِيكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ،وَكَانَتْ قَرِيبَ مَكَّةَ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا مُحَمَّدٌ،فَانْصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ،وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جَهَدَتْ قُرَيْشٌ،فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يَحْمِلُ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ،فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ» -.وَذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي آخِرِ السِّيَرِ،وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا:«أَصَبَأْتَ؟ فَقَالَ:لَا وَاللَّهِ وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُ خَيْرَ الدِّينِ دِينِ مُحَمَّدٍ،وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ» - إِلَى أَنْ قَالَ:«فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا،فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَيْهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ» .وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْمَنِّ عَلَى الْكَافِرِ وَإِطْلَاقِهِ بِغَيْرِ مَالٍ.

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَلَا يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَى الْأُسَارَى،وَهُوَ أَنْ يُطْلِقَهُمْ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ بِغَيْرِ شَيْءٍ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ إِذَا رَأَى الْإِمَامُ ذَلِكَ،وَبِقَوْلِنَا قَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَجْهُ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد:٤] وَلِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنَّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ مِنْهُمُ الْعَاصِ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ عَلَى مَا سَيَأْتِي،وَأَجَابَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ بِأَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ سُورَةِ " بَرَاءَةٌ " فَإِنَّهَا تَقْتَضِي عَدَمَ جَوَازِ الْمَنِّ وَهِيَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي هَذَا الشَّأْنِ،وَقِصَّةُ بَدْرٍ كَانَتْ سَابِقَةً عَلَيْهَا.قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ جَوَازُ رَبْطِ الْأَسِيرِ وَحَبْسِهِ وَإِدْخَالِ الْكَافِرِ الْمَسْجِدَ،وَفِيهِ إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ الْإِسْلَامَ يُبَادِرُ بِهِ،وَلَا يُؤَخِّرْهُ لِلِاغْتِسَالِ،وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي تَأْخِيرِهِ،وَمَذْهَبُنَا أَنَّ اغْتِسَالَهُ وَاجِبٌ إِنْ كَانَ عَلَيْهِ جَنَابَةٌ فِي الشِّرْكِ،سَوَاءٌ كَانَ اغْتَسَلَ مِنْهَا أَمْ لَا.وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا:إِنِ اغْتَسَلَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَجْزَأَهُ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جَنَابَةٌ فَالْغُسْلُ مُسْتَحَبٌّ.وَقَالَ أَحْمَدُ وَآخَرُونَ:يَلْزَمُهُ الْغُسْلُ،وَفِي تَكْرِيرِ سُؤَالِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَأْلِيفٌ

لِقَلْبِه،وَمُلَاطَفَةٌ لِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامُهُ مِنَ الْأُسَارَى الَّذِينَ يَتْبَعُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ."[1860]

"ودل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:ذكاء " ثمامة " ورجاحة عقله،وفصاحته وبلاغته العظيمة،التي تجلت في جوابه الحاضر،وسرعة بديهته،فإن ثمامة في جوابه الشافي الكافي قد أحاط بالموضوع من أطرافه،وأجاب عن كل ما يتوقع السؤال عنه في كلمات قصيرة،حيث وصف النبي – ﷺ – بالعدل إذا حكم،وأمل فيه العفو والكرم،ووعده بحفظ الجميل،وصدق الوفاء،واستعد لمفاداة نفسه بالمال،إن طلب منه الفداء،فأعجب النبي – ﷺ – بحسن جوابه،واستدل به على فضله ونبله،فأنعم عليه بإطلاق سراحه دون فداء،مكافأة له على حسن جوابه.ثانياً:فائدة العفو عند المقدرة،فهو أقرب طريق إلى قلوب الرجال."[1861]

والحديث ظاهر الدلالة في مشروعية خطف الكافر المحارب،ثم النظر فيه بعد بحسب المصلحة القائمة .

وفي الفتح:"وفيهِ المُلاطَفَة بِمَن يُرجَى إِسلامه مِنَ الأَسارَى إِذا كانَ فِي ذَلِكَ مَصلَحَة لِلإِسلامِ،ولاسيَّما مَن يَتبَعُهُ عَلَى إِسلامه العَدَد الكَثِير مِن قَومه،وفيهِ بَعث السَّرايا إِلَى بِلاد الكُفّار،وأَسر مَن وُجِدَ مِنهُم،والتَّخيِير بَعد ذَلِكَ فِي قَتله أَو الإِبقاء عَلَيهِ."[1862]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ،فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ،وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ،فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَ:بِمَ أَخَذْتَنِي،وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ:«إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ»،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا،فَرَجَعَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،قَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا

[1860] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٤٨)

[1861] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٣٧٩)

[1862] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٨٨) ونيل الأوطار (٧/ ٣٥٦)

شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي،وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي،قَالَ:«هَذِهِ حَاجَتُكَ»،فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ،قَالَ:وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ،فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ،فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ،فَأَتَتِ الْإِبِلَ،فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ،فَلَمْ تَرْغُ،قَالَ:وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا،ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ،وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ،قَالَ:وَنَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ،فَقَالُوا:الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ:«سُبْحَانَ اللهِ،بِئْسَمَا جَزَتْهَا،نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ،وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ»،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ:«لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[١٨٦٣]

قَالَ قَائِلٌ،يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ:إِنِّي مُسْلِمٌ لِلْخَوْفِ،يُرِيدُ مُسْتَسْلِمًا لَا مُسْلِمًا لِلَّهِ فَقَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا» لَا عَلَى الْخَوْفِ الَّذِي اضْطَرَّكَ إِلَى مَا قُلْتَ،«أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»،فَهَذَا صِدْقٌ كَانَ الْإِكْرَاهُ إِذَا ارْتَفَعَ عَنْهُ،كَانَ إِسْلَامُهُ اخْتِيَارَ اللهِ وَرَغْبَةً فِي تَوْحِيدِ اللهِ،فَأَعْلَمَهُ لَوْ سَبَقَ هَذَا الْقَوْلُ الْإِكْرَاهَ كَانَ إِيمَانًا،فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ سَابِقًا حَتَّى كَانَ الْإِكْرَاهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ،بَلْ كَانَ عَلَى أَنْ يَتَنَاوَلَ بِذَلِكَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ لِقَوْلِهِ ﷺ:«ذَلِكَ الَّذِي طَلَبْتَ»،فَأَبَانَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي ضَمِيرِهِ،لَمَّا أَعْلَمَهُ اللهُ وَكَذَلِكَ يَكُونُ اللهُ أَعْلَمَهُ أَنَّ إِسْلَامَهُ لَيْسَ بِإِسْلَامٍ،فَكَانَ عَلَى كُفْرِهِ الْمُتَقَدِّمِ؛ وَلِذَلِكَ فَدَى بِهِ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ مِنْ سُنَّتِهِ أَلَّا يُفْدِيَ مُسْلِمًا بِمُسْلِمٍ،وَلَوْ كَانَ مُسْلِمًا لَمْ يُمَكِّنْ مِنْهُ الْكُفَّارَ.وَقَالَ آخَرُ:فِي قَوْلِهِ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ» يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ يُرِيدُ لَوْ قُلْتَ:إِنِّي

[١٨٦٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٦٢)٨ - (١٦٤١)

[ش (وأصابوا معه العضباء) أي أخذوها وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (سابقة الحاج) أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك(لو قلتها وأنت تملك أمرك) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء(وناقة منوقة) أي مذللة(ونذروا بها) أي علموا وأحسوا بهربها]

مُسْلِمٌ قَبْلَ أَنْ تُؤْسَرَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ أَيْ دُنْيَا وَآخِرَةً،فَلَمْ تُؤْسَرْ فِي الدُّنْيَا فَتُوثَقْ،وَلَمْ تُعَذَّبْ فِي الْآخِرَةِ إِذَا أَسْلَمْتَ طَوْعًا لَا كَرْهًا،وَأَمَّا إِذَا قُلْتَ:إِنِّي مُسْلِمٌ بَعْدَ الْأَمْرِ فَلَمْ تُفْلِحْ كُلَّ الْفَلَاحِ أَيْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يُخْرِجُكَ مِنَ الرِّقِّ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ إِذْ أُسِرْتَ وَأَنْتَ كَافِرٌ لَا مُسْلِمٌ،إِذْ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَعْلَمُهُ أَنَّ الْأَسِيرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا أَسْلَمَ بَعْدَ الْإِسَارِ،لَا يَصِيرُ حُرًّا بِإِسْلَامِهِ،إِلَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِلْكٌ،فَأَمَّا فِدَاءُ النَّبِيِّ ﷺ الْعُقَيْلِيَّ بِالرَّجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَا فِي يَدَيْ ثَقِيفٍ أَسِيرَيْنِ،فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَطْلَقَهُ مِنَ الْأَسْرِ؛ لِتُطْلِقَ ثَقِيفٌ عَنِ الْأَسِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ لَهُ فِي أَيْدِيهِمْ،فَيَرْجِعَ الثَّقَفِيُّ إِلَيْهِمْ حُرًّا مُسْلِمًا مُطْلَقًا مِنَ الْأَسْرِ وَالْوَثَاقِ،خَارِجًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ،لَا أَنَّ ثَقِيفًا يَمْلِكُونَهُ مِلْكَ رِقٍّ وَهُوَ مُسْلِمٌ،وَهُمْ مُشْرِكُونَ،إِذْ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُرَدَّ مُسْلِمٌ إِلَى الْمُشْرِكِينَ،فَيُسْتَعْبَدُوا فِي دَارِ الشِّرْكِ،وَلَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ،وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْعُقَيْلِيِّ بَعْدَ قَوْلِهِ:إِنِّي مُسْلِمٌ حُكْمَ الْمُشْرِكِينَ،إِذْ كَانَ أَحْكَامُ الدُّنْيَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُ الظَّاهِرِ لَا حُكْمَ الْبَاطِنِ الْمُغَيَّبِ الَّذِي يَتَوَلَّى اللهُ عِلْمَهُ،فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ عِبَادَهُ،أَلَا تَسْمَعُ خَبَرَ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو الْكِنْدِيِّ،وَاسْتِئْذَانَهُ النَّبِيَّ ﷺ فِي قَتْلِ الرَّاجِلِ،بَعْدَ قَوْلِهِ:أَسْلَمْتُ لِلَّهِ،وَتَعْلِيقَ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ،وَقَوْلَهُ:«لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَهُوَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ»،وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ:فِي قَوْلِهِ:«أُخِذْتَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ» إِنَّمَا هُوَ أَنَّ الْمَأْخُوذَ مُشْرِكٌ مُبَاحُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِشِرْكِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ،وَالْعَفْوُ عَنْهُ مُبَاحٌ،فَلَمَّا كَانَ هَكَذَا،لَمْ يُنْكَرْ أَنْ يَقُولَ:«أُخِذْتَ» أَيْ:حُبِسْتَ «بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكُمْ ثَقِيفٍ»،وَلَمَّا كَانَ حَبْسُهُ هَذَا حَلَالًا بِغَيْرِ جِنَايَةِ غَيْرِهِ،وَإِرْسَالُهُ مُبَاحًا،جَازَ أَنْ يُحْبَسَ بِجِنَايَةِ غَيْرِهِ،لَاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ.وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:إِنَّ قَوْلَهُ «أُخِذْتَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ» كَالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مُوَادَعَةٌ أَوْ صُلْحٌ،فَنَقَضَتْ ثَقِيفٌ الْمُوَادَعَةَ أَوِ الصُّلْحَ بِأَسْرِهِمُ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،فَأَبَاحَ النَّبِيُّ ﷺ أَسْرَ الْعُقَيْلِيِّ بِنَقْضِ ثَقِيفٍ الْمُوَادَعَةَ أَوِ الصُّلْحَ،وَتَرَكَ بَنُو عَقِيلٍ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ وَمَنَعَهُمْ مِنْ فِعْلِهِمُ الَّذِي كَانَ نَقَضَ الصُّلْحَ أَوِ الْمُوَادَعَةَ[١٨٦٤]

[١٨٦٤] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٢٠)

قلت:وهذا الحديث فيه مشروعية خطف أفراد من الكفار أو من حلفائهم لتبديلهم بمسلمين وقعوا في أسر العدو .

(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – «أُخِذْت بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكُمْ ثَقِيفٍ» إنَّمَا هُوَ أَنَّ الْمَأْخُوذَ مُشْرِكٌ مُبَاحُ الدَّمِ وَالْمَالِ لِشِرْكِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَالْعَفْوُ عَنْهُ مُبَاحٌ فَلَمَّا كَانَ هَكَذَا لَمْ يُنْكِرْ أَنْ يَقُولَ أُخِذْت أَيْ حُبِسْت بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكُمْ ثَقِيفٌ وَيَحْبِسُهُ بِذَلِكَ لِيَصِيرَ إلَى أَنْ يُخَلُّوا مَنْ أَرَادَ وَيَصِيرُوا إلَى مَا أَرَادَ (قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):وَقَدْ غَلِطَ بِهَذَا بَعْضُ مَنْ يُشَدِّدُ الْوِلَايَةَ فَقَالَ:يُؤْخَذُ الْوَلِيُّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا مُشْرِكٌ يَحِلُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِكُلِّ جِهَةٍ وَقَدْ «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – لِرَجُلَيْنِ مُسْلِمَيْنِ هَذَا ابْنُك؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ أَمَّا إنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْك وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ وَقَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» وَلَمَّا كَانَ حَبْسُ هَذَا حَلَالًا بِغَيْرِ جِنَايَةِ غَيْرِهِ وَإِرْسَالُهُ مُبَاحًا كَانَ جَائِزًا أَنْ يُحْبَسَ بِجِنَايَةِ غَيْرِهِ لِاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيُخْلَى تَطَوُّعًا إذَا نَالَ بِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ حَابِسُهُ"[١٨٦٥]

وهذا الكلام من الإمام الشافعي رحمه الله فيه إشارة ظاهرة إلى أن أسر أفراد من العدو واختطافهم قد يكون وسيلة نافعة بيد المسلمين في الضغط على الكفار،ومساومتهم للوصول إلى ما يحبون أن يصلوا إليه،والله الموفق .

ومن الفوائد في كلام الإمام الشافعي رحمه الله – كذلك– تقريره لمشرعية أسر وخطف كل مشرك ليس بينه وبين المسلمين عهد أو أمان سواء كان محارباً لهم بالفعل أم لا،كما هو صريح في قوله:"وَلَمَّا كَانَ حَبْسُ هَذَا حَلَالًا بِغَيْرِ جِنَايَةِ غَيْرِهِ وَإِرْسَالُهُ مُبَاحًا كَانَ جَائِزًا أَنْ يُحْبَسَ بِجِنَايَةِ غَيْرِهِ لِاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيُخْلَى تَطَوُّعًا إذَا نَالَ بِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ حَابِسُهُ "

وقبل ذلك كله قد قال الشافعي:"إنَّمَا هُوَ أَنَّ الْمَأْخُوذَ مُشْرِكٌ مُبَاحُ الدَّمِ وَالْمَالِ لِشِرْكِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَالْعَفْوُ عَنْهُ مُبَاحٌ "

[١٨٦٥] – الأم للشافعي (٤/ ٢٦٧)

وقد مرَّ معنا في حديث أسر وخطف ثمامة بن أثال رضي الله عنه قبل إسلامه،وفيه "وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ"

فكونه في طريقه للعمرة: لم يمنع من أخذه وإلقائه في أسر المسلمين،ثم التصرف معه وفقا للمصلحة القائمة كما أشرنا من قبل .

وعَنْ جُنْدُب بْنِ مَكيث،قَالَ:" بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ غَالبَ بْنَ عَبْد الله اللَّيْثيَّ،ثُمَّ أَحَدُ بَني كَعْب بْنِ لَيْث بْنِ عَوْف فِي سَرِيَّة،فَكُنْتُ فِيهِمْ،فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشُنُّوا الْغَارَةَ عَلَى بَنِي الْمُلَوَّحِ بِالْكَديد،وَهُمْ منْ بَني لَيْث،فَخَرَجْنَا حَتَّى إذَا كُنَّا بِالْكَديد لَقينَا الْحَارِثَ بْنَ الْبَرْصَاء،وَهُوَ منْ بَني لَيْث،فَأَخَذْنَاهُ،فَقَالَ لَنَا:جئْتُ أُرِيدُ الْإِسْلَامَ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى رَسُول الله ﷺ،قُلْنَا:إنْ تَكُنْ مُسْلمًا فَلَنْ يَضُرَّكَ رِبَاطُنَا يَدَكَ يَوْمًا وَلَيْلَةً،وَإنْ تَكُنْ عَلَى غَيْر ذَلكَ نَسْتَوْثقُ منْكَ،فَشَدَدْنَاهُ وِثَاقًا وَخَلَّفْنَا عَلَيْه رُوَيْجلًا منَّا أَسْوَدَ،فَقُلْنَا:إنْ عَاذَكَ بشَيْءٍ فَاحْتَزَّ رَأْسَهُ،فَسرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا الْكَديدَ عنْدَ غُرُوب الشَّمْس،فَمَكَثْنَا فِي نَاحيَة الْوَادي،فَبَعَثَني أَصْحَابي رَبِيئَةً لَهُمْ،فَخَرَجْتُ حَتَّى آتيَ تَلًّا مُشْرِفًا عَلَى الْحَاضِر مَطْلَعي عَلَيْهِمْ،فَلَمَّا أَسْنَدْتُ فيه عَلَوْتُ عَلَى رَأْسه،ثُمَّ اضْطَجَعْتُ عَلَيْه،فَإِنِّي لَأَنْظُرُ إذْ خَرَجَ رَجُلٌ منْهُمْ منْ خبَائه،فَقَالَ لامْرَأَته:إِنِّي أَرَى عَلَى هَذَا الْجَبَلِ سَوَادًا مَا رَأَيْتُهُ أَوَّلَ منْ يَوْمي هَذَا،فَانْظُري إلَى أَوْعيَتك أَلَّا تَكُونَ الْكلَابُ جَرَّتْ منْهَا شَيْئًا،فَنَظَرَتْ،فَقَالَتْ:وَالله مَا أَفْقدُ منْ أَوْعيَتي شَيْئًا،قَالَ:فَنَاوِليني قَوْسي وَنَبْلي،فَنَاوَلَتْهُ قَوْسَهُ وَسَهْمَيْنِ مَعَهَا،فَأَرْسَلَ سَهْمًا،وَالله مَا أَخْطَأَ بَيْنَ عَيْنَيَّ،فَانْتَزَعْتُهُ وَثَبَتُّ،قَالَ:ثُمَّ أَرْسَلَ سَهْمًا آخَرَ فَوَضَعَهُ فِي مَنْكبِي،فَانْتَزَعْتُهُ وَثَبَتُّ .فَقَالَ لأَمَته:وَالله لَوْ كَانَتْ زَائلَةً،لَقَدْ تَحَرَّكَتْ بَعْدُ،لَقَدْ خَالَطَهَا سَهْمَايَ،فَانْظُريهِمَا لَا أَبَا لَك إذَا أَصْبَحْت لَا يَمْضُغُهَا الْكلَابُ،قَالَ:وَدَخَلَ قَالَ:وَرَاحَت الْمَاشيَةُ منْ إبلهمْ وَأَغْنَامهمْ،قَالَ:فَلَمَّا احْتَلَبُوا وَعَطَنُوا وَاطْمَأَنُّوا،فَنَامُوا شَنَنَّا،وَاسْتَقْنَا النَّعَمَ،وَخَرَجَ صَرِيخُ الْقَوْمِ فِي قَوْمهمْ،فَجَاءَ مَا لَا قبَلَ لَنَا بِه،خَرَجْنَا بهَذَا نَحْدُرُهَا،حَتَّى مَرَرْنَا بابْنِ الْبَرْصَاء،فَاحْتَمَلْنَاهُ وَاحْتَمَلْنَا صَاحبَنَا،فَأَدْرَكَنَا الْقَوْمُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْنَا،مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا الْوَادي،وَنَحْنُ مُوَجِّهُونَ فِي نَاحيَة الْوَادي،إذْ جَاءَ اللهُ بِالْوَادي منْ حَيْثُ شَاءَ يَمْلَأُ جَنْبَتَيْه مَاءً،وَالله مَا رَأَيْنَا يَوْمَئذٍ سَحَابًا وَلَا مَطَرًا،فَجَاءَ مَا لَا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يُجيزَهُ .قَالَ:فَلَقَدْ

رَأَيْتُهُمْ وُقُوفًا يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا،وَقَد اسْتَدَنَّاهَا فِي الْمَسِيلِ نَحْدَرُهُمْ،وَفُتْنَاهُمْ فَوْتًا لَا يَقْــدِرُونَ عَلَى طَلَبِنَا،قَالَ:فَمَا أَنْسَى قَوْلَ رَاجِزٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ:

أَبَى أَبُو الْقَاسِمِ أَنْ تَعَزَّ بِي

فِي خَضِلٍ نَبَاتُهُ مُغْلَوْلِبِ

صُفْرٌ أَعَالِيه كَلَوْن الْمُذْهَبِ

قَالَ:وَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَرْفِ رَجُلٌ،عَنْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ حَدَّثَهُ أَنَّــهُ كَانَ شِعَارُهُمْ يَوْمَئِذ أَمِتْ،أَمِتْ"[١٨٦٦]

قَالَ الإمامُ:فيه دليلٌ على جَوَاز الاستيثاق من الْأَسير الْكَافِر بالرِّبَاط،والغُــلِّ والقيــد إذا خيف انفلاتُه،ولَمْ يُؤمن شرُّه،وَمن وَقع فِي الْأسر من نسَاء أهل الْحَرْب وذراريهم،صَارُوا أرقاء،وَكَانُوا من جملَة الْغَنَائِم،فَأَما الرِّجَال العاقلون البالغون مِنْهُم إِذا وَقَعُوا فِــي الْأســر فالإمام فيهم بالْخِيَار،إِن شَاءَ قَتلهمْ من غيْر أَن يمثل بِهِمْ،وَإِن شَاءَ استرقّهُم،وَإِن شَاءَ منّ عَلَيْهِم،وَإِن شَاءَ فاداهم بالْمَال،أوْ بأسرى الْمُسْلمين،وَإِن وقف بِهِ الرأيُ فيهم،حَبســهم إِلى أَن يرى فيهم رَأْيه،قَالَ الله سُــبْحانهُ وَتَعَــالَى:{وَاقْتُلُــوهُمْ حَيْــثُ ثَقِفْتُمُــوهُمْ} [الْبَقَرَة:١٩١]،أَي وَجَدْتُمُوهُمْ،وَقَالَ الله تَعَالَى:{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الْأَنْفَال:٥٧]،أَي افْعَل بِهِمْ من الْعقُوبَة تخيف من وَرَاءَهُــمْ مِــن أعــدائك فتشردهم وتفرقهم"[١٨٦٧]

لقد تبين لنا مما سبق:أن خطف الكفار الحربيين من الأمور المشروعة في ديننا الحنيف،بل الواجبة عند القدرة عليها،وأن ذلك مما يقرره شرعنا المطهر رأساً،وكان عليه هديُ النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين[١٨٦٨] .

[١٨٦٦] - سنن أبي داود (٣/ ٥٦)(٢٦٧٨) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١٣٥)(٢٥٧١) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٥٨٢)(١٥٩٤) والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥/ ٥٥)(٢٥٩١) والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٧٨)(١٧٢٦) فيه جهالة

[١٨٦٧] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٧٧) وعون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٢٤٣)

[١٨٦٨] - انظر مسائل من فقه الجهاد للمهاجر ص (٢٥٠)

الباب العاشر

مُحَرَّمَاتُ الْجِهَادِ وَمَكْرُوهَاتُهُ

أ – الْقِتَال فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ:

الأَشْهُرُ الْحُرُمُ هِيَ رَجَبٌ،وَذُو الْقَعْدَة،وَذُو الْحِجَّة،وَمُحَرَّمٌ.وَكَانَ الْبَدْءُ بِالْقِتَال فِي هَـذِهِ الأَشْهُرِ فِي أَوَّل الإِسْلاَمِ مُحَرَّمًا بِقَوْله تَعَالَى:{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَـهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:٣٦]،وقَوْله تَعَالَى:{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢١٧].

وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ بَدْءَ الْقِتَال فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ مَنْسُوخٌ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ،وَنَاسِخُهُ قَوْله تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:٥] وَبِغَزْوِهِ ﷺ الطَّائِفَ فِـي ذِي الْقَعْدَةِ.

وَالْقَوْل الآْخَرُ:أَنَّهُ لاَ يَزَال مُحَرَّمًا،وَدَلِيلُهُ ما جاء عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:"لَمْ يَكُنْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى – أَوْ يُغْـزَوْا – فَـإِذَا حَضَـرَ ذَاكَ،أَقَـامَ حَتَّـى يَنْسَلِخَ"[١٨٦٩].

وَأَمَّا الْقِتَال فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ دَفْعًا فَيَجُوزُ إِجْمَاعًا مِنْ غَيْرِ خِلاَفٍ.[١٨٧٠]

[١٨٦٩] – مسند أحمد ط الرسالة (٢٢/ ٤٣٨)(١٤٥٨٣) صحيح

[١٨٧٠] – المبسوط ١٠ / ٢، ٣، ونهاية المحتاج ٨ / ٤٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٠٤، وكشاف القناع ٣ / ٣٧ .

ب – مَنْعُ إِخْرَاجِ الْمُصْحَفِ وَكُتُبِ الشَّرْعِ فِي الْجِهَادِ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ السَّفَرُ بِالْمُصْحَفِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ،وَالْغَزْوُ بِهِ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ،فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوِّ»،قَالَ أَيُّوبُ:«فَقَدْ نَالَهُ الْعَدُوُّ وَخَاصَمُوكُمْ بِهِ»[1871]،وَلِأَنَّ إِخْرَاجَ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِهِ فِي يَدِ الْعَدُوِّ،وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيضٌ لاِسْتِخْفَافِهِمْ بِهِ وَهُوَ حَرَامٌ،فَمَا أَدَّى إِلَيْهِ فَهُوَ حَرَامٌ.وَلَكِنْ لاَ يُكْرَهُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ إِخْرَاجُ الْمُصْحَفِ فِي جَيْشٍ يُؤْمَنُ عَلَيْهِ،وَأَقَلُّهُ عِنْدَ الإِمَامِ أَرْبَعُمِائَةٍ،وَقَال ابْنُ الْهُمَامِ:يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعَسْكَرُ الْعَظِيمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ،وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ،وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ،وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ».[1872]

وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّهُ يَحْرُمُ السَّفَرُ بِالْمُصْحَفِ لِأَرْضِهِمْ وَلَوْ مَعَ جَيْشٍ كَبِيرٍ،وَقَاسَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ عَلَى الْمُصْحَفِ كُتُبَ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ.[1873]

وَإِذَا دَخَل مُسْلِمٌ إِلَيْهِمْ بِأَمَانٍ جَازَ حَمْل الْمُصْحَفِ مَعَهُ إِذَا كَانُوا يُوفُونَ بِالْعَهْدِ؛لأَنَّ الظَّاهِرَ عَدَمُ تَعَرُّضِهِمْ لَهُ.فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمَانٌ،فَإِنَّهُ يَحْرُمُ إِرْسَال الْمُصْحَفِ إِلَيْهِمْ وَلَوْ طَلَبُوهُ لِيَتَدَبَّرُوهُ خَشْيَةَ إِهَانَتِهِمْ لَهُ،وَلاَ يَنْطَبِقُ هَذَا عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ الآْيَةُ وَنَحْوُهَا.[1874]

ج – مَنْ لاَ يَجُوزُ قَتْلُهُ فِي الْجِهَادِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ فِي الْجِهَادِ قَتْل النِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ،وَالْمَجَانِينِ،وَالْخُنْثَى الْمُشْكِل،فعَنْ نَافِعٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَخْبَرَهُ:أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً،«فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[1875].

[1871] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٩١)٩٤ – (١٨٦٩)

[1872] – سنن أبي داود (٣/ ٣٦)(٢٦١١) صحيح

[1873] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٣، ٢٢٤، والمبسوط ١٠ / ٢٩، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨، والمغني ١ / ١٤٩، ٨ / ٣٦٧ .

[1874] -ابن عابدين ٣ / ٢٢٤، والدسوقي ٢ / ١٧٨ .

[1875] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٤ – (١٧٤٤)

وَكَذَلِكَ لاَ يَجُوزُ قَتْل الشُّيُوخِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،وَبِهِ قَال مُجَاهِدٌ ؛فعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:كُنْتُ أَحْمِلُ سُفْرَةَ أَصْحَابِي،وَكُنَّا إِذَا اسْتُنفِرْنَا نَزَلْنَا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ،حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَ:انْطَلِقُوا بِسْمِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ تُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا[1876] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ:{وَلَا تَعْتَدُوا} [البقرة:١٩٠] يَقُولُ:«لَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا مَنْ أَلْقَى السَّلَمَ،وَكَفَّ يَدَهُ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ هَذَا فَقَد اعْتَدَيْتُمْ» وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ نَحْوُ ذَلِكَ،إِلَّا قَوْلُهُ:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:٩٤][1877]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى النَّفَرَ الَّذِينَ بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيقِ بِخَيْبَرَ لِيَقْتُلُوهُ،فَنَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.[1878]

وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.وَلأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْقِتَال فَلاَ يُقْتَل كَالْمَرْأَةِ،وَقَدْ أَوْمَأَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْعِلَّةِ فِي الْمَرْأَةِ الَّتِي وُجِدَتْ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ،فعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ،فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ وَالنَّاسُ عَلَيْهَا،فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ،أَدْرِكْ خَالِدًا،فَقُلْ لَهُ:لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا».[1879]

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَظْهَرِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ:يَجُوزُ قَتْل الشُّيُوخِ؛لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥]،عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ،وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُمْ»[1880] .

[1876] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) صحيح

[1877] - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (١/ ٣٢٥)(١٧٢١) حسن

[1878] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٤٤٧)(٣٨٠٥٣) صحيح مرسل

[1879] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١١٢) (٤٧٩١) صحيح

[1880] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٤٥)(١٥٨٣) حسن

الشيوخ الرجال القادرون على حمل السلاح، و لم يرد الهرمى، والشرخ الصغار الذين لم يدركوا،فهؤلاء لايجوز قتلهم

وَلِأَنَّهُمْ أَحْرَارٌ مُكَلَّفُونَ فَجَازَ قَتْلُهُمْ كَغَيْرِهِمْ.وَالْخِلاَفُ فِي قَتْل الزَّمِنِ وَالأَعْمَى وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمَا كَيَابِسِ الشِّقِّ،وَمَقْطُوعِ الْيُمْنَى،أَوِ الْمَقْطُوعِ مِنْ خِلاَفٍ،كَالْخِلاَفِ فِي الشَّيْخِ.[1881]

وَلاَ يُقْتَل الرَّاهِبُ فِي صَوْمَعَتِهِ،وَلاَ أَهْل الْكَنَائِسِ الَّذِينَ لاَ يُخَالِطُونَ النَّاسَ،فَإِنْ خَالَطُوا قُتِلُوا كَالْقِسِّيسِ،وَلاَ سَائِحٌ فِي الْجِبَال لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ.وَالَّذِي يُجَنُّ وَيُفِيقُ،يُقْتَل فِي حَال إِفَاقَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُقَاتِل.[1882]

وَصَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِأَنَّ الْمَرِيضَ يُقْتَل إِذَا كَانَ مِمَّنْ لَوْ كَانَ صَحِيحًا قَاتَل؛لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الإِجْهَازِ عَلَى الْجَرِيحِ،إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَأْيُوسًا مِنْ بُرْئِهِ،فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الزَّمِنِ لاَ يُقْتَل؛لِأَنَّهُ لاَ يَخَافُ مِنْهُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى حَالٍ يُقَاتِل فِيهَا.

وَكَذَلِكَ الْفَلاَّحُ الَّذِي لاَ يُقَاتِل،وَبِهِ قَال الأَوْزَاعِيُّ،فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْفَلَّاحِينَ الَّذِينَ لَا يَنْصُبُونَ لَكُمُ الْحَرْبَ»[1883]

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يُقْتَل،لِدُخُولِهِ فِي عُمُومِ الْمُشْرِكِينَ.[1884]

وَصَرَّحَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ قَتْل رَسُول الْكُفَّارِ.[1885]

وَيَجُوزُ قَتْل مَنْ قَاتَل مِمَّنْ ذَكَرْنَا وَلَو امْرَأَةً؛فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،وَالْحَارِثِ بْنِ مُحَمَّدٍ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ،عَنِ الْوَاقِدِيِّ،أَنَّهُمْ قَالُوا:إِنَّ خَلَّادَ بْنَ سُوَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْخَزْرَجِيَّ دَلَّتْ عَلَيْهِ فُلَانَةُ،امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ،رَحًا فَشَدَخَتْ رَأْسَهُ،فَذُكِرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ ".فَقَتَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا ذُكِرَ،وَكَانَ خَلَّادُ بْنُ سُوَيْدٍ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَأُحُدًا،وَالْخَنْدَقَ،وَبَنِي قُرَيْظَةَ ".[1886]

[1881] - البدائع ٧ / ١٠١، وابن عابدين ٣ / ٢٢٤، ٢٢٥، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٦، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، والمغني ٨ / ٤٧٧ .

[1882] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٥، والبدائع ٧ / ١٠١ .

[1883] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨١)(٢٦٢٥) حسن

[1884] - المغني ٨ / ٤٧٨، ٤٧٩ .

[1885] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٤٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤ .

[1886] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤١)(١٨١٠٩) فيه انقطاع

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَلاَ نَعْلَمُ فِي ذَلكَ خلاَفًا،وَبه قَال الأَوْزَاعيُّ،وَالثَّوْريُّ وَاللَّيْثُ؛فعَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الأَنْصَاريِّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى امْرَأَة مَقْتُولَة،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:مَنْ قَتَلَ هَذه،فَقَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ الله،أَرْدَفْتهَا خَلْفِي فَأَرَادَتْ قَتْلي فَقَتَلْتهَا،فَأَمَرَ بهَا فَدُفنَتْ.[1887]

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:سَبَى رَجُلٌ امْرَأَةً يَوْمَ خَيْبَرَ،فَحَمَلَهَا خَلْفَهُ فَنَازَعَتْهُ قَائمَ سَيْفه،فَقَتَلَهَا،فَأَبْصَرَهَا رَسُولُ الله ﷺ،فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ هَذه ؟ فَأَخْبَرُوهُ،فَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاء.[1888]

وعَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي غَزْوَة فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمعينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَة قَتيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذه لتُقَاتلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَة خَالدُ بْنُ الْوَلِيد فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لخَالد لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسيفًا».[1889]

وَكَذَلكَ يُقْتَل كُلٌّ منْ هَؤُلاَءِ إذَا كَانَ مَلكًا،أَوْ ذَا رَأْيٍ يُعينُ فِي الْحَرْبِ؛لأَنَّ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّة قُتل يَوْمَ حُنَيْنٍ وَهُوَ شَيْخٌ لاَ قتَال فيه،وَكَانُوا خَرَجُوا به يَتَيَمَّنُونَ به وَيَسْتَعينُونَ برَأْيه،فَلَمْ يُنْكر النَّبيُّ ﷺ قَتْلَهُ،فعنْ أَبِي مُوسَى رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ منْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ،فَلَقيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّة،فَقُتلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ،قَالَ أَبُو مُوسَى:وَبَعَثَني مَعَ أَبِي عَامرٍ،فَرُميَ أَبُو عَامرٍ في رُكْبَته،رَمَاهُ جُشَميٌّ بسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ في رُكْبَته،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْه فَقُلْتُ:يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ:ذَاكَ قَاتلي الَّذي رَمَاني،فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحقْتُهُ،فَلَمَّا رَآني وَلَّى،فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ:أَلاَ تَسْتَحْيي،أَلاَ تَثْبُتُ،فَكَفَّ،فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بالسَّيْف فَقَتَلْتُهُ،ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي عَامرٍ:قَتَلَ اللَّهُ صَاحبَكَ،قَالَ:فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا منْهُ المَاءُ،قَالَ:يَا ابْنَ أَخي أَقْرِئْ النَّبيَّ ﷺ السَّلاَمَ،وَقُلْ لَهُ:اسْتَغْفرْ لي.وَاسْتَخْلَفَني أَبُو عَامرٍ عَلَى النَّاس،فَمَكُثَ يَسيرًا ثُمَّ مَاتَ،فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ في بَيْته عَلَى سَريرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْه فرَاشٌ،قَدْ أَثَّرَ رمَالُ

[1887] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٦)(٣٣٧٩٧) صحيح

[1888] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٤٤٧)(٣٨٠٥٢) حسن

[1889] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٩) صحيح

السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ،فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ،وَقَالَ:قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي،فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ،ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَـــامِرٍ».وَرَأَيْـــتُ بَيَـــاضَ إِبْطَيْـــهِ،ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِـــنْ خَلْقِـــكَ مِـــنَ النَّـــاسِ».فَقُلْـــتُ:وَلِـــي فَاسْتَغْفِرْ،فَقَالَ:«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ،وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا»[١٨٩٠]

وَلِأَنَّ الرَّأْيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعُونَةِ فِي الْحَرْبِ.

أَمَّا الأَخْرَسُ وَالأَصَمُّ،وَأَقْطَعُ الْيَدِ الْيُسْرَى،أَوْ إِحْدَى الرِّجْلَيْنِ فَيُقْتَل؛لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَاتِـــلَ رَاكِبًا.[١٨٩١]

وَلَوْ قَتَل مَنْ لاَ يَحِل قَتْلُهُ مِمَّنْ ذُكِرَ،فَعَلَيْهِ التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ فَقَطْ كَسَائِرِ الْمَعَاصِـــي،وَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ دِيَةٍ وَلاَ كَفَّارَةٍ؛لِأَنَّ دَمَ الْكَافِرِ لاَ يَتَقَوَّمُ إِلاَّ بِالأَمَانِ،وَلَمْ يُوجَدْ.[١٨٩٢]

فَإِنَّ نَفْعَ الْجِهَادِ عَامٌّ لِفَاعِلِهِ وَلِغَيْرِهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَمُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ فَإِنَّهُ مُشْتَمِلٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَتَسْـــلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ لَهُ وَالصَّبْرِ وَالزُّهْدِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ:عَلَى مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَمَلٌ آخَرُ.وَالْقَائِمُ بِهِ مِنْ الشَّخْصِ وَالْأُمَّةِ بَيْنَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ دَائِمًا.إمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَـــرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالْجَنَّةُ.فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَحْيَا وَمَمَاتٍ فَفِيهِ اسْـــتِعْمَالُ مَحْيَـــاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ فِي غَايَةِ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ ذَهَابُ السَّعَادَتَيْنِ أَوْ نَقْصُهُمَا؛ فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّدِيدَةِ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا مَعَ قِلَّةِ مَنْفَعَتِهَا فَالْجِهَادُ أَنْفَعُ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَدِيدٍ وَقَدْ يَرْغَبُ فِي تَرْفِيهِ نَفْسِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ الْمَوْتُ فَمَـــوْتُ

[١٨٩٠] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٥)(٤٣٢٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٣)١٦٥ - (٢٤٩٨)

[ش(أوطاس) اسم واد في ديار هوزان وهو موضع حرب حنين وأوطاس جمع وطيس والوطيس نقرة من الحجر توقد حولها النار فيطبخ به اللحم والوطيس أيضا التنور ويكنى بها عن الحرب فيقال حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب.(جمشي) من بني جشم.(فأثبته) أي أثبت السهم.(تستحي) من الفرار.(فاختلفنا ضربتين) أي ضرب كل منا الآخر ضربة صائبة.(استخلفني) جعلني أميرا عليهم من بعده.(سرير مرمل) منسوج بحبل ونحوه من الرمال وهي حبال الحصير التي تضفر بها الأسرة.(بياض إبطيه) مكان الشعر تحت المنكبين وظهروه كناية عن المبالغة برفع اليدين]

[١٨٩١] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٤ وما بعدها، وفتح القدير ٥ / ٢٠١ وما بعدها، والمدونة ٣ / ٦، والدسوقي ٢ / ١٧٦ .

[١٨٩٢] - المراجع السابقة .

الشَّهِيدِ أَيْسَرُ مِنْ كُلِّ مِيتَةٍ وَهِيَ أَفْضَلُ الْمِيتَاتِ.وَإِذَا كَانَ أَصْلُ الْقِتَالِ الْمَشْرُوعِ هُوَ الْجِهَادُ وَمَقْصُودُهُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ هَذَا قُوتِلَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْمُمَانَعَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالرَّاهِبِ وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْأَعْمَى وَالزَّمِنِ وَنَحْوِهِمْ فَلَا يُقْتَلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ؛ إلَّا أَنْ يُقَاتِلَ بِقَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَرَى إبَاحَةَ قَتْلِ الْجَمِيعِ لِمُجَرَّدِ الْكُفْرِ؛ إلَّا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ؛ لِكَوْنِهِمْ مَالًا لِلْمُسْلِمِينَ.وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ هُوَ لِمَنْ يُقَاتِلُنَا إذَا أَرَدْنَا إظْهَارَ دِينِ اللَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة:١٩٠].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا»[١٨٩٣] .

وَفِيهَا عَنْ خَالِدِ بْنِ الْفِزْرِ،حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ،وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً،وَلَا تَغُلُّوا،وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ،وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».[١٨٩٤]

وعَنْ خَالِدِ بْنِ الْفَزْرِ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،قَالَ:كُنْتُ أَحْمِلُ سَفْرَةَ أَصْحَابِي،وَكُنَّا إِذَا اسْتُنفِرْنَا نَزَلْنَا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ،حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَ:انْطَلِقُوا بِسْمِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ تُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا.[١٨٩٥]

وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَ مِنْ قَتْلِ النُّفُوسِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي صَلَاحِ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:٢١٧].أَيْ أَنَّ الْقَتْلَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَرٌّ وَفَسَادٌ فَفِي فِتْنَةِ الْكُفَّارِ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ،فَمَنْ لَمْ يَمْنَعْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إقَامَةِ دِينٍ

[١٨٩٣] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٩) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١١٢)(٤٧٩١) صحيح

[١٨٩٤] - سنن أبي داود (٣/ ٣٨)(٢٦١٤) حسن

[١٨٩٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) حسن

للَّه لَمْ تَكُنْ مَضَرَّةَ كُفْرِه إلَّا عَلَى نَفْسه؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ:إنَّ الدَّاعِيَةَ إلَى الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّة يُعَاقَبُ بِمَا لَا يُعَاقَبُ بِه السَّاكِتُ.

وَجَاءَ فِي الْحَدِيث عَنْ بِلَال بْنِ سَعْد قَالَ:«إنَّ الْخَطِيئَةَ إذَا أُخْفِيتْ لَمْ تَضُرَّ إلَّا أَهْلَهَا،وَإِذَا أُظْهِرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّت الْعَامَّةَ»[١٨٩٦].

وَلِهَذَا أَوْجَبَتْ الشَّرِيعَةُ قِتَالَ الْكُفَّار وَلَمْ تُوجِبْ قَتْلَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ؛ بَلْ إذَا أُسِرَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْقِتَالِ أَوْ غَيْرِ الْقِتَالِ مِثْلَ أَنْ تُلْقِيَهُ السَّفِينَةُ إلَيْنَا أَوْ يَضِلَّ الطَّرِيقَ أَوْ يُؤْخَذَ بِحِيلَة فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِيه الْإِمَامُ الْأَصْلَحَ مِنْ قَتْله أَوْ اسْتِعْبَادَهُ أَوْ الْمَنَّ عَلَيْه أَوْ مُفَادَاتَهُ بِمَالِ أَوْ نَفْسٍ عِنْد أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْه الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.وَإِنْ كَانَ مِنْ الْفُقَهَاءِ مَنْ يَرَى الْمَنَّ عَلَيْه وَمُفَادَاتَهُ مَنْسُوخًا.[١٨٩٧]

د – قَتْل الْقَرِيب:

اخْتَلَفَت آرَاءُ الْفُقَهَاءِ فِي قَتْل الْقَرِيب أَثْنَاءَ الْمُحَارَبَة مَعَ الْكُفَّار:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَحِل لِلْفَرْعِ أَنْ يَبْدَأَ بِقَتْل أَصْله الْمُشْرِك،بَل يَشْغَلُهُ بِالْمُحَارَبَة؛لِقَوْله تَعَالَى:{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان:١٥]،وَلأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْه إِحْيَاؤُهُ بِالإِنْفَاق عَلَيْه فَيُنَاقِضُهُ الإِطْلاَقُ فِي إِفْنَائِه،فَإِنْ أَدْرَكَهُ امْتَنَعَ عَلَيْه حَتَّى يَقْتُلَهُ غَيْرُهُ؛لأَنَّ الْمَقْصُودَ يَحْصُل بِغَيْرِه مِنْ غَيْر اقْتِحَامه الْمَأْثَمَ.وَأَمَّا إِنْ قَصَدَ الأَبُ قَتْلَهُ بِحَيْثُ لاَ يُمْكِنُهُ دَفْعَهُ إِلاَّ بِقَتْله فَلاَ بَأْسَ بِه؛لأَنَّ مَقْصُودَهُ الدَّفْعُ وَهُوَ يَجُوزُ مُطْلَقًا،وَلأَنَّهُ لَوْ شَهَرَ الأَبُ الْمُسْلِمُ سَيْفَهُ عَلَى ابْنِه،وَلاَ يُمْكِنُهُ دَفْعُهُ إِلاَّ بِقَتْله،يَقْتُلُهُ،فَهَذَا أَوْلَى[١٨٩٨].

وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّهُ يُكْرَهُ تَنْزِيهًا لِغَازٍ أَنْ يَقْتُل قَرِيبَهُ؛لأَنَّ فِيه نَوْعًا مِنْ قَطْعِ الرَّحِم،وَقَتْل قَرِيبٍ مَحْرَمٍ أَشَدُّ كَرَاهَةً؛لأَنَّهُ ﷺ مَنَعَ أَبَا بَكْرٍ مِنْ قَتْل ابْنِه عَبْد الرَّحْمَنِ يَوْمَ أُحُدٍ.إِلاَّ أَنْ يَسْمَعَهُ يَسُبُّ اللَّهَ تَعَالَى،أَوْ يَذْكُرَهُ أَوْ يَذْكُرَ رَسُول اللَّه ﷺ أَوْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ بِسُوءٍ،فَإِذَا

[١٨٩٦] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٢٢) صحيح مقطوع

[١٨٩٧] – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٣)

[١٨٩٨] – البدائع ٧ / ١٠١، وفتح القدير ٥ / ٢٠٣، وابن عابدين ٣ / ٢٢٥ .

سَمِعَ ذَلِكَ أَوْ عَلِمَهُ مِنْهُ فَلاَ كَرَاهَةَ حِينَئِذٍ فِي قَتْلِهِ تَقْدِيمًا لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقِّ أَنْبِيَائِهِ،وَإِلَيْهِ مَال الْحَنَفِيَّةُ أَيْضًا؛لأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَتَل أَبَاهُ،فعَنْ مَالِكِ بْنِ عُمَيْرٍ الْحَنَفِيِّ،قَالَ:"جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَقِيتُ الْعَدُوَّ وَلَقِيتُ أَبِي مِنْهُمْ،فَسَمِعْتُ مِنْهُ لَكَ حَدِيثًا مَقَالَةً قَبِيحَةً فَطَعَنْتُهُ بِالرُّمْحِ فَقَتَلْتُهُ،فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ جَاءَ آخِرُ فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي لَقِيتُ أَبِي فَتَرَكْتُهُ فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَلِيَهُ غَيْرِي،قَالَ:فَسَكَتَ عَنْهُ ".[1899]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَوْذَبٍ،قَالَ:"جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ يَنْصِبُ الْآلِهَةَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ،فَلَمَّا أَكْثَرَ الْجَرَّاحُ قَصَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ:{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:٢٢].[1900]

هـ - الْغَدْرُ،وَالْغُلُول،وَالْمُثْلَةُ:

صَرَّحَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ يَحْرُمُ فِي الْجِهَادِ الْغَدْرُ وَالْغُلُول،وَالتَّمْثِيل بِالْقَتْلَى،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا أَوْصَى أَمِيرَهُمْ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1901].

وَالْغُلُول فِي الْجِهَادِ الْخِيَانَةُ فِي الْمَغْنَمِ بِأَنْ يُخْفِيَ مَا وَقَعَ فِي يَدِهِ،فَلاَ يَحِل لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ لِنَفْسِهِ مِمَّا غَنِمَ شَيْئًا،خَيْطًا فَمَا فَوْقَهُ،بَل يَضُمُّهُ إِلَى الْمَغَانِمِ.

[1899] - المراسيل لأبي داود (ص:٢٤٥)(٣٢٨) صحيح مرسل

[1900] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٤٦)(١٧٨٣٥) صحيح مرسل وانظر ابن عابدين ٣ / ٢٢٥، ٢٢٦، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤ وما بعدها، والمهذب ٢ / ٢٣٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٣ .

[1901] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢٠٤)(٦٥٠١) صحيح وهو في مسلم مطولا

وَأَمَّا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ وَعَلَفِ الدَّوَابِّ وَالسِّلاَحِ،فَهُوَ جَائِزٌ عِنْدَ الْحَاجَةِ.[1902]
وَالْغَدْرُ:الْخِيَانَةُ وَنَقْضُ الْعَهْدِ.
وَكُل ذَلِكَ مُحَرَّمٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } [المائدة:١]،وقَوْلِهِ تَعَالَى:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤]،لَكِنْ إِنْ نَقَضَ الْكُفَّارُ الْعَهْدَ جَازَ قِتَالُهُمْ مِنْ غَيْرِ نَبْذٍ إِلَيْهِمْ،أَمَّا إِنْ بَدَتْ مِنَ الْكُفَّارِ أَمَارَاتُ نَقْضِ الْعَهْدِ جَازَ نَبْذُ الْعَهْدِ إِلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) } [الأنفال]وَفِي الْمَسْأَلَةِ تَفْصِيلٌ.[1903]
أَمَّا الْمُثْلَةُ فَهِيَ الْعُقُوبَةُ الشَّنِيعَةُ مِنْ مِثْلِ قَطْعِ الأَنْفِ،وَالأُذُنِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَهِيَ مَا كَانَتِ ابْتِدَاءً عَلَى غَيْرِ جَزَاءٍ،وَلَكِنْ لَوْ أَنَّ شَخْصًا جَنَى عَلَى قَوْمٍ جِنَايَاتٍ فِي أَعْضَاءٍ مُتَعَدِّدَةٍ،فَاقْتُصَّ مِنْهُ،لَمَا كَانَ التَّشْوِيهُ الَّذِي حَصَل لَهُ مِنَ الْمُثْلَةِ.
وَحَاصِل هَذَا أَنَّ الْمُثْلَةَ بِمَنْ مَثَّل جَزَاءٌ،ثَابِتٌ وَفِيهِ خِلاَفٌ وَتَفْصِيلٌ،وَالْمُثْلَةُ بِمَنِ اسْتَحَقَّ الْقَتْل لاَ عَنْ مُثْلَةٍ لاَ تَحِل.وَتَأْسِيسًا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ بَأْسَ بِحَمْل رَأْسِ الْمُشْرِكِ لَوْ فِيهِ غَيْظُهُمْ وَفِيهِ فَرَاغُ قُلُوبِنَا بِانْدِفَاعِ شَرِّهِ.
وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حَمْل رُءُوسِ قَتْلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرَ بَيْنَ مُجِيزٍ وَمُحَرِّمٍ،يُنْظَرُ تَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ:(مُثْلَةٌ).[1904]

و – تَحْرِيقُ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ،وَتَغْرِيقُهُ بِالْمَاءِ،وَرَمْيُهُ بِالْمَنْجَنِيقِ:

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:إِذَا قَدَرَ عَلَى الْعَدُوِّ فَلاَ يَجُوزُ تَحْرِيقُهُ بِالنَّارِ بِغَيْرِ خِلاَفٍ؛لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَال:بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْثٍ فَقَال:«إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا

[1902] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٤، ٢٥٥، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٩، والمغني ٨ / ٤٩٤ .

[1903] – المغني ١٠ / ٥١٦ – ٥٢٢ – ط المنار الأولى .

[1904] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٥، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٤، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٥٠، والمغني ٨ / ٤٩٤ .

فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ:«إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ،فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا».[1905]

فَأَمَّا رَمْيُهُمْ قَبْل أَخْذهمْ بِالنَّارِ،فَإِنْ أَمْكَنَ أَخْذُهُمْ بِدُونِهَا لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ بِهَا؛لِأَنَّهُمْ فِي مَعْنَى الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ،وَأَمَّا عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْهُمْ بِغَيْرِهَا فَجَائِزٌ فِي قَوْل أَكْثَرِ أَهْل الْعِلْمِ،وَبِه قَال الثَّوْرِيُّ،وَالأَوْزَاعِيُّ،وَالْحَنَابِلَةُ،وَكَذَلِكَ لاَ يَجُوزُ عِنْدَهُمْ تَغْرِيقُ الْعَدُوِّ بِالْمَاءِ،إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِه.[1906]

وَأَمَّا حِصَارُ الْقِلاَعِ:

فَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ:يَجُوزُ حِصَارُ الْكُفَّارِ فِي الْبِلاَدِ وَالْقِلاَعِ،وَإِرْسَال الْمَاءِ عَلَيْهِمْ،وَقَطْعُهُ عَنْهُمْ،وَرَمْيُهُمْ بِنَارٍ وَمَنْجَنِيقٍ وَغَيْرِهِمَا؛لِقَوْلِه تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥] وَلِأَنَّهُ ﷺ حَاصَرَ أَهْل الطَّائِفِ،وَرَمَاهُمْ بِالْمَنْجَنِيقِ.

فعن الْوَاقِدِيِّ عَنْ شُيُوخِه،قَالُوا:شَاوَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ فِي حِصْنِ الطَّائِفِ،فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ:يَا رَسُولَ الله! أَرَى أَنْ تَنْصِبَ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى حِصْنِهِمْ فَإِنَّا كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ فنصب الْمَنْجَنِيقَات عَلَى الْحُصُونِ،وَتُنْصَبُ عَلَيْنَا،فَنُصِيبُ مِنْ عَدُوِّنَا،وَيُصِيبُ مِنَّا بِالْمَنْجَنِيقِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَنْجَنِيقٌ طَالَ الثَّوَاءُ فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَعَمِلَ مَنْجَنِيقًا بِيَدِه،فَنَصَبَهُ عَلَى حِصْنِ الطَّائِفِ،وَيُقَالُ:قَدِمَ بِالْمَنْجَنِيقِ يَزِيدُ بْنُ زَمْعَةَ وَدَبَّابَتَيْنِ،وَيُقَالُ:الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،وَيُقَالُ:خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ،قَالَ:فَأَرْسَلَتْ عَلَيْهِمْ ثَقِيفٌ سِكَكَ الْحَدِيدِ مُحْمَاةً بِالنَّارِ فَحَرَّقَت الدَّبَّابَةَ فَأَمَرَ رسول الله ﷺ بِقَطْعِ أَعْنَابِهِمْ وَتَحْرِيقِهَا،فَنَادَى سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ الله الثَّقَفِيُّ لِمَ تَقْطَعُ أَمْوَالَنَا؟ إِمَّا أَنْ تَأْخُذَهَا إِنْ ظَهَرْتَ عَلَيْنَا،وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:فَإِنِّي أَدَعُهَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ،فَتَرَكَهَا.[1907]

[1905] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٦)

[1906] - المغني ٨ / ٤٤٨، ٤٤٩ .

[1907] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٥/ ١٦١) ضعيف

وَقِيسَ بِهِ مَا فِي مَعْنَاهُ مِمَّا يَعُمُّ بِهِ الْهَلاَكُ،وَوَافَقَ أَحْمَدُ الْحَنَفِيَّةَ وَالشَّافِعِيَّةَ فِي جَوَازِ رَمْيِهِمْ بِالْمَنْجَنِيقِ مَعَ الْحَاجَةِ وَعَدَمِهَا،[1908] وَبِهِ قَال الثَّوْرِيُّ وَالأَوْزَاعِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ.

وَفَصَّل الْمَالِكِيَّةُ الْقَوْل فَقَالُوا:يُقَاتِل الْعَدُوَّ بِالْحِصْنِ بِغَيْرِ تَحْرِيقٍ وَتَغْرِيقٍ إِذَا كَانُوا مَعَ مُسْلِمِينَ،أَوْ ذُرِّيَّةٍ أَوْ نِسَاءٍ،وَلَمْ يَخَفْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَيُرْمَوْنَ بِالْمَنْجَنِيقِ،وَلَوْ مَعَ ذُرِّيَّةٍ،أَوْ نِسَاءٍ،أَوْ مُسْلِمِينَ.[1909] وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْغَرَقِ لَمْ يَجُزْ إِذَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ إِتْلاَفُ النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ الَّذِينَ يَحْرُمُ إِتْلاَفُهُمْ قَصْدًا،وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ إِلاَّ بِهِ جَازَ.[1910]

وَإِذَا حَاصَرَ الإِمَامُ حِصْنًا لَزِمَتْهُ مُصَابَرَتُهُ،وَلاَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ إِلاَّ فِي إِحْدَى الْحَالاَتِ الآْتِيَةِ:

١ - أَنْ يُسَلِّمُوا فَيُحْرِزُوا بِالإِسْلاَمِ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ؛فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ».[1911]

٢ - أَنْ يَبْذُلُوا مَالاً عَلَى الْمُوَادَعَةِ،فَيَجُوزُ قَبُولُهُ مِنْهُمْ،سَوَاءٌ أَعْطَوْهُ جُمْلَةً،أَوْ جَعَلُوهُ خَرَاجًا مُسْتَمِرًّا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ كُل عَامٍ،فَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ تُقْبَل مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ فَبَذَلُوهَا لَزِمَهُ قَبُولُهَا؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩].

وَإِنْ بَذَلُوا مَالاً عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْجِزْيَةِ فَرَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي قَبُولِهِ قَبِلَهُ،وَلاَ يَلْزَمُهُ قَبُولُهُ إِذَا لَمْ يَرَ الْمَصْلَحَةَ فِي ذَلِكَ.[1912]

٣ - أَنْ يَفْتَحَهُ.

[1908] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٣، وفتح القدير ٥ / ١٩٧، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣، والمغني ٨ / ٤٤٨، ٤٤٩ .

[1909] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٧، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣ .

[1910] - المغني ٨ / ٤٤٨ .

[1911] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤١٣)(٣٤٢٤) صحيح

[1912] - المراجع السابقة .

٤ – أَنْ يَرَى الْمَصْلَحَةَ فِي الانْصِرَافِ عَنْهُ،إِمَّا لِضَرَرِ الإِقَامَةِ،وَإِمَّا لِلْيَأْسِ مِنْهُ،وَإِمَّا لِمَصْلَحَةٍ يَنْتَهِزُهَا،تَفُوتُ بِإِقَامَتِهِ،فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ؛لِمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ،فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئًا،قَالَ:«إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ،وَقَالُوا:نَذْهَبُ وَلاَ نَفْتَحُهُ،وَقَالَ مَرَّةً:«نَقْفُلُ».فَقَالَ:«اغْدُوا عَلَى القِتَالِ».فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ،فَقَالَ:«إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».فَأَعْجَبَهُمْ،فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ "[1913]

٥ – أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ حَاكِمٍ،فَيَجُوزُ ؛فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ أُنَاسًا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ،فَلَمَّا بَلَغَ قَرِيبًا مِنَ المَسْجِدِ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:« قُومُوا إِلَى خَيْرِكُمْ،أَوْ سَيِّدِكُمْ».فَقَالَ:«يَا سَعْدُ إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ».قَالَ:فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ،قَالَ:"حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ،أَوْ:بِحُكْمِ المَلِكِ ".[1914]

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ حُرًّا مُسْلِمًا عَاقِلاً بَالِغًا ذَكَرًا عَدْلاً فَقِيهًا كَمَا يُشْتَرَطُ فِي حَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَعْمَى؛لِأَنَّ عَدَمَ الْبَصَرِ لاَ يَضُرُّ هُنَا؛لِأَنَّ الْمَقْصُودَ رَأْيُهُ وَمَعْرِفَةُ الْمَصْلَحَةِ،وَلاَ يَضُرُّ عَدَمُ الْبَصَرِ فِيهِ،بِخِلاَفِ الْقَضَاءِ،فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي عَنِ الْبَصَرِ لِيَعْرِفَ الْمُدَّعِيَ مِنَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ،وَالشَّاهِدَ مِنَ الْمَشْهُودِ لَهُ وَالْمَشْهُودِ عَلَيْهِ،وَالْمُقَرَّ لَهُ مِنَ الْمُقِرِّ،وَيُعْتَبَرُ مِنَ الْفِقْهِ هَاهُنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْحُكْمِ مِمَّا يَجُوزُ فِيهِ وَيُعْتَبَرُ لَهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ،وَلاَ يُعْتَبَرُ فِقْهُهُ فِي جَمِيعِ الأَحْكَامِ الَّتِي لاَ تَعَلُّقَ لَهَا بِهَذَا.وَلِهَذَا حَكَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الأَحْكَامِ.وَإِذَا حَكَّمُوا رَجُلَيْنِ جَازَ،وَيَكُونُ الْحُكْمُ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ،وَإِنْ جَعَلُوا الْحُكْمَ إِلَى رَجُلٍ يُعَيِّنُهُ الإِمَامُ جَازَ؛لِأَنَّهُ لاَ يَخْتَارُ إِلاَّ مَنْ يَصْلُحُ،وَإِنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَوْ جَعَلُوا التَّعْيِينَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجُزْ؛لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا اخْتَارُوا مَنْ لاَ يَصْلُحُ،وَإِنْ عَيَّنُوا رَجُلاً يَصْلُحُ فَرَضِيَهُ الإِمَامُ جَازَ؛لِأَنَّ بَنِي

[1913] صحيح البخاري (٥/ ١٥٦)(٤٣٢٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٠٢)٨٢ – (١٧٧٨)

[ش (فلم ينل) فلم يصب فتحا أوغيره.(قافلون) راجعون.(فثقل عليهم) اشتدعليهم الرجوع دون فتح.(الخبر كله) أي أخبرنا سفيان بجميع الحديث بلفظ أخبرنا] -

[1914] – صحيح البخاري (٥/ ٣٦)(٣٨٠٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨)٦٤ – (١٧٦٨)

قُرَيْظَةَ رَضُوا بِحُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَعَيَّنُوهُ فَرَضِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَجَازَ حُكْمَهُ وَقَالَ:«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ».[1915]

وَإِنْ مَاتَ مَنِ اتَّفَقُوا عَلَيْهِ فَاتَّفَقُوا عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَصْلُحُ قَامَ مَقَامَهُ،وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ،أَوْ طَلَبُوا حُكْمًا لاَ يَصْلُحُ،رُدُّوا إِلَى مَأْمَنِهِمْ،وَكَانُوا عَلَى الْحِصَارِ حَتَّى يَتَّفِقُوا،وَكَذَلِكَ إِنْ رَضُوا بِاثْنَيْنِ فَمَاتَ أَحَدُهُمَا فَاتَّفَقُوا عَلَى مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ جَازَ،وَإِلاَّ رُدُّوا إِلَى مَأْمَنِهِمْ،وَكَذَلِكَ إِنْ رَضُوا بِتَحْكِيمِ مَنْ لَمْ تَجْتَمِعِ الشَّرَائِطُ فِيهِ وَوَافَقَهُمُ الإِمَامُ عَلَيْهِ.ثُمَّ بَانَ أَنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لَمْ يَحْكُمْ،وَيُرَدُّونَ إِلَى مَأْمَنِهِمْ كَمَا كَانُوا.

وَأَمَّا صِفَةُ الْحُكْمِ:فَإِنْ حَكَمَ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ،وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ نَفَذَ حُكْمُهُ؛لأَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ حَكَمَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ بِذَلِكَ،فعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِسَعْدٍ:«لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ»[1916]

وَإِنْ حَكَمَ بِالْمَنِّ عَلَى الْمُقَاتِلَةِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ،فَقَالَ الْقَاضِي يَلْزَمُ حُكْمُهُ،وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ؛لأَنَّ الْحُكْمَ إِلَيْهِ فِيمَا يَرَى الْمَصْلَحَةَ فِيهِ،فَكَانَ لَهُ الْمَنُّ كَالإِمَامِ فِي الأَسِيرِ.

وَاخْتَارَ أَبُو الْخَطَّابِ أَنَّ حُكْمَهُ لاَ يَلْزَمُ؛لأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا فِيهِ الْحَظُّ،وَلاَ حَظَّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْمَنِّ،وَإِنْ حَكَمَ بِالْمَنِّ عَلَى الذُّرِّيَّةِ،فَيَنْبَغِي أَنْ لاَ يَجُوزَ؛لأَنَّ الإِمَامَ لاَ يَمْلِكُ الْمَنَّ عَلَى الذُّرِّيَّةِ إِذَا سُبُوا فَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ،وَيُحْتَمَلُ الْجَوَازُ لأَنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَتَعَيَّنِ السَّبْيُ فِيهِمْ بِخِلاَفِ مَنْ سُبِيَ فَإِنَّهُ يَصِيرُ رَقِيقًا بِنَفْسِ السَّبْيِ،وَإِنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْفِدَاءِ جَازَ،لأَنَّ الإِمَامَ يُخَيَّرُ فِي الأَسْرَى بَيْنَ الْقَتْلِ،وَالْفِدَاءِ،وَالاسْتِرْقَاقِ،وَالْمَنِّ،فَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ،وَإِنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ لَمْ يَلْزَمْ حُكْمُهُ؛لأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ عَقْدُ مُعَاوَضَةٍ فَلاَ يَثْبُتُ إِلاَّ بِالتَّرَاضِي،وَلِذَلِكَ لاَ يَمْلِكُ الإِمَامُ إِجْبَارَ الأَسِيرِ عَلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،وَإِنْ حَكَمَ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ جَازَ لِلإِمَامِ الْمَنُّ عَلَى بَعْضِهِمْ،لأَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ سَأَلَ فِي الزُّبَيْرِ بْنِ بَاطَا مِنْ قُرَيْظَةَ وَمَالِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَجَابَهُ.وَيُخَالِفُ مَالَ الْغَنِيمَةِ إِذَا حَازَهُ الْمُسْلِمُونَ؛لأَنَّ مِلْكَهُمُ اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ،وَإِنْ أَسْلَمُوا قَبْلَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ عَصَمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ؛لأَنَّهُمْ أَسْلَمُوا وَهُمْ

[1915] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٩) (١٧٦٨)

[1916] - الأموال لابن زنجويه (١/ ٣٤٣)(٥٣٨) صحيح

أَحْرَارٌ،وَأَمْوَالُهُمْ لَهُمْ فَلَمْ يَجُز اسْتِرْقَاقُهُمْ،بِخِلاَفِ الأَسِيرِ،فَإِنَّ الأَسِيرَ قَدْ ثَبَتَت الْيَدُ عَلَيْهِ كَمَا تَثْبُتُ عَلَى الذُّرِّيَّةِ،وَلِذَلِكَ جَازَ اسْتِرْقَاقُهُ.وَإِنْ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ نَظَرْتَ،فَإِنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ سَقَطَ لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ فَقَدْ عَصَمَ دَمَهُ وَلَمْ يَجُز اسْتِرْقَاقُهُمْ؛لِأَنَّهُمْ أَسْلَمُوا قَبْل اسْتِرْقَاقِهِمْ،قَال أَبُو الْخَطَّابِ:وَيُحْتَمَل جَوَازُ اسْتِرْقَاقِهِمْ.كَمَا لَوْ أَسْلَمُوا بَعْدَ الأَسْرِ،وَيَكُونُ الْمَال عَلَى مَا حُكِمَ فِيهِ،وَإِنْ حُكِمَ بِأَنَّ الْمَال لِلْمُسْلِمِينَ كَانَ غَنِيمَةً؛لِأَنَّهُمْ أَخَذُوهُ بِالْقَهْرِ وَالْحَصْرِ.[1917]

ز – إِتْلاَفُ الأَمْوَال:

إِذَا اسْتَعَدَّ الْكُفَّارُ أَوْ تَحَصَّنُوا لِقِتَال الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّنَا نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنُحَارِبُهُمْ لِنَظْفَرَ بِهِمْ،وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى إِتْلاَفِ أَمْوَالِهِمْ،إِلاَّ إِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ الظَّفَرُ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِتْلاَفٍ لِأَمْوَالِهِمْ فَيُكْرَهُ فِعْل ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ إِفْسَادٌ فِي غَيْرِ مَحَل الْحَاجَةِ،وَمَا أُبِيحَ إِلاَّ لَهَا؛لِأَنَّ الْمَقْصُودَ كَسْرُ شَوْكَتِهِمْ،وَإِلْحَاقُ الْغَيْظِ بِهِمْ،فَإِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ حُصُول ذَلِكَ بِدُونِ إِتْلاَفٍ،وَأَنَّهُ يَصِيرُ لَنَا لاَ نُتْلِفُهُ.[1918]

وَأَمَّا قَطْعُ شَجَرِهِمْ وَزَرْعِهِمْ،فَإِنَّ الشَّجَرَ وَالزَّرْعَ يَنْقَسِمُ ثَلاَثَةَ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا:مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَى إِتْلاَفِهِ كَالَّذِي يَقْرُبُ مِنْ حُصُونِهِمْ وَيَمْنَعُ مِنْ قِتَالِهِمْ،أَوْ يَسْتَتِرُونَ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِهِ لِتَوْسِعَةِ طَرِيقٍ أَوْ غَيْرِهِ،أَوْ يَكُونُونَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنَا فَيُفْعَل بِهِمْ ذَلِكَ؛لِيَنْتَهُوا،فَهَذَا يَجُوزُ بِغَيْرِ خِلاَفٍ.

الثَّانِيَ:مَا يَتَضَرَّرُ الْمُسْلِمُونَ بِقَطْعِهِ لِكَوْنِهِمْ يَنْتَفِعُونَ بِبَقَائِهِ لِعَلُوفَتِهِمْ،أَوْ يَسْتَظِلُّونَ بِهِ،أَوْ يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِ،فَهَذَا يَحْرُمُ قَطْعُهُ؛لِمَا فِيهِ مِنَ الإِضْرَارِ بِالْمُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ:مَا عَدَا هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ مِمَّا لاَ ضَرَرَ فِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ،وَلاَ نَفْعَ سِوَى غَيْظِ الْكُفَّارِ وَالإِضْرَارِ بِهِمْ،فَفِيهِ رِوَايَتَانِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:

إِحْدَاهُمَا:يَجُوزُ،وَبِهَذَا قَال مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمَا،عَنْ عَبْدِ اللهِ،«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ،وَقَطَعَ،وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ»،زَادَ قُتَيْبَةُ،وَابْنُ رُمْحٍ فِي حَدِيثِهِمَا:فَأَنْزَلَ اللهُ

[1917] – المغني لابن قدامة (٩/ ٣١٤)

[1918] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٣ .

عَزَّ وَجَلَّ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥][1919]

وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [الحشر:٥].

إنَّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ،وَمَا تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعٍ فَالجَمِيعُ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِه وَقَضَائِه،وَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلاَ حَرَجَ،وَفِيهِ نِكَايَةٌ وَخِزْيٌ وَنكَالٌ لِلفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ[1920].

وَالثَّانِيَةُ:لاَ يَجُوزُ [1921].لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّهُ قَدَرَ عَلَيْهِ ابْنُ أَخِيهِ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَقَالَ:«لَعَلَّكَ حَرَقْتَ حَرْثًا؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لَعَلَّكَ غَرَّقْتَ نَخْلًا؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لَعَلَّكَ قَتَلْتَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لِتَكُنْ غَزْوَتُكَ كَفَافًا».[1922]

وَلأَنَّ فِي ذَلِكَ إتْلاَفًا مَحْضًا،فَلَمْ يَجُزْ كَعَقْرِ الْحَيَوَانِ،وَبِهَذَا قَال الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ،وَأَبُو ثَوْرٍ.

وَأَمَّا الْحَيَوَانَاتُ فَلاَ خِلاَفَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهَا حَالَةَ الْحَرْبِ؛لأَنَّ قَتْل بَهَائِمِهِمْ يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى قَتْلِهِمْ وَهَزِيمَتِهِمْ،وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّ الأَرْجَحَ وُجُوبُ حَرْقِ الْحَيَوَانَاتِ بَعْدَ قَتْلِهَا إِنِ اسْتَحَلُّوا أَكْل الْمَيْتَةِ فِي دِينِهِمْ،وَقِيل:إِنْ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا قَبْل فَسَادِهَا،وَجَبَ التَّحْرِيقُ،وَإِلاَّ لَمْ يَجِبْ؛لأَنَّ الْمَقْصُودَ عَدَمُ انْتِفَاعِهِمْ بِهِ وَقَدْ حَصَل.[1923]

[1919] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٤)(٢٣٢٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٥)٢٩ - (١٧٤٦)

[ش (حرق نخل بني النضير وقطع) أي أكثر إحراقها بالنار وقطع بعضها وبنو النضير طائفة من اليهود (البويرة) موضع نخل بني النضير(لينة) هي أنواع التمر كلها إلا العجوة وقيل كرام النخل وقيل كل النخل وقيل كل الأشجار للينها وأصله لونة فقلبت الواو ياء لكسرة اللام]

[1920] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٩، بترقيم الشاملة آليا)

[1921] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٣، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٦، والمغني ٨ / ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤، وكشاف القناع ٣ / ٤٨، ٤٩ .

[1922] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨١)(٢٦٣٠) صحيح

[1923] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٨١، والمعنى ٨ / ٤٥١ - ٤٥٢، وفتح القدير ٥ / ١٩٧ .

وَأَمَّا فِي غَيْرِ حَالَةِ الْحَرْبِ:فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ عَقْرُ دَوَابِّهِمْ،لِأَنَّ فِيهِ غَيْظًا لَهُمْ وَإِضْعَافًا لِقُوَّتِهِمْ،فَأَشْبَهَ قَتْلَهَا حَال قِتَالِهِمْ.

وَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ ذَلِكَ مُطْلَقًا،قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[١٩٢٤]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:حُدِّثْتُ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتْبَعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:"إِنِّي أُوصِيكَ بِعَشْرٍ:لَا تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تُغْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تَحْرِقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ ".[١٩٢٥]

وعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى الشَّامِ،فَمَشَى مَعَهُ،فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،إِلَى أَنْ قَالَ:"وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيرًا وَلَا بَقَرًا إِلَّا لِمَأْكَلٍ "[١٩٢٦]

وَلِأَنَّهُ إِفْسَادٌ يَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].وَيَجُوزُ عَقْرُ الْحَيَوَانَاتِ لِلأَكْل إِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى ذَلِكَ،لِأَنَّ الْحَاجَةَ تُبِيحُ مَال الْمَعْصُومِ،فَمَال الْكَافِرِ أَوْلَى،وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَيْهِ نَظَرْنَا:فَإِنْ كَانَ الْحَيَوَانُ لاَ يُرَادُ إِلاَّ لِلأَكْل كَالدَّجَاجِ،وَالْحَمَامِ،وَسَائِرِ الطَّيْرِ،وَالصَّيْدِ،فَحُكْمُهُ حُكْمُ الطَّعَامِ،لِأَنَّهُ لاَ يُرَادُ لِغَيْرِ الأَكْل،وَتَقِل قِيمَتُهُ،فَأَشْبَهَ الطَّعَامَ،وَإِنْ كَانَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْقِتَال لَمْ يُبَحْ ذَبْحُهُ إِلاَّ لِلأَكْل.[١٩٢٧]

وَفِي تَغْرِيقِ النَّحْل وَتَحْرِيقِهِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَقْوَالٍ:

ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَعَامَّةُ أَهْل الْعِلْمِ مِنْهُمُ الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ،إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَغْرِيقُ النَّحْل وَتَحْرِيقُهُ،لِمَا رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ.فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ.فزَعَمُوا أَنَّ

[١٩٢٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٥٠)٦٠ - (١٩٥٩)

[١٩٢٥] - مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٨٣)(٣٣١٢١) صحيح لغيره

[١٩٢٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٧)(١٨١٣٢) صحيح لغيره

[١٩٢٧] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩٠)

يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ:إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ.فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ «مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ،وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ.إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».ثُمَّ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ.فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ.وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ.فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ».وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ:«لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلَا بَعِيرًا،إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ»[١٩٢٨].

وَلِأَنَّهُ إِفْسَادٌ فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْله تَعَالَى:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].

وَلِأَنَّهُ حَيَوَانٌ ذُو رُوحٍ،فَلَمْ يَجُزْ قَتْلُهُ لِغَيْظِ الْمُشْرِكِينَ.

وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ إِبَاحَتُهُ؛لِأَنَّ فِيهِ غَيْظًا لَهُمْ،وَإِضْعَافًا فَأَشْبَهَ قَتْل بَهَائِمِهِمْ حَال قِتَالِهِمْ.[١٩٢٩]

وَفَصَّل الْمَالِكِيَّةُ الْقَوْل فِيهِ،فَقَالُوا:إِنْ قَصَدَ بِإِتْلاَفِهَا أَخْذَ عَسَلِهَا كَانَ إِتْلاَفُهَا جَائِزًا قَلَّتْ أَوْ كَثُرَت اتِّفَاقًا،وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ أَخْذَ عَسَلِهَا،فَإِنْ قَلَّتْ كُرِهَ إِتْلاَفُهَا،وَإِنْ كَثُرَ فَيَجُوزُ فِي رِوَايَةٍ مَعَ الْكَرَاهَةِ،وَفِي رِوَايَةٍ لاَ يَجُوزُ،وَإِنَّمَا جَازَ فِي حَال الْكَثْرَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ النِّكَايَةِ لَهُمْ.[١٩٣٠]

ح – الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ يَجِبُ الثَّبَاتُ فِي الْجِهَادِ،وَيَحْرُمُ الْفِرَارُ مِنْهُ؛لِقَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال:١٦،١٥] وَقَال اللَّهُ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الأنفال:٤٥].

[١٩٢٨] – موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٨)(١٠) صحيح مرسل

[١٩٢٩] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٣ .

[١٩٣٠] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٨١ .

وَقَدْ عَدَّ رَسُول اللَّه الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ مِنَ السَّبْعِ الْمُوبِقَات،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّــهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات»،قَالُوا:يَا رَسُــولَ اللَّــه وَمَــا هُــنَّ؟ قَالَ:«الشِّرْكُ بِاللَّه،وَالسِّحْرُ،وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ،وَأَكْلُ الرِّبَا،وَأَكْلُ مَــالِ اليَتِيمِ،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[١٩٣١].

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي تَفْصِيل ذَلِكَ:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ الْفِرَارُ،وَيَجِبُ الثَّبَاتُ بِشَرْطَيْنِ أَحَدُهُمَا::أَنْ يَكُونَ الْكُفَّارُ لاَ يَزِيدُونَ عَلَى ضِعْفِ الْمُسْــلِمِينَ،فَإِنْ زَادُوا عَلَيْــهِ جَــازَ الْفِرَارُ؛لِقَوْلِه تَعَالَى:{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَــةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَــعَ الصَّــابِرِينَ } [الأنفال:٦٦].

وَالآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ بِلَفْظِ الْخَبَرِ فَهُوَ أَمْرٌ،بِدَلِيل قَوْله تَعَالَى:{ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ } وَلَوْ كَانَ خَبَرًا عَلَى حَقِيقَته لَمْ يَكُنْ رَدُّنَا مِنْ غَلَبَةِ الْوَاحِــدِ لِلْعَشَــرَةِ إِلَــى غَلَبَــةِ الاثْنَــيْنِ تَخْفِيفًا؛وَلأَنَّ خَبَرَ اللَّه تَعَالَى صِدْقٌ لاَ يَقَعُ بِخِلاَف مُخْبِرِه،وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الظَّفَرَ وَالْغَلَبَــةَ لاَ يَحْصُل لِلْمُسْلِمِينَ فِي كُل مَوْطِنٍ يَكُونُ الْعَدُوُّ فِيه ضِعْفَ الْمُسْلِمِينَ فَمَا دُونَ،فَعُلِمَ أَنَّــهُ أَمْرٌ وَفَرْضٌ،وَلَمْ يَأْتِ شَيْءٌ يَنْسَخُ هَذِه الآيَةَ لاَ فِي كِتَابٍ وَلاَ سُنَّةٍ،فَوَجَبَ الْحُكْمُ بِهَا.عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،" لَمَّا نَزَلَتْ:{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْــرُونَ صَــابِرُونَ يَغْلِبُــوا مِائَتَيْنِ} ،وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ فَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ"- فَقَالَ سُــفْيَانُ

[١٩٣١] - صحيح البخاري (٤/ ١٠)(٢٧٦٦) وصحيح مسلم (١/ ٩٢)١٤٥ - (٨٩) وانظر :ابن عابدين ٣ / ٢٢٤، والبدائع ٧ / ٩٩، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨، والمهذب ٢ / ٣٢٢، ونهاية المحتاج ٢ / ٦٥، والمغني ٨ / ٤٨٤، وكشاف القناع ٣ / ٤٥، ٤٦ .

[ش (اجتنبوا) ابتعدوا.(الموبقات) المهلكات.(السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع.والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها.(بالحق) كالقتل قصاصا.(التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته.(قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا.(المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا.(الغافلات) البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور]

غَيْرَ مَرَّةٍ:أَنْ لاَ يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ -"ثُـمَّ نَزَلَـتْ:{الآنَ خَفَّـفَ اللَّـهُ عَـنْكُمْ} [الأنفال:٦٦] الآيَةَ،فَكَتَبَ أَنْ لاَ يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ"وَزَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً:نَزَلَتْ:{حَـرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ،إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ} [الأنفال:٦٥]،قَالَ سُفْيَانُ:وَقَـالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ:«وَأُرَى الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا».[1932]

قَال الْمَالِكِيَّةُ:وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَابِدِينَ نَقْلاً عَنَ الْخَانِيَّةِ:إِنْ بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا حَرُمَ الْفِرَارُ وَلَوْ كَثُرَ الْكُفَّارُ جِدًّا مَا لَمْ تَخْتَلِفْ كَلِمَتُهُمْ،فَإِنَّهُ إِذَا اخْتَلَفَتْ كَلِمَتُهُمْ جَـازَ الْفِرَارُ مُطْلَقًا وَلَوْ بَلَغُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا.[1933]

وَاسْتَدَلُّوابما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَـةٌ،وَخَيْرُ السَّـرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ،وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ،وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ»[1934]

الشَّرْطُ الثَّانِي لِوُجُوبِ الثَّبَاتِ أَنْ لاَ يَقْصِدَ بِفِرَارِهِ التَّحَيُّزَ إِلَى فِئَةٍ وَلاَ التَّحَرُّفَ لِقِتَالٍ،فَإِنْ قَصَدَ أَحَدَ هَذَيْنِ فَالْفِرَارُ مُبَاحٌ لَهُ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَـالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال:١٦].

وَمَعْنَى التَّحَرُّفِ لِلْقِتَالِ أَنْ يَنْحَازَ إِلَى مَوْضِعٍ يَكُونُ الْقِتَال فِيهِ أَمْكَنَ مِثْل أَنْ يَنْحَازَ مِـنْ مُوَاجَهَةِ الشَّمْسِ أَوِ الرِّيحِ إِلَى اسْتِدْبَارِهِمَا،أَوْ مِنْ نَزْلَةٍ إِلَى عُلُوٍّ،أَوْ مِنْ مَعْطَشَةٍ إِلَى مَوْضِعِ مَاءٍ،أَوْ يَفِرَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِتُنْتَقَضَ صُفُوفُهُمْ،أَوْ تَنْفَرِدَ خَيْلُهُمْ مِنْ رَجَّالَتِهِمْ،أَوْ لِيَجِـدَ فِـيهِمْ فُرْصَةً،أَوْ لِيَسْتَنِدَ إِلَى جَبَلٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَهْل الْحَرْبِ.

وَأَمَّا التَّحَيُّزُ إِلَى فِئَةٍ فَهُوَ أَنْ يَصِيرَ إِلَى فِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ مَعَهُمْ فَيَقْوَى بِهِمْ عَلَـى عَدُوِّهِمْ،وَسَوَاءٌ أَبَعُدَتِ الْمَسَافَةُ أَمْ قَرُبَتْ،فَإِنْ كَانَتِ الْحَرْبُ بِخُرَاسَانَ وَالْفِئَةُ بِالْحِجَـازِ جَازَ التَّحَيُّزُ إِلَيْهَا،فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَـرَايَا رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ قَالَ:فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً،فَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ قَالَ:فَلَمَّا بَرَزْنَا قُلْنَا:كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا

[1932] - صحيح البخاري (٦/ ٦٣)(٤٦٥٢)

[ش (فكتب) فرض.(مثل هذا) الحكم المذكور في الجهاد فإن كان من يفعل المنكر أكثر من اثنين جاز للواحد عدم الإنكار وإن كانا اثنين فأقل وجب الإنكار]

[1933] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٤، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ .

[1934] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١٧)(٤٧١٧) صحيح

مِنَ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ؟ فَقُلْنَا:نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَنَتَثَبَّتُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ.قَالَ:فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا:لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ذَهَبْنَا.قَالَ:فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ،فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا:نَحْنُ الْفَرَّارُونَ فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«لَا.بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ».قَالَ:فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ،فَقَالَ:«إِنَّا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ»[١٩٣٥]

وَكَانُوا بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُ.وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَحَيِّزَ إِلَى فِئَةٍ عَكَّارٌ،وَلَيْسَ بِفَرَّارٍ مِنَ الزَّحْفِ،فَلاَ يَلْحَقُهُ الْوَعِيدُ.[١٩٣٦]

قَالَ الدُّسُوقِيُّ:وَقِيلَ:إِنَّ التَّحَيُّزَ إِلَى فِئَةٍ يَكُونُ إِذَا قَرُبَ الْمُنْحَازُ إِلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ انْحِيَازُهُ إِلَى فِئَةٍ خَرَجَ مَعَهَا،أَمَّا لَوْ خَرَجُوا مِنْ بَلَدٍ وَالأَمِيرُ مُقِيمٌ فِي بَلْدَةٍ فَلاَ يَجُوزُ لأَحَدٍ الْفِرَارُ حَتَّى يَنْحَازَ إِلَيْهِ،وَأَمِيرُ الْجَيْشِ لاَ يَجُوزُ لَهُ الْفِرَارُ وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّحَيُّزِ وَلَوْ أَدَّى لِهَلاَكِ نَفْسِهِ وَبَقَاءِ الْجَيْشِ مِنْ غَيْرِ أَمِيرٍ،مَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ جَمِيعَ الْجَيْشِ يَفِرُّ عِنْدَ هَلاَكِهِ.[١٩٣٧]

قِلَّةُ الْعَدَدِ مَعَ احْتِمَالِ الظَّفَرِ:

إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ أَكْثَرَ مِنْ ضِعْفِ الْمُسْلِمِينَ فَغَلَبَ عَلَى ظَنِّ الْمُسْلِمِينَ الظَّفَرُ،فَالأَوْلَى لَهُمُ الثَّبَاتُ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ،وَإِنِ انْصَرَفُوا جَازَ؛لأَنَّهُمْ لاَ يَأْمَنُونَ الْعَطَبَ وَالْحُكْمُ مُعَلَّقٌ عَلَى مَظِنَّتِهِ،وَهُوَ كَوْنُهُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ عَدَدِهِمْ،وَلِذَلِكَ لَزِمَهُمُ الثَّبَاتُ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنَ النِّصْفِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمُ الْهَلاَكُ فِيهِ.

[١٩٣٥] - سنن أبي داود (٣/ ٤٦)(٢٦٤٧) حسن

فحاص :حصت عن الشيء :حدت عنه، وملت عن جهته، هكذا قال الخطابي، وقال الهروي :فحاص الناس حيصة :أي:حملوا حملة، قال :وحاص يحيص :إذا مال والتجأ إلى جهة، قال :وجاض بالجيم والضاد المعجمة قريب منه، وكذا قرأته في كتاب الترمذي مضبوطا بالجيم والضاد.-وبؤنا :باء بالشيء يبوء به :إذا رجع، والمراد أننا جعنا من مقصدنا بغضب الله تعالى، حيث فررنا.-العكارون :هم الذين يعطفون إلى الحرب، وقيل :إذا حاد الإنسان عن الحرب، ثم عاد إليها.يقال :قد عكر، وهو عكار.-فئة المسلمين :الفئة، الجماعة الذين يرجعون إليهم عن موقف الحرب، ويحتمون بهم، أي يفيئون إليهم.

[١٩٣٦] - البدائع ٧ / ٩٩، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٦، والمهذب ٢ / ٢٣٢، والمغني ٨ / ٤٨٥، وكشاف القناع ٣ / ٤٦ .

[١٩٣٧] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ .

وَيُحْتَمَل أَنْ يَلْزَمَهُمُ الثَّبَاتُ إِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمُ الظَّفَرُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَة[١٩٣٨] .
فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ ثَبَتُوا لِمِثْلَيْهِمْ هَلَكُوا فَفِيهِ وَجْهَان:
أَحَدُهُمَا:أَنَّ لَهُمْ أَنْ يُوَلُّوا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل:{ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة:١٩٥].
وَالثَّانِي:أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُوَلُّوا وَهُوَ الصَّحِيحُ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الأنفال:٤٥] وَلِأَنَّ الْمُجَاهِدَ إِنَّمَا يُقَاتِل عَلَى إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ الشَّهَادَةِ أَوِ الْفَوْزِ بِالْغَنِيمَةِ مَعَ الأَجْرِ.قَال تَعَالَى:{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١١١][١٩٣٩] .
وَقَدْ قَال مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:لاَ بَأْسَ بِالاِنْهِزَامِ إِذَا أَتَى الْمُسْلِمَ مِنَ الْعَدُوِّ مَا لاَ يُطِيقُهُ،وَلاَ بَأْسَ بِالصَّبْرِ أَيْضًا بِخِلاَفِ مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ إِلْقَاءٌ بِالنَّفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،بَل فِي هَذَا تَحْقِيقُ بَذْل النَّفْسِ فِي سَبِيل اللَّهِ.
وَقَال الْحَصْكَفِيُّ:فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا حَارَبَ قُتِل وَإِنْ لَمْ يُحَارِبْ أُسِرَ لَمْ يَلْزَمْهُ الْقِتَال.[١٩٤٠]
فَإِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمُ الْهَلاَكُ فِي الإِقَامَةِ وَالاِنْصِرَافِ،فَالأَوْلَى لَهُمُ الثَّبَاتُ؛لِيَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّهَدَاءِ الْمُقْبِلِينَ عَلَى الْقِتَال مُحْتَسِبِينَ فَيَكُونُونَ أَفْضَل مِنَ الْمُوَلِّينَ؛وَلِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغْلِبُوا أَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُول:{ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة:٢٤٩].
قَال الشَّافِعِيَّةُ:إِلاَّ أَنَّهُ يَحْرُمُ الاِنْصِرَافُ لِمِائَةِ بَطَلٍ عَنْ مِائَتَيْنِ وَوَاحِدٍ ضُعَفَاءَ،وَيَجُوزُ انْصِرَافُ مِائَةِ ضُعَفَاءَ عَنْ مِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ أَبْطَالاً فِي الأَصَحِّ اعْتِبَارًا بِالْمَعْنَى،بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَنْبَطَ مِنَ النَّصِّ عَلَى حُرْمَةِ الاِنْصِرَافِ مِنَ الصَّفِّ مَعْنًى يُخَصِّصُهُ؛لِأَنَّهُمْ يُقَاوِمُونَهُمْ لَوْ ثَبَتُوا لَهُمْ،وَإِنَّمَا يُرَاعَى الْعَدَدُ عِنْدَ تَقَارُبِ الأَوْصَافِ،وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَخْتَصَّ

[١٩٣٨] - المغني ٨ / ٤٨٦، وكشاف القناع ٣ / ٤٧ .
[١٩٣٩] - وانظر :المهذب ٢ / ٢٣٢، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٢ .
[١٩٤٠] - شرح السير الكبير ١ / ٨٨، والدر المختار بحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٢ .

الْخلاَفُ بزِيَادَة الْوَاحد وَنَقْصه،وَلاَ براَكب وَمَاش،بَل الضَّابطُ أَنْ يَكُونَ في الْمُسْلمينَ منَ الْقُوَّة مَا يَغْلبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُمْ يُقَاومُونَ الزَّائدَ عَلَى مثْلَيْهِمْ وَيَرْجُونَ الظَّفَرَ بهمْ،أَوْ منَ الضَّعْف مَا لاَ يُقَاومُونَهُمْ،وَحَيْثُ جَازَ الانْصرَافُ فَإِنْ غَلَبَ الْهَلاَكُ بلاَ نكَايَة للْكُفَّار وَجَبَ الانْصرَافُ،وَإِنْ غَلَبَ الْهَلاَكُ عَلَى حُصُول النِّكَايَة لَهُمْ يُسْتَحَبُّ الانْصرَافُ.[١٩٤١]
وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إلَى أَنَّ الْحُكْمَ في هَذَا الْبَاب لغَالب الرَّأْي،وَأَكْبَر الظَّنِّ دُونَ الْعَدَد.فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّ الْغُزَاة أَنَّهُمْ يُقَاومُونَهُمْ يَلْزَمُهُمُ الثَّبَاتُ،وَإِنْ كَانُوا أَقَل عَدَدًا منْهُمْ،وَإِنْ كَانَ غَالبُ ظَنِّهمْ أَنَّهُمْ يَغْلبُونَ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَنْحَازُوا إلَى الْمُسْلمينَ ليَسْتَعينُوا بهمْ،وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ عَدَدًا منَ الْكَفَرَة.وَكَذَا الْوَاحدُ منْ الْغُزَاة،لَيْسَ مَعَهُ سلاَحٌ مَعَ اثْنَيْن منْهُمْ مَعَهُمَا سلاَحٌ أَوْ مَعَ وَاحد منْهُمْ منَ الْكَفَرَة وَمَعَهُ سلاَحٌ،لاَ بَأْسَ أَنْ يُوَلِّيَ دُبُرَهُ مُتَحَيِّزًا إلَى فئَة.
قَال مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَن:وَيُكْرَهُ للْوَاحد الْقَويِّ أَنْ يَفرَّ منَ الْكَافرَيْن،وَيُكْرَهُ للْمائَة الْفرَارُ منَ الْمائَتَيْن،وَلاَ بَأْسَ أَنْ يَفرَّ الْوَاحدُ منَ الثَّلاَثَة،وَالْمائَةُ منْ ثَلاَثمائَة.[١٩٤٢]

تَحَصُّنُ أَهْل الْبَلَد منَ الْعَدُوِّ:

إنْ جَاءَ الْعَدُوُّ بَلَدًا فَقَدْ صَرَّحَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ بأَنَّ لأَهْله التَّحَصُّنَ منْهُمْ،وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ منْ نصْفهمْ ليَلْحَقَهُمْ مَدَدٌ أَوْ قُوَّةٌ،وَلاَ يَكُونُ ذَلكَ تَوَلِّيًا وَلاَ فرَارًا،إنَّمَا التَّوَلِّي بَعْدَ لقَاء الْعَدُوِّ،وَإِنْ لَقُوهُمْ خَارجَ الْحصْن فَلَهُمُ التَّحَيُّزُ إلَى الْحصْن؛لأَنَّهُ بمَنْزلَة التَّحَرُّف للْقتَال أَو التَّحَيُّز إلَى فئَة.
وَإِنْ غَزَوْا فَذَهَبَتْ دَوَابُّهُمْ،فَلَيْسَ ذَلكَ عُذْرًا في الْفرَار؛لأَنَّ الْقتَال مُمْكنٌ للرَّجَّالَة،وَإِنْ تَحَيَّزُوا إلَى جَبَلٍ ليُقَاتلُوا فيه رَجَّالَةً فَلاَ بَأْسَ،لأَنَّهُ تَحَرُّفٌ للْقتَال،وَإِنْ ذَهَبَ سلاَحُهُمْ فَتَحَيَّزُوا إلَى مَكَان يُمْكنُهُمُ الْقتَال فيه بالْحجَارَة وَالتَّسَتُّرُ بالشَّجَر وَنَحْوه،أَوْ لَهُمْ في التَّحَيُّز إلَيْه فَائدَةٌ،جَازَ.[١٩٤٣]

الْفرَارُ وَإِحْرَازُ الْغَنيمَة:

[١٩٤١] – نهاية المحتاج ٨ / ٦٦، ٦٧ .

[١٩٤٢] – البدائع ٧ / ٩٨، ٩٩، وابن عابدين ٣ / ٢٢٤ .

[١٩٤٣] – المهذب ٢ / ٢٣٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٩، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥، والمغني ٨ / ٤٨٦ .

فَإِنْ وَلَّى قَوْمٌ قَبْل إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ وَأَحْرَزَهَا الْبَاقُونَ،فَقَدْ صَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِأَنَّــهُ لاَ نَصِــيبَ لِلْفَارِّينَ؛لِأَنَّ إِحْرَازَهَا حَصَل بِغَيْرِهِمْ فَكَانَ مِلْكُهَا لِمَنْ أَحْرَزَهَا،وَإِنْ ذَكَرُوا أَنَّهُــمْ فَــرُّوا مُتَحَيِّزِينَ إِلَى فِئَةٍ أَوْ مُتَحَرِّفِينَ لِلْقِتَال،فَلاَ شَيْءَ لَهُمْ أَيْضًا لِذَلِكَ،وَإِنْ فَرُّوا بَعْــدَ إِحْــرَازِ الْغَنِيمَةِ لَمْ يَسْقُطْ حَقُّهُمْ مِنْهَا؛لِأَنَّهُمْ مَلَكُوا الْغَنِيمَةَ لِحِيَازَتِهَا فَلَمْ يَــزُل مِلْكُهُــمْ عَنْهَــا بِفِرَارِهِمْ [1944].

حُكْمُ التَّبْيِيتِ فِي الْقِتَال:

صَرَّحَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ يَجُوزُ تَبْيِيتُ الْكُفَّارِ وَهُوَ كَبْسُهُمْ لَيْلاً وَقَتْلُهُمْ عَلَى غَفْلَةٍ،وَلَوْ قُتِل فِي هَذَا التَّبْيِيتِ مَنْ لاَ يَجُوزُ قَتْلُهُ مِنِ امْرَأَةٍ وَصَبِيٍّ،وَغَيْرِهِمَا كَمَجْنُونٍ،وَشَيْخٍ فَانٍ إِذَا لَمْ يَقْصِدُوا،[1945] لحديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَــنِ الــذَّرَارِيِّ مِــنَ الْمُشْرِكِينَ؟ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ "،فَقَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[1946]

وَكَذَا يَجُوزُ قَتْل الْكُفَّارِ فِي مَطْمُورَةٍ [1947]إِذَا لَمْ يَقْصِدِ النِّسَاءَ،وَالصِّبْيَانَ وَنَحْوَهُمْ،وَيَجُوزُ قَطْعُ الْمِيَاهِ عَنْهُمْ وَقَطْعُ السَّابِلَةِ،[1948] وَإِنْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ قَتْل الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؛لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى

[1944] – المغني ٨ / ٤٨٦ .

[1945] – البدائع ٧ / ١٠٠، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، والمغني ٨ / ٤٤٩، وكشاف القناع ٣ / ٤٧، والمدونة ٢ / ٢٤ .

[1946] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٦ – (١٧٤٥) انظر:الموسوعة الفقهية١٠ / ١٢٥، ١٢٦ .

[ش (الذراري) بتشديد الياء وتخفيفها لغتان التشديد أفصح وأشهر والمراد بالذراري هنا النساء والصبيان (سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين) هكذا هو في أكثرنسخ بلادنا سئل عن الذراري وفي رواية عن أهل الدار من المشركين ونقل القاضي هذه عن رواية جمهور رواة صحيح مسلم قال وهي الصواب وأما الرواية الأولى فقال ليست بشيء بل هي تصحيف قال وما بعده يبين الغلط فيه قلت (أي الإمام النووي) وليست باطلة كما ادعى القاضي بل لها وجه وتقديره سئل عن حكم صبيان المشركين الذين يبيتون فيصاب من نسائهم وصبيانهم بالقتل فقال هم من آبائهم أي لا بأس بذلك لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح وفي القصاص والديات وغير ذلك والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة(يبيتون) معنى يبيتون أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي ومنه البيات]

[1947] – المطمورة :الحفرة تحت الأرض .

[1948] – السابلة :الجماعة المختلفة في الطرقات، والمراد وضع ما يمنع المرور في الطريق .

التَّبْيِيت السَّابِقِ فِيهِ حَدِيثُ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ وَلِأَنَّ الْقَصْدَ إِضْعَافُهُمْ وَإِرْهَابُهُمْ لِيُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ،وَيَجُوزُ الإِغَارَةُ عَلَى عَلاَّفِيهِمْ وَحَطَّابِيهِمْ وَنَحْوِهِمْ.[1949]

تَتَرُّسُ الْكُفَّارِ بِالذُّرِّيَّةِ وَالنِّسَاءِ:

التُّرْسُ:بِضَمِّ التَّاءِ.مَا يُتَوَقَّى بِهِ فِي الْحَرْبِ.وَالتُّرْسُ كَذَلِكَ خَشَبَةٌ أَوْ حَدِيدَةٌ تُوضَعُ خَلْفَ الْبَابِ لِإِحْكَامِ إِغْلاَقِهِ،وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى التَّتَرُّسِ فِي الْحَرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [الفتح:٢٥]،فَقَدْ نَزَلَتْ فِيمَنِ احْتُجِزَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ،وَمِنْهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ،وَسَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ،وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ،وَأَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ،وَلَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَكَّةَ لَعَذَّبَ اللَّهُ الْكُفَّارَ عَذَابًا أَلِيمًا بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ خَارِجَ مَكَّةَ بِالرَّمْيِ وَالْقِتَالِ الشَّدِيدِ[1950].

وَأَمَّا حُكْمُ التَّتَرُّسِ:فَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ رَمْيُ الْكُفَّارِ إِذَا تَتَرَّسُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَأُسَارَاهُمْ أَثْنَاءَ الْقِتَالِ،أَوْ حِصَارُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ بِأَنْ كَانَ فِي الْكَفِّ عَنْ قِتَالِهِمُ انْهِزَامٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْخَوْفُ عَلَى اسْتِئْصَالِ قَاعِدَةِ الإِسْلاَمِ،وَيُقْصَدُ بِالرَّمْيِ الْكُفَّارُ.

وَلَكِنْ إِذَا لَمْ تَدْعُ ضَرُورَةٌ إِلَى رَمْيِهِمْ،لِكَوْنِ الْحَرْبِ غَيْرَ قَائِمَةٍ،أَوْ لِإِمْكَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ بِدُونِهِ،فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَقْوَالٍ[1951] سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي مُصْطَلَحِ "تَتَرُّسٌ ".[1952]

مَا يَنْتَهِي بِهِ الْقِتَالُ:

[1949] - المغني ٨ / ٤٤، وكشاف القناع ٢ / ٤٨، والمهذب ٢ / ٢٣٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤ - ط مصطفى الحلبي .

[1950] - أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ١٧٦، وتفسير ابن كثير ٤ / ١٩٢، وسيرة ابن هشام ٢ / ٣٢٢ .

[1951] - فتح القدير ٥ / ١٩٨، وابن عابدين ٣ / ٢٢٣، والحطاب ٣ / ٣٥١، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥، والمغني ٨ / ٤٤٩، ٤٥٠ .

[1952] - الموسوعة الفقهية ١٠ / ١٣٧، ١٣٨، ومصطلح :(تترس) .

يُقَاتَل أَهْل الْكتَاب وَالْمَجُوسُ حَتَّى يُسْلمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ؛لأَنَّهُ يَجُوزُ إقْرَارُهُمْ عَلَى دينهمْ بالْجزْيَة،وَلقَوْله تَعَالَى: { قَاتلُوا الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَلَا بالْيَوْم الْآخر وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدينُونَ دينَ الْحَقِّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَـــابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغرُونَ} [التوبة:٢٩] فَإنْ بَذَلُوا الْجزْيَةَ عُقدَتْ لَهُـــمُ الذِّمَّةُ،وَكَانَ لَهُمْ بذَلكَ الأَمَانُ وَالْعصْمَةُ لدمَائهمْ وَأَمْوَالهمْ إلاَّ بحَقِّهَا[١٩٥٣] .

وَيُقَاتَل مَنْ سوَاهُمْ منَ الْكُفَّار حَتَّى يُسْلمُوا؛لأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ إقْـــرَارُهُمْ عَلَـــى الْكُفْـــر،فعَنْ جَابر،وأَبي هُرَيْرَةَ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«أُمرْتُ أَنْ أُقَاتلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّـــا اللهُ،فَإذَا قَالُوهَا مَنَعُوا منِّي دمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بحَقِّهَا وَحسَابُهُمْ عَلَى الله»[١٩٥٤]

وَالْكُفَّارُ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ:

(قسْمٌ) أَهْل كتَابٍ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى،وَمَنِ اتَّخَذَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجيل كتَابًا كَالسَّامرَة وَالْفرنْجَة وَنَحْوهمْ،فَهَؤُلاَء تُقْبَل منْهُمُ الْجزْيَةُ وَيُقَرُّونَ عَلَى دينهمْ إذَا بَذَلُوهَا.

وَ(قسْمٌ) لَهُمْ شُبْهَةُ كتَاب وَهُمُ الْمَجُوسُ فَحُكْمُهُمْ حُكْمُ أَهْل الْكتَاب في قَبُول الْجزْيَة منْهُمْ وَإقْرَارُهُمْ بهَا،فعَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّد بْنِ عَليٍّ،قَالَ:كَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى مَجُوسِ هَجَرَ يَعْرِضُ عَلَيْهمَ الإسْلاَمَ فَمَنْ أَسْلَمَ قَبلَ منْهُ وَمَنْ أَبَى ضُربَتْ عَلَيْه الْجزْيَةُ عَلَى أَنْ لاَ تُؤْكَلَ لَهُمْ ذَبيحَةٌ،وَلاَ تُنْكَحَ لَهُمُ امْرَأَةٌ..[١٩٥٥]

وعَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّد أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَتَبَ إلَى مَجُوسِ أَهْلِ هَجَرَ يَعْرِضُ عَلَيْهمَ الإسْلاَمَ فَمَنْ أَسْلَمَ قَبلَ منْهُ وَمَنْ لَمْ يُسْلمْ ضَرَبَ عَلَيْه الْجزْيَةَ غَيْرَ نَاكحي نسَـــائهمْ وَلاَ آكلـــي ذَبَائحهمْ.[١٩٥٦]

(وَقسْمٌ) لاَ كتَابَ لَهُمْ وَلاَ شُبْهَةَ كتَاب،وَهُمْ مَنْ عَدَا هَذَيْنِ الْقسْمَيْنِ منْ عَبَدَة الأَوْثَانِ وَسَائرِ الْكُفَّار،فَلاَ تُقْبَل منْهُمُ الْجزْيَةُ،وَلاَ يُقْبَل منْهُمْ سوَى الإسْلاَمِ.

[١٩٥٣] - فتح القدير ٥ / ١٩٧، والمحلى ٧ / ٣١٦ .

[١٩٥٤] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤١٣)(٣٤٢٥) صحيح مشهور وانظر :المهذب ٢ / ٢٣١، والمحلى ٧ / ٣٤٥ .

[١٩٥٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٠٧)(٣٣٣١٣) صحيح مرسل

[١٩٥٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٩/ ١١٨)(١٦٥٨١) صحيح مرسل

هَذَا مَذْهَبُ الشَّافعيِّ،وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَذْهَب عنْدَ الْحَنَابِلَة.
أَمَّا مَذْهَبُ أَبي حَنيفَةَ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ فَإِنَّ الْجزْيَةَ تُقْبَل منْ جَميع الْكُفَّار إلاَّ عَبَدَةَ الأَوْثَان منَ الْعَرَب،[1957] لأَنَّهُمْ يُقَرُّونَ عَلَى دينهمْ بالاسْترْقَاق،فُيُقَرُّونَ ببَذْل الْجزْيَة كَالْمَجُوس،وَحُكيَ عَنْ مَالك أَنَّهَا تُقْبَل منْ جَميع الْكُفَّار إلاَّ كُفَّارَ قُرَيْش.[1958]
وَيَنْتَهي الْقتَال كَذَلكَ بالْهُدْنَة،إذْ هيَ لُغَةً الْمُصَالَحَةُ،وَشَرْعًا هيَ عَقْدٌ يَتَضَمَّنُ مُصَالَحَةَ أَهْل الْحَرْب عَلَى تَرْك الْقتَال مُدَّةً بعوَضٍ أَوْ غَيْره،وَتُسَمَّى مُوَادَعَةً،وَمُسَالَمَةً،وَمُعَاهَدَةً وَمُهَادَنَةً،وَالأَصْل فيهَا قَبْل الإجْمَاع أَوَّل سُورَة"بَرَاءَةٌ"{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤]،وَمُهَادَنَتُهُ ﷺ قُرَيْشًا عَامَ الْحُدَيْبِيَة.[1959]
وَعنْدَ الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ تَجُوزُ الْهُدْنَةُ للْمُدَّة الَّتي يَرَى الإمَامُ فيهَا الْمَصْلَحَةَ وَإنْ زَادَتْ عَنْ عَشْر سنينَ،قَال الْمَالكيَّةُ:وَنُدبَ أَنْ لاَ تَزيدَ عَنْ أَرْبَعَة أَشْهُر.
وَعنْدَ الشَّافعيَّة لاَ يَجُوزُ مُهَادَنَةُ الْكُفَّار سَنَةً فَمَا زَادَ؛لأَنَّهَا مُدَّةٌ تَجبُ فيهَا الْجزْيَةُ،فَلاَ يَجُوزُ إقْرَارُهُمْ فيهَا منْ غَيْر جزْيَة،وَفي جَوَاز مُهَادَنَتهمْ فيمَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَة أَشْهُر وَمَا دُونَ سَنَة قَوْلاَن وَهَذَا في حَال قُوَّة الْمُسْلمينَ.أَمَّا في حَال ضَعْفهمْ فَيَجُوزُ عَقْدُهَا إلَى عَشْر سنينَ.وَظَاهرُ كَلاَم أَحْمَدَ أَنَّهَا لاَ تَجُوزُ أَكْثَرَ منْ عَشْر سنينَ،وَهُوَ اخْتيَارُ أَبي بَكْرٍ وَمَذْهَبُ الشَّافعيِّ لمُصَالَحَة النَّبيِّ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبيَة عَشْرًا.
كَمَا لاَ تَجُوزُ الْهُدْنَةُ إلاَّ للنَّظَر للْمُسْلمينَ إمَّا أَنْ يَكُونَ بهمْ ضَعْفٌ عَنْ قتَال الْكُفَّار،وَإمَّا أَنْ يَطْمَعَ في إسْلاَم الْكُفَّار بهُدْنَتهمْ،أَوْ في أَدَائهمُ الْجزْيَةَ وَالْتزَامهمْ أَحْكَامَ الْملَّة أَوْ غَيْر

[1957] - المهذب ٢ / ٢٣١، ونهاية المحتاج ٨ / ١٠٦، والمغني ٨ / ٣٦٣، ٤٩٦ - ٥٠٠، وكشاف القناع ٣ / ١١٧ .

[1958] - المراجع السابقة، وحاشية رد المحتار ٤ / ١٢٩، وفتح القدير ٥ / ١٩٦، والبدائع ٧ / ١٠٨، والمدونة ٢ / ٤٦، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٦، وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٠، ونهاية المحتاج ٨ / ١٠٠ .

[1959] - فتح القدير ٥ / ٢٠٥، وجواهر الإكليل ١ / ٢٦٩ .

ذَلكَ منَ الْمَصَالِحِ،فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَإِنَّهُ لاَ تَجُوزُ الْمُهَادَنَةُ مُطْلَقًا منْ غَيْرِ تَقْديرِ مُدَّةٍ؛لأَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَرْك الْجهَاد بالْكُلِّيَّة.[1960]

اسْتعْمَال أَمْوَال الْعَدُوِّ وَسلاَحه:

يَجُوزُ أَنْ يُذْبَحَ منَ الْغَنَائِمِ للأَكْل مَا يُؤْكَل لَحْمُهُ وَذَلكَ لأَنَّهُ كَسَائِرِ الطَّعَامِ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُعْمَل منْ أُهُبهَا حذَاءً،وَلاَ سقَاءً،وَلاَ دلاَءً،وَلاَ فرَاءً،فَإِن اتَّخَذَ منْهُ شَيْئًا منْ ذَلكَ وَجَبَ رَدُّهُ في الْمَغْنَمِ.وَإِنْ أَصَابُوا كَلْبًا،فَإِنْ كَانَ عَقُورًا قُتل لمَا فيه منَ الضَّرَرِ،وَإِنْ كَانَ فيه مَنْفَعَةٌ دُفعَ إِلَى مَنْ يَنْتَفعُ به منَ الْغَانمينَ أَوْ منْ أَهْل الْخُمُسِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِمْ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْه خُلِّيَ لأَنَّ اقْتنَاءَهُ لغَيْرِ حَاجَة مُحَرَّمٌ.

وَمَا أَصَابَ الْمُسْلمُونَ منْ مَال الْكُفَّارِ وَخيفَ أَنْ يَرْجعَ إِلَيْهِمْ يُنْظَرُ فيه،فَإِنْ كَانَ غَيْرَ الْحَيَوَان أُتْلفَ حَتَّى لاَ يَنْتَفعُوا بِهِ وَيَتَقَوَّوْا بِهِ عَلَى الْمُسْلمينَ،وَإِنْ كَانَ حَيَوَانًا لَمْ يَجُزْ إِتْلاَفُهُ منْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.[1961]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[1960] – المراجع السابقة، والمغني ٨ / ٤٥٩، ٤٦٠، وكشاف القناع ٣ / ١١١، ١١٢، والمهذب ٢ / ٢٥٩ .

[1961] – المهذب ٢ / ٢٤٠ وما بعدها .

الباب الحادي عشر

أحكام فقهية هامة

المبحث الأول

في أحكام التبييت

التَّعْرِيفُ:

التَّبْيِيتُ لُغَةً:مَصْدَرُ بَيَّتَ الأَمْرَ إذَا دَبَّرَهُ لَيْلاً،وَبَيَّتَ النِّيَّةَ عَلَى الأَمْرِ:إذَا عَزَمَ عَلَيْهِ لَيْلاً فَهِيَ مُبَيَّتَةٌ بِالْفَتْحِ [1962] .

وَبَيَّتَ الْعَدُوَّ:أَيْ دَاهَمَهُ لَيْلاً.

وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } [النساء:١٠٨]وَفِي السِّيرَةِ:" هَذَا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيْلٍ ".

وَالتَّبْيِيتُ فِي الاصْطِلاَحِ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ،وَالْبَيَاتُ اسْمُ الْمَصْدَرِ،وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } [الأعراف:٩٧].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الإِغَارَةُ:

يُطْلِقُ الْعَرَبُ الْبَيَاتَ أَوِ التَّبْيِيتَ عَلَى الإِغَارَةِ عَلَى الْعَدُوِّ لَيْلاً.[1963]

وَفِي التَّنْزِيلِ:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) } [النمل:] فَالْفَرْقُ بَيْنَ تَبْيِيتِ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ الإِغَارَةِ عَلَيْهِ:أَنَّ الإِغَارَةَ مُطْلَقَةٌ،إذْ تَكُونُ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا،أَمَّا التَّبْيِيتُ فَهُوَ فِي اللَّيْلِ.

ب – الْبَيْتُوتَةُ:

[1962] -المصباح المنير مادة :" بيت " .

[1963] – المصباح المنير ولسان العرب مادة :" بيت " والقليوبي ٢ / ٢٥٦ .

الْبَيْتُوتَةُ:مَصْدَرُ بَاتَ،وَمَعْنَاهَا الْفِعْل بِاللَّيْل،فَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى أَعَمُّ مِنَ الْبَيَاتِ،وَيَنْدُرُ اسْتِعْمَالُهَا بِمَعْنَى النَّوْمِ لَيْلاً.وَيَسْتَعْمِلُهَا الْفُقَهَاءُ أَحْيَانًا فِي آثَارِ الْقَسْمِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ،وَبِهَذَا الْمَعْنَى يُخَالِفُ الْبَيَاتَ.[١٩٦٤]

حكم تَبْيِيت الْعَدُوِّ:

تَبْيِيتُ الْعَدُوِّ جَائِزٌ لِمَنْ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ،وَهُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَرَفَضُوهَا،وَلَمْ يَقْبَلُوا دَفْعَ الْجِزْيَةِ،وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَقْدُ ذِمَّةٍ وَلاَ هُدْنَةٍ.

قَال أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ:لاَ بَأْسَ بِالْبَيَاتِ،وَهَل غَزْوُ الرُّومِ إِلاَّ الْبَيَاتُ ؟ قَال:وَلاَ نَعْلَمُ أَحَدًا كَرِهَ تَبْيِيتَ الْعَدُوِّ.

وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،قَالَ:مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ،أَوْ بِوَدَّانَ،وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[١٩٦٥]

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الْمُرَادُ بِأَهْلِ الدِّيَارِ كُلُّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعَتْ فِي مَحَلَّةٍ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تَجْمَعُهَا وَتَدُورُ حَوْلَهُمْ (يَبِيتُونَ):هُوَ عَلَى صِيغَةِ الْمَجْهُولِ حَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ،وَقَوْلُهُ:(مِنَ الْمُشْرِكِينَ):حَالٌ أُخْرَى وَمِنْ بَيَانِيَّةٌ ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَفِي النِّهَايَةِ:أَيْ يُصَابُونَ لَيْلًا وَتَبْيِيتُ الْعَدُوِّ هُوَ أَنْ يَقْصِدَ بِاللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْلَمَ،فَيُؤْخَذَ بَغْتَةً وَهُوَ الْبَيَاتُ (فَيُصَابَ):أَيْ بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ (مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ):فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ:الذَّرَارِيُّ بِالتَّشْدِيدِ أَفْصَحُ وَهِيَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ اهـ.وَالْمُرَادُ هُنَا الْأَطْفَالُ وَالْوِلْدَانُ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ (قَالَ:هُمْ مِنْهُمْ):أَيِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ مِنَ الرِّجَالِ يَعْنِي أَنَّهُمْ فِي حُكْمِهِمْ إِذَا لَمْ يَتَمَيَّزُوا،فَالنَّهْيُ مَحْمُولٌ عَلَى التَّشْخِيصِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَفِي لَفْظِ هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ فَيَجِبُ دَفْعًا لِلْمُعَارَضَةِ حَمْلُهُ عَلَى مَوْرِدِ السُّؤَالِ وَهُمُ الْمُبَيَّتُونَ،وَذَلِكَ أَنَّ فِيهِ ضَرُورَةَ عَدَمِ الْعِلْمِ وَالْقَصْدِ إِلَى الصِّغَارِ بِأَنْفُسِهِمْ ؛ لِأَنَّ التَّبْيِيتَ يَكُونُ مَعَهُ ذَلِكَ،وَالتَّبْيِيتُ هُوَ الْمُسَمَّى فِي عُرْفِنَا بِالْكَبْسِيَّةِ وَمَا

[١٩٦٤] – المصباح المنير، والقليوبي ٣ / ٢٩٩ .

[١٩٦٥] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٦ – (١٧٤٥)

، و[ش .(بالأبواء أو بودان) موضعان بين مكة والمدينة.(يبيتون) يغار عليهم في الليل فلا يعرف رجل من امرأة.(فيصاب) بالقتل وغيره.(هم منهم) أي من المشركين فلا حرج فيإصابتهم إذا كانوا مختلطين معهم ولا يمكن الوصول إلى قتل الكبار إلا بقتلهم وليس المراد قتلهم بطريق القصد إليهم]

الظَّنُّ إِلَّا أَنَّ حُرْمَةَ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ إِجْمَاعٌ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ اسْتِرْقَاقُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.قَالَ الْقَاضِي:أَرَادَ بِهِ تَجْوِيزَ سَبْيِهِمْ وَاسْتِرْقَاقِهِمْ كَمَا لَوْ أَتَوْا أَهْلَهَا نَهَارًا وَحَارَبُوهُمْ جِهَارًا،أَوْ أَنَّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ اتِّفَاقًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَتَوَجُّهٍ إِلَى قَتْلِهِ فَهَدْرٌ لَا حَرَجَ فِي قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ ؛ أَيْضًا كُفَّارٌ،وَإِنَّمَا يَجِبُ التَّحَرُّزُ عَنْ قَتْلِهِمْ حَيْثُ يَتَيَسَّرُ،وَلِذَلِكَ لَوْ تَتَرَّسُوا بِنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ لَمْ يُبَالَ بِهِمْ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَلَا بَأْسَ بِرَمْيِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ أَسِيرٌ مُسْلِمٌ،أَوْ تَاجِرٌ،بَلْ وَلَوْ تَتَرَّسُوا بِأُسَارَى الْمُسْلِمِينَ وَصِبْيَانِهِمْ،سَوَاءٌ عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَفُّوا عَنْ رَمْيِهِمُ انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ،أَوْ لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُقْصَدُ رَمْيُهُمْ فِي صُورَةِ التَّتَرُّسِ،إِلَّا إِذَا كَانَ فِي الْكَفِّ عَنْ رَمْيِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ انْهِزَامُ الْمُسْلِمِينَ،وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ،فَإِنْ رُمُوا وَأُصِيبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَعِنْدَ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ فِيهِ الدِّيَةُ وَالْكَفَّارَةُ،وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ فِيهِ الْكَفَّارَةُ قَوْلًا وَاحِدًا،وَفِي الدِّيَةِ قَوْلَانِ.وَالْأَدِلَّةُ مَبْسُوطَةٌ فِي شَرْحِهِ.قَالَ مُحَمَّدٌ:إِذَا فَتَحَ الْإِمَامُ بَلْدَةً،وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِيهَا مُسْلِمًا،أَوْ ذِمِّيًّا لَا يَحِلُّ قَتْلُ أَحَدٍ مِنْهُمْ لِاحْتِمَالِ كَوْنِهِ ذَلِكَ الْمُسْلِمَ،أَوِ الذِّمِّيَّ،إِلَّا أَنَّهُ قَالَ:وَلَوْ أُخْرِجَ وَاحِدٌ مِنْ عَرْضِ النَّاسِ حَلَّ إِذَا قُتِلَ الْبَاقِي لِجَوَازِ كَوْنِ الْمُخْرَجِ هُوَ ذَاكَ،فَصَارَ فِي كَوْنِ الْمُسْلِمِ فِي الْبَاقِينَ شَكٌّ بِخِلَافِ الْحَالَةِ الْأُولَى فَإِنَّ كَوْنَ الْمُسْلِمِ أَوِ الذِّمِّيِّ فِيهِمْ مَعْلُومٌ بِالْيَقِينِ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ:أَمَّا شُيُوخُ الْكُفَّارِ فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ رَأْيٌ قُتِلُوا،وَإِلَّا فَفِيهِمْ وَفِي الرُّهْبَانِ خِلَافٌ.قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ:لَا يُقْتَلُونَ،وَالْأَصَحُّ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ قَتْلُهُمْ،وَفِيهِ أَنَّ أَوْلَادَ الْكُفَّارِ حُكْمُهُمْ فِي الدُّنْيَا كَحُكْمِ آبَائِهِمْ،وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَفِيهِمْ إِذَا مَاتُوا قَبْلَ الْبُلُوغِ ثَلَاثُ مَذَاهِبَ.الصَّحِيحُ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ،وَالثَّانِي فِي النَّارِ،وَالثَّالِثُ لَا يُجْزَمُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ.[١٩٦٦]

فَإِنْ قِيلَ:جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:وُجِدَت امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،«فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[١٩٦٧]

وعَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ،عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ وَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ الَّذِي لاَ حَرَاكَ بِهِ.[١٩٦٨]

[١٩٦٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٦)

[١٩٦٧] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٥ - (١٧٤٤)

[١٩٦٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٨٠)(٣٣٨٠٧) حسن مرسل

قُلْنَا:هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى التَّعَمُّد لِقَتْلهِمْ.وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُمْكِنٌ بِحَمْلِ النَّهْيِ عَلَى التَّعَمُّد،وَالإِبَاحَة عَلَى مَا عَدَاهُ.[١٩٦٩]

قَالَ ابْنُ الْهُمَام:أَخْرَجَ السِّتَّةُ إِلَّا النَّسَائِيَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ:أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ مَقْتُولَةً فَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان.قَالَ:وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّ حُرْمَةَ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان إِجْمَاعٌ،وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ،أَنَّهُ أَوْصَى يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الشَّامِ فَقَالَ لَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا النِّسَاءَ وَلَا الشُّيُوخَ الْحَدِيثَ.قَالَ:لَكِنْ يَقْتُلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْ كُلٍّ مَنْ قُلْنَا إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ كَالْمَجْنُون وَالصَّبِيِّ وَالْمَرْأَة وَالشُّيُوخِ وَالرُّهْبَان،إِلَّا أَنَّ الصَّبِيَّ وَالْمَجْنُونَ يُقْتَلَان فِي حَال قِتَالِهِمَا،أَمَّا غَيْرُهُمَا مِنَ النِّسَاءِ وَالرُّهْبَان وَنَحْوِهِمْ،فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ إِذَا قَاتَلُوا بَعْدَ الْأَسْرِ،وَالْمَرْأَةُ الْمَلِكَةُ تُقْتَلُ وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلْ،وَكَذَا الصَّبِيُّ الْمَلِكُ وَالْمَعْتُوهُ الْمَلِكُ ؛ لِأَنَّ فِي قَتْلِ الْمَلِكِ كَسْرَ شَوْكَتِهِمْ.[١٩٧٠]

قَالَ فِي الْفَتْحِ:أَيْ فِي الْحُكْمِ فِي تِلْكَ الْحَالَة،وَلَيْسَ الْمُرَادُ إِبَاحَةَ قَتْلِهِمْ بِطَرِيق الْقَصْد إِلَيْهِمْ،بَلْ الْمُرَادُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ الْوُصُولُ إِلَى الْآبَاءِ إِلَّا بِوَطْءِ الذُّرِّيَّة،فَإِذَا أُصِيبُوا لِاخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ جَازَ قَتْلُهُمْ.انْتَهَى.وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُد «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمَّا بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان».وَيُحْمَلُ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ بِطَرِيق الْقَصْد.وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَط مِنْ حَدِيث ابْنِ عُمَرَ.قَالَ:«لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - مَكَّةَ أُتِيَ بِامْرَأَة مَقْتُولَة فَقَالَ:مَا كَانَتْ هَذِه لِتُقَاتِلَ،وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان».وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ أَبُو دَاوُد فِي الْمَرَاسِيلِ مِنْ حَدِيث عِكْرِمَةَ.

وَقَدْ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان بِحَال،حَتَّى لَوْ تَتَرَّسَ أَهْلُ الْحَرْب بِالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَان لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ وَلَا تَحْرِيقُهُمْ.وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَالْكُوفِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ إِلَى الْجَمْعِ بِمَا تَقَدَّمَ،وَقَالُوا:إِذَا قَاتَلَتْ الْمَرْأَةُ جَازَ قَتْلُهَا.وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيث رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيع التَّمِيمِيِّ قَالَ:«كُنَّا مَعَ رَسُول اللَّهِ - ﷺ - فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ فَرَأَى الْمَرْأَةَ مَقْتُولَةً،فَقَالَ:مَا كَانَتْ هَذِه

[١٩٦٩] - المغني ٨ / ٤٤٩ مطبعة الرياض الحديثة .

[١٩٧٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٦)

لِتُقَاتِلَ» فَإِنَّ مَفْهُومَهُ أَنَّهَا لَوْ قَاتَلَتْ لَقُتِلَتْ.وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ وَغَيْرُهُ الاتِّفَاقَ عَلَى مِثْلِ الْقَصْدِ إِلَى قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.[1971]

وَالْمَسْأَلَةُ فِيهَا تَفْرِيعَاتٌ فِيمَا إِذَا كَانَ مَعَ الْكُفَّارِ مُسْلِمٌ وَقُتِلَ،تُنْظَرُ فِي:(الْجِهَادِ وَالدِّيَاتِ).[1972]

فَإِنْ بَيَّتَ الإِمَامُ أَوْ أَمِيرُ الْجَيْشِ قَبْلَ الدَّعْوَةِ أَثِمَ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال:٥٧،٥٨]

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ضَمَانِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْهُمْ بِالتَّبْيِيتِ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُضْمَنُ،لأَنَّهُ لاَ إِيمَانَ لَهُ،وَلاَ أَمَانَ،فَلَمْ يُضْمَنْ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ يُضْمَنُ بِالدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ،وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنِ الشَّافِعِيِّ.[1973]

وَيَرَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ:أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسَ لاَ تَجِبُ دَعْوَتُهُمْ قَبْلَ الْقِتَالِ ؛لأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْهُمْ،وَلأَنَّ كُتُبَهُمْ قَدْ بَشَّرَتْ بِالرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.وَيُدْعَى عَبَدَةُ الأَوْثَانِ قَبْلَ أَنْ يُحَارَبُوا.[1974]

أَمَّا مَنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ،فَتُسْتَحَبُّ الدَّعْوَةُ قَبْلَ التَّبْيِيتِ مُبَالَغَةً فِي الإِنْذَارِ،وَلِيَعْلَمُوا أَنَّنَا نُقَاتِلُهُمْ عَلَى الدِّينِ لاَ عَلَى سَلْبِ الأَمْوَالِ وَسَبْيِ الذَّرَارِيِّ،وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»،قَالَ:فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».فَقَالُوا:يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ».فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ،فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ،فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ،فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟

[1971] - نيل الأوطار (٧/ ٢٣٧)

[1972] - شرح روض الطالب ٤ / ١٩١ طبعة الميمنية – الناشر المكتبة الإسلامية سنة ١٣١٣ هـ .

[1973] - البحر الرائق ٥ / ٨٠، وابن عابدين ٣ / ٢٢٣، ومطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى ٢ / ٥٠٧ – ٥٠٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣، والمغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦ .

[1974] - المغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦ .

فَقَالَ:«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1975]،وَهُمْ مِمَّنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ.

وَيَجُوزُ بَيَاتُهُمْ بِغَيْرِ دُعَاءٍ،لِأَنَّهُ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ،وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ»[1976]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ:" أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ،وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ»[1977]

وعَنْ أُسَامَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ وَجَّهَهُ وِجْهَةً،فَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:مَا الَّذِي عَهِدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ:" عَهِدَ إِلَيَّ أَنْ أُغِيرَ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا،ثُمَّ أُحَرِّقَ "[1978]

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:إِذَا أَرَادَ الْإِمَامُ الْعَوْدَ وَمَعَهُ مَوَاشٍ مِنْ مَوَاشِي أَهْلِ الْحَرْبِ،وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى نَقْلِهَا إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ ذَبَحَهَا،ثُمَّ حَرَّقَهَا وَلَا يَعْقِرُهَا،كَمَا نُقِلَ عَنْ مَالِكٍ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُثْلَةِ بِالْحَيَوَانِ،وَعَقَرَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَرَسَهُ رُبَّمَا كَانَ لِظَنِّهِ عَدَمَ الْفَتْحِ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ،فَخَشِيَ أَنْ يَنَالَ الْمُشْرِكُونَ فَرَسَهُ،فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الذَّبْحِ لِضِيقِ الْحَالِ عَنْهُ بِالشُّغْلِ بِالْقَتْلِ،أَوْ كَانَ قَبْلَ نَسْخِ الْمُثْلَةِ،أَوْ عِلْمَهُ بِهَا وَلَا يَتْرُكُهَا لَهُمْ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ:يَتْرُكُهَا ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَى عَنْ ذَبْحِ الشَّاةِ إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.قُلْنَا:هَذَا غَرِيبٌ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،نَعَمْ رُوِيَ مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ نَفْسِهِ.رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوَطَّئِهِ،ثُمَّ هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى

[1975] - صحيح البخاري (٥/ ١٨)(٣٧٠١) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢)٣٤ - (٢٤٠٦)

[ش (يدوكون ليلتهم) يخوضون ويتحدثون طوال ليلتهم من الدوكة وهي الخوض والاختلاط]

[1976] - صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٤١)

[ش (غارون) غافلون أي أخذهم على غرة وبغتة.(أنعامهم) هي الإبل والبقر والغنم وأكثر ما تطلق على الإبل.(مقاتلتهم) البالغين الذين هم على استعداد للقتال.(سبى ذراريهم) أخذهم سبيا ووزعهم على الغانمين بعد أن ضرب عليهم الرق.والذراري جمع ذرية وهي ههنا النساء والأولاد غير البالغين.(أصاب يومئذ جويرية) أي كانت في السبي]

[1977] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢١٠)(٦٥٢٨) صحيح

[1978] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ١٤٨)(٢١٨٢٤) صحيح لغيره

مَا إِذَا أَيْقَنَ الْفَتْحَ وَصَيْرُورَةَ الْبِلَادِ دَارَ الْإِسْلَامِ،وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمُسْتَمِرَّ فِي بُعُوثِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَاعْتِبَارُهُ كَانَ ذَلِكَ،وَقَدْ قُلْنَا بِذَلِكَ وَذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ،أَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يُحَرِّقْ وَلَا يُخَرِّبْ ؛ لِأَنَّهُ إِتْلَافُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ،أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ،وَلَا تُحَرِّقْ وَهُوَ قَدْ قَدْ عَلِمَ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا،ثُمَّ حَرِّقْ بَقِيَ مُجَرَّدُ ذَبْحِ الْحَيَوَانِ،وَأَنَّهُ لِغَرَضِ الْأَكْلِ ؛ لِأَنَّهُ غَرَضٌ صَحِيحٌ،وَلَا غَرَضَ أَصَحُّ مِنْ كَسْرِ شَوْكَتِهِمْ وَتَعْرِيضِهِمْ عَلَى الْمَهْلَكَةِ وَالْمَوْتِ،وَإِنَّمَا يُحَرِّقُ لِقَطْعِ مَنْفَعَةٍ عَنِ الْكُفَّارِ وَصَارَ كَتَخْرِيبِ الْبُنْيَانِ،وَالتَّحْرِيقُ لِهَذَا الْغَرَضِ الْكَرِيمِ بِخِلَافِ التَّحْرِيقِ قَبْلَ الذَّبْحِ ؛ لِأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ،وَفِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:حَدِيثُ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.قَالَ:«بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فِي بَعْثٍ فَقَالَ لَنَا:" إِنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا فَاحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ " فَلَمَّا خَرَجْنَا دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – وَقَالَ:" إِنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا فَاقْتُلُوهُمَا وَلَا تَحْرِقُوهُمَا فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ».وَرَوَاهُ الْبَزَّارُ وَسَمَّاهُمَا هَبَّارَ بْنَ الْأَسْوَدِ،وَنَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ،وَطَوَّلَهُ الْبَيْهَقِيُّ،وَذَكَرَ أَنَّ السَّبَبَ أَنَّهُمَا كَانَا رَوَّعَا زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – حِينَ خَرَجَتْ لَاحِقَةً بِهِ – ﷺ – حَتَّى أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا،وَالْقِصَّةُ مُفَصَّلَةٌ عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ مَعْرُوفَةٌ لِأَهْلِ السِّيَرِ،وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ ؛ أَيْضًا تَحْرِيقَ عَلِيٍّ الزَّنَادِقَةَ الَّذِينَ أَتَى بِهِمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:«لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أَحْرِقْهُمْ لِنُهَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –،لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ،وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِهِ – ﷺ –:" مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

وَأَخْرَجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ «عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حِبَّانَ قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ أُمِّ الدَّرْدَاءِ،فَأَخَذْتُ بُرْغُوثًا فَرَمَيْتُهُ فِي النَّارِ فَقَالَتْ:سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:" لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ» ".وَأَمَّا مَا فِي فَتَاوَى الْوَالِجِيِّ بِتَرْكِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي أَرْضٍ غَامِرَةٍ ؛ أَيْ خَرِبَةٍ حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا كَيْلَا يَعُودُوا حَرْبًا عَلَيْنَا ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ بِهِنَّ النَّسْلُ وَالصِّبْيَانُ يَبْلُغُونَ فَيَصِيرُونَ حَرْبًا عَلَيْنَا فَبَعِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ قَتْلٌ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ الَّذِي نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ – ﷺ – فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّعْذِيبِ،ثُمَّ هُمْ قَدْ صَارُوا أُسَارَى بَعْدَ الِاسْتِيلَاءِ،وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ – ﷺ – بِالْأَسْرَى خَيْرًا حَدَّثَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ نَبِيهِ بْنِ

وَهْبٍ أَخِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ،«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَقْبَلَ بِالْأُسَارَى فَـرَّقَهُمْ بَـيْنَ أَصْحَابِهِ وَقَالَ:اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا،فَقَالَ أَبُو عَزِيزٍ مَـوْلَى أَخِـي مُصْـعَبِ بْـنِ عُمَيْرٍ،وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَسَرَنِي فَقَالَ لَهُ:شُدَّ يَدَيْكَ بِهِ،فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ مَتَاعٍ.قَالَ:وَكُنْـتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا مِنْ بَدْرٍ،فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصُّـونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التَّمْرَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ؛ إِيَّاهُمْ بِنَا مَا يَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِـنْهُمْ كِسْرَةٌ مِنَ الْخُبْزِ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا.قَالَ:فَأَسْتَحْيِي فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ فَيَرُدُّهَا عَلَـى مَـنْ يُمْسِكُهَا»،فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقْتَلُوا جُوعًا،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُضْطَرُّوا إِلَى ذَلِكَ بِسَـبَبِ عَـدَمِ الْحَمْلِ وَالْمِيرَةِ فَيُتْرَكُوا ضَرُورَةً،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.[١٩٧٩]

وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،قَالَ:مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ،أَوْ بِوَدَّانَ،وَسُـئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ المُشْرِكِينَ،فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[١٩٨٠] وَكَانُوا جَمِيعًا مِمَّنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَإِلاَّ لَمْ يُبَيَّتُوا لِلأَدِلَّةِ السَّابِقَةِ[١٩٨١].

المبحث الثاني

خداع العدو

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ الحَرْبَ خَدْعَةً»[١٩٨٢]

وعَنْ عَمْرٍو،سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ:«الحَـرْبُ خَدْعَةٌ»[١٩٨٣]

[١٩٧٩] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٤١)

[١٩٨٠] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٦ - (١٧٤٥)

[ش(بالأبواء أو بودان) موضعان بين مكة والمدينة.(يبيتون) يغار عليهم في الليل فلا يعرف رجل من امرأة.(فيصاب) بالقتل وغيره.(هم منهم) أي من المشركين فلا حرج فيإصابتهم إذا كانوا مختلطين معهم ولا يمكن الوصول إلى قتل الكبار إلا بقتلهم وليس المراد قتلهم بطريق القصد إليهم]

[١٩٨١] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٠/ ١٢٤) والبحر الرائق ٥ / ٨١، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، والمغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣ .

[١٩٨٢] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٢٩)وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٢)١٨ - (١٧٤٠)

وعَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ،قَالَ:قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ،وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ،حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ،سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ،يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ،يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ،لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ،فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١٩٨٤]

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا لِي أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ إِلَى الْكَذِبِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ،كُلُّ كَذِبٍ مَكْتُوبٌ كَذِبًا لَا مَحَالَةَ،إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ؛فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ،أَوْ يَكْذِبَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا،أَوْ يَكْذِبَ لِقَرَابَةٍ لِيُرْضِيَهَا»[١٩٨٥]

فَفِي الْقَامُوسِ:الْحَرْبُ خَدْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ وَكَهُمَزَةٍ،وَرُوِيَ بِهِنَّ جَمِيعًا ؛ أَيْ:يَنْقَضِي بِخَدْعَةٍ،وَفِي مُخْتَصَرِ النِّهَايَةِ لِلسُّيُوطِيِّ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَضَمِّهَا مَعَ سُكُونِ الدَّالِ وَبِضَمِّهَا مَعَ فَتْحِ الدَّالِ،فَالْأَوَّلُ مَعْنَاهُ أَنَّ الْحَرْبَ يَنْقَضِي أَمْرُهَا بِخَدْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخِدَاعِ ؛ أَيْ:أَنَّ

[١٩٨٣] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٣٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦١)١٧ - (١٧٣٩)

[ش (الحرب خدعة) فيها ثلاث لغات مشهورات واتفقوا على أن أفصحهن خدعة قال ثعلب وغيره هي لغة النبي صلى الله عليه وسلم والثانية خدعة والثالثة خدعة واتفق العلماء على جواز خدع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل والمعنى على اللغة الأولى أن الحرب ينقضي أمرها بخدعة واحدة من الخداع أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة وهي أفصح الروايات وأصحها ومعنى الثانية هو الاسم من الخداع ومعنى اللغة الثالثة أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفي لهم]

[١٩٨٤] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠٠)(٣٦١١) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٦)١٥٤ - (١٠٦٦)

[ش(أخر) من الخرور وهو الوقوع والسقوط.(خدعة) بفتح الخاء وكسرها وضمها أي تمويه وإخفاء وتلون وتكون بالتورية والتعريض وخلف الوعد والكذب والاقتصار على التورية أو التعريض أفضل والمراد أنه يلتزم ما سمعه في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن حدث من عنده فإنه يجتهد برأيه ويلون في الكلام ما شاء ليقنع سامعه وليس المراد أنه يخادع في حديثه حاشاه رضي الله عنه.(حدثاء الأسنان) جمع حديث السن وهو الصغير.(سفهاء الأحلام) ضعفاء العقول والسفهاء جمع سفيه وهو الطائش خفيف العقل.(من قول خير البرية) أي من خير ما تقوله البرية أو هو القرآن والسنة والبرية الخلق.(يمرقون) يخرجون.(الرمية) الصيد المرمي.(لا يجاوز إيمانهم حناجرهم) أي لا يصل إلى قلوبهم والحناجر جمع حنجرة وهي رأس الحلقوم الذي يرى من خارج الحلق]

[١٩٨٥] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:١٧٨)(٤٠٩) صحيح

الْمُقَاتِلَ إِذَا خُدِعَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمْ يَكُنْ لَهَا إِقَالَةٌ،وَهُوَ أَفْصَحُ الرِّوَايَاتِ وَأَصَحُّهَا،وَمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الاسْمُ مِنَ الْخِدَاعِ،وَمَعْنَى الثَّالِثِ أَنَّ الْحَرْبَ تَخْدَعُ الرِّجَالَ وَتُمَنِّيهِمْ وَلَا تَفِي لَهُمْ كَمَا يُقَالُ:فُلَانٌ رَجُلٌ لِعْبَةٌ وَضِحْكَةٌ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ اللَّعِبُ وَالضَّحِكُ،وَفِي الْمَشَارِقِ لِعِيَاضٍ قَوْلُهُ:الْحَرْبُ خَدْعَةٌ كَذَا لِأَبِي ذَرٍّ،وَأَكْثَرِ الرُّوَاةِ لِلصَّحِيحَيْنِ،وَضَبَطَهَا الْأَصِيلِيُّ خُدْعَةٌ.وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ:لُغَةُ النَّبِيِّ - ﷺ - خَدْعَةٌ الْفَتْحُ،وَبِهِ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ،وَحَكَى يُونُسُ فِيهَا الْوَجْهَيْنِ،وَوَجْهًا ثَالِثًا بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ،وَلُغَةٌ رَابِعَةٌ خَدَعَةٌ بِفَتْحِهِمَا،فَالْخَدَعَةُ بِمَعْنَى أَنَّ أَمْرَهَا يَنْقَضِي بِخَدْعَةٍ وَاحِدَةٍ يُخْدَعُهَا الْمَخْدُوعُ فَتَزِلُّ قَدَمُهُ،وَلَا يَجِدُ لَهَا تَلَافِيًا وَلَا إِقَالَةً،فَكَأَنَّهُ نَبَّهَ عَلَى أَخْذِ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ،وَمَنْ ضَمَّ الْخَاءَ وَفَتَحَ الدَّالَ نَسَبَ الْفِعْلَ إِلَيْهَا ؛ أَيْ:تَخْدَعُ هِيَ مَنِ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا،أَوْ أَنَّ أَهْلَهَا يُخْدَعُونَ فِيهَا،وَمَنْ فَتَحَهَا جَمِيعًا كَانَ جَمْعَ خَادِعٍ يَعْنِي أَنَّ أَهْلَهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلَا تَطْمَئِنَّ إِلَيْهِمْ،كَأَنَّهُ قَالَ:أَهْلُ الْحَرْبِ خَدَعَةٌ،وَأَصْلُ الْخَدْعِ إِظْهَارُ أَمْرٍ وَإِضْمَارُ خِلَافِهِ.وَقَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَسُكُونِ الدَّالِ ؛ أَيْ:إِنَّهَا خَدْعَةٌ وَاحِدَةٌ مَنْ تَيَسَّرَتْ لَهُ حُقَّ لَهُ الظَّفَرُ وَبِضَمِّ الْخَاءِ وَسُكُونِ الدَّالِ ؛ أَيْ:مُعْظَمُ ذَلِكَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ،وَبِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ ؛ أَيْ:إِنَّهَا خَدَّاعَةٌ لِلْإِنْسَانِ بِمَا تُخَيِّلُ إِلَيْهِ وَتُمَنِّيهِ،ثُمَّ إِذَا لَابَسَهَا وَجَدَ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَا خُيِّلَ إِلَيْهِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:أَفْصَحُ اللُّغَاتِ فِيهَا فَتْحُ الْخَاءِ وَإِسْكَانُ الدَّالِ وَهِيَ لُغَةُ النَّبِيِّ - ﷺ -،وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ الْخِدَاعِ مَعَ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ كَيْفَ اتَّفَقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ،أَوْ أَمَانٍ،وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ.وَقَالَ الطَّبَرِيُّ:إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ الْمَعَارِيضُ،وَحَقِيقَتُهُ لَا تَجُوزُ،وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ،لَكِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى التَّعْرِيضِ أَفْضَلُ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ):وَرَوَاهُ أَحْمَدُ،وَأَبُو دَاوُدَ،وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ جَابِرٍ،وَكَذَا الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،وَكَذَا أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ،وَكَذَا أَبُو دَاوُدَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ عَائِشَةَ،وَالْبَزَّارُ عَنِ الْحُسَيْنِ،وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ الْحَسَنِ وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ،وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ

أَجْمَعِينَ.وَكَذَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ،فَكَادَ الْحَدِيثُ أَنْ يَكُونَ مُتَوَاتِرًا لِكَثْرَةِ الصَّحَابَةِ الْمُخَرَّجِينَ وَأَسَانِيدِهِمْ.[١٩٨٦]

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ مِنْ الْخَوْفِ وَالشِّدَّةِ،لِتَظَاهُرِ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ،وَإِتْيَانِهِمْ إيَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ.

(قَالَ):ثُمَّ إنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أُنَيْفِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ قُنْفُدِ بْنِ هِلَالِ بْنِ خَلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ،أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ،وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي،فَمُرْنِي بِمَا شِئْتُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:إنَّمَا أَنْتُ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ،فَخَذِّلْ عَنَّا إنْ اسْتَطَعْتُ،فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ.فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ،وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَقَالَ:يَا بَنِي قُرَيْظَةَ،قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إيَّاكُمْ،وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،قَالُوا:صَدَقْتُ،لَسْتُ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ،فَقَالَ لَهُمْ:إنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ،الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ،فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ،لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوَّلُوا مِنْهُ إلَى غَيْرِهِ،وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ،وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ،وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ،فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ،فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ،وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إنْ خَلَا بِكُمْ،فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ،يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ،فَقَالُوا لَهُ:لَقَدْ أَشَرْتُ بِالرَّأْيِ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا،فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ:قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا،وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبْلِغَكُمُوهُ،نُصْحًا لَكُمْ،فَاكْتُمُوا عَنِّي،فَقَالُوا:نَفْعَلُ،قَالَ:تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ،وَقَدْ أَرْسَلُوا إلَيْهِ:إنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا،فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنْ الْقَبِيلَتَيْنِ،مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ،فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ:أَنْ نَعَمْ.فَإِنْ بَعَثَتْ إلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ

[١٩٨٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٥)

مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا.ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ،إنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي،وَأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ،وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي،قَالُوا:صَدَقْتُ،مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ،قَالَ:فَاكْتُمُوا عَنِّي،قَالُوا:نَفْعَلُ،فَمَا أَمْرُكَ؟،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ.[١٩٨٧]

وفي شرح السير:" بَابٌ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ذَكَرَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ذِي حَدَّانَ قَالَ:أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ عَلِيًّا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – يَقُولُ:«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:الْحَرْبُ خُدْعَةٌ أَوْ خَدْعَةٌ» بِالنَّصْبِ.وَكِلَاهُمَا لُغَةٌ.وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ لِلْمُجَاهِدِ أَنْ يُخَادِعَ قِرْنَهُ فِي حَالَةِ الْقِتَالِ،وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ غَدْرًا مِنْهُ.

وَأَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِالظَّاهِرِ فَقَالُوا:يُرَخَّصُ فِي الْكَذِبِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ،وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ:«لَا يَصْلُحُ الْكَذِبُ إلَّا فِي ثَلَاثٍ:فِي الصُّلْحِ بَيْنَ اثْنَيْنِ،وَفِي الْقِتَالِ،وَفِي إرْضَاءِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ».وَالْمَذْهَبُ عِنْدَنَا أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ الْكَذِبَ الْمَحْضَ،فَإِنَّ ذَلِكَ لَا رُخْصَةَ فِيهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ اسْتِعْمَالُ الْمَعَارِيضِ.وَهُوَ نَظِيرُ مَا رُوِيَ أَنَّ إبْرَاهِيمَ – ﷺ – كَذَبَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ.وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالْمَعَارِيضِ،إذْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَذِبِ الْمَحْضِ.

وَقَالَ عُمَرُ:إنَّ فِي مَعَارِيضِ الْكَلَامِ لَمَنْدُوحَةً عَنْ الْكَذِبِ.وَتَفْسِيرُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي " الْكِتَابِ ":وَهُوَ أَنْ يُكَلِّمَ مَنْ يُبَارِزُهُ بِشَيْءٍ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ.وَلَكِنَّهُ يُضْمِرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُهُ لَهُ.كَمَا فَعَلَ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – يَوْمَ الْخَنْدَقِ حِينَ بَارَزَهُ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ،قَالَ:أَلَيْسَ قَدْ ضَمِنْت لِي أَنْ لَا تَسْتَعِينَ عَلَيَّ بِغَيْرِك؟ فَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَعَوْتهمْ؟.فَالْتَفَتَ كَالْمُسْتَبْعِدِ لِذَلِكَ،فَضَرَبَ عَلَى سَاقَيْهِ ضَرْبَةً قَطَعَ رِجْلَيْهِ.

وَكَانَ مِنْ الْخُدْعَةِ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ قَوْلًا لِيَرَى مَنْ سَمِعَهُ أَنَّ فِيهِ ظَفَرًا أَوْ أَنَّ فِيهِ أَمْرًا يُقَوِّي أَصْحَابَهُ،وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ حَقِيقَةً،وَلَكِنْ يَتَكَلَّمُ عَلَى وَجْهٍ لَا يَكُونُ كَاذِبًا فِيهِ ظَاهِرًا.عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي حُرُوبِهِ كَانَ يَنْظُرُ إلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلَى السَّمَاءِ يَقُولُ:مَا كَذَبْت وَلَا كَذَبْت.يُرِي مَنْ حَضَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ –

[١٩٨٧] – سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢٢٩)

أَخْبَرَهُ بِمَا اُبْتُلِيَ بِهِ،وَأَمَرَهُ فِي ذَلِكَ بِمَا أَمَرَ بِهِ أَصْحَابَهُ.وَلَعَلَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ.فَهَذَا وَنَحْوُهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«إنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْعَجَائِزُ.فَلَمَّا سَمِعَتْ الْعَجُوزُ ذَلِكَ جَعَلَتْ تَبْكِي،حَتَّى بَيَّنَ لَهَا صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ حِينَ يَدْخُلُونَهَا».

وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ أَنْ يُقَيِّدَ كَلَامَهُ بِلَعَلَّ وَعَسَى،فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِثْنَاءِ (١٣٩) يَخْرُجُ الْكَلَامُ بِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَزِيمَةً عَلَى مَا قَالَ:«بَلَغَنَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إلَى النَّبِيِّ – ﷺ – يَوْمَ الْخَنْدَقِ».

وَاسْمُ هَذَا الرَّجُلِ مَذْكُورٌ فِي الْمَغَازِي نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ].«فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ غَدَرَتْ وَبَايَعَتْ أَبَا سُفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِهَذَا.فَرَجَعَ إلَى أَبِي سُفْيَانَ وَقَالَ:زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ أَمَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ بِهَذَا.فَقَالَ:أَنْتَ سَمِعْته يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ نَعَمْ.قَالَ فَوَاَللَّهِ مَا كَذَبَ».

وَتَمَامُ هَذِهِ الْقِصَّةِ ذُكِرَ فِي الْمَغَازِي مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا:«أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – إلَى أَنْ جَاءَ الْأَحْزَابُ وَمَعَهُمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَأْسُ بَنِي النَّضِيرِ.فَمَا زَالَ بِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَبَايَعُوا أَبَا سُفْيَانَ.عَلَى أَنْ يُغِيرُوهُمْ عَلَى الْمَدِينَةِ وَالْأَحْزَابُ يُقَاتِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – وَأَصْحَابَهُ.فَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} [الأحزاب:١٠].فَجَاءَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ يُخْبِرُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – بِهَذِهِ الْمُبَالَغَةِ،وَهُوَ كَانَ مُشْرِكًا يَوْمَئِذٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ يُرِيدُ أَنَّ هَذَا مِنْ مُوَاطَأَةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ حَتَّى نُحِيطَ بِالْأَحْزَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُؤْثَرُ عَنْك شَيْءٌ مِنْ أَجْلِ صَنِيعِهِمْ.فَقَالَ – ﷺ –:الْحَرْبُ خُدْعَةٌ يَا عُمَرُ».فَكَانَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ سَبَبَ تَفَرُّقِهِمْ وَتَفَرُّقِ كَلِمَتِهِمْ وَانْهِزَامِهِمْ.وَالْوَجْهُ الْآخَرُ:«أَنَّهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْمُبَايَعَةِ قَالُوا لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ:لَا نَأْمَنُ أَنْ يَطُولَ الْأَمْرُ وَتَذْهَبَ الْأَحْزَابُ وَنَبْقَى مَعَ مُحَمَّدٍ فَيُحَاصِرَنَا وَيُخْرِجَنَا مِنْ دِيَارِنَا كَمَا فَعَلَ بِك وَبِأَصْحَابِك.فَقَالَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ:أَنَا أَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا

سَبْعِينَ مِنْ أَبْنَاءِ كُبَرَائِهِمْ إلَيْكُمْ لِيَكُونُوا رَهْنًا فِي حِصْنِكُمْ.وَكَانَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَهُمْ حِينَ جَرَتْ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةُ،فَحَثَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ.فَقَالُوا:هُوَ الرَّأْيُ.ثُمَّ جَاءَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَأَخْبَرَهُ بِمَا جَرَى.فَقَالَ – ﷺ –:فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ.فَجَاءَ إلَى أَبِي سُفْيَانَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ رَسُولَ بَنِي قُرَيْظَةَ يَسْأَلُهُ الرَّهْنَ.فَقَالَ لَهُ:هَلْ عَلِمْت أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ؟ قَالَ:نَعَمْ.فَقَالَ:إنِّي سَمِعْته الْآنَ يَقُولُ كَذَا.وَهَذَا مُوَاطَأَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ،لِيَأْخُذُوا سَبْعِينَ مِنْكُمْ فَيَدْفَعُوهُمْ إلَيْهِ لِيَقْتُلَهُمْ.وَقَدْ ضَمِنَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إصْلَاحَ جَنَاحِهِمْ،يَعْنِي رَدَّ بَنِي النَّضِيرِ إلَى دَارِهِمْ.فَقَالُوا:هُوَ كَمَا قُلْت وَاَللَّاتِ وَالْعُزَّى.وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.فَبَعَثَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنْ اُخْرُجُوا عَلَى تِلْكَ الْمُبَايَعَةِ الَّتِي بَيْنَنَا فَقَدْ طَالَ الْأَمْرُ.فَقَالُوا:غَدًا يَوْمُ السَّبْتِ،وَنَحْنُ لَا نَكْسِرُ السَّبْتَ.وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَخْرُجُ حَتَّى تُعْطُونَا الرَّهْنَ (٣٩ ب).فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:هُوَ كَمَا أَخْبَرَنَا بِهِ نُعَيْمٌ.وَقَذَفَ اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ فَانْهَزَمُوا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ».قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ – رَحِمَهُ اللَّهُ –:فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِنْ مَكَايِدِ الْحَرْبِ فَلَا بَأْسَ بِهِ."[١٩٨٨]

المبحث الثالث

جواز الاحتيال للوصول لمباح

يجوز الاحتيال في التوصل إلى المباح:

وقال الجصاص:

وَفِيمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ وَمَا عَامَلَ بِهِ إخْوَتَهُ فِي قَوْلِهِ:{فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ} إلى قوله:{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} دَلَالَةٌ عَلَى إجَازَةِ الْحِيلَةِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى الْمُبَاحِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ،وَقَالَ فِي آخر القصة:{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} وَمِنْ نَحْوِ ذَلِكَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ} [ص:٤٤] وَكَانَ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَهَا عَدَدًا،فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَخْذِ الضِّغْثِ وَضَرْبِهَا بِهِ لِيَبَرَّ فِي يَمِينِهِ مِنْ غَيْرِ إيصَالِ أَلَمٍ كَبِيرٍ إلَيْهَا.وَمِنْ نَحْوِهِ النَّهْيُ عَنْ

[١٩٨٨] – شرح السير الكبير (ص:١١٩)

التَّصْرِيحِ بِالْخِطْبَةِ وَإِبَاحَةُ التَّوَصُّلِ إِلَى إِعْلَامِهَا رَغْبَتَهُ بِالتَّعْرِيضِ.وَمِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ:أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ فَأَتَاهُ بِتَمْرٍ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا"؟ فَقَالَ:لَا وَاَللَّهِ،إنَّمَا نَأْخُذُ الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ،قَالَ:"فَلَا تَفْعَلْ بِعْ الْجَمِيعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ تَمْرًا"،كَذَا رَوَى ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ سُهَيْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَحَظَرَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّفَاضُلَ فِي التَّمْرِ وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَحْتَالُ فِي التَّوَصُّلِ إلَى أَخْذِ هَذَا التَّمْرِ" وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ لِهِنْدٍ:"خُذِي مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَا يَكْفِيك وَوَلَدَك بِالْمَعْرُوفِ".فَأَمَرَهَا بِالتَّوَصُّلِ إلَى أَخْذِ حَقِّهَا وَحَقِّ وَلَدِهَا.وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذَا أَرَادَ سَفَرًا وَرَّى بِغَيْرِهِ.وَرَوَى يُونُسُ وَمَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَنْ ائْتُونَا فَإِنَّا سَنُغِيرُ عَلَى بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ،فَسَمِعَ ذَلِكَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُوَادِعًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ عِنْدَ عُيَيْنَةَ حِينَ أَرْسَلَتْ بِذَلِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ إلَى الْأَحْزَابِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ،فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهَا وَمَا أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إلَى الْأَحْزَابِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"لَعَلَّنَا أَمَرْنَا بِذَلِكَ" فَقَامَ نُعَيْمٌ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:وَكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلًا لَا يَكْتُمُ الْحَدِيثَ،فَلَمَّا وَلَّى مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاهِبًا إلَى غَطَفَانَ قَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي قُلْت إنْ كَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ هَذَا رَأْيًا رَأَيْته مِنْ قِبَلِ نَفْسِك فَإِنَّ شَأْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا يُؤْثَرُ عَنْك فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"بَلْ هَذَا رَأْيٌ إنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ".وَرَوَى أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ عَنْ عُمَرَ قَالَ:"إنَّ فِي مَعَارِيضِ الْكَلَامِ لَمَنْدُوحَةً عَنْ الْكَذِبِ".وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ عُمَارَةَ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:"مَا يَسُرُّنِي بِمَعَارِيضِ الْكَلَامِ حُمُرُ النَّعَمِ".وَقَالَ إبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِلْمَلِكِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ سَارَةَ فَقَالَ:مَنْ هِيَ مِنْك؟ قَالَ:هِيَ أُخْتِي لِئَلَّا يَأْخُذَهَا،وَإِنَّمَا أَرَادَ أُخْتِي فِي الدِّينِ وَقَالَ لِلْكُفَّارِ:إنِّي سَقِيمٌ،حِينَ تَخَلَّفَ لِيُكَسِّرَ آلِهَتَهُمْ،وَكَانَ مَعْنَاهُ:إنِّي سَأَسْقَمُ يَعْنِي أَمُوتُ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إنَّك مَيِّتٌ} [الزمر:٣٠] فَعَارَضَ بِكَلَامِهِ عَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ إلَى غَيْرِهِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَلْحَقُ فِيهِ

الْكَذِبُ.فَهَذِهِ وُجُوهٌ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا بِالاحْتِيَالِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى الْمُبَاحِ،وَقَدْ كَانَ لَوْلَا وَجْهُ الْحِيلَةِ فِيهِ مَحْظُورًا وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْوَطْءَ بِالزِّنَا وَأَمَرَنَا بِالتَّوَصُّلِ إلَيْهِ بِعَقْدِ النِّكَاحِ وَحَظَرَ عَلَيْنَا أَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَأَبَاحَهُ بِالشِّرَى وَالْهِبَةِ وَنَحْوِهَا،فَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَصُّلَ إلَى اسْتِبَاحَةِ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ الْجِهَةِ الَّتِي أَبَاحَتْهُ الشَّرِيعَةُ فَإِنَّمَا يَرُدُّ أُصُولَ الدِّينِ وَمَا قَدْ ثَبَتَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ.

فَإِنْ قِيلَ:حَظَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ صَيْدَ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ حَبَسُوا السَّمَكَ يَوْمَ السَّبْتِ وَأَخَذُوهُ يَوْمَ الْأَحَدِ فَعَاقَبَهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ.قِيلَ لَهُ:قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ،وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ حَبْسُهَا فِي السَّبْتِ قَدْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ حَبْسُهُمْ لَهَا فِي السَّبْتِ مُحَرَّمًا لَمَا قَالَ:{اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} [البقرة:٦٥][١٩٨٩].

تجوز الْخدْعة فِي الْحرْب للْمبارز،وغيْرها

وفي المغني:

وَتَجُوزُ الْخُدْعَةُ فِي الْحَرْبِ لِلْمُبَارِزِ،وَغَيْرِهِ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ:«الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.وَرُوِيَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ بَارَزَ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ،فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ،قَالَ عَلِيٌّ:مَا بَرَزْت لِأُقَاتِلَ اثْنَيْنِ.فَالْتَفَتَ عَمْرٌو فَوَثَبَ عَلَيْهِ فَضَرَبَهُ،فَقَالَ عَمْرو:خَدَعْتنِي.فَقَالَ عَلِيٌّ:الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.[١٩٩٠]

ليست كل حيلة محرمة:

وقال ابن تيمية رحمه الله:

لَيْسَ كُلُّ مَا يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ حِيلَةً أَوْ يُسَمِّيهِ بَعْضُ النَّاسِ حِيلَةً،أَوْ يُسَمُّونَهُ آلَةً - مِثْلُ الْحِيلَةِ الْمُحَرَّمَةِ - حَرَامًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي تَنْزِيلِهِ:{إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} [النساء:٩٨] فَلَوْ احْتَالَ الْمُؤْمِنُ الْمُسْتَضْعَفُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ لَكَانَ مَحْمُودًا فِي ذَلِكَ وَلَوْ احْتَالَ مُسْلِمٌ عَلَى هَزِيمَةِ الْكَافِرِ،كَمَا فَعَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ،أَوْ عَلَى أَخْذِ مَالِهِ

[١٩٨٩] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ٢٢٨)

[١٩٩٠] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٨)

مِنْهُمْ،كَمَا فَعَلَ الْحَجَّاجُ بْنُ علاطة وَعَلَى قَتْلِ عَدُوٍّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ كَمَا فَعَلَ النَّفَرُ الَّذِينَ احْتَالُوا عَلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ الْيَهُودِيِّ وَعَلَى قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَكَانَ مَحْمُودًا أَيْضًا،فَإِنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ:«الْحَرْبُ خَدْعَةٌ».وَكَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِهَا وَلِلنَّاسِ فِي التَّلَطُّفِ وَحُسْنِ التَّحَيُّلِ عَلَى حُصُولِ مَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ،أَوْ دَفْعِ مَا يَكِيدُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ سَعْيٌ مَشْكُورٌ.

وَالْحِيلَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ التَّحَوُّلِ وَهُوَ النَّوْعُ مِنْ الْحَوْلِ كَالْجِلْسَةِ وَالْقِعْدَةِ مِنْ الْجُلُوسِ وَالْقُعُودِ وَالْأَكْلَةِ وَالشِّرْبَةِ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَمَعْنَاهَا نَوْعٌ مَخْصُوصٌ مِنْ التَّصَرُّفِ وَالْعَمَلِ الَّذِي هُوَ التَّحَوُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ هَذَا مُقْتَضَاهُ فِي اللُّغَةِ،ثُمَّ غُلِّبَتْ بِعُرْفِ الِاسْتِعْمَالِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ الطُّرُقِ الْخَفِيَّةِ إِلَى حُصُولِ الْغَرَضِ وَبِحَيْثُ لَا يُتَفَطَّنُ لَهُ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنْ الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَمْرًا حَسَنًا كَانَتْ حِيلَةً حَسَنَةً،وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا كَانَتْ قَبِيحَةً،وَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –:«لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتْ الْيَهُودُ فَتَسْتَحِلُّونَ مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ».صَارَتْ فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ إِذَا أُطْلِقَتْ قُصِدَ بِهَا الْحِيَلُ الَّتِي يُسْتَحَلُّ بِهَا الْمَحَارِمُ كَحِيَلِ الْيَهُودِ،وَكُلُّ حِيلَةٍ تَضَمَّنَتْ إِسْقَاطَ حَقِّ اللَّهِ،أَوْ الْآدَمِيِّ،فَهِيَ تَنْدَرِجُ فِيمَا يُسْتَحَلُّ بِهَا الْمَحَارِمُ،فَإِنَّ تَرْكَ الْوَاجِبِ مِنْ الْمَحَارِمِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – سَمَّى الْحَرْبَ خَدْعَةً؛،ثُمَّ إِنَّ الْخِدَاعَ فِي الدِّينِ مُحَرَّمٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَقَالَتْ أُمُّ كُلْثُومِ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَكَانَتْ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ:«لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا،أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ:" وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ يَعْنِي الْحَرْبَ وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ،وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ،وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا،وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ قَالَ الزُّهْرِيُّ وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ أَنَّهُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ.وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ سَكَنٍ «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى أَنْ تَتَابَعُوا فِي الْكَذِبِ كَمَا يَتَتَابَعُ الْفَرَاشُ كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا ثَلَاثَ خِصَالٍ رَجُلٌ كَذَبَ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا وَرَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ امْرَأَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا وَرَجُلٌ كَذَبَ فِي خَدْعَةِ حَرْبٍ».رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِهِ وَلَفْظُهُ:«لَا

يَحِلُّ الْكَذِبُ إلَّا فِي ثَلَاث» وَقَالَ:حَديثٌ حَسَنٌ،وَيُرْوَى أَيْضًا،عَنْ ثَوْبَانَ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا:«الْكَذِبُ كُلُّهُ إثْمٌ إلَّا مَا يُنْفَعُ بِه الْمُسْلِمُ أَوْ دُفِعَ بِه عَنْ دِينٍ».

فَلَمْ يُرَخِّصْ فِيمَا تُسَمِّيه النَّاسُ كَذِبًا،وَإِنْ كَانَ صِدْقًا فِي الْعِنَايَةِ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - :«لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ إلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ قَوْلَهُ لِسَارَةَ أُخْتِي.وَقَوْلَهُ:بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا وَقَوْلَهُ إنِّي سَقِيمٌ» وَالثَّلَاثُ مَعَارِيضُ وَمَلَاحَةٌ.فَإِنَّهُ قَصَدَ بِاللَّفْظِ مَا يُطَابِقُهُ فِي عِنَايَتِه لَكِنْ لَمَّا أَفْهَمَ الْمُخَاطَبَ مَا لَا يُطَابِقُهُ سُمِّيَ كَذِبًا،ثُمَّ هَذَا الضَّرْبُ قَدْ ضُيِّقَ فِيه كَمَا تَرَى.

يُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْسِيرَ مَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - :أَكْذِبُ امْرَأَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:لَا خَيْرَ فِي الْكَذِبِ فَقَالَ الرَّجُلُ:أَعِدُهَا وَأَقُولُ لَهَا،فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:لَا جُنَاحَ عَلَيْك».وَسَيَجِيءُ كَلَامُ ابْنِ عُيَيْنَةَ فِي ذَلِكَ وَبِالْجُمْلَةِ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُظْهِرَ قَوْلًا وَفِعْلًا مَقْصُودُهُ بِه مَقْصُودٌ صَالِحٌ،وَإِنْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ قَصَدَ بِه غَيْرَ مَا قَصَدَ بِه إذَا كَانَتْ فِيه مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ مِثْلُ دَفْعِ ظُلْمٍ عَنْ نَفْسِه،أَوْ عَنْ مُسْلِمٍ،أَوْ دَفْعِ الْكُفَّارِ عَنْ الْمُسْلِمِينَ أَوْ الِاحْتِيَالِ عَلَى إبْطَالِ حِيلَةٍ مُحَرَّمَةٍ،أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِه حِيلَةٌ جَائِزَةٌ.

وَإِنَّمَا الْمُحَرَّمُ مِثْلُ أَنْ يَقْصِدَ بِالْعُقُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَنَحْوِهَا غَيْرَ مَا شُرِعَتْ الْعُقُودُ لَهُ،فَيَصِيرَ مُخَادِعًا لِلَّه،كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ خَادَعَ النَّاسَ وَمَقْصُودُهُ حُصُولُ الشَّيْءِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ لَوْلَا تِلْكَ الْحِيلَةُ وَسُقُوطُ الشَّيْءِ الَّذِي يُوجِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَوْلَا تِلْكَ الْحِيلَةُ،كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودُهُ إظْهَارُ دِينِ اللَّه وَدَفْعُ مَعْصِيَةِ اللَّه،وَنَظِيرُ هَذَا أَنْ يَتَأَوَّلَ الْحَالِفُ مِنْ يَمِينِه إذَا اسْتَحْلَفَهُ الْحَاكِمُ لِفَصْلِ الْخُصُومَةِ،فَإِنَّ يَمِينَك عَلَى مَا يُصَدِّقُك بِه صَاحِبُك،وَالنِّيَّةُ لِلْمُسْتَحْلِفِ فِي مِثْلِ هَذَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَنْفَعُهُ التَّأْوِيلُ وِفَاقًا،وَكَذَلِكَ لَوْ تَأَوَّلَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لَمْ يَجُزْ عِنْدَ الْأَكْثَرِ مِنْ الْعُلَمَاءِ،بَلْ الِاحْتِيَالُ فِي الْعُقُودِ أَقْبَحُ مِنْ حَيْثُ إنَّ الْمُخَادَعَ فِيهَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى،وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ فَإِنَّمَا خَدَعَ نَفْسَهُ وَمَا يَشْعُرُ،وَلِهَذَا لَا يُبَارَكُ لِأَحَدٍ فِي حِيلَةٍ اسْتَحَلَّ بِهَا شَيْئًا مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ وَيَتَبَيَّنُ الْحَالُ بِذِكْرِ أَقْسَامِ الْحِيَلِ.[1991]

[1991] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ١٠٦)

المبحث الرابع

الخلاصة في أحكام التحيز

التَّعْرِيفُ:

التَّحَيُّزُ:مِنْ مَعَانِيه فِي اللُّغَةِ:الْمَيْل.وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال:١٥،١٦] مَعْنَاهُ أَوْ مَائِلاً إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَيُقَال:انْحَازَ الرَّجُل إِلَى الْقَوْمِ بِمَعْنَى تَحَيَّزَ إِلَيْهِمْ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ:انْحَازَ الْقَوْمُ:تَرَكُوا مَرْكَزَهُمْ وَمَعْرَكَةَ قِتَالِهِمْ وَمَالُوا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ [١٩٩٢].

فِي الاصْطِلاَحِ:التَّحَيُّزُ إِلَى فِئَةٍ:أَنْ يَصِيرَ الْمُقَاتِل إِلَى فِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،لِيَكُونَ مَعَهُمْ فَيَتَقَوَّى بِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ،وَسَوَاءٌ بَعُدَتِ الْمَسَافَةُ أَمْ قَرُبَتْ.فَقَدْ رَوَى عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً،فَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ قَالَ:فَلَمَّا بَرَزْنَا قُلْنَا:كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ؟ فَقُلْنَا:نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَنَتَثَبَّتُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ.قَالَ:فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا:لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ذَهَبْنَا.قَالَ:فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ،فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا:نَحْنُ الْفَرَّارُونَ فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«لَا.بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ».قَالَ:فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ،فَقَالَ:«إِنَّا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ» [١٩٩٣] وَكَانُوا بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُ.

[١٩٩٢] – المصباح المنير، ولسان العرب .

[١٩٩٣] – سنن أبي داود (٣/ ٤٦)(٢٦٤٧) حسن

فيه يزيد بن زياد الكوفي مختلف فيه والراجح فيه أنه صدوق ساء حفظه بآخره ورواية الكبار عنه موثوقة، وهذا من رواية سفيان وغيره، راجع التهذيب ١١/٣٢٩-٣٣١ والكاشف (٦٤١٧) والديوان (٤٧٢٣)

قَالَ الْقَاضِي:أَيْ فَمَالُوا مَيْلَةً مِنَ الْحَيْصِ وَهُوَ الْمَيْلُ،فَإِنْ أَرَادَ بِالنَّاسِ أَعْدَاءَهُمْ،فَالْمُرَادُ بِهَا الْحَمْلَةُ ؛ أَيْ حَمَلُوا عَلَيْنَا حَمْلَةً وَجَالُوا جَوْلَةً فَانْهَزَمْنَا عَنْهُمْ،(فَأَتَيْنَا الْمَدِينَةَ):وَإِنْ أَرَادَ بِهِ السَّرِيَّةَ فَمَعْنَاهَا الْفِرَارُ وَالرَّجْعَةُ ؛ أَيْ:مَالُوا عَنِ الْعَدُوِّ مُلْتَجِئِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ،وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء:١٢١] ؛ أَيْ مَهْرَبًا،وَيُؤَيِّدُ الْمَعْنَى الثَّانِيَ قَوْلُ الْجَوْهَرِيِّ حَاصَ عَنْهُ عَدَلَ وَحَادَ،يُقَالُ لِلْأَوْلِيَاءِ:حَاصُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ وَلِلْأَعْدَاءِ انْهَزَمُوا.وَفِي الْفَائِقِ:فَحَاصَ حَيْصَةً ؛ أَيِ انْحَرَفَ وَانْهَزَمَ،وَرَوَى:فَجَاضَ جَيْضَةً بِالْجِيمِ وَالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ،وَهُوَ الْحَيْدُودَةُ حَذَرًا.وَفِي النِّهَايَةِ:فَحَاصَ الْمُسْلِمُونَ حَيْصَةً ؛ أَيْ جَالُوا جَوْلَةً يَطْلُبُونَ الْفِرَارَ.(فَاخْتَفَيْنَا بِهَا):أَيْ فِي الْمَدِينَةِ حَيَاءً (وَقُلْنَا):أَيْ فِي أَنْفُسِنَا،أَوْ لِبَعْضِنَا (هَلَكْنَا):أَيْ عَصَيْنَا بِالْفِرَارِ،ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُطْلَقَ الْفِرَارِ مِنَ الْكَبَائِرِ،(«ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَحْنُ الْفَرَّارُونَ.قَالَ:" أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ»):أَيِ الْكَرَّارُونَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْعَطَّافُونَ نَحْوَهَا كَذَا فِي النِّهَايَةِ.وَمَعْنَاهُ الرَّجَّاعُونَ إِلَى الْقِتَالِ (وَأَنَا فِئَتُكُمْ):فِي النِّهَايَةِ:الْفِئَةُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ فِي الْأَصْلِ،وَالطَّائِفَةُ الَّتِي تَقُومُ وَرَاءَ الْجَيْشِ،فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ،أَوْ هَزِيمَةٌ الْتَجَئُوا إِلَيْهِ،وَفِي الْفَائِقِ:ذَهَبَ النَّبِيُّ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ:أَنَا فِئَتُكُمْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ} [الأنفال:١٦] يُمَهِّدُ بِذَلِكَ عُذْرَهُمْ فِي الْفِرَارِ ؛ أَيْ تَحَيَّزْتُمْ إِلَيَّ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ.فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:مَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَفِرَّ،وَمَنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَقَدْ فَرَّ،وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ مِنَ الْكَبَائِرِ،فَمَنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْإِيمَاءِ فِي الْفِرَارِ ؛ لِأَنَّهُ عَاصٍ كَقَاطِعِ الطَّرِيقِ اهـ.وَهُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ.[١٩٩٤]

وعَنْ مُجَاهِدٍ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" أَنَا فِئَةُ كُلِّ مُسْلِمٍ "[١٩٩٥]

قوله:"أنا فئة المسلمين"، قال السندي:أي:جماعتهم ومؤيدهم ومقويهم، يريد أن من فر من العدو إليَّ، فليس بفار، بل هو داخل في قوله تعالى:(أو متحيزاً إلى فئة) .قال لهم حين فرت سرية من العدو، فقالوا:يا رسولَ الله نحن الفارْون، فقال لهم:"بل أنتم العكارون وأنا فئتكم"صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١٩٩٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٤٤)

[١٩٩٥] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٣١)(١٨٠٨٤) فيه انقطاع

وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ وَجُيُوشُهُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ..وَقَال عُمَرُ:رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ،لَوْ كَانَ تَحَيَّزَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِئَةً.[١٩٩٦]

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

التَّحَرُّفُ:

التَّحَرُّفُ مِنْ مَعَانِيهِ فِي اللُّغَةِ:الْمَيْل وَالْعُدُول.فَإِذَا مَال الإِنْسَانُ عَنْ شَيْءٍ يُقَال:تَحَرَّفَ وَانْحَرَفَ وَاحْرَوْرَفَ[١٩٩٧].

وقَوْله تَعَالَى:{ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ } أَيْ مَائِلاً لأَجْل الْقِتَال لاَ مَائِلاً هَزِيمَةً،فَإِنَّ ذَلِكَ مَعْدُودٌ مِنْ مَكَايِدِ الْحَرْبِ،لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِضِيقِ الْمَجَال،فَلاَ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْجَوَلاَنِ،فَيَنْحَرِفُ لِلْمَكَانِ الْمُتَّسِعِ،لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْقِتَال.[١٩٩٨]

وَالتَّحَرُّفُ فِي الاصْطِلاَحِ:أَنْ يَنْتَقِل الْمُقَاتِل إِلَى مَوْضِعٍ يَكُونُ الْقِتَال فِيهِ أَمْكَنَ،مِثْل أَنْ يَنْتَقِل مِنْ مُوَاجَهَةِ الشَّمْسِ أَوِ الرِّيحِ إِلَى اسْتِدْبَارِهِمَا،أَوْ مِنْ مُنْخَفِضٍ إِلَى عُلْوٍ أَوْ عَكْسُهُ،أَوْ مِنْ مَعْطَشَةٍ إِلَى مَوْضِعِ مَاءٍ،أَوْ لِيَجِدَ فِيهِمْ فُرْصَةً،أَوْ لِيَسْتَنِدَ إِلَى جَبَلٍ،وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَهْل الْحَرْبِ [١٩٩٩].

وَتَفْصِيل ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ:(تَحَرُّفٌ).

فَالتَّحَيُّزُ وَالتَّحَرُّفُ يَكُونَانِ فِيمَا إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ فِي الْحَرْبِ،وَالْتَحَمَ جَيْشَاهُمَا،فَالْمُتَحَيِّزُ إِنْ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى مُوَاجَهَةِ عَدُوِّهِ وَالظَّفَرِ بِهِ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِ وَعُدَدِهِ،إِلاَّ بِأَنْ يَسْتَنْصِرَ وَيَسْتَنْجِدَ بِغَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَنْحَازَ إِلَى فِئَةٍ مِنْهُمْ،لِيَتَقَوَّى بِهِمْ،وَيَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ قَهْرَ الْعَدُوِّ وَالظَّفَرَ بِهِ وَالنَّصْرَ عَلَيْهِ.

وَالْمُتَحَرِّفُ لِقِتَالٍ إِذَا رَأَى أَنْ يَكِيدَ لِخَصْمِهِ وَيَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ،وَأَنَّ السَّبِيل إِلَى النَّيْل مِنْهُ وَالظَّفَرِ بِهِ وَالنَّصْرِ عَلَيْهِ،إِنَّمَا فِي تَغْيِيرِ خُطَطِهِ،سَوَاءٌ أَكَانَتْ فِي تَغْيِيرِ الْمَكَانِ،أَمْ فِي التَّرَاجُعِ لِيَسْحَبَ الْعَدُوَّ وَرَاءَهُ،وَيُعَاوِدَهُ بِالْهُجُومِ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ،مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ (

[١٩٩٦] – المغني لابن قدامة (٩/ ٣١٩)، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٧ .

[١٩٩٧] – لسان العرب .

[١٩٩٨] – المصباح المنير .

[١٩٩٩] – المغني لابن قدامة ٨ / ٤٨٤ – ٤٨٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٧ .

الْخُدَعَ الْحَرْبِيَّةَ) فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ،إِذِ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.أَمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ فَلاَ يَحِلُّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا.

الْحُكْمُ الإِجْمَالِيُّ:

التَّحَيُّزُ مُبَاحٌ،إِذَا اسْتَشْعَرَ الْمُتَحَيِّزُ عَجْزًا مُحْوِجًا إِلَى الاسْتِنْجَادِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَكَانَ بِقَصْدِ الانْضِمَامِ إِلَى فِئَةٍ،أَيْ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ،لِيَتَقَوَّى بِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ عَدُوِّهِمْ وَإِيقَاعِ الْهَزِيمَةِ بِهِ وَالنَّصْرِ عَلَيْهِ.فَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ يَكُونُ فِرَارًا،وَهُوَ حَرَامٌ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال:١٥،١٦]

فَإِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ فِي الْحَرْبِ وَالْتَحَمَ الْجَيْشَانِ،وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَأَصْلٍ عَامٍّ أَنْ يَثْبُتُوا فِي مُوَاجَهَةِ عَدُوِّهِمْ،وَحَرُمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفِرُّوا،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ }.وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الأنفال:٤٥]

وَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ الْفِرَارَ عِنْدَ الزَّحْفِ مِنَ الْكَبَائِرِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا:مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:«الشِّرْكُ بِاللَّهِ،وَالسِّحْرُ،وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ،وَأَكْلُ الرِّبَا،وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[٢٠٠٠]

[٢٠٠٠] - صحيح البخاري (٤/ ١٠)(٢٧٦٦) وصحيح مسلم (١/ ٩٢)١٤٥ - (٨٩)

[ش(اجتنبوا) ابتعدوا.(الموبقات) المهلكات.(السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع.والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها.(بالحق) كالقتل قصاصا.(التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته.(قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا.(المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا.(الغافلات) البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور]

فَثَبَاتُ الْمُسْلمينَ في مُوَاجَهَة أَعْدَائهمُ الْكَفَرَة وَحُرْمَةُ فرَارهمْ منْ لقَائهمْ وَاجبٌ،إذَا كَانُوا في مثْل عَدَدهمْ أَوْ عَلَى النِّصْف منْهُمْ أَوْ أَقَل منْ ذَلكَ،لقَوْله تَعَالَى: {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفًا فَإنْ يَكُنْ منْكُمْ مائَةٌ صَابرَةٌ يَغْلبُوا مائَتَيْن وَإنْ يَكُنْ منْكُمْ أَلْفٌ يَغْلبُوا أَلْفَيْن بإذْن اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابرينَ} [الأنفال:٦٦] إلاَّ إنْ كَانَ ذَلكَ بقَصْد تَحَيُّزهمْ إلَى فئَة منَ الْمُسْلمينَ تُنَاصرُهُمْ وَتَشُدُّ منْ أَزْرهمْ وَيَتَقَوَّوْنَ بهَا عَلَى أَعْدَائهمْ،وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذه الْفئَةُ قَريبَةً لَهُمْ أَمْ بَعيدَةً عَنْهُمْ،لعُمُوم قَوْله تَعَالَى: { أَوْ مُتَحَيِّزًا إلَى فئَة } قَال الْقَاضي أَبُو يَعْلَى:لَوْ كَانَت الْفئَةُ بخُرَاسَانَ وَالْفئَةُ بالْحجَاز جَازَ التَّحَيُّزُ إلَيْهَا، فعَن ابْن عُمَرَ، قَالَ: لَقينَا الْعَدُوَّ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً فَكُنْتُ فيمَنْ حَاصَ، فَدَخَلْنَا الْمَدينَةَ فَتَعَرَّضْنَا لرَسُول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ حينَ خَرَجَ إلَى الصَّلَاة، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّه نَحْنُ الْفَرَّارُونَ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُون، إنِّي فئَةٌ لَكُمْ»[2001].

وَكَانُوا بمَكَان بَعيد عَنْهُ.وَقَال عُمَرُ:" أَنَا فئَةٌ لكُل مُسْلم " وَكَانَ بالْمَدينَة وَجُيُوشُهُ بالشَّام وَالْعرَاق وَخُرَاسَانَ.وَقَال عُمَرُ:رَحمَ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدَةَ لَوْ كَانَ تَحَيَّزَ إلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فئَةً.

فَإنْ زَادَ الْكُفَّارُ عَلَى مثْلَيْ عَدَد الْمُسْلمينَ فَيُبَاحُ للْمُسْلمينَ أَنْ يَنْسَحبُوا ؛لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَوْجَبَ عَلَى الْمائَة مُصَابَرَةَ الْمائَتَيْن في قَوْله: { فَإنْ يَكُنْ منْكُمْ مائَةٌ صَابرَةٌ يَغْلبُوا مائَتَيْن } دَل عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجبُ عَلَيْهمْ مُصَابَرَةُ مَا زَادَ عَلَى الْمائَتَيْن.

وعَن ابْن عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺقَالَ: «مَنْ فَرَّ منَ اثْنَيْن فَقَدْ فَرَّ، وَمَنْ فَرَّ منْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَفرَّ»[2002].

إلاَّ أَنَّهُ إنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّ الْمُسْلمينَ الظَّفَرُ بهمْ وَالنَّصْرُ عَلَيْهمْ،فَيَلْزَمُهُمُ الثَّبَاتُ إعْلاَءً لكَلمَة اللَّه.وَإنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهمُ الْهَلاَكُ في الْبَقَاء وَالنَّجَاةُ في الانْصرَاف فَالأَوْلَى لَهُمُ

[2001] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٤٩)(٢٥٣٩) والمعجم الكبير للطبراني جـ ١٣، ١٤ (ص: ٧٥)(١٣٧٠٩) حسن

قوله:"فحاص المسلمون"، قال السندي: بحاء وصاد مهملتين، أي: جالوا جولة يطلبون الفرار، والمحيص المهرب، ويروى بجيم وضاد معجمة، أي: فروا، يقال: جاض عن الحق: عدل.=العكَّارون؛ أي: الكرَّارون إلى الحرب والعطَّافون نحوها. والعَكْر: الانصراف بعد المضيِّ. انظر: "غريب الحديث" للخطابي (٣٣١/١) ، و"النهاية" (٢٨٣/٣) .

[2002] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٩٣)(١١١٥١) صحيح

الانْصِرَافُ،لِقَوْلِه تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:١٩٥] وَإِنْ ثَبَتُوا جَازَ لِأَنَّ لَهُمْ غَرَضًا فِي الشَّهَادَةِ،وَحَتَّى لاَ يَنْكَسِرَ الْمُسْلِمُونَ،وَلِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغْلِبُوا الْكُفَّارَ،فَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ،وَهَذَا مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ.وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:إِنْ بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا حَرُمَ عَلَيْهِمُ الْفِرَارُ،وَلَوْ كَثُرَ الْكُفَّارُ جِدًّا،مَا لَمْ تَخْتَلِفْ كَلِمَتُهُمْ،وَمَا لَمْ يَكُنْ بِقَصْدِ التَّحَيُّزِ لِقِتَالٍ.[٢٠٠٣]

المبحث الخامس

الحرب خدعة

الْخَدِيعَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ:

أَمَّا الْخَدِيعَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَرْبِ،فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَهْدٌ،فَلاَ يَجُوزُ الْخُدَعُ،وَلاَ التَّبْيِيتُ بِالْهُجُومِ الْغَادِرِ،وَهُمْ آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ إِلَى عَهْدٍ لَمْ يُنْقَضْ،وَلَمْ يُنْبَذْ،حَتَّى لَوْ كُنَّا نَخْشَى الْخِيَانَةَ مِنْ جَانِبِهِمْ.[٢٠٠٤]

قَال تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة:١] وَقَال:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤] وَقَال:{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٧]

[٢٠٠٣] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٠/ ٣٠١) وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٧ / ٩٨ - ٩٩، والمهذب في فقه الإمام الشافعي ٢ / ٢٣٣، ٢٣٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٧ - ٢٤٩، والشرح الكبير ٢ / ١٧٨ - ١٧٩، والشرح الصغير ٢ / ٢٧٧ - ٢٧٨، والإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٨) والشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٣٨٧) والمغني لابن قدامة (٩/ ٣١٩) وشرح الزركشي على مختصر الخرقي (٦/ ٥٥٥) وشرح منتهى الإرادات = دقائق أولي النهى لشرح المنتهى (١/ ٦٢٢) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٤٦) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢/ ٥١٥)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧ / ٣٨٠ - ٣٨٤، وتفسير روح المعاني ٩ / ١٨٠ - ١٨٢ .

[٢٠٠٤] -المغني ٨ / ٤٦٢، شرح روض الطالب ٤ / ٢٢٥، حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٤ .

وَأَمَّا إِذَا اسْتَشْعَرَ الإِمَامُ عَزْمَهُمْ عَلَى الْخِيَانَةِ بِأَمَارَاتٍ تَدُل عَلَيْهَا لاَ بِمُجَرَّدِ تَوَهُّمٍ،لَمْ يُنْتَقَضْ عَهْدُهُمْ،وَلاَ يَجُوزُ خَدْعُهُمْ وَلاَ تَبْيِيتُهُمْ بِهُجُومٍ غَادِرٍ،وَهُمْ آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ إِلَى عَهْدٍ لَمْ يُنْقَضْ،وَلَمْ يُنْبَذْ.بَل يُنْبَذُ إِلَيْهِمُ الْعَهْدُ ثُمَّ يُقَاتِلُهُمْ.[٢٠٠٥]

قَال اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال:٥٨]

قَال الشَّوْكَانِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ:قَوْلُهُ وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً أَيْ غِشًّا وَنَقْضًا لِلْعَهْدِ مِنَ الْقَوْمِ الْمُعَاهِدِينَ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أَيْ:فَاطْرَحْ إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلى سَواءٍ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَوِيَةٍ.وَالْمَعْنَى:

أَنَّهُ يُخْبِرُهُمْ إِخْبَارًا ظَاهِرًا مَكْشُوفًا بِالنَّقْضِ وَلَا يُنَاجِزُهُمُ الْحَرْبَ بَغْتَةً وَقِيلَ:مَعْنَى:عَلَى سَواءٍ عَلَى وَجْهٍ يَسْتَوِي فِي الْعِلْمِ بِالنَّقْضِ أَقْصَاهُمْ وَأَدْنَاهُمْ،أَوْ تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِيهِ.

وَقِيلَ:مَعْنَى:فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ عَلَى جَهْرٍ،لَا عَلَى سِرٍّ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مُعَاهِدٍ يُخَافُ مِنْ وُقُوعِ النَّقْضِ مِنْهُ.قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ:وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ،أَنَّ أَمْرَ بَنِي قُرَيْظَةَ انْقَضَى عِنْدَ قَوْلِهِ:فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ثُمَّ ابْتَدَأَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُهُ بِمَا يَصْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَعَ مَنْ يَخَافُ مِنْهُ خِيَانَةً،وَجُمْلَةُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخائِنِينَ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا،يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تَحْذِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ عَائِدَةً إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ تُخَافُ مِنْهُمُ الْخِيَانَةُ.[٢٠٠٦]

فَأَمَّا بَعْدُ أَنْ نَبَذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ،وَصَارَ عِلْمُهُمْ وَعِلْمُ الْمُسْلِمِينَ بِنَقْضِهِ عَلَى سَوَاءٍ،وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ كُل خَصْمٍ حِذْرَهُ،فَإِنَّ كُل وَسَائِل الْخُدْعَةِ مُبَاحَةٌ ؛لأَنَّهَا لَيْسَتْ غَادِرَةً،فَمَنْ جَازَتْ عَلَيْهِ الْخُدْعَةُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ،فَهُوَ غَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْدُورٍ بِهِ.قَال رَسُول اللَّهِ ﷺ:الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَجَاءَ فِي فَتْحِ الْبَارِي فِي الْحَدِيثِ:الأَمْرُ بِاسْتِعْمَال الْحِيلَةِ فِي الْحَرْبِ مَهْمَا أَمْكَنَ،وَالنَّدْبُ إِلَى خِدَاعِ الْكُفَّارِ،قَال النَّوَوِيُّ:اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي

[٢٠٠٥] - أسنى المطالب ٤ / ٢٢٦، المغني ٨ / ٤٦٣ .

[٢٠٠٦] - فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٦٥)

الْحَرْبِ كُلَّمَا أَمْكَنَ،إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ،أَوْ أَمَانٍ فَلاَ يَجُوزُ.(ر:أَمَانٌ،عَهْدٌ،هُدْنَةٌ .)

وَفِيهِ الإِشَارَةُ إِلَى اسْتِعْمَال الرَّأْيِ فِي الْحَرْبِ بَل الاحْتِيَاجُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنَ الشَّجَاعَة[2007] .

وَقَال ابْنُ الْمُنِيرِ:مَعَ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ الْحَرْبُ الْجَيِّدَةُ لِصَاحِبِهَا الْكَامِلَةُ فِي مَقْصُودِهَا إِنَّمَا هِيَ الْمُخَادَعَةُ،لاَ الْمُوَاجَهَةُ،وَذَلِكَ لِخَطَرِ الْمُوَاجَهَةِ وَحُصُول الظَّفَرِ مَعَ الْمُخَادَعَةِ بِغَيْرِ خَطَرٍ "[2008]

قَال النَّوَوِيُّ:قَال الْعُلَمَاءُ:إِذَا دَعَتْ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ رَاجِحَةٌ إِلَى خِدَاعِ الْمُخَاطَبِ،أَوْ حَاجَةٌ لاَ مَنْدُوحَةَ عَنْهَا إِلاَّ بِالْكَذِبِ،فَلاَ بَأْسَ بِالتَّوْرِيَةِ،وَالتَّعْرِيضِ.وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مَكْرُوهٌ،وَلَيْسَ بِحَرَامٍ إِلاَّ أَنْ يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى أَخْذِ بَاطِلٍ،أَوْ دَفْعِ حَقٍّ فَيَصِيرُ عِنْدَئِذٍ حَرَامًا.[2009]

وَفِي التَّوْرِيَةِ قَوْل مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ،فِي قِصَّةِ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ،فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»،قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ:أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:فَأَتَاهُ،فَقَالَ:إِنَّ هَذَا - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - قَدْ عَنَّانَا وَسَأَلَنَا الصَّدَقَةَ،قَالَ:وَأَيْضًا،وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ،قَالَ:فَإِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ فَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ،حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى مَا يَصِيرُ أَمْرُهُ،قَالَ:فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهُ حَتَّى اسْتَمْكَنَ مِنْهُ فَقَتَلَهُ"[2010]

[2007] - فتح الباري ٦ / ١٥٨ - ١٥٩، المغني ٨ / ٣٦٩ .

[2008] - المصادر نفسها

[2009] - الأذكار للنووي ص ٣٣٨، فتح الباري ٦ / ١٥٩ .

[2010] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٣١) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٥)١١٩ - (١٨٠١)

[ش (عنانا) أتعبنا.(لتملنه) لتضجرن منه]

معنى الحديث: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد ندب أصحابه ودعاهم إلى قتل كعب بن الأشرف، فقال: " من لكعب بن الأشرف فإنه آذى الله ورسوله " أي من يقتله منكم، ويريحنا من شره وأذاه، ويفوز بأجر ذلك وثوابه، فإنه استحق ذلك لشدة إيذائه لله ورسوله، فتصدى لذلك محمد بن مسلمة غير أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأذن له في أن يقول لكعب كلاماً ظاهره العداوة للنبي - صلى الله عليه وسلم - احتيالاً عليه، فأذن له - صلى الله عليه وسلم - بذلك، قال في الحديث " فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة " أي إن محمداً قد فرض علينا هذه الصدقة التي طلبها منا وسمّاها زكاة " وإنه قد عنانا " أي أثقل علينا " وإني أتيتك أستسلفك " أي

جئتك لأشتري منك الطعام بالدَّين " قال: وأيضاً والله لتملّنّهُ " أي فوجد كعب الفرصة سانحة للطعن في النبي – صلى الله عليه وسلم – والنيل منه فقال: والله لترين من محمد الشيء الكثير حتى تمله وتكرهه وتجزع منه " قال: فإنا قد ابتعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه " أي إننا ننتظر ما يكون من شأنه ونترقب ذلك " فقال: نعم ارهنوني " أي إذا أردتم أن أسلفكم، فادفعوا لي رهناً، وعرض عليهم أن يرهنوه نساءهم، فاعتذروا وقالوا كما في رواية ابن سعد: وأي امرأة تُمنَعَ منك لجمالك، ثم عرض عليهم أن يرهنوه أبناءهم، فاعتذروا بأن ذلك يسيء إلى سمعتهم، ويكون سبة وعاراً عليهم، وعرضوا عليه أن يرهنوه اللامة، وفسرها سفيان بأنها السلاح قال: نعم، وأرادوا بذلك أن لا ينكر عليهم إذا جاؤوه بالسلاح، ولا يشك فيهم " فواعده " محمد بن مسلمة " أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة " ولهذا صحبه معه " فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة " المتأخرة من الليل " وقال: غير عمرو قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر من الدم " أي صوت عدوٍ يريدك " قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة " أي وأخي من الرضاعة أبو نائلة ثم قال: " إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب " أي إن الكريم يجيب من دعاه بالليل، ولا يتأخر عنه، ولو كان في ذلك الخطر على حياته " ويدخل محمد معه رجلين " أي فدخل عليه محمد بن مسلمة، وأدخل معه رجلين والظاهر أنّهما أبو نائلة وعباد بن بشر " فقال ": محمد بن مسلمة " ما رأيت كاليوم ريحاً " أي ما شممت أطيب من هذه الرائحة ولا أعطر منها " قال: عندي أعطر نساء العرب " أي أطيبهن عطراً " فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه ثم أشم أصحابه " ثم تركه وشغله بالحديث قليلاً " ثم قال أتأذن لي " أن أشمك مرة أخرى " قال: نعم فلما استمكن منه قال دونكم " أي أخذ بفودي رأسه، وأمسك بشعره، وتمكن منه، فقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه.قال: وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلاّ وقد أوقدت عليه نار.

فقه الحديث: دل هذا الحديث على ما يأتي: أولاً: كيف تم قتل كعب ابن الأشرف النبهاني بتدبير محكم، وحيلة ودهاء على يد الصحابي الجليل محمد ابن مسلمة ورفاقه، وكان ذلك في شهر ربيع الأوّل من السنة الثالثة من الهجرة يولية سنة ٦٢٤ م.وقد أستنكر بعض المستشرقين اغتيال كعب بأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم –، لكنه استحق ذلك، لأنه خان وغدر، ونقض العهد، ودفعه الغرور بثروته وجاهه وقدرته الشعرية إلى هجو النبي – صلى الله عليه وسلم – بأفظع الهجاء، بعد أن عاهده مع أخواله من اليهود فنقض العهد ونشط يهجو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأشعاره، ورحل إلى مكة يبث الدعوة للقتال، قال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف، قد آذى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالهجاء، وركب إلى قريش فاستقواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك الله أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ فقال له كعب: أنتم أهدى منهم سبيلاً، فأنزل الله على رسوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجعل يشبب بأم الفضل بنت الحارث وبغيرها من نساء المسلمين، وروي أن كعب بن الأشرف صنع طعاماً، ودعا النبي – صلى الله عليه وسلم – إليه،وتواطأ مع جماعة من اليهود على الفتك به إذا حضر هذه الوليمة، فجاء – صلى الله عليه وسلم – ومعه بعض أصحابه فأعلمه جبريل بما دَبَّرَهُ له كعب بن الأشرف فجلس معه النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قام فستره جبريل بجناحه، فخرج من بينهم دون أن يراه أحد، فلما فقدوه تفرقوا فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: من ينتدب لقتل كعب.ثانياً: استدل السهيلي بقوله – صلى الله عليه وسلم –: " من لكعب بن الأشرف فإنه آذى الله ورسوله " على وجوب قتل

وَكُل هَذه الْكَلمَات تَوْرِيَةٌ:وَقَصدَ بهَا إلَى مَعْنًى غَيْرِ الْمَعْنَى الْمُتَبَادَرِ منْهَا.
وَمَعْنَى عَنَّانَا:كَلَّفَنَا بالأَوَامرِ وَالنَّوَاهي.
وَمَعْنَى سَأَلَنَا الصَّدَقَةَ:طَلَبَهَا ليَضَعَهَا في مَكَانهَا الصَّحيحِ.وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ:نَكْرَهُ أَنْ نُفَارِقَهُ.[2011]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالك،قَالَ:سَمعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالك رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:«كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بغَيْرِهَا،حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ،فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ في حَرٍّ شَديد،وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعيدًا وَمَفَازًا،وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثير،فَجَلَّى للْمُسْلمينَ أَمْرَهُمْ،ليَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهمْ،وَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهه الَّذي يُرِيدُ»[2012]

وَالْمُرَادُ أَنَّهُ إذَا كَانَ يُرِيدُ غَزْوَ جهَة فَلاَ يُظْهرُهَا وَيُظْهرُ غَيْرَهَا،كَأَنْ يُرِيدَ أَنْ يَغْزُوَ جهَةَ الشَّرْق،فَيَسْأَل عَنْ أَمْرٍ في جهَة الْغَرْب،فَيَتَجَهَّزُ للسَّفَرِ فَيَظُنُّ مَنْ يَرَاهُ،وَيَسْمَعُهُ أَنَّهُ يُرِيدُ جهَةَ الْغَرْب.[2013]

وَهَذَا في الْغَالب فَقَدْ صَرَّحَ بجهَة غَزْوَة تَبُوكَ للتَّأَهُّب لَهَا.[2014]

وَكَانَتْ تَوْرِيَتُهُ أَنَّهُ إذَا أَرَادَ قَصْدَ جهَة سَأَلَ عَنْ طَرِيق جهَة أُخْرَى إيهَامًا أَنَّهُ يُرِيدُهَا وَإنَّمَا يَفْعَلُ ذَلكَ لأَنَّهُ أَتَمُّ فيمَا يُرِيدُهُ منْ إصَابَة الْعَدُوِّ وَإتْيَانهمْ عَلَى غَفْلَة منْ غَيْر تَأَهُّبهمْ لَهُ وَفيه دَليلٌ عَلَى جَوَاز مثْلِ هَذَا وَقَدْ قَالَ - ﷺ - «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».[2015]

من سب النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كان ذا عهد، خلافاً لأبي حنيفة.ثانياً: أنه لا بأس بالكذب إذا ترتبت عليه مصلحة شرعية ومنفعة للمسلمين لقول محمد ابن مسلمة: " إن هذا الرجل قد سألنا الصدقة وإنه قد عنانا " وقوله: " ولكن نرهنك اللامة " أي السلاح وهو لا يريد أن يرهنه شيئاً. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٣٣٠)

[2011] - فتح الباري ٦ / ١٥٩ .

[2012] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٨)

[ش (قلما) قل فعل ماض دخلت عليه ما ومعناه قليل.(مفازا) الموضع المهلك سمي بذلك تفاؤلا بالفوز والسلامة.(فجلى) أظهره.(ليتأهبوا) ليستعدوا.(أهبة عدوهم) الاستعداد اللازم لملاقاة عدوهم.(بوجهه) بجهته التي يريد]

[2013] - المصدر السابق .

[2014] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٩/ ٣٤)

وقال الطبري:" وَفِي مَعَانِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،نَذْكُرُ فِي ذَلِكَ أَقْوَالَهُمْ،ثُمَّ نُتْبِعُ جَمِيعَ ذَلِكَ الْبَيَانَ عَنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.فَقَالَ بَعْضُهُمُ:الْكَذِبُ مَحْظُورٌ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ،غَيْرُ جَائِزٍ اسْتِعْمَالُهُ فِي شَيْءٍ:لَا فِي حَرْبٍ،وَلَا فِي غَيْرِهَا.قَالُوا:وَالَّذِي أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْكَذِبِ الْمُتَعَارَفِ بَيْنَ النَّاسِ خَارِجٌ.قَالُوا:وَإِنَّمَا الَّذِي أَذِنَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ،كَالَّذِي فَعَلَهُ بِالْأَحْزَابِ عَامَ الْخَنْدَقِ،إِذْ رَاسَلَتْ يَهُودُ قُرَيْظَةَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ لِلْغَدْرِ بِمَنْ فِي الْآطَامِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ وَنِسَائِهِمْ،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:أَنِ اثْبُتُوا،فَإِنَّا سَنُغِيرُ عَلَى بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ.فَسَمِعَ ذَلِكَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ،وَهُوَ مُوَادِعٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ عِنْدَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ حِينَ أَرْسَلَتْ بِذَلِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى الْأَحْزَابِ،فَأَقْبَلَ نُعَيْمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ مَا أَرْسَلَتْ بِهِ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى الْأَحْزَابِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»،فَقَامَ نُعَيْمٌ بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ لَيُحَدِّثَ بِهَا غَطَفَانَ،وَكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلًا لَا يَمْلِكُ الْحَدِيثَ فَلَمَّا وَلَّى نُعَيْمٌ ذَاهِبًا إِلَى غَطَفَانَ،قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،هَذَا الَّذِي قُلْتَ إِمَّا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَأَمْضِهِ،وَإِمَّا هُوَ رَأْيٌ رَأَيْتَهُ،فَإِنَّ شَأْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ هُوَ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يُؤْثَرُ عَلَيْكَ فِيهِ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«بَلْ هَذَا رَأْيٌ رَأَيْتُهُ،إِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ».ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِثْرِ نُعَيْمٍ فَدَعَاهُ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ:«أَرَأَيْتَكَ الَّذِي سَمِعْتَنِي أَذْكُرُ آنِفًا؟ اسْكُتْ عَنْهُ فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ».فَانْصَرَفَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ غَطَفَانَ،فَقَالَ لَهُمْ:هَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ:شَيْئًا قَطُّ إِلَّا حَقًّا؟ قَالُوا:لَا،قَالَ:فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ لِي فِيمَا أَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ:«فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»،ثُمَّ نَهَانِي أَنْ أَذْكُرَهُ لَكُمْ،فَانْطَلَقَ عُيَيْنَةُ حَتَّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ،فَأَخْبَرَهُ بِمَا أَخْبَرَهُ نُعَيْمٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ،فَقَالَ:إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي مَكْرٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:فَنُرْسِلُ إِلَيْهِمْ نَسْأَلُهُمُ الرَّهْنَ،فَإِنْ دَفَعُوا إِلَيْنَا رَهْنًا مِنْهُمْ فَصَدِّقُوا،وَإِنْ أَبَوْا فَنَحْنُ مِنْهُمْ فِي مَكْرٍ.فَجَاءَهُمْ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ يَسْأَلُهُمُ

[٢٠١٥] - سبل السلام (٢/ ٤٦٩)

الرَّهْنَ،فَقَالَ:إِنَّكُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَيْنَا تَأْمُرُونَ بِالْمُكْثِ،وَتَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ سَتُخَالِفُونَ مُحَمَّدًا،وَمَنْ مَعَهُ،فَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَرْهِنُونَا بِذَلِكَ مِنْ أَبْنَائِكُمْ،وَصَبِّحُوهُمْ غَدًا.قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ:قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةُ السَّبْتِ،وَلَسْنَا نَقْضِي فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ وَلَا فِي يَوْمِهَا أَمْرًا،فَأَمْهِلُوا حَتَّى يَذْهَبَ السَّبْتُ.فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بِذَلِكَ،فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:وَرُءُوسُ الْأَحْزَابِ مَعَهُ:هَذَا مَكْرٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ،فَارْتَحِلُوا.فَبَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمُ الرِّيحَ حَتَّى مَا كَادَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَهْدِّي إِلَى رَحْلِهِ،فَكَانَتْ تِلْكَ هَزِيمَتَهُمْ " فَبِذَلِكَ يُرَخِّصُ النَّاسُ الْخَدِيعَةَ فِي الْحَرْبِ،فعَنْ عَطَاءٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:«قَالُوا كَذَا،وَفَعَلُوا كَذَا،صَنَعُوا كَذَا» فَذَهَبَ الْعَيْنُ فَأَخْبَرَهُمْ،فَهُزِمُوا،وَلَمْ يَكْذِبْ،وَلَكِنْ قَالَ:أَفَعَلُوا كَذَا،أَصَنَعُوا كَذَا؟ اسْتِفْهَامٌ.قَالَ:فَذَكَرْتُهُ لِمُغِيرَةَ فَأَعْجَبَهُ " قَالُوا:فَالَّذِي رَخَّصَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْخَدِيعَةِ فِي الْحَرْبِ،نَحْوُ الَّذِي رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ فَعَلَهُ فِيهَا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي يَقُولُ الْقَائِلُ فِيهَا مِمَّا يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ،مُوهِمًا بِذَلِكَ مَنْ سَمِعَهُ مَا فِيهِ الْوَهَنُ عَلَى الْعَدُوِّ،كَايَدَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ قِيلِهِ،كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ إِذْ أَخْبَرَهُ بِرِسَالَةِ الْيَهُودِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ:«فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»،فَقَالَ قَوْلًا مُحْتَمِلًا ظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْيَهُودَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا،مِنْ إِرْسَالِهِمُ الرُّسُلَ فِيهِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بِمَا أَرْسَلُوا بِهِ،إِمَّا عَنْ أَمْرِهِ،أَوْ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ.وَذَلِكَ،لَا شَكَّ،أَنَّهُ كَمَا قَالَ ﷺ مِنْ أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا عَنْ أَحَدِ ذَيْنِكَ الْوَجْهَيْنِ،إِمَّا عَنْ أَمْرِهِ،وَإِمَّا عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ،وَذَلِكَ هُوَ الصِّدْقُ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ.وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ ذَلِكَ كَذِبًا لَوْ قَالَ:«إِنَّمَا أَرْسَلَتِ الْيَهُودُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بِمَا أَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْهِ،بِأَمْرِنَا إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ»،فَأَمَّا قَوْلُهُ:«فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»،فَمِنَ الْكَذِبِ بِمَعْزِلٍ قَالُوا:وَمِنَ الْخَدِيعَةِ الَّتِي أَذِنَ ﷺ فِيهَا فِي الْحَرْبِ مَا رُوِيَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوَ قَوْمٍ وَرَّى بِغَيْرِهِمْ.قَالُوا:وَكَالَّذِي رُوِيَ عَنْهُ ﷺ فِي ذَلِكَ،كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ الدِّينِ وَالْفَضْلِ فِي مَغَازِيهِمْ،قَالُوا:وَمِنْ ذَلِكَ مَا جاء عن سَعِيدَ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ،أَنَّ تَمِيمَ بْنَ سُحَيْمٍ،شَيْخًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَدَّثَهُمْ قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ مَالِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَثْعَمِيِّ وَعُقِدَ لَهُ عَلَى الصَّائِفَةِ مَقْتَلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَسَمِعْتُهُ يَقُومُ فِي النَّاسِ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَرْتَحِلَ،فَيَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي

عَلَيْه،ثُمَّ يَقُولُ:إِنِّي دَارِبٌ بِالْغَدَاة،إِنْ شَاءَ اللَّهُ،دَرْبَ كَذَا وَكَذَا.فَتَفَرَّقُ عَنْهُ الْجَوَاسِيسُ بِذَلِكَ،فَإِذَا أَصْبَحَ تَوَجَّهَ إِلَى غَيْرِه.قَالَ:وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا،فَسَمَّتْهُ الرُّومُ:الثَّعْلَبَ "

وعن عَبْد اللَّه بْنِ عَوْن،قَالَ:قِيلَ عِنْدَ مُحَمَّد:إِنَّهُ يَصْلُحُ الْكَذِبُ فِي الْحَرْب،فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ:مَا أَعْلَمُ الْكَذِبَ إِلَّا حَرَامًا.قَالَ ابْنُ عَوْن:فَغَزَوْتُ،فَخَطَبَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ فَقَالَ:اللَّهُمَّ انْصُرْنَا عَلَى عَمُّورِيَّةَ وَهُوَ يُرِيدُ غَيْرَهَا،فَلَمَّا قَدِمْتُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدٍ فَقَالَ:أَمَّا هَذَا فَلَا بَأْسَ وَقَالَ:" لَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ أُوتِيَ مُحَمَّدٌ قَالُوا:وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْكَلَامِ جَائِزٌ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا."[٢٠١٦]

وقَالَ الْخطّابيُّ:معنى الخدعة:أنّها مرّة وَاحِدَة،أَي:إِذا خُدع الْمقَاتل مرّة،لم يكن لَهَا إِقَالَة،وَيُقَال:أَي:يَنْقَضِي أمرهَا بخدعة وَاحِدَة،ويُرْوى «خُدْعَةٌ» بضَم الْخَاء،وَسُكُون الدَّال،وهِي الاسْم من الخداع،كَمَا يُقَال:هَذِه لعبة،وَيُقَال:خُدعةٌ،بِضَم الْخَاء،وَفتح الدَّال،مَعْنَاهَا،أنّها تخدع الرِّجَال،وتُمنِّيهِم،ثُمّ لَا تفي لَهُمْ،كَمَا يُقَال:لعبةٌ:إِذا كَانَ كثير التلعب بالأشياء.

وفِي الْحديث:إِباحةُ الخِداع فِي الْحَرْب،وَإِن كَانَ مَحْظُورًا فِي غَيرهَا من الْأُمُور،ورُوِي عنْ عبْد الرّحْمنِ بْن كَعْب بْن مالك،عنْ أبيه،أنّ النّبِيّ ﷺ،«كَانَ إِذا أَرَادَ غزْوةً ورّى بغيْرِها»،وكَانَ يقُول:«الحرْبُ خُدْعةٌ»."[٢٠١٧]

المبحث السادس

الْإِحْرَاق فِي الْحرْب

إحراق ما يجوز فِي الْحَرْب:

إِذَا قَدَرَ عَلَى الْعَدُوِّ بِالتَّغَلُّبِ عَلَيْه فَلاَ يَجُوزُ تَحْرِيقُهُ بِالنَّارِ مِنْ غَيْرِ خِلاَفٍ يُعْلَمُ،لِمَا روي عَنْ حَمْزَةِ الْأَسْلَمِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ فِي سَرِيَّةٍ،وَأَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالَ:«إِنْ أَخَذْتُمْ فُلَانًا

[٢٠١٦] - تهذيب الآثار مسند علي (٣/ ١٣٦)

[٢٠١٧] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٤١)

فَأَحْرِقُوهُ بِالنَّارِ» فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعُونِي مِنْ وَرَائِي،فَجِئْتُ،فَقَالَ:«إِنْ أَخَذْتُمْ فُلَانًا فَاقْتُلُوهُ،وَلَا تُحْرِقُوهُ بِالنَّارِ،فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»[٢٠١٨].

فَأَمَّا رَمْيُهُمْ بِالنَّارِ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ مَعَ إِمْكَانِ أَخْذِهِمْ بِغَيْرِ التَّحْرِيقِ فَلاَ يَجُوزُ ؛لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ فِي حُكْمِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِمْ.وَأَمَّا عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْهُمْ بِغَيْرِ التَّحْرِيقِ فَجَائِزٌ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ،لِفِعْلِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي غَزَوَاتِهِمْ.هَذَا وَإِنْ تَتَرَّسَ الْعَدُوُّ فِي الْحَرْبِ بِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنِ اضْطُرِرْنَا إِلَى رَمْيِهِمْ بِالنَّارِ فَهُوَ جَائِزٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى تَقْدِيرِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ.

وَالْحُكْمُ فِي الْبُغَاةِ وَالْمُرْتَدِّينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَالْكُفَّارِ فِي حَالِ الْقِتَالِ.[٢٠١٩]

إِحْرَاقُ أَشْجَارِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ:

إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ،وَلَمْ يُرْجَ حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَالإِحْرَاقُ جَائِزٌ اتِّفَاقًا.بَلْ ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى تَعَيُّنِ الإِحْرَاقِ.أَمَّا إِذَا رُجِيَ حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَمْ يَكُنْ فِي إِحْرَاقِهَا نِكَايَةٌ،فَإِنَّهُ مَحْظُورٌ.وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِحُرْمَتِهِ.وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي إِحْرَاقِهَا نِكَايَةٌ،وَيُرْجَى حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى كَرَاهَةِ ذَلِكَ.بَلْ صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِنَدْبِ الإِبْقَاءِ حِفْظًا لِحَقِّ الْفَاتِحِينَ.وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى وُجُوبِ الإِبْقَاءِ.

وَإِذَا كَانَ لاَ نِكَايَةَ فِي إِحْرَاقِهَا،وَلاَ يُرْجَى حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى جَوَازِهِ.وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّةِ الْكَرَاهَةُ ؛لِأَنَّهُ الأَصْلُ عِنْدَهُمْ[٢٠٢٠].

أَمَّا الْحَنَابِلَةُ فَالأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمُعَامَلَةُ بِالْمِثْلِ،وَمُرَاعَاةُ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَالِ.

[٢٠١٨] - مسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ١٠٦)(١٥٣٦) حسن

[٢٠١٩] - حاشية ابن عابدين ٤ / ١٢٩، ١٣١، ٢٦٥، وفتح القدير ٤ / ٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٨ وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩، ٢ / ١٧٧، ١٧٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٦١، ٦٢، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد ١ / ٤٠١، والمغني لابن قدامة ١٠ / ٨٢، ٥٠٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك ١ / ٣٥٧، ومغني المحتاج ٤ / ١٢٧، ١٢٨، ١٤٠، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٠

[٢٠٢٠] - فتح القدير ٤ / ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٨، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٠، حاشية الدسوقي ٢ / ١٠٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، وبداية المجتهد ١ / ٤٠٢، والمغني والشرح الكبير ١٠ / ٥٠٩، ٥١٠، ونيل الأوطار ٧ / ٢٦٢، ٢٦٦، وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٢٩

حَرْقُ مَا عَجزَ الْمُسْلمُونَ عَنْ نَقْله منْ أَسْلحَة وَبَهَائمَ وَغَيْرهَا:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْحَرْقِ وَالإِتْلاَف،فَقَال الْحَنَفيَّةُ وَالْمَالكيَّةُ:إذَا أَرَادَ الإمَامُ الْعَوْدَ،وَعَجَزَ عَنْ نَقْل أَسْلحَة وَأَمْتعَة وَبَهَائمَ لمُسْلمٍ أَوْ عَــدُوٍّ،وَعَنِ الانْتفَــاعِ بهَــا،تُحْرَقُ وَمَــا لاَ يُحْرَقُ،كَحَديد،يُتْلَفُ أَوْ يُدْفَنُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ لاَ يَقِفُ عَلَيْه الْكُفَّارُ،وَذَلكَ لئَلاَّ يَنْتَفعُــوا بهَذه الأَشْيَاء.

أَمَّا الْمَوَاشي وَالْبَهَائمُ وَالْحَيَوَانَاتُ فَتُذْبَحُ وَتُحْرَقُ،وَلاَ يَتْرُكُهَا لَهُمْ ؛لأَنَّ الــذَّبْحَ يَجُــوزُ لغَرَضٍ صَحيحٍ،وَلاَ غَرَضَ أَصَحُّ منْ كَسْرِ شَوْكَة الأَعْدَاء وَتَعْرِيضهِمْ للْهَلَكَة وَالْمَوْت،ثُمَّ يُحْرَقُ بالنَّارِ لتَنْقَطعَ مَنْفَعَتُهُ عَنِ الْكُفَّار،وَصَارَ كَتَخْريب الْبُنْيَان وَالتَّحْرِيقِ لهَذَا الْغَــرَضِ الْمَشْرُوع،بخلاَف التَّحْريق قَبْل الذَّبْح،فَلاَ يَجُوزُ ؛لأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.وَفيه أَحَاديثُ كَــثيرَةٌ منْهَا مَا أَخْرَجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَده عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حبَّانَ قَال:كُنْتُ عنْدَ أُمِّ الدَّرْدَاء رَضيَ اللَّهُ عَنْهَا،فَأَخَذْتُ بُرْغُوثًا فَأَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ،فَقَالَتْ:سَمعْتُ أَبَا الدَّرْدَاء يَقُول:قَال رَسُول اللَّــه ﷺ:لاَ يُعَذِّبُ بالنَّارِ إلاَّ رَبُّ النَّارِ.

وَللْمَالكيَّة تَفْصيلٌ،قَالُوا:يُجْهَزُ عَلَى الْحَيَوَان وُجُوبًا،للإِرَاحَة منَ التَّعْذيب بإزْهَاق رُوحــه أَوْ قَطْعِ عُرْقُوبه،أَوِ الذَّبْحِ الشَّرْعيِّ وَيُحْرَقُ الْحَيَوَانُ نَدْبًا بَعْدَ إتْلاَفه إنْ كَــانَ الأَعْــدَاءُ يَسْتَحلُّونَ أَكْل الْمَيْتَة،وَلَوْ ظَنًّا،لئَلاَّ يَنْتَفعُوا به.فَإنْ كَانُوا لاَ يَسْتَحلُّونَ أَكْل الْمَيْتَــة لَــمْ يُطْلَب التَّحْريقُ فِي هَذه الْحَالَة وَإنْ كَانَ جَائزًا.وَالأَظْهَرُ فِي الْمَذْهَب طَلَــبُ تَحْريقــه مُطْلَقًا،سَوَاءٌ اسْتَحَلُّوا أَكْل الْمَيْتَة أَمْ لاَ،لاحْتمَال أَكْلهِمْ لَهُ حَال الضَّرُورَة.وَقيل:التَّحْريــقُ وَاجبٌ،وَرَجَحَ.

وَقَال اللَّخْميُّ:إنْ كَانُوا يَرْجعُونَ إلَيْه قَبْل فَسَاده وَجَبَ التَّحْريقُ،وَإلاَّ لَمْ يَجــبْ ؛لــأَنَّ الْمَقْصُودَ عَدَمُ انْتفَاعهِمْ به،وَقَدْ حَصَل بالإحْرَاق.

وَقَال الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ وَعَامَّةُ أَهْل الْعلْمِ،منْهُمُ الأَوْزَاعيُّ وَاللَّيْثُ:لاَ يَجُوزُ فِي غَيْرِ حَال الْحَرْب عَقْرُ الدَّوَابِّ وَإحْرَاقُ النَّحْل وَبُيُوته لمُغَايَظَة الْكُفَّارِ وَالإفْسَاد عَلَيْهِمْ،سَوَاءٌ خفْنَا أَخْذَهُمْ لَهَا أَوْ لَمْ نَخَفْ.

وَذَلِكَ بِخِلَافِ حَالِ الْحَرْبِ حَيْثُ يَجُوزُ قَتْلُ الْمُشْرِكِينَ وَرَمْيُهُمْ بِالنَّارِ،فَيَجُوزُ إِتْلَافُ الْبَهَائِمِ ؛لِأَنَّهُ يُتَوَصَّلُ بِإِتْلَافِ الْبَهَائِمِ إِلَى قَتْلِ الأَعْدَاءِ.

وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].

ولما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَّرَ عَلَى الْأَجْنَادِ:يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ،وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ،ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَخَرَجَ مَعَهُ يُشَيِّعُهُ وَيُوصِيهِ،وَيَزِيدُ رَاكِبٌ،وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ يَزِيدُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ،فَقَالَ:إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ،وَلَسْتُ بِتَارِكِكَ أَنْ تَنْزِلَ،إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ،فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ،وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَغْتُمْ،يَا يَزِيدُ،إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ،فَفَلِّقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ،وَسَتَمُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ فِي صَوَامِعَ لَهُمْ،احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،يَا يَزِيدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا صَغِيرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ،وَلَا بَقَرَةً،وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ"[2021]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ:«نَهَى عَنْ قَتْلِ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[2022]

وقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[2023]

[2021] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ١٨٢)(٢٣٨٣) حسن لغيره

وهذا ما ذكره الفقهاء، وهو مناسب لعصرهم، واللجنة ترى أن لقائد الجيش أن يتصرف بما يراه مصلحة للمسلين بجلب النفع والضرر في حدود القواعد العامة للشريعة .

[2022] - المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤٦)(١٢٤٣٠) صحيح

[2023] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٥٠)٦٠ - (١٩٥٩)

وفي سبل السلام:"هُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِ أَيِّ حَيَوَانٍ صَبْرًا وَهُوَ إمْسَاكُهُ حَيًّا ثُمَّ يُرْمَى حَتَّى يَمُوتَ وَكَذَلِكَ مَنْ قُتِلَ مِنْ الْآدَمِيِّينَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأً فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا وَالصَّبْرُ الْحَبْسُ."[2024] وَلِأَنَّهُ حَيَوَانٌ ذُو حُرْمَةٍ فَلَمْ يَجُزْ قَتْلُهُ لِغَيْظِ الْمُشْرِكِينَ.[2025]

[مَسْأَلَةٌ تَحْرِيقُ أَشْجَارِ الْمُشْرِكِينَ وَدُورِهِمْ وَهَدْمُهَا]

وَجَائِزٌ تَحْرِيقُ أَشْجَارِ الْمُشْرِكِينَ،وَأَطْعِمَتِهِمْ،وَزَرْعِهِمْ وَدُورِهِمْ،وَهَدْمُهَا،قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى –:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] وَقَالَ – تَعَالَى – {وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠] وَقَدْ أَحْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ – وَهِيَ فِي طَرَفِ دُورِ الْمَدِينَةِ – وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا تَصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي يَوْمٍ أَوْ غَدِهِ.

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا حُجَّةَ فِي أَحَدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَقَدْ يَنْهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْ ذَلِكَ اخْتِيَارًا؛لِأَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ أَيْضًا مُبَاحٌ كَمَا فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ،وَلَمْ يَقْطَعْ – ﷺ – أَيْضًا نَخْلَ خَيْبَرَ،فَكُلُّ ذَلِكَ حَسَنٌ – وَبِاَللَّهِ – تَعَالَى – التَّوْفِيقُ.

وَلَا يَحِلُّ عَقْرُ شَيْءٍ مِنْ حَيَوَانِهِمْ أَلْبَتَّةَ لَا إبِلٍ،وَلَا بَقَرٍ،وَلَا غَنَمٍ،وَلَا خَيْلٍ،وَلَا دَجَاجٍ،وَلَا حَمَامٍ،وَلَا أَوَزٍّ،وَلَا بِرَكٍ،وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ إلَّا لِلْأَكْلِ فَقَطْ،حَاشَا الْخَنَازِيرَ جُمْلَةً فَتُعْقَرُ،وَحَاشَا الْخَيْلَ فِي حَالِ الْمُقَاتَلَةِ فَقَطْ،وَسَوَاءٌ أَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ،أَوْ لَمْ يَأْخُذُوهَا أَدْرَكَهَا الْعَدُوُّ وَلَمْ يَقْدِرْ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَنْعِهَا،أَوْ لَمْ يُدْرِكُوهَا وَيُخَلَّى كُلُّ ذَلِكَ وَلَا بُدَّ إنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَى مَنْعِهِ،وَلَا عَلَى سَوْقِهِ،وَلَا يُعْقَرُ شَيْءٌ مِنْ نَحْلِهِمْ،وَلَا يُغَرَّقُ،وَلَا تُحَرَّقُ خَلَايَاهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ وَقَعَتْ دَابَّتُهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ عَقْرُهَا لَكِنْ يَدَعُهَا كَمَا هِيَ وَهِيَ لَهُ أَبَدًا مَالٌ مِنْ مَالِهِ كَمَا كَانَتْ لَا يُزِيلُ مِلْكَهُ عَنْهَا حُكْمٌ بِلَا نَصٍّ.وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ،وَأَبِي سُلَيْمَانَ.

[2024] – سبل السلام (٢/ ٥٢٦)

[2025] – فتح القدير ٤ / ٣٠٨، ٣٠٩ ابن عابدين ٤ / ١٤٠، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨١، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، والمغني ١٠ / ٥٠٦

وَقَالَ الْحَنَفِيُّونَ،وَالْمَالِكِيُّونَ:يُعْقَرُ كُلُّ ذَلِكَ،فَأَمَّا الْإِبِلُ،وَالْبَقَرُ،وَالْغَنَمُ،فَتُعْقَرُ،ثُمَّ تُحْرَقُ،وَأَمَّا الْخَيْلُ،وَالْبِغَالُ،وَالْحَمِيرُ فَتُعْقَرُ فَقَطْ.

وَقَالَ الْمَالِكِيُّونَ:أَمَّا الْبِغَالُ،وَالْحَمِيرُ،فَتُذْبَحُ،وَأَمَّا الْخَيْلُ فَلَا تُذْبَحُ،وَلَا تُعْقَرُ،لَكِنْ تُعَرْقَبُ،أَوْ تُشَقُّ أَجْوَافُهَا.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ التَّخْلِيطِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ عَلَى ذِي فَهْمٍ،أَوَّلُ ذَلِكَ:أَنَّهُ دَعْوَى بِلَا بُرْهَانٍ،وَتَفْرِيقٌ لَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ قَبْلَهُمْ،وَكَانَتْ حُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ رُبَّمَا أَكَلُوا الْإِبِلَ،وَالْبَقَرَ،وَالْغَنَمَ،وَالْخَيْلَ إذَا وَجَدُوهَا مَنْحُورَةً فَكَانَ هَذَا الِاحْتِجَاجُ أَدْخَلَ فِي التَّخْلِيطِ مِنْ الْقَوْلَةِ الْمُحْتَجِّ لَهَا.

وَلَيْتَ شِعْرِي مَتَى كَانَتْ النَّصَارَى،أَوْ الْمَجُوسُ،أَوْ عُبَّادُ الْأَوْثَانِ يَتَجَنَّبُونَ أَكْلَ حِمَارٍ،أَوْ بَغْلٍ،وَيَقْتَصِرُونَ عَلَى أَكْلِ الْأَنْعَامِ،وَالْخَيْلِ،وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ،وَلَا يُحَرِّمُونَ حَيَوَانًا أَصْلًا – وَأَمَّا الْيَهُودُ،وَالصَّابِئُونَ:فَلَا يَأْكُلُونَ شَيْئًا ذَكَّاهُ غَيْرُهُمْ أَصْلًا – وَهَذَا عَجَبٌ جِدًّا.

وَاحْتَجُّوا فِي إبَاحَتِهِمْ قَتْلَ كُلِّ ذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ – تَعَالَى –:{وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠].

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:فَقُلْنَا لَهُمْ:فَاقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ،وَصِغَارَهُمْ،وَنِسَاءَهُمْ،بِهَذَا الِاسْتِدْلَالِ فَهُوَ بِلَا شَكٍّ أَغِيظُ لَهُمْ مِنْ قَتْلِ حَيَوَانِهِمْ؟ فَقَالُوا:إنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ.فَقُلْنَا لَهُمْ:وَهُوَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – نَهْيٌ عَنْ قَتْلِ الْحَيَوَانِ،إلَّا لِمَأْكَلِهِ،وَلَا فَرْقَ؛وَإِنَّمَا أَمَرَنَا اللَّهُ – تَعَالَى – أَنْ نَغِيظَهُمْ فِيمَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ لَا بِمَا حُرِّمَ عَلَيْنَا فِعْلُهُ.

رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْمُقْرِي نَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو هُوَ ابْنُ دِينَارٍ – عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«مَا مِنْ إنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَنْهَا.قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهِ».

وَمِنْ طَرِيقِ مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ نَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ نَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ حَدَّثَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ «نَهَى النَّبِيُّ - ﷺ - عَنْ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنْ الدَّوَابِّ صَبْرًا»

وَمِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زُنْبُورٍ الْمَكِّيُّ نَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْهَادِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:«لَا تُمَثِّلُوا بِالْبَهَائِمِ».

وَمِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ لِأَمِيرِ جَيْشٍ بَعَثَهُ إلَى الشَّامِ:لَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إلَّا لِمَأْكَلَةٍ وَلَا تُحَرِّقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُغْرِقَنَّهُ،وَلَا يُعْرَفُ لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الصَّحَابَةِ مُخَالِفٌ.

وَأَمَّا الْخَنَازِيرُ فَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ نَا إسْحَاقُ هُوَ ابْنُ رَاهْوَيْهِ - نَا يَعْقُوبُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ نَا أَبِي عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ،وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ» فَأَخْبَرَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ قَتْلَ الْخِنْزِيرِ مِنْ الْعَدْلِ الثَّابِتِ فِي مِلَّتِهِ الَّتِي يُحْيِيهَا عِيسَى أَخُوهُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -.

وَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ خَبَرًا لَا يَصِحُّ،فِيهِ:أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَرْقَبَ فَرَسَهُ يَوْمَ قُتِلَ - وَهَذَا خَبَرٌ رَوَاهُ عَبَّادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُرَّةَ لَمْ يُسَمِّهِ،وَلَوْ صَحَّ لَمَا كَانَ فِيهِ حُجَّةٌ؛لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - عَرَفَ ذَلِكَ فَأَقَرَّهُ.

وَأَمَّا الْفَرَسُ فِي الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ أَوْ أَسْرَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ أَمْكَنَهُ[٢٠٢٦].

مَا يُحْرَقُ لِلْغَالِ وَمَا لاَ يُحْرَقُ:

الْغَالِ هُوَ الَّذِي يَكْتُمُ مَا يَأْخُذُهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ،فَلاَ يُطْلِعُ الإِمَامَ عَلَيْهِ،وَلاَ يَضُمُّهُ إِلَى الْغَنِيمَةِ.

وَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَحْرِيقِ مَالِ الْغَالِ لِلْغَنِيمَةِ،فَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَاللَّيْثُ:لاَ يُحْرَقُ مَالُهُ.وَاسْتَدَلُّوا بِفِعْل النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَمِ تَحْرِيقِهِ ففعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

[٢٠٢٦] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٤٥)(٩٢٤ و٩٢٥)

عَمْرٍو،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَصَابَ غَنِيمَةً أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّـــاسِ فَيَجِيئُـــونَ بِغَنَائِمِهِمْ فَيَخْمُسُهُ وَيُقَسِّمُهُ،فَجَاءَ رَجُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِزِمَامٍ مِنْ شَعَرٍ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا فِيمَا كُنَّا أَصَبْنَاهُ مِنَ الغَنِيمَةِ.فَقَالَ:«أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟» قَالَ:نَعَمْ.قَالَ:«فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:«كُنْ أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَنْ أَقْبَلَهُ عَنْكَ»[٢٠٢٧].

وَلِأَنَّ إِحْرَاقَ الْمَتَاعِ إِضَاعَةٌ لَهُ،وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَـــالِ،فعَنِ الْمُغِـــيرَةِ بْـــنِ شُعْبَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ:عُقُـــوقَ الأُمَّهَـــاتِ،وَوَأْدَ البَنَـــاتِ،وَمَنَعَ وَهَاتِ،وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ،وَإِضَاعَةَ المَالِ "[٢٠٢٨]

وَقَال بِإِحْرَاقِ مَال الْغَال الْحَنَابِلَةُ وَفُقَهَاءُ الشَّامِ،مِنْهُمْ مَكْحُولٌ وَالأَوْزَاعِيُّ وَالْوَلِيـــدُ بْـــنُ هِشَامٍ.

فعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَرْوَةَ،«أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ زِيَادٌ غَلَّ شَعَرًا مِنَ الْمَغْنَمِ،فَأُتِيَ بِهِ أَبُو سَعِيدِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ،فَجَمَعَ مَالَهُ فَأَحْرَقَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَاضِرٌ ذَلِـــكَ،فَلَمْ يَعِبْهُ»[٢٠٢٩]

وعَنِ الْحَسَنِ فِي الَّذِي يَغُلُّ قَالَ:«يُحَرَّقُ رَحْلُهُ»[٢٠٣٠]

وَقَد اسْتَدَلُّوا بِمَا جاء عَنْ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَائِدَةَ قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ مَسْلَمَةَ أَرْضَ الرُّومِ فَأُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ غَلَّ فَسَأَلَ سَالِمًا عَنْهُ فَقَالَ:سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ،عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِذَا وَجَدْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَأَحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ» قَالَ:فَوَجَـــدْنَا فِـــي مَتَاعِهِ مُصْحَفًا،فَسَأَلَ سَالِمًا عَنْهُ فَقَالَ:«بِعْهُ وَتَصَدَّقْ بِثَمَنِهِ»[٢٠٣١]

[٢٠٢٧] - سنن أبي داود (٣/ ٦٩)(٢٧١٢) حسن

[٢٠٢٨] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٠)(٢٤٠٨)

[ش(عقوق الأمهات) أصل العقوق القطع أطلق على الإساءة للأم وعدم الإحسان إليها لما في ذلك من قطع حقوقها وخص الأمهات بالذكر وإن كان يستوي في ذلك الآباء والأمهات لأن الجرأة عليهن أكثر في الغالب.(وأد البنات) دفنهن وهن أحياء.(ومنع وهات) منع الواجبات من الحقوق وأخذ ما لا يحل لكم من الأموال أو طلب ما ليس لكم فيه حق]

[٢٠٢٩] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣١٥)(٢٧٣١) وسنده واه

[٢٠٣٠] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣١٥)(٢٧٣٠) صحيح

[٢٠٣١] - سنن أبي داود (٣/ ٦٩)(٢٧١٣) ضعيف

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَحْرَقُوا مَتَاعَ الْغَالِّ وَمَنَعُوهُ سَهْمَهُ وَضَرَبُوهُ.[٢٠٣٢]

وقال في شرح السنة:"وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْقَوْلِ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ،فَمَذْهَبُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الْغُلُولَ فِي الصَّدَقَةِ وَالْغَنِيمَةِ لَا تُوجِبُ زِيَادَةً فِي الْغَرَامَةِ،بَلْ يُعَزَّرُ،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ،وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ.وَكَانَ الْأَوْزَاعِيُّ يَقُولُ فِي الْغَالِّ مِنَ الْغَنِيمَةِ:إِنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يُحْرِقَ رَحْلَهُ،وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ،وَإِسْحَاقُ.وَقَالَ أَحْمَدُ فِي الرَّجُلِ يَحْمِلُ الثَّمَرَةَ فِي أَكْمَامِهَا:فِيهِ الْقِيمَةُ مَرَّتَيْنِ،وَضَرْبُ النِّكَالِ،وَقَالَ:كُلُّ مَنْ دَرَأْنَا عَنْهُ الْحَدَّ،أَضْعَفْنَا عَلَيْهِ الْغُرْمَ."[٢٠٣٣]

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:إِحْرَاقُ الْمَتَاعِ كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِالْمَدِينَةِ ثُمَّ نُسِخَ،قَالَ الْخَطَّابِيُّ:أَمَّا تَأْدِيبُهُ عُقُوبَةً فِي نَفْسِهِ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ فَلَا أَعْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلَافًا،وَأَمَّا عُقُوبَتُهُ فِي مَالِهِ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ،فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:يُحْرَقُ مَالُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُصْحَفًا أَوْ حَيَوَانًا،وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ:إِلَّا أَنَّهُ لَا يُحْرَقُ مَا قَدْ غَلَّ ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْغَانِمِينَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ،وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:يُعَاقَبُ الرَّجُلُ فِي بَدَنِهِ دُونَ مَتَاعِهِ[٢٠٣٤]

قَال أَحْمَدُ:إِنْ لَمْ يُحْرِقْ رَحْلَهُ حَتَّى اسْتَحْدَثَ مَتَاعًا آخَرَ وَكَذَلِكَ إِنْ رَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ،أُحْرِقَ مَا كَانَ مَعَهُ حَال الْغُلُول.

وَيُشْتَرَطُ فِي الْغَال أَنْ يَكُونَ بَالِغًا عَاقِلاً حُرًّا،فَتُوقَعُ عُقُوبَةُ الإِحْرَاقِ فِي مَتَاعِ الرَّجُلِ وَالْخُنْثَى وَالْمَرْأَةِ وَالذِّمِّيِّ ؛لأَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الْعُقُوبَةِ.وَإِنْ كَانَ الْغَال صَبِيًّا لَمْ يُحْرَقْ مَتَاعُهُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ وَالأَوْزَاعِيِّ ؛لأَنَّ الإِحْرَاقَ عُقُوبَةٌ،وَالصَّبِيُّ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْعُقُوبَةِ.

وَيَسْقُطُ إِحْرَاقُ مَتَاعِ الْغَال إِذَا مَاتَ قَبْل إِحْرَاقِ رَحْلِهِ،نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ،لأَنَّهَا عُقُوبَةٌ فَتَسْقُطُ بِالْمَوْتِ،كَالْحُدُودِ ؛وَلأَنَّهُ بِالْمَوْتِ انْتَقَل الْمَتَاعُ إِلَى وَرَثَتِهِ،فَإِحْرَاقُهُ يَكُونُ عُقُوبَةً لِغَيْرِ الْجَانِي.وَإِنِ انْتَقَل مِلْكُهُ إِلَى غَيْرِ الْغَال بِالْبَيْعِ أَوِ الْهِبَةِ احْتَمَل عَدَمُ تَحْرِيقِهِ،لِصَيْرُورَتِهِ

[٢٠٣٢] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٧٤)(١٨٢١١) فيه ضعف

[٢٠٣٣] - شرح السنة للبغوي (٦/ ٧٩)

[٢٠٣٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٨١)

لِغَيْرِهِ فَأَشْبَهَ انْتِقَالَهُ لِلْوَارِثِ بِالْمَوْتِ،وَاحْتَمَل أَنْ يَنْقُضَ الْبَيْعَ وَالْهِبَةَ وَيُحْرَقَ،لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِهِ حَقٌّ سَابِقٌ عَلَى الْبَيْعِ وَالْهِبَةِ،فَوَجَبَ تَقْدِيمُهُ كَالْقِصَاصِ فِي حَقِّ الْجَانِي.

وَمَا لاَ يُحْرَقُ لِلْغَالِ بِالاتِّفَاقِ الْمُصْحَفُ،وَالْحَيَوَانُ أَمَّا الْمُصْحَفُ فَلاَ يُحْرَقُ،لِحُرْمَتِهِ،وَلِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ سَالِمٍ فِيهِ.وَإِنْ كَانَ مَعَ الْغَالِ شَيْءٌ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ أَوِ الْعِلْمِ فَيَنْبَغِي أَلاَّ تُحْرَقَ أَيْضًا ؛لأَنَّ نَفْعَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى الدِّينِ،وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ الإِضْرَارَ بِهِ فِي دِينِهِ،وَإِنَّمَا الْقَصْدُ الإِضْرَارُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُ،وَيُحْتَمَل أَنْ يُبَاعَ الْمُصْحَفُ وَيُتَصَدَّقُ بِهِ لِقَوْل سَالِمٍ فِيهِ.

أَمَّا الْحَيَوَانُ فَلاَ يُحْرَقُ وَلِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّهَا ؛وَلِحُرْمَةِ الْحَيَوَانِ فِي نَفْسِهِ ؛وَلأَنَّهُ لاَ يَدْخُل فِي اسْمِ الْمَتَاعِ الْمَأْمُورِ بِإِحْرَاقِهِ.

وَلاَ تُحْرَقُ ثِيَابُ الْغَالِ الَّتِي عَلَيْهِ ؛لأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَرْكُهُ عُرْيَانًا،وَلاَ سِلاَحُهُ ؛لأَنَّهُ يَحْتَاجُ لِلْقِتَالِ،وَلاَ نَفَقَتُهُ ؛لأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لاَ يُحْرَقُ عَادَةً وَلِلاحْتِيَاجِ إِلَى الإِنْفَاقِ.

وَلاَ يُحْرَقُ الْمَال الْمَغْلُول ؛لأَنَّ مَا غُل مِنْ غَنِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْقَصْدُ الإِضْرَارُ بِالْغَال فِي مَالِهِ وَقِيل لأَحْمَدَ:أَيُّ شَيْءٍ يُصْنَعُ بِالْمَال الَّذِي أَصَابَهُ فِي الْغُلُول ؟ قَال:يُرْفَعُ إِلَى الْغُنْمِ.

وَاخْتُلِفَ فِي آلَةِ الدَّابَّةِ،فَنَصَّ أَحْمَدُ عَلَى أَنَّهَا لاَ تُحْرَقُ ؛لأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِلانْتِفَاعِ بِهَا،وَلأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِمَا لاَ يُحْرَقُ فَأَشْبَهَ جِلْدَ الْمُصْحَفِ وَكِيسَهُ ؛وَلأَنَّهَا مَلْبُوسُ حَيَوَانٍ،فَلاَ يُحْرَقُ،كَثِيَابِ الْغَالِ.وَقَال الأَوْزَاعِيُّ:يُحْرَقُ سَرْجُهُ وَإِكَافُهُ.[2035]

المبحث السابع

الخلاصة في أحكام التترس

لما كان الإقدام على العدو والانغماس فيه حاسراً،نوع من التسبب المحمود بقتل النفس،كانت مسألة العمليات الاستشهادية نوعاً محموداً آخر إذا خلصت النية،لأن التسبب بالقتل كالقتل على رأي الجمهور،كما سنبينه إن شاء الله.

[2035] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ١٢٥) فما بعدها

ومسألة التترس التي أجازها العلماء،هي مسألة شبيهة بمسألة العمليات الاستشهادية إلا أن بينهما فارقاً سنبينه فيما بعد،لأن من أجاز قتل المسلمين المتترس بهم لا شك أنه يجيز قتل النفس بالعمليات الاستشهادية إذا كان في ذلك مصلحة للدين،فحرمة إزهاق نفس المسلم كحرمة إزهاق نفسه بل أعظم وهي من الكبائر.

فقد أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ أُكْرِهَ عَلَى قَتْل غَيْرِهِ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ لَهُ الإِقْدَامُ عَلَى قَتْله،وَلاَ انْتِهَاكُ حُرْمَتِهِ بِجَلْدٍ أَوْ غَيْرِهِ،وَيَصْبِرُ عَلَى الْبَلاَءِ الَّذِي نَزَل بِهِ،وَلاَ يَحِل لَهُ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ،وَيَسْأَل اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآْخِرَةِ.[٢٠٣٦]

قَال الصَّاوِيُّ الْمَالِكِيُّ:لَوْ قَال لَكَ ظَالِمٌ:إِنْ لَمْ تَقْتُل فُلاَنًا أَوْ تَقْطَعْهُ قَتَلْتُكَ،فَلاَ يَجُوزُ ذَلِكَ وَيَجِبُ عَلَى مَنْ قِيل لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَرْضَى بِقَتْل نَفْسِهِ وَيَصْبِرَ [٢٠٣٧].

فمن أجاز قتل المسلم للمصلحة،لا بدَّ له من أن يجيز قتل النفس للمصلحة طرداً لأصله،إلا أن الفقهاء لم يبحثوا العمليات الاستشهادية بوضعها الحالي التي عرفناها في أول البحث،لأن الوسائل تغييرت وأساليب الحرب تطورت.

والفارق الذي لا بد أن يؤخذ بالاعتبار ويفهم به كلام السلف الذين أجازوا قتل المتترس بهم،هو أن السلف أجازوا قتل المتترس بهم حال الضرورة،أما العمليات الاستشهادية فلا يقتضي جوازها إلى ضرورة ملحة كمسألة التترس،فإن المسألتين متشابهتان من وجه مختلفتان من وجه آخر،لأن قتل الغير لم ترد به نصوص تجيزه أبداً،ولكن غلبت المصلحة العامة على الخاصة للضرورة،والقاعدة تقول الضرورات تبيح المحضورات،والقاعدة الأخرى تقول إذا تعارضت مفسدتان ارتكب أدناهما،ولكن في العمليات الاستشهادية لا نحتاج إلى إجازتها بالقواعد كتعارض المفاسد أو إجازتها حال الضرورة،لأن عندنا نصوصاً تحث على الإقدام على العدو وتثني على من اقتحم على العدو رغم تيقنه الموت فيها،بشرط أن تكون نيته خالصة لإعلاء كلمة الله،فهنا الفارق بين المسألتين الأولى على

[٢٠٣٦] - التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع - (١٤ / ٢٤٧)وتفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع - (١٠ / ١٨٣) والموسوعة الفقهية الكويتية - (٢٨ / ٢٠٢) وانظر تبيين الحقائق ٥ / ١٨٦،ومجمع الأنهر ٢ / ٤١٧،والشرح الصغير ٢ / ٥٤٩،وشرح الزرقاني ٤ / ٨٨،والمغني ٧ / ٦٤٥،ونهاية المحتاج ٧ / ٢٤٥،و ٢٤٨

[٢٠٣٧] - الشرح الصغير مع حاشية الصاوي ٢ / ٥٤٩ .

المنع وأجيزت للضرورة والثانية ليس فيها منع بل فيها حث على الإقدام،ومن قال بجواز أمر محرم و لم تأت النصوص بجوازه مطلقاً وهو قتل المسلم،فلا شك أنه سيجيز نظيره وهو أقل حرمة في الأصل،وجاءت النصوص على إباحته والأمر به والحث عليه ومدح فاعله،فتنبه أخي الكريم للفرق،فما يباح للضرورة غير ما يباح للمصلحة،والقول بجواز قتل الترس أصعب من القول بجواز قتل النفس وقد تواردت الأدلة على جواز الثانية

ووجه الشبه بين المسألتين،أنه في كلا الحالتين تم إزهاق نفس مسلمة لمصلحة الدين،فمن أخرج قتل المسلم في مسألة التترس عن أصلها من الحرمة فأجازه لسبب ما،فلا شك أيضاً أن الاقتحام على العدو والعمليات الاستشهادية لها اعتبارات شرعية تخرجها عن أصل حرمة قتل النفس وتجعلها ممدوحة مثني على فاعلها و موصوف بالشهادة،هذا لو سلمنا أنه لا يوجد أدلة تحث على فعله.

والتَّتَرُّسُ فِي اللُّغَةِ:التَّسَتُّرُ بِالتُّرْسِ،وَالاحْتِمَاءُ بِهِ وَالتَّوَقِّي بِهِ [٢٠٣٨].

وَكَذَلِكَ التَّتْرِيسُ،يُقَال:تَتَرَّسَ بِالتُّرْسِ،أَيْ تَوَقَّى وَتَسَتَّرَ بِهِ.[٢٠٣٩]

كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَال:كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَتَتَرَّسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِتُرْسٍ وَاحِدٍ[٢٠٤٠]

وَيُقَال أَيْضًا:تَتَرَّسَ بِالشَّيْءِ جَعَلَهُ كَالتُّرْسِ وَتَسَتَّرَ بِهِ،وَمِنْهُ:تَتَرَّسَ الْكُفَّارُ بِأَسَارَى الْمُسْلِمِينَ وَصِبْيَانِهِمْ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ.وَلاَ يَخْرُجُ الاسْتِعْمَال الْفِقْهِيُّ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى.[٢٠٤١]

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ رَمْيُ الْكُفَّارِ إِذَا تَتَرَّسُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَأَسَارَاهُمْ أَثْنَاءَ الْقِتَال أَوْ حِصَارِهِمْ مِنْ قِبَل الْمُسْلِمِينَ،إِذَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ،بِأَنْ كَانَ فِي الْكَفِّ عَنْ قِتَالِهِمُ انْهِزَامٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَالْخَوْفُ عَلَى اسْتِئْصَال قَاعِدَةِ الإِسْلاَمِ.وَيُقْصَدُ بِالرَّمْيِ الْكُفَّارُ.

وَلَكِنْ إِذَا لَمْ تَدْعُ ضَرُورَةٌ إِلَى رَمْيِهِمْ لِكَوْنِ الْحَرْبِ غَيْرَ قَائِمَةٍ،أَوْ لإِمْكَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ بِدُونِهِ،فَلاَ يَجُوزُ رَمْيُهُمْ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ قَوْل الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ

[٢٠٣٨] – الترس:صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل في اليد للوقاية من السيف ونحوه (لسان العرب،وتاج العروس،والمصباح المنير مادة:" ترس ") .

[٢٠٣٩] – لسان العرب،وتاج العروس .

[٢٠٤٠] – أخرجه البخاري في صحيحه (فتح الباري ٦ / ٩٣ – ط السلفية) .

[٢٠٤١] – الموسوعة الفقهية الكويتية – (١٠ / ١٣٦)

الْحَنَفِيَّة.وَيَجُوزُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّة – مَا عَدَا الْحَسَنَ بْنَ زِيَادٍ – لِأَنَّ فِي الرَّمْيِ دَفْعَ الضَّرَرِ الْعَامِّ بِالدَّفْعِ عَنْ مُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِ،إِلاَّ أَنَّهُ عَلَى الرَّامِي أَلاَّ يَقْصِدَ بِالرَّمْيِ إِلاَّ الْكُفَّارَ.[٢٠٤٢]

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ،وَلاَ يَقْصِدُونَ الْمُتَتَرَّسَ بِهِمْ،إِلاَّ إِذَا كَانَ فِي عَدَمِ رَمْيِ الْمُتَتَرَّسِ بِهِمْ خَوْفٌ عَلَى أَكْثَرِ الْجَيْشِ الْمُقَاتِلِينَ لِلْكُفَّارِ،فَتَسْقُطُ حُرْمَةُ التُّرْسِ،سَوَاءٌ أَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَتَرَّسِ بِهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَمْ أَقَل،وَكَذَلِكَ لَوْ تَتَرَّسُوا بِالصَّفِّ،وَكَانَ فِي تَرْكِ قِتَالِهِمُ انْهِزَامٌ لِلْمُسْلِمِينَ [٢٠٤٣].

وَعَلَى هَذَا فَإِنْ أُصِيبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَتِيجَةَ الرَّمْيِ وَقُتِل،وَعُلِمَ الْقَاتِل،فَلاَ دِيَةَ وَلاَ كَفَّارَةَ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ؛لِأَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ،وَالْغَرَامَاتُ لاَ تُقْرَنُ بِالْفَرَائِضِ،خِلاَفًا لِلْحَسَنِ بْنِ زِيَاد،فَإِنَّهُ يَقُول بِوُجُوبِ الدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ.

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ فِيهِ الْكَفَّارَةَ قَوْلاً وَاحِدًا.أَمَّا الدِّيَةُ فَفِيهَا عَنْهُمْ قَوْلاَنِ:فَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:إِنْ عَلِمَهُ الرَّامِي مُسْلِمًا،وَكَانَ يُمْكِنُ تَوَقِّيهِ وَالرَّمْيُ إِلَى غَيْرِهِ لَزِمَتْهُ الدِّيَةُ،وَإِنْ لَمْ يَتَأَتَّ رَمْيُ الْكُفَّارِ إِلاَّ بِرَمْيِ الْمُسْلِمِ فَلاَ.[٢٠٤٤]

وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:تَجِبُ الدِّيَةُ فِي رِوَايَةٍ لِأَنَّهُ قَتَل مُؤْمِنًا خَطَأً،وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى:لاَ دِيَةَ لِأَنَّهُ قُتِل فِي دَارِ الْحَرْبِ بِرَمْيٍ مُبَاحٍ.[٢٠٤٥]

وَإِنْ تَتَرَّسَ الْكُفَّارُ بِذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ فَيَجُوزُ رَمْيُهُمْ مُطْلَقًا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَهُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ،وَيَقْصِدُ بِالرَّمْيِ الْمُقَاتِلِينَ،لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَمَاهُمْ بِالْمَنْجَنِيقِ وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ.

فَعَنْ مَكْحُولٍ:" أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَبَ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا "[٢٠٤٦]

[٢٠٤٢] – فتح القدير ٥ / ١٩٨ ط إحياء التراث العربي،وابن عابدين ٣ / ٣٣٣ ط إحياء التراث العربي،والحطاب ٣ / ٣٥١ ط دار الفكر،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ ط دار الفكر،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،والأم ٤ / ٢٨٧ ط دار المعرفة،

[٢٠٤٣] – الحطاب ٣ / ٣٥١ ط دار الفكر،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ ط دار الفكر .

[٢٠٤٤] – فتح القدير ٥ / ١٩٨،والمبسوط ١٠ / ٣١ – ٦٥،وشرح الروض ٤ / ١٩١،وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٦،وقد جعل صاحب نهاية المحتاج القيدين الواردين في الدية واردين في الكفارة أيضا،ونهاية المحتاج ٨ / ٤٣،والمغني ٨ / ٤٤٩ – ٤٥٠ .

[٢٠٤٥] – المغني ٨ / ٤٥٠ .

[٢٠٤٦] – الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (١٦٦٨) صحيح مرسل

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ:نَصَبَ رَسُولُ اللَّه ﷺ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِف[2047]

وعَنْ مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ" نَصَبَ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْكَنْدَرِيَّة [2048]

وقال ابْنُ لَهِيعَةَ،حَدَّثَنِي الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ،وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ،فِي فَتْحِ قَيْسَارِيَةَ،قَالَ:فَكَانُوا يَرْمُونَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ بِستِّينَ مَنْجَنِيقًا وَذَلِكَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْ مُعَاوِيَةَ،وَعَبْد اللَّه بْنِ عَمْرٍو "[2049]

قال ابن تيمية:" وَالشَّارِعُ يَعْتَبِرُ الْمَفَاسِدَ وَالْمَصَالِحَ،فَإِذَا اجْتَمَعَا قَدَّمَ الْمَصْلَحَةَ الرَّاجِحَةَ عَلَى الْمَفْسَدَةِ الْمَرْجُوحَةِ؛وَلِهَذَا أَبَاحَ فِي الْجِهَادِ الْوَاجِبِ مَا لَمْ يُبِحْهُ فِي غَيْرِهِ،حَتَّى أَبَاحَ رَمْيَ الْعَدُوِّ بِالْمَنْجَنِيقِ،وَإِنْ أَفْضَى ذَلِكَ إلَى قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،وَتَعَمُّدُ ذَلِكَ يَحْرُمُ،وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ،وَاَللَّهُ أَعْلَمُ."[2050]

وَلاَ فَرْقَ فِي جَوَازِ الرَّمْيِ بَيْنَ مَا إذَا كَانَتِ الْحَرْبُ مُلْتَحِمَةً وَمَا إذَا كَانَتْ غَيْرَ مُلْتَحِمَةٍ،لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَحَيَّنُ بِالرَّمْيِ حَال الْتِحَامِ الْحَرْبِ.[2051]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاصَرَ أَهْلَ الطَّائِفِ،وَنَصَبَ عَلَيْهِمُ الْمَنْجَنِيقَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا " قَالَ أَبُو قِلَابَةَ:" وَكَانَ يُنْكِرُ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ " قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" فَكَأَنَّهُ كَانَ يُنْكِرُ عَلَيْهِ وَصْلُ إِسْنَادِهِ،وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْكَرَ رَمْيَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِالْمَجَانِيقِ " فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ،عَنْ أَبِي صَالِحٍ،عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَزَارِيِّ،عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ،عَنْ يَحْيَى هُوَ ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ،قَالَ:حَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهْرًا.قُلْتُ:فَبَلَغَكَ أَنَّهُ رَمَاهُمْ بِالْمَجَانِيقِ ؟ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ،وَقَالَ:مَا يُعْرَفُ هَذَا.قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ:" كَذَا قَالَ يَحْيَى إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ،وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ.رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ،عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،عَنْ سُفْيَانَ،عَنْ ثَوْرٍ،عَنْ مَكْحُولٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَبَ الْمَجَانِيقَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ.وَقَدْ ذَكَرَهُ الشَّافِعِيُّ فِي الْقَدِيمِ.أَخْبَرَنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ،أنبأ أَبُو الْحُسَيْنِ الْفَسَوِيُّ،ثنا أَبُو عَلِيٍّ اللُّؤْلُؤِيُّ،ثنا أَبُو دَاوُدَ،فَذَكَرَهُمَا،وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ عَنْ شُيُوخِهِ،كَمَا ذَكَرَهُ مَكْحُولٌ،وَزَعَمَ أَنَّ الَّذِي أَشَارَ بِهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ " السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٦٦٢٣)

قلت:فقد روي عن علي رضي الله عنه نحوه،والمثبت مقدم على النافي،فلا يقبل كلام يحيى بن أبي كثير رحمه الله

[2047] - مُعْجَمُ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ (٨٢٠) حسن لغيره

[2048] - السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٦٦٢٤) حسن

[2049] - السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٦٦٢٥) صحيح مرسل

[2050] - الفتاوى الكبري لابن تيمية - (٣ / ٣٢٦)

[2051] - فتح القدير ٥ / ١٩٨،والمبسوط ١٠ / ٦٥،وبدائع الصنائع ٧ / ٩٨،٩٩،والمغني ٨ / ٤٤٩ ط مكتبة الرياض الحديثة

وَذَهَبَ الْمَالكِيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ:إلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ رَمْيُهُمْ،إلاَّ إذَا دَعَت الضَّرُورَةُ وَيُتْرَكُونَ عنْدَ عَدَمِ الضَّرُورَة،وَيَكُونُ تَرْكُ الْقتَال عنْدَ عَدَمِ الضَّرُورَة وَاجبًا في الأَظْهَر عنْدَ الشَّافعيَّة،لَكنَّ الْمُعْتَمَدَ مَا جَاءَ في الرَّوْضَة وَهُوَ:جَوَازُهُ مَعَ الْكَرَاهَة.[2052]

وقَال ابْنُ قُدَامَةَ:إذَا قَدَرَ عَلَى الْعَدُوِّ فَلاَ يَجُوزُ تَحْرِيقُهُ بالنَّار بغَيْر خلاَف؛لحَديث أَبى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّه – ﷺ – فى بَعْث فَقَالَ « إنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّار » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – حينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ « إنِّى أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بهَا إلاَّ اللَّهُ،فَإنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا »[2053].

فَأَمَّا رَمْيُهُمْ قَبْل أَخْذهمْ بالنَّار،فَإنْ أَمْكَنَ أَخْذُهُمْ بدُونهَا لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ بهَا؛لأَنَّهُمْ في مَعْنَى الْمَقْدُور عَلَيْه،وَأَمَّا عنْدَ الْعَجْز عَنْهُمْ بغَيْرهَا فَجَائزٌ في قَوْل أَكْثَر أَهْل الْعلْم،وَبه قَال الثَّوْريُّ،وَالأَوْزَاعيُّ،وَالْحَنَابلَةُ،وَكَذَلكَ لاَ يَجُوزُ عنْدَهُمْ تَغْريقُ الْعَدُوِّ بالْمَاء،إذَا قَدَرَ عَلَيْهمْ بغَيْره[2054]

التَّتَرُّسُ بأُسَارَى الْمُسْلمينَ[2055]:

لاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاء في أَنَّهُ يَجُوزُ رَمْيُ الْكُفَّار إذَا تَتَرَّسُوا بالْمُسْلمينَ وَأُسَارَاهُمْ أَثْنَاءَ الْقتَال،أَوْ حصَارُهُمْ منْ قبَل الْمُسْلمينَ إذَا دَعَت الضَّرُورَةُ إلَى ذَلكَ بأَنْ كَانَ في الْكَفِّ عَنْ قتَالهمُ انْهزَامٌ للْمُسْلمينَ وَالْخَوْفُ عَلَى اسْتئْصَال قَاعدَة الإسْلاَم،وَيُقْصَدُ بالرَّمْي الْكُفَّارُ.

وَلَكنْ إذَا لَمْ تَدْعُ ضَرُورَةٌ إلَى رَمْيهمْ،لكَوْن الْحَرْب غَيْرَ قَائمَة،أَوْ لإمْكَان الْقُدْرَة عَلَيْهمْ بدُونه،فَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَقْوَالٍ[2056] سَبَقَ ذكْرُهَا في مُصْطَلَح "تَتَرُّس"[2057]

[2052] – الحطاب ٣ / ٣٥١،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥ .

[2053] – صحيح البخارى – (٣٠١٦)

[2054] – المغني ٨ / ٤٤٨،٤٤٩ .و الموسوعة الفقهية الكويتية – (١٦ / ١٥٢)

[2055] – والموسوعة الفقهية الكويتية – (١٦ / ١٦١)

[2056] – فتح القدير ٥ / ١٩٨،وابن عابدين ٣ / ٢٢٣،والحطاب ٣ / ٣٥١،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،والمغني ٨ / ٤٥٠،٤٤٩ .

[2057] – الموسوعة الفقهية ١٠ / ١٣٨،١٣٧،ومصطلح:(تترس) .

وَمِنْ ذَلِكَ تَتَرُّسُ الْمُشْرِكِينَ بِالأَسْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالذِّمِّيِّينَ فِي الْقِتَالِ،لأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَالتِّرَاسِ،فَيَتَّقُونَ بِهِمْ هُجُومَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ،لأَنَّ رَمْيَ الْمُشْرِكِينَ – مَعَ تَتَرُّسِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ – يُؤَدِّي إِلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ نَحْرِصُ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الأَسْرِ.وَقَدْ عُنِيَ الْفُقَهَاءُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ،وَتَنَاوَلُوهَا مِنْ نَاحِيَةِ جَوَازِ الرَّمْيِ مَعَ التَّتَرُّسِ بِالْمُسْلِمِينَ أَوِ الذِّمِّيِّينَ،كَمَا تَنَاوَلُوهَا مِنْ نَاحِيَةِ لُزُومِ الْكَفَّارَةِ وَالدِّيَةِ،وَإِلَيْكَ اتِّجَاهَاتُ الْمَذَاهِبِ فِي هَذَا:

أ – رَمْيُ التُّرْسِ:

مِنْ نَاحِيَةِ رَمْيِ التُّرْسِ:يَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي تَرْكِ الرَّمْيِ خَطَرٌ مُحَقَّقٌ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ يَجُوزُ الرَّمْيُ بِرَغْمِ التَّتَرُّسِ،لأَنَّ فِي الرَّمْيِ دَفْعَ الضَّرَرِ الْعَامِّ بِالذَّبِّ عَنْ بَيْضَةِ الإِسْلاَمِ،وَقَتْلِ الأَسِيرِ ضَرَرٌ خَاصٌّ.وَيُقْصَدُ عِنْدَ الرَّمْيِ الْكُفَّارُ لاَ التُّرْسُ،لأَنَّهُ إِنْ تَعَذَّرَ التَّمْيِيزُ فِعْلاً فَقَدْ أَمْكَنَ قَصْدًا،وَنَقَل ابْنُ عَابِدِينَ عَنِ السَّرَخْسِيِّ أَنَّ الْقَوْل لِلرَّامِي بِيَمِينِهِ فِي أَنَّهُ قَصَدَ الْكُفَّارَ،وَلَيْسَ قَوْل وَلِيِّ الْمَقْتُول الَّذِي يَدَّعِي الْعَمْدَ.[٢٠٥٨]

أَمَّا فِي حَالَةِ خَوْفِ وُقُوعِ الضَّرَرِ عَلَى أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَلِكَ يَجُوزُ رَمْيُهُمْ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،لأَنَّهَا حَالَةُ ضَرُورَةٍ أَيْضًا،وَتَسْقُطُ حُرْمَةُ التُّرْسِ.

وَيَقُول الصَّاوِيُّ الْمَالِكِيُّ:وَلَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَتَرَّسُ بِهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ.وَفِي وَجْهٍ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لاَ يَجُوزُ،وَعَلَّلُوهُ بِأَنَّ مُجَرَّدَ الْخَوْفِ لاَ يُبِيحُ الدَّمَ الْمَعْصُومَ،كَمَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ إِذَا كَانَ الْخَوْفُ عَلَى بَعْضِ الْغَازِينَ فَقَطْ.[٢٠٥٩]

وَأَمَّا فِي حَالَةِ الْحِصَارِ الَّذِي لاَ خَطَرَ فِيهِ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ،لَكِنْ لاَ يُقْدَرُ عَلَى الْحَرْبِيِّينَ إِلاَّ بِرَمْيِ التُّرْسِ،فَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَجُمْهُورِ الْحَنَابِلَةِ،وَالْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى الْمَنْعِ،لأَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى قَتْل الْمُسْلِمِ

[٢٠٥٨] – فتح القدير والعناية ٤ / ٢٨٧،والبدائع ٧ / ١٠١،١٠٠،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٦٢٣،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨،والشرح الصغير وبلغة السالك عليه ١ / ٣٥٧،ومنهج الطلاب وشرحه فتح الوهاب ١ / ١٧٢،وحاشية الجمل ٥ / ١٢٤،والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٢ الطبعة الأولى لمصطفى الحلبي،والأم ٤ / ١٦٣،والمغني ١٠ / ٥٠٥،والإنصاف ٤ / ١٢٩ .

[٢٠٥٩] – الوجيز ٢ / ١٩٠ ط ١٣١٧ هـ،والشرح الصغير وبلغة السالك ١ / ٣٥٧ ط مصطفى الحلبي .

حَرَامٌ،وَتَرْكُ قَتْلِ الْكَافِرِ جَائِزٌ.أَلاَ يُرَى أَنَّ لِلإِمَامِ أَلاَّ يَقْتُلَ الأُسَارَى لِمَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ مُرَاعَاةُ جَانِبِ الْمُسْلِمِ أَوْلَى مِنْ هَذَا الْوَجْهِ،وَلأَنَّ مَفْسَدَةَ قَتْلِ الْمُسْلِمِ فَوْقَ مَصْلَحَةِ قَتْلِ الْكَافِرِ.

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ،وَالْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ إِلَى جَوَازِ رَمْيِهِمْ،وَعَلَّلَ الْحَنَفِيَّةُ ذَلِكَ بِأَنَّ فِي الرَّمْيِ دَفْعَ الضَّرَرِ الْعَامِّ،وَأَنَّهُ قَلَّمَا يَخْلُو حِصْنٌ عَنْ مُسْلِمٍ،وَاعْتَبَرَ الْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الضَّرُورَةِ [٢٠٦٠].

ب – الْكَفَّارَةُ وَالدِّيَةُ:

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْكَفَّارَةِ وَالدِّيَةِ عِنْدَ إِصَابَةِ أَحَدِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ نَتِيجَةَ رَمْيِ التُّرْسِ،فَإِنَّ جُمْهُورَ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّ مَا أَصَابُوهُ مِنْهُمْ لاَ يَجِبُ فِيهِ دِيَةٌ وَلاَ كَفَّارَةٌ،لأَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ،وَالْغَرَامَاتُ لاَ تُقْرَنُ بِالْفُرُوضِ،لأَنَّ الْفَرْضَ مَأْمُورٌ بِهِ لاَ مَحَالَةَ،وَسَبَبُ الْغَرَامَاتِ عُدْوَانٌ مَحْضٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ،وَبَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ،فَوُجُوبُ الضَّمَانِ يَمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الْفَرْضِ،لأَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ خَوْفًا مِنْ لُزُومِ الضَّمَانِ،وَهَذَا لاَ يَتَعَارَضُ مَعَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الإِسْلاَمِ دَمٌ مُفْرَجٌ[٢٠٦١] – أَيْ مُهْدَرٌ – لأَنَّ النَّهْيَ عَامٌّ خُصَّ مِنْهُ الْبُغَاةُ وَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ،فَتُخَصُّ صُورَةُ النِّزَاعِ،كَمَا أَنَّ النَّهْيَ فِي الْحَدِيثِ خَاصٌّ بِدَارِ الإِسْلاَمِ،وَمَا نَحْنُ فِيهِ لَيْسَ بِدَارِ الإِسْلاَمِ.[٢٠٦٢]

وَعِنْدَ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَجُمْهُورِ الْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ تَلْزَمُ الْكَفَّارَةُ قَوْلاً وَاحِدًا،وَفِي وُجُوبِ الدِّيَةِ رِوَايَتَانِ:

[٢٠٦٠] – المراجع السابقة .

[٢٠٦١] – أورده ابن الأثير في النهاية نقلا عن الهروي بلفظ " العقل على المسلمين عامة،فلا يترك في الإسلام دم مفرج " ولم يصرح بأنه حديث نبوي (قلت:لا أصل له).وفي مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيِّ (١٧٦١٢)عَبْدُ الرَّزَّاقِ،عَنِ الثَّوْرِيِّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ، قَالَ:حَبْسُ الْإِمَامِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحَدِّ ظُلْمٌ ، قَالَ:وَقَالَ عَلِيٌّ:" أَيُّمَا قَتِيلٍ وُجِدَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَدِيَتُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، لِكَيْلَا يَبْطُلَ دَمٌ ، فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَيُّمَا قَتِيلٍ وُجِدَ بَيْنَ قَرْيَتَيْنِ ، فَهُوَ عَلَى أَسَفِّهِمَا – يَعْنِي أَقْرَبَهُمَا – " قلت:ولا يصح لانقطاعه

وانظر(النهاية لابن الأثير ٣ / ٤٢٣ ط عيسى الحلبي،وكنز العمال ١٥ / ١٤٣ نشر مكتبة التراث الإسلامي) .

[٢٠٦٢] – الفتح والعناية ٤ / ٢٨٧ .

إحْدَاهُمَا:تَجبُ،لِأَنَّهُ قَتَل مُؤْمِنًا خَطَأً،فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْله تَعَالَى:{ وَمَنْ قَتَل مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا } (سورة النساء / ٩٤).
الثَّانِيَةُ:لاَ دِيَةَ،لِأَنَّهُ قَتَل فِي دَارِ الْحَرْبِ بِرَمْيٍ مُبَاحٍ،فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْله تَعَالَى{ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ }(سورة النساء / ٩٢) وَلَمْ يَذْكُرْ دِيَةً.[٢٠٦٣]

وَعَدَمُ وُجُوبِ الدِّيَةِ هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ.[٢٠٦٤]

يَقُول الْجَمَل الشَّافِعِيُّ:وَجَبَتِ الْكَفَّارَةُ إِنْ عُلِمَ الْقَاتِل،لِأَنَّهُ قَتَل مَعْصُومًا،وَكَذَا الدِّيَةُ،لاَ الْقِصَاصُ،لِأَنَّهُ مَعَ تَجْوِيزِ الرَّمْيِ لاَ يَجْتَمِعَانِ.[٢٠٦٥]

وَفِي نِهَايَةِ الْمُحْتَاجِ تَقْيِيدُ ذَلِكَ بِأَنْ يَعْلَمَ بِهِ،وَأَنْ يَكُونَ فِي الإِمْكَانِ تَوَقِّيهِ.[٢٠٦٦]

وَيَنْقُل الْبَابَرْتِيُّ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَال:إِنْ قَصَدَهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَهُ الدِّيَةُ،عَلِمَهُ مُسْلِمًا أَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ،لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ.وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِعَيْنِهِ بَل رَمَى إِلَى الصَّفِّ فَأُصِيبَ فَلاَ دِيَةَ عَلَيْهِ.وَالتَّعْلِيل الأَوَّل أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى قَتْل الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،وَتَرْكَ قَتْل الْكَافِرِ جَائِزٌ،لأَنَّ لِلإِمَامِ أَنْ يَقْتُل الأُسَارَى لِمَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ تَرْكُهُ لِعَدَمِ قَتْل الْمُسْلِمِ أَوْلَى،وَلأَنَّ مَفْسَدَةَ قَتْل الْمُسْلِمِ فَوْقَ مَصْلَحَةِ قَتْل الْكَافِرِ.[٢٠٦٧]

وَلَمْ نَقِفْ لِلْمَالِكِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ فِي هَذَا إِلاَّ مَا قَالَهُ الدُّسُوقِيُّ عِنْدَ تَعْلِيقِهِ عَلَى قَوْل خَلِيلٍ:وَإِنْ تَتَرَّسُوا بِمُسْلِمٍ،فَقَال:وَإِنْ تَتَرَّسُوا بِأَمْوَال الْمُسْلِمِينَ فَيُقَاتَلُونَ وَلاَ يُتْرَكُونَ.وَيَنْبَغِي ضَمَانُ قِيمَتِهِ عَلَى مَنْ رَمَاهُمْ،قِيَاسًا عَلَى مَا يُرْمَى مِنَ السَّفِينَةِ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ،بِجَامِعِ أَنَّ كُلًّا إِتْلاَفُ مَالٍ لِلنَّجَاةِ.[٢٠٦٨]

[٢٠٦٣] – حاشية الشلبي بهامش تبيين الحقائق ٣ / ٢٤٣ .
[٢٠٦٤] – الإنصاف ٤ / ١٢٩ .
[٢٠٦٥] – حاشية الجمل ٤ / ١٩١ .
[٢٠٦٦] – نهاية المحتاج ٨ / ٦٢ .
[٢٠٦٧] – العناية على الفتح ٤ / ٢٨٧ .
[٢٠٦٨] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية – (٤ / ٢١٦) فما بعد

المبحث الثامن

وجوب التكافل والتضامن أثناء الجهاد في سبيل الله

المجاهدون بأمس الحاجة لهذا الأمر حيث إن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى الأموال والعتاد والأنفس ، فيجب على المسلمين أن يتكافلوا ويتضاموا حتى يحقق الله النصر على أيديهم ، ويمكنهم من رقاب أعدائهم .

قال تعالى : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة: ٢]

وَفِيهَا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤمنِينَ بِالتَّقْوَى،وَبِالتَّعَاوُنش عَلَى فِعْلِ الخَيْرَاتِ (وَهُوَ البِرُّ)،وَعَلَى تَرْكِ المَعَاصِي والمُنْكَرات (وَهُوَ التَّقْوَى)،وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى البَاطِلِ،وَالتَّعَاوُنِ عَلَى المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ،وَيُحَذِّرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ مِنْ بَطْشِهِ وَعِقَابِهِ،لأَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ العِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَتَعَدَّى حُدُودَهُ.[٢٠٦٩]

{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} أي:ليعن بعضكم بعضا على البر.وهو:اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه،من الأعمال الظاهرة والباطنة،من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع:اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله،من الأعمال الظاهرة والباطنة.وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها،أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها،فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه،وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها،بكل قول يبعث عليها وينشط لها،وبكل فعل كذلك.{وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ} وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها،ويحرج.{وَالْعُدْوَانِ} وهو التعدي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم،فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه،ثم إعانة غيره على تركه.[٢٠٧٠]

٢٠٦٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧١،بترقيم الشاملة آليا)

٢٠٧٠ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١٩)

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن،إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات فى دينهم ودنيـــاهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم.

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم،فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره،ولكن لمـــا نكثوا ذلك العهد صاروا فى حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائـــف المســـلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معـــك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا.[٢٠٧١]

يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان ويخوفها عقاب الله،ويأمرها بتقواه،لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضـــبط،وعلى التســـامي والتســـامح،تقوى لله،وطلبا لرضاه.

ولقد استطاعت التربية الإسلامية،بالمنهج الرباني،أن تروض نفوس العرب على الانقيـــاد لهذه المشاعر القوية،والاعتياد لهذا السلوك الكريم ..وكانت أبعد ما تكـــون عـــن هـــذا المستوي وعن هذا الاتجاه ..كان المنهج العربي المسلوك والمبدأ العربي المشـــهور:«انْصُـــرْ أَخَاكَ ظَالِمًا،أَوْ مَظْلُومًا» ..كانت حمية الجاهلية،ونعرة العصبية.كان التعاون علـــى الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى وكان الحلف علـــى النصـــرة،في الباطل قبل الحق.وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق.وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله ..يمثل ذلك كله ذلك المبـــدأ الجاهلي المشهور:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ..وهو المبدأ الذي يعبر عنـــه الشـــاعر الجاهلي في صورة أخرى،وهو يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت،وإن ترشد غزية أرشد!

[٢٠٧١] - تفسير المراغي (٦/ ٤٦)

ثم جاء الإسلام ..جاء المنهج الرباني للتربية ..جاء ليقول للذين آمنـوا:«وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْـوى،وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ.وَاتَّقُوا اللَّهَ،إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» ..

جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله.جاء ليخرج العرب – ويخرج البشرية كلها – من حمية الجاهلية،ونعرة العصبية،وضغط المشاعر والانفعـالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد «الإنسان» من جديد في الجزيرة العربية ..ولد الإنسان الذي يتخلق بـأخلاق الله ..وكان هذا هو المولد الجديد للعرب كما كان هو المولد الجديـد للإنسـان في سـائر الأرض ..ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية،وأفق الإسلام هي المسـافة بـين قـول الجاهليـة المأثور:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما».وقول الله العظيم:«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا.وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى،وَلا تَعـاوَنُوا عَلَـى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ».وشتان شتان![٢٠٧٢]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَحَمِدَ اللَّـهَ وَأَثْنَـى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ،وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ،وَلَكِنَّهُ نَزَلَ الْقُرْآنُ،وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ،وَعَلَّمَنَا فَعَمِلْنَا،وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ الْهُدَى» أَوْ قَالَ:«التُّقَى»،شَـكَّ أَبُو عُبَيْدٍ،قَالَ:وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ:التُّقَى – «وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ،وَأَنَّ أَقْـوَاكُمْ عِنْـدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ،وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ،إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ،وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ،فَإِنْ أَنَا أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي،وَإِنْ أَنَا زُغْتُ فَقَوِّمُـونِي أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ»[٢٠٧٣]

[٢٠٧٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢١٧)

[٢٠٧٣] – الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٢)(٨) صحيح لغيره

وعَنْ عَبْد اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ؛قَالَ:لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَعَدَ الْمِنْبَرَ،فَنَزَلَ مرْقَاةً مِنْ مَقْعَد النَّبيِّ ﷺ،فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْه،ثُمَّ قَالَ:اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّـاسُ أَنَّ أَكْـيَسَ الْكَـيْس التُّقَى،وأن أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ،وَإِنَّ أَقْوَاكُمْ عنْدي الضَّعيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بحَقِّـه،وَإِنَّ أَضْعَفَكُمْ عنْدي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ منْـهُ،إِنَّمَا أَنَـا مُتَّبِـعٌ وَلَسْـتُ بِمُبْتَـدِعٍ،فَإِنْ أَحْسَنْتُ؛فَأَعِينُونِي،وَإِنْ زِغْتُ؛فَقَوِّمُونِي،وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا،وَلا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بِالْفَقْرِ،وَلا ظَهَرَت الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ؛إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلاءِ؛فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ،فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ؛فَلا طَاعَـةَ لِـي عَلَيْكُمْ،أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ"[٢٠٧٤]

وعن محمد وطلحة وزياد بِإِسْنَادهِمْ- خَرَجَ عُمَـرُ حَتَّـى نَـزَلَ عَلَـى مَـاءٍ يُـدْعَى صِرَارًا،فَعَسْكَرَ بِهِ وَلا يَدْرِي النَّاسُ مَا يُرِيدُ،أَيَسِيرُ أَمْ يُقِيمُ وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْـأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ رَمَوْهُ بِعُثْمَانَ أَوْ بِعَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْف،وَكَانَ عُثْمَانُ يُدْعَى فِي إِمَـارَة عُمَـرَ رَديفًا- قَالُوا:وَالرَّديفُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ الرَّجُلُ الَّذِي بَعْدَ الرَّجُلِ،وَالْعَرَبُ تَقُولُ ذَلكَ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَرْجُونَهُ بَعْدَ رَئِيسِهِمْ- وَكَانُوا إِذَا لَمْ يَقْدرْ هَذَانِ عَلَى عِلْمِ شَيْءٍ مِمَّا يُرِيدُونَ،ثَلَّثُوا بِالْعَبَّاسِ،فَقَالَ عُثْمَانُ لِعُمَرَ:مَا بَلَغَكَ؟ مَا الَّذِي تُرِيدُ؟ فَنَادَى:الصَّلاةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْه،فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ ثُمَّ نَظَرَ مَا يَقُولُ النَّاسُ،فَقَالَ الْعَامَّةُ:سِرْ وَسِرْ بِنَا مَعَكَ،فَدَخَلَ مَعَهُـمْ فِي رَأْيِهِمْ،وَكَرِهَ أَنْ يَدَعَهُمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ مِنْهُ فِي رِفْقٍ،فَقَالَ:اسْتَعِدُّوا وَأَعِدُّوا فَإِنِّي سَائِرٌ إلا أَنْ يَجِيءَ رَأْيٌ هُوَ أَمْثَلُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الرَّأْيِ،فَاجْتَمَعَ إِلَيْه وُجُوهُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَعْلامُ الْعَرَبِ،فَقَالَ:أَحْضِرُونِي الرَّأْيَ فَإِنِّي سَائِرٌ فَـاجْتَمَعُوا جَمِيعًـا،وَأَجْمَعَ مَلَؤُهُمْ عَلَى أَنْ يبعث رجلا من اصحاب رسول الله ص وَيُقِيمُ،وَيَرْمِيهِ بِالْجُنُودِ،فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَشْتَهِي مِنَ الْفَتْحِ،فَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ وَيُرِيدُونَ،وَإِلا أَعَادَ رَجُلا وَنَدَبَ جُنْدًا آخَرَ،وَفِي ذَلِكَ مَا يَغِيظُ الْعَدُوَّ،وَيَرْعَوِي الْمُسْلِمُونَ،وَيَجِيءُ نَصْرُ اللَّه بِإِنْجَازِ مَوْعُود اللَّـه فَنَـادَى عُمَرُ:الصَّلاةُ جَامِعَةٌ،فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْه،وَأَرْسَلَ إِلَى عَلِـيٍّ ع،وَقَـد اسْـتَخْلَفَهُ عَلَـى الْمَدِينَة،فَأَتَاهُ،وَإِلَى طَلْحَةَ وقد بعثه عَلَى الْمُقَدِّمَة،فَرَجَعَ إِلَيْه،وَجَعَلَ عَلَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ الزُّبَيْرَ

[٢٠٧٤] - المجالسة وجواهر العلم (٤/ ١١٢)(١٢٩٠) صحيح

وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ،فَقَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ عَلَى الإِسْلامِ أَهْلَهُ،فَأَلَّفَ بَيْنَ الْقُلُوبِ،وَجَعَلَهُمْ فِيهِ إِخْوَانًا،وَالْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ كَالْجَسَدِ لا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَ غيره،وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ،فَالنَّاسُ تُبَّعٌ لِمَنْ قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ،مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِهِ لَزِمَ النَّاسُ وَكَانُوا فِيهِ تُبَّعًا لَهُمْ،وَمَنْ أَقَامَ بِهَذَا الأَمْرِ تَبَعٌ لأُولِي رَأْيِهِمْ مَا رَأَوْا لَهُمْ وَرَضُوا بِهِ لَهُمْ مِنْ مَكِيدَةٍ فِي حَرْبٍ كَانُوا فيه تبعا لهم يا ايها النَّاسُ،إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْكُمْ حَتَّى صَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ،فَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُقِيمَ وَأَبْعَثَ رَجُلا،وَقَدْ أَحْضَرْتُ هَذَا الأَمْرَ،مَنْ قَدَّمْتُ وَمَنْ خَلَّفْتُ:وَكَانَ على ع خَلِيفَتَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ،وَطَلْحَةُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ بِالأَعْوَصِ،فَأَحْضَرَهُمَا ذَلِكَ "[٢٠٧٥]

وكذا إذا نزلت بالمسلمين نازلة:كالمجاعة فيجب أن يؤخذ من الأغنياء ما يكفي للفقراء،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ،وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ» متفقٌ عليه[٢٠٧٦].

وفي رواية لمسلم عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ،قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ،وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ،وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»[٢٠٧٧]

[٢٠٧٥] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٩)

[٢٠٧٦] - صحيح البخاري (٧/ ٧١)(٥٣٩٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٨ - (٢٠٥٨)

طَعَامُ الِاثْنَيْنِ):أَيْ مَا يُشْبِعُهُمَا (كَافِي الثَّلَاثَةِ):أَيْ يَكْفِيهِمْ عَلَى وَجْهِ الْقَنَاعَةِ وَيُقَوِّيهِمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَيُزِيلُ الضَّعْفَ عَنْهُمْ،لَا أَنَّهُ يُشْبِعُهُمْ،فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ؛وَلِذَا وَرَدَ:" «أَكْثَرُكُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُكُمْ جُوعًا فِي الْآخِرَةِ» ".وَالْغَرَضُ مِنْهُ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَعَ بِدُونِ الشِّبَعِ،يَصْرِفُ الزَّائِدَ إِلَى مُحْتَاجٍ آخَرَ.(وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ):قَالَ السُّيُوطِيُّ:أَيْ شِبَعُ الْأَقَلِّ قُوتٌ بِالْأَكْثَرِ،وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّقَنُّعِ بِالْكِفَايَةِ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٦٩٩)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أنه يستحب الاجتماع على الطعام لا فيه من بركة عظيمة تجعل من القليل كثيراً فينمو الطعام ويزداد حسّاً ومعنى،وتتضاعف قواه الغذائية ويكفي القليل منه الكثير.ثانياً:قال النووي:فيه الحث على المواساة في الطعام فإنه وإن كان قليلاً تحصل منه الكفاية وتقع فيه بركة تعم الحاضرين.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ١٤٦)

[٢٠٧٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٩ - (٢٠٥٩)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ"رواه مسلم[٢٠٧٨].

قَالَ الْمُهَلَّبُ:الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْحَضُّ عَلَى الْمُكَارَمَةِ،وَالتَّقَنُّعِ بِالْكِفَايَةِ،يَعْنِي:وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصْرَ فِي مِقْدَارِ الْكِفَايَةِ،وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْمُوَاسَاةُ،وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلِاثْنَيْنِ إِدْخَالُ ثَالِثٍ لِطَعَامِهِمَا،وَرَابِعٍ أَيْضًا بِحَسَبِ مَنْ يَحْضُرُ.وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ،وَأَوَّلُهُ:" «كُلُوا جَمِيعًا،وَلَا تَفَرَّقُوا فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ» "،الْحَدِيثَ،فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الْكِفَايَةَ تَنْشَأُ عَنْ بَرَكَةِ الِاجْتِمَاعِ،وَأَنَّ الْجَمْعَ كُلَّمَا كَثُرَ زَادَتِ الْبَرَكَةُ.وَقِيلَ مَعْنَاهُ:أَنَّ اللَّهَ يَضَعُ مِنْ بَرَكَتِهِ فِيهِ مَا وَضَعَ لِنَبِيِّهِ فَيَزِيدُ حَتَّى يَكْفِيَهُمْ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَهَذَا إِذَا صَحَّتْ نِيَّتُهُمْ،وَانْطَلَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِهِ،فَإِنْ قَالُوا:لَا يَكْفِينَا قِيلَ لَهُمْ:الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ.

وَقَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي الْأَمَالِي:إِنْ أُرِيدَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْوَاقِعِ فَمُشْكِلٌ؛لِأَنَّ طَعَامَ الِاثْنَيْنِ لَا يَكْفِي إِلَّا اثْنَيْنِ،وَإِنْ كَانَ لَهُ مَعْنًى آخَرُ فَمَا هُوَ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنَّهُ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ،أَيْ أَطْعِمُوا طَعَامَ الِاثْنَيْنِ الثَّلَاثَ،وَالثَّانِي أَنَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يَقُوتُ الثَّلَاثَ،وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ لِئَلَّا نَجْزَعَ،وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ لِأَنَّ الثَّانِيَ مَعْلُومٌ،انْتَهَى.

وَرَوَى الْعَسْكَرِيُّ فِي الْمَوَاعِظِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا:" «كُلُوا وَلَا تَفَرَّقُوا،فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ،وَطَعَامَ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الثَّلَاثَةَ،وَالْأَرْبَعَةَ كُلُوا جَمِيعًا وَلَا تفرَّقُوا،فَإِنَّ الْبَرَكَةَ فِي الْجَمَاعَةِ» "،فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ الشَّرْطَ الِاجْتِمَاعُ عَلَى الْأَكْلِ،وَأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ طَعَامُ الِاثْنَيْنِ إِذَا كَانَا مُفْتَرِقَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ إِذَا أَكَلُوا مُجْتَمِعِينَ.قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ اسْتِحْبَابُ الِاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ،وَأَنْ لَا يَأْكُلَ الْمَرْءُ وَحْدَهُ،انْتَهَى.

وَفِيهِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُوَاسَاةَ إِذَا حَصَلَتْ حَصَلَ مَعَهَا الْبَرَكَةُ،فَتَعُمُّ الْحَاضِرِينَ،وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحْقِرَ مَا عِنْدَهُ،فَيَمْتَنِعَ مِنْ تَقْدِيمِهِ،فَإِنَّ الْقَلِيلَ قَدْ يَحْصُلُ بِهِ الِاكْتِفَاءُ بِمَعْنَى حُصُولِ قِيَامِ الْبِنْيَةِ لَا حَقِيقَةَ الشِّبَعِ،وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ عَامَ الرَّمَادَةِ:لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُنْزِلَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ مِثْلَ عَدَدِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَهْلِكُ عَلَى مَلْءِ بَطْنِهِ،وَأُخِذَ مِنْهُ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي الْمَسْغَبَةِ يُفَرِّقُ الْفُقَرَاءَ عَلَى أَهْلِ السَّعَةِ بِقَدْرٍ لَا يَضُرُّ بِهِمْ.شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٤٧٣)

قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْمُوَاسَاةِ فِي الطَّعَامِ،فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا حَصَلَتْ مِنْهُ الْكِفَايَةُ الْمَقْصُودَةُ،وَوَقَعَتْ فِيهِ بَرَكَةٌ تَعُمُّ الْحَاضِرِينَ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٦٩٩)

[٢٠٧٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ - (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته(من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين(فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»متفقٌ عليه[٢٠٧٩].

(بَيْنَمَا نَحْنُ):أَيْ:مُعَاشِرُ الصَّحَابَةِ (فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- إِذْ جَاءَ رَجُلٌ):وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ:إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ (عَلَى رَاحِلَةٍ):أَيْ:ضَعِيفَةٍ (فَجَعَلَ):أَيْ:شَرَعَ وَطَفِقَ (يَضْرِبُ):أَيِ:الرَّاحِلَةَ (يَمِينًا وَشِمَالًا):أَيْ:بِيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ،أَوْ يَمِينَهَا وَشِمَالَهَا لِعَجْزِهَا عَنِ السَّيْرِ،وَقِيلَ:يَضْرِبُ عَيْنَيْهِ إِلَى يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ؛أَيْ:يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمَا طَالِبًا لِمَا يَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ.(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ-:مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ):أَيْ:زِيَادَةُ مَرْكُوبٍ عَنْ نَفْسِهِ (فَلْيَعُدْ بِهِ):أَيْ:فَلْيَرْفُقْ بِهِ (عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ):وَيَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ؛مِنْ عَادَ عَلَيْنَا بِمَعْرُوفٍ؛أَيْ:رَفَقَ بِنَا،كَذَا فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ (وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ):أَيْ:مِنْهُ وَمِنْ دَابَّتِهِ (فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ):أَيْ:مِقْدَارَ كِفَايَتِهِ،وَلَعَلَّهُ - ﷺ- اطَّلَعَ عَلَى أَنَّهُ تَعْبَانُ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ؛أَيْضًا،أَوْ ذَكَرَهُ تَتْمِيمًا وَقَصْدًا إِلَى الْخَيْرِ تَعْمِيمًا.قَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:طَفِقَ يَمْشِي يَمِينًا وَشِمَالًا؛أَيْ:يَسْقُطُ مِنَ التَّعَبِ إِذْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ ضَعِيفَةً لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا فَمَشَى رَاجِلًا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ رَاحِلَتُهُ قَوِيَّةً إِلَّا أَنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا زَادَهُ وَأَقْمِشَتَهُ،وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْكَبَهَا مِنْ ثِقَلِ حِمْلِهَا،فَطَلَبَ لَهُ - ﷺ- مِنَ الْجَيْشِ فَضْلَ ظَهْرٍ؛أَيْ:دَابَّةً زَائِدَةً عَلَى حَاجَةِ صَاحِبِهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:فِي تَوْجِيهِهِ إِشْكَالٌ؛لِأَنَّ عَلَى رَاحِلَتِهِ صِفَةَ رَجُلٍ؛أَيْ:رَاكِبٍ عَلَيْهَا،وَقَوْلُهُ:" فَجَعَلَ " عَطْفٌ عَلَى " جَاءَ " بِحَرْفِ التَّعْقِيبِ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَمَحَّلَ وَيُقَالَ:إِنَّهُ عَطَفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ؛أَيْ:فَنَزَلَ فَجَعَلَ يَمْشِي.أَقُولُ:الْأَظْهَرُ أَنْ يُقَالَ التَّقْدِيرُ حَامِلٌ مَتَاعَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ،أَوْ عَلَى بِمَعْنَى (مَعَ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة:١٧٧] قَالَ الطِّيبِيُّ:الْأَوْجَهُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ " يَضْرِبُ " مَجَازٌ عَنْ " يَلْتَفِتُ " لَا عَنْ " يَمْشِي "،وَهَذَا أَيْضًا يُسْقِطُ الِاحْتِمَالَ الثَّانِيَ الَّذِي يَأْبَاهُ الْمَقَامُ،وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رُوِيَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،قَالَ النَّوَوِيُّ:جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ فَجَعَلَ يَضْرِبُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،هَكَذَا فِي بَعْضِ النُّسَخِ،وَفِي بَعْضِهَا يَصْرِفُ يَمِينًا وَشِمَالًا،وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ بَصَرِهِ،وَفِي بَعْضِهَا يَضْرِبُ بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ،وَالْمَعْنَى يَصْرِفُ بَصَرَهُ مُتَعَرِّضًا بِشَيْءٍ يَدْفَعُ بِهِ حَاجَتَهُ،وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الرُّفْقَةِ وَالْأَصْحَابِ،وَالِاعْتِنَاءُ بِمَصَالِحِهِمْ وَالسَّعْيُ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ،وَتَعْرِيضِهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ،وَإِنْ كَانَ لَهُ رَاحِلَةٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ،أَوْ كَانَ مُوسِرًا فِي وَطَنِهِ،فَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ فِي هَذَا الْحَالِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(قَالَ):أَيْ:أَبُو سَعِيدٍ (فَذَكَرَ):أَيِ:النَّبِيُّ - ﷺ- (مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ):كَالثَّوْبِ وَالنِّعَالِ وَالْقِرْبَةِ وَالْمَاءِ وَالْخَيْمَةِ وَالنُّقُودِ وَنَحْوِهَا.(حَتَّى رَأَيْنَا):أَيْ:ظَنَنَّا (أَنَّهُ):أَيِ:الشَّأْنَ (لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٠١٣)

[٢٠٧٩] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[ش (أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة.(في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض.(بالسوية) متساوين.(فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

فقه الحديث:استدل البخاري بهذا الحديث على جواز الشركة في النهد أو في الطعام،والنهد كما قلنا أن ينثر الرفقة زادهم على سفرة فيأكلوا جميعاً،أو يجمعوه ويقتسموه بينهم قسمة متساوية،كما في هذا الحديث أو غير متساوية.

قال العيني:وذلك جائز في جنس واحد أو في الأجناس.وإن تفاوتوا في الأكل،وليس هذا من الربا في شيء وإنما هو من باب الإباحة.وقال في " فيض الباري ":ليست هذه من باب المعاوضات التي تجري فيها المماكسة أو تدخل تحت

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَامَ الرَّمَادَةِ – وَكَانَتْ سَنَةً شَدِيدَةً مُلِمَّةً،بَعْدَمَا اجْتَهَدَ عُمَرُ فِي إِمْدَادِ الْأَعْرَابِ بِالْإِبِلِ وَالْقَمْحِ وَالزَّيْتِ مِنَ الْأَرْيَافِ كُلِّهَا،حَتَّى بَلَحَتِ الْأَرْيَافُ كُلُّهَا مِمَّا جَهَدَهَا ذَلِكَ – فَقَامَ عُمَرُ يَدْعُو فَقَالَ:اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ،فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ حِينَ نَزَلَ بِهِ الْغَيْثُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ،فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُفْرِجْهَا مَا تَرَكْتُ بِأَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ سَعَةٌ إِلَّا أَدْخَلْتُ مَعَهُمْ أَعْدَادَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ،فَلَمْ يَكُنِ اثْنَانِ يَهْلِكَانِ مِنَ الطَّعَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ وَاحِدًا" رواه البخاري في الأدب المفرد[٢٠٨٠] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الحكم،وإنما هي من باب التسامح،وقد جرى بها التعامل من لدن عهد النبوة.وأما الشركة في الطعام وكل ما يملك فقد قال الحافظ:والجمهور على صحة الشركة في كل ما يتملك –يعني من طعام وغيره– والأصح عند الشافعية اختصاصها بالمثلي،وعند المالكية تكره الشركة في الطعام.هذا ومما يستفاد من الحديث استحباب خلط الطعام والمشاركة فيه حضراً وسفراً،لأن النبي – ﷺ – أثنى على الأشعريين ومدحهم بعملهم هذا،لما يترتب عليه من حلول البركة في الطعام،وكفايته للعدد الكثير من الناس،وانتفاع الأبدان به،وغير ذلك من المؤانسة والمباسطة أثناء تناوله،ولهذا كان هذا العمل من سنته – ﷺ –.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٧٨)

[٢٠٨٠] – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩٨)(٥٦٢) صحيح

الباب الثاني عشر
الخلاصة في أحكام الأسرى

التَّعْرِيفُ لغة واصطلاحاً:

الأَسْرَى جَمْعُ أَسِيرٍ،وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى أُسَارَى وَأَسَارَى.وَالأَسِيرُ لُغَةً:مَأْخُوذٌ مِنَ الإِسَارِ،وَهُوَ الْقَيْدُ،لأَنَّهُمْ كَانُوا يَشُدُّونَهُ بِالْقَيْدِ.فَسُمِّيَ كُل أَخِيذٍ أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يُشَدَّ بِهِ.وَكُل مَحْبُوسٍ فِي قَيْدٍ أَوْ سِجْنٍ أَسِيرٌ.قَال مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ قَوْل اللَّهِ سُبْحَانَهُ:{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } [الإنسان:٨] الأَسِيرُ:الْمَسْجُونُ.[٢٠٨١]

وَفِي الاِصْطِلاَحِ:عَرَّفَ الْمَاوَرْدِيُّ الأَسْرَى بِأَنَّهُمُ:الرِّجَال الْمُقَاتِلُونَ مِنَ الْكُفَّارِ،إِذَا ظَفِرَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ أَحْيَاءً.[٢٠٨٢]

وَهُوَ تَعْرِيفٌ أَغْلَبِيٌّ،لاِخْتِصَاصِهِ بِأَسْرَى الْحَرْبِيِّينَ عِنْدَ الْقِتَال،لأَنَّهُ بِتَتَبُّعِ اسْتِعْمَالاَتِ الْفُقَهَاءِ لِهَذَا اللَّفْظِ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَهُ عَلَى كُل مَنْ يُظْفَرُ بِهِمْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ،وَيُؤْخَذُونَ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ أَوْ فِي نِهَايَتِهَا،أَوْ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ فِعْلِيَّةٍ،مَا دَامَ الْعَدَاءُ قَائِمًا وَالْحَرْبُ مُحْتَمَلَةٌ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْل ابْنِ تَيْمِيَّةَ:أَوْجَبَتِ الشَّرِيعَةُ قِتَال الْكُفَّارِ،وَلَمْ تُوجِبْ قَتْل الْمَقْدُورِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ،بَل إِذَا أُسِرَ الرَّجُل مِنْهُمْ فِي الْقِتَال أَوْ غَيْرِ الْقِتَال،مِثْل أَنْ تُلْقِيَهُ السَّفِينَةُ إِلَيْنَا،أَوْ يَضِل الطَّرِيقَ،أَوْ يُؤْخَذَ بِحِيلَةٍ فَإِنَّهُ يَفْعَل بِهِ الإِمَامُ الأَصْلَحَ.[٢٠٨٣]

وَفِي الْمُغْنِي:هُوَ لِمَنْ أَخَذَهُ،وَقِيل:يَكُونُ فَيْئًا.[٢٠٨٤]

[٢٠٨١] - لسان العرب،والصحاح،والقاموس باب الراء فصل الألف .

[٢٠٨٢] - الأحكام السلطانية ص ١٣١ ط أولى سنة ١٣٨٠ هـ .

[٢٠٨٣] - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٩٣ ط الثانية ١٩٥١

[٢٠٨٤] - المغني ١٠ / ٤٤١ ط أولى مطبعة المنار .

وَيُطْلِقُ الْفُقَهَاءُ لَفْظَ الأَسِيرِ أَيْضًا عَلَى:مَنْ يَظْفَرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْحَرْبِيِّينَ إِذَا دَخَلُوا دَارَ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ[2085]،وَعَلَى مَنْ يَظْفَرُونَ بِهِ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ عِنْدَ مُقَاتَلَتِهِمْ لَنَا.يَقُول ابْنُ تَيْمِيَّةَ:وَمَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ.[2086]

كَمَا يُطْلِقُونَ لَفْظَ الأَسِيرِ عَلَى:الْمُسْلِمِ الَّذِي ظَفِرَ بِهِ الْعَدُوُّ.يَقُول ابْنُ رُشْدٍ:وَجَبَ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يَفُكَّ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْتِ الْمَال...وَيَقُول:وَإِذَا كَانَ الْحِصْنُ فِيهِ أُسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَأَطْفَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[2087]...إِلَخْ.

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الرَّهِينَةُ:

الرَّهِينَةُ:وَاحِدَةُ الرَّهَائِنِ وَهِيَ كُل مَا احْتُبِسَ بِشَيْءٍ،وَالأَسِيرُ وَالرَّهِينَةُ كِلاَهُمَا مُحْتَبَسٌ،إِلاَّ أَنَّ الأَسِيرَ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا[2088]،وَاحْتِبَاسُهُ لاَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُقَابِل حَقٍّ.

ب – الْحَبْسُ:

الْحَبْسُ:ضِدُّ التَّخْلِيَةِ،وَالْمَحْبُوسُ:الْمُمْسَكُ عَنِ التَّوَجُّهِ حَيْثُ يَشَاءُ،فَالْحَبْسُ أَعَمُّ مِنَ الأَسْرِ.[2089]

ج – السَّبْيُ:

السَّبْيُ وَالسِّبَاءُ:الأَسْرُ،فَالسَّبْيُ أَخْذُ النَّاسِ عَبِيدًا وَإِمَاءً[2090]،وَالْفُقَهَاءُ يُطْلِقُونَ لَفْظَ السَّبْيِ عَلَى مَنْ يَظْفَرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ حَيًّا مِنْ نِسَاءِ أَهْل الْحَرْبِ وَأَطْفَالِهِمْ.وَيُخَصِّصُونَ لَفْظَ الأَسْرَى – عِنْدَ مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظِ السَّبَايَا – بِالرِّجَال الْمُقَاتِلِينَ،إِذَا ظَفِرَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ أَحْيَاءً.[2091]

[2085] – البدائع ٧ / ١٠٩ .

[2086] – السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٩٢ ط الثانية،وبداية المجتهد لابن رشد ٢ / ٤٥٨ ط الثالثة مصطفى الحلبي

[2087] – التاج والإكليل لمختصر خليل للمواق مطبوع بهامش مواهب الجليل ٣ / ٣٨٧ ط دار الكتاب اللبناني بيروت،والمهذب ٢ / ٢٦٠ ط عيسى الحلبي،وبداية المجتهد ١ / ٣٨٨،٣٨٥ .

[2088] – كتب اللغة باب النون فصل الراء .

[2089] – لسان العرب،والصحاح،والقاموس باب السين فصل الحاء .

[2090] – اللسان،والصحاح،والقاموس مادة (سبى) .

[2091] – البدائع ٧ / ١١٧،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٢٧،والسيرة الحلبية ٢ / ٧٠ .

صِفَةُ الأَسْرِ (حُكْمُهُ التَّكْلِيفِيُّ):

الأَسْرُ مَشْرُوعٌ،وَيَدُل عَلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ النُّصُوصُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ،وَمِنْهَا قَوْل اللَّهِ سُبْحَانَهُ:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [محمد:٤] وَلاَ يَتَنَافَى ذَلِكَ مَعَ قَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال:٦٧] لِأَنَّهَا لَمْ تَرِدْ فِي مَنْعِ الأَسْرِ مُطْلَقًا،وَإِنَّمَا جَاءَتْ فِي الْحَثِّ عَلَى الْقِتَال،وَأَنَّهُ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَسْرَى قَبْل الإِثْخَانِ فِي الأَرْضِ،أَيِ الْمُبَالَغَةِ فِي قَتْل الْكُفَّارِ.[٢٠٩٢]

الْحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الأَسْرِ:

هِيَ كَسْرُ شَوْكَةِ الْعَدُوِّ،وَدَفْعُ شَرِّهِ،وَإِبْعَادُهُ عَنْ سَاحَةِ الْقِتَال،لِمَنْعِ فَاعِلِيَّتِهِ وَأَذَاهُ،وَلِيُمْكِنَ افْتِكَاكُ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِهِ.[٢٠٩٣]

مَنْ يَجُوزُ أَسْرُهُمْ وَمَنْ لاَ يَجُوزُ:

يَجُوزُ أَسْرُ كُل مَنْ وَقَعَ فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْحَرْبِيِّينَ،صَبِيًّا كَانَ أَوْ شَابًّا أَوْ شَيْخًا أَوِ امْرَأَةً،الأَصِحَّاءِ مِنْهُمْ وَالْمَرْضَى،إِلاَّ مَنْ لاَ يُخْشَى مِنْ تَرْكِهِ ضَرَرٌ وَتَعَذَّرَ نَقْلُهُ،فَإِنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَسْرُهُ عَلَى تَفْصِيلٍ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ فِي ذَلِكَ.

فَمَذْهَبُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ مُقَابِل الأَظْهَرِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:أَنَّهُ لاَ يُؤْسَرُ مَنْ لاَ ضَرَرَ مِنْهُمْ،وَلاَ فَائِدَةَ فِي أَسْرِهِمْ،كَالشَّيْخِ الْفَانِي وَالزَّمِنِ وَالأَعْمَى وَالرَّاهِبِ إِذَا كَانُوا مِمَّنْ لاَ رَأْيَ لَهُمْ.[٢٠٩٤]

[٢٠٩٢] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨ / ٤٧ و ٧٢ و ١٦ / ٢٢٦ ط دار الكتب المصرية .

[٢٠٩٣] – المبسوط للسرخسي ١٠ / ٦٤ مطبعة السعادة بالقاهرة،والمهذب ٢ / ٣٣ ط عيسى الحلبي،والمغني ١٠ / ٤٠٣ الطبعة الأولى مطبعة المنار،والإنصاف ٤ / ١٢٩ طبعة أولى .

[٢٠٩٤] – المغني والشرح الكبير ١٠ / ٤٠٤،٤٠٩ ط أولى مطبعة المنار ١٣٤٨ هـ،والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد ٤ / ١٣٣ ط أولى ١٣٧٥ هـ،وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٢،١١٩ ط أولى ١٣٢٨ هـ،والمبسوط ١٠ / ٢٤،٦٤،١٣٧ ط مطبعة السعادة بمصر،والهداية والفتح ٤ / ٢٩٠،٢٩٢،٣٠٥ ط أولى بولاق

وَنَصَّ الْمَالكيَّةُ عَلَى أَنَّ كُل مَنْ لاَ يَقْتُل يَجُوزُ أَسْرُهُ،إلاَّ الرَّاهبَ وَالرَّاهبَةَ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمَا رَأْيٌ فَإِنَّهُمَا لاَ يُؤْسَرَان،وَأَمَّا غَيْرُهُمَا منَ الْمَعْتُوه وَالشَّيْخ الْفَاني وَالزَّمن وَالأَعْمَى فَـإِنَّهُمْ وَإنْ حَرُمَ قَتْلُهُمْ يَجُزْ أَسْرُهُمْ،وَيَجُوزُ تَرْكُهُمْ منْ غَيْر قَتْلٍ وَمنْ غَيْر أَسْر.[٢٠٩٥]
وَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ في الأَظْهَر إلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَسْرُ الْجَميع دُونَ اسْتثْنَاء.[٢٠٩٦]
وَلاَ يَجُوزُ أَسْرُ أَحَد منْ دَار الْكُفْر إذَا كَانَ بَيْنَ الْمُسْلمينَ وَبَيْنَهَا عَهْدُ مُوَادَعَة،لأَنَّ عَقْـدَ الْمُوَادَعَة أَفَادَ الأَمَانَ،وَبالأَمَان لاَ تَصيرُ الدَّارُ مُسْتَبَاحَةً،وَحَتَّى لَوْ خَرَجَ قَوْمٌ منَ الْمُوَادعينَ إلَى بَلْدَة أُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلمينَ مُوَادَعَةٌ،فَغَزَا الْمُسْلمُونَ تلْكَ الْبَلْـدَةَ،فَهَؤُلاَء آمنُونَ،لاَ سَبيل لأَحَد عَلَيْهِمْ،لأَنَّ عَقْدَ الْمُوَادَعَة أَفَادَ الأَمَانَ لَهُمْ،فَلاَ يُنْتَقَضُ بالْخُرُوج إلَى مَوْضعٍ آخَرَ.وَكَذَا لَوْ دَخَل في دَار الْمُوَادَعَة رَجُلٌ منْ غَيْر دَارهمْ بأَمَان،ثُمَّ خَرَجَ إلَـى دَار الإسْلاَم بغَيْر أَمَان،فَهُوَ آمنٌ لاَ يَجُوزُ أَسْرُهُ،لأَنَّهُ لَمَّا دَخَل دَارَ الْمُوَادَعينَ بأَمَانهمْ صَارَ كَوَاحد منْهُمْ.وَمثْلُهُ مَا لَوْ وُجدَ الْحَرْبيُّ بدَار الإسْلاَم بأَمَان فَإنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَسْرُهُ،وَمَا لَـوْ أَخَذَ الْحَرْبيُّ الأَمَانَ منَ الْمُسْلمينَ وَهُوَ في حصْن الْحَرْبيِّينَ.[٢٠٩٧]

الأَسيرُ في يَد آسره وَمَدَى سُلْطَانه عَلَيْه:

الأَسيرُ في ذمَّة آسره لاَ يَدَ لَهُ عَلَيْه،وَلاَ حَقَّ لَهُ في التَّصَرُّف فيه،إذْ الْحَقُّ للتَّصَرُّف فيـه مَوْكُولٌ للإمَام[٢٠٩٨]،وَعَلَيْه بَعْدَ الأَسْر أَنْ يَقُودَهُ إلَى الأَمير ليَقْضيَ فيه بمَا يَرَى،وَللآْسر أَنْ

بمصر ١٣١٦ هـ،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٥،٢٤٤ ط أولى بولاق ١٣١٣ هـ،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٤،والسير الكبير لمحمد بن الحسن ٢ / ٢٦١،٣ / ٢٨٤ .

[٢٠٩٥] – حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ١٧٧ ط دار الفكر،والتاج والإكليل للمواق ٣ / ٣٥١ ط دار الكتاب اللبناني،وبداية المجتهد لابن رشد ١ / ٣٨٢،٣٨٤ ط مصطفى الحلبي ١٣٧٩ هـ .

[٢٠٩٦] – نهاية المحتاج ٨ / ٦١ ط مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ،والمهذب ٢ / ٢٣٣ ط عيسى الحلبي،وحاشية الجمل على شرح المنهج ٥ / ١٩٤ ط دار إحياء التراث العربي،وتحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيثمي وحاشية الشرواني ٨ / ٣٣ ط أولى،والوجيز ٢ / ١٨٩ ط ١٣١٧ هـ بمصر .

[٢٠٩٧] – البدائع ٧ / ١٠٩،وشرح السير الكبير ١ / ٣٦٦،٣٦٩ ط مطبعة مصر سنة ١٩٥٧ م .

[٢٠٩٨] – هذا إن كان للمسلمين إمام أصلاً،فإن لم يكن لهم إمام كحالهم اليوم فالقائد العسكري هو الذي يقوم بذلك

يَشُدَّ وَثَاقَهُ[2099] إنْ خَافَ انْفِلاَتَهُ،أَوْ لَمْ يَأْمَنْ شَرَّهُ،كَمَا يَجُوزُ عَصْبُ عَيْنَيْهِ أَثْنَاءَ نَقْلِهِ لِمَنْعِهِ مِنَ الْهَرَبِ.

فَمِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ أَنْ يَمْنَعَ الأَسِيرَ مِنَ الْهَرَبِ،وَإِذَا لَمْ يَجِدْ فُرْصَةً لِمَنْعِهِ إِلاَّ قَتْلَهُ فَلاَ بَأْسَ،وَقَدْ فَعَلَ هَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.[2100]

وفي مطالب أولي النهى:"(وَإِلَّا) يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ لَا بِضَرْبٍ وَلَا بِغَيْرِهِ،أَوْ كَانَ مَرِيضًا،أَوْ جَرِيحًا لَا يُمْكِنُهُ الْمَشْيُ مَعَهُ،أَوْ خَافَ هَرَبَهُ،(فَلَا) يَحْرُمُ قَتْلُهُ،لِأَنَّ فِي تَرْكِهِ حَيًّا ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَتَقْوِيَةً لِلْكُفَّارِ،وَأَسِيرُ غَيْرِهِ فِيمَا ذُكِرَ كَأَسِيرِ نَفْسِهِ،فَإِنْ قَتَلَ أَسِيرَهُ أَوْ أَسِيرَ غَيْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي حَالَةٍ يَجُوزُ فِيهَا قَتْلُهُ،فَقَدْ أَسَاءَ لِافْتِئَاتِهِ عَلَى الْإِمَامِ،(وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ)،أَيْ:الْقَاتِلِ نَصًّا،لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَسَرَ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ وَابْنَهُ عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ،فَرَآهُمَا بِلَالٌ،فَاسْتَصْرَخَ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمَا حَتَّى قَتَلُوهُمَا،وَلَمْ يَغْرَمُوا شَيْئًا،لِأَنَّهُ أَتْلَفَ مَا لَيْسَ بِمَالٍ "[2101]

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«كَاتَبْتُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كِتَابًا،بِأَنْ يَحْفَظَنِي فِي صَاغِيَتِي بِمَكَّةَ،وَأَحْفَظَهُ فِي صَاغِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ،فَلَمَّا ذَكَرْتُ الرَّحْمَنَ» قَالَ:لاَ أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ،كَاتِبْنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،فَكَاتَبْتُهُ:عَبْدَ عَمْرٍو،فَلَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ،خَرَجْتُ إِلَى جَبَلٍ لِأُحْرِزَهُ حِينَ نَامَ النَّاسُ،فَأَبْصَرَهُ بِلاَلٌ،فَخَرَجَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ مِنَ الأَنْصَارِ،فَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ:لاَ نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ،فَخَرَجَ مَعَهُ فَرِيقٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي آثَارِنَا،فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَلْحَقُونَا،خَلَّفْتُ لَهُمُ ابْنَهُ لِأَشْغَلَهُمْ فَقَتَلُوهُ،ثُمَّ أَبَوْا حَتَّى يَتْبَعُونَا،وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا،فَلَمَّا أَدْرَكُونَا،قُلْتُ لَهُ:«ابْرُكْ» فَبَرَكَ،فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ نَفْسِي لِأَمْنَعَهُ،فَتَخَلَّلُوهُ بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِي حَتَّى قَتَلُوهُ،وَأَصَابَ أَحَدُهُمْ رِجْلِي بِسَيْفِهِ،وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يُرِينَا ذَلِكَ الأَثَرَ فِي ظَهْرِ قَدَمِهِ»[2102]

[2099] - الأم للشافعي ٨ / ٤٤٩ ط شركة الطباعة الفنية بمصر،والمبسوط ١٠ / ٢٥ .

[2100] - السير الكبير ٣ / ١٣٢٨،والمغني ١٠ / ٤٠٧ .

[2101] - مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢/ ٥٢٠)

[2102] - صحيح البخاري (٣/ ٩٨) (٢٣٠١)

وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الأَسِيرَ إِذَا صَارَ فِي يَدِ الإِمَامِ فَلاَ اسْتِحْقَاقَ لِلآْسِرِ فِيهِ إِلاَّ بِتَنْفِيلِ الإِمَامِ،لاَ بِنَفْسِ الأَسْرِ [٢١٠٣]،وَذَلِكَ بِأَنْ يُنَادِيَ فِي الْعَسْكَرِ:مَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ أَسِيرًا فَهُوَ لَهُ،فَإِنْ قَال ذَلِكَ فَأَعْتَقَ الرَّجُل أَسِيرَهُ فَإِنَّهُ يَنْفُذُ عِتْقُهُ.وَلَوْ أَصَابَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنْهُ عَتَقَ،لأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ الاسْتِحْقَاقُ لَهُمْ بِالإِصَابَةِ صَارَ الأَسِيرُ مَمْلُوكًا لآسِرِهِ وَاحِدًا أَوْ جَمَاعَةً.بَل قَالُوا:لَوْ قَال الأَمِيرُ:مَنْ قَتَل قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ.فَأَسَرَ الْعَسْكَرُ بَعْضَ الأَسْرَى،ثُمَّ قَتَل أَحَدُ الأُسَرَاءِ رَجُلاً مِنَ الْعَدُوِّ،كَانَ السَّلَبُ مِنَ الْغَنِيمَةِ،إِنْ لَمْ يُقَسِّمِ الأَمِيرُ الأُسَرَاءَ،وَإِنْ كَانَ قَسَمَهُمْ أَوْ بَاعَهُمْ فَالسَّلَبُ لِمَوْلَى الأَسِيرِ الْقَاتِل.

وَقَدْ فَرَّقَ الْمَالِكِيَّةُ بَيْنَ مَنْ أَسَرَ أَسِيرًا أَثْنَاءَ الْقِتَال مُسْتَنِدًا إِلَى قُوَّةِ الْجَيْشِ،وَبَيْنَ مَنْ أَسَرَ أَسِيرًا مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ،وَقَالُوا:إِنْ كَانَ الآْسِرُ مِنَ الْجَيْشِ،أَوْ مُسْتَنِدًا لَهُ فَهُوَ خُمُسٌ كَسَائِرِ الْغَنِيمَةِ،وَإِلاَّ اخْتَصَّ بِهِ الآْسِرُ.

حُكْمُ قَتْل الآْسِرِ أَسِيرَهُ:

لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنَ الْغُزَاةِ أَنْ يَقْتُل أَسِيرَهُ بِنَفْسِهِ،إِذِ الأَمْرُ فِيهِ بَعْدَ الأَسْرِ مُفَوَّضٌ لِلإِمَامِ،فَلاَ يَحِل الْقَتْل إِلاَّ بِرَأْيِ الإِمَامِ اتِّفَاقًا،إِلاَّ إِذَا خِيفَ ضَرَرُهُ،فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ قَتْلُهُ قَبْل أَنْ يُؤْتَى بِهِ إِلَى الإِمَامِ،وَلَيْسَ لِغَيْرِ مَنْ أَسَرَهُ قَتْلُهُ [٢١٠٤]،لِحَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ،قَال:قَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَا يَتَعَاطَى أَحَدُكُمْ أَسِيرَ أَخِيهِ،فَيَقْتُلَهُ "[٢١٠٥].

فَلَوْ قَتَل رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَسِيرًا فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَالْحَنَفِيَّةُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَا إِذَا كَانَ قَبْل الْقِسْمَةِ أَوْ بَعْدَهَا،فَإِنْ كَانَ قَبْل الْقِسْمَةِ فَلاَ شَيْءَ فِيهِ مِنْ دِيَةٍ أَوْ كَفَّارَةٍ أَوْ قِيمَةٍ،لأَنَّ دَمَهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ،إِذْ لِلإِمَامِ فِيهِ خِيَرَةُ الْقَتْل،وَمَعَ هَذَا فَهُوَ مَكْرُوهٌ،وَإِنْ

[ش (صاغيتي) أهلي وحاشيتي.(ذكرت الرحمن) أي كتبت اسمي عبد الرحمن.(لا أعرف الرحمن) الذي جعلت نفسك عبدا له.(لأحرزه) لأحفظه أو لأحوزه من الحيازة وهو الجمع.(ثقيلا) ضخم الجسم.(لأمنعه) لأحميه منهم.(فتخللوه) أدخلوا سيافهم خلاله حتى وصلوا إليه وطعنوه بها من تحتي]

[٢١٠٣] – شرح السير الكبير ٢ / ٦٩٠،٦٥١ وما بعدهما،والشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٧،والمهذب ٢ / ٢٣٨،والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٥ / ١٤ مطبعة صبيح سنة ١٣٨٤ هـ،والمغني ١٠ / ٤٢٣ ط أولى المنار .

[٢١٠٤] – المبسوط ١٠ / ٦٤،وبداية المجتهد ١ / ٣٩٣ ط ١٣٨٦ هـ،والمغني ١٠ / ٤٠٧ .

[٢١٠٥] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٣/ ٣٦٤)(٢٠٢٠١) ضعيف

كَانَ بَعْدَ الْقِسْمَةِ،أَوْ بَعْدَ الْبَيْعِ فَيُرَاعَى فِيهِ حُكْمُ الْقَتْلِ،لِأَنَّ دَمَهُ صَارَ مَعْصُومًا،فَكَانَ مَضْمُونًا بِالْقَتْلِ،إلاَّ أَنَّهُ لاَ يَجِبُ الْقِصَاصُ لِقِيَامِ الشُّبْهَةِ.[٢١٠٦]

وَلَمْ يُفَرِّقُوا فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَا إذَا كَانَ هُوَ الْأَسْرُ أَوْ غَيْرُهُ كَمَا يُفِيدُهُ الإِطْلاَقُ.

وَالْمَالِكِيَّةُ يَتَّجِهُونَ وُجْهَةَ الْحَنَفِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ الضَّمَانِ،غَيْرَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا التَّفْرِقَةَ فِيمَا إذَا كَانَ الْقَتْلِ فِي دَارِ الْحَرْبِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي الْمَغْنَمِ،أَوْ بَعْدَ أَنْ صَارَ مَغْنَمًا،وَيَنُصُّونَ عَلَى أَنَّ مَنْ قَتَلَ مَنْ نُهِيَ عَنْ قَتْلِهِ،فَإِنْ قَتَلَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي الْمَغْنَمِ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ،وَإِنْ قَتَلَهُ بَعْدَ أَنْ صَارَ مَغْنَمًا فَعَلَيْهِ قِيمَتُهُ.[٢١٠٧]

وَالشَّافِعِيَّةُ أَيْضًا يُلْزِمُونَ الْقَاتِلِ بِالضَّمَانِ،فَإِذَا كَانَ بَعْدَ اخْتِيَارِ رِقِّهِ ضَمِنَ قِيمَتَهُ،وَكَانَ فِي الْغَنِيمَةِ.وَإِذَا كَانَ بَعْدَ الْمَنِّ عَلَيْهِ لَزِمَهُ دِيَتُهُ لِوَرَثَتِهِ.وَإِنْ قَتَلَهُ بَعْدَ الْفِدَاءِ فَعَلَيْهِ دِيَتُهُ غَنِيمَةً،إنْ لَمْ يَكُنْ قَبَضَ الإِمَامُ الْفِدَاءَ،وَإِلاَّ فَدِيَتُهُ لِوَرَثَتِهِ.وَإِنْ قَتَلَهُ بَعْدَ اخْتِيَارِ الإِمَامِ قَتْلَهُ فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ،وَإِنْ كَانَ قَبْلَهُ عُزِّرَ.[٢١٠٨]

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:إنْ قَتَلَ أَسِيرَهُ أَوْ أَسِيرَ غَيْرِهِ قَبْلَ الذَّهَابِ لِلإِمَامِ أَسَاءَ،وَلَمْ يَلْزَمْهُ ضَمَانُهُ.[٢١٠٩]

قال ابن قدامة:" وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا،لَمْ يَكُنْ لَهُ قَتْلُهُ،حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ الْإِمَامَ،فَيَرَى فِيهِ رَأْيَهُ؛لِأَنَّهُ إذَا صَارَ أَسِيرًا،فَالْخِيرَةُ فِيهِ إلَى الْإِمَامِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ كَلَامٌ يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ قَتْلِهِ،فَإِنَّهُ قَالَ:لَا يَقْتُلُ أَسِيرَ غَيْرِهِ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَالِي.فَمَفْهُومُهُ أَنَّ لَهُ قَتْلَ أَسِيرِهِ بِغَيْرِ إذْنِ الْوَالِي؛لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ ابْتِدَاءً،فَكَانَ لَهُ قَتْلُهُ دَوَامًا،كَمَا لَوْ هَرَبَ مِنْهُ أَوْ قَاتَلَهُ.فَإِنْ امْتَنَعَ الْأَسِيرُ أَنْ يَنْقَادَ مَعَهُ،فَلَهُ إكْرَاهُهُ بِالضَّرْبِ وَغَيْرِهِ،فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ إكْرَاهُهُ،فَلَهُ قَتْلُهُ.

[٢١٠٦] - البدائع ٧ / ١٢١ ط الجمالية،والمبسوط ١٠ / ٦٤،١٣٧،وفتح القدير ٤ / ٣٠٥،والسير الكبير ٣ / ١٢٠٧ .

[٢١٠٧] - شرح منح الجليل على مختصر خليل ١ / ٧١٢،والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٨،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤ .

[٢١٠٨] - حاشية الجمل على شرح المنهج ٥ / ١٩٧ ط الميمنية بمصر ١٣٠٥ هـ،وأسنى المطالب ٤ / ١٩٣ ط الميمنية ١٣١٣ هـ،والمهذب ٢ / ٢٣٦،وفتح الوهاب ٢ / ١٧٣،وشرح البهجة ٥ / ١٢١،والإقناع ٥ / ٧ .

[٢١٠٩] - المغني ١٠ / ٤٠٠،٤٠١،والإنصاف ٤ / ١٢٨،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢٢ .

وَإِنْ خَافَهُ أَوْ خَافَ هَرَبَهُ،فَلَهُ قَتْلُهُ أَيْضًا.وَإِنْ امْتَنَعَ مِنْ الِانْقِيَادِ مَعَهُ،لِجُرْحٍ أَوْ مَرَضٍ،فَلَهُ قَتْلُهُ أَيْضًا.وَتَوَقَّفَ أَحْمَدُ عَنْ قَتْلِهِ.وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَقْتُلُهُ،كَمَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَلِأَنَّ تَرْكَهُ حَيًّا ضَرَرٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَتَقْوِيَةٌ لِلْكُفَّارِ،فَتَعَيَّنَ الْقَتْلُ،كَحَالَةِ الِابْتِدَاءِ إذَا أَمْكَنَهُ قَتْلُهُ،وَكَجَرِيحِهِمْ إذَا لَمْ يَأْسِرْهُ."[2110]

مُعَامَلَةُ الأَسِيرِ قَبْلَ نَقْلِهِ لِدَارِ الإِسْلاَمِ:

مَبَادِئُ الإِسْلاَمِ تَدْعُو إِلَى الرِّفْقِ بِالأَسْرَى،وَتَوْفِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكِسَاءِ لَهُمْ،وَاحْتِرَامِ آدَمِيَّتِهِمْ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)} [الإنسان:٨ - ١٠]،وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:أَحْسِنُوا إِسَارَهُمْ،وَقَيِّلُوهُمْ،وَأَسْقُوهُمْ حَتّى يُبْرِدُوا فَتَقْتُلُوا مَنْ بَقِيَ،لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرّ الشّمْسِ وَحَرّ السّلَاحِ- وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا.فَقَيّلُوهُمْ وَأَسْقَوْهُمْ وَأَطْعِمُوهُمْ،فَلَمّا أَبْرَدُوا رَاحَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْتُلُ مَنْ بَقِيَ"[2111]

وَقَالَ - ﷺ - «فِي بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ مَا احْتَرَقَ النَّهَارُ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ:لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ هَذَا الْيَوْمِ وَحَرَّ السِّلَاحِ.قَيِّلُوهُمْ حَتَّى يَبْرُدُوا.فَقَيَّلُوهُمْ حَتَّى أَبْرَدُوا،ثُمَّ رَاحُوا بِبَقِيَّتِهِمْ فَقَتَلُوهُمْ.وَقَدْ كَانَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِأَحْمَالِ التَّمْرِ فَنُثِرَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ،فَكَانُوا يَكْدُمُونَهَا كَدْمَ الْحُمُرِ» [2112].

وَقَال الْفُقَهَاءُ [2113]:وَإِنْ رَأَى الْإِمَامُ قَتْلَ الْأَسَارَى فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ بِالْعَطَشِ وَالْجُوعِ وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُهُمْ قَتْلًا كَرِيمًا.يَعْنِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُمَثِّلَ بِهِمْ.فَقَدْ «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ الْمُثْلَةِ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[2114].

[2110] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢٥)

[2111] - مغازي الواقدي (٢/ ٥١٤) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٥/ ١٣) وإمتاع الأسماع (١/ ٢٥٠)

[2112] - شرح السير الكبير (ص:١٠٢٩)

[2113] - شرح السير الكبير (ص:١٠٢٩) وانظر التاج والإكليل بهامش مواهب الجليل ٣ / ٣٥٣ .

[2114] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٩٧)(١٦٨) مرسل حسن

وَيَجُوزُ حَبْسُ الأَسْرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ،لِيُؤْمَنَ مَنْعُهُمْ مِنَ الْفِرَارِ،فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ،فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ:ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ،فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:«أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»،فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ،فَاغْتَسَلَ،ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"[2115]

التَّصَرُّفُ فِي الأَسْرَى قَبْلَ نَقْلِهِمْ لِدَارِ الإِسْلاَمِ:

يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ جَوَازَ التَّصَرُّفِ فِي الْغَنَائِمِ – وَمِنْهَا الأَسْرَى فِي دَارِ الْحَرْبِ – وَقَبْل نَقْلِهِمْ لِدَارِ الإِسْلاَمِ.قَال مَالِكٌ:الشَّأْنُ أَنْ تُقْسَمَ الْغَنَائِمُ وَتُبَاعَ بِبَلَدِ الْحَرْبِ،وَرَوَى الأَوْزَاعِيُّ أَنَّ رَسُول اللَّهِ وَالْخُلَفَاءَ لَمْ يَقْسِمُوا غَنِيمَةً قَطُّ إِلاَّ فِي دَارِ الشِّرْكِ،عَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ،أَنَّهُ قَالَ:دَخَلْتُ المَسْجِدَ،فَرَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ،فَسَأَلْتُهُ عَنِ العَزْلِ،قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ،فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ العَرَبِ،فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ،وَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا العُزْبَةُ وَأَحْبَبْنَا العَزْلَ،فَأَرَدْنَا أَنْ نَعْزِلَ،وَقُلْنَا نَعْزِلُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَهُ،فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ،فَقَالَ:«مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لاَ تَفْعَلُوا،مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ»[2116]

فَإِنَّ سُؤَالَهُمُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْعَزْل فِي وَطْءِ السَّبَايَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ قِسْمَةَ الْغَنَائِمِ قَدْ تَمَّتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْجِيل مَسَرَّةِ الْغَانِمِينَ وَغَيْظِ الْكَافِرِينَ،وَيُكْرَهُ تَأْخِيرُهُ لِبَلَدِ الإِسْلاَمِ،وَهَذَا إِذَا كَانَ الْغَانِمُونَ جَيْشًا وَأَمِنُوا مِنْ كَرِّ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ.[2117]

وَقَدْ نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى أَنَّ لِلْغَانِمَيْنِ التَّمَلُّكَ قَبْل الْقِسْمَةِ لَفْظًا،بِأَنْ يَقُول كُلٌّ بَعْدَ الْحِيَازَةِ،وَقَبْل الْقِسْمَةِ:اخْتَرْتُ مِلْكَ نَصِيبِي،فَتَمَلَّكَ بِذَلِكَ.

وَقِيل:يَمْلِكُونَ بِمُجَرَّدِ الْحِيَازَةِ،لِزَوَال مِلْكِ الْكُفَّارِ بِالاِسْتِيلاَءِ.وَقِيل:الْمِلْكُ مَوْقُوفٌ.وَالْمُرَادُ عِنْدَ مَنْ قَال يَمْلِكُونَ بِمُجَرَّدِ الْحِيَازَةِ:الاِخْتِصَاصُ،أَيْ يَخْتَصِمُونَ.[2118]

[2115] - صحيح البخاري (١/ ٩٩)(٤٦٢)

[ش (خيلا) فرسانا يركبون الخيل.(قبل) جهة.(نجد) ما بين الحجاز والعراق من أرض العرب]

[2116] - صحيح البخاري (٥/ ١١٥)(٤١٣٨) وصحيح مسلم (٢/ ١٠٦١)١٢٥ - (١٤٣٨)

[2117] - التاج والإكليل ٣ / ٣٧٥،والشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ١٩٤ ط دار الفكر .

وَصَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِجَوَازِ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ فِي دَارِ الْحَرْبِ،وَهُوَ قَوْل الأَوْزَاعِيِّ وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَأَبِي ثَوْرٍ لفعْل الرَّسُول ﷺ حيث لَمْ يَقْفِلْ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - عَنْ غَزَاة قَطُّ أَصَابَ فِيهَا غَنِيمَةً إِلَّا خَمَسَهُ وَقَسَمَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْفِلَ،منْ ذَلكَ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِق،وَهَوَازِنَ،وَخَيْبَرَ.وَلأَنَّ كُلَّ دَارٍ صَحَّتْ الْقِسْمَةُ فِيهَا جَازَتْ،كَدَارِ الْإِسْلَام،وَلأَنَّ الْملْكَ ثَبَتَ فِيهَا بِالْقَهْرِ وَالاسْتيلَاء،فَصَحَّتْ قسْمَتُهَا،كَمَا لَوْ أُحْرِزَتْ بِدَارِ الْإِسْلَام..[2119]

وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ لاَ تُقْسَمُ الْغَنَائِمُ إِلاَّ فِي دَارِ الإِسْلاَم،لأَنَّ الْملْكَ لاَ يَتِمُّ عَلَيْهَا إِلاَّ بالاسْتيلاَءِ التَّامِّ،وَلاَ يَحْصُل إِلاَّ بِإِحْرَازِهَا فِي دَارِ الإِسْلاَم،لأَنَّ سَبَبَ ثُبُوتِ الْحَقِّ الْقَهْرُ،وَهُوَ مَوْجُودٌ منْ وَجْه دُونَ وَجْه،لأَنَّهُمْ قَاهِرُونَ يَدًا مَقْهُورُونَ دَارًا،فَلاَ يَنْبَغِي للإِمَامِ أَنْ يَقْسِمَ الْغَنَائِمَ - وَمِنْهَا الأَسْرَى - أَوْ يَبِيعَهَا حَتَّى يُخْرِجَهَا إِلَى دَارِ الإِسْلاَم،خَشْيَةَ تَقْليل الرَّغْبَة فِي لُحُوقِ الْمَدَدِ بِالْجَيْشِ،وَتَعَرُّضِ الْمُسْلمينَ لوُقُوعِ الدَّبْرَةِ عَلَيْهِمْ،بِأَنْ يَتَفَرَّقُوا وَيَسْتَقِل كُل وَاحِدٍ منْهُمْ بِحَمْل نَصِيبِه.وَمَعَ هَذَا فَقَالُوا:وَإِنْ قَسَمَ الإِمَامُ الْغَنَائِمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ جَازَ،لأَنَّهُ أَمْضَى فَصْلاً مُخْتَلَفًا فيه بالاجْتهَاد.[2120] وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كُنْتُ عنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَة بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَة،وَمَعَهُ بِلاَلٌ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:أَلاَ تُنْجِزُ لِي مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ:«أَبْشِرْ» فَقَالَ:قَدْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ أَبْشِرْ،فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي مُوسَى وَبِلاَلٍ كَهَيْئَةِ الغَضْبَانِ،فَقَالَ:«رَدَّ البُشْرَى،فَاقْبَلاَ أَنْتُمَا» قَالاَ:قَبِلْنَا،ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ،فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ وَمَجَّ فِيهِ،ثُمَّ قَالَ:«اشْرَبَا مِنْهُ،وَأَفْرِغَا عَلَى وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا وَأَبْشِرَا».فَأَخَذَا القَدَحَ فَفَعَلاَ،فَنَادَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ:أَنْ أَفْضِلاَ لِأُمِّكُمَا،فَأَفْضَلاَ لَهَا مِنْهُ طَائِفَةً".[2121]

تَأْمِينُ الأَسِيرِ:

[2118] - نهاية المحتاج ٨ / ٧٣ ط مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ .

[2119] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٦٤)

[2120] - شرح السير الكبير ٣ / ١٠١١،١٠٠٥،والمغني ١٠ / ٤٦٦،واللجنة ترى أن هذا مفوض إلى رأي القائد يجري فيه على حسب ما يرى فيه المصلحة .

[2121] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٧)(٤٣٢٨)

[ش(تنجز لي) توفي لي ما وعدتني.(نحوركما) مثنى نحر وهو العنق.(لأمكما) وصفها بذلك لأنها زوجة النبي ﷺ وزوجاته ﷺ أمهات المؤمنين أي كأمهاتهم من حيث الاحترام والتقدير وحرمة التزوج بهن.(طائفة) بقية]

يَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَحِقُّ لِلإِمَامِ إِعْطَاءُ الأَمَانِ لِلأَسِيرِ بَعْدَ الاسْتِيلاَءِ عَلَيْهِ،عَنْ أَنَسٍ،قَالَ:حَاصَرْنَا تُسْتَرَ،فَنَزَلَ الْهُرْمُزَانُ عَلَى حُكْمِ عُمَرَ.قَالَ أَنَسٌ:فَبَعَثَ بِهِ أَبُو مُوسَى مَعِي إِلَى عُمَرَ.فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَيْهِ سَكَتَ الْهُرْمُزَانُ،فَلَمْ يَتَكَلَّمْ،فَقَالَ لَهُ عُمَرُ:«تَكَلَّمْ».فَقَالَ:أَكَلَامُ حَيٍّ أَمْ كَلَامُ مَيِّتٍ؟ فَقَالَ:«بَلْ تَكَلَّمْ لَا بَأْسَ».فَقَالَ الْهُرْمُزَانُ:إِنَّا وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ،مَا خَلَّا اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،كُنَّا نَقْتُلُكُمْ وَنُقْصِيكُمْ،فَلَمَّا كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ،لَمْ يَكُنْ لَنَا بِكُمْ يَدَانِ،فَقَالَ عُمَرُ:«مَا تَقُولُ يَا أَنَسُ» ؟ قَالَ:قُلْتُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،تَرَكْتُ خَلْفِي شَوْكَةً شَدِيدَةً وَعَدُوًّا كَثِيرًا،إِنْ قَتَلْتَهُ يَئِسَ الْقَوْمُ مِنَ الْحَيَاةِ،وَكَانَ أَشَدَّ لِشَوْكَتِهِمْ،وَإِنِ اسْتَحْيَيْتَهُ طَمِعَ الْقَوْمُ،فَقَالَ:«يَا أَنَسُ،أَسْتَحْيِي قَاتِلَ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ وَمَجْزَأَةَ بْنِ ثَوْرٍ؟»،قَالَ أَنَسٌ:فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَبْسُطَ عَلَيْهِ،قُلْتُ:لَيْسَ إِلَى قَتْلِهِ سَبِيلٌ.قَالَ:«لِمَ؟ أَعْطَاكَ؟ أَصَبْتَ مِنْهُ؟» قُلْتُ:مَا فَعَلْتُ،وَلَكِنَّكَ قُلْتَ:تَكَلَّمْ فَلَا بَأْسَ.فَقَالَ عُمَرُ:«لَتُجِيئُنِي مَعَكَ بِمَنْ يَشْهَدُ أَوْ لَأَبْدَأَنَّ بِعُقُوبَتِكَ».قَالَ:فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ،فَإِذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ قَدْ حَفِظَ مَا حَفِظْتُ،قَالَ:فَخَلَّا سَبِيلَهُ.فَأَسْلَمَ الْهُرْمُزَانُ،فَفَرَضَ لَهُ عُمَرُ."[2122]

فَعَدُّوهُ أَمَانًا،وَلأَنَّ لِلإِمَامِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ،وَالأَمَانُ دُونَ الْمَنِّ،وَلاَ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يَتَصَرَّفَ عَلَى حُكْمِ التَّمَنِّي وَالتَّشَهِّي دُونَ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَمَا عَقَدَهُ أَمِيرُ الْجَيْشِ مِنَ الأَمَانِ جَازَ وَلَزِمَ الْوَفَاءُ بِهِ،وَأَمَّا آحَادُ الرَّعِيَّةِ فَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ،لأَنَّ أَمْرَ الأَسِيرِ مُفَوَّضٌ إِلَى الإِمَامِ،فَلَمْ يَجُزْ الافْتِيَاتُ عَلَيْهِ فِيمَا يَمْنَعُ ذَلِكَ كَقَتْلِهِ.وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ آحَادِ الرَّعِيَّةِ،لأَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ الرَّسُولِ ﷺ أَجَارَتْ زَوْجَهَا أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ بَعْدَ أَسْرِهِ،فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَانَهَا.[2123]

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،هَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَزَوْجُهَا أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ كَافِرٌ،ثُمَّ لَحِقَ أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ بِالشَّامِ فَأَسَرَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا الْعَاصِ فَقَالَتْ زَيْنَبُ:قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ»[2124]

[2122] - الأموال لابن زنجويه (١/ ٣٠٥)(٤٦٨) صحيح

[2123] - انظر المغني ١٠ / ٤٣٤،والسير الكبير ١ / ٢٥٣،٢٦٣،والبحر الرائق ٥ / ٨٨،والتاج والإكليل ٣ / ٣٦٠،والمهذب ٢ / ٢٣٦ .

[2124] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/ ٣٩٨) (٥٥٥) صحيح

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،أَنَّ زَيْنَبَ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّه،ﷺ،حِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مُهَاجِرًا،اسْتَأْذَنَتْ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ زَوْجَهَا،فِي أَنْ تَذْهَبَ إِلَى أَبِيهَا،فَأَذِنَ لَهَا،فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ:ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْعَاصِ لَحِقَهُ بِالْمَدِينَةِ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا أَنْ خُذِي لِي أَمَانًا مِنْ أَبِيكِ،فَخَرَجَتْ،فَأَطْلَعَتْ رَأْسَهَا مِنْ بَابِ حُجْرَتِهَا،وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الصُّبْحِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ،فَقَالَتْ:أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا زَيْنَبُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ،وَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ،فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ،قَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ بِهَذَا حَتَّى سَمِعْتُمُوهُ،أَلَا وَإِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ»[٢١٢٥]

حُكْمُ الإِمَامِ فِي الأَسْرَى:

يَرْجِعُ الأَمْرُ فِي أَسْرَى الْحَرْبِيِّينَ إِلَى الإِمَامِ،أَوْ مَنْ يُنِيبُهُ عَنْهُ.

وَجَعَل جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مَصَائِرَ الأَسْرَى بَعْدَ ذَلِكَ،وَقَبْل إِجْرَاءِ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ بَيْنَ الْغَانِمِينَ،فِي أَحَدِ أُمُورٍ:فَقَدْ نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى تَخْيِيرِ الإِمَامِ فِي الرِّجَال الْبَالِغِينَ مِنْ أَسْرَى الْكُفَّارِ،بَيْنَ قَتْلِهِمْ،أَوِ اسْتِرْقَاقِهِمْ،أَوِ الْمَنِّ عَلَيْهِمْ،أَوْ مُفَادَاتِهِمْ بِمَالٍ أَوْ نَفْسٍ.[٢١٢٦]

أَمَّا الْحَنَفِيَّةُ فَقَدْ قَصَرُوا التَّخْيِيرَ عَلَى ثَلاَثَةِ أُمُورٍ فَقَطْ:الْقَتْل،وَالاِسْتِرْقَاقِ،وَالْمَنِّ عَلَيْهِمْ بِجَعْلِهِمْ أَهْل ذِمَّةٍ عَلَى الْجِزْيَةِ،وَلَمْ يُجِيزُوا الْمَنَّ عَلَيْهِمْ دُونَ قَيْدٍ،وَلاَ الْفِدَاءَ بِالْمَال إِلاَّ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بِالنِّسْبَةِ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ،أَوْ إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ بِحَاجَةٍ لِلْمَال.وَأَمَّا مُفَادَاتُهُمْ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ فَمَوْضِعُ خِلاَفٍ عِنْدَهُمْ.[٢١٢٧]

والعجيب أن مؤلفي هذه الموسوعة قد عجزوا عن تخريج الحديث من مصادره الصحيحة بالرغم من وجوده بمصادر حديثية كثيرة

[٢١٢٥] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٥)(٧٣١) حسن

[٢١٢٦] - الإقناع ٥ / ٨ ط صبيح ١٣٨٤ هـ،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،وشرح البهجة ٥ / ٦٢١،والمهذب ٢ / ٢٣٥،والمغني ١٠ / ٤٠٠،والإنصاف ٤ / ١٣٠،والفروع ٣ / ٥٩٦،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢٠ .

[٢١٢٧] - البدائع ٧ / ١٢١،والزيلعي ٤ / ٢٤٩،وفتح القدير ٤ / ٣٠٥،والمبسوط ١٠ / ١٣٨،٢٤،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٩،وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ٨٩ .

وَذَهَبَ مَالِكٌ إِلَى أَنَّ الإِمَامَ يُخَيَّرُ فِي الأَسْرَى بَيْنَ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ:فَإِمَّا أَنْ يَقْتُل،وَإِمَّا أَنْ يَسْتَرِقَّ،وَإِمَّا أَنْ يُعْتِقَ،وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ فِيهِ الْفِدَاءَ،وَإِمَّا أَنْ يَعْقِدَ عَلَيْهِ الذِّمَّةَ وَيَضْرِبَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ،وَالإِمَامُ مُقَيَّدٌ فِي اخْتِيَارِهِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ.[٢١٢٨]

وَيَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الأَصْل فِي السَّبَايَا مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَةِ أَنَّهُمْ لاَ يُقْتَلُونَ.فَفِي الشَّرْحِ الْكَبِيرِ لِلدَّرْدِيرِ:وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالذَّرَارِيُّ فَلَيْسَ فِيهِمْ إِلاَّ الاسْتِرْقَاقُ أَوِ الْفِدَاءُ.[٢١٢٩]

كَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الأَسِيرَ الْحَرْبِيَّ الَّذِي أَعْلَنَ إِسْلاَمَهُ قَبْل الْقِسْمَةِ،لاَ يَحِقُّ لِلإِمَامِ قَتْلُهُ،لأَنَّ الإِسْلاَمَ عَاصِمٌ لِدَمِهِ عَلَى مَا سَيَأْتِي.

وَيَقُول الشَّافِعِيَّةُ:إِنْ خَفِيَ عَلَى الإِمَامِ أَوْ أَمِيرِ الْجَيْشِ الأَحَظُّ حَبَسَهُمْ حَتَّى يَظْهَرَ لَهُ،لأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الاجْتِهَادِ،وَيُصَرِّحُ ابْنُ رُشْدٍ بِأَنَّ هَذَا مَا لاَ خِلاَفَ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،إِذَا لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ تَأْمِينٌ لَهُمْ.[٢١٣٠]

قلت:وقال المشرفون على الموسوعة الفقهية:

" جعلت الشريعة للإمام حق استرقاق الأسرى،وتصرفه في ذلك منوط بالمصحلة،وحيث إن هناك اتفاقا دوليا بمنع الاسترقاق،فإن هذا لا يناقض الشريعة،ولا ينافي أن هذا من حق الإمام،لأن الشريعة في كثير من نصوصها تحث على فك الرقاب،فلا ينبغي للإمام الآن أن يلجأ إلى الاسترقاق"

قلت:هذا الكلام غير صحيح،فنحن لسنا ملزمين بالقوانين التي تخالف الإسلام،وإلا عد هذا ناقضا من نواقض الإسلام،ولا يجوز أن نأخذ أحكامنا من القوانين الدولية مطلقا،بل من الإسلام،قال تعالى:{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:٥٠]

[٢١٢٨] - التاج والإكليل ٣ / ٣٥٨،وبداية المجتهد ١ / ٢٩٢،وحاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢ / ١٨٤ .

[٢١٢٩] - الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤ .

[٢١٣٠] - شرح السير الكبير ٢ / ٥٩٠،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٩،وفتح القدير ٤ / ٣٠٥،والزيلعي ٣ / ٢٤٩،ومواهب الجليل والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٨،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤،وبداية المجتهد ١ / ٣٩٢،وتحفة المحتاج ٨ / ٣٩،وشرح روض الطالب ٤ / ٦٩٣،وحاشية الجمل على المنهج ٥ / ٦٩٧،والإنصاف ٤ / ١٣٠،والمغني ١٠ / ٤٠٠،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥١٩ .

أي:أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية،وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله.فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية.فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي،ولهذا أضافه الله للجاهلية،وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم،والعدل والقسط،والنور والهدى.فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز -بإيقانه- ما في حكم الله من الحسن والبهاء،وأنه يتعين -عقلا وشرعا- اتباعه.واليقين،هو العلم التام الموجب للعمل.[٢١٣١]

قال العلامة ابن كثير رحمه الله:" يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ،الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ،مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ،الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَسَاقَ (اليسق) وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - ﷺ -.وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [- ﷺ -] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} أَيْ:يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ،وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ.{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَيْ:وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ،وَآمَنَ بِهِ وَأَيْقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ،وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا،فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ،الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ." [٢١٣٢]

وقال ابن كثيررحمه الله:" فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ،وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ،فَكَيْفَ بِمَنْ تَحَاكَمَ إِلَى "

[٢١٣١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٣٥)

[٢١٣٢] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

الْيَاسَاق " وَقَدَّمَهَا عَلَيْه؟ مَنْ فَعَلَ ذَلكَ كَفَرَ بإِجْمَاعِ الْمُسْلمينَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهليَّة يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللَّه حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقنُونَ} [المائدة: ٥٠] " الْمَائدَة:".وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجدُوا في أَنْفُسهِمْ حَرَجًا ممَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليمًا} [النساء:٦٥] ".[٢١٣٣]

وقال العلامة الشنقطي رحمه الله عند قوله - تَعَالَى -:وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فيه منْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّه.مَا دَلَّتْ عَلَيْه هَذه الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ منْ أَنَّ مَا اخْتَلَفَ فيه النَّاسُ منَ الْأَحْكَامِ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّه وَحْدَهُ،لَا إِلَى غَيْره - جَاءَ مُوَضَّحًا في آيَاتٍ كَثيرَةٍ.فَالْإِشْرَاكُ باللَّه في حُكْمه كَالْإِشْرَاك به في عبَادَته،قَالَ في حُكْمه:وَلَا يُشْرِكُ في حُكْمه أَحَدًا [١٨\ ٢٦].وَفي قرَاءَة ابْنِ عَامرٍ منَ السَّبْعَة وَلَا تُشْرِكْ في حُكْمه أَحَدًا بصيغَة النَّهْيِ.

وَقَالَ في الْإِشْرَاك به في عبَادَته:فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالحًا وَلَا يُشْرِكْ بعبَادَة رَبِّه أَحَدًا [١٨\ ١١٠]،فَالْأَمْرَان سَوَاءٌ كَمَا تَرَى إِيضَاحَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَبِذَلكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْحَلَالَ هُوَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ،وَالْحَرَامَ هُوَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ،وَالدِّينَ هُوَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ،فَكُلُّ تَشْرِيعٍ مَنْ غَيْره بَاطلٌ،وَالْعَمَلُ به بَدَلَ تَشْرِيعِ اللَّه عنْدَ مَنْ يَعْتَقدُ أَنَّهُ مثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ منْهُ - كُفْرٌ بَوَاحٌ لَا نزَاعَ فيه.

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ في آيَاتٍ كَثيرَةٍ عَلَى أَنَّهُ لَا حُكْمَ لغَيْرِ اللَّه،وَأَنَّ اتِّبَاعَ تَشْرِيعِ غَيْره كُفْرٌ به،فَمنَ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ للَّه وَحْدَهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للَّه أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [١٢\ ٤٠].وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ الْآيَةَ [١٢\ ٦٧].وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للَّه يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصلينَ [٦\ ٥٧].وَقَوْلُهُ:وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئكَ هُمُ الْكَافرُونَ [٥\ ٤٤].وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:وَلَا يُشْرِكُ في حُكْمه أَحَدًا [١٨\ ٢٦].وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:كُلُّ شَيْءٍ هَالكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ [٢٨\ ٨٨].وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -:لَهُ الْحَمْدُ في الْأُولَى وَالْآخرَة وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ [٢٨\ ٧٠].وَالْآيَاتُ بمثْلِ ذَلكَ كَثيرَةٌ.

[٢١٣٣] - البداية والنهاية ط هجر (١٧/ ١٦٢)

وَقَدْ قَدَّمْنَا إِيضَاحَهَا فِي سُورَةِ «الْكَهْفِ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى -:وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِه أَحَدًا [١٨\ ٢٦].

وَأَمَّا الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ تَشْرِيعِ غَيْرِ اللَّهِ الْمَذْكُورِ كُفْرٌ،فَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا،كَقَوْلِه - تَعَالَى -:إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِه مُشْرِكُونَ [١٦\ ١٠٠].وَقَوْلِه - تَعَالَى -:وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [١٦\ ١٢١].وَقَوْلِه - تَعَالَى -:أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ الْآيَةَ [٣٦\ ٦٠].وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا،كَمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ فِي «الْكَهْفِ».[٢١٣٤]

قلت:لكن عندما يكون هناك جهاد طلب وذلك بعد عودة الخلافة الإسلامية — وهي عائدة بإذن الله تعالى،فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ الله ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ " ثُمَّ سَكَتَ "[٢١٣٥]

– ونأسر عددا من المشركين ونفتح ديارهم،فالإمام الشرعي العادل يتصرف بهم وفق ما أجمع عليه الفقهاء بين القتل أو الاسترقاق أو الفداء أو المن بدون فداء أو تبادل أسرى ونحو ذلك.ولا يحل له الحكم بما ما أنزل الله.

وفي فتاوى اللجنة الدائمة:" لا يجوز استرقاق المسلمين في حرب وقعت بين طائفتين من المسلمين في أي عصر من العصور،ويجوز استرقاق الأسرى الكفار في الحروب

[٢١٣٤] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٧)

[٢١٣٥] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

التي تقع بين مسلمين وكفار في أي عصر،ســـواء كـــانوا يهـــودا أم غيرهـــم مـــن الكفار."[2136]

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ مُخَيَّرٌ فِي الْأُسَارَى فِي خِصَالٍ:مِنْهَا أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ،وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعْبِدَهُمْ،وَمِنْهَا أَنْ يَقْتُلَهُمْ،وَمِنْهَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِـــدَاءَ،وَمِنْهَا أَنْ يَضْـــرِبَ عَلَـــيْهِمُ الْجِزْيَةَ.وَقَالَ قَوْمٌ:لَا يَجُوزُ قَتْلُ الْأَسِيرِ.وَحَكَى الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ أَنَّـــهُ إِجْمَـــاعُ الصَّحَابَةِ.

وَالسَّبَبُ فِي اخْتِلَافِهِمْ تَعَارُضُ الْآيَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَتَعَارُضُ الْأَفْعَالِ،وَمُعَارَضَـــةُ ظَـــاهِرِ الْكِتَابِ لِفِعْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -،وَذَلِكَ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّـــذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [محمد:٤] الْآيَةَ - أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِمَامِ بَعْدَ الْأَسْـــرِ إِلَّـــا الْمَـــنُّ أَوِ الْفِدَاءُ،وقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْـــرَى حَتَّـــى يُـــثْخِنَ فِـــي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] الْآيَةَ.

وَالسَّبَبُ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَتْلَ أَفْضَلُ مِنَ الِاسْتِعْبَادِ.وَأَمَّا هُوَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَقَدْ قَتَلَ الْأُسَارَى فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ،وَقَدْ مَنَّ وَاسْتَعْبَدَ النِّسَاءَ.

وَقَدْ حَكَى أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْبِدْ أَحْرَارَ ذُكُورِ الْعَرَبِ،وَأَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ بَعْدَهُ عَلَـــى اسْتِعْبَادِ أَهْلِ الْكِتَابِ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ.

فَمَنْ رَأَى أَنَّ الْآيَةَ الْخَاصَّةَ بِفِعْلِ الْأُسَارَى نَاسِخَةً لِفِعْلِهِ قَالَ:لَا يُقْتَلُ الْأَسِيرُ.وَمَنْ رَأَى أَنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرٌ لِقَتْلِ الْأَسِيرِ وَلَا الْمَقْصُودُ مِنْهَا حَصْرُ مَا يُفْعَلُ بِالْأُسَارَى،بَلْ فَعَلَـــهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -،وَهُوَ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي الْآيَةِ،وَيَحُطُّ الْعُتْبَ الَّذِي وَقَعَ فِـــي تَرْكِ قَتْلِ أُسَارَى بَدْرٍ - قَالَ:بِجَوَازِ قَتْلِ الْأَسِيرِ.

وَالْقَتْلُ إِنَّمَا يَجُوزُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ بَعْدَ تَأْمِينٍ،وَهَـــذَا مَـــا لَـــا خِلَـــافَ فِيـــهِ بَـــيْنَ الْمُسْلِمِينَ.وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِيمَنْ يَجُوزُ تَأْمِينُهُ مِمَّنْ لَا يَجُوزُ،وَاتَّفَقُوا عَلَى جَـــوَازِ تَـــأْمِينِ

[2136] - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١٧/ ٨٥)

الْإِمَامِ.وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِ أَمَانِ الرَّجُلِ الْحُرِّ الْمُسْلِمِ،إِلَّا مَا كَانَ مِنِ ابْنِ الْمَاجِشُونِ يَرَى أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى إِذْنِ الْإِمَامِ..[2137]

قلت:القول بعدم قتل الأسير مخالف للقرآن والسنة والإجماع الحقيقي،فلا يعدل عنه لقوم ضعيف

وقال الجصاص:"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} قَالَ أَبُو بَكْرٍ:قَدْ اقْتَضَى ظَاهِرُهُ وُجُوبَ الْقَتْلِ لَا غَيْرُ إلَّا بَعْدَ الْإِثْخَانِ،وَهُوَ نَظِيرُ قَوْله تَعَالَى:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ الْحَكَمِ قال:حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد قَالَ:حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بن صالح عن معاوية بن صالح عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] قَالَ:"ذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذ قَلِيلٌ،فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ – تَعَالَى – بَعْدَ هَذَا فِي الْأُسَارَى:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} فَجَعَلَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْأُسَارَى بِالْخِيَارِ،إنْ شَاءُوا قَتَلُوهُمْ،وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ،وَإِنْ شَاءُوا فَادُوهُمْ شَكَّ أَبُو عُبَيْد فِي "،وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ".وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد قَالَ:حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو مَهْدِيٍّ وَحَجَّاجٌ كِلَاهُمَا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ:سَمِعْت السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قوله:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} قَالَ:هِيَ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَهَا قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَمَّا قَوْلُهُ:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} وَقَوْلُهُ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] وَقَوْلُهُ:{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الأنفال:٥٧] فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ حُكْمًا ثَابِتًا غَيْرَ مَنْسُوخٍ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْإِثْخَانِ بِالْقَتْلِ وَحَظَرَ عَلَيْهِ الْأَسْرَ إلَّا بَعْدَ إذْلَالِ الْمُشْرِكِينَ وَقَمْعِهِمْ،وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ،فَمَتَى أُثْخِنَ الْمُشْرِكُونَ وَأُذِلُّوا بِالْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ جَازَ الِاسْتِبْقَاءُ.فَالْوَاجِبُ أَنْ

[2137] – بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢/ ١٤٤)

يَكُونَ هَذَا حُكْمًا ثَابِتًا إِذَا وُجِدَ مِثْلُ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا قَوْلُهُ: {فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَحَدَ شَيْئَيْنِ مِنْ مَنٍّ أَوْ فـداء،وذلك ينفي جواز القتل."[2138]

وَيَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الأَسْرَى مِنْ نِسَاءِ الْحَرْبِيِّينَ وَذَرَارِيِّهِمْ،وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ كَالْخُنْثَى وَالْمَجْنُونِ،وَكَذَا الْعَبِيدُ الْمَمْلُوكُونَ لَهُمْ يُسْتَرَقُّونَ بِنَفْسِ الأَسْرِ،وَيَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْحَرْبِيِّينَ قَبْل الاسْتِيلاَءِ وَالأَسْرِ لاَ يُسْتَرَقُّ،وَكَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّ الْحُكْمَ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ الاسْتِتَابَةُ وَالْعَوْدَةُ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَإِلاَّ فَالسَّيْفُ.[2139]

أَمَّا الرِّجَال الأَحْرَارُ الْمُقَاتِلُونَ مِنْهُمْ.،فَقَدِ اتَّفَقُوا أَيْضًا عَلَى جَوَازِ اسْتِرْقَاقِ الأَعَاجِمِ،وَثَنِيِّينَ كَانُوا أَوْ أَهْل كِتَابٍ.وَاتَّجَهَ الْجُمْهُورُ إِلَى جَوَازِ اسْتِرْقَاقِ الْعَرَبِ عَلَى تَفْصِيلٍ بَيْنَهُمْ.وَالْحَنَفِيَّةُ لاَ يُجِيزُونَ اسْتِرْقَاقَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.[2140]

هل يجوز استرقاق مشركي العرب ؟:

قال الشوكاني:" وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بِأَحَادِيثِ الْبَابِ عَلَى جَوَازِ اسْتِرْقَاقِ الْعَرَبِ،وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ كَمَا حَكَاهُ الْحَافِظُ فِي كِتَابِ الْعِتْقِ مِنْ فَتْحِ الْبَارِي.

وَحَكَى فِي الْبَحْرِ عَنْ الْعِتْرَةِ وَأَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ إلَّا الْإِسْلَامُ أَوْ السَّيْفُ،وَاسْتَدَلَّ لَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:5] الْآيَةَ.قَالَ:وَالْمُرَادُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ إجْمَاعًا إذْ كَانَ الْعَهْدُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُونَ الْعَجَمِ اهـ.ثُمَّ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ الْبَحْرِ:فَأَمَّا الاسْتِرْقَاقُ،فَإِنْ كَانَ أَعْجَمِيًّا أَوْ كِتَابِيًّا جَازَ لِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد:4] خَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ

[2138] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (3/ 519)

[2139] - حاشية ابن عابدين 3 / 229،وحاشية الشلبي بهامش تبيين الحقائق 3 / 249،والعناية بهامش الفتح 4 / 306،وشرح السير الكبير 3 / 1036،1024،والبدائع 7 / 117،وبداية المجتهد 1 / 392،وحاشية الدسوقي 2 / 184،والتاج والإكليل ومواهب الجليل 3 / 359،والمهذب 2 / 235،وفتح الوهاب 2 / 173،وحاشية الجمل 5 / 197،وتحفة المحتاج 8 / 40،والمغني 10 / 400،والإنصاف 4 / 131،ومطالب أولي النهى 2 / 522 .

[2140] - سوف يمر مبحث مفصل حول أحكام الاسترقاق

فِي الْأَسْرَى بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْفِدَاءِ وَالِاسْتِرْقَاقِ،وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا غَيْرَ كِتَابِيٍّ لَمْ يَجُزْ الشَّافِعِيُّ يُجَوِّزُ.

لَنَا قَوْلُهُ – ﷺ –:" لَوْ كَانَ الِاسْتِرْقَاقُ ثَابِتًا عَلَى الْعَرَبِ " الْخَبَرَ اهـ.وَهُوَ يُشِيرُ إلَى حَدِيثِ مُعَاذٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ:«لَوْ كَانَ الِاسْتِرْقَاقُ جَائِزًا عَلَى الْعَرَبِ لَكَانَ الْيَوْمَ إنَّمَا هُوَ أَسْرَى» وَفِي إسْنَادِهِ الْوَاقِدِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا،وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى فِيهَا يَزِيدُ بْنُ عِيَاضٍ وَهُوَ أَشَدُّ ضَعْفًا مِنْ الْوَاقِدِيِّ،وَمِثْلُ هَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ.وَظَاهِرُ الْآيَةِ عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ.وَقَدْ خَصَّتْ الْهَادَوِيَّةُ عَدَمَ جَوَازِ الِاسْتِرْقَاقِ بِذُكُورِ الْعَرَبِ دُونَ إنَاثِهِمْ.وَمِنْ أَدِلَّتِهِمْ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ اسْتِرْقَاقِ الذُّكُورِ مِنْ الْعَرَبِ أَنَّهُ لَوْ ثَبَتَ الِاسْتِرْقَاقُ لَهُمْ لَوَقَعَ،وَلَمْ يَرِدْ فِي وُقُوعِهِ شَيْءٌ عَلَى كَثْرَةِ أَسْرِ الْعَرَبِ فِي زَمَانِهِ – ﷺ –،فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ أَيْضًا لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ وَلَوْ لِبَيَانِ الْجَوَازِ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخِلَّ النَّبِيُّ – ﷺ – بِتَبْلِيغِ حُكْمِ اللَّهِ.

قَالَ فِي الْمَنَارِ مُسْتَدِلًّا عَلَى مَا ذَهَبَ إلَيْهِ الْجُمْهُورُ:وَقَدْ اسْتَفْتَحَتْ الصَّحَابَةُ أَرْضَ الشَّامِ وَهُمْ عَرَبٌ،وَكَذَلِكَ فِي أَطْرَافِ بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْعَجَمِ وَلَمْ يُفَتِّشُوا الْعَرَبِيَّ مِنْ الْعَجَمِيِّ،وَالْكِتَابِيَّ مِنْ الْأُمِّيِّ،بَلْ سَوَّوْا بَيْنَهُمْ لَمْ يُرْوَ عَنْ أَحَدٍ خِلَافُ ذَلِكَ،ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ.وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي جِنْسِ أُسَارَى الْكُفَّارِ جَوَازُ الْقَتْلِ وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالِاسْتِرْقَاقِ،فَمَنْ ادَّعَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمُورِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ الْكُفَّارِ دُونَ بَعْضٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ إلَّا بِدَلِيلٍ نَاهِضٍ يُخَصِّصُ الْعُمُومَاتِ،وَالْمُجَوِّزُ قَائِمٌ فِي مَقَامِ الْمَنْعِ،وَقَوْلُ عَلِيٍّ وَفِعْلُهُ عِنْدَ بَعْضِ الْمَانِعِينَ مِنْ اسْتِرْقَاقِ ذُكُورِ الْعَرَبِ حُجَّةٌ.وَقَدْ اسْتَرَقَّ بَنِي نَاجِيَةَ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ وَبَاعَهُمْ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ،وَبَنُو نَاجِيَةَ مِنْ قُرَيْشٍ فَكَيْفَ سَاغَتْ لَهُمْ مُخَالَفَتُهُ."[٢١٤١]

الْفِدَاءُ بِالْمَالِ:

الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ،وَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ فِي غَيْرِ رِوَايَةٍ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:جَوَازُ فِدَاءِ أَسْرَى الْحَرْبِيِّينَ الَّذِينَ يَثْبُتُ

[٢١٤١] – نيل الأوطار (٨/ ٩)

الْخِيَارُ لِلإِمَامِ فِيهِمْ بِالْمَالِ.[2142] غَيْرَ أَنَّ الْمَالِكِيَّةَ يُجِيزُونَهُ بِمَالٍ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ الأَسِيرِ[2143]،وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - كَمَا نَقَل السَّرَخْسِيُّ عَنِ السِّيَرِ الْكَبِيرِ - تَقْيِيدَ ذَلِكَ بِحَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْمَال،وَقَيَّدَ الْكَاسَانِيُّ هَذَا بِمَا إِذَا كَانَ الأَسِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا لاَ يُرْجَى لَهُ وَلَدٌ[2144].

وَأَجَازَهُ الشَّافِعِيَّةُ بِالْمَال دُونَ قَيْدٍ،وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ حَاجَةٌ لِلْمَال،وَنَصُّوا عَلَى أَنَّهُ لِلإِمَامِ أَنْ يَفْدِيَ الأَسْرَى بِالْمَال يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،سَوَاءٌ،أَكَانَ مِنْ مَالِهِمْ أَمْ مِنْ مَالِنَا الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ،وَأَنْ نَفْدِيَهُمْ بِأَسْلِحَتِنَا الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ.أَمَّا أَسْلِحَتُهُمْ الَّتِي بِأَيْدِينَا فَفِي جَوَازِ مُفَادَاةِ أَسْرَانَا بِهَا وَجْهَانِ،أَوْجَهُهُمَا عِنْدَهُمُ الْجَوَازُ.[2145]

وَاسْتَدَل الْمُجِيزُونَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد:٤]،وَبِفِعْل الرَّسُول ﷺ،فَقَدْ فَادَى أَسَارَى بَدْرٍ بِالْمَال وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلاً،كُل رَجُلٍ مِنْهُمْ بِأَرْبَعمائَةِ دِرْهَمٍ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «جَعَلَ فِدَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعَمائَةٍ»[2146]

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ

[2142] - المبسوط ١٠ / ١٣٨،والبدائع ٧ / ١١٩،ومواهب الجليل والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٨،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤،والإقناع ٥ / ٨،والمهذب ٢ / ٢٣٧،والإنصاف ٤ / ١٣٠،والمغني والشرح الكبير ١٠ / ٤٠١،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢١ .

[2143] - التاج والإكليل ٣ / ٣٥٨ .

[2144] - المبسوط ١٠ / ١٣٨،والبدائع ٧ / ٦١٩،وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ٣ / ٢٢٩ .

[2145] - شرح روض الطالب ٤ / ١٩٣،وتحفة المحتاج ٨ / ٤٠،والمهذب ٢ / ٢٣٧،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،والإقناع ٥ / ٨،وفتح الوهاب ٢ / ١٧٤ .

[2146] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٤٥)(٨٦٠٧)حسن

الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ:فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ،إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:أَقْدِمْ حَيْزُومُ،فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ،وَشُقَّ وَجْهُهُ،كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ،فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ،فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«صَدَقْتَ،ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»،فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ،وَأَسَرُوا سَبْعِينَ.قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ:«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا نَبِيَّ اللهِ،هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ،أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ،فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ،وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ،فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ،فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا،فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ،وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ،وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ،لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ – شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ – وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال:٦٩] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ"."[٢١٤٧]

[٢١٤٧] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) ٥٨ – (١٧٦٣)

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى ؟ قَالَ:ثُمَّ قَالَ:لاَ يُفْلِتَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ بِفِدَاءٍ،أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ.[2148]

وَأَدْنَى دَرَجَاتِ فِعْلِهِ الْجَوَازُ وَالإِبَاحَةُ.

وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:لأَنْ أَسْتَنْقِذَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَزِيَةِ الْعَرَبِ[2149].

وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ،فِي غَيْرِ مَا رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدٍ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ وَقَوْلِ أَبِي عُبَيْدٍ الْقَاسِمِ بْنِ سَلاَّمٍ عَدَمُ جَوَازِ الْفِدَاءِ بِمَالٍ.[2150]

وَيَدُل عَلَى عَدَمِ الْجَوَازِ أَنَّ قَتْل الأَسَارَى مَأْمُورٌ بِهِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال:١٢] وَأَنَّهُ مُنْصَرِفٌ إِلَى مَا بَعْدَ الأَخْذِ وَالاسْتِرْقَاقِ،وقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة:٥] وَالأَمْرُ بِالْقَتْل لِلتَّوَسُّل إِلَى الإِسْلاَمِ،فَلاَ يَجُوزُ تَرْكُهُ إِلاَّ لِمَا شُرِعَ لَهُ الْقَتْل،وَهُوَ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى الإِسْلاَمِ،وَلاَ يَحْصُل مَعْنَى التَّوَسُّل بِالْمُفَادَاةِ بِالْمَال،كَمَا أَنَّ فِي ذَلِكَ إِعَانَةً لأَهْل الْحَرْبِ،لأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْمَنَعَةِ،فَيَصِيرُونَ حَرْبًا عَلَيْنَا،وَقَتْل الْمُشْرِكِ عِنْدَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ فَرْضٌ مُحْكَمٌ،وَفِي الْمُفَادَاةِ تَرْكُ إِقَامَةِ هَذَا الْفَرْضِ،فعَنِ الْحَكَمِ،وَمُجَاهِدٍ،قَالاَ:قَالَ أَبُو بَكْرٍ:إِنْ أَخَذْتُمْ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَأُعْطِيتُمْ بِهِ مُدَّيْ دَنَانِيرَ،فَلاَ تُفَادُوهُ.[2151]

وعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي يَحْيَى ؛أَنَّ خَالِدَ بْنَ زَيْدٍ،وَكَانَتْ عَيْنُهُ أُصِيبَتْ بِالسُّوسِ،قَالَ:حاصَرْنَا مَدِينَتَهَا،فَلَقِينَا جَهْدًا،وَأَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو مُوسَى،وَأَخَذَ الدِّهْقَانُ عَهْدَهُ وَعَهْدَ مَنْ مَعَهُ،فَقَالَ أَبُو مُوسَى:اعْزِلْهُمْ،فَجَعَلَ يَعْزِلُهُمْ،وَجَعَلَ أَبُو مُوسَى يَقُولُ لأَصْحَابِهِ:إِنِّي أَرْجُو

[2148] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٦)(٣٣٩٢٦) صحيح

[2149] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٧) (٣٣٩٢٨) صحيح

[2150] - المبسوط ١٠ / ١٣٨،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،والبحر الرائق ٥ / ٩٠،ومواهب الجليل ٣ / ٣٥٩،والأموال ص ١١٧ فقرة ٣١٣،والإنصاف ٤ / ١٣٠،وابن عابدين ٣ / ٢٢٩ .

[2151] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٧) (٣٣٩٢٩) فيه انقطاع - والمدي :مكيال لأهل الشام

أَنْ يَخْدَعَهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسه،فَعَزَلَهُمْ وَبَقِيَ عَدُوُّ اللهِ،فَأَمَرَ بِهِ أَبُو مُوسَى،فَفَادَى وَبَذَلَ مَالاً كَثِيرًا،فَأَبَى وَضَرَبَ عُنُقَهُ.[2152]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قُتِلَ قَتِيلٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ،فَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى جِيفَتِه،فَقَالُوا:ادْفَعُوا إِلَيْنَا جِيفَتَهُ وَنُعْطِيكُمْ عَشَرَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:لاَ حَاجَةَ لَنَا فِي جِيفَتِه،وَلاَ دِيَتِه،إِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ خَبِيثُ الْجِيفَةِ.[2153]

وَلأَنَّهُ صَارَ بِالأَسْرِ مِنْ أَهْلِ دَارِنَا،فَلاَ يَجُوزُ إِعَادَتُهُ لِدَارِ الْحَرْبِ،لِيَكُونَ حَرْبًا عَلَيْنَا،وَفِي هَذَا مَعْصِيَةٌ،وَارْتِكَابُ الْمَعْصِيَةِ لِمَنْفَعَةِ الْمَالِ لاَ يَجُوزُ،وَلَوْ أَعْطَوْنَا مَالاً لِتَرْكِ الصَّلاَةِ لاَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَفْعَل ذَلِكَ مَعَ الْحَاجَةِ،فَكَذَا لاَ يَجُوزُ تَرْكُ قَتْل الْمُشْرِكِ بِالْمُفَادَاةِ.[2154]

وَعَلَى الْقَوْل بِأَنَّ لِلإِمَامِ حَقَّ الْمُفَادَاةِ بِالْمَال،فَإِنَّ هَذَا الْمَال يَكُونُ لِلْغَانِمِينَ،وَلَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُسْقِطَ شَيْئًا مِنَ الْمَال الَّذِي يَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ مُقَابِل الْفِدَاءِ إِلاَّ بِرِضَى الْغَانِمِينَ.[2155]

فِدَاءُ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِأَسْرَى الأَعْدَاءِ:

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ،وَصَاحِبَا أَبِي حَنِيفَةَ،وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ إِلَى جَوَازِ تَبَادُل الأَسْرَى[2156]،مُسْتَدِلِّينَ بحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَطْعِمُوا الجَائِعَ،وَعُودُوا المَرِيضَ،وَفُكُّوا العَانِيَ» قَالَ سُفْيَانُ:" وَالعَانِي:الأَسِيرُ "[2157]

[2152] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٥٨) (٣٣٩٣٠) يه جهالة

[2153] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٥٩)(٣٣٩٣١) حسن لغيره

[2154] – البدائع ٧ / ١٢٠،١١٩،والمبسوط ١٠ / ١٣٩،١٣٨ .ولا يخفى أن ظاهر الآية إن تعين القتل أولا قبل الإثخان،فإذا أثخنوا أجرى عليهم ما في الآية من المن أو الفداء .

[2155] – حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢ / ١٨٤،والمهذب ٢ / ٢٣٧،والمغني ١٠ / ٤٠٣ .

[2156] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٩،والشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤،وبداية المجتهد ١ / ٣٩٢،وأحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٦٨،والإقناع ٥ / ٨،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،والمهذب ٢ / ٢٣٧،والمغني والشرح الكبير ١٠ / ٤٠١،والإنصاف ٤ / ١٣٠،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢١

[2157] – صحيح البخاري (٧/ ٦٧) (٥٣٧٣)

وعَنْ حِبَّانَ بْنِ أَبِي جَبَلَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي فَيْئِهِمْ أَنْ يُفَادُوا أَسِيرَهُمْ وَيُؤَدُّوا عَنْ غَارِمِهِمْ» [٢١٥٨]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ؛أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَدَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ. [٢١٥٩]

وعَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ هَوَازِنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ،فَنَفَّلَنِي جَارِيَةً مِنْ بَنِي فَزَارَةَ،مِنْ أَجْمَلِ الْعَرَبِ،عَلَيْهَا قَشْعٌ لَهَا،فَمَا كَشَفْتُ لَهَا عَنْ ثَوْبٍ حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ،فَلَقِيَنَا النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ بِالسُّوقِ،فَقَالَ:لِلَّهِ أَبُوكَ،هَبْهَا لِي،فَوَهَبْتُهَا لَهُ،قَالَ:فَبَعَثَ بِهَا،فَفَادَى بِهَا أُسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ. [٢١٦٠]

وعَنِ الْحَسَنِ،وَعَطَاءٍ،قَالاَ فِي الأَسِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:يُمَنُّ عَلَيْهِ،أَوْ يُفَادَى. [٢١٦١]

وعَنْ أَبِي الْجُوَيْرِيَةِ،وَعَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيُّ ؛أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَدَى رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَرْمٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ بِمِئَةِ أَلْفٍ. [٢١٦٢]

وعَنْ حَمَّادٍ:إِذَا سُبِيَتِ الْجَارِيَةُ،أَوِ الْغُلاَمُ مِنَ الْعَدُوِّ،فَلاَ بَأْسَ أَنْ يُفَادُوهُمْ. [٢١٦٣]

وَلِأَنَّ فِي الْمُفَادَاةِ تَخْلِيصُ الْمُسْلِمِ مِنْ عَذَابِ الْكُفَّارِ وَالْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ،وَإِنْقَاذُ الْمُسْلِمِ أَوْلَى مِنْ إِهْلاَكِ الْكَافِرِ.وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَا إِذَا كَانَتِ الْمُفَادَاةُ قَبْلَ الْقِسْمَةِ أَوْ بَعْدَهَا.

أَمَّا أَبُو يُوسُفَ فَقَدْ قَصَرَ جَوَازَ الْمُفَادَاةِ عَلَى مَا قَبْلَ الْقِسْمَةِ،لِأَنَّهُ قَبْلَ الْقِسْمَةِ لَمْ يَتَقَرَّرْ كَوْنُ أَسِيرِهِمْ مِنْ أَهْلِ دَارِنَا حَتَّى جَازَ لِلإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ،وَأَمَّا بَعْدَ الْقِسْمَةِ فَقَدْ تَقَرَّرَ كَوْنُهُ مِنْ أَهْلِ دَارِنَا حَتَّى لَيْسَ لِلإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ.أَيْ فَلاَ يُعَادُ بِالْمُفَادَاةِ إِلَى دَارِ الْكُفْرِ.وَلِأَنَّ فِي الْمُفَادَاةِ بَعْدَهَا إِبْطَال مِلْكِ الْمَقْسُومِ لَهُ مِنْ غَيْرِ رِضَاهُ.

[٢١٥٨] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤١)(٢٨٢١) حسن مرسل

[٢١٥٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٤)(٣٣٩٢٠) صحيح

[٢١٦٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٥)(٣٣٩٢١) صحيح

[٢١٦١] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٥)(٣٣٩٢٢) صحيح مقطوع

[٢١٦٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٥)(٣٣٩٢٣) صحيح مقطوع

[٢١٦٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٥)(٣٣٩٢٤) صحيح مقطوع

وَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى مِثْلِ قَوْلِ أَبِي يُوسُفَ أَيْضًا،وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ أَجَازَهُ فِي الْحَالَتَيْنِ لِأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ جُوِّزَ ذَلِكَ قَبْلَ الْقِسْمَةِ،الْحَاجَةُ إِلَى تَخْلِيصِ الْمُسْلِمِ مِنْ عَذَابِهِمْ،وَهَذَا مَوْجُودٌ بَعْدَ الْقِسْمَةِ،وَحَقُّ الْغَانِمِينَ فِي الاسْتِرْقَاقِ ثَابِتٌ قَبْلَ الْقِسْمَةِ،وَقَدْ صَارَ الأَسِيرُ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ دَارِنَا،ثُمَّ تَجُوزُ الْمُفَادَاةُ بِهِ لِهَذِهِ الْحَاجَةِ،فَكَذَلِكَ بَعْدَ الْقِسْمَةِ.

وَقَدْ نَقَلَ الْحَطَّابُ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ لَيْسَ فِيهِمْ إِلاَّ الاسْتِرْقَاقُ،أَوِ الْمُفَادَاةُ بِالنُّفُوسِ دُونَ الْمَالِ.

وَأَمَّا الرِّوَايَةُ الأُخْرَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ فَهِيَ مَنْعُ مُفَادَاةِ الأَسِيرِ بِالأَسِيرِ،وَوَجْهُهُ:أَنَّ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ فَرْضٌ مُحْكَمٌ،فَلاَ يَجُوزُ تَرْكُهُ بِالْمُفَادَاةِ.[٢١٦٤]

وَلَوْ أَسْلَمَ الأَسِيرُ لاَ يُفَادَى بِهِ لِعَدَمِ الْفَائِدَةِ،أَيْ لِأَنَّهُ فِدَاءُ مُسْلِمٍ بِمُسْلِمٍ،إِلاَّ إِذَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهُوَ مَأْمُونٌ عَلَى إِسْلاَمِهِ[٢١٦٥]

وَيَجُوزُ مُفَادَاةُ الأَكْثَرِ بِالأَقَلِّ وَالْعَكْسُ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيَّةُ،وَلَمْ يُصَرِّحْ بِذَلِكَ الْحَنَابِلَةُ،لَكِنْ فِي كُتُبِهِمْ مَا يُوَافِقُ ذَلِكَ،لاِسْتِدْلاَلِهِمْ بِالأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

أَمَّا الْحَنَفِيَّةُ فَقَدْ نَصُّوا عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى لَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ أَسَرَانَا،وَيُؤْخَذُ بَدَلَهُ أَسِيرَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.[٢١٦٦]

جَعْلُ الأَسْرَى ذِمَّةً لَنَا وَفَرْضُ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَنْ يَضَعَ الْجِزْيَةَ فِي رِقَابِ الأَسْرَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ عَلَى أَنْ يَكُونُوا ذِمَّةً لَنَا،وَفِي وَجْهٍ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِمَامِ إِجَابَتُهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِذَا سَأَلُوهُ،كَمَا يَجِبُ إِذَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ فِي غَيْرِ أَسْرٍ.[٢١٦٧]

[٢١٦٤] – المبسوط ١٠ / ١٣٩،١٤٠،والبدائع ٢ / ١٢٠،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،والشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤،ومواهب الجليل ٣ / ٣٥٩،والمغني ٨ / ٤٤٩ ط ثالثة .

[٢١٦٥] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،والبحر الرائق ٥ / ٩٠،والمغني ١٠ / ٤٠٣ .

[٢١٦٦] – الإقناع ٢ / ٢٥٣،والمغني ١٠ / ٤٠١،ومطالب أولي النهى ٢ / ٢٥١،والبدائع ٧ / ١٢١ .

وترى اللجنة أن ذلك ينبغي أن يكون الرأي فيه للإمام(العادل) حسب المصلحة (الشرعية) .

[٢١٦٧] – المهذب ٢ / ٢٣٦ .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ بِفِعْلِ عُمَرَ فِي أَهْلِ السَّوَادِ،فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ أَتَاهُ رُؤَسَاءُ السَّوَادِ وَفِيهِمُ ابْنُ الرُّفَيْلِ فَقَالُوا:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ،وَكَانَ أَهْلُ فَارِسَ قَدْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا،وَأَضَرُّوا بِنَا،فَفَعَلُوا وَفَعَلُوا - حَتَّى ذَكَرُوا النِّسَاءَ - فَلَمَّا سَمِعْنَا بِكُمْ،فَرِحْنَا بِكُمْ،وَأَعْجَبَنَا ذَلِكَ،فَلَمْ نُرِدْ كَفَّكُمْ عَنْ شَيْءٍ،حَتَّى أَخْرَجْتُمُوهُمْ عَنَّا،فَبَلَغَنَا أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْتَرِقُّونَا،فَقَالَ عُمَرُ:" فَالْآنَ إِنْ شِئْتُمْ فَالْإِسْلَامُ،وَإِنْ شِئْتُمْ فَالْجِزْيَةُ " فَاخْتَارُوا الْجِزْيَةَ"[٢١٦٨]

وَقَالُوا:إِنَّهُ أَمْرٌ جَوَازِيٌّ،لِأَنَّهُمْ صَارُوا فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ أَمَانٍ،وَكَيْلاَ يَسْقُطَ بِذَلِكَ مَا ثَبَتَ مِنِ اخْتِيَارٍ.[٢١٦٩] وَهَذَا إِنْ كَانُوا مِمَّنْ تُؤْخَذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ.

وَهَذَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا حَكَاهُ ابْنُ رُشْدٍ حَيْثُ قَال:اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْمُحَارَبَةِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ،مَا عَدَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ قُرَيْشٍ،وَنَصَارَى الْعَرَبِ - هُوَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ:إِمَّا الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ،وَإِمَّا إِعْطَاءُ الْجِزْيَةِ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ عَامَّةُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَخْذِهَا مِنَ الْمَجُوسِ؛لِقَوْلِهِ - ﷺ -:«سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ».وَاخْتَلَفُوا فِيمَا سِوَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ هَلْ تُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ؟ أَمْ لَا؟ فَقَالَ قَوْمٌ:تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ كُلِّ مُشْرِكٍ،وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ.وَقَوْمٌ اسْتَثْنَوْا مِنْ ذَلِكَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَجَمَاعَةٌ:لَا تُؤْخَذُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ.

وَالسَّبَبُ فِي اخْتِلَافِهِمْ مُعَارَضَةُ الْعُمُومِ لِلْخُصُوصِ؛أَمَّا الْعُمُومُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩].وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

[٢١٦٨] - الخراج ليحيى بن آدم (ص:٤٨) (١٣١) والأموال لابن زنجويه (١/ ٣٥٦)(٥٦٩) والأموال للقاسم بن سلام (ص:١٨٣)(٣٧٦ (فيه جهالة

[٢١٦٩] - مطالب أولي النهى ٢ / ٥٢٢،والمهذب ٢ / ٢٣٦ .

وَأَمَّا الْخُصُوصُ فَقَوْلُهُ لِأُمَرَاءِ السَّرَايَا الَّذِينَ كَانَ يَبْعَثُهُمْ إِلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ – وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ أَهْلِ كِتَابٍ –:«فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَذَكَرَ الْجِزْيَةَ فِيهَا»،وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ.

فَمَنْ رَأَى أَنَّ الْعُمُومَ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْخُصُوصِ فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ قَالَ:لَا تُقْبَلُ الْجِزْيَةُ مِنْ مُشْرِكٍ مَا عَدَا أَهْلَ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ الْآيَ الْآمِرَةَ بِقِتَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ،وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ عَامَّةً هُوَ فِي سُورَةِ " بَرَاءَةٌ "،ذَلِكَ عَامَ الْفَتْحِ.وَذَلِكَ الْحَدِيثُ إِنَّمَا هُوَ قَبْلَ الْفَتْحِ،بِدَلِيلِ دُعَائِهِمْ فِيهِ لِلْهِجْرَةِ.

وَمَنْ رَأَى أَنَّ الْعُمُومَ يُبْنَى عَلَى الْخُصُوصِ تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ،أَوْ جَهِلَ التَّقَدُّمَ وَالتَّأَخُّرَ بَيْنَهُمَا – قَالَ:تُقْبَلُ الْجِزْيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَمَّا تَخْصِيصُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْعُمُومِ بِاتِّفَاقٍ بِخُصُوصِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩][٢١٧٠].

وَأَجَازَ الْحَنَفِيَّةُ ذَلِكَ لِلإِمَامِ بِالنِّسْبَةِ لِلأُسَارَى مِنْ غَيْرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ،وَوَضَعُوا قَاعِدَةً عَامَّةً هِيَ:كُل مَنْ يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُ مِنَ الرِّجَال،يَجُوزُ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْهُ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ،كَأَهْل الْكِتَابِ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ مِنَ الْعَجَمِ،وَمَنْ لاَ يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُ لاَ يَجُوزُ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْهُ،كَالْمُرْتَدِّينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ مِنَ الْعَرَبِ.[٢١٧١]

رُجُوعُ الإِمَامِ فِي اخْتِيَارِهِ:

لَمْ نَقِفْ فِيمَا رَجَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ كُتُبٍ عَلَى مَنْ تَعَرَّضَ لِهَذَا،إِلاَّ مَا قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ الشَّافِعِيُّ مِنْ قَوْلِهِ:لَمْ يَتَعَرَّضُوا فِيمَا عَلِمْتُ إِلَى أَنَّ الإِمَامَ لَو اخْتَارَ خَصْلَةً لَهُ الرُّجُوعِ عَنْهَا أَوْ لاَ،وَلاَ إِلَى أَنَّ اخْتِيَارَهُ هَل يَتَوَقَّفُ عَلَى لَفْظٍ أَوْ لاَ.وَقَال:وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي فِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ لاَ بُدَّ مِنْهُ،فَلَو اخْتَارَ خَصْلَةً وَظَهَرَ لَهُ بِالاجْتِهَادِ أَنَّهَا الأَحَظُّ،ثُمَّ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الأَحَظَّ غَيْرُهَا،فَإِنْ كَانَتْ رِقًّا لَمْ يَجُزْ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْهَا مُطْلَقًا،لِأَنَّ الْغَانِمِينَ وَأَهْل الْخُمُسِ مَلَكُوا

[٢١٧٠] – بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢/ ١٥١)

[٢١٧١] – شرح السير الكبير ٣ / ١٠٣٦،والبدائع ٧ / ١١٩،وفتح القدير ٤ / ٣٠٦ .

بمُجَرَّد ضَرْبِ الرِّقِّ،فَلَمْ يَمْلكْ إبْطَالَهُ عَلَيْهِمْ،وَإِنْ كَانَ قَتْلاً جَازَ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْـهُ،تَغْليبًا لحَقْنِ الدِّمَاءِ مَا أَمْكَنَ،وَإِنْ كَانَ فدَاءً أَوْ مَنًّا لَمْ يُعْمَل بالثَّاني،لاسْتلْزَامه نَقْضَ الاجْتهَـاد بالاجْتهَاد منْ غَيْرِ مُوجب،إلاَّ إذَا كَانَ اخْتيَارُهُ أَحَدَهُمَا لسَبَبٍ ثُمَّ زَال السَّـبَبُ،وَتَعَيَّنَت الْمَصْلَحَةُ فِي الثَّاني عَمل بقَضيَّته.وَلَيْسَ هَذَا نَقْضُ اجْتهَـاد باجْتهَاد،بَـل بمَـا يُشْـبهُ النَّصَّ،لزَوَال مُوجبه الأَوَّل بالْكُلِّيَّة.[2172]

مَا يَكُونُ به الاخْتيَارُ:

وَأَمَّا تَوَقُّفُ الاخْتيَار عَلَى لَفْظ،فَإِنَّ الاسْتِرْقَاقَ لاَ بُدَّ فيه منْ لَفْظ يَدُل عَلَيْه،وَلاَ يَكْفي فيه مُجَرَّدُ الْفعْل،وَكَذَا الْفدَاءُ،نَعَمْ يَكْفي فيه لَفْظٌ مُلْتَزمٌ الْبَدَل مَعَ قَبْضِ الإمَامِ لَهُ مـنْ غَيْـرِ لَفْظ،بخلاَف الْخَصْلَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ لحُصُولهمَا بمُجَرَّد الْفعْل.[2173]

إسْلاَمُ الأَسير:

إذَا أَسْلَمَ الأَسيرُ بَعْدَ أَسْره وَقَبْل قَضَاءِ الإمَامِ فيه الْقَتْل أَوِ الْمَنَّ أَوِ الْفدَاءَ،فَإِنَّـهُ لاَ يُقْتَـل إجْمَاعًا،لأَنَّهُ بالإسْلاَم قَدْ عُصمَ دَمُهُ.

أَمَّا اسْترْقَاقُهُ فَفيه رَأْيَان:فَالْجُمْهُورُ،وَقَوْلٌ للشَّافعيَّة،وَاحْتمَالٌ للْحَنَابلَة أَنَّ الإمَامَ فيه مُخَيَّرٌ فيمَا عَدَا الْقَتْل،لأَنَّهُ لَمَّا سَقَطَ الْقَتْل بإسْلاَمه بَقيَتْ بَاقي الْخصَال.

وَالْقَوْل الظَّاهرُ للْحَنَابلَة،وَهُوَ قَوْلٌ للشَّافعيَّة أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ اسْترْقَاقُهُ،لأَنَّ سَبَبَ الاسْترْقَاق قَـد انْعَقَدَ بالأَسْرِ قَبْل إسْلاَمه،فَصَارَ كَالنِّسَاء وَالذَّرَاريِّ،فَيَتَعَيَّنُ اسْترْقَاقُهُ فَقَطْ،فَـلاَ مَـنَّ وَلاَ فدَاءَ،وَلَكنْ يَجُوزُ أَنْ يُفَاديَ به لتَخْليصه منَ الرِّقِّ.[2174]

أَمْوَال الأَسير:

[2172] - تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩/ ٢٤٧)

[2173] - المصدر السابق

[2174] - شرح السير الكبير ٣ / ١٠٢٥،والبحر الرائق ٥ / ٩٠،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،وفتح القدير ٤ / ٣٠٦،والبدائع ٧ / ١٢٢،والمهذب ٢ / ٢٣٩،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٦،وفتح الوهاب ٢ / ١٧٤،والوجيز ٢ / ١٩٠،والمغني ١٠ / ٤٠٢،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢٧،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٢٥ ط أولى ١٣٥٦ هـ،والطرق الحكمية ص ١٧٢ ط ١٣١٧ هـ .

الْحُكْمُ فِي مَال الأَسِيرِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحُكْمِ فِي نَفْسه،فَلاَ عصْمَةَ لَهُ عَلَى مَاله وَمَا مَعَهُ،فَهُوَ فَيْءٌ لكُل الْمُسْلمينَ مَا دَامَ أُسرَ بقُوَّة الْجَيْش،أَوْ كَانَ الأَسْرُ مُسْتَندًا لقُــوَّة الْجَيْش،وَلَــوْ أَسْلَمَ بَعْدَ أَسْرِه وَاسْتُرِقَّ تَبعَهُ مَالُهُ،أَمَّا لَوْ كَانَ إِسْلاَمُهُ فِي دَارِ الْحَرْب قَبْــل أَخْــذه،وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْنَا حَتَّى ظَهَرْنَا عَلَى الدَّارِ،عَصَمَ نَفْسَهُ وَصِغَارَهُ وَكُل مَا فِي يَده منْ مَــال،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:" مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ " [2175]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ»[2176]

وعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَنْ أَسْلَمَ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ»[2177]

وعَنْ سَعْد بْنِ أَبِي ذُبَاب،قَالَ:قدمْتُ عَلَى رَسُول الله ﷺ فَأَسْلَمْتُ،وَقُلْتُ:يَــا رَسُــولَ الله،اجْعَلْ لقَوْمي مَا أَسْلَمُوا عَلَيْه،قَالَ:فَفَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ.[2178]

وَذَلكَ باتِّفَاق الْمَذَاهب بالنِّسْبَة للْمَنْقُول،وَكَذَا الْعَقَــارُ عنْــدَ الْمَالكيَّــة،وَهُوَ مَــذْهَبُ الشَّافعيَّة،وَالْحَنَابلَة.

وَقَال أَبُو حَنيفَةَ:وَخَرَجَ عَقَارُهُ لأَنَّهُ فِي يَد أَهْل الدَّارِ وَسُلْطَانهَا فَيَكُونُ غَنيمَةً.[2179]

وَقيل:إِنَّ مُحَمَّدًا جَعَلَهُ كَسَائر مَاله.[2180]

وَإِذَا قَال الأَميرُ:مَنْ خَرَجَ منْ أَهْل الْعَسْكَرِ فَأَصَابَ شَيْئًا فَلَهُ منْ ذَلكَ الرُّبُعُ،وَسَمعَ هَــذه الْمَقَالَةَ أَسيرٌ منْ أَهْل الْحَرْب،فَخَرَجَ فَأَصَابَ شَيْئًا فَذَلكَ كُلُّهُ للْمُسْلمينَ،لأَنَّ الأَسيرَ فَيْءٌ لَهُمْ وَكَسْبَ الْعَبْد لمَوْلاَهُ.[2181]

وَإِذَا وَقَعَ السَّبْيُ فِي سَهْمِ رَجُلٍ منَ الْمُسْلمينَ،فَأَخْرَجَ مَالاً كَانَ مَعَهُ لَمْ يَعْلَمْ بــه،فَيَنْبَغي للَّذي وَقَعَ فِي سَهْمه أَنْ يَرُدَّهُ فِي الْغَنيمَة،لأَنَّ الأَميرَ إِنَّمَا مَلَّكَهُ بالْقسْمَة رَقَبَةَ الأَسير لاَ مَا مَعَهُ منَ الْمَال،فَإِنَّ ذَلكَ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا لَهُ،وَهُوَ مَأْمُورٌ بالْعَدْل فِي الْقسْمَة،وَإِنَّمَا يَتَحَقَّــقُ

[2175] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٩٠)(١٨٢٥٩) حسن لغيره

[2176] - سنن سعيد بن منصور (١/ ٩٧)(١٨٩) صحيح مرسل

[2177] - سنن سعيد بن منصور (١/ ٩٧)(١٩٠) صحيح مرسل

[2178] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٢٣) (٣٤١١٧) ضعيف

[2179] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٣ ط ١٢٧٢ هـ،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٧ .

[2180] - البحر الرائق ٥ / ٩٤،والمغني ١٠ / ٤٧٥ .

[2181] - شرح السير الكبير ٣ / ٨٣٥،والمهذب ٢ / ٢٣٩،والمدونة مع المقدمات ١ / ٣٧٩ .

الْعَدْلِ إِذَا كَانَتِ الْقِسْمَةُ لاَ تَتَنَاوَلِ إلاَّ مَا كَانَ مَعْلُومًا.عَنْ حُصَيْنٍ،عَمَّنْ أَدْرَكَ ذَاكَ ؛أَنَّ رَجُلاً اشْتَرَى جَارِيَةً مِنَ الْمَغْنَمِ،قَالَ:فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا قَدْ خَلُصَتْ لَهُ،أَخْرَجَتْ حُلِيًّا كَثِيرًا كَانَ مَعَهَا،قَالَ:فَقَالَ الرَّجُلُ:مَا أَدْرِي مَا هَذَا،حَتَّى آتِيَ سَعْدًا فَأَسْأَلَهُ،فَقَالَ:اجْعَلْهُ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ.[2182]

وعَنْ حُصَيْنٍ،أَنَّ رَجُلاً اشْتَرَى أَمَةً يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ مِنَ الْفَيْءِ،فَأَتَتْهُ بِحَلْيٍ كَانَ مَعَهَا،فَأَتَى سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ:اجْعَلْهُ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ.[2183]

لأَنَّ الْمَالِ الَّذِي مَعَ الأَسِيرِ كَانَ غَنِيمَةً،وَفِعْلِ الأَمِيرِ تَنَاوَلِ الرَّقَبَةَ دُونَ الْمَالِ،فَبَقِيَ الْمَالِ غَنِيمَةً[2184] .وَهَذَا الْحُكْمُ يَصْدُقُ أَيْضًا عَلَى الدُّيُونِ وَالْوَدَائِعِ الَّتِي لَهُ لَدَى مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ.فَإِنْ كَانَتْ لَدَى حَرْبِيٍّ فَهِيَ فَيْءٌ لِلْغَانِمِينَ.

وَإِذَا كَانَ عَلَى الأَسِيرِ دَيْنٌ لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ قُضِيَ مِنْ مَالِهِ الَّذِي لَمْ يُغْنَمْ قَبْل اسْتِرْقَاقِهِ،فَإِنَّ حَقَّ الدَّيْنِ مُقَدَّمٌ عَلَى حَقِّ الْغَنِيمَةِ،إلاَّ إِذَا سَبَقَ الاغْتِنَامُ رِقَّهُ.وَلَوْ وَقَعَا مَعًا فَالظَّاهِرُ – عَلَى مَا قَال الْغَزَالِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ – تَقْدِيمُ الْغَنِيمَةِ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالٌ فَهُوَ فِي ذِمَّتِهِ إِلَى أَنْ يَعْتِقَ.[2185]

بِمَ يُعْرَفُ إِسْلاَمُهُ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ،بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ،وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ كَانَتْ خَدِيجَةُ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا.فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ:" إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَافْعَلُوا "،قَالُوا:نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.فَأَطْلَقُوه وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا.وَقَالَ الْعَبَّاسُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ،فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ،فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخَوَيْكَ نَوْفَلَ بْنَ

[2182] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٢٧٣)(٣٤٤٤٥) فيه انقطاع

[2183] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٠/ ٦٦٦)(٢١١٧٢) فيه انقطاع

[2184] – شرح السير الكبير ٣ / ١٠٣٨،١٠٣٧ .

[2185] – الوجيز ٢ / ١٩١ .

قلت :الراجح تقديم وفاء الدين على الغنيمة لأنها حق آدمي،وما يبقى يكون من الغنائم

الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ،أَخُو بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ "،فَقَالَ:مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:" فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا:إِنْ أُصِبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِيَّ الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللهِ وَقُثَمَ؟ "،فَقَالَ:وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ،إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ،فَاحْتَسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنْ عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَفْعَلُ " فَفَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ،وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهَا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال:٧٠]،وَأَعْطَانِي اللهُ مَكَانَ الْعِشْرِينَ الْأُوقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عِشْرِينَ عَبْدًا،كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ،مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"[٢١٨٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)} [الأنفال:٧٠] كَانَ الْعَبَّاسُ أُسِرَ يَوْمَ بدر ففدا نَفْسَهُ بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ الْعَبَّاسُ حِينَ نَزَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ:لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّه تَعَالَى خَصْلَتَيْنِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِمَا الدُّنْيَا،أَنِّي أُسِرْتُ يَوْمَ بَدْرٍ فَفَدَيْتُ نَفْسِي بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً ذَهَبًا،فَآتَانِي اللَّه أَرْبَعِينَ عَبْدًا.وَأَنَا أَرْجُو الْمَغْفِرَةَ الَّتِي وَعَدَنَا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ"[٢١٨٧]

وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ كَشَفَ نِيَّاتِ بَعْضِ الأَسْرَى لِرَسُولِهِ،فَإِنَّ الْمُحَارِبِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ النِّيَّاتِ،عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي،فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا،ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ،فَقَالَ:أَسْلَمْتُ لِلَّهِ،أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ،بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ:رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَقْتُلْهُ» قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي،ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ

[٢١٨٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٢٤)(١٢٨٤٩) صحيح

[٢١٨٧] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ١٤٣) صحيح لغيره

قَطَعَهَا،أَفَأَقْتُلُهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ،وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»[٢١٨٨].

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ،فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ،فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ،فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ،قَالَ:«أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ،قَالَ:فَقَالَ سَعْدٌ:وَأَنَا وَاللهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ يَعْنِي أُسَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ:أَلَمْ يَقُلِ اللهُ:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه} [الأنفال:٣٩]؟ فَقَالَ سَعْدٌ:قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ،وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ"[٢١٨٩]

وَلِذَا فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ قَالُوا:لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَخَذُوا أُسَرَاءَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ فَأَرَادُوا قَتْلَهُمْ،فَقَال رَجُلٌ مِنْهُمْ:أَنَا مُسْلِمٌ،فَلاَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ حَتَّى يَسْأَلُوهُ عَنِ الإِسْلاَمِ،فَإِنْ وَصَفَهُ لَهُمْ فَهُوَ مُسْلِمٌ،وَإِنْ أَبَى أَنْ يَصِفَهُ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصِفُوهُ لَهُ،ثُمَّ يَقُولُوا لَهُ:هَل أَنْتَ عَلَى هَذَا ؟ فَإِنْ قَال:نَعَمْ،فَهُوَ مُسْلِمٌ،وَلَوْ قَال:لَسْتُ بِمُسْلِمٍ وَلَكِنِ اُدْعُونِي إِلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى أُسْلِمَ لَمْ يَحِل قَتْلُهُ.[٢١٩٠]

أَسْرَى الْبُغَاة:

الْبَغْيُ فِي اللُّغَةِ:مَصْدَرُ بَغَى،وَهُوَ بِمَعْنَى عَلاَ وَظَلَمَ وَعَدَل عَنِ الْحَقِّ وَاسْتَطَال.[٢١٩١]

[٢١٨٨] - صحيح مسلم (١/ ٩٥) ١٥٥ - (٩٥) [ش (لاذ مني بشجرة) أي اعتصم مني]

[٢١٨٩] - صحيح مسلم (١/ ٩٦) ١٥٨ - (٩٦)

[ش (فصبحنا الحرقات) أي أتيناهم صباحا والحرقات موضع ببلاد جهينة والتسمية بعرفات وأذرعات وفي رائه الضم والفتح والحاء مضمومة في الوجهين (أفلا شققت عن قلبه) معناه إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه فأنكر عليه من العمل بما ظهر باللسان وقال أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب]

[٢١٩٠] - أحكام القرآن للجصاص ٢ / ٢٩٦،وشرح السير الكبير ٢ / ٥١٣ .

[٢١٩١] - القاموس مادة :(بغى) .

وَمِنْهُ قَوْلِه تَعَالَى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات:٩]

وَالْبُغَاةُ فِي الِاصْطِلَاحِ:هُمُ الْخَارِجُونَ عَلَى الإِمَامِ الْحَقِّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَهُمْ مَنَعَةٌ.وَيَجِبُ قِتَالُهُمْ لِرَدْعِهِمْ لاَ لِقَتْلِهِمْ [٢١٩٢] وَسَنَتَصَدَّى لِلْكَلاَمِ عَنْ حُكْمِ أَسْرَاهُمْ.

أَسْرَى الْبُغَاةِ تُعَامِلُهُمُ الشَّرِيعَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ مُعَامَلَةً خَاصَّةً،لِأَنَّ قِتَالَهُمْ لِمُجَرَّدِ دَفْعِهِمْ عَنِ الْمُحَارَبَةِ،وَرَدِّهِمْ إِلَى الْحَقِّ،لاَ لِكُفْرِهِمْ. [٢١٩٣]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ:" يَا ابْنَ مَسْعُودٍ أَتَدْرِي مَا حُكْمُ اللهِ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ " قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:" فَإِنَّ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَنْ لَا يُتْبَعُ مُدْبِرُهُمْ،وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهُمْ،وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحِهِمْ ". [٢١٩٤]

وَقَد اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ سَبْيِ نِسَاءِ الْبُغَاةِ وَذَرَارِيِّهِمْ.بَل ذَهَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ إِلَى قَصْرِ الأَسْرِ عَلَى الرِّجَالِ الْمُقَاتِلِينَ وَتَخْلِيَةِ سَبِيلِ الشُّيُوخِ وَالصِّبْيَةِ،وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ،قَرَّرَ عَلِيٌّ عَدَمَ السَّبْيِ وَعَدَمَ أَخْذِ الْغَنِيمَةِ،فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كَانُوا فِي صُفُوفِهِ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اعْتَزَلُوا فِي دَارٍ،وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ» فَقُلْتُ لِعَلِيٍّ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ «أَبْرِدْ بِالصَّلَاةِ،لَعَلِّي أُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ» قَالَ:«إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ» قُلْتُ:كَلَّا،فَلَبِسْتُ،وَتَرَجَّلْتُ،وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ نِصْفِ النَّهَارِ،وَهُمْ يَأْكُلُونَ فَقَالُوا:«مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ،فَمَا جَاءَ بِكَ؟» قُلْتُ لَهُمْ:أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ،وَالْأَنْصَارِ،وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصِهْرِهِ،وَعَلَيْهِمْ نُزِّلَ الْقُرْآنُ،فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ،وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ،لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ،وَأُبَلِّغَهُمْ مَا تَقُولُونَ،فَانْتَحَى

[٢١٩٢] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٣٠٨،وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٨،وحاشية الجمل ٥ / ١٩٤،والفروع ٣ / ٥٤١ ط المنار .

[٢١٩٣] - الشرح الكبير مطبوع مع المغني ١٠ / ٥٩ .

[٢١٩٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣١٦) (١٦٧٥٥) ضعيف

لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ قُلْتُ:هَاتُوا مَا نَقِمْتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَابْنِ عَمِّهِ قَالُوا:«ثَلَاثٌ» قُلْتُ:مَا هُنَّ؟ قَالَ:«أَمَّا إِحْدَاهُنَّ،فَإِنَّهُ حُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ اللهِ» وَقَالَ اللهُ:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام:٥٧] مَا شَأْنُ الرِّجَالِ وَالْحُكْمِ؟ قُلْتُ:هَذِهِ وَاحِدَةٌ قالوا:وَأَمَّا الثَّانِيَةُ،فَإِنَّهُ قَاتَلَ،وَلَمْ يَسْبِ،وَلَمْ يَغْنَمْ،إِنْ كَانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سِبَاهُمْ،وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ سِبَاهُمْ وَلَا قِتَالُهُمْ قُلْتُ:هَذِهِ ثِنْتَانِ،فَمَا الثَّالِثَةُ؟ " وَذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا قَالُوا:مَحَى نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ " قُلْتُ:هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا؟ قَالُوا:«حَسْبُنَا هَذَا» قُلْتُ:لَهُمْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ قَوْلَكُمْ أَتَرْجِعُونَ؟ قَالُوا:«نَعَمْ» قُلْتُ:أَمَّا قَوْلُكُمْ:«حُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ اللهِ،فَإِنِّي أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ أَنْ قَدْ صَيَّرَ اللهُ حُكْمَهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبْعِ دِرْهَمٍ [ص:٤٨١]،فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ» أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ،وَأَنْتُمْ حُرُمٌ،وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ} [المائدة:٩٥] وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ أَنَّهُ صَيَّرَهُ إِلَى الرِّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ،وَلَوْ شَاءَ لَحكم فِيهِ،فَجَازَ مِنْ حُكْمِ الرِّجَالِ،أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ،وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ أَوْ فِي أَرْنَبٍ؟ قَالُوا:بَلَى،هَذَا أَفْضَلُ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا:{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء:٣٥] فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ حُكْمَ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ،وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِهِمْ فِي بُضْعِ امْرَأَةٍ؟ خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ " قَالُوا:نَعَمْ قُلْتُ:وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ،وَلَمْ يَغْنَمْ،أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ،تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا وَهِيَ أُمُّكُمْ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ:إِنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا نَسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ،وَإِنْ قُلْتُمْ:لَيْسَتْ بِأُمِّنَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ:{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب:٦] فَأَنْتُمْ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ،فَأْتُوا مِنْهَا بِمَخْرَجٍ،أَفَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا:نَعَمْ،وَأَمَّا مَحْيُ نَفْسِهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَا تَرْضَوْنَ.إِن نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللهِ» قَالُوا:لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«امْحُ يَا عَلِيُّ اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ،امْحُ يَا

عَليٌّ،وَاكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» وَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَليٍّ،وَقَدْ مَحَى نَفْسَهُ،وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ نَفْسَهُ ذَلِكَ مَحَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ،أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ " قَالُوا:«نَعَمْ،فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَلْفَانِ،وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ،فَقُتِلُوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،فَقَتَلَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ». [2195]

فَلاَ يُسْتَبَاحُ مِنْهُمْ إلاَّ بِقَدْرِ مَا يَدْفَعُ الْقِتَال[2196] وَيَبْقَى حُكْمُ الْمَال وَالذُّرِّيَّةِ عَلَى أَصْلِ الْعِصْمَةِ.وَلِفُقَهَاءِ الْمَذَاهِبِ تَفْصِيلٌ فِي حُكْمِ أَسْرَى الْبُغَاةِ.

وَيَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى عَدَمِ اسْتِرْقَاقِ أَسْرَى الْبُغَاةِ،لأَنَّ الإِسْلاَمَ يَمْنَعُ الاسْتِرْقَاقَ ابْتِدَاءً،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ،هَلْ تَدْرِي كَيْفَ حُكْمُ اللَّهِ فِيمَنْ بَغَى فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؟».قَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«لَا يُدَفُّ عَلَى جَرِيحِهَا،وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهَا،وَلَا يُقْتَلُ هَارِبُهَا،وَلَا يُقْسَمُ فَيْؤُهَا»[2197] أَيْ لاَ يُسْتَرَقُّونَ وَلِذَا فَإِنَّهُ لاَ تُسْبَى نِسَاؤُهُمْ وَلاَ ذَرَارِيُّهُمْ. [2198]

وَالأَصْل أَنَّ أَسِيرَهُمْ لاَ يُقْتَل لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ،وَقَدْ نَصَّ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ كُلٌّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،حَتَّى قَال الْحَنَابِلَةُ:وَإِنْ قَتَل أَهْل الْبَغْيِ أُسَارَى أَهْل الْعَدْل لَمْ يَجُزْ لِأَهْل الْعَدْل قَتْل أُسَارَاهُمْ،لِأَنَّهُمْ لاَ يُقْتَلُونَ بِجِنَايَةِ غَيْرِهِمْ،وَيَتَّجِهُ الْمَالِكِيَّةُ وُجْهَةَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ فِي عَدَمِ قَتْل الأَسْرَى.[2199] غَيْرَ أَنَّهُ جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْمَالِكِيَّةِ:أَنَّهُ إِذَا أُسِرَ بَعْدَ انْقِضَاءِ

[2195] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٤٨٠)(٨٥٢٢) صحيح

[2196] - الشرح الكبير مع المغني ١٠ / ٦٥،وفتح القدير ٤ / ٤١٣ .

[2197] - مسند الروياني (٢/ ٤٢٢)(١٤٣٧) ضعيف

[2198] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٣١١،٣١٢،والبحر الرائق ٥ / ١٥٢ - ١٥٣،وفتح القدير ٤ / ٤١١،وتبيين الحقائق وحاشية الشلبي ٣ / ٥٩٥،وغنية ذوي الأحكام بهامش درر الحكام ١ / ٣٠٥،والتاج والإكليل ٦ / ٢٧٨،والشرح الصغير ٢ / ٤١٥،وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩،وبداية المجتهد ٢ / ٤٩٨،والخرشي ٥ / ٣٠٢،وحاشية الجمل ٥ / ١١٧،١١٨،وشرح روض الطالب ٤ / ١١٤ - ١١٥،وفتح الوهاب ٢ / ١٥٤،والمغني ١٠ / ٦٣ - ٦٥،والفروع ٣ / ٥٤،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣٩ .

[2199] - بداية المجتهد ٢ / ٤٩٨ .

الْحَرْبِ يُسْتَتَابُ،فَإِنْ لَمْ يَتُبْ قُتِل.وَقِيل:يُؤَدَّبُ وَلاَ يُقْتَل[2200] وَإِنْ كَانَتِ الْحَرْبُ قَائِمَةً فَلِلإِمَامِ قَتْلُهُ.وَلَوْ كَانُوا جَمَاعَةً،إِذَا خَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ضَرَرٌ.[2201]

أَمَّا الْحَنَفِيَّةُ فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَا إِذَا كَانَ لأَسْرَى الْبُغَاةِ فِئَةٌ،وَبَيْنَ مَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ،فَقَالُوا:لَوْ كَانَ لِلْبُغَاةِ فِئَةٌ أُجْهِزَ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَاتُّبِعَ هَارِبُهُمْ لِقَتْلِهِ أَوْ أَسْرِهِ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِئَةٌ فَلاَ،وَالإِمَامُ بِالْخِيَارِ فِي أَسْرِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُ فِئَةٌ:إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ لِئَلاَّ يَنْفَلِتَ وَيَلْحَقَ بِهِمْ،وَإِنْ شَاءَ حَبَسَهُ حَتَّى يَتُوبَ أَهْل الْبَغْيِ،قَال الشُّرُنْبُلاَلِيُّ:وَهُوَ الْحَسَنُ،لأَنَّ شَرَّهُ يَنْدَفِعُ بِذَلِكَ،وَقَالُوا:إِنَّ مَا قَالَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَدَمِ قَتْل الأَسِيرِ مُؤَوَّلٌ بِمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ،فعَنْ أَبِي الرِّضَا،قَالَ:رُفِعَ إِلَى عَلِيٍّ رَجُلُ فَقِيلَ:سَرَقَ،فَقَالَ لَهُ:«كَيْفَ سَرَقْتَ؟» فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرٍ لَمْ يَرَ عَلَيْهِ فِيهِ قَطْعًا،«فَضَرَبَهُ أَسْوَاطًا،وَخَلَّى سَبِيلَهُ»[2202]

وعن أبي جعفر قَالَ:كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أتى الأسير يوم صفين أخذ دابته وسلاحه وأخذ عليه أن لا يعود وخلى سبيله.[2203]

أَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ فَلاَ يُقْتَل أَسِيرُهُمْ.[2204] وَالْمَرْأَةُ مِنْ أَهْل الْبَغْيِ إِذَا أُسِرَتْ وَكَانَتْ تُقَاتِل حُبِسَتْ وَلاَ تُقْتَل،إِلاَّ فِي حَال مُقَاتَلَتِهَا.وَكَذَا الْعَبِيدُ وَالصِّبْيَانُ.[2205]

وَيَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ فِدَاؤُهُمْ نَظِيرَ مَالٍ،وَإِنَّمَا إِذَا تَرَكَهُمْ مَعَ الأَمْنِ كَانَ مَجَّانًا،لأَنَّ الإِسْلاَمَ يَعْصِمُ النَّفْسَ وَالْمَال[2206]،كَمَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ مُوَادَعَتُهُمْ عَلَى مَالٍ،وَإِنْ وَادَعَهُمْ عَلَى مَالٍ بَطَلَتِ الْمُوَادَعَةُ وَنَظَرَ فِي الْمَال،فَإِنْ كَانَ مِنْ فَيْئِهِمْ أَوْ مِنْ

[2200] – التاج والإكليل ٦ / ٢٧٨ .

[2201]- التاج والإكليل ٦ / ٢٧٨ .

[2202] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ٢٣٢)(١٨٩٤٦) ضعيف

[2203] – الخراج لأبي يوسف (ص:٢١٥)[٤٦٨] صحيح مرسل

[2204] – غنية ذوي الأحكام ١ / ٣٠٥،والبحر الرائق ٥ / ١٥٣،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٩٥،وفتح القدير ٤ / ٤١١،٤١٢ .

[2205] – المغني ١٠ / ٦٤،وغنية ذوي الأحكام ١ / ٣٠٥،والبحر الرائق ٥ / ١٥٢،وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩ .

[2206] – الشرح الصغير ٢ / ٤١٥ .

صَدَقَاتِهِمْ لَمْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ،وَصَرَفَ الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا،وَالْفَيْءَ فِي مُسْتَحَقِّيهِ،وَإِنْ كَانَ مِنْ خَالِصِ أَمْوَالِهِمْ وَجَبَ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ.[2207]

وَيَجُوزُ مُفَادَاتُهُمْ بِأُسَارَى أَهْلِ الْعَدْلِ،وَإِنْ أَبَى الْبُغَاةُ مُفَادَاةَ الأَسْرَى الَّذِينَ مَعَهُمْ وَحَبَسُوهُمْ،قَال ابْنُ قُدَامَةَ:اُحْتُمِل أَنْ يَجُوزَ لِأَهْل الْعَدْل حَبْسُ مَنْ مَعَهُمْ،لِيَتَوَصَّلُوا إِلَى تَخْلِيصِ أُسَارَاهُمْ،وَيُحْتَمَل أَلاَّ يَجُوزَ حَبْسُهُمْ وَيُطْلَقُونَ،لِأَنَّ الْمُتَرَتِّبَ فِي أُسَارَى أَهْل الْعَدْل لِغَيْرِهِمْ.[2208]

وَعَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عَدَمِ جَوَازِ قَتْلِهِمْ،فَإِنَّهُمْ يُحْبَسُونَ وَلاَ يُخَلَّى سَبِيلُهُمْ،إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنَعَةٌ،وَلَوْ كَانَ الأَسِيرُ صَبِيًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَبْدًا إِنْ كَانُوا مُقَاتِلِينَ،وَإِلاَّ أُطْلِقُوا بِمُجَرَّدِ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ،وَيَنْبَغِي عَرْضُ التَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ وَمُبَايَعَةُ الإِمَامِ.[2209] وَلَوْ كَانُوا مُرَاهِقِينَ وَعَبِيدًا وَنِسَاءً غَيْرَ مُقَاتِلِينَ أَوْ أَطْفَالاً أُطْلِقُوا بَعْدَ الْحَرْبِ دُونَ أَنْ نَعْرِضَ عَلَيْهِمْ مُبَايَعَةَ الإِمَامِ.وَفِي وَجْهٍ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ وَفِي الْآخَرِ،يُحْبَسُونَ؛لِأَنَّ فِيهِ كَسْرًا لِقُلُوبِ الْبُغَاةِ.وَإِنْ أَسَرَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ أُسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ،جَازَ فِدَاءُ أَسَارَى أَهْلِ الْعَدْلِ بِأُسَارَى أَهْلِ الْبَغْيِ.وَإِنْ قَتَلَ أَهْلُ الْبَغْيِ أَسَارَى أَهْلِ الْعَدْلِ،لَمْ يَجُزْ لِأَهْلِ الْعَدْلِ قَتْلُ أُسَارَاهُمْ؛لِأَنَّهُمْ لَا يُقْتَلُونَ بِجِنَايَةِ غَيْرِهِمْ،وَلَا يَزِرُونَ وِزْرَ غَيْرِهِمْ.

وَإِنْ أَبَى الْبُغَاةُ مُفَادَاةَ الْأَسْرَى الَّذِينَ مَعَهُمْ،وَحَبَسُوهُمْ،احْتَمَلَ أَنْ يَجُوزَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ حَبْسُ مَنْ مَعَهُمْ؛لِيَتَوَصَّلُوا إلَى تَخْلِيصِ أُسَارَاهُمْ بِحَبْسِ مَنْ مَعَهُمْ،وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَجُوزَ حَبْسُهُمْ وَيُطْلَقُونَ؛لِأَنَّ الذَّنْبَ فِي حَبْسِ أُسَارَى أَهْلِ الْعَدْلِ لِغَيْرِهِمْ..[2210]

فَعَلَى هَذَا:لَوْ بَطَلَتْ شَوْكَتُهُمْ،وَلَكِنْ يُتَوَقَّعُ اجْتِمَاعُهُمْ فِي الْحَالِ:فَفِي إرْسَالِهِ وَجْهَانِ وَأَطْلَقَهُمَا فِي الرِّعَايَتَيْنِ،وَالْحَاوِي الصَّغِيرِ،وَالْفُرُوعِ.قُلْت:الصَّوَابُ عَدَمُ إرْسَالِهِ.وَقِيلَ:يَجُوزُ حَبْسُهُ لِيُخَلَّى أَسِيرُنَا.[2211]

[2207] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٤٠ .

[2208] – المغني ١٠ / ٦٤ .

[2209] – حاشية الجمل ٥ / ١١٧،وشرح روض الطالب ٤ / ١١٤ .

[2210] – المغني لابن قدامة (٨/ ٥٣٣)

[2211] – الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (١٠/ ٣١٥) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٦/ ١٦٥)

أَسْرَى الْحَرْبِيِّينَ إذَا أَعَانُوا الْبُغَاةَ:

قَال الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ:إذَا اسْتَعَانَ الْبُغَاةُ عَلَى قتَالنَا بقَوْمٍ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ وَأَمَّنُوهُمْ،أَوْ لَمْ يُؤْمنُوهُمْ،فَظَهَرَ أَهْل الْعَدْل عَلَيْهِمْ،فَوَقَعُوا فِي الأَسْرِ عنْدَ أَهْل الْعَدْل،أَخَذُوا حُكْمَ أَسْرَى أَهْل الْحَرْبِ[٢٢١٢]،وَاسْتَثْنَى الشَّافعيَّةُ مَا إذَا قَال الأَسيرُ:ظَنَنْتُ جَوَازَ إعَانَتهمْ،أَوْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَلِيَ إعَانَةُ الْمُحقِّ،وَأَمْكَنَ تَصْديقُهُ فَإِنَّهُ يُبَلَّغُ مَأْمَنَهُ،ثُمَّ يُقَاتَل كَالْبُغَاة.[٢٢١٣]

الأَسْرَى منْ أَهْل الذِّمَّة إذَا أَعَانُوا الْبُغَاةَ:

إذَا اسْتَعَانَ الْبُغَاةُ عَلَى قتَالنَا بأَهْل الذِّمَّة،فَوَقَعَ أَحَدٌ منْهُمْ في الأَسْر،أَخَذَ حُكْمَ الْبَاغي عنْدَ الْحَنَفيَّة،فَلاَ يُقْتَل إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ،وَيُخَيَّرُ الإمَامُ إذَا كَانَتْ لَهُ فئَةٌ،وَلاَ يَجُوزُ اسْترْقَاقُهُ.[٢٢١٤]

وَقَال الْمَالكيَّةُ:إذَا اسْتَعَانَ الْبَاغي الْمُتَأَوِّل بذمِّيٍّ فَلاَ يَغْرَمُ الذِّمِّيُّ مَا أَتْلَفَهُ منْ نَفْسٍ أَوْ مَال،وَلاَ يُعَدُّ خُرُوجُهُ مَعَهُ نَقْضًا للْعَهْد.أَمَّا إنْ كَانَ الْبَاغي مُعَاندًا – أَيْ غَيْرَ مُتَأَوِّل – فَإِنَّ الذِّمِّيَّ الَّذي مَعَهُ يَكُونُ نَاقضًا للْعَهْد،وَيَكُونُ هُوَ وَمَالُهُ فَيْئًا.وَهَذَا إنْ كَانَ مُخْتَارًا،أَمَّا إنْ كَانَ مُكْرَهًا فَلاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُ،وَإنْ قَتَل نَفْسًا يُؤْخَذُ بهَا،حَتَّى لَوْ كَانَ مُكْرَهًا.[٢٢١٥]

وَقَوْل الشَّافعيَّة في ذَلكَ كَقَوْل الْمَالكيَّة.قَالُوا:لَوْ أَعَانَ الذِّمِّيُّونَ الْبُغَاةَ فِي الْقتَال،وَهُمْ عَالمُونَ بالتَّحْريم مُخْتَارُونَ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ،كَمَا لَو انْفَرَدُوا بالْقتَال.

أَمَّا إنْ قَال الذِّمِّيُّونَ:كُنَّا مُكْرَهينَ،أَوْ ظَنَنَّا جَوَازَ الْقتَال إعَانَةً،أَوْ ظَنَنَّا أَنَّهُمْ مُحقُّونَ فيمَا فَعَلُوهُ،وَأَنَّ لَنَا إعَانَةَ الْمُحقِّ وَأَمْكَنَ صدْقُهُمْ،فَلاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُمْ،لمُوَافَقَتهمْ طَائفَةً مُسْلمَةً مَعَ عُذْرهمْ،وَيُقَاتَلُونَ كَبُغَاة.

وَمثْلُهُمْ في ذَلكَ الْمُسْتَأْمَنُونَ،عَلَى مَا صَرَّحَ به الشَّافعيَّةُ.[٢٢١٦]

[٢٢١٢] – فتح القدير ٤ / ٤١٥،٤١٦ والمغني ١٠ / ٧١ .

[٢٢١٣] – حاشية الجمل على شرح المنهج ٥ / ١١٨ .

[٢٢١٤] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٩٥،وفتح القدير ٤ / ٤١٥ .

[٢٢١٥] – الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٤/ ٣٠٠)

[٢٢١٦] – الجمل على شرح المنهاج ٥ / ١١٨ .

وَلِلْحَنَابِلَة قَوْلَان فِي انْتِقَاضِ عَهْدِهِمْ،أَحَدُهُمَا:يُنْتَقَضُ عَهْدُهُمْ،لِأَنَّهُمْ قَاتَلُوا أَهْلَ الْحَقِّ فَانْتَقَضَ عَهْدُهُمْ كَمَا لَوِ انْفَرَدُوا بِقَتْلِهِمْ.وَيَصِيرُونَ كَأَهْلِ الْحَرْبِ فِي قَتْلِ مُقْبِلِهِمْ وَاتِّبَاعِ مُدْبِرِهِمْ وَجَرِيحِهِمْ.

وَالثَّانِي:لاَ يُنْتَقَضُ،لِأَنَّ أَهْلَ الذِّمَّة لاَ يَعْرِفُونَ الْمُحِقَّ مِنَ الْمُبْطِلِ،فَيَكُونُ ذَلِكَ شُبْهَةً لَهُمْ.وَيَكُونُ حُكْمُهُمْ حُكْمَ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي قَتْلِ مُقْبِلِهِمْ،وَالْكَفِّ عَنْ أَسِيرِهِمْ وَمُدْبِرِهِمْ وَجَرِيحِهِمْ.

وَإِنْ أَكْرَهَهُمُ الْبُغَاةُ عَلَى مَعُونَتِهِمْ،أَوِ ادَّعَوْا ذَلِكَ قُبِلَ مِنْهُمْ،لِأَنَّهُمْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ.وَكَذَلِكَ إِنْ قَالُوا:ظَنَنَّا أَنَّ مَنِ اسْتَعَانَ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَزِمَتْنَا مَعُونَتُهُ،لِأَنَّ مَا ادَّعُوهُ مُحْتَمَلٌ،فَلاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُمْ مَعَ الشُّبْهَة.[2217]

وَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْمُسْتَأْمَنُونَ نُقِضَ عَهْدُهُمْ.وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّة أَقْوَى حُكْمًا،لِأَنَّ عَهْدَهُمْ مُؤَبَّدٌ،وَلاَ يَجُوزُ نَقْضُهُ لِخَوْفِ الْخِيَانَةِ مِنْهُمْ،وَيَلْزَمُ الإِمَامَ الدَّفْعُ عَنْهُمْ،وَالْمُسْتَأْمَنُونَ بِخِلاَفِ ذَلِكَ.[2218]

وَإِذَا أُسِرَ مَنْ يُرَادُ عَقْدُ الإِمَامَةِ لَهُ،وَكَانَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى الْخَلاَصِ مِنَ الأَسْرِ،مَنَعَ ذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الإِمَامَةِ لَهُ.[2219]

أَسْرَى الْحِرَابَة:

الْمُحَارِبُونَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ،اجْتَمَعَتْ عَلَى شَهْرِ السِّلاَحِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ[2220]،وَيَجُوزُ حَبْسُ مَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ لاسْتِبْرَاءِ حَالِهِ[2221]،وَمَنْ ظَفِرَ بِالْمُحَارِبِ فَلاَ يَلِي قَتْلَهُ،وَيَرْفَعُهُ إِلَى الإِمَامِ.قَال الْمَالِكِيَّةُ:إِلاَّ أَنْ يَخَافَ أَلاَّ يُقِيمَ الإِمَامُ عَلَيْهِ الْحُكْمَ.

[2217] – الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٦٩) والمبدع في شرح المقنع (٧/ ٤٧٦)

[2218] – الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٧١) والمغني لابن قدامة (٨/ ٥٣٩)

[2219] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢١١)

[2220] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥١،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٤٢ .

[2221] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥١،٥٢،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٤١،٤٤ .

وَلاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ تَأْمِينُهُ[2222]،وَإِن اسْتَحَقُّوا الْهَزِيمَةَ فَجَرِيحُهُمْ أَسِيرٌ،وَالْحُكْمُ فِيهِمْ لِلإِمَامِ،مُسْلِمِينَ كَانُوا أَوْ ذِمِّيِّينَ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ،وَأَحَدِ قَوْلَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ.وَكَذَلِكَ الْمُسْتَأْمَنُ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَالأَوْزَاعِيِّ.[2223]

أَسْرَى الْمُرْتَدِّينَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ مِنْ أَحْكَامٍ:

الرِّدَّةُ فِي اللُّغَةِ:الرُّجُوعُ،فَيُقَال:ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا كَفَرَ بَعْدَ إِسْلاَمٍ.

وَتَخْتَصُّ الرِّدَّةُ – فِي الاصْطِلاَحِ الْفِقْهِيِّ – بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ.وَكُل مُسْلِمٍ ارْتَدَّ فَإِنَّهُ يُقْتَل إِنْ لَمْ يَتُبْ،إِلاَّ الْمَرْأَةَ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ فَإِنَّهَا تُحْبَسُ،وَلاَ يُتْرَكُ الْمُرْتَدُّ عَلَى رِدَّتِهِ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ وَلاَ بِأَمَانٍ،وَلاَ يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُ حَتَّى لَوْ أُسِرَ بَعْدَ أَنْ لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ،بِخِلاَفِ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تُسْتَرَقُّ بَعْدَ اللِّحَاقِ بِدَارِ الْحَرْبِ،عَلَى تَفْصِيلٍ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ[2224].

وَإِذَا ارْتَدَّ جَمْعٌ،وَتَجَمَّعُوا وَانْحَازُوا فِي دَارٍ يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى صَارُوا فِيهَا ذَوِي مَنَعَةٍ وَجَبَ قِتَالُهُمْ عَلَى الرِّدَّةِ بَعْدَ مُنَاظَرَتِهِمْ عَلَى الإِسْلاَمِ،وَيُسْتَتَابُونَ وُجُوبًا عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ،وَاسْتِحْبَابًا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَيُقَاتَلُونَ قِتَال أَهْل الْحَرْبِ،وَمَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ قُتِل صَبْرًا إِنْ لَمْ يَتُبْ،وَيُصَرِّحُ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّنَا نَبْدَؤُهُمْ بِالْقِتَال إِذَا امْتَنَعُوا بِنَحْوِ حِصْنٍ.[2225]

وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَرَقَّ رِجَالُهُمْ،وَلَكِنْ تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ،وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمُ الَّذِينَ حَدَثُوا بَعْدَ الرِّدَّةِ،لأَنَّهَا دَارٌ تَجْرِي فِيهَا أَحْكَامُ أَهْل الْحَرْبِ فَكَانَتْ دَارَ حَرْبٍ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُهَادَنُوا عَلَى الْمُوَادَعَةِ،وَلاَ يُصَالَحُوا عَلَى مَالٍ يَقَرُّونَ بِهِ عَلَى رِدَّتِهِمْ،بِخِلاَفِ أَهْل الْحَرْبِ.[2226]

وَقَدْ سَبَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَرَارِيَّ مَن ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ،وَسَبَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَنِي نَاجِيَةَ.

[2222] – التبصرة مطبوعة بهامش فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك ٢ / ٢٧٤،٢٧٥ .

[2223] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢١١)

[2224] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٤/ ٢١٣) والدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ٢٤٧) وحاشية رد المحتار (٤/ ٤٣٣)

[2225] – الأحكام السلطانية ص ٣٦،وأسنى المطالب ٤ / ١٢٣ .

[2226] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣٦،٣٧،والخراج ص ٦٧ ط ١١٨٢ هـ،وفتح القدير ٤ / ٢١١،والمبسوط ١٠ / ١١٣،١١٤،والمهذب ٢ / ٢٢٤،والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٩ .

وَإِنْ أَسْلَمُوا حُقِنَتْ دِمَاؤُهُمْ،وَمَضَى فِيهِمْ حُكْمُ السِّبَاءِ عَلَى الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ،فَأَمَّا الرِّجَالُ فَأَحْرَارٌ لاَ يُسْتَرَقُّونَ،وَلَيْسَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ سَبْيٌ وَلاَ جِزْيَةٌ،إِنَّمَا هُوَ الْقَتْلُ أَوِ الإِسْلاَمُ.وَإِنْ تَرَكَ الإِمَامُ السِّبَاءَ وَأَطْلَقَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ وَتَرَكَ لَهُمْ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَهُوَ فِي سَعَةٍ.

وَيُصَرِّحُ الْمَالِكِيَّةُ بِعَدَمِ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ إِنْ حَارَبُوا بِأَرْضِ الْكُفْرِ أَوْ بِأَرْضِ الإِسْلاَمِ،يَقُول ابْنُ رُشْدٍ:إِذَا حَارَبَ الْمُرْتَدُّ ثُمَّ ظَهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُقْتَل بِالْحِرَابَةِ،وَلاَ يُسْتَتَابُ،كَانَتْ حِرَابَتُهُ بِدَارِ الإِسْلاَمِ أَوْ بَعْدَ أَنْ لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ إِلاَّ أَنْ يُسْلِمَ،فَإِنْ كَانَتْ حِرَابَتُهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَهُوَ عِنْدَ مَالِكٍ كَالْحَرْبِيِّ يُسْلِمُ،لاَ تِبَاعَةَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا فَعَل فِي حَال ارْتِدَادِهِ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ حِرَابَتُهُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ فَإِنَّهُ يُسْقِطُ إِسْلاَمُهُ عَنْهُ حُكْمَ الْحِرَابَةِ خَاصَّةً.[٢٢٢٧]

وَعَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ قَال:إِذَا ارْتَدَّ جَمَاعَةٌ فِي حِصْنٍ فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ،وَأَمْوَالُهُمْ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلاَ تُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ.وَقَال أَصْبَغُ:تُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَتُقْسَمُ أَمْوَالُهُمْ.

وَهَذَا الَّذِي خَالَفَتْ فِيهِ سِيرَةُ عُمَرَ سِيرَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي الَّذِينَ ارْتَدُّوا مِنَ الْعَرَبِ،فَقَدْ سَبَى أَبُو بَكْرٍ النِّسَاءَ وَالصِّغَارَ،وَأَجْرَى الْمُقَاسَمَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ،فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ نَقَضَ ذَلِكَ.[٢٢٢٨]

وَيَتَّفِقُ فُقَهَاءُ الْمَذَاهِبِ عَلَى أَنَّ الأَسِيرَ الْمُرْتَدَّ يُقْتَل إِنْ لَمْ يَتُبْ وَيَعُدْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ عِنْدَ الأَئِمَّةِ الثَّلاَثَةِ.وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٍّ،وَبِهِ قَال الْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ وَالنَّخَعِيُّ وَمَكْحُولٌ،عَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،حَرَّقَ قَوْمًا،فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»،وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[٢٢٢٩].

وقال الماوردي:" وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ:أَنْ يَنْحَازُوا إِلَى دَارٍ يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَصِيرُوا فِيهَا مُمْتَنِعِينَ،فَيَجِبُ قِتَالُهُمْ عَلَى الرِّدَّةِ بَعْدَ مُنَاظَرَتِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَإِيضَاحِ

[٢٢٢٧] - بداية المجتهد ٢ / ٤٩٨،والتاج والإكليل ٦ / ٢٨١ .

[٢٢٢٨] - التاج والإكليل ٣ / ٣٨٦ .

[٢٢٢٩] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٧)

دَلَائله،وَيَجْري عَلَى قتَالهِمْ بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْإِعْذَارِ حُكْمُ قِتَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ فِي قِتَالِهِمْ غُـــرَّةً وَبَيَانًا،وَمُصَافَّتِهِمْ فِي الْحَرْبِ جِهَارًا،وَقِتَالِهِمْ مُقْبِلِينَ وَمُدْبِرِينَ.

وَمَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ جَازَ قَتْلُهُ صَبْرًا إنْ لَمْ يَتُبْ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَرَقَّ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَـــهُ اللَّهُ،وَإِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ لَمْ تُسْبَ ذَرَارِيُّهُمْ،وَسَوَاءٌ مِنْ وُلِدَ مِـــنْهُمْ فِـــي الْإِسْـــلَامِ أَوْ بَعْـــدَ الرِّدَّةِ،وَقِيلَ:إنَّ مَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ الرِّدَّةِ جَازَ سَبْيُهُ."[٢٢٣٠]

وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لاَ تُقْتَل،وَإِنَّمَا تُحْبَسُ حَتَّى تَتُوبَ.

أَمَّا لَوْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُقَاتِل،أَوْ كَانَتْ ذَاتَ رَأْيٍ فَإِنَّهَا تُقْتَل اتِّفَاقًا.لَكِنَّهَا عِنْدَ الْحَنَفِيَّة تُقْتَل لاَ لِرِدَّتِهَا،بَل لأَنَّهَا تَسْعَى بِالْفَسَاد.

وَيَسْتَدِل الْحَنَفِيَّةُ عَلَى عَدَمِ قَتْل الْمَرْأَة الْمُرْتَدَّة إِذَا أُخِذَتْ سَبْيًا بِمَا رُوِيَ عَنْ رَبَاحِ بْـــنِ الرَّبِيعِ أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا،وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ،فَمَرَّ رَبَاحٌ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتْهُ الْمُقَدِّمَةُ،فَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ،قَالَ:فَفَرَّجُوا عَنِ الْمَرْأَةِ،فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهَا،ثُمَّ قَالَ:" هَا مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتَلُ ".قَالَ:ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ:" الْحَقْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَلَا يَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا ".[٢٢٣١]

وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ الأَصْلِيِّ وَالْكُفْرِ الطَّارِئِ،فَإِنَّ الْحَرْبِيَّةَ إِذَا سُبِيَتْ لاَ تُقْتَل.[٢٢٣٢]

وَيَتَّفِقُ فُقَهَاءُ الْمَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَخْذُ الْفِدَاءِ مِنَ الأَسْرَى الْمُرْتَـــدِّينَ،وَلاَ الْمَنُّ عَلَيْهِمْ بِأَمَانٍ مُؤَقَّتٍ أَوْ أَمَانٍ مُؤَبَّدٍ،وَلاَ يُتْرَكُ عَلَى رِدَّتِهِ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ.كَمَا يَتَّفِقُـــونَ

[٢٢٣٠] - الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٩٦)

[٢٢٣١] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٥٥)(١٨١٥٧) صحيح وانظر :المبسوط ١٠ / ٩٨،والمهذب ٢ / ٢٢٣،وأسنى المطالب ٤ / ١٢١،وبداية المجتهد ٢ / ٤٩٨،وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٤،والمغني ١٠ / ٧٤،والفروع ٣ / ٥٥٧،والفتح ٤ / ٣٨٩ .

[٢٢٣٢] - المبسوط ١٠ / ١٠٩،١٠٨،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٨٥،والخراج لأبي يوسف ص ١٧٩،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٩٨،والبحر الرائق ٥ / ١٣٨،وغنية ذوي الأحكام بهامش درر الحكام شرح غرر الأحكام ١ / ٣٠١ .

عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ مِنَ الرِّجَالِ لاَ يَجْرِي فِيهِ إِلاَّ:الْعَوْدَةُ إِلَى الإِسْلاَمِ أَوِ الْقَتْلِ،لأَنَّ قَتْلَ الْمُرْتَدِّ عَلَى رِدَّتِهِ حَدٌّ،وَلاَ يُتْرَكُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لِمَنْفَعَةِ الأَفْرَادِ.[٢٢٣٣]

وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّ الرِّقَّ لاَ يَجْرِي عَلَى الْمُرْتَدَّةِ أَيْضًا،وَإِنْ لَحِقَتْ بِدَارِ الْحَرْبِ،لأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ إِمْرَارُ أَحَدٍ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ عَلَى الْكُفْرِ بِالاِسْتِرْقَاقِ،بَيْنَمَا يَرَى الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ الْمُرْتَدَّةَ تُسْتَرَقُّ بَعْدَ اللَّحَاقِ بِدَارِ الْحَرْبِ،وَلاَ تُسْتَرَقُّ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،كَمَا فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ،وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ فِي النَّوَادِرِ:أَنَّهَا تُسْتَرَقُّ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ أَيْضًا.

وَقَالُوا فِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ:إِنَّهُ لَمْ يُشْرَعْ قَتْلُهَا،وَلاَ يَجُوزُ إِبْقَاءُ الْكَافِرِ عَلَى الْكُفْرِ إِلاَّ مَعَ الْجِزْيَةِ أَوْ مَعَ الرِّقِّ،وَلاَ جِزْيَةَ عَلَى النِّسَاءِ،فَكَانَ إِبْقَاؤُهَا عَلَى الرِّقِّ أَنْفَعُ.وَقَدِ اسْتَرَقَّ الصَّحَابَةُ نِسَاءَ مَنِ ارْتَدَّ.[٢٢٣٤]

وَبِالنِّسْبَةِ لأَصْحَابِ الأَعْذَارِ مِنَ الأَسْرَى الْمُرْتَدِّينَ،فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ أَيْضًا.وَنَقَلَ السَّرَخْسِيُّ قَوْلاً بِأَنَّ حُلُولَ الآفَةِ بِمَنْزِلَةِ الأُنُوثَةِ،لأَنَّهُ تَخْرُجُ بِهِ بِنْيَتُهُ (هَيْئَتُهُ وَجِسْمُهُ) مِنْ أَنْ تَكُونَ صَالِحَةً لِلْقِتَالِ،فَعَلَى هَذَا لاَ يُقْتَلُونَ بَعْدَ الرِّدَّةِ،كَمَا لاَ يُقْتَلُونَ فِي الْكُفْرِ الأَصْلِيِّ.[٢٢٣٥]

وَعَلَى قَوْلِ مَنْ يَرَى وُجُوبَ قَتْلِ الْمُرْتَدَّةِ – إِذَا كَانَتِ الأَسِيرَةُ الْمُرْتَدَّةُ ذَاتَ زَوْجٍ،وَهِيَ مِنْ ذَوَاتِ الْحَيْضِ – فَإِنَّهَا تُسْتَبْرَأُ بِحَيْضَةٍ قَبْلَ قَتْلِهَا خَشْيَةَ أَنْ تَكُونَ حَامِلاً،فَإِنْ ظَهَرَ بِهَا حَمْلٌ أُخِّرَتْ حَتَّى تَضَعَ،فَإِنْ كَانَتْ مِمَّنْ لاَ تَحِيضُ اُسْتُبْرِئَتْ بِثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ إِنْ كَانَتْ مِمَّنْ يُتَوَقَّعُ حَمْلُهَا،وَإِلاَّ قُتِلَتْ بَعْدَ الاِسْتِتَابَةِ.[٢٢٣٦]

قلت:" فللأمير أن يمن على أسرى المرتدين،وله أن يفاديهم بالمال،أو بأسرى المسلمين،كما له أن يقتلهم،يفعل ذلك بحسب ما يرجو من مصلحة العمل الإسلامي والجماعة المجاهدة."

[٢٢٣٣] – المغني ١٠ / ٧٥،والمقنع ٣ / ٥١٦،وشرح روض الطالب من أسنى المطالب ٤ / ١٢٢،والمهذب ٢ / ٢٢٢،وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٤،والمبسوط ١٠ / ١٠٨ .

[٢٢٣٤] – البحر الرائق ٥ / ١٣٨،والمبسوط ١٠ / ١١١،١١٤،وفتح القدير ٤ / ٣٨٨،٣٨٩،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٣٠٠،والبدائع ٧ / ١٣٦،والمغني ١٠ / ٧٤،وأسنى المطالب ٤ / ١٢٢،والدسوقي ٤ / ٣٠٤

[٢٢٣٥] – المبسوط ١٠ / ١١١ .

[٢٢٣٦] – الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٤ .

وقال الصديق لمن ارتد وأسر:" تشهدون أن قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النـــار،وأن مـــا أخذنا منكم فهو لنا وأن ما أخذتموه منا فهو رد علينا،وأنا على حق وأنكم على باطـــل وكفر ونحكم فيكم بما رأينا،فأقروا بذلك،فقال:اخرجوا عن مدينتكم عــزلا لا ســـلاح معكم،ففعلوا،فدخل المسلمون حصنهم،فقال حذيفة:إنى قد حكمت فـــيكم:أن أقتـــل أشرافكم،وأسبى ذراريكم.فقتل من أشرافهم مائة رجل،وسبى ذراريهم،وقـــدم حذيفـــة بسبيهم إلى المدينة وهم ثلاثمائة من المقاتلة،وأربعمائة من الذرية والنســـاء،وأقام عكرمـــة بدبا عاملا عليها لأبى بكر،فلما قدم حذيفة بسبيهم المدينة،اختلف فيهم المسلمون،فكان زيد بن ثابت يحدث أن أبا بكر أنزلهم دار رملة بنت الحارث،وهو يريد أن يقتل من بقى من المقاتلة.

فكان من كلام عمر له:يا خليفة رسول الله،قوم مؤمنون إنما شحوا على أموالهم،والقـــوم يقولون:والله ما رجعنا عن الإسلام،ولكن شححنا على أموالنا،فيأبى أبو بكر أن يـــدعهم بهذا القول،ولم يزالوا موقفين فى دار رملة بنت الحارث،حتى توفى أبو بكـــر رضـــى الله عنه،وولى عمر،فدعاهم،فقال:قد كان من رأيي يـــوم قـــدم بكـــم علـــى أبى بكـــر أن يطلقكم،وقد أفضى إلى الأمر،فانطلقوا إلى أى البلاد شئتم،فأنتم قوم أحـــرار لا فديـــة عليكم،فخرجوا حتى نزلوا البصرة"[٢٢٣٧]

وكما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه مع المرتدين مـــن بـــني حنيفة،صـــالحهم ولم يقتلهم،للأسباب التي ذكرها بقوله:(إني والله ما ابتغيت في ذلك إلا الذي هو خير،رأيت أهل السابقة وأهل القرآن قد قتلوا...إلى آخر مقولته) بعد إن اعترض عليـــه أصـــحابه لمخالفته أمر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه،ثم اقره بعد ذلك رغم كرهتـــه لفعلـــه،ورد إعتراض عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقول أبي بكـــر الصـــديق لعمـــر:(دع عنـــك هذا)،فقال عمر:(سمعا وطاعة) رضي الله عن الجميع"[٢٢٣٨]

[٢٢٣٧] – الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله – ﷺ – والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٥٥)

[٢٢٣٨] – مختصر سيرة الرسول ﷺ لمحمد بن عبد الوهاب (ص:٢٨٣)

فانظر – هداك الله – إلى قول المخالفين الذين يصرون ويجادلون من غير علم ولا فقه ولا تثبت ولا رجوع إلى أهل العلم.

إن من المهم في هذا الأمر وغيره من أمور السياسة الشرعية مراعاة أحوال المسلمين اليوم من ضعفهم،وقوة عدوهم في قضية التعامل مع المرتدين وسائر الكفرة في صراعهم لأجل عودة دولتهم وعزهم لأن ما لم يكن فيه مصلحة في زمن قوة المسلمين وتمكنهم وضعف المرتدين وقدرة المسلمين حين ذاك من القضاء عليهم دون عناء ومن غير مفسدة يكــون اليوم بخلاف ذلك لتغير حال المسمين في مواجهة المرتدين.

ومما يجدر للمجاهدين معرفته إن تقرير المصلحة والمفسدة،وترجيح أحدهما على الآخــر يكون للأمراء،وأهل الحل والعقد في الجماعة الإسلامية،ولا يجوز للاتباع مخالفتهم فيمــا يتوصلون إليه،حفاظاً على وحدة الجماعة وتماسكها ومنعا للتفرق والتناحر والشقاق،حتى لو كان للأتباع رأي مخالف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله:" وَعَلَى الْأَتْبَاعِ اتِّبَاعُ مَنْ وَلِيَ أَمْرَهُمْ مِنْ الْــأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فِيمَا سَاغَ لَهُ اتِّبَاعُهُ وَأَمَرَ فِيهِ بِاتِّبَاعِ اجْتِهَادِهِ كَمَا عَلَى الْأُمَّةِ اتِّبَاعُ أَيِّ نَبِيٍّ بُعِثَ إلَيْهِمْ وَإِنْ خَالَفَ شَرْعُهُ شَرْعَ الْأَوَّلِ "[٢٢٣٩]

وقال الجويني رحمه الله:"وَلَوْ لَمْ يَتَعَيَّنْ إِتِّبَاعُ الْإِمَامِ فِي مَسَائِلِ التَّحَرِّي لَمَا تَــأْتِي فَصْــلَ الْخُصُومَاتِ فِي الْمُجْتَهَدَاتِ،وَلَاسْتَمْسَكَ كُلُّ خَصْمٍ بِمَذْهَبِهِ وَمَطْلَبِهِ،وَبَقِيَ الْخُصَمَاءُ فِي مَجَالِ خِلَافِ الْفُقَهَاءِ مُرْتَبِكِينَ فِي خُصُومَاتٍ لَا تَنْقَطِعُ،وَمُعْظَمُ حُكُومَاتِ الْعِبَــادِ فِــي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ."[٢٢٤٠]

يقول الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز:(ولا ينبغي لآحاد الرعيــة أن يطالــب الأمــير بالأفضل،طالما أداه اجتهاده إلى أن العمل بالمفضول أصلح للناس،وأجمع لشــملهم مــن الاختلاف والتفرق وهذا يدخل في قاعدة؛"درء المفاسد أولى من جلب المنافع")[٢٢٤١]

[٢٢٣٩] – مجموع الفتاوى (١٩/ ١٢٤)

[٢٢٤٠] – غياث الأمم في التياث الظلم (ص:٢١٧)

[٢٢٤١] – [العمدة في إعداد العدة/٢٠٦]

وقال أيضا:(ولا يجوز لآحاد من الرعية مخالفة الأمير في هذا – أي المفضول – تورعاً فيعمل بالأمر الأفضل حرصاً على مزيد الأجر والثوب،فان ما يقع فيه من الإثم بمعصية الأمير،وشق وحدة الصف،أعضم مما يرجوه من ثواب)[2242]

فإن الحكم ابتداءً بالكفر على أعيانهم وحالهم ما ذكرت فيه ظلم،خاصةً ما يترتب على هذا الحكم من وجوب قتلهم،وحتى اذا كان لهم وصف الكفر فإن عقوبة الكفر لا تكون إلا بعد بلوغ الحجة الرسالية عند مظنة الجهل الذي يغلب عليهم وانتفاء الموانع بحقهم وهذا للمقدور عليه منهم،ويصير غير المقدور عليهم الممتنع،مقدوراً عليه بالأسر.

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله:" مَنْ جَحَدَ وُجُوبَ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ:كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَوْ جَحْدِ تَحْرِيمِ بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ:كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالزِّنَا وَغَيْرِ ذَلِكَ.أَوْ جَحْدِ حِلِّ بَعْضِ الْمُبَاحَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ:كَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَالنِّكَاحِ.فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ وَإِنْ أَضْمَرَ ذَلِكَ كَانَ زِنْدِيقًا مُنَافِقًا لَا يُسْتَتَابُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛بَلْ يُقْتَلُ بِلَا اسْتِتَابَةٍ إذَا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ.وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِلُّ بَعْضَ الْفَوَاحِشِ:كَاسْتِحْلَالِ مُؤَاخَاةِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ وَالْخُلُوِّ بِهِنَّ زَعْمًا مِنْهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُنَّ الْبَرَكَةُ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُنَّ وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا فِي الشَّرِيعَةِ.وَكَذَلِكَ مَنْ يَسْتَحِلُّ ذَلِكَ مِنْ المردان وَيَزْعُمُ أَنَّ التَّمَتُّعَ بِالنَّظَرِ إلَيْهِمْ وَمُبَاشَرَتَهُمْ هُوَ طَرِيقٌ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ حَتَّى يَتَرَقَّى مِنْ مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ إلَى مَحَبَّةِ الْخَالِقِ وَيَأْمُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى وَقَدْ يَسْتَحِلُّونَ الْفَاحِشَةَ الْكُبْرَى كَمَا يَسْتَحِلُّهَا مَنْ يَقُولُ:إنَّ التلوط مُبَاحٌ بِمِلْكِ الْيَمِينِ.فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْتَحِلُّ قَتْلَ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ.وَيَسْبِي حَرِيمَهُمْ وَيَغْنَمُ أَمْوَالَهُمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا ظَاهِرًا مُتَوَاتِرًا.

لَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ جَاهِلًا بِبَعْضِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ جَهْلًا يُعْذَرُ بِهِ فَلَا يُحْكَمُ بِكُفْرِ أَحَدٍ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مِنْ جِهَةِ بَلَاغِ الرِّسَالَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

[2242] - [ص ٣٧٨].

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} وَلِهَذَا لَوْ أَسْلَمَ رَجُلٌ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ؛أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْخَمْرَ يَحْرُمُ لَمْ يَكْفُرْ بِعَدَمِ اعْتِقَادِ إيجَابِ هَذَا وَتَحْرِيمِ هَذَا؛بَلْ وَلَمْ يُعَاقَبْ حَتَّى تَبْلُغَهُ الْحُجَّةُ النَّبَوِيَّةُ.بَلْ قَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ أَسْلَمَ بِدَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ وَاجِبَةٌ ثُمَّ عَلِمَ.هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ قَضَاءُ مَا تَرَكَهُ فِي حَالِ الْجَهْلِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ:أَحَدُهُمَا:لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ.وَالثَّانِي:يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ "[2243]

أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ فِي يَدِ الأَعْدَاءِ:

اسْتِئْسَارُ الْمُسْلِمِ وَمَا يَنْبَغِي لاسْتِنْقَاذِهِ عِنْدَ تَتَرُّسِ الْكُفَّارِ بِهِ:

أ – الاسْتِئْسَارُ:

الاسْتِئْسَارُ هُوَ تَسْلِيمُ الْجُنْدِيِّ نَفْسَهُ لِلأَسْرِ،فَقَدْ يَجِدُ الْجُنْدِيُّ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا لِذَلِكَ.وَقَدْ وَقَعَ الاسْتِئْسَارُ مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِمَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ.رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيُّ،وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ»،فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالهَدَأَةِ،وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ،ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ،يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ،فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ،فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ المَدِينَةِ،فَقَالُوا:هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ،فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ وَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ،فَقَالُوا لَهُمْ:انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ [ص:٦٨]،وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ،وَلاَ نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا،قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ:أَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ لاَ أَنْزِلُ اليَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ،اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ،فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ بِالعَهْدِ وَالمِيثَاقِ،مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ،وَابْنُ دَثِنَةَ،وَرَجُلٌ آخَرُ،فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ

[2243] – مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٥) وانظر :بحث في أسرى المرتدين

قسيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ،فقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ:هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ،وَاللَّهِ لاَ أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي فِي هَؤُلاَءِ لَأُسْوَةً يُرِيدُ القَتْلَى،فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ،فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ،وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ،فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ،وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ،فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا،فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ،أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ:أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا،فَأَعَارَتْهُ،فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ قَالَتْ:فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ،فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي،فَقَالَ:تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ،وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ،وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ،وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ،وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ،وَكَانَتْ تَقُولُ:إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا،فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ،قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ:ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ،فَتَرَكُوهُ،فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا،اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا،

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا...عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ...يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الحَارِثِ فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا،فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ،«فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ،وَمَا أُصِيبُوا،وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ،لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ،وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ،فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ،فَحَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ،فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا»[2244] فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا

[2244] - صحيح البخاري (٤/ ٦٧) (٣٠٤٥)

[ش (رهط) جماعة من الرجال ما دون العشرة وقيل ما دون الأربعين.(سرية) قطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وهذه السرية تسمى سرية الرجيع وكانت في صفر سنة أربع من الهجرة والرجيع اسم لماء بين مكة وعسفان.(عينا) جاسوسا يستطلع أخبار العدو.(بالهدأة) اسم موضع.(فاقتصوا آثارهم) اتبعوها.(فدفد) موضع مرتفع أو مكان مشرف.(أعطونا بأيديكم) استسلموا لنا.(لكم العهد والميثاق) لكم منا الذمة أن لا نغدر بكم.(في سبعة) في جملة سبعة.(رجل آخر) هو عبد الله ابن طارق البلوي.(قسيهم) جمع قوس وهو ما يرمى عنه بالنبل.(فابتاع) اشترى.(موسى) سكينا صغيرة من حديد.(يستحد) من الاستحداد وهو حلق شعر العانة وهي ما ينبت حول

حَدَثَ،وَعَدَمُ إِنْكَارِهِ يَدُل عَلَى أَنَّ الاسْتِئْسَارَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مُرَخَّصٌ فِيهِ،وَقَال الْحَسَنُ:لاَ بَأْسَ أَنْ يُسْتَأْسَرُ الرَّجُل إِذَا خَافَ أَنْ يُغْلَبَ.[2245]وَإِلَى هَذَا اتَّجَهَ كُلٌّ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ.

وَقَدْ نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى شُرُوطٍ يَلْزَمُ تَوَافُرُهَا لِجَوَازِ الاسْتِئْسَارِ هِيَ:أَنْ يَخَافَ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى عَدَمِ الاسْتِسْلاَمِ قَتْلُهُ فِي الْحَال،وَأَلاَّ يَكُونَ الْمُسْتَسْلِمُ إِمَامًا،أَوْ عِنْدَهُ مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يُمْكِنُهُ مِنَ الصُّمُودِ،وَأَنْ تَأْمَنَ الْمَرْأَةُ عَلَى نَفْسِهَا الْفَاحِشَةَ.

وَالأَوْلَى – كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْحَنَابِلَةُ – إِذَا مَا خَشِيَ الْمُسْلِمُ الْوُقُوعَ فِي الأَسْرِ أَنْ يُقَاتِل حَتَّى يُقْتَل،وَلاَ يُسْلِمَ نَفْسَهُ لِلأَسْرِ،لأَنَّهُ يَفُوزُ بِثَوَابِ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ،وَيَسْلَمُ مِنْ تَحَكُّمِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِ بِالتَّعْذِيبِ وَالاسْتِخْدَامِ وَالْفِتْنَةِ،وَإِنِ اسْتَأْسَرَ جَازَ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ.[2246]

ب – اسْتِنْقَاذُ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَمُفَادَاتُهُمْ:

إِذَا وَقَعَ الْمُسْلِمُ أَسِيرًا فَهُوَ حُرٌّ عَلَى حَالِهِ،وَكَانَ فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،يَلْزَمُهُمُ الْعَمَل عَلَى خَلاَصِهِ،وَلَوْ بِتَيْسِيرِ سُبُل الْفِرَارِ لَهُ،وَالتَّفَاوُضِ مِنْ أَجْل إِطْلاَقِ سَرَاحِهِ،فَإِذَا لَمْ يُطْلِقُوا سَرَاحَهُ تَرَبَّصُوا لِذَلِكَ.وَقَدْ كَانَ الرَّسُول ﷺ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِتَخْلِيصِ الأَسْرَى.قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:فَحَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ،وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ:مَنْ لِي بِعَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ،وَهِشَامِ بْنِ الْعَاصِي؟ فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ:أَنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِهِمَا،فَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ،فَقَدِمَهَا مُسْتَخْفِيًا،فَلَقِيَ امْرَأَةً تَحْمِلُ طَعَامًا،فَقَالَ لَهَا:أَيْنَ تُرِيدِينَ يَا أَمَةَ اللَّهِ؟ قَالَتْ:أُرِيدُ هَذَيْنِ الْمَحْبُوسَيْنِ– تَعْنِيهِمَا– فَتَبِعَهَا حَتَّى عَرَفَ مَوْضِعَهُمَا،وَكَانَا مَحْبُوسَيْنِ فِي بَيْتٍ لَا سَقْفَ لَهُ،فَلَمَّا أَمْسَى تَسَوَّرَ عَلَيْهِمَا،ثُمَّ أَخَذَ مَرْوَةً

الفرج.(فزعة) خوفة.(عرفها) رأى أثرها.(قطف) عنقود.(لموثق) لمربوط في الحديد.(ذروني) اتركوني.(الحل) خارج الحرم.(ما بي) صلاتي واستمهالي.(جزع) خوف وضجر وهو ضد الصبر.(أحصهم عددا) استأصلهم بالهلاك ولا تبق منهم أحدا.(مصرعي) موتي وهلاكي.(أوصال) جمع وصل وهو المفصل أو مجتمع العظام.(شلو) عضو أو قطعة من اللحم.(ممزع) مقطع.(مثل الظلة) السحابة المظلة.(الدبر) ذكور النحل أو الزنابير واحدة دبرة]

[2245] – شرح صحيح البخارى لابن بطال (٥/ ٢٠٧) وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٤/ ٢٩٤)

[2246] – التاج والإكليل بهامش مواهب الجليل ٣ / ٣٥٧،وفتح الوهاب ٢ / ١٧١،والمغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٥٥٣،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٣٠،والدر المختار بهامش حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٢ .

فَوَضَعَهَا تَحْتَ قَيْدَيْهِمَا،ثُمَّ ضَرَبَهُمَا بِسَيْفِهِ فَقَطَعَهُمَا،فَكَانَ يُقَالُ لِسَيْفِهِ:«ذُو الْمَرْوَةِ» لِذَلِكَ،ثُمَّ حَمَلَهُمَا عَلَى بَعِيرِهِ،وَسَاقَ بِهِمَا،فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ أُصْبُعُهُ،فَقَالَ:

هَلْ أَنْت إِلَّا أُصْبُعٌ دَمَيْت...وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقَيْت

ثُمَّ قَدِمَ بِهِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ..[2247]

قال ابن إسحاق:" فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَذَا مِنْ الْأَمْرِ وَفَرَّجَ اللهُ تَعَالَى عَنْ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الشّفَقِ قَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعِيرَ وَالْأَسِيرَيْنِ وَبَعَثَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي فِدَاءِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَالْحَكَمِ بْنِ كَيْسَانَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "لَا نُفْدِيكُمُوهَا حَتّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا" - يَعْنِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ،وَعُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ - "فَإِنّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا،فَإِنْ تَقْتُلُوهُمَا،نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُمْ".فَقَدِمَ سَعْدٌ وَعُتْبَةُ فَأَفْدَاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُم."[2248]

وَكَذَلِكَ فَعَل فِي اسْتِنْقَاذِ عُثْمَانَ وَعَشَرَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.

عَنْ حِبَّانَ بْنِ أَبِي جَبَلَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي فَيْئِهِمْ أَنْ يُفَادُوا أَسِيرَهُمْ وَيُؤَدُّوا عَنْ غَارِمِهِمْ».[2249]

وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:لأَنْ أَسْتَنْقِذَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.[2250].

وَيَجِبُ اسْتِنْقَاذُ الأَسْرَى بِالْمُقَاتَلَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ مَيْسُورًا،فَإِذَا دَخَل الْمُشْرِكُونَ دَارَ الإِسْلاَمِ فَأَخَذُوا الأَمْوَال وَالذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ،ثُمَّ عَلِمَ بِهِمْ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ،وَلَهُمْ عَلَيْهِمْ قُوَّةٌ،فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ مَا دَامُوا فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،فَإِنْ دَخَلُوا بِهِمْ دَارَ

[2247] - المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي (١/ ٢٤٥) والروض الأنف ت السلامي (٤/ ١١٥) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٣/ ٢٢٧) وسيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٤٧٦) وعيون الأثر (١/ ٢٠٢) بلا سند - المروة:الحجر.

[2248] - إمتاع الأسماع (١/ ٧٧) والروض الأنف ت السلامي (٥/ ٥٦) والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٣٧٢) والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٣٦٩) وزاد المعاد - موافق للمطبوع (٥/ ٥٨) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٦/ ١٩) وسيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٦٠٤)

[2249] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤١)(٢٨٢١) فيه ضعف

[2250] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٧)(٣٣٩٢٨) صحيح

الْحَرْبِ،فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ إِذَا غَلَبَ عَلَى رَأْيِهِمْ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى اسْتِنْقَاذِهِمْ،فَإِنْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الْقِتَال لِتَخْلِيصِهِمْ فَتَرَكُوهُ كَانُوا فِي سَعَةٍ مِنْ ذَلِكَ،فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ فِي يَدِ الْكُفَّارِ بَعْضَ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجِبُ عَلَى كُل وَاحِدٍ مِنَّا الْخُرُوجُ لِقِتَالِهِمْ لاِسْتِنْقَاذِ الأَسْرَى.[2251]

وَالاِسْتِنْقَاذُ إِذَا لَمْ يَتَيَسَّرْ عَنْ طَرِيقِ الْقِتَال فَإِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَنْ طَرِيقِ الْفِدَاءِ بِتَبَادُل الأَسْرَى،عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُ الْقَوْل فِيهِ،كَمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ بِالْمَال أَيْضًا،عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَطْعِمُوا الجَائِعَ،وَعُودُوا المَرِيضَ،وَفُكُّوا العَانِيَ» قَالَ سُفْيَانُ:" وَالعَانِي:الأَسِيرُ "[2252]

لأَنَّ مَا يُخَافُ مِنْ تَعْذِيبِ الأَسِيرِ أَعْظَمُ فِي الضَّرُورَةِ مِنْ بَذْل الْمَال،فَجَازَ دَفْعُ أَعْظَمِ الضَّرَرَيْنِ بِأَخَفِّهِمَا.[2253]

وَالْحَنَفِيَّةُ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَال،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَفْتَدُوهُ.عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:كُلُّ أَسِيرٍ كَانَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَفِكَاكُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.[2254]

وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَالِكِيَّةُ،كَمَا نَقَلَهُ الْمَوَّاقُ عَنِ ابْنِ بَشِيرٍ مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ فِي بَيْتِ الْمَال،فَإِنْ تَعَذَّرَ فَعَلَى عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ،وَالأَسِيرُ كَأَحَدِهِمْ،فَإِنْ ضَيَّعَ الإِمَامُ وَالْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الأَسِيرِ مِنْ مَالِهِ،وَهُوَ مَا رَوَاهُ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضًا.

وَفِي الْمُهَذَّبِ أَنَّهُ وَجْهٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ.[2255]

وَالْوَجْهُ الثَّانِي عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:أَنَّ بَذْل الْمَال لِفَكِّ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ – إِنْ خِيفَ تَعْذِيبُهُمْ – جَائِزٌ عِنْدَ الضَّرُورَةِ،وَيَكُونُ فِي مَالِهِمْ،وَيُنْدَبُ عِنْدَ الْعَجْزِ افْتِدَاءُ الْغَيْرِ لَهُ،فَمَنْ قَال

[2251] – شرح السير الكبير ١ / ٢٠٧ .والتاج والإكليل بهامش مواهب الجليل ٣ / ٣٨٧،وفتح الوهاب شرح منهج الطلاب ٢ / ١٧١ .وحاشية الجمل ٥ / ١٥٢ .والمغني ١٠ / ٤٩٨ .

[2252] – صحيح البخاري (٧/ ٦٧) (٥٣٧٣)

[2253] – المغني ١٠ / ٤٩٨،والتاج والإكليل ٣ / ٣٨٨،والمذهب ٢ / ٢٦٠ .

[2254] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٦١) (٣٣٩٣٧) حسن

[2255] – الخراج ص ١٩٦،وحاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢ / ٢٠٧،والتاج والإكليل ٣ / ٣٨٧،والمهذب ٢ / ٢٦٠ .

لِكَافِرٍ:أَطْلِقْ هَذَا الأَسِيرَ،وَعَلَيَّ كَذَا،فَأَطْلَقَهُ لَزِمَهُ،وَلاَ يَرْجِعُ عَلَى الأَسِيرِ مَا لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِي فِدَائِهِ.[٢٢٥٦]

وَأَسْرُ الْمُسْلِمِ الْحُرِّ لاَ يُزِيل حُرِّيَّتَهُ،فَمَنِ اشْتَرَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ لاَ يَمْلِكُهُ،وَإِنِ اشْتَرَاهُ مُسْلِمٌ بِغَيْرِ أَمْرِهِ فَهُوَ مُتَطَوِّعٌ فِيمَا أَدَّى مِنْ فِدَائِهِ،وَإِنِ اشْتَرَاهُ بِأَمْرِهِ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ عَلَيْهِ بِالثَّمَنِ الَّذِي اشْتَرَاهُ بِهِ،وَالْقِيَاسُ لاَ يَرْجِعُ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَشْتَرِطَ ذَلِكَ نَصًّا.[٢٢٥٧]

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ – كَمَا يَرْوِي الْمَوَّاقُ – أَنَّ لِلْمُشْتَرِيَّ أَنْ يَرْجِعَ عَلَيْهِ،شَاءَ أَوْ أَبَى،لأَنَّهُ فِدَاءٌ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ أُتُّبِعَ بِهِ فِي ذِمَّتِهِ.وَلَوْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ،فَالَّذِي فَدَاهُ وَاشْتَرَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ أَحَقُّ بِهِ مِنْ غُرَمَائِهِ.أَمَّا إِنْ كَانَ يَقْصِدُ الصَّدَقَةَ،أَوْ كَانَ الْفِدَاءُ مِنْ بَيْتِ الْمَال فَلاَ يَرْجِعُ عَلَيْهِ،وَكَذَا إِنْ كَانَ الأَسِيرُ يَرْجُو الْخَلاَصَ بِالْهُرُوبِ أَوِ التَّرْكِ.[٢٢٥٨]

وَلَوْ خَلَّى الْكُفَّارُ الأَسِيرَ،وَاسْتَحْلَفُوهُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ بِفِدَائِهِ،أَوْ يَعُودَ إِلَيْهِمْ،فَإِنْ كَانَ هَذَا نَتِيجَةَ إِكْرَاهٍ لَمْ يَلْزَمْهُ الْوَفَاءُ،وَإِنْ لَمْ يُكْرَهْ عَلَيْهِ وَقَدَرَ عَلَى الْفِدَاءِ لَزِمَهُ،وَبِهَذَا قَال عَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ وَالنَّخَعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَالأَوْزَاعِيُّ،لِوُجُوبِ الْوَفَاءِ،وَلأَنَّ فِيهِ مَصْلَحَةَ الأُسَارَى،وَفِي الْغَدْرِ مَفْسَدَةٌ فِي حَقِّهِمْ.وَقَال الشَّافِعِيُّ:لاَ يَلْزَمُهُ،لأَنَّهُ حُرٌّ لاَ يَسْتَحِقُّونَ بَدَلَهُ.

وَأَمَّا إِنْ عَجَزَ عَنِ الْفِدَاءِ،فَإِنْ كَانَتِ امْرَأَةً فَإِنَّهُ لاَ يَحِل لَهَا الرُّجُوعُ إِلَيْهِمْ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الممتحنة:١٠]،وَلأَنَّ فِي رُجُوعِهَا تَسْلِيطًا لَهُمْ عَلَى وَطْئِهَا حَرَامًا.

وَإِنْ كَانَ رَجُلاً،فَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ لاَ يَرْجِعُ،وَهُوَ قَوْل الْحَسَنِ وَالنَّخَعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ.وَفِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَهُمْ يَلْزَمُهُ،وَهُوَ قَوْل عُثْمَانَ وَالزُّهْرِيِّ وَالأَوْزَاعِيِّ،لأَنَّ

[٢٢٥٦] – المهذب ٢ / ٢٦٠ .

[٢٢٥٧] – شرح السير الكبير ٣ / ١٠٣٣،وحاشية الجمل ٥ / ١٩٢ .

[٢٢٥٨] – التاج والإكليل ٣ / ٣٨٨،وحاشية الدسوقي ٢ / ٢٠٧ .

النَّبيَّ ﷺ حينَ صَالَحَ قُرَيْشًا عَلَى رَدِّ مَنْ جَاءَ منْهُمْ مُسْلمًا أَمْضَى اللَّهُ ذَلكَ في الرِّجَال،وَنَسَخَهُ في النِّسَاء [2259]

ج – التَّتَرُّسُ بأُسَارَى الْمُسْلمينَ:

التُّرْسُ بضَمِّ التَّاء:مَا يُتَوَقَّى به في الْحَرْب،يُقَال:تَتَرَّسَ بالتُّرْس إذَا تَوَقَّى [2260]،وَمنْ ذَلكَ تَتَرُّسُ الْمُشْركينَ بالأَسْرَى منَ الْمُسْلمينَ وَالذِّمِّيِّينَ في الْقتَال،لأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُمْ كَالتِّرَاس،فَيَتَّقُونَ بهمْ هُجُومَ جَيْش الْمُسْلمينَ عَلَيْهمْ،لأَنَّ رَمْيَ الْمُشْركينَ – مَعَ تَتَرُّسهمْ بالْمُسْلمينَ – يُؤَدِّي إلَى قَتْل الْمُسْلمينَ الَّذينَ نَحْرصُ عَلَى حَيَاتهمْ وَإنْقَاذهمْ منَ الأَسْر.وَقَدْ عُنيَ الْفُقَهَاءُ بهَذه الْمَسْأَلَة،وَتَنَاوَلُوهَا منْ نَاحيَة جَوَاز الرَّمْي مَعَ التَّتَرُّس بالْمُسْلمينَ أَو الذِّمِّيِّينَ،كَمَا تَنَاوَلُوهَا منْ نَاحيَة لُزُوم الْكَفَّارَة وَالدِّيَة،وَإلَيْكَ اتِّجَاهَاتُ الْمَذَاهب في هَذَا:

أ – رَمْيُ التُّرْس:

منْ نَاحيَة رَمْي التُّرْس:يَتَّفقُ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ في تَرْك الرَّمْي خَطَرٌ مُحَقَّقٌ عَلَى جَمَاعَة الْمُسْلمينَ،فَإنَّهُ يَجُوزُ الرَّمْيُ برَغْم التَّتَرُّس،لأَنَّ في الرَّمْي دَفْعَ الضَّرَر الْعَامِّ بالذَّبِّ عَنْ بَيْضَة الإسْلاَم،وَقَتْل الأَسير ضَرَرٌ خَاصٌّ.وَيُقْصَدُ عنْدَ الرَّمْي الْكُفَّارُ لاَ التُّرْسُ،لأَنَّهُ إنْ تَعَذَّرَ التَّمْييزُ فعْلاً فَقَدْ أَمْكَنَ قَصْدًا،وَنَقَل ابْنُ عَابدينَ عَن السَّرَخْسيِّ أَنَّ الْقَوْل للرَّامي بيَمينه في أَنَّهُ قَصَدَ الْكُفَّارَ،وَلَيْسَ قَوْل وَليِّ الْمَقْتُول الَّذي يَدَّعي الْعَمْدَ. [2261]

أَمَّا في حَالَة خَوْف وُقُوع الضَّرَر عَلَى أَكْثَر الْمُسْلمينَ فَكَذَلكَ يَجُوزُ رَمْيُهُمْ عنْدَ جُمْهُور الْفُقَهَاء،لأَنَّهَا حَالَةُ ضَرُورَةٍ أَيْضًا،وَتَسْقُطُ حُرْمَةُ التُّرْس.

[2259] – المغني ١٠ / ٥٤٨،٥٤٩ .

[2260] – حاشية الشلبي بهامش تبيين الحقائق ٣ / ٢٤٣ .

[2261] – فتح القدير والعناية ٤ / ٢٨٧،والبدائع ٧ / ١٠٠،١٠١،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٦٢٣،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨،والشرح الصغير وبلغة السالك عليه ١ / ٣٥٧،ومنهج الطلاب وشرحه فتح الوهاب ١ / ١٧٢،وحاشية الجمل ٥ / ١٢٤،والأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٢ الطبعة الأولى لمصطفى الحلبي،والأم ٤ / ١٦٣،والمغني ١٠ / ٥٠٥،والإنصاف ٤ / ١٢٩ .

وَيَقُول الصَّاوِيُّ الْمَالِكِيُّ:وَلَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَتَرَّسُ بِهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ.وَفِي وَجْهٍ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لاَ يَجُوزُ،وَعَلَّلُوهُ بِأَنَّ مُجَرَّدَ الْخَوْفِ لاَ يُبِيحُ الدَّمَ الْمَعْصُومَ،كَمَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ إِذَا كَانَ الْخَوْفُ عَلَى بَعْضِ الْغَازِينَ فَقَطْ.[٢٢٦٢]

وَأَمَّا فِي حَالَةِ الْحِصَارِ الَّذِي لاَ خَطَرَ فِيهِ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ،لَكِنْ لاَ يُقْدَرُ عَلَى الْحَرْبِيِّينَ إِلاَّ بِرَمْيِ التُّرْسِ،فَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَالشَّافِعِيَّةِ،وَجُمْهُورِ الْحَنَابِلَةِ،وَالْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى الْمَنْعِ،لأَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى قَتْل الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،وَتَرْكُ قَتْل الْكَافِرِ جَائِزٌ.أَلاَ يُرَى أَنَّ لِلإِمَامِ أَلاَّ يَقْتُل الأُسَارَى لِمَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ مُرَاعَاةُ جَانِبِ الْمُسْلِمِ أَوْلَى مِنْ هَذَا الْوَجْهِ،وَلأَنَّ مَفْسَدَةَ قَتْل الْمُسْلِمِ فَوْقَ مَصْلَحَةِ قَتْل الْكَافِرِ.

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ،وَالْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ إِلَى جَوَازِ رَمْيِهِمْ،وَعَلَّل الْحَنَفِيَّةُ ذَلِكَ بِأَنَّ فِي الرَّمْيِ دَفْعَ الضَّرَرِ الْعَامِّ،وَأَنَّهُ قَلَّمَا يَخْلُو حِصْنٌ عَنْ مُسْلِمٍ،وَاعْتَبَرَ الْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَبِيل الضَّرُورَةِ.[٢٢٦٣]

ب – الْكَفَّارَةُ وَالدِّيَةُ:

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْكَفَّارَةِ وَالدِّيَةِ عِنْدَ إِصَابَةِ أَحَدِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ نَتِيجَةَ رَمْيِ التُّرْسِ،فَإِنَّ جُمْهُورَ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّ مَا أَصَابُوهُ مِنْهُمْ لاَ يَجِبُ فِيهِ دِيَةٌ وَلاَ كَفَّارَةٌ،لأَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ،وَالْغَرَامَاتُ لاَ تُقْرَنُ بِالْفُرُوضِ،لأَنَّ الْفَرْضَ مَأْمُورٌ بِهِ لاَ مَحَالَةَ،وَسَبَبُ الْغَرَامَاتِ عُدْوَانٌ مَحْضٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ،وَبَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ،فَوُجُوبُ الضَّمَانِ يَمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الْفَرْضِ،لأَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ مِنْهُ خَوْفًا مِنْ لُزُومِ الضَّمَانِ،وَهَذَا لاَ يَتَعَارَضُ مَعَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:«لَا يُتْرَكُ فِي الإِسْلامِ مُفْرَجٌ»[٢٢٦٤].– أَيْ مُهْدَرٌ –

[٢٢٦٢] – الوجيز ٢ / ١٩٠ ط ١٣١٧ هـ،والشرح الصغير وبلغة السالك ١ / ٣٥٧ ط مصطفى الحلبي .

[٢٢٦٣] – المراجع السابقة .

[٢٢٦٤] – النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٢٣) والمغرب في ترتيب المعرب (ص:٣٥٤) وتاج العروس (٣٠/ ٢٤) ولسان العرب (٢/ ٣٤٤) وشرح السنة للبغوي (١٠/ ٢١٠) بلا سند

يَرْوِي هَذَا بِالْجِيمِ،وَالْحَاءِ،أَمَّا بِالْجِيمِ،فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:هُوَ الْقَتِيلُ يُوجَدُ بِأَرْضٍ فَلاةٍ يُودَى مِنْ بَيْتِ الْمَالِ،وَلا يَبْطُلُ دَمُهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:هُوَ أَنْ يُسْلِمَ الرَّجُلُ،وَلا يُوَالِيَ أَحَدًا،فَإِذَا جَنَى جِنَايَةً كَانَتْ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ،لأَنَّهُ لَا عَاقِلَةَ

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ،قَالَ:حَبْسُ الْإِمَامِ بَعْدَ إِقَامَة الْحَدِّ ظُلْمٌ،قَالَ:وَقَالَ عَلِيٌّ:«أَيُّمَا قَتِيلٍ وُجِدَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ،فَدِيَتُهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ،لِكَيْلَا يَبْطُلَ دَمٌ،فِي الْإِسْلَامِ،وَأَيُّمَا قَتِيلٍ وُجِدَ بَيْنَ قَرْيَتَيْنِ،فَهُوَ عَلَى أَسَفِّهِمَا – يَعْنِي أَقْرَبَهُمَا –»[٢٢٦٥]

لِأَنَّ النَّهْيَ عَامٌّ خُصَّ مِنْهُ الْبُغَاةُ وَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ،فَتُخَصُّ صُورَةُ النِّزَاعِ،كَمَا أَنَّ النَّهْيَ فِي الْحَدِيثِ خَاصٌّ بِدَارِ الإِسْلاَمِ،وَمَا نَحْنُ فِيهِ لَيْسَ بِدَارِ الإِسْلاَمِ.[٢٢٦٦]

وَعِنْدَ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَجُمْهُورِ الْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيَّةِ تَلْزَمُ الْكَفَّارَةُ قَوْلاً وَاحِدًا،وَفِي وُجُوبِ الدِّيَةِ رِوَايَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا:تَجِبُ،لِأَنَّهُ قَتَل مُؤْمِنًا خَطَأً،فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:٩٢].

الثَّانِيَةُ:لاَ دِيَةَ،لِأَنَّهُ قَتَل فِي دَارِ الْحَرْبِ بِرَمْيٍ مُبَاحٍ،فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } وَلَمْ يَذْكُرْ دِيَةً.[٢٢٦٧] وَعَدَمُ وُجُوبِ الدِّيَةِ هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ.[٢٢٦٨]

وَيَقُول الْجَمَل الشَّافِعِيُّ:وَجَبَتِ الْكَفَّارَةُ إِنْ عُلِمَ الْقَاتِل،لِأَنَّهُ قَتَل مَعْصُومًا،وَكَذَا الدِّيَةُ،لاَ الْقِصَاصُ،لِأَنَّهُ مَعَ تَجْوِيزِ الرَّمْيِ لاَ يَجْتَمِعَانِ.[٢٢٦٩] وَفِي نِهَايَةِ الْمُحْتَاجِ تَقْيِيدُ ذَلِكَ بِأَنْ يَعْلَمَ بِهِ،وَأَنْ يَكُونَ فِي الإِمْكَانِ تَوَقِّيهِ.[٢٢٧٠]

لَهُ،وَقَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ:الْمُفْرَجُ:الَّذِي لَا عَشِيرَةَ لَهُ،وَأَمَّا بِالْحَاءِ،فَهُوَ الَّذِي أَثْقَلَهُ الدَّيْنُ،يُقَالُ:أَفْرَحَهُ،أَيْ:أَثْقَلَهُ،وَيُرْوَى:«مَفْدُوحٌ» بِالدَّالِ،وَمَعْنَاهُ هَذَا،يُقَالُ:فَدَحَهُ الدَّيْنُ،أَيْ:أَثْقَلَهُ.

[٢٢٦٥] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ٣٥) (١٨٢٦٩) مرسل

[٢٢٦٦] – الفتح والعناية ٤ / ٢٨٧ .

[٢٢٦٧] – المغني ١٠ / ٥٠٥ .

[٢٢٦٨] – الإنصاف ٤ / ١٢٩ .

[٢٢٦٩] – حاشية الجمل ٤ / ١٩١ .

[٢٢٧٠] – نهاية المحتاج ٨ / ٦٢ .

وَيَنْقُل الْبَابَرْتِيُّ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَال:إِنْ قَصَدَهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَـــهُ الدِّيَةُ،عَلِمَـــهُ مُسْلِمًا أَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ،لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ.وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِعَيْنِهِ بَل رَمَى إِلَى الصَّفِّ فَأُصِيبَ فَلاَ دِيَةَ عَلَيْهِ.

وَالتَّعْلِيل الأَوَّل أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى قَتْل الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،وَتَرْكَ قَتْل الْكَافِرِ جَائِزٌ،لأَنَّ لِلإِمَـــامِ أَنْ يَقْتُل الأُسَارَى لِمَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَانَ تَرْكُهُ لِعَدَمِ قَتْل الْمُسْلِمِ أَوْلَى،وَلأَنَّ مَفْسَدَةَ قَتْـــل الْمُسْلِمِ فَوْقَ مَصْلَحَةِ قَتْل الْكَافِرِ.[2271]

وَلَمْ نَقِفْ لِلْمَالِكِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ فِي هَذَا إِلاَّ مَا قَالَهُ الدُّسُوقِيُّ عِنْـدَ تَعْلِيقِــهِ عَلَـــى قَـــوْل خَلِيلٍ:وَإِنْ تَتَرَّسُـــوا بِمُسْـــلِمٍ،فَقَال:وَإِنْ تَتَرَّسُـــوا بِـــأَمْوَال الْمُسْـــلِمِينَ فَيُقَـــاتَلُونَ وَلاَ يُتْرَكُونَ.وَيَنْبَغِي ضَمَانُ قِيمَتِهِ عَلَى مَنْ رَمَاهُمْ،قِيَاسًا عَلَى مَا يُرْمَى مِنَ السَّفِينَةِ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ،بِجَامِعِ أَنَّ كُلًّا إِتْلاَفُ مَالٍ لِلنَّجَاةِ.[2272]

مَدَى تَطْبِيقِ بَعْضِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ:

حَقُّ الأَسِيرِ فِي الْغَنِيمَةِ:

يَسْتَحِقُّ مَنْ أُسِرَ قَبْل إِحْرَازِ الْغَنِيمَةَ فِيمَا غُنِمَ قَبْل الأَسْرِ،إِذَا عُلِمَ حَيَاتُهُ أَوِ انْفَلَـــتَ مِـــنَ الأَسْرِ.لأَنَّ حَقَّهُ ثَابِتٌ فِيهَا،وَبِالأَسْرِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلاً،لِتَقَرُّرِ حَقِّهِ بِالإِحْرَازِ.وَلاَ شَيْءَ لَهُ فِيمَا غَنِمَهُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ أَسْرِهِ،لأَنَّ الْمَأْسُورَ فِي يَدِ أَهْل الْحَرْبِ لاَ يَكُونُ مَـــعَ الْجَيْشِ حَقِيقَةً وَلاَ حُكْمًا،فَهُوَ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي إِصَابَةِ هَذَا،وَلاَ فِي إِحْرَازِهِ بِالدَّارِ.وَإِذَا لَمْ يُعْرَفْ مَصِيرُ هَذَا الأَسِيرِ فِي يَدِ الْحَرْبِيِّينَ قُسِمَتِ الْغَنَائِمُ،وَلَمْ يُوقَفْ لَهُ مِنْهَا شَـــيْءٌ.وَإِنْ قُسِمَتِ الْغَنَائِمُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ حَيًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ،لأَنَّ حَقَّ الَّذِينَ قُسِمَ بَيْـــنَهُمْ قَـــدْ تَأَكَّدَ بِالْقِسْمَةِ وَثَبَتَ مِلْكُهُمْ فِيهَا،وَمِنْ ضَرُورَتِهِ إِبْطَال الْحَقِّ الضَّعِيفِ.وَالْمَذْهَبُ عِنْـــدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُ إِذَا هَرَبَ فَأَدْرَكَ الْحَرْبَ قَبْل تَقَضِّيهَا أُسْهِمَ لَهُ،وَفِي قَوْلٍ لاَ شَيْءَ لَهُ.وَإِنْ جَاءَ بَعْدَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ فَلاَ شَيْءَ لَهُ.[2273]

[2271] - العناية على الفتح ٤ / ٢٨٧ .

[2272] -حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٨ .

[2273] - السير الكبير وشرحه ٣ / ٩١٣،٩١٤،والإنصاف ٤ / ١٦٥ .

وَمَنْ أُسِرَ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْغَنَائِمِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ أَوْ بَيْعِهَا،وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ فِي دَارِ الْحَـــرْبِ لِحَاجَةِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ يُوقَفُ نَصِيبُهُ حَتَّى يَجِيءَ فَيَأْخُذَهُ،أَوْ يَظْهَرَ مَوْتُـــهُ فَيَكُـــونَ لِوَرَثَتِهِ،لِأَنَّ حَقَّهُ قَدْ تَأَكَّدَ فِي الْمَالِ الْمُصَابِ بِالإِحْرَازِ.[٢٢٧٤]

وَفِي بِدَايَةِ الْمُجْتَهِدِ:أَنَّ الْغَنِيمَةَ إِنَّمَا تَجِبُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ لِلْمُجَاهِدِيْنِ بِأَحَدِ شَرْطَيْنِ:إِمَّـــا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ حَضَرَ الْقِتَالَ،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ رِدْءًا لِمَنْ حَضَرَ الْقِتَالَ.[٢٢٧٥]

حَقُّ الأَسِيرِ فِي الإِرْثِ وَتَصَرُّفَاتُهُ الْمَالِيَّةُ:

أَسِيرُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي مَعَ الْعَدُوِّ يَرِثُ إِذَا عُلِمَتْ حَيَاتُهُ فِي قَوْلِ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ،لِأَنَّ الْكُفَّـــارَ لاَ يَمْلِكونَ الأَحْرَارَ بِالْقَهْرِ،فَهُوَ بَاقٍ عَلَى حُرِّيَّتِهِ،فَيَرِثُ كَغَيْرِهِ.[٢٢٧٦] وَكَذَلِكَ لاَ تَسْـــقُطُ الزَّكَاةُ عَنْهُ،لِأَنَّ تَصَرُّفَهُ فِي مَالِهِ نَافِذٌ،وَلاَ أَثَرَ لاِخْتِلاَفِ الدَّارِ بِالنِّسْبَةِ لَهُ.عَـــنْ شُـــرَيْحٍ،أَنَّهُ قَالَ:«يُورَّثُ الْأَسِيرُ فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ»[٢٢٧٧] .

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،أَنَّ شُرَيْحًا،كَانَ يُورِّثُ الْأَسِيرَ وَكَانَ يَقُولُ:«أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى نَصِيبِهِ مِنَ الْمِيرَاثِ إِذَا كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ،فَإِمَّا أَنْ يُفَادُوهُ،وَإِمَّا أَنْ يَعْزِلُوهُ حَتَّى يَجِيءَ مِنْهُ مَا جَاءَ»[٢٢٧٨]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،فِي الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ قَالَ:«يَرِثُ وَيُوَرَّثُ مَـــا كَـــانَ عَلَـــى دِينِهِ»[٢٢٧٩]

وعَنِ الْحَسَنِ ؛فِي الأَسِيرِ فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ إِنْ أَعْطَى عَطِيَّةً،أَوْ نَحَلَ نُحْلاً وَأَوْصَى بِثُلُثِـــهِ فَهُوَ جَائِزٌ.[٢٢٨٠]

[٢٢٧٤] - شرح السير الكبير ٣ / ٩١٣،٩١٤ .

[٢٢٧٥] - بداية المجتهد ١ / ٤٠٥ .

[٢٢٧٦] - الشرح الكبير على متن المقنع (٧/ ٢٢٢) والمغني لابن قدامة (٦/ ٣٤٦) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٤/ ٤٩٤) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٤/ ٦٧٠)

[٢٢٧٧] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٠/ ٣٠٨)(١٩٢٠٢) صحيح

[٢٢٧٨] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤)(٢٨٣١) صحيح

[٢٢٧٩] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤)(٢٨٣٠) صحيح

[٢٢٨٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٦١)(٣٣٥٠٠) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ،وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا»[٢٢٨١]

فَهَذَا الْحَدِيثُ بِعُمُومِهِ يُؤَيِّدُ قَوْلَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الأَسِيرَ إِذَا وَجَبَ لَهُ مِيرَاثٌ يُوقَفُ لَهُ.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ،قَالَ:لاَ يَرِثُ الأَسِيرُ فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ.[٢٢٨٢].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ،أَنَّهُ كَانَ لاَ يُوَرَّثُ الأَسِيرُ.[٢٢٨٣]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ،قَالَ:يَرِثُ.[٢٢٨٤]

وَالْمُسْلِمُ الَّذِي أَسَرَهُ الْعَدُوُّ،وَلاَ يُدْرَى أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ،مَعَ أَنَّ مَكَانَهُ مَعْلُومٌ وَهُوَ دَارُ الْحَرْبِ،لَهُ حُكْمٌ فِي الْحَال،فَيُعْتَبَرُ حَيًّا فِي حَقِّ نَفْسِهِ،حَتَّى لاَ يُورَثَ عَنْهُ مَالُهُ،وَلاَ تُزَوَّجَ نِسَاؤُهُ،وَمَيِّتًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ حَتَّى لاَ يَرِثَ مِنْ أَحَدٍ.وَلَهُ حُكْمٌ فِي الْمَآل،وَهُوَ الْحُكْمُ بِمَوْتِهِ بِمُضِيِّ مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ،فَهُوَ فِي حُكْمِ الْمَفْقُودِ [٢٢٨٥].

وَيَسْرِي عَلَى الأَسِيرِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ الْمَالِيَّةِ مَا يَسْرِي عَلَى غَيْرِهِ فِي حَال الصِّحَّةِ مِنْ أَحْكَامٍ،فَبَيْعُهُ وَهِبَتُهُ وَصَدَقَتُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ جَائِزٌ،مَا دَامَ صَحِيحًا غَيْرَ مُكْرَهٍ.

عَنِ الْحَسَنِ ؛فِي الأَسِيرِ فِي أَيْدِي الْعَدُوِّ إِنْ أَعْطَى عَطِيَّةً،أَوْ نَحَلَ نُحْلاً وَأَوْصَى بِثُلُثِهِ فَهُوَ جَائِزٌ..[٢٢٨٦]

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ:«أَجِزْ وَصِيَّةَ الأَسِيرِ،وَعَتَاقَهُ،وَمَا صَنَعَ فِي مَالِهِ،مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ دِينِهِ،فَإِنَّمَا هُوَ مَالُهُ يَصْنَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ»[٢٢٨٧]

وعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاشِدٍ،وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ أَنْ:«أَجِزْ وَصِيَّةَ الْأَسِيرِ»[٢٢٨٨]

[٢٢٨١] - صحيح البخاري (٣/ ١١٨) (٢٣٩٨)

[ش (كلا) عيالا لا نفقة لهم أو دينا لا وفاء له.(فإلينا) يرجع أمره والقيام به]

[٢٢٨٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٦٣)(٣٣٥٠٧) صحيح

[٢٢٨٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٦٣)(٣٣٥٠٨) صحيح

[٢٢٨٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٦٢)(٣٣٥٠٥) صحيح

[٢٢٨٥] - البحر الرائق ٥ / ١٣٦ ط أولى،والشرح الكبير مطبوع مع المغني ٧ / ١٤٦ .اُنْظُرْ مُصْطَلَحَ (مَفْقُود)

[٢٢٨٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٦١)(٣٣٥٠٠) صحيح

[٢٢٨٧] - صحيح البخاري (٨/ ١٥٦) معلقا بصيغة الجزم

وعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فِي الْأَسِيرِ يُوصِي قَالَ:«أُجِيزُ لَهُ وَصِيَّتَهُ مَا دَامَ عَلَى دِينِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ دِينِه»[2289]

أَمَّا إنْ كَانَ الأَسِيرُ فِي يَدِ مُشْرِكِينَ عُرِفُوا بِقَتْلِ أَسْرَاهُمْ،فَإِنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَ الْمَرِيضِ مَرَضَ الْمَوْتِ،لِأَنَّ الأَغْلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتُلُوا،وَلَيْسَ يَخْلُو الْمَرَّةَ فِي حَالٍ أَبَدًا مِنْ رَجَاءِ الْحَيَاةِ وَخَوْفِ الْمَوْتِ،لَكِنْ إِذَا كَانَ الأَغْلَبُ عِنْدَهُ وَعِنْدَ غَيْرِهِ الْخَوْفَ عَلَيْهِ،فَعَطِيَّتُهُ عَطِيَّةَ مَرِيضٍ،وَإِذَا كَانَ الأَغْلَبُ الأَمَانَ كَانَتْ عَطِيَّتُهُ عَطِيَّةَ الصَّحِيحِ.[2290]

جِنَايَةُ الأَسِيرِ وَمَا يَجِبُ فِيهَا:

يَتَّجِهُ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ:الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ،إِلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَرَ مِنَ الأَسِيرِ حَالَ الأَسْرِ مَا يُوجِبُ حَدًّا أَوْ قِصَاصًا وَجَبَ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ،لِأَنَّهُ لاَ تَخْتَلِفُ الدَّارَانِ فِي تَحْرِيمِ الْفِعْلِ،فَلَمْ تَخْتَلِفْ فِيمَا يَجِبُ مِنَ الْعُقُوبَةِ.فَلَوْ قَتَل بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ قَذَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ شَرِبَ أَحَدُهُمْ خَمْرًا،فَإِنَّ الْحَدَّ يُقَامُ عَلَيْهِمْ إِذَا صَارُوا إِلَى بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ تَمْنَعُ الدَّارُ حُكْمَ اللَّهِ.

وَيَقُول الْحَطَّابُ:إِذَا أَقَرَّ الأَسِيرُ أَنَّهُ زَنَى،وَدَامَ عَلَى إِقْرَارِهِ وَلَمْ يَرْجِعْ،أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ،قَال ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَصْبَغُ:عَلَيْهِ الْحَدُّ.

وَإِذَا قَتَل الأَسِيرُ أَحَدًا مِنْهُمْ خَطَأً،وَقَدْ كَانَ أَسْلَمَ،وَالأَسِيرُ لاَ يَعْلَمُ،فَعَلَيْهِ الدِّيَةُ وَالْكَفَّارَةُ.وَقِيل الْكَفَّارَةُ فَقَطْ.وَإِذَا قَتَلَهُ عَمْدًا،وَهُوَ لاَ يَعْلَمُهُ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ الدِّيَةُ وَالْكَفَّارَةُ.وَإِنْ كَانَ قَتَلَهُ عَمْدًا وَهُوَ يَعْلَمُ بِإِسْلاَمِهِ قُتِل بِهِ.وَإِذَا جَنَى الأَسِيرُ عَلَى أَسِيرٍ مِثْلِهِ فَكَغَيْرِهِمَا.[2291]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ – وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ،قَالَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ – فِي جَرِيمَةِ الزِّنَى – بِعَدَمِ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ،فعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:كُنَّا مَعَ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ فِي الْبَحْرِ،فَأُتِيَ بِسَارِقٍ

[2288] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٠٧)(١٠١٥٠) صحيح

[2289] – سنن الدارمي (٤/ ١٩٩١)(٣١٣٣) صحيح

[2290] – الأم ٤ / ٣٦ الطبعة الأولى،والبدائع ٧ / ١٣٣ .وَتَفْصِيل ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ (مَرَضُ الْمَوْتِ) .

[2291] – المهذب ٢ / ٢٤١ .والأم ٤ / ١٦٢،١٩٩،والمغني ١٠ / ٥٣٧،ومواهب الجليل ٣ / ٣٥٤ .

يُقَالُ لَهُ:مصْدَرٌ،قَدْ سَرَقَ بُخْتِيَّةً،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تُقْطَعُ الْأَيْدِي فِي السَّفَرِ،وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَطَعْتُهُ»[٢٢٩٢]

وعَنْ زَيْد بْنِ ثَابِت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:" لَا تُقَامُ الْحُدُودُ فِي دَارِ الْحَرْبِ مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَ أَهْلُهَا بِالْعَدُوِّ "[٢٢٩٣]،لانْعدَامِ الْمُسْتَوْفِي،وَإِذَا لَمْ يَجبْ عَلَيْه حِينَ بَاشَرَ السَّبَبَ لاَ يَجبُ عَلَيْه بَعْدَ ذَلِكَ،وَقَالُوا:لاَ حَدَّ عَلَى مَنْ زَنَى وَكَانَ أَسِيرًا فِي مُعَسْكَرِ أَهْلِ الْبَغْيِ،لأَنَّ يَدَ إِمَامِ أَهْلِ الْعَدْلِ لاَ تَصِل إِلَيْهِمْ.[٢٢٩٤] وَقَالُوا:لَوْ قَتَل أَحَدُ الأَسِيرَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ الآْخَرَ فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ سِوَى الْكَفَّارَةِ،وَهَذَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ،لأَنَّهُ بِالأَسْرِ صَارَ تَبَعًا لَهُمْ،لِصَيْرُورَتِهِ مَقْهُورًا فِي أَيْدِيهِمْ،وَلِهَذَا يَصِيرُ مُقِيمًا بِإِقَامَتِهِمْ وَمُسَافِرًا بِسَفَرِهِمْ.وَخُصَّ الْخَطَأُ بِالْكَفَّارَةِ،لأَنَّهُ لاَ كَفَّارَةَ فِي الْعَمْدِ،وَبَقِيَ عَلَيْهِ عِقَابُ الآْخِرَةِ.وَقَال الصَّاحِبَان بِلُزُومِ الدِّيَةِ أَيْضًا فِي الْخَطَأِ وَالْعَمْدِ،لأَنَّ الْعِصْمَةَ لاَ تَبْطُل بِعَارِضِ الأَسْرِ وَامْتِنَاعِ الْقِصَاصِ لِعَدَمِ الْمَنْفَعَةِ،وَتَجِبُ الدِّيَةُ فِي مَالِهِ الَّذِي فِي دَارِ الإِسْلاَمِ.[٢٢٩٥]

أَنْكِحَةُ الأَسْرَى:

ظَاهِرُ كَلاَمِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّ الأَسِيرَ لاَ يَحِل لَهُ التَّزَوُّجُ مَا دَامَ أَسِيرًا،وَهَذَا قَوْل الزُّهْرِيِّ،وَكَرِهَ الْحَسَنُ أَنْ يَتَزَوَّجَ فِي أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ،لأَنَّ الأَسِيرَ إِذَا وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ كَانَ رَقِيقًا لَهُمْ،وَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَطَأَ امْرَأَتَهُ غَيْرُهُ مِنْهُمْ،وَسُئِل أَحْمَدُ عَنْ أَسِيرٍ اُشْتُرِيَتْ مَعَهُ امْرَأَتُهُ أَيَطَؤُهَا ؟ فَقَال:كَيْفَ يَطَؤُهَا ؟ فَلَعَل غَيْرَهُ مِنْهُمْ يَطَؤُهَا،قَال الأَثْرَمُ:قُلْتُ لَهُ:وَلَعَلَّهَا تَعْلَقُ بِوَلَدٍ فَيَكُونُ مَعَهُمْ،قَال:وَهَذَا أَيْضًا.[٢٢٩٦]

[٢٢٩٢] - سنن أبي داود (٤/ ١٤٢) (٤٤٠٨) صحيح

[٢٢٩٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٧٨)(١٨٢٢٥) فيه ضعف

[٢٢٩٤] - المبسوط ١٠ / ٩٩،١٠٠،ومواهب الجليل ٣ / ٣٥٤ .

[٢٢٩٥] - البحر الرائق ٥ / ١٠٨،والفتح ٤ / ٣٥٠،٣٥١،والبدائع ٧ / ١٣١،١٣٣ .

[٢٢٩٦] - المغني ١٠ / ٥١١ .

وَيَقُول الْمَوَّاقُ:الأَسيرُ يُعْلَمُ تَنَصُّرُهُ فَلاَ يُدْرَى أَطَوْعًا أَمْ كَرْهًا فَلْتَعْتَدَّ زَوْجَتُهُ،وَيُوقَفْ مَالُهُ،وَيُحْكَمُ فِيه بِحُكْمِ الْمُرْتَدِّ،وَإِنْ ثَبَتَ إِكْرَاهُهُ بِبَيِّنَةٍ كَانَ بِحَال الْمُسْلِمِ فِي نِسَائِه وَمَاله.[2297]

إِكْرَاهُ الأَسير وَالاسْتعَانَةُ به:

الأَسيرُ إِنْ أَكْرَهَهُ الْكُفَّارُ عَلَى الْكُفْر،وَقَلْبُهُ مُطْمَئنٌّ بالإِيمَان،لاَ تَبينُ منْهُ امْرَأَتُهُ،وَلاَ يَحْرُمُ ميرَاثُهُ منَ الْمُسْلمينَ،وَلاَ يُحْرَمُونَ ميرَاثَهُمْ منْهُ،وَإِذَا مَا أُكْرِهَ عَلَى أَكْل لَحْم الْخنْزيرِ أَوْ دُخُول الْكَنيسَة فَفَعَل وَسعَهُ ذَلكَ لقَاعدَة الضَّرُورَات.[2298] وَلَوْ أَكْرَهُوهُ عَلَى أَنْ يَقْتُل مُسْلمًا لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلكَ،كَمَا لاَ يُرَخَّصُ لَهُ في أَنْ يَدُل عَلَى ثُغْرَة يَنْفُذُ منْهَا الْعَدُوُّ إِلَى مُقَاتَلَتنَا،وَلاَ الاشْترَاك مَعَ الْعَدُوِّ في الْقتَال عنْدَ كَثيرٍ منَ الْعُلَمَاء،وَأَجَازَ ذَلكَ الأَوْزَاعيُّ وَغَيْرُهُ،وَمَنَعَهُ مَالكٌ وَابْنُ الْقَاسم.[2299]

الأَمَانُ منَ الأَسير وَتَأْمينُهُ:

لاَ يَصحُّ الأَمَانُ منَ الأَسير عنْدَ الْحَنَفيَّة،لأَنَّ الأَمَانَ لاَ يَقَعُ منْهُ بصفَة النَّظَر منْهُ للْمُسْلمينَ،بَل لنَفْسه حَتَّى يَتَخَلَّصَ منْهُمْ،وَلأَنَّ الأَسيرَ خَائفٌ عَلَى نَفْسه،إِلاَّ أَنَّهُ فيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إِنْ أَمنُوهُ وَأَمنَهُمْ،فَيَنْبَغي أَنْ يَفيَ لَهُمْ كَمَا يَفُونَ لَهُ،وَلاَ يَسْرقَ شَيْئًا منْ أَمْوَالهمْ،لأَنَّهُ غَيْرُ مُتَّهَم في حَقِّ نَفْسه،وَقَدْ شُرطَ أَنْ يَفيَ لَهُمْ،فَيَكُونُ بمَنْزلَة الْمُسْتَأْمَن في دَارهمْ.وَهُوَ مَا قَالَهُ اللَّيْثُ[2300].وَوَافَقَهُمْ كُلٌّ منَ:الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة،إذَا مَا كَانَ الأَسيرُ مَحْبُوسًا أَوْ مُقَيَّدًا،لأَنَّهُ مُكْرَهٌ،وَأَعْطَى الشَّافعيَّةُ مَنْ أَمَّنَ آسرَهُ حُكْمَ الْمُكْرَه،وَقَالُوا:إنَّ أَمَانَهُ فَاسدٌ.[2301] أَمَّا إذَا كَانَ مُطْلَقًا وَغَيْرَ مُكْرَهٍ،فَقَدْ نَصَّ الشَّافعيَّةُ عَلَى أَنَّ أَسيرَ الدَّار – وَهُوَ

[2297] – التاج والإكليل مطبوع بهامش مواهب الجليل ٦ / ٢٨٥ .وَتَفْصِيل ذَلكَ فِي مَوْضِعِ (إِكْرَاه) (وَردَّة) .

[2298] – الأم ٤ / ٦٩٨ .

[2299] – التاج والإكليل مطبوع بهامش مواهب الجليل ٣ / ٣٨٩ .وَتَفْصِيل ذَلكَ مَوْضعُهُ مُصْطَلَحُ (إِكْرَاهٌ) .

[2300] – شرح السير الكبير ١ / ٢٨٦،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٧،والفتح ٤ / ٣٠٠،والبحر الرائق ٥ / ٨٨،ومواهب الجليل ٣ / ٣٦١،وفتح الوهاب ٢ / ١٧٦،والمغني ١٠ / ٤٣٣ .

[2301] – الوجيز ٢ / ١٩٥ .

الْمُطْلَقُ بِبِلاَدِ الْكُفَّارِ الْمَمْنُوعُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا - يَصِحُّ أَمَانُهُ.قَال الْمَاوَرْدِيُّ:وَإِنَّمَا يَكُونُ مُؤَمَّنُهُ آمِنًا بِدَارِهِمْ لاَ غَيْرُ،إِلاَّ أَنْ يُصَرِّحَ بِالأَمَانِ فِي غَيْرِهَا.[٢٣٠٢]

وَسُئِل أَشْهَبُ عَنْ رَجُلٍ شَذَّ عَنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ،فَأَسَرَهُ الْعَدُوُّ،فَطَلَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ،فَقَال الْعَدُوُّ لِلأَسِيرِ الْمُسْلِمِ:أَعْطِنَا الأَمَانَ،فَأَعْطَاهُمْ الأَمَانَ،فَقَال:إِذَا كَانَ أَمَّنَهُمْ،وَهُوَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ،فَذَلِكَ جَائِزٌ،وَإِنْ كَانَ أَمَّنَهُمْ،وَهُوَ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ،فَلَيْسَ ذَلِكَ بِجَائِزٍ،وَقَوْل الأَسِيرِ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ.[٢٣٠٣]

وَيُعَلِّل ابْنُ قُدَامَةَ لِصِحَّةِ أَمَانِ الأَسِيرِ إِذَا عَقَدَهُ غَيْرَ مُكْرَهٍ،بِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ الْخَبَرِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:مَا كَتَبْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا القُرْآنَ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«المَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا،فَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ عَدْلٌ وَلاَ صَرْفٌ،وَذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا،فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ،وَمَنْ وَالَى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ،فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ»[٢٣٠٤]...كَمَا أَنَّهُ مُسْلِمٌ مُكَلَّفٌ مُخْتَارٌ.[٢٣٠٥]

صَلاَةُ الأَسِيرِ فِي السَّفَرِ،وَالاِنْفِلاَتِ،وَمَا يَنْتَهِي بِهِ الأَسْرُ:

الأَسِيرُ الْمُسْلِمُ فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ إِنْ عَزَمَ عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الأَسْرِ عِنْدَ التَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ،وَكَانَ الْكُفَّارُ أَقَامُوا بِهِ فِي مَوْضِعٍ يُرِيدُونَ الْمُقَامَ فِيهِ الْمُدَّةَ الَّتِي تُعْتَبَرُ إِقَامَةً،وَلاَ تَقْصُرُ بَعْدَهَا الصَّلاَةُ،لَزِمَهُ أَنْ يُتِمَّ الصَّلاَةَ،لأَنَّهُ مَقْهُورٌ فِي أَيْدِيهِمْ،فَيَكُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي حَقِّهِ نِيَّتَهُمْ فِي السَّفَرِ وَالإِقَامَةِ،لاَ نِيَّتَهُ.وَإِنْ كَانَ الأَسِيرُ انْفَلَتَ مِنْهُمْ،وَهُوَ مُسَافِرٌ،فَوَطَّنَ نَفْسَهُ

[٢٣٠٢] - فتح الوهاب ٢ / ١٧٦،وحاشية الجمل ٥ / ٢٠٥،وشرح البهجة ٥ / ١٣٢ .

[٢٣٠٣] - التاج والإكليل لمختصر خليل (٤/ ٥٦٠)

[٢٣٠٤] - صحيح البخاري (٤/ ١٠٢) (٣١٧٩) وصحيح مسلم (٢/ ١١٤٧) ٢٠ - (١٣٧٠) والمغني ١٠ / ٤٣٣

[ش (عائر) جبل معروف.(حدثا) منكرا وسوءا.(آوى محدثا) نصر جانيا أو مبتدعا أو أجاره من خصمه.(عدل ولا صرف) فريضة ولا نفل أو شفاعة ولا فدية.(وذمة المسلمين) عهدهم.(يسعى بها أدناهم) يتولى ذمتهم أقلهم عددا فإذا أعطى أحد المسلمين عهدا لم يكن لأحد نقضه.(والى قوما) اتخذهم أولياء]

[٢٣٠٥] -المغني ١٠ / ٤٣٣

عَلَى إِقَامَةِ شَهْرٍ فِي غَارٍ أَوْ غَيْرِهِ قَصرَ الصَّلاَةَ،لِأَنَّهُ مُحَارِبٌ لَهُمْ،فَلاَ تَكُونُ دَارُ الْحَرْبِ مَوْضِعَ الإِقَامَةِ فِي حَقِّهِ،حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ.[2306]

وَالأَسْرُ يَنْتَهِي بِمَا يُقَرِّرُ الإِمَامُ،مِنْ قَتْلٍ أَوِ اسْتِرْقَاقٍ أَوْ مَنٍّ أَوْ فِدَاءٍ بِمَالٍ،أَوْ عَنْ طَرِيقِ تَبَادُلِ الأَسْرَى عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ،كَمَا يَنْتَهِي الأَسْرُ بِمَوْتِ الأَسِيرِ قَبْلَ قَرَارِ الإِمَامِ فِيهِ،وَكَذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَنْتَهِي بِفِرَارِ الأَسِيرِ،يَقُولُ الْكَاسَانِيُّ:لَوِ انْفَلَتَ أَسِيرٌ قَبْلَ الإِحْرَازِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ وَالْتَحَقَ بِمَنْعَتِهِمْ يَعُودُ حُرًّا،وَيَنْتَهِي أَسْرُهُ،وَلَمْ يَعُدْ فَيْئًا،لِأَنَّ حَقَّ أَهْلِ دَارِ الإِسْلاَمِ لاَ يَتَأَكَّدُ إِلاَّ بِالأَخْذِ حَقِيقَةً،وَلَمْ يُوجَدْ.[2307]

وَيُصَرِّحُ الْفُقَهَاءُ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ الْفِرَارُ إِنْ أَطَاقُوهُ،وَلَمْ يُرْجَ ظُهُورُ الإِسْلاَمِ بِبَقَائِهِمْ،لِلْخُلُوصِ مِنْ قَهْرِ الأَسْرِ،وَقَيَّدَ بَعْضُهُمُ الْوُجُوبَ بِعَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنْ إِظْهَارِ الدِّينِ[2308]،لَكِنْ جَاءَ فِي مَطَالِبِ أُولِي النُّهَى:وَإِنْ أُسِرَ مُسْلِمٌ،فَأُطْلِقَ بِشَرْطِ أَنْ يُقِيمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ مُدَّةً مُعَيَّنَةً،وَرَضِيَ بِالشَّرْطِ لَزِمَهُ الْوَفَاءُ،وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَهْرُبَ عَنْ عَطَاءٍ،قَالَ:بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:الْمُؤْمِنونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ[2309].

وعَنْ شُرَيْحٍ،قَالَ:الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ مَا لَمْ يُعْصَ اللَّهُ.[2310]

وعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ فِيمَا أُحِلَّ»[2311]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ فِيمَا وَافَقَ الْحَقَّ»[2312]

وَإِنْ أُطْلِقَ بِشَرْطِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ لَزِمَهُ الْوَفَاءُ،إِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ،إِلاَّ الْمَرْأَةَ فَلاَ يَحِلِ لَهَا الرُّجُوعُ.[2313]

[2306] - شرح السير الكبير ١ / ٢٤٨ .وَتَفْصِيل ذَلِكَ مَوْطِنُهُ مُصْطَلَحُ (صَلاَةُ الْمُسَافِرِ) .

[2307] - البدائع ٧ / ١١٧،ومواهب الجليل ٣ / ٣٦٦،والتاج والإكليل ٣ / ٦٨٨ .

[2308] - فتح الوهاب ٢ / ١٧٧،وحاشية الجمل ٥ / ٢٠٩ .

[2309] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٣٢٦)(٢٢٤٥٤) صحيح مرسل

[2310] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٣٢٧) (٢٢٤٥٦) صحيح مقطوع

[2311] - المعجم الكبير للطبراني (٤/ ٢٧٥)(٤٤٠٤) صحيح لغيره

[2312] - معرفة السنن والآثار (١٠/ ٢٣٨)(١٤٣٥١) صحيح لغيره

[2313] - مطالب أولي النهى ٢ / ٥٨٣،والإنصاف ٤ / ٢٠٩ .

وَاخْتَارَ ابْنُ رُشْدٍ – إِذَا ائْتَمَنَ الْعَدُوُّ الأَسِيرَ طَائِعًا عَلَى أَلاَّ يَهْرُبَ،وَلاَ يَخُونَهُمْ – أَنَّهُ يَهْرُبُ وَلاَ يَخُونُهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ.

وَأَمَّا إِن ائْتَمَنُوهُ مُكْرَهًا،أَوْ لَمْ يَأْتَمِنُوهُ،فَلَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ،وَلَهُ أَنْ يَهْرُبَ بِنَفْسِهِ.وَقَال اللَّخْمِيُّ:إِنْ عَاهَدُوهُ عَلَى أَلاَّ يَهْرُبَ فَلْيُوَفِّ بِالْعَهْدِ[2314]،فَإِنْ تَبِعَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُ بَعْدَ خُرُوجِهِ فَلْيَدْفَعْهُمْ حَتْمًا إِنْ حَارَبُوهُ وَكَانُوا مِثْلَيْهِ فَأَقَل،وَإِلاَّ فَنَدْبًا.[2315]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[2314] – التاج والإكليل ٣ / ٣٨٣،وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ١٧٩،والفروع ٣ / ٦٢٨ .

[2315] – نهاية المحتاج ٨ / ٧٨،والأم ٨ / ٢٧٥،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٨٥ .

الباب الثالث عشر

الخلاصة في أحكام التقية

التَّعْرِيفُ:

التَّقِيَّةُ اسْمُ مَصْدَرٍ مِنَ الاتِّقَاءِ،يُقَال:اتَّقَى الرَّجُل الشَّيْءَ يَتَّقِيهِ،إِذَا اتَّخَذَ سَاتِرًا يَحْفَظُهُ مِنْ ضَرَرِهِ،وَمِنْهُ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعْقِلٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[٢٣١٦]

وَأَصْلُهُ مِنْ وَقَى الشَّيْءَ،يَقِيهِ،إِذَا صَانَهُ،قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } [غافر:٤٥] أَيْ حَمَاهُ مِنْهُمْ فَلَمْ يَضُرَّهُ مَكْرُهُمْ.وَيُقَال فِي الْفِعْل أَيْضًا:تَقَاهُ يَتَّقِيهِ.وَالتَّاءُ هُنَا مُنْقَلِبَةٌ عَنِ الْوَاوِ.

وَالتُّقَاةُ وَالتَّقِيَّةُ وَالتَّقْوَى وَالتُّقَى وَالاتِّقَاءُ،كُلُّهَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ فِي اسْتِعْمَال أَهْل اللُّغَةِ.[٢٣١٧]

أَمَّا فِي اصْطِلاَحِ الْفُقَهَاءِ فَإِنَّ التَّقْوَى وَالتُّقَى خُصَّا بِاتِّقَاءِ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَال أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ وَالْخَوْفِ مِنَ ارْتِكَابِ مَا لاَ يَرْضَاهُ،لأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَقِي مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ.

وَأَمَّا التُّقَاةُ وَالتَّقِيَّةُ فَقَدْ خُصَّتَا فِي الاصْطِلاَحِ بِاتِّقَاءِ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

وَأَصْل ذَلِكَ قَوْل اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران:٢٨].

وَقَدْ عَرَّفَهَا السَّرَخْسِيُّ بِقَوْلِهِ:التَّقِيَّةُ أَنْ يَقِيَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمَا يُظْهِرُهُ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ خِلاَفَهُ.[٢٣١٨]

[٢٣١٦] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٩)(١٤١٧)

[٢٣١٧] – لسان العرب مادة :" و .ق .ي " .

[٢٣١٨] – المبسوط للسرخسي ٢٤ / ٤٥ بيروت، ودار المعرفة بالأوفست عن طبعة القاهرة .

وَعَرَّفَهَا ابْنُ حَجَرٍ بِقَوْلِهِ:التَّقِيَّةُ الْحَذَرُ مِنْ إِظْهَارِ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ مُعْتَقَدٍ وَغَيْرِهِ لِلْغَيْرِ.[2319]

وَالتَّعْرِيفُ الأَوَّل أَشْمَل،لِأَنَّهُ يَدْخُل فِيهِ التَّقِيَّةُ بِالْفِعْل إِضَافَةً إِلَى التَّقِيَّة بِالْقَوْل وَالتَّقِيَّة فِي الْعَمَل كَمَا هِيَ فِي الاعْتِقَاد.

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – الْمُدَارَاةُ:

الْمُدَارَاةُ مُلاَيَنَةُ النَّاسِ وَمُعَاشَرَتُهُمْ بِالْحُسْنَى مِنْ غَيْرِ ثَلَمٍ فِي الدِّينِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَات وَالإِغْضَاءُ عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَان [2320].

وَأَصْلُهَا " الْمُدَارَأَةُ " بِالْهَمْزِ،مِنَ الدَّرْءِ وَهُوَ الدَّفْعُ،وَالْمُدَارَاةُ مَشْرُوعَةٌ،وَذَلِكَ لِأَنَّ وِدَادَ النَّاسِ لاَ يُسْتَجْلَبُ إِلاَّ بِمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.وَالْبَشَرُ قَدْ رُكِّبَ فِيهِمْ أَهْوَاءٌ مُتَبَايِنَةٌ،وَطِبَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ،وَيَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ تَرْكُ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ،فَلَيْسَ إِلَى صَفْوِ وِدَادِهِمْ سَبِيلٌ إِلاَّ بِمُعَاشَرَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُخَالَفَة لِرَأْيِكَ وَهَوَاكَ[2321].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُدَارَاة وَالتَّقِيَّة:أَنَّ التَّقِيَّةَ غَالِبًا لِدَفْعِ الضَّرَرِ عِنْدَ الضَّرُورَة،وَأَمَّا الْمُدَارَاةُ فَهِيَ لِدَفْعِ الضَّرَرِ وَجَلْبِ النَّفْعِ

ب – الْمُدَاهَنَةُ:

قَال ابْنُ حِبَّانَ:مَتَى مَا تَخَلَّقَ الْمَرْءُ بِخُلُقٍ يَشُوبُهُ بَعْضُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ فَتِلْكَ هِيَ الْمُدَاهَنَةُ.[2322]

وقَوْله تَعَالَى:{ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٩] فَسَّرَهُ الْفَرَّاءُ،كَمَا فِي اللِّسَان بِقَوْلِهِ:وَدُّوا لَوْ تَلِينَ فِي دِينِكَ فَيَلِينُونَ.وَقَال أَبُو الْهَيْثَم:أَيْ:وَدُّوا لَوْ تُصَانِعُهُمْ فِي الدِّين فَيُصَانِعُوكَ.وَهَذَا لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لِمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ حِبَّانَ،فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مَأْمُورًا بِالصَّدْعِ بِالدَّعْوَةِ وَعَدَمِ الْمُصَانَعَةِ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ وَعَيْبِ الأَصْنَامِ وَالآلِهَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا

[2319] – فتح الباري ١٢ / ٣١٤، والمكتبة السلفية، ١٣٧٢ هـ .

[2320] – روضة العقلاء لابن حبان ص ٥٦ القاهرة، مصطفى الحلبي، ١٣٧٤هـ .

[2321] – روضة العقلاء ص ٥٦ أيضا .

[2322] – روضة العقلاء ص ٥٦ .

مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى،فَكَانَ تَلْيِينُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ مُدَاهَنَةً لاَ يَرْضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ فِيهَا تَرْكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُدَاهَنَةِ وَالتَّقِيَّةِ:أَنَّ التَّقِيَّةَ لاَ تَحِل إلاَّ لِدَفْعِ الضَّرَرِ،أَمَّا الْمُدَاهَنَةُ فَلاَ تَحِل أَصْلاً،لِأَنَّهَا اللِّينُ فِي الدِّينِ وَهُوَ مَمْنُوعٌ شَرْعًا.[٢٣٢٣]

ج – النِّفَاقُ:

النِّفَاقُ هُوَ أَنْ يُظْهِرَ الإِيمَانَ وَيَسْتُرَ الْكُفْرَ،وَقَدْ يُطْلَقُ النِّفَاقُ عَلَى الرِّيَاءِ،قَال صَاحِبُ اللِّسَانِ:لِأَنَّ كِلَيْهِمَا إِظْهَارُ غَيْرِ مَا فِي الْبَاطِنِ.

قَال ابْنُ تَيْمِيَّةَ:إِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ،وَأَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.[٢٣٢٤]

وَالصِّلَةُ بَيْنَ التَّقِيَّةِ وَبَيْنَ النِّفَاقِ،أَنَّ الْمُنَافِقَ كَافِرٌ فِي قَلْبِهِ لَكِنَّهُ يُظْهِرُ بِلِسَانِهِ وَظَاهِرُ حَالِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَيَعْمَل أَعْمَال الْمُؤْمِنِينَ لِيَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ وَلِيُحَصِّل الْمِيزَاتِ الَّتِي يُحَصِّلُهَا الْمُؤْمِنُ.فَهُوَ مُغَايِرٌ لِلتَّقِيَّةِ ؛لِأَنَّهَا إِظْهَارُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهِ مَا يَأْمَنُ بِهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْكُفْرِ أَوِ الْمَعْصِيَةِ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ فِي قَلْبِهِ،وَاطْمِئْنَانِهِ بِالإِيمَانِ.

مَشْرُوعِيَّةُ الْعَمَل بِالتَّقِيَّةِ:

يَذْهَبُ جُمْهُورُ عُلَمَاءِ أَهْل السُّنَّةِ إِلَى أَنَّ الأَصْل فِي التَّقِيَّةِ هُوَ الْحَظْرُ،وَجَوَازُهَا ضَرُورَةٌ،فَتُبَاحُ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ.قَال الْقُرْطُبِيُّ:وَالتَّقِيَّةُ لاَ تَحِل إلاَّ مَعَ خَوْفِ الْقَتْل أَوِ الْقَطْعِ أَوِ الإِيذَاءِ الْعَظِيمِ،وَلَمْ يُنْقَل مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ فِيمَا نَعْلَمُ إلاَّ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ،وَمُجَاهِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ[٢٣٢٥]،وَإِنَّمَا ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ:{ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ

[٢٣٢٣] – روضة العقلاء ص ٥٦ .

[٢٣٢٤] – منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦)

[٢٣٢٥] – تفسير القرطبي ٤ / ٥٧ .

الْمَصِيرُ } [آل عمران:٢٨] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٢٨] قَالَ:«نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُلَاطِفُوا الْكُفَّارَ،أَوْ يَتَّخِذُوهُمْ وَلِيجَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْكُفَّارُ عَلَيْهِمْ ظَاهِرِينَ،فَيُظْهِرُونَ لَهُمُ اللُّطْفَ وَيُخَالِفُونَهُمْ فِي الدِّينِ» وَذَلِكَ قَوْلُهُ:{إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران:٢٨] [٢٣٢٦].

وقال ابن تيمية:" فَالْمُؤْمِنُ إِذَا كَانَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِيَدِهِ مَعَ عَجْزِهِ،وَلَكِنْ إِنْ أَمْكَنَهُ بِلِسَانِهِ وَإِلَّا فَبِقَلْبِهِ،مَعَ أَنَّهُ لَا يَكْذِبُ وَيَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،إِمَّا أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ وَإِمَّا أَنْ يَكْتُمَهُ،وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يُوَافِقُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ كُلِّهِ،بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ كَمُؤْمِنِ [آلِ] فِرْعَوْنَ – وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ – وَهُوَ لَمْ يَكُنْ مُوَافِقًا لَهُمْ عَلَى جَمِيعِ دِينِهِمْ،وَلَا كَانَ يَكْذِبُ،وَلَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،بَلْ كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ.

وَكِتْمَانُ الدِّينِ شَيْءٌ،وَإِظْهَارُ الدِّينِ الْبَاطِلِ شَيْءٌ آخَرُ.فَهَذَا لَمْ يُبِحْهُ اللَّهُ قَطُّ إِلَّا لِمَنْ أُكْرِهَ،بِحَيْثُ أُبِيحَ لَهُ النُّطْقُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ.وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُنَافِقِ وَالْمُكْرَهِ.

وَكِتْمَانُ الدِّينِ شَيْءٌ،وَإِظْهَارُ الدِّينِ الْبَاطِلِ شَيْءٌ آخَرُ.فَهَذَا لَمْ يُبِحْهُ اللَّهُ قَطُّ إِلَّا لِمَنْ أُكْرِهَ،بِحَيْثُ أُبِيحَ لَهُ النُّطْقُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ.وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُنَافِقِ وَالْمُكْرَهِ.

وَالرَّافِضَةُ حَالُهُمْ مِنْ جِنْسِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ،لَا مِنْ جِنْسِ حَالِ الْمُكْرَهِ الَّذِي أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ،فَإِنَّ هَذَا الْإِكْرَاهَ لَا يَكُونُ عَامًّا مِنْ جُمْهُورِ بَنِي آدَمَ،بَلِ الْمُسْلِمُ يَكُونُ أَسِيرًا أَوْ مُنْفَرِدًا فِي بِلَادِ الْكُفْرِ،وَلَا أَحَدَ يُكْرِهُهُ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ،وَلَا يَقُولُهَا،وَلَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،وَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَلِينَ لِنَاسٍ مِنَ الْكُفَّارِ لِيَظُنُّوهُ مِنْهُمْ،وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ،بَلْ يَكْتُمُ مَا فِي قَلْبِهِ.

وَفَرْقٌ بَيْنَ الْكَذِبِ وَبَيْنَ الْكِتْمَانِ.فَكِتْمَانُ مَا فِي النَّفْسِ يَسْتَعْمِلُهُ الْمُؤْمِنُ حَيْثُ يَعْذُرُهُ اللَّهُ فِي الْإِظْهَارِ،كَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ.وَأَمَّا الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْكُفْرِ،فَلَا يَعْذُرُهُ إِلَّا إِذَا أُكْرِهَ.وَالْمُنَافِقُ الْكَذَّابُ لَا يُعْذَرُ بِحَالٍ،وَلَكِنْ فِي الْمَعَارِيضِ مَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ.ثُمَّ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَكْتُمُ إِيمَانَهُ يَكُونُ بَيْنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ دِينَهُ،وَهُوَ مَعَ هَذَا مُؤْمِنٌ عِنْدَهُمْ يُحِبُّونَهُ

[٢٣٢٦] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٣١٦) حسن

وَيُكْرِمُونَهُ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ يُوجِبُ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَالنُّصْحِ،وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ بِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُوَافِقًا لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ،كَمَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ يَسِيرُ فِي أَهْلِ مِصْرَ وَكَانُوا كُفَّارًا،وَكَمَا كَانَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ،وَمَعَ هَذَا كَانَ يُعَظِّمُ مُوسَى وَيَقُولُ:{أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} [سُورَةُ غَافِرٍ:٢].[٢٣٢٧]

وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّقِيَّةِ لِلضَّرُورَةِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل:١٠٦] وَسَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخَذُوا عَمَّارًا فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ،عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ،وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ،فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ:شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ،وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ:«كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ:مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ:«إِنْ عَادُوا فَعُدْ»[٢٣٢٨].

وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى جَوَازِ التَّقِيَّةِ لِلضَّرُورَةِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ عُيُونًا لِمُسَيْلِمَةَ أَخَذُوا رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَوْهُ بِهِمَا،فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ:فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ،فَقَالَ:إِنِّي أَصَمُّ،قَالَ:مَا لَكَ إِذَا قُلْتُ لَكَ:تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ،قُلْتُ إِنِّي أَصَمُّ،فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ،وَقَالَ لِلآخَرِ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ،قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ،قَالَ:نَعَمْ،فَأَرْسَلَهُ،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ:هَلَكْتُ،قَالَ:وَمَا شَأْنُكَ فَأَخْبَرُوهُ بِقِصَّتِهِ وَقِصَّةِ صَاحِبِهِ،فَقَالَ:أَمَّا صَاحِبُكَ فَمَضَى عَلَى إِيمَانِهِ،وَأَمَّا أَنْتَ فَأَخَذْتَ بِالرُّخْصَةِ.[٢٣٢٩]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:إِنَّ أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ أَخَذُوا رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَوْا بِهِمَا مُسَيْلِمَةَ،فَقَالَ:لِأَحَدِهِمَا:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ

[٢٣٢٧] – منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٢٤)

[٢٣٢٨] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٩)(٣٣٦٢) صحيح

[٢٣٢٩] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٥٣٧)(٣٣٧٠٨) صحيح مرسل

اللَّه؟،قَالَ:إِنِّي أَصَمُّ،- ثَلَاثَ مَرَّات - فَأَمَرَ به فَقُتلَ،وَقَالَ:للْآخَرِ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه؟،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّــه؟،قَالَ:نَعَمْ،فَخَلَّــى سَــبِيلَهُ،فَأَتَى النَّبِــيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«صَاحبُكَ أَخَذَ بِالْفَضْلِ وَأَنْتُ أَخَذْتَ بِالرُّخْصَةِ،عَلَامَ أَنْــتَ الْيَوْمَ؟» قَالَ:أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّه وَأَنَّهُ كَاذِبٌ"[2330]

وعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ،قَالَ:ذُكرَ لَهُ حَبِيبُ بْنُ زَيْد بْنِ عَاصِمٍ أَخُو بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ الَّذي كَانَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ قَطَعَهُ بِالْيَمَامَة حينَ جَعَلَ يَسْأَلُهُ عَــنْ رَسُــولِ اللَّــه ﷺ،فَجَعَــلَ يَقُولُ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ،ثُمَّ يَقُولُ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّه؟ فَيَقُولُ لَهُ:لَا أَسْمَعُ،فَيَقُولُ مُسَيْلمَةُ:أَتَسْمَعُ هَذَا،وَلَا تَسْمَعُ هَذَا؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ،فَجَعَلَ يَقْطَعُهُ عُضْــوًا عُضْوًا،كُلَّمَا سَأَلَهُ لَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلكَ حَتَّى مَاتَ فِي يَدَيْه.قَالَ كَعْبٌ حينَ قيلَ لَهُ:اسْــمُهُ حَبِيبٌ:«وَكَانَ وَاللَّه صَاحبُ يَس اسْمَهُ حَبِيبٌ»[2331]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:التَّقيَّةُ جَائزَةٌ لِلْمُؤْمِنِ إِلَى يَوْمِ الْقيَامَة إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لاَ يَجْعَلُ فِي الْقَتْــلِ تَقيَّةً.[2332]

وَقَدْ نَسَبَ الْقُرْطُبِيُّ إِنْكَارَ التَّقيَّة إِلَى مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ،وَنَسَــبَهُ الــرَّازِيُّ وَالْقُرْطُبِــيُّ إِلَــى مُجَاهد،قَالاَ:" كَانَت التَّقيَّةُ فِي جدَّة الإِسْلاَمِ قَبْل قُوَّة الْمُسْلمينَ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَعَزَّ اللَّــهُ أَهْل الإِسْلاَمِ أَنْ يَتَّقُوا عَدُوَّهُمْ "[2333]

وَنَقَل السَّرَخْسِيُّ عَنْ قَوْمٍ لَمْ يُسَمِّهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَــأْبَوْنَ التَّقيَّــةَ،وَيَقُولُونَ:هِــيَ مِــنَ النِّفَاق.[2334]

التَّقيَّةُ منَ الأَنْبيَاء:

قَال السَّرَخْسِيُّ:إِنَّ هَذَا النَّوْعَ - يَعْنِي النُّطْقَ بِكَلِمَة الْكُفْرِ تَقيَّةً - يَجُوزُ لغَيْر الرُّسُل.فَأَمَّا فِي حَقِّ الْمُرْسَلِينَ - ﷺمْ أجْمَعِينَ - فَمَا كَانَ يَجُوزُ ذَلِكَ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَصْل الــدَّعْوَة

[2330] - المراسيل لأبي داود (ص:٢٤٤)(٣٢٦) صحيح مرسل

[2331] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٤٢٠) صحيح مرسل

[2332] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٣٩)(٣٣٧١٣)

[2333] - تفسير القرطبي (٤/ ٥٧)، وتفسير الرازي ٨ / ١٤

[2334] - المبسوط للسرخسي ٢٤ / ٤٥ .

إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ،وَتَجْوِيزُ ذَلِكَ مُحَالٌ – أَيْ مَمْنُوعٌ شَرْعًا – لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ لاَ يُقْطَعَ الْقَوْل بِمَا هُوَ شَرِيعَةٌ،لاِحْتِمَال أَنْ يَكُونَ فَعَل ذَلِكَ أَوْ قَالَهُ تَقِيَّةً[٢٣٣٥].

وَهُوَ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى مَا يُبَيِّنُهُ أَهْل الأُصُول مِنْ أَنَّ حُجِّيَّةَ السُّنَّة النَّبَوِيَّة مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى كَوْن كُل مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حَقًّا،إِذْ لَوْ تَطَرَّقَ إِلَى أَقْوَالِه أَوْ أَفْعَالِه احْتِمَالٌ أَنَّهُ فَعَل أَوْ قَال أَشْيَاءَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيل التَّقِيَّة وَهِيَ حَرَامٌ،لَكَانَ ذَلِكَ تَلْبِيسًا فِي الدِّين،وَلَمَا حَصَلَت الثِّقَةُ بِأَقْوَال النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِه.وَكَذَلِكَ السُّكُوتُ مِنْهُ ﷺ عَلَى مَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ مِنْ أَصْحَابِه إِقْرَارٌ تُسْتَفَادُ مِنْهُ الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ،فَلَوْ كَانَ بَعْضُ سُكُوتِه يَكُونُ تَقِيَّةً لاَلْتَبَسَتِ الأَحْكَامُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى:{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)} [الأحزاب:٣٨،٣٩]،وَقَال:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة:٦٧]

قَال الْقُرْطُبِيُّ:دَلَّتِ الآيَةُ عَلَى رَدِّ قَوْل مَنْ قَال:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ تَقِيَّةً،وَعَلَى بُطْلاَنِه وَهُمُ الرَّافِضَةُ.[٢٣٣٦]

قَال شَارِحُ مُسَلَّمِ الثُّبُوت:مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ بُعِثَ بَيْنَ أَعْدَائِه،فَلَعَلَّهُ – أَيْ فِي حَال افْتِرَاضِ عَمَلِه بِالتَّقِيَّة – كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ خَوْفًا مِنْهُمْ،وَكَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ بُعِثَ بَيْنَ أَعْدَائِه،وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِأَصْحَابِه قُدْرَةٌ لِدَفْعِهِمْ فَيَلْزَمُ عَلَى تَجْوِيزِ التَّقِيَّة لَهُ احْتِمَال كِتْمَانِه شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ،وَأَنْ لاَ ثِقَةَ بِالْقُرْآنِ.فَانْظُرْ إِلَى شَنَاعَةِ هَذَا الْقَوْل وَحَمَاقَتِه.[٢٣٣٧]

[٢٣٣٥] – المبسوط ٢٤ / ٤٥، وفتح الباري لابن حجر شرح صحيح البخاري ١٢ / ٢١١ القاهرة .المكتبة السلفية ١٣٧٢، وتفسير الرازي ٨ / ١٤ .

[٢٣٣٦] – تفسير القرطبي ٦ / ٢٤٢ .

[٢٣٣٧] – شرح مسلم الثبوت ٢ / ٩٧ مع المستصفى .بولاق، وانظر مختصر التحفة ص ٢٩٤ .

عَلَى أَنَّ امْتِنَاعَ التَّقِيَّةِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ لاَ يَعْنِي عَدَمَ عَمَلِهِمْ بِالْمُلاَطَفَةِ وَاللِّينِ وَالْمُدَارَاةِ لِلنَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ،أَيْ مِنْ دُونِ إِخْلاَلٍ بِفَرِيضَةٍ أَوِ ارْتِكَابٍ لِمُحَرَّمٍ.[2338]

حُكْمُ الْعَمَلِ بِالتَّقِيَّةِ:

تَقَدَّمَتْ الأَدِلَّةُ عَلَى جَوَازِ الْعَمَلِ بِالتَّقِيَّةِ.

وَقَد اخْتُلِفَ فِي حُكْمِهَا.فَقِيلَ:إِذَا وُجِدَ سَبَبُهَا وَتَحَقَّقَ شَرْطُهَا فَهِيَ وَاجِبَةٌ،لِأَنَّ إِنْقَاذَ النَّفْسِ مِنَ الْهَلَكَةِ أَوِ الإِيذَاءِ الْعَظِيمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لاَ يَحْصُلُ إِلاَّ بِهَا فِي تَقْدِيرِ الْمُكَلَّفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:٢٩]

وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الأَوْلَى لِلإِنْسَانِ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ بِظَاهِرِهِ،كَمَا هُوَ عَلَيْهِ بِبَاطِنِهِ[2339].

وَقَدْ يَكُونُ الثَّبَاتُ أَفْضَلَ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَمَثُوبَةً وَلَوْ كَانَ الْعُذْرُ قَائِمًا،وَثَبَتَ هَذَا بِالأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَمِنَ الْكِتَابِ مَا فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ،فَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي الأُخْدُودِ،وَاخْتَارُوا ذَلِكَ عَلَى أَنْ يُظْهِرُوا الرُّجُوعَ عَنْ دِينِهِمْ.وَثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الثَّبَاتِ يَدُلُ عَلَى تَفْضِيلِ مَوْقِفِهِمْ عَلَى مَوْقِفِ الْعَمَلِ بِالتَّقِيَّةِ فِي قَضِيَّةِ إِظْهَارِ الْكُفْرِ.

وَمِنْهَا قَوْلِهِ تَعَالَى:{ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) } [العنكبوت:٢ - ٤].

وَمِمَّا يُسْتَدَلُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ ما جاء عَنْ مُعَاذٍ قَالَ:أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ قَالَ:" لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ،وَلَا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ،وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ،وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا؛فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ،وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا؛فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ،وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ؛فَإِنَّ بِالْمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَإِيَّاكَ وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ وَإِنْ هَلَكَ

[2338] - مختصر التحفة الاثنى عشرية ص ٢٩٥ .

[2339] - تفسير القرطبي ٤ / ٥٧ .

النَّاسُ،وَإِذَا أَصَابَ النَّاسَ مُوتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ،وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ،وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا وَأَخِفْهُمْ فِي اللَّهِ "[2340]

وَكَذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ فِي مَسْأَلَةِ مُسَيْلِمَةَ،فَقَدْ عَذَرَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابِيَّ الَّذِي وَافَقَ مُسَيْلِمَةَ وَقَال فِيه:لاَ تَبِعَةَ عَلَيْهِ،وَقَال فِي حَقِّ الَّذِي ثَبَتَ فَقُتِل:مَضَى عَلَى صِدْقِهِ وَيَقِينِهِ،وَأَخَذَ بِفَضْلِهِ،فَهَنِيئًا لَهُ وَهَذَا يَدُل عَلَى التَّفْضِيل.

وَاحْتَجَّ السَّرَخْسِيُّ أَيْضًا بِقِصَّةِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ لَمَّا امْتَنَعَ مِنْ مُوَافَقَةِ قُرَيْشٍ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى قَتَلُوهُ.[2341] .فعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً»،مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ،فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ،أَنَّ ابْنَةَ الحَارِثِ،أَخْبَرَتْهُ،أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا،فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ،قَالَ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا...عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي،

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ...يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ،

فَقَتَلَهُ ابْنُ الحَارِثِ،«فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ يَوْمَ أُصِيبُوا»[2342]

وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَابًا بِعِنْوَانِ (بَابُ مَنِ اخْتَارَ الضَّرْبَ وَالْقَتْل وَالْهَوَانَ عَلَى الْكُفْرِ) أَوْرَدَ فِيهِ حَدِيثَ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا،أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[2343]

[2340] -مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٩٢)(٢٢٠٧٥) حسن لغيره

[2341] – المبسوط للسرخسي ٢٤ / ٤٤ (كتاب الإكراه)

[2342] – صحيح البخاري (٩/ ١٢٠)(٧٤٠٢)

[2343] – صحيح البخاري (٤/ ٢٠١)(٣٦١٢)

وعَنْ خَبَّاب بْنِ الْأَرَتِّ،قَالَ:أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ،وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَة وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا،فَجَلَسَ مُغْضَبًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ،فَقَالَ:«إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُسْأَلُ الْكَلِمَةَ فَمَا يُعْطِيهَا،فَيُوضَعُ عَلَيْه الْمِنْشَار،فَيَشُقُّ بِاثْنَيْنِ،مَا يَصْرِفُهُ ذَاكَ عَنْ دِينه،وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُمْشَطُ مَا دُونَ عِظَامه مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيد،وَمَا يَصْرِفُهُ ذَاكَ عَنْ دِينه،وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ،وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمه»[٢٣٤٤]

(وَاللَّه لَيَتِمَّنَّ):بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ أَيْ:لَيَكْمُلَنَّ (هَذَا الْأَمْرُ) أَيْ:أَمْرُ الدِّينِ وَفِي نُسْخَة بِصِيغَة الْمَجْهُول،وَفِي أُخْرَى بِضَمِّ حَرْف الْمُضَارَعَة وَكَسْرِ التَّاء عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ اللَّهُ،وَقَوْلُهُ:هَذَا الْأَمْرَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّة،وَفِيه إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِه تَعَالَى:{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ - هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه} [التوبة:٣٢ - ٣٣] (حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ) أَيْ:رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ وَحْدَهُ (مِنْ صَنْعَاءَ):بَلَد بِالْيَمَنِ (إِلَى حَضْرَمَوْتَ):مَوْضِعٍ بِأَقْصَى الْيَمَنِ وَهُوَ بِفَتْحِ الْمِيمِ غَيْرَ مُنْصَرِفٍ لِلتَّرْكِيبِ وَالْعَلَمِيَّة،وَقِيلَ اسْمُ قَبِيلَة،وَقِيلَ مَوْضِعٌ حَضَرَ فِيه صَالِحٌ عَلَيْه السَّلَامُ فَمَاتَ فِيه،وَحَضَرَ جِرْجِيسُ فَمَاتَ فِيه ذَكَرَهُ شَارِحٌ،وَتَبِعَهُ ابْنُ الْمَلَك وَفِي الْقَامُوس:حَضْرَمَوْتُ وَبِضَمِّ الْمِيمِ بَلَدٌ وَقَبِيلَةٌ،وَيُقَالُ هَذَا حَضْرَمَوْتُ،وَيُضَافُ فَيُقَالُ:حَضْرُمَوْت بِضَمِّ الرَّاءِ وَإِنْ شِئْتَ لَا تُنَوِّنِ الثَّانِيَ (لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمه):وَفِي نُسْخَة بِالْوَاو،وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَوْ يَكُونَ (أَوْ) بِمَعْنَى الْوَاوِ لِلْجَمْعِ أَوْ لِلشَّكِّ،وَعَلَى كُلٍّ تَقْدِير،فَلَا يَخْفَى مَا فِيه مِنَ الْمُبَالَغَة فِي حُصُولِ الْأَمْنِ،وَزَوَالِ الْخَوْف،فَانْدَفَعَ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ سِيَاقَ الْحَدِيث إِنَّمَا هُوَ لِلْأَمْنِ مِنْ عُدْوَانِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ،كَمَا هُوَ فِي الْجَاهِلِيَّة لَا الْأَمْنُ مِنْ عُدْوَانِ الذِّئْب،فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى عَلَيْه السَّلَامُ.(وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).أَيْ:سَيَزُولُ عَذَابُ

[ش (متوسد بردة) جعلها وسادة له.(تستنصر) تطلب النصرة من الله تعالى.(ليتمن) من الإتمام والكمال.(هذا الأمر) وهو الإسلام.(تستعجلون) النتائج والثمرات]

[٢٣٤٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٧/ ١٥٦)(٢٨٩٧) صحيح

الْمُشْرِكِينَ فَاصْبِرُوا عَلَى أَمْرِ الدِّينِ كَمَا صَبَرَ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَشَدِّ مِنْ عَذَابِكُمْ لِقُوَّةِ الْيَقِينِ.[٢٣٤٥]

وَهُوَ وَاضِحُ الدَّلاَلَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ.

وَهَكَذَا كُلِ أَمْرٍ فِيهِ إِعْزَازٌ لِلدِّينِ وَإِعْلاَءٌ لِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِظْهَارٌ لِثَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَبَسَالَتِهِمْ،وَتَثْبِيتٌ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ،يَكُونُ الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ وَإِظْهَارُهُ أَوْلَى مِنَ التَّقِيَّةِ،وَهَذَا بِخِلاَفِ نَحْوِ الإِكْرَاهِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَحَيْثُ لاَ تَظْهَرُ الْمَصَالِحُ الْمَذْكُورَةُ.

قَال الْفَخْرُ الرَّازِيُّ:اعْلَمْ أَنَّ لِلتَّقِيَّةِ أَحْكَامًا كَثِيرَةً وَنَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضَهَا:

(الْحُكْمُ الأَوَّل):أَنَّ التَّقِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ إِذَا كَانَ الرَّجُل فِي قَوْمٍ كُفَّارٍ،وَيَخَافُ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ فَيُدَارِيهِمْ بِاللِّسَانِ،وَذَلِكَ بِأَنْ لاَ يُظْهِرَ الْعَدَاوَةَ بِاللِّسَانِ،بَل يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يُظْهِرَ الْكَلاَمَ الْمُوهِمَ لِلْمَحَبَّةِ وَالْمُوَالاَةِ،وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يُضْمِرَ خِلاَفَهُ،وَأَنْ يُعَرِّضَ فِي كُل مَا يَقُول،فَإِنَّ التَّقِيَّةَ

تَأْثِيرُهَا فِي الظَّاهِرِ لاَ فِي أَحْوَال الْقُلُوبِ.

(الْحُكْمُ الثَّانِي لِلتَّقِيَّةِ):أَنَّهُ لَوْ أَفْصَحَ بِالإِيمَانِ وَالْحَقِّ حَيْثُ يَجُوزُ لَهُ التَّقِيَّةُ كَانَ ذَلِكَ أَفْضَل،وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي قِصَّةِ مُسَيْلِمَةَ.

(الْحُكْمُ الثَّالِثُ لِلتَّقِيَّةِ):أَنَّهَا إِنَّمَا تَجُوزُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِ الْمُوَالاَةِ وَالْمُعَادَاةِ،وَقَدْ تَجُوزُ أَيْضًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِ الدِّينِ فَأَمَّا مَا يَرْجِعُ ضَرَرُهُ إِلَى الْغَيْرِ كَالْقَتْل وَالزِّنَى وَغَصْبِ الأَمْوَال وَالشَّهَادَةِ بِالزُّورِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَاطِّلاَعِ الْكُفَّارِ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ،فَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ أَلْبَتَّةَ.

(الْحُكْمُ الرَّابِعُ):ظَاهِرُ الآيَةِ يَدُل عَلَى أَنَّ التَّقِيَّةَ إِنَّمَا تَحِل مَعَ الْكُفَّارِ الْغَالِبِينَ إِلاَّ أَنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا شَاكَلَتِ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ حَلَّتِ التَّقِيَّةُ مُحَامَاةً عَلَى النَّفْسِ.

الْحُكْمُ الْخَامِسُ):التَّقِيَّةُ جَائِزَةٌ لِصَوْنِ النَّفْسِ،وَهَل هِيَ جَائِزَةٌ لِصَوْنِ الْمَال ؟

[٢٣٤٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٤٧)

يُحْتَمَل أَنْ يُحْكَمَ فِيهَا بِالْجَوَاز،فعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" سِبَابُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ فُسُوقٌ،وَقِتَالُهُ كُفْرٌ،وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ "[٢٣٤٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«حُرْمَةُ مَالِ الْمُؤْمِنِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»[٢٣٤٧]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٣٤٨]

وَلأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْمَال شَدِيدَةٌ وَالْمَاءُ إِذَا بِيعَ بِالْغَبْنِ سَقَطَ فَرْضُ الْوُضُوءِ،وَجَازَ الاقْتِصَارُ عَلَى التَّيَمُّمِ دَفْعًا لِذَلِكَ الْقَدْرِ مِنْ نُقْصَانِ الْمَالِ،فَكَيْفَ لاَ يَجُوزُ هَاهُنَا.

(الْحُكْمُ السَّادِسُ):قَال مُجَاهِدٌ:هَذَا الْحُكْمُ كَانَ ثَابِتًا فِي أَوَّل الإِسْلاَمِ لأَِجْل ضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَمَّا بَعْدَ قُوَّةِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ فَلاَ،وَرَوَى عَوْفٌ عَنِ الْحَسَنِ:أَنَّهُ قَال التَّقِيَّةُ جَائِزَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَهَذَا الْقَوْل أَوْلَى،لأَِنَّ دَفْعَ الضَّرَرِ عَنِ النَّفْسِ وَاجِبٌ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ.[٢٣٤٩]

شُرُوطُ جَوَازِ التَّقِيَّة:

أ – يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ التَّقِيَّةِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَوْفٌ مِنْ مَكْرُوهٍ،عَلَى مَا يُذْكَرُ تَفْصِيلُهُ بَعْدُ.فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَوْفٌ وَلاَ خَطَرٌ لَمْ يَجُزِ ارْتِكَابُ الْمُحَرَّمِ تَقِيَّةً،وَذَلِكَ كَمَنْ يَفْعَل الْمُحَرَّمَ تَوَدُّدًا إِلَى الْفُسَّاقِ أَوْ حَيَاءً مِنْهُمْ.وَإِنْ قَال خِلاَفَ الْحَقِيقَةِ كَانَ كَاذِبًا آثِمًا،وَكَذَا مَنْ أَثْنَى عَلَى الظَّالِمِينَ أَوْ أَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَحُسْنِ طَرِيقَتِهِمْ لِتَحْصِيل الْمَصْلَحَةِ مِنْهُمْ دُونَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ خَطَرٌ مِنْهُمْ لَوْ سَكَتَ،فَإِنَّهُ يَكُونُ كَاذِبًا آثِمًا مُشَارِكًا لَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ وَفِسْقِهِمْ.وَإِنْ كَانَ فِيمَا صَدَّقَهُمْ بِهِ عُدْوَانٌ عَلَى مُسْلِمٍ فَذَلِكَ أَعْظَمُ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ:آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ "[٢٣٥٠].

[٢٣٤٦] – مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٢٩٦)(٤٢٦٢) صحيح لغيره

[٢٣٤٧] – سنن الدارقطني (٣/ ٤٢٥)(٢٨٨٨) صحيح لغيره

[٢٣٤٨] – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٤) صحيح

[٢٣٤٩] – تفسير الرازي (٨ / ١٤ ط البهية المصرية ١٩٣٨م)

[٢٣٥٠] – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ١٨٤)(٤٨٤) حسن لغيره

ب – قيل:يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ التَّقِيَّةِ أَنْ تَكُونَ مَعَ الْكُفَّارِ الْغَالِبِينَ وَسَبَقَ قَوْل الرَّازِيِّ أَنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا شَاكَلَتِ الْحَالَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ حَلَّتِ التَّقِيَّةُ مُحَامَاةً عَنِ النَّفْسِ.[٢٣٥١]

ج – أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ نَطَقَ بِالْكُفْرِ وَنَحْوِهِ تَقِيَّةً يُتْرَكُ بَعْدَ ذَلِكَ.وَهَذَا الاشْتِرَاطُ مَنْقُولٌ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ،فَقَدْ سُئِل عَنِ الرَّجُل يُؤْسَرُ فَيُعْرَضُ عَلَى الْكُفْرِ وَيُكْرَهُ عَلَيْهِ،هَل لَهُ أَنْ يَرْتَدَّ – أَيْ ظَاهِرًا – فَكَرِهَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً وَقَال:مَا يُشْبِهُ هَذَا عِنْدِي الَّذِينَ أُنْزِلَتْ فِيهِمُ الآيَةُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أُولَئِكَ كَانُوا يُرَادُونَ عَلَى الْكَلِمَةِ ثُمَّ يُتْرَكُونَ يَفْعَلُونَ مَا شَاءُوا،وَهَؤُلاَءِ يُرِيدُونَهُمْ عَلَى الإِقَامَةِ عَلَى الْكُفْرِ وَتَرْكِ دِينِهِمْ.

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَذَلِكَ لأَنَّ الَّذِي يُكْرَهُ عَلَى كَلِمَةٍ يَقُولُهَا ثُمَّ يُخَلَّى لاَ ضَرَرَ فِيهَا،وَهَذَا الْمُقِيمُ بَيْنَهُمْ يَلْتَزِمُ بِإِجَابَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ الْمُقَامِ عَلَيْهِ وَاسْتِحْلاَل الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ وَفِعْل الْمَحْظُورَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَإِنْ كَانَ امْرَأَةً تَزَوَّجُوهَا وَاسْتَوْلَدُوهَا أَوْلاَدًا كُفَّارًا.وَكَذَلِكَ الرَّجُل.وَظَاهِرُ حَالِهِمُ الْمَصِيرُ إِلَى الْكُفْرِ الْحَقِيقِيِّ وَالاِنْسِلاَخِ مِنَ الإِسْلاَمِ.[٢٣٥٢]

وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَجُوزُ إِظْهَارُ الْكُفْرِ إِنْ عُلِمَ أَنَّهُ يُتْرَكُ بَعْدَ ذَلِكَ،أَمَّا إِنْ كَانَ مَآلُهُ الاِلْتِزَامُ بِالإِقَامَةِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْكُفَّارِ يُجْرُونَ عَلَيْهِ أَحْكَامَ الْكُفْرِ وَيَمْنَعُونَهُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَى إِظْهَارِ الْكُفْرِ.

وَحِينَئِذٍ فَإِنْ قَدَرَ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنْ مِثْل تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى حَيْثُ يَتَمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ وَالْعَمَل بِهِ فَلَيْسَ لَهُ الإِقَامَةُ الْمَذْكُورَةُ بِعُذْرِ التَّقِيَّةِ.

د – وَيُشْتَرَطُ لِجَوَازِ التَّقِيَّةِ أَنْ لاَ يَكُونَ لِلْمُكَلَّفِ مُخَلِّصٌ مِنَ الأَذَى إِلاَّ بِالتَّقِيَّةِ،وَهَذَا الْمُخَلِّصُ قَدْ يَكُونُ الْهَرَبُ مِنَ الْقَتْل أَوِ الْقَطْعِ أَوِ الضَّرْبِ،وَقَدْ يَكُونُ التَّوْرِيَةُ عِنْدَ الإِكْرَاهِ عَلَى الطَّلاَقِ،وَعَدَمِ الدَّهْشَةِ[٢٣٥٣]

[٢٣٥١] – تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٨/ ١٩٤)

[٢٣٥٢] – المغني ٨ / ١٤٧ القاهرة، دار المنار، الطبعة الثالثة .

[٢٣٥٣] – الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٢ / ٣٦٨ القاهرة، عيسى الحلبي .

وَهَذَا عِنْدَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ،وَقَدْ تَكُونُ الْهِجْرَةُ مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلاَمِ.فَإِنْ أَمْكَنَتْهُ الْهِجْرَةُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُوَالاَةُ الْكُفَّارِ وَتَرْكُ إِظْهَارِ دِينِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٧ - ٩٩]

قَال الأَلُوسِيُّ:اعْتَذَرُوا عَنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي إِظْهَارِ الإِسْلاَمِ وَعَنْ إِدْخَالِهِمُ الْخَلَل فِيهِ وَعَنِ الْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِ الدِّينِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مَقْهُورِينَ تَحْتَ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ،وَأَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ كَارِهِينَ.فَلَمْ تَقْبَل الْمَلاَئِكَةُ عُذْرَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَمَكِّنِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ،فَاسْتَحَقُّوا عَذَابَ جَهَنَّمَ لِتَرْكِهِمُ الْفَرِيضَةَ الْمَحْتُومَةَ.[٢٣٥٤]

وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ مَنْ كَانَ مَقْهُورًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى الْهِجْرَةِ حَقِيقَةً لِضَعْفِهِ أَوْ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَسَوَاءٌ أَكَانَ رَجُلاً أَم امْرَأَةً بِحَيْثُ يَخْشَى التَّلَفَ لَوْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فَذَلِكَ عُذْرٌ فِي الإِقَامَةِ وَتَرْكِ الْهِجْرَةِ.وَقَدْ صَرَّحَتْ بِهَذَا الْمَعْنَى الآيَتَانِ التَّالِيَتَانِ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ وَهُمَا { إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٨،٩٩]

وَقَال الأَلُوسِيُّ أَيْضًا:" كُل مُؤْمِنٍ وَقَعَ فِي مَحَلٍّ لاَ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ لِتَعَرُّضِ الْمُخَالِفِينَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ إِلَى مَحَلٍّ يَقْدِرُ فِيهِ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ،وَلاَ يَجُوزُ لَهُ أَصْلاً أَنْ يَبْقَى هُنَاكَ وَيُخْفِيَ دِينَهُ وَيَتَشَبَّثَ بِعُذْرِ الاسْتِضْعَافِ،فَإِنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ.نَعَمْ إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ فِي تَرْكِ الْهِجْرَةِ كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالْعُمْيَانِ وَالْمَحْبُوسِينَ وَالَّذِينَ يُخَوِّفُهُمُ الْمُخَالِفُونَ بِالْقَتْل أَوْ قَتْل الأَوْلاَدِ أَوِ الآبَاءِ أَوِ الأُمَّهَاتِ تَخْوِيفًا يُظَنُّ مَعَهُ إِيقَاعُ مَا خُوِّفُوا بِهِ غَالِبًا،سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْقَتْل بِضَرْبِ الْعُنُقِ أَوْ حَبْسِ الْقُوتِ أَوْ بِنَحْوِ ذَلِكَ،فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْمُكْثُ مَعَ الْمُخَالِفِ،وَالْمُوَافَقَةُ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى فِي

[٢٣٥٤] - تفسير الألوسي = روح المعاني (٣/ ١٢١) وقال :إن ترك التأويل بلا عذر لا يقع طلاقه على الصحيح، الفروع ٥ / ٣٦٨، والإنصاف ٨ / ٤٤١ .

الْحِيلَة لِلْخُرُوجِ وَالْفِرَارِ بدينه.وَإِنْ كَانَ التَّخْوِيفُ بِفَوَاتِ الْمَنْفَعَةِ أَوْ بِلُحُوقِ الْمَشَقَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ تَحَمُّلُهَا كَالْحَبْسِ مَعَ الْقُوتِ،وَالضَّرْبِ الْقَلِيلِ غَيْرِ الْمُهْلِكِ فَإِنَّهُ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَافَقَتُهُمْ.[2355]

هـ – وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الأَذَى الْمَخُوفُ وُقُوعُهُ مِمَّا يَشُقُّ احْتِمَالُهُ.وَالأَذَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِضَرَرٍ فِي نَفْسِ الإِنْسَانِ أَوْ مَالِهِ أَوْ عِرْضِهِ.أَوْ فِي الْغَيْرِ،أَوْ تَفْوِيتِ مَنْفَعَةٍ.فَالأَوَّل كَخَوْفِ الْقَتْلِ أَوِ الْجُرْحِ أَوْ قَطْعِ عُضْوٍ أَوِ الْحَرْقِ الْمُؤْلِمِ أَوِ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ أَوِ الْحَبْسِ مَعَ التَّجْوِيعِ وَمَنْعِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:أَوْ خَوْفِ صَفْعٍ وَلَوْ قَلِيلاً لِذِي مُرُوءَةٍ عَلَى مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ.[2356]

أَمَّا التَّجْوِيعُ الْيَسِيرُ وَالْحَبْسُ الْيَسِيرُ وَالضَّرْبُ الْيَسِيرُ فَلاَ تَحل بِهِ التَّقِيَّةُ وَلاَ يُجِيزُ إِظْهَارَ مُوَالاَةِ الْكَافِرِينَ أَوِ ارْتِكَابَ الْمُحَرَّمِ.وَرَخَّصَ الْبَعْضُ فِي التَّقِيَّةِ لأَِجْلِهِ.رَوَى شُرَيْحٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال:لَيْسَ الرَّجُل بِأَمِينٍ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا سُجِنَ أَوْ أُوثِقَ أَوْ عُذِّبَ.وَفِي لَفْظٍ:أَرْبَعٌ كُلُّهُنَّ كُرْهٌ:السِّجْنُ وَالضَّرْبُ وَالْوَعِيدُ وَالْقَيْدُ.وَقَال ابْنُ مَسْعُودٍ:مَا كَلاَمٌ يَدْرَأُ عَنِّي سَوْطَيْنِ إِلاَّ كُنْت مُتَكَلِّمًا بِهِ.[2357]

وَأَمَّا الْعِرْضُ فَكَأَنْ يَخْشَى عَلَى حَرَمِهِ مِنَ الاعْتِدَاءِ.وَأَمَّا الْخَوْفُ عَلَى الْمَال فَقَدْ قَال الرَّازِيُّ:فِيمَا سَبَقَ بَيَانُهُ:التَّقِيَّةُ جَائِزَةٌ لِصَوْنِ النَّفْسِ وَهَل هِيَ جَائِزَةٌ لِصَوْنِ الْمَال ؟ يُحْتَمَل أَنْ يُحْكَمَ فِيهَا بِالْجَوَازِ لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ حُرْمَةُ مَال الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ.[2358]

وَقَوْلُهُ مَنْ قُتِل دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَلأَِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْمَال شَدِيدَةٌ،وَالْمَاءُ إِذَا بِيعَ بِغَبْنٍ فَاحِشٍ سَقَطَ فَرْضُ الْوُضُوءِ وَجَازَ الاقْتِصَارُ عَلَى التَّيَمُّمِ دَفْعًا لِذَلِكَ الْقَدْرِ مِنْ نُقْصَانِ الْمَال،فَكَيْفَ لاَ يَجُوزُ هَاهُنَا ؟ وَقَال مَالِكٌ إِنَّ التَّخْوِيفَ بِأَخْذِ الْمَال إِكْرَاهٌ وَلَوْ قَلِيلاً وَفِي مَذْهَبِهِ غَيْرُ ذَلِكَ.[2359]

[2355] – مختصر التحفة الاثني عشرية ص ٢٨٧وتفسير الألوسي = روح المعاني (٢/ ١١٧)

[2356] – حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ٣٦٨ .

[2357] – فتح الباري ١٢ / ٣١٤ .

[2358] – مر تخريجه

[2359] – تفسير الرازي ٨ / ١٤، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ٣٦٨ .

قَال الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى:الإِكْرَاهُ يَخْتَلِفُ.
وَاسْتَحْسَنَ هَذَا الْقَوْل ابْنُ عَقِيلٍ.أَيْ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الأَشْخَاصِ وَاخْتِلاَفِ الأَمْرِ الْمُكْرَهِ عَلَيْهِ وَالأَمْرِ الْمَخُوفِ فَرُبَّ أَمْرٍ يَرْهَبُ مِنْهُ شَخْصٌ ضَعِيفٌ وَلاَ يَرْهَبُهُ شَخْصٌ قَوِيٌّ شُجَاعٌ.وَرُبَّ شَخْصٍ ذِي وَجَاهَةٍ يَضَعُ الْحَبْسَ وَلَوْ يَوْمًا مِنْ قَدْرِهِ وَجَاهِهِ فَوْقَ مَا يَضَعُ لْحَبْسُ شَهْرًا مِنْ قَدْرِ غَيْرِهِ وَرُبَّ تَهْدِيدٍ أَوْ ضَرْبٍ يَسِيرٍ يُسْتَبَاحُ بِهِ الْكَذِبُ الْيَسِيرُ وَيُلْغَى بِسَبَبِهِ الإِقْرَارُ بِالْمَال الْيَسِيرِ،وَلاَ يُسْتَبَاحُ بِهِ الإِقْرَارُ بِالْكُفْرِ أَوِ الْمَال الْعَظِيمِ [٢٣٦٠] .وَيُنْظَرُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مُصْطَلَحُ (إِكْرَاهٌ).
وَأَمَّا خَوْفُ فَوْتِ الْمَنْفَعَةِ فَقَدْ قَال فِيهِ الأَلُوسِيُّ فِي مُخْتَصَرِ التُّحْفَةِ إِنَّهُ لاَ يُجِيزُ التَّقِيَّةَ. [٢٣٦١]
وَذَلِكَ كَمَنْ يَخْشَى إِنْ لَمْ يُظْهِرِ الْمُحَرَّمَ أَنْ يَفُوتَهُ تَحْصِيل مَنْصِبٍ أَوْ مَالٍ يَرْجُو حُصُولَهُ وَلَيْسَ بِهِ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ.وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ وَيَدُل عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْل اللَّهِ تَعَالَى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } [آل عمران:١٨٧] ذَمَّهُمْ عَلَى الْكِتْمَانِ فِي مُقَابَلَةِ مَصَالِحَ عَاجِلَةٍ.أَيْ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ.لأَنَّ قَوْل الْكَذِبِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَنَحْوِهَا وَقَوْل الإِنْسَانِ بِلِسَانِهِ خِلاَفُ مَا فِي قَلْبِهِ كُل ذَلِكَ مُحَرَّمٌ وَالْكَاذِبُ مَثَلاً لاَ يَكْذِبُ إِلاَّ لِمَصْلَحَةٍ يَرْجُوهَا مِنْ وَرَاءِ كَذِبِهِ،وَلَوْ سُئِل لَقَال إِنَّمَا كَذَبْتُ لِغَرَضِ كَذَا وَكَذَا أُرِيدُ تَحْصِيلَهُ،فَلَوْ جَازَ الْكَذِبُ لِتَحْصِيل الْمَنْفَعَةِ لَعَادَ كُل كَذِبٍ مُبَاحًا وَيَكُونُ هَذَا قَلْبًا لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَإِخْرَاجًا لَهَا عَنْ وَضْعِهَا الَّذِي وُضِعَتْ عَلَيْهِ.

أَنْوَاعُ التَّقِيَّةِ:

التَّقِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِسَبَبِ إِكْرَاهٍ بِتَهْدِيدِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَضُرُّهُ مِنْ تَعْذِيبٍ أَوْ نَحْوِهِ مِمَّا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ،إِنْ لَمْ يَفْعَل مَا طُلِبَ مِنْهُ،وَإِمَّا أَنْ لاَ تَكُونَ بِسَبَبِ إِكْرَاهٍ.

[٢٣٦٠] – المبسوط ٢٤ / ٥٢، الدر المختار بهامش حاشية ابن عابدين ٥ / ٨٠، ٨١، والفروع لابن مفلح ٥ / ٣٦٨، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ٣٦٨ .

[٢٣٦١] – مختصر التحفة الاثنى عشرية ص ٢٨٨ .

فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا بِسَبَبِ إِكْرَاه،وَقَدْ تَمَّتْ شُرُوطُهُ،فَإِنَّ مَا أَنْشَأَهُ مِنَ التَّصَرُّفَات تَبَعًا لِذَلِكَ لاَ يَلْزَمُهُ،وَإِنْ أُكْرِهَ عَلَى الْقَتْلِ لَمْ يَحل لَهُ،وَإِنْ أُكْرِهَ عَلَى الزِّنَى لَمْ يَحل لَهُ،فَإِنْ فَعَل فَلاَ حَدَّ عَلَيْهِ لِلشُّبْهَةِ،وَإِنْ أُكْرِهَ عَلَى النُّطْقِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ جَازَ لَهُ ذَلِكَ.وَلاَ يُعْتَبَرُ مُرْتَدًّا.وَهَذَا إِجْمَالٌ يُنْظَرُ تَفْصِيلُهُ فِي مُصْطَلَحِ (إِكْرَاهٌ).

أَمَّا التَّقِيَّةُ بِغَيْرِ سَبَبِ الإِكْرَاه،بَل لِمُجَرَّدِ خَوْفِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَنْ يَحل بِهِ الأَذَى مِنْ قَتْلٍ أَوْ قَطْعٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ سِجْنٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ صُنُوفِ الأَذَى وَالضَّرَرِ فَهَذَا النَّوْعُ لاَ يَحل بِهِ مَا يَحل بِالإِكْرَاه.[2362]

مَا تَحل فِيهِ التَّقِيَّةُ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَا تَحل فِيهِ التَّقِيَّةُ وَمَا لاَ تَحل،فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ التَّقِيَّةَ خَاصَّةٌ بِالْقَوْل،وَلاَ تَتَعَدَّى إِلَى الْفِعْل،وَعَلَيْهِ فَلاَ يُرَخَّصُ بِحَالٍ بِالسُّجُودِ لِصَنَمٍ أَوْ بِأَكْل لَحْمِ الْخِنْزِيرِ أَوْ بِزِنَى.وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ وَسَحْنُون.

وَذَهَبَ الأَكْثَرُونَ إِلَى أَنَّ الإِكْرَاهَ فِي الْقَوْل وَالْفِعْل سَوَاءٌ.وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ عَلَى تَفْصِيلٍ وَخِلاَف يُعْرَفُ مِمَّا فِي بَحْث (إِكْرَاهٌ)[2363] وَمِنَ التَّفْصِيل التَّالِي

إِظْهَارُ الْكُفْرِ وَمُوَالاَةُ الْكُفَّار:

تَقَدَّمَ بَيَانُ جَوَازِهِ عِنْدَ خَوْفِ الْقَتْل وَالإِيذَاءِ الْعَظِيم،وَأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الأَذَى فِيهِ أَفْضَل مِنَ ارْتِكَابِهِ تَقِيَّةً.وَقَدْ تَكُونُ التَّقِيَّةُ بِإِظْهَارِ الْمُوَالاَةِ وَلَوْ لَمْ يُكْرَهْ عَلَى النُّطْقِ بِالْكُفْرِ لَكِنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ إِنْ أَظْهَرَ لَهُمُ الْعَدَاءَ،قَال الرَّازِيُّ:بِأَنْ لاَ يُظْهِرَ لَهُمُ الْعَدَاوَةَ بِاللِّسَان،وَيَجُوزُ أَنْ يُظْهِرَ الْكَلاَمَ الْمُوهِمَ لِلْمَحَبَّةِ وَالْمُوَالاَة،وَلَكِنْ بِشَرْط أَنْ يُضْمِرَ خِلاَفَهُ وَأَنْ يُعَرِّضَ فِي كُل مَا يَقُول،فَإِنَّ التَّقِيَّةَ تَأْثِيرُهَا فِي الظَّاهِرِ لاَ فِي أَحْوَال الْقُلُوب[2364].

وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى كُفْرٍ فِعْلِيٍّ كَالسُّجُودِ لِصَنَمٍ أَوْ إِهَانَةِ مُصْحَفٍ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يُرَخَّصُ لَهُ فِي فِعْلِهِ تَقِيَّةً،قَال ابْنُ حَجَرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

[2362] - الهداية وتكملة فتح القدير ٧ / ٢٩٢، ٢٩٣ القاهرة .المطبعة الميمنية ١٣١٩ هـ، ورد المحتار ٥ / ٨٠ ط بولاق .

[2363] - فتح الباري ١٢ / ٣١٤ .

[2364] - تفسير الرازي ٨ / ١٤ .

مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل:١٠٦] قَال:الْكُفْرُ يَكُونُ بِالْقَوْل وَالْفِعْل مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ وَقَدْ يَكُونُ بِاعْتِقَادٍ،فَاسْتَثْنَى الأَوَّل وَهُوَ الْمُكْرَهُ.[٢٣٦٥]

أَكْل لَحْمِ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهِ:

يُبَاحُ لِلْمُكْرَهِ شُرْبُ الْخَمْرِ وَأَكْل لَحْمِ الْمَيْتَةِ أَوْ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَذَلِكَ عَلَى سَبِيل التَّقِيَّةِ إِذَا وُجِدَتْ شُرُوطُهَا لأَنَّ حُرْمَةَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ ثَابِتَةٌ بِالشَّرْعِ،وَهِيَ مُفْسِدَةٌ فِي حَال الاخْتِيَارِ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَثْنَى حَال الضَّرُورَةِ مِنَ التَّحْرِيمِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام:١١٩] فَظَهَرَ أَنَّ التَّحْرِيمَ مَخْصُوصٌ بِحَالَةِ الاخْتِيَارِ،وَقَدْ تَحَقَّقَتِ الضَّرُورَةُ هُنَا لِخَوْفِ التَّلَفِ عَلَى نَفْسِهِ بِسَبَبِ الإِكْرَاهِ..فَإِنْ لَمْ يَفْعَل حَتَّى قُتِل يَكُونُ آثِمًا.وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ لاَ يَكُونُ آثِمًا.[٢٣٦٦]

التَّقِيَّةُ فِي بَعْضِ أَفْعَال الصَّلاَةِ:

إِنْ خَافَ الْمُصَلِّي عَلَى نَفْسِهِ عَدُوًّا يَرَاهُ إِذَا قَامَ وَلاَ يَرَاهُ إِذَا قَعَدَ جَازَتْ صَلاَتُهُ قَاعِدًا وَسَقَطَ عَنْهُ فَرْضُ الْقِيَامِ.[٢٣٦٧]

وَكَذَا الأَسِيرُ لَدَى الْكُفَّارِ إِنْ خَافَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ رَأَوْهُ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يُصَلِّي كَيْفَمَا أَمْكَنَهُ،قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا أَوْ مُضْطَجِعًا أَوْ مُسْتَلْقِيًا،إِلَى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا،بِالإِيمَاءِ حَضَرًا أَوْ سَفَرًا،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٢٣٦٨]

[٢٣٦٥] - فتح الباري ١٢ / ٣١٤ .

[٢٣٦٦] - المبسوط ٢٤ / ٤٨، وفتح الباري ١٢ / ٣١٤

[٢٣٦٧] -) كشاف القناع ١ / ٣٨٥ .

[٢٣٦٨] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨)

[ش(دعوني) اتركوني ولا تسألوني.(بسؤالهم) كثرة أسئلتهم.(ما استطعتم) قدر استطاعتكم بعد الإتيان بالقدر الواجب الذي لا بد منه.قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم هذا من قواعد الإسلام ومن جوامع الكلم التي أعطيها صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام]

وَمِثْلُهُ الْمُخْتَبِئُ فِي مَكَانٍ يَخَافُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ إنْ خَرَجَ وَلاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي مَكَانِهِ عَلَى صِفَةِ الْكَمَالِ.وَلَوْ خَافَ الْمُصَلِّي مِنْ عَدُوِّهِ الضَّرَرَ إنْ رَآهُ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ فَلَهُ أَنْ يُومِئَ بِطَرَفِهِ وَيَنْوِيَ بِقَلْبِهِ [٢٣٦٩].

وَالْحَنَابِلَةُ لاَ يَرَوْنَ الصَّلاَةَ خَلْفَ الْمُبْتَدِعِ وَالْفَاسِقِ فِي غَيْرِ جُمُعَةٍ وَعِيدٍ يُصَلِّيَانِ بِمَكَانٍ وَاحِدٍ مِنَ الْبَلَدِ،فَإِنْ خَافَ مِنْهُ إنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ خَلْفَهُ فَإِنَّهُ يُصَلِّي خَلْفَهُ تَقِيَّةً ثُمَّ يُعِيدُ الصَّلاَةَ.وَاحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا،وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا،وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ،وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ،تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي مَقَامِي هَذَا،فِي يَوْمِي هَذَا،فِي شَهْرِي هَذَا،مِنْ عَامِي هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَمَنْ تَرَكَهَا فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدِي،وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ،اسْتِخْفَافًا بِهَا،أَوْ جُحُودًا لَهَا،فَلَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ،وَلَا بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ،أَلَا وَلَا صَلَاةَ لَهُ،وَلَا زَكَاةَ لَهُ،وَلَا حَجَّ لَهُ،وَلَا صَوْمَ لَهُ،وَلَا بِرَّ لَهُ حَتَّى يَتُوبَ،فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ،أَلَا لَا تَؤُمَّنَّ امْرَأَةٌ رَجُلًا،وَلَا يَؤُمَّ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا،وَلَا يَؤُمَّ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا،إِلَّا أَنْ يَقْهَرَهُ بِسُلْطَانٍ،يَخَافُ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ» [٢٣٧٠].

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ قُدَامَةَ حِيلَةً فِي تِلْكَ الْحَالِ يُمْكِنُ اعْتِبَارُهَا مِنَ التَّقِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ الاسْتِتَارِ،وَهِيَ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَهُ بِنِيَّةِ الانْفِرَادِ،فَيُوَافِقُ الإِمَامَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ،فَتَصِحُّ صَلاَتُهُ لِأَنَّهُ أَتَى بِأَفْعَالِ الصَّلاَةِ وَشُرُوطِهَا عَلَى الْكَمَالِ،فَلاَ تَفْسُدُ بِمُوَافَقَةِ غَيْرِهِ فِي الأَفْعَالِ. [٢٣٧١]

التَّقِيَّةُ فِي الْبَيْعِ وَغَيْرِهِ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ:

[٢٣٦٩] - كشاف القناع ١ / ٤٩٥ ــ ٤٩٩، والمغني ١ / ٦٣٠، ٢ / ١٨٨

[٢٣٧٠] - سنن ابن ماجه (١/ ٣٤٣)(١٠٨١)ضعيف

[ش (قبل أن تشغلوا) أي عنها بالمرض وكبر السن.(وصلوا) من الوصل.(الذي بينكم وبين ربكم) أي حق الله الذي عليكم.(وتجبروا) أي يصلح حالكم.(ولا يؤم أعرابي مهاجرا) لأن من شأن الأعرابي الجهل ومن شأن المهاجر العلم] .

[٢٣٧١] - المغني ٢ / ١٨٦، ١٩٢ .

إِذَا خَافَ عَلَى مَاله مِنْ ظَالِمٍ يَغْصِبُهُ،فَيُوَاطِئُ رَجُلاً عَلَى أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ اشْتَرَاهُ مِنْهُ لِيَحْتَمِيَ بِذَلِكَ وَلاَ يُرِيدَان بَيْعًا حَقِيقِيًّا.وَهَذَا الْبَيْعُ صَحِيحٌ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَبَاطِلٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَة وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّد.

أَمَّا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ فَفِي تَبْصِرَةِ الْحُكَّام:يَجُوزُ الاسْتِرْعَاءُ فِي الْبَيْعِ وَهُوَ أَنْ يُشْهِدَ قَبْل الْبَيْعِ أَنِّي إِنْ بِعْتُ هَذِهِ الدَّارَ فَإِنَّمَا أَبِيعُهَا لِأَمْرٍ أَخَافُهُ مِنْ قِبَل ظَالِمٍ أَوْ غَاصِبٍ،وَلاَ يَثْبُتُ الاسْتِرْعَاءُ فِي هَذِهِ الْحَال إِلاَّ إِنْ كَانَ الشُّهُودُ يَعْرِفُونَ الإِكْرَاهَ عَلَى الْبَيْعِ وَالإِخَافَةَ الَّتِي يَذْكُرُهَا[2372]

وَالاسْتِرْعَاءُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ يَصِحُّ وَيُفِيدُ صَاحِبَهُ فِي كُل تَصَرُّفِ تَطَوُّعِيٍّ كَالطَّلاَقِ وَالْوَقْفِ وَالْهِبَة.فَإِنْ فَعَل لَمْ يَلْزَمْهُ أَنْ يُنَفِّذَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ،وَإِنْ لَمْ يَعْلَمِ الشُّهُودُ السَّبَبَ،بِخِلاَفِ مَسْأَلَةِ الْبَيْعِ،إِذِ الْمُبَايَعَةُ خِلاَفُ مَا يُتَطَوَّعُ بِهِ وَقَدْ أَخَذَ الْبَائِعُ فِيهِ ثَمَنًا وَفِي ذَلِكَ حَقٌّ لِلْمُبْتَاعِ.

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:مَنِ اسْتُرْعِيَ فِي وَقْفٍ عَلَى تَقِيَّةٍ اتَّقَاهَا ثُمَّ أَشْهَدَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى إِمْضَائِهِ جَازَ لِأَنَّهُ لَمْ يَزَل عَلَى مِلْكِهِ.

وَإِنِ اسْتَرْعَى أَنَّهُ يَتْرُكُ حَقَّهُ فِي الشُّفْعَة خَوْفًا مِنْ إِضْرَارِ الْمُشْتَرِي وَلَهُ سُلْطَانٌ وَقُدْرَةٌ،وَأَنَّهُ غَيْرُ تَارِكٍ لِطَلَبِهِ مَتَى أَمْكَنَهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ.ثُمَّ إِذَا ذَهَبَتِ التَّقِيَّةُ وَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ بِالْمُطَالَبَةِ قُضِيَ لَهُ.

وَاخْتَلَفُوا إِذَا سَكَتَ عَنِ الْمُطَالَبَةِ بَعْدَ زَوَال مَا يَتَّقِيهِ،وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ لاَ يَكُونُ لَهُ الْمُطَالَبَةُ ؛لِأَنَّهُ مَتَى زَال فَكَأَنَّ الْبَيْعَ وَقَعَ حِينَئِذ.

وَيَجِبُ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ شُهُود الاسْتِرْعَاءِ،وَأَقَلُّهُمْ عِنْدَ ابْنِ الْمَاجِشُونِ أَرْبَعَةُ شُهُودٍ.[2373]

التَّقِيَّةُ فِي بَيَانِ الشَّرِيعَة وَالْحُكْمِ بِهَا:

بَيَانُ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّة وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي الأَصْل وَاجِبَةٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،وَإِذَا خَافَ الْمُسْلِمُ ضَرَرًا يَلْحَقُهُ مِنْ ذَلِكَ جَازَ لَهُ أَنْ يَنْتَقِل مِنَ الأَمْرِ وَالإِنْكَارِ

[2372] - المغني ٤ / ٢١٤، والإنصاف ٤ / ٢٦٥، وكشاف القناع ٣ / ١٥٠، وتبصرة الحكام لابن فرحون ٢ / ٥ .

[2373] - تبصرة الحكام ٢ / ٣ – ٥ .

بالْيَد إِلَى الأَمْرِ وَالإِنْكَارِ باللِّسَان،فَإِنْ خَافَ مِنْ ذَلكَ أَيْضًا جَـازَ لَـهُ أَنْ يَنْتَقـل إِلَـى السُّكُوت عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الإِنْكَارِ بقَلْبه،وَذَلكَ أَضْـعَفُ الإِيمَان،كَمَـا فـي الْحَـديث الْوَارِد،وَذَلكَ نَوْعٌ منَ التَّقيَّة.عَلَى أَنَّ الأَمْرَ بالْمَعْرُوف وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حَيْثُ يُشْـرَعُ التَّغْييرُ بالْيَد ثُمَّ الإِنْكَارُ باللِّسَان،مَعَ خَوْف الضَّرَرِ،أَعْظَمُ دَرَجَةً منَ السُّكُوت،إِذْ إِنَّ ذَلكَ نَوْعٌ منَ الْجهَاد.وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى في حكَايَة قَوْل لُقْمَانَ لابْنه وَهُوَ يَعظُهُ { يَا بُنَيَّ أَقمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بالْمَعْرُوف وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلكَ منْ عَزْمِ الْـأُمُورِ } [لقمان:١٧] وَفي الْحَديث عَنْ عَليٍّ قَالَ:«إِنَّ أَفْضَلَ الْخَلْق يَـوْمَ يَجْمَعُهُـمُ اللَّـهُ الرُّسُلُ،وَأَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ الرُّسُلِ الشُّهَدَاءُ،وَإِنَّ أَفْضَـلَ الشُّـهَدَاءِ حَمْـزَةُ بْـنُ عَبْـد الْمُطَّلب»[٢٣٧٤].

وَتَعْظُمُ دَرَجَةُ الآْمرِ وَالنَّاهي إِنْ تَعَيَّنَ عَلَيْه،بِأَنْ نَكَل عَنِ الْبَيَانِ مَنْ سوَاهُ،حَتَّى عَمَّ الْمُنْكَرُ وَظَهَرَ،وَخَاصَّةً فيمَا يَتَعَلَّقُ بالتَّلْبِيسِ فِي الدِّينِ وَطَمْسِ مَعَالمه،فَلَوْ أَخَذَ جَميـعُ الْعُلَمَـاءِ بالتَّقيَّة،وَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ منْهُمْ بوَاجبِ الْبَيَانِ لَظَهَرَت الْبدْعَةُ وَعَمَّتْ،وَتَبَدَّلَت الشَّرِيعَةُ فـي أَعْيُنِ النَّاسِ

وَقَدْ أُخذَ الْعُلَمَاءُ في عَهْد الْمَأْمُون وَالْمُعْتَصمِ وَامْتُحنُوا ليَقُولُوا بخَلْق الْقُرْآن وَكَانَ ذَلكَ بمَشُورَةٍ منْ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَة.فَلَمَّا هُدِّدَ الْعُلَمَاءُ وَأُوذُوا قَالُوا بذَلكَ فَتُركُوا،وَلَمْ يَثْبُتْ منْهُمْ في الْمحْنَة إِلاَّ أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ مَاتَ بَعْضُهُمْ فِي السِّجْنِ.[٢٣٧٥]

وَنُقل عَنْ أَحْمَدَ أَيَّامَ محْنَته في خَلْق الْقُرْآن أَنَّهُ سُئل:إِنْ عُرِضْتَ عَلَى السَّيْف تُجيـبُ ؟ قَال:لاَ،وَقَال:إِذَا أَجَابَ الْعَالمُ تَقيَّةً،وَالْجَاهل يَجْهَل،فَمَتَى يَتَبَيَّنُ الْحَقُّ ؟.[٢٣٧٦]

وَكَانَ أَبُو يَعْقُوبَ الْبُوَيْطيُّ صَاحبُ الإِمَامِ الشَّافعيِّ ممَّن امْتُحنَ فَصَبَرَ كَذَلكَ وَلَمْ يُجبْ إِلَى مَا طَلَبُوهُ منْهُ فِي فتْنَة الْقَوْل بخَلْق الْقُرْآن،لَمَّا وُشيَ به.وَقَدْ قَال لَهُ أَميرُ مصْرَ الَّـذي كُلِّفَ بمحْنَته:قُل فيمَا بَيْني وَبَيْنَكَ.قَال:إِنَّهُ يَقْتَدي بِي مائَـةُ أَلْـفٍ وَلاَ يَـدْرُونَ مَـا

[٢٣٧٤] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٢)(٤٨٧٦) صحيح لغيره

[٢٣٧٥] – البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٣٣٤، ٣٣٥ القاهرة، مطبعة السعادة .

[٢٣٧٦] – أحمد محمد شاكر، في تعليق على دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة المترجمة إلى العربية مادة :" تقية "

الْمَعْنَى.وَقَدْ أَمَرَ بِحَمْلِه مِنْ مِصْرَ إِلَى بَغْدَادَ فِي الْحَدِيدِ،وَمَاتَ فِي السِّجْنِ بِبَغْدَادَ فِي الْقَيْدِ وَالْغُلِ رَحِمَهُ اللَّهُ.[٢٣٧٧]

وَكَانَ لِثَبَاتِ أَحْمَدَ وَالْبُوَيْطِيِّ وَمَنْ مَعَهُمَا أَثَرُهُ فِي تَرَاجُعِ الْخِلاَفَةِ عَنْ ذَلِكَ الْمَنْهَجِ،وَانْكَسَرَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَوْكَةُ الْمُعْتَزِلَة.

وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَنْطِقَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ،وَلاَ رُخْصَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّقِيَّةِ مُطْلَقًا،إِنْ كَانَ السُّكُوتُ كَافِيًا لِنَجَاتِه،لِعَدَمِ تَحَقُّقِ شَرْطِ جَوَازِ التَّقِيَّةِ حِينَئِذ.

وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْمَحْذُورِ أَيْضًا الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَخْفَى الْحَقُّ عَلَى الْجَاهِلِينَ أَوْ يَضْعُفَ إِيمَانُهُمْ وَيَحْجُمُوا عَنْ نَصْرِ حَقِّهِمْ اقْتِدَاءً بِمَنْ أَجَابَ تَقِيَّةً فَيَظُنُّوا جَوَابَهُ هُوَ الْجَوَابُ،وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ مُرَادِه وَأَنَّهُ قَصَدَ التَّقِيَّةَ.

مَا يَنْبَغِي لِلآْخِذِ بِالتَّقِيَّةِ أَنْ يُرَاعِيَهُ:

يَنْبَغِي لِمَنْ يَأْخُذُ بِالتَّقِيَّةِ أَنْ يُلاَحِظَ أُمُورًا:

مِنْهَا:أَنَّهُ إِنْ كَانَ لَهُ مُخَلِّصٌ غَيْرُ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ،فَيَجِبُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ،وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُوَرِّيَ،كَمَنْ أُكْرِهَ عَلَى شَتْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَرَّمَ وَشَرَّفَ،فَيَنْوِيَ مُحَمَّدًا آخَرَ فَإِنْ خَطَرَتْ بِبَالِه التَّوْرِيَةُ وَتَرَكَهَا لَمْ تَكُنِ التَّقِيَّةُ عُذْرًا لَهُ،وَيُعْتَبَرُ كَافِرًا.[٢٣٧٨]

وَمِنْهَا:أَنْ يُلاَحِظَ عَدَمَ الانْسِيَاقِ مَعَ الرُّخْصَةِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَدِّ التَّقِيَّةِ إِلَى حَدِّ الانْحِلاَلِ بِارْتِكَابِ الْمُحَرَّمِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الضَّرُورَةِ،وَأَصْلُ ذَلِكَ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمُضْطَرِّ {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام:١٤٥] فُسِّرَ الْبَاغِي بِمَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ وَهُوَ يَجِدُ الْحَلاَلَ،وَفُسِّرَ الْعَادِي بِمَنْ أَكَلَ مِنَ الْحَرَامِ فَوْقَ مَا تَقْتَضِيه الضَّرُورَةُ.

وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ التَّقِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران:٢٨]} فَحَذَّرَ تَعَالَى مِنْ نَفْسِه لِئَلاَّ

[٢٣٧٧] – طبقات الشافعية للسبكي ١ / ٢٧٦، ٢٧٧ بيروت، دار المعرفة بالتصويري عن الطبعة المصرية القديمة .

[٢٣٧٨] – المبسوط للسرخسي ٢٤ / ١٣٠، ١٣١، وينظر الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ٣٦٨ .

يَغْتَرَّ الْمُتَّقِي وَيَتَمَادَى.ثُمَّ قَال فِي الآيَةِ التَّالِيَةِ{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) } [آل عمران:٢٩]فَنَبَّهَ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا يُضْمِرُهُ مُرْتَكِبُ الْحَرَامِ بِمُوَالاَةِ الْكُفَّارِ أَنَّهُ هَل يَفْعَلُهُ تَقِيَّةً أَوْ مُوَافَقَةً.قَال الرَّازِيُّ:إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَهَى عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا،وَاسْتَثْنَى التَّقِيَّةَ فِي الظَّاهِرِ،أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْوَعِيدِ عَلَى أَنْ يَصِيرَ الْبَاطِنُ مُوَافِقًا لِلظَّاهِرِ فِي وَقْتِ التَّقِيَّةِ،وَذَلِكَ لأَنَّ مَنْ أَقْدَمَ عِنْدَ التَّقِيَّةِ عَلَى إِظْهَارِ الْمُوَالاَةِ،فَقَدْ يَصِيرُ إِقْدَامُهُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْل بِحَسَبِ الظَّاهِرِ سَبَبًا لِحُصُول تِلْكَ الْمُوَالاَةِ فِي الْبَاطِنِ وَهَذَا الْوُقُوعُ فِي الْحَرَامِ وَعَدَمِ الْمُبَالاَةِ بِهِ،الَّذِي أَوَّلُهُ التَّرَخُّصُ عَلَى سَبِيل التَّقِيَّةِ،وَآخِرُهُ الرِّضَا بِالْكُفْرِ وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِهِ،هُوَ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا بَقِيَّةُ الآيَاتِ مِنْ سُورَةِ النَّحْل الَّتِي تَلَتْ آيَةَ الإِكْرَاهِ.قَال تَعَالَى{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل:١١٠] وَفِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) } [البقرة:٨ - ١٠]قَال الطَّبَرِيُّ " مَعْنَاهُ إِذَا آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ فِي إِقْرَارِهِ بِاللَّهِ جَعَل فِتْنَةَ النَّاسِ إِيَّاهُ كَعَذَابِ اللَّهِ فِي الآخِرَةِ فَارْتَدَّ عَنْ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ رَاجِعًا إِلَى الْكُفْرِ بِهِ ".قَال:" وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْل الإِيمَانِ كَانُوا بِمَكَّةَ،فَخَرَجُوا مِنْهَا مُهَاجِرِينَ فَأُدْرِكُوا وَأُخِذُوا فَأَعْطَوُا الْمُشْرِكِينَ لِمَا نَالَهُمْ أَذَاهُمْ مَا أَرَادُوهُ مِنْهُمْ".[٢٣٧٩]

وَذَكَرَ غَيْرُ الطَّبَرِيِّ مِنْهُمْ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ أَخَا أَبِي جَهْلٍ لأُمِّهِ،وَأَبَا جَنْدَل بْنِ سُهَيْل بْنِ عَمْرٍو وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَغَيْرَهُمْ ثُمَّ إِنَّهُمْ هَاجَرُوا فَنَزَل قَوْلُهُ تَعَالَى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل:١١٠].

وَمِنْهَا أَنْ يُلاَحِظَ النِّيَّةَ،فَيَنْوِيَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَل الْحَرَامَ لِلضَّرُورَةِ،وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ إِلاَّ أَنَّهُ يَأْخُذُ بِرُخْصَةِ اللَّهِ،فَإِنْ فَعَلَهُ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ سَهْلٌ وَلاَ بَأْسَ بِهِ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي الإِثْمِ.وَهَذَا مَا

[٢٣٧٩] - تفسير الطبري ٢٠ - ١٣٢ .

يُشيرُ إِلَيْه آخرُ الْآيَة وَهُوَ قَوْله تَعَالَى{مَنْ كَفَرَ باللَّه منْ بَعْد إيمَانه إلَّا مَنْ أُكْــرِهَ وَقَلْبُــهُ مُطْمَئنٌّ بالْإيمَان وَلَكنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفْر صَدْرًا فَعَلَيْهمْ غَضَبٌ منَ اللَّه وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ } [النحل:١٠٦] وَفي الْحَديث عَنْ سُلَيْمَانَ قَالَ:«دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ في ذُبَاب،وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ في ذُبَاب» قَالُوا:وَكَيْفَ ذَلكَ؟ قَالَ:" مَرَّ رَجُلَان عَلَى قَوْم لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا،فَقَالُوا لأَحَدهمَا:قَرِّبْ قَالَ:لَيْسَ عنْدي شَيْءٌ فَقَالُوا لَهُ:قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فَقَرَّبَ ذُبَابًا،فَخَلَّوْا سَبيلَهُ " قَالَ:" فَدَخَلَ النَّارَ،وَقَالُوا للْآخَر:قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا قَالَ:مَــا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَد شَيْئًا دُونَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ " قَالَ:«فَضَــرَبُوا عُنُقَــهُ» قَــالَ:«فَــدَخَلَ الْجَنَّةَ»[2380]

وعَنْ طَارِق بْنِ شِهَاب قَالَ:قَالَ سَلْمَانُ:" دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ في ذُبَاب،وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ في ذُبَاب "،قَالُوا:وَمَا الذُّبَابُ؟،فَرَأَى ذُبَابًا عَلَى ثَوْب إِنْسَــان،فَقَالَ:" هَــذَا الــذُّبَابُ "،قَالُوا:وَكَيْفَ ذَاكَ؟،قَالَ:" مَرَّ رَجُلَان مُسْلمَان عَلَى قَوْم يَعْكفُونَ عَلَى صَنَم لَهُمْ،فَقَــالُوا لَهُمَا:قَرِّبَا لصَنَمنَا قُرْبَانًا قَالَا:لَا نُشْرِكُ بالله شَيْئًا،قَالُوا:قَرِّبَا مَا شِــئْتُمَا وَلَــوْ ذُبَابًا،فَقَــالَ أَحَدُهُمَا لصَاحبه:مَا تَرَى؟،قَالَ أَحَدُهُمَا:لَا نُشْرِكُ بالله شَيْئًا،فَقُتلَ فَــدَخَلَ الْجَنَّــةَ،فَقَالَ الْآخَرُ:بيَده عَلَى وَجْهه فَأَخَذَ ذُبَابًا فَأَلْقَاهُ عَلَى الصَّنَم فَدَخَلَ النَّارَ "[2381]

قَال في تَيْسيرِ الْعَزِيزِ الْحَميد:وَفيه:أَنَّهُ دَخَل النَّارَ بِسَبَبٍ لَمْ يَقْصدْهُ بَل فَعَلَهُ تَخَلُّصًا مِــنْ شَرِّهمْ.

وَفيه:مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْك في قُلُوب الْمُؤْمنينَ كَيْفَ صَبَرَ عَلَى الْقَتْل وَلَمْ يُــوَافقْهُمْ عَلَــى طلْبَتهِمْ مَعَ كَوْنهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إلاَّ الْعَمَل الظَّاهرَ.[2382]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[2380] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٧)(٨٤) صحيح موقوف ومثله لا يقال بالرأي

[2381] - شعب الإيمان (٩/ ٤٥٧)(٦٩٦٢) صحيح موقوف

[2382] - تيسير العزيز الحميد ص ١٦٢ نشر إدارات البحوث العلمية بالسعودية .

الباب الرابع عشر

شروط وجوب الجهاد في سبيل الله

أ – الإِسْلاَمُ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ مِنْ شُرُوطِ وُجُوبِ الْجِهَادِ: الإِسْلاَمَ؛ لأَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ وُجُوبِ سَائِرِ الْفُرُوعِ؛ وَلأَنَّ الْكَافِرَ غَيْرُ مَأْمُونٍ فِي الْجِهَادِ، وَلاَ يَأْذَنُ لَهُ الإِمَامُ بِالْخُرُوجِ مَعَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ؛ فعنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: «فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَانْطَلِقْ»[٢٣٨٣].

ب – الْعَقْلُ:

الْمَجْنُونُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ فَلاَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْجِهَادُ، وَلاَ يَتَأَتَّى مِنْهُ.

ج – الْبُلُوغُ:

لاَ يَجِبُ الْجِهَادُ عَلَى الصَّبِيِّ غَيْرِ الْبَالِغِ ضَعِيفِ الْبِنْيَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُكَلَّفٍ. فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: " عَرَضَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْقِتَالِ، وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ

[٢٣٨٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٠)(١٥٠ - (١٨١٧)

[ش (بحرة الوبرة) هكذا ضبطناه بفتح الباء وكذا نقله القاضي عن جميع رواة مسلم قال وضبطه بعضهم بإسكانها وهو موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة(حتى إذا كنا بالشجرة) هكذا هو في النسخ حتى إذا كنا فيحتمل أن عائشة كانت مع المودعين فرأت ذلك ويحتمل أنها أرادت بقولها كنا كان المسلمون]

وَلأَنَّ مَا يُخَافُ مِنَ الضَّرَرِ بِحُضُورِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يُرْجَى مِنَ الْمَنْفَعَةِ، وَهُوَ لاَ يُؤْمَنُ مَكْرُهُ وَغَائِلَتُهُ ؛ لِخُبْثِ طَوِيَّتِهِ، وَالْحَرْبُ تَقْتَضِي الْمُنَاصَحَةَ، وَالْكَافِرُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا .

يُجزْني،وَعَرَضَني يَوْمَ الْخَنْدَق،وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً،فَأَجَازَني،قَالَ نَـــافعٌ:فَقَـــدمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْد الْعَزِيزِ وَهُوَ يَوْمَئذ خَليفَةٌ،فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَديثَ،فَقَالَ:«إِنَّ هَذَا لَحَدٌّ بَيْنَ الصَّغيرِ وَالْكَبيرِ،فَكَتَبَ إِلَى عُمَّاله أَنْ يَفْرِضُوا لمَنْ كَانَ ابْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً،وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلكَ فَاجْعَلُوهُ فِي الْعِيَالِ»[٢٣٨٤] .

وعن عروة بن الزبير قال رد رسول الله (ﷺ) يومئذ يعني يوم أحد نفرا مـــن أصـــحابه استصغرهم فلم يشهدوا القتال منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو يومئذ ابن أربـــع عشرة سنة وأسامة بن زيد والبراء بن عازب وعرابة بن أوس ورجل من بني حارثة وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورافع قال:فتطاول له رافع وأذن له فسار معهم،وخلف بعضهم فجعلوا حرسا للذراري والنساء بالمدينة"[٢٣٨٥] ،وَلِأَنَّ الْجِهَادَ عِبَادَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْبَدَنِ فَلاَ يَجِبُ عَلَى الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ،كَالصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ وَالْحَجِّ.

د – الذُّكُورَةُ:

تُشْتَرَطُ الذُّكُورَةُ لِوُجُوبِ الْجِهَادِ،فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا قَالَتْ:يَـــا رَسُولَ اللَّهِ،نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ العَمَلِ،أَفَلاَ نُجَاهِدُ؟ قَالَ:«لاَ،لَكِنَّ أَفْضَـــلَ الجِهَـــادِ حَـــجٌّ مَبْرُورٌ» أخرجه البخاري.[٢٣٨٦]

وَعَلَى ذَلِكَ فَلاَ يَجِبُ عَلَيْهِنَّ الْجِهَادُ مَا لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي الأَحْوَالِ الثَّلاَثَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

[٢٣٨٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٠)٩١ - (١٨٦٨) وانظر:فتح القدير ٥ / ١٩٣ وما بعدها،وابن عابدين ٣ / ٢٢١،٢٢٢،والمدونة ٣ / ٥ وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥ والمهذب ٢ / ٢٣٠،ونهاية المحتاج ٨ / ٥٢ وروضة الطالبين ١٠ / ٢٠٩،٢١٠،والمغني ٨ / ٣٤٧،وكشاف القناع ٣ / ٦٢ .

[ش (فأجازني) المراد جعله رجلا حكم الرجال المقاتلين(أن يفرضوا) أي أن يقدروا لهم رزقا في ديوان الجند وكانوا يفرقون بين المقاتلة وغيرهم في العطاء وهو الرزق الذي يجمع في بيت المال ويفرق على مستحقيه]

[٢٣٨٥] - تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩/ ٢٦٤) صحيح مرسل

[٢٣٨٦] - صحيح البخاري (٢/ ١٣٣)(١٥٢٠)

[ش (لكن) بضم الكاف خطاب للنسوة وفي رواية بكسر الكاف وألف قبلها والتقدير لكن في حقكن..(مبرور) مقبول وهو الذي لاخلل فيه]

أَمَّا إِخْرَاجُ النِّسَاءِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ فَيُكْرَهُ فِي سَرِيَّةٍ لاَ يُؤْمَنُ عَلَيْهَا؛لِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضَهُنَّ لِلضَّيَاعِ،وَيَمْنَعُهُنَّ الإِمَامُ مِنَ الْخُرُوجِ لِلافْتِتَانِ بِهِنَّ،وَلَسْنَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ لاسْتِيلاَءِ الْخَوَرِ وَالْجُبْنِ عَلَيْهِنَّ؛وَلِأَنَّهُ لاَ يُؤْمَنُ ظَفَرُ الْعَدُوِّ بِهِنَّ،فَيَسْتَحِلُّونَ مِنْهُنَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَصَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِاسْتِثْنَاءِ امْرَأَةِ الأَمِيرِ لِحَاجَتِهِ،أَوِ امْرَأَةٍ طَاعِنَةٍ فِي السِّنِّ لِمَصْلَحَةٍ فَقَطْ،فَإِنَّهُ يُؤْذَنُ لِمِثْلِهِمَا؛فعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ،قَالَتْ:«كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَنَسْقِي القَوْمَ،وَنَخْدُمُهُمْ،وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ»[2387]

وَلَكِنْ لاَ بَأْسَ بِإِخْرَاجِ النِّسَاءِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانُوا عَسْكَرًا عَظِيمًا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ؛لِأَنَّ الْغَالِبَ السَّلاَمَةُ،وَالْغَالِبُ كَالْمُتَحَقِّقِ.

وَلاَ يَجِبُ الْجِهَادُ عَلَى خُنْثَى مُشْكِلٍ؛لِأَنَّهُ لاَ يُعْلَمُ كَوْنُهُ ذَكَرًا،فَلاَ يَجِبُ مَعَ الشَّكِّ فِي شَرْطِهِ.[2388]

هـ - الْقُدْرَةُ عَلَى مُؤْنَةِ الْجِهَادِ:

يُشْتَرَطُ لِوُجُوبِ الْجِهَادِ الْقُدْرَةُ عَلَى تَحْصِيلِ السِّلاَحِ.

وَكَذَلِكَ لاَ يَجِبُ عَلَى الْفَقِيرِ الَّذِي لاَ يَجِدُ مَا يُنْفِقُ فِي طَرِيقِهِ فَاضِلاً عَنْ نَفَقَةِ عِيَالِهِ،لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل:{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:٩١].

فَإِنْ كَانَ الْقِتَالُ عَلَى بَابِ الْبَلَدِ أَوْ حَوَالَيْهِ وَجَبَ عَلَيْهِ؛لِأَنَّهُ لاَ يَحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةِ الطَّرِيقِ،وَإِنْ كَانَ عَلَى مَسَافَةٍ تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلاَةُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى وَسِيلَةٍ تَنْقُلُهُ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) } [التوبة:٩٢،٩٣].

[2387] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٣)

[2388] - المرجع السابق .

وَإِنْ بَذَل لَهُ الإِمَامُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ وَسِيلَةِ نَقْلٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْبَل وَيُجَاهِدَ؛لأَنَّ مَا يُعْطِيهِ الإِمَامُ حَقٌّ لَهُ،وَإِنْ بَذَل لَهُ غَيْرُ الإِمَامِ لَمْ يَلْزَمْهُ قَبُولُهُ.[٢٣٨٩]

و – السَّلاَمَةُ مِنَ الضَّرَرِ:

لاَ يَجِبُ الْجِهَادُ عَلَى الْعَاجِزِ غَيْرِ الْمُسْتَطِيعِ؛لأَنَّ الْعَجْزَ يَنْفِي الْوُجُوبَ،وَالْمُسْتَطِيعُ هُوَ الصَّحِيحُ فِي بَدَنِهِ مِنَ الْمَرَضِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَلاَ يَخْرُجُ الْمَرِيضُ الدَّنَفُ الَّذِي يَمْنَعُهُ مَرَضُهُ مِنَ الرُّكُوبِ أَوِ الْقِتَال،بِأَنْ تَحْصُل لَهُ مَشَقَّةٌ لاَ تُحْتَمَل عَادَةً.

وَلاَ يَسْقُطُ وُجُوبُ الْجِهَادِ بِالْمَرَضِ إِنْ كَانَ يَسِيرًا لاَ يَمْنَعُهُ،كَوَجَعِ ضِرْسٍ،وَصُدَاعٍ خَفِيفٍ،وَنَحْوِهِمَا؛لأَنَّهُ لاَ يَتَعَذَّرُ مَعَهُمَا الْجِهَادُ [٢٣٩٠].

وَإِنْ قَدَرَ عَلَى الْخُرُوجِ دُونَ الْقِتَال فَيَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ لِتَكْثِيرِ السَّوَادِ إِرْهَابًا[٢٣٩١].

وَكَالْمَرِيضِ مَنْ لَهُ مَرِيضٌ لاَ مُتَعَهِّدَ لَهُ غَيْرُهُ.[٢٣٩٢]

وَلاَ يَخْرُجُ الأَعْمَى،وَلاَ الأَعْرَجُ،وَلاَ الْمُقْعَدُ،وَلاَ الأَقْطَعُ،لأَنَّ هَذِهِ الأَعْذَارَ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الْجِهَادِ،وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح:١٧].

وَقَال:{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٩١].

فَأَمَّا الأَعْمَى فَمَعْرُوفٌ أَنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لِلْقِتَال فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ،وَكَالأَعْمَى ذُو رَمَدٍ،وَضَعِيفُ بَصَرٍ لاَ يُمْكِنُهُ اتِّقَاءُ السِّلاَحِ،فَإِنْ كَانَ يُدْرِكُ الشَّخْصَ وَمَا يَتَّقِيهِ مِنَ السِّلاَحِ وَجَبَ عَلَيْهِ؛لأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى الْقِتَال،وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْ ذَلِكَ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ؛لأَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى الْقِتَال.

[٢٣٨٩] – ابن عابدين ٣ / ٢٢١،٢٢٠ وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،وروضة الطالبين ١٠ / ٢١٠ والمغني ٨ / ٣٤٨ .

[٢٣٩٠] – حاشية رد المحتار ٣ / ٢٢١ ونهاية المحتاج ٨ / ٥٥،والمغني ٨ / ٣٤٨ وكشاف القناع ٣ / ٣٦ .

[٢٣٩١] – رد المحتار ٣ / ٢٢١،وفتح القدير ٥ / ١٩٣ .

[٢٣٩٢] – نهاية المحتاج ٨ / ٥٥ .

وَيَجبُ عَلَى الأَعْوَرِ وَالأَعْشَى،وَهُوَ الَّذِي يُبْصِرُ فِي النَّهَارِ دُونَ اللَّيْل؛لأَنَّهُ كَالْبَصِيرِ فِي الْقِتَال.[٢٣٩٣]

وَأَمَّا الْعَرَجُ فَالْمَقْصُودُ به الْعَرَجُ الْفَاحِشُ الَّذِي يَمْنَعُ الْمَشْيَ الْجَيِّدَ وَالرُّكُوبَ كَالزَّمَانَةِ وَنَحْوِهَا،وَهُوَ عَرَجٌ بَيِّنٌ،وَلَوْ كَانَ فِي رِجْلٍ وَاحِدَةٍ،فَإِذَا كَانَ يَسِيرًا يَتَمَكَّنُ مَعَهُ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْمَشْيِ،وَإِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ شِدَّةُ الْعَدْوِ،فَلاَ يَمْنَعُ ذَلِكَ وُجُوبَ الْجِهَادِ،لأَنَّهُ مُمْكِنٌ فَشَابَهَ الأَعْوَرَ.

وَمِثْل الأَعْرَجِ الأَقْطَعُ وَالأَشَل وَلَوْ لِمُعْظَمِ أَصَابِعِ يَدٍ وَاحِدَةٍ،إِذْ لاَ بَطْشَ لَهُمَا وَلاَ نِكَايَةَ،وَمِثْلُهُمَا فَاقِدُ الأَنَامِل.وَلاَ تَأْثِيرَ لِقَطْعِ أَصَابِعِ الرِّجْلَيْنِ إِذَا أَمْكَنَ مَعَهُ الْمَشْيُ مِنْ غَيْرِ عَرَجٍ بَيِّنٍ.[٢٣٩٤]

مَنْ يَمْنَعُهُ الإِمَامُ مِنَ الْخُرُوجِ فِي الْجِهَاد:

صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِأَنَّهُ يُسَنُّ لِلإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ مَنْعُ مُخَذِّلٍ وَمُرْجِفٍ مِنَ الْخُرُوجِ وَحُضُورِ الصَّفِّ وَإِخْرَاجِهِ مِنْهُ مَا لَمْ يَخْشَ فِتْنَةً،بَل يُتَّجَهُ وُجُوبُ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَيْثُ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ حُصُول ذَلِكَ مِنْهُ وَأَنَّ بَقَاءَهُ مُضِرٌّ بِغَيْرِهِ.[٢٣٩٥]

وَالْمُخَذِّل مَنْ يَصُدُّ غَيْرَهُ عَنِ الْغَزْوِ وَيُزَهِّدُهُمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَيْهِ مِثْل أَنْ يَقُول:الْحَرُّ أَوِ الْبَرْدُ شَدِيدٌ،وَالْمَشَقَّةُ شَدِيدَةٌ،وَلاَ تُؤْمَنُ هَزِيمَةُ الْجَيْشِ وَأَشْبَاهُ هَذَا.يَقُول اللَّهُ عَزَّ وَجَل:{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة:٤٧].

قِيل فِي التَّفْسِيرِ:لأَوْقَعُوا بَيْنَكُمُ الاخْتِلاَفَ،وَقِيل:لأَسْرَعُوا فِي تَفْرِيقِ جَمْعِكُمْ.[٢٣٩٦]

وَالْمُرْجِفُ هُوَ الَّذِي يَقُول:هَلَكَتْ سَرِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَمَا لَهُمْ مَدَدٌ وَلاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِالْكُفَّارِ وَنَحْوُ هَذَا؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة:٤٦].

[٢٣٩٣] - نهاية المحتاج ٨ / ٥٥ ط مصطفى البابي الحلبي،والمهذب ٢ / ٢٢٨،وكشاف القناع ٣ / ٣٦ .

[٢٣٩٤] - نهاية المحتاج ٨ / ٥٥،والمهذب ٢ / ٢٢٨ .

[٢٣٩٥] - نهاية المحتاج ٨ / ٥٧،والمغني ٨ / ٣٥١،وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٠ .

[٢٣٩٦] - المهذب ٢ / ٢٣٠ .

وَلاَ يَأْذَنُ لِمَنْ يُعِينُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجَسُّسِ لِلْكُفَّارِ،وَإِطْلاَعِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ،وَمُكَاتَبَتِهِمْ بِأَخْبَارِهِمْ،وَدَلاَلَتِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ،أَوْ إِيوَاءِ جَوَاسِيسِهِمْ،وَلاَ مَنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْعَى بِالْفَسَادِ،للآية:وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ } [التوبة:٤٦]؛وَلأَنَّ هَؤُلاَءِ مَضَرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَلْزَمُهُ مَنْعُهُمْ.[٢٣٩٧]

وَإِنْ خَرَجَ مَعَهُ أَحَدُ هَؤُلاَءِ لَمْ يُسْهَمْ لَهُ،وَلَمْ يُرْضَخْ،وَإِنْ أَظْهَرَ عَوْنَ الْمُسْلِمِينَ؛لأَنَّهُ يُحْتَمَل أَنْ يَكُونَ أَظْهَرَهُ نِفَاقًا وَقَدْ ظَهَرَ دَلِيلُهُ،فَيَكُونُ مُجَرَّدَ ضَرَرٍ فَلاَ يَسْتَحِقُّ مِمَّا غَنِمُوا شَيْئًا،وَإِنْ كَانَ الأَمِيرُ أَحَدَ هَؤُلاَءِ لَمْ يُسْتَحَبَّ الْخُرُوجُ مَعَهُ؛لأَنَّهُ إِذَا مَنَعَ خُرُوجَ الْمُخَذِّل،وَالْمُرْجِفِ،وَالْجَاسُوسِ وَنَحْوِهِمْ،تَبَعًا فَمَتْبُوعًا أَوْلَى؛وَلأَنَّهُ لاَ تُؤْمَنُ الْمَضَرَّةُ عَلَى مَنْ صَحِبَهُ.[٢٣٩٨]

هَذَا،وَكُل عُذْرٍ مَنَعَ وُجُوبَ الْحَجِّ مَنَعَ وُجُوبَ الْجِهَادِ إِلاَّ خَوْفَ طَرِيقٍ مِنْ كُفَّارٍ،فَإِنَّهُ وَإِنْ مَنَعَ وُجُوبَ الْحَجِّ لاَ يَمْنَعُ وُجُوبَ الْجِهَادِ؛لأَنَّ مَبْنَى الْجِهَادِ عَلَى رُكُوبِ الْمَخَاوِفِ[٢٣٩٩].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٣٩٧] - المغني ٨ / ٣٥١

[٢٣٩٨] - المغني ٨ / ٣٥١،وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٠ .

[٢٣٩٩] - انظر:الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٧)

الباب الخامس عشر

أنواع الجهاد وأقسامه

المبحث الأول

أنواع الجهاد في سبيل الله

اعلم أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى نوعان:

أحدهما: جهادُ الطلب:

الْقَصْدُ مِنَ الْجِهَادِ دَعْوَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الإِسْلاَمِ،أَوِ الدُّخُول فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَدَفْعِ الْجِزْيَةِ،وَجَرَيَانُ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ عَلَيْهِمْ،وَبِذَلِكَ يَنْتَهِي تَعَرُّضُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ،وَاعْتِدَاؤُهُمْ عَلَى بِلاَدِهِمْ،وَوُقُوفُهُمْ فِي طَرِيقِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ،وَيَنْقَطِعُ دَابِرُ الْفَسَادِ،قَال تَعَالَى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣].

وَقَال عَزَّ وَجَل: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣].

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَسِيرَتُهُ،وَسِيرَةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جِهَادِ الْكُفَّارِ،وَتَخْيِيرِهِمْ بَيْنَ ثَلاَثَةِ أُمُورٍ مُرَتَّبَةٍ وَهِيَ:قَبُول الدُّخُول فِي الإِسْلاَمِ،أَوِ الْبَقَاءُ عَلَى دِينِهِمْ مَعَ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ،وَعَقْدُ الذِّمَّةِ.فَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا،فَالْقِتَال.وَلاَ يَنْطَبِقُ هَذَا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ.[٢٤٠٠]

وهذا الجهاد فرض كفاية،إن قام به من تحصل بهم مقاصد هذا النوع،سقط التكليف به عن سائر أهل الإسلام،وإن لم يقم به أحد،أثموا جميعا،وسلَّط الله عليهم الهوان،وعوقبوا بزوال النعم،وحلول النقم،وظهور الأعداء،وذهاب ما هم فيه من العزِّ،عياذا بالله تعالى.

[٢٤٠٠] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٢)

وهدف هذا النوع هو:قتالُ من يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله تعالى،وهـذا التعريـف أوضح وأبين وأدل على مقصود جهاد الطلب،من قول من عرفه بأنه قتال من يمنع انتشار الدعوة الإسلامية.

ذلك أن الله تعالى شرع الجهاد لتكون كلمة الله تعالى هي العليا في الأرض كلها كمـا قال تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَـا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٣٩) سورة الأنفال،وبتعبير عصري:يكون النظام الدولي خاضعا لشريعة الله تعالى،بمعنى أن يكون لدين الإسلام اليدُ العليا على العالم أجمع،وإنما يكون ذلـك،إذا كانت دولة الإسلام هي الظاهرة في الأرض على سواها،وشأنها هو الأعلى على كلِّ مـا عداها،هذا هو مقصد جهاد الطلب قال تعالى:{ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (١٣٩) سورة آل عمران.

فمن قاتلنا ليمنعنا من تحقيق هذا المقصد الإلهي،قاتلناه،وذلك في الأرض كلها.

والدليل على هذا الحكم الإلهي:قوله تعالى:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٣٩) سورة الأنفال،وقوله تعالى:{ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (١٢٣) سورة التوبة.

كما يدلُّ عليه الإجماعُ القديم،فقد عمل الصحابة رضي الله عنهم بهذه الآية،فقاتلوا مـن يليهم من الكفار حتى بلغوا أقاصي الأرض،فلم يذروهم حتى يسلموا أو يؤتواالجزية،وإنما هي ـــ أعني الجزية ــــ تعبيرٌ عن الإقرار منهم بعلو كلمة الإسلام عليهم،وظهور شريعة الله تعالى على دولتهم،وبهذا تذلُّ راية الكفر ويكون شأنها خاسرا،وينقلبُ دين الشيطان صاغرا،وتنجو البشريةُ من كيد إبليس الرجيم،وتنعم بالهدى والرحمة في ظلال هذا الدين القويم.

ومما يدلُّ على ذلك أيضا ما روي عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَـا تَغُلُّوا،وَلَـا

تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٢٤٠١]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - لَمَّا بَعَثَ الْجُيُوشَ نَحْوَ الشَّامِ،يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ،فَلَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَعَهُمْ يُوَدِّعُهُمْ،حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ،ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ يَقُولُ:عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ

[٢٤٠١] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧) ٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا

(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا (ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة (ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

بِاللَّهِ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ - فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ،فَإِنِ اخْتَارُوادَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمُ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ،حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ،فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ،وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ -.[٢٤٠٢]

ومما ينبغي التنبيه عليه،أنَّ هذا النوع لا يسقط إنْ رفضَ الحاكمُ نصبَ رايته،بل هو شريعةٌ ماضيةٌ إلى يوم القيامة،عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»،غير أنه يسقطُ في حالة العجز فقط،لقوله تعالى:{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا..} (٢٨٦) سورة البقرة.[٢٤٠٣]

ويجبُ على المسلمين أن يعدُّوا العدة للقيام بهذا الواجب،ويرفعوا عنهم حالة العجز عن القيام به،فإنْ فرَّطوا في ذلك أثموا جميعا،لأنَّ في تفريطهم إعانةً منهم على سقوط هيبة دينهم،وغلبة الكفار عليهم.

قال في مغني المحتاج:(وَأَمَّا بَعْدَهُ) - ﷺ - (فَلِلْكُفَّارِ حَالَانِ:أَحَدُهُمَا يَكُونُونَ بِبِلَادِهِمْ) مُسْتَقِرِّينَ بِهَا غَيْرَ قَاصِدِينَ شَيْئًا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ (فَفَرْضُ كِفَايَةٍ) كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سَيْرُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،وَحَكَى الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ فِيهِ الْإِجْمَاعَ"[٢٤٠٤]

وقال ابن قدامة في المغني:(وَالْجِهَادُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ،إذَا قَامَ بِهِ قَوْمٌ،سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ) مَعْنَى فَرْضِ الْكِفَايَةِ،الَّذِي إنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ مَنْ يَكْفِي،أَثِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ،وَإِنْ قَامَ بِهِ مَنْ يَكْفِي،سَقَطَ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ.

[٢٤٠٢] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٧٨) (٧٥٩) صحيح لغيره

[٢٤٠٣] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٧٠) (٣٨١) صحيح لغيره

[٢٤٠٤] - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٨)

فَالْخطَابُ فِي ابْتِدَائِه يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ،كَفَرْضِ الْأَعْيَان،ثُمَّ يَخْتَلِفَان فِي أَنَّ فَرْضَ الْكِفَايَــةِ يَسْقُطُ بِفِعْلِ بَعْضِ النَّاسِ لَهُ،وَفَرْضُ الْأَعْيَان لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَد بِفِعْلِ غَيْرِه وَالْجِهَادُ مِــنْ فُرُوضِ الْكِفَايَات،فِي قَوْلِ عَامَّة أَهْلِ الْعِلْمِ.وَحُكِيَ عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ؛لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ} [التوبة:٤١] ثُمَّ قَالَ:{إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَــذَابًا أَلِيمًــا} [التوبــة:٣٩].وَقَوْلِــه سُبْحَانَهُ:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} [البقرة:٢١٦] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَــالَ رَسُــولُ الله ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٢٤٠٥].

وَلَنَا قَوْلُ اللَّه تَعَالَى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [النساء:٩٥].

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاعِدِينَ غَيْرُ آثِمِينَ مَعَ جِهَادِ غَيْرِهِمْ،وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَــا كَــانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا} [التوبة:١٢٢] وَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - كَانَ يَبْعَثُ السَّرَايَا،وَيُقِيمُ هُوَ وَسَائِرُ أَصْحَابِه.فَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا،فَقَدْ جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:" {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة:٣٩] وَ {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ} [التوبة:١٢٠]،إِلَى قَوْلِه:{يَعْمَلُونَ} [التوبة:١٢١] نَسَخَتْهَا الْآيَــةُ الَّتِي تَلِيهَا:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة:١٢٢] "[٢٤٠٦].

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ حِينَ اسْتَنْفَرَهُمْ النَّبِيُّ - ﷺ - إلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ،وَكَانَتْ إجَــابَتُهُمْ إلَــى ذَلِكَ وَاجِبَةً عَلَيْهِمْ،وَلِذَلِكَ هَجَرَ النَّبِيُّ - ﷺ - كَعْبَ بْــنَ مَالِــك وَأَصْــحَابَهُ الَّــذِينَ خُلِّفُوا،حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ،وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى مَنْ اسْتَنْفَرَهُ الْإِمَامُ فعَنِ ابْــنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْــدَ الفَــتْحِ،وَلَكِنْ جِهَــادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا».مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢٤٠٧].وَمَعْنَى الْكِفَايَةِ فِي الْجِهَادِ أَنْ يَنْهَضَ لِلْجِهَادِ

[٢٤٠٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧) ١٥٨ - (١٩١٠)

[٢٤٠٦] - سنن أبي داود (٣/ ١١) (٢٥٠٥) صحيح

[٢٤٠٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧)٨٥ - (١٣٥٣)

قَوْمٌ يَكْفُونَ فِي قِتَالِهِمْ؛إمَّا أَنْ يَكُونُوا جُنْدًا لَهُمْ دَوَاوِينُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ،أَوْ يَكُونُوا قَدْ أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ تَبَرُّعًا بِحَيْثُ إذَا قَصَدَهُمْ الْعَدُوُّ حَصَلَتْ الْمَنَعَةُ بِهِمْ،وَيَكُونُ فِي الثُّغُورِ مَنْ يَدْفَعُ الْعَدُوَّ عَنْهَا،وَيُبْعَثُ فِي كُلِّ سَنَةٍ جَيْشٌ يُغِيرُونَ عَلَى الْعَدُوِّ فِي بِلَادِهِمْ.[٢٤٠٨]

وقال الشوكاني:(أما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية ولأجله بعث الله رسله وأنزل كتبه ومازال رسول الله ﷺ منذ بعثه الله سبحانه إلى أن قبضه إليه جاعلا لهذا الأمر من أعظم مقاصده ومن أهم شئونه وأدلة الكتاب والسنة في هذا لا يتسع لها المقام ولا لبعضها وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين بما ورد من إيجاب المقاتلة لهم على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم إلى ديارهم.)[٢٤٠٩]

وعامةُ العلماء على أن هذا الواجب يتحقق بأن يغزوً المسلمون الكفار في عقر دارهم مرة في العام على الأقل،قال في مغني المحتاج:"أَقَلُّ الْجِهَادِ مَرَّةٌ فِي السَّنَةِ كَإِحْيَاءِ الْكَعْبَةِ،وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:{أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة:١٢٦] قَالَ مُجَاهِدٌ:نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ وَلِفِعْلِهِ - ﷺ - مُنْذُ أُمِرَ بِهِ،وَلِأَنَّ الْجِزْيَةَ تَجِبُ بَدَلًا عَنْهُ وَهِيَ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَذَا بَدَلُهَا،وَلِأَنَّهُ فَرْضٌ يَتَكَرَّرُ،وَأَقَلُّ مَا وَجَبَ الْمُتَكَرِّرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ كَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ.فَإِنْ زَادَ عَلَى مَرَّةٍ فَهُوَ أَفْضَلُ،وَيَحْصُلُ فَرْضُ الْكِفَايَةِ بِأَنْ يَشْحَنَ الْإِمَامُ الثُّغُورَ بِمُكَافِئِينَ لِلْكُفَّارِ مَعَ إحْكَامِ الْحُصُونِ وَالْخَنَادِقِ وَتَقْلِيدِ الْأُمَرَاءِ،أَوْ بِأَنْ يَدْخُلَ الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ دَارَ الْكُفْرِ بِالْجُيُوشِ لِقِتَالِهِمْ،وَوُجُوبُ الْجِهَادِ وُجُوبُ الْوَسَائِلِ لَا الْمَقَاصِدِ،إذَا الْمَقْصُودُ بِالْقِتَالِ إنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ وَمَا سِوَاهَا مِنْ الشَّهَادَةِ،وَأَمَّا قَتْلُ الْكُفَّارِ

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة (وإذا استنفرتم فانفروا) معناه إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرض عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا كلهم]

[٢٤٠٨] - الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٣٦٤) والمغني لابن قدامة (٩/ ١٩٦)

[٢٤٠٩] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٤٥)

فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهِدَايَةِ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ كَانَ أَوْلَى مِنْ الْجِهَادِ"[2410]

وقال بعض العلماء،يجبُ كلما أمكن- ذلك -،قال الحافظ ابن حجر:" وَيَتَأَدَّى فَرْض الْكِفَايَة بِفِعْلِهِ فِي السَّنَة مَرَّة عِنْد الْجُمْهُور،وَمِنْ حُجَّتهمْ أَنَّ الْجِزْيَة تَجب بَدَلًا عَنْهُ وَلَا تَجبُ فِي السَّنَة أَكْثَر مِنْ مَرَّة اِتِّفَاقًا فَلْيَكُنْ بَدَلهَا كَذَلِكَ،وَقِيلَ يَجب كُلَّمَا أَمْكَنَ وَهُوَ قَوِيّ،وَاَلَّذِي يَظْهَر أَنَّهُ اِسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي زَمَن النَّبِيّ - ﷺ - إِلَى أَنْ تَكَامَلَتْ فُتُوح مُعْظَم الْبِلَاد وَانْتَشَرَ الْإِسْلَام فِي أَقْطَار الْأَرْض ثُمَّ صَارَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْره،وَالتَّحْقِيق أَيْضًا أَنَّ جِنْس جِهَاد الْكُفَّار مُتَعَيِّنٌ عَلَى كُلّ مُسْلِم إِمَّا بِيَدِهِ وَإِمَّا بِلِسَانِهِ وَإِمَّا بِمَالِهِ وَإِمَّا بِقَلْبِهِ وَاَللَّه أَعْلَم."[2411]

وقال الإمام النووي:" قَدْ يَكُونُ فَرْضَ كِفَايَةٍ،وَقَدْ يَتَعَيَّنُ كَمَا سَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.وَهَلْ كَانَ فَرْضَ كِفَايَةٍ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -،أَمْ فَرْضَ عَيْنٍ؟ فِيهِ وَجْهَانِ،أَصَحُّهُمَا:فَرْضُ كِفَايَةٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ) الْآيَةَ،وَأَمَّا الْيَوْمُ فَهُوَ ضَرْبَانِ،أَحَدُهُمَا:أَنْ يَكُونَ الْكُفَّارُ مُسْتَقِرِّينَ فِي بُلْدَانِهِمْ،فَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ،فَإِنِ امْتَنَعَ الْجَمِيعُ مِنْهُ،أَثِمُوا،وَهَلْ يَعُمُّهُمُ الْإِثْمُ،أَمْ يَخْتَصُّ بِالَّذِينَ يَدْنُوا إِلَيْهِ؟ وَجْهَانِ.

قُلْتُ:الْأَصَحُّ أَنَّهُ يَأْثَمُ كُلُّ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ الْأَعْذَارِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَإِنْ قَامَ مَنْ فِيهِ كِفَايَةٌ،سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ.وَتَحْصُلُ الْكِفَايَةُ بِشَيْئَيْنِ.

أَحَدُهُمَا:أَنْ يَشْحَنَ الْإِمَامُ الثُّغُورَ بِجَمَاعَةٍ يُكَافِئُونَ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَاطَ بِإِحْكَامِ الْحُصُونِ وَحَفْرِ الْخَنَادِقِ وَنَحْوِهِمَا،وَيُرَتِّبُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ أَمِيرًا كَافِيًا يُقَلِّدُهُ الْجِهَادَ وَأُمُورَ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّانِي:أَنْ يَدْخُلَ الْإِمَامُ دَارَ الْكُفْرِ غَازِيًا بِنَفْسِهِ،أَوْ بِجَيْشٍ يُؤَمِّرُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لِذَلِكَ،وَأَقَلُّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ،فَإِنْ زَادَ فَهُوَ أَفْضَلُ،وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَبْدَأَ بِقِتَالِ مَنْ يَلِي

[2410] - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٨)

[2411] - فتح الباري لابن حجر - (ج ٦ / ص ٣٨)

دَارَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكُفَّارِ،فَإِنْ كَانَ الْخَوْفُ مِنَ الْأَبْعَدِينَ أَكْثَرَ،بَدَأَ بِهِمْ،وَلَا يَجُوزُ إِخْلَاءُ سَنَةٍ عَنْ جِهَادٍ إِلَّا لِضَرُورَةٍ،بِأَنْ يَكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَفِي الْعَدُوِّ كَثْرَةٌ،وَيَخَافُ مِنَ ابْتِدَائِهِمُ الِاسْتِئْصَالَ،أَوْ لِعُذْرٍ بِأَنْ يَعِزَّ الزَّادُ وَعَلْفُ الدَّوَابِّ فِي الطَّرِيقِ،فَيُؤَخِّرُ إِلَى زَوَالِ ذَلِكَ،أَوْ يَنْتَظِرُ لِحَاقَ مَدَدٍ،أَوْ يَتَوَقَّعُ إِسْلَامَ قَوْمٍ،فَيَسْتَمِيلُهُمْ بِتَرْكِ الْقِتَالِ،هَذَا مَا نَصَرَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ،وَجَرَى عَلَيْهِ الْأَصْحَابُ – رَحِمَهُمُ اللَّهُ – وَقَالَ الْإِمَامُ:الْمُخْتَارُ عِنْدِي فِي هَذَا مَسْلَكُ الْأُصُولِيِّينَ،فَإِنَّهُمْ قَالُوا:الْجِهَادُ دَعْوَةٌ قَهْرِيَّةٌ،فَيَجِبُ إِقَامَتُهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ،وَلَا يَخْتَصُّ بِمَرَّةٍ فِي السَّنَةِ،وَلَا يُعَطَّلُ إِذَا أَمْكَنَتِ الزِّيَادَةُ،وَمَا ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ حَمَلُوهُ عَلَى الْعَادَةِ الْغَالِبَةِ،وَهِيَ أَنَّ الْأَمْوَالَ وَالْعَدَدَ لَا تَتَأَتَّى لِتَجْهِيزِ الْجُنُودِ فِي السَّنَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ،ثُمَّ إِنْ تَمَكَّنَ الْإِمَامُ مِنْ بَثِّ الْأَجْنَادِ لِلْجِهَادِ فِي جَمِيعِ الْأَطْرَافِ،فَعَلَ،وَإِلَّا فَيَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ،وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْعَى النِّصْفَةَ بِالْمُنَاوَبَةِ بَيْنَ الْأَجْنَادِ فِي الْإِغْزَاءِ،وَيَسْقُطُ الْوُجُوبُ فِي هَذَا الضَّرْبِ بِأَعْذَارٍ.

مِنْهَا:الصِّغَرُ وَالْجُنُونُ وَالْأُنُوثَةُ،وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَأْذَنَ لِلْمُرَاهِقِينَ وَالنِّسَاءِ فِي الْخُرُوجِ،وَأَنْ يَسْتَصْحِبَهُمْ لِسَقْيِ الْمَاءِ وَمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،وَلَا يَأْذَنُ لِلْمَجَانِينِ بِحَالٍ،وَلَا جِهَادَ عَلَى الْخُنْثَى.

وَمِنْهَا:الْمَرَضُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ بِهِ مَرَضٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الْقِتَالِ وَالرُّكُوبِ عَلَى دَابَّةٍ،وَلَا عَلَى مَنْ لَا يُمْكِنُهُ الْقِتَالُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ،وَلَا اعْتِبَارَ بِالصُّدَاعِ وَوَجَعِ الضِّرْسِ وَالْحُمَّى الْخَفِيفَةِ وَنَحْوِهَا.

وَمِنْهَا:الْعَرَجُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ بِهِ عَرَجٌ بَيِّنٌ وَإِنْ قَدَرَ عَلَى الرُّكُوبِ وَوَجَدَ دَوَابَّ،وَقِيلَ:يَلْزَمُهُ الْجِهَادُ رَاكِبًا،وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ،وَسَوَاءٌ الْعَرَجُ فِي رِجْلٍ أَوْ رِجْلَيْهِ،وَلَا اعْتِبَارَ بِعَرَجٍ يَسِيرٍ لَا يَمْنَعُ الْمَشْيَ،وَلَا جِهَادَ عَلَى أَشَلِّ الْيَدِ،وَلَا مَنْ فَقَدَ مُعْظَمَ أَصَابِعِهِ بِخِلَافِ فَاقِدِ الْأَقَلِّ.

وَمِنْهَا:الْعَمَى،فَلَا جِهَادَ عَلَى أَعْمَى،وَيَجِبُ عَلَى الْأَعْوَرِ وَالْأَعْشَى وَعَلَى ضَعِيفِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ يُدْرِكُ الشَّخْصَ،وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَتَّقِيَ السِّلَاحَ.

وَمِنْهَا:الْفَقْرُ،فَلَا جِهَادَ عَلَى مَنْ عَجَزَ عَنْ سِلَاحٍ وَأَسْبَابِ الْقِتَالِ،وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَجِدَ نَفَقَةَ طَرِيقِهِ ذِهَابًا وَرُجُوعًا،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَهْلٌ وَلَا عَشِيرَةٌ،فَفِي اشْتِرَاطِ نَفَقَةِ الرُّجُوعِ وَجْهَانِ سَبَقَا فِي الْحَجِّ،فَإِنْ كَانَ الْقِتَالُ عَلَى بَابِ الْبَلَدِ،أَوْ حَوَالَيْهِ،سَقَطَ اشْتِرَاطُ نَفَقَةِ الطَّرِيقِ،وَيُشْتَرَطُ وِجْدَانُ رَاحِلَةٍ إِنْ كَانَ سَفَرُهُ مَسَافَةَ الْقَصْرِ،وَيُشْتَرَطُ كَوْنُ جَمِيعِ ذَلِكَ فَاضِلًا عَنْ نَفَقَةِ مَنْ يَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ،وَسَائِرُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْحَجِّ،وَكُلُّ عُذْرٍ يَمْنَعُ وُجُوبَ الْحَجِّ،يَمْنَعُ وُجُوبَ الْجِهَادِ إِلَّا أَمْنَ الطَّرِيقِ،فَإِنَّهُ شُرِطَ هُنَاكَ وَلَا يُشْتَرَطُ هُنَا؛ لِأَنَّ مَبْنَى الْغَزْوِ عَلَى رُكُوبِ الْمَخَاوِفِ،هَذَا إِنْ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ طَلَائِعِ الْكُفَّارِ،وَكَذَا لَوْ كَانَ مِنْ مُتَلَصِّصِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّحِيحِ،وَلَوْ بَذَلَ لِلْفَاقِدِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ،لَمْ يَلْزَمْهُ قَبُولُهُ،إِلَّا أَنْ يَبْذُلَهُ الْإِمَامُ،فَيَلْزَمُهُ أَنْ يَقْبَلَ وَيُجَاهِدَ؛ لِأَنَّ مَا يُعْطِيهِ الْإِمَامُ حَقُّهُ،وَلَا يَلْزَمُ الذِّمِّيَّ الْجِهَادُ،وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْجِهَادَ لَا يَجِبُ إِلَّا عَلَى مُسْلِمٍ بَالِغٍ عَاقِلٍ ذَكَرٍ حُرٍّ مُسْتَطِيعٍ،وَلَا جِهَادَ عَلَى رَقِيقٍ وَإِنْ أَمَرَهُ سَيِّدُهُ؛ إِذْ لَيْسَ الْقِتَالُ مِنَ الِاسْتِخْدَامِ الْمُسْتَحَقِّ لِلسَّيِّدِ،وَلَا يَلْزَمُهُ الذَّبُّ عَنْ سَيِّدِهِ عِنْدَ خَوْفِهِ عَلَى رُوحِهِ إِذَا لَمْ نُوجِبُ الدَّفْعَ عَنِ الْغَيْرِ،بَلِ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ كَالْأَجْنَبِيِّ،وَلِلسَّيِّدِ اسْتِصْحَابُهُ فِي سَفَرِ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ لِيَخْدِمَهُ وَيَسُوسَ دَوَابَّهُ،وَالْمُدَبَّرُ وَالْمُكَاتَبُ وَمَنْ بَعْضُهُ حُرٌّ لَا جِهَادَ عَلَيْهِمْ."[2412]

فقد ظهر من ذلك كله أن الجهاد في الإسلام قد مر بمراحل كانت نهايتها الأمر بقتال المشركين سواء بدؤونا بقتال أم لا،وكان ذلك الحكم ناسخاً لما قبله من الأحكام.

على أن أمر القتال قد استقر عند فرضية قتال المشركين كافة،وأن ذلك الحكم قد نسخ ما قبله.

وأما النوع الثاني من نوعي الجهاد فهو:جهاد الدفع:

وهو الذي يدفع به عدوان الكفار على أرض الإسلام،أو على دماء المسلمين أو أعراضهم أو حرماتهم،وهو فرضُ عينٍ على كلِّ قادر محتاج إليه لردِّ العدوان،والدليلُ عليه قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ

[2412] - روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٢٠٨)

وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٧٢) سورة الأنفال،فلا يجوز لأحد في موضعٍ عدوان الكفار على المسلمين[٢٤١٣]،أنْ يتخلفَ عن بذل مهجته لدفع عدوان الكافرين على المسلمين،فإن لم يغنِ أهلُ ذلك الموضع،واحتيج إلى مدد آخر،وجبَ على من يليهم إعانتهم على عدوهم،فإن لم يُغنوا،وجب على من يليهم،وهكذا حتى يجبَ ذلك على آخر نفسٍ من المسلمين[٢٤١٤].

ولا يجوز للمسلمين بإجماع العلماء،أنْ يسلِّموا أمرهم طواعيةً إلى الكفار[٢٤١٥]،أو أن يرضوا بعلو الكافرين على المسلمين،أو يقروُّهم على احتلال الأرض التي ظهرت عليها يدُ الإسلام،فإنْ لم يكن للمسلمين طاقة بقتال الكفار،هادنوهم ريثما تحصل لهم القوة على عدوهم،ويجبُ عليهم في هذه الحال،أن يعدُّوا العُدَّة للجهاد للخلاص مما هم فيه من ظهور كلمة الكفار عليهم،فإن لم يفعلوا وركنوا إلى ما هم فيه من الذلِّ والهوان،تحت حكم الكافرين،يحكمون فيهم بشريعة الكفر،بدلَ شريعة الإسلام،عوقبوا بسبب خذلانهم للإسلام،بألوانٍ الفتنِ والفساد،وشتت اللهُ أمرهم،وضربَ قلوبَ بعضهم ببعض،وظهرت عليهم الذلةُ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله تعالى،كما عاقب الله تعالى بني إسرائيل على الذنب نفسه،وحكي ذلك في القرآن العظيم،في غير موضع،قال تعالى:{ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (١١٣) سورة هود

قال الإمام النووي:" قَالَ أَصْحَابنَا:الْجِهَاد الْيَوْم فَرْض كِفَايَة،إِلَّا أَنْ يَنْزِل الْكُفَّار بِبَلَد الْمُسْلِمِينَ فَيَتَعَيَّن عَلَيْهِمْ الْجِهَاد،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَهْل ذَلِكَ الْبَلَد كِفَايَة وَجَبَ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ تَتْمِيم الْكِفَايَة "[٢٤١٦]

[٢٤١٣] - كما في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وكشمير وغيرها

[٢٤١٤] - كما هو الحال اليوم تماماً

[٢٤١٥] - قد فصلت القول في ذلك في كتابي ((تحريم الاستسلام للكفار))

[٢٤١٦] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٩)

وقال أبو بكر الجصاص: "قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ، وَسَائِرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ: "إنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إلَّا أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ كَانَ الْبَاقُونَ فِي سَعَةٍ مِنْ تَرْكِهِ". وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ كَانَ يَقُولُ: لَيْسَ بِفَرْضٍ، وَلَكِنْ لَا يَسَعُ النَّاسَ أَنْ يُجْمِعُوا عَلَى تَرْكِهِ، وَيَجْزِي فِيهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنْ كَانَ هَذَا قَوْلَ سُفْيَانَ فَإِنَّ مَذْهَبَهُ أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِ أَصْحَابِنَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. وَمَعْلُومٌ فِي اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ إذَا خَافَ أَهْلُ الثُّغُورِ مِنْ الْعَدُوِّ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مُقَاوَمَةٌ لَهُمْ فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ"[٢٤١٧].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ، وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ.

لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلِّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَقْعَةُ أُحُدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ"[٢٤١٨]

مَتَى يَصِيرُ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ ؟

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَصِيرُ الْجِهَادُ فَرْضَ عَيْنٍ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَالاَتِ الآْتِيَةِ:

أ - إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ، وَتَقَابَل الصَّفَّانِ، حَرُمَ عَلَى مَنْ حَضَرَ الاِنْصِرَافُ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْمُقَامُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

[٢٤١٧] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١٤٦)

[٢٤١٨] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩)

تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) [الأنفال/٤٥-٤٦]}.

ب – إِذَا هَجَمَ الْعَدُوُّ عَلَى قَوْمٍ بَغْتَةً،فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمُ الدَّفْعُ وَلَوْ كَانَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا،أَوْ هَجَمَ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ،وَلَيْسَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ،فَيَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ كَانَ بِمَكَانٍ مُقَارِبٍ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَهُمْ إِنْ عَجَزَ مَنْ فَجَأَهُمْ الْعَدُوُّ عَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ،وَمَحَل التَّعَيُّنِ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ إِنْ لَمْ يَخْشَوْا عَلَى نِسَائِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مِنْ عَدُوٍّ بِتَشَاغُلِهِمْ بِمُعَاوَنَةِ مَنْ فَجَأَهُمُ الْعَدُوُّ،وَإِلاَّ تَرَكُوا إِعَانَتَهُمْ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يُعْتَبَرُ مَنْ كَانَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنَ الْبَلْدَةِ كَأَهْلِهَا،وَمَنْ عَلَى الْمَسَافَةِ يَلْزَمُهُ الْمُوَافَقَةُ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ إِنْ لَمْ يَكْفِ أَهْلُهَا،وَمَنْ يَلِيهِمْ.وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَفْجَأْهُمُ الْعَدُوُّ فَلاَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ،يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْمُقِل مِنْهُمْ وَالْمُكْثِرُ.وَمَعْنَاهُ:أَنَّ النَّفِيرَ يَعُمُّ جَمِيعَ النَّاسِ مِمَّنْ كَانَ مِنْ أَهْل الْقِتَال حِينَ الْحَاجَةِ لِمَجِيءِ الْعَدُوِّ إِلَيْهِمْ،وَلاَ يَجُوزُ لأَِحَدٍ التَّخَلُّفُ إِلاَّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَخَلُّفِهِ لِحِفْظِ الْمَكَانِ وَالأَْهْل وَالْمَال،مِنَ الْخُرُوجِ،أَوْ مَنْ لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْخُرُوجِ أَوِ الْقِتَال .[2419]

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ أَرَادُوا الرُّجُوعَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ يَوْمَ الأَْحْزَابِ فَقَال:{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) } [الأحزاب:١٣ – ١٥] .

ج – إِذَا اسْتَنْفَرَ الإِْمَامُ قَوْمًا لَزِمَهُمُ النَّفِيرُ مَعَهُ إِلاَّ مَنْ لَهُ عُذْرٌ قَاطِعٌ ؛ لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا

[2419] – ابن عابدين ٣ / ٢٢١، وفتح القدير ٥ / ١٩٠، والدسوقي ٢ / ١٧٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣، وروضة الطالبين ١ / ٢١٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢١٩، والمغني ٨ / ٣٤٦، ٣٤٧، وكشاف القناع ٣ / ٣٧ .

تَنْفرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) } [التوبة] .

وعنِ ابْنِ عبّاسٍ رضِي اللّهُ عنْهُما،قال:قال رسُولُ اللّهِ - ﷺ -:«لا هِجْرة بعْد الفتْحِ،ولكِنْ جِهادٌ ونِيّةٌ،وإِذا استُنْفِرْتُمْ فانْفِرُوا».مُتّفقٌ عليْهِ[2420] .

وَذَلِكَ لأَنَّ أَمْرَ الْجِهَادِ مَوْكُولٌ إِلَى الإِمَامِ وَاجْتِهَادِهِ،وَيَلْزَمُ الرَّعِيَّةَ طَاعَتُهُ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ[2421] .

وَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ الْجِهَادُ بِتَعْيِينِ الإِمَامِ وَلَوْ لِصَبِيٍّ مُطِيقٍ لِلْقِتَالِ أَوِ امْرَأَةٍ،وَتَعْيِينُ الإِمَامِ إِلْجَاؤُهُ إِلَيْهِ وَجَبْرُهُ عَلَيْهِ،كَمَا يَلْزَمُ بِمَا فِيهِ صَلاَحُ حَالِهِ،لاَ بِمَعْنَى عِقَابِهِ عَلَى تَرْكِهِ،فَلاَ يُقَال:إِنَّ تَوَجُّهَ الْوُجُوبِ لِلصَّبِيِّ خَرْقٌ لِلإِجْمَاعِ "[2422]

إِذْنُ الدَّائِنِ:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَخْرُجُ الْمَدِينُ لِلْجِهَادِ إِذَا كَانَ الدَّيْنُ حَالًّا،وَاخْتَلَفُوا فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَخْرُجُ الْمَدِينُ بِغَيْرِ إِذْنِ غَرِيمِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَفَاءٌ؛لأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُّ الْغَرِيمِ وَهُوَ الْمُلاَزَمَةُ،فَلَوْ أَذِنَ لَهُ الدَّائِنُ،وَلَمْ يُبْرِئْهُ،فَالْمُسْتَحَبُّ الإِقَامَةُ لِقَضَاءِ الدَّيْنِ؛لأَنَّ الْبَدْءَ بِالأَوْجَبِ أَوْلَى،فَإِنْ خَرَجَ فَلاَ بَأْسَ،وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْكَفِيل إِذَا كَانَ بِأَمْرِ الدَّائِنِ،وَيَسْتَوِي فِي وُجُوبِ الاسْتِئْذَانِ،الْكَفِيل بِالْمَال وَالْكَفِيل بِالنَّفْسِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الدَّيْنُ مُؤَجَّلاً فَلَهُ الْخُرُوجُ بِلاَ إِذْنٍ إِنْ عَلِمَ بِرُجُوعِهِ قَبْل حُلُولِهِ؛لِعَدَمِ تَوَجُّهِ الْمُطَالَبَةِ بِقَضَاءِ الدَّيْنِ،لَكِنَّ الأَفْضَل الإِقَامَةُ لِقَضَائِهِ[2423] .

[2420] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧) ٨٥ - (١٣٥٣)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة (وإذا استنفرتم فانفروا) معناه إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرض عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا كلهم]

[2421] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢، والمغني ٨ / ٣٥٢، والمحلى ٧ / ٢٩١ .

[2422] - انظر:الموسوعة الفقهية الكويتية - (ج ١٦ / ص ١٣٠) فما بعد والفقه الإسلامي وأدلته - (ج ٨ / ص ٦) وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢ .

[2423] - ابن عابدين ٣ / ٢٢١ .

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ يُشْتَرَطُ الإِذْنُ فِي الدَّيْنِ الْحَالِ إِذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى وَفَائِهِ بِبَيْعِ مَا عِنْدَهُ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ،أَوْ كَانَ مُؤَجَّلاً وَلاَ يَحِل فِي غَيْبَتِهِ خَرَجَ بِغَيْرِ إِذْنِ الدَّائِنِ،فَإِنْ حَل فِي غَيْبَتِهِ،وَعِنْدَهُ مَا يُوَفِّي مِنْهُ،وَكُل مَنْ يَقْضِيهِ عَنْهُ.[2424]

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ الْمَدِينُ فِي الدَّيْنِ إِذَا كَانَ حَالًّا إِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْسِرًا،أَيْ كَانَ لَهُ وَفَاءٌ،وَكَذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَفَاءٌ فِي قَوْلٍ.وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَنْعُهُ إِذَا كَانَ مُعْسِرًا إِذْ لاَ مُطَالَبَةَ فِي الْحَال.

وَإِنْ كَانَ الدَّيْنُ مُؤَجَّلاً،فَالأَصَحُّ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الْمَنْعُ،وَالثَّانِي:يَجُوزُ إِلاَّ أَنْ يُقِيمَ كَفِيلاً بِالدَّيْنِ.وَالثَّالِثُ:لَهُ الْمَنْعُ إِنْ لَمْ يُخَلِّفْ وَفَاءً،وَقِيل:يَجُوزُ لِلدَّائِنِ أَنْ يَمْنَعَ إِنْ كَانَ الدَّيْنُ يَحِل قَبْل رُجُوعِهِ.[2425]

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ لاَ يَجُوزُ الْخُرُوجُ سَوَاءٌ أَكَانَ الدَّيْنُ حَالًّا أَمْ مُؤَجَّلاً بِغَيْرِ إِذْنِ غَرِيمِهِ إِلاَّ أَنْ يَتْرُكَ وَفَاءً،أَوْ يُقِيمَ بِهِ كَفِيلاً أَوْ يُوَثِّقَهُ بِرَهْنٍ؛فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ،أَنَّهُ سَمِعَهُ،يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ،فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ،تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ،إِلَّا الدَّيْنَ،فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»[2426].

وَلأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَرَامٍ وَالِدَ جَابِرٍ الصَّحَابِيِّ الْمَعْرُوفِ خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ كَثِيرٌ فَاسْتُشْهِدَ،وَقَضَاهُ عَنْهُ ابْنُهُ مَعَ عِلْمِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ،بَل مَدَحَهُ،فعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ أَبْكِي،وَيَنْهَوْنِي

[2424] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢ .

[2425] - روضة الطالبين ١٠ / ٢١٠ - ٢١١،ونهاية المحتاج ٨ / ٥٦،٥٧ .

[2426] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠١) ١١٧ - (١٨٨٥)

[ش (محتسب) المحتسب هو المخلص لله تعالى(إلا الدين) فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله تعالى]

عَنْهُ،وَالنَّبِيُّ ﷺ لاَ يَنْهَانِي،فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«تَبْكِينَ أَوْ لاَ تَبْكِينَ مَا زَالَت الْمَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»[2427]

وعن طَلْحَةَ بْنِ خِرَاشٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرًا،يَقُولُ:لَقِيَنِي النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ لِي:«يَا جَابِرُ،مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا»؟ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اسْتُشْهِدَ أَبِي،وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا،فَقَالَ:«أَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ»؟ قُلْتُ:بَلَى،يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ،وَإِنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا،فَقَالَ:يَا عَبْدِي،تَمَنَّ أُعْطِكَ،قَالَ:تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ قَتْلَةً ثَانِيَةً،قَالَ اللَّهُ:إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»،وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩][2428]

إِذْنُ الإِمَامِ في جهاد الطلب:

صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِأَنَّهُ يُكْرَهُ الْغَزْوُ مِنْ غَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ أَوِ الأَمِيرِ الْمُوَلَّى مِنْ قِبَلِهِ؛لأَنَّ الْغَزْوَ عَلَى حَسَبِ حَال الْحَاجَةِ،وَالإِمَامُ أَوِ الأَمِيرُ أَعْرَفُ بِذَلِكَ،وَلاَ يَحْرُمُ؛لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ التَّغْرِيرِ بِالنَّفْسِ،وَالتَّغْرِيرُ بِالنَّفْسِ يَجُوزُ فِي الْجِهَادِ.

وَلأَنَّ أَمْرَ الْحَرْبِ مَوْكُولٌ إِلَى الأَمِيرِ،وَهُوَ أَعْلَمُ بِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِهِمْ،وَمَكَامِنِ الْعَدُوِّ وَكَيْدِهِمْ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُرْجَعَ إِلَى رَأْيِهِ؛لأَنَّهُ أَحْوَطُ لِلْمُسْلِمِينَ؛وَلأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَجُزِ الْمُبَارَزَةُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَالْغَزْوُ أَوْلَى،إِلاَّ أَنْ يَفْجَأَهُمْ عَدُوٌّ يَخَافُونَ تَمَكُّنَهُ،فَلاَ يُمْكِنُهُمُ الاسْتِئْذَانُ،فَيَسْقُطُ الإِذْنُ بِاقْتِضَاءِ قِتَالِهِمْ،وَالْخُرُوجُ إِلَيْهِمْ لِحُصُول الْفَسَادِ بِتَرْكِهِمُ انْتِظَارًا لِلإِذْنِ.

وَدَلِيل ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَغَارَ الْكُفَّارُ عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ ﷺ صَادَفَهُمْ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ خَارِجًا مِنَ الْمَدِينَةِ فَتَبِعَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ،فَمَدَحَهُ النَّبِيُّ ﷺ،فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَانَ خَيْرَ

[2427] - صحيح البخاري (٢/ ٧٢) (١٢٤٤)

[ش (تظله بأجنحتها) هو عنوان فضله وما أعد الله تعالى له عنده من الكرامة]

[2428] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٤٩٠) (٧٠٢٢) صحيح وانظر:الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٤)

فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ،وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ»،قَالَ:ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَهْمَيْنِ سَهْمَ الْفَارِسِ،وَسَهْمَ الرَّاجِلِ،فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا.[2429]

قلت:أما إذا كان الجهاد جهاد دفع فلا يطلب الإذن من أحد والجهاد يكون فرض عين على كل قادر

ـــــــــــــــــــ

الْجِهَادُ مَعَ الأَئِمَّةِ:

صَرَّحَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ يُغْزَى مَعَ أَمِيرِ جَيْشٍ وَلَوْ كَانَ جَائِرًا ارْتِكَابًا لِأَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ؛وَلأَنَّ تَرْكَ الْجِهَادِ مَعَهُ سَوْفَ يُفْضِي إِلَى قَطْعِ الْجِهَادِ،وَظُهُورِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَاسْتِئْصَالِهِمْ وَظُهُورِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ،وَنُصْرَةُ الدِّينِ وَاجِبَةٌ.وَكَذَا مَعَ ظَالِمٍ فِي أَحْكَامِهِ،أَوْ فَاسِقٍ بِجَارِحَةٍ،لاَ مَعَ غَادِرٍ يَنْقُضُ الْعَهْدَ.[2430]

لكن لا يجوز الجهاد معه على المسلمين ولا في معصية،ولا يجوز الجهاد معه إذا رتد أو اتركب ناقضا من نواقض الإسلام،بل يجب جهاده في هذه الحال ووضع خليفة عادلاً بدلا منه.

ـــــــــــــــــــــــــ

إذن الوالدين:

لاَ يَجُوزُ الْجِهَادُ إلاَّ بِإِذْنِ الأَبَوَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ،أَوْ بِإِذْنِ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ الآْخَرُ كَافِرًا،إلاَّ إِذَا تَعَيَّنَ،كَأَنْ يَنْزِل الْعَدُوُّ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَفَرْضٌ عَلَى كُل مَنْ يُمْكِنُهُ إِعَانَتُهُمْ أَنْ يَقْصِدَهُمْ مُغِيثًا لَهُمْ،أَذِنَ الأَبَوَانِ أَمْ لَمْ يَأْذَنَا،إلاَّ أَنْ يَضِيعَا،أَوْ أَحَدُهُمَا بَعْدَهُ،فَلاَ يَحِل لَهُ تَرْكُ مَنْ يَضِيعُ مِنْهُمَا؛عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ،فَقَالَ:«أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» [2431].

[2429] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٣٣) ١٣٢ - (١٨٠٧) وانظر :المهذب ٢ / ٢٢٩، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٠، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٨، والمغني ٨ / ٣٦٤ .

[2430] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٢، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥١، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٤، والمغني ٨ / ٣٥٠ .

[2431] - صحيح البخاري (٤/ ٥٩)(٣٠٠٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٧٥)٥ - (٢٥٤٩)

فَدَل عَلَى أَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْجِهَاد.وَلأَنَّ الأَصْل فِي الْجِهَادِ أَنَّهُ فَـرْضٌ عَلَـى الْكِفَايَةِ يَنُوبُ عَنْهُ غَيْرُهُ فِيهِ،وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ فَرْضٌ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ؛لأَنَّهُ لاَ يَنُوبُ عَنْهُ فِيهِ غَيْرُهُ،فعَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَغْزُوَ الـرُّومَ وَإِنَّ أَبَـوَايَ يَمْنَعَانِي؟ قَالَ:«أَطِعْ أَبَوَيْكَ فَإِنَّ الرُّومَ سَتَجِدُ مَنْ يَغْزُوهَا غَيْرَكَ»[٢٤٣٢]

وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،وَبِهِ قَال الأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ،وَسَـائِرُ أَهْل الْعِلْمِ[٢٤٣٣].

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الأَبَوَانِ كَافِرَيْنِ أَوْ أَحَدُهُمَا،فَيَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُجَاهِدَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِمَا؛لأَنَّ أَصْحَابَ رَسُول اللَّهِ ﷺ كَانُوا يُجَاهِدُونَ،وَفِيهِمْ مَنْ لَهُ أَبَوَانِ كَافِرَانِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانِهِمَا،مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ كَانَ مَعَ النَّبِـيِّ ﷺ وَأَبُوهُ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ[٢٤٣٤].

وَلأَنَّ الْكَافِرَ مُتَّهَمٌ فِي الدِّينِ بِالْمَنْعِ مِنَ الْجِهَادِ لِمَظِنَّتِهِ قَصْدَ تَوْهِينِ الإِسْلاَمِ.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِاسْتِثْنَائِهِ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ:إِنَّهُ لاَ يَخْـرُجُ إِلاَّ بِـإِذْنِ الأَبَـوَيْنِ الْكَافِرَيْنِ وَلأَنَّ الْكَافِرَ مُتَّهَمٌ فِي الدِّينِ بِالْمَنْعِ مِنَ الْجِهَادِ لِمَظِنَّتِهِ قَصْدَ تَوْهِينِ الإِسْلاَمِ.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِاسْتِثْنَائِهِ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ:إِنَّهُ لاَ يَخْـرُجُ إِلاَّ بِـإِذْنِ الأَبَـوَيْنِ الْكَافِرَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا إِذَا كَرِهَ خُرُوجَهُ مَخَافَةً وَمَشَقَّةً،وَأَمَّا إِذَا كَانَ لِكَرَاهَةِ قِتَال أَهْل دِينِهِ فَلاَ يُطِيعُهُ مَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ.إِذْ لَوْ كَانَ مُعْسِرًا مُحْتَاجًا إِلَى خِدْمَتِهِ فُرِضَتْ عَلَيْـهِ وَلَوْ كَافِرًا،وَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ تَرْكُ فَرْضِ عَيْنٍ لِيُتَوَصَّل إِلَى فَـرْضِ كِفَايَةٍ،وَبِهَـذَا قَـال الثَّوْرِيُّ لِعُمُومِ الأَخْبَارِ.[٢٤٣٥]

[٢٤٣٢] - البر والصلة للحسين بن حرب (ص:٣٦)(٧١) صحيح

[٢٤٣٣] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٠،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،١٧٦،والمهذب ٢ / ٢٢٩،ونهاية المحتاج ٨ / ٥٧،والمغني ٨ / ٣٥٨،والمحلى ٧ / ٢٩٢ .

[٢٤٣٤] - فتح القدير ٥ / ١٩٤،وابن عابدين ٣ / ٢٢٠،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥،١٧٦،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢،والمهذب ٢ / ٢٢٩،ونهاية المحتاج ٨ / ٥٧،والمغني ٨ / ٣٥٩،وكشاف القناع ٣ / ٤٤ .

[٢٤٣٥] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٠،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٦،والمغني ٨ / ٣٥٩ .

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ وَلَهُ جَدٌّ أَوْ جَدَّةٌ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُجَاهِدَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِمَا؛لأَِنَّهُمَا كَأَبَوَيْنِ فِي الْبِرِّ،وَلَوْ أَذِنَ لَهُ جَدُّهُ لأَِبِيهِ وَجَدَّتُهُ لأُِمِّهِ،وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ أَبُو الأُْمِّ وَأُمُّ الأَْبِ،فَصَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِخُرُوجِهِ؛لِقِيَامِ أَبِي الأَْبِ وَأُمِّ الأُْمِّ مَقَامَ الأَْبِ وَالأُْمِّ عِنْدَ فَقْدِهِمَا،وَالآْخَرَانِ كَبَاقِي الأَْجَانِبِ إِلاَّ إِذَا عُدِمَ الأَْوَّلاَنِ[٢٤٣٦].

وَإِنْ كَانَ لَهُ أَبٌ وَجَدٌّ،أَوْ أُمٌّ وَجَدَّةٌ،فَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَْصَحِّ وَهُوَ رَأْيٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ،إِلَى أَنَّهُ يَلْزَمُهُ اسْتِئْذَانُ الْجَدِّ مَعَ الأَْبِ،وَاسْتِئْذَانُ الْجَدَّةِ مَعَ الأُْمِّ،لأَِنَّ وُجُودَ الأَْبَوَيْنِ لاَ يُسْقِطُ بِرَّ الْجَدَّيْنِ،وَلاَ يُنْقِصُ شَفَقَتَهُمَا عَلَيْهِ.

وَالْمَذْهَبُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ وَهُوَ قَوْلٌ لَدَى الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُهُ؛لأَِنَّ الأَْبَ وَالأُْمَّ يَحْجُبَانِ الْجَدَّ وَالْجَدَّةَ عَنِ الْوِلاَيَةِ وَالْحَضَانَةِ[٢٤٣٧].

وَإِنَّمَا يَجِبُ اسْتِئْذَانُ الأَْبَوَيْنِ فِي الْجِهَادِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَعَيِّنًا،وَلَكِنْ إِذَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْجِهَادُ فَلاَ إِذْنَ لَهُمَا مِنْ غَيْرِ خِلاَفٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ؛لأَِنَّهُ صَارَ فَرْضَ عَيْنٍ،وَتَرْكُهُ مَعْصِيَةٌ،وَلاَ طَاعَةَ لأَِحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

قَال الأَْوْزَاعِيُّ:لاَ طَاعَةَ لِلْوَالِدَيْنِ فِي تَرْكِ الْفَرَائِضِ،وَالْجُمَعِ،وَالْحَجِّ،وَالْقِتَال؛لأَِنَّهَا عِبَادَةٌ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ فَلَمْ يُعْتَبَرْ إِذْنُ الأَْبَوَيْنِ فِيهَا كَالصَّلاَةِ[٢٤٣٨].

وقال أستاذنا الزحيلي:"ولا تقاتل المرأة إلا بإذن زوجها إلا أن يهجم العدو على بلاد المسلمين،لصيرورة القتال حينئذ فرض عين.ولا يقاتل الولد إلا بإذن أبويه،إلا إذا صار الجهاد فرض عين..."[٢٤٣٩]

الرُّجُوعُ عَنِ الإِْذْنِ:

مَنْ خَرَجَ لِلْجِهَادِ بِإِذْنِ الْوَالِدَيْنِ،ثُمَّ رَجَعَا عَنِ الإِْذْنِ،أَوْ كَانَ الأَْبَوَانِ كَافِرَيْنِ،فَأَسْلَمَا بَعْدَ الْخُرُوجِ وَلَمْ يَأْذَنَا،وَعَلِمَ الْمُجَاهِدُ الْحَال،يَلْزَمُهُ الاِنْصِرَافُ إِنْ لَمْ يَشْرَعْ فِي الْقِتَال،وَلَمْ

[٢٤٣٦] - ابن عابدين ٣ / ٢٠ .

[٢٤٣٧] - المهذب ٢ / ٢٢٩،ونهاية المحتاج ٨ / ٥٧،وروضة الطالبين ١٠ / ٢١١،والمغني ٨ / ٣٥٩،وكشاف القناع ٣ / ٤٤ .

[٢٤٣٨] - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٢)

[٢٤٣٩] - الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي - دار الفكر (٨/ ٨)

يَحْضُرِ الْوَقْعَةَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ فِي الْمَشْهُورِ،وَالْحَنَابِلَةِ،إلاَّ أَنْ يَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِــهِ،أَوْ يَخَافَ انْكِسَارَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ،فَلاَ يَلْزَمُهُ.فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ الانْصِرَافُ لِلْخَوْفِ،وَأَمْكَنَهُ أَنْ يُقِيمَ فِي قَرْيَةٍ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى يَرْجِعَ الْجَيْشُ،لَزِمَهُ أَنْ يُقِيمَ.وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ قَوْلٌ آخَرُ:وَهُوَ أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُهُ الانْصِرَافُ.

وَإِنْ عَلِمَ بَعْدَ الشُّرُوعِ فِي الْقِتَالِ،قَال الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَصَحِّ:يَحْــرُمُ الانْصِــرَافُ،وَتَجِبُ الْمُصَابَرَةُ؛لِعُمُومِ الأَمْرِ بِالثَّبَاتِ؛وَلاِنْكِسَارِ الْقُلُوبِ بِانْصِرَافِهِ،وَالثَّانِي:لاَ يَحْرُمُ،بَل يَجِــبُ الانْصِرَافُ،وَالثَّالِثُ:يُخَيَّرُ بَيْنَ الانْصِرَافِ وَالْمُصَابَرَةِ.وَإِنْ أَحَاطَ الْعَدُوُّ بِالْمُسْلِمِينَ تَعَــيَّنَ فَرْضُ الْجِهَادِ،وَسَقَطَ الإِذْنُ؛لأَنَّ تَرْكَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ،فَقُدِّمَ عَلَى حَقِّ الأَبَوَيْنِ.[2440]

وَإِنْ أَذِنَ لَهُ وَالِدَاهُ فِي الْغَزْوِ وَشَرَطَا عَلَيْهِ أَنْ لاَ يُقَاتِل،فَحَضَرَ الْقِتَال،تَعَيَّنَ عَلَيْــهِ الْقِتَــال وَسَقَطَ شَرْطُهُمَا.وَبِذَلِكَ قَال الأَوْزَاعِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ،لأَنَّهُ صَارَ وَاجِبًا عَلَيْهِ،فَلَمْ يَبْقَ لَهُمَــا فِي تَرْكِهِ طَاعَةٌ،وَلَوْ خَرَجَ بِغَيْرِ إِذْنِهِمَا فَحَضَرَ الْقِتَال،ثُمَّ بَدَا لَهُ الرُّجُوعُ لَــمْ يَجُــزْ لَــهُ ذَلِكَ.[2441]

مناقشة بعض الشبهات

فإن قالوا:إنّ آباءَنا وأمهاتِنا لا يَسمحون لنا،وزوجاتنا وأولادنا سيَبْقَون لوحدِهم؟ فقــل لهم:

ــ لا والله لا يُستأذن أحدٌ لأداء فرضٍ من فروض الأعيان،فهل تُستأذن الزوجة أو الأب أو الأم للصلاة أو الصيام؟ فإن تَحَوّلَ الجهاد إلى فــرض عــين تَتْــرُك لهــم الكَفَــاف وتسافر؛لأن الأمر أخطر.

ــ وهاهو نبيك ﷺ يُخْبرنا عن حيَل الشيطان في فرض الكفاية:فعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِــهٍ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لاِبْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ لَهُ:تَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ،وَدِينَ آبَائِكَ،فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ فَغَفَرَ لَهُ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ،فَقَالَ لَهُ:تُهَــاجِرُ

[2440] – روضة الطالبين ١٠ / ٢١٢، ونهاية المحتاج ٨ / ٥٨، والمهذب ٢ / ٢٢٩، والمغني ٨ / ٣٥٩، ٣٦٠ .

[2441] – المغني ٨ / ٣٥٩ وما بعدها .

وَتَذَرُ أَرْضَكَ،وَسَمَاءَكَ،فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ،فَقَالَ لَهُ:تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ،وَالْمَالِ،فَتُقَاتِلُ فَتَقْتُلُ،فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ،وَيُقْسَمُ الْمَالُ،فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةُ»[٢٤٤٢]

وعَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ أَنَّ حَسَنًا وَحُسَيْنًا أَقْبَلَا يَمْشِيَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَلَمَّا جَاءَ أَحَدُهُمَا جَعَلَ يَدَهُ فِي عُنُقِهِ،ثُمَّ جَاءَ الْآخَرُ فَجَعَلَ يَدَهُ الْأُخْرَى فِي عُنُقِهِ،فَقَبَّلَ هَذَا،ثُمَّ قَبَّلَ هَذَا،ثُمَّ قَالَ:«اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا،أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»[٢٤٤٣]

وقال المناوي في شرح الجامع عنده:(أي يُجْبِن أباه عن الجهاد خشيةَ ضَيْعَته،وعن الإنفاق في الطاعة خوفَ فقره،فكأنه أشار إلى التحذير من النكول عن الجهاد والنفقة بسبب الأولاد،بل يكتفي بحسن خلافة الله،فيُقْدِم ولا يُحْجِم،فمن طلب الولد للهوى عصى مولاه ودخل في قوله تعالى:(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ) التغابن١٤.[٢٤٤٤]

ـــ فانتصار الإسلام أغلى ما نتمنى وليست الزوجة أغلى أمانينا؛لئلا نكون من أهل { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} [الفتح:١١].

ـــ فإن قالوا:ماذا تترك لهم وقد خرجْتَ بمالك ونفسك؟ فحسبك أن تقول:أَتْرُك لهم الله ورسوله،قل لهم:

ادَّخَرتُ مالي عند ربي،وادَّخرتُ ربي لأولادي؛وتذكَّرْ قصة "الزبير" رضي الله عنه ووفاءَ دَينه،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الجَمَلِ دَعَانِي،فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ:" يَا بُنَيِّ،إِنَّهُ لاَ يُقْتَلُ اليَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ،وَإِنِّي لاَ أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ اليَوْمَ مَظْلُومًا،وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي،أَفَتُرَى يُبْقِي دَيْنُنَا مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ فَقَالَ:يَا بُنَيِّ بِعْ مَالَنَا،فَاقْضِ دَيْنِي،وَأَوْصَى بِالثُّلُثِ،وَثُلُثِهِ لِبَنِيهِ – يَعْنِي بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ – يَقُولُ:ثُلُثُ

[٢٤٤٢] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٤٥٣)(٤٥٩٣) صحيح

[٢٤٤٣] – المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٣٢)(٢٥٨٧) صحيح

[٢٤٤٤] – فيض القدير (٦/ ٣٧٨)(٩٦٨٩)

الثُّلُث،فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا فَضْلٌ بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ،فَثُلُثُهُ لِوَلَدِكَ "،- قَالَ هِشَامٌ:وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ،قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ،خُبَيْبٌ،وَعَبَّادٌ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ،وَتِسْعُ بَنَاتٍ -،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِهِ،وَيَقُولُ:«يَا بُنَيِّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ،فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلاَيَ»،قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ:يَا أَبَةِ مَنْ مَوْلاَكَ؟ قَالَ:«اللَّهُ»،قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ،إِلَّا قُلْتُ:يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ،فَيَقْضِيهِ،فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِلَّا أَرَضِينَ،مِنْهَا الغَابَةُ،وَإِحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ،وَدَارَيْنِ بِالْبَصْرَةِ،وَدَارًا بِالكُوفَةِ،وَدَارًا بِمِصْرَ،قَالَ:وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي عَلَيْهِ،أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيهِ بِالْمَالِ،فَيَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ،فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ:«لاَ وَلَكِنَّهُ سَلَفٌ،فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ»،وَمَا وَلِيَ إِمَارَةً قَطُّ وَلاَ جِبَايَةَ خَرَاجٍ،وَلاَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ:فَحَسَبْتُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ،فَوَجَدْتُهُ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ،قَالَ:فَلَقِيَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ،فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخِي،كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ فَكَتَمَهُ؟ فَقَالَ:مِائَةُ أَلْفٍ،فَقَالَ حَكِيمٌ:وَاللَّهِ مَا أُرَى أَمْوَالَكُمْ تَسَعُ لِهَذِهِ،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ:أَفَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ؟ قَالَ:مَا أُرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا،فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي،قَالَ:وَكَانَ الزُّبَيْرُ اشْتَرَى الغَابَةَ بِسَبْعِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ،فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِأَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ،ثُمَّ قَامَ:فَقَالَ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ حَقٌّ،فَلْيُوَافِنَا بِالْغَابَةِ،فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ،وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ،فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ:إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:لاَ،قَالَ:فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤَخِّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:لاَ،قَالَ:قَالَ:فَاقْطَعُوا لِي قِطْعَةً،فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:لَكَ مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا،قَالَ:فَبَاعَ مِنْهَا فَقَضَى دَيْنَهُ فَأَوْفَاهُ،وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ،فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ،وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ،وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ،وَابْنُ زَمْعَةَ،فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ:كَمْ قُوِّمَتِ الغَابَةُ؟ قَالَ:كُلُّ سَهْمٍ مِائَةَ أَلْفٍ،قَالَ:كَمْ بَقِيَ؟ قَالَ:أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ،قَالَ الْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ:قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ،قَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ:قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ،وَقَالَ ابْنُ زَمْعَةَ:قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:كَمْ بَقِيَ؟ فَقَالَ:سَهْمٌ وَنِصْفٌ،قَالَ:قَدْ أَخَذْتُهُ بِخَمْسِينَ وَمِائَةِ

أَلْف،قَالَ:وَبَاعَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ منْ مُعَاوِيَةَ بستِّ مائَة أَلْف،فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ منْ قَضَاءِ دَيْنه،قَالَ بَنُو الزُّبَيْر:اقْسمْ بَيْنَنَا ميرَاثَنَا،قَالَ:لاَ،وَاللَّه لاَ أَقْسمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بالْمَوْسمِ أَرْبَعَ سنينَ:أَلاَ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتنَا فَلْنَقْضه،قَالَ:فَجَعَلَ كُلَّ سَنَة يُنَادي بالْمَوْسمِ،فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سنينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ،قَالَ:فَكَانَ للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نسْوَة،وَرَفَعَ الثُّلُثَ،فَأَصَابَ كُلَّ امْرَأَة أَلْفُ أَلْفٍ وَمائَتَا أَلْفٍ،فَجَمِيعُ مَاله خَمْسُونَ أَلْفَ أَلْفٍ،وَمائَتَا أَلْف"[2445]

وتذكر تَصَدُّق الصّديق بكل ماله؛فعَنْ زَيْد بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبيه،قَالَ:سَمعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب،يَقُولُ:أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلكَ عنْدي مَالًا،فَقُلْتُ:اليَوْمَ أَسْبقُ أَبَا بَكْرٍ إنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا،قَالَ:فَجئْتُ بنصْف مَالي،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه:وَسَلَّمَ:«مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلكَ؟» قُلْتُ:مثْلَهُ،وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بكُلِّ مَا عنْدَهُ،فَقَالَ:«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلكَ؟» قَالَ:أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،قُلْتُ:لَا أَسْبقُهُ إلَى شَيْءٍ أَبَدًا."[2446]

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحمينَ) يوسف٦٤،(وَكَأَيِّنْ منْ دَابَّةٍ لا تَحْملُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) العنكبوت٦٠.

ـــ هذا "عُبادة بن الصامت" رضي الله عنه يقول لمقوقس مصر عظيم القبط:(إن كان ما قلتم حقّا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم،وأشدّ لحرصنا عليهم؛لأن ذلك أعذر لنا عند ربّنا إذا قدمنا عليه،إن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنّته،وما من شىء

[2445] - صحيح البخاري (٤/ ٨٧)(٣١٢٩)

[ش (يوم الجمل) يوم وقعة الجمل سنة ست وثلاثين هجرية التي وقعت بين طلحة والزبير وعلي رضي الله عنهم وسميت يوم الجمل لأن عائشة رضي الله عنها كانت تركب على جمل في هودج وكانت هي التي خرجت بالناس وكانت هي محور المعركة رضي الله عنها وعفا عنها وعمن شجعها وأغراها بهذا الموقف.(وثلثه لبنيه) أي أوصى بثلث الثلث لبني عبد الله خاصة.(وازى) حاذاهم وساواهم في السن.(الغابة) أرض شهيرة من عوالي المدينة كان الزبير قد اشتراها.(لا ولكنه سلف) أي لا أضعه عندي وديعة ولكني آخذه دينا وذلك حتى يكون مضمونا عليه إذا أصابه شيء من التلف.(فكتمه) كتم أصل الدين حتى لا يستعظمه حكيم فينظر إليه بعين الاحتياج ولكنه لما استعظم القليل أخبره بالحقيقة.(فليوافنا) فليأتنا.(بالموسم) موسم الحج سمي بذلك لاجتماع الناس فيه فهو معلم مأخوذ من الوسم وهو العلامة]

[2446] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٦١٥) (٣٦٧٥) صحيح

أقرّ لأعيننا،ولا أحبّ إلينا من ذلك؛وإنّا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين؛إمّا أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم،أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا،وإنها لأحبّ الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منّا،وإن الله عزّ وجلّ قال لنا فى كتابه:كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ،،وما منّا رجل الّا وهو يدعو ربّه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة،وألّا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده،وليس لأحد منا همّ فيما خلّفه،وقد استودع كلّ واحد منا ربّه أهله وولده؛وإنما همّنا ما أمامنا.) اهـ[٢٤٤٧]

ـــ أين نحن من مثل خالد بن الوليد الذي اختلط لحمه وعظمه مع حب الجهاد،فعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:«مَا لَيْلَةٌ تُهْدَى إِلَيَّ فِيهَا عَرُوسٌ أَنَا لَهَا مُحِبٌّ أَوْ أُبَشَّرُ فِيهَا بِغُلَامٍ،بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْجَلِيدِ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُصَبِّحُ بِهَا الْعَدُوَّ».[٢٤٤٨]

المبحث الثاني
أقسام الجهاد في سبيل الله

ينقسم الجهاد في سبيل الله إلى قسمين:

الأول:الجهاد بالنفس والمال واللسان،وهو جهاد الدعوة إلى الله بين الناس،حتى يكون الدين كله لله.

وهذا أعظم أنواع الجهاد،وأعظم من قام به الأنبياء والرسل،وهو جهاد حسن لذاته،وهو مقصد بعثة الأنبياء والرسل،وبسببه يؤمن الناس،ويعبدون ربهم وحده لا شريك له.

١ - قال الله تعالى:{وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)} [الفرقان:٥١ - ٥٢].

[٢٤٤٧] - فتوح مصر والمغرب (ص:٩٠) والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١/ ١٤)

[٢٤٤٨] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٨١٤)(١٤٧٦) صحيح

٢ – وقال الله تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)}...[الحج:٧٨].

الثاني:القتال في سبيل الله،وهو بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله،حتى لا تكون فتنة،ويكون الدين كله لله.

و لم يُفرض هذا الجهاد على جميع الأنبياء،وإنما فُرض على بعضهم كداود وسليمان وموسى عليهم الصلاة والسلام.

وأفضل من جاهد هذا الجهاد سيد الأنبياء والمرسلين محمد – ﷺ – وأصحابه رضي الله عنهم،وهو المقصود هنا.

وهذا الجهاد حسن لغيره؛لأنه يفتح أبواب الدعوة،والدعوة تفتح أبواب الهداية،وكلاهما يفتح أبواب الجنة.

١ – قال الله تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)} [البقرة:١٩٣].

٢ – قال الله تعالى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)}...[البقرة:١٩٠].

المبحث الثالث

أحوال الجهاد في سبيل الله

للجهاد في سبيل الله أربع حالات:

١ – جهاد النفس:

وهو جهاد النفس على تعلم الدين،والعمل به،والدعوة إليه،والصبر على الأذى فيه.قال الله تعالى:{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)}...[العصر:١ - ٣].

يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِالدَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وَعِبَرٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.إِنَّ الإِنْسَانَ لَخَاسِرٌ فِي أَعْمَالِهِ.وَأَعْمَالُهُ مَصْدَرُ شَقَائِهِ،وَهِيَ التِي تُوقِعُهُ فِي الهَلاَكِ (وَهَذَا هُوَ جَوَابُ القَسَمِ).

قَالَ تَعَالَى:إِنَّ بَنِي الإِنْسَانِ خَاسِرُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ إِلاَّ الذِينَ اعْتَقَدُوا اعْتِقَاداً صَحِيحاً بِوُجُودِ اللهِ وَوحْدَانِيتِهِ،وَبِمَا أَنْزَلَ مِنَ الكُتُبِ عَلَى رُسُلِهِ الكِرَامِ ثُمَّ عَمِلُوا صَالِحَةً تُرْضِي اللهَ،وَاجْتَنَبُوا مَا حَرَّمَ اللهُ وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالصَّبْرِ عَنِ المَعَاصِي التِي تَشْتَاقُ إِلَيهَا النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ،وَبِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ التِي يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ القِيَامُ بِهَا..فَهؤُلاَءِ المُسْتَثْنَوْنَ هُمُ الرَّابِحُونَ الفَائِزُونَ.[٢٤٤٩]

مَرَاتِبُ جِهَادِ النَّفْسِ:

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَالْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:جِهَادُ النَّفْسِ،وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ،وَجِهَادُ الْكُفَّارِ،وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.

فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا:

إِحْدَاهَا:أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ،وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

الثَّانِيَةُ:أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ،وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

الثَّالِثَةُ:أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ،وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ،وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ،وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ،وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ:أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَأَذَى الْخَلْقِ،وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ،فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى

[٢٤٤٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ،فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.[٢٤٥٠]

٢ – جهاد الشيطان:

وهو جهاد الشيطان على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشهوات.قال الله تعالى:{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)}...[فاطر:٦].

إن الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَكُمْ يَا أَيَّها النَّاسُ،وَهُوَ يُوَسْوِسُ لَكُمْ لِيُضِلَّكُمْ وَيَدْفَعَ بِكُمْ إلى هَاوِيَةِ الجَحِيمِ،فَاحْذَرُوا مِنْهُ وَكُونُوا أَنْتُمْ أَعْدَاءَهُ،وَخَالِفُوهُ وَكَذِّبُوهُ فِيما يَغُرُّكُمْ بِهِ،وَهُوَ يَدْعُو حِزْبَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَشِيعَتَهُ،إلى اتِّبَاعِ الهَوى،والرُّكُونِ إلى اللذَّاتِ،وَالتَّسْوِيفِ بِالتَّوْبَةِ،لِيُضِلَّهُمْ وَيُلْقِيَهِمْ فِي العَذَابِ الدَّائِمِ،فِي سَعِيرِ جَهَنَّمَ.[٢٤٥١]

مَرَاتِبُ جِهَادِ الشَّيْطَانِ:

وَأَمَّا جِهَادُ الشَّيْطَانِ فَمَرْتَبَتَانِ،إِحْدَاهُمَا:جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَى الْعَبْدِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ الْقَادِحَةِ فِي الْإِيمَانِ.

الثَّانِيَةُ:جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالشَّهَوَاتِ،فَالْجِهَادُ الْأَوَّلُ يَكُونُ بَعْدَهُ الْيَقِينُ،وَالثَّانِي:يَكُونُ بَعْدَهُ الصَّبْرُ.قَالَ تَعَالَى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤] [السَّجْدَةِ:٢٤] فَأَخْبَرَ أَنَّ إِمَامَةَ الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ،فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةَ،وَالْيَقِينُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ.[٢٤٥٢]

٣ – جهاد أصحاب الظلم والبدع والمنكرات:

وَأَمَّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ فَثَلَاثُ مَرَاتِبَ،الْأُولَى:بِالْيَدِ إِذَا قَدَرَ،فَإِنْ عَجَزَ انْتَقَلَ إِلَى اللِّسَانِ،فَإِنْ عَجَزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ،فَهَذِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرْتَبَةً مِنَ الْجِهَادِ،ويكون

[٢٤٥٠] – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٩)

[٢٤٥١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٤٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٤٥٢] –زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٩)

بالحكمة حسب الحال والمصلحة حتى لا تحصل فتنة.قال الله تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)} [النحل:١٢٥].

ادْعُ يَا مُحَمَّدُ قَوْمَكَ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِ اللهِ،طَرِيقِ الحَقِّ الذي شَرَعَهُ اللهُ لِلنَّاسِ،وَاسْتَعْمِلْ فِي دَعْوَتِكَ مَعْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الوَسِيلَةَ النَاجِعَةَ مَعَهُ،وَالطَّرِيقَةَ المُنَاسِبَةَ،وَجَادِلْ أَهْلَ الكِتَابِ بِالحُجَّةِ وَالقَوْلِ اللَّيِّنِ،وَالعِبَارَةِ الحَسَنَةِ التي لاَ تَشُوبُهَا قَسْوَةٌ وَلاَ عُنْفٌ،لِيَسْتَمِرَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمُ الحِوَارُ وَالجَدَلُ وَالنِّقَاشُ،فَتَسْتَطِيعَ إِقْنَاعَهُمْ بِصِحَّةِ دَعْوَتِكَ،وَحَمْلِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِكَ،وَاتْرُكْ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَهُمْ للهِ،فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ ضَلَّ فَلاَ يُفِيدُ مَعَهُ جَدَلٌ وَلاَ دَعْوَةٌ،وَهُوَ الذِي يَعْلَمُ مَنْ صَفَتْ نَفْسُهُ،وَسَلِمَ تَفْكِيرُهُ،فَاهْتَدَى وَآمَنَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.[٢٤٥٣]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ.فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ،فَقَالَ:الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ،فَقَالَ:قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ،فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ:أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».أخرجه مسلم[٢٤٥٤].

قَالَ الْعُلَمَاءُ:الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ بِالْيَدِ عَلَى الْأُمَرَاءِ،وَبِاللِّسَانِ عَلَى الْعُلَمَاءِ،وَبِالْقَلْبِ عَلَى الضُّعَفَاءِ،يَعْنِي عَوَامَّ النَّاسِ.فَالْمُنْكَرُ إِذَا أَمْكَنَتْ إِزَالَتُهُ بِاللِّسَانِ لِلنَّاهِي فَلْيَفْعَلْهُ،وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ أَوْ بِالْقَتْلِ فَلْيَفْعَلْ،فَإِنْ زَالَ بِدُونِ الْقَتْلِ لَمْ يَجُزِ الْقَتْلُ،وَهَذَا تُلُقِّيَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:" {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات:٩] عَلَى النَّفْسِ أَوْ عَلَى الْمَالِ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ مَالِهِ أَوْ نفس غيره فله ذلك ولا شيءَ عَلَيْهِ.وَلَوْ رَأَى زَيْدٌ عَمْرًا وَقَدْ قَصَدَ مَالَ بَكْرٍ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ الْمَالِ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا رَاضِيًا بِهِ،حَتَّى لَقَدْ

[٢٤٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٤٥٤] - صحيح مسلم (١/ ٦٩)٧٨ - (٤٩)

قَالَ الْعُلَمَاءُ:لَوْ فَرَضْنَا [قَوَدًا].وَقِيلَ:كُلُّ بَلْدَةٍ يَكُونُ فِيهَا أَرْبَعَةٌ فَأَهْلُهَا مَعْصُومُونَ مِنَ الْبَلَاءِ:إِمَامٌ عَادِلٌ لَا يَظْلِمُ،وَعَالِمٌ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى،وَمَشَايِخُ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَرِّضُونَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ،وَنِسَاؤُهُمْ مَسْتُورَاتٌ لَا يَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ[2455]

وَلَا يَتِمُّ الْجِهَادُ إِلَّا بِالْهِجْرَةِ،وَلَا الْهِجْرَةُ وَالْجِهَادُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ،وَالرَّاجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ.قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:٢١٨] [الْبَقَرَة:٢١٨].

وَكَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَفَرْضٌ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ:هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّوْبَةِ،وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ بِالْمُتَابَعَةِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ،وَالتَّصْدِيقِ بِخَبَرِهِ،وَتَقْدِيمِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ عَلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَخَبَرِهِ:(«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»).وَفَرَضَ عَلَيْهِ جِهَادَ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ،وَجِهَادَ شَيْطَانِهِ،فَهَذَا كُلُّهُ فَرْضُ عَيْنٍ لَا يَنُوبُ فِيهِ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ.[2456]

٤ – جهاد الكفار والمنافقين:

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ:بِالْقَلْبِ،وَاللِّسَانِ،وَالْمَالِ،وَالنَّفْسِ،وَجِهَادُ الْكُفَّارِ أَخَصُّ بِالْيَدِ،وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخَصُّ بِاللِّسَانِ..

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَقَدْ يُكْتَفَى فِيهِ بِبَعْضِ الْأُمَّةِ إِذَا حَصَلَ مِنْهُمْ مَقْصُودُ الْجِهَادِ.

قال الله تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)} [الحجرات:١٥].

[2455] – تفسير القرطبي (٤/ ٤٩)

[2456] – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٠)

يُعَرِّفُ اللهُ تَعَالى للنَّاسِ الإِيمَانَ في هَذِه الآيةِ فَيُقَرِّرُ:إنَّ المُؤْمنينَ إيماناً حَقّاً هُمُ الذين صَدَّقوا اللهَ وَرَسُولهَ وَلَم يَشُكُّوا،وَلَم يَتَزَلْزَلُوا،وَلم يَتَرَدَّدوا،وَبَذَلَوا أنْفُسَهُم وَأمْوالَهُمْ للْجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ،وَرِفْعةِ شَأْنِ الإِسْلامِ،وَهَؤلاءِ هُمُ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ في إِيمَانِهمْ.[2457]

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة:٧٣]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَبْذُلَ الْجَهْدَ في مُقَاوَمَةِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ،الذينَ يَعيشُونَ بَيْنَ ظَهْرانِي المُسْلِمينَ،مثْلَما تَبْذُلُهُ هَاتَانِ الطَّائفتَانِ في عَدَاوَةِ الرَّسُولِ وَالمُسْلِمينَ،كَمَا يَأْمُرُهُ بمُعَامَلَتِهِمَا بالشِّدَّةِ وَالغَلْظَةِ لتَرْتَدِعَا،وَيَرْتَدِعَ مَنْ خَلْفَهُمَا.وَمُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ تَكُونُ بالسَّيْفِ،وَمُجَاهَدَةَ المُنَافِقِينَ تَكُونُ بالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ،وَسَيَكُونُ مَصيرُ الكُفَّارِ وَالمُنَافقينَ في نَارِ جَهَنَّمَ،وَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبداً،وَبذَلكَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.[2458]

وقال الله تعالى:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)}...[التحريم:٩].

يَا أَيُّهَا النَّبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ الذينَ يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ انتشَارِ الدَّعْوَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ بالسِّلاَحِ،وَحَارِبْهُمْ حَرْباً لاَ هَوادَةَ فِيهَا،وَجَاهِدِ المُنَافقينَ،الذينَ يَتَظَاهَرُونَ بالإِسَلاَمِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الكُفرِ وَالشَّكِّ والرِّيبَةِ،وَيُقُومُونَ بالدَّسِّ وَالوَقِيعَةِ والتَّثْبِيطِ بَيْنَ المُؤْمنينَ،وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ بالقَوْلِ وَالإِنْذَارِ،وَافْضَحْهُمْ،وَبَيِّنْ لَهُمْ سُوءَ مَصيرِهِمْ وَمُنْقَلبِهِمْ فِي الآخِرَةِ،وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُمْ وَيَرْجِعْ إِلَى اللهِ مُسْتَغْفِراً مُنِيباً،فَإِنَّ مَصيرَهُ سَيَكُونُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَسَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمَصيراً.[2459]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،فِي قَوْلِهِ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥]،وَقَوْلِهِ:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة:٢٩]،قَالَ:فَنَسَخَ هَذَا الْعَفْوَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ،وَقَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

[2457] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٦،بترقيم الشاملة آليا)

[2458] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٩،بترقيم الشاملة آليا)

[2459] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥١١٦،بترقيم الشاملة آليا)

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة:٧٣]،فَأَمَرَهُ اللهُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ،وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ،وَأَذْهَبَ الرِّفْقَ عَنْهُمْ "[٢٤٦٠]

وقال القرطبي:" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:أُمِرَ بِالْجِهَادِ مَعَ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ،وَمَعَ الْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ وَشِدَّةِ الزَّجْرِ وَالتَّغْلِيظِ.وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ:جَاهِدِ الْمُنَافِقِينَ بِيَدِكَ،فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِكَ،فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاكْفَهِرَّ فِي وُجُوهِهِمْ.وَقَالَ الْحَسَنُ:جَاهِدِ الْمُنَافِقِينَ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ وَبِاللِّسَانِ- وَاخْتَارَهُ قَتَادَةُ- وَكَانُوا أَكْثَرَ مَنْ يُصِيبُ الْحُدُودَ.ابْنُ الْعَرَبِيِّ:أَمَّا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ بِاللِّسَانِ فَكَانَتْ دَائِمَةً وَأَمَّا بِالْحُدُودِ لِأَنَّ أَكْثَرَ إِصَابَةِ الْحُدُودِ كَانَتْ عِنْدَهُمْ فَدَعْوَى لَا بُرْهَانَ عَلَيْهَا وَلَيْسَ الْعَاصِي بِمُنَافِقٍ إِنَّمَا الْمُنَافِقُ بِمَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِنَ النِّفَاقِ كَامِنًا لَا بِمَا تَتَلَبَّسُ بِهِ الْجَوَارِحُ ظَاهِرًا وَأَخْبَارُ الْمَحْدُودِينَ يَشْهَدُ سِيَاقُهَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ...،وهذه الآية نسخت كل شي من العفو والصلح والصفح.[٢٤٦١]

فَأَمَرَهُ أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَالْمَوَاعِظِ الْحَسَنَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ.وَالْمُنَافِقِينَ بِالْغِلْظَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ،وَأَنْ يُعَرِّفَهُمْ أَحْوَالَهُمْ فِي الْآخِرَةِ،وَأَنَّهُمْ لَا نُورَ لَهُمْ يَجُوزُونَ بِهِ الصِّرَاطَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ.وَقَالَ الْحَسَنُ:أَيْ جَاهِدْهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ،فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرْتَكِبُونَ مُوجِبَاتِ الْحُدُودِ.وَكَانَتِ الْحُدُودُ تُقَامُ عَلَيْهِمْ.(وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ) يَرْجِعُ إلى الصنفين.(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أي المرجع.[٢٤٦٢]

أَكْمَلُ الْخَلْقِ مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ:

وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ كُلَّهَا،وَالْخَلْقُ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَفَاوُتَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْجِهَادِ،وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ خَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ،فَإِنَّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ،وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ،وَشَرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ حِينَ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ:{يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر:١] [الْمُدَّثِّرِ:١ - ٤] شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الدَّعْوَةِ،وَقَامَ فِي ذَاتِ اللَّهِ

[٢٤٦٠] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٠)(١٧٧٤٢) حسن

[٢٤٦١] - تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٤)

[٢٤٦٢] - تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠١)

أَتَمَّ قِيَامٍ،وَدَعَا إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا،وَسِرًّا وَجِهَارًا،وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر:٩٤] [الْحِجْرِ:٩٤] فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ،فَدَعَا إِلَى اللَّهِ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ وَالذَّكَرَ وَالْأُنْثَى وَالْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ.

وَلَمَّا صَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَصَرَّحَ لِقَوْمِهِ بِالدَّعْوَةِ،وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ آلِهَتِهِمْ،وَعَيْبِ دِينِهِمْ،اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ،وَلِمَنِ اسْتَجَابَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَنَالُوهُ وَنَالُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى،وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} [فصلت:٤٣] [فُصِّلَتْ:٤٣] وَقَالَ:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام:١١٢] [الْأَنْعَامِ:١١٢] وَقَالَ:{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ - أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات:٥٢ - ٥٣] [الذَّارِيَاتِ:٥٢- ٥٣].

فَعَزَّى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ،وَأَنَّ لَهُ أُسْوَةً بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ،وَعَزَّى أَتْبَاعَهُ بِقَوْلِهِ:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة:٢١٤] [الْبَقَرَةِ:٢١٤].

وَقَوْلِهِ:{الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ - وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت:١ - ٣] أَمْ {حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ - وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:٤ - ١٠] [الْعَنْكَبُوتِ:١ - ١١].

فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَاتِ،وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْعِبَرِ وَكُنُوزِ الْحِكَمِ،فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمِ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ،إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ:آمَنَّا،وَإِمَّا أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ،بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ،فَمَنْ قَالَ:آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ،وَالْفِتْنَةُ الابْتِلَاءُ وَالاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ،وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللَّهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ،فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَطْوِي الْمَرَاحِلَ فِي يَدَيْهِ.

وَكَيْفَ يَفِرُّ الْمَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ...إِذَا كَانَ تُطْوَى فِي يَدَيْهِ الْمَرَاحِلُ

فَمَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ،وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ،وَكَانَ هَذَا الْمُؤْلِمُ لَهُ أَعْظَمَ أَلَمًا وَأَدْوَمَ مِنْ أَلَمِ اتِّبَاعِهِمْ،فَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ،لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً،ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَالْمُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَّةُ ابْتِدَاءً،ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْأَلَمِ الدَّائِمِ.وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ،أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يُبْتَلَى؟ فَقَالَ:لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى،وَاللَّهُ تَعَالَى ابْتَلَى أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ،فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ،فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ يَخْلُصُ مِنَ الْأَلَمِ الْبَتَّةَ،وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُ أَهْلُ الْآلَامِ فِي الْعُقُولِ،فَأَعْقَلُهُمْ مَنْ بَاعَ أَلَمًا مُسْتَمِرًّا عَظِيمًا بِأَلَمٍ مُنْقَطِعٍ يَسِيرٍ،وَأَشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الْأَلَمَ الْمُنْقَطِعَ الْيَسِيرَ بِالْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرِّ.

فَإِنْ قِيلَ:كَيْفَ يَخْتَارُ الْعَاقِلُ هَذَا؟ قِيلَ:الْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا النَّقْدُ وَالنَّسِيئَةُ.

والنَّفْسُ مُوَكَّلَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} [القيامة:٢٠] [الْقِيَامَةِ:٢٠] {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} [الإنسان:٢٧] [الدَّهْرِ:٢٧]،وَهَذَا يَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ،فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ،لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ،وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ،فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا،فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ،وَإِنْ وَافَقَهُمْ،حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ،تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ،كَمَنْ عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقًى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ وَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ،أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ،فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ،ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ

وَالْأَذَى أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ،وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ،فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ لمعاوية:(مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ،وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا).

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ رَأَى هَذَا كَثِيرًا،فِيمَنْ يُعِينُ الرُّؤَسَاءَ عَلَى أَغْرَاضِهِمِ الْفَاسِدَةِ،وَفِيمَنْ يُعِينُ أَهْلَ الْبِدَعِ عَلَى بِدَعِهِمْ هَرَبًا مِنْ عُقُوبَتِهِمْ،فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ امْتَنَعَ مِنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ،وَصَبَرَ عَلَى عُدْوَانِهِمْ،ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ كَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،وَمَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَّادِ وَصَالِحِي الْوُلَاةِ وَالتُّجَّارِ،وَغَيْرِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الْأَلَمُ لَا مَحِيصَ مِنْهُ الْبَتَّةَ،عَزَّى اللَّهُ – سُبْحَانَهُ – مَنِ اخْتَارَ الْأَلَمَ الْيَسِيرَ الْمُنْقَطِعَ عَلَى الْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرِّ،بِقَوْلِهِ:{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت:٥] [الْعَنْكَبُوت:٥] فَضَرَبَ لِمُدَّةِ هَذَا الْأَلَمِ أَجَلًا،لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ،وَهُوَ يَوْمُ لِقَائِهِ،فَيَلْتَذُّ الْعَبْدُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ بِمَا تَحَمَّلَ مِنَ الْأَلَمِ مِنْ أَجْلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ،وَتَكُونُ لَذَّتُهُ وَسُرُورُهُ وَابْتِهَاجُهُ بِقَدْرِ مَا تَحَمَّلَ مِنَ الْأَلَمِ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ،وَأَكَّدَ هَذَا الْعَزَاءَ وَالتَّسْلِيَةَ بِرَجَاءِ لِقَائِهِ لِيَحْمِلَ الْعَبْدُ اشْتِيَاقَهُ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ عَلَى تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ الْأَلَمِ الْعَاجِلِ،بَلْ رُبَّمَا غَيَّبَهُ الشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ عَنْ شُهُودِ الْأَلَمِ وَالْإِحْسَاسِ بِهِ،وَلِهَذَا سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِهِ،فَقَالَ فِي الدُّعَاءِ الَّذِي رَوَاهُ أحمد وَابْنُ حِبَّانَ:(«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ،وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ،أَحْيِنِي إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي،وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي،وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَى،وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى،وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ،وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ،وَأَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ الْقَضَاءِ،وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ،وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ،وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ،وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ،اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ،وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»).

فَالشَّوْقُ يَحْملُ الْمُشْتَاقَ عَلَى الْجدِّ فِي السَّيْرِ إِلَى مَحْبُوبه،وَيُقَرِّبُ عَلَيْه الطَّرِيقَ،وَيَطْوِي لَهُ الْبَعِيدَ،وَيُهَوِّنُ عَلَيْه الْآلَامَ وَالْمَشَاقَّ،وَهُوَ منْ أَعْظَم نعْمَة أَنْعَمَ اللَّهُ بهَا عَلَى عَبْده،وَلَكنْ لهَذه النِّعْمَة أَقْوَالٌ وَأَعْمَالٌ هُمَا السَّبَبُ الَّذي تُنَالُ به،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ سَميعٌ لتلْكَ الْأَقْوَال،عَليمٌ بتلْكَ الْأَفْعَال،وَهُوَ عَليمٌ بمَنْ يَصْلُحُ لهَذه النِّعْمَة وَيَشْكُرُهَا وَيَعْرفُ قَدْرَهَا وَيُحبُّ الْمُنْعمَ عَلَيْه،فَتَصْلُحُ عنْدَهُ هَذه النِّعْمَةُ،وَيَصْلُحُ بهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَكَذَلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ ليَقُولُوا أَهَؤُلَاء مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهمْ منْ بَيْننَا أَلَيْسَ اللَّهُ بأَعْلَمَ بالشَّاكرينَ} [الأنعام:٥٣] [الْأَنْعَام:٥٣]،فَإذَا فَاتَت الْعَبْدَ نَعْمَةٌ منْ نعَم رَبِّه فَلْيَقْرَأْ عَلَى نَفْسه:{أَلَيْسَ اللَّهُ بأَعْلَمَ بالشَّاكرينَ} [الأنعام:٥٣].

ثُمَّ عَزَّاهُمْ تَعَالَى بعَزَاء آخرَ،وَهُوَ أَنَّ جهَادَهُمْ فيه إنَّمَا هُوَ لأَنْفُسهمْ،وَثَمَرَتُهُ عَائدَةٌ عَلَيْهمْ،وَأَنَّهُ غَنيٌّ عَن الْعَالَمينَ،وَمَصْلَحَةُ هَذَا الْجهَاد تَرْجعُ إلَيْهمْ لَا إلَيْه سُبْحَانَهُ،ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُدْخلُهُمْ بجهَادهمْ وَإيمَانهمْ في زُمْرَة الصَّالحينَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَال الدَّاخل في الْإيمَان بلَا بَصيرَة،وَأَنَّهُ إذَا أُوذيَ في اللَّه جَعَلَ فتْنَةَ النَّاس لَهُ كَعَذَاب اللَّه،وَهيَ أَذَاهُمْ لَهُ،وَنَيْلُهُمْ إيَّاهُ بالْمَكْرُوه وَالْأَلَم الَّذي لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ ممَّنْ خَالَفَهُمْ،جَعَلَ ذَلكَ في فرَاره منْهُمْ وَتَرْكه السَّبَبَ الَّذي نَالَهُ كَعَذَاب اللَّه الَّذي فَرَّ منْهُ الْمُؤْمنُونَ بالْإيمَان،فَالْمُؤْمنُونَ لكَمَال بَصيرَتهمْ فَرُّوا منْ أَلَم عَذَاب اللَّه إلَى الْإيمَان،وَتَحَمَّلُوا مَا فيه منَ الْأَلَم الزَّائل الْمُفَارق عَنْ قَريب،وَهَذَا لضَعْف بَصيرَته فَرَّ منْ أَلَم عَذَاب أَعْدَاء الرُّسُل إلَى مُوَافَقَتهمْ وَمُتَابَعَتهمْ،فَفَرَّ منْ أَلَم عَذَابهمْ إلَى أَلَم عَذَاب اللَّه،فَجَعَلَ أَلَمَ فتْنَة النَّاس في الْفرَار منْهُ بمَنْزلَة أَلَم عَذَاب اللَّه،وَغُبنَ كُلَّ الْغَبْن إذ اسْتَجَارَ منَ الرَّمْضَاء بالنَّار،وَفَرَّ منْ أَلَم سَاعَة إلَى أَلَم الْأَبَد،وَإذَا نَصرَ اللَّهُ جُنْدَهُ وَأَوْليَاءَهُ قَالَ:إنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ،وَاللَّهُ عَليمٌ بمَا انْطَوَى عَلَيْه صَدْرُهُ منَ النِّفَاق.

وَالْمَقْصُودُ:أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ حكْمَتُهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحنَ النُّفُوسَ وَيَبْتَليَهَا،فَيُظْهرُ بالامْتحَان طَيِّبَهَا منْ خَبيثهَا،وَمَنْ يَصْلُحُ لمُوَالَاته وَكَرَامَاته وَمَنْ لَا يَصْلُحُ،وَليُمَحِّصَ النُّفُوسَ الَّتي تَصْلُحُ لَهُ،وَيُخَلِّصَهَا بكير الامْتحَان،كَالذَّهَب الَّذي لَا يَخْلُصُ وَلَا يَصْفُو منْ غشّه إلَّا بالامْتحَان،إذ النَّفْسُ في الْأَصْل جَاهلَةٌ ظَالمَةٌ،وَقَدْ حَصَلَ لَهَا بالْجَهْل وَالظُّلْم منَ

الْخُبْث مَا يَحْتَاجُ خُرُوجُهُ إِلَى السَّبْكِ وَالتَّصْفِيَة،فَإِنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَإِلَّا فَفِي كِـيرِ جَهَنَّمَ،فَإِذَا هُذِّبَ الْعَبْدُ وَنُقِّيَ أُذِنَ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّة.[٢٤٦٣].

المبحث الرابع
أقسَام الْجِهَاد

ذا كَانَت الْمُسَابقَة شرعت ليتعلم الْمُؤمن الْقتَال ويتعوده ويتمرن عَلَيْهِ فَمن الْمَعْلُـوم أَن الْمُجَاهد قد يقْصد دفع الْعَدو إِذا كَانَ الْمُجَاهد مَطْلُوبا والعدو طَالبا وَقد يقْصد الظفـر بالعدو ابْتِدَاء إِذا كَانَ طَالبا والعدو مَطْلُوبا وَقد يقْصد كلا الْأَمريْنِ والأقسام ثَلَاثَة يُـؤمر الْمُؤمن فِيهَا بِالْجِهَادِ

وَجِهَاد الدّفع أصعب من جِهَاد الطّلب فَإِن جِهَاد الدّفع يشبه بَاب دفع الصَّائِل وَلِهَـذَا أُبِيح للمظلوم أَن يدْفع عَن نَفسه

كَمَا قَالَ الله تَعَالَى {أذن للَّذين يُقَاتلُون بِأَنَّهُم ظلمُوا} [الْحَج:٣٩] وَقَالَ النَّبِي ﷺ مـن قتل دون مَاله فَهُوَ شَهِيد وَمن قتل دون دَمه فَهُوَ شَهِيد لِأَن دفع الصَّائِل على الدّين جِهَاد وقربة وَدفع الصَّائِل على المَال وَالنَّفس مُبَاح ورخصة فَإِن قتل فِيهِ فَهُوَ شَهِيد

فقتال الدّفع أوسع من قتال الطّلب وأعم وجوبا وَلِهَذَا يتَعَيَّن على كل أحد يقم ويجاهـد فِيهِ العَبْد بِإِذن سَيّده وَبدُون إِذْنه وَالْولد بِدُونِ إِذن أَبَوَيْهِ والغريم بِغَيْر إِذن غَرِيمـه وَهَـذَا كجهاد الْمُسلمين يَوْم أحد وَالْخَنْدَق

وَلَا يشْتَرط فِي هَذَا النَّوْع من الْجِهَاد أَن يكون الْعَدو ضعْفي الْمُسلمين فَمَا دون فَـإِنَّهُم كَانُوا يَوْم أحد وَالْخَنْدَق أَضْعَاف الْمُسلمين فَكَانَ الْجِهَاد وَاجِبا عَلَيْهِم لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ جِهَاد ضَرُورَة وَدفع لَا جِهَاد اخْتِيَار وَلِهَذَا تُبَاح فِيهِ صَلَاة الْخَوْف بِحَسب الْحَال فِي هَذَا النَّوْع وَهل تُبَاح فِي جِهَاد الطّلب إِذا خَافَ فَوت الْعَدو وَلم يخف كرته فِيهِ قَولَانِ لِلْعُلَمَاءِ همـا رِوَايَتَانِ عَن الإِمَام أَحْمد

[٢٤٦٣] – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١١)

وَمَعْلُوم أَن الْجِهَاد الَّذِي يكون فِيهِ الْإِنْسَان طَالبا مَطْلُوبا أوجب من هَذَا الْجِهَاد الَّذِي هُوَ فِيهِ طَالب لَا مَطْلُوب والنفوس فِيهِ أَرغب من الْوَجْهَيْنِ

وَأما جِهَاد الطّلب الْخَالِص فَلَا يرغب فِيهِ إِلَّا أحد رجلَيْن إِمَّا عَظِيم الْإِيمَان يُقَاتل لتكون كلمة الله هِيَ الْعليا وَيكون الدّين كُله لله وَإِمَّا رَاغِب فِي الْمغنم والسبي

فجهاد الدّفع يَقْصِدهُ كل أحد وَلَا يرغب عَنهُ إِلَّا الجبان المذموم شرعا وعقلا وَجِهَاد الطّلب الْخَالِص لله يَقْصِدهُ سَادَات الْمُؤمنِينَ وَأما الْجِهَاد الَّذِي يكون فِيهِ طَالبا مَطْلُوبا فَهَذَا يَقْصِدهُ خِيَار النَّاس لإعلاء كلمة الله وَدينه ويقصده أوساطهم للدَّفْع ولمحبة الظفر[٢٤٦٤].

المبحث الخامس

أنواع الجهاد في سبيل الله

١ – جهاد ضد الكفار والمشركين:

وهو أمر لازم لحفظ المسلمين من شرهم،ولازم لنشر الإسلام بينهم،ويخيرون فيه على الترتيب بين الإسلام،أو دفع الجزية،أو القتال.

قال الله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)} [التوبة:٢٩].

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ

[٢٤٦٤] – الفروسية (ص:١٨٧)

مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا» أخرجه مسلم[٢٤٦٥].

(قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا أَمَّرَ):بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ ؛ أَيْ:جَعَلَ أَحَدًا (أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ):أَيْ:ذَلِكَ الْأَمِيرَ (فِي خَاصَّتِهِ):أَيْ:فِي حَقِّ نَفْسِهِ خُصُوصًا وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ:(بِتَقْوَى اللَّهِ):وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَوْصَاهُ،وَقَوْلُهُ:(وَمَنْ مَعَهُ):مَعْطُوفٌ عَلَى خَاصَّتِهِ ؛ أَيْ:وَفِيمَنْ مَعَهُ (مِنَ الْمُسْلِمِينَ):وَقَوْلُهُ:(خَيْرًا):نُصِبَ عَلَى انْتِزَاعِ الْخَافِضِ ؛ أَيْ:بِخَيْرٍ:قَالَ الطِّيبِيُّ:وَمِنْ مَحَلِّ الْجَرِّ،وَهُوَ مِنْ بَابِ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ،كَأَنَّهُ قِيلَ:أَوْصَى بِتَقْوَى اللَّهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ،وَأَوْصَى بِخَيْرٍ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَفِي اخْتِصَاصِ التَّقْوَى بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ،وَالْخَيْرِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ

[٢٤٦٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

يُشَدِّدَ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ،وَأَنْ يُسَهِّلَ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَرْفُقَ بِهِمْ،كَمَا وَرَدَ:«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا» .(ثُمَّ قَالَ:اغْزُوَا بِسْمِ اللَّهِ):أَيْ:مُسْتَعِينِينَ بِذِكْرِهِ (فِي سَبِيلِ اللَّهِ):أَيْ:لِأَجْلِ مَرْضَاتِهِ وَإِعْلَاءِ دِينِهِ (قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ):جُمْلَةٌ مُوَضِّحَةٌ لِاغْزُوا،وَأَعَادَ قَوْلَهُ:اغْزُوَا لِيُعْقِبَهُ بِالْمَذْكُورَاتِ بَعْدَهُ،(فَلَا تَغُلُّوا):بِالْفَاءِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالْوَاوِ،وَهُوَ بِضَمِّ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ ؛ أَيْ:لَا تَخُونُوا فِي الْغَنِيمَةِ (وَلَا تَغْدِرُوا):بِكَسْرِ الدَّالِ ؛ أَيْ:لَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ،وَقِيلَ:لَا تُحَارِبُوهُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ (وَلَا تَمْثُلُوا):بِضَمِّ الْمُثَلَّثَةِ وَفِي نُسْخَةٍ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ،فَفِي تَهْذِيبِ النَّوَوِيِّ مَثَلَ بِهِ يَمْثُلُ كَقَتَلَ إِذَا قَطَعَ أَطْرَافَهُ،وَفِي الْقَامُوسِ:مَثَلَ بِفُلَانٍ مُثْلَةً بِالضَّمِّ،نَكَّلَ كَمَثَّلَ تَمْثِيلًا،وَفِي الْفَائِقِ:إِذَا سَوَّدْتَ وَجْهَهُ،أَوْ قَطَعْتَ أَنْفَهُ وَنَحْوَهُ.قَالَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ:وَالْمُثْلَةُ الْمَرْوِيَّةُ فِي قِصَّةِ الْعُرَنِيِّينَ مَنْسُوخَةٌ بِالنَّهْيِ الْمُتَأَخِّرِ،وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:«مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَعْدَ ذَلِكَ خُطْبَةً إِلَّا وَنَهَى فِيهَا عَنِ الْمُثْلَةِ»،وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ مُسْلِمٍ:أَنَّهُ إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَعْيُنَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرُّعَاةِ.وَتَحْقِيقُ هَذَا الْمَبْحَثِ فِي شَرْحِ ابْنِ الْهُمَامِ.(«وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»):أَيْ:طِفْلًا صَغِيرًا.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَالصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ يُقْتَلَانِ فِي حَالِ قِتَالِهِمَا،وَكَذَا الصَّبِيُّ الْمَلِكُ وَالْمَعْتُوهُ الْمَلِكُ ؛ لِأَنَّ فِي قَتْلِ الْمَلِكِ كَسْرَ شَوْكَتِهِمْ،(وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ):الْخِطَابُ لِأَمِيرِ الْجَيْشِ،وَهُوَ نَظِيرُ:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق:١] قَالَ الطِّيبِيُّ:وَهُوَ مِنْ بَابِ تَلْوِينِ الْخِطَابِ خَاطَبَ أَوَّلًا عَامًّا،فَدَخَلَ فِيهِ الْأَمِيرُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا،ثُمَّ خَصَّ الْخِطَابَ بِهِ،فَدَخَلُوا فِيهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ} [الطلاق:١] خَصَّ النَّسَاءَ بِالنِّدَاءِ.(فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ):أَيْ:مُرَتَّبَةٍ (-،أَوْ خِلَالٍ -):شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي،وَالْخِصَالُ وَالْخِلَالُ بِكَسْرِهِمَا جَمْعُ الْخَصْلَةِ وَالْخَلَّةِ بِفَتْحِهِمَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ،(فَأَيَّتُهُنَّ):بِالرَّفْعِ وَالضَّمِيرُ لِلْخِصَالِ الْمَدْعُوَّةِ (مِمَّا أَجَابُوكَ):أَيْ:قَبِلُوهَا مِنْكَ،وَمَا:زَائِدَةٌ (فَاقْبَلْ مِنْهُمْ):جَزَاءُ الشَّرْطِ (وَكُفَّ):بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِ الْفَاءِ،وَيَجُوزُ ضَمُّهَا وَكَسْرُهَا ؛ أَيِ:امْتَنِعْ (عَنْهُمْ):أَيْ:فِي الْأُولَيَيْنِ (ثُمَّ ادْعُهُمْ):أَيْ:إِذَا عَرَفْتَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْخِصَالِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ،فَاعْلَمْ حُكْمَهَا عَلَى

طَرِيقِ التَّفْصِيلِ فَادْعُهُمْ ؛ أَيْ:أَوَّلًا (إِلَى الْإِسْلَامِ):قَالَ النَّوَوِيُّ:هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ نُسَخِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ،ثُمَّ ادْعُهُمْ.قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:الصَّوَابُ رِوَايَةُ ادْعُهُمْ بِإِسْقَاطِ،ثُمَّ،وَقَدْ جَاءَ بِإِسْقَاطِهَا عَلَى الصَّوَابِ فِي كِتَابِ أَبِي عُبَيْدٍ،وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمَا:لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلْخِصَالِ الثَّلَاثِ وَلَيْسَتْ غَيْرَهَا.وَقَالَ الْمَازِرِيُّ:ثُمَّ هُنَا زَائِدَةٌ وَرَدَتْ لِافْتِتَاحِ الْكَلَامِ وَالْأَخْذِ فِيهِ.(فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ):أَيْ:الِانْتِقَالُ (مِنْ دَارِهِمْ):أَيْ:مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ (إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ):أَيْ:إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ،وَهَذَا مِنْ تَوَابِعِ الْخَصْلَةِ الْأُولَى،بَلْ قِيلَ:إِنَّ الْهِجْرَةَ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ،(وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ):أَيِ:التَّحَوُّلَ (فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ:أَيْ:مِنَ الثَّوَابِ وَاسْتِحْقَاقِ مَالِ الْفَيْءِ،وَذَلِكَ الِاسْتِحْقَاقُ كَانَ فِي زَمَنِهِ - ﷺ -،فَإِنَّهُ كَانَ يُنْفِقُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ مِنْ حِينِ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَمَرَهُمُ الْإِمَامُ،سَوَاءٌ كَانَ مَنْ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ كَافِيًا أَوْ لَا،بِخِلَافِ غَيْرِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ إِلَى الْجِهَادِ إِنْ كَانَ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ مَنْ بِهِ الْكِفَايَةُ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ:(وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ:أَيْ:مِنَ الْغَزْوِ (فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا):أَيْ:مِنْ دَارِهِمْ (فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ):أَيِ:الَّذِينَ لَازَمُوا أَوْطَانَهُمْ فِي الْبَادِيَةِ لَا فِي دَارِ الْكُفْرِ (يُجْرَى):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْمَعْلُومِ ؛ أَيْ:يُمْضَى (عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يُجْرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ):أَيْ:مِنْ وُجُوبِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهِمَا وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَةِ وَنَحْوِهِمَا (وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا):مِنْ بَابِ مَا أُضْمِرَ عَامِلُهُ عَلَى شَرِيطَةِ التَّفْسِيرِ،وَهُوَ يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ وَالتَّقْدِيرُ لِتَكْرِيرِ الْإِسْنَادِ فِي التَّعْبِيرِ ؛ أَيْ:فَإِنِ امْتَنَعُوا عَنِ الْإِسْلَامِ (فَسَلْهُمْ):بِالْهَمْزِ وَالنَّقْلِ ؛ أَيْ:فَاطْلُبْ مِنْهُمُ (الْجِزْيَةَ):وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْخَصْلَةِ الثَّانِيَةِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ:فِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ.مِنْهَا:أَنَّهُ لَا يُعْطَى الْفَيْءُ وَالْغَنِيمَةُ لِأَهْلِ الصَّدَقَاتِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَمْ يَتَحَوَّلُوا وَكَانُوا فُقَرَاءَ مَسَاكِينَ،وَلَا تُعْطَى الصَّدَقَاتُ لِأَهْلِ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ.وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ:الْمَالَانِ سَوَاءٌ يَجُوزُ صَرْفُ كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى النَّوْعَيْنِ،وَالْحَدِيثُ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ،وَمَنْ وَافَقَهُمَا عَلَى جَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ

مِنْ كُلِّ كَافِرٍ عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ عَجَمِيًّا،كِتَابِيًّا أَوْ غَيْرَ كِتَابِيٍّ،وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ إِلَّا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمَجُوسِهِمْ،وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لَا تُقْبَلُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ أَعْرَابًا كَانُوا أَوْ أَعَاجِمَ،وَيَحْتَجُّ بِمَفْهُومِ الْآيَةِ،وَبِحَدِيثِ:سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَتَأَوَّلَ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْمُشْرِكِ يُطْلَقُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ،وَكَانَ تَخْصِيصُهُ مَعْلُومًا عِنْدَ الصَّحَابَةِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَهَذَا إِنْ لَمْ يَكُونُوا مُرْتَدِّينَ وَلَا مُشْرِكِي الْعَرَبِ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ،أَوِ السَّيْفُ عَلَى مَا سَيَتَّضِحُ،(فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ):أَيْ:قَبِلُوا بَذْلَ الْجِزْيَةِ،وَكَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْإِعْطَاءِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ بِالْإِجْمَاعِ (فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ):فِي الْهِدَايَةِ،قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّمَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ دِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا وَأَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا.

قَالَ:وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ،بَلْ هُوَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ،وَمَعْنَى حَدِيثِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ فِي مَسْنَدِهِ،أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيُّ،أَنْبَأَنَا قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ الْأَسَدِيُّ،عَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبَ،عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَيْمُونٍ،عَنْ أَبِي الْجَنُوبِ قَالَ:قَالَ عَلِيٌّ:مَنْ كَانَتْ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدَمِنَا وَدِيَتُهُ كَدِيَتِنَا،وَضَعَّفَ الطَّبَرَانِيُّ أَبَا الْجَنُوبِ،(فَإِنْ هُمْ أَبَوْا):أَيْ:عَنْ قَبُولِ الْجِزْيَةِ (فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ):إِشَارَةٌ إِلَى الْخَصْلَةِ الثَّالِثَةِ (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ):أَيْ:مِنَ الْكُفَّارِ (فَأَرَادُوكَ) ؛ أَيْ طَلَبُوا مِنْكَ (أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) ؛ أَيْ:عَهْدَهُمَا وَأَيْمَانَهُمَا (فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ):أَيْ:بِالِاجْتِمَاعِ وَلَا بِالِانْفِرَادِ (وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ):وَهُوَ بِالْخِطَابِ عَلَى مَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،وَكِتَابِ الْحُمَيْدِيِّ،وَجَامِعِ الْأُصُولِ،وَوَقَعَ فِي نُسَخِ الْمَصَابِيحِ:فَإِنَّهُمْ بِالْغَيْبَةِ (أَنْ تُخْفِرُوا):مِنَ الْإِخْفَارِ ؛ أَيْ:تَنْقُضُوا (ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ):وَالظَّاهِرُ أَنَّ " أَنْ " بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ كَمَا فِي نُسَخِ الْمَصَابِيحِ،وَأَنَّ مَعَ صِلَتِهَا فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ وَخَبَرُ إِنَّ قَوْلُهُ:(أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ):وَقَدْ وَقَعَ فِي نُسْخَةٍ " إِنْ " بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الشَّرْطِ وَهُوَ مُشْكِلٌ،كَذَا فِي الْخُلَاصَةِ،وَلَعَلَّ وَجْهَ الْإِشْكَالِ أَنَّهُ حِينَئِذٍ أَهْوَنُ بِتَقْدِيرِ هُوَ جَزَاءُ الشَّرْطِ وَالْفَاءُ

لَازِمَهُ،وَيُمْكِنُ دَفْعُهُ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى الشُّذُوذِ كَقَوْلِهِ:مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا.ثُمَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَوْ نَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ تَدْرِ مَا تَصْنَعُ بِهِمْ،حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ بِـوَحْيٍ وَنَحْوِهِ فِيهِمْ،وَقَدْ يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ عَلَيْكَ لِسَبَبِ غَيْبَتِكَ وَبُعْدِكَ مِنْ مَهْبِطِ الْوَحْيِ،بِخِلَافِ مَا إِذَا نَقَضُوا عَهْدَكَ،فَإِنَّكَ إِذَا نَزَلْتَ عَلَيْهِمْ فَعَلْتَ بِهِمْ مِنْ قَـتْلِهِمْ،أَوْ ضَـرْبِ الْجِزْيَـةِ،أَوِ اسْتِرْقَاقِهِمْ،أَوِ الْمَنِّ،أَوِ الْفِدَاءِ بِحَسَبِ مَا تَرَى مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي حَقِّهِمْ.(«وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ»):أَيْ:وَلَا عَلَى حُكْمِ رَسُولِهِ لِمَا سَبَقَ وَلِقَوْلِهِ:(«وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَـدْرِي:أَتُصِـيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟»):زَادَ ابْنُ الْهُمَامِ وَفِي رِوَايَةٍ:ثُمَّ اقْضُوا فِيهِمْ بَعْدُ مَا شِئْتُمْ.قَـالَ النَّوَوِيُّ قَوْلُهُ:فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ نَهْيُ تَنْزِيهٍ،فَإِنَّهُ قَدْ يَنْقُضُهَا مَنْ لَـا يَعْـرِفُ حَقَّهَـا وَيَنْتَهِكُ حُرْمَتَهَا بَعْضُ الْأَعْرَابِ وَسَوَادُ الْجَيْشِ،وَكَذَا قَوْلُهُ:فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ نَهْيُ تَنْزِيهٍ،وَفِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ يَقُولُ:لَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبًا بَلِ الْمُصِيبُ وَاحِـدٌ،وَهُوَ الْمُوَافِـقُ لِحُكْمِ اللَّهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَمَنْ يَقُولُ:إِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ يَقُولُ:مَعْنَى قَوْلِهِ:فَإِنَّكَ لَـا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ.أَنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى وَحْيٍ بِخِلَافِ مَا حَكَمْتَ،كَمَا قَالَ - ﷺ - فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ مِنْ تَحْكِيمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي بَنِـي قُرَيْظَـةَ:" لَقَـدْ حَكَمْتَ لَهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ " وَهَذَا الْمَعْنَى مُنْتَفٍ بَعْدَ النَّبِيِّ - ﷺ -،فَيَكُونُ كُلُّ مُجْتَهِـدٍ مُصِيبًا اهـ.وَهُوَ مَذْهَبُ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَعْضِ أَهْلِ السُّنَّةِ."[٢٤٦٦]

قال ابن القيم:"وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْفِقْهِ.

مِنْهَا:وَصِيَّةُ الْإِمَامِ لِنُوَّابِهِ،وَأُمَرَائِهِ،وَوُلَاتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ،وَالْإِحْسَانِ إِلَى الرَّعِيَّةِ فَبِهَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ يُحْفَظُ عَلَى الْأَمِيرِ مَنْصِبُهُ،وَتَقَرُّ عَيْنُهُ بِهِ وَيَأْمَنُ فِيهِ مِنَ النَّكَبَاتِ وَالْغِيَرِ،وَمَتَى تَرَكَ هَـذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْلُبَهُ اللَّهُ عِزَّهُ،وَيَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِلنَّاسِ فَمَا إِنْ سُلِبَتِ النِّعَمُ إِلَّا بِتَرْكِ تَقْوَى اللَّهِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَى النَّاسِ.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْجَيْشَ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغُلُّوا مِنَ الْغَنِيمَةِ،وَلَا يَغْدِرُوا بِالْعَهْدِ،وَلَا يُمَثِّلُوا بِالْكُفَّارِ،وَلَا يَقْتُلُوا مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ.

[٢٤٦٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٨)

وَمِنْهَا:أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَدْعُونَ الْكُفَّارَ - قَبْلَ قِتَالِهِمْ - إِلَى الْإِسْلَامِ،وَهَذَا وَاجِبٌ إِنْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ لَمْ تَبْلُغْهُمْ،وَمُسْتَحَبٌّ إِنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ،هَذَا إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمُ الْقَاصِدِينَ لِلْكُفَّارِ،فَأَمَّا إِذَا قَصَدَهُمُ الْكُفَّارُ فِي دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ لِأَنَّهُمْ يَدْفَعُونَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَحَرِيمِهِمْ.

وَمِنْهَا:إِلْزَامُهُمْ بِالتَّحَوُّلِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ إِذَا كَانُوا مُقِيمِينَ بَيْنَ الْكُفَّارِ،فَإِنْ أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ وَصَارَتِ الدَّارُ دَارَ الْإِسْلَامِ لَمْ يُلْزَمُوا بِالتَّحَوُّلِ مِنْهَا بَلْ يُقِيمُونَ فِي دِيَارِهِمْ،وَكَانَتْ دَارُ الْهِجْرَةِ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - هِيَ دَارَ الْإِسْلَامِ،فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ صَارَتِ الْبِلَادُ الَّتِي أَسْلَمَ أَهْلُهَا بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا يَلْزَمُهُمُ الِانْتِقَالُ مِنْهَا.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْأَعْرَابَ لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنَائِمِ مَا لَمْ يُقَاتِلُوا،فَإِذَا قَاتَلُوا اسْتَحَقُّوا مِنَ الْغَنِيمَةِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ وَأَمَّا الْأَعْرَابُ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنِيمَةِ.

وَمِنْهَا:أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ هَذَا ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْهُ كَافِرًا مِنْ كَافِرٍ.

وَلَا يُقَالُ:هَذَا مَخْصُوصٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً،فَإِنَّ اللَّفْظَ يَأْبَى اخْتِصَاصَهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ،وَأَيْضًا فَسَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَجُيُوشُهُ أَكْثَرُ مَا كَانَتْ تُقَاتِلُ عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ مِنَ الْعَرَبِ.

وَلَا يُقَالُ:إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِهَا بِأَهْلِ الْكِتَابِ،فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ،وَالنَّبِيُّ - ﷺ - أُمِرَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ،فَيُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ وَمِنْ عُمُومِ الْكُفَّارِ بِالسُّنَّةِ،وَقَدْ أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنَ الْمَجُوسِ وَهُمْ عُبَّادُ النَّارِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ،وَلَا يَصِحُّ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ،وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ عِنْدَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ - ﷺ -:" «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» " بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ،وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ،وَذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ وَالشَّرَائِعَ الْعِظَامَ وَلَمْ

يَذْكُرْ لِلْمَجُوسِ – مَعَ أَنَّهَا أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمَمِ شَوْكَةً وَعَدَدًا وَبَأْسًا – كِتَابًا وَلَا نَبِيًّا،وَلَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بَلِ الْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ كَمَا تَقَدَّمَ،فَإِذَا أُخِذَتْ مِنْ عُبَّادِ النِّيرَانِ فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ؟

فَإِنْ قِيلَ:فَالنَّبِيُّ – ﷺ – لَمْ يَأْخُذْهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ مَعَ كَثْرَةِ قِتَالِهِ لَهُمْ.

قِيلَ:أَجَلْ وَذَلِكَ لِأَنَّ آيَةَ الْجِزْيَةِ إِنَّمَا نَزَلَتْ عَامَ " تَبُوكَ " فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَلَمْ يَبْقَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ،فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْجِزْيَةِ أَخَذَهَا النَّبِيُّ – ﷺ – مِمَّنْ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَلِهَذَا لَمْ يَأْخُذْهَا مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَا مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ لِأَنَّهُ صَالَحَهُمْ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْجِزْيَةِ.[2467]

٢ – جهاد ضد المرتدين عن الإسلام:

ويخيرون على الترتيب بين العودة إلى الإسلام،أو القتال.فعَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،حَرَّقَ قَوْمًا،فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»،وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» أخرجه البخاري[2468].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامِي فِيكُمْ،فَقَالَ:" وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ،لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ،إِلَّا أَحَدَ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ:النَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالثَّيِّبُ الزَّانِ،وَالْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ،التَّارِكُ لِدِينِهِ"وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ:أَوْ قَالَ:«التَّارِكُ لِلْإِسْلَامِ»[2469]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ،يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ:الثَّيِّبُ الزَّانِي،وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ،وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ "[2470]

[2467] – أحكام أهل الذمة (١/ ٨٨)

[2468] – صحيح البخاري (٤/ ٦٢)(٣٠١٧)

[2469] – الفتن لنعيم بن حماد (١/ ١٦٢)(٤١٥) صحيح

[2470] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٢)٢٥ – (١٦٧٦)

قال ابن رجب:"وَأَمَّا التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ،فَالْمُرَادُ بِهِ مَنْ تَرَكَ الْإِسْلَامَ،وَارْتَدَّ عَنْهُ،وَفَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،كَمَا جَاءَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ عُثْمَانَ،وَإِنَّمَا اسْتَثْنَاهُ مَعَ مَنْ يَحِلُّ دَمُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَتَيْنِ بِاعْتِبَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الرِّدَّةِ وَحُكْمُ الْإِسْلَامِ لَازِمٌ لَهُ بَعْدَهَا،وَلِهَذَا يُسْتَتَابُ،وَيُطْلَبُ مِنْهُ الْعَوْدُ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَفِي إِلْزَامِهِ بِقَضَاءِ مَا فَاتَهُ فِي زَمَنِ الرِّدَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ اخْتِلَافٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

وَأَيْضًا فَقَدْ يَتْرُكُ دِينَهُ،وَيُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ،وَهُوَ مُقِرٌّ بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَيَدَّعِي الْإِسْلَامَ،كَمَا إِذَا جَحَدَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ،أَوْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،أَوْ كَفَرَ بِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ أَوِ النَّبِيِّينَ أَوِ الْكُتُبِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مَعَ الْعِلْمِ بِذَلِكَ،وَفِي"صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ"عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

وَلَا فَرْقَ فِي هَذَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ،وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:لَا تُقْتَلُ الْمَرْأَةُ إِذَا ارْتَدَّتْ كَمَا لَا تُقْتَلُ نِسَاءُ أَهْلِ الْحَرْبِ فِي الْحَرْبِ،وَإِنَّمَا تُقْتَلُ رِجَالُهُمْ،وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ،وَجَعَلُوا الْكُفْرَ الطَّارِئَ كَالْأَصْلِيِّ،وَالْجُمْهُورُ فَرَّقُوا بَيْنَهُمَا،وَجَعَلُوا الطَّارِئَ أَغْلَظَ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ،وَلِهَذَا يُقْتَلُ بِالرِّدَّةِ عَنْهُ مَنْ لَا يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ،كَالشَّيْخِ الْفَانِي وَالزَّمِنِ وَالْأَعْمَى،وَلَا يُقْتَلُونَ فِي الْحَرْبِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ:" «التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»"يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ تَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ،لَمْ يُقْتَلْ،لِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَارِكٍ لِدِينِهِ بَعْدَ رُجُوعِهِ،وَلَا مُفَارِقٍ لِلْجَمَاعَةِ.

فَإِنْ قِيلَ:بَلِ اسْتِثْنَاءُ هَذَا مِمَّنْ يَعْصِمُ دَمَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَتَيْنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَوْ كَانَ مُقِرًّا بِالشَّهَادَتَيْنِ،كَمَا يُقْتَلُ الزَّانِي الْمُحْصَنُ،وَقَاتِلُ النَّفْسِ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ،كَمَا حُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ،أَوْ أَنْ يُحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى مَنِ ارْتَدَّ مِمَّنْ وُلِدَ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنَّهُ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ،وَإِنَّمَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ كَانَ كَافِرًا،ثُمَّ أَسْلَمَ،ثُمَّ ارْتَدَّ عَلَى قَوْلِ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ،مِنْهُمُ:اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ،وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ،وَإِسْحَاقُ،قِيلَ:إِنَّمَا اسْتَثْنَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِاعْتِبَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ مُفَارَقَةِ دِينِهِ كَمَا سَبَقَ تَقْرِيرُهُ،وَلَيْسَ هَذَا كَالثَّيِّبِ الزَّانِي،وَقَاتِلِ النَّفْسِ،لِأَنَّ قَتْلَهُمَا وَجَبَ عُقُوبَةً لِجَرِيمَتِهِمَا الْمَاضِيَةِ،وَلَا يُمْكِنُ تَلَافِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمُرْتَدُّ،فَإِنَّمَا قُتِلَ لِوَصْفٍ قَائِمٍ بِهِ فِي الْحَالِ،وَهُوَ تَرْكُ دِينِهِ وَمُفَارَقَةُ الْجَمَاعَةِ،فَإِذَا عَادَ إِلَى دِينِهِ،وَإِلَى مُوَافَقَةِ الْجَمَاعَةِ،فَالْوَصْفُ الَّذِي أُبِيحَ بِهِ دَمُهُ قَدِ انْتَفَى،فَتَزُولُ إِبَاحَةُ دَمِهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ."[٢٤٧١]

وقال الصنعاني:" الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ قَتْلُ الْمُرْتَدِّ،وَهُوَ إجْمَاعٌ،وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخِلَافُ هَلْ تَجِبُ اسْتِتَابَتُهُ قَبْلَ قَتْلِهِ،أَوْ لَا؟ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى وُجُوبِ الاسْتِتَابَةِ لِمَا فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُد هَذِهِ وَلَهُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فَدَعَاهُ أَبُو مُوسَى عِشْرِينَ لَيْلَةً،أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا وَجَاءَ مُعَاذٌ فَدَعَاهُ فَأَبَى فَضَرَبَ عُنُقَهُ.

وَذَهَبَ الْحَسَنُ وَطَاوُسٌ وَأَهْلُ الظَّاهِرِ وَآخَرُونَ إلَى عَدَمِ وُجُوبِ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّ،وَأَنَّهُ يُقْتَلُ فِي الْحَالِ مُسْتَدِلِّينَ بِقَوْلِهِ - ﷺ - «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» يَعْنِي وَالْفَاءُ تُفِيدُ التَّعْقِيبَ كَمَا لَا يَخْفَى،وَلِأَنَّ حُكْمَ الْمُرْتَدِّ حُكْمُ الْحَرْبِيِّ الَّذِي بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ،فَإِنَّهُ يُقَاتَلُ مِنْ دُونِ أَنْ يُدْعَى قَالُوا:وَإِنَّمَا شُرِعَتْ الدَّعْوَةُ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الْإِسْلَامِ لَا عَنْ بَصِيرَةٍ.وَأَمَّا مَنْ خَرَجَ عَنْ بَصِيرَةٍ فَلَا."[٢٤٧٢]

وقال القاري:" قَالَ الْقَاضِي:الزِّنْدِيقُ قَوْمٌ مِنَ الْمَجُوسِ وَيُقَالُ لَهُمْ:الثَّنَوِيَّةُ يَقُولُونَ بِمَبْدَأَيْنِ أَحَدُهُمَا النُّورُ وَهُوَ مَبْدَأُ الْخَيْرَاتِ وَالثَّانِي الظُّلْمَةُ وَهُوَ مَبْدَأُ الشُّرُورِ،وَيُقَالُ:إِنَّهُ مُعَرَّبٌ مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّنْدِ وَهُوَ كِتَابٌ بِالْفَهْلَوِيَّةِ كَانَ لِزَرَادِشْتَ الْمَجُوسِيِّ ثُمَّ اسْتُعْمِلَ لِكُلِّ مُلْحِدٍ فِي الدِّينِ،وَالْجَمْعُ زَنَادِقَةٌ وَالْهَاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ الْيَاءِ الْمَحْذُوفَةِ فَإِنَّ أَصْلَهُ زَنَادِيقُ وَالْمُرَادُ بِهِ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ لِمَا أَوْرَدَ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابٍ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحْرَقَ نَاسًا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَقِيلَ:قَوْمٌ مِنَ السَّابِئَةِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ ابْتِغَاءً لِلْفِتْنَةِ وَتَضْلِيلًا لِلْأُمَّةِ فَسَعَى أَوَّلًا فِي إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ عَلَى عُثْمَانَ حَتَّى جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى ثُمَّ انْضَوَى إِلَى الشِّيعَةِ فَأَخَذَ فِي تَضْلِيلِ جُهَّالِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الْمَعْبُودُ فَعَلِمَ بِذَلِكَ عَلِيٌّ فَأَخَذَهُمْ وَاسْتَتَابَهُمْ فَلَمْ يَتُوبُوا فَحَفَرَ لَهُمْ حُفَرًا وَأَشْعَلَ النَّارَ فِيهَا ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُرْمَى بِهِمْ فِيهَا،وَالْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ وَإِنْ نُهِيَ عَنْهُ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ

[٢٤٧١] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٣١٨)

[٢٤٧٢] - سبل السلام (٢/ ٣٨٣)

عَبَّاسٍ لَكِنْ جُوِّزَ لِلتَّشْدِيدِ بِالْكُفَّارِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي النِّكَايَةِ وَالنَّكَالِ كَالْمُثْلَةِ (وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ) قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَقَتَلْتُهُمْ عَطْفٌ عَلَى جَوَابِ لَوْ وَلَوْ يُـؤْتَ بِاللَّامِ فِي الثَّانِي وَعُزِلَ عَنِ الْأَوَّلِ لِمَا أَنَّ الْجَوَابَ مَنْفِيٌّ بِلَمْ وَهِيَ مَانِعَةٌ لِدُخُولِهَا،أَوْ لِـأَنَّ هَذِهِ اللَّامَ تُفِيدُ مَعْنَى التَّوْكِيدِ لَا مَحَالَةَ فَأُدْخِلُ فِي الثَّانِي ؛ لِأَنَّ الْقَتْلَ أَهَمُّ وَأَحْـرَى مِـنْ غَيْرِهِ لِوُرُودِ النَّصِّ أَنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّهُ أَشَدُّ الْعَذَابِ وَلِـذَلِكَ أَوْعَـدَ بِهَـا الْكُفَّارَ،وَالِاجْتِهَادُ يَضْمَحِلُّ عِنْدَهُ،وَلَعَلَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَقِـفْ عَلَيْـهِ وَاجْتَهَـدَ حِينَئِذٍ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَنْ رَأْيٍ وَاجْتِهَادٍ لَا عَنْ تَوْقِيفٍ وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمُ الْحَدِيثَ قَالَ:وَيْحَ أُمِّ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَرَدَ مَوْرِدَ الْمَدْحِ وَالْإِعْجَابِ بِقَوْلِهِ وَيَنْصُرُهُ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَـنْ شَرْحِ السُّنَّةِ:فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا فَقَالَ:صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ....

وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ:اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ وَهُوَ الَّـذِي يُنْكِـرُ الشَّرْعَ فَذَكَرُوا فِيهِ خَمْسَةَ أَوْجُهٍ أَصَحُّهَا،وَالْأَصْوَبُ مِنْهَا قَبُولُهَـا مُطْلَقًـا لِلْأَحَادِيـثِ الصَّحِيحَةِ الْمُطْلَقَةِ،وَالثَّانِي لَا يُقْبَلُ وَيَتَحَتَّمُ قَتْلُهُ لَكِنَّهُ إِنْ صَدَقَ فِي تَوْبَتِهِ نَفَعَهُ ذَلِكَ فِـي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،وَالثَّالِثُ ارْتَابَ مَرَّةً وَاحِدَةً قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ فَإِنْ تَكَرَّرَ مِنْـهُ ذَلِكَ لَمْ تُقْبَلْ،وَالرَّابِعُ إِنْ أَسْلَمَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ قُبِلَ مِنْهُ،وَإِنْ كَانَ تَحْتَ السَّيْفِ فَلَـا وَالْخَامِسُ إِنْ كَانَ دَاعِيًا إِلَى الضَّلَالِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَإِلَّا قُبِلَ مِنْهُ،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.[٢٤٧٣]

٣ – جهاد ضد البغاة:

وهم الذين يخرجون على إمام المسلمين،ويثيرون الفتنة،فإن رجعوا وإلا قاتلهم،لتخمـد فتنتهم.قال الله تعالى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَـا فَـإِنْ بَغَـتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَـاءَتْ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)} [الحُجُرات:٩].

[٢٤٧٣] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٩) وانظر نيل الأوطار (٧/ ٢٣٠) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٥/ ٢٣٥) و(٢٢/ ١٩٤)

وإذَا اقْتَتَلَتْ طَائفتَان منَ الْمُؤْمنينَ فَأصلحُوا – يا أيُّها الْمُؤْمنُونَ – بَينَهما بالعَـدْل،وذَلكَ بالدَّعْوة إلى حُكْمِ الله،وَالرِّضَا بمَا فيه،فإذا أبَتْ إحْدَى هَاتين الطَّائفَتَين الإجَابَةَ إلى حُكْمِ الله،وَتَجَاوَزَتْ حُدُودَ العَدْل،وأجَابت الاخرى،فَقَاتلُوا التي تَعْتَدي وَتأبى الإجَابَةَ إلى حُكْمُ الله،حَتَّى تَرْجعَ إليه وَتَخْضَعَ لَهُ،فَإنْ رَجَعَت الطَّائفَةُ البَاغيةُ إلى الرِّضا بحُكْم الله،فَأصْلحُوا بَينَهما بالعَدْل،وَاعْدلُوا في حُكْمكُم فإنَّ اللهَ يُحبُّ العَادلينَ،وَيَجزيهْم أحْسَنَ الجَزَاء.[٢٤٧٤]

قال القرطبي:" فَأَصْلحُوا بَيْنَهُما" بالدُّعَاء إلَى كتَاب اللَّه لَهُمَا أَوْ عَلَيْهمَا." فَـإنْ بَغَـتْ إحْداهُما عَلَى الْأُخْرى"تَعَدَّتْ وَلَمْ تُجبْ إلَى حُكْم اللَّـه وَكتَابـه.وَالْبَغْـيُ:التَّطَـاوُلُ وَالْفَسَادُ." فقاتلُوا الَّتي تَبْغي حَتَّى تَفيءَ إلى أَمْر اللَّه" أَيْ تَرْجعَ إلَى كتَابه." فَإنْ فـاءَتْ" رَجعَتْ" فَأَصْلحُوا بَيْنَهُما بالْعَدْل" أَي احْملُوهُمَا عَلَى الانصاف." وَأَقْسطُوا" أيها الناس فلا تقتتلوا.قيل:أَقْسطُوا أَي اعْدلُوا." إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ" أي العادلين المحقين.

قَالَ الْعُلَمَاءُ:لَا تَخْلُو الْفئَتَان منَ الْمُسْلمينَ في اقْتتَالهمَا،إمَّا أَنْ يَقْتَتلَا عَلَى سبيل البغـي منهما جميعا أولا.فَإنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَالْوَاجبُ في ذَلكَ أَنْ يُمْشَى بَيْنَهُمَا بمَا يُصْـلحُ ذَاتَ الْبَيْن وَيُثَمِّرُ الْمُكَافَّةَ وَالْمُوَادَعَةَ.فَإنْ لَمْ يَتَحَاجَزَا وَلَمْ يَصْطَلحَا وَأَقَامَتَا عَلَى الْبَغْي صيرَ إلَى مُقَاتَلَتهمَا.وَأَمَّا إنْ كَانَ الثَّاني وَهُوَ أَنْ تَكُونَ إحْدَاهُمَا بَاغيَةً عَلَى الْأُخْرَى،فَالْوَاجـبُ أَنْ تُقَاتَلَ فئَةُ الْبَغْي إلَى أَنْ تَكُفَّ وَتَتُوبَ،فَإنْ فَعَلَتْ أُصْلحَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَبْغيِّ عَلَيْهَا بالْقسْط وَالْعَدْل.فَإن الْتَحَمَ الْقتَالُ بَيْنَهُمَا لشُبْهَة دَخَلَتْ عَلَيْهمَـا وَكلْتَاهُمَـا عنْـدَ أَنْفُسـهمَا مُحقَّةٌ،فَالْوَاجبُ إزَالَةُ الشُّبْهَة بالْحُجَّة النَّيِّرَة وَالْبَرَاهين الْقَاطعَة عَلَى مَرَاشد الْحَـقِّ.فَـإنْ رَكبَتَا مَتْنَ اللَّجَاج وَلَمْ تَعْمَلَا عَلَى شَاكلَة مَا هُديَتَا إلَيْه وَنُصحَتَا به منَ اتِّبَاع الْحَقِّ بَعْـدَ وُضُوحه لَهُمَا فَقَدْ لَحقَتَا بالفئتين الباغيتين.والله أعلم

في هَذه الْآيَةُ دَليلٌ عَلَى وُجُوب قتَال الْفئَة الْبَاغيَة الْمَعْلُومُ بَغْيُهَا عَلَى الْإمَام أَوْ عَلَى أَحَدٍ منَ الْمُسْلمينَ.وَعَلَى فَسَاد قَوْل مَنْ مَنَعَ منْ قتَال الْمُؤْمنينَ،وَاحْتَجَّ بقَوْله عَلَيْه السَّـلَامُ:] قتَالُ الْمُؤْمن كُفْرٌ [.وَلَوْ كَانَ قتَالُ الْمُؤْمن الْبَاغي كُفْرًا لَكَانَ اللَّـهُ تَعَـالَى قَـدْ أَمَـرَ بالْكُفْر،تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلكَ! وَقَدْ قَاتَلَ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ تَمَسَّكَ بالْإسْلَام وَامْتَنَعَ

[٢٤٧٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

مِنَ الزَّكَاةِ،وَأَمَرَ أَلَّا يُتْبَعَ مُوَلٍّ،وَلَا يُجْهَزَ عَلَى جَرِيحٍ،وَلَمْ تُحَلَّ أَمْوَالُهُمْ،بِخِلَافِ الْوَاجِبِ فِي الْكُفَّارِ.وَقَالَ الطَّبَرِيُّ:لَوْ كَانَ الْوَاجِبُ فِي كُلِّ اخْتِلَافٍ يَكُونُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْهَرَبُ مِنْهُ وَلُزُومُ الْمَنَازِلِ لَمَا أُقِيمَ حَدٌّ وَلَا أُبْطِلَ بَاطِلٌ،وَلَوَجَدَ أَهْلُ النِّفَاقِ وَالْفُجُورِ سَبِيلًا إِلَى اسْتِحْلَالِ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ نِسَائِهِمْ وَسَفْكِ دِمَائِهِمْ،بِأَنْ يَتَحَزَّبُوا عَلَيْهِمْ،وَيَكُفَّ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُمْ،وَذَلِكَ مُخَالِفٌ لما جاء عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" خُذُوا عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ "[٢٤٧٥]

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ:هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْعُمْدَةُ فِي حَرْبِ الْمُتَأَوِّلِينَ،وَعَلَيْهَا عَوَّلَ الصَّحَابَةُ،وَإِلَيْهَا لَجَأَ الْأَعْيَانُ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ،...

قَوْلُهُ تَعَالَى:" فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ" أَمْرٌ بِالْقِتَالِ.وَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ،وَلِذَلِكَ تَخَلَّفَ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ،كَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ومحمد بن سلمة وَغَيْرِهِمْ.وَصَوَّبَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَهُمْ،وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُذْرٍ قَبِلَهُ،مِنْهُ....

قوله تَعَالَى:" فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ" وَمِنَ العدل في صلحهم ألا يطالبون بِمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ دَمٍ وَلَا مَالٍ،فَإِنَّهُ تَلَفٌ عَلَى تَأْوِيلٍ.وَفِي طَلَبِهِمْ تَنْفِيرٌ لَهُمْ عَنِ الصُّلْحِ وَاسْتِشْرَاءٌ فِي الْبَغْيِ.وَهَذَا أَصْلٌ فِي الْمَصْلَحَةِ.وَقَدْ قَالَ لِسَانُ الْأُمَّةِ:إِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَرْبِ الصَّحَابَةِ التَّعْرِيفُ مِنْهُمْ لِأَحْكَامِ قِتَالِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ،إِذْ كَانَ أَحْكَامُ قِتَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ قَدْ عُرِفَتْ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ ﷺ وفعله.

وإِذَا خَرَجَتْ عَلَى الْإِمَامِ الْعَدْلِ خَارِجَةٌ بَاغِيَةٌ وَلَا حُجَّةَ لَهَا،قَاتَلَهُمُ الْإِمَامُ بِالْمُسْلِمِينَ كافة أو بمن فيه الكفاية،وَيَدْعُوهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى الطَّاعَةِ وَالدُّخُولِ في الجماعة،فإن أبوا امن الرُّجُوعِ وَالصُّلْحِ قُوتِلُوا.وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهُمْ وَلَا يُتْبَعُ مُدْبِرُهُمْ وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَلَا تُسْبَى ذَرَارِيهِمْ وَلَا أَمْوَالُهُمُ.وَإِذَا قَتَلَ الْعَادِلُ الْبَاغِيَ أَوِ الْبَاغِي الْعَادِلَ وَهُوَ وَلِيُّهُ لَمْ يَتَوَارَثَا.وَلَا يَرِثُ قَاتِلٌ عَمْدًا عَلَى حَالٍ.وَقِيلَ:إِنَّ الْعَادِلَ يَرِثُ الْبَاغِيَ،قِيَاسًا عَلَى الْقِصَاصِ.

[٢٤٧٥] - شعب الإيمان (١٠/ ٦٦)(٧١٧٠) حسن

وَمَا اسْتَهْلَكَهُ الْبُغَاةُ وَالْخَوَارِجُ مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ ثُمَّ تَابُوا لَمْ يُؤَاخَذُوا بِهِ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:يَضْمَنُونَ.وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَان.وَجْهُ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ إِتْلَافٌ بِعُدْوَان فَيَلْزَمُ الضَّمَانُ.وَالْمُعَوِّلُ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ لَمْ يَتْبَعُوا مُدْبِرًا وَلَا ذَفَّفُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلَا قَتَلُوا أَسِيرًا وَلَا ضَمِنُوا نَفْسًا وَلَا مَالًا،وَهُمُ الْقُدْوَةُ.وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:] يَا عَبْدَ اللَّه أَتَدْرِي كَيْفَ حُكْمُ اللَّه فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِه الْأُمَّة [؟ قَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.فَقَالَ:] لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهَا ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها [.فَأَمَّا مَا كَانَ قَائِمًا رُدَّ بِعَيْنِه.هَذَا كُلُّهُ فِيمَنْ خَرَجَ بِتَأْوِيلٍ يُسَوِّغُ لَهُ.وَذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِه:إِنْ كَانَت الْبَاغِيَةُ مِنْ قِلَّةَ الْعَدَد بِحَيْثُ لَا مَنَعَةَ لَهَا ضَمِنَتْ بَعْدَ الْفَيْئَة مَا جَنَتْ،وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرَةً ذَاتَ مَنَعَة وَشَوْكَة لَمْ تَضْمَنْ،إِلَّا عِنْدَ مُحَمَّد بْنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ كَانَ يُفْتِي بِأَنَّ الضَّمَانَ يَلْزَمُهَا إِذَا فَاءَتْ.وَأَمَّا قَبْلَ التَّجَمُّعِ وَالتَّجَنُّد أَوْ حِينَ تَتَفَرَّقُ عِنْدَ وَضْعِ الْحَرْبِ أَوْزَارِهَا،فَمَا جَنَتْهُ ضَمِنَتْهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ.فَحَمْلُ الْإِصْلَاحِ بِالْعَدْلِ فِي قَوْله" فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ" عَلَى مَذْهَب مُحَمَّد وَاضِحٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى لَفْظ التَّنْزِيلِ.وَعَلَى قَوْلِ غَيْرِه وَجْهُهُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى كَوْن الْفِئَة الْبَاغِيَة قَلِيلَةَ العدد.والذي ذكروا أن الغرض إماتة لضغائن وَسَلُّ الْأَحْقَاد دُونَ ضَمَان الْجنَايَات،لَيْسَ بِحُسْنِ الطِّبَاق الْمَأْمُور بِه مِنْ أَعْمَال الْعَدْل وَمُرَاعَاة الْقِسْط.قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ:فَإِنْ قُلْتَ:لِمَ قَرَنَ بِالْإِصْلَاحِ الثَّانِي الْعَدْلَ دُونَ الْأَوَّل؟ قُلْتُ:لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالاقْتِتَال فِي أَوَّل الْآيَة أَنْ يَقْتَتِلَا باغيين أو راكبتي شبهة،وأيتهما كانت فَالَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوا بِه فِي شَأْنِهِمَا إِصْلَاحُ ذَات الْبَيْنِ وَتَسْكِينُ الدَّهْمَاءِ بِإِرَاءَة الْحَقِّ وَالْمَوَاعِظ الشَّافِيَة وَنَفْيِ الشُّبْهَة،إِلَّا إذا صرنا فَحِينَئِذ تَجِبُ الْمُقَاتَلَةُ،وَأَمَّا الضَّمَانُ فَلَا يَتَّجِهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِذَا بَغَتْ إِحْدَاهُمَا،فَإِنَّ الضَّمَانَ مُتَّجِهٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمَذْكُورَيْن.

التَّاسِعَةُ- وَلَوْ تَغَلَّبُوا عَلَى بَلَد فَأَخَذُوا الصَّدَقَات وَأَقَامُوا الْحُدُودَ،وَحَكَمُوا فِيهِمْ بِالْأَحْكَامِ،لَمْ تُثَنَّ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَاتُ وَلَا الحدود،ولا ينقص مِنْ أَحْكَامِهِمْ إِلَّا مَا كَانَ خِلَافًا لِلْكِتَاب أَوِ السُّنَّة أَوِ الْإِجْمَاع،كَمَا تُنْقَضُ أَحْكَامُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالسُّنَّة،قَالَهُ مُطَرِّفٌ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ.وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ:لَا تَجُوزُ بِحَالٍ.وَرُوِيَ عَنْ أَصْبَغَ أَنَّهُ جَائِزٌ.وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا

أَنَّهُ لَا يَجُوزُ كَقَوْلِ ابْنِ الْقَاسِمِ.وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ،لِأَنَّهُ عَمَلٌ بِغَيْرِ حَقٍّ مِمَّنْ لَا تَجُوزُ تَوْلِيَتُهُ.فَلَمْ يَجُزْ كَمَا لَوْ لَمْ يَكُونُوا بُغَاةً.وَالْعُمْدَةُ لَنَا مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،لَمَّا انْجَلَتِ الْفِتْنَةُ وَارْتَفَعَ الْخِلَافُ بِالْهُدْنَةِ وَالصُّلْحِ،لَمْ يَعْرِضُوا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي حُكْمٍ.قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:الَّذِي عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ،لِأَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا انْجَلَتْ كَانَ الْإِمَامُ هُوَ الْبَاغِي،وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَعْتَرِضُهُ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خَطَأٌ مَقْطُوعٌ بِهِ،إِذْ كَانُوا كُلُّهُمُ اجْتَهَدُوا فِيمَا فَعَلُوهُ وَأَرَادُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،وَهُمْ كُلُّهُمْ لَنَا أَئِمَّةٌ،وَقَدْ تَعَبَّدْنَا بِالْكَفِّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ،وَأَلَّا نَذْكُرَهُمْ إِلَّا بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ،لِحُرْمَةِ الصُّحْبَةِ وَلِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبِّهِمْ،وَأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ،وَأَخْبَرَ بِالرِّضَا عَنْهُمْ.هَذَا مَعَ مَا قَدْ وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ مِنْ طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ طَلْحَةَ شَهِيدٌ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،فَلَوْ كَانَ مَا خَرَجَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَرْبِ عِصْيَانًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَتْلِ فِيهِ شَهِيدًا.وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ مَا خَرَجَ إِلَيْهِ خَطَأً فِي التَّأْوِيلِ وَتَقْصِيرًا فِي الْوَاجِبِ عَلَيْهِ،لِأَنَّ الشَّهَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِقَتْلٍ فِي طَاعَةٍ،فَوَجَبَ حَمْلُ أَمْرِهِمْ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ.وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا قَدْ صَحَّ وَانْتَشَرَ مِنْ أَخْبَارِ عَلِيٍّ بِأَنَّ قَاتِلَ الزُّبَيْرِ فِي النار.وقول:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:] بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ [.وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ غَيْرُ عَاصِيَيْنِ وَلَا آثِمَيْنِ بِالْقِتَالِ،لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلْحَةَ:] شَهِيدٌ [.وَلَمْ يُخْبِرْ أَنَّ قَاتِلَ الزُّبَيْرِ فِي النَّارِ.وَكَذَلِكَ مَنْ قَعَدَ غَيْرَ مُخْطِئٍ فِي التَّأْوِيلِ.بَلْ صواب أراهم اللَّهُ الِاجْتِهَادَ.وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ لَعْنَهُمْ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُمْ وَتَفْسِيقَهُمْ،وَإِبْطَالَ فَضَائِلِهِمْ وَجِهَادِهِمْ،وَعَظِيمَ غَنَائِهِمْ فِي الدِّينِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الدِّمَاءِ الَّتِي أُرِيقَتْ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ:" تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ" [البقرة:١٤١].وسيل بَعْضُهُمْ عَنْهَا أَيْضًا فَقَالَ:تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللَّهُ مِنْهَا يَدِي،فَلَا أُخَضِّبُ بِهَا لِسَانِي.يَعْنِي فِي التَّحَرُّزِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي خَطَأٍ،وَالْحُكْمِ عَلَى بَعْضِهِمْ بِمَا لَا يَكُونُ مُصِيبًا فِيهِ.قَالَ ابْنُ فَوْرَكَ:وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ قَالَ إِنَّ سَبِيلَ مَا جَرَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُنَازَعَاتِ كَسَبِيلِ مَا جَرَى بَيْنَ إِخْوَةِ يُوسُفَ مَعَ يُوسُفَ،ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا بِذَلِكَ عَنْ

حَدِّ الْوَلَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ،فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ.وَقَالَ الْمُحَاسِبِيُّ:فَأَمَّا الدِّمَاءُ فَقَدْ أَشْكَلَ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فِيهَا بِاخْتِلَافِهِمْ.وَقَدْ سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ قِتَالِهِمْ فَقَالَ:قِتَالٌ شَهِدَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغِبْنَا،وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا،وَاجْتَمَعُوا فَاتَّبَعْنَا،وَاخْتَلَفُوا فَوَقَفْنَا.قَالَ الْمُحَاسِبِيُّ:فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ،وَنَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَعْلَمَ بِمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَّا،وَنَتَّبِعُ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ،وَنَقِفُ عِنْدَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلَا نَبْتَدِعُ رَأْيًا مِنَّا،وَنَعْلَمُ أَنَّهُمُ اجْتَهَدُوا وَأَرَادُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،إِذْ كَانُوا غَيْرَ مُتَّهَمِينَ فِي الدِّينِ،ونسأل الله التوفيق.[2476]

٤ – جهاد ضد قطاع الطريق:

وهم المفسدون في الأرض،وعقوبتهم حسب جريمتهم بما يراه الإمام من قَتْل،أو صلب،أو قَطْع أيديهم وأرجلهم من خلاف،أو نفيهم من الأرض كما سبق.قال الله تعالى:{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)} [المائدة:٣٣ – ٣٤].

الْمُحَارَبَةُ هُنَا هِيَ الْمُخَالَفَةُ وَالْمُضَادَّةُ،لأنَّ فِيهَا عَدَمَ إِذْعَانٍ لِدِينِ اللهِ وشَرْعِه،فِي حِفْظِ الحُقُوقِ،وَهِيَ تَصْدُقُ عَلَى الكُفْرِ،وَعَلى قَطْعِ الطَّرِيقِ،وَإِخَافَةِ السَّابِلَةِ.وَكَذَلِكَ يُطْلَقُ الإِفْسَادُ فِي الأَرْضِ عَلَى أنْواعٍ مِنَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ.

وَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ:إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ فَنَقَضُوا العَهْدَ،وَأَفْسَدُوا فِي الأَرْضِ،فَخَيَّرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ إنْ شَاءَ أنْ يَقْتُلَهُمْ،وَإنْ شَاءَ أنْ يَقْطَعَ أيْدِيَهُمْ وَأرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ (أيْ إنْ قَطَعَ اليَدَ اليُمْنَى قَطَعَ مَعَهَا الرِّجْلَ اليُسْرَى،وَالعَكْسُ عَلَى العَكْسِ) أو أَنْ يَنْفِيَهُمْ مِنَ الأَرْضِ التي ارْتُكِبَ فِيها الجُرْمُ إلى أرْضٍ أُخْرَى لِيُسْجَنُوا فِيهَا (وَالنَفْيُ فِي مَفْهُومِ أبِي حَنِيفَةَ هُوَ السِجْن) وَالصَحِيح:أنَّ عَامَّةٌ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ ارتَكَبَ عَمَلاً مِنْ أعمَالِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ.

[2476] – تفسير القرطبي (١٦/ ٣١٦)

وَحُكْمُ المُحَارَبَة عنْدَ الأئْمَة مَالك وَالشَّافعيِّ وابْنِ حَنْبَل يَكُونُ فِي الأمْصَارِ كَمَا يَكُونُ فِي الطُرقِ خَارِجَ المُدُن،حَتَّى إنَّ مَالكاً جَعَلَ المُحَارَبَةَ تَشْمَلُ حَالَةَ الرَّجُلِ الذي يَخْدَعُ رَجُلاً فَيُدْخلُهُ بَيْتَهُ فَيَقْتُلُهُ وَيَأخُذُ مَا مَعَهُ.

وَقَالَ أبو حَنيفَة إنَّمَا تَكُونُ المُحَارَبَةُ فِي الطُّرُقَات لبُعْد النَّاسِ عَمَّنْ يُغيثُ،أَمَّا فِي الأمْصَارِ فَلاَ تَكُونُ مُحَارَبَةٌ لأنَّ الإنْسَانَ قَدْ يَلْحَقُهُ غَوْثٌ إذَا اسْتَغَاثَ.وَفِي حَالَة المُحَارَبَة يَكُونُ دَمُ المَقْتُولِ للسُّلْطَانِ لاَ إلى وَلِيِّ المَقْتُولِ،وَلاَ يَكُونُ عَفْوُهُ سَبَباً فِي اسْقَاطِ العُقُوبَة.

وَقَالَ الشَّافعي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ إنَّ العُقُوبَةَ تَكُونُ عَلَى الشَّكْلِ التَّالي:

إذَا قَتَلُوا يُقْتَلُونَ بمَنْ قَتَلُوا.

إذَا قَطَعُوا وَغَصَبُوا المَالَ وَلَمْ يَقْتُلُوا تُقْطَعُ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ،وَيُنْفَوْنَ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَد آخَرَ.

إذَا أخَافُوا السَّابلَةَ فَقَطْ يُحْبَسُونَ.

وَهذا الجَزَاءُ هُوَ عَارٌ لَهُمْ وَنَكَالٌ وَذلَّةٌ فِي الحَيَاة الدُّنْيا (خِزْيٌ)،وَلَهُمْ فِي الآخرَة عَذَابٌ عَظيمٌ،إذَا لَمْ يَتُوبُوا منْ فعْلهمْ حَتَّى تَحينَ وَفَاتُهُمْ.

وَأكْثَرُ الأئمَّة يَتَّفقُونَ عَلَى أنَّ هَاتَينِ الآيَتَينِ نَزَلَتَا فِي جَمَاعة مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ،عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك،أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدينَةَ،فَاجْتَوَوْهَا،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إنْ شئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَة،فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانهَا وَأَبْوَالهَا»،فَفَعَلُوا،فَصَحُّوا،ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرِّعَاءِ،فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَبَلَغَ ذَلكَ النَّبِيَّ ﷺ،فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ،فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ،وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّة،حَتَّى مَاتُوا" [٢٤٧٧].

[٢٤٧٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٩٦)٩ - (١٦٧١)

[ش هذا الحديث أصل في عقوبة المحاربين وهو موافق لقوله تعالى {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض قال القاضي عياض رضي الله عنه واختلف العلماء في معنى حديث العرنيين هذا فقال بعض السلف كان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة فهو منسوخ وقيل ليس منسوخا وفيهم نزلت آية المحاربة(عرينة) قال في الفتح عرينة حي من قضاعة وحي من بجيلة من قحطان والمراد هنا الثاني كذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي(فاجتووها) معناه استوخموها أي لم توافقهم وكرهوها لسقم أصابهم قالوا وهو مشتق من الجوى وهو داء في الجوف(ثم مالوا على الرعاة) وفي بعض

فَإِذا تَابَ الجُنَاةُ المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِمُ السُّلْطَةُ فِي البَلَدِ،سَقَطَ عَـنْهُمُ العِقَابُ المَفْرُوضُ (وَهُوَ القَتْلُ أَوْ الصَّلْبُ أَوْ قَطْعُ اليَدَينِ..) وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ،يَقْبَلُ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ،وَهُوَ مُخْلِصٌ فِيهَا،لأنَّ تَوْبَتَهُمْ وَهُمْ فِي قُوَّةٍ وَمَنَعَةٍ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَكُـونَ خَالِصَـةً للهِ،صَادِرَةً عَنْ اعْتِقَادٍ بِقُبْحِ الذَّنْبِ،وَالعَزْمِ عَلَى تَرْكِ العَوْدَةِ إلى فِعْلِ مِثْلِهِ (وَلَكِنْ تَبْقَـى عَلَيهِمْ حُقُوقُ العِبَادِ).[٢٤٧٨]

وقال السعدي:"والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق،الذين يعرضـون للناس في القرى والبوادي،فيغصبونهم أموالهم،ويقتلونهم،ويخيفونهم،فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها،فتنقطع بذلك.فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عنـد إقامـة الحـد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون:هل ذلك على التخيير،وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ،أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم،فكل جريمة لها قسط يقابلها،كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى.وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلُهم وصلبهم،حتى يشتهروا ويختـزوا ويرتـدع غيرهم.

وإن قتلوا و لم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط.وإن أخذوا مالا و لم يقتلوا تحـتم أن تقطـع أيديهم وأرجلهم من خلاف،اليد اليمنى والرجـل اليسـرى.وإن أخـافوا النـاس و لم يقتلوا،ولا أخذوا مالا نفوا من الأرض،فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم.وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة،على اختلاف في بعض التفاصيل.{ذَلِكَ} النكال {لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا} أي:فضيحة وعار {وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب،موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة،وأن فاعله

الأصول المعتمدة الرعاء وهما لغتان يقال راع ورعاة كقاض وقضاة وراع ورعاء كصاحب وصحاب(وساقوا ذود رسول الله ﷺ) أي أخذوا إبله وقدموها أمامهم سائقين لها طاردين(سمل أعينهم) هكذا هو في معظم النسخ سمل وفي بعضها سمر ومعنى سمل فقأها وأذهب ما فيها ومعنى سمر حلها بمسامير محمية وقيل هما بمعنى(وتركهم في الحرة) هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا]

[٢٤٧٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

محارب لله ولرسوله.وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة،علم أن تطهير الأرض من المفسدين،وتأمين السبل والطرق،عن القتل،وأخذ الأموال،وإخافة الناس،من أعظم الحسنات وأجل الطاعات،وأنه إصلاح في الأرض،كما أن ضده إفساد في الأرض.{إلا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} أي:من هؤلاء المحاربين،{فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي:فيسقط عنه ما كان لله،من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي،ومن حق الآدمي أيضا،إن كان المحارب كافرا ثم أسلم،فإن كان المحارب مسلما فإن حق الآدمي،لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال.ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب -بعد القدرة عليه- أنها لا تسقط عنه شيئا،والحكمة في ذلك ظاهرة.وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه،تمنع من إقامة الحد في الحرابة،فغيرها من الحدود -إذا تاب من فعلها،قبل القدرة عليه- من باب أولى.[٢٤٧٩]

وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص،هي الخروج على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله،والتجمع في شكل عصابة،خارجة على سلطان هذا الإمام،تروع أهل دار الإسلام وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم.ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيدا عن مدى سلطان الإمام.ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة،وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة،يجعل النص منطبقا عليها.سواء خارج المصر أو داخله.وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجابهته بما يستحقه.وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة (سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد) لا يحاربون الحاكم وحده،ولا يحاربون الناس وحدهم.إنما هم يحاربون الله ورسوله.حينما يحاربون شريعته،ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة،ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة.كما أنهم بحربهم لله ورسوله،وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها،يسعون في الأرض فسادا..فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله،وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة..

[٢٤٧٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢٩)

إنهم يحاربون الله ورسوله..وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم.فهم قطعا لا يحاربون الله – سبحانه – بالسيف،وقد لا يحاربون شخص رسول الله – بعد اختياره الرفيق الأعلى – ولكن الحرب لله ورسوله متحققة،بالحرب لشريعة الله ورسوله،وللجماعة التي ارتضت شريعة الله ورسوله،وللدار التي تنفذ فيها شريعة الله ورسوله.

كما أن للنص – في صورته هذه – مفهوما آخر متعينا كهذا المفهوم – هو أن السلطان الذي يحق له – بأمر الله – أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة،هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله،في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله..وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة،في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف..

نقرر هذا بوضوح،لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان،كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة،ولا يحققون وجود دار إسلام في بلادهم،ولو زعموا أنهم مسلمون..كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات – باسم شريعة الله – بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله..

إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام،أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله..وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟!..إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلحة،التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله وتروع عباد الله في دار الإسلام،وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم..أن يقتلوا تقتيلا عاديا.أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى..من خلاف..

ويختلف الفقهاء اختلافا واسعا حول هذا النص:إن كان للإمام الخيار في هذه العقوبات،أم أن هناك عقوبة معينة لكل جريمة تقع من الخارجين.

«ويرى الفقهاء في مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التي وقعت.

فمن قتل و لم يأخذ مالا قتل،ومن أخذ المال و لم يقتل قطع،ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب،ومن أخاف السبيل ولكنه لم يقتل و لم يأخذ مالا نفي:

«وعند مالك أن المحارب إذا قتل فلا بد من قتله وليس للإمام تخيير في قطعه ولا في نفيه،وإنما التخيير في قتله أو صلبه،وأما إن أخذ المال و لم يقتل فلا تخيير في نفيه،وإنما التخيير في قتله أو صلبه أو قطعه من خلاف.وأما إذا أخاف السبيل فقط،فالإمام مخير في قتله أو صلبه أو قطعه أو نفيه..ومعنى التخيير عند مالك أن الأمر راجع في ذلك إلى اجتهاد الإمام.فإن كان المحارب ممن له الرأي والتدبير فوجه الاجتهاد قتله أو صلبه،لأن القطع لا يدفع ضرره.وإن كان لا رأي له وإنما هو ذو قوة وبأس قطعه من خلاف.وإن كان ليس له شيء من هاتين الصفتين أخذ بأيسر ذلك وهو النفي والتعزير»[٢٤٨٠].

ونحن نختار رأي الإمام مالك في الفقرة الأخيرة منه،وهي أن العقوبة قد توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل.لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولا منع وقوع الجريمة،والتغليظ على المفسدين في الأرض الذين يروعون دار الإسلام ويفزعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار.وهي أجدر جماعة وأجدر دار بالأمن والطمأنينة والسلام.

كذلك يختلفون في معنى النفي من الأرض..هل هو النفي من الأرض التي ارتكب فيها جريمته؟ أم هو النفي من الأرض التي يملك فيها حريته وذلك بحبسه.أم هو النفي من الأرض كلها ولا يكون ذلك إلا بالموت؟

ونحن نختار النفي من أرض الجريمة،إلى مكان ناء يحس فيه بالغربة والتشريد والضعف جزاء ما شرد الناس وخوّفهم وطغى بقوته فيهم.حيث يصبح في منفاه عاجزا عن مزاولة جريمته بضعف عصبيته،أو بعزله عن عصابته!

[٢٤٨٠] – التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (١/ ٥٤٢)

«ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا..وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ»..فالجزاء الذي يلقونـــه إذن في الدنيا لا يسقط عنهم العذاب في الآخرة،ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى.وهذا كذلك تغليظ للعقوبة،وتبشيع للجريمة..ذلك أن الجماعة المســـلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة.وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجـــب أن تكون مطاعة.فهذا هو الوسط الخير الرفيع الـــذي يجـــب تـــوفير الضـــمانات كلـــها لازدهاره..وهذا هو النظام العادل الكامل الذي يجب أن يصان من المساس به..

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم،نتيجة استشـــعارهم نكـــارة الجريمة،وتوبة منهم إلى الله ورجوعا إلى طريقة المستقيم – وهم ما يزالـــون في قـــوهم، لم تنلهم يد السلطان – سقطت جريمتهم وعقوبتها معا،ولم يعد للســـلطان علـــيهم مـــن سبيل،وكان الله غفورا لهم رحيما بهم في الحساب الأخير:«إِلَّا الَّذِينَ تابُوا – مِنْ قَبْـــلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ – فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

والحكمة واضحة في إسقاط الجريمة والعقوبة في هذه الحالة عنهم من ناحيتين:

الأولى:تقدير توبتهم – وهم يملكون العدوان – واعتبار ها دليل صلاح واهتداء..

والثانية:تشجيعهم على التوبة،وتوفير مؤنة الجهد في قتالهم من أيسر سبيل.

والمنهج الإسلامي يتعامل مع الطبيعة البشرية بكل مشاعرها ومساربها واحتمالاتهـــا والله الذي رضي للمسلمين هذا المنهج هو بارئ هذه الطبيعة،الخبير بمسالكها ودروبهـــا،العليم بما يصلحها وما يصلح لها..ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟..[٢٤٨١]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢٤٨١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٢٦٣) وانظر:الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٧/ ١٥٨) والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٢/ ١٢٣)

الباب السادس عشر

أحكام القتال في سبيل الله

التَّعْرِيفُ:

الْقتَال مَصْدَرُ قَاتَل،وَمَصْدَرُ الثُّلاَثيِّ منْهُ قَتْلٌ،وَأَصْل الْقَتْل:الإْمَاتَةُ،وَهِيَ إزَالَةُ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَد،لَكنْ إذَا اُعْتُبرَ بفعْل الْمُتَوَلِّي ذَلكَ يُقَال:قَتْلٌ،وَإذَا اُعْتُبرَ بفَوْت الْحَيَاة يُقَال:مَوْتٌ.

وَالْقتَال منَ الْمُقَاتَلَة وَالْمُحَارَبَة بَيْنَ اثْنَيْن،وَالْمُقَاتلَةُ - بفَتْحِ التَّاء وَكَسْرِهَا - الَّذينَ يَشْتَركُونَ في الْقتَال،لأَنَّ الْفعْل وَاقعٌ منْ كُل وَاحد.وَقَاتَلَهُ اللَّهُ:لَعَنَهُ[2482].

وَلاَ يَخْرُجُ اسْتعْمَال الْفُقَهَاءِ للَّفْظِ " قتَالٌ " عَنِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ[2483].

الأْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ - الْحرَابَةُ:

الْحرَابَةُ لُغَةً:منَ الْحَرْب الَّتي هِيَ نَقيضُ السِّلْمِ،يُقَال:حَارَبَهُ مُحَارَبَةً وَحرَابًا،أَوْ منَ الْحَرَب - بفَتْحِ الرَّاءِ - وَهُوَ السَّلْبُ[2484].

وَالْحرَابَةُ في الاصْطلاَحِ هِيَ الْبُرُوزُ للنَّاسِ لأَخْذ الْمَال أَوْ للْقَتْل أَوْ للإْرْعَابِ عَلَى سَبيل الْمُجَاهَرَة[2485].

وَبَيْنَ الْقتَال وَالْحرَابَة عُمُومٌ وَخُصُوصٌ وَجْهِيٌّ.

ب - الْجِهَادُ:

الْجهَادُ لُغَةً:قتَال الْعَدُوِّ،يُقَال:جَاهَدَ الْعَدُوَّ مُجَاهَدَةً وَجهَادًا إذَا قَاتَلَهُ[2486].

وَاصْطلاَحًا:قتَال الْمُسْلمينَ الْكُفَّارَ غَيْرَ الْمُعَاهدينَ إعْلاَءً لكَلمَة اللَّه تَعَالَى بَعْدَ دَعْوَتهمْ إلَى الإْسْلاَمِ وَإبَائهمْ[2487].

[2482] - لسان العرب، والمصباح المنير، والمفردات للراغب .

[2483] - المهذب ٢ / ٢١٨ - ٢١٩، وفتح القدير ٤ / ٤١١، وجواهر الإكليل ١ / ٢٠٧ .

[2484] - لسان العرب والمصباح المنير .

[2485] - المغني ٨ / ٢٧٨، ومغني المحتاج ٤ / ١٨٠ .

[2486] - لسان العرب، والقاموس المحيط .

وَبَيْنَ الْقِتَال وَالْجِهَادِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ.

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

الْقِتَال قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا وَذَلِكَ كَقِتَال الْكُفَّار،لِقَوْله تَعَالَى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:٢١٦] وَكَقِتَال الْبُغَاة،لِقَوْله تَعَالَى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات:٩]

وَقَدْ يَكُونُ الْقِتَال حَرَامًا،كَالْقِتَال الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْبُغَاة الْخَارِجِينَ عَنِ الإْمَامِ[٢٤٨٨].

وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا كَالْقِتَال لِدَفْعِ الصَّائِل عَنِ النَّفْسِ أَوِ الْبُضْعِ زَمَنَ الْفِتْنَةِ إِذَا قَصَدَهُ وَحْدَهُ.قَال فِي مِنَحِ الْجَلِيل:إِذَا قَصَدَهُ وَحْدَهُ فَالأْمْرَانِ - أَيِ الدَّفْعُ وَعَدَمُهُ - سَوَاءٌ،وَالسَّاكِتُ عَنِ الدَّفْعِ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى يُقْتَل لاَ يُعَدُّ آثِمًا وَلاَ قَاتِلاً لِنَفْسِهِ[٢٤٨٩].

مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقِتَال مِنْ أَحْكَامٍ:

أ - قِتَال الْكُفَّار:

قِتَال الْكُفَّار فَرْضٌ فِي الْجُمْلَةِ لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:٢١٦] وقَوْله تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥]،لَكِنَّ الْقِتَال يَكُونُ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الإْسْلاَمِ بِاللِّسَان وَإِقَامَةِ الدَّلِيل وَإِبَائِهِمْ،قَال الْكَاسَانِيُّ:إِنْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الإْسْلاَمِ لَمْ تَبْلُغِ الْكُفَّارَ فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ الدَّعْوَةُ إِلَى الإْسْلاَمِ بِاللِّسَان،لِقَوْل اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ

[٢٤٨٧] - فتح القدير ٤ / ٢٧٧، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٠ .

[٢٤٨٨] - المهذب ٢ / ٢١٩، ٢٢٨، والبدائع ٧ / ١٠٠، والمغني ٨ / ١٠٧ - ١٠٨ .

[٢٤٨٩] - منح الجليل ٤ / ٥٦٢، والفروق للقرافي ٤ / ١٨٤ .

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل:١٢٥] وَلاَ يَجُوزُ لَهُمُ الْقِتَال قَبْل الدَّعْوَة.

وَالدَّعْوَةُ دَعْوَتَان:دَعْوَةٌ بِالْبَنَان وَهِيَ الْقِتَــال،وَدَعْوَةٌ بِالْبَيَــان وَهُــوَ اللِّسَــانُ وَذَلِــكَ بِالتَّبْلِيغِ،وَالثَّانِيَةُ أَهْوَنُ مِنَ الأُولَى،لأَنَّ فِي الْقِتَال مُخَاطَرَةً بِالرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْمَــال،وَلَيْسَ فِي دَعْوَةِ التَّبْلِيغِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ،فَإِذَا احْتُمِل حُصُول الْمَقْصُود بِــأَهْوَن الــدَّعْوَتَيْنِ لَــزِمَ الافْتِتَاحُ بِهَا.هَذَا إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ لَمْ تَبْلُغْهُمْ،فَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَفْتَتِحُوا الْقِتَال مِنْ غَيْرِ تَجْدِيد الدَّعْوَة،لأَنَّ الْحُجَّةَ لاَزِمَةٌ،وَالْعُذْرَ فِي الْحَقِيقَة مُنْقَطِعٌ،وَشُبْهَةَ الْعُذْرِ انْقَطَعَتْ بِالتَّبْلِيغِ مَرَّةً،لَكِنْ مَعَ هَذَا الأَفْضَل أَنْ لاَ يَفْتَتِحُوا الْقِتَال إِلاَّ بَعْدَ تَجْدِيد الــدَّعْوَة لِرَجَاءِ الإِجَابَة فِي الْجُمْلَة،وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:«مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْمًا،حَتَّى يَدْعُوَهُمْ»[٢٤٩٠].

فَإِنْ أَسْلَمُوا كَفُّوا عَنْهُمُ الْقِتَال،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِــلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّــه،وَيُقِيمُوا الصَّــلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَــى اللَّه»[٢٤٩١]

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَــى جَــيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْــمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَــا تَقْتُلُــوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَــأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَــنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُــمْ إِلَــى الْإِسْــلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَــلْ

[٢٤٩٠] - شرح معاني الآثار (٣/ ٢٠٧)(٥٠٨٢) صحيح

[٢٤٩١] - صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٢)٣٣ - (٢١)

[ش(أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم.(يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.(عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع.(إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا.(وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٢٤٩٢]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُقَرِّنِ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:" اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ ثَلَاثِ خِلَالٍ:ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ قَبِلُوا فَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ

[٢٤٩٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ مَا يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَهُمْ،وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،فَإِنْ قَبِلُوا فَكُفَّ عَنْهُمْ وَاقْبَلْ مِنْهُمْ ذَلِكَ،وَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوا أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛فَإِنَّكَ إِنْ تَخْفِرْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَخْفِرَ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ حُكْمَ اللَّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ حُكْمَكَ وَحُكْمَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي هَلْ تُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ " قَالَ مُقَاتِلٌ:فَنَظَرْتُ فِيمَا فُتِحَ مِنْ أَرْضِ خُرَاسَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمْ أَجِدْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ رَسُولِهِ،إِلَّا ذِمَّةَ الْإِمَامِ وَأَصْحَابِهِ مِمَّنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "[٢٤٩٣]

ب – قِتَال الْبُغَاة:

الْبُغَاةُ هُمُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى الْإِمَامِ يَبْغُونَ خَلْعَهُ أَوْ مَنْعَ الدُّخُول فِي طَاعَتِهِ،أَوْ مَنْعَ حَقٍّ وَاجِبٍ بِتَأْوِيلٍ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ [٢٤٩٤].

وَالأْصْل فِي مَشْرُوعِيَّةِ قِتَالِهِمْ قَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُْخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْل وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات:٩].

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:مَنِ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِمَامَتِهِ وَبَيْعَتِهِ ثَبَتَتْ إِمَامَتُهُ وَوَجَبَتْ مَعُونَتُهُ،وَمُحَرَّمٌ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ،لِمَا فِي الْخُرُوجِ عَلَيْهِ مِنْ شَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ،وَيَدْخُل الْخَارِجُ فِي عُمُومِ ما جاء عَنْ عَرْفَجَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ» [٢٤٩٥]

[٢٤٩٣] – الآثار لأبي يوسف (ص:١٩٤)(٨٧٥) صحيح لغيره

[٢٤٩٤] – الفروق ٤ / ١٧١ .

[٢٤٩٥] – جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٤)(٢٠٧١٤) صحيح

قلت :هذا الكلام فيمن يحكم بما أنزل الله ولا يوالي الكفار والفجار، ويجاهد في سبيل الله، ويقيم الحدود ونحو ذلك وإلا فالخروج عليه فرض بالإجماع

فَمَنْ خَرَجَ عَلَى مَنْ ثَبَتَتْ إمَامَتُهُ بَاغِيًا وَجَبَ قِتَالُهُ،لَكِنْ لاَ يَجُوزُ قِتَال الْبُغَاة حَتَّى يَبْعَــثَ إلَيْهِمُ الإِمَامُ مَنْ يَسْأَلُهُمْ وَيَكْشِفُ لَهُمُ الصَّوَابَ،وَيُزِيل مَا يَذْكُرُونَهُ مِنَ الْمَظَالِمِ،فَإِنْ لَجُّوا قَاتَلَهُمْ حِينَئِذٍ،لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الآْيَةِ الأَْمْرَ بِالإِْصْلاَحِ قَبْل الْقِتَال.

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ رَاسَل أَهْل الْبَصْرَةِ قَبْل وَقْعَةِ الْجَمَل،وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ لاَ يَبْدَءُوهُمْ بِالْقِتَال،وَكَذَلِكَ بَعَثَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا[٢٤٩٦] .

عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:" لَمَّا قَدِمَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبَصْرَةَ قَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ وَقَــيْسُ بْــنُ عَبَّادٍ،فَقَالَا لَهُ:أَلَا تُخْبِرُنَا عَنْ مَسِيرِكَ هَذَا الَّذِي سِرْتَ فِيهِ تَتَوَلَّى عَلَى الْأُمَّةِ تَضْرِبُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ،أَعَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهِدَهُ إِلَيْكَ،فَحَدِّثْنَا،فَأَنْتَ الْمَوْثُوقُ الْمَأْمُونُ عَلَــى مَــا سَمِعْتَ؟ فَقَالَ:أَمَا أَنْ يَكُونَ عِنْدِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فِي ذَلِكَ فَلَا،وَاللَّهِ لَإِنْ كُنْــتُ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَ بِهِ فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ،وَلَوْ كَانَ عِنْدِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ عَهْدٌ مَا تَرَكْتُ أَخَا بَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّــابِ يَقُومَــانِ عَلَــى مِنْبَرِهِ،وَلَقَاتَلْتُهُمَــا بِيَدِي،وَلَوْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا بُرْدِي هَذَا،وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَــمْ يُقْتَــلْ قَتْلًــا وَلَــمْ يَمُــتْ فَجْأَةً،مَكَثَ فِي مَرَضِهِ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ يَأْتِيهِ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ فَيَأْمُرُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّــهُ عَنْهُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ وَهُوَ يَرَى مَكَانِي،ثُمَّ يَأْتِيهِ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ،فَيَأْمُرُ أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَهُوَ يَرَى مَكَانِي،وَلَقَدْ أَرَادَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِ أَنْ تَصْرِفَهُ عَنْ أَبِــي بَكْــرٍ فَــأَبَى وَغَضِبَ وَقَالَ:«أَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ؛مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ»،فَلَمَّا قَبَضَ اللَّهُ عَــزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ نَظَرْنَا فِي أُمُورِنَا،فَاخْتَرْنَا لِدُنْيَانَا مَنْ رَضِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِدِينِنَا،وَكَانَتِ الصَّلَاةُ أَصْلَ الْإِسْلَامِ وَقِوَامَ الدِّينِ،فَبَايَعْنَا أَبَا بَكْرٍ وَكَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا،لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنَّا اثْنَانِ،وَلَمْ يَشْهَدْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ،وَلَمْ نَقْطَعْ مِنْهُ الْبَرَاءَةَ،فَأَدَّيْتُ إِلَــى أَبِــي بَكْــرٍ حَقَّــهُ،وَعَرَفْتُ لَــهُ طَاعَتَهُ،وَغَزَوْتُ مَعَهُ فِي جُنُودِهِ،فَكُنْتُ آخُذُ إِذَا أَعْطَانِي،وَأَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي،وَأَضْرِبُ بَــيْنَ يَدَيْهِ الْحُدُودَ بِسَوْطِي،فَلَمَّا قُبِضَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَّاهَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَأَخَذَهَا بِسُــنَّةِ صَاحِبِهِ،وَما يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ،فَبَايَعْنَا عُمَرَ،لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنَّا اثْنَانِ،وَلَمْ يَشْهَدْ بَعْضُنَا عَلَى

[٢٤٩٦] - المغني ٨ / ١٠٧ - ١٠٨ .

بَعْضٍ،وَلَمْ نَقْطَعْ مِنْهُ الْبَرَاءَةَ،فَأَدَّيْتُ إِلَى عُمَرَ حَقَّهُ وَعَرَفْتُ طَاعَتَهُ،وَغَزَوْتُ مَعَهُ فِي جُيُوشِهِ،فَكُنْتُ آخُذُ إِذَا أَعْطَانِي،وَأَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي،وَأَضْرِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْحُدُودَ بِسَوْطِي.فَلَمَّا قُبِضَ تَذَكَّرْتُ فِي نَفْسِي قَرَابَتِي وَسَالِفَتِي وَفَضْلِي،وَأَنَا أَظُنُّ أَنْ لَا يُعْدَلَ بِي،وَلَكِنْ جَنَّبَنِي أَنْ لَا يَعْمَلَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ ذَنْبًا إِلَّا لَحِقَهُ فِي قَبْرِهِ،فَأَخْرَجَ مِنْهَا نَفْسَهُ وَوَلَدَهُ وَلَوْ كَانَتْ مُحَابَاةً مِنْهُ لَآثَرَ بِهَا وَلَدَهُ،وَبَرِئَ مِنْهَا إِلَى رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ سِتَّةٍ أَنَا أَحَدُهُمْ،فَلَمَّا اجْتَمَعَ الرَّهْطُ تَذَكَّرْتُ فِي نَفْسِي قَرَابَتِي وَسَالِفَتِي وَفَضْلِي،وَأَنَا أَظُنُّ أَنْ لَا يَعْدِلُوا بِي،فَأَخَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَوَاثِيقَنَا عَلَى أَنْ نَسْمَعَ وَنُطِيعَ لِمَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَنَا،ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ ابْنِ عَفَّانَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ،فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي،فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي،وَإِذَا مِيثَاقِي قَدْ أُخِذَ لِغَيْرِي،فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ،فَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ حَقَّهُ،وَعَرَفْتُ لَهُ طَاعَتَهُ،وَغَزَوْتُ مَعَهُ فِي جُيُوشِهِ،وَكُنْتُ آخُذُ إِذَا أَعْطَانِي،وَأَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي،وَأَضْرِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْحُدُودَ بِسَوْطِي،فَلَمَّا أُصِيبَ نَظَرْتُ فِي أَمْرِي،فَإِذَا الْخَلِيفَتَانِ اللَّذَانِ أَخَذَاهَا بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمَا بِالصَّلَاةِ قَدْ مَضَيَا،وَهَذَا الَّذِي آخُذُ لَهُ مِيثَاقِي قَدْ أُصِيبَ،فَبَايَعَنِي أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ وَأَهْلُ هَذَيْنِ الْمِصْرَيْنِ "[٢٤٩٧]

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اعْتَزَلُوا فِي دَارٍ،وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ» فَقُلْتُ لِعَلِيٍّ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ «أَبْرِدْ بِالصَّلَاةِ،لَعَلِّي أُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ» قَالَ:«إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ» قُلْتُ:كَلَّا،فَلَبِسْتُ،وَتَرَجَّلْتُ،وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ نِصْفِ النَّهَارِ،وَهُمْ يَأْكُلُونَ فَقَالُوا:«مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ،فَمَا جَاءَ بِكَ؟» قُلْتُ لَهُمْ:أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ،وَالْأَنْصَارِ،وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصِهْرِهِ،وَعَلَيْهِمْ نُزِّلَ الْقُرْآنُ،فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ،وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ،لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ،وَأُبَلِّغَهُمْ مَا تَقُولُونَ،فَانْتَحَى لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ قُلْتُ:هَاتُوا مَا نَقِمْتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَابْنِ عَمِّهِ قَالُوا:«ثَلَاثٌ» قُلْتُ:مَا هُنَّ؟ قَالَ:«أَمَّا إِحْدَاهُنَّ،فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ» وَقَالَ اللهُ:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام:٥٧] مَا شَأْنُ الرِّجَالِ وَالْحُكْمِ؟ قُلْتُ:هَذِهِ وَاحِدَةٌ قالوا:وَأَمَّا الثَّانِيَةُ،فَإِنَّهُ قَاتَلَ،وَلَمْ يَسْبِ،وَلَمْ يَغْنَمْ،إِنْ كَانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سِبَاهُمْ،وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ

[٢٤٩٧] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٢٢٤)(٥١٢) والشريعة للآجري (٥/ ٢٣٣٧)(١٨٢٨) صحيح

سِبَاهُمْ وَلَا قِتَالُهُمْ قُلْتُ:هَذِهِ ثِنْتَانِ،فَمَا الثَّالِثَةُ؟ " وَذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا قَالُوا:مَحَى نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ " قُلْتُ:هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا؟ قَالُوا:«حَسْبُنَا هَذَا» قُلْتُ:لَهُمْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ قَوْلَكُمْ أَتَرْجِعُونَ؟ قَالُوا:«نَعَمْ» قُلْتُ:أَمَّا قَوْلُكُمْ:«حُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ اللهِ،فَإِنِّي أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ أَنْ قَدْ صَيَّرَ اللهُ حُكْمَهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ [ص:٤٨١]،فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ» أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ،وَأَنْتُمْ حُرُمٌ،وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ} [المائدة:٩٥] وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ أَنَّهُ صَيَّرَهُ إِلَى الرِّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ،وَلَوْ شَاءَ لَحكم فِيهِ،فَجَازَ مِنْ حُكْمِ الرِّجَالِ،أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ،وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ أَوْ فِي أَرْنَبٍ؟ قَالُوا:بَلَى،هَذَا أَفْضَلُ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا:{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء:٣٥] فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ حُكْمَ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ،وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِهِمْ فِي بُضْعِ امْرَأَةٍ؟ خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ " قَالُوا:نَعَمْ قُلْتُ:وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ،وَلَمْ يَغْنَمْ،أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ،تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا وَهِيَ أُمُّكُمْ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ:إِنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا نَسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ،وَإِنْ قُلْتُمْ:لَيْسَتْ بِأُمِّنَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ:{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب:٦] فَأَنْتُمْ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ،فَأْتُوا مِنْهَا بِمَخْرَجٍ،أَفَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا:نَعَمْ،وَأَمَّا مَحْيُ نَفْسِهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَا تَرْضَوْنَ.إن نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» قَالُوا:لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«امْحُ يَا عَلِيُّ اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ،امْحُ يَا عَلِيُّ،وَاكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» وَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ،وَقَدْ مَحَى نَفْسَهُ،وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ نَفْسَهُ ذَلِكَ مَحَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ،أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ "

قَالُوا:«نَعَمْ،فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَلْفَانِ،وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ،فَقُتِلُوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،فَقَتَلَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ»[2498]

فَإِنْ أَبَى الْبُغَاةُ الرُّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَاعَةِ الإِْمَامِ فَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِ الْبَدْءِ بِقِتَالِهِمْ،هَل يَجُوزُ الْبَدْءُ بِقِتَالِهِمْ وَعَدَمُ الاِنْتِظَارِ،أَمْ لاَ يَبْدَؤُهُمْ الإِْمَامُ بِالْقِتَالِ حَتَّى يَبْدَءُوهُ،لأَِنَّ قِتَالَهُمْ لِدَفْعِ شَرِّهِمْ.

ح – قِتَال الْمُرْتَدِّينَ:

إِذَا ارْتَدَّ أَهْل بَلَدٍ وَجَرَتْ فِيهِ أَحْكَامُهُمْ صَارُوا دَارَ حَرْبٍ فِي اغْتِنَامِ أَمْوَالِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيِّهِمُ الْحَادِثِينَ بَعْدَ الرِّدَّةِ،وَعَلَى الإِْمَامِ قِتَالُهُمْ،فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَاتَل أَهْل الرِّدَّةِ بِجَمَاعَةِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّه عَلَيْهِمْ،وَلأَِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِقِتَال الْكُفَّارِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ،وَهَؤُلاَءِ أَحَقُّ مِنْهُمْ بِالْقِتَال،لأَِنَّ تَرْكَهُمْ رُبَّمَا أَغْرَى أَمْثَالَهُمْ بِالتَّشَبُّهِ بِهِمْ وَالاِرْتِدَادِ مَعَهُمْ،فَيَكْثُرَ الضَّرَرُ،وَإِذَا قَاتَلَهُمْ قَتَل مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ،وَيَتَّبِعُ مُدْبِرَهُمْ،وَيُجْهِزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَتُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ،وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ.[2499]

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:لَو ارْتَدَّ أَهْل مَدِينَةٍ اُسْتُتِيبُوا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ،فَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا قُوتِلُوا،وَلاَ يُسْبَوْنَ وَلاَ.[2500]

فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:جَاءَ وَفْدُ أَهْلِ الرِّدَّةِ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ يَسْأَلُونَ أَبَا بَكْرٍ الصُّلْحَ،فَخَيَّرَهُمْ،إِمَّا حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ،وَإِمَّا سِلْمٌ مُخْزِيَةٌ،قَالُوا:أَمَّا حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا،فَمَا سِلْمٌ مُخْزِيَةٌ؟ قَالَ:«تَدُونَ قَتْلَانَا،وَلَا نُودِي قَتْلَاكُمْ،وَتَشْهَدُونَ عَلَى قَتْلَاكُمْ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ،وَتَرُدُّونَ إِلَيْنَا مَنْ أَخَذْتُمْ مِنَّا،وَلَا نَرُدُّ إِلَيْكُمْ مَا أَخَذْنَا مِنْكُمْ،وَنَنْزِعُ مِنْكُمُ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ،وَتُتْرَكُونَ تَتْبَعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ

[2498] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٤٨٠)(٨٥٢٢) صحيح

[2499] - المغني لابن قدامة (٩/ ١٧)(٧١٠٥)

[2500] - منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢١٣)

وَالْمُؤْمنينَ رَأْيًا يَعْذرُونَكُمْ عَلَيْه» فَقَالَ عُمَرُ:أَمَّا مَا قَدْ قُلْتَ فَكَمَا قُلْتَ،لَكنْ قَتْلَانَا قُتلُوا في اللَّه،أُجُورُهُمْ عَلَى اللَّه،لَا ديَةَ لَهُمْ"[٢٥٠١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَاسْتُخْلفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ منَ العَرَب،قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ:كَيْفَ تُقَاتلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" أُمرْتُ أَنْ أُقَاتلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ منِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ،إِلَّا بحَقِّه وَحسَابُهُ عَلَى اللَّه "،فَقَالَ:وَاللَّه لَأُقَاتلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَة وَالزَّكَاة،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَال،وَاللَّه لَوْ مَنَعُوني عقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعه،فَقَالَ عُمَرُ:«فَوَاللَّه مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ للْقتَال،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[٢٥٠٢]

د – الْقتَال دفَاعًا عَنِ الْعرْضِ وَالنَّفْسِ وَالْمَال:

إذَا تَعَرَّضَ شَخْصٌ لإِنْسَان يُريدُ الاعْتدَاءَ عَلَى نَفْسه أَوْ أَهْله أَوْ مَاله فَإِنْ أَمْكَنَهُ رَدُّهُ بأَسْهَل طَرِيقَة مُمْكنَة فَعَلَ ذَلكَ،وَإِنْ لَمْ يُمْكنْ رَدُّهُ إلاَّ بالْقتَال قَاتَلَهُ،فَإِنْ قُتل الْمُعْتَدَى عَلَيْه فَهُوَ شَهيدٌ،وَإِنْ قُتل الْمُعْتَدي فَلاَ قصَاصَ وَلاَ ديَةَ.وَهَذَا في الْجُمْلَة،وَالأَصْل في هَذَا ما جاء عَنْ سَعيد بْنِ زَيْد قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«مَنْ قُتلَ دُونَ مَاله فَهُوَ شَهيدٌ،وَمَنْ قُتلَ دُونَ أَهْله فَهُوَ شَهيدٌ،وَمَنْ قُتلَ دُونَ دينه فَهُوَ شَهيدٌ،وَمَنْ قُتلَ دُونَ دَمه فَهُوَ شَهيدٌ» [٢٥٠٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُول الله ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ الله،أَرَأَيْتَ إنْ جَاءَ رَجُلٌ يُريدُ أَخْذَ مَالي؟ قَالَ:«فَلَا تُعْطه مَالَكَ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إنْ قَاتَلَني؟ قَالَ:«قَاتلْهُ» قَالَ:أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلَني؟ قَالَ:«فَأَنْتَ شَهيدٌ»،قَالَ:أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ:«هُوَ في النَّار»[٢٥٠٤]

[٢٥٠١] – سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٨٥)(٢٩٣٤) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٤٣١)(٣٣٣٩٩) صحيح

[٢٥٠٢] – صحيح البخاري (٩/ ٩٣)(٧٢٨٤)

[ش (حق المال) أي داخل تحت الاستثناء الرافع للعصمة المبيح للقتال.(عقالا) هو الحبل الذي تشد به يد البعير مع ذراعه حتى لا يشرد.(عناقا) العناق الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة]

[٢٥٠٣] – السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٥٥)(٣٥٤٤) صحيح

[٢٥٠٤] – صحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٥ – (١٤٠)

إلاَّ أَنَّ الْفُقَهَاءَ يُفَرِّقُونَ فِي وُجُوبِ الدَّفْعِ وَالْقِتَالِ بَيْنَ مُحَاوِلَةِ الْعُدْوَانِ عَلَى النَّفْسِ أَوِ الْعِرْضِ أَوِ الْمَالِ،فَبِالنِّسْبَةِ لِلْعُدْوَانِ عَلَى الْعِرْضِ،فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ يَتَّفِقُونَ عَلَى وُجُوبِ دَفْعِ الْمُعْتَدِي عَلَى الْعِرْضِ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ بِهِ وَلَوْ بِالْقِتَالِ،لأَنَّ الْعِرْضَ لاَ يَجُوزُ إِبَاحَتُهُ،قَالَ الإِْمَامُ أَحْمَدُ فِي امْرَأَةٍ أَرَادَهَا رَجُلٌ عَنْ نَفْسِهَا فَقَتَلَتْهُ لِتَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا:لاَ شَيْءَ عَلَيْهَا.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْعُدْوَانِ عَلَى النَّفْسِ فَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ فِي الأَْصَحِّ وَالْحَنَابِلَةِ وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ تَخْلِيصُ نَفْسِهِ إِلاَّ بِالْقِتَالِ فَإِنَّهُ يُقَاتِلُهُ،وَفِي الأَْظْهَرِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لاَ يَجِبُ الدَّفْعُ،وَيَجُوزُ الاِسْتِسْلاَمُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُعْتَدِي مُهْدَرَ الدَّمِ،فَإِنْ كَانَ مُهْدَرَ الدَّمِ كَالْكَافِرِ وَجَبَ قِتَالُهُ،وَمَا سَبَقَ مِنَ الْحُكْمِ إِنَّمَا هُوَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ،أَمَّا فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ فَلاَ يَجِبُ الْقِتَالُ،وَإِنَّمَا يَجُوزُ الاِسْتِسْلاَمُ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْعُدْوَانِ عَلَى الْمَالِ فَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ الأَْصَحُّ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَفِي قَوْلٍ لِلْحَنَابِلَةِ يَجِبُ الدِّفَاعُ عَنِ الْمَالِ بِالْقِتَالِ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ سِوَى ذَلِكَ،قَالَ أَحْمَدُ فِي اللُّصُوصِ يُرِيدُونَ نَفْسَكَ وَمَالَكَ:قَاتِلْهُمْ تَمْنَعْ نَفْسَكَ وَمَالَكَ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ لاَ يَجِبُ الدَّفْعُ عَنِ الْمَالِ،لأَنَّ الْمَالَ يَجُوزُ بَذْلُهُ وَإِبَاحَتُهُ لِلْغَيْرِ [٢٥٠٥].

هـ – قِتَال مَانِعِ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ عَنِ الْمُضْطَرِّ:

مَنِ اُضْطُرَّ إِلَى الطَّعَامِ فَلَمْ يَجِدْ إِلاَّ طَعَامَ غَيْرِهِ،فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ لَزِمَهُ بَذْلُهُ لِلْمُضْطَرِّ،لأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ إِحْيَاءُ نَفْسِ آدَمِيٍّ مَعْصُومٍ فَلَزِمَهُ بَذْلُهُ،لأَنَّ الاِمْتِنَاعَ مِنْ بَذْلِهِ إِعَانَةٌ عَلَى قَتْلِهِ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ:آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ " [٢٥٠٦]

[٢٥٠٥] – الهداية ٤ / ١٦٤ – ١٦٥، وابن عابدين ٥ / ٣٥١، ومنح الجليل ٤ / ٥٦٢، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٩٧، والتبصرة بهامش فتح العلي المالك ٢ / ١٨٥ – ١٨٦، ٢٧٢ – ٢٧٤، ومغني المحتاج ٤ / ١٩٤، والمهذب ٢ / ٢٢٥ – ٢٢٦، ومنتهى الإرادات ٣ / ٣٧٨، والمغني ٨ / ٣٣٠ – ٣٣٢ .

[٢٥٠٦] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٧٤) صحيح لغيره

فَإِن امْتَنَعَ مِنْ بَذْلِه وَلَوْ بِالثَّمَنِ فَلِلْمُضْطَرِّ أَخْذُهُ،وَإِن احْتَاجَ فِي ذَلِكَ إِلَى قِتَالٍ قَاتَلَــهُ،فَإِنْ قُتِل الْمُضْطَرُّ فَهُوَ شَهِيدٌ وَعَلَى قَاتِلِه ضَمَانُهُ،وَإِنْ قُتِل صَاحِبُ الطَّعَامِ فَهُوَ هَدَرٌ لأَنَّهُ ظَالِمٌ بِقِتَالِه،وَهَذَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّة وَالشَّافِعِيَّة وَالْحَنَابِلَة.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لِلْمُضْطَرِّ قِتَال الْمُمْتَنِعِ مِنْ بَذْل الطَّعَامِ لَكِنْ بِدُونِ سِلاَحٍ[٢٥٠٧] .

وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْل مَاءٍ مَمْلُوك لَهُ مُحْرَزٍ فِي الأَْوَانِي وَنَحْوِهَا وَاحْتَاجَ إِلَيْه غَيْرُهُ لِشُرْبِه أَوْ شُرْبِ مَاشِيَتِه وَجَبَ عَلَى صَاحِبِه بَذْلُهُ لَهُ،وَيَحْرُمُ عَلَيْه مَنْعُهُ،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لاَ يُمْنَعُ فَضْلُ المَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الكَلَأُ»[٢٥٠٨] .

وعَنْ رَجُلٍ،مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:غَــزَوْتُ مَــعَ النَّبِــيِّ ﷺ ثَلَاثًــا أَسْمَعُهُ،يَقُولُ:" الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ:فِي الْكَلَإِ،وَالْمَاءِ،وَالنَّارِ "[٢٥٠٩]

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ:لِلْمُضْطَرِّ أَنْ يُقَاتِل الْمُمْتَنِعَ عَنْ بَذْل فَضْل الْمَــاءِ لِيَأْخُــذَهُ،لَكِنْ خَصَّ الْحَنَفِيَّةُ الْقِتَال هُنَا بِأَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ سِلاَحٍ كَمَا تَقَدَّمَ.[٢٥١٠]

وَإِنْ كَانَ الْمَاءُ فِي أَرْضٍ مَمْلُوكَةٍ وَاضْطُرَّ نَاسٌ إِلَى الْمَاءِ لِشُرْبِهِمْ وَسَقْيِ دَوَابِّهِــمْ وَلَــمْ يَجِدُوا غَيْرَ هَذَا الْمَاءِ فَإِنَّهُ يُقَال لِصَاحِبِ الْمَاءِ:إِمَّا أَنْ تَأْذَنَ لِهَؤُلاَءِ النَّاسِ بِالــدُّخُول،وَإِمَّا أَنْ تُعْطِيَ بِنَفْسِك،فَإِنْ لَمْ يُعْطِهِمْ وَمَنَعَهُمْ مِنَ الدُّخُول،فَلَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوهُ بِالسِّلاَحِ لِيَأْخُذُوا قَدْرَ مَا يَنْدَفِعُ بِه الْهَلاَكُ عَنْهُمْ وَعَنْ دَوَابِّهِمْ،لِمَا رُوِيَ أَنَّ قَوْمًا وَرَدُوا مَاءً فَسَأَلُوا أَهْلَهُ أَنْ يَدُلُّوهُمْ عَلَى الْبِئْرِ فَأَبَوْا،وَسَأَلُوهُمْ أَنْ يُعْطُوهُمْ دَلْوًا فَأَبَوْا،فَقَالُوا لَهُمْ:إِنَّ أَعْنَاقَنَا وَأَعْنَــاقَ

[٢٥٠٧] - ابن عابدين ٥ / ٢١٥، والبدائع ٦ / ١٨٨، والتبصرة بهامش فتح العلي المالك ٢ / ١٩٣، والمهذب ١ / ٢٥٧، ومغني المحتاج ٤ / ٣٠٨، والمغني ٨ / ٦٠٢ .

[٢٥٠٨] - صحيح البخاري (٣/ ١١٠)(٢٣٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١١٩٨)٣٦ - (١٥٦٦)

[شمعنى الحديث أن يشق إنسان بئرا بفلاة ويكون حول البئر عشب وليس هناك ماء غيره ولا يتوصل إلى رعي العشب إلا إذا كانت المواشي ترد ذلك الماء فإذا منعهم من الماء أدى ذلك إلى منعهم من رعي العشب وليس ذلك له]

[٢٥٠٩] - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٨)(٣٤٧٧) صحيح

[٢٥١٠] - البدائع ٦ / ١٨٨، ومنح الجليل ٤ / ٢٦ - ٢٨، ومغني المحتاج ٢ / ٣٧٥، والمهذب ١ / ٤٣٥، ومنتهى الإرادات ٢ / ٤٦١ .

مَطَايَانَا كَادَتْ تُقْطَعُ فَأَبَوْا،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِعُمَرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَال:هَـــلاَّ وَضَـــعْتُمْ فِيهِمُ السِّلاَحَ.[2011]

و – قتال الْمُمْتَنعِينَ عَنْ أَدَاء الشَّعَائِرِ:

يُعْتَبَرُ الأَذَانُ مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلاَمِ وَخَصَائصه،وَلِذَلِكَ لَوِ اجْتَمَعَ أَهْل بَلْدَة عَلَى تَرْكه قَاتَلَهُمُ الإِمَامُ،لأَنَّ الاجْتمَاعَ عَلَى تَرْكه اسْتخْفَافٌ بالدِّين،وَهَذَا عنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاء.

وَقَال أَبُو يُوسُفَ منَ الْحَنَفيَّة:يُحْبَسُونَ وَيُضْرَبُونَ وَلاَ يُقَاتَلُونَ بالسِّلاَحِ[2012].

وقال ابن تيمية رحمه الله:(أجمع علماء المسلمين على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله.

فلو قالوا:نصلي ولا نزكي،أو:نصلي الخمس ولا نصلي الجمعة ولا الجماعـــة،أو:نقـــوم بمباني الإسلام الخمس ولا نحرم دماء المسلمين وأموالهم،أو:لا نترك الربا ولا الخمـــر ولا الميسر،أو:نتبع القرآن ولا نتبع رســـول الله – ﷺ – ولا نعمـــل بالأحاديـــث الثابتـــة عنه،أو:نعتقد أن اليهود والنصارى خير من جمهور المسلمين وأن أهل القبلة قد كفـــروا بالله ورسوله ولم يبق منهم مؤمن إلا طائفة قليلة،أو قالوا:إنا لا نجاهـــد الكفـــار مـــع المسلمين،أو غير ذلك من الأمور المخالفة لشريعة رسول الله – ﷺ – وسنته وما عليـــه جماعة المسلمين؛فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها؛كما جاهـــد المســـلمون مـــانعي الزكاة،وجاهدوا الخوارج وأصنافهم،وجاهدوا الخرمية والقرامطة والباطنية وغيرهم مـــن أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام.

وذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة:١٩٣]،فإذا كان بعض الدين لله وبعضـــه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله،وقال تعالى:{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُـــرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥]؛فلـــم

[2011] – البدائع ٦ / ١٨٩، وابن عابدين ٥ / ٢٨٣، والهداية ٤ / ١٠٤ .

[2012] – فتح القدير ١ / ٢٠٩، ومنح الجليل ١ / ١١٧، ومغني المحتاج ١ / ١٣٤ .

يأمر بتخلية سبيلهم إلا بعد التوبة من جميع أنواع الكفر،وبعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة،وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)} [البقرة:٢٧٨،٢٧٩] ؛فقد أخبر تعالى أن الطائفة الممتنعة إذا لم تنته عن الربا فقد حاربت الله ورسوله،والربا آخر ما حرم الله في القرآن،فما حرمه قبله أوكد،وقال تعالى:{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة:٣٣].

فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله؛فقد حارب الله ورسوله،ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله؛فقد سعى في الأرض فساداً،ولهذا تأول السلف هذه الآية على الكفار وعلى أهل القبلة حتى أدخل عامة الأئمة فيها قطاع الطريق الذين يشهرون السلاح لمجرد أخذ الأموال،وجعلوهم بأخذ أموال الناس بالقتال محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فساداً؛وإن كانوا يعتقدون تحريم ما فعلوه ويقرون بالإيمان بالله ورسوله.

فالذي يعتقد حِلَّ دماء المسلمين وأموالهم ويستحل قتالهم أولى بأن يكون محارباً لله ورسوله ساعياً في الأرض فساداً من هؤلاء،كما أن الكافر الحربي الذي يستحل دماء المسلمين وأموالهم ويرى جواز قتالهم أولى بالمحاربة من الفاسق الذي يعتقد تحريم ذلك،وكذلك المبتدع الذي خرج عن بعض شريعة رسول الله – ﷺ – وسنته واستحل دماء المسلمين المتمسكين بسنة رسول الله – ﷺ – وشريعته وأموالهم هو أولى بالمحاربة من الفاسق؛وإن اتخذ ذلك ديناً يتقرب به إلى الله،كما أن اليهود والنصارى تتخذ محاربة المسلمين ديناً تتقرب به إلى الله.[٢٠١٣]

أثر اليقين والصبر في النصر:

[٢٠١٣] – المنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص:١٢٠) والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٧٣) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٦٨) ومختصر الفتاوى المصرية (ص:١٦٧)

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.قال ابن القيم:"سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ – يَقُولُ:بالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ.ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤] [٢٠١٤].

وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ – اللَّذَيْنِ هَمَّا أَصْلُ التَّوَكُّلِ – يُوجِبَانِ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤].

وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ.كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى؛وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا:إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ؛لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}.[٢٠١٥].

فإذا قام المسلم بالحق..وكان قيامه بالله..ولله، لم يقم له شيء،ولو كادته السماوات والأرض وما فيهن لكفاه الله مؤنتها.وإنما يؤتى العبد من تفريطه أو تقصيره في هذه الأمور الثلاثة أو في بعضها.

١ – من قام في باطل لم يُنصر،وإن نُصر فلا عاقبة له،فهو مذموم مخذول.

قال الله تعالى:{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)}...[الإسراء:٢٢].

٢ – إن قام في حق،لكن لم يقم لله،وإنما قام لطلب الجاه والحمد من الناس،فهذا لا يُنصر؛لأن النصر لمن جاهد لتكون كلمة الله هي العليا.

وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق والصبر،فالصبر منصور أبداً:

[٢٠١٤] – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٥٣) ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص:١٧٦) وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٠٣) وجامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس (١/ ١٦٨)

[٢٠١٥] – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤٢)

فإن كان الصابر محقاً كانت له العاقبة الحسنة،وإن كان مبطلاً لم تكن له عاقبة.قال الله تعالى:{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [السجدة:٢٤].

٣ - إن قام بالحق معتمداً على غير الله من الأسباب لم يُنصر.قال الله تعالى:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥)} [التوبة:٢٥].

أقسام القتال:

ينقسم القتال بين الناس إلى ثلاثة أقسام:

قتال بين المسلمين والكفار...وقتال بين المسلمين مع بعضهم..وقتال بين الكفار مع بعضهم.

١ - فإذا كان القتال بين المسلمين والكفار،نَصَر الله المسلمين على الكفار بعد استكمال ما يستطيعون من قوة مقرونة بالإخلاص والتوكل على الله وحده.

١ - قال الله تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)}...[محمد:٧].

يَحُثُّ اللهُ تَعَالى المُؤْمِنينَ عَلَى الجِهَادِ،وَيُعْلِمُهُمْ بَأنَّه يَنْصُرُهُمْ إذا أخْلَصُوا النيَّةَ في قِتَالِ أعدائه،فَيَقُولُ لَهُمْ:إنَّهُمْ إذا نَصَرُوا دِينَ اللهِ نَصَرَهُمُ اللهُ عَلَى أعْدائِهِمْ،وثَّبتَ أقْدَامَهُمْ في الحَرْبِ وَفي الدِّين.[٢٥١٦]

٢ - وقال الله تعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)}...[الحج:٤٠ - ٤١].

إنَّ اللهَ قَادِرٌ وَحْدَهُ عَلَى نَصْرِ المُسْلمينَ دُونَ عَوْنٍ مِنْهَمْ،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُم فِي طَاعَةِ رَبِّهِم،وأَن يَقُومُوا بواجبِهِم فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفسِهِم وَدِينِهِ.

[٢٥١٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٣١،بترقيم الشاملة آليا)

وَيُتَابِعُ اللهُ تَعَالَى وَصْفَ الْمُؤمنينَ المَظْلُومينَ فَيَقُولُ:إِنَّهُمُ الذينَ إِذَا مَكَنَّ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ،وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ والغَلَبَةَ،وَجَعَلَ لَهُمُ العَاقِبَةَ،عَمِلُوا بأَمْرِ اللهِ،وَاجْتَنبوا مَا نَهَاهُم عَنْهُ،فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِها،وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ،وَأَمَرُوا بالمعْرُوفِ،وَحَثُّوا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللهَ،وَنَهَوْا المُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللهِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ.وَعِنْدَ اللهِ حِسَابُ النَّاسِ جَمِيعاً فِي نِهَايَةِ المَطَافِ،وَلَهُ عَاقِبَةُ الأُمُورِ،فَيجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِه.[٢٥١٧]

٢ – أما قتال المؤمنين مع بعضهم،فيجب الإصلاح بينهم،فإن لم يمكن الصلح قاتلْنا الفئة الباغية لتعود إلى الحق.

قال الله تعالى:{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)} [الحجرات:٩].

٣ – أما قتال الكفار مع بعضهم،فهؤلاء يهلك الله الظالم بالظالم،ويَكِلهم إلى أسباهم،وينصر الدولة الكافرة العادلة على الظالمة،ويسلط بعضهم على بعض،وقتلاهم في النار.

قال الله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)}...[النساء:٧٦].

الذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَشْرِ دِينِه،لاَ يَبْتَغُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللهِ.أمَّا الذينَ كَفَرُوا،فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوت)،الذينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الكُفْرَ،وَيُمَنِّيهِمُ النَّصْرَ.وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ،وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائِه.أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَهُمُ الأَعِزَّةُ،لأَنَّ اللهَ حَامِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ،وَلِذَلِكَ فَعَلَى المُؤْمِنِينَ،أَوْلِيَاءِ اللهِ،أنْ لاَ يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الكُفَّارَ،لأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ.[٢٥١٨]

وقت القتال في سبيل الله:

[٢٥١٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥١٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥١٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٩،بترقيم الشاملة آليا)

أفضل أوقات القتال أول النهار،فإن لم يكن فبعد زوال الشمس،أما إذا فاجأ العدو المسلمين،وأغار عليهم،فيجب رده وصده في أي وقت أغار فيه.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ،أَنَّهُ قَالَ:«شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،إِذَا كَانَ عِنْدَ الْقِتَالِ،فَلَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَّرَهُ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ وَتَهُبَّ الرِّيَاحُ وَيَنْزِلَ النَّصْرُ»[٢٠١٩]

حكم الإغارة ليلاً:

تجوز الإغارة على الكفار ليلاً،ويجوز قتل الكفار مع صبياهم ونسائهم في حال البَيَات،ولا يجوز قتل النساء والصبيان حال التميُّز،أما النساء فلضعفهن،وأما الصبيان فلقصورهم عن فعل الكفر،ولما في استبقائهم جميعاً من الانتفاع بهم إما بالرق،أو بالفداء فيمن يجوز أن يفادى به.

عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؟ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ "،فَقَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[٢٠٢٠]

حكم القتال في الأشهر الحُرم وعند المسجد الحرام:

لا يجوز أن نبدأ الكفار بالقتال في الأشهر الحرم،ولا عند المسجد الحرام،إلا عند الحاجة،فإن قاتلونا فيهما قاتلناهم.

والأشهر الحرم أربعة هي:(ذو القعدة،وذو الحجة،ومحرم،ورجب).

[٢٠١٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٧١)(٤٧٥٧) صحيح

[٢٠٢٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤) ٢٦ - (١٧٤٥)

[ش (الذراري) بتشديد الياء وتخفيفها لغتان التشديد أفصح وأشهر والمراد بالذراري هنا النساء والصبيان (سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين) هكذا هو في أكثرنسخ بلادنا سئل عن الذراري وفي رواية عن أهل الدار من المشركين ونقل القاضي هذه عن رواية جمهور رواة صحيح مسلم قال وهي الصواب وأما الرواية الأولى فقال ليست بشيء بل هي تصحيف قال وما بعده يبين الغلط فيه قلت (أي الإمام النووي) وليست باطلة كما ادعى القاضي بل لها وجه وتقديره سئل عن حكم صبيان المشركين الذين يبيتون فيصاب من نسائهم وصبيانهم بالقتل فقال هم من آبائهم أي لا بأس بذلك لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح وفي القصاص والديات وغير ذلك والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة(يبيتون) معنى يبيتون أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي ومنه البيات]

١ - قال الله تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)}...[التوبة:٣٦].

٢ - وقال الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:٢١٧].

٣ - وقال الله تعالى: {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)}...[البقرة:١٩١].

حكم الدعاء عند القتال:

السنة أن يستغيث المجاهدون بربهم،ويسألونه النصر،لأنه الناصر الذي يملك النصر وحده.

١ - قال الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)} [الأنفال:٩ - ١٠].

٢ - وقال الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)}...[البقرة:١٨٦].

وعَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ،مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ:عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى،فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ،يُخْبِرُهُ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ،يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ،فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ،فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»،ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ،وَقَالَ:«اللهُمَّ،مُنْزِلَ الْكِتَابِ،وَمُجْرِيَ السَّحَابِ،وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ،اهْزِمْهُمْ،وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»[٢٠٢١]

[٢٠٢١] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦٢) ٢٠ - (١٧٤٢)

[ش (الحرورية) أي لقتالهم وهم الخوارج (واسألوا الله العافية) قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة

٤ -وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا غَزَا،قَالَ:«اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي،وَنَصِيرِي بِكَ أَحُولُ،وَبِكَ أَصُولُ،وَبِكَ أُقَاتِلُ». [٢٠٢٢]

أسباب النصر على الأعداء:

كتب الله على نفسه النصر لأوليائه،ولكنه ربط هذا النصر بأمور:

١ - كمال حقيقة الإيمان بالله في قلوب المجاهدين في سبيل الله.قال الله تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)} [الروم:٤٧].

وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين وجعله لهم حقا،فضلا وكرما.وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكا ولا ريبا.وكيف والقائل هو الله القوي العزيز الجبار المتكبر،القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.يقولها سبحانه معبرة عن إرادته التي لا ترد،وسنته التي لا تتخلف،وناموسه الذي يحكم الوجود.

وقد يبطئ هذا النصر أحيانا - في تقدير البشر - لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله،ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله.والله هو الحكيم الخبير.يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه،وفق مشيئته وسنته.وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف.ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح.ووعده القاطع واقع عن يقين،يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين. [٢٠٢٣]

٢ - استيفاء مقتضيات الإيمان في حياتهم،وهي الأعمال الصالحة.قال الله تعالى:{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)}...[الحج:٤٠ - ٤١].

(فإذا لقيتموهم فاصبروا) هذا حث على الصبر والقتال وهو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}(واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) معناه ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله فاحضروا فيه بصدق وأثبتوا]

[٢٠٢٢] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢١٧)(٦٥٦٤) صحيح

[٢٠٢٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٢٧)

٣ – استكمال عدة الجهاد التي يستطيعونها.قال الله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)}...[الأنفال:٦٠].

٤ – بذل الجهد الذي في وسعهم،وبحسب كمال الإيمان يكون كمال الجهد وكمال النصر.قال الله تعالى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)}...[العنكبوت:٦٩].

٥ – الثبات،وكثرة ذكر الله،وطاعة الله ورسوله،وعدم التنازع،ولزوم الصبر.قال الله تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [الأنفال:٤٥ – ٤٦].

٦ – اجتناب المعاصي،وعدم العجب والبطر والرياء.

قال الله تعالى:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)}...[آل عمران:١٥٢].

لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَالُمسْلِمُونَ إِلَى الَمدِينَةِ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أحُد قَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ:مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذا وَقَدْ وَعَدَنَا اللهُ تَعَالَى النَّصْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَفِيهَا يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ:إِنَّهُ صَدَقَكُمْ مَا وَعَدَكُمْ بِهِ مِنْ نَصْر،فَكُنْتُمْ تَقْتُلُونَهُمْ قَتْلاً ذَرِيعاً بِإِذْنِ اللهِ،وَسَلَّطَكُمْ عَلَيهِمْ،حَتَّى إذَا أَصَابَكُمُ الضَّعْفُ وَالفَشَلُ،وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ الرَّسُول،وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ،(وَهُوَ مَا وَقَع لِلرُّمَاةِ الذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ أنْ يَلْزَمُوا مَوَاقِعَهُمْ فَتَخَلَّوا عَنْهَا)،وَكَانَ اللهُ قَدْ أَرَاكُمُ الظَّفَرَ،وَهُوَ مَا تُحِبُّونَهُ،فَكَانَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا،وَيَطْمَعُ فِي المَغْنَمِ،حِينَ رَأَوْا هَزِيمَةَ الُمشْرِكِينَ،فَتَرَكُوا مَوَاقِعَهُمْ عَلَى الجَبَلِ،وَمِنْكُمْ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الآخِرَةَ فِي قِتَالِهِ الُمشْرِكِينَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى المَغْنَمِ،فَثَبَتَ مَكَانَهُ وَقَاتَلَ،ثُمَّ أَدَالَ اللهُ الُمشْرِكِينَ

عَلَيكُمْ،وَجَعَلَ لَهُمُ الغَلَبَةَ عَلَيْكُمْ لِيَخْتَبِرَكُمْ،وَيَمْتَحِنَ ثَبَاتَكُمْ عَلَى الإِيمَانِ،وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ ذَلكَ الفِعْلَ،وَهُوَ عِصْيَانُ أَمْرِ الرَّسُولِ،وَالهَرَبُ مِنَ المَعْرَكَةِ،وَمَحَا أَثَرَهُ مِنْ نُفُوسِكُمْ،حِينَمَا أَظْهَرْتُمُ النَّدَمَ،وَرَجَعْتُمْ إِلَى اللهِ،حَتَّى صِرْتُمْ وَكَأَنَّكُمْ لَمْ تَفْشَلُوا.وَلَمْ يَسْمَحِ اللهُ بِاسْتِئْصَالِكُمْ لأَنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ.[2524]

وقال الله تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)} [الأنفال:٤٧].

وَعَلَيْكُمْ،أَيُّها المُؤْمِنُونَ،أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى،وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ،وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِمَا،وَلاَ تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمْ المُشْرِكِينَ الذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطَراً بِمَا أُوتُوا مِنَ النَّعْمَةِ،وَمُرَاءَاةً لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بِهِمْ،وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالغِنَى وَالقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ..وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِم الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ،وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ،وَالحَدَّ مِنْ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ،وَاللهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ،وَلاَ يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيءٌ،وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.[2525]

٧ - كمال اليقين على أن النصر بيد الله وحده لا شريك له.قال الله تعالى:{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)} [آل عمران:١٦٠].

النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ،فَإِنْ قَدَّرَ اللهُ نَصْرَكُمْ فَلَنْ يَغْلِبَكُمْ أَحَدٌ،كَمَا وَقَعَ يَوْمَ بَدْرٍ،حِينَ عَمِلْتُمْ بِسُنَّتِهِ.وَإِنْ قَدَّرَ خُذْلاَنَكُمْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ مِنَ الفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ وَالعِصْيَانِ،كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ،فَلاَ نَاصِرَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ.وَعَلَى المُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ،وَأَنْ يُسَلِّمُوا أُمُورَهُمْ إليه.[2526]

وقال الله تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)} [الأنفال:٩ - ١٠].

[2524] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٥،بترقيم الشاملة آليا)

[2525] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٨،بترقيم الشاملة آليا)

[2526] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٣،بترقيم الشاملة آليا)

حِينَمَا التَقَت الفِئَتَان،المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ،وَجَدَ المُسْلِمُونَ المُشْرِكِينَ كَثِيرِي العَدَدِ،فَاسْتَغَاثَ الرَّسُولُ بِرَبِّهِ،وَقَالَ:اللَّهُمَّ أَنْجِزْنِي وَعْدَكَ الذِي وَعَدْتَنِي.فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ.وَفِيهَا يُعْلِمُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهِ وَدُعَاءِ المُسْلِمِينَ،وَأَنَّهُ سَيَمُدُّهُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ يَأْتُونَهُمْ مَدَداً يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،أَيْ يَأْتِي بَعْضُهُمْ إِثْرَ بَعْضٍ.وَيَذْكُرُ تَعَالَى:أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ إِرْسَالَ المَلاَئِكَةِ لإِمْدَادِ المُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ إلاَّ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ،وَتَطْمِيناً لِقُلُوبِهِمْ،بِأَنَّهُمْ سَيَنْتَصِرُونَ،وَتَثْبِيتاً لأَقْدَامِهِمْ أَثْنَاءَ القِتَالِ،لأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِمْ بِدُونِ ذَلِكَ،لأَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَحْدَهُ،فَهُوَ العَزِيزُ الجَانِبِ،الحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ.[٢٥٢٧]

٨ – كمال اليقين على أن الله لا ينصر الكفار على المسلمين أبداً.قال الله تعالى:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)} [النساء:١٤١].

إِنَّهُ لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سُلْطَاناً وَسَبِيلاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا،مَا دَامُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ،قَائِمِينَ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ،وَإِنْ حَقَّقَ الكَافِرُونَ بَعْضَ الظَّفْرِ،فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ،فَالعَاقِبَةُ لِلْحَقِّ دَائماً،وَالبَاطِلُ إلى زَوَالٍ.كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ سُلْطَاناً عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي الآخِرَةِ.[٢٥٢٨]

إنه وعد من الله قاطع.وحكم من الله جامع:أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة،ونظاما للحكم،وتجردا لله في كل خاطرة وحركة،وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة..فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا..

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها! وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك،أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين،ولم تلحق بهم في تاريخهم كله،إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان.إما في الشعور وإما في العمل – ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة

[٢٥٢٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٧٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٢٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٣٤،بترقيم الشاملة آليا)

ومن كل شائبة – وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين – حين يوجدون!

ففي «أحد» مثلا كانت الثغرة في تـرك طاعـة الرسـول – ﷺ – وفي الطمـع في الغنيمة.وفي «حنين» كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسـيان السـند الأصيل! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا..نعرفه أو لا نعرفه..أما وعد الله فهو حق في كل حين.نعم.إن المحنة قد تكـون للابتلاء..ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة،هي استكمال حقيقة الإيمان،ومقتضـياته مـن الأعمال فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه،جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين.

على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك..إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح،وكلال العزيمة.فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفـوس همودا وكلالا وقنوطا.فأما إذا بعثت الهمة،وأذكت الشعلة،وبصرت بالمزالق،وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق..فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد.ولـو طال الطريق!

كذلك حين يقرر النص القرآني:أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا..فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود.وإنما يدعو الجماعـة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصـورا وشـعورا وفي حياتها واقعـا وعملا.وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها.فالنصر ليس للعنوانات.إنما هو للحقيقة التي وراءها..

وليس بيننا وبـين النصـر في أي زمـان وفي أي مكـان،إلا أن نسـتكمل حقيقـة الإيمان.ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك..ومن حقيقة الإيمـان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة.ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعـداء وألا نطلـب العزة إلا من الله.ووعد الله هذا الأكيد،يتفق تماما مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون..

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى،التي لا تضعف ولا تفنى..وإن الكفر انقطاع عـــن تلـــك القوة وانعزال عنها..ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية،أن تغلب قوة موصـــولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعا.غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان..إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية.ذات أثر في الـــنفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل.وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حـــين تواجـــه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها..ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهـــر فإن «حقيقة» الكفر تغلبه،إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها..لأن حقيقة أي شيء أقوى من «مظهر» أي شيء.ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان!

إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق.وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل.مهما يكن هذا الباطل مـــن الضـــخامة الظاهريـــة الخادعة للعيون..«بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ»..«وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا»..[2529]

وقال الله تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)} [الروم:٤٧].

أسباب إبطاء النصر:

قد يؤخر الله النصر للمؤمنين لأسباب لا بد من توفرها منها:

١ – أن تكون بُنْية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد،و لم تحشد بعد طاقتها اللازمة.

٢ – وقد يبطئ النصر حتى يبذل المؤمنون آخر ما في وسعهم من طاقة وقوة،فلا يبقـــى عزيز ولا غالٍ إلا بَذَلته رخيصاً في سبيل الله.

٣ – وقد يتأخر النصر حتى تجرب الأمة آخر ما في طوقها مـــن قوة،لتـــدرك أن قوتهـــا وحدها لا تكفل النصر بدون سند من الله.

٤ – وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله.

٥ – وقد يبطئ النصر لأن في الشر الذي يكافحه المؤمنون بقية من خير،يريد الله أن يجرد الشر منها ثم يهلكه.

[2529] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١١٥٣)

٦ - وقد يبطئ النصر لأن المؤمنين لم يتجردوا بـإخلاص في بـذلهم وتضـحياتهم لله ولدعوته.

٧ - وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي يحاربه المؤمنون لم ينكشف زيفـه للنـاس،و لم يقتنعوا بعد بفساده.

٨ - وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الحق والخير،فيبقـى الصـراع قائماً،حتى تتهيأ النفوس لاستقباله ونحو ذلك من الأسباب.[٢٥٣٠]

روح القتال في سبيل الله:

القتال تكرهه النفوس،ولكن النفوس المؤمنة تستلذه إذا كان في سبيل الله؛لما فيه إحقـاق الحق،ودفع الباطل،ورفع الظلم،وحفظ الأمة،وإقامـة العـدل،ولما فيـه مـن الثـواب العظيم،ورضوان الله،ومحبة الله.

١ - قال الله تعالى:{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)}...[النساء:٧٤].

٢ - وقال الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُـمُ الْجَنَّـةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ (١١١)}...[التوبة:١١١].

٣ - وقال الله تعالى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)}...[آل عمران:١٦٩].

٤ - وقال الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)} [الصف:٤].

حكم التدمير والتخريب لممتلكات الأعداء:

[٢٥٣٠] - انظر في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٣٧)

يجوز عند الضرورة أو الحاجة أو المصلحة إحراق حصون الأعداء بالنار،وتخريب بيوقم وهدمها عليهم،وقطع أشجارهم،وإفساد زروعهم؛لما في ذلك من كسر شوكتهم،وتوهين عزيمتهم،وتفريق جمعهم.

ويجوز ضرب الكفار بالسلاح ولو تترسوا بالمسلمين؛للضرورة،وسداً لذريعة الفساد التي قد تترتب على ترك قتلهم.

١ - قال الله تعالى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}...[الحشر:٥].

لَمَّا حَاصَرَ الرَّسُولُ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ فِي حُصُونِهِمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخْلِهِمْ إِرْعَاباً لَهُمْ،فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُونَ:إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الفَسَادِ،فَمَا بَالُكَ تَأْمُرُ بِقَطْعِ الأَشْجَارِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَفِيهَا يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ:إِنَّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ،وَمَا تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعٍ فَالجَمِيعُ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ،وَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلاَ حَرَجَ،وَفِيهِ نِكَايَةٌ وَخِزْيٌ وَنكَالٌ لِلفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ.[٢٥٣١]

٢ - وقال الله تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } [الحشر:٢].

الراية التي يقاتل المسلم تحتها:

لا يجوز للمسلم أن يقاتل الكفار إلا تحت راية إمام المسلمين،فإن لم يوجد فتحت راية المجاهدين،فإن وُسِّد الأمر إلى غير أهله،وحَكَم المسلمين كافر،و لم توجد راية شرعية قادرة على النكاية بالعدو،فلا حرج من القتال تحت راية ذلك الحاكم الكافر؛لصد عدوان الكفار،وحماية بلاد المسلمين،وحفظ دينهم وأعراضهم.

[٢٥٣١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٩،بترقيم الشاملة آليا)

وتجوز مناصرة المسلمين لدولة كافرة على دولة أخرى كافرة إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للإسلام والمسلمين،ودرء الشر عنهم،يقدِّرها أهل العلم والورع منهم[٢٥٣٢].

فالشرع قد جاء بتحصيل المصالح وتكميلها،ودرء المفاسد وتقليلها،وفعل خير الخيرين،وأهون الشرين،ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

١ - قال الله تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)}...[النساء:٥٩].

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَتِهِ تَعَالَى،وَبِالعَمَلِ بِكِتَابِهِ،وَبِإِطَاعَةِ رَسُولِهِ،لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَيُبَلِّغُ عَنِ اللهِ شَرْعُ وَأَوَامِرَهُ،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإِطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ،مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءِ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ،مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي الحَاجَاتِ،وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ،فَهَؤُلاءِ إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أَنْ يُطَاعُوا فِيهِ،بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ،وَأَنْ لاَ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ،وَلاَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ التِي عُرِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ،وَأَنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثِهِمْ فِي الأَمْرِ،وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُكْرَهِينَ عَلَيهِ بِقُوَّةِ أَحَدٍ أَوْ نُفُوذِهِ.

وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ المُسْلِمُونَ فَمِنَ الوَاجِبِ رَدُّهُ إِلى كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ،وَيَحْتَكِمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَيْسَ مُؤْمِناً بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ.وَمَنْ يَحْتَكِم إلى شَرْعِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلاً (تَأْوِيلاً)،لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إلاَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ،وَالاحْتِكَامِ إلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْتِلافَ المُؤَدِّي إِلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَلِ.[٢٥٣٣]

٢ - وقال الله تعالى:{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)}...[آل عمران:١٣٩].

[٢٥٣٢] - انظر التفاصيل في كتابي الخلاصة في **حكم الاستعانة بالكفار في القتال**

[٢٥٣٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

٣ - وقال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)} [الممتحنة:٨].

إنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَنْهَاكُمْ عَنِ الإِحْسَانِ إِلَى الكُفَّارِ الذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ،وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ،وَلَمْ يُعَاوِنُوا فِي إِخْرَاجِكُمْ مِنْهَا،وَلاَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ إِكْرَامِهِمْ،وَمَنْحِهِمْ صِلَتَكُمْ،لأَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَهْلَ البِرِّ والتَّوَاصُلِ.[٢٥٣٤]

٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي،وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي،وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ،فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ»[٢٥٣٥].

الاِسْتِعَانَةُ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ الاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ:فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْمَذْهَبِ وَالشَّافِعِيَّةُ مَا عَدَا ابْنَ الْمُنْذِرِ،وَابْنَ حَبِيبٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ إِلَى جَوَازِ الاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ الْحَاجَةِ.

وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ بِأَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَعْرِفَ الإِمَامُ حُسْنَ رَأْيِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَيَأْمَنَ خِيَانَتَهُمْ،وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ أَنْ يَكْثُرَ الْمُسْلِمُونَ بِحَيْثُ لَوْ خَانَ الْمُسْتَعَانُ بِهِمْ وَانْضَمُّوا إِلَى الَّذِينَ يَغْزُونَهُمْ،أَمْكَنَهُمْ مُقَاوَمَتُهُمْ جَمِيعًا.وَشَرَطَ الْمَاوَرْدِيُّ:أَنْ يُخَالِفُوا مُعْتَقَدَ الْعَدُوِّ.

[٢٥٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٣٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٥٣٥] - صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٥٧)

-[ش (الأمير) أمير السرية أو ولاة الأمور مطلقا.(الإمام) الحاكم الأعلى القائم بشؤون الأمة.(جنة) سترة ووقاية لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس من أذى بعضهم بعضا.(يقاتل من ورائه) يقاتل معه الكفار والبغاة وسائر أهل الفساد.(يتقى به) يحتمى به ويتقوى وقيل يرجع إليه في الرأي والتدبير.(بغيره) أمر بغير تقوى الله تعالى وعدله.(فإن عليه منه) فإن الوبال الحاصل منه عليه لا على المأمور]

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ – مَا عَدَا ابْنَ حَبِيبٍ – وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمُ ابْنُ الْمُنْذِرِ،وَالْجُوزَجَانِيُّ:لاَ تَجُوزُ الاِسْتِعَانَةُ بِمُشْرِكٍ.[2536]

وبعد هذا العرض لمذاهب الأئمة،وأقوال الفقهاء يمكن أن نقسّم الأقوال في المسألة إلى قولين:

القول الأول:جواز الاستعانة بغير المسلمين في القتال ضد الكفار إذا دعت الحاجة لذلك بشرط أن يأمن المسلمون جانب الكفار المستَعان بهم،وأن يكون حكم الإسلام هو الظاهر بعد غلبتهم على الكفار،وهذا مذهب الحنفيّة والشافعية،وإحدى الروايتين في مذهب الحنابلة.

القول الثاني:تحريم الاستعانة بغير المسلمين في قتال الكفار إلا إذا دعت الضرورة للاستعانة بهم،كقلّة عدد المسلمين،وهذا مذهب المالكية،والرواية المقدَّمة عند الحنابلة.

وفي الموسوعة الفقهية الكويتية:"ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الاِسْتِعَانَةُ بِالْكُفَّارِ فِي الْجِهَادِ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ..."[2537]

أولا– أدلة المجيرين:

استدل المجيزون للاستعانة بغير المسلمين في القتال ضد الكفار بأدلة من الأحاديث والآثار والمعقول:

١–عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ:«هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»،فَلَمَّا حَضَرَ القِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،الَّذِي قُلْتَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،فَإِنَّهُ قَدْ قَاتَلَ اليَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِلَى النَّارِ»،قَالَ:فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ،فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ،إِذْ قِيلَ:إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ،وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا،فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الجِرَاحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ،فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺبِذَلِكَ،فَقَالَ:«اللَّهُ أَكْبَرُ،أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ

[2536] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٥، والمبسوط ١٠ / ٣٣، وفتح القدير ٥ / ٢٤٢، ٢٤٣ والحطاب ٣ / ٣٥٢، والمدونة ٣ / ٤٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢١، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، والمغني ٨ / ٤١٤، وكشاف القناع ٣ / ٤٨ .

[2537] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٥/ ٢٩)

وَرَسُولُهُ»،ثُمَّ أَمَرَ بِلاَلًا فَنَادَى بِالنَّاسِ:«إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ،وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»[٢٥٣٨].

٢- عَنِ الْهُدْنَةِ،قَالَ:قَالَ جُبَيْرٌ:انْطَلِقْ بِنَا إِلَى ذِي مِخْبَرٍ،رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ:فَأَتَيْنَاهُ فَسَأَلَهُ جُبَيْرٌ عَنِ الْهُدْنَةِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:"سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا،فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ،فَتُنْصَرُونَ،وَتَغْنَمُونَ،وَتَسْلَمُونَ،ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ،فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ،فَيَقُولُ:غَلَبَ الصَّلِيبُ،فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَيَدُقُّهُ،فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ،وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ[٢٥٣٩]"

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،قَالَ:قَالَ جُبَيْرٌ:انْطَلِقْ بِنَا إِلَى ذِي مِخْبَرٍ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺفَأَتَيْنَاهُ،فَسَأَلَهُ جُبَيْرٌ عَنِ الْهُدْنَةِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:«سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا،وَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ»[٢٥٤٠]

٣- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،لَا نَعْلَمُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ جَيَّشُوا لَنَا،فَاسْتَقْبَلْنَا وَادِيَ حُنَيْنٍ،فِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ،وَهُوَ وَادِي أَجْوَفُ،مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ،إِنَّمَا يَنْحَدِرُونَ فِيهِ انْحِدَارًا،قَالَ:فَوَاللَّهِ إِنَّ النَّاسَ لَيُتَابِعُونَ،لَا يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ،إِذْ فَجِئَهُمُ الْكَتَائِبُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ،فَلَمْ يَنْتَظِرِ النَّاسُ أَنِ انْهَزَمُوا رَاجِعِينَ،قَالَ:وَانْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺذَاتَ الْيَمِينِ،وَقَالَ:«أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟،أَنَا رَسُولُ اللَّهِ،وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»،وَكَانَ أَمَامَ هَوَازِنَ رَجُلٌ ضَخْمٌ،عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ،فِي يَدِهِ [ص:٩٦] رَايَةٌ سَوْدَاءُ،إِذَا أُدْرِكَ طَعَنَ بِهَا،وَإِذَا فَاتَهُ شَيْءٌ بَيْنَ يَدَيْهِ،دَفَعَهَا مِنْ خَلْفِهِ،فَرَصَدَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ،وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كِلَاهُمَا يُرِيدُهُ،قَالَ فَضَرَبَ عَلِيٌّ عُرْقُوبَيِ الْجَمَلِ،فَوَقَعَ عَلَى عَجُزِهِ،وَضَرَبَ الْأَنْصَارِيُّ سَاقَهُ،فَطَرَحَ قَدَمَهُ بِنِصْفِ

[٢٥٣٨] - صحيح البخاري (٤/ ٧٢)(٣٠٦٢) وصحيح مسلم (١/ ١٠٥)(١٧٨ - (١١١)

[ش(شهدنا) حضرنا.(خيبر) أي فتحها.(يرتاب) يشك ويرتد عن دينه.(ليؤيد) ينصر ويحمي.(الفاجر) من الفجور وهو الانطلاق في المحرمات والمعاصي]

[٢٥٣٩] - سنن أبي داود (٤/ ١٠٩)(٤٢٩٢) صحيح

[٢٥٤٠] - سنن أبي داود (٣/ ٨٦)(٢٧٦٧) صحيح

سَاقه،فَوَقَعَ،وَاقْتَتَلَ النَّاسُ،حَتَّى كَانَت الْهَزِيمَةُ،وَكَانَ أَخُو صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لِأُمِّه،قَالَ أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ،وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ يَوْمَئذ مُشْرِكًا في الْمُدَّة،الَّتي ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّـه ﷺ،فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ:اسْكُتْ فَضَّ اللَّهُ فَاكَ،فَوَاللَّه لَأَنْ يَلِيَنِي رَجُلٌ منْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ منْ أَنْ يَلِيَنِي رَجُلٌ منْ هَوَازِنَ"[2541].

٤- ما جاء في كتب عَنِ ابْنِ شِهَاب أَنَّهُ قَالَ:بَلَغَني أَنَّ رَسُولَ اللَّـه ﷺ كَتَبَ بِهَذَا الْكتَاب:«هَذَا كتَابٌ منْ مُحَمَّد النَّبِيِّ رَسُول اللَّه ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وَالْمُسْلمينَ منْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْربَ،وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ،فَحَلَّ مَعَهُمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ،أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحدَةٌ منْ دُون النَّاس.الْمُهَاجِرُونَ منْ قُرَيْشٍ [ص:٤٦٧] عَلَى ربَاعَتهمْ،يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَبَنُو عَوْف عَلَى ربْعَاتهمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَبَنُو الْخَزْرَجِ عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَبَنُو سَاعدَةَ عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَبَنُو جُشَمٍ وَالنَّجَا عَلَى ربَاعَتهمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَبَنُو النَّجَّار عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْف عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وَبَنُو النَّبِيت عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وَبَنُو أَوْسٍ عَلَى ربَاعَتهمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائفَة [ص:٤٦٨] منْهُمْ تَفْدي عَانيَهَا بِالْمَعْرُوف وَالْقسْط بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وَأَنَّ الْمُؤْمنينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا منْهُمْ،أَنْ يُعينُوهُ بِالْمَعْرُوف في فدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ،وَلَا يُحَالفُ مُؤْمنٌ مَوْلَى مُؤْمنٍ دُونَهُ،وَأَنَّ الْمُؤْمنينَ وَالْمُتَّقينَ عَلَى مَنْ بَغَى منْهُمْ،أَوِ ابْتَغَى دَسيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمنينَ،وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِمِ جَميعهمْ وَلَوْ كَانَ وَلَدَ

[2541] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٩٥)(٤٧٧٤) صحيح

أَحَدِهِمْ لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ،وَلَا يُنْصَرُ كَافِرٌ عَلَى مُؤْمِنٍ،وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ،وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنَ الْيَهُودِ،فَإِنَّ لَهُ الْمَعْرُوفَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ،وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ،وَلَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدَلٍ بَيْنَهُمْ،وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ،وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ،وَلَا يُعِينُهَا عَلَى مُؤْمِنٍ،وَأَنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ،إِلَّا أَنْ يُرْضِيَ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ بِالْعَقْلِ،وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةً،وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،أَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيَهُ،فَمَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ [ص:٤٦٩] اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ،وَأَنَّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ،وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ،وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ،وَمَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ الْأَوْسِ مِثْلَ ذَلِكَ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ،فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ،عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ،وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّ بَيْنَكُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،وَأَنَّ الْمَدِينَةَ جَوْفُهَا حَرَمٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ،فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ،وَأَنَّهُمْ إِذَا دَعَوُا الْيَهُودَ إِلَى صُلْحِ حَلِيفٍ لَهُمْ بِالْأُسْوَةِ فَأَنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ [ص:٤٧٠] وَإِنْ دَعَوْنَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،إِلَّا مَنْ حَارَبَ الدِّينَ،وَعَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتَهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ،وَأَنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ مَعَ الْبِرِّ الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ،مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَنِي الشُّطْبَةِ بَطْنٌ مِنْ جَفْنَةَ،وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ،وَلَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ،وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ،لَا يُحَوَّلُ

الْكِتَابُ عَنْ ظَالِمٍ وَلَا آثِمٍ،وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ،وَمَنْ قَعَدَ بِالْمَدِينَةِ أُمِّنَ أَبَرَّ الْأَمْنِ،إِلَّا ظَالِمًا وَآثِمًا،وَأَنَّ أَوْلَاهُمُ بِهَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْبَرُّ الْمُحْسِنُ»[٢٠٤٢]

فهذا يدل على جواز الاستعانة باليهود في الدفاع عن دار المسلمين.

٥- ثَبَتَ عَنْهُ ﷺأَنَّهُ صَالَحَ أَهْلَ مَكّةَ عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ وَدَخَلَ حُلَفَاؤُهُمْ مِنْ بَنِي بَكْرٍ مَعَهُمْ وَحُلَفَاؤُهُ مِنْ خُزَاعَةَ مَعَهُ فَعَدَتْ حُلَفَاءُ قُرَيْشٍ عَلَى حُلَفَائِهِ فَغَدَرُوا بِهِمْ فَرَضِيَتْ قُرَيْشٌ وَلَمْ تُنْكِرْهُ فَجَعَلَهُمْ بِذَلِكَ نَاقِضِينَ لِلْعَهْدِ وَاسْتَبَاحَ غَزْوَهُمْ مِنْ غَيْرِ نَبْذِ عَهْدِهِمْ إلَيْهِمْ لِأَنّهُمْ صَارُوا مُحَارِبِينَ لَهُ نَاقِضِينَ لِعَهْدِهِ بِرِضَاهُمْ وَإِقْرَارِهِمْ لِحُلَفَائِهِمْ عَلَى الْغَدْرِ بِحُلَفَائِهِ وَأَلْحَقَ رِدْأَهُمْ فِي ذَلِكَ بِمُبَاشِرِهِمْ .[٢٠٤٣]

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ:لَمَّا قَدِمَ عَمْرُو بْنُ الزُّبَيْرِ مَكَّةَ لِقِتَالِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ جِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ:يَا هَذَا إِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺحِين افْتَتَحَ مَكَّةَ،فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ عَدَتْ خُزَاعَةُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَتَلُوهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ،فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِينَا خَطِيبًا فَقَالَ:"يأيها النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خلق السَّمَوَات وَالْأَرْضَ،فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا وَلَا يعضد فِيهَا شَجرا، لم تحل لِأَحَد كَانَ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَد يَكُونُ بعدى،وَلم تحل لي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا،أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ،فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ،فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقد قَاتَلَ فِيهَا فَقُولُوا:إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ وَلَمْ يُحِلَّهَا لَكُمْ،يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقَتْلِ فَلَقَدْ كَثُرَ إِنْ نَفَعَ،لَقَدْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ،فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ،إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ."ثُمَّ وَدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ.[٢٠٤٤]

[٢٠٤٢] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦)(٧٥٠ و٥٠٨) والأموال للقاسم بن سلام (ص:١٦٦)(٣٢٨) و(ص:٢٦٠)(٥١٨) صحيح مرسل

المعاقل:الديات= العاني:الأسير أو صاحب الدين أو المريض= القسط:العدل= القَوَد:القصاص ومجازاة الجاني بمثل صنيعه

[٢٠٤٣] - زاد المعاد - موافق للمطبوع (٥/ ٨٥)

[٢٠٤٤] - إمتاع الأسماع (١/ ٣٩٥) والروض الأنف ت السلامي (٧/ ٢٣٦) والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٧٦٤) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٧٨) والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٧٩) والسيرة النبوية لابن

٦- عَنِ الزُّهْرِيِّ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺغَزَا بِنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ فَأَسْهَمَ لَهُمْ.[٢٠٤٥]
وعَنِ الزُّهْرِيِّ ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ يَغْزُو بِالْيَهُودِ فَيُسْهِمُ لَهُمْ كَسِهَامِ الْمُسْلِمِينَ.[٢٠٤٦]
وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺيَغْزُو بِالْيَهُودِ فَيُسْهِمُ لَهُمْ.[٢٠٤٧]
وعَنِ الشَّيْبَانِيِّ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ غَزَا بِقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ فَرَضَخَ لَهُمْ.[٢٠٤٨]

٧- عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَا:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺزَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي بِضْعِ عَشْرَةَ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ،قَلَّدَ النَّبِيُّ ﷺالْهَدْيَ،وَأَشْعَرَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ،وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ يُخْبِرُهُ عَنْ قُرَيْشٍ،وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺحَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنُهُ الْخُزَاعِيُّ،فَقَالَ:إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَجَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا،وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَشِيرُوا عَلَيَّ أَتَرَوْنَ بِأَنْ أَمِيلَ إِلَى ذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَنُصِيبَهُمْ؟ فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ،وَإِنْ نَجَوْا يَكُونُوا عُنُقًا قَطَعَهَا اللهُ،أَمْ تَرَوْنَ أَنْ أَؤُمَّ الْبَيْتَ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ؟"فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ يَا نَبِيَّ اللهِ،إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَتَرَوَّحُوا إِذًا»[٢٠٤٩]

قال ابن القيم معلقا على صلح الحديبية:"وَمِنْهَا:أَنّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْمُشْرِكِ الْمَأْمُونِ فِي الْجِهَادِ جَائِزَةٌ عِنْدَ الْحَاجَةِ لِأَنّ عَيْنَهُ الْخُزَاعِيّ كَانَ كَافِرًا إذْ ذَاكَ وَفِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ أَنّهُ أَقْرَبُ إلَى اخْتِلَاطِهِ بِالْعَدُوّ وَأَخْذِهِ أَخْبَارَهُمْ ."[٢٠٥٠]

كثير (٣/ ٥٧٩) ودلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٥/ ٨٣) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٥/ ٢٥٦) وسيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٤١٥)

[٢٠٤٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٩٣)(٣٣٨٣٥) صحيح مرسل

[٢٠٤٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٩٣)(٣٣٨٣٦) صحيح مرسل

[٢٠٤٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٩٤)(٣٣٨٣٧) صحيح مرسل

[٢٠٤٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٩٤)(٣٣٨٣٨) فيه انقطاع

[٢٠٤٩] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٢٥)(٨٧٨٩) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٢١٦)(٤٨٧٢) صحيح

[٢٠٥٠] - زاد المعاد - موافق للمطبوع (٣/ ٢٦٥)

وقال الحافظ في القتح:"وَفِيهِ جَوَازُ اسْتِنْصَاحِ بَعْضِ الْمُعَاهَدِينَ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا دَلَّتِ الْقَرَائِنُ عَلَى نُصْحِهِمْ وَشَهِدَتِ التَّجْرِبَةُ بِإِيثَارِهِمْ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ جَوَازُ اسْتِنْصَاحِ بَعْضِ مُلُوكِ الْعَدُوِّ اسْتِظْهَارًا عَلَى غَيْرِهِمْ وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَلَا مُوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بَلْ مِنْ قَبِيلِ اسْتِخْدَامِهِمْ وَتَقْلِيلِ شَوْكَةِ جَمْعِهِمْ وَإِنْكَاءِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ جَوَازُ الِاسْتِعَانَةِ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ."[2551]

٨- ومن المعقول أن الاستعانة بغير المسلمين عند الحاجة بمنزلة الاستعانة بالكلاب،وفي شرح السير:"وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ فِي الْقِتَالِ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِعَانَةِ بِالْكِلَابِ،أَوْ كَأَنَّ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي قَهْرِ الْمُشْرِكِينَ،حَيْثُ يُقَاتِلُهُمْ بِمَنْ يُوَافِقُهُمْ فِي الِاعْتِقَادِ.".[2552]

وقال أيضاً:"وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِعَانَةِ بِالْكِلَابِ"[2553]

ثانيا- أدلة المانعين:

واستدل المانعون للاستعانة بغير المسلمين في قتال الكفار بأدلة من القرآن والسنة والمعقول:

١- من القرآن الكريم:

حيث شدد سبحانه وتعالى في النهي عن موالاة الكفار والركون إليهم واتخاذهم أولياء وأصدقاء في كثير من آيات الكتاب العزيز فمن ذلك قوله:{ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]،وقال سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [المائدة:٥١].وقال سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ

[2551] -فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٣٨)

[2552] - شرح السير الكبير (ص:٢٥٧)

[2553] - شرح السير الكبير (ص:٦٨٨)

كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران:١١٨].وقال سبحانه وتعالى:{ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } [الممتحنة:١]،فهذه الآيات وأمثالها كثيرة في الكتاب العزيز،كلها تحذر من الركون إلى الكافرين وموالاتهم واتخاذهم أصدقاء،والاستعانة بالكفار لا تتم إلا بموالاتهم والركون إليهم.

ب- من السنة النبوية:

١- عَنْ عَائِشَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهَا قَالَتْ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺقِبَلَ بَدْرٍ،فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ،فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺحِينَ رَأَوْهُ،فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ [ص:١٤٥٠]،وَأُصِيبَ مَعَكَ،قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِه؟"قَالَ:لَا،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَتْ:ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺكَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَ:ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ:«تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِه؟"قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَانْطَلِقْ»[٢٥٥٤]

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ»[٢٥٥٥]

٢- عن خُبَيْبَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خُبَيْبٍ،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺوَهُوَ يُرِيدُ غَزْوًا أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي وَلَمْ نُسْلِمْ،فَقُلْنَا:إِنَّا نَسْتَحِي أَنْ يَشْهَدَ قَوْمُنَا

[٢٥٥٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٠)١٥٠ - (١٨١٧)

[ش (بحرة الوبرة)وهو موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة(حتى إذا كنا بالشجرة) هكذا هو في النسخ حتى إذا كنا فيحتمل أن عائشة كانت مع المودعين فرأت ذلك ويحتمل أنها أرادت بقولها كنا كان المسلمون]

[٢٥٥٥] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٨٥)(٨٧٠٧) صحيح

مَشْهَدًا لَمْ نَشْهَدْهُ مَعَهُمْ.قَالَ:"وَأَسْلَمْتُمَا؟ "قُلْنَا:لَا.قَالَ:"فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ "[2556].

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺخَرَجَ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى [ص:٩٨] خَلَّفَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَى كَتِيبَةً حَسْنَاءَ فَقَالَ:"مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا:بَنِي قَيْنُقَاعٍ وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَهُوَ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ فَقَالَ:«أَسْلَمُوا؟"قَالُوا:لَا،قَالَ:«قُولُوا لَهُمُ ارْجِعُوا؛ فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»[2557]

قال الشعيبي رحمه الله:"هذه النصوص كما ترى غاية في الصحة والصراحة على تحريم الاستعانة بالمشركين في الحرب والقتال،فلا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يستعين بكافر أو يجيز الاستعانة بهم وهو يعلم هذه النصوص الصحيحة الصريحة.وكما ثبت بالكتاب والسنة منع الاستعانة بالكفار كما ترى فكذلك الصحابة رضوان الله عليهم ذهبوا إلى منع الاستعانة بالكفار ومن ذلك ما ثبت عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ،أَنَّ أَبَا مُوسَى،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفَدَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ،فَأَعْجَبَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا رَأَى مِنْ حِفْظِهِ،فَقَالَ:"قُلْ لِكَاتِبِكَ يَقْرَأْ لَنَا كِتَابًا "،قَالَ:إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ،لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ،فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَهَمَّ بِهِ،وَقَالَ:"لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ،وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ،وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ "

وفي رواية عَنْ عِيَاضٍ الْأَشْعَرِيِّ،عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ،وَكَانَ لِأَبِي مُوسَى كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ،يَرْفَعُ إِلَيْهِ ذَلِكَ،فَعَجِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَقَالَ:"إِنَّ هَذَا لَحَافِظٌ "وَقَالَ:"إِنَّ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ،وَكَانَ جَاءَ مِنَ الشَّامِ فَادْعُهُ فَلْيَقْرَأْ "،قَالَ:أَبُو مُوسَى:إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:"أَجُنُبٌ هُوَ؟ "،قَالَ:لَا،بَلْ نَصْرَانِيٌّ قَالَ:فَانْتَهَرَنِي،وَضَرَبَ فَخِذِي،وَقَالَ:"أَخْرِجْهُ "،وَقَرَأَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

[2556] - شرح مشكل الآثار (٦/ ٤١٣)(٢٥٧٧) حسن لغيره

[2557] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٤/ ٩٧)(٢٠٦٨) حسن وصححه البيهقي السنن الصغير للبيهقي (٣/ ٣٦٥)(٢٧٦٨)

الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١] "قَالَ أَبُو مُوسَى:وَاللهِ مَا تَوَلَّيْتُهُ،إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ قَالَ:أَمَا وَجَدْتَ [ص:٢١٧] فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟ لَا تُدْنِهِمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ،وَلَا تَأْمَنْهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ،وَلَا تُعِزَّهُمْ بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللهُ،فَأَخْرِجْهُ "[2558]

وعَنْ وَسْقٍ الرُّومِيِّ،قَالَ:كُنْتُ مَمْلُوكًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،فَكَانَ يَقُولُ لِي:«أَسْلِمْ،فَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسَعُنِي أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى أَمَانَتِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ»،قَالَ:فَأَبَيْتُ،فَقَالَ:"{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦] ".قَالَ:فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي،وَقَالَ:«اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»[2559]

وعَنْ أُسَّقَ،قَالَ:كُنْتُ مَمْلُوكًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَنَا نَصْرَانِيٌّ [ص:١٥٩]،فَكَانَ يَعْرِضُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَيَقُولُ:"إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَتِي فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَسْتَعِينَ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَسْتَ عَلَى دِينِهِمْ فَأَبَيْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ:لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ،فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي وَأَنَا نَصْرَانِيٌّ وَقَالَ:اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ "

وَكَانَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ نَصْرَانِيٌّ فَقَالَ لَهُ:أَسْلِمْ حَتَّى نَسْتَعِينَ بِكَ عَلَى بَعْضِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَعِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ بِمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ،فَأَبَى،فَأَعْتَقَهُ وَقَالَ:اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ.[2560]

وأَمَّا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ كَتَبَ إِلَى جَمِيعِ عُمَّالِهِ فِي الْآفَاقِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [التوبة:٢٨]،جَعَلَهُمُ اللَّهُ "{حِزْبُ الشَّيْطَانِ} [المجادلة:١٩] "وَجَعَلَهُمْ:{بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا - الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف:١٠٣ - ١٠٤]،وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا بِمَنْعِهِ الْحَقَّ وَبَسْطِهِ يَدَ الظُّلْمِ،وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا مَضَى أَنَّهُمْ إِذَا قَدِمُوا بَلَدًا أَتَاهُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ فَاسْتَعَانُوا بِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَكِتَابَتِهِمْ لِعِلْمِهِمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْجِبَايَةِ

[2558] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٦)(٢٠٤٠٩) صحيح

[2559] - الأموال لابن زنجويه (١/ ١٤٥)(١٣٣) فيه جهالة

[2560] - الطبقات الكبرى ط دار صادر (٦/ ١٥٩) وفيه جهالة

وَالتَّدْبِيرِ،وَلَا حِيرَةَ وَلَا تَدْبِيرَ فِيمَا يَغْضَبُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَقَدْ كَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُدَّةٌ وَقَدْ قَضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى،فَلَا أَعْلَمَنَّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْعُمَّالِ أَبْقَى فِي عَمَلِهِ رَجُلًا مُتَصَرِّفًا عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ،فَإِنَّ مَحْوَ أَعْمَالِهِمْ كَمَحْوِ دِينِهِمْ،وَأَنْزِلُوهُمْ مَنْزِلَتَهُمُ الَّتِي خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ،وَآمُرُ بِمَنْعِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنَ الرُّكُوبِ عَلَى السُّرُوجِ إِلَّا عَلَى الْأُكُفِ،وَلْيَكْتُبْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِمَا فَعَلَهُ مِنْ عَمَلِهِ.

وَكَتَبَ إِلَى حَيَّانَ،عَامِلِهِ عَلَى مِصْرَ بِاعْتِمَادِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ:أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ إِنْ دَامَ هَذَا الْأَمْرُ فِي مِصْرَ أَسْلَمَتِ الذِّمَّةُ،وَبَطَلَ مَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولًا وَقَالَ لَهُ:اضْرِبْ حَيَّانَ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثِينَ سَوْطًا أَدَبًا عَلَى قَوْلِهِ،وَقُلْ لَهُ:مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ فَضَعْ عَنْهُ الْجِزْيَةَ،فَوَدِدْتُ لَوْ أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ،فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا دَاعِيًا لَا جَابِيًا.

وَأَمَرَ أَنْ تُهْدَمَ بِيَعُ النَّصَارَى الْمُسْتَجَدَّةُ،فَيُقَالُ:إِنَّهُمْ تَوَصَّلُوا إِلَى بَعْضِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَأَلُوهُ فِي مُكَاتَبَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ:أَمَّا بَعْدُ يَا عُمَرُ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الشَّعْبَ سَأَلُوا فِي مُكَاتَبَتِكَ لِتُجْرِيَ أُمُورَهُمْ عَلَى مَا وَجَدْتَهَا عَلَيْهِ،وَتُبْقِيَ كَنَائِسَهُمْ،وَتُمَكِّنَهُمْ مِنْ عِمَارَةِ مَا خَرُبَ مِنْهَا،فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَكَ فَعَلَ فِي أَمْرِ كَنَائِسِهِمْ مَا مَنَعْتَهُمْ مِنْهُ،فَإِنْ كَانُوا مُصِيبِينَ فِي اجْتِهَادِهِمْ فَاسْلُكْ سُنَّتَهُمْ،وَإِنْ يَكُونُوا مُخَالِفِينَ لَهَا فَافْعَلْ مَا أَرَدْتَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ:أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَنْ تَقَدَّمَنِي كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ:{إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ - فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء:٧٨ - ٧٩] .

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ فِي عَمَلِكَ كَاتِبًا نَصْرَانِيًّا يَتَصَرَّفُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ،وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة:٥٧]،فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَادْعُ حَسَّانَ بْنَ زَيْدٍ - يَعْنِي:ذَلِكَ الْكَاتِبَ - إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَسْلَمَ فَهُوَ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُ،وَإِنْ أَبَى فَلَا تَسْتَعِنْ بِهِ وَلَا تَتَّخِذْ أَحَدًا عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،فَأَسْلَمَ حَسَّانُ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ.[٢٥٦١]"

[٢٥٦١] - أحكام أهل الذمة (١/ ٤٥٦) فما بعد

ت- ومن المعقول:

أن الكافر غير مأمون على المسلمين،فأشبه المخذّل والمرجف،كما أن َلأَنَّ الْكَافِرَ لَا يُؤْمِنُ مكْرِه،وَغَائِلَتُهُ لِخُبْثِ طَوِيَّتِه،وَالْحَرْبُ تَقْتَضِي الْمُنَاصَحَةَ،وَالْكَافِرُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا "[2562]

فإن قيل هذه النصوص التي أوردتموها كلها في رفضه عليه الصلاة والسلام الاستعانة بالأفراد أما عدم الاستعانة بالدولة الكافرة فلم يرد فيه نص يمنعه فالجواب أن يقال:

أولاً:قوله ﷺ:"لَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ "مشرك هنا نكرة جاءت في سياق النفي واتفق علماء الأصول على أن النكرة في سياق النفي صيغة من صيغ العموم فيكون قوله "لن أستعين بمشرك "يعم كل مشرك فرداً كان أو دولة.

قال البيهقي:بَابُ لَا يَنْبَغِي لِلْقَاضِي وَلَا لِلْوَالِي أَنْ يَتَّخِذَ كَاتِبًا ذِمِّيًّا وَلَا يَضَعُ الذِّمِّيَّ فِي مَوْضِعٍ يَتَفَضَّلُ فِيهِ مُسْلِمًا رُوِّينَا فِي كِتَابِ السِّيَرِ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:"لَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ "وَاللَّفْظُ عَامٌّ"[2563]

ثانياً:الضرر المتوقع والخطر المحتمل من الاستعانة بالفرد الكافر أخف من الضرر المترتب على الاستعانة بالدولة لأن الفرد يكون تحت سيطرة المسلمين ومراقبتهم له،أما الدولة فإن قوتها وقدرتها على إيقاع الضرر بالمسلمين أكثر من قدرة الفرد المتوقع حصولها ضد المسلمين فعلى هذا يكون تحريم الاستعانة بالدولة الكافرة أولى من تحريم الاستعانة بالفرد الكافر،وبهذا يتبين أن الاستعانة بالكفار لا تجوز مطلقاً أفراداً كانوا أو دولاً.

والذي يظهر لي بعد عرض هذه المسألة هو أن الأقوال فيها متقاربة؛ لأنّ الذين أجازوا الاستعانة بغير المسلمين إنما أجازوا ذلك للحاجة والضرورة،أما من غير الحاجة فلا يجوز،والذين منعوا من الاستعانة فقد أجازوها عند الضرورة فمحصّل الرأيين واحد،ولكن بالنظر إلى الأدلة وما بينها من تعارض في الظاهر فإن طريقة الجمع التي تظهر لي — والله أعلم — هي أن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رُخّص فيها للحاجة،كما

[2562] - المبدع في شرح المقنع (٣/ ٣٠٦) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٦٣) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢/ ٥٣٢)

[2563] - "السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢١٥)

نصّ على ذلك الشافعي،ورجّحه ابن حجر – رحمهما الله –،وسبب هذا الترجيح ما يأتي:

١- كثرة واستفاضة الأخبار أن النبي (ﷺ)استعان بأقوام من المشركين كما نقل ذلك أصحاب السير والمغازي،وأن جميع ذلك كان بعد غزوة بدر التي قال فيها النبي (ﷺ):"لَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ "

٢- ما في الاستعانة بالمشركين على المشركين من المصلحة،فمنها:لأنّ عينه الخزاعي كَانَ كَافِرًا إِذْ ذَاكَ،وَفِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى اخْتِلَاطِهِ بِالْعَدُوِّ وَأَخْذِهِ أَخْبَارَهُمْ.[٢٥٦٤]

ومنها:أن فيه نكاية بالعدو أكثر حيث يقاتلهم من هو كافر مثلهم،ولكنه مع المسلمين.

٣- أن القول بجواز الاستعانة بالكفار عند الحاجة فيه توسيع على المسلمين في هذا الزمان،نظراً لما أصيب به المسلمون من ضعف،فقد يحتاجون – على سبيل المثال – إلى التعامل مع منظمة الأمم المتحدة التي ينبثق منها مجلس الأمن للاستعانة بقوات لحفظ السلام في المناطق المتنازع فيها،[٢٥٦٥]

ولا شك أن أعضاء هذه المنظمة هم من الكفار.

٤- أن الفقهاء جميعاً اتفقوا على أن الكفار يُرضَخُ[٢٥٦٦] لهم من الغنيمة[٢٥٦٧]

وفي رواية أخرى للإمام أحمد يسهم له.اختارها الخرقي،لما روى سعيد بإسناده عَنِ الزُّهَرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ"غَزَا بِنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ فَأَسْهَمَ لَهُمْ ".وروي «أن صفوان بن أمية

[٢٥٦٤] – زاد المعاد في هدي خير العباد–مؤسسة الرسالة،بيروت (٣/ ٣٠١) وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٦٨)

[٢٥٦٥] – انظر للفائدة المادة ٢٣ وما بعدها من ميثاق الأمم المتحدة حول تكوين مجلس الأمن وأعماله على موقع الأمم المتحدة على شبكة الإنترنت.

[٢٥٦٦] – الرَّضْخ:بفتح الراء المشددة وسكون الضاد هو العطاء القليل من الغنيمة من غير سهم مقدّر(انظر:معجم لغة الفقهاء ص ٢٢٣).

[٢٥٦٧] – انظر:البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٥/ ٩٧) والجوهرة النيرة على مختصر القدوري (٢/ ٢٦٨) والسير الصغير ت خدوري (ص:٢٤٩) والعناية شرح الهداية (٢/ ٢٣٥) والمبسوط للسرخسي (٢/ ٢١٢) وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٧/ ١٢٦) وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٣/ ٢٥٦) ودرر الحكام شرح غرر الأحكام (١/ ٢٨٨) وفتح القدير (١٣/ ٢٧)،القوانين الفقهية ص ١٧٢،حاشية الدسوقي ١٩٢/٢،روضة الطالبين ٣٧٠/٦و الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٤/ ١٨٠) وشرح أخصر المختصرات لإبن جبرين حفظه الله (٨٠/ ٣) وعمدة الفقه (ص:١٤٣)

خرج مع النبي - ﷺ- يوم حنين وهو على شركه،فأسهم له» ؛ ولأن الكفر نقص دين،فلم يمنع استحقاق السهم كالفسق.[٢٥٦٨]

ولا شك أن هذا القول مبني على جواز الاستعانة بالكافر عند الحاجة الضرورة لذلك[٢٥٦٩].

حكم الاستعانة بغير المسلمين في قتال المسلمين:

أهل البغي؛ طائفة من المسلمين تخرج على الإمام الشرعي بتأويل سائغ ولا يكونون كفاراً بمجرد خروجهم لأنهم ما خرجوا إلا بتأويل سائغ بل ولا يكونون فساقاً عند بعض العلماء.

قال الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ما نصه:"أَمَّا إذَا كَانَ الْبَاغِي مُجْتَهِدًا وَمُتَأَوِّلًا،وَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ أَنَّهُ بَاغٍ،بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُخْطِئًا فِي اعْتِقَادِه:لَمْ تَكُنْ تَسْمِيَتُهُ "بَاغِيًا "مُوجِبَةً لِإِثْمِه،فَضْلًا عَنْ أَنْ تُوجِبَ فِسْقَهُ.وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِقِتَالِ الْبُغَاةِ الْمُتَأَوِّلِينَ يَقُولُونَ:مَعَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ قِتَالُنَا لَهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرِ بَغْيِهِمْ؛ لَا عُقُوبَةً لَهُمْ؛ بَلْ لِلْمَنْعِ مِنْ الْعُدْوَانِ.وَيَقُولُونَ:إنَّهُمْ بَاقُونَ عَلَى الْعَدَالَةِ؛ لَا يَفْسُقُونَ."اهـ[٢٥٧٠].

ومما استدل به القائلون بعدم تفسيق أهل البغي قوله تعالى:{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات:٩].وجه الدلالة من الآيات أنه قال:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات:١٠]

ثم إن البغاة إذا خرجوا على الإمام والحالة هذه وجب عليه أن يدعوهم ويسألهم ما ينقمون منه،فإن ذكروا مظلمة أزالها وإن ذكروا شبهة كشفها،فإن استمروا في الخروج

[٢٥٦٨] - الكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٤٦)

[٢٥٦٩] - انظر : القول المُبين في حكم الاستعانة في القتال بغير المسلمين -إعداد / عامر بن عيسى اللهو

[٢٥٧٠] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٤٥٧) ومجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٦)

بعد ذلك استعان بالله وقاتلهم،ولا يجوز له أن يستعين بالكفار على قتالهم كما لا يجوز الاستعانة بالكفار على قتال الدولة المسلمة التي حصل بينه وبين حاكمها نزاع أو خلاف،لأن في الاستعانة بالكافرين تسليطاً لهم على المسلمين،ولا يجوز لأحد أن يسلط كافراً على مسلم:{ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:١٤١].

المطلب الأول:أقوال العلماء في المسألة:

تقدّم في المبحث بيان حكم الاستعانة بغير المسلمين على قتال الكفار،وفي هذا المبحث سأتناول حكم الاستعانة بغير المسلمين في قتال البغاة والخوارج من المسلمين،وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول:ذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلى عدم جواز الاستعانة بغير المسلمين في قتال البغاة والخوارج من المسلمين.

قال القرافي من المالكية في قتال أهل البغي:"وَلَا يُسْتَعَانَ عَلَيْهِمْ بمشرك وَلَا يوادعهم عَلَى مَالٍ وَلَا تُنْصَبَ عَلَيْهِمُ الرَّعَّادَاتُ وَلَا تحرق عَلَيْهِم المساكن وَلَا يقطع شَجَرُهُمْ "[٢٥٧١]

وقال الصاوي:"وَلَا يُسْتَعَنْ عَلَيْهِمْ بِمُشْرِكٍ وَلَوْ خَرَجَ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعًا بِخِلَافِ الْكُفَّارِ."[٢٥٧٢]

وقال النووي من الشافعية:لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِمْ بِكُفَّارٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَسْلِيطُ كَافِرٍ عَلَى مُسْلِمٍ،وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ لِمُسْتَحِقِّ قِصَاصٍ أَنْ يُوَكِّلَ كَافِرًا بِاسْتِيفَائِه،وَلَا لِلْإِمَامِ أَنْ يَتَّخِذَ جَلَّادًا كَافِرًا لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَانَ بِمَنْ يَرَى قَتْلَهُمْ مُدْبِرِينَ إِمَّا لِعَدَاوَةٍ وَإِمَّا لِاعْتِقَادِه،كَالْحَنَفِيِّ،إِلَّا أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ،فَيَجُوزُ بِشَرْطَيْنِ،أَحَدُهُمَا:أَنْ تَكُونَ فِيهِمْ جُرْأَةٌ وَحُسْنُ إِقْدَامٍ،وَالثَّانِي:أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مَنْعِهِمْ لَوِ ابْتَغَوْا أَهْلَ الْبَغْيِ بَعْدَ هَزِيمَتِهِمْ،وَلَا بُدَّ مِنِ اجْتِمَاعِ الشَّرْطَيْنِ لِجَوَازِ الِاسْتِعَانَةِ "[٢٥٧٣]

[٢٥٧١] – الذخيرة للقرافي (١٢/ ٩) والشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٤/ ٢٩٩) والقوانين الفقهية (ص:٢٣٩) ومنح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٠)

[٢٥٧٢] – حاشية الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك (٤/ ٤٢٩)

[٢٥٧٣] – روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٦٠) والغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٥/ ٧٥)

وقال ابن قدامة من الحنابلة:"قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَإِذَا اقْتَتَلَتْ طَائِفَتَانِ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ،فَقَدَرَ الْإِمَامُ عَلَى قَهْرِهِمَا،لَمْ يُعِنْ وَاحِدَةً مِنْهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا جَمِيعًا عَلَى الْخَطَإِ،وَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ،وَخَافَ اجْتِمَاعَهُمَا عَلَى حَرْبِهِ،ضَمَّ إلَيْهِ أَقْرَبَهُمَا إلَى الْحَقِّ،فَإِنْ اسْتَوَيَا،اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ فِي ضَمِّ إحْدَاهُمَا،وَلَا يَقْصِدُ بِذَلِكَ مَعُونَةَ إحْدَاهُمَا،بَلْ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى الْأُخْرَى،فَإِذَا هَزَمَهَا،لَمْ يُقَاتِلْ مَنْ مَعَهُ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ إلَى الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا فِي أَمَانِهِ.وَهَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.وَلَا يَسْتَعِينُ عَلَى قِتَالِهِمْ بِالْكُفَّارِ بِحَالٍ،وَلَا بِمَنْ يَرَى قَتْلَهُمْ مُدْبِرِينَ.وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ.

وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ:لَا بَأْسَ أَنْ يَسْتَعِينَ عَلَيْهِمْ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ وَالْمُسْتَأْمَنِينَ وَصِنْفٍ آخَرَ مِنْهُمْ،إذَا كَانَ أَهْلُ الْعَدْلِ هُمْ الظَّاهِرِينَ عَلَى مَنْ يَسْتَعِينُونَ بِهِ.وَلَنَا،أَنَّ الْقَصْدَ كَفُّهُمْ،وَرَدُّهُمْ إلَى الطَّاعَةِ،دُونَ قَتْلِهِمْ،وَإِنْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إلَى الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ،فَإِنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى كَفِّهِمْ،اسْتَعَانَ بِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ،لَمْ يَجُزْ."[٢٥٧٤]

قلت:وقد قال – تعالى -:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [النساء:١٤١]،وعَنْ عَائِشَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّهَا قَالَتْ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺقِبَلَ بَدْرٍ،فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ،فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺحِينَ رَأَوْهُ،فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ [ص:١٤٥٠]،وَأُصِيبَ مَعَكَ،قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟"قَالَ:لَا،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَتْ:ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺكَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،قَالَ:«فَارْجِعْ،فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»،قَالَ:ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ:«تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟"قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَانْطَلِقْ»[٢٥٧٥]

قال أبو محمد بن حزم في "المحلى":"وَهَذَا عُمُومٌ مَانِعٌ مِنْ أَنْ يُسْتَعَانَ بِهِ فِي وِلَايَةٍ،أَوْ قِتَالٍ،أَوْ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ،إلَّا مَا صَحَّ الْإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ فِيهِ:كَخِدْمَةِ

[٢٥٧٤] – المغني لابن قدامة (٨/ ٥٢٩)

[٢٥٧٥] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٩)١٥٠ – (١٨١٧) وانظر فتاوى موقع الألوكة (٢٢٧/ ٢)

الدَّابَّة،أَوْ الاسْتِئْجَارِ،أَوْ قَضَاءِ الْحَاجَة،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْرُجُونَ فِيهِ عَنْ الصَّغَارِ.وَالْمُشْرِكُ:اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الذِّمِّيِّ وَالْحَرْبِيِّ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:هَذَا عِنْدَنَا – مَا دَامَ فِي أَهْلِ الْعَدْلِ مَنَعَةٌ – فَإِنْ أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَكَةِ وَاضْطُرُّوا وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ حِيلَةٌ،فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَلْجَئُوا إلَى أَهْلِ الْحَرْبِ،وَأَنْ يَمْتَنِعُوا بِأَهْلِ الذِّمَّةِ،مَا أَيْقَنُو أَنَّهُمْ فِي اسْتِنْصَارِهِمْ:لَا يُؤْذُونَ مُسْلِمًا وَلَا ذِمِّيًّا – فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ حُرْمَةٍ مِمَّا لَا يَحِلُّ.

بُرْهَانُ ذَلِكَ:قَوْلُ اللَّه تَعَالَى {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ} [الأنعام:١١٩] وَهَذَا عُمُومٌ لِكُلِّ مَنْ اُضْطُرَّ إلَيْهِ،إلَّا مَا مَنَعَ مِنْهُ نَصٌّ،أَوْ إجْمَاعٌ.

فَإِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُ – وَاحِدًا كَانَ أَوْ جَمَاعَةً – أَنَّ مَنْ اسْتَنْصَرَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ،أَوْ الذِّمَّةِ يُؤْذُونَ مُسْلِمًا،أَوْ ذِمِّيًّا فِيمَا لَا يَحِلُّ،فَحَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمَا،وَإِنْ هَلَكَ،لَكِنْ يَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّه تَعَالَى – وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسُهُ وَأَهْلُهُ وَمَالُهُ – أَوْ يُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ شَهِيدًا كَرِيمًا،فَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ،وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدًا أَجَلُهُ.بُرْهَانُ هَذَا:أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْفَعَ ظُلْمًا عَنْ نَفْسِهِ بِظُلْمٍ يُوصِلُهُ إلَى غَيْرِهِ – هَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ.[٢٥٧٦]

القول الثاني:ذهب الحنفية إلى جواز الاستعانة بغير المسلمين على بغاة المسلمين،ولكنهم اشترطوا أن يكون حكم الإسلام هو الظاهر.

قال السرخسي الحنفي:"وَإِنْ ظَهَرَ أَهْلُ الْبَغْيِ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ حَتَّى أَلْجَئُوهُمْ إلَى دَارِ الشِّرْكِ فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ أَهْلَ الْبَغْيِ؛ لِأَنَّ حُكْمَ أَهْلِ الشِّرْكِ ظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا كَانَ حُكْمُ أَهْلِ الشِّرْكِ هُوَ الظَّاهِرُ.

وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَسْتَعِينَ أَهْلُ الْعَدْلِ بِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْخَوَارِجِ إذَا كَانَ حُكْمُ أَهْلِ الْعَدْلِ ظَاهِرًا؛ لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ لِإِعْزَازِ الدِّينِ،وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَيْهِمْ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ كَالِاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِمْ بِالْكِلَابِ."[٢٥٧٧]

[٢٥٧٦] – المحلى بالآثار (١١/ ٣٥٥)

[٢٥٧٧] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ١٣٣)

وقال الكمال بن الهمام:"وَلَوْ ظَهَرَ أَهْلُ الْبَغْيِ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ فَأَلْجَئُوهُمْ إلَى دَارِ الشِّرْكِ لَمْ يَحِلَّ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا الْبُغَاةَ مَعَ أَهْلِ الشِّرْكِ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ أَهْلِ الشِّرْكِ ظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ،وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ إذَا كَانَ حُكْمُ أَهْلِ الشِّرْكِ هُوَ الظَّاهِرُ،وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَسْتَعِينَ أَهْلُ الْعَدْلِ بِالْبُغَاةِ وَالذِّمِّيِّينَ عَلَى الْخَوَارِجِ إذَا كَانَ حُكْمُ أَهْلِ الْعَدْلِ هُوَ الظَّاهِرُ ؛ لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ لِإِعْزَازِ الدِّينِ،وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَيْهِمْ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ كَالِاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِمْ بِالْكِلَابِ ."[2578]

وفي الموسوعة الفقهية:"اتَّفَقَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى تَحْرِيمِ الاسْتِعَانَةِ بِالْكُفَّارِ فِي قِتَال الْبُغَاةِ ؛ لأَِنَّ الْقَصْدَ كَفُّهُمْ لاَ قَتْلُهُمْ،وَالْكُفَّارُ لاَ يَقْصِدُونَ إِلاَّ قَتْلَهُمْ،وَإِنْ دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ،فَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ الْقُدْرَةُ عَلَى كَفِّ هَؤُلاَءِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَعَانِ بِهِمْ جَازَ،وَإِنْ لَمْ يُقْدَرْ لَمْ يَجُزْ .كَمَا نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الاسْتِعَانَةُ عَلَى قِتَالِهِمْ بِمَنْ يَرَى مِنْ أَهْل الْعَدْل (وَهُمْ فُقَهَاءُ الْحَنَفِيَّةِ) قَتْل الْبُغَاةِ وَهُمْ مُدْبِرُونَ،عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ .

وَيَتَّفِقُ الْحَنَفِيَّةُ مَعَ الْجُمْهُورِ فِي أَنَّهُ لاَ يَحِل الاسْتِعَانَةُ بِأَهْل الشِّرْكِ إِذَا كَانَ حُكْمُ أَهْل الشِّرْكِ،هُوَ الظَّاهِرَ،أَمَّا إِذَا كَانَ حُكْمُ أَهْل الْعَدْل هُوَ الظَّاهِرَ فَلاَ بَأْسَ بِالاسْتِعَانَةِ بِالذِّمِّيِّينَ وَصِنْفٍ مِنَ الْبُغَاةِ،وَلَوْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةٌ ؛ لأَِنَّ أَهْل الْعَدْل يُقَاتِلُونَ لإِعْزَازِ الدِّينِ،وَالاسْتِعَانَةُ عَلَى الْبُغَاةِ بِهِمْ كَالاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِمْ بِأَدَوَاتِ الْقِتَال "[2579]

وقال الشوكاني في "السيل الجرار:"وأما الإستعانة بالكفار فلا تجوز على قتال المسلمين لأنه من تعاضد الكفر والإسلام على الإسلام وقبح ذلك معلوم ودفعه بأدلة الشرع لا يخفى "[2580]

[2578] – فتح القدير (١٣/ ٣٣٧)

[2579] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٨/ ١٥٠) وحاشية ابن عابدين ٣ / ٤١٦،وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩،والتاج والإكليل ٦ / ٢٧٨،والمهذب٢ / ٢٢٠،ونهاية المحتاج ٧ / ٣٨٧،والمغني ٨ / ١١١،وكشاف القناع ٦ / ١٦٤ .

[2580] – السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٤٦)

والذي يترجّح لي بعد عرض هذه المسألة هو مذهب الجمهور فلا يجوز الاستعانة بالكفار على المسلمين البغاة،وذلك لما يلي:

١ –أن قتال البغاة يختلف عن قتال الكفار،فالمقصود من قتال البغاة ردّهـــم إلى الطاعـــة ودفع شرّهم لا قتلهم،وتسليط الكفار عليهم قد يؤدّي إلى قتلهم.

٢ – أن قياس الحنفيّة الاستعانة بالكفار ضد البغاة على الاستعانة بالكلاب قيـــاس مـــع الفارق؛ لأنّ الكلب حيوان لا نيّة له،وإنما هو رهن إشارة لصاحبه،وأما الكافر فإنه له نيّة وقصد،وقد أخبر الله عن نوايا الكفار بقوله:{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِــكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } [التوبة:١٠] وغير ذلك من الآيات الدالة علـــى إرادة الكفـــار للشـــر بالمؤمنين.

٣– أن الإمام إذا ضعف عن قتال أهل البغي فله أن يُؤخّر قتالهم إلى أن تُمْكِنَـــه القـــوةُ عليهم،فيؤخّرُهم حتى تقوى شوكةُ أهل العدل ثم يقاتلهم.[٢٥٨١]

حكم مساعدة الكافرين ضد المسلمين:

هذا من الموضوعات الخطيرة التي جرت وتجري الآن في بعض بلاد المسلمين،حيث تقوم بعض الحكومات الإسلامية أو أفراد منها أو بعض المسلمين لمساعدة الكفار في احـــتلال بلاد المسلمين أو البطش بهم أو ملاحقة الأخيار منهم،تحت ذريعة ما يســـمى بمحاربـــة الإرهاب،ويقدمون لهم العون والمساعدة والنصـــرة،والتأييد،بل ويقـــدمون مطـــاراتهم وموانئهم لهم،ويتعاونون معهم عسكريا وغير ذلك...

فهل هذه الأفعال والتصرفات محرمة ؟؟

وهل هي كفر مخرج من الملة أم لا ؟

اعلم – رحمني الله وإياك وثبتنا على الإسلام والتوحيد حتى نلقاه – أن أصل دين الإسلام وقاعدته أمران – كما قاله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله –:

[٢٥٨١] – المغني لابن قدامة (٨/ ٥٢٨) وانظر : القول المُبين في حكم الاستعانة في القتال بغير المسلمين

"الأول:الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له،والتحريض على ذلك،والموالاة فيه،وتكفير من تركه.

الثاني:الإنذار عن الشرك في عبادة الله،والتغليظ في ذلك،والمعاداة فيه،وتكفير من فعله".[2582]

فمعاداة الكافرين والبراءة منهم ومن كفرهم أصل من أصول الدين لا يصح إلا به،وهي ملة إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى:(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة:٤).

لذلك فاعلم أن معاملة الكافر لها ثلاث حالات:

الحالة الأولى:معاملة مكفّرة مخرجة عن الملة:

وقد اصطلح بعض أهل العلم على تسمية هذه الحالة بـــ(التولي)،فكل ما دل الدليل على أنه كفر وردة فهو من هذه الحالة،وذلك نحو:محبة دين الكفار،ومحبة انتصارهم،وغيرها من الأمثلة،ومنها مسألتنا هذه وهي:مظاهرهم على المسلمين.

الحالة الثانية:معاملة محرمة غير مكفّرة:

وقد اصطلح بعض أهل العلم على تسمية هذه الحالة بـــ(الموالاة)،فكل ما دل الدليل على تحريمه و لم يصل هذا التحريم إلى (الكفر) فهو من هذه الحالة،وذلك نحو:تصديرهم في المجالس،وابتدائهم بالسلام،وموادهم التي لم تصل إلى حد (التولي)،وغير ذلك.

الحالة الثالثة:معاملة جائزة:

وهي غير داخلة في (الموالاة)،وهي ما دلت الأدلة على جوازه مثل العدل معهم،والإقساط لغير المحاربين منهم،وصلة الأقارب الكفار منهم،ونحو ذلك.

[2582] الدرر السنية، ج٢، ص١٥.

والفرق بين الحالتين الثانية والثالثة ذكره القرافي رحمه الله في كتابه (الفروق) حيث قال:"اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَ مِنْ التَّوَدُّدِ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} [الممتحنة:١] الْآيَةَ فَمَنَعَ الْمُوَالَاةَ وَالتَّوَدُّدَ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ} [الممتحنة:٨] الْآيَةَ وَقَالَ فِي حَقِّ الْفَرِيقِ الْآخَرِ {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة:٩] الْآيَةَ.

وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ،وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ،أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ،وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ،وَلاَ يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ»[٢٥٨٣]

وَقَالَ فِي حَدِيثِ آخَرَ «اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا» فَلَا بُدَّ مِنْ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ وَإِنَّ الْإِحْسَانَ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ مَطْلُوبٌ وَأَنَّ التَّوَدُّدَ وَالْمُوَالَاةَ مَنْهِيٌّ عَنْهُمَا وَالْبَابَانِ مُلْتَبِسَانِ فَيَحْتَاجَانِ إلَى الْفَرْقِ وَسِرُّ الْفَرْقِ أَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ يُوجِبُ حُقُوقًا عَلَيْنَا لَهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي جِوَارِنَا وَفِي خَفَارَتِنَا وَذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةِ رَسُولِهِ - ﷺ- وَدِينِ الْإِسْلَامِ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ وَلَوْ بِكَلِمَةِ سُوءٍ أَوْ غِيبَةٍ فِي عِرْضِ أَحَدِهِمْ أَوْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذِيَّةِ أَوْ أَعَانَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَيَّعَ ذِمَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةَ رَسُولِهِ - ﷺ- وَذِمَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ.

وعن جُوَيْرِيَةَ بْنِ قُدَامَةَ التَّمِيمِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قُلْنَا:أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،قَالَ:«أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ،وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ»[٢٥٨٤]

وعَن كَعْبِ بْنِ مَالِك،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرًا فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»[٢٥٨٥]

[٢٥٨٣] - صحيح البخاري (٤/ ٦٩)(٣٠٥٢)

[٢٥٨٤] - صحيح البخاري (٤/ ٩٨)(٣١٦٢)

[ش (رزق عيالكم) أي تأخذون منهم جزية وخراجا فيكون ذلك كسبا ونفقة لكم ولعيالكم.والعيال من ينفق عليهم الرجل من الأهل والأولاد مأخوذة من العيلة وهي الفقر]

[٢٥٨٥] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٦٠٣)(٤٠٣٢) صحيح

وَكَذَلِكَ حَكَى ابْنُ حَزْمٍ فِي مَرَاتِبِ الْإِجْمَاعِ لَهُ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي الذِّمَّةِ وَجَاءَ أَهْلُ الْحَرْبِ إِلَى بِلَادِنَا يَقْصِدُونَهُ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ لِقِتَالِهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ وَنَمُوتَ دُونَ ذَلِكَ صَوْنًا لِمَنْ هُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةِ رَسُولِهِ - ﷺ- فَإِنَّ تَسْلِيمَهُ دُونَ ذَلِكَ إِهْمَالٌ لِعَقْدِ الذِّمَّةِ وَحَكَى فِي ذَلِكَ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ فَقَدْ يُؤَدِّي إِلَى إِتْلَافِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ صَوْنًا لِمُقْتَضَاهُ عَنْ الضَّيَاعِ إِنَّهُ لَعَظِيمٌ وَإِذَا كَانَ عَقْدُ الذِّمَّةِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا أَنْ نَبَرَّهُمْ بِكُلِّ أَمْرٍ لَا يَكُونُ ظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَى مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ وَلَا تَعْظِيمِ شَعَائِرِ الْكُفْرِ فَمَتَى أَدَّى إِلَى أَحَدِ هَذَيْنِ امْتَنَعَ وَصَارَ مِنْ قِبَلِ مَا نُهِيَ عَنْهُ فِي الْآيَةِ وَغَيْرِهَا وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ بِالْمَثَلِ فَإِخْلَاءُ الْمَجَالِسِ لَهُمْ عِنْدَ قُدُومِهِمْ عَلَيْنَا وَالْقِيَامُ لَهُمْ حِينَئِذٍ وَنِدَاؤُهُمْ بِالْأَسْمَاءِ الْعَظِيمَةِ الْمُوجِبَةِ لِرَفْعِ شَأْنِ الْمُنَادَى بِهَا هَذَا كُلُّهُ حَرَامٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا تَلَاقَيْنَا مَعَهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَأَخْلَيْنَا لَهُمْ وَاسِعَهَا وَرَحْبَهَا وَالسَّهْلَ مِنْهَا وَتَرَكْنَا أَنْفُسَنَا فِي خَسِيسِهَا وَحَزَنِهَا وَضَيِّقِهَا كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ الْمَرْءُ مَعَ الرَّئِيسِ وَالْوَلَدُ مَعَ الْوَالِدِ وَالْحَقِيرُ مَعَ الشَّرِيفِ فَإِنَّ هَذَا مَمْنُوعٌ لِمَا فِيهِ مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ الْكُفْرِ وَتَحْقِيرِ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَعَائِرِ دِينِهِ وَاحْتِقَارِ أَهْلِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَمْكِينُهُمْ مِنْ الْوِلَايَاتِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ الْمُوجِبَةِ لِقَهْرِ مَنْ هِيَ عَلَيْهِ أَوْ ظُهُورِ الْعُلُوِّ وَسُلْطَانِ الْمُطَالَبَةِ فَذَلِكَ كُلُّهُ مَمْنُوعٌ وَإِنْ كَانَ فِي غَايَةِ الرِّفْقِ وَالْأَنَاةِ أَيْضًا لِأَنَّ الرِّفْقَ وَالْأَنَاةَ فِي هَذَا الْبَابِ نَوْعٌ مِنْ الرِّئَاسَةِ وَالسِّيَادَةِ وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ فِي الْمَكَارِمِ فَهِيَ دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ أَوْصَلْنَاهُمْ إِلَيْهَا وَعَظَّمْنَاهُمْ بِسَبَبِهَا وَرَفَعْنَا قَدْرَهُمْ بِإِيثَارِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ لَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ خَادِمًا وَلَا أَجِيرًا يُؤْمَرُ عَلَيْهِ وَيُنْهَى وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَكِيلًا فِي الْمُحَاكَمَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ وُلَاةِ الْأُمُورِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَيْضًا إِثْبَاتٌ لِسُلْطَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ الْمُسْلِمِ.

وَأَمَّا مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ بِرِّهِمْ وَمِنْ غَيْرِ مَوَدَّةٍ بَاطِنِيَّةٍ فَالرِّفْقُ بِضَعِيفِهِمْ وَسَدُّ خُلَّةِ فَقِيرِهِمْ وَإِطْعَامُ جَائِعِهِمْ وَإِكْسَاءُ عَارِيهِمْ وَلِينُ الْقَوْلِ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ اللُّطْفِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْخَوْفِ وَالذِّلَّةِ وَاحْتِمَالِ إِذَايَتِهِمْ فِي الْجِوَارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِزَالَتِهِ لُطْفًا مِنَّا بِهِمْ لَا خَوْفًا

وَتَعْظِيمًا وَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَأَنْ يُجْعَلُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَنَصِيحَتُهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَحِفْظُ غَيْبَتِهِمْ إِذَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِأَذِيَّتِهِمْ وَصَوْنُ أَمْوَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَأَنْ يُعَانُوا عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَإِيصَالُهُمْ لِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ وَكُلُّ خَيْرٍ يَحْسُنُ مِنْ الْأَعْلَى مَعَ الْأَسْفَلِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَمِنْ الْعَدُوِّ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ عَدُوِّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَجَمِيعُ مَا نَفْعَلُهُ مَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لَا عَلَى وَجْهِ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالَةِ مِنَّا وَلَا عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهُمْ وَتَحْقِيرِ أَنْفُسِنَا بِذَلِكَ الصَّنِيعِ لَهُمْ وَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَحْضِرَ فِي قُلُوبِنَا مَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنْ بُغْضِنَا وَتَكْذِيبِ نَبِيِّنَا – ﷺ– وَأَنَّهُمْ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْنَا لَاسْتَأْصَلُوا شَأْفَتَنَا وَاسْتَوْلَوْا عَلَى دِمَائِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَنَّهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْعُصَاةِ لِرَبِّنَا وَمَالِكِنَا عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ نُعَامِلُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ وَأَمْرِ نَبِيِّنَا – ﷺ– لَا مَحَبَّةً فِيهِمْ وَلَا تَعْظِيمًا لَهُمْ وَلَا نُظْهِرُ آثَارَ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي نَسْتَحْضِرُهَا فِي قُلُوبِنَا مِنْ صِفَاتِهِمْ الذَّمِيمَةِ لِأَنَّ عَقْدَ الْعَهْدِ يَمْنَعُنَا مِنْ ذَلِكَ فَنَسْتَحْضِرُهَا حَتَّى يَمْنَعَنَا مِنْ الْوُدِّ الْبَاطِنِ لَهُمْ وَالْمُحَرَّمِ عَلَيْنَا خَاصَّةً وَلَمَّا أَتَى الشَّيْخُ أَبُو الْوَلِيدِ الطُّرْطُوشِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – الْخَلِيفَةَ بِمِصْرَ وَجَدَ عِنْدَهُ وَزِيرًا رَاهِبًا وَسَلَّمَ إلَيْهِ قِيَادَهُ وَأَخَذَ يَسْمَعُ رَأْيَهُ وَيُنَفِّذُ كَلِمَاتِهِ الْمَسْمُومَةَ فِي الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ هُوَ مِمَّنْ يَسْمَعُ قَوْلَهُ فِيهِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْمُغْضَبِ وَالْوَزِيرُ الرَّاهِبُ بِإِزَائِهِ جَالِسٌ أَنْشَدَهُ:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي جُودُهُ ...يَطْلُبُهُ الْقَاصِدُ وَالرَّاغِبُ

إنَّ الَّذِي شُرِّفْت مِنْ أَجْلِهِ ...يَزْعُمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبٌ

فَاشْتَدَّ غَضَبُ الْخَلِيفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَبْيَاتِ وَأَمَرَ بِالرَّاهِبِ فَسُحِبَ وَضُرِبَ وَقُتِلَ وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الْوَلِيدِ فَأَكْرَمَهُ وَعَظَّمَهُ بَعْدَ عَزْمِهِ عَلَى إيذَائِهِ فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ الْخَلِيفَةُ تَكْذِيبَ الرَّاهِبِ لِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَهُوَ سَبَبُ شَرَفِهِ وَشَرَفِ آبَائِهِ وَأَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بَعَثَهُ ذَلِكَ عَلَى الْبُعْدِ عَنْ السُّكُونِ إلَيْهِ وَالْمَوَدَّةِ لَهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ مَنَازِلِ الْعِزِّ إلَى مَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ أَهِينُوهُمْ وَلَا تَظْلِمُوهُمْ وَكَتَبَ إلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ

رَجُلًا نَصْرَانِيًّا بِالْبَصْرَةِ لَا يُحْسِنُ ضَبْطَ خَرَاجِهَا إلَّا هُوَ وَقَصَدَ وِلَايَتَهُ عَلَى جِبَايَةِ الْخَرَاجِ لِضَرُورَةِ تَعَذُّرِ غَيْرِهِ فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ فِي الْكِتَابِ مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ أَيْ افْرِضْهُ مَاتَ مَاذَا كُنْت تَصْنَعُ حِينَئِذٍ فَاصْنَعْهُ الْآنَ وَبِالْجُمْلَةِ فَبِرُّهُمْ وَالْإِحْسَانُ إلَيْهِمْ مَأْمُورٌ بِهِ وَوُدُّهُمْ وَتَوَلِّيهِمْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَهُمَا قَاعِدَتَانِ إحْدَاهُمَا مُحَرَّمَةٌ وَالْأُخْرَى مَأْمُورٌ بِهَا وَقَدْ أَوْضَحْت لَك الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا بِالْبَيَانِ وَالْمَثَلِ فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ.[٢٥٨٦]

فها قد علمت بأن الحملة الصليبية الكافرة التي يقودها أعداء الله (الأمريكان) وأولياؤهم من الكفرة الآخرين والمنافقين تستهدف الإسلام والمسلمين،فاعلم:

أن أي إعانة لهم في حربهم،سواء كانت هذه الإعانة:بالبدن،أو بالسلاح،أو باللسان،أو بالقلب،أو بالقلم،أو بالمال،أو بالرأي،أو بغير ذلك،فهي:كفر وردة عن الإسلام — أعاذنا الله منها —.

والأدلة على هذه المسألة كثيرة جداً..

المطلب الأول:ذكر أقوال أهل العلم على اختلاف مذاهبهم في هذه المسألة:

وقد قدمنا هذا الدليل على غيره حتى لا يظن أن المسألة اجتهادية قد اختلف فيها أهل العلم،ومن المعلوم أن الإجماع لا يكون إلا على دليل من الكتاب أو السنة.

لذلك فاعلم أن الأمة كلها قد أجمعت على أن من ظاهر الكفار وأعانهم على المسلمين فهو كافر مرتد عن الإسلام،وإثبات هذا الإجماع على وجهين:

أولاً:من أقوال علماء الحنفية:

[٢٥٨٦] - الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٣/ ١٤)

وليس من هذا الباب قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في رسالته إلى هرقل (عظيم الروم) لثلاثة أمور:الأول:أنه لقبه بلقبه عند قومه،مثل قولك:(بوش) رئيس أمريكا،أو (بلير) رئيس وزراء بريطانيا،فليس فيه تعظيم لهما،بل وصف فقط.الثاني:أنه لم يزد على ذلك اللقب ألفاظاً تدل على تعظيمه له والتي يزيدها المعظمون للملوك وذلك مثل:(السيد) أو (الجلالة) أو (الفخامة) ونحو ذلك.الثالث:أنه قال (عظيم الروم)،فنسبه إلى قومه ولم يطلق (عظمته)،ولم يقل:(هرقل العظيم).

قال الجصاص:"قَوْله تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأَيمَانِ} فِيهِ نَهْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ وَنُصْرَتِهِمْ وَالِاسْتِنْصَارِ بِهِمْ وَتَفْوِيضِ أُمُورِهِمْ إلَيْهِمْ وَإِيجَابِ التَّبَرِّي مِنْهُمْ وَتَرْكِ تَعْظِيمِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ،وَسَوَاءٌ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ فِي ذَلِكَ،إلَّا أَنَّهُ قَدْ أَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إلَى الْأَبِ الْكَافِرِ،وَصُحْبَتِهِ بالمعروف بقوله تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} إلَى قَوْله:{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً} [لقمان:١٥]،وَإِنَّمَا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ لِيَتَمَيَّزُوا مِنْ الْمُنَافِقِينَ،إذْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَوَلَّوْنَ الْكُفَّارَ،وَيُظْهِرُونَ إكْرَامَهُمْ وَتَعْظِيمَهُمْ إذَا لَقُوهُمْ،وَيُظْهِرُونَ لَهُمْ الْوِلَايَةَ وَالْحِيَاطَةَ،فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَمَرَ بِهِ الْمُؤْمِنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَمًا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ الْمُنَافِقِ،وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ مِنْ رَبِّهِ."[٢٥٨٧]

وقال:"وقَوْله تَعَالَى:{إلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} يَعْنِي أَنْ تَخَافُوا تَلَفَ النَّفْسِ وَبَعْضِ الْأَعْضَاءِ فَتَتَّقُوهُمْ بِإِظْهَارِ الْمُوَالَاةِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهَا.وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ مَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بن محمد بن إسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ قَالَ:حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ الْجُرْجَانِيُّ قَالَ:أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاق قَالَ:أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله تَعَالَى:{لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} قَالَ:لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتَّخِذَ كَافِرًا وَلِيًّا فِي دِينِهِ.

وقَوْله تَعَالَى:{إلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً}:إلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ فَيَصِلَهُ لِذَلِكَ؛ فَجَعَلَ التَّقِيَّةَ صِلَةً لِقَرَابَةِ الْكَافِرِ.وَقَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ جَوَازَ إظْهَارِ الْكُفْرِ عِنْدَ التَّقِيَّةِ "[٢٥٨٨]

وقال أبو السعود:"وقوله تعالى {وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} حكمٌ مستنتَجٌ منه فإن انحصارَ الموالاة فيما بينهم يستدعي كونَ من يواليهم منهم ضرورةَ أن الاتحادَ في الدين الذي عليه يدورُ أمرُ الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعيّنَ أنْ يكونَ ذلك بكَوْنِ من يواليهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورةِ الموالاة لهم

[٢٥٨٧] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ١١٣)

[٢٥٨٨] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ١٢)

وإن لم تكن موالاةً في الحقيقة وقوله تعالى {إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين} تعليلٌ لكون من يتولاهم منهم أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة "[٢٥٨٩]

ثانياً:من أقوال علماء المالكية:

قال القرطبي:"قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ) أَيْ يَعْضُدْهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ حُكْمَهُ كَحُكْمِهِمْ،وَهُوَ يَمْنَعُ إِثْبَاتَ الْمِيرَاثِ لِلْمُسْلِمِ مِنَ الْمُرْتَدِّ،وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّاهُمُ ابْنُ أُبَيٍّ ثُمَّ هَذَا الْحُكْمُ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَطْعِ الْمُوَالَاةِ،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:"وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ"«١»] هود:١١٣] وَقَالَ تَعَالَى فِي"آلِ عِمْرَانَ":"لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"«٢»] آل عمران:٢٨] وَقَالَ تَعَالَى:"لَا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ"«٣»] آل عمران:١١٨]"[٢٥٩٠]

وَفِي كتاب الْقَضَاء من نَوَازِل الإِمَام الْبُرْزُلِيّ رَحمَه الله أَن أَمِير الْمُسلمين يُوسُف بن تاشفين اللمتوني رَحمَه الله استفتى عُلَمَاء زَمَانه رَضِي الله عَنْهُم وهم مَا هم فِي استنصار ابْن عباد الأندلسي بِالْكِتَابَة إِلَى الإفرنج على أَن يعينوه على الْمُسلمين فَأَجَابَهُ جلهم رَضِي الله عَنْهُم بردته وكفره[٢٥٩١]

وسئل فقيه المغرب أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المالكي (ت ١٣١١)،عن بعض القبائل الجزائرية التي كانت تمتنع من النفير للجهاد،وكانوا يخبرون الفرنسيين بأمور المسلمين،وربما قاتلوا أهل الإسلام مع النصارى الفرنسيين،فأجاب:"ما وصف به القوم المذكورون يوجب قتالهم كالكفار الذين يتولونهم،ومن يتول الكفار فهو منهم.قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ).وأما:إن لم يميلوا إلى الكفار،ولا تعصبوا بهم،ولا كانوا يخبروهم

[٢٥٨٩] - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٤٨)

[٢٥٩٠] - تفسير القرطبي (٦/ ٢١٧)

[٢٥٩١] - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٥/ ٧٥)

بأمور المسلمين،ولا أظهروا شيئاً من ذلك،وإنما وجد منهم الامتناع من النفير فإنهم يقاتلون قتال الباغية".[٢٥٩٢]

ثالثاً:من أقوال علماء الشافعية:

قال البيضاوي:"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب.بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إيماء على علة النهي،أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتكم.وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم،وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام:«لا تتراءى ناراهما»،أو لأن الموالي لهم كانوا منافقين.إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار أو المؤمنين بموالاة أعدائهم."[٢٥٩٣]

وقال ابن كثير:"نَهَى اللَّهُ،تَبَارَكَ وَتَعَالَى،عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ،وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّون إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ:{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} أَيْ:مَنْ يَرْتَكِبُ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ "[٢٥٩٤]

وقال الحافظ ابن حجر:"ويُستَفاد مِن هَذا مَشرُوعيَّة الهَرَب مِنَ الكُفّار ومِن الظَّلَمَة لأَنَّ الإِقامَة مَعَهُم مِن إِلقاء النَّفس إِلَى التَّهلُكَة،هَذا إِذا لَم يُعِنهُم ولَم يَرضَ بِأَفعالِهِم فَإِن أَعانَ أَو رَضِيَ فَهُو مِنهُم،ويُؤَيِّدهُ أَمره ﷺبِالإِسراعِ فِي الخُرُوج مِن دِيار ثَمُود."[٢٥٩٥]

رابعاً:من أقوال علماء الحنابلة:

قال ابن تيمية رحمه الله:"وَكُلُّ مَنْ قَفَزَ إِلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءَ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ وَفِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،بِقَدْرِ مَا ارْتَدَّ عَنْهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

[٢٥٩٢]- علي بن عبد السلام التسولي المالكي،أجوبة التسولي على مسائل الأمير عبدالقادر الجزائري،ص٢١٠.

[٢٥٩٣] - تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٣٠)

[٢٥٩٤] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٠)

[٢٥٩٥] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٦١)

وَإِذَا كَانَ السَّلَفُ قَدْ سَمَّوْا مَانِعِي الزَّكَاةِ مُرْتَدِّينَ مَعَ كَوْنِهِمْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ،وَلَمْ يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ،فَكَيْفَ مِمَّنْ صَارَ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَاتِلًا لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ "[٢٥٩٦]

وقال:"فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يُوَالِي أَعْدَاءَ اللَّهِ بِقَلْبِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ قَلْبَهُ لَيْسَ فِيهِ الْإِيمَانُ الْوَاجِبُ.وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:{تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} .فَذَكَرَ "جُمْلَةً شَرْطِيَّةً "تَقْتَضِي أَنَّهُ إذَا وُجِدَ الشَّرْطُ وُجِدَ الْمَشْرُوطُ بِحَرْفِ "لَوْ "الَّتِي تَقْتَضِي مَعَ الشَّرْطِ انْتِفَاءَ الْمَشْرُوطِ فَقَالَ:{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ} .فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ الْمَذْكُورَ يَنْفِي اتِّخَاذَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَيُضَادُّهُ وَلَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَاتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ فِي الْقَلْبِ.وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ اتَّخَذَهُمْ أَوْلِيَاءَ؛ مَا فَعَلَ الْإِيمَانَ الْوَاجِبَ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ.وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} .فَإِنَّهُ أَخْبَرَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ أَنَّ مُتَوَلِّيَهُمْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا.وَأَخْبَرَ هُنَا أَنَّ مُتَوَلِّيَهُمْ هُوَ مِنْهُمْ؛ فَالْقُرْآنُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا."[٢٥٩٧]

خامساً:من أقوال علماء الظاهرية:

قال ابن حزم:"أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ يُسَارِعُونَ فِي الَّذِينَ كَفَرُوا حَذَرًا أَنْ تُصِيبَهُمْ دَائِرَةٌ،وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْكَافِرِينَ {أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ} [المائدة:٥٣] يَعْنُونَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} [المائدة:٥٣]

[٢٥٩٦] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٤٨) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٣١)

[٢٥٩٧] - مجموع الفتاوى (٧/ ١٧)

فَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا خَبَرًا عَنْ قَوْمٍ أَظْهَرُوا الْمَيْلَ إلَى الْكُفَّارِ فَكَانُوا مِنْهُمْ كُفَّارًا خَائِبِي الْأَعْمَالِ وَلَا يَكُونُونَ فِي الْأَغْلَبِ إلَّا مَعْرُوفِينَ،لَكِنَّ قَوْله تَعَالَى:{فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة:٥٢]"[٢٥٩٨]

وقال أيضا:"صَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١] إنَّمَا هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فَقَطْ – وَهَذَا حَقٌّ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ."[٢٥٩٩]

سادساً:من أقوال غيرهم من العلماء المجتهدين:

قال الطبري:"الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران:٢٨] وَهَذَا نَهْيٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا وَظُهُورًا،وَلِذَلِكَ كَسَرَ «يَتَّخِذِ» لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ جَزْمٍ بِالنَّهْيِ،وَلَكِنَّهُ كَسَرَ الذَّالَ مِنْهُ لِلسَّاكِنِ الَّذِي لَقِيَهُ وَهِيَ سَاكِنَةٌ،وَمَعْنَى ذَلِكَ:لَا تَتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكُفَّارَ ظَهْرًا وَأَنْصَارًا،تُوَالُونَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ،وَتُظَاهِرُونَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،وَتَدُلُّونَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ،فَإِنَّهُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ،وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ،وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً،إِلَّا أَنْ تَكُونُوا فِي سُلْطَانِهِمْ،فَتَخَافُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،فَتُظْهِرُوا لَهُمُ الْوَلَايَةَ بِأَلْسِنَتِكُمْ،وَتُضْمِرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ،وَلَا تُشَايِعُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ،وَلَا تُعِينُوهُمْ عَلَى مُسْلِمٍ بِفِعْلٍ"[٢٦٠٠]

وقال الشوكاني:"وَالْمُرَادُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ أَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَةَ الأولياء في المصادقة وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْمُنَاصَرَةِ.وَقَوْلُهُ:بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ،وَالْمَعْنَى:أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ أَوْلِيَاءُ الْبَعْضِ الْآخَرِ مِنْهُمْ،وَبَعْضَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءُ الْبَعْضِ الْآخَرِ مِنْهُمْ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْبَعْضِ إِحْدَى طَائِفَتَيِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَبِالْبَعْضِ الْآخَرِ الطَّائِفَةَ الْأُخْرَى لِلْقَطْعِ بِأَنَّهُمْ

[٢٥٩٨] – المحلى بالآثار (١٢/ ١٣٢)

[٢٥٩٩] – المحلى بالآثار (١٢/ ٣٣)

[٢٦٠٠] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٥/ ٣١٥)

فِي غَايَةٍ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشِّقَاقِ وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ،وَقِيلَ:الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ تُوَالِي الْأُخْرَى وَتُعَاضِدُهَا وَتُنَاصِرُهَا عَلَى عَدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺوَعَدَاوَةِ مَا جَاءَ بِهِ وَإِنْ كَانُوا فِي ذات بينهم متعادين متضادّين.

وَوَجْهُ تَعْلِيلِ النَّهْيِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّهَا تَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ هِيَ شَأْنُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا شَأْنُكُمْ،فَلَا تَفْعَلُوا مَا هُوَ مِنْ فِعْلِهِمْ فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ،وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ التَّعْلِيلِيَّةَ بِمَا هُوَ كَالنَّتِيجَةِ لَهَا فَقَالَ:وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أَيْ فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ وَفِي عِدَادِهِمْ،وَهُوَ وَعِيدٌ شَدِيدٌ فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الْمُوجِبَةَ لِلْكُفْرِ هِيَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتْ إِلَى غَايَةٍ لَيْسَ وَرَاءَهَا غَايَةٌ.وَقَوْلُهُ:إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تَعْلِيلٌ لِلْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا أَيْ أَنَّ وُقُوعَهُمْ فِي الْكُفْرِ هُوَ بِسَبَبِ عَدَمِ هِدَايَتِهِ سُبْحَانَهُ لِمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمَا يُوجِبُ الْكُفْرَ كَمَنْ يُوَالِي الْكَافِرِينَ."[٢٦٠١]

سابعاً:من أقوال المتأخرين من أهل العلم:

قال السيد قطب رحمه الله:"«لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْء» ..هكذا ..ليس من الله في شيء.لا في صلة ولا نسبة،ولا دين ولا عقيدة،ولا رابطة ولا ولاية ..فهو بعيد عن الله،منقطع الصلة تماما في كل شيء تكون فيه الصلات.ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات ..ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل.قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ليس التقاة بالعمل إنما التقاة باللسان"..فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر – والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق،كما يدل السياق هنا ضمنا وفي موضع آخر من السورة تصريحا – كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية.فما يجوز هذا الخداع على الله!

[٢٦٠١] – فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٧)

ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب،فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقا:«وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ.وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» .."[2602]

وقال القاسمي:"بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إيماء إلى علة النهي.أي:فإنهم متفقون على خلافكم،يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين.وإجماعهم على مضادتكم.فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم!! وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أي:من جملتهم.وحكمه حكمهم وإن زعم أنه مخالف لهم في الدين،فهو بدلالة الحال منهم لدلالتها على كمال الموافقة."[2603]

وقال الشيخ أحمد شاكر في فتوى له طويلة (كلمة حق) تحت عنوان (بيان إلى الأمة المصرية خاصة وإلى الأمة العربية والإسلامية عامة) في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين – أثناء عدوانهم على المسلمين –:"أما وقد استبان الأمر بيننا وبين أعدائنا من الإنجليز وحلفائهم،استبان لأبناء الأعداء منا،الذين ارتضعوا لبانهم،ولعبيد الأعداء منا الذين أسلموا اليهم عقولهم ومقادهم،و لم نكن نحن الذين نشأنا على الفطرة الإسلامية الصحيحة في شك من توقع ما كان،ومن توقع أشد منه مما سيكون.

أما وقد استبان الأمر،أما وقد أعلنت الأمة المصرية كلها رأيها وإرادتها،أما وقد أعلن الأزهر رأيه الصحيح في معاملة الأعداء ونصرتهم.

فإن الواجب أن يعرف المسلم القواعد الصحيحة في شرعة الله،في أحكام القتال وما يتعلق به،معرفة واضحة يستطيع معها كل واحد تقريباً أن يفرق بين العدو وغير العدو،وأن يعرف ما يجوز له في القتال وما لا يجوز،وما يجب عليه وما يحرم،حتى يكون عمل المسلم في الجهاد عملاً صحيحاً سليماً،خالصاً لوجه الله وحده،إن انتصر انتصر مسلماً،له أجر المجاهد في الدنيا والآخرة وإن قتل قتل شهيداً.

[2602] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 – ت- علي بن نايف الشحود (ص:651)

[2603] – تفسير القاسمي = محاسن التأويل (4/ 162)

إن الإنجليز أعلنوها على المسلمين في مصـــر حربـــاً ســـافرة غـــادرة،حرب عـــدوان واستعلاء،وأعلنوها على المسلمين في السودان حرباً مقنعة مغلفـــة بغـــلاف المصـــلحة للسودان وأهله،مزوقة بحلية الحكم الذاتي الذي خدع به المصريون من قبل.

وقد رأينا ما يصنع الإنجليز في منطقة قناة السويس وما يقاربها من البلاد من قتل المدنيين الآمنين،والغدر بالنساء والأطفال،والعدوان على رجال الأمن ورجـــال القضـــاء،حتى لا يكاد ينجو من عدوانهم صغير أو كبير.

فأعلنوا بذلك عدائهم صريحاً واضحاً لا لبس فيه ولا مجاملة ولا مداراة،فصارت بـــذلك دماؤهم وأموالهم حلالاً للمسلمين،يجب على كل مسلم في أي بقعـــة مـــن الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وجدوا مدنيين كانوا أو عسكريين فكلهم عدو،وكلهم محارب مقاتل،وقد استمرؤوا الغدر والعدوان،حتى أن نسائهم وفتيانهم ليطلقون النار من النوافذ والشرفات،في الإسماعيلية والسويس وبورسعيد،على المارين المســـالمين دون خجـــل أو حياء،وهم قوم جبناء يفرون حيث يجدون القوي المناضل،ويستأسدون حيـــث يجـــدون الرخو المستضعف،فلا يجوز لمسلم أن يستضعف أمامهم أو يريهم جانب اللـــين والعفـــو (اَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ).

وقد نهانا رسول الله ﷺ عن قتل النساء في الحرب،وهو نهـــي معلـــل بعلـــة واضـــحة صريحة:أنهن غير مقاتلات،فقد مر رسول الله ﷺ في بعض غزواته على امرأة مقتولة فقال (ما كانت هذه لتقاتل) ثم نهى عن قتل النساء.

أما الآن،ونساؤهم مجندات،يحاربن مع الرجال جنباً إلى جنـــب،وغير المجنـــدات منـــهن مسترجلات،يطلقن النار على المسلمين دون زاجرٍ أو رادع،فإن قتلهن حلال بل واجب للدفاع عن الدين والنفس والبلد،إلا أن تكون امرأة ضعيفة لا تستطيع شيئاً.

وكذلك الحال مع الصبيان دون البلوغ،والشيوخ الهالكين الضعفاء،من قاتـــل منـــهم أو اعتدى قتل،ومن لم يفعل فلا يعرضن أحد له بســـوء،إلا أن يؤخـــذوا هـــم والنســـاء أسرى،وسنذكر حكم الأسرى إن شاء الله.

وقد قلنا ((يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وجدوا،مدنيين أو عسكريين))،ونحن نقصد إلى كل حرف من معنى هذه الجملة،فأينما كان المسلم ومن أي جنس كان من الأجناس والأمم،وجب عليه ما يجب علينا في مصر والسودان،حتى المسلمين من الإنجليز في بلادهم إن كانوا مسلمين حقاً،يجب عليهم ما يجب على المسلمين من غيرهم ما استطاعوا،فإن لم يستطيعوا وجبت عليهم الهجرة من بلاد الأعداء،أو من البلاد التي لا يستطيعون فيها حرب العدو بما أمرهم الله.

فإن الإسلام جنسية واحدة بتعبير هذا العصر وهو يلغي الفوارق الجنسية والقومية بين متبعيه،كما قال تعالى ((وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)) ٥٢ المؤمنون.

والأدلة على ذلك متواترة متضافرة،وهو شيء معلوم من الدين بالضرورة،لا يشك فيه أحد من المسلمين،بل إن الإفرنج ليعرفون هذا معرفة اليقين،ولم يتشكك فيه إلا الذين رباهم الإفرنج منا واصطنعوهم لأنفسهم حرباً على دينهم وعلى أمتهم،من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً }النساء٩٧-٩٨).

فلم يستثن الله من وجوب الهجرة على كل مسلم في بلاد أعداء الله إلا المستضعفين ضعفاً حقيقياً،لا يعرفون ما يصنعون،ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً.

لم يقبل الله عذراً من أحد،بمال ولا ولد،ولا مصالح ولا علاقات {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }التوبة٢٤).

فسرد الله جميع الأعذار والتعلات التي ينتحلها المترددون المتخاذلون،ثم رفضها كلـــها، لم يقبل منها عذراً ولا تعله.

فليسمع هذا وليضعه نصب عينيه كل مسلم في مصر و السودان،والهند وباكستان،وكل بلد يحكمه الإنجليز الأعداء،أو يدخل في نطاق نفوذهم،من سائر أقطار الأرض،ومـــن أي جنس أو لون كانوا.

أما التعاون مع الإنجليز،بأي نوع من أنواع التعاون،قل أو كثر فهو الردة الجامحة،والكفر الصراح،لا يقبل فيه اعتذار،ولا ينفع معه تؤول،ولا ينجي من حكمه عصبية حمقـــاء،ولا سياسة خرقاء،ولا مجاملة هي النفاق،سواء أكان ذلـــك مـــن أفـــراد أو حكومـــات أو زعماء،كلهم في الكفر والردة سواء،إلا من جهل وأخطأ،ثم استدرك أمره فتاب واتخـــذ سبيل المؤمنين،فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم،إن أخلصوا من قلوبهم لله، لا للسياســـة والناس.

وأظنني قد استطعت الإبانة عن حكم قتال الإنجليز وعن حكم التعاون معهم بأي لـــون من ألوان التعاون أو المعاملة،حتى يستطيع أن يفقهه كل مســـلم يقـــرأ العربيـــة،من أي طبقات الناس كان،وفي أي بقعة من الأرض يكون.

وأظن أن كل قارئ لا يشك الآن،في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل.

وأن شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأن الإنجليز،بالنسبة لكـــل مســـلم علـــى وجـــه الأرض،فإن عداء الفرنسيين للمسلمين،وعصـــبيتهم الجامحـــة في العمـــل علـــى محـــو الإسلام،وعلى حرب الإسلام،أضعاف عصبية الإنجليز وعدائهم،بل هم حمقى في العصبية والعداء،وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كـــل بلـــد إســـلامي لهـــم فيـــه حكـــم أو نفوذ،ويرتكبون من الجرائم والفظائع ما تصـــغر معـــه جـــرائم الإنجليـــز ووحشـــيتهم وتتضاءل،فهم والإنجليز في الحكم سواء،دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان،ولا يجوز لمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنـــواع التعـــاون،وإن التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز:الردة والخروج من الإسلام جملة،أياً كان لون المتعاون أو نوعه أو جنسه.

وما كنت يوماً بالأحمق ولا بالغر،فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستـــجيب لحكم الإسلام،فتقطع العلاقات السياسية أو الثقافيـــة أو الاقتصــادية مـــع الإنجليـــز أو الفرنسيين.

ولكني أريد أن أبصر المسلمين بمواقع أقدامهم،وبما أمرهم الله به،وبما أعد لهم مـــن ذل في الدنيا وعذاب في الآخرة،إذا أعطوا مقاد أنفسهم وعقولهم لأعداء الله.

وأريد أن أعرفهم حكم الله في هذا التعاون مع أعدائهم،الذين استذلوهم وحـــاربوهم في دينهم وفي بلادهم،وأريد أن أعرفهم عواقب هذه الردة التي يتمرغ في حملتها كل مـــن أصر على التعاون مع الأعداء.

ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض:أنه إذا تعاون مـــع أعـــداء الإســـلام مستعبدي المسلمين،من الإنجليز والفرنسيين وأحلافهم وأشباههم،بأي نوع مـــن أنـــواع التعاون،أو سالمهم فلم يحاربهم بما استطاع،فضلاً عن أن ينصرهم بالقول أو العمل علـــى إخوانهم في الدين،إنه إن فعل شيئاً من ذلك ثم صلى فصلاته باطلة،أو تطهر بوضـــوء أو غسل أو تيمم فطهوره باطل،أو صام فرضاً أو نفلاً فصومه باطل،أو حج فحجه باطل،أو أدى زكاة مفروضة أو أخرج صدقة تطوعاً فزكاته باطلة مردودة عليه،أو تعبد لربه بأي عبادة فعبادته باطلة مردودة عليه،ليس له في شيء من ذلك أجر ن بل عليـــه فيـــه الإثم والوزر.

ألا فليعلم كل مسلم:أنه إذا ركب هذا المركب الدنيء فقد حبط عمله،من كل عبـــادة تعبد بها لربه قبل أن يرتكس في حمأة هذه الردة التي رضي لنفسه،ومعاذ الله أن يرضى بها مسلم حقيق بهذا الوصف العظيم،يؤمن بالله وبرسوله.

ذلك بأن الإيمان شرط في صحة كل عبادة،وفي قبولها،كما هو بديهي معلوم من الـــدين بالضرورة،لا يخالف فيه أحد من المسلمين.

وذلك بأن الله سبحانه يقول:{وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِـــنَ الْخَاسِرِينَ } المائدة٥

وذلك بأن الله سبحانه يقول:(وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَـرُدُّوكُمْ عَـن دِيـنِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِـي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }البقرة٢١٧) ٢١٧ البقرة.

وذلك بأن الله يقول:(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِـي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُـولُ الَّـذِينَ آمَنُـواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَـتْ أَعْمَـالُهُمْ فَأَصْـبَحُواْ خَاسِرِينَ) ٥١ ــ ٥٣ المائدة.

وذلك بأن الله سبحانه يقول:((نَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ{٢٥} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَـا نَـزَّلَ اللَّـهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ{٢٦} فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ{٢٧} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْـوَانَهُ فَـأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ{٢٨} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ{٢٩} وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ{٣٠} وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَـارَكُمْ{٣١} إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّـهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ{٣٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ{٣٣} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ{٣٤} فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) محمد ٢٥ ــ ٣٥

إلا فليعلم كل مسلم وكل مسلمة أن هؤلاء الذين يخرجون علـى دينـهم ويناصـرون أعدائهم،من تزوج منهم فزواجه باطل بطلاناً أصلياً،لا يلحقه تصحيح،ولا يترتب عليـه أي أثر من آثار النكاح من ثبوت نسب وميراث وغير ذلك،وأن من تاب منهم ورجـع

إلى ربه وإلى دينه،وحارب عدوه ونصر أمته، لم تكن له المرأة التي تزوج حال الــردة،و لم تكن المرأة التي ارتد وهي في عقد نكاحه زوجاً له ولا هي في عصمته،وأنه يجــب بعــد التوبة أن يستأنف زواجه به،فيعقد عليها عقداً صحيحاً شرعياً كما هو بديهي واضح.

ألا فليحتط النساء المسلمات،في أي بقعة من بقاع الأرض،وليتوثقن قبل الزواج مــن أن الذين يتقدمون لنكاحهن ليسوا من هذه الفئة المنبوذة الخارجة عن الدين،حيطة لأنفسهن وأعراضهن،أن يعاشرن رجالاً يظنونهن أزواجاً وليسوا بأزواج،لأن زواجهم باطل في دين الله.

ألا فليعلم النساء المسلمات اللائي ابتلاهن الله بأزواج ارتكسوا في حمأة هذه الردة،أن قد بطل نكاحهن،وصرن محرمات على هؤلاء الرجال،ليسوا لهن بأزواج،حتى يتوبوا توبــة صحيحة عملية،ثم يتزوجونهن زواجاً جديداً صحيحاً.

ألا فليعلم النساء المسلمات،أن من رضيت منهن بالزواج من رجل هذه حاله،وهي تعلم حاله،أو رضيت بالبقاء مع زوج تعرف فيه هذه الردة،فإن حكمها وحكمــه في الــردة سواء.

ومعاذ الله أن ترضى النساء المسلمات لأنفسهن ولأعراضهن ولأنساب أولادهن ولدينهن شيئاً من هذا.

ألا إن الأمر جد ليس بالهزل،وما يغني فيه قانون يصدر بعقوبة المتعاونين مع الأعداء،فما أكثر الحيل للخروج من نصوص القوانين،وما أكثــر الطــرق لتبرئــة المجرمين،بالشــبه المصطنعة،وباللحن في الحجة.

ولكن الأمة مسؤولة عن إقامة دينها،والعمل على نصرته في كل وقت وحين،والأفــراد مسؤولون بين يدي الله يوم القيامة عما تجترحه أيديهم،وعما تنطوي عليه قلوبهم.

فلينظر كل امرئ لنفسه،وليكن سياجاً لدينه من عبث العابثين وخيانة الخائنين.

وكل مسلم إنما هو على ثغر من ثغور الإسلام،فليحذر أن يؤتى الإسلام من قبله.

وإنما النصر من عند الله،ولينصرن الله من ينصره"[٢٦٠٤]

[٢٦٠٤] - أحمد شاكر،كلمة حق،ص ١٢٦- ١٣٧.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (مجموع فتاوى ابن باز) – في حكم من أعان الاشتراكيين أو الشيوعيين ونحوهم -:"وكل من ساعدهم على ضلالهم وحسّن ما يدعون إليه،وذمّ دعاة الإسلام ولمزهم فهو كافر،ضال،حكمه حكم الطائفة التي سار في ركابها وأيدها في طلبها.وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين،وساعدهم بأي نوعٍ من المساعدة،فهو كافر مثلهم،كما قال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١)،وقال تعالى)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (التوبة:٢٣) "[٢٦٠٥]

ثامناً:من أقوال أهل العلم المعاصرين لهذه الفتنة العظيمة:

أفتى مجموعة من أهل العلم المعاصرين لهذه الفتنة العظيمة بأن مظاهرة ومناصرة أمريكا في عدوانها على الأفغان كفر وردة عن دين الإسلام،ومن هذه الفتاوى:

فتوى الشيخ حمود بن عبد الله الشعيبي بتاريخ ٢١ / ٧ / ١٤٢٢،ومما قاله فيها:"أما مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم عليهم فهي كفر ناقل عن ملة الإسلام عند كل من يعتد بقوله من علماء الأمة قديماً وحديثاً،قال الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله:الناقض الثامن:مظاهرة المشركين ومعونتهم على المسلمين،والدليل قوله تعالى (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١).وقد سئل العلامة عبد الله بن عبد اللطيف رحمه الله عن الفرق بين الموالاة والتولي،فأجاب:بأن التولي:كفر يخرج من الملة وهو كالذب عنهم ومعاونتهم بالمال والبدن والرأي.وقال الشيخ العلامة أحمد شاكر رحمه الله في بيان حكم مقاومة الكفار ومحاربتهم:يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقاتلهم حيثما وجدوا مدنيين كانوا أو عسكريين...إلى قوله:وأما التعاون مع الإنجليز بأي نوع من أنواع التعاون قل

.html٢٤_١٤/٠١/٢٠١٢ http://ardalrebat.blogspot.com/

[٢٦٠٥] – ابن باز،مجموع الفتاوى،ج١ص٢٧٤.

أو كثر فهو الردة الجامحة والكفر الصراح لا يقبل فيه اعتذار ولا ينفع معه تأويل ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء ولا سياسة خرقاء ولا مجاملة هي النفاق سواء كان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء كلهم في الردة سواء إلا من جهل..إلى أن قال رحمه الله:ألا فليعلم كل مسلم ومسلمة أن هؤلاء الذين يخرجون على دينهم ويناصرون أعداءهم مَن يتزوج منهم فزواجه باطل بطلانا أصليا لا يلحقه تصحيح ولا يترتب عليه أي أثر من آثار النكاح من ثبوت نسب وميراث وغير ذلك وأن من كان منهم ومتزوجا بطل زواجه.اهـ

وبناء على هذا فإن من ظاهر دول الكفر على المسلمين وأعانهم عليهم كأمريكا وزميلاتها في الكفر يكون كافراً مرتداً عن الإسلام بأي شكل كانت مظاهرتهم وإعانتهم،لأن هذه الحملة المسعورة التي ما فتئ يدعو إليها المجرم بوش وزميله في الكفر والإجرام رئيس وزراء بريطانيا بلير والتي يزعمان فيها أنهما يحاربان الإرهاب هي حملة صليبية كسابقاتها من الحملات الصليبية ضد الإسلام والمسلمين فيما مضى من التاريخ،وقد صرح المجرم بوش بملء فيه بذلك،حيث قال سنشنها حربا صليبية،وسواء أكان ثملا عندما قال ذلك أو كان واعيا فإن هذا هو ما يعتقده هو وأمثاله من أساطين الكفر ".[٢٦٠٦]

فتوى الشيخ نظام الدين شامزي (مفتي باكستان) بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٠١م،ومما قال فيها:"لا يجوز لمسلم في أي بلد كان سواء كان موظفاً حكوميا أو غير ذلك أن يقدم أي مساعدة كانت ومن أي نوع كان للعدوان الأمريكي على أفغانستان خاصة وأن الهجوم يشكل حملة صليبية على أفغانستان المسلمة،وأي مسلم يقدم المساعدة في هذا العدوان يعتبر مرتدًا عن الدين".

وقد أفتى ستة عشر من علماء المغرب بأن الدخول في التحالف الأمريكي لضرب أفغانستان أو غيرها من أراضي الإسلام كفر وردة عن دين الإسلام.[٢٦٠٧]

[٢٦٠٦] - التبيان في كفر من أعان الأمريكان

[٢٦٠٧] - التبيان في كفر من أعان الأمريكان

تاسعا:من كلام أئمة الدعوة النجدية:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (ت ١٢٠٦) في نواقض الإسلام:"الناقض الثامن:مظاهرة المشركين ومعونتهم على المسلمين،والدليل قوله تعالى (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١)".[٢٦٠٨]

وقال أيضاً:"فإذا عرفت هذه المسألة،عرفت أن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام،ولو وحد الله وترك الشرك،إلا بعداوة المشركين،والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء،كما قال تعالى:{لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} الآية [سورة المجادلة آية:٢٢].[٢٦٠٩]

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت ١٢٩٣):"قال تعالى:{لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [سورة آل عمران آية:٢٨] .وقد جزم ابن جرير في تفسيره،بكفر من فعل ذلك،قال تعالى:{لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ} [سورة المجادلة آية:٢٢] .

فليتأمل من نصح نفسه:هذه الآيات الكريمات،وليبحث عما قاله المفسرون وأهل العلم في تأويلها،وينظر ما وقع من أكثر الناس اليوم؛ فإنه يتبين له – إن وفق وسدد – أنها تتناول من ترك جهادهم،وسكت عن عيبهم،وألقى إليهم السلم،فكيف بمن أعانهم أو جرهم على بلاد أهل الإسلام،أو أثنى عليهم أو فضلهم بالعدل على أهل الإسلام،واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم،وأحب ظهورهم؟! فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق،قال الله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة المائدة آية:٥] ."[٢٦١٠]

المطلب الثاني– الدليل من الإجماع:

[٢٦٠٨] – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٩٢)

[٢٦٠٩] – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ١١٣)

[٢٦١٠] – الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٣٢٥)

اعلم أن الأمة كلها قد أجمعت على أن من ظاهر الكفار وأعانهم على المسلمين فهو كافر مرتد عن الإسلام،وإثبات هذا الإجماع على وجهين:

الوجه الأول:ذكر أقوال أهل العلم على اختلاف مذاهبهم في هذه المسألة،حيث ذكرت أقوال أهل العلم من:الحنفية،والمالكية،والشافعية،والحنابلة،والظاهرية،والمجتهدين من غيرهم،بالإضافة إلى فتاوى للمتأخرين،والمعاصرين.

المطلب الثالث – الأدلة من الكتاب:

وقد دلت آيات كثيرة جداً من الكتاب على هذا الأمر،سأذكر بعضاً منها فيما يلي:

الدليل الأول:قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١).وقد دلت هذه الآية على كفر من نصر الكفار من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:قوله تعالى (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)،فجعل الكفار بعضهم أولياء بعض وقطع ولايتهم عن المسلمين،فدل على أن من تولاهم فهو داخل في قوله تعالى (بعضهم) فيلحقه هذا الوصف،قال ابن جرير رحمه الله:"فَإِنَّهُ عَنَى بِذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْيَهُود أَنْصَارُ بَعْضِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَيَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ،وَأَنَّ النَّصَارَى كَذَلِكَ بَعْضُهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ عَلَى مَنْ خَالَفَ دِينَهُمْ وَمِلَّتَهُمْ،مُعَرِّفًا بِذَلِكَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُمْ أَوْ لِبَعْضِهِمْ وَلِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّهُمْ عَلَى مَنْ خَالَفَ مِلَّتَهُمْ وَدِينَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،كَمَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَهُمْ حَرْبٌ،فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ:فَكُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،وَلِلْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ حَرْبًا كَمَا هُمْ لَكُمْ حَرْبٌ،وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَوْلِيَاءُ؛ لِأَنَّ مَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ أَظْهَرَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ الْحَرْبَ وَمِنْهُمُ الْبَرَاءَةَ،وَأَبَانُ قَطَعَ وَلَايَتَهُمْ "[٢٦١١]

الوجه الثاني:قوله (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)،يعني كافر مثلهم،قال ابن جرير رحمه الله:"وَمَنْ يَتَوَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ،يَقُولُ:فَإِنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ،فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى مُتَوَلٍّ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ بِهِ وَبِدِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ رَاضٍ،وَإِذَا رَضِيَهُ وَرَضِيَ دِينَهُ فَقَدْ عَادَى مَا خَالَفَهُ وَسَخِطَهُ،وَصَارَ حُكْمُهُ

[٢٦١١] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٧)

حُكْمَهُ،وَلِذَلِكَ حَكَمْ مَنْ حَكَمَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِنَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ فِي ذَبَائِحِهِمْ وَنِكَاحِ نِسَائِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمْ بِأَحْكَامِ نَصَارَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،لِمُوَالَاتِهِمْ إِيَّاهُمْ وَرِضَاهُمْ بِمِلَّتِهِمْ وَنُصرَتِهِمْ لَهُمْ عَلَيْهَا،وَإِنْ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ لِأَنْسَابِهِمْ مُخَالِفَةً وَأَصْلُ دِينِهِمْ لِأَصْلِ دِينِهِمْ مُفَارِقًا."[٢٦١٢] وهناك أدلة كثيرة ذكرتها في الكتاب الآخر .

المطلب الرابع – الأدلة من السنة:

الدليل الأول:ما في الصحيحين عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَنَا وَالزُّبَيْرَ،وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ،قَالَ:«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ،فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً،وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا»،فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ،فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ،فَقُلْنَا أَخْرِجِي الكِتَابَ،فَقَالَتْ:مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ،فَقُلْنَا:لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ،فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا،فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟"،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ،وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا،وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ،فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي [ص:٦٠] ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ،أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي،وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا،وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَقَدْ صَدَقَكُمْ»،قَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ،قَالَ:"إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ".[٢٦١٣]

[٢٦١٢] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٥٠٨)

[٢٦١٣] – صحيح البخاري (٤/ ٥٩)(٣٠٠٧) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤١)(١٦١ – ٢٤٩٤)

[ش(روضة خاخ) موضع بين مكة والمدينة.(ظعينة) المرأة في الهودج وقيل المرأة عامة واسمها سارة وقيل كنود.(تعادى بنا) تباعد وتجاري.(عقاصها) هو الشعر المضفور.(ملصقا) مضافا إليهم ولست منهم وقيل معناه حليفا ولم يكن من نفس قريش وأقربائهم.(يدا) نعمة ومنة عليهم.(اطلع) نظر إليهم وعلم حالهم وما سيكون منهم.(وأي إسناد هذا) أراد تعظيم هذا الإسناد وبيان صحته وقوته لأن رجاله هم العدول الثقات الحفاظ]

وهذه القصة تدل على أن الأصل في مظاهرة الكفار ومناصرتهم هو الردة والخروج عن الإسلام من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:قول عمر:دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ،وفي رواية عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ،فَقَدْ كَفَرَ.قَالَ:«وَمَا يُدْرِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ،لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ،فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٢٦١٤]

وفي رواية:فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،خَانَ اللَّهَ،خَانَ رَسُولَهُ،ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلَيْسَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؟"قَالُوا:بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ عُمَرُ:بَلَى،وَلَكِنَّهُ قَدْ نَكَثَ وَظَاهَرَ أَعْدَاءَكَ عَلَيْكَ [٢٦١٥].

فهذا يدل على أن المتقرر عند عمر رضي الله عنه أن مظاهرة الكفار:كفر وردة.

الوجه الثاني:إقرار الرسول (ﷺ) لما فهمه عمر وإنما ذكر عذر حاطب.

الوجه الثالث:أن حاطباً قال:وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا،وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ.

وهذا يدل على أنه قد تقرّر لديه أيضاً أن مظاهرة الكفار (كفر وردة ورضا بالكفر).

فإذا كان هذا قد يظن في مثل صورة عمل حاطب رضي الله عنه مع أنه قد خرج غازياً مع الرسول (ﷺ) بنفسه وماله مناصراً له ومظاهراً له على أعدائه المشركين،ولم يظاهر الكفار ولم ينصرهم بنفس ولا مال،ولكن احتمل عمله هذا فقيل فيه ما قيل،فكيف بمن ظاهر الكفار فعلاً وظاهرهم وأعانهم على المسلمين،لا شك أنه أولى بالأحكام المذكورة في هذا الحديث.وهناك أدلة كثيرة من السنة تنظر في الكتاب الآخر ....

المطلب الخامس – الأدلة من أقوال الصحابة:

وقد ورد عن الصحابة ما يدل على هذا الأصل،فمن ذلك:

١- ما سبق ذكره في الدليل الأول من السنة من تقرّر هذا الأصل عند عمر وحاطب رضي الله عنهما.

[٢٦١٤] – المعجم الأوسط (٣/ ١١٢)(٢٦٤٧) صحيح

[٢٦١٥] – مسند أبي يعلى الموصلي (١/ ٣١٩)(٣٩٧) فيه ضعف

٢- وما روي عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:«لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ»[٢٦١٦]

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُتْبَةَ:«لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ» .قَالَ مُحَمَّدٌ:فَظَنَنْتُهُ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:٥١][٢٦١٧] وغيرهما كثير في الكتاب الآخر ...

حكم الانضمام للجيش والشرطة في الدول التي احتلها الكفار ..

إن كان الانضمام للشرطة أو الجيش،فيه إعانة للكافرين على قتال المسلمين من أهل السُّنَّة - كما هو مشاهَد الآن - فيَحرُم الانضمام إليهما والحال كذلك؛ بل يُخشى على المُنضَمِّ إليهما منَ الوقوع في الكفر الصُّراح؛ قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهَّاب - مُبَيِّنًا نواقضَ الإسلام المُجْمَعَ عليها - قال:"الناقض الثامن:مُظاهَرة المشركين،ومعاونتهم على المسلمين،والدليل قوله تعالى:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١]"[٢٦١٨].

والمقصود من مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين:أن يتخذ البعض الكفار والمشركين أولياء،فيكونوا لهم أنصارا وأعوانا ضد المسلمين،وينضمون إليهم،ويذبون عنهم بالمال والسنان والبيان؛ فهذا كفر يناقض الإسلام.والله عز وجل نهانا في آيات

[٢٦١٦] - السنة لأبي بكر بن الخلال (٥/ ٥٦)(١٦٠٠) صحيح

[٢٦١٧] - السنة لأبي بكر بن الخلال (٥/ ٥٧)(١٦٠٣) صحيح مقطوع

[٢٦١٨] - الإرشاد إلى توحيد رب العباد (ص:٢٩) والتوسط والاقتصاد (١/ ٩١) والدرر السنية كاملة (٢/ ٢٧١) والعقيدة الصحيحة وما يضادها ونواقض الإسلام (ص:٣٨) والموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية (١/ ٢٠٥) والولاء والبراء في الإسلام (ص:٧٦) وعقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك (ص:٤٧) ومجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب،الجزء الأول) (ص:٣٨٦) ونواقض الإسلام (ص:٣)

كثيرة أن نتخذ الكفار والمشركين أولياء،ومن معاني هذه الولاية التي نهينا أن نصرفها لهم:المحبة،والمودة الدينية،والنصرة،والتأييد على المسلمين.[٢٦١٩]

وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم في الأرض،وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية.فلقد صرنا في عصر يستحي فيه أن يقال للكافر:يا كافر!! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله،وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان،ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبي إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم في تشريعاتهم،إلى كشف عورات المسلمين لهم،إلى كل صغير وكبير في حياتهم.وسيأتي تفصيل الحديث في هذا الأمر – إن شاء الله – في فصل صور الموالاة.

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها،أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره في عقيدة الولاء والبراء.حسب المقياس الشرعي الصحيح،وليس حسب مقياس أهواء البشر.إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين.والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله.[٢٦٢٠]

وقال العلامة عبدالعزيز بن باز في مجموع فتاويه:"وقد أَجْمَعَ علماءُ الإسلام على أن مَن ظاهَرَ الكفار على المسلمين،وساعدهم بأي نوع من المساعدة فهو كافر مثلُهم".[٢٦٢١]

ومن المعلوم بالبداهة العقلية أن الأمريكان وأعوانَهم ظالمون معتدون محارِبون في غَزْوِهم للعراق وغيره من بلدان المسلمين،فالواجب على أهل العراق وغيرهم جهادُهم وطردهم،لا التعاون معهم،فليحذر كل امرئ لنفسه[٢٦٢٢].

حكم استئجار الكافر للجهاد:

[٢٦١٩] – المفيد في مهمات التوحيد (ص:٨٥)

[٢٦٢٠] – الولاء والبراء في الإسلام (ص:٨٣)

[٢٦٢١] – الفتاوى:(٢٧٤/١) .

[٢٦٢٢] – فتاوى موقع الألوكة (١٣٨/ ١) رقم الفتوى:٢١٦١ العنوان:الانضمام للجيش

أَمَّا اسْــتِئْجَارُ الْكَــافِرِ لِلْجِهَــادِ فَقَــدْ صَــرَّحَ الشَّــافِعِيَّةُ بِأَنَّــهُ يَصِــحُّ اسْــتِئْجَارُ ذِمِّيٍّ،وَمُسْتَأْمَنٍ،وَمُعَاهَدٍ،بَل حَرْبِيٍّ لِلْجِهَادِ مِنْ قِبَل الإِمَامِ،حَيْثُ تَجُوزُ الاسْتِعَانَةُ بِهِ مِــنْ خُمُسِ الْخُمُسِ دُونَ غَيْرِهِ أَيْ مِنَ الْغَنِيمَةِ؛لأَنَّ الْجِهَادَ لاَ يَقَعُ عَنْــهُ فَــلاَ يَأْخُــذُ مِــنَ الْغَنِيمَةِ؛وَلأَنَّهُ يُحْتَمَل فِي مُعَاقَدَةِ الْكُفَّارِ مَا لاَ يُحْتَمَل فِي مُعَاقَدَةِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَيْسَ لِغَيْــرِ الإِمَامِ ذَلِكَ؛لاِحْتِيَاجِ الْجِهَادِ إِلَى مَزِيدٍ مِنْ نَظَرٍ وَاجْتِهَادٍ.[٢٦٢٣]

وفي شرح مشكل الآثار:"بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اسْتِعَانَتِهِ بِمَنْ طَلَبَ الاسْتِعَانَةَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ،وَفِي مَنْعِهِ مَنْ مَنَعَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْقِتَالِ مَعَهُ

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ،فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبْرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ،فَفَرِحَ أَصْــحَابُ رَسُــولِ اللهِ ﷺ حِــينَ رَأَوْهُ،فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ.فَقَالَ لَــهُ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:" أَتُؤْمِنُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ؟ " قَالَ:لَا.قَالَ:" فَــارْجِعْ؛فَلَنْ نَسْــتَعِينَ بِمُشْــرِكٍ ".قَالَ:ثُمَّ مَضَى،حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ:لَا.فَقَالَ:" ارْجِعْ؛فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ ".قَــالَ:فَرَجَــعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ،فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ:" أَتُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ:نَعَمْ.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" فَانْطَلِقْ "

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ،حَتَّى إِذَا كَــانَ بِحَــرَّةِ الْوَبْرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ ذُو جُرْأَةٍ وَنَجْدَةٍ،فَلَمَّا رَآهُ أَصْــحَابُ رَسُــولِ اللهِ ﷺ فَرِحُــوا بِــهِ وَأَعْجَبَهُمْ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَتُؤْمِنُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ؟ " قَالَ:لَا.قَالَ:" فَارْجِعْ؛فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ ".فَمَضَــى رَسُــولُ اللهِ ﷺ،حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ أَدْرَكَهُ،فَأَعْجَبَ ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالُوا:هَذَا فُلَانٌ قَدْ رَجَعَ.فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ.فَقَالَ:" أَتُؤْمِنُ بِاللهِ عَزَّ وَجَــلَّ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ:لَا.قَالَ:" فَارْجِعْ؛فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ ".فَمَضَى رَسُــولُ اللهِ ﷺ،حَتَّــى إِذَا كَانَ بِظَهْرِ الْبَيْدَاءِ لَحِقَهُ أَيْضًا،فَأَعْجَبَ ذَلِــكَ أَصْــحَابَ رَسُــولِ اللهِ ﷺ،فَقَــالَ:يَــا

[٢٦٢٣] - نهاية المحتاج ٨ / ٦٢، ٦٣ وما بعدها .

مُحَمَّدُ،أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ.فَقَالَ:" أَتُؤْمِنُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ؟ " قَالَ:نَعَمْ.قَالَ:" فَنَعَمْ إِذًا "

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ بَدْرًا:أَخْرُجُ مَعَكَ.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ ".قَالَ:بِشْرٌ:فَقُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ:أَلَيْسَ ابْنُ شِهَابٍ يُحَدِّثُ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ سَارَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ؟ قَالَ:بَلَى،وَلَكِنْ سَارَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَأْمُرْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ "

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَاتَلَ مَعَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" ارْجِعْ؛فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ "

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ،عَنْ نُعَيْمٍ،عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ،إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لِقَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ.قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ::وَكَانَ فِيمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلُهُ:" إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ "،وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ،وَطَلَبْنَا ذَلِكَ هَلْ نَجِدُهُ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ مُتَّصِلِ الْإِسْنَادِ؟عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ:" لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ حُنَيْنٍ جَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ:لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ،وَصَرَخَ كَلَدَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ وَهُوَ مَعَ أَخِيهِ لِأُمِّهِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ:أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ.فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ:اسْكُتْ فَضَّ اللهُ فَاكَ،فَوَاللهِ لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ ".

وعَنْ خُبَيْبٍ،قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ غَزْوًا أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي وَلَمْ نُسْلِمْ،فَقُلْنَا:إِنَّا نَسْتَحِي أَنْ يَشْهَدَ قَوْمُنَا مَشْهَدًا لَمْ نَشْهَدْهُ مَعَهُمْ.قَالَ:" وَأَسْلَمْتُمَا؟ " قُلْنَا:لَا.قَالَ:" فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ".

فَقَالَ قَائِلٌ:فَهَلْ يَدْفَعُ مَا رَوَيْتَهُ عَنْ أَمْرِ صَفْوَانَ فِي قِتَالِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ مَا سِوَاهُ مِمَّا رَوَيْتَهُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ:" إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ "؟ فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مَا رَوَيْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ صَفْوَانَ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لِمَا رَوَيْنَاهُ فِي سِوَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" إِنِّي لَا أَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ "؛لِأَنَّ

قِتَالَ صَفْوَانَ كَانَ مَعَهُ ﷺ،لَا باسْتعَانَة منْهُ إِيَّاهُ في ذَلكَ.فَفي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا امْتَنَعَ منَ الاسْتعَانَة به وَبأَمْثَاله وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ منَ الْقتَال مَعَهُ باخْتيَارهمْ لذَلكَ،وَكَانَ تَرْكُهُ ﷺ الاسْتعَانَةَ بهمْ مُحْتَمَلًا أَنْ يَكُونَ منْ قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخذُوا بطَانَةً منْ دُونكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران:١١٨] فَكَانَت الاسْتعَانَةُ بهمُ اتِّخَاذَهُ لَهُمْ بطَانَةً،وَلَمْ يَكُنْ قتَالُهُمْ مَعَهُ بغَيْر اسْتعَانَة منْهُ بهمُ اتِّخَاذًا منْهُ إِيَّاهُمْ بطَانَةً.فَقَالَ قَائلٌ:فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُول الله ﷺ دُعَاءَهُ الْيَهُودَ إِلَى قتَال أَبي سُفْيَانَ مَعَهُ،وَهُمْ ممَّنْ لَا يَأْلُونَهُ خَبَالًا

فعَنْ ثَابت بْنِ الْحَارث الْأَنْصَاريِّ،عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُول الله ﷺ قَالَ:لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ جَمْعُ أَبي سُفْيَانَ ليَخْرُجَ إِلَيْه يَوْمَ أُحُد،فَانْطَلَقَ إِلَى الْيَهُود الَّذينَ كَانُوا في النَّضير،فَوَجَدَ منْهُمْ نَفَرًا عنْدَ مَنْزلهمْ،فَرَحَّبُوا،فَقَالَ:" إِنَّا جئْنَاكُمْ لخَيْر،إِنَّا أَهْلُ الْكتَاب وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْكتَاب،وَإِنَّ لأَهْلِ الْكتَاب عَلَى أَهْلِ الْكتَاب النَّصْرَ،وَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا بجَمْعٍ منَ النَّاس،فَإِمَّا قَاتَلْتُمْ مَعَنَا،أَوْ أَعَرْتُمُونَا سلَاحًا ".قَالَ:فَفي هَذَا الْحَديث مَا يُخَالفُ شَيْئًا ممَّا رَوَيْتَهُ في هَذَا الْبَاب.فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ في ذَلكَ بتَوْفيق الله وَعَوْنه أَنَّهُ لَيْسَ في ذَلكَ مَا يُخَالفُ شَيْئًا ممَّا رَوَيْنَاهُ في هَذَا الْبَاب؛لأَنَّ الْيَهُودَ الَّذينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ في هَذَا الْحَديث إِلَى قتَال أَبي سُفْيَانَ مَعَهُ لَيْسُوا منَ الْمُشْركينَ الَّذينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ في الْآثَار الْأُوَل إِنَّهُ لَا يَسْتَعينُ بهمْ،أُولَئكَ عَبَدَةُ الْأَوْثَان،وَهَؤُلَاء أَهْلُ الْكتَاب الَّذينَ ذَكَرْنَا مُبَايَنَةَ مَا هُمْ عَلَيْه،وَمَا عَبَدَةُ الْأَوْثَان عَلَيْه في الْبَاب الَّذي قَبْلَ هَذَا الْبَاب؛لأَنَّ هَؤُلَاء أَهْلُ الْكتَاب الَّذينَ نَجْتَمعُ نَحْنُ وَهُمْ في الْإِيمَان بمَا يُؤْمنُونَ به منْ كُتُب الله عَزَّ وَجَلَّ الَّتي أَنْزَلَهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهَا عَلَيْه منْ أَنْبيَائه،وَنُؤْمنُ نَحْنُ وَهُمْ بالْبَعْث منْ بَعْد الْمَوْت،وَأُولَئكَ الْآخَرُونَ لَا يُؤْمنُونَ بشَيْء منْ ذَلكَ،فَنَحْنُ وَهَؤُلَاء الْكتَابيُّونَ في قتَال عَبَدَة الْأَوْثَان يَدٌ وَاحدَةٌ،وَالْغَلَبَةُ لَنَا؛لأَنَّا الْأَعْلَوْنَ عَلَيْهمْ،وَهُمْ تُبَّاعٌ لَنَا في ذَلكَ،وَهَكَذَا حُكْمُهُمْ إِلَى الْآنَ عنْدَ كَثيرٍ منْ أَهْلِ الْعلْم،منْهُمْ أَبُو حَنيفَةَ وَأَصْحَابُهُ،يَقُولُونَ:لَا بَأْسَ بالاسْتعَانَة بأَهْلِ الْكتَاب في قتَال مَنْ سوَاهُمْ إِذَا كَانَ حُكْمُنَا هُوَ الْغَالبَ،وَيَكْرَهُونَ مَا

سِوَى ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُنَا بِخِلَافِ ذَلِكَ،وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ.فَقَالَ هَذَا الْقَائِلُ:فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يُخَالِفُ هَذَا

فَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ،حَتَّى إِذَا خَلَفَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ إِذَا هُوَ بِكَتِيبَةٍ خَشْنَاءَ،فَقَالَ:" مَنْ هَؤُلَاءِ؟ " قَالُوا:بَنُو قَيْنُقَاعَ،وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ،وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ.فَقَالَ:" أَسْلِمُوا ".فَأَبَوْا،قَالَ:" قُلْ لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا؛فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ".قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ:وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ،لَيْسَ يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ مِنْهُمْ؛لِأَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ لَيْسَ مِنَ الْيَهُودِ؛وَلَكِنَّهُ مِنَ الرَّهْطِ الَّذِينَ يَرْجِعُ الْأَنْصَارُ إِلَيْهِمْ بِأَنْسَابِهِمْ،وَلَكِنَّهُ جَدَلَ بِنِفَاقِهِ،فَأَمَّا نَسَبُهُ فِيهِمْ فَقَائِمٌ،وَقِيلَ:إِنَّهُمْ قَوْمُهُ،أَيْ لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ بِمُحَالَفَتِهِ لَا بِمَا سِوَى ذَلِكَ.قَالَ هَذَا الْقَائِلُ:فَهَذَا يُخَالِفُ مَا فِي الْآثَارِ الْأُوَلِ فِي مَوْضِعَيْنِ،أَمَّا أَحَدُهُمَا فَإِنَّهُ جَعَلَهُمْ مُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ:" إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ "،وَأَمَّا الْآخَرُ فَمَنْعُهُ إِيَّاهُمْ مِنَ الْقِتَالِ مَعَهُ،وَفِي حَدِيثِ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِي قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي هَذَا الْبَابِ دُعَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ إِلَى الْقِتَالِ مَعَهُ.فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ الْحَدِيثِ وَلَا شَيْءٍ مِمَّا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ؛لِأَنَّ وَجْهَ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مَا قَالَهُ لَهُمْ فِي حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ كَانَ بَعْدَ وُقُوفِهِ ﷺ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ الْمُنَافِقِ مِنَ الْحِلْفِ،وَالْمُحَالَفَةُ هِيَ الْمُوَافَقَةُ مِنَ الْحَالِفِينَ لِلْحَالِفِينَ،فَكَانُوا بِذَلِكَ خَارِجِينَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ مِمَّا سِوَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فِي ذَلِكَ بِحِلَافِهِمْ؛لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَالِفُوا مُنَافِقًا،وَكَانَ أُولَئِكَ بِمَا حَالَفُوا الْمُنَافِقَ الَّذِي حَالَفُوهُ مُرْتَدِّينَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ،فَكَانُوا بِذَلِكَ كَالْمُرْتَدِّينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ إِلَى نَصْرَانِيَّةٍ،فَلَا يَكُونُونَ بِذَلِكَ يَهُودًا وَلَا نَصَارَى؛لِأَنَّ ذَبَائِحَهُمْ غَيْرُ مَأْكُولَاتٍ؛وَلِأَنَّ نِسَاءَهُمُ اللَّاتِي دَخَلْنَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ غَيْرُ مَنْكُوحَاتٍ،فَمِثْلُ ذَلِكَ بَنُو قَيْنُقَاعَ لَمَّا حَالَفُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ الْمُنَافِقَ،فَوَاطَئُوهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ،وَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ؛خَرَجُوا بِذَلِكَ مِنْ حُكْمِ

الْكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ،وَصَارُوا مُشْرِكِينَ كَمُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ،فَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِمْ فِي قِتَالِهِ الْمُشْرِكِينَ لِذَلِكَ،فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الَّذِي يَذْكُرُ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ فَمُخَالِفٌ لِذَلِكَ،وَلَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِمِثْلِهِ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ؛لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْرِكٍ،إِنَّمَا هُوَ كِتَابِيٌّ كَافِرٌ،وَهُوَ عَدُوٌّ لِلْكُفَّارِ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ كَمَا نَحْنُ أَعْدَاءٌ لَهُمْ.وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[٢٦٢٤].

وقال الجصاص:" قَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً} فِيهِ نَهْيٌ عَنْ الِاسْتِنْصَارِ بِالْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ الْأَوْلِيَاءَ هُمْ الْأَنْصَارُ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إلَى أُحُدٍ جَاءَ قَوْمٌ مِنْ الْيَهُودِ وَقَالُوا:نَحْنُ نَخْرُجُ مَعَك،فَقَالَ:"إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ"،وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ يُقَاتِلُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ.وَقَدْ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو مُسْلِمٍ:حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ:حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ الزُّهْرِيِّ:أَنَّ نَاسًا مِنْ الْيَهُودِ غَزَوْا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَسَمَ لَهُمْ كَمَا قَسَمَ لِلْمُسْلِمِينَ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَيْضًا مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ:حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ قَالَا:حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ مَالِكٍ عَنْ الْفَضْلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نِيَارٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَ يَحْيَى:إنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيُقَاتِلَ مَعَهُ فَقَالَ:ارْجِعْ ثُمَّ اتَّفَقَا فَقَالَ:"إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ".

وَقَالَ أَصْحَابُنَا:لَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِ غَيْرِهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ إذَا كَانُوا مَتَى ظَهَرُوا كَانَ حُكْمُ الْإِسْلَامِ هُوَ الظَّاهِرُ،فَأَمَّا إذَا كَانُوا لَوْ ظَهَرُوا كَانَ حُكْمُ الشِّرْكِ هُوَ الْغَالِبُ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَهُمْ.وَمُسْتَفِيضٌ فِي أَخْبَارِ أَهْلِ السِّيَرِ وَنَقَلَةِ الْمَغَازِي:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ كَانَ يَغْزُو وَمَعَهُ قَوْمٌ مِنْ الْيَهُودِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَفِي بَعْضِهَا قَوْمٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.وَأَمَّا وَجْهُ الْحَدِيثِ الَّذِي قَالَ فِيهِ:"إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ" فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَثِقْ بِالرَّجُلِ وَظَنَّ أَنَّهُ عَيْنٌ لِلْمُشْرِكِينَ،فَرَدَّهُ وَقَالَ:"إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ" يَعْنِي بِهِ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ."[٢٦٢٥].

[٢٦٢٤] - شرح مشكل الآثار (٦/ ٤٠٧)

[٢٦٢٥] - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٢/ ٥٥٩)

وفي المحلى:" مَسْأَلَةٌ:هَلْ يُسْتَعَانُ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ بِأَهْلِ الْحَرْبِ؟ أَوْ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ؟ أَوْ بِأَهْلِ بَغْيٍ آخَرِينَ؟.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا،فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِمْ بِحَرْبِيٍّ،وَلَا بِذِمِّيٍّ،وَلَا بِمَنْ يَسْتَحِلُّ قِتَالَهُمْ،مُدْبِرِينَ – وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَقَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ:لَا بَأْسَ بِأَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِمْ بِأَهْلِ الْحَرْبِ،وَبِأَهْلِ الذِّمَّةِ،وَبِأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ،وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي " كِتَابِ الْجِهَادِ " مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – «إنَّنَا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ» وَهَذَا عُمُومٌ مَانِعٌ مِنْ أَنْ يُسْتَعَانَ بِهِ فِي وِلَايَةٍ،أَوْ قِتَالٍ،أَوْ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ،إلَّا مَا صَحَّ الْإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ الاسْتِعَانَةِ بِهِ فِيهِ:كَخِدْمَةِ الدَّابَّةِ،أَوْ الاسْتِئْجَارِ،أَوْ قَضَاءِ الْحَاجَةِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْرُجُونَ فِيهِ عَنْ الصَّغَارِ.وَالْمُشْرِكُ:اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الذِّمِّيِّ وَالْحَرْبِيِّ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد – رَحِمَهُ اللَّهُ –:هَذَا عِنْدَنَا – مَا دَامَ فِي أَهْلِ الْعَدْلِ مَنَعَةٌ – فَإِنْ أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَكَةِ وَاضْطُرُّوا وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ حِيلَةٌ،فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَلْجَئُوا إلَى أَهْلِ الْحَرْبِ،وَأَنْ يَمْتَنِعُوا بِأَهْلِ الذِّمَّةِ،مَا أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ فِي اسْتِنْصَارِهِمْ:لَا يُؤْذُونَ مُسْلِمًا وَلَا ذِمِّيًّا – فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ حُرْمَةٍ مِمَّا لَا يَحِلُّ.

بُرْهَانُ ذَلِكَ:قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام:١١٩] وَهَذَا عُمُومٌ لِكُلِّ مَنْ اُضْطُرَّ إلَيْهِ،إلَّا مَا مَنَعَ مِنْهُ نَصٌّ،أَوْ إجْمَاعٌ.

فَإِنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُ – وَاحِدًا كَانَ أَوْ جَمَاعَةً – أَنَّ مَنْ اسْتَنْصَرَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ،أَوْ الذِّمَّةِ يُؤْذُونَ مُسْلِمًا،أَوْ ذِمِّيًّا فِيمَا لَا يَحِلُّ،فَحَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمَا،وَإِنْ هَلَكَ،لَكِنْ يَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى – وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسُهُ وَأَهْلُهُ وَمَالُهُ – أَوْ يُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ شَهِيدًا كَرِيمًا،فَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ،وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدًا أَجَلُهُ.

بُرْهَانُ هَذَا:أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْفَعَ ظُلْمًا عَنْ نَفْسِهِ بِظُلْمٍ يُوصِلُهُ إلَى غَيْرِهِ – هَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ.

وَأَمَّا الاسْتِعَانَةُ عَلَيْهِمْ بِبُغَاةٍ أَمْثَالِهِمْ – فَقَدْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ قَوْمٌ – وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [الكهف:٥١].

وَأَجَازَهُ آخَرُونَ - وَبِهِ نَأْخُذُ؛لِأَنَّنَا لَا نَتَّخِذُهُمْ عَضُدًا،وَمَعَاذَ اللَّهِ،وَلَكِنْ نَضْرِبُهُمْ بِأَمْثَالِهِمْ صِيَانَةً لِأَهْلِ الْعَدْلِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام:١٢٩]

وَإِنْ أَمْكَنَنَا أَنْ نَضْرِبَ بَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ مِنْ الْكُفَّارِ،حَتَّى يُقَاتِلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَيَدْخُلَ إلَيْهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَتَوَصَّلُ بِهِمْ إلَى أَذَى غَيْرِهِمْ،بِذَلِكَ حَسَنٌ.

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «إنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ هَذَا الدِّينَ بِقَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ» كَمَا حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ نا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ نا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنِي عِمْرَانُ بْنُ بَكَّارِ بْنِ رَاشِدٍ ثنا أَبُو الْيَمَانِ نا شُعَيْبٌ - هُوَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ - عَنْ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ نا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- «إنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ».

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعٍ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ثنا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَسْكَرٍ ثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَا رِيَاحُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «إنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ».

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:فَهَذَا يُبِيحُ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِأَمْثَالِهِمْ،وَعَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ بِأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الْفُجَّارِ الَّذِينَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ.

وَأَيْضًا - فَإِنَّ الْفَاسِقَ مُفْتَرَضٌ عَلَيْهِ مِنْ الْجِهَادِ،وَمِنْ دَفْعِ أَهْلِ الْبَغْيِ،كَالَّذِي اُفْتُرِضَ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْفَاضِلِ،فَلَا يَحِلُّ مَنْعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ،بَلْ الْفَرْضُ أَنْ يَدْعُوَ إلَى ذَلِكَ - وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.[٢٦٢٦]

وفي شرح السير الكبير:"[بَابُ الِاسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الشِّرْكِ وَاسْتِعَانَةِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]
وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَسْتَعِينَ الْمُسْلِمُونَ بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ إذَا كَانَ حُكْمُ الْإِسْلَامِ هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهِمْ.«لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -،اسْتَعَانَ بِيَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ»،«وَلِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى

[٢٦٢٦] - المحلى بالآثار (١١/ ٣٥٤)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه وَسَلَّمَ - رُكْبَانًا وَمُشَاةً إلَى خَيْبَرَ،يَنْظُرُونَ لِمَنْ يَكُونُ الدَّبَرَةُ فَيُصِيبُونَ مِنْ الْغَنَائِمِ،حَتَّى خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ فِي إثْرِ الْعَسْكَرِ،كُلَّمَا مَرَّ بِتُرْسٍ سَاقِطٍ،أَوْ رُمْحٍ أَوْ مَتَاعٍ مِنْ مَتَاعِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-،حَمَلَهُ حَتَّى أَوْقَرَ جَمَلَهُ» «وَخَرَجَ صَفْوَانُ،وَهُوَ مُشْرِكٌ،وَمَعَهُ،امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ،وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه وَسَلَّمَ -،حَتَّى شَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ-،حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ،وَهُوَ مُشْرِكٌ»،وَإِنَّمَا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا؛لِأَنَّهُمَا كَانَا فِي أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ،وَالْمُوجِبُ لِلْفُرْقَةِ تَبَايُنُ الدَّارَيْنِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا،فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ،وَمَا ذَلِكَ إلَّا نَظِيرُ الِاسْتِعَانَةِ بِالْكِلَابِ،عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ،وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- بِقَوْلِهِ:«إنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ»،وَالَّذِي رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ-،يَوْمَ أُحُدٍ رَأَى كَتِيبَةً حَسْنَاءَ

قَالَ:مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ:يَهُودُ بَنِي فُلَانٍ،حُلَفَاءُ ابْنِ أُبَيٍّ فَقَالَ:إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِنَا» تَأْوِيلُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَنَعَةٍ،وَكَانُوا يُقَاتِلُونَ تَحْتَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ-،وَعِنْدَنَا إذَا كَانُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَإِنَّهُ يُكْرَهُ الِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ.

- وَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَاتُ فِي سَبَبِ رُجُوعِ ابْنِ أُبَيٍّ يَوْمَ أُحُدٍ،فَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ،- ﷺ -،لَمَّا لَمْ يَأْخُذْ بِرَأْيِهِ حِينَ أَشَارَ إلَيْهِ بِأَلَّا يَخْرُجَ مِنْ الْمَدِينَةِ غَاظَهُ ذَلِكَ،فَانْصَرَفَ وَقَالَ:أَطَاعَ الصِّبْيَانَ،وَخَالَفَنِي فِيمَا نَصَحْت لَهُ.

وَرُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ-،رَدَّهُ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فَيُقَاتِلَ مَعَهُ،فَقَالَ:لَا،إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ»،وَإِنَّمَا كَرِهَ ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ كَانَ مَعَهُ سَبْعُمِائَةٍ مِنْ يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ مِنْ حُلَفَائِهِ،فَخَشِيَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ إنْ أَحَسُّوا بِهِمْ زَلَّةَ قَدَمٍ،فَلِهَذَا رَدَّهُمْ.وَعِنْدَنَا إذَا رَأَى الْإِمَامُ الصَّوَابَ فِي أَلَّا يَسْتَعِينَ بِالْمُشْرِكِينَ لِخَوْفِ الْفِتْنَةِ فَلَهُ أَنْ يَرُدَّهُمْ.ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ الزُّبَيْرِ،- رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -،حِينَ كَانَ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَنَزَلَ بِهِ عَدُوُّهُ فَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ مَعَ النَّجَاشِيِّ بَلَاءً حَسَنًا.فَكَانَ لِلزُّبَيْرِ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِهَا مَنْزِلَةٌ حَسَنَةٌ،فَبِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ يَسْتَدِلُّ مَنْ يُجَوِّزُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَتِهِمْ،وَلَكِنْ تَأْوِيلُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ عِنْدَنَا:

أَحَدُهُمَا:أَنَّ النَّجَاشِيَّ كَانَ مُسْلِمًا يَوْمَئِذٍ،كَمَا رُوِيَ،فَلِهَذَا اسْتَحَلَّ الزُّبَيْرُ الْقِتَالَ مَعَهُ.

وَالثَّانِي:أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ مَلْجَأٌ غَيْرُهُ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا –،قَالَتْ:لَمَّا اطْمَأْنَنَّا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا فِي خَيْرِ دَارٍ،عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ،نَعْبُدُ رَبَّنَا إلَى أَنْ سَارَ إلَى النَّجَاشِيِّ عَدُوٌّ لَهُ،فَمَا نَزَلَ بِنَا قَطُّ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِنْهُ،قُلْنَا:إنْ ظَهَرَ عَلَى النَّجَاشِيِّ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ،فَأَخْلَصْنَا الدُّعَاءَ إلَى أَنْ يُمَكِّنَ اللَّهُ النَّجَاشِيَّ،ثُمَّ قُلْنَا:مَنْ رَجُلٌ يَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ،فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ:أَنَا فَنَفَخَ قِرْبَةً ثُمَّ رَكِبَهَا حَتَّى عَبَرَ النَّهْرَ،وَالْتَقَى الْقَوْمَ،وَحَضَرَ الزُّبَيْرُ مَعَهُمْ،وَجَعَلْنَا نُخْلِصُ الدُّعَاءَ إلَى أَنْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ فِي النِّيلِ يُلِيحُ بِثَوْبِهِ،أَلَا أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَظْهَرَ النَّجَاشِيَّ،وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ،وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ،قَالَتْ:فَأَقَمْنَا عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ.فَبِهَذَا الْحَدِيثِ تَبَيَّنَ صِحَّةُ التَّأْوِيلِ الَّذِي قُلْنَا.) وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[٢٦٢٧].

" وَالْحَدِيثُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اسْتِئْجَارِ الْمُسْلِمِ لِلْكَافِرِ عَلَى هِدَايَةِ الطَّرِيقِ إذَا أَمِنَ إلَيْهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ الْإِجَارَةِ وَتَرْجَمَ عَلَيْهِ:بَابُ اسْتِئْجَارِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ،فَكَأَنَّهُ أَرَادَ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ – ﷺ – «أَنَا لَا أَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ:الْفُقَهَاءُ يُجِيزُونَ اسْتِئْجَارَهُمْ،يَعْنِي:الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَغَيْرِهَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الذِّلَّةِ لَهُمْ،وَإِنَّمَا الْمُمْتَنِعُ أَنْ يُؤَجِّرَ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ الْمُشْرِكِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْإِذْلَالِ اهـ"[٢٦٢٨]

الاستعداد لمواصلة الغزو:

ينبغي للمسلم أن يكون مستعداً للقتال كل وقت،ولو كان حديث عهد به.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاَحَ،وَاغْتَسَلَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الغُبَارُ،فَقَالَ:وَضَعْتَ السِّلاَحَ فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَأَيْنَ» قَالَ،هَا هُنَا،وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ،قَالَتْ:فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[٢٦٢٩].

[٢٦٢٧] – شرح السير الكبير (ص:١٤٢٢)

[٢٦٢٨] – نيل الأوطار (٥/ ٣٣٦)

[٢٦٢٩] – صحيح البخاري (٤/ ٢١)(٢٨١٣)

قتال اليهود في فلسطين:

سيقاتل المسلمون اليهود،ويهزمونهم كما هزمهم النبي - ﷺ - وأصحابه رضي الله عنهم.

هناك تفصيل مهم جدا في تفسير الإفسادين لبني إسرائيل،فعنِ الزُّهْرِىِّ قَالَ أَخْبَرَنِى سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ «تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ،هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[٢٦٣٠]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ «لَتُقَاتِلُنَّ الْيَهُودَ فَلَتَقْتُلُنَّهُمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِىٌّ فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»[٢٦٣١]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِىُّ يَا مُسْلِمُ،هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[٢٦٣٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ،فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ،حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ،فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ:يَا مُسْلِمُ،يَا عَبْدَ اللَّهِ،هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي،فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ،إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ "[٢٦٣٣]

وقتالنا مع اليهود على مرحلتين:

الأولى الآن،والثانية عندما يأتي الدجال فيتبعه اليهود،وبالتالي ففلسطين ستكون مقبرة لليهود الحاليين واليهود الباقين مع الدجال بإذن الله تعالى.

[ش (عصب رأسه الغبار) ركبه وعلق به كالعصابة.(فأين) أي فأين أخرج.(أومأ) أشار]

٢٦٣٠ - صحيح البخارى- المكنز (٣٥٩٣) وصحيح مسلم- المكنز (٧٥٢٢)

فتسلطون عليهم ":تمكنون منهم،يقال:تسلط:تمكن وتحكم

٢٦٣١ - صحيح مسلم- المكنز (٧٥١٩)

٢٦٣٢ - صحيح البخارى- المكنز (٢٩٢٦).

٢٦٣٣ - صحيح مسلم- المكنز - (٧٥٢٣) والسُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي (٤٥١)

قال النووي:" (الغرقد):نوع من شجر الشوك،معروف ببلاد بيت المقدس،وهناك يكون قتل الدجال واليهود".وقال أبو حنيفة الدينوري:"إذا عظمت العوسجة؛ صارت غرقدة".

قال تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)} [الإسراء:٤ - ٨]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ بِأَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ،وَسَتَكُونُ لَهُمْ قُوَّةٌ وَسَيْطَرَةٌ،وَغَلَبٌ فِي الأَرْضِ،وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَجْعَلُونَ فِيهَا القُوَّةَ وَالسَّيْطَرَةَ وَسِيلَةً لِلطُّغْيَانِ،وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ،يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ مَنْ يَقْهَرُهُمْ،وَيُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً،وَيَسْتَبِيحُ حُرُمَاتِهِمْ،وَيُدَمِّرُهُمْ تَدْمِيراً.

فَإِذَا حَانَ وَقْتُ العِقَابِ،عَلَى إِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى،سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عِبَاداً مُؤْمِنِينَ مِنْ خَلْقِهِ،ذَوِي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الحُرُوبِ،فَقَهَرُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَتَرَدَّدُوا خِلاَلَ بُيُوتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ لاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً،وَلاَ يَخَافُونَ عَلَيْهِمْ رِدَّةً.وَكَانَ وَعْدُ اللهِ وَمَا قَضَاهُ كَائِناً لاَ بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ،كَمَا قَضَى اللهُ وَأَعْلَمَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَ (العِبادِ) الذِينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلُّهَا تَجْعَلُ هؤُلاَءِ مِنَ الأَقْوَامِ البَائِدَةِ (الآشُورِيِّينَ وَالكِلْدَانِيِّينَ وَالرُّومَانِ...) عَلَى اعْتِبَارِ أَنْ تِلْكَ الأَقْوَامَ سَبَقَ لَهَا أَنْ أَذَاقَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الوَيْلاَتِ،وَدَمَّرَتْ مُلْكَهُمْ،وَشَرَّدَتْهُمْ فِي الأَرْضِ.

وَلَكِنَّ الأُسْتَاذَ مُحَمَّد مُتْوَلِّي الشَّعْرَاوِيَّ يَرَى أَنَّ العِبَادَ الذِينَ عَنَاهُمُ النَّصُّ هُمُ المُسْلِمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ شُعُوبِ الأَرْضِ.وَيَدْعَمُ رَأْيَهُ بِمَا خُلاَصَتُهُ:

أ - اسْتَعْمَلَتِ الآيَةُ تَعْبِيرَ (فَإِذَا جَاءَ)؛(وَإِذَا) ظَرَفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ،يَعْنِي أَنَّ الفِعْلَ المُحْكِيَّ عَنْهُ سَيَحْدُثُ بَعْدَ القَوْلِ الذِي تَضَمَّنَ لَفْظَةَ (إِذَا جَاءَ).وَهَذا يَعْنِي أَنَّ الأَمْرَ الذِي

قَضَاهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَقَعُ بَعْدَ نُزُولِ الآيَةِ القُرْآنِيَّةِ التي أَشَارَتْ إِلَى مَا قَضَاهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقاً بِحَادِثٍ وَقَعَ قَبْلَهَا.

ب – اسْتَعْمَلَت الآيَةُ عِبَارَةَ (عِبَاداً لَنَا).وَعِبَادُ اللهِ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ،فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِي تَعْنِي أَنَّ القَوْمَ الذينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَبِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كُتُبٍ،وَمَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ وَأَنْبِيَاءٍ لِهِدَايَةِ البَشَرِ،وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ اليَوْمَ مَنْ تَجْتَمِعُ فِيهِمْ هَذِهِ الأَوْصَافُ غَيْرُ المُسْلِمِينَ.

كَمَا أَنَّ الأُمَمَ الخَالِيَةَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ عَنْهَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ الخَالِصِ.

ج – إِنَّ العِبَادَ الذينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ فِي المَرَّتَيْنِ،وَإِنَّ اليَهُودَ سَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى هؤُلاَءِ العِبَادِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى،ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تَعَالَى الكَرَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،بَعْدَ أَنْ يُمْعِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَسَاداً فِي الأَرْضِ وَطُغْيَاناً.وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الأُمَمِ الخَالِيَّةِ بَقِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى أَسْلاَفِهَا المُؤْمِنِينَ أَيْضاً لِتَقُومَ عَنْهُمْ بِالانْتِقَامِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ.

وَيَرَى الأُسْتَاذُ مُحَمَّد مُتْوَلِّي الشَّعْرَاوِيّ أَنَّ اليَهُودَ كَانَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ فَأَكْثَرُوا الفَسَادَ زَمَنَ الرَّسُولِ – ﷺ –،وَتَآمَرُوا عَلَى الرَّسُولِ وَالمُسْلِمِينَ،فَسَلَّطَ اللهُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ،فَقَتَلُوا بَعْضَهُمْ،وَأَخْرَجُوا البَاقِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ،وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَى فِي النَّصِّ قَهْرَ اليَهُودِ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى مِنْ قِبَلِ عِبَادِ اللهِ مُتَلاَزِماً مَعَ دُخُولِ هَؤُلاَءِ العِبَادِ المَسْجِدَ الأَقْصَى،وَلاَ بِحُدُوثِ ذَلِكَ فِي أَرْضِ فِلَسْطِينَ.وَفِي الحَقِيقَةِ إِنَّ المَسْجِدَ الأَقْصَى كَانَ،حِينَمَا قَهَرَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ،تَحْتَ حُكْمِ الرُّومَانِ،وَلَمْ يَكُنْ لِلْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ سُلْطَانٌ وَلاَ كَيَانٌ مُتَمَيِّزٌ فِي ذَلِكَ الحِينِ.

ثُمَّ يَبْتَعِدُ المُسْلِمُونَ عَنْ دِينِهِمْ،وَيَتْرُكُونَ الأَخْذَ بِشَرِيعَتِهِمْ،وَتَتَفَرَّقُ كَلِمَتُهُمْ،فَيُدِيلُ اللهُ لِلْيَهُودِ عَلَيْهِمْ،بَعْدَ أَنْ يُمِدَّهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ،وَيَجْعَلَهُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً مِنْهُمْ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى.

ثُمَّ يَسْتَسْلِمُ اليَهُودُ إِلَى الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَيَرْجِعُونَ إِلَى مَسْلَكِهِمْ القَدِيمِ فِي الإِسَاءَةِ إِلَى عِبَادِ اللهِ،وَيَسْتَطِيلُونَ عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ،فَيَعُودُ المُسْلِمُونَ إِلَى دِينِهِمْ،فَتَتَّحِدُ كَلِمَتُهُمْ،وَيَجْمَعُونَ قُوَاهُمْ،وَيُهَاجِمُونَ اليَهُودَ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ فَيَقْهَرُونَهُمْ،وَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ

المَسْجدَ الأَقْصَى لاَ يُنَازِعُهُمْ فِي دُخُولِهِمْ إِلَيْهِ مُنَازِعٌ (كَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى بَعْدَ أَن احْتَلُّوا فِلَسْطِينَ وَطَرَدُوا الرُّومَانَ مِنْهَا بَعْدَ أَنْ أَخْرَجُوا اليَهُودَ مِنَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ)،وَيُدَمِّرُونَ مَا يَمْلِكُهُ اليَهُودُ تَدْمِيراً شَامِلاً.

وَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى حُجَجِ الأُسْتَاذِ شَعْرَاوِي المُسْتَوْحَاةِ مِنَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ حَدِيثاً لِرَسُولِ اللهِ – ﷺ – (رَوَاهُ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه) عَنْ مُسْتَقْبَلِ العلاَقَاتِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ،وَمَا سَيَكُونُ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ قَتْلِ اليَهُودِ قَتْلاً ذَرِيعاً لاَ يُبْقُونَ فِيهِ وَلاَ يَذَرُونَ،نَجِدُ أَنَّ الرَّأْيَ الذي ذَهَبَ إِلَيْهِ أُسْتَاذُنا الجَلِيلُ يَقُومُ عَلَى سَنَدٍ مَتِينٍ.وَالحَدِيثُ الذي رَوَاهُ الإِمَامُ مُسْلِمٌ عن أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ– قَالَ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِىُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِىٌّ خَلْفِى فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ.إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ" صحيح مسلم

حَتَّى إِذَا ذَاقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيْلاَتَ القَهْرِ وَالذُّلِّ وَالغَلَبِ،رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ،فَجَمَعُوا شَمْلَهُمْ،وَأَصْلَحُوا أُمُورَهُمْ،وَاسْتَنْجَدُوا بِبَعْضِ عِبَادِ اللهِ الذِينَ لاَ يُدْرِكُونَ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ،وَفِي ذَلِكَ الحِينِ يَكُونُونَ قَدْ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ،وَتَزَايَدَ عَدَدُهُمْ،وَيَكُونَ أَعْدَاؤُهُمُ – العِبَادُ المُؤْمِنُونَ – قَد ابْتَعَدُوا عَنْ دِينِهِمْ،وَمَنْهَجِ شَرِيعَتِهِمْ،فَيُعَاقِبُهُمُ اللهُ،وَيُدِيلُ لِلْيَهُودِ عَلَيْهِمْ،وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَنَّ اليَهُودَ عَادُوا إِلَى اللهِ تَائِبِينَ مُخْلِصِينَ،وَالْتَزَمُوا بِمَا شَرَعَهُ لَهُمْ رَبُّهُمْ فِي كِتَابِهِمْ،وَإِنَّمَا لأَنَّ أَعَدَاءَهُمْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَعَدُوا عَنْ دِينِهِمْ،وَتَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهُمْ،فَسَلَّطَ اليَهُودَ عَلَيْهِمْ (كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ فِي الإِصْحَاحِ التَّاسِعِ مِنْ سِفْرِ تَثْنِيَةِ الاشْتِرَاعِ).

وَيُقَرِّرُ اللهُ تَعَالَى هُنَا القَاعِدَةَ الثَّابِتَةَ التي لاَ تَتَغَيَّرُ أَبداً،وَهِيَ أَنَّ عَمَلَ الإِنْسَانِ عَائِدٌ عَلَيْهِ بِنَتَائِجِه إِنْ خَيْراً فَخَيْراً،وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً.فَإِنْ أَحْسَنَ الإِنْسَانُ كَانَ إِحْسَانُهُ لِنَفْسِه.يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ،فَفِي الدُّنْيا يَدْفَعُ اللهُ عَنْهُ الأَذَى،وَيَرُدُّ كَيْدَ أَعْدَائِه إِلَى نُحُورِهِمْ،وَيَزِيدُهُ قُوَّةً.وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ يُثِيبُهُ عَلَى عَمَلِه بِالجَنَّةِ،وَيَمُنُّ عَلَيْهِ بِرِضْوَانِه.

فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ العِقَابِ عَلَى إِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَّةِ،فَإِنَّ الأَعْدَاءَ الذِينَ غَلَبَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْتَجْمِعُونَ قُوَاهُمْ،وَيَنْدَفِعُونَ لِعِقَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَالانْتِقَامِ مِنْهُمْ،وَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ المَرَّةَ المَسْجِدَ الأَقْصَى،وَيُذِيقُونَهُمْ أَنْوَاعاً مِنَ القَهْرِ وَالوَيْلاَتِ وَالإِذْلاَلِ،وَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلاً ذَرِيعاً،وَيُخَرِّبُونَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ مِمَّا كَانَ يَمْلِكُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ،حَتَّى لَتُرَى آثَارُ المَسَاءَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:إِنَّهُ قَدْ يَرْحَمُهُمْ،وَيَصْرِفُ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ،بَعْدَ المَرَّةِ الثَّانِيَةِ،إِذَا اسْتَفَادُوا مِنَ الدُّرُوسِ وَالعِبَرِ،وَعَادُوا إِلى طَرِيقِ الحَقِّ وَالصَّوَابِ،وَكَفُّوا عَنِ ارْتِكَابِ المَعَاصِي وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ،وَقَتْلِ الأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.وَيُهَدِّدُهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ إِنْ عَادُوا إِلَى الإِفْسَادِ،عَادَ اللهُ إِلَى الإِدَالَةِ عَلَيْهِمْ،وَتَسْلِيطِ الأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(وَقَدْ سَلَّطَ اللهُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ فَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَفَرَضُوا عَلَيْهِمُ الجِزْيَّةَ،وَأَذَاقُوهُمْ وَيْلاَتِ الحُرُوبِ).

وَيُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مَصِيرَ الكُفَّارِ وَالمُفْسِدِينَ وَاحِدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَهُوَ العَذَابُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،التِي تَحْصُرُهُمْ جَمِيعاً،وَتُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،فَلاَ يُفْلِتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.[٢٦٣٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٦٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١/ ٢٠٣٣) فما بعدها وتفسير الشعراوي - (/ ٢٠١٧) فما بعدها - وانظر التفاصيل في كتابي المفصل في أحاديث الملاحم [ص ١٣٧]- المبحث الرابع عشر -ما جاء في قتال اليهود -

الباب السابع عشر

النساء والجهاد

المبحث الأول

أحكام التبييت

تَعْرِيفُ التبيت:

التَّبْيِيتُ لُغَةً:مَصْدَرُ بَيَّتَ الأَمْرَ إذَا دَبَّرَهُ لَيْلاً،وَبَيَّتَ النِّيَّةَ عَلَى الأَمْرِ:إذَا عَزَمَ عَلَيْهِ لَيْلاً فَهِيَ مُبَيَّتَةٌ بِالْفَتْحِ.وَبَيَّتَ الْعَدُوَّ:أَيْ دَاهَمَهُ لَيْلاً.

وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } [النساء:١٠٨] وَفِي السِّيرَةِ:" هَذَا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيْلٍ ".

وَالتَّبْيِيتُ فِي الاصْطِلاَحِ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ،وَالْبَيَاتُ اسْمُ الْمَصْدَرِ،وَمِنْهُ قَوْلِهِ تَعَالَى:{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } [الأعراف:٩٧].[٢٦٣٥]

وَفِي التَّنْزِيلِ:{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) } [النمل:٤٨ - ٥٠]فَالْفَرْقُ بَيْنَ تَبْيِيتِ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ الإِغَارَةِ عَلَيْهِ:أَنَّ الإِغَارَةَ مُطْلَقَةٌ،إِذْ تَكُونُ لَيْلاً أَوْ نَهَارًا،أَمَّا التَّبْيِيتُ فَهُوَ فِي اللَّيْلِ[٢٦٣٦].

حكمُ تَبْيِيتِ الْعَدُوِّ:

تَبْيِيتُ الْعَدُوِّ جَائِزٌ لِمَنْ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ،وَهُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَرَفَضُوهَا،وَلَمْ يَقْبَلُوا دَفْعَ الْجِزْيَةِ،وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَقْدُ ذِمَّةٍ وَلاَ هُدْنَةٍ.

قَال أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ:لاَ بَأْسَ بِالْبَيَاتِ،وَهَل غَزْوُ الرُّومِ إِلاَّ الْبَيَاتُ ؟ قَال:وَلاَ نَعْلَمُ أَحَدًا كَرِهَ تَبْيِيتَ الْعَدُوِّ.وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،قَالَ:مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ

[٢٦٣٥] - المصباح المنير ولسان العرب مادة :" بيت " والقليوبي ٢ / ٢٥٦ .

[٢٦٣٦] - المصباح المنير، والقليوبي ٣ / ٢٩٩ .

بِالْأَبْوَاءِ،أَوْ بِوَدَّانَ،وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»،وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:«لاَ حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ»[2637]

فَإِنْ قِيلَ:جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،«فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[2638]

قُلْنَا:هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى التَّعَمُّدِ لِقَتْلِهِمْ.وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُمْكِنٌ بِحَمْلِ النَّهْيِ عَلَى التَّعَمُّدِ،وَالإِبَاحَةِ عَلَى مَا عَدَاهُ [2639].

وَالْمَسْأَلَةُ فِيهَا تَفْرِيعَاتٌ فِيمَا إِذَا كَانَ مَعَ الْكُفَّارِ مُسْلِمٌ وَقُتِل،تُنْظَرُ فِي:(الْجِهَادِ وَالدِّيَاتِ [2640]).

فَإِنْ بَيَّتَ الإِمَامُ أَوْ أَمِيرُ الْجَيْشِ قَبْل الدَّعْوَةِ أَثِمَ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } [الأنفال:٥٨]

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ضَمَانِ مَنْ يُقْتَل مِنْهُمْ بِالتَّبْيِيتِ:

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُضْمَنُ،لِأَنَّهُ لاَ إِيمَانَ لَهُ،وَلاَ أَمَانَ،فَلَمْ يُضْمَنْ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ يُضْمَنُ بِالدِّيَةِ وَالْكَفَّارَةِ،وَنُقِل ذَلِكَ عَنِ الشَّافِعِيِّ.[2641]

وَيَرَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ:أَنَّ أَهْل الْكِتَابِ وَالْمَجُوسَ لاَ تَجِبُ دَعْوَتُهُمْ قَبْل الْقِتَال ؛لِأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْهُمْ،وَلِأَنَّ كُتُبَهُمْ قَدْ بَشَّرَتْ بِالرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.وَيُدْعَى عَبَدَةُ الأَوْثَانِ قَبْل أَنْ يُحَارَبُوا [2642].

[2637] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٢)

[ش (بالأبواء أو بودان) موضعان بين مكة والمدينة.(يبيتون) يغار عليهم في الليل فلا يعرف رجل من امرأة.(فيصاب) بالقتل وغيره.(هم منهم) أي من المشركين فلا حرج في إصابتهم إذا كانوا مختلطين معهم ولا يمكن الوصول إلى قتل الكبار إلا بقتلهم وليس المراد قتلهم بطريق القصد إليهم]

[2638] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٥ - (١٧٤٤)

[2639] - المغني ٨ / ٤٤٩ مطبعة الرياض الحديثة .

[2640] - شرح روض الطالب ٤ / ١٩١ طبعة الميمنية - الناشر المكتبة الإسلامية سنة ١٣١٣ هـ .

[2641] - البحر الرائق ٥ / ٨٠، وابن عابدين ٣ / ٢٢٣، ومطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى ٢ / ٥٠٧ - ٥٠٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٣، والمغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦ .

[2642] - المغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦ .

أَمَّا مَنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ،فَتُسْتَحَبُّ الدَّعْوَةُ قَبْلَ التَّبْيِيتِ مُبَالَغَةً فِي الإِنْـذَارِ،وَلِيَعْلَمُوا أَنَّنَا نُقَاتِلُهُمْ عَلَى الدِّينِ لاَ عَلَى سَلْبِ الأَمْوَالِ وَسَبْيِ الذَّرَارِيِّ،وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:أَمَرَ عَلِيًّا حِينَ أَعْطَاهُ الرَّايَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ وَبَعَثَهُ إِلَى قِتَالِهِمْ أَنْ يَدْعُوَهُمْ،،وَهُمْ مِمَّنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ،فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:يَوْمَ خَيْبَرَ:«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»،فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى،فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيٌّ؟»،فَقِيلَ:يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ،فَأَمَرَ،فَدُعِيَ لَهُ،فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ،فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ،فَقَالَ:نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«عَلَى رِسْلِكَ،حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٢٦٤٣]

(" ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ")،أَيْ:أَوَّلًا (" وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ ")،أَيْ فِي الْإِسْلَامِ،وَكَانَ هُنَا مَحْذُوفًا أَوْ جُمْلَةً مَطْوِيَّةً،وَهِيَ:فَإِنْ أَبَوْا عَنْهُ فَاطْلُبِ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا حَقِيقَةً أَوْ حُكْمًا أَوْ مَعْنَاهُ يَنْقَادُوا قَالَ الطِّيبِيُّ:وَكَأَنَّهُ - ﷺ - اسْتَحْسَنَ قَوْلَهُ:أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا،وَاسْتَحْمَدَهُ عَلَى مَا قَصَدَهُ مِنْ مُقَاتَلَتِهِ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَكُونُوا أَمْثَالَنَا مُهْتَدِينَ إِعْلَاءً لِدِينِ اللَّهِ،وَمِنْ ثَمَّ حَثَّهُ - ﷺ - عَلَى مَا نَوَاهُ بِقَوْلِهِ:(" «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» ") يُرَادُ بِهِ حُمْرُ الْإِبِلِ وَهِيَ أَعَزُّهَا وَأَنْفَسُهَا،وَيَضْرِبُونَ بِهَا الْمَثَلَ فِي نَفَاسَةِ الشَّيْءِ،وَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَعْظَمُ مِنْهُ قَالَ النَّوَوِيُّ:تَشْبِيهُ أُمُورِ الْآخِرَةِ بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ التَّقْرِيبُ لِلْأَفْهَامِ وَإِلَّا فَقَدْرٌ يَسِيرٌ مِنَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا وَأَمْثَالِهَا مَعَهُ أَقُولُ:وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَ:فَوَاللَّهِ..إِلَخْ تَأْكِيدٌ لِمَا أَرْشَدَهُ مِنْ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوَّلًا،فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا لِإِيمَانِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى قِتَالِهِمُ الْمُتَفَرِّعِ عَلَيْهِ حُصُولُ الْغَنَائِمِ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ وَغَيْرِهَا،فَإِنَّ إِيجَادَ مُؤْمِنٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ إِعْدَامِ أَلْفِ كَافِرٍ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ الْهُمَامِ فِي

[٢٦٤٣] - صحيح البخاري (٤/ ٤٧)(٢٩٤٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢)٣٤ - (٢٤٠٦)

[ش (الراية) العلم.(فقاموا يرجون) فقام كل من الصحابة راجيا أن تعطى الراية له.(لذلك) ليفتح على يديه.(على رسلك) اتئد في السير.(بساحتهم) الساحة المكان المتسع بين دور الحي ونحوه.(رجل) المراد ما يعم الذكر والأنثى.(حمر النعم) الإبل الحمراء وكانت أنفس الأموال عند العرب]

أَوَّلِ كِتَابِ النِّكَاحِ مُعَلِّلًا بِهِ عَلَى وَجْهِ تَقْدِيمِهِ كُلِّهِ عَلَى كِتَابِ السِّيَرِ وَالْجِهَادِ،وَالْحُمْرُ:بِضَمٍّ فَسُكُونِ جَمْعُ أَحْمَرَ،وَأَمَّا بِضَمِّ الْمِيمِ فَهُوَ جَمْعُ حِمَارٍ،وَالنَّعَمُ بِفَتْحَتَيْنِ وَقَدْ يُكْسَرُ عَيْنُهُ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ،الْإِبِلُ وَالشَّاءُ أَوْ خَاصٌّ بِالْإِبِلِ،وَأَمَّا النِّعَمُ بِكَسْرِ النُّونِ فَهُوَ جَمْعُ نِعْمَةٍ.[٢٦٤٤]

وَيَجُوزُ بَيَاتُهُمْ بِغَيْرِ دُعَاءٍ،قال ابْنُ عَوْنٍ:كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ،فَكَتَبَ إِلَيَّ «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ،وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ»،حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ،وَكَانَ فِي ذَلِكَ الجَيْشِ"[٢٦٤٥]

وعَنْ أُسَامَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ وَجَّهَهُ وِجْهَةً،فَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:مَا الَّذِي عَهِدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ:" عَهِدَ إِلَيَّ أَنْ أُغِيرَ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا،ثُمَّ أُحَرِّقَ "[٢٦٤٦]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي الصَّعْبُ بْنُ جَثَّامَةَ،قَالَ:مَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ،فَأَهْدَيْتُ إِلَيْهِ لَحْمَ حِمَارِ وَحْشٍ،فَرَدَّهُ عَلَيَّ،فَلَمَّا رَأَى الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِي،قَالَ:«إِنَّهُ لَيْسَ بِنَا رَدٌّ عَلَيْكَ،وَلَكِنَّا حُرُمٌ» وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ،قَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ» قَالَ:وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:«لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ».[٢٦٤٧]

وَكَانُوا جَمِيعًا مِمَّنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَإِلاَّ لَمْ يُبَيِّتُوا لِلأَدِلَّةِ السَّابِقَةِ..[٢٦٤٨]

٢٦٤٤ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٣٤)

٢٦٤٥ - صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٦)١ - (١٧٣٠) [ش (غارون) غافلون أي أخذهم على غرة وبغتة.(أنعامهم) هي الإبل والبقر والغنم وأكثر ما تطلق على الإبل.(مقاتلتهم) البالغين الذين هم على استعداد للقتال.(سبى ذراريهم) أخذهم سبيا ووزعهم على الغانمين بعد أن ضرب عليهم الرق.والذراري جمع ذرية وهي ههنا النساء والأولاد غير البالغين.(أصاب يومئذ جويرية) أي كانت في السبي]

٢٦٤٦ - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ١٤٨)(٢١٨٢٤) صحيح لغيره

٢٦٤٧ - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٤٥) (١٣٦) صحيح وهو في صحيح البخاري

٢٦٤٨ - البحر الرائق ٥ / ٨١، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٣٩، والمغني لابن قدامة ١٠ / ٣٨٦، ومغني المحتاج ٤ / ٣٢٣ .

المبحث الثاني

تَخْيِيرُ الإِمَامِ فِي الأَسْرَى

اتَّفَقَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى تَخْيِيرِ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَسْرَى الْحَرْبِ بَيْنَ خَمْسِ خِصَالٍ:فَإِمَّا أَنْ يَسْتَرِقَّهُمْ،وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلَهُمْ،وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ،وَإِمَّا أَنْ يَطْلُبَ الْفِدْيَةَ مُقَابِل إِعْتَاقِهِمْ سَوَاءٌ بِالْمَالِ،أَوْ بِمُفَادَاتِهِمْ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي أَيْدِي الْكُفَّارِ،وَإِمَّا أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَيُعْتِقَهُمْ.

وَاسْتَثْنَى الْحَنَفِيَّةُ الْخَصْلَتَيْنِ الأَخِيرَتَيْنِ،وَهُمَا الْفِدَاءُ وَالْمَنُّ،فَقَالُوا بِعَدَمِ جَوَازِ الْمَنِّ،وَعَدَمِ جَوَازِ الْمُفَادَاةِ بِالْمَالِ فِي الْمَشْهُورِ مِنَ الْمَذْهَبِ،أَمَّا الْمُفَادَاةُ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ فَلاَ يَجُوزُ فِي قَوْلٍ لِأَبِي حَنِيفَةَ،وَجَائِزٌ فِي قَوْل الصَّاحِبَيْنِ،وَهُوَ قَوْلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ كَذَلِكَ[٢٦٤٩].

وَدَلِيل جَوَازِ أَخْذِ الْجِزْيَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَل ذَلِكَ فِي أَهْل السَّوَادِ.

وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَخْيِيرِ الإِمَامِ فِي الأَسْرَى مَحَلُّهُ فِي الرِّجَال الْبَالِغِينَ،أَمَّا النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فَلاَ خِيَارَ فِيهِمْ،وَلاَ يُحْكَمُ فِيهِمْ إِلاَّ بِالاِسْتِرْقَاقِ،وَحُكْمُهُمْ حُكْمُ سَائِرِ أَمْوَال الْغَنِيمَةِ.كَمَا فِي سَبَايَا هَوَازِنَ وَخَيْبَرَ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ.

وعَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ عَمِّهِ،قَالَ:«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ إِذْ بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ»[٢٦٥٠]

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ:لِلإِمَامِ الْخِيَرَةُ فِيهِمْ بَيْنَ الاِسْتِرْقَاقِ وَالْفِدَاءِ.[٢٦٥١]

[٢٦٤٩] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٥٠ - ٢٥١، والخرشي على خليل ٣ / ١٢١، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤، وكشاف القناع ٣ / ٥١ - ٥٤، وفتح القدير ٥ / ٢١٨ - ٢٢١

[٢٦٥٠] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨١)(٢٦٢٧) صحيح

[٢٦٥١] - المراجع السابقة

وَتَخْيِيرُ الإِمَامِ بَيْنَ هَذِه الْخِصَال مُقَيَّدٌ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الْمَصْلَحَة الرَّاجِحَة فِي أَحَدهَا،فَيَخْتَارُ الأَصْلَحَ لِلْمُسْلمِينَ منْ بَيْنهَا.فَإِنْ كَانَ الأَسيرُ ذَا قُوَّة وَشَوْكَة فَقَتْلُهُ هُوَ الْمَصْلَحَةُ،وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا صَاحِبَ مَال كَانَت الْمَصْلَحَةُ فِي أَخْذ الْفدْيَة منْهُ،وَإِنْ كَانَ ممَّنْ يُرْجَى إِسْلاَمُهُ فَيَمُنُّ عَلَيْه تَقْرِيبًا وَتَأْليفًا لقَلْبه عَلَى الإِسْلاَم.وَإِنْ تَرَدَّدَ نَظَرُ الإِمَام وَرَأْيُهُ فِي اخْتيَارِ الأَصْلَحِ،فعنْدَ الْحَنَابلَة الْقَتْل أَوْلَى لمَا فيه منْ كفَايَة شَرِّهمْ.[٢٦٥٢]

وَعنْدَ الشَّافعيَّة يَحْبسُهُمْ حَتَّى يَظْهَرَ لَهُ الأَصْلَحُ.فَالتَّخْيِيرُ فِي تَصَرُّف الإِمَام فِي الأَسْرَى مُقَيَّدٌ بِالْمَصْلَحَة بخلاَف التَّخْيِير فِي خصَال الْكَفَّارَة ؛إِذْ هُوَ تَخْيِيرٌ مُطْلَقٌ أُبيحَ للْحَانث بمُوجبه أَنْ يَخْتَارَ أَيَّ خَصْلَة دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْمَصْلَحَة[٢٦٥٣].

أَمَّا إِذَا اخْتَارَ الإِمَامُ خَصْلَةً بَعْدَ الاجْتهَاد وَتَقْلِيب وُجُوه الْمَصَالحِ،ثُمَّ ظَهَرَ لَهُ بالاجْتهَاد أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي غَيْرِهَا،فَقَدْ قَال ابْنُ حَجَرٍ فِي تُحْفَة الْمُحْتَاجِ:الَّذي يَظْهَرُ لِي فِي ذَلكَ تَفْصيلٌ لاَ بُدَّ منْهُ أَوَّلاً:

فَإِنْ كَانَتْ رِقًّا لَمْ يَجُزْ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْهَا مُطْلَقًا،سَوَاءٌ اسْتَرَقَّهُمْ لسَبَب أَمْ لغَيْر سَبَب،وَذَلكَ لأَنَّ أَهْل الْخُمُس مَلَكُوهُمْ بِمُجَرَّد ضَرْبِ الرِّقِّ،فَلَمْ يَمْلكْ إِبْطَالَهُ عَلَيْهِمْ إِلاَّ برضَا مَنْ دَخَلُوا فِي ملْكهِمْ.

وَإِن اخْتَارَ الْقَتْل جَازَ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْهُ تَغْليبًا لحَقْنِ الدِّمَاء،كَمَا فِي جَوَاز رُجُوعِ الْمُقرِّ بالزِّنَى وَسُقُوط الْقَتْل عَنْهُ،بَل إِنَّ الرُّجُوعَ عَنْ قَتْل الأَسِيرِ أَوْلَى ؛لأَنَّهُ مَحْضُ حَقٍّ للَّه تَعَالَى،أَمَّا حَدُّ الزِّنَا فَفيه شَائبَةُ حَقِّ آدَميٍّ.

أَمَّا إِذَا كَانَ مَا اخْتَارَهُ الإِمَامُ أَوَّلاً هُوَ الْمَنُّ أَو الْفدَاءُ فَلاَ يَرْجعُ عَنْهُ باجْتهَاد آخَرَ ؛لأَنَّهُ منْ قَبيل نَقْضِ الاجْتهَاد بالاجْتهَادِ منْ غَيْرِ مُوجبٍ،كَمَا أَنَّ الْحَاكمَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي قَضيَّةٍ فَلاَ يَنْقُضُ اجْتهَادَهُ باجْتهَادٍ آخَرَ.

[٢٦٥٢] - الفروق ٣ / ١٧، وكشاف القناع ٣ / ٥٣

[٢٦٥٣] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٥١، والفروق ٣ / ١٧

أَمَّا إِذَا اخْتَارَ أَحَدَهُمَا لِسَبَبٍ،ثُمَّ زَال ذَلِكَ السَّبَبُ،وَظَهَرَت الْمَصْلَحَةُ فِي اخْتِيَارِ الثَّـــانِي لَزِمَهُ الْعَمَل بِمَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ثَانِيًا،وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيل نَقْضِ الاجْتِهَادِ بِالاجْتِهَادِ ؛لأَِنَّهُ انْتِقَالٌ إِلَى الاخْتِيَارِ الثَّانِي لِزَوَال مُوجِبِ الاخْتِيَارِ الأَْوَّل.

وَيُشْتَرَطُ فِي الاسْتِرْقَاقِ وَالْفِدَاءِ اللَّفْظُ الدَّال عَلَى اخْتِيَارِهِمَا،وَلاَ يَكْفِي مُجَرَّدُ الْفِعْل ؛لأَِنَّهُ لاَ يَدُل عَلَيْهِ دَلاَلَةً صَرِيحَةً.أَمَّا فِي غَيْرِهِمَا مِنَ الْخِصَال،فَيَكْفِي الْفِعْل لِدَلاَلَتِهِ الصَّرِيحَةِ عَلَى اخْتِيَارِهَا [٢٦٥٤].

قَالَ فِي الْفَتْحِ:أَيْ فِي الْحُكْمِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ إِبَاحَةَ قَتْلِهِمْ بِطَرِيقِ الْقَصْــدِ إِلَيْهِمْ،بَلْ الْمُرَادُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ الْوُصُولُ إِلَى الْآبَاءِ إِلَّا بِوَطْءِ الذُّرِّيَّةِ،فَإِذَا أُصِيبُوا لِاخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ جَازَ قَتْلُهُمْ.انْتَهَى.وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُد «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَمَّا بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ».وَيُحْمَلُ هَذَا عَلَــى أَنَّــهُ لَــا يَجُــوزُ قَــتْلُهُمْ بِطَرِيــقِ الْقَصْدِ.وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ.قَالَ:«لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مَكَّةَ أُتِيَ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فَقَالَ:مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِــلَ،وَنَهَى عَــنْ قَتْــلِ النِّسَــاءِ وَالصِّبْيَانِ».وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ أَبُو دَاوُد فِي الْمَرَاسِيلِ مِنْ حَدِيثِ عِكْرِمَةَ.

وَقَدْ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ بِحَالٍ،حَتَّى لَوْ تَتَرَّسَ أَهْــلُ الْحَرْبِ بِالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ وَلَا تَحْرِيقُهُمْ.وَذَهَبَ الشَّــافِعِيُّ وَالْكُوفِيُّــونَ وَغَيْرُهُمْ إِلَى الْجَمْعِ بِمَا تَقَدَّمَ،وَقَالُوا:إِذَا قَاتَلَتْ الْمَرْأَةُ جَازَ قَتْلُهَا.وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَــهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيِّ قَالَ:«كُنَّا مَعَ رَسُــولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ فَرَأَى الْمَرْأَةَ مَقْتُولَةً،فَقَالَ:مَا كَانَتْ هَــذِهِ لِتُقَاتِلَ» فَإِنَّ مَفْهُومَهُ أَنَّهَا لَوْ قَاتَلَتْ لَقُتِلَتْ.وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ وَغَيْرُهُ الِاتِّفَاقَ عَلَى مِثْــلِ الْقَصْدِ إِلَى قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ،وَأَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ فَمَحَلُّــهُ كِتَــابُ الْجَنَائِزِ،وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ هَهُنَا لِلِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى:أَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ مُسْلِمًا بِإِسْلَامِ أَحَدِ أَبَوَيْهِ لِمَا فِي قَوْلِهِ:" مَا مِنْ النَّاسِ مُسْلِمٌ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ ".فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ مَــنْ

٢٦٥٤ – تحفة المحتاج مع الحواشي ٩ / ٢٤٧ – ٢٤٨ والموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١١/ ٧٦)

كَانَ لَهُ ذَلِكَ الْمِقْدَارُ مِنْ الْأَوْلَادِ دَخَلَ الْجَنَّةَ،وَإِنْ كَانُوا مِنْ امْرَأَةٍ غَيْرِ مُسْلِمَةٍ،وَنَفْعُهُمْ لِأَبِيهِمْ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ إنَّمَا يَصِحُّ بَعْدَ الْحُكْمِ بِإِسْلَامِهِمْ لِأَجْلِ إسْلَامِ أَبِيهِمْ.[٢٦٥٥]

قال الشوكاني:" وَأَحَادِيثُ الْبَابِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عِنْدَهُمَا بِحَالٍ مِنْ الْأَحْوَالِ،حَتَّى لَوْ تَتَرَّسَ أَهْلُ الْحَرْبِ بِالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ أَوْ تَحَصَّنُوا بِحِصْنٍ أَوْ سَفِينَةٍ وَجَعَلُوا مَعَهُمْ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ وَلَا تَحْرِيقُهُمْ.وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَالْكُوفِيُّونَ إلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَةِ فَقَالُوا:إذَا قَاتَلَتْ الْمَرْأَةُ جَازَ قَتْلُهَا.وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ:لَا يَجُوزُ الْقَصْدُ إلَى قَتْلِهَا إذَا قَاتَلَتْ إلَّا إنْ بَاشَرَتْ الْقَتْلَ أَوْ قَصَدَتْ إلَيْهِ.وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي الْمَرَاسِيلِ عَنْ عِكْرِمَةَ «أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ -:مَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ يَوْمَ حُنَيْنٌ فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ غَنِمْتُهَا فَأَرْدَفْتَهَا خَلْفِي فَلَمَّا رَأَتْ الْهَزِيمَةَ فِينَا أَهْوَتْ إلَى قَائِمِ سَيْفِي لِتَقْتُلَنِي فَقَتَلْتُهَا،فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -» وَوَصَلَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ،وَفِيهِ حَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ،وَأَرْسَلَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى الْأَنْصَارِيِّ.وَنَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ أَنَّهُ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ الْقَصْدِ إلَى قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.

أَمَّا النِّسَاءُ فَلِضَعْفِهِنَّ،وَأَمَّا الْوِلْدَانُ فَلِقُصُورِهِمْ عَنْ فِعْلِ الْكُفَّارِ،وَلِمَا فِي اسْتِبْقَائِهِمْ جَمِيعًا مِنْ الِانْتِفَاعِ إمَّا بِالرِّقِّ أَوْ بِالْفِدَاءِ فِيمَنْ يَجُوزُ أَنْ يُفَادَى بِهِ.قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَقَدْ حَكَى الْحَازِمِيُّ قَوْلًا بِجَوَازِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ عَلَى ظَاهِرِ حَدِيثِ الصَّعْبِ،وَزَعَمَ أَنَّهُ نَاسِخٌ لِأَحَادِيثِ النَّهْيِ وَهُوَ غَرِيبٌ.قَوْلُهُ:(وَلَا عَسِيفًا) بِمُهْمَلَتَيْنِ وَفَاءٍ كَأَجِيرٍ وَزْنًا وَمَعْنًى،وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ مَنْ كَانَ مَعَ الْقَوْمِ أَجِيرًا وَنَحْوَهُ لِأَنَّهُ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ.قَوْلُهُ:(لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا) ظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ شُيُوخِ الْمُشْرِكِينَ،وَيُعَارِضُهُ حَدِيثُ «اُقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ» الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

وَقَدْ جُمِعَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ بِأَنَّ الشَّيْخَ الْمَنْهِيَّ عَنْ قَتْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ هُوَ الْفَانِي الَّذِي لَمْ يَبْقَ فِيهِ نَفْعٌ لِلْكُفَّارِ وَلَا مَضَرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَقَدْ وَقَعَ التَّصْرِيحُ بِهَذَا الْوَصْفِ بِقَوْلِهِ:"

[٢٦٥٥] - نيل الأوطار (٧/ ٢٣٧)

شَيْخًا فَانِيًا " وَالشَّيْخُ الْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي هُوَ مَنْ بَقِيَ فِيهِ نَفْعٌ لِلْكُفَّارِ وَلَوْ بِالرَّأْيِ كَمَا فِي دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ «فَإِنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَمَّا فَرَغَ مِنْ حُنَيْنٌ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشِ أَوْطَاسٍ فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ وَقَدْ كَانَ نَيَّفَ عَلَى الْمِائَةِ وَقَدْ أَحْضَرُوهُ لِيُدَبِّرَ لَهُمْ الْحَرْبَ،فَقَتَلَهُ أَبُو عَامِرٍ وَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ – ﷺ – ذَلِكَ عَلَيْهِ» كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي تَعْلِيلِ أَمْرِهِ – ﷺ – بِقَتْلِ الشُّيُوخِ:إنَّ الشَّيْخَ لَا يَكَادُ يُسْلِمُ وَالصَّغِيرُ أَقْرَبُ إلَى الْإِسْلَامِ.قَوْلُهُ:(وَلَا تَغُلُّوا) سَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى تَحْرِيمِ الْغُلُولِ وَالْغَدْرِ وَالْمُثْلَةِ.قَوْلُهُ:(وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ) أَيْ اجْمَعُوهَا.قَوْلُهُ:(وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ مَنْ كَانَ مُتَخَلِّيًا لِلْعِبَادَةِ مِنْ الْكُفَّارِ كَالرُّهْبَانِ لِإِعْرَاضِهِ عَنْ ضَرِّ الْمُسْلِمِينَ.وَالْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ الْمَقَالُ الْمُتَقَدِّمُ لَكِنَّهُ مُعْتَضِدٌ بِالْقِيَاسِ عَلَى الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ بِجَامِعِ عَدَمِ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ وَهُوَ الْمَنَاطُ،وَلِهَذَا لَمْ يُنْكِرْ – ﷺ – عَلَى قَاتِلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَرَادَتْ قَتْلَهُ،وَيُقَاسُ عَلَى الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْجَامِعِ مَنْ كَانَ مُقْعَدًا أَوْ أَعْمَى أَوْ نَحْوَهُمَا مِمَّنْ كَانَ لَا يُرْجَى نَفْعُهُ وَلَا ضَرُّهُ عَلَى الدَّوَامِ."[٢٦٥٦]

المبحث الثالث

مَنْ لاَ يَجُوزُ قَتْلُهُ فِي الْجِهَادِ

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ فِي الْجِهَادِ قَتْلُ النِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ،وَالْمَجَانِينِ،وَالْخُنْثَى الْمُشْكِلِ،فعَنْ نَافِعٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَخْبَرَهُ:أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً،«فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[٢٦٥٧].

وَكَذَلِكَ لاَ يَجُوزُ قَتْل الشُّيوخِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،وَبِهِ قَال مُجَاهِدٌ ؛فعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:كُنْتُ أَحْمِلُ سَفْرَةَ أَصْحَابِي،وَكُنَّا إِذَا اسْتُنفِرْنَا نَزَلْنَا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ،حَتَّى يَخْرُجَ

[٢٦٥٦] – نيل الأوطار (٧/ ٢٩١)

[٢٦٥٧] – صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٤ – (١٧٤٤)

إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَ:انْطَلِقُوا بِسْمِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ تُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا[2658].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ:{وَلَا تَعْتَدُوا} [البقرة:١٩٠] يَقُولُ:«لَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا مَنْ أَلْقَى السَّلَمَ،وَكَفَّ يَدَهُ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ هَذَا فَقَد اعْتَدَيْتُمْ» وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ نَحْوُ ذَلِكَ،إِلَّا قَوْلُهُ:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:٩٤][2659]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِك؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى النَّفَرَ الَّذِينَ بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيقِ بِخَيْبَرَ لِيَقْتُلُوهُ،فَنَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَان.[2660]

وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.وَلِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَال فَلاَ يُقْتَل كَالْمَرْأَة،وَقَدْ أَوْمَأَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْعِلَّةِ فِي الْمَرْأَةِ الَّتِي وُجِدَتْ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِيه،فعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاة،فَمَرَّ بِامْرَأَة مَقْتُولَة وَالنَّاسُ عَلَيْهَا،فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ،أَدْرِكْ خَالِدًا،فَقُلْ لَهُ:لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا».[2661]

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَظْهَرِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ:يَجُوزُ قَتْل الشُّيُوخِ؛لِعُمُومِ قَوْله تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥]،عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ،وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُمْ»[2662].

وَلأَنَّهُمْ أَحْرَارٌ مُكَلَّفُونَ فَجَازَ قَتْلُهُمْ كَغَيْرِهِمْ.وَالْخِلاَفُ فِي قَتْل الزَّمِنِ وَالأَعْمَى وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمَا كَيَابِسِ الشِّقِّ،وَمَقْطُوعِ الْيُمْنَى،أَوِ الْمَقْطُوعِ مِنْ خِلاَفٍ،كَالْخِلاَفِ فِي الشَّيْخِ.[2663]

[2658] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) صحيح

[2659] - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (١/ ٣٢٥)(١٧٢١) حسن

[2660] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٤٤٧)(٣٨٠٥٣) صحيح مرسل

[2661] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١١٢) (٤٧٩١) صحيح

[2662] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٤٥)(١٥٨٣) حسن

الشيوخ الرجال القادرون على حمل السلاح، و لم يرد الهرمى، والشرخ الصغار الذين لم يدركوا،فهؤلاء لايجوز قتلهم

وَلاَ يُقْتَل الرَّاهِبُ فِي صَوْمَعَته،وَلاَ أَهْل الْكَنَائِسِ الَّذِينَ لاَ يُخَالِطُونَ النَّاسَ،فَإِنْ خَالَطُوا قُتِلُوا كَالْقِسِّيسِ،وَلاَ سَائِحٌ فِي الْجِبَال لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ.وَالَّذِي يُجَنُّ وَيُفِيقُ،يُقْتَل فِي حَال إِفَاقَته وَإِنْ لَمْ يُقَاتِل.[٢٦٦٤]

وَصَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِأَنَّ الْمَرِيضَ يُقْتَل إِذَا كَانَ مِمَّنْ لَوْ كَانَ صَحِيحًا قَاتَل؛لأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الإِجْهَازِ عَلَى الْجَرِيحِ،إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَأْيُوسًا مِنْ بُرْئِهِ،فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الزَّمِنِ لاَ يُقْتَل؛لأَنَّهُ لاَ يَخَافُ مِنْهُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى حَالٍ يُقَاتِل فِيهَا.

وَكَذَلِكَ الْفَلاَّحُ الَّذِي لاَ يُقَاتِل،وَبِهِ قَال الأَوْزَاعِيُّ،فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْفَلَّاحِينَ الَّذِينَ لَا يَنْصُبُونَ لَكُمُ الْحَرْبَ»[٢٦٦٥]

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يُقْتَل،لِدُخُولِهِ فِي عُمُومِ الْمُشْرِكِينَ.[٢٦٦٦]

وَصَرَّحَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ قَتْل رَسُول الْكُفَّارِ.[٢٦٦٧]

وَيَجُوزُ قَتْل مَنْ قَاتَل مِمَّنْ ذَكَرْنَا وَلَو امْرَأَةً؛فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،وَالْحَارِثِ بْنِ مُحَمَّدٍ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ،عَنِ الْوَاقِدِيِّ،أَنَّهُمْ قَالُوا:إِنَّ خَلَّادَ بْنَ سُوَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْخَزْرَجِيَّ دَلَّتْ عَلَيْهِ فُلَانَةُ،امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ،رَحًا فَشَدَخَتْ رَأْسَهُ،فَذُكِرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ ".فَقَتَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا ذُكِرَ،وَكَانَ خَلَّادُ بْنُ سُوَيْدٍ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَأُحُدًا،وَالْخَنْدَقَ،وَبَنِي قُرَيْظَةَ ".[٢٦٦٨]

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَلاَ نَعْلَمُ فِي ذَلِكَ خِلاَفًا،وَبِهِ قَال الأَوْزَاعِيُّ،وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ؛فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

[٢٦٦٣] – البدائع ٧ / ١٠١، وابن عابدين ٣ / ٢٢٤، ٢٢٥، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٦، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤، والمغني ٨ / ٤٧٧ .

[٢٦٦٤] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٥، والبدائع ٧ / ١٠١ .

[٢٦٦٥] – سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨١)(٢٦٢٥) حسن

[٢٦٦٦] – المغني ٨ / ٤٧٨، ٤٧٩ .

[٢٦٦٧] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٤٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤ .

[٢٦٦٨] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤١)(١٨١٠٩) فيه انقطاع

ﷺ:مَنْ قَتَلَ هَذه،فَقَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ الله،أَرْدَفْتهَا خَلْفِي فَأَرَادَتْ قَتْلِي فَقَتَلْتُهَا،فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ. [٢٦٦٩]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:سَبَى رَجُلٌ امْرَأَةً يَوْمَ خَيْبَرَ،فَحَمَلَهَا خَلْفَهُ فَنَازَعَتْهُ قَائِمَ سَيْفِه،فَقَتَلَهَا،فَأَبْصَرَهَا رَسُولُ الله ﷺ،فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ هَذه ؟ فَأَخْبَرُوهُ،فَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاء. [٢٦٧٠]

وعَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي غَزْوَة فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمعينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَة قَتيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذه لتُقَاتلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَة خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لخَالد لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسيفًا». [٢٦٧١]

وَكَذَلكَ يُقْتَل كُلٌّ منْ هَؤُلَاءِ إذَا كَانَ مَلكًا،أَوْ ذَا رَأْيٍ يُعِينُ فِي الْحَرْبِ؛لأَنَّ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّة قُتل يَوْمَ حُنَيْنٍ وَهُوَ شَيْخٌ لاَ قتَال فيه،وَكَانُوا خَرَجُوا به يَتَيَمَّنُونَ به وَيَسْتَعينُونَ برَأْيِه،فَلَمْ يُنْكِرِ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَهُ،فعنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ،فَلَقيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّة،فَقُتلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ،قَالَ أَبُو مُوسَى:وَبَعَثَني مَعَ أَبِي عَامرٍ،فَرُميَ أَبُو عَامرٍ فِي رُكْبَته،رَمَاهُ جُشَميٌّ بسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَته،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْه فَقُلْتُ:يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ:ذَاكَ قَاتلِي الَّذي رَمَاني،فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحقْتُهُ،فَلَمَّا رَآني وَلَّى،فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ:أَلاَ تَسْتَحْيِي،أَلاَ تَثْبُتُ،فَكَفَّ،فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بالسَّيْف فَقَتَلْتُهُ،ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي عَامرٍ:قَتَلَ اللَّهُ صَاحبَكَ،قَالَ:فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا منْهُ المَاءُ،قَالَ:يَا ابْنَ أَخِي أَقْرِئ النَّبِيَّ ﷺ السَّلاَمَ،وَقُلْ لَهُ:اسْتَغْفِرْ لِي.وَاسْتَخْلَفَني أَبُو عَامرٍ عَلَى النَّاسِ،فَمَكُثَ يَسيرًا ثُمَّ مَاتَ،فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْته عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْه فرَاشٌ،قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِير بظَهْرِه وَجَنْبَيْه،فَأَخْبَرْتُهُ بخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامرٍ،وَقَالَ:قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي،فَدَعَا بمَاءٍ فَتَوَضَّأَ،ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْه فَقَالَ:«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أَبِي عَامرٍ».وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْه،ثُمَّ

[٢٦٦٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٦)(٣٣٧٩٧) صحيح

[٢٦٧٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٤٤٧)(٣٨٠٥٢) حسن

[٢٦٧١] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٩) صحيح

قَالَ:«اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ».فَقُلْتُ:وَلِي فَاسْتَغْفِرْ،فَقَالَ:«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ،وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا»[٢٦٧٢]

وَلِأَنَّ الرَّأْيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعُونَةِ فِي الْحَرْبِ.

أَمَّا الأَخْرَسُ وَالأَصَمُّ،وَأَقْطَعُ الْيَدِ الْيُسْرَى،أَوْ إِحْدَى الرِّجْلَيْنِ فَيُقْتَل؛لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَاتِلَ رَاكِبًا.[٢٦٧٣]

وَلَوْ قَتَل مَنْ لاَ يَحِل قَتْلُهُ مِمَّنْ ذُكِرَ،فَعَلَيْهِ التَّوْبَةُ وَالاِسْتِغْفَارُ فَقَطْ كَسَائِرِ الْمَعَاصِي،وَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ دِيَةٍ وَلاَ كَفَّارَةٍ؛لِأَنَّ دَمَ الْكَافِرِ لاَ يَتَقَوَّمُ إِلاَّ بِالأَمَانِ،وَلَمْ يُوجَدْ.[٢٦٧٤]

المبحث الرابع

الخلاصة في أحكام السبي

التَّعْرِيفُ:

السَّبْيُ وَالسِّبَاءُ لُغَةً:الأَسْرُ،يُقَال:سَبَى الْعَدُوَّ وَغَيْرَهُ سَبْيًا وَسِبَاءً:إِذَا أَسَرَهُ،فَهُوَ سَبِيٌّ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٌ لِلذَّكَرِ.وَالأُنْثَى سَبْيٌ وَسَبِيَّةٌ وَمَسْبِيَّةٌ،وَالنِّسْوَةُ سَبَايَا،وَلِلْغُلاَمِ سَبْيٌ وَمَسْبِيٌّ [٢٦٧٥].

أَمَّا اصْطِلاَحًا:فَالْفُقَهَاءُ فِي الْغَالِبِ يَخُصُّونَ السَّبْيَ بِالنِّسَاءِ وَالأَطْفَال،وَالأَسْرَ بِالرِّجَال.فَفِي الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ:الْغَنِيمَةُ تَشْتَمِل عَلَى أَقْسَامٍ:أَسْرَى،وَسَبْيٍ،وَأَرَضِينَ،وَأَمْوَالٍ،فَأَمَّا

[٢٦٧٢] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٥)(٤٣٢٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٣)(١٦٥ - (٢٤٩٨)

[ش(أوطاس) اسم واد في ديار هوزان وهو موضع حرب حنين وأوطاس جمع وطيس والوطيس نقرة من الحجر توقد حولها النار فيطبخ به اللحم والوطيس أيضا التنور ويكنى بها عن الحرب فيقال حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب.(جمشي) من بني جشم.(فأثبته) أي أثبت السهم.(تستحي) من الفرار.(فاختلفنا ضربتين) أي ضرب كل منا الآخر ضربة صائبة.(استخلفني) جعلني أميرا عليهم من بعده.(سرير مرمل) منسوج بحبل ونحوه من الرمال وهي حبال الحصير التي تضفر بها الأسرة.(بياض إبطيه) مكان الشعر تحت المنكبين وظهروه كناية عن المبالغة برفع اليدين]

[٢٦٧٣] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٤ وما بعدها، وفتح القدير ٥ / ٢٠١ وما بعدها، والمدونة ٣ / ٦، والدسوقي ٢ / ١٧٦ .

[٢٦٧٤] - المراجع السابقة .

[٢٦٧٥] - لسان العرب والمصباح المنير .

الأَسْرَى فَهُمُ الرِّجَال الْمُقَاتِلُونَ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا ظَفِرَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ أَحْيَاءً،وَأَمَّا السَّبْيُ فَهُمُ النِّسَاءُ وَالأَطْفَال[2676].

وَفِي مُغْنِي الْمُحْتَاجِ:الْمُرَادُ بِالسَّبْيِ:النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ.[2677]

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الرَّهِينَةُ:

الرَّهِينَةُ وَاحِدَةُ الرَّهَائِنِ،وَهِيَ كُل مَا احْتُبِسَ بِشَيْءٍ،وَالسَّبْيُ وَالرَّهِينَةُ كِلاَهُمَا مُحْتَبَسٌ إِلاَّ أَنَّ السَّبْيَ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا وَهُوَ مُحْتَبِسٌ بِذَاتِهِ،أَمَّا الرَّهِينَةُ فَلِغَيْرِهَا لِلْوَفَاءِ بِالْتِزَامٍ.(ر:أَسْرَى ف ٣)

ب – الْحَبْسُ:

الْحَبْسُ ضِدُّ التَّخْلِيَةِ،وَالْمَحْبُوسُ:الْمَمْنُوعُ عَنِ التَّوَجُّهِ حَيْثُ يَشَاءُ،فَالْحَبْسُ أَعَمُّ مِنَ السَّبْيِ.(ر:أَسْرَى ف ٤).

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

السَّبْيُ مَشْرُوعٌ لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ } [محمد:٤] وَقَدْ سَبَى النَّبِيُّ ﷺ وَقَسَّمَ السَّبْيَ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ كَسَبْيِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهَوَازِنَ.قال ابْنُ عَوْنٍ:كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ،فَكَتَبَ إِلَيَّ «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ،وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ»،حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ،وَكَانَ فِي ذَلِكَ الجَيْشِ"[2678]

[2676] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٣١، ١٣٤، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٤١، ١٤٣، والبدائع ٧ / ١١٩ .

[2677] – مغني المحتاج ٤ / ٢٢٧ .

[2678] -صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٤١) وصحيح مسلم (١/ ٣٨٣)٣٧ – (٥٤٠)

[ش(غارون) غافلون أي أخذهم على غرة وبغتة.(أنعامهم) هي الإبل والبقر والغنم وأكثر ما تطلق على الإبل.(مقاتلتهم) البالغين الذين هم على استعداد للقتال.(سبى ذراريهم) أخذهم سبيا ووزعهم على الغانمين بعد أن

وعَن ابْنِ شِهَاب،ذَكَرَ عُرْوَةُ أَنَّ مَرْوَانَ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ،فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ،فَقَالَ:" إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ،وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ،فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ:إِمَّا المَالَ وَإِمَّا السَّبْيَ،وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ "،وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ،فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،قَالُوا:فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا،فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ،وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ،فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ،وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ»،فَقَالَ النَّاسُ:طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ،قَالَ:«إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ،فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَأَخْبَرُوهُ:أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا،فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْ سَبْيِ هَوَازِنَ،وَقَالَ أَنَسٌ:قَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:فَادَيْتُ نَفْسِي،وَفَادَيْتُ عَقِيلًا"[٢٦٧٩]

وَسَبَى الصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ،كَمَا فَعَل أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ حِينَ اسْتَرَقَّ نِسَاءَ بَنِي حَنِيفَةَ وَذَرَارِيِّهِمْ،وَسَبَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بَنِي نَاجِيَةَ.[٢٦٨٠]

وَكَانَ السَّبْيُ مَوْجُودًا قَبْل الإِسْلاَمِ،فَقَيَّدَهُ الإِسْلاَمُ بِشُرُوطٍ،وَخَصَّهُ بِحَالَةِ الْحَرْبِ وَنَحْوِهَا عَلَى مَا سَيَأْتِي فِي أَسْبَابِهِ.

أَسْبَابُ السَّبْيِ:

الأَوَّل – الْقِتَال:

شُرِعَ الْقِتَال فِي سَبِيل اللَّهِ تَعَالَى لإِعْلاَءِ دِينِ الْحَقِّ وَكَسْرِ شَوْكَةِ الأَعْدَاءِ.وَالأَصْل أَنَّ مَنْ لَمْ يُشَارِكْ فِي الْقِتَال فَلاَ يُقْتَل،وَلِذَلِكَ يُمْنَعُ التَّعَرُّضُ لِلنِّسَاءِ وَالأَطْفَال وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ

ضرب عليهم الرق.والذراري جمع ذرية وهي ههنا النساء والأولاد غير البالغين.(أصاب يومئذ جويرية) أي كانت في السبي]

[٢٦٧٩] - صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٣٩)

[٢٦٨٠] - أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١/ ٤٠٣) و المهذب ٢ / ٢٣٦، والمغني ٨ / ١٣٨، والخراج لأبي يوسف / ٦٧ .

الْعَجزَةِ الَّذِينَ لاَ يُشَارِكُونَ فِي الْقِتَالِ لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،«فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ» [٢٦٨١]

وعن أَنَسَ بْنُ مَالِكٍ،قَالَ:كُنْتُ أَحْمِلُ سَفْرَةَ أَصْحَابِي،وَكُنَّا إِذَا اسْتُنفِرْنَا نَزَلْنَا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ،حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَ:انْطَلِقُوا بِسْمِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ تُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا.[٢٦٨٢]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ أَنْ لاَ تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلاَ صَبِيًّا،وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوَاسَى.[٢٦٨٣]

وَيُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا جَوَازُ قَتْلِ مَنْ يُشَارِكُ فِي الْقِتَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ أَوْ يُحَرِّضُ عَلَى الْقِتَالِ،وَهَذَا فِي الْجُمْلَةِ وَيُنْظَرُ تَفْصِيلُهُ فِي (جِهَاد ف ٢٩).

وَإِذَا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ الْغَنَائِمَ فَإِنَّ مَنْ يُوجَدُ فِيهَا مِنَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَال يُعْتَبَرُ سَبْيًا.[٢٦٨٤]

الثَّاني:النُّزُول عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ:

لَوْ حَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ حِصْنًا لِلْعَدُوِّ،وَطَلَبَ أَهْل الْحِصْنِ النُّزُول عَلَى حُكْمِ فُلاَنٍ وَارْتَضَوْا حُكْمَ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ،فَلَهُ الْحُكْمُ بِسَبْيِ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ.[٢٦٨٥]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ،بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ،فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ،فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» فَجَاءَ،فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ،قَالَ:فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ،وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ،قَالَ:«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ».[٢٦٨٦]

[٢٦٨١] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٥)

[٢٦٨٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) صحيح

[٢٦٨٣] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩١) صحيح

[٢٦٨٤] - البدائع ٧ / ١٠١، ١١٩، والدسوقي ٢ / ١٧٦، ١٨٤، وأسنى المطالب ٤ / ١٩٠ - ١٩١، والمغني ٨ / ٣٧٢ .

[٢٦٨٥] - البدائع ٧ / ١٠٨، والدسوقي ٢ / ١٨٥، والمغني ٨ / ٤٨٠ - ٤٨١ .

[٢٦٨٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٧)(٣٠٤٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨)٦٤ - (١٧٦٨)

الثَّالثُ – الرِّدَّةُ:

يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ – الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ – أَنَّ الْمُرْتَدَّةَ إن اسْتُتيبَتْ وَلَمْ تَتُبْ فَإِنَّهَا تُقْتَل،لمَا رُويَ عَنْ عَائشَةَ،قَالَت:ارْتَدَّت امْرَأَةٌ يَوْمَ أُحُد فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ «أَنْ تُسْتَتَابَ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلَّا قُتلَتْ».[2687]

وعَنْ جَابرٍ،أَنَّ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أُمُّ مَرْوَانَ ارْتَدَّتْ عَنِ الْإِسْلَامِ،فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ «أَنْ يَعْرَضَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ،فَإِنْ رَجَعَتْ وَإِلَّا قُتلَتْ».[2688]

وعَنْ جَابرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ في الْمَرْأَة «إِذَا ارْتَدَّتْ عَن الْإِسْلَام أَنْ تُذْبَحَ»[2689]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ فِي الْمَرْأَة تَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامهَا،قَالَ:«تُسْتَتَابُ،فَإِنْ تَابَتْ،وَإِلَّا قُتلَتْ»[2690]

وَلأَنَّهَا شَخْصٌ مُكَلَّفٌ بَدَّل دينَ الْحَقِّ بالْبَاطل،فَيُقْتَل كَالرَّجُل.

وَعنْدَ الْحَنَفيَّة تُحْبَسُ إِلَى أَنْ تَتُوبَ – إلاَّ في روَايَةٍ عَنْ أَبي حَنيفَةَ – عَلَى مَا سَيَأْتي.

وَرُويَ عَنْ عَليِّ بْنِ أَبي طَالب وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْد الْعَزيز أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ارْتَدَّتْ فَإِنَّهَا تُسْبَى وَلاَ تُقْتَل،لأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ اسْتَرَقَّ نسَاءَ بَني حَنيفَةَ وَذَرَاريَّهُمْ،وَأَعْطَى عَليًّا منْهُمُ امْرَأَةً فَوَلَدَتْ لَهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفيَّة،وَكَانَ هَذَا بمَحْضَرٍ منَ الصَّحَابَة،وَهُوَ روَايَةٌ عَنْ أَبي حَنيفَةَ في النَّوَادرِ قَال:إِنَّهَا تُسْتَرَقُّ وَلَوْ كَانَتْ في دَارِ الإسْلاَم،قيل:لَوْ أَفْتَى بهَذه الرِّوَايَة لاَ بَأْسَ به فيمَنْ كَانَتْ ذَاتَ زَوْجٍ حَسْمًا لتَوَصُّلهَا للْفُرْقَة بالرِّدَّة.

وَعنْدَ الْحَنَفيَّة – غَيْرُ روَايَة أَبي حَنيفَةَ – لاَ تُسْبَى الْمَرْأَةُ إلاَّ إِذَا لَحقَتْ بدَارِ الْحَرْبِ بَعْدَ ارْتدَادهَا،فَحينَئذٍ يَجُوزُ سبَاؤُهَا.[2691]

[ش (نزلوا على حكمك) رضوا أن تحكم فيهم.(المقاتلة) البالغين الذين من شأنهم أن يقاتلوا.(تسبى الذرية) يؤخذ النساء والصبيان سبيا فيجعلون أرقاء ويوزعون على الغانمين المسلمين.(بحكم الملك) بالحكم الذي يريده الله تعالى]

[2687] – سنن الدارقطني (٤/ ١٢٨)(٣٢١٤) ضعيف

[2688] – سنن الدارقطني (٤/ ١٢٨)(٣٢١٥) حسن لغيره

[2689] – سنن الدارقطني (٤/ ١٢٩)(٣٢١٧) حسن لغيره

[2690] – سنن الدارقطني (٤/ ١٣٠)(٣٢١٩) صحيح مرسل

[2691] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٣٠٤، والبدائع ٧ / ١٣٩، ١٤٠، والدسوقي ٤ / ٣٠٤، والقوانين الفقهية / ٣٥٦، والمهذب ٢ / ٢٢٣ – ٢٢٥، والمغني ٨ / ١٢٣ .

أَمَّا ذُرِّيَّةُ الْمُرْتَدِّ فَمَنْ وُلِدَ بَعْدَ رِدَّة أَبَوَيْه فَإِنَّهُ مَحْكُومٌ بِكُفْرِه،لأَنَّـــهُ وُلِـــدَ بَـــيْنَ أَبَـــوَيْنِ كَافِرَيْنِ،وَيَجُوزُ سِبَاؤُهُ حِينَئِذ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُرْتَدٍّ،نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَدُ،وَهُوَ ظَـــاهِرُ كَـــلاَمِ الْخِرَقِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ،وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيَّة.

وَقَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَيُحْتَمَل أَنْ لاَ يَجُوزَ اسْتِرْقَاقُهُمْ ؛لِأَنَّ آبَاءَهُمْ لاَ يَجُوزُ اسْتِرْقَاقُهُمْ ؛لِأَنَّهُمْ لاَ يُقِرُّونَ بِدَفْعِ الْجِزْيَة فَلاَ يُقِرُّونَ بِالاسْتِرْقَاق.

وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّة يُسْبَى مَنْ وُلِدَ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ لَحِقَ أَبَوَاهُ بِدَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ مَعَهُمَا،وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:إِذَا قُتِل الْمُرْتَدُّ بَقِيَ وَلَدُهُ مُسْلِمًا سَوَاءٌ وُلِدَ قَبْل الرِّدَّة أَوْ بَعْدَهَا.[٢٦٩٢]

قَالَ أَبُو يُوسُف:وَلَوْ أَنَّ الْمُرْتَدِّينَ مَنَعُوا الدَّارَ وَحَارَبُوا سُبِيَ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيهِمْ وَأُجْبِـــرُوا عَلَى الإِسْلامِ كَمَا سَبَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَرَارِيَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ.

وَكَمَا سَبَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ الله وَجه بني نَاجِية مُوَافَقَةً لأَبِي بَكْـــرٍ وَلا يُوضَـــعُ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ.

وَإِنْ أَسْلَمُوا قَبْلَ الْقِتَالِ وَقَبْلَ أَنْ يُظْهَرَ عَلَيْهِمْ حَقَنُوا دِمَاءَهُم وَأَمْـــوَالَهُم وَامْتَنَعُـــوا مِـــنَ السِّبَاء.

وَإِنْ ظُهِرَ عَلَيْهِمْ؛فَأَسْلَمُوا حَقَنُوا الدِّمَاءَ وَمَضَى فِيهِمْ حُكْـــمُ السِّـــبَاءِ عَلَـــى الصِّـــبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؛فَأَمَّا الرِّجَالُ فَأَحْرَارٌ لَا يُسْتَرَقُّونَ.[٢٦٩٣]

وَمَتَى ارْتَدَّ أَهْل بَلَد وَجَرَتْ فِيه أَحْكَامُهُمْ صَارَ دَارَ حَرْب،فَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَـــيْهِمْ كَانَ لَهُمْ سَبْيُ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَالَّذِينَ وُلِدُوا بَعْدَ الرِّدَّة،كَمَا سَبَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّـــهُ تَعَالَى عَنْهُ ذَرَارِيَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ،وَكَمَا سَبَى عَلِيُّ بْنُ أَبِـــي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بَنِي نَاجِيَةَ مُوَافَقَةً لِأَبِي بَكْرٍ،وَهَذَا عِنْدَ الْحَنَفِيَّـــةِ وَالْحَنَابِلَـــةِ

[٢٦٩٢] - ابن عابدين ٣ / ٣٠٦، والبدائع ٧ / ١٣٩ - ١٤٠، والخرشي ٨ / ٦٦، والمغني ٨ / ١٣٧، والأحكام السلطانية للماوردي / ٥٦ .

[٢٦٩٣] - الخراج لأبي يوسف (ص:٨٠)

وَأَصْبَغَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ – غَيْرِ أَصْبَغَ – لاَ تُسْبَى نِسَاؤُهُمْ وَلاَ ذَرَارِيُّهُمْ.[٢٦٩٤]

فعَنْ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو الطُّفَيْلِ،قَالَ:كُنْتُ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى بَنِي نَاجِيَةَ،قَالَ:فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ فَوَجَدْنَاهُمْ عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ،قَالَ:فَقَالَ أَمِيرُنَا لِفِرْقَةٍ مِنْهُمْ:مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا:نَحْنُ قَوْمٌ كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا فَثَبَتْنَا عَلَى إِسْلَامِنَا،قَالَ:ثُمَّ قَالَ لِلثَّانِيَةِ:مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا:نَحْنُ قَوْمٌ كُنَّا نَصَارَى،يَعْنِي فَثَبَتْنَا عَلَى نَصْرَانِيَّتِنَا،قَالَ لِلثَّالِثَةِ:مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا:نَحْنُ قَوْمٌ كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا فَرَجَعْنَا فَلَمْ نَرَ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ دِينِنَا فَتَنَصَّرْنَا،فَقَالَ لَهُمْ:أَسْلِمُوا،فَأَبَوْا،فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:إِذَا مَسَحْتُ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَشُدُّوا عَلَيْهِمْ،فَفَعَلُوا فَقَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ،وَسَبَوَا الذَّرَارِيَّ،فَجِيءَ بِالذَّرَارِيِّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَجَاءَ مَسْقَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ فَاشْتَرَاهُمْ بِمِائَتَيْ أَلْفٍ،فَجَاءَ بِمِائَةِ أَلْفٍ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ،فَانْطَلَقَ مَسْقَلَةُ بِدَرَاهِمِهِ،وَعَمَدَ مَسْقَلَةُ إِلَيْهِمْ فَأَعْتَقَهُمْ،وَلَحِقَ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقِيلَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" أَلَا تَأْخُذُ الذُّرِّيَّةَ؟ قَالَ:لَا،فَلَمْ يَعْرِضْ لَهُمْ " قَالَ الشَّافِعِيُّ:قَدْ قَاتَلَ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَمَنِ ارْتَدَّ،فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَبَى مِنْ بَنِي نَاجِيَةَ مَنْ لَمْ يَكُنِ ارْتَدَّ،وَقَدْ كَانَتِ الرِّدَّةُ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَمَّسَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ،يَعْنِي الذَّرَارِيَّ،وَاللهُ أَعْلَمُ"[٢٦٩٥]

الرَّابِعُ:نَقْضُ الْعَهْدِ:

أَهْل الذِّمَّةِ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ الْعَهْدِ،فَإِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ قَاتَلَهُمُ الإِمَامُ وَأَسَرَ رِجَالَهُمْ،أَمَّا نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ فَلاَ يُسْبَوْنَ لأَِنَّ أَمَانَهُمْ لَمْ يَبْطُل بِنَقْضِ الْعَهْدِ،وَهَذَا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ الأَصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَأَشْهَبَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ غَيْرَ أَشْهَبَ وَمُقَابِل الأَصَحِّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:يُنْتَقَضُ عَهْدُ الْجَمِيعِ وَتُسْبَى النِّسَاءُ وَالذَّرَارِيُّ،قَال الْمَالِكِيَّةُ:هَذَا الَّذِي خَالَفَتْ فِيهِ سِيرَةُ عُمَرَ سِيرَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ

[٢٦٩٤] – ابن عابدين ٣ / ٢٦٩، والخراج لأبي يوسف / ٦٧، والدسوقي ٢ / ٢٠٥، والمواق ٣ / ٣٨٦، والمغني ٨ / ١٣٨، والأحكام السلطانية للماوردي ٥٦ – ٥٧ .

[٢٦٩٥] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦١)(١٦٨٩٥) حسن

تَعَالَى عَنْهُمَا فِي الَّذِينَ ارْتَدُّوا مِنَ الْعَرَبِ،سَارَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ سِيرَةَ النَّاقِضِينَ فَسَبَى النِّسَاءَ وَالصِّغَارَ وَجَرَتِ الْمَقَاسِمُ فِي أَمْوَالِهِمْ.فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بَعْدَهُ نَقَضَ ذَلِكَ وَسَارَ فِيهِمْ سِيرَةَ الْمُرْتَدِّينَ،أَخْرَجَهُمْ مِنَ الرِّقِّ وَرَدَّهُمْ إِلَى عَشَائِرِهِمْ وَإِلَى الْجِزْيَةِ.وَقَال الْحَنَابِلَةُ:مَنْ وُلِدَ بَعْدَ نَقْضِ الْعَهْدِ فَإِنَّهُ يُسْتَرَقُّ وَيُسْبَى.[٢٦٩٦]

التَّصَرُّفُ فِي السَّبْيِ:

يُعْتَبَرُ السَّبْيُ (النِّسَاءُ وَالذَّرَارِيُّ) مِنَ الْغَنَائِمِ،وَالأَصْل فِي أَسْرَى الْغَنَائِمِ أَنَّ الإِمَامَ مُخَيَّرٌ فِيهَا بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَتْلٍ أَوْ مَنٍّ أَوْ فِدَاءٍ أَوِ اسْتِرْقَاقٍ،إِلاَّ أَنَّ السَّبْيَ يَخْتَلِفُ فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ عَنِ الأَسْرَى مِنَ الرِّجَال الْمُقَاتِلِينَ وَبَيَانُ ذَلِكَ فِيمَا يَلِي:

أ – حُكْمُ قَتْلِهِمْ:

إِذَا سُبِيَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فَلاَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ ؛لأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ أَثْنَاءَ الْقِتَال فَلاَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ بَعْدَ السَّبْيِ،فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:كُنْتُ أَحْمِلُ سَفْرَةَ أَصْحَابِي،وَكُنَّا إِذَا اسْتُنفِرْنَا نَزَلْنَا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ،حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَ:انْطَلِقُوا بِسْمِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ تُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،لاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ تَغُلُّوا.[٢٦٩٧]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:كَانَ فِيمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى رَسُولِهِ هَذَيْنِ الْحَيَّيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ:الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ،كَانَا يَتَصَاوَلَانِ كَمَا يَتَصَاوَلُ الْفَحْلَانِ،فَلَمَّا قَتَلَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ قَالَتِ الْخَزْرَجُ:كَيْفَ لَنَا أَنْ يَكُونَ لَنَا مِثْلُ سَابِقَتِهِمْ؟ فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرْسِلْنَا إِلَى ابْنِ أَبِي حُقَيْقٍ،فَأَرْسَلَ أَبَا قَتَادَةَ وَأَبَا عَتِيكٍ وَأَبْيَضَ بْنَ الْأَسْوَدِ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُنَيْسٍ،وَقَالَ لَهُمْ:«لَا تَقْتُلُوا صَبِيًّا وَلَا امْرَأَةً»،فَذَهَبُوا فَدَخَلُوا الدَّارَ لَيْلًا،وَغَلَّقُوا عَلَى كُلِّ قَوْمٍ بَابَهُمْ مِنْ خَارِجٍ،حَتَّى إِذَا اسْتَغَاثُوا لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَخْرُجُوا،ثُمَّ صَعِدُوا إِلَيْهِ فِي عُلِّيَّةٍ،لَهُ إِلَيْهَا عَجَلَةٌ،فَإِذَا هُمْ بِهِ نَائِمٌ أَبْيَضُ كَأَنَّهُ الْقِرْطَاسُ،فَتَعَاطَوْهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَضَرَبُوهُ،فَصَرَخَتِ امْرَأَتُهُ فَهَمُّوا أَنْ يَقْتُلُوهَا،فَذَكَرُوا نَهْيَ

[٢٦٩٦] – ابن عابدين ٣ / ٢٧٧، والمواق بهامش الحطاب ٣ / ٣٨٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٥٩، وكشاف القناع ٣ / ١٤٤، ومنح الجليل ١ / ٧٦٥ .

[٢٦٩٧] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٥٧٤)(٣٣٧٩٠) صحيح

رَسُول اللَّه ﷺ:«لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً وَلَا صَبِيًّا»،فَنَزَلُوا،وَانْفَكَّتْ قَدَمُ أَحَدهمْ فَاحْتَمَلُوهُ فَانْطَلَقُوا بِه فَدَخَلُوا نَهْرًا منْ أَنْهَارِهِمْ،وَتَصَايَحَ النَّاسُ:قُتلَ ابْنُ حُقَيْق،قُتِلَ ابْنُ حُقَيْق،فَجَاءُوا بِالنِّيرَان.وَقَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُنَيْس:إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا تَكُونُوا أَجْهَزْتُمْ عَلَيْه فَقَالَ:لَأَذْهَبَنَّ فَلَأَنْظُرَنَّ قَدْ أَجْهَزْنَا عَلَيْه أَمْ لَا،فَجَاءَ يَصْعَدُ إِلَيْه فِي غمَار النَّاس فَإِذَا امْرَأَتُهُ قَدْ أَكَبَّتْ عَلَيْه سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ:فَاضَتْ نَفْسُهُ وَيَهُودُ،وَقَالَتْ فِيمَا تَقُولُ:إِنِّي لَا أَظُنُّنِي إِلَّا قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَ عَبْد اللَّه بْن أُنَيْس "[2698]

وعَن ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ:«رَأى فِي بَعْضِ مَغَازِيه امْرَأَةً مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ ذَلكَ،وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان»[2699].

وَلأَنَّ هَؤُلاَءِ لَيْسُوا منْ أَهْل الْقتَال فَلاَ يُقْتَلُونَ،وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ السَّبْيِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّة وَالْمَالكيَّة وَالْحَنَابلَة وَهُوَ الْحُكْمُ عنْدَ الشَّافعيَّة إِنْ كَانَ السَّبْيُ أَهْل كتَابٍ،وَفِي الْوَثَنِيَّات عنْدَهُمْ خلاَفٌ.[2700]

وَالْحُكْمُ بِعَدَم قَتْل النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان مُقَيَّدٌ بِمَا إِذَا لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي الْقتَال فَإِنْ كَانُوا قَد اشْتَرَكُوا فِي الْقتَال،وَحَمَلُوا السِّلاَحَ وَقَاتَلُوا،جَازَ قَتْلُهُمْ بَعْدَ السَّبْيِ،وَقَدْ قَتَل النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ امْرَأَةً أَلْقَتْ رَحًى عَلَى خَلاَّد بْنِ سُوَيْدٌ.عَن ابْنِ كَعْب بْنِ مَالك،عَنْ عَمِّه،«أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ حينَ بَعَثَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيْق نَهَاهُ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَان» قَالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:مَعْنَى نَهْيه عنْدَنَا،وَاللهُ أَعْلَمُ،عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَان أَنْ يَقْصِدَ قَصْدَهُمْ بِقَتْلٍ،وَهُمْ يُعْرَفُونَ مُتَمَيزِينَ ممَّنْ أَمَرَهُمْ بِقَتْلهمْ،وَمَعْنَى قَوْله:«هُمْ مِنْهُمْ» أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ خَصْلَتَيْنِ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حُكْمُ الْإِيمَان الَّذي يَمْنَعُ الدَّمَ،وَلَا حُكْمَ دَار الْإِيمَان الَّذي يَمْنَعُ الْغَارَةَ عَلَى الدَّار قَالَ الشَّيْخُ:وَرُوِّينَا عَنْ عَائشَةَ قِصَّةً فِي قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ امْرَأَةً منْ بَني قُرَيْظَةَ قَالَ الشَّافعيُّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابه:أَنَّهَا كَانَتْ دَلَّتْ عَلَى مَحْمُود بْن مَسْلَمَةَ رَحًا فَقَتَلَتْهُ،فَقُتلَتْ بذَلكَ.قَالَ الشَّيْخُ:إِنَّهَا إِنَّمَا دَلَّتْ رَحًا عَلَى خَلَّاد بْن سُوَيْد الْخَزْرَجيِّ،فَقَتَلَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ الشَّافعيُّ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ أَسْلَمَتْ،وَارْتَدَّتْ،وَلَحقَتْ بقَوْمهَا،فَقَتَلَهَا

[2698] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٤٦٣) صحيح

[2699] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٤٤)(١٣٥) صحيح

[2700] - الأحكام السلطانية ١٣٤، وأسنى المطالب ٤ / ١٩٣ .

لِذَلِكَ،وَيُحْتَمَلُ غَيْرُ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ:وَرُوِّينَا فِي حَدِيثِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِنْكَارِهِ قَتْلَ امْرَأَةٍ،وَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ» وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا لَوْ قَاتَلَتْ جَازَ قَتْلُهَا"[2701]

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ قَالَ:مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنَ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فَقَالَ:«أَلَمْ أَنْهَ عَنْ هَذَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ:أَرْدَفْتُهَا فَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَنِي،فَقَتَلْتُهَا،فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِدَفْنِهَا"[2702]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ،" أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،مَرَّ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَرْدَفْتُهَا خَلْفِي فَأَرَادَتْ قَتْلِي فَقَتَلْتُهَا،فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ "[2703]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:سَبَى رَجُلٌ امْرَأَةً يَوْمَ خَيْبَرَ،فَحَمَلَهَا خَلْفَهُ فَنَازَعَتْهُ قَائِمَ سَيْفِهِ،فَقَتَلَهَا،فَأَبْصَرَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ هَذِهِ ؟ فَأَخْبَرُوهُ،فَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ.[2704]

لَكِنْ قَال الْحَنَفِيَّةُ:لاَ يُقْتَل الصَّبِيُّ وَلَوْ شَارَكَ فِي الْقِتَال لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْعُقُوبَةِ،إِلاَّ إِذَا كَانَ مَلِكًا فَإِنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهُ ؛لأَنَّ فِي قَتْل الْمَلِكِ كَسْرَ شَوْكَةِ الأَعْدَاءِ،كَمَا يَجُوزُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ قَتْل الْمَرْأَةِ إِذَا كَانَتْ مَلِكَةً وَلَوْ لَمْ تُقَاتِل.[2705]

ب – الْمُفَادَاةُ:

جَاءَ فِي الدُّرِّ الْمُخْتَارِ مِنْ كُتُبِ الْحَنَفِيَّةِ:لاَ يُفَادَى بِنِسَاءٍ وَصِبْيَانٍ إِلاَّ لِضَرُورَةٍ ؛لأَنَّ الصِّبْيَانَ يَبْلُغُونَ فَيُقَاتِلُونَ وَالنِّسَاءُ يَلِدْنَ فَيَكْثُرُ نَسْل الْكُفَّارِ،لَكِنْ قَال ابْنُ عَابِدِينَ:لَعَل الْمَنْعَ فِيمَا إِذَا كَانَ الْبَدَل مَالاً وَإِلاَّ فَقَدْ جَوَّزُوا دَفْعَ أَسْرَاهُمْ فِدَاءً لِأَسْرَانَا،مَعَ أَنَّهُمْ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى دَارِهِمْ يَتَنَاسَلُونَ.[2706]

[2701]- السنن الصغير للبيهقي (٣/ ٣٨٦)(٢٨٣٣) الخبر صحيح

[2702] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٢٠١)(٩٣٨٣) صحيح مرسل

[2703] – مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٨٣)(٣٣١٢٥) صحيح مرسل

[2704] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢٠/ ٤٤٧)(٣٨٠٥٢) حسن

[2705] – البدائع ٧ / ١٠١، ١١٩، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٥٥، ٢٢٩، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢، ٢٥٧، والأحكام السلطانية للماوردي / ١٣٤، وأسنى المطالب ٤ / ١٩٣ .

[2706] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٠ .

وَقَال مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:الصِّبْيَانُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا سُبُوا وَمَعَهُمُ الآْبَاءُ وَالأُْمَّهَـاتُ فَـلاَ بَأْسَ بِالْمُفَادَاة بِهِمْ،وَأَمَّا إِذَا سُبِيَ الصَّبِيُّ وَحْدَهُ،أَوْ خَرَجَ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ فَـلاَ تَجُـوزُ الْمُفَادَاةُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ،وَكَذَلِكَ إِنْ قُسِمَتِ الْغَنِيمَةُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَوَقَعَ فِي سَهْمِ رَجُلٍ أَوْ بِيعَتِ الْغَنَائِمُ،فَقَدْ صَارَ الصَّبِيُّ مَحْكُومًا لَهُ بِالإِسْلاَمِ تَبَعًا لِمَنْ تَعَيَّنَ مِلْكُهُ فِيهِ بِالْقَسَـمِ أَوِ الشِّرَاء.

ثُمَّ فِي الْمُفَادَاة يُشْتَرَطُ رِضَا أَهْلِ الْعَسْكَرِ،فَلَوْ أَبَوْا ذَلِكَ لَيْسَ لِلأَمِيرِ أَنْ يُفَادِيَهُمْ.[٢٧٠٧]

وَأَجَازَ الْمَالِكِيَّةُ الْفِدَاءَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ أَكَانَ بِمَالٍ أَمْ بِأَسْرَى.فَإِنْ كَانَ الْفِدَاءُ بِمَالٍ يَأْخُـذُهُ الإِمَامُ مِنَ الْكُفَّارِ وَيَضُمُّهُ لِلْغَنِيمَة.وَإِنْ حَصَل الْفِدَاءُ بِرَدِّ الأَسْرَى فَيُحْسَبُ الْقَدْرُ الَّـذِي يَفُكُّ بِهِ الأَسْرَى مِنْ عِنْدِهِمْ مِنَ الْخُمُس.[٢٧٠٨]

وَالأَصْل عِنْدَ الشَّافِعِيَّة عَلَى مَا جَاءَ فِي مُغْنِي الْمُحْتَاجِ أَنَّ الإِمَـامَ غَيْـرُ مُخَيَّـرٍ فِـي السَّبْيِ،وَيَتَعَيَّنُ الرِّقُّ فِيهِمْ بِمُجَرَّدِ السَّبْيِ وَبِذَلِكَ يُمْتَنَعُ الْفِدَاءُ.

لَكِنْ قَال الْمَاوَرْدِيُّ فِي الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّة:إِنْ فَادَى السَّبْيَ عَلَى مَالٍ جَازَ ؛لِـأَنَّ هَـذَا الْفِدَاءَ بَيْعٌ وَيَكُونُ مَال فِدَائِهِمْ مَغْنُومًا مَكَانَهُمْ،وَلاَ يَلْزَمُهُ اسْتِطَابَةُ نُفُوسِ الْغَـانِمِينَ،وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَادَى بِهِمْ عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَيْدِي قَوْمِهِمْ عَوَّضَ الْغَانِمِينَ عَنْهُمْ مِنْ سَهْمِ الْمَصَالِحِ.[٢٧٠٩]

وَالأَصْل كَذَلِكَ عِنْدَ الْحَنَابِلَة أَنَّ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ يَصِيرُونَ رَقِيقًا بِمُجَرَّدِ سَبْيِهِمْ،قَال ابْـنُ قُدَامَةَ:النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَصِيرُونَ رَقِيقًا بِالسَّبْيِ،ثُمَّ قَال:وَمَنَعَ أَحْمَدُ مِنْ فِدَاءِ النِّسَاءِ بِالْمَال لأَنَّ فِي بَقَائِهِنَّ تَعْرِيضًا لَهُنَّ لِلإِسْلاَمِ لِبَقَائِهِنَّ عِنْدَ الْمُسْـلِمِينَ،وَجَوَّزَ أَنْ يُفَـادَى بِهِـنَّ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ،لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَادَى بِالْمَرْأَة الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْـوَعِ.عـن إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ،حَدَّثَنِي أَبِي،قَالَ:غَزَوْنَا فَزَارَةَ وَعَلَيْنَـا أَبُـو بَكْرٍ،أَمَّـرَهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا،فَلَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَاءِ سَاعَةٌ،أَمَرَنَا أَبُو بَكْـرٍ فَعَرَّسْـنَا،ثُمَّ شَـنَّ الْغَـارَةَ،فَوَرَدَ الْمَاءَ،فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ عَلَيْهِ،وَسَبَى،وَأَنْظُرُ إِلَى عُنُقٍ مِنَ النَّاسِ فِـيهِمُ الذَّرَارِيُّ،فَخَشِـيتُ أَنْ

[٢٧٠٧] – الفتاوى الهندية ٢ / ٢٠٦ – ٢٠٧ .

[٢٧٠٨] – الدسوقي ٢ / ١٨٤ .

[٢٧٠٩] – مغني المحتاج ٤ / ٢٢٨، والأحكام السلطانية للماوردي / ١٣٤ .

يَسْبقُوني إِلَى الْجَبَلِ،فَرَمَيْتُ بسَهْمٍ بَيْنهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَلِ،فَلَمَّا رَأَوُا السَّهْمَ وَقَفُوا،فَجئتُ بهِمْ أَسُوقُهُمْ وَفيهِم امْرَأَةٌ مِنْ بَني فَزارَةَ عَلَيْهَا قَشْعٌ مِنْ أَدَمٍ – قَالَ:الْقَشْعُ:النِّطْعُ – مَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَب،فَسُقْتُهُمْ حَتَّى أَتَيْتُ بهِمْ أَبَا بَكْرٍ،فَنَفَّلَني أَبُو بَكْرٍ ابْنَتَهَا،فَقَدمْنَا الْمَدينَةَ وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا،فَلَقيَني رَسُولُ الله ﷺ في السُّوق،فَقَالَ:«يَا سَلَمَةُ،هَبْ لي الْمَرْأَةَ»،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،وَالله لَقَدْ أَعْجَبَتْني وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا،ثُمَّ لَقيَني رَسُولُ الله ﷺ منَ الْغَد في السُّوق،فَقَالَ لي:«يَا سَلَمَةُ،هَبْ لي الْمَرْأَةَ للَّه أَبُوكَ»،فَقُلْتُ:هيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله،فَوَالله مَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا،فَبَعَثَ بهَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ،فَفَدَى بهَا نَاسًا منَ الْمُسْلمينَ كَانُوا أُسرُوا بمَكَّةَ"[٢٧١٠]

وَلأَنَّ في ذَلكَ اسْتنْقَاذَ مُسْلمٍ مُتَحَقِّقٌ إِسْلاَمُهُ فَاحْتُمل تَفْويتُ مَا يُرْجَى منْ إِسْلاَمهَا الْمَظْنُون،وَلاَ يَلْزَمُ منْ ذَلكَ احْتمَال فَوَاتهَا لتَحْصيل الْمَال،فَأَمَّا الصِّبْيَانُ فَقَال أَحْمَدُ:لاَ يُفَادَى بهِمْ،وَذَلكَ لأَنَّ الصَّبيَّ يَصيرُ مُسْلمًا بإِسْلاَمِ سَابيه فَلاَ يَجُوزُ رَدُّهُ إِلَى الْمُشْركينَ،وَإِنْ كَانَ الصَّبيُّ غَيْرَ مَحْكُومٍ بإِسْلاَمه كَالَّذي سُبيَ مَعَ أَبَوَيْه لَمْ يَجُزْ فدَاؤُهُ بمَال،وَهَل يَجُوزُ فدَاؤُهُ بمُسْلمٍ ؟ يُحْتَمَل وَجْهَيْن.وَفي الأَحْكَام السُّلْطَانيَّة لأَبي يَعْلَى:وَإِنَّمَا لَمْ يَجُز الْفدَاءُ لأَنَّ حَقَّهُمْ ثَابتٌ في السَّبْيِ فَلَمْ تَجْرِ الْمُعَاوَضَةُ عَلَيْه،وَلأَنَّ منْ أَصْلنَا أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ بَيْعُ السَّبْيِ منْ أَهْل الذِّمَّة،فَالْفدَاءُ كَذَلكَ لأَنَّهُ مُعَاوَضَةٌ.

وَإِذَا فَادَى الإِمَامُ بالأُسَارَى عَوَّضَ الْغَانمينَ منْ سَهْمِ الْمَصَالحِ[٢٧١١].

ج – الْمَنُّ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ في حُكْم الْمَنِّ عَلَى السَّبْيِ منَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان،فَمَنَعَهُ الْحَنَفيَّةُ وَهُوَ مَا جَاءَ في أَغْلَب كُتُب الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة.فَفي شُرَّاحِ خَليلٍ منْ كُتُب الْمَالكيَّة

[٢٧١٠] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٥)٤٦ – (١٧٥٥)

[ش (فعرسنا) التعريس نزول آخر الليل(شن الغارة) أي فرقها(عنق من الناس) جماعة(فيهم الذراري) يعني النساء والصبيان(قشع) في القاف لغتان فتحها وكسرها وهما مشهورتان وفسره في الكتاب بالنطع وهو صحيح(وما كشفت لها ثوبا) كناية عن الوقاع(لله أبوك) كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها مثل قولهم لله درك فإن الإضافة إلى العظيم تشريف فإذا وجد من الولد ما يحمد يقال لله أبوك حيث أتى بمثلك]

[٢٧١١] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص:١٤٤) و المغني ٨ / ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٧٧

كَالدُّسُوقِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلإِمَامِ فِي النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ إِلاَّ الاسْتِرْقَاقُ أَوِ الْفِدَاءُ،لَكِنْ قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ:وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فَيُخَيَّرُ الإِمَامُ فِيهِمْ بَيْنَ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالاِسْتِرْقَاقِ،وَمِثْلُ ذَلِكَ جَاءَ فِي حَاشِيَةِ الْعَدَوِيِّ عَلَى كِفَايَةِ الطَّالِبِ الرَّبَّانِيِّ.[2712]

وَفِي كُتُبِ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ نِسَاءَ الْكُفَّارِ وَصِبْيَانَهُمْ إِذَا أُسِرُوا رُقُّوا،وَأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ فِدَاؤُهُمْ أَوِ الْمَنُّ عَلَيْهِمْ.[2713] لَكِنْ قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ:إِنْ أَرَادَ الإِمَامُ الْمَنَّ عَلَيْهِمْ لَمْ يَجُزْ إِلاَّ بِاسْتِطَابَةِ نُفُوسِ الْغَانِمِينَ عَنْهُمْ،إِمَّا بِالْعَفْوِ عَنْ حُقُوقِهِمْ مِنْهُمْ،وَإِمَّا بِمَالٍ يُعَوِّضُهُمْ عَنْهُمْ،فَإِنْ كَانَ الْمَنُّ عَلَيْهِمْ لِمَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ جَازَ أَنْ يُعَوِّضَهُمْ مِنْ سَهْمِ الْمَصَالِحِ،وَإِنْ كَانَ لِأَمْرٍ يَخُصُّهُ عَاوَضَ عَنْهُمْ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ.وَمَنِ امْتَنَعَ مِنَ الْغَانِمِينَ لَمْ يَسْتَنْزِلْ عَنْهُ إِجْبَارًا حَتَّى يَرْضَى،وَخَالَفَ ذَلِكَ حُكْمُ الأَسْرَى فَفِيهِمْ لاَ يَلْزَمُهُ اسْتِطَابَةُ نُفُوسِ الْغَانِمِينَ لِأَنَّ قَتْلَ الرِّجَالِ مُبَاحٌ وَقَتْلَ السَّبْيِ مَحْظُورٌ،فَصَارَ السَّبْيُ مَالاً مَغْنُومًا لاَ يَسْتَنْزِلُونَ عَنْهُ إِلاَّ بِاسْتِطَابَةِ النُّفُوسِ.[2714]

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ وَفْدُ هَوَازِنَ،فَقَالُوا:يَا مُحَمَّدُ،إِنَّا أَصْلٌ وَعَشِيرَةٌ،وَقَدْ نَزَلَ بِنَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ،فَامْنُنْ عَلَيْنَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ،فَقَالَ:«اخْتَارُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِنْ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ»،فَقَالُوا:قَدْ خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا بَلْ نَخْتَارُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ،فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ فَقُومُوا،فَقُولُوا:إِنَّا نَسْتَعِينُ بِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوِ الْمُسْلِمِينَ فِي نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا " فَلَمَّا صَلَّوْا الظُّهْرَ قَامُوا فَقَالُوا ذَلِكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَمَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ»،فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ:وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ:مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا،وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا،وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:أَمَّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا،فَقَامَتْ بَنُو سُلَيْمٍ فَقَالُوا:كَذَبْتَ،مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ

[2712] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٩، والدسوقي ٢ / ١٨٤،والقوانين الفقهية / ١٤٥،نشر دار الكتاب العربي، وحاشية العدوي ٢ / ٦ .

[2713] - مغني المحتاج ٤ / ٢٢٧ - ٢٢٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥، وأسنى المطالب ٤ / ١٩٣ .

[2714] - الأحكام السلطانية / ١٣٤ - ١٣٥، والمهذب ٢ / ٢٣٦ .

ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،رُدُّوا عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ،فَمَنْ تَمَسَّكَ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ فَلَهُ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يُفِيئُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا»،وَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَرَكِبَ النَّاسُ اقْسِمْ عَلَيْنَا فَيْئَنَا،فَأَلْجَئُوهُ إِلَى شَجَرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ،فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي،فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لَكُمْ شَجَرَ تِهَامَةَ نَعَمًا قَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ لَمْ تَلْقَوْنِي بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا وَلَا كَذُوبًا»،ثُمَّ أَتَى بَعِيرًا فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ:«هَا إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذِهِ إِلَّا خُمُسٌ،وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ» فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بِكُبَّةٍ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَخَذْتُ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْدَعَةَ بَعِيرٍ لِي فَقَالَ:أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ،فَقَالَ:«أَوَبَلَغَتْ هَذِهِ؟ فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا»،فَنَبَذَهَا وَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،أَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ،فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢٧١٥]

وَفِي كُتُبِ الْحَنَابِلَةِ كَذَلِكَ مَا يُفِيدُ عَدَمَ جَوَازِ الْمَنِّ عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ:الإِمَامُ لاَ يَمْلِكُ الْمَنَّ عَلَى الذُّرِّيَّةِ إِذَا سُبُوا،وَمَنْ سُبِيَ فَإِنَّهُ يَصِيرُ رَقِيقًا بِنَفْسِ السَّبْيِ وَمِثْل ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ.لَكِنْ قَال أَبُو يَعْلَى:إِنْ أَرَادَ الإِمَامُ الْمَنَّ عَلَى السَّبْيِ لَمْ يَجُزْ إِلاَّ بِاسْتِطَابَةِ نُفُوسِ الْغَانِمِينَ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ أَوْ بِمَالٍ يُعَوِّضُهُمْ مِنْ سَهْمِ الْمَصَالِحِ،وَمَنِ امْتَنَعَ مِنَ الْغَانِمِينَ عَنْ تَرْكِ حَقِّهِ لَمْ يُجْبَرْ[٢٧١٦] .

د – الاسْتِرْقَاقُ:

[٢٧١٥] – سنن النسائي (٦/ ٢٦٢)(٣٦٨٨) حسن

من مَسَك بشيء :يقال :أمسكتُ الشيء، ومَسكت بالشيء :بمعنى واحد، وفي الكلام إضمار، وتقديره :من أصاب شيئا [من هذا الفيء] فأمسكه ثم رده.=ست فرائض :الفرائض، جمع فريضة، يريد به:البعير المأخوذ في الزكاة، وسُمِّي به فريضة ؛ لأنه الواجب على رب المال، ثم سُمِّي البعير فريضة في غير الزكاة.=يفيئه الله علينا أراد بما يفيئه الله عليه :الخمس الذي جعله الله له من الفيء خاصة دون الناس، فإنه يعطي كلٌّ من أخذ منه شيئا عوضه من ذلك.=الخِيَاط الخَيْط، والْمِخْيَط:الإبرة.=الشنَّار :العيب والعار.=الغلول :الخيانة في الغنيمة قبل إخراج الخمس والقسمة.

[٢٧١٦] – المغني ٨ / ٤٨١، وكشاف القناع ٣ / ٥٤، والأحكام السلطانية لأبي يعلى / ١٤٤ .

إِذَا سُبِيَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ صَارُوا رَقِيقًا بِنَفْسِ السَّبْيِ كَمَا يَقُول الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ الإِمَامَ فِي السَّبْيِ بِالْخِيَارِ بَيْنَ الْمُفَادَاةِ أَوِ الاسْتِرْقَاقِ.وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَوْل أَوْ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِمْ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الرَّقِيقِ أَوْ بِدَلاَلَةِ الْحَال.[٢٧١٧]

التَّصَرُّفُ فِي السَّبْيِ بِالْبَيْعِ وَغَيْرِهِ:

السَّبْيُ يُعْتَبَرُ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالإِمَامُ مُخَيَّرٌ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ مِنْ جَوَازِ الْمَنِّ أَوِ الْفِدَاءِ أَوِ الاسْتِرْقَاقِ عَلَى الْخِلاَفِ الَّذِي سَبَقَ.وَالسَّبْيُ بَعْدَ الْقِسْمَةِ يَكُونُ مِلْكًا لِمَنْ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ يَجُوزُ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِالْبَيْعِ وَغَيْرِهِ.أَمَّا قَبْل الْقِسْمَةِ فَالْحَقُّ فِي ذَلِكَ لِلإِمَامِ،وَالإِمَامُ مَنُوطٌ بِهِ التَّصَرُّفُ بِمَا فِيهِ الأَصْلَحُ لِلْغَانِمِينَ.[٢٧١٨]

التَّفْرِيقُ بَيْنَ الأُمِّ وَوَلِيدِهَا الْمَسْبِيَّيْنِ:

لاَ يَجُوزُ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الأُمِّ وَوَلِيدِهَا الْمَسْبِيَّيْنِ فِي الْبَيْعِ أَوْ فِي قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ،وَالأَصْل فِيهِ مَا رُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ،أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ خَاصَمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي ابْنِهِ،فَقَضَى بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأُمِّهِ،ثُمَّ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" لَا تُولَهْ وَالِدَةٌ عَنْ وَلَدِهَا "[٢٧١٩]

وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَوْلِيهٌ فَكَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ،عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢٧٢٠]

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ:أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ كَانَ فِي جَيْشٍ فَفُرِّقَ بَيْنَ الصِّبْيَانِ وَبَيْنَ أُمَّهَاتِهِمْ،فَرَآهُمْ يَبْكُونَ،فَجَعَلَ يَرُدُّ الصَّبِيَّ إِلَى أُمِّهِ.وَيَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا،فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحِبَّاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢٧٢١]

[٢٧١٧] – البدائع ٧ / ١١٩، وابن عابدين ٣ / ٢٣٠، والفتاوى الهندية ٢ / ٢٠٦ – ٢٠٧، والدسوقي ٢ / ١٨٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٨، والمغني ٨ / ٣٧٦، ٤٨١

[٢٧١٨] – المغني ٨ / ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، والاختيار ٤ / ١٢٦، ومنح الجليل ١ / ٧٤٥ – ٧٤٩ .

[٢٧١٩] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٨)(١٥٧٦٧)فيه جهالة – توله :يفرق بينهما في البيع

[٢٧٢٠] – سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٥٧٢)(١٢٨٣) حسن

[٢٧٢١] – سنن الدارمي (٣/ ١٦١١)(٢٥٢٢) حسن

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:«لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا،وَبَيْنَ الْأَخِ وَبَيْنَ أَخِيه»[2722]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ،قَالَ:أَقْبَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِرَقِيقٍ مِنَ الْيَمَنِ،وَاحْتَاجَ إِلَى نَفَقَةٍ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ،فَبَاعَ غُلَامًا مِنَ الرَّقِيقِ بِأَرْبَعمائَةٍ،فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبَصُرَ بِالْأَمْرِ،فَقَالَ:«مَا لِي أَرَى هَذِهِ وَالِهَةً؟» قَالَ:«احْتَجْنَا إِلَى نَفَقَةٍ،فَبِعْنَا أُمًّا لَهَا فَأَمَرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فَيَرُدَّهُ»[2723]

وَهَذَا بِاتِّفَاقٍ.[2724] وَفِي الْمَوْضُوعِ تَفْصِيلٌ مِنْ حَيْثُ شُمُول التَّفْرِيقِ لِغَيْرِ الأُمِّ مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ،أَوْ لاَ،وَهَل يَخْتَصُّ التَّفْرِيقُ بِكَوْنِ الْوَلَدِ صَغِيرًا أَوْ يَشْمَل ذَلِكَ حَالَةَ الْكِبَرِ أَيْضًا.[2725]

وقال ابن المنذر:" ذِكْرُ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ مِنَ السَّبْيِ يَصِيرُونَ فِي مِلْكِ الرَّجُلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

عَنْ أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ::سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَأَجْمَعَ كُلُّ مَنْ نَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنِ الْوَلَدِ وَبَيْنَ أُمِّهِ،وَالْوَلَدُ طِفْلٌ لَمْ يَبْلُغْ سَبْعَ سِنِينَ،وَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ أُمِّهِ،غَيْرُ جَائِزٍ.قَالَ بِجُمْلَةِ هَذَا الْقَوْلِ:وَإِنِ اخْتَلَفَ أَلْفَاظٌ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ،وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،وَالْأَوْزَاعِيُّ،وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ،وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ،وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ،وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ،وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ،وَأَبُو ثَوْرٍ،وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ عِقَالٍ،أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ،كَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ:«لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ»،يَعْنِي فِي الْبَيْعِ.

[2722] - سنن ابن ماجه (٢/ ٧٥٦)(٢٢٥٠) فيه ضعف

[2723] - مسند أبي حنيفة رواية أبي نعيم (ص:١٧٢) صحيح مرسل

والوالهُ:من الوَلَه:وهو شدة الحزن، والذكر والأنثى:والهٌ، ويجوز في الأنثى:والهةٌ.

[2724] - البدائع ٥ / ٢٢٨، والقوانين الفقهية / ١٤٥، ١٤٦، والمهذب ٢ / ٢٤٠، والمغني ٨ / ٤٢٢ .

[2725] - وَيُنْظَرُ هَذَا التَّفْصِيل فِي :(بَيْعٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ) (ف ١٠١) (وَرِقٌّ ف ٣٩) .

وعَنْ حَكيمِ بْنِ عقَال،أَنَّ عُمَرَ،كَتَبَ إِلَيْه أَنْ يَبْتَاعَ لَهُ مائَةً منْ أَهْلِ بَيْت،ثُمَّ يَبْعَثُ بِهِمْ إِلَيْه،وَكَتَبَ إِلَيْه أَنْ لَا تَشْتَرِيَ منْهُمْ أَحَدًا تُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالدَته أَوْ وَالده

وعَنْ جَعْفَر،عَنْ أَبيه،عَنْ جَدِّه،أَنَّ أَبَا أُسَيْد الْأَنْصَارِيَّ،قَدمَ بِسَبْيٍ منَ الْبَحْرَيْنِ،فَصُفُّوا،فَقَامَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ،فَإِذَا امْرَأَةٌ تَبْكي،فَقَالَ:مَا يُبْكيك؟ فَقَالَتْ:بِيعَ ابْنِي فِي بَنِي عَبْسٍ،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي أُسَيْد:«لَتَرْكَبَنَّ فَلَتَجيئَنَّ به كَمَا بعْتَهُ بِالْيَمَنِ» فَرَكبَ أَبُو أُسَيْد فَجَاءَ به

وعَنْ ابن عمر،أَنَّهُ قَالَ:" لَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدهَا،قَالَ سَالمٌ:وَإِنْ لَمْ يَعْتَدلِ الْقَسْمُ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ:«وَإِنْ لَمْ يَعْتَدلِ الْقَسْمُ» وَاخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذي يَجُوزُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ الْوَالدَة وَوَلَدهَا،فَكَانَ مَالكٌ يَقُولُ:حَدُّ ذَلكَ ثَغْرٌ.وَفيه قَوْلٌ ثَان:وَهُوَ أَنَّ حَدَّ ذَلكَ أَنْ يَنْفَعَ نَفْسَهُ،وَيَسْتَغْنِيَ عَنْ أُمِّه فَوْقَ عَشْرِ سنينَ أَوْ نَحْوَ ذَلكَ،هَذَا قَوْلُ اللَّيْث بْنِ سَعْد،وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:إِذَا اسْتَغْنَى عَنْ أُمِّه فَقَدْ خَرَجَ منَ الصِّغَرِ.وَفيه قَوْلٌ ثَالثٌ:وَهُوَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْبَيْعِ حَتَّى يَصيرَ ابْنَ سَبْعِ سنينَ أَوْ ثَمَانِ سنينَ،وَهَذَا قَوْلُ الشَّافعيِّ وَالرَّبيعُ عَنْهُ.وَحَكَى أَبُو ثَوْرٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:إِذَا كَانَ يَلْبَسُ وَحْدَهُ وَيَتَوَضَّأُ وَحْدَهُ،وَيَأْكُلُ وَحْدَهُ،فَلَا بَأْسَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا،وَبه قَالَ أَبُو ثَوْرٍ،وَهَذَا قَوْلٌ رَابعٌ.وَقَالَ سَعيدُ بْنُ عَبْد الْعَزِيزِ:لَا تُولَهُ امْرَأَةٌ عَنْ وَلَدهَا الصَّغير،وَكَانُوا يَقُولُونَ:لَا تُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا فِي الْبَيْعِ حَتَّى يُرْفَعَ عَنْهُ اسْمُ الْيَتيمِ وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى فِي السَّبْيِ «أَنْ لَا يُولَهُ وَلَدٌ عَنْ وَالدَته»

وَحكَايَةُ سَعيد هَذَا الْقَوْلَ قَوْلٌ خَامسٌ.وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَوْلًا سَادسًا،قيلَ لِأَحْمَدَ:مَنِ الَّذي يُكْرَهُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ منَ السَّبَايَا؟ قَالَ:السَّبْيُ خَاصَّةً لَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُمْ،قَالَ:وَقَدْ تَرَخَّصَ بَعْضُ النَّاسِ فِي الْوَلَدَيْنِ منْهُمْ،فَأَمَّا السَّبْيُ فَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُ،قَالَ:فَالْمُحْتَلمَيْنِ لَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ:لَا،قُلْتُ لِأَبِي عَبْد الله:بَيْنَ الْمَرْأَة وَأُمِّهَا وَالْأَخَوَيْنِ،قَالَ:لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ شَيْءٍ منَ السَّبْيِ،قُلْتُ لَهُ:وَالصَّغيرُ وَالْكَبيرُ سَوَاءٌ؟ فَقَالَ:نَعَمْ،قُلْتُ لَهُ:وَالذَّكَرُ وَالْأُنْثَى سَوَاءٌ؟ قَالَ:نَعَمْ،وَقَالَ عُثْمَانُ حينَ قَالَ لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْت:بُدٌّ منْ أَنْ يَكُونَ فيهِمْ كبَارٌ،وَقَالَ النُّعْمَانُ وَأَصْحَابُهُ:لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ الْجَارِيَة وَوَلَدهَا إِذَا كَانُوا صغَارًا،وَإِنْ كَانُوا رِجَالًا أَوْ نسَاءً أَوْ غلْمَانًا قَد احْتَلَمُوا فَلَا بَأْسَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ هَؤُلَاء.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:هَذَا الَّذي ذَكَرْنَاهُ

إِلَّا مَا رُوِّينَاهُ،عَنْ عُمَرَ هُوَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْوَلَدِ وَوَالِدَتِهِ فِي الْبَيْعِ،وَأَحْسَبُ أَنَّ الْحَدِيثَ هُوَ عَنْ عُثْمَانَ،وَلَكِنَّ الَّذِي حَدَّثَنِي،قَالَ:عَنْ عُمَرَ فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَالِدِهِ فَإِنَّ مَالِكًا قِيلَ لَهُ:أَفَرَأَيْتَ الْوَالِدَ وَوَلَدَهُ؟ فَقَالَ:لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ.وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ:أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ فِي الْبَيْعِ،وَبَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ،وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدِهَا حَتَّى يَبْلُغَ.وَفِيهِ قَوْلٌ ثَانٍ:وَهُوَ أَنْ لَا يَجُوزَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا،هَذَا قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ،قَالَ:أَمَّا الْأَبُ وَالْأَخُ وَالْوَلَدُ فَهُوَ أَبْيَنُ،وَذَكَرَ حَدِيثَ عُثْمَانَ أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُشْتَرَى لَهُ مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُمْ،وَقَالَ أَحْمَدُ:لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنَ السَّبْيِ،وَفِي قَوْلِ أَصْحَابِ الرَّأْيِ:لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ فِي الْبَيْعِ،وَهَذَا قِيَاسُ قَوْلِ كُلِّ مَنْ يَرَى أَنْ لَا يُفَرَّقَ بَيْنَ كُلِّ ذِي رَحِمٍ مُحَرَّمٍ.وَيُشْبِهُ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ أَنْ لَا يُفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ الْوَلَدُ سَبْعَ سِنِينَ،أَوْ ثَمَانَ سِنِينَ؛لِأَنَّهُ قَالَ:" فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَكَيْفَ فَرَّقْتُمْ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ،وَلَمْ تُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَلَدِ وَأُمِّهِ،قِيلَ:السُّنَّةُ فِي الْوَلَدِ وَأُمِّهِ،وَوَجَدْتُ حَالَ الْوَلَدِ مِنَ الْوَالِدِ مُخَالِفًا حَالَ الْأَخِ مِنْ أَخِيهِ،وَوَجَدْتُنِي أَجْبُرُ الْوَلَدَ عَلَى نَفَقَةِ الْوَالِدِ،وَالْوَالِدَ عَلَى نَفَقَةِ الْوَلَدِ،وَذَكَرَ كَلَامًا تَرَكْتُ ذِكْرَهُ هَا هُنَا "[٢٧٢٦]

أَثَرُ السَّبْيِ فِي الْحُكْمِ بِإِسْلَامِ الْمَسْبِيِّ:

إِذَا سُبِيَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ أَوْلَادِ الْكُفَّارِ صَارَ رَقِيقًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ،أَمَّا الْحُكْمُ بِإِسْلَامِ الصَّغِيرِ الْمَسْبِيِّ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ:

الْأَوَّلُ:أَنْ يُسْبَى مُنْفَرِدًا عَنْ أَبَوَيْهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ مُسْلِمًا ؛لِأَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا يَثْبُتُ لَهُ تَبَعًا،وَقَدِ انْقَطَعَتْ تَبَعِيَّتُهُ لِأَبَوَيْهِ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُمَا وَإِخْرَاجِهِ عَنْ دَارِهِمَا،وَمَصِيرِهِ إِلَى دَارِ الإِسْلَامِ تَبَعًا لِسَابِيهِ الْمُسْلِمِ فَكَانَ تَابِعًا لَهُ فِي دِينِهِ،وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَرِوَايَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنْ مَالِكٍ،وَمُقَابِلُ ظَاهِرِ الْمَذْهَبِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ.

وَعِنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَذْهَبِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ بَاقٍ عَلَى كُفْرِهِ تَبَعًا لِأَبِيهِ،وَلاَ يَتْبَعُ السَّابِي فِي الإِسْلاَمِ ؛لِأَنَّ يَدَ السَّابِي يَدُ مِلْكٍ فَلاَ تُوجِبُ إِسْلاَمَهُ كَيَدِ الْمُشْتَرِي.

[٢٧٢٦] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٤٨)(٦٦٤٧-٦٦٥٣)

الثَّاني:أَنْ يُسْبَى مَعَ أَحَدِ أَبَوَيْه،فَعِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ - الْحَنَفِيَّة وَالْمَالِكيَّة وَالشَّافعيَّة - يُعْتَبَرُ كَافرًا تَبَعًا لأَبيه أَوْ أُمِّه في الْكُفْر ؛لأَنَّهُ لَمْ يَنْفَرِدْ عَنْ أَحَد أَبَوَيْه فَلَمْ يُحْكَمْ بإِسْلاَمه،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبيُّ ﷺ:«كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الفطْرَة،فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه،أَوْ يُنَصِّرَانه،أَوْ يُمَجِّسَانه،كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»[2727]

قَالَ أَبُو حَاتم:قَوْلُهُ ﷺ:«كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة» أَرَادَ به:عَلَى الْفطْرَة الَّتي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا جَلَّ وَعَلَا يَوْمَ أَخْرَجَهُمْ منْ صُلْب آدَمَ،لقَوْله جَلَّ وَعَلَا:{فطْرَةَ اللَّه الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْديلَ لخَلْق اللَّه} [الروم:٣٠]،يَقُولُ:لَا تَبْديلَ لتلْكَ الْخلْقَة الَّتي خَلَقَهُمْ لَهَا،إِمَّا لجَنَّة،وَإِمَّا لنَار،حَيْثُ أَخْرَجَهُمْ منْ صُلْب آدَمَ،فَقَالَ:هَؤُلَاء للْجَنَّة،وَهَؤُلَاء للنَّار.

أَلَا تَرَى أَنَّ غُلَامَ الْخَضر قَالَ ﷺ:«طَبَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ طَبَعَهُ كَافرًا» وَهُوَ بَيْنَ أَبَوَيْن مُؤْمنَيْن،فَأَعْلَمَ اللَّهُ ذَلكَ عَبْدَهُ الْخَضرَ وَلَمْ يُعْلمْ ذَلكَ كَليمَهُ مُوسَى ﷺ،عَلَى مَا ذَكَرْنَا في غَيْر مَوْضعٍ منْ كُتُبنَا.[2728]

وَعنْدَ الْحَنَابلَة يُحْكَمُ بإِسْلاَمه،وَبهَذَا قَال الأَوْزَاعيُّ لقَوْل النَّبيِّ ﷺ:كُل مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة،الْحَديثُ،فَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ لاَ يَتْبَعُ أَحَدَهُمَا ؛لأَنَّ الْحُكْمَ مَتَى عُلِّقَ بشَيْئَيْن لاَ يَثْبُتُ بأَحَدهمَا ؛وَلأَنَّهُ يَتْبَعُ سَابيه مُنْفَردًا فَيَتْبَعُهُ مَعَ أَحَد أَبَوَيْه قيَاسًا عَلَى مَا لَوْ أَسْلَمَ أَحَدُ الأَبَوَيْن.

الثَّالثُ:أَنْ يُسْبَى مَعَ أَبَوَيْه فَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَى دينهمَا لقَوْل النَّبيِّ ﷺ:فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانه،وَهُمَا مَعَهُ وَملْكُ السَّابي لَهُ لاَ يَمْنَعُ اتِّبَاعَهُ لأَبَوَيْه بدَليل مَا لَوْ وُلدَ في ملْكه منْ عَبْده وَأَمَته الْكَافرَيْن.

[2727] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٠)(١٣٨٥)

ومعنى هذا الحديث:أن المولود يولد على نوع من الجبلة، وهي فطرة الله تعالى، وكونه متهيئًا لقبول الحقيقة طبعًا وطوعًا، ولو خلَّته شياطين الإنس والجن وما يختار، لم يَختْر إلا إياها، وضرب لذلك - الجمعاء والجدعاء- مثلاً، يعني:أن البهيمة تُولد سوية الأطراف، سليمة من الجدع ونحوه، لولا الناس وتعرضهم إليها، لبقيت كما وُلدت سليمة.جامع الأصول (١/ ٢٧١)

[2728] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٣٧)

وَإِنْ أَسْلَمَ أَحَدُ الأَبَوَيْنِ فَهُوَ مُسْلِمٌ تَبَعًا لَهُ لِأَنَّ الإِسْلاَمَ أَعْلَى،فَكَانَ إِلْحَاقُهُ بِالْمُسْلِمِ مِنْهُمَا أَوْلَى.

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ هُوَ عَلَى دِينِ أَبِيهِ وَلاَ عِبْرَةَ بِإِسْلاَمِ أُمِّهِ أَوْ جَدِّهِ.[٢٧٢٩]

أَثَرُ السَّبْيِ فِي النِّكَاحِ:

سَبْيُ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنَ الْكُفَّارِ لاَ يَخْلُو مِنْ ثَلاَثَةِ أَحْوَالٍ:

أَحَدُهَا:أَنْ يُسْبَى الزَّوْجَانِ مَعًا،فَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ يَنْفَسِخُ نِكَاحُهُمَا،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ وَأَبِي ثَوْرٍ،عَنْ أَبِي سَعِيدٍ،قَالَ:" أَصَابُوا سَبْيًا يَوْمَ أَوْطَاسَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ،فَتَخَوَّفُوا،فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٢٤] "[٢٧٣٠]

فَحَرَّمَ الْمُتَزَوِّجَاتِ إِلاَّ الْمَمْلُوكَاتِ بِالسَّبْيِ فَدَل عَلَى ارْتِفَاعِ النِّكَاحِ،قَال الشَّافِعِيُّ:سَبَى رَسُول اللَّهِ ﷺ أَوْطَاسَ وَبَنِيَّ الْمُصْطَلِقِ وَقَسَّمَ الْفَيْءَ،وَأَمَرَ أَلاَّ تُوطَأَ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ،وَلاَ حَائِلٌ حَتَّى تَحِيضَ،وَلَمْ يَسْأَل عَنْ ذَاتِ زَوْجٍ وَلاَ غَيْرِهَا،عَنْ أَبِي سَعِيدٍ،وَرَفَعَهُ،أَنَّهُ قَالَ:فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا،وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً»[٢٧٣١]

قَال الشَّافِعِيَّةُ:وَإِنْ كَانَ الزَّوْجَانِ مَمْلُوكَيْنِ فَسُبِيَا فَلاَ نَصَّ فِيهِ،وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ قِيَاسُ الْمَذْهَبِ أَنْ لاَ يَنْفَسِخَ النِّكَاحُ،لِأَنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ بِالسَّبْيِ رِقٌّ،وَإِنَّمَا حَدَثَ انْتِقَال الْمِلْكِ فَلَمْ يَنْفَسِخِ النِّكَاحُ كَمَا لَوِ انْتَقَل الْمِلْكُ فِيهِمَا بِالْبَيْعِ،قَال أَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ:وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ قَال:يَنْفَسِخُ النِّكَاحُ ؛لِأَنَّهُ حَدَثَ سَبْيٌ يُوجِبُ الاسْتِرْقَاقَ وَإِنْ صَادَفَ رِقًّا كَمَا أَنَّ الزِّنَا يُوجِبُ الْحَدَّ وَإِنْ صَادَفَ حَدًّا.[٢٧٣٢]

[٢٧٢٩] - البدائع ٧ / ١٠٤،والكافي لابن عبد البر ١ / ٤٦٧ - ٤٦٨،الدسوقي ٤ / ٣٠٥،والمهذب ٢ / ٢٤٠، والمغني ٨ / ٤٢٦ .

[٢٧٣٠] - صحيح مسلم (٢/ ١٠٨٠)٣٥ - (١٤٥٦)

[٢٧٣١] - سنن الدارمي (٣/ ١٤٧٥)(٢٣٤١) حسن

[٢٧٣٢] - الدسوقي ٢ / ٢٠٠، والمهذب ٢ / ٢٤١ .

وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ لاَ يَنْفَسِخُ نِكَاحُهُمَا بِالسَّبْيِ مَعًا.قَال الْحَنَفِيَّةُ:لِعَدَمِ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ،فَسَبَبُ الْبَيْنُونَةِ هُوَ تَبَايُنُ الدَّارَيْنِ دُونَ السَّبْيِ ؛لأَنَّ مَصَالِحَ النِّكَاحِ لاَ تَحْصُل مَعَ التَّبَايُنِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا ؛لأَنَّ مَصَالِحَهُ إِنَّمَا تَحْصُل بِالاجْتِمَاعِ،وَالتَّبَايُنُ مَانِعٌ مِنْهُ،أَمَّا السَّبْيُ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي مِلْكَ الرَّقَبَةِ وَذَلِكَ لاَ يُنَافِي النِّكَاحَ ابْتِدَاءً فَكَذَا بَقَاءً.وَقَال الْحَنَابِلَةُ:إِنَّ الرِّقَّ مَعْنًى لاَ يَمْنَعُ ابْتِدَاءَ النِّكَاحِ فَلاَ يَقْطَعُ اسْتِدَامَتَهُ كَالْعِتْقِ،وقَوْله تَعَالَى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:٢٤] نَزَلَتْ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ،وَكَانُوا أَخَذُوا النِّسَاءَ دُونَ أَزْوَاجِهِنَّ،وَعُمُومُ الآْيَةِ مَخْصُوصٌ بِالْمَمْلُوكَةِ الْمُزَوَّجَةِ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ فَيَخُصُّ مِنْهُ مَحَل النِّزَاعِ بِالْقِيَاسِ عَلَيْهِ.[٢٧٣٣]

الثَّانِي:أَنْ تُسْبَى الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا فَيَنْفَسِخَ النِّكَاحُ بِلاَ خِلاَفٍ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ،وَالآْيَةُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ،وَكَذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ وَهُوَ الْحَدِيثُ السَّابِقُ،وَتَعْلِيل الْفَسْخِ وَسَبَبُهُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ هُوَ السَّبْيُ،أَمَّا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ فَهُوَ اخْتِلاَفُ الدَّارِ.[٢٧٣٤]

الثَّالِثُ:أَنْ يُسْبَى الرَّجُل وَحْدَهُ فَعِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ – الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَأَبِي الْخَطَّابِ مِنَ الْحَنَابِلَةِ – يَنْفَسِخُ النِّكَاحُ لاِخْتِلاَفِ الدَّارِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَلِلسَّبْيِ عِنْدَ غَيْرِهِمْ.

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ – غَيْرِ أَبِي الْخَطَّابِ – لاَ يَنْفَسِخُ النِّكَاحُ لأَنَّهُ لاَ نَصَّ فِيهِ،وَلاَ الْقِيَاسُ يَقْتَضِيهِ.وَقَدْ سَبَى النَّبِيُّ ﷺ سَبْعِينَ مِنَ الْكُفَّارِ يَوْمَ بَدْرٍ فَمَنَّ عَلَى بَعْضِهِمْ وَفَادَى بَعْضًا.[٢٧٣٥] وَلَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِمْ بِفَسْخِ أَنْكِحَتِهِمْ،وَلأَنَّنَا إِذَا لَمْ نَحْكُمْ بِفَسْخِ النِّكَاحِ فِيمَا

[٢٧٣٣] – الاختيار ٣ / ١١٣، والبدائع ٢ / ٣٣٩، والمغني ٨ / ٤٢٧ .

[٢٧٣٤] – الاختيار ٣ / ١١٣، والبدائع ٢ / ٣٣٩، والدسوقي ٢ / ٢٠٠، والمهذب ٢ / ٢٤١، والمغني ٨ / ٤٢٧ .

[٢٧٣٥] – حديث :" سبى النبي صلى الله عليه وسلم سبعين من الكفار يوم بدر " أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٣٠٧ – ط السلفية) من حديث البراء بن عازب .وأما فداء بعضهم فقد ورد من حديث ابن عباس .أخرجه أبو داود (٣ / ١٣٩ – تحقيق عزت عبيد دعاس) .

إِذَا سُبِيَا مَعًا مَعَ الِاسْتِيلاَءِ عَلَى مَحَل حَقِّهِ،فَلأَنْ لاَ يَنْفَسِخَ نِكَاحُهُ مَعَ عَـــدَمِ الِاسْـــتِيلاَءِ أَوْلَى [٢٧٣٦] .

قال الطحاوي:" بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اسْتِبْرَاءِ الْمَسْبِيَّاتِ مِنَ الْحَوَامِلِ وَمِمَّنْ سِوَاهُنَّ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:أَصَبْنَا سَبَايَا يَوْمَ أَوْطَاسٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ،وَلَا غَيْرُ حَامِلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً ".

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَهُ.

قَالَ:أَبُو جَعْفَرٍ:وَفِيمَا رُوِّينَاهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ قَصَـــدَ بِالِاسْتِبْرَاءِ إِلَى مَنْ تَحِيضُ مِمَّنْ لَيْسَ بِحَامِلٍ وَإِلَى الْحَوَامِلِ لَا إِلَى مَنْ سِوَاهُنَّ مِمَّنْ كَـــانَ فِي ذَلِكَ السَّبْيِ مِنَ النِّسَاءِ،وَنَحْنُ نُحِيطُ عِلْمًا أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْ،وَمِمَّنْ قَـــدْ يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ،وَالْحَيْضُ وَالْحَمْلُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَعْدُومٌ.فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الِاسْتِبْرَاءَ عَلَى غَيْرِ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ذَلِكَ مِنَ النِّسَاءِ،وَأَنَّ الِاسْتِبْرَاءَ لَـــا يَجِبُ فِيمَنْ لَا تَحِيضُ مِنَ الصِّغَارِ،وَلَا فِيمَنْ لَا تَحِيضُ مِنَ الْإِيَاسِ مِنَ الْحَيْضِ.كَمَا قَـــدْ رُوِيَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ فِي ذَلِكَ.

كَمَا جاء عن الْقَاسِمِ وَسَالِمٍ أَنَّهُ سَأَلَهُمَا عَنِ الْجَارِيَةِ تُبَاعُ وَلَمْ تَحِضْ،أَيَطَؤُهَـــا الَّـــذِي اشْتَرَاهَا؟،فَقَالَا:يَنْظُرُ إِلَيْهَا مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ،فَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَحِضْ فَلَا نَرَى عَلَيْهِ شَيْئًا ".قَالَ اللَّيْثُ " إِذَا كَانَت ابْنَةَ عَشْرِ سِنِينَ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُوطَأَ حَتَّى يُسْـــتَبْرَأَ رَحِمُهَـــا لِثَلَاثَـــةِ أَشْهُرٍ،فَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ ابْنَةَ عَشْرِ سِنِينَ حَمَلَتْ ".قَالَ:وَفِي هَذَا مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ اللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ كَانَ مَذْهَبُهُ أَنَّ حَمْلَهَا إِذَا كَانَ مَأْمُونًا أَنَّهُ لَا تُسْتَبْرَأُ فِيهَا،وَهَذَا قَوْلٌ قَدْ كَانَ أَبُو يُوسُـــفَ قَالَهُ مَرَّةً،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَـــذَا كَـــانَ مَذْهَبَهُ أَيْضًا،وَمَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْعَذْرَاءِ أَنَّهَا لَا تُسْتَبْرَأُ.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:" الْعَذْرَاءُ لَا تُسْتَبْرَأُ "

[٢٧٣٦] - المراجع السابقة .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:" نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وَطْءِ السَّبَايَا وَهُنَّ حَبَالَى حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بُطُونِهِنَّ،أَوْ يُسْتَبْرَأْنَ ".قَالَ:أَبُو جَعْفَرٍ:وَهَذَا عِنْدَنَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِمَا رُوِّينَاهُ قَبْلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى " أَوْ يُسْتَبْرَأْنَ " قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَوْ يُسْتَبْرَأْنَ مِمَّا قَدْ رُوِّينَاهُ قَبْلَهُ،فَيَعُودَ مَعْنَى مَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ."

" قَالَ الإِمَامُ:فِي هَذَا الْحَدِيث أَنْوَاع مِن الْفِقْه،مِنْهَا:أَن الزَّوْجَيْنِ إِذا سُبيا،أَو أَحدهمَا،يرْتَفع النكاحُ بَينهمَا،وَلَوْلَا ذَلِكَ،لكَانَ النَّبِيّ ﷺ لَا يُبِيحُ للسَّابِي وَطْء المسبيَّة بعد أَن تضع الْحمل،أَو تحيض حَيْضَة من غير فصل،وفيهن ذواتُ أَزوَاج،وَلم يخْتَلف أهلُ الْعلم فِي سبي أحد الزَّوْجَيْنِ دون الآخر،أَنَّهُ يُوجب ارْتِفَاع النِّكَاح بَينهمَا،وَاخْتلفُوا فِيمَا لَو سُبيا مَعًا،فَذهب جمَاعَة إِلَى ارْتِفَاع النِّكَاح،لِأَن النَّبِيّ ﷺ أَبَاحَ وطأهُنَّ بعد وضع الْحمل،أَو مُرُور حَيْضَة بهَا من غير فصل بَين ذَات زوج،وَغَيرهَا،وَبَين من سُبت مِنْهُنَّ مَعَ الزَّوْج،أَو وَحدهَا،وَكَانَ فِي ذَلِكَ السَّبي كلُّ هَذِه الْأَنْوَاع،فَدلَّ أَن الحكم فِي ذَلِكَ وَاحِد،وَإِلَى هَذَا ذهب مَالك،وَالشَّافِعِيّ،وَأَبُو ثَوْر.

وَقَالَ أَصْحَاب الرَّأْي:إِذا سُبيا مَعًا،فهما على نِكَاحهمَا.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَلْقَمَة الْهَاشِمِيّ،عَنْ أَبِي سَعِيد،أَن رَسُولَ اللَّه ﷺ بعث يَوْم حُنين بعثًا إِلَى أَوْطَاس،فلقُوا الْعَدو،فقاتلوهم،وظهروا عَلَيْهِم،وَأَصَابُوا سَبَايَا،فكأنَّ نَاسا من أَصْحَاب رَسُولِ اللَّه ﷺ تحرجوا من غشيانهنَّ من أجل أَزوَاجهنَّ من الْمُشْرِكين،فَأنْزل اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النِّسَاء:٢٤]،أَي:فهُنَّ لكم حَلَال،إِذا انْقَضتْ عدتهن.

وَالْمرَاد من الْمُحْصنَات فِي هَذَا الْموضع:المتزوجات،فدلَّ إباحتُهُنَّ للموالي على ارْتِفَاع النِّكَاح بَينهُنَّ،وَبَين أَزوَاجهنَّ بِالسَّبْي،وَتَأَول ابْن عَبَّاس الْآيَة على الْأمة الْمُزَوجَة يَشْتَرِيهَا رجل،وَجعل بيعهَا طَلَاقا،وَأحل للْمُشْتَرِي وَطأهَا،وَعَامة أهل الْعلم على خِلَافه،وَلم يجْعَلُوا بيع الْأمة ذَات الزَّوْج طَلَاقا.

وَفيه أَن استحداثَ الْمُلْك فِي الْأمة يُوجب الاسْتِبْرَاء،فَلَا يجوز لمن يملك جَارِيَة وَطْؤُهَا مَا لم يمض زمَان الاسْتِبْرَاء،سَوَاء كَانَت بكرا،أَو ثَيِّبًا،تَملكهَا من رجل أَو امْرَأَة،وَكَذَلِكَ الْمُكَاتبَة إِذا عجزت،والمبيعة إِذا عَادَتْ إِلَى بَائعهَا بإقالة،أَو ردٍّ بِعَيْب،فَلَا يحل وَطْؤُهَا إِلا بعد الاسْتِبْرَاء،وَقَالَ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد،وَسَالم بْن عَبْد اللَّه:لَا يجب اسْتِبْرَاء غير الْبَالِغَة،وَهُوَ قَول اللَّيْث بْن سَعْد،وَقَالَ ابْن عُمَر:إِذا وهبت الوليدة الَّتِي تُوطأ،أَو بِيعَتْ،أَو أعتقت،فليُستبرأ رحمُها بحَيْضَة،وَلَا تستبرأ العذارء.

وَفيه،أَن وَطْء الحبالى من السبايا لَا يجوز،وَقد رُوِي عَنْ رُويفع بْن ثَابت الْأَنْصَارِيّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْم حنين:«لَا يحِلُّ لامرئ يُؤْمِنُ بِاللَّه واليَوْمِ الآخرِ أَن يَسْقِي ماءَهُ زَرْعَ غيره».

يَعْنِي:إتْيَان الحبالى،«وَلَا يَحِلُّ لامرئ يُؤْمِنُ بِاللَّه واليَوْمِ الآخرِ أَنْ يَقَعَ عَلَى امْرَأَة مِنَ السَّبِي حتَّى يَسْتَبْرِئَهَا،وَلا يَحِلُّ لامرئ يُؤْمِنُ بِاللَّه واليَوْمِ الآخرِ أَنْ يَبِيعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقْسِم».

قَالَ الإِمَامُ:اتّفق أهلُ الْعلم على تَحْرِيم الْوَطْء على الْمَالِك فِي زمَان الاسْتِبْرَاء،وَاخْتلفُوا فِي الْمُبَاشرَة سوى الْوَطْء،فَلم يَرَ الحسنُ بَأْسا أَن يقبِّلها ويُباشرها،وَقَالَ عَطَاء:لَا بَأْس أَن يُصيب من جَارِيَته الْحَامِل مَا دون الْفرج،قَالَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ:{إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [الْمُؤْمِنُونَ:٦]،وَذهب قوم إِلَى تَحْرِيمهَا كَالْوَطْء،وَهُوَ قَول الشَّافِعِيّ،وَله قَول آخر:إِنَّهَا تحرم فِي الْمُشْتَرَاة،وَلَا تحرم فِي المسبية،لِأَن الْمُشْتَرَاة رُبمَا تكون أم ولد الْغَيْر،فَلم يملكهَا الْمُشْتَرِي،وَالْحمل فِي المسبية لَا يمْنَع الْملك.

وَفيه بَيَان أَن اسْتِبْرَاء الْحَامِل يكون بِوَضْع الْحمل،واستبراء الْحَائِل إِن كَانَت مِمَّن تحيض بحَيْضَة بخلَاف الْعدة تكون بالأطهار،لِأَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ هُنَاكَ فِي حَدِيث ابْن عُمَر:«يُطَلِّقها طَاهِرا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّها،فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمر اللَّه أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّساء»،فَجعل الْعدة بالأطهار،والاستبراء بِالْحيض.

وَفيه بَيَان أَنَّهُ لَا بُد من حَيْضَة كَاملَة بعد حُدُوث الْملك،حَتَّى لَو اشْتَرَاهَا وَهِي حَائِض لَا تَعْتَد بتِلْكَ الْحَيْضَة.وَقَالَ الْحَسَن:إِذا اشْتَرَاهَا حَائِضًا أَجْزَأت عَن الاسْتِبْرَاء،وَإِن كَانَت الْأمة مِمَّن لَا تحيض،فاستبراؤها بمُضِيِّ شهر.وَقَالَ الزُّهْرِيّ:بثَلَاثَة أشهر."[2737]

وفي المرقاة:"وَقَوْلُهُ:لَا تُوطَأُ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ أَيْ لَا تُجَامِعُوا مَسْبِيَّةً حَامِلًا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا،وَلَا حَائِلًا ذَاتَ أَقْرَاء حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً كَامِلَةً وَلَوْ مَلَكَهَا،وَهِيَ حَائِضٌ لَا تَعْتَدُّ بِتِلْكَ الْحَيْضَةِ حَتَّى تَسْتَبْرِئَ بِحَيْضَةٍ مُسْتَأْنَفَة،وَإِنْ كَانَتْ لَا تَحِيضُ لِصِغَرِهَا أَوْ كِبَرِهَا،فَاسْتِبْرَاؤُهَا يَحْصُلُ بِشَهْرٍ وَاحِد أَوْ بِثَلَاثَة أَشْهُرٍ،فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ:أَصَحُّهُمَا الْأَوَّلُ،وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اسْتِحْدَاثَ الْمِلْك فِي الْأَمَة يُوجِبُ الِاسْتِبْرَاءَ،وَبِظَاهِرِه قَالَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ نَقَلَهُ مِيرَكُ.وَفِي شَرْحِ السُّنَّة:فِيهِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْفِقْه مِنْهَا أَنَّ الزَّوْجَيْنِ إِذَا سُبِيَا أَوْ أَحَدُهُمَا يَرْتَفِعُ بَيْنَهُمَا النِّكَاحُ،وَلَمْ يَخْتَلِف الْعُلَمَاءُ فِي سَبْيِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ دُونَ الْآخَرِ أَنَّهُ يُوجِبُ ارْتِفَاعَ النِّكَاحِ،لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَبَاحَ وَطْأَهُنَّ بَعْدَ وَضْعِ الْحَمْلِ،أَوْ مُرُورِ حَيْضَة بِهَا مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ بَيْنَ ذَاتِ زَوْجٍ وَغَيْرِهَا،وَبَيْنَ مَنْ سُبِيَتْ مِنْهُنَّ مَعَ الزَّوْجِ أَوْ وَحْدَهَا،وَكَانَ فِي ذَلِكَ السَّبْيِ كُلُّ هَذِه الْأَنْوَاع،فَدَلَّ أَنَّ الْحُكْمَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ وَاحِدٌ،وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ.وَقَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ:إِذَا سُبِيَا مَعًا فَهُمَا عَلَى نِكَاحِهِمَا،وَمِنْهَا أَنَّ وَطْءَ الْحَبَالَى مِنَ السَّبَايَا لَا يَجُوزُ،وَمِنْهَا بَيَانُ أَنَّ اسْتِبْرَاءَ الْحَامِلِ يَكُونُ بِوَضْعِ الْحَمْلِ،وَاسْتِبْرَاءَ غَيْرِ الْحَامِلِ مِمَّنْ كَانَتْ بِحَيْضَة حَيْضَةٌ بِخِلَاف الْعِدَّة،فَإِنَّهَا تَكُونُ بِالْأَطْهَارِ،لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ فِي حَدِيث ابْنِ عُمَرَ:" «فَطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ تَمَسَّهَا» فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ،فَجَعَلَ – ﷺ – الْعِدَّةَ بِالْأَطْهَارِ وَالِاسْتِبْرَاءَ بِالْحَيْضِ.وَمِنْهَا بَيَانُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حَيْضَة كَامِلَة بَعْدَ حُدُوث الْمِلْك حَتَّى لَو اشْتَرَاهَا وَهِيَ حَائِضٌ،لَا يُعْتَدُّ بِتِلْكَ الْحَيْضَة.وَقَالَ الْحَسَنُ:إِذَا اشْتَرَاهَا حَائِضًا أَجْزَأَتْ عَنِ الِاسْتِبْرَاء،وَإِنْ كَانَت الْأَمَةُ مِمَّنْ لَا تَحِيضُ فَاسْتِبْرَاؤُهَا بِمُضِيِّ شَهْرٍ،وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:بِثَلَاثَة أَشْهُرٍ،وَفِيه مُسْتَدَلٌّ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْحَامِلَ لَا تَحِيضُ،وَأَنَّ الدَّمَ الَّذِي تَرَاهُ الْحَامِلُ لَا يَكُونُ حَيْضًا،وَإِنْ كَانَ فِي حِينِه وَعَلَى وَصْفِه،لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – جَعَلَ

[2737] – شرح مشكل الآثار (٨/ ٥٣)(٣٠٤٨ –٣٠٥٠) وشرح السنة للبغوي (٩/ ٣١٩)

الْحَيْضَ دَلِيلَ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ،وَفِيهِ أَنَّ اسْتِحْدَاثَ الْمِلْكِ فِي الْأَمَةِ يُوجِبُ الِاسْتِبْرَاءَ،سَوَاءٌ كَانَتْ بِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا،يَمْلِكُهَا مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ،وَكَذَلِكَ الْمُكَاتَبَةُ إِذَا عَجَزَتْ وَالْمَبِيعَةُ إِذَا عَادَتْ إِلَى بَائِعِهَا بِمَقَالَةٍ أَوْ رَدٍّ بِعَيْبٍ،فَلَا يَحِلُّ وَطْؤُهَا إِلَّا بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ،وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى تَحْرِيمِ الْوَطْءِ عَلَى الْمَالِكِ فِي زَمَانِ الِاسْتِبْرَاءِ،وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُبَاشَرَةِ سِوَى الْوَطْءِ،فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى تَحْرِيمِهَا كَالْوَطْءِ،وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ،وَلَهُ قَوْلٌ آخَرُ أَنَّهَا تُحْرَمُ فِي الْمُشْتَرَاةِ،وَلَا تُحْرَمُ فِي الْمَسْبِيَّةِ لِأَنَّ الْمُشْتَرَاةَ رُبَّمَا تَكُونُ حَامِلًا وَلَدًا لِغَيْرِهِ،فَلَمْ يَمْلِكْهَا الْمُشْتَرِي،وَالْحَمْلُ فِي الْمَسْبِيَّةِ لَا يَمْنَعُ الْمِلْكَ،وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ. [2738]

الزَّوَاجُ بِالْمَسْبِيَّةِ:

السَّبَايَا مِنَ النِّسَاءِ يُعْتَبَرْنَ مِنَ الْغَنَائِمِ إِلَى أَنْ تَتِمَّ قِسْمَةُ الْغَنِيمَةِ،فَإِذَا قُسِّمَتْ بَيْنَ الْغَانِمِينَ فَكُل مَنْ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ سَبِيَّةٌ مَلَكَهَا وَصَارَتْ أَمَةً لَهُ،وَيَحِل لَهُ وَطْؤُهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ بَعْدَ اسْتِبْرَائِهَا لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [النساء:٢٤] وَقَدْ نَزَلَتْ فِي سَبَايَا أَوْطَاسَ،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،" أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسَ،فَلَقُوا عَدُوًّا،فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ،وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا،فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٢٤]،أَيْ:فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ "[2739] .

قول الظاهرية في قتل النساء:

[2738] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢١٨٩)

[2739] - صحيح مسلم (٢/ ١٠٧٩)٣٣ - (١٤٥٦) و ينظر البدائع ٢ / ٢٧١، ٣٣٩، والمغني ٦ / ٥٩٦ - ٥٩٧، ٨ / ٤٢٧، والأحكام السلطانية للماوردي / ٥٤ .والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٤/ ١٥٥)

[ش (أوطاس) موضع عند الطائف يصرف ولا يصرف (تحرجوا) خافوا الحرج وهو الإثم من غشيانهن أي من وطئهن من أجل أنهن زوجات والمزوجة لا تحل لغير زوجها (والمحصنات) المراد بالمحصنات هنا المزوجات ومعناه والمزوجات حرام على غير أزواجهن إلا ما ملكتم بالسبي فإنه ينفسخ نكاح زوجها الكافر وتحل لكم إذا انقضى استبراؤها والمراد بقوله إذا انقضت عدتهن أي استبراؤهن وهي بوضع الحمل من الحامل وبحيضة من الحائل]

وَلَا يَحِلُّ قَتْلُ نِسَائِهِمْ وَلَا قَتْلُ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهُمْ،إلَّا أَنْ يُقَاتِلَ أَحَدٌ مِمَّنْ ذَكَرْنَا فَلَا يَكُونُ لِلْمُسْلِمِ مَنْجًى مِنْهُ إلَّا بِقَتْلِهِ فَلَهُ قَتْلُهُ حِينَئِذٍ.عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ " أَنَّ [امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ - ﷺ - مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ] رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ".

فَإِنْ أُصِيبُوا فِي الْبَيَاتِ أَوْ فِي اخْتِلَاطِ الْمَلْحَمَةِ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ.

رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ نَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ نَا سُفْيَانُ نَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَيُصَابُ مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ وَنِسَائِهِمْ؟ فَقَالَ:هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ».

وَجَائِزٌ قَتْلُ كُلِّ مَنْ عَدَا مِنْ ذَكَرْنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُقَاتِلٍ،أَوْ غَيْرِ مُقَاتِلٍ،أَوْ تَاجِرٍ،أَوْ أَجِيرٍ - وَهُوَ الْعَسِيفُ - أَوْ شَيْخٍ كَبِيرٍ كَانَ ذَا رَأْيٍ،أَوْ لَمْ يَكُنْ،أَوْ فَلَّاحٍ،أَوْ أُسْقُفٍ،أَوْ قِسِّيسٍ،أَوْ رَاهِبٍ،أَوْ أَعْمَى،أَوْ مُقْعَدٍ لَا تُحَاشِ أَحَدًا.

وَجَائِزٌ اسْتِبْقَاؤُهُمْ أَيْضًا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:٥] فَعَمَّ - عَزَّ وَجَلَّ - كُلَّ مُشْرِكٍ بِالْقَتْلِ إلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وَقَالَ قَوْمٌ:لَا يُقْتَلُ أَحَدٌ مِمَّنْ ذَكَرْنَا،وَاحْتَجُّوا بِخَبَرٍ رُوِّينَاهُ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ نَا الْمُغِيرَةُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْمُرَقَّعِ عَنْ جَدِّهِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ لِرَجُلٍ:أَدْرِكْ خَالِدًا وَقُلْ لَهُ:لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا».

وعَنْ عَمِّهِ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:«لَا تَقْتُلُوا الذُّرِّيَّةَ وَلَا عَسِيفًا».

«عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ لَهُمْ:انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ تُقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللَّهِ لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلَا طِفْلًا،وَلَا امْرَأَةً» وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ نَا حُمَيْدٍ عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَوْلًى لِبَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ عَنْ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ إذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ:لَا تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ».

وعَنْ عِكْرِمَةَ " قَالَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ – «لَا تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ».
وَمِنْ طَرِيقِ حَمَّاد بْنِ سَلَمَةَ أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّه بْنُ عُمَرَ قَالَ:«كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْد الْعَزِيزِ إِلَى بَعْضِ أُمَرَائه أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – قَالَ:لَا تَقْتُلُوا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا».
وَعَنْ حَمَّاد بْنِ سَلَمَةَ عَنْ شَيْخٍ بِمِنًى عَنْ أَبِيه «أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – نَهَى عَنْ قَتْلِ الْعُسَفَاء وَالْوُصَفَاء».
وعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ «عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقْتَلَ شَيْخٌ كَبِيرٌ أَوْ يُعْقَرَ شَجَرٌ إِلَّا شَجَرٌ يَضُرُّ بِهِمْ».
وعَنْ رَاشد بْنِ سَعْد «نَهَى النَّبِيُّ – ﷺ – عَنْ قَتْلِ الشَّيْخِ الَّذي لَا حَرَاكَ به».
وَذَكَرُوا عَنْ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ لِأَمِيرٍ لَهُ:لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،إِنَّك سَتَمُرُّ عَلَى قَوْمٍ قَدْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ زَعَمُوا للَّه فَدَعْهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،وَسَتَمُرُّ عَلَى قَوْمٍ قَدْ فَحَصُوا مِنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ وَتَرَكُوا فِيهَا مِنْ شُعُورِهِمْ أَمْثَالَ الْعَصَائِبِ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْف.
وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْد اللَّه قَالَ:كَانُوا لَا يَقْتُلُونَ تُجَّارَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالُوا:إِنَّمَا نَقْتُلُ مَنْ قَاتَلَ – وَهَؤُلَاءِ لَا يُقَاتِلُونَ.هَذَا كُلُّ مَا شَغَبُوا بِه،وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ.
أَمَّا حَدِيثُ الْمُرَقَّعِ فَالْمُرَقَّعُ مَجْهُولٌ.وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَعَنْ شَيْخٍ مَدَنِيٍّ لَمْ يُسَمٍّ،وَقَدْ سَمَّاهُ بَعْضُهُمْ فَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَبِيبَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ.
وَالْخَبَرَانِ الْآخَرَانِ،مُرْسَلَان.وَكَذَلِكَ حَدِيثُ رَاشد مُرْسَلٌ وَلَا حُجَّةَ فِي مُرْسَلٍ.وَأَمَّا حَدِيثُ أَنَسٍ فَعَنْ خَالِد بْنِ الْفِزْرِ وَهُوَ مَجْهُولٌ.وَحَدِيثُ حَمَّاد بْنِ سَلَمَةَ عَنْ شَيْخٍ بِمِنًى عَنْ أَبِيه – وَهَذَا عَجَبٌ جِدًّا وَأَعْجَبُ مِنْهُ أَنْ يُتْرَكَ لَهُ الْقُرْآنُ وَأَمَّا حَدِيثُ قَيْسِ بْنِ الرَّبِيعِ فَلَيْسَ قَيْسٌ بِالْقَوِيِّ،وَلَا عُمَرُ مَوْلَى عَنْبَسَةَ مَعْرُوفًا،وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ لَمْ يُولَدْ إِلَّا بَعْدَ مَوْت جَدِّه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –،فَسَقَطَ كُلُّ مَا مَوَّهُوا بِه.
وَأَمَّا الرِّوَايَةُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَمِنْ عَجَائِبِهِمْ هَذَا الْخَبَرُ نَفْسُهُ:عَنْ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِيه جَاءَ نَهْيُ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ عَقْرِ شَيْءٍ مِنْ الْإِبِلِ،أَوْ الشَّاة إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.

وَفيه جَاءَ:أَنْ لَا يُقْطَعَ الشَّجَرُ وَلَا يُغَرَّقُ النَّحْلُ - فَخَالَفُوهُ كَمَا اشْتَهَوْا حَيْثُ لَا يَحِلُّ خلَافُهُ؛لِأَنَّ السُّنَّةَ مَعَهُ،وَحَيْثُ لَا يُعْرَفُ لَهُ مُخَالِفٌ مِنْ الصَّحَابَةِ.

ثُمَّ احْتَجُّوا بِهِ حَيْثُ خَالَفَهُ غَيْرُهُ مِنْ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -،وَهَذَا عَجَبٌ جِدًّا فِي خَبَرٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا قَوْلُ جَابِرٍ لَمْ يَكُونُوا يَقْتُلُونَ تُجَّارَ الْمُشْرِكِينَ فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ؛لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ:إنَّ تَرْكَهُمْ قَتْلَهُمْ كَانَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ جُمْلَةِ أَمْرِهِمْ.

ثُمَّ لَوْ صَحَّ مُبَيِّنًا عَنْهُ لَمَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ مُتَعَلَّقٌ؛لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ قَتْلِهِمْ،وَإِنَّمَا فِيهِ اخْتِيَارُهُمْ لِتَرْكِهِمْ فَقَطْ.

وَرُوِّينَا عَنْ الْحَسَنِ،وَمُجَاهِدٍ،وَالضَّحَّاكِ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَلَا يَصِحُّ عَنْ مُجَاهِدٍ،وَالضَّحَّاكِ؛لِأَنَّهُ مِنْ طَرِيقِ جُوَيْبِرٍ،وَلَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ وَكَذَلِكَ أَيْضًا هَذَا الْخَبَرُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ لَا يَصِحُّ؛لِأَنَّهُ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،وَعَطَاءٍ،وَثَابِتِ بْنِ الْحَجَّاجِ،وَكُلُّهُمْ لَمْ يُولَدْ إلَّا بَعْدَ مَوْتِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِدَهْرٍ.وَمِنْ طَرِيقٍ فِيهَا الْحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ - وَهُوَ هَالِكٌ - وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نَحْتَجَّ بِخَبَرِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - وَبِخَبَرِ الْحَجَّاجِ مُسْنَدًا «اُقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْقُوا شَرْخَهُمْ» لَكُنَّا أَدْخَلَ مِنْهُمْ فِي الْإِيهَامِ؛وَلَكِنْ يُعِيذُنَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ أَنْ نَحْتَجَّ بِمَا لَا نَرَاهُ صَحِيحًا،وَفِي الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَنِ كِفَايَةٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ:إنَّمَا نُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ،فَبَاطِلٌ؛بَلْ نَقْتُلُ كُلَّ مَنْ يُدْعَى إلَى الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ حَتَّى يُؤْمِنَ أَوْ يُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ إنْ كَانَ كِتَابِيًّا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ لَا كَمَا أَمَرَ أَبُو حَنِيفَةَ إذْ يَقُولُ:إنْ ارْتَدَّتْ الْمَرْأَةُ لَمْ تُقْتَلْ،فَإِنْ قَتَلَتْ قُتِلَتْ،وَإِنْ سَبَّ الْمُشْرِكُونَ أَهْلُ الذِّمَّةِ النَّبِيَّ - ﷺ - تُرِكُوا،وَسَبُّهُمْ لَهُ حَتَّى يُشْفُوا صُدُورَهُمْ وَيَخْزَى الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ.تَبًّا لِهَذَا الْقَوْلِ وَقَائِلِهِ.

وَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ وَكِيعٍ نَا سُفْيَانُ نَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ الْقُرَظِيّ نَا «عَطِيَّةُ الْقُرَظِيّ قَالَ:عُرِضْتُ يَوْمَ قُرَيْظَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ،وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ،فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ».

فَهَذَا عُمُومٌ مِنْ النَّبِيِّ - ﷺ - لَمْ يَسْتَبْقِ مِنْهُمْ عَسِيفًا،وَلَا تَاجِرًا،وَلَا فَلَّاحًا،وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا،وَهَذَا إجْمَاعٌ صَحِيحٌ مِنْهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُتَيَقَّنٌ؛لِأَنَّهُمْ فِي عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَدِينَةِ لَمْ يَخْفَ ذَلِكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا.

وعَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ:أَنْ لَا يَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُوجِ أَحَدًا،اُقْتُلُوهُمْ،وَلَا تَقْتُلُوا مِنْ جَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمُوَاسِي وَلَا تَقْتُلُوا صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى الْأَجْنَادِ:لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَأَنْ يَقْتُلُوا كُلَّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوَاسِي.

فَهَذَا عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمْ يَسْتَثْنِ شَيْخًا،وَلَا رَاهِبًا،وَلَا عَسِيفًا،وَلَا أَحَدًا إلَّا النِّسَاءَ،وَالصِّبْيَانَ فَقَطْ؛وَلَا يَصِحُّ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ خِلَافُهُ - وَقَدْ قُتِلَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ وَهُوَ شَيْخٌ هَرِمٌ قَدْ اهْتَزَّ عَقْلُهُ فَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالُوا:لِأَنَّهُ كَانَ ذَا رَأْيٍ؟ فَقُلْنَا لَهُمْ:وَمَنْ ذَا الَّذِي قَسَّمَ لَكُمْ ذَا الرَّأْيَ مِنْ غَيْرِهِ،فَلَا سَمْعًا لَهُ وَلَا طَاعَةً - وَمِثْلُ هَذِهِ التَّقَاسِيمِ لَا تُؤْخَذُ إلَّا مِنْ الْقُرْآنِ،أَوْ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - وَبِاَللَّهِ - تَعَالَى - نَتَأَيَّدُ.[٢٧٤٠]

قول الباجي في قتل النساء الولدان:

وقال الباجي:" قَوْلُهُ نَهَى الَّذِينَ قَتَلُوا ابْنَ أَبِي الْحَقِيقِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ يُرِيدُ حِينَ أَنْفَذَهُمْ لِقَتْلِهِ فَقَتَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيك وَنَهْيُهُ هَذَا عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ أَصْلٌ فِي الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ وَسَيَرِدُ بَعْدَ هَذَا مُفَسَّرًا وَقَوْلُهُ بَرِحَتْ بِنَا يُرِيدُ أَظْهَرَتْ أَمْرَنَا بِصِيَاحِهَا فَكَانَ يَمْنَعُهُ قَتْلَهَا إذَا رَفَعَ عَلَيْهَا السَّيْفَ مَا يَذْكُرُ مِنْ نَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَوْلَا مَا يَذْكُرُهُ مِنْ ذَلِكَ النَّهْيِ لَقَتَلَهَا فَاسْتَرَاحُوا مِنْهَا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى التَّعَلُّقِ بِالْعُمُومِ لِأَنَّهُ أَجْرَى نَهْيَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى عُمُومِهِ فِي سَائِرِ الْحَالَاتِ وَلَمْ يَقْصُرْهُ عَلَى الْقَصْدِ إلَى ذَلِكَ دُونَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ وَاَلَّذِي يَظْهَرُ مِنْ مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ لَا تُقْتَلُ الْمَرْأَةُ إذَا جَرَى مِنْهَا مِثْلُ هَذَا مِنْ الْإِنْذَارِ بِالصِّيَاحِ.

[٢٧٤٠] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٤٧)(٩٢٦ -٩٢٨)

وَقَدْ قَالَ ابْنُ سَحْنُون:لَا تُقْتَلُ النِّسَاءُ فِي الْحِرَاسَة خلَافًا للْأَوْزَاعِيِّ فِي قَوْلِه يُقْتَلْنَ فِي الْحِرَاسَةِ وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الْحِرَاسَةَ عَلَى الْأَسْوَارِ وَالْحُصُون لَيْسَتْ مِنْ بَاب الْمُدَافَعَة وَهَذَا مِمَّا يُمْكِنُ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ فِعْلُهُ كَالنَّظَرِ وَالْمُرَاعَاة وَلَا يُسْتَبَاحُ قَتْلُ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ وَلَكِنْ يُسْتَبَاحُ قَتْلُهُمْ بِالْقِتَالِ وَالْمُدَافَعَة الَّتِي يَنْفَردُ بِهَا الرِّجَالُ غَالبًا.

(ص):(مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – رَأَى فِي بَعْضِ مَغَازِيه امْرَأَةً مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاء وَالصِّبْيَان»).

(ش):قَوْلُهُ رَأَى فِي بَعْضِ مَغَازِيه امْرَأَةً مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ ذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ – ﷺ – عَلِمَ مِنْ حَالِ تِلْكَ الْمَرْأَة أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلْ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَمَلَ أَمْرَهَا عَلَى الْمَعْهُود مِنْ حَالِ النِّسَاءِ فِي بُعْدِهِنَّ عَنْ الْقِتَالِ وَالْمَنَعَة.وَقَدْ رَوَى رَبَاحُ بْنُ رَبِيعٍ قَالَ:«كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه – ﷺ – فِي غَزْوَة فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ:اُنْظُرْ عَلَى مَا اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ فَجَاءَ فَقَالَ:امْرَأَةٌ مَقْتُولَةٌ فَقَالَ:مَا كَانَتْ هَذه لتُقَاتِلَ قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَة خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ لخَالد:لَا تَقْتُلْ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا» فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمَنْعَ مِنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَان لِأَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ وَفِيهِنَّ مَعْنًى آخَرُ أَنَّهُنَّ مِنْ الْأُمُور الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيُنْتَفَعُ بِهَا دُونَ مَخَافَة مِنْهُنَّ فَأَمَّا إنْ قَاتَلُوا فَإِنَّهُنَّ يُقْتَلْنَ لِأَنَّ الْعِلَّةَ الَّتِي مَنَعَتْ مِنْ قَتْلِهِنَّ عَدَمُ الْقِتَالِ مِنْهُنَّ فَإِذَا وُجِدَ مِنْهُنَّ وُجِدَتْ عِلَّةُ إبَاحَة قَتْلِهِنَّ لِأَنَّ الْحَاجَةَ دَاعِيَةٌ إلَى دَفْعِ مَضَرَّتِهِنَّ وَإِزَالَة مَنْعِهِنَّ الْمَوْجُود فِي الرِّجَال.

وَهَذَا إذَا قَاتَلْنَ بِالسِّلَاحِ وَالرُّمْحِ وَشِبْهِه وَأَمَّا الرَّمْيُ بِالْحِجَارَة فَهَلْ يُبِيحُ قَتْلَهُنَّ أَمْ لَا؟.

قَالَ ابْنُ حَبِيب:لَا يُسْتَبَاحُ بِذَلِكَ قَتْلُهُنَّ وَرَوَاهُ ابْنُ ابْنِ نَافِعٍ عَنْ مَالِك وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ مَضَرَّةَ هَؤُلَاءِ ضَعِيفَةٌ وَغَنَاهُنَّ عَنْ قَوْمِهِنَّ قَلِيلٌ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إلَى قَتْلِهِنَّ وَمَنْعِ الِانْتِفَاعِ بِهِنَّ وَقَالَ سَحْنُونٌ:يَرْمِيهِنَّ الْمُسْلِمُونَ بِالْحِجَارَة وَإِنْ قُتِلْنَ فِي ذَلِكَ وَوَجْهُ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِه فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى:٤١].

(فَرْعٌ) فَإِذَا قُلْنَا:تَجِبُ مُقَاتَلُهُنَّ وَلَمْ يُسْتَطَعْ عَلَيْهِنَّ إلَّا بَعْدَ أَسْرِهِنَّ فَهَلْ يُقْتَلْنَ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ فَرَوَى يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ أَنَّهُنَّ يُقْتَلْنَ وَفِي كِتَاب ابْنِ سَحْنُونٍ لَا يُقْتَلْنَ بَعْدَ الْأَسْرِ وَجْهُ الرِّوَايَة الْأُولَى أَنَّهُنَّ بِالْقِتَال قَدْ اسْتَحْقَقْنَ الْقَتْلَ وَلَا

يَسْقُطُ ذَلِكَ عَنْهُنَّ بِالْأَسْرِ كَمَا لَوْ قَتَلْنَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَوَجْهُ الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّهُنَّ مِمَّنْ يُقَرُّ عَلَى غَيْرِ جِزْيَةٍ فَلَمْ يَجُزْ قَتْلُهُنَّ بِالْأَسْرِ كَمَا لَمْ يُقَاتَلْنَ.[٢٧٤١]

[مَنْ يُكْرَهُ قَتْلُهُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ مِنْ النِّسَاءِ وَغَيْرِهِمْ]

وفي شرح السير:"قَالَ:لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ النِّسَاءُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَلَا الصِّبْيَانُ وَلَا الْمَجَانِينُ وَلَا الشَّيْخُ الْفَانِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة:١٩٠] وَهَؤُلَاءِ لَا يُقَاتِلُونَ،«وَحِينَ اسْتَعْظَمَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،قَتْلَ النِّسَاءِ أَشَارَ إلَى هَذَا بِقَوْلِهِ:هَاهْ،مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ،أَدْرِكْ خَالِدًا وَقُلْ لَهُ،لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا» وَلِأَنَّ الْكُفْرَ،وَإِنْ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْجِنَايَاتِ فَهُوَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ،جَلَّ وَعَلَا،وَجَزَاءُ مِثْلِ هَذِهِ الْجِنَايَةِ يُؤَخَّرُ إلَى دَارِ الْجَزَاءِ،فَأَمَّا مَا عُجِّلَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مَشْرُوعٌ لِمَنْفَعَةٍ تَعُودُ إلَى الْعِبَادِ،وَذَلِكَ دَفْعُ فِتْنَةِ الْقِتَالِ،وَيَنْعَدِمُ ذَلِكَ فِي حَقِّ مَنْ لَا يُقَاتِلُ،بَلْ مَنْفَعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي إبْقَائِهِمْ لِيَكُونُوا أَرِقَّاءَ لِلْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ قَاتَلَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فَلَا بَأْسَ بِقَتْلِهِ؛لِأَنَّهُمْ بَاشَرُوا السَّبَبَ الَّذِي بِهِ وَجَبَ قِتَالُهُمْ،وَإِذَا كَانَ يُبَاحُ قَتْلُ مَنْ لَهُ بِنْيَةٌ صَالِحَةٌ لِلْمُحَارَبَةِ يُتَوَهَّمُ الْقِتَالُ مِنْهُ،فَلَأَنْ يُبَاحَ قَتْلُ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ حَقِيقَةُ الْقِتَالِ كَانَ أَوْلَى.

وَإِنْ قَتَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنْسَانًا ثُمَّ أَخَذَهُ الْمُسْلِمُونَ فَأَمَّا الصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْتُلُوهُ.

لِأَنَّ قَتْلَهُ إنَّمَا أُبِيحَ لِدَفْعِ قِتَالِهِ،وَقَدْ انْدَفَعَ حِينَ وَقَعَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ.وَهَذَا؛لِأَنَّهُ مَا كَانَ مُخَاطَبًا فَلَا يَكُونُ فِعْلُهُ جِنَايَةً يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْعُقُوبَةَ جَزَاءً عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ،فَإِنَّهَا إذَا صَالَتْ عَلَى إنْسَانٍ يُبَاحُ قَتْلُهَا دَفْعًا،ثُمَّ إذَا أَخَذَتْ وَانْدَفَعَ قَصْدُهَا لَمْ يَحِلَّ قَتْلُهَا.

– وَأَمَّا الْمَرْأَةُ وَالشَّيْخُ الْفَانِي فَلَا بَأْسَ بِقَتْلِهِمَا بَعْدَ مَا أَخَذَا؛لِأَنَّهُمَا مُخَاطَبَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَوْجِبَ الْعُقُوبَةَ جَزَاءً عَلَى فِعْلِهِمَا.وَقَدْ تَحَقَّقَ الْفِعْلُ الْمُوجِبُ لِعُقُوبَةِ الْقَتْلِ مِنْهُمَا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُمَا يُقْتَلَانِ قِصَاصًا؟ فَكَذَلِكَ يُقْتَلَانِ جَزَاءً عَلَى فِعْلِهِمَا.

[٢٧٤١] – المنتقى شرح الموطإ (٣/ ١٦٦)

– وَمَنْ قَتَلَ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ قَبْلَ وُجُودِ الْقِتَالِ مِنْهُ فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ وَلَا دِيَةَ.لِأَنَّ وُجُوبَهُمَا بِاعْتِبَارِ الْعِصْمَةِ وَالتَّقَوُّمِ فِي الْمَحَلِّ،وَذَلِكَ بِالدِّينِ أَوْ بِالدَّارِ،وَلَمْ يُوجَدْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا،وَإِنَّمَا حَرُمَ قَتْلُهُمْ لِتَوْفِيرِ الْمَنْفَعَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،أَوْ لِانْعِدَامِ الْعِلَّةِ الْمُوجِبَةِ لِلْقَتْلِ،وَهِيَ الْمُحَارَبَةُ،لَا لِوُجُودِ عَاصِمٍ أَوْ مُقَوِّمٍ فِي نَفْسِهِ،فَلِهَذَا لَا يَجِبُ عَلَى الْقَاتِلِ الْكَفَّارَةُ وَالدِّيَةُ،وَإِلَى هَذَا أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – فِي حَدِيثٍ بِقَوْلِهِ:«هُمْ مِنْهُمْ» يَعْنِي أَنَّ ذَرَارِيَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ،فِي أَنَّهُ لَا عِصْمَةَ لَهُمْ وَلَا قِيمَةَ لِذِمَّتِهِمْ.قَالَ:«وَالْعَسِيفُ الَّذِي نَهَى رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،عَنْ قَتْلِهِ الْأَجِيرُ»،وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْحَرَّاثِ،يَعْنِي مَنْ لَا يَكُونُ مِنْ هِمَّتِهِ الْقِتَالُ وَإِنَّمَا هِمَّتُهُ مِنْ الْقِتَالِ اكْتِسَابُ الْمَالِ فَقَطْ،بِإِجَارَةِ النَّفْسِ بِخِدْمَةِ الْغَيْرِ،أَوْ الِاشْتِغَالِ بِالْحِرَاثَةِ،فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ لِانْعِدَامِ الْقِتَالِ مِنْهُ،وَالَّذِي رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:اُقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُمْ»،فَالْمُرَادُ بِالشُّيُوخِ الْبَالِغُونَ وَبِالشَّرْخِ الصِّبْيَانُ،وَالْمُرَادُ بِالِاسْتِحْيَاءِ الِاسْتِرْقَاقُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [البقرة:٤٩] فَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَانِي الَّذِي لَا يَكُونُ مِنْهُ الْقِتَالُ،وَلَا يُعِينُ الْمُقَاتِلِينَ بِالرَّأْيِ،وَلَا يُرْجَى لَهُ نَسْلٌ فَإِنَّهُ لَا يُقْتَلُ،وَبَيَانُهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا – «أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،نَهَى أَنْ يَقْتُلَ الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ فَإِنْ أَعَانَتْ الْمَرْأَةُ الْمُقَاتِلِينَ فَلَا بَأْسَ بِقَتْلِهَا.هَكَذَا نُقِلَ عَنْ الْحَسَنِ،وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ،قَالَ:مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فَأَنْكَرَ قَتْلَهَا،وَقَالَ:مَنْ قَتَلَهَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْدَفْتُهَا خَلْفِي فَأَرَادَتْ قَتْلِي فَقَتَلْتُهَا،فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – ،فَدُفِنَتْ».

– وَكَذَلِكَ إنْ كَانَتْ تُعْلِنُ شَتْمَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،فَلَا بَأْسَ بِقَتْلِهَا،لِحَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ:«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – وَقَالَ:إِنِّي سَمِعْت امْرَأَةً مِنْ يَهُودَ وَهِيَ تَشْتُمُك،وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا لَمُحْسِنَةٌ إِلَيَّ فَقَتَلْتُهَا فَأَهْدَرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،دَمَهَا».وَاسْتَدَلَّ

«بحَديث عُمَيْر بْنِ عَديٍّ فَإِنَّهُ لَمَّا سَمعَ عَصْمَاءَ بنْتَ مَرْوَانَ تُؤْذي النَّبيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – وَتَعيبُ الْإِسْلَامَ،وَتُحَرِّضُ عَلَى قتَالِ رَسُولِ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – وَتَذْكُرُ في ذَلكَ شعْرًا،وَهُوَ هَذَا:

باسْت بَني مَالك وَالنَّبيت...وَعَوْف وَباسْت بَني الْخَزْرَجِ

أَطَعْتُمْ أَتَاوَى منْ غَيْركُمْ...فَلَا منْ مُرَادٍ وَلَا مَذْحجِ

تَرْجُونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرُّءُوسِ...كَمَا يُرْتَجَى مَرَقُ الْمُنْضَجِ

أَلَا أَنفٌ يَبْتَغي عزَّةً...فَيَقْطَعُ منْ أَمَلِ الْمُرْتَجي

– وَذَلكَ بَعْدَ مَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – إِلَى بَدْرٍ قَالَ:اللَّهُمَّ إنَّ لَك عَلَيَّ نَذْرًا إنْ رَدَدْت رَسُولَ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –،إلَى الْمَدينَة لَأَقْتُلَنَّهَا...الْحَديثَ إلَى أَنْ قَتَلَهَا لَيْلًا ثُمَّ أَصْبَحَ وَصَلَّى الصُّبْحَ مَعَ رَسُولِ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْه قَالَ:أَقَتَلْتَ ابْنَةَ مَرْوَانَ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَهَلْ عَلَيَّ في ذَلكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –:لَا يَنْتَطحُ فيهَا عَنْزَان ثُمَّ،الْتَفَتَ إلَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ:إذَا أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَنْظُرُوا إلَى رَجُلٍ نَصَرَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَانْظُرُوا إلَى عُمَيْر.فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب – رَضيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ –:اُنْظُرُوا إلَى هَذَا الْأَعْمَى الَّذي أَسْرَى في طَاعَة اللَّه تَعَالَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –:لَا تَقُلْ الْأَعْمَى،وَلَكنَّهُ الْبَصيرُ» الْحَديثَ.

وَاسْتَدَلَّ بحَديث «زَيْد بْنِ حَارِثَةَ حينَ قَتَلَ أُمَّ قرْفَةَ،وَهيَ كَانَتْ ممَّنْ تُحَرِّضُ عَلَى قتَالِ رَسُولِ اللَّه – ﷺ – عَلَى مَا رُويَ أَنَّهَا جَهَّزَتْ ثَلَاثينَ رَاكبًا منْ وَلَدهَا،ثُمَّ قَالَتْ:سيرُوا حَتَّى تَدْخُلُوا الْمَدينَةَ فَتَقْتُلُوا مُحَمَّدًا،فَبَلَغَ ذَلكَ رَسُولَ اللَّه،– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –،فَقَالَ:اللَّهُمَّ أَذقْهَا ثُكْلَهُمْ،فَقَتَلَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَبَعَثَ بدرْعهَا إلَى النَّبيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –،فَنُصبَ بَيْنَ رُمْحَيْنِ بالْمَدينَة».

وَرُويَ أَنَّهُ قَتَلَهَا قَيْسُ بْنُ الْمُسَحَّر أَسْوَأَ قتْلَة عَلَّقَ في رجْلَيْهَا حَبْلَيْنِ ثُمَّ رَبَطَهَا ببَعيرَيْنِ فَأَرْسَلَهُمَا فَشَقَّاهَا شَقًّا حَتَّى تَقُولَ الْعَرَبُ عَلَى سَبيلِ الْمَثَلِ في ذَلكَ:لَوْ كُنْت أَعَزَّ منْ أُمِّ قرْفَةَ.

«وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –،يَوْمَ الْفَتْح بقَتْلِ هنْد بنْت عُتْبَـةَ لمَـا كَانَتْ تَفْعَلُ منْ التَّحْريضِ عَلَى قتَال الْمُسْلمينَ،حَتَّى أَسْلَمَتْ،وَاسْتَثْنَى ممَّنْ آمَنَهُمْ يَـوْمَ فَتْح مَكَّةَ قَيْسًا وَابْنَ خَطَلٍ وَأَمَرَ بقَتْلهمَا».لأَنَّهُمَا كَانَا يُغَنِّيَان بهجَاء رَسُول اللَّه – صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –.– «وَأَمَرَ يَوْمَ بَني قُرَيْظَةَ بقَتْلِ كَالسَّلْحَم؛لأَنَّهَا كَانَتْ قَتَلَتْ خَلَّادَ بْنَ سُوَيْد أَمَرَهَا بذَلكَ زَوْجُهَا حَتَّى لَا يَتْرُكَ بَعْدَهُ عَلَى مَا رُويَ أَنَّ عَائشَةَ – رَضيَ اللَّـهُ تَعَالَى عَنْهَا – قَالَتْ:دَخَلَتْ عَلَيَّ بُنَانَةُ تَسْـأَلُني شَـيْئًا،وَهيَ تَضْـحَكُ ظَهْـرًا لـبَطْنٍ وَتَقُولُ:يُقْتَلُ سَرَاةُ بَني قُرَيْظَةَ إلَى أَنْ نَوَّهَ إنْسَانٌ باسْـمهَا،فَقَالَتْ:أَنَا،وَاَللَّـه أُقْتَـلُ،وَهيَ تَضْحَكُ،فَقَالَتْ عَائشَةُ – رَضيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا –:وَيْحك إنَّ رَسُولَ اللَّه – صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – لَا يَقْتُلُ النِّسَاءَ،قَالَتْ:نَعَمْ وَإنَّمَا قَتَلْت زَوْجي حينَ أَمَرَنـي فَـدَلَّيْت الرَّحَى عَلَى خَلَّاد بْنِ سُوَيْد فَقَتَلْته،ثُمَّ أُخْرجَتْ فَقُتلَتْ»

وَعَنْ سَعيد بْنِ الْمُسَيِّب قَالَ:«لَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآلـه وَسَـلَّمَ – ،بخَيْبَرَ أَهْدَتْ إلَيْه زَيْنَبُ بنْتُ أَخِ مَرْحَب شَاةً مَصْليَّةً فَأَكَلَ منْهَا رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – وَأَخَذَ الذِّرَاعَ وَقَالَ:إنَّ هَذه الذِّرَاعَ لَتُخْبرُني أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ ثُمَّ دَعَـا زَيْنَبَ وَقَالَ:مَا حَمَلَك عَلَى مَا صَنَعْت؟ فَقَالَتْ:نلْت منْ قَوْمي مَا نلْت،قَتَلْت أَبي وَعَمِّي وَزَوْجي فَقُلْت إنْ كَانَ نَبيًّا فَسَتُخْبرُهُ الشَّاةُ بمَا صَنَعْت،وَإنْ كَانَ مَلكًا اسْـتَرَحْنَا منْـهُ فَمَاتَ بشْرُ بْنُ الْبَرَاء ممَّا أَكَلَ مَعَ رَسُول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ – وَعَفَا عَنْهَا رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –».

أَهْلُ الْمَغَازي يَخْتَلفُونَ فيه،فَذَكَرَ الْوَاقديُّ في بَعْضِ الرِّوَايَات أَنَّ النَّبيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ –،قَتَلَهَا،وَأَظْهَرُ الرِّوَايَات أَنَّهُ عَفَا عَنْهَا،كَمَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ – رَحمَـهُ اللَّـهُ – وَإنَّمَا فَعَلَ ذَلكَ؛لأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ الصُّلْحِ،وَبَعْدَ مَا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـه وَآله وَسَلَّمَ –،بخَيْبَرَ،فَلَمْ يَكُنْ ذَلكَ منْهَا نَقْضًا للْعَهْد وَلَا مُحَارَبَةً مَعَ الْمُسْـلمينَ.فَـإنْ قيلَ:فَلمَاذَا لَمْ يَقْتُلْهَا قصَاصًا ببشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَرَى وُجُوبَ الْقصَاصِ بالْقَتْـلِ بالسُّمِّ؟

قُلْنَا:لِأَنَّ مَنْ يُوجِبُ الْقِصَاصَ أَوْ الدِّيَةَ فِي ذَلِكَ إنَّمَا يُوجِبُهُ عِنْدَ الاتِّحَادِ،فَإِذَا تَنَاوَلَهُ بِنَفْسِهِ فَلَيْسَ عَلَى مَنْ نَاوَلَهُ دِيَةُ وَلَا قِصَاصٌ،وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ أَكَلَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ،فَلِهَذَا لَمْ يُوجِبْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –،قِصَاصًا وَلَا دِيَةً،وَاَللَّهُ أَعْلَمُ."[٢٧٤٢]

المبحث الخامس

حكم قتل الأطفال والنساء في العمليات الاستشهادية

فضيلة الشيخ سليمان بن ناصر العلوان حفظه الله.السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يقوم بعض الاخوة الفلسطينيين بعمليات فدائية ضد اليهود ويكون في اليهود الكبير والصغير والجندي والمدني والرجال والنساء فهل في قتلهم بأس ؟ لأننا سمعنا عن بعض المفتين يقول بحرمة قتل نساء اليهود ومدنييهم بدعوى أنهم ليسوا من المقاتلين،فما تقولون بارك الله فيكم ؟

الجواب:بسم الله الرحمن الرحيم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته العمليات الفدائية القائمة في فلسطين ضد اليهود المغتصبين وفي الشيشان ضد النصارى المعتدين عمليات استشهادية وأساليب قتالية شرعية.وقد أذهلت الأعداء وأثبتت كبير فعّاليتها وأذاقت الغاصب مرارة جرمه وسوء فعلته حتى أصبح الكفار يخافون من كل شيء وينتظرون الموت من كل مكان.وقد ذكرت بعض الصحف عن المجرم "شارون" أنه يطالب بإيقاف هذه العمليات.فقد أصبحت هذه العمليات ويلاً وثبوراً على الإسرائيليين الذين يغتصبون الديار وينتهكون الأعراض ويسفكون الدماء ويقتلون الأبرياء.قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠].

[٢٧٤٢] – شرح السير الكبير (ص:١٤١٥)

والقوة تتمثل في كل شيء يغيظ الكفار ويزرع الرعب في قلوبهم.عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِــيَّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[٢٧٤٣].

والآن حان الوقت الذي تضاعف فيه الجهود للقيام بمثل هذه العمليات الاستشهادية.فقد قل المعين وتخلت الحكومات عن المناصرة وصار الحديث عن الجهاد وقتال الكفار جريمة عالمية.فلم يبق من سبل المقاومة إلا القيام بالعمليات الاستشهادية فهي أقل أنواع الجهاد خسائر وأكثرها نكاية بالعدو.وهي سبب في رحيل جماعات من اليهود عــن أراضــي المسلمين في فلسطين،وسبب في تقليل نسبة الهجرة إلى الأراضي المقدسة.والمقتول في هذه العمليات مقتول من أجل الذب عن دينه وحماية نفسه وعرضه.عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْــرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٢٧٤٤].

والمقتول في سبيل الله ونصرة الدين والمسلمين وقصد النكاية باليهود المغتصبين وزعزعة أمنهم وإضعاف شوكتهم وتبديد قوتهم أعظم شهادة وأكثر ثواباً وأجراً من المقتول دون ماله وقد جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:«مَــا تَعُــدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَــهِيدٌ،قَالَ:«إِنَّ شُــهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ»،قَالُوا:فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:«مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي الْــبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ»،قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ:أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّــهُ قَــالَ:«وَالْغَرِيــقُ شَهِيدٌ».[٢٧٤٥]

وأرى من الضروري التأكيد على مهمات المسائل حين القيام بمثــل هــذه العمليــات الجهادية:

الأولى:الإخلاص لله تعالى دون التفات القلب إلى المخلوقين ومدحهم.

[٢٧٤٣] - سنن أبي داود (٣/ ١٠)(٢٥٠٤) صحيح

[٢٧٤٤] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)(٢٤٨٠) وصحيح مسلم (١/ ١٢٤)٢٢٦ - (١٤١)

[ش (دون ماله) مدافعا من يريد أخذ ماله ظلما.(شهيد) له أجر الشهيد عند الله تعالى ولكنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ولا يعامل معاملة الشهيد من هذه الناحية]

[٢٧٤٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢١)١٦٥ - (١٩١٥)

الثانية:أن يكون القصد من هذه العمليات الجهادية هو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه والنكاية بالعدو وزرع الرهبة في نفوسهم وتفريق شملهم وطردهم من الأرض المقدسة.فقد جاء في البخاري ومسلم عَنْ عَمْرٍو،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ:الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ،وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ:«مَنْ قَاتَلَ،لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٢٧٤٦].

الثالثة:مراعاة المصلحة في ذلك فروح المؤمن ثمينة فلا تبذل إلا لشيء ثمين.

الرابعة:الابتعاد عن قتل الصبيان الصغار الذين لا يقاتلون ولا يحملون سلاحاً.

الخامسة:لا مانع من قتل الصبيان تبعاً لا قصداً كأن يختلطوا بالمحاربين وكل من في فلسطين من اليهود محاربون مغتصبون فإذا لم يتمكن المجاهدون من قتل المحاربين إلا بقتل الصبيان فلا حرج حينئذ في قتلهم وقد جاء في صحيح مسلم عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؟ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ "،فَقَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[٢٧٤٧].

وهذا دليل على جواز قتل النساء والصبيان إذا اختلطوا بغيرهم فلم يتميز الرجل عن المرأة والكبير عن الصغير.

[٢٧٤٦] - صحيح البخاري (٤/ ٨٦)(٣١٢٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٢)١٤٩ - (١٩٠٤)

[ش (مكانه) أي مكانته ومرتبته وقدرته على القتال أو شجاعته(فمن في سبيل الله) أي فقتال من في سبيل الله على حذف المضاف أو فمن المقاتل فيه]

[٢٧٤٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٦ - (١٧٤٥)

[ش (الذراري) بتشديد الياء وتخفيفها لغتان التشديد أفصح وأشهر والمراد بالذراري هنا النساء والصبيان (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الذراري من المشركين) هكذا هو في أكثرنسخ بلادنا سئل عن الذراري وفي رواية عن أهل الدار من المشركين ونقل القاضي هذه عن رواية جمهور رواة صحيح مسلم قال وهي الصواب وأما الرواية الأولى فقال ليست بشيء بل هي تصحيف قال وما بعده يبين الغلط فيه قلت (أي الإمام النووي) وليست باطلة كما ادعى القاضي بل لها وجه وتقديره سئل عن حكم صبيان المشركين الذين يبيتون فيصاب من نسائهم وصبيانهم بالقتل فقال هم من آبائهم أي لا بأس بذلك لأن أحكام آبائهم جارية عليهم في الميراث وفي النكاح وفي القصاص والديات وغير ذلك والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة(يبيتون) معنى يبيتون أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي ومنه البيات]

السادسة:الإسلام دين العدل وحفظ الحقوق والوفاء بالعقود وقـد أعطـى الإنسـانية حقها،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،«فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[٢٧٤٨]

واتفق أهل العلم على منع القصد إلى قتل النساء ما لم يقاتلن فإذا حاربن أو شـاركن في القتال جاز قصدهنّ بالقتل.وهذا شأن النساء الإسرائيليات فهن عسكريات متـدربات على القتال ومستعدات حين الحاجة إليهن لقتال المسلمين،وأعداد كبيرة منـهن يحملـن السلاح ويحرضن على القتـال ومـن أهـل الممانعـة والمقاتلـة والجهـاد في المـال والمشورة،والمشاركة في الاغتصاب وسلب حقوق المسلمين وهذه الأمور أو بعضها تبيح قصدهن بالقتل.قال الإمام البغوي رحمه الله:" وَالْعَمَل على هَذَا عِنْد أهْل الْعِلْمِ أنّهُ لَا يُقتل نسَاء أهل الْحَرْب،وصبيانهم،إِلَّا أَن يُقاتلوا فيُدفعوا بِالْقَتْلِ."[٢٧٤٩]

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله:" وَلِلْمَرْأَة آثَارٌ عَظِيمَةٌ فِـي الْقِتَالِ،مِنْهَـا الْإِمْـدَادُ بالأموال،ومنها التحريض عَلَى الْقِتَالِ،وَقَدْ يَخْرُجْنَ نَاشِرَاتٍ شُعُورهِنَّ نَادِبَاتٍ مُـثِيرَاتٍ مُعَيِّرَاتٍ بِالْفِرَارِ وَذَلِكَ يُبِيحُ قَتْلَهُنَّ،غَيْرَ أَنَّهُنَّ إِذَا حَصَلْنَ فِي الْأَسْرِ فَالِاسْتِرْقَاقُ أَنْفَعُ لِسُرْعَةِ إِسْلَامِهِنَّ وَرُجُوعِهِنَّ عَنْ أَدْيَانِهِنَّ،وَتَعَذُّرِ فِرَارِهِنَّ إِلَى أَوْطَانِهِنَّ بِخِلَافِ الرِّجَالِ."[٢٧٥٠]

وقال النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم ":أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَتَحْرِيمِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنْ قَاتَلُوا قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ يُقْتَلُونَ وَأَمَّـا شُيُوخُ الْكُفَّارِ فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ رَأْيٌ قُتِلُوا وَإِلَّا فَفِيهِمْ وَفِي الرُّهْبَانِ خِلَافٌ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُـو حَنِيفَةَ لَا يُقْتَلُونَ وَالْأَصَحُّ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ قتلهم)".[٢٧٥١]

[٢٧٤٨] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٤)٢٥ - (١٧٤٤)

[٢٧٤٩] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٤٧)

[٢٧٥٠] - تفسير القرطبي (٢/ ٣٤٨)

[٢٧٥١] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٨)

وقال الإمام ابن قدامة رحمه الله:" وَكَذَلِكَ يَجُوزُ رَمْيُهَا إذَا كَانَتْ تَلْتَقِطُ لَهُمْ السِّهَامَ،أَوْ تَسْقِيهِمْ،أَوَتُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ؛لِأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْمُقَاتِلِ.وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِي الصَّبِيِّ وَالشَّيْخِ وَسَائِرِ مَنْ مُنِعَ مِنْ قَتْلِهِ مِنْهُمْ.."[٢٧٥٢]

وقد جاء في سنن أبي داود عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا،فَقَالَ:«انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» فَجَاءَ فَقَالَ:عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ.فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ» قَالَ:وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا.فَقَالَ:«قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا»[٢٧٥٣].

وظاهر هذا الحديث أن سبب عصمة دم المرأة كونها لا تقاتل ومفهومه أنها إذا قاتلت جاز قتلها وهذا أمر لا ينبغي أن يختلف فيه.وقد ثبت في واقعنا الحاضر أن المرأة الإسرائيلية مقاتلة وتتدرب على السلاح كالرجال.فلا حرج حينئذٍ في قصدها بالقتل فقد جمعت عدة مناطات تبيح دمها.الأول:الحرابة.الثاني:المقاتلة والمشاركة في الاغتصاب والعدوان.الثالث:الإفساد فهي إن لم تقاتل فقد أجهدت نفسها في تهييج شهوات الشباب.وقد ذكر ابن قدامة رحمه الله في المغني" وَلَوْ وَقَفَتْ امْرَأَةٌ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ أَوْ عَلَى حِصْنِهِمْ،فَشَتَمَتْ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ تَكَشَّفَتْ لَهُمْ،جَازَ رَمْيُهَا قَصْدًا؛ فعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ أَشْرَفَت امْرَأَةٌ فَكَشَفَتْ قُبُلَهَا،فَقَالَتْ:هَا دُونَكُمْ فَارْمُوا،فَرَمَاهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَمَا أَخْطَأَ ذَلِكَ مِنْهَا،وَفِي حَدِيثِ وُهَيْبٍ فَمَا أَخْطَأَهَا أَنْ قَتَلُوهَا،فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُوَارَى." [٢٧٥٤].

وَيَجُوزُ النَّظَرُ إلَى فَرْجِهَا لِلْحَاجَةِ إلَى رَمْيِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ ضَرُورَةِ رَمْيِهَا.وَكَذَلِكَ يَجُوزُ رَمْيُهَا إذَا كَانَتْ تَلْتَقِطُ لَهُمْ السِّهَامَ،أَوْ تَسْقِيهِمْ،أَوَتُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ؛ لِأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْمُقَاتِلِ.وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِي الصَّبِيِّ وَالشَّيْخِ وَسَائِرِ مَنْ مُنِعَ مِنْ قَتْلِهِ مِنْهُمْ."[٢٧٥٥]

[٢٧٥٢] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٨٨)

[٢٧٥٣] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٩) صحيح

[٢٧٥٤] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٠)(١٨١٠٦) والمراسيل لأبي داود (ص: ٢٤٧) (٣٣٤) وسنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٦١) (٢٨٦٥) صحيح مرسل

[٢٧٥٥] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٨٨) والمفصل في فقه الجهاد - ط٢ (ص: ١٥٦٨)

السابعة:لا حرج في تدمير مباني اليهود ومنشآقم لتتهاوى على جماجمهم المجرمة فهم حربيون ومغتصبون.فالحرابة:تبيح دماءهم.والاغتصاب:يجيز تحطيم مبانيهم ليكون هذا سبباً لرحيلهم فليس لعرق ظالم حق.فقد اتفقت الملل كلها والشرائع على حفظ الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال.وجاء في مواثيق هيئة الأمم ضرورة حفظ الحقوق والأموال وتحريم الاغتصاب ومنع أعمال العدوان.وهذا كله غير محترم في استراتيجية إسرائيل و لم يحصل إدانتها في هذا النظام القائم على الهوى والطغيان فقد قامت دولة إسرائيل على أنقاض فلسطين ولا يرون حرجاً من استئصال رجالات المسلمين وقتل أطفالهم وهتك حرماقم.ونحن لا نرى حرجاً بعد هذا العدوان الكبير من الفتوى بتأييد العمليات الفدائية وقتل الحربيين ذكوراً وإناثاً وتدمير ما يمكن تدميره من المباني والمصانع قال تعالى:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } [البقرة:١٩١][٢٧٥٦]

المبحث السادس

حكم جهاد المرأة

عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ،قَالَتْ:«كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَنَسْقِي القَوْمَ،وَنَخْدُمُهُمْ،وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ»[٢٧٥٧]

قَالَ الإمامُ:فِي الْحدِيث دلِيل على جَوَاز الْخُرُوج بِالنسَاء فِي الْغَزْو لنَوْع من الرِّفْق والخدمة،فإِن خَافَ عَلَيْهِنَّ كَثْرَة الْعَدو وقوهم،أوْ خَافَ فتنتهُن لجمالِهن،وحداثة أسنانِهن،فَلَا يخرجُ بِهن،وقدْ رُوِي عن النّبِيِّ ﷺ،«أَن نسْوةً خرجْن معهُ فَأمر بردِّهِن».فيُشبه أَن يكود ردُّهُ إياهُن لأحد هذَيْن الْمَعْنيين.[٢٧٥٨]

[٢٧٥٦] - قاله؛ سليمان بن ناصر العلوان٢٤ / ٢ / ١٤٢٢ هـ

[٢٧٥٧] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٣)

[٢٧٥٨] - شرح السنة للبغوي (١١/ ١٣)

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ،وَنِسْوَةٍ مَعَهَا مِنَ الْأَنْصَارِ يَسْقِينَ الْمَاءَ،وَيُدَاوِينَ الْجِرَاحَاتِ"

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ أَزْوَاجَ،رَسُولِ اللهِ ﷺ كُنَّ يَوْمَ أُحُدٍ يُدْلِجْنَ بِالْقِرَبِ عَلَى ظُهُورِهِنَّ بَادِيَةً خِدَامُهُنَّ يَسْقِينَ النَّاسَ"

وعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ،قَالَتْ:كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَنَسْقِي الْمَاءَ،وَنَخْدُمُهُمْ،وَنَرُدُّ الْجَرْحَى،وَالْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ"

وعن أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ،قَالَتْ:وَقَدْ غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزَوَاتٍ كُنَّا نَقُومُ عَلَى الْكَلْمِ،وَنُدَاوِي الْجَرْحَى"[٢٧٥٩]

قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذِهِ الْمُدَاوَاةُ لِمَحَارِمِهِنَّ وَأَزْوَاجِهِنَّ وَمَا كَانَ مِنْهَا لِغَيْرِهِمْ لَا يَكُونُ فِيهِ مَسُّ بَشَرَةٍ إِلَّا مَوْضِعَ الْحَاجَةِ.وَقَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:الْأَوْلَى فِي إِخْرَاجِ النِّسَاءِ الْعَجَائِزِ لِلْمُدَاوَاةِ وَالسَّقْيِ،وَلَوِ احْتِيجَ إِلَى الْمُبَاضَعَةِ فَالْأَوْلَى إِخْرَاجُ الْإِمَاءِ دُونَ الْحَرَائِرِ،وَلَا يُبَاشِرْنَ الْقِتَالَ ؛ لِأَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ،وَقَدْ قَاتَلَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ يَوْمَ حُنَيْنٍ،وَأَقَرَّهَا النَّبِيُّ - ﷺ - حَيْثُ قَالَ:لَمُقَامُهَا خَيْرٌ مِنْ مُقَامِ فُلَانٍ يَعْنِي بَعْضَ الْمُنْهَزِمِينَ."[٢٧٦٠]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مَعَهُ إِذَا غَزَا،فَيَسْقِينَ الْمَاءَ،وَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى»[٢٧٦١]

وقال ابن المنذر:"ذِكْرُ إِبَاحَةِ قِتَالِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمُشْرِكِينَ،وَدَفْعِهِنَّ إِيَّاهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ،عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ هَوَازِنَ جَاءَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالنِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ،وَذَكَرَ بَعْضَ الْحَدِيثِ،قَالَ:وَلَقِيَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ،وَمَعَهَا خِنْجَرٌ،فَقَالَ:يَا أُمَّ سُلَيْمٍ،مَا هَذَا مَعَكِ؟ قَالَتْ:أَرَدْتُ وَاللهِ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ أَبْعَجَ بِهِ بَطْنَهُ،فَأَخْبَرَ أَبُو طَلْحَةَ

[٢٧٥٩] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٨٣)(٦٥٧٦ - ٦٥٧٩) صحيح

[٢٧٦٠] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٨٨) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٦)

[٢٧٦١] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٣)١٣٥ - (١٨١٠)

رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْم:يَا رَسُولَ اللهِ،تَعْنِي أَقْتُلُ الطُّلَقَاءَ إِنْ هُزِمُوا بِكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا أُمَّ سُلَيْمٍ،إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ»[٢٧٦٢]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ،وَسُئِلَ عَنْ جِهَادِ النِّسَاءِ فَقَالَ:«كُنَّ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فَيُـدَاوِينَ الْجَرْحَى،وَيَسْقِينَ الْمُقَاتِلَةَ،وَلَمْ أَسْمَعْ مَعَهُ بِامْرَأَةٍ قُتِلَتْ،وَقَدْ قَاتَلْنَ نِسَـاءُ قُـرَيْشٍ يَـوْمَ الْيَرْمُوكِ حِينَ رَهَقَهُمْ جُمُوعُ الرُّومِ حَتَّى خَالَطُوا عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ،فَضَرَبَ النِّسَاءُ يَوْمَئِذٍ بِالسُّيُوفِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[٢٧٦٣]

وفي النيل:" فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مُعَالَجَةُ الرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ لِلضَّرُورَةِ.قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ:وَيَخْتَصُّ اتِّفَاقُهُمْ ذَلِكَ بِذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،وَإِنْ دَعَتْ الضَّرُورَةُ فَلْيَكُنْ بِغَيْرِ مُبَاشَرَةٍ وَلَا مَسٍّ،وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا مَاتَتْ وَلَمْ تُوجَدْ امْرَأَةٌ تُغَسِّـلُهَا أَنَّ الرَّجُلَ لَا يُبَاشِرُ غُسْلَهَا بِالْمَسِّ بَلْ يُغَسِّلُهَا مِنْ وَرَاءِ حَائِلٍ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ كَالزُّهْرِيِّ،وَفِي قَوْلِ الْأَكْثَرِ:تُيَمَّمُ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ تُدْفَنُ كَمَا هِيَ.قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ:الْفَرْقُ بَيْنَ حَالِ الْمُدَاوَاةِ وَغُسْلِ الْمَيِّتِ أَنَّ الْغُسْلَ عِبَادَةٌ وَالْمُدَاوَاةُ ضَرُورَةٌ،وَالضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ اهـ.وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ الْمَرْأَةِ فِي رَدِّ الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى فَلَا تُبَاشِرُ بِالْمَسِّ مَعَ إمْكَانِ مَا هُوَ دُونَهُ.وَحَدِيثُ عَائِشَةَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْحَجِّ.قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ:دَلَّ حَدِيثُ عَائِشَةَ عَلَى أَنَّ الْجِهَـادَ غَيْـرُ وَاجِبٍ عَلَى النِّسَاءِ.وَلَكِنْ لَيْسَ فِي قَوْلِهِ «أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ»،وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ «جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ»،مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُنَّ أَنْ يَتَطَوَّعْنَ بِالْجِهَادِ،وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًـا لِمَا فِيهِ مِنْ مُغَايَرَةِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُنَّ مِنْ السَّتْرِ وَمُجَانَبَةِ الرِّجَالِ،فَلِذَلِكَ كَانَ الْحَجُّ أَفْضَـلُ لَهُنَّ مِنْ الْجِهَادِ."[٢٧٦٤]

[٢٧٦٢] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٨٥)(٦٥٨٠) صحيح

[٢٧٦٣] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٢٩٨)(٩٦٧٣) صحيح مرسل

[٢٧٦٤] - نيل الأوطار (٧/ ٢٨٢)

المبحث السابع

شهود منْ لا فرْض عليْه الْقتال

وفي الأم:" (قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):وَالَّذِينَ لَا يَأْثَمُونَ بِتَرْكِ الْقِتَالِ – وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ – بِحَالٍ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ أَحْرَارٌ بَالِغُونَ مَعْذُورُونَ بِمَا وَصَفْت وَضَرْبٌ لَا فَرْضَ عَلَيْهِمْ بِحَالٍ وَهُمْ الْعَبِيدُ،أَوْ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ وَالنِّسَاءِ،وَلَا يَحْرُمُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَشْهَدَ مَعَهُ الْقِتَالَ الصِّنْفَانِ مَعًا،وَلَا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ الصِّنْفَيْنِ أَنْ يَشْهَدَ مَعَهُ الْقِتَالَ.

(قَالَ الشَّافِعِيُّ):أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ أَنَّ نَجْدَةَ كَتَبَ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُ:هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَغْزُو بِالنِّسَاءِ؟ وَهَلْ كَانَ يَضْرِبُ لَهُنَّ بِسَهْمٍ؟ فَقَالَ قَدْ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَغْزُو بِالنِّسَاءِ فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى وَلَمْ يَكُنْ يَضْرِبُ لَهُنَّ بِسَهْمٍ،وَلَكِنْ يَحْذِينَ مِنْ الْغَنِيمَةِ».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):وَمَحْفُوظٌ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – الْقِتَالَ الْعَبِيدُ وَالصِّبْيَانُ وأحذاهم مِنْ الْغَنِيمَةِ.

(قَالَ):وَإِذَا شَهِدَ مَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ فَرْضُ الْجِهَادِ قَوِيًّا كَانَ،أَوْ ضَعِيفًا الْقِتَالَ أُحْذِيَ مِنْ الْغَنِيمَةِ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يُحْذِي النِّسَاءَ وَقِيَاسًا عَلَيْهِنَّ وَخَبَرٌ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي الْعَبِيدِ وَالصِّبْيَانِ،وَلَا يَبْلُغُ بِحَذِيَّةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَهْمَ حُرٍّ،وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَيُفَضَّلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْحَذِيَّةِ إنْ كَانَ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَهُ غَنَاءٌ فِي الْقِتَالِ،أَوْ مَعُونَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ،وَلَا يَبْلُغُ بِأَكْثَرِهِمْ حَذِيَّةً سَهْمَ مُقَاتِلٍ مِنْ الْأَحْرَارِ.

وَإِنْ شَهِدَ الْقِتَالَ رَجُلٌ حُرٌّ بَالِغٌ لَهُ عُذْرٌ فِي عَدَمِ شُهُودِ الْقِتَالِ مِنْ زَمَنٍ،أَوْ ضَعْفٌ بِمَرَضٍ،أَوْ عَرَضٍ،أَوْ فَقِيرٍ مَعْذُورٍ ضُرِبَ لَهُ بِسَهْمِ رَجُلٍ تَامٍّ فَإِنْ قَالَ:مِنْ أَيْنَ ضَرَبْت لِهَؤُلَاءِ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ فَرْضُ الْقِتَالِ،وَلَا لَهُمْ غَنَاءٌ بِسَهْمٍ،وَلَمْ تَضْرِبْ بِهِ لِلْعَبِيدِ وَلَهُمْ غَنَاءٌ،وَلَا لِلنِّسَاءِ وَالْمُرَاهِقِينَ،وَإِنْ أَغْنَوْا وَكُلٌّ لَيْسَ عَلَيْهِ فَرْضُ الْقِتَالِ؟ قِيلَ:لَهُ قُلْنَا خَبَرًا وَقِيَاسًا فَأَمَّا الْخَبَرُ،فَإِنَّ «النَّبِيَّ – ﷺ – أَحْذَى النِّسَاءَ مِنْ الْغَنَائِمِ» وَكَانَ الْعَبِيدُ وَالصِّبْيَانُ مِمَّنْ لَا فَرْضَ عَلَيْهِمْ،وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ قُوَّةٍ عَلَى الْقِتَالِ لَيْسَ بِعُذْرٍ فِي أَبْدَانِهِمْ،وَكَذَلِكَ

الْعَبِيدُ لَوْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ فَكَانُوا غَيْرَ أَهْلِ جِهَادٍ بِحَالٍ كَمَا يَحُجُّ الصَّبِيُّ وَالْعَبْدُ،وَلَا يُجْزِئُ عَنْهُمَا مِنْ حَجَّةِ الْإِسْلَامِ؛لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ أَهْلِ الْفَرْضِ بِحَالٍ وَيَحُجُّ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ الزَّمِنَانِ اللَّذَانِ لَهُمَا الْعُذْرُ بِتَرْكِ الْحَجِّ وَالْفَقِيرَانِ الزَّمِنَانِ فَيُجْزِئُ عَنْهُمَا عَنْ حَجَّةِ الْإِسْلَامِ؛لِأَنَّهُمَا إنَّمَا زَالَ الْفَرْضُ عَنْهُمَا بِعُذْرٍ فِي أَبْدَانِهِمَا وَأَمْوَالِهِمَا مَتَى فَارَقَهُمَا ذَلِكَ كَانَا مِنْ أَهْلِهِ،وَلَمْ يَكُنْ هَكَذَا الصَّبِيُّ وَالْعَبْدُ فِي الْحَجِّ قَالَ،وَكَذَلِكَ لَوْ لَمْ يَكُونَا كَذَا وَالْمَرْأَةُ مِثْلُهُمَا فِي الْجِهَادِ وَضَرَبْت لِلزَّمِنِ وَالْفَقِيرِ اللَّذَيْنِ لَا غَزْوَ عَلَيْهِمْ؛لِأَنَّ «رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَسْهَمَ لِمَرْضَى وَجَرْحَى وَقَوْمٍ لَا غَنَاءَ لَهُمْ عَلَى الشُّهُودِ» وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَلْ فَرْضُ الْجِهَادِ عَلَيْهِمْ إلَّا بِمَعْنَى الْعُذْرِ الَّذِي إذَا زَالَ صَارُوا مِنْ أَهْلِهِ،فَإِذَا تَكَلَّفُوا شُهُودَهُ كَانَ لَهُمْ مَا لِأَهْلِهِ."[٢٧٦٥]

المبحث الثامن

قتال النّساء مع الرّجال وشهودهنّ الْحرْب

قَالَ:لَا يُعْجِبُنَا أَنْ يُقَاتِلَ النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْحَرْبِ؛لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْمَرْأَةِ بِنْيَةٌ صَالِحَةٌ لِلْقِتَالِ،كَمَا أَشَارَ إلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فِي قَوْلِهِ:«هَاهْ،مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ».وَرُبَّمَا يَكُونُ فِي قِتَالِهَا كَشْفُ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَيَفْرَحُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِجُرْأَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَيَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُولُونَ:احْتَاجُوا إلَى الِاسْتِعَانَةِ بِالنِّسَاءِ عَلَى قِتَالِنَا،فَلْيُتَحَرَّزْ عَنْ هَذَا،وَلِهَذَا الْمَعْنَى لَا يُسْتَحَبُّ لَهُمْ مُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ،إلَّا أَنْ يُضْطَرَّ الْمُسْلِمُونَ إلَى ذَلِكَ،فَإِنَّ دَفْعَ فِتْنَةِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ تَحَقُّقِ الضَّرُورَةِ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ جَائِزٌ بَلْ وَاجِبٌ.وَاسْتُدِلَّ عَلَيْهِ بِقِصَّةِ حُنَيْنٍ وَقَدْ بَيَّنَّاهَا.وَفِي أَوَاخِرِ تِلْكَ الْقِصَّةِ:«قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مِلْحَانَ،وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ تُقَاتِلُ شَادَّةً عَلَى بَطْنِهَا بِثَوْبٍ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْت هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرُّوا مِنْك وَخَذَلُوك،فَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ إنْ أَمْكَنَك اللَّهُ مِنْهُمْ،فَقَالَ – ﷺ –:يَا أُمَّ سُلَيْمٍ عَافِيَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ،فَأَعَادَتْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،وَفِي كُلِّ ذَلِكَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:عَافِيَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ».وَفِي الْمَغَازِي أَنَّهَا «قَالَتْ:أَلَا نُقَاتِلُ يَا

[٢٧٦٥] – الأم للشافعي (٤/ ١٧٤)

رَسُولَ اللَّهِ (٥٢ آ) هَؤُلَاءِ الْفَرَّارِينَ فَنَقْتُلُهُمْ كَمَا قَاتَلْنَا الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ – ﷺ –:عَافِيَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ».

وَأَيَّةُ حَاجَةٍ إلَى قِتَالِ النِّسَاءِ أَشَدُّ مِنْ هَذِهِ الْحَاجَةِ حِينَ فَرُّوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَأَسْلَمُوهُ،وَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِقِتَالِهِنَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ؛لِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَمْنَعْهَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ،وَلَمْ يَنْقُلْ أَنَّهُ أَذِنَ لِلنِّسَاءِ فِي الْقِتَالِ فِي غَيْرِ تِلْكَ الْحَالَةِ.

قَالَ:وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَحْضُرَ مِنْهُنَّ الْحَرْبَ الْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ فَتُدَاوِي الْجَرْحَى،وَتَسْقِي الْمَاءَ،وَتَطْبُخُ لِلْغُزَاةِ إذَا احْتَاجُوا إلَى ذَلِكَ،لِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ الْأَزْدِيِّ قَالَ:كَانَتْ نِسَاءُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَنِسَاءُ أَصْحَابِهِ مُشَمِّرَاتٍ،يَحْمِلْنَ الْمَاءَ لِلْمُجَاهِدِينَ يَرْتَجِزْنَ،وَهُوَ يُقَاتِلُ الرُّومَ،وَالْمُرَادُ الْعَجَائِزُ،فَالشَّوَابُّ يُمْنَعْنَ عَنْ الْخُرُوجِ لِخَوْفِ الْفِتْنَةِ،وَالْحَاجَةِ تَرْتَفِعُ بِخُرُوجِ الْعَجَائِزِ.

وَذُكِرَ عَنْ «أُمِّ مُطَاعٍ،وَكَانَتْ شَهِدَتْ خَيْبَرَ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَتْ:رَأَيْت أَسْلَمَ،حَيْثُ شَكَوْا إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – مَا يَلْقَوْنَ مِنْ شِدَّةِ الْحَالِ فَنَدَبَهُمْ إلَى الْجِهَادِ فَنَهَضُوا.وَلَقَدْ رَأَيْت أَسْلَمَ أَوَّلَ مَنْ انْتَهَى إلَى الْحِصْنِ فَمَا غَابَتْ الشَّمْسُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى فَتَحَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا،وَهُوَ حِصْنُ الصَّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ بِالنَّطَاةِ».فَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّهَا كَانَتْ خَرَجَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَلَمْ يَمْنَعْهَا مِنْ ذَلِكَ فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ لِلْعَجُوزِ أَنْ تَخْرُجَ لِإِعَانَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِمَا يَلِيقُ بِهَا مِنْ الْعَمَلِ وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ.[٢٧٦٦]

قَالَ:وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُجَاهِدَ بِغَيْرِ إذْنِ مَوْلَاهُ مَا لَمْ يَكُنْ النَّفِيرُ عَامًّا.فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَلَهُ أَنْ يَخْرُجَ،وَلَيْسَ لِمَوْلَاهُ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ؛لِأَنَّ فَرْضِيَّةَ (٥٥ آ) الْخُرُوجِ عِنْدَ النَّفِيرِ الْعَامِّ كَفَرْضِيَّةِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ،وَذَلِكَ مُسْتَثْنًى لِلْعَبْدِ مِمَّا مَلَكَهُ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فِي الْعَبْدِ،وَلِلْمَوْلَى عَلَيْهِ مِلْكٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ،تَبَيَّنَ فِي حَقِّ الْوَلَدِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وَكَذَلِكَ النِّسَاءُ إذَا كَانَتْ بِهِنَّ قُوَّةُ الْقِتَالِ فَلْيَخْرُجْنَ إذَا كَانَ النَّفِيرُ عَامًّا.وَقَدْ بَيَّنَّا مَا صَنَعَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ يَوْمَ حُنَيْنٍ.وَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – يَوْمَ أُحُدٍ:«لَمَقَامُ نُسَيْبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَسَمَّى جَمَاعَةً مِنْ الَّذِينَ فَرُّوا».وَكَانَ النَّفِيرُ عَامًّا،فَاسْتَحْسَنَ قِتَالَ

[٢٧٦٦] – شرح السير الكبير (ص:١٨٤)

النِّسَاءِ وَمَدَحَ مِنْ لَمْ يَهْرُبْ مِنْهُنَّ بِمَا قَالَ.فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ النَّفِيرُ عَامًّا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْتَغِلَ النِّسَاءُ بِالْقِتَالِ.

وَلَا يَنْبَغِي لِلشَّوَابِّ أَنْ يَخْرُجْنَ أَيْضًا فِي الصَّوَائِفِ وَنَحْوِهَا؛لِأَنَّ مَقَامَهُنَّ فِي الْبُيُوتِ أَقْرَبُ إلَى دَفْعِ الْفِتْنَةِ.

فَأَمَّا الْعَجَائِزُ فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَخْرُجْنَ مَعَ الصَّوَائِفِ لِمُدَاوَاةِ الْجَرْحَى.

جَاءَ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ:خَرَجْت مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي سَبْعِ غَزَوَاتٍ،فَكُنْت أَطْبُخُ لَهُمْ وَأُدَاوِي الْجَرْحَى وَأَسْقِيهِمْ الْمَاءَ.

وَلَا يُعْجِبُنِي أَنْ يُبَاشِرْنَ الْقِتَالَ،لِأَنَّ بِالرِّجَالِ غُنْيَةً عَنْ قِتَالِ النِّسَاءِ،فَلَا يَشْتَغِلْنَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.وَعِنْدَ تَحَقُّقِ الضَّرُورَةِ بِوُقُوعِ النَّفِيرِ عَامًّا لَا بَأْسَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُقَاتِلَ بِغَيْرِ إذْنِ وَلِيِّهَا وَزَوْجِهَا.

بَلَغَنَا «أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَتَلَتْ يَهُودِيًّا تَسَوَّرَ عَلَيْهِمْ حِصْنًا كَانُوا فِيهِ.وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ.وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - جَمَعَ النِّسَاءَ فِي أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ.وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَعَهُنَّ فَجَاءَ يَهُودِيٌّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَتَسَوَّرَ الْحَائِطَ.فَأَمَرَتْ صَفِيَّةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ بِأَنْ يَقُومَ إلَيْهِ بِحَجَرٍ أَوْ خَشَبٍ فَيَقْتُلَهُ،فَقَالَ حَسَّانُ:أَنَا مِنْ أَرْبَابِ اللِّسَانِ لَسْت مِنْ أَرْبَابِ الضَّرْبِ وَالطِّعَانِ فِي شَيْءٍ،فَقَامَتْ بِنَفْسِهَا فَقَتَلَتْهُ.وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَلِكَ اسْتَحْسَنَهُ مِنْهَا».فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ.وَكَذَلِكَ الْغِلْمَانُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا إذَا أَطَاقُوا الْقِتَالَ فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَخْرُجُوا وَيُقَاتِلُوا فِي النَّفِيرِ الْعَامِّ،وَإِنْ كَرِهَ ذَلِكَ الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ.وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا،إلَّا أَنْ تَطِيبَ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ.[٢٧٦٧]

المبحث التاسع

لا يدْخل مع الْمسْلمين منَ النّساء إلى أرْض الْعدوّ إلّا الطّاعنة في السّنّ

[٢٧٦٧] - شرح السير الكبير (ص:١٩٩)

مَسْأَلَةٌ وَلَا يَدْخُلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ النِّسَاءِ إلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ إلَّا الطَّاعِنَةُ فِي السِّنِّ،لِسَقْيِ الْمَاءِ،وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ – ﷺ – وَجُمْلَتُهُ أَنَّهُ يُكْرَهُ دُخُولُ النِّسَاءِ الشَّوَابِّ أَرْضَ الْعَدُوِّ؛لِأَنَّهُنَّ لَسْنَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ،وَقَلَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِنَّ فِيهِ،لِاسْتِيلَاءِ الْخَوَرِ وَالْجُبْنِ عَلَيْهِنَّ.

وَلَا يُؤْمَنُ ظَفَرُ الْعَدُوِّ بِهِنَّ،فَيَسْتَحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْهُنَّ،وَقَدْ رَوَى حَشْرَجُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ أَبِيهِ،أَنَّهَا «خَرَجَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَادِسَةَ سِتِّ نِسْوَةٍ،فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – فَبَعَثَ إلَيْنَا،فَجِئْنَا،فَرَأَيْنَا مِنْهُ الْغَضَبَ،فَقَالَ:مَعَ مَنْ خَرَجْتُنَّ؟ فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،خَرَجْنَا نَغْزِلُ الشَّعْرَ،وَنُعِينُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَمَعَنَا دَوَاءٌ لِلْجَرْحَى،وَنُنَاوِلُ السِّهَامَ،وَنَسْقِي السَّوِيقَ.فَقَالَ:قُمْنَ.حَتَّى إذَا فَتَحَ اللَّهُ خَيْبَرَ أَسْهَمَ لَنَا،كَمَا أَسْهَمَ لِلرِّجَالِ،فَقُلْت لَهَا:يَا جَدَّةُ،مَا كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ:تَمْرًا»..قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ:هَلْ كَانُوا يَغْزُونَ مَعَهُمْ بِالنِّسَاءِ فِي الصَّوَائِفِ؟ قَالَ:لَا إلَّا بِالْجَوَارِي.فَأَمَّا الْمَرْأَةُ الطَّاعِنَةُ فِي السِّنِّ،وَهِيَ الْكَبِيرَةُ،إذَا كَانَ فِيهَا نَفْعٌ،مِثْلُ سَقْيِ الْمَاءِ،وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،فَلَا بَأْسَ بِهِ؛لِمَا رَوَيْنَا مِنْ الْخَبَرِ،وَكَانَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ وَنَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ،تَغْزُوَانِ مَعَ النَّبِيِّ،فَأَمَّا نَسِيبَةُ فَكَانَتْ تُقَاتِلُ،وَقُطِعَتْ يَدُهَا يَوْمَ الْيَمَامَةِ.وَقَالَتْ الرُّبَيِّعُ:«كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ لِسَقْيِ الْمَاءِ،وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى.» وَقَالَ أَنَسٌ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – «يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْوَةٍ مَعَهَا مِنْ الْأَنْصَارِ،يَسْقِينَ الْمَاءَ،وَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى.» قَالَ التِّرْمِذِيُّ:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.فَإِنْ قِيلَ:فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يُخْرِجُ مَعَهُ مَنْ تَقَعُ عَلَيْهَا الْقُرْعَةُ مِنْ نِسَائِهِ،وَخَرَجَ بِعَائِشَةَ مَرَّاتٍ.قِيلَ:تِلْكَ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ،يَأْخُذُهَا لِحَاجَتِهِ إلَيْهَا،وَيَجُوزُ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْأَمِيرِ عِنْدَ حَاجَتِهِ،وَلَا يُرَخَّصُ لِسَائِرِ الرَّعِيَّةِ؛لِئَلَّا يُفْضِيَ إلَى مَا ذَكَرْنَا.[٢٧٦٨]

المبحث العاشر

لا يجب الجهاد على النساء إلا في حال النفير العام

[٢٧٦٨] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٤)(٧٤٤٠)

اتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْمَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ الذُّكُورَةَ الْمُحَقَّقَةَ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ وُجُوبِ الْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِ،فَلاَ يَجِبُ جِهَادٌ عَلَى امْرَأَةٍ،وَلاَ عَلَى خُنْثَى مُشْكِلٍ،لِمَا جاء عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ:«عَلَيْهِن جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ،الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ:فِي قَوْلِهِ ﷺ «عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ»[٢٧٦٩]

وَلأَنَّ الْمَرْأَةَ لَيْسَتْ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ لِضَعْفِهَا،وَبِنْيَتُهَا لاَ تَحْتَمِل الْحَرْبَ عَادَةً،وَلِذَلِكَ لاَ يُسْهَمُ لَهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ فِي حَالَةِ حُضُورِهَا.أَمَّا الْخُنْثَى الْمُشْكِل فَلأَنَّهُ لاَ يُعْلَمُ كَوْنُهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى فَلاَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْجِهَادُ مَعَ الشَّكِّ فِي هَذَا الشَّرْطِ.

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنِ النَّفِيرُ عَامًّا - كَمَا يَقُول الْكَاسَانِيُّ - فَأَمَّا إِذَا عَمَّ النَّفِيرُ بِأَنْ هَجَمَ الْعَدُوُّ عَلَى بَلَدٍ فَهُوَ فَرْضُ عَيْنٍ يُفْتَرَضُ عَلَى كُل وَاحِدٍ مِنْ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ،فَيَخْرُجُ الْعَبْدُ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلاَهُ،وَالْمَرْأَةُ بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِهَا وَالْوَلَدُ بِغَيْرِ إِذْنِ وَالِدَيْهِ.[٢٧٧٠]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٧٦٩] - صحيح ابن خزيمة (٤/ ٣٥٩)(٣٠٧٤) صحيح

[٢٧٧٠] - البدائع (٧ / ٩٨)، والفواكه الدواني (١ / ٤٦٣)، ومغني المحتاج (٤ / ٢١٦)، والمغني لابن قدامة (٨ / ٣٤٧) .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢١/ ٢٦٨)

الباب الثامن عشر

فضل الانغماس في العدو والعمليات الاستشهادية

الأدلة من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة:٢٤٩]

إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ،وَإنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ الله،ولَيْسَ بِكَثْرَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ،وَكثيراً مَا غَلَبَتْ قُوَّةٌ صَغِيرةٌ مُؤْمِنَةٌ مُخْلِصَةٌ فِي قِتَالِهَا،فِئَةً كَـثِيرَةَ العَـدَدِ بِـإِذْنِ الله،وَاللهُ يُؤَيِّـدُ الصَّـابِرِينَ وَيَنْصُرُهُمْ.[٢٧٧١]

فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.القاعدة:أن تكون الفئة المؤمنـة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ولأنها تمثل القوة الغالبة.قوة الله الغالـب علـى أمره،القاهر فوق عباده،محطم الجبارين،ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.وهم يكلون هذا النصر لله:«بِإِذْنِ اللَّهِ»..ويعللونه بعلته الحقيقية:«وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..فيدلون بهذا كلـه على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..[٢٧٧٢]

وقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَـادِ ()} [البقرة:٢٠٧].

وَهُنَاكَ آخَرُونَ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ للهِ،وَلاَ غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هذَا البَيْعِ إلاَّ مَرْضَاةُ اللهِ،فَمَـا أَبْعَـدَ الفَرْقَ بَيْنَ هؤُلاءِ المُنَافِقِينَ وَبَيْنَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ،وَاللهُ رَؤُوفٌ بِعِبَادِهِ.[٢٧٧٣]

[٢٧٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٢٧٧٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥١٩)

[٢٧٧٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٤،بترقيم الشاملة آليا)

ويشري هنا معناها يبيع.فهو يبيع نفسه كلها للّه ويسلمها كلها لا يستبقي منها بقية،ولا يرجو من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة اللّه.ليس له فيها شيء،وليس له من ورائها شيء.بيعة كاملة لا تردد فيها ولا تلفت ولا تحصيل ثمن،ولا استبقاء بقية لغير اللّه..والتعبير يحتمل معنى آخر يؤدي إلى نفس الغاية..يحتمل أن يشتري نفسه بكل أعراض الحياة الدنيا،ليعتقها ويقدمها خالصة للّه،لا يتعلق بها حق آخر إلا حق مولاه.فهو يضحي كل أعراض الحياة الدنيا ويخلص بنفسه مجردة للّه.وقد ذكرت الروايات سببا لنزول هذه الآية يتفق مع هذا التأويل الأخير:

قال ابن كثير في التفسير [٢٧٧٤]:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَأَنَسٌ،وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،وَأَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ،وَعِكْرِمَةُ،وَجَمَاعَةٌ:نَزَلَتْ فِي صُهيب بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ،وَذَلِكَ أَنَّه لَمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الْهِجْرَةَ،مَنَعَهُ النَّاسُ أَنْ يُهَاجِرَ بِمَالِه،وإنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْهُ وَيُهَاجِرَ،فَعَل.فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ،فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ إِلَى طَرَفِ الْحَرَّة.فَقَالُوا:رَبح الْبَيْعُ.فَقَالَ:وَأَنْتُمْ فَلَا أَخْسَرَ اللَّهُ تِجَارَتَكُمْ،وَمَا ذَاكَ؟ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ.وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ:"ربح الْبَيْعُ صُهَيْبُ،رَبحَ الْبَيْعُ صُهَيْبُ"..

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ صُهَيْبًا،أَقْبَلَ مُهَاجِرًا نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ،فَتَبِعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ مُشْرِكُونَ،فَنَزَلَ وَانْتَثَلَ كِنَانَتَهُ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَرْمَاكُمْ رَجُلًا بِسَهْمٍ،وَأَيْمُ اللَّهِ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَكُمْ بِكُلِّ سَهْمٍ فِي كِنَانَتِي،ثُمَّ أَضْرِبَكُمْ بِسَيْفِي،مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ،ثُمَّ شَأْنُكُمْ بَعْدُ.وَقَالَ:إِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَالِي بِمَكَّةَ،وَتُخَلُّونَ سَبِيلِي ؟ قَالُوا:فَدُلَّنَا عَلَى مَالِكَ بِمَكَّةَ وَنُخَلِّي عَنْكَ،فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ،فَدَلَّهُمْ،وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺالْقُرْآنُ:وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صُهَيْبًا،قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:رَبِحَ الْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيَى – رَبِحَ

[٢٧٧٤] – تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٦٤)

الْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ يَا أَبَا يَحْيَى.وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ،يَعْنِي قَوْلَهُ:وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ "[٢٧٧٥]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:خَرَجَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَنَثَرَ كِنَانَتَهُ وَقَالَ لَهُمْ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ،وَاللَّهِ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَكُمْ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِي،ثُمَّ أَضْرِبَكُمْ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ مِنْهُ فِي يَدِي شَيْءٌ،فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ مَالِي دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ.قَالُوا:فَدُلَّنَا عَلَى مَالِكَ وَنُخْلِي عَنْكَ.فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ،فَدَلَّهُمْ وَلَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺفَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ الْآيَةَ"قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ:نَزَلَتْ فِي صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرُّومِيِّ حِينَ أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي رَهْطٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَعَذَّبُوهُ فَقَالَ لَهُمْ صُهَيْبٌ:إِنِّي شَيْخٌ ضَعِيفٌ،لَا يَضُرُّكُمْ أَمِنْكُمْ كُنْتُ أَمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ،قَالُوا:صَدَقْتَ قَالَ:فَتَأْخُذُونَ أَهْلِي وَمَالِي وَتَدَعُونِي وَدِينِي،فَفَعَلُوا،فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ،فَلَقِيَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَمَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ:رَبِحَ الْبَيْعُ يَا صُهَيْبُ قَالَ:وَبَيْعُكَ فَلَا يَخْسَرُ.فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْآيَةَ فَفَرِحَ بِهَا.وَأَمَّا بِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَجَبْرٌ وَعَمَّارٌ فَعُذِّبُوا حَتَّى قَالُوا:نُمْضِي مَا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ،ثُمَّ أَرْسَلُوهُمْ،فَفِيهِمْ نَزَلَتْ:وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "[٢٧٧٦].

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ،أَنَّ صُهَيْبًا حِينَ أَرَادَ الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ،قَالَ لَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ:أَتَيْتَنَا صُعْلُوكًا،فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا،وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ،وَاللَّهِ لاَ يَكُونُ ذَلِكَ،فَقَالَ لَهُمْ:أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَالِي أَتُخَلُّونَ سَبِيلِي ؟ فَقَالُوا:نَعَمْ،فَقَالَ:أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُمْ مَالِي،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:رَبِحَ صُهَيْبٌ،رَبِحَ صُهَيْبٌ.[٢٧٧٧]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ:" أَقْبَلَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا نَحْوَ الْمَدِينَةِ وَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَانْتَشَلَ مَا فِي كِنَانَتِهِ،ثُمَّ قَالَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ

[٢٧٧٥] - تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (١٩٧٢) حسن

[٢٧٧٦] - تَارِيخُ الْمَدِينَةِ لِابْنِ شَبَّةَ (٧٧٠) حسن

[٢٧٧٧] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٥ /٥٥٧](٧٠٨٢) صحيح لغيره

رَجُلًا،وَايْمُ اللَّهِ،لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِيَ فِي كِنَانَتِي،ثُمَّ أَضْرِبَكُمْ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ،فَافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ،فَإِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَالِي وَخَلَّيْتُمْ سَبِيلِي،قَالُوا:نَعَمْ،فَفَعَلَ،فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ "،قَالَ:وَنَزَلَتْ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ "[٢٧٧٨]

وعَنْ صُهَيْبٍ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ،وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ وَصَدَّنِي فَتَيَانِ مِنْ قُرَيْشٍ،فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقُومُ لَا أَقْعُدُ،وَقَالُوا:قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْكُمْ بِبَطْنِهِ،وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا،فَقَامُوا فَخَرَجْتُ فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ يُرِيدُونَ رَدِّي،فَقُلْتُ لَهُمْ:هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَحُلَّتَيْنِ لِي بِمَكَّةَ وَتُخْلُونَ سَبِيلِي وَتُوثِقُونَ لِي،فَفَعَلُوا فَتَبِعْتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ فَقُلْتُ:احْفُرُوا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الْأَوَاقِيَ،وَاذْهَبُوا إِلَى فُلَانَةَ بِآيَةِ كَذَا وَكَذَا فَخُذُوا الْحُلَّتَيْنِ،فَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُبَاءَ،قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْهَا،فَلَمَّا رَآنِي قَالَ:" يَا أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ"ثَلَاثًا،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا سَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ،وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ "[٢٧٧٩]

وسواء كانت الآية نزلت في هذا الحادث،أو أنها كانت تنطبق عليه،فهي أبعد مدى من مجرد حادث ومن مجرد فرد.وهي ترسم صورة نفس،وتحدد ملامح نموذج من الناس ترى نظائره في البشرية هنا وهناك والصورة الأولى تنطبق على كل منافق مراء ذلق اللسان فظ القلب،شرير الطبع،شديد الخصومة،مفسود الفطرة..والصورة الثانية تنطبق على كل مؤمن خالص الإيمان،متجرد للّه،مرخص لأعراض الحياة..وهذا وذلك نموذجان معهودان في الناس ترسمهما الريشة المبدعة بهذا الإعجاز وتقيمهما أمام الأنظار يتأمل الناس فيهما معجزة القرآن،ومعجزة خلق الإنسان بهذا التفاوت بين النفاق والإيمان.ويتعلم منهما الناس ألا ينخدعوا بمعسول القول،وطلاوة الدهان وأن يبحثوا عن الحقيقة وراء الكلمة

[٢٧٧٨] - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ(٣٣٥١) صحيح لغيره -زيادة مني

راحلته:الراحلة:البعير القوي على الأسفار والأحمال،وسواء فيه الذكر والأنثى.=وانتثل:الانتثال:استخراج ما فيها من النُّشاب.=كنانته:الكنانة:الجُعبة.

[٢٧٧٩] - حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ (٤٩٥ -٤٩٧) صحيح لغيره — زيادة مني

المزوقة،والنبرة المتصنعة،والنفاق والرياء والزواق! كما يتعلمون منهما كيف تكون القيم في ميزان الإيمان.[٢٧٨٠]

الأدلة من السنة والآثار:

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ،أَنَّ أَبَاهُ،أَخْبَرَهُ قَالَ:خَرَجْنَا فِي غَزْوَةٍ إِلَى كَابُلَ وَفِي الْجَيْشِ صِلَةُ بْـنُ أَشْيَمَ فَنَزَلَ النَّاسُ عِنْدَ الْعَتْمَةِ،فَقُلْتُ:لَأَرْمُقَنَّ عَمَلَهُ وَأَنْظُرُ مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ عِبَادَتِهِ،فَصَلُّوا الْعَتْمَةَ،ثُمَّ اضْطَجَعَ فَالْتَمَسَ غَفْلَةَ النَّاسِ حَتَّى إِذَا قُلْتُ:هَدَأَتِ الْعُيُونُ وَثَبَ فَدَخَلَ غَيْضَـةً قَرِيبًا مِنْهُ وَدَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَـلِّي،فَافْتَتَحَ وَجَـاءَ الْأَسَـدُ حَتَّـى دَنَـا مِنْهُ،وَصَعِدْتُ فِي شَجَرَةٍ قَالَ:فَتَرَاهُ الْتَفَتَ أَوْ عَدَّهُ جُرَذًا حَتَّى سَجَدَ،فَقُلْتُ:الْآنَ يَفْتَرِسُـهُ فَلَا يَنْثَنِي،فَجَلَسَ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَالَ:«أَيُّهَا السَّبُعُ،اطْلُبِ الرِّزْقَ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ»،فَوَلَّى وَإِنَّ لَـهُ أَزِيزًا أَقُولُ تَصَدَّعَتِ الْجِبَالُ مِنْهُ،فَمَا زَالَ كَذَلِكَ يُصَلِّي حَتَّى لَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ جَلَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ بِمَحَامِدَ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُـمَّ إِنِّـي أَسْـأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ،أَوَمِثْلِي يَجْتَرِئُ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ؟»،ثُمَّ رَجَعَ فَأَصْبَحَ كَأَنَّهُ بَـاتَ عَلَـى الْحَشَايَا وَأَصْبَحْتُ وَبِي مِنَ الْفَتْرَةِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ،وَقَالَ الْـأَمِيرُ لَا يَشِذَّنَّ أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ فَذَهَبَتْ بَغْلَتُهُ بِثِقَلِهَا فَأَخَذَ يُصَلِّي فَقِيلَ لَهُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُـوا قَالَ:«دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَـيْنِ»،قَـالُوا:إِنَّ النَّـاسَ قَـدْ ذَهَبُوا،قَـالَ:«إِنَّمَـا هُمَـا خَفِيفَتَانِ»،قَالَ:فَدَعَا،ثُمَّ قَالَ:«إِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ بَغْلَتِي وَثِقْلَهَا»،قَالَ:فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ،قَالَ:فَلَمَّا لَقِيَهُ الْعَدُوُّ حَمَلَ هُوَ وَهِشَامُ بْنُ عَامِرٍ فَطَعَنَّا بِهِـمْ طَعْنًـا وَضَرْبًا وَقَتْلًا قَالَ:فَكَسَرَا ذَلِكَ الْعَدُوَّ،وَقَالُوا:رَجُلَانِ مِنَ الْعَرَبِ صَنَعَا هَذَا فَكَيْـفَ لَـوْ قَاتَلُونَا فَأَعْطَوُا الْمُسْلِمِينَ حَاجَاتِهِمْ،فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ:إِنَّ هِشَامَ بْـنَ [ص:٨٣٤] عَـامِرٍ وَكَانَ يُجَالِسُهُ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأُخْبِرَ بِخَبَرِهِ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:لَا،وَلَكِنَّهُ الْتَمَسَ هَذِهِ الْآيَةَ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} "[٢٧٨١]

[٢٧٨٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٨)

[٢٧٨١] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٣٢)(٨٣٦) حسن

وعَنْ مُحَمَّد،قَالَ:جَاءَتْ كَتِيبَةٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مِنْ كَتَائِبِ الْكُفَّارِ فَلَقِيَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَخَرَقَ الصَّفَّ حَتَّى خَرَجَ،ثُمَّ كَبَّرَ رَاجِعًا فَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلاَثًا فَإِذَا سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ،فَذُكِرَ ذَلِكَ لأَبِي هُرَيْرَةَ فَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ}.[٢٧٨٢]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ،فَقَالَ:«يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ،لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ»،فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ،وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ،قَالَ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ،- يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ»،فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ،فَقَالَ:«يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ،الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»،قَالَ سَعْدٌ:فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ،قَالَ أَنَسٌ:فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ،أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ،فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ:" كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ:{مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب:٢٣] إِلَى آخِرِ الآيَةِ "[٢٧٨٣].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ:رَجُلٍ ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى الصَّلَاةِ،فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا:انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي،وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي،وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَانْهَزَمَ النَّاسُ،وَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِي الانْهِزَامِ،وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ،فَرَجَعَ حَتَّى

[٢٧٨٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣٠٥)(١٩٧٨٥) صحيح

[٢٧٨٣] - صحيح البخاري (٤/ ١٩) (٢٨٠٥)

[ش (انكشف المسلمون) انهزموا.(الجنة) أريد الجنة وهي مطلوبي.(أجد) أشم.(من دون أحد) عند أحد ويحتمل أنه وجد ريحها حقيقة كرامة له ويحتمل أنه أراد أن الجنة تكتسب في هذا الموضع فاشتاق لها.(بضعا) من الثلاث إلى تسع.(ببنانه) أصابعه أو أطراف أصابعه]

أُهْرِيقَ دَمُهُ،فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِه:انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي،رَجَعَ رَجَاءً فِيمَا عِنْدِي،وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ»[٢٧٨٤]

وعَنْ عَبْدِ الله،قَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ،عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ يُقَرِّبُ إِلَى الْبِرِّ،وَإِنَّ الْبِرَّ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ،وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ يُقَرِّبُ إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ،إِنَّهُ يُقَالُ لِلصَّادِقِ:صَدَقَ وَبَرَّ،وَلِلْكَاذِبِ:كَذَبَ وَفَجَرَ،أَلَا وَإِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةٌ،وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ،فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إِيعَادٌ لِلْخَيْرِ،وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ،فَمَنْ وَجَدَ لَمَّةَ الْمَلَكِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ،وَمَنْ وَجَدَ لَمَّةَ الشَّيْطَانِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ ذَلِكَ،فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ} [البقرة:٢٦٨] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،قَالَ:أَلَا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَضْحَكُ إِلَى رَجُلَيْنِ رَجُلٍ قَامَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ وَدِثَارِهِ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاةٍ،فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ:مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا صَنَعَ؟ فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ،وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ،فَيَقُولُ:فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ،وَرَجُلٍ كَانَ فِي فِئَةٍ فَعَلِمَ مَا لَهُ فِي الْفِرَارِ،وَعَلِمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ:مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا صَنَعَ؟،فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ،وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ،فَيَقُولُ:فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ"أَوْ كَلِمَةً شَبِيهَةً بِهَا[٢٧٨٥]

ولو لم يكن إلا هذا الحديث الصحيح لكفلنا في الاستدلال على فضل الانغماس في العدو.

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُتْبَةَ،فِي نَاسٍ مَعَهُمْ،فَانْطَلَقُوا حَتَّى دَنَوْا مِنَ الحِصْنِ» فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ:امْكُثُوا أَنْتُمْ حَتَّى أَنْطَلِقَ أَنَا فَأَنْظُرَ،قَالَ:فَتَلَطَّفْتُ أَنْ أَدْخُلَ الحِصْنَ،فَفَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ،قَالَ:فَخَرَجُوا بِقَبَسٍ يَطْلُبُونَهُ،قَالَ:فَخَشِيتُ أَنْ أُعْرَفَ،قَالَ:فَغَطَّيْتُ رَأْسِي وَجَلَسْتُ كَأَنِّي أَقْضِي حَاجَةً،ثُمَّ نَادَى صَاحِبُ البَابِ،مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فَلْيَدْخُلْ قَبْلَ أَنْ أُغْلِقَهُ،فَدَخَلْتُ [ص:٩٣] ثُمَّ اخْتَبَأْتُ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ عِنْدَ

[٢٧٨٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٦/ ٢٩٧) (٢٥٥٧) صحيح

[٢٧٨٥] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٠١)(٨٥٣٢) حسن

بَاب الحِصْنِ،فَتَعَشَّوْا عِنْدَ أَبِي رَافِعٍ،وَتَحَدَّثُوا حَتَّى ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ،فَلَمَّا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ،وَلاَ أَسْمَعُ حَرَكَةً خَرَجْتُ،قَالَ:وَرَأَيْتُ صَاحِبَ البَابِ،حَيْثُ وَضَعَ مِفْتَاحَ الحِصْنِ فِي كَوَّةٍ،فَأَخَذْتُهُ فَفَتَحْتُ بِهِ بَابَ الحِصْنِ،قَالَ:قُلْتُ:إِنْ نَذِرَ بِي القَوْمُ انْطَلَقْتُ عَلَى مَهَلٍ،ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ،فَغَلَّقْتُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ ظَاهِرٍ،ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى أَبِي رَافِعٍ فِي سُلَّمٍ،فَإِذَا البَيْتُ مُظْلِمٌ،قَدْ طَفِئَ سِرَاجُهُ،فَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ الرَّجُلُ،فَقُلْتُ:يَا أَبَا رَافِعٍ قَالَ:مَنْ هَذَا؟ قَالَ:فَعَمَدْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ وَصَاحَ،فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا،قَالَ:ثُمَّ جِئْتُ كَأَنِّي أُغِيثُهُ،فَقُلْتُ:مَا لَكَ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي،فَقَالَ:أَلاَ أُعْجِبُكَ لِأُمِّكَ الوَيْلُ،دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ فَضَرَبَنِي بِالسَّيْفِ،قَالَ:فَعَمَدْتُ لَهُ أَيْضًا فَأَضْرِبُهُ أُخْرَى،فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا،فَصَاحَ وَقَامَ أَهْلُهُ،قَالَ:ثُمَّ جِئْتُ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي كَهَيْئَةِ المُغِيثِ فَإِذَا هُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ،فَأَضَعُ السَّيْفَ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَنْكَفِئُ عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ العَظْمِ ثُمَّ خَرَجْتُ دَهِشًا حَتَّى أَتَيْتُ السُّلَّمَ،أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ فَأَسْقُطُ مِنْهُ،فَانْخَلَعَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا،ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي أَحْجُلُ،فَقُلْتُ:انْطَلِقُوا فَبَشِّرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِنِّي لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ،فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ صَعِدَ النَّاعِيَةُ،فَقَالَ:أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ،قَالَ:فَقُمْتُ أَمْشِي مَا بِي قَلَبَةٌ،فَأَدْرَكْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَبَشَّرْتُهُ"[2786].

وعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ،أَنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ تَرَجَّلَ يَوْمَ كَذَا،فَقَالَ لَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:" لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ قَتْلَكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَدِيدٌ ".فَقَالَ:خَلِّ عَنِّي يَا خَالِدُ،فَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لَكَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَابِقَةٌ،وَإِنِّي وَأَبِي كُنَّا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.فَمَشَى حَتَّى قُتِلَ[2787]"

روى مسلم في صحيحه قصة أصحاب الأخدود عَنْ صُهَيْبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:"كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ،فَلَمَّا كَبِرَ،قَالَ لِلْمَلِكِ:إِنِّي قَدْ

[2786] - صحيح البخاري (5/ 92) (4040)

[ش (بقبس) شعلة من نار.(مهل) رفق وتؤدة.(ألا أعجبك) أقول لك ما تعجب منه وتنكره.(أنكفئ) أنقلب عليه وأرجع.(أحجل) من الحجلان وهو المشي المقيد أو مشى على رجل رافعا الأخرى]

[2787] - السنن الكبرى للبيهقي (9/ 77)(17920) صحيح مرسل

كَبِرْتُ،فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ،فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ،إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ،فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ،فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ،فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،فَقَالَ:إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ،فَقُلْ:حَبَسَنِي أَهْلِي،وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ:حَبَسَنِي السَّاحِرُ،فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ،فَقَالَ:الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا،فَقَالَ:اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ،حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ،فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا،وَمَضَى النَّاسُ،فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي،قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى،وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ،وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ،فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ،فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ،فَقَالَ:مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ،إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ،فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ،فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ:رَبِّي،قَالَ:وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ:رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ،فَجِيءَ بِالْغُلَامِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا،إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ [ص:٢٣٠٠] حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ،فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ،فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى،فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ،فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا،فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ،فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ،فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ

بِمَا شِئْتَ،فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَقَالَ لِلْمَلِكِ:إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ،قَالَ:وَمَا هُوَ؟ قَالَ:تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي،ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قُلْ:بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ ارْمِنِي،فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي،فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قَالَ:بِاسْمِ اللهِ،رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ،فَقَالَ النَّاسُ:آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ:أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ،قَدْ آمَنَ النَّاسُ،فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ،فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ،وَقَالَ:مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا،أَوْ قِيلَ لَهُ:اقْتَحِمْ،فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا،فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ:يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[٢٧٨٨].

وفي هذا الحديث دلالة على أن الغلام عندما أمر بقتل نفسه فداءً للدين أن ذلك أمر مشروع و لم يسم منتحراً،رغم أنه لم يوح إليه بذلك و لم يكن يعلم النتيجة لفعله مسبقاً.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا،أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ،فَقُلْتُ:يَا جِبْرِيلُ،مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ:هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ

[٢٧٨٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩)٧٣ - (٣٠٠٥)

[ش (الأكمه) الذي خلق أعمى (بالمئشار) مهموز في رواية الأكثرين ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء وروى المنشار بالنون وهما لغتان صحيحتان (ذروته) ذروة الجبل أعلاه وهي بضم الذال وكسرها (فرجف بهم الجبل) أي اضطرب وتحرك حركة شديدة (قرقور) القرقور السفينة الصغيرة وقيل الكبيرة واختار القاضي الصغيرة بعد حكايته خلافا كثيرا (فانكفأت بهم السفينة) أي انقلبت (صعيد) الصعيد هنا الأرض البارزة (كبد القوس) مقبضها عند الرمي (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف (بالأخدود) الأخدود هو الشق العظيم في الأرض وجمعه أخاديد (أفواه السكك) أي أبواب الطرق (فأحموه فيها) هكذا هو في عامة النسخ فأحموه بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة ونقل القاضي اتفاق النسخ على هذا ووقع في بعض نسخ بلادنا فأقحموه بالقاف وهذا ظاهر ومعناه اطرحوه فيها كرها ومعنى الرواية الأولى ارموه فيها من قولهم أحميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار]

وَأَوْلادهَا ".قَالَ:"قُلْتُ:وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ:بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ،إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا،فَقَالَتْ:بِسْمِ اللهِ.فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ:أَبِي؟ قَالَتْ:لَا،وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ.قَالَتْ:أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ:نَعَمْ.فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا،فَقَالَ:يَا فُلانَةُ،وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ:نَعَمْ،رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ،ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا،قَالَتْ لَهُ:إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.قَالَ:وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ:أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،وَتَدْفِنَنَا.قَالَ:ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ ".قَالَ:"فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا،وَاحِدًا وَاحِدًا،إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ،كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ،قَالَ:يَا أُمَّهْ،اقْتَحِمِي،فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ،فَاقْتَحَمَتْ "قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:"تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ:عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ،وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ،وَشَاهِدُ يُوسُفَ،وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ ".أخرجه أحمد [٢٧٨٩]

وفي هذا الحديث أن الله أنطق الطفل ليأمر أمه بالاقتحام في النار،وهذا كطفل المرأة من أصحاب الأخدود،ولو كان في قتل النفس للدين أي محظور لما أثنى الشارع على هذا الفعل،وما إنطاق الطفل إلا آية لبيان فضل هذا الفعل.

وعن أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ:غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:"إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا:هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "،قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:«فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ».أخرجه أبو داود [٢٧٩٠]

[٢٧٨٩] - مسند أحمد ط الرسالة (٥/ ٣٠)(٢٨٢١) صحيح

[٢٧٩٠] - سنن أبي داود (٣/ ١٢)(٢٥١٢) صحيح

وقال البيهقي في السنن:بَابُ جَوَازِ انْفِرَادِ الرَّجُلِ وَالرِّجَالِ بِالْغَزْوِ فِي بِلَادِ الْعَدُوِّ اسْتِدْلَالًا بِجَوَازِ التَّقَدُّمِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِنْ كَانَ الْأَغْلَبُ أَنَّهَا سَتَقْتُلُهُ[2791].

وفي هذا الحديث فسر أبو أيوب رضي الله عنه بأن هذه الآية لا تنطبق على من اقتحم وحده على العدو،حتى لو ظهر للناس أنه مهلك لنفسه،وأقره على ذلك التفسير الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،قَالَ:قَالَ مُعَاذُ ابْنُ عَفْرَاءَ:يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،مَا يَضْحَكُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ ؟ قَالَ:غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا،قَالَ:فَأَلْقَى دِرْعًا كَانَتْ عَلَيْهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ..أخرجه ابن أبي شيبة [2792]

وعَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ:أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:"الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِي الصَّفِّ لَا يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا،أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الْغُرَفِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ،وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ،وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ "أخرجه أحمد [2793]

هذا الحديث وما قله في معناه أدلة واضحة على فضل الأعمال الجهادية التي يغلب على الظن هلاك صاحبها،وأن الجهاد له أدلة خاصة تجيز ما كان ممنوعاً في غيره.

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ،الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ،وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ،فَيَقُولُ:انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ،وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ،فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ،وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا وَنَصِبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْضَرَّاءٍ "أخرجه الحاكم[2794]

[2791] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٦٨)

[2792] - (مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣٣٧)(١٩٨٤٨) صحيح مرسل

[2793] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ١٤٤)(٢٢٤٧٦) صحيح

[2794] - الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٤٠٨)(٩٨٣) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٧٧)(٦٨) صحيح

وعَنْ مُجَاهِدٍ،قَالَ:قَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَخَبَّابًا سَرِيَّةً،وَبَعَثَ دِحْيَةَ سَرِيَّةً وَحْدَهُ ".أخرجه البيهقي [٢٧٩٥]

هذا والذي بعده دليلان على أن نسبة الخطر مهما ارتفعت في الأعمال الجهادية أنه ليس لها اعتبار بل يبقى أصل العمل مشروعاً وكلما زاد الخطر زاد الثواب وهذا سيتضح في ثنايا البحث.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ،فَلَمَّا رَهِقُوهُ،قَالَ:«مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟"- أَوْ «هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» - ،فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ،ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا،فَقَالَ:«مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ -"أَوْ «هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» -،فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ،فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ:«مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا» أخرجه مسلم [٢٧٩٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:مَرَرْتُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَهُوَ يَتَحَنَّطُ،فَقُلْتُ:"يَا عَمِّ،أَمَا تَرَى مَا يَلْقَى الْمُسْلِمُونَ؟ أَيْ وَأَنْتَ هَهُنَا.قَالَ:فَتَبَسَّمَ،ثُمَّ قَالَ:الْآنَ يَا ابْنَ أَخِي.فَلَبِسَ سِلَاحَهُ،وَرَكِبَ فَرَسَهُ حَتَّى أَتَى الصَّفَّ،فَقَالَ:أُفٍّ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَا يَصْنَعُونَ.وَقَالَ لِلْعَدُوِّ:أُفٍّ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَا يَعْبُدُونَ،خَلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ،أَوْ قَالَ:سَنَنِهِ - يَعْنِي فَرَسَهُ - حَتَّى أَصْلَى بِحَرِّهَا.فَحَمَلَ،فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ "[٢٧٩٧]

[٢٧٩٥] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٧٠)(١٨١٩٩) صحيح مرسل

[٢٧٩٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٤١٥)١٠٠ - (١٧٨٩)

[ش (فلما رهقوه) أي غشوه وقربوا منه وأرهقه أي غشيه قال صاحب الأفعال رهقته وأرهقته أي أدركته قال القاضي في المشارق قيل لا يستعمل ذلك إلا في المكروه قال وقال ثابت كل شيء دنوت منه فقد رهقته(لصاحبيه) هما ذانك القرشيان(ما أنصفنا أصحابنا) الرواية المشهورة فيه ما أنصفنا بإسكان الفاء وأصحابنا منصوب مفعول به هكذا ضبطه جماهير العلماء من المتقدمين والمتأخرين ومعناه ما أنصفت قريش الأنصار لكون القرشيين لم يخرجا للقتال بل خرجت الأنصار واحد بعد واحد وذكر القاضي وغيره أن بعضهم رواه ما أنصفنا بفتح الفاء والمراد على هذا الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوا لفرارهم]

[٢٧٩٧] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٦)(١٧٩١٩) صحيح

وعَنْ ثَابت الْبُنَانيِّ،أَنَّ عكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ تَرَجَّلَ يَوْمَ كَذَا،فَقَالَ لَهُ خَالدُ بْنُ الْوَليد:"لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ قَتْلَكَ عَلَى الْمُسْلمينَ شَديدٌ ".فَقَالَ:خَلِّ عَنِّي يَا خَالدُ،فَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لَكَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَابقَةٌ،وَإِنِّي وَأَبِي كُنَّا منْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.فَمَشَى حَتَّى قُتلَ "[2798]

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ سيرينَ،أَنَّ الْمُسْلمينَ انْتَهَوْا إِلَى حَائط قَدْ أُغْلقَ بَابُهُ فيه رجَالٌ منَ الْمُشْرِكينَ،فَجَلَسَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالك رَضيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى تُرْسٍ فَقَالَ:"ارْفَعُوني برمَاحكُمْ فَأَلْقُوني إِلَيْهِمْ ".فَرَفَعُوهُ بِرِمَاحِهِمْ فَأَلْقَوهُ منْ وَرَاءِ الْحَائطِ فَأَدْرَكُوهُ قَدْ قَتَلَ منْهُمْ عَشَرَةً"[2799]

وَفَتَحَ الْبَابَ للْمُسْلمينَ،فكَانَ سَبَبَ هَلَاك الْمُشْركينَ وَقَتْلِ مُسَيْلمَةَ.[2800]

قال ابن كثير رحمه الله:"قُلْتُ:وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلكَ مُسْتَقْصًى في أَيَّامِ الصِّدِّيقِ حينَ بَعَثَ خَالدَ بْنَ الْوَليد لقتَالِ مُسَيْلمَةَ وَبَني حَنيفَةَ،وَكَانُوا في قَرِيبٍ منْ مائَة أَلْف أَوْ يَزِيدُونَ،وَكَانَ الْمُسْلمُونَ بِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا،فَلَمَّا الْتَقَوْا جَعَلَ كَثيرٌ منَ الْأَعْرَاب يَفرُّونَ،فَقَالَ الْمُهَاجرُونَ وَالْأَنْصَارُ:أَخْلصْنَا يَا خَالدُ.فَمَيَّزَهُمْ عَنْهُمْ،فكَانَ الْمُهَاجرُونَ وَالْأَنْصَارُ قَرِيبًا منْ أَلْفَيْنِ وَخَمْسمائَة،فَصَمَّمُوا الْحَمْلَةَ وَجَعَلُوا يَتَذَامَرُونَ وَيَقُولُونَ:يَا أَصْحَابَ سُورَة "الْبَقَرَة "بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ.فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّه وَأَلْجَأُوهُمْ إِلَى حَديقَة هُنَالكَ – وَتُسَمَّى حَديقَةُ الْمَوْت – فَتَحَصَّنُوا بهَا،فَحَصَرُوهُمْ فيهَا،فَفَعَلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالك أَخُو أَنَسِ بْنِ مَالك،وَكَانَ الْأَكْبَرَ،مَا ذُكرَ منْ رَفْعه عَلَى تُرْسه فَوْقَ الرِّمَاحِ حَتَّى تَمَكَّنَ منْ أَعْلَى سُورِهَا،ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ وَنَهَضَ سَرِيعًا إِلَيْهِمْ،وَلَمْ يَزَلْ يُقَاتلُهُمْ وَحْدَهُ وَيُقَاتلُونَهُ حَتَّى تَمَكَّنَ منْ فَتْحِ بَاب الْحَديقَة،وَدَخَلَ الْمُسْلمُونَ يُكَبِّرُونَ وَانْتَهَوْا إِلَى قَصْرِ مُسَيْلمَةَ وَهُوَ وَاقفٌ خَارجَهُ عنْدَ ثُلْمَة جدَارٍ،كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقَ،أَيْ منْ سُمْرَته،فَابْتَدَرَهُ وَحْشيُّ بْنُ حَرْب الْأَسْوَدُ قَاتلُ حَمْزَةَ بِحَرْبَته،وَأَبُو دُجَانَةَ سمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ الْأَنْصَاريُّ – وَهُوَ الَّذي يُنْسَبُ إِلَيْه شَيْخُنَا هَذَا أَبُو الْمَعَالي بْنُ الزَّمْلَكَانيِّ – فَسَبَقَهُ وَحْشيٌّ فَأَرْسَلَ الْحَرْبَةَ عَلَيْه منْ بُعْدٍ فَأَنْفَذَهَا

[2798] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٧)(١٧٩٢٠) صحيح مرسل

[2799] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٧)(١٧٩٢١) صحيح مرسل

[2800] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٣٣٣)

مِنْهُ،وَجَاءَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ فَعَلَاهُ بِسَيْفِهِ فَقَتَلَهُ،لَكِنْ صَرَخَتْ جَارِيَةٌ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ تَنْدُبُ مُسَيْلِمَةَ،فَقَالَتْ:وَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَاهْ،قَتَلَهُ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ.وَيُقَالُ:إِنَّ عُمُرَ مُسَيْلِمَةَ،لَعَنَهُ اللَّهُ،يَوْمَ قُتِلَ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً.فَهُوَ مِمَّنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ،قَبَّحَهُ اللَّهُ.وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ،عَلَيْهِ السَّلَامُ."[٢٨٠١]

وفي إقرار الصحابة لهذا الفعل دليل على جواز كل عمل جهادي حتى لو كانت الهلكة فيه محققة.

أقوال العلماء فيمن هجم على العدو وحده:

بعدما أثبتنا من خلال الأدلة السابقة في الفصل المتقدم جواز الاقتحام على العدو منفرداً والهجوم عليه مع تيقن الموت،فإننا نقول:إن العمليات الاستشهادية متفرعة عن هذا الأصل،وجوازها يتضح مما سبق من الأدلة،بعد معرفة مناط تحريم قتل النفس المقصور على نقص الإيمان أو انتفائه،إلا أن السلف رحمهم الله لم يعرفوا العمليات الاستشهادية بصورتها الحالية،لتجدد أساليب القتال لذا لم يبحثوها بعينها،،ولكنهم بحثوا أشباهها من المسائل كالهجوم منفرداً للنكاية في العدو وإرهابهم مع تيقن الموت،وقعّدوا قواعد تدخل تحتها العمليات الاستشهادية وغيرها،ومستندهم في أقوالهم ما عرضناه في الفصل السابق من أدلة.

إذاً فأصل هذه المسألة هو الانغماس منفرداً أو مع جماعة قليلة في جيش العدو،رغم التيقن بالموت المحقق،إلا أن الفارق بين الانغماس والعملية الاستشهادية هو أن المنغمس في صف العدو يقتل بيد العدو والفدائي يقتل بيده،وهذا الفارق ليس له أثر في الحكم على المسألة،وسنبين ذلك فيما بعد.

وفي هذا المبحث سننقل لمريد الحق بعض أقوال السلف حول المسألة التي تتفرع عنها العمليات الاستشهادية،وسننقل أيضاً بعض تعليقات العلماء على بعض الأدلة التي مضت،ومنعاً للتكرار فإننا سننقل كلام العلماء،وما كان من أقوالهم فيه من الأدلة ما

[٢٨٠١] - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٣٣٣)

أوردناه سابقاً لن نذكر الدليل بطوله في الفتوى ولكننا سنشير في فتواه إلى رقم الـــدليل بين قوسين على حسب ترتيبنا لها في الفصل السابق.

عَنْ مُدْرِكِ بْنِ عَوْفٍ الْأَحْمَسِيِّ،قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَـــرِّنٍ فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنِ النَّاسِ،فَقَالَ:أُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَآخَرُونَ لَا أَعْرِفُهُمْ،فَقَالَ عُمَرُ:لَكِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهُمْ،فَقَالَ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَجُلٌ شَرَى نَفْسَهُ،فَقَالَ مُدْرِكُ بْنُ عَوْفٍ:ذَلِكَ وَاللَّهِ خَالِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،زَعَمَ النَّاسُ أَنَّهُ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ عُمَرُ:كَذَبَ أُولَئِكَ وَلَكِنَّـــهُ مِمَّنَ اشْتَرَى الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا.[2802].

وعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ لَهُ رَجُلٌ:يَا أَبَا عُمَارَةَ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـــةِ} [البقرة:١٩٥] أَهُوَ الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فَيُقَاتِلُ حَتَّى يُقْتَلَ؟ قَالَ:"لَا،وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ،فَيَقُولُ:لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِي »[2803].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ الْبَرَاءَ،وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] هُوَ الرَّجُـــلُ يَحْمِـــلُ عَلَـــى الْكَتِيبَـــةِ وَهُـــمْ أَلْفٌ،وَالسَّـــيْفُ بِيَدِهِ؟،قَالَ:"لَا،وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيُلْقِي بِيَدَيْهِ،وَيَقُولُ:لَا تَوْبَـــةَ لِـــي "أخرجـــه البيبهقي في الشعب [2804].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ «لَيْسَ التَّهْلُكَةُ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَكِنِ الْإِمْسَاكُ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[2805]

وعَنِ الْبَرَاءِ،قَالَ:سَأَلَهُ رَجُلٌ أَحْمِلُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَحْدِي فَيَقْتُلُونِي أَكُنْتُ أَلْقَيْتُ بِيَـــدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ فَقَالَ "لَا،إِنَّمَا التَّهْلُكَةُ فِي النَّفَقَةِ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ،فَقَالَ:{فَقَاتِلْ فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} [النساء:٨٤] "[2806]

[2802] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٦٤)(١٩٧٠٢) صحيح

[2803] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٠٢)(٣٠٨٩) صحيح

[2804] - شعب الإيمان (٩/ ٣٠٦)(٦٦٩٢) صحيح

[2805] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٣١٤) صحيح

[2806] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٣١٩) صحيح

وقال البيهقي في سننه:بَابُ مَنْ تَبَرَّعَ بِالتَّعَرُّضِ لِلْقَتْلِ رَجَاءَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:"قَدْ بُورِزَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَاسِرًا عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بَعْدَ إِعْلَامِ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهُ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ فَقُتِلَ "قَالَ الشَّيْخُ:هُوَ عَوْفُ ابْنُ عَفْرَاءَ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ،عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،وَذَلِكَ مَعَ ذِكْرِ مَنْ بَارَزَ بَيْنَ يَدَيْهِ،يَرِدُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "[٢٨٠٧]..

وقال الجصاص بعد روايته لحديث أبي أيوب رضي الله عنه:وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحُذَيْفَةَ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ.وَرُوِيَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَعُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ:الْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إلَى التَّهْلُكَةِ هُوَ الْيَأْسُ مِنْ الْمَغْفِرَةِ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي.وَقِيلَ:هُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْإِنْفَاقِ حَتَّى لَا يَجِدَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فَيَتْلَفُ.وَقِيلَ:هُوَ أَنْ يَقْتَحِمَ الْحَرْبَ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي الْعَدُوِّ وَهُوَ الَّذِي تَأَوَّلَهُ الْقَوْمُ الَّذِي أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَبُو أَيُّوبَ وَأَخْبَرَ فِيهِ بِالسَّبَبِ.وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ هَذِهِ الْمَعَانِي مُرَادَةً بِالْآيَةِ لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ لَهَا وَجَوَازُ اجْتِمَاعِهَا مِنْ غَيْرِ تَضَادٍّ وَلَا تَنَافٍ فَأَمَّا حَمْلُهُ عَلَى الرَّجُلِ الْوَاحِدِ يَحْمِلُ عَلَى حَلْبَةِ الْعَدُوِّ،فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ ذَكَرَ فِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ أَنَّ رَجُلًا لَوْ حَمَلَ عَلَى أَلْفِ رَجُلٍ وَهُوَ وَحْدَهُ لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ بَأْسٌ إذَا كَانَ يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ أَوْ نِكَايَةٍ،فَإِنْ كَانَ لَا يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ وَلَا نِكَايَةٍ فَإِنِّي أَكْرَهُ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّلَفِ مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ.وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا إذَا كَانَ يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ كَانَ لَا يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ وَلَا نِكَايَةٍ وَلَكِنَّهُ يُجَرِّئُ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ حَتَّى يَفْعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلَ فَيُقْتَلُونَ وَيُنْكُونَ فِي الْعَدُوِّ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى طَمَعٍ مِنْ النِّكَايَةِ فِي الْعَدُوِّ وَلَا يَطْمَعُ فِي النَّجَاةِ لَمْ أَرَ بَأْسًا أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهِمْ،فَكَذَلِكَ إذَا طَمِعَ أَنْ يُنْكَى غَيْرُهُ فِيهِمْ بِحَمْلَتِهِ عَلَيْهِمْ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ،وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَأْجُورًا؛ وَإِنَّمَا يُكْرَهُ لَهُ ذَلِكَ إذَا كَانَ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ عَلَى وَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ وَلَا نِكَايَةٍ،وَلَكِنَّهُ مِمَّا يُرْهِبُ الْعَدُوَّ،فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا أَفْضَلُ النِّكَايَةِ وَفِيهِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ.وَالَّذِي قَالَ مُحَمَّدٌ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ صَحِيحٌ لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ؛ وَعَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي

[٢٨٠٧] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٥)

يُحْمَلُ تَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ أَلْقَى بِيَدِهِ إلَى التَّهْلُكَةِ بِحَمْلِهِ عَلَى الْعَدُوِّ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ،وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتْلِفَ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ عَائِدَةٍ عَلَى الدِّينِ وَلَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ.فَأَمَّا إذَا كَانَ فِي تَلَفِ نَفْسِهِ مَنْفَعَةٌ عَائِدَةٌ عَلَى الدِّينِ فَهَذَا مَقَامٌ شَرِيفٌ مَدَحَ اللَّهُ بِهِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ:{إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة:١١١] وَقَالَ:{وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩] وَقَالَ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} [البقرة:٢٠٧] فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيِ الَّتِي مَدَحَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ.وَعَلَى ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَنَّهُ مَتَى رَجَا نَفْعًا فِي الدِّينِ فَبَذَلَ نَفْسَهُ فِيهِ حَتَّى قُتِلَ كَانَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الشُّهَدَاءِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان:١٧][٢٨٠٨]..

وقال الشوكاني في تفسيره:وَلِلسَّلَفِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَقْوَالٌ سَيَأْتِي بَيَانُهَا،وَبَيَانُ سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ.وَالْحَقُّ أَنَّ الِاعْتِبَارَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ،فَكُلُّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَهْلُكَةٌ فِي الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا،وَبِهِ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ.وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْآيَةِ أَنْ يَقْتَحِمَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَيَحْمِلُ عَلَى الْجَيْشِ مَعَ عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّخَلُّصِ وَعَدَمِ تَأْثِيرِهِ لِأَثَرٍ يَنْفَعُ الْمُجَاهِدِينَ،وَلَا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِ هَذَا تَحْتَ الْآيَةِ إِنْكَارُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنَ الَّذِينَ رَأَوُا السَّبَبَ،فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ الْآيَةَ لَا تُجَاوِزُ سَبَبَهَا،وَهُوَ ظَنٌّ تَدْفَعُهُ لُغَةُ الْعَرَبِ.[٢٨٠٩].

وقال القرطبي:وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ:لَوْ حَمَلَ رَجُلٌ وَاحِدٌ عَلَى أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ وَحْدُهُ،لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ بَأْسٌ إِذَا كَانَ يَطْمَعُ فِي نَجَاةٍ أَوْ نِكَايَةٍ فِي الْعَدُوِّ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مَكْرُوهٌ،لِأَنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّلَفِ فِي غَيْرِ مَنْفَعَةٍ

٢٨٠٨ - أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (١/ ٣١٨)

٢٨٠٩ - فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٢٢)

للمسلمين.فإن كان قصده تجريه الْمُسْلمينَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَصْنَعُوا مثْلَ صَنيعه فَلَا يَبْعُدُ جَوَازُهُ،وَلأَنَّ فيه مَنْفَعَةً للْمُسْلمينَ عَلَى بَعْضِ الْوُجُوه.وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُ إِرْهَابَ الْعَدُوِّ وَليُعْلَمَ صَلَابَةَ الْمُسْلمينَ في الدِّين فَلَا يَبْعُدُ جَوَازُهُ.وَإِذَا كَانَ فيه نَفْعٌ للْمُسْلمينَ فَتَلفَتْ نَفْسُهُ لإِعْزَاز دين اللَّه وَتَوْهين الْكُفْر فَهُوَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ الَّذي مَدَحَ اللَّهُ به الْمُؤْمنينَ في قَوْله:"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى منَ الْمُؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ"[التوبة:١١١] الْآيَةَ،إلَى غَيْرِهَا منْ آيَات الْمَدْحِ الَّتي مَدَحَ اللَّهُ بهَا مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ.وَعَلَى ذَلكَ يَنْبَغي أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنَّهُ مَتَى رَجَا نَفْعًا في الدِّين فَبَذَلَ نَفْسَهُ فيه حَتَّى قُتلَ كان في أَعْلَى دَرَجَات الشُّهَدَاءِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:"وَأْمُرْ بالْمَعْرُوف وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ إِنَّ ذلكَ منْ عَزْمِ الْأُمُورِ"[لقمان:١٧].[٢٨١٠].

وقال النووي:وَقَد اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ التَّغْرِيرِ بالنَّفْسِ في الْجهَاد في الْمُبَارَزَة وَنَحْوِهَا.[٢٨١١]

وقال في قصة عمير بن الحمام:فيه جَوَازُ الانْغمَارِ في الْكُفَّارِ وَالتَّعَرُّضِ للشَّهَادَة وَهُوَ جَائزٌ بلَا كَرَاهَة عنْدَ جَمَاهير الْعُلَمَاء "[٢٨١٢].

وقال ابن قدامة:وَإِذَا كَانَ الْعَدُوُّ أَكْثَرَ منْ ضعْف الْمُسْلمينَ،فَغَلَبَ عَلَى ظَنِّ الْمُسْلمينَ الظَّفَرُ،فَالْأَوْلَى لَهُمْ الثَّبَاتُ،لمَا في ذَلكَ منْ الْمَصْلَحَة،وَإِنْ انْصَرَفُوا جَازَ،لأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ الْعَطَبَ وَالْحُكْمُ عُلِّقَ عَلَى مَظنَّته،وَهُوَ كَوْنُهُمْ أَقَلَّ منْ نصْف عَدَدهمْ،وَلذَلكَ لَزمَهُمْ الثَّبَاتُ إذَا كَانُوا أَكْثَرَ منْ النِّصْف،وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الْهَلَاكُ فيه.

وَيَحْتَملُ أَنْ يَلْزَمَهُمْ الثَّبَاتُ إنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الظَّفَرُ،لمَا فيه من الْمَصْلَحَة وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهمْ الْهَلَاكُ في الْإِقَامَة،وَالنَّجَاةُ في الانْصرَاف فَالْأَوْلَى لَهُمْ الانْصرَافُ،وَإِنْ ثَبَتُوا جَازَ،لأَنَّ لَهُمْ غَرَضًا في الشَّهَادَة،وَيَجُوزُ أَنْ يَغْلبُوا أَيْضًا وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الْهَلَاكُ في الْإِقَامَة وَالانْصرَاف،فَالْأَوْلَى لَهُمْ الثَّبَاتُ،ليَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّهَدَاءِ الْمُقْبلينَ عَلَى الْقتَال مُحْتَسَبينَ،فَيَكُونُونَ أَفْضَلَ منْ الْمُوَلِّينَ،وَلأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغْلبُوا أَيْضًا،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

[٢٨١٠] - تفسير القرطبي (٢/ ٣٦٤)

[٢٨١١] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٨٧)

[٢٨١٢] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٤٦)

يَقُولُ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:٢٤٩] وَلِذَلِكَ صَبَرَ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ،فَقَاتَلُوا حَتَّى أَكْرَمَهُمْ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ.[٢٨١٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ:عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قِصَّةَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَفِيهَا أَنَّ الْغُلَامَ أَمَرَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ ظُهُورِ الدِّينِ،وَلِهَذَا جَوَّزَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ أَنْ يَنْغَمِسَ الْمُسْلِمُ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ إذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ،فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَفْعَلُ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْجِهَادِ مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ نَفْسَهُ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ لِغَيْرِهِ كَانَ مَا يُفْضِي إلَى قَتْلِ غَيْرِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ إلَّا بِذَلِكَ وَدَفْعِ ضَرَرِ الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا،الَّذِي لَا يَنْدَفِعُ إلَّا بِذَلِكَ أَوْلَى[٢٨١٤].

————————————

قياس العلميات الاستشهادية على الانغماس في العدو:

تبين لنا من أقوال العلماء في مسألة الاقتحام على العدو منفرداً تعليقهم المسألة بغلبة الظن،أي أن من غلب على ظنه أنه يقتل في هذا الاقتحام،أخذ حكم من سيقتل قطعاً،فمن أجاز الاقتحام مع غلبة الظن كمن أجاز الاقتحام مع اليقين الجازم بالقتل.

وأيضاً فإن جمهور العلماء علقوا جواز الاقتحام بشروط:

الأولى:الإخلاص

والثاني وجود النكاية بالعدو

الثالث:إرهابهم

الرابع:تقوية قلوب المسلمين.

وأجاز القرطبي وابن قدامة الاقتحام بنية خالصة طلباً للشهادة فقط،لأن طلب الشهادة أمر مشروع،وللمجاهد فيه غرض،وبما أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يشترطوا ما اشترطه

[٢٨١٣] – المغني لابن قدامة (٩/ ٣١٩)

[٢٨١٤] – الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥٤) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٠)

الجمهور في جواز الاقتحام،فإن المصير لقول القرطبي وابن قدامة لا يبعد استحسانه،لأننا لو أردنا أن نخرج من الأدلة التي جاءت بجواز هذا الفعل ما يعضد قول الجمهــور بــأن العمل الفاقد للشروط ممنوع لم تستقم لهم دلالة الأدلة،إلا أنهم أخذوا ذلك من القواعــد العامة للجهاد والعام لا يقضي على الخاص،نعم نحن نقول بأن ما لا فائدة فيه لا ينبغــي عمله،ولكن القول لمن لم يحقق الشروط المذكورة أن عمله غير صحيح ولا محمود هــذا ظلم،لاسيما وأن هذه الشروط لم تأت بنصوص واضحة ولا آثار صــحيحة ولا قيــاس جلي،فأصل الجواز مع فقدها موجود ولكنه خلاف الأولى،فلا ينبغــي الإقــدام علــى الشهادة فحسب بلا مقصود آخر يفيد المسلمين والمجاهدين.[٢٨١٥]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٨١٥] - انظر كتابي **الأدلة الشرعية في مشروعية العمليات الاستشهادية**

الباب التاسع عشر

وجوب الإعداد المادي والمعنوي

المبحث الأول

الخلاصة في أحكام السلاح

التَّعْرِيفُ:

السِّلاَحُ:اسْمٌ جَامِعٌ لآلَة الْحَرْب ؛أَيْ:كُل مَا يُقَاتَل بِه،وَجَمْعُهُ أَسْلِحَةٌ.قَال اللَّهُ تَعَالَى:{وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ } [النساء:١٠٢].وَخَصَّ بَعْضُهُمُ السِّلاَحَ بِمَا كَانَ مِنَ الْحَدِيدِ وَرُبَّمَا خَصَّ بِهِ السَّيْفَ،قَال الأَْزْهَرِيُّ:السَّيْفُ وَحْدَهُ يُسَمَّى سِلاَحًا.[٢٨١٦]

وَلاَ يَخْرُجُ مَعْنَاهُ الاِصْطِلاَحِيُّ عَنِ الْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ.

الأَْحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالسِّلاَحِ:

إِعْدَادُ السِّلاَحِ لِلْجِهَادِ وَالتَّدَرُّبِ عَلَيْهِ:

ذَهَبَ الْعُلَمَاءُ إِلَى أَنَّ الاِسْتِعْدَادَ لِلْجِهَادِ بِإِعْدَادِ السِّلاَحِ وَالتَّدَرُّبِ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ وَعَلَى الرَّمْيِ فَرِيضَةٌ تَقْتَضِيهَا فَرِيضَةُ الْجِهَادِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى{) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]. قَال الْقُرْطُبِيُّ وَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ:إِنَّ الآْيَةَ تَدُل عَلَى أَنَّ الاِسْتِعْدَادَ لِلْجِهَادِ بِالسِّلاَحِ فَرِيضَةٌ،إِلاَّ أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ.[٢٨١٧]

فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ لِلأَْعْدَاءِ.وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ الْقُوَّةِ فِي الآْيَةِ الْكَرِيمَةِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ تَحْدِيدٍ وَلاَ تَقْيِيدٍ،فَهُوَ يَتَّسِعُ لِيَشْمَل كُل عَنَاصِرِ الْقُوَّةِ مَادِّيًّا

[٢٨١٦] - لسان العرب، والمفردات للراغب، ومتن اللغة مادة (سلح) ونهاية المحتاج ٣ / ٣٧٨، والفتح الرباني ١٦ / ٦ .

[٢٨١٧] - تفسير القرطبي ٨ / ٣٥ ط دار الكتب المصرية، والتفسير الكبير ١٥ / ١٨٥ الطبعة الأولى .

وَمَعْنَوِيًّا،وَمَا يُتَقَوَّى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ،وَكُل مَا هُوَ آلَةٌ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقُوَّةِ.وَقَدْ تَرَكَتِ الآْيَةُ الْكَرِيمَةُ تَحْدِيدَ الْقُوَّةِ الْمَطْلُوبَةِ ؛لأَنَّهَا تَتَطَوَّرُ تَبَعًا لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ،وَحَتَّى يَلْتَزِمَ الْمُسْلِمُونَ بِإِعْدَادِ مَا يُنَاسِبُ ظُرُوفَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ يَسْتَطِيعُونَ بِهَا إِرْهَابَ الْعَدُوِّ.[2818]

وعَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،يَقُولُ:" {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ".[2819]

كَرَّرَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّرْغِيبِ فِي تَعَلُّمِهِ وَإِعْدَادِ آلاَتِ الْحَرْبِ،وَقَدْ فَسَّرَ رَسُول اللَّهِ ﷺ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ وَهُوَ أَهَمُّ فُنُونِ الْقِتَال،حَيْثُ إِنَّ الرَّمْيَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي اسْتِعْمَال السِّلاَحِ.[2820]

قَال الْقُرْطُبِيُّ:إِنَّمَا فَسَّرَ رَسُول اللَّهِ ﷺ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ – وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ تَظْهَرُ بِإِعْدَادِ غَيْرِهِ مِنْ آلاَتِ الْحَرْبِ – لِكَوْنِ الرَّمْيِ أَشَدَّ نِكَايَةً فِي الْعَدُوِّ وَأَسْهَل مُؤْنَةً،لأَنَّهُ قَدْ يَرْمِي رَأْسَ الْكَتِيبَةِ فَيَهْزِمَ مَنْ خَلْفَهُ.[2821]

وعن خَالِدَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:كُنْتُ رَجُلًا رَامِيًا،وَكَانَ يَمُرُّ بِي عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،فَيَقُولُ:يَا خَالِدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا نَرْمِي،فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ،فَقَالَ لِي:يَا خَالِدُ تَعَالَ أَقُولُ لَكَ مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ أُحَدِّثُكَ مَا حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَأَتَيْتُهُ،فَقَالَ سَمِعْتُ

[2818] – تفسير القرطبي ٨ / ٣٥، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ٨٥ ط البهية المصرية، وتفسير الرازي ١٥ / ١٨٥، وفتح الباري ٦ / ٩١ ط السلفية .

[2819] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٧ – (١٩١٧)

[ش (وأعدوا لهم ما استطعتم) قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة – ألا أن القوة الرمي قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المثاقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيل وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك]

[2820] – فتح الباري (٦ / ٩١ ط السلفية، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ٨٥ ط البهية المصرية، والقرطبي ٨ / ٣٥ – ط دار الكتاب المصرية، والفروسية لابن القيم ص ٩ .

[2821] – القرطبي ٨ / ٣٥، وانظر المراجع السابقة .

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ الْجَنَّةَ:صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنَعْتِهِ الْخَيْرَ،وَالرَّامِي بِهِ،وَمُنْبِلُهُ،وَارْمُوا وَارْكَبُوا،وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا،وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ:تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ،وَمُلَاعَبَتُهُ امْرَأَتَهُ،وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ،وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ كَفَرَهَا "[٢٨٢٢]

قَال الْخَطَّابِيُّ:أَيْ:لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ الْمُبَاحِ إِلاَّ ثَلاَثٌ.وَقِيل فِي مَعْنَاهُ أَيْضًا:لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ الْمُسْتَحَبِّ إِلاَّ هَذِهِ الثَّلاَثُ.

يُبَيِّنُ الْحَدِيثُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِل الْجَنَّةَ صَانِعَ النَّبْل وَالرَّامِيَ بِهِ،وَمُنَاوِل النَّبْل،إِذَا كَانُوا يَقْصِدُونَ فِي عَمَلِهِمْ إِعْلاَءَ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى،وَجِهَادَ الْكُفَّارِ،وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ الْمُسْتَحَبِّ إِلاَّ تَدْرِيبُ الرَّجُل فَرَسَهُ بِالرَّكْضِ وَالْجَوَلاَنِ عَلَى نِيَّةِ الْغَزْوِ،وَكَذَلِكَ الرَّمْيُ.[٢٨٢٣]

(وَارْمُوا وَارْكَبُوا) ؛ أَيْ:لَا تَقْتَصِرُوا عَلَى الرَّمْيِ مَاشِيًا،وَاجْمَعُوا بَيْنَ الرَّمْيِ وَالرُّكُوبِ،أَوِ الْمَعْنَى:اعْلَمُوا هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَتَعَلَّمُوا الرَّمْيَ وَالرُّكُوبَ بِتَأْدِيبِ الْفَرَسِ وَالتَّمْرِينِ عَلَيْهِ،كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ آخِرُ الْحَدِيثِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ:عَطْفُ " وَارْكَبُوا " يَدُلُّ عَلَى الْمُغَايَرَةِ،وَأَنَّ الرَّامِيَ يَكُونُ رَاجِلًا،وَالرَّاكِبُ رَامِحًا،فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ:(«وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا»):أَنَّ الرَّمْيَ بِالسَّهْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الطَّعْنِ بِالرُّمْحِ اهـ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ:أَنَّ مُعَالَجَةَ الرَّمْيِ وَتَعَلُّمَهُ أَفْضَلُ مِنْ تَأْدِيبِ الْفَرَسِ وَتَمْرِينِ رُكُوبِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُيَلَاءِ وَالْكِبْرِيَاءِ،وَلِمَا فِي الرَّمْيِ مِنَ النَّفْعِ الْأَعَمِّ،وَلِذَا قَدَّمَهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال:٦٠] مَعَ أَنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي الْحَدِيثِ عَلَى الرُّمْحِ أَصْلًا،وَيُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ تَأْكِيدُهُ - ﷺ - فِيمَا سَبَقَ بِقَوْلِهِ:(كُلُّ

[٢٨٢٢] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٥٠٤)(٧٤٩٥) صحيح

(المُمدّ به) :أمددت فلاناً بكذا:إذا أعطيته إياه، ويقال مددت القوم:إذا صرت لهم مدداً، وأمددهم بغيري.=(مُنْبِلَه) :المُنْبِل:هو الذي يناول الرامي النبل:إما أنه يقف إلى جانبه أو خلفه ومعه عدد من النبل، فيناوله واحدة بعد واحدة، أو أنه يرده عليه من الهدف أو من غيره، وكذلك هو المُمدُّ به على كلا الوجهين، والنَّبل:السهام الصغار، معروفة، يقال:أنبلت الرجل فأنا مُنْبِلَه، واستنبل فلان فأنبلته، وقيل:نبَّلته - بالتشديد - فيكون حينئذ مُنَبِّلَه بالتشديد أيضاً.والمعنى سواء.=(كفرها) :كفران النعمة:جحدها.

[٢٨٢٣] - عون المعبود شرح سنن أبي داود ٧ / ١٨٩ - ١٩١ ط دار الفكر، وسنن الترمذي ١٦٣٧، وسنن ابن ماجه :٢٨١١، وسنن النسائي ٦ / ٢٢٣، ومسند أحمد بن حنبل ٤ / ٤٦، ١٤٨، والفروسية لابن القيم ص٩

شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ):أَيْ:يَشْتَغِلُ وَيَلْعَبُ،(بَاطِلٌ):لَا ثَوَابَ لَهُ (إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ):احْتِرَازٌ عَنْ رَمْيِهِ بِالْحَجَرِ وَالْخَشَبِ (وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ):أَيْ:تَعْلِيمَهُ إِيَّاهُ بِالرَّكْضِ وَالْجَوَلَانِ عَلَى نِيَّةِ الْغَزْوِ (وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ،فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ):أَيْ:وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ الْبَاطِلِ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ الْكَامِلُ،وَفِي مَعْنَاهَا كُلُّ مَا يُعِينُ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِذَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ،كَالْمُسَابَقَةِ بِالرِّجْلِ وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ،وَالتَّمْشِيَةِ لِلتَّنَزُّهِ عَلَى قَصْدِ تَقْوِيَةِ الْبَدَنِ،وَتَطْرِيَةِ الدِّمَاغِ،وَمِنْهَا السَّمَاعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِالْآلَاتِ الْمُطْرِبَةِ الْمُحَرَّمَةِ (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ،وَابْنُ مَاجَهْ):أَيْ:إِلَى هُنَا وَكَذَلِكَ أَحْمَدُ (وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ وَالدَّارِمِيُّ):أَيْ:عَلَى مَا سَبَقَ (وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَمَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ):أَيْ:إِعْرَاضًا عَنِ الرَّمْيِ (فَإِنَّهُ نِعْمَةٌ):هَذَا عِلَّةٌ لِجَوَابِ الشَّرْطِ الْمُقَدَّرِ ؛ أَيْ:فَلَيْسَ مِنَّا،أَوْ قَدْ عَصَى،فَإِنَّهُ ؛ أَيِ الرَّمْيَ نِعْمَةٌ (تَرَكَهَا):أَيْ:تَرَكَ شُكْرَهَا،أَوْ أَعْرَضَ عَنْهَا (أَوْ قَالَ):أَيْ:بَدَلَ تَرَكَهَا وَهُوَ شَكٌّ مِنْ أَحَدِ الرُّوَاةِ فَالضَّمِيرُ لِمَنْ قَبْلَهُ (كَفَرَهَا):أَيْ:سَتَرَ تِلْكَ النِّعْمَةَ،أَوْ مَا قَامَ بِشُكْرِهَا مِنَ الْكُفْرَانِ ضِدُّ الشُّكْرِ.[٢٨٢٤]

تَزْيِينُ السِّلَاحِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَزْيِينِ آلَاتِ الْحَرْبِ بِالذَّهَبِ،فَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ،وَهِيَ رِوَايَةٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:لاَ يَجُوزُ تَزْيِينُ آلاَتِ الْحَرْبِ بِالذَّهَبِ لِلرِّجَال ؛لأَنَّ الأَْصْل أَنَّ التَّحَلِّيَ بِالذَّهَبِ حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُرَيْرٍ يَعْنِي الْغَافِقِيَّ،أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ:أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ،وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي»[٢٨٢٥]،إِلاَّ مَا خَصَّهُ الدَّلِيل،وَلَمْ يَثْبُتْ مَا يَدُل عَلَى الْجَوَازِ ؛وَلأَنَّ فِيهِ زِيَادَةَ إِسْرَافٍ وَخُيَلاَءَ.[٢٨٢٦]

وَقِيل عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:يُبَاحُ الذَّهَبُ فِي السِّلاَحِ،وَاخْتَارَهُ الآْمِدِيُّ مِنْهُمْ وَابْنُ تَيْمِيَّةَ.[٢٨٢٧]

[٢٨٢٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٠٢)

[٢٨٢٥] - سنن أبي داود (٤/ ٥٠)(٤٠٥٧) صحيح

[٢٨٢٦] - بدائع الصنائع ٥ / ١٣٢ - ١٣٣ ط دار الكتاب العربي، وحاشية ابن عابدين ٥ / ٢٢٩ ط بولاق، واللباب شرح الكتاب ٣ / ٢٨٥ ط دار الفكر، والخرشي ١ / ٩٩، والدسوقي ١ / ٦٣ ط دار الفكر، والمحلي على المنهاج مع القليوبي وعميرة ٢ / ٢٤ ط عيسى الحلبي، والإنصاف ٣ / ١٤٩ ط دار إحياء التراث العربي، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٤٠٦ ط دار الفكر، وكشاف القناع ٢ / ٢٣٧ ط عالم الكتب .

[٢٨٢٧] - الإنصاف ٣ / ١٤٩ ط دار إحياء التراث العربي .

وَأَمَّا تَحْلِيَةُ آلاَتِ الْحَرْبِ بِالْفِضَّةِ فَيَجُوزُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ.
قَال النَّوَوِيُّ:يحل لِلرَّجُل مِنَ الْفِضَّةِ الْخَاتَمُ وَحِلْيَــةُ آلاَتِ الْحَرْبِ،كَالسَّــيْفِ وَالــرُّمْحِ وَالْمِنْطَقَةِ وَالدِّرْعِ وَالْخُفِّ وَأَطْرَافِ السِّهَامِ ؛لأَنَّ ذَلِكَ يَغِيظُ الْكُفَّارَ.[2828]
وَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ:لاَ يَجُوزُ التَّحْلِيَةُ بِالْفِضَّةِ ؛لأَنَّهَا فِي مَعْنَى التَّحْلِيَةِ بِالذَّهَبِ.[2829]
وَأَمَّا السَّيْفُ فَيَجُوزُ تَزْيِينُهُ بِالْفِضَّةِ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ ؛فعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:«كَانَتْ قَبِيعَةُ سَــيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِضَّةً»[2830]،وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْمَسْعُودِيِّ قَالَ:" رَأَيْتُ فِي بَيْتِ الْقَاسِمِ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَيْفًا قَبِيعَتُهُ مِنْ فِضَّةٍ،فَقُلْتُ:سَيْفُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ:سَيْفُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ".[2831]
وهناك روايات عديدة موقوفة ومقطوعة حول ذلك[2832]
وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يَجُوزُ تَحْلِيَةُ السَّيْفِ بِالْفِضَّةِ بِشَرْطِ أَنْ لاَ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ الْفِضَّةِ.وَأَمَّا تَحْلِيَتُهُ بِالذَّهَبِ فَلاَ يَجُوزُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ ؛لِحُرْمَةِ التَّحَلِّي بِالذَّهَبِ لِلرِّجَال ؛وَلأَنَّ فِيهِ زِيَادَةَ إِسْرَافٍ وَخُيَلاَءَ.[2833]
وَقَال الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:يَجُوزُ تَحْلِيَةُ السَّيْفِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ،سَوَاءٌ اتَّصَلَتِ الْحِلْيَةُ بِــهِ كَقَبْضَتِهِ،أَوِ انْفَصَلَتْ كَغِمْدِهِ،وَذَلِكَ لِلرِّجَال،أَمَّا سَيْفُ الْمَرْأَةِ فَلاَ يَجُوزُ تَحْلِيَتُهُ عِنْــدَهُمْ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.[2834]

حَمْل السِّلاَحِ فِي صَلاَةِ الْخَوْفِ:

[2828] - القليوبي وعميرة ٢ / ٢٤، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٤٠٦، وكشاف القناع ٢ / ٢٣٧، والمبدع ٢ / ٣٧١ .
[2829] - البناية شرح الهداية ٩ / ٢٣٨ ط دار الفكر، والخرشي ١ / ٩٩، والدسوقي ١ / ٦٣ .
[2830] - سنن أبي داود (٣/ ٣٠)(٢٥٨٣) صحيح
[2831] - السنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٢٤٢)(٧٥٧٧) صحيح
[2832] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٢/ ٥٩٧)
[2833] - البناية شرح الهداية ٩ / ٢٢٨ - ٢٣٠، والخرشي ١ / ٩٩ .وحاشية الدسوقي ١ / ٦٣، والأم للإمام الشافعي ٢ / ٣٥، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٤٠٦، وكشاف القناع ٢ / ٢٣٧، والمغني ٣ / ١٥ .
[2834] - الخرشي ١ / ٩٩، وحاشية الدسوقي ١ / ٦٣، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٤٠٦، وكشاف القناع ٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى اسْتِحْبَابِ حَمْلِ السِّلاَحِ لِلْخَائِفِ فِي الصَّلاَةِ يَدْفَعُ بِهِ الْعَــدُوَّ عَنْ نَفْسِهِ،لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} [النساء:١٠٢] ؛وَلأَنَّهُــمْ لاَ يَأْمَنُونَ أَنْ يَفْجَأَهُمْ عَدُوُّهُمْ،فَيَمِيلُوا عَلَيْهِمْ.كَمَا قَال اللَّهُ تَعَالَى: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَــوْ تَغْفُلُــونَ عَــنْ أَسْــلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَــتِكُمْ فَيَمِيلُــونَ عَلَــيْكُمْ مَيْلَــةً وَاحِــدَةً} [النساء:١٠٢].وَالْمُسْتَحَبُّ مِنْ ذَلِكَ مَا يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَالسَّيْفِ وَالسِّكِّينِ،وَلاَ يَثْقُلُهُ كَالْجَوْشَنِ (الدِّرْعِ)،وَلاَ يَمْنَعُ مِنْ كَمَال السُّجُودِ كَالْمِغْفَرِ.[٢٨٣٥] وَ لاَ يُــؤْذِي غَيْــرَهُ كَالرُّمْحِ الْمُتَوَسِّطِ وَالْكَبِيرِ،وَلاَ يَجُوزُ حَمْل نَجَسٍ،وَلاَ مَا يُخِل بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الصَّــلاَةِ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ.[٢٨٣٦]

وَلَيْسَ النَّصُّ لِلإِْيجَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ؛لأَِنَّ الأَْمْرَ بِهِ لِلرِّفْقِ بِهِمْ وَالصِّيَانَةِ لَهُمْ فَلَــمْ يَكُــنْ لِلإِْيجَابِ.[٢٨٣٧]

وَقَال بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ:إِنَّ حَمْل السِّلاَحِ فِي صَلاَةِ الْخَوْفِ وَاجِــبٌ ؛لأَِنَّ ظَــاهِرَ الأَْمْــرِ الْوُجُوبُ،وَقَد اقْتَرَنَ بِالنَّصِّ مَا يَدُل عَلَى إِرَادَةِ الإِْيجَابِ بِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَلَا جُنَــاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ } [النساء:١٠٢] وَنَفْيُ الْحَرَجِ مَشْرُوطًا بِالأَْذَى دَلِيلٌ عَلَى لُزُومِهِ عِنْدَ عَدَمِــهِ.فَأَمَّــا إِنْ كَانَ بِهِمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ مَرَضٍ فَلاَ يَجِبُ بِغَيْرِ خِلاَفٍ،بِتَصْرِيحِ النَّصِّ بِنَفْــيِ الْحَــرَجِ فِيهِ[٢٨٣٨].

نَزْعُ السِّلاَحِ عَنِ الشَّهِيدِ:

يُنْزَعُ السِّلاَحُ عَنِ الشَّهِيدِ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:«أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلَى أُحُدٍ أَنْ يُنْزَعَ عَنْهُمُ الْحَدِيدُ وَالْجُلُودُ،وَأَنْ يُدْفَنُوا بِدِمَائِهِمْ وَثِيَابِهِمْ» [٢٨٣٩].

[٢٨٣٥] – المغفر :زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

[٢٨٣٦] – البدائع ١ / ٢٤٥ ط دار الكتاب العربي، والبناية شرح الهداية ٢ / ٩٤٠، وروضة الطالبين ٢ / ٥٩ ط المكتب الإسلامي، ومغني المحتاج ١ / ٣٠٤ ط مصطفى الحلبي، والمهذب ١ / ١١٤ ط دار المعرفة، والمغني ٢ / ٤١٢ ط الرياض، وكشاف القناع ٢ / ١٧ ط عالم الكتب، وتفسير القرطبي ٥ / ٣٧١ .

[٢٨٣٧] – المراجع السابقة .

[٢٨٣٨] – المهذب ١ / ١١٤، ومغني المحتاج ١ / ٣٠٤، وروضة الطالبين ٢ / ٥٩، والمغني ٢ / ٤١٢ .

[٢٨٣٩] – سنن أبي داود (٣/ ١٩٥)(٣١٣٤) حسن لغيره

(أَنْ يُنْزَعَ عَنْهُمُ الْحَدِيدُ) أَيِ:السِّلَاحُ وَالدُّرُوعُ.(وَالْجُلُودُ):مِثْلُ الْفَرْوِ وَالْكِسَاءِ غَيْرِ الْمُلَطَّخِ بِالدَّمِ.(وَأَنْ يُدْفَنُوا بِثِيَابِهِمْ وَدِمَائِهِمْ) أَيِ:الْمُتَلَطِّخَةِ بِالدَّمِ،ثُمَّ لَا يُغَسَّلُ الشَّهِيدُ،وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ لِكَرَمِهِ،فَإِنَّهُ مَغْفُورٌ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ،وَأَمَّا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فَلَا يُغَسَّلُ،وَلَكِنْ يُصَلَّى ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ،وَلَا يَخْفَى ضَعْفُ تَعْلِيلِهِ.[2840]

قَالَ الْبَغَوِيُّ:هَذَا هُوَ السُّنَّةُ فِي الشَّهِيدِ أَنْ يُنْزَعَ عَنْهُ الْأَسْلِحَةُ وَالْجُلُودُ وَالْخِفَافُ وَالْفِرَاءُ،وَيُدْفَنَ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ ثِيَابِ الْعَامَّةِ ؛وَلِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي أُمِرَ بِنَزْعِهَا لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْكَفَنِ ؛وَلِأَنَّ الدَّفْنَ بِالسِّلَاحِ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَدْفِنُونَ أَبْطَالَهُمْ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَسْلِحَةِ،وَقَدْ نُهِينَا عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ.[2841]

وقال الطحاوي:" فَكَانَ فِي هَذِهِ الْآثَارِ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِدَفْنِ الْمَوْتَى الْمَذْكُورِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي هِيَ جَمِيعُ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي تَرَكُوهَا بَعْدَهُمْ بِغَيْرِ شَيْءٍ يُرَاعَى مِنْ مَا يَكُونُ مَصْرُوفًا فِي قَضَاءِ دَيْنٍ إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ،وَمِنْ غَيْرِ شَيْءٍ يُرَاعَى مِمَّا يَعُودُ عَلَى وَارِثِيهِمْ مِنْ تَرِكَاتِهِمْ يَكُونُ مِثْلَيْ مَا كُفِّنُوا فِيهِ مِنْ تَرِكَاتِهِمْ،وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ أَكْفَانَ الْمَوْتَى مِنْ تَرِكَاتِهِمْ مُبَدَّاةٌ عَلَى دُيُونِهِمْ،وَعَلَى وَصَايَاهُمْ،وَعَلَى مَا يَجِبُ لِوَارِثِيهِمْ مِنْ تَرِكَاتِهِمْ بِمُوَرِّثِهِمْ عَنْهُمْ،وَهَذَا قَوْلُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ جَمِيعًا الَّذِينَ تَدُورُ الْفُتْيَا عَلَيْهِمْ،وَيُرْجَعُ فِيهَا إِلَى أَقْوَالِهِمْ،وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ[2842]

زَكَاةُ السِّلاَحِ:

لَيْسَ فِي سِلاَحِ الاسْتِعْمَال - كَدَوَابِّ الرُّكُوبِ وَثِيَابِ الْبَدَنِ وَأَثَاثِ الْمَنْزِل - زَكَاةٌ ؛لأَنَّهَا مَشْغُولَةٌ بِالْحَاجَةِ الأَصْلِيَّةِ،وَلَيْسَتْ بِنَامِيَةٍ.وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنِ السِّلاَحُ وَنَحْوُهُ لِلتِّجَارَةِ[2843].

[2840] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١١٨٩)

[2841] - بدائع الصنائع ١ / ٣٢٤، والمبسوط ٢ / ٥٠، وشرح منح الجليل ١ / ٣١٢، والدسوقي ١ / ٤٢٥، ومغني المحتاج ١ / ٣٥١، وشرح التحرير بحاشية الشرقاوي ١ / ٣٣٧، وروضة الطالبين ٢ / ١٢٠، وكشاف القناع ٢ / ٩٩، ومنتهى الإرادات ١ / ١٥٥ .

[2842] - شرح مشكل الآثار (١٠/ ٢٢٩)(٤٠٥٢)

[2843] - فتح القدير ١ / ٤٨٧، وابن عابدين ٢ / ٦، وشرح الزرقاني ٢ / ١٤٥، وكشاف القناع ٢ / ١٦٧ .

حَمْل السِّلاَحِ لِلْمُحْرِمِ:

يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ أَنْ يَتَقَلَّدَ السَّيْفَ لِلْحَاجَةِ،فعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ الْبَرَاءَ،يَقُولُ:لَمَّا صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السِّلَاحِ فَسَأَلْتُهُ مَا جُلْبَانُ السِّلَاحِ قَالَ:«الْقِرَابُ بِمَا فِيهِ»[2844] وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي إِبَاحَةِ حَمْلِهِ فِي الْحَرَمِ عِنْدَ الْحَاجَةِ ؛لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَأْمَنُونَ أَهْل مَكَّةَ أَنْ يَنْقُضُوا الْعَهْدَ.

وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَتَقَلَّدَ السَّيْفَ وَغَيْرَهُ مِنَ الأَْسْلِحَةِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ ؛قَال ابْنُ عُمَرَ:الْمُحْرِمُ لاَ يَحْمِلُ السِّلاَحُ.[2845]

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:الْقِيَاسُ يَقْتَضِي إِبَاحَتَهُ،لأَِنَّهُ لَيْسَ فِي مَعْنَى اللُّبْسِ،كَمَا لَوْ حَمَل قِرْبَةً فِي عُنُقِهِ.[2846]

حَمْل السِّلاَحِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ:

لاَ يَجُوزُ حَمْل السِّلاَحِ بِمَكَّةَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ ؛لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ»[2847].

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِالْمَدِينَةِ سِلَاحًا لِقِتَالٍ»[2848]

وَقَال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:لاَ يَحِل لأَِحَدٍ أَنْ يَحْمِل السِّلاَحَ بِمَكَّةَ ؛لأَِنَّ الْقِتَال فِيهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَلاَ يَحِل مَا يُسَبِّبُهُ.

قَال الْقَاضِي عِيَاضٌ:وَهُوَ مَحْمُولٌ عِنْدَ أَهْل الْعِلْمِ عَلَى حَمْل السِّلاَحِ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ أَوْ حَاجَةٍ.فَإِنْ كَانَتْ حَاجَةٌ جَازَ ؛لأَِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَل عَامَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ بِمَا اشْتَرَطَهُ مِنَ السِّلاَحِ فِي الْقِرَابِ[2849] ،وَلِدُخُولِهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ مُتَأَهِّبًا لِلْقِتَال [2850].

[2844] - سنن أبي داود (٢/ ١٦٧)(١٨٣٢) صحيح

[2845] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٨/ ٤٤٨)(١٤٦٢٢) صحيح

[2846] - فتاوى قاضيخان بهامش الفتاوى الهندية ١ / ٢٨٨، وجواهر الإكليل ١ / ١٨٦، وحاشية الدسوقي ٢ / ٥٥، وإعلام المساجد في أحكام المساجد ص ١٦٩، وكشاف القناع ٢ / ٤٢٨ .

[2847] - صحيح مسلم (٢/ ٩٨٩)٤٤٩ - (١٣٥٦)

[2848] - فوائد تمام (٢/ ٢٧٨)(١٧٤١) حسن

[2849] - أخرجه البخاري (الفتح ٥ / ٣٠٣ ط السلفية) ومسلم (٣ / ١٤١٠ ط عيسى الحلبي) من حديث البراء .

حَمْل السِّلاَحِ عَلَى الْغَيْرِ:

مَنْ حَمَلَ السِّلاَحَ عَلَى الْمُسْلمينَ بغَيْرِ حَقٍّ وَلاَ تَأْويلٍ وَلاَ اسْتحْلاَلٍ فَهُوَ عَاصٍ،وَلاَ يَكْفُرُ بذَلكَ،فَإن اسْتَحَلَّهُ كَفَرَ،فعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ منَّا»[2851].

(مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ):أَيْ:سَلَّهُ للَّعبِ وَالْهَزْلِ أَوْ لإِدْخَالِ الرَّوْعِ وَالْخَوْف،وَإِنَّمَا جُمعَ الضَّميرُ ليَتَنَاوَلَ الْأُمَّةَ أَيْضًا عَلَى مَا سَيَأْتي في الْفَصْلِ الثَّاني منْ قَوْله:لمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتي (فَلَيْسَ منَّا):أَيْ:منْ أَهْلِ طَرِيقَتنَا وَسُنَّتنَا أَوْ منْ أَهْلِ مَلَّتنَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ يَعْني عَلَيْنَا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بالْفعْلِ،وَالسِّلَاحُ نُصبَ عَلَى نَزْعِ الْخَافض،يُقَالُ:حَمَلَ عَلَيْه في الْحَرْب حَمْلَةً وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا،وَالسِّلَاحُ مَفْعُولٌ،يُقَالُ:حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْملُهُ حَمْلًا:أَيْ حَمَلَ السِّلَاحَ عَلَيْنَا لَا لَنَا.وَالْأَوَّلُ أَوْجَهُ وَأَلْيَقُ ببَاب مَا لَا يُضَمَّنُ منَ الْجنَايَات وَلأَنَّ قَوْلَهُ:فَلَيْسَ منَّا جَزَاءُ الشَّرْط،وَعَلَى الثَّاني لَا فَائدَةَ فيه لأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَد أَنَّ عَدُوَّ الْمُسْلمينَ لَيْسَ منْهُمْ،قُلْتُ:يُمْكنُ أَنْ يُسْتَفَادَ منْهُ أَنَّ مَنْ وَقَعَ منْهُ هَذَا الْفعْلُ فَلَيْسَ منَ الْمُسْلمينَ بحَسَب الظَّاهر،وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بالسَّرَائر،فَيَجُوزُ قَتْلُهُ[2852]

وَقَال ابْنُ حَجَرٍ في فَتْحِ الْبَاري في شَرْحِ قَوْله فَلَيْسَ منَّا أَيْ:لَيْسَ مُتَّبِعًا لطَرِيقَتنَا ؛لأَنَّ منْ حَقِّ الْمُسْلمِ عَلَى الْمُسْلمِ أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُقَاتلَ دُونَهُ،لاَ أَنْ يُرْعبَهُ بحَمْل السِّلاَحِ عَلَيْه لإِرَادَة قتَاله أَوْ قَتْله.وَهَذَا في حَقِّ مَنْ لاَ يَسْتَحل ذَلكَ،فَأَمَّا مَنْ يَسْتَحلُّهُ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ باسْتحْلاَل الْمُحَرَّمِ بشَرْطه،لاَ بمُجَرَّد حَمْل السِّلاَحِ.وَالأَوْلَى عنْدَ كَثيرٍ منَ السَّلَف إطْلاَقُ

2850 - فتاوى قاضيخان بهامش الفتاوى الهندية ١ / ٢٨٨، وجواهر الإكليل ١ / ١٨٦، وإعلام المساجد ص ١٦٩، وكشاف القناع ٢ / ٤٢٨ .

2851 - صحيح البخاري (٩/ ٤)(٦٨٧٤) وصحيح مسلم (١/ ٩٨)١٦١ - (٩٨)

[ش (حمل علينا السلاح) قاتلنا بسبب ديننا أو استحل قتالنا.(فليس منا) ليس على طريقنا أو هو خارج عن ملتنا]

2852 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٠)

لَفْظِ الْخَبَرِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَأْوِيلِهِ ؛لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ،وَأَبْلَغَ فِي الزَّجْرِ.وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَصْرِفُهُ عَنْ ظَاهِرِهِ[٢٨٥٣].

وَالْمُرَادُ بِحَمْلِ السِّلاَحِ شَهْرُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالصِّيَالِ عَلَيْهِمْ.وَيُنْظَرُ التَّفْصِيلِ فِي (صِيَال).

بَيْعُ السِّلاَحِ لأَهْلِ الْحَرْبِ وَأَهْلِ الْفِتْنَةِ:

يَحْرُمُ بَيْعُ السِّلاَحِ لأَهْلِ الْحَرْبِ وَلِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُرِيدُ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ إِثَارَةَ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ،وَقَال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:لاَ يَحِل لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْمِل إِلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ سِلاَحًا يُقَوِّيهِمْ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ كُرَاعًا،وَلاَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ ؛لأَنَّ فِي بَيْعِ السِّلاَحِ لأَهْل الْحَرْبِ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى قِتَال الْمُسْلِمِينَ،وَبَاعِثًا لَهُمْ عَلَى شَنِّ الْحُرُوبِ وَمُوَاصَلَةِ الْقِتَال ؛لاِسْتِعَانَتِهِمْ بِهِ،وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْمَنْعَ[٢٨٥٤].

وَيَحْرُمُ أَيْضًا بَيْعُ السِّلاَحِ لِلْبُغَاةِ وَأَهْلِ الْفِتْنَةِ[٢٨٥٥]،لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢].وَلِمَا جاء عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ»[٢٨٥٦]

فِي الْهِدَايَةِ:وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَاعَ السِّلَاحُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ إذَا حَضَرُوا مُسْتَأْمَنِينَ،وَلَا يُجَهَّزَ إلَيْهِمْ مَعَ التُّجَّارِ إلَى دَارِ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ وَحَمْلِهِ إلَيْهِمْ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:الْمَعْرُوفُ مَا فِي سِيَرِ الْبَيْهَقِيِّ،وَمُسْنَدِ الْبَزَّارِ،وَمُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ،عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ.قَالَ الْبَيْهَقِيُّ:الصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.قَالَ صَاحِبُ الْهِدَايَةِ:وَهُوَ الْقِيَاسُ فِي

[٢٨٥٣] - فتح الباري ١٣ / ٢٠ ط مكتبة الرياض الحديثة والفتح الرباني ١٦ / ٦ ط الأولى، وشرح مسلم للنووي ٢ / ١٠٨ المطبعة المصرية .

[٢٨٥٤] - تبيين الحقائق ٥ / ١٢٥، وبدائع الصنائع ٤ / ١٨٩، والسير الكبير ٤ / ١٤١، والخراج لأبي يوسف ص ١٩٠، والحطاب ٤ / ٢٥٤، وجواهر الإكليل ٢ / ٣ و١٤٥، ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٨، ونهاية المحتاج ٥ / ١٢٢، والقليوبي ٣ / ١٩، وإعلام الموقعين ٣ / ١٥٨ .

[٢٨٥٥] - بدائع الصنائع ٤ / ١٨٩، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٩٦، والحطاب ٤ / ٢٥٤، ونهاية المحتاج ٣ / ٤٥٥، والمغني ٤ / ٢٤٦، وإعلام الموقعين ٣ / ١٥٨ .

[٢٨٥٦] - المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ١٣٦)(٢٨٦) حسن لغيره

الطَّعَامِ ؛ أَيِ الْقِيَاسُ فِيهِ أَنْ يُمْنَعَ مِنْ حَمْلِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُ بِهِ التَّقَوِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،وَالْمَقْصُودُ إِضْعَافُهُمْ إِلَّا أَنَّا عَرَفْنَا نَقْلَ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ بِالنَّصِّ يَعْنِي حَدِيثَ ثُمَامَةَ[2857] وَلِأَنَّهُ إِعَانَةٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.وَالتَّفْصِيلِ فِي مُصْطَلَحِ (أَهْلِ الْحَرْبِ) (وَبُغَاة).

وَأَمَّا بَيْعُ مَا يُتَّخَذُ مِنْهُ السِّلاَحُ،كَالْحَدِيدِ وَنَحْوِهِ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ أَيْضًا عِنْدَ الْجُمْهُورِ،وَمِنْهُمُ الصَّاحِبَانِ خِلاَفًا لِأَبِي حَنِيفَةَ..

اشْتِرَاطُ حَمْلِ السِّلاَحِ لِحَدِّ الْحِرَابَةِ (قَطْعُ الطَّرِيقِ):

يُشْتَرَطُ فِي الْمُحَارِبِ الَّذِي يُقَامُ عَلَيْهِ حَدُّ قَطْعِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ:أَنْ يَكُونَ مَعَهُ سِلاَحٌ،وَالْحِجَارَةُ وَالْعَصَا سِلاَحٌ هُنَا،فَإِنْ تَعَرَّضُوا لِلنَّاسِ بِالْعِصِيِّ وَالأَحْجَارِ فَهُمْ مُحَارِبُونَ،وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَحْمِلُوا شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ فَلَيْسُوا بِمُحَارِبِينَ [2858].

وَلاَ يَشْتَرِطُ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ حَمْلَ السِّلاَحِ بَل يَكْفِي عِنْدَهُمُ الْقَهْرُ وَالْغَلَبَةُ وَأَخْذُ الْمَالِ وَلَوْ بِالْكَسْرِ وَالضَّرْبِ بِجَمْعِ الْكَفِّ،أَيْ:بِالْكَفِّ مَقْبُوضَةً.[2859]

المبحث الثاني

الخلاصة في أحكام العُدة

التَّعْرِيفُ

الْعُدَّةُ – بِالضَّمِّ – فِي اللُّغَةِ:الاسْتِعْدَادُ وَالتَّأَهُّبُ وَمَا أَعْدَدْتَهُ مِنْ مَالٍ أَوْ سِلاَحٍ[2860].

وَفِي الاصْطِلاَحِ هِيَ:جَمِيعُ مَا يُتَقَوَّى بِهِ فِي الْحَرْبِ عَلَى الْعَدُوِّ.[2861]

الأَحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعُدَّةِ:

[2857] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٥٠)

[2858] – ابن عابدين ٣ / ٢١٢، والمغني ٨ / ٢٨٨ .

[2859] – المدونة الكبرى ٦ / ٣٠٣، وروضة الطالبين ١٠ / ١٥٦، وشرح روض الطالب ٤ / ١٥٤ .

[2860] – المصباح المنير .

[2861] – الفتوحات الإلهية، تفسير البغوي ٢ / ٢٥٣ .

الْعُدَّةُ – أَي الاسْتعْدَادُ للْحَرْب – فَرِيضَةٌ تُلاَزِمُ فَرِيضَةَ الْجهَاد،فَالْحَرْبُ بلاَ عُدَّة إِلْقَاءٌ للنَّفْس إِلَى التَّهْلُكَة،وَالْعُدَّةُ للْحَرْب في سَبِيل إِعْلاَءِ كَلمَة اللَّه بِأَنْوَاعهَا فَرْضٌ عَلَى الْمُسْلمينَ.قَال تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ منْ قُوَّة وَمنْ رِبَاط الْخَيْل تُرْهبُونَ بِه عَدُوَّ اللَّه وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ منْ دُونهمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفقُوا منْ شَيْءٍ في سَبيلِ اللَّه يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠] وَالْخطَابُ لكَافَّة الْمُسْلمينَ،وَقَال سُبْحَانَهُ:{ وَأَنْفقُوا في سَبِيلِ اللَّه وَلَا تُلْقُوا بِأَيْديكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة وَأَحْسنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُحْسنينَ } [البقرة:١٩٥] أَيْ بِتَرْكِ الإِنْفَاق في سَبِيل اللَّه،وَالْخطَابُ أَيْضًا لكَافَّتهمْ،وَعَدَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:تَرْكَ الإِنْفَاق في سَبيل اللَّه وَعَدَمَ الاسْتعْدَاد للْحَرْب باتِّخَاذ الْعُدَّة اللاَّزِمَة للنَّصْر تَهْلُكَةً للنَّفْس،وَتَهْلُكَةً للْجَمَاعَة،فَالدَّعْوَةُ إِلَى الْجهَاد في التَّوْجيهَات الْقُرْآنيَّة وَالنَّبَوِيَّة تُلاَزِمُهَا في الأَغْلَب الأَعَمِّ دَعْوَةٌ إِلَى الإِنْفَاق.

جَاءَ في تَفْسير الْمَاوَرْديِّ:{ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْديكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة } بِأَنْ تَتْرُكُوا النَّفَقَةَ في سَبيل اللَّه فَتَهْلَكُوا،ثُمَّ قَال:هَذَا قَوْل ابْن عَبَّاسٍ،وَقيل:لاَ تُقْحمُوا أَنْفُسَكُمْ في الْحَرْب بغَيْر نكَايَة في الْعَدُوِّ،وَقَال ابْنُ كَثيرٍ:التَّهْلُكَةُ أَنْ تُمْسكَ يَدَكَ عَن النَّفَقَة في سَبيل اللَّه [٢٨٦٢].

وَالْعُدَّةُ بمَا في الطَّوْق منْ فُرُوضِ الْكفَايَة عَلَى الْمُسْلمينَ،فَإِنْ تَرَكُوهَا أَثمُوا جَميعًا،وَهيَ منَ الأُمُور الْمَنُوطَة بالإِمَام وَتَلْزَمُ عَلَيْه،قَال الْمَاوَرْديُّ:منَ الأُمُور الْوَاجبَة عَلَى الإِمَام:تَحْصينُ الثُّغُور بالْعُدَّة الْمَانعَة،وَالْقُوَّة الدَّافعَة حَتَّى لاَ يَظْفَرَ الأَعْدَاءُ بغرَّة يَنْتَهكُونَ فيهَا مُحَرَّمًا،أَوْ يَسْفكُونَ فيهَا لمُسْلمٍ أَوْ مُعَاهَد دَمًا،وَعَدَّ الْقُرْآنُ تَرْكَ الْعُدَّة للْحَرْب إِعْلاَءً لكَلمَة اللَّه منْ عَلاَمَات النِّفَاق،فَقَال تَعَالَى:في شَأْن الْمُنَافقينَ الَّذينَ اسْتَأْذَنُوا النَّبيَّ ﷺ لأَعْذَارٍ وَاهيَة في عَدَم الْخُرُوج مَعَهُ في الْجهَاد:{لَا يَسْتَأْذنُكَ الَّذينَ يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْم الْآخرِ أَنْ يُجَاهدُوا بِأَمْوَالهمْ وَأَنْفُسهمْ وَاللَّهُ عَليمٌ بالْمُتَّقينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذنُكَ الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الْآخرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ في رَيْبهمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) } [التوبة:٤٤ – ٤٦].[٢٨٦٣]

[٢٨٦٢] – الخازن، ابن كثير، تفسير الماوردي .

[٢٨٦٣] – الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٦ .

مَا تَكُونُ بِهِ الْعُدَّةُ:

بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْعُدَّةَ:بِأَنَّهَا الْقُوَّةُ،وَرِبَاطُ الْخَيْلِ،قَال تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠].

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنَ الْقُوَّةِ:وَقَال الْمَاوَرْدِيُّ فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ:

أ – الْقُوَّةُ:ذُكُورُ الْخَيْل،وَرِبَاطُ الْخَيْل إِنَاثُهَا.

ب – الْقُوَّةُ:السِّلاَحُ،قَالَهُ الْكَلْبِيُّ.

ج – التَّصَافِي،وَاتِّفَاقُ الْكَلِمَةِ.

د – الثِّقَةُ بِاللَّهِ.

هـ – الرَّمْيُ.

وَقَال صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْخَازِنِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَقْوَالاً فِي مَعْنَى الْقُوَّةِ:الْقَوْل الرَّابِعُ:إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقُوَّةِ جَمِيعُ مَا يُتَقَوَّى بِهِ فِي الْحَرْبِ عَلَى الْعَدُوِّ،فَكُل مَا هُوَ آلَةٌ يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْجِهَادِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقُوَّةِ الْمَأْمُورِ بِإِعْدَادِهَا،فعَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،يَقُولُ:" {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ "[٢٨٦٤]

لاَ يَنْفِي كَوْنَ غَيْرِ الرَّمْيِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَأْمُورِ بِإِعْدَادِهَا فَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ:«الْحَجُّ عَرَفَةُ،فَمَنْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ عَرَفَةَ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ مِنْ لَيْلَةِ جَمْعٍ،فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ»[٢٨٦٥]

وَكَقَوْلِهِ:«النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[٢٨٦٦].

فَهَذَا لاَ يَنْفِي اعْتِبَارَ غَيْرِهِ،بَل يَدُل عَلَى أَنَّ الْمَذْكُورَ هُوَ مِنْ أَجَل الْمَقْصُودِ،وَلأَنَّ الرَّمْيَ كَانَ مِنْ أَنْجَعِ وَسَائِل الْحَرْبِ نِكَايَةً فِي الْعَدُوِّ فِي زَمَنِهِ ﷺ فَهَكَذَا هُنَا يُحْمَل مَعْنَى الآيَةِ عَلَى الاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَال فِي الْجِهَادِ بِجَمِيعِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الآلاَتِ،كَالرَّمْيِ بِالنَّبْل،وَالنُّشَابِ،وَالسَّيْفِ،وَتَعَلُّمِ الْفُرُوسِيَّةِ،وَالتَّصَافِي،وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ،وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَكُل

[٢٨٦٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)(١٦٧ – (١٩١٧)

[٢٨٦٥] – سنن النسائي (٥/ ٢٥٦)(٣٠١٦) صحيح

[٢٨٦٦] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٣٧٩)(٦١٤) صحيح

ذَلكَ مَأْمُورٌ به،وَقَال الشِّهَابُ:إِنَّمَا ذُكرَ هَذَا هُنَا،لأَنَّهُ ﷺ:لَمْ يَكُنْ لَهُ اسْتعْدَادٌ تَــامٌّ فِــي بَدْرٍ،فَنُبِّهُوا عَلَى أَنَّ النَّصْرَ بدُون اسْتعْدَادٍ لاَ يَتَأَتَّى فِي كُل زَمَانٍ،وَدَلَّتِ الآْيَةُ عَلَى وُجُودِ الْقُوَّةِ الْحَرْبيَّة اتِّقَاءَ بَأْسِ الْعَدُوِّ.[٢٨٦٧]

وَخَصَّ رِبَاطَ الْخَيْل بالذِّكْرِ – مَعَ أَنَّ الأْمْرَ بإِعْدَادِ الْقُوَّة فِي الآْيَة يَتَنَاوَل جَميعَ مَا يُتَقَوَّى به للْحَرْبِ عَلَى اخْتلاَف صُنُوفهَا وَأَلْوَانهَا وَأَسْبَابهَا – لأَنَّهَا الأْدَاةُ الَّتي كَانَتْ بَارزَةً عنْدَ مَنْ كَانَ يُخَاطِبُهُمُ الْقُرْآنُ أَوَّل مَرَّة،وَلَوْ أَمَرَهُمْ بأَسْبَابٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ لَدَيْهِمْ،وَلاَ يُطِيقُــونَ إِعْدَادَهَا لَكَانَ تَكْليفًا بمَا لاَ يُطَاقُ [٢٨٦٨].

المبحث الثالث

الإعداد نوعان معنوي ومادي

الإعداد الإيماني باستزادة العبد من شعب الإيمان القلبية والظاهرة،العلمية والعملية ليصبح من أهل الوعد المذكورين في قوله تعالى:{وكان حقًّا عليْنا نصْــر الْمــؤْمنين}ســورة الروم،الآية:٤٧.

وأما الثاني فهو الإعداد المادي للجهاد:بجمع السلاح وتحريض المؤمنين علــى القتــال والبذل والنفقة،ويدخل في هذا التدريب العسكري بكل أنواعه.قال تعالى:{وأعدّواْ لهــم مّا اسْتطعْتم مّن قوّةٍ ومن رّباط الْخيْل ترْهبون به عدْوّ اللّه وعدوّكمْ وآخرين من دونهــمْ لا تعْلمونهم اللّه يعْلمهمْ وما تنفقواْ من شيْءٍ في سبيل اللّــه يــوفّ إلــيْكمْ وأنــتمْ لا تظْلمون} (٦٠) سورة الأنفال،فبيّن الحق جل وعلا أنه محيط بالكافرين قادر علــيهم،لا يعجزونه،إلا أنه سبحانه قد أمرنا ـــ رغم قدرته ـــ بإعداد القوة بشــتى أشــكالها،وأن نجتهد غاية الاستطاعة في هذا الإعداد كشرط لتحقيق الوعد الإلهي بنصر المؤمنين.ذلــك

[٢٨٦٧] – تفسير الخازن، الفتوحات الإلهية، روح المعاني، تفسير البغوي :في تفسير آية ٦٠ من سورة الأنفال، وآية ٤٦ من سورة التوبة وآية ١٩٥ من سورة البقرة .

[٢٨٦٨] – المصادر السابقة .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٩/ ٣٠١)

لأن الدنيا دار ابتلاء ولأمور تجري فيها على الأسباب،فالله يبتلي المؤمن بالكافر ليختبر صدق إيمانه،هل سيجاهد الكافر ويعد القوة لهذا كما أمر سبحانه أم لا؟،ويبتلي الكافر بالمؤمن،هل يستجيب الكافر لدعوة الإيمان أم سيدفعها حتى القتال؟ وفي ابتلاء الفريقين بعضهم ببعض يقول الله تعالى:{فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرْب الرّقاب حتّى إذا أثْخنتموهمْ فشدّوا الْوثاق فإمّا منًّا بعْد وإمّا فداء حتّى تضع الْحرْب أوْزارها ذلك ولوْ يشاء اللّه لانتصر منْهمْ ولكن لّيبْلو بعْضكم ببعْضٍ والّذين قتلوا في سبيل اللّه فلن يضلّ أعْمالهمْ} (٤) سورة محمد.

ومما يدخل في الإعداد المادي توحيد صفوف المسلمين لمواجهة أعدائهم،قال تعالى:{وأطيعواْ اللّه ورسوله ولا تنازعواْ فتفْشلواْ وتذْهب ريحكمْ واصْبرواْ إنّ اللّه مع الصّابرين} (٤٦) سورة الأنفال،فجعل سبحانه التنازع بين المسلمين من أسباب فشلهم،بل من أظهر أسباب الفشل،وذلك بالنص كما أنه سبحانه قد جعل النصر مترتبا على موالاة المؤمنين بعضهم بعضا في قوله تعالى:{ومن يتولّ اللّه ورسوله والّذين آمنواْ فإنّ حزْب اللّه هم الْغالبون} (٥٦) سورة المائدة

ولا شك أن الإعداد المادي هو أيضا من شعب الإيمان لأنه استجابة لأمر الله تعالى {وأعدّوا لهمْ ما اسْتطعْتمْ منْ قوّةٍ}،ولكنا أفردناه كشرط مستقل للتنبيه على أهميته،فعلاقته بالإعداد الإيماني هي علاقة الخاص بالعام.

يَأْمُرُ اللهُ المُسْلمينَ بالاسْتعْدَاد للْحَرْب،وَبإعْدَاد آلاتهَا لمُقَاتَلَة الكُفَّار،وَدَفْع العُدْوَان،وَحفْظ الأَنْفُس،وَالحَقِّ وَالفَضيلَة،حَسَبَ الطَّاقَة وَالاسْتطَاعَة:منْ خَيْلٍ وَسلاَحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤَنٍ وَتَدْريبٍ وَعلْمٍ وَكُلَّ مَا يَدْخُلُ في تَعْريف القُوَّة التي تُمَكّنُ الأُمَّةَ منْ مُقَاوَمَة خُصُومهَا،بحَسَب مَفْهُوم العَصْر،وَذَلكَ لإرْهَاب الكُفَّار - منْ قُرَيْشٍ وَمنْ غَيْرهمْ - أَعَدَاء الله،وَأَعْدَاء الإسْلاَم وَالمُسْلمينَ،وَلإرْهَاب الأَعْدَاء الآخَرينَ منْ مُنَافقينَ وَيَهُود يُجَاورُونَ المُسْلمينَ في المَدينَة وَمَنْ حَوْلَهَا وَغَيْرهمْ،ممَّنْ لاَ يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ الله وَالمُسْلمُونَ،وَلَكنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُمْ.وَيُخبرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ أَنَّ كُلَّ نَفقَةٍ يُنْفقُونَهَا في

الجِهَادِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ،سَتُوَفَّى إِلَيْهِمْ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ،وَلاَ يَبْخَسُ اللهُ أَحَــداً مِــنْهُمْ شَيْئاً..[٢٨٦٩]

وفي الظلال:

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة..ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلــك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»..

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان»..

وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيــدة علــى حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها،ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها..

والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة..

والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقــوف في وجــه المــد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها..

والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية لــه وحده سبحانه..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد اســتقراره عقيــدة في القلوب،وتنظيمــا للشعائر،ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه منــاهج أخــرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية.فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الربــاني - من تحطيم تلك القوى المادية،وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى،وتقاوم المنهج الرباني..

[٢٨٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢١، بترقيم الشاملة آليا)

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة..ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم،أو دولة،أو طبقة،أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية..إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي.

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة.فالنص يقول:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها.بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة:«تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ،وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ»..

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض.الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم،أو لم يجهروا لهم بالعداوة،والله يعلم سرائرهم وحقائقهم.وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم.والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء،وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا،وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا،وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل،فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله:«وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ»..

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله،من كل غاية أرضية،ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قومي أو طبقي،ليتمحض خالصا لله «في سبيل الله» لتحقيق كلمة الله،ابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق.وكل حرب تقوم للقهر والإذلال.وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن،أو قوم على قوم،أو جنس على جنس،أو طبقة على طبقة..ويستبقي نوعا واحدا من الحركة..حركة الجهاد في سبيل الله..والله - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب.إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته.وهو غني عن العالمين.ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

والحكم الثالث في هذه النصوص هو الحكم المتعلق بمن يريدون المهادنة والموادعة للمعسكر الإسلامي ويجنحون إلى السلم والمسالمة وتدل ظواهرهم وأفعالهم على رغبتهم في السلم حقا:«وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها،وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح،تعبير لطيف،يلقي ظل الدعة الرقيق.فهي حركة جناح يميل إلى جانب السلم،ويرخي ريشه في وداعة! كما أن الأمر بالجنوح إلى السلم مصحوب بالتوكل على الله السميع العليم الذي يسمع ما يقال ويعلم ما وراءه من مخبآت السرائر.وفي التوكل عليه الكفاية والأمان.

وبالعودة إلى تلخيص الإمام ابن القيم لطوائف الكفار ومواقفهم من رسول الله - ﷺ - وموقفه كذلك منهم،أول العهد بالمدينة إلى يوم بدر ونزول هذا الحكم،يتبين أن هذا النص يتعلق بالفريق الذي اعتزل رسول الله - ﷺ - ولم يقاتله وجنح إلى السلم ولم

يظهر العداء والمقاومة للدعوة الإسلامية،ولا للدولة المسلمة.وقد أمر الله رسوله - ﷺ - أن يترك هذا الفريق،وأن يقبل مهادنته ومسالمته (وذلك حتى نزلت براءة ونـــزل فيهـــا إمهال من لم يكن له عهد،أو كان له عهد غير موقت،مدة أربعة أشهر،يكون له بعـــدها حكم آخر بحسب موقفه) ومن ثم فهو ليس حكما نهائيا على إطلاقه الذي يؤخذ مـــن نصه مجردا عن هذه الملابسات،ومجردا كذلك عن النصوص التالية لـــه في الـــزمن،وعن التصرفات الواقعية بعده لرسول الله - ﷺ -.ولكن النص كان له نوع مـــن العمـــوم في الحكم في حينه.فقد عمل رسول الله - ﷺ - به - حتى نزلت سورة براءة - ومن عمله به كان صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة..ولقد اتجه بعض الفقهـــاء إلى اعتبـــار الحكم نهائيا ودائما ففسروا الجنوح إلى السلم بقبول أداء الجزية..ولكن هذا لا يتفق مـــع الواقع التاريخي فإن أحكام الجزية نزلت في سورة براءة بعد السنة الثامنة للهجرة،وهـــذه الآية نزلت في السنة الثانية بعد بدر و لم تكن أحكام الجزية موجودة.والأقرب إلى الصحة بمراجعة الأحداث وتواريخ النزول والطبيعة الحركية للمنهج الإسلامي،أن يقال:إن هـــذا الحكم ليس نهائيا وأنه عدل أخيرا بالأحكام النهائية التي نزلت في سورة براءة (التوبـــة) والتي انتهى بها الناس إلى أن يكونوا مع الإسلام:إما محاربين يحـــاربون.وإمـــا مســـلمين تحكمهم شريعة الله.وإما أهل ذمة يؤدون الجزية وهم على عهدهم ما استقاموا..وهـــذه هي الأحكام النهائية التي تنتهي إليها حركة الجهاد الإسلامي.وكل ما عداها هو حالات واقعية يسعى الإسلام إلى تغييرها حتى تنتهي إلى هذه الأوضاع الثلاثة التي تمثل العلاقات النهائية..[٢٨٧٠]

[٢٨٧٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٨٧) ويراجع كتاب العمدة في إعداد االعدة

المبحث الرابع

الضرورات تبيح المحذورات

الْقواعد الْفقْهيّة النّاظمة لأحْكام الضّرورة:

وَضَعَ الْفُقَهَاءُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الْفِقْهِيَّةِ لِضَبْطِ أَحْكَامِ الضَّرُورَةِ،وَتَوْضِيحِ مَعَالِمِهَا الْعَامَّةِ وَتَنْظِيمِ آثَارِهَا،وَأَهَمُّ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ هِيَ:

الْمَشَقَّةُ تَجْلُبُ التَّيْسِيرَ. [2871]

الأَصْلُ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة:١٨٥] وقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج:٧٨] وَيَتَخَرَّجُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ جَمِيعُ رُخَصِ الشَّرْعِ وَتَخْفِيفَاتِهِ.هَذَا وَقَدْ خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ مَا نُصَّ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَعَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى. [2872]

قَال ابْنُ نُجَيْمٍ:الْمَشَقَّةُ وَالْحَرَجُ إِنَّمَا يُعْتَبَرَانِ فِي مَوْضِعٍ لاَ نَصَّ فِيهِ،وَأَمَّا مَعَ النَّصِّ بِخِلاَفِهِ فَلاَ [2873].

إِذَا ضَاقَ الأَْمْرُ اتَّسَعَ:

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنَ الْقَاعِدَةِ الَّتِي قَبْلَهَا وَبَيْنَهُمَا تَقَارُبٌ فِي الْمَآل،وَمَعْنَاهَا أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَتْ مَشَقَّةٌ فِي أَمْرٍ يُرَخَّصُ فِيهِ وَيُوَسَّعُ.وَمِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

أ – شَهَادَةُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْحَمَّامَاتِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي لاَ يَحْضُرُهَا الرِّجَال دَفْعًا لِحَرَجِ ضَيَاعِ الْحُقُوقِ.

ب – قَبُول شَهَادَةِ الْقَابِلَةِ عَلَى الْوِلاَدَةِ ضَرُورَةَ حِفْظِ الْوَلَدِ وَنَسَبِهِ.

ح – إِبَاحَةُ خُرُوجِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مِنْ بَيْتِهَا أَيَّامَ عِدَّتِهَا إِذَا اضْطُرَّتْ لِلاِكْتِسَابِ [2874].

[2871] – غمز عيون البصائر ١ / ٢٤٥ وما بعدها والأشباه للسيوطي ص ٧٦ – ٨٠ .

[2872] – شرح المجلة للآتاسي ١ / ٥٠ .

[2873] – غمز عيون البصائر ١ / ٢٧١ .

الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَات:

قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ النَّصِّ وَهُوَ قَوْلِه تَعَالَى: {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام:١١٩]وَالاضْطِرَارُ:الْحَاجَةُ الشَّدِيدَةُ،وَالْمَحْظُورُ الْمَنْهِيُّ عَنْ فِعْلِه،يَعْنِي أَنَّ الْمَمْنُوعَ شَرْعًا يُبَاحُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ.[٢٨٧٥]

وَهَذِه الْقَاعِدَةُ تَتَعَلَّقُ أَصْلاً بِقَاعِدَةِ (الضَّرَرُ يُزَال) وَمِنْ فُرُوعِهَا:جَوَازُ أَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الْمَخْمَصَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الضَّرُورَاتُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا:

مَعْنَى هَذِه الْقَاعِدَة:أَنَّ كُل فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ جُوِّزَ لِلضَّرُورَةِ فَالتَّجْوِيزُ عَلَى قَدْرِهَا وَلاَ يَتَجَاوَزُ عَنْهَا[٢٨٧٦].

وَمِنْ فُرُوعِهَا:أَنَّ الْكُفَّارَ حَال الْحَرْبِ إِذَا تَتَرَّسُوا بِأَطْفَال الْمُسْلِمِينَ فَلاَ بَأْسَ بِالرَّمْيِ عَلَيْهِمْ لِضَرُورَةِ إِقَامَةِ فَرْضِ الْجِهَادِ،لَكِنَّهُمْ يَقْصِدُونَ الْكُفَّارَ دُونَ الأَطْفَال،وَلِلْفُقَهَاءِ خِلاَفٌ وَتَفْصِيلٌ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ.

مَا جَازَ لِعُذْرٍ بَطَل بِزَوَالِه:

هَذِه الْقَاعِدَةُ مُكَمِّلَةٌ لِلْقَاعِدَةِ السَّابِقَة،فَالْقَاعِدَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ يُعْمَل بِهَا أَثْنَاءَ قِيَامِ الضَّرُورَة،وَهَذِه الْقَاعِدَةُ تُبَيِّنُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ بَعْدَ زَوَال حَال الضَّرُورَة،وَمَعْنَاهَا أَنَّ مَا جَازَ فِعْلُهُ بِسَبَبِ عُذْرٍ مِنَ الأَعْذَارِ،أَوْ عَارِضٍ طَارِئٍ مِنَ الْعَوَارِضِ فَإِنَّهُ تَزُول مَشْرُوعِيَّتُهُ بِزَوَال حَال الْعُذْرِ،لأَنَّ جَوَازَهُ لَمَّا كَانَ بِسَبَبِ الْعُذْرِ فَهُوَ خَلَفٌ عَنْ الأَصْل الْمُتَعَذِّرِ،فَإِذَا زَال الْعُذْرُ أَمْكَنَ الْعَمَل بِالأَصْل،فَلَوْ جَازَ الْعَمَل بِالْخَلَفِ – أَيْضًا – لَلَزِمَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْخَلَفِ وَالأَصْل فَلاَ يَجُوزُ كَمَا لاَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ لِهَذِه الْعِلَّةِ[٢٨٧٧].

الاِضْطِرَارُ لاَ يُبْطِل حَقَّ الْغَيْرِ:

[٢٨٧٤] – شرح المجلة للآتاسي ١ / ٥١، وغمز عيون البصائر ١ / ٢٧٣ .

[٢٨٧٥] – غمز عيون البصائر ١ / ٢٧٥ – ٢٧٦، والأشباه للسيوطي .

[٢٨٧٦] – شرح المجلة للآتاسي ١ / ٥٦، والأشباه للسيوطي ص ٨٤ .

[٢٨٧٧] – شرح المجلة للآتاسي ١ / ٥٩ – ٦٠ .

الاضْطِرَارُ وَإِنْ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ يَقْتَضِي تَغْيِيرَ الْحُكْمِ مِنَ الْحُرْمَةِ إِلَــى الإِْبَاحَــةِ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ،وَفِي بَعْضِهَا التَّرْخِيصُ فِي فِعْلِهِ مَعَ بَقَائِهِ عَلَى الْحُرْمَةِ - كَكَلِمَةِ الْكُفْــرِ - إِلاَّ أَنَّهُ عَلَى كُل حَالٍ لاَ يُبْطِل حَقَّ الْغَيْرِ،وَإِلاَّ لَكَانَ مِنْ قَبِيل إِزَالَةِ الضَّرَرِ بِالضَّرَرِ وَهَــذَا غَيْرُ جَائِزٍ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّهُ لَوِ اضْطُرَّ إِنْسَانٌ بِسَبَبِ الْجُوعِ فَأَكَل طَعَامَ آخَــرَ يَضْــمَنُ قِيمَتَهُ فِي الْقِيمِيَّاتِ وَمِثْلَهُ فِي الْمِثْلِيَّاتِ[٢٨٧٨].

المبحث الخامس

عدم التثميل بالقتلى

قال تعالى:{ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَــنِ اعْتَــدَى عَلَــيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّــهَ وَاعْلَمُــوا أَنَّ اللَّــهَ مَــعَ الْمُــتَّقِينَ } [البقرة:١٩٤]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى حُكْمَ القِتَالِ فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ،وَهِيَ رَجَــبٌ وَذُو القعْــدَةِ وَذُو الحجَّــةِ وَالُمحَرَّمُ،فَالذي يَنْتَهِكُ حُرْمَةَ الشَّهْرِ الحَرَامِ جَزَاؤُهُ أَنْ يُحْرَمَ الضَّمَانَاتِ التي كَفلَهَــا لَــهُ الشَّهْرُ الحَرَامُ،فَقَدْ جَعَلَ اللهُ الأَشْهُرَ الحُرُمَ وَاحَةَ أَمْنٍ تُصَــانُ فِيهــا الــدِّماءُ وَالأَمْــوَالُ وَالحُرُمَاتُ،وَلكِنْ مَنْ أَرَادَ العُدْوَانَ عَلَى الُمسْلِمِينَ فِي الأَشْــهُرِ الحُرُمِ،فَقَــدْ أَجَــازَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ الرَّدَّ عَلَيهِ بِمِثْلِ عُدْوَانِه،بِدُونِ تَجَاوُزٍ وَلاَ مُغَالاَةٍ فِي الُمجَــازَاةِ وَالقِصَــاصِ إِذْ أَمَرَهُمُ اللهُ بِالتَّقْوى،وَذَكَّرهُمْ بِأَنَّهُ مَعَ الُمتَّقِينَ.وَبِمَا أَنَّ الُمشْرِكِينَ مَنَعُوا الرَّسُــولَ ﷺ مِــنْ دُخُولِ مَكَّةَ مُعْتَمِراً فِي شَهْرِ ذِي القعْدَةِ مِنْ سَنَةِ ست لِلْهِجْرَةِ،وَهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ فَــإِنَّهُمْ يَكُونُونَ قَدِ انْتَهَكُوا حُرْمَةَ الشَّهْرِ الحَرَامِ بِالصَّدِّ عَنِ البَيْتِ الحَرَامِ،فَرَجَعَ النَّبِيُّ بَعْدَ أَنِ اتَّفَقَ مَعَهُمْ،وَجَازَاهُمْ عَلَى انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ الحَرَامِ.[٢٨٧٩]

[٢٨٧٨] - شرح المجلة للآتاسي ١ / ٧٦ - ٧٧، والفروق للقرافي ١ / ١٩٦، والقواعد لابن رجب الحنبلي ص ٢٨٦ .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٨/ ٢٠٥)

[٢٨٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠١، بترقيم الشاملة آليا)

عَنِ الْهَيَّاجِ بْنِ عِمْرَانَ،أَنَّ عِمْرَانَ أَبَقَ لَهُ غُلَامٌ،فَجَعَلَ لِلَّهِ عَلَيْهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ،فَأَرْسَلَنِي لِأَسْأَلَ لَهُ فَأَتَيْتُ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ:«كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ،وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ».فَأَتَيْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ»[٢٨٨٠]

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،فَقَالَ:«اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[٢٨٨١]

عقوبة أهل اللقاح والتمثيل بهم:

بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ عُقُوبَاتِ أَهْلِ اللِّقَاحِ

عَنْ أَنَسٍ،{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [المائدة:٣٣] قَالَ:" هُمْ قَوْمٌ مِنْ عُكْلٍ قَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ "

وقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَاسٌ مِنْ عُكْلٍ فَاجْتَوَوَا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا،فَأَتَوْهَا فَقَتَلُوا رُعَاتَهَا،وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ،فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ،فَأُتِيَ بِهِمْ،فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،ثُمَّ لَمْ يَحْسِمْهُمْ"

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَدِمَ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ مِنْ عُكْلٍ فَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ذَوْدٍ لَهُ فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا،فَلَمَّا صَحُّوا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،وَقَتَلُوا وَسَرَقُوا الْإِبِلَ،فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ،فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،وَتُرِكُوا حَتَّى مَاتُوا"

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:قَدِمَ نَاسٌ مِنْ عُرَيْنَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْا،فَقَالَ:" لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى ذَوْدٍ لَنَا فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا " - قَالَ:وَذَكَرَ قَتَادَةُ أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَنْهُ:- " أَبْوَالِهَا ".

[٢٨٨٠] - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٧) صحيح

[٢٨٨١] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢٢)(١٤٠٨) صحيح

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ،وقَالَ:" مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا ".قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا ذِكْرُ الْعُقُوبَةِ مَا كَانَتْ لِمَعْنًى احْتَجْنَا إِلَى ذِكْرِهِمَا مِنْ أَجْلِهِ،سَنَأْتِي بِهِ فِي الْبَابِ الَّذِي يَتْلُو هَذَا الْبَابَ،إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ إِيَّايَ.حَدَّثَ أَنَسٌ،أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ،فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:" أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ تُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا " فَصَحُّوا،فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ،وَطَرَدُوا النَّعَمَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ،فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ،فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ،وَسُمِلَتْ أَعْيُنُهُمْ،ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا،فَقَالَ لَهُمْ:" إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا " فَفَعَلُوا فَصَحُّوا،ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرُّعَاةِ فَقَتَلُوهُمْ ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ"

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَفَرٌ مِنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوهُ،فَوَقَعَ الْمُومُ،وَهُوَ الْبِرْسَامُ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،هَذَا الْوَجَعُ قَدْ وَقَعَ،فَلَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَخَرَجْنَا إِلَى الْإِبِلِ وَكُنَّا فِيهَا،قَالَ:" نَعَمْ،اخْرُجُوا فَكُونُوا فِيهَا " فَخَرَجُوا فَقَتَلُوا أَحَدَ الرَّاعِيَيْنِ،وَذَهَبُوا بِالْإِبِلِ،قَالَ:وَجَاءَ الْآخَرُ وَقَدْ جُرِحَ،فَقَالَ:قَدْ قَتَلُوا صَاحِبِي وَذَهَبُوا بِالْإِبِلِ،وَعِنْدَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ،وَبَعَثَ مَعَهُمْ قَائِفًا،فَقَصَّ آثَارَهُمْ،فَأُتِيَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:دَعَا الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ،أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ لَهُ:مَا أَعْظَمُ عُقُوبَةٍ عَاقَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَحَدَّثَهُ بِالَّذِينَ قَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ،وَأَلْقَاهُمْ بِالْحَرَّةِ،وَلَمْ يُطْعِمْهُمْ وَلَمْ يَسْقِهِمْ حَتَّى مَاتُوا.قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ قَتْلًا لَهُمُ الْقَتْلَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِيهِمْ،بِمَا قَدْ تَقَدَّمَتْ تِلَاوَتُنَا لَهَا فِي هَذَا الْبَابِ.فَاسْتَدَلَّ بَعْضُ النَّاسِ بِذَلِكَ لِمَا كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُهُ فِي الْمُحَارِبِينَ إِذَا أَخَذُوا الْأَمْوَالَ وَقَتَلُوا:إِنَّ الْإِمَامَ فِيهِمْ بِالْخِيَارِ،إِنْ شَاءَ قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ،كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ لَوْ أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ

يَقْتُلُوا،وَإِنْ شَاءَ قَتَلَهُمْ عُقُوبَةً لِلْقَتْلِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ،مِمَّا قَدْ خَالَفَهُ فِي ذَلِكَ أَبُو يُوسُفَ فَقَالَ:لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى قَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ،وَإِنَّمَا سَبِيلُهُ عَلَيْهِمْ قَتْلُهُمْ لَا مَا سِوَى ذَلِكَ،وَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَنَا أَوْلَى مِمَّا قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي هَذَا الْمَعْنَى؛لِأَنَّ الَّذِي إِلَى الْإِمَامِ فِي الْحُدُودِ إِقَامَتُهَا،وَلَيْسَ إِلَيْهِ تَرْكُهَا،وَلَمَّا كَانَ لَهُ عِنْدَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى تَرْكُ قَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالِاكْتِفَاءُ بِالْقَتْلِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ إِقَامَتُهُ فِيهِمْ،عَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ مَا لَهُ تَرْكُهُ لَيْسَ مِنَ الْحُدُودِ،وَإِنَّمَا عَلَيْهِ إِقَامَتُهُ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ مُجَاوَزَتُهُ إِلَى غَيْرِهِ.وَكَانَ مِنْ حُجَّتِنَا لِمَنِ احْتَجَّ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ بِمَا ذَكَرْنَا عَلَى مُخَالَفَتِهِ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْهُ مَا كَانَ مِنْهُ فِي أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ فِيهِمْ مَا كَانَ،قَبْلَ نَهْيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهُ عَنِ الْمُثْلَةِ بِمَنْ حَلَّ لَهُ قَتْلُهُ،فَكَانَ لَهُ حِينَئِذٍ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ حَلَّ لَهُ قَتْلُهُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَتَرْكِ حَسْمِهَا،وَمَنْعِ أَهْلِهَا – حَلَّ لَهُ فِي أُولَئِكَ الْقَوْمِ – مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى يَمُوتُوا بِذَلِكَ،فَفِعْلُ ذَلِكَ بِهَؤُلَاءِ قَتْلٌ مِنْهُ لَهُمْ بِهِ لَا لِأَنَّهُ حَدٌّ كَانَ عَلَيْهِمْ فِي أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ أَلَا تَرَى أَنَّهُ ﷺ قَدْ سَمَلَ أَعْيُنَهُمْ إِرَادَةً مِنْهُ بِهِ قَتْلَهُمْ لَا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ حَدٍّ عَلَيْهِمْ فِيمَا دُونَ أَنْفُسِهِمْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ فِي أَعْضَائِهِمْ،ثُمَّ مَنَعَ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بِنَهْيِهِ ﷺ،عَنِ الْمُثْلَةِ

فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُنَا،فَيَأْمُرُنَا بِالصَّدَقَةِ،وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:حَدَّثَنَا سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ قَالَ:قَلَّ مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً إِلَّا أَمَرَنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ،وَنَهَانَا فِيهَا عَنِ الْمُثْلَةِ

وقَالَ سَمُرَةُ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَلَّ مَا قَامَ فِينَا يَخْطُبُ إِلَّا أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ،وَنَهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ "

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَكَانَ ذَلِكَ نَسْخًا لِلْمُثْلَةِ،وَعَادَ الْقَتْلُ الْوَاجِبُ بِمِثْلِ مَا كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ مُبَاحًا اسْتِعْمَالُهُ بِالْآيَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِيهِمْ مَنْسُوخًا مِنْهُ الْمُثْلَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ كَانَتْ فِي ذَلِكَ،وَقَدْ رَوَى بَعْضُ النَّاسِ حَدِيثًا فِيهِ مِنْ كَلَامِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ حَرْفٌ زَائِدٌ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَدْ رَوَيْنَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ وَهُوَ ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرِّعَاءِ.قَالَ أَبُو

جَعْفَرٍ فَكَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِ أَنَسٍ مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِيهِ عَنْهُ،وَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْدَنَا مُنْكَرٌ؛لِأَنَّ فِيمَا قَدْ تَقَدَّمَتْ رِوَايَتُنَا لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ أَحَدَ رَاعِيَيْ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي كَانَ فِي تِلْكَ الْإِبِلِ لَمَّا جَاءَهُ قَالَ:قَدْ قَتَلُوا صَاحِبِي،وَفِي ذَلِكَ مَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ كَانَ مَسْمُولَ الْعَيْنِ،وَلَا اخْتِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيمَا يُقَامُ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْهُ مِثْلُ الَّذِي كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ أَنَّهُ حَدٌّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُحَارَبَةِ الَّتِي كَانَتْ لَا حَقٌّ لِلَّذِينَ حُورِبُوا بِهَا،وَأَنَّ الَّذِينَ حُورِبُوا بِهَا لَوْ عَفَا أَوْلِيَاؤُهُمْ عَمَّا كَانَ أَتَى إِلَى أَصْحَابِهِمْ أَنَّ عَفْوَهُمْ بَاطِلٌ.وَفِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ فَعَلَ فِي أُولَئِكَ الْقَوْمِ مَا قَدْ فَعَلَ قِصَاصًا بِمَا فَعَلُوا،وَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ فَعَلَهُ بِهِمْ لِمَا أَوْجَبَتْهُ عَلَيْهِمُ الْمُحَارَبَةُ لَا لِمَا سِوَاهُ،وَلَا اخْتِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلِمْنَاهُ فِي الْمُحَارِبِينَ:لَوْ قَطَعُوا الْآذَانَ،وَالْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ،حَتَّى لَمْ يُبْقُوا لِمَنْ حَارَبَ أُذُنًا،وَلَا يَدًا،وَلَا رِجْلًا،أَنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ،وَأَنَّهُ يُقْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى مَا فِي الْآيَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ فِي الْمُحَارَبَةِ الَّتِي قَدْ تَقَدَّمَتْ تِلَاوَتُنَا لَهَا فِي هَذَا الْبَابِ،وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى فَسَادِ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَيْنَا وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ"[٢٨٨٢]

باب الرّجل يقْتل رجلًا كيْف يقْتل ؟

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ «يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ صَبِيٍّ بَيْنَ حَجَرَيْنِ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ» قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَقَلَّدُوهُ وَقَالُوا:يُقْتَلُ كُلُّ قَاتِلٍ بِمَا قُتِلَ بِهِ.وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ فَقَالُوا:كُلُّ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ قَوَدٌ لَمْ يُقْتَلْ إِلَّا بِالسَّيْفِ.وَقَالُوا:هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَيْتُمُوهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ رَأَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَاتِلَ يَجِبُ قَتْلُهُ لِلَّهِ إِذْ كَانَ إِنَّمَا قَتَلَ عَلَى مَالٍ قَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ " عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا،وَرَضَخَ رَأْسَهَا.فَأَتَى بِهَا أَهْلُهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ وَقَدْ أُصْمِتَتْ وَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ قَتَلَكِ؟ أَفُلَانٌ؟ لِغَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَيْ:لَا.فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرَ الَّذِي قَتَلَهَا،فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَيْ:لَا فَقَالَ فَفُلَانٌ

[٢٨٨٢] - شرح مشكل الآثار (٥/ ٦٢)(١٨١٠- ١٨٢٣)

لِقَاتِلِهَا،فَأَشَارَتْ أَيْ:نَعَمْ.فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُضَّ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ " فَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ دَمَ ذَلِكَ الْيَهُودِيِّ قَدْ وَجَبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَجِبُ دَمُ قَاطِعِ الطَّرِيقِ لِلَّهِ تَعَالَى.فَكَانَ لَهُ أَنْ يُقْتَلَ كَيْفَ شَاءَ بِسَيْفٍ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ وَالْمُثْلَةُ حِينَئِذٍ مُبَاحَةٌ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْعُرَنِيِّينَ.فَإِنَّهُ جاء عَنْ أَنَسٍ قَالَ:«قَدِمَ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ مِنْ عُكْلٍ فَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ذَوْدٍ لَهُ فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا.فَلَمَّا صَحُّوا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَقَتَلُوا رَاعِيَ الْإِبِلِ وَسَاقُوا الْإِبِلَ.فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ فَأُخِذُوا فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ حَتَّى مَاتُوا».

وعَنْ أَنَسٍ،{ «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ» } [المائدة:٣٣] قَالَ:هُمْ مِنْ عُكْلٍ قَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ "

وعَنْ أَنَسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ حَتَّى مَاتُوا»

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:" أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ نَفَرٌ مِنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوهُ قَالَ:فَوَقَعَ النَّوْمُ وَهُوَ الْبِرْسَامُ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،هَذَا الْوَجَعُ قَدْ وَقَعَ،فَلَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَخَرَجْنَا إِلَى الْإِبِلِ فَكُنَّا فِيهَا؟ يَعْنِي:قَالَ نَعَمِ اخْرُجُوا فَكُونُوا فِيهَا.قَالَ:فَخَرَجُوا فَقَتَلُوا أَحَدَ الرَّاعِيَيْنِ وَذَهَبُوا بِالْإِبِلِ قَالَ:وَجَاءَ الْآخَرُ وَقَدْ خَرَجَ،فَقَالَ:قَدْ قَتَلُوا صَاحِبِي وَذَهَبُوا بِالْإِبِلِ.قَالَ:وَعِنْدَهُ شُبَّانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ.قَالَ:فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمِ الشُّبَّانَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَعَثَ مَعَهُمْ قَائِفًا فَقَصَّ آثَارَهُمْ فَأَتَى بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ " فَفَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْعُرَنِيِّينَ مَا فَعَلَ بِهِمْ مِنْ هَذَا فَلَمَّا حَلَّ لَهُ مِنْ سَفْكِ دِمَائِهِمْ فَكَانَ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُمْ كَيْفَ أَحَبَّ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ تَمْثِيلًا بِهِمْ لِأَنَّ الْمُثْلَةَ كَانَتْ حِينَئِذٍ مُبَاحَةً ثُمَّ نُسِخَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهَا.فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فَعَلَ بِالْيَهُودِيِّ مَا فَعَلَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بَعْدَ نَسْخِ الْمُثْلَةِ.وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَرَ مَا وَجَبَ عَلَى الْيَهُودِيِّ مِنْ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَكِنَّهُ رَآهُ وَاجِبًا لِأَوْلِيَاءِ الْجَارِيَةِ فَقَتَلَهُ لَهُمْ.فَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ قَتَلَهُ كَمَا فَعَلَ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي كَانَ وَجَبَ عَلَيْهِ.وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الَّذِي كَانَ وَجَبَ عَلَيْهِ هُوَ سَفْكُ الدَّمِ بِأَيِّ شَيْءٍ مِمَّا شَاءَ الْوَلِيُّ بِسَفْكِهِ بِهِ فَاخْتَارُوا الرَّضْخَ فَفَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.هَذِهِ وُجُوهٌ يَحْتَمِلُهَا هَذَا

الْحَديثُ وَلَا دَلَالَةَ مَعَنَا يَدُلُّنَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَرَادَ بَعْضَهَا دُونَ بَعْضٍ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّــهُ قَتَلَ ذَلكَ الْيَهُوديَّ بخلَاف مَا كَانَ قَتَلَ به الْجَاريَةَ

فعَنْ أَنَس،«أَنَّ رَجُلًا،منَ الْيَهُود رَضَخَ رَأْسَ جَاريَة عَلَى حُليٍّ لَهَا فَأَمَرَ بــه النَّبــيُّ ﷺ أَنْ يُرْجَمَ حَتَّى قُتلَ» ففي هَذَا الْحَديث أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَــانَ قَتَــلَ ذَلــكَ الْيَهُــوديَّ رَجْمًا،بقَتْله الْجَاريَةَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا في هَذَا الْأَثَر وَفيمَا نُقَدِّمُهُ منَ الْآثَار وَهُــوَ رَضْــخُهُ رَأْسَهَا،وَالرَّجْمُ قَدْ يُصيبُ الرَّأْسَ وَغَيْرَ الرَّأْس فَقَدْ قَتَلَهُ بغَيْر مَا كَانَ قَتَلَ به الْجَاريَةَ.فَــدَلَّ ذَلكَ أَنَّ مَا كَانَ فَعَلَ كَانَ حَلَالًا يَوْمَئذ ثُمَّ نُسخَ بنَسْخِ الْمُثْلَة.فَممَّا رُويَ عَنْ رَسُــول الله ﷺ في نَسْخِ الْمُثْلَة مَا قَدْ جاء عَنْ عكْرِمَةَ قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا:نَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنِ الْمُجَثَّمَة وَالْمُجَثَّمَة:الشَّاةُ تُرْمَى بالنَّبْلِ حَتَّى تُقْتَلَ

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ «لَا تَتَّخذُوا شَيْئًا فيه الرُّوحُ غَرَضًا».

وعَنْ سَعيد بْنِ جُبَيْر أَوْ مُجَاهد قَالَ مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بدَجَاجَةٍ قَدْ نُصبَتْ تُرْمَى فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَنْهَى أَنْ يُمَثَّلَ بالْبَهَائم "

وعَنِ ابْنِ يَعْلَى،أَنَّهُ قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ عَبْد الرَّحْمَنِ بْن خَالد بْنِ الْوَليد فَأُتيَ بأَرْبَعَة أَعْلَاجٍ منَ الْعَدُوِّ فَأَمَرَ بهمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقُتلُوا صَبْرًا بالنَّبْل.فَبَلَغَ ذَلــكَ أَبَــا أَيُّــوبَ الْأَنْصَــاريَّ فَقَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ «يَنْهَى عَنْ قَتْلِ الصَّبْر» وَالَّذي نَفْسي بيَده لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ مَا صَبَرْتُهَا.فَبَلَغَ ذَلكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رقَابٍ ".

وعَنْ أَبي أَيُّوبَ الْأَنْصَاريِّ،«أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَنْ صَبْرِ الدَّابَّة» قَالَ أَبُو أَيُّوبَ:وَلَوْ كَانَتْ دَجَاجَةً مَا صَبَرْتُهَا

وعَنْ عمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ:«كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُنَا فَيَأْمُرُنَا بالصَّدَقَة وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَة»

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:ثنا سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ،قَالَ:قَلَّمَا خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةً إِلَّا أَمَرَنَــا فيهَا بالصَّدَقَة وَنَهَانَا فيهَا عَنِ الْمُثْلَة "

وقَالَ سَمُرَةُ «إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَلَّمَا قَامَ فينَا يَخْطُبُ إِلَّا أَمَرَنَا بالصَّدَقَة وَنَهَانَا عَنِ الْمُثْلَة»

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالكٍ قَالَ:«نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائمُ»

وعَنِ الْمُغيرَة بْنِ شُعْبَةَ،«أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْمُثْلَة»

وعَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:أَحْسَنُ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الْإِيمَانِ "

وعَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ مِثْلَهُ فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذِهِ الْآثَارِ نَسْخُ الْمُثْلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُبَاحَةً عَلَى مَا قَدْ رَوَيْنَاهُ فِي حَدِيثِ الْعُرَنِيِّينَ.فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:لَمْ يَدْخُلْ مَا اخْتَلَفْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْقِصَاصِ فِي هَذَا لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ { «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» } [النحل:١٢٦] قِيلَ لَهُ:لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يُرَادُ بِهَا هَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا أُرِيدَ بِهَا مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:لَمَّا قُتِلَ حَمْزَةُ وَمُثِّلَ بِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لَئِنْ ظَفِرْتُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ.فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ { «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» } [النحل:١٢٦] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَلْ نَصْبِرُ "

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،" أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى حَمْزَةَ حِينَ اسْتُشْهِدَ فَنَظَرَ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَنْظُرْ قَطُّ إِلَى أَمْرٍ أَوْجَعَ لِقَلْبِهِ مِنْهُ.فَقَالَ:يَرْحَمُكَ اللهُ إِنْ كُنْتَ لَوَصُولًا لِلرَّحِمِ،فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ،وَلَوْلَا حُزْنٌ مِنْ بَعْدِكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدَعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ أَفْوَاجٍ شَتَّى وَايْمُ اللهِ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ.فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالنَّبِيُّ ﷺ وَاقِفٌ بَعْدُ بِخَوَاتِيمِ سُورَةِ النَّحْلِ {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ "} [النحل:١٢٦] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَصَبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ " فَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَا فِي الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْتُ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ»

وعَنِ النُّعْمَانِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ» فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ أَنَّ الْقَوَدَ لِكُلِّ قَتِيلٍ مَا كَانَ،لَا يَكُونُ إِلَّا بِالسَّيْفِ وَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَيْضًا

فعَنْ جَابِرٍ،«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِجِرَاحٍ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَأْنُوا بِهَا سَنَةً»

وعَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «لَا يُسْتَقَادُ مِنَ الْجُرْحِ حَتَّى يَبْرَأَ».فَلَوْ كَانَ يُفْعَلُ بِالْجَانِي كَمَا فَعَلَ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْمَقَالَةِ الْأُولَى لَمْ يَكُنْ لِلاسْتِينَاءِ مَعْنًى لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْقَاطِعِ قَطْعُ يَدِهِ إِنْ كَانَتْ جِنَايَتُهُ قَطْعًا،بَرَأَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ أَوْ مَاتَ.فَلَمَّا ثَبَتَ الاسْتِينَاءُ

لِيُنْظَرَ مَا يَئُولُ إلَيْهِ الْجِنَايَةُ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ مَا يَجِبُ فِيهِ الْقِصَاصُ هُوَ مَا يَئُولُ إلَيْهِ الْجِنَايَةُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ.فَإِنْ طَعَنَ طَاعِنٌ فِي يَحْيَى بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ وَأَنْكَرَ عَلَيْنَا الِاحْتِجَاجَ بِحَدِيثِهِ فَإِنَّ عَلِيَّ بْنَ الْمَدِينِيِّ قَدْ ذَكَرَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ أَحَبُّ إلَيْهِ فِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ.فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بِأَنْ يُحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَأَنْ يُرِيحُوا مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ ذَبْحَهُ مِنَ الْأَنْعَامِ فَمَا أَحَلَّ لَهُمْ قَتْلَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ فَهُوَ أَحْرَى أَنْ يُفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ.فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:لَا يُسْتَأْنَى بُرْءُ الْجِرَاحِ وَخَالَفَ مَا ذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ فَكَفَى بِهِ جَهْلًا فِي خِلَافِهِ كُلُّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ.وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّا نُفْسِدُ قَوْلَهُ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ وَذَلِكَ إنَّا رَأَيْنَا رَجُلًا لَوْ قَطَعَ يَدَ رَجُلٍ خَطَأً فَبَرَأَ مِنْهَا وَجَبَتْ عَلَيْهِ دِيَةُ الْيَدِ وَلَوْ مَاتَ مِنْهَا وَجَبَتْ عَلَيْهِ دِيَةُ النَّفْسِ وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِي الْيَدِ شَيْءٌ وَدَخَلَ مَا كَانَ يَجِبُ فِي الْيَدِ فِيمَا وَجَبَ فِي النَّفْسِ.فَصَارَ الْجَانِي كَمَنْ قَتَلَ وَلَيْسَ كَمَنْ قَطَعَ وَصَارَتِ الْيَدُ لَا يَجِبُ لَهَا حُكْمٌ إلَّا وَالنَّفْسُ قَائِمَةٌ وَلَا يَجِبُ لَهَا حُكْمٌ إذَا كَانَتِ النَّفْسُ تَالِفَةً.فَصَارَ النَّظَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ إذَا قَطَعَ يَدَهُ عَمْدًا فَإِنْ بَرَأَ فَالْحُكْمُ لِلْيَدِ وَفِيهَا الْقَوَدُ وَإِنْ مَاتَ مِنْهَا فَالْحُكْمُ لِلنَّفْسِ وَفِيهَا الْقِصَاصُ لَا فِي الْيَدِ قِيَاسًا وَنَظَرًا عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ حُكْمِ الْخَطَأِ.وَيَدْخُلُ أَيْضًا عَلَى مَنْ يَقُولُ:إنَّ الْجَانِيَ يُقْتَلُ كَمَا قَتَلَ أَنْ يَقُولَ إذَا رَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ أَنْ يَنْصِبَ الرَّامِيَ فَيَرْمِيَهُ حَتَّى يَقْتُلَهُ،وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صَبْرِ ذِي الرُّوحِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْبَرَ أَحَدٌ لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ وَلَكِنْ يُقْتَلُ قَتْلًا لَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ النَّهْيِ.أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ نَكَحَ رَجُلًا فَقَتَلَهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ لِلْوَلِيِّ أَنْ يَفْعَلَ بِالْقَاتِلِ كَمَا فَعَلَ وَلَكِنْ يَجِبُ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ لِأَنَّ نِكَاحَهُ إيَّاهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ.فَكَذَلِكَ صَبْرُهُ إيَّاهُ فِيمَا وَصَفْنَا حَرَامٌ عَلَيْهِ وَلَكِنْ لَهُ قَتْلُهُ كَمَا يُقْتَلُ مَنْ حَلَّ دَمُهُ بِرِدَّةٍ أَوْ بِغَيْرِهَا.هَذَا هُوَ النَّظَرُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.غَيْرَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ لَا يُوجِبُ الْقَوْدَ عَلَى مَنْ قُتِلَ بِحَجَرٍ وَسَنُبَيِّنُ قَوْلَهُ هَذَا وَالْحُجَّةَ لَهُ فِي بَابِ «شِبْهُ الْعَمْدِ» إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى"[2883]

كراهة نقل الرؤوس والمثلة بالقتلى

قال ابن قدامة:" يُكْرَهُ نَقْلُ رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ،وَالْمُثْلَةُ بِقَتْلَاهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ لِمَا رَوَى سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ،قَالَ:«كَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ،وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ» وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:«إنَّ أَعَفَّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الْإِيمَانِ» رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُد

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ،عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ –.قَالَ:«إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ» رَوَاهُ النَّسَائِيّ

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،بِرَأْسِ الْبِطْرِيقِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنَا.قَالَ:فَاسْتِنَانٌ بِفَارِسَ وَالرُّومِ،لَا يُحْمَلُ إلَيَّ رَأْسٌ،فَإِنَّمَا يَكْفِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:لَمْ يُحْمَلْ إلَى النَّبِيِّ – ﷺ – رَأْسٌ قَطُّ،وَحُمِلَ إلَى أَبِي بَكْرٍ رَأْسٌ فَأَنْكَرَ،وَأَوَّلُ مَنْ حُمِلَتْ إلَيْهِ الرُّءُوسُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَيُكْرَهُ رَمْيُهَا فِي الْمَنْجَنِيقِ،نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ وَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ جَازَ،لِمَا رَوَيْنَا،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ حِينَ حَاصَرَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ،ظَفِرَ بِرَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،فَأَخَذُوا رَأْسَهُ،فَجَاءَ قَوْمُهُ عَمْرًا مُغْضَبِينَ،فَقَالَ لَهُمْ عَمْرٌو خُذُوا رَجُلًا مِنْهُمْ فَاقْطَعُوا رَأْسَهُ،فَارْمُوا بِهِ إلَيْهِمْ فِي الْمَنْجَنِيقِ،فَفَعَلُوا ذَلِكَ،فَرَمَى أَهْلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ رَأْسَ الْمُسْلِمِ إلَى قَوْمِهِ.[2884]

قتْل الرّجل بالْمرْأة والْقتْل بالْمثقّل وهلْ يمثّل بالْقاتل إذا مثّل أمْ لا ؟

[2883] – شرح معاني الآثار (٣/ ١٧٩) بَابُ الرَّجُلِ يَقْتُلُ رَجُلًا كَيْفَ يُقْتَلُ؟

[2884] – المغني لابن قدامة (٩/ ٣٢٦)((٧٦٣٨)

قَوْلُهُ:(رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ) فِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ " فَقَتَلَهَا بِحَجَرٍ فَجِيءَ بِهَا إلَى النَّبِيِّ - ﷺ - وَبِهَا رَمَقٌ " وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى «قَتَلَ جَارِيَةً مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى حُلِيٍّ لَهَا ثُمَّ أَلْقَاهَا فِي قَلِيبٍ وَرَضَخَ رَأْسَهَا بِالْحِجَارَةِ،فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُرْجَمَ حَتَّى يَمُوتَ،فَرُجِمَ حَتَّى مَاتَ» وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ.

وَحَكَى ابْنُ الْمُنْذِرِ الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ إلَّا رِوَايَةً عَنْ عَلِيٍّ،وَعَنْ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ،وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ،وَرُوِيَ فِي الْبَحْرِ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ وَمَالِكٍ وَأَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ وَإِنَّمَا تَجِبُ الدِّيَةُ،وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيَّ وَالْخَطَّابِيُّ.وَحَكَى هَذَا الْقَوْلَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ عَنْ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ حَكَاهُ صَاحِبُ الْبَحْرِ عَنْهُمْ وَلَكِنَّهُ قَالَ:وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ،وَلَمْ يَقُلْ:وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْبَحْرِ.

وَقَدْ أَشَارَ السَّعْدُ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الْكَشَّافِ إلَى أَنَّ الرِّوَايَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا الزَّمَخْشَرِيّ وَهْمٌ مَحْضٌ.

قَالَ:وَلَا يُوجَدُ فِي كُتُبِ الْمَذْهَبَيْنِ،يَعْنِي مَذْهَبَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ تَرَدُّدٌ فِي قَتْلِ الذَّكَرِ بِالْأُنْثَى انْتَهَى.وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ أَنَّهُ قَالَ:كَانَ مَنْ أَدْرَكْتُهُ مِنْ فُقَهَائِنَا الَّذِينَ يُنْتَهَى إلَى قَوْلِهِمْ مِنْهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ وَسُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ فِي مَشْيَخَةٍ جُلَّةٍ مِنْ سِوَاهُمْ مِنْ نُظَرَائِهِمْ أَهْلُ فِقْهٍ وَفَضْلٍ،أَنَّ الْمَرْأَةَ تُقَادُ مِنْ الرَّجُلِ عَيْنًا بِعَيْنٍ وَأُذُنًا بِأُذُنٍ،وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْجِرَاحِ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ قَتَلَهَا قُتِلَ بِهَا.وَرَوَيْنَاهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ وَغَيْرِهِ وَعَنْ النَّخَعِيّ وَالشَّعْبِيِّ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ:وَرَوَيْنَا عَنْ الشَّعْبِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ خِلَافَهُ فِيمَا دُونَ النَّفْسِ.وَاخْتَلَفَ الْجُمْهُورُ هَلْ يَتَوَفَّى وَرَثَةُ الرَّجُلِ مِنْ وَرَثَةِ الْمَرْأَةِ أَمْ لَا؟ فَذَهَبَ الْهَادِي وَالْقَاسِمُ وَالنَّاصِرُ وَأَبُو الْعَبَّاسِ وَأَبُو طَالِبٍ إلَى أَنَّهُمْ يَتَوَفَّوْنَ نِصْفَ دِيَةِ الرَّجُلِ،وَحَكَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عُثْمَانَ الْبَتِّيِّ،وَحَكَاهُ أَيْضًا السَّعْدُ فِي حَاشِيَةِ الْكَشَّافِ عَنْ مَالِكٍ.وَذَهَبَتْ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وَالْمُؤَيَّدُ بِاَللَّهِ وَالْإِمَامُ يَحْيَى إلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ وَلَا تَوْفِيَةَ.وَقَدْ احْتَجَّ الْقَائِلُونَ

بِثُبُوتِ الْقِصَاصِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة:٤٥].وَيُجَابُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِكَايَةٌ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا} [المائدة:٤٥] أَيْ فِي التَّوْرَاةِ.وَقَدْ صَرَّحَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ بِأَنَّهَا وَارِدَةٌ لِحِكَايَةِ مَا كُتِبَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى أَهْلِهَا،فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مُفَسَّرَةً أَوْ مُقَيَّدَةً أَوْ مُخَصَّصَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى} [البقرة:١٧٨] وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى اعْتِبَارِ الْمُوَافَقَةِ ذُكُورَةً وَأُنُوثَةً وَحُرِّيَّةً.

وَقَدْ أَجَابَ السَّعْدُ عَنْ هَذَا فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الْكَشَّافِ بِوُجُوهٍ:الْأَوَّلُ:أَنَّ الْقَوْلَ بِالْمَفْهُومِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَا يَظْهَرَ لِلْقَيْدِ فَائِدَةٌ،وَهَهُنَا الْفَائِدَةُ أَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ لِذَلِكَ.وَالثَّانِي:أَنَّهُ لَوْ اُعْتُبِرَ ذَلِكَ لَزِمَ أَنْ لَا تُقْتَلَ الْأُنْثَى بِالذَّكَرِ نَظَرًا إِلَى مَفْهُومِ الْأُنْثَى،قَالَ:وَهَذَا يَرُدُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَيْضًا وَيُدْفَعُ بِأَنَّهُ يُعْلَمُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.وَالثَّالِثُ:أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِالْمَفْهُومِ فِي مُقَابَلَةِ الْمَنْطُوقِ الدَّالِّ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ كَيْفَمَا كَانَتْ.لَا يُقَالُ:تِلْكَ حِكَايَةٌ عَمَّا فِي التَّوْرَاةِ لَا بَيَانٌ لِلْحُكْمِ فِي شَرِيعَتِنَا.لِأَنَّا نَقُولُ:شَرَائِعُ مَنْ قَبْلَنَا لَا سِيَّمَا إِذَا ذُكِرَتْ فِي كِتَابِنَا حُجَّةٌ،وَكَمْ مِثْلُهَا فِي أَدِلَّةِ أَحْكَامِنَا حَتَّى يَظْهَرَ النَّاسِخُ،وَمَا ذُكِرَ هُنَا يَعْنِي فِي الْبَقَرَةِ يَصْلُحُ مُفَسِّرًا فَلَا يُجْعَلُ نَاسِخًا،وَأَمَّا أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ يَعْنِي آيَةَ الْمَائِدَةِ لَيْسَتْ نَاسِخَةً لِهَذِهِ فَلِأَنَّهَا مُفَسَّرَةٌ بِهَا فَلَا تَكُونُ هِيَ مَنْسُوخَةً بِهَا.

وَدَلِيلٌ آخَرُ عَلَى عَدَمِ النَّسْخِ أَنَّ تِلْكَ،أَعْنِي النَّفْسَ بِالنَّفْسِ حِكَايَةٌ لِمَا فِي التَّوْرَاةِ،وَهَذِهِ أَعْنِي {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} [البقرة:١٧٨]...إِلَخْ،خِطَابٌ لَنَا وَحُكْمٌ عَلَيْنَا فَلَا تَرْفَعُهَا تِلْكَ،وَإِلَى هَذَا أَشَارَ يَعْنِي الزَّمَخْشَرِيّ بِقَوْلِهِ:وَلِأَنَّ تِلْكَ عَطْفًا عَلَى مَضْمُونِ قَوْلِهِ،وَيَقُولُونَ:هِيَ مُفَسِّرَةٌ،لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ:إِنَّ الْمَحْكِيَّ فِي كِتَابِنَا مِنْ شَرِيعَةِ مَنْ قَبْلَنَا بِمَنْزِلَةِ الْمَنْصُوصِ الْمُقَرَّرِ فَيَصْلُحُ نَاسِخًا،وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ كَوْنِهِ مُفَسَّرًا إِنَّمَا يَتِمُّ لَوْ كَانَ قَوْلُنَا النَّفْسُ بِالنَّفْسِ مُبْهَمًا وَلَا إِبْهَامَ بَلْ هُوَ عَامٌّ،وَالتَّنْصِيصُ عَلَى بَعْضِ الْأَفْرَادِ لَا يَدْفَعُ الْعُمُومَ سِيَّمَا وَالْخَصْمُ يَدَّعِي تَأَخُّرَ الْعَامِّ حَيْثُ يَجْعَلُهُ نَاسِخًا،لَكِنْ يَرُدّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ رَفْعُ شَيْءٍ مِنْ الْحُكْمِ السَّابِقِ بَلْ إِثْبَاتُ زِيَادَةِ حُكْمٍ آخَرَ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ:إِنَّ فِي قَوْلِهِ:{الْحُرُّ بِالْحُرِّ}

[البقرة:١٧٨] الْآيَةُ،دَلَالَةٌ عَلَى وُجُوبِ اعْتِبَارِ الْمُسَاوَاةِ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالذُّكُورَةِ دُونَ الـرِّقِّ وَالْأُنُوثَةِ انْتَهَى كَلَامُ السَّعْدِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الاسْتِدْلَالَ بِالْقُرْآنِ عَلَى قَتْلِ الْحُرِّ بِالْعَبْدِ أَوْ عَدَمِهِ أَوْ قَتْلِ الذَّكَرِ بِالْـأُنْثَى أَوْ عَدَمِهِ لَا يَخْلُو عَنْ إشْكَالٍ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الظَّنِّ الْحَاصِلِ بِالِاسْتِدْلَالِ،فَالْأَوْلَى التَّعْوِيلُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ الْأَحَادِيثِ الْقَاضِيَةِ بِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ،وَعَلَى مَا وَرَدَ مِـنْ الْأَحَادِيـثِ وَالْآثَارِ الْقَاضِيَةِ بِأَنَّهُ يُقْتَلُ الذَّكَرُ بِالْأُنْثَى.مِنْهَا حَدِيثُ الْبَابِ وَإِنْ كَانَ لَـا يَخْلُـو عَـنْ إشْكَالٍ،لِأَنَّ قَتْلَ الذَّكَرِ الْكَافِرِ بِالْأُنْثَى الْمُسْلِمَةِ لَا يَسْتَلْزِمُ قَتْلَ الذَّكَرِ الْمُسْلِمِ بِهَـا لِمَـا بَيْنَهُمَا مِنْ التَّفَاوُتِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا مَا أَسْلَفْنَا مِنْ الْأَدِلَّةِ الْقَاضِيَةِ بِأَنَّهُ لَا يُقْتَـلُ الْمُسْـلِمُ بِالْكَافِرِ.[٢٨٨٥]

المبحث السادس

الخلاصة في أحكام المثلة

التَّعْرِيفُ:

الْمُثْلَةُ:بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّ الثَّاءِ أَوْ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الثَّاءِ -:الْعُقُوبَةُ وَالتَّنْكِيل.

قَال ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ:الْمُثْلَةُ الْعُقُوبَةُ الْمُبِينَةُ مِنَ الْمُعَاقَبِ شَيْئًا.وَهُوَ تَغْيِيرُ الصُّورَةِ،فَتَبْقَى قَبِيحَةً مِنْ قَوْلِهِمْ:مَثَّل فُلاَنٌ بِفُلاَنٍ:إِذَا قَبَّحَ صُورَتَهُ إِمَّا بِقَطْعِ أُذُنِهِ أَوْ جَدْعِ أَنْفِهِ أَوْ سَمْل عَيْنَيْهِ أَوْ بَقْرِ بَطْنِهِ،هَذَا هُوَ الأَْصْل،ثُمَّ يُقَال لِلْعَارِ الْبَاقِي وَالْخِزْيِ اللاَّزِمِ مُثْلَةٌ.

وَفِي التَّنْزِيل:{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد:٦].

[٢٨٨٥] - نيل الأوطار (٧/ ٢٣)

قَال الرَّازِيُّ:مَعْنَى الآْيَة:وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ الَّذِي لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِه،وَقَدْ عَلِمُوا مَا نَــزَل مِنْ عُقُوبَاتِنَا بِالأُْمَمِ الْخَالِيَة فَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَا،وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْدَعَهُمْ خَوْفُ ذَلِــكَ عَــنِ الْكُفْرِ اعْتِبَارًا بِحَال مَنْ سَبَقَ[2886].

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الْمُثْلَةُ:الْعُقُوبَةُ الشَّنِيعَةُ كَرَضِّ الرَّأْسِ وَقَطْعِ الأُْذُنِ أَوِ الأَْنْفِ[2887].

الأَْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

الْعَذَابُ:

هُوَ فِي أَصْل اللُّغَة:الضَّرْبُ الشَّدِيدُ،ثُمَّ اسْتُعْمِل فِي كُل عُقُوبَة مُؤْلِمَة.

وَفِي الاصْطِلاَحِ قَال الرَّاغِبُ الأَْصْفَهَانِيُّ:الْعَذَابُ هُوَ الإِْيجَاعُ الشَّدِيدُ [2888] وَالْمُثْلَةُ نَــوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ وَهِيَ أَخَصُّ مِنْهُ.

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَة إِلَــى أَنَّ الْمُثْلَــةَ ابْتِــدَاءً بِــالْحَيِّ حَرَامٌ،وَبِالإِْنْسَــانِ مَيِّتًــا كَذَلِكَ[2889]،وَاسْتَدَلُّوا بِمَا روي عَنِ الْهَيَّاجِ بْنِ عِمْرَانَ،أَنَّ عِمْرَانَ أَبَقَ لَهُ غُلَامٌ،فَجَعَلَ لِلَّــه عَلَيْه لَئِنْ قَدَرَ عَلَيْه لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ،فَأَرْسَلَنِي لِأَسْــأَلَ لَــهُ فَأَتَيْــتُ سَــمُرَةَ بْــنَ جُنْــدُبٍ فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ:«كَانَ نَبِيُّ اللَّه ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَة،وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَة».فَأَتَيْتُ عِمْرَانَ بْــنَ حُصَيْنٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَة وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَة»[2890]

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ،قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي سَرِيَّة فَقَالَ:«سِيرُوا بِاسْمِ اللَّه،وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[2891]

[2886] – لسان العرب والمعجم الوسيط، وتفسير الرازي ١٩ / ١١ .

[2887] – الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٩ .

[2888] – المصباح المنير والمفردات للراغب الأصفهاني .

[2889] – المبسوط ١٠ / ٥ وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٤ وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٤ .

[2890] – سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٧) صحيح

[2891] – سنن ابن ماجه (٢/ ٩٥٣)(٢٨٥٧) صحيح

[(تمثلوا بضم الثاء.وضبط من باب التفعيل أيضا.لكن التفعيل للمبالغة ولا يناسب النهي:يقال مثلث بالحيوان أمثل به مثلا إذا قطعت أطرافه وشوهت به.ومثلث بالقتيل إذا جدعت أنفه أو أذنه أو مذا كيره أو شيئا من أطرافه والاسم المثلة.(تغلوا) من الغلول وهو الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة.(وليدا) أي طفلا.]

وعَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْس،قَالَ:ثِنْتَان حَفظْتُهُمَا عَنْ رَسُول الله ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسنُوا الْقتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسنُوا الذَّبْحَ،وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ،فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[2892].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْد،قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ أَنَسٍ،عَلَى الحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ،فَرَأَى غلْمَانًا،أَوْ فتْيَانًا،نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا،فَقَالَ أَنَسٌ:«نَهَى النَّبيُّ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ البَهَائمُ»[2893]

وعَنْ سَعيد بْنِ جُبَيْر،قَالَ:كُنْتُ عنْدَ ابْنِ عُمَرَ،فَمَرُّوا بفتْيَة،أَوْ بنَفَرٍ،نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا،فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهَا،وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:«مَنْ فَعَلَ هَذَا؟» إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا " وعَنْ ابْنِ عُمَرَ:«لَعَنَ النَّبيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بالحَيَوَان»[2894]

وعن هِشَامِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالك،قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ جَدِّي أَنَسِ بْنِ مَالك دَارَ الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ،فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا،قَالَ:فَقَالَ أَنَسٌ:«نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائمُ»[2895]

الْمُثْلَةُ بِالْعَدُوِّ:

قَال الْفُقَهَاءُ:يَحْرُمُ التَّمْثيل بِالْكُفَّارِ بِقَطْعِ أَطْرَافِهِمْ وَقَلْعِ أَعْيُنِهِمْ وَبَقْرِ بُطُونِهِمْ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ،أَمَّا قَبْل الْقُدْرَةِ فَلاَ بَأْسَ بِه[2896].

وَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِنْ مَثَّلُوا بِمُسْلِمٍ مُثِّل بِهِمْ كَذَلِكَ مُعَامَلَةً بِالْمِثْل[2897].

[2892] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)٥٧ - (١٩٥٥)

[ش (القتلة) بكسر القاف وهي الهيئة والحالة(وليحد) يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها(فليرح ذبيحته) بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها]

[2893] - صحيح البخاري (٧/ ٩٤)(٥٥١٣)

[2894] - صحيح البخاري (٧/ ٩٤)(٥٥١٥)

[2895] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٩)٥٨ - (١٩٥٦)

[ش (الصبر) قال العلماء صبر البهائم أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمى ونحوه]

[2896] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٤، وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٤، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٤ .

[2897] - جواهر الإكليل ١ / ٢٥٤ .

وَقَال الْحَنَابلَةُ:يُكْرَهُ الْمُثْلَةُ بقَتْل الْكُفَّار وَتَعْذيبهمْ [2898]،فعَن الْهَيَّاج بْن عمْرَانَ،أَنَّ عمْرَانَ أَبَقَ لَهُ غُلَامٌ،فَجَعَلَ للَّه عَلَيْه لئنْ قَدرَ عَلَيْه لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ،فَأَرْسَلَني لأَسْأَلَ لَهُ فَأَتَيْتُ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُب فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ:«كَانَ نَبيُّ اللَّه ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَة،وَيَنْهَانَا عَن الْمُثْلَة».فَأَتَيْتُ عمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَة وَيَنْهَانَا عَن الْمُثْلَة» [2899].

حَمْل رَأْس الْعَدُوِّ:

قَال الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ:يُكْرَهُ حَمْل رَأْس الْكَافر الْعَدُوِّ لمَا جاء عَنْ عُقْبَةَ بْن عَامر الْجُهَنيِّ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاص،وَشُرَحْبيلَ ابْنَ حَسَنَةَ بَعَثَا عُقْبَةَ بَريدًا إلَى أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضيَ اللهُ عَنْهُ برَأْس يَنَاق بطَريق الشَّام،فَلَمَّا قَدمَ عَلَى أَبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أَنْكَرَ ذَلكَ،فَقَالَ لَهُ عُقْبَةُ:يَا خَليفَةَ رَسُول الله ﷺ فَإنَّهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلكَ،قَالَ:أَفَاسْتنَانٌ بفَارسَ وَالرُّوم؟ لَا يُحْمَلْ إلَيَّ رَأْسٌ،فَإنَّمَا يَكْفي الْكتَابُ وَالْخَبَرُ".ولحَديث سَمُرَةَ بْن جُنْدُبٍ السَّابق [2900].

وقال الغزالي:"وَفي جَوَاز حمل الْغُزَاة رُءُوس الْكفَّار إلَى بلَاد الْإسْلَام خلاف منْهُم من قَالَ هُوَ مَكْرُوه إذْ لَا فَائدَة فيه إلَّا أَن يكون نكاية في قلب الْكفَّار فَلَا يكره" [2901]

وقال النووي:"نَقْلُ رُءُوس الْكُفَّار إلَى بلَاد الْإسْلَام،فيه وَجْهَان،أَحَدُهُمَا:لَا يُكْرَهُ للْإرْعَاب،وَالثَّاني وَهُوَ الصَّحيحُ،وَبه قَطَعَ الْعرَاقيُّونَ وَالرُّويَانيُّ:يُكْرَهُ،وَلَمْ يَتَعَرَّض الْجُمْهُورُ للْفَرْق بَيْنَ كَافرٍ فيه نكَايَةٌ وَغَيْره،وَقَالَ صَاحبُ «الْحَاوي»:لَا يُكْرَهُ،إنْ كَانَ فيه نكَايَةٌ،بَلْ يُسْتَحَبُّ." [2902]

وقال الماوردي:" وإذا أخذت رؤوس الْمُشْركينَ بَعْدَ قَتْلهمْ؛ لتُحْمَلَ إلَى بلَاد الْإسْلَام،فَقَدْ كَرهَ الْأَوْزَاعيُّ وَالزُّهْريُّ ذَلكَ؛ لأَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – لَمْ يَفْعَلْ ذَلكَ بقَتْلَى بَدْرٍ.وَرَوَى

[2898] – المغني ٨ / ٤٩٤ .

[2899] – سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٧) صحيح

[2900] – السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٢٣)(١٨٣٥١) صحيح

[2901] – الوسيط في المذهب (٧/ ٢٥)

[2902] – روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٢٥٠)

عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ أَنَّهُ حَمَلَ إلَى أبي بكر رضي الله عنه رؤوس مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي فَتْحِ دِمَشْقَ،فَكَرِهَ ذَلِكَ،وَقَالَ:تَحْمِلُ جِيَفَ الْمُشْرِكِينَ إلَى مدينة الرسول - ﷺ -
وَأَجَازَ آخَرُونَ ذَلِكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ،وَلَيْسَ لِلشَّافِعِيِّ فِيهِ نَصٌّ،وَذَهَبَ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِي إلَى كَرَاهِيَتِهِ،وَعِنْدِي أَنَّ إطْلَاقَ الْكَرَاهِيَةِ فِيهِ أَوِ الِاسْتِحْبَابِ غَيْرُ صَوَابٍ.وَيَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي نَقْلِهَا،فَإِنْ كَانَ فِيهِ وَهَنٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أو قوة للمسلمين فنقلها مستحب؛ لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يُكْرَهْ نَقْلُهُمْ إلَى بلاد الإسلام أحياء ليقتلوا بها كان نقل رؤوسهم أَقْرَبَ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَقْلِهَا وَهَنٌ لِمُشْرِكٍ وَلَا قُوَّةٌ لِمُسْلِمٍ كَانَ نَقْلُهَا مَكْرُوهًا،على هَذَا يُحْمَلُ نَهْيُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ."[٢٩٠٣]

وقال ابن حجر:"وَيُكْرَهُ نَقْلُ رُءُوسِ الْكُفَّارِ وَنَحْوِهَا مِنْ بِلَادِهِمْ إلَى بِلَادِنَا لِمَا رَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنْكَرَ عَلَى فَاعِلِهِ وَقَالَ:لَمْ يُفْعَلْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ - ﷺ - وَمَا رُوِيَ مِنْ حَمْلِ رَأْسِ أَبِي جَهْلٍ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِي ثُبُوتِهِ وَبِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ إنَّمَا حُمِلَ مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ لَا مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ وَكَأَنَّهُمْ فَعَلُوهُ لِيَنْظُرَ النَّاسُ إلَيْهِ فَيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ نَعَمْ إنْ كَانَ فِي ذَلِكَ نِكَايَةٌ لِلْكُفَّارِ لَمْ يُكْرَهْ كَمَا قَالَهُ الْمَاوَرْدِيُّ وَالْغَزَالِيُّ مُغْنِي وَرَوْضٌ مَعَ شَرْحِهِ "[٢٩٠٤]

وقال الخطيب " وَيُكْرَهُ نَقْلُ رُءُوسِ الْكُفَّارِ وَنَحْوِهَا مِنْ بِلَادِهِمْ إلَى بِلَادِنَا،لِمَا رَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - " أَنْكَرَ عَلَى فَاعِلِهِ،وَقَالَ:لَمْ يَفْعَلْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ - ﷺ - " وَمَا رُوِيَ مِنْ حَمْلِ رَأْسِ أَبِي جَهْلٍ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِي ثُبُوتِهِ،وَبِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ إنَّمَا حُمِلَ مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ،لَا مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ وَكَأَنَّهُمْ فَعَلُوهُ لِيَنْظُرَ النَّاسَ إلَيْهِ فَيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ.نَعَمْ إنْ كَانَ فِي ذَلِكَ نِكَايَةٌ لِلْكُفَّارِ لَمْ يُكْرَهْ كَمَا قَالَهُ:الْمَاوَرْدِيُّ وَالْغَزَالِيّ،وَإِنْ قَالَ:الرَّافِعِيُّ:لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ الْجُمْهُورُ"[٢٩٠٥]

[٢٩٠٣] - الحاوي الكبير (١٤/ ٢٥٣)

[٢٩٠٤] - تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩/ ٢٤٥)

[٢٩٠٥] - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٣٦)

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:يَحْرُمُ حَمْل رَأْسِ كَافِرٍ عَدُوٍّ مِنْ بَلَدِ قَتْله إِلَى بَلَدٍ آخَرَ،أَوْ لأَمِيرِ جَيْشٍ فِي بَلَدِ الْقِتَال.وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ مُثْلَةً[٢٩٠٦].

وقال ابن قدامة:"يُكْرَهُ نَقْل رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ،وَالْمُثْلَةُ بِقَتْلَاهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ لِمَا رَوَى سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ،قَالَ:«كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ،وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ» وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:«إنَّ أَعَفَّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الْإِيمَانِ» رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُد

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ،عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ -.قَالَ:«إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ» رَوَاهُ النَّسَائِيّ

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،بِرَأْسِ الْبِطْرِيقِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ،فَقَالَ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ،فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنَا.قَالَ:فَاسْتِنَانٌ بِفَارِسَ وَالرُّومِ،لَا يُحْمَلُ إلَيَّ رَأْسٌ،فَإِنَّمَا يَكْفِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:لَمْ يُحْمَلْ إلَى النَّبِيِّ - ﷺ - رَأْسٌ قَطُّ،وَحُمِلَ إلَى أَبِي بَكْرٍ رَأْسٌ فَأَنْكَرَ،وَأَوَّلُ مَنْ حُمِلَتْ إلَيْهِ الرُّءُوسُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَيُكْرَهُ رَمْيُهَا فِي الْمَنْجَنِيقِ،نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ وَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ جَازَ،لِمَا رَوَيْنَا،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ حِينَ حَاصَرَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ،ظُفِرَ بِرَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ،فَأَخَذُوا رَأْسَهُ،فَجَاءَ قَوْمُهُ عَمْرًا مُغْضَبِينَ،فَقَالَ لَهُمْ عَمْرٌو خُذُوا رَجُلًا مِنْهُمْ فَاقْطَعُوا رَأْسَهُ،فَارْمُوا بِهِ إلَيْهِمْ فِي الْمَنْجَنِيقِ،فَفَعَلُوا ذَلِكَ،فَرَمَى أَهْلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ رَأْسَ الْمُسْلِمِ إلَى قَوْمِهِ."[٢٩٠٧]

وفي الفروع:"وَيُكْرَهُ نَقْلُ رَأْسٍ،وَرَمْيُهُ بِمَنْجَنِيقٍ بِلَا مَصْلَحَةٍ"[٢٩٠٨]

وفي الشرح الكبير:"(قَوْلُهُ:وَحَمْلُ رَأْسِ كَافِرٍ) أَيْ عَلَى رُمْحٍ،وَقَوْلُهُ:لِبَلَدٍ أَيْ ثَانٍ سَوَاءٌ كَانَ الْوَلِيُّ مَاكِثًا فِيهَا أَمْ لَا،وَقَوْلُهُ:أَوْ إلَى وَالٍ أَيْ،وَلَوْ كَانَ فِي بَلَدِ الْقِتَالِ نَفْسِهَا (قَوْلُهُ:وَأَمَّا فِي الْبَلَدِ) أَيْ،وَأَمَّا حَمْلُهَا فِي بَلَدِ الْقِتَالِ لَا لِلْوَالِي فَهُوَ جَائِزٌ بِخِلَافِ الْبُغَاةِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَحَلَّ حُرْمَةِ حَمْلِ رَأْسِ الْحَرْبِيِّ لِبَلَدٍ ثَانٍ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ

[٢٩٠٦] - جواهر الإكليل ١ / ٢٥٤، والمغني ٨ / ٤٩٤ .

[٢٩٠٧] - المغني لابن قدامة (٩/ ٣٢٦)

[٢٩٠٨] - الفروع وتصحيح الفروع (١٠/ ٢٦٥)

مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ كَاطْمِئْنَانِ الْقُلُوبِ بِالْجَزْمِ بِمَوْتِهِ وَإِلَّا جَازَ فَقَدْ «حُمِلَ لِلنَّبِيِّ رَأْسُ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ مِنْ خَيْبَرَ لِلْمَدِينَةِ» ."[2909]

وَقَالَ الْحَنَفِيَّةُ:لاَ بَأْسَ بِحَمْلِ رَأْسِ الْمُشْرِكِ إذَا كَانَ فِي ذَلِكَ غَيْظُهُمْ:بِأَنْ كَانَ الْمُشْرِكُ مِنْ عُظَمَائِهِمْ[2910].

وقال السرخسي في شرح السير:"وَذَكَرَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بِرَأْسِ يَنَاقَ الْبِطْرِيقِ.فَأَنْكَرَ ذَلِكَ.فَقِيلَ لَهُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنَا.قَالَ فَاسْتِنَانٌ بِفَارِسٍ وَالرُّومِ؟ لَا يُحْمَلُ إلَيَّ رَأْسٌ،إنَّمَا يَكْفِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ.وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ لَهُمْ:لَقَدْ بَغَيْتُمْ.أَيْ تَجَاوَزْتُمْ الْحَدَّ.وَفِي رِوَايَةٍ كَتَبَ إلَى عُمَّالِهِ بِالشَّامِ:لَا تَبْعَثُوا إلَيَّ بِرَأْسٍ،وَلَكِنْ يَكْفِينِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ.

فَبِظَاهِرِ الْحَدِيثِ أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ،وَقَالَ:لَا يَحِلُّ حَمْلُ الرُّءُوسِ إلَى الْوُلَاةِ لِأَنَّهَا جِيفَةٌ.فَالسَّبِيلُ دَفْنُهَا لِإِمَاطَةِ الْأَذَى،وَلِأَنَّ إبَانَةَ الرَّأْسِ مُثْلَةٌ،«وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – عَنْ الْمُثْلَةِ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ» .

وَقَدْ بَيَّنَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ،وَقَدْ نُهِينَا عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ.

وَأَكْثَرُ مَشَايِخِنَا – رَحِمَهُمُ اللَّهُ – عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ فِي ذَلِكَ كَبْتٌ وَغَيْظٌ لِلْمُشْرِكِينَ أَوْ فَرَاغُ قَلْبٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قُوَّادِ الْمُشْرِكِينَ أَوْ عُظَمَاءِ الْمُبَارِزِينَ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ.أَلَا تَرَى «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – حَمَلَ رَأْسَ أَبِي جَهْلٍ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَلْقَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ،فَقَالَ:هَذَا رَأْسُ عَدُوِّك أَبِي جَهْلٍ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا فِرْعَوْنِي وَفِرْعَوْنُ أُمَّتِي.وَكَانَ شَرُّهُ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي أَعْظَمَ مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ عَلَى مُوسَى وَأُمَّتِهِ» .وَمَا مَنَعَهُ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وَهُوَ مَعْنَى مَا رَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – قَالَ:«لَمْ يُحْمَلْ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – رَأْسٌ إلَّا يَوْمَ بَدْرٍ» .وَحُمِلَ إلَى أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَأَنْكَرَهُ.وَأَوَّلُ مَنْ حُمِلَتْ

[2909] – الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٢/ ١٧٩)

[2910] – الدر المختار ٣ / ٢٢٥ .

إِلَيْهِ الرُّءُوسُ ابْنُ الزُّبَيْرِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –.«وَلَمَّا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُنَيْسٍ إلَى سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:فَضَرَبْت عُنُقَهُ وَأَخَذْت بِرَأْسِهِ فَصَعِدْت إلَى جَبَلٍ فَاخْتَبَأْت فِيهِ.حَتَّى إذَا رَجَعَ الطَّلَبُ وُجِّهْت بِرَأْسِهِ حَتَّى جِئْت بِهِ النَّبِيَّ – ﷺ –» .«وَحِينَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ،جَاءَ بِرَأْسِهِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ذَلِكَ»،فَتَبَيَّنَ بِهَذِهِ الْآثَارِ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ،وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ."[2911]

وفي البحر الرائق:"فِي الظَّهِيرِيَّةِ وَلَا بَأْسَ بِحَمْلِ الرُّءُوسِ إذَا كَانَ فِيهِ غَيْظٌ لِلْمُشْرِكِينَ أَوْ إفْرَاغُ قَلْبٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَكُونَ الْمَقْتُولُ مِنْ قُوَّادِ الْمُشْرِكِينَ أَوْ عُظَمَاءِ الْمُبَارِزِينَ أَلَا تَرَى أَنَّ «عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَمَلَ رَأْسَ أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ إلَى النَّبِيِّ – ﷺ – يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَلْقَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ هَذَا رَأْسُ عَدُوِّك أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا فِرْعَوْنِي وَفِرْعَوْنُ أُمَّتِي كَانَ شَرُّهُ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي أَعْظَمَ مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ عَلَى مُوسَى وَأُمَّتِهِ» وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ذَلِكَ اهـ."[2912]

فعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسِ أَبِي جَهْلٍ،فَقُلْتُ:هَذَا رَأْسُ أَبِي جَهْلٍ،قَالَ:«اللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ؟» وَهَكَذَا كَانَتْ يَمِينُهُ،فَقُلْتُ:وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ،إِنَّ هَذَا رَأْسُ أَبِي جَهْلٍ،فَقَالَ:«هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»[2913].

فَأَما فِي حَال قيام الْحَرْب،يجوز اسْتِعْمَال سِلَاحهمْ ودوابهم،فقد حزّ عبْد الله بْنُ مسْعُود رأْس أبي جهْلٍ بسيْفه.وَقَالَ مالك:إذا كَانَ شَيْئًا خَفِيفا فَلَا بَأْس أَن يرتفق بِهِ آخذُه دُون أصْحابه.[2914]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:وَجَدْتُ أَبَا جَهْلٍ،لَعَنَهُ اللَّهُ،فِي قَتْلَى بَدْرٍ وَبِهِ رَمَقٌ فَحَزَزْتُ رَأْسَهُ،فَجِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:هَذَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَأْسُ أَبِي

[2911] – شرح السير الكبير (ص: ١١٠)

[2912] – البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٥/ ٨٤) والدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ١٣٢)

[2913] – المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٨٤)(٨٤٧٣) حسن

[2914] – شرح السنة للبغوي (١١/ ١٢٣)

جَهْلٍ،فَقَالَ:«هَذَا وَالَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَأْسُ أَبِي جَهْلٍ؟»،قَالَ:وَكَانَتْ يَمينُ رَسُولِ اللَّـــهِ ﷺ،قُلْتُ:نَعَمْ،فَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْه فَحَمدَ اللَّهَ"[2915]

وقال الطحاوي:"وعَنْ عَبْد الله بْنِ الدَّيْلَميِّ،عَنْ أَبيه قَالَ:أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ برَأْسِ الْأَسْوَد الْعَنْسيِّ الْكَذَّاب،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،قَدْ عَرَفْتَ مَنْ نَحْنُ فَإِلَى مَنْ نَحْنُ؟ قَالَ:" إِلَـــى الله عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُوله ﷺ "

فَتَأَمَّلْنَا هَذه الْآثَارَ فَوَجَدْنَا فيهَا إِتْيَانَ عَليٍّ رَسُولَ الله ﷺ برَأْسِ مَرْحَب وَهُوَ كَانَ أَحَـــدَ أَعْدَائه،فَسَبَقَ عَليٌّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ به إِلَيْه،فَلَمْ يُنْكرْ ذَلكَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْه.وَوَجَدْنَا فيهَا أَمْرَ رَسُولِ الله ﷺ خَالَ الْبَرَاءِ أَنْ يَأْتيَهُ برَأْسِ الَّذي تَزَوَّجَ امْرَأَةَ أَبيه بَعْدَ أَبيه منَ الْمَوْضـــعِ الَّذي فيه،وَوَجَدْنَا فيهَا إِتْيَانَ الـــدَّيْلَميِّ وَأَصْـــحَابه رَسُـــولَ الله ﷺ بـــرَأْسِ الْعَنْســـيِّ الْكَذَّاب،وَإِنَّمَا كَانَ إِتْيَانُهُمْ به إِلَيْه منَ الْيَمَنِ ليَقفَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى نَصْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْه وَعَلَى كفَايَة الْمُسْلمينَ شَأْنَهُ وَكَانَ كتَابُ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ منْ هَـــذَا بقَوْله:{الزَّانيَةُ وَالزَّاني فَاجْلدُوا كُلَّ وَاحد منْهُمَا مائَةَ جَلْدَة} إِلَـــى قَوْلـــه:{وَلْيَشْـــهَدْ عَذَابَهُمَا طَائفَةٌ منَ الْمُؤْمنينَ} [النور:٢]،وَبقَوْله في آيَـــة الْمُحَـــاربينَ:{أَنْ يُقَتَّلُـــوا أَوْ يُصَلَّبُوا} [المائدة:٣٣] وَكَانَ ذَلكَ عنْدَنَا وَاللهُ أَعْلَمُ ليَشْتَهرَ في النَّاسِ إِقَامَةُ نَكَالِ الله عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهُمْ عَلَيْهمْ فَكَانَ مثْلُ ذَلكَ إِظْهَارَ رُءُوسِ مَنْ قُتلَ عَلَى مَا فُعلَ عَلَيْه الْمَحْمُولَـــة رُءُوسُهُمْ في الْآثَارِ الَّتي رَوَيْنَاهَا في ذَلكَ ليَقفَ النَّاسُ عَلَى النَّكَالِ الَّذي نَزَلَ بهمْ.فَـــإِنْ قَالَ قَائلٌ:فَقَدْ رُويَ عَنْ أَبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ مَا يُخَالفُ هَذَا،فعَنْ بَكْرِ بْنِ سَـــوَادَةَ،أَنَّ عَليَّ بْنَ رَبَاحٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامرٍ قَالَ:جئْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ بـــأَوَّلِ فَتْحٍ منَ الشَّامِ وَبرُءُوسٍ،فَقَالَ:" مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بهَذه شَيْئًا "

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامرٍ،أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،وَشُرَحْبيلَ ابْنَ حَسَنَةَ بَعَثَاهُ إِلَى أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضيَ اللهُ عَنْهُ برَأْسِ يَنَّاق بطَريقِ الشَّام فَلَمَّا قَدمَ عَلَيْه أَنْكَرَ ذَلكَ أَبُو بَكْـــرٍ رَضـــيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ لَهُ عُقْبَةُ يَا خَليفَةَ رَسُولِ الله ﷺ إِنَّهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلكَ بنَا،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ:" أَفَاسْتنَانٌ بفَارسَ وَالرُّومِ،لَا تَحْملُوا إِلَيَّ رَأْسًا إِنَّمَا يَكْفي الْكتَابُ وَالْخَبَرُ "

[2915] - مسند البزار = البحر الزخار (٤/ ٢٦٧)(١٤٣٦) حسن

قَالَ فَهَذَا:أَبُو بَكْرٍ قَدْ أَنْكَرَ حَمْلَ الرُّءُوسِ إِلَيْهِ،فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِه أَنَّ أَبَا بَكْرٍ،وَإِنْ كَانَ قَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ حَامِلُوهُ شُرَحْبِيلُ ابْنُ حَسَنَةَ،وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ،وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أُمَرَائِهِ عَلَى الْأَجْنَادِ مِنْهُمْ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ كَانَ خَرَجَ لِغَزْوِ الشَّامِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَلَمْ يُنْكِرُوا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يُخَالِفُوهُمْ عَلَيْهِ.فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى مُتَابَعَتِهِمْ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ،وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانُوا مَأْمُونِينَ عَلَى مَا فَعَلُوا فُقَهَاءَ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ مُبَاحًا لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنْ إِعْزَازِ دِينِ اللهِ وَغَلَبَةِ أَهْلِهِ الْكُفَّارَ بِهِ،وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ مِنْ كَرَاهَتِهِ إِيَّاهُ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِمَعْنًى قَدْ وَقَفَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ يَعْنِي عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَقَدْ كَانَ رَأْيُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَهُ التَّوْفِيقَ،وَكَانَ مِثْلُ هَذَا مِنْ بَعْدُ يَرْجِعُ فِيهِ إِلَى رَأْيِ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَحْدُثُ مِثْلُ هَذَا فِي إِبَّانِهِمْ،فَيَفْعَلُونَ فِي ذَلِكَ مَا يَرَوْنَهُ صَوَابًا،وَمَا يَرَوْنَهُ مِنْ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ،وَمِنَ اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهُ وَقَدْ كَانَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي رَأْسِ الْمُخْتَارِ لَمَّا حُمِلَ إِلَيْهِ تَرَكَ النَّكِيرَ فِي ذَلِكَ وَمَعَهُ بَقَايَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانُوا فِي ذَلِكَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ،فعَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ قَالَ:حَدَّثَنِي الْبَرِيدُ الَّذِي قَدِمَ بِرَأْسِ الْمُخْتَارِ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:فَلَمَّا وَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ:مَا حَدَّثَنِي كَعْبٌ بِحَدِيثٍ إِلَّا وَجَدْتُهُ كَمَا حَدَّثَنِي إِلَّا هَذَا،فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَنَّهُ يَقْتُلُنِي رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ،وَهَا هُوَ هَذَا قَدْ قَتَلْتُهُ قَالَ:الْأَعْمَشُ،وَمَا يَعْلَمُ أَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ يَعْنِي الْحَجَّاجَ مُرْصَدٌ لَهُ بِالطَّرِيقِ،وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[٢٩١٦]

وقال أبو المحاسن الملطي:"وفيه إجازة نقل الرؤوس نكالا من بلد إلى بلد ليقف الناس على النكال الذي نزل بهم ومن هذا الجنس قوله تعالى:{وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وقوله في آية المحاربين:{يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا} ليشتهر في الناس أمرهم وإنكار أبي بكر على عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة حين بعثا رأسا إليه اجتهاد منه لما ظهر إليه من الاستغناء عنه ألا ترى أن أمراء الأجناد منهم يزيد بن أبي سفيان وعقبة بن عامر بحضرة من كان معهم لم ينكروا ذلك لما رأوا فيه من إعزاز دين الله وغلبة هله الكفار

[٢٩١٦] - شرح مشكل الآثار (٧/ ٤٠٣)(٢٩٦٠)

فالمرجع في مثله إلى أراء الأئمة يفعلون من ذلك ما يرونه صوابا مناسبا لوقتهم ويتركونه إذا استغنوا عنه وقد أتى عبد الله بن الزبير برأس المختار فلم ينكر ذلك روى أن البريد لما وضعه بين يديه قال:ما حدثني كعب بحديث إلا وجدته كما حدثني إلا هذا فإنه حدثني أنه يقتلني رجل من ثقيف وها هو قد قتلته قال الأعمش ولا يعلم أن أبا محمد يعني الحجاج مرصد له بالطريق."[٢٩١٧]

وقال الشوكاني:"إذا كان في حملها تقوية لقلوب المسلمين أو إضعاف لشوكة الكافرين فلا مانع من ذلك بل هو فعل حسن وتدبير صحيح ولا وجه للتعليل بكونها نجسة فإن ذلك ممكن بدون التلوث بها والمباشرة لها ولا يتوقف جواز هذا على ثبوت ذلك عن النبي ﷺ فإن تقوية جيش الإسلام وترهيب جيش الكفار مقصد من مقاصد الشرع ومطلب من مطالبه لا شك في ذلك وقد وقع في حمل الرؤوس في أيام الصحابة وأما ما روي من حملها في أيام النبوة فلم يثبت شيء من ذلك."[٢٩١٨]

تَسْخِيمُ الْوَجْه:

يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَسْخِيمُ الْوَجْه أَيْ تَسْوِيدُهُ بِالسُّخَامِ وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِأَسْفَل الْقِدْرِ وَمُحِيطِه،مِنْ كَثْرَةِ الدُّخَانِ.وَقَالُوا:لأَنَّ الْوَجْهَ أَشْرَفُ الأَْعْضَاءِ وَمَعْدِنُ جَمَال الإِْنْسَانِ،وَمَنْبَعُ حَوَاسِّه فَوَجَبَ الاِحْتِرَازُ عَنْ تَجْرِيحِه وَتَقْبِيحِه،وَهُوَ الصُّورَةُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ وَكَرَّمَ بِهَا بَنِي آدَمَ فَيُعْتَبَرُ كُل تَغْيِيرٍ فِيهَا مُثْلَةً [٢٩١٩] .

قَال السَّرَخْسِيُّ:الدَّلِيل قَدْ قَامَ عَلَى انْتِسَاخِ حُكْمِ التَّسْخِيمِ لِلْوَجْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مُثْلَةٌ[٢٩٢٠]،وكان النبي ﷺ «يَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[٢٩٢١] .

[٢٩١٧] - المعتصر من المختصر من مشكل الآثار (١/ ٢٤٥)

[٢٩١٨] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص: ٩٧٢)

[٢٩١٩] - السرخسي ١٦ / ١٤٥، وتبيين الحقائق ٣ / ١٧٠ وفصول الإستروشني في التعزير ٣٠، وجواهر الإكليل ٢ / ٢٢٥، والخرشي ٧ / ١٥٢، وكشاف القناع ٦ / ١٢٤ - ١٢٥، وعون المعبود .

[٢٩٢٠] - المبسوط للسرخسي ١٦ / ١٤٥ .

[٢٩٢١] - المعجم الكبير للطبراني (١/ ٩٧)(١٦٨) حسن مرسل

وَقَال الشَّافعيَّةُ وَبَعْضُ الْحَنَابِلَة:إنَّ للإْمَامِ أَنْ يُعَزِّرَ بِمَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا مِنْ ضَرْبٍ غَيْرِ مُبَــرِّحٍ وَحَبْسٍ وَصَفْعٍ وَكَشْفِ رَأْسٍ وَتَسْوِيدِ وَجْهٍ[٢٩٢٢].

جواز رمي العدو بكل ما ينكي به:

(قَالَ الشَّافعيُّ):وَإِذَا تَحَصَّنَ الْعَدُوُّ فِي جَبَلٍ أَوْ حِصْنٍ أَوْ خَنْــدَقٍ أَوْ بِحَسَــكٍ أَوْ بِمَــا يُتَحَصَّنُ به فَلَا بَأْسَ أَنْ يَرْمُوا بِالْمَجَانِيقِ وَالْعَرَّادَاتِ وَالنِّيرَانِ وَالْعَقَارِبِ وَالْحَيَّاتِ وَكُلُّ مَا يَكْرَهُونَهُ وَأَنْ يَبْثُقُوا عَلَيْهِمْ الْمَاءَ لِيُغْرِقُوهُمْ أَوْ يُوحِلُوهُمْ فِيهِ وَسَوَاءٌ كَانَ مَعَهُمْ الْأَطْفَــالُ وَالنِّسَاءُ وَالرُّهْبَانُ أَوْ لَمْ يَكُونُوا لِأَنَّ الدَّارَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ بِإِسْلَامٍ وَلَا عَهْدٍ وَكَذَلِكَ لَا بَأْسَ أَنْ يُحَرِّقُوا شَجَرَهُمْ الْمُثْمِرَ وَغَيْرَ الْمُثْمِرِ وَيُخَرِّبُوا عَامِرَهُمْ وَكُلَّ مَا لَا رُوحَ فِيهِ مِنْ أَمْــوَالِهِمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مَا الْحُجَّةُ فِيمَا وَصَفْت وَفِيهِمْ الْوِلْدَانُ وَالنِّسَاءُ الْمُنْهَى عَنْ قَــتْلِهِمْ؟ قِيــلَ الْحُجَّةُ فِيهِ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – نَصَبَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ مَنْجَنِيقًا أَوْ عَرَّادَةً وَنَحْــنُ نَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَطَعَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَهَا» أَخْبَرَنَا أَبُو ضَمْرَةَ أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – حَرَّقَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ».

(قَالَ الشَّافعيُّ) أَخْبَرَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – حَــرَّقَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ» فَقَالَ قَائِلٌ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

(قَالَ الشَّافعيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَقَدْ نَهَى بَعْدَ التَّحْرِيقِ فِي أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ؟ قِيلَ لَهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا نَهَى عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُ بِهَا فَكَانَ تَحْرِيقُهُ إذْهَابًا مِنْهُ لِعَيْنِ مَالِهِ وَذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَغَازِي فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَهَلْ حَرَّقَ أَوْ قَطَّعَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قِيلَ نَعَمْ قَطَّعَ بِخَيْبَرَ وَهِيَ بَعْدَ بَنِي النَّضِيرِ وَبِالطَّائِفِ وَهِيَ آخِرُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا لَقِيَ فِيهَا قِتَالًا فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ أَجَزْت الرَّمْيَ بِالْمَنْجَنِيقِ وَبِالنَّارِ عَلَى

[٢٩٢٢] – نهاية المحتاج ٨ / ١٨ ط المكتبة الإسلامية، والمنهج على حاشية الجمل ٥ / ١٦٤، ومطالب أولي النهى ٦ / ٢٢٣.

جَمَاعَة الْمُشْرِكِينَ فِيهِمْ الْوِلْدَانُ وَالنِّسَاءُ وَهُمْ مَنْهِيٌّ عَنْ قَتْلِهِمْ؟ قِيلَ أَجَزْنَا بِمَا وَصَفْنَا «وَبِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – شَنَّ الْغَارَةَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ غَارِّينَ وَأَمَرَ بِالْبَيَاتِ وَبِالتَّحْرِيقِ» وَالْعِلْمُ يُحِيطُ أَنَّ فِيهِمْ الْوِلْدَانَ وَالنِّسَاءَ وَذَلِكَ أَنَّ الدَّارَ دَارُ شِرْكٍ غَيْرِ مَمْنُوعَةٍ وَإِنَّمَا نَهَى أَنْ تُقْصَدَ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ بِالْقَتْلِ إذَا كَانَ قَاتِلُهُمْ يَعْرِفُهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ لِلْخَبَرِ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – وَأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – سَبَاهُمْ فَجَعَلَهُمْ مَالًا وَقَدْ كَتَبَ هَذَا قَبْلَ هَذَا فَإِنْ كَانَ فِي الدَّارِ أُسَارَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَوْ تُجَّارٌ مُسْتَأْمَنُونَ كَرِهْت النُّصْبَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعُمُّ مِنْ التَّحْرِيقِ وَالتَّغْرِيقِ وَمَا أَشْبَهَهُ غَيْرُ مُحَرَّمٍ لَهُ تَحْرِيمًا بَيِّنًا وَذَلِكَ أَنَّ الدَّارَ إذَا كَانَتْ مُبَاحَةً فَلَا يُبَيِّنُ أَنْ تَحْرُمَ بِأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُسْلِمٌ يَحْرُمُ دَمُهُ وَإِنَّمَا كَرِهْت ذَلِكَ احْتِيَاطًا وَلِأَنَّ مُبَاحًا لَنَا لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مُسْلِمٌ أَنْ تَجَاوَزَهَا فَلَا نُقَاتِلُهَا وَإِنْ قَاتَلْنَاهَا قَاتَلْنَاهَا بِغَيْرِ مَا يَعُمُّ مِنْ التَّحْرِيقِ وَالتَّغْرِيقِ وَلَكِنْ لَوْ الْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ أَوْ بَعْضُهُمْ فَكَانَ الَّذِي يَرَوْنَ أَنَّهُ يَنْكَأُ مَنْ التحمهم يُغْرِقُوهُ أَوْ يُحَرِّقُوهُ كَانَ ذَلِكَ رَأَيْت لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ أَكْرَهْهُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَأْجُورُونَ أَجْرَيْنِ أَحَدُهُمَا الدَّفْعُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْآخَرُ نِكَايَةُ عَدُوِّهِمْ غَيْرَ مُلْتَحِمِينَ فَتَتَرَّسُوا بِأَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ قِيلَ لَا يَتَوَقَّوْنَ وَيُضْرَبُ الْمُتَتَرِّسُ مِنْهُمْ وَلَا يَعْمِدُ الطِّفْلُ وَقَدْ قِيلَ يُكَفُّ عَنْ الْمُتَتَرِّسِ بِهِ وَلَوْ تَتَرَّسُوا بِمُسْلِمٍ رَأَيْت أَنْ يُكَفَّ عَمَّنْ تَتَرَّسُوا بِهِ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ مُلْتَحِمِينَ فَلَا يَكُفُّ عَنْ الْمُتَتَرِّسِ وَيُضْرَبُ الْمُشْرِكُ وَيَتَوَقَّى الْمُسْلِمُ جَهْدَهُ فَإِنْ أَصَابَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ مُسْلِمًا أَعْتَقَ رَقَبَةً.

وَإِذَا حَاصَرْنَا الْمُشْرِكِينَ فَظَفِرْنَا لَهُمْ بِخَيْلٍ أَحْرَزْنَاهَا أَوْ بِنَّا بِهَا عَنْهُمْ فَرَجَعَتْ عَلَيْنَا واستلحمنا وَهِيَ فِي أَيْدِينَا أَوْ خِفْنَا الدَّرْكَ وَهِيَ فِي أَيْدِينَا وَلَا حَاجَةَ لَنَا بِرُكُوبِهَا إنَّمَا نُرِيدُ غَنِيمَتَهَا أَوْ بِنَا حَاجَةٌ إلَى رُكُوبِهَا أَوْ كَانَتْ مَعَهَا مَاشِيَةٌ مَا كَانَتْ أَوْ نَحْلٌ أَوْ ذُو رُوحٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مِمَّا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِينَ اتِّخَاذُهُ لِمَأْكَلَةٍ فَلَا يَجُوزُ عُقْرُ شَيْءٍ مِنْهَا وَلَا قَتْلُهُ بِشَيْءٍ مِنْ الْوُجُوهِ إلَّا أَنْ نَذْبَحَهُ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ " لَا تَعْقِرُوا شَاةً وَلَا بَعِيرًا إلَّا لِمَأْكَلَةٍ وَلَا تُغْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقَنَّهُ " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ " وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا فَقَطَعْته " قِيلَ فَإِنَّا قَطَعْنَاهُ بِالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَكَانَ أَوْلَى بِي وَبِالْمُسْلِمِينَ وَلَمْ أَجِدْ لِأَبِي بَكْرٍ فِي ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مُخَالِفًا مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا مِثْلِهِ

مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِيمَا حَفِظْت فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إلَّا اتِّبَاعُ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فِي اتِّبَاعِهِ حُجَّةٌ مَعَ أَنَّ السُّنَّةَ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مَا السُّنَّةُ؟ قُلْنَا أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى بَنِي عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَتْلِهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ أَنْ يَذْبَحَهَا فَيَأْكُلَهَا وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا» وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – عَنْ الْمَصْبُورَةِ وَوَجَدْت اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَاحَ قَتْلَ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مِنْ الْمَأْكُولِ بِوَاحِدٍ مِنْ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ تُذَكَّى فَتُؤْكَلَ إذَا قَدَرَ عَلَيْهَا وَالْآخَرَانِ تُذَكَّى بِالرَّمْيِ إذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وَلَمْ أَجِدْهُ أَبَاحَ قَتْلَهَا لِغَيْرِ مَنْفَعَةٍ وَقَتْلُهَا لِغَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عِنْدِي مَحْظُورٌ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَفِي ذَلِكَ نِكَايَتُهُمْ وَتَوْهِينٌ وَغَيْظٌ قُلْنَا وَقَدْ يُغَاظُونَ بِمَا يَحِلُّ فَنَفْعَلُهُ وَبِمَا لَا يَحِلُّ فَنَتْرُكُهُ فَإِنْ قَالَ وَمِثْلُ مَا يُغَاظُونَ بِهِ فَنَتْرُكُهُ قُلْنَا قَتْلُ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَهُمْ لَوْ أَدْرَكُونَا وَهُمْ فِي أَيْدِينَا لَمْ نَقْتُلْهُمْ وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ إلَى جَنْبِنَا رُهْبَانٌ يَغِيظُهُمْ قَتْلُهُمْ لَمْ نَقْتُلْهُمْ وَلَكِنْ إنْ قَاتَلُوا فُرْسَانًا لَمْ نَرَ بَأْسًا إذَا كُنَّا نَجِدُ السَّبِيلَ إلَى قَتْلِهِمْ بِأَرْجَالِهِمْ أَنْ نَعْقِرَ بِهِمْ كَمَا نَرْمِيهِمْ بِالْمَجَانِيقِ.

وَإِنْ أَصَابَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ وَقَدْ عَقَرَ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُدٍ فَانْعَكَسَتْ بِهِ فَرَسُهُ فَسَقَطَ عَنْهَا فَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ لِيَذْبَحَهُ فَرَآهُ ابْنُ شَعُوبٍ فَرَجَعَ إلَيْهِ يَعْدُو كَأَنَّهُ سَبُعٌ فَقَتَلَهُ وَاسْتَنْقَذَ أَبَا سُفْيَانَ مِنْ تَحْتِهِ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بَعْدَ ذَلِكَ شِعْرًا:

فَلَوْ شِئْت نَجَّتْنِي كُمَيْتَ رَجِيلَةٍ...وَلَمْ أَحْمِلْ النَّعْمَاءَ لِابْنِ شَعُوبِ

وَمَا زَالَ مَهْرِي مَزْجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمْ...لَدُنْ غَدْوَةٍ حَتَّى دَنَتْ لِغُرُوبِ

أُقَاتِلُهُمْ طُرًّا وَأَدْعُو لِغَالِبٍ...وَأَدْفَعُهُمْ عَنِّي بِرُكْنٍ صَلِيبِ

(قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَقْرِ بِهِمْ وَعَقْرِ بَهَائِمِهِمْ؟ قِيلَ الْعَقْرُ بِهِمْ يَجْمَعُ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا دَفْعٌ عَنْ الْعَاقِرِ الْمُسْلِمِ وَلِأَنَّ الْفَرَسَ أَدَاةٌ عَلَيْهِ يُقْبِلُ بِقُوَّتِهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ وَالْآخَرُ يَصِلُ بِهِ إلَى قَتْلِ الْمُشْرِكِ وَالدَّوَابِّ تُوجَفُ أَوْ يَخَافُ طَلَبَ الْعَدُوِّ لَهَا إذَا قُتِلَتْ لَيْسَتْ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ لَا أَنَّ قَتْلَهَا مَنْعُ

الْعَدُوِّ لِلطَّلَبِ وَلَا أَنْ يَصِلَ الْمُسْلِمُ مِنْ قَتْلِ الْمُشْرِكِ إلَى مَا لَمْ يَكُنْ يَصِلُ إلَيْهِ قَبْلَ قَتْلِهَا وَإِذَا أَسَرَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرَادُوا قَتْلَهُمْ قَتَلُوهُمْ بِضَرْبِ الْأَعْنَاقِ وَلَمْ يُجَاوِزُوا ذَلِكَ إلَى أَنْ يُمَثِّلُوا بِقَطْعِ يَدٍ وَلَا رِجْلٍ وَلَا عُضْوٍ وَلَا مِفْصَلٍ وَلَا بَقْرِ بَطْنٍ وَلَا تَحْرِيقٍ وَلَا تَغْرِيقٍ وَلَا شَيْءٍ يَعْدُو مَا وَصَفْت لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - «نَهَى عَنْ الْمُثْلَةِ» وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ كَمَا وَصَفْت فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ قَدْ قَطَعَ أَيْدِي الَّذِينَ اسْتَاقُوا لِقَاحَهُ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ فَإِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَرَجُلًا رَوَيَا هَذَا عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - ثُمَّ رَوَيَا فِيهِ أَوْ أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمْ يَخْطُبْ بَعْدَ ذَلِكَ خُطْبَةً إلَّا أَمَرَ بِالصَّدَقَةِ وَنَهَى عَنْ الْمُثْلَةِ،أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ «أَنَّ هَبَّارَ بْنَ الْأَسْوَدِ كَانَ قَدْ أَصَابَ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِشَيْءٍ فَبَعَثَ النَّبِيُّ - ﷺ - سَرِيَّةً فَقَالَ إنْ ظَفِرْتُمْ بِهَبَّارِ بْنِ الْأَسْوَدِ فَاجْعَلُوهُ بَيْنَ حُزْمَتَيْنِ مِنْ حَطَبٍ ثُمَّ أَحْرِقُوهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ فَاقْطَعُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ».

(قَالَ الشَّافِعِيُّ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ يُنْكِرُ حَدِيثَ أَنَسٍ فِي أَصْحَابِ اللِّقَاحِ أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي يَحْيَى عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ قَالَ «وَاَللَّهِ مَا سَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَيْنًا وَلَا زَادَ أَهْلَ اللِّقَاحِ عَلَى قَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ».[٢٩٢٣]

إتلاف ذوات الْأَرْوَاح:

" قُلْت لِلشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:أَفَرَأَيْت مَا ظَفِرَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْخَيْلِ وَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَاشِيَةِ فَقَدَرُوا عَلَى إتْلَافِهِ قَبْلَ أَنْ يَغْنَمُوهُ أَوْ غَنِمُوهُ فَأَدْرَكَهُمْ الْعَدُوُّ فَخَافُوا أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُمْ وَيَقْوَوْا بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَيَجُوزُ لَهُمْ إتْلَافُهُ بِذَبْحٍ أَوْ عَقْرٍ أَوْ تَحْرِيقٍ أَوْ تَغْرِيقٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَحْوَالِ؟ (قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -):لَا يَحِلُّ عِنْدِي أَنْ يَقْصِدَ قَصْدَهُ بِشَيْءٍ يُتْلِفُهُ إذَا كَانَ لَا رَاكِبَ عَلَيْهِ فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ وَلِمَ قُلْت وَإِنَّمَا هُوَ مَالٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ لَا يُقْصَدُ قَصْدُهُ بِالتَّلَفِ؟ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):لِفِرَاقِهِ مَا سِوَاهُ مِنْ الْمَالِ لِأَنَّهُ ذُو رُوحٍ يَأْلَمُ بِالْعَذَابِ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَلَيْسَ كَمَا لَا

[٢٩٢٣] - الأم للشافعي (٤/ ٢٥٧)

رُوحَ لَهُ يَأْلَمُ بِالْعَذَابِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ نُهِيَ عَنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ أَنْ يُقْتَلَ مَا قُدِرَ عَلَيْهِ مِنْهَا إلَّا بِالذَّبْحِ لِتُؤْكَلَ وَمَا امْتَنَعَ بِمَا نِيلَ مِنْ السِّلَاحِ لِتُؤْكَلَ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَدَاءً وَضَارًّا لِلضَّرُورَةِ قُلْت لِلشَّافِعِيِّ:اُذْكُرْ مَا وَصَفْت فَقَالَ:أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَتْلِهَا» (قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):فَلَمَّا كَانَ قَتْلُ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مِنْ الْبَهَائِمِ مَحْظُورًا إلَّا بِمَا وَصَفْت كَانَ عَقْرُ الْخَيْلِ وَالدَّوَابِّ الَّتِي لَا رُكْبَانَ عَلَيْهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ دَاخِلًا فِي مَعْنَى الْحَظْرِ خَارِجًا مِنْ مَعْنَى الْمُبَاحِ فَلَمْ يَجُزْ عِنْدِي أَنْ تَعْقِرَ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ إلَّا عَلَى مَا وَصَفْت فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَفِي ذَلِكَ غَيْظُ الْمُشْرِكِينَ وَقَطْعٌ لِبَعْضِ قُوَّتِهِمْ قِيلَ لَهُ:إنَّمَا يُنَالُ مِنْ غَيْظِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا كَانَ غَيْرَ مَمْنُوعٍ مِنْ أَنْ يُنَالَ فَأَمَّا الْمَمْنُوعُ فَلَا يُغَاظُ أَحَدٌ بِأَنْ يَأْتِيَ الْغَائِظُ لَهُ مَا نُهِيَ عَنْ إتْيَانِهِ أَلَا تَرَى أَنَّا لَوْ سَبَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَوِلْدَانَهُمْ فَأَدْرَكُونَا فَلَمْ نَشُكَّ فِي اسْتِنْفَاذِهِمْ إيَّاهُمْ مِنَّا لَمْ يَجُزْ لَنَا قَتْلُهُمْ وَقَتْلُهُمْ أَغْيَظُ لَهُمْ وَأَنْكَى مِنْ قَتْلِ دَوَابِّهِمْ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَقَرَ عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَلَا أَحْفَظُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ يَثْبُتُ عَلَى الِانْفِرَادِ وَلَا أَعْلَمُهُ مَشْهُورًا عِنْدَ عَوَامِّ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْمَغَازِي قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:أَفَرَأَيْت الْفَارِسَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَلِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْقِرَهُ؟ قَالَ:نَعَمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ هَذِهِ مَنْزِلَةٌ يَجِدُ السَّبِيلُ بِهَا إلَى قَتْلِ مَنْ أُمِرَ بِقَتْلِهِ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَاذْكُرْ مَا يُشْبِهُ هَذَا قِيلَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يَرْمِيَ الْمُشْرِكَ بِالنَّبْلِ وَالنَّارِ وَالْمَنْجَنِيقِ فَإِذَا صَارَ أَسِيرًا فِي يَدَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَكَانَ لَهُ قَتْلُهُ بِالسَّيْفِ وَكَذَلِكَ لَهُ أَنْ يَرْمِيَ الصَّيْدَ فَيَقْتُلَهُ فَإِذَا صَارَ فِي يَدَيْهِ لَمْ يَقْتُلْهُ إلَّا بِالذَّكَاءِ الَّتِي هِيَ أَخَفُّ عَلَيْهِ وَقَدْ أُبِيحَ لَهُ دَمُ الْمُشْرِكِ بِالْمَنْجَنِيقِ وَإِنْ أَصَابَ ذَلِكَ بَعْضَ مَنْ مَعَهُمْ مِمَّنْ هُوَ مَحْظُورُ الدَّمِ لِلْمَرْءِ فِي دَفْعِهِ عَنْ نَفْسِهِ عَدُوَّهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَإِنْ قَالَ:فَهَلْ فِي هَذَا خَبَرٌ؟ قِيلَ:نَعَمْ عَقَرَ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُدٍ فَرَسَهُ فَانْعَكَسَتْ بِهِ وَصُرِعَ عَنْهَا فَجَلَسَ حَنْظَلَةُ عَلَى صَدْرِهِ وَعَطَفَ ابْنُ شُعُوبٍ عَلَى حَنْظَلَةَ فَقَتَلَهُ وَذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَلَمْ نَعْلَمْ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا نَهَاهُ وَلَا نَهَى غَيْرَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا (قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –):وَلَكِنَّهُ إذَا صَارَ

إِلَى أَنْ يُفَارِقَهُ فَارِسُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْرُهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ لَا يُقَاتِلُ لَمْ يَعْقِرْ إنَّمَا يَعْقِرُ لِمَعْنَى أَنْ يُوَصِّلَ إلَى فَارِسِهِ لِيُقْتَلَ أَوْ لِيُؤْسَرَ قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ:فَهَلْ سَمِعْت فِي هَذَا حَدِيثًا عَمَّنْ بَعْدَ النَّبِيِّ - ﷺ -؟ فَقَالَ:إنَّمَا الْغَايَةُ أَنْ يُوجَدَ عَلَى شَيْءٍ دَلَالَةٌ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ وَقَدْ وَصَفْت لَك بَعْضَ مَا حَضَرَنِي مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَزِيدُهُ شَيْءٌ وَافَقَهُ قُوَّةً وَلَا يُوهِنُهُ شَيْءٌ خَالَفَهُ وَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّهُ أَوْصَى ابْنَهُ لَا يَعْقِرُ جَسَدًا وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ نَهَى عَنْ عَقْرِ الدَّابَّةِ إذَا هِيَ قَامَتْ وَعَنْ قَبِيصَةَ أَنَّ فَرَسًا قَامَ عَلَيْهِ بِأَرْضِ الرُّومِ فَتَرَكَهُ وَنَهَى عَنْ عَقْرِهِ (قَالَ الشَّافِعِيُّ):- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَخْبَرَنَا مَنْ سَمِعَ هِشَامَ بْنَ الْغَازِي يَرْوِي عَنْ مَكْحُولٍ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْهُ فَنَهَاهُ وَقَالَ:«إنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - نَهَى عَنْ الْمُثْلَةِ» قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت مَا أَدْرَكَ مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ؟ قَالَ:لَا تَعْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا إلَّا أَنْ تَذْبَحُوهُ لِتَأْكُلُوا كَمَا وَصَفْت بِدَلَالَةِ السُّنَّةِ وَأَمَّا مَا فَارَقَ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ فَيَصْنَعُونَ فِيمَا خَافُوا أَنْ يُسْتَنْقَذَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيهِ مَا شَاءُوا مِنْ تَحْرِيقٍ وَكَسْرٍ وَتَغْرِيقٍ وَغَيْرِهِ قُلْت:أَوْ يَدَعُونَ أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ؟ فَقَالَ:نَعَمْ إذَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِنْقَاذِهِمْ مِنْهُمْ فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت إنْ كَانَ السَّبْيُ وَالْمَتَاعُ قُسِّمَ؟ قَالَ:كُلُّ رَجُلٍ صَارَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَهُوَ مُسَلَّطٌ عَلَى مَالِهِ وَيَدَعُ ذَوَاتَ الْأَرْوَاحِ إنْ لَمْ يَقْوَ عَلَى سَوْقِهَا وَعَلَى مَنْعِهَا وَيَصْنَعُ فِي غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ مَا شَاءَ فَقُلْت لِلشَّافِعِيِّ:أَفَرَأَيْت الْإِمَامَ إذَا أَحْرَزَ مَا يُحْمَلُ مِنْ الْمَتَاعِ فَحَرَّقَهُ فِي بِلَادِ الشِّرْكِ وَهُوَ يُقَاتِلُ أَوْ حَرَّقَهُ عِنْدَ إدْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ وَخَوَّفَهُ أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَ وَبَعْدَمَا قُسِمَ؟ فَقَالَ:كُلُّ ذَلِكَ فِي الْحُكْمِ سَوَاءٌ إنْ أَحْرَقَهُ بِإِذْنِ مَنْ مَعَهُ حَلَّ لَهُ وَلَمْ يَضْمَنْ لَهُمْ سِوَاهُ وَيُعْزَلُ الْخُمُسُ لِأَهْلِهِ فَإِنْ سَلَّمَ بِهِ دَفَعَهُ إلَيْهِمْ خَاصَّةً وَإِنْ لَمْ يُسَلِّمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَمَتَى حَرَّقَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِمْ ضَمِنَهُ لَهُمْ إنْ شَاءُوا وَكَذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إنْ حَرَّقَهُ يَضْمَنُ مَا حَرَّقَ مِنْهُ إنْ حَرَّقَهُ بَعْدَ أَنْ يَحُوزَهُ الْمُسْلِمُونَ فَأَمَّا إذَا أَحْرَقَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِزَ فَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ."[٢٩٢٤]

[٢٩٢٤] - الأم للشافعي (٤/ ٢٧٣)

الحكم في قطاع الطرق ونحوهم:

وَأَمَّا إذَا أَخَذُوا الْمَالَ فَقَطْ وَلَمْ يَقْتُلُوا - كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ الْأَعْرَابُ كَثِيرًا - فَإِنَّهُ يُقَطَّعُ مِنْ كُلٍّ وَاحِدٍ يَدُهُ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ:كَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ}.تُقَطَّعُ الْيَدُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَالرِّجْلُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا وَتُحْسَمُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ بِالزَّيْتِ الْمَغْلِيِّ وَنَحْوِهِ؛لِيَنْحَسِمَ الدَّمُ فَلَا يَخْرُجُ فَيُفْضِي إلَى تَلَفِهِ وَكَذَلِكَ تُحْسَمُ يَدُ السَّارِقِ بِالزَّيْتِ.وَهَذَا الْفِعْلُ قَدْ يَكُونُ أزجر مِنْ الْقَتْلِ؛فَإِنَّ الْأَعْرَابَ وَفَسَقَةَ الْجُنْدِ وَغَيْرِهِمْ إذَا رَأَوْا دَائِمًا مَنْ هُوَ بَيْنَهُمْ مَقْطُوعُ الْيَدِ وَالرِّجْلِ ذَكَرُوا بِذَلِكَ جُرْمَهُ فَارْتَدَعُوا؛بِخِلَافِ الْقَتْلِ فَإِنَّهُ قَدْ يَنْسَى؛وَقَدْ يُؤْثِرُ بَعْضُ النُّفُوسِ الْأَبِيَّةِ قَتْلَهُ عَلَى قَطْعِ يَدِهِ وَرِجْلِهِ مِنْ خِلَافٍ فَيَكُونُ هَذَا أَشَدَّ تَنْكِيلًا لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ.وَأَمَّا إذَا شَهَرُوا السِّلَاحَ وَلَمْ يَقْتُلُوا نَفْسًا وَلَمْ يَأْخُذُوا مَالًا ثُمَّ أَغْمَدُوهُ أَوْ هَرَبُوا وَتَرَكُوا الْحِرَابَ فَإِنَّهُمْ يُنْفَوْنَ.فَقِيلَ:نَفْيُهُمْ تَشْرِيدُهُمْ فَلَا يَتْرُكُونَ يَأْوُونَ فِي بَلَدٍ.وَقِيلَ:هُوَ حَبْسُهُمْ.وَقِيلَ:هُوَ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ أَصْلَحَ مِنْ نَفْيٍ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.وَالْقَتْلُ الْمَشْرُوعُ:هُوَ ضَرْبُ الرَّقَبَةِ بِالسَّيْفِ وَنَحْوِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَرْوَحُ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ وَكَذَلِكَ شَرَعَ اللَّهُ قَتْلَ مَا يُبَاحُ قَتْلُهُ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ إذَا قَدَرَ عَلَيْهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.قَالَ النَّبِيُّ ﷺ {إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ} رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَقَالَ:{إنَّ أَعَفَّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الْإِيمَانِ}.وَأَمَّا الصَّلْبُ الْمَذْكُورُ فَهُوَ رَفْعُهُمْ عَلَى مَكَانٍ عَالٍ لِيَرَاهُمْ النَّاسُ وَيَشْتَهِرَ أَمْرُهُمْ وَهُوَ بَعْدَ الْقَتْلِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:يُصَلَّبُونَ ثُمَّ يُقَتَّلُونَ وَهُمْ مُصَلَّبُونَ.وَقَدْ جَوَّزَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَتْلَهُمْ بِغَيْرِ السَّيْفِ حَتَّى قَالَ:يُتْرَكُونَ عَلَى الْمَكَانِ الْعَالِي حَتَّى يَمُوتُوا حَتْفَ أُنُوفِهِمْ بِلَا قَتْلٍ.

فَأَمَّا التَّمْثِيلُ فِي الْقَتْلِ فَلَا يَجُوزُ إلَّا عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ وَقَدْ {قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً إلَّا أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنْ الْمُثْلَةِ حَتَّى الْكُفَّارُ إذَا قَتَلْنَاهُمْ فَإِنَّا لَا نُمَثِّلُ بِهِمْ بَعْدَ الْقَتْلِ وَلَا نَجْدَعُ آذَانَهُمْ وَأُنُوفَهُمْ وَلَا نَبْقُرُ بُطُونَهُمْ إلَّا إنْ يَكُونُوا فَعَلُوا ذَلِكَ بِنَا فَنَفْعَلُ بِهِمْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا}.وَالتَّرْكُ أَفْضَلُ كَمَا قَالَ

اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلَّا بِاللَّهِ} قِيلَ إنَّهَا نَزَلَتْ لِمَا مَثَّلَ الْمُشْرِكُونَ بِحَمْزَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ شُهَدَاءِ أُحُد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ {لَئِنْ أَظْفَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِضِعْفَيْ مَا مَثَّلُوا بِنَا} فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ - وَإِنْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ مِثْلَ قَوْلِهِ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} وَقَوْلِهِ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ بِمَكَّةَ ثُمَّ جَرَى بِالْمَدِينَةِ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْخِطَابَ فَأُنْزِلَتْ مَرَّةً ثَانِيَةً - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ " بَلْ نَصْبِرُ " وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ بريدة بْنِ الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: {كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْ فِي حَاجَةِ نَفْسِهِ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ يَقُولُ: اُغْزُوَا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا}.

وَلَوْ شَهَرُوا السِّلَاحَ فِي الْبُنْيَانِ - لَا فِي الصَّحْرَاءِ - لِأَخْذِ الْمَالِ فَقَدْ قِيلَ: إنَّهُمْ لَيْسُوا مُحَارِبِينَ بَلْ هُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُخْتَلِسِ وَالْمُنْتَهِبِ لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ يُدْرِكُهُ الْغَوْثُ إذَا اسْتَغَاثَ بِالنَّاسِ. وَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: إنَّ حُكْمَهُمْ فِي الْبُنْيَانِ وَالصَّحْرَاءِ وَاحِدٌ. وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ - فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ - وَالشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرِ أَصْحَابِ أَحْمَد وَبَعْضِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ؛ بَلْ هُمْ فِي الْبُنْيَانِ أَحَقُّ بِالْعُقُوبَةِ مِنْهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ؛ لِأَنَّ الْبُنْيَانَ مَحَلُّ الْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَلِأَنَّهُ مَحَلُّ تَنَاصُرِ النَّاسِ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِقْدَامُهُمْ عَلَيْهِ يَقْتَضِي شِدَّةَ الْمُحَارَبَةِ وَالْمُغَالَبَةِ؛ وَلِأَنَّهُمْ يَسْلُبُونَ الرَّجُلَ فِي دَارِهِ جَمِيعَ مَالِهِ وَالْمُسَافِرُ لَا يَكُونُ مَعَهُ - غَالِبًا - إلَّا بَعْضُ مَالِهِ. وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ؛ لَا سِيَّمَا هَؤُلَاءِ الْمُتَحَزِّبُونَ الَّذِينَ تُسَمِّيهِمْ الْعَامَّةُ فِي الشَّامِ وَمِصْرَ الْمِنْسَرَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ بِبَغْدَادَ الْعَيَّارِينَ وَلَوْ حَارَبُوا بِالْعِصِيِّ وَالْحِجَارَةِ الْمَقْذُوفَةِ بِالْأَيْدِي أَوْ الْمَقَالِيعِ وَنَحْوِهَا: فَهُمْ مُحَارِبُونَ أَيْضًا. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ لَا مُحَارَبَةَ إلَّا بِالْمُحَدَّدِ. وَحَكَى بَعْضُهُمْ الْإِجْمَاعَ: عَلَى أَنَّ الْمُحَارَبَةَ تَكُونُ بِالْمُحَدَّدِ وَالْمُثَقَّلِ. وَسَوَاءٌ كَانَ فِيهِ خِلَافٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ. فَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ مَنْ قَاتَلَ عَلَى أَخْذِ الْمَالِ بِأَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقِتَالِ فَهُوَ مُحَارِبٌ قَاطِعٌ كَمَا أَنَّ مَنْ قَاتَلَ

الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْكُفَّارِ بِأَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقِتَالِ فَهُوَ حَرْبِيٌّ وَمَنْ قَاتَلَ الْكُفَّارَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِسَيْفٍ أَوْ رُمْحٍ أَوْ سَهْمٍ أَوْ حِجَارَةٍ أَوْ عَصًا فَهُوَ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.وَأَمَّا إذَا كَانَ يَقْتُلُ النُّفُوسَ سِرًّا لِأَخْذِ الْمَالِ؛مِثْلَ الَّذِي يَجْلِسُ فِي خَانٍ يُكْرِيهِ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ فَإِذَا انْفَرَدَ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ قَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ.أَوْ يَدْعُو إلَى مَنْزِلِهِ مَنْ يَسْتَأْجِرُهُ لِخِيَاطَةٍ أَوْ طِبٍّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَيَقْتُلُهُ وَيَأْخُذُ مَالَهُ وَهَذَا يُسَمَّى الْقَتْلُ غِيلَةً وَيُسَمِّيهِمْ بَعْضُ الْعَامَّةِ الْمُعَرِّجِينَ فَإِذَا كَانَ لِأَخْذِ الْمَالِ فَهَلْ هُمْ كَالْمُحَارِبِينَ أَوْ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْقَوَدِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ.أَحَدُهُمَا:أَنَّهُمْ كَالْمُحَارِبِينَ لِأَنَّ الْقَتْلَ بِالْحِيلَةِ كَالْقَتْلِ مُكَابَرَةً كِلَاهُمَا لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ؛بَلْ قَدْ يَكُونُ ضَرَرُ هَذَا أَشَدَّ؛لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي بِهِ.وَالثَّانِي:أَنَّ الْمُحَارِبَ هُوَ الْمُجَاهِرُ بِالْقِتَالِ؛وَأَنَّ هَذَا الْمُغْتَالَ يَكُونُ أَمْرُهُ إلَى وَلِيِّ الدَّمِ.وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِأُصُولِ الشَّرِيعَةِ؛بَلْ قَدْ يَكُونُ ضَرَرُ هَذَا أَشَدَّ؛لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي بِهِ.وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ أَيْضًا فِيمَنْ يَقْتُلُ السُّلْطَانَ كَقَتَلَةِ عُثْمَانَ.وَقَاتِلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هَلْ هُمْ كَالْمُحَارِبِينَ فَيُقَتَّلُونَ حَدًّا أَوْ يَكُونُ أَمْرُهُمْ إلَى أَوْلِيَاءِ الدَّمِ – عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ – لِأَنَّ فِي قَتْلِهِ فَسَادًا عَامًّا.[٢٩٢٥]

المبحث السابع

مشروعية قطع رؤوس الكفار المحاربين

قال تعالى:{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال:١٢]

هَذِه نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللهُ تَعَالَى لِلمُسْلمِينَ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْها،فَقَدْ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَى المَلاَئِكَةِ الذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِنَصْرِ المُسْلِمِينَ،بِأَنْ يُثَبِّتُوا المُسْلمِينَ وَيُقَوُّوا قُلُوبَهُمْ،فَيُلْهِمُوهُمْ تَذَكُّرَ وَعْدِ اللهِ لِرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ،وَأَنَّهُ تَعَالَى لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ،وَأَنَّهُ تَعَالَى سَيَجْعَلُ الرَّعْبَ يَسْتَوْلِي عَلَى قُلوبِ المُشْرِكِينَ فَيُصِيبُهُمُ الفَزَعُ.

[٢٩٢٥] – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣١٣)

ثُمَّ أَمَر اللهُ الْمَلاَئكَة بِأَنْ يَضْرِبُوا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَيَقْطَعُوهَا،وَبِأَنْ يَقْطَعُوا الأَيْــدِي ذَاتِ البَنَانِ التِي هِيَ أَدَاةُ الضَّرْبِ فِي الحَرْبِ.[٢٩٢٦]

وقوله سبحانه:«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» هو دعوة للمسلمين أن يحصدوا هذا الزرع الذي أصبحت قطوفه دانية لأيديهم،وبهذا يضاف هذا المحصول كله لهم،ويحسب من عمل أيديهم..وهذا فضل من الله عليهم،ورحمة واســعة مـــن رحمتـــه بهم.ولو شاء الله سبحانه أن يهلك المشركين من غير أن يبتلى بهم المؤمنين لفعل..ولكـــن أين بلاء المؤمنين؟ وأين العمل الذي يضاف إليهم،ويؤجرون عليه؟

إنه من تدبير الله تعالى وحكمته،أن يبتلى الناس بعضهم ببعض،وذلك ليظهـــر فى كـــلّ إنسان ما عنده من خير أو شر،وبهذا تنكشف للناس وجوههم،وتتحدد مواقفهم.

وفى قوله تعالى:«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» إشارة إلى ما ينبغـــى أن يتجه إليه ضرب المؤمنين فى جبهة المشركين،وهو أن يكون فى المواطن التي تخمـــد بهـــا أنفاسهم،أو تشل حركاتهم،وذلك بضرب الرءوس التي عشّش فيها الشرك،وأفرخ فيهـــا الضلال،وضرب تلك الأيدى التي كانت تمتد بالأذى إلى المسلمين،وها هـــى ذى تريـــد القضاء عليهم.[٢٩٢٧]

وَقَوْلُهُ:{وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:مَعْنَاهُ:وَاضْرِبُوهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُـــونَ مِـــنْ عَدُوِّكُمْ كُلَّ طَرَفٍ ومَفْصِلٍ مِنْ أَطْرَافِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ.و "الْبَنَانُ":جَمْعُ بَنَانَةٍ،كَمَا قال الشاعر أَلا لَيْتَنِي قَطَّعْتُ مِنْهُ بَنَانَةًوَلاقَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَقْظَانَ حَاذِرَا

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،عَنِ ابْنِ عَبَّـــاسٍ:{وَاضْـــرِبُوا مِـــنْهُمْ كُـــلَّ بَنَـــانٍ} يَعْنِـــي بِالْبَنَانِ:الْأَطْرَافَ.وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ جُرَيْجٍ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ:الْبَنَانُ:الْأَطْرَافُ،وَيُقَالُ:كُلُّ مَفْصِلٍ.وَقَالَ عِكْرِمَةُ،وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالضَّحَّاكُ -فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى-:كُلُّ مِفْصَلٍ.

[٢٩٢٦] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٣، بترقيم الشاملة آليا)

[٢٩٢٧] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٩)

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} قَالَ:اضْــرِبْ مِنْــهُ الْوَجْــهَ وَالْعَيْنَ،وَارْمِهِ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ،فَإِذَا أَخَذْتَهُ حَرُمَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَيْكَ.[٢٩٢٨]

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ فَفِيهِ وَجْهَانِ:الْأَوَّلُ:أَنَّهُ أَمْرٌ لِلْمَلَائِكَةِ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِــهِ تَعَالَى:

فَثَبِّتُوا وَقِيلَ:بَلْ أَمْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّهُ تَعَالَى مَا أَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ لِأَجْــلِ الْمُقَاتَلَةِ وَالْمُحَارَبَةِ،وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ حَصَلَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعُ مُوجِبَاتِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ،فَعِنْدَ هَذَا أَمَــرَهُمْ بِمُحَــارَبَتِهِمْ،وَفِي قَوْلِــهِ:فَاضْــرِبُوا فَــوْقَ الْأَعْنــاقِ قَوْلَانِ:الْأَوَّلُ:أَنَّ مَا فَوْقَ الْعُنُقِ هُــوَ الرَّأْسُ،فَكَــانَ هَــذَا أَمْــرًا بِإِزَالَــةِ الــرَّأْسِ عَــنِ الْجَسَدِ.وَالثَّانِي:أَنَّ قَوْلَهُ:فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ أَيْ فَاضْرِبُوا الْأَعْنَاقَ.

ثُمَّ قَالَ:وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ يَعْنِي الْأَطْرَافَ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ،ثُمَّ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ المراد أن يضربوهم كما شاؤوا،لِأَنَّ مَا فَــوْقَ الْعُنُــقِ هُــوَ الرَّأْسُ،وَهُــوَ أَشْــرَفُ الْأَعْضَاءِ،وَالْبَنَانُ عِبَارَةٌ عَنْ أَضْعَفِ الْأَعْضَاءِ،فَذَكَرَ الْأَشْرَفَ وَالْأَخَسَّ تَنْبِيهًا عَلَــى كُــلِّ الْأَعْضَاءِ،وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:بَلِ الْمُرَادُ إِمَّا الْقَتْلُ،وَهُوَ ضَرْبُ مَا فَــوْقَ الْأَعْنَــاقِ أَوْ قَطْــعُ الْبَنَانِ،لِأَنَّ الْأَصَابِعَ هِيَ الْآلَاتُ فِي أَخْذِ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَسَائِرِ الْأَسْلِحَةِ،فَإِذَا قَطَعَ بَنَانَهُمْ عَجَزُوا عَنِ الْمُحَارَبَةِ.[٢٩٢٩]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:سَأُرْعِبُ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْكُمْ،وَأَمْلَؤُهَا فَرَقًــا حَتَّى يَنْهَزِمُوا عَنْكُمْ،فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناقِ.وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: {فَــوْقَ الْأَعناقِ} [الأنفال:١٢] فَقَالَ بَعْضُهُمْ:[ص:٧٠] مَعْنَاهُ:فَاضْرِبُوا الْأَعناقَ

عَنْ عَطِيَّةَ:" {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناقِ} [الأنفال:١٢] قَالَ:اضْرِبُوا الْأَعناقَ "

وعَنِ الْقَاسِمِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّــهِ،إِنَّمَا بُعِثْــتُ لِضَرْبِ الْأَعناقِ وَشَدِّ الْوَثَاقِ»

[٢٩٢٨] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٢٦)

[٢٩٢٩] - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٥/ ٤٦٣)

وَاحْتَجَّ قَائلُو هَذه الْمَقَالَة بِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ:رَأَيْتُ نَفْسَ فُلَان،بِمَعْنَى رَأَيْتُهُ،قَالُوا:فَكَذَلكَ قَوْلُهُ:{فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناق} [الأنفال:١٢] إِنَّمَا مَعْنَاهُ:فَاضْرِبُوا الْأَعنَاقَ.وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ مَعْنَى ذَلكَ:فَاضْرِبُوا الرُّءُوسَ

عَنْ عكْرِمَةَ:" {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناق} [الأنفال:١٢] قَالَ:الرُّءُوسَ " وَاعْتَلَّ قَائلُو هَذه الْمَقَالَة بِأَنَّ الَّذي فَوْقَ الْأَعناق الرُّءُوسُ،وَقَالُوا:وَغَيْرُ جَائزٍ أَنْ تَقُولَ:فَوْقَ الْأَعناق،فَيَكُونَ مَعْنَاهُ الْأَعناقَ.قَالُوا:وَلَوْ جَازَ كَانَ أَنْ يُقَالَ تَحْتَ الْأَعنَاق،فَيَكُونَ مَعْنَاهُ الْأَعناقَ.قَالُوا:وَذَلكَ خلَافُ الْمَعْقُول منَ الْخَطَّاب،وَقَلْبُ مَعَاني الْكَلَام.وَقَالَ آخَرُونَ:مَعْنَى ذَلكَ:فَاضْرِبُوا عَلَى الْأَعنَاق.وَقَالُوا:«عَلَى» و «فَوْقَ» مَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبَان،فَجَازَ أَنْ يُوضَعَ أَحَدُهُمَا مَكَانَ الْآخَرِ.وَالصَّوَابُ منَ الْقَوْل في ذَلكَ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمنينَ مُعَلِّمَهُمْ كَيْفيَّةَ قَتْلِ الْمُشْرِكينَ وَضَرْبِهِمْ بِالسَّيْف أَنْ يَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناق منْهُمْ وَالْأَيْديَ وَالْأَرْجُلَ،وَقَوْلُهُ:{فَوْقَ الْأَعناق} [الأنفال:١٢] مُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا به الرُّءُوسُ،وَمُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا به فَوْقَ جلْدَة الْأَعناق،فَيَكُونَ مَعْنَاهُ:عَلَى الْأَعناق وَإِذَا احْتَمَلَ ذَلكَ صَحَّ قَوْلُ مَنْ قَالَ:مَعْنَاهُ الْأَعناقُ.وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَملًا مَا ذَكَرْنَا منَ التَّأْويل،لَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نُوَجِّهَهُ إِلَى بَعْضِ مَعَانيه دُونَ بَعْضٍ إِلَّا بِحُجَّة يَجبُ التَّسْليمُ لَهَا،وَلَا حُجَّةَ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصه،فَالْوَاجبُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِضَرْبِ رُءُوسِ الْمُشْرِكينَ وَأَعناقهِمْ وَأَيْديهِمْ وَأَرْجُلهِمْ أَصْحَابَ نَبِيِّه ﷺ الَّذينَ شَهدُوا مَعَهُ بَدْرًا

وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَاضْرِبُوا منْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:١٢] فَإِنَّ مَعْنَاهُ:وَاضْرِبُوا أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ منْ عَدُوِّكُمْ كُلَّ طَرَف وَمفْصَلٍ منْ أَطْرَاف أَيْديهِمْ وَأَرْجُلهِمْ.[ص:٧٢] وَالْبَنَانُ:جَمْعُ بَنَانَةٍ،وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْن"[٢٩٣٠]

ففيه دليل على أهم قاتلوا فَوْقَ الْأَعْناق أي أعالي الأعناق التي هي المذابح،تطييرا للرؤوس.أو أراد الرؤوس،لأها فوق الأعناق وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ أي أصابع.جمع

[٢٩٣٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٦٩)

(بنانة) قيل:المراد بالبنان،مطلق الأطراف مجازا،تسمية للكل بالجزء،لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل.والمعنى:اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها.[٢٩٣١]

قال القرطبي:"فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ) هذا أم للملائكة.وقيل:للمؤمنين،أي اضربوا الأعناق،و" فَوْقَ" زَائِدَةٌ،قَالَهُ الْأَخْفَشُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطِيَّةُ.وَقَدْ رَوَى الْمَسْعُودِيُّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ وَشَدِّ الْوَثَاقِ).وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ:هَذَا خَطَأٌ،لِأَنَّ" فَوْقَ" تُفِيدُ مَعْنًى فَلَا يَجُوزُ زِيَادَتُهَا،وَلَكِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أُبِيحَ لَهُمْ ضَرْبُ الْوُجُوهِ وَمَا قَرُبَ مِنْهَا.وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:كُلُّ هَامٍ وَجُمْجُمَةٍ.وَقِيلَ:أَيْ مَا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ،وَهُوَ الرؤوس،قَالَ عِكْرِمَةُ.وَالضَّرْبُ عَلَى الرَّأْسِ أَبْلَغُ،لِأَنَّ أدنى شي يؤثر في الدماغ.وقد مضى شي مِنْ هَذَا الْمَعْنَى فِي" النِّسَاءِ" وَأَنَّ" فَوْقَ" لَيْسَتْ بِزَائِدَةٍ،عِنْدَ قَوْلِهِ:" فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ".وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قَالَ الزَّجَّاجُ:وَاحِدُ الْبَنَانِ بَنَانَةٌ،وَهِيَ هُنَا الْأَصَابِعُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ.والبنان مشتق من قَوْلِهِمْ:أَبَنَ الرَّجُلُ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ.فَالْبَنَانُ يُعْتَمَلُ بِهِ مَا يَكُونُ لِلْإِقَامَةِ وَالْحَيَاةِ.وَقِيلَ:الْمُرَادُ بِالْبَنَانِ هُنَا أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ.وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الثَّبَاتِ فِي الْحَرْبِ وَمَوْضِعِ الضَّرْبِ،فَإِذَا ضَرَبْتَ الْبَنَانَ تَعَطَّلَ مِنَ الْمَضْرُوبِ الْقِتَالُ بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ."[٢٩٣٢]

(فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ) أي فاضربوا الهام،وافلقوا الرءوس،واحتزّوا الرقاب وقطّعوها وقطّعوا الأيدى ذات البنان التي هى أداة التصرف فى الضرب وغيره.[٢٩٣٣]

أَيْ:فَاضْرِبُوا الْهَامَ وَافْلِقُوا الرُّءُوسَ أَوِ اضْرِبُوا عَلَى الْأَعْنَاقِ،وَقَطِّعُوا الْأَيْدِيَ ذَاتَ الْبَنَانِ الَّتِي هِيَ أَدَاةُ التَّصَرُّفِ فِي الضَّرْبِ وَغَيْرِهِ،وَهُوَ مُتَعَيِّنٌ فِي حَالِ هُجُومِ الْفَارِسِ مِنَ الْكُفَّارِ عَلَى الرَّاجِلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِذَا لَمْ يَسْبِقْ هَذَا إِلَى قَطْعِ يَدِهِ قَطَعَ ذَاكَ رَأْسَهُ.وَالْبَنَانُ جَمْعُ بَنَانَةٍ وَهُوَ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ.[٢٩٣٤]

[٢٩٣١] - تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٥/ ٢٦٥)

[٢٩٣٢] - تفسير القرطبي (٧/ ٣٧٨)

[٢٩٣٣] - تفسير المراغي (٩/ ١٧٦)

[٢٩٣٤] - تفسير المنار (٩/ ٥٠٩)

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،ح وحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ،وَاللَّفْظُ لَهُ،حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ،حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ:فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ،إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:أَقْدِمْ حَيْزُومُ،فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ،وَشُقَّ وَجْهُهُ،كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ،فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ،فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«صَدَقْتَ،ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»،فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ،وَأَسَرُوا سَبْعِينَ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ:«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا نَبِيَّ اللهِ،هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ،أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ،فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ،**وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ،فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ،فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا**،فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ،وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ،وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ

لِبُكَائِكُمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ،لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال:٦٩] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ"[٢٩٣٥]

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قال:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ،وَالمِقْدَادَ،فَقَالَ:«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ،فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ،فَخُذُوا مِنْهَا» قَالَ:فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ،فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ،قُلْنَا لَهَا:أَخْرِجِي الكِتَابَ،قَالَتْ:مَا مَعِي كِتَابٌ،فَقُلْنَا:لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ،أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ،قَالَ:فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا،فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِذَا فِيهِ:مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ،إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ المُشْرِكِينَ،يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا حَاطِبُ،مَا هَذَا؟» قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ،إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ،يَقُولُ:كُنْتُ حَلِيفًا،وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا،وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ،فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ،أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي،وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي،وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»،**فَقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ**،فَقَالَ:" إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ".فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ} [الممتحنة:١]- إِلَى قَوْلِهِ - {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة:١٠٨][٢٩٣٦]

[٢٩٣٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

[٢٩٣٦] - صحيح البخاري (٥/ ١٤٥)(٤٢٧٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤١)١٦١ - (٢٤٩٤)

[ش (تعادى بنا خيلنا) أسرعت بنا وتعدت عن مشيتها المتعادة.(السورة) التي تبدأ بهذه الآية المذكورة وهي سورة الممتحنة.(أولياء) حلفاء ونصراء.(بالمودة) النصيحة.(إلى قوله) وتتمتها {يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم من يفعله منكم..} (أن تؤمنوا) لإيمانكم.(إن كنتم) أي إذا كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودة.(ابتغاء مرضاتي) من أجل

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَجِيءَ بِالْأُسَارَى،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأَسَارَى» - فَذَكَرَ فِي الحَدِيث قِصَّةً - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«**لَا يَنْفَلِتَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ**»،فَقَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ مَسْعُود:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه،إِلَّا سُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الإِسْلَامَ قَالَ:فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَمَا رَأَيْتُنِي فِي يَوْمٍ أَخْوَفَ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنِّي فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِلَّا سُهَيْلَ ابْنَ البَيْضَاءِ»،قَالَ:وَنَزَلَ القُرْآنُ بِقَوْلِ عُمَرَ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] إِلَى آخِرِ الآيَاتِ»[٢٩٣٧]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:«كَانَت الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ أَحَدًا وَسَبْعِينَ،وَالْقَتْلَى تِسْعَةً وَسِتِّينَ،فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ،فَكَانَ الْقَتْلَى سَبْعِينَ وَالْأُسَارَى سَبْعِينَ»[٢٩٣٨]

وفي سنن البيهقي:"بَابُ قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ الْإِسَارِ بِضَرْبِ الْأَعْنَاقِ دُونَ الْمُثْلَةِ"[٢٩٣٩]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ الْبَرَاءِ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:لَقِيَنِي عَمِّي،وَقَد اعْتَقَدَ رَايَةً،فَقُلْتُ:أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيه أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَآخُذَ مَالَهُ "[٢٩٤٠]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِب،قَالَ:بَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ،عَلَى إِبِلٍ لِي ضَلَّتْ،إِذْ أَقْبَلَ رَكْبٌ أَوْ فَوَارِسُ مَعَهُمْ لِوَاءٌ،فَجَعَلَ الْأَعْرَابُ يُطِيفُونَ بِي لِمَنْزِلَتِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،إِذْ أَتَوْا قُبَّةً فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهَا رَجُلًا فَضَرَبُوا عُنُقَهُ،فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَذَكَرُوا أَنَّهُ أَعْرَسَ بِامْرَأَةِ أَبِيه "[٢٩٤١]

الحصول على رضواني.(تسرون إليهم بالمودة) تبعثون إليهم ينصحكم سرا.(ضل سواء السبيل) أخطأ الصواب وابتعد عن طريق الهدى]

[٢٩٣٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٧١)(٣٠٨٤) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٢٧٣) والأموال لابن زنجويه (١/ ٣٠٧) حسن

[٢٩٣٨] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٩٤)(٢٦٦٨) حسن مرسل

[٢٩٣٩] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١١٧)

[٢٩٤٠] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦١)(١٦٨٩٣) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٧٦٩)(٢٠٤٨) صحيح لغيره

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:" إِنِّي لَأَطُوفُ عَلَى إِبِلٍ لِي ضَلَّتْ فَأَنَا أَجُولُ فِي أَبْيَاتٍ فَإِذَا أَنَا بِرَاكِبٍ وَفَوَارِسَ فَجَعَلَ أَهْلُ الْمَاءِ يَلُوذُونَ بِمَنْزِلِي وَأَطَافُوا بِفِنَائِي وَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ رَجُلًا فَمَا كَلَّمُوهُ حَتَّى ضَرَبُوا عُنُقَهُ،فَلَمَّا ذَهَبُوا سَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا:عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ "[٢٩٤٢]

وعَنِ الْبَرَاءِ،«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ أَبِيهِ،فَأَمَرَهُ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَهُ وَيَأْتِي بِرَأْسِهِ»[٢٩٤٣]

وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ،ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى عَبْدَ اللَّهِ،فَقَالَ:مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ إِحْنَةٌ،وَإِنِّي مَرَرْتُ بِمَسْجِدٍ لِبَنِي حَنِيفَةَ،فَإِذَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِمُسَيْلِمَةَ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ،فَجِيءَ بِهِمْ فَاسْتَتَابَهُمْ غَيْرَ ابْنِ النَّوَّاحَةِ،وَقَالَ:لَهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ: «لَوْلَا أَنَّكَ رَسُولٌ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ وَأَنْتَ الْيَوْمَ لَسْتَ بِرَسُولٍ»،فَأَمَرَ قَرَظَةَ بْنَ كَعْبٍ،فَضَرَبَ عُنُقَهُ فِي السُّوقِ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ابْنِ النَّوَّاحَةِ،فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ قَتِيلًا،فِي السُّوقِ»[٢٩٤٤]

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،قَالَ:لَمَّا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ،أَمَرَنَا أَنْ يَنْزِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ،فَقَالَ لَنَا:«يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا،وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا» فَلَمَّا قُمْنَا قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفْتِنَا فِي شَرَابَيْنِ كُنَّا نَصْنَعُهُمَا:الْبِتْعُ مِنَ الْعَسَلِ يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ،وَالْمِزْرُ مِنَ الشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ،فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ،فَقَالَ ﷺ: «حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كُلُّ مُسْكِرٍ يُسْكِرُ عَنِ الصَّلَاةِ» قَالَ:«وَأَتَانِي مُعَاذٌ يَوْمًا وَعِنْدِي رَجُلٌ كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ،فَسَأَلَنِي مَا شَأْنُهُ؟ فَأَخْبَرْتُهُ،فَقُلْتُ لِمُعَاذٍ:اجْلِسْ» فَقَالَ:مَا أَنَا بِالَّذِي أَجْلِسُ حَتَّى أَعْرِضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ،فَإِنْ قَبِلَ وَإِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ،فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ،فَضَرَبَ عُنُقَهُ،فَسَأَلَنِي مُعَاذٌ يَوْمًا:كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَقُلْتُ:«أَقْرَؤُهُ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى فِرَاشِي أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا» قَالَ:وَسَأَلْتُ

[٢٩٤١] – السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٤١٢)(١٧٠٥٤) صحيح

[٢٩٤٢] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٣٩٧)(٨٠٥٥) صحيح

[٢٩٤٣] – مسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ٢٢٨)(١٦٦٧) صحيح

[٢٩٤٤] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ٢٣٦)(٤٨٧٩) صحيح

مُعَاذًا:«كَيْفَ تَقْرَأُ أَنْتَ؟ » قَالَ:أَقْرَأُ وَأَنَامُ ثُمَّ أَقُومُ فَأَتَقَوَّى بِنَوْمَتِي عَلَى قَوْمَتِي،ثُمَّ أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي بِمَا أَحْتَسِبُ بِهِ قَوْمَتِي"[2945]

وعَنْ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ،أَنَّ أَبَا مُوسَى،حَاصَرَ أَهْلَ السُّوسِ،فَطَلَبَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ أَنْ يُؤَمِّنَ مِنْهُمْ مِائَةَ رَجُلٍ،وَيَفْتَحُونَ لَهُمُ الْمَدِينَةَ،فَقَالَ أَبُو مُوسَى:«إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُمَكِّنَ اللَّهُ مِنْهُ» .فَقَالَ:«اكْتُبْهُمْ»،فَكَتَبَهُمْ،وَلَمْ يَكْتُبْ نَفْسَهُ،فَفَتَحَ الْبَابَ،فَقَالَ:«اعْزِلْهُمْ»،فَعَزَلَ مِائَةَ رَجُلٍ،فَأَمَّنَهُمْ،وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ،فَقَالَ:أَتَغْدِرُ؟ أَلَمْ تُؤَمِّنِّي؟ قَالَ:«إِنَّمَا أَمَّنْتُ مِائَةَ رَجُلٍ،فَسَمَّيْتَهُمْ،وَلَمْ تُسَمِّ نَفْسَكَ» فَبَذَلَ مَالًا كَثِيرًا،فَأَبَى عَلَيْهِ،فَضَرَبَ عُنُقَهُ"[2946]

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَى رَجُلًا بِرَجُلَيْنِ وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ:أَمَّا الصِّبْيَانَةُ إِذَا صَارُوا إِلَيْنَا لَيْسَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَاحِدٌ مِنْ وَالِدَيْهِ،فَلَا نَبِيعُهُمْ مِنْهُمْ،وَلَا يُفَادَى بِهِمْ؛ لِأَنَّ حُكْمَهُمْ حُكْمُ آبَائِهِمْ مَا كَانُوا مَعَهُمْ،فَإِذَا تَحَوَّلُوا إِلَيْنَا،وَلَا وَالِدَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ،فَإِنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ مَالِكِهِ [ص:٢٠٩] وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ قَالَ:رُدَّ إِلَيْهِمْ صَغِيرًا بِمُسْلِمٍ فَيَرُدَّهُ اللهُ عَلَيْنَا كَبِيرًا فَيُضْرَبَ عُنُقُهُ،قَالَ الرَّاوِي:ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ،فَأُسِرَ الْغُلَامُ فِي وِلَايَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَضُرِبَ عُنُقُهُ.وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ:لَا بَأْسَ بِأَنْ يُبَاعَ السَّبْيُ إِذَا كَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَلَا يُبَاعُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ"[2947]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ،أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْهَمْدَانِيُّ،حَدَّثَهُمْ،أَنَّهُمْ " كَانُوا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ،صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ،فِي الْبَحْرِ فَأُتِيَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ فَرَّ إِلَى الْعَدُوِّ فَأَقَالَهُ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ،ثُمَّ فَرَّ الثَّانِيَةَ فَأُتِيَ بِهِ فَأَقَالَهُ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ،ثُمَّ فَرَّ الثَّالِثَةَ فَأُتِيَ بِهِ فَنَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء:١٣٧]،فَضَرَبَ عُنُقَهُ ".[2948]

[2945] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ١٩٦)(٥٣٧٦) صحيح

[2946] - الأموال لابن زنجويه (١/ ٣٤٨)(٥٤٩) صحيح

[2947] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٠٩)(٦٦٠٣) صحيح

[2948] - الجامع لابن وهب ت رفعت فوزي عبد المطلب (١/ ٢٨٥)(٤٩٦-[٤٦٩] والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٦٠)(١٦٨٩٢) صحيح

وعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ،أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ،كَانَ بِالْعِرَاقِ يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاحِرٌ،وَكَانَ يَضْرِبُ رَأْسَ الرَّجُلِ ثُمَّ يَصِيحُ بِهِ فَيَقُومُ خَارِجًا فَيَرْتَدُّ إِلَيْهِ رَأْسُهُ،فَقَالَ النَّاسُ:سُبْحَانَ اللهِ يُحْيِي الْمَوْتَى.وَرَآهُ رَجُلٌ مِنْ صَالِحِ الْمُهَاجِرِينَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ،فَذَهَبَ يَلْعَبُ لَعِبَهُ ذَلِكَ،فَاخْتَرَطَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ فَقَالَ:إِنْ كَانَ صَادِقًا فَلْيُحْيِ نَفْسَهُ،وَأَمَرَ بِهِ الْوَلِيدُ دِينَارًا صَاحِبَ السِّجْنِ،وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا فَسَجَنَهُ،فَأَعْجَبَهُ نَحْوُ الرَّجُلِ،فَقَالَ:أَفَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْرُبَ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَاخْرُجْ لَا يَسْأَلُنِي اللهُ عَنْكَ أَبَدًا"[2949]

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ،قَالَ:" فَأَتَى أَبُو مُوسَى بِرَجُلٍ قَد ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ،فَدَعَاهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا،فَجَاءَ مُعَاذٌ فَدَعَاهُ فَأَبَى فَضَرَبَ عُنُقَهُ "[2950]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،قَالَ:أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ أَبَا عَزَّةَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ عَبْدٍ الْجُمَحِيَّ،وَكَانَ شَاعِرًا،وَكَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:يَا مُحَمَّدُ إِنَّ لِي خَمْسَ بَنَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ شَيْءٌ فَتَصَدَّقْ بِي عَلَيْهِنَّ،فَفَعَلَ،وَقَالَ أَبُو عَزَّةَ:أُعْطِيكَ مَوْثِقًا أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أُكْثِرَ عَلَيْكَ أَبَدًا،فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَلَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أُحُدٍ جَاءَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ،فَقَالَ:اخْرُجْ مَعَنَا،فَقَالَ:إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ مُحَمَّدًا مَوْثِقًا أَنْ لَا أُقَاتِلَهُ،فَضَمِنَ صَفْوَانُ أَنْ يَجْعَلَ بَنَاتِهِ مَعَ بَنَاتِهِ إِنْ قُتِلَ،وَإِنْ عَاشَ أَعْطَاهُ مَالًا كَثِيرًا،فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى خَرَجَ مَعَ قُرَيْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ،فَأُسِرَ وَلَمْ يُؤْسَرْ غَيْرُهُ مِنْ قُرَيْشٍ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أُخْرِجْتُ كَرْهًا وَلِي بَنَاتٌ فَامْنُنْ عَلَيَّ.فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَيْنَ مَا أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ؟ لَا،وَاللهِ لَا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ:سَخِرْتُ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْنِ ".قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ:فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ،يَا عَاصِمُ بْنَ ثَابِتٍ قَدِّمْهُ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ ".فَقَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ.قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ:" ثُمَّ أَسَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ الْحَنَفِيَّ بَعْدُ فَمَنَّ عَلَيْهِ،ثُمَّ عَادَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ بَعْدُ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ "[2951]

[2949] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٣٤)(١٦٥٠٢) صحيح

[2950] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٥٨)(١٦٨٨٣) صحيح

[2951] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١١١)(١٨٠٢٩) من طريق الواقدي وهو حجة في المغازي

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:كَانَ جَرِيرٌ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:«إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ،وَإِنْ مَاتَ مَاتَ كَافِرًا» وَأَبَقَ غُلَامٌ لِجَرِيرٍ فَأَخَذَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ"[٢٩٥٢]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ،أَنَّ سَاحِرًا،كَانَ يَلْعَبُ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ فَكَانَ يَأْخُذُ السَّيْفَ وَيَذْبَحُ نَفْسَهُ وَيَعْمَلُ كَذَا وَلَا يَضُرُّهُ «فَقَامَ جُنْدُبٌ إِلَى السَّيْفِ فَأَخَذَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ» ثُمَّ قَرَأَ: {أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء:٣][٢٩٥٣]

وعَنِ الْقَاسِمِ،قَالَ:أُتِيَ عَبْدُ اللهِ،فَقِيلَ لَهُ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،إِنَّ هَهُنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ قِرَاءَةَ مُسَيْلِمَةَ،فَرَدَّهُ عَبْدُ اللهِ فَلَبِثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَلْبَثَ،ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ:وَالَّذِي أَحْلِفُ بِهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،لَقَدْ تَرَكْتُهُمُ الْآنَ فِي دَارٍ،وَإِنَّ ذَلِكَ الْمُصْحَفَ لَعِنْدَهُمْ،فَأَمَرَ قَرَظَةَ بْنَ كَعْبٍ فَسَارَ بِالنَّاسِ مَعَهُ،فَقَالَ:«ائْتِ بِهِمْ»،فَلَمَّا أَتَى بِهِمْ،قَالَ عَبْدُ اللهِ:«مَا هَذَا بَعْدَ اسْتِفَاضِ الْإِسْلَامِ؟» قَالُوا:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،نَسْتَغْفِرُ اللهَ،وَنَتُوبُ إِلَيْهِ،وَنَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ هُوَ الْكَذَّابُ الْمُفْتَرِي عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ،قَالَ:فَاسْتَتَابَهُمْ عَبْدُ اللهِ،وَسَيَّرَهُمْ إِلَى الشَّامِ،وَإِنَّهُمْ لَقَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا،وَأَبَى ابْنُ النَّوَّاحَةِ أَنْ يَتُوبَ فَأَمَرَ بِهِ قَرَظَةَ بْنَ كَعْبٍ فَأَخْرَجَهُ إِلَى السُّوقِ فَضَرَبَ عُنُقَهُ،وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ رَأْسَهُ فَيُلْقِيَهُ فِي حِجْرِ أُمِّهِ،قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ:فَلَقِيتُ شَيْخًا مِنْهُمْ كَبِيرًا بَعْدَ ذَلِكَ بِالشَّامِ،فَقَالَ:لِيَرْحَمِ اللهُ أَبَاكَ،وَاللهِ لَوْ قَتَلْنَا يَوْمَئِذٍ لَدَخَلْنَا النَّارَ كُلُّنَا"[٢٩٥٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:«انْتَهَى عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ وَقِيذٌ فَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ فَبَدَرَ رَأْسُهُ،ثُمَّ أَخَذَ سَلَبَهُ وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَتَلَ أَبَا جَهْلٍ فَأَحْلَفَهُ بِاللهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَحَلَفَ،فَجَعَلَ لَهُ سَلَبَهُ»[٢٩٥٥]

والأحاديث التي فيها ضرب العنق كثيرة جدا

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَفْشُوا السَّلَامَ،وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ،وَاضْرِبُوا الهَامَ،تُورَثُوا الجِنَانَ»[٢٩٥٦]

[٢٩٥٢] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٣٩)(٣٤٩٩) صحيح

[٢٩٥٣] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٧٧)(١٧٢٥) صحيح

[٢٩٥٤] - المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٩٥)(٨٩٦٠) حسن

[٢٩٥٥] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٩٩)(١٢١٢٣) حسن

أَفْشُوا):بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ ؛ أَيْ:أَشِيعُوا وَعَمِّمُوا (السَّلَامَ):أَيْ:رُدُّوهُ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ فِي الْجُمْلَةِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ لِلِاسْتِحْبَابِ،فَالْمُرَادُ بِهِ السَّلَامُ وَفَرْضِيَّةُ الْجَوَابِ مَفْهُومَةٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ} [النساء:٨٦] الْآيَةَ.وَهَذِهِ سُنَّةٌ أَفْضَلُ مِنَ الْفَرِيضَةِ وَهِيَ مِنْ غَرَائِبِ الْمَسْأَلَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:إِفْشَاءُ السَّلَامِ إِظْهَارُهُ وَرَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ،أَوْ إِشَاعَتُهُ بِأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ تَرَاهُ عَرَفْتَهُ أَوْ لَمْ تَعْرِفْ اه.وَالظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي ؛ لِأَنَّ السَّلَامَ مَعَ عَدَمِ إِظْهَارِهِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ بِهِ لَا يُسَمَّى سَلَامًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ إِفْشَاءً لِلسَّلَامِ.(وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ):فَإِنَّهُ مِنْ شَعَائِرِ الْكِرَامِ،لَا سِيَّمَا لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْأَيْتَامِ (وَاضْرِبُوا الْهَامَ):جَمْعُ هَامَةٍ بِالتَّخْفِيفِ وَهُوَ الثَّانِي ؛ أَيِ:اقْطَعُوا رُءُوسَ الْكُفَّارِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ (تُورَثُوا):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْإِيرَاثِ ؛ أَيْ:تُعْطَوْا فِي مُقَابَلَةِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْخِصَالِ الْعِظَامِ (الْجِنَانَ) بِكَسْرِ الْجِيمِ ؛ أَيْ:جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي دَارِ السَّلَامِ قَالَ تَعَالَى:{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف:٧٢] قَالَ الْقَاضِي:الْمُرَادُ بِضَرْبِ الْهَامِ الْجِهَادُ،وَلَمَّا كَانَتْ أَفْعَالُهُمْ هَذِهِ تَخْلُفُ عَلَيْهِمُ الْجِنَانَ فَكَأَنَّهُمْ وَرِثُوهَا مِنْهَا.قُلْتُ:وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى ارْتِكَابِ الْمُجَاهَدَاتِ وَتَرْكِ الْمُشْتَهَيَاتِ لِكَوْنِهَا مِنَ التَّكْلِيفَاتِ الْمَكْرُوهَاتِ تُعَدُّ مِنَ الْمُصِيبَاتِ الَّتِي تُورِثُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ وَالثَّمَرَاتِ الطَّيِّبَاتِ،تَشْبِيهًا بِمَنْ فَاتَهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَقَارِبِ،وَحَصَلَ لَهُ مَنْ إِرْثِهِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْأَجَانِبِ"[٢٩٥٧]

وقال المناوي:"(واضربوا الهام) أي رؤوس الكفار جمع هامة بالتخفيف الرأس قال الزين العراقي اقتصر فيه على ضرب الهام لأن ضرب الرؤوس مفض للهلاك بخلاف بقية البدن فإنه تقع فيه الجراح ويبرأ صاحبها فإذا فسد الدماغ هلك صاحبه "[٢٩٥٨]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قُلْتُ:مَا أَكْثَرُ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ:قَدْ حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ فِي الْحِجْرِ،فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ

[٢٩٥٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢٨٧)(١٨٥٤) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ وفيه ضعف

[٢٩٥٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٥)

[٢٩٥٨] - فيض القدير (٢/ ٢٣)

قَطُّ،سَفَّهَ أَحْلَامَنَا،وَشَتَمَ آبَاءَنَا،وَعَابَ دِينَنَا،وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا،وَسَبَّ آلِهَتَنَا،لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ،أَوْ كَمَا قَالُوا،فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ،إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ،فَمَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ،فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ،قَالَ:وَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ،ثُمَّ مَضَى ﷺ،فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا،فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ،ثُمَّ مَضَى ﷺ،فَمَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ،غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا،ثُمَّ قَالَ: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ» قَالَ:فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا لَكَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ،حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَطْأَةً قَبْلَ ذَلِكَ يَتَوَقَّاهُ بِأَحْسَنِ مَا يُجِيبُ مِنَ الْقَوْلِ،حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ:انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ،انْصَرِفْ رَاشِدًا،فَوَاللَّهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا،فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ،وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ،حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ،وَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ،إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ،وَأَحَاطُوا بِهِ،يَقُولُونَ لَهُ:أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا – لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ؟ قَالَ:«نَعَمْ،أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ» قَالَ:فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ،وَقَالَ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي:أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟،ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ،فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشُدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ"[٢٩٥٩]

قلت:وصفة الذبح معروفة لا يتمارى فيها اثنان .

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،قَالَ:مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا أَرَادُوا قَتْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا يَوْمًا رأيتهم * وَهُمْ جُلُوسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْمَقَامِ،فَقَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ،فَجَعَلَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ،ثُمَّ جَذَبَهُ حَتَّى وَجَبَ لِرُكْبَتَيْهِ ﷺ،وَتَصَايَحَ النَّاسُ،فَظَنُّوا أَنَّهُ مَقْتُولٌ،قَالَ:وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْتَدُّ حَتَّى أَخَذَ بِضَبْعَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَائِهِ،وَهُوَ يَقُولُ:أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ،ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ مَرَّ بِهِمْ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ،فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا

[٢٩٥٩] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٤/ ٥٢٦)(٦٥٦٧) حسن

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،مَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ إِلَّا بِالذَّبْحِ»،وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ،فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ:يَا مُحَمَّدُ،مَا كُنْتَ جَهُولًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَنْتَ مِنْهُمْ»[٢٩٦٠]

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ:أَنَا أَعْلَمُ،فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ،إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ،فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ:أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ،هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.قَالَ:يَا رَبِّ،وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ:احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ،فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ،فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ،وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ،حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا،فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا،وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا،فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ:آتِنَا غَدَاءَنَا،لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا،وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ،فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ:(أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ) قَالَ مُوسَى:(ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ،إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ،أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ،فَسَلَّمَ مُوسَى،فَقَالَ الخَضِرُ:وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ؟ فَقَالَ:أَنَا مُوسَى،فَقَالَ:مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ:إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا،يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ،وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ،قَالَ:سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا،وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا،فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ،لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ،فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ،فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا،فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ،فَجَاءَ عُصْفُورٌ،فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ،فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ،فَقَالَ الخَضِرُ:يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ،فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ،فَنَزَعَهُ،فَقَالَ مُوسَى:قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ:أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ:لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا – فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا –،فَانْطَلَقَا،فَإِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ،**فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ**

[٢٩٦٠] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٤/ ٥٢٩)(٦٥٦٩) حسن

أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ،فَقَالَ مُوسَى:أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ:أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ - قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ:وَهَذَا أَوْكَدُ - فَانْطَلَقَا،حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا،فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا،فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ،قَالَ الخَضِرُ:بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ،فَقَالَ لَهُ مُوسَى:لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا،قَالَ:هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى،لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»[٢٩٦١]

وفي رواية:فَانْطَلَقَا إِذَا هُمَا بِغُلاَمٍ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ،فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَطَعَهُ،قَالَ لَهُ مُوسَى:{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ،لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا} [الكهف:٧٥][٢٩٦٢]

إذاً فصفة القتل بقطع الرأس وحزها:صفةٌ مشروعة درج عليها الرسل والأنبياء،وهي من الشرع المشترك بينهم،والحمد لله أولاً وآخراً .

[٢٩٦١] - صحيح البخاري (١/ ٣٥)(١٢٢)

[ش (فعتب) لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذة.(بمجمع البحرين) ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال.(مكتل) وعاء يسع خمسة عشر صاعا.(فانسل) خرج برفق وخفة.(سربا) مسلكا يسلك فيه.(نصبا) تعبا.(مسا) أثرا وفي رواية (شيئا).(مسجى) مغطى.(وأنى بأرضك السلام) كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام.(نول) أجر.(فعمد) قصد.(الأولى) المسألة الأولى.(زكية) طاهرة لم تذنب.(وهذا أوكد) أي قوله.(ألم أقل لك) لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب.(استطعما) طلبا طعاما.(ينقض) يكاد يسقط.(قال الخضر بيده) أشار بها.(من أمرهما) ممن الأعاجيب والغرائب]

ويستفاد منه: فوائد كثيرة: منها.فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، فإن موسى - صلى الله عليه وسلم - رحل مسافات طويلة ولقي النصب في طلبه.ومنها: التأدب مع المعلم، والتلطف في مخاطبته لقول موسى (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) حيث أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة فاستأذن منه في مصاحبته وأقر أنه يتعلم منه علماً هو في حاجة إليه يستفيد منه ويسترشد به.ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه، وذلك ليأخذ منه العلم الذي مهر فيه، وان كان دونه في العلم والفضل بدرجات كثيرة، فلا شك أن موسى أفضل من الخضر، ولكن لما كان عند الخضر من هذا العلم الخاص ما ليس عند موسى حرص على التعلم منه .ومنها: أنه ينبغي للعالم مهما بلغ من العلم إذا سئل أي الناس أعلم أن يكل العلم إلى الله تواضعاً وتأدباً فيقول: الله أعلم.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٢٢٤)

[٢٩٦٢] - صحيح البخاري (٦/ ٩٢)

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هَوَازِنَ،فَبَيْنَا نَحْنُ نَتَضَحَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ،فَأَنَاخَهُ،ثُمَّ انْتَزَعَ طَلَقًا مِنْ حَقَبِهِ،فَقَيَّدَ بِهِ الْجَمَلَ،ثُمَّ تَقَدَّمَ يَتَغَدَّى مَعَ الْقَوْمِ،وَجَعَلَ يَنْظُرُ وَفِينَا ضَعْفَةٌ وَرِقَّةٌ فِي الظَّهْرِ،وَبَعْضُنَا مُشَاةٌ،إِذْ خَرَجَ يَشْتَدُّ،فَأَتَى جَمَلَهُ،فَأَطْلَقَ قَيْدَهُ ثُمَّ أَنَاخَهُ،وَقَعَدَ عَلَيْهِ،فَأَثَارَهُ فَاشْتَدَّ بِهِ الْجَمَلُ،فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ وَرْقَاءَ،قَالَ سَلَمَةُ:وَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ فَكُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ النَّاقَةِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى كُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ الْجَمَلِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِخِطَامِ الْجَمَلِ فَأَنَخْتُهُ،فَلَمَّا وَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي،فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ،فَنَدَرَ،ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَمَلِ أَقُودُهُ عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَسِلَاحُهُ،فَاسْتَقْبَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ،فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ؟» قَالُوا:ابْنُ الْأَكْوَعِ،قَالَ:«لَهُ سَلَبُهُ أَجْمَعُ»[2963]

ثُمَّ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي):أَيْ سَلَلْتُهُ مِنْ غِمْدِهِ (فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ،ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَمَلِ أَقُودُهُ):أَيْ أَجُرُّهُ (عَلَيْهِ)[2964]

قَوْلُهُ (فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ فَنَدَرَ) هُوَ بِالنُّونِ أَيْ سَقَطَ[2965]

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ مَكِيثٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:" بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَالِبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيَّ أَحَدَ بَنِي كَلْبِ بْنِ عَوْفٍ فِي سَرِيَّةٍ كُنْتُ فِيهِمْ فَأَمَرَهُ أَنْ يَشُنَّ الْغَارَةَ عَلَى بَنِي الْمُلَوِّحِ بِالْكَدِيدِ وَهُمْ مِنْ بَنِي لَيْثٍ قَالَ:فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِقُدَيْدٍ لَقِينَا الْحَارِثَ بْنَ بَرْصَاءَ اللَّيْثِيَّ فَأَخَذْنَاهُ فَقَالَ:إِنَّمَا جِئْتُ أُرِيدُ الْإِسْلَامَ،فَإِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.فَقُلْنَا:إِنْ تَكُنْ مُسْلِمًا فَلَنْ يَضُرَّكَ رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،وَإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَسَنُوثِقُ مِنْكَ فَشَدَدْنَاهُ رِبَاطًا وَخَلَّفْنَا عِنْدَهُ رُوَيْجِلًا مِنَّا أَسْوَدَ ثُمَّ قُلْنَا:إِنْ نَازَعَكَ فَاجْتَزَّ رَأْسَهُ ...."[2966]

وعَن أَنَسٍ،قَالَ:قَالَ غُلامٌ مِنَّا مِنَ الأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ:لَنْ نُهْزَمَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ لَقِينَا عَدُوَّنَا فَانْهَزَمَ الْقَوْمُ،وَكَان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ،وَأَبُو سُفيان بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالْعَبَّاسُ عَمُّهُ آخِذٌ بِغَرْزِهَا وَكُنَّا فِي وَادٍ دَهِسٍ فَارْتَفَعَ النَّقْعُ فَمَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ

[2963] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٤)٤٥ - (١٧٥٤)

[2964] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٤٧)

[2965] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٦٧)

[2966] - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥/ ٥٥)(٢٥٩١) فيه ضعف

يُبْصرُ كَفَّهُ إِذَا شَخْصٌ قَدْ أَقْبَلَ فَقَالَ لَهُ:إِلَيْكَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:أَنَا أَبُو بَكْرٍ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَبِه بِضْعَةَ عَشَرَ ضَرْبَةً،ثُمَّ إِذَا شَخْصٌ قَدْ أَقْبَلَ فَقَالَ:إِلَيْكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَبِه بِضْعَةَ عَشَرَ ضَرْبَةً.وَإِذَا شَخْصٌ قَدْ أَقْبَلَ وَبِه بِضْعَةٌ وَعِشْرُونَ ضَرْبَةً فَقَالَ:إِلَيْكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:عُثْمَان بْنُ عَفَّانَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي،ثُمَّ إِذَا شَخَصَ قَدْ أَقْبَلَ وَبِه بِضْعَةَ عَشَرَ ضَرْبَةً فَقَالَ:إِلَيْكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي،ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ:أَلَا رَجُلٌ صَيِّتٌ يَنْطَلِقُ فَيُنَادِي فِي الْقَوْمِ؟ فَانْطَلَقَ رَجُلٌ فَصَاحَ فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ وَقَعَ صَوْتُهُ فِي أَسْمَاعِهِمْ فَأَقْبَلُوا رَاجِعِينَ فَحَمَلَ النَّبِيّ ﷺ وَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَانْحَازَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّة عَلَى جُبَيْلٍ،أَوْ قَالَ عَلَى أَكَمَة فِي زهاء ستمئة.فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ:أَرَى وَاللَّه كَتِيبَةً قَدْ أَقْبَلَتْ قَالَ:خَلُّوهُمْ لِي قَالَ:سِيمَاهُمْ كَذَا مِنْ هَيْئَتِهِمْ كَذَا قَالَ:لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ قُضَاعَةُ مُنْطَلِقَةٌ فِي آثَارِ الْقَوْمِ قَالُوا:نَرَى وَاللَّه كَتِيبَةً خَشْنَاءَ قَدْ أَقْبَلَتْ قَالَ:خَلُّوهُمْ لِي قَالَ:سِيمَاهُمْ كَذَا مِنْ هَيْئَتِهِمْ كَذَا قَالَ:لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ هَذِه سُلَيْمٌ،ثُمَّ قَالُوا:نَرَى فَارِسًا قَدْ أَقْبَلَ قَالَ:وَيْلَكُمْ! وَحْدَهُ؟ قَالُوا:وَحْدَهُ قَالَ:خَلُّوهُ لِي قَالُوا:مُعْتَجِرًا بِعِمَامَة سَوْدَاءَ قَالَ دُرَيْدٌ:ذَاكَ وَاللَّه الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ،وهُو وَاللَّه قَاتِلُكُمْ وَمُخْرِجُكُمْ مِنْ مَكَانِكُمْ هَذَا قَالَ:فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فقال:علام يترك هؤلاء هاهنا فمضي ومن اتبعه فقتل زهاء ثلاثمِئَة وَجَزَّ رَأْسَ دُرَيْد بْنِ الصِّمَّة فَجَعَلَهُ بَيْنَ يَدَيْه."[٢٩٦٧]

وعَن أَبِي حَدْرَد الْأَسْلَمِيِّ،قَالَ:تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِي،فَأَصْدَقْتُهَا مائَتَيْ دِرْهَمٍ،فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَسْتَعِينُهُ عَلَى نِكَاحِي قَالَ:" وَكَمْ أَصْدَقْتَ ؟ " قَالَ:قُلْتُ:مائَتَيْ دِرْهَمٍ يَا رَسُولَ الله قَالَ:سُبْحَانَ الله لَوْ كُنْتُمْ تَأْخُذُونَ هَذِه الدَّرَاهِمَ مِنْ بَطْنِ وَادٍ مَا زِدْتُمْ،وَالله مَا عِنْدِي مَا أُعِينُكَ بِه " قَالَ:فَمَكَثَ أَيَّامًا،وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُشَمٍ،يُقَالُ لَهُ:رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ،أَوْ قَيْسُ بْنُ رِفَاعَةَ فِي بَطْنٍ عَظِيمٍ مِنْ جُشَمٍ حَتَّى نَزَلَ بِقَوْمِه بِالْغَابَة يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعُ قَوْمَهُ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ،قَالَ:وَكَانَ ذَا اسْمٍ فِي جُشَمٍ وَشَرَفٍ،قَالَ:فَدَعَانِي رَسُولُ

[٢٩٦٧] - مسند البزار = البحر الزخار (١٣/ ١٢٨)(٦٥١٨) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٤٢) حسن

اللهِ ﷺ وَدَعَى رَجُلَيْنِ مَعِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ:" اخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى تَأْتُونَا مِنْهُ بِخَبَرٍ وَعِلْمٍ " وَقَدِمَ لَنَا شَارِفًا عَجْفَاءَ،فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَحَدُنَا،فَوَاللهِ مَا قَامَتْ بِهِ ضَعْفًا حَتَّى دَعَمَهَا الرِّجَالُ مِنْ خَلْفِهَا بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ وَمَا كَادَتْ،ثُمَّ قَالَ:" تَبَلَّغُوا عَلَى هَذِهِ وَاعْتَقِبُوهَا " قَالَ:فَخَرَجْنَا وَمَعَنَا سِلَاحُنَا مِنَ النَّبْلِ وَالسُّيُوفِ،حَتَّى إِذَا جِئْنَا قَرِيبًا مِنَ الْحَاضِرِ عُشَيْشِيَةً مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ،كُنْتُ فِي نَاحِيَةٍ وَأَمَرْتُ صَاحِبِي،فَكَمَنَا فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ حَاضِرِ الْقَوْمِ،وَقُلْتُ لَهُمَا:إِذَا سَمِعْتُمَانِي قَدْ كَبَّرْتُ وَشَدَدْتُ فِي الْعَسْكَرِ فَكَبِّرَا وَشُدَّا مَعِي فَوَاللهِ إِنَّا لَكَذَلِكَ نَنْتَظِرُ أَنْ نَرَى غِرَّةً أَوْ نَرَى شَيْئًا،وَقَدْ غَشِيَنَا اللَّيْلُ حَتَّى ذَهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ،قَالَ:وَقَدْ كَانَ لَهُمْ رَاعٍ يَسْرَحُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ،فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَخَوَّفُوا عَلَيْهِ،فَقَامَ صَاحِبُهُمْ ذَلِكَ رِفَاعَةُ بْنُ قَيْسٍ،فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَجَعَلَهُ فِي عُنُقِهِ،ثُمَّ قَالَ:وَاللهِ لَأَتْبَعَنَّ أَثَرَ رَاعِينَا هَذَا لَقَدْ أَصَابَهُ شَرٌّ قَالَ:فَقَالَ نَفَرٌ مِمَّنْ مَعَهُ:وَاللهِ لَا تَذْهَبُ نَحْنُ نَكْفِيكَ،قَالَ:وَاللهِ لَا يَذْهَبُ إِلَّا أَنَا،قَالَ:فَنَحْنُ مَعَكَ،قَالَ:وَاللهِ لَا يَتَّبِعُنِي مِنْكُمْ قَالَ:وَخَرَجَ حَتَّى مَرَّ بِي،فَلَمَّا أَمْكَنَنِي نَفَحْتُهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعْتُهُ فِي فُؤَادِهِ،فَوَاللهِ مَا تَكَلَّمَ،فَوَثَبْتُ إِلَيْهِ فَاحْتَزَزْتُ رَأْسَهُ،ثُمَّ شَدَدْتُ فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ وَكَبَّرْتُ،وَشَدَّ صَاحِبَايَ وَكَبَّرَا،فَوَاللهِ مَا كَانَ إِلَّا النَّجَاءُ مِمَّنْ كَانَ فِيهِ عِنْدَكَ،بِكُلِّ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ،وَمَا خَفَّ مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَالَ:وَاسْتَقْنَا إِبِلًا عَظِيمَةً وَغَنَمًا كَثِيرَةً،فَجِئْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَجِئْتُ بِرَأْسِهِ أَحْمِلُهُ مَعِي،فَأَعَانَنِي مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ بَعِيرًا فِي صَدَاقِي،فَجَمَعْتُ إِلَيَّ أَهْلِي "[٢٩٦٨]

وعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ جَعَلَ نِسَاءَهُ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ:فَارِعٌ،وَجَعَلَ مَعَهُنَّ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ»،فَكَانَ حَسَّانُ يَطَّلِعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَإِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ اشْتَدَّ مَعَهُ وَهُوَ فِي الْحِصْنِ،وَإِذَا رَجَعَ رَجَعَ وَرَاءَهُ،فَجَاءَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَرَقَى أَحَدُهُمْ فِي الْحِصْنِ حَتَّى أَطَلَّ عَلَيْنَا،فَقُلْتُ لِحَسَّانَ:«قُمْ إِلَيْهِ،فَاقْتُلْهُ» فَقَالَ:مَا ذَاكَ فِيَّ لَوْ كَانَ ذَلِكَ فِيَّ لَكُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَتْ صَفِيَّةُ:فَضَرَبْتُ رَأْسَهُ حَتَّى

[٢٩٦٨] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ١٨٩٥)(٤٧٧١) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٣٠٣) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٣٤) حسن

قَطَعْتُهُ،فَلَمَّا قَطَعْتُهُ،قُلْتُ:يَا حَسَّانُ،قُمْ إِلَى رَأْسِه فَارْمِ بِه عَلَيْهِمْ،وَهُوَ أَسْفَلُ مِنَ الْحِصْنِ فَقَالَ:وَاللَّه مَا ذَلِكَ فِيَّ قَالَتْ:فَأَخَذْتُ بِرَأْسِه،فَرَمَيْتُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا:قَدْ وَاللَّهِ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَهْلَهُ خُلُوفًا،لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ وَتَفَرَّقُوا.."[2969]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ،عَنْ أَبِيه:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ الْكَذَّابِ "[2970]

وفي حروب الردة،وَيُقَالُ:بَلِ اسْتَدْعَى خَالِدٌ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ فَأَنَّبَهُ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ مُتَابَعَةِ سَجَاحٍ،وَعَلَى مَنْعِه الزَّكَاةَ،وَقَالَ:أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهَا قَرِينَةُ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ مَالِكٌ:إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ يَزْعُمُ ذَلِكَ.فَقَالَ:أَهْوَ صَاحِبُنَا وَلَيْسَ بِصَاحِبِكَ؟ ! يَا ضِرَارُ،اضْرِبْ عُنُقَهُ.فَضَرَبَ عُنُقَهُ،وَأَمَرَ بِرَأْسِه فَجُعِلَ مَعَ حَجَرَيْنِ،وَطُبِخَ عَلَى الثَّلَاثَةِ قِدْرًا،فَأَكَلَ مِنْهَا خَالِدٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِيُرْهِبَ بِذَلِكَ الْأَعْرَابَ مِنَ الْمُرْتَدَّةِ وَغَيْرِهِمْ.[2971]

فهذه النصوص الشرعية السابقة والتي قدمناها عن الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ظاهرة الدلالة في مشروعية قطع وحزِّ رؤوس الكفرة الفجرة الحربيين أحياءً كانوا أم أمواتاً[2972]

قال القرطبي:" وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْإِمَامِ يَقُولُ قَبْلَ الْقِتَالِ:مَنْ هَدَمَ كَذَا مِنَ الْحِصْنِ فَلَهُ كَذَا،وَمَنْ بَلَغَ إِلَى مَوْضِعِ كَذَا فَلَهُ كَذَا،وَمَنْ جَاءَ بِرَأْسٍ فَلَهُ كَذَا،وَمَنْ جَاءَ بِأَسِيرٍ فَلَهُ كَذَا،يُضَرِّيهِمْ .فَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَرِهَهُ.وَقَالَ:هُوَ قِتَالٌ عَلَى الدُّنْيَا.وَكَانَ لَا يُجِيزُهُ.قَالَ الثَّوْرِيُّ:ذَلِكَ جَائِزٌ وَلَا بَأْسَ بِه.قُلْتُ:وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا". "[2973]

وقال ابن المنذر:"ذِكْرُ الاخْتِلَافِ فِي هَذَا الْبَابِ وَاخْتَلَفُوا فِي الْإِمَامِ يُنَفِّلُ فِي الْبَدْأَةِ الرُّبُعَ،وَإِذَا قَفَلَ الثُّلُثَ،فَأَبَاحَتْ طَائِفَةٌ ذَلِكَ،وَمِمَّنْ رَأَى أَنْ يُنَفِّلَ الْإِمَامُ فِي الْبَدْأَةِ الرُّبُعَ بَعْدَ

[2969] - المعجم الأوسط (٤/ ١١٦)(٣٧٥٤) والمعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٣٢١)(٨٠٩) ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٦/ ٣٢٥٠)(٧٤٩٣) وفيه جهالة

[2970] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٥١)(٨٦١٩) صحيح

[2971] - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٤٦٢)

[2972] - انظر مسائل من فقه الجهاد ص (٢٧٧)

[2973] - تفسير القرطبي (٧/ ٣٦٣)

الْخُمُسِ،وَفِي الرَّجْعَةِ الثُّلُثَ بَعْدَ الْخُمُسِ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ،وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ،وَبِه قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ،وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ،وَقَالَ النَّخَعِيُّ:كَانَ الْإِمَامُ يُنَفِّلُ السَّرِيَّةَ الثُّلُثَ،أَوِ الرُّبُعَ يَضْرِبُهُمْ،أَوْ يُحَرِّضُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى الْقِتَالِ،وَقَالَ مَكْحُولٌ،وَالْأَوْزَاعِيُّ:لَا يُنَفِّلُ بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ،قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:فَإِنْ نَفَّلَهُمْ أَكْثَرَ مِنَ الرُّبُعِ فِي الْبَدْأَةِ،وَالثُّلُثِ فِي الرَّجْعَةِ فَعَمِلُوا عَلَيْهِ قَالَ:فَلْيَفِ لَهُمْ بِهِ،وَلْيَجْعَلْ تِلْكَ الزِّيَادَةَ مِنَ الْخُمُسِ وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ:وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الشَّامِيِّينَ فِي النَّفَلِ فِي الْبَدْأَةِ وَالرَّجْعَةِ الثُّلُثَ فِي وَاحِدَةٍ،وَالرُّبُعَ فِي الْأُخْرَى،وَرِوَايَةُ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ نَفَّلَ نِصْفَ السُّدُسِ،فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنْ لَيْسَ لِلنَّفَلِ حَدٌّ لَا يُجَاوِزُهُ الْإِمَامُ،وَأَكْثَرُ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَنْفَالٌ،فَإِذَا كَانَ لِلْإِمَامِ أَنْ يُنَفِّلَ،فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الِاجْتِهَادِ غَيْرَ مَحْدُودٍ وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ:وَقَدْ نَفَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فِي الْبَدْأَةِ،وَالرُّجُوعِ،وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ:نَفَّلَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعِيرًا،بَعِيرًا،وَإِنَّمَا النَّفَلُ قَبْلَ الْخُمُسِ،وَاللهُ أَعْلَمُ.وَقَدْ حَكَى ابْنُ الْقَاسِمِ كَرَاهِيَةَ مَالِكٍ أَنْ يَقُولَ الْإِمَامُ:مَنْ قَاتَلَ فِي مَوْضِعِ كَذَا،وَكَذَا،أَوْ مَنْ قَتَلَ مِنَ الْعَدُوِّ،وَجَاءَ بِرَأْسِهِ،فَلَهُ كَذَا،أَوْ بَعْضَ سَرِيَّةٍ فِي وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ،فَقَالَ:مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَلَكُمْ نِصْفُهُ،كَرِهَ أَنْ يُقَاتِلَ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يُجْعَلَ لَهُ وَيَسْفِكَ دَمَ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا.وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي أَمِيرٍ أَغَارَ فَقَالَ:مَنْ أَخَذَ شَيْئًا،فَهُوَ لَهُ مَالٌ هُوَ كَمَا قَالَ:وَقَالَ:وَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ الْإِمَامُ:مَنْ جَاءَ بِرَأْسٍ فَلَهُ كَذَا،وَمَنْ جَاءَ بِأَسِيرٍ فَلَهُ كَذَا يُغْرِيهِمْ،وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:مَا نَفَّلَ الْإِمَامُ فَهُوَ جَائِزٌ"[٢٩٧٤]

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ،قَالَ:لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَدُوَّ فَقَالَ:«مَنْ جَاءَ بِرَأْسٍ فَلَهُ عَلَى اللَّهِ مَا تَمَنَّى»،فَجَاءَ رَجُلَانِ بِرَأْسٍ فَاخْتَصَمَا فِيهِ فَقَضَى بِهِ لِأَحَدِهِمَا،فَقَالَ:«تَمَنَّ عَلَى اللَّهِ مَا شِئْتَ»،قَالَ:أَتَمَنَّى سَيْفًا صَارِمًا حَتَّى أُقْتَلَ "[٢٩٧٥]

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ فِي أَمِيرٍ أَغَارَ فَقَالَ مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ كَمَا قَالَ وَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ الْإِمَامُ مَنْ جَاءَ بِرَأْسٍ فَلَهُ كَذَا وَمَنْ جَاءَ بِالْيَدِ فَلَهُ كَذَا يُغْرِيهِمْ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا نَفَلَ الْإِمَامُ فَهُوَ جَائِزٌ"[٢٩٧٦]

[٢٩٧٤] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٣٦)

[٢٩٧٥] - المراسيل لأبي داود (ص: ٢٣٠)(٢٩٦) صحيح مرسل

[٢٩٧٦] - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٤/ ٥٥)

ونادى قتيبة:أما ترون العدو منهزمين! فما عبر أحد ذلـــك النـــهر حـــتى ولى العـــدو منهزمين،فأتبعهم الناس،ونادى قتيبة:من جاء برأس فله مائة.قال:فزعم موسى بن المتوكل القريعي،قال:جاء يومئذ أحد عشر رجلا من بني قريع،كل رجل يجيء برأس،فيقال له:من أنت؟ يقول:قريعي قال:فجاء رجل من الأزد بـــرأس فألقاه،فقـــالوا لـــه:مـــن أنـــت؟ قال:قريعي،قال:وجهم بن زحر قاعد،فقال:كذب والله أصلحك الله! إنه لابن عمي،فقال له قتيبة:ويحك! ما دعاك إلى هذا؟

قال:رأيت كل من جاء قريعي:فظننت أنه ينبغي لكل من جاء برأس أن يقـــول:قريعـــي قال:فضحك قتيبة.[2977]

وقال ابن القيم:" كَمَا يذكر عَن الشَّافِعِي أَنه كَانَ يسْأَل بعض أَهله عَن الْمَسْأَلَة وَيَقُول من أجَاب فِيهَا أَعْطيته درهما وَهَذَا كَقَوْل الإِمَام من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه وَمن جَاءَ بـــرَأْس من رُؤُوس الْمُشْركين فَلهُ كَذَا وَكَذَا مَا يَجْعَل فِيهِ الْجعل لمن فضل غَيره فِي عمـــل بـــر ليَكُون ذَلِك مرغبا للنفوس فِيمَا يستعان بِهِ على طَاعَة الله ومرضاته وَلِهَذَا اسْتَثْنَاهُ النَّبِـــي ﷺ مـــن اللَّهْـــو الْبَاطِـــل فَهَـــذَا تَحْرِيـــر هَـــذَا الْمَـــذْهَب (وَتَقْرِيـــره)"[2978]

وفي حاشية ابن عابدين:"وَلَوْ كَانَ الْأَسْرَى قَتْلَى فَقَالَ مَنْ قَطَعَ رُءُوسَهُمْ فَلَهُ أَجْرٌ عَشَـــرَةُ دَرَاهِمَ،فَفَعَلَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ أَوْ ذِمِّيٌّ اسْتَحَقَّهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الْجِهَادِ،وَلَوْ أَرَادَ قَتْلَ الْأَسْرَى فَاسْتَأْجَرَ عَلَيْهِ مُسْلِمًا أَوْ ذِمِّيًّا فَهُوَ عَلَى الْخِلَافِ اهـــ مُلَخَّصًا."[2979]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[2977] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٦/ ٤٤٤)

[2978] - الفروسية (ص: ٣٣١)

[2979] - الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ١٥٥)

الباب العشرون

واجبات المجاهدين في سبيل الله

المبحث الأول

ما يلزم الأعضاء في حق الله تعالى

من صور التأدب مع الله ما يلي:

١ = الإخلاص:

وهو من أعمال القلب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى،وهو يؤثر تأثيرا مباشرا على ثبات العبد أمام عدوه،لقوله تعالى:{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا } [الفتح:١٨].

فالمسلم يؤمن بخطر شأن النية،وأهميتها لسائر أعماله الدينية والدنيوية،إذ جميع الأعمال تتكيف بها،وتكون بحسبها فتقوى وتضعف،وتصح وتفسد تبعاً لها،وإيمان المسلم هذا بضرورة النية لكل الأعمال ووجوب إصلاحها،مستمدّ أولاً من قول الله تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (٥) سورة البينة.

وَقَدْ تَفَرَّقَ هَؤُلاَءِ وَاخْتَلَفُوا بَغْياً وَعُدْوَاناً،وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلاَفِ،وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِمَا يُصْلِحُ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ،وَبِمَا يُحَقِّقُ لَهُمُ السَّعَادَةَ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ:مِنْ إِخْلاَصٍ للهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ،وَتَطْهِيرِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ بِهِ،وَاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ الُمْنْحَرِفَةِ عَنِ الشِّرْكِ،وَإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَأَدَائِهَا حَقَّ الأَدَاءِ،وَدَفْعِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ...وَهَذَا هُوَ الدِّينُ الحَقُّ الذي جَاءَ فِي الكُتُبِ القَيِّمَةِ الُمْسْتَقِيمَةِ التي لا عِوَجَ فِيهَا[٢٩٨٠]

وقوله سبحانه:{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ} (١١) سورة الزمر.

[٢٩٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٦٠١٢)

وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ:إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَأَنْ أُخْلِصَ لَهُ العِبَادَةَ .[2981]

وثانياً من قول المصطفى -ﷺ- "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ،وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ "[2982] .

ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.[2983]

فبمجرد الهم الصالح كان العمل صالحاً يثبت به الأجر وتحصل به المثوبة وذلك لفضيلة النية الصالحة،وعَنْ أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ،قَالَ:ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ:رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَمَالا،فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا،فَيَقُولُ:لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ،وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي غَيْرِ الْحَقِّ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبًّا وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمًا،وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ:لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ "[2984].

فأثيب ذو النية الصالحة بثواب العمل الصالح،ووزر صاحب النية الفاسدة بوزر صاحب العمل الفاسد،وكان مردّ هذا إلى النية وحدها .

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ،وَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ،قَالَ:إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ،وَلاَ قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ،إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ:نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ."[2985]

[2981] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٣٩٤٨)

[2982] - صحيح البخارى- المكنز - (١)

[2983] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٧٠٨) وصحيح ابن حبان - (٢ / ١٢٠)(٣٩٤)

[2984] - المعجم الكبير للطبراني - (١٦ / ٢٠١)(١٨٣٠٣) صحيح

[2985] - صحيح البخارى- المكنز - (٤٤٢٣) وصحيح ابن حبان - (١١ / ٣٣) (٤٧٣١)

فحسن النية إذا هو الذي جعل غير الغازي في الأجر كالغازي،وجعل غير المجاهد يحصل على أجر كأجر المجاهد .[٢٩٨٦]

---

٢ = تقوى الله تعالى :

قال ابن رجب الحنبلي:[أَصْلُ التَّقْوَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْهُ،فَتَقْوَى الْعَبْدِ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخْشَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَسُخْطِهِ وَعِقَابِهِ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ فِعْلُ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابُ مَعَاصِيهِ.وَتَارَةً تُضَافُ التَّقْوَى إِلَى اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[المائدة:٩٦] [الْمَائِدَةِ:٩٦]،وَقَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[الحشر:١٨] [الْحَشْرِ:١٨]،فَإِذَا أُضِيفَتِ التَّقْوَى إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،فَالْمَعْنَى:اتَّقُوا سُخْطَهُ وَغَضَبَهُ،وَهُوَ أَعْظَمُ مَا يُتَّقَى،وَعَنْ ذَلِكَ يَنْشَأُ عِقَابُهُ الدُّنْيَوِيُّ وَالْأُخْرَوِيُّ،قَالَ تَعَالَى:{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:٢٨] [آلِ عِمْرَانَ:٢٨]،وَقَالَ تَعَالَى:{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر:٥٦] [الْمُدَّثِّرِ:٥٦]،فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ أَنْ يُخْشَى وَيُهَابَ وَيُجَلَّ وَيُعَظَّمَ فِي صُدُورِ عِبَادِهِ حَتَّى يَعْبُدُوهُ وَيُطِيعُوهُ،لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ،وَصِفَاتِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ وَقُوَّةِ الْبَطْشِ،وَشِدَّةِ الْبَأْسِ.][٢٩٨٧].

والتقوى مَنْزِلَةٌ يُتَوَصَّل إليها بالمحافظة على وظائف العبودية والمواظبة عليها،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:٢١]،وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:١٨٣] وأمثال هذه الآيات الدالة على أن مترلة التقوى يتوصل إليها بالمحافظة على العبادات والأحكام مع المواظبة عليها.

[٢٩٨٦] - انظر التفاصيل في كتابي المهذب في الآداب الإسلامية -١- آداب النية ص (١٢) فما بعدها

[٢٩٨٧] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٣٩٨)

واعلم أن التقوى هي ميزان تفاضل الخلق،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣]،فبقدر محافظة العبد على وظائف العبودية لله تعالى تكون مترلته.

ومما ينبغي التنبيه عليه فيما يتعلق بتقوى الله تعالى،أن التقوى لا تتعلق بمكان دون آخر أو بحال دون آخر،فمن الناس من يتقي في بلده فإذا تَغَرَّب عنها ارتكب الموبقات،فهــذا لا يتقي الله وإنما يتقي الناس الذين يعرفونه،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّــقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٢٩٨٨]،وقــال الله تعالى:{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَــيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[يونس:٦١].

قال ابن رجب الحنبلي:[وَفِي الْجُمْلَةِ فَتَقْوَى اللَّهِ فِي السِّرِّ هُوَ عَلَامَةُ كَمَالِ الْإِيمَانِ،وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي إِلْقَاءِ اللَّهِ لِصَاحِبِهِ الثَّنَاءَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.] [٢٩٨٩]

وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:«أَسِرُّوا مَا شِئْتُمْ،مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةَ خَيْرٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا،وَمَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةَ شَرٍّ أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا»[٢٩٩٠]..

وتشكل المعسكرات ـــ بما توفره من بيئة جديدة غير التي اعتادها الفرد،وبما توفره من صحبة صالحة ـــ تشكل فرصة طيبة لمجاهدة النفس في التخلص من العادات السيئة،فإن تغيير المكان عامل هام في المجاهدة،انظر مثلا حديث قاتل المائة كيف نصحه العالم بأن يترك بلده ويذهب إلى بلد آخر به قوم صالحون،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:"أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا،فَجَعَلَ يَسْأَلُ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَأَتَى رَاهِبًا،فَسَأَلَهُ

[٢٩٨٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) صحيح لغيره

[٢٩٨٩] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٤١٠)

[٢٩٩٠] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٣٦) والآثار لأبي يوسف (ص:١٩٦)(٨٨٦) والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٧١)(١٧٠٢) والإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء (٢/ ٢٨٣)(١٤٥٨) والإيماء إلى زوائد الأمالي والأجــزاء (٤/ ٥٥١)(٤١٤٤) مرفوعا ضعيف والصواب وقفه

فَقَالَ:لَيْسَتْ لَكَ تَوْبَةٌ،فَقَتَلَ الرَّاهِبَ،ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُ،ثُمَّ خَرَجَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ فِيهَا قَوْمٌ صَالِحُونَ،فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بِصَدْرِهِ،ثُمَّ مَاتَ،فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ،وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ،فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ،فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا "[٢٩٩١]

فهذه المعسكرات تشكل فرصة ليبدأ الإنسان حياة جديدة خالية مما يُكَدِّر عليه صفو صلته بالله تعالى.قال ابن القيم رحمه الله:[الْوُصُول إِلَى الْمَطْلُوب مَوْقُوف على هجر العوائد وَقطع الْعَوَائِق،فالعوائد السّكُون إِلَى الدعة والراحة وَمَا أَلفه النَّاس واعتادوه من الرسوم والأوضاع الَّتِي جعلوها بِمَنْزِلَة الشَّرْع المتّبع بل هِيَ عِنْدهم أعظم من الشَّرْع،فَإِنَّهُم يُنكرُونَ على من خرج عَنْهَا وخالفها مَا لَا يُنكرُونَ على من خَالف صَرِيح الشَّرْع،وَرُبمَا كفّروه أَو بدّعوه وضلّلوه أَو هجروه وعاقبوه لمُخَالفَة تِلْكَ الرسوم،وأماتوا لَهَا السّنَن ونصبوها أندادا للرسول يوالون عَلَيْهَا ويعادون فالمعروف عِنْدهم مَا وافقها وَالْمُنكر مَا خالفها.

وَهَذِه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الْمُلُوك والولاة وَالْفُقَهَاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة فربي فِيهَا الصَّغِير وَنَشَأ عَلَيْهَا الْكَبِير،واتخذت سنناً بل هِيَ أعظم عِنْد أَصْحَابهَا من السّنَن الْوَاقِف مَعهَا مَحْبُوس والمتقيّد بهَا مُنْقَطع،عمّ بهَا الْمُصَاب وهجر لأَجلهَا السّنة وَالْكتاب،من استنصر بهَا فَهُوَ عِنْد الله مخذول وَمن اقْتدى بهَا دون كتاب الله وَسنة رَسُوله فَهُوَ عِنْد الله غير مَقْبُول وَهَذِه أعظم الْحجب والموانع بَين العَبْد وَبَين النّفُوذ إِلَى الله وَرَسُوله.

وَأما الْعَوَائِق فَهِيَ أَنْوَاع المخالفات ظَاهرهَا وباطنها فَإِنَّهَا تعوق الْقلب عَن سيره إِلَى الله وتقطع عَلَيْهِ طَرِيقه،وَهِي ثَلَاثَة أُمُور شرك وبدعة ومعصية فيزول عائق الشّرك بتجريد التَّوْحِيد وعائق الْبِدْعَة بتحقيق السّنة وعائق الْمعْصِيَة بتصحيح التَّوْبَة وَهَذِه الْعَوَائِق لَا تتبين للْعَبد يَأْخُذ فِي أهبة السّفر ويتحقق بالسير إِلَى الله وَالدَّار وَالْآخِرَة فَحِينَئِذٍ تظهر لَهُ

[٢٩٩١] - صحيح مسلم (٤/ ٢١١٩)٤٧ - (٢٧٦٦)

هَذه الْعَوَائِق وَيحسن بتعويقها لَهُ بِحَسب قُوَّة سيره وتجرّده للسَّفر وَإِلَّا فَمَا دَامَ قَاعِدا لَا يظْهر لَهُ كوامنها وقواطعها.

وَأما العلائق:فَهِيَ كل مَا تعلق بِهِ الْقلب دون الله وَرَسُوله من ملاذ الدُّنْيَا وشهواتها ورياستها وصحبة النَّاس والتعلق بهم،وَلَا سَبِيل لَهُ إِلَى قطع هَذِه الْأُمُور الثَّلَاثَة ورفضها إِلَّا بِقُوَّة التَّعَلُّق بالمطلب الْأَعْلَى،وَإِلَّا فقطعها عَلَيْهِ بِدُونِ تعلّقه بمطلوبه مُمْتَنع فَإِن النَّفس لَا تتْرك مألوفها ومحبوبها إِلَّا لمحبوب هُوَ أحب إِلَيْهَا مِنْهُ وآثر عِنْدهَا مِنْهُ،وَكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بِغَيْرِهِ وَكَذَا بِالْعَكْسِ والتعلق بالمطلوب هُوَ شدَّة الرَّغْبَة فِيهِ وَذَلِكَ على قدر مَعْرفَته بِهِ وشرفه وفضله على مَا سواهُ"][٢٩٩٢].

قلت:وللتقوى ثمار في الدنيا والآخرة،والمجاهد هو أحوج الناس إلى هذه الثمار في صراعه مع أعداء الله وأعدائه،ومن هذه الثمار:

أ = المعية الخاصة:من الله تعالى بالنصر والتأييد والحفظ والإعانة،وهذه لا تكون إلا لأهل طاعته بخلاف المعية العامة،والتي هي لجميع الخلق بالعلم والإحاطة،قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المجادلة:٧]،هذا في المعية العامة،وفي المعية الخاصة قال سبحانه:{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة:١٩٤]،وقال سبحانه:{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }[النحل:١٢٨]،وهذه هي معية النصر والتوفيق،وما أحوج المجاهد إليها.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"إِنَّ اللَّهَ قَالَ:مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ،وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ،وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ:كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ،وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ،وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا،وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا،وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ،وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي

[٢٩٩٢] – الفوائد لابن القيم (ص:١٥٣)

لَأُعِيذَنَّهُ،وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ،يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ "[٢٩٩٣].

وهذا حديث عظيم في بيان دفاع الله تعالى عن أوليائه وأهل طاعته المحافظين على وظائف العبودية من فرائض ونوافل،فتمسك به[٢٩٩٤].

ب = تفريج الكروب والشدائد:هذا أيضا من ثمار التقوى،لقوله تعالى:{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } [الطلاق:٢]،وما أكثر الشدائد في طريق الجهاد،طريق الصبر،فعليك بتقوى الله تعالى يَذْكُرك في الشدة،قال تعالى:{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون } [البقرة:١٥٢]،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّهُ قَالَ:كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ الله ﷺ،فَقَالَ:يَا غُلامُ،أَوْ يَا غُلَيِّمُ،أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ ؟ فَقُلْتُ:بَلَى.فَقَالَ:احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ،تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ،يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ،وَإِذَا سَأَلْتَ،فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ،فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ،فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ،وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ،وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا،وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ،وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ،وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا."[٢٩٩٥]

ومعنى «تَجِدْهُ أَمَامَكَ» أي فيما يستقبلك من أمر الدنيا والآخرة،ثم يحفظ أولادك من بعدك بصلاحك لقوله تعالى:{ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف:٨٢].

ج = تأليف القلوب:وهو من ثمار التقوى،قال تعالى:{ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [المائدة:٧]،وتفصيل ذلك أن الله تعالى يُلْقِي محبة أهل طاعته في قلوب الخلق،فإذا كانت

[٢٩٩٣] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٥)(٦٥٠٢)

[ش (وليا) هو العالم بدين الله تعالى المواظب على طاعته المخلص في عبادته.(آذنته بالحرب) أعلمته بالهلاك والنكال.(مما افترضت عليه) من الفروض العينية وفروض الكفاية.(كنت سمعه..) أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك وأوفقه لما فيه خيره وصلاحه وأعينه في المواقف وأنصره في الشدائد.(استعاذني) استجار بي مما يخاف(ما ترددت) كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه(مساءته) إساءته بفعل ما يكره]

[٢٩٩٤] - انظر كتابي"الخلاصة في شرح حديث الولي "

[٢٩٩٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٧٨٤)((٢٨٠٣) ٢٨٠٤- صحيح لغيره

التقوى هي سمة الطائفة المجاهدة في السر والعلن،فلابد من أن تثمر محبة متبادلة وتأليفا للقلوب داخل هذه الطائفة،وهذا من أعظم أسباب تماسك الصف المؤمن ومن أعظم أسباب قوة الجماعة المؤمنة،فعَنْ نَافِعٍ،قَالَ:قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،وَتَابَعَهُ أَبُو عَاصِمٍ،عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ،عَنْ نَافِعٍ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:"إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ:إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ،فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ،فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ:إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ،فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ،ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ "[٢٩٩٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ:إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ،قَالَ:فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ،ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ:إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ،فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ،قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ،وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ:إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ،قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ،ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ،قَالَ:فَيُبْغِضُونَهُ،ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ "[٢٩٩٧]

ومصداق هذا في كتاب الله،قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } [مريم:٩٦].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُلْقِي مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الصَّالِحِينَ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ.[٢٩٩٨]

وعلى النقيض من ذلك فإن أي معصية يفعلها الفرد هي معول يفت في عضد الجماعة،بما يترتب على هذه المعصية من البغضاء التي يلقيها الله في قلوب الخلق للعاصي،كما في حديث أبي هريرة السابق،وكما في قوله تعالى:{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [المائدة:١٤].

[٢٩٩٦] - صحيح البخاري (٤/ ١١١)(٣٢٠٩)

[ش (القبول في الأرض) المحبة في قلوب من يعرفه من المؤمنين ويبقى له ذكر صالح وثناء حسن]

[٢٩٩٧] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٠)١٥٧ - (٢٦٣٧)

[٢٩٩٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٣٤٦،بترقيم الشاملة آليا)

هذا فيما يتعلق بالتقوى وحاجة العبد إليها في حياته وجهاده ومعاده.

---

٣ = الصبر والمصابرة:

قال تعالى:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [آل عمران:٢٠٠].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ أنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الذي ارْتَضَاهُ اللهُ لَهُمْ،وَهُوَ الإِسْلاَمُ،فَلاَ يَدَعُونَهُ لِشِدَّةٍ ولاَ لِرَخَاءٍ،حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ.وَالمُرَابَطَة هِيَ المَرَابَطَة فِي الثُّغُورِ لِلْغَزْوِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.وَاتَّقُوا اللهَ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٢٩٩٩]

وفي مجال التدريب والجهاد نقول:

اصبروا:أي على طاعة الله،فالتدريب والجهاد طاعة لله تعالى الذي أمر بإعداد القوة،فيجب على المسلم الصبر على هذه الطاعة وما فيها من مشاق وبذل للمال وغربة عن الأهل وتعرض للجراح.

وصابروا:أي صابروا أعداء الله،أي نافسوهم في الصبر،وفي مجال التدريب العسكري تكون المصابرة بأن تتدرب أكثر من أعداء الله كماً وكَيْفاً ما استطعت ذلك،قال تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:١٠٤].

ومما يدخل في الصبر،الصبرُ على أهوال القتال وقَتْل الإخوان وكَلَب الأعداء،قال الله تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]

يُخَاطِبَ اللهُ تَعَالَى الذينَ هَدَاهُمْ إلى السِّلْمِ،وَإِلَى الخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَةِ الاخْتلاَف،إلى نُورِ الوِفَاقِ،باتِّبَاعِهِمْ هُدَى الكِتَابِ زَمَنَ التَّنْزِيلِ،الذينَ يَظُنُّونَ مِنْهُمْ أَنَّ انْتِسَابَهُمْ إلى الإِسْلاَمِ فِيهِ الكِفَايَةُ لِدُخُولِ الجَنَّةِ دُونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الشَّدَائِدَ وَالأَذَى فِي سَبِيلِ الحَقِّ،وَهِدَايَةِ

[٢٩٩٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

الخَلْق،جَهْلاً منْهُمْ بسُنَّة الله تَعَالَى فِي أَهْلِ الهُدَى مُنْذُ أَنْ خَلَقَهُمْ.فَيَقُولُ لَهُمْ:هَلْ تَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوا وَتُخْتَبَرُوا كَمَا فُعِلَ بالذينَ منْ قَبْلكُمْ منَ الأُمَمِ الذينَ ابْتُلُوا بالفَقْرِ (البَأْسَاءُ)،وَبالأَسْقَامِ وَالأَمْرَاضِ (الضَّرَّاءُ)،وَخُوِّفُوا وَهُدِّدُوا منَ الأَعْدَاءِ (زُلْزِلُوا)،وَامتُحنُوا امْتحَاناً عَظيماً،وَاشْتَدَّت الأُمُورُ بهِمْ حَتَّى تَسَاءَلَ الرَّسُولُ وَالمُؤْمنُونَ قَائلينَ:مَتَى يَأْتِي نَصْرُ الله.وَحينَما تَثْبُتُ القُلُوبُ عَلَى مثْلِ هذه المحَنِ المُزَلْزِلَة،حينَئذ تَتمُّ كَلمَةُ الله،وَيَجيءُ نَصْرُهُ الذي يَدَّخرُهُ لمَنْ يَسْتَحقُّهُ منْ عبَاده الذينَ يَسْتَيْقنُونَ أَنْ لاَ نَصْرَ إلاَّ نَصْرُ الله.[3000]

قلت:وقوله تعالى:{مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا منْ قَبْلكُمْ} يدل على أن هذا الابتلاء بالبأساء والضراء والزلزلة سنة قدرية،وقعت لمن كان قبلنا،وستقع لنا،ولابد،وهي من مقدمات النصر،عَن ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ:«يَا غُلَامُ،احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظ اللهَ تَجدْهُ أَمَامَكَ،تَعَرَّفْ بالله فِي الرَّخَاء يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّة،وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطئَكَ،وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبَكَ،وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَائقَ لَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُرِد اللهُ أَنْ يُعْطيَكَ لَمْ يَقْدرُوا عَلَيْه أَوْ يَصْرِفُوا عَنْكَ شَيْئًا أَرَادَ أَنْ يُصيبَكَ به لَمْ يَقْدرُوا عَلَى ذَلكَ،فَإذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ،وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعنْ بالله،وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ،وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ،وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا،وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَرَى بمَا هُوَ كَائنٌ»[3001] وعلى كل مسلم أن يهيئ نفسه لهذه السُّنة.

ومما يدخل في الصبر على شبهات المخذلين والمخالفين والمرجفين،قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأْتي اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّةٍ عَلَى الْكَافرينَ يُجَاهدُونَ في سَبيلِ اللَّه وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائمٍ ذَلكَ فَضْلُ اللَّه يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ } [المائدة:٥٤]

يُخْبرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ عَظيمِ قُدْرَته وَيَقُولُ إنَّ الذينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دينهمْ منَ الإيمَان إلى الكُفْرِ،وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَة دينه،وَإقَامَة شَرِيعَته،فَإنَّ اللهَ سَيَسْتَبْدلُ بهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ

[3000] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢١،بترقيم الشاملة آليا)

[3001] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ١٢٣)(١١٢٤٣) صحيح لغيره

مِنْهُمْ،وَأَشَدُّ مَنَعَةً،وَأَقْوَمُ سَبِيلاً،يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ،يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ:العِزَّةُ عَلَى الكَافِرِينَ،وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ مَعَ المُؤْمِنِينَ،يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلاَ يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إذاعَةِ أَمْرِ اللهِ،وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ،وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ،يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ،وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ.وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ كَبِيراً،وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ،عَلِيمٌ بِمَنْ يِسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ،مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.[٣٠٠٢]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ،حَدَّثَهُ،قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» [٣٠٠٣]

فلابد لكل من قام بحق من لائمٍ يلومُه ومُخَذِّل يُثَبطه ومُخالف يُلَبِّس عليه أمره،فإن صبر جاءه نصر الله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]،وقد بشر رسول الله ﷺ بأن هؤلاء المخذلين والمخالفين لن يضروه إن شاء الله تعالى.

ومما يدخل في الصبر،الصبر على طول الطريق،عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ:«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ،يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهَا،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ،فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» [٣٠٠٤]

وهذه جبِلَّة الإنسان:{وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } [الإسراء:١١]،والاستعجال يفسد أكثر مما يصلح،ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب

[٣٠٠٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٠٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٤ - (١٠٣٧)

[٣٠٠٤] - صحيح البخاري (٩/ ٢٠)(٦٩٤٣)

بحرمانه،والتعجل علة الحرمان،وهذه قاعدة فقهية،ألا ترى إنك إذا قطفت ثمرة غير ناضجة فلا أنت انتفعت بها ولا أنت تركتها حتى تنضج وتنتفع بها.

إن الاستعجال يفتح بابا للشيطان،ليدفع بالعبد إلى التنازل التدريجي عما هو عليه من الحق،ظنا منه أنه يختصر الطريق،وهو قد ضل الطريق وحاد عنه،قال تعالى:{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) } [الإسراء:٧٣ – ٧٥]

إن هذا التنازل وهذه الحَيْدة عن الحق عادةً ما تغلف بما يواري السوأة كالقول بأن هذا من الحكمة والسياسة ومصلحة الدعوة،وكل هذا من تزيين الشيطان لأوليائه { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)} [النساء:١١٩،١٢٠]

وقال تعالى:{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف:٣٦،٣٧]،فينبغي أن يعلم المسلم أن اتِّباع الحق والصبر عليه هو أقصر الطرق إلى النصر،وإن طال الطريق وكثرت عَقَبَاتُه وقلَّ سالكوه،وإن الحَيْدَة عن الحق لا تأتي إلا بالخذلان وإن سَهُل طريقها وخيل لسالكه قرب الظفر،فإنما هي أوهام،قال تعالى:{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام:١٥٣].

ومما يدخل في الصبر،الصبرُ على إعراض الناس عن دعوة الحق،قال تعالى:{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف:١٠٣]،وقال تعالى:{لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [الزخرف:٧٨]،فإن قلة الأتباع مما يُلبِّس به الشيطان على العبد،بأنه لو كان هذا هو الحق لاتبعه كل الناس،فيصرف العبد عن الحق بهذا التلبيس،وقد قال الله تعالى عن نوح عليه السلام:{وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [هود:٤٠]،وقال تعالى ـــ في وصف فرعون لموسى وأتباعه {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } [الشعراء:٥٤].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا:" عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَكَانَ النَّبِيُّ يَجِيءُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلٌ،وَيَجِيءُ النَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلَانِ،وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا النَّفَرُ الْيَسِيرُ،ثُمَّ نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا،قَالَ:فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي،فَلَمَّا دَنَوْا إِذَا هُمْ قَوْمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،قَالَ:ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا سَوَّادٌ كَثِيرٌ كَادُوا يَمْلَئُونَ أُفُقَ السَّمَاءِ،فَقُلْتُ:مَنْ هَؤُلَاءِ؟،فَقِيلَ:هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ،فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْتُ ثُمَّ قِيلَ:انْظُرْ،فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَّادٌ كَثِيرٌ أَيْضًا،فَقِيلَ:هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ فَفَرِحْتُ وَاسْتَبْشَرْتُ،فَقِيلَ لِيَ:انْظُرْ،فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَّادٌ كَثِيرٌ أَيْضًا،فَقِيلَ:هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْتُ فَقِيلَ لِي:مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ "[٣٠٠٥]

وقال تعالى عن حجة الكافرين:{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) } [سبأ:]،فلا تستوحش طريق الحق وإن قل سالكوه،ولا تغتر بطرق الباطل وإن كثر الهالكون،قال تعالى:{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف:١١٠].

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلاً قَبْلَهُ فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يَتَرَاخَى نَصْرُ اللهِ عَنِ الرُّسُلِ،وَأَنْ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ،حَتَّى إِذَا زُلْزِلَتِ النُّفُوسُ،وَاسْتَشْعَرَتِ القُنُوطَ وَاليَأْسَ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ،فَحِينَئِذٍ يَأْتِي نَصْرُ اللهِ،فَيُنَجِّي مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِنْجَاءَهُ،وَيُهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ إِهْلاَكَهُ،وَلاَ يَرُدُّ أَحَدٌ بَأْسَ اللهِ وَعِقَابَهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ..[٣٠٠٦]

ومما يدخل في الصبر،الصبر على ضعف أتباع الحق وفقرهم وقلة حيلتهم،فإن هؤلاء هم أتباع الرسل،وهم كتيبة الحق التي يتترل عليها النصر،فهم أرق أفئدة وأقرب إلى الله تعالى،وأبعد من الدنيا وزخرفها،وأسرع إلى البذل والتضحية،فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ

[٣٠٠٥] - الإيمان لابن منده (٢/ ٨٩٧)(٩٧٩) صحيح

[٣٠٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٠٧،بترقيم الشاملة آليا)

سَعْد،قَالَ:رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[3007].

وقال تعالى عن حجة قوم نوح:{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } [الشعراء:111] قَالُوا:كيفَ نُؤمنُ لَكَ،وكَيْفَ نَتَّبِعُكَ وَنَتَأَسَّى فِي ذَلك بِهَواءِ الأَذْلِينَ الذينَ اتَّبَعُوكَ وصَدَّقُوكَ؟[3008]

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء.وهم السابقون إلى الرسل والرسالات،وإلى الإيمان والاستسلام.لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة،ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة.ومن ثم فهم الملبون السابقون.فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم،وتقعد بهم مصالحهم،القائمة على الأوضاع المزيفة،المستمدة من الأوهام والأساطير،التي تلبس ثوب الدين.ثم هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس،حيث تسقط القيم الزائفة كلها،وترتفع قيمة واحدة.قيمة الإيمان والعمل الصالح.قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين.بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم.[3009]

وقال تعالى عن حجة كفار مكة:{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) } [الزخرف]

وَقَالُوا كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى اخْتِيَارِ اللهِ رَسُولَهُ الكَرِيمَ:إنَّ مَنْصِبَ الرِّسَالَةِ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ،فَلاَ يَلِيقُ إلاَّ بِرَجُلٍ شَرِيفٍ عَظِيمِ الجَاهِ كَثِيرِ الثَّرَاءِ مِنْ أَهْلِ مَكَةَ أَوْ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ (القَرْيَتِينِ) لأَنَّ مُحَمَّداً لَيْسَ بِذَلِكَ الغَنِيِّ العَظِيمِ الجَاهِ.

[3007] - صحيح البخاري (4/ 37)(2896)

[ش (رأى) ظن.(فضلا) زيادة منزلة بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك.(بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم]

[3008] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:2925،بترقيم الشاملة آليا)

[3009] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 - ت- علي بن نايف الشحود (ص:3346)

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا قَالُوا رَدّاً عَلَى اعْتِرَاضِهِمْ هَذَا:إِنَّ أَمْرَ اخْتِيَارِ الأَنْبِيَاءِ لَيْسَ مَرْدُوداً إِلَيْهِم حَتَّى يَقْتَرِحُوا عَلَى اللهِ مَنْ يَخْتَارُونَهُ هُمْ،وَلَكِنَّ الأَمْرَ للهِ،وَحْدَهُ،وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِه،فَهُوَ لاَ يُنَزِّلُهَا إِلاَّ عَلَى أَزْكَى الخَلْقِ قَلْباً وَنَفْساً،وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتاً،وَأَطْهَرِهِمْ أَصْلاً.ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:إِنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ العِبَادِ عَلَى بَعْضٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا:فِي القُوَّةِ والغِنَى وَالشُّهْرَةِ والنَّشَاطِ،لأَنَّهُ لَوْ سَوَّى بَيْنَهُمْ جَمِيعاً فِي شُرُوطِ الحَيَاةِ لَمْ يَخْدُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَلَمْ يَسْتَخْدِمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحْداً،فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ فَسَادُ نِظَامِ الحَيَاةِ.وَرَحْمَةُ اللهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَجْمَعُونَهُ مِنَ الأَمْوَالِ،والمَتَاعِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.[٣٠١٠]

وسَأَل هرقل أبا سفيان لما جاءه كتاب النبي ﷺ فقال:وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ،فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ،وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ[٣٠١١]..

وقال الله تعالى:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف:٢٨].

وَاجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ،وَيَحْمَدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ،وَيَسْأَلُونَهُ مِنْ فَضْلِهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً،وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ،سَواءً كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فُقَرَاءَ (وَيُقَالُ إِنَّ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُمْ،وَأَنْ لاَ يُجَالِسِ الفُقَرَاءَ وَالضُّعَفَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الكَرِيمَ بِأَنْ لاَ يُجَاوِزَ هؤُلاَءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ،وَبِأَنْ لاَ يُطِيعَ مَنْ شُغِلَ بِالدُّنْيا عَنِ

[٣٠١٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٣٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠١١] - صحيح البخاري (١/ ٩)(٧)

" قال:فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم"أي هل أكثر أتباعه السادة والقادة من أهل الكبر والخيلاء،أم المساكين والأحداث والفقراء." قلت:بل ضعفاؤهم"أي بل أكثر أتباعه الضعفاء.قال ابن حجر:وهو محمول على الأكثر والأغلب،فإنه غالباً ما يتبعه المستضعفون كبلال وعمار وصهيب وغيرهم الذين لا منافسة ولا حسد عندهم أما أصحاب الحسد كأبي جهل فهم أبعد الناس عنها قال:أيزيدون أم ينقصون؟ قلت:بل يزيدون"ويتكاثر عددهم.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٥٩)

الدِّينِ،وَعَنْ عِبَادَةِ اللهِ،وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَعْمَالِهِ حُدُودَ اللهِ،وَتَمَادَى فِي ارْتِكَابِ المَعَاصِي وَالآثَامِ،وَكَانَ مُفْرِطاً سَفِيهاً فِي أَمْرِهِ.[٣٠١٢]

فاعلم يا أخي المسلم أن الدعوات لا يُحكم عليها بعدد أتباعها ولا بثرواتهم أو مراكزهم وإنما يحكم عليها بموافقة مناهجها للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ،فعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ، قَالَ:قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَوَقَعَ حُبُّهُ فِي قَلْبِي ، فَلَزِمْتُهُ حَتَّى وَارَيْتُهُ فِي التُّرَابِ بِالشَّامِ ، ثُمَّ لَزِمْتُ أَفْقَهَ النَّاسِ بَعْدَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، فَذُكِرَ يَوْمًا عِنْدَهُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا ، فَقَالَ:«صَلُّوهَا فِي بُيُوتِكُمْ ، وَاجْعَلُوا صَلَاتَكُمْ مَعَهُمْ سُبْحَةً» .قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ:" فَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ:«وَكَيْفَ لَنَا بِالْجَمَاعَةِ؟» فَقَالَ لِي:«يَا عَمْرُو بْنَ مَيْمُونٍ ، إِنَّ جُمْهُورَ الْجَمَاعَةِ هِيَ الَّتِي تُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ ، إِنَّمَا الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ»[٣٠١٣]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ،قَالَ:قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ،فَقَالَ:يَا أَهْلَ الْيَمَنِ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا ، إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ فَوَقَعَتْ لَهُ فِي قَلْبِي مَحَبَّةٌ،فَلَمْ أُفَارِقْهُ حَتَّى مَاتَ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بَكَيْتُ ، فَقَالَ لِي:مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ:أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ أَبْكِي إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي يَذْهَبُ مَعَكَ،قَالَ:إِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ثَابِتَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ عِنْدَ أَرْبَعَةٍ ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فَإِنَّهُ عَاشِرُ عَشْرَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَلْمَانَ الْخَيْرِ،وَعُوَيْمِرٍ أَبِي الدَّرْدَاءِ،فَلَحِقْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَأَمَرَنِي بِمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا وَاجْعَلْ صَلَاتَهُمْ تَسْبِيحًا» فَذَكَرْتُ فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ فَضَرَبَ عَلَى فَخِذِي وَقَالَ:وَيْحَكَ إِنَّ الْجَمَاعَةَ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ"[٣٠١٤]

ثم يحكم عليها بعد صحة المنهج بصدق أتباعها في الأخذ به.

ولما كان الغالب على دعوة الحق في مبدئها قلة عدد أتباعها وضعفهم،كان للسابقين منهم منزلة لا تدانيها منزلة من اتَّبع الدعوة حال قوتها،وهذه هي فضيلة السبق والمبادرة

[٣٠١٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٦٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠١٣] – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٢٢)(١٦٠) حسن

[٣٠١٤] – مسند الشاميين للطبراني (١/ ١٣٨)(٢٢٠) حسن

التي أشار الله تعالى إليها في قوله سبحانه {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [الحديد:١٠]

وَمَا لَكُم يَا أَيُّها النَّاسُ لاَ تُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوالِكم فِي سَبِيلِ اللهِ؟ أَتَخْشَوْنَ الفَقْرَ إِنْ أَنْفَقْتُمْ؟ أَنْفِقُوا وَلاَ تَخْشَوْا شَيْئاً،فَإِنَّ الذي أَنْفَقْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي سَبِيلِه هُوَ مَالِكُ السَّمَاوات وَالأَرْضِ،وَقَدْ تَكَفَّلَ بِرِزْقِكُمْ،وَبالإِخْلاَفِ عَلَيكُم {وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} .ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالى تَفَاوَتَ دَرَجَاتِ الْمُنْفِقِينَ،بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِم،فَقَالَ:إِنَّهُ لاَ يَسْتَوِي مَنْ آمَنَ،وَهَاجَرَ،وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ (أَوْ قَبْلَ صُلْحِ الحَدَيْبِيَةِ عَلَى قَوْلٍ)،مَعَ مَنْ آمنَ،وَأَنْفَقَ بَعْدَ الفَتْحِ،فَالأَوَّلُونَ أَعْظَمُ دَرجةً عِنْدَ اللهِ،لأَنَّ المُؤْمِنِينَ قَبْلَ الفَتْحِ كَانُوا قَلِيلِي العَدَدِ،وَواجبَاتُهُمْ كَثِيرةٌ وَثَقِيلةٌ،أَمَّا بَعْدَ الفَتْحِ فَقَدِ انْتَشَرَ الإِسْلاَمُ،وَأَمِنَ النَّاسُ.وَاللهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ العِبَادُ.[٣٠١٥]

ذلك لأن البدء في أي أمرٍ شاقٌ لا يقوى عليه إلا الأفذاذ أصحاب الهمم العالية،وما أندرهم،فإذا قام الأمر دخل فيه آخرون ممن لا يقوون على تحمل مشقة البدء فكانوا أدنى منزلة ممن سبقهم،{ وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}.

إن البدء في أمر الدعوات الحقة لا تكتنفه المشقة فقط بل يكتنفه ما هو أشد من ذلك وهو الخوف من بطش شياطين الإنس أعداء الحق،كما قال تعالى:{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس:٨٣]

وَأَظْهَرَ اللهُ الحَقَّ عَلَى الباطِلِ،فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَالْتَقَفَتْ جَمِيعَ مَا أَلْقَاهُ السَّحَرَةُ،وَمَوَّهُوا به عَلَى النَّاسِ.وَكَانَ ذَلِكَ نَصْراً عَظِيماً لِمُوسَى مِنْ رَّبِه،وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَمَرُّوا فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.وَلَمَّا أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ للهِ اسْتِغْفَاراً وَتَوْبَةً،وَرَجَاءً أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ،قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ:إِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِتَقْطِيعِ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ

[٣٠١٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

خِلَافٍ،وَسَيَصْلِبَهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ،لأَنَّهُمْ آمَنُوا لِمُوسَى قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ هُوَ لَهُمْ بِذَلِكَ - كَمَا جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ -.وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ لِمُوسَى إلاَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَقَدْ آمَنُوا بِهِ وَهُمْ خَائِفُونَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنْ يَضْطَرُّوهُمْ بِالعَذَابِ وَالنَّكَالِ إِلَى الرُّجُوعِ عَنِ الإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ (يَفْتَنَهُمْ)،وَذَلِكَ لأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مُسْتَكْبِراً مُتَعَالِياً فِي الأَرْضِ،مُسْرِفاً فِي كُفْرِهِ،وَفِي أَمْرِهِ كُلِّهِ،وَمُبَالِغاً فِيهِ،فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَخَافَ مِنْهُ.[3016]

وهذا هو الإيمان في الخوف الذي فَرَّق الله تعالى به بين الصحابة أنفسهم،فجعل الفتح (وهو صلح الحديبية في آية الحديد السابقة) جعله سبحانه فُرقانا بين الصحابة،فكانت مترلة من آمن قبل الحديبية أعظم من مترلة من آمن بعدها،ذلك لأن الحديبية كان فرقانا بين الخوف قبلها والأمن بعدها،إذ أَمِنَ الناسُ بعد الصلح ودخل في عامين (٦ ـــ ٨هـــ) أضعاف من دخله في تسعة عشر عاما (من البعثة إلى الصلح في ٦ هـــ)،فقد كان مع النبي ﷺ يوم الحديبية ألف وأربعمائة صحابي،وكان معه يوم فتح مكة ـــ بعد الحديبية بعامين ـــ عشرة آلاف صحابي رضي الله عنهم أجمعين،وهذا تتبين لك مترلة الإيمان على الخوف،فليحرص المسلم على فضيلة السبق والمبادرة ولا يثبطه الشيطان عن ذلك بمشقة الطريق وبقلة عدد سالكيه وضعفهم،وببطش أعدائهم فإن الحق غالب لا محالة،قال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة:٢١]

قَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى،وَحَكَمَ فِي أُمِّ الكِتَابِ،بِأَنَّ النَّصْرَ والغَلَبَةَ سَتَكُونُ لَهُ تَعَالَى،وَلِرَسُولِهِ ولِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ،فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،وَقَضَاءُ اللهِ نَافِذٌ لاَ مَحَالَةَ،وَلاَ رَادَّ لَهُ،وَاللهُ قَوِيٌّ لاَ يُقْهَرُ،عَزِيزٌ لاَ يُغَالَبُ.[3017]

وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق.

[3016] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٤٤٨،بترقيم الشاملة آليا)

[3017] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك.واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية،وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد.وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة.فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد،لأنها غير صالحة للبقاء.والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد.والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة.فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة،فهذا الواقع هو الباطل الزائل.الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة.لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم.

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة،من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة،بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية.ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين،يحميهم من الانهيار،ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها،ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ..حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى.يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل!!

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود،وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون،وأن الله ورسله هم الغالبون.وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون.ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون![٣٠١٨]

وقال تعالى:{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين:٢٦]

[٣٠١٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٩١)

وَلِلْوُصُولِ إِلَى هَذَا النَّعِيمِ فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَسَابِقُوا وَيَتَنَافَسُوا فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ،وَالفَوْزِ بِمَرْضَاته،وَالعَمَلِ بِأَوَامِرِه.[3019]

وقال رسول الله ﷺ:« فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّه بِالرِّضَا وَالْيَقِينِ فَافْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "[3020]

ومما يدخل في الصبر في ميدان الجهاد،الصبر على الأمير،الصبر على طاعته في العسر والصبر على طاعته في المكره،والصبر على طاعته وإن استأثر بشيء دون الرعية،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْه فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ،إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[3021]

ومن أهم ما يدخل في الصبر،الصبر على أذى الإخوة رفاق الطريق،فإن ميدان الجهاد يجمع مسلمين على مستويات تربوية متفاوتة ــ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد،ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله تعالى،ولابد من أن يتعايشوا معا من أجل المصلحة الشرعية العليا وهي جهاد أعداء الدين،فنوصي الظالم لنفسه بأن يتقي الله في نفسه وفي إخوانه ونوصي الكل بالصبر على أذى إخوانهم،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ الَّذِي

[3019] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:5751،بترقيم الشاملة آليا)

[3020] - شعب الإيمان (12/ 354) صحيح

[3021] - صحيح البخاري (9/ 47)(7054) وصحيح مسلم (3/ 1477)55 - (1849)

دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أن من الفتن التي يصاب بها العبد السلم أن يرى من ولي الأمر شيئاً من المعاصي والظلم،فيجب عليه في هذه الحالة الصبر والسمع والطاعة،محافظة على جماعة المسلمين،ما دام لم يـر منـه كفـراً صريحاً،ولم يكرهه على معصية،لما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قـال:" السـمع والطاعة كل المرء المسلم فيما أحب وكره،ما لم يؤمر بمعصية،فإذا أمر بمعصية فلا جمع ولا طاعة "،أخرجه الشيخان وأبو داود.ثانياً:التحذير الشديد من الخروج على إمام المسلمين(بغير حق)،وكونه كبيرة من الكبائر،لقوله - ﷺ -:" فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية" فإن هذا الوعيد الشديد لا يترتب إلّا على مرتكب الكبيرة وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب،والجهاد معه،وأن طاعته خير من الخروج عليه،لا في ذلك من حقن الدماء.ثالثاً:استدل به الأصوليون على حجيّة الإجماع.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (5/ 359)

يُخَالِطُ النَّاسَ،وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ،أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ،وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[٣٠٢٢].

وهذا الصبر هو من صفات المتقين كما قال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)} [آل عمران:١٣٣،١٣٤]

يَنْدُبُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ إلَى القيَامِ بالأَعْمالِ الصَّالحَة،وَإلى المُسَارَعَة في فعْلِ الخَيْرَات،ليَنَالُوا مَغْفرَةَ الله وَرضْوَانَهُ،وَجَنَّتَهُ الوَاسعَةَ العَريضَةَ التي أَعَدَّهَا اللهُ لعبَاده المُتَّقينَ،الذينَ يَمْتَثلُونَ أَمْرَهُ.يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى في هَذه الآيَة صفَات أَهْلِ الجَنَّة فَيَقُولُ:إنَّهُمُ الذينَ يُنْفقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبيلِ مَرْضَاة الله،في الرَّخَاء (السَّرَاء)،وَفي الشِّدَّة (الضَرَّاء)،وَفي الصِّحَّة وَالمَرَض،وَفي جَميعِ الأَحْوَال،لاَ يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَة الله،وَالإنْفَاق في سَبيلِ مَرْضَاته،وَإنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إذَا ثَارَ،وَيَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إلَيهمْ.وَاللهُ يُحبُّ الذينَ يَتَفَضَّلُونَ عَلَى عبَاده البَائسينَ،وَيُوَاسُونَهُمْ شُكْراً لله عَلَى جَزيلِ نعَمه عَلَيْهمْ.[٣٠٢٣]

ومع هذا الأجر الذي يناله المسلم بالصبر على أذى إخوانه،فإن هناك فائدة أخرى يحصل عليها المسلم بمخالطة الناس وهي أنه يعرف آفات نفسه فمن كان سريع الغضب لا يدرك هذا من نفسه ما لم يخالط الناس ويتعرض لأذاهم،فإن فعل،أدرك آفات نفسه وسعى في تقويمها.وهكذا كثير من آفات النفس لا يدركها العبد إلا بالمخالطة.

وقد أردت التنبيه على هذا الأمر خاصة وأن كثيرا من المسلمين يصبرون على أذى الأعداء ولا يصبرون على أذى إخوانهم،كما قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد.

[٣٠٢٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٢)(٢٥٠٧)وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٨)(٤٠٣٢) صحيح

[٣٠٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٦،بترقيم الشاملة آليا)

فأردت أن أعلمهم بأن الصبر على أذى الإخوة واجب،وأننا نتعبد بالصبر على غيره،ونرجو به الأجر والثواب من الله تعالى.

وهنا تنبيه آخر متعلق بسابقه،وهو أن سوء سلوك بعض الإخوة قد يدفع بالبعض الآخر إلى ترك ميدان الجهاد بحجة أنه لا يجوز الجهاد مع مثل هؤلاء،أو أنه لا فائدة من الجهاد مع مثل هؤلاء،أو أنه لا يتترل النصر على مثل هؤلاء،أو أنه ما جئنا للجهاد إلا لمقاومة الفساد فكيف يكون في صفوفنا فاسدون،أو أنه ينبغي أن نؤجل الجهاد حتى ننهض بالمستوى التربوي للإخوة.وكل هذه أعذار باطلة.

وقد اتفق الفقهاء على أن حفظ الدين مقدم على حفظ النفس في الضروريات الشرعية الخمس،فالجهاد الذي به حفظ الدين واجب وإن أدى إلى القتل،فكيف يتحمل المسلم القتل والجراح ولا يتحمل أذى إخوانه من أجل قيام الجهاد واستمراره حفظا لدين الله تعالى؟ ثم إنه مع ذلك ــ مأجور بصبره على أذى إخوانه ــ كما أسلفت ــ إن شاء الله تعالى.فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ،ثُمَّ سَأَلُوهُ،فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ،فَقَالَ:«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ،وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ،وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ،وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٣٠٢٤]

ومعناه أن الصبر خلق يُكْتسب بالمجاهدة «يَتَصَبَّر» تارة فتارة حتى يصير الصبر خلقا لازما للعبد...

ونحن ــ في مقام معاملة الإخوة المسلمين ــ تطالب الأخ المسلم بدرجة أعلى من درجة الصبر وهي العفو عمن ظلمه والإحسان لمن أساء إليه كما قال تعالى:{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩]

ورُوِيَ عَن جَعفَر الصّادِق قالَ:لَيسَ فِي القُرآن آيَة أَجمَعُ لِمَكارِمِ الأَخلاق منها،ووجَّهُوهُ بِأَنَّ الأَخلاق ثَلاثَة بِحَسَبِ القُوَّة الإِنسانِيَّة:عَقلِيَّة وشَهوِيَّةٌ وغَضَبِيَّةٌ،فالعَقلِيَّة الحِكمَة ومنها

[٣٠٢٤] صحيح البخاري (٢/ ١٢٢)(١٤٦٩)

[ش(فلن أدخره عنكم) لن أحبسه وأمنعكم منه.(يستعفف) يظهر العفة ويكف عن السؤال]

الأَمر بالَمعرُوفِ،والشَّهوِيَّةُ العِفَّة ومِنها أَخذ العَفو،والغَضَبِيَّة الشَّجاعَة ومِنها الإِعراض عَن الجاهلِينَ.

ورَوى الطَّبَرِيُّ مُرسَلاً وابن مَردَويه مَوصُولاً مِن حَدِيث جابر وغَيره''لَمّا نَزَلَت:{خُذ العَفو وأمُر بالعُرفِ''سَأَلَ جبريل فَقالَ لا أَعلَمُ حَتَّى أَسأَلَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَقالَ:إِنَّ رَبَّك يَأمُرُك أَن تَصِلَ مَن قَطَعَك،وتُعطِيَ مَن حَرَمَك،وتَعفُو عَمَّن ظَلَمَك.[٣٠٢٥].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَدَرْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِه وَبَدَرَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ:«يَا عُقْبَةُ،أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ أَلَا وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُمَدَّ فِي عُمْرِهِ وَيُبْسَطَ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ ذَا رَحِمِهِ»[٣٠٢٦]

وعَنِ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ،وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ،وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ "[٣٠٢٧]

---

٤ = الأمانة.

فيما تحت يديك من أعمال أو أسرار أو أموال،قال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.وَأَدَاءِ الأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الأَمَانَاتِ الوَاجِبَةِ عَلى الإِنْسَانِ:مِنْ حُقُوقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ...) وَمِنْ حُقُوقِ العِبَادِ (كَالوَدَائِعِ وَغَيرَ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الإِنْسَانُ عَلَيهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَثَائِقَ وَبَيِّنَاتٍ عَلَيهَا) .

[٣٠٢٥] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٣٠٦)

[٣٠٢٦] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٧٨)(٧٢٨٥) حسن

[٣٠٢٧] - شعب الإيمان (١٠/ ٥٣٤)(٧٩٤٧) صحيح مرسل

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمنِينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالعَدْلِ،وَأَنْ يَكُونَ العَدْلُ عَاماً لِلْبَرِّ وَالفَاجِرِ،وَلِكُلِّ أحَدٍ،وَأنْ لاَ يَمْنَعَهُمْ مِنْ إقَامَةِ العَدْلِ حِقْدٌ أَوْ كَرَاهِيَةٌ أوْ عَدَاوَةٌ.ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ،وَيَعِظُ بِهِ المُؤْمِنِينَ،هُوَ الشَّرْعُ الكَامِلُ،وَفِيهِ خَيْرُهُمْ،وَاللهُ سَمِيعٌ لأَقْوَالِ العِبَادِ،بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ،فَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِمَا يَسْتَحِقُّ.[٣٠٢٨]

ومن أعظم الأمانات الأسرار،سواء الأسرار العسكرية أو أسرار إخوانك،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال:٢٧]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِهِ،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ،وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِي ائْتَمَنَ اللهُ العِبَادَ عَلَيهَا:يَعْنِي الفَرَائِضَ،وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ:كَالمِكْيَالِ وَالمِيْزَانِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ،وَكِتْمَانِ السِّرِّ..إلخ.فَالأَمَانَةُ وَاحِدَةٌ وَلاَ تَبْعِيضَ فِيهَا،وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ،وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا.[٣٠٢٩]

ومما يدخل في الأمانات تولية الأعمال للأكفاء،لقوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء:٥٨]

والولايات من الأمانات لما رواه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ:فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي،ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ،إِنَّكَ ضَعِيفٌ،وَإِنَّهَا أَمَانَةُ،وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ،إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا،وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[٣٠٣٠]

[٣٠٢٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٢٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٣٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٧)١٦ - (١٨٢٥)

[ش (إنك ضعيف وإنها أمانة) هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلا لها أو كان أهلا و لم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ،جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ:مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ،فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ:سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ.وَقَالَ بَعْضُهُمْ:بَلْ لَمْ يَسْمَعْ،حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ:«أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ:هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ:«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٣٠٣١].

ويدخل في الأمانة كذلك حسن التصرف في الأموال العامة قبضا وإنفاقا وأداءً إلى ولي الأمر،فعَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا،فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ،قَالَ:«وَمَا لَكَ؟» قَالَ:سَمِعْتُكَ تَقُولُ:كَذَا وَكَذَا،قَالَ:«وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ،مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ،فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ،فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ،وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى».[٣٠٣٢]

وعَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ،فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣٠٣٣].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ،قَالَ:حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ،رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ:حَدَّثَنَا:«أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ،ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ،ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ:" يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ،فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ،فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ،ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ،كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ،فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ،فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ،فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ،فَيُقَالُ:إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا،وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ:مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ

[٣٠٣١] - صحيح البخاري (١/ ٢١)(٥٩)

[ش (فمضى) استمر.(قضى) انتهى منه.(أراه) أظنه قال هذا.قال في الفتح والشك من محمد بن فليح - أحد رجال السند - ورواه الحسن بن سفيان وغيره عن عثمان بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن فليح ولفظه (أين السائل) و لم يشك.(وسد) أسند.(غير أهله) من ليس كفأ له]

[٣٠٣٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٥)٣٠ - (١٨٣٣)

[٣٠٣٣] - صحيح البخاري (٤/ ٨٥)(٣١١٨)

وَمَا أَجْلَدَهُ،وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ"وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ،لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ،وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ،فَأَمَّا اليَوْمَ:فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلاَنًا وَفُلاَنًا"[٣٠٣٤]

قوله (بايعت) من البيع والشراء،وهو يشير إلى رفع الأمانة من الناس،وقد توفي عام ٣٦هـ،والأحوال في نقص،فعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ،قَالَ:أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ،فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ،فَقَالَ:«اصْبِرُوا،فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ،حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ» سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ"[٣٠٣٥]

فكيف بالحال الآن؟.والمقصد من ذكر حديث حذيفة هنا قوله:"وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لِأُبَايِعَ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا ".وفيه الإشارة إلى تحري الأمانة فيمن تعاملهم وتأتمنهم على الأمانات.

---

٥ = الإحسان:

[٣٠٣٤] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٧) وصحيح مسلم (١/ ١٢٦)(٢٣٠ - (١٤٣)

[ش (الأمانة) الطاعة والتزام الأمر والنهي.(جذر) هو الأصل من كل شيء(علموا) أي الأمانة.(الوكت) أثر النار ونحوها.(المجل) التنفط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه أو من مس النار وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم.(منتبرا) مرتفعا.(ما أظرفه) ما أحسنه.(ما أجلده) ما أقواه وما أصبره.(مثقال) وزن.(خردل) نبت صغير الحب يضرب به المثل في الصغر.(أتى علي زمان) مر علي من قبل.(وما أبالي) لا أبحث عن حال من أبايع لثقتي بأمانته.(ساعيه) الوالي عليه يقوم بالأمانة في ولايته فينصفني ويستخرج حقي منه.(فلانا وفلانا) يعني أفرادا من الناس قلائل أعرفهم وأثق بأمانتهم.(الفربري) أحد رواة الصحيح عن البخاري رحمه الله تعالى.(أبو جعفر) هو وراق البخاري وكاتبه.(أبو عبد الله) البخاري نفسه]

[٣٠٣٥] - صحيح البخاري (٩/ ٤٩)(٧٠٦٨)

[ش (ما يلقون) من ظلمه لهم وتعديه عليهم وفيه التفات حيث انتقل من التكلم إلى الغيبة.(الذي بعده شر منه) يكون فيه الخير والشر أكثر منه أحيانا وقد يكون زمان خيرا من سابقه بكثير فلا حجة في هذا ونحوه لمن يؤثرون الراحة والانهزام فيتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويستسلمون للشر والفساد والظلم والطغيان.وفي بعض النسخ (أشر منه) بالهمزة والأولى أفصح وأصوب]

عَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ،قَالَ:ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ،وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ،فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٣٠٣٦].

والمقصود بالإحسان هنا إتقان العمل الموكل إليك على أحسن الوجوه التي ترضي الله.سواء كان هذا العمل تدريبا أو حراسة أو عملا إداريا أو توجيها شرعيا أو غير ذلك مما يكلفك به الأمير،سواء كنت تحب هذا العمل أو لا تحبه ....

ومن شعب الإيمان أن تؤدي حقوق الناس بالإتقان الذي تحب أن يؤدي به الناس حقك

فعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣٠٣٧]

وعَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ "[٣٠٣٨].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ،فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ "[٣٠٣٩].

[٣٠٣٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)٥٧ - (١٩٥٥)

[ش (القتلة) بكسر القاف وهي الهيئة والحالة(وليحد) يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها(فليرح ذبيحته) بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها]

[٣٠٣٧] - صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٣) وصحيح مسلم (١/ ٦٧)٧١ - (٤٥)

[ش (لا يؤمن أحدكم) الإيمان الكامل.(ما يحب لنفسه) من فعال الخير]

ويستفاد من الحديث ما يأتي:أولاً:أن عاطفة المحبة للناس وحب الخير لهم جميعاً من كمال الإيمان،ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا تجرد الإنسان من الأنانية والحقد والكراهية والحسد،وأحب لغيره من المباحات ما يحبه لنفسه من السلامة،والأمن،ورغد العيش والهداية والتوفيق.أما المعاصي فليس من الإيمان أن يحبها لغيره،لأنها شرٌّ لا خير فيها،أما محبة المسلم لأخيه المسلم فإنها آكد وأقوى،ولا يكفى فيها مجرد العواطف النفسية،بل لا بد أن تظهر آثار هذه العواطف في معاملته.ثانياً:التحذير من الحقد والحسد وغير ذلك من المشاعر الكريهة التي تنافي المحبة.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٩١)

[٣٠٣٨] - شعب الإيمان (٧/ ٢٣٤)(٤٩٣١) صحيح لغيره

[٣٠٣٩] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٤١١)(٦٨٠٧) صحيح لغيره

وعَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْد رَبِّ الْكَعْبَة قَالَ:انْتَهَيْتُ إِلَى عَبْد اللَّه بْنِ عَمْرٍو وَهُوَ جَالسٌ في ظلِّ الْكَعْبَة،وَالنَّاسُ عَلَيْه مُجْتَمعُونَ،قَالَ:فَسَمعْتُهُ يَقُولُ:بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ في سَفَرٍ إذْ نَزَلْنَا مَنْزِلًا،فَمنَّا مَنْ يَضْرِبُ خبَاءَهُ،وَمنَّا مَنْ يَنْتَضلُ،وَمنَّا مَنْ هُوَ في جَشْرَته،إذْ نَادَى مُنَادي النَّبيِّ ﷺ:«الصَّلَاةُ جَامعَةٌ»،فَاجْتَمَعْنَا،فَقَامَ النَّبيُّ ﷺ فَخَطَبَنَا،فَقَالَ:" إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبيٌّ قَبْلي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْه أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيْرًا لَهُمْ،وَيُنْذرَهُمْ مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ،وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذه جُعلَتْ عَافيَتُهَا في أَوَّلهَا،وَإِنَّ آخرَهَا سَيُصيبُهُمْ بَلَاءٌ،وَأُمُورٌ يُنْكرُونَهَا تَجيءُ فتَنٌ فَيُدَقِّقُ بَعْضُهَا لبَعْضٍ،فَتَجيءُ الْفتْنَةُ،فَيَقُولُ الْمُؤْمنُ:هَذه مُهْلكَتي،ثُمَّ تَنْكَشفُ،ثُمَّ تَجيءُ فَيَقُولُ:هَذه مُهْلكَتي،ثُمَّ تَنْكَشفُ فَمَنْ أَحَبَّ منْكُمْ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ،وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ،فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وَهُوَ مُؤْمنٌ باللَّه وَالْيَوْم الْآخرِ،وَلْيَأْت إِلَى النَّاسِ مَا يُحبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْه،وَمَنْ بَايَعَ إمَامًا،فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَده وَثَمَرَةَ قَلْبه،فَلْيُطعْهُ مَا اسْتَطَاعَ،فَإِنْ جَاءَ أَحَدٌ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا رَقَبَةَ الْآخرِ"فَدَنَوْتُ منْهُ فَقُلْتُ:سَمعْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ:نَعَمْ وَذَكَرَ الْحَديثَ"[٣٠٤٠]

---

٦ = الصدق:

الصدق:وَالصِّدْقُ مُطَابَقَةُ الْقَوْلِ الضَّميرَ وَالْمُخْبَرَ عَنْهُ فَإِنِ انْخَرَمَ شَرْطٌ لَمْ يَكُنْ صدْقًا بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذبًا أَوْ مُتَرَدِّدًا بَيْنَهُمَا عَلَى اعْتبَارَيْنِ كَقَوْلِ الْمُنَافق مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه فَإِنَّهُ يَصحُّ أَنْ يُقَالَ صَدَقَ لكَون الْمخبر عَنهُ كَذَلك وَيصح أَنْ يُقَالَ كَذَبَ لمُخَالَفَة قَوْله لضَميره وَالصِّدِّيقُ مَنْ كَثُرَ منْهُ الصِّدْقُ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الصِّدْقُ وَالْكَذبُ في كُلِّ مَا يَحقُّ في الاعْتقَاد وَيَحْصُلُ نَحْوَ صَدَقَ ظَنِّي وَفي الْفعْلِ نَحْوَ صَدَقَ في الْقتَال وَمنْهُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا اه مُلَخصا[٣٠٤١].

وكما يستعمل الصدق والكذب في القول،فإنهما يستعملان في الاعتقاد (فيقال فلان صادق الإيمان ونحوه)،ويستعملان في الفعل (فيقال فلان صدق في القتال ونحوه).

[٣٠٤٠] - سنن النسائي (٧/ ١٥٢)(٤١٩١) صحيح

[٣٠٤١] - فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٠٧)

والصدق قد يكون بين العبد وربه،أو بينه وبين الناس.

والصدق مع الله تعالى يكون في القيام بوظائف العبودية على الوجه المطلوب،ويكون بالوفاء بما ألزم العبد به نفسه أمام ربه سبحانه،كما في قوله تعالى:{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [الأحزاب:٢٣]

لَمَّا ذَكَر اللهُ تَعَالى أَنَّ المُنَافقِينَ نَقَضُوا العَهْدَ،وَصَفَ المُؤمنِينَ بأَنَّهُمُ اسْتَمَرُّوا عَلى المُحَافَظَة عَلَى العَهْدِ وَالمِيثَاقِ،وَأَنَّ مِنْهُمْ رِجَالاً أَوْفُوا بِمَا عَاهَدُوا الله عَلَيه مِنَ الصَّبْرِ في الشِّدَّة وَالبَأْسَاءِ،فَاسْتُشْهِدَ بَعْضُهُمْ في بَدْرٍ،وَبَعْضُهُمْ اسْتُشْهِدَ فِي أُحُد،وبَعْضُهُمْ لَقِيَ وَجْهَ رَبِّه في غَيرِ هذين المَوْقفَين،وَمِنْهُمْ مَنْ مَضَى عَلَى الوَفَاءِ لله بالعَهْد،وَمَا غَيَّرُوا وَمَا بَدَّلُوا.[٣٠٤٢]

وقال تعالى:{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)} [التوبة:٧٥ - ٧٨]

وَمِنَ المُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللهَ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ لَئِنْ أَغْنَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِه،وَأَعْطَاهُ مَالاً وَثَرْوَةً لَيَشْكُرَنَّ اللهَ عَلَى نِعْمَتِه بالصَّدَقَة مِنْهَا،وَلَيَعْمَلَنَّ عَمَلَ أَهْلِ الصَّلاَحِ،مِنَ صِلَة الرَّحِمِ وَالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الله. فَلَمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ،وَأَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا،لَمْ يُوفُوا بالعَهْد،وَبَخِلُوا بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه،وَأَمْسَكُوهُ فَلَمْ يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بشَيءٍ.وَتَوَلَّوْا وَانْصَرَفُوا عَنِ الاسْتِعَانَة بِه عَلَى الطَّاعَة وَالصَّلاَحِ،وَإِصْلاَحِ حَالِهِمْ وَحَالِ أُمَّتِهِمْ،كَمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه. فَكَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ البُخْلِ وَالتَّوَلِي بَعْدَ العَهْدِ وَالْمِيثَاقِ أَنْ تَمَكَّنَ النِّفَاقُ مِنْ قُلُوبِهِمْ،وَلاَزَمَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَة،لأَنَّهُمْ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ مَعْ هَذَا النِّفَاقِ فِي التَّوْبَة،وَذَلِكَ لِتَمَكُّنِ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النِّفَاقِ فِي قُلُوبِهِمْ وَهُمَا:الكَذِبَ فِي اليَمِين،وَإِخْلاَفُ الْعَهْدِ.يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى،وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِضَمَائِرِ هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ الذينَ يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلِنُونَ،وَإِنْ

[٣٠٤٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٣٧،بترقيم الشاملة آليا)

أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ مَالٌ تَصَدَّقُوا وَشَكَرُوا عَلَيْهِ،فَاللهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،لأَنَّهُ تَعَالَى عَلاَّمُ الغُيُوبِ،فَكَيْفَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ بِمَا يُعَاهِدُونَهُ عَلَيْهِ؟[٣٠٤٣]

أما الصدق مع الناس فإنه ينفع العبد في آجله وعاجله،فعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ،فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ،وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا،وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ،فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ،وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ،وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».[٣٠٤٤]

وليس هذا بمقام بسط الحديث في الصدق،وإنما أردت هنا التنبيه على مسألة الصدق في العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية.حيث تفتقر الساحة الإسلامية المعاصرة إلى الصدق،يعرف هذا من يعايش هذه الساحة ودعاها معايشة عميقة.فما يقال للمسلمين على ألسنة بعض الدعاة كثير منه كذب متعمد خاصة فيما يتعلق بنصرة الطواغيت وأنظمتهم بتحريف الكلم عن مواضعه ولَبْس الحق بالباطل،ومن هؤلاء الدعاة من تُسَلَّط عليه الأضواء وتُضْفَى عليه الألقاب وتُفْرَد له الصفحات الطوال ليقوم بمهمته الشيطانية وعن أَبي إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ،يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ:«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ

[٣٠٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٤٤] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٣)١٠٥ - (٢٦٠٧) وصحيح البخاري (٨/ ٢٥)(٦٠٩٤)

[ش (يهدي) يوصل.(البر) اسم جامع لكل خير أي العمل الصالح الخالص من كل ذم.(ليصدق) يعتاد الصدق في كل أمر.(صديقا) يصبح الصدق صفة ذاتية له فيدخل في زمرة الصديقين ويستحق ثوابهم.(الفجور) اسم جامع لكل شر أي الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصي.(يكتب) يحكم له(كذابا) صيغة مبالغة من الكذب وهو من يصبح الكذب صفة ملازمة له]

صِفْهُمْ لَنَا،قَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:«تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ:«فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٣٠٤٥].

ثم إن كثيرا من الدعاة تُكَذِّب أفعالُهم أقوالَهم.وإذا أردت أن تختبر صدق الداعية في هذا الزمان فاسأله عن الطواغيت وعن حكم جهادهم،فإن صدقك القول فانظر في فعله وسيرته هل تصدق قوله أم لا؟ لقد أصبحت هذه المسألة في هذا الزمان فُرْقَانًا بين الحق والضلال،تماما كما كانت مسألة خلق القرآن زمن أحمد بن حنبل رضي الله عنه.كذلك فإن هناك أعمالا تقدم للناس على أنها إسلامية وحقيقتها ليست كذلك بل منها ما يهدف إلى نهب صدقات المسلمين أو يهدف لتحقيق مآرب شخصية أو حزبية،ومنها ــ وهو أشرها ــ ما هو حقيقته مراكز تجسس تعمل لحساب الطواغيت ولنشر دعاياتهم وكفرهم تحت غطاء إسلامي كمسجد الضرار،قال تعالى:{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)} [التوبة:١٠٧،١٠٨]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:إِنَّ هَؤُلاَءِ هُمْ أُنَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ بَنُوا مَسْجِداً،فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ (وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ،وَأَبَى الإِسْلاَمَ،وَأَخَذَ يَكِيدُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَيَتَآمَرُ عَلَيْهِمْ مَعَ قُرَيشٍ،وَمَعَ أَعْدَائِهِمْ،وَأَلَّبَ المُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي وَقْعَةِ أُحُد،وَحَاوَلَ اسْتِمَالَةَ الأَنْصَارِ فِي المَعْرَكَةِ فَسَبُّوهُ):ابْنُوا مَسْجِداً يَكُونُ مَرْصَداً لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ.ثُمَّ

[٣٠٤٥] - صحيح البخاري (٩/ ٥١)(٧٠٨٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش (دعاة على أبواب جهنم) قال العلماء هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك فتجب طاعته في غير معصية وفيه معجزات لرسول الله ﷺ وهي هذه الأمور التي أخبر بها وقد وقعت كلها]

أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتَعِدُوا،وَأَنْ يَجْمَعُوا مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَسِلاَحٍ،وَقَالَ لَهُمْ:إِنَّهُ ذَاهِبٌ إِلى قَيْصَرِ الرُّومِ فَآتٍ بِجُنُودٍ مِنَ الرُّومِ لإِخْرَاجِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ،فَأَخَذُوا فِي بِنَاءِ المَسْجِدِ قُرْبَ مَسْجِدِ قِباءٍ،وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ بِنَائِهِ أَتَوْا إِلى الرَّسُولِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ:لَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا فَنُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ،وَتَدْعُو لَنَا بِالبَرَكَةِ.وَكَانَ الرَّسُولُ خَارِجاً إِلى غَزْوَةِ تَبُوك،فَأَرْجَأَ ذَلِكَ إِلى حِينِ عَوْدَتِهِ.وَحِينَ عَادَ نَزَل عَلَيهِ جِبْرِيلُ،عَلَيْهِ السَّلاَمُ،يُخْبِرُهُ بِغَايَةِ بُنَاةِ المَسْجِدِ وَقَصَدهِمْ،وَأَمَرَهُ بِأَنْ لاَ يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَداً.وَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ الذِينَ بَنُوا هَذا المَسْجِدِ سَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا بِبِنَائِهِ الخَيْرَ وَالإِحْسَانَ إِلَى النَّاسِ،وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا قَالُوهُ،وَفِيمَا قَصَدُوهُ،وَفِيمَا نَوَوْهُ؛ فَهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَاراً لِمَسْجِدِ قِبَاءٍ،وَكُفْراً بِاللهِ،وَتَفْرِيقاً لِلْمُؤْمِنِينَ (الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ جَمِيعاً فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ هُوَ مَسْجِدُ قِبَاءٍ،وَفِي ذَلِكَ يَحْصُلُ التَّعَارُفُ وَالتَّآلُفُ،وَتُجْمَعُ الكَلِمَةُ)،وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهُ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ بِنَاءِ هَذا المَسْجِدِ.

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ لاَ يَقُومَ فِي مَسْجِدِ الضِّرَارِ هَذا،وَحَثَّهُ عَلَى الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ قِبَاءٍ الذِي أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى التَّقْوَى (وَهِيَ طَاعَةُ اللهِ،وَطَاعَةُ رَسُولِهِ،وَجَمْعُ كَلِمَةِ المُؤْمِنِينَ) ..

وَيَقُولُ تَعَالَى:إِنَّ مَسْجِدَ قِبَاءٍ فِيهِ رِجَالٌ يَعْمُرُونَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلاَةِ،وَذِكْرِ اللهِ،وَتَسْبِيحِهِ؟،وَيُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بِذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالآثَامِ.وَيُثْنِي اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْصَارِ فِي تَطَهُّرِهِمْ،وَفِي عِنَايَتِهِمْ بِنَظَافَةِ أَبْدَانِهِمْ،لأَنَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ.[٣٠٤٦]

كذلك فإن هناك أعمالا إسلامية تصبغ بصفة العالمية،ومنها ما يُنْفَق عليه بسخاء والهدف معروف وهو أن تمتد أيدي الأخطبوط إلى جميع البلدان تحت ستار العالمية تتحسس وتمسك بأي حركة إسلامية وليدة فيما يسمى بسياسة الاحتواء.

وفيما سبق الكفاية،وفي التلميح ما يكفي عن التصريح،قال الله تعالى:{وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [محمد:٣٠]،يَهُدِّدُ اللهُ تَعَالى بِكَشْفِ أَمْرِ هَؤُلاءِ المُنَافِقِينَ لِلرَّسُولِ فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ

[٣٠٤٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٤٣،بترقيم الشاملة آليا)

ﷺ:إِنَّهُ لَوْ شَاءَ تَعَالَى لَكَشَفَ لَهُ عَنْ أَشْخَاصِهِم،حَتَّى إِنَّهُ لَيَرى أحَدَهُم فَيَعرِفُهُ مِنْ مَلامِحِه (سِيماهُمْ)،وإِنَّ لَهْجَتَهُمْ وَنَبَرَات أَصْواتِهِمْ،وَإِمَالَتَهُمْ فِي لَفْظِ الكَلِمات،وانحِرَافَ مَنْطِقِهِم فِي خِطَابِ الرَّسُولِ،سَيَدُلُّه كُلَّ ذَلِكَ عَلَى نِفَاقِهِمْ،وَاللهُ يَعْلَمُ أعمَالَ العِبَادِ،وَسَوفَ يُجَازِيهِمْ بِها.[٣٠٤٧]

والمقصود بيان أن كثيرا من الأعمال الإسلامية المعاصرة تفتقر إلى الصدق،وليس هدفها الحقيقي نصرة دين الله تعالى،ولذلك فإنها ممحوقة البركة،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي،تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "[٣٠٤٨]

ولذلك أيضا فإن الوعد الصادق {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج:٤٠] لا يتحقق،بل حالنا نحن ــ المسلمين ــ بلغ من الذلة والهوان مبلغا لا يخفى على أحد،لأن كثيرا من الأعمال المفترض أنها لنصرة دين الله تعالى هي في حقيقتها ليست كذلك،وقال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد:١١].

إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ،مِنْ خَيْرٍ إِلَى سُوءٍ،إلاَّ إِذَا غَيَّرُوا مَا هُمْ عَلَيه،وَلا يُغَيِّرُ اللهُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ سُوءٍ إِلَى خَيْرٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.[٣٠٤٩]

إن الصدق دعامة أساسية من دعائم هذا الدين،بل إن هذا الدين ما بدأت دعوته إلا على هذه الدعامة فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]،صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا،فَجَعَلَ يُنَادِي:«يَا بَنِي فِهْرٍ،يَا بَنِي عَدِيٍّ» – لِبُطُونِ قُرَيْشٍ – حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ،فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ،فَقَالَ:«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ

[٣٠٤٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٥٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٤٨] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٩)٤٦ – (٢٩٨٥)

[ش (تركته وشركه) هكذا وقع في بعض الأصول وشركه وفي بعضها وشريكه وفي بعضها وشركته ومعناه أنه غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به]

[٣٠٤٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧١٩،بترقيم الشاملة آليا)

عَلَيْكُمْ،أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا:نَعَمْ،مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا،قَالَ:«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ:تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ،أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ:{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد:٢].[٣٠٥٠]

قال ابن حجر:[قَوْلُهُ أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ إِلَخْ أَرَادَ بِذَلِكَ تَقْرِيرَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ إِذَا أَخْبَرَ عَنِ الْأَمْرِ الْغَائِبِ][٣٠٥١].

إن هذا الدين لن يقوم إلا بالجهاد،عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا،يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[٣٠٥٢]

وإن الجهاد لا يقوم إلا بالجماعة (عصابة من المسلمين)،وإن الجماعة لا تتكون إلا بالدعوة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [الأنفال:٦٥]،وإن الدعوة تعتمد على الثقة في الداعي وصدقه كما في الحديث السابق «مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا».

إن الكذب مستقبح عند المشركين،انظر إلى قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن النبي ﷺ،فأراد أبو سفيان ــ وكان مازال مشركا ــ أن يكذب في الخبر فاستحى ممن معه من قريش أن يَأثروا عليه كذبا،وإن الكذب قبيح من رجل من العامة فكيف برجل داعية؟

---

٧ = التوكل

في اللغة:اعلم:أن التوكل مأخوذ من الوكالة،يقال:وكل فلان أمره إلى فلان،أي فوض أمره إليه،واعتمد فيه عليه.[٣٠٥٣].

[٣٠٥٠] - صحيح البخاري (٦/ ١١١)(٤٧٧٠)

[ش (رسولا) من يستطلع له الخبر.(أرأيتكم) أخبروني.(خيلا) عليها فرسان يركبونها.(تغير) تهجم وتوقع بكم.(بين يدي) قدام]

[٣٠٥١] - فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥٠٣)

[٣٠٥٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٢ - (١٩٢٢)

[٣٠٥٣] - مختصر منهاج القاصدين (٤/ ٤٣)

وفي الاصطلاح:هُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اسْتِجْلَابِ الْمَصَالِحِ،وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّهَا،وَكِلَةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيْهِ،وَتَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ لَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ سِوَاهُ..[٣٠٥٤]

ولا يتم هذا الاعتماد إلا إذا اعتقد المتوكل تمام العلم والقدرة والرحمة،فإذا أيقنت بهذا في الله تعالى وحده اتكل قلبك عليه وحده،وإذا ضعف هذا اليقين في الله تعالى ضعف التوكل.

فالتوكل هو ثمرة الفقه في أسماء الله تعالى وصفاته،كصفات العلم والقدرة والرحمة والحكمة،فمن أيقن بكمال علم الله تعالى وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ومالا يكون لو كان كيف يكون،وأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة،اعتمد عليه وفوض أمره إليه لأنه سبحانه يعلم من مصالح العبد الآجلة والعاجلة مالا يعلمه العبد نفسه،ولذلك قال شعيب عليه السلام:{..وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [الأعراف:٨٩].

فبين أن التوكل هو ثمرة اليقين بسعة علم الله تعالى وكماله.

وكذلك القدرة،فإذا أيقنت بأن الله على كل شيء قدير،وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض،اعتمدت عليه في قضاء حوائجك من جلب منفعة أو دفع مضرة،كما قال تعالى عن هود عليه السلام:{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [هود:٥٦].

إِنِّي وَكَّلْتُ أُمُورِي إلى اللهِ،وَهُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمُ الحَقُّ،خَلَقَ المَخْلُوقَاتِ كُلَّها،وَجَعَلَهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،وَهُوَ الحَاكِمُ العَادِلُ الذي لاَ يَجُوزُ فِي حُكْمِهِ.وَأَفْعَالُهُ تَعَالى،تَجْرِي عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ وَالعَدْلِ فِي مُلْكِهِ.أَمَّا الأَصْنَامُ وَالأَوْثَانُ فَهِيَ حِجَارَةٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً.[٣٠٥٥]

[٣٠٥٤] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٤٩٧)

[٣٠٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٥٣٠،بترقيم الشاملة آليا)

فبين أن من أسباب توكله علمه بأنه ما من دابة إلا والله آخذ بناصيتها وتحت سلطانه وقهره،فلا يخشى من قومه الذين كفروا به شيئا طالما كانوا تحت قهر ربه سبحانه وتعالى وقدرته،إلا ما شاء الله سبحانه.وكذلك صفة الرحمة،العلم بها باعث على التوكل،كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام:{ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف:٦٤]

هو عزاء له،يعزّى به نفسه فى حزنه على يوسف،وذلك بتسليم الأمر لله سبحانه،والاستسلام لقدره،والرضا بمقدوره.وأنه سبحانه لو أراد حفظ يوسف لحفظه،فهو خير الحافظين،لا يقع شىء فى هذا الوجود إلا بأمره..«وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ..فما يتزل بالناس من مكروه،هو واقع بهم من ربّ رحيم،فهو رحمة بالنسبة لما هو أقسى منه وأوجع![٣٠٥٦]

وكذلك صفة الحكمة،فتعلم أن لله حكمة بالغة فيما قضى لك به وإن بدا لك غير ذلك،فثمرة التوكل الرضا بالقضاء،ولذلك ورد في قول هود عليه السلام بعدما أعلن توكله وبَيَّن أنه مبني على علمه بقدرة الله تعالى:{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود:٥٦]

أي حَكَمٌ عدل ما قضى به فهو الحق،سواء كان هذا القضاء هو تمكين الكافرين من إيذاء هود أو ظهوره عليهم وانتقام الرب جل وعلا منهم،وهذا يشبه قول يعقوب عليه السلام لبنيه:{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [يوسف:٦٧]

أَمَرَ يَعْقُوبُ بَنِيه بِأَنْ لاَ يَدْخُلُوا،حِينَما يَصِلُونَ إِلَى مِصْرَ،مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ لِكَيْلاَ يُلْفِتُوا الأَنْظَارَ إِلَيْهِمْ،وَأَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ،لأَنَّهُ خَشِيَ عَلَيهِمْ العَيْنَ إِنْ دَخَلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ،وَقَالَ لَهُمْ:إِنَّ ذلِكَ مِنْ بَابِ الاحْتِرَازِ،لأَنَّ قَدَرَ اللهِ نَافِذٌ،وَقَضَاءَهُ لاَ يَرُدُّهُ شَيءٌ بِغَيرِ

[٣٠٥٦] – التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٥)

إِرَادَته وَمشيئَته،وَعَلَى الْمُؤْمنِ أَنْ يُعدَّ العُدَّةَ للأَمْرِ الذي يَبْغيه،وَيَبْذُلَ جُهْدَهُ،وَيَكلَ أَمْرَ النَّجَاحِ إِلَى اللهِ،وَيَطْلُبَ منْهُ المَعُونَةَ وَالتَّوْفيقَ.[٣٠٥٧]

فلله حكمة بالغة فيما يقضي به،وإن خفي وجه الحكمة على العبد،وهو سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن إلا بالخير.وذلك حتى لا يقول قائل:توكلت على الله ثم قضى بغير ما أحب،فهذا لا يؤمن بصفة الحكمة لله جل وعلا ويتعبد ببعض صفاته سبحانه دون البعض،وعنده من نقص الإيمان بحسبه.

مما سبق تعلم أن التوكل كعمل من أعمال القلب هو ثمرة الفقه في أسماء الرب جل وعلا وصفاته،وتعلم كذلك أنه شرط في الإيمان،وهذا يستفاد أيضا من قوله تعالى:{ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:٢٣]

لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ إِطَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِمْ،وَمُتَابَعَةِ مُوسَى،حَرَّضَهُمْ رَجُلاَنِ،لله عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ،وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ اللهُ وَيَخْشَى عِقَابَهُ،فَقَالاَ لِقَوْمِهِمَا:إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ،وَتَبِعْتُمْ أَمْرَهُ،وَوَافَقْتُمْ رَسُولَهُ،نَصَرَكُمْ رَبُّكُمْ عَلى أَعْدَائِكُمْ،وَأَيَّدَكُمْ وَأَظْفَرَكُمْ بِهِمْ،وَدَخَلْتُمُ البَلَدَ الذي كَتَبَ اللهُ لَكُمُ السُّكْنَى فِيها،فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ هذا القَوْلُ شَيئاً.[٣٠٥٨]

قال ابن القيم في معنى هذه الآية:[فجعل التوكل شرطاً فى الإيمان،فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل،وفى الآية الأُخرى:{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس:٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل،وقال تعالى:{وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٢٢،١٦٠] [المائدة:١١] [التوبة:٥١] [إبراهيم:١١] [المجادلة:١٠] [التغابن:١٣]،فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاءِ الإيمان للتوكل،وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه،وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى،وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل،وإذا كان التوكل ضعيفاً،فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد،والله تعالى يجمع

[٣٠٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٦٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٥٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان،وبين التوكل والإسلام،وبين التوكل والتقوى،وبين التوكل والهداية][3059].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[فَالْقَلْبُ لَا يَتَوَكَّلُ إلَّا عَلَى مَنْ يَرْجُوهُ،فَمَنْ رَجَا قُوَّتَهُ أَوْ عَمَلَهُ أَوْ عِلْمَهُ أَوْ أَوْ صَدِيقَهُ أَوْ قَرَابَتَهُ أَوْ شَيْخَهُ أَوْ مِلْكَهُ أَوْ مَالَهُ غَيْرَ نَاظِرٍ إلَى اللَّهِ كَانَ فِيهِ نَوْعُ تَوَكُّلٍ عَلَى ذَلِكَ السَّبَبِ،وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ:{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج:31] .][3060].

قلت:الشرك في الأسباب في التوكل هو أن تعتمد على المخلوق أو على من لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده،كمن يتوكل على الأموات والطواغيت في رجاء مطلوبه من نصر أو رزق،وكمن يأخذ بالأسباب ويعتقد أنها الفاعلة،كمن يتعاطى الدواء ويعتقد أنه الشافي،وكمن يُعدُّ العدة من الرجال والسلاح ويعتقد أنها سبب النصر وحدها.

وهذا يجعلنا نتكلم عن علاقة التوكل بالأخذ بالأسباب،قال ابن رجب:[وَاعْلَمْ أَنَّ تَحْقِيقَ التَّوَكُّلِ لَا يُنَافِي السَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَقْدُورَاتِ بِهَا،وَجَرَتْ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ بِذَلِكَ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِتَعَاطِي الْأَسْبَابِ مَعَ أَمْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ،فَالسَّعْيُ فِي الْأَسْبَابِ بِالْجَوَارِحِ طَاعَةٌ لَهُ،وَالتَّوَكُّلُ بِالْقَلْبِ عَلَيْهِ إِيمَانٌ بِهِ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} [النساء:71] [النِّسَاءِ:71]،وَقَالَ تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال:60] [الْأَنْفَالِ:60]،وَقَالَ:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الجمعة:10] [الْجُمُعَةِ:10] .وَقَالَ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ:مَنْ طَعَنَ فِي الْحَرَكَةِ - يَعْنِي فِي السَّعْيِ وَالْكَسْبِ - فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ،وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ،فَقَدْ طَعَنَ فِي الْإِيمَانِ،فَالتَّوَكُّلُ حَالُ النَّبِيِّ - ﷺ -،وَالْكَسْبُ سُنَّتُهُ،فَمَنْ عَمِلَ عَلَى حَالِهِ،فَلَا يَتْرُكَنَّ سُنَّتَهُ.][3061].

3059 - طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:255)

3060 - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 232)

3061 - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (2/ 498)

قلت:ففي جهاد الأعداء أمر الله تعالى بإعداد العدة:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠] وأمر سبحانه بأخذ الحذر:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } [النساء:٧١]

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ الأَعْدَاءِ،وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّعَرُّفَ عَلَى أَحْوَالِ هَؤُلاءِ الأَعْدَاءِ،وَمَعْرِفَةِ أَرْضِهِمْ،وَعَدَدِهِمْ،وَسِلاَحِهِمْ،وَأَحْلاَفِهِمْ،وَثَرْوَتِهِمْ،كَمَا يَسْتَلْزِمُ التَّأهُّبَ لَهُمْ،وَإِعْدَادَ الرِّجَالِ لِلْحَرْبِ وَتَدْرِيبَهُمْ وَتَسْلِيحَهُمُ،وَجَمْعَ السِّلاَحِ وَالمُؤَنِ وَوَسَائِلِ النَّقْلِ وَالرُّكُوبِ،وَالاسْتِعْدَادَ لِلنَّفِيرِ لِلْقِتَالِ،حِينَمَا يَدْعُو دَاعِيَ الجِهَادِ،وَالخُرُوجَ جَمَاعَاتٍ مُتَلاَحِقَةً (ثُبَاتٍ)،أَوْ خُرُوجَ المُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ جَمِيعاً،حَسْبَ حَالِ العَدُوِّ،وَخَطَرِهِ وَقُوَّتِهِ،وَالخَطَرِ الذي يَتَهَدَّدُ الأمَّةَ.[٣٠٦٢]

ولبس النبي ﷺ الدرع والمغفر وحفر الخندق وبعث الطلائع والعيون،مع قوله تعالى:{ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:١٠]،ولذلك لما ظن الصحابة ترتب النصر على الأسباب هُزموا،قال تعالى {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) } [التوبة:٢٥،٢٦]

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهِ عَلَيهِمْ،وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ،فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ (مَوَاطِنَ) مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ،وَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَبِتَأيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ،لاَ بِعَدَدِ المُسْلِمِينَ،وَلاَ بِعُدَدِهِمْ،وَلاَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ،وَلا بِقُوَّتِهِمْ،وَلاَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ،وَنَبَّهَهُمْ تَعَالَى إلى النَّصْرَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،قَلَّ الجَمْعُ أَوْ كَثُرَ.

[٣٠٦٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٤،بترقيم الشاملة آليا)

وَفي يَوْمِ حُنَينٍ أعْجَبَت المُسْلمين كَثْرَتُهُمْ فَلَمْ تُفِدْهُمْ شَيْئاً،فَوَلَّوا مُدْبِرِينَ حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِم الأَرْضَ عَلَى سَعَتِها مِنْ شِدَّةِ فَزَعِهِمْ،فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى النَّجَاةِ سَبِيلاً،وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهُمْ إلاَّ عَدَدٌ قَليلٌ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ،وَكَانَ ذَلِكَ ابْتِلاءً مِنَ اللهِ لَهُمْ عَلَى عُجْبِهِم بِكَثْرَتِهِمْ.(ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ،وَعَلَى المُؤْمِنِينَ،لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَحْدَهُ،وَإِنْ قَلَّ الجَمْعُ) .

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الطُمَأْنِينَةَ عَلَى رَسُولِهِ،وَعَلَى المُؤْمِنِينَ الذِينَ ثَبَتوا مَعَهُ،فَأَذْهَبَ رَوْعَهُمْ،وَأَزَالَ حَيْرَتَهُمْ،وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ شَجَاعَتَهُمْ،وَلَزِمَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَانَهُ،وَمَعَهُ القِلَّةُ التِي ثَبَتَتْ مِنَ المُؤْمِنِينَ،وَاسْتَنْصَرَ الرَّسُولُ رَبَّهُ،فَأَنْزَلَ اللهُ جُنُوداً مِنَ المَلائِكَةِ لَمْ يَرَها المُسْلِمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ،بَلْ وَجَدُوا أَثَرَها فِي قُلُوبِهِمْ،بِمَا عَادَ إِلَيْهَا مِنْ رَبَاطَةِ جَأْشٍ،وَشِدَّةِ بَأْسٍ.وَأَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ قَذَفَهَا فِي وَجْهِ القَوْمِ،فَلَمْ يَبْقَ مُقَاتِلٌ مِنْ هَوَازِنْ إلاَّ وَدَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ أَوْ فَمِهِ حَبَّةٌ مِنْ تُرَابٍ أَشْغَلَتْهُ عَنِ القِتَالِ،وَتَرَاجَعَ الذِينَ هَرَبُوا مِنَ المُسْلِمِينَ،إِلَى حَيْثُ كَانَ يَقِفُ رَسُولُ اللهِ وَصَحْبُهُ الثَّابِتُونَ،وَحَمَلُوا عَلَى هَوَازِنَ فَنَصَرَهُمُ اللهُ،وَعَذَّبَ الذِينَ كَفَرُوا،وَقَاتَلُوا رَسُولَ اللهِ،فَأَخْزَاهُمُ اللهُ وَأَذَلَّهُمْ بِالقَتْلِ وَالسَّبْيِ،وَهَذَا هُوَ مَصِيرُ القَوْمِ الكَافِرِينَ،وَجَزاؤُهُمْ.[٣٠٦٣]

فردهم سبحانه إلى الأمر الأول وهو {وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}.

فالأخذ بالأسباب من سنن الأنبياء،والأخذ بالأسباب واجب،حيث تجب،مع ترك الاعتماد عليها،بل الاعتماد على الله وحده لا شريك له في حصول المقصود بعد الأخذ بالأسباب.

وهناك أحوال لا تصلح فيها الأسباب ولا يمكن الأخذ بها،وإذا نزلت بالمرء فليس له إلا عمل القلب وحده بصدق التوكل عليه،كالاستعادة بالله من الشيطان فإنه عدو خفي لا يمكن الاحتراز منه،قال تعالى:{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) } [النحل]

[٣٠٦٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦١،بترقيم الشاملة آليا)

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ،عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ بِأَنْ يَسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ،إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ القُرْآنِ.وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى:أَنَّ الشَّيْطَانَ لاَ سُلْطَةَ لَهُ وَلاَ سُلْطَانَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ،وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ ذَنْبٍ لاَ يَتُوبُونَ مِنْهُ.[٣٠٦٤]

وكذلك إذا أحاط بك العدو الإنسي ولم تكن لك حيلة،روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ،«قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ،وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا،وَقَالُوا:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣][٣٠٦٥].

وقال تعالى:{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق:٣]،أي فهو كافيه.قال ابن القيم رحمه الله:[التَّوَكُّل تَارَة يكون توكل اضطرار وإلجاء بِحَيْثُ لَا يجد العَبْد ملْجأ وَلَا وزرا إِلَّا التَّوَكُّل كَمَا إِذا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَسْبَاب وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفسه وَظن أَن لَا ملْجأ من الله إِلَّا إِلَيْه وَهَذَا لَا يتَخَلَّف عَنهُ الْفرج والتيسير الْبَتَّةَ وَتارَة يكون توكل اخْتِيَار وَذَلِكَ التَّوَكُّل مَعَ وجود السَّبَب المفضي إِلَى الْمُرَاد فَإِن كَانَ السَّبَب مَأْمُورا بِهِ ذمّ على تَركه وَإِن قَامَ السَّبَب وَترك التَّوَكُّل ذمّ على تَركه أَيْضا فَإِنَّهُ وَاجِب بِاتِّفَاق الْأمة وَنَصّ الْقُرْآن وَالْوَاجِب الْقيام بهما وَالْجمع بَينهمَا وَإِن كَانَ السَّبَب محرما حرم عَلَيْهِ مُبَاشَرَته وتوحد السَّبَب فِي حَقه فِي التَّوَكُّل فَلم يبْق سَبَب سواهُ فَإِن التَّوَكُّل من أقوى الْأَسْبَاب فِي حُصُول الْمُرَاد وَدفع الْمَكْرُوه بل هُوَ أقوى الْأَسْبَاب على الْإِطْلَاق وَإِن كَانَ السَّبَب مُبَاحا نظرت هَل يضعف قيامك بِهِ التَّوَكُّل أَو لَا يُضعفهُ فَإِن أضعفه وَفرق عَلَيْك قَلْبك وشتت همك فَتَركه أولى وَإِن لم يُضعفهُ فمباشرته أولى لِأَن حِكْمَة أحكم الْحَاكِمين اقْتَضَت ربط الْمُسَبّب بِهِ فَلَا تعطل حكمته مهما أمكنك الْقيام بهَا وَلَاسِيمَا إِذا فعلته عبودية فَتكون قد أتيت بعبودية الْقلب بالتوكل

[٣٠٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٩٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٦٥] - صحيح البخاري (٦/ ٣٩)(٤٥٦٣)

[ش (الناس) أبو سفيان وأصحابه من قريش قبل إسلامه.(جمعوا لكم) حشدوا الرجال من كل جهة لقتالكم.(حسبنا) كافينا.(الوكيل) الحافظ الذي يوكل إليه الأمر ويعتمد عليه فيه./ آل عمران ١٧٣ /]

وعبودية الْجَوَارِح بِالسَّبَبِ الْمَنوِي بِهِ الْقرْبَة وَالَّذِي يُحَقّق لتوكل الْقيام بالأسباب الْمَأْمُور بهَا فَمن عطلها لم يَصح توكله كَمَا أَن الْقيام بالأسباب المفضية إِلَى حُصُول الْخَيْر يُحَقّق رَجَاءَهُ فَمن لم يقم بهَا كَانَ رجاؤه تمنيّا كَمَا أَن من عطّلها يكون توكله عَجزا وعجزه توكلا،وسر التَّوَكُّل وَحَقِيقَته هُوَ اعْتِمَاد الْقلب على الله وَحده فَلَا يضرّهُ مُبَاشرَة الْأَسْبَاب مَعَ خلو الْقلب من الاعْتِمَاد عَلَيْهَا والركون إِلَيْهَا كَمَا لَا يَنْفَعهُ قَوْله توكلت على الله مَعَ اعْتِمَاده على غَيره وركونه إِلَيْهِ وثقته بِهِ فتوكل اللِّسَان شَيْء وتوكل الْقلب شَيْء كَمَا أَن تَوْبَة اللِّسَان مَعَ إِصْرَار الْقلب شَيْء وتوبة الْقلب وَإِن لم ينْطق اللِّسَان شَيْء فَقَوْل العَبْد توكلت على الله مَعَ اعْتِمَاد قلبه على غَيره مثل قَوْله تبت إِلَى الله وَهُوَ مصر على مَعْصِيَته مرتكب لَهَا"][٣٠٦٦].

قلت:وفي مقام الجهاد فإن التوكل وهو اعتماد القلب على الله وحده مبني على سعة علم الله تعالى وإحاطته بالكافرين:{ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩]،وقدرته سبحانه عليهم وإن بلغوا من القوة والكثرة ما بلغوا:{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} [الأنفال:٥٩]

وَلاَ يَحْسَبُ الذينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ فَاتُونَا وَسَبَقُونَا،وَنَجَوا مِنْ عَاقِبَةِ خِيَانَتِهِمْ وَغَدْرِهِمْ،فَلاَ نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ،فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِنَا وَقُدْرَتِنَا،وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا،فَلا يُعْجِزُونَنَا عَنْ إِدْرَاكِهِمْ،وَسَنَجْزِيهِمُ الجَزَاءَ الأَوْفَى.[٣٠٦٧]

وفيه تطمين لقلوب المسلمين،ودفع لوساوس الخوف،التي تطرقهم وهم يعطون من أنفسهم الوفاء لعدوهم بالعهد الذي بينهم وبينه،على حين أنه يغدر بهم،ويباغتهم بهذا الغدر،فكيف يحاربهم العدو بسلاح ثم يحرم عليهم محاربته بهذا السلاح؟ فليطمئن المسلمون،وليعلموا أن هؤلاء الذين خانوا العهد، لم يسبقوا بتلك الخيانة إلى أخذ فرصة فى المسلمين،لأنهم- وقد فعلوا ما فعلوا من خيانة- قد تعرضوا لبغض الله وغضبه.«إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» وحسبهم هذا خسرانا وبلاء![٣٠٦٨]

[٣٠٦٦] - الفوائد لابن القيم (ص:٨٦)

[٣٠٦٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٦٨] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٤٧)

أي:لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته،أهم سبقوا الله وفاتوه،فإهم لا يعجزونه،والله لهم بالمرصاد.وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة،التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم،وتزودهم من طاعته ومراضيه،ما يصلون به المنازل العالية،واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها"[٣٠٦٩]

فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق،لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم،ولن يفلت الخائنين لخيانتهم.والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم،وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم.فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة – متى أخلصوا النية فيها لله – من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة.فإنما هم منصورون بالله الذي يحققون سنته في الأرض،ويعلون كلمته في الناس،وينطلقون باسمه.يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك.ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التي تدخل في طوق العصبة المسلمة فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التي تطمئن عليها أقدامها وهيأ لها الأسباب العملية التي تعرفها فطرها وتؤيدها تجارها وإلا إذا أعدها هي للحركة الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية"[٣٠٧٠]

ومع أن الأخذ بالأسباب واجب شرعا في هذا المقام:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ } [الأنفال:٦٠]،إلا أها لا تغني بذاها شيئا،فقد قال تعالى:{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران:١٢٦]،وَلَيْسَ النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يَنْصُرَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ اشْتِرَاكِهِمْ فِي القِتَالِ.[٣٠٧١]

---

٨ = الدعاء:

[٣٠٦٩] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٤)

[٣٠٧٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٨٦)

[٣٠٧١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٩،بترقيم الشاملة آليا)

الدعاء مخ العبادة،قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر:٦٠]

يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى دُعَائِهِ،وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالإِجَابَةِ عَلَى دُعَائِهِمْ؛ وَدُعَاءُ العَبْدِ رَبَّهُ دَلِيلٌ عَلَى إِيْمَانِهِ بِرَبِّهِ،وَخَوْفِهِ مِنْهُ،وَطَمَعِهِ فِي ثَوَابِهِ وَكَرَمِهِ،وَرَحْمَتِهِ،وَمَنْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْتَمُّ بِإِجَابَةِ دُعَائِهِ لأَنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ،وَأَنَّهُ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ،وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الخَلاَئِقِ،وَتَصْرِيفِ شُؤُونِهِمْ،وَإِحْصَاءِ أَعْمَالِهِمْ،وَإِعَادَةِ بَعْثِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَيْهَا،وَيَجْزِيَهُمْ بِهَا.وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:إِنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ فَإِنَّهُ سَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهُمْ أَذِلاَءُ صَاغِرُونَ.[٣٠٧٢]

وبالدعاء يبرأ المرء من حوله وقوته إلى حول الله تعالى وقوته فهو يعبر عن حقيقة التوكل.

وقد سنَّ رسول الله ﷺ أدعية في مقام الجهاد وقتال الأعداء مفصلة في كتب الأذكار،يجب على الأخ المجاهد أن يحفظها ويحرص عليها[٣٠٧٣].

ودعاء المؤمن مقبول إن شاء الله تعالى إذا كان رزقه حلالا و لم يدع بإثم أو قطيعة رحم وما لم يستعجل،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا،إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة:١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ،يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ،يَا رَبِّ،يَا رَبِّ،وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ،وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ،وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ،فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ "[٣٠٧٤]

[٣٠٧٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٠٧٣] - يمكن مراجعتها في الفصل الخاص بها كتاب الأذكار للنووي رحمه الله ص ١٨٥ ـــ ١٩٣

[٣٠٧٤] - صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣)٦٥ - (١٠١٥)

[ش (إن الله طيب) قال القاضي الطيب في صفة الله تعالى بمعنى المنزه عن النقائص وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث (ثم ذكر الرجل) هذه الجملة من كلام الراوي والضمير فيه للنبي ﷺ والرجل بالرفع مبتدأ مذكور على وجه الحكاية من لفظ رسول الله ﷺ ويجوز أن ينصب على أنه مفعول ذكر (وغذي) بضم الغين وتخفيف الذال]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ،مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ،مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قِيلَ:يَا رَسُولَ الله مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ:يَقُولُ:«قَدْ دَعَــوْتُ وَقَــدْ دَعَوْتُ،فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي،فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[3075].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَنَّهُ،قَالَ:«لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ* مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ،أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ،مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» ، قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا الاسْتِعْجَالُ؟،قَالَ:«يَقُولُ:يَا رَبِّ قَدْ دَعَوْتُ،وَقَدْ دَعَوْتُ،فَمَا أَرَاكَ تَسْتَجِيبُ لِي،فَيَدَعُ الدُّعَاءَ».[3076]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ إِلَّا أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهَا أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَعْجَلْ» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا اسْتِعْجَالُهُ؟ قَالَ:" يَقُولُ:قَدْ دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي "فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:إِذًا نُكْثِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَكْثَرُ»[3077]

والدعاء المقبول إما أن يستجاب لصاحبه عاجلا أو آجلا،وإما أن يدفع عنه من البلاء،وإما أن يدخر لصاحبه في الآخرة،كما وردت السنة بذلك.قَالَ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ نَبِيُّ الله ﷺ:مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمَ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ:إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ،وَإِمَّا يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ،وَإِمَّا أَنْ يَكْشِفَ عَنهُ من السُّوءِ بِمِثْلِهَا،قَالُوا:إِذًا نُكْثِرُ يَا نبي الله،قَالَ:اللَّهُ أَكْثَرُ.[3078]

قلت:وما سبق فيما يلزم العبد في حق الله تعالى ليس هو على سبيل الحصر،بل هو بعض ما أردت التنبيه عليه في مقام الجهاد.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[3075] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٦)٩٢ - (٢٧٣٥)

[ش (فيستحسر) قال أهل اللغة يقال حسر واستحسر إذا أعيا وانقطع عن الشيء والمراد هنا أنه ينقطع عن الدعاء ومنه قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون أي لا ينقطعون عنها]

[3076] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ٢٥٧)(٩٧٦) صحيح

[3077] - الدعاء للطبراني (ص:٤٥)(٨٦) حسن

[3078] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٩٠)(٢٩٧٨٠) صحيح

المبحث الثاني

ما يلزم الأعضاء في حق الأمير عليهم

يلزمهم:

الأول:السمع والطاعة للأمير في غير معصية

الثاني:النصح للأمير

الثالث:توقير الأمير.

الأول:السمع والطاعة للأمير في غير معصية

وفيه:

١ = تمهيد

٢ = أدلة وجوب السمع والطاعة.

٣ = ما يُستَخلص من أدلة وجوب السمع والطاعة.

٤ = مما يدخل في طاعة الأمير.

٥ = ما يُقَيِّد السمع والطاعة للأمير.

٦ = خاتمة ونصيحة.

أولاً - وجوب طاعة الأمير

١ = تمهيد

السمع والطاعة لولاة الأمور عبادة،إذ إن طاعتهم من طاعة الله تعالى،والسمع والطاعة من أهم أسباب اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم،ففي طاعتهم حسم لاختلاف الآراء التي تؤدي إلى التنازع والشقاق وذهاب الشوكة.

ومن أجل هذا أيضا ورد الأمر الشرعي بنصب إمام واحد للمسلمين حسما لاختلاف المسلمين وتنازعهم وتفرقهم.

إن أي أمر من الأمور لا يقوم إلا برأس واحد،سواء في هذا الإمامة الكبرى أو ما دونها من الأعمال،قال تعالى:{ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ

عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء:٢٢]،وقد استدل الإمام الماوردي وغيره بهذه الآية على عدم نصب إمامين للمسلمين لما يترتب على هذا من الفساد.قال:"وَيَجُوزُ لِلْخَلِيفَةِ أَنْ يُقَلِّدَ وَزِيرَيْ تَنْفِيذٍ عَلَى اجْتِمَاعٍ وَانْفِرَادٍ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَلِّدَ وَزِيرَيْ تَفْوِيضٍ عَلَى الِاجْتِمَاعِ؛ لِعُمُومِ وِلَايَتِهِمَا،كَمَا لَا يَجُوزُ تَقْلِيدُ إمَامَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا رُبَّمَا تَعَارَضَا فِي الْعَقْدِ وَالْحَلِّ وَالتَّقْلِيدِ وَالْعَزْلِ،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء:٢٢] "[٣٠٧٩].

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ "بَرَاءَةُ" عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ لِيُقِيمَ الْحَجَّ لِلنَّاسِ،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لَوْ بَعَثْتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ.فَقَالَ:"لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي".ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا فَقَالَ:"اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةَ،وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمِنًى:أنه لا يدخل الجنة كافر،ولا يحج بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ،وَلَا يَطُف بِالْبَيْت عُرْيَانٌ،وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّته".فَخَرَجَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَضْبَاءِ،حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الطَّرِيقِ فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ:أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ قَالَ بَلْ مَأْمُورٌ،ثُمَّ مَضَيَا ..."[٣٠٨٠].

قلت:فقول أبي بكر ((أمير أو مأمور) يدلُّ على ما استقر عندهم من أن الأمر لا يقوم إلا برجل واحد.

٢ = أدلة وجوب السمع والطاعة.

ورد الأمر بطاعة ولاة الأمور في نصوص عديدة بَيَّنَتْ أن هذه الطاعة إنما تجب لمن قام بكتاب الله تعالى،وبَيَّنَتْ حدود هذه الطاعة،ومن هذه النصوص:

أ = قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء:٥٩]

[٣٠٧٩] - الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٦٠)

[٣٠٨٠] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٠٧) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٥/ ٢٩٥) صحيح مرسل

فِي هَذِهِ الآيَةِ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِإطَاعَتِهِ تَعَالَى،وَبالعَمَلِ بِكِتَابِهِ،وَبِإطَاعَةِ رَسُولِهِ،لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْنَّاسِ مَا نَزَلَ إلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ،وَيُبَلِّغُ عَنِ اللهِ شَرْعُ وَأَوَامِرَهُ،كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإِطَاعَةِ أُوْلِي الأمْرِ،مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءٍ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ،مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إلَيْهِمْ فِي الحَاجَاتِ،وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ،فَهَؤُلاءِ إذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أنْ يُطَاعُوا فِيهِ،بِشَرْطِ أنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ،وَأنْ لاَ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ،وَلاَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ التِي عُرِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ،وَأنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثِهِمْ فِي الأَمْرِ،وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُكْرَهِينَ عَلَيهِ بِقُوَّةِ أَحَدٍ أَوْ نُفُوذِهِ.

وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ المُسْلِمُونَ فَمِنَ الوَاجِبِ رَدُّهُ إلى كِتَابِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ،وَيَحْتَكِمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ،فَلَيْسَ مُؤْمِناً بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

وَمَنْ يَحْتَكِم إلى شَرْعِ اللهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلاً (تَأْوِيلاً)،لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إلاَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ،وَالاحْتِكَامِ إلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْتِلافَ المُؤَدِّي إِلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَلِ.[3081]

قال ابن حجر:[قالَ الطِّيبِيُّ:أَعادَ الفعل فِي قَوله:"وأَطِيعُوا الرَّسُول"إشارَة إِلَى استقلال الرَّسُول بِالطّاعَة ؛ ولَم يُعِدهُ فِي أُولِي الأَمر إشارَة إِلَى أَنَّهُ يُوجَد فِيهِم مَن لا تَجِب طاعَته .ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَولِهِ:"فَإِن تَنازَعتُم فِي شَيء"كَأَنَّهُ قِيلَ فَإِن لَم يَعمَلُوا بِالحَقِّ فَلا تُطِيعُوهُم ورُدُّوا ما تَخالَفتُم فِيهِ إِلَى حُكم الله ورَسُوله .][3082].

ب = عَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي،وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[3083]

[3081] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[3082] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١١٢)

[3083] - صحيح البخاري (٩/ ٦١)(٧١٣٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٦)٣٢ - (١٨٣٥)

[ش (من أطاعني فقد أطاع الله) وقال في المعصية مثله لأن الله تعالى أمر بطاعة رسول الله ﷺ وأمر هو ﷺ بطاعة الأمير فتلازمت الطاعة وقد ذكر الخطابي سبب اهتمام النبي ﷺ بشأن الأمراء حتى قرن طاعتهم إلى طاعته فقال كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم فلما كان الإسلام وولى عليهم الأمراء أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم عن الطاعة فأعلمهم ﷺ أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم بمعصيته حثا لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة (أميري) هو كل من يتولى على المسلمين ويعمل فيهم بما شرعه رسول الله ﷺ]

قال ابن حجر:[قَوله:"ومَن أَطاعَ أَميري فَقَد أَطاعَني" ؛ فِي رِوايَة هَمّام والأَعرَج وغَيرهما عِندَ مُسلِم''ومَن أَطاعَ الأَمير''ويُمكِن رَدّ اللَّفظَين لِمَعنًى واحِد،فَإِنَّ كُلّ مَن يَأمُر بِحَقٍّ وكانَ عادِلاً فَهُو أَمير الشّارِع لأَنَّهُ تَولَّى بِأَمرِهِ وبِشَرِيعَته،ويُؤَيِّدهُ تَوحِيد الجَواب فِي الأَمرَينِ وهُو قَولُه:"فَقَد أَطاعَنِي" أَي عَمِلَ بِما شَرَعته،وكَأَنَّ الحِكمَة فِي تَخصِيص أَميره بِالذِّكرِ أَنَّهُ المُراد وقت الخِطاب،ولأَنَّهُ سَبَب وُرُود الحَديث.

وأَمّا الحُكم فالعِبرَة بِعُمُومِ اللَّفظ لا بِخُصُوصِ السَّبَب.ووقَعَ فِي رِوايَة هَمّام أَيضًا''ومَن يُطِع الأَمِير فَقَد أَطاعَنِي''بِصِيغَةِ المُضارَعَة،وكَذا''ومَن يَعصِ الأَمِير فَقَد عَصانِي''وهُو أَدخَل فِي إِرادَة تَعمِيم مَن خُوطِبَ ومَن جاءَ مِن بَعد ذَلِكَ.قالَ ابن التِّين:قِيلَ كانَت قُرَيش ومَن يَلِيها مِنَ العَرَب لا يَعرِفُونَ الإِمارَة فَكانُوا يَمتَنِعُونَ عَلَى الأُمَراء،فَقالَ هَذا القَول يُحِثُّهُم عَلَى طاعَة مَن يُؤَمِّرهُم عَلَيهِم والانقِياد لَهُم إِذا بَعَثَهُم فِي السَّرايا وإِذا ولاَّهُم البِلاد فَلا يَخرُجُوا عَلَيهِم لِئَلاَّ تَفتَرِق الكَلِمَة.

قُلت:هِيَ عِبارَة الشّافِعِيّ فِي "الأُمّ''ذَكَرَهُ فِي سَبَب نُزُولها،وعَجِبت لِبَعضِ شُيُوخنا الشُّرّاح مِنَ الشّافِعِيَّة كَيف قَنَعَ بِنِسبَةِ هَذا الكَلام إِلَى ابن التِّين مُعَبِّرًا عَنهُ بِصِيغَة''قِيلَ''وابن التِّين إِنَّما أَخَذَهُ مِن كَلام الخَطّابِيِّ،ووقَعَ عِند أَحمَد وأَبِي يَعلَى والطَّبَرانِيِّ مِن حَدِيث ابن عُمَر" قالَ كانَ رَسُول الله ﷺ فِي نَفَر مِن أَصحابه فَقالَ:أَلَستُم تَعلَمُونَ أَنَّ مَن أَطاعَنِي فَقَد أَطاعَ الله وإِنَّ مِن طاعَة الله طاعَتِي قالُوا:بَلَى نَشهَد،قالَ فَإِنَّ مِن طاعَتِي أَن تُطِيعُوا أُمَراءَكُم''وفِي لَفظ''أَئِمَّتَكُم.

وفِي الحَدِيث وُجُوب طاعَة وُلاة الأُمُور وهِيَ مُقَيَّدَة بِغَيرِ الأَمر بِالمَعصِيَة كَما تَقَدَّمَ فِي أَوائِل الفِتَن،والحِكمَة فِي الأَمر بِطاعَتِهِم المُحافَظَة عَلَى اتِّفاق الكَلِمَة لِما فِي الافتِراق مِنَ الفَساد.][3084].

قلت:فطاعة الأمير من أهم أسباب وحدة الجماعة.

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:وجوب طاعة ولي الأمر ولو فاسقاً لأن فسقه يعود عليه،ما لم يأمر بمعصية فلا طاعة له.ثانياً:وجوب القتال من ورائه.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١١٢)

[3084] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١١٢)

ج = عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ،كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[3085].

وفي الحديث أن السمع والطاعة واجبان للأمير وإن كان حقير الحسب والنسب وإن كان قبيح المنظر مادام يعمل في الناس بشرع الله،لما ورد مقيداً فعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَدَّتِي،تُحَدِّثُ،أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ،وَهُوَ يَقُولُ:«وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[3086].

د = عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[3087].

وهذا يقيد ما ورد في الأمر بالطاعة وأنها في غير معصية الله،وأقول المعصية ما دلَّ عليها حكم شرعي صريح،أما إن كان فعل الأمير أو قوله يحتمل عدة أوجه فلا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد التبيُّن.

[3085] - صحيح البخاري (٩/ ٦٢)(٧١٤٢)

[3086] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨)٣٧ - (١٨٣٨)

نَقَلَ ابن بَطّال عَن المُهَلَّب قالَ:قَولُه:"اسْمَعُوا وأَطِيعُوا" لا يُوجب أَن يَكُون المُستَعمَل لِلعَبدِ إلاَّ إمام قُرَشِيّ،لِما تَقَدَّمَ أَنَّ الإِمامَة لا تَكُون إلاَّ فِي قُرَيش،وأَجمَعَت الأُمَّة عَلَى أَنَّها لا تَكُون فِي العَبِيد.

قُلت:ويَحتَمِل أَن يُسَمَّى عَبدًا باعتِبارِ ما كانَ قَبلَ العتق،وهَذا كُلّه إِنَّما هُو فِيما يَكُون بِطَرِيقِ الاختِيار،وأَمّا لَو تَغَلَّبَ عَبد حَقِيقَة بِطَرِيقِ الشَّوكَة فَإِنَّ طاعَته تَجِب إخمادًا لِلفِتنَةِ ما لَم يَأمُر بِمَعصِيَة كَما تَقَدَّمَ تَقرِيره،وقِيلَ المُراد أَنَّ الإِمام الأَعظَم إِذا استَعمَلَ العَبد الحَبَشِيّ عَلَى إِمارَة بَلَد مَثَلاً وجَبَت طاعَته،ولَيسَ فِيهِ أَنَّ العَبد الحَبَشِيّ يَكُون هُو الإِمام الأَعظَم.وقالَ الخَطّابِيُّ:قَد يُضرَب المَثَل بِما لا يَقَع فِي الوُجُود،يَعنِي وهَذا مِن ذاكَ أَطلَقَ العَبد الحَبَشِيّ مُبالَغَة فِي الأَمر بِالطّاعَةِ وإِن كانَ لا يُتَصَوَّر شَرعًا أَن يَلِيَ ذَلِكَ.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٢٢)

[3087] - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٤)

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى وُجُوبِ طَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ مِنَ الأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ،وَقَدْ نَقَل النَّوَوِيُّ عَنِ الْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِ هَذَا الإِجْمَاعَ،قَال تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } وَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِأُولِي الأَمْرِ فِي الآيَةِ:الأُمَرَاءُ وَأَهْل السُّلْطَةِ وَالْحُكْمِ،وَهُنَاكَ قَوْلٌ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِأُولِي الأَمْرِ فِي الآيَةِ هُمُ الْعُلَمَاءُ،قَال الطَّبَرِيُّ:وَأَوْلَى الأَقْوَال فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْل مَنْ قَال:هُمُ الأُمَرَاءُ وَالْوُلاَةُ،لِصِحَّةِ الأَخْبَارِ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ بِالأَمْرِ بِطَاعَةِ الأَئِمَّةِ وَالْوُلاَةِ فِيمَا كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَصْلَحَةً "الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٨/ ٣٢٣)

وأقول أيضا يستثنى من المعاصي أمران:الأول أن يمنع الأمير رعيته بعض حقوقهم،والثاني أن يستأثر بحظ دنيوي دونهم فتجب الطاعة وإن وقع الأمير في هذا ويُنْصَح،وذلك للأحاديث:

الأول:عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ الله ﷺ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ الله،أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا،فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ سَأَلَهُ،فَأَعْرَضَ عَنْهُ،ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ،فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ،وَقَالَ:«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا،وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»[٣٠٨٨]،فالطاعة واجبة وإن منع الأمير حق الرعية.

الثاني:عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٣٠٨٩].

قال ابن حجر:" قَوله ومَكرَهنا" أَي فِي حالَة نَشاطنا وفِي الحالَة الَّتِي نَكُون فِيها عاجِزِينَ عَن العَمَل بِما نُؤمَر بِهِ .ونَقَلَ ابن التِّين عَن الدّاوُدِيِّ أَنَّ المُراد الأَشياء الَّتِي

[٣٠٨٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٤)٤٩ - (١٨٤٦)

[ش (فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم) تعليل لقوله اسمعوا وأطيعوا أي هم يجب عليهم ما كلفوا به من إقامة العدل وإعطاء حق الرعية فإن لم يفعلوا فعليهم الوزر والوبال وأما أنتم فعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة وأداء الحقوق فإن قمتم بما عليكم يكافئكم الله سبحانه وتعالى بحسن المثوبة]

[٣٠٨٩] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش(أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه.(أخذ علينا) اشترط علينا.(على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله ﷺ.(منشطنا) حالة نشاطنا.(مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا.(أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا.(الأمر) الملك والإمارة.(كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم.أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم.(بواحا) ظاهرا وباديا.(برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

يَكرَهُونَها،قالَ ابن التِّين:والظّاهِر أَنَّهُ أَرادَ فِي وقت الكَسَل والَمشَقَّة فِي الخُرُوج لِيُطابِقَ قَوله مَنشَطنا.

قُلت:ويُؤَيِّدهُ ما وقَعَ فِي رِوايَة إِسماعِيل بن عُبَيد بن رِفاعَة عَن عُبادَةَ عِندَ أَحمَد''فِي النَّشاط والكَسَل.

قَوله:"وعُسرنا ويُسرنا" ؛ فِي رِوايَة إِسماعِيلَ بن عُبَيد''وعَلَى النَّفَقَة فِي العُسر واليُسر''وزادَ''وعَلَى الأَمر بِالَمعرُوف والنَّهي عَن الُمنكَر.

قَوله:"وأَثَرَة عَلَينا" ؛ بِفَتحِ الهَمزَة والُمثَلَّثَة وقَد تَقَدَّمَ مَوضِعُ ضَبطها فِي أَوَّل الباب،والُمراد أَنَّ طَواعِيَتهم لِمَن يَتَولَّى عَلَيهِم لا تَتَوقَّف عَلَى إِيصالهم حُقُوقهم بَل عَلَيهِم الطّاعَة ولَو مَنَعَهُم حَقَّهُم.

قَولُه:"وأَن لا نُنازِع الأَمر أَهله" ؛ أَي الُملك والإِمارَة،زادَ أَحمَد مِن طَرِيق عُمَير بن هانِئ عَن جُنادَةَ''وإِن رَأَيت أَنَّ لَك،أَي وإِن اعتَقَدت أَنَّ لَك،فِي الأَمر حَقًّا فَلا تَعمَل بِذَلِكَ الظَّنّ بَل اسمَع وأَطِع إِلَى أَن يَصِل إِلَيك بِغَيرِ خُرُوج عَن الطّاعَة.

زادَ فِي رِوايَة حِبّان أَبِي النَّضر عَن جُنادَةَ عِندَ ابن حِبّانَ وأَحمَد''وإِن أَكَلُوا مالَك وضَرَبُوا ظَهرَك''وزادَ فِي رِوايَة الوَلِيد بن عُبادَةَ عَن أَبِيهِ''وأَن نَقُوم بِالحَقِّ حَيثُما كُنّا لا نَخاف فِي الله لَومَة لائِم''

قَوله:"إِلاَّ أَن تَرَوا كُفرًا بَواحًا"،بِمُوحَّدَة ومُهمَلَة" قالَ الخَطّابِيُّ:مَعنَى قَوله بَواحًا يُرِيد ظاهِرًا بادِيًا مِن قَولهم باحَ بِالشَّيءِ يَبُوح بِهِ بَوحًا وبَواحًا إِذا أَذاعَهُ وأَظهَرَهُ "[٣٠٩٠].

وورد أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ،وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ،وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»[٣٠٩١].

[٣٠٩٠] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٧)

[٣٠٩١] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٧)٣٥ - (١٨٣٦)

[ش (عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك) قال العلماء معناه تجب طاعة ولا ة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية فإن كان معصية فلا سمع ولا طاعة(ومنشطك ومكرهك) هما مصدران ميميان أو اسما زمان أو مكان(وأثرة) بفتح الهمزة والثاء ويقال بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات حكاهن في المشارق وغيره وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء

قَال النَّوَوِيُّ:" قَال الْعُلَمَاءُ:مَعْنَاهُ تَجِبُ طَاعَةُ وُلاَةِ الأُمُورِ فِيمَا يَشُقُّ وَتَكْرَهُهُ النُّفُوسُ وَغَيْرُهُ مِمَّا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ .وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ فِي الْحَثِّ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَال وَسَبَبُهَا اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ الْخِلاَفَ سَبَبٌ لِفَسَادِ أَحْوَالِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ،قَال الْمَاوَرْدِيُّ:إِذَا قَامَ الإِمَامُ بِحُقُوقِ الأُمَّةِ فَقَدْ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ،وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ حَقَّانِ:الطَّاعَةُ وَالنُّصْرَةُ مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ".[٣٠٩٢].

قلت:ولعل الحكمة في أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة للأمراء وإن منعوا الناس حقوقهم أو استأثروا بحقوق الدنيا دونهم،هو ارتكاب أخف الضررين،فإن تضرر الرعية بهذا المنع والأثرة أخف من ضرر الخروج على الأمراء وما يتبع ذلك من الاختلاف والتفرق.

هذا بالإضافة إلى أنه قد يُظَن أثرة ما ليس بأثرة،فأمر النبي ﷺ بالطاعة ههنا سدا للذرائع،وحتى لا يتعلل أحد بالظنون لشق عصا الطاعة.ومثال ذلك ما رواه البخاري عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ:أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اسْتَعْمَلْتَ فُلاَنًا وَلَمْ تَسْتَعْمِلْنِي؟ قَالَ:«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً،فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي»[٣٠٩٣]

قال ابن حجر:[والسِّرّ فِي جَوابه عَن طَلَب الوِلايَة بِقَولِهِ:"سَتَرَونَ بَعدِي أَثَرَة" إِرادَة نَفي ظَنّه أَنَّهُ آثَرَ الَّذِي ولاَّهُ عَلَيهِ ؛ فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ لا يَقَع فِي زَمانه،وأَنَّهُ لَم يَخُصّهُ بِذَلِكَ لِذاتِهِ بَل لِعُمُومِ مَصلَحَة المُسلِمِينَ،وأَنَّ الاستِئثار لِلحَظِّ الدُّنيَوِيّ إِنَّما يَقَع بَعدَهُ،وأَمَرَهُم عِندَ وُقُوع ذَلِكَ بِالصَّبرِ .][٣٠٩٤]،فهذا السائل ظن أثرة ما هو ليس بأثرة كما أخبره النبي ﷺ بذلك.

هـ = قال شيخ الإسلام ابن تيمية:[فَطَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ وَطَاعَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَاجِبَةٌ لِأَمْرِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِمْ فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِطَاعَةِ وُلَاةِ الْأَمْرِ لِلَّهِ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ.وَمَنْ كَانَ لَا يُطِيعُهُمْ إلَّا لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ الْوِلَايَةِ وَالْمَالِ فَإِنْ أَعْطَوْهُ أَطَاعَهُمْ؛ وَإِنْ

بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم،وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم]

[٣٠٩٢] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٢٨/ ٣٢٤) وشرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٤)

[٣٠٩٣] – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٧)

[٣٠٩٤] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١٣/ ٨)

مَنَعُوهُ عَصَاهُمْ:فَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَلاَ يُزَكِّيهِمْ،وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ،رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ،فَمَنَعَهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ،وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا،فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ،وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ العَصْرِ،فَقَالَ:وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا،فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ" ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} [آل عمران:٧٧][٣٠٩٥] .][٣٠٩٦] .

٣ = ما يُستَخلص من أدلة وجوب السمع والطاعة.

أ = الطاعة واجبة في المنشط والمكره وليس في المنشط فقط،بل يمكن القول بأن الاختبار الحقيقي لصدق الطاعة لا يكون إلا في المَكْره،فالكل يطيع في المنشط أي في الأعمال اليسيرة أو ذات النفع العاجل أو المحببة إلى النفس،أما في المكره وهو مالا ترغبه النفس من أعمال فلا يطيع حينئذ إلا الصادقون.ويمكن القول كذلك إن الطاعة في المكره فيصل بين المؤمن والمنافق،الذي غالبا ما يطيع في المنشط دون المكره ودليل ذلك:

* قوله تعالى:{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [التوبة:٤٢]،فهؤلاء يطيعون في المنشط (الغنيمة السهلة القريبة) لا المكره (السفر الشاق البعيد) ثم هم يتعللون بالأعذار المختلفة المكذوبة حتى لا يخرجوا،وهكذا المنافق إذا أمره الأمير بأمر مكروه شاق اختلق الأعذار ولو بالكذب حتى لا يفعل.

* قوله تعالى:{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا } [الفتح:١٥]،وهؤلاء تخلفوا عن الجهاد (المكره) وسارعوا في طلب الخروج إلى الغنيمة (المنشط).

[٣٠٩٥] - صحيح البخاري (٣/ ١١١)(٢٣٥٨)وصحيح مسلم (١/ ١٠٣)(١٧٣ - (١٠٨)

[ش (ابن السبيل) المسافر.(بايع إماما) عاهد الخليفة أو الحاكم الأعظم.(لدنيا) ليحصل شيئا من متاع الدنيا.(أعطيت بها) دفعت قيمتها لبائعها.(فصدقه رجل) واشتراها بذلك الثمن الذي حلف عليه.(الآية) آل عمران ٧٧.]

[٣٠٩٦] - مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٦)

* قوله تعالى:{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) } [التوبة].

قلت:ولذلك فإن المكاره التي يُبْتَلى بها المؤمنون هي رحمة لهم إذ بها يتميز المؤمن من المنافق،وكلما اشتدت المكاره كلما انكشف المنافقون،كما قال تعالى في غزوة أحد:{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) } [آل عمران]،وقال تعالى:{ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:١٧٩].

مَا كَانَ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ أنْ يَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانٍ وَتَمْحِيصٍ،لِيَظْهَرَ لَهُ الْمُؤْمِنُ الصَابِرُ،وَيَنْكَشِفَ الْمُنَافِقُ الفَاجِرُ،وَيَبِينَ وَلِيُّ اللهِ،وَيَفْتَضِحَ عَدُوُّهُ،فَامْتَحَنَهُمُ اللهُ يَوْمَ أحُدٍ،فَظَهَرَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ،وَهَتَكَ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ،بِإظْهَارِ مُخَالَفَتِهِمْ،وَنُكُولِهِمْ عَنِ الجِهَادِ،وَخِيَانَتِهِمْ لِلْرَّسُولِ،فَعَرَفَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ،وَأخَذُوا يَحْذَرُونَهُمْ.وَأنْتُمْ أيُّها الْمُؤْمِنُونَ لاَ تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللهِ فِي خَلْقِهِ،وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ اللهِ تَعَالَى أنْ يُطْلِعَ عَامَّةَ خَلْقِهِ عَلَى غَيْبِهِ.وَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أنْ تَكُونَ هُنَاكَ وَسِيلَةٌ تُمَيِّزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ،وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ،وَهَذِهِ الوَسِيلَةُ تَبْتَدِئُ بِإرْسَالِ الرُّسُلِ،فَيُؤْمِنُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ،وَيَكْفُرَ مَنْ يَكْفُرُ،ثُمَ يَقُومُ الرُّسُلِ بِالجِهادِ فَيَبْتَلِي الرُسُلُ أَصْحَابَهُمْ بِهِ،وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَتمُّ أمْرُ اللهِ وَيَتَمَيَّزُ الخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ،وَتَطْهَرُ القُلُوبُ وَالنُّفُوسُ.ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى النَّاسَ إلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ – وَمِنْهُمْ مُحَمَّدُ ﷺ – وَمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ فَقَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ جَمِيعاً،لأَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقاً الرُّسُلَ السَّابِقِينَ.[٣٠٩٧]

[٣٠٩٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٢،بترقيم الشاملة آليا)

والنفاق خصال وهو يتبعض،فمن قعد عن الطاعة في المكره،كان فيه من النفاق بحسب قعوده ما لم يكن معذورا.

وانظر إلى نماذج من طاعة الصحابة رضي الله عنهم لأمرائهم.

قال ابن كثير رحمه الله:أراد أبو بكر الصديق أن يبعث الجيوش إلى الشام [وَلَمَّا فَرَغَ الصِّدِّيقُ مِنْ أَمْرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَسَطَ يَمِينَهُ إِلَى الْعِرَاقِ،فَبَعَثَ إِلَيْهَا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ،ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَى الشَّامِ كَمَا بَعَثَ إِلَى الْعِرَاقِ،فَشَرَعَ فِي جَمْعِ الْأُمَرَاءِ فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.وَكَانَ قَدِ اسْتَعْمَلَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى صَدَقَاتِ قُضَاعَةَ،مَعَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ فِيهِمْ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَنْفِرُهُ إِلَى الشَّامِ:إِنِّي كُنْتُ قَدْ رَدَدْتُكَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي وَلَّاكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّةً،وَسَمَّاهُ لَكَ أُخْرَى،وَقَدْ أَحْبَبْتُ،أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،أَنْ أُفَرِّغَكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فِي حَيَاتِكَ وَمَعَادِكَ مِنْهُ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ أَحَبَّ إِلَيْكَ.فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:إِنِّي سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْإِسْلَامِ،وَأَنْتَ فَعَبْدُ اللَّهِ الرَّامِي بِهَا،وَالْجَامِعُ لَهَا،فَانْظُرْ أَشَدَّهَا وَأَخْشَاهَا فَارْمِ بِي فِيهَا.وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بِمِثْلِ ذَلِكَ،وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهُ،وَأَقْبَلَا - بَعْدَمَا اسْتَخْلَفَا فِي عَمَلِهِمَا - إِلَى الْمَدِينَةِ.][٣٠٩٨].

فَلَمَّا وُلِّيَ عُمَرُ كَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ عَزَلَ خَالِدًا،وَقَالَ:لَا يَلِي لِي عَمَلًا أَبَدًا.وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ:إِنْ أَكْذَبَ خَالِدٌ نَفْسَهُ فَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ،وَإِنْ لَمْ يُكْذِبْ نَفْسَهُ فَهُوَ مَعْزُولٌ،فَانْزِعْ عِمَامَتَهُ عَنْ رَأْسِهِ وَقَاسِمْهُ مَالَهُ نِصْفَيْنِ.فَلَمَّا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ ذَلِكَ لِخَالِدٍ قَالَ لَهُ خَالِدٌ:أَمْهِلْنِي حَتَّى أَسْتَشِيرَ أُخْتِي،فَذَهَبَ إِلَى أُخْتِهِ فَاطِمَةَ،وَكَانَتْ تَحْتَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ،فَاسْتَشَارَهَا فِي ذَلِكَ فَقَالَتْ لَهُ:إِنَّ عُمَرَ لَا يُحِبُّكَ أَبَدًا،وَإِنَّهُ سَيَعْزِلُكَ وَإِنْ أَكْذَبْتَ نَفْسَكَ.فَقَالَ لَهَا:صَدَقْتِ وَاللَّهِ.فَقَاسَمَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ حَتَّى أَخَذَ إِحْدَى نَعْلَيْهِ وَتَرَكَ لَهُ الْآخَرَ،وَخَالِدٌ يَقُولُ:سَمْعًا وَطَاعَةً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.[٣٠٩٩].

[٣٠٩٨] - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٥٤١)

[٣٠٩٩] - البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٥٧٥) قلت:في كلام أخته نظر،فعمر رضي الله عنه لم يعزله عن تهمة أو عدم محبة

وَبَعَثَ خَالِدٌ إِلَى الصِّدِّيقِ بِالْبِشَارَةِ وَالْفَتْحِ وَالْخُمُسِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسَّبْيِ مَعَ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ:جَنْدَلٌ.مِنْ بَنِي عِجْلٍ،وَكَانَ دَلِيلًا صَارِمًا،فَلَمَّا بَلَّغَ الصِّدِّيقَ الرِّسَالَةَ،وَأَدَّى الْأَمَانَةَ،أَثْنَى عَلَيْهِ وَأَجَازَهُ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ،وَقَالَ الصِّدِّيقُ:يَا مَعْشَرَ

ب = الطاعة واجبة في العسر واليسر،والذي ذكره ابن حجر في الشرح:[أي أن ينفق المسلم في سبيل الله في فَقْره وغِنَاه]،ويمكن تأويله كذلك بأن على المسلم الطاعة في حالة ضيق النفقة أو سعتها على الجند كما كان الحال في غزوة تبوك،كان الصحابيان يقتسمان التمرة الواحدة،وقال تعالى:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١١٧]،وسُمِّيَ هذا الجيش جيش العسرة،ولعل السر في تقديم العسر على اليسر في حديث عبادة «وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا» وفي حديث أبي هريرة «وعسرك ويسرك» أن العسر كان هو الغالب على حياة الصحابة زمن النبي ﷺ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ،قَالَ:«صَلَّى جَابِرٌ فِي إِزَارٍ قَدْ عَقَدَهُ مِنْ قِبَلِ قَفَاهُ وَثِيَابُهُ مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْمِشْجَبِ»،قَالَ لَهُ قَائِلٌ:تُصَلِّي فِي إِزَارٍ وَاحِدٍ؟،فَقَالَ:«إِنَّمَا صَنَعْتُ ذَلِكَ لِيَرَانِي أَحْمَقُ مِثْلُكَ وَأَيُّنَا كَانَ لَهُ ثَوْبَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ»[٣١٠٠]،وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:«لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ،إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ،قَدْ رَبَطُوا فِي

قُرَيْشٍ،إِنَّ أَسَدَكُمْ قَدْ عَدَا عَلَى الْأَسَدِ،فَغَلَبَهُ عَلَى خَرَاذِيلِه،عَجَزَتِ النِّسَاءُ أَنْ تَلِدْنَ مِثْلَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ.ثُمَّ جَرَتْ أُمُورٌ طَوِيلَةٌ لِخَالِدٍ فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ يُمَلُّ سَمَاعُهَا،وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَكِلُّ وَلَا يَمَلُّ وَلَا يَهِنُ وَلَا يَحْزَنُ،بَلْ كُلُّ مَا لَهُ فِي قُوَّةٍ وَصَرَامَةٍ وَشِدَّةٍ وَشَهَامَةٍ،وَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ،عَزَّ وَجَلَّ،عِزًّا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ،وَذُلًّا لِلْكُفْرِ وَشَتَاتَ شَمْلِهِ.البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٥٢١)

فَقَبِلَ مِنْهُمْ خَالِدٌ وَكَفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ خَلَصَ إِلَى الْبَلَدِ فَتَحَصَّنُوا فِيهِ،فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ:إِنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ فِي السَّحَابِ لَحَمَلَنَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ أَوْ لَأَنْزَلَكُمْ إِلَيْنَا.وَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ،وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ مَا صَنَعَهُ خَالِدٌ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ قَالَ:يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ كَانَ أَعْلَمَ بِالرِّجَالِ مِنِّي،وَاللَّهِ إِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ رِيبَةٍ،وَلَكِنْ خَشِيتُ أَنْ يُوكَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ." أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ٤٧٣) وبغية الطلب فى تاريخ حلب (١/ ٥٧٨) وفضائل الصحابة - محمد حسن عبد الغفار (٨/ ٦،بترقيم الشاملة آليا) ومحض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٣٥) والبداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦٥٠) والكامل في التاريخ (٢/ ٣٢٤) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك،وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٦٠١) وزبدة الحلب في تاريخ حلب (ص:١٧) وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٤١)

[٣١٠٠] - صحيح البخاري (١/ ٨٠)(٣٥٢)

[ش (عقده) ربطه.(قفاه) مؤخر عنقه.(المشجب) عيدان تربط رؤوسها وتفرق قوائمها تعلق عليها الثياب]

أَعْنَاقِهِمْ،فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ،وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ،فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ،كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ»[3101]

وقال ابن حجر:[ومُحَصَّل ذَلكَ أَنَّهُ لَم يَكُن لأَحَد منهُم ثَوبان.][3102]

وروى البخاري عَنْ أَبِي يَعْفُورٍ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:«غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ أَوْ سِتًّا،كُنَّا نَأْكُلُ مَعَهُ الجَرَادَ»[3103]

وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الخَصَاصَةِ وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ حَتَّى تَقُولَ الْأَعْرَابُ هَؤُلَاءِ مَجَانِينُ أَوْ مَجَانُونَ،فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ،فَقَالَ:«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً» قَالَ فَضَالَةُ:«وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[3104]

وللبخاري عَنْ مُحَمَّدٍ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ،فَتَمَخَّطَ،فَقَالَ:«بَخْ بَخْ،أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الكَتَّانِ،لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ،فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي،وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ،وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الجُوعُ»[3105]

وروى الشيخان عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ،بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ،فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا،وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ،وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي،وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الخِرَقَ،فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ،لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنَ الخِرَقِ عَلَى

[3101] - صحيح البخاري (1/ 96)(442)

[ش (رداء) هو ما يستر أعالي البدن فقط.(إزار) أي فقط وهو ما يستر أسافل البدن]

[3102] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (1/ 536)

[3103] - صحيح البخاري (7/ 90)(5495)

[3104] - سنن الترمذي ت شاكر (4/ 583)(2368) صحيح

في هذا الحديث:الحث على الصبر على الفقر،وضيق العيش،قال الله تعالى:{إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف (90)] .تطريز رياض الصالحين (ص:342)

[3105] - صحيح البخاري (9/ 104)(7324)

[ش (ممشقان) مصبوغان بالمشق وهو الطين الأحمر.(كتان) نبات تتخذ من أليافه المنسوجة الثياب.(بخ بخ) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب(لأخر) لأسقط.(فيضع رجله) خشية أن أصيب أحدا بأذى على ظنه]

أَرْجُلنَا»،وَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا ثُمَّ كَرِهَ ذَاكَ،قَالَ:مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ،كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ"[٣١٠٦]

قال النووي في شرحه [" فِيهِ استحباب إخفاء الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَمَا يُكَابِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْمَشَاقِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ مِثْلَ بَيَانِ حُكْمِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا وُجِدَ لِلسَّلَفِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ"][٣١٠٧].ويكفيك في هذا أنهم كانوا يقتلون أولادهم في الجاهلية خشية أن يطعموا معهم من شدة الفقر،قال تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [الأنعام:١٥١].

وفى النهى عن قتل الأولاد خشية الفقر،بعد أمر الأبناء ببرّ الآباء- فى هذا ما يكشف عن تلك المفارقة البعيدة بين ما يكون من الأبناء من برهم بآبائهم،وبين ما يأتيه هؤلاء الآباء من قتل أولئك الأبناء..وفى هذا ما فيه ضلال وسفه،وخروج على مألوف الطبيعة،فيما بين الكائن الحىّ ومواليده..

من حيوان ونبات!! وفى قوله تعالى:«وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» قدّم رزق الآباء على الأبناء،لأن الآباء هنا فى فقر واقع بهم،وفى ضيق استولى عليهم،فقتل فيهم مشاعر الإنسانية،حتى طوعت لهم أنفسهم قتل أولادهم،شفقة عليهم،وإراحة لهم من آلام الجوع،وقسوة المسغبة،فجاء قوله تعالى:

[٣١٠٦] - صحيح البخاري (٥/ ١١٣)(٤١٢٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٤٩)(١٤٩ - (١٨١٦)

[ش (نفر) ما دون العشرة من الرجال وتطلق على الواحد منهم.(نعتقبه) نركبه بالتناوب.(فنقبت) تشققت.(نعصب) نلف ونشد]

(قال:ما كنت أصنع بأن أذكره كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه) لأن كتمان العمل أفضل من إظهـــاره إلا مصلحة راجحة كأن يكون ممن يقتدى به "شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/ ٣٣٣)

كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه،ولكنه إنما تحدث ليتعظ الناس ويعملوا.

هذا واحد من أهل الصلاح من صحابة النبي ﷺ يخاف أن يحدث عن عمله لكي لا ينقص ذلك من الثواب،فقد كانت نيتهم صافية وخالصة لرب العالمين سبحانه،ولكنهم يحدثون حتى يقتدي بهم من بعدهم.وبعد أن يحدث أحدهم يخاف من أنه أفشى عمله.شرح رياض الصالحين - حطيبة (٣٧/ ١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣١٠٧] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٩٧)

«نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» ليشعر الآباء بأن الله متكفل برزقهم ورزق أبنائهم معا،وأن هذا الضيق الذي هم فيه سوف يعقبه فرج،وأن هذا الرزق الضيّق الذي هم فيه فعلا،هو قسمة بينهم وبين أبنائهم،فهم فيه سواء،وأنه ليس للآباء أن يقتلوا أولادهم وهم شركاؤهم فى هذا الرزق المحدود الذي فى أيديهم..

وقد جاء قوله تعالى فى سورة الإسراء:«وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» بتقديم رزق الأبناء على الآباء،لأن الآباء فى تلك الحال ليسوا فى حال ضيق وفقر،وإنما هم على شعور الخوف من الفقر مستقبلا،فهم يقتلون أولادهم فى تلك الحال لا لفقر وقع،وإنما لخشية الفقر المتوقّع،الذي قد يكون وجود الأبناء سببا فى التعجيل به- فجاء قوله تعالى:«نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» ليدفع هذا الشعور،وليقيم مكانه شعورا مضادا له،وهو أن الأبناء لهم رزقهم عند الله،وأن هذا الرزق مقدم على رزق الآباء،وأن قتلهم حينئذ يكون عدوانا عليهم،وحبسا لهذا الرزق لذى سيرزقهم الله إياه..[٣١٠٨]

ج = السمع والطاعة حق وإن ارتكب الأمير بعض الأخطاء الشرعية،تطيعه في طاعة الله،ولا تتابعه في خطئه إن أخطأ،والمقصد من هذا:أن ارتكاب الأمير لبعض الأخطاء ليس مبررا للخروج عليه والسعي في خلعه عن إمرته،فكل ابن آدم خطاء،بل الصواب أن تطيعه في طاعة الله،ولا تطيعه في معصية الله تعالى،وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر.

وقد وقع شيء من هذا من الأمراء على عهد رسول الله ﷺ فعَنْ سَالِمٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ،فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا:أَسْلَمْنَا،فَجَعَلُوا يَقُولُونَ:صَبَأْنَا صَبَأْنَا،فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ،وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ،حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ [ص:١٦١]،فَقُلْتُ:وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي،وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ،حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ،فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ»[٣١٠٩].

[٣١٠٨] - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٤٥)

[٣١٠٩] - صحيح البخاري (٥/ ١٦٠)(٤٣٣٩)

قال ابن تيمية رحمه الله معللاً ذلك بقوله:" لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يُطَالِبَهُ اللَّهُ بِمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُدْوَانِ.وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} سُورَةُ الشُّعَرَاءِ،ثُمَّ أَرْسَلَ عَلِيًّا،وَأَرْسَلَ مَعَهُ مَالًا،فَأَعْطَاهُمْ نِصْفَ الدِّيَاتِ،وَضَمِنَ لَهُمْ مَا تَلِفَ حَتَّى مِيلَغَةَ الْكَلْبِ،وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ مَا بَقِيَ احْتِيَاطًا لِئَلَّا يَكُونَ بَقِيَ شَيْءٌ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ ..

وَمَعَ هَذَا فَالنَّبِيُّ – ﷺ – لَمْ يَعْزِلْ خَالِدًا عَنِ الْإِمَارَةِ،بَلْ مَا زَالَ يُؤَمِّرُهُ وَيُقَدِّمُهُ؛ لِأَنَّ الْأَمِيرَ إِذَا جَرَى مِنْهُ خَطَأٌ أَوْ ذَنْبٌ أُمِرَ بِالرُّجُوعِ عَنْ ذَلِكَ،وَأُقِرَّ عَلَى وِلَايَتِهِ،وَلَمْ يَكُنْ خَالِدٌ مُعَانِدًا لِلنَّبِيِّ – ﷺ –،بَلْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ،وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْفِقْهِ وَالدِّينِ بِمَنْزِلَةِ غَيْرِهِ،فَخَفِيَ عَلَيْهِ حُكْمُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ."[3110]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ،فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ،وَقَالَ:أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا:بَلَى،قَالَ:قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا،وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا،ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا،فَأَوْقَدُوا نَارًا،فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ،فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ،إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ،وَسَكَنَ غَضَبُهُ،فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا،إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[3111].

د = **الطاعة واجبة وإن منع الأمير حَقَّ بعض الناس أو استأثر بشيء دونهم** وسبق شرح هذا،وبيان أن الضرر الأخف يُتَحمل لدفع الضرر الأشد،وأنه قد يُظَن أثرة ما ليس بأثرة،وفي هذا تطبيق لقاعدة شرعية أخرى وهي أن الضرر الخاص (بالمنع والأثرة) يُتَحمل لدفع الضرر العام (التفرق والاختلاف)[3112]،وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

[3110] – منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٧٩) ومنهاج السنة النبوية (٤/ ٤٨٧)

[3111] – صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩)٣٩ – (١٨٤٠)

[(عزمت عليكم) آمركم وأؤكد أمري لكم وأجد فيه.(ما خرجوا..) لأن الدخول فيها معصية فإذا استحلوها كفروا واستحقوا الخلود فيها وهذا جزاء من جنس العمل.(الطاعة) للأمر واجبة.(المعروف) هو ما لا يتنافى مع الشرع]

[3112] – انظر شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا ط ١ ــ القاعدة ٢٥ إلى ٢٨ ص ١٤٣ ــ ١٤٩

قَالَ:«اسْمَعْ وَأَطِعْ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ،وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ،وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ،وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَكَ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً»[٣١١٣].

وقال صاحب العقيدة الطحاوية:[قَوْلُهُ:(وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا،وَإِنْ جَارُوا،وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ،وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ،وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً،مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ،وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ) .][٣١١٤].

هـ = السمع والطاعة حق،وإن كان الأمير حقير الحسب والنسب،أو كان قبيح المنظر أو كان صغير السن،طالما انعقدت إمارته بطريقة شرعية،بتأمير الأمير الأعلى له أو باختيار أتباعه له.وذلك لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا،وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ،كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[٣١١٥].

و = السمع والطاعة حق،وإن ساس الأمير رعيته بالأمر المفضول دينا،وقد فَصَّلتُ هذا في الباب الرابع،طالما كان في العمل بالمفضول مصلحة عامة،والأمر المفضول هو الأقل في الأجر والثواب وليس ما فيه إثم أو معصية.

ولا يجوز لآحاد الرعية أن مخالفة الأمير في هذا تَوَرُّعا فيعمل بالأمر الأفضل حرصا على مزيد الأجر والثواب،والقاعدة الفقهية تقول (درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح)[٣١١٦]

وقد يجوز لآحاد الرعية العمل بالأمر الأفضل في خاصة نفسه،عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ:كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ بِجَمْعٍ،فَلَمَّا دَخَلَ مَسْجِدَ مِنًى فَقَالَ:" كَمْ صَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟"قَالُوا:أَرْبَعًا.فَصَلَّى أَرْبَعًا،قَالَ:فَقُلْنَا:أَلَمْ تُحَدِّثْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ،وَأَبَا بَكْرٍ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ؟ فَقَالَ:بَلَى،وَأَنَا أُحَدِّثُكُمُوهُ الْآنَ،وَلَكِنَّ عُثْمَانَ كَانَ إِمَامًا فَمَا أُخَالِفُهُ،وَالْخِلَافُ شَرٌّ "[٣١١٧].

٤ = ومما يدخل في طاعة الأمير.

[٣١١٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٢٥)(٤٥٦٢) صحيح

[٣١١٤] - شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (٢/ ٥٤٠)

[٣١١٥] - صحيح البخاري (٩/ ٦٢)(٧١٤٢)

[٣١١٦] - القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (١/ ٢٣٨)

[٣١١٧] - السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢٠٦)(٥٤٣٦) صحيح

أ = اتباع رأي الأمير في الأمور الاجتهادية كقصر الصلاة أو إتمامها،وجمعها أو عدمه وإن كان الأمير يُعْوزه الفقه فعليه سؤال من معه من أهل العلم الأمثل فالأمثل فيما يشكل عليه.ودليل النزول على رأي الأمير في هذا،هو قول الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩]

قال شارح العقيدة الطحاوية:[وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ،وَإِمَامَ الصَّلَاةِ،وَالْحَاكِمَ،وَأَمِيرَ الْحَرْبِ،وَعَامِلَ الصَّدَقَةِ -:يُطَاعُ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ،الْمُطَاعُونَ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَهُ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ،بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ،وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِهِ،فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ وَالِائْتِلَافِ،وَمَفْسَدَةَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ،أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِيَّةِ.وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكَّامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ.وَالصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ صِحَّةُ صَلَاةِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْفَ بَعْضٍ.][٣١١٨].

وقد رأينا كيف نزل ابن مسعود على اجتهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان في إتمام الصلاة بمنى خلافا لسنة النبي ﷺ والخليفتين من بعده،رغم تشدد من ابن مسعود في هذا،فيمَا تقرر عندهم من وجوب النزول على اجتهاد الأمير،رضي الله عنهم أجمعين.

ب = تفويض الأمور المباحة والفنية إلى رأي الأمير وتدبيره حتى لا تختلف آراؤهم،لقوله تعالى:{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء:٨٣]،ومثال ذلك ما ورد عَنْ قَيْسٍ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَمْرًا عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ إِلَى لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَمَسَايِفِ الشَّامِ،قَالَ:وَكَانَ فِي أَصْحَابِهِ قِلَّةٌ،قَالَ:فَقَالَ لَهُمْ عَمْرُو:لاَ يُوقِدَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ نَارًا،فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ،فَكَلَّمُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُكَلِّمَ عَمْرًا فَكَلَّمَهُ،فَقَالَ:لاَ يُوقِدُ أَحَدٌ نَارًا إِلاَّ أَلْقَيْتَهُ فِيهَا،فَقَاتَلَ الْعَدُوَّ فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ،وَاسْتَبَاحَ عَسْكَرَهُمْ،فَقَالَ النَّاسُ:أَلاَ نَتْبَعُهُمْ ؟ فَقَالَ:لاَ،إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَرَاءَ هَذِهِ الْجِبَالِ مَادَّةٌ يَقْتَطِعُونَ الْمُسْلِمِينَ،فَشَكَوْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ رَجَعُوا،فَقَالَ:صَدَقُوا يَا عَمْرُو ؟ قَالَ:كَانَ فِي أَصْحَابِي قِلَّةٌ فَخَشِيتُ أَنْ يَرْغَبَ الْعَدُوُّ فِي قِتْلِهِمْ،فَلَمَّا أَظْهَرَنِي اللَّهُ

[٣١١٨] - شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (٢/ ٥٣٤)

عَلَيْهِمْ،قَالُوا:اتْبَعْهُمْ،قُلْتُ:أَخْشَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ وَرَاءَ هَذِهِ الْجِبَالِ مَادَّةٌ يَقْتَطِعُونَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ،قَالَ:فَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمِدَ أَمْرَهُ."[3119]،وفي رواية وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا ثَلَاثًا،قَالَ:فَكَلَّمَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ عَنْهُ قَالُوا:كَلِّمْهُ لَنَا،فَأَتَاهُ قَالَ:قَدْ أَرْسَلُوكَ إِلَيَّ،لَا يُوقِدُ أَحَدٌ نَارًا إِلَّا أَلْقَيْتُهُ فِيهَا ثُمَّ لَقُوا الْعَدُوَّ فَهَزَمُوهُمْ،فَلَمْ يَدَعْهُمْ يَطْلُبُوا الْعَدُوَّ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ وَشَكَوْا إِلَيْهِ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانُوا قَلِيلًا فَخِفْتُ أَنْ يَطْلُبُوا الْعَدُوَّ وَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَادَّةٌ فَيَعْطِفُونَ عَلَيْهِمْ،فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَمْرَهُ».وَفِي رِوَايَةٍ:فَقَالَ عَمْرٌو:نَهَيْتُهُمْ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا خَشْيَةَ أَنْ يَرَى الْعَدُوُّ قِلَّتَهُمْ.[3120].

وهذا الحديث فيه جواز إمارة المفضول كعمرو عَلَى مَنْ هم خير منه كأبي بكر للمصلحة،وفي الحديث شكاية الجند أميرهم عند الإمام،وفيه وجوب طاعة الأمير في تقييد المباح كإيقاد النار،وطاعة الأمير ولو بَدَا أَمْرُه بخلاف المصلحة أو الواجب الأَوْلَى كمنعهم من اتباع العدو الفارّ خشية أن يأتيه مدد.

ج = ويدخل في الطاعة أن يقبل كل أخ العمل المكلف به من قِبَل الأمير وإن كان لا يحبه،ولا يأنف من عمل في سبيل الله ولو كان حقيرا،كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ،إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»،وَقَالَ:فَتَعْسًا:كَأَنَّهُ يَقُولُ:فَأَتْعَسَهُمُ اللَّهُ،طُوبَى:فُعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ،وَهِيَ يَاءٌ حُوِّلَتْ إِلَى الوَاوِ وَهِيَ مِنْ يَطِيبُ "[3121]

[3119] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٢٩٠)(٣٧٧٩٢) صحيح

[3120] - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٣١٩)(٩٦٢٥ -٩٦٢٦)رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادَيْنِ وَرِجَالُ الْأَوَّلِ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

[3121] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٦ -٢٨٨٧)

فهذا عَملَ حيث وضعه أميره في الحراسة أو في الساقة بلا ضجر أو تأفف فاستحق دعاء النبي ﷺ له.

د = ويدخل في الطاعة ألا ينصرف أحد من عملٍ أو مكانٍ إلا بإذن أميره أو حسب التعليمات المسبقة وكذلك لا يغادر أحد المعسكر إلا بإذن،لقوله تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور:٦٢]

وَهُنَا يُؤَدِّبُ اللهُ النَّاسَ،فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ،كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ اللهُ تَعَالَى بِأَلاَّ يَتَفَرَّقُوا عَنِ النَّبِيِّ إِلاَّ بعدَ اسْتِئْذَانِهِ ومُشَاوَرَتِهِ،ولِلرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ.

وَرَوَى ابنُ إِسْحَاقَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:لَمّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَالأَحْزَابُ عَلَى حَرْبِ المُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ،أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِحَفْرِ خَنْدقِ المَدِينَةِ،وَأَخَذَ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ تَرْغِيباً لِلمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ،فَعَمِلَ المُسْلِمُونَ،وَأَبْطَأَ رِجَالٌ مِنَ المُنَافِقِينَ،وَأَخَذُوا يَقُومُونَ بِالضَّعِيفِ مِنَ العَمَلِ وَيَتَسَلَّلُونَ بِغَيْرِ إِذْنِ الرَّسُولِ ﷺ.وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَسْتَأْذِنُونَ الرَّسُولَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِم،فَإِذَا قَضَى أَحَدُهُمْ حَاجَتَهُ رَجَعَ إِلى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ،رَغْبَةً فِي الخَيْرِ والأَجْرِ،واحْتِسَاباً لَهُ،وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّ هَؤُلاءِ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً.[٣١٢٢]

وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية على وجوب استئذان العسكر للأمير،فقال رحمه الله:بَابُ اسْتِئْذَانِ الرَّجُلِ الإِمَامَ لِقَوْلِهِ:{نَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك.(عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.(القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب.(الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط.(أعطي) من المال.(رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح.(انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.(شيك) أصابته شوكة.(فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه.(طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب.(بعنان) لجام.(أشعث) متفرق الشعر غير مسرح.(إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.(كان في الحراسة) قام بها راضيا.(الساقة) مؤخرة الجيش.(تعسا) اللفظ من / محمد ٨ /.(طوبى) اللفظ من / الرعد ٢٩ /.وقيل هو اسم للجنة]

[٣١٢٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٣٥،بترقيم الشاملة آليا)

مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور:٦٢]

ثم أورد ما جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَتَلاَحَقَ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ،وَأَنَا عَلَى نَاضِحٍ لَنَا،قَدْ أَعْيَا فَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ،فَقَالَ لِي:«مَا لِبَعِيرِكَ؟»،قَالَ:قُلْتُ:عَيِيَ،قَالَ:فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَزَجَرَهُ،وَدَعَا لَهُ،فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ،فَقَالَ لِي:«كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ؟»،قَالَ:قُلْتُ:بِخَيْرٍ،قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ،قَالَ:«أَفَتَبِيعُنِيهِ؟» قَالَ:فَاسْتَحْيَيْتُ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا نَاضِحٌ غَيْرُهُ،قَالَ:فَقُلْتُ:نَعَمْ،قَالَ:فَبِعْنِيهِ،فَبِعْتُهُ إِيَّاهُ عَلَى أَنَّ لِي فَقَارَ ظَهْرِهِ،حَتَّى أَبْلُغَ المَدِينَةَ قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَرُوسٌ،فَاسْتَأْذَنْتُهُ،فَأَذِنَ لِي،فَتَقَدَّمْتُ النَّاسَ إِلَى المَدِينَةِ حَتَّى أَتَيْتُ المَدِينَةَ،فَلَقِيَنِي خَالِي،فَسَأَلَنِي عَنِ البَعِيرِ،فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فِيهِ،فَلاَمَنِي قَالَ:وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ لِي حِينَ اسْتَأْذَنْتُهُ:«هَلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟»،فَقُلْتُ:تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا،فَقَالَ:«هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ»،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،تُوُفِّيَ وَالِدِي أَوِ اسْتُشْهِدَ وَلِي أَخَوَاتٌ صِغَارٌ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ مِثْلَهُنَّ،فَلاَ تُؤَدِّبُهُنَّ،وَلاَ تَقُومُ عَلَيْهِنَّ،فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا لِتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبُهُنَّ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ غَدَوْتُ عَلَيْهِ بِالْبَعِيرِ،فَأَعْطَانِي ثَمَنَهُ وَرَدَّهُ عَلَيَّ قَالَ الْمُغِيرَةُ هَذَا فِي قَضَائِنَا حَسَنٌ لاَ نَرَى بِهِ بَأْسًا"[٣١٢٣].

وقال ابن قدامة الحنبلي:[وَإِذَا غَزَا الْأَمِيرُ بِالنَّاسِ،لَمْ يَجُزْ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَلَّفَ،وَلَا يَحْتَطِبَ،وَلَا يُبَارِزَ عِلْجًا،وَلَا يَخْرُجَ مِنْ الْعَسْكَرِ،وَلَا يُحْدِثَ حَدَثًا،إلَّا بِإِذْنِهِ يَعْنِي لَا يَخْرُجُ مِنْ الْعَسْكَرِ لِتَعَلُّفٍ،وَهُوَ تَحْصِيلُ الْعَلَفِ لِلدَّوَابِّ،وَلَا لِاحْتِطَابٍ،وَلَا غَيْرِهِ إلَّا بِإِذْنِ الْأَمِيرِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النور:٦٢] {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ

[٣١٢٣] - صحيح البخاري (٤/ ٥١-٥٢)(٢٩٦٧)

[ش(فتلاحق بي) لحقني.(ناضح) بعير يستقى عليه الماء.(أعيا) تعب.(فقار ظهره) خرزات عظام الظهر أي لي الركوب عليه.(عروس) حديث عهد بعرس ويستوي فيه الذكر الأنثى.(هذا) أي البيع بمثل هذا الشرط.(قضائنا) حكمنا]

جَامعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} [النور:٦٢] .وَلِأَنَّ الْأَمِيرَ أَعْرَفُ بِحَالِ النَّاسِ،وَحَالِ الْعَدُوِّ،وَمَكَامِنِهِمْ،وَمَوَاضِعِهِمْ،وَقُرْبِهِمْ وَبُعْدِهِمْ.فَإِذَا خَرَجَ خَارِجٌ بِغَيْرِ إذْنِهِ،لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يُصَادِفَ كَمِينًا لِلْعَدُوِّ،فَيَأْخُذُوهُ،أَوْ طَلِيعَةً لَهُمْ،أَوْ يَرْحَلَ الْأَمِيرُ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَتْرُكَهُ فَيَهْلِكَ.وَإِذَا كَانَ بِإِذْنِ الْأَمِيرِ،لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ إلَّا إلَى مَكَان آمِنٍ،وَرُبَّمَا يَبْعَثُ مَعَهُمْ مِنْ الْجَيْشِ مَنْ يَحْرُسُهُمْ وَيَطَّلِعُ لَهُمْ.]. [٣١٢٤]

وقد علمنا ما أصاب المسلمين من الهزيمة يوم أُحُد بسبب انصراف الرماة من مواقعهم دون إذن الإمام (الرسول ﷺ) فعن البَرَاءَ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،يُحَدِّثُ قَالَ:جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ،وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ،فَقَالَ:«إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ،هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ،وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ،فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»،فَهَزَمُوهُمْ،قَالَ:فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ،قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ،رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ،فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ:الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ،ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ:أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا:وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ،فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ،فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ،فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ،فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ،فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا،فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ،وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً،سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا،فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ،فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ،ثُمَّ قَالَ:أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ،ثُمَّ قَالَ:أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:أَمَّا هَؤُلاَءِ،فَقَدْ قُتِلُوا،فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ،فَقَالَ:كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ،إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ،وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ،قَالَ:يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ،وَالحَرْبُ سِجَالٌ،إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً،لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي،ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ:أُعْلُ هُبَلْ،أُعْلُ هُبَلْ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا نَقُولُ؟ قَالَ:"

[٣١٢٤] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٦)

قُولُوا:اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ "،قَالَ:إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟»،قَالَ:قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا نَقُولُ؟ قَالَ:«قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا،وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[٣١٢٥]

فلا ينبغي لأحد من أن يستهين بإذن الأمير وأمره ونهيه حتى لا يختل النظام العام.

هـ = ويدخل في الطاعة:طاعة أمر الأمير المكتوب تماما كالأمر الشفهي،ويدخل في الأوامر المكتوبة الرسائل،عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ إِلَى نَخْلَةَ فَقَالَ لَهُ:كُنْ بِهَا حَتَّى تَأْتِيَنَا بِخَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ،وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالٍ،وَذَلِكَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ،وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَهُ أَيْنَ يَسِيرُ،فَقَالَ:اخْرُجْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ،حَتَّى إِذَا سِرْتَ يَوْمَيْنِ،فَافْتَحْ كِتَابَكَ وَانْظُرْ فِيهِ فَمَا أَمَرْتُكَ بِهِ فَامْضِ لَهُ،وَلَا تَسْتَكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَكَ،فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَإِذَا فِيهِ:أَنِ امْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ،فَتَأْتِيَنَا مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ بِمَا اتَّصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ،فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ قَالَ:سَمْعًا وَطَاعَةً،مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِي فَإِنِّي مَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَرْجِعْ،فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ مِنْكُمْ أَحَدًا،فَمَضَى مَعَهُ الْقَوْمُ،حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَحْرَانَ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ،وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ،فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ يَطْلُبَانِهِ،وَمَضَى الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ،فَمَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ،وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ،وَعُثْمَانُ وَالْمُغِيرَةُ ابْنَا عَبْدِ اللهِ،مَعَهُمْ تِجَارَةٌ قَدِمُوا بِهَا مِنَ الطَّائِفِ،أَدَمٌ،وَزَبِيبٌ،فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ أَشْرَفَ لَهُمْ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ،وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ،فَلَمَّا رَأَوْهُ حَلِيقًا قَالُوا عُمَّارٌ لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ بَأْسٌ،وَائْتَمَرَ الْقَوْمُ بِهِمْ أَصْحَابُ

[٣١٢٥] - صحيح البخاري (٤/ ٦٥)(٣٠٣٩)

[ش (الرجالة) جمع راجل وهو الذي يقاتل على رجليه.(تخطفنا الطير) من الخطف وهو استلاب الشيء وأخذه بسرعة معناه إن قتلنا وأكلت لحومنا الطير فلا تتركوا أماكنكم وقيل هو مثل يراد به الهزيمة.(أوطأناهم) مشينا عليهم بعد أن وقعوا قتلى على الأرض.(النساء) نساء المشركين.(يشتددن) يعدون.(خلاخلهن) جمع خلخال وهو ما يوضع في الرجل من الحلي.(الغنيمة) الزموها وحوزوها.(أي قوم) يا قوم.(ظهر) غلب.(صرفت وجوههم) قلبت وحولت إلى الموضع الذي جاؤوا منه.(أخراهم) جماعتهم المتأخرة.(سجال) مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء.(مثلة) وهي قطع الأنوف وبقر البطون نحو ذلك..(يرتجز) من الرجز وهو نوع من أوزان الشعر.(هبل) اسم صنم كان في الكعبة.(العزى) تأنيث الأعز اسم صنم كان لقريش.(مولانا) ناصرنا]

رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَهُوَ آخرُ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ،فَقَالُوا:لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَتَقْتُلُونَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ،وَلَئِنْ تَرَكْتُمُوهُمْ لَيَدْخُلُنَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مَكَّةَ الْحَرَمَ فَلَيَمْتَنِعُنَّ مِنْكُمْ،فَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى قَتْلِهِمْ،فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ،وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ وَهَرَبَ الْمُغِيرَةُ،فَأَعْجَزَهُمْ،وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ،فَقَدِمُوا بِهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُمْ:وَاللهِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ،فَأَوْقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا،فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ،أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ،وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا،وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَقَالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلَاءِ:قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ الْحَرَامَ،وَأَخَذَ فِيهِ الْمَالَ،وَأَسَرَ فِيهِ الرِّجَالَ وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذلك {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢١٧].يَقُولُ:الْكُفْرُ بِاللهِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ،فَلَمَّا نَزَلَ ذَلِكَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعِيرَ وَفَدَى الْأَسِيرَيْنِ،فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:يَا رَسُولَ اللهِ! أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.وَكَانُوا ثَمَانِيَةً وَأَمِيرُهُمُ التَّاسِعُ عَبْدُ اللهِ بْنِ جَحْشٍ»"[٣١٢٦] .

والقاعدة الشرعية تقول:(الكتاب كالخطاب،أي أن الكتاب المستبين المرسوم الصادر من الغائب كالخطاب من الحاضر وكذا الإرسال،حتى إنه يعتبر فيهما مجلس بلوغ الكتاب ومجلس أداء الرسالة)[٣١٢٧].

٥ = ما يُقَيِّدُ السمع والطاعة للأمير.

يقيدهما أمران:المعصية من جهة الأمير والاستطاعة من جهة المأمور.

[٣١٢٦] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ١٨) صحيح مرسل

[٣١٢٧] - القاعدة ٦٨ من كتاب القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا ط ١ / ٢٨٥

أ = أما المعصية فقد ذكرت أدلتهما فيما سبق،فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[3128].

فلا يطيعه في المعصية ولكن لا يخرج عليه ولا يخفى أن هذا ـــ عدم الخروج على الأمير والصبر عليه ـــ هو الواجب فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ،إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[3129]

هذا كله مقيد بما إذا وقع الأمير في الكفر الصريح أو البدعة المُكَفِّرة،فعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[3130]

ولا يخفى أن هذا الحديث أيضا مُقَيَّد للأمر الوارد بالغزو مع الأمير الفاجر أي ما لم يكن فجوره كفرا أو بدعة مكفرة.

ويجدر بنا هنا التنبيه على التصرف الواجب فيما إذا حصل نزاع بين الأمير وبين أحد أتباعه،ويختلف التصرف حسب ما إذا كان الأمير له أمير أعلى منه أم لا؟

[3128] - صحيح البخاري (9/ 63)(7144)

[3129] - صحيح البخاري (9/ 47)(7054) وصحيح مسلم (3/ 1477)55 - (1849)

[3130] - صحيح البخاري (9/ 47)(7055) وصحيح مسلم (3/ 1470)42 - (1709)

[ش (بايعنا) المراد بالمبايعة المعاهدة وهي مأخوذة من البيع لأن كل واحد من المتبايعين كان يمد يده إلى صاحبه وكذا هذه البيعة تكون بأخذ الكف(إلا أن تروا كفرا بواحا) أي جهارا من باح بالشيء يبوح إذا أعلنه(عندكم من الله فيه برهان) أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمــور في ولاي تهـــم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين]

فإذا كان هذا الأمير له أمير أعلى منه،فيشتكي الأتباع أميرهم إلى أميره الأعلى،وقد سبق قريبا شكاية الصحابة أمراءَهم في الغزو (خالداً بن الوليد في سرية بني جذيمة وعبد الله بن حذافة في سريته،وعمراً بن العاص في غزوة ذات السلاسل) إلى النبي ﷺ فقضى النبي ﷺ بخطأ كلٍ من خالد وعبد الله بن حذافة وبصواب فعل عمرو.

أما إذا لم يكن للأمير أمير أعلى منه،فتؤول الخصومات بينه وبين أتباعه إلى التحكيم،يتراضيان على رجل يحكم بينهما،فعَنِ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ:أَخَذَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَرَسًا مِنْ رَجُلٍ عَلَى سَوْمٍ فَحَمَلَ عَلَيْهِ رَجُلًا فَعَطِبَ عِنْدَهُ فَخَاصَمَهُ الرَّجُلُ ، فَقَالَ عُمَرُ:" اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلًا"، فَقَالَ الرَّجُلُ:فَإِنِّي أَرْضَى بِشُرَيْحٍ الْعِرَاقِيِّ ، فَأَتَوْا شُرَيْحًا ، فَقَالَ شُرَيْحٌ لِعُمَرَ:أَخَذْتَهُ صَحِيحًا سَلِيمًا وَأَنْتَ لَهُ ضَامِنٌ حَتَّى تَرُدَّهُ صَحِيحًا سَلِيمًا ، فَأَعْجَبَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَبَعَثَهُ قَاضِيًا "[٣١٣١].

وفي الدولة المسلمة يجوز لآحاد الرعية مقاضاة الإمام فمن دونه من العمال عند القاضي.

ب = وأما الاستطاعة من جهة المأمور،فدليلها ما رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،يَقُولُ لَنَا:«فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ»[٣١٣٢].

وما رواه البخاري عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فَلَقَّنَنِي:«فِيمَا اسْتَطَعْتُ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٣١٣٣].

وعَنْ زِيَادِ بْنِ عِلاَقَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،يَقُولُ يَوْمَ مَاتَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ،قَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،وَقَالَ:عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَالوَقَارِ،وَالسَّكِينَةِ،حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ،فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الآنَ.ثُمَّ قَالَ:اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ،فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ العَفْوَ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا

[٣١٣١] - السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٤٥٠)(١٠٤٦٣) صحيح

[٣١٣٢] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧٢٠٢)

[ش (على السمع والطاعة) أن أسمع وأطيع فيما أومر به من المعروف.(فيما استطعتم) فيما يكون في طاقتكم ووسعكم قاله ﷺ إشفاقا عليهم ورحمة بهم.]

[٣١٣٣] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧٢٠٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٥)٩٩ - (٥٦)

بَعْدُ،فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ:أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلاَمِ فَشَرَطَ عَلَيَّ:«وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا،وَرَبِّ هَذَا المَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ،ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ"[3134]

وروى البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ،قَالَ:لَمَّا بَايَعَ النَّاسُ عَبْدَ المَلِكِ كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:إِلَى عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ المَلِكِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ «إِنِّي أُقِرُّ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ المَلِكِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ،فِيمَا اسْتَطَعْتُ،وَإِنَّ بَنِيَّ قَدْ أَقَرُّوا بِذَلِكَ»[3135]

والطاعة فيما يستطيعه المرء مندرجة تحت الأصل العام الوارد في قوله تعالى:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة:٢٨٦]،وقوله تعالى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:١٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ،فَانْتَهُوا،وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ،فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» قَالَ ابْنُ عَجْلَانَ:فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَانَ بْنَ صَالِحٍ،فَقَالَ لِي:مَا أَجْوَدَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَوْلَهُ:«فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [٦:٣][3136]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[3137]

[3134] - صحيح البخاري (١/ ٢١)(٥٨)

[ش (قام) أي جرير بن عبد الله وقد كان المغيرة واليا على الكوفة في خلافة معاوية رضي الله عنهم واستناب عند موته ابنه عروة وقيل استناب جرير بن عبد الله ولذا قام وخطب هذه الخطبة بعد موت المغيرة.[فتح] (الوقار) الرزانة.(السكينة) السكون والهدوء.(استعفوا) اطلبوا له العفو من الله تعالى].

[3135] - صحيح البخاري (٩/ ٧٨)(٧٢٠٥)

[3136] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ١٩٨)(١٨) صحيح

[3137] - صحيح البخاري (٩/ ٩٤)(٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٢ - (١٣٣٧)

[ش (دعوني) اتركوني ولا تسألوني.(بسؤالهم) كثرة أسئلتهم.(ما استطعتم) قدر استطاعتكم بعد الإتيان بالقدر الواجب الذي لا بد منه.قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم هذا من قواعد الإسلام ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام]

وهذا أمر يعلمه الله تعالى من العبد فإن نَكَلَ عن الطاعة مدعيا عدم الاستطاعة كاذبا،فالله مُطَّلِع عليه،{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [التوبة:٩٤].

والمقصد مما سبق أن عهود الأمراء على الطاعة ينبغي أن تقيد بهذين القيدين:المعصية من جهة الأمير والاستطاعة من جهة المأمور.

التحذير من الحرص على الإمارة والتنافس عليها:

حب الإمارة والحرص عليها مرض لا ينجو منه إلا من رحم الله تعالى.أما كونه مرضا فلأنه يفسدُ دينَ صاحبه،فعَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِه»[٣١٣٨]

والحرص على الشرف هو حب الرياسة وهو أشد من حب المال لأن الناس يبذلون المال للتوصل إلى الرياسة،وكلاهما يفسد الدين أشد من إفساد الذئبين الجائعين لحظيرة الغنم.أما كونه لا ينجو منه إلا من رحم الله فلأنه جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ،وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ،فَنِعْمَ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ»[٣١٣٩]،فدل الحديث على أن الحرص على الإمارة هو صفة الغالبية.

والحرص على الإمارة يتخذ صورا متعددة تتفاوت في شدتها،منها:

أ = التنافس فيها وقد يؤدي إلى الاقتتال بين المسلمين

عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ،فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ:أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ،قَالَ:ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ

[٣١٣٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٨/ ٢٤)(٣٢٢٨) صحيح

[٣١٣٩] - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٨)

[ش (ندامة) لمن لم يعمل فيها بما ينبغي عليه.(فنعم المرضعة) أول الإمارة لأن معها المال والجاه واللذات الحسية والوهمية.(بئست الفاطمة) آخرها لأن معه القتل والعزل والمطالبة بالتبعات يوم القيامة]

بسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالَمقْتُولُ فِي النَّارِ»،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ الَمقْتُولِ قَالَ:«إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[٣١٤٠]

فإذا كان أحدهما قد انعقدت إمارته شرعا قبل الآخر فجاء هذا ينازعه فالمتأخر هو الآثم ويدفع ولو بالقتل،فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ،قَالَ:دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ،وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ،فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ،فَقَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ،فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ،وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ،وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ،إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ:الصَّلَاةَ جَامِعَةً،فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:" إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ،وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ،وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا،وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ،وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا،وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا،وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ:هَذِهِ مُهْلِكَتِي،ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ،فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ:هَذِهِ هَذِهِ،فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ،وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ،فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ،وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ،وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ،فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ،فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ ..»[٣١٤١]..

والتاريخ مليء بالنماذج الأليمة لهذا،وبين التنافس والاقتتال درجات من التحزبات والدسائس والفتن التي تنتهي بالقتال.ولقد اقترنت النزاعات على الإمارة عادة بتسلط

[٣١٤٠] - صحيح البخاري (١/ ١٥)(٣١) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢١٣)١٤ - (٢٨٨٨)

[ش (هذا الرجل) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.(التقى المسلمان بسيفهما) أي بقصد العدوان.(في النار) أي يستحقان دخول النار.(فما بال المقتول) ما شأنه يدخل النار وقد قتل ظلما.(حريصا) عازما]

[٣١٤١] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢)٤٦ - (١٨٤٤)

[ش (ومنا من ينتضل) هو من المناضلة وهي المراماة بالنشاب(في جشره) هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها(الصلاة جامعة) هي بنصب الصلاة على الإغراء ونصب جامعة على الحال(فيرقق بعضها بعضا) هذه اللفظة رويت على أوجه أحدها وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة يرقق أي يصير بعضها رقيقا أي خفيفا لعظم ما بعده فالثاني يجعل الأول رقيقا وقيل معناه يشبه بعضه بعضا وقيل يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء وقيل معناه يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها والثاني فيرقق والثالث فيدفق أي يدفع ويصب والدفق هو الصب(وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه) هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها وإن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه]

العدو الكافر على المسلمين فعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا – أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا – حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[٣١٤٢]

فالتراع بين أمراء الشام أعقبته الحملات الصليبية الأولى،والتراع بين ملوك الطوائف بالأندلس أعقبته الحملات الصليبية التي انتهت بضياع الأندلس وإلى اليوم.ولقد كانت أحداث الأندلس صورة مريرة للصراع المُدَمِّر على المُلك،فلما تقاتل ملوك الطوائف ضعفوا فاستولى ألفونسو السادس ملك فرنسا الصليبي على طليطلة (٤٧٨ ـــ ١٠٨٥م) وهي أول مملكة إسلامية بالأندلس تسقط بأيدي الصليبيين وتتجول من دار إسلام إلى دار كفر وإلى يومنا هذا،ثم أخذ ألفونسو يزحف على بقية الممالك،فأرسل ملوكها ومنهم المعتمد بن عباد يستعينون بأمير مراكش يوسف بن تاشفين وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة،فاعترض الرشيد على رأيه وقال له:"يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا،ويبدد شملنا"،فقال المعتمد لولده:"أي بني والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى،فتقوم اللعنة علي في الإسلام؛ مثلما قامت على غيري.حرز الجمال عندي والله خير من حرز الخنازير".وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأي فيما يجب عمله "[٣١٤٣]

[٣١٤٢] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكترين الأحمر والأبيض) المراد بالكترين الذهب والفضة والمراد كترا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

[٣١٤٣] - دولة الإسلام في الأندلس (٢/ ٧٨)

ولما انتشر رأى المُعْتَمِد بن عَبَّاد فى الأَنْدَلُس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له:«الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد»،وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطرًا من النصارى،ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأَنْدَلُسيين،فأجابهم المُعْتَمِد:«رعى الجمال خير من رعى الخنازير»[٣١٤٤]

ولكن مما يؤسف له أن الصراع استمر بين الملوك ومنهم المعتمد حتى قامت الحرب بينه وبين يوسف وانتهى به الحال أسيرا عند يوسف في مراكش حتى مات بها،وضاعت الأندلس،والذي دعاني إلى ذكر هذه القصة هو أنها تتكرر في زماننا هذا ــ ولو بصورة مُصَغَّرة ــ مع الإخوة العاملين للإسلام،ترى أحدهم يأنف من أن يتأَمَّرَ عليه أخوه المسلم من أجل قيام جماعة مسلمة قوية ذات شوكة،فتبطش بهم أيدي الطواغيت وهم فرادى متفرقين،فيكون مآلهم أن ترى طائفة منهم أسرى مستسلمين لجند الطواغيت مكبلين بالحديد في قعر الزنازين يُكَال لهم السباب ويصب عليهم التعذيب سنين،وترى طائفة أخرى على أعواد المشانق،وطائفة مشردة في البلدان لا يقر لهم قرار،وطائفة قد فتنت وارتدت على أعقابها،ومع هذا كله تسمع أنين النساء والأطفال،صورة مُصغَّرة لما حدث بالأندلس من ضياع،صراع بين المسلمين ينتهي في قعر زنازين الطواغيت،قال تعالى:{ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء:٧٩]،أليس دخول المسلم في إمرة أخيه المسلم وطاعته خير له في الدنيا والآخرة من قعر زنازين الطواغيت؟ قال تعالى:{ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:٣٠]،وقال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١].

ب = ومن صور الحرص على الإمارة،طلبها:

وقد يكون الطلب صريحا أو تلميحا بأن يتحدث المرء عن مهاراته وكفاءته ويحاول إبراز هذه المهارات كلما واتته الفرصة،وقَصْدُه أن يتفطن إليه فيُوَلَّى إمارة أو عملا.وهو بنِيَّته

[٣١٤٤] – فقه التمكين عند دولة المرابطين (ص:٨٦) ونفح الطيب (٦/ ٩١).

هذه قد أفسد عمله،ولا يجوز توليته،فعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي،فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ،فَقَالَ:«إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ،وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»[٣١٤٥]

وعَنِ الحَسَنِ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ،قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ،فَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا،وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا،وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا،فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ،وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ»[٣١٤٦]

ومن هؤلاء من إذا لم ينل ما يريد تمرد على الطاعة وفارق الجماعة،وهذا من النفاق،لقوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } [التوبة:٥٨]،وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ:رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى

[٣١٤٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٦)١٤ - (١٧٣٣)

[ش (حرص) حرص بفتح الراء وكسرها والفتح أفصح وبه جاء القرآن قال الله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين]

قَالَ الْعُلَمَاءُ:وَالْحِكْمَةُ فِي أَنَّهُ لَا يُوَلَّى مَنْ سَأَلَ الْوِلَايَةَ أَنَّهُ يُوكَلُ إِلَيْهَا وَلَا)تَكُونُ مَعَهُ إِعَانَةٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ السَّابِقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ إِعَانَةٌ لَمْ يَكُنْ كُفْئًا وَلَا يُوَلَّى غَيْرُ الْكُفْءِ وَلِأَنَّ فِيهِ تُهْمَةً لِلطَّالِبِ وَالْحَرِيصِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٠٧)

[٣١٤٦] - صحيح البخاري (٩/ ٦٣)(٧١٤٧)

ومَعنَى الحَديث أَنَّ مَن طَلَبَ الإِمارَة فَأُعطِيَها تُرِكَت إِعانَته عَلَيها مِن أَجل حِرصه،ويُستَفاد مِنهُ أَنَّ طَلَب ما يَتَعَلَّق بِالحُكمِ مَكرُوه فَيَدخُل فِي الإِمارَة القَضاء والحِسبَة ونَحو ذَلِكَ وأَنَّ مَن حَرَصَ عَلَى ذَلِكَ لا يُعان.ويُعارِضهُ فِي الظّاهِر ما أَخرَجَهُ أَبُو داوُدَ عَن أَبِي هُرَيرَة رَفَعَهُ''مَن طَلَبَ قَضاء المُسلِمِينَ حَتَّى يَنالهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدله جَوره فَلَهُ الجَنَّة،ومَن غَلَبَ جَوره عَدله فَلَهُ النّار"والجَمع بَينَهُما أَنَّهُ لا يَلزَم مِن كَونه لا يُعان بِسَبَبِ طَلَبه أَن لا يَحصُلَ مِنهُ العَدل إِذا وَلِيَ''أَو يُحمَل الطَّلَب هُنا عَلَى القَصد وهُناكَ عَلَى التَّولِيَة''وقَد تَقَدَّمَ مِن حَدِيث أَبِي مُوسَى''إِنّا لا نُوَلِّي مَن حَرَصَ''ولِذَلِكَ عَبَّرَ فِي مُقابله بِالإِعانَة،فَإِنَّ مَن لَم يَكُن لَهُ مِنَ الله عَون عَلَى عَمَله لا يَكُون فِيهِ كِفايَة لِذَلِكَ العَمَل فَلا يَنبَغِي أَن يُجاب سُؤاله،ومِنَ المَعلُوم أَنَّ وِلايَة لا تَخلُو مِنَ المَشَقَّة،فَمَن لَم يَكُن لَهُ مِنَ الله إِعانَة تَوَرَّطَ فِيما دَخَلَ فِيهِ وخَسِرَ دُنياهُ وعُقباهُ،فَمَن كانَ ذا عَقل لَم يَتَعَرَّض لِلطَّلَبِ أَصلاً،بَل إِذا كانَ كافِيًا وأُعطِيها مِن غَير مَسأَلَة فَقَد وعَدَهُ الصّادِق بِالإِعانَةِ،ولا يَخفَى ما فِي ذَلِكَ مِنَ الفَضل.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٢٤)

بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ،وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ،لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ،وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللَّهُ:اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ "[٣١٤٧]

ج = وهناك من يدخل في الجماعة ثم يأنف من السمع والطاعة

وهذه من خصال الجاهلية فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ،فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٣١٤٨]

جاء في شرح مسائل الجاهلية:"من مسائل الجاهلية:أنهم لا يخضعون لولي الأمر،ويرون أن هذا ذلة،ومعصية الأمير يعتبرونها فضيلة وحرية؛ ولذلك لا يجمعهم إمام،ولا يجمعهم أمير؛ لأنهم لا يخضعون،وعندهم أنفة وكبر.فجاء الإسلام بمخالفتهم وأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر المسلم؛ لما في ذلك من المصالح،قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩] فأمر بطاعة ولاة الأمور،والرسول ﷺ حدد ذلك في غير المعصية،فقال:"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وقال:"إنما الطاعة في المعروف"،فتجب طاعة ولي الأمر في غير معصية الله،إذا أمر بمعصية فلا يطاع،لكن لا يخالف في بقية الأمور،لا يطاع في هذه المسألة خاصة التي فيها معصية،أما بقية الأمور فلا ينتقض بيعته بسبب ذلك،ولا يخالف،ما دام أنه على الإسلام؛ لما في طاعة ولاة الأمور من اجتماع الكلمة،وحقن الدماء،واستتاب الأمن،وإنصاف المظلوم من الظالم،ورد

[٣١٤٧] - صحيح البخاري (٣/ ١١٢)(٢٣٦٩) وصحيح مسلم (١/ ١٠٣)١٧٣ - (١٠٨)

وفي الحَديث وعيد شَديد فِي نَكث البَيعَة،والخُرُوج عَلَى الإمام لما فِي ذَلكَ من تَفَرُّق الكَلمَة،ولما فِي الوفاء من تَحصِين الفُرُوج والأَموال وحَقن الدِّماء.والأَصل فِي مُبايَعَة الإمام أَن يُبايِعهُ عَلَى أَن يَعمَل بِالحَقِّ ويُقِيم الحُدُود ويَأمُر بِالمَعرُوف ويَنهَى عَن المُنكَر،فَمَن جَعَلَ مُبايَعَته لِمالٍ يُعطاهُ دُونَ مُلاحَظَة المَقصُود فِي الأَصل فَقَد خَسرَ خُسرانًا مُبِينًا ودَخَلَ فِي الوعِيد المَذكُور وحاقَ بِهِ إِن لَم يَتَجاوز الله عَنهُ.وفِيهِ أَنَّ كُلّ عَمَل لا يُقصَد بِهِ وجه الله وأُرِيدَ بِهِ عَرَض الدُّنيا فَهُو فاسِد وصاحِبه آثِم،والله المُوَفِّق .فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٢٠٣)

[٣١٤٨] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٣)

[ش(كره من أميره شيئا) رأى منه ما يكره وينكر في شرع الله عز وجل أو ما يسيئه هو ويكرهه.(خرج من السلطان) من طاعته.(شبرا) قدر شبر وهو كناية عن عدم الطاعة بأدنى شيء.(جاهلية) كموت أهل الجاهلية من حيث إنهم لم يعرفوا طاعة الإمام]

الحقوق إلى أصحابها،والحكم بين الناس بالعدل،حتى ولو كان ولي الأمر غير مستقيم في دينه،حتى ولو كان فاسقاً،ما لم يصل إلى الكفر،كما قال ﷺ:"اسمعوا وأطيعوا،إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم عليه من الله برهان"،فما دامت معاصيه دون الكفر،فإنه يُسمع له ويطاع،وفسقه على نفسه،لكن ولايته وطاعته لمصلحة المسلمين." [٣١٤٩]

د = وهناك من يتظاهر بالطاعة ويُبَيِّت العصيان والإفساد

وهذا أيضا من النفاق،لقوله تعالى:{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [النساء:٨١]

يُظْهِرُ لَكَ هَؤُلاءِ المُنَافِقُونَ الخُضُوعَ لأَمْرِكَ،وَالاسْتِعْدَادَ وَالانْقِيَادَ،لِيَأمَنُوا عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ،وَتَوَارَوْا عَنْ أَنْظَارِكَ،اسْتَسَرُّوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ،وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يُبَيِّتُونَ مِنْ مُخَالَفَتِكَ،وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمُ الكَتَبَةُ الحَافِظُونَ،فَاصْفَحْ عَنْهُمْ،وَاحْلُمْ عَلَيهِمْ،وَلا تُؤاخِذْهُمْ،وَلاَ تَكْشِفْ لِلنَّاسِ أمُورَهُمْ (أَعْرِضْ عَنْهُمْ)،وَلا تَخَفْ مِنْهُمْ،وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ،وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَنَاصِراً. [٣١٥٠]

وهذا الصنف تراه لإثارة الأتباع على الأمير متلمسا أوهى الأسباب ككون الأمير ذا أثرة أو كونه مفضولا دينا أو صغير السن ونحو ذلك ....

هـ = ومن الناس من يطيع في المنشط دون المكره:

فإذا كُلِّف بأمر شاق أو بما لا يهوى عصى،ومنهم من يطيع في اليسر وسعة النفقة فإذا كان العسر وضاق الحال عصى،وقد يكون العصيان صريحا أو ضمنيا.

وهذه النماذج وأكثر منها موجود في التجمعات الإسلامية وتسبب فسادا لا يخفى،وقد وُجدَ بعضها في زمن النبي ﷺ كما في قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } [التوبة:٥٨]،وقوله

[٣١٤٩] - شرح مسائل الجاهلية (ص:٤٧) ومسائل الجاهلية (ص:٧) وشرح مسائل الجاهلية للحازمي (٤/ ١١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣١٥٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٤،بترقيم الشاملة آليا)

تعالى:{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [النساء:٨١]

يُظْهِرُ لَكَ هَؤُلاءِ المُنَافِقُونَ الخُضُوعَ لأَمْرِكَ،وَالاسْتِعْدَادَ وَالانْقِيَادَ،لِيَأمَنُوا عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ،وَتَوَارَوْا عَنْ أَنْظَارِكَ،اسْتَسَرُّوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ،وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يُبَيِّتُونَ مِنْ مُخَالَفَتِكَ،وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمُ الكَتَبَةُ الحَافِظُونَ،فَاصْفَحْ عَنْهُمْ،وَاحْلُمْ عَلَيهِمْ،وَلا تُؤاخِذْهُمْ،وَلاَ تَكْشِفْ لِلنَّاسِ أمُورَهُمْ (أَعْرِضْ عَنْهُمْ)،وَلا تَخَفْ مِنْهُمْ،وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ،وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَنَاصِراً.[3151]

فكيف بالحال من بعده ﷺ .

هذا وقد فَصَّلت مسألة السمع والطاعة لولاة الأمور،ذلك لأنها الركن الركين في سياسة الجيوش وتنفيذ المهام،والتفريط فيها قد يدمر الجيش كله،قال تعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٥]،وكلنا يعلم ما أصاب المسلمين يوم أحد بسبب معصية الرماة لأمر النبي ﷺ .فكانت المصيبة عامة و لم ينج منها حتى رسول الله ﷺ أصيب بعدة جراحات يومئذ.

وأذكر الإخوة المسلمين بأن الطاعة هي التي تجعل من جيوش الكفرة قوة متسلطة على رقاب المسلمين في أنحاء الأرض،فكيف يكون شأنهم ونظل نحن متفرقين مختلفين مع أننا نتعبد لله بالجماعة وبالسمع والطاعة فعَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ،أَنَّ أَبَا سَلَّامٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ الحَارِثَ الأَشْعَرِيَّ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا،وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا،فَقَالَ عِيسَى:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا،فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ،وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ،فَقَالَ يَحْيَى:أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ،فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ،فَامْتَلَأَ المَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ،فَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ،وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ،فَقَالَ:هَذِهِ

[3151] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٤،بترقيم الشاملة آليا)

دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ،فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ،فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ،فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ،وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ،فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ،فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا،وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ،وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ،فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ،فَقَالَ:أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ،فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ،وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ،كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ "،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ،السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ،فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ،وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ:«وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ،فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ،عِبَادَ اللَّهِ»[٣١٥٢].

ومع أننا كما قال الله تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٠٤]،وقال الله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال:٧٣]،وقال تعالى:{ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:٣٦].

[٣١٥٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٤٩)(٢٨٦٣) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:«الْأَمْرُ بِالْجَمَاعَةِ بِلَفْظِ الْعُمُومِ،وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخَاصُّ،لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ إِجْمَاعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَمَنْ لَزِمَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَشَذَّ عَنْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِشَاقٍّ لِلْجَمَاعَةِ،وَلَا مُفَارِقٍ لَهَا،وَمَنْ شَذَّ عَنْهُمْ وَتَبِعَ مَنْ بَعْدَهُمْ كَانَ شَاقًّا لِلْجَمَاعَةِ،وَالْجَمَاعَةُ بَعْدَ الصَّحَابَةِ هُمْ أَقْوَامٌ اجْتَمَعَ فِيهِمُ الدِّينُ وَالْعَقْلُ وَالْعِلْمُ،وَلَزِمُوا تَرْكَ الْهَوَى فِيمَا هُمْ فِيهِ،وَإِنْ قَلَّتْ أَعْدَادُهُمْ،لَا أَوْبَاشُ النَّاسِ وَرِعَاعُهُمْ،وَإِنْ كَثُرُوا،وَالْحَارِثُ الْأَشْعَرِيُّ هَذَا:هُوَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ،اسْمُهُ الْحَارِثُ بْنُ مَالِكٍ،مِنْ سَاكِنِي الشَّامِ»صحيح ابن حبان - مخرجا (١٤/ ١٢٦)

إن طاعة الأمير من طاعة الرسول ﷺ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى فعَنِ الزُّهْرِيِّ،أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ،وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي،وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»[٣١٥٣]

وكذلك معصية الأمير.وهذا ينطبق على كل أمير تولى بأمر الشارع وشريعته،حتى أمير الثلاثة في السفر،إذ قد سَمَّاه النبي ﷺ أميرا،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ» قَالَ نَافِعٌ:فَقُلْنَا لِأَبِي سَلَمَةَ:فَأَنْتَ أَمِيرُنَا"[٣١٥٤] قال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأنفال:١]،وقال تعالى:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال:٤٦].

وهذا أول ما يلزم الأعضاء في حق الأمير عليهم،وهي الطاعة،وثاني ما يلزمهم:

الثاني:النصح للأمير.

وفيه:

١ = دليله.

٢ = مما يدخل في نصح ولاة الأمور.

٣ = تنبيه.

٤ = والأفضل نصح الأمير سرا.

١ = دليله.

أ = عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا:لِمَنْ؟ قَالَ:«لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٣١٥٥].

[٣١٥٣] - صحيح البخاري (٩/ ٦١)(٧١٣٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٦٦)٣٢ - (١٨٣٥)

[ش (أميري) هو كل من يتولى على المسلمين ويعمل فيهم بما شرعه رسول الله ﷺ]

[٣١٥٤] - سنن أبي داود (٣/ ٣٦)(٢٦٠٩) صحيح

[٣١٥٥] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٥ - (٥٥)

ب = عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا،فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ،وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ،ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ:إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ،وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ،فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ "[٣١٥٦].

ج = عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا،وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا،يَرْضَى لَكُمْ:أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا،وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ،وَيَكْرَهُ لَكُمْ:قِيلَ وَقَالَ،وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ،وَإِضَاعَةَ الْمَالِ "[٣١٥٧].

(أَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ)،وَهُوَ الْإِمَامُ،وَنُوَّابُهُ بِمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ،وَطَاعَتِهِ فِيهِ،وَأَمْرِهِمْ بِهِ،وَتَذْكِيرِهِمْ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ،وَإِعْلَامِهِمْ بِمَا غَفَلُوا عَنْهُ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ،وَتَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ،وَالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ،وَبِتَأَلُّفِ قُلُوبِ النَّاسِ لِطَاعَتِهِمْ،وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ،وَالْجِهَادِ مَعَهُمْ،وَأَدَاءِ الصَّدَقَاتِ لَهُمْ،وَأَنْ لَا يُطْرُوا بِالثَّنَاءِ الْكَاذِبِ،وَأَنْ يُدْعَى لَهُمْ بِالصَّلَاحِ،وَقِيلَ:هُمُ الْعُلَمَاءُ،فَنَصِيحَتُهُمْ قَبُولُ مَا رَوَوْهُ،وَتَقْلِيدُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ،وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِمْ.[٣١٥٨]

٢ = مما يدخل في نصح ولاة الأمور.

[ش (الدين النصيحة) قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله الحج عرفة أي عماده ومعظمه عرفة (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشريك عنه وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصح نفسه فالله سبحانه وتعالى غني عن نصح الناصح وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابه وأما النصيحة لرسول الله ﷺ فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به والمراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمور فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم]

[٣١٥٦] - مسند الشافعي (ص:٢٤٠) صحيح

[٣١٥٧] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٥٨)(٤٤٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٠)١٠ - (١٧١٥)

[٣١٥٨] - شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٦٥٢)

أ = قال النووي:["وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَطَاعَتُهُمْ فيه وأمرهم به وتنبيهم وَتَذْكِيرُهُمْ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ وَإِعْلَامُهُمْ بِمَا غَفَلُوا عَنْهُ وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْكُ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ وَتَأَلُّفُ قُلُوبِ النَّاسِ لِطَاعَتِهِمْ قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمِنَ النَّصِيحَةِ لَهُمُ الصَّلَاةُ خَلْفَهُمْ وَالْجِهَادُ مَعَهُمْ وَأَدَاءُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِمْ وَتَرْكُ الْخُرُوجِ بِالسَّيْفِ عَلَيْهِمْ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ حَيْفٌ أَوْ سُوءُ عِشْرَةٍ وَأَنْ لَا يُغَرُّوا بِالثَّنَاءِ الْكَاذِبِ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُدْعَى لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْخُلَفَاءُ وَغَيْرُهُمْ ممن يقوم بأمور المسملين مِنْ أَصْحَابِ الْوِلَايَاتِ وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ "][3159] .

ب = ومما يدخل في النصح الإشارة على الأمير بما يخفى عليه من الأمور التي يحيط بها غيره.

ج = ومما يدخل فيه أيضا إخبار الأمير بكل ما يؤدي إلى إفساد الجماعة أو تفريق شملها كوجود بعض العناصر السيئة أو المفسدة ونحو ذلك،وعلى الأمير التثبت والتحقق قبل التصرف،لقوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [الحجرات:٦].ودليل هذا ما يلي:

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ رَجُلٌ فِي غزوة تبوك في مجلس مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرائنا هَؤُلَاءِ،أرغبَ بُطُونًا،وَلَا أكذبَ أَلْسُنًا،وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ.فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ:كذبتَ،وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ.لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ.قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:وَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تنكُبُه الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:{أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}[3160] .

وموضع الاستشهاد هو قول الصحابي للمنافق:(ولأخبرن رسول الله ﷺ) فهذا من النصح للأئمة ليس من الغيبة.

[3159] - شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٨)

[3160] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٧١) صحيح

وما رواه البخاري عَنْ زَيْد بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ عَمِّي،فَسَمعْتُ عَبْدَ اللَّه بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ:لاَ تُنْفقُوا عَلَى مَنْ عنْدَ رَسُول اللَّه حَتَّى يَنْفَضُّوا،وَقَالَ أَيْضًا:لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدينَة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منْهَا الأَذَلَّ،فَذَكَرْتُ ذَلكَ لعَمِّي،فَذَكَرَ عَمِّي لرَسُول اللَّه ﷺ،فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى عَبْد اللَّه بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابه،فَحَلَفُوا مَا قَالُوا،فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَكَذَّبَني،فَأَصَابَني هَمٌّ لَمْ يُصبْني مثْلُهُ قَطُّ،فَجَلَسْتُ في بَيْتي،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافقُونَ} [المنافقون:١] إِلَى قَوْله {هُمُ الَّذينَ يَقُولُونَ:لاَ تُنْفقُوا عَلَى مَنْ عنْدَ رَسُول اللَّه} [المنافقون:٧] إِلَى قَوْله {لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون:٨] فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ،ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ»[٣١٦١].

وكان ذلك أثناء غزوة بني المصطلق على خلاف.وقال ابن حجر:[وفي الحَديث منَ الفَوائد تَرك مُؤاخَذَة كُبَراء القَوم بالهَفَوات لئَلاَّ يَنفر أَتباعهم والاقتصار عَلَى مُعاتَباهم وقَبُول أَعذارهم وتَصديق أَيماهم وإِن كانَت القَرائن تُرشد إِلَى خلاف ذَلكَ،لما في ذَلكَ منَ التَّأنيس والتَّأليف.وفيه جَواز تَبليغ ما لا يَجُوز للمَقُول فيه،ولا يُعَدّ نَميمَة مَذمُومَة إِلاَّ إِن قَصَدَ بذَلكَ الإِفساد المُطلَق،وأَمّا إِذا كانَت فيه مَصلَحَة تُرَجَّح عَلَى المَفسَدَة فَلا.][٣١٦٢].

وموضع الاستشهاد من هذا الخبر هو إخبار زيد بن أرقم للنبي ﷺ بما قاله عبد الله بن أُبَي لإفساد قلوب الصحابة بعضهم على بعض كما في سياق القصة وذلك بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار.ويكفينا في جواز ما فعله زيد،قول النبي ﷺ له:«إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ».

ومثل هذا ما رواه البخاري عَنْ عَبْد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ،آثَرَ النَّبيُّ ﷺ أُنَاسًا في القسْمَة،فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مائَةً مـنَ الإِبـل،وَأَعْطَى عُيَيْنَـةَ مثْـلَ ذَلكَ،وَأَعْطَى أُنَاسًا منْ أَشْرَاف العَرَب فَآثَرَهُمْ يَوْمَئذ في القسْمَة،قَالَ رَجُلٌ:وَاللَّه إِنَّ هَذه القسْمَةَ مَا عُدلَ فيهَا،وَمَـا أُرِيـدَ بِهَـا وَجْـهُ اللَّـه،فَقُلْتُ:وَاللَّـه لَـأُخْبِرَنَّ النَّبـيَّ

[٣١٦١] - صحيح البخاري (٦/ ١٥٢)(٤٩٠١)

[٣١٦٢] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٦٤٦)

ﷺ،فَأَتَيْتُهُ،فَأَخْبَرْتُهُ،فَقَالَ:«فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» [٣١٦٣].

قال ابن حجر:[وفِي هَذا الحَديث جَواز إخبار الإمام وأَهل الفَضل بما يُقال فِيهِم مِمّا لا يَليق بِهِم لِيُحَذِّرُوا القائِل وفيه بَيان ما يُباح مِنَ الغِيبَة والنَّمِيمَة لأَنَّ صُورَهما مَوجُودَة فِي صَنِيع ابن مَسعُود هَذا ولَم يُنكِرهُ النَّبِيّ ﷺ،وذَلِكَ أَنَّ قَصد ابن مَسعُود كانَ نُصح النَّبِيّ ﷺ وإِعلامه بِمَن يَطعَن فِيهِ مِمَّن يُظهِر الإِسلام ويُبطِن النِّفاق لِيَحذَر مِنهُ،وهَذا جائِز كَما يَجُوز التَّجَسُّس عَلَى الكُفّار لِيُؤمَن مِن كَيدهم،وقَد ارتَكَبَ الرَّجُل المَذكُور بِما قالَ إِثمًا عَظِيمًا فَلَم يَكُن لَهُ حُرمَة.

وفِيهِ أَنَّ أَهل الفَضل قَد يُغضِبهُم ما يُقال فِيهِم مِمّا لَيسَ فِيهِم،ومَعَ ذَلِكَ فَيَتَلَقَّونَ ذَلِكَ بِالصَّبرِ والحِلم كَما صَنَعَ النَّبِيّ ﷺ اقتداءًا بِمُوسَى عَلَيهِ السَّلام،وأَشارَ بِقَولِهِ:"قَد أُوذِيَ مُوسَى" إِلَى قَوله تَعالَى:{يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالَّذِينَ آذَوا مُوسَى "] [٣١٦٤].

وعنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:كُنْتُ أُقْرِئُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ،فَلَمَّا كَانَ آخِرُ حَجَّةٍ حَجَّهَا عُمَرُ،فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِمِنًى:لَوْ شَهِدْتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ قَالَ:إِنَّ فُلاَنًا يَقُولُ:لَوْ مَاتَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ لَبَايَعْنَا فُلاَنًا،فَقَالَ عُمَرُ:«لَأَقُومَنَّ العَشِيَّةَ،فَأُحَذِّرَ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ»،قُلْتُ:لاَ تَفْعَلْ،فَإِنَّ المَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ،يَغْلِبُونَ عَلَى مَجْلِسِكَ،فَأَخَافُ أَنْ لاَ يُنْزِلُوهَا عَلَى وَجْهِهَا،فَيُطِيرُ بِهَا كُلُّ مُطِيرٍ،فَأَمْهِلْ حَتَّى تَقْدَمَ المَدِينَةَ دَارَ الهِجْرَةِ وَدَارَ السُّنَّةِ،فَتَخْلُصَ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ،فَيَحْفَظُوا مَقَالَتَكَ وَيُنْزِلُوهَا عَلَى وَجْهِهَا،فَقَالَ:«وَاللَّهِ لَأَقُومَنَّ بِهِ فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ»،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَقَدِمْنَا

[٣١٦٣] - صحيح البخاري (٤/ ٩٥)(٣١٥٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٩)١٤٠ - (١٠٦٢)

[ش (آثر أناسا) اختارهم وخصهم بشيء عن غيرهم.(القسمة) أي قسمة الغنيمة.(رجل) قيل هو معتب بن قشير وهو من المنافقين]

[٣١٦٤] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ٥١٢)

المَدِينَةَ،فَقَالَ:«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ،فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ آيَةُ الرَّجْمِ»[٣١٦٥]

قال ابن حجر في شرحه:[وفيه جَواز إخبار السُّلطان بكَلامِ مَن يُخشَى منهُ وُقُوع أَمر فيه إفسادٌ للجَماعَة ولا يُعَدّ ذَلكَ منَ النَّميمَة المَذمُومَة،لكنَّ مَحَلّ ذَلكَ أَن يُبهمهُ صَونًا لَهُ وجَمعًا لَهُ بَين المَصلَحَتَين،ولَعَلَّ الواقع في هَذه القصَّة كانَ كَذَلكَ واكتَفَى عُمَر بالتَّحذير من ذَلكَ ولَم يُعاقب الَّذي قالَ ذَلكَ ولا مَن قيلَ عَنهُ][٣١٦٦].

جواز الغيبة في أمور :

وقال الإمام النووي رحمه الله:"اعْلَمْ أنَّ الغِيبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرْعِيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ إلاَّ بهَا، وَهُوَ ستَّةُ أَسْبَاب:

الأَوَّلُ:التَّظَلُّمُ، فَيَجُوزُ للمَظْلُومِ أنْ يَتَظَلَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهِما مِمَّنْ لَهُ وِلاَيَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إنْصَافه منْ ظَالمه، فيقول:ظَلَمَني فُلاَنٌ بكذا.

الثَّاني:الاسْتعانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ المُنْكَرِ، وَرَدِّ العَاصِي إِلَى الصَّوابِ، فيقولُ لِمَنْ يَرْجُو قُدْرَتَهُ عَلَى إزالَة المُنْكَرِ:فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فازْجُرْهُ عَنْهُ ونحو ذَلِكَ ويكونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلُ إِلَى إزالَة المُنْكَرِ، فَإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلكَ كَانَ حَرَاماً.

الثَّالثُ:الاسْتفْتَاءُ، فيقُولُ للمُفْتي:ظَلَمَني أَبي، أَوْ أخي، أَوْ زوجي، أَوْ فُلانٌ بكَذَا، فَهَلْ لَهُ ذَلكَ؟ وَمَا طَريقي في الخلاصِ منْهُ، وتَحْصيلِ حَقِّي، وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟ وَنَحْو ذَلِكَ، فهذا جَائِزٌ للْحَاجَة، ولكنَّ الأحْوطَ والأفضَلَ أنْ يقول:مَا تقولُ في رَجُلٍ أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ، كَانَ منْ أمْرِه كذا، فَإنَّهُ يَحْصُلُ به الغَرَضُ منْ غَيرِ تَعْيينٍ وَمَعَ ذَلِكَ، فالتَّعْيينُ جَائِزٌ كَمَا سَنَذْكُرُهُ في حَديث هِنْد إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرَّابعُ:تحذير المسلمين مِنَ الشَّرِّ وَنَصيحَتُهُمْ، وذَلكَ منْ وُجُوه:

منْهَا:جَرْحُ المَجْرُوحينَ مِنَ الرُّواةِ والشُّهُودِ، وذلكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المُسْلمينَ، بَلْ وَاجبٌ للْحَاجَة.

[٣١٦٥] - صحيح البخاري (٩/ ١٠٣)(٧٣٢٣)

[٣١٦٦] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٢/ ١٥٤)

ومنها:الْمُشَاوَرَةُ فِي مُصاهَرَةِ إِنْسان، أو مُشاركته، أَوْ إيداعه، أو معاملته، أوغير ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِه، ويجبُ عَلَى المشاوَر أنْ لا يخفي حاله، بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها:إِذَا رأى مُتَفَقِّهاً يَتَرَدَّدُ إِلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ فَاسِقٍ يَأْخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وخَافَ أَنْ يَتَضَرَّرَ الْمُتَفَقِّهُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْهِ نَصِيحَتُهُ بِبَيانِ حَالِه، بِشَرْطِ أَنْ يَقْصِدَ النَّصِيحَةَ، وَهَذا مِمَّا يُغلَطُ فيه.وَقَدْ يَحملُ الْمُتَكَلِّمَ بِذلِكَ الحَسَدُ، وَيُلَبِّسُ الشيطان عَلَيْهِ ذَلِكَ، ويُخَيْلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ نَصِيحَةٌ فَلْيُتَفَطَّنْ لذلك.

ومنها:أن يكون له ولاية لايقوم بها على وجهها،إما بأن لايكون صَالحاً لَهَا،وإما بأنْ يكونَ فَاسقاً، أَوْ مُغَفَّلاً، وَنَحوَ ذَلِكَ فَيَجبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ لَهُ عَلَيْهِ ولايةٌ عامَّةٌ لِيُزيلَهُ، وَيُوَلِّيَ مَنْ يُصْلِحُ، أَوْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حالِهِ، وَلاَ يَغْتَرَّ بِهِ، وأَنْ يَسْعَى فِي أَنْ يَحُثَّهُ عَلَى الاسْتِقَامَة أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ.

الخامسُ:أَنْ يَكُونَ مُجَاهِراً بِفِسْقِه أَوْ بِدْعَتِه كَالْمُجَاهِرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ؛ وجِبَايَةِ الأَمْوَالِ ظُلْماً وَتَوَلِّي الأمُورِ الباطِلَة، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ؛ وَيَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلاَّ أَنْ يكونَ لِجَوازِهِ سَبَبٌ آخر مما ذكرناه.

السَّادسُ:التعريفُ، فإذا كَانَ الإِنْسانُ مَعْرُوفاً بِلَقَبٍ، كالأَعْمَشِ، والأعرَجِ، والأَصَمِّ، والأعْمى، والأَحْوَلِ، وغَيْرِهِمْ جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفهم بِغَيرِ ذَلِكَ كَانَ أَوْلَى.

فهذه سِتَّةُ أسبابٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ وأكثَرُها مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلائِلُهَا مِنَ الأَحاديثِ الصَّحيحَةِ مشهورَةٌ..[٣١٦٧]

وقال ابن تيمية رحمه الله ــ في سياق كلامه عن جواز اغتياب الشخص المعين ــ قال [وفِي مَعْنَى هَذَا نُصْحُ الرَّجُلِ فِيمَنْ يُعَامِلُهُ وَمَنْ يُوَكِّلُهُ وَيُوَصِّي إلَيْهِ وَمَنْ يَسْتَشْهِدُهُ؛ بَلْ وَمَنْ يَتَحَاكَمُ إلَيْهِ.وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي مَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ فَكَيْفَ بِالنُّصْحِ فِيمَا

[٣١٦٧] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣١/ ٣٣٥) ورياض الصالحين ط الرسالة (ص:٤٣٢)

يَتَعَلَّقُ بِهِ حُقُوقُ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ:مِنْ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ وَالشُّهُودِ وَالْعُمَّالِ:أَهْلِ الدِّيوَانِ وَغَيْرِهِمْ؟ فَلَا رَيْبَ أَنَّ النُّصْحَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ][٣١٦٨].

٣ = تنبيه.

لا تعارض بين ما ذكرته آنفا من إبلاغ الأمير بأمر من يُحدث فتنة أو فسادا في الصف وبين حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا،فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[٣١٦٩].

فإن حديث ابن مسعود هذا هو الأصل وقد أورده النووي في رياض الصالحين في باب (باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إِلَى ولاة الأمور إِذَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ حاجة كخوف مفسدة ونحوه)[٣١٧٠] فالأصل هو النهي عن نقل أحوال الناس إلى ولاة الأمور،والاستثناء من هذا الأصل هو إذا دعت الحاجة إلى نقل أحوالهم لدرء المفاسد والفتن وكشف المفسدين،وقد ذكرت أدلة هذا آنفا.

بل قد قال ابن حجر:[ونَقَلَ ابن التِّين عَن أَشهَب أَنَّهُ''يَنبَغِي لِلحاكِمِ أَن يَتَّخِذ مَن يَستَكشِف لَهُ أَحوال النّاس فِي السِّرِّ،وليَكُن ثِقَة مَأمُونًا فَطِنًا عاقِلاً''لأَنَّ المُصِيبَة إِنَّما تَدخُل عَلَى الحاكِم المَأمُون مِن قَبُوله قَول مَن لا يُوثَق بِهِ إِذا كانَ هُو حَسَن الظَّنّ بِهِ فَيَجِب عَلَيهِ أَن يَتَثَبَّتَ فِي مِثل ذَلِكَ.][٣١٧١].

قلت:" إن نقل الحديث إذا ترتب عليه مصلحة شرعية للمنقول إليه كإنقاذه من قاتل،أو لص،أو غير ذلك،أو كان فيه مصلحة للمسلمين،فإنه يكون مستحبّاً،أو واجباً على حسب ما يقتضيه الحال"[٣١٧٢]

٤ = والأفضل نصح الأمير سرا.

[٣١٦٨] - مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٠٩) والمنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص:١٧٤) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٠)

[٣١٦٩] - سنن أبي داود (٤/ ٢٦٥)(٤٨٦٠) ضعيف فيه جهالة)

[٣١٧٠] - رياض الصالحين ت الفحل (ص:٤٢٩)

[٣١٧١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٩٠)

[٣١٧٢] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٤٥)

دليل ذلك ما جاء عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ،أَنَّ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ قَالَ لِعِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ عِيَاضٌ لِهِشَامٍ:قَدْ سَمِعْتُ مَا سَمِعْتَ،وَرَأَيْتُ مَا رَأَيْتَ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُبْدِهِ لَهُ عَلَانِيَةً،وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُو بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ وَإِلَّا فَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ»[٣١٧٣].

وعَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ،قَالَ:قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ:أَخَذَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ صَاحِبَهُ دَارًا حِينَ فُتِحَتْ فَوَقَفَ عَلَيْهِ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ،فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ حَتَّى غَضِبَ،ثُمَّ مَكَثَ لَيَالٍ فَأَتَاهُ هِشَامٌ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ،قَالَ هِشَامٌ لِعِيَاضٍ:إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا أَشَدُّهُمْ عَلَى النَّاسِ "،فَقَالَ عِيَاضٌ لِهِشَامٍ:قَدْ سَمِعْنَا مَا سَمِعْتَ،وَرَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ،أَوَلَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِهِ لَهُ عَلَانِيَةً،وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُو بِهِ،فَإِنْ كَانَ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ،وَإِلَّا قَدْ كَانَ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ "،إِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَى سُلْطَانٍ،فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ السُّلْطَانُ،فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللهِ ؟"[٣١٧٤]

وهناك دليل أخر على نصح الأئمة سرا،وهو ما رواه البخاري عَنْ سُلَيْمَانَ،سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ،قَالَ:قِيلَ لِأُسَامَةَ:أَلاَ تُكَلِّمُ هَذَا؟ قَالَ:قَدْ كَلَّمْتُهُ مَا دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفْتَحُهُ،وَمَا أَنَا بِالَّذِي أَقُولُ لِرَجُلٍ،بَعْدَ أَنْ يَكُونَ أَمِيرًا عَلَى رَجُلَيْنِ:أَنْتَ خَيْرٌ،بَعْدَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ،فَيَطْحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ

[٣١٧٣] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٥٤)(١١٣) والسنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٢١)(١٠٩٦) صحيح

[٣١٧٤] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ٢١٦٢)(٥٤٢٥) صحيح

هذا الحديث تعارضه أحاديث أخر،فإن سبيل الجمع بينه وبين الأحاديث التي تعارضه أن يحمل ما ورد في شأن الإسرار على ما كان من النصيحة في مخالفات الحاكم القاصرة عليه،وما ورد في الإعلان على المنكر المتعدي كالظلم وإشاعة الفساد ونحو ذلك،ولم يزل العلماء يوفقون بين النصوص التي يظن بينها تعارض على هذا النحو،كما قيل في التوفيق بين أحاديث استقبال القبلة واستدبارها في قضاء الحاجة،ونقض الوضوء بلمس الذكر،وصلاة المأمومين إذا صلى الإمام جالساً،وأحاديث نفي العدوى مع الأمر بالفرار من المجذوم،وما ورد في المخابرة في باب المزارعة،ونحوها كثير،وأما إلغاء النصوص التي عضدها عمل الفقهاء وعادة العلماء وتعطيل دلالاتها،والتمسك بنص واحد دون سواه رضوخاً لضغط الواقع،ثم تأويل الشرع ليوافقه،فليس من صنيع أهل الفقه والتحقيق.الحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:١٣٩)

الحِمَارِ بِرَحَاهُ،فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ:أَيْ فُلاَنُ،أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ:إِنِّي كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ أَفْعَلُهُ،وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَفْعَلُهُ "[3175]

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:قِيلَ لَهُ:أَلَا تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟ فَقَالَ:أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ،وَلَا أَقُولُ لِأَحَدٍ،يَكُونُ عَلَيَّ أَمِيرًا:إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَيُلْقَى فِي النَّارِ،فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ،فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى،فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ،فَيَقُولُونَ:يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ:بَلَى،قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ،وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ "[3176]

قال ابن حجر:[قَوله:"قَد كَلَّمته ما دُونَ أَن أَفتَح بابًا" ؛ أَي كَلَّمته فِيما أَشَرتُم إِلَيه،لَكِن عَلَى سَبِيل المَصلَحَة والأَدَب فِي السِّرّ بِغَيرِ أَن يَكُون فِي كَلامِي ما يُثِير فِتنَة أَو نَحوها .

يَعنِي لا أُكَلِّمهُ إِلاَّ مَعَ مُراعاة المَصلَحَة بِكَلامٍ لا يَهِيج بِهِ فِتنَة.

قالَ المُهَلَّب:أَرادُوا مِن أُسامَة أَن يُكَلِّمَ عُثمان وكانَ مِن خاصَّته ومِمَّن يَخِفّ عَلَيهِ فِي شَأن الوَلِيد بن عُقبَة لأَنَّهُ كانَ ظَهَرَ عَلَيهِ رِيح نَبِيذ وشُهِرَ أَمره وكانَ أَخا عُثمان لأُمِّهِ وكانَ يَستَعمِلهُ،فَقالَ أُسامَة:قَد كَلَّمته سِرًّا دُونَ أَن أُفتَح بابًا،أَي باب الإِنكار عَلَى الأَئِمَّة عَلانِيَة خَشيَة أَن تَفتَرِق الكَلِمَة .ثُمَّ عَرَّفَهُم أَنَّهُ لا يُداهِن أَحَدًا ولَو كانَ أَمِيرًا بَل يَنصَح لَهُ فِي السِّرّ جَهدَهُ،وذَكَرَ لَهُم قِصَّة الرَّجُل الَّذِي يُطرَح فِي النّار لِكَونِهِ كانَ يَأمُر بِالمَعرُوف ولا يَفعَلهُ لِيَتَبَرَّأ مِمّا ظَنُّوا بِهِ مِن سُكُوته عَن عُثمان فِي أَخِيهِ انتَهَى مُلَخَّصًا.

[3175] - صحيح البخاري (9/ 55)(7098) [ش (فيطيف به أهل النار) يجتمعون حوله ويتحلقون]

[3176] - صحيح مسلم (4/ 2290)51 - (2989)

[ش (أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم) معناه أتظنون أني لا أكلمه إلا وأنتم تسمعون (ما دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه) يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه (فتندلق أقتاب بطنه) قال أبو عبيد الأقتاب الأمعاء قال الأصمعي واحدها قتبة وقال غيره قتب وقال ابن عيينة هي ما استدار في البطن وهي الحوايا والأمعاء وهي الأقصاب واحدها قصب والاندلاق خروج الشيء من مكانه]

وجَزمه بِأَنَّ مُراد مَن سَأَلَ أُسامَة الكَلام مَعَ عُثمان أَن يُكَلِّمهُ فِي شَأن الوليد ما عَرَفت مُستَنَده فِيه،وسِياق مُسلِم مِن طَرِيق جَرِير،عَنِ الأَعمَش يَدفَعُهُ،ولَفظه عَن أَبِي وائِل"كُنّا عِندَ أُسامَة بن زَيد فَقالَ لَهُ رَجُل:ما يَمنَعك أَن تَدخُل عَلَى عُثمان فَتُكَلِّمهُ فِيما يَصنَع" قالَ وساقَ الحَدِيث بِمِثلِهِ.

وجَزَمَ الكَرمانِيُّ بِأَنَّ المُراد أَن يُكَلِّمَهُ فِيما أَنكَرَهُ النّاس عَلَى عُثمان مِن تَولِيَة أَقارِبه وغَير ذَلِكَ مِمّا اُشتُهِرَ،وقَوله إِنَّ السَّبَب فِي تَحدِيث أُسامَة بِذَلِكَ لِيَتَبَرَّأَ مِمّا ظَنُّوهُ بِهِ لَيسَ بِواضِحٍ،بَل الَّذِي يَظهَر أَنَّ أُسامَة كانَ يَخشَى عَلَى مَن وُلِّيَ وِلايَة ولَو صَغُرَت أَنَّهُ لا بُدَّ لَهُ مِن أَن يَأمُر الرَّعِيَّة بِالمَعرُوفِ ويَنهاهُم عَن المُنكَر ثُمَّ لا يَأمَن مِن أَن يَقَع مِنهُ تَقصِير،فَكانَ أُسامَة يَرَى أَنَّهُ لا يَتَأَمَّر عَلَى أَحَد،وإِلَى ذَلِكَ أَشارَ بِقَولِهِ:"لا أَقُول لِلأَمِيرِ إِنَّهُ خَير النّاس" أَي بَل غايَته أَن يَنجُو كَفافًا.

وقالَ عِياض:مُراد أُسامَة أَنَّهُ لا يَفتَح باب المُجاهَرَة بِالنَّكِيرِ عَلَى الإِمام لِما يَخشَى مِن عاقِبَة ذَلِكَ،بَل يَتَلَطَّف بِهِ ويَنصَحهُ سِرًّا فَذَلِكَ أَجدَر بِالقَبُولِ.

وقَولُه:"لا أَقُول لِأَحَدٍ يَكُون عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَير النّاس"فِيهِ ذَمّ مُداهَنَة الأُمَراء فِي الحَقّ وإِظهار ما يُبطِن خِلافه كالمُتَمَلِّقِ بِالباطِلِ،فَأَشارَ أُسامَة إِلَى المُداراة المَحمُودَة والمُداهَنَة المَذمُومَة،وضابِط المُداراة أَن لا يَكُون فِيها قَدح فِي الدِّين،والمُداهَنَة المَذمُومَة أَن يَكُون فِيها تَزيِين القَبِيح وتَصوِيب الباطِل ونَحو ذَلِكَ.

وفِي الحَدِيث تَعظِيم الأُمَراء والأَدَب مَعَهُم وتَبلِيغهم ما يَقُول النّاس فِيهِم لِيَكُفُّوا ويَأخُذُوا حِذرهم بِلُطفٍ وحُسن تَأدِيَة بِحَيثُ يَبلُغ المَقصُود مِن غَير أَذِيَّة لِلغَيرِ.][٣١٧٧].

قلت:وإنما قلت الأفضل النصح سرا،و لم أقل الواجب،لأنه وردت أدلة أخرى على النصح علانية.

ومنها مراجعة المرأة لعمر بن الخطاب بشأن مهور النساء،فعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ:" أَلَا لَا تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ،فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْ سِيقَ

[٣١٧٧] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٥١)

إِلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ"ثُمَّ نَزَلَ ، فَعَرَضَتْ لَهُ امْـــرَأَةٌ مِـــنْ قَرِيـــبٍ ، فَقَالَتْ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكِتَابُ اللهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ؟ قَالَ:" بَلْ كِتَـــابُ اللهِ تَعَالَى ، فَمَا ذَاكَ؟"قَالَتْ:نَهَيْتَ النَّاسَ آنفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ وَاللهُ تَعَالَى يَقُـــولُ فِي كِتَابِهِ:{وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}[النساء:٢٠]،فَقَالَ عُمَرُ رَضِـــيَ اللهُ عَنْهُ:"كُلُّ أَحَد أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ"مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ لِلنَّـــاسِ:"إِنِّـــي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ ".[٣١٧٨]

ومنها نُصح الصحابي عائذ بن عمرو للأمير عمرو بن سعيد الأشدق بشأن حُرْمَة القتال في مكة،فيما رواه البخاري عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ،أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيد:- وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ - ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ،أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الغَدَ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ،سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي،وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ:حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ،وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ،فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا،وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً،فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا،فَقُولُوا:إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ،وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ،ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ،وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ"فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ مَا قَالَ عَمْرٌو قَالَ:أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ لاَ يُعِيذُ عَاصِيًا وَلاَ فَارًّا بِدَمٍ وَلاَ فَارًّا بِخَرْبَةٍ"[٣١٧٩].

[٣١٧٨] - السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٨٠)(١٤٣٣٦) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٠)(٨٦٤) ومصنف عبـــد الرزاق الصنعاني (٦/ ١٨٠)(١٠٤٢٠) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفـــة (٩/ ٢٠٤) صـــحيح لغيره

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَكَانَ هَذَا مِنْ عُمَرَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ،وَكَانَ مَا كَانَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ لِلنَّاسِ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ،لِمَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِيهِ،فَلَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِلَافِ ذَلِكَ رَجَعَ إِلَيْـــهِ،وَأَمَرَ بِمَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ،فَرِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ،وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي اجْتِهَادِ الرَّأْيِ،مِمَّا قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا،ثُمَّ قَدْ كَانَ مِنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي نَفْسِهِ "شرح مشكل الآثار (١٣/ ٥٨)

[٣١٧٩] - صحيح البخاري (١/ ٣٢)(١٠٤) وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٧)(٤٤٦ - ١٣٥٤)

[ش عمرو بن سعيد بن العاص القرشي الأموي يعرف بالأشدق وكان واليا على المدينة أيام يزيد بن معاوية قـــال في الفتح ليست له صحبة ولا كان من التابعين بإحسان.(يبعث البعوث) يرسل الجيوش لقتال عبد الله بن الزبير لأنه امتنع من مبايعة يزيد واعتصم بالحرم.(ووعاه) فهمه وحفظه.(يسفك) يريق.(يعضد) يقطع.(ترخص لقتال) احـــتج لجـــواز

وقال ابن القيم رحمه الله:"وَخَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمًا وَعَلَيْهِ ثَوْبَان،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا تَسْمَعُونَ؟ فَقَالَ سَلْمَانُ:لَا نَسْمَعُ،فَقَالَ عُمَرُ:وَلِمَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ:إنَّك قَسَّمْت عَلَيْنَا ثَوْبًا ثَوْبًا وَعَلَيْك ثَوْبَان،فَقَالَ:لَا تَعْجَلْ.يَا عَبْدَ اللَّهِ،يَا عَبْدَ اللَّهِ،فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ،فَقَالَ:يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،فَقَالَ:لَبَّيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَقَالَ:نَشَدْتُك اللَّهَ الثَّوْبُ الَّذِي ائْتَزَرْتُ بِهِ أَهُوَ ثَوْبُكَ؟ قَالَ:نَعَمْ،اللَّهُمَّ نَعَمْ،فَقَالَ سَلْمَانُ:أَمَّا الْآنَ فَقُلْ نَسْمَعْ."[٣١٨٠].والأدلة في هذا كثيرة،كمراجعة بعض الصحابة لمعاوية لما استخلف ابنه يزيد ابنه يزيد،وغير ذلك.

والذي أراه ــ والله أعلم بالحق ــ أن الإسرار بالنصح للأمير أو الجهر به يتوقف على:

القتال فيها وأنه رخصة عند الحاجة بقتلاه ﷺ.(الشاهد) الحاضر.(لا يعيذ عاصيا) لا يحميه من العقوبة.(فارا بدم) قاتلا عمدا التجأ إليه خوف القصاص.(فارا بخزية) سارقا احتمى به حتى لا يقام عليه الحد]

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ مَنْ دَخَل الْحَرَمَ مُقَاتِلاً وَبَدَأَ الْقِتَال فِيهِ،يُقَاتَل،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ } .

وَكَذَلِكَ مَنِ ارْتَكَبَ فِي الْحَرَمِ جَرِيمَةً مِنْ جَرَائِمِ الْحُدُودِ أَوِ الْقِصَاصِ مِمَّا يُوجِبُ الْقَتْل فَإِنَّهُ يُقْتَل فِيهِ اتِّفَاقًا لاِسْتِخْفَافِهِ بِالْحَرَمِ،كَمَا سَيَأْتِي فِي الْفِقْرَةِ التَّالِيَةِ .

وَاخْتَلَفُوا فِي قِتَال الْكُفَّارِ وَالْبُغَاةِ عَلَى أَهْل الْعَدْل فِي الْحَرَمِ إِذَا لَمْ يَبْدَءُوا بِالْقِتَال .فَذَهَبَ طَاوُسٌ وَالْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ قَوْل ابْنِ شَاسٍ وَابْنِ الْحَاجِبِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَصَحَّحَهُ الْقُرْطُبِيُّ،وَقَوْل الْقَفَّال وَالْمَاوَرْدِيِّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ،وَبَعْضِ الْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ قِتَالُهُمْ فِي الْحَرَمِ مَعَ بَغْيِهِمْ .وَلَكِنَّهُمْ لاَ يُطْعَمُونَ وَلاَ يُسْقَوْنَ وَلاَ يُؤْوَوْنَ وَلاَ يُبَايَعُونَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْحَرَمِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ } قَال مُجَاهِدٌ:الآْيَةُ مُحْكَمَةٌ،فَلاَ يَجُوزُ قِتَال أَحَدٍ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقَاتِل .....وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَصَوَّبَهُ النَّوَوِيُّ:إِنَّهُ إِذَا الْتَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ طَائِفَةٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ،أَوْ طَائِفَةٌ مِنَ الْبُغَاةِ،أَوْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ فِي الْحَرَمِ ..وَهَذَا قَوْل سَنَدٍ وَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ،وَصَوَّبَهُ ابْنُ هَارُونَ فِي الْحَاصِرِ مِنَ الْحَجِّ،وَحَكَى الْحَطَّابُ عَنْ مَالِكٍ جَوَازَ قِتَال أَهْل مَكَّةَ إِذَا بَغَوْا عَلَى أَهْل الْعَدْل،قَال:وَهُوَ قَوْل عِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ .وَهَذَا قَوْلٌ لِلْحَنَابِلَةِ أَيْضًا"الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (١٧/ ١٨٩)

[٣١٨٠] – لم أجد لها سندا وقد ذكرها ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٢٣)

يبدو لي أنه ليس مقصود (سلمان) رضي الله عنه إباحة التمرد على السلطة،وشق وحدة الأمة بسبب أدنى مخالفة،بل مقصوده – والله أعلم – الإيماء إلى حقيقة أن الإخلال بالمبادئ من قبل الحاكم سيؤدي إلى إخلال الرعية بالطاعة،وهذه قاعدة لا تتخلف قدراً أيضاً،وذلك من الميزان الذي وضعه الله تعالى وأنزل به الكتاب،وهذا من عظيم الفقه الذي تميز به سلف هذه الأمة حيث كانوا يعبرون عن المعاني والمفاهيم الكبيرة العظيمة بأوجز الألفاظ أو بالمواقف أحياناً"الحسبة لابن تيمية ت الشحود (ص:١٣٢)

أولا:حال المنصوح (الأمير) فيختار الناصح أنسب وسيلة حسب حال المنصوح وما يقبله.

ثانيا:حال الموجودين:فقد يكون نصحه سرا أولى حتى لا يجترئ الناس على الأمير فتقع فتنة وتفترق الكلمة كما فعل أسامة بن زيد مع عثمان بن عفان رضي الله عنهم،وقد يكون الجهر بالنصيحة أفضل حتى يسمع الناس فينتصحوا بنفس النصيحة كما في نصح أبي شريح بشأن تحريم مكة ليكف الناس عن الخروج في جيش الأمير الذاهب للقتال في مكة.وهكذا.

ثالثا:حال النصح:ألا يقوم مقام رياء وسمعة بنصحه،ليقال عنه:هذا الذي نصح الأمير عندما سكت غيره،عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَزَلَهُ،وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا،فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي،قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ:أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا،أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ،فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»،قَالَ:ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ،فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ،فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ،وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا،حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ،فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ:أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ،وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ،وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ،قَالَ سَعْدٌ:أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ:اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا،قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً،فَأَطِلْ عُمْرَهُ،وَأَطِلْ فَقْرَهُ،وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ،وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ:شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ،أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ،قَالَ عَبْدُ المَلِكِ:فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ،قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ،وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ"[٣١٨١]

[٣١٨١] - صحيح البخاري (١/ ١٥١)(٧٥٥)

[ش (سعدا) هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه.(صلاة رسول الله) أي صلاة مثل صلاته.(ما أخرم عنها) ما أنقص.(فأركد) أسكن وأمكث ومعناه أطول.(أخف) أخفف وأحذف التطويل.(يثنون معروفا) يقولون عنه خيرا.(نشدتنا) سألتنا بالله تعالى.(بالسرية) هي القطعة من الجيش أي لا يخرج بنفسه معها والمراد نفي الشجاعة عنه وقيل معناه لا يسير بالطريق العادلة.(القضية) الحكومة والقضاء.(رياء وسمعة) ليراه الناس ويسمعوه فيشهروا ذلك عنه

فالصواب إن شاء الله تعالى أن يراعي الناصح هـــذه الأحـــوال ثم يـــتخير الأســـلوب الأنسب:الإسرار أو الجهر،فإن التبس عليه الأمر فالإسرار أولى إن شاء الله تعالى لحديث عياض بن غنم المذكور في أول هذه المسألة ولقصة أسامة بن زيد مع عثمان بن عفـــان رضي الله عنهم.

الثالث:توقير الأمير:

مما يلزم الأعضاء من حقوق الأمير عليهم توقيره،وأدل على هذا بجملة أحاديث

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خَمْسٍ،مَنْ فَعَلَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:«مَنْ عَادَ مَرِيضًا،أَوْ خَرَجَ مَعَ جِنَازَةٍ،أَوْ خَرَجَ غَازِيًا أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامِهِ،لَا يُرِيدُ إِلَّا تَعْزِيزَهُ وَتَوْقِيرَهُ،أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَسَلِمَ النَّاسُ مِنْهُ وَسَلِمَ»[٣١٨٢]

وعَنْ زِيَادِ بْنِ كُسَيْبٍ،شَهِدْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ – وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُبْنَى الْمَسْجِدُ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ قَصَبٌ – وَعَلَى النَّاسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرٍ،فَخَرَجَ عَلَى النَّاسِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ مُرَقَّقٌ وَبُرْدَانِ،مُرَجِّلًا رَأْسَهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ،فَمَنْ أَكْرَمَهُ أَكْرَمَهُ اللهُ،وَمَنْ أَهَانَهُ أَهَانَهُ اللهُ "[٣١٨٣].

قلت:وإهانة ولي الأمر قد تكون بعصيان أوامره والاستخفاف بها،أو بالسخرية من الأمير بالقول والغمز واللمز أو بوصفه بصفة خَلْقية أو خُلُقية فيه تدعو للاستخفاف به،أو بمدح غيره بما فيه تعريض بالذم لهذا الأمير،أو بتشجيع الآخرين على إهانة الأمير وعصيانه وعموما يدخل في الإهانة كل ما فيه انتقاص لقدر الأمير وتجريحه.وقد أمر رسول الله ﷺ بطاعة الأمير وإن كان عبدا حبشيا رأسه زبيبة أو مجدع الأطراف.فمن أقدم على إهانة الأمير فقد تعرض لإهانة الله له في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالعذاب والحرمان.

ليذكر به.(عرضه بالفتن) اجعله عرضة لها.(للجواري) جمع جارية وهي الأنثى الصغيرة.(يغمزهن) يعصر أعضـــاءهن بأصابعه]

[٣١٨٢] – الأموال لابن زنجويه (١/ ٨٥)(٤٩) والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٧)(٥٥) صحيح

[٣١٨٣] – شعب الإيمان (٩/ ٤٧٩)(٦٩٨٨) حسن لغيره

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيهِ،يَقُولُ:مَنْ أَجَلَّ سُلْطَانَ اللَّهِ أَجَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٣١٨٤].

وهذا ينطبق على كل من تولى إمارة على غيره،إذ إنه أمير بحكم الشريعة كما سبق بيانه.

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ،وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ،وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[٣١٨٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:[وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ - كالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا - يَقُولُونَ:لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ.][٣١٨٦].

وقال القرطبي:" قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا السُّلْطَانَ وَالْعُلَمَاءَ،فَإِذَا عَظَّمُوا هَذَيْنَ أَصْلَحَ اللَّهُ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ،وَإِذَا اسْتَخَفُّوا بهذين أفسد دنياهم وَأُخْرَاهُمْ."[٣١٨٧].قلت:ولا شك أن هذا في السلطان والعلماء الصالحين.

تنبيه:

ولا يظن أحد أننا بدعوتنا الرعية إلى توقير الأمير أننا ندعو بذلك إلى تقديسه،وإنما ندعو إلى الوسط كما هي دعوة الإسلام في كل أمر.

فتوقير الأمير وسط بين تفريط وإفراط.أما التفريط فهو إهانة الأمير التي وردت السنة بالنهي عنها والوعيد عليها،وذكرنا بعض صور الإهانة فيما سبق.وأما الإفراط في توقير الأمير فهو أيضا منهي عنه مذموم،ومن صوره السكوت عن منكرات الأمير وأدهى من ذلك تبرير منكراته وتأويلها على وجه حسن،والمغالاة في مدحه وخلع مالا يجوز من الصفات عليه.

والذي أراه ـــ والله تعالى أعلم ـــ أن توقير الأمير ليس مقصودا لذاته،بل من أجل المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة،وهذا مقصد شرعي هام سبق التنبيه عليه،فإن إهانة

[٣١٨٤] - السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٤٩٢)(١٠٢٥) حسن لغيره

[٣١٨٥] - سنن أبي داود (٤/ ٢٦١)(٤٨٤٣) حسن

[٣١٨٦] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩١)

[٣١٨٧] - تفسير القرطبي (٥/ ٢٦٠)

الأمير والاستخفاف به مدعاة إلى عصيانه وما يترتب على ذلك من شق عصا الطاعة وتفريق شمل الجماعة.وبهذا ترى أن توقير الأمير فيه سد لذريعة العصيان والشقاق ويدل على هذا الاستنباط أن الأمر بالتوقير إنما هو للأمير بصفته لا بشخصه،والله تعالى أعلم.

بل إن جميع ما ورد فيما يلزم الأعضاء (الرعية) من حق الأمير عليهم،(وهو السمع والطاعة والنصح والتوقير) هو في حقيقته يهدف إلى المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة،ذلك المقصد الشرعي العام الذي لا يصلح للمسلمين دينهم ولا دنياهم إلا به،ألا وهو الجماعة.

وقد ورد الربط واضحا بين طاعة الأمير والمحافظة على وحدة الجماعة في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ،إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٣١٨٨].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣١٨٨] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٤)

المبحث الثالث

ما يجب على إمام المسلمين أو من ينوب عنه

١ – أن يتفقد الجيش والأسلحة عند المسير إلى العدو.

٢ – أن يرغِّب الناس في الجهاد،ويمنع المخذِّل والمُرْجف،وكل من لا يصلح للجهـــاد،ولا يستعين بكافر إلا لضرورة.

٣ – أن يُعدّ الزاد وما يحتاجه في الجهاد،ويسير بالجيش برفق،ويطلب لهم أحسن الطـــرق والمنازل.

٤ – أن يمنع الجنود من الفساد والمعاصي،ويحدِّثهم بمـــا يقـــوي نفوســـهم،ويرغِّبهم في الشهادة،ويأمرهم بالصبر والاحتساب،والمحافظة على الطاعات.

٥ – أن يقسم الجيش،ويعيِّن عليهم العرفاء والحراس،ويعقد الألوية والرايات،ويســـبقهم إلى العدو عند الفزع.

٦ – أن يشاور في أمور الجهاد أهل الدين والرأي والخبرة.

٧ – أن يبث العيون على الأعداء؛ليعرف عددهم وأخبارهم.

٨ – أن يوصي جنـــوده بالتوكـــل علـــى الله،وكثـــرة ذكره،والثنـــاء عليـــه،ولزوم الاستغفار،والرحمة فيما بينهم،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ولزوم تقوى الله عـــز وجل.

٩ – أن يكون قدوة حسنة للمجاهدين معه،ويتزلهم منازلهم،ولا يستأثر عليهم بشيء،ولا يأمرهم بمعصية الله.

١٠ – أن يزور مرضاهم،ويواسي مصابهم،ويجازي المحسن،ويعاقب المسيء،ويحســـن إلى الضعيف.

قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُـــمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)} [الصف:١٠ – ١١].

وقال الله تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّــهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)}...[المائدة:٢].

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّــذِي مَــاتَ فِيهِ،قَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَــا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّــةً،يَمُوتُ يَــوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[٣١٨٩]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَــنَ النَّاسِ،وَأَشْــجَعَ النَّــاسِ،وَأَجْوَدَ النَّاسِ،وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَقَهُمْ عَلَــى فَــرَسٍ»،وَقَــالَ:«وَجَــدْنَاهُ بَحْرًا»[٣١٩٠]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الخَنْدَقِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ وَهُوَ حِبَّانُ بْنُ قَيْسٍ، مِنْ بَنِي مَعِيصِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ رَمَاهُ فِي الأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي المَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الغُبَارِ، فَقَالَ: " قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ، وَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَأَيْنَ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ " فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَرَدَّ الحُكْمَ إِلَى سَعْدٍ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ: أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ، وَأَنْ تُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ قَالَ هِشَامٌ، فَأَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ: " أَنَّ سَعْدًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ، حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الحَرْبَ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا، فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَبَّتِهِ فَلَمْ يَرُعْهُمْ، وَفِي المَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا

[٣١٨٩] - صحيح مسلم (١/ ١٢٥) ٢٢٧ - (١٤٢)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم]

[٣١٩٠] - صحيح البخاري (٤/ ٢٢)(٢٨٢٠)

أَهْلَ الخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ مِنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "[3191]

وفيه جواز التمريض في المسجد للضرورة والحاجة لأن سعداً مرض في المسجد لعدم وجود أماكن أخرى من مستشفيات ونحوها.[3192]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[3191] - صحيح البخاري (٥/ ١١٢)(٤١٢٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٩)٦٥ - (١٧٦٩)

[ش (المقاتلة) الرجال البالغون الذين من شأنهم أن يقاتلوا. (تسبى) تؤسر ويضرب عليها الرق. (الذرية) نسل الإنسان من ذكر أو أنثى. (لبته) موضع القلادة في الصدر]

[3192] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/ ٣٦)

المبحث الرابع

ما يلزم الأعضاء بعضهم في حق بعض

(ما يلزم العضو في حق إخوانه)

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»،فَقَالُوا:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ:«يَعْمَلُ بِيَدِهِ،فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ:«يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ» قَالُوا:فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ:«فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ،وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ،فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»[٣١٩٣]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ:قُلْتُ:أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ:قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ:«تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ:«تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»[٣١٩٤].

قلت:المعنى المشرك المستفاد من هذين الحديثين،وهو أنك إذا لم تستطع أن تنفع الناس فكف شرك عنهم.وأنت مأجور في الحالين إن شاء الله تعالى،ويلحقك الوزر إن انتقلت إلى الحال الثالث وهو أن يتعدى شرك إلى الناس.

ولذلك فإنني أقسم علاقة المسلم من حسن السيرة مع إخوانه إلى قسمين:

[٣١٩٣] - صحيح البخاري (٢/ ١١٥)(١٤٤٥) وصحيح مسلم (٢/ ٦٩٩)٥٥ - (١٠٠٨)

[ش (أرأيت) أي أخبرني ما حكم من لم يجد من لم يجد ما يتصدق به (يعتمل) الاعتمال افتعال من العمل (يعين ذا الحاجة الملهوف) الملهوف عند أهل اللغة يطلق على المتحسر وعلى المضطر وعلى المظلوم وقولهم يا لهف نفسي على كذا - كلمة يتحسر بها على ما فات ويقال لهف يلهف لهفا أي حزن وتحسر وكذلك التلهف (يمسك عن الشر فإنها صدقة) معناه صدقة على نفسه والمراد أنه إذا أمسك عن الشر لله تعالى كان له أجر على ذلك كما أن للمتصدق بالمال أجر]

[٣١٩٤] - صحيح مسلم (١/ ٨٩)١٣٦ - (٨٤)

[ش (أنفسها عند أهلها) معناه أرفعها وأجودها قال الأصمعي مال نفيس أي مرغوب فيه (تصنع لأخرق) الأخرق هو الذي ليس بصانع يقال رجل أخرق وامرأة خرقاء لمن لا صنعة له]

القسم الأول:كف الأذى عن إخوانه

وهذا هو الحد الأدنى المطلوب في تعامل المسلم مع إخوانه.

القسم الثاني:إيصال النفع لإخوانه،وهذا هو الحال الأمثل للمسلم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَحَاسَدُوا،وَلَا تَنَاجَشُوا،وَلَا تَبَاغَضُوا،وَلَا تَدَابَرُوا،وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ،وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ،وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ،كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ،دَمُهُ،وَمَالُهُ،وَعِرْضُهُ»[٣١٩٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ،يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا،سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ،وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا،سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ،وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ،إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ،وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ،وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ،لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٣١٩٦]

وهذا التقسيم والترتيب ورد في آيات كثيرة من التنزيل العزيز:منها قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا

[٣١٩٥] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦)٣٢ - (٢٥٦٤)

[ش (ولا يخذله) قال العلماء الخذل ترك الإعانة والنصر ومعناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه و لم يكن له عذر شرعي (ولا يحقره) أي لا يحتقره فلا ينكر عليه ولا يستصغره ويستقله (التقوى ههنا) معناه أن الأعمال الظاهرة لا تحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته]

[٣١٩٦] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤)٣٨ - (٢٦٩٩)

[ش (ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) معناه من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل]

إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) } [آل عمران]،فأكل الربا إضرار بالناس فنهى سبحانه عنه ثم أتبعه بالإحسان إلى الناس بالنفقة في العسر واليسر.وكذلك قوله تعالى:{وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}،فبدأ سبحانه ببيان كف الأذى عن الناس (بكظم الغيظ) ثم إيصال النفع إليهم (بالعفو والإحسان).وهذا التقسيم والترتيب يتفق مع القاعدة الشرعية (درء المفاسد مقدم على جلب المنافع).

قال ابن رجب الحنبلي:[وَمِنْ كَلَامِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ:لِيَكُنْ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَةً:إِنْ لَمْ تَنْفَعْهُ فَلَا تَضُرَّهُ،وَإِنْ لَمْ تُفْرِحْهُ فَلَا تَغُمَّهُ،وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذُمَّهُ.][٣١٩٧].

قلت:وهذا الكلام يبين الحد الأدنى المطلوب من المسلم في معاملته لإخوانه هو أن يكف أذاه عنهم.

ومحاسن الأخلاق ترجع ـــ فيما أرى ـــ إلى أصلين:

الأول:الحياء:عَنْ أَبِي السَّوَّارِ العَدَوِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ:" مَكْتُوبٌ فِي الحِكْمَةِ:إِنَّ مِنَ الحَيَاءِ وَقَارًا،وَإِنَّ مِنَ الحَيَاءِ سَكِينَةً"فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ:«أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ»[٣١٩٨].

ومعلوم أن الحياء شعبة من شعب الإيمان،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً،وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[٣١٩٩]

[٣١٩٧] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٨٣)

[٣١٩٨] - صحيح البخاري (٨/ ٢٩)(٦١١٧) وصحيح مسلم (١/ ٦٤)٦٠ - (٣٧)

[ش (بشير) العدوي البصري تابعي جليل رحمه الله تعالى.(الحكمة) أي في كتب الحكمة وهي التي تبحث في أحوال وحقائق الموجودات ولعلها ما يسمى الآن بعلم الفلسفة والأخلاق.(وقارا) حلما ورزانة.(سكينة) هدوءا وطمأنينة]

[٣١٩٩] - صحيح البخاري (١/ ١١)(٩)

[ش(بضع) ما بين اثنين إلى عشرة.(ستون) عند مسلم (سبعون) ولا تعارض بين الروايتين قال النووي فإن العرب قد تذكر للشيء عددا ولا تريد في نفي ما سواه.(شعبة) خصلة والشعبة واحدة الشعب وهي أغصان الشجرة وهو تشبيه

وقد نص عليه دون غيره من الشُّعب في هذا الحديث لأنه كالباعث على أداء بقية الشعب،فمن استحى من الله تعالى أتى بحقوقه سبحانه بترك المنهيات وفعل المأمورات،ومن استحى من الناس أتى بحقوقهم بكف الأذى وجلب النفع.

قال ابن رجب رحمه الله:"[اعْلَمْ أَنَّ الْحَيَاءَ نَوْعَانِ:أَحَدُهُمَا:مَا كَانَ خُلُقًا وَجِبِلَّةً غَيْرَ مُكْتَسَبٍ،وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَمْنَحُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ وَيَجْبُلُهُ عَلَيْهَا،وَلِهَذَا قَالَ ﷺ:" «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»"،فَإِنَّهُ يَكُفُّ عَنِ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ وَدَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ،وَيَحُثُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا،فَهُوَ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:مَنِ اسْتَحْيَا،اخْتَفَى،وَمَنِ اخْتَفَى،اتَّقَى،وَمَنِ اتَّقَى وُقِيَ.وَقَالَ الْجَرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ - وَكَانَ فَارِسَ أَهْلِ الشَّامِ -:تَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاءً أَرْبَعِينَ سَنَةً،ثُمَّ أَدْرَكَنِي الْوَرَعُ.وَعَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ:رَأَيْتُ الْمَعَاصِيَ نَذَالَةً،فَتَرَكْتُهَا مُرُوءَةً فَاسْتَحَالَتْ دِيَانَةً.

النَّوْعُ الثَّانِي:مَا كَانَ مُكْتَسَبًا مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ،وَمَعْرِفَةِ عَظَمَتِهِ وَقُرْبِهِ مِنْ عِبَادِهِ،وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ،وَعِلْمِهِ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ،فَهَذَا مِنْ أَعْلَى خِصَالِ الْإِيمَانِ،بَلْ هُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِحْسَانِ،وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ «النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ:" اسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِ عَشِيرَتِكَ»[٣٢٠٠] ".

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ».قَالَ:قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ،قَالَ:«لَيْسَ ذَاكَ،وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى،وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى،وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى،وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا،فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[٣٢٠١].][٣٢٠٢]

للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها.(الحياء) صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد وترك ما يذم عليه ويعاب]

[٣٢٠٠] - مسند الفاروق لابن كثير (٢/ ٦٠٩) ضعيف

[٣٢٠١] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٣٧)(٢٤٥٨) حسن

[٣٢٠٢] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٥٠١)

قلت:فمن قل حظه من النوع الأول فعليه بمجاهدة نفسه لاكتساب الثاني.

الثاني:أن يحب للناس ما يحبه لنفسه وأن يكره لهم ما يكرهه لنفسه،وإذا قلنا إن الحياء يدفع صاحبه إلى أداء حقوق الناس،فنقول هل هناك قاعدة عامة تبين ما هي حقوق الناس،يتبعها من لا يستطيع الإحاطة بتفاصيل الأحكام والآداب الإسلامية؟[٣٢٠٣]

والجواب:نعم توجد قاعدة عامة لهذا وهي (أن تحب للناس ما تحب لنفسك من الخير وأن تكره لهم ما تكرهه لنفسك من الشر).

وهذه القاعدة مستفادة من حديث النبي ﷺ،فعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٣٢٠٤]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»[٣٢٠٥].

قلت:ومفهومه وحتى يكره لأخيه ما يكرهه لنفسه.

قال ابن رجب:[وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسُوءُهُ مَا يَسُوءُ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ،وَيُحْزِنُهُ مَا يُحْزِنُهُ.

وَحَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي نَتَكَلَّمُ الْآنَ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسُرُّهُ مَا يَسُرُّ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ،وَيُرِيدُ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ مَا يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ،وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ كَمَالِ سَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْغِلِّ وَالْغِشِّ وَالْحَسَدِ،فَإِنَّ الْحَسَدَ يَقْتَضِي أَنْ يَكْرَهَ الْحَاسِدُ أَنْ يَفُوقَهُ

[٣٢٠٣] - انظر كتابي"**المهذب في الآداب الإسلامية** "

[٣٢٠٤] - صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٣) وصحيح مسلم (١/ ٦٧)٧١ - (٤٥)

[ش (لا يؤمن أحدكم) الإيمان الكامل.(ما يحب لنفسه) من فعال الخير]

ويستفاد من الحديث ما يأتي:أولاً:أن عاطفة المحبة للناس وحب الخير لهم جميعاً من كمال الإيمان،ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا تجرد الإنسان من الأنانية والحقد والكراهية والحسد،وأحب لغيره من المباحات ما يحبه لنفسه من السلامة،والأمن،ورغد العيش والهداية والتوفيق.أما المعاصي فليس من الإيمان أن يحبها لغيره،لأنها شرٌّ لا خير فيها،أما محبة المسلم لأخيه المسلم فإنها آكد وأقوى،ولا يكفى فيها مجرد العواطف النفسية،بل لا بد أن تظهر آثار هذه العواطف في معاملته.ثانياً:التحذير من الحقد والحسد وغير ذلك من المشاعر الكريهة التي تنافي المحبة.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ٩١)

[٣٢٠٥] - مستخرج أبي عوانة (١/ ٤١)(٩٢) صحيح

أَحَدٌ فِي خَيْرٍ،أَوْ يُسَاوِيَهُ فِيهِ،لِأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَمْتَازَ عَلَى النَّاسِ بِفَضَائِلِهِ،وَيَنْفَرِدَ بِهَا عَنْهُمْ،وَالْإِيمَانُ يَقْتَضِي خِلَافَ ذَلِكَ،وَهُوَ أَنْ يُشْرِكَهُ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ فِيمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مَنْ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ وَلَا الْفَسَادَ،فَقَالَ:{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} [القصص:٨٣] (الْقَصَصِ:٨٣) .][٣٢٠٦].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ،فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ"[٣٢٠٧]

وكيفية تطبيق هذه القاعدة يكون بمعرفة أن الأمور الثلاثة:شر لاشك فيه،وخير لاشك فيه،وشيء متردد بينهما،فالشر مطلوب الكف عنه وهو ما أشرنا إليه بكف الأذى،والخير المطلوب فعله وهو ما أشرنا إليه بإيصال النفع إلى الناس قدر الاستطاعة،وأما الأمر الثالث المتردد فيه فعليك بأن تفكر قبل الإقدام هل ترضاه لنفسك أم لا؟ فإن رضيته لنفسك و لم يخالف حكماً شرعياً فأقدم وإلا فلا.

وكما ترى فهذه القاعدة (وهي أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك) متضمنة لشقي المعاملة الذين أشرت إليهما آنفا هما كف الأذى وجلب النفع،فما من أحد إلا وهو يحب أن يكف الناس أذاهم عنه وأن ينفعوه،والإيمان يقتضي أن يحب هذا للناس كما يحبه لنفسه وإن لم يعامله الناس هكذا.

وسوف أذكر بعض ما يدخل في كف الأذى وجلب النفع مجملا...

القسم الأول:بعض ما يدخل في كف الأذى عن الناس.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ:قُلْتُ:أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ:قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ:«تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ

[٣٢٠٦] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٣٠٦)

[٣٢٠٧] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٤١١)(٦٨٠٧) صحيح

اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ:«تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»[3208]

ومما يدخل في كف الأذى:

١ = الاحتراز من آفات اللسان

وهي رأس الشرور،يدرك هذا كل عاقل عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَصْبَحْتُ قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ،فَقُلْتُ:يَا نَبِيَّ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ،وَيُبْعِدُنِي عَنِ النَّارِ،قَالَ:«لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ،وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ،تُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» ، ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ،وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ، ثُمَّ تَلَا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦] حَتَّى {يَعْمَلُونَ} [السجدة:١٧] ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» ، قُلْتُ:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ،وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ،وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» ، ثُمَّ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» ، قُلْتُ:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ:«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» ، قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ ، قَالَ:" ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ،وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ:عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟ "[3209] .

ويدخل في هذه الآفات:السخرية ولها صور كثيرة،والاستهزاء،والتنابز بالألقاب والسباب،والغيبة والبهتان والكذب والنميمة واللعن والفحش وشهادة الزور وغيرها.

وكل هذه الآفات وردت في ذمها والوعيد عليها أدلة كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها[3210] .

[3208] - صحيح مسلم (١/ ٨٩)(١٣٦ - (٨٤)

[ش (أنفسها عند أهلها) معناه أرفعها وأجودها قال الأصمعي مال نفيس أي مرغوب فيه (تصنع لأخرق) الأخرق هو الذي ليس بصانع يقال رجل أخرق وامرأة خرقاء لمن لا صنعة له]

[3209] - السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٢١٤)(١١٣٣٠) صحيح لغيره

[3210] - انظرها في كتابي"المهذب في الآداب الإسلامية "

وآفات اللسان من أعظم ما يفسد العلاقات بين المسلمين في الدنيا ويعود عليهم بالخسران في الآخرة[3211].وضابط السلامة من هذه الآفات ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ،وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ،وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[3212].

قال النووي:[أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَإِنْ كَانَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ خَيْرًا مُحَقَّقًا يُثَابُ عَلَيْهِ وَاجِبًا أو مندوبا فَلْيَتَكَلَّمْ وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَنَّهُ خَيْرٌ يُثَابُ عَلَيْهِ فَلْيُمْسِكْ عَنِ الْكَلَامِ سَوَاءٌ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَكْرُوهٌ أَوْ مُبَاحٌ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْكَلَامُ الْمُبَاحُ مَأْمُورًا بِتَرْكِهِ مَنْدُوبًا إِلَى الْإِمْسَاكِ عَنْهُ مَخَافَةً مِنِ انْجِرَارِهِ إِلَى الْمُحَرَّمِ أَوِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا يَقَعُ فِي الْعَادَةِ كَثِيرًا أَوْ غَالِبًا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لديه رقيب عتيد..وَقَدْ نَدَبَ الشَّرْعُ إِلَى الْإِمْسَاكِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُبَاحَاتِ لِئَلَّا يَنْجَرَّ صَاحِبُهَا إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ أَوِ الْمَكْرُوهَاتِ وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ فَقَالَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَلْيُفَكِّرْ فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ لَا ضَرَرَ عَلَيْهِ تَكَلَّمَ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ فِيهِ ضرر أوشك فِيهِ أَمْسَكَ][3213].

قلت:ولا تترخص ولا تتأول لتستحل ما يَحْرُم عليك إتيانه من هذه الآفات،ولا تمكر فيمكر الله بك،قال تعالى:{ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:٤٣].

قال القاري:" وَيَعْنِي إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ،فَإِنْ كَانَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ خَيْرًا يُثَابُ عَلَيْهِ وَاجِبًا كَانَ أَوْ مَنْدُوبًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ،وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ خَبَرُهُ سَوَاءً ظَهَرَ أَنَّهُ حَرَامٌ أَوْ مَكْرُوهٌ أَوْ مُبَاحٌ،فَلْيُمْسِكْ عَنْهُ فَالْكَلَامُ الْمُبَاحُ مَأْمُورٌ بِتَرْكِهِ مَخَافَةَ انْجِرَارِهِ إِلَى الْحَرَامِ."[3214]

٢ = عدم التدخل في شؤون الآخرين وترك الفضول

[3211] - انظر كتابي"الخلاصة في آفات اللسان"

[3212] - صحيح البخاري (٨/ ١١)(٦٠١٨) وصحيح مسلم (١/ ٦٨)٧٤ - (٤٧)

[3213] - شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩)

[3214] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٧٣٢)

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه»[3215].

ومالا يعني المرء قد يكون شيئا في خاصة نفسه كالمنهي عنه (الحرام والمكروه والشّبهة) وقد يكون في علاقته بالناس،وهذا الأخير الذي نقصده في كلامنا عن كف الأذى عن الناس.

ويدخل في هذا احترام خصوصيات الناس،وعدم التجسس عليهم،وعدم تتبع عوراتهم،وترك الخوض فيما لا ينفك في الدنيا ولا في الآخرة،وأَوْلَى من ذلك ترك الخوض فيما يضرك فيهما.ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة يستطيع المرء أن يتتبعها بنفسه،وخير وسيلة لإدراك هذه القاعدة هي أن تسأل نفسك في كل قول أو فعل:ما فائدة هذا؟ فإن لم تكن له فائدة أو كان فيه ضرر فهو ممالا يعنيك.

والاشتغال بما لا يعني والتطفل على الناس غالبا ما يقترن بالتفريط في أمر النفس،وما يعنيها،ولذلك فهو علامة خذلان من الله تعالى للعبد،قال تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [الحشر:١٩].

قال ابن رجب الحنبلي:[وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الْأَدَبِ،وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ،عَنْ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ إِمَامِ الْمَالِكِيَّةِ فِي زَمَانِهِ أَنَّهُ قَالَ:جمَاعُ آدَابِ الْخَيْرِ وَأَزِمَّتُهُ تَتَفَرَّعُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ:قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» وَقَوْلِهِ ﷺ:«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» وَقَوْلِهِ ﷺ لِلَّذِي اخْتَصَرَ لَهُ فِي الْوَصِيَّةِ:«لَا تَغْضَبْ» وَقَوْلِهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» .

وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ:أَنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِهِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ،وَاقْتَصَرَ عَلَى مَا يَعْنِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ؛ وَمَعْنَى يَعْنِيهِ:أَنَّهُ تَتَعَلَّقُ عِنَايَتُهُ بِهِ،وَيَكُونُ مِنْ مَقْصِدِهِ وَمَطْلُوبِهِ،وَالْعِنَايَةُ:شِدَّةُ الِاهْتِمَامِ بِالشَّيْءِ،يُقَالُ عَنَاهُ يَعْنِيهِ:إِذَا اهْتَمَّ بِهِ وَطَلَبَهُ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتْرُكُ مَا لَا عِنَايَةَ لَهُ بِهِ وَلَا إِرَادَةَ بِحُكْمِ الْهَوَى وَطَلَبِ النَّفْسِ،بَلْ بِحُكْمِ الشَّرْعِ

[3215] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤٦٦)(٢٢٩) صحيح

وَالْإِسْلَامِ وَلِهَذَا جَعَلَهُ مِنْ حُسْنِ الْإِسْلَامِ،فَإِذَا حَسُنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ،تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ،فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَقْتَضِي فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْكَامِلَ الْمَمْدُوحَ يَدْخُلُ فِيهِ تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ،كَمَا قَالَ ﷺ:«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وَإِذَا حَسُنَ الْإِسْلَامُ،اقْتَضَى تَرْكَ مَا لَا يَعْنِي كُلَّهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُشْتَبِهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ،وَفُضُولِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا،فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَا يَعْنِي الْمُسْلِمَ إِذَا كَمُلَ إِسْلَامُهُ،وَبَلَغَ إِلَى دَرَجَةِ الْإِحْسَانِ،وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى كَأَنَّهُ يَرَاهُ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ،فَإِنَّ اللَّهَ يَرَاهُ،فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ بِقَلْبِهِ،أَوْ عَلَى اسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ مِنْهُ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ،فَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ،وَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ كُلَّ مَا لَا يَعْنِيهِ فِي الْإِسْلَامِ،وَيَشْتَغِلَ بِمَا يَعْنِيهِ فِيهِ،فَإِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ وَتَرْكُ كُلِّ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ"][٣٢١٦].

قلت:وكما ترى من الكلام السابق ومما ذكرناه في حديث «فليقل خيرا أو ليصمت» وفي حديث «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»،ترى أنه يجب على المسلم أن يفكر جيدا قبل أي قول أو فعل ولا ينساق من هوى نفسه أو هوى صُحْبَته،فإذا فكر وعلم ما يجوز له ومالا يجوز،أقدم على بصيرة.وقد وصف الله تعالى أصحاب النار بأنهم {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) } [الملك]،بهذا تدرك نعمة العقل ونعمة التفكير.والنصيحة التي تقال هنا هي:فَكِّر قبل أن تتكلم،فَكِّر قبل أن تتكلم،فَكِّر قبل أن تفعل.

٣ = الاحتراز من التكبر على الناس.

الكبر من آفات النفس التي تُظْهِرها مخالطة الناس،فعند المخالطة تظهر هذه الآفة في صور عديدة،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

[٣٢١٦] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٢٨٨)

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ:إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً،قَالَ:«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ،وَغَمْطُ النَّاسِ»[3217].

وبطر الحق أي رَدُّه ودفعه وعدم قبوله،ويتخذ صورا منها الإعراض عن الحق ابتداء،وعدم الاستماع إليه،أو منع صاحب الحق من عرض حجته،أو مجادلة صاحب الحق بالباطل لرد الحق،أو السخرية والاستهزاء بقوله،وغير ذلك من الصور المتضمنة للكبر وحب الانتصار للنفس.

أما غمط الناس فهو احتقارهم وازدراؤهم،وقد يكون هذا بالقول أو بالفعل،كالسخرية والاستهزاء والوصف بما فيه انتقاص كالوصف بالجهل أو الفقر أو النسب الوضيع أو حتى بالعاهة،ومن التكبر أيضا الإعراض بالوجه عن الناس وعدم مجالستهم أو مؤاكلتهم والترفع عليهم،وعدم رد السلام عليهم،ومحبة أن يُقَام له،وأن يتصدر في المجالس ويفسح له،ومنه محبة أن يتميز عن إخوانه بشيء ـــ ما لم تستدع حاجة العمل ذلك ـــ وغير ذلك.

وَفِي رِوَايَةٍ:«وَغَمْصُ النَّاسِ» وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةُ:«فَلَا يَرَاهُمْ شَيْئًا» وَغَمْصُ النَّاسِ:الطَّعْنُ عَلَيْهِمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ،قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} [الحجرات:١١] [الْحُجُرَات:١١]،فَالْمُتَكَبِّرُ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الْكَمَالِ،وَإِلَى غَيْرِهِ بِعَيْنِ النَّقْصِ،فَيَحْتَقِرُهُمْ وَيَزْدَرِيهِمْ،وَلَا يَرَاهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يَقُومَ بِحُقُوقِهِمْ،وَلَا أَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمُ الْحَقَّ إِذَا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ.[3218]

وقد يدفع الكبر بصاحبه إلى إيذاء الآخرين وظلمهم والإضرار بهم،وعلاجه يكون بتذكر المبدأ والمعاد وأن ما بكم من نعمة فمن الله،أعطاك وحرم غيرك،والنعم تُحْفَظ بالشكر لا

[3217] - صحيح مسلم (١/ ٩٣)١٤٧ - (٩١)

[ش (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (غمط الناس) معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه]

[3218] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٧٥)

بالكبر فالمتكبر يرى نفسه ولا يرى ربَّه الْمُنْعِم سبحانه.فعَنْ عَبْدِ اللهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[٣٢١٩].

والكبر مفسد للجماعة وللعمل الجماعي،وقلما يصلح صاحبه للعمل الجماعي،إذ يعتمد العمل الجماعي أساسا على الألفة والتواضع والتعاون،والمتكبر بمنأى عن هذه الأخلاق.

٤ = عدم الإضرار بالناس.

عَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»[٣٢٢٠]

قال الزرقاني:"قَالَ:لَا ضَرَرَ») خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ،أَيْ لَا يَضُرُّ الْإِنْسَانُ أَخَاهُ فَيُنْقِصُهُ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ (وَلَا ضِرَارَ) بِكَسْرِ أَوَّلِه''فِعَالَ "،أَيْ لَا يُجَازِي مَنْ ضَرَّهُ بِإِدْخَالِ الضَّرَرِ عَلَيْهِ بَلْ يَعْفُو،فَالضَّرَرُ فِعْلٌ وَاحِدٍ،وَالضِّرَارُ فِعْلُ اثْنَيْنِ،فَالْأَوَّلُ إِلْحَاقُ مَفْسَدَةٍ بِالْغَيْرِ مُطْلَقًا،وَالثَّانِي إِلْحَاقُهَا بِهِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ،أَيْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَقْصِدُ ضَرَرَ صَاحِبِهِ بِغَيْرِ جِهَةِ الِاعْتِدَاءِ بِالْمِثْلِ.قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ:قِيلَ هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلتَّأْكِيدِ،وَقِيلَ:هُمَا بِمَعْنَى الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ،أَيْ لَا يَضُرُّهُ ابْتِدَاءً وَلَا يُضَارُّهُ إِنْ ضَرَّهُ وَلْيَصْبِرْ،فَهِيَ مُفَاعَلَةٌ وَإِنِ انْتَصَرَ فَلَا يَعْتَدِي كَمَا قَالَ ﷺ:" «وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» ".يُرِيدُ بِأَكْثَرَ مِنَ انْتِصَافِكَ مِنْهُ {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى:٤٣] (سورة الشُّورَى:الْآيَةُ ٤٣) وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ:الضَّرَرُ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ الِاسْمُ،وَالضِّرَارُ الْفِعْلُ،أَيْ لَا تُدْخِلْ عَلَى أَحَدٍ ضِرَارًا بِحَالٍ.وَقَالَ الْخُشَنِيُّ:الضَّرَرُ الَّذِي لَكَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَعَلَى جَارِكَ فِيهِ مَضَرَّةٌ،وَالضِّرَارُ مَا لَيْسَ لَكَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَعَلَى جَارِكَ فِيهِ مَضَرَّةٌ،وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ فِي الْحَدِيثِ،وَهُوَ لَفْظٌ عَامٌّ يَنْصَرِفُ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ،وَالْفُقَهَاءُ يَنْزِعُونَ بِهِ فِي أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ.وَقَالَ الْبَاجِيُّ:اخْتَارَ ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّهُمَا لَفْظَانِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلتَّأْكِيدِ،وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ لَا ضَرَرَ عَلَى أَحَدٍ،أَيْ لَا يَلْزَمُهُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ وَلَا يَجُوزُ لَهُ إِضْرَارُهُ بِغَيْرِهِ،وَلَيْسَ اسْتِيفَاءُ الْحُقُوقِ فِي الْقِصَاصِ وَغَيْرِهِ

٣٢١٩ - صحيح مسلم (١/ ٩٣)(١٤٩ - (٩١)

٣٢٢٠ - المعجم الأوسط (١/ ٣٠٧)(١٠٣٣) والمعجم الأوسط (٤/ ١٢٥)(٣٧٧٧)والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ٨٦)(١٣٨٧) والمعجم الكبير للطبراني (١١/ ٢٢٨)(١١٥٧٦) والمعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٠٢)(١١٨٠٦) وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٨٤)(٢٣٤٠) وسنن الدارقطني (٤/ ٥١)(٣٠٧٩) وموطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٧٤٥)(٣١) صحيح لغيره

مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ اسْتِيفَاءٌ لِحَقٍّ أَوْ رَدْعٍ عَنِ اسْتِدَامَةِ ظُلْمٍ،فَمَا أَحْدَثَــهُ الرَّجُــلُ بِعَرْصَتِهِ مِمَّا يَضُرُّ بِجِيرَانِهِ مِنْ بِنَاءِ حَمَّامٍ أَوْ فُرْنٍ لِخُبْزٍ أَوْ سَبْكِ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ عَمَــلِ حَدِيدٍ أَوْ رَحًى فَلَهُمْ مَنْعُهُ،قَالَهُ مَالِكٌ فِي الْمَجْمُوعَةِ اهــ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ فِي الْحَدِيثِ حَذْفًا،أَيْ لَا لُحُوقَ أَوْ إِلْحَاقَ،أَوْ لَا فَعَلَ ضَرَرًا وَضِــرَارًا بِأَحَدٍ،أَيْ لَا يَجُوزُ شَرْعًا إِلَّا لِمُوجِبٍ خَاصٍّ،فَقَيَّدَ النَّفْيَ بِالشَّرْعِيِّ لِأَنَّهُ بِحُكْمِ الْقَــدَرِ لَــا يُنْتَفَى،وَخَصَّ مِنْهُ مَا وَرَدَ لُحُوقُهُ بِأَهْلِهِ كَحَدٍّ وَعُقُوبَةِ جَانٍ وَذَبْحِ مَأْكُولٍ،فَإِنَّهَــا ضَــرَرٌ وَلَاحِقٌ بِأَهْلِهِ وَهِيَ مَشْرُوعَةٌ إِجْمَاعًا،وَفِيهِ تَحْرِيمُ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ إِلَّا بِدَلِيلٍ لِأَنَّ النَّكِرَةَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ .."[3221]

وقال الشوكاني:" هَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الضِّرَارِ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانَ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْجَارِ وَغَيْرِهِ،فَلَا يَجُوزُ فِي صُورَةٍ مِنْ الصُّوَرِ إلَّا بِدَلِيلٍ يُخَصُّ بِهِ هَذَا الْعُمُومَ،فَعَلَيْكَ بِمُطَالَبَةِ مَنْ جَوَّزَ الْمُضَارَّةَ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ بِالدَّلِيلِ،فَإِنْ جَاءَ بِهِ قَبِلْتُهُ وَإِلَّا ضَرَبْت بِهَذَا الْحَدِيثِ وَجْهَهُ،فَإِنَّهُ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ تَشْهَدُ لَهُ كُلِّيَّاتٌ وَجُزْئِيَّاتٌ....وَاخْتَلَفُوا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الضُّرِّ وَالضِّرَارِ،فَقِيلَ:إنَّ الضُّرَّ:فِعْلُ الْوَاحِدِ،وَالضِّرَارَ:فِعْلُ الِاثْنَيْنِ فَصَاعِدًا،وَقِيلَ:الضِّرَارُ:أَنْ تَضُرَّهُ بِغَيْرِ أَنْ تَنْتَفِعَ،وَالضُّرُّ:أَنْ تَضُرَّهُ وَتَنْتَفِعَ أَنْتَ بِهِ وَقِيلَ:الضِّرَارُ:الْجَزَاءُ عَلَى الضُّرِّ،وَالضُّرُّ:الِابْتِدَاءُ وَقِيلَ:هُمَا بِمَعْنًى"[3222]

والضرر:يشمل ما تضر به نفسك أو غيرك من الناس.والضرار:هو أن يضر الرجل أخاه فيضره أخوه،فكل منهما يضر الآخر وقيل غير ذلك.ويدخل في الضرر والإضرار جميع ما سبق من آفات اللسان والكبر والتدخل في شؤون الناس،ويدخل فيه أن تضر أخــاك في نفسه فتوقعه في مهلكة،أو في مال فتفسده عليه،أو في عرضه فتجرحه.ويدخل فيه الحسد وما يتبعه من البغضاء،ويدخل فيه إظهــار الشــماتة وفي الحــديث عَــنْ وَاثِلَــةَ بْــنِ الأَسْقَعِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»[3223].

[3221] - شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٦٦)

[3222] - نيل الأوطار (٥/ ٣١١)

[3223] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٢)(٢٥٠٦) حسن

ومن الضرر:الغش والخداع في المعاملة،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا،وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[٣٢٢٤]

ومنه الغش في النصيحة والمشورة وغيرها.

ومن الضرر الظلم،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«اتَّقُوا الظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَاتَّقُوا الشُّحَّ،فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٣٢٢٥]

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا،فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ،مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ»[٣٢٢٦].

ومن الإضرار بالإخوة في المعسكر أن تضع المواد الخطرة أو المتفجرة في مكان الإقامة والمبيت،أو تضع الوقود في مكان المبيت أو قرب النيران.فيجب اتخاذ كافة الإجراءات الوقائية لمنع هذا الضرر.

ومن الإضرار بهم:التفريط في إجراءات السلامة الحربية من لبس الدروع والخوذات وحفر الخنادق وارتداء الأقنعة والتشديد في الحراسة وغيرها.

[٣٢٢٤] - صحيح مسلم (١/ ٩٩)١٦٤ - (١٠١)

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْغِشَّ حَرَامٌ سَوَاءٌ أَكَانَ بِالْقَوْل أَمْ بِالْفِعْل،وَسَوَاءٌ أَكَانَ بِكِتْمَانِ الْعَيْبِ فِي الْمَعْقُودِ عَلَيْهِ أَوِ الثَّمَنِ أَمْ بِالْكَذِبِ وَالْخَدِيعَةِ،وَسَوَاءٌ أَكَانَ فِي الْمُعَامَلاَتِ أَمْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَشُورَةِ وَالنَّصِيحَةِ .الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣١/ ٢١٩)

[٣٢٢٥] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)٥٦ - (٢٥٧٨)

[ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

[٣٢٢٦] - صحيح البخاري (٨/ ١١١)(٦٥٣٤)

ومن الإضرار بالناس إلقاء القاذورات في طرقهم،فعَنْ أَبِي هُرَيْــرَةَ،أَنَّ رَسُــولَ اللَّــهِ ﷺ قَالَ:«اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ»،قَالُوا:وَمَا اللَّاعِنَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«الَّذِي يَتَخَلَّى فِــي طَرِيــقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ»[3227]

والتخلي هو قضاء الحاجة،وروى مسلم عَنْ جَابِرٍ:«عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ»[3228].

ومن الإضرار بالناس إقامة المريض مع الصحيح،فقد يُمرضه بالعدوى،فعن أبي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لاَ تُورِدُوا الْمُمْرِضَ عَلَى الْمُصِحِّ»[3229]

ولا منافاة بينه وبين الحديث الصحيح «لا عدوى» للجمع المشهور بينهما.

ومن إيذاء الإخوة،إفساد الدروس عليهم،أو رفع الصوت بجوار النائمين،قال تعالى:{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان:19].

ومن الإيذاء أن يتناجى اثنان دون الثالث،فعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ،حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ»[3230]

ومثله أن تُحَدِّثَ قوما فتُقْبل على واحد فقط وتُعْرِض عن الآخرين،وروى البخاري في الأدب المفرد عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ:كَانُوا يُحِبُّونَ إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُقْبِلَ عَلَى الرَّجُلِ الْوَاحِدِ،وَلَكِنْ لِيَعُمَّهُمْ"[3231].

ومن الإضرار أن تحملك كراهيتك لرجل على إيذائه بالقول أو بالفعل،فقد روى البخاري في الأدب المفرد عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا،وَلَا بُغْضُكَ

[3227] - سنن أبي داود (1/ 7)(25) صحيح

[3228] - صحيح مسلم (1/ 235)94 - (281)

[3229] - صحيح البخاري (7/ 139)(5773 -5775)

[3230] - صحيح مسلم (4/ 1718)37 - (2184)

[3231] - الأدب المفرد مخرجا (ص:442)(1304) حسن مقطوع

تَلفًا،فَقُلْتُ:كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ:إِذَا أَحْبَبْتَ كَلِفْتَ كَلَفَ الصَّبِيِّ،وَإِذَا أَبْغَضْتَ أَحْبَبْتَ لِصَاحِبِكَ التَّلَفَ"[3232].

٥ = اجتناب سوء الظن.

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات:١٢]

يَنْهى اللهُ تَعَالى عِبَادَهُ الْمُؤْمنِينَ عَن الظَّنِّ السَّيِّءِ بإخوانهِمْ الْمُؤْمنِينَ،لأنَّ ظَنَّ الْمُؤْمنِ السَّوْءَ إِثمٌ،لأنَّ اللهَ نَهَى عَنْ فِعْلِه،فَإذا فَعَلَهُ فَهُوَ آثمٌ.ثُمَّ نَهَى اللهُ تَعَالى الْمُؤْمنِينَ عَنْ أن يَتَجَسَّسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،كَمَا نَهَاهُمْ عَنْ أنْ يَتَتَبَّعَ بَعْضُهُم عَوْرَاتِ بَعْضٍ،وَعَنْ أنْ يَبْحَث الوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنْ سَرَائِرِ أخيه،وَهُوَ يَبْتَغِي بذلَكَ فَضْحَهُ،وَكَشْفَ عُيُوبه.

ثُمَّ نَهَاهم عَنْ أنْ يَغْتَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَعَنْ أنْ يَذْكُرَ أحَدُهُمْ أخَاهُ بما يَكْرَهُ في دِينِه وَدُنْيَاهُ وَخَلْقِه وَخُلُقِه وَأهلِه وَمَالِه وَزَوْجِه وَوَلَدِه..(كَما عَرَّفَ رَسُولُ الله الاغتْيَابَ)..وَشَبَّه تَعَالى اغْتيَابَ الْمُؤْمنِ لأخيه المؤمنِ بأكْلِه لَحمَهُ بَعْدَ موتِه،وَقَالَ للمُؤمنينَ إنَّهم إذا كَانَ أَحَدُهُمْ يَكْرَهُ أكْلَ لَحْمِ أخيهِ بَعْدَ مَوتِه،وَإذا كَانَتْ نَفْسُهُ تَعَافُ ذَلِكَ فَعَلَيهِمْ أنْ يَكْرَهُوا أنْ يَغْتَابُوهُ في حَيَاتِه.

وَلِلْغيبَة ثَلاثَةُ وُجُوه:

الغِيبَةُ – وَهيَ أنْ يَقُولَ الإنسَانُ في أخيه مَا هُوَ فيه ممَّا يَكْرَهُهُ.

الإِفْكُ – أنْ يَقُولَ فيه مَا بَلَغَهُ عَنْهُ ممَّا يَكْرَهُهُ.

البُهْتَانُ – أنْ يَقُولُ فيه مَا لَيسَ فيه ممّا يَكْرَهُهُ.

ثُمَ حَثَّ اللهُ تَعَالى الْمُؤْمنينَ عَلى تَقْوى الله،وَعَلَى تَرْك الغيبَة،وَمُرَاقَبتِه تَعَالى في السِّرِّ والعَلنِ،فإذا تَابُوا وانتَهَوا واستَغْفَروا رَبَّهم عَمّا فَرَطَ مِنْهُم،اسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُمْ،فَتَابَ عَلَيهِمْ،لأنَّه تَعَالى كَثيرُ التَّوْبِ عَلَى عِبَاده،كَثِيرُ الرَّحمة بهِمْ.[3233]

[3232] – الأدب المفرد مخرجا (ص:٤٤٨)(١٣٢٢) صحيح -(الكَلَف):هو الولوع بالشيء مع شغل قلب.

وَقَالَ الْحَسَن:أَحِبُّوا هَوْنًا،وَأَبْغِضُوا هَوْنًا،فَقَدْ أَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي حُبِّ أَقْوَامٍ،فَهَلَكُوا،وَأَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي بُغْضِ أَقْوَامٍ فَهَلَكُوا.شرح السنة للبغوي (١٣/ ٦٥)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ،فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيث،وَلاَ تَحَسَّسُوا،وَلاَ تَجَسَّسُوا،وَلاَ تَحَاسَدُوا،وَلاَ تَدَابَرُوا،وَلاَ تَبَاغَضُوا،وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[3234].

وسوء الظن قد يدفعك إلى شر آخر وهو التجسس على أخيك بغرض أن تحقق من سوء ظنك به،وبهذا تدرك الحكمة من الترتيب في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات:١٢]،فإن سوء الظن مدعاة إلى التجسس وإلى الغيبة فتظن لهذا،وهكذا السيئة تولد سيئة أخرى،ويتوب الله على من تاب.

ومما يناسب هذا المقام ذكر ما قاله ابن حجر في فوائد قصة موسى والخضر عليهما السلام:" مَن استَدَلَّ بِقِصَّة الخَضِر عَلَى أَنَّ الوليّ يَجُوز أَن يَطَّلِع مِن خَفايا الأُمُور عَلَى ما يُخالِف الشَّرِيعَة ويَجُوز لَهُ فِعله فَقَد ضَلَّ،ولَيسَ ما تَمَسَّكَ بِهِ صَحِيحًا،فَإِنَّ الَّذِي فَعَلَهُ الخَضِر لَيسَ فِي شَيء مِنهُ ما يُناقِض الشَّرع،فَإِنَّ نَقض لَوح مِن أَلواح السَّفِينَة لِدَفعِ الظّالِم عَن غَصبها ثُمَّ إِذا تَرَكَها أُعِيدَ اللَّوح جائِز شَرعًا وعَقلاً ؛ ولَكِنَّ مُبادَرَة مُوسَى بِالإِنكارِ بِحَسَبِ الظّاهِر.

وقَد وقَعَ ذَلِكَ واضِحًا فِي رِوايَة أَبِي إِسحاق الَّتِي أَخرَجَها مُسلِم ولَفظه:فَإِذا جاءَ الَّذِي يُسَخِّرها فَوجَدَها مُنخَرِقَة تَجاوزَها فَأَصلَحها .فَيُستَفاد مِنهُ وُجُوب التَّأَنِّي عَن الإِنكار فِي المُحتَمَلات."[3235]

وبالتالي ننصح الإخوة بالتأني في الإنكار على إخوانهم ولا يسارعوا إلى إساءة الظن بهم إذا كانت أفعالهم تحتمل الصواب والخطأ.

٦ = الاستئذان:

[3233] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٣،بترقيم الشاملة آليا)

[3234] - صحيح البخاري (٨/ ١٩)(٦٠٦٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٥)٢٨ - (٢٥٦٣)

[3235] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١/ ٢٢٢)

وهو واجب في الأماكن الخاصة،لقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور:٢٧]

يُؤَدِّبُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ فَيَأْمُرُهُم بِأَلاَّ يَدْخُلُوا بُيوتاً غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ (يَسْتَأنِسُوا)،وَيُسَلِّمُوا بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنُوا ثَلاثَ مَرَّاتٍ،فَإِذَا أُذِنَ لَهُمْ دَخُلُوا وَإِلاَّ انْصَرَفُوا،فَالاسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لِلمُسْتَأذِنِ وَلأَهْلِ البَيْتِ،فالبيْتُ سَكَنٌ يَفيءُ إِلَيْهِ النَّاسُ فَتَسْكُنُ أَرْوَاحُهُمْ،وَيَطْمَئِنُّونَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَحُرَمَاتِهِم،وَيُلْقُونَ عَنْهُمْ أَعْبَاءَ الحِرْصِ والحَذَرِ المُرْهِقَةِ لِلنُّفُوسِ والأَعْصَابِ،والبُيُوتُ لاَ تَكُونُ كَذَلِكَ إِلاَّ تَكُونُ حَرَمَاً آمناً لاَ يَسْتَبيحُهُ أَحَدٌ إِلاَّ بِعِلمِ أَهْلِهِ وإِذْنِهِمْ فِي الوَقتِ الذي يُرِيدُونَ هُمْ.(وَكَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ يَدْخُلُونَ بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ) ثُمَّ يَقُولُونَ لَقَدْ دَخَلْنَا) [٣٢٣٦].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،قَالَ:جَاءَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ:السَّلَامُ عَلَيْكُمْ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسٍ،فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ،فَقَالَ:السَّلَامُ عَلَيْكُمْ هَذَا أَبُو مُوسَى،السَّلَامُ عَلَيْكُمْ هَذَا الْأَشْعَرِيُّ،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَقَالَ:رُدُّوا عَلَيَّ رُدُّوا عَلَيَّ،فَجَاءَ فَقَالَ:يَا أَبَا مُوسَى مَا رَدَّكَ؟ كُنَّا فِي شُغْلٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«الاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ،فَإِنْ أُذِنَ لَكَ،وَإِلَّا فَارْجِعْ» قَالَ:لَتَأْتِيَنِّي عَلَى هَذَا بِبَيِّنَةٍ،وَإِلَّا فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ،فَذَهَبَ أَبُو مُوسَى.قَالَ عُمَرُ:إِنْ وَجَدَ بَيِّنَةً تَجِدُوهُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ عَشِيَّةً،وَإِنْ لَمْ يَجِدْ بَيِّنَةً فَلَمْ تَجِدُوهُ،فَلَمَّا أَنْ جَاءَ بِالْعَشِيِّ وَجَدُوهُ،قَالَ:يَا أَبَا مُوسَى،مَا تَقُولُ؟ أَقَدْ وَجَدْتَ؟ قَالَ:نَعَمْ،أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ،قَالَ:عَدْلٌ،قَالَ:يَا أَبَا الطُّفَيْلِ مَا يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَلَا تَكُونَنَّ عَذَابًا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:سُبْحَانَ اللهِ إِنَّمَا سَمِعْتُ شَيْئًا،فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَثَبَّتَ." [٣٢٣٧]

[٣٢٣٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٢٣٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٩٦)٣٧ - (٢١٥٤)

الاسْتِئْذَانُ) لِلدُّخُولِ،وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ الْإِذْنِ،أَيْ طَلَبُهُ (ثَلَاثٌ) مِنَ الْمَرَّاتِ،(فَإِنْ أُذِنَ لَكَ فَادْخُلْ وَإِلَّا فَارْجِعْ)؛لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،قَالَ:{فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ} [النور:٢٨] (سورة النُّورِ:الْآيَةَ:٢٨)،قَالَ الْمَازِرِيُّ:صُورَةُ الاسْتِئْذَانِ أَنْ يَقُولَ:السَّلَامُ عَلَيْكُمْ،أَدْخُلُ؟،ثُمَّ هُوَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ أَوْ لَا.

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد،قَالَ:اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ،وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ،فَقَالَ:«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ،لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ،إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ»[٣٢٣٨]

وقد دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:مشروعية الاستئذان ووجوبه،وقد تظاهرت به دلائل القرآن والسنة،قال الحافظ:ويؤخذ منه أنه يشرع الاستئذان على كل أحد حتى المحارم،فقد تكون منكشفة العورة،وقد أخرج البخاري في"الأدب المفرد"عن نافع:كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم لم يدخل عليه إلاّ بإذن ومن طريق علقمة سألت ابن عباس:أأستأذن على أختي؟ قال:نعم،قلت إنها في حجري! قال:أتحب أن تراها عريانة.اهـ.ويظهر لنا من ذلك أن الحكمة في الاستئذان أن لا ينظر الداخل إلى البيت إلى شيء لا يحل له النظر إليه،أو شيء يكره صاحب المترل أن يطلع أحد عليه.كما يدل عليه قوله - ﷺ - في حديث الباب:" إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"قال الطيبي"والأفضل أن يجمع بين السلام والاستئذان،واختلفوا:هل يستحب تقديم السلام أو الاستئذان؟ والصحيح تقديم السلام،فيقول السلام عليكم أأدخل.ثانياً:دل هذا الحديث على أن للبيوت قداسة وحرمة،فلا يجوز لأحد أن يسترق النظر إلى عورات المسلمين في بيوتهم وينتهك حرمتهم،ويحرم عليه أن ينظر من ثقب الباب وغيره.ولو فعل ذلك عمداً وطعن في عينه فذهبت فإنها هدر لا دية لها.[٣٢٣٩]

أي حتى لا يرى الداخل بغير إذن ما يكره صاحب المكان أن يراه الناس من عورات أو أسرار أو غير ذلك ـــ ويدخل في هذا أيضا الرسائل والكتب الخاصة وغيرها من

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:لَا يَتَعَيَّنُ هَذَا اللَّفْظُ،وَبَيَّنَ حِكْمَةَ الثَّلَاثِ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الدَّارَقُطْنِيِّ فِي الْأَفْرَادِ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ مَرْفُوعًا:" «الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ:فَالْأُولَى تُسْمِعُونَ،وَالثَّانِيَةُ:يَسْتَصْلِحُونَ،وَالثَّالِثَةُ:يَأْذَنُونَ أَوْ يَرُدُّونَ» "،قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ:قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ:لَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى الثَّلَاثِ فِي الِاسْتِئْذَانِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:إِذَا لَمْ يَسْمَعْ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَزِيدُوا.وَرَوَى سَحْنُونٌ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ:لَا أُحِبُّ أَنْ يَزِيدَ عَلَى ثَلَاثٍ إِلَّا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ.وَقِيلَ:تَجُوزُ الزِّيَادَةُ مُطْلَقًا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالرُّجُوعِ بَعْدَ الثَّلَاثِ لِلْإِبَاحَةِ وَالتَّخْفِيفِ عَنِ الْمُسْتَأْذِنِ،فَمَنِ اسْتَأْذَنَ أَكْثَرَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ،انْتَهَى.شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٥٧٦)

[٣٢٣٨] - صحيح البخاري (٨/ ٥٤)(٦٢٤١)

[٣٢٣٩] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ٢٥٩)

الخصوصيات،لا ينظر فيها الإنسان بدون إذن صاحبها،فقد أخرج أبو داود عَـــنِ ابْـــنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ أَخِيهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَكَأَنَّمَا يَنْظُرُ فِي النَّارِ»[3240].

فهُوَ فِي الْكتاب الّذي فيه أَمَانَة،أوْ سر بيْن الْكَاتِب والمكتوب إِلَيْه لَا رِيبَة فِيه،وَلَا ضَـــرَر بأحد من أهل الإسْلام،فَأَما كتبُ الْعلم،فقدْ قِيل:يجوز النظرُ فِيه بغَيْـــر إذن صَـــاحبه،لأَن الْعلم لَا يحلُّ مَنعه،وَلَا يجوز كتمانُه،وقيل:لَا يجوز لظَاهِر الْحديث،وَلأَن صَاحب الشَّـــيْء أولى بِمَنْفَعَة ملكه،وَإِنَّمَا يَأْثَم بكتمان الْعلم الّذي سُئِل عَنهُ،فَأَما منع الْكتاب عنْ غَيره،فَلَا إِثْم فِيه.وقوْله:«فإنّما ينظر فِي النَّار»،أَرَادَ بِالنّظر إِلى النَّار:الدنوّ منْهَا،والصِّلى بِها،لـــأَن النّظر إلى الشَّيْء إنّما يتحَقَّق عنْد الدنو منْهُ.واللهُ أعْلمُ.[3241]

وقد يستثنى من ذلك من كان متهما على المسلمين،فهذا يجوز النظر في خصوصيته بغير إذنه للتحقق من أمره،فقد أورد البخاري في صحيحه بَابُ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ مَنْ يُحْذَرُ عَلَى المُسْلِمِينَ لِيَسْتَبِينَ أَمْرُهُ

وأورد فيه ما جاء عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَـــوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ،وَكُلُّنَا فَارِسٌ،فَقَالَ:«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ»،فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ المُشْرِكِينَ،مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُشْرِكِينَ،قَالَ:فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:قُلْنَا:أَيْنَ الكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ؟ قَالَتْ:مَا مَعِـــي كِتَابٌ،فَأَنَخْنَا بِهَا،فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَـــدْنَا شَـــيْئًا،قَالَ صَـــاحِبَايَ:مَـــا نَـــرَى كِتَابًا،قَالَ:قُلْتُ:لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ،لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ،قَالَ:فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنِّي أَهْوَتْ بِيَـــدِهَا إِلَـــى حُجْزَتِهَـــا،وَهِيَ مُحْتَجِـــزَةٌ بِكِسَاءٍ،فَأَخْرَجَتِ الكِتَابَ،قَالَ:فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«مَـــا حَمَلَـــكَ يَـــا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ» قَالَ:مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُـــولِهِ،وَمَا غَيَّـــرْتُ وَلاَ بَدَّلْتُ،أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِـــي وَمَـــالِي،وَلَيْسَ مِـــنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ،قَالَ:«صَدَقَ،فَلاَ تَقُولُوا لَـــهُ إِلَّـــا

[3240] – مسند الشهاب القضاعي (١/ ٢٨٤)(٤٦٤) وسنن أبي داود (٢/ ٧٨)(١٤٨٥) ضعيف

[3241] – شرح السنة للبغوي (١١/ ٧٤)

خَيْرًا» قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب:إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالُمؤْمِنِينَ،فَدَعْنِي فَأَضْـــرِبَ عُنُقَهُ،قَالَ:فَقَالَ:" يَا عُمَرُ،وَمَا يُدْرِيكَ،لَعَلَّ اللَّهَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:اعْمَلُوا مَـــا شِئْتُمْ،فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ"قَالَ:فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"[٣٢٤٢]

قال ابن حجر في شرحه:[كَأَنَّهُ يُشير إِلَى أَنَّ الأَثَر الوارد فِي النَّهي عَن النَّظَر فِي كِتاب الغَير يُخَصّ منهُ ما يَتَعَيَّن طَرِيقًا إِلَى دَفع مَفسَدَة هيَ أَكثَر من مَفسَدَة النَّظَر ...وقالَ المُهَلَّب:فِي حَدِيث عَلِيٍّ هَتك سَتر الذَّنب،وكَشف المَرأَة العاصِيَة،وما رُوِيَ أَنَّهُ لا يَجُوز النَّظَر فِي كِتاب أَحَد إِلاَّ بِإِذنِهِ إِنَّما هُو فِي حَقّ مَن لَم يَكُن مُتَّهَمًا عَلَى المُسلِمِينَ،وأَمّا مَن كانَ مُتَّهَمًا فَلا حُرمَة لَهُ.وفِيهِ أَنَّهُ يَجُوز النَّظَر إِلَى عَورَة المَرأَة لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لا يَجِد بُدًّا مِنَ النَّظَر إِلَيها.][٣٢٤٣].

٧ = النهي عن الإشارة بالسلاح ونحوه إلى مسلم،سواء كان جادا أو مازحا.

عَنْ هَمَّامٍ،سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ،فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي،لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ،فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»[٣٢٤٤].أي لعل الشيطان يجعله يرمي أخاه بالسلاح فيقتله فيدخل النار.

وروى مسلم عَنِ ابْنِ سِيرِينَ،سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ:«مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ،فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ،حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»[٣٢٤٥] حتى يترع أي حتى يلقي هذه الحديدة.

[٣٢٤٢] - صحيح البخاري (٨/ ٥٨)(٦٢٥٩)

[ش (والذي يحلف به) أي والله لأن المسلم لا يحلف بغير الله تعالى(حجزتها) معقـد إزارهـا.(وجبـت) ثبتـت واستحقت]

[٣٢٤٣] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٤٧)

[٣٢٤٤] - صحيح البخاري (٩/ ٤٩)(٧٠٧٢) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٠)١٢٦ - (٢٦١٧)

[ش (يترغ في يده) يزين له تحقيق الضربة من نزغ الشيطان وهو الحمل والإغراء على الفساد.وفي رواية (يـترع) أي يرمي بها ويحقق الضربة(في حفرة من نار) كناية عن وقوعه في المعصية التي تفضي به إلى دخول النار]

وفِي الحَدِيث النَّهي عَمّا يُفضِي إِلَى المَحذُور وإِن لَم يَكُن المَحذُور مُحَقَّقًا سَواء كانَ ذَلِكَ فِي جَدّ أَو هَزل.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٢٥)

[٣٢٤٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٠)١٢٥ - (٢٦١٦)

وَالْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ هَازِلًا وَلَمْ يَقْصِدْ بِهِ ضَرْبَهُ،كَنَّى بِهِ عَنْهُ؛لِأَنَّ الْأَخَ الشَّقِيقَ لَا يَقْصِدُ قَتْلَ أَخِيهِ غَالِبًا.قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ:وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ تَتْمِيمٌ لِمَعْنَى الْمُلَاعَبَةِ وَعَدَمِ الْقَصْدِ فِي الْإِشَارَةِ،فَبَدَأَ بِمُطْلَقِ الْأُخُوَّةِ ثُمَّ قَيَّدَهُ بِالْأُخُوَّةِ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّ اللَّعِبَ الْمَحْضَ الْمُعَرَّى عَنْ شَائِبَةِ الْقَصْدِ،إِذَا كَانَ حُكْمُهُ كَذَا،فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ؟[٣٢٤٦]

ولا يفوتني كذلك التنبيه على نهي النبي ﷺ عن المرور بنصال الأسلحة في أسواق المسلمين ومساجدهم،لئلا يُخْدَشَ أحدٌ،قَالَ سُفْيَانُ:قُلْتُ لِعَمْرٍو:أَسَمِعْتَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ:مَرَّ رَجُلٌ فِي المَسْجِدِ وَمَعَهُ سِهَامٌ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمْسِكْ بِنِصَالِهَا»؟[٣٢٤٧]

وعن أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا بِنَبْلٍ،فَلْيَأْخُذْ عَلَى نِصَالِهَا،لاَ يَعْقِرْ بِكَفِّهِ مُسْلِمًا»[٣٢٤٨]

وهذا ينطبق على كل تجمع للمسلمين،يحتاط المسلم أن يؤذي أحدا بسلاحه.

٨ = النهي عن الإفراط في المزاح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا؟ قَالَ:«إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»[٣٢٤٩]

[ش (من أشار إلى أخيه بحديدة) فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه (حتى وإن كان) هو هكذا في عامة النسخ وفيه محذوف وتقديره حتى يدعه وكذا وقع في بعض النسخ]

قالَ ابن العَرَبيّ:إذا استَحَقَّ الَّذي يُشير بالحَديدَة اللَّعن فَكَيفَ الَّذي يُصيب بها ؟ وإنَّما يَستَحقّ اللَّعن إذا كانَت إشارَته تَهديدًا سَواء كانَ جادًّا أَم لاعبًا كَما تَقَدَّمَ،وإنَّما أُوخذَ اللاّعب لما أَدخَلَهُ عَلَى أَخيه منَ الرَّوع،ولا يَخفَى أَنَّ إثم الهازِل دُونَ إثم الجادّ وإنَّما نُهيَ عَن تَعاطي السَّيف مَسلُولاً لما يُخاف منَ الغَفلَة عندَ التَّناوُل فَيَسقُط فَيُؤذي.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٢٥)

[٣٢٤٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٣٠٠)

[٣٢٤٧] - صحيح البخاري (١/ ٩٨)(٤٥١)

[ش(امسك بنصالها) ضع يدك على نصالها جمع نصل وهو ما يجرح منها والغرض حتى لا يخدش بها أحدا دون قصد]

[٣٢٤٨] - صحيح البخاري (١/ ٩٨)(٤٥٢)

[ش (لا يعقر بكفه) حتى لا يجرح بسبب عدم وضع كفه على النصل]

[٣٢٤٩] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٠٢)(٢٦٥) صحيح

وإنما النهي عن الإفراط فيه لما في ذلك من المضار وأهونها استخفاف الناس به،وأنه قد يكذب ليُضحك الناس،وقد يثير المزاح عداوة بين الناس،أو يقع المازح في عرض بعض الناس،وكل هذا مشاهد معروف.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تُمَارِ أَخَاكَ،وَلَا تُمَازِحْهُ،وَلَا تَعِدْهُ مَوْعِدًا فَتُخْلِفَهُ»[٣٢٥٠]

قال ابن حجر:[والجَمع بَينَهما أَنَّ المَنهِيّ عَنهُ ما فيه إفراط أَو مُداومَة عَلَيه لما فِيه مِنَ الشُّغل عَن ذِكر الله والتَّفَكُّر فِي مُهِمّات الدِّين ويَئُولُ كَثِيرًا إِلَى قَسوة القَلب والإِيذاء والحِقد وسُقُوط المَهابَة والوقار،والَّذِي يَسلَم من ذَلِكَ هُو المُباح،فَإِن صادَفَ مَصلَحَة مِثل تَطيِيب نَفس المُخاطَب ومُؤانَسَته فَهُو مُستَحَبّ .

قالَ الغَزالِيّ:مِنَ الغَلَط أَن يُتَّخَذ المِزاح حِرفَة،ويُتَمَسَّك بِأَنَّهُ ﷺ مَزَحَ فَهُو كَمَن يَدُور مَعَ الرِّيح حَيثُ دارَ،ويَنظُر رَقصهم،ويُتَمَسَّك بِأَنَّهُ ﷺ أَذِنَ لِعائِشَة أَن تَنظُر إِلَيهِم.][٣٢٥١].

وقال الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين):[وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:اتَّقُوا الْمِزَاحَ فَإِنَّهَا حِمْقَةٌ تُورِثُ ضَغِينَةً.وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:إنَّمَا الْمِزَاحُ سِبَابٌ إلَّا أَنَّ صَاحِبَهُ يُضْحِكُ.وَقِيلَ:إنَّمَا سُمِّيَ الْمِزَاحُ مِزَاحًا لِأَنَّهُ يُزِيحُ عَنِ الْحَقِّ.وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ:الْمِزَاحُ مِنْ سُخْفٍ أَوْ بَطَرٍ.وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ:الْمِزَاحُ يَأْكُلُ الْهَيْبَةَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ.وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:مَنْ كَثُرَ مِزَاحُهُ زَالَتْ هَيْبَتُهُ،وَمَنْ كَثُرَ خِلَافُهُ طَابَتْ غَيْبَتُهُ.وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ:مَنْ قَلَّ عَقْلُهُ كَثُرَ هَزْلُهُ.وَذَكَرَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ الْمِزَاحَ فَقَالَ:يَصُكُّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ بِأَشَدَّ مِنْ الْجَنْدَلِ،وَيُنْشِقُهُ أَحْرَقَ مِنْ الْخَرْدَلِ،وَيُفْرِغُ عَلَيْهِ أَحَرَّ مِنْ الْمِرْجَلِ،ثُمَّ يَقُولُ:إنَّمَا كُنْتُ أُمَازِحُك.وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:خَيْرُ الْمِزَاحِ لَا يُنَالُ،وَشَرُّهُ لَا يُقَالُ.وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا يَعْرَى مِنْ الْمِزَاحِ مَنْ كَانَ سَهْلًا فَالْعَاقِلُ يَتَوَخَّى بِمِزَاحِهِ إحْدَى حَالَتَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:إحْدَاهُمَا:إينَاسُ الْمُصَاحِبِينَ وَالتَّوَدُّدُ إلَى الْمُخَالِطِينَ.وَهَذَا يَكُونُ بِمَا أَنِسَ مِنْ جَمِيلِ الْقَوْلِ،وَبُسِطَ مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْفِعْلِ.

[٣٢٥٠] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٤٢)(٣٩٤) فيه ضعف

[٣٢٥١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ٥٢٦)

وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ لِابْنِهِ:اقْتَصِدْ فِي مِزَاحِك فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِيهِ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ،وَيُجَرِّئُ عَلَيْك السُّفَهَاءَ،وَإِنَّ التَّقْصِيرَ فِيهِ يَفُضُّ عَنْك الْمُؤَانِسِينَ،وَيُوحِشُ مِنْك الْمُصَاحِبِينَ.وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ:أَنْ يَنْفِيَ بِالْمِزَاحِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ سَأَمٍ،وَأَحْدَثَ بِهِ مِنْ هَمٍّ][3252].

٩ = كظم الغيظ:

وهو من صور كف الأذى عن الناس،قال تعالى:{ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:١٣٤]،وهذا من صفات المتقين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:أَوْصِنِي،قَالَ:«لاَ تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا،قَالَ:«لاَ تَغْضَبْ»[3253].

وعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ،عَنِ ابْنِ عَمٍّ لَهُ وَهُوَ جَارِيَةُ بْنُ قُدَامَةَ،أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،قُلْ لِي قَوْلًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ،وَأَقْلِلْ لَعَلِّي لَا أُغْفِلُهُ،قَالَ:«لَا تَغْضَبْ» فَعَادَ لَهُ مِرَارًا،كُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَغْضَبْ»[3254]

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ:الْغَضَبُ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ يَخْرُجُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنْ حَدِّ الِاعْتِدَالِ صُورَةً وَسُرَّةً حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِالْبَاطِلِ وَيَفْعَلَ الْمَذْمُومَ شَرْعًا وَعُرْفًا،وَيَنْوِيَ الْحِقْدَ وَالْبُغْضَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقَبَائِحِ الَّتِي كُلُّهَا مِنْ أَثَرِ سُوءِ الْخُلُقِ،بَلْ قَدْ يَكْفُرُ،وَلِهَذَا قَالَ:لَا تَغْضَبْ وَأَصَرَّ عَلَيْهِ مَعَ إِلْحَاحِ السَّائِلِ مُرِيدًا لِلزِّيَادَةِ أَوِ التَّبْدِيلِ فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ:حَسِّنْ خُلُقَكَ،وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ،فَالْحَدِيثُ مِنْ بَدَائِعِ الْكَلِمِ،ثُمَّ عِلَاجُهُ مَعْجُونٌ مُرَكَّبٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِأَنْ يَرَى الْكُلَّ مِنَ اللَّهِ،وَيُذَكِّرَ نَفْسَهُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ أَعْظَمُ وَفَضْلَهُ أَكْثَرُ،وَكَمْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَلَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهِ،وَيَتَعَوَّذَ وَيَتَوَضَّأَ وَيَشْغَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:قَدْ كَانَ - ﷺ - مُكَاشِفًا بِأَوْضَاعِ الْخَلْقِ عَارِفًا بِأَدْوَائِهِمْ يَضَعُ الْهَنَا مَوْضِعَ النَّقْبِ يَأْمُرُهُمْ بِمَا هُوَ أَوْلَى

[3252] - أدب الدنيا والدين (ص:٣١٠)

[3253] - صحيح البخاري (٨/ ٢٨)(٦١١٦)

[ش (رجلا) هو جارية بن قدامة رضي الله عنه.(مرارا) كرر طلبه للوصية مرات]

[3254] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٥٠٢)(٥٦٨٩) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«قَوْلُهُ ﷺ» لَا تَغْضَبْ «أَرَادَ بِهِ أَنْ لَا تَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْغَضَبِ مِمَّا نَهَيْتُكَ عَنْهُ،لَا أَنَّهُ نَهَاهُ عَنِ الْغَضَبِ،إِذِ الْغَضَبُ شَيْءٌ جِبِلَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ،وَمُحَالٌ أَنْ يُنْهَى الْمَرْءُ عَنْ جِبِلَّتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا،بَلْ وَقَعَ النَّهْيُ فِي هَذَا الْخَبَرِ عَمَّا يَتَوَلَّدُ مِنَ الْغَضَبِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ» .صحيح ابن حبان - مخرجا (١٢/ ٥٠٤)

بِهِمْ،فَلَمَّا اسْتَوْصَاهُ الرَّجُلُ وَقَدْ رَآهُ مَمْلُوءًا بِالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ لَمْ يَرَ لَهُ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَتَجَنَّبَ عَنْ دَوَاعِي الْغَضَبِ وَيُزَحْزِحَ نَفْسَهُ عَنْهُ.وَقَالَ الْقَاضِي:لَعَلَّهُ - ﷺ - لَمَّا رَأَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ وَتَعْتَرِيهِ إِنَّمَا تَعْرُضُ لَهُ مِنْ فَرْطِ شَهْوَتِهِ وَاسْتِيلَاءِ غَضَبِهِ،وَالشَّهْوَةُ مَكْثُورَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْغَضَبُ غَيْرُ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهَا،فَلَمَّا سَأَلَهُ الرَّجُلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَيْهِ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى التَّجَنُّبِ عَنِ الْقَبَائِحِ وَالتَّحَرُّزِ عَنْ مَظَانِّهَا نَهَاهُ عَنِ الْغَضَبِ الدَّاعِي إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ ضَرَرًا وَأَكْثَرَ وِزْرًا،فَإِنَّ ارْتِفَاعَ السَّبَبِ يُوجِبُ ارْتِفَاعَ مُسَبِّبَاتِهِ لَا مَحَالَةَ.

قُلْتُ:هُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ وَبَيَانٌ مُسْتَحْسَنٌ إِلَّا أَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ مَدَارَ الْغَضَبِ عَلَى شَهْوَةِ النَّفْسِ،فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَغْضَبُ غَضَبًا مَذْمُومًا إِلَّا بِتَوَهُّمِ فَوْتِ شَهْوَةٍ لَهُ أَوْ بَعْدَ تَحَقُّقِ فَرْقًا،وَلِهَذَا تَرَى كُلَّ مَا كَانَ شَهْوَتُهُ أَكْثَرَ كَالْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ يَكُونُ غَضَبُهُ أَكْبَرَ،وَيَجِبُ عَنْهُ الْحَذَرُ."[3255]

وقال تعالى:{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [الشورى:43]

بَعْدَ أَنْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الظُّلْمَ وَأَهْلَهُ،وَشَرَعَ القِصَاصَ والانْتِصَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ،نَدَبَ النَّاسَ إِلَى العَفْوِ والمَغْفِرَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا تَمْكِينٌ لِلْفَسَادِ فِي الأَرْضِ،فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الأَذَى وَمَغْفِرَةَ السَّيِّئَةِ وَسَتْرَهَا مِنَ الأُمُورِ المَشْكُورَةِ،وَالأَفْعَالِ الحَمِيدَةِ التي يُجْزِلُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الثَّوَابَ لِفَاعِلِيهَا،وَمِنَ الأُمُورِ التِي يَنْبَغِي عَلَى العَاقِلِ أَنْ يُوَجِبَهَا عَلَى نَفْسِهِ.[3256]

وقد سبق الكلام عن الصبر على إيذاء الإخوة وكظم الغيظ والصبر والعفو من الأخلاق التي يحتاجها كل من يخالط الناس والتحلي بها يأتي بالمجاهدة والاكتساب.

١٠ = كتمان الأسرار،وهي من الأمانات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ:إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ "[3257]

[3255] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٨٧)

[3256] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٩٤،بترقيم الشاملة آليا)

[3257] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٣) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)١٠٧ - (٥٩)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ الحَدِيثِ المار،وذَكَرَ فِيهِ:«وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»[٣٢٥٨]

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَابِرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ وَهُوَ يَلْتَفِتُ فَهِيَ أَمَانَةٌ»[٣٢٥٩]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ:سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ،أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ،أَوْ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ "[٣٢٦٠]

وفي التتريل قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال:٢٧]

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَبِي لُبَابَةَ حِينَ بَعَثَهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ،فَاسْتَشَارَ اليَهُودُ أَبَا لُبَابَةَ - وَكَانَ حَلِيفاً لَهُمْ - فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ،وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ،أَيْ أَنَّه الذَّبْحَ.ثُمَّ شَعَرَ أَنَّهُ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ،فَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةِ المَسْجِدِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ لاَ يَذُوقُ طَعَاماً حَتَّى تَابَ اللهُ عَلَيْهِ،فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.(وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أبِي بَلْتَعَةَ،الذِي أَرْسَلَ رِسَالَةً إِلَى قُرَيْشٍ مَعَ امْرَأَةٍ يُعْلِمُهَا فِيهَا بِأَنَّ الرَّسُولَ تَجَهَّزَ لِغَزْوِهِمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ) .وَالآيَةُ عَامَّةٌ.

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِهِ،وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ،وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِي ائْتَمَنَ اللهُ العِبَادَ عَلَيهَا:يَعْنِي الفَرَائِضَ،وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ:كَالمِكْيَالِ وَالمِيْزَانِ،وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ،وَكِتْمَانِ السِّرِّ..إلخ.فَالأَمَانَةُ وَاحِدَةٌ وَلاَ تَبْعِيضَ فِيهَا،وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ،وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا.[٣٢٦١]

[ش(آية) علامة.(كذب) أخبر بخلاف الحقيقة قصدا.(اخلف) لم يف بوعده]

[٣٢٥٨] - صحيح مسلم (١/ ٧٩)١١٠ - (٥٩)

[٣٢٥٩] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٣١٨)(١٨٧٠) حسن

[٣٢٦٠] - سنن أبي داود (٤/ ٢٦٨)(٤٨٦٩) فيه جهالة

[٣٢٦١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

وقد ورى البخاري رحمه الله عن أَنَسَ بْنِ مَالِك:«أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ سِرًّا،فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدَهُ،وَلَقَدْ سَأَلَتْنِي أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ»[٣٢٦٢]

وعَنْ أَنَس،قَالَ:أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ،وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان،قَالَ:فَسَلَّمَ عَلَيْنَا،فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ،فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي،فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ:مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَةٍ،قَالَتْ:مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ:إِنَّهَا سِرٌّ،قَالَتْ:لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ الله ﷺ أَحَدًا قَالَ أَنَسٌ:وَالله لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ"[٣٢٦٣]

قلت:وأم سليم هي أم أنس،قال ابن حجر في شرح هذا الحديث:[قالَ بَعض العُلَماء:كَأَنَّ هَذا السِّرّ يَختَصّ بِنساءِ النَّبِيّ ﷺ،وإِلاَّ فَلَو كانَ مِنَ العِلم ما وسعَ أَنَسًا كِتمانه.

وقالَ ابن بَطّال:الَّذي عَلَيهِ أَهل العِلم أَنَّ السِّرّ لا يُباح بِهِ إِذا كانَ عَلَى صاحِبه مِنهُ مَضَرَّة،وأَكثَرهم يَقُول:إِنَّهُ إِذا ماتَ لا يَلزَم مِن كِتمانه ما كانَ يَلزَم فِي حَياته إِلاَّ أَن يَكُون عَلَيهِ فِيهِ غَضاضَة قُلت:الَّذي يَظهَر انقِسام ذَلِكَ بَعد المَوت إِلَى ما يُباح،وقَد يُستَحَبّ ذِكره ولَو كَرِهَهُ صاحِب السِّرّ،كَأَن يَكُون فِيهِ تَزكِيَة لَهُ مِن كَرامَة أَو مَنقَبَة أَو نَحو ذَلِكَ وإِلَى ما يُكرَه مُطلَقًا وقَد يَحرُم وهُو الَّذي أَشارَ إِلَيهِ ابن بَطّال،وقَد يَجِب كَأَن يَكُون فِيهِ ما يَجِب ذِكره كَحَقٍّ عَلَيهِ كانَ يُعذَر بِتَركِ القِيام بِهِ فَيُرجَى بَعده إِذا ذُكِرَ لِمَن يَقُوم بِهِ عَنهُ أَن يَفعَل ذَلِكَ .][٣٢٦٤].

وقال الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين):" اعْلَمْ أَنَّ كِتْمَانَ الْأَسْرَارِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ النَّجَاحِ،وَأَدْوَمِ لِأَحْوَالِ الصَّلَاحِ.رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:«اسْتَعِينُوا عَلَى الْحَاجَاتِ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ» .وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ:سِرُّك أَسِيرُك فَإِنْ تَكَلَّمْت بِهِ صِرْت أَسِيرَهُ.وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لِابْنِهِ:يَا بُنَيَّ كُنْ جَوَادًا بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ،ضَنِينًا بِالْأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ.فَإِنَّ أَحْمَدَ جُودِ الْمَرْءِ الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ،وَالْبُخْلُ بِمَكْتُومِ السِّرِّ.

[٣٢٦٢] - صحيح البخاري (٨/ ٦٥)(٦٢٨٩) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٣٠)١٤٦ - (٢٤٨٢)

[٣٢٦٣] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٢٩)١٤٥ - (٢٤٨٢)

[٣٢٦٤] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١١/ ٨٢)

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ:مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَ الْخِيَارُ إِلَيْهِ،وَمَنْ أَفْشَاهُ كَانَ الْخِيَارُ عَلَيْهِ.وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ:مَا أَسَرَّك مَا كَتَمْت سِرَّك.وَقَالَ بَعْضُ الْفُصَحَاءِ:مَا لَمْ تُغَيِّبْهُ الْأَضَالِعُ فَهُوَ مَكْشُوفٌ ضَائِعٌ...وَكَمْ مِنْ إظْهَارِ سِرٍّ أَرَاقَ دَمَ صَاحِبِهِ،وَمَنَعَ مِنْ نَيْلِ مَطَالِبِهِ،وَلَوْ كَتَمَهُ كَانَ مِنْ سَطْوَتِهِ آمِنًا،وَفِي عَوَاقِبِهِ سَالِمًا،وَلِنَجَاحِ حَوَائِجِهِ رَاجِيًا.

وَقَالَ أَنُوشِرْوَانَ:مَنْ حَصَّنَ سِرَّهُ فَلَهُ بِتَحْصِينِهِ خَصْلَتَانِ:الظَّفَرُ بِحَاجَتِهِ،وَالسَّلَامَةُ مِنْ السَّطَوَاتِ.وَإِظْهَارُ الرَّجُلِ سِرَّ غَيْرِهِ أَقْبَحُ مِنْ إظْهَارِهِ سِرَّ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ يَبُوءُ بِإِحْدَى وَصْمَتَيْنِ:الْخِيَانَةُ إنْ كَانَ مُؤْتَمَنًا،أَوْ النَّمِيمَةُ إنْ كَانَ مُسْتَوْدَعًا.فَأَمَّا الضَّرَرُ فَرُبَّمَا اسْتَوَيَا فِيهِ وَتَفَاضَلَا.وَكِلَاهُمَا مَذْمُومٌ،وَهُوَ فِيهِمَا مَلُومٌ.وَفِي الِاسْتِرْسَالِ بِإِبْدَاءِ السِّرِّ دَلَائِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ مَذْمُومَةٍ:إحْدَاهَا:ضِيقُ الصَّدْرِ،وَقِلَّةُ الصَّبْرِ،حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَتَّسِعْ لِسِرٍّ،وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى صَبْرٍ.

وَالثَّانِيَةُ:الْغَفْلَةُ عَنْ تَحَذُّرِ الْعُقَلَاءِ،وَالسَّهْوُ عَنْ يَقظَةِ الْأَذْكِيَاءِ.وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:انْفَرِدْ بِسِرِّك وَلَا تُودِعْهُ حَازِمًا فَيَزِلَّ،وَلَا جَاهِلًا فَيَخُونَ.وَالثَّالِثَةُ:مَا ارْتَكَبَهُ مِنْ الْغَدْرِ،وَاسْتَعْمَلَهُ مِنْ الْخَطَرِ.وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:سِرُّك مِنْ دَمِك فَإِذَا تَكَلَّمْت بِهِ فَقَدْ أَرَقْتَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ الْأَسْرَارِ مَا لَا يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنْ مُطَالَعَةِ صَدِيقٍ مُسَاهِمٍ،وَاسْتِشَارَةِ نَاصِحٍ مُسَالِمٍ.فَلْيَخْتَرْ الْعَاقِلُ لِسِرِّهِ أَمِينًا إنْ لَمْ يَجِدْ إلَى كَتْمِهِ سَبِيلًا،وَلْيَتَحَرَّ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَأْتَمِنُهُ عَلَيْهِ وَيَسْتَوْدِعُهُ إيَّاهُ.فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَمْوَالِ أَمِينًا كَانَ عَلَى الْأَسْرَارِ مُؤْتَمَنًا.وَالْعِفَّةُ عَنْ الْأَمْوَالِ أَيْسَرُ مِنْ الْعِفَّةِ عَنْ إذَاعَةِ الْأَسْرَارِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُذِيعَ سِرَّ نَفْسِهِ بِبَادِرَةِ لِسَانِهِ،وَسَقَطِ كَلَامِهِ،وَيَشُحُّ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ،حِفْظًا لَهُ وَضَنًّا بِهِ،وَلَا يَرَى مَا أَذَاعَ مِنْ سِرِّهِ كَبِيرًا فِي جَنْبِ مَا حَفِظَهُ مِنْ يَسِيرِ مَالِهِ مَعَ عِظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عَلَيْهِ.فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ أُمَنَاءُ الْأَسْرَارِ أَشَدَّ تَعَذُّرًا وَأَقَلَّ وُجُودًا مِنْ أُمَنَاءِ الْأَمْوَالِ.وَكَانَ حِفْظُ الْمَالِ أَيْسَرَ مِنْ كَتْمِ الْأَسْرَارِ؛ لِأَنَّ إحْرَازَ الْأَمْوَالِ مَنِيعَةٌ وَإِحْرَازَ الْأَسْرَارِ بَارِزَةٌ يُذِيعُهَا لِسَانٌ نَاطِقٌ،وَيُشِيعُهَا كَلَامٌ سَابِقٌ.وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:الْقُلُوبُ أَوْعِيَةُ الْأَسْرَارِ،وَالشِّفَاهُ أَقْفَالُهَا وَالْأَلْسُنُ مَفَاتِيحُهَا،فَلْيَحْفَظْ كُلُّ امْرِئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ.

وَمِنْ صِفَاتِ أَمِينِ السِّرِّ أَنْ يَكُونَ ذَا عَقْلٍ صَادٍّ،وَدِينٍ حَاجِزٍ،وَنُصْحٍ مَبْذُولٍ،وَوُدٍّ مَوْفُورٍ،وَكَتُومًا بِالطَّبْعِ.فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَمْنَعُ مِنْ الْإِذَاعَةِ،وَتُوجِبُ حِفْظَ الْأَمَانَةِ،فَمَنْ كَمُلَتْ فِيهِ فَهُوَ عَنْقَاءُ مُغْرِبٍ."[3265]

قلت:وكتمان الأسرار يتأكد خاصة فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله والحرب،إذ إنه يدخل في عموم حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ الحَرْبَ خَدْعَةً»[3266]

وعَنْ عَمْرٍو،سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الحَرْبُ خَدْعَةٌ»[3267]

وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ الْخِدَاعِ مَعَ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ كَيْفَ اتَّفَقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ،أَوْ أَمَانٍ،وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ.وَقَالَ الطَّبَرِيُّ:إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ الْمَعَارِيضُ،وَحَقِيقَتُهُ لَا تَجُوزُ،وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ،لَكِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى التَّعْرِيضِ أَفْضَلُ"[3268]

وكيف تخدع عدوك إذا لم تكتم أسرارك،فعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،«إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِهَا»[3269]

فَإِنَّ الْمُراد أَنَّهُ كانَ يُريد أَمرًا فَلا يُظهِرهُ كَأَن يُريد أَن يَغزُو جِهَة الشَّرق فَيَسأَل عَن أَمر فِي جِهَة الغَرب،ويَتَجَهَّز لِلسَّفَرِ فَيَظُنّ مَن يَراهُ ويَسمَعهُ أَنَّهُ يُريد جِهَة الغَرب،وأَمّا أَن يُصَرِّح بِإِرادَتِه الغَرب وإِنَّما مُراده الشَّرق فَلا،والله أَعلَم.[3270]

وَفِيهِ التَّحْرِيضُ عَلَى أَخْذِ الْحَذَرِ فِي الْحَرْبِ وَالنَّدْبُ إِلَى خِدَاعِ الْكُفَّارِ،وَأَنَّ مَنْ يَتَيَقَّظْ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَنْعَكِسَ الْأَمْرُ.قَالَ النَّوَوِيُّ:وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ كَيْفَ مَا

[3265] - أدب الدنيا والدين (ص:٣٠٦)

[3266] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٢٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٢)١٨ - (١٧٤٠) وهو حديث متواتر

[3267] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٣٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦١)١٧ - (١٧٣٩)

[3268] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٥)

[3269] - سنن الدارمي (٣/ ١٥٩٢)(٢٤٩٤) صحيح

وفي الْحديث:إباحةُ الخِداعِ فِي الْحَرْب،وَإِن كَانَ مَحْظُورًا فِي غَيرهَا من الْأُمُور،شرح السنة للبغوي (١١/ ٤١)

[3270] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٥٩)

أَمْكَنَ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ فَلَا يَجُوزُ.قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:الْخِدَاعُ فِي الْحَرْبِ يَقَعُ بِالتَّعَرُّضِ وَبِالْكَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْإِشَارَةُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الرَّأْيِ فِي الْحَرْبِ بَلْ الِاحْتِيَاجُ إِلَيْهِ آكَدُ مِنْ الشَّجَاعَةِ.قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ:مَعْنَى ''الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ":أَيْ الْحَرْبُ الْجَيِّدَةُ لِصَاحِبِهَا الْكَامِلَةُ فِي مَقْصُودِهَا إِنَّمَا هِيَ الْمُخَادَعَةُ لَا الْمُوَاجَهَةُ وَذَلِكَ لِخَطَرِ الْمُوَاجَهَةِ وَلِحُصُولِ الظَّفَرِ مَعَ الْمُخَادَعَةِ بِغَيْرِ خَطَرٍ.[٣٢٧١]

ويصل كتمان الأسرار إلى إباحة الكذب إن لم يمكن كتم السر إلا بذلك،وهذا فيما يتعلق بالحرب والجهاد خاصة.فعَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أُمَّ كُلْثُومٍ ابْنَةَ عُقْبَةَ،أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ:" لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَقُولَ:خَيْرًا أَوْ يُنَمِّيَ خَيْرًا''وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِنَّهُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ:" فِي الْحَرْبِ،وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ،وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ،وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا "[٣٢٧٢]

وهذا كله فيما يتعلق بكف الأذى عن الناس وهو الأول من قسمي معاملتهم.

[٣٢٧١] – نيل الأوطار (٧/ ٢٧٧)

[٣٢٧٢] – عشرة النساء للإمام للنسائي – الطبعة الثالثة (ص:١٥٠)(٢٢٤–٧٨٧٩– وصحيح مسلم (٤/ ٢٠١١)(١٠١ – (٢٦٠٥)

قالَ الطَّبَرِيُّ:ذَهَبَت طائِفَة إلَى جَواز الكَذِب لِقَصدِ الإِصلاح وقالُوا:إنَّ الثَّلاث المَذكُورَة كالمِثالِ،وقالُوا:الكَذِب المَذمُوم إنَّما هُو فِيما فِيهِ مَضَرَّة،أَو ما لَيسَ فِيهِ مَصلَحَة.

وقالَ آخَرُونَ:لا يَجُوز الكَذِب فِي شَيء مُطلَقًا وحَمَلُوا الكَذِب المُراد هُنا عَلَى التَّورِيَة والتَّعرِيض كَمَن يَقُول لِلظّالِمِ:دَعَوت لَك أَمس،وهُو يُرِيد قَوله اللَّهُمَّ اغفِر لِلمُسلِمِينَ.ويَعِد امرَأَته بِعَطِيَّة شَيء ويُرِيد إن قَدَّرَ الله ذَلِكَ.وأَن يُظهِر مِن نَفسه قُوَّة.

قُلت:وبِالأَوَّلِ جَزَمَ الخَطّابِيُّ وغَيره،وبِالثّانِي جَزَمَ المُهَلَّب والأَصِيلِيّ وغَيرهما.

واتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ المُراد بِالكَذِبِ فِي حَقّ المَرأَة والرَّجُل إنَّما هُو فِيما لا يُسقِط حَقًّا عَلَيهِ أَو عَلَيها أَو أَخذ ما لَيسَ لَهُ أَو لَها.

وكَذا فِي الحَرب فِي غَير التَّأمِين.واتَّفَقُوا عَلَى جَواز الكَذِب عِند الاضطِرار،كَما لَو قَصَدَ ظالِم قَتل رَجُل وهُو مُختَفٍ عِنده فَلَهُ أَن يَنفِي كَونه عِنده ويَحلِف عَلَى ذَلِكَ ولا يَأثَم.والله أَعلَم.فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٥/ ٣٠٠)

القسم الثاني :بعض ما يدخل في إيصال النفع إلى الناس.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ،وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»[٣٢٧٣].

ومن ذلك:

١١= طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء،وهو أدنى النفع ولذلك بدأت به.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا،ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا،ثُمَّ قَالَ:«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ،فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[٣٢٧٤]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[٣٢٧٥].

وعَنْ عَقِيلِ بْنِ طَلْحَةَ،قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو جُرَيٍّ الْهُجَيْمِيُّ،قَالَ:أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَعَلِّمْنَا شَيْئًا يَنْفَعُنَا اللَّهُ بِهِ،فقَالَ:«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي،وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ،وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ،فَإِنَّهُ مِنَ الْمَخِيلَةِ،وَلَا يُحِبُّهَا اللَّهُ وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ،فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ،فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ،وَوَبَالَهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ».[٣٢٧٦]

فإياك والعبوس في وجه إخوانك،وقد قال تعالى في صفة المؤمنين {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

[٣٢٧٣] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٥٣)(١١٥) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٧٧)(٥١٩) صحيح

[٣٢٧٤] - صحيح البخاري (٨/ ١١٦)(٦٥٦٣) وصحيح مسلم (٢/ ٧٠٤)٦٨ - (١٠١٦)

[٣٢٧٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٦)١٤٤ - (٢٦٢٦)

[ش (طلق) روي طلق على ثلاثة أوجه إسكان اللام وكسرها وطليق ومعناه سهل منبسط]

[٣٢٧٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٨١)(٥٢٢) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:الْأَمْرُ بِتَرْكِ اسْتِحْقَارِ الْمَعْرُوفِ أَمْرٌ قُصِدَ بِهِ الْإِرْشَادُ وَالزَّجْرُ عَنْ إِسْبَالِ الْإِزَارِ زَجْرُ حَتْمٍ لِعِلَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَهِيَ الْخُيَلَاءُ،فَمَتَى عُدِمَتِ الْخُيَلَاءُ،لَمْ يَكُنْ بِإِسْبَالِ الْإِزَارِ بَأْسٌ وَالزَّجْرُ عَنِ الشَّتِيمَةِ إِذَا شُوتِمَ الْمَرْءُ،زَجْرٌ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،وَقَبْلَهُ،وَبَعْدَهُ،وَإِنْ لَمْ يُشْتَمْ.

الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة:٥٤]،وقال تعالى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح:٢٩].

١٢ = أداء حقوق المسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ:رَدُّ السَّلَامِ،وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ،وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ،وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ،وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ "[٣٢٧٧].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ:مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟،قَالَ:«إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ،وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ،وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ،وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ،وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»[٣٢٧٨]

وعن مُعَاوِيَةَ بْنِ سُوَيْدِ بْنِ مُقَرِّنٍ،قَالَ:سَمِعْتُ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ:" نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ سَبْعٍ:نَهَانَا عَنْ خَاتَمِ الذَّهَبِ"أَوْ قَالَ:" حَلْقَةِ الذَّهَبِ،وَعَنِ الحَرِيرِ،وَالإِسْتَبْرَقِ،وَالدِّيبَاجِ،وَالمِيثَرَةِ الحَمْرَاءِ،وَالقَسِّيِّ،وَآنِيَةِ الفِضَّةِ.وَأَمَرَنَا بِسَبْعٍ:بِعِيَادَةِ المَرِيضِ،وَاتِّبَاعِ الجَنَائِزِ،وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ،وَرَدِّ السَّلاَمِ،وَإِجَابَةِ الدَّاعِي،وَإِبْرَارِ المُقْسِمِ،وَنَصْرِ المَظْلُومِ "[٣٢٧٩].

١٣ = ومنها إفشاء السلام

[٣٢٧٧] - صحيح البخاري (٢/ ٧١)(١٢٤٠) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٠٤)٤ - (٢١٦٢)

[ش (حق المسلم) حق الحرمة والصحبة ويشمل ما هو واجب وما هو مندوب]

[٣٢٧٨] - صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٥)٥ - (٢١٦٢)

[ش (فشمته) تشميت العاطس أن يقول له يرحمك الله ويقال بالسين المهملة والمعجمة لغتان مشهورتان قال الأزهري قال الليث التشميت ذكر الله تعالى على كل شيء ومنه قوله للعاطس يرحمك الله قال ثعلب يقال سمت العاطس وشمته إذا دعوت له بالهدى وقصد السمت المستقيم قال والأصل فيه السين المهملة فقلبت شينا معجمة وقال صاحب المحكم تسميت العاطس معناه هداك الله إلى السمت]

[٣٢٧٩] - صحيح البخاري (٧/ ١٥٥)(٥٨٦٣)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[3280]..

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[3281]

وعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ:الْحَسَدُ،وَالْبَغْضَاءُ،وَالْبَغْضَاءُ هِيَ:الْحَالِقَةُ،حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ،أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ "[3282]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ:أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ:«تُطْعِمُ الطَّعَامَ،وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[3283]

١٤ = ومنها حسن الخلق

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[3284]

قال ابن رجب الحنبلي:[وَقَوْلُهُ ﷺ:" «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»"هَذَا مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى،وَلَا تَتِمُّ التَّقْوَى إِلَّا بِهِ،وَإِنَّمَا أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ لِلْحَاجَةِ إِلَى بَيَانِهِ،فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الْقِيَامُ بِحَقِّ اللَّهِ دُونَ حُقُوقِ عِبَادِهِ،فَنَصَّ لَهُ عَلَى الْأَمْرِ بِإِحْسَانِ

[3280] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤٧٢)(٢٣٦) صحيح

[3281] - صحيح مسلم (١/ ٧٤)٩٣ - (٥٤)

[ش (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة معروفة صحيحة وأما معنى الحديث فقوله ﷺ ولا تؤمنوا حتى تحابوا معناه لا يكمل ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب (أفشوا السلام بينكم) فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف]

[3282] - مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٢٩)(١٤١٢) حسن لغيره

[3283] - صحيح البخاري (١/ ١٢)(١٢) وصحيح مسلم (١/ ٦٥)٦٣ - (٣٩)

[ش (أي الإسلام خير) أي أعمال الإسلام أكثر نفعا.(تقرأ السلام) تسلم])

[3284] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) صحيح لغيره

الْعِشْرَةِ لِلنَّاسِ،فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ مُعَلِّمًا لَهُمْ وَمُفَقِّهًا وَقَاضِيًا،وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ،فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُخَالَقَةِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ مِمَّا لَا حَاجَةَ لِلنَّاسِ بِهِ وَلَا يُخَالِطُهُمْ،وَكَثِيرًا مَا يَغْلِبُ عَلَى مَنْ يَعْتَنِي بِالْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ،وَالِانْعِكَافِ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَخَشْيَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَإِهْمَالِ حُقُوقِ الْعِبَادِ بِالْكُلِّيَّةِ أَوِ التَّقْصِيرِ فِيهَا،وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ عَزِيزٌ جِدًّا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ إِلَّا الْكُمَّلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ.وَقَالَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ:ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ عَزِيزَةٌ أَوْ مَعْدُومَةٌ:حُسْنُ الْوَجْهِ مَعَ الصِّيَانَةِ،وَحُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ الدِّيَانَةِ،وَحُسْنُ الْإِخَاءِ مَعَ الْأَمَانَةِ.وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:جَلَسَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَالِيًا،فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:مَالِي أَرَاكَ خَالِيًا؟ قَالَ:هَجَرْتُ النَّاسَ فِيكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ،قَالَ:يَا دَاوُدُ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا تَسْتَبْقِي بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ،وَتَبْلُغُ فِيهِ رِضَايَ؟ خَالِقِ النَّاسَ بِأَخْلَاقِهِمْ،وَاحْتَجِزِ الْإِيمَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.وَقَدْ عَدَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مُخَالَقَةَ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى،بَلْ بَدَأَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:{أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ - الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٣ - ١٣٤] .[٣٢٨٥].

ومن أهم ما يدخل في حسن الخلق،حفظ اللسان ولين القول وحفظ الجناح والتواضع والرفق بالناس،ويدخل فيه كظم الغيظ واحتمال الأذى والعفو والصفح وكل هذا يحتاجه العبد في مخالطة الناس.

وأود أن أنبه هنا على أن حسن الخلق ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة،ففي الدنيا يقيض الله مع يحسن إليه كما أحسن إلى الناس فالجزاء من جنس العمل،عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ،وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ،وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ» [٣٢٨٦]

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا } [الطلاق:٤]،ويبارك الله له في رزقه وفي عمره،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ سَرَّهُ أَنْ

[٣٢٨٥] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٤٥٤)

[٣٢٨٦] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٦١)(٨٠١٤) حسن

يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ،أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ،فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[3287]. وأما في الآخرة،فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ،وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»[3288].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ فِي مَجْلِسٍ:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ،وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟"ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا،قُلْنَا:بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا».[3289]

١٥ = ومنها أشياء عديدة ذكرت بحديث شامل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا،نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ،يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا،سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ،وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا،سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ،وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ،إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ،وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ،وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ،لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[3290]

وأنبه على نشر العلم خاصة،عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ «أَنِ انْظُرُوا إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاكْتُبُوهُ؛ فَإِنِّي قَدْ خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ»[3291]

[3287] - صحيح البخاري (٣/ ٥٦)(٢٠٦٧) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٢)٢٠ - (٢٥٥٧)

[ش(يبسط) يوسع.(ينسأ) يؤخر.(أثره) بقية عمره.(فليصل رحمه) فليبر بأقاربه]

[3288] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٦٣)(٢٠٠٣) صحيح لغيره

[3289] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٣٥)(٤٨٥) صحيح

[3290] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤)٣٨ - (٢٦٩٩)

[ش (ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) معناه من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل]

[3291] - السنة للمروزي (ص:٣١)(٩٦) صحيح

وقال البخاري معلقاً:«وَلْتُفْشُوا العِلْمَ،وَلْتَجْلِسُوا حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لاَ يَعْلَمُ،فَإِنَّ العِلْمَ لاَ يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا»[٣٢٩٢]

وكأن البخاري أراد رحمه الله بذكر هذا الأثر في باب قبض العلم أن ترك تعليم العلم للناس هو سبب موت العلم وتفشي الجهل.فاحرص على تعليم أخيك المسلم ما يمكنك،عَلِّمه التلاوة والأذكار والفقه اللازم وعلمه القراءة والكتابة إن كان أُمِّيا،وعلمه خبرتك العسكرية وخبرتك في العمل الإسلامي فقد لا تنتفع أنت بهذا وقد تُسْتَشْهد،وينتفع هو بهذه الخبرة وتكون لك صدقة جارية بعد موتك وينالك ثواب عمله،فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي،فَقَالَ:«مَا عِنْدِي»،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[٣٢٩٣].وهذا كله يدخل في باب (الدين النصيحة).

ومن الخصال المذكورة في الحديث السابق (من ستر مسلما)،فإذا رأيت أخاك على معصية فاستر عليه ولا تفضحه وانصحه،إلا إذا كان يفعل ما يضر غيره فأخبر الأمير بذلك.فعَنْ دُخَيْنٍ أَبِي الْهَيْثَمِ،كَاتِبِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،قَالَ:قُلْتُ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:إِنَّ لَنَا جِيرَانًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ،وَأَنَا دَاعٍ الشُّرْطَ لِيَأْخُذُوهُمْ،فقَالَ عُقْبَةُ:وَيْحَكَ،لَا تَفْعَلْ،وَلَكِنْ عِظْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ،قَالَ:إِنِّي نَهَيْتُهُمْ،فَلَمْ يَنْتَهُوا،وَإِنِّي دَاعٍ الشُّرْطَ لِيَأْخُذُوهُمْ،فقَالَ عُقْبَةُ:وَيْحَكَ،لَا تَفْعَلْ،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ،فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَى مَوْءُودَةً فِي قَبْرِهَا».[٣٢٩٤]

[٣٢٩٢] - صحيح البخاري (١/ ٣١)

[٣٢٩٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٦)١٣٣ - (١٨٩٣)

[ش (أبدع بي) وفي بعض النسخ بدع بي ونقله القاضي عن جمهور رواة مسلم قال والأول هو الصواب ومعروف في اللغة ومعناه هلكت دابتي وهي مركوبي]

[٣٢٩٤] - الأدب المفرد مخرجا (ص:٢٦٦)(٧٥٨)والسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٥٧٤)(١٧٦١٠) والسنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٦٤)(٧٢٤١) والمعجم الأوسط (١/ ٢٠٤)(٦٥٥) والمعجم الأوسط (٨/ ٣٠٤)(٨٧٠٥) وصحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢٧٤)(٥١٧) من طرق صحيح لغيره

ولا تتخذ عورة أخيك حديثا للسمر والقيل والقَال،فإنك مجازى بمثل هذا،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ،حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ»[٣٢٩٥]

وكما ترى فحديث أبي هريرة «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» مشتمل على عدة أمثلة لقاعدة الجزاء من جنس العمل،وهذه القاعدة عامة وهامة ضعها نصب عينيك في كل أمر تُقْدِم عليه من حسنة أو سيئة،فاعلم أنك ستُجَازى بجنسها في الدنيا والآخرة.

١٦ = ومنها خدمة الإخوة:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،أَكْثَرُنَا ظِلًّا الَّذِي يَسْتَظِلُّ بِكِسَائِهِ،وَأَمَّا الَّذِينَ صَامُوا فَلَمْ يَعْمَلُوا شَيْئًا،وَأَمَّا الَّذِينَ أَفْطَرُوا فَبَعَثُوا الرِّكَابَ وَامْتَهَنُوا وَعَالَجُوا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ اليَوْمَ بِالأَجْرِ» [٣٢٩٦]

قال ابن حجر:[قَوله:"بالأَجر" ؛ أَي الوافِر ولَيسَ الُمراد نَقص أَجر الصُّوّام بَل الُمراد أَنَّ الُمفطِرِينَ حَصَلَ لَهُم أَجرُ عَمَلِهِم ومِثلُ أَجرِ الصُّوّامِ لِتَعاطِيهِم أَشغالَهَم وأَشغالَ الصُّوّامِ فَلِذَلِكَ قالَ:"بِالأَجرِ كُلِّه''لِوُجُودِ الصِّفات الُمقتَضِيَة لِتَحصِيلِ الأَجرِ مِنهُم.

قالَ ابن أَبِي صُفرَة:فِيهِ أَنَّ أَجرَ الخِدمَة فِي الغَزوِ أَعظَمَ مِن أَجرِ الصِّيام.

قُلت:ولَيسَ ذَلِكَ عَلَى العُمُومِ وفِيهِ الحَضُّ عَلَى الُمعاوَنَة فِي الجِهادِ وعَلَى أَنَّ الفِطرَ فِي السَّفَرِ أَولَى مِنَ الصِّيامِ وأَنَّ الصِّيامَ فِي السَّفَرِ جائِز خِلافًا لِمَن قالَ لا يَنعَقِدُ ولَيسَ فِي الحَدِيث بَيانُ كَونِهِ إِذ ذاكَ كانَ صَوم فَرضٍ أَو تَطَوُّعٍ.][٣٢٩٧].

[٣٢٩٥] - سنن ابن ماجه (٢/ ٨٥٠)(٢٥٤٦) صحيح لغيره [ش - (يفضحه بها) أي بعورته.]

[٣٢٩٦] - صحيح البخاري (٤/ ٣٥)(٢٨٩٠) وصحيح مسلم (٢/ ٧٨٨)١٠٠ - (١١١٩)

[ش(أكثرنا ظلا..) يريد أنه لم يكن لهم أخبية يستظلون بها لما كانوا عليه من القلة فكان بعضهم يضع يده على رأسه يتقي بها الشمس ويستظل وبعضهم يضع كساءه يستظل به ولا يوجد ما هو فوق ذلك.(فلم يعملوا شيئا) لعجزهم.(الركاب) الإبل التي يسار عليها أثاروها إلى الماء للسقي وغيره.(امتهنوا وعالجوا) خدموا الصائمين فتناولوا السقي والطبخ وهيؤوا العلف وضربوا الأبنية والخيام.(بالأجر) أخذوا الأجر الكامل الأوفر لتعدي نفعهم لغيرهم بينما كان للصائمين أجر صيامهم وحده لأن نفعهم كان قاصرا عليهم]

[٣٢٩٧] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٨٤)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِمْرَانَ الْفُرَيْعِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ مُجَاهِدًا،يَقُولُ:صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَنَا أُرِيدُ،أَنْ أَخْدُمَهُ،فَكَانَ يَخْدُمُنِي أَكْثَرَ "[3298]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«صَحِبْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،فَكَانَ يَخْدُمُنِي وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنَسٍ» قَالَ جَرِيرٌ:«إِنِّي رَأَيْتُ الأَنْصَارَ يَصْنَعُونَ شَيْئًا،لاَ أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا أَكْرَمْتُهُ»[3299]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ فِي سَفَرٍ فَكَانَ يَخْدُمُنِي فَقُلْتُ لَهُ:لَا تَفْعَلْ،فَقَالَ:«إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا،آلَيْتُ أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ»وَكَانَ جَرِيرٌ أَكْبَرَ مِنْ أَنَسٍ"[3300]

قال ابن رجب الحنبلي:[وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي السَّفَرِ أَنْ يَخْدِمَهُمْ.وَصَحِبَ رَجُلٌ قَوْمًا فِي الْجِهَادِ،فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدِمَهُمْ،وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَغْسِلَ رَأْسَهُ أَوْ ثَوْبَهُ،قَالَ:هَذَا مِنْ شَرْطِي،فَيَفْعَلُهُ،فَمَاتَ فَجَرَّدُوهُ لِلْغُسْلِ،فَرَأَوْا عَلَى يَدِهِ مَكْتُوبًا:مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،فَنَظَرُوا،فَإِذَا هِيَ كِتَابَةٌ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ.][3301].

١٧ - ومنها معرفة حق الكبير والصغير:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا،وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا»[3302]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»[3303]

[3298] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٥٨)(١٠٧٣) حسن

[3299] - صحيح البخاري (٤/ ٣٥)(٢٨٨٨)

[ش(يصنعون شيئا) أي من خدمة رسول الله ﷺ كما ينبغي وتعظيمهم له غاية ما يكون]

[3300] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٥١)١٨١ - (٢٥١٣)

وفي هَذا الحَديث فَضلُ الأَنصارِ وفَضلُ جَرِير وتَواضُعُهُ ومَحَبَّتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وهَذا الحَديث مِنَ الأَحاديث الَّتِي أَورَدَهـا المُصَنِّفُ فِي غَيرِ مَظِنَّتِها،وأَليَقُ المَواضِع بِها المَناقِب.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٨٤)

[3301] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٩٥)

[3302] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٣٠)(٣٥٥) صحيح

[3303] - الأدب المفرد مخرجا (ص:١٣٣)(٣٦٣) صحيح

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْكَبِيرَ،وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ،وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ،وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ». [٣٣٠٤]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا» [٣٣٠٥]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا،وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا،وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ» [٣٣٠٦]

١٨ = ومنها مداراة الناس:

قال تعالى:{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت:٣٤].

وَلاَ تَتَسَاوَى الحَسَنَةُ التي يَرْضَى اللهُ بها،وَيُثِبُ عَلَيْها،مَعَ السَّيِّئةِ التي يَكْرَهُهَا اللهُ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهَا،فَادْفَعْ سَفَاهَةَ السُّفَهَاءِ،وَجَهَالَةَ الجُهَلاَءِ بالطَّرِيقَةِ الحُسْنَى،فَقَابِلْ إِسَاءَتَهُمْ بالإِحْسَانِ إِلَيهِمْ،وقَابِلِ الذَّنْبَ بالعَفْوِ،فَإِذَا صَبَرْتَ عَلَى سُوءِ أَخْلاَقِهِمْ،وَقَابَلْتَ سَفَاهَتَهُمْ بِرَحَابَةِ صَدْرٍ اسْتَحْيَوْا مِنْ ذَمِيمِ أَخْلاَقِهِمْ،وَتَرَكُوا قَبِيحَ أَفْعَالِهِمْ.وَانْقَلَبُوا مِنَ العَدَاوَةِ إِلَى المَحَبَّةِ. [٣٣٠٧]

وعنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:"إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ،وَنَضْحَكُ إِلَيْهِمْ،وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ" [٣٣٠٨]

والكَشْر هو الضحك،وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ عَائِشَةَ،أَخْبَرَتْهُ:أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ:«ائْذَنُوا لَهُ،فَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ – أَوْ بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ –» فَلَمَّا دَخَلَ أَلاَنَ لَهُ

[٣٣٠٤] – صحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٢٠٣)(٤٥٨) صحيح

[٣٣٠٥] – المسند للشاشي (٣/ ١٨٤)(١٢٧٢) صحيح لغيره

[٣٣٠٦] – مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣٦٧)(١٤٧) حسن

[٣٣٠٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٣١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٠٨] – شعب الإيمان (١٠/ ٤٣٠)(٧٧٤٩) وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٢٢) صحيح لغيره

الكَلاَمَ،فَقُلْتُ لَهُ:يَا رَسُولَ اللَّه،قُلْتَ مَا قُلْتَ،ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي القَوْلِ؟ فَقَالَ:«أَيْ عَائشَةُ،إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّه مَنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءَ فُحْشه»[3309]

قال ابن حجر:[والنُّكتَة فِي إيراده هُنا التَّلميح إلَى ما وقَعَ فِي بَعض الطُّرُق بِلَفظِ الُمداراة .وهُو عِندَ الحارِث بن أَبِي أُسامَة مِن حَديث صَفوان بن عَسّال نَحو حَـديث عائِشَـة وفِيهِ:"فَقالَ:إنَّهُ مُنافِق أُدارِيه عَن نِفاقه،وأَخشَى أَن يُفسد عَلَيَّ غَيرَهُ.][3310]

وقال ابن حجر أيضا:[والُمراد بِهِ الدَّفع بِرِفقٍ.وأَشارَ الُمصَنِّف بِالتَّرجَمَة إلَى مـا ورَدَ فِيـه عَلَى غَير شَرطه واقتَصَرَ عَلَى إيراد ما يُؤَدِّي مَعناهُ،فَممّا ورَدَ فِيهِ صَرِيحًا لِجابِرٍ عَن النَّبِـيّ ﷺ قالَ:"مُداراة النّاس صَدَقَة"أَخرَجَهُ ابن عَديّ والطَّبَرانِيُّ فِـي الأَوسَـط،وفِي سَـنَده يُوسُف بن مُحَمَّد بن الُمنكَدِر ضَعَّفُوهُ،وقالَ ابن عَديّ:أَرجُو أَنَّهُ لا بَأس بِهِ.

وأَخرَجَهُ ابن أَبِي عاصِم فِي "آداب الحُكَماء"بِسَنَدٍ أَحسَن مِنهُ،وحَدِيث أَبِي هُرَيرَة"رَأس العَقل بَعد الإيمان بِاللهِ مُداراة النّاس"أَخرَجَهُ البَزّار بِسَنَد ضَعِيف.

قَوله:"ويُذكَر عَن أَبِي الدَّرداء:إنّا لَنُكَشِّر"،بِالكافِ السّاكِنَة وكَسر الُمعجَمَة.

قَوله:"فِي وُجُوه أَقوام وإنَّ قُلُوبنا لَتَلعَنهُم"،كَذا لِلأَكثَرِ بِالعَينِ الُمهمَلَة والـلاَّم السّـاكِنَة والنُّون،ولِلكُشمِيهَنِيّ بِالقافِ السّاكِنَة قِبلَ اللاَّم المَكسُورَة ثُمَّ تَحتانِيَّة ساكِنَة مِنَ القِـلا بِكَسرِ القاف مَقصُور وهُو البُغض،وبِهَذِهِ الرِّوايَة جَزَمَ ابن التِّين،ومِثله فِي تَفسِير الُمزَّمِّـل من"الكَشّاف.

وهَذا الأَثَر وصَلَهُ ابن أَبِي الدُّنيا وإبراهِيم الحَربِيّ فِي "غَرِيب الحَدِيث"والـدِّينَورِيّ فِـي "الُمجالَسَة"مِن طَرِيق أَبِي الزّاهِرِيَّة عَن جُبَير بن نُفَير عَن أَبِـي الـدَّرداء فَـذَكَرَ مِثلـه وزادَ"ونَضحَك إلَيهِم"وذَكَرَهُ بِلَفظِ اللَّعن ولَم يَذكُر الدِّينَورِيّ فِي إسناده جُـبَير بـن نُفَير،ورَوِيناهُ فِي "فَوائِد أَبُو بَكر بن الُمقرِي"مِن طَرِيق كامِل أَبِي العَلاء عَن أَبِي صـالِح عَن أَبِي الدَّرداء قالَ:"إنّا لَنُكَشِّر أَقوامًا"فَذَكَرَ مِثله وهُو مُنقَطِع.وأَخرَجَهُ أَبُو نُعَـيم فِـي "الحِليَة" مِن طَرِيق خَلَف بن حَوشَبٍ قالَ قالَ أَبُو الدَّرداء فَذَكَرَ اللَّفظ الُمعَلَّق سَواء،وهُو

[3309] - صحيح البخاري (٨/ ٣١)(٦١٣١)

[3310] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ٥٢٩)

مُنقَطِع أَيضًا والكَشر بِالشِّين المُعجَمَة وفَتح أَوَّله ظُهُور الأَسنان،وأَكثَر ما يُطلَــق عِنـــدَ الضَّحِك،والاسم الكِشرَة كالعِشرَة قالَ ابن بَطّال:المُداراة مِن أَخــلاق المُــؤمِنِينَ،وهِيَ خَفض الجَناح لِلنّاسِ ولِين الكَلِمَة وتَرك الإِغلاظ لَهُم فِي القَول وذَلِكَ مِن أَقوى أَسباب الأُلفَة

وظَنَّ بَعضهم أَنَّ المُداراة هِيَ المُداهَنَة فَغَلَط ؛ لأَنَّ المُدارَة مَندُوب إِلَيها والمُداهَنَة مُحَرَّمَة،والفَرق أَنَّ المُداهَنَة مِنَ الدِّهان وهُو الَّذِي يَظهَر عَلَى الشَّيء ويُستَر باطِنه،وفَسَّرَها العُلَماء بِأَنَّهُ مُعاشَرَة الفاسِق وإِظهار الرِّضا بِما هُو فِيهِ مِن غَير إِنكار عَلَيه،والمُداراة هِيَ الرِّفق بِالجاهِلِ فِي التَّعلِيم وبِالفاسِقِ فِي النَّهي عَن فِعله،وتَرك الإِغلاظ عَلَيه حَيثُ لا يَظهَر ما هُو فِيه،والإِنكار عَلَيهِ بِلُطفِ القَول والفِعل،ولاسِيَّما إِذا احتِيجَ إِلَى تَأَلُّفه ونَحو ذَلِكَ][3311].

قلت:بهذا تعلم أن المداراة يحتاج إليها المرء كثيرا عند مخالطة الناس على اختلاف طبائعهم وأخلاقهم،وأنها من أقوى أسباب الألفة بين الناس،ومن أيسر سبل الإصــلاح والأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ إن المداراة تقرب بين القلوب فتقبل النصح.

١٩ = ومنه الإصلاح بين الناس:

فما من مجتمع إلا وتحدث فيه المشاحنات بين الناس لاختلاف طبائعهم ولغير ذلك من الأسباب،حتى الصحابة الذين هم خير هذه الأمة كانت تحدث بينهم مشاحنات رضي الله عنهم وكان رسول الله ﷺ يصلح بينهم.فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ،قَالَ:كَانَ قِتَالٌ بَيْنَ بَنِي عَمْرٍو،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ،فَصَلَّى الظُّهْرَ،ثُمَّ أَتَاهُمْ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ،فَلَمَّا حَضَرَتْ صَلاَةُ العَصْرِ،فَأَذَّنَ بِلاَلٌ وَأَقَامَ،وَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ فَتَقَدَّمَ،وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي الصَّلاَةِ،فَشَقَّ النَّاسَ حَتَّى قَامَ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ،فَتَقَدَّمَ فِي الصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ،قَالَ:وَصَفَّحَ القَوْمُ،وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلاَةِ لَمْ يَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْرُغَ،فَلَمَّا رَأَى التَّصْفِيحَ لاَ يُمْسَكُ عَلَيْهِ التَفَتَ،فَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ خَلْفَهُ،فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِه،أَنِ امْضِهْ،وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا،وَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ هُنَيَّةً يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ مَشَى القَهْقَرَى،فَلَمَّا رَأَى

[3311] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٠/ ٥٢٨)

النَّبيُّ ﷺ ذَلكَ تَقَدَّمَ،فَصَلَّى النَّبيُّ ﷺ بالنَّاس،فَلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ،قَالَ:«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ إذْ أَوْمَأْتُ إلَيْكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَضَيْتَ؟» قَالَ:لَمْ يَكُنْ لابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَؤُمَّ النَّبيَّ ﷺ،وَقَالَ للْقَوْم:«إذَا رَابَكُمْ أَمْرٌ،فَلْيُسَبِّحِ الرِّجَالُ،وَلْيُصَفِّحِ النِّسَاءُ»[٣٣١٢]

قال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأنفال:١]

يَسْأَلُكَ المُسْلِمُونَ عَنِ الأَنْفَالِ.قُلْ:هِيَ للهِ يَحْكُمُ فِيهَا بِحُكْمِهِ،وَللرَّسُولِ يَقْسِمها وَفْقاً لِمَا شَرَعَهُ اللهُ،فَاتَّقُوا اللهَ فِي أُمُورِكُمْ،وَاجْتَنِبُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الخِلافِ حَوْلَ قِسْمَتِها،وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ،وَلا تَخْتَصِمُوا وَلا تَتَظَالَمُوا،وَلاَ تَتَشَاتَمُوا،وَلاَ يُعَنِّفُ بَعْضُكُمْ بَعضاً،فَمَا آتَاكُمُ اللهُ مِنَ الهُدى خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ فِيهِ،وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي قِسْمَتِهَا،فَإِنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا يَقْسِمُها وَفْقاً لِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ،مِنْ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ،وَالمُؤْمِنُونَ المُتَّقُونَ،ذَوُو الإِيمَانِ الكَامِلِ،هُمُ الذِينَ يُطِيعُونَ اللهَ فِيمَا حَكَمَ،وَيُطِيعُونَ رَسُولَهُ فِيمَا قَسَمَ.[٣٣١٣]

وقال تعالى:{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء:١١٤].

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِمَا يَتَنَاجَى بِهِ هَؤُلاءِ الذِينَ يُسِرُّونَ الحَدِيثَ،مِنْ جَمَاعَةِ ابْنِ أَبَيْرِق،الذِينَ أَرَادُوا مُسَاعَدَتَهُ عَلَى اتِّهَامِ اليَهُودِيِّ وَبَهْتِهِ،وَمَنْ مَاثَلَهُمْ مِنَ النَّاسِ،وَلَنْ يَكُونَ الخَيْرُ فِي نَجْوَى النَّاسِ،إلاَّ إذَا تَنَاوَلَتْ أحَادِيثُهُمْ ذِكْرَ اللهِ،أَوْ أَمْراً بِصَدَقَةٍ،أَوْ أَمْراً بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيّاً عَنْ مُنْكَرٍ،عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ – زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ – قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ،أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ،أَوْ ذِكْرًا لِلَّهِ»،فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ:مَا أَشَدَّ هَذَا الْحَدِيثَ،فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ:وَمَا شِدَّتُهُ أَلَيْسَ قَدْ جَاءَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ عَنْ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ،فَقَالَ:{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [النبأ:٣٩]،وَقَالَ:{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ}

[٣٣١٢] – صحيح البخاري (٩/ ٧٤)(٧١٩٠)

[ش (هنية) زمنا يسيرا.(نابكم) في نسخة (رابكم) حدث ما تشكون فيه.]

[٣٣١٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

[النساء:١١٤] إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ،إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[٣٣١٤]،أَوْ سَعْياً فِي إِصْلاَحِ ذَاتِ البَيْنِ بَيْنَ أَنَاسٍ مُخْتَلِفِينَ مُتَخَاصِمِينَ.وَمَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الأَعْمَالَ الثَّلاَثَةَ،ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَرْضَاتِهِ لاَ يَبْغِي ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ،فَسَوْفَ يُثِيبُهُ اللهُ ثَوَاباً جَزِيلاً كَثِيراً.[٣٣١٥]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا:بَلَى.قَالَ:«صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ،وَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»[٣٣١٦]

ويجوز الكذب في الإصلاح بين الناس،فينقل لكل من الطرفين أن الآخر يثني عليه أو يريد أن يأتيه أو غير ذلك،والأولى استخدام المعاريض،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ،وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ،اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ،أَخْبَرَتْهُ،أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَهُوَ يَقُولُ:«لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ:الْحَرْبُ،وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا"[٣٣١٧].

وكما ترى من الأدلة السابقة فإن الإصلاح بين الناس فضيلة عظيمة،ذلك لأن الخلافات والعداوات بين الناس من أعظم ما يهدد وحدة الجماعة المسلمة،حتى سماها رسول الله ﷺ «الحالقة»،فعَنْ يَعِيشَ بْنِ الوَلِيدِ،أَنَّ مَوْلًى لِلزُّبَيْرِ،حَدَّثَهُ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:"دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ:الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ،هِيَ الحَالِقَةُ،لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا،أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ "[٣٣١٨]،والبغضاء تحلق الدين لأن كثيرا من الوظائف الدينية لا تقوم إلا بالجماعة.

[٣٣١٤] - المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ٢٤٣)(٤٨٤) حسن

[٣٣١٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣١٦] - الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦١١) صحيح

[٣٣١٧] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١١)(١٠١ - (٢٦٠٥)

[٣٣١٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٤)(٢٥١٠) صحيح لغيره

٢٠ = ومنها التكافل:

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ،وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ،فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»،قَالَ:فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ"[٣٣١٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ،وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ»[٣٣٢٠]

وعن أبي الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ،وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ،وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»[٣٣٢١].

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ،أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ،فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[٣٣٢٢]

[٣٣١٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٤)١٨ - (١٧٢٨)

[ش (فجعل يصرف بصره) فهكذا وقع في بعض النسخ وفي بعضها يصرف فقط بحذف بصره وفي بعضها يضرب ومعنى قوله فجعل يصرف بصره أي متعرضا لشيء يدفع به حاجته(من كان معه فضل ظهر) أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل وهو التعين(فليعد به) قال في المقاييس عاد فلان بمعروفه وذلك إذا أحسن ثم زاد]

[٣٣٢٠] - صحيح البخاري (٧/ ٧١)(٥٣٩٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٨ - (٢٠٥٨)

فقه الحديث:دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:أنه يستحب الاجتماع على الطعام لا فيه من بركة عظيمة تجعل من القليل كثيراً فينمو الطعام ويزداد حسّاً ومعنى،وتتضاعف قواه الغذائية ويكفي القليل منه الكثير.ثانياً:قال النووي:فيه الحث على المواساة في الطعام فإنه وإن كان قليلاً تحصل منه الكفاية وتقع فيه بركة تعم الحاضرين.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/ ١٤٦)

[٣٣٢١] - صحيح مسلم (٣/ ١٦٣٠)١٧٩ - (٢٠٥٩)

[٣٣٢٢] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٤)١٦٧ - (٢٥٠٠)

[ش (أرملوا) من الإرمال وهو فناء الزاد وقلة الطعام أصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة.(في إناء واحد) أي اقتسموه بمكيال واحد حتى لا يتميز بعضهم عن بعض.(بالسوية) متساوين.(فهم مني وأنا منهم) طريقتي وطريقتهم واحدة في التعاون على البر والتقوى وطاعة الله عز وجل ولذلك لا أتخلى عنهم]

وأعلى من هذا درجة الإيثار،وأعلى منه الإيثار مع الحاجة وهو المذكور في قوله تعالى:{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر:٩].

قلت:أعلم أن التكافل ركن هام من أركان المجتمع المسلم والجماعة المسلمة،إن الأمة المسلمة أمة مجاهدة،وإذا قام الجهاد فعليا فإن المجتمع المسلم سيتخذ نمطا جديدا،فالتجهيز للجهاد وإعداد المجاهدين يلزمه نفقة ..،وذكرت هناك أن الجهاد بالمال قُدِّم على الجهاد بالنفس في جميع الآيات إلا آية واحدة،وذلك لأن الجهاد بالنفس لا يتأتى إلا بعد بذل المال،كذلك فإن الجهاد يخلف أيتاما وأرامل لابد من كفالتهم حتى يستمر الجهاد،فإن المسلم إذا علم أن أبناءه سيضيعون من بعده فقد يقعد عن الجهاد،ومن هنا كان الثواب العظيم على كفالة الأيتام والأرامل خاصة.فعن سَهْلِ بْنَ سَعْدٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى"[٣٣٢٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ،كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[٣٣٢٤].

إن الجهاد سيعطي الجماعة المسلمة نمطا جديدا،يجب على الجماعة استيعابه بتجهيز المجاهدين،وكفالة الأيتام والأرامل،وتشجيع تعدد الزوجات صيانة لزوجات الشهداء،وقد تسبق الجهاد هجرة يجب استيعابها بالتكافل بين المسلمين والمؤاخاة بينهم كما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار،روى البخاري عن عَاصِمٍ،قَالَ:قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:أَبَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ» فَقَالَ:«قَدْ حَالَفَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالأَنْصَارِ فِي دَارِي»[٣٣٢٥]

[٣٣٢٣] - صحيح البخاري (٨/ ٩)(٦٠٠٥)

[٣٣٢٤] - صحيح البخاري (٧/ ٦٢)(٥٣٥٣) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٦)٤١ - (٢٩٨٢)

[ش (الساعي) الذي يسعى ليحصل ما ينفقه على من ذكر.(الأرملة) التي مات عنها زوجها غنية كانت أم فقيرة.(المسكين) الذي ليس له من المال ما يسد حاجته.(كالمجاهد) له أجر كأجر المجاهد أو القائم الصائم]

[٣٣٢٥] - صحيح البخاري (٨/ ٢٢)(٦٠٨٣)

وعن إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْد،عَنْ أَبِيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَمَّا قَدمْنَا المَدينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْني وَبَيْنَ سَعْد بْنِ الرَّبِيعِ،فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ:إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا،فَأَقْسمُ لَكَ نصْفَ مَالي،وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَويتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا،فَإِذَا حَلَّتْ،تَزَوَّجْتَهَا،قَالَ:فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:لاَ حَاجَةَ لي في ذَلكَ هَلْ منْ سُوق فيه تجَارَةٌ؟ قَالَ:سُوقُ قَيْنُقَاعٍ،قَالَ:فَغَدَا إِلَيْه عَبْدُ الرَّحْمَنِ،فَأَتَى بِأَقط وَسَمْنٍ،قَالَ:ثُمَّ تَابَعَ الغُدُوَّ،فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَة،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«تَزَوَّجْتَ؟»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«وَمَنْ؟»،قَالَ:امْرَأَةً منَ الأَنْصَارِ،قَالَ:«كَمْ سُقْتَ؟»،قَالَ:زِنَةَ نَوَاة منْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةً منْ ذَهَبٍ -،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«أَوْلمْ وَلَوْ بِشَاة»[٣٣٢٦]

وكان المهاجر يقاسم الأنصاري داره وماله،حتى أغناهم الله بالفيء والغنائم.

الخلاصة:

المسلم في قيامه بواجبات هذا الدين ساعيا إلى مرضاة الله تعالى يمر بمراحل ثلاث وهي الفهم ثم الصدق ثم السلوك،وهي مترتبة على بعضها البعض بهذا الترتيب،ولا ينتفع العبد بمرحلة منها قبل أن يقطع سابقتها.

والفهم يأتي بالعلم،فلا خير في عبادة على جهل أو عمل بلا علم،عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،قَالَ:مَنْ لَمْ يَعُدْ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ،وَمَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يَفْسُدُ أَكْثَرَ مِمَّا يَصْلُحُ.[٣٣٢٧]

ولئن تأكد وجوب هذا في الواجبات الدينية الفردية فهو في الواجبات الجماعية ـــ وهي ما نسميها في هذا الزمان بالعمل الإسلامي ـــ أشد توكيدا.

[٣٣٢٦] - صحيح البخاري (٣/ ٥٣)(٢٠٤٨)

[ش (آخى) من المؤاخاة وهي أن يتعاقد الرجلان على التناصر والمواساة حتى يصيرا كالأخوين نسبا.(هويت) أردت وأحببت.(قينقاع) قبيلة من قبائل اليهود الذين كانوا في المدينة.(الغدو) الذهاب أول النهار إلى السوق.(أثر صفرة) أثر الطيب الذي استعمله عند الزفاف.(كم سقت) كم أعطيتها مهرا.(زنة نواة) وزنها.(أولم) اصنع وليمة وهي الطعام الذي يصنع أيام العرس]

[٣٣٢٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٩/ ٣٤٠)(٣٦٢٤٦) صحيح لغيره

والصدق يأتي بعد الفهم،فالجاهل لا يتصور منه صدق نافع،أما من علم وفهم ما يجب عليه عمله شرعا،فإن الصدق هو الذي ينقله من مجرد العلم إلى العمل والتطبيق،فهناك من علم وفهم ثم وقف عند هذه المرحلة،وشر منه من علم وفهم ثم عمل بخلاف ما يجب عليه.[٣٣٢٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٣٢٨] - انظر كتاب العمدة في إعداد العدة الباب الأخير

الباب الحادي والعشرون

فضائل الجهاد والمجاهدين العامة

١ – تفضيل المجاهدين على القاعدين:

قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)} [النساء:٩٥،٩٦]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ مَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ،بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،مِنْ عَظِيمِ الأَجْرِ وَالمَغْفِرَةِ وَالدَّرَجَاتِ الكَرِيمَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ،فَقَالَ تَعَالَى:إنَّ القَاعِدِينَ عَنِ الجِهَادِ – إذا كَانُوا غَيْرَ مَعْذُورِينَ،وَغَيْرَ ذَوِي عِلَّةٍ وَضَرَرٍ – لاَ يَسْتَوُونَ مَعَ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،وَإنَّ اللهَ فَضَّلَ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ،وَخَصَّهُمْ بِدَرَجَاتٍ عَظِيمَةٍ،وَأَجْرٍ كَبِيرٍ،وَإِنْ كَانَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ القَاعِدِينَ عَنِ الجِهَادِ عَجْزاً،مَعَ تَمَنِّي القُدْرَةِ عَلَيهِ،كَمَا وَعَدَ المُجَاهِدِينَ،بِالخَيْرِ وَالمَثُوبَةِ وَالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ لأنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ كَامِلُ الإِيمَانِ،مُخْلِصٌ للهِ فِي العَمَلِ.

وَهَذَا الأَجْرُ العَظِيمُ الذِي وَعَدَ اللهُ بِهِ المُجَاهِدِينَ،وَفَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى القَاعِدِينَ مِنْ ذَوِي الأعْذَارِ،هُوَ دَرَجَاتٌ مِنْهُ،وَمَنَازِلُ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الكَرَامَةِ،وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ،وَكَانَ اللهُ غَفُوراً لِذُنُوبِ أَوْلِيَائِهِ الذِينَ يَسْتَحِقُّونَ المَغْفِرَةَ،رَحِيماً بِأَهْلِ طَاعَتِهِ.[٣٣٢٩]

وقال تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} (النساء:٧٤)

أي:لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد و لم يقاتل أعداء الله،ففيه الحث على الخروج للجهاد،والترغيب في ذلك،والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر.

[٣٣٢٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨٨،بترقيم الشاملة آليا)

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز بـــه،فإنهم ليســـوا بمترلة القاعدين من غير عذر،فمن كان من أولي الضرر راضيًا بقعوده لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع،ولا يُحَدِّث نفسه بذلك،فإنه بمترلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويُحَـــدِّث بـــه نفسه،فإنه بمترلة من خرج للجهاد،لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القـــول أو الفعل يترل صاحبها مترلة الفاعل.

ثم صرَّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة،أي:الرفعة،وهذا تفضيل علـــى وجه الإجمال،ثم صرح بذلك على وجه التفصـــيل،ووعدهم بـــالمغفرة الصـــادرة مـــن ربهم،والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير،واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في "الصحيحين" أن في الجنة مائـــة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبه الله على الجهاد،نظير الذي في سورة الصف في قوله:{يَـــا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّـــهِ وَرَسُـــولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِـــرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} إلى آخر السورة

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولا بـــين المجاهـــد وغيره ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمـــة والدرجات

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو الترول من حالـــة إلى مـــا دونها عند القدح والذم – أحسن لفظا وأوقع في النفس

وكذلك إذا فضَّل تعالى شيئا على شيء وكل منهما له فضل احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا {وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}.

وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} وكما في قوله تعالى {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} أي ممن لم يكن كذلك ثم قال {وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} وكما قال تعالى {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصل له الكمال كما إذا قيل النصارى خير من المجــوس فليقل مع ذلك وكل منهما كافر

والقتل أشنع من الزنا وكل منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين {الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ختم هذا الآية بهما فقال {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.[٣٣٣٠]

عْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِــدُونَ مِــنَ الْمُــؤْمِنِينَ غَيْــرُ أُولِــي الضَّــرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ} [النساء:٩٥] لَا يَعْتَدِلُ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِــنْ أَهْــلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ،الْمُؤْثِرُونَ الدَّعَةَ وَالْخَفْضَ وَالْقُعُودَ فِي مَنَازِلِهِمْ عَلَى مُقَاسَاةِ حُزُونَةِ الْأَسْفَارِ وَالسِّيَرِ فِي الْأَرْضِ وَمَشَقَّةِ مُلَاقَاةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِجِهَادِهِمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَقِتَالِهِمْ فِــي طَاعَةِ اللَّهِ،إِلَّا أَهْلُ الْعُذْرِ مِنْهُمْ بِذَهَابِ أَبْصَارِهِمْ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِأَهْلِهَا لِلضَّرَرِ الَّذِي بِهِمْ إِلَى قِتَالِهِمْ وَجِهَادِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَمِنْهَاجِ دِينِهِ،لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا،الْمُسْتَفْرِغُونَ طَاقَتَهُمْ فِي قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ دِيــنِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ،إِنْفَاقًا لَهَا فِيمَا أَوْهَنَ كَيْدَ أَعْدَاءِ أَهْلِ الْإِيمَــانِ بِاللَّــهِ وَبِأَنْفُسِهِمْ،مُبَاشَــرَةً بِهَــا قِتَالَهُمْ،بِمَا تَكُونُ بِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعَالِيَةَ،وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّافِلَةَ.[٣٣٣١]

إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله وكان يعــالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي – من بعض عناصره – في النــهوض بتكــاليف

[٣٣٣٠] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٥)

[٣٣٣١] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٣٦٥)

الجهاد بالأموال والأنفس.سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظا بأموالهم،إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئا من ماله أو توفيرا لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر،إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون،وكثيرا ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم - أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق - إذا عرفوا منهم نية الهجرة..سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة - وهو ما نرجحه - أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام،الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس - من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم في درس سابق - أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء.

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة يطلقها من قيود الزمان،وملابسات البيئة ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان - قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس - غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس،أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال - عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم..قاعدة عامة على الإطلاق:«لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ - وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»..

ولا يتركها هكذا مبهمة،بل يوضحها ويقررها،ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين:«فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً»..

هذا الفارق في المستوي بين القاعدين من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم،فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى:«وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى»..

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس..وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين.إنما هم طائفة أخرى

صالحة في الصف المسلم ومخلصة ولكنها قصرت في هذا الجانب والقرآن يستحثها لتلافي التقصير والخير مرجو فيها،والأمل قائم في أن تستجيب.

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى مؤكدا لها،متوسعا في عرضها ممعنا في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم:«وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً.دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً.وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً».

وهذا التوكيد..وهذه الوعود..وهذا التمجيد للمجاهدين..والتفضيل على القاعدين..والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم..ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير..

هذا كله يشي بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى:هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها.وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية،ولطبيعة الجماعات البشرية،وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائما في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف،وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس،مع خلوص النفس لله،وفي سبيل الله.وظهور هذه الخصائص البشرية - من الضعف والحرص والشح والتقصير - لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة،ولا إلى نفض اليد منها،وازدرائها طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها..ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير والهتاف لها بالانبطاح في السفح،باعتبار أن هذا كله جزء من «واقعها»! بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد،إلى القمة السامقة.بكل ألوان الهتاف والحداء..كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقة الثانية:هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبار ات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام.لما يعلمه الله - سبحانه - من طبيعة الطريق وطبيعة البشر وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن «الجهاد» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة.إنما هو ضـــرورة مصـــاحبة لركب هذه الدعوة! وليست المسألة - كما توهم بعض المخلصين - أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات فاندس في تصورات أهله - اقتباسا مما حولهم - أنه لا بد لهم مـــن قوة قاهرة لحفظ التوازن! هذه المقررات تشهد - على الأقل - بقلـــة ملابســـة طبيعـــة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصـــول مـــن صلب كتاب الله في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من ســـنة رسول الله - ﷺ - وفي مثل هذا الأسلوب..

فلا يقولن أحد - بسبب ذلك - إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظـــروف.وقـــد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرؤوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين! إن الله - سبحانه - يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه.لأنه طريق غير طريقهم،ومنـــهج غـــير منهجهم.ليس بالأمس فقط.ولكن اليوم وغدا.وفي كل أرض،وفي كل جيل!

وإن الله - سبحانه - يعلم أن الشر متبجح،ولا يمكن أن يكون منصفا.ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر.ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل.ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة! هذه جبلـــة! وليست ملابسة وقتية...هذه فطرة! وليست حالة طارئة...ومن ثم لا بد من الجهاد..لا بد منه في كل صورة..ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير.ثم يظهر فيشمل عـــالم الحقيقـــة والواقع والشهود.ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح.ولا بد من لقاء الباطـــل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة..وإلا كان الأمر انتحارا.أو كـــان هـــزلا لا يليـــق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس.كما طلب الله من المؤمنين.وكمـــا اشـــترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..فأما أن يقدر لهم الغلب أو يقدر لهم الاستشـــهاد

فذلك شأنه – سبحانه – وذلك قدره المصحوب بحكمته..أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم..والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل..والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة،وفي منهجها الواقعي،وفي خط سيرها المرسوم،وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية،التي لا علاقة لها بتغير الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين – تحت أي ظرف من الظروف.ومن هذه النقط..الجهاد..الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث..الجهاد في سبيل الله وحده.وتحت رايته وحدها..وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «شهداء» ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم..[3332]

٢– ثواب المهاجرين والمجاهدين:

قال تعالى:{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)} [التوبة]

فَالذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،هُمْ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ دَرَجَةً وَمَقَاماً،وَأَكْثَرُ مَثُوبَةً مِنَ الذِينَ عَمَّرُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ،وَسَقَوْا الحَاجَّ فِي الجَّاهِلية.وَهَؤُلاَءِ المُؤْمِنُونَ المُجَاهِدُونَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُمُ الفَائِزُونَ بِرَحْمَةِ اللهِ،وَرِضْوَانِه وَجَنَّاتِه.

وَهَؤُلاَءِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ فِي كِتَابِهِ،وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ،وَعَلَى لِسَانِ مَلاَئِكَتِهِ حِينَ مَوْتِهِمْ،بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانٍ،وَبِأَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِهِ الوَاسِعَةَ،وَسَيبقَوْنَ فِيهَا أَبَداً فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ،وَالرِضْوَانُ مِنَ اللهِ هُوَ نِهَايَةُ الإِحْسَانِ،وَأَعْلَى النَّعِيمِ،وَأَكْمَلُ الجَزَاءِ.

[3332] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٩٩)

وَسَيَكُونُ هَؤُلَاءِ الكِرَامُ مُخَلَّدِينَ فِي الجَنَّةِ أَبَداً وَهَذا جَزَاءٌ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِم الصَّالِحَة،وَاللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ الأَجْرُ العَظِيمُ لِمَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ،وَقَامَ بِمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ الإِسْلاَمُ[٣٣٣٣]

"وَهَذَا قَضَاءٌ مِنَ اللَّهِ بَيْنَ فِرَقِ الْمُفْتَخِرِينَ الَّذِينَ افْتَخَرَ أَحَدُهُمْ بِالسِّقَايَةِ،وَالْآخَرُ بِالسِّدَانَةِ،وَالْآخَرُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ:صَدَّقُوا بِتَوْحِيدِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَهَاجَرُوا دُورَ قَوْمِهِمْ،وَجَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ فِي دِينِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَرْفَعُ مَنْزِلَةً عِنْدَهُ مِنْ سُقَاةِ الْحَاجِّ وَعُمَّارِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُمْ بِاللَّهِ مُشْرِكُونَ.{وَأُولَئِكَ} [البقرة:٥] يَقُولُ:وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْنَا صِفَتَهُمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا {هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة:٢٠] بِالْجَنَّةِ النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ

يُبَشِّرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَحِمَهُمْ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَبِرِضْوَانٍ مِنْهُ لَهُمْ،بِأَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ وَأَدَائِهِمْ مَا كَلَّفَهُمْ.{وَجَنَّاتٍ} [آل عمران:١٣٦] يَقُولُ:وَبَسَاتِينَ لَهُمْ فِيهَا نُعَيْمٌ مُقِيمٌ لَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ،ثَابِتٌ دَائِمٌ أَبَدًا لَهُمْ"[٣٣٣٤]

ثم صرح بالفضل فقال:{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ} بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة {وَأَنْفُسِهِمْ} بالخروج بالنفس {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} أي:لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب،إلا من اتصف بصفاتهم،وتخلق بأخلاقهم.{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ} جودا منه،وكرما وبرا بهم،واعتناء ومحبة لهم،{بِرَحْمَةٍ مِنْهُ} أزال بها عنهم الشرور،وأوصل إليهم [بها] كل خير.{وَرِضْوَانٍ} منه تعالى عليهم،الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله،فيحل عليهم رضوانه،فلا يسخط عليهم أبدا.

[٣٣٣٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٣٤] -

تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٣٨٢)

{وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ} من كل ما اشتهته الأنفس،وتلذ الأعين،مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى،الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة،ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} لا ينتقلون عنها،ولا يبغون عنها حِوَلا {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} لا تستغرب كثرته على فضل الله،ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.[٣٣٣٥]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى،وهم المؤمنون المهاجرون،والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم،والفوز حكم يؤدي إلى أن تأخذ ما تحبه نفسك.فقال الحق موضحاً ما يفوزون به:

{الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وأولئك هُمُ الفائزون} [التوبة:٢٠].

وما دام هؤلاء هم الفائزون،فالفوز إنما يكون في مضمارين اثنين.فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم،ولكن نعيمهم على قدر إمكاناهم؛وهو نعيم غير دائم؛لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة،وإما أن يزولوا هم عنه بالموت،إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذي يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته،فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته،ولكن على قدر إمكانات الله،ولا مقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه.وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك،ولا تتركه لأنك في الجنة خالد لا تموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى:{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وجنات...} إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله في هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم.والبشارة – كما نعلم – هي نوع من الإعلام بشيء سوف يأتي مستقبلاً،أي،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشيء قادم يسره.

[٣٣٣٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٢)

إذن ففائدة البشارة أن تغري الإنسان بسلوك السبيل الذي يحققها،فأنا أبشرك بالنجـــاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة،ويشجعك كلامي لتجتهد حتى تحقق هـــذه البشارة،فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التي توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا:إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛كلها يجب أن تحرر بشكل آخر،لأننا كنا نتعلم أن الشرط ســبب في الجواب؛كقولــك:«إن تــذاكر تنجح»،وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة،وسبب الجواب هــو النجــاح،ونقول:لا،إن الجواب هو السبب في الشرط لأنك لا تذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل ما يحققه لك من فرحة،إذن فالشرط سبب في وجود الجواب واقعا.والجواب سبب في وجود الشــرط دافعا،أي:أ:ن الدافع لمذاكرتك هو ما يمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنويــة.وكــل إنسان يرغب في النجاح،لكن النجاح لا يتحقق بالدعاء فقط،بل بالمذاكرة الــتي تحقــق النجاح كواقع.بمعنى أنك لا تذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزايــاه وبمكانتــه ويفرح أهلك بك،وبفرحك بنفسك.ولهذا نقول:إن السبب هو الــذي يوجــد أولاً في الذهن.

ومثال آخر:لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف.فتكون الطائف هي الغايــة،وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفي ذهنك الغاية،إذن فالجواب يوجد دافعا،والشــرط يوجــد واقعاً.وقوله تعالى:{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم} أي:يخبرهم بالنهاية السارة التي سوف يصلون إليهـــا ليتحملوا مشقة التكاليف التي يأمرهم بها المنهج؛لأن الجنة محفوفة بالمكاره،ولأن التشـــريع الإلهي تقييد لحرية الاختيار في العبد،والمؤمن مقيد بأوامر الله تعـــالى في «افعـــل» و «لا تفعل».ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه في كل حركاته،ويفعل ما يشاء له مـــن الهـــوى ويطيع نزواته كما يريد،أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى،أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به.فكأن الإيمان جاء ليقيـــد،ولكن إذا قارنا بين الجزائين،نجد أن الذي يتبع شهواته في الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة،وعمره في الدنيا محدود،إذن فهو الخاسر،لأن الذي قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا في الدنيا ونعيما مقيما لا يزول ولا ينتهي في الآخرة.والمثال الذي أضر به دائما هو الطالب الذي

لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر،ولكن يقضي وقته في اللعب واللهو،وهو قد أعطى نفسه ما تريد،ولكنه أخذ متعة محدودة،ثم بعد ذلك يعيش في شقاء بقية عمره.

أما الذي قيد حركته بالمذاكرة،فقد منع شهوات نفسه في اللعب واللهو.وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذي يجتهد وذلك الذي يلهو ويلعب،كل منهما أخذ لوناً من المتعة.ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً،ثم أصبح من صعاليك الحياة،أما الثاني فقد قيد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت في الدنيا؛إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و «لا تفعل»،فظاهر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك،وإن فعلت ذلك برضا،فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة في النفس.ولذلك نجد الصلاة وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم على الأقل؛هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم،ولكنها تعطي راحة نفسية،كما أنها تعطي اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها،وكان ﷺ يقول:«يا بلالُ أرِحْنَا بالصلاة».

كما قال ﷺ ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْه «وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة».

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة.ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم}،تجد البشارة هنا آتية من رب خالق.والرب هو المالك؛والمدبر الذي يرتب لك أمورك،وهو مأمون عليك.

{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ} [التوبة:٢١].والرحمة والرضوان من صفات الله وهي صفات ذاتية في الله،ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:{وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} [التوبة:٢١].ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ في النعمة،فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،وهي ذاتية فيه،ثم بنعمة دائمة في الحياة.ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم.ونضرب لذلك مثلا – ولله المثل الأعلى

– إذا دعاك إنسان في بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح،لا بد أن يكون التفاح في الطبق يكفي كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة،فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين.فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت،وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف،وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛فهي تمثل الرحمة والرضوان.أما التفاح نفسه فهو النعمة،ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً في التكريم.والمؤمنون حين يرتقون في درجة الإيمان؛يعيشون دائما مع النعمة والمنعم،فإذا جاء الطعام قالوا:«بسم الله»،وإذا أكلوا قالوا:«الحمد لله»،ولكنهم إذا ارتقوا أكثر في الإيمان عاشوا مع المنعم وحده،ولذلك يباهي الله بعباده الملائكة؛يباهي بعبادهم وطاعتهم التي يلتزمون بها على أي حالة يكونون عليها،ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم،وهؤلاء من أصحاب المترلة العالية.

ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون،ثم الأمثل فالأمثل»؛ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة،وهذه مترلة عالية.فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له،ومن عبده سبحانه؛لأنه يستحق أن يعبد،فسوف يرتقي في الجنة ليرى وجه الله في كل وقت؛وأما الآخرون فيرونه لمحات،ولذلك يكون الجزاء في الآخرة على قدر العمق الإيماني للعبد،لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:{فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً} [الكهف:١١٠].

وقال أحد الصالحين:«إني لا أشرك بك أحدا حتى الجنة،لأن الجنة أحد».

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ} وقد ترحم ولكنك لا تنال الرضوان،فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»،ولذلك يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ:{بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ} والرضوان هو ما فوق النعيم.وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى:{وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ}.

ولقائل أن يقول:هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل:انتبه والتفت جيدا إلى المعنى،فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى.وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة،ولكن يحيا في الكثير من المنغصات،مما يجعله لا يستمتع بالنعمة،كمرض يملؤه بالألم،أو ابن عاق يكدر حياته،أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا،قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛لأن المكدرات قد أحاطت به.وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا،بل هي صفاء واستمتاع،يعطي فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات،وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم،لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه {نَعِيمٌ مُّقِيمٌ}،قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك،فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم تنتهي،وشاء الله – عَزَّ وَجَلَّ – أن يطمئن المؤمن بوعد حق،فوعد المؤمنين بالخلود الأبدي في الجنة.فيقول سبحانه وتعالى:{خالدين فِيهَآ أَبَداً إِنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ...}[3336]

٣– شراء الله أنفس المؤمنين:

قال تعالى:إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١١١]

يُرَغِّبُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ فِي الجِهَادِ،وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيُعَوِّضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالجَنَّةِ عَنْ بَذْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيَا،ولإِحْقَاقِ الحَقِّ،وَإِقَامَةِ العَدْلِ فِي الأَرْضِ،فَهُمْ حِينَ يُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ أَعْدَاءَهُمْ،وَيُقْتَلُونَ هُمْ،وَهُمْ فِي كِلاَ الحَالَيْنِ مُثَابُونَ عَلَى ذَلِكَ.وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ الحَقِّ،وَجَعَلَهُ حَقّاً عَلَيهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ.

ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى مَنِ التَزَمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِ للهِ إِلَى الاسْتِبْشَارِ بِذَلِكَ الفَوْزِ العَظِيمِ،وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ،لأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَفَاءً بِالْعَهْدِ،وَلاَ أَكْثَرَ مِنْهُ

[3336] – تفسير الشعراوي (٨/ ٤٩٧١)

التِزَاماً بِالوَعْدِ الذِي يَقْطَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ،وَلَيْسَ هُنَاكَ رِبْحٌ أَكْبَرُ مِنَ الـرِّبْحِ الـذِي يُحَقِّقُهُ المُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الصَّفْقَةِ.[3337]

يخبر تعالى خبرا صدقا،ويعد وعدا حقا بمبايعة [ص:353] عظيمة،ومعاوضة جسيمة،وهو أنه {اشْتَرَى} بنفسه الكريمة {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} فهي المـثمن والسـلعة المبيعة.

{بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} التي فيها ما تشتهيه الأنفس،وتلـذ الأعـين مـن أنـواع اللـذات والأفراح،والمسرات،والحور الحسان،والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة،بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائـه،لإعلاء كلمتـه وإظهار دينه فـ {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} فهذا العقـد والمبايعة،قـد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.{وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِـي التَّـوْرَاةِ وَالإنْجِيـلِ وَالْقُرْآنِ} التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم،وأعلاها،وأكملها،وجاء بها أكمـل الرسل أولو العزم،وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا} أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله،{بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ} أي:لتفرحوا بذلك،وليبشر بعضكم بعضا،ويحث بعضكم بعضا.

{وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} الذي لا فوز أكبر منه،ولا أجل،لأنـه يتضـمن السـعادة الأبدية،والنعيم المقيم،والرضا من الله الذي هو أكبر من نعـيم الجنـات،وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة،فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله،وإلى العوض،وهو أكبر الأعواض وأجلها،جنات النعيم،وإلى الثمن المبذول فيها،وهو النفس،والمال،الذي هو أحب الأشياء للإنسان.وإلى من جرى على يديـه عقـد هـذا التبـايع،وهو أشـرف الرسل،وبأي كتاب رقم،وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.[3338]

إِنَّ اللَّهَ ابْتَاعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا،يَقُولُ:وَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ،وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا أَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِهِ فِي كُتُبِهِ الْمَنْزِلَةِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ،إِذَا

[3337] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:1347،بترقيم الشاملة آليا)

[3338] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:352)

هُمْ وَفُّوا بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ فَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ أَعْدَاءَهُ فَقَتَلُوا وَقُتِلُوا {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة:١١١] يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:وَمَنْ أَحْسَنُ وَفَاءً بِمَا ضَمِنَ وَشَرَطَ مِنَ اللَّهِ؟.{فَاسْتَبْشِرُوا} [التوبة:١١١] يَقُولُ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ:فَاسْتَبْشِرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ فِيمَا عَاهَدُوا {بِبَيْعِكُمْ} [التوبة:١١١] أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكَمْ بِالَّذِي بِعْتُمُوهَا مِنْ رَبِّكُمْ،فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.[٣٣٣٩]

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن..فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا..ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع الله – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:..شر البهيمة..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ»..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»..

عونك اللهم! فإن العقد رهيب..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول الله – ﷺ – فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم و لم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.كانوا

[٣٣٣٩] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢/ ٥)

يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صورة متأملة..هكذا أدركها عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – في بيعة العقبة الثانية.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله – ﷺ –:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل! فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية..هكذا..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»..لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،ولم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ ».أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن..كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً»..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!..بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق..إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق..بل لا بد أن يقطع عليه الطريق..ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير الله تذل كرامة

«الإنسان» فالجهاد في سبيل الله ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبـــه بالوفـــاء.وإلا فليس بالإيمان،.

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال.وهذه آية مدنية قطعا.ولكنها تنفق مع مضـــمون تلـــك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد الله..ومـــا الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويســتعيض الجنـــة؟ والله مـــا فاتـــه شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله.ينتصر – إذا انتصر – لإعـــلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة..فـــإذا أضيفت إلى ذلك كله..الجنة..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريـــب فيـــه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيـــلِ وَالْقُرْآنِ»..

فوعد الله للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور..وهو لا يـــدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل الله في طبيعة هذا المنهج الربـــاني باعتبـــاره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكـــان بعينـــه – مـــا دام أن

الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد..ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها – في حتمية لا فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد الله للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين و لم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة..وهو قليل..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد..ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! – وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والله سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلـــون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعـــده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطلاق.منذ كانت الرسل،ومنذ كان دين الله..[٣٣٤٠]

٤- الجهاد بالنفس والمال هو التجارة التي لن تبور:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِـــيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُـــمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِـــنْ تَحْتِهَـــا الْأَنْهَـــارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّـــهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف:١٠ - ١٣]

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ،وَالْمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ،أَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى صَـــفَقَةٍ رَابِحَةٍ،وَتِجَارَةٍ نَافِعَةٍ،تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ العَظِيمِ،وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الأَلِـــيمِ يَـــوْمَ القِيَامَةِ؟

وَهذِهِ الصَّفَقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْـــدَهُ لاَ شَـــرِيكَ لَهُ،وَتَصَـــدِّقُوا بِرَسُـــولِهِ مُحَمَّدٍ،وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللهِ،وَعِزَّةِ دِينِهِ،بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ،كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ فِي الدُّنْيَا:مِنَ النَّفْسِ وَالمَالِ وَالزَّوْجِ وَالوَلَدِ،هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ المُجَاهِدِينَ فِي الآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاهَا،وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّـــاتٍ تَجْـــرِي الأَنْهَـــارُ فِـــي جَنَبَاتِهَا،وَأَسْكَنَكُمْ مَسَاكِنَ طَيبةً تَقَرُّ بِهَا العُيُونَ،وَهَذا هُوَ مُنْتَهَـــى مـــا تَصْـــبُوا إِليـــهِ النُّفُوسُ،وَهُوَ الفَوْزُ الذِي لاَ فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ.وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ المُجَاهِدُونَ فِي سَـــبِيلِ

[٣٣٤٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٣٦)

اللهِ تَعَالَى،مَعَ الفَوْزِ فِي الآخِرَةِ،الذِي وَعَدَكُمْ اللهُ بِهِ،نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَها،وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللهِ،وَفَتْحٌ قَرِيبٌ،تَجْنُونَ مَغَانِمَهُ،وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ المُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ.[٣٣٤١]

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين،لأعظم تجارة،وأجل مطلوب،وأعلى مرغوب،يحصل بها النجاة من العذاب الأليم،والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر،ويسمو إليه كل لبيب،فكأنه قيل:ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به،المستلزم لأعمال الجوارح،ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله فلهذا قال:{وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم،لمصادمة أعداء الإسلام،والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته،وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب،فإن ذلك،ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها،فإنه {خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فإن فيه الخير الدنيوي،من النصر على الأعداء،والعز المنافي للذل والرزق الواسع،وسعة الصدر وانشراحه.

وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه،ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة،فقال:{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} وهذا شامل للصغائر والكبائر،فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله،مكفر للذنوب،ولو كانت كبائر.

{وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} أي:من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها،أنهار من ماء غير آسن،وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،وأنهار من خمر لذة للشاربين،وأنهار من عسل مصفى،ولهم فيها من كل الثمرات،{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي:جمعت كل طيب،من علو وارتفاع،وحسن بناء وزخرفة،حتى إن أهل الغرف من أهل [ص:٨٦١] عليين،يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي،وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة،وخيامها من اللؤلؤ والمرجان،وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن

[٣٣٤١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١،بترقيم الشاملة آليا)

الألوان،حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها،وباطنها من ظاهرها،وفيهـــا مـــن الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين،ولا خطر على قلب أحد من العالمين،لا يمكن أن يدركوه حتى يروه،ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به،ففي تلك الحالـــة،لولا أن الله خلق أهل الجنة،وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم،لأوشك أن يموتوا من الفرح،فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه،بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يـــثني عليـــه عباده وتبارك الجليل الجميل،الذي أنشأ دار النعيم،وجعل فيها من الجلال والجمـــال مـــا يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدهم.

وتعالى من له الحكمة التامة،التي من جملتها،أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حـــين خلقهـــا ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد،ولما هناهم العـــيش في هـــذه الـــدار المنغصة،المشوب نعيمها بألمها،وسرورها بترحها.وسميت الجنة جنة عـــدن،لأن أهلـــها مقيمون فيها،لا يخرجون منها أبدا،ولا يبغون عنها حولا ذلك الثواب الجزيـــل،والأجر الجميل،الفوز العظيم،الذي لا فوز مثله،فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة،فذكره بقوله:{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي:ويحصل لكـــم خصلة أخرى تحبونها وهي:{نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ} [لكم] علـــى الأعداء،يحصـــل بـــه العـــز والفرح،{وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} تتسع به دائرة الإسلام،ويحصل به الرزق الواســـع،فهذا جـــزاء المؤمنين المجاهدين،وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد،[إذا قام غيرهم بالجهاد] (٧) فلـــم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه،بل قال:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي:بالثواب العاجـــل والآجل،كل على حسب إيمانه،وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله،كما قال النبي ﷺ:" إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،أعـــدها الله للمجاهدين في سبيله "[٣٣٤٢]

يبدأ بالنداء باسم الإيمان:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..يليه الاستفهام الموحي.فالله – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب:«هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ ..»

[٣٣٤٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦٠)

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية،وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق.ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»..وهم مؤمنون بالله ورسوله.فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»..وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة،يجيء في هذا الأسلوب،ويكرر هذا التكرار،ويساق في هذا السياق.فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار،وهذا التنويع،وهذه الموحيات،لتنهض بهذا التكليف الشاق،الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين:«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»..فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد..ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة،لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه،ويقره في الحس ويمكن له:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»..وهذه وحدها تكفي.

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئا؟ ولكن فضل الله ليست له حدود:«وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»..وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم..وحقا..«ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة.وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق.فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض،ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا،فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله،ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله – ﷺ – وعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – ليلة العقبة.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله – ﷺ –:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا

تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل! فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[٣٣٤٣]

وعن قتادة (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) قال:" قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه".وذُكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار،ذُكر لنا أن بعضهم قال:هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا.ذُكر لنا أن رجلا قال:يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت،قال:أشترط لربي أن تعبدوه،ولا تشركوا به شيئًا،وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا:فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال:"لكم النصر في الدنيا،والجنة في الآخرة"،ففعلوا،ففعل الله".[٣٣٤٤]

ولكن فضل الله عظيم.وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض،يناسب تركيبها البشري المحدود.وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض،وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل:«وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب.وبشر المؤمنين»..وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله.الله الذي لا تنفد خزائنه،والذي لا ممسك لرحمته.فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة.وفوقها..فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب..فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب..إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان،في حدودها الضيقة الصغيرة،وفي مستوياتها الهابطة الواطية،وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة..هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة

٣٣٤٣ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤/ ٤٩٩] ١٧٢٧٠ صحيح مرسل

٣٣٤٤ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣/ ٣٦٥] صحيح مرسل

بغير ذلك الإيمان،ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع،ليعيش فيه،وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كـــذلك..ولعلـــه لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته.فهو ذاته أجر..هذا الجهاد..وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح.ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان.ولا يطيق أن يقعـــد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان.فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد.كائنا مصيره فيه مـــا يكون..[٣٣٤٥]

٥- الجهاد من أفضل الأعمال

عَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّـــهِ ﷺ قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا»،قُلْـــتُ:ثُـــمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ»،قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي"[٣٣٤٦]

وعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْعَيْزَارِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ،قَالَ:حَدَّثَنِي صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ،وَأَشَارَ إِلَى دَارِ عَبْدِ اللهِ قَالَ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ:أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ:«الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قَالَ:حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي"[٣٣٤٧]

وعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّـــهِ:" أَفْضَـــلُ الْعَمَـــلِ الصَّـــلَاةُ لِوَقْتِهَـــا،وَبِـــرُّ الْوَالِدَيْنِ،وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَمِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ:الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ،وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ،وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ "[٣٣٤٨]

[٣٣٤٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٧)

[٣٣٤٦] - صحيح البخاري (٤/ ١٤) (٢٧٨٢) وصحيح مسلم (١/ ٨٩)١٣٧ - (٨٥)

[ش (على وقتها) في أول وقتها.(بر الوالدين) الإحسان إليهما والقيام بخدمتهما وترك الإساءة إليهما]

[٣٣٤٧] - صحيح البخاري (١/ ١١٢)(٥٢٧) وصحيح مسلم (١/ ٩٠)١٣٩ - (٨٥)

[٣٣٤٨] - الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٨١) صحيح

٦- الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ:أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ:«إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».قِيلَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قِيلَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«حَجٌّ مَبْرُورٌ»[٣٣٤٩]

جَعَلَ الْإِيمَانَ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ لِجَلْبِهِ لِأَحْسَنِ الْمَصَالِحِ، وَدَرْئِهِ لِأَقْبَحِ الْمَفَاسِدِ، مَعَ شَرَفِهِ فِي نَفْسِهِ وَشَرَفِ مُتَعَلَّقِهِ، وَمَصَالِحُهُ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا عَاجِلَةٌ وَهِيَ إجْرَاءُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَصِيَانَةُ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرُمِ وَالْأَطْفَالِ.

وَالثَّانِي: آجِلَةٌ وَهُوَ خُلُودُ الْجَنَانِ وَرِضَاءُ الرَّحْمَنِ. وَجَعْلُ الْجِهَادِ تِلْوَ الْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِشَرِيفٍ فِي نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا وَجَبَ وُجُوبُ الْوَسَائِلِ - وَفَوَائِدُهُ ضَرْبَانِ أَحَدُهُمَا مَصَالِحُهُ، وَهِيَ مُنْقَسِمَةٌ إلَى الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ فَأَمَّا مَصَالِحُهُ الْعَاجِلَةُ فَإِعْزَازُ الدِّينِ، وَمَحْقُ الْكَافِرِينَ، وَشِفَاءُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اغْتِنَامِ أَمْوَالِهِمْ وَتَخْمِيسِهَا، وَإِرْقَاقِ نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ.

وَأَمَّا مَصَالِحُ الْآجِلَةِ فَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٧٤] ، فَجَعَلَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ لِلْقَتْلَى وَالْغَالِبِينَ، وَالْغَالِبُ أَفْضَلُ مِنْ الْقَتِيلِ، لِأَنَّهُ حَصَّلَ مَقَاصِدَ الْجِهَادِ، وَلَيْسَ الْقَتِيلُ مُثَابًا عَلَى الْقَتْلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنَّمَا يُثَابُ عَلَى تَعَرُّضِهِ لِلْقَتْلِ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ.

الضَّرْبُ الثَّانِي: مِنْ فَوَائِدِ الْجِهَادِ دَرْؤُهُ لِمَفَاسِدَ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، أَمَّا الْآجِلَةُ فَلِأَنَّهُ سَبَبٌ لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَالْغُفْرَانُ دَافِعٌ لِمَفَاسِدِ الْعِقَابِ.

وَأَمَّا الْعَاجِلَةُ فَإِنَّهُ يَدْرَأُ الْكُفْرَ مِنْ صُدُورِ الْكَافِرِينَ إنْ قُتِلُوا أَوْ أَسْلَمُوا خَوْفًا مِنْ الْقَتْلِ، وَكَذَلِكَ يَدْرَأُ اسْتِيلَاءَ الْكُفَّارِ عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ وَإِرْقَاقِ حَرَمِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الدِّينِ. وَجَعَلَ الْحَجَّ فِي الرُّتْبَةِ الثَّالِثَةِ لِانْحِطَاطِ مَصَالِحِهِ عَنْ مَصَالِحِ الْجِهَادِ وَهُوَ أَيْضًا يَجْلِبُ الْمَصَالِحَ وَيَدْرَأُ الْمَفَاسِدَ.

[٣٣٤٩] - صحيح البخاري (١/ ١٤) (٢٦) وصحيح مسلم (١/ ٨٨)١٣٥ - (٨٣)

[ش (أفضل) أكثر ثوابا عند الله تعالى.(مبرور) مقبول وهو الذي لا يقع فيه ارتكاب ذنب]

أَمَّا جَلْبُهُ لِلْمَصَالِحِ فَلِأَنَّ الْحَجَّ الْمَبْرُورَ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إلَّا الْجَنَّةَ وَأَمَّا دَرْؤُهُ لِلْمَفَاسِدِ فَإِنَّهُ يَدْرَأُ الْعُقُوبَاتِ بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ. قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» ، وَلَا تَزَالُ رُتَبُ الْمَصَالِحِ الْوَاجِبَةِ التَّحْصِيلِ تَتَنَاقَضُ إلَى رُتْبَةٍ لَوْ تَنَاقَضَتْ لَانْتَهَيْنَا إلَى رُتَبِ الْمَصَالِحِ الْمَنْدُوبَاتِ.

وَكَذَلِكَ تَتَفَاوَتُ رُتَبُ فَرْضِ الْكِفَايَةِ فِيمَا تَجْلُبُهُ مِنْ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَدْرَؤُهُ مِنْ مَفْسَدَةٍ، فَقِتَالُ الدَّفْعِ أَفْضَلُ مِنْ قِتَالِ الطَّلَبِ، وَدَفْعُ الصُّوَّالِ عَنْ الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْضَاعِ أَفْضَلُ مِنْ دَرْئِهِمْ عَنْ الْمَنَافِعِ وَالْأَمْوَالِ. [3350]

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ،أَنَّهُ سَمِعَهُ،يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ،فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ،تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ،إِلَّا الدَّيْنَ،فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ» [3351]

٧- الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام:

عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ رَجُلٌ:مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ،وَقَالَ آخَرُ:مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ،وَقَالَ آخَرُ:الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ،فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ،وَقَالَ:لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ،وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ

[3350] - قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٥٤)

[3351] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠١) ١١٧ - (١٨٨٥)

[ش (محتسب) المحتسب هو المخلص لله تعالى (إلا الدين) فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله تعالى]

فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة:١٩] الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا،[٣٣٥٢].

٨- الجهاد أفضل الأعمال على الإطلاق:

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ:«أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ،وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ»،قَالَ:فَأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْإِيمَانُ»،قَالَ:وَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ:«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ،وَمَلَائِكَتِهِ،وَكُتُبِهِ،وَرُسُلِهِ،وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ»،قَالَ:فَأَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْهِجْرَةُ»،قَالَ:وَمَا الْهِجْرَةُ؟ قَالَ:«أَنْ تَهْجُرَ السُّوءَ»،قَالَ:فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الْجِهَادُ»،قَالَ:وَمَا الْجِهَادُ؟ قَالَ:«أَنْ تُقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُمْ»،قَالَ:فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ»،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ثُمَّ عَمَلَانِ هُمَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا:حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ،أَوْ عُمْرَةٌ» [٣٣٥٣]

فانظر أخي المسلم كيف جعل النبي ﷺ الجهاد خلاصة خلاصة الإسلام،وهو أفضل الأعمال على الإطلاق.

عن مُحَمَّد بن فضيل بن عياض،قَالَ:رأيت عبد اللَّه بن المبارك في المنام،فقلت أي الأعمال وجدت أفضل؟ قَالَ:الأمر الذي كنت فيه،قلت:الرباط والجهاد؟ قَالَ:نعم،قلت:فأي شيء صنع بك؟ قَالَ:غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة،وكلمتني امرأة من أهل الجنة أو امرأة من الحور العين.[٣٣٥٤].

قَالَ الْأَثْرَمُ:قَالَ أَحْمَدُ:لَا نَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ أَفْضَلَ مِنْ السَّبِيلِ.وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ:سَمِعْت أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،وَذُكِرَ لَهُ أَمْرُ الْعَدُوِّ؟ فَجَعَلَ يَبْكِي،وَيَقُولُ:مَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ أَفْضَلَ مِنْهُ.

[٣٣٥٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) ١١١ - (١٨٧٩)

[٣٣٥٣] - جامع معمر بن راشد (١١/ ١٢٧) (٢٠١٠٧) صحيح

[٣٣٥٤] - تاريخ بغداد ت بشار (١١/ ٤٠٨)

وَقَالَ عَنْهُ غَيْرُهُ:لَيْسَ يَعْدِلُ لِقَاءَ الْعَدُوِّ شَيْءٌ.وَمُبَاشَرَةُ الْقِتَالِ بِنَفْسِهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ،وَاَلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ الْعَدُوَّ،هُمْ الَّذِينَ يَدْفَعُونَ عَنْ الْإِسْلَامِ وَعَنْ حَرِيمِهِمْ،فَأَيُّ عَمَلٍ أَفْضَلُ مِنْهُ،النَّاسُ آمِنُونَ وَهُمْ خَائِفُونَ،قَدْ بَذَلُوا مُهَجَ أَنْفُسِهِمْ.[٣٣٥٥]

٩- الجهاد أحب الأعمال إلى الله:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ،قَالَ:قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَذَاكَرْنَا،فَقُلْنَا:لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الأَعْمَالِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَاهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ:«فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» قَالَ أَبُو سَلَمَةَ:«فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا ابْنُ سَلَامٍ» قَالَ يَحْيَى:«فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا أَبُو سَلَمَةَ» قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ:«فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا الأَوْزَاعِيُّ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:«فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا ابْنُ كَثِيرٍ»[٣٣٥٦].

١٠- المجاهد أفضل الناس عند الله:

قال تعالى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} (النساء:٩٥ - ٩٦).

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:(أتى رجل رسول الله ﷺ،فقال:أي الناس أفضل؟ قال:مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.قال:ثم من؟ قال:رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه،ويدع الناس من شره)،والشعب؛هو الوادي المنفرج بين جبلين.

[٣٣٥٥] - المغني لابن قدامة (٩/ ١٩٩)

[٣٣٥٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤١٣) (٣٣٠٩) صحيح -(مقتًا)المقت:أشد البغض.

وصرح رسول الله ﷺ بأن الجهاد أفضل من العزلة والتفرغ للعبادة،وهو ما يدل عليه قوله تعالى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً} (النساء:٩٥).

١١- لا يعدل الجهاد شيء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ:«لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»،قَالَ:فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ:«لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»،وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ،لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ،وَلَا صَلَاةٍ،حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى[٣٣٥٧].

وعن أبي هُرَيْرَةَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ؟ قَالَ:«لَا أَجِدُهُ،هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ تَدْخُلُ مَسْجِدًا فَتَقُومَ لَا تَفْتُرَ،وَتَصُومَ لَا تُفْطِرَ؟» قَالَ:مَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ[٣٣٥٨]

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ:«لاَ أَجِدُهُ» قَالَ:«هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ،وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟»،قَالَ:وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:«إِنَّ فَرَسَ المُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ،فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ»[٣٣٥٩]

[٣٣٥٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨) ١١٠ - (١٨٧٨)

[ش (لا تستطيعوه) كذا هو في معظم النسخ لا تستطيعوه وفي بعضها لا تستطيعونه بالنون وهذ جار على اللغة المشهورة والأول صحيح أيضا وهي لغة فصيحة حذف النون من غير ناصب ولا جازم وقد سبق بيانها ونظائرها مرات(القانت) معنى القانت هنا المطيع]

[٣٣٥٨] - سنن النسائي (٦/ ١٩) (٣١٢٨) صحيح

[٣٣٥٩] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٥)

[ش (لا أجده) لا أجد عملا يعدل الجهاد.(تفتر) تنقطع.والمعنى أن المجاهد في عبادة ما دام في خروجه فلا يقابله إلا من استمر في العبادة من صيام أو قيام أو غير ذلك.(ليستن) يمرح بنشاط من الاستنان وهو العدو.(طوله) حبله الذي

١٢- الجهاد أفضل من العزلة والتفرغ للعبادة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا،فَقَالَ:لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ،فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ،وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«لَا تَفْعَلْ،فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا،أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الجَنَّةَ،اغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ،مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[٣٣٦٠]

وفواق الناقة؛هو مابين الحلبتين من الوقت،لأن الناقة تحلب،ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر،ثم تحلب.وهذا من باب المبالغة في التحريض على القتال والترغيب فيه.

وهذا الحديث صريح في أن الجهاد والغزو أفضل من العزلة للعبادة.

وعَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ قَالَ:بَعَثَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَيْشًا فِيهِمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَخَرَجُوا يَوْمَ جُمُعَةٍ،قَالَ:وَمَكَثَ مُعَاذٌ حَتَّى صَلَّى،فَمَرَّ بِهِ عُمَرُ فَقَالَ:أَلَسْتَ فِي هَذَا الْجَيْشِ؟ قَالَ:بَلَى،قَالَ:فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ:أَرَدْتُ أَنْ أَشْهَدَ الْجُمُعَةَ ثُمَّ أَرُوحَ،قَالَ:أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ".[٣٣٦١]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى مُؤْتَةَ فَاسْتَعْمَلَ زَيْدًا،فَإِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ،فَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَابْنُ رَوَاحَةَ،قَالَ:فَتَخَلَّفَ ابْنُ رَوَاحَةَ يُجَمِّعُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:مَا خَلَّفَك،فَقَالَ:أُجَمِّعُ مَعَكَ،فَقَالَ:لَغَدْوَةٌ،أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.[٣٣٦٢]

يشد به من طرف ويمسك طرفه الآخر ثم يرسل في المرعى.(فيكتب له حسنات) يكتب مرحه ورعيه حسنات لصاحبه]

[٣٣٦٠] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٨١) (١٦٥٠) حسن

[٣٣٦١] - السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢٦٦) (٥٦٥٥) فيه انقطاع

[٣٣٦٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٢٧)(١٩٦٤٩) فيه لين

وكان الإمام عبد الله بن المبارك حريصاً على الجهاد والغزو،والمرابطة على الثغور،وكـــان يحث الناس عليه،وينكر على المعتكف للعبادة،القاعد عن الجهاد.

وعن محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة قَالَ:أَمْلَى عليَّ ابْنُ الْمُبَارَكِ سَــنَةَ سَــبْعٍ وَسَــبْعِيْنَ وَمائَةٍ،وَأَنفَذَهَا مَعِي إلى الفضل بنِ عِيَاضٍ مِنْ طَرَسُوْسَ:

يَا عَابِدَ الحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا...لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيْدَهُ بِدُمُوْعِه...فَنُحُوْرُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ...فَخُيُوْلُنَا يَوْمَ الصَّبِيْحَةِ تَتْعَبُ

رِيْحُ العَبِيْرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيْرُنَا...رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالغُبَارُ الأَطْيَبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا...قَوْلٌ صَحِيْحٌ صَادِقٌ لاَ يُكْذَبُ

لاَ يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي...أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلهبُ

هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا...لَيْسَ الشَّهِيْدُ بِمَيِّتٍ لا يكذب

فَلَقِيْتُ الفُضَيْلَ بِكِتَابِهِ فِي الحَرَمِ،فَقَرَأَهُ،وَبَكَى،ثُمَّ قَــالَ:صَــدَقَ أَبُــو عَبْــدِ الــرَّحْمَنِ وَنَصَحَ[3363]..

١٣- المجاهد خير الناس وأكرمهم على الله:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا؟» قُلْنَا:بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«رَجُلٌ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يُقْتَــلَ،وَأُخْبِرُكُمْ بِالَّــذِي يَلِيهِ؟» قُلْنَا:نَعَمْ،يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُــؤْتِي الزَّكَــاةَ وَيَعْتَزِلُ شُرُورَ النَّاسِ،وَأُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟» قُلْنَا:نَعَمْ،يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:«الَّذِي يُسْــأَلُ بِاللهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ»[3364].

[3363] - سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٣٨٦) وتاريخ الإسلام ت بشار (٤/ ٨٩٥) و الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢/ ٥٣٣) - الرهج:الغبار.والسنابك:طرف حوافر الخيل.

[3364] - السنن الكبرى للنسائي (٣/ ٦٦) (٢٣٦١) صحيح

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا؟ رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ،يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا بَعْدَهُ؟ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي غُنَيْمَتِهِ.يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَيَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٣٣٦٥]

وقال الطحاوي:" هذا الحديث خَرَجَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ،وَالْمُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ،وَهُوَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ؛لِأَنَّهُ ﷺ قَدْ ذَكَرَ غَيْرَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ،فَقَالَ:" خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ،وَحَسُنَ عَمَلُهُ "،وَقَالَ:" خِيَارُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "،وَكَانَ ذَلِكَ لِإِطْلَاقِ اللُّغَةِ إِيَّاهُ،وَلِاسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ مِثْلَهُ،فَيَذْكُرُ بِالْعُمُومِ مَا يُرِيدُ بِهِ الْخُصُوصَ،حَتَّى جَاءَ بِذَلِكَ كِتَابُ اللهِ فِي قِصَّةِ صَاحِبَةِ سَبَأ:{وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [النمل:٢٣]،وَلَمْ تُؤْتَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا أُوتِيَهُ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَصَّهُ اللهُ بِهَا دُونَ النَّاسِ،فَمِثْلُ ذَلِكَ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِمَّا قَدْ جَاءَ بِالْعُمُومِ هُوَ عَلَى الْخُصُوصِ لِمَا قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ ذَكَرْنَا،وَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ فِيهِ:" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالَّذِي يَلِيهِ "،هُوَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ ذِكْرِهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ:خَيْرُ أَهْلِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ مِنْ أَهْلِهَا،يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ،وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي التَّخْصِيصِ مِنْ أَهْلِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ مِنْهَا،جَازَ أَنْ تَكُونَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي هُوَ مِنْهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَنْزِلَةِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهَا مَنْزِلَةٌ أُخْرَى،إِذْ لَعَلَّهَا فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي هِيَ قَبْلَهَا أَيْضًا عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ فِيهِ،فَيَكُونُ مَنْ يُخَالِطُ النَّاسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ،أَفْضَلَ مِمَّنْ لَا يُخَالِطُهُمْ،وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ بِاعْتِزَالِهِ شُرُورَهُمْ،وَانْقِطَاعِهِ عَنْهُمْ فِيمَا ذُكِرَ انْقِطَاعُهُ عَنْهُمْ فِيهِ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الَّذِي قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا فِي الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ،فَذَكَرَ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ جَارٌ يُؤْذِيهِ،فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ،وَيَحْتَسِبُهُ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ لَهُ مِنْهُ،إِمَّا بِمَوْتٍ،وَإِمَّا بِغَيْرِهِ،وَإِذَا كَانَ مَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْهَا،وَإِنَّمَا هُوَ فِي صَبْرِهِ عَلَى إِيذَاءِ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَانَ مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ،وَخَالَطَهُمْ،وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ،وَاحْتَسَبَهُ بِذَلِكَ أَوْلَى،وَبِالزِّيَادَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِيهِ أَحْرَى.وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي أُرِيدَ بِالتَّفْضِيلِ فِي تَرْكِ مُخَالَطَةِ النَّاسِ أُرِيدَ بِهِ وَقْتٌ

[٣٣٦٥] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٥) (٤) صحيح مرسل

مِنَ الْأَوْقَاتِ،وَلَمْ يُرِدْ بِهِ كُلَّ الْأَوْقَاتِ،وَيَكُونُ الْوَقْتُ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ هُوَ الْوَقْتَ الْمَذْكُورَ فِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ مِمَّا ذُكِرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَوَابًا لَهُ عِنْدَ سُؤَالِهِ إِيَّاهُ عَنِ الْمُرَادِ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة:١٠٥]،فَقَالَ:" بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ،وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ،حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا،وَهَوًى مُتَّبَعًا،وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً،وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ،وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ،فَعَلَيْكَ أَمْرَ نَفْسِكَ،وَإِيَّاكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ،فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ،صَبْرٌ فِيهِنَّ عَلَى مِثْلِ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ،لِلْعَامِلِ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ كَأَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ ".وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الْحَدِيثَ بِأَسَانِيدِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا،فَيَكُونُ اعْتِزَالُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَفْضَلَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ،وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ،وَيَكُونُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَزْمِنَةِ بِخِلَافِهِ،وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِتَفْضِيلِ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فِيهِ عَلَى تَرْكِ مُخَالَطَتِهِمْ هُوَ ذَلِكَ الزَّمَانَ؛حَتَّى لَا يُضَادَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا شَيْئًا مِنْهُمَا.وَمِمَّا قَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثُهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ،فعن شِهَابِ بْنِ مُدْلِجٍ الْعَنْبَرِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ قَالَ:أَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي،فَلَقِينَا أَبَا هُرَيْرَةَ عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فَقَالَ:مَنْ أَنْتُمَا؟ فَأَخْبَرْنَاهُ،فَقَالَ:انْطَلِقَا إِلَى نَاسٍ عَلَى تَمْرٍ وَمَاءٍ،إِنَّمَا يَسِيلُ كُلُّ وَادٍ بِقَدْرِهِ،قُلْنَا:كَثُرَ خَيْرُكَ،اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،فَاسْتَأْذَنَ،فَسَمِعْنَا ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ تَبُوكَ،فَقَالَ:" مَا فِي النَّاسِ مِثْلُ رَجُلٍ آخذ بِعِنَانِ فَرَسِهِ،لِيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَيَجْتَنِبَ شُرُورَ النَّاسِ،وَمِثْلُ رَجُلٍ بَادٍ فِي غَنَمِهِ،يَقْرِي ضَيْفَهُ،وَيُؤَدِّي حَقَّهُ ".قُلْتُ:أَقَالَهَا؟ قَالَ:قَالَهَا،قُلْتُ:أَقَالَهَا؟ قَالَ:قَالَهَا،قُلْتُ:أَقَالَهَا؟ قَالَ:قَالَهَا،قَالَ:فَكَبَّرْتُ،وَحَمِدْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَشَكَرْتُ.قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ذَكَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْلَ الْمَنْزِلَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ بِغَيْرِ تَقْدِيمٍ مِنْهُ أَهْلَ إِحْدَاهُمَا عَلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْأُخْرَى،فَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَذْكُرُونَ الْأَشْيَاءَ بِمَرَاتِبَ يُقَدِّمُونَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ،وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَعَهَا غَيْرُ

مُتَقَدِّمَة عَلَيْهَا،وَمِمَّا يُؤَكِّدُ مَا تَأَوَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ عَلَيْهِ،وَصَرَفْنَا مَعْنَاهُ إِلَيْهِ مِمَّا قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ فِي زَمَنٍ خَاصٍّ"[3366]

١٤- نوم المجاهد أفضل من قيام غيره الليل وصيامه النهار

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِنَّ مَثَلَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الْقَائِمِ،الصَّائِمِ،الْخَاشِعِ،الرَّاكِعِ،السَّاجِدِ»[3367]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ،وَتَوَكَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرْجِعَهُ سَالِمًا بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[3368]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَانِتِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ صَلَاةً وَلَا صَوْمًا حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِهِ بِمَا يُرْجِعُهُ مِنْ غَنِيمَةٍ وَأَجْرٍ،أَوْ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[3369]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الْقَانِتِ الْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:يَقُولُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ »[3370]

[3366] شرح مشكل الآثار (١٤/ ١٦١)

[3367] - الجهاد لابن أبي عاصم (١/ ١٨٢) (٢٩) صحيح

[3368] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٧٩)(٤٣١٧) صحيح

[3369] - أحاديث إسماعيل بن جعفر (ص:٢٤٩)(١٦٢) صحيح

[3370] - المعجم الأوسط (٨/ ٣٣٣) (٨٧٨٧) صحيح

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ،كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ،وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ،بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[3371]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ:«لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»،قَالَ:فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ،أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ:«لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»،وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ،لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ،وَلَا صَلَاةٍ،حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى»[3372]

١٥- الله يرفع المجاهد في الجنة مائة درجة:

قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } [النساء].

لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله -غير أصحاب الأعذار منهم- والمجاهدون في سبيل الله،بأموالهم وأنفسهم،فضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين،ورفع منزلتهم درجة عالية في الجنة،وقد وعد الله كلا من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة لِما بذلوا وضحَّوا في سبيل الحق،وفضَّل الله تعالى المجاهدين على

[3371] - صحيح البخاري (٤/ ١٥) (٢٧٨٧)

[ش (أعلم بمن يجاهد في سبيله) الله أعلم بنيته إن كانت خالصة لإعلاء كلمته.(كمثل الصائم القائم) من حيث الأجر والمنزلة لأنه مثله في حبس نفسه عن شهواتها.(توكل) ضمن وتكفل على وجه التفضل منه سبحانه.(مع أجر) وحده إذا لم توجد غنيمة.(أو غنيمة) إن وجدت مع تحقيق الأجر]

[3372] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨)١١٠ - (١٨٧٨)

[ش (لا تستطيعوه) كذا هو في معظم النسخ لا تستطيعوه وفي بعضها لا تستطيعونه بالنون وهذ جار على اللغة المشهورة والأول صحيح أيضا وهي لغة فصيحة حذف النون من غير ناصب ولا جازم وقد سبق بيانها ونظائرها مرات(القانت) معنى القانت هنا المطيع]

القاعدين ثوابًا جزيلا.وهذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات من الله تعالى لخاصة عباده المجاهدين في سبيله،ومغفرة لذنوبهم ورحمة واسعة ينعمون فيها.وكان الله غفورًا لمن تاب إليه وأناب،رحيمًا بأهل طاعته،المجاهدين في سبيله.[٣٣٧٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ،وَأَقَامَ الصَّلاَةَ،وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ:«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ،فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ،فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[٣٣٧٤].

ــــــــــــــــــــــــــــ

١٦- سياحة هذه الأمة الجهاد:

قال الله تعالى في بيان صفات المؤمنين الذين وهبوا أنفسهم وأموالهم لله:{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [التوبة:١١٢]

هُنَا يُعَدِّدُ اللهُ تَعَالَى صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ الذِينَ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالجَنَّةِ،وَهُمُ:التَّائِبُونَ مِنْ الذُّنُوبِ كُلِّها،التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ،القَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ،وَالمُحَافِظُونَ عَلَيهَا،وَالحَامِدُ نَ للهِ عَلَى نِعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ،السَّائِحُونَ فِي الأَرْضِ،لِلاعْتِبَارِ وَ الاسْتِبْصَارِ بِمَا خَلَقَ اللهُ مِنَ العِبَرِ وَ الآيَاتِ،(وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ مَعْنَى السَّائِحِينَ هُنَا الصَّائِمُونَ) وَالمُصَلُّونَ.وَهُمْ مَعْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْعَوْنَ فِي نَفْعِ خَلْقِ اللهِ،وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ،بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ،وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ،مَعَ العِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ،وَيَجِبُ تَرْكُهُ طَاعَةً

[٣٣٧٣] - التفسير الميسر (١/ ٩٤)

[٣٣٧٤] - صحيح البخاري (٤/ ١٦) (٢٧٩٠)

[ش (الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات.(أوسط الجنة) أفضلها وخيرها.(أراه) أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه..) (تفجر) تنشق]

لله (أَيْ إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ حُدُودَ اللهِ).وَيُبَشِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الكَرِيمَةِ بِخَيْرَي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.[٣٣٧٥]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى»[٣٣٧٦]

وعَنْ سَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:ائْذَنْ لَنَا بالاخْتِصَاءِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَصَى،وَلَا اخْتَصَى،إِنَّ إِخْصَاءَ أُمَّتِي الصِّيَامُ»،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ:ايْذَنْ لَنَا فِي السِّيَاحَةِ،فَقَالَ:«إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،ائْذَنْ لَنَا فِي التَّرَهُّبِ،فَقَالَ:«إِنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ انْتِظَارَ الصَّلَاةِ»[٣٣٧٧]

١٧- ذروة سنام الإسلام هو الجهاد:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ:أَنْبِئْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ،قَالَ:«لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ،وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ،تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا،وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ،وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ السَّنَامِ مِنْهُ» فَقُلْتُ:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ:«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ،وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ،وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٣٣٧٨].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ:أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ:" بَخٍ بَخٍ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ صَلِّ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ،وَأَدِّ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ،أَفَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ،وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ،أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ،مَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ،وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ،وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ،أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ،الصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ،وَقِيَامُ الْعَبْدِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يُكَفِّرُ

[٣٣٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٤٨،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٧٦] - سنن أبي داود (٣/ ٥) (٢٤٨٦) حسن

[٣٣٧٧] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٩٠)(٨٤٥) حسن لغيره

[٣٣٧٨] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٢٠) (١٩٧) صحيح

الْخَطَايَا وَتَلَا:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَوَلَا أُخْبِرُكَ بِأَمْلَكِ ذَلِكَ قَالَ:فَاطَّلَعَ رَكْبٌ،أَوْ رَاكِبٌ فَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ"،فَقُلْتُ:وَإِنَّا لَنُؤَاخَذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَتِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[٣٣٧٩]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:كُنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ،فَأَصَابَ النَّاسَ رِيحٌ،فَتَقَطَّعُوا فَضَرَبْتُ بِبَصَرِي،فَإِذَا أَنَا قَرِيبُ النَّاسِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:لَأَغْتَنِمَنَّ خَلْوَتَهُ الْيَوْمَ فَدَنَوْتُ مِنْهُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُقَرِّبُنِي أَوْ قَالَ:يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ،وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ،قَالَ:" لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ،وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ:تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا،وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ،وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ،وَتَحُجُّ الْبَيْتَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِأَبْوَابِ الْخَيْرِ" قُلْتُ:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:" الصَّوْمُ جُنَّةٌ،وَالصَّدَقَةُ تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ،وَقِيَامُ اللَّيْلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ"،ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦] ثُمَّ قَالَ:" إِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ" قُلْتُ:أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ،وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ،وَأَمَّا ذِرْوَةُ سَنَامِهِ فَالْجِهَادُ،وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِأَمْلَكِ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ" فَأَقْبَلَ رَجُلَانِ فَخَشِيتُ أَنْ يَشْغَلَاهُ عَنِّي،قُلْتُ:مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ،بِأَبِي وَأُمِّي؟ فَأَشَارَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ،فَقُلْتُ:وَإِنَا لَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ،قَالَ:" ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ،وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ،وَهَلْ تَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا عَلَيْكَ أَوْ لَكَ"[٣٣٨٠]

وَأَمَّا قَوْلُهُ:" ذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ"،فَقَدْ قِيلَ مَعْنَاهُ:أَيْ لَا شَيْءَ مِنْ مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ أَشْهُرُ وَلَا أَظْهَرُ مِنْهُ،فَهُوَ كَذَرْوَةِ السَّنَامِ الَّتِي لَا شَيْءَ مِنَ الْبَعِيرِ أَعَلَى مِنْهُ،وَعَلَيْهِ يَقَعُ بَصَرُ النَّاظِرِ مِنْ بَعْدِهِ.[٣٣٨١]

[٣٣٧٩] - شعب الإيمان (٤/ ٢٩٩) (٢٥٤٩) صحيح لغيره

[٣٣٨٠] - شعب الإيمان (٧/ ٣٤) (٤٦٠٧) صحيح لغيره

[٣٣٨١] - شعب الإيمان (٦/ ٩٤)

١٨- المجاهد في ضمان الله وكفالته وعونه وهدايته

من حين خروجه حتى عودته أو استشهاده:قال الله تعالى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت:٦٩].

أَمَّا الذينَ قَاتَلُوا فِي سَبيلِ اللهِ،وَجَاهَدُوا الكُفَّارَ،وَبَذَلُوا دمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبيلِ نُصْرَةِ دين اللهِ،فإِنَّ اللهَ يَعدُهُم بأَنْ يَزيدَهُمْ هِدَايةً إلى سَبيلِ الخَيْرِ،وَتَوفِيقاً لسُلُوكِها.واللهُ تَعَالى مَعَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ مِنْ عِبادهِ،يُعِينُه وَيَنْصُرُهُ.[٣٣٨٢]

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} وهم الذين هاجروا في سبيل الله،وجاهدوا أعداءهم،وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته،{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} أي:الطرق الموصلة إلينا،وذلك لأنهم محسنون.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} بالعون والنصر والهداية.دل هذا،على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد،وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية،وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي،فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية،خارجة عن مدرك اجتهاده،وتيسر له أمر العلم،فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله،بل هو أحد نَوْعَي الجهاد،الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق،وهو الجهاد بالقول واللسان،للكفار والمنافقين،والجهاد على تعليم أمور الدين،وعلى رد نزاع المخالفين للحق،ولو كانوا من المسلمين.[٣٣٨٣]

وقال الطبري:" وَالَّذِينَ قَاتَلُوا هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ،الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فِينَا،مُبْتَغِينَ بِقِتَالِهِمْ عُلُوَّ كَلِمَتِنَا،وَنُصْرَةَ دِينِنَا {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت:٦٩] يَقُولُ:لَنُوَفِّقَنَّهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ،وَذَلِكَ إِصَابَةُ دِينِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩] يَقُولُ:وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ خَلْقِهِ،فَجَاهَدَ فِيهِ أَهْلَ الشِّرْكِ،مُصَدِّقًا رَسُولَهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالْعَوْنِ لَهُ،وَالنُّصْرَةِ عَلَى مَنْ جَاهَدَ مِنْ أَعْدَائِهِ."[٣٣٨٤]

[٣٣٨٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٩١،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٣٨٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٣٦)

[٣٣٨٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٤٤)

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ:لَيْسَ الْجِهَادُ فِي الْآيَةِ قِتَالَ الْكُفَّارِ فَقَطْ بَلْ هُوَ نَصْرُ الدِّينِ،وَالرَّدُّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ،وَقَمْعُ الظَّالِمِينَ،وَعِظَمُهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَمِنْهُ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ.وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ:إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا فَعَلَيْكَ بِالْمُجَاهِدِينَ وَأَهْلِ الثُّغُورِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:" لَنَهْدِيَنَّهُمْ"[3385]

الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ويتصلوا به.الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا و لم ييأسوا.الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس.الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب..أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم،ولن ينسى جهادهم.إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم.وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم.وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم.وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء[3386]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ.كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى؛وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا:إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرُ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ؛لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}.[3387]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ،لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ،وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[3388]

[3385] - تفسير القرطبي (١٣/ ٣٦٤)

[3386] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٠٢)

[3387] - مجموع الفتاوى [٢٨/ ٤٤٢]

[3388] - صحيح البخاري (٤/ ٨٥) (٣١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦)١٠٤ - (١٨٧٦)

[ش (تصديق كلماته) أي مصدقا بما وعد الله تعالى في كتابه من أجر على الجهاد]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانًا بِي،وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ،لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ،وَرِيحُهُ مِسْكٌ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[٣٣٨٩]

قَوْلُهُ ﷺ (تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا إِلَى قَوْلِهِ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ) وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى تَكَفَّلَ اللَّهُ وَمَعْنَاهُمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأموالهم بأن لهم الجنة الْآيَةَ[٣٣٩٠]

[٣٣٨٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٥) ١٠٣ - (١٨٧٦)

[ش (تضمن الله) وفي الرواية الأخرى تكفل الله ومعناهما أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة} الآية(إلا جهادا في سبيلي) هكذا هو في جميع النسخ جهادا بالنصب وكذا قال بعده وإيمانا بي وتصديقا وهو منصوب على أن لا مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج ويحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق ومعناه لا يخرجه إلا محض الإيمان والإخلاص لله تعالى (نائلا ما نال من أجر) قالوا معناه ما حصل له من الأجر بلا غنيمة إن لم يغنموا أو من الأجر والغنيمة معا إن غنموا وقيل إن أو هنا بمعنى الواو أي من أجر أو غنيمة ومعنى الحديث أن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيرا بكل حال فإما أن يستشهد فيدخل الجنة وإما أن يرجع بأجر وإما أن يرجع بأجر وغنيمة(ما من كلم يكلم في سبيل الله) أما الكلم فهو الجرح ويكلم أي يجرح والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى(خلاف سرية) أي خلفها وبعدها(لا أجد سعة فأحملهم) أي ليس لي من سعة الرزق ما أجد به لهم دواب فأحملهم عليها(ولا يجدون سعة) فيه حذف يدل عليه ما ذكر قبله أي ولا يجدون سعة يجدون بها من الدواب ما يحملهم ليتبعوني ويكونوا معي(ويشق عليهم أن يتخلفوا عني) أي ويوقعهم تأخرهم عني في المشقة يعني يصعب عليهم ذلك]

[٣٣٩٠] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢٠)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ قَالَ:«أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِي ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ضَمِنْتُ لَهُ إِنْ رَجَعْتُهُ أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَإِنْ قَبَضْتُهُ غَفَرْتُ لَهُ وَرَحِمْتُهُ»[٣٣٩١]

ـــــــــــــــــــــ

١٩- الله لا يضيع المجاهد وإنما يتولاه بلطفه ورحمته:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ» وَهُمْ ثَلاَثُ مِائَةٍ،فَخَرَجْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ،فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ الجَيْشِ،فَجُمِعَ فَكَانَ مِزْوَدَيْ تَمْرٍ،فَكَانَ يَقُوتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلٌ قَلِيلٌ حَتَّى فَنِيَ فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ،فَقُلْتُ:مَا تُغْنِي عَنْكُمْ تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ:لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنِيَتْ،ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى البَحْرِ فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرِبِ،فَأَكَلَ مِنْهَا القَوْمُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً،ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلَعَيْنِ مِنْ أَضْلاَعِهِ فَنُصِبَا،ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرُحِلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا "[٣٣٩٢]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ،نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ،وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ،فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً،قَالَ:فَقُلْتُ:كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ:نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ،ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ،فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ،وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ،ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ،قَالَ:وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ،فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ الضَّخْمِ،فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ،قَالَ:قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:مَيْتَةٌ،ثُمَّ قَالَ:لَا،بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَفِي سَبِيلِ اللهِ،وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا،قَالَ:فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا،قَالَ:وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنَ،وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ،أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ،فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ،وَأَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا،فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ،فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا

[٣٣٩١] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٨٠) (٤٣١٩) صحيح

[٣٣٩٢] - صحيح البخاري (٥/ ١٦٦) (٤٣٦٠)

رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ:«هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ،فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟»،قَالَ:فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ[3393]

من كرم الله عز وجل للمجاهدين أنهم إذا دعوه أجابهم فلم يتركهم الله بدار مضيعة ولا هوان،بل تولاهم بلطفه،ودفع عنهم الأضرار والجوع،لأنه ضامن لهم سبحانه.

٢٠- أنواع مختلفة من فضل الجهاد والمجاهدين:

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ الْجَنْبِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«أَنَا زَعِيمٌ وَالزَّعِيمُ الْحَمِيلُ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ،وَهَاجَرَ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي،وَأَسْلَمَ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَبِبَيْتٍ فِي أَعَلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ،فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا،وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَمُوتَ»[3394]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا،وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا،وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»[3395]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أَنَا زَعِيمُ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا،وَتَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا،وَحَسُنَ خُلُقُهُ»[3396]

[3393] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٣٥) ١٧ - (١٩٣٥) [ش (عيرا) العير هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره (جرابا) بكسر الجيم وفتحها الكسر أفصح وهو وعاء من جلد (نمصها) بفتح الميم وضمها الفتح أفصح وأشهر (الخبط) ورق السلم (الكثيب) هو الرمل المستطيل المحدودب(وقب) هو داخل عينه ونقرتها (بالقلال) جمع قلة وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه أي يحملها (الفدر) هي القطع (كقدر الثور) رويناه بوجهين مشهورين في نسخ بلادنا أحدهما بقاف مفتوحة ودال ساكنة أي مثل الثور والثاني كفدر جمع فدرة والأول أصح (رحل) أي جعل عليه رحلا (وشائق) قال أبو عبيد هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا ينضج ويحمل في الأسفار يقال وشقت اللحم فاتشق والوشيقة الواحدة منه والجمع وشائق ووشق وقيل الوشيقة القديد]

[3394] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٨٢) (٤٣٢٦) صحيح

[3395] =- الكنى والأسماء للدولابي (٣/ ٩٣٩) (١٦٤٣) صحيح

وعَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ،مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ،وَكَانَ كَاتِبًا لَهُ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَقَرَأْتُهُ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا،انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ،ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا قَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ،لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ،وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ،فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ»،ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ،وَمُجْرِيَ السَّحَابِ،وَهَازِمَ الأَحْزَابِ،اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»[٣٣٩٧]

وعَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ،مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ:عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى،فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ،يُخْبِرُهُ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ،يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ،فَقَالَ:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ،لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ،فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»،ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ،وَقَالَ:«اللهُمَّ،مُنْزِلَ الْكِتَابِ،وَمُجْرِيَ السَّحَابِ،وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ،اهْزِمْهُمْ،وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»[٣٣٩٨]

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي،وَهُوَ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»،فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ،فَقَالَ:يَا أَبَا مُوسَى،آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:" فَرَجَعَ

[٣٣٩٦] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ١١٠) (٢١٧) صحيح

[٣٣٩٧] - صحيح البخاري (٤/ ٥١) (٢٩٦٥ و٢٩٦٦)

[ش (بعض أيامه) بغض غزواته.(لقي فيها) العدو والحرب.(مالت) زالت.(الأحزاب) قبائل الشرك]

[٣٣٩٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٦٢) ٢٠ - (١٧٤٢) [ش (الحرورية) أي لقتالهم وهم الخوارج (واسألوا الله العافية) قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة(فإذا لقيتموهم فاصبروا) هذا حث على الصبر والقتال وهو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}(واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) معناه ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ومشي المجاهدين في سبيل الله فاحضروا فيه بصدق وأثبتوا]

إِلَى أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ،ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ،ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ "[3399]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَعْلَمُونَ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي؟»،قَالُوا:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:" فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَسْتَفْتِحُونَ فَيَقُولُ لَهُمُ الخَزَنَةُ:أَوَحُوسِبْتُمْ؟،قَالُوا:بِأَيِّ شَيْءٍ يُحَاسِبُونَا إِنَّمَا كَانَتْ أَسْيَافُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى مِتْنَا عَلَى ذَلِكَ،قَالَ:فَتُفْتَحُ لَهُمْ،قَالَ:فَيَقِيلُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ "[3400]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا،فَقَالَ:لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ،فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ،وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:«لَا تَفْعَلْ،فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا،أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الجَنَّةَ،اغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ،مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[3401]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ»[3402]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُذْهِبُ اللَّهُ بِهِ الْغَمَّ،وَالْهَمَّ»[3403]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«وَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنْجِي صَاحِبَهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ»[3404]

[3399] - صحيح مسلم (3/ 1511) 146 - (1902)

[ش (بحضرة) هو بفتح الحاء وضمها وكسرها ثلاث لغات ويقال أيضا بحضر(تحت ظلال السيوف) قال العلماء معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها(جفن سيفه) هو غمده]

[3400] - مستخرج أبي عوانة (4/ 497) (7471) صحيح

[3401] - سنن الترمذي ت شاكر (4/ 181) (1650) صحيح

[3402] - الجهاد لابن أبي عاصم (1/ 133) صحيح لغيره

[3403] - الجهاد لابن أبي عاصم (1/ 134) صحيح لغيره

[3404] - الجهاد لابن أبي عاصم (1/ 136) صحيح لغيره

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«جَاهدُوا فِي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ،فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ،فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ،وَإِنَّهُ يُنَجِّي صَاحِبَهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ» [3405]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّه ﷺ،عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى بَدْرٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَتَبِعَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُونَهُمْ وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ وَاسْتَوْلَتْ طَائِفَةٌ بِالْعَسْكَرِ وَالنَّهَبِ،فَلَمَّا نَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَدُوَّ وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ طَلَبُوهُمْ قَالُوا:نَحْنُ طَلَبْنَا الْعَدُوَّ وَبِنَا نَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَهزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.قَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّه ﷺ:مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِه مِنَّا هُوَ لَنَا؛نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّه ﷺ أَنْ لَا يَنَالَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً.وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهَبِ:هُوَ لَنَا وَاللَّه مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِه مِنَّا نَحْنُ حَوَيْنَاهُ وَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْه.فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّه وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال:١] فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْنَهُمْ عَنْ فِرَاقٍ.قَالَ:«فَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُنَفِّلُهُمْ إِذَا خَرَجُوا بَادِينَ الرُّبُعَ وَيُنَفِّلُهُمْ إِذَا قَفَلُوا الثُّلُثَ» وَقَالَ:أَخَذَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ ثُمَّ رَفَعَهَا ثُمَّ قَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ،لَا يَحِلُّ لِي مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ قَدْرَ هَذِه الْوَبَرِ إِلَّا الْخُمُسُ وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ،فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمخْيَطَ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ؛فَإِنَّهُ عَارٌ عَلَى أَهْلِه يَوْمَ الْقِيَامَة،وَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَاد فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى؛فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّة يُذْهِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِه الْهَمَّ وَالْغَمَّ» [3406]

وعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِه قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ لَهُ:تَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ،وَدِينَ آبَائِكَ،فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ فَغَفَرَ لَهُ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ،فَقَالَ لَهُ:تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ،وَسَمَاءَكَ،فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ،فَقَالَ لَهُ:تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ،وَالْمَالِ،فَتُقَاتِلُ فَتَقْتُلُ،فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ،وَيُقْسَمُ

[3405] – أمالي ابن بشران – الجزء الأول (ص:٢١٠) (٤٨٤) صحيح لغيره

[3406] – الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٣/ ٤٣١)(١٨٦٥) حسن

الْمَالُ،فَعَصَاهُ فَجَاهِدَ»،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةُ»[3407].

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ:قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:«مَا لَيْلَةٌ تُهْدَى إِلَيَّ فِيهَا عَرُوسٌ أَنَا لَهَا مُحِبٌّ أَوْ أُبَشَّرُ فِيهَا بِغُلَامٍ،بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْجَلِيدِ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُصَبِّحُ بِهَا الْعَدُوَّ»[3408]

٢١-فضل الجهاد على الحج:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ:أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ:«إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».قِيلَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قِيلَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«حَجٌّ مَبْرُورٌ»[3409]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«إِيمَانٌ بِاللهِ»،قَالَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قَالَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«حَجٌّ مَبْرُورٌ»[3410]

وعَنْ آدَمَ بْنِ عَلِيٍّ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ:سَفْرَةٌ،يَعْنِي غَزْوَةً فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ حَجَّةً.[3411]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«حَجَّةٌ قَبْلَ غَزْوَةٍ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ غَزْوَةً،وَغَزْوَةٌ بَعْدَ حَجَّةٍ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ حَجَّةً،وَلَمَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ حَجَّةً»[3412]

[3407] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٥٣) (٤٥٩٣) صحيح

[3408] - فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٨١٤) (١٤٧٦) صحيح

[3409] - صحيح البخاري (١/ ١٤) (٢٦)

[ش (أفضل) أكثر ثوابا عند الله تعالى.(مبرور) مقبول وهو الذي لا يقع فيه ارتكاب ذنب]

[3410] - صحيح مسلم (١/ ٨٨) ١٣٥ - (٨٣) [ش (حج مبرور) هو الذي لا يخالطه شيء من المأثم ومنه برت يمينه إذا سلم من الحنث وبر بيعه إذا سلم من الخداع وقيل المبرور المتقبل]

[3411] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٦٦) (١٩٧٠٥) صحيح

[3412] - مسند الشاميين للطبراني (٤/ ٣٢٨)(٣٤٥٧) فيه انقطاع

وعَنْ عُمَيْرِ بْنِ الأَسْوَدِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:عَلَيْكُمْ بِالْحَجِّ،فَإِنَّهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ،وَالْجِهَادُ أَفْضَلُ مِنْهُ.[3413]

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:سَمِعْته يَقُولُ:غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ عَشْرِ حِجَجٍ لِمَنْ قَدْ حَجَّ.[3414]

(حجة قبل غزوة أفضل من خمسين غزوة) لمن لم يحج حجة الإسلام (وغزوة بعد حجة أفضل من خمسين حجة) أي إن تعين فرض الجهاد عليه (ولموقف ساعة) أي لحظة لطيفة (في سبيل الله أفضل من خمسين حجة) تطوعا لمن كان الجهاد في حقه فرضا عينيا والحاصل أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال

،قلت:وظاهر هذه الأحاديث أن الجهاد في حق من حج حجة الإسلام أفضل مطلقاً أي سواء تعين عليه أو لم يتعين.[3415]

٢٢- فضل الغدو والرواح في سبيل الله

قال تعالى:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)} [التوبة:١٢٠،١٢١]

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ،عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ،وَإِيثَارِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ وَيَخُصُّ بالعتَابِ أَهْلَ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ،فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الأَجْرِ،لأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ وَلاَ تَعَبٌ وَلاَ مَجَاعَةٌ (مَخْمَصَةٌ)،وَلاَ يَنْزِلُونَ

[3413] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٨٢) (١٩٧٣٨) صحيح

[3414] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٦٥) (١٩٧٠٤) صحيح

[3415] - فيض القدير (٣/ ٣٧٤)

مَنْزِلاً يُرْهِبُ الكُفَّارَ،وَيَغِيظُهُمْ،وَلاَ يُحَقِّقُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ظَفَراً وَغَلَبَةً..إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهذِهِ الأَعْمَالِ،ثَوَابَ عَمَلٍ صَالِحٍ جَزِيلٍ،وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.

وَلاَ يُنْفِقُ هؤُلاَءِ الغُزَاةُ قَلِيلاً وَلاَ كَثِيراً فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً فِي سَيْرِهِمْ إلَى أَعْدَائِهِمْ،إلاَّ كَتَبَ لَهُمْ،وَسُجِّلَ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ عَلَيه جَزَاءً أَحْسَنَ مِنْ جَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الجَلِيلَةِ فِي غَيْرِ الجِهَادِ،فَالنَّفَقَةُ الصَّغِيرَةُ فِي الجِهَادِ كَالنَّفَقَةِ الكَبِيرَةِ فِي غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ المَبَرَّاتِ.[٣٤١٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ،خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٣٤١٧]

وعنْ أَنَسٍ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ،أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الجَنَّةِ،خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا،وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا،وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٣٤١٨]

" قَالَ الْقُرْطُبِيّ وَهَذَا مِنْهُ ﷺ إِنَّمَا هُوَ على مَا اسْتَقر فِي النُّفُوس من تَعْظِيم ملك الدُّنْيَا وَأما على التَّحْقِيق فَلَا تدخل الْجنَّة مَعَ الدُّنْيَا تَحت أفعل إِلَّا كَمَا يُقَال الْعَسَل أحلى من الْخلّ وَقد قيل إِن معنى ذَلِك أَن ثَوَاب الغدوة والروحة أفضل من الدُّنْيَا لَو ملكهَا مَالك فأنفقها فِي وجهوه الْبر وَالطَّاعَة غير الْجِهَاد قَالَ وَهَذَا أليق وَالْأول أسبق"[٣٤١٩]

"وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيث أَنَّ فَضْلَ الْغَدْوَة وَالرَّوْحَة فِي سَبِيلِ اللَّه وَثَوَابَهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لو ملكها انسان وَتَصَوَّرَ تَنَعُّمَهُ بِهَا كُلِّهَا لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمَ الْآخِرَة بَاقٍ قَالَ الْقَاضِي وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ وَمَعْنَى نَظَائِره مِنْ تَمْثِيلِ أمور الآخرة وثوابها بأمور الدنيا أنها

[٣٤١٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٤١٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٦) (٢٧٩٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩)١١٢ - (١٨٨٠)

[ش(لغدوة) زمن ما بين طلوع الشمس إلى الزوال.(روحة) زمن ما بين الزوال إلى الليل والمعنى قضاء مثل هذا الوقت في سبيل الله أكثر ثوابا من التصدق بالدنيا وما فيها أو خير لمن فعل ذلك مما لو ملك الدنيا وما فيها]

[٣٤١٨] -صحيح البخاري (٨/ ١١٦)(٦٥٦٨)

[٣٤١٩] - شرح السيوطي على مسلم (٤/ ٤٧٤)

خيرمن الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ مَلَكَهَا إِنْسَانٌ وَمَلَكَ جَمِيعَ مَا فِيهَا وَأَنْفَقَهُ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ وَلَيْسَ تَمْثِيلُ الْبَاقِي بِالْفَانِي عَلَى ظَاهِرِ إِطْلَاقِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[٣٤٢٠]

وعن أَنَسَ بْنِ مَالِك،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:«لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ غَدْوَةٌ،خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ،أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا،وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا،وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٣٤٢١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانٌ بِي،وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» ثُمَّ قَالَ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَخْرُجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي،وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ فَيَتَخَلَّفُونَ بَعْدِي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ،ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ»[٣٤٢٢]

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي،أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[٣٤٢٣]

[٣٤٢٠] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢٦)

[٣٤٢١] - صحيح البخاري (٤/ ١٧)(٢٧٩٦)

[ش (موضع قيد) مقدار قيد وهو السوط المتخذ من الجلد الذي لم يدبغ.(ما بينهما) ما بين السماء والأرض.(ريحا) عطرا.(لنصيفها) خمارها وهو ما يغطى به الرأس]

[٣٤٢٢] - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٢٠)(٢٧٥٣) صحيح

[ش - (أعد الله لمن خرج في سبيله) المفعول مقدر.أي أعد له فضلا كبيرا أو أجرا عظيما (لا يخرجه) هومن كلامه تعالى.فلا بد من تقدير القول على أن جملة القول بيان لجملة أعد الله.أي قال تعالى خرج في سبيلي لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي.(ضامن) بمعنى ذو ضمان أو مضمون.]

[٣٤٢٣] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٦)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانًا بِي،وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ،لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ،وَرِيحُهُ مِسْكٌ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[٣٤٢٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ،لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ،وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[٣٤٢٥]

[ش (انتدب) تكفل أو سارع بثوابه وحسن جزائه.(أن أرجعه) أي إلى بلده إن لم يستشهد.(بما نال) مع ما أصاب وأعطي.(أو أدخله الجنة) بلا حساب إن استشهد.(ما قعدت خلف سرية) ما تخلفت عن سرية وهي القطعة من الجيش.(ولوددت) أحببت ورغبت]

[٣٤٢٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٥)١٠٣ - (١٨٧٦)

[ش (تضمن الله) وفي الرواية الأخرى تكفل الله ومعناهما أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة} الآية(إلا جهادا في سبيلي) هكذا هو في جميع النسخ جهادا بالنصب وكذا قال بعده وإيمانا بي وتصديقا وهو منصوب على أن لا مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج ويحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق ومعناه لا يخرجه إلا محض الإيمان والإخلاص لله تعالى(نائلا ما نال من أجر) قالوا معناه ما حصل له من الأجر بلا غنيمة إن لم يغنموا أو من الأجر والغنيمة معا إن غنموا وقيل إن أو هنا بمعنى الواو أي من أجر أو غنيمة ومعنى الحديث أن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيرا بكل حال فإما أن يستشهد فيدخل الجنة وإما أن يرجع بأجر وإما أن يرجع بأجر وغنيمة(ما من كلم يكلم في سبيل الله) أما الكلم فهو الجرح ويكلم أي يجرح والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى(خلاف سرية) أي خلفها وبعدها(لا أجد سعة فأحملهم) أي ليس لي من سعة الرزق ما أجد به لهم دواب فأحملهم عليها(ولا يجدون سعة) فيه حذف يدل عليه ما ذكر قبله أي ولا يجدون سعة يجدون بها من الدواب ما يحملهم ليتبعوني ويكونوا معي(ويشق عليهم أن يتخلفوا عني) أي ويوقعهم تأخرهم عني في المشقة يعني يصعب عليهم ذلك]

[٣٤٢٥] - صحيح البخاري (٤/ ٨٦) (٣١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦)١٠٤ - (١٨٧٦)

----

٢٣ -فضل المشي والغبار في سبيل الله:

عن عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ،قَالَ:أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الجُمُعَةِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»[٣٤٢٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا يَجْتَمِعَانِ فِي النَّارِ اجْتِمَاعًا يَضُرُّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ،مُسْلِمٌ قَتَلَ كَافِرًا ثُمَّ سَدَّدَ الْمُسْلِمُ،وَقَارَبَ وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ عَبْدٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ،وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الْإِيمَانُ وَالشُّحُّ»[٣٤٢٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يَجْتَمِعُ دُخَانُ جَهَنَّمَ وَغُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ»[٣٤٢٨]

وعَنْ حُصَيْنِ بْنِ حَرْمَلَةَ الْمَهْرِيِّ،حَدَّثَنَا أَبُو الْمُصَبِّحِ الْمَقْرَائِيُّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ فِي طَائِفَةٍ عَلَيْهَا مَالِكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَثْعَمِيُّ إِذْ مَرَّ مَالِكٌ بِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَمْشِي يَقُودُ بَغْلًا لَهُ،فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ:أَيْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ارْكَبْ فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فقَالَ جَابِرٌ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»،فَأَعْجَبَ مَالِكًا قَوْلُهُ فَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ حَيْثُ يُسْمِعُهُ الصَّوْتَ نَادَاهُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ارْكَبْ،فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فَعَرَفَ جَابِرٌ الَّذِي أَرَادَ بِرَفْعِ صَوْتِهِ،وَقَالَ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»،فَوَثَبَ النَّاسُ عَنْ دَوَابِّهِمْ،فَمَا رَأَيْنَا يَوْمًا أَكْثَرَ مَاشِيًا مِنْهُ"[٣٤٢٩]

[ش (تصديق كلماته) أي مصدقا بما وعد الله تعالى في كتابه من أجر على الجهاد(وتصديق كلماته) أي كلمة الشهادتين وقيل تصديق كلام الله تعالى في الإخبار بما للمجاهد من عظيم ثوابه]

[٣٤٢٦] - صحيح البخاري (٢/ ٧) (٩٠٧)

[ش (اغبرت) أصابها الغبار.(سبيل الله) طاعة الله تعالى ومنها حضور صلاة الجمعة]

[٣٤٢٧] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٨٢)(٢٣٩٤) صحيح

[٣٤٢٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٦٧)(٤٦٠٧) صحيح

[٣٤٢٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٦٤) (٤٦٠٤) صحيح

وعَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيِّ،قَالَ:" كُنَّا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ مُنْصَرَفَه مِنَ الصَّائِفَةِ الصُّغْرَى،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ سَائِرَ جَسَدِه عَلَى النَّارِ» ثُمَّ قَالَ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ،اذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ،مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا قَالَ اللَّهُ:صَدَقَ عَبْدِي،مِنِّي بَدَأَ الْحَمْدُ وَإِلَيَّ يَعُودُ وَأَنَا أَحَقُّ بِالْحَمْدِ،وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ:سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِه إِلَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:صَدَقَ عَبْدِي،سُبْحَانِي وَبِحَمْدِي،التَّسْبِيحُ مِنِّي بَدَأَ،وَإِلَيَّ يَعُودُ،وَهُوَ خَالِصٌ لِي،وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ:لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ،إِلَّا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:صَدَقَ عَبْدِي،لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي،سَلْ عَبْدِي تَوْبَةً "[٣٤٣٠]

ولأجل هذا كره العلماء للخارج مجاهداً في سبيل الله التلثم وتغطية الأنف والفم،لئلا يدخله الغبار؛لأن اللثام يمنع دخول الغبار في أنف وفم المجاهد،ودخوله سبب لتحريم المجاهد على النار،كتغبير القدمين بغبار الجهاد:«مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»

٢٤- فضل الغزو في البحر على الغزو في البر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ،وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِت،فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا،فَأَطْعَمَتْهُ،ثُمَّ جَلَسَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ،فَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ،ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ،قَالَتْ:فَقُلْتُ:مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ:«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ،غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله،يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ،مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ»،أَوْ «مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ» - يَشُكُّ أَيَّهُمَا - قَالَ:قَالَتْ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،فَدَعَا لَهَا،ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ،فَنَامَ،ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ،قَالَتْ:فَقُلْتُ:مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ:«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ،غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله»،كَمَا قَالَ فِي الْأُولَى،قَالَتْ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله،ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،قَالَ:«أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ»،فَرَكِبَتْ أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ

[٣٤٣٠] - أمالي ابن بشران - الجزء الأول (ص:٣١٤)(٧٢٦) حسن

مِلْحَانَ الْبَحْـرَ فِـي زَمَـنِ مُعَاوِيَةَ،فَصُـرِعَتْ عَـنْ دَابَّتِهَـا حِـينَ خَرَجَـتْ مِـنَ الْبَحْرِ،فَهَلَكَتْ"[3431].

وعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ الأَسْوَدِ العَنْسِيَّ،حَدَّثَهُ - أَنَّهُ أَتَى عُبَادَةَ بْنَ الصَّـامِتِ وَهُوَ نَازِلٌ فِي سَاحَةِ حِمْصَ وَهُوَ فِي بِنَاءٍ لَهُ،وَمَعَهُ أُمُّ حَرَامٍ - قَـالَ:عُمَيْرٌ،فَحَـدَّثَتْنَا أُمُّ حَرَامٍ:أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ البَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا»،قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ:«أَنْتِ فِيهِمْ»،ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَوَّلُ جَـيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ»،فَقُلْتُ:أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«لاَ»[3432]

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،عَنْ أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ - وَهِيَ خَالَتُهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَـامَ - أَوْ قَالَ فِي بَيْتِهَا - فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،مَا يُضْحِكُكَ؟ فَقَـالَ:" عُرِضَ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ ظَهْرَ هَذَا الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ كَـالْمُلُوكِ عَلَـى الْأَسِـرَّةِ "،قَالَتْ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،فَقَالَ:" إِنَّكِ مِـنْهُمْ "،ثُـمَّ نَـامَ فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ:" عُرِضَ عَلَيَّ نَاسٌ مِـنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ ظَهْرَ هَذَا الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ "،قَالَتْ:فَقُلْتُ:يَـا رَسُـولَ اللهِ،ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ،قَالَ:" أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ "،قَالَ فَتَزَوَّجَهَا عُبَادَةُ بْنُ الصَّـامِتِ فَأَخْرَجَهَا مَعَهُ،فَلَمَّا جَازَ الْبَحْرَ بِهَا رَكِبَتْ دَابَّةً فَصَرَعَتْهَا فَقَتَلَتْهَا"[3433]

[3431] - صحيح مسلم (3/ 1518)160 - (1912)

[ش (أم حرام بنت ملحان) اتفق العلماء على أنها كانت محرما له ﷺ واختلفوا في كيفية ذلك فقال ابن عبد البر وغيره كانت إحدى خالاته من الرضاعة وقال آخرون بل كانت خالة لأبيه أو لجده لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار(ثبج) هو ظهره ووسطه(مثل الملوك على الأسرة) قيل هو صفة لهم في الآخرة إذا دخلوا الجنة والأصح أنه صفة لهم في الدنيا أي يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم واستقامة أمرهم وكثرة عددهم(في زمن معاوية) قال القاضي قال أكثر أهل السير والأخبار إن ذلك كان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وإن فيها ركبت أم حرام وزوجها إلى قبرس فصرعت عن دابتها هناك فتوفيت ودفنت هناك وعلى هذا يكون قوله في زمان معاوية - معناه في زمان غزوه في البحر لا في أيام خلافته]

[3432] - صحيح البخاري (4/ 42) (2924) [ش (أوجبوا) لأنفسهم دخول الجنة بجهادهم في سبيل الله تعالى]

[3433] - مسند أحمد ط الرسالة (45/ 376)(27377) صحيح

٢٥- فضل النفقة في سبيل الله:

قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة:٢٤٥)

يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ عَلَى الإنْفاق في سَبيلِ الله،وَجَعَلَ ما يُنْفقُهُ العَبْدُ لإعْلاَءِ كَلمَةِ الله قَرْضاً يَرُدُّهُ اللهُ إلى أصْحَابه أضْعَافاً مُضَاعَفَةً،وَاللهُ هُوَ الذي يَقْبضُ الرِّزْقَ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى بَعْضِ عبَاده،لحكْمَة لاَ يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ،وَهُوَ الذي يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيُوسعهُ عَلَى بَعْضهم الآخرِ وَفْقَ حكْمَته،فَلَيسَ للْعبَاد أنْ يَخْشَوا إذَا أنْفَقُوا الفَاقَةَ.وَيَرْجعُ الخَلْقُ إلى الله في الآخرَة فَيُجَازيهِمْ عَلَى مَا بَذَلُوا منْ مَال وَنَفْسٍ في سَبيلِ إعْلاء كَلمَة الله.[٣٤٣٤]

مَنْ هَذَا الَّذي يُنْفقُ في سَبيلِ اللَّه،فَيُعينُ مُضْعَفًا،أَوْ يُقَوِّي ذَا فَاقَة أَرَادَ الْجهَادَ في سَبيلِ اللَّه،وَيُعْطي منْهُمْ مُقْترًا.وَذَلكَ هُوَ الْقَرْضُ الْحَسَنُ الَّذي يَقْرضُ الْعَبْدُ رَبَّهُ.وَإِنَّمَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى ذكْرُهُ قَرْضًا؛لأَنَّ مَعْنَى الْقَرْضِ:إعْطَاءُ الرَّجُلِ غَيْرَهُ مَالَهُ مُمَلِّكًا لَهُ ليَقْضيَهُ مثْلَهُ إذَا اقْتَضَاهُ.فَلَمَّا كَانَ إعْطَاءُ مَنْ أَعْطَى أَهْلَ الْحَاجَة،وَالْفَاقَة في سَبيلِ اللَّه إنَّمَا يُعْطيهِمْ مَا يُعْطيهِمْ منْ ذَلكَ ابْتغَاءَ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَيْه منْ جَزيلِ الثَّوَاب عنْدَهُ يَوْمَ الْقيَامَة،سَمَّاهُ قَرْضًا،إذْ كَانَ مَعْنَى الْقَرْضِ في لُغَة الْعَرَب مَا وَصَفْنَا.وَإِنَّمَا جَعَلَهُ تَعَالَى ذكْرُهُ حَسَنًا؛لأَنَّ الْمُعْطي يُعْطي ذَلكَ عَنْ نَدْب اللَّه إيَّاهُ،وَحَثِّه لَهُ عَلَيْه احْتسَابًا منْهُ،فَهُوَ للَّه طَاعَةٌ وَللشَّيَاطينِ مَعْصيَةٌ.وَلَيْسَ ذَلكَ لحَاجَة باللَّه إلَى أَحَد منْ خَلْقه،وَلَكنَّ ذَلكَ كَقَوْلِ الْعَرَب:«عنْدي لَكَ قَرْضُ صدْقٍ وَقَرْضُ سُوءٍ»:للأَمْرِ يَأْتي فيه للرَّجُلِ مَسَرَّتُهُ أَوْ مَسَاءَتُهُ،كَمَا قَالَ الشَّاعرُ:

كُلُّ امْرِئٍ سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ...حَسَنًا أَوْ سَيِّئًا وَمَدينًا بالَّذي دَانَا

فَقَرْضُ الْمَرْءِ:مَا سَلَفَ منْ صَالحِ عَمَله أَوْ سَيِّئه.وَهَذه الْآيَةُ نَظيرَةُ الْآيَة الَّتي قَالَ اللَّهُ فيهَا تَعَالَى ذكْرُهُ:{مَثَلُ الَّذينَ يُنْفقُونَ أَمْوَالَهِمْ في سَبيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ في كُلِّ سُنْبُلَة مائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعفُ لمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ}[٣٤٣٥]

[٣٤٣٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٤٣٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٤/ ٤٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى:(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجِهَادِ والقتال على الحق- إذ ليس شي مِنَ الشَّرِيعَةِ إِلَّا وَيَجُوزُ الْقِتَالُ عَلَيْهِ وَعَنْهُ،وَأَعْظَمُهَا دِينُ الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ مَالِكٌ- حَرَّضَ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي ذَلِكَ.فَدَخَلَ فِي هَذَا الْخَبَرِ الْمُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّهُ يُقْرِضُ بِهِ رَجَاءَ الثَّوَابِ كَمَا فَعَلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ.[٣٤٣٦]

ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك،أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه،وسماه قرضا فقال:{من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات،خصوصا في الجهاد،والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى،{فيضاعفه له أضعافا كثيرة} الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة،بحسب حالة المنفق،ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها،ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله:{والله يقبض ويبسط} أي:يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء،فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه،فالإمساك لا يبسط الرزق،والإنفاق لا يقبضه،ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله،بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملا موفرا مضاعفا،فلهذا قال:{وإليه ترجعون} فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر،وخصوصا الأسباب التي تترك بها أوامر الله.وفيها:الآية العظيمة بإحياء الموتى أعيانا في هذه الدار.وفيها:الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله،وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاثة عليه،من تسميته قرضا،ومضاعفته،وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.[٣٤٣٧]

وإذا كان الموت والحياة بيد الله،والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء،فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق.إنما هو قرض حسن لله،مضمون عنده،يضاعفه أضعافا كثيرة.يضاعفه في الدنيا مالا وبركة وسعادة وراحة ويضاعفه في الآخرة نعيما

[٣٤٣٦] - تفسير القرطبي (٣/ ٢٣٧)

[٣٤٣٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٠٧)

ومتاعا،ورضى وقربى من الله.ومرد الأمر في الغنى والفقر إلى الله،لا إلى حرص وبخل،ولا إلى بذل وإنفاق:«وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ»..

والمرجع إليه سبحانه في نهاية المطاف.فأين يكون المال والناس أنفسهم راجعون بقضهم وقضيضهم إلى الله:«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»..

وإذن فلا فزع من الموت،ولا خوف من الفقر،ولا محيد عن الرجعة إلى الله.وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله،وليقدموا الأرواح والأموال وليستقينوا أن أنفاسهم معدودة،وأن أرزاقهم مقدرة،وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة.ومردهم بعد ذلك إلى الله..[٣٤٣٨]

وقال تعالى:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٦١).

يَحُثُّ اللهُ المُؤْمِنِينَ عَلَى إِنْفَاقِ أمْوالِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ،وَابْتغاءِ مَرْضَاتِه (فِي الحَجِّ وفِي الجِهَادِ وَفِي الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ) وَيَضْرِبُ لَهُمُ الزَّرْعَ مَثَلاً عَلَى تَنْمِيَتِه،سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ لأصْحَابِها،فَكَمَا يَنْمُو الزَّرْعُ لِمَنْ بَذَرَهُ،كَذَلِكَ يَتَضَاعَفُ العَمَلُ الصَّالِحُ عَنْدَ اللهِ،وَاللهُ يُضَاعِفُ الأجْرَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه،فَيَزِيدُهُ زِيَادَةً لا حَصْرَ لَهَا بِحَسَبِ إخْلاصِ العَبْدِ فِي عَمَلِه،وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ لاَ يَنْحَصِرُ فَضْلُهُ،وَلا يُحَدُّ عَطَاؤُهُ،وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ هَذِه المُضَاعَفَةَ وَبِمَنْ لاَ يَسْتَحِقُّهَا.[٣٤٣٩]

هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة} وهنا قال:{مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} أي:في طاعته ومرضاته،وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة} وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل،الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته،فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان،فتنقاد النفس مذعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة،{والله يضاعف} هذه

[٣٤٣٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥١٤)

[٣٤٣٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

المضاعفة {لمن يشاء} أي:بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حـال النفقـة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها،ويحتمل أن يكون {والله يضاعف} أكثـر مـن هـذه المضاعفة {لمن يشاء} فيعطيهم أجرهم بغير حسـاب {والله واسـع} الفضل،واسـع العطاء،لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل،فلا يتوهم المنفق أن تلك المضـاعفة فيهـا نـوع مبالغة،لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرتـه،ومع هـذا فهـو {عليم} بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها،فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.[٣٤٤٠]

وَهَذِهِ الْآيَةُ مَرْدُودَةٌ إِلَى قَوْلِهِ:{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْـعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:٢٤٥]،وَالْآيَاتُ الَّتِـي بَعْـدَهَا إِلَـى قَوْلِهِ:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:٢٦١] مِنْ قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرِهِمْ مَعَ طَالُوتَ وَجَالُوتَ،وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ نَبَإِ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ،وَأَمْرِ الَّذِي مَرَّ عَلَى الْقَرْيَةِ الْخَاوِيَةِ عَلَى عُرُوشِهَا،وَقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمَسْأَلَتِهِ رَبَّهُ مَا سَأَلَ مِمَّا قَـدْ ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ،اعْتِرَاضٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِمَا اعْتَرَضَ بِهِ مِنْ قَصَصِهِمْ بَيْنَ ذَلِكَ احْتِجَاجًا مِنْهُ بِبَعْضِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ،وَحَضًّا مِنْهُ بِبَعْضِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٤٤] يُعَرِّفُهُمْ فِيهِ أَنَّهُ نَاصِرُهُمْ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ وَكَثُرَ عَدَدُ عَدُوِّهِمْ،وَيَعِدُهُمُ النُّصْرَةَ عَلَيْهِمْ،وَيُعَلِّمُهُمْ سُنَّتَهُ فِيمَنْ كَانَ عَلَى مِنْهَـاجِهِمْ مِـنَ ابْتِغَـاءِ رِضْوَانِ اللَّهِ أَنَّهُ مُؤَيِّدُهُمْ،وَفِيمَنْ كَانَ عَلَى سَبِيلِ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُ خَاذِلُهُمْ وَمُفَرِّقُ جَمْعِهِمْ وَمُوهِنُ كَيْدِهِمْ،وَقَطْعًا مِنْهُ بِبَعْضٍ عُذْرَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَـاجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،بِمَا أَطْلَعَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ مِنْ خَفِيِّ أُمُورِهِمْ،وَمَكْتُومِ أَسْرَارِ أَوَائِلِهِمْ وَأَسْـلَافِهِمِ الَّتِي لَمْ يَعْلَمْهَا سِوَاهُمْ،لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا آتَاهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَأَنَّهُ لَيْسَ بِتَخَرُّصٍ وَلَا اخْتِلَاقٍ،وَإِعْذَارًا مِنْهُ بِهِ إِلَى أَهْلِ النِّفَاقِ مِنْهُمْ،لِيَحْذَرُوا بِشَكِّهِمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ وَسَطْوَتِهِ مِثْلُ الَّذِي أَحَلَّهُمَا بِأَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْقَرْيَـةِ الَّتِـي

[٣٤٤٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١١٢)

أَهْلَكَهَا،فَتَرَكَهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا،ثُمَّ عَادَ تَعَالَى ذِكْرُهُ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا،وَمَا عِنْدَهُ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَرْضِهِ،فَقَالَ:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:٢٦١] يَعْنِي بِذَلِكَ مَثَلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،{كَمَثَلِ حَبَّةٍ} [البقرة:٢٦١] مِنْ حَبَّاتِ الْحِنْطَةِ أَوِ الشَّعِيرِ،أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي تُسَنْبِلُ سُنْبُلَةً بَذَرَهَا زَارِعٌ،«فَأَنْبَتَتْ»،يَعْنِي فَأَخْرَجَتْ {سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ}،يَقُولُ:فَكَذَلِكَ الْمُنْفِقُ مَالَهُ عَلَى نَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،لَهُ أَجْرُهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْ نَفَقَتِهِ

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:وَهَلْ رَأَيْتَ سُنْبُلَةً فِيهَا مِائَةُ حَبَّةٍ أَوْ بَلَغَتْكَ فَضُرِبَ بِهَا الْمَثَلُ الْمُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَالَهُ؟ قِيلَ:إِنْ يَكُنْ ذَلِكَ مَوْجُودًا فَهُوَ ذَاكَ،وَإِلَّا فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:كَمَثَلِ سُنْبُلَةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ،إِنْ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهَا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبٍّ؛يَعْنِي أَنَّهَا إِذَا هِيَ بُذِرَتْ أَنْبَتَتْ مِائَةَ حَبَّةٍ،فَيَكُونُ مَا حَدَثَ عَنِ الْبَذْرِ الَّذِي كَانَ مِنْهَا مِنَ الْمِائَةِ الْحَبَّةِ مُضَافًا إِلَيْهَا؛لِأَنَّهُ كَانَ عَنْهَا،

واخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ:{وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} [البقرة:٢٦١]،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَجْرَ حَسَنَاتِهِ بَعْدَ الَّذِي أَعْطَى الْمُنْفِقَ فِي سَبِيلِهِ مِنَ التَّضْعِيفِ الْوَاحِدَةَ سَبْعَمِائَةٍ.فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فِي غَيْرِ سَبِيلِهِ،فَلَا نَفَقَةَ مَا وَعْدَهُ مِنْ تَضْعِيفِ السَّبْعِمِائَةِ بِالْوَاحِدَةِ..،وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ:وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ عَلَى السَّبْعِمِائَةِ إِلَى أَلْفَيْ أَلْفِ ضِعْفٍ وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ:{وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} [البقرة:٢٦١] وَاللَّهُ يُضَاعِفُ عَلَى السَّبْعِمِائَةِ إِلَى مَا يَشَاءُ مِنَ التَّضْعِيفِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ؛لِأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ ذِكْرُ الثَّوَابِ وَالتَّضْعِيفِ لِغَيْرِ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَجُوزُ لَنَا تَوْجِيهُ مَا وَعَدَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ التَّضْعِيفِ إِلَى أَنَّهُ عِدَةٌ مِنْهُ عَلَى الْعَمَلِ عَلَى غَيْرِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ أَنْ يَزِيدَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ عَلَى أَضْعَافِ السَّبْعِمِائَةِ الَّتِي وَعْدَهُ أَنْ يَزِيدَهُ،عَلِيمٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمُ الزِّيَادَةَ[٣٤٤١]

[٣٤٤١] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٤/ ٦٥٠)

وقال القرطبي:" فِيهِ خَمْسُ مَسَائِلَ:الْأُولَى- لَمَّا قَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ،حَثَّ عَلَى الْجِهَادِ،وَأَعْلَمَ أَنَّ مَنْ جَاهَدَ بَعْدَ هَذَا الْبُرْهَانِ الَّذِي لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ فَلَهُ فِي جِهَادِهِ الثَّوَابُ العظيم.ورى البستي فِي صَحِيحِ مُسْنَدِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(رَبِّ زِدْ أُمَّتِي) فَنَزَلَتْ" مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(رَبِّ زِدْ أُمَّتِي) فَنَزَلَتْ" إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ".وَهَذِهِ الْآيَةُ لَفْظُهَا بَيَانُ مِثَالٍ لِشَرَفِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِحُسْنِهَا،وَضَمَّنَهَا التَّحْرِيضُ عَلَى ذَلِكَ.وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ مَثَلُ نَفَقَةِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ.وَطَرِيقٌ آخَرُ:مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ كَمَثَلِ زَارِعٍ زَرَعَ فِي الْأَرْضِ حَبَّةً فَأَنْبَتَتِ الْحَبَّةُ سَبْعَ سَنَابِلَ،يَعْنِي أَخْرَجَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ،فَشَبَّهَ الْمُتَصَدِّقَ بِالزَّارِعِ وَشَبَّهَ الصَّدَقَةَ بِالْبَذْرِ فَيُعْطِيهِ اللَّهُ بِكُلِّ صَدَقَةٍ لَهُ سَبْعَمِائَةِ حَسَنَةٍ،ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:(وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ) يَعْنِي عَلَى سَبْعِمِائَةٍ،فَيَكُونُ مَثَلُ الْمُتَصَدِّقِ مَثَلَ الزَّارِعِ،إِنْ كَانَ حَاذِقًا فِي عَمَلِهِ،وَيَكُونُ الْبَذْرُ جَيِّدًا وَتَكُونُ الْأَرْضُ عَامِرَةً يَكُونُ الزَّرْعُ أَكْثَرَ،فَكَذَلِكَ الْمُتَصَدِّقُ إِذَا كَانَ صَالِحًا وَالْمَالُ طَيِّبًا وَيَضَعُهُ مَوْضِعَهُ فَيَصِيرُ الثَّوَابُ أَكْثَرَ،خِلَافًا لِمَنْ قَالَ:لَيْسَ فِي الْآيَةِ تَضْعِيفٌ عَلَى سَبْعِمِائَةٍ،عَلَى مَا نُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.الثَّانِيَةُ- رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ جَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،كَانَتْ لِي ثَمَانِيَةُ آلَافٍ فَأَمْسَكْتُ لِنَفْسِي وَلِعِيَالِي أَرْبَعَةَ آلَافٍ،وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ أَقْرَضْتُهَا لِرَبِّي.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ).وَقَالَ عُثْمَانُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ جَهَازُ مَنْ لَا جَهَازَ لَهُ،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمَا.وَقِيلَ:نَزَلَتْ فِي نَفَقَةِ التَّطَوُّعِ.وَقِيلَ:نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ الزَّكَاةِ ثُمَّ نُسِخَتْ بِآيَةِ الزَّكَاةِ،وَلَا حَاجَةَ إِلَى دَعْوَى النَّسْخِ،لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ.وَسُبُلُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ وَأَعْظَمُهَا الْجِهَادُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.

الرابعة- وَرَدَ الْقُرْآنُ بِأَنَّ الْحَسَنَةَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِ الْبِرِّ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،وَاقْتَضَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ نَفَقَةَ الْجِهَادِ حَسَنَتُهَا بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ (وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ) فَقَالَتْ طَائِفَةٌ:هِيَ مُبَيِّنَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ السَّبْعِمِائَةِ،وَلَيْسَ ثَمَّ تَضْعِيفٌ فَوْقَ السَّبْعِمِائَةِ.وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ:بَلْ هُوَ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ.قُلْتُ:وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ لِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الْمَذْكُورِ أَوَّلَ الْآيَةِ.وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمَّالُ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي فُدَيْكٍ عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعَبْدِ الله بن عمرو وَأَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِي وَجْهِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ- ثُمَّ تَلَا [هذه الآية]- والله يضاعف لمن يشاء الله".

الْخَامِسَةُ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الزَّرْعِ مِنْ أَعْلَى الْحِرَفِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا النَّاسُ وَالْمَكَاسِبُ الَّتِي يَشْتَغِلُ بِهَا الْعُمَّالُ،وَلِذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ بِهِ الْمَثَلَ فَقَالَ:" مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ" الْآيَةَ.وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً".وَرَوَى هِشَامُ بْنُ عروة عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" الْتَمِسُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ" يَعْنِي الزَّرْعَ،أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.وَقَالَ ﷺ فِي النَّخْلِ:" هِيَ الرَّاسِخَاتُ فِي الْوَحْلِ الْمُطْعِمَاتُ فِي الْمَحْلِ".وَهَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْمَدْحِ.وَالزِّرَاعَةُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ فَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُجْبِرَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَمَا كَانَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ غَرْسِ الْأَشْجَارِ."[٣٤٤٢]

إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف إنما يبدأ بالحض والتأليف..إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله..إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة:صورة الزرع.هبة الأرض أو هبة الله.الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه،ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره.يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين

[٣٤٤٢] - تفسير القرطبي (٣/ ٣٠٢)

ينفقون أموالهم في سبيل الله:«مَثَلُ الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ،فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ»..

إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة!

أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل وأكثر استجاشة للمشاعر،وتأثيرا في الضمائر..إنه مشهد الحياة النامية.مشهد الطبيعة الحية.مشهد الزرعة الواهبة.ثم مشهد العجيبة في عالم النبات:العود الذي يحمل سبع سنابل.والسنبلة التي تحوي مائة حبة! وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء.إنه لا يعطي بل يأخذ وإنه لا ينقص بل يزاد..وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها.تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة..إن الله يضاعف لمن يشاء.يضاعف بلا عدة ولا حساب.يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها:«وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»..واسع..لا يضيق عطاؤه ولا يكف ولا ينضب.عليم..يعلم بالنوايا ويثبت عليها،ولا تخفى عليه خافية.

ولكن أي إنفاق هذا الذي ينمو ويربو؟ وأي عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدنيا والآخرة لمن يشاء؟

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها.الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعورا.

الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء،ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه:«الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً،لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ،وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»..والمن عنصر كريه لئيم،وشعور خسيس واط.فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب،أو رغبة في إذلال الآخذ،أو رغبة في لفت أنظار الناس.فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء..وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب،ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن..فالمن – من ثم – يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء.أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء ورغبة في رؤية أخيه ذليلا له كسيرا لديه وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله..وأذى للآخذ بما يثير في نفسه

من انكسار وانهزام،ومن رد فعل بالحقد والانتقام..وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة،وملء البطن،وتلافي الحاجة.

كلا! إنما أراده تهذيبا وتزكية وتطهيرا لنفس المعطي واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية وتذكيرا له بنعمة الله عليه وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير سرف ولا مخيلة،وأن ينفق منها «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» في غير منع ولا من.كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ،وتوثيقا لصلته بأخيه في الله وفي الإنسانية وسدا لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون يذكرها بوحدة قوامها ووحدة حياتها ووحدة اتجاهها ووحدة تكاليفها.والمن يذهب بهذا كله،ويحيل الإنفاق سما ونارا.فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان.هو أذى في ذاته يمحق الإنفاق،ويمزق المجتمع،ويثير السخائم والأحقاد.وبعض الباحثين النفسيين في هذه الأيام يقررون أن رد الفعل الطبيعي في النفس البشرية للإحسان هو العداء في يوم من الأيام! وهم يعللون هذا بأن الآخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطي ويظل هذا الشعور يحز في نفسه فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه وإضمار العداوة له لأنه يشعر دائما بضعفه ونقصه تجاهه ولأن المعطي يريد منه دائما أن يشعر بأنه صاحب الفضل عليه! وهو الشعور الذي يزيد من ألم صاحبه حتى يتحول إلى عداء!

وقد يكون هذا كله صحيحا في المجتمعات الجاهلية – وهي المجتمعات التي لا تسودها روح الإسلام ولا يحكمها الإسلام – أما هذا الدين فقد عالج المشكلة على نحو آخر.عالجها بأن يقرر في النفوس أن المال مال الله وأن الرزق الذي في أيدي الواجدين هو رزق الله..وهي الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاهل بأسباب الرزق البعيدة والقريبة،وكلها منحة من الله لا يقدر الإنسان منها على شيء.وحبة القمح الواحدة قد اشتركت في إيجادها قوى وطاقات كونية من الشمس إلى الأرض إلى الماء إلى الهواء.وكلها ليست في مقدور الإنسان..

وقس على حبة القمح نقطة الماء وخيط الكساء وسائر الأشياء..فإذا أعطى الواجد من ماله شيئا فإنما من مال الله أعطى وإذا أسلف حسنة فإنما هي قرض لله يضاعفه له أضعافا

كثيرة.وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسببا لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله![٣٤٤٣]

وعَنْ أَبِي مَسْعُود الْأَنْصَارِيِّ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَة مَخْطُومَة،فَقَالَ:هَذه في سَبِيلِ الله،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقيَامَة سَبْعُ مائَة نَاقَة كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[٣٤٤٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،قَالَ:" مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّه،نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّة:يَا عَبْدَ اللَّه هَذَا خَيْرٌ،فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَة دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَة،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَاد دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَاد،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّان،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَة دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَة "،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّه مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَة،فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا،قَالَ:«نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[٣٤٤٥]

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله،دَعَاهُ خَزَنَةُ الْجَنَّة،كُلُّ خَزَنَة بَابٍ:أَيْ فُلُ،هَلُمَّ"فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا رَسُولَ الله،ذَلِكَ الَّذِي لَا تَوَى عَلَيْه،قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[٣٤٤٦].

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ،دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِه،وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِه فِي سَبِيلِ الله،وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِه فِي سَبِيلِ

[٣٤٤٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥٥٨)

[٣٤٤٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥) ١٣٢ - (١٨٩٢) [ش (مخطومة) أي فيها خطام وهو قريب من الزمام]

[٣٤٤٥] - صحيح البخاري (٣/ ٢٥) (١٨٩٧) وصحيح مسلم (٢/ ٧١١)٨٥ - (١٠٢٧)

[ش(أنفق زوجين) عمل صنفين من أعمال البر.(من أهل الصلاة) المكثرين لصلاة التطوع وكذلك من ذكر من أهل الأعمال الأخرى فالمراد الملازمون لها المكثرون منها زيادة عن الواجبات.(بأبي أنت وأمي) أنت مفدى بهما.(من ضرورة) من مضرة أي قد سعد من دعي من الأبواب جميعا ودعوته منها جميعا أن يخير في الدخول من أيها شاء وهذا مزيد تكريم وفضل]

[٣٤٤٦] - صحيح مسلم (٢/ ٧١٢)٨٦ - (١٠٢٧)

[ش (أي فل هلم) هكذا ضبطناه أي فل بضم اللام وهو المشهور و لم يذكر القاضي وأخرون غيره قال القاضي معناه أي فلان فرخم ونقل إعراب الكلمة على إحدى اللغتين في الترخيم (لا توى عليه) أي لا هلاك]

اللهِ» قَالَ أَبُو قِلَابَةَ:" وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ،ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ:وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا،مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ،يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ،وَيُغْنِيهِمْ "[٣٤٤٧]

ـــــــــــــــــــــ

٢٦-فضل تجهيز المجاهدين وخلفهم في أهلهم بخير:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لَحْيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ،فَقَالَ:«لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا،وَالْأَجْرُ بَيْنَهُمَا»[٣٤٤٨].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ،فَقَدْ غَزَا،وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ،فَقَدْ غَزَا»[٣٤٤٩]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ،كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ،حَتَّى إِنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْغَازِي شَيْءٌ»[٣٤٥٠].

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ،وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ،إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ،فَمَا ظَنُّكُمْ؟»[٣٤٥١]

قَالَ النَّوَوِيُّ:مَعْنَاهُ فَمَا تَظُنُّونَ فِي رَغْبَةِ الْمُجَاهِدِ فِي أَخْذِ حَسَنَاتِهِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ؟؛أَيْ لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا أَخَذَهُ.وَقَالَ الْمُظْهِرُ؛أَيْ:مَا ظَنُّكُمْ بِاللَّهِ مَعَ هَذِهِ

[٣٤٤٧] - صحيح مسلم (٢/ ٦٩١)٣٨ - (٩٩٤)

[ش (على عياله) أي من يعوله ويلزمه مؤنته من نحو زوجة وخادم وولد (على دابته) أي التي أعدها للغزو عليها]

[٣٤٤٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٧) ١٣٧ - (١٨٩٦)

[٣٤٤٩] - صحيح البخاري (٤/ ٢٧)(٢٨٤٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٠٦)١٣٥ - (١٨٩٥)

[ش (فقد غزا) أي حصل له أجر بسبب الغزو وهذا الأجر يحصل بكل جهاد وسواء قليله وكثيره ولكل خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمر لهم]

[٣٤٥٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٨٩) (٤٦٣٠) صحيح

[٣٤٥١] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٨)١٣٩ - (١٨٩٧)

[ش (حرمة نساء المجاهدين) هذا في شيئين أحدهما تحريم التعرض لهن بريبة من نظر محرم وخلوة وحديث محرم وغير ذلك والثاني في برهن والإحسان إليهن وقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة ولا يتوصل بها إلى ريبة ونحوها(فما ظنكم) معناه ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في ذلك المقام أي لا يبقى منها شيئا إن أمكنه]

الْخِيَانَةِ؟هَلْ تَشُكُّونَ فِي هَذِهِ الْمُجَازَاةِ أَمْ لَا؟ يَعْنِي فَإِذَا عَلِمْتُمْ صِدْقَ مَا أَقُولُ فَاحْذَرُوا مِنَ الْخِيَانَةِ فِي نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ.وَقَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:أَيْ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ أَحَلَّهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ،وَخَصَّهُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ،فَرُبَّمَا يَكُونُ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْكَرَامَةِ.[٣٤٥٢]

٢٧-فضل إعانة المجاهدين وخدمتهم وإمدادهم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ،فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،إِنَّ مِنْ إِخْوَانِكُمْ قَوْمًا لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ وَلَا عَشِيرَةٌ،فَلْيَضُمَّ أَحَدُكُمْ إِلَيْهِ الرَّجُلَيْنِ أَوِ الثَّلَاثَةِ،فَمَا لِأَحَدِنَا مِنْ ظَهْرٍ يَحْمِلُهُ إِلَّا عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ»،يَعْنِي أَحَدِهِمْ،قَالَ:فَضَمَمْتُ إِلَيَّ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً،قَالَ:مَا لِي إِلَّا عُقْبَةٌ كَعُقْبَةِ أَحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي[٣٤٥٣]"

وعن بِلَالَ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ قَيْسٍ،وُشِيَ بِهِ إِلَى زِيَادٍ - وَقَالَ غَيْرُهُ:إِلَى ابْنِ عَامِرٍ - فَقِيلَ لَهُ:إِنَّ هَهُنَا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ:مَا إِبْرَاهِيمُ خَيْرٌ مِنْكَ،فَيَسْكُتُ،وَقَدْ تَرَكَ النِّسَاءَ،فَكَتَبَ فِيهِ إِلَى عُثْمَانَ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ:«أَنْ أَنْفِهِ إِلَى الشَّامِ عَلَى قَتَبٍ»،فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ أَرْسَلَ إِلَى عَامِرٍ،فَقَالَ:أَنْتَ الَّذِي قِيلَ لَكَ:مَا إِبْرَاهِيمُ خَيْرٌ مِنْكَ،فَتَسْكُتُ،فَقَالَ:أَمَا وَاللَّهِ مَا سُكُوتِي إِلَّا تَعَجُّبًا،لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غُبَارًا عَلَى قَدَمَيْهِ،فَدَخَلَ بِيَ الْجَنَّةَ قَالَ:وَلِمَ تَرَكْتَ النِّسَاءَ؟ قَالَ:وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا مَتَى تَكُونُ امْرَأَةٌ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ وَلَدٌ،وَمَتَى يَكُونُ وَلَدٌ تَشَعَّبَتِ الدُّنْيَا قَلْبِي،فَأَحْبَبْتُ التَّخَلِّيَ مِنْ ذَلِكَ،فَأَجْلَاهُ عَلَى قَتَبٍ إِلَى الشَّامِ،فَلَمَّا قَدِمَ أَنْزَلَهُ مُعَاوِيَةُ مَعَهُ الْخَضْرَاءَ،وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِجَارِيَةٍ،وَأَمَرَهَا أَنْ تُعْلِمَهُ مَا حَالُهُ؟ فَكَانَ يَخْرُجُ مِنَ السَّحَرِ،فَلَا تَرَاهُ إِلَّا بَعْدَ الْعَتَمَةِ،فَيَبْعَثُ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ بِطَعَامٍ،فَلَا يَعْرِضُ لِشَيْءٍ مِنْهُ،وَيَجِيءُ مَعَهُ بِكِسَرٍ،فَيَجْعَلُهَا فِي مَاءٍ،فَيَأْكُلُ مِنْهَا،وَيَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ،ثُمَّ يَقُومُ،فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُقَامَهُ حَتَّى يَسْمَعَ النِّدَاءَ فَيَخْرُجَ،فَلَا تَرَاهُ إِلَى مِثْلِهَا،فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عُثْمَانَ يَذْكُرُ لَهُ حَالَهُ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ:«أَنِ اجْعَلْهُ أَوَّلَ دَاخِلٍ،وَآخِرَ خَارِجٍ،وَمُرْ لَهُ بِعَشَرَةٍ مِنَ

[٣٤٥٢] - شرح النووي على مسلم (١٣/ ٤١) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦١)

[٣٤٥٣] - سنن أبي داود (٣/ ١٨)(٢٥٣٤) صحيح

عقبة:العقبة:النوبة والبدل،يقال:نحن نعتقب بعيرا:إذا كنت تركبه مرة،ويركبه رفيقك أخرى.

الرَّقيق،وَعَشَرَة منَ الظَّهْر»،فَلَمَّا أَتَى مُعَاوِيَةَ الْكتَابُ أَرْسَلَ إِلَيْه،فَقَالَ لَهُ:إِنَّ أَميرَ الْمُؤْمنينَ كَتَبَ إِلَيَّ:أَنْ آمُرَ لَكَ بعَشَرَة منَ الرَّقيق،فَقَالَ:إِنَّ عَلَيَّ شَيْطَانًا قَدْ غَلَبَني،فَكَيْفَ أَجْمَعُ عَلَيَّ عَشَرَةً؟ قَالَ:وَأَمَرَ لَكَ بعَشَرَة منَ الظَّهْر،قَالَ:إِنَّ لي لَبَغْلَةً وَاحدَةً،وَإِنِّي لَمُشْفقٌ أَنْ يَسْأَلَني اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،عَنْ فَضْلِ ظَهْرِهَا يَوْمَ الْقيَامَة،قَالَ:وَأَمَرَني أَنْ أَجْعَلَكَ أَوَّلَ دَاخلٍ،وَآخرَ خَارِجٍ،قَالَ:" لَا أَرَبَ لي في ذَلكَ،قَالَ:فَحَدَّثَ بلَالُ بْنُ سَعْد عَمَّا رَآهُ بأَرْضِ الرُّوم عَلَى بَغْلَته تلْكَ،يَرْكَبُهَا عُقْبَةً،وَيَحْملُ عَلَيْهَا الْمُهَاجرينَ عُقْبَةً،قَالَ:وَحَدَّثَنَا بلَالُ بْنُ سَعْد أَنَّ عَامرًا كَانَ إِذَا فَصَلَ غَازِيًا وَقَفَ يَتَوَسَّمُ الرِّفَاقَ،فَإِنْ رَأَى رفْقَةً تُوَافقُهُ قَالَ:يَا هَؤُلَاء،إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُوني منْ أَنْفُسكُمْ ثَلَاثَ خلَال،فَيَقُولُونَ:وَمَا هيَ؟ قَالَ:أَكُونُ لَكُمْ خَادمًا لَا يُنَازِعُني أَحَدٌ منْكُمُ الْخدْمَةَ،وَأَكُونُ مُؤَذِّنًا لَا يُنَازِعُني أَحَدٌ منْكُمُ الْأَذَانَ،وَأُنْفقُ عَلَيْكُمْ بقَدْرِ طَاقَتي؟ فَإِذَا قَالُوا لَهُ:نَعَمْ،انْضَمَّ إِلَيْهِمْ،وَإِنْ نَازَعَهُ أَحَدٌ منْهُمْ شَيْئًا منْ ذَلكَ،ارْتَحَلَ منْهُمْ إِلَى غَيْرِهمْ" [3454]

وعن بلَالَ بْنِ سَعْد عَمَّنْ رَأَى عَامرَ بْنَ عَبْد قَيْسٍ بأَرْضِ الرُّوم عَلَى بَغْلَة يَرْكَبُهَا عُقْبَةً،وَحَمَلَ الْمُهَاجرينَ عُقْبَةً،وَقَالَ بلَالُ بْنُ سَعْد،وَكَانَ إِذَا فَصَلَ غَازِيًا،وَقَفَ يَتَوَسَّمُ الرِّفَاقَ،فَإِذَا رَأَى رُفْقَةً تُوَافقُهُ قَالَ:يَا هَؤُلَاء،إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُوني منْ أَنْفُسكُمْ ثَلَاثَ خصَال.فَيَقُولُونَ:مَا هيَ؟ قَالَ:أَكُونُ لَكُمْ خَادمًا،لَا يُنَازِعُني أَحَدٌ منْكُمُ الْخدْمَةَ،وَأَكُونُ مُؤَذِّنًا لَا يُنَازِعُني أَحَدٌ منْكُمُ الْأَذَانَ،وَأُنْفقُ فيكُمْ بقَدْرِ طَاقَتي.فَإِذَا قَالُوا نَعَمْ،انْضَمَّ إِلَيْهِمْ،فَإِنْ نَازَعَهُ أَحَدٌ منْهُمْ شَيْئًا منْ ذَلكَ،رَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهمْ "[3455]

وعَنْ مُجَاهد،قَالَ:خَرَجْتُ إِلَى الْغَزْوِ فَشَيَّعَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا،فَلَمَّا أَرَادَ فرَاقَنَا قَالَ:إِنَّهُ لَيْسَ مَعي مَا أُعْطيكُمَاهُ،وَلَكنِّي سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:" إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُودعَ شَيْئًا حَفظَهُ"وَأَنَا أَسْتَوْدعُ اللهَ دينَكُمَا وَأَمَانَاتكُمَا وَخَوَاتيمَ أَعْمَالكُمَا [3456]

[3454] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٢٩٩)(٨٦٧) صحيح

[3455] - الجهاد لابن المبارك (ص:١٦١) (٢١٢) فيه مبهم

[3456] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٩١) (١٨٥٧٧) صحيح

وعَنْ مُجَاهِد،قَالَ:خَرَجْتُ إِلَى الْغَزْوِ أَنَا وَرَجُلٌ مَعِي،فَشَيَّعَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ،فَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَنَا قَالَ:إِنَّهُ لَيْسَ مَعِي مَالٌ أُعْطِيكُمَا،وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا اسْتُودِعَ اللهُ شَيْئًا حَفِظَهُ،وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكُمَا،وَأَمَانَتَكُمَا،وَخَوَاتِمَ عَمَلِكُمَا»[٣٤٥٧]

وكما يشيع الغازي كذلك يتلقاه المشيعون عند عودته؛روى البخاري وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:قَالَ السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصِّبْيَانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ»[٣٤٥٨].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّفَرِ،فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ،قَالَ:فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ،أَكْثَرُنَا ظِلًّا صَاحِبُ الْكِسَاءِ،وَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ،قَالَ:فَسَقَطَ الصُّوَّامُ،وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ،فَضَرَبُوا الْأَبْنِيَةَ وَسَقَوْا الرِّكَابَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ»[٣٤٥٩]

أَيْ بِالثَّوَابِ الْأَكْمَلِ لِأَنَّ الْإِفْطَارَ كَانَ فِي حَقِّهِمْ حِينَئِذٍ أَفْضَلَ،وَفِي ذِكْرِ الْيَوْمِ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ إِطْلَاقِ هَذَا الْحُكْمِ،وَقَالَ الطِّيبِيُّ:أَيْ أَنَّهُمْ مَضَوْا وَاسْتَصْحَبُوا الْأَجْرَ وَلَمْ يَتْرُكُوا لِغَيْرِهِمْ شَيْئًا مِنْهُ،عَلَى طَرِيقَةِ الْمُبَالَغَةِ يُقَالُ ذَهَبَ بِهِ إِذَا اسْتَصْحَبَهُ وَمَضَى بِهِ مَعَهُ اهـ يَعْنِي بِالْأَجْرِ كُلِّهِ أَوْ بِكُلِّ الْأَجْرِ مُبَالَغَةً،هَذَا وَمَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ مِنْ أَنَّهُ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} [البقرة:١٧] الْكَشَّافِ،يُقَالُ ذَهَبَ بِهِ إِذَا اسْتَصْحَبَهُ وَمَضَى

[٣٤٥٧] - السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٨٩) صحيح

[٣٤٥٨] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦)(٣٠٨٣)

[ش (نتلقى) نستقبله عند رجوعه من تبوك.(ثنية الوداع) التي من جهة تبوك في طريق الذاهب من المدينة إلى الشام وكانوا إذا ودعوا مسافرا خرجوا معه إليها والثنية الطريق في الجبل وقيل ما ارتفع من الأرض]

[٣٤٥٩] - صحيح مسلم (٢/ ٧٨٨)١٠٠ - (١١١٩)

[ش (فسقط الصوام) أي صاروا قاعدين في الأرض ساقطين عن الحركة ومباشرة حوائجهم لضعفهم بسبب صومهم (فضربوا الأبنية) أي نصبوا الأخبية وأقاموها على أوتاد مضروبة في الأرض (وسقوا الركاب) أي الرواحل وهي الإبل التي يسار عليها قال الفيومي والركاب بالكسر المطي الواحدة راحلة من غير لفظها (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) أي استصحبوه ومضوا به و لم يتركوا لغيرهم شيئا منه على طريق المبالغة]

مَعَهُ،وَهُوَ مَذْهَبُ الْمُبَرِّدِ غَيْرُ صَحِيحٍ فِي الْآيَةِ لِأَنَّ مَعْنَاهَا أَذْهَبَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلِاسْتِحَالَةِ الْمُضِيِّ وَالِاسْتِصْحَابِ مَعَ نُورِهِمْ فِي حَقِّهِ - تَعَالَى -[٣٤٦٠]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ،أَنَّ،نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدِمُوا يُثْنُونَ عَلَى صَاحِبٍ لَهُمْ خَيْرًا،قَالُوا:مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُلَانٍ قَطُّ،مَا كَانَ فِي مَسِيرٍ إِلَّا كَانَ فِي قِرَاءَةٍ،وَلَا كَانَ فِي مَنْزِلٍ إِلَّا كَانَ فِي صَلَاةٍ،قَالَ:«فَمَنْ كَانَ يَكْفِيهِ صَنْعَتَهُ؟...» حَتَّى ذَكَرَ:«وَمَنْ كَانَ يَعْلِفُ جَمَلَهُ أَوْ دَابَّتَهُ؟»،قَالُوا:نَحْنُ،قَالَ:«فَكُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ»[٣٤٦١]

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُرَافِقُ أَصْحَابَهُ فِي السَّفَرِ رِفْقًا،فَجَعَلَتْ رُفْقَةٌ مِنْهُمْ يَهْرِفُونَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ،إِنْ نَزَلَ فَصَلَاةٌ،وَإِنِ ارْتَحَلْنَا فَقِرَاءَةٌ وَصِيَامٌ لَا يُفْطِرُ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ كَانَ يَكْفِيهِ كَذَا».قَالُوا:نَحْنُ.قَالَ:«كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ»[٣٤٦٢]

وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي السَّفَرِ أَنْ يَخْدُمَهُمْ.وَصَحِبَ رَجُلٌ قَوْمًا فِي الْجِهَادِ،فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدُمَهُمْ،وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَغْسِلَ رَأْسَهُ أَوْ ثَوْبَهُ،قَالَ:هَذَا مِنْ شَرْطِي،فَيَفْعَلُهُ،فَمَاتَ فَجَرَّدُوهُ لِلْغُسْلِ،فَرَأَوْا عَلَى يَدِهِ مَكْتُوبًا:مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،فَنَظَرُوا،فَإِذَا هِيَ كِتَابَةٌ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ.[٣٤٦٣]

٢٨-فضل عمل المجاهد والمرابط من الصوم والصلاة:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا بَاعَدَ اللهُ،بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[٣٤٦٤]

[٣٤٦٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٠٢)

[٣٤٦١] - المراسيل لأبي داود (ص:٢٣٤)(٣٠٦) صحيح مرسل

[٣٤٦٢] - الجهاد لابن المبارك (ص:١٦٢)(٢١٤) صحيح مرسل

[٣٤٦٣] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٩٥)

[٣٤٦٤] - صحيح مسلم (٢/ ٨٠٨) ١٦٧ - (١١٥٣)

[ش (خريفا) الخريف السنة والمراد مسيرة سبعين سنة]

وكان كثير من السلف يصومون في الجهاد،ويقاتلون ولا يفطرون،احتساباً لذلك عند الله،وطلباً لمرضاته،ورغبته في جزيل ثوابه.ومن الأمثلة على ذلك:ما جاء عَنْ ثَابِت الْبُنَانِيِّ أَنَّ فَتًى غَزَا زَمَانًا،وَتَعَرَّضَ لِلشَّهَادَةِ،فَلَمْ يُصِبْهَا،فَحَدَّثَ نَفْسَهُ،فَقَالَ:وَاللَّه مَا أَرَانِي إِلَّا لَوْ قَفَلْتُ إِلَى أَهْلِي،فَتَزَوَّجْتُ قَالَ:ثُمَّ قَالَ فِي الْفُسْطَاطِ،ثُمَّ أَيْقَظَهُ أَصْحَابُهُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ قَالَ:فَبَكَى حَتَّى خَافَ أَصْحَابُهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ شَيْءٌ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ:إِنِّي لَيْسَ بِي بَأْسٌ،وَلَكِنَّهُ أَتَانِي آتٍ،وَأَنَا فِي الْمَنَامِ،فَقَالَ:انْطَلِقْ إِلَى زَوْجَتِكَ الْعَيْنَاءِ.قَالَ:فَقُمْتُ مَعَهُ،فَانْطَلَقَ بِي فِي أَرْضٍ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ،فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مَا رَأَيْتُ رَوْضَةً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا،فَإِذَا فِيهَا عَشْرُ جِوَارٍ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُنَّ قَطُّ،وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُنَّ،فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُنَّ.فَقُلْتُ:أَفِيكُنَّ الْعَيْنَاءُ؟ قُلْنَ:هِيَ بَيْنَ أَيْدِينَا،وَنَحْنُ جَوَارِيهَا قَالَ:فَمَضَيْتُ مَعَ صَاحِبِي فَإِذَا رَوْضَةٌ أُخْرَى يُضَعَّفُ حُسْنُهَا عَلَى حُسْنِ الَّتِي تَرَكْتُ،فِيهَا عِشْرُونَ جَارِيَةً،يُضَاعَفُ حُسْنُهُنَّ عَلَى حُسْنِ الْجَوَارِي اللَّاتِي خَلَّفْتُ،فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُنَّ،فَقُلْتُ:أَفِيكُنَّ الْعَيْنَاءُ؟ قُلْنَ:هِيَ بَيْنَ أَيْدِينَا،وَنَحْنُ جَوَارِيهَا.حَتَّى ذَكَرَ ثَلَاثِينَ جَارِيَةً قَالَ:ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى قُبَّةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ مُجَوَّفَةٍ،قَدْ أَضَاءَ لَهَا مَا حَوْلَهَا،فَقَالَ لِي صَاحِبِي:ادْخُلْ.فَدَخَلْتُ،فَإِذَا امْرَأَةٌ لَيْسَ لِلْقُبَّةِ مَعَهَا ضَوْءٌ،فَجَلَسْتُ،فَتَحَدَّثْتُ سَاعَةً،فَجَعَلَتْ تُحَدِّثُنِي،فَقَالَ صَاحِبِي:اخْرُجِ انْطَلِقْ.قَالَ:وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْصِيَهُ.قَالَ:فَقُمْتُ،فَأَخَذَتْ بِطَرْفِ رِدَائِي،فَقَالَتْ:أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ.فَلَمَّا أَيْقَظْتُمُونِي رَأَيْتُ أَنَّمَا هُوَ حُلْمٌ،فَبَكَيْتُ،فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ نُودِيَ فِي الْخَيْلِ قَالَ:فَرَكِبَ النَّاسُ،فَمَا زَالُوا يَتَطَارَدُونَ حَتَّى إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ،وَحَلَّ لِلصَّائِمِ الْإِفْطَارُ،أُصِيبَ تِلْكَ السَّاعَةَ،وَكَانَ صَائِمًا،وَظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنَ الْأَنْصَارِ،وَظَنَنْتُ أَنَّ ثَابِتًا كَانَ يَعْلَمُ نَسَبَهُ "[٣٤٦٥]

الله أكبر...إن عبادة المجاهد في سبيل الله مضاعفة إلى سبعمائة ضعف،إلى أضعاف كثرة،سواء كانت هذه العبادة صياماً أو صلاة أو قراءة للقران،أو ذكراً أو تسبيحاً واستغفاراً لله! [٣٤٦٦]

[٣٤٦٥] - الجهاد لابن المبارك (ص:١٢٣)(١٤٩)

[٣٤٦٦] - تهذيب مشارع العشاق (ص:٣٥)

٢٩-فضل الرباط في سبيل الله:

قال الله تعالى:{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥]

فَإِذَا انْقَضَتْ الأَشْهُرُ المُحَدَّدَةُ أَجَلاً لِلْمُشْرِكِينَ،وَالتِي حَرَّمَ اللهُ فِيهَا قِتَالَهُمْ،فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ،حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ فِي الأَرْضِ،وَأسُروهُمْ (خُذُوهُمْ)،فَإِنْ شِئْتُمْ أَسْراً،وَإِنْ شِئْتُمْ قَتْلاً،وَلاَ تَكْتَفُوا بِقِتَالِ مَنْ تُصَادِفُونَهُ مِنْهُمْ فِي طَرِيقِكُمْ،وَلَكِنِ اقْصُدُوهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ،وَحَاصِرُوهُمْ فِي حُصُونِهِمْ،وَامْنَعُوا خُرُوجَهُمْ وَانْفِلاَتَهُمْ،وَارْصُدُوا طُرُقَهُمْ وَمَسَالِكَهُمْ،حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الوَاسِعَ،وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى القَتْلِ أَوِ الإِسْلاَمِ.فَإِنْ تَابُوا عَنِ الشِّرْكِ وَأَسْلَمُوا،وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ،وَأَدُّوا الزَّكَاةَ،وَقَامُوا بِوَاجِبَاتِ الإِسْلاَمِ،فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ،وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (وَهَذِهِ الآيَةُ تُسَمَّى آيَةَ السَّيفِ إِذْ جَاءَ الأَمْرُ فِيهَا بِالقِتَالِ،وَكَانَ مُؤَجْلاً إِلَى أَنْ يَقْوَى المُسْلِمُونَ).[٣٤٦٧]

يقول تعالى {فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ} أي:التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين،وهي أشهر التسيير الأربعة،وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها،فقد برئت منهم الذمة.{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} في أي مكان وزمان،{وَخُذُوهُمْ} أسرى {وَاحْصُرُوهُمْ} أي:ضيقوا عليهم،فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه،التي جعلها [الله] معبدا لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلا لسكناها،ولا يستحقون منها شبرا،لأن الأرض أرض الله،وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله،المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه،ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} أي:كل ثنية وموضع يمرون عليه،ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك،ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

[٣٤٦٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤١،بترقيم الشاملة آليا)

ولهذا قال:{فَإِنْ تَابُوا} من شركهم {وَأَقَامُوا الصَّلاةَ} أي:أدوهـا بحقوقهـا {وَآتُـوا الزَّكَاةَ} لمستحقيها {فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} أي:اتركوهم،وليكونوا مثلكم،لهم ما لكم،وعليهم ما عليكم.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يغفر الشرك فما دونه،للتائبين،ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة،ثم قبولها منهم.وفي هذه الآية،دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة،فإنه يقاتـل حـتى يؤديهما،كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.[٣٤٦٨]

قال القرطبي:" قَوْلُهُ تَعَالَى:(فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) عَامٌّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ،لَكِنَّ السُّنَّةَ خَصَّتْ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ" الْبَقَرَةِ" مِنَ امْرَأَةٍ وَرَاهِبٍ وَصَبِيٍّ وَغَيْرِهِمْ.وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِـي أَهْلِ الْكِتَابِ:" حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ".إِلَّا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ الْمُشْرِكِينَ لَا يَتَنَاوَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ،وَيَقْتَضِي ذَلِكَ مَنْعَ أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَـانِ وَغَيْرِهِمْ،عَلَـى مَـا يَـأْتِي بَيَانُهُ.وَاعْلَمْ أَنَّ مُطْلَقَ قوله:" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ" يَقْتَضِي جَوَازَ قَتْلِهِمْ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ،إِلَّـا أَنَّ الْأَخْبَارَ وَرَدَتْ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُثْلَةِ.وَمَعَ هَذَا فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ حِينَ قَتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ بِالْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ،وَبِالْحِجَارَةِ وَبِالرَّمْيِ مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ،وَالتَّنْكِيسِ فِي الْآبَارِ،تَعَلَّقَ بِعُمُومِ الْآيَةِ.وَكَذَلِكَ إِحْرَاقُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَيْلًا إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ،وَاعْتِمَادًا عَلَى عُمُومِ اللَّفْظِ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءٌ:هِـيَ مَنْسُـوخَةٌ بِقَوْلِـهِ:" فَإِمَّـا مَنًّـا بَعْـدُ وَإِمَّـا فِدَاءً"[محمد:٤].وَأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ صَبْرًا،إِمَّا أَنْ يُمَنَّ عَلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يُفَادَى.وَقَالَ مُجَاهِـدٌ وَقَتَادَةُ:بَلْ هِيَ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:" فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الْأُسَـارَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا الْقَتْلُ.وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:الْآيَتَانِ مُحْكَمَتَانِ.وَهُوَ الصَّحِيحُ،لِأَنَّ الْمَنَّ وَالْقَتْلَ وَالْفِدَاءَ لَمْ يَزَلْ مِنْ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فيهم مِنْ أَوَّلِ حَرْبٍ حَارَبَهُمْ،وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ كما سبق.وقوله:(وَخُذُوهُمْ) يدل عليه.وَالْأَخْذُ هُوَ الْأَسْرُ.وَالْأَسْرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْقَتْلِ أَوِ الْفِدَاءِ أَوِ الْمَنِّ عَلَى مَا يَرَاهُ الامام.ومعنى (احْصُرُوهُمْ) يُرِيدُ عَنِ التَّصَرُّفِ إِلَى بِلَادِكُمْ وَالـدُّخُولِ إِلَيْكُمْ،إِلَّا أَنْ تَأْذَنُوا لَهُمْ فَيَدْخُلُوا إِلَيْكُمْ بِأَمَانٍ.

[٣٤٦٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) الْمَرْصَدُ:الْمَوْضِعُ الَّذِي يُرْقَبُ فِيهِ الْعَدُوُّ،يُقَالُ:رَصَدْتُ فُلَانًا أَرْصُدُهُ،أَيْ رَقَبْتُهُ.أَيِ اقْعُدُوا لَهُمْ فِي مَوَاضِعِ الْغِرَّةِ حَيْثُ يُرْصَدُونَ.وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اغْتِيَالِهِمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ."[٣٤٦٩]

أمر الله المسلمين – إذا انقضت الأشهر الأربعة – أن يقتلوا كل مشرك أنى وجدوه أو يأسروه أو يحصروه إذا تحصن منهم أو يقعدوا له مترصدين لا يدعونه يفلت أو يذهب – باستثناء من أمروا بالوفاء لهم إلى مدتهم – بدون أي إجراء آخر معه.ذلك أن المشركين أنذروا وأمهلوا وقتا كافيا فهم إذن لا يقتلون غدرا،ولا يؤخذون بغتة،وقد نبذت لهم عهودهم،وعلموا سلفا ما ينتظرهم.

غير أنها لم تكن حملة إبادة ولا انتقام..إنما كانت حملة إنذار ودفع إلى الإسلام:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ،إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

لقد كانت هنالك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم،ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم..ثم من سماحة لهذا الدين.ورسوله وأهله معهم..وإنه لتاريخ طويل..ومع هذا كله فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعية فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا..كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله،والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه.وذلك أن الله لا يرد تائبا مهما تكن خطاياه:..«إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

ولا نحب أن ندخل هنا في الجدل الفقهي الطويل الذي تعرضت له كتب التفسير وكتب الفقه حول هذا النص:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»..

وعما إذا كانت هذه شرائط الإسلام التي يكفر تاركها؟ ومتى يكفر؟ وعما إذا كان يكتفى بها من التائب دون بقية أركان الإسلام المعروفة؟..إلخ فما نحسب أن هذه الآية بصدد شيء من هذا كله.إنما هو نص كان يواجه واقعا في مشركي الجزيرة يومذاك.فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإسلام كله،ويعني

[٣٤٦٩] – تفسير القرطبي (٨/ ٧٢)

استسلامه له ودخوله فيه.فنصت الآية على التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة،لأنـــه مـــا كان ليفعل هذا منهم في ذلك الحين إلا من نوى الإسلام وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه.وفي أولها الدينونة لله وحده بشهادة أن لا إله إلا الله،والاعتراف برسالة محمد – ﷺ – بشهادة أن محمدا رسول الله.[٣٤٧٠]

ثواب الصابرين المحتسبين:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـــونَ } [آل عمران:٢٠٠]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلمينَ أنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الذي ارْتَضَاهُ اللهُ لَهُمْ،وَهُوَ الإسْـــلاَمُ،فَلاَ يَدَعُونَهُ لِشِدَّةٍ ولاَ لِرَخَاءٍ،حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ.وَالْمُرَابَطَةِ هِيَ الْمَرَابَطَةِ فِي الثُّغُـــورِ لِلْغَـــزْوِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ"رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الـــدُّنيا وَمَا عَلَيهَا ".[٣٤٧١]

إنه النداء العلوي للذين آمنوا.نداؤهم بالصفة التي تربطهم بمصدر النداء.والتي تلقي عليهم هذه الأعباء.

والتي تؤهلهم للنداء وتؤهلهم للأعباء،وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السماء:«يـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».النداء لهم.للصبر والمصابرة،والمرابطة،والتقوى..

وسياق السورة حافل بذكر الصـــبر وبـــذكر التقـــوى..يـــذكران مفردين،ويـــذكران مجتمعين..وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفـــع الكيـــد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلـــة،ومن ثم تخـــتم الســـورة بالـــدعوة إلى الصـــبر والمصابرة،وإلى المرابطة والتقوى،فيكون هذا أنسب ختام.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة.إنـــه طريـــق طويـــل شـــاق،حافل بالعقبـــات والأشواك،مفروش بالدماء والأشلاء،وبالإيذاء والابتلاء..الصبر على أشياء كثيرة:الصـــبر

[٣٤٧٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٧٥)

[٣٤٧١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

على شهوات النفس ورغائبها،وأطماعها ومطامحها،وضعفها ونقصها،وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم،وانحراف طباعهم،وأثرتهم،وغرورهم،والتوائهم،واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل،ووقاحة الطغيان،وانتفاش الشر،وغلبة الشهوة،وتصعير الغرور والخيلاء!

والصبر على قلة الناصر،وضعف المعين،وطول الطريق،ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق!

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله،وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة.من الألم والغيظ،والحنق،والضيق،وضعف الثقة أحيانا في الخير،وقلة الرجاء أحيانا في الفطرة البشرية والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط!

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة،واستقبال الرخاء في تواضع وشكر،وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام،وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء!

والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله،واستسلام لقدره،ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع..

والصبر على هذا كله – وعلى مثله – مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل..لا تصوره حقيقة الكلمات.

فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة.إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي.فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء.كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه..

والمصابرة..وهي مفاعلة من الصبر..مصابرة هذه المشاعر كلها،ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين..مصابرتها ومصابرتهم،فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة.

بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى:أعدائهم من كوامن الصدور،وأعدائهم من شـــرار الناس سواء.

فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم،يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصـــبر،والدفع بالدفع،والجهد بالجهد،والإصرار بالإصرار..ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء.وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق،فما أجدر الحـــق أن يكون أشد إصرارا وأعظم صبرا على المضي في الطريق! والمرابطة..الإقامـــة في مواقـــع الجهاد،وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء..وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونهـــا أبدا،ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعـــداؤها قط،منـــذ أن نوديـــت لحمـــل أعبـــاء الدعوة،والتعرض بها للناس.وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكـــان ومـــا تستغني عن المرابطة للجهاد،حيثما كانت إلى آخر الزمان! إن هذه الدعوة تواجه النـــاس بمنهج حياة واقعي.منهج يتحكم في ضمائرهم،كما يتحكم في أموالهم،كما يـــتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم.منهج خير عادل مستقيم.ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخـــير العادل المستقيم والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة والطغيـــان لا يســـلم للعـــدل والمساواة والكرامة..ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء مـــن أصـــحاب الشـــر والباطـــل والطغيان.ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاســـتنفاع والاستغلال.وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عـــن الطغيـــان والاستكبار.وينهد لحربها المستهترون المنحلون،لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحـــلال والشهوات..ولا بد من مجاهدتهم جميعا.ولا بد من الصبر والمصابرة.ولا بد من المرابطـــة والحراسة.كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين،الـــدائمين في كـــل أرض وفي كل جيل..

هذه طبيعة هذه الدعوة،وهذا طريقها..إنها لا تريد أن تعتدي ولكن تريـــد أن تقـــيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم..وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنـــهج وهـــذا النظام.ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد.ومن يتربص بها الدوائر.ومن يحاربهـــا باليـــد

والقلب واللسان..ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها،ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!

والتقوى..التقوى تصاحب هذا كله.فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ويحرسه أن يضعف ويحرسه أن يعتدي ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك.

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ،إلا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات..

إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات.وهو جماعها كلها،وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها..ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار:«لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».وصدق الله العظيم..[٣٤٧٢]

ونقل ابن رشد في كتابه "المقدمات" عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال:(فرض الله الجهاد لسفك دماء المشركين،وفرض الرباط لحقن دماء المسلمين،وحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين)[٣٤٧٣].

واعلم أن الرباط أحد شعب الإيمان وموجبات الغفران.

ومن فضائل الرباط:

أولاً:رباط يومٍ خير من الدنيا وما عليها:روى البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا،وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا،وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»[٣٤٧٤].

ثانياً:رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه،ورباط شهر خير من صيام دهر:روى مسلم عَنْ سَلْمَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ

[٣٤٧٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٧٠)

[٣٤٧٣] - المقدمات لابن رشد:١/ ٢٧٥

[٣٤٧٤] - صحيح البخاري (٤/ ٣٥) (٢٨٩٢)

وَقِيَامِهِ،وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ،وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ،وَأَمِنَ الْفَتَّانَ» [٣٤٧٥].

ثالثاً:ينقطع عمل الميت إذا مات،إلا المرابط،فإنه إذا مات في رباطه يجري عليه أجر عمله الصالح من الرباط وغيره إلى يوم القيامة:

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ» [٣٤٧٦].

وهذا يدل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت.

ولا شك أن هناك أعمال أخرى يبقى ثوابها بعد موت صاحبها ومنها؛الصدقة الجارية،والعلم المنتفع به،والوالد الصالح الذي يدعوا لأبويه،ولكن ثوابها ينقطع بنفادها،ينقطع بنفاد الصدقة الجارية،وذهاب العلم،وموت الولد.

أما الرباط فإنه يضاعف أجره إلى يوم القيامة.

رابعاً:إذا مات المرابط في رباطه بعثه الله آمنا من الفزع الأكبر يوم القيامة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ،قَالَ:«مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُجْرِيَ عَلَيْهِ أَجْرُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ،وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ،وَأُومِنَ مِنَ الْفَتَّانِ،وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ» [٣٤٧٧].

خامساً:إذا مات المرابط في رباطه بعثه الله يوم القيامة شهيداً:

[٣٤٧٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٠) ١٦٣ - (١٩١٣)

[ش (رباط) أصل الرباط ما تربط به الخيل ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمن خلفه رباط(وأمن الفتان) ضبطوا أمن بوجهين أحدهما أمن بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو والثاني أومن بضم الهمزة وبواو وأما الفتان فقال القاضي رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن قال ورواية الطبري بالفتح]

[٣٤٧٦] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٩٦)(٧٤٦٣) صحيح

[٣٤٧٧] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٩٦) (٧٤٦٥) صحيح

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا وُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَأُومِنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَغُدِيَ عَلَيْهِ وَرِيحَ بِرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُرَابِطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣٤٧٨].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ الْغَازِيِّ قَالَ:أَخْبَرَنِي مَكْحُولٌ أَنَّ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ،كَانَ مُرَابِطًا بِأَرْضِ فَارِسَ،فَمَرَّ بِهِ سَلْمَانُ،فَقَالَ:مَا لَكَ هَهُنَا؟ قَالَ:قَدِمْتُ مُرَابِطًا.قَالَ:أَفَلَا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَكُونُ لَكَ عَوْنًا عَلَى رِبَاطِكَ؟ قَالَ:قُلْتُ بَلَى رَحِمَكَ اللَّهُ.قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ،وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أُجِيرَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ،وَجَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣٤٧٩]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُسَيْطٍ،وَصَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ،قَالَا:مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا مَاتَ شَهِيدًا.[٣٤٨٠]

ويبعث الله المرابط الذي مات في الرباط شهيداً،لأنه هو الذي طلب الشهادة وتوجه إليها بصدق،ولكن لم يقدر له أن يموت في الدنيا شهيداً،فيبعثه يوم القيامة شهيداً.

سادساً:للمرابط في سبيل الله أجر من خلفه من ورائه:

روى الطبراني عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَجْرِ الرِّبَاطِ،فَقَالَ:«مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً حَارِسًا مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَلْفَهُ مِمَّنْ صَامَ وَصَلَّى»[٣٤٨١].

سابعاً:رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل:

عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبُو صَالِحٍ،مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ:سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ»[٣٤٨٢].

[٣٤٧٨] - السنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٦٠١)(١٤٣٣) حسن

[٣٤٧٩] - الجهاد لابن المبارك (ص:١٤٦) (١٨٢) صحيح لغيره

[٣٤٨٠] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٧٤)(١١٩١) صحيح مرسل

[٣٤٨١] - المعجم الأوسط (٨/ ٩٠)(٨٠٥٩) وسنده جيد

[٣٤٨٢] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٣٠٠)(٤٣٦٣) صحيح

وفي هذا الحديث دليل واضح على أن إقامة المرابط يوماً واحداً بأرض الرباط على الثغور،أفضل من الإقامة ألف يوم فيما سواه من المنازل،ولو كانت مكة أو المدينة أو بيت المقدس! ولهذا خرج من مكة والمدينة الصحابة والتابعون للجهاد في سبيل الله،وتركوا الإقامة والمجاورة في الحرمين الشريفين،ونزلوا بسواحل الشام مرابطين،إلى أن ماتوا مرابطين،أو لقوا الله شهداء!

سابعاً إذا بعد عليكم الغزو فعليكم بالرباط:

عَنْ عُتْبَةَ بْنِ النُّدَّرِ السُّلَمِيُّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺقَالَ:«إِذَا انْتَاطَ غَزْوُكُمْ وَكَثُرَتِ الْعَزَائِمُ * وَاسْتُحِلَّتِ الْغَنَائِمُ فَخَيْرُ جِهَادِكُمُ الرِّبَاطُ»[٣٤٨٣]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،قَالَ:حدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ وَجُبَيْرَ بْنَ نُفَيْرٍ يَقُولاَنِ:يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ أَفْضَلُ الْجِهَادِ الرِّبَاطُ،فَقُلْت:وَمَا ذَلِكَ ؟ قَالَ:إِذَا انْطَاطَ الْغَزْوُ وَكَثُرَتِ الْغَرَائِمُ وَاسْتُحِلَّتِ الْغَنَائِمُ فَأَفْضَلُ الْجِهَادُ يَوْمئِذٍ الرِّبَاطُ.[٣٤٨٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ،ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَكُونُ إِمَارَةً وَرَحْمَةً،ثُمَّ يَتَكَادَمُونَ عَلَيْهِ تَكادُمَ الْحُمُرِ فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ،وَإِنَّ أَفْضَلَ جِهادِكُمُ الرِّبَاطُ،وَإِنَّ أَفْضَلَ رِباطِكُمْ عَسْقَلَانُ»[٣٤٨٥].

معنى الرباط ومدته:

المرابط في سبيل الله من خير الناس،والرباط والجهاد من أفضل الأعمال.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ الله ﷺ،أَنَّهُ قَالَ:«مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ،رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ،كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً،أَوْ فَزْعَةً طَارَ

[٣٤٨٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١٩٥)(٤٨٥٦) صحيح لغيره

"انتاط غزوكم" :بعُدت مواضع الغزو ."العزائم" :عزمات الأمراء على الناس فى الغزو إلى الأقطار النائية ."واستحلت الغنائم" :استحل أئمة الجور ونوابهم الاستئثار بالغنائم."الرباط" :الإقامة فى الثغور .

[٣٤٨٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣١٥)(١٩٨٠٧) صحيح موقوف ومثله لا يقال بالرأي

[٣٤٨٥] - المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٨٨)(١١١٣٨) صحيح لغيره

يَتَكادَمُونَ أَيْ:يَعَضُّ بعضهم بعضا.-الرّباط:الإقامة على جهَاد العَدوّ بالحرب،وارْتباط الخيل وإعْدَادها.- عسقلان:مدينة من مدن فلسطين ، تقع على الساحل الغربي ، بالقرب من قطاع غزة.

عَلَيْهِ،يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ،أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ،أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ،يُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ،لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»[٣٤٨٦].

وعَنْ بَعْجَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ،يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ خَيْرُهُمْ فِيهِ رَجُلٌ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً اسْتَوَى عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ،ثُمَّ طَلَبَ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ،أَوْ رَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَابِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَاعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ»[٣٤٨٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّهُ كَانَ فِي الرِّبَاطِ،فَفَزِعُوا إِلَى السَّاحِلِ،ثُمَّ قِيلَ:لَا بَأْسَ،فَانْصَرَفَ النَّاسُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَاقِفٌ،فَمَرَّ بِهِ إِنْسَانٌ،فَقَالَ:مَا يُوقِفُكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ»[٣٤٨٨].

والرباط المطلوب:عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر،يتوقع فيه نزول العدو،وذلك بنية الجهاد أو الحراسة،أو تكثير سواد من فيه من المسلمين.وكلما كان الخوف أشد في مكان،كان الرباط فيه أفضل،والثواب أجزل،سواء كان ذلك المكان ساحل بحرٍ أو غيره[٣٤٨٩]..

٣٠- فضل الحراسة في سبيل الله:

قال تعالى:{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ

[٣٤٨٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٣) ١٢٥ - (١٨٨٩)

[ش (معاش الناس) المعاش هو العيش وهو الحياة وتقديره والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك (ممسك عنان فرسه) أي متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله(يطير على متنه) أي يسرع جدا على ظهره حتى كأنه يطير(هيعة) الصوت عند حضور العدو(أو فزعة) النهوض إلى العدو(يبتغي القتل والموت مظانه) يعني يطلبه من مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة(غنيمة) تصغير غنم أي قطعة منها(شعفة) أعلى الجبل]

[٣٤٨٧] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٧٤) (٧٣٨٢) صحيح

[٣٤٨٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٦٣)(٤٦٠٣) صحيح

[٣٤٨٩] - تهذيب مشارع العشاق (ص:٣٩)

وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء:١٠٢]

وإذا كنت -أيها النبي- في ساحة القتال،فأردت أن تصلي بهم،فلتقم جماعة منهم معك للصلاة،وليأخذوا سلاحهم،فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم،وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويُسلِّمون،ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتموا بك في ركعتهم الأولى،ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية،وليحذروا من عدوهم وليأخذوا أسلحتهم.ودَّ الجاحدون لدين الله أن تغفُلوا عن سلاحكم وزادكم؛ ليحملوا عليكم حملة واحلة فيقضوا عليكم،ولا إثم عليكم حينئذ إن كان بكم أذى من مطر،أو كنتم في حال مرض،أن تتركوا أسلحتكم،مع أخذ الحذر.إن الله تعالى أعدَّ للجاحدين لدينه عذابًا يهينهم،ويخزيهم.[٣٤٩٠]

وقال تعالى:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) } [التوبة:١٢٠ - ١٢١]

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ،عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ،وَإِيثَارِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ وَيَخُصُّ بالعِتَابِ أَهْلَ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ،فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الأَجْرِ،لأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ وَلاَ تَعَبٌ وَلاَ مَجَاعَةٌ (مَخْمَصَةٌ)،وَلاَ يَنْزِلُونَ مَنْزِلاً يُرْهِبُ الكُفَّارَ،وَيَغِيظُهُمْ،وَلاَ يُحَقِّقُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ظَفَراً وَغَلَبَةً..إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهذِهِ الأَعْمَالِ،ثَوَابَ عَمَلٍ صَالِحٍ جَزِيلٍ،وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.[٣٤٩١]

[٣٤٩٠] - التفسير الميسر (١/ ٩٥)

[٣٤٩١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَالدِّرْهَمِ،وَالقَطِيفَةِ،وَالخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»،لَمْ يَرْفَعْهُ إِسْرَائِيلُ،وَمُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ،وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ،وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ،إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ،وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ،تَعِسَ وَانْتَكَسَ،وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ،طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَشْعَثَ رَأْسُهُ،مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ،إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ،إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»،وَقَالَ:فَتَعْسًا:كَأَنَّهُ يَقُولُ:فَأَتْعَسَهُمُ اللَّهُ،طُوبَى:فُعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ،وَهِيَ يَاءٌ حُوِّلَتْ إِلَى الوَاوِ وَهِيَ مِنْ يَطِيبُ "[3492].

واعلم أن الحراسة في سبيل الله من أعظم القربات،وأعلى الطاعات،وهي أفضل أنواع الرباط،وكل من حرس المسلمين في موضع يخشى عليهم فيه من العدو،فهو مرابط.

وللحراسة فضائل عديدة كثيرة،منها:

أولاً:النار لا تمس عيناً حرست في سبيل الله:

روى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:" عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ:عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ،وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "[3493].

ثانياً:شهادة رسول الله ﷺ لمن حرس في سبيل الله أنه من أهل الجنة:

[3492] - صحيح البخاري (4/ 34)(2886)

[ش (تعس) سقط على وجهه أو شقي وهلك.(عبد الدينار) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.(القطيفة) دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار والشعار ما لامس الجسد من الثياب.(الخميصة) كساء أسود مربع له خطوط.(أعطي) من المال.(رضي) عن الله تعالى وعمل العمل الصالح.(انتكس) انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.(شيك) أصابته شوكة.(فلا انتقش) فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه.(طوبى) من الطيب أي كانت له حياة طيبة وجزاء طيب.(بعنان) لجام.(أشعث) متفرق الشعر غير مسرح.(إن كان في الحراسة) جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.(كان في الحراسة) قام بها راضيا.(الساقة) مؤخرة الجيش.(تعسا) اللفظ من / محمد 8 /.(طوبى) اللفظ من / الرعد 29 /.وقيل هو اسم للجنة]

[3493] - سنن الترمذي ت شاكر (4/ 175)(1639) صحيح

عَنْ سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ،أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ،فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ،حَتَّى كَانَ عَشِيَّةً،فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَجَاءَهُ فَارِسٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي اطَّلَعْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا،فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ،بِظُعُنِهِمْ،وَنَعَمِهِمْ،وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا فِي وَادِي حُنَيْنٍ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ» [ص:٤٢١] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟» فَقَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«ارْكَبْ» فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ،فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ فِي أَعْلَاهُ،وَلَا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ» [ص:٤٢٢].فَلَمَّا أَصْبَحْتُ،خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ،فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:«هَلْ حَسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ؟» فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَسَسْنَاهُ،فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ،فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ،قَالَ:«سِيرُوا فَقَدْ جَاءَ فَارِسُكُمْ» [ص:٤٢٣].فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى خِلَالِ الشَّجَرِ فِي الشِّعْبِ،فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى،وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَسَلَّمَ فَقَالَ:إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلْتَاهُمَا فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَنَزَلْتَ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ:لَا إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيَ حَاجَةٍ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ أَوْجَبْتَ،فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَ هَذَا»[٣٤٩٤]

أَيْ:بَعْدَ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِي فَعَلْتَهَا،فَإِنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَكَ فَضِيلَةٌ كَافِيَةٌ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ.وَفِيهِ بِشَارَةٌ مِنْهُ - ﷺ - بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ انْتَهَى.وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ النَّظَرِ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ،أَيْ:لَا بَأْسَ عَلَيْكَ بِأَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْمِيرَاثِ وَالْخَيْرَاتِ،فَإِنَّ عَمَلَكَ اللَّيْلَةَ كَافِيَةٌ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ مَثُوبَةً وَفَضِيلَةً،وَأَرَادَ النَّوَافِلَ وَالتَّبَرُّعَاتِ

[٣٤٩٤] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٤٢٠)(١٤٩) صحيح

بكرة أبيهم:يقال:جاء القوم على بكرة أبيهم:إذا جاؤوا بأسرهم و لم يتخلف منهم أحد.-فثُوِّب:ثَوَّب بالصلاة:نادى إليها،وأقامها.-قد أوجبتَ:يقال:أوجبَ فلان:إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار،والمراد به هاهنا:الجنة.-ونَعَمهم:والنَّعَم في الأصل:الإبل،وقد تقع على البقر،والغنم.

مِنَ الْأَعْمَالِ لَا الْفَرَائِضَ،فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَسْقُطُ،وَيُمْكِنُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى مَا عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِ الْجِهَادِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ جُبْرَانًا لِقَلْبِهِ وَتَسْلِيَةً لَهُ.[٣٤٩٥].

ثالثاً:حراسة ليلة في موضع يخاف فيه على نفسه أفضل من ليلة القدر:

روى البيهقي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِلَيْلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ حَارِسٌ حَرَسَ فِي أَرْضِ خَوْفٍ لَعَلَّهُ أَنْ لَا يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ ".[٣٤٩٦].

رابعاً:حراسة ليلة أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ،أَصَابَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ امْرَأَةَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَافِلًا أَتَى زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا،فَلَمَّا أُخْبِرَ حَلَفَ لَا يَنْتَهِي حَتَّى يُهْرِيقَ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ دَمًا،فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْزِلًا،فَقَالَ:«مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟ » فَانْتُدِبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ،قَالَا:نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ ﷺ:«فَكُونَا بِ فَمِ الشِّعْبِ»،قَالَ:وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنَ الْوَادِي،فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ،قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ:أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيَكَ،أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟،قَالَ:اكْفِنِي أَوَّلَهُ،قَالَ:فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ،وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي،وَأَتَى زَوْجُ الْمَرْأَةِ،فَلَمَّا رَأَى شَخَصَ الرَّجُلِ،عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ،فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ،فَوَضَعَهُ فِيهِ،فَنَزَعَهُ،فَوَضَعَهُ،وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي،ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ،فَوَضَعَهُ فِيهِ،فَنَزَعَهُ،وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي،ثُمَّ عَادَ لَهُ الثَّالِثَةَ،فَوَضَعَهُ فِيهِ،فَنَزَعَهُ،فَوَضَعَهُ،ثُمَّ رَكَعَ فَسَجَدَ،ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ وَقَالَ:اجْلِسْ،فَقَدْ أُتِيتُ،فَوَثَبَ،فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ نَذِرَ بِهِ،هَرَبَ،فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ،قَالَ:سُبْحَانَ اللَّهِ،أَفَلَا أَهْبَبْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ؟،قَالَ:كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا،فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا،فَلَمَّا تَابَعَ عَلَيَّ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَآذَنْتُكَ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ،لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا[٣٤٩٧].

[٣٤٩٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٨٢٦)

[٣٤٩٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٥١)(١٨٤٤٤) صحيح

[٣٤٩٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ٣٧٥)(١٠٩٦) حسن

والمراد بقوله:(فأصاب رجل من المسلمين امرأة رجل من المشركين) المراد أنه قتلها،ذكر ذلك صاحب عون المعبود،وليس المقصود أنه أخذها سبية وجامعها؛لأنه لا بد أن يستبرئها بحيضة ثم يصيبها.[٣٤٩٨]

٣١- فضل الخوف في الجهاد في سبيل الله:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ،إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ،وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،تُخْفِقُ وَتُصَابُ،إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ»[٣٤٩٩]

"قَالَ الْقَاضِي:وَالْمَعْنَى مَنْ غَزَا فِي نَفْسِهِ بِقَتْلٍ،أَوْ جُرْحٍ وَلَمْ يُصَادِفْ غَنِيمَةً فَأَجْرُهُ بَاقٍ بِكَمَالِهِ لَمْ يَسْتَوْفِ مِنْهُ شَيْئًا فَيُوَفَّرُ عَلَيْهِ بِتَمَامِهِ فِي الْآخِرَةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَلَفْظُ تَعَجَّلُوا يَسْتَدْعِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ غَازٍ فِي نَزَوَاتِهِ ثَوَابٌ،فَمَنْ أَصَابَ السَّلَامَةَ وَالْغَنِيمَةَ اسْتَوْفَى ثُلُثَيْ ثَوَابِهِ فِي الدُّنْيَا بَدَلَ مَا كَانَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ،وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَجَّلَ وَمَنْ لَمْ يَغْنَمْ وَقُتِلَ أَتَمَّ أَجْرَهُ حَيْثُ لَمْ يَتَعَجَّلْ بِشَيْءٍ بَقِيَ قِسْمَانِ مِنْ سَلَمٍ،وَأَخْفَقَ فَقَدْ تَعَجَّلَ بِثُلُثِهِ وَبَقِيَ لَهُ ثُلُثَانِ فِي الْآخِرَةِ،وَمَنْ رَجَعَ مَجْرُوحًا يُقَسَّمُ عَلَى هَذَا التَّقْسِيمِ بِحَسَبِ جُرْحِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ اهـ.

"أهبَّ" بتشديد الباء،أي:أيقظ."نذروا به" بفتح نون وكسر ذال معجمة،أي:شعروا به وعلموا بمكانه.

[٣٤٩٨] - شرح صحيح ابن خزيمة - الراجحي (٣/ ٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٤٩٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)١٥٤ - (١٩٠٦)

[ش (تخفق) قال أهل اللغة الإخفاق أن يغزوا فلا يغنموا شيئا وكذلك كل طالب حاجة إذا لم تحصل فقد أخفق ومنه أخفق الصائد إذا لم يقع له صيد وأما معنى الحديث فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم و لم يغنم وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجروهذا موافق للأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة كقوله منا من مات و لم يأكل من أجره شيئا ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها أي يجتنيهافهذا هو الذي ذكرنا هو الصواب وهو ظاهر الأحاديث و لم يأت حديث صريح صحيح يخالف هذا فتعين حمله على ما ذكرناوقد اختار القاضي عياض معنى هذا الذي ذكرناه بعد حكايته في تفسيره أقوالا فاسدة]

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالرُّجُوعِ سَالِمًا رُجُوعَهُ حَيًّا،فَلَا يَحْتَاجُ إِذًا إِلَى التَّقْسِيمِ بِحَسَبِ الْجِرَاحَةِ.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:الْغَازِي إِذَا أَصَابَ غَنِيمَةً وَسَلِمَ،فَقَدْ أَصَابَهُ شَيْئَانِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْغَزْوِ،وَبَقِيَ لَهُ دُخُولُ الْجَنَّةِ،فَصَحَّ أَنَّهُ قَدْ تَعَجَّلَ ثُلُثَيِ الْأَجْرِ،فَعَلَى هَذَا تَكُونُ سَلَامَةُ النَّفْسِ وَحُصُولُ الْمَغْنَمِ مِنْ أَجْزَاءِ أَجْرِ الْغَزْوِ اه.وَفِي كَوْنِ السَّلَامَةِ مِنْ أَجْزَاءِ الثَّوَابِ مَحَلُّ بَحْثٍ،اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ قَصْدُ الْغَازِي فِي مَسِيرِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:إِمَّا الشَّهَادَةُ،وَإِمَّا الْغَنِيمَةُ،وَإِمَّا السَّلَامَةُ فَقَطْ،فَقَوْلُهُ وَتَسْلَمُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَغْنَمُ قَيْدٌ وَاقِعِيٌّ يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِهِ وَجُودُهُ"[3500]

٣٢- فضل الصف في سبيل الله والقيام به:

قال الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}[الصف:٤]

قَالَ الْمُؤْمِنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ لَعَمِلْنَاهُ،فَدَلَّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ إِلَى أَحَبِّ الأَعْمَالِ إليه،فَبَيَّنَ لَهُمْ:أَنَّهُ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الذينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَتِهِ أَنْ يَقِفُوا أَثْنَاءَ القِتَالِ صَفّاً،لاَ فُرْجَةَ بَيْنَهُمْ،وَكَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَشْدُودٌ مَرْصُوصٌ،مُتَلاَحِمُ الأَجْزَاءِ،لأَنَّ هَذَا التَّرَاصَّ أَثْنَاءَ القِتَالِ يُقَوِّي مَعْنَوِيّاتِ الجُنْدِ،وَلاَ يَتْرُكُ لِلْعَدُوِّ فُرْجَةً بَيْنَ صُفُوفِهِمْ يَنْفُذُ مِنْهَا[3501].

هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي [لهم] أن يصفوا في الجهاد صفا متراصا متساويا،من غير خلل يقع في الصفوف،وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضا،ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال،صف أصحابه،ورتبهم في مواقفهم،بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض،بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها،وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.[3502]

[3500] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٩)

[3501] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٤٥،بترقيم الشاملة آليا)

[3502] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٥٨)

وَمَعْنَى الْآيَةِ:يُحِبُّ مَنْ يَثْبُتُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَلْزَمُ مَكَانَهُ كَثُبُوتِ الْبِنَاءِ.وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ يَكُونُونَ عِنْدَ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ.وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ بِهَذَا عَلَى أَنَّ قِتَالَ الرَّاجِلِ أَفْضَلُ مِنْ قِتَالِ الْفَارِسِ،لِأَنَّ الْفُرْسَانَ لَا يَصْطَفُّونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.الْمَهْدَوِيُّ:وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ،لِمَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَارِسِ فِي الْأَجْرِ وَالْغَنِيمَةِ.وَلَا يَخْرُجُ الْفُرْسَانُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ،لِأَنَّ مَعْنَاهُ الثَّبَاتُ.ولَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَنِ الصَّفِّ إِلَّا لِحَاجَةٍ تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ،أَوْ فِي رِسَالَةٍ يُرْسِلُهَا الْإِمَامُ،أَوْ فِي مَنْفَعَةٍ تَظْهَرُ فِي الْمَقَامِ،كَفُرْصَةٍ تُنْتَهَزُ وَلَا خِلَافَ فِيهَا.وَفِي الْخُرُوجِ عَنِ الصَّفِّ لِلْمُبَارَزَةِ خِلَافٌ عَلَى قَوْلَيْنِ أَحَدهمَا:أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ إِرْهَابًا لِلْعَدُوِّ،وَطَلَبًا لِلشَّهَادَةِ وَتَحْرِيضًا عَلَى الْقِتَالِ.وَقَالَ أَصْحَابُنَا:لَا يَبْرُزُ أَحَدٌ طَالِبًا لِذَلِكَ،لِأَنَّ فِيهِ رِيَاءً وَخُرُوجًا إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ.وَإِنَّمَا تَكُونُ الْمُبَارَزَةُ إِذَا طَلَبَهَا الْكَافِرُ،كَمَا كَانَتْ فِي حُرُوبِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَفِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ،وَعَلَيْهِ دَرَجَ السَّلَفُ.[3503]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ،قَالَ:قَعَدْنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،فَقُلْنَا:" لَوْ نَعْلَمُ:أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمِلْنَاهُ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}.إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَكَذَا."[3504].

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيَّ،أَخْبَرَهُ:أَنَّهُمْ حَاصَرُوا دِمَشْقَ،فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ،فَأَسْرَعَ إِلَى الْعَدُوِّ وَحْدَهُ [ص:١٠٦] يَسْتَقْبِلُ،فَعَابَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،وَرَفَعُوا حَدِيثَهُ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،وَهُوَ جُنْدٌ مِنَ الْأَجْنَادِ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَمْرٌو،فَرَدَّهُ،وَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤] وَقَالَ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥][3505]

[3503] - تفسير القرطبي (١٨/ ٨١)

[3504] - شعب الإيمان (٦/ ٧٩)(٣٩٠٧) صحيح

[3505] - شرح مشكل الآثار (١٢/ ١٠٥) صحيح

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ،حِينَ صَفَفْنَا لِقُرَيْشٍ وَصَفُّوا لَنَا:«إِذَا أَكْثَبُوكُمْ فَعَلَيْكُمْ بِالنَّبْلِ»[٣٥٠٦]

وَقَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ لَا تَرْمُوا كُلَّهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ رَمَيْتُمُوهَا بَقِيتُمْ بِلَا نَبَالٍ اهـ.[٣٥٠٧]

دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:التحريض على الرمي والحثّ عليه بأي وسيلة من وسائله،سواء كان ذلك بالسهام كما في العصور السالفة،أو بالرصاص والقذائف النارية والقنابل اليدوية كما في العصر الحديث،لأن الرمي أحد عناصر القوة التي أمرنا الله تعالى بها في قوله عز وجل:(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) ويفسر في كل عصر بحسب ذلك العصر،وما جد فيه من آلات حربية،وهو ما ترجم له البخاري.ثانياً:المحافظة على الذخيرة الحربية،واستعمال السلاح المناسب في الوقت المناسب،فإنه إنما أمرهم بالرمي عند القرب فقط أنهم إذا رموهم على بعد قد لا تصيبهم السهام،فتضيع دون فائدة،فاستبقاؤها أولى،وليس المراد بالقرب التلاحم الذي لا ينفع فيه إلاّ السلاح الأبيض،وهو السيوف.والمطابقة:في قوله:" إذا أكثبوم فعليكم بالنبل ".[٣٥٠٨]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سَاعَتَانِ تُفْتَحُ فِيهِمَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ:عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ،وَعِنْدَ الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٣٥٠٩].

أي في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله وأشار بقوله قلما إلى أنها قد ترد لفوات شرط من شروط الدعاء أو ركن من أركانه أو نحو ذلك[٣٥١٠]

٣٣-فضل الرمي في سبيل الله وإثم من تركه بعدما تعلمه:

[٣٥٠٦] - صحيح البخاري (٤/ ٣٨)(٢٩٠٠) [ش (أكثبوكم) دنوا منكم وقاربوكم.(فعليكم بالنبل) فارموهم بها وهي السهام العربية]

[٣٥٠٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٨)

[٣٥٠٨] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٠٦)

[٣٥٠٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٥/ ٥)(١٧٢٠) صحيح

[٣٥١٠] - فيض القدير (٤/ ٨١)

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَى الرَّمْيِ وَحَضَّهُمْ عَلَى مُوَاصَلَةِ التَّدَرُّبِ عَلَيْهِ،وَحَذَّرَ مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ فَتَرَكَهُ:[3511]

أولا:أمر الله بالرمي استعداد للجهاد في سبيل الله:

قال تعالى:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]

يَأْمُرُ اللهُ المُسْلِمِينَ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ،وَبِإِعْدَادِ آلاتِهَا لِمُقَاتَلَةِ الكُفَّارِ،وَدَفْعِ العُدْوَانِ،وَحِفْظِ الأَنْفُسِ،وَالحَقِّ وَالفَضِيلَةِ،حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالاسْتِطَاعَةِ:مِنْ خَيْلٍ وَسِلاَحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤَنٍ وَتَدْرِيبٍ وَعِلْمٍ وَكُلَّ مَا يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ القُوَّةِ التِي تُمَكِّنُ الأُمَّةَ مِنْ مُقَاوَمَةِ خُصُومِهَا،بِحَسَبِ مَفْهُومِ العَصْرِ،وَذَلِكَ لإِرْهَابِ الكُفَّارِ - مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ غَيْرِهِمْ - أَعَدَاءِ اللهِ،وَأَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ،وَلإِرْهَابِ الأَعْدَاءِ الآخَرِينَ مِنْ مُنَافِقِينَ وَيَهُودٍ يُجَاوِرُونَ المُسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَغَيْرِهِمْ،مِمَّنْ لاَ يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ اللهِ وَالمُسْلِمُونَ،وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُمْ.وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُونَهَا فِي الجِهَادِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ،سَتُوَفَّى إِلَيْهِمْ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ،وَلاَ يَبْخَسُ اللهُ أَحَداً مِنْهُمْ شَيْئاً.[3512]

وعَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،يَقُولُ:" {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ "[3513].

[3511] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٣/ ١٦٨)

[3512] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢١،بترقيم الشاملة آليا)

[3513] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٧ - (١٩١٧)

[ش (وأعدوا لهم ما استطعتم) قوله ﷺ في تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ألا أن القوة الرمي قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المثاقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيل وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك]

وعَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ،قَالَ:حَاصَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِصْنَ الطَّائِفِ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرٍ» فَبَلَغْتُ يَوْمَئِذٍ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ لَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ،وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ مُحَرَّرَةً مِنَ النَّارِ،وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مَسْلَمَةٍ أَعْتَقَت امْرَأَةً مَسْلَمَةً فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِهَا مُحَرَّرَةً مِنَ النَّارِ»[٣٥١٤]

قَالَ النَّوَوِيُّ:وَقَال النَّوَوِيُّ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى الْأَحَادِيث الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ فِي فَضْل الرَّمْيِ،وَالْحَثِّ عَلَيْهِ:فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث فَضِيلَةُ الرَّمْيِ وَالْمُنَاضَلَة،وَالاعْتِنَاءُ بِذَلِكَ بِنِيَّةِ الْجِهَاد فِي سَبِيل اللَّهِ تَعَالَى،وَكَذَلِكَ الْمُشَاجَعَةُ،وَسَائِرُ أَنْوَاعِ اسْتِعْمَال السِّلَاحِ،وَكَذَا الْمُسَابَقَةُ بِالْخَيْل وَغَيْرِهَا،وَالْمُرَادُ بِهَذَا كُلِّهِ التَّمَرُّنُ عَلَى الْقِتَال،وَالتَّدَرُّبُ،وَالتَّحَذُّقُ فِيهِ،وَرِيَاضَةُ الْأَعْضَاءِ بِذَلِكَ..[٣٥١٥]

وَقَال الْقُرْطُبِيُّ:فَضْل الرَّمْيِ عَظِيمٌ،وَمَنْفَعَتُهُ عَظِيمَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَنِكَايَتُهُ شَدِيدَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ،قَال ﷺ:يَا بَنِي إِسْمَاعِيل ارْمُوا فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا،وَتَعَلُّمُ الْفُرُوسِيَّة وَاسْتِعْمَال الْأَسْلِحَة فَرْضُ كِفَايَةٍ وَقَدْ يَتَعَيَّنُ.[٣٥١٦]

ثانياً:أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة:صانعه،والرامي به،والذي يناوله للرامي:

وعَنْ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:كُنْتُ رَجُلًا رَامِيًا،وَكَانَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ يَمُرُّ بِي فَيَقُولُ:يَا خَالِدُ،اخْرُجْ بِنَا نَرْمِي،فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأْتُ عَنْهُ،فَقَالَ:هَلُمَّ أُحَدِّثْكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ فِي الْجَنَّةِ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ،وَالرَّامِيَ بِهِ،وَمُنَبِّلَهُ،ارْمُوا،وَارْكَبُوا،وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا،وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إِلَّا ثَلَاثٌ:تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ،وَمُلَاعَبَتُهُ

[٣٥١٤] - مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٤٧٠)(١٢٥٠) صحيح

[٣٥١٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٩٨) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٣ / ٦٤

[٣٥١٦] - تفسير القرطبي ٨ / ٣٦

أَهْلَهُ،وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ،وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ كَفَرَهَا "[3517].

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الِاشْتِغَالِ بِتَعَلُّمِ آلَاتِ الْجِهَادِ وَالتَّمَرُّنِ فِيهَا وَالْعِنَايَةِ فِي إعْدَادِهَا لِيَتَمَرَّنَ بِذَلِكَ عَلَى الْجِهَادِ وَيَتَدَرَّبَ فِيهِ،وَيُرَوِّضَ أَعْضَاءَهُ قَوْلُهُ:(فَلَيْسَ مِنَّا) قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَأْوِيلِ مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي مَوَاضِعَ.وَفِي ذَلِكَ إشْعَارٌ بِأَنَّ مَنْ أَدْرَكَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْقِتَالِ الَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ تَسَاهَلَ فِي ذَلِكَ حَتَّى تَرَكَهُ كَانَ آثِمًا إثْمًا شَدِيدًا؛لِأَنَّ تَرْكَ الْعِنَايَةِ بِذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِ الْجِهَادِ،وَتَرْكَ الْعِنَايَةِ بِالْجِهَادِ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الْعِنَايَةِ بِالدِّينِ لِكَوْنِهِ سَنَامَهُ وَبِهِ قَامَ.[3518]

ثالثاً:كان رسول الله ﷺ يرمي بالنبل بين أصحابه:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ سَلَمَةَ بْنَ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ،فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا،وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ» قَالَ:فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا لَكُمْ لاَ تَرْمُونَ؟»،قَالُوا:كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»[3519].

وَفِي الْحَدِيثِ النَّدْبُ إلَى اتِّبَاعِ خِصَالِ الْآبَاءِ الْمَحْمُودَةِ وَالْعَمَلِ بِمِثْلِهَا،وَفِيهِ أَيْضًا حُسْنُ أَدَبِ الصَّحَابَةِ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ – وَحُسْنُ خُلُقِهِ وَالتَّنْوِيهُ بِفَضِيلَةِ الرَّمْيِ.[3520]

قَالَ الْمُهَلَّبُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ صَارَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ فِي جُمْلَةِ الْمُنَاضِلِينَ لَهُ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ كَمَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ حَيْثُ أَمْسَكُوا لِكَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ خَشْيَةَ أَنْ يَغْلِبُوهُمْ فَيَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْغَلَبُ فَأَمْسَكُوا عَنْ ذَلِكَ تَأَدُّبًا مَعَهُ انْتَهَى وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي أَمْسَكُوا لَهُ لَمْ يَنْحَصِرْ فِي هَذَا بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أَمْسَكُوا لَمَّا

[3517] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٠٦)(٢٤٥٠) حسن

[3518] -نيل الأوطار (٨/ ٩٦)

[3519] - صحيح البخاري (٤/ ٣٨) (٢٨٩٩)

[ش (ينتضلون) يتسابقون في الرمي.(فلان) ابن الأدرع وقيل اسمه سلمة ابن ذكوان]

[3520] - نيل الأوطار (٨/ ٩٥)

اسْتَشْعَرُوا مِنْ قُوَّةِ قُلُوبِ أَصْحَابِهِمْ بِالْغَلَبَةِ حَيْثُ صَارَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْوُجُوهِ الْمُشْعِرَةِ بِالنَّصْرِ [3521]

رابعاً:الرمي من اللهو الممدوح المندوب إليه،وليس من المذموم:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ،وَيَكْفِيكُمُ اللهُ،فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ»[3522].

قَالَ الْمُظْهِرُ:يَعْنِي أَهْلَ الرُّومِ غَالِبُ حَرْبِهُمُ الرَّمْيُ،وَأَنْتُمْ تَتَعَلَّمُونَ الرَّمْيَ لِيُمْكِنَكُمْ مُحَارَبَةُ أَهْلِ الرُّومِ وَسَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ،وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنْكُمْ شَرَّ أَهْلِ الرُّومِ،فَإِذَا فَتَحَ لَكُمُ الرُّومَ فَلَا تَتْرُكُوا الرَّمْيَ وَتَعَلُّمَهُ بِأَنْ تَقُولُوا:لَمْ نَكُنْ نَحْتَاجُ فِي قِتَالِهِمْ إِلَى الرَّمْيِ،بَلْ تَعَلَّمُوا الرَّمْيَ،وَدَاوِمُوا عَلَيْهِ،فَإِنَّ الرَّمْيَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ أَبَدًا.وَقَالَ الْأَشْرَفُ:أَيْ:لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْجِزَ أَحَدُكُمْ عَنْ تَعَلُّمِ الرَّمْيِ،حَتَّى إِذَا حَانَ وَقْتُ فَتْحِ الرُّومِ أَمْكَنَهُ الْعَوْنُ عَلَى الْفَتْحِ،وَهَذَا حَثٌّ وَتَحْرِيضٌ مِنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى تَعَلُّمِ الرَّمْيِ،وَالْمَعْنَى:لَهُ أَنْ يَلْعَبَ بِهَا وَلَيْسَ مَمْنُوعًا عَنْهُ.قَالَ الطِّيبِيُّ:لَعَلَّ الْأَوْجَهَ التَّوْجِيهُ الثَّانِي فَإِنَّ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ:فَلَا يَعْجِزُ سَبَبِيَّةٌ كَأَنَّهُ قِيلَ:إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ لَكُمْ عَنْ قَرِيبِ الرُّومَ وَهُمْ رُمَاةٌ،وَيُكْفِيكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَاسِطَةِ الرَّمْيِ شَرَّهُمْ؛فَإِذَنْ لَا يُعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ ؛ أَيْ:عَلَيْكُمْ أَنْ تَهْتَمُّوا بِشَأْنِ النِّضَالِ،وَتَمَرَّنُوا فِيهِ،وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ،حَتَّى إِذَا زَاوَلْتُمْ مُحَارَبَةَ الرُّومِ تَكُونُوا مُتَمَكِّنِينَ،وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ مُخْرَجَ اللَّهْوِ إِمَالَةً لِلرَّغَبَاتِ إِلَى تَعَلُّمِ الرَّمْيِ وَإِلَى التَّرَامِي وَالْمُسَابَقَةِ،فَإِنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَيْلِهَا إِلَى اللَّهْوِ.[3523]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ:رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ وَجَابِرَ بْنَ عُمَيْرٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ يَرْمِيَانِ،فَمَلَّ أَحَدُهُمَا فَجَلَسَ فَقَالَ الْآخَرُ:«كَسِلْتَ؟» سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَهُوَ لَغْوٌ وَلَهْوٌ إِلَّا أَرْبَعَةَ خِصَالٍ:مَشْيٌ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ،وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ،وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ،وَتَعْلِيمُ السِّبَاحَةِ "[3524]

[3521] - فتح الباري لابن حجر (٦/ ٩٢)

[3522] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٨ - (١٩١٨)

[3523] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٩٩)

[3524] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٧٧)(٨٨٩١) صحيح

الغرض هو:ما ينصب في الهدف،من قرطاس أو جلد،ثم يرميه الرماة بالسهام بقصد إصابته.

خامساً:من رمى بسهم في سبيل الله،رفعه الله به درجة في الجنة:

عَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ السِّمْطِ،قَالَ:قُلْنَا لِكَعْبِ بْنِ مُرَّةَ:يَا كَعْبُ،حَدِّثْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحْذَرْ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ بَلَغَ الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ رَفَعَ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً لَهُ»،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ النَّحَّامِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الدَّرَجَةُ؟،قَالَ:«أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةِ أُمِّكَ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ»[٣٥٢٥]

وعَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ السِّمْطِ،قَالَ:قلْنَا لِكَعْبِ بْنِ مُرَّةَ:حَدِّثْنَا يَا كَعْبُ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحْذَرْ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:ارْمُوا مَنْ بَلَغَ الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً،فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي النَّحَّامِ:يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَمَا الدَّرَجَةُ ؟ قَالَ:أَمَّا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةِ أُمِّكَ وَلَكِنْ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِئَة عَامٍ،يَا كَعْبُ حَدِّثْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحْذَرْ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:مَنْ شَابَ فِي سَبِيلِ اللهِ شَيْبَةً كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً[٣٥٢٦].

التمرين والتدريب على الرمي:

عَنْ بِلاَلِ بْنِ سَعْد قَالَ:أَدْرَكْتهمْ يَشْتَدُّونَ بَيْنَ الأَغْرَاضِ وَيَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ،فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ كَانُوا رُهْبَانًا.[٣٥٢٧]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:رَأَيْتُ حُذَيْفَةَ يَشْتدُّ بَيْنَ الْهَدَفَيْنِ.[٣٥٢٨]

وعَنْ أَبِي الْعَدَبَّسِ،قَالَ:سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ:أَخِيفُوا الْهَوَامَّ قَبْلَ أَنْ تُخِيفَكُمْ،وَانْتَضِلُوا وَتَمَعْدَدُوا وَاخْشَوْشِنُوا وَاجْعَلُوا الرَّأْسَ رَأْسَيْنِ،وَفَرِّقُوا عَنِ الْمَنِيَّةِ،وَلاَ تُلِثُّوا بِدَارٍ مُعْجِزَةٍ،وَأَخِيفُوا الْحَيَّاتِ قَبْلِ أَنْ تُخِيفَكُمْ وَأَصْلِحُوا مَثَاوِيَكُمْ.[٣٥٢٩]

[٣٥٢٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٧٧)(٤٦١٦) صحيح

[٣٥٢٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٧٨)(١٩٧٣٢) صحيح

[٣٥٢٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٤١٩)(٢٦٨٥٢) صحيح

[٣٥٢٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٤٢٠)(٢٦٨٥٣) صحيح

[٣٥٢٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٣/ ٤٢٠)(٢٦٨٥٤) صحيح

وهذا يدل على عظم اهتمام الصحابة بالرمي ونشاطهم فيه،هذا وهم شمــوس الاهتــداء ونجوم الاقتداء،وملوك الدنيا والآخرة،والهدى الصالح هو ما كانوا عليه والرأي الصــائب هو ما مالوا عليه ويكفيك وصف الله لهم وثناؤه عليهم في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِــنَ اللَّـــهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَــثَلُهُمْ فِــي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِــيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِــرَةً وَأَجْــرًا عَظِيمًــا} [الفتح:٢٩].وعَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ،قَالَ:حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ،قَالَ سَــمِعْتُ عَلِيًّــا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُفَدِّي رَجُلًا بَعْدَ سَعْدٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ:«ارْمِ فِــدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» [٣٥٣٠]

٣٤-فضل الجرح في سبيل الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَــدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ» [٣٥٣١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ،اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ،وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ» [٣٥٣٢]

[٣٥٣٠] - صحيح البخاري (٤/ ٣٩) (٢٩٠٥) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٦)٤١ - (٢٤١١)

[ش(بعد سعد) بن أبي وقاص رضي الله عنه أي بمثل ما فداه به.(فداك أبي وأمي) هذا القول لإظهار كامل البر والحمية وليس المراد تقديم المخاطب على الوالدين واحترامهما والبر بهما]

[٣٥٣١] - صحيح البخاري (٤/ ١٨) (٢٨٠٣)

مكارم:الكلم:الجرح،والمكلوم:المجروح.-العرف:الرائحة،طيبة كانت أو خبيثة،والمراد به ها هنا:الطيبة لأنه قال:والعرف عرف المسك

[٣٥٣٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦)١٠٥ - (١٨٧٦)

[ش (يثعب) أي يجري متفجرا أي كثيرا وهو بمعنى الرواية الأخرى يتفجر]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى،اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ،وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ»[٣٥٣٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُهُ المُسْلِمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهَا،إِذْ طُعِنَتْ،تَفَجَّرُ دَمًا،اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالعَرْفُ عَرْفُ المِسْكِ»[٣٥٣٤]

وعن مَالِك بْنِ يُخَامِرَ،أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ حَدَّثَهُمْ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ،وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا،ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ،فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ» وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً،فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ:لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ،وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ "[٣٥٣٥]

(فَوَاقَ نَاقَةٍ) بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ يَعْنِي قَدْرَ مُدَّتَيِ الضَّرْعِ مِنَ الْوَقْتِ لِأَنَّهَا تُحْلَبُ ثُمَّ تُتْرَكُ سُوَيْعَةً يَرْضَعُهَا الْفَصِيلُ لِتَدُرَّ ثُمَّ تُحْلَبُ ثَانِيَةً (صَادِقًا) أَيْ بِصِدْقِ قَلْبِهِ (وَمَنْ جُرِحَ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ (جُرْحًا) بِضَمِّ الْجِيمِ وَبِالْفَتْحِ هُوَ الْمَصْدَرُ أَيْ جِرَاحَةً كَائِنَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ (أَوْ نُكِبَ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ أُصِيبَ (نَكْبَةً) بِالْفَتْحِ قِيلَ الْجُرْحُ وَالنَّكْبَةُ كِلَاهُمَا وَاحِدٌ وَقِيلَ الْجُرْحُ مَا يَكُونُ مِنْ فِعْلِ الْكُفَّارِ وَالنَّكْبَةُ الْجِرَاحَةُ الَّتِي أَصَابَتْهُ مِنْ وُقُوعِهِ مِنْ دَابَّتِهِ أَوْ وُقُوعِ سِلَاحٍ عَلَيْهِ،قال القارىء هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَفِي النِّهَايَةِ نُكِبَتْ إِصْبَعُهُ أَيْ نَالَتْهَا الْحِجَارَةُ وَالنَّكْبَةُ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَوَادِثِ (فَإِنَّهَا) أَيِ النَّكْبَةُ قَالَ الطِّيبِيُّ قَدْ سَبَقَ شَيْئَانِ الْجُرْحُ وَالنَّكْبَةُ وَهِيَ مَا أَصَابَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْحِجَارَةِ فَأَعَادَ الضَّمِيرَ إِلَى النَّكْبَةِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ حُكْمَ النَّكْبَةِ إِذَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِالْجُرْحِ بِالسِّنَانِ وَالسَّيْفِ (كَأَغْزَرَ مَا كَانَتْ) أَيْ كَأَكْثَرَ أَوْقَاتِ أَكْوَانِهَا فِي الدُّنْيَا (خُرَّاجٌ) بِضَمِّ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ مَا يَخْرُجُ فِي الْبَدَنِ مِنَ الْقُرُوحِ وَالدَّمَامِيلِ (فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعُ

[٣٥٣٣] - صحيح البخاري (٧/ ٩٦) (٥٥٣٣)

[٣٥٣٤] - صحيح البخاري (١/ ٥٦) (٢٣٧)

[ش(كلم) جرح.(كهيئتها إذ طعنت) على حالتها حين جرحت في الدنيا.(تفجر) يسيل منها بكثرة.(العرف) الرائحة الطيبة]

[٣٥٣٥] - سنن أبي داود (٣/ ٢١) (٢٥٤١) صحيح

الشُّهَدَاءِ) بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَيُكْسَرُ أَيِ الْخَاتَمُ يُخْتَمُ بِهِ عَلَى الشَّيْءِ يَعْنِي عَلَيْهِ عَلَامَةُ الشُّهَدَاءِ وأماراتهم[3536]

وعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَكَى،ثُمَّ قَالَ:ذَاكَ كُلُّهُ يَوْمُ طَلْحَةَ،ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ،قَالَ:كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَاءَ يَوْمَ أُحُدٍ فَرَأَيْتُ رَجُلًا يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَهُ،وَأُرَاهُ قَالَ:يَحْمِيهِ،قَالَ:فَقُلْتُ:كُنْ طَلْحَةَ حَيْثُ فَاتَنِي مَا فَاتَنِي،فَقُلْتُ:يَكُونُ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي أَحَبَّ إِلَيَّ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْمَشْرِقِ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ،وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ،وَهُوَ يَخْطَفُ الْمَشْيَ خَطْفًا لَا أَخْطَفُهُ،فَإِذَا هُوَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ،فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ وَقَدْ دَخَلَ فِي وَجْنَتَيْهِ حَلْقَتَانِ مِنْ حِلَقِ الْمِغْفَرِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَلَيْكُمَا صَاحِبَكُمَا»،يُرِيدُ طَلْحَةَ،وَقَدْ نَزَفَ،فَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَى قَوْلِهِ،وَذَهَبْتُ لِأَنْزِعَ ذَاكَ مِنْ وَجْهِهِ،فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا تَرَكْتَنِي،فَتَرَكْتُهُ فَكَرِهَ أَنْ يَتَنَاوَلَهُمَا بِيَدِهِ،فَيُؤْذِيَ النَّبِيَّ ﷺ،فَأَزَّمَ عَلَيْهِمَا بِفِيهِ فَاسْتَخْرَجَ إِحْدَى الْحَلْقَتَيْنِ،وَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ مَعَ الْحَلْقَةِ،وَذَهَبْتُ لِأَصْنَعَ مَا صَنَعَ فَقَالَ:أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا تَرَكْتَنِي قَالَ:فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ الْأُخْرَى مَعَ الْحَلْقَةِ فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ هَتْمًا فَأَصْلَحْنَا مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِفَارِ فَإِذَا بِهِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ وَضَرْبَةٍ وَإِذَا قَدْ قُطِعَتْ إِصْبَعُهُ فَأَصْلَحْنَا مِنْ شَأْنِهِ[3537].

وعَنْ قَيْسٍ،قَالَ:«رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ»[3538]

وعَنْ عُرْوَةَ قَالَ:«كَانَ فِي الزُّبَيْرِ ثَلَاثُ ضَرَبَاتٍ بِالسَّيْفِ إِحْدَاهُنَّ فِي عَاتِقِهِ» قَالَ:«إِنْ كُنْتُ لَأُدْخِلُ أَصَابِعِي فِيهَا» قَالَ:«ضُرِبَ ثِنْتَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ،وَوَاحِدَةً يَوْمَ الْيَرْمُوكِ» قَالَ عُرْوَةُ:وَقَالَ لِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ،حِينَ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ:يَا عُرْوَةُ،هَلْ تَعْرِفُ

[3536] - عون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ١٥٤)

[3537] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢٩٨)(٥١٥٩) والجهاد لابن المبارك (ص:٧٧)(٩١) و السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٨) ومسند أبي داود الطيالسي (١/ ٨)(٦) ضعيف

[3538] - صحيح البخاري (٥/ ٩٧)(٤٠٦٣)

سَيْفَ الزُّبَيْرِ؟ قُلْتُ:«نَعَمْ» قَالَ:فَمَا فِيهِ؟ قُلْتُ:«فِيهِ فَلَّةٌ فُلَّهَا يَوْمَ بَدْرٍ» قَالَ:صَدَقْتَ،بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِب"[٣٥٣٩].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ،أَخُو بَنِي سَلَمَةَ قَالَ:" سَمِعْتُ الْقَوْمَ،وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ:أَبَا الْحَكَمِ لَا تَخْلُصْ إِلَيْهِ قَالَ:فَلَمَّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي،فَصَمَدْتُ نَحْوَهُ،فَلَمَّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ،فَضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً أَطَنَّتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ،فَوَاللهِ مَا شَبَّهْتُهَا حِينَ طَاحَتْ،إِلَّا بِالنَّوَاةِ حِينَ تَطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَحَةِ النَّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا قَالَ:وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي،فَطَرَحَ يَدَيَّ،فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي،وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ،وَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي،وَإِنِّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي،فَلَمَّا آذَتْنِي وَضَعْتُ عَلَيْهَا قَدَمِيَّ،ثُمَّ تَمَطَّيْتُ بِهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا - قَالَ:ثُمَّ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَانَ زَمَنُ عُثْمَانَ - ثُمَّ مَرَّ مُعَوِّذُ ابْنُ عَفْرَاءَ بِأَبِي جَهْلٍ وَهُوَ عَقِيرٌ،فَضَرَبَهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ،فَتَرَكَهُ وَبِهِ رَمَقٌ،وَقَاتَلَ مُعَوِّذٌ حَتَّى قُتِلَ،فَمَرَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ بِأَبِي جَهْلٍ حِينَ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُلْتَمَسَ فِي الْقَتْلَى،وَقَدْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي:" انْظُرُوا إِنْ خَفِيَ عَلَيْكُمْ فِي الْقَتْلَى إِلَى أَثَرِ جُرْحٍ فِي رُكْبَتِهِ،فَإِنِّي ازْدَحَمْتُ أَنَا وَهُوَ عَلَى مَأْدُبَةٍ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ،وَنَحْنُ غُلَامَانِ،وَكُنْتُ أَشَفَّ مِنْهُ بِيَسِيرٍ،فَدَفَعْتُهُ،فَوَقَعَ عَلَى رُكْبَتِهِ،فَجُحِشَ فِي إِحْدَيْهِمَا جُحْشًا لَمْ يَزَلْ أَثَرُهُ بِهِ بَعْدُ"قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ:فَأَدْرَكْتُهُ بِآخِرِ رَمَقٍ،فَعَرَفْتُهُ،فَوَضَعْتُ رِجْلَيَّ عَلَى عُنُقِهِ،قَالَ:وَقَدْ كَانَ ضَبَثَ بِي مَرَّةً بِمَكَّةَ،فَآذَانِي وَلَكَزَنِي،ثُمَّ قُلْتُ:هَلْ أَخْزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَّ اللهِ ؟ قَالَ:وَبِمَا أَخْزَانِي أَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ أَخْبِرْنِي لِمَنِ الدَّبْرَةُ الْيَوْمَ ؟ قَالَ:قُلْتُ:لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ"[٣٥٤٠].

٣٥-فضل من قتل كافراَ في سبيل الله:

[٣٥٣٩] - صحيح البخاري (٥/ ٧٥) (٣٩٧٣)

[ش (فلة) كسرة في حد السيف وجمعها فلول.(فلها) كسرها.(قراع) مثل المقارعة وهي المضاربة بالسيف.(الكتائب) جمع كتيبة وهي الجيش أو قطعة منه.(فأقمناه بيننا) ذكرنا قيمته وما يساوي من الثمن.(بعضنا) بعض الورثة وهو عثمان بن عروة أخو هشام رحمهم الله تعإلى]

[٣٥٤٠] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٤٤٢)(٥٩٧٠) حسن

قال الله تعالى: { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء:٧٤]
فَلْيُقَاتِلْ في سَبيلِ الله مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبيعَ الحَيَاةَ الدُّنْيا،وَيَبْذُلَهَا،وَيَجْعَلَهَا ثَمَناً للآخِرَة،لأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ أَعَزَّ دينَ الله،وَجَعَلَ كَلمَةَ الله هيَ العُلْيا.وَمَنْ يُقَاتلْ في سَبيلِ الله فَيَظْفَرْ بِهِ عَدُوُّهُ وَيَقْتُلُهُ،أَوْ يَظْفَرْ هُوَ بعَدُوِّه،فإنَّ اللهَ سَيُؤْتيه أَجْراً عَظيماً منْ عنْده.(وَفي هَذه الآيَةِ إِشَارَةً إِلى أَنَّ هَمَّ الْمُقاتِلِ المُسْلِمِ يَجِبُ أنْ يَكُونَ الظَّفَرَ أَوِ الشَّهَادَةَ في سَبيلِ الله،وَعَلَيْه أنْ لاَ يُفَكِّرَ في الهَرَبِ وَالنَّجَاة بِالنَّفْسِ،فَالهَرَبُ لاَ يُنَجِّي مِنْ قَدَرِ الله،وَفيهِ غَضَبُ الله وَسَخَطُهُ) [٣٥٤١].

من قتل في سبيل الله لن يضل أعمالهم:

وقال تعالى: { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)} [محمد:٤ - ٦]
يُرشدُ اللهُ تَعَالى الْمُؤْمنينَ إلى وُجُوب قتَال الْمُشْرِكينَ الذينَ يَكْفُرُونَ بالله،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيله حَتَّى يَنْخَذلَ الشِّرْكُ وَأهْلُهُ،وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الأَسْلُوبَ الذي يَعْتَمدُونَهُ في قتَالهمْ فَيَقُولُ تَعَالى:إذا لَقيتُمُ الْمُشْركين في سَاحَة الحَرب فَاحْصُدُوهُم حَصْداً بالسُّيوف،حَتَّى إذا تَمَّتْ لَكُمُ الغَلَبَةُ عَلَيهم،وَقَهَرْتُم مَنْ تَبَقَّى منْهُمْ حَيّاً،وَصَارُوا أسْرى في أيديكم،شُدُّوا وثَاقَهُمُ لكَيلاَ يَعْمَدُوا إلى الهَرَب،أو العَوْدة إلى القتَال،وَبَعْدَ انتهَاء الحَرْب فأنْتُم بالخيار بَيْنَ المَنِّ عَلَيهم وإطْلاق سَرَاحهمْ بدُون فدَاء،وَبَيَنُ مُفَادَاتهمْ.وَقَدْ تَكُونُ الْمُفَادَاةُ بمال يُؤْخَذُ منْهُمْ لإضْعَاف شَوْكَتهْم،وَقَدْ تَكُونُ بأسْرى منَ الْمُسْلمينَ.وهذه هيَ السُّنَّةُ في قتَال الْمُشْركينَ والكُفَّار حَتَى تَنْتَهيَ الحَرْبُ وَتَضَعَ أوْزَارَها،وَلَوْ شَاءَ الله أَنْ يَنْتَقمَ منهُمْ بعُقُوبة عَاجلَةٍ لَفعَلَ،وَلَكفَاكُمْ أَمْرَهُمْ،وَلَكنَّهُ شَرَعَ الجهَادَ،وَقتَالَ الأعداء،لِختَبرَ الْمُؤمنينَ وَصَبْرَهُمْ عَلَى

[٣٥٤١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

القتَال،وَيختَبرَ المُشركينَ،فَيُعَاقبَ مَنْ شَاءَ منْهُمْ بأيدي المُؤْمنينَ،وَيَتَّعظَ منْهُمْ مَنْ شَاءَ وَيَرْجعَ إلى الحَقِّ.واللهُ يَجْزي الشَّهَداءَ الذينَ قُتلُوا في سَبيله تَعَالى،وَيَتَجَاوزُ عَنْ سَيِّئَاتهمْ،وَيُثَمِّرُ لَهُمْ أعْمالَهُمْ وَيُنَمِّيها لَهُمْ.وسَيَهْدي اللهُ الشُهَدَاءَ في سَبيله إلى طَريق الجَنَّة،ويُصْلحُ حَالَهم في الآخرَة.وَيدُخلهُمَ ربُّهم الجَنَّةَ،فَيَجدُ كُلُّ وَاحد فيها مَقَرَّهُ لا يَضلُّ في طَلَبه،وَكَأَنَّهُ يَعْرفُهُ منْ قَبْلُ.[٣٥٤٢]

وقال الطبري:" يَقُولُ تَعَالَى ذكْرُهُ لفَرَيق الْإيمَان به وَبرَسُوله:{فَإذَا لَقيتُمْ الَّذينَ كَفَرُوا} [محمد:٤] باللَّه وَرَسُوله منْ أَهْل الْحَرْب،فَاضْربُوا رقَابَهُمْ وَقَوْلُهُ:{حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد:٤] يَقُولُ:حَتَّى إذَا غَلَبْتُمُوهُمْ وَقَهَرْتُمْ مَنْ لَمْ تَضْربُوا رَقَبَتَهُ منْهُمْ،فَصَارُوا في أَيْديكُمْ أَسْرَى {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد:٤] يَقُولُ:فَشُدُّوهُمْ في الْوَثَاق كَيْلَا يَقْتُلُوكُمْ،فَيَهْرُبُوا منْكُمْ،فَإذَا أَسَرْتُمُوهُمْ بَعْدَ الْإثْخَان،فَإمَّا أَنْ تَمُنُّوا عَلَيْهمْ بَعْدَ ذَلكَ بإطْلَاقكُمْ إيَّاهُمْ منَ الْأَسْر،وَتُحَرِّرُوهُمْ بغَيْر عوَضٍ وَلَا فدْيَة،وَإمَّا أَنْ يُفَادُوكُمْ فدَاءً بأَنْ يُعْطُوكُمْ منْ أَنْفُسهمْ عوَضًا حَتَّى تُطْلقُوهُمْ،وَتُخَلُّوا لَهُمُ السَّبيلَ.وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعلْم في قَوْله:{حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فدَاءً} [محمد:٤] فَقَالَ بَعْضُهُمْ:هُوَ مَنْسُوخٌ نَسَخَهُ قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَقَوْلُهُ {فَإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الْحَرْب فَشَرِّدْ بهمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الأنفال:٥٧]

وَالصَّوَابُ منَ الْقَوْل عنْدَنَا في ذَلكَ أَنَّ هَذه الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَة،وَذَلكَ أَنَّ صفَةَ النَّاسخ وَالْمَنْسُوخ مَا قَدْ بَيَّنَّا في غَيْر مَوْضعٍ في كتَابنَا أَنَّهُ مَا لَمْ يَجُز اجْتمَاعُ حُكْمَيْهمَا في حَالٍ وَاحدَة،أَوْ مَا قَامَت الْحُجَّةُ بأَنَّ أَحَدَهُمَا نَاسخُ الْآخَر،وَغَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ الْخيَارَ في الْمَنِّ وَالْفدَاء وَالْقَتْل إلَى الرَّسُول ﷺ،وَإلَى الْقَائمينَ بَعْدَهُ بأَمْر الْأُمَّة،وَإنْ لَمْ يَكُن الْقَتْلُ مَذْكُورًا في هَذه الْآيَة،لأَنَّهُ قَدْ أَذنَ بقَتْلهمْ في آيَة أُخْرَى،وَذَلكَ قَوْلُهُ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] الْآيَةَ بَلْ ذَلكَ كَذَلكَ،لأَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَذَلكَ كَانَ يَفْعَلُ فيمَنْ صَارَ أَسيرًا في يَده منْ أَهْل الْحَرْب،فَيَقْتُلُ بَعْضًا،وَيُفَادي ببَعْضٍ،وَيَمُنُّ عَلَى بَعْضٍ،مثْلَ يَوْم بَدْرٍ قَتَلَ عُقْبَةَ بْنَ أَبي مُعَيْطٍ وَقَدْ أُتيَ به

[٣٥٤٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

أَسِيرًا،وَقَتَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ،وَقَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ،وَصَارُوا فِي يَدِهِ سِلْمًا،وَهُوَ عَلَى فِدَائِهِمْ وَالْمَنِّ عَلَيْهِمْ قَادِرٌ،وَفَادَى بِجَمَاعَةِ أُسَارَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أُسِرُوا بِبَدْرٍ،وَمَنَّ عَلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ،وَهُوَ أَسِيرٌ فِي يَدِهِ،وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ ثَابِتًا مِنْ سِيَرِهِ فِي أَهْلِ الْحَرْبِ مِنْ لَدُنْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِحَرْبِهِمْ،إِلَى أَنْ قَبَضَهُ إِلَيْهِ ﷺ دَائِمًا ذَلِكَ فِيهِمْ،وَإِنَّمَا ذَكَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَنَّ وَالْفِدَاءَ فِي الْأُسَارَى،فَخَصَّ ذِكْرَهُمَا فِيهَا،لِأَنَّ الْأَمْرَ بِقَتْلِهِمَا وَالْإِذْنَ مِنْهُ بِذَلِكَ قَدْ كَانَ تَقَدَّمَ فِي سَائِرِ آيِ تَنْزِيلِهِ مُكَرَّرًا،فَأَعْلَمَ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ مَا لَهُ فِيهِمْ مَعَ الْقَتْلِ

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاضْرِبُوا رِقَابَهُمْ،وَافْعَلُوا بِأَسْرَاهُمْ مَا بَيَّنْتُ لَكُمْ،حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ آثَامَهَا وَأَثْقَالَ أَهْلِهَا،الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ بِأَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ شِرْكِهِمْ،فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ،[ص:١٨٨] وَيُطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ،فَذَلِكَ وَضْعُ الْحَرْبِ أَوْزَارَهَا،وَقِيلَ:{حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد:٤] وَالْمَعْنَى:حَتَّى تُلْقِيَ الْحَرْبُ أَوْزَارَ أَهْلِهَا وَقِيلَ:مَعْنَى ذَلِكَ:حَتَّى يَضَعَ الْمُحَارِبُ أَوْزَارَهُ

وهَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي حَرْبٍ،وَشَدِّهِمْ وَثَاقًا بَعْدَ قَهْرِهِمْ،وَأَسْرِهِمْ،وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد:٤] هُوَ الْحَقُّ الَّذِي أَلْزَمَكُمْ رَبُّكُمْ وَلَوْ يَشَاءُ رَبُّكُمْ وَيُرِيدُ لَانْتَصَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بَيَّنَ هَذَا الْحُكْمَ فِيهِمْ بِعُقُوبَةٍ مِنْهُ لَهُمْ عَاجِلَةٍ،وَكَفَاكُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ،وَلَكِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ كَرِهَ الِانْتِصَارَ مِنْهُمْ،وَعُقُوبَتَهُمْ عَاجِلًا إِلَّا بِأَيْدِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ {لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد:٤] يَقُولُ:لِيَخْتَبِرَكُمْ بِهِمْ،فَيَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ،وَيَبْلُوهُمْ بِكُمْ،فَيُعَاقِبُ بِأَيْدِيكُمْ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ،وَيَتَّعِظُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بِمَنْ أَهْلَكَ بِأَيْدِيكُمْ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ حَتَّى يُنِيبَ إِلَى الْحَقِّ.

وَالَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْكُفَّارِ فِي دِينِ اللَّهِ،وَفِي نُصْرَةِ مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الْهُدَى،فَجَاهَدُوهُمْ فِي ذَلِكَ {فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٤] فَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا ضَلَالًا عَلَيْهِمْ كَمَا أَضَلَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِينَ..عَنْ قَتَادَةَ،{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ [ص:١٩١] اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}

[محمد:٤] ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الشِّعْبِ،وَقَدْ فَشَتْ فِيهِمُ الْجِرَاحَاتُ وَالْقَتْلُ،وَقَدْ نَادَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ:أُعْلُ هُبَلُ،فَنَادَى الْمُسْلِمُونَ:اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ،فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ:يَوْمٌ بِيَوْمٍ،إِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ،إِنَّ لَنَا عُزَّى،وَلَا عُزَّى لَكُمْ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ،إِنَّ الْقَتْلَى مُخْتَلِفَةٌ،أَمَّا قَتْلَانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ،وَأَمَّا قَتْلَاكُمْ فَفِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ»

وسَيُوَفِّقُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْعَمَلِ بِمَا يَرْضَى وَيُحِبُّ،هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِهِ،{وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [محمد:٥] وَيُصْلِحُ أَمْرَهُمْ وَحَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ {وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد:٦] يَقُولُ:وَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ جَنَّتَهُ عَرَّفَهَا،يَقُولُ:عَرَّفَهَا وَبَيَّنَهَا لَهُمْ،حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي مَنْزِلَهُ مِنْهَا إِذَا دَخَلَهَا كَمَا كَانَ يَأْتِي مَنْزِلَهُ فِي الدُّنْيَا،لَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ ذَلِكَ،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:" إِذَا نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ،فَاقْتَصَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَثِيرَةً كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا،ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُمْ بِالدُّخُولِ فِي الْجَنَّةِ،قَالَ:فَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُ بِأَدَلَّ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ حِينَ يَدْخُلُهَا "[٣٥٤٣]

يقول تعالى -مرشدا عباده إلى ما فيه صلاحهم،ونصرهم على أعدائهم-:{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} في الحرب والقتال،فاصدقوهم القتال،واضربوا منهم الأعناق،حَتَّى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم،فإذا فعلتم ذلك،ورأيتم الأسر أولى وأصلح،{فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} أي:الرباط،وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا،فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم،فإذا كانوا تحت أسركم،فأنتم بالخيار بين المن عليهم،وإطلاقهم بلا مال ولا فداء،وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم،أو يشتريهم أصحابهم بمال،أو بأسير مسلم عندهم.وهذا الأمر مستمر {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} أي:حتى لا يبقى حرب،وتبقون في المسألة والمهادنة،فإن لكل مقام مقالا ولكل حال حكما،فالحال المتقدمة،إنما هي إذا كان قتال وحرب.فإذا كان في بعض الأوقات،لا حرب فيه لسبب من الأسباب،فلا قتل ولا أسر.{ذَلِكَ} الحكم

[٣٥٤٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ١٨٣)

المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين،ومداولة الأيام بينهم،وانتصار بعضهم على بعض {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ} فإنه تعالى على كل شيء قدير،وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا،حتى يبيد المسلمون خضراءهم.{وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ليقوم سوق الجهاد،ويتبين بذلك أحوال العباد،الصادق من الكاذب،وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن بصيرة،لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة،فإنه إيمان ضعيف جدا،لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لهم ثواب جزيل،وأجر جميل،وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم،لتكون كلمة الله هي العليا.فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم،أي:لن يحبطها ويبطلها،بل يتقبلها وينميها لهم،ويظهر من أعمالهم نتائجها،في الدنيا والآخرة.{سَيَهْدِيهِمْ} إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة،{وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} أي:حالهم وأمورهم،وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه،ولا تنغيص بوجه من الوجوه.{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} أي:عرفها أولا بأن شوقهم إليها،ونعتها لهم،وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها،التي من جملتها القتل في سبيله،ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه،ثم إذا دخلوا الجنة،عرفهم منازلهم،وما احتوت عليه من النعيم المقيم،والعيش السليم.[٣٥٤٤]

فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته وبعد ذلك يكون الأسر.والحكمة ظاهرة،لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال.وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة.وكانت الكثرة للمشركين.وكان قتل محارب يساوي شيئا كبيرا في ميزان القوى حينذاك.والحكم ما يزال ساريا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو،وتعجيزه عن الهجوم والدفاع.

فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك،فتحدده هذه الآية.وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى:«فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً»..أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين.وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين.وليس في الآية حالة ثالثة.كالاسترقاق أو

[٣٥٤٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٨٥)

القتل.بالنسبة لأسرى المشركين.ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله – ﷺ – والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم في حالات معينة.[٣٥٤٥]

وقال الطبري:"اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ:

الْأَوَّلُ– أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ،وَهِيَ فِي أَهْلِ الْأَوْثَانِ،لَا يَجُوزُ أَنْ يُفَادُوا وَلَا يُمَنُّ عَلَيْهِمْ.وَالنَّاسِخُ لَهَا عِنْدَهُمْ قَوْلُهُ تعالى:" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" [التوبة:٥] وَقَوْلُهُ:" فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ"[الأنفال:٥٧] وقوله:" وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً" [التوبة:٣٦] الآية،قاله قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَقَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْكُوفِيِّينَ.وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَوْزِيُّ:كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي أَسِيرٍ أُسِرَ،فَذَكَرُوا أَنَّهُمُ الْتَمَسُوهُ بِفِدَاءِ كَذَا وَكَذَا،فَقَالَ:اقْتُلُوهُ،لَقَتْلُ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

الثَّانِي– أَنَّهَا فِي الْكُفَّارِ جَمِيعًا.وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ عَلَى قَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ النَّظَرِ،مِنْهُمْ قتادة ومجاهد.قالوا:إذ أُسِرَ الْمُشْرِكُ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُمَنَّ عَلَيْهِ،وَلَا أَنْ يُفَادَى بِهِ فَيُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ،وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفَادَى عِنْدَهُمْ إِلَّا بِالْمَرْأَةِ،لِأَنَّهَا لَا تُقْتَلُ.وَالنَّاسِخُ لَهَا" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" [التوبة:٥] إِذْ كَانَتْ بَرَاءَةٌ آخِرُ مَا نَزَلَتْ بِالتَّوْقِيفِ،فَوَجَبَ أَنْ يُقْتَلَ كُلُّ مُشْرِكٍ إِلَّا مَنْ قَامَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى تَرْكِهِ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَمَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ.وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ،خِيفَةَ أَنْ يَعُودُوا حَرْبًا لِلْمُسْلِمِينَ.ذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ" فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فداءً" قَالَ نَسَخَهَا" فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ".وَقَالَ مُجَاهِدٌ:نسخها" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" [التوبة:٥].وهو قول الحكم.

الثالث– أنها ناسخة،قاله الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ.رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ جُوَيْبِرٍ عَنِ الضحاك" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" [التوبة:٥] قَالَ نَسَخَهَا" فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فداءً".وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ" فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فداءً" فَلَا يُقْتَلُ الْمُشْرِكُ وَلَكِنْ يُمَنُّ عَلَيْهِ وَيُفَادَى،كَمَا قال الله عز وجل.قال أَشْعَثُ:كَانَ الْحَسَنُ يَكْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ

[٣٥٤٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٨٦)

الْأَسِيرُ،وَيَتْلُو" فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً".وَقَالَ الْحَسَنُ أَيْضًا:فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ،فَكَأَنَّهُ قَالَ:فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا.ثُمَّ قَالَ:" حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ".

وَزَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِمَامِ إِذَا حَصَلَ الْأَسِيرُ فِي يَدَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ،لَكِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ:إِمَّا أَنْ يَمُنَّ،أَوْ يُفَادِيَ،أَوْ يَسْتَرِقَّ.

الرَّابِعِ- قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ:لَا يَكُونُ فِدَاءٌ وَلَا أَسْرٌ إِلَّا بَعْدَ الْإِثْخَانِ وَالْقَتْلِ بِالسَّيْفِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:" مَا كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ" [الأنفال:٦٧].فَإِذَا أُسِرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلِلْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا رَآهُ مِنْ قَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ.

الْخَامِسِ- أَنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ،وَالْإِمَامُ مُخَيَّرٌ فِي كُلِّ حَالٍ،رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَقَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمُ ابْنُ عُمَرَ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءٌ،وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَغَيْرِهِمْ.وَهُوَ الِاخْتِيَارُ،لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَالْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ فَعَلُوا كُلَّ ذَلِكَ،قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا،وَفَادَى سَائِرَ أُسَارَى بَدْرٍ،وَمَنَّ عَلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ وَهُوَ أَسِيرٌ فِي يَدِهِ،وَأَخَذَ مِنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ جَارِيَةً فَفَدَى بِهَا أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَهَبَطَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَأَخَذَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ،وَقَدْ مَنَّ عَلَى سَبْيِ هَوَازِنَ.وَهَذَا كُلُّهُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ،وَقَدْ مَضَى جَمِيعُهُ فِي (الْأَنْفَالِ) وَغَيْرِهَا.قَالَ النَّحَّاسُ:وَهَذَا عَلَى أَنَّ الْآيَتَيْنِ مُحْكَمَتَانِ مَعْمُولٌ بِهِمَا،وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ،لِأَنَّ النَّسْخَ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ قَاطِعٍ،فَإِذَا أَمْكَنَ الْعَمَلُ بِالْآيَتَيْنِ فَلَا مَعْنَى لِلْقَوْلِ بِالنَّسْخِ،إِذَا كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ التَّعَبُّدُ إِذَا لَقِينَا الَّذِينَ كَفَرُوا قَتَلْنَاهُمْ،فَإِذَا كَانَ الْأَسْرُ جَازَ الْقَتْلُ وَالِاسْتِرْقَاقُ وَالْمُفَادَاةُ وَالْمَنُّ،عَلَى مَا فِيهِ الصَّلَاحُ لِلْمُسْلِمِينَ.وَهَذَا الْقَوْلُ يُرْوَى عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي عُبَيْدٍ،وَحَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ مَذْهَبًا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ،وَالْمَشْهُورُ عَنْهُ مَا قَدَّمْنَاهُ،وَبِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[٣٥٤٦]

[٣٥٤٦] - تفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٧)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا»[3547].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يَجْتَمِعَانِ فِي النَّارِ اجْتِمَاعًا يَضُرُّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ»،قِيلَ:مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:«مُؤْمِنٌ قَتَلَ كَافِرًا،ثُمَّ سَدَّدَ»[3548]

وقَالَ سَلْمَانُ بْنِ رَبِيعَةَ:قَتَلْت بِسَيْفِي هَذَا مِئَة مُسْتَلْئِم كلهم يَعْبُدُ غَيْرَ الله،مَا قَتَلْتُ مِنْهُمْ رَجُلاً صَبْرًا.[3549]

المستلئم:هو الذى يلبس لأمته.واللأمة هي الدرع والمغفر ونحوهما،وقد ولى عمر بن الخطاب وسَلْمَانُ بْنُ رَبِيعَةَ الْبَاهِلِيُّ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ،وَلَيْسَ لَهُ صُحْبَةٌ،هُوَ أَوَّلُ مَنْ قَضَى بِالْكُوفَةِ،ثُمَّ قَضَى بِالْمَدَائِنِ،قُتِلَ بِبَلْفَجْرِ،فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،رَوَى عَنْهُ أَبُو وَائِلٍ[3550].

قِيْلَ:كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى أُمَرَاءِ الجَيْشِ لاَ تَسْتَعْمِلُوا البَرَاءَ عَلَى جَيْشٍ فَإِنَّهُ مَهْلَكَةٌ مِنَ المَهَالِكِ يَقْدَمُ بِهِم.وَبَلَغَنَا أَنَّ البَرَاءَ يَوْمَ حَرْبِ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أن يحملوه عَلَى تُرْسٍ عَلَى أَسِنَّةِ رِمَاحِهِم وَيُلْقُوْهُ فِي الحَدِيْقَةِ فَاقْتَحَمَ إِلَيْهِم وَشَدَّ عَلَيْهِم وَقَاتَلَ حَتَّى افْتَتَحَ بَابَ الحَدِيْقَةِ.فَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ بِضْعَةً وَثَمَانِيْنَ جُرْحاً وَلِذَلِكَ أَقَامَ خَالِدُ بنُ الوَلِيْدِ عَلَيْهِ شَهْراً يُدَاوِي جِرَاحَهُ.وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ البَرَاءَ قَتَلَ فِي حُرُوْبِهِ مَائَةَ نَفْسٍ مِنَ الشُّجْعَانِ مُبَارَزَةً.[3551]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ،مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» وَإِنَّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَقَالُوا لَهُ:يَا بَرَاءُ،إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّكَ»،،فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ،قَالَ:أُقْسِمُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ،فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ،ثُمَّ الْتَقَوْا عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ،فَأَوْجَعُوا

[3547] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥) ١٣٠ - (١٨٩١)

[3548] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥)١٣١ - (١٨٩١) [ش (سدد) معناه استقام على الطريقة المثلى و لم يخلط]

[3549] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣١٨)(١٩٨١٢) صحيح

[3550] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٣٣٣)

[3551] - سير أعلام النبلاء ط الحديث (٣/ ١٢٥)

فِي الْمُسْلِمِينَ،فَقَالُوا:أَقْسِمْ يَا بَرَاءُ عَلَى رَبِّكَ.قَالَ:أُقْسِمُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ وَرَزَقْتَنِي الشَّهَادَةَ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا"[٣٥٥٢]

٣٦- معية الله للمجاهدين بالنصر والتأييد:

اعلم أن معية الله لعباده نوعان:

الأولى؛معية عامة:وهي معية الإحاطة والعلم،وهذه معية عامة شاملة،تشمل المسلمين والكفار جميعاً،فالله يعلم ما يفعله عباده،وهو محيط بهم سبحانه،ومما يدل على هذه المعية قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد:٤].

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ خَلْقاً مُبْتَداً وَدَبَّرَهُنَّ،وَخَلَقَ مَا فِيهِنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (وَهَذِهِ الأَيَّامُ لاَ يَعْرِفُ كُنْهَهَا أَحَدٌ،وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا)،وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَدْخُلُ فِي الأَرْضِ مِنْ خَلْقٍ،وَمَا يَنْزِل فِيهَا مِنْ حَبَّاتِ المَطَرِ،وَالحَبِّ وَالنَّوْرِ...وَيَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ مِنْ زَرْعٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ وَمَعَادِنَ وَمَاءٍ...وَيَعْلَمُ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَطَرٍ وَغَيْرِهِ،وَيَعْلَمُ مَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الأَرْضِ (يَعْرُجُ فِيهَا) كَالأَبْخِرَةِ المُتَصاعِدَةِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ..وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِ العِبَادِ،وَنِيَّاتِهِمْ،أَيْنَمَا كَانُوا،وَيَعْلَمُ مُتَقَلَّبَهُمْ وَمَثْوَاهُمْ.[٣٥٥٣]

الثانية؛معية خاصة:وهي معية المعونة والنصر والتأييد والكفاية،وهي خاصة بالمؤمنين العابدين الصالحين.ومما يدل على هذه المعية قوله تعالى:{ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة:٤٠] وَمَعْنَى" إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" أَيْ بِالنَّصْرِ

[٣٥٥٢] - الاعتقاد للبيهقي (ص:٣١٥) صحيح

[٣٥٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٥٨،بترقيم الشاملة آليا)

وَالرِّعَايَة وَالْحفْظ وَالْكلَاءَة.قَالَ الْمُحَاسبيُّ:يَعْني مَعَهُمَا بالنَّصْرِ وَالدِّفَاعِ،لَا عَلَى مَعْنَى مَا عَمَّ به الْخَلَائقَ،فَقَالَ:" مَا يَكُونُ منْ نَجْوى ثَلاثَة إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ" [المجادلة:٧].فَمَعْنَاهُ الْعُمُومُ أَنَّهُ يَسْمَعُ وَيَرَى منَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمنينَ.[٣٥٥٤]

وقوله تعالى:{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٥].

فَلا تَضْعُفُوا يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ عَنِ الجِهَاد،وَقتَال الكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ،وَلا تَدْعُوا إلى المُهَادَنَة وَالمُسَالَمة وَوَضْعِ القتَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ،وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ الغَالِبُونَ بِقُوَّة الإِيمَانِ،وَاللهُ مَعَكُمْ يَنْصُرُكُمْ عَلَيهِم،وَلاَ يَظْلمُكُمْ شَيْئاً مِنْ ثواب أعْمَالِكُمْ.[٣٥٥٥]

قال تعالى:{فَلا تَهِنُوا} أي:لا تضعفوا عن قتال عدوكم،ويستولي عليكم الخوف،بل اصبروا واثبتوا،ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد،طلبا لمرضاة ربكم،ونصحا للإسلام،وإغضابا للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم،طلبا للراحة،{و} الحال أنكم {أنتم الأعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ} أي:ينقصكم {أَعْمَالكُم}

فهذه الأمور الثلاثة،كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين،أي:قد توفرت لهم أسباب النصر،ووعدوا من الله بالوعد الصادق،فإن الإنسان،لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددا،وعددا،وقوة داخلية وخارجية.

الثاني:أن الله معهم،فإنهم مؤمنون،والله مع المؤمنين،بالعون،والنصر،والتأييد،وذلك موجب لقوة قلوبهم،وإقدامهم على عدوهم.

الثالث:أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئا،بل سيوفيهم أجورهم،ويزيدهم من فضله،خصوصا عبادة الجهاد،فإن النفقة تضاعف فيه،إلى سبع مائة ضعف،إلى أضعاف كثيرة،وقال تعالى:{ذَلكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ

[٣٥٥٤] - تفسير القرطبي (٨/ ١٤٦)

[٣٥٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٥٩،بترقيم الشاملة آليا)

اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده،أوجب له ذلك النشاط،وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب،فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام،فهذا من ترغيب الله لعباده،وتنشيطهم،وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.[٣٥٥٦]

وهذه المعية الخاصة منوطة بالعبودية الخاصة من شوائب المخالفات! فمن كان عبداً لله حقاً فلا غالب له،لان الله معه،وهو ناصره ومؤيده.قال تعالى:{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:١١].

ومتى أخل المجاهد بشي من صفات العبودية،أو تجرد عن شي من مظاهر الإيمان،وصار مشابهاً للأعداء بوجه من وجوه الشبه،وهذا يؤدي إلى شيء من الظلام والران على قلبه،ويؤدي إلى إصابته بشيء من الرعب والجبن والذلة والخذلان،وبقدر عظم المخالفة وصغرها يكون تأثير هذه الصفقة الذميمة فيه،وبذلك لا ينال النصر والظفر.

فعَنِ السُّدِّيِّ:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} [التوبة:٢٥] الْآيَةَ:إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ،وَأَعْجَبَتْهُ كَثْرَةُ النَّاسِ،وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا.فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَوُكِّلُوا إِلَى كَلِمَةِ الرَّجُلِ،فَانْهَزَمُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،غَيْرَ الْعَبَّاسِ وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ وَأَيْمَنَ ابْنِ أُمِّ أَيْمَنَ،قُتِلَ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ يَدَيْهِ.فَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَيْنَ الْأَنْصَارُ؟ أَيْنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ؟» فَتَرَاجَعَ النَّاسُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِالنَّصْرِ،فَهَزَمُوا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ،وَذَلِكَ قَوْلُهُ:{ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة:٢٦] الْآيَةَ[٣٥٥٧].

[٣٥٥٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٩٠)

[٣٥٥٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٣٨٩) صحيح مرسل

وقال تعالى عما حصل يوم أحد:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [آل عمران:١٥٥]

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا،فَقَالَ:«يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ،احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ،إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ،وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[٣٥٥٨].

وقد كان المجاهدون السابقون حذرين من الذنوب والمعاصي،لأنهم يعلمون أثرها السيء على سير المعركة،وإنها قد تقود للهزيمة.[٣٥٥٩].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٥٥٨] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٧) (٢٥١٦) صحيح

[٣٥٥٩] - انظر :تهذيب مشارع العشاق (ص:٥٦)

الباب الثاني والعشرون

الترغيب في سؤال الشهادة والحرص عليها

المبحث الأول

من خرج مجاهداً فمات من غير قتال فهو شهيد

قال الله تعالى:{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)} [آل عمران]

فَالَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَصْرِ دِينِهِ،أَوْ يَمُوتُونَ فِي أَثْنَاءِ الجِهَادِ،سَيَجِدُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ مَغْفِرَةً تَمْحُو مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ،وَرَحْمَةً وَرِضْوَاناً خَيْراً مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الكُفَّارُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ فِي هَذِهِ الدُّنيا الفَانِيةِ،فَهَذَا ظِلٌّ زَائِلٌ،وَذَاكَ نَعِيمٌ خَالِدٌ.وَبِأيِّ سَبَبٍ كَانَ هَلاَكُكُمْ،فَإِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إلى اللهِ لِيَجْزِيَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَ،فَآثِرُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ،وَيُحَقِّقُ لَكَ رِضَاهُ،فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.[٣٥٦٠]

وقال تعالى:{ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء:١٠٠]

يُحَرِّضُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَلَى الهِجْرَةِ،وَيُرَغِّبُهُمْ فِي مُفَارَقَةِ المُشْرِكِينَ،وَيُعْلِمُهُمْ أنَّ المُؤْمِنِينَ حَيْثُمَا ذَهَبُوا وَجَدُوا أَمَاكِنَ أَمْنٍ يَلْجَؤُونَ إِلَيها،وَيَتَحَصَّنُونَ بِها مِنَ المُشْرِكِينَ،وَيَتَحَرَّرُونَ فِيها مِنَ الأَعْدَاءِ،وَيُرَاغِمُونَهُم بِها،وَيَجِدُونَ سَعَةً فِي الرِّزْقِ.وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ بِنِيَّةِ الهِجْرَةِ فَيَلْقَى حَتْفَهُ فِي الطَّرِيقِ،فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الثَّوَابُ عِنْدَ اللهِ،مِثْلَ ثَوابِ مَنْ هَاجَرَ.[٣٥٦١]

[٣٥٦٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٥٦١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٣،بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) } [الحج:٥٨،٥٩].

والذينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى،ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِه،وَطَلَباً لِمَا عِنْدَهُ مِنْ أَجْرٍ وَثَوَابٍ،وَتَرَكُوا الأَهْلَ والأَوْطَانَ،ثُمَّ قُتِلُوا وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ مَاتُوا فِي مَهْجَرِهِم حَتْفَ أَنْفِهِم،فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُمْ عَلَى اللهِ،وَسَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُم الجَزَاءَ الأَوْفَى،وَسَيُجْرِي عَلَيْهِم مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ فِي الجَنَّةِ لِتَقَرَّ عُيُونُهُمْ،واللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ،فَهُوَ تَعَالَى يَرْزُقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَسَيُدْخِلُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ المُهَاجِرينَ الذينَ عَمِلوا الصَّالِحَاتِ الجَنَّةَ (وهِي المُدْخَلُ الذي يَرْضَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ)،واللهُ عَلِيم بِمَنْ هَاجَرَ وجَاهَدَ فِي سَبِيلِه،وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الجَزَاءَ الحَسَنَ،وَهُوَ حَلِيمٌ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ،وَيَصْفَحُ عَنِ السَّيِّئَاتِ.[٣٥٦٢]

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ،كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ،وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ،بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[٣٥٦٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الْقَانِتِ الصَّائِمِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ صَلَاةً وَلَا صِيَامًا،حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِهِ بِمَا يَرْجِعُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ غَنِيمَةٍ أَوْ أَجْرٍ أَوْ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ»[٣٥٦٤]

[٣٥٦٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٣٣،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٥٦٣] - صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨)١١٠ - (١٨٧٨)

[ش (أعلم بمن يجاهد في سبيله) الله أعلم بنيته إن كانت خالصة لإعلاء كلمته.(كمثل الصائم القائم) من حيث الأجر والمترلة لأنه مثله في حبس نفسه عن شهواتها.(توكل) ضمن وتكفل على وجه التفضل منه سبحانه.(مع أجر) وحده إذا لم توجد غنيمة.(أو غنيمة) إن وجدت مع تحقيق الأجر]

[٣٥٦٤] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٨٢)(٤٦٢٢) صحيح

وروى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،قَالَ:«إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ»،قَالُوا:فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:«مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ،وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ»،قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ:أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ:«وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ»[٣٥٦٥].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" خَمْسٌ مَنْ قُبِضَ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ فَهُوَ شَهِيدٌ:الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ،وَالْغَرِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ،وَالْمَبْطُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ،وَالْمَطْعُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ،وَالنُّفَسَاءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ "[٣٥٦٦]

فمن قتل في سبيل الله فهو شهيد،ومن خرج للجهاد فمات في سبيل الله قبل حضور المعركة فهو شهيد.

" دَلَّ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ:أَنَّ الْمَذْكُورِينَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَدْ ذَكَرْنَاهُ قَبْلَهُ بِالشَّهَادَةِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ،هُمُ الَّذِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَسَبِيلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ طَاعَاتُهُ،فَمَنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا،فَأَصَابَهُ شَيْءٌ مِمَّا فِي هَذِهِ الْآثَارِ،كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا مَا وَعَدَهُمْ،وَمَنْ كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ،لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ،وَقَدْ وَكَّدَ ذَلِكَ،وَكَشَفَ مَعْنَاهُ،مَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ،فعَنِ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ:قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْغَنِيمَةِ،أَوْ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ:" مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ أَعْلَى،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "

فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَنَّ الْمُقَاتِلَ لَا يَسْتَحِقُّ الشَّهَادَةَ بِقِتَالِهِ،حَتَّى يَكُونَ مَعَهُ فِي نِيَّتِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ أَعْلَى،كَمَا ذُكِرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ،وَقَدْ شَدَّ ذَلِكَ أَيْضًا حَدِيثُهُ الْآخَرُ،وَهُوَ قَوْلُهُ:" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ،وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى "

[٣٥٦٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢١) ١٦٥ - (١٩١٥)

[٣٥٦٦] - سنن النسائي (٦/ ٣٧) (٣١٦٣) صحيح

فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَنَّ الْأَعْمَالَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالنِّيَّةِ،وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ لِامْرِئٍ مَا نَــوَى،ثُمَّ أَخْبَرَ فِي الْهِجْرَةِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ فِيهَا،وَهِيَ الْهِجْرَةُ إِلَيْهِ،فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُسْتَحَقُّ بِهَا مَا يُطْلَــبُ بِهَا إِلَّا بِالنِّيَّةِ لِذَلِكَ،لِأَنَّهَا نَفْسُهَا،فَمِثْلُ ذَلِكَ مَا سِوَاهَا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآثَارِ،لَا تُسْتَحَقُّ بِالْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِيهَا،حَتَّى تَكُونَ مَعَهَا النِّيَّةُ الَّتِي أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهَا تُسْتَحَقُّ بِهَا وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ما جــاء عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ،وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَعَهُ النِّيَّةُ فِــي تَمَنِّيــهِ الشَّهَادَةَ،كَانَ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِهَا،وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ الْقَتْلُ بِهَا،وَلَا مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآثَارِ،وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِ الْآثَارَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ،وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[3567]

وقد ذهب بعض العلمــاء إلى أن الاثــنين سواء،يســتويان في الشــهادة وفي الأجــر والثواب.ولكن الراجح أهما لا يستويان،فهناك فرق بين من قتل في سبيل الله ومن مات في سبيل الله.

ولا شك أن المقتول في سبيل الله أفضل من الميت في سبيل الله.

ومن الفروق بينهما:

- للمقتول في سبيل الله مزية وفضل على الميت في سبيل الله لما أصابه من القتل.

عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُــولَ اللَّــهِ،أَيُّ الْجِهَــادِ أَفْضَــلُ؟ قَــالَ:«أَنْ يُعْقَــرَ جَوَادُكَ،وَيُهْرَاقَ دَمُكَ». [3568].

- الميت يسمى ميتاً،وإن كان له مثل أجر الشهيد،والمقتول لا يسمى ميتاً،بــل يســمى شهيداً.وقد نهى الله عن تسمية الشهداء أمواتاً.فقال تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَــلُ فِــي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } [البقرة:١٥٤].

[3567] - شرح مشكل الآثار (١٣/ ١٠٥)

[3568] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٩٦) (٤٦٣٩) صحيح

- للمقتول ثواب ما أصابه من الجراح في سبيل الله،حيث تأتي يـوم القيامـة تتفجـر دماً،اللون لون الدم والريح ريح المسك،والميت لم ينل ذلك!

- المقتول في سبيل الله يتمنى الرجعة إلى الدنيا،ليقتل في سبيل الله مرة ثانية،لما رأى مـن ثواب القتل.والميت في سبيل الله لا يتمنى ذلك.

روى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ،لَهَـا عِنْـدَ اللهِ خَيْرٌ،يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا،وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،إِلَّا الشَّـهِيدُ،فَإِنَّهُ يَتَمَنَّـى أَنْ يَرْجِعَ،فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»[٣٥٦٩] .

- القتل في سبيل الله يكفر كل ذنب،والموت في سبيل الله لا يكفر كل ذنب.

- الميت في سبيل الله يصلَّى عليه،والمقتول في سبيل الله لا يغسل ولا يصلَّى عليه علـى خلاف في ذلك.

- المقتول في سبيل الله روحه في جوف طيرٍ أخضر في الجنة،وليس كذلك الميت في سبيل الله.

- المقتول في سبيل الله يأمن من فتنة القبر،وليس كذلك الميت.

- المقتول في سبيل الله يشفع في الآخرين،وليس كذلك الميت.

- المقتول في سبيل الله يرى الحور العين قبل أن يجف دمه،وليس كذلك الميت في سـبيل الله.[٣٥٧٠] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٥٦٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨) ١٠٨ - (١٨٧٧)

[٣٥٧٠] - تهذيب مشارع العشاق (ص:٦٦)

المبحث الثاني

الترغيب في سؤال الشهادة والحرص عليها

فرض الله على المسلمين أن يسألوه في كل صلاة هدايتهم إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) } [الفاتحة:٦،٧].

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)} [النساء:٦٩،٧٠].

روى مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ،بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ،وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[٣٥٧١].

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانًا بِي،وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ،لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ،وَرِيحُهُ مِسْكٌ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[٣٥٧٢].

[٣٥٧١] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧)١٥٧ - (١٩٠٩)

[٣٥٧٢] - صحيح البخاري (١/ ١٦) (٣٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٥) ١٠٣ - (١٨٧٦)

[ش (تضمن الله) وفي الرواية الأخرى تكفل الله ومعناهما أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة} الآية(إلا جهادا في سبيلي) هكذا هو في جميع النسخ جهادا بالنصب وكذا قال بعده وإيمانا بي وتصديقا وهو منصوب على أن لا مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج ويحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق ومعناه لا يخرجه إلا محض الإيمان

وعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى الْجَرَّاحِ وَعِنْدَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ،فَإِذَا بِهِ قَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا،فَمَكَثَ طَوِيلا،ثُمَّ قَالَ لِي:يَا أَبَا يَحْيَى،تَدْرِي مَا كُنَّا فِيهِ؟ قُلْتُ:لا،قَالَ:سَأَلْنَا اللَّهَ الشَّهَادَةَ.فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُمْ أحدٌ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ إِلا اسْتُشْهِدَ،قَالَ:فَبَعَثَ الْجَرَّاحُ إِلَى الأُمَرَاءِ أَنْ يَنْضَمُّوا إِلَيْهِ حِينَ دُهِمُوا فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ.[٣٥٧٣].

وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ:كَانَ مِنَّا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْأَسْوَدَ بْنَ كُلْثُومٍ،وَكَانَ إِذَا مَشَى لَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ قَدَمَهُ،وَكَانَ يَمُرُّ وَفِي الْجُدُرِ يَوْمَئِذٍ قِصَرٌ بِالنِّسْوَةِ وَلَعَلَّ إِحْدَاهُنَّ تَكُونُ وَاضِعًا يَعْنِي ثَوْبَهَا أَوْ خِمَارَهَا فَإِذَا رَأَيْنَهُ رَاعَهُنَّ ثُمَّ يَقُلْنَ:كَلَّا إِنَّهُ أَسْوَدُ بْنُ كُلْثُومٍ فَلَمَّا قَرُبَ غَازِيًا قَالَ:اللَّهُمَّ إِنَّ نَفْسِي هَذِهِ تَزْعُمُ فِي الرَّخَاءِ أَنَّهَا تُحِبُّ لِقَاءَكَ فَإِنْ كَانَتْ صَادِقَةً فَارْزُقْهَا ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ كَارِهَةً،قَالَ إِسْمَاعِيلُ:فَاحْمِلْهَا عَلَيْهِ،وَقَالَ مَرَّةً:فَارْزُقْهَا ذَلِكَ وَإِنْ كَرِهَتْ،وَأَطْعِمْ لَحْمِي سِبَاعًا وَطَيْرًا فَانْطَلَقَ فِي جَبَلٍ فَدَخَلُوا حَائِطًا فَنَذَرَ بِهِمُ الْعَدُوُّ،فَجَاءُوا فَأَخَذُوا بِثَلْمَةِ فِي الْحَائِطِ فَنَزَلَ الْأَسْوَدُ عَنْ فَرَسٍ فَضَرَبَهَا حَتَّى غَارَتْ فَخَرَجَتْ وَأَتَى الْمَاءَ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قَالَ:يَقُولُ الْعَجَمُ:هَكَذَا اسْتِسْلَامُ الْعَرَبِ إِذَا اسْتَسْلَمُوا ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ:فَمَرَّ عِظَمُ الْجَيْشِ بَعْدَ ذَلِكَ بِذَلِكَ الْحَائِطِ،فَقِيلَ لِأَخِيهِ:لَوْ دَخَلْتَ فَنَظَرْتَ مَا بَقِيَ مِنْ عِظَامِ أَخِيكَ وَلَحْمِهِ قَالَ:لَا دَعَا أَخِي بِدُعَاءٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ فَلَسْتُ أَعْرِضُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ "[٣٥٧٤].

والإخلاص لله تعالى(نائلا ما نال من أجر) قالوا معناه ما حصل له من الأجر بلا غنيمة إن لم يغنموا أو من الأجر والغنيمة معا إن غنموا وقيل إن أو هنا بمعنى الواو أي من أجر أو غنيمة ومعنى الحديث أن الله تعالى ضمن أن الخارج للجهاد ينال خيرا بكل حال فإما أن يستشهد فيدخل الجنة وإما أن يرجع بأجر وإما أن يرجع بأجر وغنيمة(ما من كلم يكلم في سبيل الله) أما الكلم فهو الجرح ويكلم أي يجرح والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى(خلاف سرية) أي خلفها وبعدها(لا أجد سعة فأحملهم) أي ليس لي من سعة الرزق ما أجد به لهم دواب فأحملهم عليها(ولا يجدون سعة) فيه حذف يدل عليه ما ذكر قبله أي ولا يجدون سعة يجدون بها من الدواب ما يحملهم ليتبعوني ويكونوا معي(ويشق عليهم أن يتخلفوا عني) أي ويوقعهم تأخرهم عني في المشقة يعني يصعب عليهم ذلك]

[٣٥٧٣] - تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٢١٧) حسن

[٣٥٧٤] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٦٩)(١١٥٣) و حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٥٥) صحيح

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:" يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،فَيُقَالُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟،فَيَقُولُ:أَرَى خَيْرَ مَنْزِلٍ،فَيُقَالُ لَهُ:سَلْ،وَتَمَنَّ،فَيَقُولُ:مَا أَسْأَلُكَ؟،وَمَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا،فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ،لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ "[٣٥٧٥].

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" يُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ:يَا ابْنَ آدَمَ،كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،خَيْرَ مَنْزِلٍ.فَيَقُولُ لَهُ:سَلْ وَتَمَنَّهْ.فَيَقُولُ:مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلُ عَشْرَ مَرَّاتٍ،لَمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ،وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ:ابْنَ آدَمَ،كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،شَرَّ مَنْزِلٍ،مَرَّاتٍ.أَتَفْتَدِي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ:نَعَمْ،أَيْ رَبِّ.فَيَقُولُ:كَذَبْتَ:قَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا،فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ "[٣٥٧٦]

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ،قَالَ:" لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَفَعَ حِسْلٌ – وَهُوَ الْيَمَانُ أَبُو حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ – وَثَابِتُ بْنُ وَقْشِ بْنِ زَعُورَاءَ،فِي الْآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ – وَهُمَا شَيْخَانِ –:لَا أَبَا لَكَ،مَا تَنْتَظِرُ ؟ فَوَاللهِ مَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا إِلَّا كَظَمَأِ حِمَارٍ،إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةٌ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا،فَلَا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا،ثُمَّ نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الشَّهَادَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.فَأَخَذَا أَسْيَافَهُمَا حَتَّى دَخَلَا فِي النَّاسِ،وَلَا يُعْلَمُ بِهِمَا،فَأَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ،وَأَمَّا حِسْلٌ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُ الْمُسْلِمِينَ،وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ،فَقَتَلُوهُ "[٣٥٧٧]

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ،قَالَ:" لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَفَعَ حُسَيْلَ بْنَ جَابِرٍ،وَهُوَ الْيَمَانُ أَبُو حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ،وَثَابِتَ بْنَ وَقْشِ بْنِ زَعُورَاءَ فِي الْآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ وَهُمَا شَيْخَانِ:لَا أَبَا لَكَ مَا تَنْظُرُ فَوَاللهِ مَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا كَظَمَإِ حِمَارٍ،إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةٌ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا أَفَلَا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا ثُمَّ نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ،لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الشَّهَادَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَخَذَا أَسْيَافَهُمَا،ثُمَّ خَرَجَا حَتَّى دَخَلَا

[٣٥٧٥] – مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٥٨)(٧٣٣٠) صحيح

[٣٥٧٦] – مسند أبي يعلى الموصلي (٦/ ٢١٥)(٣٤٩٧) صحيح

[٣٥٧٧] – معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٤٦٦) (١٣٣١) صحيح

فِي النَّاسِ،وَلَا يُعْلَمُ بِهِمَا،فَأَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ وَأَمَّا حُسَيْلُ بْـنُ جَـابِرٍ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ فَقَتَلُوهُ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَبِي.فَقَالُوا:وَاللهِ إِنْ عَرَفْنَاهُ،وَصَدَقُوا.فَقَالَ حُذَيْفَةُ:يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ،فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَدِيَهُ فَتَصَدَّقَ حُذَيْفَةُ بِدِيَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَزَادَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَيْرًا "[٣٥٧٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٥٧٨] - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٨٨٩)(٢٢٩٨) صحيح

المبحث الثالث

فضل الشهيد المقتول في سبيل الله

١- مع النبيين والصديقين والصالحين يوم القيامة:

قال تعالى:{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)} [النساء:٦٩،٧٠]

وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ،وَعَمِلَ بِمَا أَمَرا بِهِ،وَانْتَهَى عَمَّا نَهَيَا عَنْهُ،فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِه،وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقاً للأَنْبِيَاءَ،ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ،وَهُمُ الصِّدِّيقُونَ،ثُمَّ الشُّهَدَاءُ،ثُمَّ عُمُومُ المُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الذِينَ صَلُحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلاَنِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةَ هَؤُلاءِ الذِينَ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ.وَالفَوْزُ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ العَظِيمَةِ،مِنْ مُرَافَقَةِ النَّبِيِّينَ،وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ،هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ،وَهُوَ الذِي أَهَّلَهُمْ لِذَلِكَ،وَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ،وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً بِالمُخْلِصِينَ وَبِالمُنَافِقِينَ،وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.[٣٥٧٩]

واختلف العلماء في حكمة تسمية الشهيد شهيداً؛فقيل:سمي بذلك لأنه مشهود له بالجنة.وقيل سمي الشهداء بذلك،لأن أرواحهم شهدت الجنة،وحضرت دار السلام،وهم أحياء عند ربهم.

فالشهيد بمعنى الشاهد،والشاهد هو الحاضر في الجنة.قال القرطبي:(وهذا هو الصحيح).

وإما لأنه شهد على نفسه لله عز وجل،حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايع الله عليها والتي أشار لها قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١١١].

فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد،فسماه الله شهيداً!

[٣٥٧٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

وقال ابن الأنباري:(سمي شهيداً لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة).
وقيل:سمي بذلك لأنه عند خروج روحه،يشهد ما أعد الله له من الثواب والكرامة.وقد من الله على الشهداء بنعم عظيمة،وخصصهم بمآثر جليلة.ومن أعظم هذه النعم والمآثر المزايا أنه جعلهم أحياء عنده،يرزقهم من الجنة حيث شاءوا.

٢- أحياء ولكن لا نشعر بهم:

قال تعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } [البقرة:١٥٤]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَيَقُولُ لَهُمْ:إنَّ الشُهَدَاء الذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ بِغَيرِ حِسَابٍ،وَلكِنَّ الأَحيَاءَ لاَ يَشْعُرُونَ بِذلِكَ،لأَنَّ حَيَاتَهُمْ لَيْسَتْ فِي عَالَمِ الحِسِّ الذِي يُدْرَكُ بِالَمشَاعِرِ.[٣٥٨٠]

لما ذكر تبارك وتعالى،الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه،وهو الجهاد في سبيله،وهو أفضل الطاعات البدنية،وأشقها على النفوس،لمشقته في نفسه،ولكونه مؤديا للقتل،وعدم الحياة،التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها،فكل ما يتصرفون به،فإنه سعى لها،ودفع لما يضادها.ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم،فأخبر تعالى:أن من قتل في سبيله،بأن قاتل في سبيل الله،لتكون كلمة الله هي العليا،ودينه الظاهر،لا لغير ذلك من الأغراض،فإنه لم تفته الحياة المحبوبة،بل حصل له حياة أعظم وأكمل،مما تظنون وتحسبون.
فالشهداء {أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}.فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى،وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة،والرزق الروحي،وهو الفرح،والاستبشار وزوال كل خوف وحزن،وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة

[٣٥٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٦١،بترقيم الشاملة آليا)

الدنيا،بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة،وتأكل من ثمارها،وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.وفي هذه الآية،أعظم حث على الجهاد في سبيل الله،وملازمة الصبر عليه،فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد،ولكن عدم العلم اليقيني التام،هو الذي فتر العزائم،وزاد نوم النائم،وأفات الأجور العظيمة والغنائم،لم لا يكون كذلك والله تعالى قد:{اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}.فوالله لو كان للإنسان ألف نفس،تذهب نفسا فنفسا في سبيل الله،لم يكن عظيما في جانب هذا الأجر العظيم،ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا،حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.[٣٥٨١]

وَالشُّهَدَاءُ أَحْيَاءٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى،وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَيَحْيَوْنَ،إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشُّهَدَاءِ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ فَرْقٌ إِذْ كُلُّ أَحَدٍ سَيَحْيَا.وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى:" وَلكِنْ لَا تَشْعُرُونَ" وَالْمُؤْمِنُونَ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ سَيَحْيَوْنَ.[٣٥٨٢]

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ:وَمَا فِي قَوْلِهِ:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [ص:٧٠١] أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ} [البقرة:١٥٤] مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْخَبَرِ عَنِ الْمَقْتُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَعُمَّ بِهِ غَيْرَهُ؟ وَقَدْ عَلِمْتَ تَظَاهُرَ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ وَصَفَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ،فَأَخْبَرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يُفْتَحُ لَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَبْوَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ يَشُمُّونَ مِنْهَا رُوحَهَا،وَيَسْتَعْجِلُونَ اللَّهَ قِيَامَ السَّاعَةِ لِيَصِيرُوا إِلَى مَسَاكِنِهِمْ مِنْهَا وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهَالِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فِيهَا،وَعَنِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُفْتَحُ لَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَبْوَابٌ إِلَى النَّارِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيُصِيبُهُمْ مِنْ نَتْنِهَا وَمَكْرُوهِهَا،وَيُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ فِيهَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ مَنْ يَقْمَعُهُمْ فِيهَا وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ فِيهَا تَأْخِيرَ قِيَامِ السَّاعَةِ حِذَارًا مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا مَعَ أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ.وَإِذَا كَانَتِ الْأَخْبَارُ بِذَلِكَ مُتَظَاهِرَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَمَا الَّذِي خُصَّ بِهِ الْقَتِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا لَمْ يَعُمَّ بِهِ سَائِرَ الْبَشَرِ غَيْرَهُ مِنَ الْحَيَاةِ

[٣٥٨١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٥)

[٣٥٨٢] - تفسير القرطبي (٢/ ١٧٣)

وَسَائِرَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ غَيْرَهُ أَحْيَاءٌ فِي الْبَرْزَخِ،أَمَا الْكُفَّارُ فَمُعَذَّبُونَ فِيهِ بِالْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ،وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَمُنَعَّمُونَ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ وَنَسِيمِ الْجِنَانِ؟ قِيلَ:إِنَّ الَّذِي خَصَّ اللَّهُ بِهِ الشُّهَدَاءَ فِي ذَلِكَ وَأَفَادَ الْمُؤْمِنِينَ بِخَبَرِهِ عَنْهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ إِعْلَامَهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ مَرْزُوقُونَ مِنْ مَآكِلِ الْجَنَّةِ وَمَطَاعِمِهَا فِي بَرْزَخِهِمْ قَبْلَ بَعْثِهِمْ،وَمُنَعَّمُونَ بِالَّذِي يَنْعَمُ بِهِ دَاخِلُوهَا بَعْدَ الْبَعْثِ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ مِنْ لَذِيذِ مَطَاعِمِهَا الَّذِي لَمْ يُطْعِمْهَا اللَّهُ أَحَدًا غَيْرَهُمْ فِي بَرْزَخِهِ قَبْلَ بَعْثِهِ.فَذَلِكَ هُوَ الْفَضِيلَةُ الَّتِي فَضَّلَهُمْ بِهَا وَخَصَّهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ،وَالْفَائِدَةُ الَّتِي أَفَادَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَبَرِ عَنْهُمْ،فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [آل عمران:١٧٠].[٣٥٨٣]

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق.شهداء في سبيل الله.قتلى أعزاء أحباء.قتلى كراما أزكياء - فالذين يخرجون في سبيل الله،والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق،هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس - هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا.إنهم أحياء.فلا يجوز أن يقال عنهم:أموات.لا يجوز أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور،ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان.إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه.فهم لا بد أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر،وحسبما ترى العين.ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقرر هما هذه النظرة السطحية الظاهرة..إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد.وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع..وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة،والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد،وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد.فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها،وهذه هي صفة الحياة الأولى.فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس.ثم هم أحياء عند ربهم - إما بهذا الاعتبار،وإما باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه.وحسبنا إخبار الله تعالى به:«أَحْيَاءٌ

[٣٥٨٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢/ ٧٠٠)

وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ»..لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود.ولكنهم أحياء.

أحياء.ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى،ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها.فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة.وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء.

أحياء.فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء.أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء.أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم،ولا يتعاظمها الأمر،ولا يهولنا عظم الفداء.

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟ إنهم أولئك الذين يقتلون «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..في سبيل الله وحده،دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله.في سبيل هذا الحق الذي أنزله.في سبيل هذا المنهج الذي شرعه.في سبيل هذا الدين الذي اختاره..في هذا السبيل وحده،لا في أي سبيل آخر،ولا تحت أي شعار آخر،ولا شركة مع هدف أو شعار.وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث،حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر..غير الله..[3584]

٣-أحياء عند ربهم يرزقون:

قال تعالى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [آل عمران:١٦٩ - ١٧١].

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ،وَلَكِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ تُرْزَقُ عِنْدَ اللهِ.

[3584] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٥)

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ:عَلَيهِمْ ألاَّ يَنْخَدِعُوا بِمَا يَقُولُهُ المُنَافِقُونَ،وَمَا يَفْعَلُونَهُ،فَهُمْ يُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنيا عَلَى الآخِرَةِ،لارْتِيَابِهِمْ فِي البَعْثِ وَالحِسَابِ فِي الآخِرَةِ،فَالشُّهَدَاءُ أحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِزْقاً حَسَناً يَعْلَمُهُ هُوَ.

وَيَكُونُ الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ فَرِحِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغَبْطَةِ،التي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيهِمْ،مُسْتَبْشِرِينَ بِإِخْوانِهِمْ الذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ حِينَمَا يَسْتَشْهِدُونَ،لاَ يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ،وَلاَ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ فِي الدُّنيا.

وَهُمْ مُسْتَبْشِرُونَ مِنْ تَلَقِّيهِمْ مَا يُفِيضُهُ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ وَالثَّوَابِ،وَمِنْ يَقِينِهِمْ بِأنَّ اللهَ لاَ يُضَيِّعُ أجْرَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.[٣٥٨٥]

هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم،وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه،وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم،وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة،فقال:{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله} أي:في جهاد أعداء الدين،قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله {أمواتا} أي:لا يخطر ببالك وحسبانك أهم ماتوا وفقدوا،وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرقما،الذي يحذر من فواته،من جبن عن القتال،وزهد في الشهادة.{بل} قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون.فهم {أحياء عند ربهم} في دار كرامته.ولفظ:{عند ربهم} يقتضي علو درجتهم،وقربهم من ربهم،{يرزقون} من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه،إلا من أنعم به عليهم،ومع هذا {فرحين بما آتاهم الله من فضله} أي:مغتبطين بذلك،قد قرت به عيوهم،وفرحت به نفوسهم،وذلك لحسنه وكثرته،وعظمته،وكمال اللذة في الوصول إليه،وعدم المنغص،فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق،ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله:فتم لهم النعيم والسرور،وجعلوا {يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم} أي:يبشر بعضهم بعضا،بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم،وأنهم سينالون ما نالوا،{ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} أي:يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور{يستبشرون بنعمة من الله وفضل} أي:يهنئ بعضهم

[٣٥٨٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٢،بترقيم الشاملة آليا)

بعضا،بأعظم مهنأ به،وهو:نعمة ربهم،وفضله،وإحسانه،{وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} بل ينميه ويشكره،ويزيده من فضله،ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ،وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم،وفيه تلاقي أرواح أهل الخير،وزيارة بعضهم بعضا،وتبشير بعضهم بعضا.[٣٥٨٦]

والآية نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله،وفارقوا هذه الحياة،وبعدوا عن أعين الناس..أموات..ونص كذلك في إثبات أنهم «أَحْياءٌ»..«عِنْدَ رَبِّهِمْ».ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات،وصف ما لهم من خصائص الحياة.فهم «يُرْزَقُونَ»..

ومع أننا نحن - في هذه الفانية - لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء،إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح..إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة،وما بينهما من انفصال والتئام.وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها وأننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها.لا ننتهي إلى إدراك حقيقي لها وأنه أولى لنا أن ننتظر البيان في شأنها ممن يملك البيان سبحانه وتعالى.

فهؤلاء ناس منا،يقتلون،وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها،ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها.ولكن لأنهم:«قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وتجردوا له من كل الأعراض والأعراض الجزئية الصغيرة واتصلت أرواحهم بالله،فجادوا بأرواحهم في سبيله..لأنهم قتلوا كذلك،فإن الله - سبحانه - يخبرنا في الخبر الصادق،أنهم ليسوا أمواتا.وينهانا أن نحسبهم كذلك،ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده،وأنهم يرزقون.فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء.

ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى:«فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»..

فهم يستقبلون رزق الله بالفرح لأنهم يدركون أنه «مِنْ فَضْلِهِ» عليهم.فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله.فأي شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟

[٣٥٨٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٦)

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم وهم مستبشرون لهم لما علموه من رضى الله عن المؤمنين المجاهدين:«وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ،وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

للشهداء – الذين قتلوا في سبيل الله؟ – وما الذي يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم؟ وما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس،عن هذه الرحلة إلى جوار الله،مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة! إنها تعديل كامل لمفهوم الموت – متى كان في سبيل الله – وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم،وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم.وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها،بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة،كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة.وحيث تستقر في مجال فسيح عريض،لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة،ومن حياة إلى حياة![٣٥٨٧]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[٣٥٨٨].

وقد اختلف العلماء في معنى حياة الشهداء:

قال القرطبي:أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا عَنِ الشُّهَدَاءِ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ يُرْزَقُونَ،وَلَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مَاتُوا وَأَنَّ أَجْسَادَهُمْ فِي التُّرَابِ،وَأَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ كَأَرْوَاحِ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ،وَفُضِّلُوا بِالرِّزْقِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ وَقْتِ الْقَتْلِ حَتَّى كَأَنَّ حَيَاةَ الدُّنْيَا دَائِمَةٌ لَهُمْ.وَقَد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْمَعْنَى.فَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُعْظَمُ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ،وَأَنَّ حَيَاةَ الشُّهَدَاءِ مُحَقَّقَةٌ.ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ:تُرَدُّ إِلَيْهِمُ الْأَرْوَاحُ فِي قُبُورِهِمْ فَيُنَعَّمُونَ،كَمَا يَحْيَا الْكُفَّارُ فِي قُبُورِهِمْ فَيُعَذَّبُونَ.وَقَالَ مُجَاهِدٌ:يُرْزَقُونَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ،أَيْ يَجِدُونَ رِيحَهَا وَلَيْسُوا فِيهَا.وَصَارَ قَوْمٌ

[٣٥٨٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٢٩)

[٣٥٨٨] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٥١٥)(٤٦٥٨) صحيح

إِلَى أَنَّ هَذَا مَجَازٌ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ فِي حُكْمِ اللَّهِ مُسْتَحِقُّونَ لِلتَّنَعُّمِ فِي الْجَنَّةِ.وَهُوَ كَمَا يُقَالُ:مَا مَاتَ فُلَانٌ،أَيْ ذِكْرُهُ حَيٌّ،كَمَا قِيلَ:

مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا...قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

فالمعنى أهم يرزقون الشاء الْجَمِيلَ.وَقَالَ آخَرُونَ:أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ وَأَنَّهُمْ يُرْزَقُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَأْكُلُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ.وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْأَقْوَالِ،لِأَنَّ مَا صَحَّ بِهِ النَّقْلُ فَهُوَ الْوَاقِعُ.وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ نَصٌّ يَرْفَعُ الْخِلَافَ[3589]..

والشهداء ليسوا على رتبةٍ واحدة عند الله،فهم متفاوتون في المكانة،ومتفاوتون في المكان.وسبب ذلك التفاوت هو تفاوقم في درجات إخلاصهم،وسماحة أنفسهم بأنفسهم،وتفاوقم في ما كانوا عليه قبل الاستشهاد من الأعمال الصالحة:

- من الشهداء من تكون روحه في جوف طير أخضر،يرعى في الجنة حيث شاء،ثم يأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش!

- ومن الشهداء من يكون على بارق نهر بباب الجنة،يأتيهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً!

- ومن الشهداء من يطير مع الملائكة في الجنة حيث يشاء!

- ومن الشهداء من يكون على أسرةٍ في الجنة!

- وإن الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؛عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ،أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْجَمُوحِ،وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ،ثُمَّ السُّلَمِيَّيْنِ،كَانَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ،وَكَانَا مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ،وَكَانَ قَبْرُهُمَا مِمَّا يَلِي السَّيْلَ،فَحُفِرَ عَنْهُمَا لِيُغَيَّرَا مِنْ مَكَانِهِمَا،فَوُجِدَا لَمْ يَتَغَيَّرَا كَأَنَّمَا مَاتَا بِالْأَمْسِ،وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَدْ جُرِحَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جُرْحِهِ،فَدُفِنَ وَهُوَ كَذَلِكَ،فَأُمِيطَتْ يَدُهُ عَنْ جُرْحِهِ ثُمَّ أُرْسِلَتْ،فَرَجَعَتْ كَمَا كَانَتْ.وَكَانَ بَيْنَ يَوْمِ أُحُدٍ وَيَوْمَ حُفِرَ عَنْهُمَا سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً "[3590]

[3589] - تفسير القرطبي (٤/ ٢٦٩)

[3590] - تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ١٢٨) وموطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٧٠)(٤٩) صحيح مرسل

وعَنْ جَابرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمَّا خَرَجَ لِدَفْنِ شُهَدَاءِ أُحُدٍ قَالَ:زَمِّلُوهُمْ بِجِرَاحِهِمْ فَإِنِّي أَنَا الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ.مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسِيلُ دَمًا اللَّوْنُ لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ].قَالَ جَابِرٌ:وَكُفِّنَ أَبِي فِي نَمِرَةٍ وَاحِدَةٍ وكان يقول.ص:أَيُّ هَؤُلاءِ كَانَ أَكْثَرَ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى الرَّجُلِ قَالَ:قَدِّمُوهُ فِي اللَّحْدِ قَبْلَ صَاحِبِهِ.قَالُوا وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَوَّلَ قَتِيلٍ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ.قَتَلَهُ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ أَبُو أَبِي الأَعْوَرِ السُّلَمِيُّ.فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – قبل الهزيمة [وقال رسول الله.ص:ادْفِنُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو وَعَمْرَو بْنَ الْجَمُوحِ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الصَّفَاءِ.وَقَالَ:ادْفِنُوا هَذَيْنِ الْمُتَحَابَّيْنِ فِي الدُّنْيَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ].قَالَ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَجُلا أَحْمَرَ أَصْلَعَ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ.وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ رَجُلا طَوِيلا فَعُرِفَا فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.وَكَانَ قَبْرُهُمَا مِمَّا يَلِي الْمَسِيلَ فَدَخَلَهُ السَّيْلُ فَحُفِرَ عَنْهُمَا وَعَلَيْهِمَا نَمِرَتَانِ وَعَبْدُ اللَّهِ قَدْ أَصَابَهُ جُرْحٌ فِي وَجْهِهِ فَيَدُهُ عَلَى جُرْحِهِ فَأُمِيطَتْ يَدَهُ عَنْ جُرْحِهِ فَانْبَعَثَ الدَّمُ فَرُدَّتْ يَدُهُ إِلَى مَكَانِهَا فَسَكَنَ الدَّمُ.قَالَ جَابِرٌ:فَرَأَيْتُ أَبِي فِي حُفْرَتِهِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ وَمَا تَغَيَّرَ مِنْ حَالِهِ قَلِيلٌ وَلا كَثِيرٌ.فَقِيلَ لَهُ:فَرَأَيْتَ أَكْفَانَهُ؟ قَالَ:إِنَّمَا كُفِّنَ فِي نَمِرَةٍ خُمِرَ بِهَا وَجْهُهُ وَجُعِلَ عَلَى رِجْلَيْهِ الْحَرْمَلُ فَوَجَدْنَا النَّمِرَةَ كَمَا هِيَ وَالْحَرْمَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ عَلَى هَيْئَتِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً.فَشَاوَرَهُمْ جَابِرٌ فِي أَنْ يُطَيَّبَ بِمِسْكٍ فَأَبَى ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَقَالُوا:لا تُحْدِثُوا شَيْئًا.وَحُوِّلا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَنَاةَ كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِمَا.وَأُخْرِجُوا رِطَابًا يَتَثَنَّوْنَ.[٣٥٩١]

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:صَرَخَ بِنَا إِلَى قَتْلانَا يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ أَجْرَى مُعَاوِيَةُ الْعَيْنَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سنة لينة أجسادهم تتثنى أَطْرَافُهُمْ.[٣٥٩٢]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ لَهُ:إِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ فِي أَوَّلِ مَنْ يُصَابُ غَدًا فَأُوصِيكَ بِبَنَاتِ عَبْدِ اللَّهِ خَيْرًا.فَأُصِيبَ فَجَعَلْنَا الاثْنَيْنِ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ فَدَفَنْتُهُ مَعَ آخَرَ فِي

[٣٥٩١] – الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٤٢٤) صحيح

[٣٥٩٢] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٤٢٤) صحيح

قَبْرٍ فَلَبِثْنَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ.ثُمَّ إِنَّ نَفْسِي لَمْ تَدَعْنِي حَتَّى أَدْفِنَهُ وَحْدَهُ فَاسْتَخْرَجْتُهُ مِنَ الْقَبْرِ فَإِذَا الأَرْضُ لَمْ تَأْكُلْ شَيْئًا مِنْهُ إلا قَلِيلًا مِنْ شَحْمَةِ أُذُنِه.

أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ:أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ أَبِي مَسْلَمَةَ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:دُفِنَ مَعَ أَبِي فِي قَبْرِهِ رَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ فَكَانَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ حَاجَةٌ فَأَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَحَوَّلْتُهُ فَمَا أَنْكَرْتُ مِنْهُ شَيْئًا إلا شَعَرَاتٍ كُنَّ فِي لِحْيَتِهِ مِمَّا يَلِي الأَرْضَ.[٣٥٩٣]

وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء:

إِذَا كَانَ الشَّهِيدُ حَيًّا حُكْمًا فَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ،كَالْحَيِّ حِسًّا.وَقَد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي غُسْلِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ،فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيُّ إِلَى غُسْلِ جَمِيعِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ،إِلَّا قَتِيلَ الْمُعْتَرَكِ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ خَاصَّةً،لِحَدِيثِ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:« ادْفِنُوهُمْ فِي دِمَائِهِمْ» - يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ - وَلَمْ يُغَسِّلْهُمْرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.[٣٥٩٤]

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:«أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلَى أُحُدٍ أَنْ يُنْزَعَ عَنْهُمُ الْحَدِيدُ وَالْجُلُودُ،وَأَنْ يُدْفَنُوا بِدِمَائِهِمْ وَثِيَابِهِمْ».[٣٥٩٥]

وَبِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَالْأَوْزَاعِيُّ ودَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَجَمَاعَةُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ وَابْنُ عُلَيَّةَ.وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنُ:يُغَسَّلُونَ.قَالَ أَحَدُهُمَا:إِنَّمَا لَمْ تُغَسَّلْ شُهَدَاءُ أُحُدٍ لِكَثْرَتِهِمْ وَالشُّغْلِ عَنْ ذَلِكَ.قَالَ أَبُو عُمَرَ:وَلَمْ يَقُلْ بِقَوْلِ سَعِيدٍ وَالْحَسَنِ هَذَا أَحَدٌ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ إِلَّا عُبَيْدُ اللَّهِ بن الحسن العنبري،وليس عَلَيْهِمْ،لِحَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،ثُمَّ يَقُولُ:«أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ»،فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ،وَقَالَ:«أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»،وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ،وَلَمْ يُغَسَّلُوا،وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ"[٣٥٩٦].

[٣٥٩٣] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٣/ ٤٢٥) صحيح

[٣٥٩٤] - صحيح البخاري (٢/ ٩٢)(١٣٤٦)

[٣٥٩٥] - سنن أبي داود (٣/ ١٩٥) (٣١٣٤) ضعيف

[٣٥٩٦] - صحيح البخاري (٢/ ٩١)(١٣٤٣)

وَقَالَ فُقَهَاءُ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَالشَّامِ:يُصَلَّى عَلَيْهِمْ.وَرَوَوْا آثَارًا كَبِيرَةً أَكْثَرُهَا مَرَاسِيلُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى عَلَى حَمْزَةَ وَعَلَى سَائِرِ شُهَدَاءِ أُحُد.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ إِذَا حُمِلَ حَيًّا وَلَمْ يَمُتْ فِي الْمُعْتَرَكِ وَعَاشَ وَأَكَلَ فَإِنَّهُ يُصَلَّى عَلَيْهِ،كَمَا قَدْ صُنِعَ بِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا كَقَتِيلِ الْخَوَارِجِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَشِبْهِ ذَلِكَ،فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيُّ:كُلُّ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا لَمْ يُغَسَّلْ،وَلَكِنَّهُ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ شَهِيدٍ،وَهُوَ قَوْلُ سَائِرِ أَهْلِ الْعِرَاقِ.وَرَوَوْا من طرق كثير صِحَاحٍ عَنِ الْعَيْزَارِ بْنِ حُرَيْثٍ الْعَبْدِيِّ،قَالَ:قَالَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ يَوْمَ الْجَمَلِ ارْمُسُونِي فِي الأَرْضِ رَمْسًا،وَلاَ تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا،وَلاَ تَنْزِعُوا عَنِّي ثَوْبًا إِلاَّ الْخُفَّيْنِ فَإِنِّي مُحَاجٌّ أُحَاجُّ..[3597]

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدٍ الْقَارِئَ - وَكَانَ يُسَمَّى عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ الْقَارِئَ - قُتِلَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ وَكَانَ قَالَ لَهُمْ:«لَا تُغَسِّلُوا عَنِّي دَمًا،وَلَا تَنْزِعُوا عَنِّي ثَوْبًا إِلَّا جِلْدًا»[3598]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ،قَالَ:كَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا سُئِلَ عَنِ الشَّهِيدِ يُغَسَّلُ حَدَّثَ عَنْ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ قَتَلَهُ مُعَاوِيَةُ،قَالَ:قَالَ حُجْرٌ:لاَ تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلاَ تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا،ادْفِنُونِي فِي وِثَاقِي وَدَمِي،فَإِنِّي أَلْقَى مُعَاوِيَةَ عَلَى الْجَادَّةِ غَدًا.[3599]

وعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ أَنَّهُ قَالَ:ادْفِنُونِي فِي ثِيَابِي فَإِنِّي مُخَاصِمٌ.[3600]

وَقُتِلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ بِصِفِّينَ وَلَمْ يُغَسِّلْهُ عَلِيٌّ.وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَانِ:أَحَدُهُمَا- يُغَسَّلُ كَجَمِيعِ الْمَوْتَى إِلَّا مَنْ قَتَلَهُ أَهْلُ الْحَرْبِ،وَهَذَا قَوْلُ مَالِك.قَالَ مَالِكٌ:لَا يُغَسَّلُ مَنْ قتله الكفار ومات في المعترك.وكان مَقْتُولٍ غَيْرِ قَتِيلِ الْمُعْتَرَكِ- قَتِيلِ الْكُفَّارِ- فَإِنَّهُ يُغَسَّلُ وَيُصَلَّى

[ش (اللحد) هو الشق في جانب القبر.(شهيد على هؤلاء) أشهد لهم أنهم بذلوا أرواحهم في سبيل الله تعالى وأشفع لهم وأصونهم من مكاره ذلك اليوم]

[3597] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٧/ ١٥٠)(١١١٠٧) صحيح

[3598] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٦٢)(٢٥٧٥) صحيح

[3599] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٥٦)(٣٣٤٧٦) صحيح،ولكن هناك اجتهاد في سبب قتله

[3600] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٤٥٦)(٣٣٤٧٧) صحيح

عَلَيْه.وَهَذَا قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَالْقَوْلُ الْآخَرُ لِلشَّافِعِيِّ- لَا يُغَسَّلُ قَتِيلُ الْبُغَاة.وَقَوْلُ مَالِك أَصَحُّ،فَإِنَّ غُسْلَ الْمَوْتَى قَدْ ثَبَتَ بِالْإِجْمَاعِ وَنَقْلِ الْكَافَّة.فَوَاجِبٌ غُسْلُ كُلِّ مَيِّتٍ إِلَّا مَنْ أَخْرَجَهُ إِجْمَاعٌ أَوْ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ.وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.[٣٦٠١]

٤- الأجر العظيم:

قال تعالى:{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء:٧٤]

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِيعَ الحَيَاةَ الدُّنْيا،وَيَبْذُلَهَا،وَيَجْعَلَهَا ثَمَناً لِلآخِرَةِ،لأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ أَعَزَّ دِينَ اللهِ،وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيا.وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَظْفَرْ بِهِ عَدُوُّهُ وَيَقْتُلُهُ،أَوْ يَظْفَرْ هُوَ بِعَدُوِّهِ،فَإِنَّ اللهَ سَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً مِنْ عِنْدِه.

(وَفِي هَذِهِ الآيَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَمَّ المُقَاتِلِ المُسْلِمِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الظَّفَرَ أَوِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَعَلَيْهِ أنْ لاَ يُفَكِّرَ فِي الهَرَبِ وَالنَّجَاةِ بِالنَّفْسِ،فَالهَرَبُ لاَ يُنَجِّي مِنْ قَدَرِ اللهِ،وَفِيهِ غَضَبُ اللهِ وَسَخَطُهُ).[٣٦٠٢]

ذلك هو القتال فى سبيل الله،لا يخفّ إليه،ولا يندرج به فى جماعة المجاهدين،إلا من وطّن نفسه على احتمال تبعاته،وقدّر الموت قبل أن يقدر الحياة،وشرى الحياة الدنيا بالآخرة..فذلك هو الذي يحتسب له أجر المجاهدين عند الله،إن سلم،أو عطب،لأنه بايع الله،ووفّى بما عاهد الله عليه،ووقع أجره على الله،وهو نيّة الجهاد،وعلى طريق المجاهدين،وإن لم يلتحم فى معركة،أو يشارك فى قتال..إن ذلك المجاهد هو الذي يدعى للجهاد،ويقبل فى صفوف المجاهدين..أما أولئك المترددون،الذين يأخذون الجانب الهيّن اللّين من كل أمر،فلا مكان لهم فى هذا المقام الكريم،الذي هو مقام الرجال!! قوله تعالى:«وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» بيان كاشف لموقف المجاهد،ومكانته عند الله..فهو فى إحدى مترلتين:إما أن يقتل،فيحسب فى عداد

[٣٦٠١] - تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٠)

[٣٦٠٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٧،بترقيم الشاملة آليا)

الشهداء،وإما أن يغلب وينتصر،ويغنم..وهو فى كلا الأمرين محمود عند الله،لــه أجــر الشهداء ومترلة المستشهدين..

وفى قوله تعالى:«فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ» إشارة إلى أن المجاهدين فى سبيل لهم العاقبــة والنصــر أبدا..وأن الذين استشهدوا قد كتبوا بدمائهم الزكية الطاهرة وثيقــة النصــر للجبهــة المقاتلين فيها..فالمجاهدون إما شهداء،وإما منتصرون..

ومعنى هذا ألا يتحول المجاهدون عن الجهاد،وألا يتركوا المعركة إلّا ومعهم النصر الــذي وعدهم الله،وجعله جزاء معجلا لهم..ولهذا جاءت القسمة هكذا:«فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ» و لم تجىء كما يقضى به ظاهر الأمر..«فيقتل» أو يسلم![٣٦٠٣]

من لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته،ولا يغلق عنهم أبوابها.بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه،فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخــروج في سبيله فقال:{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} هــذا أحــد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها.

وقيل:إن معناه:فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان،الصادقون في إيمانهم {الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} أي:يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطَّنوها على جهاد الأعداء،لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.وأما أولئك المتثــاقلون،فلا يعبــأ بهــم خرجوا أو قعدوا،فيكون هذا نظير قوله تعالى:{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُــوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا} إلى آخر الآيات.وقوله:{فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} وقيل:إن معنى الآية:فليقاتل المقاتــل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة،فيكون على هذا الوجه "الذين"في محل نصب على المفعولية.{وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} بأن يكون جهادا قــد أمــر الله بــه ورسوله،ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله.{فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

[٣٦٠٣] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٣٤)

عَظِيمًا} زيادة في إيمانه ودينه،وغنيمة،وثناء حسنا،وثواب المجاهدين في سبيل الله الـذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر.[٣٦٠٤]

فليقاتل في سبيل الله – فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل.لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة.ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي! إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على السكان..لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات،والأسواق للمنتجات أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات! إنه لا يقاتل لمجد شخص.ولا لمجد بيت.ولا لمجد طبقة.ولا لمجد دولة،ولا لمجد أمة،ولا لمجد جنس.إنما يقاتل في سبيل الله.لإعلاء كلمة الله في الأرض.ولتمكين منهجه من تصريف الحياة.ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج،وعدله المطلق «بين الناس"مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها..في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام..

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله،بقصد إعلاء كلمة الله،وتمكين منهجه في الحياة.ثم يقتل..

يكون شهيدا.وينال مقام الشهداء عند الله..وحين يخرج لأي هدف آخر – غير هذا الهدف – لا يسمى «شهيدا» ولا ينتظر أجره عند الله،بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له..والذين يصفونه حينئذ بأنه «شهيد"يفترون على الله الكذب ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس.افتراء على الله! فليقاتل في سبيل الله – بهذا التحديد..من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة.ولهم – حينئذ – فضل من الله عظيم في كلتا الحالتين:سواء من يقتل في سبيل الله ومن يغلب في سبيل الله أيضا:«وَمَنْ يُقاتِلْ – فِي سَبِيلِ اللَّهِ – فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ،فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»..

بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم،في كلتا الحالتين.وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل،وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله.كما يتجه

[٣٦٠٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٦)

إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالبا بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض.وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال – فيما يحتويه – ويحتوي سواه؟![٣٦٠٥]

ظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ مَنْ قُتِلَ شَهِيدًا أَوِ انْقَلَبَ غَانِمًا.وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي،وَإِيمَانًا بِي،وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي،فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ،نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ،لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ،وَرِيحُهُ مِسْكٌ،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»[٣٦٠٦].

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[٣٦٠٧]

وعن أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ،لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي،أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ

[٣٦٠٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٧)

[٣٦٠٦] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٥)١٠٣ – (١٨٧٦)

[٣٦٠٧] – صحيح البخاري (٤/ ١٧)(٢٧٩٧)

[ش (لا تطيب نفوسهم) يسيئهم.(أن يتخلفوا عني) لا يخرجوا معي ويقعدوا خلافي في المدينة لعدم توفر النفقة لديهم أو السلاح أو العتاد.(ما أحملهم عليه) من مركب وغيره.(سرية) قطعة من الجيش.(لوددت) أحببت ورغبت]

عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[3608]

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ،وَسَعِيد بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا يَكْرَهُونَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي،وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ،مَا تَخَلَّفْتُ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ»[3609]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ،إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ،وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ،وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً،تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»[3610]

(.فَقَوْلُهُ:) نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ) يَقْتَضِي أَنَّ لِمَنْ يُسْتَشْهَدُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ،إِمَّا الْأَجْرُ إِنْ لَمْ يَغْنَمْ،وَإِمَّا الْغَنِيمَةُ ولا أجر،بخلاف حديث عبد الله ابن عَمْرٍو،وَلَمَّا كَانَ هَذَا قَالَ قَوْمٌ:حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو لَيْسَ بِشَيْءٍ،لِأَنَّ فِي إِسْنَادِهِ حُمَيْدَ بْنَ هَانِئٍ وَلَيْسَ بِمَشْهُورٍ،وَرَجَّحُوا الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ عَلَيْهِ لِشُهْرَتِهِ.وَقَالَ آخَرُونَ:لَيْسَ بَيْنَهُمَا تَعَارُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ.وَ (أَوْ) فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمَعْنَى الْوَاوِ،كَمَا يَقُولُ الْكُوفِيُّونَ وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ رِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ فَإِنَّهُ قَالَ فِيهِ:(مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ) بالواو والجامعة.وَقَدْ رَوَاهُ بَعْضُ رُوَاةِ مُسْلِمٍ بِالْوَاوِ الْجَامِعَةِ أَيْضًا.وَحُمَيْدُ بْنُ هَانِئٍ مِصْرِيٌّ سَمِعَ أَبَا عبد الرحمن الحبلى وعمرو ابن مَالِكٍ،وَرَوَى عَنْهُ حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ وَابْنُ وَهْبٍ،فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ مَحْمُولٌ عَلَى مُجَرَّدِ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْجِهَادِ،فَذَلِكَ الَّذِي ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ إِمَّا الشَّهَادَةَ،وَإِمَّا رَدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ مَأْجُورًا غَانِمًا،وَيُحْمَلُ الثَّانِي عَلَى مَا إِذَا نَوَى الْجِهَادَ وَلَكِنْ مَعَ نَيْلِ الْمَغْنَمِ،فَلَمَّا انْقَسَمَتْ نِيَّتُهُ انْحَطَّ أَجْرُهُ،فَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى

[3608] - صحيح البخاري (١/ ١٦)(٣٦) [ش(انتدب) تكفل أو سارع بثوابه وحسن جزائه.(أن أرجعه) أي إلى بلده إن لم يستشهد.(بما نال) مع ما أصاب وأعطي.(أو أدخله الجنة) بلا حساب إن استشهد.(ما قعدت خلف سرية) ما تخلفت عن سرية وهي القطعة من الجيش.(ولوددت) أحببت ورغبت]

[3609] - صحيح البخاري (٩/ ٨٢)(٧٢٢٦)

[3610] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٤)(١٥٣ - (١٩٠٦)

أَنَّ لِلْغَانِمِ أَجْرًا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَلَا تَعَارُضَ.ثُمَّ قِيلَ:إِنْ نَقَصَ أَجْرُ الْغَانِمِ عَلَى مَنْ يَغْنَمُ إِنَّمَا هُوَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا فَتَمَتَّعَ بِهِ وَأَزَالَ عَنْ نَفْسِهِ شَظَفَ عَيْشِهِ،وَمَنْ أَخْفَقَ فَلَمْ يُصِبْ شَيْئًا بَقِيَ عَلَى شَظَفِ عَيْشِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى حَالَتِهِ،فَبَقِيَ أَجْرُهُ مُوَفَّرًا بِخِلَافِ الْأَوَّلِ.وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ،فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ،وَمِنَّا مَنْ مَضَى،أَوْ ذَهَبَ،لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا،كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ،قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ،لَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً،كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ،وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاَهُ خَرَجَ رَأْسُهُ،فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ:«غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ،وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ الإِذْخِرَ»،أَوْ قَالَ:«أَلْقُوا عَلَى رِجْلِهِ مِنَ الإِذْخِرِ» وَمِنَّا مَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدُبُهَا".[3611]

٥- لن يضلَّ اعمالهم:

قال الله تعالى:{ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) } [محمد].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ،فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا،أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ،فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا"[3612]

[3611] - صحيح البخاري (٥/ ٩٥)(٤٠٤٧) وصحيح مسلم (٢/ ٦٤٩)٤٤ - (٩٤٠) وتفسير القرطبي (٥/ ٢٧٧)

[ش (فوجب أجرنا على الله) معناه وجوب إنجاز وعد بالشرع لا وجوب العقل (لم يأكل من أجره شيئا) معناه لم توسع عليه الدنيا و لم يعجل له شيء من جزاء عمله (إلا نمرة) النمرة شملة فيها خطوط بيض وسود أو بردة من صوف تلبسها الأعراب (الإذخر) هو حشيش معروف طيب الرائحة (ومنا من أينعت ثمرته) أي أدركت ونضجت يقال ينع الثمر وأينع ينعا وينوعا فهو يانع (فهو يهدبها) أي يجتنبها وهذا استعارة لما فتح عليهم من الدنيا] وانظر :مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٠١) وشرح السنة للبغوي (٥/ ٣٢٠)

[3612] - صحيح البخاري (٣/ ١٢٨)(٢٤٤٠)

يُرشِدُ اللهُ تَعَالى المُؤْمنينَ إلى وُجُوب قِتَال المُشْرِكينَ الذينَ يَكْفُرُونَ باللهِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيله حَتَّى يَنْخَذلَ الشِّرْكُ وَأهْلُهُ،وَيُبيِّنُ لَهُمُ الأَسْلُوبَ الذي يَعْتَمدُونَهُ في قِتَالهِمْ فَيَقُولُ تَعَالى:إذا لَقيتُمُ المُشْرِكين في سَاحَة الحَرب فَاحْصُدُوهُم حَصْداً بالسُّيُوف،حَتَّى إذا تَمَّتْ لَكُمُ الغَلَبَةُ عَلَيهِم،وَقَهَرْتُم مَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ حَيّاً،وَصَارُوا أسْرى في أيديكم،شُدُّوا وِثَاقَهُمُ لكَيلاَ يَعْمَدُوا إلى الهَرَب،أو العَوْدَة إلى القِتَال،وَبَعْدَ انتهَاء الحَرْب فأنْتُم بالخيار بَيْنَ المَنِّ عَلَيهم وإطْلاق سَرَاحهِمْ بدُون فدَاء،وَبَيْنَ مُفَادَاتهِمْ.وَقَدْ تَكُونُ المُفَادَاةُ بمال يُؤْخَذُ منْهُمْ لإضْعَاف شَوْكَتهِمْ،وَقَدْ تَكُونُ بأسْرى منَ المُسْلمينَ.وهذه هيَ السُّنَّةُ في قِتَال المُشْركينَ والكُفَّار حَتَى تَنْتَهيَ الحَرْبُ وَتَضَعَ أوْزَارَها،وَلَوْ شَاءَ الله أنْ يَنْتَقمَ منهُمْ بعُقُوبة عَاجلَة لَفَعَلَ،وَلَكَفَاكُمْ أمْرَهُمْ،وَلكنَّهُ شَرَعَ الجهَادَ،وَقتَالَ الأعداء،لِختَبرَ المُؤمنينَ وَصَبْرَهُمْ عَلَى القتَال،وَيَخْتَبرَ المُشركينَ،فَيُعَاقبَ مَنْ شَاءَ منْهُمْ بأيدي المُؤْمنينَ،وَيَتَّعظَ منْهُمْ مَنْ شَاءَ وَيَرْجعَ إلى الحَقِّ.واللهُ يَجْزي الشَّهَداءَ الذينَ قُتلُوا في سَبيله تَعَالى،وَيَتَجَاوزُ عَنْ سَيِّئَاتهِمْ،وَيُثَمِّرُ لَهُمْ أعْمالَهُمْ وَيُنَمِّيها لَهُمْ.وسَيَهْدي اللهُ الشُهَدَاءَ في سَبيله إلى طَريق الجَنَّة،ويُصْلحُ حَالَهم في الآخرَة.وَيدُخلهُمَ ربُّهم الجَنَّةَ،فَيَجدُ كُلُّ وَاحد فيها مَقَرَّهُ لا يَضلُّ في طَلَبه،وَكَأنَّهُ يَعْرفُهُ منْ قَبْلُ.[٣٦١٣]

قوله تعالى:«وَالَّذِينَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه فَلَنْ يُضلَّ أَعْمالَهُمْ».هو تنويه خاص بشأن الذين يستشهدون فى سبيل الله.فهؤلاء الشهداء لن يضل الله أعمالهم،بل سيقيمها على طريقه المستقيم،حيث تترل منازل الرضا والقبول من الله رب العالمين..فهم داخلون أولا فى قوله تعالى:«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات وَآمَنُوا بما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّد وَهُوَ الْحَقُّ منْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ» ثم هم مختصون ثانيا بهذا لذكر،الذي يقيمهم بعد موتهم،مقام الأحياء،الذين لم يفارقوا هذه الدنيا،وذلك بإصلاح بالهم،على حين يقيمهم مقام أهل الجنة قبل أن يدخلها أحد غيرهم،فهم ساعون إلى الجنة،آخذون طريقهم التي

[ش (حبسوا) أوقفوا.(بقنطرة) كل شيء ينصب على طرفي واد أو جانبي نهر ونحوه.(فيتقاصون) من القصاص والمعنى يتراضون فيما بينهم ويتسامحون عما كان لبعضهم من تبعات على بعض.(نقوا وهذبوا) خلصوا من جميع الآثام ولم يبق على أحدهم أية تبعة من التنقية وهي تمييز الجيد من الرديء والتهذيب وهو التخليص.(أدل) أكثر دلالة وأعرف]

[٣٦١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٨،بترقيم الشاملة آليا)

يعرفونها،إليها،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»(١٦٩:آل عمران) قوله تعالى:«سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ،وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ» – هو بيان لقوله تعالى:«وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ»..أي أن الله سبحانه وتعالى سيهدى الذين قتلوا فى سبيل الله،ويقيم بين أيديهم من أعمالهم الدليل الذي يأخذ بهم إلى الجنة التي أعدها الله لهم،وعرّفهم الطريق إليها..وهذا مثل قوله تعالى:«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (٩:يونس).فأعمل الشهداء،مستنيرة مبصرة،تعرف طريقها إلى مقام الرضا والقبول،وأصحاب هذه الأعمال،وهم الشهداء،يتبعون أعمالهم تلك،ويأخذون طريقهم على هديها،حيث تنتظرهم عند الله فى جنات النعيم التي أعدها سبحانه لأصحاب هذه الأعمال الطيبة كما يقول سبحانه:«يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ»(١٢:الحديد) فالذى يسعى بين أيديهم هو هذا النور المشع مما فى أيمانهم،وهو سجل أعمالهم،التي صارت كتبا تناولوها بأيديهم اليمنى.[٣٦١٤]

{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لهم ثواب جزيل،وأجر جميل،وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم،لتكون كلمة الله هي العليا.فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم،أي:لن يحبطها ويبطلها،بل يتقبلها وينميها لهم،ويظهر من أعمالهم نتائجها،في الدنيا والآخرة.{سَيَهْدِيهِمْ} إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة،{وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} أي:حالهم وأمورهم،وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه،ولا تنغيص بوجه من الوجوه.{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} أي:عرفها أولا بأن شوقهم إليها،ونعتها لهم،وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها،التي من جملتها القتل في سبيله،ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه،ثم إذا دخلوا الجنة،عرفهم منازلهم،وما احتوت عليه من النعيم المقيم،والعيش السليم.[٣٦١٥]

[٣٦١٤] – التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٣١٨)

[٣٦١٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٨٥)

إننا نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة..حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله..فهي حقيقة مقررة من قبل في قوله تعالى:«وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ»..ولكنها تعرض هنا عرضا جديدا.تعرض في حالة امتداد ونماء في طريقها الذي غادرت الحياة الدنيا وهي تسلكه وتتوخاه.طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء:«سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ»..

فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله،يظل يتعهدهم بالهداية – بعد الاستشهاد – ويتعهدهم بإصلاح البال،وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملأ الأعلى الذي صعدت إليه،وإشراقه وسناه.فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون.وهي حياة يتعهدها الله ربها في الملأ الأعلى.ويزيدها هدى.ويزيدها صفاء،ويزيدها إشراقا.وهي حياة نامية في ظلال الله.وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم:«وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ»..فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله.وهذه هي نهاية الهداية الممتدة،وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض.ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله.[٣٦١٦]

----

٦ – التجارة التي لن تبور:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف]

يَا أَيُّهَا الُمؤْمِنُونَ بِاللهِ،وَالُمصَدِّقُونَ بِرُسُلِه وَكُتُبِه وَآيَاتِه،أَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى صَفَقَةٍ رَابِحَةٍ،وَتِجَارَةٍ نَافِعَةٍ،تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ العَظِيمِ،وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

[٣٦١٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٩٧)

وَهذه الصَّفَقَةُ هيَ أَنْ تُؤْمنُوا باللهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَــرِيكَ لَهُ،وَتَصَــدِّقُوا برَسُــوله مُحَمَّد،وَمَا أَنْزَلَهَ عَلَيْه منَ القُرْآن وَتُجَاهدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلمَة اللهِ،وَعزَّة دينه،بأَنْفُسكُمْ وَأَمْوَالكُمْ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلكَ،كَانَ ذَلكَ خَيْراً لَكُمْ منْ كُلِّ شَيءٍ فِي الدُّنْيَا:منَ النَّفْسِ وَالمَال وَالزَّوْجِ وَالوَلَد،هَذَا إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لعبَاده المُؤْمنينَ المُخْلصينَ المُجَاهدينَ في الآخرَة منْ جَزِيلِ الثَّوَاب فِي جَنَّات النَّعــيم.وَإِنْ فَعَلْــتُمْ ذَلــكَ سَــتَرَ اللهُ ذُنُــوبكُمْ وَمَحَاهَا،وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّات تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتهَا،وَأَسْكَنَكُمْ مَسَاكِنَ طَيبةً تَقَرُّ بهَــا العُيُونَ،وَهَذا هُوَ مُنْتَهَى ما تَصْبُوا إليه النُّفُوسُ،وَهُوَ الفَوْزُ الذي لاَ فَوْزَ أَعْظَمَ منْهُ.وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمنُونَ المُجَاهدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى،مَعَ الفَوْزِ فِي الآخرَة،الــذي وَعَــدَكُمْ اللهُ به،نعْمَةٌ أُخْرَى تُحبُّونَها،وَهيَ نَصْرٌ منَ اللهِ،وَفَتْحٌ قَرِيبٌ،تَجْنُونَ مَغَانمَهُ،وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّــدُ المُؤْمنينَ بهَذَا الجَزَاءِ.[٣٦١٧]

هو نداء من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المؤمنين،الذين استجابوا لله ولرســوله،ودانوا بهذا الدين،وهو دعوة لهم إلى تجارة تنجيهم من عذاب أليم فى الدنيا والآخرة..

قوله تعالى:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُــمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».هو بيان لهذه التجارة التي دعا الله سبحانه وتعالى المــؤمنين إليها،وأمرهم بالاتجار فيها..وهى الإيمان بالله وبرسول الله،والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس..

ففى هذه التجارة الربح العظيم،والخير العميم،الذي يقع لأيدى المتجرين بهــا،لو كــانوا يعلمون ما يكون لهم من ورائها،من خير..

ودعوة المؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله،هو دعوة إلى إيمان خالص من الريب،مبرأ مــن الشرك..فليس كل من دخل فى الإيمان كان مؤمنا حقّا..

وسمّى هذا الإيمان،وهذا الجهاد،تجارة،لأن التجارة عطاء وأخذ،وأعيان تقدّم للبيــع،وثمن يؤخذ فى مقابل هذه الأعيان..والمؤمنون بالله ورسوله،يقدمون أموالا وأنفســا،ويأخذون فى مقابل ما يقدمون ما يجزيهم الله سبحانه وتعالى عليه،من رضوان،وجنات لهــم فيهــا

[٣٦١٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١،بترقيم الشاملة آليا)

نعيم مقيم..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (١١١:التوبة)..

وقوله تعالى:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..هو جواب لشرط مقدّر دلّ عليه ما فى الآية السابقة من الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله،والجهاد فى سبيله..أي إن استجبتم لهذه الدعوة التي دعيتم إليها- أيها المؤمنون- يغفر الله لكم ذنوبكم.ويسترها عليكم،فلا تروها بعد أن محاها الله،وطهّركم منها بمغفرته،ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار،ويترلكم فيها مساكن طيبة،تطيب لكم الحياة فيها،فلا تتحولون عنها أبدا..وذلك هو الفوز العظيم،الذي لا يعدله فوز،فيما عرفتم فى الحياة الدنيا..

قوله تعالى:«وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أي ولكم مع هذا الفوز العظيم بجنات النعيم فى الآخرة- رغيبة أخرى تحبوها،وتتطلعون إليها،تلك هى ما ستلقون من نصر من الله،ومن فتح قريب،بما يفتح الله لكم فى هذه الدنيا من فتوح،وما يمكّن لكم من نصر على أعدائكم..وقد حقق الله للمؤمنين ما وعدهم به من نصر وفتح،فقد انتصروا على أعدائهم من المشركين وللكافرين،وفتحوا معاقل الشرك،ودانت لهم مواطن المشركين،فيما وقع لهؤلاء المؤمنين من فتح خيبر،ومن إجلاء اليهود من المدينة،ومن فتح مكة..ثم ما تلا ذلك من فتوح لمملكتى الفرس والروم..

وقوله تعالى:«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»..هو أمر سماوى من الله سبحانه وتعالى للنبى الكريم أن يبشر المؤمنين بهذا الوعد الذي وعدهم الله إياه،وأن يكشف لهم عن مواقع هذا النصر والفتح القريب..وقد بشّر النبي الكريم أصحابه بما سيلقاهم على طريق الإسلام من نصر وفتح..وفى هذا ما يدخل الطمأنينة والرضاء على قلوب المؤمنين،ويمدّهم بأمداد السكينة والصبر على ما كانوا يعانون من شدة وضيق،وما كانوا يلقون من كيد وبلاء..[٣٦١٨]

[٣٦١٨] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٣٦)

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين،لأعظم تجارة،وأجل مطلوب،وأعلى مرغوب،يحصل بها النجاة من العذاب الأليم،والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر،ويسمو إليه كل لبيب،فكأنه قيل:ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به،المستلزم لأعمال الجوارح،ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله فلهذا قال:{وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم،لمصادمة أعداء الإسلام،والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته،وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب،فإن ذلك،ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها،فإنه {خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فإن فيه الخير الدنيوي،من النصر على الأعداء،والعز المنافي للذل والرزق الواسع،وسعة الصدر وانشراحه.

وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه،ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة،فقال:{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} وهذا شامل للصغائر والكبائر،فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله،مكفر للذنوب،ولو كانت كبائر.

{وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ} أي:من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها،أنهار من ماء غير آسن،وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،وأنهار من خمر لذة للشاربين،وأنهار من عسل مصفى،ولهم فيها من كل الثمرات،{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي:جمعت كل طيب،من علو وارتفاع،وحسن بناء وزخرفة،حتى إن أهل الغرف من أهل عليين،يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي،وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة،وخيامها من اللؤلؤ والمرجان،وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان،حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها،وباطنها من ظاهرها،وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين،ولا خطر على قلب أحد من العالمين،لا يمكن أن يدركوه حتى يروه،ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به،ففي تلك الحالة،لولا أن الله خلق أهل

الجنة،وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم،لأوشك أن يموتوا من الفرح،فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه،بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وتبارك الجليل الجميل،الذي أنشأ دار النعيم،وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة،التي من جملتها،أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد،ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة،المشوب نعيمها بألمها،وسرورها بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن،لأن أهلها مقيمون فيها،لا يخرجون منها أبدا،ولا يبغون عنها حولا ذلك الثواب الجزيل،والأجر الجميل،الفوز العظيم،الذي لا فوز مثله،فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة،فذكره بقوله:{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي:ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي:{نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ} [لكم] على الأعداء،يحصل به العز والفرح،{وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} تتسع به دائرة الإسلام،ويحصل به الرزق الواسع،فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين،وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد،[إذا قام غيرهم بالجهاد] فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه،بل قال:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي:بالثواب العاجل والآجل،كل على حسب إيمانه،وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله،كما قال النبي ﷺ:"إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،أعدها الله للمجاهدين في سبيله "[٣٦١٩]

يبدأ بالنداء باسم الإيمان:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..يليه الاستفهام الموحي.فالله – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب:«هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ ..»

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية،وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق.ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب

[٣٦١٩] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦٠)

والأسماع:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»..وهم مؤمنون بالله ورسوله.فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»..وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة،يجيء في هذا الأسلوب،ويكرر هذا التكرار،ويساق في هذا السياق.فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار،وهذا التنويع،وهذه الموحيات،لتنهض بهذا التكليف الشاق،الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين:«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»..فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد..ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة،لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه،ويقره في الحس ويمكن له:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»..وهذه وحدها تكفي.

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئا؟ ولكن فضل الله ليست له حدود:«وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»..وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم..وحقا..«ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة.وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق.فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض،ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا،فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله،ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله – ﷺ – وعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – ليلة العقبة.عَنْ قَتَادَةَ،{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} [الصف:١٤] قَالَ:قَدْ كَانَتْ لِلَّهِ أَنْصَارٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ تُجَاهِدُ عَلَى كِتَابِهِ وَحَقِّهِ.وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ بَايَعَهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،ذُكِرَ لَنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ:هَلْ تَدْرُونَ

عَلَامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَ عَلَى مُحَارَبَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا أَوْ يُسْلِمُوا.وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ،قَالَ:«أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ،وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».قَالُوا:فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ،فَمَا لَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ:«لَكُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا،وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ».فَفَعَلُوا،فَفَعَلَ اللَّهُ"[٣٦٢٠]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة:١١١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَكَبَّرَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ثَانِيًا طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَلَى أَحَدِ عَاتِقَيْهِ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؟ فَقَالَ:«نَعَمْ» فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ:بَيْعٌ رَبِيحٌ لَا نَقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ[٣٦٢١]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ،وَغَيْرِهِ،قَالُوا:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:"اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَنَفْسِكَ مَا شِئْتَ قَالَ:«أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ» قَالُوا:فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَاذَا لَنَا؟ قَالَ:«الْجَنَّةُ» قَالُوا:رَبِحَ الْبَيْعُ لَا نَقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ فَنَزَلَتْ:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة:١١١]..الْآيَةَ "[٣٦٢٢]

ولكن فضل الله عظيم.وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض،يناسب تركيبها البشري المحدود.وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض،وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل:«وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب.وبشر المؤمنين»..وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله.الله الذي لا تنفد خزائنه،والذي لا ممسك لرحمته.فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة.وفوقها..فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب..فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم

[٣٦٢٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٦٢٠) صحيح مرسل

[٣٦٢١] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٦/ ١٨٨٦) صحيح

[٣٦٢٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢/ ٧) صحيح لغيره

يتقاعس عنها أو يحيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب..إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان،في حدودها الضيقة الصغيرة،وفي مستوياتها الهابطة الواطية،وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة..هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان،ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع،ليعيش فيه،وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك..ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته.فهو ذاته أجر..هذا الجهاد..وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح.ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان.ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان.فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد.كائنا مصيره فيه ما يكون..[٣٦٢٣]

٧- يرجون رحمة الله:

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (٢١٨) سورة البقرة

إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ،وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَبِقَوْلِهِ:{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} [البقرة:٢١٨] الَّذِينَ هَجَرُوا مُسَاكَنَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَمْصَارِهِمْ،وَمُجَاوَرَتَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ،فَتَحَوَّلُوا عَنْهُمْ،وَعَنْ جِوَارِهِمْ وَبِلَادِهِمْ إِلَى غَيْرِهَا،هِجْرَةً..لَمَّا انْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ.وَأَصْلُ الْمُهَاجَرَةِ الْمُفَاعَلَةُ،مِنْ هِجْرَةِ الرَّجُلِ الرَّجُلَ لِلشَّحْنَاءِ تَكُونُ بَيْنَهُمَا،ثُمَّ تُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ مَنْ هَجَرَ شَيْئًا لِأَمْرٍ كَرِهَهُ مِنْهُ.وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرِينَ لِمَا وَصَفْنَا مِنْ هِجْرَتِهِمْ دُورَهِمْ وَمَنَازِلَهِمْ كَرَاهَةً مِنْهُمُ النُّزُولَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ وَفِي سُلْطَانِهِمْ،بِحَيْثُ لَا يَأْمَنُونَ فِتْنَتَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَأْمَنُونَ ذَلِكَ وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَجَاهَدُوا} [البقرة:٢١٨] فَإِنَّهُ يَعْنِي:وَقَاتَلُوا،وَحَارَبُوا وَأَصْلُ الْمُجَاهَدَةُ الْمُفَاعَلَةُ،مِنْ قَوْلِ الرَّجُلِ:قَدْ جَهَدَ فُلَانٌ فُلَانًا عَلَى كَذَا،إِذَا كَرَبَهُ وَشَقَّ

[٣٦٢٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٧)

عَلَيْه يَجْهَدُهُ جَهْدًا.فَإِذَا كَانَ الْفعْلُ منَ اثْنَيْنِ كُلُّ وَاحد منْهُمَـا يُكَابِـدُ مِـنْ صَـاحبه شدَّةً،ومشقةً،قيلَ:فُلَانٌ يُجَاهدُ فُلَانًا،يَعْني أَنَّ كُلَّ وَاحد منْهُمَا يَفْعَلُ بِصَاحبه مَا يَجْهَـدُهُ وَيَشُقُّ عَلَيْه،فَهُوَ يُجَاهدُهُ مُجَاهَدَةً وَجهَادًا وَأَمَّا سَبِيلُ اللَّه:فَطَرِيقُهُ وَدِينُهُ.فَمَعْنَى قَوْلـه إِذَا {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه} [البقرة:٢١٨] وَالَّذِينَ تَحَوَّلُوا منْ سُـلْطَانِ أَهْلِ الشِّرْك هجْرَةً لَهُمْ،وَخَوْفَ فتْنَتهمْ عَلَى أَدْيَانهِمْ،وَحَارَبُوهُمْ فِي دَيْنِ اللَّه ليُـدْخلُوهُمْ فيه،وَفيمَا يُرْضِي اللَّهَ {أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّـه} أَيْ يَطْمَعُـونَ أَنْ يَـرْحَمَهُمُ اللَّـهُ فَيُدْخلَهُمْ جَنَّتَهُ بِفَضْلِ رَحْمَته إِيَّاهُمْ {وَاللَّهُ غَفُورٌ} [البقرة:٢١٨] أَيْ سَاترٌ ذُنُوبَ عبَاده بعَفْوِه عَنْهَا،مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَة.وَهَذه الْآيَةُ أَيْضًا ذُكرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْد اللَّـه بْـنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِه[٣٦٢٤]

وعَنْ جُنْدُب بْنِ عَبْد اللَّه،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ رَهْطًا،وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّـه بْـنَ جَحْشٍ،فَقَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكينَ:إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وِزْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَـزَّ وَجَلَّ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّه وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} "[٣٦٢٥]

وعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ،قَوْلُهُ:"{أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّه} قَالَ:هَؤُلَاءِ خِيَارُ هَذه الْأُمَّـةِ،ثُمَّ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَهْلَ رَجَاءٍ.إِنَّهُ مَنْ رَجَا طَلَبَ،وَمَنْ خَافَ هَرَبَ "[٣٦٢٦]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَالَ:"أَثْنَى اللَّهُ عَلَى أَصْحَابِ نَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ أَحْسَنَ الثَّنَاء،فَقَالَ:{إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّه وَاللَّـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ} هَؤُلَاءِ خِيَارُ هَذه الْأُمَّة،ثُمَّ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَهْلَ رَجَاءٍ كَمَا تَسْمَعُونَ،وَأَنَّهُ مَـنْ رَجَـا طَلَبَ وَمَنْ خَافَ هَرَبَ "[٣٦٢٧]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:"أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ بِمَا أُنْزِلَ منَ الْأَمْرِ،وَفَرَّجَ اللَّهُ عَـنِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْرِ عَبْدِ اللَّه بْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِه،يَعْنِي فِي قَتْلِهِمُ ابْـنَ الْحَضْـرَمِيِّ،فَلَمَّا

[٣٦٢٤] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٦٦٦)

[٣٦٢٥] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٢/ ٣٨٨)(٢٠٤٠) صحيح

[٣٦٢٦] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٢/ ٣٨٨)(٢٠٤١)صحيح مقطوع

[٣٦٢٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٦٦٨) صحيح

تَجَلَّى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأَصْحَابِهِ مَا كَانُوا فِيهِ حِينَ نَــزَلَ الْقُرْآنُ،طَعِمُــوا فِــي الْأَجْرِ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةٌ نُعْطِي فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّــهِ أُولَئِــكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فَوَقَفَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَعْظَمِ الرَّجَاءِ "[٣٦٢٨]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ،قَالَ:"فَلَمَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ،مِنْ أَهْلِ تِلْكَ السَّرِيَّةِ،مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غَمٍّ،مَا أَصَابُوا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابِهِ،فَقَالُوا:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُــونَ غَزْوَةٌ نُعْطَى فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّــذِينَ آمَنُــوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِــيمٌ} [٣٦٢٩]"

يَعِدُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ الذينَ دَفَعَهُمْ إِيمَانُهُمُ الصَّادِقُ إلى الهِجْرَةِ،وَإِلى الجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لِنَصْرِ دِينِ اللهِ،وَرَدِّ أَذَى الكُفَّارِ،وَإِلى الصَّبْرِ عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ أَذَى المُشْرِكِينَ فِــي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِمْ وَإِيمَانِهِم،بِإِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ:النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ،وَهؤُلاءِ المُؤْمِنُونَ الصَّــابِرُونَ هُمُ الذينَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ،وَاللهُ تَعَالَى لا يُخَيِّبُ رَجَاءَهُمْ،وَهُوَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ لِلتَّــائِبِينَ المُسْتَغْفِرِينَ،عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِالمُؤْمِنِينَ.[٣٦٣٠]

هذه الآية تفرد الذين آمنوا وثبتوا على إيمانهم،واجتازوا المحنة،ونجوا من الفتنة- تفــردهم بذكر خاص،وتنوّه بهم،وتدنيهم من رحمة الله ورضوانه،وذلك فى مواجهة أولئك الــذين واجهوا المحنة فلم يصبروا و لم يصابروا،ففروا من ميدان المعركة تاركين دينــهم الــذي ارتضوه سلبا ملقى فى ساحة الحرب! هذا وفى الآية الكريمة:

أولا:قوله تعالى:«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فصــل بــين الذين آمنوا وبين الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله،فلم يجعلهم نسقا واحدا داخلا فى صلة الموصول الأول،بل أفردهم بذكر خاص،فكأن الذين آمنوا صنف،والذين هــاجروا وجاهدوا صنف آخر..ولو كانوا صنفا واحدا لجاء النظم هكــذا:«إِنَّ الَّــذِينَ آمَنُــوا

[٣٦٢٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٦٦٨) صحيح مرسل

[٣٦٢٩] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٢/ ٣٨٨)(٢٠٤٢) صحيح مرسل

[٣٦٣٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٥،بترقيم الشاملة آليا)

وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا.ولكن هكذا جاء نظم القرآن بجلاله وروعته وإعجازه،ليضع موازين الحق فيما يقول..فالمؤمنون- مطلق الإيمان،بلا هجرة ولا جهاد- هم صنف وحدهم فى المؤمنين.والمؤمنون المهاجرون المجاهدون،هم صنف آخر يختلف عن الصنف الأول بميزات وفضائل..ويحق لهم بهذه الميزات وتلك الفضائل أن ينوه بهم،ويرفع شأنهم بين المؤمنين.إذ الإيمان بلا عمل نبات لا ظل له،ولا ثمر فيه.

ثانيا:قوله تعالى:«أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ» وضع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله،ولم يعطهم الثواب والمغفرة والرضوان على القطع والتحقيق،وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء على عمل دائم،وجهاد متصل،وهذا على خلاف ما إذا سوّى حسابهم بعد الهجرة وبعد كل موقف من مواقف الجهاد،فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديدا،أو يخفّوا للجهاد،مرة بعد مرّة.

ثم إنه من جهة أخرى يرى الذين آمنوا- مجرد إيمان- ولم يهاجروا ولم يجاهدوا- يريهم شناعة موقفهم ومغبّة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين،ويرفع لأعينهم بعد ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه،إذ يرون المهاجرين المجاهدين ولمّا يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان،وأنهم ما زالوا على رجاء! فكيف بالذين آمنوا،ولم يهاجروا ولم يجاهدوا؟

إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسّلامة،وإن عليهم أن يحثّوا المطىّ إلى ميدان الهجرة والجهاد،ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين،وليكونوا بمعرض من رحمة الله ورضوانه!.[٣٦٣١]

هذه الأعمال الثلاثة،هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية،وبها يعرف ما مع الإنسان،من الربح والخسران،فأما الإيمان،فلا تسأل عن فضيلته،وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة،وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد،قبلت أعمال الخير منه،وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل،ولا فرض،ولا نفل.

[٣٦٣١] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٤٢)

وأما الهجرة:فهي مفارقة المحبـــوب المألوف،لرضـــا الله تعـــالى،فيترك المهـــاجر وطنـــه وأمواله،وأهله،وخلانه،تقربا إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد:فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء،والسعي التام في نصرة دين الله،وقمع دين الشيطان،وهو ذروة الأعمال الصالحة،وجزاؤه،أفضل الجزاء،وهو السبب الأكبر،لتوســـيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام،وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله،لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمـــة،وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة،وأما الرجاء المقـــارن للكسل،وعدم القيام بالأسباب،فهذا عجز وتمن وغرور،وهو دال علـــى ضـــعف همـــة صاحبه،ونقص عقله،بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكـــاح،ووجود الغلـــة بـــلا بـــذر وسقي،ونحو ذلك.

وفي قوله:{أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ} إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها،ويعول عليها،بل يرجو رحمة ربه،ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه،وستر عيوبه.

ولهذا قال:{وَاللَّهُ غَفُورٌ} أي:لمن تاب توبة نصوحا {رَحِيمٌ} وســـعت رحمتـــه كـــل شيء،وعم جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة،حصل له مغفرة الله،إذ الحســـنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة،اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة،التي هي آثار الـــذنوب،التي قد غفرت واضمحلت آثارها،وإذا حصلت له الرحمة،حصل على كل خـــير في الـــدنيا والآخرة؛بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم،فلولا توفيقه إيـــاهم، لم يريـــدوها،ولولا إقدارهم عليها، لم يقدروا عليها،ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم،فلـــه الفضـــل أولا وآخرا،وهو الذي منّ بالسبب والمسبب.[٣٦٣٢]

[٣٦٣٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٨)

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا..ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق،فجاهدوا وصبروا،حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة.وكلاهما خير.وكلاهما رحمة.وفازوا بمغفرة الله ورحمته:«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..وهو هو طريق المؤمنين..[3633]

٨- من جاهد في سبيل الله كان من المؤمنين الصادقين:

قال تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (١٥) سورة الحجرات

يُعَرِّفُ اللهُ تَعَالى للنَّاسِ الإِيمَانَ فِي هَذِهِ الآيةِ فَيُقَرِّرُ:إنَّ المُؤْمِنينَ إيماناً حَقّاً هُمُ الذين صَدَّقوا اللهَ وَرَسُولَهَ وَلَم يَشُكُّوا،وَلَم يَتَزَلْزَلُوا،وَلم يَتَرَدَّدوا،وَبَذَلَوا أنْفُسَهُم وَأمْوالَهُمْ للْجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ،وَرِفْعة شَأْنِ الإِسْلامِ،وَهَؤلاء هُمُ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ في إيمَانِهِمْ.[3634]

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ،ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا،يَقُولُ:ثُمَّ لَمْ يَشُكُّوا فِي وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ،وَلَا فِي نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ،وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ طَاعَةَ اللَّهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ،وَالْعَمَلَ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ بِغَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي وجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:٧٢] يَقُولُ:جَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ،وَبَذْلِ مُهَجِهِمْ فِي جِهَادِهِمْ،عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ جِهَادِهِمْ،وَذَلِكَ سَبِيلُهُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعُلْيَا،وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى،هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ:إِنَّا مُؤْمِنُونَ،لَا مَنْ دَخَلَ فِي الْمِلَّةِ خَوْفَ السَّيْفِ لِيَحْقِنَ دَمَهُ وَمَالَهُ "[3635]

هذا هو الإيمان الذي فات الأعراب أن يحصّلوه،وتلك حقيقة المؤمنين التي لم يحققها الأعراب بعد بإسلامهم..فالمؤمنون،هم الذين آمنوا بالله ورسوله فنزل هذا الإيمان فى قلوبهم منزلة اليقين،لا يزحزحهم عنه أي عارض من عوارض الحياة،ولا يغيّر وجهه فى قلوبهم ما يلقاهم على طريق الحياة من بأساء وضرّاء،ثقة منهم بالله،وركونا إليه،ورضاء

[3633] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٨)

[3634] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٥٠٦،بترقيم الشاملة آليا)

[3635] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ٣٩٥)

بقضائه،وصبرا لحكمه..«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا»..هذا هو الإيمان فى صميمه..أمّا الإيمان الذي يهتزّ كيانه فى قلب الإنسان لأى عارض،ويتضاءل شخصه عند أي بلاء،فهو إيمان غير خالص،بل هو مشوب بآفات كثيرة من الشك،وسوء الفهم،فإذا وضع على محك التجربة والامتحان،ظهر ما فيه من ضعف،فلم يحتمل صدمة التجربة،و لم يصمد أمام تيار الامتحان.

وقوله تعالى:«وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..وهذا هو مجال الامتحان لإيمان المؤمنين..فمن آمن بالله ورسوله،ووقع منه هذا الإيمان موقع القبول واليقين، لم ينكل عن دعوة الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه،بل يقدم ماله ونفسه قربانا لله،فى رضا وغبطة..

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن الجهاد بالمال والنفس،هو الميدان الذي يمتحن به إيمان المؤمنين،والذي به تظهر حقيقة ما فى قلوبهم من إيمان..

فالمؤمن،قد يصلىّ،ويصوم،ويحجّ،ويزكى،ولكنه حين يمتحن فى ماله أو نفسه بالجهاد فى سبيل الله،يضنّ بماله،ويحرص على سلامة نفسه،وعندئذ يعلم حقيقة إيمانه،وأنه لم يستوف حقيقة الإيمان بعد..والله سبحانه وتعالى يقول:«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ» ويقول سبحانه:«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ،وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ..» (٢،٣:العنكبوت).

وقوله تعالى:«أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»..هو الوصف الذي يستحقّه الذين آمنوا بالله ورسوله و لم يرتابوا،وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم،وهو أنهم مؤمنون حقا..قد صدّق فعلهم قولهم..[٣٦٣٦]

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} أي:على الحقيقة {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهُم فِي سبيل الله} أي:من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله،فإن من جاهد الكفار،دل ذلك،على الإيمان التام في القلب،لأن من جاهد غيره على

[٣٦٣٦] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٥٧)

الإسلام،والقيام بشرائعه،فجهاده لنفسه على ذلك،من باب أولى وأحرى؛ولأن من لم يقو على الجهاد،فإن ذلك،دليل على ضعف إيمانه،وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب،وهو الشك،لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني،بما أمر الله بالإيمان به،الذي لا يعتريه شك،بوجه من الوجوه.وقوله:{أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أي:الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة،فإن الصدق،دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان،وأعظم ذلك،دعوى الإيمان،الذي هو مدار السعادة،والفوز الأبدي،والفلاح السرمدي،فمن ادعاه،وقام بواجباته،ولوازمه،فهو الصادق المؤمن حقًا،ومن لم يكن كذلك،علم أنه ليس بصادق في دعواه،وليس لدعواه فائدة،فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.[٣٦٣٧]

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله.التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب.التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب،ولا تهجس فيه الهواجس،ولا يتلجلج فيه القلب والشعور.والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه،لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب.في واقع الحياة.في دنيا الناس.يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان،وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة.ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه،والصورة الواقعية من حوله.لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة.ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن.يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه،ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس.والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني،وواقعه العملي.وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف.فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله،حتى تنثني هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية.«أُولئِكَ هُمُ

[٣٦٣٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٠٢)

الصَّادِقُونَ»..الصادقون في عقيدتهم.الصادقون حين يقولون:إنهم مؤمنون.فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب،و لم تتحقق آثارها في واقع الحياة،فالإيمان لا يتحقق.والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية:«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا -»..إنه ليس مجرد عبارة.إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية.وعلاج لحالة تقوم في النفس.حتى بعد إيمانها..«ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا» وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى..«إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ..ثُمَّ اسْتَقامُوا..» فعدم الارتياب.والاستقامة على قولة:ربنا الله.تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة - تحت تأثير التجارب القاسية،والابتلاء ات الشديدة - من ارتياب ومن اضطراب.وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل،ونوازل تزعزع.والتي تثبت فلا تضطرب،وتثق فلا ترتاب،وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق،وأخطار الرحلة،لتعزم أمرها،وتحتسب،وتستقيم،ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق،ويظلم الجو،وتناوحها العواصف والرياح![٣٦٣٨]

---

٩ - من قاتل في سبيل الله فهو من الأخيار والأبرار:

قال تعالى:{ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)} آل عمران

فِي هَذِهِ الآيَةِ يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَمَّا وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْمَ أحُدٍ،فَقَالَ لَهُمْ:كَمْ مِنْ نَبيٍّ قُتِلَ وَهُوَ يُقَاتِلُ،وَكَانَ مَعَه جَمَاعَات كَثِيرَةٌ (رِبِّيُّونَ) مِمَّنْ آمَنُوا بِه،وَاعْتَقَدُوا أنَّهُ رَسُولُ اللهِ،فَمَا وَهِنُوا،وَمَا ضَعُفُوا بَعْدَ قَتْلِ النَّبِيِّ،وَمَا اسْتَكَانُوا،وَمَا استَذَلُّوا لِمَا أصَابَهُمْ

[٣٦٣٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٩٤)

فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَفِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ دِينِهِ،وَإِنَّمَا صَبَرُوا عَلَى قِتَالِ الأَعْدَاءِ،وَلَمْ يَهْرُبُوا مُوَلِّينَ الأَدْبَارَ،لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ فِي سَبِيلِ نَبِيِّهِمْ،فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ أَنْ تَعْتَبِرُوا بِأُولَئِكَ الرِّبِّيِّينَ،وَتَصْبِرُوا كَمَا صَبَرُوا فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ،وَسُنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ.فَاحْتَسَبَ هَؤُلاءِ المُؤْمِنُونَ (الرِّبِّيُّونَ) اللهَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الخَطْبِ،وَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ،وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ عِنْدَ نُزُولِ الكَوَارِثِ إِلاَ الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بِجِهَادِهِمْ مَا كَانُوا أَلَمُّوا بِهِ مِنْ ذُنُوبٍ،وَتَجَاوُزَوا فِيهِ حُدُودَ الشَّرَائِعِ،وَأَن يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ القَوِيمِ،حَتَّى لا تُزَحْزِحَهُم الفِتَنُ،وَلاَ يَعْرُوهُمُ الفَشَلُ حِينَ مُقَابَلَةِ الأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ.فَآتَاهُمُ اللهُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الأَعْدَاءِ،وَهُمَا ثَوَابُ الدُّنْيا،وَجَمَعَ لَهُمْ،إِلَى ذَلِكَ الظَّفَرِ،حُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ،وَهُوَ الفَوْزُ بِرُضْوَانِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ،وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يُحْسِنُونَ العَمَلَ،لأَنَّهُمْ يُقِيمُونَ سُنَّتَهُ فِي أَرْضِهِ،وَيُظْهِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ جَدِيرُونَ بِخِلاَفَةِ اللهِ فِيهَا.[٣٦٣٩]

فى الآيات السابقة كان من الله،هذا العتاب الرفيق،الذي يحمل الإعتاب والرضا،ويسوق الإحسان والرحمة،ويبعث فى صدور المسلمين دفء الأمل بالنصر للإسلام،والإعزاز للمسلمين،فيجدون فى هذا كلّه العزاء الجميل لما أصابهم من جراح،فى أجسامهم،ولما وقع فى نفوسهم من مرارة الهزيمة،وعلوّ يد الكافرين عليهم فى هذه المعركة،معركة أحد..

وهنا،فى قوله تعالى «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ» صورة اخرى من صور العزاء والتّسرية عن المسلمين،بما تحمل إليهم كلمات الله من مواقف الإيمان والصّبر،للمؤمنين فى الأمم التي خلت،ممن صدّق الرسل وجاهد فى سبيل الله.

والربّيون:جمع ربّىّ،وهو من آمن بالله،وأضاف نفسه إلى ربّه،متوكلا عليه،مستقيما على صراطه.

فكثير من هؤلاء المؤمنين من أتباع الرسل،كانوا مع الأنبياء مجاهدين فى سبيل الله، لم يهنوا و لم يضعفوا،مهما نزل بهم من شدائد أو وقع عليهم من بلاء.وهؤلاء هم ممّن يحبّهم الله ويوسع لهم فى منازل رضوانه ورحمته:«وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» وفى قوله تعالى:«وَما كانَ

[٣٦٣٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٩،بترقيم الشاملة آليا)

قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه موقف المجاهدين الصابرين،حين يكربهم الكرب،ويشتدّ بهم البلاء..لا يذكرون غير الله،ولا يلتفتون إلا إليه،طالبين عفوه ومغفرته،وتثبيت أقدامهم فى موطن الجهاد،حتى لا تترع بهم نفوسهم إلى أن يولوا الأدبار،وأن يطلبوا السلامة والنجاة.

وفى طلبهم أن يغفر الله لهم ذنوبهم،وإسرافهم فى أمرهم- أي خروجهم عن سواء السبيل فى بعض أحوالهم- فى طلبهم هذا،وفى جعله مفتتح دعائهم،اعتراف ضمنىّ بأن شيئا ما دخل على إيمانهم،فأدخل الوهن والضعف عليهم- وإن لم يهنوا ولم يضعفوا- وباعد بينهم وبين النصر المرجوّ على عدوهم..فهم فى هذا الدعاء يضرعون إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم،وأن يتجاوز عن سيئاتهم،فإذا استجاب الله لهم ذلك،طهرت نفوسهم،واستقامت طريقهم إلى الله،واشتد قربهم منه،وكان لهم أن يطلبوا إلى الله أن يثبت أقدامهم،وأن يمسك بهم على هذا الطريق الذي استقاموا عليه..

وهذه الحال التي تنكشف عن موقف المؤمنين من أتباع الرسل تلقى على المؤمنين الذين شهدوا أحدا ظلالا من الاتهام،واللّوم،والعتاب،لما وقع فى نفوس بعضهم،وما جرى على ألسنة بعض آخر..من وساوس الشك والريبة..

فقال قائل:«أَنَّى هذا؟"(١٦٥:آل عمران) وقال آخرون:«لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» (١٥٤:آل عمران)..لقد نظر هؤلاء وأولئك إلى غير ما كان ينبغى أن ينظروا إليه..لقد نظروا إلى غيرهم،وألقوا باللائمة عليه..ولم ينظروا إلى أنفسهم ليبحثوا عما وقع فيها من خلل،كما كان يفعل المؤمنين قبلهم من أتباع الرسل،حين تترل بهم الشدائد،وتتوالى عليهم المحن.

وفى قوله تعالى:«فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» مشهد كريم،يعرض على أنظار المسلمين،لمن آمن بالله واستقام على طريقة،حتى إذا استشعر أن يد الله قد تراخت عنه،اتّهم نفسه،وأيقن أن خللا وقع فى صلته بالله،فبادر فأصلحه،وصالح الله،فوجد العفو والمغفرة،ثم أصاب النصر والظفر..

وهؤلاء المؤمنون الذين جاهدوا مع رسل الله،وكان شأنهم عند اشتداد المحن،وقسوة البلاء،العودة إلى الله بإصلاح أنفسهم- هؤلاء قد أعزّهم الله فى الدنيا،فكتب لهم النصر على عدوهم،وأجزل لهم المثوبة والرضوان فى الآخرة،لما كان منهم من صبر على البلاء،وثبات فى وجه الموت.[3640]

لقد كانت الهزيمة في «أحد»،هي أول هزيمة تصدم المسلمين،الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية.فلما أن صدمتهم أحد،فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه! ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم.واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة،وبالاستنكار تارة،وبالتقرير تارة،وبالمثل تارة،تربية لنفوسهم،وتصحيحا لتصورهم،وإعدادا لهم.

فالطريق أمامهم طويل،والتجارب أمامهم شاقة،والتكاليف عليهم باهظة،والأمر الذي يندبون له عظيم.

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام،لا يحدد فيه نبيا،ولا يحدد فيه قوما.إنما يربطهم بموكب الإيمان ويعلمهم أدب المؤمنين ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد.

وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير:«وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ.فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا»....وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة.فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح.وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح،وما استسلموا للجزع ولا للأعداء..فهذا هو شأن المؤمنين،المنافحين عن عقيدة ودين..

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»..الذين لا تضعف نفوسهم،ولا تتضعضع قواهم،ولا تلين عزائمهم،ولا يستكينون أو يستسلمون..

[3640] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٠٨)

والتعبير بالحب من الله للصابرين.له وقعه.وله إيحاؤه.فهو الحب الذي يأسو الجراح،ويمسح على القرح،ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء.فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم.صورة الأدب في حق الله،وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس،ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه.ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله..لا لتطلب النصر أول ما تطلب – وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس – ولكن لتطلب العفو والمغفرة،ولتعترف بالذنب والخطيئة،قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء:«وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا:رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا،وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا،وَثَبِّتْ أَقْدامَنا،وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء.بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء..لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة.لقد كانوا أكثر أدبا مع الله،وهم يتوجهون إليه،بينما هم يقاتلون في سبيله.فلم يطلبوا منه – سبحانه – إلا غفران الذنوب،وتثبيت الأقدام..والنصر على الكفار.فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار..إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا،أعطاهم الله من عنده كل شيء.أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة.وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه:«فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا،وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ»..

وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان.فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد،وأعلن حبه لهم.وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب:«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي.وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة.وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل..[٣٦٤١]

[٣٦٤١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٧٩١)

١٠- المغفرة والرحمة والحشر إلى الله:

قال تعالى:{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)} [آل عمران]

فَالَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَصْرِ دِينِهِ،أَوْ يَمُوتُونَ فِي أَثْنَاءِ الجِهَادِ،سَيَجِدُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ مَغْفِرَةً تَمْحُو مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ،وَرَحْمَةً وَرِضْوَاناً خَيْراً مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الكُفَّارُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ فِي هَذِهِ الدُّنيا الفَانية،فَهَذَا ظِلٌّ زَائِلٌ،وَذَاكَ نَعِيمٌ خَالِدٌ.وَبِأيِّ سَبَبٍ كَانَ هَلاَكُكُمْ،فَإِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إلى اللهِ لِيَجْزِيَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَ،فَآثِرُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ،وَيُحَقِّقُ لَكَ رِضَاهُ،فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِه.[٣٦٤٢]

لَا تَكُونُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ،وَأَنَّ إِلَيْهِ الْإِحْيَاءَ وَالْإِمَاتَةَ،كَمَا شَكَّ الْمُنَافِقُونَ فِي ذَلِكَ،وَلَكِنْ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ عَلَى يَقِينٍ مِنْكُمْ بِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ فِي حَرْبٍ،وَلَا يَمُوتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا مَنْ بَلَغَ أَجَلُهُ وَحَانَتْ وَفَاتُهُ،ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَى جِهَادِهِمْ فِي سَبِيلِهِ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ،وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَوْتًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتْلًا فِي اللَّهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حُطَامِهَا وَرَغِيدِ عَيْشِهَا الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ يَتَثَاقَلُونَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَأَخَّرُونَ عَنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧] «أَيْ أَنَّ الْمَوْتَ كَائِنٌ لَا بُدَّ مِنْهُ،فَمَوْتٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قَتْلٌ خَيْرٌ لَوْ عَلِمُوا فَأَيْقَنُوا مِمَّا يَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي لَهَا يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الْجِهَادِ،تَخَوُّفًا مِنَ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ لِمَا جَمَعُوا مِنْ زَهِيدِ الدُّنْيَا وَزَهَادَةٍ فِي الْآخِرَةِ» وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧] وَابْتَدَأَ الْكَلَامَ:{وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ} [آل عمران:١٥٨] بِحَذْفِ جَزَاءِ «لَئِنْ» لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ [ص:١٨٣]:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧] مَعْنَى جَوَازٍ لِلْجَزَاءِ،وَذَلِكَ أَنَّهُ وَعْدٌ خَرَجَ مَخْرَجَ الْخَبَرِ.فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ،لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ لَكُمْ

[٣٦٤٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

وَلَيَرْحَمَنَّكُمْ،فَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧] وَجَمَعَ مَعَ الدَّلَالَةِ بِهِ عَلَيْهِ الْخَبَرَ عَنْ فَضْلِ ذَلِكَ عَلَى مَا يُؤْثِرُونَهُ مِنَ الدُّنْيَا،وَمَا يَجْمَعُونَ فِيهَا.وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَنَّهُ إِنْ قِيلَ:كَيْفَ يَكُونُ:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ} [آل عمران:١٥٧] جَوَابًا لِقَوْلِهِ:{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ} [آل عمران:١٥٧] ؟ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ أَنْ يُقَالَ فِيهِ:كَأَنَّهُ قَالَ:وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ،فَذَكَرَ لَهُمْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ وَمَغْفِرَةً،إِذْ كَانَ ذَلِكَ فِي السَّبِيلِ،فَقَالَ:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ} [آل عمران:١٥٧] يَقُولُ:لِذَلِكَ {خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧] يَعْنِي لَتِلْكَ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ،وَدَخَلَتِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ:{لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ} [آل عمران:١٥٧] لِدُخُولِهَا فِي قَوْلِهِ:«وَلَئِنْ»،كَمَا قِيلَ:{وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ} [الحشر:١٢]

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ،فَإِنَّ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ وَمَحْشَرَكُمْ،فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ،فَآثِرُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ اللَّهِ،وَيُوجِبُ لَكُمْ رِضَاهُ،[ص:١٨٤] وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ،مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ عَلَى الرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا،وَمَا تَجْمَعُونَ فِيهَا مِنْ حُطَامِهَا الَّذِي هُوَ غَيْرُ بَاقٍ لَكُمْ،بَلْ هُوَ زَائِلٌ عَنْكُمْ،وَعَلَى تَرْكِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ،فَإِنَّ ذَلِكَ يُبْعِدُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ،وَيُوجِبُ لَكُمْ سَخَطَهُ،وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ.[٣٦٤٣]

فالموت أو القتل في سبيل الله – بهذا القيد،وبهذا الاعتبار – خير من الحياة،وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار:من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع.خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته،وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون.وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين..إنه لا يكلهم – في هذا المقام – إلى أمجاد شخصية،ولا إلى اعتبار ات بشرية.إنما يكلهم إلى ما عند الله،ويعلق قلوبهم برحمة الله.وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق،وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض..

وكلهم مرجوعون إلى الله،محشورون إليه على كل حال.ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض،أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان.فما لهم مرجع سوى هذا المرجع

[٣٦٤٣] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ١٨١)

وما لهم مصير سوى هذا المصير..والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه،والاهتمام..أما النهاية فواحدة:موت أو قتل في الموعد المحتوم،والأجل المقسوم.ورجعة إلى الله وحشر في يوم الجمع والحشر..ومغفرة من الله ورحمة،أو غضب من الله وعذاب..فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس.وهو ميت على كل حال! بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة،وحقيقة قدر الله.وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر وإلى ما وراء القدر من حكمة،وما وراء الابتلاء من جزاء..وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة،وفيما صاحبها من ملابسات..[٣٦٤٤]

١١- لا يدخل أحد الجنة ويحب أن يخرج منها إلا الشهيد:

فإنه يتمنى أن يرده الله إلى الدنيا،ليقتل في سبيل الله،لما يرى من فضل الشهادة وكرامة الشهيد.فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا،وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ،يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا،فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ»[٣٦٤٥].

قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:جَازَ كَوْنُهُ عَظِيمًا عَلَى أَنْ يُرْجَعَ ؛ أَيْ مَا يُحِبُّ أَنْ يُرْجَعَ،وَلَا أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا،وَكَوْنُهُ حَالًا ؛ أَيْ:لَا يُحِبُّ الرُّجُوعَ حَالَ كَوْنِهِ مَالِكًا لِكَثِيرٍ مِنْ أَمْتِعَةِ الدُّنْيَا وَالْبَسَاتِينِ وَالْأَمْلَاكِ وَالرِّقَابِ اه.وَالظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي،وَأَنَّ لَهُ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ مِنْ شَيْءٍ بَيَانٌ لِمَا فَيُفِيدُ الِاسْتِغْرَاقَ (إِلَّا الشَّهِيدُ):بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ أَحَدٍ،وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِالنَّصْبِ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ (يَتَمَنَّى):أَيْ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى (أَنْ يُرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ):الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْكَثْرَةُ (لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ):أَيْ كَرَامَةِ الشَّهَادَةِ،وَفِيهِ

[٣٦٤٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٠٤)

[٣٦٤٥] - صحيح البخاري (٤/ ٢٢) (٢٨١٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٩٨)١٠٩ - (١٨٧٧)

[ش(ما على الأرض من شيء) الدنيا وما فيها.(لما يرى من الكرامة) لأجل ما يراه من فضل الشهادة]

إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَمَنَّى شَيْئًا مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهَادَةَ،وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْهَا فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ:وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ"[٣٦٤٦]

وعَنْ حُمَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ،لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ،يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا،وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،إِلَّا الشَّهِيدَ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ،فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا،فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى»[٣٦٤٧]

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:"يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،فَيُقَالُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟،فَيَقُولُ:أَرَى خَيْرَ مَنْزِلٍ،فَيُقَالُ لَهُ:سَلْ،وتَمَنَّ،فَيَقُولُ:مَا أَسْأَلُكَ؟،وَمَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا،فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ،لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ"[٣٦٤٨]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،فَيُقَالُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ،كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ لَهُ:يَا رَبِّ،خَيْرَ الْمَنْزِلِ،فَيَقُولُ لَهُ:سَلْ وَتَمَنَّ،فَيَقُولُ:مَا أَسْأَلُ وَمَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ،وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،فَيَقُولُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ:يَا رَبِّ شَرَّ مَنْزِلٍ.فَيَقُولُ لَهُ:فَتَفْتَدِي مِنْهُ بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا،فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،نَعَمْ،فَيَقُولُ لَهُ:كَذَبْتَ،قَدْ سُئِلْتَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَفْعَلْ،فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ "[٣٦٤٩]

وعن طَلْحَةَ بْنِ خِرَاشٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،يَقُولُ:لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لِي:«يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا» ؟ قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي،وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا،قَالَ:«أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ» ؟ قَالَ:بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.قَالَ:"مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ،وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا.فَقَالَ:يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ.قَالَ:يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً.قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ:إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ

[٣٦٤٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٣)

[٣٦٤٧] - صحيح البخاري (٤/ ١٧)(٢٧٩٥)

[ش (له عند الله خير) ثواب مدخر على عمل صالح عمله في الدنيا]

[٣٦٤٨] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٥٨)(٧٣٣٠) صحيح

[٣٦٤٩] - البعث والنشور للبيهقي (ص:٣٢٨)(٦٠٠) صحيح

إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ "قَالَ:وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} [آل عمران:١٦٩]. ٣٦٥٠

وعَنِ ابْنِ أَبِي عَمِيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا فِي النَّاسِ مِنْ نَفْسٍ مَسْلَمَةٍ يَقْبِضُهَا رَبُّهَا تُحِبُّ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكُمْ،وَأَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا غَيْرَ الشَّهِيدِ» قَالَ ابْنُ أَبِي عَمِيرَةَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدَرِ» ٣٦٥١

١٢-الشهادة في سبيل الله تكفر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ» ٣٦٥٢

«يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ»):أَيْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ (إِلَّا الدَّيْنَ):أَرَادَ حُقُوقَ الْآدَمِيِّينَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ فَإِنَّهَا لَا تُعْفَى بِالشَّهَادَةِ،كَذَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:قِيلَ هَذَا فِي شُهَدَاءِ الْبَرِّ لِمَا رَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«شَهِيدُ الْبَحْرِ مِثْلُ شَهِيدَيِ الْبَرِّ،وَالْمَائِدُ فِي الْبَحْرِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ فِي الْبَرِّ،وَمَا بَيْنَ الْمَوْجَتَيْنِ كَقَاطِعِ الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ،وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَ مَلَكَ الْمَوْتِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ إِلَّا شَهِيدَ الْبَحْرِ،فَإِنَّهُ يَتَوَلَّى قَبْضَ أَرْوَاحِهِمْ وَيَغْفِرُ لِشَهِيدِ الْبَرِّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا،إِلَّا الدَّيْنَ وَلِشَهِيدِ الْبَحْرِ الذُّنُوبَ وَالدَّيْنَ» "٣٦٥٣

قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:فَإِنْ قُلْتَ:قَدْ سَبَقَ أَنَّ حُقُوقَ اللَّهِ مَبْنَاهَا عَلَى الْمُسَاهَلَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ حُقُوقُ الْآدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ:"«يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»،وَهَاهُنَا جَعَلَهُ دُونَ

٣٦٥٠ - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٣١)(٣٠١٠) صحيح

٣٦٥١ - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٩٣)(٤٣٤٦) صحيح

٣٦٥٢ - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢)١١٩ - (١٨٨٦)

٣٦٥٣ - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٢٨)(٢٧٧٨) ضعيف جدا ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٥٨)

(والمائد) هوالذي يدار برأسه من ريح البحر واضطراب السفينة بالأمواجزومابين الموجتين) أي قاطع ما بين الموجتين من المسافة.(إلا الدبن) أي إلا ترك وفاء الدين إذ نفس الدين ليس من الذنوب.

الْكَبَائِرِ فَمَا وَجْهُ التَّوْفِيقِ؟ قُلْتُ:قَدْ وَجَّهْنَاهُ أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ تَحْذِيرًا وَتَوَقِّيًا عَنِ الدَّيْنِ وَهَذَا مُجْرًى عَلَى ظَاهِرِهِ اهـ[٣٦٥٤]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ،إِلَّا الدَّيْنَ»[٣٦٥٥].

فيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الِاحْتِسَابِ وَعَدَمِ الِانْهِزَامِ مِنْ مُكَفِّرَاتِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا،فَيَكُونُ الشَّهِيدُ بِالشَّهَادَةِ مُسْتَحِقًّا لِلْمَغْفِرَةِ الْعَامَّةِ إلَّا مَا كَانَ مِنْ الدُّيُونِ اللَّازِمَةِ لِلْآدَمِيِّينَ فَإِنَّهَا لَا تُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ وَلَا تَسْقُطُ عَنْهُ بِمُجَرَّدِ الشَّهَادَةِ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ حَقًّا لِآدَمِيٍّ،وَسُقُوطُهُ إنَّمَا يَكُونُ بِرِضَاهُ وَاخْتِيَارِهِ،وَلِهَذَا امْتَنَعَ – ﷺ – مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الضَّمَانَةِ.وَيَلْحَقُ بِالدَّيْنِ مَا كَانَ حَقًّا لِآدَمِيٍّ مِنْ دَمٍ أَوْ عِرْضٍ بِجَامِعِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ حَقٌّ لِآدَمِيٍّ يَتَوَقَّفُ سُقُوطُهُ عَلَى إسْقَاطِهِ.[٣٦٥٦]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:"الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الْأَمَانَةَ،قَالَ:يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ:أَدِّ أَمَانَتَكَ،فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ قَالَ:فَيُقَالُ:انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ،فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ،وَيُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ،فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُدْرِكَهَا،فَيَحْمِلَهَا عَلَى مَنْكِبَيْهِ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ،ثُمَّ قَالَ:الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ،وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ،وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ،وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ،وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا،وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ"فَأَتَيْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فَقُلْتُ:أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ؟ قَالَ:كَذَا"قَالَ،كَذَا قَالَ،صَدَقَ أَمَا سَمِعْتَ يَقُولُ اللهُ:{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨] "[٣٦٥٧]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:"الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا أَوْ قَالَ:يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْأَمَانَةَ؛يُؤْتَى بِصَاحِبِ الْأَمَانَةِ،فَيُقَالُ لَهُ:أَدِّ أَمَانَتَكَ،فَيَقُولُ:أَيْ

[٣٦٥٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٦٢)

[٣٦٥٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢)١٢٠ - (١٨٨٦)

[٣٦٥٦] - نيل الأوطار (٧/ ٢٦٢)

[٣٦٥٧] - شعب الإيمان (٧/ ٢٠٨) (٤٨٨٥) صحيح

رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا،ثَلَاثًا؛فَيُقَالُ:اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ،فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَيْهَا،فَيَهْوِي فِيهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى قَعْرِهَا،فَيَجِدُهَا هُنَاكَ كَهَيْئَتِهَا،فَيَحْمِلُهَا،فَيَضَعُهَا عَلَى عَاتِقِهِ،فَيَصْعَدُ بِهَا إِلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ،حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ،فَهَوَى فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ "قَالُوا:وَالْأَمَانَةُ فِي الصَّلَاةِ،وَالْأَمَانَةُ فِي الصَّوْمِ،وَالْأَمَانَةُ فِي الْحَدِيثِ؛وَأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ "فَلَقِيتُ الْبَرَاءَ فَقُلْتُ:أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ عَبْدُ اللَّهِ؟ فَقَالَ:«صَدَقَ» "[٣٦٥٨]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا – أَوْ قَالَ:كُلُّ شَيْءٍ – إِلَّا الْأَمَانَةَ،وَالْأَمَانَةُ فِي الصَّلَاةِ،وَالْأَمَانَةُ فِي الصَّوْمِ،وَالْأَمَانَةُ فِي الْحَدِيثِ،فَأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ "[٣٦٥٩].

وقال القرطبي في التفسير:الدَّيْنُ الَّذِي يُحْبَسُ بِهِ صَاحِبُهُ عَنِ الْجَنَّةِ– وَاللَّهُ أَعْلَمُ– هُوَ الَّذِي قَدْ تَرَكَ لَهُ وَفَاءً وَلَمْ يُوصِ بِهِ.أَوْ قَدَرَ عَلَى الْأَدَاءِ فَلَمْ يُؤَدِّهِ،أَوِ ادَّانَهُ فِي سَرَفٍ أَوْ فِي سَفَهٍ وَمَاتَ وَلَمْ يُوَفِّهِ.وَأَمَّا مَنِ ادَّانَ فِي حَقٍّ وَاجِبٍ لِفَاقَةٍ وَعُسْرٍ وَمَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحْبِسُهُ عَنِ الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،لِأَنَّ عَلَى السُّلْطَانِ فَرْضًا أَنْ يُؤَدِّيَ عَنْهُ دَيْنَهُ،إِمَّا مِنْ جُمْلَةِ الصَّدَقَاتِ،أَوْ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ،أَوْ مِنَ الْفَيْءِ الرَّاجِعِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ،وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ،وَعَلَا صَوْتُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ قَالَ:صَبَّحْتُمْ مَسَّيْتُمْ قَالَ:وَكَانَ يَقُولُ:«أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،وَمَنْ تَرَكَ مَالًا،فَلِأَهْلِهِ،وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا،فَعَلَيَّ وَإِلَيَّ،فَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ»[٣٦٦٠]

وإن لم يؤد السلطان عنه دينه،فإن الله يرضي خصمه الدائن عنه،بحيث يتنازل عن حقه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ،وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»[٣٦٦١].

[٣٦٥٨] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٢٠٢) صحيح

[٣٦٥٩] – المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢١٩) (١٠٥٢٧) صحيح

[٣٦٦٠] – تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٤) وصحيح ابن حبان – مخرجا (٧/ ٣٣٢) (٣٠٦٢) وهوفي صحيح مسلم مطولا (٢/ ٥٩٢)٤٣ – (٨٦٧)

[٣٦٦١] – صحيح البخاري (٣/ ١١٥) (٢٣٨٧)

وَإِنَّمَا قَالَ أَتْلَفَهُ لِأَنَّ إِتْلَافَ الْمَالِ كَإِتْلَافِ النَّفْسِ أَوْ لِزِيَادَةِ زَجْرِهِ فَإِنَّ مَعْنَى أَتْلَفَهُ أَهْلَكَهُ ثُمَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْجَزَائِيَّةُ وَكَذَا الْأُولَى جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ لَفْظًا وَمَعْنًى وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِنْشَاءً مَعْنًى بِأَنْ يَخْرُجَ مَخْرَجَ الدُّعَاءِ لَهُ.[٣٦٦٢]

١٣-الملائكة تظلل الشهيد بأجنحتها:

عن مُحَمَّدَ بْنِ الْمُنْكَدِرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا،يَقُولُ:جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ،وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ،فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ،فَنَهَانِي قَوْمِي فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ،فَقِيلَ:ابْنَةُ عَمْرٍو - أَوْ أُخْتُ عَمْرٍو - فَقَالَ:«لِمَ تَبْكِي - أَوْ لاَ تَبْكِي - مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا» قُلْتُ لِصَدَقَةَ:أَفِيهِ «حَتَّى رُفِعَ» قَالَ:رُبَّمَا قَالَهُ[٣٦٦٣].

وعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:جِيءَ بِأَبِي يَوْمَ أُحُدٍ قَدْ مُثِّلَ بِهِ،حَتَّى وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ سُجِّيَ ثَوْبًا،فَذَهَبْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكْشِفَ عَنْهُ،فَنَهَانِي قَوْمِي،ثُمَّ ذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْهُ،فَنَهَانِي قَوْمِي،فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُفِعَ،فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ،فَقَالَ:«مَنْ هَذِهِ؟"فَقَالُوا:ابْنَةُ عَمْرٍو - أَوْ أُخْتُ عَمْرٍو - قَالَ:«فَلِمَ تَبْكِي؟ أَوْ لاَ تَبْكِي،فَمَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ»[٣٦٦٤]

يَجُوزُ لِلْحَاضِرِينَ وَغَيْرِهِمْ كَشْفُ وَجْهِ الْمَيِّتِ وَتَقْبِيلُهُ،وَالْبُكَاءُ عَلَيْهِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ بُكَاءً خَالِيًا مِنَ الصُّرَاخِ وَالنُّوَاحِ[٣٦٦٥]

[ش (يريد أداءها) قاصدا أن يردها إلى المقرض.(أدى الله عنه) يسر له ما يؤدي منه من فضله وأرضى غريمه في الآخرة إن لم يستطع الوفاء في الدنيا.(إتلافها) لا يقصد قضاءها.(أتلفه الله) أذهب ماله في الدنيا وعاقبه على الدين في الآخرة]

[٣٦٦٢] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٩٥٧)

[٣٦٦٣] - صحيح البخاري (٤/ ٢١) (٢٨١٦)

(المُسَجَّى) :المُغطى.-(مُثِل به) التمثيل بالقتيل:تشويه خلقته بجدع أو قطع عضو من أعضائه.-(مجدَّعاً) الجدع:قطع الأنف ونحوه من الأعضاء.

[٣٦٦٤] - صحيح البخاري (٢/ ٨١) (١٢٩٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩١٧)١٢٩ - (٢٤٧١)

[ش(مثل به) من التمثيل بالقتيل وهو قطع أنفه وأذنه وما أشبه ذلك.(سجي) غطي.(صائحة) امرأة تصيح.(ابنة عمرو) عمة جابر واسمها فاطمة.(أخت عمرو) عمة عبد الله أبي جابر]

[٣٦٦٥] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢/ ٨٢)

١٤- الشهادة الخالصة في سبيل الله توجب دخول الجنة قطعاً:

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟"قَالَ:فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا،فَيَقُولُ:«مَا شَاءَ اللَّهُ» فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ:«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟"قُلْنَا:لاَ،قَالَ:«لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي،فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ،فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ،وَرَجُلٌ قَائِمٌ،بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى:"إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ،ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ،وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا،فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ،قُلْتُ:مَا هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ،فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ،فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ،فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ،فَعَادَ إِلَيْهِ،فَضَرَبَهُ،قُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ،أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا،فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا،فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا،وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ،فَقُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ - قَالَ يَزِيدُ،وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ:عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ،فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ،فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ،فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ،فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ،فَقُلْتُ:مَا هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ،فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ،وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ،وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا،فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ،وَأَدْخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا،فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ،وَنِسَاءٌ،وَصِبْيَانٌ،ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ،فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ،وَشَبَابٌ،قُلْتُ:طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ،فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ،قَالاَ:نَعَمْ،أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ،فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذْبَةِ،فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ،فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ،فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ،فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ

فيه بِالنَّهَارِ،يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا،وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ،وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ،فَأَوْلاَدُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ،وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤْمِنِينَ،وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ،وَأَنَا جِبْرِيلُ،وَهَذَا مِيكَائِيلُ،فَارْفَعْ رَأْسَكَ،فَرَفَعْتُ رَأْسِي،فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ،قَالاَ:ذَاكَ مَنْزِلُكَ،قُلْتُ:دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي،قَالاَ:إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَو اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ "[٣٦٦٦].

(وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ)،أَيْ:خَوَاصُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ لِمَا وَرَدَ:أَنَّ مِدَادَ الْعُلَمَاءِ يُرَجَّحُ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ،وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِالشُّهَدَاءِ أَرْبَابُ الْحُضُورِ مَعَ الْمَوْلَى فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ،كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَنْ غَالِبُ أَحْوَالِهِمُ الْغَفْلَةُ وَالْغَيْبَةُ عَنِ الْحَضْرَةِ.[٣٦٦٧]

وعَنْ سَمُرَةَ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي،فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ،لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا،قَالاَ:أَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ "[٣٦٦٨]

وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ،فَقَالَ:«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟ »،فَسَأَلْنَا يَوْمًا،ثُمَّ قَالَ:«أُرِيتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ،فَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا،فَقَالَ:أَمَا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ»[٣٦٦٩]

١٥- يجعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر في الجنة:

[٣٦٦٦] - صحيح البخاري (٢/ ١٠١)(١٣٨٦)

[ش (كلوب) الحديدة التي ينشل بها اللحم ويعلق ومثله الكلاب.(شدقه) جانب فمه.(يلتئم) يصح ويبرأ.(بفهر) بحجر ملء الكف.(فيشدخ) من الشدخ وهو كسر الشيء الأجوف.(تدهده) تدحرج]

[٣٦٦٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٢٨)

[٣٦٦٨] - صحيح البخاري (٤/ ١٦) (٢٧٩١)

[٣٦٦٩] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٥١٦)(٤٦٥٩) صحيح

عَنْ مَسْرُوق،قَالَ:سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَذه الْآيَة:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عنْدَ رَبِّهمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩] قَالَ:أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلكَ،فَقَالَ:«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْف طَيْرٍ خُضْرٍ،لَهَا قَنَاديلُ مُعَلَّقَةٌ بالْعَرْش،تَسْرَحُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ،ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تلْكَ الْقَنَاديلِ،فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»،فَقَالَ:"هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا:أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهي وَنَحْنُ نَسْرَحُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ شئْنَا،فَفَعَلَ ذَلكَ بهمْ ثَلَاثَ مَرَّات،فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا منْ أَنْ يُسْأَلُوا،قَالُوا:يَا رَبِّ،نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبيلكَ مَرَّةً أُخْرَى،فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُركُوا "[٣٦٧٠].

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود،أَنَّهُ سُئلَ عَنْ قَوْله:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عنْدَ رَبِّهمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩] فَقَالَ:"أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلكَ،فَأُخْبرْنَا أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ،وَتَأْوِي إِلَى قَنَاديلَ مُعَلَّقَة بالعَرْشِ،فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً،فَقَالَ:هَلْ تَسْتَزِيدُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ قَالُوا رَبَّنَا:وَمَا نَسْتَزِيدُ وَنَحْنُ فِي الجَنَّة نَسْرَحُ حَيْثُ شئْنَا؟ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَيْهِمُ الثَّانيَةَ،فَقَالَ:هَلْ تَسْتَزِيدُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُتْرَكُونَ قَالُوا:تُعيدُ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادنَا حَتَّى نَرْجعَ إِلَى الدُّنْيَا،فَنُقْتَلَ فِي سَبيلكَ مَرَّةً أُخْرَى "[٣٦٧١]

(إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا):أَيْ رَسُولَ اللَّه (عَنْ ذَلكَ):أَيْ عَنْ مَعْنَى هَذه الْآيَة.قَالَ النَّوَوِيُّ:الْحَديثُ مَرْفُوعٌ بقَوْله:إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلكَ.(فَقَالَ):يَعْني النَّبِيَّ - ﷺ - وَقَالَ الْقَاضي:الْمَسْئُولُ وَالْمُجيبُ هُوَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْه وَسَلَامُهُ،وَفي فَقَالَ ضَميرٌ لَهُ،وَيَدُلُّ عَلَيْه قَرينَةُ الْحَال،فَإِنَّ الظَّاهرَ حَالُ الصَّحَابيِّ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُهُ وَاسْتكْشَافُهُ منَ الرَّسُول - ﷺ - لَا سيَّمَا فِي تَأْويلِ آيَة هيَ منَ الْمُتَشَابهَات،وَمَا هيَ منْ أَحْوَال الْمَعَاد،فَإِنَّهُ غَيْبٌ صرْفٌ لَا يُمْكنُ مَعْرفَتُهُ إِلَّا بالْوَحْي،وَلكَوْنه بهَذه الْمَثَابَة منَ التَّعْيين أُضْمرُ منْ غَيْر أَنْ يَسْبقَ ذكْرُهُ. قُلْتُ:أَيْضًا:جَلَالَةُ ابْنِ مَسْعُود تَأْبَى أَنْ يَسْأَلَ عَنْ ذَلكَ غَيْرَهُ - ﷺ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَقَوْلُهُ:(أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْوَاف طَيْرٍ خُضْرٍ):أَيْ يُخْلَقُ لأَرْوَاحهمْ بَعْدَ مَا فَارَقَتْ

[٣٦٧٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢) ١٢١ - (١٨٨٧)

[٣٦٧١] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٣١)(٣٠١١) صحيح

أَبْدَانَهُمْ هَيَاكِلُ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ تَتَعَلَّقُ بِهَا،وَتَكُونُ خَلَفًا عَنْ أَبْدَانِهِمْ،وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [آل عمران:١٦٩] فَيَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى نَيْلِ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ اللَّذَائِذِ الْحِسِّيَّةِ،وَإِلَيْهِ يُرْشِدُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يُرْزَقُونَ - فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [آل عمران:١٦٩ - ١٧٠] وَالطَّيْرُ جَمْعُ طَائِرٍ،وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَخُضْرٌ بِضَمٍّ فَسُكُونٍ جَمْعُ أَخْضَرَ (لَهَا):أَيْ لِلطَّيْرِ،أَوْ لِلْأَرْوَاحِ (قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ):بِمَنْزِلَةِ أَوْكَارِ الطَّيْرِ (تَسْرَحُ):أَيْ تَسِيرُ وَتَرْعَى وَتَتَنَاوَلُ (مِنَ الْجَنَّةِ):أَيْ مِنْ ثَمَرَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا (حَيْثُ شَاءَتْ،ثُمَّ تَأْوِي):أَيْ تَرْجِعُ (إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ):أَيْ فَتَسْتَقِرُّ فِيهَا،ثُمَّ تَسْرَحُ،وَهَكَذَا (فَاطَّلَعَ):بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ ؛ أَيْ نَظَرَ (إِلَيْهِمْ):وَتَجَلَّى عَلَيْهِمْ (رَبُّهُمْ):وَإِنَّمَا قَالَ (اطِّلَاعَةً):لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ اطِّلَاعِنَا عَلَى الْأَشْيَاءِ.قَالَ الْقَاضِي:وَعَدَّاهُ بِإِلَى،وَحَقُّهُ أَنْ يُعَدَّى بِعَلَى لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الِانْتِهَاءِ.(فَقَالَ):أَيْ رَبُّهُمْ («هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا:أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا»:يَعْنِي:{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} [الزخرف:٧١] (فَفَعَلَ):أَيْ رَبُّهُمْ (ذَلِكَ):أَيْ مَا ذَكَرَ مِنَ الِاطِّلَاعِ وَالْقَوْلِ لَهُمْ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ):قَالَ الْقَاضِي:اطِّلَاعُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاسْتِفْهَامُهُ عَمَّا يَشْتَهُونَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى مَجَازٌ عَنْ مَزِيدِ تَلَطُّفِهِ بِهِمْ وَتَضَاعُفِ تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِمْ.قُلْتُ:وَلَا مَانِعَ لِلْحَمْلِ عَلَى الْحَقِيقَةِ،بَلْ هِيَ أَحَقُّ عِنْدَ عَدَمِ الصَّارِفِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَحَلِّهِ،(فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا):بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ ؛ أَيْ لَنْ يَخْلُوَا (مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا):بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ،وَمِنْ زَائِدَةٌ لِوُقُوعِهَا فِي سِيَاقِ النَّفْيِ،وَأَنْ يَسْأَلُوا بَدَلٌ مِنْ نَائِبِ فَاعِلِ يُتْرَكُوا ؛ أَيْ:لَنْ يُتْرَكَ سُؤَالُهُمْ (قَالُوا «يَا رَبُّ! نُرِيدُ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحُنَا فِي أَجْسَادِنَا»):أَيِ الْأَوَّلِيَّةِ (حَتَّى نُقْتَلَ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ ؛ أَيْ نُسْتَشْهَدَ (فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى؟):قَالَ الْقَاضِي:الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَبْقَى لَهُمْ مُتَمَنًّى وَلَا مَطْلَبٌ أَصْلًا غَيْرَ أَنْ يُرْجَعُوا إِلَى الدُّنْيَا فَيُسْتَشْهَدُوا ثَانِيًا لِمَا رَأَوْا بِسَبَبِهِ مِنَ الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ (فَلَمَّا رَأَى):أَيْ عَلِمَ اللَّهُ عِلْمًا تَنْجِيزِيًّا مُطَابِقًا لِمَا عَلِمَ عِلْمًا غَيْبِيًّا تَعْلِيقِيًّا (أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ):أَيْ حَاجَةٌ مُعْتَبَرَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ سَأَلُوا مَا هُوَ خِلَافُ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى (تُرِكُوا):أَيْ مِنْ سُؤَالِ هَلْ تَشْتَهُونَ؟ قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:رُؤْيَةُ اللَّهِ كَانَتْ أَعْظَمَ النِّعَمِ،فَلِمَ لَمْ يَطْلُبُونَهَا؟ قُلْتُ:يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى مَوْقُوفَةً فِي ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ اسْتِعْدَادٍ

يَلِيقُ بِهَا،فَصَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنْ ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ حُصُولِ الِاسْتِعْدَادِ.فَإِنْ قُلْتَ:إِعَادَةُ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ إِنْ كَانَ لِطَلَبِ مَا هُمْ فِيهِ فَلَا فَائِدَةَ،وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِهِ فَهَلَّا اشْتَهَوْاهُ أَوْ لَا؟ قُلْتُ:يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمْ بِذَلِكَ الْكَلَامِ الْقِيَامَ بِمُوجِبِ الشُّكْرِ فِي مُقَابَلَةِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.قَالَ الْقَاضِي:الْحَدِيثُ تَمْثِيلٌ لِحَالِهِمْ،وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَهْجَةِ وَالسَّعَادَةِ شَبَّهَ لَطَافَتَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ،وَتَمَكُّنَهُمْ مِنَ التَّلَذُّذِ بِأَنْوَاعِ الْمُشْتَهِيَاتِ وَالتَّبَوُّءِ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءُوا،وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَانْخِرَاطِهِمْ فِي غَارِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ بِمَا إِذَا كَانُوا فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ إِلَى الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ،وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ،وَشَبَّهَ حَالَهُمْ فِي اسْتِجْمَاعِ اللَّذَائِذِ وَحُصُولِ جَمِيعِ الْمَطَالِبِ بِحَالِ مَنْ يُبَالِغُ وَيَسْرُدُ عَلَيْهِ رَبُّهُ الْمُتَفَضِّلُ الْمُشْفِقُ عَلَيْهِ غَايَةَ التَّفَضُّلِ وَالْإِشْفَاقِ الْقَادِرُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ بِأَنْ يُسْأَلَ مِنْهُ مَطْلُوبًا،وَيُكَرِّرَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِحَيْثُ لَا يَرَى بُدًّا مِنَ السُّؤَالِ،فَلَمْ يَرَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْأَلَهُ إِلَّا أَنْ يُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا،فَيُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:اخْتَلَفُوا فِيهِ قِيلَ:لَيْسَ لِلْأَقْيِسَةِ وَالْعُقُولِ فِي هَذَا حُكْمٌ،فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِ،أَوِ الشَّهِيدِ فِي قَنَادِيلَ،أَوْ أَجْوَافِ طَيْرٍ،أَوْ حَيْثُ شَاءَ كَانَ ذَلِكَ،وَوَقَعَ وَلَمْ يَبْعُدْ لَا سِيَّمَا مَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْأَرْوَاحَ أَجْسَامٌ،فَغَيْرُ مُسْتَحِيلٍ أَنْ يُصَوَّرَ جُزْءٌ مِنَ الْإِنْسَانِ طَائِرًا،أَوْ يُجْعَلَ فِي جَوْفِ طَائِرٍ فِي قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ،وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الرُّوحِ فَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْمَعَانِي،وَعِلْمِ الْبَاطِنِ،وَالْمُتَكَلِّمِينَ:لَا يُعْرَفُ حَقِيقَتُهُ وَلَا يَصِحُّ وَصْفُهُ،وَهُوَ مِمَّا جَهِلَ الْعِبَادُ عِلْمَهُ،وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء:٨٥] وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ شُيُوخِنَا:هُوَ الْحَيَاةُ،وَقَالَ آخَرُونَ:هُوَ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ مُشَابِكَةٌ لِلْجِسْمِ يَحْيَا بِحَيَاتِهِ،وَأَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى الْعَادَةَ بِمَوْتِ الْجِسْمِ بَعْدَ فِرَاقِهِ،وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ بَعْضُ الْقَائِلِينَ بِالتَّنَاسُخِ وَانْتِقَالِ الْأَرْوَاحِ وَتَنْعِيمِهَا فِي الصُّوَرِ الْحِسَانِ الْمُرَفَّهَةِ،وَتَعْذِيبِهَا فِي الصُّوَرِ الْقَبِيحَةِ الْمُسَخَّرَةِ،وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ،وَهَذَا بَاطِلٌ مَرْدُودٌ لَا يُطَابِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ مِنْ إِثَابَةِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ،وَلِهَذَا قَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ:حَتَّى

يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ بَعْثَةِ الْأَجْسَادِ.قُلْتُ:قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:اعْلَمْ أَنَّ الْقَـوْلَ بِتَجَـرُّدِ الرُّوحِ يُخَالِفُ هَذَا الْحَدِيثَ،كَمَا أَنَّهُ يُخَالِفُ قَوْلَهُ تَعَـالَى:{فَـادْخُلِي فِـي عِبَـادِي} [الفجر:٢٩] اه.

وَفِي بَعْضِ حَوَاشِي شَرْحِ الْعَقَائِدِ:اعْلَمْ أَنَّ التَّنَاسُخَ عِنْدَ أَهْلِهِ هُوَ رَدُّ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَبْـدَانِ فِي هَذَا الْعَالَمِ لَا فِي الْآخِرَةِ إِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الْآخِرَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ،وَلِذَا كَفَرُوا اه.وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ مَوْجُودَةٌ،وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ،وَهِيَ الَّتِي أُهْبِطَ مِنْهَا آدَمُ وَيَتَنَعَّمُ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ،وَفِيهِ أَنَّ مُجَازَاةَ الْأَمْوَاتِ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ قَبْلَ يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ،وَأَنَّ الْأَرْوَاحَ بَاقِيَةٌ لَا تَفْنَى،فَيَتَنَعَّمُ الْمُحْسِنُ وَيُعَذَّبُ الْمُسِيءُ،وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ،وَبِهِ نَطَقَ التَّنْزِيلُ وَالْآثَارُ خِلَافًا لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَـا غُـدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:٤٦].[٣٦٧٢]

ولعل الحكمة في جعل أرواح الشهداء في أجساد الطيور الخضر،أهم جاهدوا في سـبيل الله،وجادوا بأجسادهم الكثيفة لله تعالى،وبـذلوها في حـب الله،وعرضـوها لـلآلام والمشقات الشديدة وسمحوا بها للفناء،امتثالاً لأمر الله! فلما فعلوا ذلك عوضهم الله عنها أجساداً لطيفة في دار النعيم الباقي.

ولعل الحكمة في اختيار الطيور ذوات اللون الأخضر والقناديل المعلقة في ظـل العـرش هي:إن ألطف الألوان هو اللون الأخضر.وألطف الجمادات الشفافة هو الزجاج.ولذلك جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد،وهو الطير،واختار ألطف الألـوان وهـو الأخضر،ويأوي ذلك الطير الأخضر إلى ألطف الجمادات وهي القناديل المنورة والمفرحة في ظل العرش،لتكمل لها لذة النعيم في جوار الرب الكريم!

والفرق بين روح الشهيد وروح المؤمن غير الشهيد؛أن روح الشهيد في جـوف طـير أخضر،فكأنها تركب ذلك الطير.أما روح المؤمن فإنها على شكل طـيرٍ في الجنـة،فكأنها تطير بنفسها.

ــــــــــــــــــــ

[٣٦٧٢] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٤)

١٦ – الشهداء لا يفتنون في قبورهم ولا يصعقون عند نشورهم:

ولا يفتن الشهيد في قبره،لأنه كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.إن الفتنة في القبر إنما هي لاختبار ما عند الإنسان من حقيقة الإيمان والتصديق.

ولا شك أن من وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع،والأسنة تبرق وتخرق،والسهام ترشق وتمرق،والرؤوس تندر،والدماء تثعب،والأعضاء تتطاير،والناس بين قتيل وجريح وطريح،إن من رأى ذلك فثبت و لم يول الدبر و لم ينهزم،وإنما جاد بنفسه لله تعالى،إيماناً به،وتصديقاً بوعده ووعيده،إنما يكفيه هذا امتحاناً لإيمانه،واختباراً له،وهذه هي الفتنة التي ما بعدها فتنة يكفي للشهيد هذا الامتحان من سؤال الفتان.والشهيد لا يصعق عندما يبعث من قبره يوم القيامة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ "أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} مَنِ الَّذِينَ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقَهُمْ؟ قَالَ:هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[٣٦٧٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} مَنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقَهُ؟ قَالَ:هُمُ الشُّهَدَاءُ ثَنِيَّةُ اللَّهِ مُتَقَلِّدِي أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ،تَتَلَقَّاهُمْ مَلَائِكَةُ الْمَحْشَرِ بِنَجَائِبَ مِنْ يَاقُوتٍ،أَزِمَّتُهَا الدُّرُّ الْأَبْيَضُ،بِرِحَائِلِ الذَّهَبِ،وَأَغْشِيَتُهَا السُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ،وَأَنْمَارُهَا أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ مَدُّ خُطَاهَا مَدُّ أَبْصَارِ الرِّجَالِ،يَسِيرُونَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى خُيُولٍ يَقُولُونَ عِنْدَ طُولِ النُّزْهَةِ:انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَبِّنَا نَنْظُرْ كَيْفَ يَقْضِي بَيْنَ خَلْقِهِ؟ يَضْحَكُ إِلَّا هِيَ إِلَيْهِمْ،وَإِذَا ضَحِكَ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ "[٣٦٧٤]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،فِي قَوْلِهِ:فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ:«الشُّهَدَاءُ ثَنِيَّةُ اللَّهِ حَوْلَ الْعَرْشِ،مُتَقَلِّدِينَ السُّيُوفَ» وَقَالَ آخَرُونَ:عَنَى بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي الْفَزَعِ:الشُّهَدَاءَ،وَفِي الصَّعْقِ:جِبْرِيلَ،وَمَلَكَ الْمَوْتِ،وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ"[٣٦٧٥]

[٣٦٧٣] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٧٧)(٣٠٠٠) صحيح

[٣٦٧٤] – الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ٩٧)(٧١) فيه لين

[٣٦٧٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٠/ ٢٥٦) صحيح مرسل

وعَنْ سَعيد بْنِ جُبَيْر:{فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَـاءَ اللّـهُ} قَالَ:هُمُ الشُّهَدَاءُ ثَنِيَّةُ اللَّهُ حَوْلَ الْعَرْشِ،مُتَقَلِّدِينَ السُّيُوفَ.[3676]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} مَنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقَهُ؟ قَالَ:هُمُ الشُّهَدَاءُ ثَنِيَّةُ اللَّهِ مُتَقَلِّدِي أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ عَرْشِهِ،تَتَلَقَّاهُمْ مَلَائِكَةُ الْمَحْشَرِ بِنَجَائِبَ مِنْ يَاقُوتٍ،أَزِمَّتُهَا الدُّرُّ الْأَبْيَضُ،بِرَحَائِلِ الذَّهَبِ،وَأَغْشِيَتُهَا السُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ،وَأَنْمَارُهَا أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ مَدُّ خُطَاهَا مَدُّ أَبْصَارِ الرِّجَالِ،يَسِيرُونَ فِي الْجَنَّةِ عَلَى خُيُولٍ يَقُولُونَ عِنْدَ طُولِ النُّزْهَةِ:انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَبِّنَا نَنْظُرْ كَيْفَ يَقْضِي بَيْنَ خَلْقِهِ؟ يَضْحَكُ إِلَّا هِيَ إِلَيْهِمْ،وَإِذَا ضَحِكَ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ "[3677]

١٧- الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته،ويأمن من الفزع الأكبر ويغفر له بأول قطرة من دمه:

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ:يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ،وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ"[3678].

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:"إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ تِسْعَ خِصَالٍ - أَوْ قَالَ:عَشَرَ خِصَالٍ - يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُحَلَّى حِلْيَةَ الْإِيمَانِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيَأْمَنُ يَوْمَ

[3676] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٥٧)(١٩٦٨٩) صحيح مرسل

[3677] - الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ٩٨)(٧١) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٧٧)(٣٠٠٠) صحيح لغيره

[3678] - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٣٥) (٢٧٩٩) صحيح

(ستة خصال) المذكورات سبع.إلا أن يجعل الإجازة والأمن من الفزع واحدة(دفعة) الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة.وكذلك الدفعة من المطر.يقال داء القوم دفعة واحدة إذا دخلوا بمرة واحدة.(حلة الإيمان) غضافة الحلة إلى الإيمان بمعنى أنها مسببة عنه.

الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ:الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ "[٣٦٧٩]

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ:عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعُ خِصَالٍ،يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيَأْمَنُ الْفَزَعَ الْأَكْبَرَ،وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ،الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»[٣٦٨٠]

وعَنْ قَيْسٍ الْجُذَامِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"إِنَّ لِلْقَتِيلِ عِنْدَ اللهِ سِتَّ خِصَالٍ:يُغْفَرُ لَهُ خَطِيئَتُهُ فِي أَوَّلِ دفعَةٍ مِنْ دَمِهِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْكَرَامَةِ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُؤْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ".[٣٦٨١]

لَا يُوجَدُ مَجْمُوعُهَا لِأَحَدٍ غَيْرِهِ (يُغْفَرُ لَهُ):بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ ؛ أَيْ تُمْحَى ذُنُوبُهُ (فِي أَوَّلِ دَفْقَةٍ):بِفَتْحِ أَوَّلِهِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمِّ أَوَّلِهِ.الْجَوْهَرِيُّ:الدُّفْقَةُ مِنَ الْمَطَرِ وَغَيْرِهِ بِالضَّمِّ مِثْلُ الدُّفْعَةِ وَبِالْفَتْحِ الْوَاحِدَةُ ؛ أَيْ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْقَةٍ وَصَبَّةٍ مِنْ دَمِهِ (وَيَرَى):بِضَمِّ أَوَّلِهِ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْإِرَاءَةِ وَيُفْتَحُ وَقَوْلُهُ:(مَقْعَدَهُ):بِالنَّصْبِ لَا غَيْرَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ نَائِبُ الْفَاعِلِ،أَوْ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ،وَفَاعِلُهُ مُسْتَكِنٌّ فِي يَرَى وَقَوْلُهُ:(مِنَ الْجَنَّةِ):مُتَعَلِّقٌ بِهِ،هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَ قَوْلَهُ:وَيَرَى مَقْعَدَهُ عَلَى أَنَّهُ عَطَفُ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِهِ:يُغْفَرُ لَهُ لِئَلَّا تَزِيدَ الْخِصَالُ عَلَى سِتٍّ،لِئَلَّا يَلْزَمَ التَّكْرَارُ فِي قَوْلِهِ:(وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ):أَيْ يُحْفَظُ وَيُؤَمَّنُ إِذِ الْإِجَارَةُ مُنْدَرِجَةٌ فِي الْمَغْفِرَةِ إِذَا حُمِلَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا (وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ):فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [الأنبياء:١٠٣] قِيلَ:هُوَ عَذَابُ النَّارِ،وَقِيلَ:الْعَرْضُ عَلَيْهَا،وَقِيلَ:هُوَ وَقْتُ يُؤْمَرُ أَهْلُ النَّارِ بِدُخُولِهَا،وَقِيلَ:ذَبْحُ الْمَوْتِ فَيَيْأَسَ الْكُفَّارُ عَنِ التَّخَلُّصِ مِنَ النَّارِ بِالْمَوْتِ،وَقِيلَ:وَقْتُ إِطْبَاقِ النَّارِ عَلَى الْكُفَّارِ،وَقِيلَ:النَّفْخَةُ الْأَخِيرَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

[٣٦٧٩] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٢٦٦)(٦٢٩) صحيح

[٣٦٨٠] - الشريعة للآجري (٣/ ١٢٤٣)(٨١١) صحيح

[٣٦٨١] - شعب الإيمان (٦/ ١١٣)(٣٩٤٧) صحيح

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} [النمل:٨٧] (وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ):أَيِ الْمَعَزَّةُ.وَفِي النِّهَايَةِ:التَّاجُ مَا يُصَاغُ لِلْمُلُوكِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ (الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا):أَيْ مِنَ التَّاجِ وَالتَّأْنِيثُ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ عَلَامَةُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ،أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِهَا.(خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَيُزَوَّجُ):أَيْ يُعْطَى بِطَرِيقِ الزَّوْجِيَّةِ (اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً):فِي التَّقْيِيدِ بِالثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّحْدِيدُ،لَا التَّكْثِيرُ،وَيُحْمَلُ عَلَى أَنَّ هَذَا أَقَلُّ مَا يُعْطَى،وَلَا مَانِعَ مِنَ التَّفَضُّلِ بِالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا (مِنَ الْحُورِ الْعِينِ):أَيْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ وَاحِدَتُهَا حَوْرَاءُ،وَهِيَ الشَّدِيدَةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ الشَّدِيدَةُ سَوَادِهَا،وَالْعِينُ جَمْعُ عَيْنَاءَ وَهِيَ الْوَاسِعَةُ الْعَيْنِ (وَيُشَفَّعُ):بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ ؛ أَيْ يُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ (فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ):أَيْ أَقَارِبِهِ وَأَحْبَابِهِ.[٣٦٨٢]

١٨- من استشهد في سبيل الله أفضل ممن انتصر وعاد سالماً:

عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ،وَيُهْرَاقَ دَمُكَ».[٣٦٨٣]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ،وَأُهْرِيقَ دَمُهُ»[٣٦٨٤].

وعَنْ جَابِرٍ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ:«أَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ» أَوْ قَالَ «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَأَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ وَيُهْرَاقَ دَمُكَ " قَالَ:فَأَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«طُولُ الْقُنُوتِ»[٣٦٨٥].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ،فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ،وَإِيَّاكُمْ

[٣٦٨٢] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٨٢)

[٣٦٨٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٩٦) (٤٦٣٩) صحيح

[٣٦٨٤] - سنن الدارمي (٣/ ١٥٤٦)(٢٤٣٧) صحيح

[٣٦٨٥] - مسند أبي داود الطيالسي (٣/ ٣٢٩)(١٨٨٦) صحيح

وَالشُّحَّ،فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَـنْ كَـانَ قَبْلَكُمْ،أَمَـرَهُمْ بِالْقَطِيعَـةِ فَقَطَعُـوا،وَأَمَرَهُمْ بِالْبُخْـلِ فَبَخلُوا،وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا» فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَـلُ "؟ قَالَ شُعْبَةُ:«مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ:«أَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ» فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الْهِجْـرَةِ أَفْضَـلُ؟ قَالَ:«أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْهِجْرَةُ هِجْرَتَانِ،هِجْرَةُ الْحَاضِـرِ وَهِجْرَةُ الْبَادِي،فَأَمَّا الْبَادِي فَيُجِيبُ إِذَا دُعِيَ،وَيُطِيعُ إِذَا أُمِرَ،وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَهُوَ أَعْظَمُهُمَـا بَلِيَّةً،وَأَفْضَلُهُمَا أَجْرًا» وَنَادَاهُ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَـالَ:«أَنْ يُعْقَـرَ جَوَادُكَ وَيُهْرَاقَ دَمُكَ»[٣٦٨٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ:أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«إِيمَانٌ لَـا شَـكَّ فِيهِ،وَجِهَادٌ لَا غُلُولَ فِيهِ،وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ».قِيلَ:فَـأَيُّ الصَّـلَاةِ أَفْضَـلُ؟ قَـالَ:«طُـولُ الْقِيَامِ»قِيلَ:فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«جُهْدُ مُقِلٍّ».قِيلَ:فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَـلُ؟ قَـالَ:«أَنْ تَهْجُرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ».قِيلَ:فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«مَنْ جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَالِـهِ وَنَفْسِهِ».قِيلَ:فَأَيُّ الْقَتْلِ أَشْرَفُ؟ قَالَ:«مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ»[٣٦٨٧]

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَجُلًا جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِنَا،فَقَـالَ حِينَ انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ:اللَّهُمَّ آتِنِي أَفْضَلَ مَا تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ،فَلَمَّا قَضَى النَّبِـيُّ ﷺ الصَّلَاةَ،قَالَ:«مَنِ الْمُتَكَلِّمُ آنِفًا؟ »،فَقَالَ الرَّجُلُ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِذَا يُعْقَرُ جَوَادُكَ،وَتُسْتَشْهَدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٣٦٨٨].

١٩- الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا كما يجد من ألم القرصة:

[٣٦٨٦] - مسند أبي داود الطيالسي (٤/ ٣٠)(٢٣٨٦) صحيح

[٣٦٨٧] - سنن الدارمي (٢/ ٨٩٣)(١٤٦٤) صحيح

[٣٦٨٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٩٦)(٤٦٤٠) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٣٢٥)(٧٤٨) صحيح لغيره

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ»[3689].

قَالَ فِي الْقَامُوسِ الْقَرْصُ أَخْذُكَ لَحْمَ إِنْسَانٍ بِأُصْبُعَيْكَ حَتَّى تُؤْلِمَهُ وَلَسْعُ الْبَرَاغِيثِ "وَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنْ هَذَا الْخَطْبِ الْمَهُولِ"[3690]

٢٠- يدخل الملائكة على الشهداء من كل باب يسلمون عليهم:

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:"إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ،إِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا،وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تُقْضَ لَهُ حَتَّى يَمُوتَ،وَهِيَ فِي صَدْرِهِ،وَإِنَّ اللهَ يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ،فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا،فَيَقُولُ:أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ،وَقُتِلُوا،وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي ادْخُلُوا الْجَنَّةَ،فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ،فَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ،وَنُقَدِّسُ لَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا،فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي،فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ {مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ} [الرعد:٢٤] "[3691].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ:"أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ،وَتُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ،وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ،وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً،فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ:ايتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ،قَالَ:فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا نَحْنُ سُكَّانُ سَمَاوَاتِكَ،وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ،فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:إِنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عِبَادًا لِي يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا،وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ،وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ،لَا

[3689] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٩٠)(١٦٦٨) صحيح

[3690] - تحفة الأحوذي (٥/ ٢٥٣)

[3691] - شعب الإيمان (٦/ ١٢٠) (٣٩٥٤) صحيح

يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً،فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ،فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٤] "[٣٦٩٢]

٢١- يرضى الله عن الشهيد رضى لا سخط بعده:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،يُقَالُ لَهُمْ:الْقُرَّاءُ،فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ،يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ،وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ،وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ،وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ،وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ،فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ،فَعَرَضُوا لَهُمْ،فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ،فَقَالُوا:اللهُمَّ،بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ،وَرَضِيتَ عَنَّا،قَالَ:وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا،خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ،فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ،فَقَالَ حَرَامٌ:فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:"إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا،وَإِنَّهُمْ قَالُوا:اللهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ،وَرَضِيتَ عَنَّا "[٣٦٩٣].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْوَامًا مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ إِلَى بَنِي عَامِرٍ فِي سَبْعِينَ،فَلَمَّا قَدِمُوا قَالَ لَهُمْ خَالِي:أَتَقَدَّمُكُمْ فَإِنْ أَمَّنُونِي حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَإِلَّا كُنْتُمْ مِنِّي قَرِيبًا،فَتَقَدَّمَ فَأَمَّنُوهُ،فَبَيْنَمَا يُحَدِّثُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَوْمَئُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَطَعَنَهُ،فَأَنْفَذَهُ،فَقَالَ:اللَّهُ أَكْبَرُ،فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ،ثُمَّ مَالُوا عَلَى بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ،فَقَتَلُوهُمْ إِلَّا رَجُلًا أَعْرَجَ صَعِدَ الجَبَلَ،قَالَ هَمَّامٌ:فَأُرَاهُ آخَرَ مَعَهُ،«فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ النَّبِيَّ ﷺ،أَنَّهُمْ قَدْ لَقُوا رَبَّهُمْ،فَرَضِيَ عَنْهُمْ،وَأَرْضَاهُمْ»،فَكُنَّا نَقْرَأُ:أَنْ بَلِّغُوا

[٣٦٩٢] - البعث والنشور للبيهقي (ص:٢٤٣) (٤١٤) صحيح

[٣٦٩٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١١)١٤٧ - (٦٧٧)

[ش (لأهل الصفة) أصحاب الصفة هم الفقراء الغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي ﷺ وكانت لهم في آخره صفة وهو مكان منقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه قاله إبراهيم الحربي والقاضي وأصله من صفة البيت وهو شيء كالظلة قدامه]

قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا،وَأَرْضَانَا ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ،فَدَعَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ وَبَنِي عُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ"[3694]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رِعْلًا،وَذَكْوَانَ،وَعُصَيَّةَ،وَبَنِي لَحْيَانَ،اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَدُوٍّ،فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ،كُنَّا نُسَمِّيهِمْ القُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ،كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ،وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ،حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ،فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ «فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ،عَلَى رِعْلٍ،وَذَكْوَانَ،وَعُصَيَّةَ،وَبَنِي لَحْيَانَ» قَالَ أَنَسٌ:"فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا،ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ:بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا "[3695]

ـــــــــــــــــ

٢٢- لا يشترط في الشهادة سبق أعمال الأبرار:

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالحَدِيدِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قَالَ:«أَسْلِمْ،ثُمَّ قَاتِلْ»،فَأَسْلَمَ،ثُمَّ قَاتَلَ،فَقُتِلَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[3696].

وعَنِ الْبَرَاءِ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَسْلِمْ،ثُمَّ قَاتِلْ»،فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ،فَقُتِلَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَذَا عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[3697].

[3694] - صحيح البخاري (٤/ ١٨)(٢٨٠١)

[ش (بني سليم) الصحيح أنهم مبعوث إليهم والمبعوثون هم رجال من الأنصار كانوا يتعلمون القرآن ويأخذون العلم ويكونون قوة للمسلمين إذا نزلت فيهم نازلة أو دعا داعي الجهاد بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام فلما نزلوا بئر معونة قصدهم عامر بن الطفيل ومعه أحياء من بني سليم وهم رعل وذكوان وبنو لحيان وعصية فقتلوهم.(أومؤوا) أشاروا.(فأنفذه) أصابه بجراحة نفذت من جوفه إلى الجانب الآخر من بدنه.(فزت) ربحت.(نقرأ) أي نزل المذكور قرآنا في حقهم ثم نسخت تلاوته.(أربعين صباحا) في قنوت صلاة الفجر]

[3695] - صحيح البخاري (٥/ ١٠٥)(٤٠٩٠)

[ش (استمدوا) طلبوا المدد منه وهو العون الذي يأتي ليقوي الجيش المقاتل.(فقرأنا فيهم قرآنا) أي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم قرآن قرآناه ثم نسخ.(رفع) نسخ]

[3696] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠) (٢٨٠٨)

[ش (رجل) هو الأصرم عمرو بن ثابت الأشهلي رضي الله عنه.(مقنع) وجهه مغطى]

وعَنِ الْبَرَاءِ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ:«أَرَأَيْتَ لَوْ أَنِّي أَسْلَمْتُ أَكَانَ خَيْرًا لِي؟» قَالَ:نَعَمْ قَالَ:«فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» ثُمَّ قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنِّي حَمَلْتُ عَلَى الْقَوْمِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أُقْتَلَ أَكَانَ خَيْرًا لِي،وَلَمْ أُصَلِّ صَلَاةً غَيْرَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟» قَالَ:نَعَمْ قَالَ:«فَحَمَلَ،فَضَارَبَ،فَقَتَلَ وَقُتِلَ،ثُمَّ تَعَاوَرُوا عَلَيْهِ فَقُتِلَ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَمِلَ يَسِيرًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[3698].

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ وَهُوَ يُقَاتِلُ:أَهُوَ خَيْرٌ لِي أَنْ أُسْلِمَ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ،ثُمَّ قَالَ:أَهُوَ خَيْرٌ لِي أَنْ أُقَاتِلَ حَتَّى أُقْتَلَ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:وَإِنْ لَمْ أُصَلِّ صَلَاةً؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:فَحَمَلَ،فَقَاتَلَ،وَقَتَلَ،ثُمَّ اعْتَوَنُوا عَلَيْهِ فَقُتِلَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَمِلَ قَلِيلًا،وَأُجِرَ كَثِيرًا»[3699].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ،قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ،وَلَمْ يَغْزُ فَضَالَةُ فِي الْبَرِّ غَيْرَهَا،فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ أَوْ نُسْرِعُ فِي السَّيْرِ وَهُوَ أَمِيرُ الْجَيْشِ،وَكَانَتِ الْوُلَاةُ إِذْ ذَاكَ يَسْتَمِعُونَ مِمَّنِ اسْتَرْعَاهُمُ اللهُ عَلَيْهِ،فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ:أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَقَطَّعُوا،فَقِفْ حَتَّى يَلْحَقُوكَ،فَوَقَفَ فِي مَرْجٍ عَلَيْهِ قَلْعَةٌ فِيهَا حِصْنٌ،فَمِنَّا الْوَاقِفُ،وَمِنَّا النَّازِلُ،إِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ ذِي شَوَارِبَ حُمْرٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا،فَأَتَيْنَا بِهِ فَضَالَةَ،فَقُلْنَا:إِنَّ هَذَا هَبَطَ مِنَ الْحِصْنِ بِلَا عَهْدٍ،وَلَا عَقْدٍ،فَسَأَلَهُ فَضَالَةُ:" مَا شَأْنُهُ؟ " فَقَالَ:إِنِّي الْبَارِحَةَ أَكَلْتُ الْخِنْزِيرَ،وَشَرِبْتُ الْخَمْرَ،فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أَتَانِي رَجُلَانِ غَسَلَا بَطْنِي،وَجَاءَتْنِي امْرَأَتَانِ لَا تَفْضُلُ إِحْدِيهِما الْأُخْرَى،فَقَالَتَا:أَسْلِمْ،فَأَنَا مُسْلِمٌ فَمَا كَانَتْ كَلِمَةٌ أَسْرَعُ مِنْ أَنْ رَمَيْنَا بِالزَّبْرِ فَأَقْبَلَ يَهْوِي حَتَّى أَصَابَهُ فَدَقَّ عُنُقَهُ،فَقَالَ فَضَالَةُ:" اللهُ أَكْبَرُ،عَمِلَ قَلِيلًا،وَأُجِرَ كَثِيرًا،صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ "،فَصَلَّيْنَا ثُمَّ دَفَنَّاهُ.قَالَ الْقَاسِمُ:" هَذَا

[3697] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٦١)(٤٦٠١) صحيح

[3698] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٤٠)(٨٥٩٨) صحيح

[3699] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٥٥)(٢٥٥٥) صحيح

شَيْءٌ أَنَا رَأَيْتُهُ ".قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ:" وَقَدْ وَقَعَ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ،وَقَالَ فِي ذَلِكَ مَا قَالَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ".[3700]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَوَاحِلِنَا وَهِيَ آكِلَةُ النَّوَى مِنَ الْمَدِينَةِ،فَرُفِعَ لَهُ شَخْصٌ،فَقَالَ:«هَذَا رَجُلٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِأُنَيْسٍ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا،وَإِيَّايَ يُرِيدُ» فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَسْرَعْنَا حَتَّى اسْتَقْبَلَهُ،فَإِذَا فَتًى شَابٌّ قَدِ انْسَلَقَتْ شَفَتَاهُ مِنْ أَكْلِ لُحَيِّ الشَّجَرِ،فَسَأَلَهُ:«مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟» فَحَدَّثَهُ قَالَ:وَأَنَا أُرِيدُ يَثْرِبَ وَأُرِيدُ مُحَمَّدًا ﷺ لِأُبَايِعَهُ،قَالَ:«فَأَنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» قَالَ:السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْ لِي الْإِسْلَامَ،قَالَ:«تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَتُقِرُّ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» قَالَ:أَقْرَرْتُ،ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ جَرِيرٌ:وَازْدَحَمْنَا عَلَيْهِ حِينَ أَنْشَأَ يَصِفُ الْإِسْلَامَ نَنْظُرُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَنْتَهِي صِفَتُهُ،وَكُنَّا نَهَابُهُ أَنْ نَسْأَلَهُ،وَجَعَلْنَا إِذَا زَحَمْنَا بَكْرَهُ رَغَا،وَنَحَرَ عَلَى أُكْلِهِ نَوًا ثُمَّ انْصَرَفَ فَانْصَرَفْنَا مَعَهُ،وَتَقَعُ يَدُ بَكْرِهِ فِي أَخَافِيقِ الْجِرْذَانِ،فَانْثَنَتْ عُنُقُهُ فَمَاتَ،فَقَالُوا:قَدْ مَاتَ،فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:«عَلَيَّ الرَّجُلَ» فَانْحَطَّ عَمَّارٌ وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فَوَجَدَاهُ قَدِ انْثَنَتْ عُنُقُهُ فَمَاتَ،قَالُوا:قَدْ مَاتَ،فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَيْهِ،ثُمَّ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنْهُ وَقَالَ:«احْمِلُوهُ إِلَى الْمَاءِ» فَأَمَرَنَا فَغَسَّلْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ وَحَنَّطْنَاهُ،ثُمَّ قَالَ:«احْفِرُوا لَهُ،وَأَلْحِدُوا لَهُ،وَلَا تَشُقُّوا،فَإِنَّ اللَّحْدَ لَنَا،وَالشَّقُّ لِأَهْلِ الْكِتَابِ» وَجَلَسَ عَلَى قَبْرِهِ لَا يُحَدِّثُنَا بِشَيْءٍ،ثُمَّ قَالَ:" أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثَ هَذَا الرَّجُلِ؟ هَذَا مِمَّنْ عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا،هَذَا مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام:٨٢] إِنِّي أَعْرَضْتُ عَنْهُ آنِفًا وَمَلَكَانِ يَدُسَّانِ فِي شِدْقِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ «يُعَرِّفُنَا أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ جَائِعًا»[3701]

وفِي هَذا الحَدِيث أَنَّ الأَجر الكَثِير قَد يَحصُل بِالعَمَلِ اليَسِير فَضلاً مِنَ الله وإِحسانًا.[3702]

[3700] - شعب الإيمان (٦/ ١٦٠)(٤٠٠٥) حسن

[3701] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٤١٤)(٤٠٦) وشعب الإيمان (٦/ ١٦٣)(٤٠٠٩) حسن لغيره

[3702] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٢٥)

٢٣- الشهيد في سبيل الله لايفضله النبيون إلا بدرجة النبوة:

عن عُتْبَةَ بْنِ عَبْدِ السُّلَمِيِّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْقَتْلَى ثَلَاثَةٌ:رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ،فِي خَيْمَةِ اللَّهِ،تَحْتَ عَرْشِهِ،وَلَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِفَضْلِ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ،وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا،جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى،إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ،فَتِلْكَ مَصْمَصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ،إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا،وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ،فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ،وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ،وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ،وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي النَّارِ،إِنَّ السَّيْفَ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ»[٣٧٠٣].

(ثَلَاثَةٌ) ؛ أَيْ:أَصْنَافٍ (مُؤْمِنٌ) ؛ أَيْ:أَحَدُهُمْ مُؤْمِنٌ كَامِلٌ صَالِحٌ فِي الْعَمَلِ (جَاهَدَ):بِصِيغَةِ الْمَاضِي وَفِي نُسْخَةٍ بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ ؛ أَيْ:مُجْتَهِدٌ (بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ):قَالَ الطِّيبِيُّ:بَيْنَ الْقَتْلَى بِقَوْلِهِ مُؤْمِنٌ بِاعْتِبَارِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:(فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ):وَلَعَلَّ الْعُدُولَ عَنِ الْمَاضِي إِلَى الْمُضَارِعِ اسْتِحْضَارًا لِلْحَالِ وَحُسْنِ الْمَآلِ.(قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - فِيهِ):أَيْ:فِي شَأْنِهِ (فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ) ؛ أَيِ:الْمَشْرُوحُ صَدْرُهُ،وَهُوَ الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلتَّقْوَى (فِي خَيْمَةِ اللَّهِ تَحْتَ عَرْشِهِ):قَالَ الطِّيبِيُّ:قَوْلُهُ:الشَّهِيدُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرَ ذَلِكَ،وَالْمُمْتَحَنُ صِفَةُ الشَّهِيدِ،وَقَوْلُهُ فِي خَيْمَةِ اللَّهِ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ،وَأَنْ يَكُونَ الشَّهِيدُ صِفَةَ ذَلِكَ،وَكَذَا الْمُمْتَحَنُ صِفَةٌ لِذَلِكَ،وَفِي خَيْمَةِ اللَّهِ خَبَرٌ،وَالْمُمْتَحَنُ الْمُجَرَّبُ مِنْ قَوْلِهِمُ:امْتُحِنَ فُلَانٌ لِأَمْرِ كَذَا جُرِّبَ لَهُ وَدُرِّبَ لِلنُّهُوضِ بِهِ،فَهُوَ مُضْطَلِعٌ غَيْرُ وَانٍ عَنْهُ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ صَابِرٌ عَلَى الْجِهَادِ قَوِيٌّ عَلَى احْتِمَالِ مَشَاقِّهِ (لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ):لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَزِيَادَةِ سَعَادَةِ الشَّهَادَةِ،وَالْأَنْبِيَاءُ يُشَارِكُونَ أُمَمَهُمْ فِيمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ،وَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمُتَعَاطِفَيْنَ (وَمُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا،جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،إِذَا):كَذَا فِي النُّسَخِ وَالظَّاهِرُ:(فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ.قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - فِيهِ) ؛ أَيْ:فِي حَقِّهِ

[٣٧٠٣] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٥١٩) (٤٦٦٣) صحيح

مُمَصْمَصَةٌ):بِالْمُهْمَلَتَيْنِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالْمُعْجَمَتَيْنِ فَفِي الْقَامُوسِ:الْمَصْمَصَةُ الْمَضْمَضَةُ بِطَرَفِ اللِّسَانِ،وَمَصْمَصَةُ الذُّنُوبِ تَمْحِيصُهَا،وَالْمَضْمَضَةُ تَحْرِيكُ الْمَاءِ فِي الْفَمِ.وَفِي الْفَائِقِ:مُمَصْمَصَةٌ ؛ أَيْ:مُطَهَّرَةٌ مِنْ دَنَسِ الْخَطَايَا مِنْ قَوْلِهِمْ:مَصْمَصْتُ الْإِنَاءَ بِالْمَاءِ إِذَا حَرَّكْتَهُ حَتَّى يَطْهُرَ،وَمِنْهُ مَصْمَصَةُ الْفَمِ وَهُوَ غَسْلُهُ بِتَحْرِيكِ الْمَاءِ فِيهِ كَالْمَضْمَضَةِ،وَقِيلَ:هِيَ بِالصَّادِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ بِطَرَفِ اللِّسَانِ،وَبِالضَّادِ بِالْفَمِ كُلِّهِ وَإِنَّمَا أُنِّثَ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الشَّهَادَةِ،أَوْ أَرَادَ مَصْمَصَةً فَأَقَامَ الصِّفَةَ مَقَامَ الْمَوْصُوفِ (مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ،إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ) ؛ أَيْ:كَثِيرُ الْمَحْوِ (لِلْخَطَايَا):أَيِ:الصَّغَائِرِ،وَأَمَّا الْكَبَائِرُ فَتَحْتَ الْمَشِيئَةِ،لَكِنْ وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ،عَنِ ابْنِ عُمَرَ:الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ خَطِيئَةٍ إِلَّا الدَّيْنَ.(وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ):تَعْظِيمًا لَهُ وَتَكْرِيمًا.قَالَ الطِّيبِيُّ،قَوْلُهُ:قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - ذَكَرَهُ فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ مَرَّتَيْنِ احْتِيَاطًا لِئَلَّا يَلْتَبِسَ نَصُّ النَّبِيِّ بِرَاوِيَتِهِ اهْتِمَامًا بِشَأْنِ الْمَقُولِ اه.وَهُوَ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْمُعْتَرِضَتَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الرَّاوِي غَيْرُ حَالِ رِوَايَةِ هَذَا الْحَدِيثِ،فَأَدْرَجَهُمَا فِيهِ،وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ - ﷺ - قَالَهُ فِيمَا بَيْنَ كُلٍّ مِنَ الْمُتَعَاطِفَيْنِ بَيَانًا بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمَا،أَوْ تِبْيَانًا لِتَفَاوُتِ مَنْزِلَتِهِمَا،وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ:(وَمُنَافِقٌ) ؛ أَيْ:وَمِنَ الْقَتْلَى مُنَافِقٌ (جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ،فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ ؛ فَذَاكَ فِي النَّارِ):وَإِلَّا فَالْكُلُّ مُشْتَرِكٌ فِي وَصْفِ الْمُقَاتَلَةِ إِلَى أَنْ يُقْتَلُوا،فَلَا بُدَّ مِنَ التَّمَايُزِ بَيْنَهُمْ لِحُصُولِ الْمَرَامِ فِي الْكَلَامِ (إِنَّ السَّيْفَ):اسْتِئْنَافٌ فِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِفَتْحِ أَنْ (لَا يَمْحُو النِّفَاقَ):فَهُوَ كَمَا قَالَ - ﷺ -:"«إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ» "عَلَى مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ،فِي عَمْرِو بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ،وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ بِلَفْظِ:«فَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الْإِسْلَامَ بِرِجَالٍ مَا هُمْ مِنْ أَهْلِهِ» "وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ،وَابْنِ حِبَّانَ،عَنْ أَنَسٍ،وَأَحْمَدَ،وَالطَّبَرَانِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ بِلَفْظِ "«إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ» ".[٣٧٠٤]

وعَنْ أَبِي يَزِيدَ الخَوْلَانِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ:رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ،لَقِيَ

[٣٧٠٤] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٩٦)

العَدُوَّ،فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ،فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ هَكَذَا "وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوَتُهُ،قَالَ:فَمَا أَدْرِي أَقَلَنْسُوَةَ عُمَــرَ أَرَادَ أَمْ قَلَنْسُــوَةَ النَّبِـــيِّ ﷺ؟ قَالَ:«وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ العَدُوَّ فَكَأَنَّمَا ضُرِبَ جِلْدُهُ بِشَوْكِ طَلْحٍ مِنَ الجُــبْنِ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ،وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ،وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ»[٣٧٠٥]

٢٤- ليست جنة ولكنها جنان:

عَنْ قَتَادَةَ،حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُــرَاقَةَ أَتَــتِ النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَتْ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ،وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَــدْرٍ أَصَــابَهُ سَــهْمٌ غَرْبٌ،فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ،اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ،قَالَ:«يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ،وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى»[٣٧٠٦]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ،أَصَابَهُ سَهْمُ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي،فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبــكِ عَلَيْهِ،وَإِلَّا فَسَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ،فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ:«هَبِلْتِ؟ أَوَ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَــا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَإِنَّهُ لَفِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى»[٣٧٠٧]

وعَنْ حُمَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَنَسًا،يَقُولُ:أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلاَمٌ،فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَــى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي،فَإِنْ يَكُ فِــي الجَنَّــةِ أَصْــبِرْ

[٣٧٠٥] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٧٧)(١٦٤٤) ومسند أبي الطيالسي -طبعة دار هجر - مصر (١/ ٣٤)(٤٥) صحيح لغيره

[٣٧٠٦] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠)(٢٨٠٩)

[ش (تحدثني) تخبرني.(غرب) لا يدري من رمى به.(اجتهدت) بذلت وسعي وطاقتي.(أصاب) كان نصيبه.(الفردوس الأعلى) أفضل مكان في الجنة والفرودس هو البستان الذي يجمع ما في البساتين من شجر وزهر ونبات]

[٣٧٠٧] - أحاديث إسماعيل بن جعفر (ص:١٨٥)(٧٦) صحيح

وَأَحْتَسِبْ،وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ:«وَيْحَكِ،أَوَهَبِلْتِ،أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ»[٣٧٠٨]

٢٥- أعلى درجات الجنة للشهداء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَأَقَامَ الصَّلاَةَ،وَصَامَ رَمَضَانَ،كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَلاَ نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ:«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ،فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ،وَأَعْلَى الجَنَّةِ،وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[٣٧٠٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».[٣٧١٠]

(أَوْسَطُ الْجَنَّةِ):أَيْ أَعْدَلُهَا وَأَفْضَلُهَا وَأَوْسَعُهَا وَخَيْرُهَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ (وَأَعْلَى الْجَنَّةِ)،قِيلَ:فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ السَّمَاوَاتِ كُرِّيَّةٌ،فَإِنَّ الْوَسَطَ لَا يَكُونُ أَعْلَى إِلَّا إِذَا كَانَ كُرِّيًّا.قَالَ الطِّيبِيُّ:النُّكْتَةُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَعْلَى وَالْأَوْسَطِ أَنَّهُ أَرَادَ بِأَحَدِهِمَا الْحِسِّيَّ وَبِالْآخَرِ الْمَعْنَوِيَّ،فَإِنَّ وَسَطَ الشَّيْءِ أَفْضَلُهُ وَخِيَارُهُ،وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْأَطْرَافَ يَتَسَارَعُ إِلَيْهَا الْخَلَلُ،وَالْأَوْسَاطَ مَحْمِيَّةٌ مَحْفُوظَةٌ.قَالَ الطِّيبِيُّ:كَانَتْ هِيَ الْوَسَطَ الْمَحْمِيَّ،فَاكْتَنَفَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرْفًا.(وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)،فَهُوَ سَقْفُ الْجَنَّةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ،وَفَوْقَ بِالنَّصْبِ وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:قَيَّدَهُ

[٣٧٠٨] - صحيح البخاري (٨/ ١١٤)(٦٥٥٠)

[٣٧٠٩] - صحيح البخاري (٩/ ١٢٥)(٧٤٢٣)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:قَوْلُهُ ﷺ:«فَهُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ» يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ فِي وَسَطِ الْجِنَانِ،فِي الْعَرْضِ،وَقَوْلُهُ «وَهُوَ أَعْلَى الْجَنَّةِ» يُرِيدُ بِهِ:فِي الِارْتِفَاعِ "صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٧٣)

[٣٧١٠] - تفسير ابن أبي حاتم،الأصيل - مخرجا (٣/ ١٠٤٤) صحيح

الْأَصِيلِيُّ بِضَمِّ الْقَافِ ؛ أَيْ أَعْلَاهُ،وَالْجُمْهُورُ بِالنَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِ.(وَمِنْهُ):أَيْ مِنَ الْفِرْدَوْسِ (تُفَجَّرُ):أَيْ تَتَفَجَّرُ (أَنْهَارُ الْجَنَّةِ).؛ أَيْ أُصُولُ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ وَالْخَمْرِ وَالْعَسَلِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ،فَإِنْ قُلْتَ:كَيْفَ التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ مَا وَرَدَ فِي صِفَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ:فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا؟ قُلْتُ:هُوَ مُطْلَقٌ مَحْمُولٌ عَلَى هَذَا الْمُقَيَّدِ،أَوْ تَفْسِيرٌ لِلْمُجَاهِدِينَ بِالْعُمُومِ دَرَجَةً وَالدَّرَجَاتُ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْجِهَادِ،فَيَكُونُ الْفِرْدَوْسُ لِمَنْ جَاهَدَ حَقَّ جِهَادِهِ.قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:يُحْتَمَلُ أَنْ تُجْرَى الدَّرَجَاتُ عَلَى ظَاهِرِهِ مَحْسُوسًا كَمَا جَاءَ فِي أَهْلِ الْغُرَفِ أَنَّهُمْ يُتَرَاءَوْنَ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ وَأَنْ تُجْرَى عَلَى الْمَعْنَى،وَالْمُرَادُ كَثْرَةُ النَّعِيمِ وَعَظِيمُ الْإِحْسَانِ مِمَّا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ[٣٧١١]

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ،وَآتَى الزَّكَاةَ،وَمَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا،كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ هَاجِرًا وَمَاتَ فِي مَوْلِدِهِ» فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَلَا نُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا بِهَا؟ فَقَالَ:«إِنَّ لِلْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ،وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ،وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي،مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[٣٧١٢]

٢٦- يضحك إليهم ربهم:

عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَبَّارٍ قَالَ:قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَنِ الشُّهَدَاءُ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يَلْقَوْنَ فِي الصَّفِّ وَلَا يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا،فَأُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الْغُرَفِ الْعُلَا مِنَ الْجَنَّةِ،يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ،وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ»[٣٧١٣]

[٣٧١١] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٥٤)

[٣٧١٢] - سنن النسائي (٦/ ٢٠)(٣١٣٢) صحيح لغيره

[٣٧١٣] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٠)(٢٢٩) صحيح

وعَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَجَاءَهُ رَجُلٌ،فَقَالَ:أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:«الَّذِينَ يُلْقَوْنَ فِي الصَّفِّ وَلَا يَفْتِلُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا،أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الْغُرَفِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ،وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ»[3714]

٢٧- دمه الذي أريق اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»[3715]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" مَا مِنْ مَجْرُوحٍ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا بَعَثَهُ اللَّهُ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا:اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ "[3716]

الْكَلْمُ:الْجُرْحُ،وَالْعَرْفُ:الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ،وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{عَرَّفَهَا لَهُمْ} [مُحَمَّد:٦]،أَيْ " طَيَّبَهَا،وَيُقَالُ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ سُمُّوا بِهَا،لأَنَّهُمْ يَجِدُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ،وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ،وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ،وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ،وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ».وَالإِخْفَاقُ:أَنْ تَغْزُوا فَلا تَغنم شَيْئًا،وَكُلُّ طَالِبِ حَاجَةٍ لَمْ يُصِبْهَا،فَقَدْ أَخْفَقَ.[3717]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ- وَكَانَ وُلِدَ عَامَ الْفَتْحِ- فَأُتِيَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَسَحَ عَلَى وَجْهِهِ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ،قَالَ:فَلَمَّا أَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ قَالَ:أَنَا الشَّهِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللَّهِ،إِلَّا اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ- يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ

[3714] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٥٩)(٢٥٦٦) صحيح

[3715] - صحيح البخاري (٤/ ١٨)(٢٨٠٣)

[3716] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٤٧٢)(١٧٥) صحيح

[3717] - شرح السنة للبغوي (١٠/ ٣٦٦)

يَثْعَبُ دَمًا،اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ،انْظُرُوا أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ صَاحِبِهِ فِي الْقَبْرِ،فَكَانُوا يَدْفِنُونَ الِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ فِي الْقَبْرِ [3718].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَكُونُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ طُعِنَتْ تَتَفَجَّرُ دَمًا،اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ،وَالْعَرْفُ عَرْفُ الْمِسْكِ» [3719]

(أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ):قَالَ السُّيُوطِيُّ:أَيْ سَوَاءٌ مَاتَ صَاحِبُهُ مِنْهُ أَمْ لَا.كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ («وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلَّمُ فِي سَبِيلِهِ»):جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمُسْتَثْنَى وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ مُؤَكِّدَةٌ مُقَرِّرَةٌ لِمَعْنَى الْمُعْتَرَضِ فِيهِ،وَتَفْخِيمِ شَأْنِ مَنْ يُكَلَّمُ فِي سَبِيلِهِ،وَمَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعِظَمِ شَأْنِ مَنْ يُكَلَّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} [آل عمران:٣٦] وَقَوْلُهُ:{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [آل عمران:٣٦] مُعْتَرِضٌ بَيْنَ كَلَامَيْ أُمِّ مَرْيَمَ تَعْظِيمًا لِمَوْضُوعِهَا وَتَجْهِيلًا لَهَا بِقَدْرِ مَا وُهِبَ لَهَا،وَالْمَعْنَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالشَّيْءِ الَّذِي وَضَعَتْ،وَمَا عَلَّقَ بِهِ مِنْ عَظَائِمِ الْأُمُورِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَتْمِيمًا لِلصِّيَانَةِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ.قُلْتُ:هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ،ثُمَّ الْأَوَّلُ إِنَّمَا يَتَمَشَّى كَوْنُهُ تَنْظِيرًا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ وُضِعَتْ بِصِيغَةِ الْغَائِبَةِ لَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ كَمَا لَا يَخْفَى،وَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ:هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْغَزْوِ،وَأَنَّ الثَّوَابَ الْمَذْكُورَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَخْلَصَ فِيهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا،وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ لَكِنْ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ جُرِحَ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ،وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ،وَإِقَامَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.(إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ):بِضَمٍّ أَوَّلِهِ (يَثْعَبُ):قَالَ السُّيُوطِيُّ:بِسُكُونِ الْمُثَلَّثَةِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَمُوَحَّدَةٍ.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ ؛ أَيْ يَجْرِي مُنْفَجِرًا ؛ أَيْ كَثِيرًا،وَهُوَ مَعْنَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى يَتَفَجَّرُ (دَمًا،اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ):وَفِي نُسْخَةٍ لِمُسْلِمٍ:لَوْنُ دَمٍ (وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ):قَالَ النَّوَوِيُّ:الْحِكْمَةُ فِي مَجِيئِهِ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِدٌ فِي فَضِيلَتِهِ وَبَذْلِ نَفْسِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:ثَعَبْتُ الْمَاءَ فَجَّرْتُهُ فَانْثَعَبَ،إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَى الْجُرْحِ لِأَنَّهُ السَّبَبُ

[3718] -دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٢٩٠) صحيح

[3719] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٤٨٧)(١٧٩) صحيح

فِي فَجْرِ الدَّمِ وَدَمًا يَكُونُ مَفْعُولًا،وَلَوْ أَرَادَ بِهِ التَّمْيِيزَ لَكَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَقُولَ:يَنْثَعِبُ دَمًا،أَوْ يُثْعَبُ عَلَى بِنَاءِ الْمَجْهُولِ وَلَمْ أَجِدْهُ رِوَايَةً.قَالَ الطِّيبِيُّ:مَجِيئُهُ مُتَعَدِّيًا نُقِلَ عَنِ الْجَوْهَرِيِّ،وَظَاهِرُ كَلَامِ صَاحِبِ النِّهَايَةِ أَنَّهُ لَازِمٌ حَيْثُ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ يَجْرِي،وَلِأَنَّهُ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ وَجُرْحُهُ يَشْخُبُ دَمًا،وَالشَّخْبُ السَّيَلَانُ،وَقَدْ شَخَبَ يَشْخُبُ وَيَشْخَبُ،فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [التوبة:٩٢] فَإِنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ الدَّمْعَ يَفِيضُ مِنَ الْعَيْنِ،فَجَعَلَ الْعَيْنَ فَائِضَةً مُبَالَغَةً،وَكَذَلِكَ الدَّمُ السَّائِلُ مِنَ الْجُرْحِ لَا الْجُرْحُ سَائِلٌ اه.وَيُؤَيِّدُ الشَّيْخَ مَا فِي الْقَامُوسِ:ثَعَبَ الْمَاءَ وَالدَّمَ ؛ أَيْ كَمَنَعَ فَجَّرَهُ فَانْثَعَبَ،لَكِنَّ الْمَفْهُومَ مِنَ التَّاجِ أَنَّهُ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ،كَذَا فِي دُسْتُورِ اللُّغَةِ:ثَعَبَ الدَّمُ ؛ أَيْ سَالَ وَأَسَالَ،وَفِي الْمَشَارِقِ لِلْقَاضِي عِيَاضٍ:ثَعَبَ تَفَجَّرَ،وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:يَثْعَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ،وَكَأَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مَجِيئِهِ لَازِمًا،وَأَمَّا حَدِيثُ يَشْخَبُ فَغَيْرُ حُجَّةٍ عَلَيْهِ كَمَا لَا يَخْفَى.[٣٧٢٠]

وَلِهَذَا لَا يُنْزَعُ عَنْهُ جَمِيعُ ثِيَابِهِ،عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ حَمْزَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كُفِّنَ فِي نَمِرَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ حِينَ اُسْتُشْهِدَ،وَلَكِنْ يُنْزَعُ عَنْهُ السِّلَاحُ لِأَنَّهُ كَانَ لَبِسَهُ لِدَفْعِ الْبَأْسِ فَقَدْ انْقَطَعَ ذَلِكَ.وَلِأَنَّ دَفْنَ الْقَتْلَى مَعَ الْأَسْلِحَةِ فِعْلُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ،وَقَدْ نُهِينَا عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ.وَكَذَلِكَ مَا لُبِسَ مِنْ جِنْسِ الْكَفَنِ كَالسَّرَاوِيلِ وَالْقَلَنْسُوَةِ وَالْمِنْطَقَةِ وَالْخَاتَمِ وَالْخُفِّ.هَكَذَا ذُكِرَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ.[٣٧٢١]

----

٢٨ -الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[٣٧٢٢]

قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ:الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ مِنْ هَذَا،(حديث ابن مسعود) وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَإِنْ صَحَّ هَذَا فَكَأَنَّهُ فِي قَوْمٍ مِنْهُمْ،وَالْحَدِيثُ

[٣٧٢٠] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٢)

[٣٧٢١] - شرح السير الكبير (ص:٢٣٢)

[٣٧٢٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٥١٥)(٤٦٥٨) صحيح

الْأَوَّلُ فِي آخَرِينَ وَلِأَهْلِ الْجَنَّة مَنَازِلُ وَدَرَجَاتٌ،وَكَذَلكَ أَهْلُ النَّارِ أَحْوَالُهُمْ فيمَا يُعَذَّبُونَ به مُخْتَلفَاتٌ،وَعَلَى ذَلكَ يُحْمَلُ مَا رُوِّينَا فِي أَنْوَاعِ الثَّوَابِ وَالْعقَاب،فَيُصْنَعُ بقَوْمٍ هَكَذَا وَبِقَوْمٍ كَذَلكَ لَا أَنَّ شَيْئًا منْ هَذه الْأَخْبَارِ يُخَالفُ صَاحبَهَا خلَافَ تَنَاقُضٍ وَلَكنَّ أَحْوَالَهُمْ تَخْتَلفُ فِي أَنْوَاعِ مَا يُجْزَوْنَ بِه منَ الثَّوَابِ وَالْعقَاب[3723]

٢٩- لَا يَجْتَمعُ كَافرٌ وَقَاتلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ،قَالَ:«لَا يَجْتَمعُ كَافرٌ وَقَاتلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا»[3724]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،قَالَ:«لَا يَجْتَمعُ كَافرٌ وَقَاتلُهُ منَ الْمُسْلمينَ فِي النَّارِ أَبَدًا»

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَا يَجْتَمعَان فِي النَّارِ أَبَدًا اجْتمَاعًا يَضُرُّ أَحَدُهُمَا»،قَالُوا:مَنْ يَا رَسُولَ اللَّه؟،قَالَ:«مُؤْمنٌ يَقْتُلُ كَافرًا،ثُمَّ سَدَّدَ الْمُسْلمُ بَعْدَهُ»

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ النَّبيَّ ﷺ،قَالَ:«لَا يَجْتَمعَان فِي النَّارِ اجْتمَاعًا يَضُرُّ أَحَدُهُمَا مُسْلمٌ قَتَلَ كَافرًا،ثُمَّ سَدَّدَ الْمُسْلمُ وَقَارَبَ،وَلَا يَجْتَمعَان فِي جَوْف عَبْدٍ غُبَارٌ فِي سَبيلِ اللَّه وَدُخَانُ جَهَنَّمَ،وَلَا يَجْتَمعَان فِي قَلْبِ عَبْد الْإِيمَانُ وَالشُّحُّ»[3725]

قَالَ الْقَاضِي:يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا مُخْتَصٌّ بِمَنْ قَتَلَ كَافرًا فِي الْجهَاد،فَيَكُونُ ذَلكَ مُكَفِّرًا لذُنُوبه حَتَّى لَا يُعَاقَبَ عَلَيْهَا،وَأَنْ يَكُونَ عقَابُهُ بغَيْرِ النَّارِ،أَوْ يُعَاقَبَ فِي غَيْرِ مَكَان عقَابِ الْكُفَّارِ،وَلَا يَجْتَمعَان فِي إِدْرَاكهَا.قَالَ الطِّيبِيُّ:وَالْأَوَّلُ هُوَ الْوَجْهُ وَهُوَ منَ الْكنَايَة التَّلْويحيَّة نَفَى الاجْتمَاعَ،فَيَلْزَمُ منْهُ نَفْيُ الْمُسَاوَاة بَيْنَهُمَا فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْمُجَاهدُ النَّارَ أَبَدًا،فَإِنَّهُ لَوْ دَخَلَهَا لَسَاوَاهُ،وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَديث أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْفَصْلِ الثَّاني،وَلَا يَجْتَمعُ عَلَى عَبْد غُبَارٌ فِي سَبيلِ اللَّه وَدُخَانُ جَهَنَّمَ.وَفِي روَايَة:فِي مَنْخَرَيْ مُسْلمٍ،وَقَوْلُهُ:أَبَدًا بمَعْنَى قَطٌّ فِي الْمَاضي،وَعوَضُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَنْزيلًا للْمُسْتَقْبَلِ مَنْزلَةَ الْمَاضي.الْجَوْهَريُّ،يُقَالُ:لَا أَفْعَلُهُ أَبَدَ الْأَبَد وَأَبَدَ الْآبدينَ كَمَا يُقَالُ:دَهْرَ الدَّاهرينَ وَعوَضَ

[3723] - إثبات عذاب القبر للبيهقي (ص:٦٨)

[3724] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥)١٣٠ - (١٨٩١)

[3725] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٧٦)(٧٣٩٣ -٧٣٩٥) صحيح

الْعَائِضِينَ،وَالْمَقَامُ يَقْتَضِيه ؛ لِأَنَّهُ تَرْغِيبٌ فِي الْجِهَادِ وَحَثٌّ عَلَيْهِ،وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ:«مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»[٣٧٢٦]

٣٠- ازدحامهم على أبواب الجنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"إِذَا وَقَفَ النَّاسُ لِلْحِسَابِ،جَاءَ قَوْمٌ وَاضِعُو سُيُوفِهِمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ تَقْطُرُ دَمًا،فَازْدَحَمُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ،فَقِيلَ:مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قِيلَ الشُّهَدَاءُ كَانُوا أَحْيَاءً مَرْزُوقِينَ "[٣٧٢٧]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ لِلْحِسَابِ جَاءَ قَوْمٌ وَاضِعِي سُيُوفِهِمْ عَلَى رِقَابِهِمْ تَقْطُرُ دَمًا فَازْدَحَمُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ» فَقِيلَ:مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ:«الشُّهَدَاءُ كَانُوا أَحْيَاءَ مَرْزُوقِينَ ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ،ثُمَّ نَادَى الثَّانِيَةَ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ» قَالَ:وَمَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى اللهِ قَالَ:«الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ،ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ،فَقَامَ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا فَدَخَلُوهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» [٣٧٢٨]

٣١-الحور العين اللواتي أعدهن الله للمؤمنين:

يزوج الله الشهداء بالحور العين.وإن الحور العين قد يتراءين للجريح إذا أغمي عليه قبل خروج روحه،وذلك بشارة له بأن الله قد تقبله شهيداً.وقد يترائين للمجاهد في المنام ليكون هذا أدعى له لبذل مزيد من الجهد في الجهاد والقتال.

والحور العين اسم أطلق في القرآن على النساء اللواتي خلقهن الله في الجنة،وجعلهن للمؤمنين الصالحين،وبالذات للمجاهدين والشهداء.ومفرد الحور العين:الحوراء العيناء.والحوراء:هي شديدة بياض العين وشديدة سواد الجزء الأسود من العين،فالحور شدة بياض العين في شدة سوادها.والعيناء هي:عظيمة العينين واسعتهما جميلتهما،قال

[٣٧٢٦] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٥٩)

[٣٧٢٧] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٥٤٠)(٢٠٨) حسن

[٣٧٢٨] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٨٧) حسن

تعالى:{ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)} [الواقعة:٢٢ - ٢٤].

وَلَهُمْ فِي الجَنَّة زَوْجَاتٌ حِسَانٌ،بِيضُ الوُجُوه،وَاسِعَاتُ العُيُون.كَأَنَّهُنَّ فِي بَهَائِهِنَّ وَإِشْرَاقِهِنَّ وَبَيَاضِ بَشَرَتِهِنَّ،وَصَوْنِهِنَّ عَنِ اللَّمْسِ والابْتِذَال،لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ فِي أَصْدَافِه.وَهَذَا الذي فَازُوا بِه هُوَ عَطَاءٌ مِنَ اللهِ تَكَرَّمَ بِهِ عَلَيْهِمْ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِم الصَّالِحَة فِي الحَيَاة الدُّنْيَا.[٣٧٢٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:ذُكِرَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:لاَ تَجفُّ الأَرْضُ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ حَتَّى تَبْتَدِرَهُ زَوْجَتَاهُ كَأَنَّهُمَا ظِئْرَانِ أَضَلَّتَا فَصِيلَيْهِمَا فِي بَرَاحٍ مِنَ الأَرْضِ وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُلَّةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.[٣٧٣٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً،لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ،وَلاَ يَتْفِلُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ،أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ،وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ،وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ،عُودُ الطِّيبِ وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ،عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ،عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ،سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»[٣٧٣١].

وعَنِ ابْنِ سِيرِينَ،قَالَ:تَفَاخَرُوا أَوْ تَفَاخَرُوا يَوْمًا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالُوا:الرِّجَالُ أَكْثَرُ فِي الْجَنَّةِ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ:«إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

[٣٧٢٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٨٨٠،بترقيم الشاملة آليا)

[٣٧٣٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٤٠)(١٩٦٦٨) فيه جهالة

الظِّئْر بِكَسْر الظَّاء الْمُعْجَمَة بعْدهَا همزَة سَاكِنة هِيَ الْمُرْضع وَمَعْنَاهُ أَن زوجتيه من الْحور الْعين تبتدرانه وتحنوان عَلَيْهِ وتظلانه كَمَا تحنو النَّاقة الْمُرْضع على فصيلها وَيحْتَمل أَن يكون أضلتا بالضاد فَيكون النَّبِي ﷺ شبه بدارهما إِلَيْهِ باللهفة والحنو والشوق كبدار النَّاقة الْمُرْضع إِلَى فصيلها الَّذِي أضلته وَيُؤَيّد هَذَا الِاحْتِمَال قَوْله فِي براح من الأَرْض وَالله أعلم،والبراح بِفَتْح الْبَاء الْمُوَحدَة وَبِالْحَاءِ الْمُهْملَة هِيَ الأَرْض المتسعة لَا زرع فِيهَا وَلَا شجر"الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٢١٢)

[٣٧٣١] - صحيح البخاري (٤/ ١٣٢) (٣٣٢٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٧٩)١٥ - (٢٨٣٤)

[ش (الألنجوج) تفسير للألوة وقوله عود الطيب تفسير له والظاهر أنه تفسير من أحد الرواة.(في السماء) أي علوا وارتفاعا]

وُجُوهُهُمْ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ،كَذَلِكَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا فِيهَا عَزَبٌ»[٣٧٣٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ،لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا،وَلاَ يَمْتَخِطُونَ،وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ،آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ،أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ،وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ،وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ،وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ،يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ،لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ،قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ،يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[٣٧٣٣]

وعن أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:«لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،أَوْ غَدْوَةٌ،خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ،أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا،وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا،وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٣٧٣٤].

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ،عَنْ جِدَارٍ قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَلَقِينَا عَدُوَّنَا،فَقَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ،وَأَثْنَى عَلَيْهِ،فَقَالَ:" إِذَا لَقِيتُمْ عَدُوَّكُمْ فَقُدُمًا قُدُمًا،إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَحْمِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا نَزَلَ إِلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،فَإِذَا حَمَلَ اسْتَتَرَتَا مِنْهُ،فَإِذَا اسْتُشْهِدَ فَأَوَّلُ قَطْرَةٍ

[٣٧٣٢] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٤١٧)(٢٠٨٧٩) صحيح

[٣٧٣٣] - صحيح البخاري (٤/ ١١٨)(٣٢٤٥) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٧٨)١٤ - (٢٨٣٤)

[ش (زمرة) جماعة.(تلج) تدخل.(على صورة القمر) أي في الإضاءة.(البدر) اسم للقمر حين تكتمل.(آنيتهم) أوعيتهم.(مجامرهم) جمع مجمرةوهي المبخرة سميت بذلك لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور.(الألوة) العود الهندي الذي يتبخر به.(رشحهم) عرقهم كالمسك في طيب رائحته.(مخ سوقها) ما داخل العظم من الساق.(قلب واحد) أي كقلب رجل واحد.(بكرة وعشيا) أي في غالب أوقاتهم يتلذذون بما يلهمهم الله تعالى من ذكره]

[٣٧٣٤] - صحيح البخاري (٤/ ١٧)(٢٧٩٦) [ش (موضع قيد) مقدار قيد وهو السوط المتخذ من الجلد الذي لم يدبغ.(ما بينهما) ما بين السماء والأرض.(ريحا) عطرا.(لنصيفها) خمارها وهو ما يغطى به الرأس]

تَقَعُ مِنْ دَمِهِ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُلَّ خَطِيَّةٍ،ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتَجْلِسَانِ عِنْدَ رَأْسِهِ،فَتَمْسَحَانِ عَنْ وَجْهِهِ،وَتَقُولَانِ:مَرْحَبًا فَقَدْ آنَ لَكَ،وَيَقُولُ هُوَ:مَرْحَبًا فَقَدْ آنَ لَكُمَا "[٣٧٣٥]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ،أَنَّه قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَصْبَحَتْ وَأَمْسَتْ مِنْ بَيْنِ أَخْضَرَ وَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَفِي الْبُيُوتِ مَا فِيهَا،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ فَقَدِّمَا قَدَمًا فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" مَا تَقَدَّمَ رَجُلٌ خُطْوَةً فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا اطَّلَعْنَ إِلَيْهِ الْحُورُ الْعِينُ،وَإِنْ تَأَخَّرَ اَسْتَحْيَيْنَ مِنْهُ واسْتَتَرْنَ مِنْهُ،فَإِنْ اسْتُشْهِدَ كَانَتْ أَوَّلُ شَجَّةٍ مِنْ دَمِهِ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَاهُ،وَتَنْزِلُ إِلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الحُورِ الْعِينِ فَتَنْفُضَانِ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ،وَتَقُولَانِ:مَرْحَبًا قَد أَنَى لَكَ،وَيَقُولُ هُوَ:مَرْحَبًا بِكُمَا "[٣٧٣٦]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ،وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ شَجَرَةَ مِمَّن يُصَدَّقُ قَوْلُهُ وَفِعْلُهُ قَالَ:خَطَبَنَا،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ مَا أَحْسَنَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ تُرَى مِنْ بَيْنِ أَخْضَرَ وَأَصْفَرَ وَأَحْمَرَ وَفِي الرِّحَالِ مَا فِيهَا،وَكَانَ يَقُولُ إِذَا صَفَّ النَّاسَ لِلصَّلَاةِ وَصُفُّوا لِلْقِتَالِ:فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ،وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ،وَأَبْوَابُ النَّارِ،وَزُيِّنَ الْحُورُ الْعِينُ فَاطَّلَعْنَ،فَإِذَا أَقْبَلَ الرَّجُلُ قُلْنَ:اللهُمَّ انْصُرْهُ،وَإِذَا أَدْبَرَ احْتَجَبْنَ مِنْهُ،وَقُلْنَ اللهُمَّ:اغْفِرْ لَهُ فَانْهكُوا وُجُوهَ الْقَوْمِ فِدَاءً لَكُمْ أَبِي وَأُمِّي وَلَا تَخْزُوا الْحُورَ الْعِينَ،فَإِنَّ أَوَّلَ قَطْرَةٍ تَنْضَحُ مِنْ دَمِهِ تُكَفِّرُ،عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ عَمِلَهُ،وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ الْعِينِ تَمْسَحَانِ مِنْ وَجْهِهِ التُّرَابَ وَتَقُولَانِ:قَد أَنَى لَكَ وَيَقُولُ:قَدْ أَنَى لَكُمْ ثُمَّ يُكْسَى مِائَةَ حُلَّةٍ لَيْسَ مِنْ نَسِيجِ بَنِي آدَمَ،وَلَكِنْ مِنْ نَبْتِ الْجَنَّةِ لَو وُضِعَتْ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ لَوَسِعَتْ،وَكَانَ يَقُولُ:أُنْبِئْتُ أَنَّ السُّيُوفَ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ [٣٧٣٧]"

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ قَالَ:كَانَ يَزِيدُ بْنُ شَجَرَةَ رَجُلًا مِنْ رَهَاءَ،وَكَانَ مُعَاوِيَةُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْجُيُوشِ،فَخَطَبَنَا يَوْمًا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ،اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مَا أَحْسَنَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ،لَوْ تَرَوْنَ مَا أَرَى مِنْ بَيْنِ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ،وَمِنْ كُلِّ لَوْنٍ،وَفِي الرِّحَالِ مَا فِيهَا أَنَّهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ،وَأَبْوَابُ

[٣٧٣٥] - الجهاد لابن أبي عاصم (٢/ ٥٢٨)(٢٠٣) صحيح

[٣٧٣٦] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٢٤٧)(٦٤٢) صحيح لغيره

[٣٧٣٧] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٢٤٦)(٦٤١) صحيح

الْجَنَّةَ،وَأَبْوَابُ النَّارِ،وَإِذَا التَقَى الصَّفَّانِ،فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ،وَأَبْوَابُ الْجَنَّةَ،وَأَبْوَابُ النَّارِ،وَزُيِّنَ الْحُورُ الْعِينُ،فَيَطَّلِعْنَ،فَإِذَا أَقْبَلَ أَحَدُكُمْ بِوَجْهِهِ إِلَى الْقِتَالِ قُلْنَ:اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ،اللَّهُمَّ انْصُرْهُ،وَإِذَا أَدْبَرَ احْتَجَبْنَ عَنْهُ وَقُلْنَ:اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ،وَانْتَهِكُوا وُجُوهَ الْقَوْمِ،فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي؛فَإِنَّ أَوَّلَ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِ أَحَدِكُمْ يَحُطُّ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الْغُصْنُ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرَةِ،وَتَبْتَدِرُهُ اثْنَتَانِ مِنْ حُورِ الْعِينِ،وَيَمْسَحَانِ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولَانِ:فِدَانَا لَكَ،وَيَقُولُ:أَنَا لَكُمَا،فَيُكْسَى مِائَةَ حُلَّةٍ لَوْ وُضِعَتْ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ لَوَسِعَتَاهُمَا،لَيْسَتْ مِنْ نَسْجِ بَنِي آدَمَ،وَلَكِنَّهُمَا مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ؛إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِأَسْمَائِكُمْ،وَسِمَاتِكُمْ،وَنَجْوَاكُمْ،وَخِلَالِكُمْ،وَمَحَاسِنِكُمْ،فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ:يَا فُلَانُ،هَذَا نُورُكَ،يَا فُلَانُ،لَا نُورَ لَكَ،وَإِنَّ لِجَهَنَّمَ جِبَابًا مِنْ سَاحِلٍ كَسَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ هَوَامٌّ،حَيَّاتٌ كَالْبَخَاتِيِّ،وَعَقَارِبُ كَالْبِغَالِ الدُّلِّ أَوْ كَالدُّلِّ الْبِغَالِ،فَإِذَا سَأَلَ أَهْلُ النَّارِ التَّخْفِيفَ قِيلَ:اخْرُجُوا إِلَى السَّاحِلِ،فَتَأْخُذُهُمْ تِلْكَ الْهَوَامُّ بِشِفَاهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ،وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَتَكْشِطُهَا،فَيَرْجِعُونَ فَيُبَادِرُونَ إِلَى مُعْظَمِ النَّارِ،وَيُسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الْجَرَبُ،حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحُكُّ جِلْدَهُ،حَتَّى يَبْدُو الْعَظْمُ،فَيُقَالُ:يَا فُلَانُ،هَلْ يُؤْذِيكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ،فَيُقَالُ لَهُ:بِمَا كُنْتَ تُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ "[٣٧٣٨]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ قَالَ:كَانَ يَزِيدُ بْنُ شَجَرَةَ رَجُلًا مِنْ رَهَاءَ،وَكَانَ مُعَاوِيَةُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْجُيُوشِ،فَخَطَبَنَا يَوْمًا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ،اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مَا أَحْسَنَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ،لَوْ تَرَوْنَ مَا أَرَى مِنْ بَيْنِ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ،وَمِنْ كُلِّ لَوْنٍ،وَفِي الرِّجَالِ مَا فِيهَا أَنَّهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ،وَأَبْوَابُ الْجَنَّةَ،وَأَبْوَابُ النَّارِ،وَإِذَا التَقَى الصَّفَّانِ،فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ،وَأَبْوَابُ الْجَنَّةَ،وَأَبْوَابُ النَّارِ،وَزُيِّنَ الْحُورُ الْعِينُ،فَيَطَّلِعْنَ،فَإِذَا أَقْبَلَ أَحَدُكُمْ بِوَجْهِهِ إِلَى الْقِتَالِ قُلْنَ:اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ،اللَّهُمَّ انْصُرْهُ،وَإِذَا أَدْبَرَ احْتَجَبْنَ عَنْهُ وَقُلْنَ:اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ،وَانْتَهِكُوا وُجُوهَ الْقَوْمِ،فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي؛فَإِنَّ أَوَّلَ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِ أَحَدِكُمْ يَحُطُّ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الْغُصْنُ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرَةِ،وَتَبْتَدِرُهُ اثْنَتَانِ مِنْ حُورِ الْعِينِ،وَيَمْسَحَانِ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ

[٣٧٣٨] - البعث والنشور للبيهقي (ص:٣١١)(٥٦٢) صحيح

وَيَقُولَان:فدَانَا لَكَ،وَيَقُولُ:أَنَا لَكُمَا،فَيُكْسَى مِائَةَ حُلَّةٍ لَوْ وُضِعَتْ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ لَوَسِعَتَاهُمَا،لَيْسَتْ مِنْ نَسْجِ بَنِي آدَمَ،وَلَكِنَّهُمَا مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ؛إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِأَسْمَائِكُمْ،وَسِمَاتِكُمْ،وَنَجْوَاكُمْ،وَحِلَالِكُمْ،وَمَحَاسِنِكُمْ،فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ:يَا فُلَانُ،هَذَا نُورُكَ،يَا فُلَانُ،لَا نُورَ لَكَ،وَإِنَّ لِجَهَنَّمَ جِبَابًا مِنْ سَاحِلٍ كَسَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ هَوَامٌّ،حَيَّاتٌ كَالْبَخَاتِيِّ،وَعَقَارِبُ كَالْبِغَالِ الدُّلِّ أَوْ كَالدُّلِّ الْبِغَالِ،فَإِذَا سَأَلَ أَهْلُ النَّارِ التَّخْفِيفَ قِيلَ:اخْرُجُوا إِلَى السَّاحِلِ،فَتَأْخُذُهُمْ تِلْكَ الْهَوَامُّ بِشِفَاهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ،وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَتَكْشِطُهَا،فَيَرْجِعُونَ فَيُنَادَوْنَ إِلَى مُعْظَمِ النَّارِ،وَيُسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الْجَرَبُ،حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحُكُّ جِلْدَهُ،حَتَّى يَبْدُو الْعَظْمُ،فَيُقَالُ:يَا فُلَانُ،هَلْ يُؤْذِيكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ،فَيُقَالُ لَهُ:بِمَا كُنْتَ تُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ "[٣٧٣٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:ذُكِرَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:لاَ تَجِفُّ الأَرْضُ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ حَتَّى تَبْتَدِرَهُ زَوْجَتَاهُ كَأَنَّهُمَا ظِئْرَانِ أَضَلَّتَا فَصِيلَيْهِمَا فِي بَرَاحٍ مِنَ الأَرْضِ وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُلَّةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.[٣٧٤٠]

الظِّئْر بِكَسْر الظَّاء الْمُعْجَمَة بعْدهَا همزَة سَاكِنة هِيَ الْمُرْضع وَمَعْنَاهُ أَن زوجتيه من الْحور الْعين تبتدرانه وتحنوان عَلَيْه وتظلانه كَمَا تحنو النَّاقة الْمُرْضع على فصيلها وَيحْتَمل أَن يكون أضلتا بالضاد فَيكون النَّبي ﷺ شبه بدارهما إِلَيْه باللهفة والحنو والشوق كبدار النَّاقة الْمُرْضع إِلَى فصيلها الَّذي أضلته وَيُؤَيّد هَذَا الاحْتِمَال قَوْله فِي براح من الأَرْض وَالله أعلم.

والبراح بِفَتْح الْبَاء الْمُوَحدَة وَبِالْحَاءِ الْمُهْملَة هِيَ الأَرْض المتسعة لَا زرع فِيهَا وَلَا شجر[٣٧٤١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٧٣٩] - البعث والنشور للبيهقي (ص:٣١١)(٥٦٢) صحيح

[٣٧٤٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٢٤٠)(١٩٦٦٨) فيه ضعف

[٣٧٤١] - الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٢١٢) وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥/ ١٥٢)

الباب الثالث والعشرون

الخلاصة في أحكام المستأمن

التَّعْرِيفُ:

الْمُسْتَأْمِنُ فِي اللُّغَةِ بِكَسْرِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ اسْمُ فَاعِلٍ أَيْ:الطَّالِبُ لِلأَمَانِ،وَيَصِحُّ بِالْفَتْحِ اسْمَ مَفْعُولٍ وَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلصَّيْرُورَةِ،أَيْ صَارَ مُؤَامَنًا[3742]،يُقَالُ:اسْتَأْمَنَهُ:طَلَبَ مِنْهُ الأَمَانَ،وَاسْتَأْمَنَ إِلَيْهِ:دَخَلَ فِي أَمَانِهِ[3743].

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الْمُسْتَأْمِنُ:مَنْ يَدْخُلُ إِقْلِيمَ غَيْرِهِ بِأَمَانٍ مُسْلِمًا كَانَ أَمْ حَرْبِيًّا[3744].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الذِّمِّيُّ:

الذِّمِّيُّ فِي اللُّغَةِ:الْمُعَاهَدُ الَّذِي أُعْطِيَ عَهْدًا يَأْمَنُ بِهِ عَلَى مَالِهِ وَعِرْضِهِ وَدِينِهِ،وَالذِّمِّيُّ نِسْبَةٌ إِلَى الذِّمَّةِ،بِمَعْنَى الْعَهْدِ[3745].

وَالذِّمِّيُّ فِي الاصْطِلاَحِ هُوَ الْمُعَاهَدُ مِنَ الْكُفَّارِ لأَنَّهُ أُومِنَ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ وَدِينِهِ بِالْجِزْيَةِ[3746].

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمِنِ وَالذِّمِّيِّ:أَنَّ الأَمَانَ لِلْمُسْتَأْمِنِ مُؤَقَّتٌ وَلِلذِّمِّيِّ مُؤَبَّدٌ[3747].

ب – الْحَرْبِيُّ:

الْحَرْبِيُّ مَنْسُوبٌ إِلَى الْحَرْبِ،وَهِيَ الْمُقَاتَلَةُ وَالْمُنَازَلَةُ،وَدَارُ الْحَرْبِ:بِلاَدُ الأَعْدَاءِ،وَأَهْلُهَا:حَرْبِيٌّ وَحَرْبِيُّونَ[3748].وَالصِّلَةُ بَيْنَهُمَا التَّبَايُنُ.

[3742] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

[3743] – المصباح المنير .

[3744] – الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، وقواعد الفقه للبركتي .

[3745] – المعجم الوسيط، والمصباح المنير .

[3746] – قواعد الفقه للبركتي .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٦٨)

[3747] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١١٠ .

[3748] – قواعد الفقه للبركتي .

مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَأْمِنِ مِنْ أَحْكَامٍ:

يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَأْمِنِ أَحْكَامٌ مِنْهَا:

أَمَانُ الْمُسْتَأْمِنِ:

١ – مَشْرُوعِيَّةُ الأَمَانِ وَالْحِكْمَةُ فِيهَا:

الأَصْلُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ أَمَانِ الْمُسْتَأْمِنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) } [التوبة:٦]،وعن إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،حَدَّثَنِي أَبِي،قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ آجُرٍّ وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ،فَقَالَ:وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فَنَشَرَهَا،فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الإِبِلِ،وَإِذَا فِيهَا:«الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا،فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»،وَإِذَا فِيهِ:«ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ،يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»،وَإِذَا فِيهَا:«مَنْ وَالَى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا»[٣٧٤٩].

وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فِي مَشْرُوعِيَّتِهِ كَمَا نَصَّ عَلَيْهَا النَّوَوِيُّ:قَدْ تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةُ الأَمَانَ لاسْتِمَالَةِ الْكَافِرِ إِلَى الإِسْلاَمِ،أَوْ إِرَاحَةِ الْجَيْشِ،أَوْ تَرْتِيبِ أَمْرِهِمْ،أَوْ لِلْحَاجَةِ إِلَى دُخُولِ الْكُفَّارِ،أَوْ لِمَكِيدَةٍ وَغَيْرِهَا[٣٧٥٠].

ب – حُكْمُ طَلَبِ الأَمَانِ أَوْ إِعْطَائِهِ لِلْمُسْتَأْمِنِ:

إِعْطَاءُ الأَمَانِ لِلْمُسْتَأْمِنِ أَوْ طَلَبِهِ لِلأَمَانِ مُبَاحٌ وَقَدْ يَكُونُ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا.

وَبِالأَمَانِ يَثْبُتُ لِلْمُسْتَأْمِنِ الأَمْنُ عَنِ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَغُنْمِ الْمَالِ،فَيَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَتْلُ رِجَالِهِمْ وَسَبْيُ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَاغْتِنَامُ أَمْوَالِهِمْ[٣٧٥١].

[٣٧٤٩] – صحيح البخاري (٩/ ٩٧)(٧٣٠٠) ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، وفتح القدير ٤ / ٢٩٨، والمغني ٨ / ٣٩٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦

[٣٧٥٠] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨ .

[٣٧٥١] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧ .

ج – مَنْ يَحقُّ لَهُ إعْطَاءُ الأَمَان للْمُسْتَأْمَن

الأَمَانُ إمَّا أَنْ يَكُونَ منَ الإمَامِ أَوْ نَائبه أَوْ منَ الأَميرِ،أَوْ منْ آحَاد الْمُسْلمينَ وَعَامَّتهمْ.

أَوْلاً – أَمَانُ الإمَامِ أَوْ نَائبه:

لاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاء في أَنَّهُ يَصحُّ أَمَانُ الإمَامِ أَوْ نَائبه لجَميعِ الْكُفَّارِ وَآحَادهمْ،لأَنَّ ولاَيَتَهُ عَامَّةٌ عَلَى الْمُسْلمينَ،فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يُعْطيَ الْكُفَّارَ الأَمَانَ عَلَى أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ لمَصْلَحَة اقْتَضَتْهُ تَعُودُ عَلَى الْمُسْلمينَ،لاَ لغَيْرِ مَصْلَحَة[٣٧٥٢].

قلت:هذا إذا كان حاكماً للمسلمين يحكم بما أنزل الله تعالى ويقيم الحدود،ويجاهد في سبيل الله،ولا يوالي أعداء الإسلام،ولم يرتكب ناقضا من وناقض الإسلام،فإن حصل واحد من هذه فهو ليس بولي لنا وأمانه لا قيمة له بتاتاً،ولا عبرة بما يسوقه فقهاء الهزيمة منإسباغ الأمان لهؤلاء الحكام الذي فرضوا على الأمة بالقوة ولا يحكمون بما أنزل الله...

(التَّصَرُّفُ عَلَى الرَّعْيَةِ مَنُوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ)

إن نفاذ تصرف الراعي على الرعية،ولزومه عليهم شاؤوا أو أبوا معلق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه،دينية كانت أو دنيوية،فإن تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذه،وإلا ردّ،لأن الراعي ناظر،وتصرفه حينئذٍ متردد بين الضرر والعبث وكلاهما ليس من النظر في شيء.

والمراد من الراعي:كل من ولي أمراً من أمور العامة،عاماً كان كالسلطان الأعظم،أو خاصاً كمن دونه من العمال،فإن نفاذ تصرفات كل منهم على العامة مترتب على وجود المنفعة في ضمنها،لأنه مأمور من قبل الشارع – – ﷺ – أن يحوطهم بالنصح،ومتوعد من قبله على ترك ذلك بأعظم وعيد.

وهذه القاعدة ترسم حدود الإدارات العامة والسياسة الشرعية في سلطان الولاة وتصرفاتهم على الرعية،فتفيد أن أعمال الولاة النافذة على الرعية يجب أن تبنى على المصلحة للجماعة وخيرها،لأن الولاة من الخليفة فمن دونه ليسوا عمالاً لأنفسهم،وإنما

[٣٧٥٢] – الشرح الصغير ٢ / ٢٨٥، ٢٨٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥، وفتح القدير ٤ / ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠ .

هم وكلاء عن الأمة في القيام بأصلح التدابير لإقامة العدل،ودفع الظلم،وصيانة الحقوق والأخلاق،وضبط الأمن،ونشر العلم،وتطهير المجتمع من الفساد،وتحقيق كل خير للأمة بأفضل الوسائل،مما يعبر عنه بالمصلحة العامة،فكل عمل أو تصرف من الولاة على خلاف هذه المصلحة مما يقصد به استثمار أو استبداد،أو يؤدي إلى ضرر أو فساد،هو غير جائز.

والأصل في هذه القاعدة ما جاء عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:عَادَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،قَالَ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةً مَا حَدَّثْتُكَ،إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً،يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ،إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».[3753]

وعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ،فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ:إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ،وَيَنْصَحُ،إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»[3754]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[3755]

وعن ابنِ عَبَّاسٍ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" مَنِ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ،فَقَدْ خَانَ اللهَ،وَرَسُولَهُ،وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ "[3756]

[3753] - صحيح مسلم (1/ 125)(227 - (142)

[ش (عاد عبيد الله) أي زاره في مرض موته وكان عبيد الله إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية (يسترعيه الله رعية) يعني يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنى المرعية وقوله يموت خبر ما وغش الراعي الرعية تضييعه ما يجب عليه في حقهم]

[3754] - صحيح مسلم (1/ 126)(142)

[3755] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 104)(7023) حسن لغيره

[3756] - السنن الكبرى للبيهقي (10/ 201)(20364) حسن

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ،إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ،فَلَا سَمْعَ عَلَيْهِ وَلَا طَاعَةَ»[٣٧٥٧]

ثَانِيًا – أَمَانُ الأَْمِيرِ:

نَصَّ الْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ الأَْمِيرِ لأَِهْل بَلْدَةٍ جُعِل بِإِزَائِهِمْ،أَيْ:وَلِيَ قِتَالَهُمْ ؛لأَِنَّ لَهُ الْوِلاَيَةَ عَلَيْهِمْ فَقَطْ،وَأَمَّا فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ فَهُوَ كَآحَادِ الرَّعِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ؛لأَِنَّ وِلاَيَتَهُ عَلَى قِتَال أُولَئِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ[٣٧٥٨] .

قلت:لا بد من توفر الشروط الشرعية به حتى يصح أمانه.

ثَالِثًا – أَمَانُ آحَاد الرَّعِيَّة

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الأَْصَحِّ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَمَانُ آحَادِ الرَّعِيَّةِ بِشُرُوطِهِ،لِوَاحِدٍ وَعَشَرَةٍ،وَقَافِلَةٍ وَحِصْنٍ صَغِيرَيْنِ عُرْفًا كَمِائَةٍ فَأَقَل:لأَِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَجَازَ أَمَانَ الْعَبْدِ لأَِهْل الْحِصْنِ،وَلاَ يَصِحُّ أَمَانُ أَحَدِ الرَّعِيَّةِ لأَِهْل بَلْدَةٍ كَبِيرَةٍ،وَلاَ رُسْتَاقٍ،وَلاَ جَمْعٍ كَبِيرٍ ؛لأَِنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَعْطِيل الْجِهَادِ،وَالاِفْتِيَاتِ عَلَى الإِْمَامِ.

قَال الْمَالِكِيَّةُ:إِنْ أَمَّنَ غَيْرُ الإِْمَامِ إِقْلِيمًا أَيْ عَدَدًا غَيْرَ مَحْصُورٍ،أَوْ أَمَّنَ عَدَدًا مَحْصُورًا بَعْدَ فَتْحِ الْبَلَدِ،نَظَرَ الإِْمَامُ فِي ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ صَوَابًا أَبْقَاهُ وَإِلاَّ رَدَّهُ.

وَقَال النَّوَوِيُّ:وَضَابِطُهُ:أَنْ لاَ يَنْسَدَّ بَابُ الْجِهَادِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ فَإِذَا تَأَتَّى الْجِهَادُ بِغَيْرِ تَعَرُّضٍ لِمَنْ أُمِّنَ،نَفَذَ الأَْمَانُ ؛لأَِنَّ الْجِهَادَ شِعَارُ الدِّينِ،وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَكَاسِبِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي مُقَابِل الأَْصَحِّ لِلشَّافِعِيَّةِ:لاَ يَجُوزُ أَمَانُ وَاحِدٍ لأَِهْل قَرْيَةٍ وَإِنْ قَل عَدَدُ مَنْ فِيهَا[٣٧٥٩] .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ يَصِحُّ الأَْمَانُ مِنَ الْوَاحِدِ سَوَاءٌ أَمَّنَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً أَوْ قَلِيلَةً،أَوْ أَهْل مِصْرٍ أَوْ قَرْيَةٍ،وَعِبَارَةُ فَتْحِ الْقَدِيرِ:أَوْ أَهْل حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ[٣٧٦٠] .

٣٧٥٧ – السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٧١)(٨٦٦٧) صحيح

٣٧٥٨ – كشاف القناع ٣ / ١٠٥، والمغني ٨ / ٣٩٨ .

٣٧٥٩ – الشرح الصغير ٢ / ٢٨٥، ٢٨٦، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥

٣٧٦٠ – فتح القدير ٤ / ٢٩٨، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦ .

عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ،أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ،تَقُولُ:ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ،فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ،قَالَتْ:فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،فَقَالَ:«مَنْ هَذِهِ»،فَقُلْتُ:أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ:«مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ»،فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ،قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،فَلَمَّا انْصَرَفَ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ،فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ» قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:وَذَاكَ ضُحًى"[٣٧٦١]

وعَنْ أَنَسٍ:أَنَّ زَيْنَبَ هَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَزَوْجُهَا كَافِرٌ،فَأَسَرَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ فَقَالَتْ زَيْنَبُ:إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ جِوَارَهَا،وَقَالَ:«إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ»[٣٧٦٢]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ:أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ اسْتَأْذَنَتْ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ حِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُهَاجِرًا أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ فَأَذِنَ لَهَا،فَقَدِمَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ لَحِقَهَا بِالْمَدِينَةِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا أَنْ خُذِي مِنْ أَبِيكِ أَمَانًا فَأَطْلَعَتْ رَأْسَهَا مِنْ بَابِ حُجْرَتِهَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَقَالَتْ:أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا زَيْنَبُ،وَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ،فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ،قَالَ:«إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ بِهَذَا حَتَّى سَمِعْتُهُ الْآنَ وَإِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ»[٣٧٦٣]

د – مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِعْطَاءِ الأَمَانِ

[٣٧٦١] – صحيح البخاري (١/ ٨١)(٣٥٧) وصحيح مسلم (١/ ٤٩٨)٨٢ – (٣٣٦)

[ش (انصرف) أي من الصلاة.(ابن أمي) أي وأبي وهو علي رضي الله عنه.(أجرته) أدخلته في جواري وهو الأمان.(فلان) هو جعدة ولد زوجها من غيرها على ما قيل.(ضحى) وقت الضحى]

[٣٧٦٢] – المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٤٢٦)(١٠٤٩) صحيح

[٣٧٦٣] – المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٤٢٥)(١٠٤٧) حسن

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ الأَْمَانُ مِنَ الإِْمَامِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ بِشُرُوطِهِ،وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا الْوَفَاءُ بِهِ،فَلاَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ،وَلاَ أَسْرُهُمْ،وَلاَ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْ مَالِهِمْ،وَلاَ التَّعَرُّضُ لَهُمْ،لِعِصْمَتِهِمْ،وَلاَ أَذِيَّتُهُمْ بِغَيْرِ وَجْهٍ شَرْعِيٍّ[٣٧٦٤] .

وَأَمَّا سِرَايَةُ حُكْمِ الأَْمَانِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤَمَّنِ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ:فَقَدْ نَصَّ الْحَنَابِلَةُ،وَالشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِلِ الأَْصَحِّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أُمِّنَ مَنْ يَصِحُّ أَمَانُهُ سَرَى الأَْمَانُ إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ،وَمَا مَعَهُ مِنْ مَالٍ،إِلاَّ أَنْ يَقُول مُؤَمِّنُهُ:أَمَّنْتُكَ وَحْدَكَ وَنَحْوَهُ،مِمَّا يَقْتَضِي تَخْصِيصَهُ بِالأَْمَانِ،فَيَخْتَصُّ بِهِ[٣٧٦٥] .

هَذَا بِالنِّسْبَةِ لأَِهْلِهِ وَمَالِهِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلاَ يَسْرِي إِلَيْهِ الأَْمَانُ جَزْمًا عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ[٣٧٦٦] .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الأَْصَحِّ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَسْرِي الأَْمَانُ إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ وَمَا مَعَهُ مِنْ مَالٍ إِلاَّ بِالشَّرْطِ،لِقُصُورِ اللَّفْظِ عَنِ الْعُمُومِ[٣٧٦٧] .

وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ فَقَالُوا:الْمُرَادُ بِمَا مَعَهُ مِنْ مَالِهِ غَيْرُ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ مُدَّةَ أَمَانِهِ،أَمَّا الْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيَدْخُل وَلَوْ بِلاَ شَرْطٍ،وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي حِرْفَتِهِ مِنَ الآْلاَتِ،وَمَرْكُوبِهِ إِنْ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْهُ،هَذَا إِذَا أَمَّنَهُ غَيْرُ الإِْمَامِ،فَإِنْ أَمَّنَهُ الإِْمَامُ دَخَل مَا مَعَهُ بِلاَ شَرْطٍ،وَلاَ يَدْخُل مَا خَلَّفَهُ بِدَارِ الْحَرْبِ إِلاَّ بِشَرْطٍ مِنَ الإِْمَامِ،أَمَّا إِذَا كَانَ الأَْمَانُ لِلْحَرْبِيِّ بِدَارِهِمْ:فَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِدَارِهِمْ دَخَلاَ وَلَوْ بِلاَ شَرْطٍ إِنْ أَمَّنَهُ الإِْمَامُ،وَإِنْ أَمَّنَهُ غَيْرُهُ لَمْ يَدْخُل أَهْلُهُ وَلاَ مَا لاَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ إِلاَّ بِشَرْطٍ،وَلاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَا مَعَهُ مِنْ مَالِهِ أَوْ مَالِ غَيْرِهِ[٣٧٦٨] .

هـ – مَا يَنْعَقِدُ بِهِ الأَْمَانُ

[٣٧٦٤] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٣٢٦، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[٣٧٦٥] – كشاف القناع ٣ / ١٠٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[٣٧٦٦] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[٣٧٦٧] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١ .

[٣٧٦٨] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الأَمَانَ يَنْعَقِدُ بِكُلِ لَفْظٍ يُفِيدُ الْغَرَضَ،وَهُوَ اللَّفْظُ الدَّال عَلَى الأَمَـان نَحْوُ قَوْل الْمُقَاتِل مَثَلاً:آمَنْتُكُمْ،أَوْ أَنْتُمْ آمِنُونَ،أَوْ أَعْطَيْتُكُمُ الأَمَانَ،وَمَـا يَجْـرِي هَـذَا الْمَجْرَى.

وَزَادَ الْحَصْكَفِيُّ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ:وَإِنْ كَانَ الْكُفَّارُ لاَ يَعْرِفُونَهُ،بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمُسْلِمِينَ كَوْنَ ذَلِكَ اللَّفْظِ أَمَانًا بِشَرْطِ سَمَاعِ الْكُفَّارِ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَلاَ أَمَانَ لَوْ كَانَ بِالْبُعْدِ مِنْهُمْ.كَمَـا ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الأَمَانُ بِأَيِّ لُغَةٍ كَانَ،بِالصَّرِيحِ مِنَ اللَّفْظِ كَقَوْلِهِ:أَجَرْتُكَ،أَوْ آمَنْتُكَ،أَوْ أَنْتَ آمِنٌ وَبِالْكِنَايَةِ:كَقَوْلِهِ:أَنْتَ عَلَى مَا تُحِبُّ،أَوْ كُنْ كَيْفَ شِئْتَ وَنَحْوَهُ.

وَزَادَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ كَالرَّمْلِيِّ وَالشِّرْبِينِيِّ الْخَطِيبِ اشْتِرَاطَ النِّيَّةِ فِي الْكِنَايَةِ.

وَيَجُوزُ الأَمَانُ بِالْكِتَابَةِ لأَثَرٍ فِيهِ عَنْ عُمَرَ رَضِـيَ اللَّـهُ تَعَـالَى عَنْـهُ،وَقَال الشِّـرْبِينِيُّ الْخَطِيبُ:وَلاَ بُدَّ فِيهَا مِنَ النِّيَّةِ لأَنَّهَا كِنَايَةٌ.

كَمَا يَجُوزُ بِالرِّسَالَةِ:لأَنَّهَا أَقْوَى مِنَ الْكِتَابَةِ،قَال الشِّرْبِينِيُّ:سَوَاءٌ كَانَ الرَّسُول مُسْـلِمًا أَمْ كَافِرًا ؛لأَنَّ بِنَاءَ الْبَابِ عَلَى التَّوْسِعَةِ فِي حَقْنِ الدَّمِ،وَكَذَلِكَ بِإِشَارَةٍ مُفْهِمَـةٍ وَلَـوْ مِـنْ نَاطِقٍ:لِقَوْل عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَشَارَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى السَّمَاءِ إِلَـى مُشْرِكٍ،فَنَزَل بِأَمَانِهِ فَقَتَلَهُ،لَقَتَلْتُهُ بِهِ،وَلأَنَّ الْحَاجَةَ دَاعِيَةٌ إِلَى الإِشَارَةِ ؛لأَنَّ الْغَالِـبَ فِـيهِمْ عَدَمُ فَهْمِ كَلاَمِ الْمُسْلِمِينَ،وَكَذَا الْعَكْسُ.

فَلَوْ أَشَارَ مُسْلِمٌ لِكَافِرٍ فَظَنَّ أَنَّهُ أَمَّنَهُ،فَأَنْكَرَ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ أَمَّنَهُ بِهَا،فَالْقَوْل قَوْلُهُ ؛لأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ،وَلَكِنْ لاَ يُغْتَال بَل يَلْحَقُ بِمَأْمَنِهِ،وَإِنْ مَاتَ الْمُشِيرُ قَبْل أَنْ يُبَـيِّنَ الْحَـال فَـلاَ أَمَانَ،وَلاَ اغْتِيَال فَيَبْلُغُ الْمَأْمَنَ[٣٧٦٩].

وَيَصِحُّ إِيجَابُ الأَمَانِ مُنَجَّزًا كَقَوْلِهِ:أَنْتَ آمِنٌ،وَمُعَلَّقًا بِشَرْطٍ،كَقَوْلِهِ:مَنْ فَعَل كَـذَا فَهُـوَ آمِنٌ[٣٧٧٠]،لِقَوْل عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِـي رَمَضَـانَ،فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ،فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَنَا إِلَى رَحْلِـهِ،فَقُلْتُ:أَلَـا

[٣٧٦٩] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وابن عابدين ٣ / ٢٧٧، والقوانين الفقهية ١٥٩، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٨، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، الوجيز ٢ / ١٩٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والقليوبي ٤ / ٢٢٦، وروض الطالب ٤ / ٢٠٣، والمغني ٨ / ٣٩٨ - ٤٠٠، وكشاف القناع ٣ / ١٠٥ .

[٣٧٧٠] - كشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمراجع السابقة .

أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ،ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ،فَقُلْتُ:الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ،فَقَالَ:سَبَقْتَنِي،قُلْتُ:نَعَمْ،فَدَعَوْتُهُمْ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:أَلَا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ،فَقَالَ:أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ،فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ،وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى،وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ،فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي،وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ،قَالَ:فَنَظَرَ فَرَآنِي،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:قُلْتُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،فَقَالَ:«لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ» - زَادَ غَيْرُ شَيْبَانَ -،فَقَالَ:«اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ»،قَالَ:فَأَطَافُوا بِهِ،وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا،وَأَتْبَاعًا،فَقَالُوا:نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ،فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ،وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ،وَأَتْبَاعِهِمْ»،ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى،ثُمَّ قَالَ:«حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا»،قَالَ:فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ،وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ [ص:١٤٠٦] يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا،قَالَ:فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ،لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»،فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ،وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا،فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ،فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ» قَالُوا:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:" قُلْتُمْ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟ " قَالُوا:قَدْ كَانَ ذَاكَ،قَالَ:«كَلَّا،إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ،هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ،وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»،فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ:وَاللهِ،مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ،وَيَعْذِرَانِكُمْ»،قَالَ:فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ،وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ،قَالَ:وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ،فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ،قَالَ:فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ،قَالَ:وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْسٌ وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَةِ الْقَوْسِ،فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ،وَيَقُولُ:{جَاءَ

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء:٨١]،فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِه أَتَى الصَّفَا،فَعَلَا عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ،وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ"[٣٧٧١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ،جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ قُرَيْشٌ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» [٣٧٧٢]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ،قَالَ:وَفَدْنَا إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَفِينَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَكَانَ هَذَا يَصْنَعُ يَوْمَ الطَّعَامِ فَيَدْعُو هَذَا،وَيَصْنَعُ هَذَا يَوْمَ الطَّعَامِ فَيَدْعُو هَذَا،قُلْتُ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،الْيَوْمُ يَوْمِي فَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ الطَّعَامُ فَقُلْتُ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،حَدِّثْنَا بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يُدْرِكَ طَعَامُنَا،قَالَ:شَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ،فَقَالَ:«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،ادْعُ لِيَ الْأَنْصَارَ».فَدَعَوْتُهُمْ فَجَاءُوا يُهَرْوِلُونَ،فَقَالَ:«هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ النَّاسِ؟»

[٣٧٧١] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)(٨٤ - (١٧٨٠))

[ش (المجنبتين) هما الميمنة والميسرة ويكون القلب بينهما (الحسر) أي الذين لا دروع لهم(فأخذوا بطن الوداي) أي جعلوا طريقهم في بطن الوادي(في كتيبة) الكتيبة القطعة العظيمة من الجيش(اهتف لي بالأنصار) أي صح بهم وادعهم لي(فأطافوا به) أي فجاءوا وأحاطوا به وإنما خصهم لثقته بهم ورفعا لمراتبهم وإظهارا لجلالتهم وخصوصيتهم(ووبشت قريش أوباشا لها) أي جمعت جموعا من قبائل شتى(ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى) فيه إطلاق القول على الفعل أي أشار إلى هيئتهم المجتمعة(فما شاء أحد منا الخ) أي لا يدفع أحد منهم عن نفسه(أبيحت خضراء قريش) كذا في هذه الرواية أبيحت وفي التي بعدها أبيت وهما متقاربتان أي استؤصلت قريش بالقتل وأفنيت وخضراؤهم بمعنى جماعتهم ويعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة ومنه السواد الأعظم(فقالت الأنصار بعضهم لبعض) معنى هذا أنهم رأوا رأفة النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة وكف القتل عنهم فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائما ويرحل عنهم ويهجر المدينة فشق ذلك عليهم فأوحى الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم فأعلمهم بذلك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتم كذا وكذا قالوا نعم قد قلنا هذا(كلا) معنى كلا هنا حقا ولها معنيان أحدهما حقا والآخر النفي(هاجرت إلى الله وإليكم الخ) معناه أني هاجرت إلى الله تعالى وإلى دياركم لاستيطانها فلا أتركها ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى بل أنا ملازم لكم المحيا محياكم والممات مماتكم أي لا أحيا إلا عندكم ولا أموت إلا عندكم فلما قال لهم هذا بكوا واعتذروا وقالوا والله ما قلنا كلامنا السابق إلا حرصا عليك وعلى مصاحبتك ودوامك عندنا لنستفيد منك ونتبرك بك وتهدينا الصراط المستقيم

(إلا الضن) هو الشح(بسية القوس) أي بطرفها المنحني قال في المصباح هي خفيفة الياء ولا مها محذوفة وترد في النسبة فيقال سيوي والهاء عوض عنها ويقال لسيتها العليا يدها ولسيتها السفلى رجلها]

[٣٧٧٢] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣)(٧٢٦٧) صحيح

قَـــالُوا:نَعَـــمْ.قَـــالَ:«فَـــإِذَا لَقِيتُمُـــوهُمْ غَدًا،فَاحْصُـــدُوهُمْ حَصْـــدًا،ثُمَّ مَوْعِـــدُكُمُ الصَّفَا».قَالَ:وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ،وَالزُّبَيْرَ بْـــنَ الْعَوَّامِ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،وَاسْتَعْمَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ عَلَى النَّادِفَةِ فِي بَطْنِ الْوَادِي،فَلَمَّا جَاءَ الْقَوْمُ لَقِينَاهُمْ فَمَا تَقَدَّمَ أَحَدٌ إِلَّا أَنَامُوهُ وَفُـــتِحَ عَلَـــى رَسُـــولِ اللهِ ﷺ،فَجَاءَ فَصَعِدَ الصَّفَا،وَجَاءَتِ الْأَنْصَارُ فَأَطَافُوا بِالصَّفَا،وَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،فَقَالَ:«مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ أَلْقَـــى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»[٣٧٧٣]

وَأَمَّا الْقَبُول فَلاَ يُشْتَرَطُ،وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ الْبُلْقِينِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ فَقَال:إِنَّ الإِْمَامَ الشَّافِعِيَّ لَمْ يَعْتَبِرِ الْقَبُول وَقَال:وَهُوَ مَا عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ لأَِنَّ بِنَاءَ الْبَابِ عَلَـــى التَّوْسِـــعَةِ،فَيَكْفِي السُّكُوتُ،وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ مَعَ السُّكُوتِ مَا يُشْعِرُ بِالْقَبُول،وَهُوَ الْكَفُّ عَنِ الْقِتَـــال كَمَـــا صَرَّحَ بِهِ الْمَاوَرْدِيُّ،وَتَكْفِي إِشَارَةٌ مُفْهِمَةٌ لِلْقَبُول وَلَوْ مِنْ نَاطِقٍ.

قَال الشِّرْبِينِيُّ:إِنَّ مَحَل الْخِلاَفِ فِي اعْتِبَارِ الْقَبُول:إِذَا لَمْ يَسْبِقْ مِنْهُ اسْتِيجَابٌ،فَإِنْ سَـــبَقَ مِنْهُ لَمْ يُحْتَجْ لِلْقَبُول جَزْمًا [٣٧٧٤].

و – شَرْطُ إِعْطَاءِ الأَْمَانِ لِلْمُسْتَأْمِنِ

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ شَرْطَ الأَْمَانِ انْتِفَاءُ الضَّرَرِ،وَلَوْ لَمْ تَظْهَرِ الْمَصْلَحَةُ[٣٧٧٥].

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يُشْتَرَطُ فِي الأَمَانِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ[٣٧٧٦].

ز – شُرُوطُ الْمُؤَمِّنِ

لِلْمُؤَمِّنِ شُرُوطٌ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

الشَّرْطُ الأَْوَّل:الإِْسْلاَمُ:

[٣٧٧٣] – المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣)(٧٢٦٦) صحيح

[٣٧٧٤] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٧ .

[٣٧٧٥] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٨٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، ٢٣٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والفروع ٦ / ١٤٨، ٢٤٩ .

[٣٧٧٦] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الأَمَانُ مِنْ مُسْلِمٍ فَلاَ يَصِحُّ مِنْ كَافِرٍ،وَزَادَ الْكَاسَانِيُّ:وَإِنْ كَانَ يُقَاتل مَعَ الْمُسْلِمينَ ؛لأَنَّهُ مُتَّهَمٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمينَ فَلاَ تُؤْمَنُ خِيَانَتُهُ،وَلأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُتَّهَمًا فَلاَ يَدْرِي أَنَّهُ بَنَى أَمَانَهُ عَلَى مُرَاعَاة مَصْلَحَة الْمُسْلمينَ مِنَ التَّفَرُّق عَنْ حَال الْقُوَّة وَالضَّعْف أَمْ لاَ،فَيَقَعُ الشَّكُّ فِي وُجُود شَرْط الصِّحَّة،فَلاَ يَصِحُّ مَعَ الشَّكِّ[3777]،وَنَصُّوا عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ وَلَوْ كَانَ ذمِّيًّا،وَاسْتَدَلُّوا بحديث عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،أَنَّهُ قَالَ:لَيْسَ عنْدَنَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِتَابٍ شَيْءٌ إِلَّا كِتَابَ اللهِ،وَشَيْءٌ فِي هَذه الصَّحِيفَة:«ذِمَّةُ الْمُسْلمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْه لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائكَة وَالنَّاس،لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ» قَالَ عَبْدُ الله:فَالْعَدْلُ:هِيَ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ،وَالصَّرْفُ:صَلَاةُ التَّطَوُّعِ،قَالَ عَبْدُ الله:وَيُقَالُ:الْعَدْلُ:الْفِدْيَةُ،وَالصَّرْفُ:التَّوْبَةُ،[3778] وَوَجْهُ الاسْتدْلاَل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَل الذِّمَّةَ لِلْمُسْلمِينَ،فَلاَ تَحْصُل لغَيْرِهِمْ،وَلأَنَّ كُفْرَهُ يَحْمِلُهُ عَلَى سُوءِ الظَّنِّ،وَلأَنَّهُ مُتَّهَمٌ عَلَى الإِسْلاَمِ وَأَهْله،فَأَشْبَهَ الْحَرْبِيَّ،وَلأَنَّهُ كَافِرٌ فَلاَ وِلاَيَةَ لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَزَادَ الْحَنَفِيَّةُ:إِلاَّ إِذَا أَمَرَهُ بِهِ مُسْلِمٌ – سَوَاءٌ كَانَ الآمِرُ أَمِيرَ الْعَسْكَرِ أَوْ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ – بِأَنْ قَال الْمُسْلِمُ لِلذِّمِّيِّ:آمِنْهُمْ،فَقَال الذِّمِّيُّ:قَدْ آمَنْتُكُمْ،لأَنَّ أَمَانَ الذِّمِّيِّ إِنَّمَا لاَ يَصِحُّ لِتُهْمَة مَيْله إِلَيْهِمْ،وَتَزُول التُّهْمَةُ إِذَا أَمَرَهُ بِهِ مُسْلِمٌ،وَكَذَلِكَ إِذَا قَال الذِّمِّيُّ:إِنَّ فُلاَنًا الْمُسْلِمَ قَدْ آمَنَكُمْ،لأَنَّهُ صَارَ مَالِكًا لِلأَمَانِ بِهَذَا الأَمْرِ،فَيَكُونُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ مُسْلِمٍ آخَرَ[3779].

الشَّرْطُ الثَّانِي:الْعَقْل:

[3777] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والقوانين الفقهية / ١٥٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[3778] – الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٢٥٨)(٦٦٦٢) صحيح

[3779] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦، ٢٣٧ .

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْمَجْنُونِ لأَنَّ الْعَقْل شَرْطُ أَهْلِيَّــةِ التَّصَـــرُّفِ،وَلأَنَّ كَلاَمَهُ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فَلاَ يَثْبُتُ بِهِ حُكْمٌ[٣٧٨٠].

الشَّرْطُ الثَّالِثُ:الْبُلُوغُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الطِّفْل وَكَذَلِكَ الصَّبِيُّ الْمُرَاهِقُ إِذَا كَـــانَ لاَ يَعْقِل الإِْسْلاَمَ قِيَاسًا عَلَى الْمَجْنُونِ.فعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ:عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ،وَعَنِ الْغُلَامِ حَتَّى يَحْتَلِمَ،وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ».[٣٧٨١]

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مُمَيِّزًا يَعْقِل الإِْسْلاَمَ،وَلَكِنَّهُ كَانَ مَحْجُورًا عَـــنِ الْقِتَال،فَـــذَهَبَ جُمْهُـــورُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ فِي وَجْهٍ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُهُ ؛لأَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ الأَْمَانِ أَنْ يَكُـــونَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ،وَبِالْكُفْرِ قُوَّةٌ،وَهَذِهِ حَالَةٌ خَفِيَّةٌ وَلاَ يُوقَفُ عَلَيْهَا إِلاَّ بِالتَّأَمُّل وَالنَّظَرِ،وَلاَ يُوجَدُ ذَلِكَ مِنَ الصَّبِيِّ،وَلاِشْتِغَالِهِ بِـــاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ،وَلأَنَّـــهُ لاَ يَمْلِـــكُ الْعُقُودَ،وَالأَْمَـــانُ عَقْدٌ،وَمَنْ لاَ يَمْلِكُ أَنْ يَعْقِدَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ،فَفِي حَقِّ غَيْرِهِ أَوْلَى،وَلأَنَّ قَوْلَهُ غَيْـــرُ مُعْتَبَـــرٍ كَطَلاَقِهِ وَعَتَاقِهِ.

وَقَال الْحَنَابِلَةُ فِي وَجْهٍ آخَرَ وَمُحَمَّدٌ:يَصِحُّ،لأَنَّ أَهْلِيَّـــةَ الأَْمَـــانِ مَبْنِيَّـــةٌ عَلَـــى أَهْلِيَّـــةِ الإِْيمَانِ،وَالصَّبِيُّ الْمُمَيِّزُ الَّذِي يَعْقِل الإِْسْلاَمَ مِنْ أَهْل الإِْيمَانِ،فَيَكُونُ مِـــنْ أَهْـــل الأَْمَـــانِ كَالْبَالِغِ[٣٧٨٢].

وَإِنْ كَانَ مَأْذُونًا فِي الْقِتَال فَالأَْصَحُّ أَنَّهُ يَصِحُّ بِالاِتِّفَاقِ بَيْنَ الْحَنَفِيَّةِ ؛لأَنَّهُ تَصَرُّفٌ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ،فَيَمْلِكُهُ الصَّبِيُّ الْمَأْذُونُ[٣٧٨٣].

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ فِي الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ خِلاَفٌ،قِيل:يَجُوزُ وَيَمْضِي وَقِيل:لاَ يَجُوزُ ابْتِدَاءً،وَيُخَيَّرُ فِيهِ الإِْمَامُ إِنْ وَقَعَ:إِنْ شَاءَ أَمْضَاهُ،وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ[٣٧٨٤].

[٣٧٨٠] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦، ٢٣٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤ .

[٣٧٨١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٥٥)(١٤٢) صحيح

[٣٧٨٢] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وفتح القدير ٤ / ٣٠٢، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، والمغني ٨ / ٣٩٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

[٣٧٨٣] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٦، ٢٢٧، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، وفتح القدير ٤ / ٣٠٢ .

[٣٧٨٤] - الشرح الصغير ٢ / ٢٨٧ .

وَقَال الشَّافعيَّةُ:لاَ يَصحُّ أَمَانُ الصَّبيِّ وَفي الصَّبيِّ الْمُمَيِّز وَجْهٌ كَتَدْبيره[٣٧٨٥] .

وَمَنْ زَال عَقْلُهُ بنَوْمٍ أَوْ سُكْرٍ أَوْ إغْمَاءٍ،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَابلَةُ عَلَى أَنَّهُ في حُكْمِ الصَّبيِّ غَيْر الْمُمَيِّز ؛لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرفُونَ الْمَصْلَحَةَ منْ غَيْرهَا،وَلأَنَّ كَلاَمَهُمْ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ فَلاَ يَثْبُتُ بِه حُكْمٌ[٣٧٨٦] .

الشَّرْطُ الرَّابعُ:الاخْتيَارُ

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَصحُّ الأَمَانُ منْ مُكْرَه لأَنَّهُ قَوْلٌ أُكْرِهَ عَلَيْه بغَيْر حَقٍّ،فَلَمْ يَصحَّ كَالإْقْرَار[٣٧٨٧] .عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،قَالَ:«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ،وَالنِّسْيَانَ،وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه»[٣٧٨٨]

الشَّرْطُ الْخَامسُ:عَدَمُ الْخَوْف منَ الْكَفَرَة:

ذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ وَالشَّافعيَّةُ في مُقَابل الأَصَحِّ إلَى أَنَّهُ يَصحُّ أَمَانُ الأَسير إذَا عَقَدَهُ غَيْرُ مُكْرَه،لدُخُوله في عُمُوم الْخَبَر،وَلأَنَّهُ مُسْلمٌ مُكَلَّفٌ مُخْتَارٌ فَأَشْبَهَ غَيْرَ الأَسير،قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَكَذَلكَ يَصحُّ أَمَانُ الأَجير،وَالتَّاجر في دَار الْحَرْب

وَيَرَى الشَّافعيَّةُ في الأَصَحِّ عَدَمَ جوَاز أَمَان الأَسير،قَال الشِّرْبينيُّ الْخَطيبُ:مَحَل الْخلاَف في الأَسير الْمُقَيَّد وَالْمَحْبُوس وَإنْ لَمْ يَكُنْ مُكْرَهًا ؛لأَنَّهُ مَقْهُورٌ بأَيْديهمْ لاَ يَعْرفُ وَجْهَ الْمَصْلَحَة،وَلأَنَّ وَضْعَ الأَمَان أَنْ يَأْمَنَ الْمُؤَمِّنُ،وَلَيْسَ الأَسيرُ آمنًا،وَأَمَّا أَسيرُ الدَّار،وَهُوَ الْمُطْلَقُ بدَار الْكُفْر الْمَمْنُوعُ منَ الْخُرُوج منْهَا فَيَصحُّ أَمَانُهُ[٣٧٨٩] .

وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ مَنْ كَانَ مَقْهُورًا عنْدَ الْكُفَّار كَالأَسير وَالتَّاجر فيهمْ،وَمَنْ أَسْلَمَ عنْدَهُمْ وَهُوَ فيهمْ ؛لأَنَّهُمْ مَقْهُورُونَ عنْدَهُمْ،فَلاَ يَكُونُونَ منْ أَهْل الْبَيَان،وَلاَ يَخَافُهُمُ الْكُفَّارُ،وَالأَمَانُ يَخْتَصُّ بمَحَل الْخَوْف،وَلأَنَّهُمْ يُجْبَرُونَ عَلَيْه،فَيُعْرَى

[٣٧٨٥] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

[٣٧٨٦] - المغني ٨ / ٣٩٨ .

[٣٧٨٧] - الشرح الصغير ٢ / ٢٨٧،والقوانين الفقهية ١٥٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمغني ٨ / ٣٩٨ .

[٣٧٨٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٢٠٢)(٧٢١٩) صحيح

[٣٧٨٩] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، والقليوبي ٤ / ٢٢٦، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، والقوانين الفقهية ١٥٣، والمغني ٨ / ٣٩٧ .

الأَمَانُ عَنِ الْمَصْلَحَة،وَلِأَنَّهُ لَو انْفَتَحَ هَذَا الْبَابُ لاَنْسَدَّ بَابُ الْفَتْحِ ؛لأَنَّهُمْ كُلَّمَا اشْتَدَّ الأَمْرُ عَلَيْهِمْ،لاَ يُخَلُّونَ عَنْ أَسِيرٍ أَوْ تَاجِرٍ فَيَتَخَلَّصُونَ بِه،وَفِيه ضَرَرٌ ظَاهِرٌ.

قَال ابْنُ عَابِدِينَ:نُقِل فِي الْبَحْرِ عَنِ الذَّخِيرَة أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الأَسِيرِ فِي حَقٍّ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى كَانَ لَهُمْ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ،أَمَّا فِي حَقِّهِ هُوَ فَصَحِيحٌ،قَال ابْنُ عَابِدِينَ:وَالظَّاهِرُ أَنَّ التَّاجِرَ الْمُسْتَأْمِنَ كَذَلِكَ[٣٧٩٠].

ح – أَمَانُ الْعَبْدِ وَالْمَرْأَة وَالْمَرِيضِ

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَمَانِ الْعَبْدِ وَالْمَرْأَةِ وَالْمَرِيضِ عَلَى التَّفْصِيل الآتِي:

أَوْلاً – الْعَبْدُ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَمَانُ الْعَبْد،وَاسْتَدَلُّوا بحديث إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب،فَقَالَ:مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرَؤُهُ إِلَّا كِتَابَ اللهِ وَهَذِه الصَّحِيفَةَ،قَالَ:وَصَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي قِرَابِ سَيْفِه،فَقَدْ كَذَبَ،فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ،وَأَشْيَاءُ مِنَ الْجِرَاحَات،وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ،فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا،فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا،وَلَا عَدْلًا،وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ،وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيه،أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيه،فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا،وَلَا عَدْلًا»[٣٧٩١]،وَفَسَّرَهُ مُحَمَّدٌ بِالْعَبْد،وعَنْ فُضَيْلِ بْنِ زَيْدٍ الرَّقَاشِيِّ،وَقَدْ كَانَ غَزَا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَبْعَ غَزَوَات،قَالَ:بَعَثَ عُمَرُ جَيْشًا فَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ،فَحَاصَرْنَا أَهْلَ سِهْرِيَاجٍ،فَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّا سَنَفْتَحُهَا مِنْ يَوْمِنَا ذَلِكَ،قُلْنَا:نَرْجِعُ فَنُقِيلُ،ثُمَّ نَرُوحُ فَنَفْتَحُهَا،فَلَمَّا رَجَعْنَا تَخَلَّفَ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ الْمُسْلِمِينَ،فَرَاطَنَهُمْ فَرَاطَنُوهُ،فَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانًا فِي صَحِيفَة،ثُمَّ شَدَّهُ فِي سَهْمٍ فَرَمَى بِه إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا.فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنَ الْعَشِيِّ وَجَدْنَاهُمْ قَدْ خَرَجُوا،قُلْنَا لَهُمْ:مَا لَكُمْ ؟ قَالُوا:أَمَّنْتُمُونَا،قُلْنَا:مَا فَعَلْنَا،إِنَّمَا الَّذِي أَمَّنَكُمْ عَبْدٌ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ،فَارْجِعُوا حَتَّى نَكْتُبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ

[٣٧٩٠] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وفتح القدير ٤ / ٣٠٠، وشرح السير الكبير ١ / ٢٦٦ ط .مطبعة مصر، وابن عابدين ٣ / ٢٢٨، والاختيار ٤ / ١٢٣ .

[٣٧٩١] – صحيح مسلم (٢/ ١١٤٧)٢٠ – (١٣٧٠)

الْخَطَّاب،فَقَالُوا:مَا نَعْرِفُ عَبْدَكُمْ مِنْ حُرِّكُمْ،مَا نَحْنُ بِرَاجِعِينَ،إِنْ شِئْتُمْ فَاقْتُلُونَا،وَإِنْ شِئْتُمْ فِفُوا لَنَا،قَالَ:فَكَتَبْنَا إِلَى عُمَرَ،فَكَتَبَ عُمَرُ:إِنَّ عَبْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُمْ،قَالَ:فَأَجَازَ عُمَرُ أَمَانَهُ.[٣٧٩٢]

وعَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَالِ،قَالَ:سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ زَيْدٍ الرَّقَاشِيَّ،قَالَ:كُنَّا بِسَيْرَافَ مُصَافِّي الْعَدُوِّ،فَعَمَدَ مَمْلُوكٌ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ،فَكَتَبَ فِي سَهْمٍ أَمَانًا،ثُمَّ رَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ،فَجَاءُوا بِهِ،فَقَالُوا:قَدْ أَمَّنْتُمُونَا،فقَالُوا:أَمَّنَكُمْ عَبْدٌ فَارْجِعُوا إِلَى مَأْمَنِكُمْ،فَقَالُوا:لَا نَعْرِفُ عَبْدَكُمْ مِنْ حُرِّكُمْ،فَأَبَوْا،فَكُتِبَ فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ،فَكَتَبَ:«إِنَّ الْعَبْدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُمْ»[٣٧٩٣]

وعَنْ فُضَيْلِ بْنِ زَيْدٍ الرَّقَاشِيِّ،قَالَ:حَاصَرْنَا حِصْنًا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَرَمَى عَبْدٌ مِنَّا بِسَهْمٍ فِيهِ أَمَانٌ،فَخَرَجُوا،فَقُلْنَا:مَا أَخْرَجَكُمْ؟ فَقَالُوا:أَمَّنْتُمُونَا،فَقُلْنَا:مَا ذَاكَ إِلَّا عَبْدٌ،وَلَا نُجِيزُ أَمْرَهُ،فَقَالُوا:مَا نَعْرِفُ الْعَبْدَ مِنْكُمْ مِنَ الْحُرِّ،فَكَتَبْنَا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ،فَكَتَبَ «أَنَّ الْعَبْدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذِمَّتُهُ ذِمَّتُكُمْ»[٣٧٩٤]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:أَمَانُ الْمَرْأَةِ وَالْمَمْلُوكِ جَائِزٌ.[٣٧٩٥]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ "[٣٧٩٦]،وَلأَنَّهُ مُسْلِمٌ مُكَلَّفٌ،فَصَحَّ أَمَانُهُ كَالْحُرِّ.وَزَادَ النَّوَوِيُّ:يَصِحُّ أَمَانُ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ وَإِنْ كَانَ سَيِّدُهُ كَافِرًا.

وَفِي قَوْلٍ لِلْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْعَبْدِ ابْتِدَاءً وَإِذَا أُمِّنَ فَيُخَيَّرُ الإِْمَامُ بَيْنَ إِمْضَائِهِ وَرَدِّهِ[٣٧٩٧].

[٣٧٩٢] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٥)(٣٤٠٧٥) صحيح

[٣٧٩٣] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٤٤)(٧٢٥) صحيح

[٣٧٩٤] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٧٤)(٢٦٠٨) صحيح

[٣٧٩٥] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٠٥)(٣٤٠٧٦) صحيح

[٣٧٩٦] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٤٧٨)(٢٢١٥٥) صحيح لغيره

[٣٧٩٧] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وفتح القدير ٤ / ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، وابن عابدين ٣ / ٢٦٦، ٢٢٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، وبداية المجتهد ١ / ٣٩٣، والمغني ٨ / ٣٩٧، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩ .

وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ فِي رِوَايَةٍ:لاَ يَصِحُّ أَمَانُ الْعَبْدِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ مَوْلاَهُ فِي الْقِتَال،لأَِنَّهُ مَحْجُورٌ عَنِ الْقِتَال فَلاَ يَصِحُّ أَمَانُهُ ؛لأَِنَّهُمْ لاَ يَخَافُونَهُ فَلَمْ يُلاَقِ الأَْمَانُ مَحَلَّهُ،بِخِلاَفِ الْمَأْذُونِ لَهُ فِي الْقِتَال ؛لأَِنَّ الْخَوْفَ مِنْهُ مُتَحَقِّقٌ،وَلأَِنَّهُ مَجْلُوبٌ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ،فَلاَ يُؤْمَنُ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ تَقْدِيمَ مَصْلَحَتِهِم[٣٧٩٨].

ثانيًا – الْمَرْأَةُ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى أَنَّ الذُّكُورَةَ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ لِصِحَّةِ الأَْمَانِ،فَيَصِحُّ أَمَانُ الْمَرْأَةِ،فعَنْ أَبِي النَّضْرِ،مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ،أَنَّ أَبَا مُرَّةَ،مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ،أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ،تَقُولُ:ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ،فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ،فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ،فَقَالَ:«مَنْ هَذِهِ؟»،فَقُلْتُ:أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ،فَقَالَ:«مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ»،فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ،قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيٌّ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنُ بْنُ هُبَيْرَةَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»،قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ:وَذَلِكَ ضُحًى"[٣٧٩٩]

وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ،قَالَ:حَدَّثَتْنِي،قَالَتْ:فَرَّ إِلَيَّ رَجُلاَنِ مِنْ أَحْمَائِي يَوْمَ الْفَتْحِ،فَأَجَرْتُهُمَا،فَدَخَلَ عَلَيَّ أَخِي،فَقَالَ:لأَقْتُلَنَّهُمَا،فَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا،ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيُّ ﷺ،قَالَ:مَرْحَبًا،وَأَهْلاً بِأُمِّ هَانِئٍ،مَا جَاءَ بِكِ ؟ فَأَخْبَرَتْهُ،فَقَالَ:قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ،وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ،قَالَتْ:فَجِئْتُ فَمَنَعْتُهُمَا.[٣٨٠٠]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْقَوْمِ.[٣٨٠١]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.[٣٨٠٢]

وعَنْ عُمَرَ،قَالَ:إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَأْخُذُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَيَجُوزُ أَمَانُهَا.[٣٨٠٣]

[٣٧٩٨] – فتح القدير ٤ / ٣٠٠، ٣٠١، والمغني ٨ / ٣٩٦ .

[٣٧٩٩] – صحيح البخاري (٤/ ١٠٠)(٣١٧١) وصحيح مسلم (١/ ٤٩٨)٨٢ – (٣٣٦)

[٣٨٠٠] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٢) صحيح

[٣٨٠١] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٣) صحيح

[٣٨٠٢] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٠٤)(٣٤٠٧٤) صحيح

ومر حديث زينب قبل قليل،وَلأَنَّ الْمَرْأَةَ لاَ تَعْجِزُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى حَالِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ[٣٨٠٤].

وَفِي قَوْلِ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ أَمَانُ الْمَرْأَةِ ابْتِدَاءً،فَإِنْ أَمَّنَتْ نَظَرَ الإِْمَامُ فِي ذَلِكَ فَإِنْ شَاءَ أَبْقَاهُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ[٣٨٠٥].

وَنَصَّ النَّوَوِيُّ عَلَى أَنَّهُ فِي جوَازِ عَقَدِ الْمَرْأَةِ اسْتِقْلاَلاً وَجْهَانِ.

وَقَال الشِّرْبِينِيُّ الْخَطِيبُ:أَرْجَحُهُمَا الْجَوَازُ كَمَا جَزَمَ بِهِ الْمَاوَرْدِيُّ[٣٨٠٦].

ثالثا الْمَرِيضُ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ لِصِحَّةِ الأَْمَانِ السَّلاَمَةُ عَنِ الْعَمَى وَالزَّمَانَةِ وَالْمَرَضِ،فَيَصِحُّ أَمَانُ الأَْعْمَى وَالزَّمِنُ وَالْمَرِيضُ مَا دَامَ سَلِيمَ الْعَقْل،لأَنَّ الأَْصْل فِي صِحَّةِ الأَْمَانِ صُدُورُهُ عَنْ رَأْيٍ وَنَظَرٍ فِي الأَْحْوَال الْخَفِيَّةِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ،وَهَذِهِ الْعَوَارِضُ لاَ تَقْدَحُ فِيهِ[٣٨٠٧].

ط – الأَْمَانُ عَلَى الشَّرْطِ

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا حَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ.حِصْنًا فَنَادَاهُمْ رَجُلٌ وَقَال:أَمِّنُونِي أُفْتَحْ لَكُمُ الْحِصْنَ،جَازَ أَنَّ يُعْطُوهُ أَمَانًا،لِمَا رُوِيَ أَنَّ زِيَادَ بْنَ لَبِيَدٍ لَمَّا حَاصَرَ النُّجِيْرَ،قَال الأَْشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ:أَعْطُونِي الأَْمَانَ لِعَشَرَةٍ أَفْتَحْ لَكُمْ الْحِصْنَ فَفَعَلُوا،فَإِنْ أَشْكَل الَّذِي أُعْطِيَ الأَْمَانُ – وَادَّعَاهُ كُل وَاحِدٍ مِنْ أَهْل الْحِصْنِ – فَإِنْ عَرَفَ صَاحِبُ الأَْمَانِ عَمِل عَلَى ذَلِكَ،وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ صَاحِبُ الأَْمَانِ الْمُؤَمِّنَ،لَمْ يَجُزْ قَتْل وَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛لأَنَّ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحْتَمَل

[٣٨٠٣] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ١٠٦)(٣٤٠٧٧) صحيح

[٣٨٠٤] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦، والقوانين الفقهية ١٥٩، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٤، والمغني ٨ / ٣٩٧

[٣٨٠٥]

[٣٨٠٦] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧ .

[٣٨٠٧] – ابن عابدين ٣ / ٢٦٦، بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، والوجيز ٢ / ١٩٤ .

صدْقُهُ وَقَد اشْتَبَهَ الْمُبَاحُ بِالْمُحَرَّمِ فِيمَا لاَ ضَرُورَةَ إِلَيْهِ فَحُرِّمَ الْكُل،كَمَا لَوِ اشْتَبَهَتْ مَيِّتَةٌ بِمُذَكَّاة وَنَحْوِهَا[3808].

وَإِذَا لَمْ يُوَفِّ الشَّرْطَ فَلَهُمْ ضَرْبُ عُنُقه كَمَا إِذَا قَال الرَّجُل:كُفَّ عَنِّي حَتَّى أَدُلَّكَ عَلَى كَذَا،فَبُعثَ مَعَهُ قَوْمٌ لِيَدُلَّهُمْ فَامْتَنَعَ منَ الدَّلاَلَة أَوْ خَانَهُمْ،فَالإِْمَامُ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهُ فَيْئًا ؛لأَنَّ إِعْطَاءَ الأَْمَان لَهُ كَانَ بشَرْط،وَلَمْ يُوجَدْ،وَلأَنَّهُ كَانَ مُبَاحَ الدَّم،وَعُلِّقَ حُرْمَةُ دَمه بِالدَّلاَلَة وَتَرْكِ الْخيَانَة،فَإِنِ انْعَدَمَ الشَّرْطُ،بَقِيَ حِل دَمِهِ عَلَى مَا كَانَ[3809].

ي – مُدَّةُ الأَمَان:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافعيَّة عَلَى أَنَّ مُدَّةَ الإِْقَامَة فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ لِلْمُسْتَأْمِنِ لاَ تَبْلُغُ سَنَةً،وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يَجُوزُ التَّوْقِيتُ مَا دُونَ السَّنَة كَشَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ،لَكِنْ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَلْحَقَ الْمُسْتَأْمِنَ ضَرَرٌ وَعُسْرٌ بِتَقْصِيرِ الْمُدَّة جِدًّا،خُصُوصًا إِذَا كَانَ لَهُ مُعَامَلاَتٌ يَحْتَاجُ فِي اقْتضَائِهَا إِلَى مُدَّة أَطْوَل[3810].

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:يُشْتَرَطُ أَنْ لاَ تَزِيدَ مُدَّةُ الأَْمَانِ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ[3811].

وَعِنْدَ الشَّافعيَّة يَجِبُ أَنْ لاَ تَزِيدَ مُدَّةُ الأَْمَانِ عَلَى أَرْبَعَة أَشْهُرٍ،فَإِنْ زَادَ عَلَيْهَا بَطَل فِي الزَّائِد[3812].

ك – مَا يُنْتَقَضُ بِه الأَْمَانُ:

يُنْتَقَضُ الأَْمَانُ بِأُمُورٍ هِيَ:

أَوَّلاً – نَقْضُ الإِْمَامِ:

[3808] – شرح السير الكبير ١ / ٢٧٨، والخرشي ٣ / ١٢١، ١٢٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٣، والمغني ٨ / ٤٠٢ .

[3809] – شرح السير الكبير ١ / ٢٧٨، والخرشي ٣ / ١٢١، ١٢٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٣، والمغني ٨ / ٤٠٢ .

[3810] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٤٨، ٢٤٩، وفتح القدير ٤ / ٣٥١، ٣٥٢، والاختيار ٤ / ١٣٦، والأحكام السلطانية للماوردي ١٤٦ ط .دار الكتب العلمية، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ط .دار الكتب العلمية – بيروت ١٦١، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١

[3811] – كشاف القناع ٣ / ١٠٤ .

[3812] – مغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الإِمَامَ لَوْ رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي نَبْذِ الأَمَانِ وَكَانَ بَقَاؤُهُ شَرًّا لَهُ أَنَّ يَنْقُضَهُ،لأَنَّ جوَازَ الأَمَان – مَعَ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَرْكَ الْقِتَال الْمَفْرُوضِ – لِلْمُصْلحَة،فَإِذَا صَارَت الْمَصْلَحَةُ فِي النَّقْضِ نَقَضَهُ،لقَوْله تَعَالَى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال:٥٨] لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِالنَّقْضِ وَإِعَادَتِهِمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ الأَمَانِ،ثُمَّ يُقَاتِلُهُمْ لِئَلاَّ يَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَدْرٌ فِي الْعَهْدِ[٣٨١٣].

ثَانِيًا – رَدُّ الْمُسْتَأْمِنِ للأَمَان:

إِذَا جَاءَ أَهْل الْحِصْنِ بِالأَمَانِ إِلَى الإِمَامِ فَنَقَضَهُ،فَفِي هَذِه الْحَالَة يَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،فَإِنْ أَبَوْا فَإِلَى الذِّمَّة،فَإِنْ أَبَوْا رَدَّهُمْ إِلَى مَأْمَنِهِمْ،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ.

قَال النَّوَوِيُّ:إِنَّ الْمُسْتَأْمِنَ إِذَا نَبَذَ الْعَهْدَ،وَجَبَ تَبْلِيغُهُ الْمَأْمَنَ،وَلاَ يُتَعَرَّضُ لِمَا مَعَهُ بِلاَ خِلاَفٍ[٣٨١٤].

ثَالِثًا – مُضِيُّ مُدَّة الأَمَان:

يَنْقَضِي الأَمَانُ بِمُضِيِّ الْوَقْتِ إِذَا كَانَ الأَمَانُ مُؤَقَّتًا إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ مِنْ غَيْرِ الْحَاجَةِ إِلَى النَّقْضِ[٣٨١٥].

رَابِعًا – عَوْدَةُ الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ أَمَانَ الْمُسْتَأْمِنِ يُنْتَقَضُ فِي نَفْسِهِ دُونَ مَالِهِ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْكُفَّارِ،وَلَوْ إِلَى غَيْرِ دَارِهِ مُسْتَوْطِنًا أَوْ مُحَارِبًا،وَأَمَّا إِنْ عَادَ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ لِتِجَارَةٍ،أَوْ مُتَنَزِّهًا أَوْ لِحَاجَةٍ يَقْضِيهَا،ثُمَّ يَعُودُ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى أَمَانِهِ[٣٨١٦].

[٣٨١٣] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٨١ – ٢٩٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨ .

[٣٨١٤] – المراجع السابقة .

[٣٨١٥] – بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وابن عابدين ٣ / ٢٢٦، وشرح السير الكبير ١ / ٢٦٤، وفتح القدير ٤ / ٣٠٠، والقوانين الفقهية ١٦٠، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١، ٢٩٠، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، وكشاف القناع ٣ / ١٠٦، ١١١ .

[٣٨١٦] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٠، ٢٥١، والزيلعي ٣ / ٢٦٩، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٩، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٠٠ .

خَامسًا – ارْتكَابُ الْخيَانَة:

صَرَّحَ الْحَنَابلَةُ بأَنَّ مَنْ جَاءَنَا بأَمَان،فَخَانَنَا،كَانَ نَاقضًا لأَمَانه لمُنَافَاة الْخيَانَة لَهُ،وَلأَنَّــهُ لاَ يَصْلُحُ في ديننَا الْغَدْرُ[٣٨١٧].

ل – مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى رُجُوعِ الْمُسْتَأْمنِ إلَى دَارِ الْحَرْب:

ذَهَبَ الْحَنَابلَةُ وَالشَّافعيَّةُ في الصَّحيح – وَهُوَ مَا يُفْهَمُ منْ كَلاَمِ الْحَنَفيَّة – إلَى أَنَّ مَــنْ دَخَل دَارَ الْحَرْب مُسْتَوْطنًا،بَقيَ الأَمَانُ في مَاله،وَإنْ بَطَل في نَفْسه.وَاسْــتَدَل الْحَنَابلَــةُ لذَلكَ بقَوْلهمْ:لأَنَّهُ بدُخُوله دَارَ الإسْلاَم بأَمَان ثَبَتَ الأَمَانُ لمَاله الَّذي كَانَ مَعَهُ،فَإذَا بَطَل في نَفْسه بدُخُوله دَارَ الْحَرْب بَقيَ في مَاله،لاخْتصَاص الْمُبْطل بنَفْسه،فَيَخْتَصُّ الْــبُطْلاَنُ به.

وَزَادَ الشَّافعيَّةُ كَمَا نَقَلَهُ النَّوَويُّ عَن ابْن الْحَدَّاد:للْمُسْتَأْمن أَنْ يَدْخُل دَارَ الإسْلاَم منْ غَيْر تَجْديد أَمَان لتَحْصيل ذَلكَ الْمَال،وَالدُّخُول للْمَال يُؤَمِّنُهُ كَالدُّخُول لرسَالَة،وَسَمَاع كَلاَم اللَّه تَعَالَى،وَلَكنْ يَنْبَغي أَنْ يُعَجِّل في تَحْصيل غَرَضه،وَكَذَا لاَ يُكَرِّرُ الْعَوْدَ لأَخْذ قطْعَة منَ الْمَال في كُل مَرَّة،فَإنْ خَالَفَ تَعَرَّضَ للْقَتْل وَالأَسْر،وَقَال غَيْرُ ابْن الْحَــدَّاد:لَــيْسَ لَــهُ الدُّخُول،لأَنَّ ثُبُوتَ الأَمَان في الْمَال لاَ يُوجبُ ثُبُوتَهُ في النَّفْس.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى عَدَم بُطْلاَن الأَمَان في مَاله أَنَّهُ إنْ طَلَبَهُ صَاحبُهُ بُعثَ إلَيْه.

وَإنْ تَصَرَّفَ فيه ببَيْعٍ أَوْ هبَة أَوْ غَيْرهمَا صَحَّ تَصَرُّفُهُ.

وَإنْ مَاتَ في دَار الْحَرْب انْتَقَل إلَى وَارثه مَعَ بَقَاء الأَمَــان فيــه كَمَــا نَــصَّ عَلَيْــه الْحَنَابلَةُ،وَهُوَ الأَظْهَرُ عنْدَ الشَّافعيَّة قيَاسًا عَلَى سَائر الْحُقُوق منَ الرَّهْن وَالشُّفْعَة،وَبه قَال الْحَنَفيَّةُ كَمَا يَأْتي.

وَقَال الشَّافعيَّةُ في قَوْل:يَبْطُل الأَمَانُ في الْحَال في هَذه الْحَالَة وَيَكُونُ فَيْئًا لبَيْت الْمَــال ؛لأَنَّهُ قَدْ صَارَ لوَارثه،وَلَمْ يَعْقدْ فيه أَمَانًا،فَوَجَبَ أَنْ يَبْطُل فيه كَسَائر أَمْوَاله،وَلأَنَّ الأَمَــانَ يَثْبُتُ في الْمَال تَبَعًا.وَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارثٌ،صَارَ فَيْئًا كَمَا قَال الْحَنَابلَةُ وَالشَّافعيَّةُ.

[٣٨١٧] – كشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

وَعِنْدَ الشَّافعيَّة فِي بَقَاءِ الأَمَان فِي مَاله قَوْلٌ ثَالثٌ:وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ للأَمَان فِي مَاله حَصَل الأَمَانُ فيه تَبَعًا،فَيَبْطُل فيه تَبَعًا،وَإِنْ ذَكَرَهُ فِي الأَمَان لَمْ يَبْطُل.

وَأَمَّا الأَوْلاَدُ فَقَدْ نَصَّ الشَّافعيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُسْبَى أَوْلاَدُهُ،فَإِذَا بَلَغُوا وَقَبِلُوا الْجزْيَةَ تُركُوا،وَإِلاَّ بَلَغُوا الْمَأْمَنَ[٣٨١٨].

أَمَّا إِنْ أُسرَ،بِأَنْ وَجَدَهُ مُسْلمٌ فَأَسَرَهُ،أَوْ غَلَبَ الْمُسْلمُونَ عَلَى أَهْل دَار الْحَرْب،فَأَخَذُوهُ أَوْ قَتَلُوهُ،وَكَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى مُسْلمٍ أَوْ ذمِّيٍّ أَوْ وَديعَةٌ عنْدَهُمَا،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يَسْقُطُ دَيْنُهُ ؛لأَنَّ إِثْبَاتَ الْيَد عَلَى الدَّيْن بالْمُطَالَبَة،وَقَدْ سَقَطَتْ،وَيَدُ مَنْ عَلَيْه الدَّيْنُ أَسْبَقُ إِلَيْه منْ يَد الْعَامَّة،فَيَخْتَصُّ به فَيَسْقُطُ،وَلاَ طَريقَ لجَعْله فَيْئًا ؛لأَنَّهُ الَّذي يُؤْخَذُ قَهْرًا،وَلاَ يُتَصَوَّرُ ذَلكَ في الدَّيْن.

وَكَذَلكَ الْحُكْمُ لَوْ أَسْلَمَ إِلَى مُسْلمٍ دَرَاهمَ عَلَى شَيْءٍ،وَمَا غُصبَ منْهُ،وَأُجْرَة عَيْنٍ أَجَّرَهَا،وَكُل ذَلكَ لسبْق الْيَد.

وَأَمَّا وَديعَتُهُ عنْدَ مُسْلمٍ أَوْ ذمِّيٍّ أَوْ غَيْرهمَا،وَمَا عنْدَ شَريكه وَمُضَاربه وَمَا في بَيْته في دَار الإِسْلاَم فَيَصيرُ فَيْئًا عنْدَ الْحَنَفيَّة ؛لأَنَّ الْوَديعَةَ في يَده تَقْديرًا،لأَنَّ يَدَ الْمُودع كَيَده فَيَصيرُ فَيْئًا تَبَعًا لنَفْسه،وَكَذَلكَ مَا عنْدَ شَريكه وَمُضَاربه وَمَا في بَيْته.

وَاخْتَلَفَ الْحَنَفيَّةُ في الرَّهْن:فَعنْدَ أَبي يُوسُفَ للْمُرْتَهن بدَيْنه،وَعنْدَ مُحَمَّد يُبَاعُ وَيُسْتَوْفَى دَيْنُهُ،وَالزِّيَادَةُ فَيْءٌ للْمُسْلمَيْن،قَال ابْنُ عَابدينَ:وَيَنْبَغي تَرْجيحُ قَوْل مُحَمَّدٍ،لأَنَّ مَا زَادَ عَلَى قَدْر الدَّيْن في حُكْم الْوَديعَة.

وَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتل بلاَ غَلَبَة عَلَيْه،فَمَالُهُ منَ الْقَرْض وَالْوَديعَة لوَرَثَته لأَنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَصرْ مَغْنُومَةً فَكَذَا مَالُهُ،كَمَا لَوْ ظَهَرَ عَلَيْه فَهَرَبَ فَمَالُهُ لَهُ،وَكَذَا دَيْنُهُ حَال حَيَاته قَبْل الأَسْر[٣٨١٩].

م – مَا يَجُوزُ للْمُسْتَأْمن حَمْلُهُ في الرُّجُوع إِلَى دَار الْحَرْب:

[٣٨١٨] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٩ – ٢٩٠، والمغني ٨ / ٤٠٠ – ٤٠١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

[٣٨١٩] – ابن عابدين ٣ / ٢٥٢ .

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُمَكَّنُ الْمُسْتَأْمِنُ إِذَا أَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ أَنْ يَحْمل مَعَهُ سِلاَحًا اشْتَرَاهُ مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ،لأَِنَّهُمْ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجُوزُ إِعْطَاءُ الأَْمَانِ لَهُ لِيَكْتَسِبَ بِهِ مَا يَكُونُ قُوَّةً لأَِهْل الْحَرْبِ عَلَى قِتَال الْمُسْلِمِينَ،وَلَهُ أَنْ يَخْرُجَ بِالَّذِي دَخَل بِهِ.فَإِنْ بَاعَ سَيْفَهُ وَاشْتَرَى بِهِ قَوْسًا أَوْ نُشَّابًا أَوْ رُمْحًا مَثَلاً لاَ يُمَكَّنُ مِنْهُ،وَكَذَا لَوِ اشْتَرَى سَيْفًا أَحْسَنَ مِنْهُ،فَإِنْ كَانَ مِثْل الأَْوَّل أَوْ دُونَهُ مُكِّنَ مِنْهُ[٣٨٢٠].

الدُّخُول إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ:

يَخْتَلِفُ حُكْمُ مَنْ دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ بِاخْتِلاَفِ الأَْحْوَال عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

أ – ادِّعَاءُ كَوْنِهِ رَسُولاً:

مَنْ دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ وَقَال:أَنَا رَسُول الْمَلِكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ،لَمْ يُصَدَّقْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلاَّ إِذَا أَخْرَجَ كِتَابًا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ مَلِكِهِمْ،فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ وَيَرْجِعَ ؛لأَِنَّ الرَّسُول آمِنٌ كَمَا جَرَى بِهِ الرَّسْمُ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلاَمًا،وَلأَِنَّ الْقِتَال أَوِ الصُّلْحَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالرُّسُل،فَلاَ بُدَّ مِنْ أَمَانِ الرَّسُول لِيَتَوَصَّل إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ،وَإِنْ لَمْ يُخْرِجْ كِتَابًا أَوْ أَخْرَجَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كِتَابُ مَلِكِهِمْ،فَهُوَ وَمَا مَعَهُ فَيْءٌ ؛لأَِنَّ الْكِتَابَ قَدْ يُفْتَعَل[٣٨٢١].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:يُصَدَّقُ سَوَاءٌ كَانَ مَعَهُ كِتَابٌ أَمْ لاَ،وَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُ لاِحْتِمَال مَا يَدَّعِيهِ[٣٨٢٢].

وَذَكَرَ الرُّويَانِيُّ تَفْصِيلاً فِي الرَّسُول فَقَال:وَمَا اشْتُهِرَ أَنَّ الرَّسُول آمِنٌ هُوَ فِي رِسَالَةٍ فِيهَا مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ هُدْنَةٍ وَغَيْرِهَا،فَإِنْ كَانَ رَسُولاً فِي وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ،فَلاَ أَمَانَ لَهُ،وَيَتَخَيَّرُ الإِْمَامُ فِيهِ بَيْنَ الْخِصَال الأَْرْبَعِ كَأَسِيرٍ،أَيِ الْقَتْل،أَوِ الاِسْتِرْقَاقِ،أَوِ الْمَنِّ عَلَيْهِ،أَوِ الْمُفَادَاةِ بِمَالٍ أَوْ نَفْسٍ،إِلاَّ أَنَّ الْمُعْتَمَدَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ الأَْوَّل[٣٨٢٣].

[٣٨٢٠] – المبسوط ١٠ / ٩١، ٩٢، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، ٣٥٣ .

[٣٨٢١] – المبسوط ١٠ / ٩٢، وابن عابدين ٣ / ٢٢٧، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٥٢٢، ٤٠٠ .

[٣٨٢٢] – مغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨٠ .

[٣٨٢٣] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٥١، ٢٩٩ .

ب – ادِّعَاءُ كَوْنِهِ تَاجِرًا:

لَوْ دَخَلَ الْحَرْبِيُّ دَارَنَا وَقَالَ:إِنَّهُ تَاجِرٌ وَقَالَ:ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ لاَ تَعْرِضُونَ لِتَاجِرٍ،وَالْحَالُ أَنَّهُ تَاجِرٌ،فَنَصَّ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ،وَيَرُدُّهُ إِلَى مَأْمَنِهِ،وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ إِذَا أَخَذَ بِأَرْضِهِمْ،أَوْ بَيْنَ أَرْضِ الْعَدُوِّ وَأَرْضِنَا،وَادَّعَى التِّجَارَةَ،أَوْ قَالَ:جِئْتُ أَطْلُبُ الأَمَانَ،حَيْثُ يُرَدُّ لِمَأْمَنِهِ[٣٨٢٤].

وَقَالَ الشَّافِعِيَّةُ:قَصْدُ التِّجَارَةِ لاَ يُفِيدُ الأَمَانَ،وَلَكِنْ لَوْ رَأَى الإِمَامُ مَصْلَحَةً فِي دُخُولِ التُّجَّارِ،فَقَالَ:مَنْ دَخَلَ تَاجِرًا فَهُوَ آمِنٌ،جَازَ،وَمِثْلُ هَذَا الأَمَانُ لاَ يَصِحُّ مِنَ الآحَادِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ:ظَنَنْتُ أَنَّ قَصْدَ التِّجَارَةِ يُفِيدُ الأَمَانَ فَلاَ أَثَرَ لِظَنِّهِ،وَلَوْ سَمِعَ مُسْلِمًا يَقُولُ:مَنْ دَخَلَ تَاجِرًا فَهُوَ آمِنٌ،فَدَخَلَ وَقَالَ:ظَنَنْتُ صِحَّتَهُ،فَالأَصَحُّ أَنَّهُ يُقْبَلُ قَوْلُهُ،وَلاَ يُغْتَالُ[٣٨٢٥].

وَقَالَ الْحَنَابِلَةُ:لَوْ دَخَلَ وَادَّعَى أَنَّهُ تَاجِرٌ وَكَانَ مَعَهُ مَتَاعٌ يَبِيعُهُ،قُبِلَ مِنْهُ،إِنْ صَدَّقَتْهُ عَادَةً،كَدُخُولِ تِجَارَتِهِمْ إِلَيْنَا وَنَحْوِهِ،لأَنَّ مَا ادَّعَاهُ مُمْكِنٌ،فَيَكُونُ شُبْهَةً فِي دَرْءِ الْقَتْلِ،وَلأَنَّهُ يُتَعَذَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ عَلَى ذَلِكَ،فَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُ،وَلِجَرَيَانِ الْعَادَةِ مَجْرَى الشَّرْطِ،وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ مَعَهُ مَتَاعٌ،وَانْتَفَتِ الْعَادَةُ،لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ،لأَنَّ التِّجَارَةَ لاَ تَحْصُلُ بِغَيْرِ مَالٍ،وَيَجِبُ بَقَاؤُهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْعِصْمَةِ[٣٨٢٦].

ج – ادِّعَاءُ كَوْنِهِ مُؤَمَّنًا:

مَنْ دَخَلَ دَارَنَا وَقَالَ:أَمَّنَنِي مُسْلِمٌ،فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي وَجْهٍ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُصَدَّقُ،لأَنَّ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ثَبَتَ فِيهِ حَيْنَ تَمَكَّنُوا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَمَانٍ ظَاهِرٍ لَهُ،فَلاَ يُصَدَّقُ فِي إِبْطَالِ حَقِّهِمْ،وَلَكِنْ إِنْ قَالَ مُسْلِمٌ:أَنَا أَمَّنْتُهُ قُبِلَ قَوْلُهُ ؛لأَنَّهُ يَمْلِكُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ،فَقُبِلَ قَوْلُهُ فِيهِ كَالْحَاكِمِ إِذَا قَالَ:حَكَمْتُ لِفُلاَنٍ عَلَى فُلاَنٍ.

[٣٨٢٤] – حاشية الخرشي ٣ / ١٢٤ .

[٣٨٢٥] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٨٠ .

[٣٨٢٦] – المغني ٨ / ٥٢٣، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨ .

وَذَهَبَ الشَّافعِيَّةُ فِي الأَصَحِّ وَالْحَنَابلَةُ فِي وَجْه آخَرَ إِلَى أَنَّهُ يُصَدَّقُ بلاَ بَيِّنَة،تَغْليبًا لحَقْن دَمه،فَلاَ يُتَعَرَّضُ لَهُ،لاحْتمَال كَوْنه صَادقًا فيمَا يَدَّعيه؛لأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّهُ لاَ يَدْخُل بغَيْر أَمَان،وَفي مُقَابل الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة:يُطَالَبُ ببَيِّنَة لإِمْكَانهَا غَالبًا[3827].

نكَاحُ الْمُسْلم بالْمُسْتَأْمنَة:

صَرَّحَ الْحَنَفيَّةُ بأَنَّ الْحَرْبيَّةَ الْمُسْتَأْمنَةَ إِذَا تَزَوَّجَتْ مُسْلمًا أَوْ ذمِّيًّا فَقَدْ تَوَطَّنَتْ وَصَارَتْ ذمِّيَّةً[3828].

مَا يَتَرَتَّبُ لَلْمُسْتَأْمنَة عَلَى النِّكَاح منْ حُقُوق:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الزَّوْجَةَ الْمُسْتَأْمنَةَ الْكتَابيَّةَ كَمُسْلمَة في نَفَقَة وَقَسْمٍ وَطَلاَقٍ وَغَيْر ذَلكَ إذَا كَانَ الزَّوْجُ مُسْلمًا،لاشْترَاكهمَا في الزَّوْجيَّة[3829].

وَالتَّفْصيل في مُصْطَلَحَات:(نكَاحٌ،وَمَهْرٌ،وَقَسْمٌ بَيْنَ الزَّوْجَات،وَكُفْرٌ،وَنَفَقَةٌ،وَظهَارٌ،وَلعَانٌ،وَعدَّةٌ،وَحَضَانَةٌ،وَإِحْصَانٌ).

التَّفْريقُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمن وَزَوْجَته لاخْتلاَف الدَّار

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّ الْحَرْبيَّ إِذَا خَرَجَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمنًا،أَو الْمُسْلمَ إِذَا دَخَلَ دَارَ الْحَرْب بأَمَان لَمْ تَقَع الْفُرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَته ؛لأَنَّ اخْتلاَفَ الدَّار عبَارَةٌ عَنْ تَبَايُن الْولاَيَات وَذَلكَ لاَ يُوجبُ ارْتفَاعَ النِّكَاح،وَلأَنَّ الْحَرْبيَّ الْمُسْتَأْمنَ منْ أَهْل دَار الْحَرْب،وَإِنَّمَا دَخَلَ دَارَ الإِسْلاَم عَلَى سَبيل الْعَاريَة لقَضَاء بَعْض حَاجَاته لاَ للتَّوَطُّن[3830].

التَّوَارُثُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمنينَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرهمْ:

[3827] - المبسوط ١٠ / ٩٣، وفتح القدير ٤ / ٣٥٢، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٧، ومغني المحتاج ٤ / ٢٤٣، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩٩، والمغني ٨ / ٥٢٣ .

[3828] - المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨٤)

[3829] - حاشية ابن عابدين ٢ / ٤٠٠، والمبسوط ٥ / ٢١٨، ومغني المحتاج ٣ / ١٨٨، وروضة الطالبين ٧ / ١٣٦، والمغني ٧ / ٣٦، ٦ / ٦٣٧ .

[3830] - المبسوط للسرخسي (٥/ ٥١) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨١)

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ يَثْبُتُ التَّوَارُثُ بَيْنَ مُسْتَأْمَنَيْنِ فِي دَارِنَا إِنْ كَانَا مِنْ دَارٍ وَاحِدَة،كَمَا يَثْبُتُ بَيْنَ مُسْتَأْمِنٍ فِي دَارِنَا وَحَرْبِيٍّ فِي دَارِهِمْ،لاِتِّحَادِ الدَّارِ بَيْنَهُمَا حُكْمًا،هَذَا فِي الْجُمْلَة[٣٨٣١].

الْمُعَامَلاَتُ الْمَالِيَّةُ لِلْمُسْتَأْمِن:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ كَالذِّمِّيِّ إِلاَّ فِي وُجُوبِ الْقِصَاص،وَعَدَمِ مُؤَاخَذَته بِالْعُقُوبَات غَيْرَ مَا فِيه حَقُّ الْعَبْد،وَفِي أَخْذ الْعَاشِرِ مِنْهُ الْعُشْرَ،لأَِنَّهُ الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ أَوْ أُلْزِمَ بِهَا مِنْ غَيْرِ الْتِزَامه،لإِمْكَان إِجْرَاء الأَْحْكَامِ عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي دَارِ الإِْسْلاَم،فَيَلْزَمُهُ مَا يَلْزَمُ الذِّمِّيَّ فِي مُعَامَلاَته مَعَ الآْخَرِين[٣٨٣٢]،وَعَلَى هَذَا فَلاَ يَحل أَخْذُ مَاله بِعَقْد فَاسد بِخِلاَف الْمُسْلِمِ الْمُسْتَأْمِن فِي دَارِ الْحَرْب فَإِنَّ لَهُ أَخْذُ مَالِهِمْ بِرِضَاهُمْ وَلَوْ بِرِبًا أَوْ قِمَارٍ ؛لأَِنَّ مَالَهُمْ مُبَاحٌ لَنَا إِلاَّ أَنَّ الْغَدْرَ حَرَامٌ،وَمَا أُخِذَ بِرِضَاهُمْ لَيْسَ غَدْرًا مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ بِخِلاَف الْمُسْتَأْمِنِ مِنْهُمْ فِي دَارِنَا ؛لأَِنَّ دَارَنَا مَحَل إِجْرَاء أَحْكَامِ الشَّرِيعَة،فَلاَ يَحل لِمُسْلِمٍ فِي دَارِنَا أَنْ يَعْقِدَ مَعَ الْمُسْتَأْمِنِ إِلاَّ مَا يَحل مِنَ الْعُقُود مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ شَيْءٌ لاَ يَلْزَمُهُ شَرْعًا وَإِنْ جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ[٣٨٣٣].

قِصَاصُ الْمُسْتَأْمِن بِقَتْل الْمُسْلِم وَعَكْسُهُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ يُقْتَل الْمُسْتَأْمِنُ بِقَتْل الْمُسْلِم،وَكَذَلِكَ بِقَتْل الذِّمِّيِّ،وَلَوْ مَعَ اخْتِلاَف أَدْيَانِهِمْ،لأَِنَّ الْكُفْرَ يَجْمَعُهُمْ.[٣٨٣٤]

وَاخْتَلَفُوا فِي قِصَاص الْمُسْلِمِ وَالذِّمِّيِّ بِقَتْل الْمُسْتَأْمِن:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُقْتَل الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمِن،لأَِنَّ الأَْعْلَى لاَ يُقْتَل بِالأَْدْنَى فعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَال:قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:هَلْ عِنْدَكُمْ

[٣٨٣١] – حاشية ابن عابدين ٥ / ٤٩٠ ط .بولاق، ونهاية المحتاج ٦ / ٢٦، ٢٧، والمغني ٧ / ١٦٥ وما بعدها .

[٣٨٣٢] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩، ٢ / ٥٠٦، وتكملة فتح القدير ٨ / ٤٨٨، وبدائع الصنائع ٦ / ٨١، ٧ / ٣٣٥ .

[٣٨٣٣] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ .

[٣٨٣٤] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ ط .بولاق، والخرشي ٨ / ٦، ١٤،والأم ٦ / ٣٨،٣٧ ط .دار المعرفة، كشاف القناع ٥ / ٥٢٤ .

شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ:«لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ،وَبَرَأَ النَّسَمَةَ،مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ،وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»،قُلْتُ:وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ:«العَقْلُ،وَفَكَاكُ الأَسِيرِ،وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[٣٨٣٥].

وَيُقْتَل الذِّمِّيُّ وَالْمُسْتَأْمَنُ بِقَتْل الْمُسْتَأْمِنِ،كَمَا يُقْتَل الْمُسْتَأْمَنُ بِقَتْل الْمُسْتَأْمِنِ وَالذِّمِّيِّ[٣٨٣٦].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ فِي ظَاهِرِ الرِّوَايَةِ إِلَى أَنَّهُ لاَ قِصَاصَ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ بِقَتْل مُسْتَأْمِنٍ،لأَنَّهُمُ اشْتَرَطُوا فِي الْقِصَاصِ أَنْ يَكُونَ الْمَقْتُول فِي حَقِّ الْقَاتِل مَحْقُونَ الدَّمِ عَلَى التَّأْبِيدِ،وَالْمُسْتَأْمَنُ عِصْمَتُهُ مُؤَقَّتَةٌ،لأَنَّهُ مَصُونُ الدَّمِ فِي حَال أَمَانِهِ فَقَطْ،وَلأَنَّهُ مِنْ دَارِ أَهْل الْحَرْبِ حُكْمًا ؛لِقَصْدِهِ الانْتِقَال إِلَيْهَا،فَلاَ يُمْكِنُ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْل دَارِنَا فِي الْعِصْمَةِ،وَالْقِصَاصُ يَعْتَمِدُ الْمُسَاوَاةَ،وَلَكِنْ عَلَيْهِ دِيَةٌ[٣٨٣٧].

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ يُقْتَل الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمِنِ[٣٨٣٨]،وَاسْتَدَل بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } [التوبة:٦].

وَنَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ يُقْتَل بِقَتْل مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ قِيَاسًا،وَوَجْهُ الْقِيَاسِ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الْمُسْتَأْمَنِينَ مِنْ حَيْثُ حَقْنُ الدَّمِ،وَلاَ يُقْتَل اسْتِحْسَانًا،لِقِيَامِ الْمُبِيحِ وَهُوَ عَزْمُهُ عَلَى الْمُحَارَبَةِ بِالْعَوْدِ[٣٨٣٩].

قَال الْكَاسَانِيُّ:وَرَوَى ابْنُ سَمَاعَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ:أَنَّهُ لاَ يُقْتَل[٣٨٤٠].

هَذَا فِي النَّفْسِ،وَأَمَّا الْجِنَايَةُ عَلَى مَا دُونَ النَّفْسِ فَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ الْفُقَهَاءِ فِي اشْتِرَاطِ التَّكَافُؤِ فِي الدِّينِ.[٣٨٤١]

[٣٨٣٥] - صحيح البخاري (٤/ ٦٩)(٣٠٤٧)

[ش (فلق الحبة) شقها في الأرض حتى تنبت ثم تثمر.(برأ) خلق.(النسمة) النفس]

[٣٨٣٦] - حاشية الدسوقي ٤ / ٢٣٩، ومغني المحتاج ٤ / ١٦، وكشاف القناع ٥ / ٥٢٤ .

[٣٨٣٧] - بدائع الصنائع ٧ / ٢٣٦، وحاشية ابن عابدين ٥ / ٣٤٣، ٣ / ٢٤٩، وفتح القدير ٤ / ٣٥٧ .

[٣٨٣٨] - بدائع الصنائع ٧ / ٢٣١ .

[٣٨٣٩] - حاشية ابن عابدين ٥ / ٣٤٣، ٣٤٤ .

[٣٨٤٠] - بدائع الصنائع ٧ / ٢٣٦ .

دِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ بِقَتْل الْمُسْتَأْمِنِ،وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ دِيَةَ الْكِتَابِيِّ الْمُعَاهَدِ نِصْفُ دِيَةِ الْحُرِّ الْمُسْلِمِ،وَدِيَةَ الْمَجُوسِيِّ ثَمَانُمِائَةِ دِرْهَمٍ،وَكَذَلِكَ دِيَةُ جِرَاحِ أَهْل الْكِتَابِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ جِرَاحِ الْمُسْلِمِينَ.

وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ وَالْمُسْلِمَ فِي الدِّيَةِ سَوَاءٌ.

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:دِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ الْكِتَابِيِّ ثُلُثُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ نَفْسًا وَغَيْرَهَا،وَدِيَةُ الْمُسْتَأْمِنِ الْوَثَنِيِّ وَالْمَجُوسِيِّ وَعَابِدِ الْقَمَرِ وَالزِّنْدِيقِ ثُلُثَا عُشْرِ دِيَةِ الْمُسْلِمِ هَذَا فِي الذُّكُورِ.

أَمَّا الْمُسْتَأْمِنَاتُ الإِْنَاثُ فَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ دِيَتَهُنَّ نِصْفُ دِيَةِ الذُّكُورِ مِنْهُمْ.[٣٨٤٢]

وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَكَانَ مُسْتَأْمِنًا،فَقَال الْبَهُوتِيُّ مِنَ الْحَنَابِلَةِ:إِنَّ دِيَتَهُ دِيَةُ أَهْل دِينِهِ،لأَِنَّهُ مَحْقُونُ الدَّمِ،فَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ دِينُهُ فَكَمَجُوسِيٍّ ؛لأَِنَّهُ الْيَقِينُ،وَمَا زَادَ عَلَيْهِ مَشْكُوكٌ فِيهِ[٣٨٤٣].

زِنَا الْمُسْتَأْمِنِ وَزِنَا الْمُسْلِمِ بِالْمُسْتَأْمَنَةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ الْحَدِّ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ إِذَا زَنَى بِالْمُسْلِمَةِ أَوِ الذِّمِّيَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ:

فَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،وَأَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ،وَأَبُو يُوسُفَ فِي قَوْلٍ،وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الْمَشْهُورِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُحَدُّ الْمُسْتَأْمِنُ إِذَا زَنَى.

وَأَضَافَ الْمَالِكِيَّةُ:إِذَا كَانَتِ الْمُسْلِمَةُ طَائِعَةً فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ عُقُوبَةً شَدِيدَةً وَتُحَدُّ الْمُسْلِمَةُ وَإِنِ اسْتَكْرَهَ الْمُسْلِمَةَ فَإِنَّهُ يُقْتَل لِنَقْضِهِ الْعَهْدَ.

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:لاَ يُحَدُّ لأَِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُقْتَل لِنَقْضِ الْعَهْدِ،وَلاَ يَجِبُ مَعَ الْقَتْل حَدٌّ سِوَاهُ.

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي وَجْهٍ آخَرَ،وَأَبُو يُوسُفَ فِي قَوْلٍ:يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ.

[٣٨٤١] – وَتَفْصِيلُهُ يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ (جِنَايَةٌ عَلَى مَا دُونَ النَّفْسِ ف ٧)

[٣٨٤٢] – وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (دِيَاتٌ ف ٣٢)

[٣٨٤٣] – كشاف القناع ٦ / ٢١ .الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٣)

وَأَمَّا إِذَا زَنَى الْمُسْلِمُ بِالْمُسْتَأْمَنَة فَقَدْ نَصَّ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ يُحَدُّ الْمُسْلِمُ دُونَ الْمُسْتَأْمَنَة لأَنَّ تَعَذُّرَ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى الْمُسْتَأْمَنَة لَيْسَ لِلشُّبْهَةِ فَلاَ يَمْنَعُ إِقَامَتُهُ عَلَى الرَّجُل،وَذَهَبَ أَبُو يُوسُفَ إِلَى أَنَّهُ تُحَدُّ الْمُسْتَأْمَنَةُ أَيْضًا[٣٨٤٤].

قَذْفُ الْمُسْتَأْمِنِ لِلْمُسْلِمِ:

لَوْ دَخل حَرْبِيٌّ دَارَنَا بِأَمَانٍ فَقَذَفَ مُسْلِمًا لَمْ يُحَدَّ فِي قَوْل أَبِي حَنِيفَةَ الأَْوَّل،وَذَهَبَ الصَّاحِبَانِ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَهُوَ قَوْلٌ آخَرُ لأَِبِي حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّهُ يُحَدُّ.وعند المالكية:" وَأَمَّا وَإِنْ أَتَى حَرْبِيٌّ بِأَمَانٍ فَقَذَفَ مُسْلِمًا فَإِنَّهُ يُحَدُّ"[٣٨٤٥]

سَرِقَةُ الْمُسْتَأْمِنِ مَال الْمُسْلِمِ وَعَكْسُهُ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ لإِقَامَةِ حَدِّ السَّرِقَةِ تَوَافُرُ شُرُوطٍ مِنْهَا:كَوْنُ السَّارِقِ مُلْتَزِمًا أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ.

وَعَلَى هَذَا فَإِنْ سَرَقَ الْمُسْتَأْمِنُ مِنْ مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ مَالاً لاَ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِعَدَمِ الْتِزَامِ أَيٍّ مِنْهُمَا أَحْكَامَ الإِْسْلاَمِ،وَأَمَّا إِنْ سَرَقَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ فَفِي إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ أَقْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ.[٣٨٤٦]

فَإِنْ سَرَقَ الْمُسْلِمُ مَال الْمُسْتَأْمِنِ فَلاَ يُحَدُّ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةَ – عَدَا زُفَرَ – وَالشَّافِعِيَّة،لأَنَّ فِي مَاله شُبْهَةَ الإِْبَاحَةِ.وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَزُفَرُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ لأَِنَّ مَال الْمُسْتَأْمِنِ مَعْصُومٌ.[٣٨٤٧]

[٣٨٤٤] – المبسوط ٩ / ٥٥، ٥٦، ٥٧، والخرشي ٨ / ٧٥، وحاشية الدسوقي ٤ / ٣١٣، والفواكه الدواني ٢ / ٢٨٤، والبناني على الزرقاني ٨ / ٧٥، وروضة الطالبين ١٠ / ١٤٢، ومغني المحتاج ٤ / ١٤٧، والمغني ٨ / ٢٦٨، وكشاف القناع ٦ / ٩١ .وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (زِنًا ف ٢٨)

[٣٨٤٥] – الفقه على المذاهب الأربعة (٥/ ٢٠١) والبناية شرح الهداية (٦/ ٣٨٦) والجوهرة النيرة على مختصر القدوري (٢/ ١٦١) والدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/ ٤٥) والمبسوط للسرخسي (٩/ ١١٩) وفتح القدير (١٢/ ١٣٦) والذخيرة للقرافي (١٢/ ١١١٢) وتهذيب المدونة (٣/ ٤٨٥) ومنح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٧٠) وَالتَّفْصِيل فِي (قَذْفٌ ف ١٥) .

[٣٨٤٦] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٤) والعناية شرح الهداية (٦/ ١٤) يُنْظَرُ فِي مُصْطَلَحِ (سَرِقَةٌ ف ١٢)

[٣٨٤٧] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٤) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (سَرِقَةٌ ف ٢٥) .

النَّظَرُ فِي قَضَايَا الْمُسْتَأْمنِينَ:

لاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لَوْ تَرَافَعَ إِلَيْنَا مُسْلمٌ وَمُسْتَأْمنٌ برضَاهُمَا،أَوْ رضَا أَحَدهمَا فِي نكَاحٍ أَوْ غَيْره وَجَبَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا بشَرْعنَا،طَالبًا كَانَ الْمُسْلمُ أَوْ مَطْلُوبًا،وَاسْتَدَلَ لذَلكَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ بقَوْلهمْ:لأَنَّهُ يَجبُ رَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمُسْلمِ،وَالْمُسْلمُ لاَ يُمْكنُ رَفْعُهُ إِلَى حَاكمِ أَهْلِ الذِّمَّة،وَلاَ يُمْكنُ تَرْكُهُمَا مُتَنَازعَيْنِ،فَرَدَدْنَا مَنْ مَعَ الْمُسْلمِ إِلَى حَاكمِ الْمُسْلمينَ لأَنَّ الإِسْلاَمَ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْه،وَلأَنَّ فِي تَرْكِ الإِجَابَة إِلَيْه تَضْييعًا للْحَقِّ[٣٨٤٨] .

وَاخْتَلَفُوا فيمَا إِذَا كَانَ طَرَفَا الدَّعْوَى غَيْرَ مُسْلمَيْنِ،فَذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ،وَالشَّافعيَّةُ إِلَى أَنَّهُ إِنْ تَحَاكَمَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمنَان،أَو اسْتَعْدَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ خُيِّرَ الْحَاكمُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَتَرْكه،وَاسْتَدَلُّوا بقَوْله تَعَالَى:{سَمَّاعُونَ للْكَذب أَكَّالُونَ للسُّحْت فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالْقسْط إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ } [المائدة:٤٢].

وَقَال مَالكٌ:وَتَرْكُ ذَلكَ أَحَبُّ إِلَيَّ،وَقَيَّدَهُ الشَّافعيَّةُ بأَنْ تَتَّفقَ ملَّتَاهُمَا كَنَصْرَانيَّيْنِ مَثَلاً،وَيُشْتَرَطُ عنْدَ الْحَنَابلَة اتِّفَاقُهُمَا،فَإِنْ أَبَى أَحَدُهُمَا،لَمْ يُحْكَمْ لعَدَمِ الْتزَامهمَا حُكْمَنَا،وَرُويَ التَّخْييرُ عَنِ النَّخَعيِّ،وَالشَّعْبيِّ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهيمَ.

وَإِذَا حَكَمَ فَلاَ يَحْكُمُ إِلاَّ بحُكْمِ الإِسْلاَمِ،لقَوْله تَعَالَى:{وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالْقسْط إِنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ} [المائدة:٤٢].

وَإِنْ لَمْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْنَا لَيْسَ للْحَاكمِ أَنْ يَتَّبعَ شَيْئًا منْ أُمُورهمْ وَلاَ يَدْعُوهُمْ إِلَى حُكْمنَا،لظَاهر الآيَة:{ فَإِنْ جَاءُوكَ } [٣٨٤٩].

وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ فِي قَوْلٍ إِلَى أَنَّ عَلَى الْحَاكمِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ،وَلاَ يُشْتَرَطُ تَرَافُعُ الْخَصْمَيْنِ،وَبه قَال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانيُّ،وَعكْرمَةُ وَمُجَاهدٌ،وَالزُّهْريُّ.

[٣٨٤٨] - مغني المحتاج ٣ / ١٩٥، وكشاف القناع ٣ / ١٤٠، وتفسير القرطبي ٦ / ١٨٤، ١٨٥، والمدونة الكبرى ٤ / ٤٠٠، وأحكام القرآن للجصاص ٢ / ٥٢٨، والمبسوط ١٠ / ٩٣ .

[٣٨٤٩] - المراجع السابقة .

غَيْرَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَال فِي نِكَاحِ الْمَحَارِمِ وَالْجَمْعُ بَيْنَ خَمْسِ نِسْوَةٍ وَالأُْخْتَيْنِ:يُشْتَرَطُ مَجِيئُهُمْ لِلْحُكْمِ عَلَيْهِمْ،فَإِذَا جَاءَ أَحَدُهُمَا دُونَ الآْخَرِ،لَمْ يُوجَدِ الشَّرْطُ وَهُوَ مَجِيئُهُمْ،فَلاَ يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ.

وَقَال مُحَمَّدٌ:لاَ يُشْتَرَطُ تَرَافُعُ الْخَصْمَيْنِ،بَل يَكْفِي لِوُجُوبِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَرْفَعَ أَحَدُهُمَا الدَّعْوَى إِلَى الْقَاضِي الْمُسْلِمِ،لأَِنَّهُ لَمَّا رَفَعَ أَحَدُهُمَا الدَّعْوَى،فَقَدْ رَضِيَ بِحُكْمِ الإِْسْلاَمِ،فَيَلْزَمُ إِجْرَاءُ حُكْمِ الإِْسْلاَمِ فِي حَقِّهِ،فَيَتَعَدَّى إِلَى الآْخَرِ كَمَا إِذَا أَسْلَمَ أَحَدُهُمَا.

وَقَال أَبُو يُوسُفَ:لاَ يُشْتَرَطُ التَّرَافُعُ فِي الأَْنْكِحَةِ الْفَاسِدَةِ أَصْلاً،وَيُفَرِّقُ الْحَاكِمُ بَيْنَهُمَا إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ،سَوَاءٌ تَرَافَعَا أَوْ لَمْ يَتَرَافَعَا،أَوْ رَفَعَ أَحَدُهُمَا دُونَ الآْخَرِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩]،وَوَجْهُ الاِسْتِدْلاَل أَنَّ الأَْمْرَ مُطْلَقٌ عَنْ شَرْطِ الْمُرَافَعَةِ [٣٨٥٠].

شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ وَعَكْسُهُ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي جَوَازِ شَهَادَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ،سَوَاءٌ الْمُسْتَأْمِنُ وَغَيْرُهُ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،أَحْسَبُهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" لَا يَرِثُ أَهْلُ مِلَّةٍ مِلَّةً،وَلَا تَجُوزُ شَهَادَةُ مِلَّةٍ عَلَى مِلَّةٍ إِلَّا أُمَّتِي،تَجُوزُ شَهَادَتُهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ "[٣٨٥١]،وَلأَِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلْمُؤْمِنِينَ شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة:١٤٣]،وَلَمَّا قُبِلَتْ شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ،فَعَلَى الْكَافِرِ أَوْلَى.

كَمَا أَنَّهُ لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي عَدَمِ جَوَازِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ[٣٨٥٢].

[٣٨٥٠] - بدائع الصنائع ٢ / ٣١١، ٣١٢، وأحكام القرآن للجصاص ٢ / ٥٢٨، ومغني المحتاج ٣ / ١٩٥ .

[٣٨٥١] - السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٧٥)(٢٠٦١٨) فيه ضعف وصح عن كثير من الصحابة التابعين مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١١/ ٥٧٣)

[٣٨٥٢] - بدائع الصنائع ٦ / ٢٨٠، ٢٨١، والمبسوط ١٦ / ١٣٣، وحاشية الدسوقي ٤ / ١٧١.والفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٨/ ٦٠٣٦) والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/ ٦٣٢) وحاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (٤/ ٤٢٧) والنكت والفوائد السنية على مشكل المحرر (٢/ ٣٠٤) وشرح زاد المستقنع للشنقيطي (٣٧٧/ ٣، بترقيم الشاملة آليا) وَيُنْظَرُ فِي ذَلِكَ مُصْطَلَحُ (شَهَادَةٌ ف ٢٠)

شَهَادَةُ الْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْجُمْهُورُ بِعَدَمِ الْجَوَازِ[3853].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى الْجَوَازِ،وَذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ الآْتِي:

أ – شَهَادَةُ الذِّمِّيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

الأَْصْل عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّ حُكْمَ الْمُسْتَأْمِنِ مَعَ الذِّمِّيِّ فِي الشَّهَادَةِ كَحُكْمِ الذِّمِّيِّ مَعَ الْمُسْلِمِ،وَعَلَيْهِ فَتُقْبَل شَهَادَةُ الذِّمِّيِّ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّ الذِّمِّيَّ أَعْلَى حَالاً مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّهُ قَبِل خَلَفَ الإِْسْلاَمِ وَهُوَ الْجِزْيَةُ،فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الإِْسْلاَمِ مِنْهُ،وَلأَنَّ الذِّمِّيَّ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ صَارَ كَالْمُسْلِمِ فِي قَبُول شَهَادَتِهِ عَلَى الْمُسْتَأْمِنِ[3854].

ب – شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى الذِّمِّيِّ:

بِنَاءً عَلَى الأَْصْل الْمَذْكُورِ لاَ تُقْبَل شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى الذِّمِّيِّ،وَلأَنَّهُ لاَ وِلاَيَةَ لَهُ عَلَيْهِ ؛لأَنَّ الذِّمِّيَّ مِنْ أَهْل دَارِنَا بِخِلاَفِ الْمُسْتَأْمِنِ،لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دَارِ الإِْسْلاَمِ حَقِيقَةً،وَإِنَّهُ فِيهَا صُورَةً،فَكَانَ الذِّمِّيُّ أَعَلَى حَالاً مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ[3855].

ج – شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِ عَلَى مُسْتَأْمِنٍ آخَرَ

تُقْبَل شَهَادَةُ الْمُسْتَأْمِنِينَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِذَا كَانُوا مِنْ أَهْل دَارٍ وَاحِدَةٍ،وَأَمَّا إِنْ كَانُوا مِنْ دَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فَلاَ تُقْبَل[3856].

إِسْلاَمُ الْمُسْتَأْمِنِ فِي دَارِنَا:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَخَل الْحَرْبِيُّ دَارَنَا بِأَمَانٍ،وَلَهُ امْرَأَةٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَأَوْلاَدٌ صِغَارٌ وَكِبَارٌ،وَمَالٌ أَوْدَعَ بَعْضَهُ ذِمِّيًّا،وَبَعْضَهُ مُسْلِمًا وَبَعْضَهُ حَرْبِيًّا،فَأَسْلَمَ فِي دَارِنَا،ثُمَّ ظَهَرَ عَلَى دَارِ الْحَرْبِ فَهُوَ فَيْءٌ.

[3853] –) الخرشي ٧ / ١٧٦، ومغني المحتاج ٤ / ٤٢٧، والمغني ٩ / ١٨٤، ١٨٥، كشاف القناع ٦ / ٤١٧ .

[3854] – الفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧، وفتح القدير ٦ / ٤٣، ٤٤ ط .بولاق .

[3855] – بدائع الصنائع ٦ / ٢٨١، والفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧، وفتح القدير ٦ / ٤٣، ٤٤ .

[3856] – بدائع الصنائع ٦ / ٢٨١، والفتاوى الهندية ٣ / ٥١٧ .

أَمَا الْمَرْأَةُ وَالأَوْلاَدُ الْكِبَارُ فَلِكَوْنِهِمْ حَرْبِيِّينَ كِبَارًا،وَلَيْسُوا بِأَتْبَاعٍ لِلَّذِي خَرَجَ،وَكَذَلِكَ مَا فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ لَوْ كَانَتْ حَامِلاً لأَنَّهُ جُزْؤُهَا.

وَأَمَّا الأَوْلاَدُ الصِّغَارُ،فَلأَنَّ الصَّغِيرَ إِنَّمَا يَصِيرُ مُسْلِمًا تَبَعًا لإِسْلاَمِ أَبِيهِ إِذَا كَانَ فِي يَدِهِ،وَتَحْتَ وِلاَيَتِهِ،وَلاَ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ مَعَ تَبَايُنِ الدَّارَيْنِ،وَأَمَّا أَمْوَالُهُ فَلأَنَّهَا لاَ تَصِيرُ مُحْرَزَةً لإِحْرَازِ نَفْسِهِ بِالإِسْلاَمِ لاخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ،فَيَبْقَى الْكُلُّ فَيْئًا وَغَنِيمَةً[3857].

وَأَمَّا لَوْ دَخَلَ مَعَ امْرَأَتِهِ وَمَعَهُمَا أَوْلاَدٌ صِغَارٌ،فَأَسْلَمَ أَحَدُهُمَا،أَوْ صَارَ ذِمِّيًّا،فَالصِّغَارُ تَبَعٌ لَهُ،بِخِلاَفِ الْكِبَارِ وَلَوْ إِنَاثًا،لانْتِهَاءِ التَّبَعِيَّةِ بِالْبُلُوغِ عَنْ عَقْلٍ.وَلَوْ أَسْلَمَ وَلَهُ أَوْلاَدٌ صِغَارٌ فِي دَارِهِمْ لَمْ يَتْبَعُوهُ إِلاَّ إِذَا خَرَجُوا إِلَى دَارِنَا قَبْلَ مَوْتِ أَبِيهِمْ[3858].

مَوْتُ الْمُسْتَأْمِنِ فِي دَارِنَا:

لَوْ مَاتَ الْمُسْتَأْمِنُ فِي دَارِنَا وَلَهُ وَرَثَةٌ فِي بِلاَدِهِ،وَمَالٌ فِي دَارِنَا،فَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَرِكَتِهِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمَامِ إِرْسَالُ مَالِ الْمُسْتَأْمِنِ الْمُتَوَفَّى إِلَى وَرَثَتِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ،بَلْ يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِمْ إِذَا جَاءُوا إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَأَقَامُوا الْبَيِّنَةَ عَلَى أَنَّهُمْ وَرَثَتُهُ ؛لأَنَّ حُكْمَ الأَمَانِ بَاقٍ فِي مَالِهِ،فَيُرَدُّ عَلَى وَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ،قَالُوا:وَتُقْبَلُ بَيِّنَةُ أَهْلِ الذِّمَّةِ هُنَا اسْتِحْسَانًا،لأَنَّ أَنْسَابَهُمْ فِي دَارِ الْحَرْبِ لاَ يَعْرِفُهَا الْمُسْلِمُونَ،فَصَارَ كَشَهَادَةِ النِّسَاءِ فِيمَا لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ،وَلاَ يُقْبَلُ كِتَابُ مَلِكِهِمْ وَلَوْ ثَبَتَ أَنَّهُ كِتَابُهُ،لأَنَّ شَهَادَتَهُ وَحْدَهُ لاَ تُقْبَلُ،فَكِتَابَتُهُ بِالأَوْلَى[3859].

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ كَمَا قَالَ الدَّرْدِيرُ إِلَى أَنَّهُ إِنْ مَاتَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَنَا فَمَالُهُ لِوَارِثِهِ إِنْ كَانَ مَعَهُ وَارِثُهُ عِنْدَنَا – دَخَلَ عَلَى التَّجْهِيزِ أَمْ لاَ – وَإِلاَّ يَكُنْ مَعَهُ وَارِثُهُ أَرْسَلَ الْمَالَ لِوَارِثِهِ بِأَرْضِهِمْ إِنْ دَخَلَ عِنْدَنَا عَلَى التَّجْهِيزِ لِقَضَاءِ مَصَالِحِهِ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا،لاَ عَلَى الإِقَامَةِ عِنْدَنَا،وَلَمْ تَطُلْ إِقَامَتُهُ عِنْدَنَا،وَإِلاَّ بِأَنْ دَخَلَ عَلَى الإِقَامَةِ أَوْ عَلَى التَّجْهِيزِ،وَلَكِنْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ عِنْدَنَا فَفَيْءٌ مَحَلُّهُ بَيْتُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.

[3857] – فتح القدير ٤ / ٣٥٤، ٣٥٥ .

[3858] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ .

[3859] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٥٠، وفتح القدير ٤ / ٣٥٣، والمبسوط ١٠ / ٩١ .

قَال الصَّاوِيُّ:أَشَارَ الْمُصَنِّفُ،(الدَّرْدِيرُ) إِلَى الْحَالَةِ الأُْولَى بِقَوْلِهِ:وَإِنْ مَاتَ عِنْدَنَا فَمَالُهُ لِوَارِثِهِ..إِلَخْ،وَلَمْ يَسْتَوْفِ الأَْحْوَال الأَْرْبَعَةَ،وَنَحْنُ نُبَيِّنُهَا فَنَقُول:أَمَا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ:وَهِيَ مَا إِذَا مَاتَ فِي بَلَدِهِ وَكَانَ لَهُ عِنْدَنَا نَحْوُ وَدِيعَةٍ،فَإِنَّهَا تُرْسَل لِوَارِثِهِ،وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ:وَهِيَ أَسْرُهُ وَقَتْلُهُ،فَمَالُهُ لِمَنْ أَسَرَهُ وَقَتَلَهُ حَيْثُ حَارَبَ فَأَسَرَهُ ثُمَّ قُتِل،وَأَمَّا الْحَالَةُ الرَّابِعَةُ:وَهِيَ مَا إِذَا قُتِل فِي مَعْرَكَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ أَسْرٍ،فِي مَالِهِ قَوْلاَنِ،قِيل:يُرْسَل لِوَارِثِهِ،وَقِيل:فَيْءٌ،وَمَحَلُّهُمَا إِذَا دَخَل عَلَى التَّجْهِيزِ[٣٨٦٠]،أَوْ كَانَتِ الْعَادَةُ ذَلِكَ وَلَمْ تَطُل إِقَامَتُهُ،فَإِنْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ وَقُتِل فِي مَعْرَكَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ مَالُهُ وَلَوْ وَدِيعَةً فَيْئًا قَوْلاً وَاحِدًا[٣٨٦١].

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لَوْ مَاتَ الْمُسْتَأْمَنُ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ فَالْمَذْهَبُ الْقَطْعُ بِرَدِّ الْمَال إِلَى وَارِثِهِ،لأَِنَّهُ مَاتَ،وَالأَْمَانُ بَاقٍ فِي نَفْسِهِ فَكَذَا فِي مَالِهِ،وَفِي قَوْلٍ عِنْدَهُمْ:يَكُونُ فَيْئًا.

قَالُوا:وَفِي حُكْمِهِ لَوْ خَرَجَ الْمُسْتَأْمَنُ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ غَيْرُ نَاقِضٍ لِلْعَهْدِ،بَل لِرِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ وَمَاتَ هُنَاكَ،فَهُوَ كَمَوْتِهِ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ[٣٨٦٢].

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ يُبْعَثُ مَال الْمُسْتَأْمَنِ إِلَى مَلِكِهِمْ،يَقُول ابْنُ قُدَامَةَ:وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ الأَْثْرَمِ فِيمَنْ دَخَل إِلَيْنَا بِأَمَانٍ،فَقُتِل أَنَّهُ يُبْعَثُ بِدِيَتِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ حَتَّى يَدْفَعَهَا إِلَى الْوَرَثَةِ[٣٨٦٣].

أَخْذُ الْعُشْرِ مِنَ الْمُسْتَأْمَنِ:

ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمَنَ إِذَا دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ بِتِجَارَةٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ عُشْرُ تِجَارَتِهِ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَقَل عَلَى اخْتِلاَفِ الأَْقْوَال بَيْنَ الْمَذَاهِبِ.وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي شُرُوطِ

[٣٨٦٠] - أي ليتجهز ويرجع، فإن كان تاجرًا باع ما جاب واشترى ما يخرج به فيكون على نية الإقامة المؤقتة .

[٣٨٦١] - الشرح الصغير مع حاشية الصاوي ٢ / ٢٩٠ .

[٣٨٦٢] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٩٠ .

[٣٨٦٣] - المغني ٦ / ٢٩٧ .

أَخْذِ الْعُشْرِ مِنَ الْمُسْتَأْمِنِ مِنَ الْبُلُوغِ وَالْعَقْلِ وَالذُّكُورَةِ.كَمَا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْمِقْـدَارِ الْوَاجِبِ فِي تِجَارَتِهِ وَالْمُدَّةِ الَّتِي يُجْزِئُ عَنْهَا الْعُشْرَ،وَوَقْتِ اسْتِيفَائِهِ [٣٨٦٤].

مَا يُرْضَخُ لِلْمُسْتَأْمِنِ مِنْ مَالِ الْغَنِيمَةِ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَوْ بَاشَرَ الْمُسْتَأْمِنُ الْقِتَالَ بِإِذْنِ الإِمَامِ،فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الرَّضْخِ.وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:لاَ يُرْضَخُ لِلْمُسْتَأْمِنِ كَمَا لاَ يُسْهَمُ لِلذِّمِّيِّ [٣٨٦٥].

مَا يَسْتَحِقُّهُ الْمُسْتَأْمِنُ مِنَ الْكَنْزِ وَالْمَعْدِنِ:

إِذَا وَجَدَ الْمُسْتَأْمِنُ فِي دَارِنَا كَنْزًا أَوْ مَعْدِنًا فَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلُّهُ،لأَنَّ ذَا فِي مَعْنَى الْغَنِيمَةِ،وَلاَ حَقَّ لأَهْلِ الْحَرْبِ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ رَضْخًا وَلاَ سَهْمًا.

وَإِنْ عَمِل فِي الْمَعْدِنِ بِإِذْنِ الإِمَامِ،أَخَذَ مِنْهُ الْخُمُسَ،وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَهُ،لأَنَّ الإِمَامَ شَرَطَ لَهُ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ،فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِمَا شَرَطَ،كَمَا لَوِ اسْتَعَانَ بِهِمْ فِي قِتَال أَهْلِ الْحَرْبِ فَرَضَـخَ لَهُمْ،فَهَذَا مِثْلُهُ [٣٨٦٦].

تَحَوُّل الْمُسْتَأْمِنِ إِلَى ذِمِّيٍّ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ الْمُسْتَأْمِنَ يَصِيرُ ذِمِّيًّا بِأَنْ يَمْكُثَ الْمُدَّةَ الْمَضْرُوبَةَ لَهُ،أَوْ بِأَنْ يَشْتَرِيَ أَرْضَ خَرَاجٍ وَوُضِعَ عَلَيْهِ الْخَرَاجُ،أَوْ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةُ الْمُسْـتَأْمِنَةُ مُسْـلِمًا،أَوْ ذِمِّيًّا،لأَنَّهَا الْتَزَمَتِ الْبَقَاءَ تَبَعًا لِلزَّوْجِ. [٣٨٦٧]

اسْتِئْمَانُ الْمُسْلِمِ

إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْكُفَّارِ بِأَمَانٍ صَارَ مُسْتَأْمَنًا كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَيَتَرَتَّبُ عَلَى اسْتِئْمَانِهِ أَحْكَامٌ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

أ – حُرْمَةُ خِيَانَةِ الْكُفَّارِ وَالْغَدْرِ بِهِمْ:

[٣٨٦٤] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (عُشْرٌ ف ١١، ١٥ ،١٦، ١٧، ٢٦، ٢٩، ٣٠)

[٣٨٦٥] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (غَنِيمَةٌ ف ٣) .

[٣٨٦٦] – المبسوط ٢ / ٢١٥، ٢١٦ .

[٣٨٦٧] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٧/ ١٨٨) وَيُنْظَرُ تَفْصِيل ذَلِكَ فِي مُصْطَلَحِ (أَهْل الذِّمَّةِ ف ١٢ – ١٥) .

نَصَّ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُ تَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِ الَّـذِي دَخَـلَ دَارَ الْكُفَّـارِ بِأَمَـانٍ خِيَانَتُهُمْ،فَلاَ يَحِل لَهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَفُرُوجِهِمْ،لِحَـدِيثِ أَبِـي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْمُسْـلِمُونَ عَلَـى شُرُوطِهِمْ،وَالصُّـلْحُ جَـائِزٌ بَـيْنَ الْمُسْلِمِينَ»[٣٨٦٨].،وَلأَنَّهُ بِالاِسْتِئْمَانِ ضَمِنَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضَ بِهِمْ،وَإِنَّمَا أَعْطَوْهُ الأَمَـانَ بِشَرْطِ عَدَمِ خِيَانَتِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْكُورًا فِي اللَّفْظِ،فَهُوَ مَعْلُومٌ فِـي الْمَعْنَـى،وَلاَ يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ[٣٨٦٩].

وَاسْتَثْنَى الْحَنَفِيَّةُ حَالَةَ مَا إِذَا غَدَرَ بِالْمُسْلِمِ مَلِكُهُمْ،فَأَخَذَ أَمْوَالَهُ أَوْ حَبَسَهُ،أَوْ فَعَـل غَيْـرُ الْمَلِكِ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَمْنَعْهُ،لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ [٣٨٧٠].

فَإِنْ خَانَ الْمُسْلِمُ الْمُسْتَأْمَنُ الْكُفَّارَ،أَوْ سَرَقَ مِنْهُمْ،أَوِ اقْتَرَضَ مِنْهُمْ شَيْئًا،فَنَصَّ الشَّـافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّ مَا أَخَذَ إِلَى أَرْبَابِهِ،فَإِنْ جَاءَ أَرْبَابُهُ إِلَـى دَارِ الإِسْـلاَمِ بِأَمَانٍ أَوْ إِيمَانٍ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ،وَإِلاَّ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِمْ لأَنَّهُ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهٍ حَرُمَ عَلَيْهِ أَخْذُهُ فَلَزِمَهُ رَدُّ مَا أَخَذَ،كَمَا لَوْ أَخَذَهُ مِنْ مَالِ مُسْلِمٍ،وَلأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ التَّعَرُّضُ لَهُمْ إِذَا دَخَل بِأَمَانٍ[٣٨٧١].

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ وَأَخْرَجَ إِلَيْنَـا شَـيْئًا مَلَكَـهُ مِلْكًـا حَرَامًا،لأَنَّهُ مَلَكَهُ بِالْغَدْرِ،فَيَتَصَدَّقُ بِهِ وُجُوبًا،وَلَوْ لَمْ يُخْرِجْهُ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ [٣٨٧٢].

ب – مُعَامَلاَتُ الْمُسْتَأْمَنِ الْمُسْلِمِ الْمَالِيَّةِ:

نَصَّ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَدَانَ حَرْبِيٌّ الْمُسْلِمَ الْمُسْتَأْمَنَ دَيْنًا بِبَيْعٍ أَوْ قَـرْضٍ،أَوْ أَدَانَ هُوَ حَرْبِيًّا،أَوْ غَصَبَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ مَالاً،ثُمَّ خَرَجَ الْمُسْلِمُ إِلَيْنَا وَاسْتَأْمَنَ الْحَرْبِـيُّ فَخَرَجَ إِلَيْنَا مُسْتَأْمَنًا،لَمْ يُقْضَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ بِشَيْءٍ.

[٣٨٦٨] – سنن الدارقطني (٣/ ٤٢٦)(٢٨٩٠) صحيح لغيره

[٣٨٦٩] – فتح القدير ٤ / ٣٤٧، ٣٤٨، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، والاختيار ٤ / ١٣٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[٣٨٧٠] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

[٣٨٧١] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[٣٨٧٢] – ابن عابدين ٣ / ٢٤٧ .

أَمَا الإِدَانَةُ:فَلأَنَّ الْقَضَاءَ يَعْتَمدُ الْوِلاَيَةَ،وَلاَ وِلاَيَةَ وَقْتَ الإِدَانَة أَصْلاً عَلَى وَاحد منْهُمَا،إِذْ لاَ قُدْرَةَ للْقَاضي فيه عَلَى مَنْ هُوَ في دَارِ الْحَرْب،وَلاَ وَقْتَ الْقَضَاء عَلَى الْمُسْتَأْمَنِ،لأَنَّهُ مَا الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِسْلاَمِ فيمَا مَضَى منْ أَفْعَاله وَإِنَّمَا الْتَزَمَهُ فيمَا يُسْتَقْبَل.

وَأَمَّا أَنَّهُ لاَ يَقْضِي بِالْغَصْبِ لكُلٍّ منْهُمَا فَلأَنَّ الْمَال الْمَغْصُوبَ صَارَ ملْكًا للَّذي غَصَبَهُ،سَوَاءٌ كَانَ الْغَاصبُ كَافرًا في دَارِ الْحَرْبِ أَوْ مُسْلمًا مُسْتَأْمَنًا وَاسْتَوْلَى عَلَيْه،لمُصَادَفَته مَالاً مُبَاحًا غَيْرَ مَعْصُوم،فَصَارَ كَالإِدَانَة.وَقَال أَبُو يُوسُفَ يَقْضِي بِالدَّين عَلَى الْمُسْلمِ دُونَ الْغَصْبِ لأَنَّهُ الْتَزَمَ أَحْكَامَ الإِسْلاَمِ حَيْثُ كَانَ [٣٨٧٣].

قَال الْحَصْكَفيُّ نَقْلاً عَنِ الزَّيْلَعيِّ،وَالْكَمَال ابْنِ الْهُمَامِ:وَيُفْتَى بِرَدِّ الْمَغْصُوب وَالدَّيْنِ ديَانَةً لاَ قَضَاءً،لأَنَّهُ غَدْرٌ [٣٨٧٤].

وَعنْدَ الشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة يَجبُ رَدُّ مَا أَخَذَ إِلَى أَرْبَابه [٣٨٧٥].

ج – قتَال الْمُسْلمِ الْمُسْتَأْمنِ في دَارِ الْحَرْب:

نَصَّ الْحَنَفيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَغَارَ قَوْمٌ منْ أَهْل الْحَرْب عَلَى أَهْل الدَّار الَّتي فيهَا الْمُسْلمُ الْمُسْتَأْمَنُ،لاَ يَحل لَهُ قتَال هَؤُلاَء الْكُفَّار إِلاَّ إِنْ خَافَ عَلَى نَفْسه،لأَنَّ الْقتَال لَمَّا كَانَ تَعْرِيضًا لنَفْسه عَلَى الْهَلاَك لاَ يَحل إِلاَّ لذَلكَ،أَوْ لإِعْلاَء كَلمَة اللَّه،وَهُوَ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى نَفْسه،لَيْسَ قتَالُهُ لهَؤُلاَء إِلاَّ إِعْلاَءً للْكُفْر.

وَلَوْ أَغَارَ أَهْل الْحَرْبِ الَّذينَ فيهمْ مُسْلمُونَ مُسْتَأْمَنُونَ عَلَى طَائفَة منَ الْمُسْلمينَ،فَأَسَرُوا ذَرَاريَّهُمْ،فَمَرُّوا بهمْ عَلَى أُولَئكَ الْمُسْتَأْمَنينَ،وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْقُضُوا عُهُودَهُمْ،وَيُقَاتلُوهُمْ إِذَا كَانُوا يَقْدرُونَ عَلَيْه،لأَنَّهُمْ لاَ يَمْلكُونَ رقَابَهُمْ فَتَقْرِيرُهُمْ في أَيْديهمْ تَقْرِيرٌ عَلَى الظُّلْمِ،وَلَمْ يَضْمَنِ الْمُسْلمُونَ الْمُسْتَأْمَنُونَ ذَلك لَهُمْ،بخلاَف الأَمْوَال،لأَنَّهُمْ مَلَكُوهَا بِالإِحْرَازِ وَقَدْ ضَمنُوا لَهُمْ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضُوا لأَمْوَالهمْ.وَكَذَلكَ لَوْ كَانَ الْمَأْخُوذُ ذَرَاريَّ الْخَوَارِجِ،لأَنَّهُمْ مُسْلمُونَ [٣٨٧٦].

[٣٨٧٣] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٧، ٢٤٨، وفتح القدير ٤ / ٣٤٩، والاختيار ٤ / ١٣٥

[٣٨٧٤] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٨ .

[٣٨٧٥] – روضة الطالبين ١٠ / ٢٩١، وكشاف القناع ٣ / ١٠٨، والمغني ٨ / ٤٥٨ .

[٣٨٧٦] – فتح القدير ٤ / ٣٤٨، وبدائع الصنائع ٧ / ١٣٣ .

د – قَتل الْمُسْتَأْمَنُ الْمُسْلمُ مُسْلمًا آخرَ في دَار الْحَرْب:

نَصَّ الْحَنَفيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إذَا دَخل مُسْلمَان دَارَ الْحَرْب بأَمَان فَقَتَل أَحَدُهُمَا صَاحبَهُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً،فَعَلَى الْقَاتل الدِّيَةُ في مَاله في الْقَتْل الْعَمْد،أَمَا الْقصَاصُ فَيَسْقُطُ لأَنَّهُ لاَ يُمْكنُ اسْتيفَاؤُهُ إلاَّ بمَنْع،وَلاَ مَنعَةَ دُونَ الإْمَام وَجَمَاعَة الْمُسْلمينَ،وَلَمْ يُوجَدْ ذَلكَ في دَار الْحَرْب،فَلاَ فَائدَةَ في الْوُجُوب فَيَسْقُطُ الْقصَاصُ وَتَجبُ الدِّيَةُ،وَأَمَّا وُجُوبُهَا في مَاله فَلأَنَّ الْعَوَاقل لاَ تَعْقل الْعَمْدَ.

وَفي الْقَتْل الْخَطَأ تَجبُ الدِّيَةُ في مَاله وَالْكَفَّارَةُ،أَمَا الدِّيَةُ فَلأَنَّ الْعصْمَةَ الثَّابتَةَ بالإْحْرَاز بدَار الإْسْلاَم لاَ تَبْطُل بعَارض الدُّخُول إلَى دَار الْحَرْب بالأْمَان،وَأَمَّا في مَاله فَلتَعَذُّر الصِّيَانَة عَلَى الْعَاقلَة مَعَ تَبَايُن الدَّارَيْن،وَأَمَّا وُجُوبُ الْكَفَّارَة فَلإطْلاَق قَوْله تَعَالَى:{وَمَا كَانَ لمُؤْمنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمنًا إِلَّا خطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمنًا خَطَأً فَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة وَديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أَهْله إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ منْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمنٌ فَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة وَإِنْ كَانَ منْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ فَديَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أَهْله وَتَحْريرُ رَقَبَة مُؤْمنَة فَمَنْ لَمْ يَجدْ فَصيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ تَوْبَةً منَ اللَّه وَكَانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا } [النساء:٩٢] بلاَ تَقْييدٍ بدَار الإْسْلاَم أَو الْحَرْب [٣٨٧٧].

وَنَصَّ الشَّافعيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ الْمُسْلمُونَ مُسْتَأْمَنينَ في دَار الْحَرْب،فَقَتَل بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ قَذَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،أَوْ زَنَوْا بغَيْر حَرْبيَّة،فَعَلَيْهمْ في هَذَا كُلِّه الْحُكْمُ كَمَا يَكُونُ عَلَيْهمْ لَوْ فَعَلُوهُ في بلاَد الإْسْلاَم،وَلاَ تُسْقطُ دَارُ الْحَرْب عَنْهُمْ فَرْضًا كَمَا لاَ تُسْقطُ عَنْهُمْ صَوْمًا وَلاَ صَلاَةً وَلاَ زَكَاةً،وَالْحُدُودُ فَرْضٌ عَلَيْهمْ كَمَا هَذه فَرْضٌ عَلَيْهمْ،وَإِنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُمْ حَدُّ الزِّنَا لَوْ زَنَى بحَرْبيَّة إذَا ادَّعَى الشُّبْهَةَ [٣٨٧٨].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٨٧٧] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٨، وفتح القدير ٤ / ٣٥٠ .

[٣٨٧٨] – الأم ٤ / ٢٨٧، ٢٨٨ .

الباب الرابع والعشرون
الخلاصة في أحكام الأمان

التَّعْرِيفُ:

الأَمَانُ فِي اللُّغَةِ:عَدَمُ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ فِي الزَّمَنِ الآتِي،وَأَصْلُ الأَمْنِ طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَزَوَالُ الْخَوْفِ،وَالأَمْنُ وَالأَمَانَةُ وَالأَمَانُ مَصَادِرُ لِلْفِعْلِ (أَمِنَ)،وَيَرِدُ الأَمَانُ تَارَةً اسْمًا لِلْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ،وَتَارَةً لِعَقْدِ الأَمَانِ أَوْ صَكِّهِ[٣٨٧٩].

وَعَرَّفَهُ الْفُقَهَاءُ بِأَنَّهُ:رَفْعُ اسْتِبَاحَةِ دَمِ الْحَرْبِيِّ وَرِقِّهِ وَمَالِهِ حِينَ قِتَالِهِ أَوِ الْغُرْمِ عَلَيْهِ،مَعَ اسْتِقْرَارِهِ تَحْتَ حُكْمِ الإِسْلاَمِ[٣٨٨٠].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الْهُدْنَةُ:

الْهُدْنَةُ هِيَ:أَنْ يُعْقَدَ لأَهْلِ الْحَرْبِ عَقْدٌ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ مُدَّةً بِعِوَضٍ وَبِغَيْرِ عِوَضٍ،وَتُسَمَّى:مُهَادَنَةً وَمُوَادَعَةً وَمُعَاهَدَةً.وَيَخْتَلِفُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَنِ الأَمَانِ بِأَنَّ عَقْدَ الْهُدْنَةِ لاَ يَعْقِدُهُ إِلاَّ الإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ،أَمَّا الأَمَانُ فَيَصِحُّ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ[٣٨٨١].

ب – الْجِزْيَةُ:

عَقْدُ الْجِزْيَةِ مُوجِبٌ لِعِصْمَةِ الدِّمَاءِ وَصِيَانَةِ الأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ.

وَيَخْتَلِفُ عَنِ الأَمَانِ فِي أَنَّ عَقْدَ الْجِزْيَةِ مِثْلُ الْهُدْنَةِ لاَ يَعْقِدُهُ إِلاَّ الإِمَامُ.كَمَا أَنَّ عَقْدَ الْجِزْيَةِ مُؤَبَّدٌ لاَ يُنْقَضُ،بِخِلاَفِ الأَمَانِ فَهُوَ عَقْدٌ غَيْرُ لاَزِمٍ،أَيْ قَابِلٌ لِلنَّقْضِ بِشُرُوطِهِ[٣٨٨٢].

[٣٨٧٩] – المفردات للراغب الأصفهاني، وقواعد الفقه، وتاج العروس مادة (أمن)

[٣٨٨٠] – الحطاب ٣ / ٣٦٠ شرح السير الكبير ١ / ٢٨٣ ط شركة الإعلانات الشرقية، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٦ نشر دار إحياء التراث العربي

[٣٨٨١] – المغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٤٣٢، ٥٢٠، وتهذيب الفروق ٣ / ٣٨ ط دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦ هـ

الْحُكْمُ الإِجْمَالِيُّ:

الأَصْل أَنَّ إِعْطَاءَ الأَمَانِ أَوْ طَلَبَهُ مُبَاحٌ،وَقَدْ يَكُونُ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا إِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى ضَرَرٍ أَوْ إِخْلاَلٍ بِوَاجِبٍ أَوْ مَنْدُوبٍ.وَحُكْمُ الأَمَانِ هُوَ ثُبُوتُ الأَمْنِ لِلْكَفَرَةِ عَنِ الْقَتْل وَالسَّبْيِ وَغُنْمِ أَمْوَالِهِمْ،فَيَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَتْل رِجَالِهِمْ وَسَبْيُ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ وَاغْتِنَامُ أَمْوَالِهِمْ.[3883]

مَا يَكُونُ بِهِ الأَمَانُ:

يَنْعَقِدُ الأَمَانُ بِكُل لَفْظٍ صَرِيحٍ أَوْ كِنَايَةٍ يُفِيدُ الْغَرَضَ،بِأَيِّ لُغَةٍ كَانَ،وَيَنْعَقِدُ بِالْكِتَابَةِ وَالرِّسَالَةِ وَالإِشَارَةِ الْمُفْهِمَةِ ؛لأَنَّ التَّأْمِينَ إِنَّمَا هُوَ مَعْنًى فِي النَّفْسِ،فَيُظْهِرُهُ الْمُؤَمِّنُ تَارَةً بِالنُّطْقِ،وَتَارَةً بِالْكِتَابَةِ،وَتَارَةً بِالإِشَارَةِ،فَكُل مَا بُيِّنَ بِهِ التَّأْمِينُ فَإِنَّهُ يَلْزَمُ.[3884]

شُرُوطُ الأَمَانِ:

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَأَكْثَرُ الشَّافِعِيَّةِ إِلَى أَنَّ شَرْطَ الأَمَانِ انْتِفَاءُ الضَّرَرِ،وَلَوْ لَمْ تَظْهَرِ الْمَصْلَحَةُ[3885].

وَقَيَّدَ الْبُلْقِينِيُّ جَوَازَ الأَمَانِ بِمُجَرَّدِ انْتِفَاءِ الضَّرَرِ بِغَيْرِ الأَمَانِ الْمُعْطَى مِنَ الإِمَامِ،فَلاَ بُدَّ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَالنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:يُشْتَرَطُ فِي الأَمَانِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ بِأَنْ يُعْطَى فِي حَال ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّةِ أَعْدَائِهِمْ،لأَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ وَالأَمَانَ يَتَضَمَّنُ تَحْرِيمَ

[3882] - الفروق للقرافي ٣ / ١١، وتهذيب الفروق بهامش الفروق ٣ / ٣٨، ومجمع الأنهر ١ / ٦٠٧، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، ١١١ ط الجمالية

[3883] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، والشرح الصغير ٢ / ٢٨٨ ط دار المعارف، والمغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٤٣٢، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٨١ نشر المكتب الإسلامي

[3884] - روضة الطالبين ١٠ / ٢٧٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، ٢٣٨، والمنتقى ٣ / ١٧٢، ١٧٤ ط السعادة ١٣٣٢ هـ، وحاشية العدوي على شرح الرسالة ٢ / ٨ نشر دار المعرفة، وشرح السير الكبير ١ / ٢٨٣، ٢٩٦ نشر شركة الإعلانات الشرقية، وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٢٧ ط بولاق، والمبدع ٣ / ٣٩١، والفروع ٦ / ٢٤٨ نشر عالم الكتب

[3885] - شرح الزرقاني ٣ / ١٢٣، وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٦ ط عيسى الحلبي، والفروع ٦ / ٢٤٩، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٨، ونهاية المحتاج ٨ / ٧٧

الْقِتَالِ،فَيَتَنَاقَضُ،إلاَّ إذَا كَانَ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّةِ الْكَفَرَةِ،لأَنَّهُ إذْ ذَاكَ يَكُونُ قِتَالاً مَعْنًى،لِوُقُوعِهِ وَسِيلَةً إلَى الاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ،فَلاَ يُؤَدِّي إلَى التَّنَاقُضِ.[3886]

مَنْ لَهُ حَقُّ إعْطَاءِ الأَمَانِ:

الأَمَانُ إمَّا أَنْ يُعْطَى مِنَ الإِمَامِ أَوْ مِنْ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ:

أ - أَمَانُ الإِمَامِ:يَصِحُّ أَمَانُ الإِمَامِ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ وَآحَادِهِمْ،لأَنَّهُ مُقَدَّمٌ لِلنَّظَرِ وَالْمَصْلَحَةِ،نَائِبٌ عَنِ الْجَمِيعِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ.وَهَذَا مَا لاَ خِلاَفَ فِيهِ.[3887]

ب - أَمَانُ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ:يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ أَمَانَ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ يَصِحُّ لِعَدَدٍ مَحْصُورٍ كَأَهْلِ قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ وَحِصْنٍ صَغِيرٍ،أَمَّا تَأْمِينُ الْعَدَدِ الَّذِي لاَ يَنْحَصِرُ فَهُوَ مِنْ خَصَائِصِ الإِمَامِ.[3888]

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إلَى أَنَّ الأَمَانَ يَصِحُّ مِنَ الْوَاحِدِ،سَوَاءٌ أَمَّنَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً أَوْ قَلِيلَةً أَوْ أَهْلَ مِصْرٍ أَوْ قَرْيَةٍ،فَلَيْسَ حِينَئِذٍ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ.[3889]

شُرُوطُ الْمُؤَمِّنِ:

أ - الإِسْلاَمُ:فَلاَ يَصِحُّ أَمَانُ الْكَافِرِ،وَإِنْ كَانَ يُقَاتِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

ب - الْعَقْلُ:فَلاَ يَصِحُّ أَمَانُ الْمَجْنُونِ وَالصَّبِيِّ الَّذِي لاَ يَعْقِلُ.

ج - الْبُلُوغُ:بُلُوغُ الْمُؤَمِّنِ شَرْطٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ.وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيُّ:لَيْسَ بِشَرْطٍ.

د - عَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الْحَرْبِيِّينَ:فَلاَ يَصِحُّ أَمَانُ الْمَقْهُورِينَ فِي أَيْدِي الْكَفَرَةِ.

أَمَّا الذُّكُورَةُ فَلَيْسَتْ بِشَرْطٍ لِصِحَّةِ الأَمَانِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ،فَيَصِحُّ أَمَانُ الْمَرْأَةِ لأَنَّهَا لاَ تَعْجِزُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى حَالِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ.[3890]

[3886] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧

[3887] - المغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٤٣٤، وتفسير القرطبي ٨ / ٧٦، والخرشي٣ / ١٢٣ ط دار صادر

[3888] - المغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٤٣٤، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧، وشرح الزرقاني ٣ / ١٢٢، والخرشي ٣ / ١٢٣

[3889] - بدائع الصنائع ٧ / ١٠٧، وفتح القدير ٤ / ٢٩٨ ط بولاق، والفتاوى الهندية ٢ / ١٩٨

وَقَال ابْنُ الْمَاجِشُون مِنَ الْمَالِكِيَّة:إِنَّ أَمَانَ الْمَرْأَة وَالْعَبْدِ وَالصَّبِيِّ لاَ يَجُوزُ ابْتِــدَاءً،وَلَكِنْ إِنْ وَقَعَ يَمْضِي إِنْ أَمْضَاهُ الإِْمَامُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ.[٣٨٩١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٣٨٩٠] - انظر في جميع الشروط :حاشية الدسوقي ٢ / ١٨٥، وحاشية البناني ٣ / ١٢٢، وحاشية العدوي على شرح الرسالة ٢ / ٨ نشر دار المعرفة، وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٦، ١٠٧، وشرح السير الكبير ١ / ٢٥٢ - ٢٥٧، والمغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٤٣٢، ومغني المحتاج ٤ / ٢٣٧

[٣٨٩١] - حاشية العدوي على شرح الرسالة ٢ / ٨

الباب الخامس والعشرون

الخلاصة في أحكام الهدنة

التَّعْرِيف:

الْهُدْنَةُ فِي اللُّغَة:السُّكُون:مَأْخُوذٌ مِنْ هَدَنَ الأَمْرُ،أَوِ الشَّخْصُ يَهْدِنُ هُدُونًا.سَكَنَ بَعْدَ الْهَيْجِ،وَيُقَال:هَادَنَهُ مُهَادَنَةً:صَالَحَهُ[٣٨٩٢].

وَفِي الاصْطِلاَحِ:عَرَّفَهَا الْفُقَهَاءُ بِتَعَارِيفَ مُتَقَارِبَة،فَقَال الْحَنَفِيَّةُ:هِيَ الصُّلْحُ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال مُدَّةً بِمَالٍ أَوْ بِغَيْرِ مَالٍ إِذَا رَأَى الإِمَامُ مَصْلَحَةً فِي ذَلِكَ[٣٨٩٣].

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ:هِيَ عَقْدُ الْمُسْلِمِ مَعَ الْحَرْبِيِّ عَلَى الْمُسَالَمَةِ مُدَّةً لَيْسَ هُوَ فِيهَا تَحْتَ حُكْمِ الإِسْلاَمِ[٣٨٩٤].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:إِنَّهَا مُصَالَحَةُ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال مُدَّةً مُعَيَّنَةً بِعِوَضٍ أَوْ غَيْرِ عِوَضٍ،سَوَاءٌ مَنْ يُقَرُّ بِدِينِهِ وَمَنْ لاَ يُقَرُّ بِهِ[٣٨٩٥].

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ هِيَ:عَقْدُ إِمَامٍ أَوْ نَائِبِهِ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مُدَّةً مَعْلُومَةً بِقَدْرِ الْحَاجَةِ[٣٨٩٦].

وَتُسَمَّى الْهُدْنَةُ مُوَادَعَةً،وَمُعَاهَدَةً،وَمُسَالَمَةً وَمُصَالَحَةً.

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – الأَمَانُ:

الأَمَانُ فِي اللُّغَة:عَدَمُ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ فِي الزَّمَنِ الآتِي.

وَفِي الاصْطِلاَحِ:رَفْعُ اسْتِبَاحَةِ دَمِ الْحَرْبِيِّ وَرِقِّهِ وَمَالِهِ حِينَ قِتَالِهِ،أَوِ الْعَزْمُ عَلَيْهِ مَعَ اسْتِقْرَارِهِ تَحْتَ حُكْمِ الإِسْلاَمِ مُدَّةً مَا[٣٨٩٧].

[٣٨٩٢] – لسَان الْعَرَب، والمصباح الْمُنِير

[٣٨٩٣] – الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٦، والاختيار ٤ / ١٢٠، وتحفة الفقهاء ٣ / ٤٠٤

[٣٨٩٤] – جَوَاهِر الإِكْلِيل ١ / ٢٦٩، ومواهب الْجَلِيل ٣ / ٣٦٠

[٣٨٩٥] – مُغْنِي الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ١٠٠، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٤

[٣٨٩٦] – مَطَالِب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٨٥، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ١١١

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْهُدْنَةِ وَالأَْمَانِ أَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَأْمِينَ الْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعِرْضِه.

ب – عَقْدُ الذِّمَّةِ:

عَقْدُ الذِّمَّةِ هُوَ الْتِزَامُنَا لِلْكُفَّارِ صِيَانَةَ أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ بِشُرُوطٍ نَشْتَرِطُهَا عَلَيْهِمْ[3898].

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْهُدْنَةِ وَعَقْدِ الذِّمَّةِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُفِيدُ الأَْمَانَ إِلاَّ أَنَّ الْهُدْنَةَ أَمَانٌ مُؤَقَّتٌ،وَعَقْدَ الذِّمَّةِ أَمَانٌ مُؤَبَّدٌ.

مَشْرُوعِيَّةُ الْهُدْنَةِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنِ الْفُقَهَاءِ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْهُدْنَةِ فِي الْجُمْلَةِ [3899]وَدَلِيلُ مَشْرُوعِيَّتِهَا:الْكِتَابُ،وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ،وَإِجْمَاعُ الأُْمَّةِ.

فَمِنَ الْكِتَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) } [التوبة:].

[3897] – مَوَاهِب الْجَلِيل ٣ / ٣٦٠، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٣٦، والسير الْكَبِير ١ / ٢٨٣، وقواعد الْفِقْه لِلْبَرَكَتِي

[3898] – تَهْذِيب الْفُرُوق بهَامِش الْفُرُوق ٣ / ٢٣ الْقَاعِدَة (١١٨)، وانظر جَوَاهِر الإِْكْلِيل ١ / ٢٦٦

[3899] – جَوَاهِر الإِْكْلِيل ١ / ٢٦٦، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٤، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، والمغني ٨ / ٤٥٩

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَل:{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال:٦١].

وَمِنَ السُّنَّة:مُهَادَنَتُهُ ﷺ قُرَيْشًا عَامَ الْحُدَيْبِيَة عَشْرَ سِنِينَ،فعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ،«أَنَّهُمْ اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ،يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَعَلَى أَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً،وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ»[٣٩٠٠].

وعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قِصَّةَ الْحُدَيْبِيَةِ.قَالَا:فَدَعَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو،فَقَالُوا اذْهَبْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَصَالِحْهُ،وَلَا يَكُونَنَّ فِي صُلْحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا،لَا تَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً.فَخَرَجَ سُهَيْلٌ مِنْ عِنْدِهِمْ،فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا،قَالَ:قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلُ،فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ جَرَى بَيْنَهُمَا الْقَوْلُ،حَتَّى وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَى أَنْ تُوضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا عَشْرَ سِنِينَ،وَأَنْ يَأْمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ،وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ عَامَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ،قَدِمَهَا خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ،فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا،وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا بِسِلَاحِ الرَّاكِبِ،وَالسُّيُوفِ فِي الْقُرُبِ،وَأَنَّهُ مَنْ أَتَانَا مِنْ أَصْحَابِكَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ،وَأَنَّهُ مَنْ أَتَاكَ مِنَّا بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا،وَأَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَيْبَةً مَكْفُوفَةً،وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ.."[٣٩٠١]

أَمَّا الإِجْمَاعُ:فَقَدَ أَجْمَعَت الأُمَّةُ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْمُوَادَعَةِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجُمْلَةِ،وَهِيَ جَائِزَةٌ لاَ وَاجِبَةٌ،وَقَدْ تَجِبُ لِضَرُورَةٍ كَأَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى تَرْكِهَا إِلْحَاقُ ضَرَرٍ بِالْمُسْلِمِينَ لاَ يُتَدَارَكُ[٣٩٠٢].

شُرُوطُ عَقْدِ الْهُدْنَةِ:

يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ شُرُوطٌ وَهِيَ:

الشَّرْطُ الأَوَّل:الإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ:

[٣٩٠٠] - سنن أبي داود (٣/ ٨٦)(٢٧٦٦) صحيح

[٣٩٠١] - دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ١٤٥) صحيح

[٣٩٠٢] - الْبَحْر الرَّائِق ٥ / ٨٥، والبدائع ٧ / ١٠٨، شرح الزُّرْقَانِيّ ٣ / ١٤٨، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٠، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٤، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٤، والمغني ٨ / ٤٦٠، والحاوي ١٨ / ٤٠٦

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَنْ لَهُ وِلاَيَةُ عَقْدِ الْهُدْنَةِ عَلَى رَأْيَيْنِ:

الرَّأْيُ الأَوَّل:يَرَى جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ (الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ) أَنْ يَكُونَ الْعَاقِدُ لِلْهُدْنَةِ هُوَ الإِمَامَ أَوْ نَائِبَهُ.فَلاَ يَصِحُّ أَنْ يَعْقِدَهَا غَيْرُ الإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ ؛لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَطَرِ،وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَادَنَ بَنِي قُرَيْظَةَ بِنَفْسِهِ[٣٩٠٣] وَهَادَنَ قُرَيْشًا بِالْحُدَيْبِيَةِ بِنَفْسِهِ،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ:بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ بِهَذَا الْكِتَابِ:«هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْرِبَ،وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ،فَحَلَّ مَعَهُمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ،أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَاتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو الْخَزْرَجِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو جُشَمٍ وَالنَّجَا عَلَى رِبَاعَتِهِمْ،يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَبَنُو النَّجَّارِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو أَوْسٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى،وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا مِنْهُمْ،أَنْ يُعِينُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ،وَلَا يُحَالِفُ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ،وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ،أَوِ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِمْ جَمِيعِهِمْ وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ،وَلَا يُنْصَرُ كَافِرٌ عَلَى

[٣٩٠٣] - أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد (٣ / ٤٠٦ - ط حِمْص)

مُؤْمِنٍ،وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ،وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنَ الْيَهُودِ،فَإِنَّ لَهُ الْمَعْرُوفَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ،وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ،وَلَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدَلٍ بَيْنَهُمْ،وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ،وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ،وَلَا يُعِينُهَا عَلَى مُؤْمِنٍ،وَأَنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ،إِلَّا أَنْ يُرْضِيَ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ بِالْعَقْلِ،وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةً،وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،أَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيَهُ،فَمَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ [ص:٤٦٩] اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ،وَأَنَّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ،وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ،وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ،وَمَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يَوْتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ،وَأَنَّ لِيَهُودِ الْأَوْسِ مِثْلَ ذَلِكَ،إِلَّا مَنْ ظَلَمَ،فَإِنَّهُ لَا يَوْتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ،وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ،عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ،وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّ بَيْنَكُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ،وَأَنَّ الْمَدِينَةَ جَوْفُهَا حَرَمٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ،وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ،فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ،وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ،وَأَنَّهُمْ إِذَا دَعَوُا الْيَهُودَ إِلَى صُلْحِ حَلِيفٍ لَهُمْ بِالْأُسْوَةِ فَأَنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَإِنْ دَعَوْنَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،إِلَّا مَنْ حَارَبَ الدِّينَ،وَعَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتَهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ،وَأَنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ مَعَ الْبِرِّ الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ،مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَنِي الشُّطْبَةِ بَطْنٌ مِنْ جَفْنَةَ،وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ،وَلَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ،وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي

هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ،لَا يُحَوَّلُ الْكِتَابُ عَنْ ظَالِمٍ وَلَا آثِمٍ،وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ،وَمَنْ قَعَدَ بِالْمَدِينَةِ أُمِّنَ أَبَرَّ الْأَمْنِ،إِلَّا ظَالِمًا وَآثِمًا،وَأَنَّ أَوْلَاهُمْ بِهَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْبَرُّ الْمُحْسِنُ»[٣٩٠٤]

وَأَمَّنَ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ عَامَ الْفَتْحِ بِنَفْسِهِ.فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نِسَاءً كُنَّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُسْلِمْنَ بِأَرْضِهِنَّ،وَهُنَّ غَيْرُ مُهَاجِرَاتٍ،وَأَزْوَاجُهُنَّ حِينَ أَسْلَمْنَ كُفَّارٌ.مِنْهُنَّ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ.وَكَانَتْ تَحْتَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ.فَأَسْلَمَتْ يَوْمَ الْفَتْحِ.وَهَرَبَ زَوْجُهَا صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مِنَ الْإِسْلَامِ.فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ عَمِّهِ وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ.بِرِدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.أَمَانًا لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ.وَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ.وَأَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ.فَإِنْ رَضِيَ أَمْرًا قَبِلَهُ.وَإِلَّا سَيَّرَهُ شَهْرَيْنِ،فَلَمَّا قَدِمَ صَفْوَانُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرِدَائِهِ،نَادَاهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنَّ هَذَا وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ جَاءَنِي بِرِدَائِكَ.وَزَعَمَ أَنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى الْقُدُومِ عَلَيْكَ.فَإِنْ رَضِيتُ أَمْرًا قَبِلْتُهُ،وَإِلَّا سَيَّرْتَنِي شَهْرَيْنِ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ» فَقَالَ:لَا وَاللَّهِ.لَا أَنْزِلُ حَتَّى تُبَيِّنَ لِي.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«بَلْ لَكَ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ هَوَازِنَ بِحُنَيْنٍ.فَأَرْسَلَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ يَسْتَعِيرُهُ أَدَاةً وَسِلَاحًا عِنْدَهُ.فَقَالَ صَفْوَانُ:أَطَوْعًا أَمْ كَرْهًا؟ فَقَالَ:«بَلْ طَوْعًا»،فَأَعَارَهُ الْأَدَاةَ وَالسِّلَاحَ الَّذِي عِنْدَهُ.ثُمَّ خَرَجَ صَفْوَانُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ كَافِرٌ فَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ،وَهُوَ كَافِرٌ،وَامْرَأَتُهُ مُسْلِمَةٌ،وَلَمْ يُفَرِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ حَتَّى أَسْلَمَ صَفْوَانُ.وَاسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ امْرَأَتُهُ بِذَلِكَ النِّكَاحِ "[٣٩٠٥]

وَلأَنَّ الإِمَامَ لإِشْرَافِهِ عَلَى جَمِيعِ الأُمُورِ الْعَامَّةِ أَعْرَفُ بِمَصَالِحِهَا مِنْ أَشْتَاتِ النَّاسِ،وَلأَنَّ تَجْوِيزَهُ لِغَيْرِهِ يَتَضَمَّنُ تَعْطِيل الْجِهَادِ،وَفِيهِ افْتِيَاتٌ عَلَى الإِمَامِ[٣٩٠٦].

وَلأَنَّ عَقْدَ الْهُدْنَةِ مِنْ تَصَرُّفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بِصِفَةِ الإِمَامَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ ﷺ كَالتَّبْلِيغِ،وَالْفَتْوَى وَالْقَضَاءِ،وَكُل مَا تَصَرَّفَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِصِفَةِ الإِمَامَةِ لاَ يَجُوزُ لأَِحَدٍ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ إِلاَّ بِإِذْنِ الإِمَامِ اقْتِدَاءً بِهِ ﷺ ؛وَلأَنَّ سَبَبَ تَصَرُّفِهِ فِيهِ بِوَصْفِ الإِمَامَةِ

[٣٩٠٤] - الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦)(٧٥٠) صحيح مرسل

[٣٩٠٥] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٥٤٣)(٤٤) صحيح مرسل

[٣٩٠٦] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤٢٧، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٥، والمغني ٨ / ٤٦١ - ٤٦٢، وجواهر الإِكْلِيل ١ / ٢٦٩

يَقْتَضِي ذَلِكَ[3907]؛وَلأَنَّهُ لَمَّا كَانَ أَمْرُ الإِمَامِ بِالْوِلاَيَةِ أَنْفَذَ،وَهُوَ عَلَى التَّدْبِيرِ وَالْحِرَاسَةِ أَقْدَرُ،فَإِنِ اسْتَنَابَ فِي عَقْدِهَا مِنْ أَمْرِهِ صَحَّ لأَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ رَأْيِهِ،فَلَمْ يَلْزَمْهُ أَنْ يُبَاشِرَهَا بِنَفْسِهِ لأَنَّهُ عَامُّ النَّظَرِ،فَلَمْ يَفْرُغْ لِمُبَاشَرَةِ كُلِ عَمَلٍ،فَإِنِ اسْتَنَابَ فِيهَا مَنْ فَوَّضَ عَقْدَهَا إِلَى رَأْيِهِ جَازَ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الاجْتِهَادِ وَالرَّأْيِ،وَكَانَ عَقْدُهَا مَنْسُوبًا إِلَى الْمُسْتَنَابِ الْمُبَاشِرِ،وَمِنْ قَبْلِهِ مَنْسُوبًا إِلَى الْمُسْتَنِيبِ الآمِرِ،وَهُمَا فِي اللُّزُومِ سَوَاءٌ،وَلِخَبَرِ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ،يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ،وَيُتَّقَى بِهِ،فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ،كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ،وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»[3908]،وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ:وَمَعْنَاهُ أَنَّ الإِمَامَ هُوَ الَّذِي يَعْقِدُ الْعَهْدَ وَالْهُدْنَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ،فَإِنْ رَأَى ذَلِكَ صَلاَحًا وَهَادَنَهُمْ فَقَدْ وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُجِيزُوا أَمَانَهُ[3909].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:أَمَّا وُلاَةُ الثُّغُورِ فَإِنْ كَانَ تَقْلِيدُهُمْ يَتَضَمَّنُ الْجِهَادَ فَقَطْ لَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَعْقِدَ هُدْنَةً إِلاَّ قَدْرَ الاسْتِرَاحَةِ فِي السَّنَةِ:وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَلاَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ سَنَةً ؛لأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُجَاهِدَ فِي كُل سَنَةٍ.

وَفِيمَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَسَنَةٍ قَوْلاَنِ ؛لأَنَّ لَهُ أَنْ يَقْعُدَ عَنِ الْجِهَادِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ هُدْنَةٍ فَكَانَ مَعَ الْهُدْنَةِ أَوْلَى بِالْجَوَازِ.

وَإِنْ تَضَمَّنْ تَقْلِيدُ وَالِي الثُّغُورِ الْعَمَل بِرَأْيِهِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُوَادَعَةِ جَازَ أَنْ يَعْقِدَ الْهُدْنَةَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا لِدُخُولِهَا فِي وِلاَيَتِهِ،وَالأَوْلَى أَنْ يَسْتَأْذِنَ الإِمَامَ،فَإِنْ لَمْ يَسْتَأْذِنِ انْعَقَدَتْ[3910].

[3907] - الْفُرُوق للقرافي ١ / ٢٠٦

[3908] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧١)٤٣ - (١٨٤١)

[ش(الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويمنع الناس بعضهم من بعض ويحمي بيضة الإسلام ويتقيه الناس ويخافون سطوته ومعنى يقاتل من ورائه أي يقاتل معه الكفار والبغاة والخوارج وسائر أهل الفساد وينصر عليهم ومعنى يتقى به أي شر العدو وشر أهل الفساد والظلم مطلقا والتاء في يتقى مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية]

[3909] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤٢٧، معالم السنن (٢/ ٣١٦)

[3910] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤٢٧، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٤، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١

هَذَا فِي مُهَادَنَة الْكُفَّار مُطْلَقًا أَوْ أَهْل إِقْلِيم كَبِير،وَيَجُوزُ لِوَالِي الإِقْلِيمِ الْمُهَادَنَةُ مَعَ أَهْل بَلْدَة أَوْ قَرْيَة فِي إِقْلِيمه لِلْمَصْلَحَة،وَكَأَنَّهُ مَأْذُونٌ فيه بِتَفْوِيض مَصْلَحَة الإِقْلِيمِ إِلَيْه[3911].

الرَّأْيُ الثَّانِي – لِلْحَنَفِيَّة –:وَهُوَ أَنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ إِذْنُ الإِمَامِ لِلْمُوَادَعَة،فَيَجُوزُ عَقْدُ الْمُوَادَعَة لِفَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا يَجُوزُ لِلإِمَامِ وَنَائِبِه وَلَوْ بِغَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ ؛لأَنَّ الْمُعَوَّل عَلَيْه وُجُودُ الْمَصْلَحَة فِي عَقْدِهَا ؛فَحَيْثُ وُجِدَتْ جَازَتْ،وَلأَنَّ مُوَادَعَةَ الْمُسْلِمِينَ أَهْل الْحَرْب جَائِزَةٌ بِالاتِّفَاق كَإِعْطَاءِ الأَمَانِ مَثَلاً وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمُوَادَعَة[3912].

وَفَرَّعُوا عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْه بَعْضَ الأَحْكَامِ وَقَالُوا:لَوْ أَنَّ مُسْلِمًا وَادَعَ أَهْل حَرْبٍ سَنَةً عَلَى أَلْفِ دِينَارٍ جَازَتْ مُوَادَعَتُهُ وَلاَ يَحِل لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزُوهُمْ،وَإِنْ قَتَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ غَرِمُوا دِيَتَهُ لأَنَّ مُوَادَعَةَ الْوَاحِد مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْزِلَة مُوَادَعَتِهِمْ جَمِيعًا،وَإِنْ لَمْ يَعْلَمِ الإِمَامُ حَتَّى مَضَتْ سَنَةٌ أَمْضَى مُوَادَعَتَهُ وَأَخَذَ الْمَال فَجَعَلَهُ فِي بَيْت الْمَال لأَنَّ مَنْفَعَةَ الْمُسْلِمِينَ مُتَعَيِّنَةٌ فِي إِمْضَاءِ الْمُوَادَعَة بَعْدَ مُضِيِّ الْمُدَّة ؛وَلأَنَّهُ أَخَذَ الْمَال بِقُوَّة الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّ خَوْفَ أَهْل الْحَرْب مِنْ جَمَاعَة الْمُسْلِمِينَ لاَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ،لِهَذَا يَأْخُذُ الإِمَامُ الْمَال مِنَ الْعَاقِد فَيَجْعَلُهُ فِي بَيْت الْمَال.

وَإِنْ عَلِمَ الإِمَامُ مُوَادَعَتَهُ قَبْل مُضِيِّ السَّنَة فَإِنَّهُ يَنْظُرُ فِي ذَلِكَ،فَإِنْ كَانَت الْمَصْلَحَةُ فِي إِمْضَاءِ تِلْكَ الْمُوَادَعَة أَمْضَاهَا وَأَخَذَ الْمَال فَجَعَلَهُ فِي بَيْت الْمَال ؛لأَنَّ لَهُ أَنْ يُنْشِئَ الْمُوَادَعَةَ بِهَذِه الصِّفَة إِذَا كَانَت الْمَصْلَحَةُ فِيهَا ؛فَلأَنْ يُمْضِيَهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ أَوْلَى.فَإِنْ رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي إِبْطَالِهَا رَدَّ الْمَال إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَبَذَ إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَقَاتَلَهُمْ ؛لأَنَّ أَمَانَ الْمُسْلِمِ كَانَ صَحِيحًا وَالتَّحَرُّزَ عَنِ الْغَدْرِ وَاجِبٌ.فَإِنْ كَانَ قَدْ مَضَى نِصْفُ السَّنَة فَفِي الْقِيَاس:يَرُدُّ نِصْفَ الْمَال وَيُمْسِكُ النِّصْفَ الآخَرَ لِلْمُسْلِمِينَ اعْتِبَارًا لِلْبَعْضِ بِالْكُل،وَقِيَاسًا بِالْمُوَادَعَة فِي مُدَّة مَعْلُومَة بِعِوَضٍ مَعْلُوم،وَقِيَاسًا عَلَى الإِجَارَة.فَهُنَاكَ إِذَا انْفَسَخَ الْعَقْدُ فِي بَعْض الْمُدَّة سَقَطَ مِنَ الأُجْرَة مَا بَقِّى وَيَتَقَرَّرُ بِحِسَاب مَا مَضَى.وَفِي الاسْتِحْسَان يَرُدُّ الْمَال كُلَّهُ ؛لأَنَّهُمْ لَمْ يَلْتَزِمُوا الْمَال إِلاَّ بِشَرْطِ أَنْ تُسَلَّمَ الْمُوَادَعَةُ لَهُمْ فِي جَمِيعِ السَّنَة،وَالْجَزَاءُ

[3911] – تُحْفَة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٤، وَمُغْنِي الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، والحاوي الْكَبِير ١٨ / ٤٢٧، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٤

[3912] – بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٨، والبحر الرَّائِق ٥ / ٨٥

إِنَّمَا يَثْبُتُ باعْتِبَارِ الشَّرْط جُمْلَةً وَلاَ يَتَوَزَّعُ عَلَى أَجْزَائه،وَكَلِمَةُ " عَلَى " للشَّرْط حَقِيقَةً،وَالْمُوَادَعَةُ فِي الأَصْلِ لَيْسَتْ مِنْ عُقُودِ الْمُعَاوَضَاتِ،قَالُوا:فَجَعَلْنَا هَذه الْكَلِمَةَ فِيهَا عَاملَةً بحَقِيقَتهَا.فَإِذَا لَمْ تُسَلَّمْ لَهُمُ الْمُوَادَعَةُ سَنَةً كَاملَةً وَجَبَ رَدُّ الْمَال كُلِّه إِلَيْهِمْ،وَهَذَا لأَنَّهُمْ رُبَّمَا يَكُونُ خَوْفُهُمْ فِي بَعْضِ الْمُدَّة دُونَ بَعْضٍ،قَدْ يَأْمَنُونَ مَثَلاً الشِّتَاءَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَدُوُّ دُونَ الصَّيْف وَيَخَافُونَ ذَلكَ فِي الصَّيْف،فَإِذَا نَبَذَ الْعَهْدَ إِلَيْهِمْ فِي وَقْت خَوْفِهِمْ وَمَنَعَ مِنْهُمْ بَعْضَ الْمَال لَمْ يَحْصُل لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَقْصُودهِمْ بِهَذَا الشَّرْط،وَذَلكَ يُؤَدِّي إِلَى الْغُرُورِ فَيَرُدُّ الْمَال كُلَّهُ إِنْ نَبَذَ إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ قَبْل مُضِيِّ الْمُدَّة.

وَإِنْ كَانُوا وَادَعُوهُ ثَلاَثَ سِنِينَ كُل سَنَة بِأَلْف دِينَارٍ وَقُبِضَ الْمَال كُلُّهُ،ثُمَّ أَرَادَ الإِمَامُ نَقْضَ الْمُوَادَعَة بَعْدَ مُضِيِّ سَنَة فَإِنَّهُ يَرُدُّ عَلَيْهِمُ الثُّلُثَيْنِ لأَنَّ الْمُوَادَعَةَ كَانَتْ هُنَا بِحَرْف " الْبَاءِ " وَهُوَ يَصْحَبُ الأَعْوَاضَ فَيَكُونُ الْمَال عِوَضًا فَيَنْقَسِمُ عَلَى الْمُعَوَّضِ بِاعْتِبَارِ الأَجْزَاءِ[3913].

الشَّرْطُ الثَّانِي:الْمَصْلَحَةُ:

يُشْتَرَطُ لِصِحَّة عَقْد الْهُدْنَة أَنْ يَكُونَ فِيه مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَكْفِي انْتِفَاءُ الْمَفْسَدَة لِمَا فِيه مِنْ مُوَادَعَتِهِمْ بِلاَ مَصْلَحَة وَلاَ حَاجَةَ،لِقَوْله تَعَالَى:{ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٥].

وَالْمَصْلَحَةُ الْمُبِيحَةُ عَقْدَ الْمُوَادَعَة هِيَ كُل مَا يُحَقِّقُ لِلْمُسْلِمِينَ غَرَضًا مَقْصُودًا شَرْعًا،بِأَنْ يَكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ مِنْ قِلَّة عَدَد أَوْ عُدَّة أَوْ مَال،وَالْعَدُوُّ قَوِيٌّ،أَوْ بِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ وَفِي الْمُوَادَعَة مَصْلَحَةٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ:بِأَنْ يُرْجَى إِسْلاَمُهُمْ بِالْمُوَادَعَة بِاخْتِلاَطِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ،أَوْ يُطْمَعَ فِي قَبُولِهِمْ بَذْل الْجِزْيَة،أَوْ يَكُفُّوا عَنْ مَعُونَة عَدُوٍّ ذِي شَوْكَة،أَوْ يُعِينُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِتَال غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ،فَإِنْ لَمْ تَدْعُ إِلَى عَقْدِهَا حَاجَةٌ فَلاَ يَجُوزُ عَقْدُهَا بِالاِتِّفَاقِ[3914].

الشَّرْطُ الثَّالِثُ:تَعْيِينُ مُدَّة الْهُدْنَة:

[3913] - السِّيَر الْكَبِير لِمُحَمَّد بْن الْحَسَن ٢ / ٥٨٢، وَمَا بَعْدَهَا

[3914] - بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٨، وفتح الْقَدِير ٥ / ٤٠٤، والبحر الرَّائِق ٥ / ٨٥، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٥، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠ – ٢٦١، والدسوقي ٢ / ٢٠٦، والمغني ٨ / ٤٥٩، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ٥١٢

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي اشْتِرَاطِ تَحْدِيدِ مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لِصِحَّةِ الْهُدْنَةِ:
فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ – الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ – إِلَى أَنَّهَا لاَ تَنْعَقِدُ مُطْلَقَةً ؛لأَنَّ إِطْلاَقَهَا بِلاَ تَحْدِيدِ مُدَّتِهَا يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ الْجِهَادِ[3915].

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُدَّةِ الْمَذْكُورَةِ:فَقَال الْمَالِكِيَّةُ لاَ حَدَّ وَاجِبٌ لِمُدَّةِ الْهُدْنَةِ بَل هِيَ عَلَى حَسَبِ اجْتِهَادِ الإِْمَامِ وَرَأْيِهِ ؛إِذْ شَرْطُهَا أَنْ تَكُونَ فِي مُدَّةٍ بِعَيْنِهَا لاَ عَلَى التَّأْبِيدِ وَلاَ عَلَى الإِْبْهَامِ،ثُمَّ تِلْكَ الْمُدَّةُ لاَ حَدَّ لَهَا بَل يُعَيِّنُهَا الإِْمَامُ بِاجْتِهَادِهِ.

لَكِنْ يُنْدَبُ أَنْ لاَ تَزِيدَ الْمُدَّةُ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لاِحْتِمَال حُصُول قُوَّةٍ أَوْ نَحْوِهَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَهَذَا إِذَا اسْتَوَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِلاَّ تَعَيَّنَ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ[3916].

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ،فَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ إِنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ بِقُوَّةٍ وَكَانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي عَقْدِهَا رَجَاءَ إِسْلاَمِهِمْ أَوْ بَذْلِهِمُ الْجِزْيَةَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ،غَيْرَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهِيَ عَشْرُ سِنِينَ وَمَا دُونَهَا إِنْ كَانَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ ؛لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَادَنَ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ عَامَ الْفَتْحِ رَجَاءَ إِسْلاَمِهِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي قُوَّةٍ،وَهَادَنَ قُرَيْشًا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَكَانَ بِالْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ.

وَقَالُوا:إِنْ زَادَ فِي الْحَالَةِ الأُْولَى عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ،وَعَلَى الْعَشْرِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ لَمْ يَصِحَّ الْعَقْدُ لأَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ عَنْ حَظْرٍ فَوَجَبَ الاِقْتِصَارُ عَلَى مُدَّةِ الاِسْتِثْنَاءِ وَالتَّخْصِيصِ ؛لأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥] عَامٌّ خُصَّ مِنْهُ مُدَّةُ الأَْرْبَعَةِ الأَْشْهُرِ وَمُدَّةُ الْعَشْرِ سِنِينَ،لِمُصَالَحَةِ النَّبِيِّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَقُرَيْشًا عَشْرَ سِنِينَ،وَفِيمَا زَادَ يَبْقَى عَلَى مُقْتَضَى الْعُمُومِ.فَعَلَيْهِ إِنْ زَادَ الإِْمَامُ الْمُدَّةَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي الْحَالَةِ الأُْولَى،وَعَلَى

[3915] – حَاشِيَة الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، مغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، والمغني ٨ / ٤١٠

[3916] – حَاشِيَة الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦

الْعَشْرِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بَطَلَ الْعَقْدُ فِي الزَّائِدِ،وَفِي بُطْلاَنِهَا عَلَى الْجَائِزِ قَوْلاً:تَفْرِيقُ الصَّفْقَةِ فِي عَقْدِهَا ؛لأَنَّهُ جَمَعَ فِي الْعَقْدِ الْوَاحِدِ بَيْنَ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ،وَمَا لاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ،أَظْهَرُهُمَا الْمَنْصُوصُ:يَبْطُلُ بِالزَّائِدِ فَقَطْ،تَفْرِيقًا لِلصَّفْقَةِ،وَالْقَوْلُ الآْخَرُ:يَبْطُلُ الْعَقْدُ كُلُّهُ[3917].

وَنَصَّ الْحَنَابِلَةُ عَلَى أَنَّهُ مَتَى رَأَى الإِْمَامُ أَوْ نَائِبُهُ الْمَصْلَحَةَ فِي عَقْدِهَا لِضَعْفٍ فِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْقِتَالِ،أَوْ لِمَشَقَّةِ الْغَزْوِ أَوْ لِطَمَعِهِ فِي إِسْلاَمِهِمْ،أَوْ فِي أَدَائِهِمُ الْجِزْيَةَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ جَازَ لَهُ عَقْدُهَا مُدَّةً مَعْلُومَةً ؛لأَنَّ مَا وَجَبَ تَقْدِيرُهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا كَخِيَارِ الشَّرْطِ وَلَوْ فَوْقَ عَشْرِ سِنِينَ ؛لأَنَّهَا تَجُوزُ فِي أَقَل مِنْ عَشْرٍ،فَجَازَتْ فِي أَكْثَرَ مِنْهَا كَمُدَّةِ الإِْجَارَةِ،وَلأَنَّهُ إِنَّمَا جَازَ عَقْدُهَا لِلْمَصْلَحَةِ فَحَيْثُ وُجِدَتْ جَازَتْ تَحْصِيلاً لِلْمَصْلَحَةِ.وَإِنْ هَادَنَهُمْ مُطْلَقًا بِأَنْ لَمْ يُقَيِّدْ بِمُدَّةٍ لَمْ يَصِحَّ ؛لأَنَّ الإِْطْلاَقَ يَقْتَضِي التَّأْبِيدَ وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَى تَرْكِ الْجِهَادِ بِالْكُلِّيَّةِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ[3918].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ عَقْدَ الْمُوَادَعَةِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُطْلَقًا عَنِ الْمُدَّةِ،وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُؤَقَّتًا بِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ،فَإِذَا رَأَى الإِْمَامُ أَنْ يُصَالِحَ أَهْل الْحَرْبِ أَوْ فَرِيقًا مِنْهُمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الصُّلْحِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَلاَ بَأْسَ بِهِ ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال:٦١] وَالآْيَةُ وَإِنْ كَانَتْ مُطْلَقَةً لَكِنْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى تَقْيِيدِهَا بِرُؤْيَةِ مَصْلَحَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ بِآيَةٍ أُخْرَى هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٥] وَوَادَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَهْل مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ،وَلاَ يَقْتَصِرُ جَوَازُ الْمُوَادَعَةِ عَلَى الْمُدَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ لِتَعَدِّي الْمَعْنَى – وَهُوَ حَاجَةُ الْمُسْلِمِينَ – أَوْ ثُبُوتِ مَصْلَحَتِهِمْ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْهُمْ إِلَى مَا زَادَ عَلَيْهَا ؛لأَنَّ مُدَّةَ الْمُوَادَعَةِ تَدُورُ مَعَ الْمَصْلَحَةِ،وَهِيَ قَدْ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ[3919].

الشَّرْطُ الرَّابِعُ:خُلُوُّ عَقْدِ الْهُدْنَةِ عَنْ شَرْطٍ فَاسِدٍ:

[3917] – مُغْنِي الْمُحْتَاجِ ٤ / ٢٦٠، وتحفة الْمُحْتَاجِ ٩ / ٣٠٥، والحاوي الْكَبِير ١٨ / ٤٠٦

[3918] – كَشَّاف الْقِنَاعِ ٣ / ١١٢، وشرح مُنْتَهَى الإِْرَادَاتِ ٢ / ١٢٥،١٢٦

[3919] – تَبْيِين الْحَقَائِقِ ٣ / ٢٤٥، والبحر الرَّائِق ٥ / ٨٥، وفتح الْقَدِير ٥ / ٣٧١

لاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَنْ يَعْقِدَ الْهُدْنَةَ عَلَى شُرُوطٍ مَحْظُورَةٍ قَدْ مَنَعَ الشَّرْعُ مِنْهَا:كَأَنْ يُهَادِنَهُمْ عَلَى خَرَاجٍ يَضْرِبُونَهُ عَلَى بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ الإِمَامُ إِلَيْهِمْ أَوْ عَلَى رَدِّ مَا غَنِمَ مِنْ سَبْيِ ذَرَارِيهِمْ ؛لأَِنَّهَا أَمْوَالٌ مَغْنُومَةٌ،أَوْ عَلَى دُخُول الْحَرَمِ أَوِ اسْتِيطَانِ الْحِجَازِ،أَوْ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال أَبَدًا.أَوْ عَلَى أَلاَّ يَسْتَنْقِذَ أَسْرَانَا مِنْهُمْ،فَهَذِهِ وَمَا شَاكَلَهَا شُرُوطٌ مَحْظُورَةٌ قَدْ مَنَعَ الشَّرْعُ مِنْهَا فَلاَ يَجُوزُ اشْتِرَاطُهَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ،فَإِنْ شَرَطَ بَطَلَتِ الشُّرُوطُ وَعَلَى الإِمَامِ نَقْضُهَا[3920]،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [محمد:35] وعَنْ مَسْرُوقٍ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«رُدُّوا الْجَهَالَاتِ إِلَى السُّنَّةِ»[3921].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:أُتِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِامْرَأَةٍ تَزَوَّجَتْ فِي عِدَّتِهَا فَأَخَذَ مَهْرَهَا فَجَعَلَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَقَالَ:" لَا يَجْتَمِعَانِ وَعَاقَبَهُمَا " قَالَ:فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:" لَيْسَ هَكَذَا وَلَكِنْ هَذِهِ الْجَهَالَةَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ تَسْتَكْمِلُ بَقِيَّةَ الْعِدَّةِ مِنَ الْأَوَّلِ ثُمَّ تَسْتَقْبِلُ عِدَّةً أُخْرَى وَجَعَلَ لَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْمَهْرَ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا قَالَ:فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ رُدُّوا الْجَهَالاتِ إِلَى السُّنَّةِ "[3922]

مِنْ أَمْثِلَةِ الشُّرُوطِ الْفَاسِدَةِ فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ اشْتِرَاطُ رَدِّ مَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا مِنَ الْكُفَّارِ.فَإِنْ شَرَطَ عَدَمَ الرَّدِّ أَوْ أَطْلَقَ فَلَمْ يَذْكُرْ فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ رَدًّا وَلاَ عَدَمَهُ أَوْ خَصَّ بِالنِّسَاءِ فَلاَ رَدَّ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ،وَإِنْ خَصَّ الرَّدَّ بِالرِّجَال،أَوْ ذَكَرَ الرَّدَّ وَلَمْ يُخَصِّصْ بِنَوْعٍ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ الرَّدِّ.

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَبَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ إِنْ شَرَطَ فِي عَقْدِ الصُّلْحِ رَدَّ مَنْ جَاءَ مُسْلِمًا مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ بَطَل الشَّرْطُ وَلاَ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ،وَقَالُوا:إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ

[3920] - الْبَدَائِع 7 / 109، والبحر الرَّائق 5 / 85، وحاشية الدُّسُوقِيّ 2 / 206، وتحفة الْمُحْتَاج 9 / 306 - 307، ومغني الْمُحْتَاج 4 / 260 - 261، والمغني 8 / 460 - 461

[3921] - سنن سعيد بن منصور (1/ 355)(1326) صحيح

[3922] - السنن الكبرى للبيهقي (7/ 726)(15545) صحيح مرسل

فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة:١٠] هُوَ دَلِيل النَّسْخِ فِي حَقِّ الرِّجَال أَيْضًا،إِذْ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ فِي ذَلِكَ،بَل مَفْسَدَةُ رَدِّ الْمُسْلِمِ إِلَيْهِمْ أَكْبَرُ،وَلاَ يَغْرَمُ لأَِزْوَاجِ الْمُسْلِمَات مَا أَنْفَقُوا مِنْ مُهُورِهِنَّ،وَحِينَ شَرَعَ الرَّدَّ كَانَ فِي قَوْمٍ لاَ يُبَالِغُونَ فِي تَعْذِيبِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ؛لأَِنَّ كُل قَبِيلَةٍ لاَ تَتَعَرَّضُ لِمَنْ فَعَل ذَلِكَ مِنْ قَبِيلَةٍ أُخْرَى ؛وَإِنَّمَا تَتَوَلَّى رَدْعَهُ عَشِيرَتُهُ وَهُمْ لاَ يَبْلُغُونَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ الْقَيْدِ وَالسَّبِّ وَالإِْهَانَةِ.

وَكَانَ بِمَكَّةَ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ جَمَاعَةٌ أَسْلَمُوا مِثْل أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبِي بَصِيرٍ إِلَى سَبْعِينَ رَجُلاً وَلَمْ يَبْلُغْ فِيهِمُ الْمُشْرِكُونَ النِّكَايَةَ لِعَشِيرَتِهِمْ،وَالأَْمْرُ الآْنَ عَلَى خِلاَفِ ذَلِكَ[3923].

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ - الْمَالِكِيَّةُ فِي الْمَذْهَبِ وَالْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَطْلُبُهُ - إِلَى أَنَّهُ عَلَى الإِْمَامِ أَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِالشَّرْطِ بِالنِّسْبَةِ لِلرِّجَال [3924] ؛لأَِنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ مَنْ جَاءَهُ مِنْهُمْ مُسْلِمًا عَلَيْهِمْ،فعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ،صَدَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ـ قَالَا:خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ،وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ،وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ يُخْبِرُهُ عَنْ قُرَيْشٍ،وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنُهُ الْخُزَاعِيُّ فَقَالَ:إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ،وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَجَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«أَشِيرُوا عَلَيَّ أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ إِلَى ذَرَارِيِّ،هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَنُصِيبَهُمْ فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ [ص:٣٣١] مَحْرُوبِينَ،وَإِنْ يَجِيئُوا تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ،أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نَؤُمَّ الْبَيْتَ فَمَنْ

[3923] - فَتْح الْقَدِير ٥ / ٢٠٨ - ٢٠٩، ومواهب الْجَلِيل وَالتَّاج وَالإِْكْلِيل ٣ / ٣٨٦ - ٣٨٧، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، وعقد الْجَوَاهِر الثَّمِينَة ١ / ٤٩٨

[3924] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤١٦، والجامع لأَِحْكَام الْقُرْآن ١٨ / ٥٤ .وَالْمُغْنِي ٨ / ٤٦٥، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٣ - ٢٦٤، ومواهب الْجَلِيل ٣ / ٣٨٦، والإنصاف ٤ / ٢١٣ - ٢١٤

صَدَّنَا قَاتَلْنَاهُ» فَقَالُوا:رَسُولُ اللَّهِ أَعْلَمُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ،وَلَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ،وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَرُوحُوا إِذًا»،قَالَ مَعْمَرٌ:قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِ مِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ،وَمَرْوَانَ:فَرَاحُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ،قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ» فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ إِذَا هُوَ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ فَإِذَا هُوَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ،وَسَارَ [ص:٣٣٢] النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ:حَلْ حَلْ فَقَالُوا:خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ،خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ،وَلَكِنَّهَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» ثُمَّ قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ،إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ بِهِ قَالَ:فَعَدَلَ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا،فَلَمْ يَلْبَثْهُ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ،فَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ قَالَ:فَوَاللَّهِ مَازَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ [ص:٣٣٣] حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ،فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ فَقَالَ:إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ،وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ،وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ،عَنِ الْبَيْتِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ،وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ،وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ،وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ لَهُمْ مُدَّةً،وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِنْ لَا فَقَدْ جَمُّوا،وَإِنْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيُنْفِدَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ» [ص:٣٣٤] فَقَالَ بُدَيْلٌ:سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ،فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ:إِنَّا جِئْنَاكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ،وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا.فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا،فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ:لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ (قَالَ:سَمِعْتُهُ يَقُولُ) كَذَا وَكَذَا،فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ فَقَالَ:أَيْ

قَوْمِي أَلَسْتُمْ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا:بَلَى قَالَ:أَوَ لَسْتُ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا:بَلَى قَالَ:فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا:لَا قَالَ:أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ،فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي،وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا:بَلَى قَالَ:فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خَصْلَةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا،وَدَعُونِي آتِهِ فَقَالُوا:فأْتِه،فَأَتَاهُ قَالَ:فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ،فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ [ص:٣٣٥]:أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ،هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي لَأَرَى وُجُوهًا،وَأَرَى أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا عَنْكَ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ:امْصُصْ بَظَرَ اللَّاتِ،أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ:مَنْ ذَا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ:أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ.قَالَ:وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ،وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ،وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ،فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ يَدَهُ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ،وَقَالَ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ [ص:٣٣٦] فَقَالَ:مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا:الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فَقَالَ:أَيْ غُدَرُ أَوَ لَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ،وَكَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ،وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ،ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ،وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ» ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ صَحَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ،وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ،وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ،وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ،وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ قَالَ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ،وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا،وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ،وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ،وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ،وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ،وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا،فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ دَعُونِي آتِهِ فَقَالُوا:ائْتِهِ [ص:٣٣٧]،فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى

النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ» فَبَعَثُوهَا لَهُ،وَاسْتَقْبَلَهُ الْقَوْمُ يُلَبُّونَ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ:«سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ» قَالَ:فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ:«رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ،فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ:دَعُونِي آتِهِ قَالُوا ائْتِهِ،فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَذَا مِكْرَزٌ،وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ» فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو.قَالَ مَعْمَرٌ:فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ،عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلٌ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّهُ قَدْ سُهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» قَالَ مَعْمَرٌ:قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ:فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ:هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا،فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالَ سُهَيْلٌ:أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ،كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:وَاللَّهِ لَا يَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اكْتُبْ:«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ:«هَذَا [ص:٣٣٨] مَا قَاضَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»،فَقَالَ سُهَيْلٌ:وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ،وَلَا قَاتَلْنَاكَ،وَلَكِنِ اكْتُبْ:مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ،وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي»،اكْتُبْ:«مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ:«لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرْمَةَ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ،فَنَطُوفُ بِهِ» فَقَالَ سُهَيْلٌ:لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضَغْطَةً،وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ،فَكَتَبَ،فَقَالَ سُهَيْلٌ:وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ،وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا،فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ،وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلَ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ،فَقَالَ سُهَيْلٌ:هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ» قَالَ:فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ [ص:٣٣٩] أَبَدًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَأَجِزْهُ لِي» فَقَالَ:مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ قَالَ:«بَلَى فَافْعَلْ» قَالَ:مَا أَنَا بِفَاعِلٍ،قَالَ مِكْرَزُ:بَلَى قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ،فَقَالَ أَبُو جَنْدَلٍ:أَيْ

مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ،وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ،فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:وَاللَّهِ مَا شَكَكْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ قَالَ:فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ،فَقُلْتُ:أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ:«بَلَى» قَالَ:قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ:«بَلَى» قُلْتُ:فَلِمَ نُعْطَى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ:«إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ،وَهُوَ نَاصِرِي» قُلْتُ:أَوَ لَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ:«بَلَى،فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ» قُلْتُ:لَا قَالَ:«فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ» قَالَ:فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ:فَقُلْتُ:يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ:بَلَى قُلْتُ:أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ:بَلَى قُلْتُ:فَلِمَ نُعْطَى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ:أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ،وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ،وَهُوَ نَاصِرُهُ،فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ،فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ قُلْتُ:أَوَ لَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ:فَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهِ الْعَامَ،قُلْتُ:لَا،قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ،وَمُطَوِّفٌ بِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ:قَالَ عُمَرُ:فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا.قَالَ:فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:«قُومُوا فَانْحَرُوا،ثُمَّ احْلِقُوا» قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ،حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ:فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ،قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ،ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ،وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ،فَقَامَ،فَخَرَجَ،فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ،نَحَرَ بُدْنَهُ،وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ،فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا،وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا،حَتَّى كَادَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا غَمًّا.ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ} [الممتحنة:١٠] حَتَّى بَلَغَ {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة:١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ،فَتَزَوَّجَ أَحَدُهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ،وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ [ص:٣٤١].ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ،رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ،فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا:الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا بَلَغَا بِهِ ذَا الْحُلَيْفَةِ،فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ،فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ:وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا،فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ:أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ

لَجَيِّدٌ،لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ:أَرِنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ،فَضَرَبَهُ بِهِ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ:«لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا» فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي،وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ،فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ،قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ،ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«وَيْلُ امِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»،فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ،فَخَرَجَ حَتَّى [ص:٣٤٢] أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ قَالَ:وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سَيْهَلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ،حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ،وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ،فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ إِلَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ،فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ {هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} [الفتح:٢٤] حَتَّى بَلَغَ {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح:٢٦] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ،وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ "..[٣٩٢٥].

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ مَرْوَانَ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُخْبِرَانِ،عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:لَمَّا كَاتَبَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ كَانَ فِيمَا اشْتَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا،وَخَلَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ،فَكَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ وَامْتَعَضُوا مِنْهُ وَأَبَى سُهَيْلٌ إِلَّا ذَلِكَ،«فَكَاتَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ،فَرَدَّ يَوْمَئِذٍ أَبَا جَنْدَلٍ إِلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو،وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ،وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا»،وَجَاءَتِ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ،وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ،وَهِيَ عَاتِقٌ،فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ،فَلَمْ يُرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ،لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ:{إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ،فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ} [الممتحنة:١٠] إِلَى قَوْلِهِ:{وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة:١٠][٣٩٢٦]

[٣٩٢٥] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٣٣٠)(٩٧٢٠) صحيح وهو في الصحيح

[٣٩٢٦] - صحيح البخاري (٣/ ١٨٨)(٢٧١١)

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ أَبِي أَحْمَدَ قَالَ:قَالَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْط:أُنْزِلَ فِيَّ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ،كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ هَاجَرَ فِي الْهُدْنَة حِينَ صَالَحَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قُرَيْشًا عَلَى أَنَّهُ مَنْ جَاءَ رَسُولَ اللَّه ﷺ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّه رَدَّهُ إِلَيْه،وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ لَمْ يَرُدُّوهْ إِلَيْه.قَالَتْ:فَلَمَّا قَدمْتُ الْمَدينَةَ قَدمَ عَلَيَّ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ.قَالَتْ:فَفَسَخَ اللَّهُ الْعَقْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَأْنِي،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة:١٠] إِلَى قَوْله:{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [الممتحنة:١٠][٣٩٢٧]

وَجَاءَتْ سَعِيدَةُ زَوْجَةُ الصَّيْفِيِّ الرَّاهِبِ الْمُشْرِك مَسْلَمَةً فَجَاءَ فِي طَلَبِهَا زَوْجُهَا،قَالُوا:يَا مُحَمَّدُ قَدْ شَرَطْتَ لَنَا رَدَّ النِّسَاءِ وَطِينُ الْكِتَابِ لَمْ يَجفَّ بَعْدُ فَارْدُدْ عَلَيْنَا نِسَاءَنَا فَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَدِّهِنَّ تَوَقُّعًا لأَمْرِ اللَّه تَعَالَى فِيهِنَّ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الممتحنة:١٠][٣٩٢٨].

وقال الطبري:" وَقَوْلُهُ:{فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة:١٠] يَقُولُ:فَإِنْ أَقْرَرْنَ عِنْدَ الْمِحْنَة بِمَا يَصِحُّ بِه عَقْدُ الْإِيمَانِ لَهُنَّ،وَالدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ،فَلَا تَرُدُّوهُنَّ عَنْ ذَلِكَ إِلَى الْكُفَّارِ.وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ،لِأَنَّ الْعَهْدَ كَانَ جَرَى بَيْنَ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَبَيْنَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَة أَنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مَنْ جَاءَهُمْ مُسْلِمًا،فَأَبْطَلَ ذَلِكَ الشَّرْطَ فِي النِّسَاءِ إِذَا جِئْنَ مُؤْمِنَاتٍ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتُحِنَّ،فَوَجَدَهُنَّ الْمُسْلِمُونَ مُؤْمِنَاتٍ،وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِمَّا قَدْ ذَكَرْنَا قَبْلُ،وَأُمِرُوا أَنْ لَا يَرُدُّوهُنَّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ إِذَا عُلِمَ أَنَّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ.وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُمْ:{فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ

[٣٩٢٧] - تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٤٩٢) صحيح

[٣٩٢٨] - انظر خبرها في الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٧٩)(١١٣٠١)

مُؤْمنَات فَلَا تَرْجعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة:١٠] يَقُولُ:لَا الْمُؤْمنَاتُ حلٌّ للْكُفَّارِ وَلَا الْكُفَّارُ يَحلُّونَ للْمُؤْمنَات."[٣٩٢٩]

فَامْتَنَعَ رَسُول اللَّه ﷺ حينَئذ منْ رَدِّهنَّ،وَمنْ رَدِّ النِّسَاءِ كُلِّهِنَّ،وَقَال رَسُول اللَّه ﷺ:إِنَّ اللَّهَ مَنَعَ الصُّلْحَ بالنِّسَاءِ.[٣٩٣٠]

وَتُفَارِقُ الْمَرْأَةُ الرَّجُل في ثَلاَث أُمُور:

أَحَدُهَا:أَنَّهَا لاَ تَأْمَنُ أَنْ تَتَزَوَّجَ كَافرًا يَسْتَحلُّهَا،أَوْ يُكْرِهُهَا مَنْ يَنَال منْهَا.

الثَّاني:إِنَّهَا رُبَّمَا فُتنَتْ عَنْ دينهَا ؛لأَنَّهَا أَضْعَفُ قَلْبًا وَأَقَل مَعْرفَةً منَ الرَّجُل.

الثَّالثُ:إِنَّ الْمَرْأَةَ لاَ يُمْكنُهَا عَادَةً الْهَرَبُ وَالتَّخَلُّصُ،وَإِنَّ النِّسَاءَ ذَوَات الأَزْوَاجِ يُحَرَّمْنَ عَلَى أَزْوَاجهنَّ بالإِسْلاَمِ وَلاَ يَقْدرْنَ عَلَى الامْتنَاعِ منْهُمْ،فَلهَذَا وَقَعَ الْفَرْقُ في الرَّدِّ بَيْنَ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ.فَإِنْ شَرَطَ رَدَّ النِّسَاءِ في الْعَقْد فَسَدَ الشَّرْطُ قَطْعًا سَوَاءٌ كَانَ لَهَا عَشيرَةٌ أَمْ لاَ ؛لأَنَّهُ أَحَل حَرَامًا.وَكَذَا الْعَقْدُ في الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة،وَوَجْهٌ عَنِ الْحَنَابلَة،وَمُقَابل الأَصَحِّ عنْدَ الشَّافعيَّة وَوَجْهٌ عنْدَ الْحَنَابلَة يَصحُّ الْعَقْدُ[٣٩٣١].

وَقَال الشَّافعيَّةُ:إِنَّ جَوَازَ اشْترَاط رَدِّ مَنْ جَاءَ منَ الرِّجَال مُسْلمًا لَيْسَ عَلَى إِطْلاَقه بَل يُعْتَبَرُ بأَحْوَالهمْ عنْدَ قَوْمهمْ وَفي عَشَائرهمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهمْ أَوْ كَانُوا قَادرينَ عَلَى قَهْر طَالبيهمْ وَالْهَرَب منْهُمْ،فَإِنْ كَانُوا مُسْتَذَلِّينَ فيهمْ لَيْسَ لَهُمْ عَشيرَةٌ تَكُفُّ عَنْهُمُ الأَذَى وَطَلَبُوهُمْ ليُعَذِّبُوهُمْ وَيَفْتنُوهُمْ عَنْ دينهمْ،لَمْ يَجُزْ رَدُّهُمْ إِلَيْهمْ.وَكَانَ الشَّرْطُ في عَقْد الْهُدْنَة برَدِّهمْ بَاطلاً كَمَا بَطَل في رَدِّ النِّسَاءِ،حَقْنًا للدِّمَاءِ وَكَفًّا عَنْ تَعْذيبهمْ وَاسْتذْلاَلهمْ،فقد جاء عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،عَنْ أَبِيه،ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعيره،وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بخطَامه - أَوْ بزمَامه - قَالَ:«أَيُّ يَوْمٍ هَذَا»،فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه سوَى اسْمه،قَالَ:«أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا» فَسَكَتْنَا

[٣٩٢٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥٧٨)

[٣٩٣٠] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٤٢/ ٢١٤)

[٣٩٣١] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤١٢ - ٤١٣، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٢، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٨، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، والجامع لأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ ١٨ / ٥٥ وَمَا بَعْدَهَا، ومواهب الْجَلِيل ٣ / ٣٨٧، والمغني ٨ / ٤٦٦ وَمَا بَعْدَهَا، والإنصاف ٤ / ٢١٤

حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ،فَقَالَ:«أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ» قُلْنَا:بَلَى،قَالَ:«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ،وَأَمْوَالَكُمْ،وَأَعْرَاضَكُمْ،بَيْنَكُمْ حَرَامٌ،كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،فِي بَلَدِكُمْ هَذَا،لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ،فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»[٣٩٣٢]،وَلأَنَّهُ لَمَّا وَجَبَ عَلَى الإِْمَامِ فَكُّ الأَْسِيرِ الْمُسْلِمِ وَجَبَ أَنْ لاَ يَكُونَ عَوْنًا عَلَى أَسْرِ مُسْلِمٍ،وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ قَدْ أَمِنَ أَنْ يُفْتَنَ عَنْ دِينِهِ أَوْ يَسْتَذِلَّهُ مُسْتَطِيلٌ عَلَيْهِ فَجَازَ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ وَصَحَّتِ الْهُدْنَةُ بِاشْتِرَاطِ رَدِّهِ،فَقَدْ رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ أَبَا جَنْدَل بْنَ سُهَيْل بْنِ عَمْرٍو عَلَى أَبِيهِ،وَرَدَّ أَبَا بَصِيرٍ عَلَى أَبِيهِ ؛لأَنَّهُمَا كَانَ ذَوِي عَشِيرَةٍ،وَطَلَبَهُمَا أَهْلُوهُمَا إِشْفَاقًا عَلَيْهِمَا فِي زَعْمِهِمْ[٣٩٣٣].

وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّ الصِّبْيَانَ وَالْمَجَانِينَ لاَ يَجُوزُ الصُّلْحُ بِشَرْطِ رَدِّهِمْ وَلاَ يُرَدُّونَ لِضَعْفِهِمْ وَلاَ غُرْمَ فِي تَرْكِ رَدِّهِمْ،فَإِذَا بَلَغَ الصَّبِيُّ وَأَفَاقَ الْمَجْنُونُ فَإِنْ وَصَفَا الإِْسْلاَمَ رُدَّا إِنْ كَانَا مُمْتَنِعَيْنِ بِعَشِيرَةٍ وَأَهْلٍ،وَإِنْ كَانَا مُسْتَضْعَفَيْنِ لَمْ يُرَدَّا،وَإِنْ وَصَفَا كُفْرًا لاَ يُقَرُّ أَهْلُهُ عَلَيْهِ فَإِمَّا أَنْ يُسْلِمَا وَإِمَّا أَنْ يُرَدَّا إِلَى مَأْمَنِهِمَا،وَإِنْ وَصَفَا كُفْرًا يُقَرُّ أَهْلُهُ فَإِمَّا أَنْ يُسْلِمَا وَإِمَّا أَنْ يَقْبَلاَ الْجِزْيَةَ،وَإِمَّا أَنْ يُرَدَّا إِلَى مَأْمَنِهِمَا [٣٩٣٤].

وَبِهَذَا يَقُول الْحَنَابِلَةُ فِي صَبِيٍّ مُمَيِّزٍ أَسْلَمَ لأَنَّهُ مُسْلِمٌ يَضْعُفُ عَنِ التَّخَلُّصِ مِنَ الْكُفَّارِ ؛أَمَّا شَرْطُ رَدِّ الطِّفْل مِنْهُمْ لاَ يَصِحُّ إِسْلاَمُهُ كَكَوْنِهِ دُونَ التَّمْيِيزِ فَيَصِحُّ ؛لأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ شَرْعًا وَلاَ يَصِحُّ مِنْهُ الإِْسْلاَمُ لَوْ أَتَى بِهِ لِعَدَمِ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ مِنْهُ[٣٩٣٥].

دَفْعُ مَهْرِ مَنْ جِئْنَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ لأَِزْوَاجِهِنَّ:

[٣٩٣٢] - صحيح البخاري (١/ ٢٤)(٦٧)

[ش (إنسان) قيل هو بلال وقال في الفتح لكن الصواب أنه هنا أبو بكرة.(بخطتمه أو بزامه) هما بمعنى واحد وهو خيط تشد فيه حلقة تجعل في أنف البعير.(يوم النحر) أي اليوم الذي تنحر فيه الأضاحي أي تذبح وهو اليوم العاشر من ذي الحجة.(حرام) يحرم عليكم المساس بها والاعتداء عليها.(كحرمة) كحرمة تعاطي المحظورات في هذا اليوم.(في بلدكم هذا) مكة وما حولها.(الشاهد) الحاضر.(أوعى له) أفهم للحديث المبلغ]

[٣٩٣٣] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤١٢ - ٤١٣، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٢، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٨

[٣٩٣٤] - رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٤٥، وشرح الْمَحَلِّيّ عَلَى الْمِنْهَاجِ ٤ / ٢٣٩

[٣٩٣٥] - مَطَالِب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨

إِذَا شَرَطَ الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ رَدَّ مَنْ جَاءَهُ مُسْلِمًا مِنْهُمْ،أَوْ أَطْلَقَ وَلَمْ يَذْكُرْ رَدًّا وَلاَ عَدَمَهُ،فَجَاءَت امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ لَمْ يَجِبْ دَفْعُ مَهْرٍ لِزَوْجِهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ - الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي الأَْظْهَرِ وَالْحَنَابِلَةِ - قَالُوا:لأَِنَّ الْبُضْعَ لَيْسَ بِمَالٍ حَتَّى يَشْمَلَهُ الأَْمَانُ وَلاِرْتِفَاعِ نِكَاحِهَا قَبْل الدُّخُول وَبَعْدَهُ بِالإِْسْلاَمِ،أَمَّا غُرْمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَهْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِيعِ فَإِنَّهُ كَانَ قَبْل مَنْعِ رَدِّهِنَّ وَدُخُولِهِنَّ فِي عُمُومِ:حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،لَمَّا صَالَحَ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ،قَالَ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»،فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ،اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ،فَقَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»،فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو:لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ وَلَمْ نُكَذِّبْكَ اكْتُبْ بِنَسَبِكَ مِنْ أَبِيكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ:« اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»،فَكَتَبَ:مَنْ أَتَى مِنْكُمْ رَدَدْنَاهُ عَلَيْكُمْ وَمَنْ أَتَى مِنَّا تَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ،فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُعْطِيهِمْ هَذَا؟،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ أَتَاهُمْ مِنَّا،فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ،وَمَنْ أَتَانَا مِنْهُمْ،فَرَدَدْنَاهُ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ،فَرَجًا،وَمَخْرَجًا»[٣٩٣٦].

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ،بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»،قَالَ سُهَيْلٌ:أَمَّا بِاسْمِ اللهِ،فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ،فَقَالَ:«اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ»،قَالُوا:لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَاتَّبَعْنَاكَ،وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ»،فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ،وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ:«نَعَمْ،إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ،وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[٣٩٣٧]

وَقَال بَعْضُهُمْ:إِنَّهُ ﷺ كَانَ قَدْ شَرَطَ لَهُمْ رَدَّ مَنْ جَاءَتْهُ مُسْلِمَةً ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ } [الممتحنة:١٠] فَغَرِمَ حِينَئِذٍ لاِمْتِنَاعِ رَدِّهَا بَعْدَ الشَّرْطِ بِهِ نَصًّا،أَوْ دُخُولَهُنَّ

[٣٩٣٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٢١٤)(٤٨٧٠) صحيح

[٣٩٣٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤١١)٩٣ - (١٧٨٤)

فِي عُمُوم " مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ،وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا».

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِل الأَظْهَرِ:إِذَا أُمْسِكَتِ الْمُسْلِمَةُ وَلَمْ يَرُدَّهَا رَدَّ عَلَى زَوْجِهَا مَا أَنْفَقَهُ ؛لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة:١٠]،وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَهْرُ،وَبِهِ قَال عَطَاءٌ،وَقَالُوا:أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أُمْسِكَتِ الزَّوْجَةُ الْمُسْلِمَةُ أَنْ يُرَدَّ عَلَى زَوْجِهَا مَا أَنْفَقَ وَفَاءً بِالْعَهْدِ ؛وَلأَنَّهُ لَمَّا مُنِعَ مِنْ أَهْلِهِ بِحُرْمَةِ الإِسْلاَمِ أُمِرَ بِرَدِّ الْمَال إِلَيْهِ ؛حَتَّى لاَ يَقَعَ عَلَيْهِ خُسْرَانٌ فِي الْوَجْهَيْنِ:الزَّوْجَةِ وَالْمَال ؛وَلأَنَّ الْعَهْدَ قَدْ أَوْجَبَ الأَمَانَ عَلَى الأَمْوَال،وَبُضْعُ الزَّوْجَةِ فِي حُكْمِ الْمَال لِصِحَّةِ الْمُعَاوَضَةِ عَلَيْهِ نِكَاحًا وَخُلْعًا ؛فَاقْتَضَى أَنْ يَجِبَ بِالْمَنْعِ مِنْهُ الرُّجُوعُ بِبَدَلِهِ وَهُوَ الْمَهْرُ[٣٩٣٨].

شَرْطُ رَدِّ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ مُرْتَدًّا:

نَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ شَرَطَ الإِمَامُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرُدُّوا مَنْ أَتَى إِلَيْهِمْ مُرْتَدًّا لَزِمَهُمُ الْوَفَاءُ بِالشَّرْطِ،عَبْدًا كَانَ أَمْ حُرًّا،ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى،عَمَلاً بِالْتِزَامِهِمْ فَإِنْ أَبَوْا فَقَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ لِمُخَالَفَتِهِمُ الشَّرْطَ.

وَيَجُوزُ شَرْطُ أَنْ لاَ يَرُدُّوا مَنْ جَاءَهُمْ مُرْتَدًّا مِنَ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ عَلَى الْمُعْتَمَدِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ ؛لأَنَّ الْمُشْرِكِينَ اشْتَرَطُوا عَلَيْهِ ﷺ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ:أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ،وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا،فعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ:«اكْتُبْ،بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»،قَالَ سُهَيْلٌ:أَمَّا بِاسْمِ اللهِ،فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ،فَقَالَ:«اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ»،قَالُوا:لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَاتَّبَعْنَاكَ،وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ»،فَاشْتَرَطُوا عَلَى

[٣٩٣٨] - الْجَامِع لأَحْكَام الْقرَان ١٨ / ٥٨، وأحكام الْقُرْآن لابْنِ الْعَرَبِيِّ ٤ / ١٧٧٦ - ١٧٧٨، والحاوي الْكَبِير ١٨ / ٤١٩، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٣، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٩، والمغني ٨ / ٤٦٤، وفتح الْقَدير ٥ / ٢٠٨ - ٢٠٩

النَّبيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ،وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ الله،أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ:«نَعَمْ،إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ،وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[3939]،وَحِينَئِذٍ فَلاَ يَلْزَمُهُمُ الرَّدُّ،وَكَذَا إنْ أَطْلَقَ الْعَقْدَ فَلاَ يَلْزَمُهُمُ الرَّدُّ،وَلَكِنْ يُغَرَّمُونَ مَهْرَ الْمُرْتَدَّةِ ؛لأَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَيْنَا الاسْتِتَابَةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْنَا ؛وَكَذَلِكَ يُغَرَّمُونَ قِيمَةَ الرَّقِيقِ الْمُرْتَدِّ[3940].

عَقْدُ الْهُدْنَةِ بِشَرْطٍ مَحْظُورٍ لِلضَّرُورَةِ:

يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ عَقْدُ الْهُدْنَةِ بِشَرْطٍ مَحْظُورٍ،وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ اشْتِرَاطُ بَذْلِ الْمَالِ لِلْكُفَّارِ.

فَقَد اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ عَلَى مَالٍ يَبْذُلُهُ الْمُسْلِمُونَ لأَهْلِ الْحَرْبِ مَا لَمْ تَدْعُ إِلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ ؛لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ وَأَظْهَرَهُ عَلَى الأَدْيَانِ كُلِّهَا وَجَعَلَ لَهُمُ الْجَنَّةَ قَاتِلِينَ وَمَقْتُولِينَ لِقَوْلِ اللَّهِ { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١١١]،فَلَمْ يَجُزْ مَعَ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ وَعِزِّ الإِسْلاَمِ أَنْ يَدْخُلُوا فِي ذُلِّ الْبَذْلِ وَصَغَارِ الدَّفْعِ،أَمَّا إِذَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ فَيَجُوزُ[3941].

وَمِنْ صُوَرِ الضَّرُورَةِ:

أ - أَنْ يُحَاطَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالٍ أَوْ وَطْءٍ يَخَافُونَ مَعَهُ الاصْطِلاَمَ،فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَبْذُلُوا فِي الدَّفْعِ عَنِ اصْطِلاَمِهِمْ مَالاً يَحْقِنُونَ بِهِ دِمَاءَهُمْ،فَقَدَ هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْخَنْدَقِ أَنْ يُصَالِحَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الثُّلُثِ مِنْ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ،فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:كَانَتْ وَقْعَةُ الْأَحْزَابِ بَعْدَ أُحُدٍ بِسَنَتَيْنِ،وَذَلِكَ يَوْمَ حَفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَنْدَقَ،وَرَئِيسُ الْكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَحَاصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً فَخَلَصَ إِلَى

[3939] - صحيح مسلم (٣/ ١٤١١)٩٣ - (١٧٨٤)

[3940] - تُحْفَة الْمُحْتَاج ٩ / ٣١١، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٣ وَمَا بَعْدَهَا، وشرح رَوْضَ الطَّالِبُ ٤ / ٢٢٨

[3941] - الْحَاوِي ١٨ / ٤١٠، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٦، والفتاوى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٧، وشرح السِّيَر الْكَبِير ٥ / ١٦٩٢، والمغني ٨ / ٤٦٠، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، وأحكام الْقُرْآن لِلْجَصَّاص ٣ / ٧٠ ط دَار الْكِتَاب الْعَرَبِيّ

الْمُسْلمينَ الْكَرْبُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ - كَمَا أَخْبَرَنِي سَعيدُ بْنُ الْمُسَيِّب:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ،اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدُ» وَحَتَّى أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ رَسُولًا إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حصْنٍ وَهُوَ يَوْمَئذ رَئيسُ الْكُفَّارِ منْ غَطَفَانَ،وَهُوَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ فَعَرَضَ عَلَيْه رَسُولُ اللَّه ﷺ ثُلُثَ ثَمَرِ نَخْلِ الْمَدينَة،عَلَى أَنْ يَخْذُلَ الْأَحْزَابَ وَيَنْصَرِفَ وَمَنْ مَعَهُ منْ غَطَفَانَ فَقَالَ عُيَيْنَةُ:بَلْ أَعْطني شَطْرَ ثَمَرِهَا،ثُمَّ أَفْعَلُ ذَلكَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى سَعْد بْنِ مُعَاذ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَوْسِ وَإِلَى سَعْد بْنِ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ فَقَالَ:«إِنَّ عُيَيْنَةَ قَدْ سَأَلَني نصْفَ ثَمَرِ نَخْلكُمْ،عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ بِمَنْ مَعَهُ منْ غَطَفَانَ وَيَخْذُلَ الْأَحْزَابَ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُهُ الثُّلُثَ،فَأَبَى إِلَّا النِّصْفَ فَمَا تَرَيَان؟» قَالَا:يَا رَسُولَ اللَّه،إِنْ كُنْتَ أُمرْتَ بِشَيْءٍ فَافْعَلْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَوْ أُمرْتُ بِشَيْءٍ لَمْ أَسْتَأْمرْكُمَا فيه،وَلَكنْ هَذَا رَأْيٌ أَعْرِضُهُ عَلَيْكُمَا» قَالَا:فَإِنَّا لَا نَرَى أَنْ نُعْطِيَهُمْ إِلَّا السَّيْفَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«فَنَعَمْ»[٣٩٤٢].

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَقَدْ فَعَلَ مثْلَ ذَلكَ مُعَاوِيَةُ في إِمَارَته،فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو،وَسَعيد بْنِ عَبْد الْعَزِيزِ،أَنَّ الرُّومَ صَالَحَتْ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ مَالًا،وَارْتَهَنَ مُعَاوِيَةُ منْهُمْ رَهْنًا فَجَعَلَهُمْ بِبَعْلَبَكَّ ثُمَّ إِنَّ الرُّومَ غَدَرَتْ،فَأَبَى مُعَاوِيَةُ وَالْمُسْلمُونَ أَنْ يَسْتَحلُّوا قَتْلَ مَنْ في أَيْديهِمْ منْ رَهْنهِمْ،وَخَلَّوا سَبِيلَهُمْ،وَاسْتَفْتَحُوا بِذَلكَ عَلَيْهِمْ،وَقَالُوا:وَفَاءٌ بِغَدْرٍ خَيْرٌ منْ غَدْرٍ بِغَدْرٍ"[٣٩٤٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ الْحَارِثُ الْغَطَفَانيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،شَاطِرْنَا تَمْرَ الْمَدينَة،قَالَ:«حَتَّى أَسْتَأْمرَ السُّعُودَ»،فَبَعَثَ إِلَى سَعْد بْنِ مُعَاذ،وَسَعْد بْنِ عُبَادَةَ،وَسَعْد بْنِ الرَّبِيعِ،وَسَعْد بْنِ خَيْثَمَةَ،وَسَعْد بْنِ مَسْعُود،رَحِمَهُمُ اللهُ،فَقَالَ:«إِنِّي قَدْ عَلمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحدَة،وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطرُوهُ تَمْرَ الْمَدينَة،فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْه عَامَكُمْ هَذَا،حَتَّى تَنْظُرُوا في أَمْرِكُمْ بَعْدُ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ الله،أَوَحْيٌ منَ السَّمَاء،فَالتَّسْليمُ لأَمْرِ الله،أَوْ عَنْ رَأْيكَ،أَوْ هَوَاكَ،فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لهَوَاكَ ورَأْيكَ،فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الْإِبْقَاءَ عَلَيْنَا،فَوَالله لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ منَّا تَمْرَةً إِلَّا بِشرًى،أَوْ

[٣٩٤٢] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٢١٠)(٤٤٥) صحيح

[٣٩٤٣] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:٢١١)(٤٤٦)صحيح

قرًى،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»،قَالُوا:غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ،فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَحِمَهُ اللهُ:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ...أَبَدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَغْدُرُ

وَأَمَانَةُ الْمَرْءِ حَيْثُ لَقِيتَهَا...كَسْرُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لَا يُجْبَرُ

إِنْ تَغْدُرُوا فَالْغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ...وَاللُّؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ[٣٩٤٤]

قَالُوا:يَا مُحَمَّدُ اكْفُفْ عَنَّا لِسَانَهُ،فَوَاللَّهِ لَوْ مُزِجَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَهُ.[٣٩٤٥]

هُوَ – وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِمْ – فَقَدْ نَبَّهَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الأَنْصَارِ عَلَى جَوَازِ إِعْطَائِهِمْ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَلأَنَّ مَا يَنَال الْمُسْلِمِينَ مِنْ نِكَايَةِ الاصْطِلاَمِ أَعْظَمُ ضَرَرًا مِنْ ذِلَّةِ الْبَذْل،فَافْتَدَى بِهِ أَعْظَمَ الضَّرَرَيْنِ.

ب – افْتِدَاءُ مَنْ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الأَسْرَى إِذَا خِيفَ عَلَى نُفُوسِهِمْ وَكَانُوا يَسْتَذِلُّونَهُمْ بِعَذَابٍ أَوِ امْتِهَانٍ،فَيَجُوزُ أَنْ يَبْذُل لَهُمُ الإِمَامُ فِي افْتِكَاكِهِمْ مَالاً لِيَسْتَنْقِذَهُمْ بِهِ مِنَ الذُّل،وَإِنِ افْتَدَاهُمْ بِأَسْرَى كَانَ أَوْلَى[٣٩٤٦].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَادَى رَجُلًا بِرَجُلَيْنِ.[٣٩٤٧]

وَسُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ،عَنْ مُوَادَعَةِ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ الْحَرْبِ عَلَى فِدْيَةٍ أَوْ جِزْيَةٍ يُؤَدِّيهَا الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ،قَالَ:لَا يَصْلُحُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ ضَرُورَةٍ،وَشُغْلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حَرْبِهِمْ عَنْ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ،أَوْ فِتْنَةٍ شَمَلَتِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ.وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو:لَا بَأْسَ أَنْ يُصَالِحَهُمْ عَلَى عِدَّةِ سَبْيٍ يُؤَدُّونَهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ،فَقِيلَ لَهُ:فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الرُّوسُ وَالْفِدْيَةُ وَالسَّبْيُ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَحْرَارِهِمْ يَبْعَثُ بِهِ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ؟،قَالَ:لَا بَأْسَ بِهِ،وَلَا يَضُرُّهُ مِنْ أَحْرَارِهِمْ كَانَ ذَلِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ،إِذَا كَانَ الصُّلْحُ لَيْسَ بِصُلْحِ ذِمَّةٍ وَخَرَاجٍ يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ،وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ،فَلَا بَأْسَ بِهِ.وَقَالَ أَحْمَدُ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ

[٣٩٤٤] – المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢٨)(٥٤٠٩) حسن

[٣٩٤٥] – معجم ابن الأعرابي (٢/ ٨٣٠) حسن

[٣٩٤٦] – الْحَاوِي للماوردي ١٨ / ٤١٠، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٦، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦، والفتاوى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٧، والمغني لاِبْنِ قُدَامَةَ ٨ / ٤٦٠ – ٤٦١

[٣٩٤٧] – سنن الدارمي (٣/ ١٦٠٣)(٢٥٠٩) صحيح

يُصَالِحُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَلْفِ رَأْسٍ كُــلَّ سَــنَةٍ،فَكَانَ يَسْــبِي بَعْضُـــهُمْ بَعْضًـــا أَوْ يُؤَدُّونَهُ،قَالَ:لَا بَأْسَ بِهِ يَجِيءُ بِهِ مِنْ حَيْثُ شَاءَ،وَكَذَلِكَ قَالَ إِسْحَاقُ.وَقَالَ النُّعْمَـــانُ:إِنْ صَالَحُوهُمْ عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا إِلَيْهِمْ مِائَةَ رَأْسٍ كُلَّ سَنَةٍ،فَكَانَتْ هَذِهِ الْمِائَـــةُ يُؤَدُّونَهَـــا مِـــنْ أَبْنَائِهِمْ،فَلَا خَيْرَ فِي الصُّلْحِ عَلَى هَذَا،وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْ ذَرَارِيِّهِمْ أَحَدًا لِأَنَّ الصُّلْحَ وَقَعَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ذَرَارِيِّهِمْ.وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي أَهْلِ حِصْنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَزَلَ بِـــهِ الْعَدُوُّ،فَخَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ بِهِ طَاقَةٌ،أَلَهُمْ أَنْ يُصَالِحُوهُمْ،عَلَى أَنْ يَـــدْفَعُوا إِلَـــيْهِمْ سِـــلَاحَهُمْ،وَأَمْوَالَهُمْ،وَكُرَاعَهُمْ،عَلَى أَنْ يَرْتَحِلُـــوا عَنْهُمْ؟،فَقَـــالَ:لَـــا بَـــأْسَ بِذَلِكَ،فَقِيلَ:أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمُوا أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِمْ،وَسَـــأَلَهُمُ الْعَـــدُوُّ أَنْ يَنْزِلُـــوا عَلَـــى حُكْمِهِمْ،وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ إِلَّا ذَلِكَ،قَالَ:فَلَا يَنْزِلُـــوا عَلَـــى حُكْمِهِمْ،وَلْيُقَـــاتِلُوهُمْ حَتَّـــى يَمُوتُوا.وَقَالَ النُّعْمَانُ فِي الْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ إِنْ أَرَادُوا مُصَالَحَةَ الْمُسْـــلِمِينَ،عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا إِلَيْهِمْ أَهْلَ الْحَرْبِ كُلَّ سَنَةٍ شَيْئًا مَعْلُومًا،عَلَى أَنَّ لَا يَدْخُلَ الْمُسْلِمُونَ بِلَادَهُمْ،وَلَـــا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُهُمْ،أَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُصَالِحُوهُمْ عَلَى ذَاكَ؟،قَالَ:لَا إِلَّا أَنْ يَكُـــونَ ذَلِكَ خَيْرًا لِلْمُسْلِمِينَ"[٣٩٤٨]

أَثَرُ الشُّرُوطِ الْفَاسِدَةِ عَلَى عَقْدِ الْهُدْنَةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي فَسَادِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ عِنْدَ اقْتِرَانِهِ بِشَرْطٍ مِنَ الشُّرُوطِ الْفَاسِدَةِ.

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي الْمَذْهَبِ،وَالشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِلِ الصَّحِيحِ إِلَى أَنَّهُ لَوْ شُرِطَ فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ شَرْطٌ فَاسِدٌ بَطَلَ الشَّرْطُ وَلاَ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ وَلاَ تَبْطُلُ الْهُدْنَـــةُ[٣٩٤٩] لأَنَّهَـــا لَيْسَتْ كَالْبُيُوعِ مِنْ عُقُودِ الْمُعَاوَضَاتِ الَّتِي تَبْطُل بِفَسَادِ الشَّرْطِ ؛لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْـــهِ مِـــنْ جَهَالَةِ الثَّمَنِ ؛وَلَيْسَتْ بِأَوْكَدَ مِنْ عُقُودِ الْمُنَاكَحَاتِ الَّتِي لاَ تَبْطُل بِفَسَادِ الْمَهْرِ[٣٩٥٠] .

[٣٩٤٨] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٣٣٥)(٦٦٩٦)

[٣٩٤٩] - الْفَتَاوَى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٧، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٨٧، والمغني لاِبْنِ قُدَامَةَ ٨ / ٤٦٦، والحاوي للماوردي ١٨ / ٤١٢، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦١

[٣٩٥٠] - الْحَاوِي ١٨ / ٤١٢

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ عَلَى الصَّحِيحِ وَالْحَنَابِلَةُ فِي وَجْهٍ إِلَى فَسَادِ الشَّرْطِ وَالْعَقْدِ مَعًا،أَمَّا فَسَادُ الشَّرْطِ فَلأَنَّهُ أَحَل حَرَامًا ؛وَأَمَّا فَسَادُ الْعَقْدِ فَلاقْتِرَانِهِ بِشَرْطٍ مُفْسِدٍ[٣٩٥١].

صِفَةُ عَقْدِ الْهُدْنَةِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي صِفَةِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ أَهُوَ لاَزِمٌ أَمْ جَائِزٌ ؟ فَذَهَبَ جُمْهُورُهُمْ – الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ – إِلَى أَنَّهُ عَقْدٌ لاَزِمٌ،فَإِنْ وَقَعَ صَحِيحًا فَلَيْسَ لِلإِْمَامِ الْعَاقِدِ وَلاَ لِلأَْئِمَّةِ بَعْدَهُ نَقْضُهُ،وَلَزِمَ الْوَفَاءُ بِهِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ،أَوْ يَصْدُرَ مِنْهُمْ مَا يَقْتَضِي الاِنْتِقَاضَ مِنْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } [المائدة:١]،وَقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤] فَإِذَا مَاتَ الإِْمَامُ الَّذِي عَقَدَ الْعَهْدَ أَوْ عُزِل فَلَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُ نَقْضُ الْعَقْدِ ؛لأَنَّ الإِْمَامَ الأَْوَّل عَقَدَهَا بِاجْتِهَادِهِ فَلَمْ يَجُزْ نَقْضُهُ بِاجْتِهَادِ غَيْرِهِ،وَإِنْ تَبَيَّنَ الْعَقْدُ فَاسِدًا بِاجْتِهَادِ الإِْمَامِ الْجَدِيدِ،كَمَا لاَ يَجُوزُ لِلْقَاضِي نَقْضُ أَحْكَامِ غَيْرِهِ مِنَ الْقُضَاةِ قَبْلَهُ بِاجْتِهَادِهِ.

وَلأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَفِ بِالْعُهُودِ لَمْ يَسْكُنْ إِلَى عُقُودِهِ وَقَدْ نَحْتَاجُ إِلَيْهَا ؛أَمَّا إِنْ بَانَ فَسَادُ عَقْدِ الْهُدْنَةِ بِنَصٍّ أَوْ إِجْمَاعٍ فَيُلْغَى،وَيُعْلَنُ إِلَيْهِمْ بِفَسَادِ الْهُدْنَةِ وَيُبْلَغُونَ مَأْمَنَهُمْ،فَإِنْ دَخَل بَعْضُهُمْ دَارَ الإِْسْلاَمِ بِهَذَا الصُّلْحِ كَانَ آمِنًا ؛لأَنَّهُ دَخَل مُعْتَقِدًا بِالأَْمَانِ وَيُرَدُّ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ،وَلاَ يُقَرُّ بِدَارِ الإِْسْلاَمِ ؛لأَنَّ الْهُدْنَةَ لَمْ تَصِحَّ[٣٩٥٢].

وَإِنْ شَرَطَ الإِْمَامُ لِنَفْسِهِ فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ مَا يَنْفِي لُزُومَهُ فَقَدْ أَجَازَهُ الشَّافِعِيَّةُ وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى مِنَ الْحَنَابِلَةِ وَمَنَعَهُ الْحَنَابِلَةُ.

فَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يَجُوزُ تَعْلِيقُ اسْتِدَامَةِ الْهُدْنَةِ عَلَى مَشِيئَةِ الإِْمَامِ يَنْقُضُهَا مَتَى شَاءَ،فَإِنْ عُلِّقَتْ بِمَشِيئَتِهِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُقَدَّرَةِ الْمُدَّةِ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَال:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَقَال عَبْدُ الرَّزَّاقِ:أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ،قَال:حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ،عَنْ

[٣٩٥١] - حَاشِيَة الشَّرْقَاوِيَّ عَلَى التَّحْرِير ٢ / ٤١٩ ط الْحَلَبِيّ، والمغني ٨ / ٤٦٦، والدسوقي ٢ / ٢٠٦، والخرشي ٣ / ١٥٠، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٣

[٣٩٥٢] - أَسْنَى الْمَطَالِب ٤ / ٢٢٥، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٢، والمغني ٨ / ٤٦٢، وكشاف الْقَاع ٣ / ١١١ – ١١٢، والإنصاف ٤ / ٢١٣، والدسوقي ٢ / ٢٠٦ وَمَا بَعْدَهَا

نَافِعٍ،عَنْ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَجْلَى اليَهُودَ،وَالنَّصَارَى مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ إِخْرَاجَ اليَهُودِ مِنْهَا،وَكَانَتِ الأَرْضُ حِينَ ظَهَرَ عَلَيْهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ،وَأَرَادَ إِخْرَاجَ اليَهُودِ مِنْهَا،فَسَأَلَتِ اليَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُقِرَّهُمْ بِهَا،أَنْ يَكْفُوا عَمَلَهَا،وَلَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا»،فَقَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلاَهُمْ عُمَرُ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَاءَ"[3953] وَيَكُونُ الإِْمَامُ مُخَيَّرًا فِيهَا إِذَا أَرَادَ نَقْضَهَا ؛لأَِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عُقُودِ الْمُعَاوَضَةِ الَّتِي تُمْنَعُ الْجَهَالَةُ فِيهَا ؛وَإِذَا جَازَ إِطْلاَقُهَا بِغَيْرِ مُدَّةٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَقُول لَهُمْ:أُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللَّهُ،وَإِنْ قَالَهُ الرَّسُول ﷺ لأَِهْل خَيْبَرَ ؛لأَِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوحِي إِلَى رَسُولِهِ مُرَادَهُ دُونَ غَيْرِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَقُول:أُقِرُّكُمْ مَا شِئْتُ أَوْ شَاءَ فُلاَنٌ،وَيَكُونُ مَوْقُوفًا عَلَى مَشِيئَتِهِ فِيمَا يَرَاهُ صَلاَحًا مِنِ اسْتِدَامَةِ الْهُدْنَةِ أَوْ نَقْضِهَا،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَعْقِدَهَا عَلَى مَشِيئَتِهِمْ ؛لأَِنَّهُمْ يَصِيرُونَ مُتَحَكِّمِينَ عَلَى أَهْل الإِْسْلاَمِ،فعنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّهُ جَاءَ يَوْمَ الْفَتْحِ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ،فَقَالُوا:هَذَا أَبُو سُفْيَانَ وَعَائِذُ بْنُ عَمْرٍو،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ،الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى " [3954].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:«الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى»[3955]

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذَا مَا جَاءَ فِي أُسَارَى الْمُشْرِكِينَ فَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّ ذَرَارِيَّهُمْ وَنِسَاءَهُمْ مِثْلُ رِجَالِهِمْ فِي الْفِدَاءِ،يَحِقُّ عَلَى الْإِمَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِكَاكُهُمْ وَاسْتِنْقَاذُهُمْ مِنْ أَيْدِي

[3953] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٧)(٢٣٣٨) وصحيح مسلم (٣/ ١١٨٧)٦ - (١٥٥١)

[ش(ظهر) غلب وانتصر.(لله ولرسوله وللمسلمين) وذلك أن خيبر فتح بعضها صلحا وبعضها عنوة فالذي فتح عنوة كان خمسه لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وأربعة أخماسه للمسلمين الغانمين والذي فتح صلحا كان لليهود ثم صار للمسلمين بعقد الصلح.(تيماء) موضع على طريق المدينة من الشام.(أريحاء) قرية من بلاد الشام]

[3954] - السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٣٨)(١٢١٥٥) حسن

[3955] - الأموال للقاسم بن سلام (ص:١٦٦)(٣٢٧) صحيح

الْمُشْرِكِينَ بِكُلِّ وَجْهٍ وَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا،إِنْ كَانَ ذَلِكَ بِرِجَالٍ أَوْ مَالٍ،وَهُوَ شَرْطُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

وَيَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَعْقِدَهَا عَلَى مَشِيئَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ شُرُوطٌ ثَلاَثَةٌ:

أَحَدُهَا:أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَوِي الاجْتِهَادِ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ.

وَالثَّانِي:أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ فِي تَدْبِيرِ الدُّنْيَا.

وَالثَّالِثُ:أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَوِي الأَمَانَةِ فِي حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى،وَحُقُوقِ الْعِبَادِ،فَإِنْ تَكَامَلَتْ هَذِهِ الشُّرُوطُ مِنْهُ صَحَّ وُقُوفُ الْهُدْنَةِ عَلَى مَشِيئَتِهِ،وَإِنْ أَخَل بِشَرْطٍ مِنْهَا لَمْ تَصِحَّ الْهُدْنَةُ[3956].

وَإِنْ أَطْلَقَ الإِمَامُ الْهُدْنَةَ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ أَوْ عَلَى غَيْرِ صِفَةٍ،بَل قَال:هَادَنْتُكُمْ لَمْ يَجُزْ ؛لأَنَّ إِطْلاَقَهَا يَقْتَضِي التَّأْبِيدَ [3957].

وَقَال الْحَنَابِلَةُ فِي الْمَذْهَبِ:إِنْ شَرَطَ الإِمَامُ نَقْضَ الْعَهْدِ لِنَفْسِهِ لَمْ يَصِحَّ الْعَقْدُ ؛لأَنَّهُ يُنَافِي مُقْتَضَى الْعَقْدِ فَلَمْ يَصِحَّ كَمَا لَوْ شَرَطَ ذَلِكَ فِي الْبَيْعِ وَالنِّكَاحِ.وَكَذَا إِنْ شَرَطَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمَا ؛لأَنَّهُ يُفْضِي إِلَى ضِدِّ الْمَقْصُودِ فَلَمْ يَصِحَّ[3958].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ عَقْدَ الْهُدْنَةِ غَيْرُ لاَزِمٍ مُحْتَمِلٍ لِلنَّقْضِ،فَلِلإِمَامِ نَبْذُهُ إِلَيْهِمْ،فَإِنْ رَأَى الإِمَامُ أَنَّ فِي الْمُوَادَعَةِ خَيْرًا لِلْمُسْلِمِينَ فَوَادَعَهُمْ،ثُمَّ نَظَرَ فَوَجَدَ أَنَّهَا شَرٌّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ نَبَذَ إِلَيْهِمْ ؛لأَنَّهُ ظَهَرَ فِي الانْتِهَاءِ مَا لَوْ كَانَ مَوْجُودًا فِي الابْتِدَاءِ لَمَنَعَ عَقْدَهَا وَاسْتِدَامَتَهَا ؛وَلأَنَّ الْمَصْلَحَةَ لَمَّا تَبَدَّلَتْ كَانَ النَّبْذُ جِهَادًا،وَإِبْقَاءُ الْعَهْدِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَرْكٌ لِلْجِهَادِ صُورَةً وَمَعْنًى،وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ جَائِزٍ وَلَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ.

فَإِنْ رَأَى نَقْضَهَا فَلاَ بُدَّ مِنَ النَّبْذِ تَحَرُّزًا مِنَ الْغَدْرِ وَهُوَ مُحَرَّمٌ بِالْعُمُومَاتِ:نَحْوَ مَا صَحَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا:مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإِذَا

[3956] - الْحَاوِي الْكَبِير ١٨ / ٤٠٨ - ٤٠٩، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٧، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٤٦١، وروض الطَّالب ٤ / ٢٢٥، والإنصاف ٤ / ٢١٢ - ٢١٣

[3957] - الْمَرَاجِع السَّابِقَة

[3958] - الْمُغْنِي لاِبْن قُدَامَةَ ٨ / ٤٥٩ - ٤٦٠، والإنصاف ٤ / ٢١٣

خَاصَمَ فَجَرَ،وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا "[3959]،وَقَال سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ:كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّومِ عَهْدٌ،وَكَانَ يَسِيرُ فِي بِلَادِهِمْ،حَتَّى إِذَا انْقَضَى العَهْدُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ،فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى دَابَّةٍ أَوْ عَلَى فَرَسٍ،وَهُوَ يَقُولُ:اللَّهُ أَكْبَرُ،وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ،وَإِذَا هُوَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ،فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عَنْ ذَلِكَ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلَّنَّ عَهْدًا،وَلَا يَشُدَّنَّهُ حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»،قَالَ:فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بِالنَّاسِ[3960].

وَلاَ بُدَّ مِنَ اعْتِبَارِ مُدَّةِ بُلُوغِ الْخَبَرِ إِلَى جَمِيعِهِمْ،وَيَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ مُدَّةً يَتَمَكَّنُ رَئِيسُهُمْ بَعْدَ عِلْمِهِ بِالنَّبْذِ مِنْ إِنْفَاذِ الْخَبَرِ إِلَى مَمْلَكَتِهِ ؛لأَِنَّهُ بِذَلِكَ يَنْتَفِي الْغَدْرُ.فَإِنْ كَانُوا خَرَجُوا مِنْ حُصُونِهِمْ أَوْ تَفَرَّقُوا،أَوْ خَرَّبُوا حُصُونَهُمُ اتِّكَالاً عَلَى الأَْمَانِ فَحَتَّى يَعُودُوا كُلُّهُمْ إِلَى مَأْمَنِهِمْ وَيُعَمِّرُوا حُصُونَهُمْ مِثْل مَا كَانَتْ تَوَقِّيًا مِنَ الْغَدْرِ.وَالْمُرَادُ بِالنَّبْذِ إِعْلاَنُهُمْ نَقْضَ الْعَهْدِ.وَيَكُونُ النَّبْذُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ الأَْمَانُ،فَإِنْ كَانَ مُنْتَشِرًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ النَّبْذُ كَذَلِكَ،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُنْتَشِرٍ بِأَنْ أَمَّنَهُمْ مُسْلِمٌ وَاحِدٌ سِرًّا يُكْتَفَى بِنَبْذِ ذَلِكَ الْوَاحِدِ[3961].

آثَارُ الْهُدْنَةِ:

لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ إِذَا تَمَّ عَقْدُ الْهُدْنَةِ مُسْتَوْفِيًا لِشُرُوطِهِ أَمِنَ الْمُوَادِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ،وَوَجَبَ عَلَى الإِْمَامِ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الأَْئِمَّةِ – إِذَا مَاتَ أَوْ عُزِل – حِمَايَتُهُمْ مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَذَى أَهْل الذِّمَّةِ الْمُقِيمِينَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ لأَِنَّهُ أَمَّنَهُمْ مِمَّا هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَفَاءً بِالْعَهْدِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } [المائدة:١]،وَقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى

[3959] – صحيح البخاري (٤/ ١٠٢)(٣١٧٨) [ش (خلال) جمع خلة وهي الخصلة والصفة]

[3960] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٤٣)(١٥٨٠) صحيح

[3961] – الْبَدَائِع ٧ / ١٠٩، والبحر الرَّائِق ٥ / ٨٦، وفتح الْقَدِير ٥ / ٤٥٧، وأحكام الْقُرْآن لِلْجَصَّاصِ ٣ / ٦٧ – ٦٨ .

مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:٤]،فَلَوْ أَتْلَفَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ.

أَمَّا حِمَايَتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ،وَكَذَا حِمَايَةُ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَلاَ تَلْزَمُ الْمُسْلِمِينَ،لأَنَّ الْهُدْنَةَ الْتِزَامُ الْكَفِّ عَنْهُمْ فَقَطْ لاَ حِفْظُهُمْ،بِخِلاَفِ عَقْدِ الذِّمَّةِ حَيْثُ نَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا نَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِنَا[٣٩٦٢].

وَقَدْ نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ قَوْمٌ مِنَ الْمُوَادِعِينَ إِلَى بَلْدَةٍ أُخْرَى لَيْسَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مُوَادَعَةٌ،فَغَزَا الْمُسْلِمُونَ تِلْكَ الْبَلْدَةَ،فَهَؤُلاَءِ آمِنُونَ لاَ سَبِيلَ لأَحَدٍ عَلَيْهِمْ ؛لأَنَّ عَقْدَ الْمُوَادَعَةِ أَفَادَ الأَمَانَ لَهُمْ فَلاَ يَنْتَقِضُ بِالْخُرُوجِ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ كَمَا فِي الأَمَانِ الْمُؤَبَّدِ – وَهُوَ عَقْدُ الذِّمَّةِ – أَنَّهُ لاَ يَبْطُلُ بِدُخُولِ الذِّمِّيِّ دَارَ الْحَرْبِ كَذَا هَذَا،وَكَذَلِكَ لَوْ دَخَلَ فِي دَارِ الْمُوَادَعَةِ رَجُلٌ مِنْ غَيْرِ دَارِهِمْ بِأَمَانٍ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ فَهُوَ آمِنٌ لأَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ دَارَ الْمُوَادِعِينَ بِأَمَانِهِمْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنْ جُمْلَتِهِمْ فَلَوْ عَادَ إِلَى دَارِهِ ثُمَّ دَخَلَ دَارَ الإِسْلاَمِ بِغَيْرِ أَمَانٍ كَانَ فَيْئًا لَنَا أَنْ نَقْتُلَهُ وَنَأْسِرَهُ لأَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى دَارِهِ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْمُوَادَعَةِ فَبَطَلَ حُكْمُ الْمُوَادَعَةِ فِي حَقِّهِ.

فَإِذَا دَخَلَ دَارَ الإِسْلاَمِ فَهَذَا حَرْبِيٌّ دَخَلَ دَارَ الإِسْلاَمِ ابْتِدَاءً بِغَيْرِ أَمَانٍ.

وَلَوْ أَسَرَ أَهْلُ دَارٍ أُخْرَى وَاحِدًا مِنَ الْمُوَادِعِينَ فَغَزَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى تِلْكَ الدَّارِ كَانَ الْمَأْسُورُ فَيْئًا،وَلَوْ دَخَلَ إِلَيْهِمْ تَاجِرٌ فَهُوَ آمِنٌ وَوَجْهُ الْفَرْقِ أَنَّهُ لَمَّا أُسِرَ فَقَدِ انْقَطَعَ حُكْمُ دَارِ الْمُوَادَعَةِ فِي حَقِّهِ وَإِذَا دَخَلَ تَاجِرًا لَمْ يَنْقَطِعْ[٣٩٦٣].

مَنْ تُعْقَدُ لَهُ الْهُدْنَةُ:

أ – أَهْلُ الْحَرْبِ:

يَجُوزُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ لأَهْلِ الْحَرْبِ سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ مِنْ نَصَارَى وَيَهُودٍ أَمْ غَيْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ.وَالأَصْلُ فِي هَذَا عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى:{(١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

[٣٩٦٢] – مُغْنِي الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠ – ٢٦١ – ٢٦٢، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٧، وشرح رَوْضَ الطَّالِبُ ٤ / ٢٢٥، والمغني ٨ / ٤٦٣، وشرح السَّيْر الْكَبِير ٢ / ٨٢، والبدائع ٧ / ١٠٩، والدسوقي ٢ / ١٨٤، جواهر الإِكْليل ١ / ٢٧٠، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ١١٥ .

[٣٩٦٣] – بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجزي اللَّه وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ منَ اللَّه وَرَسُوله إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ منَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجزي اللَّه وَبَشِّرِ الَّذينَ كَفَرُوا بعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ منَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) } [التوبة}،وَقَوْله تَعَالَى:{وَإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنفال:٦١]،وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَادَنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَهُمْ أَهْل كِتَابٍ،وَهَادَنَ قُرَيْشًا وَقَبَائِل عَرَبِيَّةً أُخْرَى وَكَانَ عَامَّتُهُمْ وَثَنِيِّينَ[٣٩٦٤].

ب – الْمُرْتَدُّونَ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى جَوَازِ مُوَادَعَةِ الْمُرْتَدِّينَ إِذَا غَلَبُوا عَلَى دَارٍ مِنْ دُورِ الإْسْلاَمِ وَصَارَتْ دَارُهُمْ دَارَ حَرْبٍ،وَخِيفَ مِنْهُمْ وَلَمْ تُؤْمَنْ غَائِلَتُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنْ مَصْلَحَةِ دَفْعِ الشَّرِّ لِلْحَال،وَرَجَاءَ رُجُوعِهِمْ إِلَى الإْسْلاَمِ وَتَوْبَتِهِمْ،وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَالٌ،لأَنَّ الْمَال الْمَأْخُوذَ عَلَى تَرْكِ الْقِتَال يَكُونُ فِي مَعْنَى الْجِزْيَةِ،وَلاَ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ إِلاَّ مِنْ كَافِرٍ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَى بَلْدَةٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِيَانٌ فَلاَ يُعْقَدُ لَهُمْ هُدْنَةٌ ؛لأَنَّ فِي ذَلِكَ تَقْرِيرَ الْمُرْتَدِّينَ عَلَى الرِّدَّةِ[٣٩٦٥].

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:وَإِنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ الإْسْلاَمِ جَمَاعَةٌ بَعْدَ تَقَرُّرِ إِسْلاَمِهِمْ وَحَارَبُوا بَعْدَ ارْتِدَادِهِمُ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ فَكَالْمُرْتَدِّينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الأْصْلِيِّينَ ؛فَيُحْكَمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمُرْتَدِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لاَ بِحُكْمِ الْكُفَّارِ النَّاقِضِينَ لِلْعَهْدِ[٣٩٦٦].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ:إِنَّ الْمُرْتَدِّينَ إِذَا انْحَازُوا إِلَى دَارٍ يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَصِيرُوا فِيهَا مُمْتَنِعِينَ يَجِبُ قِتَالُهُمْ عَلَى الرِّدَّةِ بَعْدَ مُنَاظَرَتِهِمْ عَلَى الإْسْلاَمِ وَإِيضَاحِ دَلاَئِلِهِ،وَيَجْرِي عَلَى قِتَالِهِمْ بَعْدَ الإْنْذَارِ وَالإْعْذَارِ حُكْمُ قِتَال أَهْل الْحَرْبِ[٣٩٦٧].

[٣٩٦٤] – مُغْنِي الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٠، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ١١١، وجواهر الإْكْلِيل ١ / ٢٦٩، والفتاوى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٦ – ١٩٧ .

[٣٩٦٥] – بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩، وفتح الْقَدِير ٥ / ٢٠٧ .

[٣٩٦٦] – جَوَاهِر الإْكْلِيل ١ / ٢٦٩، ومواهب الْجَلِيل ٣ / ١ ٣٨ – ٣٨٦ .

ج – الْبُغَاةُ:

لاَ خلاَفَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ مُوَادَعَةُ الْبُغَاةِ بِمَالٍ.فَإِنْ وَادَعَهُمُ الإِْمَامُ بِمَالٍ بَطَلَتِ الْمُوَادَعَةُ،وَإِنْ طَلَبُوهَا أُجِيبُوا إِذَا كَانَتْ بِغَيْرِ مَالٍ وَكَانَ فِي عَقْدِهَا مَصْلَحَةٌ لأَِهْلِ الْجَمَاعَةِ[٣٩٦٨].

نَقْضُ الْهُدْنَةِ:

عَقْدُ الْهُدْنَةِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ مَعْلُومٍ،وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُطْلَقًا عَنِ الْوَقْتِ،فَإِنْ كَانَ مُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ مَعْلُومٍ يُنْهِي الْعَهْدَ بِانْتِهَاءِ الْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ الْحَاجَةِ إِلَى النَّبْذِ،حَتَّى كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَغْزُوَ عَلَيْهِمْ لأَِنَّ الْعَقْدَ الْمُؤَقَّتَ إِلَى غَايَةٍ يَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ الْغَايَةِ مِنْ غَيْرِ الْحَاجَةِ إِلَى النَّاقِضِ.وَإِذَا كَانَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ دَخَل دَارَ الإِْسْلاَمِ بِالْهُدْنَةِ الْمُؤَقَّتَةِ فَمَضَى الْوَقْتُ وَهُوَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ لأَِنَّ التَّعَرُّضَ لَهُ يُوهِمُ الْغَدْرَ وَالتَّغْرِيرَ،فَيَجِبُ التَّحَرُّزُ عَنْهُ مَا أَمْكَنَ[٣٩٦٩].

وَأَمَّا إِنْ كَانَ عَقْدُ الْهُدْنَةِ مُطْلَقًا عَنِ الْوَقْتِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُ إِطْلاَقَهُ وَهُمُ الْحَنَفِيَّةُ أَوْ مُقَيَّدًا بِوَقْتٍ عِنْدَ مَنْ لاَ يُجِيزُ ذَلِكَ وَهُمُ الْجُمْهُورُ،فَالَّذِي يَنْتَقِضُ بِهِ نَوْعَانِ:تَصْرِيحٌ وَدَلاَلَةٌ.

فَالتَّصْرِيحُ هُوَ النَّبْذُ صَرِيحًا.

وَأَمَّا الدَّلاَلَةُ فَهِيَ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ مَا يَدُل عَلَى النَّبْذِ[٣٩٧٠]،وَمِنْ أَمْثِلَةِ النَّقْضِ دَلاَلَةً:

أ) خُرُوجُ قَوْمٍ مِنْ دَارِ الْمُوَادَعَةِ بِإِذْنِ مَلِكِهِمْ وَقَطْعُهُمُ الطَّرِيقَ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،لأَِنَّ إِذْنَ مَلِكِهِمْ بِذَلِكَ دَلاَلَةُ النَّبْذِ.

ب) قِتَالُهُمُ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ لاَ شُبْهَةَ لَهُمْ،فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شُبْهَةٌ كَأَنْ أَعَانُوا الْبُغَاةَ مُكْرَهِينَ فَلاَ يَنْتَقِضُ عَهْدُهُمْ.

ج) مُكَاتَبَتُهُمْ أَهْل الْحَرْبِ بِعَوْرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ.

٣٩٦٧ – الأَْحْكَام السُّلْطَانِيَّة للماوردي ص ٥٦، والحاوي ١٦ / ٤٢٥، وكشاف الْقِنَاع ٦ / ١٨٣، والأحكام السُّلْطَانِيَّة لأَبِي يُعْلَى ص ٥٢ .

٣٩٦٨ – وَالتَّفْصِيل فِي مُصْطَلَحِ (بُغَاة ف ٢٢) .

٣٩٦٩ – بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩ – ١١٠، وشرح السِّيَر الْكَبِير ٥ / ١٧١٠، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٩١ .

٣٩٧٠ – بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ١٠٢ .

د) قَتْلُهُمْ مُسْلِمًا أَوْ ذِمِّيًّا بِدَارِ الإِسْلاَمِ عَمْدًا إِنْ لَمْ يُنْكِرْ غَيْرُ الْقَاتِلِ عَلَيْهِ بَعْدَ عِلْمِهِ.
ه) إِيوَاؤُهُمْ عَيْنًا لِلْكُفَّارِ.
و) أَخْذُهُمْ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ.
ز) سَبُّهُمُ اللَّهَ أَوِ الْقُرْآنَ أَوْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ[3971].
ح) فِعْلُ شَيْءٍ مِمَّا اخْتُلِفَ فِي نَقْضِ عَقْدِ الذِّمَّةِ بِهِ[3972].
وَصَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِأَنَّ فِعْلَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ نَاقِضٌ لِلْهُدْنَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَهْلُ الْهُدْنَةِ أَنَّهُ نَاقِضٌ[3973].
وَبِالنَّظَرِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ نَوَاقِضِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ يُمْكِنُنَا إِرْجَاعُهَا إِلَى الأَسْبَابِ التَّالِيَةِ:
أ - الْعُدُولُ عَنِ الْمُوَادَعَةِ فِي الظَّاهِرِ.
ب - الْخِيَانَةُ فِي الْبَاطِنِ.
ج - الْعُدُولُ عَنِ الْمُجَامَلَةِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.
د - النَّبْذُ مِنْ قِبَلِ الإِمَامِ إِذَا رَأَى نَقْضَ الصُّلْحِ أَصْلَحَ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُ ذَلِكَ وَهُمُ الْحَنَفِيَّةُ.

أَوَّلاً:الْعُدُولُ عَنِ الْمُوَادَعَةِ فِي الظَّاهِرِ:

مِنْ مُوجِبَاتِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ الْمُوَادَعَةُ فِي الظَّاهِرِ،وَهِيَ الْكَفُّ عَنِ الْقِتَالِ وَتَرْكُ التَّعَرُّضِ لِلنُّفُوسِ وَالأَمْوَالِ،فَيَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْهُدْنَةِ مِثْلُ مَا يَجِبُ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.
فَإِنْ عَدَلَ أَهْلُ الْهُدْنَةِ عَنِ الْمُوَادَعَةِ إِلَى ضِدِّهَا فَقَاتَلُوا قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ قَتَلُوا قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَخَذُوا مَالَ قَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ انْتَقَضَتْ هُدْنَتُهُمْ بِفِعْلِهِمْ وَلَمْ يُفْتَقَرْ إِلَى حُكْمِ الإِمَامِ لِنَقْضِهَا،وَجَازَ أَنْ يَبْدَأَ بِقِتَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ وَيَشُنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ وَيَهْجُمَ

[3971] - بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ١٠٢، وروضة الطَّالِبِينَ ٩ / ٢٣٧، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٧ .
[3972] - نِهَايَة الْمُحْتَاجِ ٨ / ١٠٢، وروضة الطَّالبِينَ ١٠ / ٣٣٧ .
[3973] - نِهَايَة الْمُحْتَاجِ ٨ / ١٠٢، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٧ .

عَلَيْهِمْ غِرَّةً وَبَيَاتًا،وَجَرَى ذَلِكَ فِي نَقْضِ الْهُدْنَةِ مَجْرَى تَصْرِيحِهِمْ بِالْقَوْلِ بِأَنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا الْهُدْنَةَ[٣٩٧٤] .

وَقَدْ غَزَا النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ بَعْدَ الْهُدْنَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا نَقَضُوا الْعَهْدَ بِمُعَاوَنَتِهِمْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى قِتَالِ خُزَاعَةَ،وَكَانَتْ حُلَفَاءَ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ،فِي فَتْحِ مَكَّةَ،قَالَ:ثُمَّ إِنَّ بَنِي نُفَاثَةَ مِنْ بَنِي الدِّئِلِ أَغَارُوا عَلَى بَنِي كَعْبٍ،وَهُمْ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ،وَكَانَتْ بَنُو كَعْبٍ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَتْ بَنُو نُفَاثَةَ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ،فَأَعَانَتْ بَنُو بَكْرٍ بَنِي نُفَاثَةَ،وَأَعَانَتْهُمْ قُرَيْشٌ بِالسِّلَاحِ وَالرَّقِيقِ،وَاعْتَزَلَتْهُمْ بَنُو مُدْلَجٍ،وَوَفَّوْا بِالْعَهْدِ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا عَلَيْهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَفِي بَنِي الدِّئلِ رَجُلَانِ هُمَا سَيِّدَاهُمْ:سَلْمُ بْنُ الْأَسْوَدِ،وَكُلْثُومُ بْنُ الْأَسْوَدِ،وَيَذْكُرُونَ أَنَّ مِمَّنْ أَعَانَهُمْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ،وَشَيْبَةَ بْنَ عُثْمَانَ،وَسُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو! فَأَغَارَتْ بَنُو الدِّئِلِ عَلَى بَنِي عَمْرٍو وَعَامَّتُهُمْ- زَعَمُوا نِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ وضعفاء الرجال- فألجؤهم،وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ دَارَ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ بِمَكَّةَ،فَخَرَجَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ حَتَّى أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِي أَصَابَهُمْ،وَمَا كَانَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«ارْجِعُوا فَتَفَرَّقُوا فِي الْبُلْدَانِ» وَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَخَوَّفَ الَّذِي كَانَ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ اشْدُدِ الْعَقْدَ،وَزِدْنَا فِي الْمُدَّةِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:وَلِذَلِكَ قَدِمْتَ هَلْ كَانَ مِنْ حَدَثٍ قِبَلَكُمْ؟ قَالَ مَعَاذَ اللهِ نَحْنُ عَلَى عَهْدِنَا وَصُلْحِنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ،لَا نُغَيِّرُ وَلَا نُبَدِّلُ،فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ:جَدِّدِ الْعَقْدَ وَزِدْنَا فِي الْمُدَّةِ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:جِوَارِي فِي جِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُ الذَّرَّ تُقَاتِلُكُمْ لَأَعَنْتُهَا عَلَيْكُمْ،ثُمَّ خَرَجَ فَأَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ،فَقَالَ عُمَرُ:مَا كَانَ مِنْ حِلْفِنَا جَدِيدًا فَأَخْلَقَهُ اللهُ،وَمَا كَانَ مِنْهُ مُثْبَتًا فَقَطَعَهُ اللهُ،وَمَا- كَانَ مِنْهُ- مَقْطُوعًا فَلَا وَصَلَهُ اللهُ،فَقَالَ- لَهُ أَبُو سُفْيَانَ:جُزِيتَ مِنْ ذِي رَحِمٍ سُوءًا،ثُمَّ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ عُثْمَانُ:جِوَارِي فِي جِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،ثُمَّ اتَّبَعَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارَ

[٣٩٧٤] - الْحَاوِي ١٨ / ٤٤٣، والبحر الرَّائق ٥ / ٨٥، والمبسوط لِلسَّرْخَسِيِّ ١٠ / ٨٦ - ٨٨، وأحكام الْقُرْآن لِلْجَصَّاصِ ٣ / ٦٧ .

يُكَلِّمُهُمْ،فَكُلُّهُمْ يَقُولُ:عَقْدُنَا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا يَئِسَ مِمَّا عِنْدَهُمْ دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ بنت رسول الله،ﷺ،فَكَلَّمَهَا فَقَالَتْ:إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ،وَإِنَّمَا ذَاكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.قَالَ:فَأْمُرِي أَحَدَ ابْنَيْكِ،قَالَتْ:إِنَّمَا هُمَا صَبِيَّانِ لَيْسَ مِثْلُهُمَا يُجِيرُ،قَالَ:فَكَلِّمِي عَلِيًّا،قَالَتْ:أَنْتَ فَكَلِّمْهُ،فَكَلَّمَ عَلِيًّا،فَقَالَ:يَا أَبَا سُفْيَانَ! إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْتَاتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجِوَارٍ،وَأَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَأَكْبَرُهَا وَأَمْنَعُهَا،فَأَجِرْ بَيْنَ عَشِيرَتِكَ،قَالَ:صَدَقْتَ وَأَنَا كَذَلِكَ،فَخَرَجَ فَصَاحَ:أَلَا إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا وَاللهِ لَا أَظُنُّ أَنْ يَخْفِرَنِي أَحَدٌ،ثُمَّ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ! قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ،وَلَا وَاللهِ مَا أَظُنُّ أَنْ يَخْفِرَنِي أَحَدٌ وَلَا يُرَدُّ جِوَارِي،فَقَالَ:أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا حَنْظَلَةَ! فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى ذَلِكَ فَزَعَمُوا وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ حِينَ أَدْبَرَ أَبُو سُفْيَانَ:«اللهُمَّ خُذْ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَرَوْنَا إِلَّا بَغْتَةً وَلَا يَسْمَعُونَ بِنَا إلا فجأة».

وقد أَبُو سُفْيَانَ مَكَّةَ فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ:مَا وَرَاءَكَ؟ هَلْ جِئْتَ بِكِتَابٍ مِنْ مُحَمَّدٍ أَوْ عَهْدِه؟ قَالَ:لَا وَاللهِ لَقَدْ أَبَى عَلَيَّ،وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَصْحَابَهُ فَمَا رَأَيْتُ قَوْمًا لِمَلِكٍ عَلَيْهِمْ أَطْوَعَ مِنْهُمْ لَهُ،غَيْرَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ قَالَ لِي:لِمَ تَلْتَمِسُ جِوَارَ النَّاسِ عَلَى مُحَمَّدٍ،وَلَا تُجِيرُ أَنْتَ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِكَ وَأَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَأَكْبَرُهَا وَأَحَقُّهَا أَنْ لَا يُخْفَرَ جِوَارُهُ،فَقُمْتُ بِالْجِوَارِ،ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدٍ فَذَكَرْتُ لَهُ أَنْ قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ،وَقُلْتُ:مَا أَظُنُّ أَنْ تَخْفِرَنِي،فَقَالَ:أَنْتَ يَا أَبَا حَنْظَلَةَ تَقُولُ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:رَضِيتَ بِغَيْرِ رِضًا وَجِئْتَنَا بِمَا لَا يُغْنِي عَنَّا وَلَا عَنْكَ شَيْئًا،وَإِنَّمَا لَعِبَ بِكَ عليّ لعمر الله مَا جِوَارُكَ بِجَائِرٍ،وَإِنَّ إِخْفَارَكَ عَلَيْهِمْ لَهَيِّنٌ،ثُمَّ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِه فَحَدَّثَهَا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ:فَتَحَ اللهُ مِنْ وَافِدِ قَوْمٍ فَمَا جِئْتَ بِخَيْرٍ،وَرَأَى رسول الله ﷺ سَحَابًا فَقَالَ:إِنَّ هَذَا السَّحَابَ لَيَنْصَبُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ.[٣٩٧٥]

ثَانِيًا:الْخِيَانَةُ فِي الْبَاطِنِ:

[٣٩٧٥] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٥/ ٩) صحيح مرسل

مِنْ مُوجِبَاتِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ تَرْكُ الْخِيَانَةِ بِأَنْ لاَ يَسْتَسِرَّ أَهْلُ الْهُدْنَةِ بِفِعْلٍ مَا يَنْقُضُ الْهُدْنَةَ لَوْ أَظْهَرُوهُ،مِثْل أَنْ يُمَايِلُوا فِي السِّرِّ عَدُوًّا أَوْ يَقْتُلُوا فِي السِّرِّ مُسْلِمًا،أَوْ يَأْخُذُوا لَهُ مَالاً،أَوْ يَزْنُوا بِمُسْلِمَةٍ،وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ[3976].

وَصَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّ الْمُهَادِنَ لَوْ تَجَسَّسَ أَخْبَارَ الْمُسْلِمِينَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ أَوْ زَنَى بِمُسْلِمَةٍ أَوْ ذِمِّيَّةٍ كَرْهًا أَوْ سَرَقَ لاَ يُنْتَقَضُ عَهْدُهُ[3977].

وَإِذَا اسْتَشْعَرَ الإِْمَامُ مِمَّنْ هَادَنَهُ وَظَهَرَتْ أَمَارَةٌ تَدُل عَلَى خِيَانَتِهِمْ فَقَدْ ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الصَّحِيحِ الْمَنْصُوصِ إِلَى أَنَّهُ جَازَ لِلإِْمَامِ أَنْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ بِأَنْ يُعْلِمَهُمْ أَنْ لاَ عَهْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } [الأنفال:٥٨]،يَعْنِي إِذَا خِفْتَ غَدْرَهُمْ وَخُدْعَتَهُمْ وَإِيقَاعَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ وَفَعَلُوا ذَلِكَ خَفِيًّا وَلَمْ يُظْهِرُوا نَقْضَ الْعَهْدِ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ أَيْ أَلْقِ إِلَيْهِمْ فَسْخَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْهُدْنَةِ حَتَّى يَسْتَوِيَ الْجَمِيعُ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{ عَلَى سَوَاءٍ } لِئَلاَّ يَتَوَهَّمُوا أَنَّكَ نَقَضْتَ الْعَهْدَ بِنَصْبِ الْحَرْبِ[3978].

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِْمَامِ نَبْذُ عَهْدِهِمْ وَإِنْذَارُهُمْ،فَإِنْ تَحَقَّقَ خِيَانَتُهُمْ نَبَذَهُ بِلاَ إِنْذَارٍ.

قَال ابْنُ الْعَرَبِيِّ:إِذَا ظَهَرَتْ آثَارُ الْخِيَانَةِ وَثَبَتَتْ دَلاَئِلُهَا وَجَبَ نَبْذُ الْعَهْدِ لِئَلاَّ يُوقِعَ التَّمَادِي عَلَيْهِ فِي الْهَلَكَةِ،وَجَازَ إِسْقَاطُ الْيَقِينِ هَهُنَا بِالظَّنِّ لِلضَّرُورَةِ،وَإِذَا كَانَ الْعَهْدُ قَدْ وَقَعَ فَهَذَا الشَّرْطُ عَادَةٌ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ لَفْظًا،إِذْ لاَ يُمْكِنُ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا[3979].

وَقَال الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ:يَنْتَقِضُ عَهْدُ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِمُجَرَّدِ خِيَانَتِهِمْ وَلاَ يَفْتَقِرُ إِلَى حُكْمِ الإِْمَامِ لِنَقْضِهَا.

[3976] - الْحَاوِي ١٨ / ٤٤٣، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٧، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٨٩، ٦٢٢، ٦٢٣ .

[3977] - حَاشِيَة ابْن عَابِدِينَ ٣ / ٢٤٩ .

[3978] - أَحْكَام الْقُرْآنِ لِلْجَصَّاص ٣ / ٦٧، وعمدة الْقَارِئ ١٥ / ١٠٠ - ١٠١، والدسوقي ٢ / ٢٠٦، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٨، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٩٠ .

[3979] - أَحْكَام الْقُرْآنِ لاِبْنِ الْعَرَبِيِّ ٢ / ٨٦٠ - ٨٦١، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٦ .

وَحُكِيَ قَوْلٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّهُ لاَ يَنْبِذُ عَقْدَ الْهُدْنَةِ كَمَا لاَ يَنْبِذُ عَقْدَ الذِّمَّةِ بِالتُّهْمَةِ[٣٩٨٠].

ثَالِثًا:الْعُدُول عَنِ الْمُجَامَلَةِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ:

مِنْ مُوجِبَاتِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ الْمُجَامَلَةُ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ،فَهِيَ فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ أَغْلَظُ مِنْهَا فِي حُقُوقِ الْكُفَّارِ الْمُهَادِنِينَ،فَيَلْزَمُهُمْ فِي حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَيَبْذُلُوا لَهُمُ الْجَمِيلَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ،وَلَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَبِيحِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا لَهُمُ الْجَمِيلَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣]،فَإِنْ عَدَلَ الْكُفَّارُ الْمُهَادِنُونَ عَنِ الْجَمِيلِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ،فَكَانُوا يُكْرِمُونَ الْمُسْلِمِينَ فَصَارُوا يَسْتَهِينُونَ بِهِمْ،وَكَانُوا يُضَيِّفُونَ الرُّسُلَ وَيَصِلُونَهُمْ فَصَارُوا يَقْطَعُونَهُمْ،وَكَانُوا يُعَظِّمُونَ كِتَابَ الإِمَامِ فَصَارُوا يَطْرَحُونَهُ،وَكَانُوا يَزِيدُونَهُ فِي الْخِطَابِ فَصَارُوا يَنْقُصُونَهُ،فَهَذِهِ رِيبَةٌ لِوُقُوعِهَا بَيْنَ شَكَّيْنِ ؛لأَنَّهَا تَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدُوا بِهَا نَقْضَ الْهُدْنَةِ،وَتَحْتَمِلُ أَنْ لاَ يُرِيدُوا بِهَا نَقْضَهَا،فَيَسْأَلُهُمُ الإِمَامُ عَنْهَا وَعَنِ السَّبَبِ فِيهَا،فَإِنْ ذَكَرُوا عُذْرًا يَجُوزُ مِثْلُهُ قَبِلَهُ مِنْهُمْ وَكَانُوا عَلَى هُدْنَتِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَذْكُرُوا عُذْرًا أَمَرَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى عَادَتِهِمْ مِنَ الْمُجَامَلَةِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ،فَإِنْ عَادُوا أَقَامَ عَلَى هُدْنَتِهِمْ،وَإِنْ لَمْ يَعُودُوا نَقَضَهَا بَعْدَ إِعْلاَمِهِمْ بِنَقْضِهَا [٣٩٨١].

ذِكْرُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ بِسُوءٍ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَثَرِ هَذَا السَّبِّ عَلَى عَقْدِ الْهُدْنَةِ.

فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ (الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ) إِلَى أَنَّ مِمَّا يَنْتَقِضُ بِهِ الْعَهْدُ هُوَ سَبُّهُمُ اللَّهَ تَعَالَى أَوِ الْقُرْآنَ أَوِ الرَّسُولَ ﷺ أَوْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ مُجْمَعًا عَلَى نُبُوَّتِهِ عِنْدَنَا[٣٩٨٢].

[٣٩٨٠] - رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٨ .

[٣٩٨١] - الْحَاوِي للماوردي ١٨ / ٤٤٤ .

[٣٩٨٢] - شَرْح الزُّرْقَانِيّ ٣ / ١٤٧، وجواهر الأكليل ١ / ٢٦٩، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٣٠٢، ومغني الْمُحْتَاج ٤ / ٢٦٤، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٦٢٢ .

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى عَدَمِ انْتِقَاضِ عَقْدِ الْهُدْنَةِ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ،لأَنَّ سَبَّ النَّبِيِّ ﷺ كُفْرٌ مِنَ الْكَافِرِ الْمُهَادِنِ ؛وَالْكُفْرُ الْمُقَارِنُ لِعَقْدِ الْهُدْنَةِ لاَ يَمْنَعُ عَقْدَ الْهُدْنَةِ فِي الابْتِدَاءِ فَالْكُفْرُ الطَّارِئُ لاَ يَرْفَعُهُ فِي حَالِ الْبَقَاءِ[٣٩٨٣]،عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ عَائِشَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ:دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:السَّامُ عَلَيْكُمْ،قَالَتْ عَائِشَةُ:فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ:وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ،قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَهْلًا يَا عَائِشَةُ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" قَدْ قُلْتُ:وَعَلَيْكُمْ "[٣٩٨٤].

وَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا سَبٌّ مِنْهُمْ لَهُ ﷺ،وَلَوْ كَانَ نَقْضًا لِلْعَهْدِ لَقَتَلَهُمْ لِصَيْرُورَتِهِمْ حَرْبِيِّينَ[٣٩٨٥].

وَقَيَّدَ الْحَنَفِيَّةُ عَدَمَ الانْتِقَاضِ بِمَا إِذَا لَمْ يُعْلِنِ الْمُهَادِنُ السَّبَّ،أَمَّا إِذَا أَعْلَنَ بِالسَّبِّ أَوِ اعْتَادَهُ وَكَانَ مِمَّا لاَ يَعْتَقِدُهُ قُتِل وَلَو امْرَأَةً،وَبِهِ يُفْتَى[٣٩٨٦].

رَابِعًا:نَبْذُ الْهُدْنَةِ إِذَا رَآهُ الإِمَامُ أَصْلَحَ:

صَرَّحَ الْحَنَفِيَّةُ بِأَنَّهُ لَوْ رَأَى الإِمَامُ الْمُوَادَعَةَ خَيْرًا فَوَادَعَ أَهْل الْحَرْبِ ثُمَّ نَظَرَ فَوَجَدَ مُوَادَعَتَهُمْ شَرًّا لِلْمُسْلِمِينَ نَبَذَ إِلَى مَلِكِهِمُ الْمُوَادَعَةَ وَقَاتَلَهُمْ[٣٩٨٧].

بُلُوغُ الْمُهَادِنِ مَأْمَنَهُ بَعْدَ نَقْضِ الْعَهْدِ:

وَعِنْدَ نَبْذِ الْعَهْدِ يَجِبُ إِبْلاَغُ مَنْ بِدَارِ الإِسْلاَمِ مِنْ أَهْل الْهُدْنَةِ إِلَى مَأْمَنِهِ،لَكِنْ مَنْ عَلَيْهِ حَقُّ آدَمِيٍّ مِنْ مَالٍ أَوْ حَدِّ قَذْفٍ أَوْ قِصَاصٍ يُسْتَوْفَى مِنْهُ أَوَّلاً[٣٩٨٨].

وَالْمُعْتَبَرُ فِي إِبْلاَغِ الْكَافِرِ الْمَأْمَنَ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَهْل عَهْدِهِمْ وَيُلْحِقَهُ بِدَارِ الْحَرْبِ،وَاكْتَفَى ابْنُ كَجٍّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ بِإِلْحَاقِهِ بِأَوَّل بِلاَدِ الْكُفْرِ وَقَال:لاَ

[٣٩٨٣] - حَاشِيَة ابْن عَابِدِينَ ٣ / ٢٧٨، ٢٤٩، وفتح الْقَدِير ٤ / ٣٨١ ط الأْمِيرِيَّة .

[٣٩٨٤] - صحيح البخاري (٨/ ١٢)(٦٠٢٤) [ش (مهلا) أي تأني واتئدي.(الرفق) لين الجانب والأخذ بالأسهل]

[٣٩٨٥] - فَتْح الْقَدِير ٤ / ٣٨١ ط الأْمِيرِيَّة .

[٣٩٨٦] - ابْن عَابِدِينَ ٣ / ٢٧٨ - ٢٧٩

[٣٩٨٧] - الْمَبْسُوط لِلسَّرْخَسِيَ ١٠ / ٨٧، والفتاوى الْهِنْدِيَّة ٢ / ١٩٧، وشرح السَّيْر الْكَبِير ٥ / ١٦٩٧، تبيين الْحَقَائِق ٣ / ٢٤٦ .

[٣٩٨٨] - رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٨، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٩١ .

يَلْزَمُ إِلْحَاقُهُ بِبَلَدِهِ الَّذِي يَسْكُنُهُ فَوْقَ ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ أَوَّلِ بِلاَدِ الْكُفْرِ وَبَلَدِهِ الَّذِي يَسْكُنُهُ بَلَدٌ لِلْمُسْلِمِينَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُرُورِ عَلَيْهِ.

وَنَقَل النَّوَوِيُّ عَنِ الْبَحْرِ:أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَأْمَنَانِ لَزِمَ الإِمَامَ إِلْحَاقُهُ بِسَكَنِهِ مِنْهُمَا،وَلَوْ كَانَ يَسْكُنُ بَلَدَيْنِ فَالاخْتِيَارُ لِلإِمَامِ[٣٩٨٩].

أَحْوَال نَقْضِ الْهُدْنَةِ مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ الْمُهَادِنِينَ:

نَقْضُ الْهُدْنَةِ مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ الْمُهَادِنِينَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جَمِيعِهِمْ أَوْ مِنْ بَعْضِهِمْ،فَإِنْ كَانَ النَّقْضُ مِنْ جَمِيعِهِمُ انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ جَمِيعًا وَلَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ أَمَانٌ عَلَى نَفْسٍ أَوْ مَال[٣٩٩٠].

وَإِنْ كَانَ النَّقْضُ مِنْ بَعْضِهِمْ فَإِمَّا أَنْ يُظْهِرَ الْبَعْضُ الآْخَرُ الرِّضَا بِهَذَا النَّقْضِ أَوْ يَسْكُتُوا عَنْهُ أَوْ يُظْهِرُوا الْكَرَاهَةَ لَهُ.فَإِنْ أَظْهَرَ الْبَعْضُ الآْخَرُ الرِّضَا فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَيَنْتَقِضُ عَهْدُهُمْ جَمِيعًا،النَّاقِضُونَ وَالرَّاضُونَ بِهِ،وَيَصِيرُونَ جَمِيعُهُمْ حَرْبًا.وَكَذَا إِنْ سَكَتَ الْبَعْضُ الآْخَرُ فَلَمْ يُظْهِرُوا رِضًا بِالنَّقْضِ وَلاَ كَرَاهَةً لَهُ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ انْتَقَضَ عَهْدُ الْجَمِيعِ،وَيَكُونُ سُكُوتُهُمْ نَقْضًا لِلْعَهْدِ[٣٩٩١].

قَال اللَّهُ تَعَالَى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٥]،وَكَذَلِكَ كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَاقِرِ نَاقَةِ صَالِحٍ،بَاشَرَ عَقْرَهَا أُحَيْمِرُ وَهُوَ الْقَدَّادُ بْنُ سَالِفٍ،وَأَمْسَكَ قَوْمُهُ عَنْهُ،فَأَخَذَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ بِذَنْبِهِ،فَقَال تَعَالَى:{ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) } [الشمس].

وَقَدْ وَادَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ،وَهَمَّ بَعْضُهُمْ بِقَتْلِهِ،فَجَعَلَهُ نَقْضًا مِنْهُمْ لِعَهْدِهِ فَغَزَاهُمْ وَأَجْلاَهُمْ.فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،«أَنَّ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ،وَقُرَيْظَةَ،حَارَبُوا رَسُولَ اللهِ

[٣٩٨٩] - رَوْضَة الطَّالبِينَ ١٠ / ٣٣٨ - ٣٣٩

[٣٩٩٠] - تَبْيِين الْحَقَائِقِ ٣ / ٢٤٦، وشرح السِّيَر الْكَبِير ٥ / ١٦٩٦ - ١٦٩٧، الحاوي ١٨ / ٤٤٠ - ٤٤١ والمغني ٨ / ٤٦٢، وحاشية الدُّسُوقِيّ ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٦، وجواهر الإِكْلِيل ١ / ٢٧٠ .

[٣٩٩١] - رَوْضَة الطَّالبِينَ ١٠ / ٣٣٨، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٩١، والمغني ٨ / ٤٦٢١، والبحر الرَّائق ٥ / ٨٦، وبدائع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩ - ١١٠ .

ﷺ،فَأَجْلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ،وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ،حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ بَعْدَ ذَلِكَ،فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ،وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ،فَآمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا،وَأَجْلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ،بَنِي قَيْنُقَاعَ،وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ،وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ،وَكُلَّ يَهُودِيٍّ كَانَ بِالْمَدِينَةِ»[٣٩٩٢]

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَبْدَأَ مَنْ خَافَ خِيَانَتَهُ بِالْحَرْبِ،وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجِدَ دَلَالَةً قَوِيَّةً تَدُلُّ عَلَى نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ،وَيُقَالُ:إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قُرَيْظَةَ:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال:٥٨] الْآيَةُ،كَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ،وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} [الأنفال:٥٨] مُجَازُ فَأَمَّا فَإِنْ تَخَافَنَّ،وَمَعْنَاهَا فَإِمَّا تُوقِنَنَّ مِنْهُمْ خِيَانَةً،وَغَدْرًا،أَوْ خِلَافًا،وَغِشًّا وَنَحْوَ ذَلِكَ[٣٩٩٣]

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَكَلَّمَهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الْكِلَابِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ،فَقَالُوا:نَفْعَلُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ اجْلِسْ هَا هُنَا نَقْضِي حَاجَتَك،وَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَسَوّلَ لَهُمْ الشّيْطَانُ الشّقَاءِ الّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ فَتَآمَرُوا بِقَتْلِهِ ﷺ وَقَالُوا:أَيّكُمْ يَأْخُذُ هَذِهِ الرّحَا وَيَصْعَدُ فَيُلْقِيهَا عَلَى رَأْسِهِ يَشْدَخُهُ بِهَا ؟ فَقَالَ أَشْقَاهُمْ عَمْرُو بْنُ جِحَاشٍ:أَنَا،فَقَالَ لَهُمْ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ:لَا تَفْعَلُوا فَوَاَللّهِ لَيُخَبّرَنّ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ وَإِنّهُ لَنَقْضُ الْعَهْدِ الّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ وَجَاءَ الْوَحْيُ عَلَى الْفَوْرِ إلَيْهِ مِنْ رَبّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا هَمّوا بِهِ فَنَهَضَ مُسْرِعًا،وَتَوَجّهَ إلَى الْمَدِينَةِ،وَلَحِقَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا:نَهَضْتَ وَلَمْ نَشْعُرْ بِكَ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَمّتْ يَهُودُ بِهِ وَبَعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ اُخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ،وَلَا تُسَاكِنُونِي بِهَا،وَقَدْ أَجّلْتُكُمْ عَشْرًا،فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا،ضَرَبْتُ عُنُقَهُ فَأَقَامُوا أَيّامًا يَتَجَهّزُونَ وَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ:أَنْ لَا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ فَإِنّ مَعِي أَلْفَيْنِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ فَيَمُوتُونَ دُونَكُمْ وَتَنْصُرُكُمْ قُرَيْظَةُ وَحُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ،وَطَمِعَ رَئِيسُهُمْ حَيّ بْنُ أَخْطَبَ فِيمَا قَالَ لَهُ وَبَعَثَ إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إنّا لَا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا،فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك،فَكَبّرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَنَهَضُوا إلَيْهِ

[٣٩٩٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧)٦٢ - (١٧٦٦)

[٣٩٩٣] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ٣٢٦)(٦٦٩٣)

وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَحْمِلُ اللّوَاءَ فَلَمّا انْتَهَى إلَيْهِمْ قَامُوا عَلَى حُصُونِهِمْ يَرْمُونَ بِالنّبْلِ وَالْحِجَارَةِ وَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ وَخَانَهُمْ ابْنُ أُبَيّ وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ،وَلِهَذَا شَبّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِصّتَهُمْ وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ { كَمَثَلِ الشّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكَ } [الْحَشْرُ ١٦]،فَإِنّ سُورَةَ الْحَشْرِ هِيَ سُورَةُ بَنِي النّضِيرِ،وَفِيهَا مَبْدَأُ قِصّتِهِمْ وَنِهَايَتُهَا،فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَطَعَ نَخْلَهُمْ وَحَرّقَ،فَأَرْسَلُوا إلَيْهِ:نَحْنُ نَخْرُجُ عَنْ الْمَدِينَةِ،فَأَنْزَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا بِنُفُوسِهِمْ وَذَرَارِيّهِمْ وَأَنّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إلّا السّلَاحَ وَقَبَضَ النّبِيّ ﷺ الْأَمْوَالَ وَالْحَلْقَةَ وَهِيَ السّلَاحُ وَكَانَتْ بَنُو النّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ لِنَوَائِبِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُخَمّسْهَا لِأَنّ اللّهَ أَفَاءَهَا عَلَيْهِ،وَلَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ.وَخَمّسَ قُرَيْظَةَ.قَالَ مَالِكٌ:خَمّسَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قُرَيْظَةَ،وَلَمْ يُخَمّسْ بَنِي النّضِيرِ.لِأَنّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلَا رِكَابِهِمْ عَلَى بَنِي النّضِيرِ كَمَا أَوْجَفُوا عَلَى قُرَيْظَةَ وَأَجْلَاهُمْ إلَى خَيْبَرَ،وَفِيهِمْ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ كَبِيرُهُمْ وَقَبَضَ السّلَاحَ وَاسْتَوْلَى عَلَى أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَوَجَدَ مِنْ السّلَاحِ خَمْسِينَ دِرْعًا،وَخَمْسِينَ بَيْضَةً وَثَلَاثَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا،وَقَالَ هَؤُلَاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ وَكَانَتْ قِصّتُهُمْ فِي رَبِيعٍ الْأَوّلِ سَنَةَ أَرْبَعٍ مِنْ الْهِجْرَةِ.[٣٩٩٤]

وعن الْحَسَنَ،قال:إِنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ يَوْمَ الْأَحْزَابِ،فَقَالَ:اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تَشْفِيَنِي مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ،فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَحْزَابِ وَانْصَرَفَ إِلَى قُرَيْظَةَ فَحَاصَرَهُمْ،فَوَلِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ حُكْمَهُمْ،فَحَكَمَ فِيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ،وَأَنْ تُسْبَى الذَّرَارِيُّ،فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ أَنْ يَقْتُلَ مِنْ مُقَاتِلَتِهِمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،ثُمَّ حُمِلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ،وَكَانَ فِي جِنَازَتِهِ يَوْمَئِذٍ مُنَافِقُونَ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:مَا أَخَفَّهُ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ:فِيمَ ذَلِكَ؟ قَالُوا:فِيمَا حَكَمَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَهُمْ كَاذِبُونَ،وَقَدْ كَانَ سَعْدٌ كَثِيرَ اللَّحْمِ،عَبْلًا مِنَ الرِّجَالِ،عَظِيمًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَحْمِلُونَهُ:«يَقُولُونَ مَا أَخَفَّهُ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدِ اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِرُوحِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»[٣٩٩٥]

[٣٩٩٤] - زاد المعاد - موافق للمطبوع (٣/ ١١٥)

[٣٩٩٥] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٩٥)(٢٩٦٢) صحيح مرسل

وَخَرَجَ عَدُوُّ اللَّهِ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ،حَتَّى أَتَى كَعْبَ ابْنِ أَسَدٍ الْقُرَظِيَّ،صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ،وَكَانَ قَدْ وَادَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ،وَعَاقَدَهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَاهَدَهُ،فَلَمَّا سَمِعَ كَعْبٌ بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حِصْنِهِ،فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ،فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ،فَنَادَاهُ حُيَيٌّ:وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي،قَالَ:وَيْحكَ يَا حُيَيُّ:إنَّكَ امْرُؤٌ مَشْئُومٌ،وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا،فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ،وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا،قَالَ وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ،قَالَ:مَا أَنَا بِفَاعِلٍ،قَالَ:وَاَللَّهِ إنْ أَغْلَقْتُ دُونِي إلَّا عَنْ جَشِيشَتِكَ،أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا،فَاحْفَظْ الرَّجُلَ،فَفَتَحَ لَهُ،فَقَالَ:وَيْحَكَ يَا كَعْبُ،جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ وَبِبَحْرٍ طَامٍّ جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا،حَتَّى أَنْزَلْتهمْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ،وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إلَى جَانِبِ أُحُدٍ،قَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لَا يَبْرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.قَالَ:فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ:جِئْتنِي وَاَللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ،وَبِجَهَامٍ.قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ،فَهُوَ يَرْعَدُ وَيَبْرُقُ،لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ،وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ،فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.فَلَمْ يَزَلْ حُيَيٌّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ،حَتَّى سَمَحَ لَهُ،عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا (مِنْ اللَّهِ) وَمِيثَاقًا:لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ،وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ.فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ،وَبَرِئَ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.[٣٩٩٦]

وعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:لَمَّا وَادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ،وَكَانَتْ خُزَاعَةُ حُلَفَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،وَكَانَتْ بَنُو بَكْرٍ حُلَفَاءَ قُرَيْشٍ،فَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَدَخَلَتْ بَنُو بَكْرٍ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ،فَكَانَتْ بَيْنَ خُزَاعَةَ وَبَيْنَ بَكْرٍ بَعْدُ قِتَالٌ،فَأَمَدَّتْهُمْ قُرَيْشٌ بِسِلَاحٍ وَطَعَامٍ وَظَلَّلُوا عَلَيْهِمْ،وَظَهَرَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ،فَقَتَلُوا فِيهِمْ،فَقَدِمَ وَافِدُ خُزَاعَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَخْبَرَ بِمَا صَنَعَ الْقَوْمُ،وَدَعَاهُ إِلَى النُّصْرَةِ.."[٣٩٩٧].

[٣٩٩٦] - سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢٢٠) بلا سند

الجشيشة:طَعَام يصنع من الجشيش، وَهُوَ الْبر يطحن غليظا، وَهُوَ الّذي تَقول لَهُ الْعَامَّة:«دشيش» بِالدَّال، وَالصَّوَاب الْجِيم.

[٣٩٩٧] - شرح معاني الآثار (٣/ ٢٩١)(٥٤٠١) صحيح لغيره

فَدَل عَلَى أَنَّ الْمُمْسِكَ يَجْرِي عَلَيْهِ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ حُكْمُ الْمُبَاشِرِ ؛وَلأَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَقْدُ بَعْضِهِمْ لِلْهُدْنَةِ مُوجِبًا لأَمَانِ جَمِيعِهِمْ وَإِنْ أَمْسَكُوا،كَانَ نَقْضُ بَعْضِهِمْ مُوجِبًا لِحَرْبِ جَمِيعِهِمْ إِذَا أَمْسَكُوا[٣٩٩٨].

وَإِنْ كَانَ النَّقْضُ مِنْ بَعْضِهِمْ وَأَظْهَرَ الْبَعْضُ الآْخَرُ الْكَرَاهَةَ لِلنَّقْضِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ انْتَقَضَ الْعَهْدُ فِي حَقِّ النَّاقِضِينَ فَقَطْ [٣٩٩٩].وَنَصَّ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ نَقَضَ السُّوقَةُ الْعَهْدَ وَلَمْ يَعْلَمِ الرَّئِيسُ وَالأْشْرَافُ بِذَلِكَ،فَفِي انْتِقَاضِ الْعَهْدِ فِي حَقِّ السُّوقَةِ وَجْهَانِ:وَجْهُ الْمَنْعِ:أَنَّهُ لاَ اعْتِبَارَ بِعَقْدِهِمْ فَكَذَا بِنَقْضِهِمْ.

وَلَوْ نَقَضَ الرَّئِيسُ وَامْتَنَعَ الأْتْبَاعُ وَأَنْكَرُوا،فَفِي الاِنْتِقَاضِ فِي حَقِّهِمْ قَوْلاَنِ.وَجْهُ النَّقْضِ:أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ الْعَقْدُ فِي حَقِّ الْمَتْبُوعِ فَكَذَا التَّابِعُ.قَال النَّوَوِيُّ:وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ إِنْ أَنْكَرُوا بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ بِأَنِ اعْتَزَلُوهُ أَوْ بَعَثُوا إِلَى الإْمَامِ بِأَنَّا مُقِيمُونَ عَلَى الْعَهْدِ لَمْ يَنْتَقِضْ.وَإِذَا انْتَقَضَ فِي حَقِّ بَعْضِهِمْ،فَإِنْ تَمَيَّزُوا فَذَاكَ،وَإِلاَّ فَلاَ يُبَيِّتُهُمُ الإْمَامُ وَلاَ يُغَارُ عَلَيْهِمْ إِلاَّ بَعْدَ الإْنْذَارِ،وَيَبْعَثُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَنْقُضُوا لِيَتَمَيَّزُوا أَوْ يُسَلِّمُوهُمْ،فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا مَعَ الْقُدْرَةِ صَارُوا نَاقِضِينَ أَيْضًا.وَمَنْ أُخِذَ مِنْهُمْ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ مِنَ النَّاقِضِينَ أَوْ قَامَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ لَمْ يَخْفَ حُكْمُهُ،وَإِلاَّ فَيُصَدَّقُ بِيَمِينِهِ أَنَّهُ لَمْ يَنْقُضْ[٤٠٠٠].

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

٣٩٩٨ - الْحَاوِي للماوردي ١٨ / ٤٤٠ - ٤٤١، وانظر رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٧ .

٣٩٩٩ - بَدَائِع الصَّنَائِع ٧ / ١٠٩ - ١١٠، والبحر الرَّائِق ٥ / ٨٦، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٨، ومطالب أُولِي النُّهَى ٢ / ٥٩١، المغني ٨ / ٤٦٢ .

٤٠٠٠ - رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٣٣٨ .

الباب السادس والعشرون
أحكام الغنائم والرضخ والسلب والتنفيل والفيء

المبحث الأول
الخلاصة في أحكام الغنائم

التَّعْرِيفُ:

الْغَنِيمَةُ وَالْمَغْنَمُ وَالْغَنِيمُ وَالْغُنْمُ بِالضَّمِّ فِي اللُّغَةِ:الْفَيْءُ،يُقَال:غَنِمَ الشَّيْءَ غُنْمًا:فَازَ بِهِ،وَغَنِمَ الْغَازِي فِي الْحَرْبِ:ظَفِرَ بِمَال عَدُوِّهِ[4001] .

وَالْغَنِيمَةُ فِي الاصْطِلاَحِ:اسْمٌ لِلْمَأْخُوذِ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى سَبِيل الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ،إِمَّا بِحَقِيقَةِ الْمَنَعَةِ أَوْ بِدَلاَلَتِهَا،وَهِيَ إِذْنُ الإِمَامِ،وَهَذَا عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ[4002] .

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:هِيَ اسْمٌ لِلْمَأْخُوذِ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ الْمُوجَفِ عَلَيْهَا بِالْخَيْل وَالرِّكَابِ لِمَنْ حَضَرَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ[4003] .

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ - الْفَيْءُ .

الْفَيْءُ:هُوَ الْمَال الْحَاصِل لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَال الْكُفَّارِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلاَ إِيجَافِ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ[4004] .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ:أَنَّ الْغَنِيمَةَ مَا أُخِذَ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ عَنْوَةً وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ،وَالْفَيْءُ مَا أُخِذَ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلاَ إِيجَافِ خَيْلٍ .

وَثَمَّةَ فَرْقٌ آخَرُ بَيْنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ،هُوَ أَنَّ الْفَيْءَ لاَ يُخَمَّسُ كَمَا تُخَمَّسُ الْغَنِيمَةُ .

[4001] - القاموس المحيط،ولسان العرب،والمعجم الوسيط .

[4002] - بدائع الصنائع ٧ / ١١٨،والبحر الرائق شرح كنز الدقائق ٥ / ٨٢ .

[4003] - الأم ٤ / ١٣٩ .

[4004] - بدائع الصنائع ٧ / ١١٦،ومنح الجليل على مختصر خليل ١ / ٧٣٧،ونهاية المحتاج ٦ / ١٣٣،والمغني ٦ / ٤٠٢،وكشاف القناع ٣ / ١٠٠ .

ب – الْجزْيَةُ:

الْجزْيَةُ:اسْمٌ لمَا يُؤْخَذُ منْ أَهْل الذِّمَّة،فَهُوَ عَامٌّ يَشْمَل كُل جزْيَة،سَوَاءٌ أَكَانَ مُوجبُهَا الْقَهْرَ وَالْغَلَبَةَ وَفَتْحَ الأَرْض عَنْوَةً،أَوْ عَقْدُ الذِّمَّة الَّذي يَنْشَأُ بالتَّرَاضي [4005]وَالْغَنيمَةُ مُخَالفَةٌ للْجزْيَة ؛لأَنَّ الْجزْيَةَ تُؤْخَذُ منْ غَيْر قتَال،وَالْغَنيمَةُ لاَ تَكُونُ إلاَّ في الْقتَال .

ج – النَّفَل:

النَّفَل بالتَّحْريك في اللُّغَة:الْغَنيمَةُ،وَالْجَمْعُ أَنْفَالٌ .

وَمنْ مَعَانيه في الاصْطلاَح:مَا خَصَّهُ الإمَامُ لبَعْض الْغُزَاة تَحْريضًا لَهُمْ عَلَى الْقتَال،وَسُمِّيَ نَفْلاً لكَوْنه زيَادَةً عَلَى مَا يُسْهمُ لَهُمْ منَ الْغَنيمَة[4006] .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْغَنيمَة وَالنَّفَل:أَنَّ النَّفَل يَنْفَردُ به بَعْضُ الْغَانمينَ منَ الْغَنيمَة زيَادَةً عَلَى أَسْهُمهمْ لعَمَلٍ قَامُوا به نكَايَةً بالْعَدُوِّ،أَمَّا الْغَنيمَةُ فَللْجَميع[4007] .

د – السَّلَبُ:

السَّلَبُ:مَا يَأْخُذُهُ الْمُقَاتل الْمُسْلمُ منْ قَتيله الْكَافر في الْحَرْب ممَّا عَلَيْه منْ ثيَابٍ وَآلاَت حَرْبٍ،وَمنْ مَرْكُوبه الَّذي يُقَاتل عَلَيْه،وَمَا عَلَيْه منْ سَرْجٍ وَلجَامٍ[4008] .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ السَّلَب وَالْغَنيمَة:أَنَّ السَّلَبَ يَكُونُ زيَادَةً عَلَى سَهْم الْمُقَاتل ممَّا مَعَ الْقَتيل .

الْحُكْمُ التَّكْليفيُّ للْغَنيمَة:

الْغَنيمَةُ مَشْرُوعَةٌ أَحَلَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لهَذه الأُمَّة،وَحلُّهَا مُخْتَصٌّ بهَا عن جَابرَ بْن عَبْد اللَّه،أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ:" أُعْطيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلي:نُصرْتُ بالرُّعْب مَسيرَةَ شَهْرٍ،وَجُعلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجدًا وَطَهُورًا،فَأَيُّمَا رَجُلٍ منْ أُمَّتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ

[4005] – الفتاوى الهندية ٢ / ٢٤٤،وجواهر الإكليل ٢ / ٢٦٦ .

[4006] – بدائع الصنائع للكاساني ٧ / ١١٥،وشرح السير الكبير للسرخسي ٢ / ٥٩٣،ومنح الجليل على مختصر خليل ١ / ٧٣٧ .

[4007] – كشاف القناع ٣ / ٨٦ .

[4008] – الروضة ٦ / ٣٧٤ .

فَلْيُصَلِّ،وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ،وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "[4009]

(وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ) أَيِ:الْغَنَائِمُ وَهِيَ الْأَمْوَالُ الْمَأْخُوذَةُ مِنَ الْكُفَّارِ (وَلَمْ تَحِلَّ):وَفِي نُسْخَةٍ:بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيْ:لَمْ تُبَحِ الْغَنَائِمُ (لِأَحَدٍ قَبْلِي) أَيْ:مِنَ الْأَنْبِيَاءِ،بَلْ غَنَائِمُهُمْ تُوضَعُ فَتَأْتِي نَارٌ تَحْرِقُهَا،هَكَذَا أَطْلَقَهُ بَعْضُ الشُّرَّاحِ - مِنْ عُلَمَائِنَا،وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ:مِنْ قَبْلِنَا مِنَ الْأُمَمِ إِذَا غَنِمُوا الْحَيَوَانَاتِ يَكُونُ مِلْكًا لِلْغَانِمِينَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ،فَخُصَّ نَبِيُّنَا - ﷺ - بِأَخْذِ الْخُمُسِ وَالصَّفِيِّ،وَإِذَا غَنِمُوا الْحَيَوَانَاتِ غَيْرَهَا جَمَعُوهُ فَتَأْتِي نَارٌ فَتَحْرِقُهُ.أَقُولُ:وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي إِحْرَاقِ الْغَنِيمَةِ تَحْصِيلُ تَحْسِينِ النِّيَّةِ وَتَزْيِينُ الطَّوِيَّةِ فِي مَرْتَبَةِ الْإِخْلَاصِ فِي الْجِهَادِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعِبَادِ وَرَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.[4010]

وَكَانَتِ الْغَنِيمَةُ فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً يَصْنَعُ فِيهَا مَا يَشَاءُ،ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال:41] فَجَعَل خُمُسَهَا مَقْسُومًا عَلَى هَذِهِ الأَسْهُمِ الْخَمْسَةِ،وَجَعَل أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا لِلْغَانِمِينَ ؛لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ الْغَنِيمَةَ إِلَى الْغَانِمِينَ فِي قَوْلِهِ:{ غَنِمْتُمْ } وَجَعَل الْخُمُسَ لِغَيْرِهِمْ،فَدَل ذَلِكَ عَلَى أَنَّ سَائِرَهَا لَهُمْ[4011].

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ طَرِيقَةَ قِسْمَةِ المَغَانِمِ التِي يَغْنَمُهَا المُسْلِمُونَ فِي الحَرْبِ.وَالغَنِيمَةِ هِيَ المَالُ المَأْخُوذُ مِنَ الكُفَّارِ بِإِيجَافِ خَيْلٍ وَرِكَابٍ.أَمَّا الفَيْءُ فَهُوَ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ (أَيْ بُدُونِ حَرْبٍ أَوْ بِدُونِ خُرُوجِ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ إِلَى

[4009] - صحيح البخاري (1/ 74)(335) وصحيح مسلم (1/ 370) 3 - (521)

[ش(نصرت بالرعب) هو الخوف يقذف في قلوب أعدائي.(مسيرة شهر) أي بيني وبينه مسيرة شهر.(المغانم) جمع مغنم وهو الغنيمة وهو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا]

[4010] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (9/ 3675)

[4011] - روضة الطالبين 6 / 368،وكشاف القناع 3 / 77،وأحكام القرآن للقرطبي 7 / 361 .

الأَعْدَاءِ:كَالأَمْوَالِ التِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا،أَوْ يَمُوتُونَ عَنْهَا دُونَ وَارِثٍ لَهُمْ،وَالخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) .

يَقُولُ تَعَالَى:اعْلَمُوا يَا أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ مَا غَنِمْتُمُوهُ مِنَ الكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ فَاجْعَلُوا أَوَّلاً خُمْسَهُ للهِ تَعَالَى لِيُنْفِقَ فِيمَا يُرْضِيه مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ العَامَّةِ:كَالدَّعْوَةِ للإِسْلاَمِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِه،وَعِمَارَةِ الكَعْبَةِ وَكِسْوَتِها،ثُمَّ أعْطُوا مِنْهُ لِلرَّسُولِ كِفَايَتَهُ لِنَفْسِه وَنِسَائِه مُدَّةَ سَنَةٍ،ثُمَّ أعْطُوا مِنْهُ ذَوِي القُرْبَى مِنْ أهْلِه وَعَشِيرَتِه نَسَباً وَوَلاءً (وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ بِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أَخِيهِ الْمُطَّلِبِ الْمُسْلِمِينَ)،ثُمَّ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ،وَهُمُ اليَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ،وَابْنُ السَّبِيلِ (وَهُوَ الْمُجْتَازُ الذِي نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ) .وَهَذا الخُمْسُ يُدْفَعُ للإِمَامِ (بَعْدَ الرَّسُولِ) لِيَصْرِفَهُ فِي الوُجُوهِ الْمُبَيَّنَةِ فِي الآيَةِ.

وَاليَتَامَى – هُمْ أَيْتَامُ الْمُسْلِمِينَ – وَقِيلَ:إِنَّ النَّصَّ عَامٌّ يَعُمُّ الأَغْنِيَاءَ مِنَ الأَيْتَامِ وَالفُقَرَاءَ.

الْمَسَاكِين – هُمُ الْمُحْتَاجُونَ الذينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يَسُدُّونَ بِه خَلَّتَهُمْ.

وَابْنِ السَّبِيلِ – هُوَ الْمُسَافِرُ أَوْ الْمُرِيدُ السَّفَرَ مَسَافَةَ القَصْرِ (أَيْ الْمَسَافَةُ التِي يُبَاحُ فِيهَا قَصْرُ الصَّلاَةِ) وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِه.

أَمَّا الأَخْمَاسُ الأَرْبَعَةُ البَاقِيَةُ فَهِيَ لِلْمُقَاتِلِينَ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ،وَاعْمَلُوا بِه،إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ حَقّاً،وَآمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ آيَاتِ التَّثْبِيتِ وَالْمَدَدِ يَوْمَ الفُرْقَانِ الذِي فَرَقْنَا فِيهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ،وَالإِيمَانِ وَالكُفْرِ،وَهُوَ اليَوْمُ الذِي الْتَقَى فِيهِ جَمْعُكُمْ مَعْ جَمْعِ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ،وَاللهُ عَظِيمُ القُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيءٍ.[٤٠١٢] .

مَا يُعْتَبَرُ مِنْ أَمْوَالِ الْغَنِيمَةِ وَمَا لاَ يُعْتَبَرُ:

أ – الأَمْوَالُ الْمَنْقُولَةُ:

يُعَدُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ مَا أُخِذَ مِنَ الْحَرْبِيِّ مِنْ أَمْوَالٍ مَنْقُولَةٍ قَهْرًا بِقِتَالٍ ؛لِأَنَّهُ مَالٌ أُخِذَ فِي دَارِ الْحَرْبِ بِقُوَّةِ الْجَيْشِ،فَكُلُّ مَالٍ يَصِلُ إِلَى يَدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ بِاعْتِبَارِ

[٤٠١٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

قُوَّتِهِمْ فَهُوَ غَنِيمَةٌ،لاَ مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنْ جِزْيَةٍ وَخَرَاجٍ وَنَحْوِهِ،وَلاَ مَا جَلَوْا عَنْهُ وَتَرَكُوهُ فَزَعًا،وَلاَ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ مِنَ الْعُشْرِ إِذَا اتَّجَرُوا إِلَيْنَا وَنَحْوُهُ[4013] .

ب – الأَرْضُ:

وَهِيَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَضْرُبٍ:

أَوَّلاً – مَا فُتِحَ عَنْوَةً:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَسْمِ الأَرْضِ الَّتِي فُتِحَتْ عَنْوَةً،أَوْ عَدَمِ قَسْمِهَا:فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ الإِمَامَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ يَقْسِمَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ،أَوْ يَضْرِبَ عَلَى أَهْلِهَا الْخَرَاجَ وَيُقِرَّهَا بِأَيْدِيهِمْ .

وَذَهَبَ مَالِكٌ إِلَى أَنَّهَا لاَ تُقْسَمُ،وَتَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إِلَى قَسْمِهَا بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ كَمَا يُقْسَمُ الْمَنْقُول .

وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ مَا يُوَافِقُ رَأْيَ كُلٍّ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ .[4014]

الأَرْضُ الَّتِي فُتِحَتْ عَنْوَةً:

إِنْ فُتِحَت الأَرْضُ عَنْوَةً:فَقَد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَقْسِيمِهَا عَلَى الْمُقَاتِلِينَ .فَقَال مَالِكٌ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ:لاَ تُقْسَمُ الأَرْضُ،وَتَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ،يُصْرَفُ خَرَاجُهَا فِي مَصَالِحِهِمْ،مِنْ أَرْزَاقِ الْمُقَاتِلَةِ وَبِنَاءِ الْقَنَاطِرِ وَالْمَسَاجِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سُبُلِ الْخَيْرِ،وَهَذَا إِذَا لَمْ يَرَ الإِمَامُ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ تَقْتَضِي الْقِسْمَةَ،فَلَهُ أَنْ يَقْسِمَهَا عَلَى الْمُقَاتِلِينَ،وَالدَّلِيل عَلَيْهِ اتِّفَاقُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ،حِينَمَا امْتَنَعَ عُمَرُ عَنْ تَقْسِيمِ أَرْضِ السَّوَادِ،عِنْدَمَا طَلَبَ مِنْهُ ذَلِكَ بِلاَلٌ،وَسَلْمَانُ .وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيُّ:الإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ يَقْسِمَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ،أَوْ يَضْرِبَ عَلَى أَهْلِهَا الْخَرَاجَ وَيُقِرَّهَا بِأَيْدِيهِمْ .وَذَلِكَ لأَنَّ كِلاَ الأَمْرَيْنِ قَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ فَقَدْ ظَهَرَ عَلَى مَكَّةَ عَنْوَةً وَفِيهَا أَمْوَالٌ فَلَمْ يَقْسِمْهَا،وَظَهَرَ عَلَى قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَغَيْرِهِمَا فَلَمْ يَقْسِمْ شَيْئًا مِنْهَا،وَقَسَمَ نِصْفَ خَيْبَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَوَقَفَ النِّصْفَ لِنَوَائِبِهِ وَحَاجَاتِهِ،كَمَا فِي حَدِيثِ سَهْل بْنِ

[4013] – شرح السير الكبير ٤ / ١١٧٤،وكشاف القناع ٣ / ٧٧ – ٨١ .

[4014] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣١/ ٣٠٤)

أَبِي حَثْمَةَ قَال:قَسَمَ رَسُول اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ نِصْفَيْنِ:نِصْفًا لِنَوَائِبِهِ وَحَوَائِجِهِ،وَنِصْفًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،قَسَمَهَا بَيْنَهُمْ عَلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَهْمًا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَسَكَتَ عَنْهُ،وَمَا قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيُّ هُوَ رِوَايَةٌ ثَانِيَةٌ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ .وَقَال الشَّافِعِيُّ:إِنَّ الأَرْضَ تُقْسَمُ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ،كَمَا يُقْسَمُ الْمَنْقُول إِلاَّ أَنْ يَتْرُكُوا حَقَّهُمْ مِنْهَا بِعِوَضٍ،فعَنْ جَرِيرٍ،قَالَ:كَانَ عُمَرُ قَدْ أَعْطَى بَجِيلَةَ رُبْعَ السَّوَادِ،فَأَخَذْنَاهُ ثَلَاثَ سِنِينَ،فَوَفَدَ بَعْدَ ذَلِكَ جَرِيرٌ إِلَى عُمَرَ،وَمَعَهُ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " وَاللهِ،لَوْلَا أَنِّي قَاسِمٌ مَسْئُولٌ،لَتَرَكْتُكُمْ عَلَى مَا كُنْتُ أَعْطَيْتُكُمْ فَأَرَى أَنْ نَرُدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،فَفَعَلَ قَالَ:فَأَجَازَنِي عُمَرُ بِثَمَانِينَ دِينَارًا "[4015]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:كَانَتْ بَجِيلَةُ رُبْعَ النَّاسِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَجَعَلَ لَهُمْ عُمَرُ رُبْعَ السَّوَادِ،فَأَخَذُوهُ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،فَوَفَدَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ إِلَى عُمَرَ،وَمَعَهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،فَقَالَ عُمَرُ لِجَرِيرٍ:يَا جَرِيرُ،«لَوْلَا أَنِّي قَاسِمٌ مَسْئُولٌ لَكُنْتُمْ عَلَى مَا جُعِلَ لَكُمْ،وَأَرَى النَّاسَ قَدْ كَثُرُوا فَأَرَى أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ» فَفَعَلَ جَرِيرٌ ذَلِكَ،فَأَجَازَهُ عُمَرُ بِثَمَانِينَ دِينَارًا[4016] وعَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ،أَنَّ عُمَرَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ وَجَّهَ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْكُوفَةِ،بَعْدَ قَتْلِ أَبِي عُبَيْدٍ،فَقَالَ:هَلْ لَكَ فِي الْكُوفَةِ،وَأُنَفِّلُكَ الثُّلُثَ بَعْدَ الْخُمُسِ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَبَعَثَهُ ..قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَنَرَى أَنَّ عُمَرَ إِنَّمَا خَصَّ جَرِيرًا وَقَوْمَهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ لِلنَّفَلِ الْمُتَقَدِّمِ،الَّذِي كَانَ جَعَلَهُ لَهُمْ،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ نَفَلًا مَا خَصَّهُ وَقَوْمَهُ بِالْقِسْمَةِ خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ،أَلَا تَرَاهُ لَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدٍ سِوَاهُمْ؟ وَإِنَّمَا اسْتَطَابَ أَنْفُسَهُمْ خَاصَّةً،لِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا أَحْرَزُوا ذَلِكَ وَمَلَكُوهُ بِالنَّفَلِ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ،عَنْ هُشَيْمٍ،عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ،عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ:أَنَّ عُمَرَ قَالَ لِجَرِيرٍ:لَوْلَا أَنِّي قَاسِمٌ مَسْئُولٌ لَكُنْتُمْ عَلَى مَا جُعِلَ لَكُمْ.وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ قَيْسٌ وَالشَّعْبِيُّ فِيمَا بَيْنَ الثُّلُثِ وَالرُّبُعِ،وَلَمْ يَخْتَلِفَا فِي الْأَصْلِ،فَقَدْ بَيَّنَ لَكَ قَوْلُهُ هَذَا:أَنَّهُ قَدْ كَانَ جَعَلَهُ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ نَفَلًا،فَلَا حُجَّةَ فِي هَذَا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِمَامِ مِنِ اسْتِرْضَائِهِمْ فَكَيْفَ يَسْتَرْضِيهِمْ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى بِلَالٍ وَأَصْحَابِهِ،وَيَقُولُ:اللَّهُمَّ

[4015] - شرح معاني الآثار (3/ 249)(5243) صحيح

[4016] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: 78)(154) صحيح

اكْفنيهِمْ؟ فَأَيُّ طِيبِ نَفْسٍ هَاهُنَا؟ وَلَيْسَ الْأَمْرُ عِنْدي إِلَّا عَلَى مَا قَالَ سُفْيَانُ:إِنَّ الْإِمَامَ يَتَخَيَّرُ فِي الْعَنْوَةِ بِالنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْحَيْطَةِ عَلَيْهِمْ:بَيْنَ أَنْ يَجْعَلَهَا غَنِيمَةً،أَوْ فَيْئًا،وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ نَفْسَهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَسَمَ خَيْبَرَ ثُمَّ يَقُولُ مَعَ هَذَا:لَوْلَا آخِرُ النَّاسِ لَفَعَلْتُ ذَلِكَ.فَقَدْ بَيَّنَ لَكَ هَذَا أَنَّ هَذَيْنِ الْحُكْمَيْنِ جَمِيعًا إِلَيْهِ،وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا تَعَدَّى سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى غَيْرِهَا وَهُوَ يَعْرِفُهَا.وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ مَنْ يَقُولُ بِالرَّأْيِ أَنَّ لِلْإِمَامِ فِي الْعَنْوَةِ حُكْمًا ثَالِثًا قَالَ:إِنْ شَاءَ لَمْ يَجْعَلْهَا غَنِيمَةً وَلَا فَيْئًا،وَرَدَّهَا عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ أُخِذَتْ مِنْهُمْ وَيَحْتَجُّ فِي ذَلِكَ بِمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ افْتَتَحَهَا ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ،وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِهَا وَقَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ بِذَلِكَ"[٤٠١٧]

أَوْ بِغَيْرِ عِوَضٍ،وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنفال:٤١]فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي الْمَنْقُولِ وَالأَرْضِ .وَيُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا لِلْمُقَاتِلِينَ،وَمَا قَال الشَّافِعِيُّ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَيْضًا .

أَمَّا إِذَا لَمْ تُقْسَمِ الأَرْضُ وَتُرِكَتْ بِأَيْدِي أَهْلِهَا،يَنْتَفِعُ الْمُسْلِمُونَ بِخَرَاجِهَا،فَقَدْ قَال جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَالْفُقَهَاءِ:إِنَّهَا أَرْضٌ مَوْقُوفَةٌ،لاَ يَجُوزُ بَيْعُهَا،وَلاَ شِرَاؤُهَا،وَلاَ هِبَتُهَا،وَلاَ تُورَثُ عَمَّنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْكُفَّارِ .وَذَلِكَ لِمَا رَوَى الأَوْزَاعِيُّ أَنَّ عُمَرَ وَالصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا ظَهَرُوا عَلَى الشَّامِ أَقَرُّوا أَهْل الْقُرَى فِي قُرَاهُمْ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَرْضِهِمْ،يَعْمُرُونَهَا وَيُؤَدُّونَ خَرَاجَهَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ لاَ يَصِحُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ شِرَاءُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الأَرْضِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .

وَقَال أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ:إِنَّهَا مِلْكٌ لَهُمْ .لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِيهَا بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْهِبَةِ،وَيَتَوَارَثُهَا عَنْهُمْ أَقَارِبُهُمْ،وَذَلِكَ لِمَا رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ اشْتَرَى مِنْ دِهْقَانٍ أَرْضًا عَلَى أَنْ يَكْفِيَهُ خَرَاجَهَا،وَبِهَذَا قَال الثَّوْرِيُّ وَابْنُ سِيرِينَ.[٤٠١٨]

[٤٠١٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٨٠)(١٥٦) صحيح لغيره

[٤٠١٨] - الأم ٤ / ١٩٢،١٩٣ و٧ / ٣٢٥،والوجيز ١ / ٢٨٨،٢٨٩،٢٩١،والخراج ص ٦٨ ط السلفية،وفتح القدير ٤ / ٣٠٣ - ٣٠٥،والاختيار ٣ / ٣١٩،٣٢٠،وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ١٨٩،وبداية المجتهد ١ /

ثَانِيًا – مَا جَلاَ أَهْلُهَا عَنْهَا خَوْفًا:

وَهَذِهِ تَصِيرُ وَقْفًا بِنَفْسِ الظُّهُورِ عَلَيْهَا ؛لِأَنَّهَا لَيْسَتْ غَنِيمَةً،فَيَكُونُ حُكْمُهَا حُكْمَ الْفَيْءِ .

ثَالِثًا – مَا صُولِحُوا عَلَيْهِ مِنْ الأَرْضِ:

وَهُوَ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا:أَنْ يُصَالِحَهُمُ الإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ عَلَى أَنَّ الأَرْضَ لَنَا وَنُقِرُّهَا مَعَهُمْ بِالْخَرَاجِ،فَهَذِهِ الأَرْضُ تَصِيرُ وَقْفًا بِنَفْسِ مِلْكِنَا لَهَا كَالَّتِي قَبْلَهَا .

وَالضَّرْبُ الثَّانِي:أَنْ يُصَالَحُوا عَلَى أَنَّ الأَرْضَ لَهُمْ وَيُضْرَبَ عَلَيْهَا خَرَاجٌ يُؤَدُّونَهُ عَنْهَا،وَهَذَا الْخَرَاجُ فِي حُكْمِ الْجِزْيَةِ،مَتَى أَسْلَمُوا سَقَطَ عَنْهُمْ[4019] .

ج – الْمَال الْمَأْخُوذُ بِاتِّفَاقٍ:

مَا يُؤْخَذُ مِنْ فِدْيَةِ الأُسَارَى غَنِيمَةٌ،لِأَنَّهُ ﷺ قَسَّمَ فِدَاءَ أُسَارَى بَدْرٍ بَيْنَ الْغَانِمِينَ ؛وَلِأَنَّهُ مَالٌ حَصَل بِقُوَّةِ الْجَيْشِ أَشْبَهَ بِالسِّلاَحِ .

وَمَا أَهْدَاهُ الْكُفَّارُ لِبَعْضِ الْغَانِمِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَهُوَ غَنِيمَةٌ لِلْجَيْشِ ؛لِأَنَّ ذَلِكَ فُعِل خَوْفًا مِنَ الْجَيْشِ،فَيَكُونُ غَنِيمَةً،كَمَا لَوْ أَخَذَهُ بِغَيْرِهَا،فَلَوْ كَانَتِ الْهَدِيَّةُ بِدَارِنَا فَهِيَ لِمَنْ أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ[4020] .

الْفِدَاءُ بِالْمَال:

الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ،وَهُوَ قَوْل مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ،وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ،وَالْحَنَابِلَةِ فِي غَيْرِ رِوَايَةٍ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ:جَوَازُ فِدَاءِ أَسْرَى الْحَرْبِيِّينَ الَّذِينَ يَثْبُتُ الْخِيَارُ لِلإِمَامِ فِيهِمْ بِالْمَال.[4021] غَيْرَ أَنَّ الْمَالِكِيَّةَ يُجِيزُونَهُ بِمَالٍ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ

---

٣٦٨ – ٣٧١،والمغني ٢ / ٧١٦ – ٧٢٦ و٨ / ٥٢٧،والجامع لأحكام القرآن (القرطبي) ٨ / ٤،و١٨ / ٢٣،وأحكام القرآن (الجصاص) ٣ / ٥٢٨ – ٥٣٤،ونيل الأوطار ومنتقى الأخبار ٨ / ١١ – ١٣

[4019] – كشاف القناع ٣ / ٩٤ – ٩٥،والأحكام السلطانية للماوردي ١٣٨ .

[4020] – كشاف القناع ٣ / ٩٣ .

[4021] – المبسوط ١٠ / ١٣٨،والبدائع ٧ / ١١٩،ومواهب الجليل والتاج والإكليل ٣ / ٣٥٨،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٤،والإقناع ٥ / ٨،والمهذب ٢ / ٢٣٧،والإنصاف ٤ / ١٣٠،والمغني والشرح الكبير ١٠ / ٤٠١،ومطالب أولي النهى ٢ / ٥٢١.

الأَسيرِ[٤٠٢٢]،وَعَنْ مُحَمَّد بْنِ الْحَسَنِ - كَمَا نَقَل السَّرَخْسِيُّ عَنِ السِّيَرِ الْكَبِيرِ - تَقْيِيدَ ذَلكَ بحَاجَة الْمُسْلمينَ للْمَال،وَقَيَّدَ الْكَاسَانيُّ هَذَا بمَا إذَا كَانَ الأَسيرُ شَيْخًا كَبيرًا لاَ يُرْجَى لَهُ وَلَدٌ.[٤٠٢٣] وَأَجَازَهُ الشَّافعيَّةُ بالْمَال دُونَ قَيْد،وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ حَاجَةٌ للْمَال،وَنَصُّوا عَلَى أَنَّهُ للإمَامِ أَنْ يَفْديَ الأَسْرَى بالْمَال يَأْخُذُهُ منْهُمْ،سَوَاءٌ،أَكَانَ منْ مَالهمْ أَمْ منْ مَالنَا الَّذي في أَيْديهمْ،وَأَنْ نَفْديَهُمْ بأَسْلحَتنَا الَّتي في أَيْديهمْ.أَمَّا أَسْلحَتُهُمْ الَّتي بأَيْدينَا فَفي جَوَاز مُفَادَاة أَسْرَانَا بهَا وَجْهَان،أَوْجَهُهُمَا عنْدَهُمُ الْجَوَازُ.[٤٠٢٤]

وَاسْتَدَل الْمُجيزُونَ بظَاهرِ قَوْله تَعَالَى {فَإذَا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ منْهُمْ وَلَكنْ ليَبْلُوَ بَعْضَكُمْ ببَعْضٍ وَالَّذينَ قُتلُوا في سَبيلِ اللَّه فَلَنْ يُضلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٤]،وَبفعْل الرَّسُول ﷺ،فَقَدْ فَادَى أَسَارَى بَدْرٍ بالْمَال وَكَانُوا سَبْعينَ رَجُلاً،كُل رَجُلٍ منْهُمْ بأَرْبَعمائَة درْهَمٍ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ جَعَلَ فدَاءَ أَهْلِ الْجَاهليَّة يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعَ مائَة»[٤٠٢٥]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،في قَوْله:{مَا كَانَ لنَبيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخنَ في الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] قَالَ:كَانَ ذَلكَ يَوْمَ بَدْرٍ،وَالْمُسْلمُونَ يَوْمَئذ قَليلٌ فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فدَاءً} [محمد:٤] فَجَعَلَ اللَّهُ النَّبيَّ ﷺ وَالْمُؤْمنينَ في الْأُسَارَى بالْخيَارِ إنْ شَاءُوا قَتَلُوهُمْ وَإنْ شَاءُوا فَادُوهُمْ قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَأَظُنُّهُ قَالَ:وَإنْ شَاءُوا مَنُّوا عَلَيْهمْ قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَهَذَا مَا فَادَى رَسُولُ اللَّه ﷺ أُسَارَى بَدْرٍ به منَ الْمَال،وَقَدْ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلكَ ﷺ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ،وَمَكَّةَ،وَحُنَيْنٍ،وَسَبَى بَني الْمُصْطَلق،وَبَلْعَنْبَرَ،وَفَزَارَةَ،وَبَعْضِ الْيَمَنِ،وَفي كُلِّ ذَلكَ أَحَاديثُ مَأْثُورَةٌ فَلَمْ يَأْت عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ فَدَى أَحَدًا منْهُمْ بمَالٍ،وَلَكنَّهُ كَانَ إمَّا أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهمْ،تَطَوُّلًا بلَا عوَضٍ كَفعْله بأَهْلِ

[٤٠٢٢] - التاج والإكليل ٣ / ٣٥٨.

[٤٠٢٣] - المبسوط ١٠ / ١٣٨،والبدائع ٧ / ٦١٩،وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ٣ / ٢٢٩.

[٤٠٢٤] - شرح روض الطالب ٤ / ١٩٣،وتحفة المحتاج ٨ / ٤٠،والمهذب ٢ / ٢٣٧،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٥،والإقناع ٥ / ٨،وفتح الوهاب ٢ / ١٧٤.

[٤٠٢٥] - سنن أبي داود (٣/ ٦٢)(٢٦٩١) صحيح

مَكَّةَ،وَأَهْلِ خَيْبَرَ،وَكَمَا فَعَلَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ يَوْمَ أَوْطَاسٍ،وَإِمَّا أَنْ يُفَادِيَ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ،فَأَمَّا مَنُّهُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَخَيْبَرَ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ"[٤٠٢٦]

وَأَدْنَى دَرَجَاتِ فِعْلِهِ الْجَوَازُ وَالإِبَاحَةُ.

وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ،فِي غَيْرِ مَا رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدٍ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ وَقَوْل أَبِي عُبَيْدٍ الْقَاسِمِ بْنِ سَلاَّمٍ عَدَمُ جَوَازِ الْفِدَاءِ بِمَالٍ.[٤٠٢٧]

وَيَدُل عَلَى عَدَمِ الْجَوَازِ أَنَّ قَتْل الأَسَارَى مَأْمُورٌ بِهِ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال:١٢] وَأَنَّهُ مُنْصَرِفٌ إِلَى مَا بَعْدَ الأَخْذِ وَالاسْتِرْقَاقِ،وقَوْلِهِ تَعَالَى {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:٥] وَالأَمْرُ بِالْقَتْل لِلتَّوَسُّل إِلَى الإِسْلاَمِ،فَلاَ يَجُوزُ تَرْكُهُ إِلاَّ لِمَا شُرِعَ لَهُ الْقَتْل،وَهُوَ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى الإِسْلاَمِ،وَلاَ يَحْصُل مَعْنَى التَّوَسُّل بِالْمُفَادَاةِ بِالْمَال،كَمَا أَنَّ فِي ذَلِكَ إِعَانَةً لأَهْل الْحَرْبِ،لأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْمَنَعَةِ،فَيَصِيرُونَ حَرْبًا عَلَيْنَا،وَقَتْل الْمُشْرِكِ عِنْدَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ فَرْضٌ مُحْكَمٌ،وَفِي الْمُفَادَاةِ تَرْكُ إِقَامَةِ هَذَا الْفَرْضِ،وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ:إِنْ أَخَذْتُمْ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَأُعْطِيتُمْ بِهِ مُدَّيْ دَنَانِيرَ،فَلاَ تُفَادُوهُ.[٤٠٢٨]

وَلأَنَّهُ صَارَ بِالأَسْرِ مِنْ أَهْل دَارِنَا،فَلاَ يَجُوزُ إِعَادَتُهُ لِدَارِ الْحَرْبِ،لِيَكُونَ حَرْبًا عَلَيْنَا،وَفِي هَذَا مَعْصِيَةٌ،وَارْتِكَابُ الْمَعْصِيَةِ لِمَنْفَعَةِ الْمَال لاَ يَجُوزُ،وَلَوْ أَعْطَوْنَا مَالاً لِتَرْكِ الصَّلاَةِ لاَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَفْعَل ذَلِكَ مَعَ الْحَاجَةِ،فَكَذَا لاَ يَجُوزُ تَرْكُ قَتْل الْمُشْرِكِ بِالْمُفَادَاةِ[٤٠٢٩] .

[٤٠٢٦] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ١٥٤)(٣١٣) حسن

[٤٠٢٧] - المبسوط ١٠ / ١٣٨،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٤٩،والبحر الرائق ٥ / ٩٠،ومواهب الجليل ٣ / ٣٥٩،والأموال ص ١١٧ فقرة ٣١٣،والإنصاف ٤ / ١٣٠،وابن عابدين ٣ / ٢٢٩.

[٤٠٢٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٥٧)(٣٣٩٢٩) والخراج لأبي يوسف (ص: ٢١٤) صحيح مرسل والمدي +: مكيال لأهل الشام.

[٤٠٢٩] - البدائع ٧ / ١٢٠،١١٩،والمبسوط ١٠ / ١٣٩،١٣٨.ولا يخفى أن ظاهر الآية إن تعين القتل أولا قبل الإثخان،فإذا أثخنوا أجرى عليهم ما في الآية من المن أو الفداء.

وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لِلإِمَامِ حَقَّ الْمُفَادَاةِ بِالْمَالِ،فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ يَكُونُ لِلْغَانِمِينَ،وَلَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُسْقِطَ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الَّذِي يَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ مُقَابِلَ الْفِدَاءِ إِلاَّ بِرِضَى الْغَانِمِينَ.[٤٠٣٠]

د – السَّلَبُ:

السَّلَبُ مِنْ الْغَنِيمَةِ،وَلاَ اخْتِلاَفَ عَلَى تَخْمِيسِ الْغَنِيمَةِ .لَكِنِ اخْتُلِفَ فِي سَلَبِ الْقَاتِلِ .

وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ لاَ يُخَمَّسُ،فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ،فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ،فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ المُشْرِكِينَ عَلاَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ،فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ،فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ المَوْتِ،ثُمَّ أَدْرَكَهُ المَوْتُ،فَأَرْسَلَنِي،فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَقُلْتُ:مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ:أَمْرُ اللَّهِ،ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا،وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ،فَقُمْتُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟»،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ القِصَّةَ،فَقَالَ رَجُلٌ:صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَسَلَبُهُ عِنْدِي فَأَرْضِهِ عَنِّي،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لاَهَا اللَّهِ،إِذًا لاَ يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللَّهِ،يُقَاتِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ،يُعْطِيكَ سَلَبَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«صَدَقَ»،فَأَعْطَاهُ،فَبِعْتُ الدِّرْعَ،فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ،فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الإِسْلاَمِ"[٤٠٣١]

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَهُ كُلُّهُ،وَلَوْ خُمِّسَ لَمْ يَكُنْ جَمِيعُهُ لَهُ،ولحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:" بَارَزَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْزُبَانَ الفَزَارَةِ فَطَعَنَهُ طَعْنَةً كَسَرَتِ القَرَبُوسَ،وَخَلُصَتِ الطَّعْنَةُ فَقَتَلْتُهُ،فَصَلَّى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصُّبْحَ،ثُمَّ أَتَانَا،ثُمَّ قَالَ:إِنَّا

[٤٠٣٠] – حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢ / ١٨٤،والمهذب ٢ / ٢٣٧،والمغني ١٠ / ٤٠٣.

[٤٠٣١] – صحيح البخاري (٤/ ٩٢)(٣١٤٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٠)٢

[ش (جولة) دوران واضطراب.(حبل عاتقه) هو موضع الرداء من العنق أو هو عرق أو عصب في العنق.(ريح الموت) أي كدت أموت منها.(ما بال الناس) ما حالهم منهزمين.(أمر الله) قدره وإرادته لحكمة يعلمها.(سلبه) ما على المقتول من سلاح وغيره.(بينة) علامة أو شهود.(من يشهد لي) أني قتلت ذلك الرجل المذكور أول الحديث.(لاها الله) لا والله لا يكون ذلك.(أسد) رجل كالأسد في الشجاعة يقاتل في سبيل الله تعالى ونصرة دينه.(مخرفا) بستانا لأنه يخترف منه الثمر أي يجتنى.(تأثلته) تكلفت جمعه]

كُنَّا لَا نُخَمِّسُ الْأَسْلَابَ،وَإِنَّ سَلَبَ الْبَرَاءِ قَدْ بَلَغَ مَالًا،وَلَا أُرَانَا إِلَّا خَامِسِيهِ،فَقُوِّمَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَأَعْطَيْنَا عُمَرَ سِتَّةَ آلَافٍ"[٤٠٣٢].

هــ – النَّفَل:

سَبَقَ تَعْرِيفُ النَّفَل .وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَا يَكُونُ مِنْهُ النَّفَل إِذَا كَانَ مِنْ الْغَنِيمَةِ،فَقِيل:إِنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَصْل الْغَنِيمَةِ،أَوْ مِنْ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِهَا أَوْ خُمُسِهَا أَوْ خُمُسِ خُمُسِهَا [٤٠٣٣].

و – أَمْوَال الْبُغَاة

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ أَمْوَال الْبُغَاةِ لاَ تُغْنَمُ وَلاَ تُقْسَمُ وَلاَ يَجُوزُ إِتْلاَفُهَا .وَإِنَّمَا تُرَدُّ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ يَتُوبُوا [٤٠٣٤].

أَمْوَالُهُمْ بِالنِّسْبَةِ لاغْتِنَامِهَا وَإِتْلاَفِهَا وَضَمَانِهَا:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ أَمْوَال الْبُغَاةِ لاَ تُغْنَمُ،وَلاَ تُقَسَّمُ،وَلاَ يَجُوزُ إِتْلاَفُهَا،وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهِمْ.لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَحْبِسَ الإِْمَامُ أَمْوَالَهُمْ دَفْعًا لِشَرِّهِمْ بِكَسْرِ شَوْكَتِهِمْ حَتَّى يَتُوبُوا،فَيَرُدَّهَا إِلَيْهَا لاِنْدِفَاعِ الضَّرُورَةِ؛وَلأَِنَّهَا لاَ اسْتِغْنَامَ فِيهَا،وَإِذَا كَانَ فِي أَمْوَالِهِمْ خَيْلٌ وَنَحْوُهَا – مِمَّا يُحْتَاجُ فِي حِفْظِهِ إِلَى إِنْفَاقٍ – كَانَ الأَْفْضَل بَيْعَهُ وَحَبْسَ ثَمَنِهِ.

وَفِي ضَمَانِ إِتْلاَفِ مَالِهِمْ كَلاَمٌ.فَإِنَّ الْعَادِل إِذَا أَتْلَفَ نَفْسَ الْبَاغِي أَوْ مَالَهُ حَال الْقِتَال بِسَبَبِ الْقِتَال أَوْ ضَرُورَتِهِ لاَ يَضْمَنُ؛إِذْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَهُمْ إِلاَّ بِإِتْلاَفِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ كَالْخَيْل،فَيَجُوزُ عَقْرُ دَوَابِّهِمْ إِذَا قَاتَلُوا عَلَيْهَا،وَإِذَا كَانُوا لاَ يَضْمَنُونَ الأَْنْفُسَ فَالأَْمْوَال أَوْلَى.

أَمَّا فِي غَيْرِ حَال الْقِتَال وَضَرُورَتِهِ فَلاَ تُحَرَّقُ مَسَاكِنُهُمْ،وَلاَ يُقْطَعُ شَجَرُهُمْ؛لأَِنَّ الإِْمَامَ إِذَا ظَفِرَ لَهُمْ بِمَالٍ حَال الْمُقَاتَلَةِ فَإِنَّهُ يَحْبِسُهُ حَتَّى يُرَدَّ إِلَيْهِمْ،فَلاَ تُؤْخَذُ أَمْوَالُهُمْ؛لأَِنَّ مَوَارِيثَهُمْ قَائِمَةٌ،وَإِنَّمَا قُوتِلُوا بِمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْبِدَعِ،فَكَانَ ذَلِكَ كَالْحَدِّ يُقَامُ عَلَيْهِمْ[٤٠٣٥] .

[٤٠٣٢] – مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢٤٣)(٦٦٥٩) صحيح،مغني المحتاج ٣ / ٩٩،والمغني ٦ / ٤٠٥ .

[٤٠٣٣] – الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٣٠٥)

[٤٠٣٤] – الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٣٠٥)

[٤٠٣٥] – حاشية الدسوقي ٤ / ٣٠٠،والتاج والإكليل ٦ / ٢٧٨ــ ٢٧٩.

وَقَيَّدَ الْمَاوَرْدِيُّ الضَّمَانَ بِمَا إذَا كَانَ الْإِتْلَافُ خَارِجَ الْقِتَال بِقَصْدِ التَّشَفِّي وَالِانْتِقَامِ،أَمَّا إذَا كَانَ لِإِضْعَافِهِمْ أَوْ هَزِيمَتِهِمْ فَلاَ ضَمَانَ[4036] .

وَاسْتَظْهَرَ الزَّيْلَعِيُّ وَابْنُ عَابِدِينَ حَمْل الضَّمَانِ عَلَى مَا قَبْل تَحَيُّزِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ،أَوْ بَعْدَ كَسْرِهِمْ وَتَفَرُّقِ جَمْعِهِمْ[4037] .

ز – أَمْوَال الْمُسْلِمِينَ إذَا اسْتَرَدُّوهَا مِنَ الْحَرْبِيِّينَ:

إِذَا اسْتَوْلَى الْحَرْبِيُّونَ عَلَى أَمْوَال لِلْمُسْلِمِينَ وَحَازُوهَا فِي بِلاَدِهِمْ ثُمَّ اسْتَرَدَّهَا الْمُسْلِمُونَ .فَهَل تُعْتَبَرُ هَذِهِ الأَمْوَال غَنِيمَةً أَمْ لاَ ؟ وَإِذَا وُجِدَ مِنْهَا شَيْءٌ بِعَيْنِهِ عُرِفَ صَاحِبُهُ،فَهَل يَأْخُذُهُ قَبْل الْقِسْمَةِ وَبَعْدَهَا عَيْنًا بِدُونِ بَدَلٍ ؟ أَمْ يَدْفَعُ قِيمَتَهُ ؟ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الأَمْوَال تُعْتَبَرُ غَنِيمَةً .

وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مِنْهَا شَيْءٌ بِعَيْنِهِ عُرِفَ صَاحِبُهُ فَيَأْخُذُهُ عَيْنًا بِدُونِ بَدَلٍ إِذَا كَانَ ذَلِكَ قَبْل قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ .أَمَّا بَعْدَ الْقِسْمَةِ فَيَأْخُذُهُ مَالِكُهُ بِالْقِيمَةِ مِمَّنْ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ أَوْ بِثَمَنِهِ الَّذِي بِيعَ بِهِ،وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْحَنَفِيَّةُ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ .

أَمَّا الْمَالِكِيَّةُ فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْمَال الَّذِي يُعْرَفُ صَاحِبُهُ الْمُسْلِمُ أَوِ الذِّمِّيُّ لاَ يُقْسَمُ أَصْلاً،فَإِذَا قُسِمَ لَمْ تَنْفُذِ الْقِسْمَةُ،وَلِرَبِّهِ أَخْذُهُ بِدُونِ ثَمَنٍ .

وَالرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ أَحْمَدَ:أَنَّهُ إِذَا قُسِّمَتِ الْغَنِيمَةُ فَلاَ حَقَّ لِلْمُسْلِمِ فِي مَالِهِ الَّذِي وُجِدَ فِي الْغَنِيمَةِ بِحَالٍ .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّ هَذَا الْمَال يَجِبُ رَدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ الْمُسْلِمِ قَبْل الْقِسْمَةِ،فَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ حَتَّى قُسِمَ دُفِعَ إِلَى مَنْ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ الْعِوَضُ مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ،وَرُدَّ الْمَال إِلَى صَاحِبِهِ ؛لِأَنَّهُ يَشُقُّ نَقْضُ الْقِسْمَةِ[4038] .

الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْغَنِيمَةِ:

[4036] – نهاية المحتاج ٧ / ٣٨٥.

[4037] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٣١٢،وتبيين الحقائق ٣ / ٢٩٦.والموسوعة الفقهية الكويتية (٨/ ١٤٢)

[4038] – تبيين الحقائق ٣ / ٢٦١ وما بعدها،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٩٤ و١٩٥ وبلغة السالك ١ / ٣٦٤ وما بعدها،والمهذب ٢ / ٢٤٣،والمغني ٨ / ٤٣٠ وما بعدها .

يَجبُ عَلَى أَميرِ الْجَيْشِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْغَنيمَة،فَإِن احْتَاجَ إِلَى مَنْ يَقُومُ بحفْظهَا بـأَجْرٍ كَانَ لَهُ ذَلكَ،فَإِن اسْتُعْمل لذَلكَ مَنْ لَهُ سَهْمٌ منَ الْمُجَاهدينَ أُبيحَ لَهُ أَخْذُ الأُجْرَة عَلَى ذَلكَ " وَلَمْ يَسْقُطْ منْ سَهْمه شَيْءٌ ؛لأَنَّ ذَلكَ منْ مُؤْنَة الْغَنيمَة،فَهُوَ كَعَلَف الدَّوَابِّ وَإِطْعَامِ السَّبْيِ،يَجُوزُ للإِمَامِ بَذْلُهُ .وَيُبَاحُ للأَجيرِ أَخْذُ الأُجْرَة عَلَيْه[٤٠٣٩] .

مَكَانُ قسْمَة الْغَنيمَة:

ذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ إِلَى أَنَّ الْغَنيمَةَ تُقْسَمُ فِي دَارِ الْحَرْبِ ؛تَعْجيلاً لمَسَرَّة الْغَانمينَ،وَذَهَابهِمْ لأَوْطَانهِمْ،وَنكَايَةً للْعَدُوِّ .

وَقَيَّدَ الْمَالكيَّةُ هَذَا بمَا إِذَا أَمنُوا كَثْرَةَ الْعَدُوِّ وَكَانَ الْغَانمُونَ جَيْشًا " وَأَمَّا إِنْ كَانُوا سَرِيَّةً منَ الْجَيْش .فَلاَ يَقْتَسمُونَ حَتَّى يَعُودُوا إِلَى الْجَيْش .

وَيُكْرَهُ تَأْخيرُ التَّقْسيمِ لبَلَد الإِسْلاَمِ بلاَ عُذْرٍ عنْدَ الشَّافعيَّة،فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَرْجعْ منْ غَزْوَة فيهَا مَغْنَمٌ إِلاَّ خَمَّسَهُ وَقَسَمَهُ قَبْلَ أَنْ يَرْجعَ،فَقَدْ قَسَّمَ غَنَائمَ خَيْبَرَ بخَيْبَر،وَغَنَائمَ أَوْطَاسٍ بأَوْطَاس،وَغَنَائمَ بَني الْمُصْطَلقِ في ديَارهمْ[٤٠٤٠] .

وَالتَّقْسيمُ رَاجعٌ عنْدَهُمْ إِلَى نَظَرِ الإِمَامِ وَاجْتهَاده،فَإِذَا رَأَى أَنَّ الْمُسْلمينَ آمنُونَ منْ كَرِّ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ فَلاَ يُؤَخِّرُ الْقسْمَةَ عَنِ الْمَوْضعِ الَّذي غَنمَ فيه " وَإِنْ كَانَتْ بلاَدُ الْحَرْب أَوْ كَانَ يَخَافُ كَرَّةَ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ أَوْ كَانَ مَنْزلُهُ غَيْرَ رَافقٍ بالْمُسْلمينَ .تَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى أَرْفَق بهِمْ منْهُ وَآمَنَ لَهُمْ منْ عَدُوِّهمْ،ثُمَّ قَسَمَهُ وَإِنْ كَانَتْ بلاَدَ شرْك[٤٠٤١] .

وَانْفَرَدَ الْحَنَفيَّةُ برَأْيٍ في قسْمَة الْغَنَائم،فَجَعَلُوا هَذه الْقسْمَةَ ضَرْبَيْن:

قسْمَة الْحَمْل:وَتَكُونُ في حَالَة مَا إِذَا عَزَّت الدَّوَابُّ وَلَمْ يَجد الإِمَامُ حُمُولَةً،فَإِنَّهُ يُفَرِّقُ الْغَنَائمَ عَلَى الْغُزَاة،فَيَحْمل كُل رَجُلٍ عَلَى قَدْرِ نَصيبه إِلَى دَارِ الإِسْلاَم،ثُمَّ يَسْتَردُّهَا منْهُمْ فَيَقْسمُهَا .

قسْمَةُ الْملْك:وَهيَ لاَ تَجُوزُ في دَارِ الْحَرْب .

[٤٠٣٩] – كشاف القناع ٣ / ٩٠،ومغني المحتاج ٣ / ١٠١ .

[٤٠٤٠] – فتح الباري ٦ / ١٨١ ط السلفية،ومنح الجليل على مختصر خليل ١ / ٤٧٥،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٩٤،والخرشي على مختصر خليل ٣ / ١٣٦،والمغني ٨ / ٤٢١،وكشاف القناع ٣ / ٨٢،والأم ٤ / ٦٦ .

[٤٠٤١] – شرح السير الكبير ٣ / ١٠١٠،وفتح الباري ١٢ / ١٥٤،والأم ٤ / ٦٦ .

وَهَذَا الاِخْتِلاَفُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ .وَهُوَ أَنَّ الْمِلْكَ هَل يَثْبُتُ فِي الْغَنَائِمِ فِي دَارِ الْحَرْبِ لِلْغُزَاة ؟

فَعِنْدَ الْحَنَفِيَّة لاَ يَثْبُتُ الْمِلْكُ أَصْلاً فِيهَا .لاَ مِنْ كُل وَجْهٍ وَلاَ مِنْ وَجْهٍ،وَلَكِنْ يَنْعَقِدُ سَبَبُ الْمِلْك فِيهَا عَلَى أَنْ تَصِيرَ عِلَّةً عِنْدَ الإِحْرَازِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ،وَهُوَ تَفْسِيرُ حَقِّ الْمِلْكِ أَوْ حَقِّ التَّمَلُّك عِنْدَ الْحَنَفِيَّة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:«نَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَنَائِمِ،حَتَّى تُقَسَّمَ،وَعَنْ بَيْعِ النَّخْلِ حَتَّى تُحْرَزَ مِنْ كُلِّ عَارِضٍ،وَأَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ بِغَيْرِ حِزَامٍ»[٤٠٤٢]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ قَالَ:" نَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ بَيْعِ الْغَنَائِمِ،حَتَّى تُقْسَمَ،وَعَنِ الْحَبَالَى أَنْ يُوطَأْنَ حَتَّى يَضَعْنَ مَا فِي بُطُونِهِنَّ،وَقَالَ:«لَا تَسْقِ زَرْعَ غَيْرِكَ،وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ،وَعَنْ لَحْمِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ»[٤٠٤٣]

وَالْقِسْمَةُ بَيْعٌ مَعْنًى،فَتَدْخُل تَحْتَهُ [٤٠٤٤]

وَعِنْدَ غَيْرِ الْحَنَفِيَّة:الْغَنِيمَةُ تُمْلَكُ بِالاِسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا فِي دَارِ الْحَرْبِ،لأَِنَّهَا مَالٌ مُبَاحٌ،فَمُلِكَتْ بِالاِسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ وَمُجَرَّدُ الاِسْتِيلاَءِ وَإِزَالَةُ أَيْدِي الْكُفَّارِ عَنْهَا كَافٍ .

وَالدَّلِيل عَلَى تَحَقُّقِ الاِسْتِيلاَءِ أَنَّ الاِسْتِيلاَءَ عِبَارَةٌ عَنْ إِثْبَاتِ الْيَدِ عَلَى الْمَحَل،وَقَدْ وُجِدَ ذَلِكَ حَقِيقَةً[٤٠٤٥]

الأَخْذُ مِنْ الْغَنِيمَة وَالاِنْتِفَاعُ بِهَا قَبْل الْقِسْمَة وَبَعْدَهَا:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِشَخْصٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يُسْهَمُ لَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا إِنْ كَانَ مُحْتَاجًا وَإِنْ لَمْ يَبْلُغِ الضَّرُورَةَ الْمُبِيحَةَ لِلْمَيْتَةِ

[٤٠٤٢] - سنن أبي داود (٣/ ٢٥٢)(٣٣٦٩) حسن لغيره

[٤٠٤٣] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٦٤)(٢٣٣٦) صحيح

[٤٠٤٤] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢٢،والبحر الرائق ٥ / ٨٣ - ٨٤،وشرح السير الكبير ٣ / ١٠١٠ .

[٤٠٤٥] - الأم ٤ / ٦٦،وكشاف القناع ٣ / ٨٢ .

.وَقَيَّدَ الْحَنَابِلَةُ ذَلِكَ بِمَا إِذَا كَانَ قَبْلَ جَمْعِ الْغَنِيمَةِ،أَمَّا إِذَا جُمِعَتِ الْغَنَائِمُ .فَلاَ يَجُوزُ لأَحَدٍ الأَخْذُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الْعَلَفِ إلاَّ لِلضَّرُورَةِ[4046] .
فَإِنْ كَانَ لاَ يُسْهَمُ لَهُ،فَفِي جَوَازِ أَخْذِهِ وَعَدَمِهِ قَوْلاَنِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ[4047] .
وَيَجُوزُ لِلْمُجَاهِدِ الَّذِي يُسْهَمُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَعْلاً وَحِزَامًا وَإِبْرَةً وَطَعَامًا وَعَلَفًا لِدَابَّتِهِ،فَإِنْ أَخَذَ نَعَمًا،أَيْ إبِلاً وَبَقَرًا وَغَنَمًا .ذَكَّاهُ وَأَكَل لَحْمَهُ وَرَدَّ جِلْدَهُ لِلْغَنِيمَةِ إنْ لَمْ يَحْتَجْ لَهُ .
وَيَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ كُل مَا كَانَ مَأْكُولاً،مِثْل السَّمْنِ وَالزَّيْتِ وَالْخَل لِتَنَاوُلِهِ وَالاِنْتِفَاعِ بِهِ لِنَفْسِهِ وَدَابَّتِهِ ؛لأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الاِنْتِفَاعِ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ قَبْل الإِحْرَازِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ قَائِمَةٌ .
وَيَرُدُّ الآْخِذُ لِلْغَنِيمَةِ مَا فَضَل عَنْ حَاجَتِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا أَخَذَهُ وَإِنْ كَثُرَ .أَيْ زَادَتْ قِيمَتُهُ عَنْ دِرْهَمٍ،وَمَفْهُومُهُ أَنَّ الْيَسِيرَ وَهُوَ مَا يُسَاوِي دِرْهَمًا لاَ يَجِبُ رَدُّهُ إِلَيْهَا،وَإِنْ تَعَذَّرَ رَدُّ مَا وَجَبَ رَدُّهُ .تَصَدَّقَ بِهِ كُلِّهِ بِلاَ تَخْمِيسٍ[4048] .وَفِي الْمُقَابِل إِذَا أَعْطَى صَاحِبُ الْمَقَاسِمِ قَوْمًا بَعْضَ حِصَصِهِمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ عَلَى الْحَزْرِ وَالظَّنِّ،ثُمَّ تَبَيَّنَ مِنَ الْقِسْمَةِ أَنَّ حِصَّتَهُمْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذُوا،فَإِنَّ الْبَاقِيَ يُرَدُّ إِلَيْهِمْ،أَوْ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ اللُّقَطَةِ إِنْ كَانُوا قَدْ ذَهَبُوا[4049] .
وَلَوْ أَخَذَ جُنْدِيٌّ شَيْئًا مِنْ طَعَامِ الْغَنِيمَةِ فَأَهْدَاهُ إِلَى تَاجِرٍ فِي الْعَسْكَرِ لاَ يُرِيدُ الْقِتَال،لَمْ يُسْتَحَبَّ لِلتَّاجِرِ أَنْ يَأْكُل ذَلِكَ لأَنَّ التَّنَاوُل مِنْهُ مُبَاحٌ لِلْجُنْدِيِّ .وَذَلِكَ لاَ يَتَعَدَّى إِلَى الإِهْدَاءِ [4050]
وَمَا سِوَى الْمَأْكُول وَالْمَشْرُوبِ وَالْعَلَفِ وَالْحَطَبِ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَفِعُوا بِهِ ؛لأَنَّ حَقَّ الْغَانِمِينَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ،وَفِي الاِنْتِفَاعِ بِهِ إِبْطَال حَقِّهِمْ،إلاَّ إذَا احْتَاجَ إِلَى اسْتِعْمَال شَيْءٍ مِنَ السِّلاَحِ أَوِ الدَّوَابِّ أَوِ الثِّيَابِ .فَلاَ بَأْسَ بِاسْتِعْمَالِهِ،ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى الْغَنِيمَةِ ؛لأَنَّ هَذَا مَوْضِعُ الضَّرُورَةِ أَيْضًا،لَكِنَّ الثَّابِتَ بِالضَّرُورَةِ لاَ يَتَعَدَّى مَحَل الضَّرُورَةِ .حَتَّى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ

[4046] - المغني ٨ / ٤٤٥،وبدائع الصنائع ٧ / ١٢٣،١٢٤ .
[4047] - منح الجليل ١ / ٧٢٠ .
[4048] - منح الجليل ١ / ٧٢٠،والشرح الكبير للدردير بهامش حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٩ .
[4049] - شرح السير الكبير ٤ / ١١٤٢،١١٤٣،ومغني المحتاج ٤ / ٢٣١ - ٢٣٢ .
[4050] - شرح السير الكبير ٤ / ١١٨٢ .

يَسْتَعْمِل شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وِقَايَةً لِسِلاَحِهِ وَدَوَابِّهِ وَثِيَابِهِ وَصِيَانَةً لَهَا،فَلاَ يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ ؛لاِنْعِدَامِ تَحَقُّقِ الضَّرُورَةِ .

وَلاَ يَنْتَفِعُ بِالْغَنِيمَةِ إِلاَّ الْغَانِمُونَ أَنْفُسُهُمْ،فَلاَ يَجُوزُ لِلتُّجَّارِ أَنْ يَأْكُلُوا شَيْئًا مِنَ الْغَنِيمَةِ إِلاَّ بِثَمَنٍ[4051] .

وَقَدْ قُيِّدَ جَوَازُ الاِنْتِفَاعِ بِالْغَنِيمَةِ بِمَا إِذَا لَمْ يَنْهَهُمُ الإِمَامُ عَنِ الاِنْتِفَاعِ بِالْمَأْكُول أَوِ الْمَشْرُوبِ،أَمَّا إِذَا نَهَاهُمْ عَنْهُ فَلاَ يُبَاحُ لَهُمُ الاِنْتِفَاعُ بِهِ فعَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الحُلَيْفَةِ،فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ،فَأَصَابُوا إِبِلًا وَغَنَمًا،قَالَ:وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُخْرَيَاتِ القَوْمِ،فَعَجِلُوا،وَذَبَحُوا،وَنَصَبُوا القُدُورَ،فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالقُدُورِ،فَأُكْفِئَتْ،ثُمَّ قَسَمَ،فَعَدَلَ عَشَرَةً مِنَ الغَنَمِ بِبَعِيرٍ فَنَدَّ مِنْهَا بَعِيرٌ،فَطَلَبُوهُ،فَأَعْيَاهُمْ وَكَانَ فِي القَوْمِ خَيْلٌ يَسِيرَةٌ،فَأَهْوَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ،فَحَبَسَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ لِهَذِهِ البَهَائِمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الوَحْشِ،فَمَا غَلَبَكُمْ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا»،فَقَالَ جَدِّي:إِنَّا نَرْجُو - أَوْ نَخَافُ - العَدُوَّ غَدًا،وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدًى،أَفَنَذْبَحُ بِالقَصَبِ؟ قَالَ:" مَا أَنْهَرَ الدَّمَ،وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ،لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ،وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ:أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ،وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَى الحَبَشَةِ "[4052]

وَأَمْرُهُ ﷺ بِإِكْفَاءِ الْقُدُورِ مُشْعِرٌ بِكَرَاهَةِ مَا صَنَعُوا مِنْ الذَّبْحِ بِغَيْرِ إِذْنٍ[4053] .وَأَمَّا إِذَا نَهَاهُمُ الإِمَامُ ثُمَّ اضْطُرُّوا إِلَيْهِ جَازَ لَهُمْ أَكْلُهُ ؛لأَنَّ الإِمَامَ إِذْ ذَاكَ عَاصٍ فَلاَ يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ .

[4051] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢٤،والبحر الرائق ٥ / ٨٦ .

[4052] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٨)(٢٤٨٨)

[ش (بذي الحليفة) اسم مكان في تهامة وهو غير ذي الحلفة الذي هو ميقات أهل المدينة.(فأصابوا) أي غنيمة من أعدائهم.(أخريات القوم) أواخرهم وكان يفعل ذلك ليحمل المنقطع منهم.(فأكفئت) قلبت أو أميلت وأريق ما فيها.(فند) نفر وذهب شاردا على وجهه.(فأعياهم) فأعجزهم وأتعبهم ولم يصلوا إليه.(يسيرة) قليلة.(فأهوى) قصد.(فحبسه الله) أوقفه ومنعه من الشرود.(أوابد) جمع آبدة وهي التي نفرت من الإنس وتوحشت.(مدى) جمع مدية وهي السكين.(بالقصب) قطع القصب وقشوره.(أنهر) أسال وأجرى.(فعظم) أي لا يقطع وإن كان يجرح ويدمي فلا يكون الذبح به شرعيا.(مدى الحبشة) من عاداتهم الذبح بها فإنهم يدمون مذابح الشاة بأظفارهم حتى تزهق نفسها خنقا]

[4053] - فتح الباري ١٢ / ١٦٢ .

وَإِذَا قُسِمَت الْغَنِيمَةُ أَوْ بِيعَتْ .فَلَيْسَ لأَحَد أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الْعَلَفِ شَيْئًا بِدُونِ إِذْنِ مَنْ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ .وَإِنْ فَعَل ذَلِكَ كَانَ ضَامِنًا لَهُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ أَمْلاَكِهِ .

بَيْعُ الْغَنَائِمِ فِي دَارِ الْحَرْبِ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْغَانِمِينَ أَنْ يَبِيعُوا شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَالْعَلَفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُبَاحُ الانْتِفَاعُ بِهِ بِذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ وَلاَ عُرُوضٍ ؛لأَنَّ إِطْلاَقَ الانْتِفَاعِ وَإِسْقَاطَ اعْتِبَارِ الْحُقُوقِ وَإِلْحَاقَهَا بِالْعَدَمِ لِلضَّرُورَةِ،وَلاَ ضَرُورَةَ فِي الْبَيْعِ ؛وَلأَنَّ مَحَل الْبَيْعِ هُوَ الْمَال الْمَمْلُوكُ،وَهَذَا لَيْسَ بِمَالٍ مَمْلُوكٍ ؛لأَنَّ الإِحْرَازَ بِالدَّارِ شَرْطُ ثُبُوتِ الْمِلْكِ وَلَمْ يُوجَدْ .

فَإِنْ بَاعَ رَجُلٌ شَيْئًا رَدَّ الثَّمَنَ إِلَى الْغَنِيمَةِ ؛لأَنَّ الثَّمَنَ بَدَل مَالٍ تَعَلَّقَ بِهِ حَقُّ الْغَانِمِينَ،فَكَانَ مَرْدُودًا إِلَى الْمَغْنَمِ[٤٠٥٤] .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى قَوْلَيْنِ .

الْقَوْل الأَوَّل لِسَحْنُونٍ .وَهُوَ:أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يَبِيعَ الْغَنَائِمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ لِيَقْسِمَ أَثْمَانَهَا خَمْسَةَ أَقْسَامٍ:أَرْبَعَةٌ لِلْجَيْشِ وَخُمُسٌ لِبَيْتِ الْمَال .

وَالْقَوْل الثَّانِي لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمَوَّازِ،وَهُوَ:أَنَّ الإِمَامَ مُخَيَّرٌ فِي بَيْعِهَا فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ قَسْمِ الأَعْيَانِ،وَهَذَا كُلُّهُ إِنْ أَمْكَنَ الْبَيْعُ فِي دَارِ الْحَرْبِ " بِأَنْ وُجِدَ مُشْتَرٍ يَشْتَرِي بِالْقِيمَةِ لاَ بِالْعَيْنِ .وَبَحَثَ فِي بَيْعِهَا بِبَلَدِ الْحَرْبِ بِأَنَّهُ ضَيَاعٌ لِرُخْصِهَا .وَأُجِيبَ بِأَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ لِلْغَانِمِينَ لأَنَّهُمُ الْمُشْتَرُونَ .

أَمَّا إِذَا لَمْ يُمْكِنِ الْبَيْعُ فِي بَلَدِ الْحَرْبِ،فَيَتَعَيَّنُ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يَقْسِمَهَا قِسْمَةَ الأَعْيَانِ .

وَيَجُوزُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لأَحَدِ الْغَانِمِينَ بَيْعُ حِصَّتِهِ قَبْل قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ .

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ لِلإِمَامِ الْبَيْعَ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْل الْقِسْمَةِ لِمَصْلَحَةٍ ؛لأَنَّ وِلاَيَتَهُ ثَابِتَةٌ عَلَيْهِ،وَسَوَاءٌ أَكَانَ الْبَيْعُ لِلْغَانِمِينَ أَمْ غَيْرِهِمْ،عَلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ لِلإِمَامِ أَوْ أَمِيرِ الْجَيْشِ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْ مَغْنَمِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ؛لأَنَّهُ يُحَابَى " وَلأَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَدَّ مَا اشْتَرَاهُ

[٤٠٥٤] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢٤ .

ابْنُهُ فِي غَزْوَةِ جَلُولاَءَ،لَكِنْ إذَا قَوَّمَ أَصْحَابُ الْمَغَانِمِ شَيْئًا مَعْرُوفًا،فَقَالُوا فِي جُلُودِ الْمَاعِزِ بِكَذَا،وَالْخِرْفَانِ بِكَذَا .فَيَجُوزُ أَخْذُهُ بِتِلْكَ الْقِيمَةِ[4055] .

السَّرِقَةُ مِنْ الْغَنِيمَةِ وَالْغُلُول

الأَخْذُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بَعْدَ حَوْزِهَا سَرِقَةٌ " وَالأَخْذُ مِنْهَا قَبْل حَوْزِهَا غُلُولٌ[4056] .فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ،رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ،فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«هُوَ فِي النَّارِ»،فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ،فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا"[4057] .

وَقَدْ عُدَّ الْغُلُول كَبِيرَةً،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [آل عمران:١٦١].وَلَيْسَ مِنَ الْغُلُول أَخْذُ قَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْهَا إِذَا كَانَ الأَمِيرُ جَائِرًا لاَ يَقْسِمُ قِسْمَةً شَرْعِيَّةً،فَإِنَّهُ يَجُوزُ إِنْ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ[4058] .

التَّنْفِيل مِنْ الْغَنِيمَةِ لِلتَّحْرِيضِ عَلَى الْقِتَال:

لاَ خِلاَفَ أَنَّ التَّنْفِيل جَائِزٌ قَبْل الإِصَابَةِ لِلتَّحْرِيضِ عَلَى الْقِتَال،فَإِنَّ الإِمَامَ مَأْمُورٌ بِالتَّحْرِيضِ،قَال تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ } [الأنفال:٦٥] وَقَال:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء:٨٤]

حَقُّ الْغَائِبِ عَنْ الْقِتَال لِمَصْلَحَةٍ فِي الْغَنِيمَةِ:

يُعْطِي الأَمِيرُ لِمَنْ بَعَثَهُ لِمَصْلَحَةٍ،كَرَسُولٍ وَجَاسُوسٍ وَدَلِيلٍ وَشِبْهِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَشْهَدُوا " وَلِمَنْ خَلَّفَهُ الأَمِيرُ فِي بِلاَدِ الْعَدُوِّ،فَكُل هَؤُلاَءِ يُسْهِمُ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي مَصْلَحَةِ الْجَيْشِ،وَهُمْ

[4055] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٩٤،ومنح الجليل ١ / ٧٤٥،والقليوبي وعميرة ٢ / ٢١٣،وكشاف القناع ٣ / ٩١ .

[4056] - منح الجليل ١ / ٧٢٠،وفتح الباري ٦ / ١٨٧ .

[4057] - صحيح البخاري (٤/ ٧٤)(٣٠٧٤)

[ش (ثقل) العيال وما يثقل حمله من الأمتعة.(هو في النار) يعذب فيها يوم القيامة على قدر ذنبه ثم يخرج منها إن كان مات على الإسلام]

[4058] - منح الجليل ١ / ٧١٩،والشرح الكبير مع الدسوقي ٢ / ١٧٩ .

أَوْلَى بِالإِسْهَامِ مِمَّنْ شَهِدَ وَلَمْ يُقَاتِل[4059] .وَلَوْ أَنَّ قَائِدًا فَرَّقَ جُنُودَهُ فِي وَجْهَيْنِ،فَغَنِمَتْ إِحْدَى الْفِرْقَتَيْنِ وَلَمْ تَغْنَمِ الأُخْرَى،أَوْ بَعَثَ سَرِيَّةً مِنْ عَسْكَرٍ،أَوْ خَرَجَتْ هِيَ،فَغَنِمَتْ فِي بِلاَدِ الْعَدُوِّ وَلَمْ يَغْنَمِ الْعَسْكَرُ،أَوْ غَنِمَ الْعَسْكَرُ وَلَمْ تَغْنَمِ السَّرِيَّةُ،شَرِكَ كُل وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ ؛لأَِنَّهُ جَيْشٌ وَاحِدٌ[4060] .

مَا تَغْنَمُهُ السَّرِيَّةُ:

إِذَا بَعَثَ الإِْمَامُ سَرِيَّةً مِنَ الْجَيْشِ وَهُوَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ فَغَنِمَتْ شَارَكَهُمْ جَيْشُ الإِْمَامِ فِيمَا غَنِمَتْ،وَإِنْ غَنِمَ الْجَيْشُ فِي غَيْبَةِ السَّرِيَّةِ شَارَكَتْهُ.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:لَمَّا غَزَا هَوَازِنَ بَعَثَ سَرِيَّةً مِنَ الْجَيْشِ قِبَل أَوْطَاسٍ فَغَنِمَتِ السَّرِيَّةُ فَأَشْرَكَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجَيْشِ[4061] .

وَرُوِيَ وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ،حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،قَالَ:خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ عَامَ الْفَتْحِ فَقَالَ:" أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا شِدَّةً،وَلَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ،وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،يَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،تُرَدُّ سَرَايَاهُمْ عَلَى قَعَدَتِهِمْ،لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُؤْمِنِ،لَا جَلَبَ وَلَا جَنَبَ،وَلَا تُؤْخَذُ صَدَقَاتُهُمْ إِلَّا فِي دُورِهِمْ " [4062]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:" نَفَلَ فِي الْبَدَاءَةِ الرُّبُعَ،وَفِي الرَّجْعَةِ الثُّلُثَ "[4063]

وفي هذا دَلِيلٌ عَلَى اشْتِرَاكِهِمْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ؛لأَِنَّهُمْ لَو اخْتَصُّوا بِمَا غَنِمُوهُ لَمَا كَانَ ثُلُثُهُ نَفْلاً.وَلأَِنَّهُمْ جَيْشٌ وَاحِدٌ،وَكُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ رِدْءٌ لِلآْخَرِ فَيَشْتَرِكُونَ كَمَا لَوْ غَنِمَ أَحَدُ جَانِبَيِ الْجَيْشِ.[4064]

[4059] - كشاف القناع ٣ / ٨٣،ومنح الجليل ١ / ٧٤٢ .

[4060] - الأم ٤ / ٧٠،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٥ - ١٤٦ .

[4061] - ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤ / ٣٣٦ نشر دار الكتب العلمية)،عن ابن إسحاق

[4062] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٥٤)(١٥٩١٢) صحيح

[4063] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٣٩٦)(٢٢٧٢٦) صحيح لغيره

[4064] - الأم ٤ / ٧٠،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٥ - ١٤٦ .

وَإِنْ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى دَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ بِبَلْدَةٍ فَغَنِمَتْ لَمْ يُشَارِكْهَا الْإِمَامُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجَيْشِ وَإِنْ كَانَتْ دَارُ الْحَرْبِ قَرِيبَةً،حَتَّى لَوْ بَعَثَ سَرِيَّةً وَقَصَدَ الْخُرُوجَ وَرَاءَهَا فَغَنِمَتْ قَبْلَ خُرُوجِهِ لَمْ يُشَارِكْهَا وَإِنْ قَرُبَتْ دَارُ الْحَرْبِ؛لِأَنَّ الْغَنِيمَةَ لِلْمُجَاهِدِينَ،وَهُمْ قَبْلَ الْخُرُوجِ لَيْسُوا مُجَاهِدِينَ.وَإِنْ بَعَثَ سَرِيَّتَيْنِ إِلَى جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ لَمْ تُشَارِكْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى فِيمَا غَنِمَتْ.وَإِنْ أَوْغَلَتَا فِي بِلَادِ الْعَدُوِّ وَالْتَقَتَا فِي مَوْضِعٍ اشْتَرَكَتَا فِيمَا غَنِمَتَا بَعْدَ الِاجْتِمَاعِ.وَإِنْ بَعَثَهُمَا إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَكَانَ أَمِيرُهُمَا وَاحِدًا،أَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَرِيبَةً مِنَ الْأُخْرَى اشْتَرَكَتَا فِي الْغَنِيمَةِ[4065] .

شُرُوطُ اسْتِحْقَاقِ الْغَنِيمَةِ:

يَسْتَحِقُّ الْغَنِيمَةَ مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ الشُّرُوطُ التَّالِيَةُ:

أَوَّلاً:أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَحِقُّ صَحِيحًا أَيْ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ،وَإِنْ كَانَ يُسْهَمُ لِلْمَرِيضِ الَّذِي شَهِدَ ابْتِدَاءَ الْقِتَالِ صَحِيحًا ثُمَّ مَرِضَ وَاسْتَمَرَّ يُقَاتِلُ،وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَرَضُهُ مِنَ الْقِتَالِ،فَإِنْ لَمْ يَشْهَدْهُ فَلاَ يُسْهَمُ لَهُ .إِلاَّ أَنْ يَكُونَ ذَا رَأْيٍ،كَمُقْعَدٍ أَوْ أَعْرَجَ أَوْ أَشَلَّ أَوْ أَعْمَى لَهُ رَأْيٌ .

وَكَذَلِكَ مَنْ مَنَعَهُ الشَّرْعُ مِنَ الْجِهَادِ لِدَيْنٍ عَلَيْهِ،أَوْ مَنَعَهُ أَبَوَاهُ مِنْهُ فَحَضَرَ،فَيُسْهَمُ لَهُ لِتَعَيُّنِ الْجِهَادِ بِحُضُورِهِ،أَيْ لِصَيْرُورَةِ الْجِهَادِ فَرْضَ عَيْنٍ بِحُضُورِهِ،فَلاَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الإِذْنِ .

ثَانِيًا:أَنْ يَدْخُلَ دَارَ الْحَرْبِ عَلَى قَصْدِ الْقِتَالِ،سَوَاءٌ قَاتَلَ أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ ؛لِأَنَّ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ إِرْهَابٌ لِلْعَدُوِّ " وَهَذَا كَمَا يَحْصُلُ بِمُبَاشَرَةِ الْقَتْلِ يَحْصُلُ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ فِي صَفِّ الْقِتَالِ رِدًّا لِلْمُقَاتِلَةِ،خَشْيَةَ كَرِّ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ .وَكَذَلِكَ إِذَا حَضَرَ بِنِيَّةٍ أُخْرَى وَقَاتَلَ،لِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:إِنَّمَا الْغَنِيمَةُ لِمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ .فعَنْ قَيْسٍ قَالَ:سَمِعْتُ طَارِقًا يَقُولُ:إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ غَزَوْا نَهَاوَنْدَ،وَأَمَدَّهُمْ أَهْلُ الْكُوفَةِ،وَعَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ،فَظَهَرُوا،فَأَرَادَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ لَا يَقْسِمُوا لِأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنَ الْغَنِيمَةِ شَيْئًا:فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ بَنِي عُطَارِدٍ لِعَمَّارٍ:أَيُّهَا الْأَجْدَعُ،تُرِيدُ أَنْ تَشْرَكَنَا فِي غَنَائِمِنَا؟ قَالَ:خَيْرَ أُذُنَيَّ سَبَبْتَ.فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ،فَكَتَبَ عُمَرُ:«إِنَّ الْغَنِيمَةَ لِمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ»[4066]

[4065] – روضة الطالبين ٦ / ٣٧٩،المغني ٨ / ٤٤٢،وشرح السير الكبير ٢ / ٦٢٥.

[4066] – مسند ابن الجعد (ص: ١٠٠)(٥٨٨) صحيح

وَلاَ مُخَالِفَ لَهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ.لأَنَّ فِي شُهُودِ الْقِتَالِ تَكْثِيرَ سَوَادِ الْمُسْلِمِينَ.فَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ هَرَبَ أَسِيرٌ مِنْ كُفَّارٍ فَحَضَرَ بِنِيَّةِ خَلاَصِ نَفْسِهِ دُونَ الْقِتَالِ لَمْ يَسْتَحِقَّ إلاَّ إنْ قَاتَــلَ .وَلاَ شَيْءَ لِمَنْ حَضَرَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقِتَالِ وَحِيَازَةِ الْمَالِ،أَمَّا مَنْ حَضَرَ قَبْلَ حِيَازَةِ الْمَالِ وَبَعْــدَ انْقِضَاءِ الْقِتَالِ .فَيُعْطَى – عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافِعِيَّةِ – لِلُحُوقِهِ قَبْلَ تَمَامِ الاسْــتِيلاَءِ .وَالأَصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ الْمَنْعُ .لأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ شَيْئًا مِنَ الْوَقْعَةِ .

وَلَوْ مَاتَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْقِتَالِ وَقَبْلَ الْحِيَازَةِ يُعْطَى عَلَى الأَصَحِّ عِنْدَ الشَّــافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَــةِ .لِوُجُودِ الْمُقْتَضِي لِلتَّمْلِيكِ وَهُوَ انْقِضَاءُ الْقِتَالِ،وَالْقَوْلُ الثَّانِي عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ:لاَ يُعْطَى،بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا تُمْلَكُ بِالانْقِضَاءِ مَعَ الْحِيَازَةِ،وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ .وَلَوْ مَاتَ فِي أَثْنَاءِ الْقِتَالِ قَبْــلَ حِيَازَةِ شَيْءٍ،فَلاَ شَيْءَ لَهُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،وَهُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ .

أَمَّا الأَجِيرُ لِسِيَاسَةِ الدَّوَابِّ وَحِفْظِ الأَمْتِعَــةِ،وَالتَّاجِرُ وَالْمُحْتَــرِفُ فَيُسْــهَمُ لَهُــمْ إِذَا قَاتَلُوا.لِشُهُودِ الْوَقْعَةِ وَقِتَالِهِمْ فِي الأَظْهَرِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ،وَالْقَوْلُ الثَّانِي لِلشَّــافِعِيَّةِ:أَنَّــهُ لاَ يُسْهِمُ لَهُمْ ؛لأَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا الْجِهَادَ .

ثَالِثًا:أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا،فَلاَ يُسْهِمُ لِلأُنْثَى وَلَوْ قَاتَلَتْ .

رَابِعًا:أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا،فَلاَ يُسْهِمُ لِكَافِرٍ وَلَوْ قَاتَلَ .

خَامِسًا:أَنْ يَكُونَ حُرًّا،فَلاَ يُسْهِمُ لِعَبْدٍ وَلَوْ قَاتَلَ .

سَادِسًا .أَنْ يَكُونَ عَاقِلاً بَالِغًا .فَلاَ يُسْهِمُ لِمَجْنُونٍ أَوْ لِصَبِيٍّ[٤٠٦٧] .

وقال ابن المنذر:"عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،أَنَّ عُمَرَ،كَتَبَ إِلَى عَمَّارٍ أَنَّ الْغَنِيمَةَ،لِمَنْ شَــهِدَ الْوَقْعَةَ وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ:لَا أَرَى أَنْ يُقْسَمَ،إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ،وَبِهِ قَالَ اللَّيْــثُ بْــنُ سَعْدٍ،وَالْأَوْزَاعِيُّ،وَالشَّافِعِيُّ،وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ،وَأَبُو ثَوْرٍ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ فِي الْجَيْشِ يَــدْخُلُ أَرْضَ الْحَرْبِ فَغَنِمُوا غَنِيمَةً،ثُمَّ يَلْحَقُهُمْ جَيْشٌ آخَرُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا بِهَا إِلَى دَارِ الْإِسْــلَامِ مَدَدًا لَهُمْ وَلَمْ يَلْقَوْا عَدُوًّا حَتَّى خَرَجُوا إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ:إِنَّهُمْ شُــرَكَاءُ فِيهَا،هَــذَا قَــوْلُ النُّعْمَانِ وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ بِخَبَرٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ أَنِ اقْسِمْ لِمَنْ جَاءَ مَا

[٤٠٦٧] – البدائع ٧ / ١٢٦،ومنح الجليل ١ / ٧٤٣،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٩٢،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٦،والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٢ / ٢٥٨،والمغني لابن قدامة ٨ / ٤٦٩،٤٦٨،وكشاف القناع ٣ / ٨٢ .

لَمْ يَتَفقَّاْ يَعْنِي مَا لَمْ تَتَفَطَّرْ بُطُونُ الْقَتْلَى،وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ عَنْ عُمَرَ،لِأَنَّ الَّذِي رَوَاهُ الشَّعْبِيُّ عَنْهُ،وَهُوَ لَمْ يَلْقَهُ.وَاحْتَجَّ بِشَيْءٍ رَوَاهُ الْحَكَمُ مُنْقَطِعٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَسَمَ لِجَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ خَيْبَرَ،وَإِنَّمَا قَدِمُوا بَعْدَمَا فُتِحَتْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهَذَا مُنْقَطِعٌ غَيْرُ ثَابِتٍ،وَقَدِ احْتَجَّ بَعْضُ مَنْ يَحُوطُ هَذَا الْقَوْلَ،بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أَسْهَمَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنْ غَنِيمَةِ بَدْرٍ،وَهُوَ غَائِبٌ،وَجَبَ أَنْ يُسْهِمَ لِلْجَيْشِ الَّذِينَ لَحِقُوا بِالْآخَرِينَ،وَأَمْرُ عُثْمَانَ لَا يُشْبِهُ جَيْشًا يَلْحَقُ جَيْشًا قَبْلَ أَنْ يَقْسِمُوا الْأَمْوَالَ بَعْدَمَا غَنِمُوا،وَحَازُوا الْغَنَائِمَ وَذَلِكَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَدْ كَانَ مُقِيمًا بِالْمَدِينَةِ يُمَرِّضُ ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،حَتَّى تُوُفِّيَتْ،فَضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَهْمِهِ،وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ بَايَعَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَكَانَ كَمَنْ شَهِدَ مَعَهُ،وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُ عُثْمَانَ"[4068]

وَيَرْضَخُ لِمَنْ سَبَقَ بِحَسَبِ رَأْيِ الإِمَامِ[4069] .

قِسْمَةُ الْغَنِيمَةِ:

يَبْدَأُ الإِمَامُ فِي الْقِسْمَةِ بِالأَسْلاَبِ فَيَدْفَعُهَا إِلَى أَهْلِهَا .لِأَنَّ الْقَاتِلَ يَسْتَحِقُّهَا غَيْرَ مُخَمَّسَةٍ،فَإِنْ كَانَ فِي الْغَنِيمَةِ مَالٌ لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ دُفِعَ إِلَيْهِ؛لِأَنَّ صَاحِبَهُ مُتَعَيِّنٌ .

ثُمَّ يَبْدَأُ بِمُؤْنَةِ الْغَنِيمَةِ،مِنْ أُجْرَةِ نَقَّالٍ وَحَمَّالٍ،وَحَافِظِ مَخْزَنٍ وَحَاسِبٍ،لِأَنَّهُ مِنْ مَصْلَحَةِ الْغَنِيمَةِ .وَإِعْطَاءِ جُعْلٍ مَنْ دَلَّهُ عَلَى مَصْلَحَةٍ كَطَرِيقٍ أَوْ قَلْعَةٍ .

ثُمَّ يَجْعَلُهَا خَمْسَةَ أَقْسَامٍ مُتَسَاوِيَةً:

الْخُمُسُ الأَوَّلِ يُقْسَمُ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ:سَهْمٌ لِلَّهِ تَعَالَى،وَسَهْمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَسَهْمٌ لِذَوِي الْقُرْبَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،وَسَهْمٌ لِلْيَتَامَى،وَسَهْمٌ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ .

أَمَّا الأَخْمَاسُ الأَرْبَعَةُ فَتُوَزَّعُ كَمَا يَلِي:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ الْمُقَاتِلَ إِذَا كَانَ رَاجِلاً فَلَهُ سَهْمٌ وَاحِدٌ،وَإِنْ كَانَ فَارِسًا فَلَهُ ثَلاَثَةُ أَسْهُمٍ:سَهْمٌ لَهُ وَسَهْمَانِ لِفَرَسِهِ[4070] .وَذَلِكَ لِمَا جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ

[4068] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٥٠)(٦٥٣٧)

[4069] - الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٣١٢)

[4070] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢٦،والشرح الكبير للدردير بهامش حاشية الدسوقي ٢ / ١٩٣ والأم ٤ / ٧٠،والمغني ٦ / ٤١٩ .

عَنْهُمَا:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمًا»،وَقَالَ مَالِكٌ:" يُسْهَمُ لِلْخَيْلِ وَالبَرَاذِينِ مِنْهَا،لِقَوْلِهِ:{وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا} [النحل:٨]،وَلاَ يُسْهَمُ لِأَكْثَرَ مِنْ فَرَسٍ "[٤٠٧١]

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ يُسْهِمُ لِلْفَارِسِ بِسَهْمَيْنِ:سَهْمٌ لَهُ وَسَهْمٌ لِفَرَسِهِ ؛لِأَنَّهُ لاَ يُجْعَلُ سَهْمُ الْفَرَسِ أَفْضَلَ مِنْ سَهْمِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ ؛لِأَنَّ الْفَرَسَ لاَ يُقَاتِل بِدُونِ الرَّجُل،وَالرَّجُل يُقَاتِل بِدُونِ الْفَرَسِ،وَكَذَلِكَ مُؤْنَةُ الرَّجُل قَدْ تَزْدَادُ عَلَى مُؤْنَةِ الْفَرَسِ[٤٠٧٢] .

قال ابن المنذر:" عَنْ عُمَرَ،أَنَّهُ فَرَضَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ،وَلِلرَّجُلِ سَهْمًا.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهَذَا مَذْهَبُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ،وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ،وَمَكْحُولٌ،وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ،وَهَذَا قَوْلُ عَوَامِّ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ،وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ،وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ،وَكَذَلِكَ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ،وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ،وَبِهِ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ،وَهُوَ قَوْلُ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ،وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ،وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ،وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ،وَأَبُو ثَوْرٍ،وَيَعْقُوبُ،وَمُحَمَّدٌ،وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ خَالَفَ ذَلِكَ،وَلَا عَدَلَ عَنِ الْقَوْلِ بِمَا يُثَبِّتُ بِهِ الْأَخْبَارَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَمَا كَانَ عَلَيْهِ جُمْلَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ،إِلَّا النُّعْمَانَ فَإِنَّهُ خَالَفَ كُلَّ مَا ذَكَرْنَاهُ،فَقَالَ:لَا يُسْهَمُ لِلْفَرَسِ إِلَّا سَهْمًا وَاحِدًا،وَخَالَفَهُ أَصْحَابُهُ فَبَقِيَ قَوْلُهُ مَهْجُورًا مُخَالِفًا لِلْأَخْبَارِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَعَنْ مَنْ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:فَأَمَّا مَا حَكَى أَبُو يُوسُفَ،عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ قَالَ:لَا أُفَضِّلُ بَهِيمَةً عَلَى مُسْلِمٍ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَكُونُ مَحْجُوجًا بِخِلَافِهِ،كَانَ قَوْلُهُ:لَا أُفَضِّلُ بَهِيمَةً عَلَى مُسْلِمٍ خَطَأً مِنْ جِهَتَيْنِ أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ إِنْ كَانَ إِنَّمَا أُعْطِيَ بِسَبَبِ الْفَرَسِ سَهْمَيْنِ

[٤٠٧١] - صحيح البخاري (٤/ ٣٠)(٢٨٦٣)

[ش (جعل) من الغنيمة.(سهمين) نصيبين.(البراذين) جمع برذون وهي الخيل غير العربية.(لقوله) تعالى في الآية {والخيل} وهي عامة في كل أنواعها / النحل ٨ /.(ولا يسهم لأكثر..) أي إذا حضر الوقعة وكان معه أكثر من فرس لا يعطى إلا عن فرس واحد]

[٤٠٧٢] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢٦،والبحر الرائق ٥ / ٨٨،وشرح السير الكبير ٣ / ٨٨٥ .

كَانَ مُفَضِّلًا لَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ،إِذْ كَانَ إِنَّمَا يُعْطِي الْمُسْلِمَ سَهْمًا انْبَغَى لَهُ أَنْ لَا يُسَوِّيَ الْبَهِيمَةَ بِالْمُسْلِمِ،وَلَا يُقَرِّبَهَا مِنْهُ،وَإِنْ كَانَ هَذَا كَلَامًا عَرَبِيًّا،وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يُعْطِيَ الْفَارِسَ سَهْمًا لَهُ،وَسَهْمَانِ بِسَبَبِ فَرَسِهِ،لِأَنَّ اللهَ نَدَبَ إِلَى اتِّخَاذِ الْخَيْلِ،فَقَالَ:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال:٦٠] الْآيَةَ،وَأَعْطَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا وَصَفْنَا،فَإِنَّمَا سَهْمَا الْفَرَسِ لِرَاكِبِهِ لَا لِلْفَرَسِ،وَالْفَرَسُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا،إِنَّمَا يَمْلِكُهُ فَارِسُهُ بِغِذَاءِ الْفَرَسِ،وَالْمُؤْنَةِ عَلَيْهِ فِيهِ،وَمَا مَلَّكَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ"[٤٠٧٣]

وَلَقَدْ تَعَارَضَتْ رِوَايَاتُ الأَخْبَارِ فِي الْبَابِ:فَرُوِيَ فِي بَعْضِهَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «قَسَمَ لِلْفَارِسِ سَهْمَيْنِ،وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا»[٤٠٧٤].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْهَمَ لِرَجُلٍ وَفَرَسِهِ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ،لِلرَّجُلِ سَهْمٍ،وَلِلْفَرَسِ سَهْمَانِ"[٤٠٧٥]

وَإِذَا شَهِدَ الْفَارِسُ الْقِتَال بِفَرَسٍ صَحِيحٍ،ثُمَّ مَرِضَ هَذَا الْفَرَسُ مَرَضًا يُرْجَى بُرْؤُهُ مِنْهُ،فَإِنَّهُ يُسْهِمُ لَهُ،وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ شَهِدَ الْقِتَال عَلَى حَالَةٍ يُرْجَى بُرْؤُهُ وَيُتَرَقَّبُ الانْتِفَاعُ بِهِ .وَهَذَا قَوْل مَالِكٍ .وَفِي قَوْل أَشْهَبَ وَابْنِ نَافِعٍ أَنَّهُ لاَ يُسْهِمُ لَهُ ؛لِأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ الْقِتَال عَلَيْهِ،فَأَشْبَهَ الْكَبِيرَ[٤٠٧٦].

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:يُسْهِمُ لِفَرَسٍ مُحَبَّسٍ،وَسَهْمَاهُ لِلْمُقَاتِل عَلَيْهِ لاَ لِلْمُحَبَّسِ،وَلاَ فِي مَصَالِحِهِ كَعَلَفٍ وَنَحْوِهِ،وَلِفَرَسٍ مَغْصُوبٍ،وَسَهْمَاهُ لِلْمُقَاتِل عَلَيْهِ إِنْ غُصِبَ مِنَ الْغَنِيمَةِ فَقَاتَل بِهِ فِي غَنِيمَةٍ أُخْرَى .وَعَلَيْهِ أُجْرَتُهُ لِلْجَيْشِ،أَوْ غَصَبَهُ مِنْ غَيْرِ الْجَيْشِ،بِأَنْ غَصَبَهُ مِنْ آحَادِ الْمُسْلِمِينَ،وَسَهْمَاهُ لِلْغَاصِبِ،وَلِرَبِّهِ أُجْرَةُ الْمِثْل[٤٠٧٧].

وَلاَ يُسْهِمُ لِفَرَسٍ أَعْجَفَ – أَيْ مَهْزُولٍ – وَلاَ مَا لاَ نَفْعَ فِيهِ كَالْهَرَمِ وَالْكَبِيرِ،وَلاَ لِبَعِيرٍ وَغَيْرِهِ كَالْفِيل وَالْبَغْل وَالْحِمَارِ ؛لِأَنَّهَا لاَ تَصْلُحُ لِلْحَرْبِ صَلاَحِيَّةَ الْخَيْل،وَلَكِنْ يَرْضَخُ لَهَا

[٤٠٧٣] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٥٦)(٦٥٤٧)

[٤٠٧٤] - سنن الدارقطني (٥/ ١٨٩)(٤١٨٤) صحيح لغيره

[٤٠٧٥] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٥٤)(٦٥٤١) صحيح

[٤٠٧٦] - منح الجليل ١ / ٧٤٥،والخرشي ٣ / ١٣٤ .

[٤٠٧٧] - الشرح الكبير ٢ / ١٩٣ .

عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ،وَيُفَاوِتُ بَيْنَهَا بِحَسَبِ النَّفْعِ،فَيَكُونُ رَضْخُ الْفِيلِ أَكْثَرَ مِنْ رَضْخِ الْبَغْلِ،وَرَضْخُ الْبَغْلِ أَكْثَرُ مِنْ رَضْخِ الْحِمَارِ .

وَلَقَدْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعُونَ بَعِيرًا،فَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُمْ أَسْهَمُوا لِغَيْرِ الْخَيْلِ ؛لأَنَّ غَيْرَ الْخَيْلِ لاَ يُلْحَقُ بِهَا فِي التَّأْثِيرِ فِي الْحَرْبِ،وَلاَ يَصْلُحُ لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ[٤٠٧٨] .وَلاَ يُسْهَمُ لأَكْثَرَ مِنْ فَرَسٍ وَاحِدٍ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ،وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ وَزُفَرَ ؛لأَنَّ الإِسْهَامَ لِلْخَيْلِ فِي الأَصْلِ ثَبَتَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْقِيَاسِ،إِلاَّ أَنَّ الشَّرْعَ وَرَدَ بِهِ لِفَرَسٍ وَاحِدٍ،فَالزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ تُرَدُّ إِلَى أَصْلِ الْقِيَاسِ .

وَعِنْدَ الْحَنَابِلَةِ،وَهُوَ قَوْلُ أَبِي يُوسُفَ يُسْهِمُ لِفَرَسَيْنِ ؛لأَنَّ الْغَازِيَ تَقَعُ الْحَاجَةُ لَهُ إِلَى فَرَسَيْنِ،يَرْكَبُ أَحَدَهُمَا وَيُجَنِّبُ الآخَرَ .

حَتَّى إِذَا أَعْيَا الْمَرْكُوبُ عَنِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ تَحَوَّلَ إِلَى الْجَنِيبَةِ،وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ «يُسْهِمُ لِلْخَيْلِ،وَكَانَ لَا يُسْهِمُ لِلرَّجُلِ فَوْقَ فَرَسَيْنِ،وَإِنْ كَانَ مَعَهُ عَشَرَةُ أَفْرَاسٍ»[٤٠٧٩] .وَإِنْ غَزَا اثْنَانِ عَلَى فَرَسٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا " أُعْطِيَا سَهْمَهُ شَرِكَةً بَيْنَهُمَا[٤٠٨٠] .

الْفَارِسُ وَاسْتِخْدَامُهُ لِلْفَرَسِ:

قَال الْحَنَفِيَّةُ:لَوْ خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَقَاتَلُوا الْعَدُوَّ رَجَّالَةً،وَقَدْ سَرَّجُوا خُيُولَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ،لَمْ يَضْرِبْ لَهُمْ إِلاَّ بِسَهْمِ الرَّجَّالَةِ ؛لأَنَّهُمْ مَا قَاتَلُوا عَلَى الأَفْرَاسِ حَقِيقَةً وَلاَ حُكْمًا .فَإِسْرَاجُ الْفَرَسِ لَيْسَ مِنْ عَمَل الْقِتَال فِي شَيْءٍ .

وَإِنْ كَانُوا خَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ عَلَى الْخَيْل " ثُمَّ نَزَلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ وَقَاتَلُوا رَجَّالَةً اسْتَحَقُّوا سَهْمَ الْفُرْسَانِ ؛لأَنَّهُمْ شَهِدُوا الْوَقْعَةَ فُرْسَانًا،وَإِنَّمَا تَرَجَّلُوا لِضِيقِ الْمَكَانِ أَوْ لِزِيَادَةِ جِدٍّ مِنْهُمْ فِي الْقِتَالِ،فَلاَ يُحْرَمُونَ بِهِ سَهْمُ الْفَرَسَانِ[٤٠٨١] .وَذَكَرَ الْمَالِكِيَّةُ أَنَّ الْمُعْتَبَرَ

[٤٠٧٨] - الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٢ / ٢١٨،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٧ وما بعدها،وروضة الطالبين ٦ / ٣٨٣ وما بعدها،وكشاف القناع ٣ / ٨٧ - ٨٩ .

[٤٠٧٩] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٢٨)(٢٧٧٤) معضل

[٤٠٨٠] - البدائع ٧ / ١٢٦،والدسوقي ٢ / ١٩٣،والإقناع ٢ / ٢١٨،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٧،وكشاف القناع ٣ / ٨٧،٨٩ .

[٤٠٨١] - شرح السير الكبير ٣ / ٩١٩ .

فِي كَوْنِ الْفَارِسِ فَارِسًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فَرَسٌ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الْقِتَالِ وَلَوْ أَوْجَفَ رَاجِلاً،وَلِذَا يُسْهِمُ لِلْفَرَسِ وَإِنْ كَانَ الْقِتَالُ بِسَفِينَةٍ ؛لأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ حَمْلِ الْخَيْلِ فِي الْجِهَادِ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ[٤٠٨٢]،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠]

وَقَالَ الشَّافِعِيَّةُ:وَيُسْهِمُ كَذَلِكَ لِلْفَارِسِ بِسَهْمِ فَارِسٍ إِذَا حَضَرَ شَيْئًا مِنَ الْحَرْبِ فَارِسًا قَبْلَ أَنْ تَنْقَطِعَ الْحَرْبُ،فَأَمَّا إِنْ كَانَ فَارِسًا إِذَا دَخَلَ بِلاَدَ الْعَدُوِّ،أَوْ كَانَ فَارِسًا بَعْدَ انْقِطَاعِ الْحَرْبِ وَقَبْلَ جَمْعِ الْغَنِيمَةِ،فَلاَ يُسْهِمُ لَهُ بِسَهْمِ فَارِسٍ،وَقَالَ الْبَعْضُ:إِذَا دَخَلَ بِلاَدَ الْعَدُوِّ فَارِسًا ثُمَّ مَاتَ فَرَسُهُ،أُسْهِمَ لَهُ سَهْمَ فَارِسٍ[٤٠٨٣].

وَقَالَ الْحَنَابِلَةُ:مَنْ دَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ رَاجِلاً .ثُمَّ مَلَكَ فَرَسًا أَوِ اسْتَعَارَهُ أَوِ اسْتَأْجَرَهُ وَشَهِدَ بِهِ الْوَقْعَةَ،فَلَهُ سَهْمُ فَارِسٍ وَلَوْ صَارَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ رَاجِلاً ؛لأَنَّ الْعِبْرَةَ بِاسْتِحْقَاقِ سَهْمِ الْفَرَسِ أَنْ يَشْهَدَ بِهِ الْوَقْعَةَ .لاَ حَالَ دُخُولِ الْحَرْبِ،وَلاَ مَا بَعْدَ الْوَقْعَةِ،وَإِنْ دَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ فَارِسًا .ثُمَّ حَضَرَ الْوَقْعَةَ رَاجِلاً حَتَّى فَرَغَتِ الْحَرْبُ لِمَوْتِ فَرَسِهِ أَوْ شُرُودِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .فَلَهُ سَهْمُ رَاجِلٍ وَلَوْ صَارَ فَارِسًا بَعْدَ الْوَقْعَةِ،اعْتِبَارًا بِحَالِ شُهُودِهَا[٤٠٨٤] .

الرَّضْخُ مِنْ الْغَنِيمَةِ:

الرَّضْخُ دُونَ سَهْمٍ يَجْتَهِدُ الإِمَامُ فِي قَدْرِهِ[٤٠٨٥] وَلاَ يَبْلُغُ بِرَضْخِ الرَّجُلِ سَهْمَ رَاجِلٍ،وَلاَ الْفَارِسِ سَهْمَ فَارِسٍ،لأَنَّ السَّهْمَ أَكْمَلُ مِنَ الرَّضْخِ،فَلَمْ يَبْلُغْ بِهِ إِلَيْهِ،كَمَا لاَ يَبْلُغُ بِالتَّعْزِيرِ الْحَدَّ[٤٠٨٦].

أَصْحَابُ الرَّضْخِ:

[٤٠٨٢] - منح الجليل ١ / ٧٤٥،والخرشي على مختصر خليل ٣ / ١٣٤ .

[٤٠٨٣] - الأم ٤ / ١٤٥ ط .دار المعرفة للطباعة والنشر،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٧ .

[٤٠٨٤] - كشاف القناع ٣ / ٨٩ .

[٤٠٨٥] - ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،والشرح الصغير ٢ / ٢٩٩،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨ .

[٤٠٨٦] - كشاف القناع ٣ / ٨٧ .

الأَصْل أَنَّ مَنْ يَلْزَمُهُ الْقتَال وَشَارَكَ فيه يُسْهَمُ لَهُ لأَنَّهُ منْ أَهْله،وَأَنَّ مَنْ لاَ يَلْزَمُهُ الْقتَال في غَيْر حَالَة الضَّرُورَة لاَ يُسْهَمُ لَهُ إلاَّ أَنَّهُ يَرْضَخُ لَهُ حَسَبَ مَا يَرَاهُ الإِمَامُ تَحْرِيضًا عَلَى الْقتَال،مَعَ إِظْهَار انْحطَاط رُتْبَته[٤٠٨٧] .

وَأَصْحَابُ الرَّضْخِ مَنْ يَلي:

أ – الصَّبيُّ:

ذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ وَالْمَالكيَّةُ في قَوْل،وَالثَّوْريُّ وَاللَّيْثُ وَأَبُو ثَوْر إِلَى أَنَّ الصَّبيَّ يُرْضَخُ وَلاَ يُسْهَمُ لَهُ،لمَا رَوَى سَعيدُ بْنُ الْمُسَيِّب كَانَ الصِّبْيَانُ يُحْذَوْنَ منَ الْغَنيمَة إذَا حَضَرُوا الْغَزْوَ وَالْمَجْنُونُ وَالْمَعْتُوهُ كَالصَّبيِّ[٤٠٨٨].

وَفي قَوْل عنْدَ الْمَالكيَّة إنَّ الصَّبيَّ يُسْهَمُ لَهُ إنْ أَطَاقَ الْقتَال وَأَجَازَهُ الإِمَامُ وَقَاتَل بالْفعْل .وَإلاَّ فَلاَ،وَظَاهرُ الْمُدَوَّنَة – وَشَهَرَهُ ابْنُ عَبْد السَّلاَم – أَنَّهُ لاَ يُسْهَمُ لَهُ مُطْلَقًا[٤٠٨٩] .

وَقَال الأَوْزَاعيُّ:يُسْهَمُ للصَّبيِّ ؛عَنْ يَزيدَ بْنِ هُرْمُزَ،أَنَّ نَجْدَةَ الحَرُوريَّ كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ،هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَغْزُو بالنِّسَاء؟ وَهَلْ كَانَ يَضرِبُ لَهُنَّ بسَهْمٍ؟ فَكَتَبَ إِلَيْه ابْنُ عَبَّاسٍ:كَتَبْتَ إِلَيَّ تَسْأَلُني هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَغْزُو بالنِّسَاء،وَكَانَ يَغْزُو بهنَّ،فَيُدَاوينَ الْمَرْضَى،وَيُحْذَيْنَ منَ الغَنيمَة،وَأَمَّا يُسْهمُ،فَلَمْ يَضْربْ لَهُنَّ بسَهْمٍ...وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ العلْم،وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْريِّ،وَالشَّافعيِّ،وقَالَ بَعْضُهُمْ:يُسْهَمُ للْمَرْأَة وَالصَّبيِّ،وَهُوَ قَوْلُ الأَوْزَاعيِّ.

قَالَ الأَوْزَاعيُّ:وَأَسْهَمَ النَّبيُّ ﷺ للصِّبْيَان بخَيْبَرَ،وَأَسْهَمَتْ أَئمَّةُ الْمُسْلمينَ لكُلِّ مَوْلُود وُلدَ في أَرْضِ الحَرْب.قَالَ الأَوْزَاعيُّ:وَأَسْهَمَ النَّبيُّ ﷺ للنِّسَاء بخَيْبَرَ،وَأَخَذَ بذَلكَ الْمُسْلمُونَ بَعْدَهُ،حَدَّثَنَا بذَلكَ عَليُّ بْنُ خَشْرَمٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا عيسَى بْنُ يُونُسَ،عَنِ الأَوْزَاعيِّ بهَذَا.وَمَعْنَى قَوْله:وَيُحْذَيْنَ منَ الغَنيمَة،يَقُولُ:يُرْضَخُ لَهُنَّ بشَيْءٍ منَ الغَنيمَة يُعْطَيْنَ شَيْئًا[٤٠٩٠] .

[٤٠٨٧] – الاختيار لتعليل المختار ٤ / ١٣٠،١٣١،والهداية مع البناية ٥ / ٧٣١،٧٣٣ .

[٤٠٨٨] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،والبناية ٥ / ٧٣١،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨،والمغني ٨ / ٤١٢،والقوانين الفقهية ص ١٤٨ ط دار الكتاب العربي .

[٤٠٨٩] – الشرح الصغير ص٢٩٨ ط دار المعارف بمصر .

[٤٠٩٠] – سنن الترمذي ت بشار (٣/ ١٧٨)(١٥٥٦)

وَأَسْهَمَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ لِكُلِ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ،وَرَوَى الْجُوزَجَانِيُّ بِإِسْنَادٍ عَنِ الْوَضِينِ بْنِ عَطَاءٍ قَال:حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي قَالَتْ:كُنْت مَعَ حَبِيبِ بْنِ مَسْـلَمَةَ،وَكَانَ يُسْـهِمُ لِأُمَّهَاتِ الأَوْلاَدِ لِمَا فِي بُطُونِهِنَّ[٤٠٩١] .

ب – الْمَرْأَةُ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالْمَالِكِيَّةُ فِي الْقَوْل الْمُقَابِل لِلْمَشْهُورِ،وَسَـعِيدُ بْـنُ الْمُسَيِّبِ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَإِسْحَاقُ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تُعْطَى الرَّضْخَ وَلاَ يُسْهَمُ لَهَا،عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ،أَنَّ نَجْدَةَ،كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ،عَنْ خَمْسِ خِلَالٍ،فَقَالَ:ابْنُ عَبَّاسٍ:لَوْلَا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ،كَتَبَ إِلَيْهِ نَجْدَةُ:أَمَّا بَعْدُ،فَأَخْبِرْنِي هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ؟ وَهَلْ كَانَ يَضْرِبُ لَهُنَّ بِسَهْمٍ؟ وَهَلْ كَانَ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ؟ وَمَتَى يَنْقَضِـي يُـتْمُ الْيَتِيمِ؟ وَعَنِ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ:كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ؟ " وَقَدْ كَانَ يَغْزُو بِهِنَّ،فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى،وَيُحْذَيْنَ مِـنَ الْغَنِيمَـةِ،وَأَمَّا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ،وَإِنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ لَـمْ يَكُـنْ يَقْتُـلُ الصِّـبْيَانَ،فَلَا تَقْتُـلِ الصِّبْيَانَ،وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي مَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ الْيَتِيمِ؟ فَلَعَمْرِي،إِنَّ الرَّجُلَ لَتَنْبُتُ لِحْيَتُـهُ وَإِنَّـهُ لَضَعِيفُ الْأَخْذِ لِنَفْسِهِ،ضَعِيفُ الْعَطَاءِ مِنْهَا،فَإِذَا أَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ صَالِحِ مَا يَأْخُذُ النَّاسُ فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ الْيُتْمُ،وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ وَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ:هُوَ لَنَا،فَأَبَى عَلَيْنَـا قَوْمُنَا ذَاكَ "[٤٠٩٢]

[٤٠٩١] - المغني ٨ / ٤١٢ - ٤١٣،والبناية ٥ / ٧٣٢ .

[٤٠٩٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٤) ١٣٧ - (١٨١٢)

[ش (لولا أن أكتم علما ما كتبت إليه) يعني إلى نجدة الحروري من الخوارج معناه أن ابن عباس يكره نجدة لبدعته وهي كونه من الخوارج الذين يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ولكن لما سأله عن العلم لم يمكنه كتمه فاضطر إلى جوابه وقال لولا أن أكتم علما ما كتبت إليه أي لولا أنني إذا تركت الكتابة أصير كاتما للعلم مستحقا لوعيد كاتمه لما كتبت إليه(ويحذين) أي يعطين الحذوة وهي العطية وتسمى الرضخ والرضخ العطية القليلة(متى ينقضي يتم اليتيم) أي متى ينتهي حكم يتمه أما نفس اليتم فينقضي بالبلوغ(فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ) أي فإذا صار حافظا لما له عارفا بوجوه أخذه وعطائه(عن الخمس) معناه خمس الغنيمة الذي جعله الله لذوي القربى(فأبى علينا قومنا ذاك) أي رأوا أنه لا يتعين صرفه إلينا بل يصرفونه في المصالح وأراد بقومه ولا ة الأمر من بني أمية]

وَلأَنَّ الْمَرْأَةَ لَيْسَتْ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ .فَلَمْ يُسْهَمْ لَهَا كَالصَّبِيِّ[٤٠٩٣] .

وَالْخُنْثَى الْمُشْكِلِ يُرْضَخُ لَهُ مِثْلِ الْمَرْأَةِ مَا لَمْ تَبِنْ ذُكُورَتُهُ[٤٠٩٤] .وَقَالَ الْمَالِكِيَّةُ عَلَى الْمَشْهُورِ:كَمَا لاَ يُسْهَمُ لِلْمَرْأَةِ لاَ يُرْضَخُ لَهَا وَلَوْ قَاتَلَتْ[٤٠٩٥] .

وَقَالَ الأَوْزَاعِيُّ:يُسْهَمُ لِلْمَرْأَةِ لِمَا رَوَى حَشْرَجُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ أَبِيهِ أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَادِسَ سِتِّ نِسْوَةٍ،فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَبَعَثَ إِلَيْنَا فَجِئْنَا فَرَأَيْنَا فِيهِ الْغَضَبَ فَقَالَ:«مَعَ مَنْ خَرَجْتُنَّ،وَبِإِذْنِ مَنْ خَرَجْتُنَّ؟» فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْنَا نَغْزِلُ الشَّعَرَ وَنُعِينُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَمَعَنَا دَوَاءُ الْجَرْحَى،وَنُنَاوِلُ السِّهَامَ وَنَسْقِي السَّوِيقَ.فَقَالَ:«قُمْنَ».حَتَّى إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ «أَسْهَمَ لَنَا كَمَا أَسْهَمَ لِلرِّجَالِ».قَالَ:قُلْتُ لَهَا:يَا جَدَّةُ وَمَا كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ:تَمْرًا "[٤٠٩٦]

وَأَسْهَمَ أَبُو مُوسَى فِي غَزْوَةِ تَسْتُرَ لِنِسْوَةٍ مَعَهُ،عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ،" أَنَّ نِسَاءً مِنَ الْمُسْلِمِينَ شَهِدْنَ الْيَرْمُوكَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ،فَكَانَ بَعْضُهُنَّ يُقَاتِلْنَ،وَبَعْضُهُنَّ يَسْقِينَ الْمَاءَ،وَيَرْتَجِزْنَ،وَيَقُلْنَ فِي ارْتِجَازِهِنَّ:

إِنَّكُمْ إِنْ تُقَاتِلُوا نُعَانِقْ ...وَنَفْرِشِ النَّمَارِقْ

وَأَلَّا تُقَاتِلُوا نُفَارِقْ ...فِرَاقَ غَيْرَ وَامِقْ

وأَنَّهُنَّ أُسْهِمْنَ يَوْمَئِذٍ "[٤٠٩٧]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ،وَسُئِلَ عَنْ جِهَادِ النِّسَاءِ فَقَالَ:«كُنَّ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى،وَيَسْقِينَ الْمُقَاتِلَةَ،وَلَمْ أَسْمَعْ مَعَهُ بِامْرَأَةٍ قُتِلَتْ،وَقَدْ قَاتَلْنَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ يَوْمَ

[٤٠٩٣] – البناية ٥ / ٧٣١،وابن عابدين ٣ / ٢٣٥،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨،والمغني ٨ / ٤١٠،٤١١،والقوانين الفقهية ص١٤٨ .

[٤٠٩٤] – نهاية المحتاج ٦ / ١٤٨،وكشاف القناع ٣ / ٧٨ .

[٤٠٩٥] – حاشية الصاوي على الشرح الصغير ٢ / ٢٩٨ – ٢٩٩ .

[٤٠٩٦] – سنن أبي داود (٣/ ٧٥)(٢٧٢٩) ضعيف

قَالَ الشَّيْخُ: إِخْبَارُهَا عَنْ عَيْنِ مَا أَعْطَاهُنَّ دَلَالَةٌ عَلَى كَوْنِهِ رَضْخًا.وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ يُضْرَبْ لَهُنَّ سَهْمٌ ، بَيَانُ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.وَرُوِيَ عَنْ مَكْحُولٍ وغَيْرِهِ فِي الْإِسْهَامِ لَهُنَّ بِخَيْبَرَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ"السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٥٤١)

[٤٠٩٧] – سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٣١)(٢٧٨٥و٢٧٨٦) ضعيف و البناية ٥ / ٧٣٢،والمغني ٨ / ٤١١ .

الْيَرْمُوكِ حِينَ رَهَقَهُمْ جُمُوعُ الرُّومِ حَتَّى خَالَطُوا عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ،فَضَرَبَ النِّسَاءُ يَوْمَئِذٍ بِالسُّيُوفِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[4098]

ح – الْعَبْدُ .

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالْمَالِكِيَّةُ فِي قَوْلٍ،وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَإِسْحَاقُ،إِلَى أَنَّ الْعَبِيدَ لاَ يُسْهَمُ لَهُمْ،وَلَكِنْ يُرْضَخُ لَهُمْ حَسَبَ مَا يَرَاهُ الإِمَامُ إِذَا قَاتَلُوا .وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [4099]"،وَاحْتَجُّوا بِمَا وَرَدَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ حَدَّثَنِي عُمَيْرٌ مَوْلَى آبِي اللَّحْمِ،قَالَ:«شَهِدْتُ خَيْبَرَ مَعَ سَادَتِي،فَكَلَّمُوا فِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِي فَقُلِّدْتُ سَيْفًا،فَإِذَا أَنَا أَجُرُّهُ فَأُخْبِرَ أَنِّي مَمْلُوكٌ،فَأَمَرَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ خُرْثِيِّ الْمَتَاعِ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ:«مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يُسْهِمْ لَهُ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ:وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:«كَانَ حَرَّمَ اللَّحْمَ عَلَى نَفْسِهِ فَسُمِّيَ آبِي اللَّحْمِ»[4100]

وَلاَ يَشْتَرِطُ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ لإِعْطَاءِ الرَّضْخِ لِلْعَبْدِ إِذْنَ السَّيِّدِ،فَيُعْطَى لَهُ الرَّضْخُ إِذَا حَضَرَ الْوَقْعَةَ وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ سَيِّدُهُ [4101] .

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا غَزَا الْعَبْدُ بِغَيْرِ إِذْنِ سَيِّدِهِ لَمْ يُرْضَخْ لَهُ وَلاَ لِفَرَسِهِ لِعِصْيَانِهِ[4102]
.

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ عَلَى الْمَشْهُورِ أَنَّهُ لاَ يُرْضَخُ لِلْعَبِيدِ كَمَا لاَ يُسْهَمُ لَهُمْ[4103] .

وقال ابن المنذر:" عَنْ عُمَرَ،قَالَ:لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنَ الْمَغْنَمِ شَيْءٌ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:لَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّهُ قُسِمَ لِلنِّسَاءِ،وَالْعَبْدِ

[4098] – مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٢٩٨)(٩٦٧٣ و٩٧٦٤) صحيح لغيره

[4099] – البناية ٥ / ٧٣١،وبدائع الصنائع ٧ / ١٢٦،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨،والمغني ٨ / ٤١٠،وشرح الزركشي ٦ / ٤٩٥،والقوانين الفقهية ص١٤٨ .

[4100] – سنن أبي داود (٣/ ٧٥)(٢٧٣٠) صحيح

[4101] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨ .

[4102] – كشاف القناع ٣ / ٨٧ .

[4103] – القوانين الفقهية ص١٤٨ – ١٤٩ ط دار الكتاب العربي،وحاشية الصاوي مع الشرح الصغير ٢ / ٢٩٨ – ٢٩٩،والزرقاني ٣ / ١٣٠

وعَنْ سَعيد بْنِ الْمُسَيِّب،قَالَا:لَيْسَ للْعَبْد مــنَ الْمَغْــنَم شَــيْءٌ وَسُــئلَ مَالــكٌ عَــن الْعَبيد،وَالصِّبْيَان،هَلْ يُحْذَوْنَ منَ الْمَغَانم في الْغَزْو؟،فَقَالَ:مَا عَلمْتُ ذَلكَ.وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:الْعَبْدُ،يَقُولُونَ:لَيْسَ لَهُ في الْغَنيمَة شَيْءٌ وَفيه قَوْلٌ ثَالثٌ:وَهُوَ أَنْ لَا سَهْمَ لَهُمْ،وَلَكنْ يُرْضَخُ لَهُمْ

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كَتَبَ نَجْدَةُ يَسْأَلُهُ عَنِ الْعَبْد،وَالْمَرْأَة،هَلْ لَهُمَا سَهْمٌ؟ فَقَالَ:لَا لَــيْسَ لَهُمَا سهَامٌ

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ،أَنَّ نَجْدَةَ كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنِ الْمَرْأَة،وَالْمَمْلُوك،يَحْضُرَان الْفَتْحَ أَلَهُمَا منَ الْمَغْنَم شَيْءٌ؟ قَالَ:يُحْذَيَان وَقَالَ عَمْرُو بْنُ شُعَيْب:لَا سَهْمَ لعَبْــد مَــعَ الْمُسْلمينَ،وَقَالَ عَطَاءٌ:بَلَغَني أَنَّهُ قَالَ:لَا يُلْحَقُ عَبْدٌ في ديوَان،وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْد فــي الْعَبْد،وَالْمَرْأَة،وَالصَّبيِّ يَحْضُرُونَ النَّاسَ في الْغَزْو:لَا سَهْمَ لأَحَد منْهُمْ مَعَ الرِّجَال إِلَّــا أَنْ يُحْذَوْنَ منَ الْغَنَائم،وَقَالَ سُــفْيَانُ الثَّــوْريُّ:لَــا يُسْــهَمُ لَهُمْ،وَقيــلَ:يُحْــذَوْنَ،وَقَالَ الْأَوْزَاعيُّ:سَمعْنَا أَنَّهُ لَا يُسْهَمُ للْعَبْد،وَلَا للْأَجير،وَلَا يُرْضَخُ لَهُمْ،إِلَّا أَنْ يُحْذَى بغَنيمَــةٍ،أَوْ يَكُونَ لَهُمْ بَلَاءٌ،فَتُرْضَخَ لَهُمْ،وَقَالَ أَحْمَدُ،وَإِسْحَاقُ في الْعَبْد:يُرْضَخُ لَهُ"[٤١٠٤]

د – الذِّمِّيُّ:

ذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَأَحْمَدُ في قَوْلٍ إِلَى أَنَّ الذِّمِّيَّ يُرْضَخُ لَهُ إِذَا بَاشَــرَ الْقتَــال وَلاَ يُسْهَمُ لَهُ ؛لأَنَّ السَّهْمَ للْغُزَاة وَالْكَافرُ لَيْسَ بغَازٍ،فَإِنَّ الْغَزْوَ عبَادَةٌ وَالْكَــافرُ لَــيْسَ مــنْ أَهْلهَا،وَأَمَّا الرَّضْخُ فَلتَحْريضهمْ عَلَى الإعَانَة إِذَا احْتَاجَ الْمُسْلمُونَ إِلَيْهِمْ[٤١٠٥].

وَصَرَّحَ الشَّافعيَّةُ بأَنَّهُ إنْ حَضَرَ الذِّمِّيُّ بغَيْر إِذْن الإمَام لَمْ يَسْتَحقَّ شَيْئًا عَلَى الصَّحيح،بَل يُعَزِّرُهُ الإمَامُ آنَذَاكَ،وَيُلْحَقُ بالذِّمِّيِّ الْمُعَاهَدُ وَالْمُؤَمَّنُ وَالْحَرْبيُّ إنْ جَازَت الاسْتعَانَةُ بهِــمْ .وَأَذنَ الإمَامُ لَهُمْ[٤١٠٦].

[٤١٠٤] – الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٨٠)(٦٥٦٧ – ٦٥٧١)

[٤١٠٥] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،والفتاوى الهندية ٢ / ٢١٤،والمبسوط ١٠ / ١٣٨،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨،والمغني ٨ / ٤١٤ .

[٤١٠٦] – روضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٨ .

وَقَال مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيُّ:لَوْ كَانَ فِي الْعَسْكَرِ قَوْمٌ مُسْتَأْمَنُونَ،فَإِنْ كَانُوا دَخَلُوا بِإِذْنِ الإِمَامِ فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْل الذِّمَّةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الرَّضْخِ وَاسْتِحْقَاقِ النَّفَل إِذَا قَاتَلُوا،وَإِنْ كَانُوا دَخَلُوا بِغَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ فَلاَ شَيْءَ لَهُمْ مِمَّا يُصِيبُونَ مِنَ السَّلَبِ وَلاَ مِنْ غَيْرِهِ،بَل ذَلِكَ كُلُّهُ لِلْمُسْلِمِينَ،قَال الْخَصَّافُ:لأَنَّ هَذَا الاسْتِحْقَاقَ مِنَ الْمَرَافِقِ الشَّرْعِيَّةِ لِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْل دَارِنَا،فَلاَ يَثْبُتُ فِي حَقِّ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْل دَارِنَا،إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الإِمَامُ اسْتَعَانَ بِهِمْ .فَبِاسْتِعَانَتِهِ بِهِمْ يُلْحَقُونَ بِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْل دَارِنَا حُكْمًا[٤١٠٧] .

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ أَنَّهُ كَمَا لاَ يُسْهَمُ لِلذِّمِّيِّ لاَ يُرْضَخُ لَهُ[٤١٠٨] .

وَذَهَبَ الْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ الْكَافِرَ يُسْهَمُ لَهُ إِذَا غَزَا مَعَ الإِمَامِ بِإِذْنِهِ،وَبِهَذَا قَال الأَوْزَاعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَإِسْحَاقُ[٤١٠٩] .وَاسْتَدَلُّوا بِمَا جاء عَنْ الزُّهْرِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «اسْتَعَانَ بِنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ فِي حَرْبِهِ فَأَسْهَمَ لَهُمْ»[٤١١٠]

وَلاَ يَبْلُغُ بِالرَّضْخِ السَّهْمَ إِلاَّ فِي الذِّمِّيِّ إِذَا دَل،فَيُزَادُ عَلَى السَّهْمِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ،لأَنَّهُ كَالأُجْرَةِ[٤١١١] .

التَّفْضِيل وَالتَّسْوِيَةُ بَيْنَ أَهْل الرَّضْخِ:

الرَّضْخُ مَالٌ مَوْكُولٌ تَقْدِيرُهُ لِلإِمَامِ[٤١١٢]،فَإِنْ رَأَى التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَهْل الرَّضْخِ سَوَّى بَيْنَهُمْ،وَإِنْ رَأَى التَّفْضِيل بِحَسَبِ نَفْعِهِمْ فَضَّل[٤١١٣]،قَال النَّوَوِيُّ:يُفَاوِتُ الإِمَامُ بَيْنَ أَهْل الرَّضْخِ بِحَسَبِ نَفْعِهِمْ .فَيُرَجَّحُ الْمُقَاتِل " وَمَنْ قِتَالُهُ أَكْثَرُ عَلَى غَيْرِهِ،وَالْفَارِسُ عَلَى الرَّاجِل،وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُدَاوِي الْجَرْحَى وَتَسْقِي الْعِطَاشَ عَلَى الَّتِي تَحْفَظُ الرِّحَال،بِخِلاَفِ

[٤١٠٧] - شرح السير الكبير ٢ / ٦٨٧ .

[٤١٠٨] - حاشية الصاوي مع الشرح الكبير ٢ / ٢٩٨،٢٩٩ .

[٤١٠٩] - المغني ٨ / ٤١٤،وكشاف القناع ٣ / ٨٧ .

[٤١١٠] - المراسيل لأبي داود (ص: ٢٢٤)(٢٨١) صحيح مرسل

[٤١١١] - المغني ٨ / ٤١٥،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،وابن عابدين ٣ / ٢٣٥،وشرح السير الكبير ٣ / ٥٩٩ .

[٤١١٢] - حاشية الصاوي مع الشرح الصغير ٢ / ٢٩٩ .

[٤١١٣] - المغني ٨ / ٤١٠،وكشاف القناع ٣ / ٨٧،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٠ .

سَهْمِ الْغَنِيمَة .فَإِنَّهُ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُقَاتِل وَغَيْرُهُ ؛لِأَنَّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْه،وَالرَّضْخُ بالاجْتِهَاد،كَدِيَةِ الْحُرِّ وَقِيمَةِ الْعَبْدِ[٤١١٤] .

مَحَل الرَّضْخِ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ،وَالْحَنَابِلَةُ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ،إِلَى أَنَّ مَحَل الرَّضْخِ هُوَ أَصْل الْغَنِيمَة ؛لِأَنَّهُ اسْتَحَقَّ بِالْمُعَاوَنَة فِي تَحْصِيل الْغَنِيمَة،فَأَشْبَهَ أُجْرَةَ النَّقَّالِينَ وَالْحَافِظِينَ لَهَا[٤١١٥].

وَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ فِي أَظْهَرِ الأَقْوَال،وَالْحَنَابِلَةُ فِي الْوَجْهِ الآْخَرِ،أَنَّ الرَّضْخَ يَكُونُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَة ؛لِأَنَّهُ اسْتَحَقَّ بِحُضُورِ الْوَقْعَة،فَأَشْبَهَ سِهَامَ الْغَانِمِينَ[٤١١٦].

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي قَوْلٍ،إِلَى أَنَّ مَحَل الرَّضْخِ هُوَ خُمُسُ الْخُمُسِ[٤١١٧] .

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:مَحَل الرَّضْخِ الْخُمُسُ كَالنَّفَل[٤١١٨] .

زَمَنُ الرَّضْخِ:

يَجْرِي فِي زَمَنِ الرَّضْخِ الْخِلاَفُ الْجَارِي فِي الزَّمَنِ الَّذِي يَثْبُتُ فِيه الْمِلْكُ فِي الْغَنَائِمِ .

فَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ مِلْكَ الْغُزَاة يَثْبُتُ فِي الْغَنِيمَة فَوْرَ الاسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا فِي دَارِ الْحَرْب،وَبِالتَّالِي يَجُوزُ عِنْدَهُمْ قَسْمُ الْغَنَائِمِ فِي دَارِ الْحَرْب،بِحُجَّة أَنَّ الْمِلْكَ ثَبَتَ فِيهَا بِالْقَهْرِ وَالاسْتِيلاَءِ فَصَحَّتْ قِسْمَتُهَا،كَمَا لَوْ أُحْرِزَتْ بِدَارِ الإِسْلاَمِ[٤١١٩].

وَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ الْمِلْكَ لاَ يَثْبُتُ فِي الْغَنَائِمِ فِي دَارِ الْحَرْب بِالاسْتِيلاَءِ أَصْلاً،لاَ مِنْ كُل وَجْه وَلاَ مِنْ وَجْه،وَلَكِنْ يَنْعَقِدُ سَبَبُ الْمِلْك فِيهَا عَلَى أَنْ تَصِيرَ عِلَّةً عِنْدَ الإِحْرَازِ بِدَارِ الإِسْلاَم،وَهُوَ تَفْسِيرُ حَقِّ الْمِلْك أَوْ حَقِّ التَّمَلُّك،وَذَلِكَ لأَنَّ الاسْتِيلاَءَ إِنَّمَا يُفِيدُ الْمِلْكَ إِذَا وَرَدَ عَلَى مَالٍ مُبَاحٍ غَيْرِ مَمْلُوكٍ وَلَمْ يُوجَدْ فِي دَارِ الْحَرْبِ ؛لِأَنَّ مِلْكَ الْكَفَرَة كَانَ ثَابِتًا

[٤١١٤] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧٠ - ٣٧١ .

[٤١١٥] - البناية ٥ / ٧٣٣،وابن عابدين ٣ / ٢٣٥،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧١،والمغني ٨ / ٣١٥ .

[٤١١٦] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١،والمغني ٨ / ٤١٥ .

[٤١١٧] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١

[٤١١٨] - حاشية الصاوي مع الشرح الصغير ٢ / ٢٩٩

[٤١١٩] - المغني ٨ / ٤٢١ - ٤٢٢،والقوانين الفقهية ص ١٤٧،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٦ .

لَهُمْ،وَالْمِلْكُ مَتَى ثَبَتَ لِإِنْسَانٍ لاَ يَزُول إِلاَّ بِإِزَالَتِه،أَوْ بِخُرُوجِ الْمَحَل مِنْ أَنْ يَكُونَ مُنْتَفَعًا بِه حَقِيقَةً بِالْهَلاَك،أَوْ بِعَجْزِ الْمَالِكِ عَنِ الاِنْتِفَاعِ بِهِ دَفْعًا لِلتَّنَاقُضِ فِيمَا شُرِعَ الْمِلْكُ لَهُ .وَلَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ[٤١٢٠].

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الأَصْل،إِذَا قَسَمَ الإِمَامُ الْغَنَائِمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ مُجَازِفًا غَيْرَ مُجْتَهِد وَلاَ مُعْتَقِد جَوَازَ الْقِسْمَة لاَ تَجُوزُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّة،وَأَمَّا إِذَا رَأَى الْقِسْمَةَ فَقَسَمَهَا نَفَذَتْ قِسْمَتُهُ،وَكَذَلِكَ لَوْ رَأَى الْبَيْعَ فَبَاعَهَا ؛لأَنَّهُ حُكْمٌ أَمْضَاهُ فِي مَحَل الاِجْتِهَادِ بِالاِجْتِهَادِ فَيَنْفُذُ[٤١٢١].

انْفِرَادُ الْكُفَّارِ بِغَزْوَة:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فِي أَحَدِ الاِحْتِمَالَيْنِ عِنْدَهُمْ إِلَى أَنَّ مَا يُصِيبُهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْل الذِّمَّة لَهُمْ مَنَعَةٌ أُخْرِجَ خُمُسُهُ،وَالْبَاقِي غَنِيمَةٌ بَيْنَهُمْ،لأَنَّهُ غَنِيمَةُ قَوْمٍ مِنْ أَهْل دَارِ الإِسْلاَم،فَأَشْبَهَ غَنِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ،إِذْ إِنَّ أَهْل الذِّمَّة تَبَعٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِي السُّكْنَى حِينَ صَارُوا مِنْ أَهْل دَارِنَا،فَيَكُونُونَ تَبَعًا لِلْمُسْلِمِينَ فِيمَا يُصِيبُونَ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَيْضًا،وَقَدْ تَمَّ الإِحْرَازُ بِالْكُل،فَلِهَذَا يُخَمَّسُ جَمِيعُ الْمُصَاب[٤١٢٢].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:لاَ يُخَمَّسُ مَا أَخَذَهُ الذِّمِّيُّونَ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ ؛لأَنَّ الْخُمُسَ حَقٌّ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَالزَّكَاة[٤١٢٣].

وَمَا أَصَابَ الْمُسْتَأْمَنُونَ فَهُوَ لَهُمْ لاَ خُمُسَ فِيه عِنْدَ الْحَنَفِيَّة .وَهُوَ مُقْتَضَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّة،إِذِ الْخُمُسُ عِنْدَهُمْ حَقٌّ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ كَالزَّكَاة،فَلاَ مَجَال لِتَخْمِيسِ مَا يَأْخُذُهُ الْمُسْتَأْمَنُونَ .

وَيُؤْخَذُ مِنْ عِبَارَاتِ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ الْكَافِرَ لاَ يُعْطَى لَهُ شَيْءٌ وَلَوْ قَاتَل[٤١٢٤].

[٤١٢٠] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢١ .

[٤١٢١] - بدائع الصنائع ٧ / ١٢١،وانظر المغني ٨ / ٤٢١ .

[٤١٢٢] - شرح السير الكبير ٢ / ٦٨٨،والمغني ٨ / ٤١٤ .

[٤١٢٣] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧٢ .

[٤١٢٤] - شرح السير الكبير ٢ / ٦٨٧ - ٦٨٨،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٢،وحاشية الصاوي مع الشرح الصغير ٢ / ٢٩٨ - ٢٩٩ .

انْفِرَادُ أَهْلِ الرَّضْخِ بِغَزْوَةٍ:

إِذَا انْفَرَدَ الْعَبِيدُ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ بِغَزْوَةٍ وَغَنِمُوا،أَخَذَ الإِمَامُ خُمُسَهُ،وَمَا بَقِيَ لَهُمْ يُقْسَمُ بَيْنَهُمْ كَمَا يُقْسَمُ الرَّضْخُ،عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ مِنْ تَسْوِيَةٍ وَتَفْضِيلٍ عَلَى أَصَحِّ الأَوْجُهِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ،وَهُوَ أَحَدُ الاحْتِمَالَيْنِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ،أَطْلَقَهَا ابْنُ قُدَامَةَ وَغَيْرُهُ[4125] .

وَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي،وَهُوَ احْتِمَالٌ آخَرُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُ يُقْسَمُ بَيْنَهُمْ كَالْغَنِيمَةِ:لِلْفَارِسِ ثَلاَثَةُ أَسْهُمٍ،وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ؛لِأَنَّهُمْ تَسَاوَوْا فَأَشْبَهُوا الرِّجَالَ الأَحْرَارَ[4126] .

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ فِي الْوَجْهِ الثَّالِثِ:يَرْضَخُ لَهُمْ مِنْهُ،وَيُجْعَل الْبَاقِي لِبَيْتِ الْمَال .

وَخَصَّصَ الْبَغَوِيّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ هَذَا الْخِلاَفَ بِالصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ،وَقَطَعَ فِي الْعَبِيدِ بِكَوْنِهِ لِسَادَتِهِمْ[4127] .

أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْل الرَّضْخِ وَاحِدٌ مِنْ أَهْل الْكَمَال:

فَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ أَنَّهُ يُرْضَخُ لَهُمْ،وَالْبَاقِي لِذَلِكَ الْوَاحِدِ[4128] .وَقَال الْحَنَابِلَةُ:أُعْطِيَ هَذَا الرَّجُل الْحُرُّ سَهْمًا،وَفُضِّل عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ مَا يَفْضُل الأَحْرَارُ عَلَى الْعَبِيدِ وَالصِّبْيَانِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .وَيُقْسَمُ الْبَاقِي بَيْنَ مَنْ بَقِيَ عَلَى مَا يَرَاهُ الإِمَامُ مِنَ التَّفْضِيل ؛لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَهُ سَهْمٌ[4129] .

جَوَازُ بَيْعِ الْغَازِي شَيْئًا مِنْ مَال دَارِ الْحَرْبِ:

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ رَجُلٌ مِنْ أَهْل الْعَسْكَرِ مَالاً فِي دَارِ الْحَرْبِ فَبَاعَهُ مِنْ تَاجِرٍ قَبْل أَنْ يَعْلَمَ الأَمِيرُ بِهِ وَأَخَذَ ثَمَنَهُ،فَرَأَى الإِمَامُ أَنْ يُجِيزَ بَيْعَهُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الثَّمَنَ فَيَجْعَلُهُ فِي الْغَنِيمَةِ ؛لِأَنَّ أَهْل الْعَسْكَرِ كَانُوا شُرَكَاءَهُ فِيمَا بَاعَ قَبْل الْبَيْعِ .فَيَكُونُ لَهُمُ الشَّرِكَةُ فِي الثَّمَنِ أَيْضًا .

[4125] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١،وكشاف القناع ٣ / ٨٧،٨٨،والمغني ٨ / ٤١٣ .

[4126] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١،والمغني ٨ / ٤١٣ .

[4127] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١ .

[4128] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧١ .

[4129] - المغني ٨ / ٤١٣ .

وَلَوْ كَانَ احْتَشَّ حَشِيشًا وَبَاعَهُ جَازَ ذَلِكَ .وَكَانَ الثَّمَنُ طَيِّبًا لَهُ .وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ يَسْتَقِي الْمَاءَ عَلَى ظَهْرِهِ أَوْ دَابَّتِهِ فَيَبِيعُهُ ؛لأَنَّ الْحَشِيشَ وَالْمَاءَ مُبَاحٌ لَيْسَ مِنَ الْغَنِيمَةِ فِي شَيْءٍ،فَإِذَا لَمْ يَأْخُذْ حُكْمَ الْغَنِيمَةِ بِأَخْذِهِ كَانَ هُوَ الْمُنْفَرِدَ بِإِحْرَازِهِ،فَيَكُونُ مَمْلُوكًا لَهُ،بخلاف مَا لَوْ قَطَعَ خَشَبًا أَوْ حَطَبًا فَبَاعَهُ مِنْ تَاجِرٍ فِي الْعَسْكَرِ،فَإِنَّ الأَمِيرَ يَأْخُذُ الثَّمَنَ مِنْهُ فَيَجْعَلُهُ فِي الْغَنِيمَةِ،لأَنَّ الْحَطَبَ وَالْخَشَبَ مَالٌ مَمْلُوكٌ،فَيَكُونُ كَسَائِرِ الأَمْوَالِ[٤١٣٠] .

اسْتِيلاَءُ الْكُفَّارِ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي هَذَا عَلَى ثَلاَثَةِ أَقْوَالٍ مَشْهُورَةٍ:[٤١٣١]

(١) إِنَّ مَا اسْتَرَدَّهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَيْدِي الْحَرْبِيِّينَ فَهُوَ لأَرْبَابِهِ،بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لاَ يَمْلِكُونَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالاسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا أَصْلاً،وَمِمَّنْ قَال بِهَذَا الشَّافِعِيَّةُ،وَأَبُو ثَوْرٍ وَأَبُو الْخَطَّابِ مِنَ الْحَنَابِلَةِ،[٤١٣٢] وَاحْتَجُّوا بِمَا ربما جاء عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ،فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ،وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ،فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» فَقَالَ:بِمَ أَخَذْتَنِي،وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ:«إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ»،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا،فَرَجَعَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،قَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟» قَالَ:إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي،وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي،قَالَ:«هَذِهِ حَاجَتُكَ»،فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ،قَالَ:وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ،فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ،فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ،فَأَتَتِ الْإِبِلَ،فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ،فَلَمْ تَرْغُ،قَالَ:وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا،ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ،وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ،قَالَ:وَنَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللَّهُ عَلَيْهَا

[٤١٣٠] – شرح السير الكبير ٤ / ١١٧٤ .

[٤١٣١] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٥٧.

[٤١٣٢] – البدائع ٥ / ١٢٩،والشرح الصغير ٤ / ٣٩،وحاشية الجمل ٤ / ٤٦٩.

لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدِمَت الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ،فَقَالُوا:الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ:«سُبْحَانَ اللهِ،بِئْسَمَا جَزَتْهَا،نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ،وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ»،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ:«لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٤١٣٣] .

(٢) إِنَّ مَا غَنِمَهُ الْكُفَّارُ يَمْلِكُونَهُ بِمُجَرَّدِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ،سَوَاءٌ أَحْرَزُوهُ بِدَارِهِمْ أَوْ لَمْ يُحْرِزُوهُ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.وَوَجْهُهُ أَنَّ الْقَهْرَ سَبَبٌ يَمْلِكُ بِهِ الْمُسْلِمُ مَالَ الْكَافِرِ،فَمَلَكَ بِهِ الْكَافِرُ مَالَ الْمُسْلِمِ،وَعَلَى هَذَا إِذَا اسْتَرَدَّ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ كَانَ غَنِيمَةً سَوَاءٌ بَعْدَ الْإِحْرَازِ أَوْ قَبْلَهُ[٤١٣٤] .

(٣) إِنَّ الْكُفَّارَ يَمْلِكُونَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا شَرْطَ إِحْرَازِهَا بِدَارِهِمْ،وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ،وَدَلِيلُهُ ما جاء عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيْنَ تَنْزِلُ غَدًا فِي حَجَّتِهِ؟ قَالَ:«وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مَنْزِلًا؟»،ثُمَّ قَالَ:«نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ الْمُحَصَّبِ،حَيْثُ قَاسَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الكُفْرِ»،وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي كِنَانَةَ حَالَفَتْ قُرَيْشًا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ،أَنْ لاَ يُبَايِعُوهُمْ،وَلاَ يُؤْوُوهُمْ،قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَالخَيْفُ:الوَادِي"[٤١٣٥]

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ،أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ،أَوْ دُورٍ»،«وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ،وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ،وَلَا عَلِيٌّ شَيْئًا لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ،وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ»[٤١٣٦]

[٤١٣٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٦٢)٨ - (١٦٤١)

[ش (وأصابوا معه العضباء) أي أخذوها وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (سابقة الحاج) أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك(لو قلتها وأنت تملك أمرك) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء(وناقة منوقة) أي مذللة(ونذروا بها) أي علموا وأحسوا بهربها]

[٤١٣٤] - المغني ٨ / ٤٣٣ - ٤٣٤.

[٤١٣٥] - صحيح البخاري (٤/ ٧١)(٣٠٥٨) بَابُ إِذَا أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي دَارِ الحَرْبِ،وَلَهُمْ مَالٌ وَأَرَضُونَ،فَهِيَ لَهُمْ

[٤١٣٦] - صحيح مسلم (٢/ ٩٨٤)٤٣٩ - (١٣٥١)

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ مَكَّةَ:أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ؟ فَقَالَ:«وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ،أَوْ دُورٌ؟» قَالَ وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ،وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيٌّ؛لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ "قَالَ:فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ،يَقُولُ:لَا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ،وَلَا الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ وَكَانُوا يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال:٧٣] قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَصَارَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْكَافِرِ وَفِي الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَمْ يُهَاجِرْ وَاحِدًا،فِي الْوَلَايَةِ وَالْمِيرَاثِ،لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي الِاسْتِنْصَارِ خَاصَّةً لِقَوْلِهِ:{فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال:٧٢] .قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ تَأَوَّلَهَا فِي الْعَصَبَاتِ،قَالَ:كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ أَنْ يَرِثَهُ فَنَزَلَتْ:{وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ} [الأحزاب:٦] .

وَكَانَ شُرَيْحٌ يَتَأَوَّلُهَا فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ:أَنَّهُمْ يَرِثُونَ دُونَ الْمَوَالِي؛سَمِعْتُ مُعَاذًا يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ،عَنْ عِيسَى بْنِ الْحَارِثِ،عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَشُرَيْحٍ بِكَلَامٍ هَذَا مَعْنَاهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَهَذِهِ وُجُوهٌ ثَلَاثَةٌ مِنَ التَّأْوِيلِ،وَلَعَلَّ الْآيَةَ قَدْ جَمَعَتْهَا كُلَّهَا،إِلَّا أَنَّ الَّذِيَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَدِيثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَلَا تَسْمَعْ قَوْلَهُ:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [الأنفال:٧٢] فَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ:أَنَّ الْهِجْرَةَ هِيَ الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ الْحُكْمَيْنِ وَيُصَدِّقُهُ آيَةٌ أُخْرَى:قَوْلُهُ:{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} [محمد:٢٥][٤١٣٧]

[ش (رباع) جمع ربع - كسهم وسهام والربع محلة القوم ومترلهم]

[٤١٣٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٢٧٦)(٥٢٨)

(٣) وَلأنَّ الْعصْمَةَ تَزُول بالإْحْرَاز بدَار الْحَرْب،إذ الْمَالكُ لاَ يُمْكنُهُ الانْتفَاعُ به إلاَّ بَعْــدَ الدُّخُول لمَا فيه منْ مُخَاطَرَة،إذْ الدَّارُ دَارُهُمْ،فَإذَا زَال مَعْنَى الْملْك أَوْ مَا شُرعَ لَهُ الْملْكُ يَزُول الْملْكُ ضَرُورَةً،فَباسْترْدَاد الْمُسْلمينَ لذَلكَ يَكُونُ غَنيمَةً.[٤١٣٨]

وفي مشكل الآثار:"بَابُ بَيَان مُشْكلِ مَا رُويَ عَنْ رَسُول الله ﷺ منْ جَوَابه أُسَامَةَ لَمَّــا قَالَ لَهُ:انْزلْ في دَاركَ بمَكَّةَ:" وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقيلٌ منْ ربَاعٍ أَوْ دُورٍ "

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْد أَنَّهُ قَالَ:يَا رَسُولَ الله،أَتَنْزلُ في دَاركَ غَدًا بمَكَّةَ؟ فَقَالَ:" وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقيلٌ منْ ربَاعٍ أَوْ دُورٍ؟ ".وَكَانَ عَقيلٌ وَرثَ أَبَا طَالبٍ هُوَ وَطَالبٌ،وَلَمْ يَرثْ جَعْفَرٌ وَلَا عَليٌّ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا؛لأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلمَيْن،وَكَانَ عَقيلٌ وَطَالبٌ كَافرَيْن،وَكَانَ عُمَرُ بْــنُ الْخَطَّاب يَقُولُ:" لَا يَرثُ الْمُؤْمنُ الْكَافرَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَتَأَمَّلْنَا قَوْلَهُ ﷺ:هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقيلٌ منْ ربَاعٍ أَوْ دُورٍ،فَوَجَدْنَاهُ مَوْصُولًا بــه في هَذَا الْحَديث،وَكَانَ عَقيلٌ وَرثَ أَبَا طَالبٍ هُوَ وَطَالبٌ؛لأَنَّهُمَا كَانَا كَافرَيْن،وَلَمْ يَرثْهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَليٌّ؛لأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلمَيْن،فَاحْتُملَ أَنْ يَكُونَ ذَلكَ منْ كَلَام الزُّهْريِّ؛لأَنَّهُ كَــانَ يَخْلطُ كَلَامَهُ كَثيرًا بحَديثه حَتَّى يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ منْهُ؛وَمنْ أَجْلِ ذَلكَ قَالَ لَــهُ مُوسَــى بْــنُ عُقْبَةَ:افْصلْ كَلَامَكَ منْ كَلَامِ النَّبيِّ ﷺ،مَعَ أَنَّا قَدْ أَحَطْنَا علْمًا أَنَّ ذَلكَ لَيْسَ مــنْ كَلَــامِ النَّبيِّ ﷺ.وَقَد احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بقَوْل النَّبيِّ ﷺ:" وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقيلٌ مَنْزلًا نَبيتُ به " أَنَّ أَرْضَ مَكَّةَ مَمْلُوكَةٌ،وَلَمْ يَكُنْ لَهُ في هَذَا عنْدَنَا حُجَّةٌ ؛ لأَنَّ إضَافَةَ الدَّارِ منْ أُسَامَةَ إلَيْه وَإضَافَتَهُ إيَّاهَا إلَى نَفْسه قَدْ يَكُونُ لسُكْنَاهُ كَانَ إيَّاهَا،لَا عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَالكًا لَهَا،كَمَا أَضَــافَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوت إلَى الْعَنْكَبُوت،لَا أَنَّهَا تَمْلكُهُ،وَلَكنْ لسَكَنه إيَّاهَا،وَكَمَا حَكَــى لَنَا عَزَّ وَجَلَّ في قصَّة نَبيِّه سُلَيْمَانَ ﷺ منْ قَوْل النَّمْلَة:{يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكنَكُمْ} [النمل:١٨] عَلَى الْإضَافَة لَا عَلَى التَّحْقيق،وَكَمَا يُقَالُ:يَا رَبَّ الدَّار،وَكَمَا يُقَــالُ جُــلُّ الدَّابَّة بالْإضَافَة لَا بتَحْقيق الْملْك،فَكَانَ مثْلُ ذَلكَ مَا أَضَافَهُ إلَى نَفْسه،وَمَا أَضَافَهُ أُسَــامَةُ إلَيْه،وَقَدْ يَحْتَملُ مَا ذَكَرْنَا،وَالدَّليلُ عَلَى ذَلكَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَرْجعْ إلَيْه شَيْءٌ منْ مَــالِ

[٤١٣٨] - تبيين الحقائق ٣ / ٢٦٠ - ٢٦١،والبدائع ٧ / ١٢٨،١٢٧،١٢٣،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨٨،والمهذب ٢ / ٢٤٢،والمغني ٨ / ٤٣٠ وما بعدها،وبداية المجتهد ١ / ٤١٦،والدر المختار ٣ / ٢٤٤،وحاشية الصاوي ٢ / ٢٩١.

أَبِي طَالِبٍ؛لِأَنَّ وَارِثَهُ غَيْرُهُ،وَلَا رَجَعَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛لِأَنَّ عَبْدَ اللهِ أَبَا النَّبِيِّ ﷺ قَدْ كَانَ مَاتَ قَبْلَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.وَاللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ "[4139]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:«ذَهَبَتْ فَرَسٌ لَهُ،فَأَخَذَهَا الْعَدُوُّ،فَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ،رُدَّ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبَقَ عَبْدٌ لَهُ،فَلَحِق بِالرُّومِ،فَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ،فَرَدَّ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ».هَذَا حديثٌ صحيحٌ

وفيه دليلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا أَحْرَزُوا أَمْوالَ الْمُسْلِمِينَ،وَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا،لَا يَمْلِكُونَهَا،وَإِذَا اسْتَنْقَذَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ تُرَدُّ إِلَى مُلَاكِهَا،وَهُو قَوْلُ الشَّافِعِيِّ،سَوَاءَ كَانَ بَعْدَ الْقِسْمَةِ أَوْ قَبْلَهَا،وَقَالَ الأَوْزَاعِيُّ،وَالثَّوْرِيُّ،وَمَالِكٌ:إِنْ أَدْرَكَهُ صَاحِبُهُ قَبْلَ الْقِسْمَةِ،أَخَذَهُ،وَإِنْ أَدْرَكَهُ بَعْدَ الْقِسْمَةِ،كَانَ أَحَقَّ بِهِ بِالْقِيمَةِ،وَكَذَلِك قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِيمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْكُفَّارُ بِالْغَلَبَةِ.

أَمَّا الْعَبْدُ،أَوِ الْفَرَسُ إِذَا أَبَقَ،أَوْ عَار إِلَيْهِمْ،كَانَ صَاحِبُهُ أَوْلَى بِهِ بَعْدَ الْقِسْمَةِ وَقَبْلَهَا،وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ بِالاسْتِيلاءِ رِقَابَ أَحْرَارِ الْمُسْلِمِينَ،وَأُمَّهَاتِ أَوْلادِهِمْ،وَيَمْلِكُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ"[4140]

وقال القاري:"(قَالَ:ذَهَبَتْ فَرَسٌ لَهُ) أَيْ:نَفَرَتْ وَشَرَدَتْ إِلَى الْكُفَّارِ (فَأَخَذَهَا الْعَدُوُّ،فَظَهَرَ) أَيْ:غَلَبَ (عَلَيْهِمْ) أَيْ:عَلَى الْعَدُوِّ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ (الْمُسْلِمُونَ فَرُدَّ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ أَيِ:الْفَرَسُ (عَلَيْهِ) أَيْ:عَلَى ابْنِ عُمَرَ فَفِي الصِّحَاحِ:الْفَرَسُ يُؤَنَّثُ وَقَدْ يُذَكَّرُ،وَفِي الْقَامُوسِ:الْفَرَسُ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى،لَكِنْ عَدَّهَا ابْنُ الْحَاجِبِ فِي رِسَالَتِهِ مِمَّا لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَأْنِيثِهِ،فَيُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ الْجَارُّ نَائِبَ الْفَاعِلِ،وَفِي نُسْخَةٍ:فَرُدَّتْ عَلَيْهِ (فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي رِوَايَةٍ:«أَبَقَ عَبْدٌ لَهُ فَلَحِقَ بِالرُّومِ،فَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ،فَرَدَّ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ» .رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ):قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ:فِيهِ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ عَبْدًا آبِقًا،فَإِذَا أَخَذُوهُ وَجَبَ رَدُّهُ عَلَى صَاحِبِهِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ وَبَعْدَهَا،وَبِهِ قُلْنَا.وَفِي شَرْحِ السُّنَّةِ:فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا أَحْرَزُوا أَمْوَالَ

[4139] - شرح مشكل الآثار (٦/ ٣١٠)(٢٥٠٤)

[4140] - شرح السنة للبغوي (١١/ ١٢٤)(٢٧٣٤) صحيح

الْمُسْلمينَ،وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا لَا يَتَمَلَّكُونَهَا،وَإِذَا اسْتَنْقَذَهَا الْمُسْلمُونَ منْ أَيْديهِمْ تُـرَدُّ إِلَـى مُلَّاكِهَا،وَهُوَ قَوْلُ الشَّافعيِّ،سَوَاءٌ كَانَ قَبْلَ الْقِسْمَةِ،أَوْ بَعْدَهَا خلَافًا لِجَمَاعَةٍ إِذَا كَانَ بَعْدَ الْقسْمَة.

قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:إِنْ أَبَقَ عَبْدٌ لِمُسْـلِمٍ،أَوْ ذمِّـيٍّ وَهُـوَ مُسْـلِمٌ وَدَخَـلَ عَلَـيْهِمْ دَارَ الْحَرْب،فَأَخَذُوهُ لَمْ يَمْلكُوهُ عنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَقَالَا:يَمْلكُونَهُ،وَبِه قَالَ مَالكٌ وَأَحْمَدُ،وَأَمَّا لَو ارْتَدَّ فَأَبَقَ إِلَيْهِمْ فَأَخَذُوهُ مَلَكُوهُ اتِّفَاقًا،وَكَذَا إِذَا نَدَّ بعيرٌ إِلَيْهِمْ،فَأَخَذُوهُ مَلَكُـوهُ فَيَتَفَـرَّعُ عَلَى ملْكهِمْ إِيَّاهُ أَنَّهُ لَو اشْتَرَاهُ رَجُلٌ وَأَدْخَلَهُ دَارَ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّمَا يَأْخُذُهُ مَالكُهُ منْهُ بِالثَّمَنِ إِنْ شَاءَ،وَإِذَا غَلَبُوا عَلَى أَمْوَالنَا وَأَحْرَزُوهَا بِدَارِهِمْ مَلَكُوهَا،وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَحْمَـدَ،إِلَّا أَنَّ عنْدَ مَالِك بِمُجَرَّد الاسْتيلَاءِ يَمْلكُونَهَا،وَلأَحْمَدَ فيه رِوَايَتَانِ كَقَوْلنَا وَقَـوْلِ مَالِك،وَقَـالَ الشَّافعيُّ:لَا يَمْلكُونَهَا لِمَا رَوَى الطَّحَاوِيُّ مُسْنَدًا إِلَى عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ:«كَانَـت الْعَضْبَاءُ منْ سَوَابِقِ الْحَاجِّ،فَأَغَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى سَرْحِ الْمَدِينَة،وَفِيه الْعَضْبَاءُ،وَأَسَـرُوا امْرَأَةً منَ الْمُسْلمينَ،وَكَانُوا إِذَا نَزَلُوا يُرِيحُونَ إِبِلَهُمْ فِي أَفْنِيَتِهِمْ،فَلَمَّا كَانَـتْ ذَاتَ لَيْلَـةٍ قَامَت الْمَرْأَةُ وَقَدْ نُوِّمُوا فَجَعَلَتْ لَا تَضَعُ يَدَهَا عَلَى بَعِيرٍ إِلَّا رَغَا حَتَّى أَتَتْ عَلَى الْعَضْـبَاءِ فَأَتَتْ عَلَى نَاقَة ذَلُولٍ،فَرَكبَتْهَا،ثُمَّ تَوَجَّهَتْ قبَلَ الْمَدِينَة،وَنَذَرَتْ لَئِن اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَجَّاهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدمَتْ عُرِفَت النَّاقَةُ،فَأَتَوْا بِهَا النَّبِيَّ ﷺ،فَأَخْبَرَت الْمَرْأَةُ بِنَذْرِهَا فَقَالَ:" بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا،أَوْ فَدَيْتِهَا لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَة اللَّه تَعَالَى وَلَا فِيمَا لَا يَمْلكُ ابْنُ آدَمَ» .وَفِي لَفْظ:فَأَخَذَ نَاقَتَهُ،وَللْجُمْهُورِ قَوْلُهُ تَعَالَى {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَـاجرينَ} [الحشـر:٨] سَـمَّاهُمْ فُقَرَاءَ،وَالْفَقيرُ مَنْ لَا يَمْلكُ شَيْئًا،فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ مَلَكُوا أَمْـوَالَهُمُ الَّتِـي خَلَّفُوهَـا وَهَاجَرُوا عَنْهَا،وَلَيْسَ مَنْ يَمْلكُ مَالًا وَهُوَ فِي مَكَانٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَقيرًا،بَلْ هُوَ مَخْصُوصٌ بِابْنِ السَّبِيلِ،وَلذَا عُطِفُوا عَلَيْهِمْ فِي نَصِّ الصَّدَقَة،وَأَمَّا مَا اسْتَدَلَّ بِه الشَّارِحُونَ مِمَّا فِـي الصَّحيحَيْنِ،«أَنَّهُ قِيلَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْفَتْحِ:أَيْنَ تَنْزِلُ غَدًا بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ:" هَـلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ منْ مَنْزِلٍ» .وَفِي رِوَايَة:«أَتَنْزِلُ بِدَارِكَ؟ قَالَ:" فَهَلْ تَرَكَ لَنَـا عَقِيـلٌ مِـنْ رِبَاعٍ» .وَإِنَّمَا قَالَ ؛ لأَنَّ عَقِيلًا كَانَ اسْتَوْلَى عَلَيْه،وَهُوَ عَلَى كُفْرِه فَغَيْرُ صَـحِيحٍ ؛ لِـأَنَّ الْحَدِيثَ إِنَّمَا هُوَ دَلِيلُ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَرِثُ الْكَافِرَ،فَإِنَّ عَقِيلًا إِنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَـى الرِّبَـاعِ

بِإِرْثِه إِيَّاهَا منْ أَبِي طَالب،فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ وَتَرَكَ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا مُسْلِمَيْن،وَعَقيلًا وَطَالبًا كَافِرَيْن،فَوَرِثَاهُ ؛ لِأَنَّ الدِّيَارَ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَلَمَّا هَاجَرُوا اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا فَمَلَكُوهَا بِالِاسْتِيلَاءِ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاسِيله،عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرَفَةَ قَالَ:«وَجَدَ رَجُلٌ مَعَ رَجُلٍ نَاقَةً لَهُ،فَارْتَفَعَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَقَامَ الْبَيِّنَةَ أَنَّهَا لَهُ،وَأَقَامَ الْآخَرُ الْبَيِّنَةَ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنَ الْعَدُوِّ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" إِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْخُذَ بِالثَّمَنِ الَّذِي اشْتَرَاهَا بِه فَأَنْتَ أَحَقُّ وَإِلَّا فَخَلِّ عَنْ نَاقَتِه» ".وَالْمُرْسَلُ حُجَّةٌ عِنْدَنَا،وَعِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ مُسْنَدًا،عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرَفَةَ،عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ وَفِي سَنَدِه يَس الزَّيَّاتُ مُضَعَّفٌ،وَأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ،ثُمَّ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِمَا،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ:«فِيمَا أَحْرَزَ الْعَدُوُّ فَاسْتَنْقَذَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ إِنْ وَجَدَهُ صَاحِبُهُ قَبْلَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ أَحَقُّ بِه،وَإِنْ وَجَدَهُ قَدْ قُسِّمَ فَإِنْ شَاءَ أَخَذَهُ بِالثَّمَنِ» .وَضُعِّفَ بِالْحَسَنِ بْنِ عُمَارَةَ.وَأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:" «مَنْ وَجَدَ مَالَهُ فِي الْفَيْءِ قَبْلَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ لَهُ،وَمَنْ وَجَدَهُ بَعْدَ مَا قُسِّمَ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ» " وَضُعِّفَ بِإِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّه بْنِ أَبِي فَرْوَةَ،ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ فِيهِ رَشْدِينُ وَضُعِّفَ بِه،وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا:" «مَنْ أَدْرَكَ مَالَهُ فِي الْفَيْءِ قَبْلَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ لَهُ،وَإِنْ أَدْرَكَ بَعْدَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ أَحَقُّ بِالثَّمَنِ» " وَفِيهِ يَس ضُعِّفَ بِه،وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:مَنْ أَدْرَكَ مَا أَخَذَ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ لَهُ،وَمَا قُسِّمَ فَلَا حَقَّ لَهُ فِيهِ إِلَّا بِالْقِيمَةِ.قَالَ:وَهَذَا إِنَّمَا رُوِيَ عَنِ الشَّعْبِيِّ،وَعَنْ عَمْرٍو،عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ،عَنْ عُمَرَ مُرْسَلًا،وَكِلَاهُمَا لَمْ يُدْرِكْ عُمَرَ.

وَرَوَى الطَّحَاوِيُّ بِسَنَدِه إِلَى قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ:فِيمَا أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ فَأَصَابَهُ الْمُسْلِمُونَ فَعَرَفَهُ صَاحِبُهُ إِنْ أَدْرَكَ قَبْلَ أَنْ يُقَسَّمَ فَهُوَ لَهُ،وَإِنْ جَرَتْ فِيهِ السِّهَامُ فَلَا شَيْءَ لَهُ.وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا،عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مِثْلُ ذَلِكَ،وَرُوِيَ بِإِسْنَادِه إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ،عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ مِثْلُهُ.وَرُوِيَ أَيْضًا بِإِسْنَادِه إِلَى قَتَادَةَ عَنْ جُلَاسٍ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:مَنِ اشْتَرَى مَا أَحْرَزَ الْعَدُوُّ فَهُوَ جَائِزٌ،وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَشُكُّ بَعْدَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ فِي أَصْلِ هَذَا الْحُكْمِ،وَيَدُورُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ تَضْعِيفٍ

بِالْإِرْسَالِ،أَوِ التَّكَلُّمِ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ،فَإِنَّ الظَّنَّ بِلَا شَكٍّ يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ ثَابِتٌ،وَأَنَّ هَذَا الْجَمْعَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَتَعَمَّدُوا الْكَذِبَ،وَيَبْعُدُ أَنَّهُ وَقَعَ غَلَطٌ لِلْكُلِّ فِي ذَلِكَ،وَتَوَافَقُوا فِي هَذَا الْغَلَطِ،بَلْ لَا شَكَّ أَنَّ الرَّاوِيَ الضَّعِيفَ إِذَا كَثُرَ مَجِيءُ مَعْنَى مَا رَوَاهُ يَكُونُ مِمَّا أَجَادَ فِيهِ،وَلَيْسَ يَلْزَمُ الضَّعِيفَ الْغَلَطُ دَائِمًا،وَلَا أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ حَالِهِ السَّهْوَ وَالْغَلَطَ،هَذَا مَعَ اعْتِضَادِهِ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَةِ،وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ،وَحَدِيثُ الْعَضْبَاءِ كَانَ قَبْلَ إِحْرَازِهِمْ بِدَارِ الْحَرْبِ،أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:وَكَانُوا إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا إِلَخْ.فَإِنَّهُ يُفْهَمُ أَنَّهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ وَهُمْ فِي الطَّرِيقِ اهـ.وَبِهِ يُعْلَمُ حُكْمُ الْحَدِيثَيْنِ السَّابِقَيْنِ فِي الْأَصْلِ،وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ."[٤١٤١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤١٤١] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٧٤)

المبحث الثاني

الخلاصة في أحكام الرضخ

التَّعْرِيفُ:

الرَّضْخُ فِي اللُّغَةِ الْعَطَاءُ الْقَلِيل،يُقَال:رَضَخْتُ لَهُ رَضْخًا وَرَضِيخًا؛أَيْ أَعْطَيْتُهُ شَيْئًا لَيْسَ بِالْكَثِيرِ.وَالأْصْل فِيهِ الرَّضْخُ بِمَعْنَى الْكَسْرِ.

وَالْمَال الْمُعْطَى يُسَمَّى:رَضْخًا،تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ،وَهُوَ فَعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ[٤١٤٢].

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الرَّضْخُ عَطِيَّةٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ يَجْتَهِدُ الإْمَامُ فِي قَدْرِهِ[٤١٤٣] .

الأْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – السَّهْمُ:

السَّهْمُ هُوَ النَّصِيبُ الْمُحْكَمُ،وَالْجَمْعُ أَسْهُمٌ،وَسِهَامٌ بِالْكَسْرِ،وَسُهَامٌ بِالضَّمِّ،يُقَال:أَسْهَمْتُ لَهُ:أَعْطَيْتُهُ سَهْمًا[٤١٤٤].

وَاصْطِلاَحًا:نَصِيبٌ مُقَدَّرٌ لِلْمُحَارِبِينَ فِي الْغَنِيمَةِ،وَالصِّلَةُ بَيْنَ السَّهْمِ وَالرَّضْخِ هِيَ أَنَّ السَّهْمَ مُقَدَّرٌ وَالرَّضْخَ دُونَ السَّهْمِ بِاجْتِهَادِ الإْمَامِ.

ب – التَّنْفِيل:

التَّنْفِيل فِي اللُّغَةِ مِنَ النَّفَل وَهُوَ الْغَنِيمَةُ،وَفِي الاصْطِلاَحِ:زِيَادَةُ مَالٍ عَلَى أَسْهُمِ الْغَنِيمَةِ يَشْتَرِطُهُ الإمَامُ أَوْ نَائِبُهُ لِمَنْ يَقُومُ بِمَا فِيهِ نِكَايَةً فِي الْعَدُوِّ[٤١٤٥].

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الرَّضْخِ وَالتَّنْفِيل،أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا جُزْءٌ غَيْرُ مُقَدَّرٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ.

ج – السَّلَبُ:

٤١٤٢ – المصباح المنير.

٤١٤٣ – نهاية المحتاج ٦ / ١٥٠،القليوبي ٣ / ١٩٥،والزرقاني ٣ / ١٣٠.

٤١٤٤ – المصباح المنير.

٤١٤٥ – لسان العرب،حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٨،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٨،والمغني ٨ / ٣٧٨.

وَهُوَ فِي اللُّغَةِ:كُل شَيْءٍ عَلَى الإْنْسَانِ مِنَ اللِّبَاسِ وَغَيْرِهِ:وَيُقَال:سَلَبْتُهُ أَسْلُبُهُ سَلَبًا:إِذَا أَخَذْتَ سَلَبَهُ.

وَفِي الاِصْطِلاَحِ مَا يَأْخُذُهُ أَحَدُ الْقَرَنَيْنِ فِي الْحَرْبِ مِنْ قِرْنِهِ،مِمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ وَمَعَهُ،مِنْ ثِيَابٍ وَسِلاَحٍ وَدَابَّةٍ[4146].وَالصِّلَةُ بَيْنَ السَّلَبِ وَالرَّضْخِ،هِيَ أَنَّ السَّلَبَ فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى السَّهْمِ،وَالرَّضْخَ عَطِيَّةٌ دُونَ السَّهْمِ.

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ الرَّضْخَ حَقٌّ وَاجِبٌ يَسْتَحِقُّهُ الْمَرْضُوخُ لَهُ لِعَمَلٍ قَامَ بِهِ وَفِيهِ نَفْعٌ لِلْقِتَال.

وَفِي قَوْلٍ لِلشَّافِعِيَّةِ:هُوَ مُسْتَحَبٌّ،وَلَيْسَ بِحَقٍّ ثَابِتٍ.وَالرَّضْخُ غَيْرُ مُقَدَّرٍ،فَيَجْتَهِدُ الإْمَامُ فِي مِقْدَارِهِ،وَلَهُ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ مَنْ يَرْضَخُ لَهُمْ،وَأَنْ يُفَاضِل بَيْنَهُمْ حَسَبَ نَفْعِهِمْ فِي الْقِتَال،فَيُرَجِّحُ الْمُقَاتِل عَلَى غَيْرِهِ،وَمَنْ قِتَالُهُ أَكْثَرُ،وَالْفَارِسُ عَلَى الرَّاجِل،وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُدَاوِي الْجَرْحَى وَتَسْقِي الْعِطَاشَ عَلَى الَّتِي تَحْفَظُ الرِّحَال[4147].

أَصْحَابُ الرَّضْخِ:

أَصْحَابُ الرَّضْخِ كُل مَنْ لَمْ يَلْزَمْهُ الْقِتَال إِلاَّ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ،وَقَامَ بِعَمَلٍ مُفِيدٍ فِي الْقِتَال،كَالنِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ الْمُمَيِّزِينَ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْجِهَادِ[4148]،وَوَجَبَ إِعْطَاؤُهُمْ لِلآْثَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُمَيْرٌ،مَوْلَى آبِي اللَّحْمِ قَالَ:«شَهِدْتُ خَيْبَرَ مَعَ سَادَتِي،وَكَلَّمُوا فِيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَمَرَنِي فَقُلِّدْتُ سَيْفًا،فَإِذَا أَنَا أَجُرُّهُ فَأُخْبِرَ أَنِّي مَمْلُوكٌ فَأَمَرَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ خُرْثِيِّ الْمَتَاعِ»[4149].

[4146] - لسان العرب،نهاية المحتاج ٦ / ١٤٤ - ١٤٨

[4147] - روضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،وأسنى المطالب ٣ / ٩٣،وكشاف القناع ٣ / ٨٦،والمغني ٨ / ٤١٥،والاختيار للموصلي ٤ / ١٣٠،وابن عابدين ٣ / ٢٣٥.

[4148] - المراجع السابقة.

[4149] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٣٨)(٦٨٩٨) صحيح

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" كَتَبَ نَجْدَةُ الْحَرُورِيُّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ قَتْلِ الصِّبْيَانِ،وَعَنِ الْخُمُسِ لِمَنْ هُوَ؟ وَعَنِ الصَّبِيِّ مَتَى يَنْقَطِعُ عَنْهُ الْيُتْمُ؟ وَعَنِ النِّسَاءِ،هَلْ كَانَ يَخْرُجُ بِهِنَّ،أَوْ يَحْضُرْنَ الْقِتَالَ؟ وَعَنِ الْعَبْدِ هَلْ لَهُ فِي الْمَغْنَمِ نَصِيبٌ؟ ".قَالَ:فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ:" أَمَّا الصِّبْيَانُ:فَإِنْ كُنْتَ الْخَضِرَ تَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ،فَاقْتُلْهُمْ.وَأَمَّا الْخُمُسُ:فَكُنَّا نَقُولُ إِنَّهُ لَنَا،فَزَعَمَ قَوْمُنَا أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا.وَأَمَّا النِّسَاءُ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ مَعَهُ بِالنِّسَاءِ فَيُدَاوِينَ الْمَرْضَى،وَيَقُمْنَ عَلَى الْجَرْحَى،وَلا يَحْضُرْنَ الْقِتَالَ،وَأَمَّا الصَّبِيُّ فَيَنْقَطِعُ عَنْهُ الْيُتْمُ إِذَا احْتَلَمَ،وَأَمَّا الْعَبْدُ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَغْنَمِ نَصِيبٌ،وَلَكِنَّهُمْ قَدْ كَانَ يُرْضَخُ لَهُمْ "[٤١٥٠].

وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:لاَ يُرْضَخُ لأِحَدٍ مِمَّنْ ذُكِرَ،وَلاَ يُسْهَمُ لَهُمْ وَإِنْ قَاتَلُوا،إِلاَّ الصِّبْيَانُ فَإِنَّهُمْ يُسْهَمُ لَهُمْ إِذَا قَاتَلُوا[٤١٥١] .

وَالذِّمِّيُّ إِنْ حَضَرَ الْقِتَال بِإِذْنِ الإِمَامِ فَإِنَّهُ يُرْضَخُ لَهُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّة وَالشَّافِعِيَّة وَلاَ يُسْهَمُ لَهُ؛لأِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْجِهَادِ وَاخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ أَحْمَدَ فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ يُسْهَمُ لَهُ كَالْمُسْلِمِ،وَبِهَذَا قَال الأْوْزَاعِيُّ،وَالزُّهْرِيُّ،وَالثَّوْرِيُّ،وَقَالُوا:إِنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ اسْتَعَانَ بِأُنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ فِي حَرْبِهِ فَأَسْهَمَ لَهُمْ.فعَنْ الزُّهْرِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «اسْتَعَانَ بِنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ فِي حَرْبِهِ فَأَسْهَمَ لَهُمْ»[٤١٥٢]

وقال ابن حزم:"وَلَا يُسْهَمُ لِامْرَأَةٍ،وَلَا لِمَنْ لَمْ يَبْلُغْ – قَاتَلَا،أَوْ لَمْ يُقَاتِلَا – وَيُنْفَلَانِ دُونَ سَهْمِ رَاجِلٍ؛وَلَا يَحْضُرُ مَغَازِي الْمُسْلِمِينَ كَافِرٌ فَإِنْ حَضَرَ لَمْ يُسْهَمْ لَهُ أَصْلًا،وَلَا يُنْفَلُ – قَاتَلَ أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ.فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – كَانَ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى وَيُحْذَيْنَ مِنْ الْغَنِيمَةِ وَأَمَّا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ» .

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:لَوْ بَلَغَ بِالنَّفْلِ لَهَا سَهْمَ رَاجِلٍ لَكَانَ قَدْ أَسْهَمَ لَهُنَّ – وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،وَأَبِي حَنِيفَةَ،وَالشَّافِعِيِّ،وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ،وَاللَّيْثِ،وَأَبِي سُلَيْمَانَ.

[٤١٥٠] – مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٤٣٢)(١٩٦٧) صحيح

[٤١٥١] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٩٢،والزرقاني ٣ / ١٣٠.

[٤١٥٢] – المراسيل لأبي داود (ص: ٢٢٤)(٢٨١) صحيح مرسل

وَقَالَ مَالِكٌ:لَا يُرْضَخُ لَهُنَّ - وَهَذَا خَطَأٌ،وَخِلَافُ الْأَثَرِ الْمَذْكُورِ.قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي دَاوُد نَا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ نَا رُفَيْعُ بْنُ سَلَمَةَ بْنِ زِيَادٍ [قَالَ] حَدَّثَنِي «حَشْرَجُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ أَبِيهِ أَنَّهَا غَزَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي سِتِّ نِسْوَةٍ قَالَتْ:فَأَسْهَمَ لَنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا أَسْهَمَ لِلرِّجَالِ» .وَهَذَا إسْنَادٌ مُظْلِمٌ،رَافِعٌ،وَحَشْرَجٌ:مَجْهُولَانِ.

وعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ:«أَسْهَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِلنِّسَاءِ وَلِلصِّبْيَانِ وَالْخَيْلِ» وَهَذَا مُرْسَلٌ.وعَنْ مَجْهُولٍ قَالَ:«أَسْهَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِلنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالْخَيْلِ» وَهَذَا أَيْضًا مُرْسَلٌ.وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ وَهْبٍ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ:قَسَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَيْنَ النَّاسِ غَنَائِمَهُمْ فَأَعْطَى كُلَّ إنْسَانٍ دِينَارًا وَجَعَلَ سَهْمَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ سَوَاءً.

وعَنْ خَالِدِ بْنِ سَيْحَانَ قَالَ:شَهِدَ مَعَ أَبِي مُوسَى أَرْبَعُ نِسْوَةٍ مِنْهُنَّ أُمُّ مَجْزَأَةَ بْنِ ثَوْرٍ فَأَسْهَمَ لَهُنَّ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ - وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ،وَقَدْ كَانَ يَلْزَمُ أَهْلَ الْقِيَاسِ أَنْ يَقُولُوا بِهَذَا لِأَنَّهُ إذَا أَسْهَمَ لِلْفَرَسِ - وَهُوَ بَهِيمَةٌ - فَالْمَرْأَةُ أَحَقُّ بِالسَّهْمِ إنْ كَانَ الْقِيَاسُ حَقًّا.قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:فِعْلُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - هُوَ الْقَاضِي عَلَى مَا سِوَاهُ،وَأَمَّا الصِّبْيَانُ فَغَيْرُ مُخَاطَبِينَ،وَأَمَّا النَّفَلُ لِلصِّبْيَانِ أَيْضًا مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ فَلَا بَأْسَ،لِأَنَّهُ فِي جَمِيعِ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،وَأَمَّا الْكَافِرُ،فعَنْ الزُّهْرِيِّ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَغْزُو بِالْيَهُودِ فَيُسْهِمُ لَهُمْ كَسِهَامِ الْمُسْلِمِينَ» .وَرُوِّينَاهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ مِنْ طُرُقٍ كُلِّهَا صِحَاحٍ عَنْهُ.

وعَنْ الشَّيْبَانِيِّ هُوَ أَبُو إسْحَاقَ - أَنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ هُوَ ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ - غَزَا بِقَوْمٍ مِنْ الْيَهُودِ فَرَضَخَ لَهُمْ.

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ عَنْ الْمُسْلِمِينَ يَغْزُونَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ؟ فَقَالَ الشَّعْبِيُّ:أَدْرَكْت الْأَئِمَّةَ الْفَقِيهَ مِنْهُمْ وَغَيْرَ الْفَقِيهِ يَغْزُونَ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ فَيَقْسِمُونَ لَهُمْ،وَيَضَعُونَ عَنْهُمْ مِنْ جِزْيَتِهِمْ؛فَذَلِكَ لَهُمْ نَفْلٌ حَسَنٌ - وَالشَّعْبِيُّ وُلِدَ فِي أَوَّلِ أَيَّامِ عَلِيٍّ وَأَدْرَكَ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ.وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ:أَنَّهُ يَقْسِمُ لِلْمُشْرِكِ إذَا حَضَرَ كَسَهْمِ الْمُسْلِمِ.

وعَنْ مَعْمَرٍ:سَمِعْتُ قَتَادَةَ سُئِلَ عَنْ أَهْلِ الْعَهْدِ يَغْزُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ:لَهُمْ مَا صَالَحُوا عَلَيْهِ مَا جُعِلَ لَهُمْ فَهُوَ لَهُمْ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ،وَمَالِكٌ،وَالشَّافِعِيُّ،وَأَبُو سُلَيْمَانَ:لَا يُسْهَمُ لَهُمْ – قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ:وَلَا يُرْضَخُ لَهُمْ،وَلَا يُسْتَعَانُ بِهِمْ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ:حَدِيثُ الزُّهْرِيِّ مُرْسَلٌ،وَلَا حُجَّةَ فِي مُرْسَلٍ،وَلَقَدْ كَانَ يَلْزَمُ الْحَنَفِيِّينَ،وَالْمَالِكِيِّينَ الْقَائِلِينَ بِالْمُرْسَلِ أَنْ يَقُولُوا بِهَذَا،لِأَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَرَاسِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ قَوْلِ الشَّعْبِيِّ:أَنَّهُ أَدْرَكَ النَّاسَ عَلَى هَذَا،وَلَا نَعْلَمُ لِسَعْدٍ مُخَالِفًا فِي ذَلِكَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَكَانَ سَلْمَانُ بْنُ رَبِيعَةَ يَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ،لَكِنَّ الْحُجَّةَ فِي هَذَا هُوَ مَا رُوِّينَاهُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:«إنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ» .

وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي حَدِيثٍ أَنَّهُ قَالَ:«فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا» .فَصَحَّ أَنَّهُ لَا حَقَّ فِي الْغَنَائِمِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ."[٤١٥٣]

الرَّضْخُ لِلدَّوَابِّ:

لاَ يُسْهَمُ لِغَيْرِ الْفَرَسِ مِنَ الدَّوَابِّ،كَالْبَعِيرِ،وَالْحِمَارِ،وَالْفِيلِ وَالْبَغْلِ؛لأَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ لاَ تَصْلُحُ لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ صَلاَحِيَةَ الْخَيْلِ لَهُمَا،وَلَكِنْ يُرْضَخُ لَهَا فَيُرْضَخُ لِرَاكِبِهَا،بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ سَهْمَ الرَّاجِلِ[٤١٥٤] .

مَحَل الرَّضْخِ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي مَحَل الرَّضْخِ،فَقَال الْحَنَفِيَّةُ:إِنَّهُ يُرْضَخُ مِنْ أَصْل الْغَنِيمَةِ قَبْل إِخْرَاجِ الْخُمُسِ،وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ؛لأَنَّهُ اسْتُحِقَّ بِالْمُعَاوَنَةِ فِي تَحْصِيل الْغَنِيمَةِ فَأَشْبَهَ أُجْرَةَ النَّقَّالِينَ وَالْحَافِظِينَ لَهَا.وَالأَظْهَرُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ،أَنَّهُ مِنْ أَرْبَعَةِ الأَخْمَاسِ.وَفِي قَوْلٍ لَهُمْ مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ.وَهُوَ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنَ الْخُمُسِ[٤١٥٥] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤١٥٣] – المحلى بالآثار (٥/ ٣٩٧)

[٤١٥٤] – روضة الطالبين ٦ / ٣٨٣،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٩،والمغني ٨ / ٤٠٨،وابن عابدين ٣ / ١٣٥ .

[٤١٥٥] – ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧١،والمغني ٨ / ٤١٥،والدسوقي ٢ / ١٩٢،والزرقاني ٣ / ١٣٠ .

المبحث الثالث

الخلاصة في أحكام السلب

التَّعْرِيفُ:

السَّلَبُ مَا يَأْخُذُهُ أَحَدُ الْقِرْنَيْنِ فِي الْحَرْبِ مِنْ قِرْنِهِ،مِمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ وَمَعَهُ مِنْ ثِيَابٍ وَسِلاَحٍ وَدَابَّةٍ،وَهُوَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛أَيْ:مَسْلُوبٍ.

وَيُقَالُ:أَخَذَ سَلَبَ الْقَتِيلِ وَأَسْلاَبَ الْقَتْلَى.

وَالْمَصْدَرُ السَّلْبُ،وَمَعْنَاهُ:الاِنْتِزَاعُ قَهْرًا.وَلاَ يَخْرُجُ مَعْنَاهُ الاِصْطِلاَحِيُّ عَنْ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ[٤١٥٦].

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ:

أ – الرَّضْخُ:

الرَّضْخُ لُغَةً:هُوَ الْعَطَاءُ الْقَلِيلُ.وَيُقَالُ:رَضَخْتُ لَهُ رَضْخًا؛أَيْ أَعْطَيْتُهُ شَيْئًا لَيْسَ بِالْكَثِيرِ.

وَشَرْعًا:هُوَ مَالٌ يُعْطِيهِ الإِمَامُ مِنَ الْخُمُسِ،كَالنَّفْلِ،مَتْرُوكٌ قَدْرُهُ لاِجْتِهَادِهِ.وَعَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ شَيْءٌ دُونَ سَهْمِ الرَّاجِلِ،يَجْتَهِدُ الإِمَامُ فِي قَدْرِهِ،وَهُوَ مِنَ الأَبَاعِ الْخَمْسَةِ،وَقِيلَ:مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ[٤١٥٧].

ب – الْغَنِيمَةُ:

الْغَنِيمَةُ:فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ،مِنَ الْغُنْمِ،وَهُوَ لُغَةً:الرِّبْحُ وَالْفَضْلُ،وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا فَائِدَةٌ مَحْضَةٌ.

وَشَرْعًا:مَالٌ حَصَلَ لَنَا مِنْ كُفَّارٍ أَصْلِيِّينَ حَرْبِيِّينَ بِقِتَالٍ مِنَّا،وَمَا أُلْحِقَ بِهِ مِنْ إِيجَافِ خَيْلٍ وَنَحْوِهِ.زَادَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ فِيهِ إِعْلاَءُ كَلِمَةِ اللَّهِ،وَيَدْخُلُ فِيهِ السَّلَبُ وَالرَّضْخُ وَالنَّفَلُ[٤١٥٨].

[٤١٥٦] –لسان العرب،وأساس البلاغة،المغرب في ترتيب المعرب،المعجم الوسيط،مادة: سلب.

[٤١٥٧] – لسان العرب والمصباح المنير مادة: رضخ: ابن عابدين ٣ / ٢٣٥،الفواكه الدواني ١ / ١٧٢،مغني المحتاج ٣ / ١٠٥،التعريفات للجرجاني.

ج – الأَنْفَال:

الأَنْفَال:هِيَ أَمْوَال الْحَرْبِيِّينَ الَّتِي آلَتْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِقِتَال،كَالْغَنِيمَةِ أَوْ بِغَيْرِ قِتَال كَالْفَيْءِ،وَتُطْلَقُ عَلَى الزِّيَادَة عَلَى السَّهْمِ لِمَصْلَحَةٍ،وَهُوَ مَا يُجْعَل لِمَنْ عَمِل عَمَلاً زَائِدًا فِي الْحَرْب ذَا أَثَرٍ وَنَفْعٍ[4159].

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَهُمْ:الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَالأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو عُبَيْد وَأَبُو ثَوْرٍ إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا قَتَل أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ مُقْبِلاً عَلَى الْقِتَال فَلَهُ سَلَبُهُ،قَال ذَلِكَ الإِمَامُ أَوْ لَمْ يَقُل؛لما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك،قَالَ:جَاءَتْ هَوَازِنُ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالْإِبِلِ وَالْغَنَمِ،فَجَعَلَهُمْ صُفُوفًا يَكْثُرُونَ بِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَالْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ،فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»،ثُمَّ قَالَ:«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»،فَهَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ،وَلَمْ يَضْرِبْ بِالسَّيْفِ،وَلَمْ يَطْعَنْ بِرُمْحٍ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذ:«مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ عِشْرِينَ رَجُلًا وَأَخَذَ أَسْلَابَهُمْ،قَالَ:وَقَالَ الْمِقْدَادُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ رَجُلًا عَلَى حَبْلِ الْعَاتِقِ،وَعَلَيْهِ دِرْعٌ،وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.."[4160]

وعنْ إِسْحَاقَ بْنِ سَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاص،حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ قَالَ لَهُ يَوْمَ أُحُد:أَلَا تَدْعُو اللهَ ؟ فَخَلَّوا فِي نَاحِيَة،فَدَعَا سَعْدٌ فَقَالَ:يَا رَبِّ إِذَا لَقِيتُ الْعَدُوَّ فَلَقِّنِّي رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ شَدِيدًا حَرَدُهُ أُقَاتِلُهُ وَيُقَاتِلُنِي،ثُمَّ ارْزُقْنِي عَلَيْهِ الظَّفَرَ حَتَّى أَقْتُلَهُ وَآخُذَ سَلَبَهُ،فَأَمَّنَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْش،ثُمَّ قَالَ:اللهُمَّ ارْزُقْنِي رَجُلًا شَدِيدًا حَرَدُهُ شَدِيدًا بَأْسُهُ،أُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي،ثُمَّ يَأْخُذُنِي فَيَجْدَعُ أَنْفِي وَأُذُنِي،فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ:يَا عَبْدَ اللهِ مَنْ جَدَعَ أَنْفَكَ وَأُذُنَكَ ؟ فَأَقُولُ:فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ،فَتَقُولُ:صَدَقْتَ،قَالَ سَعْدٌ:يَا بُنَيَّ

[4158] – لسان العرب،المصباح المنير،المعجم الوسيط مادة (غنم)،المغني لابن قدامة ٦ / ٤٠٢،مغني المحتاج ٣ / ٩٩،ابن عابدين ٣ / ٢٢٨،التعريفات للجرجاني.

[4159] – كشاف القناع ٣ / ٨٦،وغريب القرآن للأصفهاني

[4160] – مستخرج أبي عوانة (٤/ ٣٣١)(٦٨٧٥) صحيح

كَانَتْ دَعْوَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ خَيْرًا مِنْ دَعْوَتِي،لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ،وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقَتَانِ فِي خَيْطٍ "[٤١٦١].

وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى أَنَّ الْقَاتِلَ لاَ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ إِلاَّ إِذَا اشْتَرَطَ لَهُ الإِمَامُ ذَلِكَ.كَأَنْ يَقُولَ قَبْلَ إِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ،وَقَبْلَ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا:مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ.وَإِلاَّ كَانَ السَّلَبُ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ بَيْنَ الْغَانِمِينَ.

وَقَال الطَّحَاوِيُّ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ:أَمْرُ السَّلَبِ مَوْكُولٌ لِلإِمَامِ فَيَرَى فِيهِ رَأْيَهُ؛لما جاء عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ،قَالَ:غَزَوْنَا غَزْوَةً إِلَى طَرَفِ الشَّامِ فَأُمِّرَ عَلَيْنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَانْضَمَّ إِلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ أَمْدَادِ حِمْيَرَ يَأْوِي إِلَى رِحَالِنَا،وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ إِلَّا سَيْفٌ لَهُ،لَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ غَيْرُهُ،فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَزُورًا فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَالُ حَتَّى أَخَذَ مِنْ جِلْدِهِ كَهَيْئَةِ الْمِجَنِّ،ثُمَّ بَسَطَهُ عَلَى الْأَرْضِ،ثُمَّ أَوَقَدَ عَلَيْهِ حَتَّى جَفَّ،فَجَعَلَ لَهُ مَمْسَكًا كَهَيْئَةِ التُّرْسِ،فَقُضِيَ لَنَا أَنْ لَقِينَا عَدُوَّنَا،وَفِيهِمْ أَخْلَاطٌ مِنَ الرُّومِ،وَالْعَرَبِ مِنْ قُضَاعَةَ،فَقَاتَلُونَا قِتَالًا شَدِيدًا،وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ،وَسَرْجٍ مُذَهَّبٍ،وَمِنْطَقَةٍ مُلَطَّخَةٍ،وَسَيْفٍ مِثْلِ ذَلِكَ،فَجَعَلَ يَحْمِلُ عَلَى الْقَوْمِ وَيُغْرِي بِهِمْ،فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ الْمَدَدِيُّ يَخْتِلُ لِذَلِكَ الرُّومِيِّ حَتَّى مَرَّ بِهِ،فَاسْتَقْفَاهُ،فَضَرَبَ عُرْقُوبَ فَرَسِهِ بِالسَّيْفِ،ثُمَّ وَقَعَ وَأَتْبَعَهُ ضَرْبًا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الْفَتْحَ أَقْبَلْ يُسْلِبُ السَّلَبَ،وَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّاسُ أَنَّهُ قَاتِلُهُ،فَأَعْطَاهُ خَالِدٌ بَعْضَ سَلَبِهِ،وَأَمْسَكَ سَائِرَهُ،فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَحْلِ عَوْفٍ،ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ عَوْفٌ:ارْجِعْ إِلَيْهِ فَلْيُعْطِكَ مَا بَقِيَ،فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَأَبَى عَلَيْهِ،فَمَشَى حَتَّى أَتَى خَالِدًا فَقَالَ:أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ،قَالَ:بَلَى،قَالَ:فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْفَعَ إِلَيْهِ سَلَبَ قَتِيلِهِ؟ قَالَ خَالِدٌ:اسْتَكْثَرْتُهُ لَهُ،فَقَالَ عَوْفٌ:لَئِنْ رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لَهُ،فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَهُ فَاسْتَعْدَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَدَعَا خَالِدًا،وَعَوْفٌ قَاعِدٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْفَعَ إِلَى هَذَا سَلَبَ قَتِيلِهِ؟» قَالَ:اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَادْفَعْ إِلَيْهِ»،قَالَ:فَمَرَّ بِعَوْفٍ،فَجَرَّ عَوْفٌ بِرِدَائِهِ،ثُمَّ قَالَ:قَدْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ،فَقَالَ:«لَا تُعْطِهِ

[٤١٦١] – معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٦٠٧)(٤٠٤٧) صحيح لغيره

يَا خَالدُ لَا تُعْطه يَا خَالدُ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي أُمَرَائِي،إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا وَغَنَمًا،فَرَعَاهَا،ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا،فَأَوْرَدَهَا حَوْضَهُ،فَشَرَعَتْ فيه فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ،وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ،فَصَفْوُهُ أَمْرُهُ لَكُمْ،وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ» وَإِذَا تَنَازَعَ رَجُلَان في الْقَتيل،وَكُلُّ وَاحِدٍ منْهُمَا:يَقُولُ أَنَا قَتَلْتُهُ،وَلَيْسَ بِالْعِلْجِ رَمَقٌ،وَلَا بَيِّنَةٌ لِوَاحِدٍ منْهُمَا فَالسَّلَبُ بَيْنَهُمَا،وَإِنْ كَانَ بِالْعِلْجِ رَمَقٌ فَالسَّلَبُ لِمَنْ قَالَ الْعِلْجُ:إِنَّهُ قَتَلَهُ"[٤١٦٢]

وعَنْ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،عَنْ أَبيه،عَنْ جَدِّه،قَالَ:بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ،فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي،فَإِذَا أَنَا بِغُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ – حَدِيثَة أَسْنَانُهُمَا،تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ منْهُمَا – فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ:يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ:نَعَمْ،مَا حَاجَتُكَ إِلَيْه يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ:أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّه ﷺ،وَالَّذي نَفْسِي بِيَده،لَئِنْ رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ منَّا،فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ،فَغَمَزَنِي الآخَرُ،فَقَالَ لِي مِثْلَهَا،فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ،قُلْتُ:أَلاَ إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذي سَأَلْتُمَانِي،فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا،فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلاَهُ،ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ:«أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟»،قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ منْهُمَا:أَنَا قَتَلْتُهُ،فَقَالَ:«هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟»،قَالاَ:لاَ،فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ،فَقَالَ:«كِلاَكُمَا قَتَلَهُ،سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ»،وَكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ،وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ،" قَالَ مُحَمَّدٌ:سَمِعَ يُوسُفُ صَالِحًا،وَإِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ"[٤١٦٣].

وَقَال الْمَالكيَّةُ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ اخْتَارَهَا أَبُو بَكْرٍ منَ الْحَنَابِلَة:إِنَّ الْقَاتل لاَ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ إِلاَّ أَنْ يَقُول لَهُ الإِمَامُ ذَلِكَ،وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَقُول الإِمَامُ ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ انْقضَاءِ

[٤١٦٢] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٠٤)(٢٦٩٧) صحيح

[٤١٦٣] - صحيح البخاري (٤/ ٩٢)(٣١٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٢)٤٢ - (١٧٥٢)

[ش(حديثة أسنانهما) أي صغيرين.(أضلع) أشد وأقوى.(فغمزني) جسني بيده والغمز أيضا الإشارة بالعين أو الحاجب أو نحوهما.(سوادي) شخصي.(الأعجل منا) الأقرب أجلا.(فابتدراه) أسرعا في ضربه وسبقاه.(فنظر في السيفين) ليرى مقدار عمق دخولهما في جسم المقتول وأيهما أقوى تأثيرا في إزهاق روحه]

الْحَرْبِ،حَتَّى لاَ يُشَوِّشَ نِيَّتَهُ،وَلاَ يَصْرِفَهَا لِقِتَالِ الدُّنْيَا؛لِأَنَّ السَّلَبَ عِنْدَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ النَّفْلِ فَيُعْطِيهِ الإِمَامُ لِلْمَصْلَحَةِ حَسَبَ اجْتِهَادِهِ.

وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْمُتَقَدِّمِ.

فعَنْ شَبْرِ بْنِ عَلْقَمَةَ،قَالَ:بَارَزْتُ رَجُلاً يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ مِنَ الأَعَاجِمِ فَقَتَلْتُهُ وَأَخَذْتُ سَلَبَهُ،فَأَتَيْت سَعْدًا،فَخَطَبَ سَعْدٌ أَصْحَابَهُ،ثُمَّ قَالَ:هَذَا سَلَبُ شَبْرٍ،لَهُوَ خَيْرٌ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ،وَإِنَّا قَدْ نَفَّلْنَاهُ إِيَّاهُ[٤١٦٤]

وعَنْ شِبْرِ بْنِ عَلْقَمَةَ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقَادِسِيَّةِ قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ فَدَعَا إِلَى الْمُبَارِزَةِ،فَذَكَرَ مِنْ عِظَمِهِ،فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ قَصِيرٌ،يُقَالَ لَهُ:شِبْرُ بْنُ عَلْقَمَةَ،قَالَ:فَقَالَ لَهُ الْفَارِسِيُّ هَكَذَا،يَعْنِي احْتَمَلَهُ،ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ فَصَرَعَهُ،قَالَ:فَأَخَذَ شِبْرٌ خِنْجَرًا كَانَ مَعَ الْفَارِسِيِّ،فَقَالَ بِهِ فِي بَطْنِهِ هَكَذَا،يَعْنِي فَخَضْخَضَهُ،قَالَ:ثُمَّ انْقَلَبَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ،ثُمَّ جَاءَ بِسَلْبِهِ إِلَى سَعْدٍ،فَقُوِّمَ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا،فَنَفَلَهُ سَعْدٌ إِيَاهُ.[٤١٦٥]

وقال ابن المنذر:" وَاخْتلفُوا فِي الحكم بالسلب للْقَاتِل فَقَالَت طَائِفَة بِظَاهِر الْأَخْبَار الَّتِي ذَكرنَاهَا،قَالَت:وَفِي قَول النَّبِي ﷺ:«مَنْ قتل كَافِرًا فَلهُ سلبه»،قولا عَاما مُطلقًا أبين الْبَيَان على أَن ذَلِك لكل من قتل

كَافِرًا فِي الْحَرْب وَغير الْحَرْب فِي الإقبال والإدبار هَارِبا أَو نذيرا لأَصْحَابه على الْوُجُوه كلهَا،وَلَيْسَ لأحد أَن يخص من سنَن رَسُول الله ﷺ شَيْئا بِرَأْيهِ وَلَا يَسْتَثْنِي من سنَنه إِلَّا بسنة مثلهَا،

وَمن الْجِهَة الْبَيِّنَة مَعَ مَا ذكرْنَاهُ خبر سَلمَة بن الْأَكْوَع،وَهُوَ خبر لَيْسَ لمتأول مَعَه تَأْوِيل،وَذَلِكَ أَن سَلمَة قتل الْقَتِيل وهُوَ مُوَلٍّ،هارب.

وعن إِيَاسَ أَن أَبَاهُ أخبرهُ قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ هوَازن،فجَاء رَجُلٌ عَلَى بَعِيرٍ أَحْمَر فَأطلق حَقَبًا مِنْ حَقَب الْبَعِير فَقَيَّدَ بِهِ الْبَعِير،ثمَّ جَاءَ حَتَّى أَكَلَ مَعَ الْقَوْم فَلَمَّا رأى

[٤١٦٤] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٥٥٧)(٣٣٧٥٩) صحيح

[٤١٦٥] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٢٧٢)(٣٤٤٤٢) صحيح،حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٨،حاشية العدوي ٢ / ١٤،الشرح الصغير ٢ / ١٧٦،القوانين الفقهية ص ٩٩،روضة الطالبين ٦ / ٣٧٢،مغني المحتاج ٣ / ٩٩،المغني لابن قدامة ٨ / ٣٩٢،سبل السلام ٤ / ٥٢،المهذب في فقه الإمام الشافعي ٢ / ٢٣٨.

ضعفهم ورقّة ظهْرهمْ خرَجَ إلَى بَعيرِه فَأَطْلقهُ وَقعد عَلَيْه،وَهُوَ طَليعَة الْكفَّار فَرَكَضَهُ هَاربا،فَخرج رَجُلٌ منْ أَسْلَمَ عَلَى نَاقَة فَأتبعهُ،وَخرجت أَعْدُو في أَثَره،حَتَّى أَخَذْتُ بخطَام الْجمل فَقلت لَهُ:أَخ فَمَا عَدَا أَن وَضَعَ رُكْبَتَهُ عَلَى الأَرْض ضَرَبْتُ رَأسه،ثمَّ جئت براحلة أقودها عَلَيْه رَحْله وَسَلَبُهُ،فَاستَقْبَلَني النَّبي ﷺ وَالنَّاس يَقُولُون:مَنْ قَتله؟ قَالُوا:سَلَمَة بْنُ الْأَكْوَع،قَالَ:«به سلَبُهُ أَجْمَعُ» .

قَالَ أَبُو بكر:فَهَذَا مقتول هارب غير مقبل وَقد حكم النَّبي ﷺ لسَلمَة بالسلب،وَفيه دَليل على إغفال من قَالَ:لَا يكون السَّلب إلَّا لمن قتل مُشْركًا مُقبلا،إذْ سَلمَة قَاتل قتيل مُدبرا،وَيدل على إغفال من قَالَ:أَن الَّذي لَا يشك في أَن لَهُ سلب الْمُشرك وَالْحَرب قَائمَة،لأَن سَلمَة قد حكم النَّبي ﷺ لَهُ بالسلب وَصَاحبه مُدبر غير مقبل وَقَتله وَالْحَرب لسيت بقائمة،لأَن الْمَقْتُول إنَّمَا قتل مُنْفَردا في غير حَال الْحَرْب،ليعلم أَن من سنة النَّبي ﷺ أَن من قتل قَتيلا من الْعَدو على أَي جهَة قَتله بعد أَن لَا يكون للمقتول أَمَان أَن لَهُ سلبه،وَهَذَا قَول طَائفَة من أَصْحَاب الحَديث،وَبه قَالَ أَبُو ثَوْر،وَاحْتج بظَاهر قَول النَّبي ﷺ:«من قتل قَتيلا فَلهُ سلبه»،وبخبر سَلمَة هَذَا.وَقَالَت طَائفَة:إنَّمَا يكون السَّلب لمن قتل وَالْحَرب قَائمَة والمشرك مقبل هَذَا قَول الشَّافعي،قَالَ الشَّافعي:" وَالَّذي لَا شك فيه أَن لَهُ سلب من قتل الَّذي يقتل الْمُشرك وَالْحَرب قَائمَة وَالْمُشْركُونَ يُقَاتلُون،ولقتلهم هَكَذَا مُؤنَة لَيست لَهُم إذا انْهَزمُوا أَو انهزم الْمَقْتُول،وَلَا أرى أَن يعْطى السَّلب إلَّا من قتل مُشْركًا مُقبلا.

وَقَالَ أَحْمد في السَّلب للْقَاتل:إنَّمَا ذَلك في المبارزة لَا يكون في الْهَزيمَة.قَالَ أَبُو بكر:السَّلب للْقَاتل أذن الإمَام في ذَلك أَو لم يَأْذَن فيه على ظَاهر قَول النَّبي ﷺ:" من قتل كَافرًا فَلهُ سلبه،وَذَلكَ عَام لكل قَاتل قتل كَافرًا من أهل الْحَرْب الَّذين لَا أَمَان لَهُم إلَى يَوْم الْقيَامَة،كَسَائر السّنَن الَّتي سنّهَا النَّبي ﷺ للنَّاس،وَقد روينَا ذَلك عَن سعد بن مَالك،وَابْن عمر.

وعَن شبر بن عَلْقَمَة أَنه بارز رجلا يَوْم الْقَادسيَّة فَقتله فَأخذ سلبه،فقوم اثني عشر ألفا فَأتى به سعد بن مَالك فَقَالَ:خُذْهُ نفله إيَّاه.

وعَن نَافِع أَن ابْن عُمَرَ بَارزَ رَجُلا يَوْم الْيَمَامَة فَقتله فَسلم لَهُ سَلَبُهُ.

وَممَّنْ قَالَ بظَاهر الحَديث أَن السَّلب للْقَاتل اللَّيْث بن سعد،وَالْأَوْزَاعِيّ،وَالشَّافِعِيّ،وَأحمد بن حَنْبَل،وَأَبُو ثَوْر،وأَبُو عبيد،قَالَ أَحْمد،وأَبُو عبيد:قَالَه الإِمَام أَو لم يقلهُ،وَهَكَذَا قَول الشَّافِعِي.

وَفِيه قَول سواهُ:وَهُوَ أَن لَا يكون ذَلِك لأحد إِلَّا بِإِذن الإِمَام،سُئِلَ مَالك عَن رجل قتل رجلا يكون لَهُ سلبه بِغَيْر إِذن الإِمَام؟ قَالَ:لَا يكون ذَلِك لأحد دون الإِمَام وَلَا يكون من الإِمَام إِلَّا على وَجه الِاجْتِهَاد وَلم يبلغنَا أَن النَّبِي ﷺ قَالَ:"من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه فِي غير يَوْم حنين،وَلَو أَن النَّبِي ﷺ سن ذَلِك فِي غير يَوْم حنين أَو أَمر بِهِ كَانَ أمرا ثَابتا قَائِما لَيْسَ لأحد فِيهِ قَول،وَلَكِن لم يبلغنَا النَّبِي ﷺ بعد يَوْم حنين عمل بِهِ،فَكَانَ أَبُو بكر بعد رَسُول اللَّه ﷺ،ثمَّ عمر فَلم يبلغنَا أَنه صنع ذَلِك.

قَالَ أَبُو بكر:وَقد عَارض الشَّافِعِي مَالِكًا فَقَالَ:أَرَأَيْت مَا روى عَن النَّبِي ﷺ مَنْ أَنه أعْطى من حضر أَرْبَعَة أَخْمَاس الْقِسْمَة،لَو قَالَ قَائِل هَذَا من النَّبِي ﷺ على الِاجْتِهَاد،هَل كَانَت الْحجَّة عَلَيْهِ إِلَّا أَن يُقَال:أَن إِعْطَاء النَّبِي ﷺ على الْعَام وَالْحكم حَتَّى تَأتي دلَالَة عَن النَّبِي ﷺ بِأَن قَوْله خَاص فنتبع،فَأَما أَن يتحكم متحكم فيدعي أَن قَول النَّبِي ﷺ أَحدهمَا حكم وَالْآخر اجْتِهَاد بِلَا دلَالَة،فَإِن جَازَ هَذَا خرجت السّنَن من أَيدي النَّاس،قَالَ:وَلَو لم يقلهُ النَّبِي ﷺ إِلَّا يَوْم حنين،أَو فِي آخر غزَاة غَزَاهَا،أَو أَولا،لَكَانَ أولى مَا أَخذ بِهِ.

وَحكى الشَّافِعِي عَن النُّعْمَان أَنه " قَالَ فِي الرجل يقتل الرجل وَيَأْخُذ سلبه:لَا يَنْبَغِي للْإِمَام أَن ينفلهُ إِيَّاه لِأَنَّهُ صَار فِي الْغَنِيمَة،وَقَالَ يَعْقُوب:حَدثنَا النُّعْمَان عَن حَمَّاد عَن إِبْرَاهِيم أَنه قَالَ:إِذا نفل الإِمَام أَصْحَابه فَقَالَ:من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه وَمن أسر أَسِيرًا فَلهُ سلبه فَهُوَ مُسْتَقِيم جَائِز وَهَذَا النَّفْل،وَأما إِذا لم ينفل الإِمَام شَيْئا من هَذَا فَلَا نفل لأحد دون أحد وَالْغنيمَة كلهَا من جَمِيع الْجند على مَا وَقعت عَلَيْهِ المقاسم،وَهَذَا أوضح وَأبين من أَن يشك فِيهِ أحد من أهل الْعلم ".

قَالَ أَبُو بكر:هَذَا أوضح فِي بَاب الْخَطَأ وَأبين من أَن يشك فِيهِ أحد لَهُ معرفَــة بأخبــار رَسُول الله ﷺ،وَقد ذكرنَا الْأَخْبَار فِي هَذَا الْبَاب فِيمَا مضى،وَالنَّبِيّ ﷺ حجَّة الله علــى الْأَوَّلين والآخرين من خلقه.

وَكَانَ مَكْحُول يَقُول:إِذا التقى الزحفان فَلَا نفل إِنَّمَا النَّفْل قبل وَبعد،وَكَانَ نَافِع مــولى ابْن عمر يَقُول:إِذا قتل رجل من الْمُسلمين رجلا من الْكفَّار فَإِن لَهُ سلبه إِلَّا أَن يكون فِي معمعة الْقِتَال أَو فِي زحف،فَإِنَّهُ لَا يدْرِي أحد قتل أحدا،وَقَالَ الْأَوْزَاعِيّ،وَسَعِيد بن عبـــد الْعَزِيز،وَأَبُو بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم:السَّلب للْقَاتِل مَا لم تشتد الصُّفُوف بَعْضهَا على بعض،فَإِذا كَانَ ذَلِك فَلَا سلب لأحد،وَذكر الْوَلِيد بن مُسلم عَن الْأَوْزَاعِيّ،وَسَعِيد بـــن عبد الْعَزِيز،وَأبي بكر بن عبد الله عَن مشيختهم أَنه لَا سلب فِي يَوْم هزيمَـــة الْعَـــدو،وَإِذا طَلَبهمْ الْمُسلمُونَ،وَلَا سلب عِنْد ذَلِك."[4166]

وقال أبو عبيد:" عَنْ مَسْرُوق،قَالَ:إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَان فَلَا نَفَلَ،إِنَّمَا النَّفْلُ قَبْلُ وَبَعْدُ

وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:سَمِعْتُ نَافِعًا،يَقُولُ:لَمْ نَزَلْ نَسْمَعُ مُنْذُ قَطُّ:«إِذَا الْتَقَى الْمُسْـــلِمونَ وَالْكُفَّارُ فَقَتَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلمِينَ رَجُلًا منَ الْكُفَّار فَإِنَّ لَهُ سَلَبَهُ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلكَ فِـــي مَعْمَعَة الْقتَالِ أَوْ فِي زَحْف،فَإِنَّهُ لَا يُدْرَى أَحَدٌ قَتَلَ أَحَدًا» قَالَ أَبُــو عُبَيْـــد:فِـــي قَـــوْلِ مَسْرُوق،وَنَافِعٍ تَفْسِيرُ الْأَحَاديث الَّتي ذَكَرْنَاهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابه:أَنَّهُ إِنَّمَـــا يَكُـــونُ السَّلَبُ لِلْقَاتلِ عنْدَ الْبَرَاز،أَوْ إِذَا عَلمَ أَنَّهُ قَتَلَهُ قَبْلَ اخْتلَاط الصُّفُوف،فَيُسَلَّمُ لَهُ حينَئذ مِـــنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمَّسَ،وَلَا يُلْحَقُ بالْمَغْنَم.

وَهَذَا هُوَ رَأْيُ الْأَوْزَاعيِّ،كَانَ يَرَاهُ للْقَاتلِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْإمَامُ سَمَّاهُ لَهُ قَبْلَ ذَلكَ،وَكَـــانَ السَّلَبُ عنْدَهُ:مَا كَانَ عَلَى الْقَتيلِ منْ ثيَاب أَوْ سلَاح،وَكَذَلكَ فَرَسُهُ الَّذي قَاتَـــلَ عَلَيْـــه بأَدَاته،هُوَ عنْدَهُ منَ السَّلَب عَلَى مَا رُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْفَرَسِ وَالدِّرْعِ وَالرُّمْح:أَنَّـــهُ يُجْعَلُ ذَلكَ كُلُّهُ لَاحقًا بالسَّلَب،وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ في أَوَّل هَذَا الْبَاب.

وَكَذَلكَ يُرْوَى عَنْ خَالد بْنِ الْوَليد،أَنَّهُ نَفَلَ وَاثلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ فَرَسَ رَجُلٍ بسَرْجه كَـــانَ قَتَلَهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْد:حَدَّثَنيه أَبُو أَيُّوبَ الدِّمَشْقيُّ،عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَحْيَى الْخُشَنِيِّ – قَالَ أَبُو

[4166] – الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١١٩)(٦٥١١) فما بعد

عُبَيْد:خُشَيْنَةَ بَطْنٍ مِنْ قُضَاعَةَ – عَنْ زَيْد بْنِ وَاقد،عَنْ بُسْرِ بْنِ عَبْد اللَّه،عَنْ وَاثلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ،عَنْ خَالد في حَديث طَويلٍ.قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَهَذَا قَوْلُ الْأَوْزَاعيِّ،وَعَلَيْه أَهْلُ الشَّأم.

فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاق فَيَقُولُونَ:لَا يَكُونُ السَّلَبُ للْقَاتلِ دُونَ سَائرِ أَهْلِ الْعَسْكَرِ،وَهُمْ فيه أُسْوَةٌ،يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُ بقُوَّتهمْ،قَالُوا:إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ نَفَلَهُمْ ذَلكَ قَبْلَ الْقتَال،فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ قَتيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ،قَالُوا:فَإِذَا قَالَ ذَلكَ كَانُوا عَلَى مَا جُعلَ لَهُمْ.

وَيَحْتَجُّونَ فيه بحَديث ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ:السَّلَبُ منَ النَّفَلِ،وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ في أَوَّلِ الْبَاب.قَالُوا:فَلَمْ يُسَمِّه ابْنُ عَبَّاسٍ نَفَلًا،إِلَّا وَهُوَ كَسَائرِ الْغَنيمَة.قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَهَذَا مَعْرُوفٌ منْ رَأْيِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:السَّلَبُ منَ النَّفَلِ،وَفي النَّفَلِ الْخُمُسُ

وعَنْ أَبِي الْجُوَيْرِيَة،أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ذَلكَ،فَقَالَ:لَا مَغْنَمَ حَتَّى يُؤْخَذَ الْخُمُسُ،وَلَا نَفَلَ حَتَّى يُقْسَمَ جُفَّةً.قَالَ أَبُو عُبَيْد:يَعْني بجَفَّة كُلَّهُ

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَكَذَلكَ كَانَ رَأْيُ مَالك بْنِ أَنَسٍ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاق،وَكَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاس.

قَالَ أَبُو عُبَيْد:وَقَدْ تَدَبَّرْنَا حَديثًا يُرْوَى عَنِ النَّبيِّ ﷺ مُفَسَّرًا،فَوَجَدْنَاهُ دَليلًا عَلَى قَوْلِ الْأَوْزَاعيِّ،وَأَهْلِ الشَّأم،أَنَّهُ ﷺ قَضَى بالسَّلَب للْقَاتلِ منْ غَيْرِ تَسْميَة كَانَتْ منْهُ لَهُ قَبْلَ ذَلكَ

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ،عَامَ حُنَيْنٍ،فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَتْ للْمُسْلمينَ جَوْلَةٌ،فَرَأَيْتُ رَجُلًا منَ الْمُشْرِكينَ قَدْ عَلَا رَجُلًا منَ الْمُسْلمينَ،فَأَتَيْتُهُ منْ وَرَائه،فَضَرَبْتُهُ عَلَى عَاتقه،فَأَقْبَلَ عَلَيَّ،وَضَمَّني ضَمَّةً وَجَدْتُ ريحَ الْمَوْت منْهَا،ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ،فَأَرْسَلَني،فَلَحقْتُ عُمَرَ،فَقُلْتُ:مَا بَالُ النَّاسِ؟ فَقَالَ:أَمْرُ اللَّه،قَالَ:ثُمَّ رَجَعُوا قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَنْ قَتَلَ قَتيلًا لَهُ به عَلَيْه بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ» .قَالَ:فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،الثَّانيَةَ:«مَنْ قَتَلَ قَتيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ،فَقَالَ لي:مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟ فَقَصَصْتُ عَلَيْه الْقصَّةَ،فَقَالَ رَجُلٌ منَ الْقَوْم:صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّه،وَسَلَبُ ذَلكَ الرَّجُلِ عنْدي،فَأَرْضه منْهُ،فَقَالَ أَبُو بَكْر:لَاهَا اللَّه،إذًا يَعْمدُ إِلَى أَسَد منْ أُسْد اللَّه يُقَاتلُ عَنِ اللَّه وَرَسُوله ﷺ فَيُعْطيكَ سَلَبَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«صَدَقَ،فَادْفَعْهُ

إِلَيْهِ» قَالَ:فَأَعْطَانِي،فَبِعْتُهُ فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلَمَةَ؛ فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ نِلْتُهُ - أَوْ قَالَ:تَأَثَّلْتُهُ - فِي الْإِسْلَامِ - شَكَّ أَبُو عُبَيْدٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَكَمَ لِأَبِي قَتَادَةَ بِالسَّلَبِ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نَفَلَهُ إِيَّاهُ قَبْلَ ذَلِكَ،أَلَا تَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا قَالَ مَا قَالُ بَعْدَ قَتْلِ أَبِي قَتَادَةَ صَاحِبَهُ،فَهَذَا عِنْدَنَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ:أَنَّ السَّلَبَ مَقْضِيٌّ بِهِ لِلْقَاتِلِ بِسُنَّةٍ مَاضِيَةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،جَعَلَهُ لَهُ الْإِمَامُ قَبْلَ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَجْعَلْهُ لَهُ.

وَقَد احْتَجَّ قَوْمٌ بِحَدِيثِ عُمَرَ:أَنَّهُ خَمَّسَ سَلَبَ الْبَرَاءِ،وَلَيْسَ قَوْلُ أَحَدٍ مَعَ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُجَّةٌ،عَلَى أَنَّ حَدِيثَ عُمَرَ إِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَرَ أَنْ يُخَمَّسَ السَّلَبُ لَنَا لِلْآخَرِينَ،أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ:إِنَّا كُنَّا لَا نُخَمِّسُ السَّلَبَ،وَقَوْلُهُ:فَكَانَ أَوَّلَ سَلَبٍ خُمِّسَ فِي الْإِسْلَامِ سَلَبُ الْبَرَاءِ،وَإِنَّمَا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ حِينَ اسْتَكْثَرَهُ،ثُمَّ اعْتَذَرَ مِنْهُ،وَقَالَ:إِنَّ سَلَبَ الْبَرَاءِ بَلَغَ مَالًا،وَأَنَا خَامِسُهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَلَا أَرَى فِي هَذَا الْحَدِيثِ ذِكْرَ التَّسْمِيَةِ لِلنَّفَلِ مِنْ عُمَرَ قَبْلَ الْقِتَالِ،وَلَا فِي حَدِيثِ سَعْدٍ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ،وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا إِلَّا حَدِيثَ أَبِي طَلْحَةَ،يَوْمَ حُنَيْنٍ،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ يَوْمَئِذٍ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ» .وَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَنْ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَفَلَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِلْقَاتِلِ السَّلَبُ وَإِنَّمَا هَذَا عِنْدَنَا سُنَّةٌ سَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ،وَتَعْلِيمٌ عَلَّمَهُ النَّاسَ:أَنَّ مَنَ قَتَلَ قَتِيلًا فَحُكْمُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ السَّلَبُ،وَلَوْلَا قَوْلُهُ هَذَا مَا عُلِمَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ،هَذَا عِنْدِي وَجْهُ هَذَا الْحَدِيثِ"[٤١٦٧].

مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ:؟

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ،فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ،وَهُمْ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الرَّاجِحِ عِنْدَهُمْ،وَالْحَنَابِلَةُ،إِلَى أَنَّ السَّلَبَ لِكُلِ قَاتِلٍ يَسْتَحِقُّ السَّهْمَ أَوِ الرَّضْخَ كَالْعَبْدِ،وَالْمَرْأَةِ،وَالصَّبِيِّ،وَالتَّاجِرِ،وَالذِّمِّيِّ،لما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ،فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ،فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلاَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ

[٤١٦٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٣٩٠)(٧٨٤) وما بعدها

بالسَّيْف عَلَى حَبْلِ عَاتقه،فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ منْهَا رِيحَ الْمَوْت،ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ،فَأَرْسَلَني،فَلَحقْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب فَقُلْتُ:مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ:أَمْرُ اللَّه،ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا،وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتيلًا لَهُ عَلَيْه بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتيلًا لَهُ عَلَيْه بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ الثَّالثَةَ مثْلَهُ،فَقُمْتُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟»،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْه القصَّةَ،فَقَالَ رَجُلٌ:صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّه،وَسَلَبُهُ عنْدي فَأَرْضه عَنِّي،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ:لاَهَا اللَّه،إِذًا لاَ يَعْمِدُ إِلَى أَسَد منْ أُسْد اللَّه،يُقَاتلُ عَنِ اللَّه وَرَسُوله ﷺ،يُعْطيكَ سَلَبَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«صَدَقَ»،فَأَعْطَاهُ،فَبِعْتُ الدِّرْعَ،فَابْتَعْتُ به مَخْرَفًا في بَني سَلِمَةَ،فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ في الإِسْلاَم"[٤١٦٨]

وَلِمَا جاء عَنْ عَوْف بْنِ مَالك الْأَشْجَعيِّ،قَالَ:خَرَجْتُ مَعَ مَنْ خَرَجَ مَعَ زَيْد بْنِ حَارِثَةَ في غَزْوَة مُؤْتَةَ،وَرَافَقَني مَدَديٌّ منَ الْيَمَنِ،وَسَاقَ الْحَديثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِه،غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ في الْحَديث:قَالَ عَوْفٌ:فَقُلْتُ:يَا خَالدُ،أَمَا عَلمْتَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَضَى بالسَّلَب للْقَاتل،قَالَ:بَلَى،وَلَكنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ"[٤١٦٩].

إلاَّ أَنَّ الشَّافعيَّةَ يَسْتَثْنُونَ الذِّمِّيَّ فَيَرَوْنَ أَنَّهُ لاَ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ وَإِنْ حَضَرَ الْقِتَال بِإِذْنِ الإِمَامِ،أَمَّا إِذَا حَضَرَ بغَيْرِ إِذْنِ الإِمَام فَلاَ يَسْتَحقُّ السَّلَبَ باتِّفَاق.

وَيَرَى الْمَالكيَّةُ أَنَّ الْمَرْأَةَ وَالذِّمِّيَّ وَالصَّبِيَّ وَكُل مَنْ لاَ يُسْهَمُ لَهُ لاَ يَسْتَحِقُّ السَّلَبَ.هَذَا الْقَوْل الْمَرْجُوحُ عنْدَ الشَّافعيَّة.

[٤١٦٨] - صحيح البخاري (٤/ ٩٢)(٣١٤٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٠)٢

[ش (جولة) دوران واضطراب.(حبل عاتقه) هو موضع الرداء من العنق أو هو عرق أو عصب في العنق.(ريح الموت) أي كدت أموت منها.(ما بال الناس) ما حالهم منهزمين.(أمر الله) قدره وإرادته لحكمة يعلمها.(سلبه) ما على المقتول من سلاح وغيره.(بينة) علامة أو شهود.(من يشهد لي) أني قتلت ذلك الرجل المذكور أول الحديث.(لاها الله) لا والله لا يكون ذلك.(أسد) رجل كالأسد في الشجاعة يقاتل في سبيل الله تعالى ونصرة دينه.(مخرفا) بستانا لأنه يخترف منه الثمر أي يجتنى.(تأثلته) تكلفت جمعه]

[٤١٦٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٤)٤٤ - (١٧٥٣)

[ش (مؤتة) هي بالهمز وترك الهمز وهي قرية معروفة في طرف الشام عند الكرك(مددي) يعني رجلا من المدد الذين جاءوا يمدون مؤتة ويساعدونهم]

قَال الْمَالكيَّةُ:إلاَّ إذَا أَجَازَ الإمَامُ لَهُمْ،أَوْ تَعَيَّنَ عَلَيْهمُ الْجهَادُ بدُخُول الْكُفَّار إلَى بلاَد الْمُسْلمينَ أَوْ نَحْو ذَلكَ فَيَأْخُذُونَ السَّلَبَ عنْدَ ذَلكَ.أَمَّا الَّذي لاَ يَسْتَحقُّ سَهْمًا وَلاَ رَضْخًا كَالْمُرْجف وَالْمُخَذِّل وَالْخَائن وَالْمُعين عَلَى الْمُسْلمينَ وَنَحْوه فَلاَ يَسْتَحقُّ السَّلَبَ باتِّفَاق الْفُقَهَاء[4170] .

وَمنْ شُرُوط اسْتحْقَاق السَّلَب أَنْ يُغَرِّرَ الْقَاتل بنَفْسه في قَتْل الْكَافر؛أَيْ يُخَاطرَ بحَيَاته وَيُوَاجهَ احْتمَال الْمَوْت،فَإنْ رَمَاهُ بسَهْمٍ أَوْ نَحْوه منْ صَفِّ الْمُسْلمينَ أَوْ منْ حصْنٍ يَتَحَصَّنُ فيه فَلاَ سَلَبَ لَهُ.

وَإن اشْتَرَكَ اثْنَان أَوْ أَكْثَرُ منَ الْمُسْلمينَ في قَتْل الْكَافر حَال الْحَرْب،فَالسَّلَبُ لَهُمْ جَميعًا عنْدَ الشَّافعيَّة وَأَبي يَعْلَى منَ الْحَنَابلَة؛لعُمُوم قَوْله ﷺ:مَنْ قَتَل قَتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ حَيْثُ يَتَنَاوَل الْوَاحدَ وَالاثْنَيْن وَالْجَمَاعَةَ؛وَلأَنَّهُمْ اشْتَرَكُوا في السَّبَب – وَهُوَ الْقَتْل – فَيَجبُ أَنْ يَشْتَركُوا في السَّلَب.وَذَهَبَ الْحَنَابلَةُ – وَهُوَ وَجْهٌ عنْدَ الشَّافعيَّة – إلَى أَنَّهُ لَوْ وَقَعَ بَيْنَ جَمَاعَة لاَ يُرْجَى نَجَاتُهُ منْهُمْ لَمْ يَخْتَصَّ قَاتلُهُ بسَلَبه لأَنَّهُ لَمْ يُغَرِّرْ بنَفْسه،وَلأَنَّ شَرَّ الْكَافر زَال بالْوُقُوع بَيْنَهُمْ.وَأَضَافَ الْحَنَابلَةُ أَنَّهُ لَوْ حَمَل جَمَاعَةٌ منَ الْمُسْلمينَ عَلَى وَاحد منَ الْكَافرينَ،فَقَتَلُوهُ فَسَلَبُهُ لَيْسَ لَهُمْ.بَل يَكُونُ غَنيمَةً؛لأَنَّهُمْ لَمْ يُغَرِّرُوا بأَنْفُسهمْ في قَتْله،وَكَذَا لَو اشْتَرَكَ في قَتْله اثْنَان أَوْ أَكْثَرُ،وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَبْلَغَ في قَتْله منَ الآْخَر؛لأَنَّ السَّلَبَ إنَّمَا يُسْتَحَقُّ بالْمُخَاطَرَة في قَتْله،وَلاَ يَحْصُل ذَلكَ بقَتْل الاثْنَيْن فَأَكْثَرَ فَلَمْ يُسْتَحَقَّ به السَّلَبُ.قَالُوا:وَلأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَشْرَكَ بَيْنَ اثْنَيْن في سَلَب،وَلأَنَّ أَبَا جَهْلٍ ضَرَبَهُ مُعَاذُ ابْنُ عَمْرو بْن الْجَمُوح – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَمُعَاذُ ابْنُ عَفْرَاءَ – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَأَتَيَا النَّبيَّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ فَقَال:كلاَكُمَا قَتَلَهُ،وَقَضَى بسَلَبه لمُعَاذ بْن الْجَمُوح[4171] .

[4170] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٩،سبل السلام ٤ / ٥٢،الخرشي ٣ / ١٣٠،الشرح الصغير ٢ / ١٧٧،جواهر الإكليل ١ / ٢٦١،مغني المحتاج ٣ / ٩٩،روضة الطالبين ٦ / ٣٧٤،المغني لابن قدامة ٨ / ٣٨٧،حاشية العدوي ٢ / ١٤،فتح القدير ٥ / ٢٤٩،كشاف القناع ٣ / ٧١.

[4171] – الحديث صحيح وقد مر تخريجه

قَالَ أَبُو حَاتمٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذَا خَبَرٌ أَوْهَمَ جَمَاعَةً منْ أَئمَّتنَا،أَنَّ سَلَبَ الْقَتيل،إذَا اشْتَرَكَ النَّفْسَان في قَتْله،يَكُونُ خيَارُهُ إلَى الْإمَام،بأَنْ يُعْطيَهُ أَحَدَ الْقَاتلَيْن،مَنْ شَاءَ منْهُمَا،وَكُنَّا نَقُولُ به مُدَّةً،ثُمَّ تَدَبَّرْنَا،فَإذَا هَذه الْقصَّةُ كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ،وَحينَئذٍ لَمْ يَكُنْ حُكْمُ سَلَب الْقَتيل لقَاتله،وَلَمَّا كَانَ ذَلكَ،كَذَلكَ كَانَ الْخيَارُ إلَى الْإمَام،أَنْ يُعْطيَ ذَلكَ أَيَّمَا شَاءَ

وَقَدْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَقْتُول الَّذي يَأْخُذُ قَاتلُهُ سَلَبَهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ منَ الْمُقَاتلينَ الَّذينَ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ شَرْعًا،أَمَّا إذَا قَتَل امْرَأَةً أَوْ صَبيًّا أَوْ شَيْخًا فَانيًا أَوْ مَجْنُونًا أَوْ رَاهبًا مُنْعَزلاً في صَوْمَعَته أَوْ نَحْوَهُمْ ممَّنْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ قَتْلهمْ،فَلاَ يَسْتَحقُّ قَاتلُهُ السَّلَبَ مَا لَمْ يَشْتَرِكْ فِي الْقتَال.فَإِن اشْتَرَكَ أَحَدٌ منْ هَؤُلاَءِ فِي الْقتَال اسْتَحَقَّ قَاتلُهُ سَلَبَهُ،لجَوَاز قَتْله حينَئذ.

وَمنْ شُرُوط اسْتحْقَاق السَّلَب أَنْ يَقْتُلَهُ أَوْ يُثْخنَهُ بجرَاحٍ تَجْعَلُهُ فِي حُكْمِ الْمَقْتُول،بحَيْثُ يَكُونُ قَدْ كَفَى الْمُسْلمينَ شَرَّهُ وَأَزَال امْتنَاعَهُ كُلِّيًّا؛كَأَنْ يَفْقَأَ عَيْنَيْه أَوْ يُعْميَ بَصَرَهُ أَوْ يَقْطَعَ يَدَيْه وَرجْلَيْه.قَال الشَّافعيَّةُ في الأَظْهَر:وَكَذَا لَوْ قَطَعَ يَدَيْه أَوْ رجْلَيْه أَوْ أَسَرَهُ أَوْ قَطَعَ يَدًا وَرجْلاً لضَعْف حَرَكَته فِي الْقَطْع؛وَلأَنَّ الأَسْرَ أَبْلَغُ فِي الْقَهْر وَأَصْعَبُ منَ الْقَتْل؛وَلأَنَّ الإمَامَ يَتَخَيَّرُ فِي الأَسير بَيْنَ الْقَتْل وَالْمَنِّ وَالْفدَاء وَنَحْوهَا.

قَال مَكْحُولٌ:لاَ يَكُونُ السَّلَبُ إلاَّ لمَنْ أَسَرَ علْجًا [4172] أَوْ قَتَلَهُ،وَقَال الْقَاضي أَبُو يَعْلَى منَ الْحَنَابلَة:إذَا أَسَرَ رَجُلاً فَقَتَلَهُ الإمَامُ صَبْرًا فَسَلَبُهُ لمَنْ أَسَرَهُ،وَإن اسْتَبْقَاهُ الإمَامُ كَانَ لَهُ فدَاؤُهُ أَوْ رَقَبَتُهُ وَسَلَبُهُ لأَنَّهُ كَفَى الْمُسْلمينَ شَرَّهُ.وَإلَى هَذَا ذَهَبَ الشَّافعيَّةُ فِي قَوْل.وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاء وَمنْ بَيْنهمُ السُّبْكيُّ إلَى أَنَّهُ لاَ يَسْتَحقُّ السَّلَبَ إلاَّ الْقَاتل لما جاء عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ:مَنْ قَتَلَ قَتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ،فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئذٍ عشْرينَ رَجُلاً فَأَخَذَ أَسْلاَبَهُمْ. [4173]

وَلأَنَّ غَيْرَ الْقَتْل لاَ يُزيل الامْتنَاعَ،فَرُبَّ أَعْمَى شَرٌّ منَ الْبَصير،وَمَقْطُوعِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ يَحْتَال عَلَى الأَخْذ بثَأْر نَفْسه.

وَذَهَبَ الْحَنَابلَةُ إلَى أَنَّ الْقَاطعَ للرِّجْلَيْنِ أَو الْيَدَيْنِ أَو الْيَد وَالرِّجْل لاَ يَسْتَحقُّ السَّلَبَ لأَنَّهُ لَمْ يَكُفَّ شَرَّهُ عَن الْمُسْلمينَ.

منَ الْقَاتلَيْن،كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،في سَلَب أَبي جَهْلٍ حَيْثُ أَعْطَاهُ مُعَاذَ بْنَ عَمْرو بْن الْجَمُوح،وَكَانَ هُوَ،وَمُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ قَاتلَيْه،وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: » مَنْ قَتَلَ قَتيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ «،فَكَانَ ذَلكَ يَوْمَ حُنَيْنٍ،وَيَوْمُ حُنَيْنٍ بَعْدَ بَدْرٍ،بسَبْع سنينَ،فَذَلكَ مَا وَصَفْتُ عَلَى أَنَّ الْقَاتلَيْن،إذَا اشْتَرَكَا في قَتيلٍ كَانَ السَّلَبُ لَهُمَا مَعًا»صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ١٧٣)

[4172] – الرجل الضخم من كفار العجم.

[4173] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٥٥٥)(٣٣٧٥٦) صحيح

وَكَذَا إِنْ أَسَرَهُ؛لِأَنَّ الَّذِي أَسَرَهُ لَمْ يَقْتُلْهُ سَوَاءٌ قَتَلَهُ الإِمَامُ أَوِ اسْتَبَقَاهُ بِرِقٍّ أَوْ فِدَاءٍ أَوْ مَنٍّ،وَيَكُونُ سَلَبُهُ وَفِدَاؤُهُ إِنْ فُدِيَ،وَرِقُّهُ إِنْ رُقَّ،غَنِيمَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ؛لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَسَرُوا أَسْرَى بَدْرٍ،فَقَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ،وَاسْتَبْقَى سَائِرَهُمْ .فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ؛أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتُلْ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا إِلاَّ ثَلاَثَةً:عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ،وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ،وَطُعَيْمَةَ بْنَ عَدِي،وَكَانَ النَّضْرُ أَسَرَهُ الْمِقْدَادُ.[٤١٧٤]

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:هَكَذَا حَدِيثُ هُشَيْمٍ،فَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْمَغَازِي فَيُنْكِرُونَ مَقْتَلَ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ يَوْمَئِذٍ،يَقُولُونَ:مَاتَ بِمَكَّةَ مَوْتًا قَبْلَ بَدْرٍ،وَإِنَّمَا قُتِلَ أَخُوهُ طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ،وَلَمْ يُقْتَلْ صَبْرًا،قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ،وَمِمَّا يُصَدِّقُ قَوْلَهُمُ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ حِينَ كَلَّمَهُ فِي الْأُسَارَى شَيْخٌ لَوْ كَانَ أَتَانَا لَشَفَّعْنَاهُ،يَعْنِي أَبَاهُ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ فَكَيْفَ يَكُونُ مَقْتُولًا يَوْمَئِذٍ،وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِيهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ؟ وَأَمَّا مَقْتَلُ عُقْبَةَ وَالنَّضْرِ فَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ"[٤١٧٥]

فَلَمْ يُعْطِ مَنْ أَسَرَهُمْ أَسْلاَبَهُمْ وَلاَ فِدَاءَهُمْ،بَل كَانَ فِدَاؤُهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ.وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي مُقَابِل الأَظْهَرِ.

وَإِنْ عَانَقَ رَجُلاً فَقَتَلَهُ آخَرُ فَسَلَبُهُ لِلْقَاتِل عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ،لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ:مَنْ قَتَل قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ وَلأَنَّهُ كَفَى الْمُسْلِمِينَ شَرًّا،فَأَشْبَهَ مَا لَوْ لَمْ يُعَانِقْهُ الآْخَرُ.

وَذَهَبَ الأَوْزَاعِيُّ إِلَى أَنَّ سَلَبَهُ لِلْمُعَانِقِ.وَمِثْلُهُ لَوْ كَانَ الْكَافِرُ مُقْبِلاً عَلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُهُ فَجَاءَ آخَرُ مِنْ وَرَائِهِ،فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ فَسَلَبُهُ لِقَاتِلِه؛بما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ،فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ،فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلاَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ،فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ المَوْتِ،ثُمَّ أَدْرَكَهُ المَوْتُ،فَأَرْسَلَنِي،فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَقُلْتُ:مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ:أَمْرُ اللَّهِ،ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا،وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ

[٤١٧٤] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٣٢٢)(٣٧٨٤٧) صحيح مرسل

[٤١٧٥] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ١٧١)(٣٤٥)

يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»،فَقُمْتُ فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ،فَقُمْتُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟»،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ القِصَّةَ،فَقَالَ رَجُلٌ:صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَسَلَبُهُ عِنْدِي فَأَرْضِهِ عَنِّي،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لاَهَا اللَّهِ،إِذًا لاَ يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللَّهِ،يُقَاتِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ،يُعْطِيكَ سَلَبَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«صَدَقَ»،فَأَعْطَاهُ،فَبِعْتُ الدِّرْعَ،فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ،فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الإِسْلاَمِ"[4176] .

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:فَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَكَمَ لِأَبِي قَتَادَةَ بِالسَّلَبِ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نَفَلَهُ إِيَّاهُ قَبْلَ ذَلِكَ،أَلَا تَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا قَالَ مَا قَالَ بَعْدَ قَتْلِ أَبِي قَتَادَةَ صَاحِبَهُ،فَهَذَا عِنْدَنَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ:أَنَّ السَّلَبَ مَقْضِيٌّ بِهِ لِلْقَاتِلِ بِسُنَّةٍ مَاضِيَةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،جَعَلَهُ لَهُ الْإِمَامُ قَبْلَ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَجْعَلْهُ لَهُ.

وَقَد احْتَجَّ قَوْمٌ بِحَدِيثِ عُمَرَ:أَنَّهُ خَمَّسَ سَلَبَ الْبَرَاءِ،وَلَيْسَ قَوْلُ أَحَدٍ مَعَ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُجَّةٌ،عَلَى أَنَّ حَدِيثَ عُمَرَ إِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَرَ أَنْ يُخَمَّسَ السَّلَبُ لَا لِلْآخَرِينَ،أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ:إِنَّا كُنَّا لَا نُخَمِّسُ السَّلَبَ،وَقَوْلُهُ:فَكَانَ أَوَّلَ سَلَبٍ خُمِّسَ فِي الْإِسْلَامِ سَلَبُ الْبَرَاءِ،وَإِنَّمَا رَأَى ذَلِكَ عُمَرُ حِينَ اسْتَكْثَرَهُ،ثُمَّ اعْتَذَرَ مِنْهُ،وَقَالَ:إِنَّ سَلَبَ الْبَرَاءِ بَلَغَ مَالًا،وَأَنَا خَامِسُهُ.قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:وَلَا أَرَى فِي هَذَا الْحَدِيثِ ذِكْرَ التَّسْمِيَةِ لِلنَّفَلِ مِنْ عُمَرَ قَبْلَ الْقِتَالِ،وَلَا فِي حَدِيثِ سَعْدٍ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ،وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا إِلَّا حَدِيثَ أَبِي طَلْحَةَ،يَوْمَ حُنَيْنٍ،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ يَوْمَئِذٍ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ» .وَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَنْ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَفَلَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِلْقَاتِلِ السَّلَبُ وَإِنَّمَا هَذَا عِنْدَنَا سُنَّةٌ سَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ،وَتَعْلِيمٌ عَلَّمَهُ النَّاسَ:أَنَّ مَنَ قَتَلَ قَتِيلًا فَحُكْمُهُ

[4176] - صحيح البخاري (٤/ ٩٢)(٣١٤٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٠)٢

[ش (جولة) دوران واضطراب.(حبل عاتقه) هو موضع الرداء من العنق أو هو عرق أو عصب في العنق.(ريح الموت) أي كدت أموت منها.(ما بال الناس) ما حالهم منهزمين.(أمر الله) قدره وإرادته لحكمة يعلمها.(سلبه) ما على المقتول من سلاح وغيره.(بينة) علامة أو شهود.(من يشهد لي) أني قتلت ذلك الرجل المذكور أول الحديث.(لاها الله) لا والله لا يكون ذلك.(أسد) رجل كالأسد في الشجاعة يقاتل في سبيل الله تعالى ونصرة دينه.(مخرفا) بستانا لأنه يخترف منه الثمر أي يجتنى.(تأثلته) تكلفت جمعه]

أَنْ يَكُونَ لَهُ السَّلَبُ،وَلَوْلَا قَوْلُهُ هَذَا مَا عُلِمَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ،هَذَا عِنْدِي وَجْهُ هَذَا الْحَدِيث"[٤١٧٧]

قَال أَبُو الْفَرَجِ الزَّازُ مِنَ الشَّافعيَّة:لَوْ أَمْسَكَهُ وَاحدٌ وَقَتَلَهُ آخرُ فَالسَّلَبُ بَيْنَهُمَا لانْدفَاعِ شَرِّه بِهِمَا.وَهَذَا فِيمَا إِذَا مَنَعَهُ الْهَرَبَ وَلَمْ يَضْبِطْهُ.فَأَمَّا الإِمْسَاكُ الضَّابِطُ فَهُوَ أَسْرٌ.وَقَتْل الأَسِيرِ لاَ يُسْتَحَقُّ بِه السَّلَبُ[٤١٧٨].

قال ابن المنذر:"وَاخْتلفُوا فِي الحكم بالسلب للْقَاتِل فَقَالَت طَائِفَة بِظَاهِر الْأَخْبَار الَّتِي ذَكرنَاهَا،قَالَت:وَفِي قَول النَّبِي ﷺ:«مَنْ قتل كَافِرًا فَلهُ سلبه»،قولا عَاما مُطلقًا أبين الْبَيَان على أَن ذَلِك لكل من قتل كَافِرًا فِي الْحَرْب وَغير الْحَرْب فِي الإقبال والإدبار هَارِبا أَو نذيرا

لأَصْحَابه على الْوُجُوه كلهَا،وَلَيْسَ لأحد أَن يخص من سنَن رَسُول الله ﷺ شَيْئا بِرَأْيه وَلَا يَسْتَثْنِي من سنَنه إِلَّا بِسنة مثلهَا،وَمن الْجِهَة الْبَيِّنَة مَعَ مَا ذَكرْنَاهُ خبر سَلمَة بن الْأَكْوَع،وَهُوَ

خبر لَيْسَ لمتأول مَعَه تَأْوِيل،وَذَلكَ أَن سَلمَة قتل الْقَتِيل وهُوَ مُوَلٍّ،هارب.

فعن إِيَاس أَن أَبَاهُ أخبرهُقَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ هوَازن،فجَاء رَجُلٌ عَلَى بَعِيرٍ أَحْمَر فَأطلق حَقَبًا مِنْ حَقَب الْبَعير فَقَيَّدَ به الْبَعير،ثُمَّ جَاءَ حَتَّى أَكَلَ مَعَ الْقَوْم فَلَمَّا رأى ضعفهم ورِقّة ظهْرهِمْ خَرَجَ إِلَى بَعِيرِهِ فَأَطْلَقهُ وَقعد عَلَيْهِ،وَهُوَ طَلِيعَة الْكفَّار فَرَكَضَهُ هَارِبا،فَخرج رَجُلٌ مِنْ

أَسْلَمَ عَلَى نَاقَة فَأتبعهُ،وَخرجت أَعْدُو فِي أَثَره،حَتَّى أَخَذْتُ بِخطَام الْجمل فَقلت لَهُ:أَخ فَمَا عَدَا أَن وَضَعَ رُكْبَتَهُ عَلَى الأَرْض ضَرَبْتُ رَأسه،ثمَّ جئْت براحلة أقودها عَلَيْه رَحْلُه وَسَلَبُهُ،فَاسْتَقْبَلَنِي النَّبِي ﷺ وَالنَّاس يَقُولُونَ:مَنْ قَتله؟ قَالُوا:سَلمَة بْنُ الْأَكْوَع،قَالَ:«بِه سلَبُهُ أَجْمَعُ» .

[٤١٧٧] - الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٣٩٤)(٧٩٤)

[٤١٧٨] - المغني لابن قدامة ٨ / ٣٨٦،روضة الطالبين ٦ / ٢٦٣،مغني المحتاج ٣ / ١٠٠،كشاف القناع ٣ / ٧١،سبل السلام ٤ / ٥٣.

قَالَ أَبُو بكر:فَهَذَا مقتول هارب غير مقبل وَقد حكم النَّبِي ﷺ لسَلمَة بالسلب،وَفِيه دَلِيل على إغفال من قَالَ:لَا يكون السَّلب إِلَّا لمن قتل مُشْركًا مُقبلا،إِذْ سَلمَة قَاتل قتيلٍ مُدبرا،وَيدل على إغفال من قَالَ:أَن الَّذِي لَا يشك فِي أَن لَهُ سلب الْمُشرك وَالْحَرب قَائِمَة،لِأَن

سَلمَة قد حكم النَّبِي ﷺ لَهُ بالسلب وَصَاحبه مُدبر غير مقبل وَقَتله وَالْحَرب لسيت بقائمة،لِأَن الْمَقْتُول إِنَّمَا قتل مُنْفَردا فِي غير حَال الْحَرْب،ليعلم أَن من سنة النَّبِي ﷺ أَن من قتل قَتيلا من الْعَدو على أَي جِهَة قَتله بعد أَن لَا يكون للمقتول أَمَان أَن لَهُ سلبه،وَهَذَا قَول طَائِفَة من أَصْحَاب الحَدِيث،وَبِه قَالَ أَبُو ثَوْر،وَاحْتج بِظَاهِر قَول النَّبِي ﷺ:«من قتل قَتيلا فَلهُ سلبه»،وبخبر سَلمَة هَذَا.

وَقَالَت طَائِفَة:إِنَّمَا يكون السَّلب لمن قتل وَالْحَرب قَائِمَة والمشرك مقبل هَذَا قَول الشَّافِعِي،قَالَ الشَّافِعِي:" وَالَّذِي لَا شك فِيهِ أَن لَهُ سلب من قتل الَّذِي يقتل الْمُشرك وَالْحَرب قَائِمَة وَالْمُشْرِكُونَ يُقَاتلُون،ولقتلهم هَكَذَا مُؤنَة لَيست لَهُم إِذا انْهَزمُوا أَو انهزم الْمَقْتُول،وَلَا أرى أَن يعْطى السَّلب إِلَّا

من قتل مُشْركًا مُقبلا.

وَقَالَ أَحْمد فِي السَّلب للْقَاتِل:إِنَّمَا ذَلِك فِي المبارزة لَا يكون فِي الْهَزِيمَة.

قَالَ أَبُو بكر:السَّلب للْقَاتِل أذن الإِمَام فِي ذَلِك أَو لم يَأْذَن فِيهِ على ظَاهر قَول النَّبِي ﷺ:" من قتل كَافِرًا فَلهُ سلبه،وَذَلِكَ عَام لكل قَاتل قتل كَافِرًا من أهل الْحَرْب الَّذين لَا أَمَان لَهُم إِلَى يَوْم الْقِيَامَة،كَسَائِر السّنَن الَّتِي سنّهَا النَّبِي ﷺ للنَّاس،وَقد روينَا ذَلِك عَن سعد بن مَالك،وَابْن عمر.

عَن شبر بن عَلْقَمَة أَنه بارز رجلا يَوْم الْقَادِسِيَّة فَقتله فَأخذ سلبه،فقوم اثْنَي عشر ألفا فَأتى بِهِ سعد بن مَالك فَقَالَ:خُذْهُ نفله إِيَّاه.

وعَن نَافِع أَن ابْن عُمَرَ بَارَزَ رَجُلا يَوْم الْيَمَامَة فَقتله فَسلم لَهُ سَلَبُهُ.

وَمِمَّنْ قَالَ بظَاهِر الحَدِيث أَن السَّلب للْقَاتِل اللَّيْث بن سعد،وَالْأَوْزَاعِيّ،وَالشَّافِعِيّ،وَأحمد بن حَنْبَل،وَأَبُو ثَوْر،وأَبُو عبيد،قَالَ أَحْمد،وأَبُو عبيد:قَالَه الإِمَام أَو لم يقلهُ،وَهَكَذَا قَــول الشَّافِعِي.

وَفِيه قَول سواهُ:وَهُوَ أَن لَا يكون ذَلِك لأحد إِلَّا بِإِذن الإِمَام،سُئِلَ مَالك عَن رجل قتــل رجلا يكون لَهُ سلبه بِغَيْر إِذن الإِمَام؟ قَالَ:لَا يكون ذَلِك لأحد دون الإِمَام وَلَا يكون من الإِمَام إِلَّا على وَجه

الِاجْتِهَاد وَلم يبلغنَا أَن النَّبِي ﷺ قَالَ:"من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه فِي غير يَوْم حنين،وَلَــو أَن النَّبِي ﷺ سن ذَلِك فِي غير يَوْم حنين أَو أَمر بِهِ كَانَ أمرا ثَابتا قَائِما لَــيْسَ لأحــد فِيــه قَول،وَلَكِن لم يبلغنَا النَّبِي ﷺ بعد يَوْم حنين عمل بِهِ،فَكَانَ أَبُو بكر بعد رَسُول اللَّهِ ﷺ،ثمَّ عمر فَلم يبلغنَا أَنه صنع ذَلِك.

قَالَ أَبُو بكر:وَقد عَارض الشَّافِعِي مَالِكًا فَقَالَ:أَرَأَيْت مَا روى عَن النَّبِي ﷺ مَنْ أَنه أعْطى من حضر أَرْبَعَة أَخْمَاس الْقِسْمَة،لَو قَالَ قَائِل هَذَا من النَّبِي ﷺ على الِاجْتِهَاد،هَل كَانَت الْحجَّة عَلَيْهِ إِلَّا أَن يُقَال:أَن إِعْطَاء النَّبِي ﷺ على الْعَام وَالْحكم حَتَّى تَأْتِي دلَالَة عَن النَّبِي ﷺ بِأَن قَوْله خَاص فنتبع،فَأَما أَن يتحكم متحكم فيدعي أَن قَول النَّبِي ﷺ أَحدهمَا حكم وَالْآخر اجْتِهَاد بِلَا دلَالَة،فَإِن جَازَ هَذَا خرجت السّنَن من أَيدي النَّاس،قَالَ:وَلَو لم يقلــهُ النَّبِي ﷺ إِلَّا يَوْم حنين،أَو فِي آخر غزَاة غَزَاهَا،أَو أَولا،لَكَانَ أولى مَا أَخذ بِهِ.

وَحكى الشَّافِعِي عَن النُّعْمَان أَنه " قَالَ فِي الرجل يقتل الرجل وَيَأْخُذ سلبه:لَــا يَنْبَغِــي لِلْإِمَام أَن ينفلهُ إِيَّاه لِأَنَّهُ صَار فِي الْغَنِيمَة،وَقَالَ يَعْقُوب:حَدثنَا النُّعْمَان عَن حَمَّــاد عَــن إِبْرَاهِيم أَنه قَالَ:إِذا نفل الإِمَام أَصْحَابه فَقَالَ:من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه وَمن أسر أَسِيرًا فَلــهُ سلبه فَهُوَ مُسْتَقِيم جَائِز وَهَذَا النَّفْل،وَأما إِذا لم ينفل الإِمَام شَيْئا من هَذَا فَلَا نفل لأحــد دون أحد وَالْغنيمَة كلهَا من جَمِيع الْجند على مَا وَقعت عَلَيْهِ المقاسم،وَهَذَا أوضح وَأبين من أَن يشك فِيهِ أحد من أهل الْعلم ".

قَالَ أَبُو بكر:هَذَا أوضح فِي بَاب الْخَطَأ وَأبين من أَن يشك فِيهِ أحد لَهُ معرفَة بأخبار رَسُول الله ﷺ،وَقد ذكرنَا الْأَخْبَار فِي هَذَا الْبَاب فِيمَا مضى،وَالنَّبِيّ ﷺ حجَّة الله على الْأَوَّلين والآخرين من خلقه.

وَكَانَ مَكْحُول يَقُول:إِذا التقى الزحفان فَلَا نفل إِنَّمَا النَّفْل قبل وَبعد،وَكَانَ نَافِع مولى ابْن عمر يَقُول:إِذا قتل رجل من الْمُسلمين رجلا من الْكفَّار فَإِن لَهُ سلبه إِلَّا أَن يكون فِي معمعة الْقِتَال أَو فِي زحف،فَإِنَّهُ لَا يدْرِي أحد قتل أحدا،وَقَالَ الْأَوْزَاعِيّ،وَسَعِيد بن عبد الْعَزِيز،وَأَبُو بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم:السَّلب للْقَاتِل مَا لم تشتد الصُّفُوف بَعْضهَا على بعض،فَإِذا كَانَ ذَلِك فَلَا سلب لأحد،

وَذكر الْوَلِيد بن مُسلم عَن الْأَوْزَاعِيّ،وَسَعِيد بن عبد الْعَزِيز،وَأبي بكر بن عبد الله عَن مشيختهم أَنه لَا سلب فِي يَوْم هزيمَة الْعَدو،وَإِذا طَلَبهمْ الْمُسلمُونَ،وَلَا سلب عِنْد ذَلِك.[4179]

وَيُشْتَرَطُ أَيْضًا فِي اسْتِحْقَاقِ السَّلْبِ:أَنْ يَقْتُل الْكَافِرَ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى الْقِتَال وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ.فَإِذَا انْهَزَمَ جَيْشُ الْمُشْرِكينَ وَاتَّبَعَهُمْ فَقَتَل كَافِرًا مِنْهُمْ فَلاَ يَسْتَحِقُّ سَلَبَهُ لأَنَّ بِهَزِيمَتِهِمُ انْدَفَعَ شَرُّهُمْ.وَكَذَلِكَ لَوْ قَتَل كَافِرًا وَهُوَ أَسِيرٌ فِي يَدِه،أَوْ وَهُوَ نَائِمٌ أَوْ مَشْغُولٌ بِأَكْلٍ أَوْ نَحْوِهِ أَوْ مُثْخَنٌ زَائِل الامْتِنَاع؛لأَنَّ الْقَاتِل لَمْ يُغَرِّرْ بِنَفْسِهِ فِي قَتْلِهِ وَلَمْ يَكُفَّ الْمُسْلِمِينَ شَرَّ الْمَقْتُول.وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعْطِ ابْنَ مَسْعُودٍ سَلَبَ أَبِي جَهْلٍ لأَنَّهُ ذَبَحَهُ بَعْدَ أَنْ أَثْخَنَهُ مُعَاذُ بْنُ الْجَمُوحِ،وَأَمَرَ بِقَتْل عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَالنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ صَبْرًا،وَلَمْ يُعْطِ سَلَبَهُمَا مَنْ قَتَلَهُمَا،وَقَتَل رِجَال بَنِي قُرَيْظَةَ صَبْرًا فَلَمْ يُعْطِ مَنْ قَتَلَهُمْ سلاَبَهُمْ[4180] .

وَذَهَبَ أَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ إِلَى أَنَّ السَّلَبَ يَسْتَحِقُّهُ كُل مَنْ قَتَل كَافِرًا لِعُمُومِ حَدِيث:مَنْ قَتَل قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ "[4181]

[4179] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١١٩)

[4180] - قصة مقتل رجال بني قريظة صبرا.أوردها ابن كثير في السيرة (٣ / ٢٤٨ - ٢٤٢ - نشر دار إحياء التراث العربي) نقلا عن ابن إسحاق في سيرته

[4181] - صحيح وقد مر تخريجه

ولأنه جاء عن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هَوَازِنَ،فَبَيْنَا نَحْنُ نَتَضَحَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ،فَأَنَاخَهُ،ثُمَّ انْتَزَعَ طَلَقًا مِنْ حَقَبِهِ،فَقَيَّدَ بِهِ الْجَمَلَ،ثُمَّ تَقَدَّمَ يَتَغَدَّى مَعَ الْقَوْمِ،وَجَعَلَ يَنْظُرُ وَفِينَا ضَعْفَةٌ وَرِقَّةٌ فِي الظَّهْرِ،وَبَعْضُنَا مُشَاةٌ،إِذْ خَرَجَ يَشْتَدُّ،فَأَتَى جَمَلَهُ،فَأَطْلَقَ قَيْدَهُ ثُمَّ أَنَاخَهُ،وَقَعَدَ عَلَيْهِ،فَأَثَارَهُ فَاشْتَدَّ بِهِ الْجَمَلُ،فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ وَرْقَاءَ،قَالَ سَلَمَةُ:وَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ فَكُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ النَّاقَةِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى كُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ الْجَمَلِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِخِطَامِ الْجَمَلِ فَأَنَخْتُهُ،فَلَمَّا وَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي،فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ،فَنَدَرَ،ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَمَلِ أَقُودُهُ عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَسِلَاحُهُ،فَاسْتَقْبَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ،فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ؟» قَالُوا:ابْنُ الْأَكْوَعِ،قَالَ:«لَهُ سَلَبُهُ أَجْمَعُ»[٤١٨٢].

أَمَّا إِذَا انْهَزَمَ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَقَتَلَهُ مُسْلِمٌ،وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ،فَسَلَبُهُ لِقَاتِلِهِ لِأَنَّ الْحَرْبَ فَرٌّ وَكَرٌّ،وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقْتُلَهُ مُقْبِلاً أَوْ مُدْبِرًا مَا دَامَتِ الْحَرْبُ قَائِمَةً،فَالشَّرُّ مُتَوَقَّعٌ وَالْمُوَلِّي لاَ تُؤْمَنُ كَرَّتُهُ.

وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ يَرَوْنَ أَنَّ الْقَاتِلَ فِي الصُّفُوفِ الْمُلْتَحِمَةِ يَسْتَحِقُّ سَلَبَ مَنْ قَتَلَهُ لِعُمُومِ خَبَرِ:مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ وَلِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ السَّابِقِ قَالَ فِيهِ:فَلَمَّا الْتَقَيْنَا رَأَيْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ عَلاَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْحَدِيثَ،وَلِحَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:قَتَلَ يَوْمَ هَوَازِنَ عِشْرِينَ رَجُلاً وَأَخَذَ أَسْلاَبَهُمْ،وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْتِقَاءِ

[٤١٨٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٤)٤٥ - (١٧٥٤)

[ش (نتضحى) أي نتغدى مأخوذ من الضحاء وهو بعد امتداد النهار وفوق الضحى(انتزع طلقا من حقبه) الطلق العقال من جلد والحقب حبل يشد على حقو البعير قال القاضي لم يرو هذا الحرف إلا بفتح القاف قال وكان بعض شيوخنا يقول صوابه بإسكانها أي مما احتقب خلفه وجعله في حقيبته وهي الرفادة في مؤخر القتب ووقع هذا الحرف في سنن أبي داود حقوه وفسره مؤخره قال القاضي والأشبه عندي أن يكون حقوه في هذه الرواية حجزته وحزامه والحقو معقد الإزار من الرجل وبه سمي الإزار حقوا ووقع في رواية السمرقندي رضي الله عنه في مسلم من جعبته فإن صح ولم يكن تصحيفا فله وجه بأن علقه بجعبة سهامه وأدخله فيها(وفينا ضعفة ورقة) ضبطوه على وجهين الصحيح المشهور ورواية الأكثرين بفتح الضاد وإسكامن العين أي حالة ضعف وهزال قال القاضي وهذا هو الصواب والثاني بفتح العين جمع ضعيف وفي بعض النسخ وفينا ضعف بحذف الهاء

(في الظهر) أي في الإبل(يشتد) أي يعدو(فأثاره) أي ركبه ثم بعثه قائما(ورقاء) أي في لونها سواد كالغبرة(اخترطت سيفي) أي سللته(فندر) أي سقط]

الزَّحْفَيْنِ،وَلِحَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ،قَالَ:غَزَوْنَا غَزْوَةً إِلَى طَرَفِ الشَّامِ فَأُمِّرَ عَلَيْنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَانْضَمَّ إِلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ أَمْدَادِ حِمْيَرَ يَأْوِي إِلَى رِحَالِنَا،وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ إِلَّا سَيْفٌ لَهُ،لَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ غَيْرُهُ،فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَزُورًا فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَالُ حَتَّى أَخَذَ مِنْ جِلْدِهِ كَهَيْئَةِ الْمِجَنِّ،ثُمَّ بَسَطَهُ عَلَى الْأَرْضِ،ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ حَتَّى جَفَّ،فَجَعَلَ لَهُ مُمْسَكًا كَهَيْئَةِ التُّرْسِ،فَقُضِيَ لَنَا أَنْ لَقِينَا عَدُوَّنَا،وَفِيهِمْ أَخْلَاطٌ مِنَ الرُّومِ،وَالْعَرَبِ مِنْ قُضَاعَةَ،فَقَاتَلُونَا قِتَالًا شَدِيدًا،وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ،وَسَرْجٍ مُذَهَّبٍ،وَمِنْطَقَةٍ مُلَطَّخَةٍ،وَسَيْفٍ مِثْلِ ذَلِكَ،فَجَعَلَ يَحْمِلُ عَلَى الْقَوْمِ وَيُغْرِي بِهِمْ،فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ الْمَدَدِيُّ يَحْتَالُ لِذَلِكَ الرُّومِيِّ حَتَّى مَرَّ بِهِ،فَاسْتَقْفَاهُ،فَضَرَبَ عُرْقُوبَ فَرَسِهِ بِالسَّيْفِ،ثُمَّ وَقَعَ وَأَتْبَعَهُ ضَرْبًا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الْفَتْحَ أَقْبَلَ يُسْلِبُ السَّلَبَ،وَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّاسُ أَنَّهُ قَاتِلُهُ،فَأَعْطَاهُ خَالِدٌ بَعْضَ سَلَبِهِ،وَأَمْسَكَ سَائِرَهُ،فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَحْلِ عَوْفٍ،ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ عَوْفٌ:ارْجِعْ إِلَيْهِ فَلْيُعْطِكَ مَا بَقِيَ،فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَأَبَى عَلَيْهِ،فَمَشَى حَتَّى أَتَى خَالِدًا فَقَالَ:أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ،قَالَ:بَلَى،قَالَ:فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْفَعَ إِلَيْهِ سَلَبَ قَتِيلِهِ؟ قَالَ خَالِدٌ:اسْتَكْثَرْتُهُ لَهُ،فَقَالَ عَوْفٌ:لَئِنْ رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لَهُ،فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَهُ فَاسْتَعْدَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَدَعَا خَالِدًا،وَعَوْفٌ قَاعِدٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْفَعَ إِلَى هَذَا سَلَبَ قَتِيلِهِ؟» قَالَ:اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَادْفَعْ إِلَيْهِ»،قَالَ:فَمَرَّ بِعَوْفٍ،فَجَرَّ عَوْفٌ بِرِدَائِهِ،ثُمَّ قَالَ:قَدْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ،فَقَالَ:«لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي أُمَرَائِي،إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا وَغَنَمًا،فَرَعَاهَا،ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا،فَأَوْرَدَهَا حَوْضَهُ،فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ،وَتَرَكَتْ كَدَرَهُ،فَصَفْوُهُ أَمْرُهُ لَكُمْ،وَكَدَرُهُ عَلَيْهِمْ» وَإِذَا تَنَازَعَ رَجُلَانِ فِي الْقَتِيلِ،وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا:يَقُولُ أَنَا قَتَلْتُهُ،وَلَيْسَ بِالْعِلْجِ رَمَقٌ،وَلَا بَيِّنَةٌ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا فَالسَّلَبُ بَيْنَهُمَا،وَإِنْ كَانَ بِالْعِلْجِ رَمَقٌ فَالسَّلَبُ لِمَنْ قَالَ الْعِلْجُ:إِنَّهُ قَتَلَهُ"[٤١٨٣].وَمَعَ ذَلِكَ أَخَذَ الْمَدَدِيُّ سَلَبَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَهُ.

[٤١٨٣] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٠٤)(٢٦٩٧) صحيح

وَذَهَبَ الأَوْزَاعِيُّ وَمَسْرُوقٌ وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ إِلَى أَنَّ السَّلَبَ لِلْقَاتِلِ مَا لَمْ يَلْتَقِ الزَّحْفَانِ،وَلَمْ تَمْتَدَّ الصُّفُوفُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ،فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلاَ سَلَبَ لأَحَدٍ.

وَهَل يُشْتَرَطُ إِذْنُ الإِمَامِ؟ قَال أَحْمَدُ وَالأَوْزَاعِيُّ:لاَ يُعْجِبُنِي أَنْ يَأْخُذَ الْقَاتِل السَّلَبَ إِلاَّ بِإِذْنِ الإِمَامِ؛لأَنَّهُ فِعْلٌ مُجْتَهَدٌ فِيهِ فَلَمْ يَنْفُذْ أَمْرُهُ فِيهِ إِلاَّ بِإِذْنِ الإِمَامِ بِأَخْذِ سَهْمِه.قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ أَحْمَدَ عَلَى سَبِيل الاسْتِحْبَابِ لاَ عَلَى سَبِيل الإِيجَابِ،لِيَخْرُجَ مِنَ الْخِلاَفِ.فَعَلَى هَذَا إِنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ يَكُونُ قَدْ تَرَكَ الْفَضِيلَةَ وَلَهُ أَخْذُهُ[٤١٨٤] .

وَقَال الشَّافِعِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ:لَهُ أَخْذُ السَّلَبِ بِغَيْرِ إِذْنِ الإِمَامِ؛لأَنَّهُ اسْتَحَقَّهُ بِجَعْل النَّبِيِّ ﷺ لَهُ ذَلِكَ،وَلاَ يُؤْمَنُ إِنْ أَظْهَرَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يُعْطِيَهُ[٤١٨٥] .

ذكر النَّفر يضْرِبُونَ الرجل ضربات مختلفات

وَاخْتلفُوا فِي النَّفر يضْرِبُونَ الرجل ضربات مختلفات فَقَالَت طَائِفَة:«إِذا ضرب أحدهم ضَرْبَة لَا يعاش من مثلهَا،أَو ضَرْبَة يكون مُسْتَهْلكا من مثلهَا وَذَلِكَ مثل أَن يقطع يَدَيْهِ أَو رجلَيْهِ،ثمَّ يقْتله آخر،أَن السَّلب لقاطع الْيَدَيْنِ وَالرّجلَيْنِ،لِأَنَّهُ صيره فِي حَال لَا يمْنَع فِيهَا سلبه وَلَا يمْتَنع من أَن يدفنه عَلَيْهِ،وَإِن ضربه وبقى مِنْهُ مَا يمْتَنع بِنَفسِهِ ثمَّ قَتله بعده آخر،فالسلب للْآخر،إِنَّمَا يكون السَّلب للَّذي صيره بِحَال لَا يمْتَنع فِيهَا»،هَذَا قَول الشَّافِعِي.

وَكَانَ مَكْحُولٌ،وَحَرِيزُ بْنُ عُثْمَانَ يَقُولَان:إِذَا قَتَلَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنَ الْعَدُوِّ،فَأَجَارَ عَلَيْهِ آخَرُ،فَسَلَبُهُ لِمَنْ قَتَلَهُ،وَاحْتَجَّ حَرِيزٌ بِقِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ،وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ قَضَى،وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي مُبَارِزٍ عَانَقَ رَجُلًا،وَحَمَلَ عَلَيْهِ آخَرُ قَالَ:سَلَبُهُ لِلْمُعَانِقِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَفِي قَوْلِ الشَّافِعِيِّ:سَلَبُهُ لِلْقَبَائِلِ اسْتِدْلَالًا بِمَا قَالَ فِي كِتَابِ جِرَاحِ الْعَمْدِ فِي

[٤١٨٤] – المغني لابن قدامة ٨ / ٣٨٨.

[٤١٨٥] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢٣٨)

الْقَاتِلِ،وَالْحَابِسِ،وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:إِنْ بَارَزَ رَجُلٌ رَجُلًا،فَاسْتَأْمَرَ الْعِلْجَ،فَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَلَبِهِ شَيْءٌ،فَإِنْ شَاءَ الْإِمَامُ نَفَّلَهُ شَيْئًا مِنَ الْخُمُسِ.[٤١٨٦]

هَل تَلْزَمُ الْبَيِّنَةُ فِي اسْتِحْقَاقِ السَّلَبِ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ،فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ إِلَى أَنَّهُ لاَ تُقْبَل الدَّعْوَى فِي اسْتِحْقَاقِ السَّلَبِ إِلاَّ بِشَهَادَةٍ،لِوُرُودِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِلَفْظِ:مَنْ قَتَل قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ[٤١٨٧] .وَقَال مَالِكٌ وَالأَوْزَاعِيُّ:يُعْطَى السَّلَبَ إِذَا قَال:أَنَا قَتَلْتُهُ،وَلاَ يُسْأَل عَنْ بَيِّنَةٍ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ قَبِل قَوْل أَبِي قَتَادَةَ وَمُعَاذِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْجُمُوحِ وَغَيْرِهِمَا وَأَعْطَاهُمُ السَّلَبَ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ شَهَادَةٍ وَلاَ حَلِفٍ.وَيَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ اشْتَرَطُوا الْبَيِّنَةَ أَنَّهُ لاَ تُقْبَل إِلاَّ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ؛لِأَنَّ الشَّارِعَ اعْتَبَرَ الْبَيِّنَةَ،وَإِطْلاَقُهَا يَنْصَرِفُ إِلَى شَاهِدَيْنِ.وَلِأَنَّهَا كَشَهَادَةِ الْقَتْل الْعَمْدِ،وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلاَءِ أَحْمَدُ.وَذَهَبَ الْبَعْضُ الآْخَرُ إِلَى قَبُول شَهَادَةِ رَجُلٍ وَامْرَأَتَيْنِ أَوْ رَجُلٍ وَيَمِينٍ؛لِأَنَّهَا دَعْوَى فِي الْمَال فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَسَائِرِ الأَمْوَال.وَإِلَى هَذَا ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْل الْحَدِيثِ[٤١٨٨] .وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى قَبُول شَهَادَةِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ،لِأَنَّ النَّبِيَّ قَبِل قَوْل الَّذِي شَهِدَ لِأَبِي قَتَادَةَ مِنْ غَيْرِ يَمِينٍ[٤١٨٩] .

هَل يُخَمَّسُ السَّلَبُ؟

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَخْمِيسِ السَّلَبِ،فَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ فِي الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَالْحَنَابِلَةُ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ جَرِيرٍ إِلَى أَنَّ السَّلَبَ لاَ يُخَمَّسُ،لَمَا جَاء عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ،وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ،وَلَمْ يُخَمِّسِ السَّلَبَ»[٤١٩٠] .وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ ابْنُ عَوْنٍ:بَارَزَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ،وَقَالَ هِشَامٌ:حَمَلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ عَلَى مَرْزُبَانِ الزَّارَةِ يَوْمَ الزَّارَةِ،وَطَعَنَهُ طَعْنَةً،دَقَّ قَرْبُوسَ سَرْجِهِ فَقَتَلَهُ وَسَلَبَهُ

[٤١٨٦] - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (١١/ ١٢٣)

[٤١٨٧] - مر تخريجه

[٤١٨٨] - سبل السلام ٤ / ٥٣،كشاف القناع ٣ / ٧٢،المغني لابن قدامة ٨ / ٣٩٦.

[٤١٨٩] - المغني لابن قدامة ٨ / ٣٩٦،كشاف القناع ٣ / ٧٢،سبل السلام ٤ / ٥٣.

[٤١٩٠] - سنن أبي داود (٣/ ٧٢)(٢٧٢١) صحيح

سِوَارَيْهِ وَمِنْطَقَتَهُ،فَلَمَّا قَدِمْنَا صَلَّى عُمَرُ الصُّبْحَ،ثُمَّ أَتَانَا،فَقَالَ:أَثَمَّ أَبُو طَلْحَةَ ؟ فَخَرَجَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:إِنَّا كُنَّا لاَ نُخَمِّسُ السَّلَبَ،وَإِنَّ سَلَبَ الْبَرَاءِ مَالٌ فَخُمُسُهُ فَبَلَغَ سِتَّةَ آلاَفٍ،بَلَغَ ثَلاَثِينَ أَلْفًا،قَالَ مُحَمَّدٌ:فَحَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ أَوَّلُ سَلَبٍ خُمِّسَ فِي الإِسْلاَمِ.[4191].

وَذَهَبَ الأَوْزَاعِيُّ وَمَكْحُولٌ – وَهُوَ مُقَابِلُ الْمَشْهُورِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ – إِلَى أَنَّ السَّلَبَ يُخَمَّسُ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال:٤١].الآيَةَ.وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ،وَقَال إِسْحَاقُ:إِنِ اسْتَكْثَرَ الإِمَامُ السَّلَبَ خَمَّسَهُ وَذَلِكَ إِلَيْهِ لِمَا رَوَاهُ ابْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:أَنَّ الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَارَزَ مَرْزُبَانَ الزَّارَةِ بِالْبَحْرَيْنِ فَطَعَنَهُ فَدَقَّ صُلْبَهُ وَأَخَذَ سِوَارَيْهِ وَسَلَبَهُ،فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ أَتَى أَبَا طَلْحَةَ فِي دَارِهِ فَقَال:إِنَّا كُنَّا لاَ نُخَمِّسُ السَّلَبَ،وَإِنَّ سَلَبَ الْبَرَاءِ قَدْ بَلَغَ مَالاً،وَأَنَا خَامِسٌ،فَكَانَ أَوَّل سَلَبٍ خُمِّسَ فِي الإِسْلاَمِ سَلَبَ الْبَرَاءِ،وَقَدْ بَلَغَ سَلَبُهُ ثَلاَثِينَ أَلْفًا[4192].

وَأَمَّا الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ فَيَرَوْنَ أَنَّ سَلَبَ الْمَقْتُول كَسَائِرِ الْغَنِيمَةِ،لاَ يَخْتَصُّ بِهِ الْقَاتِل وَأَنَّ الْقَاتِل وَغَيْرَهُ فِيهِ سَوَاءٌ،وَيُنَفِّلُهُ الإِمَامُ.وَمَحَل التَّنْفِيل عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ الأَرْبَعَةُ الأَخْمَاسِ قَبْل الإِحْرَازِ بِدَارِ الإِسْلاَمِ،وَمِنَ الْخُمُسِ بَعْدَ الأَحْرَازِ،وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ يَكُونُ مِنَ الْخُمُسِ يُنَفِّلُهُ الإِمَامُ لِلْمُقَاتِل إِنْ رَأَى مَصْلَحَةً فِي ذَلِكَ[4193].

السَّلَبُ الَّذِي يَأْخُذُهُ الْقَاتِل:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ السَّلَبَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْقَاتِل هُوَ مَا عَلَى الْقَتِيل مِنْ ثِيَابٍ وَعِمَامَةٍ وَقَلَنْسُوَةٍ وَخُفٍّ وَرَانٍ[4194] وَطَيْلَسَانٍ،وَكَذَا مَا عَلَيْهِ مِنْ سِلاَحٍ وَآلاَتِ حَرْبٍ كَالدِّرْعِ وَالْمِغْفَرِ وَالرُّمْحِ وَالسِّكِّينِ،وَالسَّيْفِ وَاللَّسْتِ وَالْقَوْسِ وَالنُّشَّابِ وَنَحْوِهَا،وَمَا عَلَى دَابَّتِهِ مِنْ سَرْجٍ وَلِجَامٍ وَمِقْوَدٍ وَنَحْوِهَا.

[4191] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٧/ ٥٥٧)(٣٣٧٦٠) صحيح

[4192] – مر تخريجه،مغني المحتاج ٣ / ١٠١،روضة الطالبين ٦ / ٣٧٥،فتح القدير ٥ / ٢٤٩.

[4193] – فتح القدير ٥ / ٢٤٩،القوانين الفقهية ص ٩٩،سبل السلام ٤ / ٥٨.

[4194] – الران كالخف إلا أنه لا قدم له (القاموس) .

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ،فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ وَهُمُ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِي الأَظْهَــرِ عِنْــدَهُمْ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ مِنَ السَّلَبِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِيَّةِ كَالتَّاجِ وَالسِّوَارِ وَالْخَــاتَمِ وَالطَّــوْقِ وَالْمِنْطَقَةِ وَلَوْ مُذَهَّبَةً،وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَكَذَا الْهِمْيَانُ [4195] الَّذِي لِلنَّفَقَةِ وَمَا فِيهِ مِنَ النَّفَقَةِ؛لأَنَّهُ يَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ:مَنْ قَتَل قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ،وَلِحَدِيثِ الْبَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِ،وَأَنَّهُ كَانَ فِــي السَّلَبِ سِوَارُهُ وَمِنْطَقَتُهُ.وَمِنَ السَّلَبِ الدَّابَّةُ الَّتِي يَرْكَبُهَا،لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْمَدَدِيِّ أَنَّهُ قَتَل عِلْجًا فَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلاَحَهُ[4196] .وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الأَوْزَاعِيُّ وَمَكْحُولٌ.

قَال الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ:وَكَذَا الدَّابَّةُ الَّتِي يُمْسِكُهَا هُوَ بِيَدِهِ أَوْ بِيَدِ غُلاَمِهِ لِلْقِتَال،وَخَالَفَهُمْ فِي هَذَا الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،إِذْ قَالُوا:إِنَّ الدَّابَّةَ الَّتِــي يُمْســكُهَا غُلاَمُــهُ،أَوْ مَــا تُسَــمَّى بِالْجَنِيبَةِ،وَهِيَ الَّتِي تُقَادُ مَعَهُ،سَوَاءٌ أَكَانَتْ أَمَامَهُ أَمْ خَلْفَهُ أَمْ بِجَنْبِهِ،لاَ تَدْخُل فِي السَّلَبِ.

وَعَنْ أَحْمَدَ أَنَّ الدَّابَّةَ الَّتِي يَرْكَبُهَا لَيْسَتْ مِنَ السَّلَبِ،وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي بَكْرٍ؛لأَنَّ السَّلَبَ مَا كَانَ عَلَى بَدَنِهِ،وَالدَّابَّةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ،وَأَمَّا الدَّابَّةُ الَّتِي فِي مَنْزِلِهِ،أَوْ فِي خَيْمَتِهِ،أَوْ كَانَــتْ مُنْفَلِتَةً فَلَيْسَتْ مِنَ السَّلَبِ بِاتِّفَاقٍ.[4197]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[4195] - الهميان: كيس للنفقة يشد في الوسط

[4196] - سبق تخريجه

[4197] - الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٤٥٨) والعدة شرح العمدة (ص: ٦٣٥) والكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٤٢) والمغني لابن قدامة (٩/ ٢٣٩) والموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢٥/ ١٨٤)

المبحث الرابع

الخلاصة في أحكام التنفيل

التَّعْرِيفُ:

التَّنْفيل فِي اللُّغَة مِنَ النَّفَل وَهُوَ الْغَنِيمَةُ:

يُقَال:نَفَّلَهُ أَعْطَاهُ النَّفَل،وَنَفَلَهُ بِالتَّخْفِيف نَفَلاً وَأَنْفَلَهُ إيَّاهُ،وَنَفَل الإمَامُ الْجُنْدَ إذَا جَعَل لَهُمْ مَا غَنِمُوا،وَنَفَل فُلاَنٌ عَلَى فُلاَن فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِه،قَال أَهْل اللُّغَة:جِمَاعُ مَعْنَى النَّفَل وَالنَّافِلَة مَا كَانَ زِيَادَةً عَلَى الأَصْل،وَهُوَ فِي الاصْطِلاَحِ زِيَادَةُ مَالٍ عَلَى سَهْمِ الْغَنِيمَــةِ يَشْــتَرِطُهُ الإمَامُ أَوْ أَمِيرُ الْجَيْشِ لِمَنْ يَقُومُ بِمَا فِيهِ نِكَايَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الْعَدُوِّ[٤١٩٨] .

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

الرَّضْخُ:

الرَّضْخُ هُوَ الْعَطِيَّةُ الْقَلِيلَةُ،وَفِي الشَّرْعِ عَطِيَّةٌ مِنَ الْغَنِيمَة دُونَ السَّهْمِ لِغَيْــرِ مَــنْ يُسْــهَمُ لَهُمْ،كَالصِّبْيَان وَالنِّسَاءِ إذَا قَامُوا بِعَمَلٍ فِيهِ إعَانَةٌ عَلَى الْقِتَال[٤١٩٩].

الْحُكْمُ التَّكْلِيفِيُّ:

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إلَى مَشْرُوعِيَّة التَّنْفيل،إلاَّ مَا رُوِيَ عَنْ مُحَمَّد بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:كُنَّــا عِنْدَ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ،فَأَرْسَلَ إِلَى سَعِيد بْنِ الْمُسَيِّب يَسْأَلُهُ عَنِ النَّفَلِ؟ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْه شَيْئًا،قَالَ:ثُمَّ أَرْسَلَ غُلَامًا لَهُ – أَوْ قَالَ مَوْلًى لَهُ – يُقَالَ لَهُ بُرْدٌ،فَقَالَ:إِنَّهُ يَقُولُ:«لَــا نَفَلَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ» قَالَ أَبُو عُبَيْد:فَأَرَادَ سَعِيدٌ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا:أَنَّ التَّفْضِــيلَ فِــي السِّهَامِ وَالنَّفَلِ مِنَ الْغَنِيمَةِ كُلِّهَا لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى النَّبِيِّ ﷺ،وَعَلَى هَذَا يُوَجَّهُ مَا فَضَّلَ بِــهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ،وَعُيَيْنَةَ يَوْمَ حُنَيْنٍ"[٤٢٠٠] .

[٤١٩٨] – لسان العرب مادة: " نفل "،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٨،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٨،والمغني ٨ / ٣٧٨.

[٤١٩٩] – لسان العرب مختار الصحاح مادتي: " رضخ،وسهم ".

[٤٢٠٠] – الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٤٠٦)(٨٢٩) صحيح

وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ تَنْفِيل إِلاَّ إِذَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ بِأَنْ كَثُرَ الْعَدُوُّ وَقَل الْمُسْلِمُونَ وَاقْتَضَى الْحَال بَعْثَ السَّرَايَا وَحِفْظَ الْمَكَامِنِ؛لِذَلِكَ نَفَل رَسُول اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ دُونَ بَعْضٍ[٤٢٠١] .

وَقَال الْحَنَفِيَّةُ هُوَ مُسْتَحَبٌّ؛لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّحْرِيضِ عَلَى الْجِهَادِ[٤٢٠٢] .

وَلِلتَّنْفِيل صُوَرٌ ثَلاَثٌ:

إِحْدَاهَا:أَنْ يَبْعَثَ الإِمَامُ أَمَامَ الْجَيْشِ سَرِيَّةً تُغِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ،وَيَجْعَل لَهُمْ شَيْئًا مِمَّا يَغْنَمُونَ،كَالرُّبُعِ أَوِ الثُّلُث.

ثَانِيَتُهَا:أَنْ يُنَفِّل الإِمَامُ أَوِ الأَمِيرُ بَعْضَ أَفْرَادِ الْجَيْشِ لِمَا أَبْدَاهُ فِي الْقِتَال مِنْ شَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ،أَوْ أَيِّ عَمَلٍ مُفِيدٍ فَاقَ بِهِ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ شَرْطٍ.

ثَالِثَتُهَا:أَنْ يَقُول الإِمَامُ:مَنْ قَامَ بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ فَلَهُ كَذَا كَهَدْمِ سُورٍ أَوْ نَقْبِ جِدَارٍ،وَنَحْوِ ذَلِكَ،وَكُل هَذِهِ الصُّوَرِ جَائِزَةٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ[٤٢٠٣] .

وَكَرِهَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ الصُّورَةَ الأَخِيرَةَ:

قَالُوا:لأَنَّ ذَلِكَ يَصْرِفُ نِيَّةَ الْمُجَاهِدِينَ لِقِتَال الدُّنْيَا،وَيُؤَدِّي إِلَى التَّحَامُل عَلَى الْقِتَال،وَرُكُوبِ الْمَخَاطِرِ،وَقَال عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لاَ تُقَدِّمُوا جَمَاجِمَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحُصُونِ،لَمُسْلِمٌ أَسْتَبْقِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حِصْنٍ أَفْتَحُهُ وَقَالُوا:يَنْفُذُ الشَّرْطُ وَإِنْ كَانَ مَمْنُوعًا،إِنْ لَمْ يُبْطِلْهُ الإِمَامُ قَبْل حَوْزِ الْمَغْنَمِ[٤٢٠٤] .

مَحَل التَّنْفِيل:

[٤٢٠١] - مغني المحتاج ٣ / ١٠٢،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٨،والزرقاني ٣ / ١٢٨،جواهر الإكليل ١ / ٢٦١.

[٤٢٠٢] - فتح القدير ٥ / ٢٤٩،وابن عابدين ٣ / ٢٣٨.

[٤٢٠٣] - المغني ٨ / ٣٧٩ ٣٨١،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٩،والقليوبي ٣ / ١٩٣،وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٨،وفتح القدير ٥ / ٢٤٩.

[٤٢٠٤] - حاشية الزرقاني ٣ / ١٢٨.

يَجُوزُ التَّنْفيل منْ بَيْت الْمَال الَّذي عنْدَ الإمَامِ،وَيُشْتَرَطُ في هَذه الْحَالَة:أَنْ يَكُونَ النَّفَل مَعْلُومًا نَوْعًا،وَقَدْرًا،كَمَا يَجُوزُ أَنْ يُنَفِّل ممَّا سَيَغْنَمُ منَ الأَعْدَاءِ وَتُغْتَفَرُ الْجَهَالَةُ فيهَا للْحَاجَة[٤٢٠٥].

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ منْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ النَّفَل إذَا كَانَ منَ الْغَنيمَة.

فَقَال الْحَنَابلَةُ وَهُوَ قَوْلٌ للشَّافعيَّة:يَكُونُ النَّفَل منْ أَرْبَعَة أَخْمَاس الْغَنيمَة مُطْلَقًا،وَهُوَ قَوْل أَنَس بْن مَالك[٤٢٠٦].وَاسْتَدَل بحَديث أَبي الْجُوَيْريَة الْجَرْميِّ،قَالَ:أَصَبْتُ بأَرْض الرُّوم جَرَّةً حَمْرَاءَ فيهَا دَنَانيرُ في إمْرَة مُعَاويَةَ وَعَلَيْنَا رَجُلٌ منْ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ منْ بَني سُلَيْمٍ يُقَالُ لَهُ:مَعْنُ بْنُ يَزيدَ فَأَتَيْتُهُ بهَا فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْمُسْلمينَ وَأَعْطَاني منْهَا مثْلَ مَا أَعْطَى رَجُلًا منْهُمْ،ثُمَّ قَالَ:لَوْلَا أَنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«لَا نَفْلَ إلَّا بَعْدَ الْخُمُسِ» لَأَعْطَيْتُكَ،ثُمَّ أَخَذَ يَعْرِضُ عَلَيَّ منْ نَصيبه فَأَبَيْتُ".[٤٢٠٧]

وَعنْدَ الْحَنَفيَّة يَكُونُ منْ أَرْبَعَة أَخْمَاس الْغَنيمَة إذَا نَفَل الإمَامُ في أَثْنَاءِ الْقتَال،أَمَّا إذَا نَفَل بَعْدَ الإحْرَاز فَلاَ يُنَفِّل إلاَّ منَ الْخُمُس[٤٢٠٨].

وَذَهَبَ الْمَالكيَّةُ إلَى أَنَّهُ يَكُونُ منَ الْخُمُس[٤٢٠٩].

وَذَهَبَ الشَّافعيَّةُ في قَوْلٍ إلَى أَنَّهُ يَكُونُ منْ خُمُس الْخُمُس،وَهُوَ حَظُّ الإمَامِ.وَفي قَوْلٍ آخَرَ لَهُمْ:يَكُونُ منْ أَصْل الْغَنيمَة[٤٢١٠].

وَلاَ يَجُوزُ عنْدَ الْحَنَابلَة وَالشَّافعيَّة أَنْ يَقُول:مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ،وَلاَ يَصحُّ هَذَا الشَّرْطُ،قَالُوا:وَمَا نُقل أَنَّهُ ﷺ فَعَلَهُ فَهَذَا لَمْ يَثْبُتْ[٤٢١١].

قَدْرُ النَّفَل:

[٤٢٠٥] – حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٣٨،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٩،والمغني ٨ / ٣٨٣.

[٤٢٠٦] – المغني ٨ / ٣٨٤.

[٤٢٠٧] – سنن أبي داود (٣/ ٨٢)(٢٧٥٣) صحيح

[٤٢٠٨] – ابن عابدين ٣ / ٢٤١،وفتح القدير ٥ / ٢٥٠.

[٤٢٠٩] – الزرقاني ٣ / ١٢٨ وما بعدها،وبداية المجتهد ١ / ٤١٣.

[٤٢١٠] – القليوبي ٣ / ١٩٣.

[٤٢١١] – القليوبي ٣ / ١٩٣،ورضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،والمغني ٨ / ٣٨٠.

لَيْسَ لِلنَّفَلِ حَدٌّ أَدْنَى فَلِلإِمَامِ أَنْ يُنَفِّلَ الثُّلُثَ أَوِ الرُّبُعَ أَوْ أَقَلّ مِنْ ذَلِكَ،كَمَا يَجُوزُ لَــهُ أَلاَّ يُنَفِّلَ أَصْلاً.هَذَا مَحَل اتِّفَاقٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ،وَاخْتَلَفُوا:هَل لِلتَّنْفِيل حَدٌّ أَعْلَى؟ .

فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلتَّنْفِيل حَدٌّ أَعْلَى،فَلِلإِمَامِ أَنْ يُنَفِّلَ السَّرِيَّةَ كُل مَــا تَغْنَمُهُ،أَوْ بِقَدْرٍ مِنْهُ،كَأَنْ يَقُول:مَا أَصَبْتُمْ فَهُوَ لَكُمْ أَوْ لَكُمْ ثُلُثُهُ أَوْ رُبُعُهُ بَعْدَ الْخُمُــسِ،أَوْ قَبْلَهُ،وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لَيْسَ لِلإِمَامِ أَنْ يَقُول ذَلِكَ لِلْعَسْكَرِ كُلِّــهِ،وَقَال ابْــنُ الْهُمَــامِ مِــنَ الْحَنَفِيَّةِ:لاَ يَجُوزُ أَنْ يَقُول ذَلِكَ لِلسَّرِيَّةِ أَيْضًا[٤٢١٢] .

وَلَيْسَ لِلتَّنْفِيل حَدٌّ أَعْلَى عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ بَل هُوَ مَوْكُولٌ بِاجْتِهَادِ الإِمَامِ وَتَقْــدِيرِهِ حَسَــبَ قِيمَةِ الْعَمَل وَخَطَرِهِ،وَاسْتَدَلُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ،«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَــانَ يُنَفِّلُ الرُّبْعَ بَعْدَ الْخُمُسِ،وَالثُّلُثَ بَعْدَ الْخُمُسِ إِذَا قَفَلَ»[٤٢١٣] .

وَهَذَا يَدُل عَلَى أَنَّهُ مَوْكُولٌ لاِجْتِهَادِ الإِمَامِ [٤٢١٤] .

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:لاَ يَجُوزُ تَنْفِيل أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ؛لأَنَّ نَفْل النَّبِيِّ ﷺ:لَمْ يَتَجَاوَزِ الثُّلُثَ[٤٢١٥] .

وَقْتُ التَّنْفِيل:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ،إِلَى أَنَّ التَّنْفِيل يَكُونُ قَبْل إِصَابَةِ الْمَغْنَمِ،أَمَّا بَعْدَ إِصَابَةِ الْمَغْنَمِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَخُصَّ الْبَعْضَ بِبَعْضِ مَا أَصَابُوهُ؛لأَنَّ حَقَّ الْغَانِمِينَ قَدْ تَأَكَّدَ بِالإِصَــابَةِ وَالإِحْرَازِ،وَقَال الْحَنَفِيَّةُ:لِلإِمَامِ أَنْ يُنَفِّل بَعْدَ الإِحْرَازِ مِنَ الْخُمُسِ؛لأَنَّهُ لاَ حَقَّ لِلْغَانِمِينَ فِيهِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْمُنَفَّلُونَ مِنْ أَصْنَافِ الْخُمُسِ.وَقَال الْمَالِكِيَّةُ:لاَ نَفَل إِلاَّ بَعْــدَ إِحْــرَازِ الْغَنِيمَةِ.[٤٢١٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٢١٢] - حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٠،والقليوبي ٣ / ١٩٣.

[٤٢١٣] - سنن أبي داود (٣/ ٨٠)(٢٧٤٩) صحيح

[٤٢١٤] - نهاية المحتاج ٦ / ١٤٦،ومغني المحتاج ٣ / ١٠٢،والقليوبي ٣ / ١٩٣.

[٤٢١٥] - المغني ٨ / ٣٨٠.

[٤٢١٦] - مغني المحتاج ٣ / ١٠٢،ونهاية المحتاج ٦ / ١٤٦،وابن عابدين ٣ / ٢٣٨،وفتح القدير ٥ / ٢٥٠،وبداية المجتهد ١ / ٤١٤.

المبحث الخامس

الخلاصة في أحكام الفيء

التَّعْرِيفُ:

مِنْ مَعَانِي الْفَيْءِ فِي اللُّغَةِ:الظِّل،وَالْجَمْعُ أَفْيَاءٌ وَفُيُوءٌ،وَتَفَيَّأَ فِيه:تَظَلَّل،وَالْفَيْءُ:مَا بَعْدَ الزَّوَال مِنَ الظِّلِّ .

وَمِنْهَا:الرُّجُوعُ،يُقَال:فَاءَ إِلَى الأَمْرِ يَفِيءُ وَفَاءً وَفَيْئًا وَفُيُوءًا:رَجَعَ إِلَيْه،وَيُقَال:فِئْتُ إِلَى الأَمْرِ فَيْئًا:إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْه النَّظَرَ،وَفَاءَ مِنْ غَضَبِه:رَجَعَ .

وَمِنْهَا:الْغَنِيمَةُ وَالْخَرَاجُ،وَمَا رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْل دِينِهِ مِنْ أَمْوَال مَنْ خَالَفَ دِينَهُ بِلاَ قِتَال[٤٢١٧] .

وَالْفَيْءُ فِي الاصْطِلاَحِ لَهُ مَعْنَيَان:

(الْمَعْنَى الأَوَّل):اسْمٌ لِمَا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بِخَيْلٍ وَلاَ رِكَاب،نَحْوُ الأَمْوَال الْمَبْعُوثَة بِالرِّسَالَة إِلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ،وَالأَمْوَال الْمَأْخُوذَة عَلَى مُوَادَعَة أَهْل الْحَرْبِ[٤٢١٨] .

(الْمَعْنَى الثَّانِي):رُجُوعُ الزَّوْجِ إِلَى جِمَاعِ زَوْجَتِهِ الَّذِي مَنَعَ نَفْسَهُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ عِنْدَ الْقُدْرَة عَلَيْه أَوِ الْوَعْد بِه عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْهُ[٤٢١٩] .

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – الْغَنِيمَةُ:

الْغَنِيمَةُ وَالْمَغْنَمُ وَالْغَنِيمُ وَالْغُنْمُ بِالضَّمِّ لُغَةً:الْفَيْءُ،يُقَال:غَنِمَ الشَّيْءَ غُنْمًا فَازَ بِه،وَغَنِمَ الْغَازِي فِي الْحَرْب:ظَفِرَ بِمَال عَدُوِّه .

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الْغَنِيمَةُ اسْمٌ لِلْمَأْخُوذِ مِنْ أَهْل الْحَرْبِ عَلَى سَبِيل الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ[٤٢٢٠] .

[٤٢١٧] – لسان العرب .

[٤٢١٨] – بدائع الصنائع للكاساني ٧ / ١١٦،وانظر روضة الطالبين ٦ / ٣٥٤،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤٠٢،وتفسير القرطبي ١٨ / ١٤ .

[٤٢١٩] – المهذب ٢ / ١١٠ .

[٤٢٢٠] – المصباح المنير،وروضة الطالبين ٦ / ٣٥٤ .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الأَوَّل وَالْغَنِيمَة:أَنَّ اسْمَ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقَعُ عَلَى الآْخَرِ إِذَا أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ،فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا افْتَرَقَا كَاسْمَيِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ .

ب – النَّفَل:

النَّفَل بِالتَّحْرِيكِ لُغَةً:الْغَنِيمَةُ،وَالْجَمْعُ أَنْفَالٌ .

وَمِنْ مَعَانِيهِ فِي الاِصْطِلاَحِ:مَا خَصَّهُ الإِمَامُ لِبَعْضِ الْغُزَاةِ تَحْرِيضًا لَهُمْ عَلَى الْقِتَال سُمِّيَ نَفَلاً لِكَوْنِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا يُسْهَمُ لَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ .وَالنَّفَل قَدْ يُؤْخَذُ مِنَ الْفَيْءِ أَوْ مِنَ الْغَنِيمَةِ أَوْ مِنْ بَيْتِ الْمَال وَيُعْطَى لِمَنْ خَصَّهُمُ الإِمَامُ[4221] .وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الأَوَّل وَالنَّفَل هِيَ الْبَعْضِيَّةُ .

ج – السَّلَبُ:

السَّلَبُ:مَا يَأْخُذُهُ أَحَدُ الْقِرْنَيْنِ فِي الْحَرْبِ مِنْ قِرْنِهِ،مِمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ وَمَعَهُ مِنْ ثِيَابٍ وَسِلاَحٍ وَدَابَّةٍ،وَهُوَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ مَسْلُوبٍ .

وَلاَ يَخْرُجُ مَعْنَاهُ الاِصْطِلاَحِيُّ عَنْ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ .

وَالسَّلَبُ زِيَادَةٌ عَلَى سَهْمِ الْمُقَاتِل مِمَّا مَعَ الْقَتِيل إِذَا قَتَلَهُ وَلاَ يُخَمَّسُ،وَالْفَيْءُ يُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَيُخَمَّسُ عِنْدَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ[4222] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الأَوَّل وَالسَّلَبِ أَنَّهُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمَأْخُوذِ مِنْ مَال الْكُفَّارِ،إِلاَّ أَنَّ الْفَيْءَ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَالسَّلَبُ بِقِتَالٍ .

د – الرَّضْخُ:

الرَّضْخُ لُغَةً:الرَّمْيُ بِالسِّهَامِ،وَالدَّقُّ وَالْكَسْرُ،وَمِنْهُ،الْعَطِيَّةُ الْقَلِيلَةُ .

وَفِي الاِصْطِلاَحِ:مَالٌ مَوْكُولٌ تَقْدِيرُهُ لِلإِمَامِ مَحَلُّهُ الْخُمُسُ لِمَنْ لاَ يَلْزَمُهُ الْقِتَال إِلاَّ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ[4223] .وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الأَوَّل وَالرَّضْخِ أَنَّهُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمَأْخُوذِ مِنْ مَال الْكُفَّارِ.

[4221] – المصباح المنير،وروضة الطالبين ٦ / ٣٦٨،والقوانين الفقهية ص١٤٨ .

[4222] – لسان العرب،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٢،وبدائع الصنائع ٧ / ١١٥ .

[4223] – بدائع الصنائع ٧ / ١٢٦،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧١،وروضة الطالبين ٦ / ٣٧٠،والمغني لابن قدامة ٨ / ٤١٠ .

هـ – الصَّفِيُّ:

الصَّفِيُّ لُغَةً:هُوَ الْخَالِصُ مِنْ كُل شَيْءٍ،وَمَا اخْتَارَهُ الرَّئِيسُ مِنَ الْمَغْنَمِ .

وَاصْطِلاَحًا:هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَخْتَارُهُ الرَّسُول ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ كَالثَّوْبِ وَالسَّيْفِ،وَهَذَا الصَّفِيُّ لَيْسَ لأَِحَدٍ غَيْرِ الرَّسُول ﷺ[٤٢٢٤] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الأَوَّل وَالصَّفِيِّ أَنَّهُمَا جَمِيعَهُمَا مَأْخُوذَانِ مِنْ مَال الْكُفَّارِ،إلاَّ أَنَّ الصَّفِيَّ خَاصٌّ بِالرَّسُول ﷺ .

و – الظِّهَارُ:

الظِّهَارُ هُوَ:تَشْبِيهُ الرَّجُل زَوْجَتَهُ أَوْ جُزْءًا شَائِعًا مِنْهَا أَوْ جُزْءًا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْهَا بِامْرَأَةٍ مُحَرَّمَةٍ عَلَيْهِ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا،أَوْ بِجُزْءٍ مِنْهَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّظَرُ إلَيْهِ كَالظَّهْرِ وَالْبَطْنِ وَالْفَخِذِ[٤٢٢٥] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الثَّانِي وَالظِّهَارِ هِيَ أَنَّ الظِّهَارَ مَانِعٌ مِنَ الْفَيْءِ حَتَّى يُكَفِّرَ .

ز – الإِيلاَءُ:

الإِيلاَءُ:أَنْ يَحْلِفَ الزَّوْجُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي يُحْلَفُ بِهَا أَلاَّ يَقْرَبَ زَوْجَتَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ [٤٢٢٦] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْفَيْءِ بِالْمَعْنَى الثَّانِي وَالإِيلاَءِ هِيَ الضِّدِّيَّةُ،وَأَنَّ الْفَيْءَ فِي الْمُدَّةِ يُنْهِي حُكْمَ الإِيلاَءِ .

مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَيْءِ مِنْ أَحْكَامٍ:

أَوَّلاً:الْفَيْءُ بِالْمَعْنَى الأَوَّل:

أ – مَشْرُوعِيَّةُ الْفَيْءِ:

الْفَيْءُ مَشْرُوعٌ بِالْكِتَابِ وَالأَثَرِ .

أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الحشر:٦]

[٤٢٢٤] – لسان العرب،وبداية المجتهد لابن رشد ١ / ٣٣٣،وبدائع الصنائع ٧ / ١٢٥،والدر المختار ٣ / ٢٣٧ .

[٤٢٢٥] – مغني المحتاج ٣ / ٣٥٣،وفتح القدير ٣ / ٢٢٥،وحاشية الدسوقي ٢ / ٤٣٩،وكشاف القناع ٥ / ٣٦٨ .

[٤٢٢٦] – بدائع الصنائع ٣ / ١٧١،والخرشي ٣ / ٢٣٠،ومغني المحتاج ٣ / ٣٣٤،والمغني ٧ / ٢٩٨ .

وَقَوْلُهُ جَل شَأْنُهُ:{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الحشر:٧].

وَأَمَّا الأَثَرُ فَمَا وَرَدَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ،مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ،وَلاَ رِكَابٍ،«فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً،وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ،ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلاَحِ وَالكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٤٢٢٧].

ب – مَوَارِدُ الْفَيْءِ:

مِنْ مَوَارِدِ الْفَيْءِ:

(١) مَا جَلاَ عَنْهُ الْكُفَّارُ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الأَرَاضِي وَالْعَقَارَاتِ .

(٢) مَا تَرَكَهُ الْكُفَّارُ وَجَلَوْا عَنْهُ مِنَ الْمَنْقُولاَتِ .

(٣) مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ خَرَاجٍ أَوْ أُجْرَةٍ عَنِ الأَرَاضِي الَّتِي مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ،وَدُفِعَتْ بِالإِجَارَةِ لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ،أَوْ عَنِ الأَرَاضِي الَّتِي أُقِرَّتْ بِأَيْدِي أَصْحَابِهَا مِنْ أَهْل الذِّمَّةِ صُلْحًا أَوْ عَنْوَةً عَلَى أَنَّهَا لَهُمْ،وَلَنَا عَلَيْهَا الْخَرَاجُ .

(٤) الْجِزْيَةُ .

(٥) عُشُورُ أَهْل الذِّمَّةِ .

(٦) مَا صُولِحَ عَلَيْهِ الْحَرْبِيُّونَ مِنْ مَالٍ يُؤَدُّونَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ .

(٧) مَال الْمُرْتَدِّ إِنْ قُتِل أَوْ مَاتَ .

(٨) مَال الذِّمِّيِّ إِنْ مَاتَ وَلاَ وَارِثَ لَهُ وَمَا فَضَل مِنْ مَالِهِ عَنْ وَارِثِهِ فَهُوَ فَيْءٌ .

[٤٢٢٧] - صحيح البخاري (٤/ ٣٨)(٢٩٠٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٦)(٤٨ - (١٧٥٧)

[ش (أفاء) من الفيء وهو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير قتال.(يوجف) من الإيجاف وهو الإسراع في السير.(ركاب) الإبل التي يسار عليها.(خاصة) اختص بها ولم يشاركه فيها أحد.(الكراع) الخيل.(عدة في سبيل الله) استعدادا للجهاد والعدة كل ما يعد لحوادث الدهر من سلاح وغيره]

(٩) الأَرَاضِيُ الْمَغْنُومَةُ بِالْقِتَال وَهِيَ الأَرَاضِيُ الزِّرَاعِيَّةُ عِنْدَ مَنْ يَرَى عَدَمَ تَقْسِيمِهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ [٤٢٢٨] .

وَالْفَيْءُ أَنْوَاعٌ:

(١) مَا جَلاَ عَنْهُ الْكُفَّارُ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الأَرَاضِي وَالْعَقَارَات،وَهِيَ تُوقَفُ كَالأَرَاضِي الْمَغْنُومَة بِالْقِتَال،وَتُقَسَّمُ غَلاَّتُهَا كُل سَنَة،نَصَّ عَلَيْه الشَّافِعِيَّةُ[٤٢٢٩] .

(٢) مَا تَرَكُوهُ وَجَلَوْا عَنْهُ مِنَ الْمَنْقُولاَت.وَهُوَ يُقَسَّمُ فِي الْحَال وَلاَ يُوقَفُ[٤٢٣٠] .

(٣) مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّار مِنْ خَرَاجٍ أَوْ أُجْرَة عَنِ الأَرَاضِي الَّتِي مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ،وَدُفِعَتْ بِالإِجَارَة لِمُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ،أَوْ عَنِ الأَرَاضِي الَّتِي أُقِرَّتْ بِأَيْدِي أَصْحَابِهَا مِنْ أَهْل الذِّمَّة صُلْحًا أَوْ عَنْوَةً عَلَى أَنَّهَا لَهُمْ،وَلَنَا عَلَيْهَا الْخَرَاجُ.

(٤) الْجِزْيَةُ وَهِيَ:مَا يُضْرَبُ عَلَى رِقَاب الْكُفَّار لإِقَامَتِهِمْ فِي بِلاَد الْمُسْلِمِينَ.فَيُفْرَضُ عَلَى كُل رَأْسٍ مِنَ الرِّجَال الْبَالِغِينَ الْقَادِرِينَ مَبْلَغٌ مِنَ الْمَال،أَوْ يُضْرَبُ عَلَى الْبَلَد كُلِّهَا أَنْ تُؤَدِّيَ مَبْلَغًا مَعْلُومًا.وَلَوْ أَدَّاهَا مَنْ لاَ تَجِبُ عَلَيْه كَانَتْ هِبَةً لاَ جِزْيَةً[٤٢٣١] .

(٥) عُشُورُ أَهْل الذِّمَّة،وَهِيَ:ضَرِيبَةٌ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي يَتَرَدَّدُونَ بِهَا مُتَاجِرِينَ إِلَى دَار الْحَرْب،أَوْ يَدْخُلُونَ بِهَا مِنْ دَار الْحَرْب إِلَى دَار الإِسْلاَم،أَوْ يَنْتَقِلُونَ بِهَا مِنْ بَلَدٍ فِي دَار الإِسْلاَم إِلَى بَلَد آخَرَ،تُؤْخَذُ مِنْهُمْ فِي السَّنَة مَرَّةً،مَا لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دَار الإِسْلاَم،ثُمَّ يَعُودُوا إِلَيْهَا.

وَمِثْلُهَا عُشُورُ أَهْل الْحَرْب مِنَ التُّجَّار كَذَلِكَ،إِذَا دَخَلُوا بِتِجَارَتِهِمْ إِلَيْنَا مُسْتَأْمَنِينَ[٤٢٣٢] .

(٦) مَا صُولِحَ عَلَيْه الْحَرْبِيُّونَ مِنْ مَالٍ يُؤَدُّونَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ.

(٧) مَال الْمُرْتَدِّ إِنْ قُتِل أَوْ مَاتَ،وَمَال الزِّنْدِيق إِنْ قُتِل أَوْ مَاتَ،فَلاَ يُورَثُ مَالُهُمَا بَل هُوَ فَيْءٌ،وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّة فِي مَال الْمُرْتَدِّ تَفْصِيلٌ[٤٢٣٣] .

[٤٢٢٨] – الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية (٣٢/ ٢٣٠)

[٤٢٢٩] – القليوبي على شرح المنهاج ٣ / ١٩١.

[٤٢٣٠] – القليوبي على شرح المنهاج ٣ / ١٨٨.

[٤٢٣١] – المغني ٨ / ٥٠٧.

[٤٢٣٢] – الدر وحاشية ابن عابدين ٢ / ٣٩ وما بعدها.

(٨) مَال الذِّمِّيِّ إنْ مَاتَ وَلاَ وَارِثَ لَهُ،وَمَا فَضَل مِنْ مَالِهِ عَنْ وَارِثِهِ فَهُوَ فَيْءٌ كَذَلِكَ[٤٢٣٤]
.
(٩) الأْرَاضِي الْمَغْنُومَةُ بِالْقِتَال،وَهِيَ الأْرَاضِي الزِّرَاعِيَّةُ عِنْدَ مَنْ يَرَى عَدَمَ تَقْسِيمِهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ[٤٢٣٥] .

ج - تَخْمِيسُ الْفَيْءِ:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيُّ فِي الْقَدِيمِ وَأَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ إِلَى أَنَّ الْفَيْءَ لاَ يُخَمَّسُ،وَإِنَّمَا كُلُّهُ لِرَسُول اللَّهِ ﷺ وَمَنْ ذُكِرُوا مَعَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)} [الحشر] فَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ وَلَمْ يَذْكُرْ خُمُسًا وَلأَنَّ الْخُمُسَ إِنَّمَا يَجِبُ فِي الْغَنَائِمِ،وَالْغَنِيمَةُ اسْمٌ لِلْمَال الْمَأْخُوذِ عَنْوَةً وَقَهْرًا بِإِيجَافِ الْخَيْل وَالرِّكَابِ،وَلَمْ يُوجَدْ هَذَا فِي الْفَيْءِ لِحُصُولِهِ فِي أَيْدِيهِمْ بِغَيْرِ قِتَالٍ،فَكَانَ مُبَاحًا مُلِكَ لاَ عَلَى سَبِيل الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ،فَلاَ يَجِبُ فِيهِ الْخُمُسُ كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ،وَقَال ابْنُ الْمُنْذِرِ:وَلاَ نَحْفَظُ مِنْ أَحَدٍ قَبْل الشَّافِعِيِّ فِي الْفَيْءِ الْخُمُسَ

[٤٢٣٣] - انظر الدر المختار وحاشيته ٣ / ٣٠٠،وشرح المنهاج ٣ / ١٨٨،وجواهر الإكليل ٢ / ٢٧٩،والمغني ٦ / ٣٠١،٢٩٨.

[٤٢٣٤] - شرح المنهاج ٣ / ١٨٨،١٣٦،١٣٧،والمغني ٨ / ١٢٨،٦ / ٢٩٦.

[٤٢٣٥] - جواهر الإكليل ١ / ٢٦٠،وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢ / ١٩٠،وانظر مصطلح (أرض الحوز) .

كَخُمُسِ الْغَنِيمَةِ .كَمَا لَوْ صُولِحُوا عَلَى الضِّيَافَةِ فَإِنَّهُ لاَ حَقَّ لِأَهْلِ الْخُمُسِ فِي مَالِ الضِّيَافَةِ بَل يَخْتَصُّ بِهِ الطَّارِقُونَ[4236].

وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ فِي الْجَدِيدِ وَالرِّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ إِلَى أَنَّ الْفَيْءَ يُخَمَّسُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر:7]،فَظَاهِرُ هَذَا أَنَّ جَمِيعَ الْفَيْءِ لِهَؤُلاَءِ،وَهُمْ أَهْل الْخُمُسِ .

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ،وَلَا رِكَابٍ} [الحشر:6] قَالَ الزُّهْرِيُّ:قَالَ عُمَرُ:هَذِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً قُرَى عُرَيْنَةَ،فَدَكَ،وَكَذَا وَكَذَا مَا {أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ،وَلِذِي الْقُرْبَى،وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ،وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر:7]،وَلِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ،وَأَمْوَالِهِمْ،{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ،وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}،{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ}،فَاسْتَوْعَبَتْ هَذِهِ الْآيَةُ النَّاسَ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا لَهُ فِيهَا حَقٌّ – قَالَ أَيُّوبُ:أَوْ قَالَ حَظٌّ – إِلَّا بَعْضَ مَنْ تَمْلِكُونَ مِنْ أَرِقَّائِكُمْ "[4237]

وَجَاءَتِ الأَخْبَارُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَالَّةً عَلَى اشْتِرَاكِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ،فَوَجَبَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا،كَيْ لاَ تَتَنَاقَضَ الآيَةُ وَالأَخْبَارُ وَتَتَعَارَضَ،وَفِي إِيجَابِ الْخُمُسِ فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ النُّصُوصِ وَتَوْفِيقٌ بَيْنَهَا،فَإِنَّ خُمُسَهُ لِلَّذِي سُمِّيَ فِي الآيَةِ وَسَائِرَهُ يَنْصَرِفُ إِلَى مَنْ فِي الْخَبَرِ كَالْغَنِيمَةِ،وَلأَنَّهُ مَالٌ مُشْتَرَكٌ مَظْهُورٌ عَلَيْهِ فَوَجَبَ أَنْ يُخَمَّسَ كَالْغَنِيمَةِ وَالرِّكَازِ،وَلأَنَّ الْمِلْكَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ يَثْبُتُ بِأَخْذِهِ،وَإِنَّمَا أُخِذَ عَلَى سَبِيل الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ،فَكَانَ فِي حُكْمِ الْغَنَائِمِ [4238] .

[4236] – بدائع الصنائع ٧ / ١١٦،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٦٩،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤٠٤،وبداية المجتهد لابن رشد ١ / ٣٤٣،وكشاف القناع ٣ / ١٠١ .

[4237] – سنن أبي داود (٣/ ١٤١)(٢٩٦٦) صحيح

[4238] – بدائع الصنائع ٧ / ١١٧،وروضة الطالبين ٦ / ٣٥٤،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤٠٤ .

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ الْبَرَاءِ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:لَقِيتُ عَمِّي وَمَعَهُ رَايَةٌ،فَقُلْتُ لَهُ:أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ:«بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيه،فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَآخُذَ مَالَهُ»[٤٢٣٩].

د – تَقْسِيمُ خُمُسِ الْفَيْءِ عِنْدَ مَنْ يَقُول بِتَخْمِيسه:

يُقْسَمُ مَال الْفَيْءِ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ عِنْدَ مَنْ يَقُول بِتَخْمِيسه:

السَّهْمُ الأَوَّل الْمُضَافُ إِلَى اللَّه عَزَّ جَل وَإِلَى رَسُوله ﷺ،وَكَانَ ﷺ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى نَفْسِه وَأَهْله،وَمَا فَضَل جَعَلَهُ فِي السِّلاَحِ عِدَّةً فِي سَبِيل اللَّه تَعَالَى وَفِي سَائِرِ الْمَصَالِحِ .

وَأَمَّا سَهْمُ اللَّه الَّذِي أَضَافَهُ إِلَيْه – فَهُوَ لاِفْتِتَاحِ الْكَلاَمِ بِاسْمِهِ تَبَرُّكًا بِه،لاَ لإِفْرَادِه بِسَهْمٍ،فَإِنَّ لِلَّه تَعَالَى الدُّنْيَا وَالآْخِرَةَ[٤٢٤٠] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا خَمَّسَ الْغَنِيمَةَ،فَضَرَبَ ذَلِكَ الْخُمُسَ فِي خَمْسَةٍ،ثُمَّ قَرَأَ:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال:٤١] إِلَى قَوْلِه:{لِلَّه} [الأنفال:٤١] مِفْتَاحِ كَلَامٍ {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة:٢٨٤] فَجَعَلَ سَهْمَ اللهِ وَسَهْمَ الرَّسُولِ وَاحِدًا،{وَلِذِي الْقُرْبَى} [الأنفال:٤١] فَجَعَلَ هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ قُوَّةً فِي الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ،وَجَعَلَ سَهْمَ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِلَّا يُعْطِيهِ غَيْرَهُمْ،وَجَعَلَ الْأَرْبَعَةَ الْأَسْهُمَ الْبَاقِيَةَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ،وَلِرَاكِبِهِ سَهْمٌ،وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ "[٤٢٤١] .

السَّهْمُ الثَّانِي:لِذَوِي الْقُرْبَى،وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ دُونَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنِيَّ نَوْفَلٍ – لأَنَّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِيَّ الْمُطَّلِبِ لَمْ يُفَارِقُوا الرَّسُول ﷺ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَخْبَرَنِي جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمَ ذِي الْقُرْبَى فِي بَنِي هَاشِمٍ،وَبَنِي الْمُطَّلِبِ،وَتَرَكَ بَنِي نَوْفَلٍ،وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ حَتَّى أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ،فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ لَا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْهُمْ،فَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا بَنِي الْمُطَّلِبِ أَعْطَيْتَهُمْ

[٤٢٣٩] – سنن أبي داود (٤/ ١٥٧)(٤٤٥٧) صحيح

[٤٢٤٠] – بدائع الصنائع ٧ / ١٢٤،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤٠٧،٤٠٦ .

[٤٢٤١] – المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٢٤)(١٢٦٦٠) ضعيف جدا

وَتَرَكْتَنَا وَقَرَابَتُنَا وَاحِدَةٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّا وَبَنُو الْمُطَّلِبِ لَا نَفْتَرِقُ فِي جَاهِلِيَّةٍ،وَلَا إِسْلَامٍ،وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ﷺ"[4242]

وَيَشْتَرِكُ فِيهِ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ،وَلاَ يُفَضَّلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ إلاَّ بِالذُّكُورَةِ،فَلِلذَّكَرِ سَهْمَانِ وَلِلأُنْثَى سَهْمٌ .

وَقَال الْمُزَنِيُّ:يُسَوَّى بَيْنَهُمَا،وَقَال الْقَاضِي حُسَيْنٌ:الْمُدْلِي بِجِهَتَيْنِ يُفَضَّل عَلَى الْمُدْلِي بِجِهَةٍ .

السَّهْمُ الثَّالِثُ:لِلْيَتَامَى،وَالْيَتِيمُ الصَّغِيرُ الَّذِي لاَ أَبَ لَهُ وَقِيل:وَلاَ جَدَّ لَهُ قَبْل الْحُلُمِ،عَنْ سَعِيدِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ رُقَيْشٍ،أَنَّهُ سَمِعَ شُيُوخًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،وَمِنْ خَالِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ،قَالَ:قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ،وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»[4243] وَيُشْتَرَطُ فِيهِ الْفَقْرُ .

السَّهْمُ الرَّابِعُ:الْمَسَاكِينُ،وَالْمِسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ مَا يَقَعُ مَوْقِعًا مِنْ كِفَايَتِهِ وَلاَ يَكْفِيهِ،وَيَدْخُل فِيهِ الْفَقِيرُ .

السَّهْمُ الْخَامِسُ:ابْنُ السَّبِيل وَهُوَ كُل مَنْ أَنْشَأَ سَفَرًا مِنْ بَلَدِهِ أَوْ بَلَدٍ كَانَ مُقِيمًا بِهِ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ،فَيُعْطَى مَنْ لاَ مَال لَهُ أَصْلاً،وَكَذَا مَنْ لَهُ مَالٌ فِي غَيْرِ الْبَلَدِ الْمُنْتَقِل إِلَيْهِ مِنْهُ .

وَإِذَا فُقِدَ بَعْضُ الأَصْنَافِ وُزِّعَ نَصِيبُهُ عَلَى الْبَاقِينَ كَالزَّكَاةِ .

وَأَمَّا أَرْبَعَةُ أَخْمَاسِ الْفَيْءِ فَهِيَ لِلرَّسُول ﷺ فِي حَيَاتِهِ[4244] .

وقال القاري:" وَاعْلَمْ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال:٤١] لِلتَّبَرُّكِ بِهِ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ سَهْمًا كَمَا لِكُلٍّ مِنَ الْأَصْنَافِ سَهْمٌ،فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَسَهْمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاحِدٌ،وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ:سَهْمُ اللَّهِ ثَابِتٌ يُصْرَفُ إِلَى بِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِنْ كَانَتْ خَرِبَةً وَإِلَّا فَإِلَى

[4242] - سنن أبي داود (٣/ ١٤٦)(٢٩٨٠) صحيح

[4243] - سنن أبي داود (٣/ ١١٥)(٢٨٧٣) صحيح

[4244] - روضة الطالبين ٦ / ٣٥٨،وكشاف القناع ٣ / ١٠١،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤١٠،ونيل الأوطار للشوكاني ٨ / ٧٣ .

كُلِّ مَسْجِدٍ مِنْ كُلِّ بَلْدَةٍ ثَبَتَ فِيهَا الْخُمُسُ،وَدَفَعَهُ أَنَّ السَّلَفَ فَسَّرُوهُ بِمَا ذُكِرَ أَوَّلًا.رَوَى الطَّبَرَانِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَكَذَا عَنِ ابْنِ عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ قَرَأَ {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال:٤١]،ثُمَّ قَالَ:فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ مِفْتَاحُ الْكَلَامِ:{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [البقرة:٢٨٤] وَفِي غَيْرِهِ حَدِيثٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا خُمُسَ الْغَنِيمَةِ فَصَرَفَ ذَلِكَ الْخُمُسَ فِي خَمْسَةٍ وَعَلَى قَوْلِ هَذَا الْقَائِلِ تَكُونُ سِتَّةً.وَكَذَا رَوَى الْحَاكِمُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ فِيهِ.قَالَ:هَذَا مِفْتَاحُ كَلَامٍ لِلَّهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ،وَسَهْمُ النَّبِيِّ ﷺ سَقَطَ بِمَوْتِهِ كَمَا سَقَطَ الصَّفِيُّ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَسْتَحِقُّهُ بِرِسَالَتِهِ وَلَا رَسُولَ بَعْدَهُ،وَالصَّفِيُّ شَيْءٌ كَانَ يَصْطَفِيهِ لِنَفْسِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ مِثْلُ دِرْعٍ وَسَيْفٍ وَجَارِيَةٍ قَبْلَ الْقِسْمَةِ وَإِخْرَاجِ الْخُمُسِ،كَمَا اصْطَفَى ذَا الْفَقَارِ،وَهُوَ سَيْفُ مُنَبِّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ حِينَ أَتَى بِهِ عَلِيٌّ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ مُنَبِّهًا،ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَيْهِ،وَكَمَا اصْطَفَى صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ مِنْ غَنِيمَةِ خَيْبَرَ،رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ،عَنْ عَائِشَةَ وَالْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ،وَقَدْ تَقَدَّمَ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:يُصْرَفُ سَهْمُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْخَلِيفَةِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَسْتَحِقُّهُ بِإِمَامَتِهِ لَا بِرِسَالَتِهِ،وَدُفِعَ بِأَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ إِنَّمَا قَسَّمُوا عَلَى ثَلَاثَةٍ فَلَوْ كَانَ كَمَا ذَكَرَ لَقَسَّمُوهُ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَرَفَعُوا سَهْمَهُ لَا يُقْسَمُ،وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ،وَأَيْضًا فَهُوَ حُكْمٌ عُلِّقَ بِمُشْتَقٍّ وَهُوَ الرَّسُولُ،فَيَكُونُ مَبْدَأُ الاشْتِقَاقِ عِلَّةً وَهُوَ الرِّسَالَةُ.

وَالْحَاصِلُ:أَنَّ الْخُمُسَ يُقْسَمُ عِنْدَنَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ:سَهْمٌ لِلْيَتَامَى وَسَهْمٌ لِلْمَسَاكِينِ،وَسَهْمٌ لِابْنِ السَّبِيلِ يَدْخُلُ فُقَرَاءُ ذَوِي الْقُرْبَى فِيهِمْ،فَيُقَدَّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِ الصَّدَقَاتِ وَذَوِي الْقُرْبَى لَا يَحِلُّ لَهُمْ،هَذَا رَأْيُ الْكَرْخِيِّ وَرَأْيُ الطَّحَاوِيِّ،أَنَّهُ يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْيَتَامَى مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى فِي سَهْمِ الْيَتَامَى الْمَذْكُورِينَ دُونَ أَغْنِيَائِهِمْ،وَالْيَتِيمُ صَغِيرٌ لَا أَبَ لَهُ،وَالْمَسَاكِينُ مِنْهُمْ فِي سَهْمِ الْمَسَاكِينِ،وَفُقَرَاءُ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى فِي أَبْنَاءِ السَّبِيلِ.

فَإِنْ قِيلَ:فَلَا فَائِدَةَ حِينَئِذ فِي ذِكْرِ سَهْمِ الْيَتِيمِ حَيْثُ كَانَ اسْتِحْقَاقُهُ بِالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ لَا بِالْيَتِيمِ.أُجِيبَ:بِأَنَّ فَائِدَتَهُ دَفْعُ تَوَهُّمِ أَنَّ الْيَتِيمَ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ شَيْئًا ؛ لِأَنَّ اسْتِحْقَاقَهَا بِالْجِهَادِ وَالْيَتِيمُ صَغِيرٌ فَلَا يَسْتَحِقُّهَا،وَمِثْلُهُ مَا ذُكِرَ فِي التَّأْوِيلَاتِ لِلشَّيْخِ أَبِي مَنْصُورٍ:لَمَّا كَانَ فُقَرَاءُ ذَوِي الْقُرْبَى يَسْتَحِقُّونَ بِالْفَقْرِ،فَلَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهِمْ فِي الْقُرْآنِ.أَجَابَ:بِأَنَّ أَفْهَامَ بَعْضِ النَّاسِ قَدْ تَقْضِي إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الصَّدَقَةِ وَلَا تَحِلُّ لَهُمْ وَفِي التُّحْفَةِ:هَذِهِ الثَّلَاثَةُ مَصَارِفُ الْخُمُسِ عِنْدَنَا لَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِحْقَاقِ،حَتَّى لَوْ صُرِفَ إِلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَازَ كَمَا فِي الصَّدَقَاتِ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لِذَوِي الْقُرْبَى خُمُسُ الْخُمُسِ يَسْتَوِي فِيهِ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ،وَبِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ قَالَ أَحْمَدُ وَعِنْدَ مَالِكٍ:الْأَمْرُ مُفَوَّضٌ إِلَى الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ،وَإِنْ شَاءَ أَعْطَى بَعْضَهُمْ دُونَ بَعْضٍ،وَإِنْ شَاءَ أَعْطَى غَيْرَهُمْ إِنْ كَانَ أَمْرُهُمْ أَهَمَّ مِنْ أَمْرِهِمْ،وَيَقْسِمُ بَيْنَهُمْ {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النساء:١١] وَيَكُونُ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْقَرَابَاتِ،وَنَحْنُ نُوَافِقُهُ عَلَى أَنَّ الْقَرَابَةَ الْمُرَادَةَ هُنَا تَخُصُّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ،فَالْخِلَافُ فِي دُخُولِ الْغَنِيِّ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَعَدَمِهِ.وَقَالَ الْمُزَنِيُّ:يَسْتَوِي فِيهِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى،وَيُدْفَعُ لِلْقَاصِي وَالدَّانِي،وَهُوَ ظَاهِرُ إِطْلَاقِ النَّصِّ لِلشَّافِعِيِّ إِطْلَاقُ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَلِذِي الْقُرْبَى} [الأنفال:٤١] بِلَا فَصْلٍ بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ؛ وَلِأَنَّ الْحُكْمَ مُعَلَّقٌ بِوَصْفٍ يُوجِبُ أَنَّ مَبْدَأَ الِاشْتِقَاقِ عِلَّةٌ لَهُ،وَلَا تَفْصِيلَ فِيهَا بِخِلَافِ الْيَتَامَى،فَإِنَّهُمْ يَشْتَرِطُونَ فِيهِمُ الْفَقْرَ مَعَ تَحَقُّقِ الْإِطْلَاقِ كَقَوْلِنَا:وَذَلِكَ لِأَنَّ اسْمَ الْيَتِيمِ يُشْعِرُ بِالْحَاجَةِ،فَكَانَ مُقَيَّدًا مَعْنًى بِهَا بِخِلَافِ ذَوِي الْقُرْبَى،ثُمَّ لَا يَنْتَفِي مُنَاسَبَتُهَا بِالْمَعْنَى ؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْعُدُ كَوْنُ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُوجِبُ اسْتِحْقَاقَ هَذِهِ الْكَرَامَةِ.وَلَنَا:أَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ قَسَّمُوهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ،عَلَى نَحْوِ مَا قُلْنَا وَكَفَى بِهِمْ قُدْوَةٌ،ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ أَحَدٌ مَعَ عِلْمِ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ بِذَلِكَ وَتَوَافُرِهِمْ فَكَانَ إِجْمَاعًا إِذْ لَا يُظَنُّ بِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْكَلَامُ فِي إِثْبَاتِهِ،فَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنِ الْكَلْبِيِّ،عَنْ أَبِي صَالِحٍ،عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:«أَنَّ الْخُمُسَ كَانَ يُقَسَّمُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ،لِلَّهِ وَالرَّسُولِ سَهْمٌ،وَلِذِي الْقُرْبَى سَهْمٌ وَلِلْيَتَامَى سَهْمٌ وَلِلْمَسَاكِينِ سَهْمٌ،وَلِابْنِ السَّبِيلِ سَهْمٌ،ثُمَّ قَسَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ

وَعَلِيٌّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ:سَهْمٌ لِلْيَتَامَى وَسَهْمٌ لِلْمَسَاكِينِ وَسَهْمٌ لِابْنِ السَّبِيلِ» .وَرَوَى الطَّحَاوِيُّ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خُزَيْمَةَ،عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَدِيٍّ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ فَقُلْتُ:أَرَأَيْتَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ حَيْثُ وَلِيَ الْعِرَاقَ وَدَعَا مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ،كَيْفَ صَنَعَ فِي سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى؟ قَالَ:سَلَكَ أَبِي وَاللَّهِ سَبِيلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.فَقُلْتُ:وَكَيْفَ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ؟ قَالَ:أَمَا وَاللَّهِ مَا كَانَ أَهْلُهُ يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ.قُلْتُ:فَمَا مَنَعَهُ؟ قَالَ:كَرِهَ وَاللَّهِ أَنْ يُدْعَى بِخِلَافِ سِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اهـ.

وَكَوْنُ الْخُلَفَاءِ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمْ يُخْتَلَفْ فِيهِ،وَبِهِ تَصِحُّ رِوَايَةُ أَبِي يُوسُفَ عَنِ الْكَلْبِيِّ،فَإِنَّ الْكَلْبِيَّ مُضَعَّفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَّا أَنَّهُ وَافَقَ النَّاسَ،وَإِنَّمَا الشَّافِعِيُّ يَقُولُ:لَا إِجْمَاعَ بِمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ،وَحِينَ ثَبَتَ هَذَا حَكَمْنَا بِأَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَهُ لِظُهُورِ أَنَّهُ الصَّوَابُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُخَالِفَ اجْتِهَادَهُ لِاجْتِهَادِهِمَا،وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ خَالَفَهُمَا فِي أَشْيَاءَ لَمْ تُوَافِقْ رَأْيَهُ،كَبَيْعِ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَحِينَ وَافَقَهُمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى رَأْيِهِمَا إِنْ كَانَ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَرَى خِلَافَهُ،وَكَذَا يَنْدَفِعُ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الشَّافِعِيُّ،عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ:كَانَ رَأْيُ عَلِيٍّ فِي الْخُمُسِ رَأْيَ أَهْلِ بَيْتِهِ،وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُخَالِفَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ قَالَ:وَلَا إِجْمَاعَ دُونَ أَهْلِ الْبَيْتِ ؛ لِأَنَّا نَمْنَعُ أَنَّ فِعْلَهُ كَانَ لِكَرَاهَةِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ خِلَافُهُمَا،وَكَيْفَ وَفِيهِ مَنْعُ الْمُسْتَحِقِّينَ عَنْ حَقِّهِمْ فِي اعْتِقَادِهِ،فَلَمْ يَكُنْ مَنْعُهُ إِلَّا لِرُجُوعِهِ وَظُهُورِ الدَّلِيلِ لَهُ.وَكَذَا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَرَى ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَوَّلِ كَذَلِكَ،ثُمَّ رَجَعَ،وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ رَجَعَ فَالْأَخْذُ بِقَوْلِ الرَّاشِدِينَ مَعَ اقْتِرَانِهِ بِعَدَمِ التَّنْكِيرِ مِنْ أَحَدٍ أَوْلَى.

فَإِنْ قِيلَ:لَوْ صَحَّ مَا ذَكَرْتُمْ لَمْ يَكُنْ سَهْمٌ مُسْتَحَقًّا لِذَوِي الْقُرْبَى أَصْلًا ؛ لِأَنَّ الْخُلَفَاءَ لَمْ يُعْطُوهُمْ،وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَلِفِعْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ أَعْطَاهُمْ بِلَا شُبْهَةٍ.أُجِيبَ عَلَى قَوْلِ الْكَرْخِيِّ:أَنَّ الدَّلِيلَ دَلَّ عَلَى أَنَّ السَّهْمَ لِلْفَقِيرِ مِنْهُمْ،لِمَا أَسْنَدَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«بَعَثَ نَوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ ابْنَيْهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَ لَهُمَا: انْطَلِقَا إِلَى عَمِّكُمَا لَعَلَّهُ يَسْتَعِينُ بِكُمَا عَلَى صَدَقَاتٍ، فَأَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ بِحَاجَتِهِمَا، فَقَالَ لَهُمَا: لَا يَحِلُّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ مِنَ الصَّدَقَاتِ شَيْءٌ وَلَا غُسَالَةِ الْأَيْدِي إِنَّ لَكُمْ فِي خُمُسِ الْخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ وَيَكْفِيكُمْ» . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ بِلَفْظِ: رَغِبْتُ عَنْ غُسَالَةِ أَيْدِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ فِي خُمُسِ الْخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ، وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلِذِي الْقُرْبَى} [الأنفال: ٤١] فُقَرَاءُ ذَوِي الْقُرْبَى، فَيَقْتَضِي اعْتِقَادَ اسْتِحْقَاقِ فُقَرَائِهِمْ وَكَوْنِهِمْ مَصْرَفًا مُسْتَمِرًّا، وَيُنَافِيهِ اعْتِقَادُ حَقِيقَةِ مَنْعِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ إِيَّاهُمْ مُطْلَقًا كَمَا هُوَ ظَاهِرُ مَا رَوَيْنَا: أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا ذَوِي الْقُرْبَى شَيْئًا مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءِ فُقَرَائِهِمْ، وَكَذَا يُنَافِيهِ إِعْطَاؤُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ كَمَا رُوِيَ: أَنَّهُ أَعْطَى الْعَبَّاسَ، وَكَانَ لَهُ عِشْرُونَ عَبْدًا يَتَّجِرُونَ. وَقَوْلُ صَاحِبِ الْهِدَايَةِ: وَالنَّبِيُّ ﷺ أَعْطَاهُمْ لِلنُّصْرَةِ يَدْفَعُ السُّؤَالَ الثَّانِيَ، لَكِنْ يُوجِبُ عَلَيْهِ الْمُنَاقَضَةَ مَعَ مَا قَبْلَهُ ؛ لِأَنَّ الْحَاصِلَ حِينَئِذٍ أَنَّ الْقَرَابَةَ الْمُسْتَحَقَّةَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ نُصْرَتُهُ، وَذَلِكَ لَا يَخُصُّ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ، وَمِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْ تَأَخَّرَ بَعْدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَالْعَبَّاسِ، فَكَانَ يَجِبُ عَلَى الْخُلَفَاءِ أَنْ يُعْطُوهُمْ، وَهُوَ خِلَافُ مَا تَقَدَّمَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوهُمْ، بَلْ حَصَرُوا الْقِسْمَةَ فِي الثَّلَاثَةِ، وَيُعَكِّرُ عَلَيْهِ مَا سَيَرْوِيهِ فِي تَصْحِيحِ قَوْلِ الْكَرْخِيِّ: أَنَّ عُمَرَ أَعْطَى الْفُقَرَاءَ مِنْهُمْ سَهْمًا، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ إِعْطَاءُ عُمَرَ بِقَيْدِ الْفُقَرَاءِ مَرْوِيًّا، بَلِ الْمَرْوِيُّ فِي ذَلِكَ مَا فِي أَبِي دَاوُدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ حَدَّثَنَا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقْسِمْ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَلَا لِبَنِي نَوْفَلٍ مِنَ الْخُمُسِ شَيْئًا كَمَا قَسَمَ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ قَالَ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقْسِمُ الْخُمُسَ نَحْوَ قَسْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُعْطِي قُرْبَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا كَانَ يُعْطِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ عُمَرُ يُعْطِيهِمْ وَمَنْ كَانَ بَعْدَهُ مِنْهُ.

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى سَمِعْتُ عَلِيًّا قَالَ: اجْتَمَعْتُ أَنَا وَالْعَبَّاسُ وَفَاطِمَةُ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ أَنْ تُوَلِّيَنِي حَقَّنَا فِي هَذَا الْخُمُسِ فِي كِتَابِ اللَّهِ أُقَسِّمُهُ فِي حَيَاتِكَ لِئَلَّا يُنَازِعَنِي أَحَدٌ بَعْدَكَ فَافْعَلْ. قَالَ: فَفَعَلَ ذَلِكَ فَقَسَمْتُهُ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وِلَايَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى كَانَ آخِرَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي عُمَرَ أَتَاهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَعَزَلَ حَقَّنَا، ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَيَّ فَقُلْتُ: بِنَا الْعَامُ غِنًى

وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَارْدُدْهُ عَلَيْهِمْ فَرَدَّهُ،ثُمَّ لَمْ يَدْعُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ عُمَرَ،فَلَقِيتُ الْعَبَّاسَ بَعْدَ مَا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ عُمَرَ فَقَالَ:يَا عَلِيُّ! حَرَمْتَنَا الْغَدَاةَ شَيْئًا لَا يُرَدُّ عَلَيْنَا،فَكَانَ رَجُلًا ذَاهِبًا،فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ تَقْيِيدُ الْإِعْطَاءِ بِفَقْرِ الْمُعْطَى مِنْهُمْ،وَكَيْفَ الْعَبَّاسُ كَانَ مِمَّنْ يُعْطَى وَلَمْ يَتَّصِفْ بِالْفَقْرِ،مَعَ أَنَّ الْحَافِظَ الْمُنْذِرِيَّ ضَعَّفَ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ:وَفِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَقْسِمْ لِذَوِي الْقُرْبَى،وَفِي حَدِيثٍ:أَنَّهُ قَسَمَ لَهُمْ،وَحَدِيثُ جُبَيْرٍ صَحِيحٌ،وَحَدِيثُ عَلِيٍّ لَا يَصِحُّ اهـ.

وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعَوَّلَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنَّ الرَّاشِدِينَ لَمْ يُعْطُوا ذَوِي الْقُرْبَى لِبَيَانِ مَصْرِفِ الِاسْتِحْقَاقِ عَلَى مَا هُوَ الْمَذْهَبُ،وَإِلَّا لَمْ يَجُزْ لَهُمْ مَنْعُهُمْ بَعْدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْبَى وَإِنْ قُيِّدَتْ بِالنُّصْرَةِ وَالْمُؤَازَرَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِنَّهُمْ بَقُوا بَعْدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يُعْطُوهُمْ،فَلَمَّا لَمْ يُعْطُوهُمْ كَانَ الْمُرَادُ بَيَانُ أَنَّهُمْ مَصَارِفُ حَتَّى جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ كَأَنْ يُعْطَى تَمَامُ الْخُمُسِ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ،وَأَنْ يُعْطَى تَمَامُهُ لِلْمَسَاكِينِ،وَأَنْ يُعْطَى تَمَامُهُ لِلْيَتَامَى،كَمَا ذَكَرْنَا عَنِ التُّحْفَةِ،فَجَازَ لِلرَّاشِدِينَ أَنْ يَصْرِفُوهُ إِلَى غَيْرِهِمْ خُصُوصًا،وَقَدْ رَأَوْهُمْ أَغْنِيَاءَ مُتَمَوِّلِينَ إِذْ ذَاكَ،وَرَأَوْا صَرْفَهُ إِلَى غَيْرِهِمْ أَنْفَعُ،وَنَقُولُ مَعَ ذَلِكَ:إِنَّ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ مَصْرِفٌ يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ عَلَى الْفُقَرَاءِ كَمَا قَدَّمْنَا،وَأَمَّا أَنَّهُ يَكُونُ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ دُونَ غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُمْ مَصَارِفَ كَانَ لِلنُّصْرَةِ،فَلِمَا فِي أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ بِسَنَدِهِ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:أَخْبَرَنِي جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ قَالَ:«فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ وَضَعَ سَهْمَ ذَوِي الْقُرْبَى فِي بَنِي هَاشِمٍ،وَبَنِي الْمُطَّلِبِ،وَتَرَكَ بَنِي نَوْفَلٍ،وَبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ،فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ لَا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِمْ فَمَا بَالُ إِخْوَانِنَا بَنِي الْمُطَّلِبِ أَعْطَيْتَهُمْ وَتَرَكْتَنَا وَقَرَابَتُنَا وَاحِدَةٌ؟ فَقَالَ ﷺ:" إِنَّا وَبَنُو الْمُطَّلِبِ لَا نَفْتَرِقُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ» .وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ،أَشَارَ بِهَذَا إِلَى نُصْرَتِهِمْ إِيَّاهُ نُصْرَةَ الْمُؤَانَسَةِ وَالْمُوَافَقَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ إِذْ ذَاكَ آخِرَ قِتَالٍ،فَهُوَ يُشِيرُ إِلَى دُخُولِهِمْ مَعَهُ فِي الشِّعْبِ حِينَ تَعَاقَدَتْ قُرَيْشٌ عَلَى هِجْرَانِ بَنِي هَاشِمٍ،وَأَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ وَلَا يُنَاكِحُوهُمْ،وَالْقِصَّةُ فِي

السِّيرَة شَهِيرَةٌ وَعَنْ هَذَا اسْتَحَقَّتْ ذَرَّارِيهِمْ،مَعَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي نُصْرَةٌ مِنْهُمْ.وَهَذَا خُلَاصَةُ كَلَامِ ابْنِ الْهُمَامِ فِي هَذَا الْمَقَامِ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَرَامِ." [4245].

هـ – مَصْرِفُ الْفَيْءِ وَمَا يَخُصُّ الرَّسُول بَعْدَ وَفَاته:

ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ الْفَيْءَ وَمَا يَخُصُّ الرَّسُول ﷺ مِنَ الْخُمُس،سَوَاءٌ أَكَانَ خُمُسَ الْفَيْءِ عِنْدَ مَنْ قَال بِه،أَمْ خُمُسَ الْغَنِيمَة لِسُقُوطِه بَعْدَ وَفَاتِه عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،يُوضَعُ فِي بَيْت مَال الْمُسْلِمِينَ وَيُصْرَفُ فِي مَصَالِحِهِمُ الْعَامَّة .

وَذَكَرَ أَحْمَدُ الْفَيْءَ فَقَال:فيه حَقٌّ لِكُل الْمُسْلِمِينَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ،عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ عُمَرُ:«مَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا لَهُ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ،أُعْطِيَهُ أَوْ مُنِعَهُ» [4246] .

وَعِنْدَ أَبِي يَعْلَى أَنَّ مَال الْفَيْءِ مَوْقُوفٌ عَلَى اجْتِهَادِ الأَئِمَّة،وَذَكَرَ الْقَاضِي أَنَّ أَهْل الْفَيْءِ هُمْ أَهْل الْجِهَادِ وَمَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ،لأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِه لِحُصُول النُّصْرَةِ وَالْمَصْلَحَة بِه،فَلَمَّا مَاتَ صَارَتْ بِالْخَيْل وَالْجُنْد وَمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْه الْمُسْلِمُونَ،فَيَكُونُ لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ،لأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ رَسُول اللَّه ﷺ وَبَيْنَ الأَئِمَّة فِي الْمَال الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْل الْحَرْب،أَنَّهُ يَكُونُ لِعَامَّة الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ لِرَسُول اللَّه ﷺ خَاصَّةً أَنَّ الإِمَامَ إِنَّمَا أَشْرَكَ قَوْمَهُ فِي الْمَال الْمَبْعُوث إِلَيْه مِنْ أَهْل الْحَرْب لأَنَّ هَيْبَتَهُ بِسَبَب قَوْمِه،فَكَانَتْ شَرِكَةً بَيْنَهُمْ،وَأَمَّا هَيْبَةُ الرَّسُول ﷺ فَكَانَتْ بِمَا نُصِرَ مِنَ الرُّعْب لاَ بِأَصْحَابِه،عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّه،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ،وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ،وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " [4247]

[4245] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٧٦)

[4246] – الأموال للقاسم بن سلام (ص: ٢٧٢)(٥٢٥) صحيح

[4247] – صحيح البخاري (١/ ٧٤)(٣٣٥)

[ش(نصرت بالرعب) هو الخوف يقذف في قلوب أعدائي.(مسيرة شهر) أي بيني وبينه مسيرة شهر.(المغانم) جمع مغنم وهو الغنيمة وهو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا]

لِذَلِكَ كَانَ لَهُ أَنْ يَخْتَصَّ بِهِ لِنَفْسِهِ[٤٢٤٨] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٢٤٨] - بدائع الصنائع ٧ / ١١٦،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٩٠،وروضة الطالبين ٦ / ٣٥٤،والمغني لابن قدامة ٦ / ٤١٤،٤٨٥،وكشاف القناع ٣ / ١٠٠ - ١٠١،والقوانين الفقهية ص١٠١،والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص١٣٦ .

الباب السابع والعشرون

أهم عوامل النصر والهزيمة

المبحث الأول

أهم عوامل النصر

١. نصرة دين الله:

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد:٧]

يَحُثّ اللهُ تعالى المُؤْمنين على الجِهادِ،ويُعْلِمُهُمْ بأنّه يَنْصُرُهُمْ إذا أخْلَصُوا النيّةَ في قِتالِ أعدائِهِ،فيقُولُ لَهُمْ:إنّهُمْ إذا نصرُوا دِين اللهِ نصرهُمُ اللهُ على أعْدائِهِمْ،وثّبت أقْدامهُمْ في الحرْبِ وفي الدِّين..[٤٢٤٩]

وكيف ينصر المؤمنون اللّه،حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟

إن للّه في نفوسهم أن تتجرد له،وألا تشرك به شيئا،شركا ظاهرا أو خفيا،وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا،وأن يكون اللّه أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى،وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها،وسرها وعلانيتها،ونشاطها كله وخلجاتها..فهذا نصر اللّه في ذوات النفوس.

وإن للّه شريعة ومنهاجا للحياة،تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة.ونصر اللّه يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه،ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء،فهذا نصر اللّه في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى:«وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه»..وقوله:«إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ»..

وفى كلتا الحالتين.حالة القتل.وحالة النصرة.يشترط أن يكون هذا للّه وفي سبيل اللّه.وهي لفتة بديهية،ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عند ما تنحرف العقيدة في بعض

[٤٢٤٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٣١، بترقيم الشاملة آليا)

الأجيال.وعند ما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص،وتنحـــرف عـــن معناها الوحيد القويم.

إنه لا جهاد،ولا شهادة،ولا جنة،إلا حين يكون الجهاد في سبيل اللّه وحـــده،والموت في سبيله وحده،والنصرة له وحده،في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكـــون كلمـــة اللّـــه هـــي العليا.وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم،وفي أوضـــاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِـــلُ حَمِيَّـــةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَىُّ ذَلِكَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » [٤٢٥٠].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْـــأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا شَيْءَ لَهُ» فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ:«لَا شَيْءَ لَهُ»،ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِـــهِ وَجْهُهُ» [٤٢٥١].

وليس هنالك من راية أخرى،أو هدف آخر،يجاهد في سبيله من يجاهد،ويستشهد دونـــه من يستشهد،فيحق له وعد اللّه بالجنة.إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف.من كل ما يـــروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية،وأن يخلصوها في نفوســـهم مـــن الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة،وألا يلبســـوا برايتـــهم راية،ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على ضيعة العقيدة.لا جهاد إلا لتكون كلمة اللّه هي العليا.العليا في النفس والضمير.والعليا في الخلق والســـلوك.والعليـــا في الأوضـــاع والنظم.والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة.وما عدا هذا فليس للّه.ولكن

[٤٢٥٠] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٨٦)(٤٣٣٣) صحيح

[٤٢٥١] - صحيح مسلم- المكنز [١٢/ ٤٤٧] ٥٠٢٩

للشيطان.وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد.وفيما عدا هذا ليس هنالـــك جنة ولا نصر من عند اللّه ولا تثبيت للأقدام.وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف.
وان عز على غير أصحاب الدعوة للّه أن يتخلصوا من هذا الغـــبش وســـوء التصـــور والانحراف،فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى اللّه أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط اللّه..
وبعد فهذا شرط اللّه على الذين آمنوا.فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام.وعد اللّه لا يخلفه.فإذا تخلف فترة فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقـــق مـــع تحقـــق النصـــر والتثبيت[4252].ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم – فترة – نصـــر اللّه:ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير:«يَنْصُرْكُمْ.وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ»..
إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر،ويكون ســـببا فيـــه.وهـــذا صحيح.ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصـــود معـــنى آخـــر مـــن معـــاني التثبيت.معنى التثبيت على النصر وتكاليفه.فالنصر ليس نهايـــة المعركـــة بـــين الكفـــر والإيمان،وبين الحق والضلال.فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.
للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر.وفي عدم التراخي بعده والتهاون.وكـــثير مـــن النفوس يثبت على المحنة والبلاء.ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء.وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر.ولعل هذا هو ما تشير إليـــه عبارة القرآن.والعلم للّه.[4253]
ذَكَرَ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ،إِنْ نَصَرُوا رَبَّهُمْ،نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ،وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ،أَيْ عَصَمَهُمْ مِنَ الْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ.
وَقَدْ أَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ،وَبَيَّنَ فِي بَعْضِهَا صِفَاتِ الَّذِينَ وَعَـــدَهُمْ بِهَـــذَا النَّصْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [٢٢ \ ٤٠]،ثُمَّ بَـــيَّنَ صِفَاتِ الْمَوْعُودِينَ بِهَذَا النَّصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهُ:الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَـــامُوا

[4252] – تراجع الظلال في سورة الحج عند قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» من ص ٢٤٢٤ إلى ص ٢٤٢٧ من جزء ١٧.(السيد رحمه الله)
[4253] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٩٨)

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [٢٢ \ ٤١]،وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى:وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [٣٠ \ ٤٧]،وَقَوْلِهِ تَعَالَى:إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٤٠ \ ٥١]،وَقَوْلِهِ تَعَالَى:وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [٣٧ \ ١٧١ - ١٧٣]،إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ صِفَاتِ مَنْ وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ:الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ [٢٢ \ ٤١].

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ لَا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ،وَلَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ،وَلَا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ،وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،لَيْسَ لَهُمْ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِالنَّصْرِ الْبَتَّةَ.

فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْأَجِيرِ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ لِمُسْتَأْجِرِهِ شَيْئًا،ثُمَّ جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ الْأُجْرَةَ.

فَالَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ جَمِيعَ الْمَعَاصِي مِمَّنْ يَتَسَمَّوْنَ بِاسْمِ الْمُسْلِمِينَ،ثُمَّ يَقُولُونَ:إِنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُنَا - مَغْرُورُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ حِزْبِ اللَّهِ الْمَوْعُودِينَ بِنَصْرِهِ كَمَا لَا يَخْفَى.

وَمَعْنَى نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ - نَصْرُهُمْ لِدِينِهِ وَلِكِتَابِهِ،وَسَعْيُهُمْ وَجِهَادُهُمْ فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا،وَأَنْ تُقَامَ حُدُودُهُ فِي أَرْضِهِ،وَتُمْتَثَلَ أَوَامِرُهُ وَتُجْتَنَبَ نَوَاهِيهِ،وَيُحْكَمَ فِي عِبَادِهِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ.[٤٢٥٤]

٢. الإيمان الحقّ:

قال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)} [غافر:٥١،٥٢]

يقُولُ اللهُ تعالى،إنّهُ سيجْعلُ رُسلهُ هُمُ الغالبين لأعْدائهمْ ومُعانديهمْ،وإنّهُ سينْصُرُ معهُمُ المُؤْمنين بهمْ في الحياة الدُّنْيا،وذلك يكُونُ بالطُّرُق التّالية:

- إمّا بجعْلهمْ غالبين على منْ كذّبهم،كما فعل بداوُد وسُليمان ومُحمّدٍ،عليْهمُ السّلامُ.

[٤٢٥٤] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥١)

- وإمّا بالانْتقام ممّنْ عاداهُمْ وآذاهُمْ،وإهْلاكه إيّاهُمْ،وإنْجائه الرُّسُل والْمُؤْمنين،كما فعل بنُوحٍ وهُودٍ وصالحٍ ومُوسى ولُوطٍ.
- وإمّا بالانْتقام ممّنْ آذى الرُّسُل بعْد وفاة الأنْبياء والرُّسُل،بتسْليط بعْض خلْق الله على الْمُكذّبين الْمُجْرمين لينْتقمُوا منْهُمْ،كما فعل مع زكريا ويحْيى،عليْهما السّلامُ.
وكما أنّ الله تعالى ينْصُرُ رسُلهُ والْمُؤْمنين بدعْوتهمْ في الحياة الدُّنْيا،كذلك ينْصُرُهُمْ يوْم القيامة،وهُو اليومُ الذي يقُومُ فيه الأشْهادُ من الملائكة والأنْبياء والْمُؤْمنين،بالشّهادة على الأُمم الْمُكذّبة بأنّ الرُّسُل قدْ أبْلغُوهُمْ رسالات ربِّهمْ.[٤٢٥٥]

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية.ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة.

وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.
إن وعد اللّه قاطع جازم:«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا..»..بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا،وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب،وفيهم من يلقى في الأخدود،وفيهم من يستشهد،وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد..فأين وعد اللّه لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل،ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور.ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.
إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان،وحيز محدود من المكان.وهي مقاييس بشرية صغيرة.فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان،ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان.ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك.وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها.فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها.وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم،قريبة الرؤية لأعينهم.ولكن صور النصر شتى.وقد يتلبس بعضها

[٤٢٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة..إبراهيم عليه السّلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها..أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك – في منطق العقيدة – أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار.كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار.هذه صورة وتلك صورة.وهما في الظاهر بعيد من بعيد.فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!..والحسين – رضوان اللّه عليه – وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب،المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة.فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا.فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف،وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان اللّه عليه.يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين.من المسلمين.وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام،كما نصرها باستشهاده.وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة،ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة،بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه،فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد.وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال.

ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور.ومن القيم.قبل أن نسأل:أين وعد اللّه لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا! على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة.ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة.لقد انتصر محمد – ﷺ– في حياته.لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض.فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا.من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة.فشاء اللّه أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته،ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة،ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة.

ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة،واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية.وفق تقدير اللّه وترتيبه.

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك.إن وعد اللّه قائم لرسله وللذين آمنوا.ولا بـد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها.وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجوز الناس فيها.وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله.وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه للّه وحده،ويتوكل عليه وحده،ويطمئن إلى قضاء اللّه فيه،وقدره عليه،ويحس أن اللّه وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار اللّه.ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول.وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي اللّه،ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير.

فسيكل هذا كله للّه.ويلتزم.ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير..وذلك معنى من معاني النصر..النصر على الذات والشهوات.وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال.

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

وقد رأينا في المشهد السابق كيف لا تنفع الظالمين معذرتهم.وكيف باءوا باللعنة وبسوء الدار.فأما صورة من صور النصر في قصة موسى فهو ذاك:«وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ»..

وكان هذا نموذجا من نماذج نصر اللّه.إيتاء الكتاب والهدى.ووراثة الكتاب والهدى.وهذا النموذج الذي ضربه اللّه مثلا في قصة موسى،يكشف لنا رقعة فسيحة،نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه.[٤٢٥٦]

٣. الثبات عند لقاء العدو والإكثار من ذكر الله...

[٤٢٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٨٠)

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)} [الأنفال:٤٥]

يَحُثُّ اللهُ المُؤْمنين على الثّبات عنْد لقاء الأعْداء في ساحة الحرْب،ويأمُرُهُمْ بذكر الله عنْد الشّدائد،لتقْوى قُلُوبُهُمْ،وتثْبُت نُفُوسُهُمْ،وهذان منْ أكْبر أسْباب الفوْز والنّصْر على الأعْداء في الدُّنْيا،ومنْ أسْباب الفوْز بالفلاح وبرضْوان الله في الآخرة.

وأمر اللهُ تعالى المُؤْمنين بطاعته تعالى في الثّبات عنْد لقاء الأعْداء المُشْركين،وبالإخْلاص لهُ،وببذْل الجُهْد في القتال،وبذكْر الله كثيراً لتطْمئنّ النُّفُوسُ وتهْدأ،ويُزايلها الخوْفُ والتّردُّدُ والقلقُ،كما أمرهُمْ بطاعة رسُول الله،والتزام أوامره،إنْجاحاً للْخُطّة العامّة للْجيْش في المعْركة.ثُمّ أمرهُمْ بألاّ يتنازعُوا،ولا يخْتلفُوا،لأنّ في التّنازُع والاخْتلاف الفشل والخُذْلان وضياع ما حقّقهُ المُسْلمُون في المعْركة { وتذْهب ريحُكُمْ }.ثُمّ يُكرّرُ اللهُ تعالى أمْرهُ للْمُؤْمنين بالتزام الصّبْر،لأنّ الله مع الصّابرين.

وعليْكُمْ،أيُّها المُؤْمنُون،أنْ تمْتثلُوا لما أمركُمْ به ربُّكُمْ منْ طاعته تعالى،وطاعة رسُوله الكريم ﷺ،والتزام أوامرهما،ولا تكُونُوا كأعْدائكُمْ المُشْركين الذين خرجُوا منْ مكّة بطراً بما أوتُوا من النّعْمة،ومُراءاةً للنّاس ليُعْجبُوا بهمْ،ويُثْنُوا عليْهمْ بالغنى والقُوّة والشّجاعة..وهُمْ إنّما يقْصدُون بخُرُوجهم الصّدّ عنْ سبيل الله،ومنْع النّاس من الدُّخُول في الإسْلام،والحدّ منْ انْتشار الإسْلام،واللهُ مُحيطٌ بأعْمالهمْ،ولا يعْزُبُ عنْ علْمه شيْءٌ،وسوْف يُجازيهمْ في الدُّنْيا والآخرة..[4257]

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية:الثبات عند لقاء العدو.والاتصال باللّه بالذكر.والطاعة للّه والرسول.

وتجنب التراع والشقاق.والصبر على تكاليف المعركة.والحذر من البطر والرئاء والبغي..

[4257] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر.فأثبت الفريقين أغلبهما.وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون،ولكنه لا يرجو من اللّه ما يرجون فلا مدد له من رجاء في اللّه يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين:الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها،ولا حياة له سواها؟! وأما ذكر اللّه كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة،وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عند ما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة،فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي،قولهم:«وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا.رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ»..

ومما حكاه كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل،وهي تواجه جالوت وجنوده:«وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا:رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة:«وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ،فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا،وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا:رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا،وَثَبِّتْ أَقْدامَنا،وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا.وقد حكى اللّه - فيما بعد - عن العصبة التي أصابها القرح في «أحد» فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم،كان هذا التعليم حاضرا في نفوسها:«الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ:إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ،فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..

إن ذكر اللّه عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى:إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب والثقة باللّه الذي ينصر أولياءه..وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها،فهي معركة للّه،لتقرير ألوهيته في الأرض،وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية وإذن فهي معركة لتكون كلمة اللّه هي العليا لا للسيطرة،ولا للمغنم،ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي..كما أنه توكيد لهذا الواجب – واجب ذكر اللّه – في أحرج الساعات وأشد المواقف..وكلها إيحاءات ذات قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني.

وأما طاعة اللّه ورسوله،فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين للّه ابتداء فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة:«وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»..فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار.فإذا استسلم الناس للّه ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر،إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة،والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء!..ومن ثم هذا التعليم بطاعة اللّه ورسوله عند المعركة..إنه من عمليات «الضبط» التي لا بد منها في المعركة..إنها طاعة القيادة العليا فيها،التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها.وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد للّه،ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها للّه أصلا..والمسافة كبيرة كبيرة..

وأما الصبر.فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة..أية معركة..في ميدان النفس أم في ميدان القتال.

«وَاصْبِرُوا،إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»..وهذه المعية من اللّه هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح..

ويبقى التعليم الأخير:«وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ،وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»..

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها اللّه لها في غير ما أرادها..والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل اللّه تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر،وتقرير عبودية العباد للّه وحده.وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق اللّه في تعبيد العباد له وحده،والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية – بغير إذن اللّه وشرعه – وتخرج لإعلان تحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل عبودية لغير اللّه،تستذل إنسانية الإنسان وكرامته.

وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم،لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر.وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة،فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة اللّه في تلبية أمره بالجهاد وفي إقامة منهجه في الحياة وفي إعلاء كلمته في الأرض وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه..حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل اللّه..

ولقد كانت صورة الخروج بطرا ورئاء الناس وصدا عن سبيل اللّه حاضرة أمام العصبة المسلمة يروها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد اللّه ورسوله:وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة..وكان اللّه سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشيء حاضر له وقعه وله إيحاؤه:«وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»..

والبطر والمراءاة والصد عن سبيل اللّه تتجلى كلها في قولة أبي جهل،قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَلَمّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إلَى قُرَيْشٍ:إنّكُمْ إنّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجّاهَا اللّهُ فَارْجِعُوا،فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ وَاَللّهِ لَا نَرْجِعُ حَتّى نَرِدَ بَدْرًا – وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ،يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ

سُوقٌ كُلّ عَامٍ – فَنُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا،فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا،فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا،فَامْضُوا.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:وَلَمّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إلَى قُرَيْشٍ:إنّكُمْ إنّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجّاهَا اللّهُ فَارْجِعُوا،فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ وَاَللّه لَا نَرْجِعُ حَتّى نَرِدَ بَدْرًا – وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ،يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلّ عَامٍ – فَنُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا،فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا،فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا،فَامْضُوا.

وَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الثّقَفِيّ،وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زُهْرَةَ وَهُمْ بِالْجُحْفَةِ يَا بَنِي زُهْرَةَ قَدْ نَجّى اللّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَخَلّصَ لَكُمْ صَاحِبَكُمْ مَخْرَمَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَإِنّمَا نَفَرْتُمْ لِتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ فَاجْعَلُوا لِي جُبْنَهَا وَارْجِعُوا،فَإِنّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ ضَيْعَةٍ لَا مَا يَقُولُ هَذَا،يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ.فَرَجَعُوا،فَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهْرِيّ وَاحِدٌ أَطَاعُوهُ وَكَانَ فِيهِمْ مُطَاعًا.وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بَطْنٌ إلّا وَقَدْ نَفَرَ مِنْهُمْ نَاسٌ إلّا بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ،لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَرَجَعَتْ بَنُو زُهْرَةَ مَعَ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ،فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مِنْ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ أَحَدٌ،وَمَشَى الْقَوْمُ.وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – وَكَانَ فِي الْقَوْمِ – وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ مُحَاوَرَةٌ فَقَالُوا:وَاَللّه لَقَدْ عَرَفْنَا يَا بَنِي هَاشِمٍ وَإِنْ خَرَجْتُمْ مَعَنَا،أَنّ هَوَاكُمْ لَمَعَ مُحَمّدٍ.فَرَجَعَ طَالِبٌ إلَى مَكّةَ مَعَ مَنْ رَجَعَ.وَقَالَ طَالِبُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ

لَا هُمّ إمّا يَغْزُوَنّ طَالِبْ...فِي عُصْبَةٍ مُحَالِفٌ مُحَارِبْ
فِي مِقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ...فَلْيَكُنْ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السّالِبِ
وَلْيَكُنْ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ..[٤٢٥٨]

وصحت فراسة أبي سفيان،وأصاب محمد – ﷺ- النفير وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل اللّه وكانت بدر قاصمة الظهر لهم:«وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»..

[٤٢٥٨] – سيرة ابن هشام [١ /٦١٨]

لا يفوته منهم شيء،ولا يعجزه من قوتهم شيء،وهو محيط بهم وبما يعملون.

ويمضي السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذي نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار:«وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ،وَقالَ:لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ،وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ.فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ،وَقالَ:إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ،إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ،إِنِّي أَخافُ اللَّهَ،وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ»..

ولقد وردت في هذه الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ليس من بينها حديث عن رسول اللّه - ﷺ- إلا ما رواه مالك في الموطأ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي عَبْلَةَ،عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كُرَيْزٍ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:" مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ،وَلَا أَدْحَرُ،وَلَا أَحْقَرُ،وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ،وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الَّذِي رَأَى مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ ؟،قَالَ:" رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ ".يَعْنِي:يَرُدُّ "[٤٢٥٩]..

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كُرَيْزٍ:أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:" مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ،وَلَا أَدْحَرُ،وَلَا أَحْقَرُ،وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ،وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ "[٤٢٦٠]

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون،وهو ضعيف الحديث،والخبر مرسل.

فأما سائر الآثار فعن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة وطريق ابن جريج.وعن عروة بن الزبير من طريق ابن إسحاق.وعن قتادة من طريق سعيد بن جبير.وعن الحسن وعن محمد بن كعب.وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،قَالَ:أَقْبَلَتْ عِيرُ أَهْلِ مَكَّةَ تُرِيدُ الشَّامَ،فَبَلَغَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ،فَخَرَجُوا وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيُرِيدُونَ الْعِيرَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ مَكَّةَ فَأَسْرَعُوا السَّيْرَ إِلَيْهَا لِكَيْلَا يَغْلِبَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺوَأَصْحَابُهُ،فَسَبَقَتِ الْعِيرُ

[٤٢٥٩] - شعب الإيمان [٥ /٤٩٨](٣٧٧٥) صحيح مرسل وعبد العزيز قد توبع كما في الرواية الثانية فلا يجوز رده

[٤٢٦٠] - شعب الإيمان [٥ /٤٩٨](٣٧٧٥) صحيح مرسل

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،وَكَانُوا أَنْ يَلْقَوَا الْعِيرَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ،وَأَيْسَرُ شَوْكَةً،وَأَحْضَرُ مَغْنَمًا،فَلَمَّا سَبَقَتِ الْعِيرُ وَفَاتَتْ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِالْمُسْلِمِينَ يُرِيدُ الْقَوْمَ،فَكَرِهَ الْقَوْمُ مَسِيرَهُمْ لِشَوْكَةِ الْقَوْمِ،فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺوَالْمُسْلِمُونَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعْصَةٌ،فَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ،وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ يُوَسْوِسُهُمْ:تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ كَذَا،فَأَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا،فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وتَطَهَّرُوا،فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ،وَصَارَ الرَّمْلُ كَدًّا - ذَكَرَ كَلِمَةً أَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُ الْمَطَرُ - وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالدَّوَابُّ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ،وَمَدَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺوَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ،فَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُجَنِّبَةً،وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَةً،وَجَاءَ إِبْلِيسُ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ،مَعَهُ رَايَةٌ فِي صُورَةِ رِجَالٍ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ،وَالشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ،فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ:لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ،فَلَمَّا اصْطَفَّ الْقَوْمُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ:اللَّهُمَّ أَوْلَانَا بِالْحَقِّ فَانْصُرْهُ،وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَدَهُ فَقَالَ:" يَا رَبُّ،إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا "،فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ:خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ،فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا وُجُوهَهُمْ،فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمَنْخَرَيْهِ وَفَمَهُ تُرَابٌ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ.فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ،وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ،فَلَمَّا رَآهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،انْتَزَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا وَشِيعَتُهُ،فَقَالَ الرَّجُلُ:يَا سُرَاقَةُ،أَلَمْ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ ؟ قَالَ:إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ،وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ"[٤٢٦١].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ،ثني يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:" لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ الْمَسِيرَ ذَكَرَتِ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَنِي بَكْرٍ يَعْنِي مِنَ الْحَرْبِ فَكَادَ ذَلِكَ أَنْ يُثَبِّطَهُمْ،فَتَبَدَّى

[٤٢٦١] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ << بَابُ الْتِقَاءِ الْجَمْعَيْنِ وَنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ >>(٩٣٦) حسن

لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ الْمُدْلِجِيِّ،وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ بَنِي كِنَانَةَ،فَقَالَ:أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ كِنَانَةُ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ،فَخَرَجُوا سِرَاعًا "[4262].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ،قَالَ:" لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى السَّيْرِ،قَالُوا:إِنَّمَا نَتَخَوَّفُ مِنْ بَنِي بَكْرٍ.فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ:أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي بَكْرٍ،وَلَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ " فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَحِينَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ خُرُوجَهُمْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِحَرْبِكُمْ وَقِتَالِكُمْ،وَحَسَّنَ ذَلِكَ لَهُمْ،وَحَثَّهُمْ عَلَيْكُمْ وَقَالَ لَهُمْ:لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنْ بَنِي آدَمَ،فَاطْمَئِنُّوا وَأَبْشِرُوا،وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ مِنْ كِنَانَةَ أَنْ تَأْتِيَكُمْ مِنْ وَرَائِكُمْ فَتُغِيرَكُمْ أُجِيرُكُمْ وَأَمْنَعُكُمْ مِنْهُمْ،وَلَا تَخَافُوهُمْ،وَاجْعَلُوا جَدَّكُمْ وَبَأْسَكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ.فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ يَقُولُ:فَلَمَّا تَزَاحَفَتْ جُنُودُ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ يَقُولُ:رَجَعَ الْقَهْقَرَى عَلَى قَفَاهُ هَارِبًا،يُقَالُ مِنْهُ:نَكَصَ يَنْكُصُ وَيَنْكِصُ نُكُوصًا،وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

هُمْ يَضْرِبُونَ حَبِيكَ الْبَيْضِ إِذْ لَحِقُوا لَا يَنْكُصُونُ إِذَا مَا اسْتُلْحِمُوا وَحَمُوا

وَقَالَ لِلْمُشْرِكِينَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ يَعْنِي:أَنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ مَدَدًا لِلْمُؤْمِنِينَ،وَالْمُشْرِكُونَ لَا يَرَوْنَهُمْ إِنِّي أَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ،وَكَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[4263]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:" وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ:شَدِيدُ الْعِقَابِ قَالَ:ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ تَنْزِلُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ،فَزَعَمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَدَ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ،وَقَالَ:إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ،إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ.وَكَذَبَ وَاللَّهِ عَدُوُّ اللَّهِ،مَا بِهِ مَخَافَةُ اللَّهِ،وَلَكِنْ عَلِمَ أَنْ لَا قُوَّةَ

[4262] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ >> سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ >>(١٤٨٥١) حسن مرسل

[4263] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ >> سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ >>(١٤٨٥٨) حسن مرسل

لَهُ وَلَا مَنَعَةَ لَهُ،وَتِلْكَ عَادَةُ عَدُوِّ اللَّهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاسْتَعَاذَ بِهِ،حَتَّى إِذَا الْتَقَى الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ أَسْلَمَهُمْ شَرَّ مَسْلَمٍ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ "[٤٢٦٤]..

وكذب واللّه عدو اللّه،ما به مخافة اللّه،ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له،وتلك عـادة عدو اللّه لمن أطاعه واستقاد له،حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شـر مسـلم،وتبرأ منهم عند ذلك.

ونحن – على منهجنا في هذه الظلال – لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد بـه نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر[٤٢٦٥].فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته.ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض..

وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم،وشـجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم وأنه بعد ذلك – لما تراءى الجمعـان أي رأى أحدهما الآخر – «نكص على عقبيه وقال:إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون،إني أخاف اللّه،واللّه شديد العقاب»..فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم،ولم يـوف بعهده معهم..

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم،والتي قال لهم بها:لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم.والتي نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك..الكيفية فقط هـي التي لا نجزم بها.ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم.والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث..[٤٢٦٦]

---

٤. الاعتزاز بالله ورسوله

[٤٢٦٤] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ >> سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ >>(١٤٨٥٣) حسن مرسل

[٤٢٦٥] – لكن هذا الخبر ورد من طرق متعددة يقوي بعضها البعض،فيصلح للحجية

[٤٢٦٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٦٦)، قلت :يمكن مراجعة كتابي " الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل "

قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)} [المنافقون:٨،٧]

يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ قَبْلُ {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون:٨] فِيهَا،وَيَعْنِي بِالْأَعَزِّ:الْأَشَدَّ وَالْأَقْوَى،قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ} [المنافقون:٨] يَعْنِي:الشِّدَّةُ وَالْقُوَّةُ {وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون:٨] بِاللَّهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.وَذُكِرَ أَنَّ سَبَبَ قِيلِ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ كَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ.

عَنْ عَمْرٍو،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:إِنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ،ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا فَخَرَجُوا فِي غَزْوَةٍ لَهُمْ،فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ [ص:٦٦٢] الْأَنْصَارِ،قَالَ:فَكَانَ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ إِلَى أَنْ صَرَخَ:يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،وَصَرَخَ الْمُهَاجِرُ:يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؛قَالَ:فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:«مَا لَكُمْ وَلِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ؟» فَقَالُوا:كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» قَالَ:فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ:لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،فَقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،دَعْنِي فَأَقْتُلَهُ،قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلُهُ: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ} [المنافقون:٨] إِلَى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون:٨] قَالَ:قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ الْأَنْصَارِيُّ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ،وَنَاسٌ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

وعَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنُ سَلُولَ،كَانَ يُقَالُ لَهُ حُبَابٌ،فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَبْدَ اللَّهِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ وَالِدِي يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَذَرْنِي حَتَّى أَقْتُلَهُ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تُقْتَلْ أَبَاكَ عَبْدَ اللَّهِ».ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ وَالِدِي يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَذَرْنِي حَتَّى أَقْتُلَهُ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تُقْتَلُ أَبَاكَ»

فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَوَضَّأْ حَتَّى أَسْقِيَهُ مِنْ وَضُوئِكَ لَعَلَّ قَلْبَهُ أَنْ يَلِينَ،فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَأَعْطَاهُ،فَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَبِيهِ فَسَقَاهُ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:هَلْ تَدْرِي مَا سَقَيْتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ وَالِدُهُ:نَعَمْ،سَقَيْتَنِي بَوْلَ أُمِّكَ.فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ:لَا وَاللَّهِ،وَلَكِنْ سَقَيْتُكَ وَضُوءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛قَالَ عِكْرِمَةُ:وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ عَظِيمَ الشَّأْنِ فِيهِمْ.وَفِيهِمْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُنَافِقِينَ:{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا} [المنافقون:٧] وَهُوَ الَّذِي قَالَ:لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،قَالَ:فَلَمَّا بَلَغُوا الْمَدِينَةَ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺوَمَنْ مَعَهُ،أَخَذَ ابْنُهُ السَّيْفَ،ثُمَّ قَالَ لِوَالِدِهِ:أَنْتَ تَزْعُمُ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،فَوَاللَّهِ لَا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِرِجْلِهِ وَذَلِكَ فِي أَهْلِ الْيَمَنِ شَدِيدٌ فَنَادَى الْمُهَاجِرِينَ:يَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَنَادَى الْأَنْصَارُ:يَا لِلْأَنْصَارِ قَالَ:وَالْمُهَاجِرُونَ يَوْمَئِذٍ أَكْثَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ:لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

وقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ،إِنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ قَالَ:لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا،وَقَالَ:لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ،قَالَ:فَحَدَّثَنِي زَيْدٌ أَنَّهُ أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺبِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ،قَالَ:فَجَاءَ فَحَلَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺمَا قَالَ ذَلِكَ؛قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ:فَقَالَ لِي زَيْدٌ،فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي،حَتَّى أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَصْدِيقَ زَيْدٍ،وَتَكْذِيبَ [ص:٦٦٤] عَبْدِ اللَّهِ فِي {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون:١]

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:{لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون:٨] قَرَأَ الْآيَةَ كُلَّهَا إِلَى {لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون:٨] قَالَ:قَدْ قَالَهَا مُنَافِقٌ عَظِيمُ النِّفَاقِ فِي رَجُلَيْنِ اقْتَتَلَا،أَحَدُهُمَا غِفَارِيٌّ،وَالْآخَرُ جُهَنِيٌّ،فَظَهَرَ الْغِفَارِيُّ عَلَى الْجُهَنِيِّ،وَكَانَ بَيْنَ جُهَيْنَةَ وَالْأَنْصَارِ حِلْفٌ،فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ ابْنُ أُبَيٍّ:يَا بَنِي الْأَوْسِ،يَا بَنِي الْخَزْرَجِ،عَلَيْكُمْ صَاحِبَكُمْ وَحَلِيفَكُمْ،ثُمَّ قَالَ:وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ.فَسَعَى

بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ عُمَرُ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ مُرْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ،فَقَالَ:«لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ أُكْثِرَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَهُ،فَقَالَ:هَلْ يُصَلِّي؟ فَقَالَ:نَعَمْ وَلَا خَيْرَ فِي صَلَاتِهِ،فَقَالَ:نُهِيتُ عَنِ الْمُصَلِّينَ،نُهِيتُ عَنِ الْمُصَلِّينَ

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ:اقْتَتَلَ رَجُلَانِ،أَحَدُهُمَا مِنْ جُهَيْنَةَ،وَالْآخَرُ مِنْ غِفَارٍ،وَكَانَتْ جُهَيْنَةُ حَلِيفَ الْأَنْصَارِ،فَظَهَرَ عَلَيْهِ الْغِفَارِيُّ،فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَظِيمُ النِّفَاقِ:عَلَيْكُمْ صَاحِبَكُمْ،عَلَيْكُمْ صَاحِبَكُمْ،فَوَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَهُمْ فِي سَفَرٍ،فَجَاءَ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَأَخْبَرَهُ ذَلِكَ،فَقَالَ عُمَرُ:مُرْ مُعَاذًا يَضْرِبْ عُنُقَهُ،فَقَالَ:«وَاللَّهِ [ص:٦٦٥] لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».فَنَزَلَتْ فِيهِمْ:{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [المنافقون:٧]

وعَنِ الْحَسَنِ،أَنَّ غُلَامًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا؛قَالَ:«فَلَعَلَّكَ غَضِبْتَ عَلَيْهِ؟» قَالَ:لَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُهُ؛قَالَ:«فَلَعَلَّكَ أَخْطَأَ سَمْعُكَ؟» قَالَ:لَا وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُهُ قَالَ:فَلَعَلَّهُ شُبِّهَ عَلَيْكَ " قَالَ:لَا وَاللَّهِ،قَالَ:فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقًا لِلْغُلَامِ:{لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون:٨] فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺبِأُذُنِ الْغُلَامِ،فَقَالَ:«وَفَتْ أُذُنُكَ،وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ»

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ،فِي قَوْلِ اللَّهِ {لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون:٨] قَالَ:كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُسَمُّونَ الْمُهَاجِرِينَ:الْجَلَابِيبَ؛وَقَالَ:قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ:قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي هَؤُلَاءِ الْجَلَابِيبِ أَمْرِي،قَالَ:هَذَا بَيْنَ أَمَجٍ وَعُسْفَانَ عَلَى الْكَدِيدِ تَنَازَعُوا عَلَى الْمَاءِ،وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ قَدْ غَلَبُوا عَلَى الْمَاءِ؛قَالَ:وَقَالَ ابْنُ أُبَيٍّ أَيْضًا:أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ:لَا تُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ،لَوْ تَرَكْتُمُوهُمْ مَا وَجَدُوا مَا يَأْكُلُونَ،وَيَخْرُجُوا وَيَهْرُبُوا؛فَأَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ ابْنُ أُبَيٍّ؟ قَالَ:«وَمَا ذَاكَ؟» فَأَخْبَرَهُ وَقَالَ:دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا رَسُولَ

اللَّه.قَالَ:«إِذًا تَرْعَدُ لَهُ آنفٌ كَثيرَةٌ بيَثْربَ».قَالَ عُمَرُ:فَإِنْ كَرِهْتَ يَا رَسُولَ اللَّه أَنْ يَقْتُلَهُ رَجُلٌ منَ الْمُهَاجرينَ،فَمُرْ به سَعْدَ بْنَ مُعَاذ،وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ فَيَقْتُلَانه فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ،ادْعُوا لي عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبْد اللَّه بْنِ أُبَيٍّ».فَدَعَاهُ،فقَالَ:«أَلَا تَرَى مَا يَقُولُ أَبُوكَ؟» قَالَ:وَمَا يَقُولُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ:«يَقُولُ لَئنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدينَة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منْهَا الْأَذَلَّ» ؛فَقَالَ:فَقَدْ صَدَقَ وَاللَّه يَا رَسُولَ اللَّه،أَنْتَ وَاللَّه الْأَعَزُّ وَهُوَ الْأَذَلُّ،أَمَا وَاللَّه لَقَدْ قَدمْتَ الْمَدينَةَ يَا رَسُولَ اللَّه،وَإِنَّ أَهْلَ يَثْربَ لَيَعْلَمُونَ مَا بهَا أَحَدٌ أَبَرَّ منِّي،وَلَئنْ كَانَ يُرْضي اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنْ آتيَهُمَا برَأْسه لَآتيَنَّهُمَا به،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«لَا».فَلَمَّا قَدمُوا الْمَدينَةَ،قَامَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ أُبَيٍّ عَلَى بَابهَا بالسَّيْف لأَبيه؛ثُمَّ قَالَ:أَنْتَ الْقَائلُ:لَئنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدينَة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منْهَا الْأَذَلَّ،أَمَا وَاللَّه لَتَعْرِفَنَّ الْعزَّةُ لَكَ أَوْ لرَسُول اللَّه،وَاللَّه لَا يَأْويكَ ظلُّهُ،وَلَا تَأْويه أَبَدًا إِلَّا بإِذْنٍ منَ اللَّه وَرَسُوله؛فَقَالَ:يَا للْخَزْرَجِ ابْني يَمْنَعُني بَيْتي يَا للْخَزْرَجِ ابْني يَمْنَعُني بَيْتي فَقَالَ:وَاللَّه لَا تَأْويه أَبَدًا إِلَّا بإِذْنٍ منْهُ؛فَاجْتَمَعَ إِلَيْه رجَالٌ فَكَلَّمُوهُ،فَقَالَ:وَاللَّه لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا بإِذْنٍ منَ اللَّه وَرَسُوله،فَأَتَوُا النَّبيَّ ﷺفَأَخْبَرُوهُ،فَقَالَ:«اذْهَبُوا إِلَيْه،فَقُولُوا لَهُ خَلِّه وَمَسْكَنَهُ» ؛فَأَتَوْهُ،فَقَالَ:أَمَا إِذَا جَاءَ أَمْرُ النَّبيِّ ﷺفَنَعَمْ

عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ أَبِي بَكْرٍ،وَعَنْ مُحَمَّد بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ،قَالَ:كُلٌّ قَدْ حَدَّثَني بَعْضُ حَديث بَني الْمُصْطَلق،قَالُوا:بَلَغَ رَسُولَ اللَّه ﷺأَنَّ بَنيَ الْمُصْطَلق يَجْمَعُونَ لَهُ،وَقَائدُهُمُ الْحَارثُ بْنُ أَبِي ضرَارٍ أَبُو جُوَيْريَةَ بنْت الْحَارث زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ ؛فَلَمَّا سَمعَ بهِمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ،خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقيَهُمْ عَلَى مَاءٍ منْ ميَاههِمْ يُقَالُ لَهُ الْمُرَيْسيعُ منْ نَاحيَة قُدَيْد إِلَى السَّاحلِ،فَتَزَاحَفَ النَّاسُ فَاقْتَتَلُوا،فَهَزَمَ اللَّهُ بَني الْمُصْطَلق،وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ منْهُمْ،وَنَفَّلَ رَسُولَ اللَّه ﷺأَبْنَاءَهُمْ وَنسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،فَأَفَاءَهُمُ اللَّهُ عَلَيْه،وَقَدْ أُصيبَ رَجُلٌ منْ بَني كَلْب بْنِ عَوْف بْنِ عَامرِ بْنِ لَيْث بْنِ بَكْرٍ،يُقَالُ لَهُ هشَامُ بْنُ صُبَابَةَ أَصَابَهُ رَجُلٌ منَ الْأَنْصَارِ منْ رَهْط عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت،وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ منَ الْعَدُوِّ،فَقَتَلَهُ خَطَأً،فَبَيْنَا النَّاسُ عَلَى ذَلكَ الْمَاءِ وَرَدَتْ وَاردَةُ النَّاسِ وَمَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أَجيرٌ لَهُ منْ بَني غفَارٍ يُقَالُ لَهُ جَهْجَاهُ بْنُ سَعيدٍ،يَقُودُ لَهُ فَرَسَهُ،فَازْدَحَمَ جَهْجَاهٌ وَسنَانٌ الْجُهَنيُّ حَليفُ بَني عَوْف بْنِ

الْخَزْرَجِ عَلَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلَا،فَصَرَخَ الْجُهَنِيُّ:يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ.وَصَرَخَ جَهْجَاهُ:يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ،فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ،وَعِنْدَهُ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِه فِيهِمْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ،غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ،فَقَالَ:قَدْ فَعَلُوهَا؟ قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا،وَاللَّه مَا أَعُدُّنَا وَجَلَابِيبَ قُرَيْشٍ هَذِه إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ.أَمَا وَاللَّه لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ؛ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِه،فَقَالَ:هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ،وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ،أَمَا وَاللَّه لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ بِلَادِكُمْ؛فَسَمِعَ ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ فَمَشَى بِه إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ،وَذَلِكَ عِنْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللَّه ﷺمِنْ غَزْوِه،فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه مُرْ بِه عَبَّادَ بْنَ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ فَلْيَقْتُلْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ،لَا،وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيلِ» وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّه ﷺيَرْتَحِلُ فِيهَا،فَارْتَحَلَ النَّاسُ،وَقَدْ مَشَى عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺحِينَ بَلَغَهُ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ قَدْ بَلَغَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُ،فَحَلَفَ بِاللَّه مَا قُلْتُ مَا قَالَ،وَلَا تَكَلَّمْتُ بِه؛وَكَانَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ فِي قَوْمِه شَرِيفًا عَظِيمًا،فَقَالَ مَنْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّه ﷺمِنْ أَصْحَابِه مِنَ الْأَنْصَارِ:يَا رَسُولَ اللَّه عَسَى أَنْ يَكُونَ الْغُلَامُ أَوْهَمَ فِي حَدِيثِه،وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ الرَّجُلُ،حَدَبًا عَلَى عَبْدِ اللَّه بْنِ أُبَيٍّ،وَدَفْعًا عَنْهُ؛فَلَمَّا اسْتَقَلَّ رَسُولُ اللَّه ﷺوَسَارَ،لَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ،فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّة النُّبُوَّة وَسَلَّمَ عَلَيْه؛ثُمَّ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه لَقَدْ رُحْتَ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتَ تَرُوحُ فِيهَا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ«أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟» قَالَ:فَأَيُّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ:«عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ».قَالَ:وَمَا قَالَ؟ قَالَ:«زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَة أَخْرَجَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».قَالَ أُسَيْدٌ:فَأَنْتَ وَاللَّه يَا رَسُولَ اللَّه تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ،هُوَ وَاللَّه الذَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ؛ثُمَّ قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه ارْفُقْ بِه،فَوَاللَّه لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيُتَوِّجُوهُ،فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدِ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا.ثُمَّ مَشَى رَسُولُ اللَّه ﷺبِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى،وَلَيْلَتَهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ،وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمُ الشَّمْسُ،ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ،فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ وَقَعُوا نِيَامًا،وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لَيَشْغَلَ النَّاسَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ

مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ.ثُمَّ رَاحَ بِالنَّاسِ وَسَلَكَ الْحِجَازَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ بِالْحِجَازِ فُوَيْقَ النَّقِيعِ،يُقَالُ لَهُ نَقْعَاءُ؛فَلَمَّا رَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺهَبَّتْ عَلَى النَّاسِ رِيحٌ شَدِيدَةٌ آذَتْهُمْ وَتَخَوَّفُوهَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَخَافُوا فَإِنَّمَا هَبَّتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْكُفَّارِ».فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ وَجَدُوا رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ أَحَدَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ وَكَانَ مِنْ عُظَمَاءِ يَهُودَ،وَكَهْفًا لِلْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ،فَنَزَلَتِ السُّورَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ،وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى مِثْلِ أَمْرِهِ،فَقَالَ:{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون:١] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِأُذُنِ زَيْدٍ فَقَالَ:«هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهَ بِأُذُنِهِ» وَبَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَبِيهِ [٤٢٦٧]"

هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ هُمُ الذينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ:لاَ تُنْفِقُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَيَتَحوَّلُوا عَنْكُمْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ،وَيَنْفَضَّ عَنْ مُحَمَّدٍ مَنْ حَوْلَهُ إِذَا عَضَّهُمْ الجُوعُ.وَهَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ جَاهِلُونَ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ مَالِكُ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ،وَبِيدِهِ مَفَاتِيحُ أَرْزَاقِ العِبَادِ فَلاَ يَصِلُ شَيءٌ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ،وَلِذَلِكَ قَالُوا هَذَا القَوْلَ.

وَيَقولُ هَؤُلاَءِ المُنَافِقونَ:إِذَا رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ فَإِنَّنَا سَنُخْرِجُ المُؤْمِنِينَ مِنْهَا،لأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ هُم الأَقْوِيَاءَ الأَعِزَّاءَ فِيهَا لَكَثْرَةِ جَمْعِهِمْ،وَوَفْرَةِ مَالِهِمْ،وَأَنَّ المُؤْمِنِينَ ضِعَافٌ قَلِيلُو العَدَدِ.

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ قَائِلاً:إِنَّ العِزَّةَ للهِ وَحْدَهُ،فَهُوَ ذُو الجَلاَلِ والعِزَّةِ،ثُمَّ تَكُونُ العِزَّةُ مِنْ بَعْدِهِ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ،ثُمَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الذِينَ يَسْتَعِزُّونَ بِعِزِّ اللهِ،وَبِنَصْرِهِ،فَهُمْ أَعِزَّةٌ بِذَلِكَ،وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَظُنُّونَ أَنَّ العِزَّةَ بِوَفْرَةِ المَالِ وَكَثْرَةِ النَّاصِرِ.[٤٢٦٨]

ـــــــــــــــــــــــــــــ

[٤٢٦٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٦٦١)

[٤٢٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٧٣، بترقيم الشاملة آليا)

إن الأمة مهما بحثت عن سعادها وإعادة مكانتها فلن تجد ذلك بدون الجهاد في سبيل الله ، فقد جعله الله سبباً لتمكين الدين في الأرض وتحطيم عروش الطغاة من البشـــر وإذلال المنافقين وكسر شوكتهم وإرهاباً للأعداء مهما اتسعت ممالكهم وعظمت قوهم ، ومن ظن غير ذلك فقد افترى على الله الكذب وسلك طريقاً غير طريق المؤمنين وبقي يراوح في مكانه

قال تعالى:{ يا أيُّها الّذين آمنُواْ من يرْتدّ منكُمْ عن دينه فسوْف يأْتي اللّهُ بقوْمٍ يُحبُّهُمْ ويُحبُّونهُ أذلّةٍ على الْمُؤْمنين أعزّةٍ على الْكافرين يُجاهدُون في سبيل اللّه ولا يخافُون لوْمة لآئمٍ ذلك فضْلُ اللّه يُؤْتيه من يشاء واللّهُ واسعٌ عليمٌ} (٥٤) سورة المائدة

و لم يُعلم في تاريخ هذه الأمة أنها عظمت بين الأمم بدون الجهاد في سبيل الله.ثم اعلـــم وفقك الله أن الجهاد هو استفراغ الوسع والطاقة وتحمل المشقة والصبر عليها في الـــدعوة إلى الله تعالى حسب ما يقتضيه حال المدعو من الحجة والبيان وبذل الأموال أو المحاربـــة بالسيف والسنان وبكل ما يمكن أن يجاهد به في كل مكان وزمان.وهو نوعان:جهـــاد طلب وابتداء وجهاد دفع.

فالأول:هو غزو الكفار في بلادهم فدعوهم إلى الإسلام فإن أبو أخذت منهم الجزية فإن امتنعوا وجب قتالهم وهذا ما درج عليه سلف هذه الأمـــة حيـــث وصـــلت الجيـــوش الإسلامية إلى شتى بقاع الأرض وانتشر الإسلام في أرجائها وتوزعت أشلاء المجاهدين في أنحائها جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

ففي صحيح مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ الله ﷺإِذَا أَمَّرَ أَمِـــيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ خَيْـــرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْـــدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَـــنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُـــمْ إِلَـــى الْإِسْـــلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُـــمْ إِلَـــى التَّحَـــوُّلِ مِـــنْ دَارِهِـــمْ إِلَـــى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُـــمْ مَـــا لِلْمُهَـــاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَـــا عَلَـــى

الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٤٢٦٩]

والثاني:جهاد الدفع وذلك حينما يدخل العدو في بلاد المسلمين فيستولي عليها أو تجهز لقتالهم فإنه والحالة هذه يجب على المسلمين قتالهم حتى يندفع شرهم ويرد كيدهم.

وفي كلتا الحالتين هو فرض من فروض الدين وواجب من واجباته شرعة الله سبحانه وتعالى لمصارمة العدو وإدخاله في دين الإسلام.

قال تعالى (كُتِب عليْكُمُ الْقتالُ وهُو كُرْهٌ لكُمْ) (البقرة:٢١٦).

وقال تعالى (فإذا انْسلخ الْأشْهُرُ الْحُرُمُ فاقْتُلُوا الْمُشْركِين حيْثُ وجدْتُمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لهُمْ كُلّ مرْصدٍ) (التوبة:٥).

وقال سبحانه وتعالى (واقْتُلُوهُمْ حيْثُ ثقِفْتُمُوهُمْ وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حيْثُ أخْرجُوكُمْ والْفِتْنةُ أشدُّ مِن الْقتْلِ) (البقرة:١٩١).

وقال تعالى (يا أيُّها الّذِين آمنُوا قاتِلُوا الّذِين يلُونكُمْ مِن الْكُفّارِ ولْيجِدُوا فِيكُمْ غِلْظةً واعْلمُوا أنّ اللّه مع الْمُتّقِين) (التوبة:١٢٣).

وقال عز من قائل (قاتِلُوهُمْ يُعذِّبْهُمُ اللّهُ بِأيْدِيكُمْ ويُخْزِهِمْ وينْصُرْكُمْ عليْهِمْ ويشْفِ صُدُور قوْمٍ مُؤْمِنِين) (التوبة:١٤).

[٤٢٦٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

وفي سنن أبي داود عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[4270]

وعند النسائي عَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[4271]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ،فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا:لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ،وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ "

فَقَالَ:وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ،فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ،وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺلَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا " قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[4272].

وعند أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ،بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ خَلْفَ كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ،وَالصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا،وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ»[4273]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺمَرَّ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةُ مَاءٍ عَذْبٍ،فَأَعْجَبَهُ طِيبُهُ،فَقَالَ:لَوْ أَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ،وَاعْتَزَلْتُ النَّاسَ وَالْعَمَلَ،قَالَ:حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:" لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ

[4270] - سنن أبي داود (3/ 10)(2504) صحيح

[4271] - السنن الكبرى للنسائي (4/ 269)(4289) صحيح

[4272] - صحيح البخاري (2/ 105)(1399 و1400) وصحيح مسلم (1/ 51)32 - (20)

[ش(عناقا) الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.(شرح الله صدر أبي بكر) لقتالهم.(فعرفت أنه الحق) بما ظهر من الدليل الذي أقامه أبو بكر رضي الله عنه]

[4273] - سنن أبي داود (3/ 18)(2533) حسن لغيره

فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا.أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ،وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ:اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ،مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ،وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ "[4274].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:اغْزُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا.[4275]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ؛فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّي اللهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ " "[4276]

وعَنْ خَالِدِ بْنِ خَالِدٍ الْيَشْكُرِيِّ،قَالَ:خَرَجْتُ زَمَنَ فُتِحَتْ تُسْتَرُ حَتَّى قَدِمْتُ الْكُوفَةَ،فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أَنَا بِحَلْقَةٍ فِيهَا رَجُلٌ صَدْعٌ مِنَ الرِّجَالِ،حَسَنُ الثَّغْرِ،يُعْرَفُ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْحِجَازِ،قَالَ:فَقُلْتُ:مَنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ الْقَوْمُ:أَوَمَا تَعْرِفُهُ؟ قَالَ:قُلْتُ:لَا،قَالُوا:هَذَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَقَعَدْتُ،وَحَدَّثَ الْقَوْمَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،فَأَنْكَرَ ذَلِكَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ،فَقَالَ لَهُمْ:إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ،جَاءَ الْإِسْلَامُ حِينَ جَاءَ فَجَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ كَأَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ،وَكُنْتُ قَدْ أُعْطِيتُ فِي الْقُرْآنِ فَهْمًا،فَكَانَ رِجَالٌ يَجِيئُونَ فَيَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنِ الْخَيْرِ وَأَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَيَكُونُ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:قُلْتُ:فَمَا الْعِصْمَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«السَّيْفُ»،قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ السَّيْفِ بَقِيَّةٌ؟ قَالَ:«نَعَمْ،تَكُونُ إِمَارَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ وَهُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ»،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«ثُمَّ يَنْشَأُ دُعَاةُ الضَّلَالَةِ،فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةٌ جَلَدَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ،فَالْزَمْهُ وَإِلَّا فَمُتْ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ»،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ نَهَرٌ وَنَارٌ،مَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ،وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهَرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ [ص:٣٤٣] أَجْرُهُ»،قَالَ:قُلْتُ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:«يُنْتَجُ الْمُهْرُ فَلَا يُرْكَبُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»،قَالَ قَتَادَةُ:«الصَّدْعُ مِنَ الرِّجَالِ:الضَّرْبُ،وَقَوْلُهُ:فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْهُ؟ قَالَ:السَّيْفُ»،قَالَ مَعْمَرٌ:قَالَ

[4274] - شعب الإيمان (٦/ ٩٦)(٣٩٢٥) صحيح

[4275] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣٦٠)(١٩٨٩٧) حسن مرسل

[4276] - الجهاد لابن أبي عاصم (١/ ١٣٣) ومسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٣٥٥)(٢٢٦٨٠) حسن لغيره

قَتَادَةُ:نَضَعُهُ عَلَى أَهْلِ الرِّدَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ،وَأَمَّا قَوْلُهُ:«إِمَارَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ وَهُدْنَةٌ» يَقُولُ:صُلْحٌ،وَقَوْلُهُ:«عَلَى دَخَنٍ»:يَقُولُ عَلَى ضَغَائِنَ"[٤٢٧٧].

---

٥. الإنابة إلى الله:

قال تعالى:{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) } [الزمر]

يسْتحثُّ اللهُ تعالى الذين أسْرفُوا على أنْفُسهِمْ إلى المُسارعة إلى التّوْبة،ويقُولُ لهُم:ارْجعُوا إلى ربِّكُمْ بالتّوْبة،والعملِ الصّالحِ قبْل أنْ تحلّ بكُمْ نقمُهُ،وقبْل أنْ ينْزِل بكُمُ العذابُ،وحينئذٍ لا تجدُون منْ ينْصُرُكُمْ منْ بأسِ الله.ولا منْ يدْفعُ عنْكُمْ عذابهُ..

ثُمّ يأمُرُ اللهُ تعالى عِبادهُ باتِّباعِ ما أمرهُمْ بِهِ (وهُو أحْسنُ ما أنْزل اللهُ إلى عِبادِهِ)،وباجْتنابِ ما نهاهُمْ عنْهُ،منْ قبلِ أنْ ينْزِل بِهِم العذاب فجْأةً وهُمْ لا يشْعُرُون،ولا ينْتظرُون وقُوعهُ حِين يغْشاهُمْ.

يأْمُرُ اللهُ تعالى عِبادهُ بِالإيمانِ وبِالرُّجُوعِ إليه تعالى لكيلا يأْتِي يومُ القيامة،فتقُول بعْضُ الأنْفُسِ حِين ترى صِدْق ما جاءتْ به الرُّسُل:يا حسْرتي على تقْصِيرِي فِي طاعةِ الله تعالى،وعلى سُخْرِيتِي واسْتِهْزائِي بِرسُولِ الله،وبِما جاءنِي بِهِ مِنْ عِنْدِ الله.

أوْ تقُول بعْضُ الأنْفُسِ حِين ترى العذاب يوْم القِيامة:لوْ أنّ الله هداني وأرْشدني إلى دِينِهِ وطاعتِهِ،لكُنْتُ فِي الدُّنْيا مِمّن اتّقى الله،وترك الشِّرْك،وأقْلع عنِ ارْتِكابِ المعاصِي.

[٤٢٧٧] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٢)(٢٠٧١١) صحيح –الجذل :أصل الشجرة = الفلو :المُهْر الصغير إذا فطم

أوْ تقُول بعْضُ الأنْفُسِ المُذْنبةِ حِين ترى العذاب يوم القِيامةِ:ليْت لِي رجْعــةً إلى الــدُّنْيا فاتّبع الرُّسُل،وأكُون مِن المُهْتدِين المُحْسنِين فِي أعمالِهِمْ.
ويقُولُ اللهُ تعالى لِهؤُلاءِ المُتباطِئِين فِي التّوْبةِ:إنّ ردّهُ تعالى على تِلْك الأنْفُسِ التِي تتمنّــى المُنى يوْم القِيامةِ،وتتحسّرُ على ما كان مِنْها مِنْ قُصُورٍ،هُو أنّهُ لا فائدة مِنْ ذلِــك كُلِّــهِ اليوم،فقدْ جاءتْك آياتِي فِي الدُّنْيا على لِسانِ رُسُلِي تُذكِّرُك وتدْعُوك وتُنذِرُك فكــذّبْت بِها،واسْتكْبرْت عنْ قبُولِها،وكُنْت مِن الثّابِتِين على الكُفْرِ.[4278]
الإنابة.والإسلام.والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام..هذا هو كل شــيء.بــلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء! إنه حساب مباشر بــين العبــد والرب.وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق.من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب.
ومــن أراد الإنابــة مــن الضــالين،فلينب.ومــن أراد الاستســلام مــن العصــاة فليستسلم.وليأت..ليأت وليدخل فالباب مفتوح.والفيء والظل والندى والرخــاء:كلــه وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب! وهيا.هيا قبل فوات الأوان.هيا «مِنْ قَبْــلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ»..فما هنا لك من نصير.هيا فالوقت غير مضمون.وقــد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار.هيا.
«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ»..وهو هذا القرآن بين أيديكم..«مِنْ قَبْــلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ»..هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة،وعلى التفريط في حق اللّه،وعلى السخرية بوعد اللّه:«أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ:يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ.وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»..أو تقول إن اللّه كتب عليّ الضــلال ولــو كتب عليّ الهدى لاهتديت واتقيت:«أَوْ تَقُــولَ لَــوْ أَنَّ اللَّــهَ هَــدانِي لَكُنْــتُ مِــنَ الْمُتَّقِينَ»..وهي علالة لا أصل لها.فالفرصة ها هي ذي سانحة،ووسائل الهدى ما تــزال حاضرة.وباب التوبة ها هو ذا مفتوح! «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ:لَوْ أَنَّ لِــي كَــرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»..وهي أمنية لا تنال.فإذا انتهت هــذه الحيــاة فــلا كــرة ولا رجوع.وها أنتم أولاء في دار العمل.وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود.وستسألون

[4278] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

عنها مع التبكيت والترذيل:«بَلى.قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ»![4279]

٦. أن يكونوا جنداً للرحمن:

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [الصافات:١٧١ - ١٧٣]

ولقدْ سبق وعْدُ اللهِ فِي الكِتابِ الأوّلِ أنّ العاقِبة لِلرُّسُلِ وأتْباعِهِم الُمخْلِصِين فِي الدُّنْيا والآخِرة.

وأنّهُ سينْصُرُهُمْ ويُؤزِّرُهُمْ ويُذِلُّ أعْداءهُمْ وأعْداء اللهِ.وإِنّ جُنْد اللهِ الذِين يُقاتِلُون لِتكُون كلِمةُ اللهِ هِي العُلْيا،ستكُون لهُمْ الغلبةُ على أعْدائِهِمْ فِي الحرْب.

وأعْرِضْ عنْهُمْ يا مُحمّدُ،واصْبِرْ على أذاهُمْ،وانْتظِرْ مُدّةً قلِيلةً،فإِنّ الله سيجْعلُ لك العاقِبة،والنّصْر والغلبة [4280]

والوعد واقع وكلمة اللّه قائمة.ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان،على الرغم من جميع العوائق،وعلى الرغم من تكذيب المكذبين،وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين.ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار.وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل.تسيطر على قلوب الناس وعقولهم،وتكيف تصوراتهم وأفهامهم.وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض.وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل،وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل.باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها.وحقت كلمة اللّه لعباده المرسلين.إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.هذه بصفة عامة.وهي ظاهرة ملحوظة.في جميع بقاع الأرض.في جميع العصور.

[4279] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٥١)

[4280] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٣٨، بترقيم الشاملة آليا)

وهي كذلك متحققة في كل دعوة للّه،يخلص فيها الجند،ويتجرد لها الدعاة.إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق،وقامت في طريقها العراقيل.ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار،وقوى الدعاية والافتراء،وقوى الحرب والمقاومة،وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها.ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده اللّه لرسله.والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه.الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.هذا الوعد سنة من سنن اللّه الكونية.سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء..ولكنها مرهونة بتقدير اللّه،يحققها حين يشاء.ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة،ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند اللّه وأتباع رسله.ويريد اللّه صورة أخرى أكمل وأبقى.فيكون ما يريده اللّه.ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون..ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد اللّه أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة.وكان ما أراده اللّه هو الخير لهم وللإسلام.وكان هو النصر الذي أراده اللّه لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود اللّه في معركة من المعارك،وتدور عليهم الدائرة،ويقسو عليهم الابتلاء لأن اللّه يعدهم للنصر في معركة أكبر.ولأن اللّه يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع،وفي خط أطول،وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة اللّه،ومضت إرادته بوعده،وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد:«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ»..[٤٢٨١]

[٤٢٨١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٧٨٨)

٧. بذل الجهد الكامل لهداية الكفار واليأس من إصلاحهم:

قال تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف: ١١٠]

يُذكِّرُ اللهُ تعالى رسُولهُ ﷺ بأنّهُ أرْسل رُسُلاً قبْلهُ فاقْتضتْ حِكْمتُهُ تعالى أنْ يتراخى نصْرُ الله عنِ الرُّسُلِ،وأنْ يتطاول عليْهِمُ التّكْذيبِ مِنْ قوْمِهِمْ،حتّى إذا زُلْزِلتِ النُّفُوسُ،واسْتشْعرتِ القُنُوط واليأْس مِن النّجاةِ والنّصْرِ،فحينئذٍ يأْتِي نصْرُ اللهِ،فيُنجِّي منْ يشاءُ اللهُ إنْجاءهُ،ويُهْلِكُ منْ يشاءُ إهْلاكهُ،ولا يرُدُّ أحدٌ بأْس اللهِ وعِقابهُ عنِ القوْمِ المُجْرِمين.

وفي قوْلِهِ تعالى (كُذِبُوا) قراءتان:

الأُولى - (كُذِّبُوا) - بِضمِّ الكافِ وتشْدِيدِ الذّالِ - وكذلك كانتْ تقْرؤُها عائشةُ رِضْوانُ اللهِ عليْها - ومعْناها:إنّ الرُّسُل اسْتيْقنُوا أنّ قوْمهُمْ قدْ كذّبُوهُمْ،ولنْ يُؤْمِنُوا لهُمْ،ويئِسُوا مِنْ قوْمِهِم الكافِرِين.

والثّانِيةُ - (كُذِبُوا) - بِضمِ الكافِ وتخْفِيفِ الذّالِ - وكذلك كان يقْرؤُها ابْنُ عبّاسٍ - ومعْناها:إنّهُ لمّا يئِس الرُّسُلُ مِنْ أنْ يسْتجِيب لهُمْ قوْمُهُمْ،وظنّ قوْمُهُمْ أنّ الرُّسُل قدْ كذبُوهُمْ،جاء نصْرُ اللهِ فأيّد الرُّسُل.ففِي القِراءةِ الأُوْلى:يشْعُرُ الرُّسُلُ أنّهُمْ كُذِّبُوا مِنْ قِبلِ أقْوامِهِمْ.

وفِي القِراءةِ الثّانِيةِ:يُدْرِكُ القوْمُ أنّ الرُّسُل كذبُوهُمْ بِما جاؤُوهُمْ بِهِ..[٤٢٨٢]

استيئس:واجه اليأس،ووقع فى تصوره أن لا ملجأ،ولا نجاة،وذلك فى لقاء الأحداث،ومصادمة الشدائد..كذبوا:أي كذب عليهم،إذ لم يتحقق لهم ما وعدوا به إلى أن بلغ بهم الحال إلى هذا اليأس..- وقوله تعالى:«حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا»..

[٤٢٨٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

حتّى حرف غاية لما قبله..وهنا كلام محذوف هو الغاية التي يشير إليها هذا الحرف..والتقدير:

أن مهمة الرسل هى الوقوف فى وجه هذا الظلام الزاحف،والتصدّى لتلك القوى العاتية من قوى الشرّ والعدوان،وأهم مطالبون بأن يثبتوا،ويصبروا،ويصابروا.فإن نصر الله آت لا ريب فيه..وهكذا يظل الرسل فى متلاطم الشدائد والمحن،حتى لقد يدخل اليأس عليهم،وتغيم الحياة فى أعينهم،ويغمّ عليهم طريق النجاة،ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم- عندئذ تهب ريح النصر،وتطلع عليهم تباشير الصباح،فتطوى جحافل الظلام،وتطارد فلوله..

وإذا دولة الباطل قد ذهبت،وذهبت آثارها،وإذا راية الحق قد علت،وخفقت أعلامها..

وفى هذا تسلية للنبىّ الكريم،وشحد لعزيمته،وتثبيت لقدمه،وتطمين لقلبه،وتأكيد للوعد الذي وعد به من ربّه فى قوله تعالى:«كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢١:المجادلة) هذا،وليس فى استيئاس الرسل،وفى إطافة الظنون بهم،وبأنهم قد كذبوا- ليس فى هذا ما ينقص من قدر الرّسل،أو يشكك فى كمال إيمانهم بربهم،واستيقانهم من صدق وعده..فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به،ولكن هناك مواقف حادّة من الضيق،وأحوال بالغة من الشدّة،تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره،وتمثّل له الحقائق المحسوسة التي عايشها،ونزلت من عقله مترل اليقين،وقد قلبت أوضاعها،وتبدّلت حقائقها- عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف،يخون الإنسان يقينه،ويفلت منه زمام أمره..ثم يعود إلى موقفه،أشدّ تثبتا،وأقوى يقينا،وأرسخ قدما..إنها سحابة صيف،تغشى وجه الشمس،ثم لا تلبث حتى تزول،وتسفر الشمس عن وجه أبهى بهاء،وأضوأ ضوءا،وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة..

فتلك الحال التي تمثل الرسل فى هذا الموقف،هى القمة التي تنتهى عندها طاقة الاحتمال البشرى،فى مصادمة الأحداث،ومدافعة الأهوال والشدائد..

وهى قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله..حيث تون الخطوة التالية بعدها انخلاعـــا من عالم البشر،إلى العالم العلوىّ،وعندها تهبّ ريح النصر،وتجىء أمداد السماء.! وفى هذا ابتلاء للرسل،واستخلاص لكل ما عندهم من مذخور..من قوى الصبر والعزم والإيمان..

- قوله تعالى:«فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» - إشارة إلى أن نصر الله الذي يحقق به لرسله ما وعدهم به،يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين..فـــإن هذا النصر إنما يمشى على جثث أعداء الرسل،الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية،ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة،حتى لكادوا يفتنونهم فى دينهم:«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّـــهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (٣٢:التوبة)[٤٢٨٣].

---

٨. الصبر على أذى الكفار في حال الضعف:

قال تعالى:{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّـــى أَتَـــاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:٣٤]

يلْفتُ اللهُ تعالى نظر رسُولِه إلى ما لاقاهُ الرُّسُلُ قبْلهُ منْ تكْذيبِ أقْوامِهِمْ لُهمْ،فصبرُوا على الإيذاءِ والتّكْذيبِ،حتّى جاء نصْرُ اللهِ.ثُمّ يقُولُ لهُ:فعليْـــك أيُّهـــا الرّسُـــولُ أنْ تتأســـى بِهِمْ،وتصْبِر،فكما جاء نصْرُ اللهِ منْ سبقك مِن الرُّسُلِ،كذلك سينْصُرُك اللهُ على أعْدائِك الكافِرِين،ولا مُبدِّل لكلماتِ اللهِ التي قضى فِيها أنّ النّصْر والعاقِبة ستكُونان لِلْمُؤْمِنِين في الدُّنيا والآخِرةِ.ولقدْ جاءك أيُّها الرّسُولُ نبأُ نصْرِ اللهِ رُسُلهُ على منْ كذّبُهمْ وعاداهُمْ مِنْ أقْوامِهِمْ،فيما قصّهُ عليْك ربُّك مِنْ نبأِ الُمرْسلِين قبْلك،وفِي ذلِك تسْلِيةٌ لك،وتثْبِيتٌ.[٤٢٨٤]

إن موكب الدعوة إلى اللّه موغل في القدم،ضارب في شعاب الزمن،مـــاض في الطريـــق اللاحب،ماض في الخط الواصب..مستقيم الخطى،ثابت الأقدام.يعترض طريقه المجرمـــون

[٤٢٨٣] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٥٩)

[٤٢٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٨٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

من كل قبيل،ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون،ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة،وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء

والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد..والعاقبة هي العاقبة،مهما طال الزمن ومهما طال الطريق..إن نصر اللّه دائما في نهاية الطريق:«وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ،فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا،وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ،وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ»..

كلمات يقولها اللّه - سبحانه - لرسوله - ﷺ-..كلمات للذكرى،وللتسرية وللمواساة،والتأسية..وهي ترسم للدعاة إلى اللّه من بعد رسول اللّه - ﷺ- طريقهم واضحا،ودورهم محددا،كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته،ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق...إنها تعلمهم أن سنة اللّه في الدعوات واحدة.كما أنها كذلك وحدة.وحدة لا تتجزأ..دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب،وتتلقى أصحابها بالأذى..وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى..

وسنة تجري بالنصر في النهاية..ولكنها تجيء في موعدها.لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب،ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم،ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة،وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة..لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله.فإن اللّه لا يعجل لعجلة أحد من خلقه.ولا مبدل لكلماته.سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم،أم تعلقت بالأجل المرسوم.إنه الجد الصارم،والحسم الجازم،إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية [٤٢٨٥]...

هو عزاء بعد عزاء للنبيّ الكريم،ورحمات من ربّ رحيم تتنزّل عليه،وهو في مواجهة هذا العناد والعنت الذي يلقاه من قومه..وفى هذا العزاء يرى النبي- ﷺ- مشاهد كثيرة لهذا

[٤٢٨٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٥٠١)

المشهد الذي يعيش فيه..فهناك رسل كثيرون من رسل الله قد كذّبوا من أقوامهم،وأوذوا فى أنفسهم من سفهاء قومهم،ولكنهم اعتصموا بالصبر،واحتملوا الأذى فى سبيل الرسالة الكريمة التي شرفّهم الله بها..

فهذا نوح عليه السلام- يلقاه قومه بالنكير والاستهزاء،ويلاحقونه بالأذى والضرّ- وفى هذا يقول الله على لسانه:«أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ»(٣٥:هود).

وقد أخذهم الله بهذا المنكر..فأغرقهم ونجّى نوحا ومن معه:«فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ» (١١٩- ١٢٠:الشعراء).

وهذا هود- عليه السلام- يلقى قومه داعيا إلى الله،مبشرا ومنذرا بآياته،فتكون قولتهم له:«يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» (٥٣- ٥٤:هود)..ثم كانت عاقبتهم عاقبة كل ظالم..فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية:«وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (٦- ٨:الحاقة).

وهكذا كان الشأن مع صالح،ولوط،ومع كلّ نبى أعنته قومه،وكذبوا بآيات الله التي بين يديه..النجاة والسلامة للنبىّ والمؤمنين به،والهلاك والدّمار لمن كذبوا به،وبآيات ربه..

وفى هذا أسوة للنبىّ،وللمؤمنين معه..فليحتمل الأذى،وليصبر على الضرّ،وليحتمل المؤمنون الأذى وليصبروا على الضرّ،فإنّ العاقبة له ولهم،وإن النصر للحق ولمن ينصرون الحق..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا،وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ» فتلك هى سنّة فى الذين خلوا،ولن تتخلّف آثارها فى حاضر أو مستقبل..فإن أحكام الله لا تنقض وكلماته لن تتبدّل..[٤٢٨٦].

[٤٢٨٦] - التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٦٠)

وقال تعالى: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم:١٢]

وبعْد أنْ أجابَهُم الأنْبياءُ على شُبُهاتِهِمْ،أخذ المُشْرِكُون يُخوِفُونَهُمْ،ويتوعّدُونَهُمْ بالانْتِقامِ والإيذاءِ،فقال لهُمُ الأنْبياءُ إنّنا لا نخافُ تَهْديدكُمْ،بلْ نتوكّلُ على اللهِ،ونعْتمدُ عليْهِ،وكيْف لا نتوكّلُ على اللهِ،وقدْ هدانا لأقْومِ الطُّرُقِ وأوْضحِها وأبْينِها؟ وسنصْبِرُ على ما ألْحقْتُمُوهُ بنا مِن الأذى بِأقْوالِكُمْ وأفْعالِكُمْ،ومنْ توكّل على اللهِ كفاهُ ما أهمّهُ وأغمّهُ.. [4287]

هو تقرير وتوكيد لتلك الحقيقة التي أعلنها الرسل،وهى أنهم قد توكلوا على الله،وأسلموا وجوههم له..ولم لا يتوكلون عليه وقد اصطفاهم لأكرم رسالة،وجعلهم مصابيح هدى للناس؟ لقد هداهم الله إلى الحق،وأقامهم على صراطه المستقيم..فكيف لا يسلمون أمرهم إليه،وهو سبحانه الذي أخذ بأيديهم،فأخرجهم من تلك الظلمات المطبقة على أقوامهم؟

وفى قوله تعالى:«وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا» هو بعض ما يقدمه الرسل لله،وهو الصبر على الأذى الذي يلقونه فى سبيل تبليغ رسالته.. [4288]

إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها،فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت،لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام!..

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام - عليهم السلام - أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة..«وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ:لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا»..فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم،أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص.

[4287] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

[4288] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٥٩)

إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم،ويندمجوا في تجمعهم،ويذوبوا في هذا التجمع.أو أن يطردوهم بعيدا وينفوهم من أرضهم..

و لم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي،ولا أن يذوبوا فيه،ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص..هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي..و لم يقولوا - كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام..ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات -:حسنا! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي،لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه.

وليس في ذلك اختيار..إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات..هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس للّه وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان.كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار[٤٢٨٩]!

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى اللّه في جميع الأحوال.وهي أن تحقيق وعد اللّه لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بالحق،لا يقع ولا يكون،إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم..فذلك الفصل من اللّه لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي،ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته..وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد اللّه بالنصر والتمكين..وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى اللّه،وهم واعون مقدرون.[٤٢٩٠]..

[٤٢٨٩] - يراجع بتوسع فصل:«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» في كتاب «معالم في الطريق».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

[٤٢٩٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٧٥٦)

وقال تعالى:{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَـرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [الأحقاف:٣٥]

فاصْبِرْ يا مُحمّدُ على ما تُلاقيه مِنْ تكْذيبِ قومك لك،كما صبر أصْحابُ القُوّةِ والثّبات،مِن الرُّسُلِ الذين سبقُوك،على تكْذيبِ أقْوامِهِمْ لهُمْ حينما أبْلغُوهُمْ دعْوة اللهِ إلى الإيمانِ بِه.ولا تسْتعْجِلْ بسُؤالِ ربِّك أنْ يُنزِل بِهِم العذاب،فهُو واقعٌ بِهِمْ لا محالة.وأنّهُمْ حِينما ينْزِلُ بِهِم العذابُ يوم القِيامة يروْن أنّ مُدّة لبثِهِمْ في الدُّنيا (أوْ في قُبُورِهِمْ) كانتْ قصِيرةً،حتّى ليحْسبُوها ساعة مِنْ نهارٍ.

وهذا الذي وُعِظْتُم به لكافٍ في الموعِظة،ولا يهلكُ بالعذابِ إلا الكافِرُون الخارِجُون عنْ طاعةِ اللهِ وأمْرِه،لأنّ الله لا يُعذِّبُ إلا منْ يسْتحِقُّ العذاب..[4291]

أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم،وتم يقينهم،فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة،وقاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة،وهو ﷺ لم يزل صادعا بأمر الله مقيما على جهاد أعداء الله صابرا على ما يناله من الأذى،حتى مكن الله له في الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم،ﷺ

.وقوله:{وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} أي:لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم فلا يستخفنك بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب،و {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا} في الدنيا {إلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل.{بَلاغٌ} أي:هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل.أو هذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم،وزاد إلى الدار

[4291] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

الآخرة،ونعم الزاد والبلغة زاد يوصل إلى دار النعيم ويعصم من العذاب الأليم،فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.{فَهَلْ يُهْلَكُ} بالعقوبات {إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} أي:الذين لا خير فيهم وقد خرجوا عن طاعة ربهم و لم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل.وأعذر الله لهم وأنذرهم فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم نسأل الله العصمة.[٤٢٩٢].

٩. الاستغاثة بالله تعالى:

قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)} [الأنفال:١٠،٩]

حينما التقت الفئتان،المُسْلمُون والمُشْركُون في ساحة المعْركة،وجد المُسْلمُون المُشْركين كثيري العدد،فاسْتغاث الرّسُولُ بربِّه،وقال:اللّهُمّ أنْجزْني وعْدك الذي وعدْتني.فأنْزل اللهُ تعالى هذه الآية الكريمة.وفيها يُعْلمُ اللهُ تعالى رسُولهُ أنّهُ اسْتجاب لدُعائه ودُعاء المُسْلمين،وأنّهُ سيمُدُّهُمْ بألْفٍ من الملائكة يأْتُونهُمْ مدداً يُرْدفُ بعْضُهُمْ بعْضاً،أيْ يأتي بعْضُهُمْ إثْر بعْضٍ.

ويذْكُرُ تعالى:أنّهُ لمْ يجْعلْ إرْسال الملائكة لإمْداد المُسْلمين في بدْرٍ إلاّ بُشْرى للْمُسْلمين،وتطْميناً لقُلُوبهمْ،بأنّهُمْ سينْتصرُون،وتثْبيتاً لأقْدامهمْ أثْناء القتال،لأنّهُ قادرٌ على نصْرهمْ بدُون ذلك،لأنّ النّصْر منْ عنْد الله وحْدهُ،فهُو العزيزُ الجانب،الحكيمُ في تدْبيره..[٤٢٩٣]

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،ح وحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ،وَاللَّفْظُ لَهُ،حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ،حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ

[٤٢٩٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٨٤)

[٤٢٩٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ [ص:١٣٨٤] نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺإِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺالْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ:فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ،إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:أَقْدِمْ حَيْزُومُ،فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ،وَشُقَّ وَجْهُهُ،كَضَرْبَةِ السَّوْطِ [ص:١٣٨٥] فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ،فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ،فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«صَدَقْتَ،ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»،فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ،وَأَسَرُوا سَبْعِينَ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ:«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا نَبِيَّ اللهِ،هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ،أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ،فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ،وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ،فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ،فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا،فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ،وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺوَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ،وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ،لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ- وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ

وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال:٦٩] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ" صحيح مسلم[٤٢٩٤]

إنها المعركة كلها تدار بأمر اللّه ومشيئته،وتدبيره وقدره وتسير بجند اللّه وتوجيهه..وهي شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشـــهد الذي كان،كأنه يكون الآن! فأما قصة الاستغاثة فقد روى أَبُو زُمَيْلٍ،قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺإِلَـــى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ[٤٢٩٥] وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً،فَاسْـــتَقْبَلَ نَبِـــيُّ اللهِ ﷺالْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ رَبَّهُ:اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَـــا وَعَـــدْتَنِي،اللَّهُمَّ آتِنِـــي مَـــا وَعَدْتَنِي،اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ،مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلاَ مَاذَا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ،ﷺ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْـــرٍ

[٤٢٩٤]- صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

[ش (لما كان يوم بدر) اعلم أن بدرا هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة(فجعل يهتف بربه) معناه يصيح وستغيث بالله في الدعاء(أن تهلك) ضبطوا تهلك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصابة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله(العصابة) الجماعة

(كذاك مناشدتك ربك) المناشدة السؤال مأخوذة من النشيد وهو رفع الصوت هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذاك ولبعضهم كفاك وكل بمعنى(مناشدتك) ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلا بكفاك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك وكذاك من معنى الفعل

(ممدكم) أي معينكم من الإمداد(مردفين) متتابعين(أقدم حيزوم) ضبطوه بوجهين أصحهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بهمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بحذف حرف النداء أي يا حيزوم(فإذا هو قد خطم أنفه) الخطم الأثر على الأنف(وصناديدها) يعني أشرافها الواحد صنديد والضمير في صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة(فهوى) أي أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشيء يهوي هوى والهوى المحبة

(ولم يهو ما قلت) هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها ولم يهوي بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقي ويصبر بالياء ومنه قول الشاعرألم يأتيك والأنباء تنمي(حتى يثخن في الأرض) أي يكثر القتل والقهر في العدو]

[٤٢٩٥] - في روايات أخرى أنهم بين الألف والتسع مائة.(السيد رحمه الله)

رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ،فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،وَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ،فَاسْتَجَابَ لَكُمْ،أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ،مُرْدِفِينَ} [الأنفال]،فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلاَئِكَةِ[٤٢٩٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – أَنَّ النَّبِىَّ – ﷺ- قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ « هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ – عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ »[٤٢٩٧].

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر:عددهم.وطريقة مشاركتهم في المعركة.وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين...ونحن – على طريقتنا في الظلال – نكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة.والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية:«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ»..فهذا عددهم..

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا،سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ»..فهذا عملهم..ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية..

وبحسبنا أن نعلم أن اللّه لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم،وهي قلة والأعداء كثرة.وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه اللّه – سبحانه – في كلماته..

روى البخاري عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِىِّ عَنْ أَبِيهِ – وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ – قَالَ جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ- فَقَالَ « مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ قَالَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ – أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – قَالَ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ »[٤٢٩٨]....

[٤٢٩٦] – صحيح ابن حبان [١١ /١١٤] (٤٧٩٣) وتفسير ابن أبي حاتم [٧ /٢٥](٩٥٩١) وصحيح مسلم- المكنز [١٢ /٢٩](٤٦٨٧)

[٤٢٩٧] – صحيح البخارى- المكنز [١٣ /٣٥٦](٣٩٩٥)

[٤٢٩٨] – صحيح البخارى- المكنز [١٣ /٣٥٣](٣٩٩٢)

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ،فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ.وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى،وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ،وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون،وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين..ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان اللّه إلا أن اللّه سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببا ينشئ نتيجة،إنما يرد الأمر كله إليه - سبحانه - تصحيحا لعقيدة المسلم وتصوره.فهذه الاستجابة،وهذا المدد،وهذا الإخبار به...كل ذلك لم يكن إلا بشرى،ولتطمئن به القلوب.أما النصر فلم يكن إلا من عند اللّه ولا يكون..هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا،حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلا..

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي،وأن يمضوا في طاعة أمر اللّه،واثقين بنصر اللّه..كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم..وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة،وتثبيتا للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي..وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند اللّه معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة.ثم يجيء النصر من عند اللّه وحده.حيث لا يملك النصر غيره.وهو «العزيز» القادر الغالب على أمره.وهو «الحكيم» الذي يحل كل أمر محله [٤٢٩٩]..

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها،والخلوص واللجوء لله وحده،والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛لكي يترل نصره.ويبقى مشهد نبيه،وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله،يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه،يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات،وفي مثل هذه المواطن،حيث تناط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة.[٤٣٠٠]

[٤٢٩٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠١٠)

[٤٣٠٠] - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٤٠٨)

١٠. عدم الخوف إلا من الله:

قال تعالى:{ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)} [آل عمران]

بعْد أن انْصرفتْ قُريْشٌ منْ ميْدان المعْركة يوْم أحُد مُتّجهةً إلى مكّة،ندمتْ على الانْصراف قبْل اسْتئْصال شأفة المُسْلمين،والقضاء عليْهمْ،ففكّرُوا في العوْدة إلى المدينة.

وعلم رسُولُ الله ﷺ بذلك،فندب المُسْلمين للْخُرُوج وراء المُشْركين ليثْنيهُمْ عن التّفْكير في العوْدة،وأمر بألاّ يخْرُج معهُ إلاّ منْ شهد أحُداً،فتسارع النّاسُ إلى الخُرُوج معهُ على ما هُمْ عليه منْ جراح

وقدْ وعد اللهُ منْ أحْسن منْ هؤُلاء المُسْتجيبين للْرسُول ﷺ واتّقى أجْراً عظيماً.

وخافتْ قُريشٌ أنْ يجْمع رسُولُ الله ﷺ أهْل المدينة ممّنْ لمْ يشْتركُوا في المعْركة،ويخْرُج وراءهُمْ،فأرْسلُوا إليه بعْض ناقلي الأخْبار ليُهوّلُوا عليه،ليكُفّ عن اللّحاق بهمْ،وقال ناقلُوا الأخْبار للْمُسْلمين:إنّ مُشْركي قُريْش (النّاس) قدْ حشدُوا لكُمْ،وجمعُوا قُواهُمْ،فاحْذرُوهُمْ،واخْشوْهُمْ،فلمْ يزدْ هذا القوْلُ هؤُلاء المُؤْمنين - الذين اسْتجابُوا للْرسُول منْ بعْد ما أصابهُمُ القرْحُ وخرجُوا مع رسُول الله ﷺ مُلبّين دعْوتهُ،راغبين في نيْل رضْوان ربّهمْ ونصْره - إلاّ إيماناً بربهمْ،وثقةً بوعْده ونصْره وأجْره،وردُّوا على مُخاطبيهمْ قائلين:إنّهُمْ يتوكّلُون على الله،وهُو حسْبُهُمْ.

فلمّا توكّلُوا على الله كفاهُمُ اللهُ ما أهمّهُمْ وأغمّهُمْ،وردّ عنْهُمْ بأس النّاس (الكافرين)،فرجعُوا بنعْمة من الله لمْ يمْسسْهُمْ سُوْءٌ،وقدْ فازُوا برضْوان الله،وعظيم فضْله،واللهُ واسعُ الفضْل

(خرج المُسْلمُون مع الرّسُولِ إلى موْقِعٍ يُعْرفُ بحمْراءِ الأسدِ،وأرْسل إلى المُشْركين رُسُلاً يُحذِّرُونهُمْ،فخافتْ قُريْشٌ وتابعتْ سيْرها نحْو مكّة).

وكان أبُو سُفْيان قدْ واعد رسُول الله ﷺ بدْراً من العامِ القابلِ،فخرج رسُول الله ﷺ بالْمُسْلمين إلى بدْرٍ فِي الموْعِدِ المُحدّدِ،وتخلّفتْ قُريْشٌ،فاشْترى رسُول الله عيْراً مرّتْ بهِمْ فِي الموْسِمِ،ثُمّ باعها فربح،ووزّع الرِّبْح على أصْحابه،فانْقلبُوا منْ غزْوة بدْرِ الثّانِية لمْ يمْسسْهُمْ سُوءٌ،ونالُوا رِضْوان اللهِ،وحصلُوا على فضْلِه فِي الرِّبْحِ.واللهُ عظِيمُ الفضْلِ على عباده.

يُبيِّنُ اللهُ تعالى لِلْمُؤْمنين،أنّ الشّيْطان هُو الذي يُخوِّفُكُمْ منْ أوْليائه المُشْركين،ويُوهِمُكُمْ أنّهُمْ ذوُو بأْسٍ وقُوّة،وهُو الذي قال لكُمْ إنّ النّاس قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشوْهُمْ،فلا تخافُوا أوْلياء الشّيْطانِ،وتوكّلُوا على اللهِ،والْجؤُوا إليهِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنِين حقّاً،فإنّهُ كافيكُمْ إيّاهُمْ،وناصِرُكُمْ عليْهِمْ.وخافُوهُ هُو فهُو القادِرُ على النّصْرِ وعلى الخُذْلانِ،وعلى الضّرِّ والنّفْعِ.. [4301]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّه وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ} [آل عمران:١٧٢] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ،قَالَتْ لِعُرْوَةَ:يَا ابْنَ أُخْتِي،كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ:الزُّبَيْرُ،وَأَبُو بَكْرٍ،لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺمَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ،وَانْصَرَفَ عَنْهُ المُشْرِكُونَ،خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا،قَالَ:«مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا،قَالَ:كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،وَالزُّبَيْرُ" صحيح البخارى [4302]

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول - ﷺ- إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة.

وهم مثخنون بالجراح.وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة.وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة،ومرارة الهزيمة،وشدة الكرب.وقد فقدوا من أعزائهم من

[4301] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

[4302] - صحيح البخاري (٥/ ١٠٢)(٤٠٧٧)

[ش (استجابوا) أطاعوا الأمر وأجابوا النداء.(القرح) الجراح./ آل عمران ١٧٢ /.(إثرهم) خلفهم وعقبهم.(فانتدب) من قولهم ندبه لأمر فانتدب أي دعاه فأجاب]

فقدوا،فقل عددهم،فوق ما هم مثخنـــون بـــالجراح! ولكـــن رســـول اللّـــه – ﷺ– دعاهم.ودعاهم وحدهم.و لم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهـــم – ليقـــويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! – فاستجابوا..استجابوا لدعوة الرسول – ﷺ– وهي دعوة اللّه – كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهـــومهم كـــذلك – فاستجابوا بهذا للّه والرسول «مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ»،ونزل بهـــم الضـــر،وأثخنتهم الجراح.

لقد دعاهم رسول اللّه – ﷺ– ودعاهم وحدهم.وكانت هذه الدعوة وما تلاهـــا مـــن استجابة تحمل إيحاءات شتى،وتومئ إلى حقائق كبرى،نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول اللّه – ﷺ– شاء ألا يكون آخر مـــا تنضـــم عليـــه جـــوانح المســـلمين ومشاعرهم،هو شعور الهزيمة،وآلام البرح والقرح فاستنهضهم لمتابعة قريش،وتعقبها،كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء،وليست نهاية المطاف.وأنهم بعد ذلـــك أقويـــاء،وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء،إنما هي واحدة وتمضي،ولهم الكرة عليهم،متى نفضوا عنـــهم الضعف والفشل،واستجابوا لدعوة اللّه والرسول.

ولعل رسول اللّه – ﷺ– شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش،وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته.فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالا.وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها..

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة.

ولعل رسول اللّه – ﷺ– شاء أن يشعر المسلمين،وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم،بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض..حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها.

ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها،وليس لهم من غاية في حياتهم سواها.عقيدة يعيشون لها وحدها،فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها،ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها،ولا يقدمونها فداها..

لقد كان هذا أمرا جديدا في هذه الأرض في ذلك الحين.ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها – بعد أن يشعر المؤمنون – بقيام هذا الأمر الجديد،وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة.
ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح.ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة:صورة التوكل على اللّه وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم – كما أبلغهم رسل أبي سفيان – وكما هوّل المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا –:«الَّذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ:إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..
هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة.وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة..

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة:
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَحَدّثَنِي عَبْدُ اللّه بْنُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِت،عَنْ أَبِي السّائِبِ مَوْلَى عَائِشَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ أَنّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّه ﷺمِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ،كَانَ شَهِدَ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللّه قَالَ شَهِدْتُ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺأَنَا وَأَخٌ لِي،فَرَجَعْنَا جَرِيحَيْنِ فَلَمّا أَذّنَ مُؤَذّنُ رَسُولِ اللّه ﷺبِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوّ قُلْت لِأَخِي أَوْ قَالَ لِي:أَتَفُوتُنَا غَزْوَةٌ مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺ؟ وَاَللّه مَا لَنَا مِنْ دَابّة نَرْكَبُهَا،وَمَا مِنّا إلّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺوَكُنْت أَيْسَرَ جُرْحًا،فَكَانَ إذَا غُلِبَ حَمَلْته عُقْبَةً وَمَشَى عُقْبَةً حَتّى انْتَهَيْنَا إلَى مَا انْتَهَى إلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللّه ﷺحَتّى انْتَهَى إلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ،فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَأَقَامَ بِهَا الِاثْنَيْنِ وَالثّلَاثَاءَ وَالْأَرْبِعَاءَ ثُمّ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ.
قَالَ وَقَدْ مَرّ بِهِ كَمَا حَدّثَنِي عَبْدُ اللّه بْنُ أَبِي بَكْرٍ،مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيّ،وَكَانَتْ خُزَاعَةُ،مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ عَيْبَةَ نُصْحٍ لِرَسُولِ اللّه ﷺبِتِهَامَةَ صَفْقَتُهُمْ مَعَهُ لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِهَا،وَمَعْبَدٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ فَقَالَ يَا مُحَمّدُ أَمَا وَاَللّهِ لَقَدْ عَزّ عَلَيْنَا مَا

أَصَابَك،وَلَوَدِدْنَا أَنّ اللّهَ عَافَاك فِيهِمْ ثُمّ خَرَجَ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺبِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حَتّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ بِالرّوْحَاءِ وَقَدْ أَجْمَعُوا الرّجْعَةَ إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺوَأَصْحَابِهِ وَقَالُوا:أَصَبْنَا حَدّ أَصْحَابِهِ وَأَشْرَافَهُمْ وَقَادَتَهُمْ ثُمّ نَرْجِعُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ لَنَكُرّنّ عَلَى بَقِيّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنّ مِنْهُمْ.فَلَمّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ مَعْبَدًا،قَالَ مَا وَرَاءَك يَا مَعْبَدُ ؟ قَالَ مُحَمّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطّ،يَتَحَرّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرّقًا،قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا،فِيهِمْ مِنْ الْحَنَقِ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطّ ؛قَالَ وَيْحك مَا تَقُولُ ؟ قَالَ وَاَللّهِ مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتّى أَرَى نَوَاصِيَ الْخَيْلِ قَالَ فَوَاَللّهِ لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَهُمْ قَالَ فَإِنّي أَنْهَاك عَنْ ذَلِكَ قَالَ وَاَللّهِ لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ عَلَى أَنْ قُلْتُ فِيهِمْ أَبْيَاتًا مِنْ شِعْرٍ قَالَ وَمَا قُلْت ؟ قَالَ قُلْت:[ص ١٠٣]

كَادَتْ تُهَدّ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي...إذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدِى بِأُسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةٍ...عِنْدَ اللّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدْوًا أَظُنّ الْأَرْضَ مَائِلَةً...لَمّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْت:وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ...إذَا تَغَطمطت الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ
إنّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةً...لِكُلّ ذِي إرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشٍ تَنَابِلَةٍ...وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

فَثَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ.

وَمَرّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ،فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا:نُرِيدُ الْمَدِينَةَ ؟ قَالَ وَلِمَ ؟ قَالُوا:نُرِيدُ الْمِيرَةَ قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلّغُونَ عَنّي مُحَمّدًا رِسَالَةً أُرْسِلُكُمْ بِهَا إلَيْهِ وَأُحَمّلُ لَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَبِيبًا بِعُكَاظٍ إذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟ قَالُوا نَعَمْ ؟ قَالَ فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنّا قَدْ أَجْمَعْنَا السّيْرَ إلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَهُمْ فَمَرّ الرّكْبُ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺوَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ فَأَخْبَرُوهُ بِاَلّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:حَدّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ أَنّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ لَمّا انْصَرَفَ يَوْمَ أُحُدٍ،أَرَادَ الرّجُوعَ إلَى الْمَدِينَةِ،لِيَسْتَأْصِلَ بَقِيّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺفَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ بْنِ

خَلَف:لَا تَفْعَلُوا،فَإِنّ الْقَوْمَ قَدْ حَرِبُوا،وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرُ الّــذِي كَــانَ فَارْجِعُوا،فَرَجَعُوا.فَقَالَ النّبِيّ ﷺوَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنّهُمْ هَمّوا بِالرّجْعَة وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذّاهِبِ".[٤٣٠٣]

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة،في تلــك النفوس الكبيرة.

النفوس التي لا تعرف إلا اللّه وكيلا،وترضى به وحده وتكتفي،وتزداد إيمانا به في ساعة الشدة،وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس:«حَسْبُنَا اللَّهُ،وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد اللّه للمتوكلين عليــه،المكتفين بــه،المتجردين له:«فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ».فأصابوا النجاة – لم يمسسهم سوء – ونالوا رضوان اللّه.وعادوا بالنجاة والرضى.«بِنِعْمَــةٍ مِــنَ اللَّــهِ وَفَضْلٍ»..

فهنا يردهم إلى السبب الأولى في العطاء:نعمة اللّه وفضله على من يشاء.ومــع التنويــه بموقفهم الرائع،فإنه يرد الأمر إلى نعمة اللّه وفضله،لأن هذا هو الأصل الكبير،الذي يرجع إليه كل فضل،وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيــل! «وَاللَّــهُ ذُو فَضْــلٍ عَظِيمٍ»..

بهذا يسجل اللّه لهم في كتابه الخالد،وفي كلامه الذي تتجاوب بــه جوانــب الكــون كله،صورتهم هذه،وموقفهم هذا،وهي صورة رفيعة،وهو موقف كريم.

وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف،فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة.نضجت.وتناسقت.واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها.وانجلى الغبش عن تصورها.وأخذت الأمر جدا كله.وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة،التي حــدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف.فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بــين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس..والفارق هائل والمسافة بعيدة..

[٤٣٠٣] – سيرة ابن هشام [٢ /١٠١] وهو معضل

لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا.أطار الغبش،وأيقظ القلوب،وثبت الأقدام،وملأ النفوس بالعزم والتصميم..نعم.وكان فضل اللّه عظيما في الابتلاء المرير..

وأخيرا يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفزع والجزع..إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب،وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة..ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان،وأن يبطلوا محاولته.فلا يخافوا أولياءه هؤلاء،ولا يخشوهم.بل يخافوا اللّه وحده.فهو وحده القوي القاهر القادر،الذي ينبغي أن يخاف:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ.فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه،ويلبسهم لباس القوة والقدرة،ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول،وأنهم يملكون النفع والضر..ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه،وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد،وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب،فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم،ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل،وأن يتضخم الشر،وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا،لا تقف في وجهه معارضة،ولا يصمد له مدافع،ولا يغلبه من المعارضين غالب..الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا.فتحت ستار الخوف والرهبة،وفي ظل الإرهاب والبطش،يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكرا،والمنكر معروفا،وينشرون الفساد والباطل والضلال،ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل،ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير..دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم،ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة.بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له،وجلاء الحق الذي يطمسونه..

والشيطان ماكر خادع غادر،يختفي وراء أوليائه،وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته..ومن هنا يكشفه اللّه،ويوقفه عاريا لا يستره ثوب من كيده ومكره.ويعرف المؤمنين الحقيقة:

حقيقة مكره ووسوسته،ليكونوا منها على حذر.فــلا يرهبــوا أوليــاء الشــيطان ولا يخافوهم.فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه،ويستند إلى قوته..إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر.هي قوة اللّه.وهي القوة التي يخشاها المؤمنون باللّه،وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء.فلا تقف لهــم قــوة في الأرض..لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان:«فَلا تَخــافُوهُمْ.وَخــافُونِ إِنْ كُنْــتُمْ مُؤْمِنِينَ»..[٤٣٠٤].

---

١١. عدم الفرار من المعركة:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَــارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَــبٍ مِــنَ اللَّــهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } [الأنفال:١٦،١٥]

يأْمُرُ اللّهُ تعالى المُؤْمنِين بالثّبات فِي المعْركة،وبمُواجهة الكافرِين بقُلُوبٍ مُؤْمنة،ويحُثّهُمْ على عدمِ الفِرارِ وتوْليةِ الظُّهُورِ للأعْداءِ،وإنْ كان الكافِرُون أكْثر مِن المُؤْمِنِين عدداً،لأنّ الفِرار يُحْدِثُ الوهن فِي الجيْشِ الإسْلامِي المُقاتِلِ.

ولكنّهُ تعالى سمح لِلْمُقاتِلِ بِحُرِّيّةِ الحركة أثْناءِ المعْركة،كأنْ ينْتقِل مِنْ مكانٍ فِي المعْركــة إلى مكانٍ آخر،لِنُصْرةِ فرِيقٍ مِن المُسْلِمِين،أوْ لِسدِّ ثغْرةٍ نفذ منْها العــدُوُّ،فالمُهِمُّ هُــو أنْ يكُون هدفُ المُقاتِلِ المُسْلِمِ النّصْر أو الشّهادة،وإطاعة أمْرِ القِيادة.أمّا الــذِين يتْرُكُــون المعْركة فِراراً وهرباً مِن الموْتِ،فإنّ الله تعالى يتوعّدُهُمْ بالعذاب الأليم يوْم القِيامة.[٤٣٠٥]

وفي صحيح البخارى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«اجْتَنِبُــوا السَّــبْعَ المُوبِقَاتِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:«الشِّرْكُ بِاللَّهِ،وَالسِّحْرُ،وَقَتْلُ الــنَّفْسِ الَّتــي

[٤٣٠٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٣٠)

[٤٣٠٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ،وَأَكْلُ الرِّبَا،وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[4306].

وقوله سبحانه:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ» هو درس للمؤمنين،يتلقونه فى هذا الموقف،الذي شهدوا فيه آيات الله،ورأوا بأعينهم أمداد نصره وتأييده،فليكن ذلك درسّا لهم يتلقون منه العظة والعبرة،وليصحبهم هذا الدرس فى كل موقف بعد هذا،يكون فيه بينهم وبين المشركين والكافرين قتال..فهو نداء عام للمؤمنين،المجاهدين فى سبيل الله،بأن يثبتوا للعدو،وأن يلقوه لقاء جادّا مصمما على النصر،أو الاستشهاد فى المعركة،دون أن يدخل على أحد منهم شعور بالفرار من وجه العدوّ،أيّا كان الموقف،وأيّا كانت قوة المشركين وشوكتهم..

وقوله تعالى:«وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..هو وعيد شديد لمن يدخل على نفسه من المؤمنين شعور بالهزيمة،فينكص على عقبه،ويعطى العدوّ دبره،فى أي موقف من مواقف القتال بين المؤمنين والمشركين..وقوله تعالى:«يومئذ» هو أىّ كان،لا يراد به يوم بعينه،كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين بجعل،هذا اليوم خاصّا بيوم بدر..وهذا فوق أنه غير متفق مع الدعوة العامة التي حملها القرآن الكريم إلى المؤمنين فى آيات كثيرة بالثبات فى الجهاد- غير متفق كذلك مع ترتيب الأحداث إذ أن سورة الأنفال،نزلت بعد بدر وأحداثها،وذلك باتفاق.وحال واحدة هى التي يحقّ للمؤمن فيها أن يعطى العدو ظهره،وهو أن يتحرّف لقتال،أي يرى تغيير موقفه الذي هو فيه،ويتخيّر موقفا آخر،أمكن له،وأصلح لموقفه فى القتال،أو أن يتحيز إلى فئة من المؤمنين،فينتقل من جماعة إلى

[4306] - صحيح البخاري (4/ 10)(2766)

[ش (اجتنبوا) ابتعدوا.(الموبقات) المهلكات.(السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع.والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها.(بالحق) كالقتل قصاصا.(التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته.(قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا.(المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا.(الغافلات) البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور]

جماعة،حيث يرى فى ذلك مصلحة فى النكاية بالعدوّ..فهذا التولّى بالوجه عن مواجهة العدوّ هنا،هو لحساب المعركة،لا لحسابه،ولا للضنّ بنفسه عن أن يواجه العدوّ،ولو كان فيه الموت.

وفى التعبير عن الصدّ عن العدوّ،والفرار منه بتولية الدّبر،تشنيع على من يأتى هذا الفعل،وفضح له،إذ كان كأنما يكشف سوأته لعدوّه أو يعطيه دبره![٤٣٠٧]

---

١٢. اليقين بوعد الله تعالى:

قال تعالى:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)} [الأحزاب]

ولّما رأى المُؤْمِنُون الصّادِقُون فِي إِيمانِهِم الأحزاب،يُحْدِقُون بالمدِينة،قالُوا:هذا ما وعدنا اللهُ ورسُولُهُ مِنْ الابتلاء والاختبار والامتحانِ بالشّدائد،الذي يعْقُبُهُ النّصْرُ القرِيبُ.وصدق اللهُ ورسُولُهُ فِي النّصْرِ والثّوابِ،كما صدق اللهُ ورسُولُهُ فِي الابتلاءِ والاخْتبارِ،وما زادهُمْ ذلِك إلا صبْراً على البلاءِ،وتصْدِيقاً بِتحْقِيقِ ما وعدهُمْ بِهِ اللهُ ورسُولُهُ،وتسليماً لِلقضاءِ.

[٤٣٠٧] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٨٠)

(وقال ابْنُ عبّاس:يعْنُون قوْلهُ تعالى فِي سُورةِ البقرةِ:مسّتْهُمُ البأْساءُ والضّرّاءُ وزلزلـــوا حتّى يقُول الرّسُولُ والّذِين آمنُوا معهُ متى نصْرُ اللهِ ألا إِنّ نصْر اللهِ قرِيبٌ).

لّما ذكر اللهُ تعالى أنّ الُمنافقِين نقضوا العهْد،وصف الُمؤمنين بأنّهُمُ اسْتمرُّوا على الُمحافظةِ على العهْدِ والمِيثاق،وأنّ مِنْهُمْ رِجالاً أوْفُوا بِما عاهدُوا الله عليهِ مِن الصّــبْرِ فِي الشِّــدّةِ والبأْساءِ،فاسْتُشْهِد بعْضُهُمْ فِي بدْرٍ،وبعْضُهُمْ اسْتُشْهِد فِي أُحُدٍ،وبعْضُهُمْ لقِي وجْه ربِّــهِ فِي غيرِ هذينِ الموْقفينِ،ومِنْهُمْ منْ مضى على الوفاءِ للهِ بِالعهْدِ،وما غيّرُوا وما بدّلُوا.

واللهُ تعالى يخْتبِرُ عِبادهُ بِالخوْفِ والزّلْزلةِ لِيمِيز الخبِيث مِن الطّيِّبِ،ويُظْهِر أمْر كُلٍّ مِنْهُما جلِيّاً واضِحاً،فيجْزِي أهْل الصِّدْقِ بِصِدْقِهِمْ بِما عاهدُوا الله عليهِ،ويُعـــذِّب المنـــافقِين النّاقِضِين لِلْعهْدِ،الُمخالِفِين لأوامِرِ ربِّهِمْ،إِذا اسْتمرُّوا على نِفاقِهِمْ،حتّى يلْقوْهُ،أمّا إِذا تابُوا وعمِلُوا صالِحاً فإِنّ الله يغْفِرُ لهُمْ ما سلف مِنْهُمْ مِــنْ ســيِّئاتٍ وآثــامٍ،واللهُ غفُـــورٌ رحِيمٌ،ورحْمتُهُ لِعِبادِهِ هِي الغالِبةُ لِغضبِهِ.

وردّ اللهُ الُمشْرِكِين،منْ قريْشٍ وغطْفان وأسد وسُليْمٍ،بِغيْظِهِمْ لِفوْتِ ما أملُوهُ مِن الظّفـــرِ بِمُحمّدٍ وصحْبِهِ،والفوْزِ بِالغنائِمِ،ولمْ يحْتجِ الُمؤْمِنُون إِلى مُنـــازلتِهِمْ لإِجْبـــارِهِمْ علـــى الانْسِحابِ،وإِنّما سلّط اللهُ عليهِمْ رِيحاً،وأرْسل عليهِمْ ملائِكتهُ يُلْقُـــون الرُّعْـــب فِـــي قُلُوبِهِمْ،فانْسحبُوا مخْذُولِين مفْلُولِين فكفى اللهُ الُمؤْمِنين شرّ القِتالِ،ونصـــر عبْـــدهُ،وأعزّ جُنْدهُ،وهزم الأحْزاب وحْدهُ،لا إِله إِلاّ هُو.وكان اللهُ قوِيّاً عزِيزاً،لا يُغْلبُ ولا يُضامُ.لّمـــا قدِمت الأحْزابُ إِلى المدِينةِ كان بيْن رسُولِ اللهِ ﷺ،وبيْن يهُودِ بنـــي قُريْظـــة عهْـــدٌ ومُوادعةٌ،فجاء حُييُّ بْنُ أخْطب – زعِيمُ يهُودِ بنِي النّضِيرِ – وكان مـــع قوْمِـــهِ مـــع الأحْزابِ،– إِلى بنِي قُريْظة يسْتحِثُّهُمْ على نقْضِ عهْدِهِمْ مع رسُولِ اللهِ ﷺ،ومُشـــاركةِ الأحْزابِ فِي مُحاربةِ الُمسْلِمِين،فاسْتجابُوا لهُ،فشقّ ذلِك على الُمسْلِمِين.ولّمـــا هـــزم اللهُ الأحْزاب أمر اللهُ رسُولهُ الكرِيم بِأنْ يسِير إِلى بنِي قُريْظة لِيُعاقِبهُمْ على غدْرِهِمْ،ونقْضِهِمْ العهْد.وبعْد حرْبٍ دامتْ خمْسةً وعِشْرِين يوْماً اضْطرُّوا إِلى النُّزُولِ على حُكْمِ سعْدِ بْنِ مُعاذٍ،رضِي اللهُ عنْهُ،وكان حلِيفاً لهُمْ فِي الجاهِلِيّةِ،فاسْتدْعاهُ رسُولُ اللهِ – وكـــان فِـــي المدِينةِ يشْتكِي مِنْ جُرْحٍ أصابهُ – فحكمْ سعْدٌ بِـــأنْ تُقْتـــل الُمقاتِلةُ،وتُسْـــبى الذُّرِّيّـــةُ

والأمْوالُ.ولذلك قال اللهُ تعالى:إنّهُ قذف فِي قُلُوبِ بنِي قُريْظة الرُّعْب (الذِين ظاهرُوا الأحْزاب منْ أهلِ الكِتاب)،وأُنْزلهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ (صياصِيهِمْ) على حُكْمِ سعْدِ بْنِ مُعاذ،فقتل المُسْلِمُون فرِيقاً،وأسرُوا فرِيقاً.وأوْرث اللهُ المُؤمنين أرْض بنِي قُريْة،ونخِيلهُمْ،ومزارِعهُمْ،وأمْوالهُمْ،ومواشِيهُمْ،وأوْرث اللهُ المُؤْمنين الأراضي التي فتحُوها فِيما بعْدُ،منْ أراضِي اليهودِ والمُشْرِكين وغيرِهم،في الجزِيرةِ العربِيّةِ وخارِجها،وهِي أراضٍ لمْ يسْبقْ للمْؤمنين أنْ وطِئتْها أقْدامُهُمْ مِنْ قبلُ،واللهُ تعالى قادِرٌ على ذلِك،فلا يتعذّرُ عليهِ شيءٌ..[4308]

وقال تعالى:{ ولقدْ آتيْنا مُوسى الْهُدى وأوْرثْنا بنِي إِسْرائِيل الْكِتاب (53) هُدًى وذِكْرى لِأُولِي الْألْبابِ (54) فاصْبِرْ إِنّ وعْد اللّهِ حقٌّ واسْتغْفِرْ لِذنْبِك وسبِّحْ بِحمْدِ ربِّك بِالْعشِيِّ والْإِبْكارِ (55) }[غافر/53-55]

ولقدْ أعْطينا مُوسى الشّرائع والمُعْجزاتِ التي يهْتدِي بها النّاسُ،وأنْزلْنا عليهِ التّوْراة،وفيها ما يهْدِي بِهِ قوْمهُ بنِي إِسْرائِيل،فتوارثُوهُ خلفاً مِنْ سلف.

وجعلْنا التّوْراة هُدًى يهْتدِي بنُو إِسْرائيل بأحْكامِها،وتذْكِرةً لأوْلِي العُقُولِ السّلِيمةِ والأفْهامِ المُسْتقِيمةِ (لأُوْلِي الألْبابِ).

فاصْبِرْ يا مُحمّدُ لأمْرِ ربِّك،وبلِّغْ ما أُنْزِل إِليْك مِنْ ربِّك،وأيْقِنْ بأنّ الله مُنْجِزٌ وعْدهُ لك،وناصِرُك ومُؤيِّدُك على منْ عاداك وعاندك،وكفر بِرِسالتِك،وسلْ ربّك المغْفِرة لِذنْبِك،والصّفْح عنْك،وصلِّ فِي طرفِيْ النّهارِ،واذْكُرْ ربّك كثِيراً فِي الصّباحِ والمساءِ.[4309]

كان هذا نموذجا من نماذج نصر اللّه.إيتاء الكتاب والهدى.ووراثة الكتاب والهدى.وهذا النموذج الذي ضربه اللّه مثلا في قصة موسى،يكشف لنا رقعة فسيحة،نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه.

[4308] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:3436، بترقيم الشاملة آليا)

[4309] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:4065، بترقيم الشاملة آليا)

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع،توجيها لرسول اللّه - ﷺ- ومن كانوا معه من المؤمنين في مكة في موقف الشدة والمعاناة.ولكل من يأتي بعدهم من أمته،ويواجهون مثل الموقف الذي كانوا فيه:«فَاصْبِرْ.إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ،وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ،بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ»..

الإيقاع الأخير..الدعوة إلى الصبر..الصبر على التكذيب.والصبر على الأذى.والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان.والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك.والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال.

والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء! «فَاصْبِرْ.إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ»..مهما يطل الأمد،ومهما تتعقد الأمور،ومهما تتقلب الأسباب.إنه وعد من يملك التحقيق،ومن وعد لأنه أراد.

وفي الطريق،خذ زاد الطريق:«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ،وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ»..

هذا هو الزاد،في طريق الصبر الطويل الشاق.استغفار للذنب،وتسبيح بحمد الرب.والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب،وهو في ذاته تربية للنفس وإعداد.وتطهير للقلب وزكاة.وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب،فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة.

واختيار العشي والإبكار.إما كناية عن الوقت كله - فهذان طرفاه - وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب،ويتسع المجال للتدبر والسياحة مع ذكر اللّه.

هذا هو المنهج الذي اختاره اللّه لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد.ولا بد لكل معركة من عدة ومن زاد..[4310]

وقال تعالى:{ فاصْبِرْ إِنّ وعْد اللّهِ حقٌّ فإِمّا نُرِينّك بعْض الّذِي نعِدُهُمْ أوْ نتوفّينّك فإِليْنا يُرْجعُون (٧٧) }[غافر/٧٧]

[4310] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٨٣)

يأْمُرُ اللهُ تعالى رسُولهُ ﷺ بالصّبْرِ على تكْذيب منْ كذّب منْ قوْمه،فإنّ الله سيُنْجزُ وعْدهُ،وسيُظْهرُهُ بأعْدائه،وسيُنْزلُ العقاب بالمُكذّبين في الدُّنْيا والآخرة.ثُمّ يقُولُ لهُ:إمّ أنْ يُريهُ في حياته بعْض الذي يعدُهُمْ من العذاب والنّقْمة،كالقتْل والأسْر في بدْر،فذلك ما يسْتحقُّونهُ،وإمّا أنْ يتوفّاهُ اللهُ قبْل أنْ يُنْزل بهم عُقُوبتهُ وعذابهُ فإنّهُ سيُعاقبُهُمْ في الآخرة عقاباً شديداً حينما يُرْجعُون إليه يوْم القيامة [٤٣١١].

وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق.إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود،يقال له ما مفهومه:أد واجبك وقف عنده.فأما النتائج فليست من أمرك.حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد اللّه للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه! إنه يعمل وكفى.يؤدي واجبه ويمضي.

فالأمر ليس أمره.والقضية ليست قضيته.إن الأمر كله للّه.واللّه يفعل به ما يريد.

يا للّه! يا للمرتقى العالي.ويا للأدب الكامل.الذي يأخذ اللّه به أصحاب هذه الدعوة.في شخص رسوله الكريم.

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية.أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة.لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة.فلم يكن هذا تكرارا للأمر الذي سبق فيها.إنما كان توجيها إلى صبر من لون جديد.ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب؟!

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ اللّه أعداءه وأعداء دعوته،بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء،أمر شديد على النفس صعيب.ولكنه الأدب الإلهي العالي،والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين،وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب،حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين!

[٤٣١١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى اللّه في كل حين.فهـذا هـو حزام النجاة في خضم الرغائب،التي تبدو بريئة في أول الأمر،ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم![٤٣١٢]

---

١٣. وجوب الإعداد والاستعداد للمعركة:

قال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]

يأْمُرُ اللهُ المُسْلِمين بالاسْتِعْداد لِلْحرْبِ،وبِإِعْداد آلاتِها لِمُقاتلةِ الكُفّارِ،ودفْعِ العُدْوان،وحِفْظِ الأنْفُسِ،والحقِّ والفضيلة،حسب الطّاقة والاسْتطاعة:منْ خيْلٍ وسِلاحٍ وعُدد ومُؤنٍ وتدْريبٍ وعِلْمٍ وكُلّ ما يدْخُلُ فِي تعْرِيفِ القُوّة التي تُمكِّنُ الأُمّة منْ مُقاومةِ خُصُومِها،بِحسبِ مفْهُومِ العصْرِ،وذلك لِإرْهابِ الكُفّارِ - منْ قُرَيْشٍ ومِنْ غيْرِهِمْ - أعداءِ الله،وأعْداءِ الإسْلامِ والمُسْلمين،ولِإرْهابِ الأعْداءِ الآخرين منْ مُنافقين ويهُود يُجاوِرُون المُسْلمين فِي المدِينةِ ومنْ حوْلها وغيْرِهِمْ،ممّنْ لا يعْلمُهُمْ رسُولُ الله والمُسْلمُون،ولكنّ الله تعالى يعْلمُهُمْ.ويُخْبِرُ اللهُ تعالى المُؤْمنِين أنّ كُلّ نفقة يُنْفقُونها فِي الجهادِ والاسْتِعْدادِ لِلْحرْبِ،ستُوفّى إِليْهِمْ بِالتّمامِ والكمالِ،ولا يبْخسُ اللهُ أحداً منْهُمْ شيْئاً.[٤٣١٣]

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة..ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك

[٤٣١٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٩٥)

[٤٣١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢١، بترقيم الشاملة آليا)

الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة – تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا – والمهم هو عموم التوجيه:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»..

عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ،يَقُولُ:وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ،أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْـــيُ،أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ.[4314]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ:" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ "،أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ"،قَالَهَا ثَلاثًا (صحيح)

وعَنْ عِكْرِمَةَ،فِي قَوْلِهِ:" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ "،قَالَ:الْحُصُونَ".(صحيح)

وعَنْ مُجَاهِدٍ،فِي قَوْلِهِ:" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُـــوَّةٍ "،قَـــالَ:الْقُـــوَّةُ:ذُكُـــورُ الْخَيْلِ".وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ،مِثْلُ ذَلِكَ(حسن)

وعن الأَوْزَاعِيِّ،قَالَ:سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ:" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُـــوَّةٍ "،قَالَ:قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ:"الْقُوَّةُ:الْفَرَسُ إِلَى السَّهْمِ،فَمَا دُونَهُ".(صحيح)

وَرُوِيَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ أَنَّهُ قَالَ:"الْقُوَّةُ:السِّلاحُ،وَمَا سِوَاهُ مِنْ قُوَّةِ الْجِهَـــادِ".وَرُوِيَ عَنِ السُّـــدِّيِّ،قَالَ:"السِّـــلاحُ".وَرُوِيَ عَـــنْ أَبِـــي صَـــخْرٍ حُمَيْـــدُ بْـــنُ زِيَادٍ،أَنَّـــهُ قَالَ:"الْقُوَّةُ:الْعِدَّةُ،إِعْدَادُ مَا اسْتَطَعْتَ لَهُمْ مِنْ عِدَّةٍ".

وعَنْ رَجَاءِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ،قَالَ:"لَقِيَ رَجُلٌ مُجَاهِدًا وَهُـــوَ يَتَجَهَّـــزُ إِلَـــى الْغَزْوِ،وَمَعَـــهُ جَوَالِقُ،فَقَالَ مُجَاهِدٌ:وَهَذَا مِنَ الْقُوَّةِ"[4315]..

إن المجتمع الإسلامي ــ كأي مجتمع في الحياة ــ له ذاتيته المتميزة،وله وجهته وفلسفته في الحياة..وطبيعي أن تقوم في ظلّ هذه المعاني عصـــبية،هي الـــتي تجتمـــع عليهـــا الأمـــم والشعوب،وتقيم منها وحدة مميزة في مشاعرها،ومنازع أفكارها،ومتجه سلوكها..كمـــا كان لا بد أيضا أن يتعصب على هذه الأمم وتلك الشعوب أعـــداء يخـــافون قوتهـــا،أو يطمعون في ضعفها،ومن هنا يكون الصراع الذي لا بد منه في الحياة،والذي لا بد له من

[4314] – صحيح ابن حبان– ط2 مؤسسة الرسالة [11 /7](4709) صحيح

[4315] – تفسير ابن أبي حاتم [7 /126]

قوة،ولا بد لهذه القوة من سيف،بل ومن سيوف! ونعود فنذكّر من نسى،فنقول:إن اليوم الذي تخلّى فيه المسلمون عن القوة،كان هو اليوم الذي فيه حينهم ومصرعهم،بأيدي من يملكون القوة..

ثم لم يكن للمسلمين من قوة يستندون إليها إلا الإسلام،الذي منحهم الإيمان،والصبر،والعزم،وعمر قلوبهم باليقين بأن شاطىء النجاة قريب منهم،إن هم تمسّكوا بدينهم،وقاموا على شريعته،وأخذوا بهديه،والتمسوا أسباب القوة المادية التي أمرهم اللّه بها فى قوله تعالى:« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » إلى جانب القوة الروحية التي عمر الإسلام قلوبهم بها..ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقدح فى صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء،فيشتدّ عزمهم،ويقوى إيمانهم،وتذهب وحشتهم،وهم فى صحبة دينهم،وفي ظلّ مما يفيء عليهم من خيره الكثير.[٤٣١٦]

من أساليب الحرب النفسية ـــ تخويف العدو وإرهابه،بما يرى فى جيش المجاهدين من أمارات القوة،ووسائل الغلب..وشبيه بهذا ما تقوم به الأمم من عرض قوتها فى تلك العروض العسكرية،التي تكشف بها عن بعض عددها وعتادها،على حين أنها إذ تكشف عن بعض قوتها،فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذي أعلنته قوى كثيرة خفية،أشد أثرا،وأقوى فتكا،من هذا الذي عرف الناس أمره،وأن ذلك سرّ من أسرارها الحربية،التي لا تظهر إلا عند الحرب!!.

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير فى كسر شوكة العدو،وفى قتل مطامعه فى النّيل من عدوه،فلا يقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب،الراصدة لكل عدو..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (٦٠:الأنفال).كل هذا الذي يراه العدو في جيش المسلمين،من استخفاف بالموت،وإيثار للموت فى سبيل اللّه على الحياة،والثبات في ميدان المعركة حتى النصر أو الموت،والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها ـــ كل هذا يبعث

[٤٣١٦] - التفسير القرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي - القاهرة [٥ /٦٦٤]

الرعب فى قلوب الأعداء الذين يواجهون مثل هذا الجيش،الذي لا يرجع من المعركة إلا منتصرا،أو مستشهدا..وإلى هذا يشير الرسول ﷺ فى قوله فى مقام تعـداد فضـل اللّـه سبحانه وتعالى عليه،إذ يقول:« ونصرت بالرعب مسيرة شهر » أي أن أعداءه المحـيطين به،يجدون فى أنفسهم رهبة له،ولجيش المسلمين،وذلك على امتداد مسـيرة شـهر بينـه وبينهم،لما يتناقل الناس من أخبار المجاهدين المسلمين،واسترخاصهم لنفوسهم فى ميـدان القتال،حتى ليكون ذلك حديث الدنيا كلها..[٤٣١٧]

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان»..

وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة:أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيـدة علـى حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها،ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها..

والأمر الثاني:أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسـلام» التي تحميها تلك القوة..

والأمر الثالث:أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقـوف في وجـه المـد الإسلامي،وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها..

والأمر الرابع:أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية للّه وحده ومن ثم فالحاكمية لـه وحده سبحانه..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد اسـتقراره عقيـدة في القلوب،وتنظيمـا للشعائر،ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه منـاهج أخـرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية.فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الربـاني – من تحطيم تلك القوى المادية،وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى،وتقاوم المنهج الرباني..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة..ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنمـا

[٤٣١٧] – التفسير القرآني للقرآن ـــ دار الفكر العربي – القاهرة [١٣ /٣٨٤]

ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللّه وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم،أو دولة،أو طبقة،أو جنس! إنه لا ينطلـــق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامـــات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية..إنما ينطلق بمنهج من صنع اللّه العليم الحكيم الخـــبير البصـــير ولتقرير ألوهية اللّه وحده وسلطانه لتحرير «الإنســـان» في «الأرض» مـــن العبوديـــة للعبيد..هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفـــون بالـــدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عـــن المـــد الإســـلامي! والجهـــاد الإسلامي[٤٣١٨].

١٤. بذل الغالي والنفيس في سبيل الله :

قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَـــاتِلُونَ فِـــي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِـــيمُ (١١١) التَّـــائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَـــنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)} [التوبة]

يُرغِّبُ اللهُ تعالى النّاس فِي الجِهادِ،ويُخبِرُهُمْ بِأنّهُ سيُعوِّضُ المُؤْمِنِين بِالجنّـــةِ عـــنْ بـــذْلِهِمْ أنْفُسهُمْ وأمْوالهُمْ فِي سبِيلِ اللهِ،لِتكُون كلِمة اللهِ هِي العُلْيا،ولِإِحْقاقِ الحقِّ،وإِقامةِ العـــدْلِ فِي الأرْضِ،فهُمْ حِين يُجاهِدُون يقْتُلُون أعْداءهُمْ،ويُقْتلُون هُمْ،وهُمْ فِي كِـــلا الحـــاليْنِ

[٤٣١٨] - تراجع بتوسع الرسالة القيمة بعنوان:«الجهاد في سبيل اللّه» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان.كما يراجع ما كتبناه عن الجهاد في مقدمة سورة الأنفال ص ١٤٣١ - ١٤٤٣ من الجزء التاسع.(السيد رحمه الله)

مُثابُون على ذلك.وقدْ وعد اللهُ عِبادهُ الْمُؤْمِنِين بِهذا الجزاءِ الحقِّ،وجعلهُ حقّاً عليــه فِــي التّوْراة والإِنْجيلِ والقُرْآن.

ثُمّ يدْعُو اللهُ تعالى منِ التزم مِن الْمُــؤْمنِين بعهْــدِه لله إلى الاسْتِبْشـــارِ بِــذلك الفــوْزِ العظِيمِ،والنّعِيمِ الْمُقِيم،لأنّهُ ليْس هُناك منْ هُو أكْثرُ مِن اللهِ تعالى وفاءً بِالْعهْدِ،ولا أكْثر منْهُ التزاماً بالوعْدِ الذي يقْطعُهُ على نفْسِه الكرِيمةِ،وليْس هُناك رِبْحٌ أكْبرُ مِن الــرّبحِ الــذِي يُحقِّقُهُ الْمُؤْمنُون فِي هذِه الصّفْقة.

وهُنا يُعدِّدُ اللهُ تعالى صِفاتِ الْمُــؤْمنِين الــذِين اشْــترى مِــنْهُمْ أنْفُســهُمْ وأمْــوالهُمْ بِالجنّةِ،وهُمُ:التّــائِبُون مِــنْ الــذُّنُوبِ كُلِّها،التّــارِكُون لِلْفواحِشِ،القــائِمُون بِعِبــادةِ ربِّهِمْ،والْمُحافِظُون عليها،والحامِدُ ن لله على نِعمِهِ وأفْضالِه،السّائحُون فِي الأرْضِ،لِلاعْتِبارِ و الاسْتِبْصارِ بِما خلق اللهُ مِن العِبرِ و الآيات،(وقِيل أيْضاً إِنّ معْــنى السّــائِحِين هُنــا الصّائِمُون) والْمُصلُّون.وهُمْ معْ ذلِك كُلِّه يسْعوْن فِي نفْــعِ خلْــقِ الله،وإرْشــادِهِمْ إلى طاعتِه،بِأمْرِهِمْ بِالمعْرُوفِ،ونهيِهِمْ عنِ الْمُنْكرِ،مع العِلْمِ بِما ينْبغِي فِعْلُهُ،ويجِبُ ترْكهُ طاعةً لله (أيْ إِنّهُمْ يحْفظُون حُدُود الله).ويُبشِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنِين الْمُتّصِفِين بِهذِه الصِّــفاتِ الكرِيمــةِ بِخيْرِي الدُّنْيا والآخِرةِ.. [4319]

إنها صفقة مشتراة،لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء،وفق مــا يفــرض ووفــق مــا يحدد،وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريــق المرســوم،لا يتلفــت ولا يتخير،ولا يناقش ولا يجادل،ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستســلام..والــثمن:هــو الجنة..والطريق:هو الجهاد والقتل والقتال..والنهاية:هي النصر أو الاستشهاد:«إِنَّ اللَّــهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّــهِ فَيَقْتُلُــونَ وَيُقْتَلُونَ»..

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن..فالمؤمنون هم الذين اشترى اللّه منهم فباعوا..ومن رحمة اللّه أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعلــه مريــدا

[4319] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٤٧، بترقيم الشاملة آليا)

وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع اللّه – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:..شر البهيمة..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ»..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»..

عونك اللهم! فإن العقد رهيب..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول اللّه – ﷺ- فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم و لم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صورة متأملة..هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنه – في بيعة العقبة الثانية.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت ! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل !فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[٤٣٢٠]..

[٤٣٢٠] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /٢١٨] وتفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩](١٧٢٧٠)
ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك.السيد رحمه الله

هكذا..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»..لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،ولم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟».أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن..كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً»..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!..بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق..إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق..بل لا بد أن يقطع عليه الطريق..ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.وإلا فليس بالإيمان،فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[٤٣٢١].

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال.وهذه آية مدنية قطعا.ولكنها تنفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

[٤٣٢١] - صحيح مسلم- المكنز [١٢ /٤٦٣](٥٠٤٠)

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد اللّه..وما الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه.ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة..فإذا أضيفت إلى ذلك كله..الجنة..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور..وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد..ومن ثم

يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها - في حتمية لا فكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين و لم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة..وهو قليل..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه - سبحانه - وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد..ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! - وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطلاق.منذ كانت الرسل،ومنذ كان دين اللّه..

ولكن الجهاد في سبيل اللّه ليس مجرد اندفاعة إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال:والمؤمنون الذين عقد اللّه معهم البيعة،والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة:« التَّائِبُونَ.الْعابِدُونَ.الْحامِدُونَ.السَّائِحُونَ.الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ.الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ.وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»

«التَّائِبُونَ»..مما أسلفوا،العائدون إلى اللّه مستغفرين.والتوبة شعور بالندم على ما مضى،وتوجه إلى اللّه فيما بقي،وكف عن الذنب،وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك.فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

«الْعابِدُونَ»..المتوجهون إلى اللّه وحده بالعبادة وبالعبودية،إقرارا بالربوبية..صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر،كما يترجمها التوجه إلى اللّه وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع.فهي إقرار بالألوهية والربوبية للّه في صورة عملية واقعية.

«الْحامِدُونَ»..الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة وتلهج ألسنتهم بحمد اللّه في السراء والضراء.في السراء للشكر على ظاهر النعمة،وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة.وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها،ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن اللّه الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه،مهما خفي على العباد إدراكه.

« السَّائِحُونَ»..وتختلف الروايات فيهم.فمنها ما يقول:إنهم المهاجرون.ومنها ما يقول:إنهم المجاهدون.ومنها ما يقول:إنهم المتنقلون في طلب العلم.ومنهم من يقول:إنهم الصائمون..ونحن نميل إلى اعتبار هم المتفكرين في خلق اللّه وسننه،ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر:«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ،الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ،وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ:رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ!...»..فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد.فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت اللّه على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى اللّه،وإدراك حكمته في خلقه،وإدراك الحق الذي يقوم عليه

الخلق.لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار.ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك..

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ»..الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

« الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ»..وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة اللّه،فيدين للّه وحده ولا يدين لسواه،يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج اللّه وشرعه..ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه للّه وحده،وشريعة اللّه وحدها هي الحاكمة فيه،فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر،وهو تقرير ألوهية اللّه وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم.والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر.وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير اللّه عن طريق حكمهم بغير شريعة اللّه..والذين آمنوا بمحمد - ﷺ- هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة اللّه،وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة.فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي.و لم ينفقوا قط جهدهم،قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع.فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر،كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم! «وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّه»..وهو القيام على حدود اللّه لتنفيذها في النفس وفي الناس.ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها..ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم.

ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة اللّه وحدها في أمره كله وإلا الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به اللّه..والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع.ومتى قام

كان هناك مكان للحافظين لحدود اللّه فيه..كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد اللّه معها بيعته.وهذه هي صفاتها ومميزاتها:توبة ترد العبد إلى اللّه،وتكفه عن الذنب،وتدفعه إلى العمل الصالح.وعبادة تصله باللّه وتجعل اللّه معبوده وغايته ووجهته.وحمد للّه على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل للّه والثقة المطلقة برحمته وعدله.وسياحة في ملكوت اللّه مع آيات اللّه الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق.وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة.وحفظ لحدود اللّه يرد عنها العادين والمضيعين،ويصونها من التهجم والانتهاك..

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها اللّه على الجنة،واشترى منها الأنفس والأموال،لتمضي مع سنة اللّه الجارية منذ كان دين اللّه ورسله ورسالاته.قتال في سبيل اللّه لإعلاء كلمة اللّه وقتل لأعداء اللّه الذين يحادّون اللّه أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل،وبين الإسلام والجاهلية،وبين الشريعة والطاغوت،وبين الهدى والضلال.

وليست الحياة لهوا ولعبا.وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا.وليست الحياة سلامة ذليلة،وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة..إنما الحياة هي هذه:كفاح في سبيل الحق،وجهاد في سبيل الخير،وانتصار لإعلاء كلمة اللّه،أو استشهاد كذلك في سبيل اللّه..ثم الجنة والرضوان..

هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون باللّه:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ»...وصدق اللّه.وصدق رسول اللّه..[٤٣٢٢]

---

١٥. النظر في السّنن الربانية:

[٤٣٢٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٣٦)

قال تعالى:{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) } [آل عمران:١٣٧ - ١٤٠]

يُخاطبُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بعْد مصابهمْ في وقْعة أُحُد فيقُولُ لهُمْ:لقدْ جرى على أتْباعِ الأنْبياءِ السّابقين من الأُممِ الغابرة نحْوٌ ممّا جرى لكُمْ يوْم أحُد،فأُصيبُوا وقُتلُوا وهُزمُوا..ولكنّ العاقبة كانتْ لهُمْ،والدّائرة كانتْ على الكافرين...وهذه هي سُنّةُ الله في خلْقه أنّهُ ما التقى الإيمانُ والشّرْكُ إلاّ نصر اللهُ المُؤْمنين المُخْلصين،وأعْلى راية الإيْمان،وهزم الشّرْك وأهْلهُ،ونكّس أعْلامهُ.وأجْدرُ النّاس بمعْرفة هذه الحقيقة هُمُ المُؤْمنُون فسيرُوا يا أيُّها المُؤْمنُون في الأرْض،وتأمّلُوا فيما حلّ بالأُممِ السّابقة.

وما تقدّم هُو بيانٌ للنّاسِ كافّةً،وهُدًى وموْعظةً للْمُتّقين منْهُمْ خاصّةً،فالإرْشادُ عامٌّ للنّاس،وحُجّةٌ على المُؤْمنِ والكافرِ،(وذلك يدْحضُ ما قالهُ المُشْركُون:لوْ كان مُحمّدٌ رسُولاً حقّاً لما غُلب في وقْعة أُحُد).فهذا البيانُ والهُدى يُرشدان إلى أنّ سُنن الله حاكمةٌ على الأنْبياءِ والرُّسُلِ،كما هي حاكمةٌ على سائرِ خلْقه،فما منْ قائد يُخالفُهُ جُنْدُهُ،ويتْرُكُون حماية الثّغْرِ الذي عُهد إليهمْ بحمايته،إلاّ كان جيْشُهُ عُرْضةً للْهزيمة.وهذا البيانُ هُدًى وموْعظةٌ للْمُتّقين،لأنّهُمْ هُمُ الذين يتفكّرُون فيعْتبرُون.

ولا تضْعفُوا عنِ الجهاد،وما يتطلّبُهُ منْ حُسْنِ التّدْبيرِ والإعْداد،بسبب ما أصابكُمْ من الفشلِ والجراحِ يوْم أحُد،ولا تحْزنُوا على ما فقدْتُمْ في ذلك اليوْم،فإنّ العاقبة والنّصْر سيكُونان لكُمْ إذا تمسّكْتُمْ بحبْلِ الله،وراعيْتُمْ تعاليمهُ،فقدْ مضتْ سُنّةُ الله أنْ يجْعل العاقبة للْمُتّقين.إنْ كُنْتُمْ قدْ أصابتْكُمْ جراحٌ،وقُتل منْكُمْ رجالٌ يوْم أحُد،فقدْ أصاب أعْداءكُمْ قريبٌ ممّا أصابكُمْ،فلا ينْبغي لكُمْ أنْ تقْعُدُوا وتتقاعسُوا عنِ الجهاد بسببِ ما أصابكُمْ،فالمُشْركُون قدْ سبق أنْ أصابهُمْ يوْم بدْرٍ مثْل ما أصابكُمْ أنْتُمْ في أحُد،فلمْ يتقاعسُوا،ولمْ يقْعُدُوا عنِ الإعْداد للْحرْبِ ومُباشرتها،وهُمْ على باطلهمْ،فكيْف تتردّدُون

وأنْتُمْ على حقٍّ،واللهُ وعدكُمْ نصْرهُ،وجعل العاقِبة لكُمْ؟ ومنْ سُننِ اللهِ تعالى مُداولةُ الأيّامِ بيْن النّاسِ،فمرّةً تكُونُ الغلبةُ لِلْباطِلِ على الحقِّ،إذا أعدّ لهُ أهْلُهُ واحْتاطُوا،وتراخى أهْلُ الحقِّ،ومرّةً تكُونُ الغلبةُ لِلْحقِّ على الباطِلِ.ولكِنّ العاقِبة تكُونُ دائِماً لِلْحقِّ وأهْلِهِ.واللهُ تعالى يبْتلِي المُؤْمِنين لِيعْلم الصّابِرِين الصّادِقِين مِنْهُمْ،ولِيتّخِذ مِن المُؤْمِنِين رِجالاً يُكْرِمُهُمْ بِالشّهادة..[٤٣٢٣]

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة،وأصابهم القتل والهزيمة.أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير.قتل منهم سبعون صحابيا،وكسرت رباعية الرسول - ﷺ- وشج وجهه،وأرهقه المشركون،وأثخن أصحابه بالجراح..وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس،وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر،حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم:«أَنَّى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟! والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن اللّه في الأرض.يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور.فهم ليسوا بدعا في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف،والأمور لا تمضي جزافا،إنما هي تتبع هذه النواميس،فإذا هم درسوها،وأدركوا مغازيها،تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث،وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع،واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث،وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام.واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق.ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين،لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر،وفي أولها طاعة اللّه وطاعة الرسول.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا،ويوجه أبصارهم إليها هي:عاقبة المكذبين على مدار التاريخ.ومداولة الأيام بين الناس.والابتلاء لتمحيص السرائر،وامتحان قوة الصبر على الشدائد،واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال،والمواساة في الشدة،والتأسية على القرح،الذي لم يصبهم وحدهم،إنما أصاب أعداءهم كذلك،وهم

[٤٣٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٠، بترقيم الشاملة آليا)

أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفا،وأهدى منهم طريقا ومنهجا،والعاقبة بعد لهم،والـــدائرة على الكافرين.

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ،فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ،فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها،وحاضرها بماضيها،فيشير من خلال ذلك كلــه إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم،ولم تكن معــارفهم،ولم تكن تجاربهم – قبل الإسلام – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة.لولا هذا الإسلام – وكتابه القرآن – الذي أنشأهم به اللّه نشأة أخرى،وخلق به منهم أمة تقود الدنيا..

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله،ما كان ليقود تفكيرهم إلى الــربط بــين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم فضلا علــى الــربط بــين ســكان هــذه الأرض وأحداثها،فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا..وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة،ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمــان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة.بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها،في ربع قرن من الزمان.على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنــواميس الكونيــة،إلا بعــد أجيــال وأجيال..فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقــة المشــيئة الإلهية،وأنه إلى اللّه تصير الأمور..فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله،واتســع له تصورها،ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة،فاستقامت حياتهــا على التعامل مع سنن اللّه الثابتة والاطمئنان – بعد هذا – إلى مشيئته الطليقة! «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ»..

وهي هي التي تحكم الحياة.وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة.فما وقع منــها في غــير زمانكم فسيقع مثله – بمشيئة اللّه – في زمانكم،وما انطبق منها على مثل حالكم فهــو كذلك سينطبق على حالكم.

«فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ»..فـالأرض كلـها وحـدة.والأرض كلـها مسـرح للحيـاة البشرية.والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.

«فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»..وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض،وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك..ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة.بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه.

وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل..وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منـها إلى نتيجة مجملة:

إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا.ذلك كـي تطمـئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة.وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهـة أخرى.وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير.وفي السياق سـيرد من هذه الدواعي الكثير.

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعـبرة بهـذا البيـان:«هـذا بَيـانٌ لِلنَّاسِ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»..

هذا بيان للناس كافة.فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لـولا هـذا البيـان الهادي.ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى،وتجد فيه الموعظة،وتنتفع به وتصـل على هداه..طائفة «المتقين»..

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى.والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها..والنـاس قلمـا ينقصـهم العلـم بـالحق والباطل،وبالهدى والضلال..إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتـاج إلى بيان طويل.إنما تنقص الناس الرغبة في الحق،والقدرة على اختيار طريقه..والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان،ولا يحفظهما إلا التقـوى..ومـن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات.تنص على أن ما في هذا الكتاب مـن حـق،ومن هدى،ومن نور،ومن موعظة،ومن عبرة..إنما هي للمؤمنين وللمتقين.فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة.وهما اللذان يزينان للقلب اختيـار

الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة..واحتمال مشقات الطريق..وهذا هو الأمر،وهذا هو لب المسألة..لا مجرد العلم والمعرفة..فكم ممن يعلمون ويعرفون،وهم في حمأة الباطل يتمرغون.إما خضوعا لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة،وإما خوفا من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة!

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت:«وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ.إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»..لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون..عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون للّه وحده،وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى.فأنتم تسيرون على منهج من صنع اللّه،وهم يسيرون على منهج من صنع خلق اللّه! ودوركم أعلى.فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها،الهداة لهذه البشرية كلها،وهم شاردون عن النهج،ضالون عن الطريق.ومكانكم في الأرض أعلى،فلكم وراثة الأرض التي وعدكم اللّه بها،وهم إلى الفناء والنسيان صائرون..فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون.وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا.فإنما هي سنة اللّه أن تصابوا وتصيبوا،على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص:«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا،وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ.وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله،قد يكون إشارة إلى غزوة بدر.وقد مس القرح فيها المشركون وسلم المسلمون.وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد.وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر.حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون،وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد.حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها..ثم كانت الدولة للمشركين،حينما خرج الرماة على أمر رسول اللّه – ﷺ – واختلفوا فيما بينهم.فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة.جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج،وتحقيقا لسنة من سنن اللّه التي لا تتخلف،إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع

في الغنيمة.واللّه قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله،لا ينظـــرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد.وتحقيقا كذلك لسنة أخـــرى مـــن ســـنن اللّـــه في الأرض،وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكـــون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما.ومن ثم يتبين المؤمنون ويتـــبين المنـــافقون.كمـــا تتكشـــف الأخطاء.وينجلي الغبش.«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْـــكَ الْأَيَّـــامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»..

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها باللّه أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر اللّه أو البرم به والجموح! عندئذ يتميـــز الصـــف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيـــا الناس دخائل نفوسهم.ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلـــة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! واللّـــه ســـبحانه يعلـــم المـــؤمنين والمنافقين.واللّه سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور.ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حياة الناس،وتحول الإيمان إلى عمل ظـــاهر،وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجـــزاء.فاللّـــه ســـبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم.والرخاء في هـــذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل.والنفس المؤمنـــة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى اللّه في الحالين،وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن اللّه.

وقد كان اللّه يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابـــتلاء بالنصـــر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن اللّه الجارية في النصـــر

والهزيمة.لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة.ولتزيد طاعة للّه،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه.ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة اللّه فيما وقع من أحـداث المعركة،وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس،وفيما بعـد تمييـز الصـفوف،وعلم اللّـه للمؤمنين:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ»..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق – إن الشهداء لمختارون.يختـارهم اللّـه مـن بـين المجاهدين،ويتخذهم لنفسه – سبحانه – فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشـهد في سبيل اللّه من يستشهد.إنما هو اختيار وانتقاء،وتكريم واختصاص..إن هؤلاء هم الـذين اختصهم اللّه ورزقهم الشهادة،ليستخلصهم لنفسه – سبحانه – ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم اللّه،ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس.يستشهدهم فيؤدون الشهادة.يؤدونها أداء لا شبهة فيه،ولا مطعن عليه،ولا جدال حولـه.يؤدونهـا بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق،وتقريره في دنيا الناس.يطلـب اللّـه – سبحانه – منهم أداء هذه الشهادة،على أن ما جاءهم من عنده الحق،وعلى أنهم آمنـوا به،وتجردوا له،وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه وعلى أن حياة الناس لا تصـلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق وعلى أنهم هم استيقنوا هذا،فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس،وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج اللّه في حكم الناس..يستشهدهم اللّه على هذا كله فيشهدون.وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت.وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال! وكل من ينطق بالشهادتين:شهادة أن لا إله إلا اللّـه وأن محمـدا رسول اللّه.لا يقال له إنه شهد،إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها.ومدلولها هو ألا يتخذ إلا اللّه إليها.ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من اللّه.فأخص خصائص الألوهيـة التشريع للعباد وأخص خصائص العبودية التلقي من اللّه..ومدلولها كذلك ألا يتلقى مـن اللّه إلا عن محمد بما أنه رسول اللّه.ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر..

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية للّه وحده في الأرض،كما بلغهـا محمد – ﷺ– فيصبح المنهج الذي أراده اللّه للناس،والذي بلغه عنه محمـد – ﷺ– هـو المنهج السائد والغالب والمطاع،وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله،فهو إذن شهيد.أي شاهد طلب اللّه إليـه أداء هذه الشهادة فأداها.واتخذه اللّه شهيدا..ورزقه هذا المقـام.هـذا فقـه ذلـك التعـبير العجيب:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ..».

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه،ومقتضاه..لا ما انتهى إليـه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع! «وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»..

والظلم كثيرا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك.بوصفه أظلـم الظلـم وأقبحـه.وفي القرآن:«إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»..وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ.قَالَ وَحَدَّثَنِى وَاصِلٌ عَنْ أَبِى وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – رضى الله عنه – قَالَ سَأَلْتُ – أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّـهِ – ﷺ– – أَىُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ ».قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ قَالَ « ثُـمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ.قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ قَالَ « أَنْ تُزَانِىَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ ».قَـالَ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)[٤٣٢٤]...

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة اللّه في المكـذبين فـالآن يقـرر أن اللّـه لا يحـب الظالمين.فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبـهم اللّه.والتعبير بأن اللّه لا يحب الظالمين،يثير في نفـس المـؤمن بغـض الظلـم وبغـض الظالمين.وهذه الإثارة في معرض الحـديث عـن الجهـاد والاستشـهاد،لها مناسـبتها الحاضرة.فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه اللّه ومن يكرهه.وهذا هو مقـام الاستشهاد،وفي هذا تكون الشهادة ومن هؤلاء يتخذ اللّه الشهداء..

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحـداث،في تربيـة الأمـة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى،ولتكون أداة مـن أدوات قـدره في محـق

[٤٣٢٤] – صحيح البخارى- المكنز [١٥ /٤٧٩](٤٧٦١) وصحيح مسلم- المكنز [١ /٣١٧](٢٦٧)

الكافرين،وستارا لقدرته في هلاك المكذبين:«وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز.التمحيص عملية تتم في داخل النفس،وفي مكنون الضمير..إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية،وتسليط الضوء على هذه المكنونات.تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب،وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق،بلا غبش ولا ضباب..

وكثيرا ما يجهل الإنسان نفسه،ومخابئها ودروبها ومنحنياتها.وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها،وحقيقة ما استكن فيها من رواسب،لا تظهر إلا بمثير! وفي هذا التمحيص الذي يتولاه اللّه – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء،يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير:محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص..ثم إذا هو يكشف – على ضوء التجربة العملية،وفي مواجهة الأحداث الواقعية – أن في نفسه عقابيل لم تمحص.وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوي من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه،ليعاود المحاولة في سبكها من جديد،على مستوى الضغوط التي تقضيها طبيعة هذه الدعوة،وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة! واللّه – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية،وكان يريد بها أمرا في هذه الأرض.فمحصها هذا التمحيص،الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد،لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها،وليتحقق على يديها قدر اللّه الذي ناطه بها:«وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..تحقيقا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق،وخلص من الشوائب بالتمحيص..[٤٣٢٥]

١٦. وجوب التعلّق بالمبدأ وليس بالأشخاص:

[٤٣٢٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٧٧٩)

لأنّ المبدأ لا يضل ولكن الأشخاص قد يضلون أو يحبســـون أو يشـــردون في الأرض أو يقتلون.

وهذه نقطة جوهرية في صميم هذه الرسالة الخالدة،وقد ترك كثير من الصحابة الجهاد في غزوة أحد لما سمعوا بمقتل النبي ﷺ وكثير من الناس اليوم أذا قتل الداعية أو سجن أو انحرف تخلوا عن الدعوة ويئسوا من رحمة الله تعالى وهذا أمر خطير يتعلق بعقيدة المسلم تجاه هذه الرسالة الخاتمة.

قال تعالى:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)} [آل عمران:١٤٥،١٤٤]

لّما انْهزم الُمسْلمُون يوْم أحُد،وقُتل منْهُمْ منْ قُتل،أُشيع أنّ رسُول الله ﷺ قدْ قُتل،فحصل ضعْفٌ في صُفُوف الُمسْلمين،وتأخُّرٌ عن القتال،فأنْزل اللهُ تعالى هذه الآية،وفيها يُـــذكِّرُ الُمسْلمين بأنّ مُحمّداً بشرٌ قدْ سبقتْهُ رُسُلٌ،منْهُمْ منْ مات،ومنْهُمْ منْ قُتـــل،ثُمّ يُنْكـــرُ اللهُ تعالى على منْ ضعُف منْهُمْ،حين سماع إشاعة قتْل الرّسُول،ضعْفهُ،فقال لهُمْ:أفإنْ مـــات مُحمّدٌ،أوْ قُتل،تراجعْتُمْ ونكصْتُمْ على أعْقابكُمْ؟ ومنْ يتراجعُ وينْكُصْ على عقبيْـــه،فلنْ يضُرّ الله شيئاً،لأنّ الله غنيٌ عن العالمين،أمّا الذين امْتثلُوا لأمْر الله،وقاتلُوا عنْ دينه،واتّبعُوا رسُولهُ،فهؤُلاء هُمُ الشّاكرُون،وسيجْزيهمْ ربُّهُمْ على ذلك

لاَ يَمُوتُ أحَدٌ إلاَّ بقَدَر الله،وَحَتَّى يَسْتَوْفيَ الُمدَّةَ التي جَعَلَهَـــا اللهُ لَـــهُ أَجَـــلاً (كتَابـــاً مُؤَجَّلاً)،فَلاَ يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلاَ يَتَأَخَّرُ.وَإذَا كَانَ مَحْيَا الإنْسَان وَمَمَاتُهُ بإذْن الله فَـــلاَ مَحَـــلَّ للْخَوْف وَالجُبْن،وَلاَ عُذْرَ في الوَهَن وَالضَّعْف.

وَفي هَذه الآيَة تَشْجيعٌ للْجُبَنَاء عَلَى القتَال.فَإنَّ الإقدَامَ وَالإحْجَامَ لاَ يُنْقصَان منْ عُمْـــر الإنْسَان،وَلاَ يَزيْدَان فيه.وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ للدُّنيا فَقَطْ نَالَهُ منها مَـــا قَـــدَّرَهُ اللهُ لَـــهُ مـــنْ ثَوَابها،وَلَمْ يَكُنْ لَهُ في الآخرَة نَصيبٌ.وَمَنْ قَصَدَ بعَمَله ثَوَابَ الآخرَة أَعْطَـــاهُ اللهُ مـــنْ

ثَوَابِهَا،وَأَعْطَاهُ مَعَهَا مَا قَسَمَهُ لَهُ فِي الدُّنيا مِنْ نَصيب.وَاللهُ يَجْـزِي الشَّـاكِرِينَ الـذِينَ يَعْرِفُونَ أنْعُمَ الله عَلَيْهِمْ،وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الأَعْمالِ الصَّالِحَة.وَيُعْطِـيهِمُ اللهُ مِـنْ فَضْـلِه وَرَحْمَتِه فِي الدُّنيا وَالآخِرَة بِمِقْدَارِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.[٤٣٢٦]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّـنْحِ،- قَالَ:إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ:وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَتْ:وَقَـالَ عُمَرُ:وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّـا ذَاكَ،وَلَيَبْعَثَنَّـهُ اللَّـهُ،فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْـدِيَ رِجَـالٍ وَأَرْجُلَهُمْ،فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ " فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[ص:٧] فَقَبَّلَهُ،قَالَ:بِـأَبِي أَنْـتَ وَأُمِّي،طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا،ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ:أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ،فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ،فَحَمِـدَ اللَّـهَ أَبُـو بَكْـرٍ وَأَثْنَـى عَلَيْهِ،وَقَالَ:أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺفَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ،وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ،وَقَالَ:{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر:٣٠]،وَقَالَ:{وَمَا مُحَمَّـدٌ إِلَّـا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٤]،قَالَ:فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ،قَالَ:وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ،فَقَالُوا:مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ،وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ،وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ،فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ،وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ:وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلاَمًـا قَدْ أَعْجَبَنِي،خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ،ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ،فَقَـالَ فِـي كَلاَمِهِ:نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ،فَقَالَ حُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ:لاَ وَاللَّهِ لاَ نَفْعَلُ،مِنَّا أَمِيرٌ،وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:لاَ،وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ،وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ،هُمْ أَوْسَـطُ العَـرَبِ دَارًا،وَأَعْـرَبُهُمْ أَحْسَابًا،فَبَايِعُوا عُمَرَ،أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ،فَقَـالَ عُمَـرُ:بَـلْ نُبَايِعُـكَ أَنْتَ،فَأَنْـتَ سَيِّدُنَا،وَخَيْرُنَا،وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَـدِهِ فَبَايَعَهُ،وَبَايَعَـهُ النَّاسُ،فَقَـالَ قَائِلٌ:قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ،فَقَالَ عُمَرُ قَتَلَهُ اللَّهُ " "[٤٣٢٧]

[٤٣٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٧، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٣٢٧] -صحيح البخاري (٥/ ٦)(٣٦٦٧ -٣٦٧٠)

إن البشر إلى فناء،والعقيدة إلى بقاء،ومنهج اللّه للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس،من الرسل والدعاة على مدار التاريخ..والمسلم الذي يحب رسول اللّه - ﷺ- وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيرا.الحب الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة.وقد رأينا أبا دجانة يترس عليه بظهره والنبل يقع فيه ولا يتحرك! ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحدا إثر واحد..وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم،وبكل مشاعرهم،حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره - ﷺ-..هذا المسلم الذي يحب محمدا ذلك الحب،مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد - ﷺ- والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده،باقية ممتدة موصولة باللّه الذي لا يموت.

إن الدعوة أقدم من الداعية:«وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»..

قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة في جذور الزمن،العميقة في منابت التاريخ،المبتدئة مع البشرية،تحدو لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق.

وهي أكبر من الداعية،وأبقى من الداعية.فدعاتها يجيئون ويذهبون،وتبقى هي على الأجيال والقرون،ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول،الذي أرسل بها الرسل،وهو باق - سبحانه - يتوجه إليه المؤمنون..

[ش (الحالف) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.(على رسلك) اتئد ولا تعجل.(وقال) أي قرأ.(إنك) أي يا محمد صلى الله عليه وسلم.(ميت) ستموت كما أنهم سيموتون./ الزمر ٣٠ /.(خلت) مضت وماتت.(انقلبتم على أعقابكم) رجعتم عن عقيدتم وإسلامكم./ آل عمران ١٤٤ /.(فنشج) بكى والنشيج بكاء معه صوت ونشج الباكي إذا غص البكاء في حلقه.(منا) أي من الأنصار.(منكم) أي من المهاجرين وقالوا ذلك بناء على عادة العرب إذ لا يسود القبيلة إلا رجل منها فلما علموا أن حكم الإسلام ليس كذلك أذعنوا له وبايعوا.(الوزراء) المستشارون في الأمور والمعينون عليها.(هم) أي قريش.(أوسط العرب دارا) أشرفهم مسكنا وهو مكة.(أعربهم أحسابا) أكثر العرب أصالة وأشبههم بشمائل العرب وأفعالهم.(قائل) من الأنصار.(قتلتم سعدا) أي ابن عبادة رضي الله عنه أي خذلتموه وأعرضتم عنه.(خطبتهما) أي خطبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما]

وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه،ويرتد عن هدى اللّه.واللّه حي لا يموت:ومن ثم هذا الاستنكار،وهذا التهديد،وهذا البيان المنير:«أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً.وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»..

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَا هُمْ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِهِمْ،لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللهِ ﷺوَقَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ،فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي صَلاَتِهِمْ،ثُمَّ تَبَسَّمَ فَضَحِكَ،فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبِهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ،وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺيُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلاَةِ.قَالَ أَنَسٌ:وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاَتِهِمْ فَرَحًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺحِينَ رَأَوْهُ،فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺأَنِ اقْضُوا صَلاَتَكُمْ،ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ،وَأَرْخَى السِّتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،وَتُوُفِّيَ ﷺذَلِكَ الْيَوْمَ.قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ:أَنَّهُ لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي النَّاسِ خَطِيبًا،فَقَالَ:لاَ أَسْمَعَنَّ أَحَدًا يَقُولُ:إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺقَدْ مَاتَ،إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺلَمْ يَمُتْ،وَلَكِنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَبُّهُ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى،فَلَبِثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ:إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُقَطِّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺأَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَاتَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ:أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺأَخْبَرَتْهُ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ،فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ،فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ،فَتَيَمَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدَةِ حِبَرَةٍ،فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ،فَأَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى،ثُمَّ قَالَ:بِأَبِي أَنْتَ،وَاللَّهِ لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أَبَدًا،أَمَّا الْمُوتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.

قَالَ الزُّهْرِيُّ:قَالَ أَبُو سَلَمَةَ:أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ،فَقَالَ:اجْلِسْ،فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ،فَقَالَ:اجْلِسْ،فَأَبَى أَنْ يَجْلِسَ،فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ،فَمَالَ النَّاسُ إِلَيْهِ،وَتَرَكُوا عُمَرَ،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا،فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺقَدْ مَاتَ،وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ.قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}.قَالَ:وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ إِلاَّ حِينَ تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ،فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ،فَلَمْ تَسْمَعْ بَشَرًا إِلاَّ يَتْلُوهَا.

قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ:وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا عُقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ،وَأَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ،وَعَرَفْتُ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَدْ مَاتَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنَ الْغَدِ حِينَ بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَاسْتَوَى أَبُو بَكْرٍ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺقَامَ عُمَرُ،فَتَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكُمْ أَمْسِ مَقَالَةً لَمْ تَكُنْ،كَمَا قُلْتُ،وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ،وَلاَ فِي عَهْدٍ عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللهِ ﷺحَتَّى يَدْبُرَنَا – يَقُولُ حَتَّى يَكُونَ آخِرَنَا – فَاخْتَارَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلاَ لِرَسُولِهِ ﷺالَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ،وَهَذَا كِتَابُ اللهِ هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ،فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا بِمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ.[٤٣٢٨]

وفي التعبير تصوير حي للارتداد:«انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ»..«وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ».فهذه الحركة الحسية في الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة،كأنه منظر مشهود،والمقصود أصلا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة في المعركة،ولكن حركة الارتداد النفسية التي صاحبتها حينما هتف الهاتف:إن محمدا قد قتل،فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين،وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين،وانتهى أمر الجهاد للمشركين! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا،فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب،كارتدادهم في المعركة على الأعقاب!

وهذا هو الذي حذرهم إياه النضر بن أنس – رضي اللّه عنه – قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:وَحَدّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ أَخُو بَنِي عَدِيّ بْنِ النّجّارِ قَالَ انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النّضْرِ،عَمّ

[٤٣٢٨] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٤ /٥٨٧](٦٦٢٠) وصحيح البخارى- المكتر [١٢ /٤٢٧](٣٦٦٧ و٣٦٦٨) مختصرا

أَنَسِ بْنِ مَالِك،إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطّاب،وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللّه،فِي رِجَالٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،وَقَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ مَا يُجْلِسُكُمْ ؟ قَالُوا:قُتِلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺقَالَ فَمَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ ؟ (قُومُوا) فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺثُمّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ وَبِهِ سُمّيَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ.قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَحَدّثَنِي حُمَيْدٌ الطّوِيلُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ لَقَدْ وَجَدْنَا بِأَنَسِ بْنِ النّضْرِ يَوْمِئِذٍ سَبْعِينَ ضَرْبَةً فَمَا عَرَفَهُ إلّا أُخْتُهُ عَرَفَتْهُ بِبَنَانِهِ[٤٣٢٩].

وعَنْ حُمَيْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسًا.حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ زُرَارَةَ حَدَّثَنَا زِيَادٌ قَالَ حَدَّثَنِى حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ عَنْ أَنَسٍ – رضى الله عنه – قَالَ غَابَ عَمِّى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ،لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِى قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ،فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ – يَعْنِى أَصْحَابَهُ – وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ » – يَعْنِى الْمُشْرِكِينَ – ثُمَّ تَقَدَّمَ،فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ،فَقَالَ يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ،الْجَنَّةَ،وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّى أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ.قَالَ سَعْدٌ فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ.قَالَ أَنَسٌ فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ،وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ،فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ.قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِى أَشْبَاهِهِ (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ[٤٣٣٠]..

«وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً»..فإنما هو الخاسر،الذي يؤذي نفسه فيتنكب الطريق..وانقلابه لن يضر اللّه شيئا.فاللّه غني عن الناس وعن إيمانهم.ولكنه – رحمة منه بالعباد – شرع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم،ولخيرهم هم.وما يتنكبه متنكب حتى يلاقي جزاءه من الشقوة والحيرة في ذات نفسه وفيمن حوله.وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق،وتعوج الأمور كلها،ويذوق الناس وبال أمرهم في تنكبهم للمنهج الوحيد

[٤٣٢٩] – سيرة ابن هشام [٢ /٨٢] صحيح مرسل

[٤٣٣٠] – صحيح البخارى- المكنز [١٠ /٢٠٧](٢٨٠٥)

الذي تستقيم في ظله الحياة،وتستقيم في ظله النفوس،وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها،والسلام مع الكون الذي تعيش فيه.

«وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»..الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها اللّه لعباده في إعطائهم هذا المنهج،فيشكرونها باتباع المنهج،ويشكرونها بالثناء على اللّه،ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاء طيبا على شكرهم،ثم يسعدون بجزاء اللّه لهم في الآخرة،وهو أكبر وأبقى..

وكأنما أراد اللّه - سبحانه - بهذه الحادثة،وبهذه الآية،أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي - ﷺ- وهو حي بينهم.وأن يصلهم مباشرة بالنبع.النبع الذي لم يفجره محمد - ﷺ- ولكن جاء فقط ليومئ إليه،ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق،كما أومأ إليه من قبله من الرسل،ودعوا القافلة إلى الارتواء منه! وكأنما أراد اللّه - سبحانه - أن يأخذ بأيديهم،فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى.العروة التي لم يعقدها محمد - ﷺ- إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر،ثم يدعهم عليها ويمضي وهم بها مستمسكون! وكأنما أراد اللّه - سبحانه - أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة،وأن يجعل عهدهم مع اللّه مباشرة،وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام اللّه بلا وسيط.حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة،التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول - ﷺ- أو يقتل،فهم إنما بايعوا اللّه.وهم أمام اللّه مسؤولون! وكأنما كان اللّه - سبحانه - يعدّ الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو - سبحانه - يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم.فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب،وأن يصلهم به هو،وبدعوته الباقية،قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول.

ولقد أصيبوا - حين وقعت بالفعل - بالدهش والذهول.حتى لقد وقف عمر - رضي اللّه عنه - شاهرا سيفه،يهدد به من يقول:إن محمدا قد مات! و لم يثبت إلا أبو بكر،الموصول القلب بصاحبه،وبقدر اللّه فيه،الاتصال المباشر الوثيق.وكانت هذه الآية - حين ذكرها وذكر بها المدهوشين الذاهلين - هي النداء الإلهي المسموع،فإذا هم يثوبون ويرجعون!

ثم يلمس السياق القرآني مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية،لمسة موحيـــة،تطرد ذلك الخوف،عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة،وما بعد الحيـــاة والموت من حكمة للّه وتدبير،ومن ابتلاء للعباد وجزاء:«وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّـــا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا.وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَـــوابَ الْـــآخِرَةِ نُؤْتِـــهِ مِنْها.وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ»..

إن لكل نفس كتابا مؤجلا إلى أجل مرسوم.ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجـــل المرسوم.فالخوف والهلع،والحرص والتخلف،لا تطيل أجلا.والشجاعة والثبات والإقـــدام والوفاء لا تقصر عمرا.فلا كان الجبن،ولا نامت أعين الجبناء.والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد! بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس،فتترك الاشتغال به،ولا تجعله في الحساب،وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزام ات والتكاليف الإيمانية.وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص،كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع.وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزام اته،في صبر وطمأنينة،وتوكل على اللّه الذي يملـــك الآجـــال وحده.

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول..فإنه إذا كـــان العمـــر مكتوبا،والأجل مرسوما..فلتنظر نفس ما قدمت لغد ولتنظر نفس ماذا تريد..أتريـــد أن تقعد عن تكاليف الإيمان،وأن تحصر همها كله في هذه الأرض،وأن تعيش لهـــذه الـــدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى،وإلى اهتمامات أرفع،وإلى حياة أكبر من هـــذه الحياة؟..مع تساوي هذا الهم وذلك فيما يختص بالعمر والحياة؟! «وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها.وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها».

وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! - مع اتحاد النتيجـــة بالقيـــاس إلى العمر والأجل - والذي يعيش لهذه الأرض وحدها،ويريد ثواب الدنيا وحدها..إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب.والـــذي يتطلع إلى الأفق الآخر..إنما يحيا حياة «الإنسان» الذي كرمه اللّه واستخلفه وأفرده بهـــذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب والذي يتطلع إلى الأفق الآخر..إنمـــا

يحيا حياة "الإنسان" الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يمـــوت في موعـــده المضروب بأجله المكتوب....«وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا»..

«وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ»..الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنســـان،فيرتفعون عـــن مدارج الحيوان ويشكرون اللّه على تلك النعمة،فينهضون بتبعات الإيمان..

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة،وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء،وفق مـــا يريدونه لأنفسهم،من اهتمام قريب كاهتمام الدود،أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنســـان! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف – وهـــي لا تملك شيئا في شأن الموت والحياة – إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس،في الحقـــل الـــذي تملكه،وتملك فيه الاختيار.فتختار الدنيا أو تختار الآخرة.وتنال مـــن جـــزاء اللّـــه مـــا تختار![٤٣٣١]

---

١٧. الاقتداء بالصالحين من السلف الصالح:

كالإقتداء بسحرة فرعون لما عرفوا الحق آمنوا به وثبتوا عليه والإقتداء بصاحب يس الذي قدم نفسه سخية في سبيل الله وغيرهم كثير،قال تعالى:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْـــدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران:١٤٦ – ١٤٨]

فِي هذِهِ الآيَةِ يُسلِّي اللهُ تعالى المُؤْمِنِين عمّا وقع فِي نُفُوسِهِمْ يوْم أُحُدٍ،فقال لهُمْ:كمْ مِنْ نبِيٍّ قُتِل وهُو يُقاتِلُ،وكان معه جماعاتٍ كثِيرةٌ (رِبِّيُّون) مِمّنْ آمنُوا بِهِ،واعْتقـــدُوا أنّـــهُ رسُولُ اللهِ،فما وهنُوا،وما ضعُفُوا بعْد قتْلِ النّبِيِّ،وما اسْتكانُوا،وما استذلُّوا لِما أصابهُمْ فِي الجِهادِ فِي سبِيلِ اللهِ،وفِي سبِيلِ إِعْلاءِ دِينِهِ،وإِنّما صبرُوا على قِتالِ الأعْـــداءِ،و لمْ يهْرُبُـــوا

[٤٣٣١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٧٨٧)

مُولِّين الأدْبار،لأنّهُمْ يعْتقدُون أنّهُمْ يُقاتلُون فِي سبِيلِ اللهِ لا فِي سبِيلِ نبِيِّهِمْ،فعليْكُمْ أيُّهـــا المُسْلِمُون أنْ تعْتبِرُوا بِأولئِك الرِّبِّيِّين،وتصْبِرُوا كما صبرُوا فإِنّ دِين اللهِ واحِدٌ،وسُنّتهُ فِـــي خلْقِهِ واحِدةٌ..

فاحْتسب هؤُلاءِ المُؤْمِنُون (الرِّبِّيُّون) الله عِنْد اشْتِدادِ الخطْبِ،وهُمْ يُقاتِلُون أعْداءهُمْ،و لمْ يكُنْ لهُمْ مِنْ قوْلٍ عِنْد نُزُولِ الكوارِث إلا الدُّعاءُ إِلى اللهِ أنْ يغْفِر لهُمْ بِجِهادِهِمْ ما كانُوا ألمُّوا بِهِ مِنْ ذنُوبٍ،وتجاوزُوا فِيهِ حُدُود الشّرائِعِ،وأن يُثبِّـــت أقْـــدامهُمْ علـــى الصِّـــراطِ القوِيمِ،حتّى لا تُزحْزِحهُم الفِتنُ،ولا يعْرُوهُمُ الفشلُ حِين مُقابلةِ الأعْـــداءِ فِـــي ســـاحةِ الحرْبِ.

فآتاهُمُ اللهُ النّصْر والظّفر على الأعْداءِ،وهُما ثوابُ الدُّنْيا،وجمع لهُمْ،إِلى ذلِك الظّفرِ،حُسْن ثوابِ الآخِرةِ،وهُو الفوْزُ بِرُضْوانِ اللهِ ورحْمتِهِ،واللهُ يُحِبُّ الذِين يُحْسِنُون العمـــل،لأنّهُمْ يُقِيمُون سُنّتهُ فِي أرْضِهِ،ويُظْهِرُون بِأنْفُسِهِمْ وأعْمـــالِهِمْ أنّهُـــمْ جـــدِيرُون بِخِلافـــةِ اللهِ فِيها.[٤٣٣٢]

لقد كانت الهزيمة في «أحد»،هي أول هزيمة تصدم المسلمين،الذين نصرهم اللّه ببدر وهم ضعاف قليل فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية.فلمـــا أن صدمتهم أحد،فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه! ولعله لهذا طال الحديث حول هـــذه الواقعة في القرآن الكريم.واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأســـية تارة،وبالاســـتنكار تارة،وبالتقرير تارة،وبالمثل تارة،تربية لنفوسهم،وتصحيحا لتصورهم،وإعدادا لهم.

فالطريق أمامهم طويل،والتجارب أمامهم شاقة،والتكاليف عليهم باهظة،والأمر الـــذي يندبون له عظيم.

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام،لا يحدد فيه نبيا،ولا يحدد فيه قومـــا.إنمـــا يـــربطهم بموكب الإيمان ويعلمهم أدب المؤمنين ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطـــرد في كـــل دعوة وفي كل دين ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء ليقرر في حسهم قرابة المـــؤمنين للمؤمنين ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد.

[٤٣٣٢]– أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٩، بترقيم الشاملة آليا) وانظر:المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٠٤)

وأهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير:«وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ.فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا»....وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة.فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح.وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح،وما استسلموا للجزع ولا للأعداء..فهذا هو شأن المؤمنين،المنافحين عن عقيدة ودين..

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»..الذين لا تضعف نفوسهم،ولا تتضعضع قواهم،ولا تلين عزائمهم،ولا يستكينون أو يستسلمون..

والتعبير بالحب من اللّه للصابرين.له وقعه.وله إيحاؤه.فهو الحب الذي يأسو الجراح،ويمسح على القرح،ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء.فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم.صورة الأدب في حق اللّه،وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس،ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه.ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى اللّه..لا لتطلب النصر أول ما تطلب – وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس – ولكن لتطلب العفو والمغفرة،ولتعترف بالذنب والخطيئة،قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء:« وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا:رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا،وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا،وَثَبِّتْ أَقْدامَنا،وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء.بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء..لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة.لقد كانوا أكثر أدبا مع اللّه،وهم يتوجهون إليه،بينما هم يقاتلون في سبيله.فلم يطلبوا منه – سبحانه – إلا غفران الذنوب،وتثبيت الأقدام..والنصر على الكفار.فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار..إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق اللّه الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا،أعطاهم اللّه من عنده كل شيء.أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة.وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه:«فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا،وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ»..

وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان.فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهـاد،وأعلن حبه لهم.وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب:«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي.وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة.وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل [٤٣٣٣]..

---

١٨. عدم التطلع إلى أية لعاعة من لعاعات الدنيا

وذلك لأنها تفقدهم دورهم الحقيقي في هذه الأرض المهم مرضاة الله تعالى ليس إلا،عَنْ عَامِرٍ،قَالَ:انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺوَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ،فَقَالَ:" لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ،وَلَا يُطِيلُ الْخُطْبَةَ،فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا،وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ ".فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ:سَلْ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ،ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلِأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ،ثُمَّ أَخْبِرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ:فَقَالَ:" أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَلِأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُونَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ " قَالُوا:فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ:" لَكُمُ الْجَنَّةُ " قَالُوا:فَلَكَ ذَلِكَ " مسند أحمد [٤٣٣٤]

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة اللّه وقهر أعداء اللّه – حتى هذه الرغبة يريد اللّه أن يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء..فقط.وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء..ثم

[٤٣٣٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٧٩١)

[٤٣٣٤]– مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٣٠٩)(١٧٠٧٨) صحيح مرسل

انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء..ولكن هذا ليس داخلا في البيعة.ليس جزءا من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء..والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء.و لم يمنح اللّه المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية،إلا حين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء:

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ،فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَكَ.ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ،فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٤٣٣٥]

هكذا..«الجنة»..والجنة فقط! لم يقل:النصر والعز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

[٤٣٣٥] - أخبار مكة للفاكهي - (٤ / ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

والرخاء – مما منحهم اللّه وأجراه على أيديهم – فذلك كله خـــارج عـــن الصـــفقة! وهكذا..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل..لقد أخذوها صـــفقة بـــين متبـــايعين أمهـــي أمرها،وأمضي عقدها.

و لم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى اللّه الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كـــل أطماعها،وكـــل رغباتها،وكل شهواتها،حتى ما يختص منـــها بالـــدعوة الـــتي تحملها،والمنـــهج الـــذي تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقـــي لـــه أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة[٤٣٣٦].

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة.وهذه القلوب كان يجب أن تكون مـــن الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء– إلى شيء في هذه الأرض.ولا تنتظر إلا الآخرة.ولا ترجو إلا رضوان اللّه.قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال،بلا جـــزاء في هذه الأرض قريب.ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبـــة الإســـلام وظهـــور المسلمين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلـــة الأرض شـــيء إلا أن تعطي بلا مقابل.وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء.وموعدا كذلك للفصل بـــين الحق والباطل..حتى إذا وجدت هذه القلوب،وعلم اللّه منها صدق نيتها على ما بايعـــت وعاهدت،آتاها النصر في الأرض،وائتمنها عليه.لا لنفسها.ولكن لتقوم بأمانـــة المنـــهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة،مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضـــاه و لم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه.وقد تجردت للّه حقا يوم كانت لا تعلم لهـــا جزاء إلا رضاه!

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة.بعد ذلـــك.وبعـــد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه.وجاء النصر ذاته لأن مشيئة اللّه

[٤٣٣٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٨٦٨)

اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة،تراها الأجيال.فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام.إنما كان قدرا من قـــدر اللّه تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن![٤٣٣٧]

---

١٩. أن يكون القتال في سبيل الله وإنقاذ المستضعفين ليس إلا :

قال تعالى:{ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِـــلْ فِـــي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِـــنْ هَـــذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّـــذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَـــاتِلُوا أَوْلِيَـــاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) } [النساء]

فلْيُقاتلْ فِي سبيلِ اللهِ منْ أراد أنْ يبيع الحياة الدُّنْيا،ويبْذُلها،ويجْعلها ثمناً للآخرة،لأنّهُ يكُونُ قدْ أعزّ دين الله،وجعل كلمة الله هي العُلْيا.ومنْ يُقاتلْ فِي سبيلِ الله فيظْفرْ بِـــهِ عـــدُوُّهُ ويقْتُلُهُ،أوْ يظْفرْ هُو بعدُوِّه،فإنّ الله سيُؤْتيه أجْراً عظيماً منْ عنْده.

(وفِي هذه الآية إشارةً إلى أنّ همّ الْمُقاتلِ الْمُسْلمِ يجبُ أنْ يكُون الظّفر أو الشّهادة فِـــي سبيلِ الله،وعليْه أنْ لا يُفكِّر فِي الهربِ والنّجاة بالنّفْسِ،فالهربُ لا يُنجِّي منْ قدرِ الله،وفيه غضبُ الله وسخطُهُ)..

يُحرِّضُ اللهُ تعالى عبادهُ الْمُؤْمنين على القتالِ فِي سبيلِ إعْلاءِ كلمته،وفي ســـبيلِ إنْقـــاذِ الْمُسْتضْعفين من الْمُؤْمنين الموْجُودين فِي مكّة،من الرِّجالِ والنِّساءِ والصِّبْيان،الْمُتبرِّمين بالمقامِ فيها،ويقُولُ لهُمْ:أيُّ عُذْرٍ لكُمْ يمْـــنعُكُمْ مِـــنْ أنْ تُقـــاتلُوا فِـــي ســـبيلِ الله لتُقيمُـــوا التّوْحيد،وتنْصُرُوا العدْل والحقّ،وفِي سبيلِ إنْقاذِ إخْوانِكُمُ الْمُسْتضْعفِين الذين يسْـــتذِلُّهُمُ

[٤٣٣٧] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٧٩١)

الطُّغاةُ الكفرةُ فِي مكّة،وهُمْ يدْعُون ربّهُمْ أنْ يُخْرجهُمْ مِنْ تِلْك البلْدةِ (القرْيةِ) الظّالِمِ أّهْلُها،وأنْ يُسخِّر لهُمْ مِنْ عِنْدِهِ منْ ينْصُرُهُمْ،ويُنْقذُهُمْ مِمّا هُمْ فِيه.
الذِين آمنُوا يُقاتِلُون فِي سبِيلِ إعْلاءِ كلِمةِ اللهِ،ونشْرِ دِينِهِ،لا يبْتغُون غيْر رِضْوانِ اللهِ.أمّا الذِين كفرُوا،فإِنّهُمْ يُقاتِلُون فِي سبِيلِ الشّيْطانِ (الطّاغُوت)،الذِين يُزيِّنُ لهُمُ الكُفْر،ويُمنِّيهِمُ النّصْر.وكيْدُ الشّيْطانِ ضعِيفٌ،وهُو لا يسْتطِيعُ نصْر أوْلِيائِهِ.أمّا أوْلِياءُ اللهِ فهُمُ الأعِزّةُ،لأنّ الله حامِيهِمْ وناصِرُهُمْ ومُعِزُّهُمْ،ولِذلِك فعلى المُؤْمِنِين،أوْلِياءِ اللهِ،أنْ لا يخافُوا أعْداءهُمُ الكُفّار،لأنّ العاقِبة لِلْمُؤْمِنِين المُخْلِصِين.[٤٣٣٨]
فليقاتل في سبيل اللّه - فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل.لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة.ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي! إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على السكان..لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات،والأسواق للمنتجات أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات! إنه لا يقاتل لمجد شخص.ولا لمجد بيت.ولا لمجد طبقة.ولا لمجد دولة،ولا لمجد أمة،ولا لمجد جنس.إنما يقاتل في سبيل اللّه.لإعلاء كلمة اللّه في الأرض.ولتمكين منهجه من تصريف الحياة.ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج،وعدله المطلق «بين الناس» مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها..في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام..
وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل اللّه،بقصد إعلاء كلمة اللّه،وتمكين منهجه في الحياة.ثم يقتل..
يكون شهيدا.وينال مقام الشهداء عند اللّه..وحين يخرج لأي هدف آخر - غير هذا الهدف - لا يسمى «شهيدا» ولا ينتظر أجره عند اللّه،بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له..والذين يصفونه حينئذ بأنه «شهيد» يفترون على اللّه الكذب ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به اللّه الناس.افتراء على اللّه! فليقاتل في سبيل اللّه - بهذا التحديد..من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة.ولهم - حينئذ - فضل من

[٤٣٣٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٧، بترقيم الشاملة آليا)

اللّه عظيم في كلتا الحالتين:سواء من يقتل في سبيل اللّه ومن يغلب في سبيل اللّه أيضا:«وَمَنْ يُقاتِلْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ،فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً».
بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس وإلى تعليقها بالرجاء في فضل اللّه العظيم،في كلتا الحالتين.وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل،وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئا إلى جانب الفضل العظيم من اللّه.كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالبا بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض.وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل اللّه؟ وهو يحتوي المال - فيما يحتويه - ويحتوي سواه؟![4339]

وقال تعالى:{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)} [التوبة:٥١،٥٢]
قُلْ يا أَيُّها الرّسُولُ لِهؤُلاءِ الذين يفْرحُون بما يُصِيبُ المُسْلمين من المصائِب،وتسُوؤُهُم النِّعْمةُ الّتي تُصْيبُ المُسْلمين:نحْنُ تحْت مشيئةِ اللهِ وقدرِه،وما قدّرهُ لنا سيأْتينا،وليْس لـهُ مانِعٌ ولا دافِعٌ.ونحْنُ مُتوكّلُون على اللهِ،وهُو حسْبُنا ونِعْم الوكِيلُ،فلا نيْأسُ عِنْد الشِّدّة،ولا نبْطرُ عنْد النِّعْمة.
وقُلْ يا مُحمّدُ:هلْ تتربّصُون بنا،وتنْتظِرُون أنْ يقع لنا،إلاّ واحِدةٌ مِن اثْنتيْن:وكلْتاهُما خيْرٌ لنا وفيهِما حسنةٌ:شهادةٌ في سبيلِ اللهِ أوْ ظفرٌ.أمّا نحْنُ فإِنّنا ننْتظِرُ أنْ ينْزِل بِكُمْ عذابُ اللهِ،أوْ أنْ يُسلِّطنا عليْكُمْ ربُّكُمْ فنُذِيقكُمْ بأْسنا.[4340].

---

٢٠. عدم الخوف إلا من الله وحده مهما بلغت الشدائد

[4339] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٧)
[4340] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى: {الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

خافتْ قُريشٌ أنْ يجْمع رسُولُ الله ﷺ أهْل المدينة ممّنْ لْم يشْتركُوا في المعْركة،ويخْرُج وراءهُمْ،فأرْسلُوا إليه بعْض ناقلي الأخْبار ليُهوِّلُوا عليه،ليكُفّ عن اللِّحاق بهمْ،وقال ناقلُوا الأخْبار للْمُسْلمين:إنّ مُشْركي قُريْشٍ (النّاس) قدْ حشدُوا لكُمْ،وجمعُوا قُواهُمْ،فاحْذرُوهُمْ،واخْشوْهُمْ،فلمْ يزدْ هذا القوْلُ هؤُلاء الْمُؤْمنين – الذين اسْتجابُوا للْرسُول منْ بعْد ما أصابهُمُ القرْحُ وخرجُوا مع رسُول الله ﷺ مُلبّين دعْوتهُ،راغبين في نيْل رضْوان ربِّهمْ ونصْره – إلاّ إيماناً بربهمْ،وثقةً بوعْده ونصْره وأجْره،وردُّوا على مُخاطبيهمْ قائلين:إنّهُمْ يتوكّلُون على الله،وهُو حسْبُهُمْ.فلمّا توكّلُوا على الله كفاهُمُ اللهُ ما أهمّهُمْ وأغمّهُمْ،وردّ عنْهُمْ بأس النّاس (الكافرين)،فرجعُوا بنعْمة من الله لْم يمْسسْهُمْ سُوْءٌ،وقدْ فازُوا برضْوان الله،وعظيم فضْله،واللهُ واسعُ الفضْل

(خرج الْمُسْلمُون مع الرّسُول إلى موْقعٍ يُعْرفُ بحمْراء الأسد،وأرْسل إلى الْمُشْركين رُسُلاً يُحذِّرُونهُمْ،فخافتْ قُريْشٌ وتابعتْ سيْرها نحْو مكّة).

وكان أبُو سُفْيان قدْ واعد رسُول الله ﷺ بدْراً من العام القابل،فخرج رسُول الله ﷺ بالْمُسْلمين إلى بدْرٍ في الموْعد الْمُحدّد،وتخلّفتْ قُريْشٌ،فاشْترى رسُول الله عيْراً مرّتْ بهمْ في الموْسم،ثُمّ باعها فربح،ووزّع الرِّبْح على أصْحابه،فانْقلبُوا منْ غزْوة بدْرٍ الثّانية لْم يمْسسْهُمْ سُوءٌ،ونالُوا رضْوان الله،وحصلُوا على فضْله في الرِّبْح.واللهُ عظيمُ الفضْل على عباده.

يُبيِّنُ اللهُ تعالى للْمُؤْمنين،أنّ الشّيْطان هُو الذي يُخوِّفُكُمْ منْ أوْليائه الْمُشْركين،ويُوهمُكُمْ أنّهُمْ ذوُو بأْسٍ وقُوّة،وهُو الذي قال لكُمْ إنّ النّاس قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشوْهُمْ،فلا تخافُوا أوْلياء الشّيْطان،وتوكّلُوا على الله،والْجؤُوا إليه إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنين حقّاً،فإنّهُ كافيكُمْ

إِيّاهُمْ،وناصِرُكُمْ عليْهِمْ.وخافُوهُ هُو فهُو القادِرُ على النّصْرِ وعلى الخُذْلانِ،وعلى الضّرِّ والنّفْعِ [٤٣٤١].

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول – ﷺ- إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة.

وهم مثخنون بالجراح.وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة.وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة،ومرارة الهزيمة،وشدة الكرب.وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا،فقل عددهم،فوق ما هم مثخنون بالجراح! ولكن رسول اللّه – ﷺ- دعاهم.ودعاهم وحدهم.ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم – ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! – فاستجابوا..استجابوا لدعوة الرسول – ﷺ- وهي دعوة اللّه – كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك – فاستجابوا بهذا للّه والرسول «مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ»،ونزل بهم الضر،وأثخنتهم الجراح.

لقد دعاهم رسول اللّه – ﷺ- ودعاهم وحدهم.وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى،وتومئ إلى حقائق كبرى،نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول اللّه – ﷺ- شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم،هو شعور الهزيمة،وآلام البرح والقرح فاستنهضهم لمتابعة قريش،وتعقبها،كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء،وليست نهاية المطاف.وأنهم بعد ذلك أقوياء،وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء،إنما هي واحدة وتمضي،ولهم الكرة عليهم،متى نفضوا عنهم الضعف والفشل،واستجابوا لدعوة اللّه والرسول.

ولعل رسول اللّه – ﷺ- شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش،وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته.فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالا.وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها..

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة.

[٤٣٤١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٦، بترقيم الشاملة آليا)

ولعل رسول اللّه – ﷺ- شاء أن يشعر المسلمين،وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم،بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض..حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها.

ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها،وليس لهم من غاية في حياتهم سواها.عقيدة يعيشون لها وحدها،فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها،ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها،ولا يقدمونها فداها..

لقد كان هذا أمرا جديدا في هذه الأرض في ذلك الحين.و لم يكن بد أن تشعر الأرض كلها – بعد أن يشعر المؤمنون – بقيام هذا الأمر الجديد،وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة.و لم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح.ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة:صورة التوكل على اللّه وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم – كما أبلغهم رسل أبي سفيان – وكما هوّل المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا -:«الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ:إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة.وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة[٤٣٤٢].

---

٢١. يقينهم -مهما كانوا ضعفاء - أنهم على الحقّ وعدوهم على الباطل:

قال تعالى:(قُلْ لِلّذِين كفرُوا ستُغْلبُون وتُحْشرُون إِلى جهنّم وبِئْس الْمِهادُ) (آل عمران:١٢)

قُلْ يا مُحمّدُ لِلْكافِرين – وهُمْ هُنا اليهُودُ -:إِنّهُمْ سيُغْلبُون فِي الدُّنيا ويُحْشرون يوْم القِيامةِ،ويُساقُون إلى جهنّم،لِتكُون لهُمْ مِهْداً وفِراشاً،وبِئْس المِهْدُ والفِراشُ.(هذِهِ الآيةُ نزلتْ فِي يهُودِ بنِي قيْنُقاع.فبعْد أنْ نصر اللهُ المُسْلِمِين يوْم بدْرٍ،جمع الرّسُولُ ﷺ يهُود

[٤٣٤٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٣١)

المدِينة،وقال لَهُمْ:يا معْشر اليهُودِ أسْــلِمُوا قبْــل أنْ يُصِــيبكُمْ اللهُ بمــا أصــاب بِــه قُرَيْشاً.فقالُوا:يا مُحمّدُ لا يغُرّنّك مِنْ نفْسك أنّك قتلْت نفراً مِــنْ قُــريش لا يعْرِفُــون القِتال،إنّك واللهِ لوْ قاتلْتنا لعرفْت أنّا نحْنُ النَّاسُ،وأنّك لمْ تلْق مِثْلنا.فأنزل اللهُ تعالى هــذِهِ الآية والتي بعْدها،وقدْ صدق اللهُ وعْدهُ فقتل المُسْلِمُون بنِي قُريْظة،وأجْلوا بنِــي النّضِــيرِ وبنِي قيْنُقاع،وفتُحُوا خيْبر).[4343]

فى سكرة السلطان،يفقد كثير من الناس صوابهم،ويضل عنهم رشدهم،فتمرّ بهــم العــبر وهم عنها غافلون..وفيما ذكر الله سبحانه- مما أخذ به الطغاة والظلمة،ما فيــه عــبرة ومزدجر للطغاة والظلمة،من كفار مكة..ولكنهم فى سكرتهم يعمهون.وإنه لكى تنقطــع أعذارهم ولا يكون لهم على الله حجة،فقد أمر الله نبيّه عليه السّلام،أن يلقاهم صــراحة بهذا النذير،وأن يقرع آذانهم بما ينتظرهم من مصير مشئوم،إن هم ظلّوا على ما هم عليــه من عمى وضلال..«سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ» فلا حظّ لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة..إذ لا يعصمهم سلطانهم،ولا تمنعهم كثرتهم وقوتهم،من أن يلقوا الهزيمة فى هذه الدنيا على يد هؤلاء الذين استضعفوهم واستبدّوا بهم،وهذا من أنباء الغيــب الــتي حملها القرآن عزاء وبشرى للمؤمنين،إذ تلقّوا هذا الوعــد الصــادق الــذي لا يخلــف أبدا،فهوّن عليهم البلاء الذي هم فيه،وربط على قلوبهم بالصبر،انتظارا ليوم النصــر،وقد جاء تأويل هذا فى تلك الخاتمة التي ختمت بها حياة الكفر والكافرين،يوم فتح مكــة،يوم جاء نصر الله والفتح،ودخل الناس فى دين الله أفواجا.هذا ما كان ينتظــر الكــافرين فى الدنيا،التي ظنوا أنهم يمسكون منها بالسبب القوىّ الذي لا ينقطع..أما فى الآخرة فــالأمر أدهى وأمرّ..حيث تنتظــرهم جهــنم بســعيرها المتســعر،وعذابها الألــيم..«وَبِــئْسَ الْمِهادُ».[4344]

[4343] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

[4344] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤١٠)

وقال تعالى:{ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)} [آل عمران:١٩٧،١٩٦]

لا تنْظُرْ إلى ما أتْرِف فيهِ هؤُلاءِ الكُفّارُ من النِّعْمةِ والغبْطةِ والسُّرُور.ولا تعْجبْ منْ تصرُّفِهِمْ فِي الأسْفارِ للتِّجارةِ والتّكسُّب ثُمّ عوْدتهُمْ سالِمين إلى أهْليهِمْ وديارهِمْ.فإنّهُ متاعٌ قليلٌ زائِلٌ،يتمتّعُون بِهِ فِي الحياةِ الدُّنْيا،ثمّ يكُونُ مصيرُهُمْ إلى جهنّم وبِئْس المُسْتقرُّ والمهْدُ"[4345]

فى هذه المناجاة التي كانت تسبح فيها أرواح المؤمنين فى رحاب الله،وترفّ بها على مشارف الملأ الأعلى،يؤذّن فيهم بالعودة إلى عالمهم الذي يعيشون فيه،العالم الأرضى،إذ كان لا بدّ من العودة بعد هذه الرحلة المسعدة فى عالم الروح،والحق،والنور،لأن الحياة تدعوهم إليها،ليكونوا مع النّاس،وليعيشوا فى الناس! ومع ما معهم من زاد طيب تزوّدوا به فى تلك الرحلة المسعدة،فإن ما على الأرض من مفاسد وشرور،وما فى النّاس من مفسدين وأشرار،جدير به أن يغتال هذا الزاد الطيب،وأن يحرم أصحابه منه إذا لم يحذروا.

ولهذا فقد تلقّاهم الله سبحانه وتعالى بتلك اللفتة الكريمة- تلقاهم وهم يهبطون إلى هذا العالم الأرضى،ليأخذوا حذرهم من العدوّ الراصد لهم بما فى يديه من مفاتن ومفاسد،وليظلوا هكذا محتفظين بما وقع لأيديهم من خير،فى تطوافهم بالعالم العلوي،وسبحهم فيه..

وكان قوله تعالى مخاطبا نبيّه الكريم:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ» هو اليد القويّة الرّحيمة،التي تمسك على المؤمنين إيمانهم،وتثبت على طريق الحق والخير خطوهم،فلا يغريهم ما يغدو فيه الكافرون وما يروحون،من متاع الحياة وزخرفها،وما يحصّلون فيها من مال،وما يقع لأيديهم من جاه وسلطان،فذلك كله «مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».وفى خطاب النبىّ الكريم بهذا النهى ومواجهته بالتحذير مما فيه..ما يلقى إلى المؤمنين أن يكونوا على حذر

[4345] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

دائم،وإشفاق متصل..إذ كان النبيّ الكريم،وهو ما هو فى صلته بربه وخشـيته منـه،وفى رعاية الله له،وعصـمته مـن الزلـل- يواجـه بهـذا التحـذير،ويلفت إلى مراقبـة نفسه،وحراستها،فإن غير النبيّ من المؤمنين أولى بأن يحذر ويخشى العدوّ المتربص بـه،إن أراد النجاة والسلامة.[4346]

٢٢. عدم الاكتراث بالذين لا يوقنون:

قال تعالى: {فاصْبِرْ إنّ وعْد اللّه حقٌّ ولا يسْتخفّنّك الّذين لا يُوقنُون} (٦٠) سورة الروم
فاصْبِرْ يا مُحمّدُ على هُؤلاءِ الُمشْركين،ولا تلْتفتْ إلى تكذيبهم ومُكابرتهمْ،وبلِّغْهُمْ رِسالة ربِّهِمْ،فإنّهُ وعدك النّصْر والظّفر،وسيُنْجزُ لك وعْدهُ،ولا يحْملنّك الذين لا يُؤْمنُون بالآخرة (لا يُوقِنُون) على الخِفّة والانْفعالِ،فيصْرِفُوك بذلك عمّا أمرك به ربُّـك مِـنْ إبْـلاغِ رِسالاته إلى النّاسِ.[4347]
بهذه الآية تختم السورة الكريمة،وهى تحمل إلى النبي الكريم دعوة من الله سبحانه وتعـالى إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره،مستعينا على الصـبر،واحتمال المكروه،بمـا وعده ربه من نصر لدين الله الذي يدعو إليه،ومن تمكن له وللمـؤمنين معـه في هـذه الدنيا،ومغفرة من الله ورضوان فى الآخرة،هذا،إلى ما يلقى هؤلاء المشركون الضالون من خزى وخذلان فى الدنيا،وعذاب شديد في الآخرة.
وفي قوله تعالى:«وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» - إشارة لافتة إلى ما قد يـرد علـى النبي- ﷺ- من تلك الخواطر التي تساور بعض النفوس،من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء،وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله من نصـر،ففى سـاعات الضـيق والعسرة،قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شيء مـن القلق،وربمـا شـيء مـن الشـك والريب،ذلك أن للنفس البشرية حدا من الاحتمال والصبر على المكاره،إذا بلغته زايلتها

[4346] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٧٥)
[4347] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

القدرة على الاحتمال،وآذنها الصبر بالرحيل،وعندئذ تنحلّ العزيمة،ويضعف اليقين،وتبرد حرارة الإيمان،وفي هذا يقول الله تعالى:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَـأْتِكُمْ مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟» (٢١٤:البقرة)..فهذه حال تعرض المؤمنين،ولن يعصـهم منـها إلا التحصن بالإيمان،واللّياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة الله،وفي تحقيق مـا وعـد المؤمنين به،من نصر،وعافية مما هم فيه من بلاء.

فقوله تعالى:«وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» دعوة للمؤمنين أن يوثّقوا إيمانهم بالله،وأن يمتحنوا هذا الإيمان على محك الشدائد والمحن،فعلى هذا المحك يظهر معدن الإيمان،وتعرف حقيقته..

والاستخفاف:أصله من الخفة،والمراد به التحول من حال إلى حال،والانتقال من وضـع إلى وضع،عند كل خاطرة،ولأية مسة..فإن الخفيف من الشيء،هدف سهل لكل عارض يعرض له،ويريد زحزحته عن موضعه الذي هو عليه..

والآية،إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله،والمستيقنين بنصره،فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت في موقفه من الإيمان بربه،والثقة فيما وعده به،حتى ترتدّ عنه العوارض الـتي تعرض له داخل نفسه أو خارجها،حين تجده جبلا راسخا،لا تصادف أية خفـة في أي جانب منه..وقد كان ﷺ على هذا اليقين الذي تزول الجبال ولا يزول..حتى ليقول لعمه أبي طالب،وقد جاء يدعوه إلى مهادنة قومه،على أن يحتكم بما شاء فـيهم،من مـال أو سلطان،قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ أَنَّهُ حُـدِّثَ:أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالُوا لِأَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْمَقَالَةَ،بَعَثَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَـهُ:يَـا ابْـنَ أَخِي،إنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي،فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا،لِلَّذِي كَانُوا قَالُوا لَهُ،فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَـى نَفْسِكَ،وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنْ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ،قَالَ:فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَنَّهُ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ بَدَاءٌ أَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ،وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ.قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:يَـا عَمُّ،وَاَللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي،وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّـى يُظْهِرَهُ اللَّهُ،أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ،مَا تَرَكْتُهُ.قَالَ:ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَبَكَى ثُمَّ قَامَ،فَلَمَّا وَلَّـى

نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ،فَقَالَ:أَقْبِلْ يَا بن أَخِي،قَالَ:فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:اذْهَبْ يَا بن أَخِي،فَقُلْ مَا أَحْبَبْت،فو الله لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا..[4348]

إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية! والثقة بوعد اللّه الحق،والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك..الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين،ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد اللّه.ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين.فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل اللّه فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين.مهما يطل هذا الطريق،ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم! وهكذا تختم السورة التي بدأت بوعد اللّه في نصر الروم بعد بضع سنين،ونصر المؤمنين.تختم بالصبر حتى يأتي وعد اللّه والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون.فيتناسق البدء والختام.وتنتهي السورة وفي القلب منها إيقاع التثبيت القوي بالوعد الصادق الذي لا يكذب،واليقين الثابت الذي لا يخون..[4349].

٢٣. وجوب الصبر و المصابرة والمرابطة والتقوى:

قال تعالى:(يا أَيُّها الّذِين آمنُوا اصْبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا واتّقُوا اللّه لعلّكُمْ تُفْلِحُون) (آل عمران:٢٠٠)

يأْمُرُ اللهُ تعالى المُسْلمين أنْ يصْبرُوا على دِينِهمُ الذي ارْتضاهُ اللهُ لهُمْ،وهُو الإسْلامُ،فلا يدعُونهُ لِشدّةٍ ولا لِرخاءٍ،حتّى يمُوتُوا مُسْلِمين.والمُرابطة هي المرابطة في الثُّغُورِ لِلْغزْوِ والجِهادِ فِي سبِيلِ اللهِ.وقال رسُولُ اللهِ ﷺ " رِباطُ يوْمٍ وليْلةٍ فِي سبِيلِ اللهِ خيْرٌ مِن الدُّنيا وما عليها " [4350].

[4348] - سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٢٦٦) صحيح مرسل،التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٤٩)

شري:زاد واشتد= تذامروا:تغيظوا وحض بعضهم بعضا عليه.

[4349] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٣١)

[4350] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،قَالَ كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ.فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:" أَمَّا بَعْدُ.فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلْ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ،يَجْعَلِ اللَّهُ بَعْدَهُ فَرَجًا.وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ.وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا،وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:٢٠٠] "[٤٣٥١]

وهكذا روى الْحافظ ابْن عساكِر فِي ترْجمة عبْد اللّه بْن الْمُبارك منْ طرِيق مُحمّد بْن إِبْراهيم ابْن أبِي سُكيْنة قال:أمْلى عليّ عبْد اللّه بْن الْمُبارك هذِهِ الْأبْيات بطرسُوس وودّعْته لِلْخرُوجِ وأنْشدها معِي إِلى الْفُضيْل بْن عِياض فِي سنة سبْعِين ومائة وفِي رِواية سنة سبْع وسبْعِين ومائة.

يا عابِد الْحرميْنِ لوْ أبْصرْتنا...لعلِمْت أنّك فِي الْعِبادة تلْعب

منْ كان يخْضِبُ خدّه بِدُمُوعِهِ...فنُحُورنا بِدِمائِنا تتخضّب

أوْ كان يُتْعِب خيْلهُ فِي باطِلٍ...فخُيُولنا يوْم الصّبِيحة تتْعب

رِيح الْعبِير لكُمْ ونحْنُ عبِيرنا...رهْج السّنابِك والْغُبار الْأطْيب

ولقدْ أتانا منْ مقال نبِيّنا...قوْل صحِيح صادِق لا يُكْذب

لا يسْتوِي غُبار خيْل اللّه فِي...أنْف امْرِئٍ ودُخان نار تلْهبُ

هذا كِتاب اللّه ينْطِق بيْننا...ليْس الشّهِيد بِميِّت لا يُكْذب

فَلَقِيْتُ الفُضَيْلَ بِكِتَابِهِ فِي الحَرَمِ،فَقَرَأَهُ،وَبَكَى،ثُمَّ قَالَ:صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَ.[٤٣٥٢]

وفي مسند أبي عوانة عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ،وَإِنْ مَاتَ مُرَابِطًا جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ،وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ،وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[٤٣٥٣].

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة.إنه طريق طويل شاق،حافل بالعقبات والأشواك،مفروش بالدماء والأشلاء،وبالإيذاء والابتلاء ..الصبر على أشياء كثيرة:الصبر

[٤٣٥١] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٦)(٦) صحيح مرسل

[٤٣٥٢] - سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٣٨٦)

[٤٣٥٣] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٩٧)(٧٤٦٨)

على شهوات النفس ورغائبها،وأطماعها ومطامحها،وضعفها ونقصها،وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم،وانحراف طباعهم،وأثرتهم،وغرورهم،والتوائهم،واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل،ووقاحة الطغيان،وانتفاش الشر،وغلبة الشهوة،وتصعير الغرور والخيلاء!

والصبر على قلة الناصر،وضعف المعين،وطول الطريق،ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق!

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله،وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة.من الألم والغيظ،والحنق،والضيق،وضعف الثقة أحيانا في الخير،وقلة الرجاء أحيانا في الفطرة البشرية والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط!

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة،واستقبال الرخاء في تواضع وشكر،وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام،وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء!

والبقاء في السراء والضراء على صلة باللّه،واستسلام لقدره،ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع..

والصبر على هذا كله – وعلى مثله – مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل..لا تصوره حقيقة الكلمات.

فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة.إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي.فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء.كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب اللّه إليهم أن يزاولوه..

والمصابرة..وهي مفاعلة من الصبر..مصابرة هذه المشاعر كلها،ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين..مصابرتها ومصابرتهم،فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة.

بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى:أعدائهم من كوامن الصدور،وأعدائهم من شـرار الناس سواء.

فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم،يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر،والدفع بالدفع،والجهد بالجهد،والإصرار بالإصرار..ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء.وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق،فما أجدر الحق أن يكون أشد إصرارا وأعظم صبرا على المضي في الطريق! والمرابطة..الإقامة في مواقع الجهاد،وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء..وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدا،ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعداؤها قط،منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة،والتعرض بها للناس.وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني عن المرابطة للجهاد،حيثما كانت إلى آخر الزمان! إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي.منهج يتحكم في ضمائرهم،كما يتحكم في أموالهم،كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم.منهج خير عادل مستقيم.ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة..ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان.ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال.وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار.وينهد لحربها المستهترون المنحلون،لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات..ولا بد من مجاهدتهم جميعا.ولا بد من الصبر والمصابرة.ولا بد من المرابطة والحراسة.كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين،الدائمين في كل أرض وفي كل جيل..

هذه طبيعة هذه الدعوة،وهذا طريقها..إنها لا تريد أن تعتدي ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم..وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام.ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد.ومن يتربص بها الدوائر.ومن يحاربها باليد

والقلب واللسان..ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها،ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!

والتقوى..التقوى تصاحب هذا كله.فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل ويحرسه أن يضعف ويحرسه أن يعتدي ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك.

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ،إلا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات..

إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات.وهو جماعها كلها،وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها..ومن ثم يعلق اللّه بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار:«لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».وصدق اللّه العظيم..[٤٣٥٤].

٢٤. وجوب الاستعانة بالصبر والصلاة:

قال تعالى:(واسْتعِينُوا بِالصّبْرِ والصّلاةِ وإِنّها لكبِيرةٌ إِلّا على الْخاشِعِين) (البقرة:٤٥)

ويأْمُرُ اللهُ تعالى عِبادهُ بِالاسْتِعانةِ على أداءِ التّكاليفِ،وما فرضهُ عليْهِمْ،بِالصّبْرِ على الفرائِضِ،وضبْطِ النّفْسِ عنِ المعاصِي،وبِالصّلاةِ،لعلّهُمْ يبْلُغُون ما يُؤمِّلُون مِنْ خيْرِ الدُّنيا والآخِرةِ.ويُنبِّهُهُمُ اللهُ تعالى إلى أنّ القِيام بِهذِهِ الوصِيّةِ التي يطْلبُ مِن النّاسِ الأخْذ بِها مِنْ صبْرٍ وصلاةٍ...أمْرٌ شاقٌ ثقِيلٌ على النُّفُوسِ،إلاّ النُّفُوس المُؤْمِنة الخاشِعة المُسْتكِينة لِطاعةِ اللهِ،المُتذلِّلة مِنْ مخافتِهِ [٤٣٥٥].

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ذلك أن اللّه سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع والذي يقتضيه القيام على دعوة اللّه في

[٤٣٥٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٧٠)

[٤٣٥٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

الأرض بين شتى الصراعات والعقبات والذي يتطلــب أن تبقــى الــنفس مشــدودة الأعصاب،مجندة القوى،يقظة للمداخل والمخارج..

ولا بد من الصبر في هذا كله..لا بــد مــن الصــبر علــى الطاعات،والصــبر عــن المعاصي،والصبر على جهاد المشاقين للّه،والصبر على الكيد بشتى صنوفه،والصبر علــى بطء النصر،والصبر على بعد الشقة،والصبر على انتفــاش الباطل،والصــبر علــى قلــة الناصر،والصبر على طول الطريــق الشائك،والصــبر علــى التــواء النفوس،وضــلال القلوب،وثقلة العناد،ومضاضة الإعراض..

وحين يطول الأمد،ويشق الجهد،قد يضعف الصــبر،أو ينفــد،إذا لم يكــن هنــاك زاد ومدد.ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعــين الــذي لا ينضــب،والزاد الــذي لا ينفد.المعين الذي يجدد الطاقة،والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطــع.ثم يضيف إلى الصبر،الرضى والبشاشة،والطمأنينة،والثقة،واليقين.

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى،يستمد منــها العــون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة.حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة.حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع،وحينما تثقل عليــه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة.حينما يطول به الطريق وتبعد به الشــقة في عمــره المحدود،ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب،ولم ينل شيئا وشمس العمر تميــل للغروب.حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا،ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق..

هنا تبدو قيمة الصلاة..إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية.إنهــا الموعــد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض.إنها مفتاح الكنز الذي يغــني ويقــني ويفيض.إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير.إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة،إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود..ومن هنــا كان رسول اللّه – ﷺ- إذا كان في الشدة قال:«أرحنا بها يا بلال» فعَنْ عَبْــدِ اللهِ بْــنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَــى صِــهْرٍ لَنَــا مِــنَ الْأَنْصَارِ،فَحَضَــرَتِ

الصَّلَاةُ،فَقَالَ:يَا جَارِيَتِي،ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أَتَوَضَّأُ فَأَسْتَرِيحَ،فَرَآنَا أَنْكَرْنَا ذَلِكَ،أَوْ فَكَأَنَّهُ رَآنَا أَنْكَرْنَا ذَلِكَ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:" قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ " [٤٣٥٦]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بنِ مُحَمَّدِ بن الْحَنَفِيَّةِ،قَالَ:انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي إِلَى صِهْرٍ لَنَا مِنْ أَسْلَمَ،مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ،فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:"أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلالُ الصَّلاةَ"،قَالَ:قُلْتُ:أَسَمِعْتَ ذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَغَضِبَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ يُحَدِّثُهُمْ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺبَعَثَ رَجُلا إِلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ،فَلَمَّا أَتَاهُمْ،قَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺأَمَرَنِي أَنْ أَحْكُمَ فِي نِسَائِكُمْ بِمَا شِئْتُ،فَقَالُوا:سَمْعًا وَطَاعَةً لأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَبَعَثُوا رَجُلا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:إِنَّ فُلانًا جَاءَنَا،فَقَالَ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺأَمَرَنِي أَنْ أَحْكُمَ فِي نِسَائِكُمْ بِمَا شِئْتُ،فَإِنْ كَانَ أَمْرَكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً،وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَحْبَبْنَا أَنْ نُعْلِمَكَ،فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَبَعَثَ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ،وَقَالَ:اذْهَبْ إِلَى فُلانٍ فَاقْتُلْهُ وأَحْرِقْهُ بِالنَّارِ،فَانْتَهَى إِلَيْهِ وَقَدْ مَاتَ وَقُبِرَ،فَأَمَرَ بِهِ فَنُبِشَ،ثُمَّ أَحَرَقَهُ بِالنَّارِ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ:تَرَانِي كَذَبْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺبَعْدَ هَذَا؟ [٤٣٥٧]

وعَنْ سَلْمَانَ بن خَالِدٍ،أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ،قَالَ:صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ،فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:"يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا" [٤٣٥٨].

[٤٣٥٦] - شرح مشكل الآثار - (١٤ / ١٦٧)(٥٥٤٩) صحيح

قال الطحاوي:"فإِنْ أَنْكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ مُنْكِرٌ،وَقَالَ:كَيْفَ تَقْبَلُونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺأَمْرَهُ بِأَنْ يُرَاحَ مِنَ الصَّلَاةِ ؟،فَكَانَ جَوَابَنَا لَهُ فِي ذَلِكَ:أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ أَنْ يُرَاحَ مِنَ الصَّلَاةِ،وَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ كَذَلِكَ،لَأَنْكَرْنَاهُ كَمَا أَنْكَرَهُ،وَلَكِنَّ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ أَمْرُهُ ﷺ بِلَالًا أَنْ يُرِيحَهُ بِالصَّلَاةِ مِنْ غَيْرِهَا إِذْ كَانَت الصَّلَاةُ هِيَ قُرَّةَ عَيْنِهِ،فَأَمَرَ أَنْ يُرَاحَ بِهَا مِمَّا سِوَاهَا مِمَّا لَيْسَ مَنْزِلَتُهُ كَمَنْزِلَتِهَا،وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ مَعْقُولٌ،وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ ﷺ بِذَلِكَ،مَا هُوَ مِمَّا يُشْبِهُ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَفِي أَدَاءِ فَرَائِضِهِ،وَفِي التَّمَسُّكِ بِهَا،وَفِي غَلَبَتِهَا عَلَى قَلْبِهِ،وَفِي أَنْ لَا شَيْءَ عِنْدَهُ مِثْلُهَا،وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ " شرح مشكل الآثار [١٤ /١٦٧]

[٤٣٥٧] - المعجم الكبير للطبراني [٦ /٩٥] (٦٠٩١) فيه ضعف

[٤٣٥٨] - المعجم الكبير للطبراني [٦ /٩٥](٦٠٩٠) صحيح – وهذه الأحاديث مفصلة مني لأن السيد رحمه الله ذكره مختصرا

..ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله،فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:كَانَ النَّبِىُّ – ﷺ– إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[٤٣٥٩]

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة.والعبادة فيه ذات أسرار.ومن أسرارها أنها زاد الطريق.وأنها مدد الروح.وأنها جلاء القلب.وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر..إن اللّه سبحانه حينما انتدب محمدا – ﷺ– للدور الكبير الشاق الثقيل،قال له:«يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا.نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا.أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا..إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»..فكان الإعداد للقول الثقيل،والتكليف الشاق،والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن..إنها العبادة التي تفتح القلب،وتوثق الصلة،وتيسر الأمر،وتشرق بالنور،وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.ومن ثم يوجه اللّه المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام..إلى الصبر وإلى الصلاة..ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه:«إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»..معهم،يؤيدهم،ويثبتهم،ويقويهم،ويؤنسهم،ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم،ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة،وقوقم الضعيفة،إنما يمدهم حين ينفد زادهم،ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق..

وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..ويختم النداء بذلك التشجيع العجيب:«إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبته للسياق القرآني هنا في إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها:

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ،فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ،مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ

[٤٣٥٩] – سنن أبي داود – المكتر – (١٣٢١) صحيح

دينه،وَاللَّه لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[٤٣٦٠]...
وقَالَ عَبْدُ اللَّه:كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِىِّ - ﷺ- يَحْكِى نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ،وَهْوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِه،وَيَقُولُ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »[٤٣٦١].
وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" إِنَّ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ "[٤٣٦٢]..

---

٢٥. تحمّل الأذى الشديد في سبيل الله تعالى وعدم الوهن في طلب الكفار

قال تعالى:(ولا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُون فَإِنّهُمْ يأْلَمُون كما تأْلَمُون وتَرْجُون من اللّه ما لا يَرْجُون وكان اللّهُ عليماً حكيماً) (النساء:١٠٤)
يأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بالجِدِّ في قتال الأعْداء،وفي طلبِهِمْ ويُنَبِّهُهُمْ إلى أنّهُمْ إنْ كانتْ تُصِيبُهُمْ جِراحٌ،ويأْلَمُون منْها،فإنّ أعْداءهُمْ تُصِيبُهُمْ أيْضاً جِراحٌ،ويأْلَمُون منْها.والفارِقُ الوحِيدُ بيْن المُؤْمنِ والكافرِ أنّ المُؤْمن ينْتظرُ من الله المثُوبة والأجْر،والنّصْر والتّأْييد،وإعْلاء كلمة الله،التي وعدهُ اللهُ بها على لِسان نبِيِّه،في كتابِه العزِيزِ،والكافِرِ لا ينْتظِرُ شيْئاً منْ ذلِك،واللهُ أعْلمُ وأحْكمُ فيما يفْرِضُهُ ويُقدِّرُهُ..[٤٣٦٣]
إنهن كلمات معدودات.يضعن الخطوط الحاسمة،ويكشفن عن الشقة البعيدة،بين جبهتي الصراع..
إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة..ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه..إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء..ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء..إن

[٤٣٦٠] - صحيح البخارى- المكنز - (٣٦١٢)
[٤٣٦١] - صحيح البخارى- المكنز - (٣٤٧٧).
[٤٣٦٢] - شعب الإيمان - (١٢ / ٢٠١)(٩٢٧٧) صحيح وفي ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٢)
[٤٣٦٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

المؤمنين يتوجهون إلى اللّه بجهادهم،ويرتقبون عنده جزاءهم..فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون،لا يتجهون للّه،ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة..

فإذا أصر الكفار على المعركة،فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا،وإذا احتمل الكفار آلامها،فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام.وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال،وتعقب آثارهم،حتى لا تبقى لهم قوة،وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه.

وإن هذا لهو فضل العقيدة في اللّه في كل كفاح.فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة،ويربو الألم على الاحتمال.ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد.هنالك يأتي المدد من هذا المعين،ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة.معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين.لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة..ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبدا،حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله.من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض.ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار.وأن تعلم أنها إن كانت تألم،فإن عدوها كذلك يألم.

والألم أنواع.والقرح ألوان..«وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ»..وهذا هو العزاء العميق.وهذا هو مفرق الطريق..«وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»..يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب.ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح..[٤٣٦٤]

---

٢٦. المواظبة على طاعة الله بكل أشكالها في السّرّ والعلن:

[٤٣٦٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١١١٢)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْـــرَ لَعَلَّكُـــمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَـــهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِـــمُوا بِاللَّـــهِ هُـــوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) } [الحج:٧٨،٧٧]

يأمُر اللهُ المؤمِنين بعِبادتِه،وبإقامةِ الصّلاة،وبالرُّكُوع والسجُود له،وبِفِعْلِ الخيْرِ،لعلّ ذلـــك يُوصِلُهُمْ إلى الخيْر،لعل ذلك يُوصِلُهُمْ إلى الخيْرِ واللفلاحِ فِي الدُّنْيا والآخِرة.

يأمُرُ اللهُ المُؤْمِنِين بالجِهادِ وأخْلصهُ:بالأمْوال والأنْفُسِ والألْسنة،فقدْ اصْطفى اللهُ المُـــؤْمِنِين مِنْ هذهِ الأُمّة،واخْتارهُمْ على منْ سوامهُم،ولمْ يُكلِّفْهُمْ ما لا يُطِيقُـــون،ولمْ يُضـــيِّق اللهُ عليْهِم فِي شيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِهِم،بلْ وسّع عليهم،فِي شيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِـــهِم،بلْ وسّـــع عليْهِم،كما وسّع فِي مِلّة إبْراهِيم عليْهِم فِي شيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينِهِم،بلْ وسّع عليْهِم،كمـــا وسّع فِي مِلّةِ إبْراهِيم عليْهِ السّلامُ (ونصب مِلّة) على تقْدِيرِ الزمُوا مِلّة إبْراهِيم)،وقدْ سمّاهُم اللهُ تعالى بِالمُسْلِمين فِي شرْعِ إبْراهِيم وفِي الكُتُبِ المُتقدِّمة،وفِي هذا القُرْآنِ (مِـــنْ قبْلُ وفِي هذا).وقدْ جعل اللهُ المُسْلِمِين أُمّةً وسطاً عُدُولاً لِيكُونُوا شُهداء على النّاسِ يوْمِ القِيامةِ،لأنّ النّاس جمِيعاً يعْترِفُون بِفضْلِ المُسْلِمين فِي ذلك اليوْمِ،فلهذا تُقْبَـــلُ شـــهادتُهُمْ عليْهِم،فِي أنّ الرُّسُل أبْلغتهُم رِسالة أبْلغتْهُم رِسالة ربِّهِمْ،والرّسُولُ يشْهدُ على هذه الأُمّة أنّهُ أبْلغها ما أوْحاهُ اللهُ إليه،فلْيُقابِلِ المُسْلِمُون هذهِ النِعْمة العظِيمـــة بالقِيـــامِ بِشُـــكْرِ اللهِ عليها،وأداءِ حقِّ اللهِ فِيما فرضهُ عليْهِم،ومِنْ أهمِّ ذلك إقامـــةُ الصّـــلاة وأداؤهـــا حـــقّ أدائِها،ودفْعُ الزّكاةِ،والاعْتِصامُ بِاللهِ،والاسْتِعانةُ بِهِ،والاتِّكالُ عليْهِ،فهُو موْلاهُمْ وحافِظُهُمْ وناصِرُهُمْ،وهُو نِعْم الموْلى ونِعْم النّاصِرِ على الاعْداء.[٤٣٦٥]

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه اللّه لهذه الأمة،ويلخص تكاليفها التي ناطهـــا بها،ويقرر مكانها الذي قدره لها،ويثبت جذورها في الماضي والحاضـــر والمســـتقبل،متى استقامت على النهج الذي أراده لها اللّه.

[٤٣٦٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود.وهما ركنا الصلاة البارزان.ويكني عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة،وحركة ظاهرة في التعبير،ترسمها مشهدا شاخصا،وهيئة منظورة.لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثرا وأقوى استجاشة للشعور[٤٣٦٦].

ويثني بالأمر العام بالعبادة.وهي أشمل من الصلاة.فعبادة اللّه تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى اللّه.فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى اللّه.حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات.وما عليه إلا أن يذكر اللّه الذي أنعم بها،وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات،ولم يتحول في طبيعتها شيء،ولكن تحول القصد منها والاتجاه! ويختم بفعل الخير عامة،في التعامل مع الناس بعد التعامل مع اللّه بالصلاة والعبادة.

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح.فهذه هي أسباب الفلاح..العبادة تصلها باللّه فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل.وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة،الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه.

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة باللّه واستقامة الحياة،فاستقام ضميرها واستقامت حياتها..نهضت بالتبعة الشاقة:«وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ»..وهو تعبير شامل جامع دقيق،يصور تكليفا ضخما،يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد..

«وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ»..والجهاد في سبيل اللّه يشمل جهاد الأعداء،وجهاد النفس،وجهاد الشر والفساد..كلها سواء..« وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ»..فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة،واختاركم لها من بين عباده:«هُوَ اجْتَباكُمْ»..وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة،ولا يجعل هنالك مجالا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من اللّه لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليف محفوف برحمة

[٤٣٦٦] - يراجع فصل:«طريقة القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

اللّه:«وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»..وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته.ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة.وإطلاق هذه الطاقة،والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم.ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم!

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية،موصول الماضي بالحاضر:«مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ» وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم – عليه السلام – فلم تنقطع من الأرض،و لم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام.وقد سمى اللّه هذه الأمة الموحدة بالمسلمين.سماها كذلك من قبل وسماها كذلك في القرآن:«هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا»..

والإسلام إسلام الوجه والقلب للّه وحده بلا شريك.فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات.حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد – ﷺ– وحتى سلمت إليها الأمانة،وعهد إليها بالوصاية على البشرية.فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها اللّه:«لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ»..فالرسول – ﷺ– يشهد على هذه الأمة،ويحدد نهجها واتجاهها،ويقرر صوابها وخطأها.وهي تشهد على الناس بمثل هذا،فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها،وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة.ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج،المختار من اللّه.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية.حتى إذا انحرفت عنه،وتخلت عن تكاليفه،ردها اللّه عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة.وما تزال.ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له اللّه.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد..ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام باللّه:«فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ.هُوَ مَوْلاكُمْ.فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ»..فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد.والزكاة

صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد.والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد.

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها اللّه.وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض.والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها،بل يدعو إلى إعدادها.ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفد،والذي لا يملكه إلا المؤمنون باللّه.فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدما إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ولا يكتفي بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية،ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى.وكذلك يريدها الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة،المستقيمة على منهج اللّه في ظل اللّه[٤٣٦٧].

---

٢٧. وجوب التحلي بمكارم الأخلاق:

قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) } [الرعد]

[٤٣٦٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٦٨)

لا يسْتوِي الْمُهْتدِي مِن النّاسِ،الذي يعْلمُ أنّ الذي أنْزل عليْك يا مُحمّدُ منْ ربِّــك هُــو الحقُّ،الذي لا شكّ فيه،مع الضّالِّ،الذي لا يعْلمُ ذلك،لأنّهُ يكُونُ كالأعْمى لا يهْتدي إلى خيْرٍ،ولا يفْهمُهُ،ولوْ فهِمهُ ما انْقاد إليْهِ،ولا صدّق بــهِ ولا انْتفــع.؟ فالــذِين يتّعظُــون ويعْتبِرُون هُمْ أصْحابُ العُقُولِ السّليمة،والبصائرِ المُدْرِكة (أُولُو الألْباب).

والمُهْتدُون الذين ستكُونُ لهُمُ العاقبةُ والنُّصْرةُ،في الدُّنْيا والآخرى،هُمُ الذِين يُوفُون بعهْدِ الله إذا عاهدُوا،ولا يُنْقضُون عهْدهُمْ مع عِبادِه،ولا يغْــدُرُون بذِمّــةِ،ولا يفْجُــرُون ولا يخُونُون.وهؤُلاءِ الْمُؤْمنُون الْمُهْتدُون يصِلُون الأرْحام التِي أمر اللهُ بوصْلِها،ويُحْســنُون إلى الأقْرباءِ والفُقراءِ،ويُعامِلُوهُمْ بالمودّةِ والحُسْنى،ويبْذُلُون المعْرُوف،ويخْشوْن ربّهُــمْ فيمــا يأْتُون،ويُراقِبُونهُ فِي ذلك،ويخافُون سُوء الحِسابِ فِي الدّارِ الآخِرةِ،وعدمِ الصّــفْحِ عــنْ ذُنُوبِهِمْ وخطاياهُمْ.وهؤُلاءِ الْمُؤْمنُــون الْمُهْتــدُون يصْــبِرُون عــنِ ارْتِكــابِ المحــارِمِ والمآثِمِ،ويمْتنِعُون عنْ مُقارفتِها طاعةً للهِ،وتقرُّباً إليْهِ،وطمعاً بمرْضاتِه وجزيلِ ثوابِه،ويُؤدُّون الصّلاة حقّ أدائِها،ويُنْفِقُون مِمّا رزقهُمُ اللهُ على منْ تجِبُ علــيْهِمْ نفقــتُهُمْ،منْ أقْرِبــاءِ ومُحْتاجِين وسائِلِين..فِي السِّرِّ والعلنِ،لا يمْنعُهُمْ مِنْ ذلك حالٌ مِن الأحْوالِ،فإِذا آذاهُــمْ أحدٌ قابلُوهُ بالجمِيلِ صبْراً،واحْتِمالاً وحِلْماً وعفْواً،فهؤُلاءِ لهُمْ حُسْنُ العاقِبةِ فــي الــدّارِ الآخِرةِ.وتِلْك العاقِبةُ الحسنةُ هِي دُخُولُ جنات عدْنٍ،والإقامةُ فِيهــا خالِــدِين أبــداً،لا يخْرُجُون مِنْها.ويجْمعُ اللهُ بيْنهُمْ وبيْن أحْبابِهِمْ مِن الآباءِ والأزْواجِ والأبْنــاءِ الصّــالحِين لِدُخُولِ الجنّةِ،لتقرّ بهِمْ أعْيُنُهُمْ؛وتدْخُلُ عليْهِمُ الملائِكةُ مِنْ كُلِّ بابٍ مُسْــلِمِين مُهنِّــئِين بِدُخُولِ الجنّةِ،وبِرِضْوانِ اللهِ عليْهِمْ.

وتقُولُ لهُمُ الملائكةُ:سلامٌ عليْكُمْ،وأمْنٌ دائِمٌ لكُمْ،لقدْ صبرْتُمْ فِي سبيلِ اللهِ،واحْتملْــتُمُ المشاقّ والآلامِ،ففُزْتُمْ بِرِضْوانِ اللهِ،فنعِمتْ عاقِبتُكُمْ فِي الدّارِ الآخِرةِ..[٤٣٦٨]

---

٢٨. المسارعة بالتوبة من الذنوب والآثام:

[٤٣٦٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)} [آل عمران:١٣٣ - ١٣٦]

يَنْدُبُ اللهُ تعالى المُؤْمنين إلى القيامِ بالأعْمالِ الصّالحة،وإلى المُسارعة في فِعْلِ الخيْرات،لينالُوا مغْفرة الله ورضْوانهُ،وجنّتهُ الواسعة العريضة التي أعدّها اللهُ لعِبادِه المُتّقين،الذين يمْتثلُون أمْرهُ.

يذْكُرُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ صفاتِ أهْلِ الجنّة فيقُولُ:إنّهُمُ الذين يُنْفقُون أمْوالهُمْ في سبيلِ مرْضاة الله،في الرّخاءِ (السّراءِ)،وفي الشِّدّة (الضرّاء)،وفي الصِّحّة والمرض،وفي جميع الأحْوال،لا يشْغلُهُمْ أمْرٌ عنْ طاعة الله،والإنْفاق في سبيلِ مرْضاته،وإنّهُمْ يكْتُمُون غيْظهُمْ إذا ثار،ويعْفُون عمّنْ أساء إليهِمْ.واللهُ يُحبُّ الذين يتفضّلُون على عباده البائسين،ويُواسُونهُمْ شُكْراً لله على جزيلِ نعمه عليْهِمْ.ومنْ صفات أهْلِ الجنّة أنّهُمْ إذا صدر عنْهُمْ فِعْل قبيحٌ يتعدّى أثرُهُ إلى غيْرهِمْ (كغيبة إنْسانٍ)،أو صدر عنْهُمْ ذنْبٌ يكُونُ مُقْتصِراً عليْهِمْ (كشُرْبِ خمْرٍ ونحْوهُ)،ذكرُوا الله تعالى ووعيدهُ،وعظمتهُ وجلالهُ،فرجعُوا إلى الله تائبين،طالبين مغْفرتهُ،و لمْ يُقيمُوا على القبيحِ منْ غيْرِ اسْتغْفارٍ،لعلْمهِمْ أنّ الله هُو الذي يغْفرُ الذُّنُوب جميعاً،و لمْ يُصرُّوا على الذّنْب،لأنّهُمْ يعْلمُون أنّ منْ تاب إلى الله،تاب اللهُ عليه،وغفر لهُ.والمُتّقُون المُتمتِّعُون بهذه الصِّفات سيجْزيهِمْ ربُّهُمْ عليها بالمغْفرة،وبالأمْرِ من العقاب،ولهُمْ ثوابٌ عظيمٌ في جنّات تجْري منْ تحْتها الأنْهارُ،وهُمْ مُخلّدُون فيها أبداً،والجنّةُ خيْرُ ما يُكافأُ به المُؤْمنُون العاملُون على أعْمالِهِمْ الصّالحات "[٤٣٦٩]

---

٢٩. اللجوء إلى الله تعالى ولا سيما عند الشدائد:

[٤٣٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) } [الأنبياء:٨٧ - ٩٠]

يذْكُرُ اللهُ تعالى قِصّة يونُس عليه السلامُ (وهو ذو النُّونِ أيْ صاحبُ الحُوت)،وكان اللهُ قدْ بعثهُ نبياً إلى أهْلِ نينوى فدعاهُمْ إلى عبادةِ اللهِ وحدهُ فأبوْا،وتمادوْا في كُفْرِهم،فخرج يُونُسُ مِنْ بيْنِهِم مُغاضِباً لهُمْ،وأنْذرهُمْ بأنّ العذاب واقِعٌ بِهِمْ بعْد ثلاثةِ أيّام،فلما تحقّقُوا مِنْ ذلِك،وعلِمُوا أنّ النبيّ لا يكْذِبُ،خرجُوا مِن البلدِ بأطْفالِهم وأنْعامِهم ومواشِيهِم،ثُمّ تضرّعُوا إلى اللهِ تعالى،وجأرُوا إليهِ بالدُّعاءِ،فرفع اللهُ عنْهُمْ العذاب،وصرفهُ عنْهُم،كما جاء في آيةٍ أُخْرى.

أمّا يونسُ فإنّه ترك قوْمه مُغاضباً لهُم،وذهب فركب في سفينة فاضْطربتْ وخاف منْ فِيها مِنْ غرقِها،فاقْترعُوا على رجُلٍ يُلقُونهُ مِنْ بينِهِم في الماءِ يتخفّفُون منهُ،فوقعت القُرْعةُ على يُونُس،فأبوْا أنْ يُلْقُوهُ،ثُمّ أعادُوا القُرْعة فوقعتْ عليْه،فأبوْا،ثمّ أعادُوا للمرةِ الثّالثة فوقعتْ عليه،فتجرّد يُونُسُ مِنْ ثِيابِهِ،وألْقى بِنفْسِهِ في الماءِ،فالْتقمهُ الحُوتُ،ولِذلِك سُمِّي بصاحِبِ الحُوتِ (ذُو النُّونِ).

وكان يُونسُ يظُنُّ أنّ الله لنْ يُضيِّق عليْهِ في بطْنِ الحُوتِ،(أو أنهُ تعالى لنْ يقْدِر عليه أنْ يكُون فِي بطْنِ الحُوتِ) فكان في بطْنِ الحوتِ في ظُلْمةٍ،وفي أعْماقِ البحْرِ في ظُلمةٍ،وفي ظلامِ الليلِ في ظُلْمةٍ،ولذلك قال تعالى:{ فنادى فِي الظلمات } ودعا ربّهُ قائلاً:لا إله إلاّ أنْت سُبْحانك إِنِّي كُنْتُ مِن الظّالمِين.

وقوْله " فاسْتجبْنا لهُ ونجّيْناهُ منْ الْغمّ " أيْ أخْرجْناهُ منْ بطْن الْحُوت وتلْك الظُّلُمـــات" وكذلك نُنْجي الْمُؤْمنين " أيْ إذا كانُوا في الشّدائد ودعوْنا مُنيبين إليْنـــا ولا ســـيّما إذا دعوْا بهذا الدُّعاء في حال الْبلاء فقدْ جاء التّرْغيب في الدُّعاء به عنْ سيِّد الْأنْبياء"[4370].

وقال تعالى:{وإذا سألك عبادي عنّي فإنِّي قريبٌ أُجيـــبُ دعْـــوة الـــدّاع إذا دعـــان فلْيسْتجيبُواْ لي ولْيُؤْمنُواْ بي لعلّهُمْ يرْشُدُون} (١٨٦) سورة البقرة

يأْمُرُ اللهُ تعالى عبادهُ بالاسْتجابة إليه،وبالقيام بما أمرهُمْ به من الإيمان والعبادات،كالصّوْم والصّلاة والزّكاة..لعلّهُمْ يكُونُون من الُمهْتدين الرّاشدين.[4371]

قال الطبري:" وَإِذَا سَأَلَكَ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي عَنِّي أَيْنَ أَنَا؟ فَإِنِّي قَرِيـــبٌ مِـــنْهُمْ أَسْـــمَعُ دُعَاءَهُمْ،وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِيَ مِنْهُمْ.وَقَد اخْتَلَفُوا فِيمَا أُنْزِلَتْ فِيـــهِ هَـــذِهِ الْآيَـــةُ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:نَزَلَتْ فِي سَائِلٍ سَأَلَ [ص:٢٢٣] النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَـــا مُحَمَّـــدُ أَقَرِيـــبٌ رَبُّنَـــا فَنُنَاجِيهِ،أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَـــإِنِّي قَرِيـــبٌ أُجِيـــبُ} [البقرة:١٨٦] الْآيَةَ

عَنِ الْحَسَنِ،قَالَ " سَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺالنَّبِيَّ ﷺ:أَيْنَ رَبُّنَـــا؟ فَـــأَنْزَلَ اللَّـــهُ تَعَـــالَى ذِكْرُهُ:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـــبٌ أُجِيـــبُ دَعْـــوَةَ الـــدَّاعِ إِذَا دَعَـــانِ..} [البقرة:١٨٦] الْآيَةَ " وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِمَسْأَلَةِ قَوْمٍ سَـــأَلُوا النَّبِـــيَّ ﷺ:أَيُّ سَاعَةٍ يَدْعُونَ اللَّهَ فِيهَا؟

عَنْ عَطَاءٍ،قَالَ " لَمَّا نَزَلَتْ {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] قَالُوا فِـــي أَيِّ سَاعَةٍ؟ قَالَ:فَنَزَلَتْ:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـــبٌ} [البقـــرة:١٨٦] إِلَـــى [ص:٢٢٤] قَوْلِهِ:{لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] "

وعَنْ عَطَاءٍ،فِي قَوْلِهِ " {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة:١٨٦] قَالُوا:لَوْ عَلِمْنَا أَيَّ سَاعَةٍ نَدْعُو؟ فَنَزَلَتْ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة:١٨٦] الْآيَةُ "

[4370] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٨٦، بترقيم الشاملة آليا)

[4371] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ،قَالَ:زَعَمَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ،أَنَّهُ بَلَغَهُ لَمَّا نَزَلَتْ {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] قَالَ النَّاسُ:لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ سَاعَةٍ نَدْعُو؟ فَنَزَلَتْ:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] "

وَمَعْنَى مُتَأَوِّلِي هَذَا التَّأْوِيلِ:وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي أَيُّ سَاعَةٍ يَدْعُونَنِي فَإِنِّي مِنْهُمْ قَرِيبٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِقَوْلِ قَوْمٍ قَالُوا إِذْ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ:{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] إِلَى أَيْنَ نَدْعُوهُ؟

قَالَ مُجَاهِدٌ،{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] قَالُوا:إِلَى أَيْنَ؟ فَنَزَلَتْ:{أَيْنَ مَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} " وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ نَزَلَتْ جَوَابًا لِقَوْمٍ قَالُوا:كَيْفَ نَدْعُو؟

عَنْ قَتَادَةَ،قَالَ " ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] قَالَ رِجَالٌ:كَيْفَ نَدْعُو يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة:١٨٦] إِلَى قَوْلِهِ:{يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] " وَأَمَّا قَوْلُهُ:{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة:١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي:فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ،يُقَالُ مِنْهُ:اسْتَجَبْتُ لَهُ وَاسْتَجَبْتُهُ بِمَعْنَى أَجَبْتُهُ،كَمَا قَالَ كَعْبُ بْنُ سَعْدٍ [ص:٢٢٦] الْغَنَوِيُّ:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى...النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

يُرِيدُ:فَلَمْ يُجِبْهُ.وَبِنَحْوِ مَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُ

وقَالَ مُجَاهِدٌ قَوْلُهُ {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة:١٨٦] قَالَ:فَلْيُطِيعُوا لِي،قَالَ:الاسْتِجَابَةُ:الطَّاعَةُ "

وعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ،قَالَ {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة:١٨٦] فَلْيَدْعُونِي " وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة:١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي:وَلْيُصَدِّقُوا،أَيْ وَلْيُؤْمِنُوا بِي إِذَا هُمُ اسْتَجَابُوا لِي بِالطَّاعَةِ أَنِّي لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ طَاعَتِهِمْ لِي فِي الثَّوَابِ عَلَيْهَا وَإِجْزَالِي الْكَرَامَةَ لَهُمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا الَّذِي تَأَوَّلَ قَوْلَهُ:{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة:١٨٦] أَيْ بِمَعْنَى

فَلْيَدْعُونِي،فَإِنَّهُ كَانَ يَتَأَوَّلُ [ص:٢٢٧] قَوْلَهُ:{وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة:١٨٦] وَلْيُؤْمِنُوا بِي أَنِّي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ

وعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ {وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة:١٨٦] يَقُولُ:إِنِّي أَسْتَجِيبُ لَهُمْ " وَأَمَّا قَوْلُهُ:{لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي:فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ،وَلْيُؤْمِنُوا بِي فَيُصَدِّقُوا عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّايَ بِالثَّوَابِ مِنِّي لَهُمْ وَلْيَهْتَدُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ فَيَرْشُدُوا كَمَا

وعَنِ الرَّبِيعِ،فِي قَوْلِهِ {لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] يَقُولُ:لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ " فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ:وَمَا مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ؟ فَأَنْتَ تَرَى كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُجَابُ لَهُمْ دُعَاءٌ وَقَدْ قَالَ:{أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة:١٨٦] قِيلَ:إِنَّ لِذَلِكَ وَجْهَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى:أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِالدَّعْوَةِ الْعَمَلَ بِمَا نَدَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ،فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ:وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ مِمَّنْ أَطَاعَنِي وَعَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ أُجِيبُهُ بِالثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِ إِيَّايَ إِذَا أَطَاعَنِي.فَيَكُونُ مَعْنَى الدُّعَاءِ مَسْأَلَةَ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَمَا وَعَدَ أَوْلِيَاؤَهُ عَلَى طَاعَتِهِمْ بِعِلْمِهِمْ بِطَاعَتِهِ،وَمَعْنَى الْإِجَابَةِ مِنَ اللَّهِ الَّتِي ضَمِنَهَا لَهُ الْوَفَاءُ لَهُ بِمَا وَعَدَ الْعَامِلِينَ لَهُ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ،كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺمِنْ قَوْلِهِ:«إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠] " فَأُخْبَرَ ﷺأَنَّ دُعَاءَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَتُهُ وَمَسْأَلَتُهُ بِالْعَمَلِ لَهُ وَالطَّاعَةُ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ،ذُكِرَ أَنَّ الْحَسَنَ كَانَ يَقُولُ فِيهَا:{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر:٦٠] قَالَ «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» وَالْوَجْهُ الْآخَرُ:أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ إِنْ شِئْتَ.فَيَكُونُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ عَامًّا،مَخْرَجُهُ فِي التِّلَاوَةِ خَاصًّا مَعْنَاهُ"[٤٣٧٢] .

[٤٣٧٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٢٢٢)

وقال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) } سورة الأنفال

حينما التقت الفئتان،المُسْلمُون والمُشْركُون في ساحة المعْركة،وجد المُسْلمُون المُشْـــركين كثيري العدد،فاسْتغاث الرّسُولُ بربِّه،وقال:اللّهُمّ أنْجزْني وعْدك الذي وعدْتني.فأنْزل اللهُ تعالى هذه الآية الكريمة.وفيها يُعْلمُ اللهُ تعالى رسُولهُ أنّــهُ اسْــتجاب لدُعائـــه ودُعـــاء المُسْلمين،وأنّهُ سيمُدُّهُمْ بألْف من الملائكة يأْتُونهُمْ مدداً يُرْدفُ بعْضُهُمْ بعْضـــاً،أيْ يـــأتي بعْضُهُمْ إثْر بعْض.[٤٣٧٣]

يتعلق الظرف «إذ» بقوله تعالى:«وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِـــهِ» أي إنّ إرادة الله بإحقاق الحق بكلماته،وقطع دابر الكافرين- قد رأيتم تحقيقها فى هذا الوقت الذي كنتم تستغيثون فيه ربكم،وقد التقيتم بالمشركين فى كثرتهم،وقلتكم..

وقوله تعالى:«فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ» أي حين واجهتم العدو،وأفزعتكم كثرته،وفزعتم إلى الله أن يمدكم بنصره- استجاب لكم ربكم،وأمدكم بألف من الملائكة مردفين،أي يردف بعضهم بعضا،ويجىء بعضهم إثر بعض.

وقوله سبحانه:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّـــهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» الضمير فى «جعله» يعود إلى هذا المدد السماوي..أي ما جعل الله هذا المدد السماوي الذي أمدكم به إلا بشرى للنصر الذي وعدكم بـــه،ولتطمئن بـــه قلوبكم،فلا يهولنّكم العدو وكثرة عدده،بعد أن علمتم أن الله معكم،وأن إشارات النصر وبشرياته قد جاءت إليكم،تحملها ملائكة الرحمن التي بعثها الله لتقاتل معكم..فهل يغلب من كان الله معه؟ وهل يهزم من كانت جنود الرحمن تقاتل فى صفوفه،ولو كان فـــردا يقاتل الناس جميعا؟

وهذه الجند المرسلة من السماء،ليست إلا ألطافا من ألطاف الله بكم فى هـــذا الموقـــف الحرج،ترون منها بشائر النصر،وتجدون فيها ريح السكينة والطمأنينة- أما النصر فهو بيد

[٤٣٧٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

الله وحده،فهو الذي كتب لكم النصر،وليست الملائكة التي قاتلت معكم..«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» له سبحانه،العزة،يعزّ بها من يشاء،ويذل من يشاء،وينصر بها من يشاء،ويخذل من يشاء،حسب ما اقتضت حكمته..[٤٣٧٤]

وقال تعالى: {قُلْ ما يعْبأُ بِكُمْ ربِّي لوْلا دُعاؤُكُمْ فقدْ كذّبْتُمْ فسوْف يكُونُ لِزامًا} (٧٧) سورة الفرقان

قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ الذين أُرْسِلْت إليهم:إنّ الفائزين بنعمِ الله الجليلة،التي يتنافسُ فيها المُتنافسُون إنما نالُوها بما ذُكِر من الصِّفاتِ الحميدةِ التي اتّصفُوا بها،ولوْلاها لم يهْتمّ بهم ربُّهم،و لم يعْتدّ.ولذلك فإنّهُ لا يعْبأُ بِكُمْ إذا لم تعْبُدُوه،فما خلق اللهُ الخلْق إلا ليعْبُدُوا ربّهُمْ ويُطِيعُوه وحْده لا شريك له،وما دُمْتُمْ قد خالفْتُم أمر ربِّكم،وعصيْتُمْ حُكْمهُ،وكذّبْتُم رسُولهُ،فسوْف يلْزمُكُمْ أثر تكْذِيبِكُمْ،وهو العقابُ الذي لا مناص منهُ،فاسْتعدُّوا له،وهيِّئُوا أنفسكُمْ لذلك اليوم العصيب،وهو آت قريبٌ.[٤٣٧٥]

يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ:قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ:أَيَّ شَيْءٍ يَعُدُّكُمْ،وَأَيَّ شَيْءٍ يَصْنَعُ بِكُمْ رَبِّي؟ يُقَالُ مِنْهُ:عَبَأْتُ بِهِ أَعْبَأُ عَبْئًا،وَعَبَأْتُ الطِّيبَ أَعْبَؤُهُ:إِذَا هَيَّأْتُهُ،كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَأَنَّ بِنَحْرِهِ وَبِمَنْكِبَيْهِ...عَبِيرًا بَاتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

يَقُولُ:يُهَيِّئُهُ وَيَعْمَلُهُ يَعْبَؤُهُ عَبًا وَعُبُوءًا،وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ:عَبَأْتُ الْجَيْشَ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ فَأَنَا أَعْبَؤُهُ:أُهَيِّئُهُ.وَالْعِبْءُ:الثِّقَلُ.وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

يَقُولُ:لَوْلَا عِبَادَةُ مَنْ يَعْبُدُهُ مِنْكُمْ،وَطَاعَةُ مَنْ يُطِيعُهُ مِنْكُمْ.وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

[٤٣٧٤] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧١)

[٤٣٧٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٨١٤، بترقيم الشاملة آليا)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلَهُ:" {مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} [الفرقان:٧٧] يَقُولُ:لَوْلَا إِيمَانُكُمْ،وَأَخْبَرَ اللَّهُ الْكُفَّارَ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ لَهُ بِهِمْ إِذْ لَمْ يَخْلُقْهُمْ مُؤْمِنِينَ،وَلَوْ كَانَ لَهُ بِهِمْ حَاجَةٌ لَحَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ كَمَا حَبَّبَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ "

عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ،عَنْ مُجَاهِدٍ،قَوْلَهُ:{لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} [الفرقان:٧٧] قَالَ:«لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ إِيَّاهُ لِتَعْبُدُوهُ وَتُطِيعُوهُ»

وَقَوْلُهُ {فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} [الفرقان:٧٧] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَخَالَفْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمُ الَّذِي أَمَرَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ.لَوْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ،كَانَ يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي؛فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ،وَخِلَافُكُمْ أَمْرَ بَارِئِكُمْ عَذَابًا لَكُمْ مُلَازِمًا،قَتْلًا بِالسُّيُوفِ وَهَلَاكًا لَكُمْ مُفْنِيًا يُلْحِقُ بَعْضَكُمْ بَعْضًا"[4376]

وما هذه البشرية كلها،لولا القلة المؤمنة التي تدعو اللّه.وتتضرع إليه.

كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون؟

من هم والأرض التي تضم البشر جميعا إن هي إلا ذرة صغيرة في فضاء الكون الهائل.والبشرية كلها إن هي إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض.والأمة واحدة من أمم هذه الأرض.والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا اللّه؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه! وهو هين هين،ضعيف ضعيف،قاصر قاصر.إلا أن يتصل باللّه فيستمد منه القوة والرشاد،وعندئذ فقط يكون شيئا في ميزان اللّه وقد يرجح ملائكة الرحمن في هذا الميزان.فضلا من اللّه الذي كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة،ليعرفه ويتصل به ويتعبد له،فيحفظ بذلك خصائصه التي سجدت له معها الملائكة وإلا فهو لقي ضائع،لو وضع نوعه كله في الميزان ما رجحت به كفة الميزان! «قُلْ:ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ»..وفي التعبير سند للرسول - ﷺ- وإعزاز:«قُلْ:ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي».فأنا

[4376] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٥٣٥)

في جواره وحماه.هو ربي وأنا عبده.فما أنتم بغير الإيمان به،والانضمام إلى عباده؟ إنكم حصب جهنم «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً»[٤٣٧٧].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ،قَالَ:لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺإِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ،فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ،فَانْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي،وَقِلَّةَ حِيلَتِي،وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ،أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ،أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ،إِلَى مَنْ تَكِلُنِي،إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي،إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي،غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي،أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ،وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ،لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى،وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» [٤٣٧٨]

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،ح وحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ،وَاللَّفْظُ لَهُ،حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ،حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ،حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺإِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ،وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺالْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي،اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ،مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ:فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ،قَالَ:بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ،إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:أَقْدِمْ حَيْزُومُ،فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ،وَشُقَّ

[٤٣٧٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٣١٦)

[٤٣٧٨] - الدعاء للطبراني (ص:٣١٥)(١٠٣٦) حسن

وَجْهُهُ،كَضَرْبَةِ السَّوْطِ [ص:١٣٨٥] فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ،فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ،فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«صَدَقْتَ،ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»،فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ،وَأَسَرُوا سَبْعِينَ،قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِأَبِي بَكْرٍ،وَعُمَرَ:«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:يَا نَبِيَّ اللهِ،هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ،أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ،فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ،وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ،فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ،وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ،فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا،فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ،وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ،فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ،فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺوَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ،وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ،لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ- وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال:٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال:٦٩] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ"[٤٣٧٩]

[٤٣٧٩] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)

[ش (لما كان يوم بدر) اعلم أن بدرا هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة (فجعل يهتف بربه) معناه يصيح وستغيث بالله في الدعاء(أن تهلك) ضبطوا تهلك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصابة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله(العصابة) الجماعة(كذاك مناشدتك ربك) المناشدة السؤال مأخوذة من النشيد وهو رفع الصوت هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذاك ولبعضهم كفاك وكل بمعنى(مناشدتك) ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلا بكفاك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك وكذاك من معنى الفعل(ممدكم) أي معينكم من الإمداد(مردفين) متتابعين(أقدم حيزوم) ضبطوه بوجهين أصحهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بهمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بحذف حرف النداء أي يا حيزوم

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْبَرَاءِ،فَقَالَ:أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَـــارَةَ؟ فَقَالَ:أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺمَا وَلَّى،وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ،وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ،وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ،فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ،فَانْكَشَفُوا،فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ،فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ،وَهُوَ يَقُولُ:«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ،أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ،اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ»،قَالَ الْبَرَاءُ:«كُنَّـــا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ،وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ،يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ »[٤٣٨٠]

---

٣٠. إيثار حبّ الله ورسوله على كل شيء

قال تعالى:{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون اللّه فاتّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ويغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ واللّـــهُ غفُورٌ رحِيمٌ (٣١) قُلْ أطِيعُوا اللّه والرّسُول فإِنْ تولّوْا فإِنّ اللّه لا يُحِبُّ الْكافِرِين (٣٢) } [آل عمران]

هذه الآيةُ نزلتْ حين دعا رسُولُ اللهِ ﷺ كعْب بن الأشْرف ومنْ تابعهُ من اليهُـــود إلى الإيمانِ،فقالوا:(نحْنُ أبْناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ).فأنْزل اللّهُ تعالى هذه الآية،وفيها يـــأمُرُ اللّهُ نبيّـــهُ الكريم بأنْ يقُول لهُمْ:منِ ادّعى حُبّ اللهِ دُون أن يتّبع شرْع مُحمّد،فهُو غيْرُ صادقٍ،فدِينُ اللهِ واحِدٌ،وشرْعُهُ واحِدٌ،والأدْيانُ يصدِّقُ بعْضُها بعْضاً ويُكمِّلُها.وجاء دِينُ مُحمّـــد ﷺ لِيخْتِم الأدْيان السّابِقة ويُكمِّلها،فلا يُمْكِنُ أنْ يدّعِي أحدٌ حُبّ اللهِ،وهُو يكْفُرُ بشـــرْعِهِ

(فإذا هو قد خطم أنفه) الخطم الأثر على الأنف(وصناديدها) يعني أشرافها الواحد صنديد والضمير في صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة(فهوى) أي أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشيء يهوي هوى والهوى المحبة(ولم يهو ما قلت) هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها ولم يهوي بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقي ويصبر بالياء ومنه قول الشاعر ألم يأتيك والأنباء تنمي(حتى يثخن في الأرض) أي يكثر القتل والقهر في العدو]

[٤٣٨٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠١)٧٩ - (١٧٧٦)

[ش (كأنها رجل من جراد) يعني كأنها قطعة من جراد قال في النهاية الرجل بالكسر الجراد الكثير (فانكشفوا) أي انهزموا وفارقوا مواضعهم وكشفوها(إذا احمر البأس) احمرار البأس كناية عن شدة الحرب واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر]

وما أنْزلهُ على رسُولِه.ومنْ يتّبعْ شرْع مُحمّدٍ ﷺ ويُخْلِصْ فِي ذلِك يُحْبِبْهُ اللهُ،واتِّباعِ أمْرِهِ.واللهُ كثِيرُ الغُفْرانِ لِعِبادِهِ،عظِيمُ الرّحْمةِ بِهِمْ.[4381]

ومما هو مكر بالله ما يدّعيه المدّعون على الله من اليهود أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه،وهم فى الوقت نفسه يعادون أولياء الله،ويشاقّون رسله،ويقتلون أنبياءه..فكيف تصح لهم هذه الدعوى،وآخرها ينقض أولها؟

فإن المحبّ الحقيقي يحبّ كل من أحبّ من يحبّ،وإلّا فحبّه لمن أحبّ نزوة طارئة،أو دعوى باطلة.

والعداوة التي يضمرها اليهود للنبيّ،والتي تستعلن فى كيدهم له ومكرهم به،لا تستقيم مع دعواهم بأنهم أحباء الله،فإن كانوا أحباء الله حقّا فليتّبعوا رسوله،وليستجيبوا لما يدعوهم إليه من كلمات ربّه..إنهم لو فعلوا ذلك لصدقت دعواهم،ولأحبّهم الله حقّا،ولغفر لهم ذنوبهم،وما قطعوا من عمر طويل مع الشقاق والنفاق «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..فإن أبوا إلا شقاقا ونفاقا،فهم على دعوى باطلة..إنهم ليسوا أحبابا لله،بل هم أعداء محاربون له،كافرون بآياته وبرسله «فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» وإنما حبّه للمؤمنين،فمن لبس الإيمان ظاهرا وباطنا،فهو من أولياء الله وأحبائه،ومن استبطن الكفر والنّفاق فهو عدوّ لله،لا يكون محبّا ولا محبوبا.[4382]

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله،وعلاماتها،ونتيجتها،وثمراتها،فقال {قل إن كنتم تحبون الله} أي:ادعيتم هذه المرتبة العالية،والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى،بل لا بد من الصدق فيها،وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله،في أقواله وأفعاله،في أصول الدين وفروعه،في الظاهر والباطن،فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى،وأحبه الله وغفر له ذنبه،ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته،ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى،لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله،فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها،مع أنها على تقدير

[4381] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٥، بترقيم الشاملة آليا)

[4382] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٣٢)

وجودها غير نافعة بدون شرطها،وبهذه الآية يوزن جميع الخلق،فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله،وما نقص من ذلك نقص.[٤٣٨٣]

وقال تعالى:{ومن النّاس من يتّخذُ من دُون اللّه أنداداً يُحبُّونهُمْ كحُبِّ اللّه والّذين آمنُواْ أشدُّ حُبًّا لِّلّه ولوْ يرى الّذين ظلمُواْ إذْ يروْن الْعذاب أنّ الْقُوّة للّه جميعاً وأنّ اللّه شديدُ الْعذاب} (١٦٥) سورة البقرة

ومع قيامِ الأدلّة على قُدْرة الله ووحْدانيّته وعظمته فإنّ بعْض النّاس من الكُفّار يتّخذُون لله شُركاء وأمْثالاً (أنْداداً) يعْبُدُونهُمْ معهُ،ويُحبُّونهُمْ كحُبِّه،وهُو اللهُ الذي لا مثيل لهُ،ولا شريك معهُ.أمّا الذين آمنُوا فإنّهُم يعْبُدُون اللهُ وحْدهُ،مُخْلصين لهُ الدِّين،ويُحبُّونهُ وحْدهُ،وهُمْ أشدُّ حُباً لله منْ أيِّ شيءٍ آخر.وحين يرى المُشْركُون العذاب الشّديد الذي يُنْزِلُهُ اللهُ تعالى يوْم القيامة بالكُفّار،فتتقطّعُ بهِمُ الأسْبابُ،ولا تُغْني عنْهُم الأنْدادُ،يُدْركُون حينئذٍ أنّ القُوّة جميعها لله،وأنّ الحُكْم لهُ وحْدهُ لا شريك لهُ [٤٣٨٤].

وإنه لضلال ما بعده من ضلال،وسفه ليس وراءه من سفه أن تكون دلائل القدرة،وشواهد الوحدانية مبثوثة فى كل أفق،ناجمة فى كل مكان،ثم يكون مع ذلك فى الناس من لا يعرف طريقه المستقيم إلى الله فتتفرق به السبل إليه،فيرى الله بعين مريضة،وبقلب سقيم،وإذا الله عنده ربّ مع أرباب،وإله بين آلهة،فولاؤه لله قسمة بينه وبين ما أشرك معه من آلهة وأرباب،وحبه لله موزع مشاع بينه وبين الشركاء الذين جعلهم معه،وليس كذلك حبّ الذين آمنوا وأخلصوا إيمانهم لله،فهو الحبّ كل الحبّ لله وحده،لا شريك له فيه.وقوله تعالى:«وَلَوْ يَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للَّه جَميعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَديدُ الْعَذاب» وعيد مزلزل لكيان أولئك الذين أشركوا بالله وجعلوا له أندادا،وانتقال خاطف بهم إلى يوم القيامة وأهوالها،والنار الجاحمة المعدة لهم،وعندئذ يرون

[٤٣٨٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٢٨)

[٤٣٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٢، بترقيم الشاملة آليا)

أن الملك لله وحده،وأن القوة كلها بيده،لا يملك أحد منها مع الله شيئا،يدفع عنهم هـذا العذاب المحيط بهم.[٤٣٨٥]

٣١. لا يلهيهم شيءٌ عن أداء رسالتهم في الأرض

قال تعالى:{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) } سورة النور

بعْد أنْ ذكر اللهُ تعالى مثل نُوره لعباده،وهدايتهُ إيّاهُمْ،أراد هُنا بيان حالِ منْ اهْتدوا بذلك النُّور،وصفاتهمْ،فقال:إنّ حال هؤُلاءِ الْمُهْتدين في الطّهارة من النّجاسات الحسِّيّة والمعْنويّة (كاللّغْو والرّفث في الحديث) كمثلِ القنْديل في المصْباح الْمُضيء،الدُّري الْمُقام في بيْتٍ منْ بُيُوت اللهِ التي أُقيمتْ لعبادة الله تعالى فيها،وهي مُطهّرةٌ مُنزّهةٌ،يقُومُ فيها بعبادته تعالى رِجالٌ مُؤْمنُون يُنزِّهُون الله تعالى فيها ويُقدِّسُونه في أوائلِ النّهار (الغُدُوِّ) وفي آخره (الآصالِ).

وهؤُلاءِ الرِّجالُ،الذين يعْمُرُون بُيُوت الله،هُمُ رِجالٌ أصْحابُ هممٍ وعزائم لا يُلْهيهمْ شيءٌ عنْ ذكْرِ الله،وإقامِ الصّلاة:لا تجارةٌ،ولا بيْعٌ،ولا تشْغلُهُم الدُّنْيا وزُخْرُفُها،وزينتُها،وملاذُّها،ولا بيْعُها،ولا ربْحُها..عنْ ذكْرِ ربِّهِمْ لأنّهُمْ يعْلمُون أنّ الذي عنْد الله خيْرٌ لهُمْ وأنْفعُ مما بأيْديهمْ،وهُمْ يُقدِّمُون طاعة ربِّهمْ ومحبّته على مُرادهم ومحبّتهمْ،فلا شيء يُلْهيهم عنْ أنْ يُؤدُّوا الصّلاة في وقْتها،لأنّهُمْ يخافُون يوم القيامةِ الذي تتقلّبُ فيه القُلُوبُ والأبْصارُ منْ شدّةِ الفزعِ،وعظمِ الهوْلِ.

[٤٣٨٥] – التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٨٤)

وهؤُلاءِ هُمُ الذينُ يتقبّلُ اللهُ تعالى حسناتِهِمْ،ويتجاوزُ عـــنْ سيِّئاتِهِمْ،فيُضـــاعِفُ لَهُـــمُ الحسناتِ (ويزِيدُهُم مِنْ فضْلِهِ)،وهُو تعالى يرْزُقُ منْ يشاءُ بِغيْرِ حِسابٍ،وبِدُون تحْدِيـــدٍ فهُو الكرِيمُ الجوادُ[٤٣٨٦].

إذا أردتم التماس هذا النور..نور الله..فالنمسوه «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ».

وهذا الذي نقول به،هو أنسب من القول بأن هذا الجار والمجرور متعلـــق بمشـــكاة،على تقدير:

«اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ..فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ».

وهذا بعيد من حيث النظم،ثم بعيد من حيث المعنى.إذ أن نور الله هو نور الله،ســـواء فى المساجد،أو فى غيرها..والذي ذهبنا إليه،هو المناسب للمقام..إذ كان قوله تعالى:«يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ»

مشوّقا للنفوس أن يكون لها نصيبها من هذا النور،وأن تكون فيمن شـــاء الله هدايتـــهم إليه..ومن بواعث هذا الشوق تجىء تساؤلات عن هذا النور،وكيف السبيل إليـــه،وبلوغ النفس حظها منه؟ ولا تكاد النفس تتلقّى هذه الخواطر المتسائلة،وهى بين يـــدى قولـــه تعالى:«يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ» - حتى يلقاها الدليل الذي يأخذ بها إلى مواقع هـــذا النور:

«فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» - ففى هذه البيـــوت الـــتي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه،يلتمس نور الله،حيث يتجلى الله سبحانه وتعالى على كـــل مـــن يغشون هذه البيوت،ويذكرون الله فيها..

وفى تنكير البيوت،تعظيم لمقامها،ورفع لشأنها،وتضخيم لقدرها،وإن ضاقت رقعة وقلـــت عددا..فهى أيّا كانت،أعلى البيوت مقاما،وأرفعها عمادا،وكـــل بيـــوت غيرها،ظـــلّ لها،ومرفق من مرافقها.

[٤٣٨٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٠٩، بترقيم الشاملة آليا)

وإذن الله برفع هذه البيوت،هو أمره بإقامتها..فحيث أقيمت،فهى مرفوعة علـــى كـــل بنيان،وإن علا بناء،وعظم جسما.

وقوله تعالى:«وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» معطوف على قولـــه تعـــالى:«تُرْفَـــعَ» أي أذن الله أن ترفع،وأذن أن يذكر فيها اسمه..وهو بيان للغاية من رفعها،وإقامتها،وأنها إنمـــا رفعـــت وأقيمت ليذكر فيها اسم الله..فهى بيوت عبادة،وذكر لله..

وذكر اسم الله،هو ذكر الله..واسم الله،هو صفته،وليس لله سبحانه اسم واحد،أو صـــفة واحدة،وإنما له أسماء وصفات كثيرة،هى الكمال المطلق،كما يقـــول ســـبحانه:«وَلِلَّـــهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها» (١٨٠:الأعراف) ودعاء الله بأسمائه،هو ذكـــر وتمجيـــد له..وفى ذكر الله،ذكر لجلاله،وعظمته،وقيومته،واستحضار لما له ســـبحانه وتعـــالى فى خلقه،من تقدير وتدبير،وفى هذا الذكر يتصل العبد بربه،ويقترب مـــن مواقـــع رضـــاه ورحمته..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٢٨:الرعد)

وقوله تعالى:«يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ»..هو بيان شـــارح لهذه المساجد،ولمن يغشونها من عباد الله..فهذه البيوت لا تهشّ،ولا تسعد إلا بمن يتعلـــق قلبه بها،ويجد الأنس والمسرّة فى رحابها،ويستشعر الغربة والوحشة فى البعد عنها،فهو لهذا غاد ورائح إليها،لا تلهيه تجارة ولا بيع عن غشيانها وذكر الله فيها،ابتغاء رضوانه،وخوفا من لقائه فى يوم «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ» أي تضـــطرب فيـــه القلـــوب هـــولا وفزعا،وتزيغ فيه الأبصار،كربا وجزعا..والغدوّ:أول النهار،والآصال:جمع أصـــيل،وهو آخر النهار..وأفرد الغدوّ:لأن فيه صلاة واحدة،هى صلاة الصبح..وجمع الأصيل..لأنـــه زمن ممتد،فيه صلاة الظهر،والعصر،والعشاءين..(المغرب والعشاء).قوله تعالى:«لِيَجْـــزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ».هو تعليل لما يبغيه الغادون والرائحون إلى بيوت الله..أي أنهم يفعلون هذا،ويولّون وجوههم إلى ربهم بالغدو والآصال،ليكون ذلك سببا فى أن يرضى الله عنهم،ويجزيهم أحسن مـــا عملـــوا ويقبله منهم،ويتجاوز بإحسانهم هذا عن سيئاتهم،كما يقول سبحانه:«أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ

عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ» (١٦:الأحقاف)..وليس هذا فحسب،بل إنه سبحانه وتعالى- سيزيدهم من فضله،ويضاعف الجزاء لهم من إحسانه..

فهذا رزق من رزقه «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» لأن خزائنه مــلأى أبــدا،لا تنقص بالعطاء..وإذن فلا يجرى حساب على هذه الخزائن،لإحصاء ما ذهب منها ومــا بقي..ولكن- مع هذه الخزائن الملأى مــن رزق الله،ومــن فضله،وإحســانه- فإنــه سبحانه،قيوم حكيم،يضع رحمته حيث يشاء،ويعطى منها ما يشاء لمــن يشاء،بحســاب وتقدير،حسب ما تقضى به حكمته وتدبيره،وفى هذا يقول سبحانه:«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْــدَهُ بِمِقْدارٍ»..ويقول جلّ شأنه:«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُــومٍ» (٢١:الحجر)..[٤٣٨٧]

---

٣٢. تلاوة كتاب الله حق تلاوته

قال تعالى:{إِنّ الّذِين يتْلُون كِتاب اللّه وأقامُوا الصّلاة وأنفقُوا مِمّا رزقْناهُمْ سِرًّا وعلانِيةً يرْجُون تِجارةً لّن تبُور(٢٩) لِيُوفِّيهُمْ أُجُورهُمْ ويزِيدهُمْ مِنْ فضْلِهِ إِنّهُ غفُــورٌ شــكُورٌ (٣٠) } سورة فاطر

إن عِباد اللهِ المُؤْمِنِين الذِين يتْلُون كِتاب اللهِ،ويُؤْمِنُون بِهِ،ويعْملُون بِما فِيهِ مِنْ أوامِر:مِــنْ إِقامةِ الصّلاةِ وأدائِها بِخُشُوعِها،وإِتْمامِها بِرُكُوعِها وسُجُودِها،ومِن الإِنْفاقِ مِمّا رزقهُــمُ اللهُ سِراً وعلانِيةً فِي سبِيلِ اللهِ على الفُقراءِ والمُحْتاجِين،وفِيما فِيهِ خيرُ الجماعةِ المُسلمةِ،إِنّ هؤلاءِ العِباد المُؤْمِنِين،الذِين يقُومُون بِذلِك،يرْجُون الثّواب على أفْعالِهِمْ،عِنْد اللهِ،وستكُونُ تِجارتُهُمْ رابِحةً عِند اللهِ،ولنْ تكْسُد.

[٤٣٨٧] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٢٨٩)

ويرْجُون أنْ يجْزِيهُمُ اللهُ الجزاء الأوْفى علـــى أعْمـــالِهِم الصّـــالِحة،وأنْ يزِيـــدهُمْ مِـــنْ فضْلِه،فيتجاوز عنْ سيِّئاتِهِمْ وهفواتِهِمْ،ويضاعِف ثـــواب أعْمـــالِهِمْ حتّـــى ســـبعمِئةِ ضِعْفٍ،واللهُ تعالى غفُورٌ لِلذُّنُوب،شكُورٌ لِلْقلِيلِ مِن الأعمالِ الصّالِحة.[٤٣٨٨]

مناسبة هذه الآية لما قبلها،هى أن الآية السابقة،أشارت إلى العلم،وإلى ما للعلماء من مقام عند الله،وما فى قلوبهم من خشية له،وذلك بما علموا من دلائل قدرته بـــالنظر فى آياتـــه الكونية،نظرا عاقلا،مدركا،متفحصا.ملأ قلوبهم خشية لله،ومراقبة له،ومجانبة لحرماته..

وهنا- فى هذه الآية- دعوة إلى النظر فى آيات الله القرآنية،وما يقع للعقل منها من علـــم بالله سبحانه،وبما له- سبحانه- من علم،وحكمة،وقدرة..

ففى هذه الآيات القرآنية،معجزات،يرى فيها الذين يتلونها تلاوة مبصرة،وشواهد ناطقـــة تشهد بما لله من كمال وجلال،تماما كما يرى الراءون لآيات الله المادية المعجزة..فقولـــه تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ» دعوة إلى التلاوة المتـــدبرة الفاقهـــة،التي تحصّـــل علمـــا وحكمة،وهى التي تملأ القلوب إجلالا وخشية لله.

«وَأَقامُوا الصَّلاةَ»..الجملة هنا حالية من فاعل يتلون،أي يتلون كتاب الله،أي يخشـــون الله،وقد أقاموا الصلاة،فى ظل من هذه الخشية،وفى استصحاب لها..

فالآية هنا مثل قوله تعالى:«إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْـــبِ وَأَقـــامُوا الصَّـــلاةَ» (١٨:فاطر).

«وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً» معطوف على «وَأَقامُوا الصَّلاةَ» أي وأنفقوا ممـــا رزقهم الله سرّا وجهرا،فى ظل من خشية الله كذلك،وفى استصحاب لتلك الخشية..

«يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ»..خبر إن..أي أن هؤلاء الذين يتلون كتاب الله،تـــلاوة تمـــلأ قلوبهم خشية لله،ثم يقيمون الصلاة،ويؤتون الزكاة- وهم على خشية من الله- هـــؤلاء يرجون تجارة رائحة،رابحة لن تبور..

[٤٣٨٨] أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٧٠، بترقيم الشاملة آليا) -

بل إنها تجد من يشتريها منهم،ويضاعف لهم الثمن فيها..وإنه الله سبحانه وتعالى هو الذي يشترى منهم هذه البضاعة،ويضاعف لهم الثمن عليها..

قوله تعالى:«لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِه..إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».هو تعليل لنفى البوار عن تجارة هؤلاء العاملين،إنها تجارة يتقبلها الله منهم «لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ» أي ليعطيهم أجر ما عملوا كاملا وافيا غير منقوص،بل وأكثر من هذا،فإن الله سيزيدهم،ويضاعف لهم الأجر،فضلا وكرما وإحسانا منه..«إِنَّهُ غَفُورٌ» يتجاوز عن سيئاتهم،«شكور» يقابل القليل من الإحسان بالجزيل من العطاء..[4389]

وتلاوة كتاب الله تعني شيئا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت.تعني تلاوته عن تدبر،ينتهي إلى إدراك وتأثر،وإلى عمل بعد ذلك وسلوك.ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة،وبالإنفاق سرا وعلانية من رزق الله.ثم رجاؤهم بكل هذا «تِجارَةً لَنْ تَبُورَ»..فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون.ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح.يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة ويتأجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة.تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم،وزيادتهم من فضل الله..«إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ»..يغفر التقصير ويشكر الأداء.وشكره - تعالى - كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء.ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم.تشبها واستحياء.فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟![4390]

وفي صحيح البخاري عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[4391].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا،فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[4392].

[4389] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨٨٣)

[4390] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٧٢٦)

[4391] - صحيح البخاري (٦/ ١٩٢)(٥٠٢٧)

[4392] - السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٢٧٢)(٨٠٠٢) صحيح

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:«مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[٤٣٩٣].

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ،وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ،وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ،لَهُ أَجْرَانِ».[٤٣٩٤].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ:«أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ،فَإِنَّهَا رَأْسُ أَمْرِكَ» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي قَالَ:«عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ،وَذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَكَ نُورٌ فِي السَّمَوَاتِ وَنُورٌ فِي الْأَرْضِ»[٤٣٩٥]

وقَالَ عَبْدُ اللهِ:الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ،فَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ قَادَهُ إِلَى النَّارِ.[٤٣٩٦]

وعَنْ جَابِرٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ،وَمَا حِلٌ مُصَدَّقٌ،مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ،وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ».[٤٣٩٧]

ماحل بكسر الحاء المهملة أي ساع وقيل خصم مجادل

[٤٣٩٣] - الدعاء للطبراني (ص:٥١٩)(١٨٥١) حسن لغيره

[٤٣٩٤] - صحيح مسلم (١/ ٥٤٩)(٢٤٤ - (٧٩٨)

[ش (الماهر بالقرآن) هو الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه (مع السفرة الكرام البررة) السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب والسافر الرسول والسفرة الرسل لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله وقيل السفرة الكتب والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة (ويتتعتع فيه) هو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران أجر بالقراءة وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته]

[٤٣٩٥] - مكارم الأخلاق للطبراني (ص:٣١٢)(١) حسن لغيره

[٤٣٩٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٤٧٨)(٣٠٦٧٧) صحيح

[٤٣٩٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٣٣١)(١٢٤) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:هَذَا خَبَرٌ يُوهِمُ لَفْظُهُ مَنْ جَهِلَ صِنَاعَةَ الْعِلْمِ أَنَّ الْقُرْآنَ مَجْعُولٌ مَرْبُوبٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، لَكِنَّ لَفْظَهُ مِمَّا نَقُولُ فِي كُتُبِنَا:إِنَّ الْعَرَبَ فِي لُغَتِهَا تُطْلِقُ اسْمَ الشَّيْءِ عَلَى سَبَبِهِ، كَمَا تُطْلِقُ اسْمَ السَّبَبِ عَلَى الشَّيْءِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ قَادَ صَاحِبَهُ إِلَى الْجَنَّةِ أُطْلِقَ اسْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ عَلَى سَبَبِهِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، لَا أَنَّ الْقُرْآنَ يَكُونُ مَخْلُوقًا.

وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذ الْجُهَنِيِّ،عَنْ أَبِيه،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺقَالَ:«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَملَ بمَا فيه،أُلْبسَ وَالدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقيَامَة،ضَوْءُهُ أَحْسَنُ منْ ضَوْء الشَّمْس في بُيُوت الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فيكُمْ،فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذي عَملَ بهَذَا؟»[٤٣٩٨]

وعن عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" لاَ حَسَدَ إِلَّا في اثْنَتَيْنِ:رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَته في الحَقِّ،وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا "[٤٣٩٩].

---

٣٣. التجارة التي تنجي من العذاب الأليم:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تجَارَة تُنْجيكُمْ منْ عَذَاب أَليمٍ (١٠) تُؤْمنُونَ باللَّه وَرَسُوله وَتُجَاهدُونَ في سَبيلِ اللَّه بأَمْوَالكُمْ وَأَنْفُسكُمْ ذَلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخلْكُمْ جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكنَ طَيِّبَةً في جَنَّات عَدْنٍ ذَلكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحبُّونَهَا نَصْرٌ منَ اللَّه وَفَتْحٌ قَريبٌ وَبَشِّر الْمُؤْمنينَ (١٣)} [الصف:١٠ - ١٣]

يا أيُّها المُؤْمِنُون باللهِ،والمُصدِّقُون برُسُله وكُتُبه وآياته،ألا تُريدُون أنْ أدُلَّكُمْ على صفقة رابحة،وتجارة نافعة،تفُوزُون فيها بالرِّبْح العظيم،وتُنْقذُكُمْ منْ عذاب الله الأليم يوْم القيامة؟

وهذه الصّفقةُ هي أنْ تُؤْمنُوا بالله وتعْبُدُوهُ وحْدهُ لا شريك لهُ،وتصدِّقُوا برسُوله مُحمّد،وما أنْزله عليْه من القُرْآن وتُجاهدُوا في سبيل رفْع كلمة الله،وعزّة دينه،بأنْفُسكُمْ وأمْوالكُمْ،فإنْ فعلْتُمْ ذلك،كان ذلك خيْراً لكُمْ منْ كُلِّ شيْءٍ في الدُّنْيا:من النّفْس والمال

[٤٣٩٨] - سنن أبي داود (٢/ ٧٠)(١٤٥٣) حسن

[٤٣٩٩] - صحيح البخاري (١/ ٢٦)(٧٣)

[ش(لا حسد) المراد حسد الغطبة وهو أن يرى النعمة في غيره فيتمناها لنفسه من غير أن تزول عن صاحبها وهو جائز ومحمود.(فسلط على هلكته في الحق) تغلب على شح نفسه وأنفقه في وجوه الخير.(الحكمة) العلم الذي يمنع من الجهل ويزجر عن القبيح]

والزّوْجِ والولدِ،هذا إنْ كُنْتُمْ تعْلمُون ما أعدّهُ اللهُ لِعِبادِهِ الْمُؤْمِنِين الْمُخْلِصِين الْمُجاهِدِين فِي الآخِرةِ مِنْ جزِيلِ الثّوابِ فِي جنّاتِ النّعِيمِ.

وإِنْ فعلْتُمْ ذلِك ستر اللهُ ذُنُوبكُمْ ومحاها،وأدْخلكُمْ جنّاتٍ تجْرِي الأنْهارُ فِي جنباتِها،وأسْكنكُمْ مساكِن طيِبةً تقرُّ بِها العُيُون،وهذا هُو مُنْتهى ما تصْبُوا إِليْهِ النُّفُوسُ،وهُو الفوْزُ الذِي لا فوْز أعْظم مِنْهُ

ولكُمْ يا أيُّها الْمُؤْمِنُون الْمُجاهِدُون فِي سبِيلِ اللهِ تعالى،مع الفوْزِ فِي الآخِرةِ،الذِي وعدكُمْ اللهُ بِهِ،نِعْمةٌ أُخْرى تُحِبُّونها،وهِي نصْرٌ مِن اللهِ،وفتْحٌ قرِيبٌ،تجْنُون مغانِمهُ،وبشِّرْ يا مُحمّدُ الْمُؤْمِنِين بِهذا الجزاءِ [٤٤٠٠]

يبدأ بالنداء باسم الإيمان:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..يليه الاستفهام الموحي.فاللّه – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب:«هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟»..

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله اللّه على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية،وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق.ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»..وهم مؤمنون باللّه ورسوله.فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»..وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة،يجيء في هذا الأسلوب،ويكرر هذا التكرار،ويساق في هذا السياق.فقد علم اللّه أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار،وهذا التنويع،وهذه الموحيات،لتنهض بهذا التكليف الشاق،الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين:«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»..فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد..ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة،لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه،ويقره في الحس ويمكن له:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»..وهذه وحدها تكفي.

[٤٤٠٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئا؟ ولكن فضل اللّه ليست له حدود:«وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»..وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم..وحقا..«ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة.وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق.فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض،ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا،فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء اللّه،ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول اللّه – ﷺ- وعبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنه – ليلة العقبة.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت ! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل ! فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[٤٤٠١].

وعن قتادة(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) قال:" قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه".وذُكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار،ذُكر لنا أن بعضهم قال:هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا.ذُكر لنا أن رجلا قال:يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت،قال:أشترط لربي أن تعبدوه،ولا تشركوا به شيئًا،وأشترط لنفسي أن

[٤٤٠١] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٤٩٩] ١٧٢٧٠ صحيح مرسل

تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا:فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال:"لكم النصر في الدنيا،والجنة في الآخرة"،ففعلوا،ففعل الله"[٤٤٠٢].

ولكن فضل اللّه عظيم.وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض،يناسب تركيبها البشري المحدود.وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض،وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل:«وأخرى تحبونها:نصر من اللّه وفتح قريب.وبشر المؤمنين»..

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا اللّه.اللّه الذي لا تنفد خزائنه،والذي لا ممسك لرحمته.فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة.وفوقها..فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب..فمن الذي يدله اللّه على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب..إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان،في حدودها الضيقة الصغيرة،وفي مستوياتها الهابطة الواطية،وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة..هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان،ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع،ليعيش فيه،وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك..ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته.فهو ذاته أجر..هذا الجهاد..وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح.ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان.ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان.فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد.كائنا مصيره فيه ما يكون..

ولكن اللّه – سبحانه – يعلم أن النفس تضعف،وأن الاندفاع يهبط،وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط [٤٤٠٣]..

[٤٤٠٢] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [٢٣ /٣٦٥] صحيح مرسل

[٤٤٠٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٧)

٣٤. أن يكونوا أنصاراً لله :

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [الصف:١٤]

يأْمُرُ اللهُ تعالى عِبادهُ المُؤْمنين بأنْ يكُونُوا أنْصاراً لله في جميعِ أحْوالِهِمْ:بأقْوالِهِمْ وأفْعالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ وأمْوالِهِمْ،وأنْ يسْتجيبُوا لله وللرّسُول،كما اسْتجاب الحواريُّون لعيسى حينما سألهُمْ:منْ يُعِينُني في الدَّعْوة إلى الله؟ فقال لهُ الحُوارِيُّون:إنّهُمْ أنْصارُ الله،وإنّهُمْ سيُعِينُونهُ وسيُؤازِرُونهُ فيما يقُومُ به منْ إبْلاغِ رِسالةِ ربِّه،فآمنتْ طائفةٌ منْ بني إسْرائيل برِسالةِ عيسى،وكفرتْ طائفةٌ فجحدتْ نُبُوّتهُ،ورمتْهُ وأمّهُ بالبُهْتان،وغلتْ فِرقٌ منْهُمْ في عيسى،فقالُوا:إنّهُ اللهُ،أوْ إنّهُ ابْنُ الله،أوْ إنّهُ ثالثُ ثلاثة،ورفعُوهُ مرْتبة النُّبُوّة.فأيّد اللهُ المُؤْمنين المُخْلِصين برِسالةِ عيسى بنصْرِه،وأظْهرهُمْ على منْ عاداهُمْ،وتلْك سُنّةُ الله في خلْقه.[٤٤٠٤]

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ} [أي:] بالأقوال والأفعال،وذلك بالقيام بدين الله،والحرص على إقامته على الغير،وجهاد من عانده ونابذه،بالأبدان والأموال،ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق،بدحض حجته،وإقامة الحجة عليه،والتحذير منه.

ومن نصر دين الله،تعلم كتاب الله وسنة رسوله،والحث على ذلك،[والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: {كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} أي:قال لهم عارضا ومنهضا من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله،ويدخل مدخلي،ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون،فقالوا: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه،هو ومن معه من الحواريين، {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} بسبب دعوة

[٤٤٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)

عيسى والحواريين، {وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} منهم،فلم ينقادوا لدعوتهم،فجاهد المؤمنون الكافرين، {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} أي:قويناهم ونصرناهم عليهم. {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} عليهم وقاهرين [لهم]،فأنتم يا أمة محمد،كونوا أنصار الله ودعاة دينه،ينصركم الله كما نصر من قبلكم،ويظهركم على عدوكم.[٤٤٠٥]

٣٥. إقامة العدل بكل أشكاله وصوره

قال تعالى:{ يا أَيُّها الّذين آمنُوا كُونُوا قوّامين للّه شُهداء بالْقسْط ولا يجْرمنّكُمْ شنآنُ قوْمٍ على ألّا تعْدلُوا اعْدلُوا هُو أقْربُ للتّقْوى واتّقُوا اللّه إنّ اللّه خبيرٌ بما تعْملُون (٨) وعد اللّهُ الّذين آمنُوا وعملُوا الصّالحات لهُمْ مغْفرةٌ وأجْرٌ عظيمٌ (٩) } [المائدة/٨،٩]

يا أَيُّها الذين آمنُوا ليكُنْ همّكُمْ ودأْبُكُمُ التزام الحقِّ في أنْفُسكُمْ (بدُون اعْتداءٍ على أحدٍ)،وفي غيْركُمْ (بالأمْر بالمعْرُوف والنّهْي عن المُنْكر ابْتغاء مرْضاة الله وحْدهُ،لا لأجْل إرْضاء النّاس،واكْتساب السُّمْعة الحسنة عنْدهُمْ)،وكُونُوا شُهداء بالعدْل (القسْط)،دُون مُحاباةٍ لمشْهُودٍ لهُ،ولا لمشْهُودٍ عليه،فالعدْلُ ميزانُ الحُقُوق،ومتى وقع الجُورُ في أُمّةٍ،زالت الثّقةُ منْ نُفُوس النّاس،وانْتشرت المُفاسدُ،وتقطّعتْ روابطُ المُجْتمع.ولا تحْملنّكُمْ عداوتُكُمُ الشّديدةُ لقوْمٍ،وبُغْضُكُمْ لهُمْ على عدم العدْل في أمْر الشّهادة لهُمْ بحقِّهمْ إذا كانُوا أصْحاب حقٍّ،أوْ على عدم الحُكْم لهُمْ بذلك،فالمُؤْمنُ يُؤْثرُ العدْل على الجُور والمُحاباة.ثُمّ يُؤكِّدُ اللهُ تعالى أمْرهُ السّابق بضرُورة إقامة العدْل،وأداء الشّهادة بالقسْط فيقُولُ:اعْدلُوا لأنّ العدْل أقْربُ لتقْوى الله،وأبْعدُ عنْ سخْطه،واتّقُوا سخط الله وعقابهُ لأنّهُ لا يخْفى عليْه شيءٌ منْ أعْمالكُمْ ظاهرها وباطنها،واحْذرُوا أنْ يُجازيكُمْ بالعدْل على ترْككُمُ القيام بالعدْل.

وعد اللهُ الذين آمنُوا به وبكُتُبه ورُسُله..وعملُوا الأعْمال الصّالحة التي يرْضاها ربُّهُمْ (مثْل العدْل،والأمْر بالمعْرُوف،والنّهي عن المُنْكر،ومُراعاة جانب الله في أوامره ونواهيه،في

[٤٤٠٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦١)

أنْفُسِهِمْ وفِي روابِطِهِم الاجْتِماعِيّــةِ)،بِأنّــهُ ســيغْفِرُ لهُــمْ ذُنُوبهُمْ،ويتجــاوزُ عــنْ سيِّئاتِهِمْ،ويُثِيبُهُمْ بِالأجْرِ العظِيمِ،وهُو الجزاءُ المُضاعفُ على الإِيمانِ والعملِ الصّالِحِ،فضْلاً مِنْهُ ورحْمةً مِنْ لدُنْهُ [٤٤٠٦].

لقد نهى اللّه الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام،على الاعتداء.وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم اللّه إليها بمنهجه التربــوي الرباني القويم.فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل..وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق.فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء.فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمــل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين! والمنهج التربــوي الحكــيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة.فيقدم له بما يعين عليه:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا كُونُــوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ...»

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا:«وَاتَّقُوا اللَّهَ،إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»..

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط،إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشــرة مــع اللّه.حين تقوم للّه،متجردة عن كل ما عداه.وحين تستشعر تقواه،وتحس أن عينه علــى خفايا الضمير وذات الصدور.

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع الــنفس البشــرية إلى هــذا الأفق،ويثبتها عليه.

وما غير القيام للّه،والتعامل معه مباشرة،والتجرد من كل اعتبار آخر،يملك أن يســتوي بهذه النفس على هذا المرتقى.

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين،كما يكفله لهم هذا الدين حين ينادي المؤمنين به أن يقومــوا للّـــه في هــذا الأمــر وأن يتعــاملوا معه،متجردين عن كل اعتبار.

[٤٤٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير الذي يتكفـــل نظامـــه للناس جميعا – معتنقيه وغير معتنقيه – أن يتمتعوا في ظله بالعدل وأن يكون هذا العـــدل فريضة على معتنقيه،يتعاملون فيها مع ربهم،مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن..

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية:مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة وأدت تكاليفها هذه يوم استقامت على الإسلام.ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا،ولا مجرد مثل عليا،ولكنها كانت واقعا مـــن الواقـــع في حياتها اليومية،واقعا لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد،ولم تعرفه في هذا المستوي إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة..والأمثلة التي وعاهـــا التـــاريخ في هـــذا المجـــال كـــثيرة مستفيضة.تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية،قد استحالت في حياة هـــذه الأمة منهجا في عالم الواقع يؤدى ببساطة،ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة..إنها لم تكـــن مثلا عليا خيالية،ولا نماذج كذلك فردية.إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى النـــاس أن هناك طريقا آخر سواه.

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها – بما فيها جاهلية العصور الحديثة – ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه اللّـــه للبشـــر،ومناهج يصنعها الناس للناس.ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنـــهج الفريد في الضمائر والحياة.

إن الناس قد يعرفون المبادئ ويهتفون بها..ولكن هذا شيء،وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر..

وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبيعي،ألا تتحقق في عالم الواقع..فليس المهم أن يدعى الناس إلى المبادئ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها..المهم هو الجهة التي تصـــدر منها الدعوة..المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر..المهم هـــو المرجـــع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادئ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها،هو سلطان الدين المستمد من ســـلطان اللّه،فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ ومـــاذا

يملك للناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم في تحقيق هذه المبادئ؟ يهتـــف ألـــف هـــاتف بالعدل.وبالتطهر.وبالتحرر.وبالتسامي.وبالسماحة.وبالحب.وبالتضحية.وبالإيثار...

ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ولا يفرض نفسه على القلوب.لأنه دعاء ما أنزل اللّه به من سلطان! ليس المهم هو الكلام..ولكن المهم من وراء هذا الكلام! ويسمع النـــاس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات - مجردة من سلطان اللّه - ولكن مـــا أثرها؟

إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم.تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهـــل وعجز وهوى وقصور.فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس.فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة،ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر! ثم إن قيمة هذه «الوصايا» في الدين،أنها تتكامل مـــع «الإجـــراءات» لتكييـــف الحياة.فهو لا يلقيها مجردة في الهواء..فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا وإلى مجـــرد شعائر فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان..

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين وفي ظل هـــذا النظـــام ينفـــذ الـــدين وصاياه.ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات!..وهذا هو «الدين» في المفهوم الإسلامي دون سواه..الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة.

وحين تحقق «الدين» بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء..وحين تحول «الدين» إلى وصايا علـــى المنابر وإلى شعائر في المساجد وتخلى عن نظام الحياة..لم يعد لحقيقة الـــدين وجـــود في الحياة![٤٤٠٧].

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ

[٤٤٠٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٢٣٣)

وقال تعالى:{ولا تقْربُواْ مال الْيتيمِ إِلاّ بِالّتي هِي أحْسنُ حتّى يبْلُغ أشُدّهُ وأوْفُواْ الْكيْل والْميزان بِالْقسْطِ لا نُكلِّفُ نفْسًا إِلاّ وُسْعها وإِذا قُلْتُمْ فاعْدِلُواْ ولوْ كان ذا قُرْبى وبِعهْدِ اللّهِ أوْفُواْ ذلِكُمْ وصّاكُم بِهِ لعلّكُمْ تذكّرُون} (١٥٢) سورة الأنعام

ويُتابِعُ اللهُ تعالى،فِي هذِهِ الآية،بيان ما أوْصى بِهِ النّاس،وما حرّمهُ عليْهِمْ،فيقُولُ تعالى:ومِمّا أوْصى بِهِ النّاس:ألاّ يقْربُوا مال اليتيمِ،إِذا ولُّوا أمْرهُ،أوْ تعاملُوا معهُ،إِلاّ بِالطّرِيقةِ الحسنةِ (إِلاّ بِالتِي هِي أحْسنُ) التِي تحْفظُ مالهُ،وتُثمِّرُهُ،وتُرجِّحُ مصْلحتهُ،وأنْ يُنْفِقُوا عليْهِ مِنْ مالِهِ فِي سبِيلِ ترْبِيتِهِ وتعْلِيمِهِ،وأنْ يسْتمِرّ ذلِك حتّى يبْلُغ اليتِيمُ سِنّ الرُّشْدِ،والقُوّةِ والقُدْرةِ على الإِدْراكِ والتّصرُّفِ.

ولما نزلتْ هذِهِ الآيةُ شقّ ذلك على المُسْلمين،فأخذُوا فِي عزْلِ مالِ اليتِيمِ وطعامِهِ،عنْ مالِهِمْ،فكان طعامُ اليتيمِ يفْسدُ،لا يمسُّهُ أحدٌ مِمّنْ هُو عِنْدهُمْ.فشكوا ذلِك لِلْنّبِيِّ ﷺ فأنْزل اللهُ تعالى قوْلهُ { ويسْألُونك عنِ اليتامى قُلْ إِصْلاحٌ لّهُمْ خيْرٌ وإِنْ تُخالِطُوهُمْ فإِخْوانُكُمْ.} فاللهُ تعالى يأْمُرُ النّاس بِمُراعاةِ مصْلحةِ اليتِيمِ،والعِنايةِ بِمالِهِ،وعدمِ التّصرُّفِ فِيهِ إِلاّ بِالتِي هِي أحْسنُ،ويُحذِّرهُمْ تعالى مِن التّجاوُزِ على مالِ اليتِيمِ.ويقُولُ تعالى:إِنّ مِمّا أوْصى بِهِ النّاس أيْضاً:إِيفاء الكيْلِ والمِيْزانِ عِنْد البيْعِ والشِّراءِ،وعدم غمْطِ النّاسِ حُقُوقهُمْ واللهُ تعالى يدْعُو المُؤْمِن أنْ يبْلُغ جُهْدهُ فِي أداءِ ذلِك،فإِذا بلغ جُهْدهُ،وعمِل ما فِي وُسْعِهِ،يكُونُ قدْ قام بِأمْرِ اللهِ،ولا حرج عليْهِ إِن أخطأ بعْد ذلك،لأنّ الله لا يُكلِّفُ نفْساً إِلاّ وُسْعها،وقدر طاقتها.ويقُولُ تعالى:إِنّ مِمّا وصّى بِهِ النّاس أيْضاً العدْلُ فِي القوْلِ والفِعْلِ لِكُلِّ واحِدٍ فِي كُلِّ وقْتٍ،وفِي كُلِّ حالٍ:فِي الشّهادةِ وفِي الحُكْمِ وفِي الكيْلِ والمِيْزانِ،ولوْ كان الأمْرُ يتعلّقُ بِقرِيبٍ،فإِنّ القرابة والصّداقة يجِبُ ألاّ تصْرِفا الإِنْسان عنْ قوْلِ الحقِّ،وعنِ العدْلِ فِيهِ.

كما يأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمِنِين بِالوفاءِ بِعهْدِ اللهِ،والقِيامِ بِطاعتِهِ،فِيما أمر ونهى،وفِيما عاهدُوا النّاس عليْهِ

وهذا ما أوْصى بِهِ اللهُ المُؤمِنين،وأمرهُمْ بِهِ،وأكّد عليه.ويقُولُ تعالى:إذا اجْتهدْتُمْ بالوفـــاءِ بما أمر اللهُ،وتواصيْتُم بِـــالمعْرُوفِ وتنـــاهيْتُمْ عـــنِ المُنْكـــرِ،فلعلّكُمْ إنْ فعلْـــتُمْ ذلـــك تتّعِظُون،وتنْتهُون عمّا كُنْتُمْ فِيهِ مِن الضّلالِ.[4408]

٣٦. الحكم بين الناس بالحقّ

قال تعالى:{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِـــعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:٢٦]

وقال اللهُ تعالى لِداوُد:إنّهُ جعلهُ خليفةً فِي الأرْضِ،نافذ الكلمةِ والحُكْمِ بين الرّعِيّةِ،فعليْهِ أنْ يحْكُم بين النّاسِ بالحقِّ والعدْلِ،وأنْ لا يتّبع الهوى لأنّ اتِّباع الهوى يكُونُ سبباً لِلضّـــلالةِ والجوْرِ عنِ الطّرِيقِ القويمِ الذي شرعهُ اللهُ تعالى.

ثمّ يقُولُ تعالى:إنّ الذين يضِلُّون عنْ سبيلِ اللهِ وهُداهُ لهُمْ فِي الآخرةِ (يـــوْم الحِســـابِ) عذابٌ شدِيدٌ لِنسْيانِهِمْ ذلك اليوم،وإِنّ اللهَ سيُحاسِـــبُ العِبـــاد فِيـــهِ علـــى أعمـــالِهِمْ جميعاً،صغيرِها وكبيرِها.[4409]

فهي الخلافة في الأرض،والحكم بين الناس بالحق،وعدم اتباع الهوى.واتباع الهوى - فيما يختص بني - هو السير مع الانفعال الأول،وعدم التريث والتثبيت والتبيين..مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال.أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عـــام مطلـــق على نتائج الضلال عن سبيل اللّه.وهو نسيان اللّه والتعـــرض للعـــذاب الشـــديد يـــوم الحساب.

ومن رعاية اللّه لعبده داود،أنه نبهه عند أول لفتة.ورده عند أول اندفاعة.وحذره النهاية البعيدة.وهو لم يخط إليها خطوة! وذلك فضل اللّه على المختـــارين مـــن عبـــاده.فهـــم

[4408] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٩٤٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4409] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٨٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة،فيقيلها اللّه،ويأخذ بيدهم،ويعلمهم،ويوفقهم إلى الإنابة،ويغفر لهم،ويغدق عليهم،بعد الابتلاء ..وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض،وفي الحكم بين الناس.. "[٤٤١٠].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ،أَنَّهُ قَالَ:" أَفَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺكَمَا كَانُوا،وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ،فَبَعَثَ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ،فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ،ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ،أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ،قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللهِ،وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ،قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ،فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ،وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي،فَقَالُوا:بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ،قَدْ أَخَذْنَا،فَاخْرُجُوا عَنَّا "[٤٤١١]

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:القُضَاةُ ثَلاَثَةٌ:قَاضِيَانِ فِي النَّارِ،وَقَاضٍ فِي الجَنَّةِ،رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الحَقِّ فَعَلِمَ ذَاكَ فَذَاكَ فِي النَّارِ،وَقَاضٍ لاَ يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ،وَقَاضٍ قَضَى بِالحَقِّ فَذَلِكَ فِي الجَنَّةِ.[٤٤١٢]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا»[٤٤١٣]

٣٧.الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقال تعالى:{ والْمُؤْمِنُون والْمُؤْمِناتُ بعْضُهُمْ أوْلِياءُ بعْضٍ يأْمُرُون بالْمعْرُوفِ وينْهوْن عنِ الْمُنْكرِ ويُقِيمُون الصّلاة ويُؤْتُون الزّكاة ويُطِيعُون اللّه ورسُولهُ أُولئِك سيرْحمُهُمُ اللّهُ إِنّ اللّه عزِيزٌ حكِيمٌ (٧١) وعد اللّهُ الْمُؤْمِنِين والْمُؤْمِناتِ جنّاتٍ تجْرِي مِنْ تحْتِها الْأنْهارُ

[٤٤١٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٠٦)

[٤٤١١] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٣/ ٢١٠)(١٤٩٥٣) صحيح

[٤٤١٢] - سنن الترمذي ت بشار (٣/ ٦)(١٣٢٢م) صحيح

[٤٤١٣] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٣٩٥)(٥٨٨٦) صحيح

خالدين فِيها ومساكِن طيِّبةً فِي جنّاتِ عدْنٍ ورِضْوانٌ مِن اللّهِ أكْبرُ ذلِك هُو الْفوْزُ الْعظِيمُ (٧٢) } [التوبة/٧٢،٧١]

المُؤْمِنُون والمُؤْمناتُ بيْنهُمْ أُخُوّةٌ،ومودّةٌ،وتعاوُنٌ،وتراحُمٌ،ويتّصفُون بالصِّفات الحمِيدة التي يأْمُرُهُمْ بها دِينُهُمْ:فيتناصرُون ويتعاضدُون ويفْعلُون الخيْر،ويأْمُرُون بِهِ،وينْتهُون عنِ المُنْكرِ وينْهوْن عنْهُ،ويُقيمُون الصّلاة ويُؤدُّونها حقّ أدائها،ويُؤدُّون زكاة أمْوالِهِمْ إلى مُسْتحقِّيها،ويُطيعُون الله ورسُولهُ فيما أمر،ويتْرُكُون ما نهى عنْهُ وزجر.والمُتّصفُون بهذه الصِّفاتِ الطّيِّبةِ الْكرِيمةِ سيرْحمُهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرةِ،واللهُ عزِيزُ الجانِبِ،يُعِزُّ منْ يشاءُ،وهُو حكِيمٌ فِي قِسْمتِهِ الصِّفاتِ بيْن خلْقِهِ،فجعل المُؤْمنِين يخْتصُّون بالصِّفاتِ الحمِيدة،والمُنافِقِين يخْتصُّون بالصِّفاتِ الذمِيمةِ المُنْكرةِ.

وعد اللهُ المُؤْمِنِين والمُؤْمِناتِ أنّهُ سيُدْخِلُهُمْ فِي الآخِرةِ جنّاتٍ تجْرِي مِنْ تحْتِها الأنْهارُ،يُقِيمُون فِيها خالدين أبداً،فِي مساكِن طيِّبةٍ حسنةِ البِناءِ،وطيِّبةِ القرارِ فِي هذهِ الجنّاتِ،ووعدهُمْ بِرِضْوانٍ مِنْهُ أكْبر وأجلّ مِمّا هُمْ فِيهِ مِن النّعِيمِ،وذلِك هُو الفوْزُ العظِيمُ.[٤٤١٤]

عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ:يَا أَهْلَ الجَنَّةِ،فَيَقُولُونَ:لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ،فَيَقُولُ:هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ:وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ،فَيَقُولُ:أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ،فَيَقُولُونَ:يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ،فَيَقُولُ:أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا "[٤٤١٥].

مما يضاعف حسرة المنافقين،ويزيد فى بلائهم،أن يطلع عليهم المؤمنون فى هذا الموكب العظيم،الذي يحفّه الجلال والإكرام،ويتغشّاه النعيم والرضوان،بعد أن انكشف للمنافقين سوء أمرهم،وعاقبة سعيهم،وما أخذهم الله به من نكال وبلاء..

[٤٤١٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٤١٥] - صحيح البخاري (٩/ ١٥١)(٧٥١٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٧٦)٩ - (٢٨٢٩)

وفى هذا الموكب الذي ينتظم المؤمنين،يرى الرائي لهم أن بعضهم أولياء بعض،تجمعهم الأخوّة،وتؤلف بينهم المودّة،يلتقون على الإيمان بالله،والولاء له،والاستجابة لرسوله،والأمر بالمعروف،والنهى عن المنكر..

«وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..»..فتلك هى سبيل المؤمنين،وذلك هو حبل الله الذي يعتصمون به،ويشدّون أيديهم عليه..«أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» لأنهم لجئوا إليه والتمسوا مرضاته،وأخلصوا القول والعمل له..«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» لا يضام من لجأ إليه،واعتصم به..

«حكيم» فى قضائه بين عباده،وحكمه فيهم،فيجزى المحسنين بإحسانهم،ويتجاوز عن سيئاتهم،ويأخذ المسيئين بما عملوا إن شاء،أو يتوب عليهم..

كل ذلك عن قدرة متمكنة،وعزة غالبة،وحكمة بالغة..سبحانه،عزّ فحكم،لا معقب لحكمه،ولا منازع لسلطانه..

هذا،وليس دخول حرف الاستقبال فى قوله تعالى:«سيرحمهم»..

بالذي يجعل وعد الله غير محقق فى الحال كما هو محقق فى الاستقبال،بل هو وعد منجز فى جميع الأحوال،والأزمان..فالمؤمن محفوف برحمة الله دائما،ولولا هذه الرحمة لما كان من المؤمنين،الذين دعاهم الله إلى الإيمان،وهداهم إليه،وأمسك بهم على طريقه.

وفى قوله تعالى:«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» ما يشير إلى ما فى المؤمنين من معانى الإنسانية،التي تعطى المؤمن وجودا مشخّصا،وذاتية مستقلة..ثم هو- مع هذا الوجود الذاتي المستقلّ- يحكمه عقل رشيد،ويوجهه قلب سليم،فيلتقى مع أصحاب العقول الرشيدة،ويتجاوب مع أولى القلوب السليمة،على جبهة الحق،وتحت راية الخير،فإذا هو قوة عاملة فى هذا الميدان،يعمل للحق مع العاملين،وينتصر للخير مع أهل الخير..يبادلهم ولاء بولاء،وحبّا بحبّ،وإخاء بإخاء! وليس كذلك المنافقون والمنافقات..«بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»..إنهم كتلة متضخّمة من الخبث..أشبه بالديدان التي تتخلّق من الرّمم،ليس بينها تجاوب فى المشاعر،أو تلاق فى التفكير،وإنما هى كائنات تسبح فوق هذه الرمم،وتغتذى منها! قوله تعالى:«وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّـهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» هو بيان لما أعدّ الله للمؤمنين والمؤمنات من جزاء حسن،ومقام كريم فى الآخرة..إنّ لهم عند الله جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ومساكن طيبة فى جنّات عدن..أي جنّات إقامة واستقرار..يقال عدن بالمكان،أي أقام واستقر..فهى جنات لا يتحول عنها ساكنوها إلى مكان آخر،حيث تطيب لساكنيها الإقامة،لما يجدون فيها من نعيم لا ينفد،ولا يملّ مهما طالت صحبته،وامتدّ الزمن فى الحياة معه.وقوله سبحانه:«وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ»..هو نعيم فوق هذا النعيم الذي يناله أصحاب الجنة..بما يفيض الله سبحانه وتعالى عليهم من رضوانه،وما يضفيه عليهم من رضاه..فكل نعيم- وإن عظم- هو قليل إلى رضوان الله،الذي يناله من رضى الله عنهم،ثم إن كل نعيم هو تبع لهذا الرضا،ونسمة من أنسامه الطيبة المباركة..ولهذا جاء قوله تعالى:«ورضوان من الله أكبر» مستأنفا،غير معطوف على ما قبله،حتى لكأنه إضراب عما سبقه،بمعنى «بل»..وعلى هذا يكون التقدير:«بل..ورضوان من الله أكبر»..وقوله تعالى:«ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الإشارة هنا إلى رضوان الله،الذي هو الفوز كل الفوز،والنعيم كل النعيم.[٤٤١٦]

٣٨. عدم الاغترار بالحياة الدنيا

قال تعالى:{ يا أَيُّها النّاسُ اتّقُوا ربّكُمْ واخْشوْا يوْمًا لا يجْزِي والِدٌ عنْ ولدِهِ ولا موْلُودٌ هُو جازٍ عنْ والِدِهِ شيْئًا إِنّ وعْد اللّهِ حقٌّ فلا تغُرّنّكُمُ الْحياةُ الدُّنْيا ولا يغُرّنّكُمْ باللّهِ الْغرُورُ (٣٣) } [لقمان/٣٣]

يُحذِّرُ اللهُ تعالى النّاس مِنْ أهوالِ يومِ القِيامةِ،ويأْمُرُهُمْ بتقْواهُ لِيُنقِذُوا أنفُسهُمْ مِنْ أهْوالِهِ،فهُو يومٌ لا يستطِيعُ فِيهِ أحدٌ نفْع أحدٍ،فلا الوالِدُ يستطيعُ أنْ يفْدِي ابنهُ،ولا المولُودُ

[٤٤١٦] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٨٤٢)

يستطيعُ أنْ يفْدي والدهُ،أوْ أنْ ينْفعهُ بشيءٍ،أوْ أنْ يحْمل منْ ذُنُوبه شيئاً،ولا ينْفعُ الإنسان في ذلك اليومِ إلا إيمانُهُ بربِّه،وإخلاصُهُ العبادة لهُ،وعملُهُ الصّالحُ.

ثُمّ يأمرُ اللهُ تعالى العباد بألاّ تُلْهيهُمُ الحياةُ الدُّنيا بزُخْرُفها،وزينتها،ومتاعهـا،عن العمـلِ النّافع ليوم القيامة،ويومُ القيامة هو وعدٌ حقٌّ من الله،واللهُ لا يُخْلفُ وعْدهُ أبـداً.كمـا يأْمُرُهُمْ بألاّ يغُرّهُمُ الشّيْطانُ فيحْملهُمْ على المعاصي بتزْيينها لهُمْ[4417].

وفي هذا الختام دعوة عامة للناس جميعا إلى الله،وإلى الإيمان به،والخشية له،واتقاء عذابـه يوم القيامة،حيث تجزى كل نفس بما كسبت،ولا يغني أحد عن أحد شيئا..

فهنالك تتقطع الأنساب،ويشغل كل امرئ بنفسه،«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيـهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.» (٣٤- ٣٧:عبس)..«يَوْمَ لا يَنْفَـعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٨٨- ٨٩:الشعراء).وقوله تعالى:«إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَقٌّ» وعد الله هنا هو يوم القيامة،حيث وعد الناس بالبعث من بعـد موتهم،ليلقـوا جزاء ما عملوا..وهذا وعد حق..«وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» (٦:الـروم).وقولـه تعالى:«فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» تحذير من الغفلة عـن هـذا اليوم،ومن عدم العمل له،والحذر مما يشغل الإنسـان عنـه،من متـاع الحيـاة الـدنيا وزخارفها،ومن المغريات التي تزين للإنسان الشر،وتدفعه عن مواقع الإحسان،بما يوسوس له به الشيطان،وما تزين له به النفس.[4418]

يا أيُّها النّاسُ إنّ وعْد الله بالبعْث والنُّشُور والحساب والجزاء..هُو وعْدٌ حقٌّ لا شكّ فيـه ولا مرْية،فلا تغُرّنّكُمُ الحياةُ الدُّنيا،ولا تُلْهينّكُمْ بزُخْرُفها وزينتها،عنْ طلب ما ينْفعُكُمْ يوْم حُلُول موْعد الحشْر،وبعْث الخلائق،ولا تدعُوا الشّيطان يغُرّكُمْ،ويفْتنْكُمْ،ويصرفْكُمْ عـن اتّباع رُسُل الله،وتصْديق كلماته،فإنهُ غرّارٌ كذّابٌ فلا تغُرّنّكُمْ - فـلا تخْـدعنّكُمْ ولا تُلْهينّكُمْ.[4419]

[4417] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٨٣، بترقيم الشاملة آليا)

[4418] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٥٩٣)

[4419] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٤٦، بترقيم الشاملة آليا)

وعد الله:هو ما وعد الله سبحانه فى آياته،وعلى لسان رسوله،من البعث والحساب..والجزاء،والجنة والنار.وهذا الوعد حق،وهو آت لا ريب فيه..
وقوله تعالى:«فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» تنبيه للغافلين عن هذا اليوم،المتناسين أو الناسين لهذا الوعد،المشغولين عنه بما بين أيديهم من متاع الدنيا وزخارفها..
وقوله تعالى:«وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» الغرور:هو الشيطان،وسمى غرورا،لأن يغر الناس،ويخدعهم،ويزين لهم الضلال،فيأتونه وكأنه الهدى..وكل ما يشغل الإنسان عن الله،وعن العمل الصالح،هو غرور،لأنه يغرر بالإنسان ويخدعه،..ومنه الغرر فى البيوع.وقد حرمه الإسلام لما فيه من مخاطرة وغبن.[4420]

٣٩. اتباع شرع الله:

قال تعالى:{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)} [الجاثية:١٨ - ٢٠]

لقدْ بعثك اللهُ يا مُحمّدُ،بعْد اختِلافِ أهلِ الكِتابِ،على منهاجٍ واضِحٍ مِنْ أمْرِ الدِّين شرعهُ لك،ولمنْ قبلك مِن الرُّسُلِ،فاتّبعْ ما أوْحى إِليك ربُّك،ولا تتّبعْ ما دعاك الُمشرِكُون الجاهِلُون إِليهِ مِن عِبادةِ آلهتِهِم،فهؤلاءِ لا يعلمُون طرِيق الحقِّ.
وهؤُلاءِ الجاهِلُون لا يدْفعُون عنْك شيئاً ممّا أرادهُ اللهُ بِك إِن اتّبعْت أهْواءهُمْ،وتركْت شرْع ربِّك.والكافِرون يتولّى بعْضُهُمْ بعْضاً فِي الدُّنيا،ويُظاهِرُ بعْضُهُمْ بعْضاً،أمّا فِي الآخِرةِ فلا يُغني أحدٌ عنْ أحدٍ شيئاً.أمّا الُمتّقُون المهتدُون فإِنّ الله وليُّهُم ينْصُرُهُم ويُخرِجُهُم مِن الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ.

[4420] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨٥٣)

إنّ هذا القُرآن هُدى ودلائلُ للنّاسِ فِيما يحتاجُون إليـــه في أمــرِ دِينهم،وهُـــو بيِّنـــاتٌ تُبصِّرُهُم،وتُعرِّفُهُم بواجباتهِمْ نحْو ربِّهمْ،وهُو هُدًى يهديهم إلى ما فيه خيرهُمُ وصـــلاحُ أمرِهم،وفيه الرّحمةُ لقوم يُوقنُون بأنّهُ مُنزّلٌ منْ عنْد الله ربِّ العالمين.[4421]

قوله تعالى:«ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»..

هو معطوف على قوله تعالى:«وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ»..أي ثم بعد أن آتينا بنى إسرائيل ما آتيناهم من بينات من دين الله وشريعته،جعلناك أيهـــا الـــنبي علـــى شـــريعة مـــن الأمر،فاتبعها..

وفى العطف بثم،إشارة إلى تراخى الزمن،بين ما أنزل الله سبحانه على بنى إسرائيل مـــن آيات ومعجزات،وبين بعثه الرسول،وما أنزل الله سبحانه وتعالى عليـــه مـــن آياتـــه وكلماته..

وفى قوله تعالى:«ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ» – إشارة إلى أن الرســـول- ﷺ- لم يؤت مجرد آيات،وبينات من الدين،وإنما أوتى الدّين كلّه،وأنه قد جعل القائم على شريعة هذا الدين،حيث يرد الواردون إليه،فيجدون الرّى من هذا المورد،ويحمل كل وارد مـــا استطاع حمله منه..

والشريعة:مورد الماء..وفى تشبيه الشريعة الإسلامية بمورد الماء،إشارة إلى أمور:

أولها:أن القرآن الكريم،الذي هو مصدر هذه الشريعة،هو شيء واحد،أشبه بالماء...طبيعة واحدة،لا يختلف بعض عن بعض من حيث هو ماء يرده الواردون للسقيا منه..وكذلك آيات الله وكلماته،كلها على سواء فى جلالها وإعجازها وما فيها للأرواح من حياة.

وثانيها:أن إعجاز القرآن،يبدو فى كل آية من آياته،كما يبدو فى القرآن كلـــه..كالمـــاء تكشف القطرة منه عن جوهره كله..

وثالثها:أن ما أوتيه الرسل من المعجزات،هو بينات من الدين الذي يدعون إليه،وليس بيّنة واحدة،إذ كانت كل معجزة تختلف عن أختها فى صورها،وفى آثارها فى الناس..وهذا ما

[4421] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

يشير إليه قوله تعالى عن الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملائه..:«وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها» (٤٨:الزخرف)..

أما ما أوتيه الرسول- ﷺ- فهو بيّنة واحدة،وآية واحدة،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»(١- ٣:البينة) كما يشير إليه الرسول- ﷺ- فى قوله:«ما من نبى من الأنبياء إلا أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر،وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إلىّ،فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

وفى قوله تعالى:«فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» - إشارة إلى أن هذه الشريعة،لا يتجه إليها،ولا يرد مواردها إلا من كانت معهم عقولهم التي ينظرون بها إلى هذه الشريعة،ثم يؤديهم هذا النظر إلى العلم الذي يكشف لهم الطريق إليها..أما من زهد فى عقله،وصحب هواه،فلن يتعرف إلى هذه الشريعة،ولن يرد مواردها.قوله تعالى:«إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ»..

الضمير فى «إِنَّهُمْ» يعود إلى المذكورين فى قوله تعالى فى الآية السابقة «وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»..وهم المشركون الذين استولى عليهم الجهل،واستبدّ بهم العمى،فانقادوا لأهوائهم،ولم يلتفتوا إلى هذا الهدى الذي يدعون إليه..

فهؤلاء الضالون،ينبغى على النبي أن يدعهم وما اختاروا لأنفسهم،بعد أن أنذرهم،ومدّ إليهم حبل النجاة،فأعرضوا عنه،وأن يستقيم هو على طريقه،وألا يشغل نفسه بهم..فإنه مسئول عن نفسه أولا،وأن هؤلاء الضالين لن يغنوا عن النبي شيئا،إذا هو شغل بهم،وقصّر- وحاشاه- فى حق ربه..وأنه إنما يتولى المؤمنين،الذين استجابوا لله وللرسول،ويعمل على ما يعينهم على البر والتقوى..أما الظالمون فإنما يتولى بعضهم بعضا..لا ولاية لهم من الله،ولا من رسوله،ولا من المؤمنين..أما المؤمنون فإن بعضهم أولياء بعض،والله ورسوله أولياء لهم،كما يقول سبحانه:«إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» (٥٥:المائدة)..

قوله تعالى:«هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»..الإشارة هنا إلى القرآن الكريم،وهو الشريعة التي جعل الله- سبحانه وتعالى- النبيّ قائما عليها..

فهذا القرآن هو «بَصائِرُ لِلنَّاسِ» – أي مراد ومسرح للعقول،حيث يقيم لها من النظر فيه،بصائر،تتهدى إلى الحق،وتتعرف إلى مواقع الهدى..

والبصائر:جمع بصيرة،والبصيرة،قوة من قوى الإدراك المستنير المشرق..يرى بها الإنسان من عالم الحق،ما يرى البصر من عالم الحسّ..

وفى تسمية القرآن بأنه «بَصائِرُ» إشارة إلى أنه هو ذاته عيون مبصرة،وأنه بقدر ما يفتح الله للناس منه،بقدر ما يكون لهم من نور تستبصر به عقولهم،وبقدر ما يحصلون من «هُدىً» وما ينالون من «رَحْمَةٌ».وقوله تعالى:«لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» – إشارة إلى أن هذا القرآن،وما فيه من بصائر للناس جميعا وهدى ورحمة لهم- لا يرد مورده،ولا يرتوى من هذا المورد إلا من جاء إليه بقلب سليم،مهيأ لاستقبال الخير وتقبله.[٤٤٢٢].

---

٤٠. تطبيق حدود الله تعالى:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) } [البقرة]

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ فَرَضَ (كَتَبَ) عَلَيْهِمُ العّدْلَ وَالمُسَاوَاة فِي القِصَاصِ،فَالحُرُّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ،إذا كَانَ القّتْلُ عَمْداً،وَالعَبْدُ يُقْتَلُ بالعَبْد،وَالأُنْثَى تُقْتَلُ بالأُنْثَى (وَقَدْ جَرَى العَمَلُ مِنْ لَدُن رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بِالمَرْأَة،وَالحُرِّ بالعَبْدِ إنْ لَمْ يَكُنِ القَاتِلُ سَيِّدَ العَبْد،فَإذا كَانَ سَيِّدَهُ عُزِّرَ بشدَّة)،وَأَمَرَهُمُ اللهُ بِأَلاَّ يَعْتَدُوا وَلا يَتَجَاوَزُوا،كَمَا اعْتَدَى اليَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ،وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللهِ،فَكَانَتْ قَبِيلَةُ بَنِي قُرَيْظَة ضَعْيفةً،وَقَبِيلَةَ بَنِي النَّضِيرِ

[٤٤٢٢] – التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٢٣٨)

قَوِيَّةً،فَكَانُوا إِذَا قَتلَ أَحَدٌ مِنْ بَني النَّضِير أَحَداً مَنْ بَني قُرَيْظَةَ لَمْ يَكُنْ يُقْتَلُ بِهِ بَلْ يُفَادَى،وَإِذَا قَتَلَ القُرَظِيُّ نَضِيرِيّاً كَانَ يُقْتَلُ بِهِ،وَإِذَا فَادَوْهُ كَانَ يُفَادَى بِمِثْلَيْ مَا يُفَادَى بِهِ النَّضِيْرِيُّ.

وَكَانَ حَيَّانِ مِنَ العَرَبِ قَدْ اقْتَتَلا فِي الجَاهِلِيَّة قُبَيْلَ الإِسْلامِ،فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى وَجِرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا العَبِيدَ والنِّسَاءَ،فَكَانَ أَحَدُ الحَيَّينِ لاَ يَرْضَى حَتَّى يَقْتُلَ بالعَبْدِ منهُ الحُرَّ مِنْ خُصُومِه،وَبِالمَرْأَة مِنْهُ الرَّجلَ.وَكَانَ هؤُلاءِ لاَ يَقْتُلونَ الرَّجُلَ الذي يَقْتُلُ المَرْأَةَ عَمْداً،وَلكِنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بالرَّجُلِ،وَالمَرْأَةَ بالمَرْأَة،فَأَنْزَلَ اللهُ:النَّفْسُ بالنَّفْسِ وَالعَيْنُ بالعَيْنِ مُبْطِلاً ذلكَ التَّعَامُلَ،فَإذا قَبِلَ وَلِيُّ الدَّمِ أَنْ يَأَخُذَ الدِّيَةَ،وَيُعْفُو عَنِ القَاتلِ،فَعَليه أَنْ يَتَّبِعَ ذلكَ بالمَعْرُوف،وَأَنْ يَطْلُبَ الدِّيَةَ برِفْقٍ،وَأَنْ لاَ يُرْهِقَ القَاتلَ مِنْ أَمْرِه عُسْراً.وَعَلَى القَاتلِ أَنْ يُؤَدِّيَ المَطْلُوبَ مِنْهُ بإحسَانٍ،وَأَنْ لا يَمْطُلَ وَلاَ يَنْقُصَ،وَلا يُسيء في كَيْفِيَّة الأَدَاء.

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى:أَنَّهُ شَرَعَ للنَّاسِ أَخْذَ الدِّيَة فِي حَالَة القَتْلِ العَمْد تَخْفيفاً مِنْهُ،وَرَحْمَةً بالمُسْلمينَ،إذْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الأُمَمِ السَّالفَة القَتْلُ أَو العَفْوُ.وَإذَا تَعَدَّدَ أَوْليَاءُ الدَّمِ وَعَفَا أَحَدُهُمْ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ،وَسَقَطَ القصَاصُ..وَيَجُوزُ العَفْوُ في الدِّيَة أَيْضاً.(وَقيلَ إنَّ بَني إسْرَائيلَ كَانَ مَفْرُوضاً عَلَيهِمُ القَتْلُ لاَ غَيْرَ،وَأَهْلَ الإِنْجيلِ أُمِرُوا بالعَفْوِ،وَلَيسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابِلَ العَفْوِ دِيَةً).

وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَعْتَدي بِالقَتْلِ عَلَى القَاتلِ - بَعْدَ العَفْوِ وَالرِّضَا بالدِّيَة - بالعَذَابِ الشَّديد مِنْ رَبِّه يَوْمَ القِيَامَة.

فِي القِصَاصِ رَاحَةُ البَالِ،وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِن اعتدَاءِ بَعْضِهمْ عَلَى بَعْضِهم الآخَرِ،لأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بالقَتْلِ،تَحْمِلُهُمْ عَلَى الارتِداعِ عَنِ القَتْلِ،فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ،وَحَيَاةُ مَنْ يُفَكِّرُ بالقَتْلِ.وَخصَّ اللهُ تَعَالَى بالنِّداءِ أَرْبَابَ العُقُولِ للدَّلاَلَة عَلَى أَنَّ الذينَ يَفْهَمُونَ قيمَةَ الحَيَاة،وَيُحَافِظُونَ عَلَيهَا هُمُ العُقَلاَءُ.وَإذا تَدَبَّرَ أُولُو الأَلبَاب الحِكْمَةَ مِنْ شَرْعِ القِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذلكَ عَلَى اتِّقَاءِ الاعتِدَاءِ،وَالكَفِّ عَنْ سَفْك الدِّمَاءِ.[٤٤٢٣].

[٤٤٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨٥، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) } [الزمر: ١١ - ١٨]

وقُلْ يا مُحمّدُ لِمُشْرِكي قوْمِك: إنّ الله أمرني بأنْ أعْبُدهُ وحْدهُ لا شريك لهُ، وأنْ أُخْلِص لهُ العبادة

وأمرني ربي بأنْ أكُون أوّل منْ أسْلم وانْقاد، وأخْلص العبادة والتّوحيد لله. وقُلْ لهُمْ: إنِّي أخافُ - وأنا رسُولُ الله - عذاب يوْمِ القيامة الكثير الأهْوال إنْ عصيْتُ ربِّي، وتركْتُ الإخْلاص لهُ وإفْرادهُ بالرّبُوبيّة. وقُلْ لهُمْ: إنّني أعْبُدُ الله وحْدهُ لا شريك لهُ، وأُخْلِصُ لهُ عبادتي. فاعْبُدُوا أنْتُمْ أيُّها المُشْركُون منْ دُونه ما شئْتُمْ منْ أصْنامٍ وأوْثانٍ، وستعْلمُون سُوء منْقلبكُمْ حينما تلْقوْن ربّكُمْ يوْم القيامة. وقُلْ لهُمْ يا مُحمّدُ: إنّ الخُسْران الذي لا خُسْران بعْدهُ، هُو خُسْرانُ النّفْسِ وإضاعتُها بالضّلال، وخُسرانُ الأهْلِ، وعدمُ الالْتقاء بهمْ يوْم القيامة، سواءٌ ذهب الخاسرُ إلى النّار وأهْلهُ إلى الجنّة، أوْ ذهبُوا جميعاً إلى النّار، وذلك الخُسْرانُ هُو الخُسْرانُ المُبينُ الظّاهرُ لفظاعته وهوْله. يصفُ اللهُ تعالى حال هؤُلاءِ الخاسرين وهُمْ في نارِ جهنّم، فيقُولُ: إنّهُمْ يكُونُون فيها، ومنْ فوْقهمْ طبقاتٌ مُتراكمةٌ منَ النّار بعْضُها فوْق بعْضٍ، وكأنّها الظُّللُ، ومنْ تحْتهمْ طبقاتٌ مثْلُها، فتغْمُرُهُمْ النّارُ منْ كُلِّ جانبٍ، واللهُ تعالى يقُصُّ على النّاسِ ما سيكُونُ عليْه حالُ الكُفّارِ يوْم القيامة ليُخوِّفهُمْ منْ أهْوالِ ذلك اليومِ، فيزْدجر العُقلاءُ عنِ الكُفْرِ والمعاصي، ويعْملُوا بطاعة الله، فيا عباد الله

اتّقُوا ربّكُمْ تعالى،وبالِغُوا فِي الخوْفِ والحذرِ،ولا ترْتكِبُوا ما يُسْخِطُ ربّكُمْ عليْكُمْ.والذين اجْتنبُوا عِبادة الأصْنامِ،واتِّباع الشّياطِينِ،وأقْبلُوا علــى عِبــادةِ ربِّهِــمْ مُعْرِضِــين عمّــا سِواهُ،يُبشِّرُهُمْ ربُّهُمْ على ألْسنةِ رُسُلِهِ بالثّوابِ العظِيمِ حِين الموْتِ،وحِين يلْقون ربّهُمْ يوْم الحِسابِ.الطّاغُوت – الشّيْطان ويُطْلقُ على الواحِدِ والجمْعِ وسُمِّيتْ عِبادةُ الأوْثانِ عِبادةً للشّيْطانِ.أوْ هُو الأوْثانُ والمعْبُوداتُ الباطِلةُ.وهؤُلاءِ الذين اجْتنبُوا الطّاغُوت،وأنــابُوا إلى ربِّهِمْ،وسمِعُوا القوْل فاتّبعُوا أحْسنهُ وأوْلاهُ بالقبُولِ..هؤُلاءِ يُبشِّرُهُمْ ربُّهُمْ بالنّعِيمِ المُقِيمِ فِي جنّاتِ النّعِيمِ،وأولئِك هُمُ الذِين وفّقهُمُ اللهُ تعالى لِلرّشادِ والصّوابِ،وأولئِك هُمْ أصْحابُ العُقُولِ والأفْهامِ السّلِيمةِ.[٤٤٢٤]

هو بيان لحال النبي فى هذه الدعوة التي حملها إلى الناس من ربه،وأنه مأمور من الله،بمــا يأمر الله به عباده جميعا..فهو والناس فى هذا الأمر السماوي على سواء،فلا استثناء لأحد فى هذا القانون،كما يقع ذلك فى القوانين الوضعية،التي ترفع السلطان عــن الخضــوع للقانون العام الذي تخضع له الرعية..بل وأكثر من هذا،فإن صاحب الدعوة– ﷺ– يتلقى هذه الدعوة من ربه فى صورة أمر وإلزام،على حين يتلقاها الناس مجرد دعــوة لا إلــزام فيها،ولا إكراه معها..«إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُــونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ».

وفى قوله تعالى:«وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» – إشارة إلى أن رســول الله– ﷺ– هو أول المسلمين:خضوعا لسلطان الله،وامتثالا لأمره،يسلم إليــه وجــوده،وتخلص لــه ولاءه..وأنه– ﷺ– القدوة للمسلمين فى طاعة ربه،وفى اتقاء حرماته،وأنه– وهو سلطان المؤمنين– أكثر المؤمنين عبادة لله،واجتهادا فى عبادته،واتقاء لحرماته،وخوفا من عقابه..إنه عبد من عباد الله.وأفضل عباد الله،وأكرمهم عنــده،وأقربهم إليــه،من كــان أعــرفهم به،وأكثرهم طاعة وولاء له..فمن أراد من المؤمنين أن يكون أقــرب إلى الله،فلــيكن فى طاعة لله،فإنه كلما ازداد طاعة ازداد قربا..

[٤٤٢٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

قوله تعالى:«قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» وشأن عباد الله فى طاعته،شأنهم فى معصيته..فكما أنه من ازداد طاعة لله،ازداد قربا منه،كذلك من أقام أمره مع الله على معصيته،والخروج عن أمره،والاجتراء على محارمه- كلما ازداد معصية لله،ازداد بعدا عنه،وتعرضا لسخطه وعذابه..حتى الأنبياء،وحتى سيد الأنبياء،رسول الله- ﷺ- إنه لو عصى الله- وحاشاه- فهو محاسب بهذا الحساب..

وهكذا شريعة الله..وهكذا عدل الله:«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (٣١:النجم) قوله تعالى:«قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي..فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» هذا هو حال النبي- ﷺ- مع ربه..إنه على العبادة الخالصة لله،لا يلتفت إلى غيره.ولا يدين لسواه.أما أنتم أيها المشركون فلكم ما تشاءون من معبودات تعبدونها من دون الله..«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (٦:الكافرون) فكلّ محاسب بما يدين به،وكل مجزىّ بما يعمل:«لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (٢٥:سبأ) قوله تعالى:«قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ..أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ» إن العبرة فى الربح أو الخسارة،هى فى الحساب الختامى،الذي يسوّى فيه حساب الإنسان..أما هذا الحساب اليومي فى هذه الدنيا،فإنه لا يكشف عن المركز الصحيح للإنسان..

هكذا يعرف الناس شئونهم فى هذه الدنيا.إنهم يقيمون موازين حياتهم لا على لحظه عابرة،ولا على يوم يعيشون فيه،وإنما ينظرون إلى الغد،وما بعد الغد..وحياتهم الدنيوية،هذه- لو عقلوا- لحظة من لحظات حياتهم الممتدة إلى ما وراء هذه الحياة،وأنها ليست إلا يوما،أو بعض يوم..وإنه لضلال مبين أن يقيم المرء حسابه كله على ميزان يوم أو بعض يوم،حتى إذا طلع عليه صح يوم جديد،ولم يكن قد عمل له حسابا،وجد نفسه ولا شيء معه.وهنا يكون الندم،ويكون الخسران..

والخاسرون حقا،هم أولئك الذين أقاموا ميزانهم على هذه الحياة الدنيا،ولم يجعلوا للآخرة حسابا..إنهم يجيئون إلى الحياة الآخرة،وقد صفرت أيديهم من كل خير يجدونه فى هذا اليوم،بل سيجدون ديونا كثيرة هم مطالبون بها،ولا يقدرون على أداء شيء منها،إلا

الحبس فى جهنم،وفاء لهذه الديون! والسؤال هنا:إذا خسر المجرمون أنفسهم،وأوردوها موارد الهلاك يوم القيامة،فكيف تكون خسارتهم لأهليهم فى هذا اليوم؟

والجواب- والله أعلم- من وجهين:

الوجه الأول:أن أهل الضلال لا يلتقى بعضهم ببعض يوم القيامة إلا على عداوة وخصام،وإلا على قطيعة ونفور..كما يقول الله تعالى:«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ».(٢٥:العنكبوت).

فأهل الضلال بعضهم فتنة لبعض،ومن هنا يقع بينهم يوم القيامة هذا الخصام،وتلك العداوة،ومن هنا يلتفت الضالّ،فلا يجد حوله فى جهنم إلا وجوها كالحة تلعنه،وترمى إليه بالعداوة،ممن كانوا هم أقرب الناس إليه فى الدنيا من أهل وصديق.

والوجه الثاني:أن خسارة الضال لأهله يوم القيامة،هو تفرقهم عنه،فلا يلتقى بهم إذا كانوا فى الجنة،أما إذا كانوا فى جهنم فإن لقاءه بهم حسرة وبكاء وعويل..على خلاف لقاء المؤمنين،حيث يجمعهم الله بأهليهم،وبإخوانهم من أهل الجنة،فيتضاعف لذلك سرورهم،نعيمهم،كما يقول سبحانه:«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» (٢١:الطور) وكما يقول سبحانه عن أهل الإيمان:«ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ» (٧٠:الزخرف).

قوله تعالى:«لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ..ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ..يا عِبادِ فَاتَّقُونِ» هذا هو الذي يلقاه أهل الضلال فى الآخرة تغشاهم النار،وتشتمل عليهم،من فوقهم،ومن تحت أرجلهم..كما يقول سبحانه:«لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ» (٤١ الأعراف) والظلل جمع ظلة،وهى ما يستظل به وفى التعبير عن النار بالظلل،مع أن الظلل يتقى بها وهج الشمس- إشارة إلى أن النار المسلطة على أهل النّار لا تتّقى هناك إلا بنار من النار..

إذا استصرخ أهلها،كان الصريخ لهم بعضا منها،وقطعا من شواظها..

وفى هذا بلاء إلى بلاء،وعذاب إلى عذاب..حيث تتضاعف البلوى بهذا الطارق الجديد،الذي كان موضع أمل ورجاء..وفى هذا يقول المتنبئ:

والظلل التي من تحت أهل النار هى نار،يمشون على شواظها،فلا ينتقلون إلا من نار إلى نار،فحيثما وضعوا أرجلهم كانت النار تحتها،فلا ظلّ يمشون عليه إلا هذه النار الجاحمة التي يضعون أقدامهم عليها.وقوله تعالى:«ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ»..أي هذا العوض لأهوال جهنّم- أعاذنا الله منها- وما يلقى فيها أهلها من هذا العذاب الأليم- هو تحذير من الله لعباده،وتخويف لهم من هذا المورد الوبيل،وهم فى هذه الدنيا،ليأخذوا لذلك حذرهم،وليعملوا على توقّيه،بالإيمان بالله واتقاء محارمه،ولهذا جاء قوله تعالى:«يا عِبادِ فَاتَّقُونِ» تعقيبا على هذا التحذير،وإلفاتا إلى طريق السلامة والنجاة من هذا البلاء الراصد،وذلك بتقوى الله.فالتقوى هى مركب النجاة من هذا الطوفان الجهنّمى،الذي يحتوى بأمواجه المتلاطمة كلّ من لم يكن فى هذا المركب! وفى قوله تعالى:«يا عِبادِ» نداء من رب كريم إلى عباده،ليأخذوا طريقهم إليه سبحانه وتعالى،حيث الأمن والسلامة والنعيم والرضوان.والفاء فى قوله تعالى:«فَاتَّقُونِ» هى فاء الفصيح،والتفريع،وهى تفصح عن كلام محذوف..أي قد بينت لكم ما ينتظر الذين لا يؤمنون بي،ولا يتقون محارمى،من بلاء شديد وعذاب أليم،فاتقون،أنتم حتى لا تقعوا تحت طائلة نقمتى وعذابى..

قوله تعالى «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ..لَهُمُ الْبُشْرى..فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» هو تعقيب أيضا على هذا العرض الذي عرضت فيه جهنم وأهلها،وما يلقون فيها..وفى هذا التعقيب بيان شارح للطريق الذي يعدل بالناس عن الطريق الجهنمى،إلى طريق النجاة والفوز بجنات النعيم..فمن اجتنب الشرك بالله،وأخلى يديه،وقلبه،من هذه المعبودات المخلوقة لله،أو المصنوعة بأيدى الناس- من اجتنب هذه المعبودات ابتداء،أو تاب إلى الله من بعد شركه،وأخلص لله عبادته،فله البشرى بالنجاة والفوز برضوان الله..

وقوله تعالى:«فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» أي أن هذه البشرى بالنجاة والفلاح إنما ينالها عباد الله الذين يستضيئون بنور الله ويتدبرون ما يقع لأسماعهم من كلمات،فيميزون الخبيث من الطيب،والضلال من الهدى،ثم يؤدّيهم هذا إلى أن

يستجيبوا لكل ما هو طيب،وأن يتبعوا كل ما هو هدى ورشاد..فإنهم إن فعلوا ذلك كانوا من عباد الله المهتدين،الذين إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه،وأخذوا طريقهم المستقيم،السالك بهم إلى جنات النعيم..ثم كانوا مع هذا- أو قبل هذا- أصحاب عقول،يعيشون بها فى صورة بشرية كريمة..

والطاغوت:هو كل ضلال..وأصله من الطغيان،الذي يعدل بصاحبه عن طريق الحق والخير،إلى متاهات الضلال والهلاك..

وفى التعبير عن الضلال بكلمة «الطاغوت» - تشنيع على الضلال،وعرض له فى تلك الصورة،التي تتمثل فى هذه الأحرف المتنافرة،التي تشكلت منها هذه الكلمة،كما يتشكل الضلال من وجوه الآثام والشرور..وقوله تعالى:«أَنْ يَعْبُدُوها» مصدر مؤوّل،وقع بدلا من الطاغوت فى قوله تعالى:«وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ»..أي اجتنبوا عبادة الطاغوت..وفى تأنيث الطاغوت،إثارة لمشاعر البغضاء والكراهية،التي عند الجاهليين للأنثى،ليلتقوا بهذه المشاعر مع معبوداتهم،ولينظروا إليها فى صورة أنثى يعبدونها،ويخرون للأذقان سجّدا بين يديها..وهكذا من المتناقضات التي تعيش فى عقولهم الفاسدة،إذ كيف يستقيم لذى عقل أن يحقر الأنثى،ويكره وجهها فى صورة ابنة هى فلذة من كبده،ثم إذا هو عبد ذليل بين يدى أنثى سوّها بيده من،حجر،أو خشب؟.[٤٤٢٥]

وقال تعالى:{إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ (٣) } سورة الزمر

إنّ الله تعالى هُو الذي أنْزل إليْك القُرْآن (الكتاب) آمراً بــالحقِّ والعــدْلِ الواجــب اتِّباعُهُما،والعملُ بهِما،فاعْبُدْهُ يا مُحمّدُ مُخْلصاً لهُ الدِّين والعبادة،وادْعُ الخلْق إلى ذلك.

ألا لله وحْدهُ العبادةُ والطّاعةُ،ولا شركة لأحد معهُ فيهما،لأنّ كُلّ ما دُونهُ هُو مُلْكٌ لهُ،وعلى الممْلُوكِ طاعةُ مالِكه،وعلى العبْدِ أنْ يُخْلِص العبادة لله،والذين يعْبُدُون الأصْنام

[٤٤٢٥] - التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١١٣١)

منَ المُشركِين يقُولُون إنّ الذي يحْملُهُمْ على عبادتها هُو أنّهُمْ مثّلُوا بهذه الأصْنامِ الملائكة،فعبدُوا تلْك الصُّور تُنْزيلاً لها منْزلة الملائكة،ليشْفعُوا لهُمْ عنْد الله في حاجاتهِمْ.وكان المُشْركُون يُبرِّرُون عبادتهُمْ لمنْ هُمْ دُون الله بأنّ الإله الأعْظم أجلُّ منْ أنْ يعْبُدهُ البشرُ مُباشرةً،فهُمْ يعْبُدُون هذه الآلهة،وهي تعْبُدُ الإله الأعْظم.واللهُ تعالى يحْكُمُ يوْم القيامة بيْنهُمْ وبيْن خُصُومهِمْ،مُتّبعي الحقِّ وسُبُلِ الهُدى،فيما اخْتلفُوا فيه من التّوْحيد والشِّرْك،ويُجازي كُلّ واحد بعمله.واللهُ تعالى لا يُرْشدُ إلى الحقِّ منْ هُو كاذبٌ مُفْترٍ عليْه،فيزْعُمُ أنّ لهُ ولداً أوْ صاحبةً.تعالى اللهُ عنْ ذلك عُلُوّاً كبيراً.[4426]

وقال تعالى:{قُلْ إنّما أنا بشرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحى إليّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فمن كان يرْجُو لقاء ربِّه فلْيعْملْ عملًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بعبادة ربِّه أحدًا} (١١٠) سورة الكهف

وقُلْ يا مُحمّدُ لهؤُلاء المُشْركين المُكذِّبين برسالتك:إنّما أنا بشرٌ مثْلُكُمْ،فمنْ زعم أنِّي كاذبٌ فلْيأْت بمثْلِ ما جئْتُ به،فإنِّي لا أعْلمُ الغيْب فيما أُخْبرُكُمْ به،من الماضي،عمّا سألْتُمْ منْ قصصِ أهْلِ الكهْف،وخبرِ ذي القرْنيْن،ممّا هُو مُطابقٌ للْحقيقة وواقعُ الحال،ولوْ لمْ يُطْلعْني عليْه اللهُ ربِّي لما علمْتُهُ.وأنا أُخبرُكُمْ أنّ إلهكُمُ الّذي أدْعُوكُمْ إلى عبادته هُو إلهٌ واحدٌ لا شريك لهُ.فمنْ كان يرْجُو ثواب الله (لقاء ربِّه)،وجزاءهُ الحسن في الآخرة،فلْيعْملْ عملاً صالحاً خيِّراً مُوافقاً للْشّرْعِ،ولا يُردْ به وجْه الله تعالى.(ومُوافقةُ العملِ للْشرْعِ،وابْتغاءِ وجْه الله به هُما الرُّكْنان الأساسيّان للْعملِ الصّالحِ الّذي يتقبّلُهُ اللهُ)[4427]

---

٤٢. تحكيم الله والرسول في كل شئون حياتنا

قال تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب:٣٦]

[4426] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٩٣٩، بترقيم الشاملة آليا)

[4427] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

لَيْس لِمُؤمن ولا لِمُؤْمنة إذا قضى اللهُ ورسُولُهُ قضاءً،أنْ يتخيّروا مِنْ أمْرِهِمْ غير ما قضـاهُ اللهُ ورسُولُهُ لَهُمْ،ولا أنْ يُخالِفُوا أمْر اللهِ وأمر رسُولِه وقضاءهُما.ومن يعْصِ الله ورسُـولهُ فِيما أمرا بِهِ،ونهيا عنْهُ،فقدْ جار عنِ السّبِيلِ القوِيمِ،وسلك غيْر طرِيقِ الهُدى والرّشادِ.[٤٤٢٨]

مناسبة هذه الآية لما قبلها،هى أن الآية السابقة ذكرت الأوصاف التي تجمـع صـفات المؤمن الكامل الإيمان..ومن شأن الإيمان الصحيح أن يقيم في كيان صاحبه ولاء خالصـا لله،الذي آمن به،ولرسوله،الذي بلّغه رسالة ربّه،وشريعة دينه..وإنه لا إيمان مطلقا،إذا لم يكن هذا الولاء ركيزة له،وأساسا يقوم عليه..فهذه الآيـة إذن تعقيـب علـى تلـك الأوصاف العشرة السابقة،وإشارة إلى أن تلك الصفات،لا محصّل لها- مفردة ومجتمعـة- إلا إذا قامت في ظلّ الولاء لله ورسوله،والتسليم المطلق لأمر الله ورسوله.

فإذا قضى الله ورسوله أمرا، لم يكن لمؤمن أن ينازع في هذا الأمر،أو يتوقف في إمضائه،أو يبدّل في صفته..وإلّا فهو ليس من الإيمان في شيء..إنه حينئذ يكون عاصيا لله ولرسـول الله،خارجا عن سلطانهما..«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً».

أما مناسبة الآية الكريمة لما بعدها فهو ترشيح لما ستقرره الآيات بعدها من مقررات،وبمـا تقضى به من أحكام لله ولرسول الله،وأن على المؤمنين تلقى هـذه المقـررات وتلـك الأحكام بما ينبغى لها،من طاعة وولاء مطلقين،من غير تعقيب أو تردّد..

فالآية في موضعها هنا،تعمل- مقدّما- على إخلاء شعور المؤمن من أية لفتة إلى غير مـا يقضى به الله ورسوله من أمر..وبهذا يستقبل المؤمن- فى ولاء وامتثال- ما تحمـل إليـه الآيات التالية من أمر الله ورسوله..كما سنرى..[٤٤٢٩]

أي:لا ينبغي ولا يليق،ممن اتصف بالإيمان،إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله،والهرب من سخط الله ورسوله،وامتثال أمرهما،واجتناب نهيهما،فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} من الأمور،وحتَّما به وألزما به {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ} أي:الخيار،هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة،أن الرسول أولى به من نفسـه،فلا

[٤٤٢٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٥٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٤٢٩] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٧١٤)

يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله.{وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا} أي:بَيِّنًا،لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله،إلى غيرها،من الطرق الموصلة للعذاب الأليم،فذكر أولا السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله،وهو الإيمان،ثم ذكر المانع من ذلك،وهو التخويف بالضلال،الدال على العقوبة والنكال.[4430]

٤٣. ردّ المتنازع فيه لله وللرسول

قال تعالى:{ يا أَيُّها الّذين آمنُواْ أطِيعُواْ اللّه وأطِيعُواْ الرّسُول وأُوْلِي الأمْرِ مِنكُمْ فإِن تنازعْتُمْ فِي شيْءٍ فرُدُّوهُ إِلى اللّهِ والرّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُون بِاللّهِ والْيوْمِ الآخِرِ ذلِك خيْرٌ وأحْسنُ تأْوِيلاً} (٥٩) سورة النساء

فِي هذِهِ الآيةِ يأمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بإطاعته تعالى،وبالعمل بكتابه،وبإطاعة رسُوله،لأنّهُ يُبيِّنُ لِلنّاسِ ما نزل إِليْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ،ويُبلِّغُ عنِ اللهِ شرْع وأوامِرهُ،كما يأْمُرُ اللهُ بإطاعةِ أُوْلِي الأمْرِ،مِنْ حُكّامٍ وأُمراءِ ورُؤساءِ جُنْدٍ،مِمّنْ يرْجِعُ النّاسُ إِليْهِمْ فِي الحاجات،والمصالِحِ العامّةِ،فهؤُلاءِ إذا اتّفقُوا على أمْرٍ وجب أنْ يُطاعُوا فيه،بشرْطِ أنْ يكُونُوا أُمناء،وأنْ لا يُخالِفُوا أمْر اللهِ،ولا سُنّة نبِّيهِ التي عُرِفتْ بِالتّواتُرِ،وأنْ يكُونُوا مُخْتارِين فِي بحْثِهِمْ فِي الأمْرِ،واتِّفاقِهِمْ عليْهِ غيْر مُكْرهِين عليه بقُوّةِ أحد أوْ نُفُوذِه

وكُلُّ ما اخْتلف فِيهِ المُسْلِمُون فمِن الواجِبِ ردُّهُ إلى كتابِ اللهِ،وسُنّةِ رسُولِهِ،ومنْ لمْ يفْعلْ ذلِك،ويحْتكِمْ إلى كِتابِ اللهِ وسُنّةِ نبِيِّهِ،فليْس مُؤْمِناً باللهِ ولا باليوْمِ الآخِرِ.

ومنْ يحْتكِم إلى شرْعِ اللهِ،وسُنّةِ رسُولِهِ،فذلِك خيْرٌ لهُ وأحْسنُ عاقِبةً ومآلاً (تأْوِيلاً)،لأنّ الله تعالى لمْ يُشرِّعْ لِلنّاسِ إلاّ ما فِيهِ مصْلحتُهُمْ ومنْفعتُهُمْ،والاحْتِكامِ إلى الشّرْعِ يمْنعُ الاخْتِلاف المُؤدِّي إلى التّنازُعِ والضّلالِ.[4431]

[4430] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٦٥)

[4431] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

وقوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» هو استنجاز آخر لأداء بعض ما يتعلق بالأمانة الكبرى التي حملها الإنسان،وهو طاعة الله والرسول،وأولى الأمر..

فالانقياد لله هو المظهر العمليّ الواضح لأداء هذه الأمانة،وغير هذا الانقياد هو التضييع للأمانة،والعدوان عليها..

والانقياد لله يتبعه الانقياد لرسول الله..إذ كان هو السفير بين الله وبين عباده،وهو الحامل لكلمة الله إليهم،والمؤذّن بها فيهم..فلا انقياد لله لمن لا ينقاد لرسول الله..

وأولو الأمر..هم من يلون أمر الإنسان،ويقومون على رعاية مصالحه،من آباء،وقادة،وحكام..وغيرهم،ممن لهم على الإنسان سلطان أدبى أو مادىّ.

والانقياد لأولى الأمر ليس انقيادا مطلقا،بل هو انقياد محكوم بحدود العدل،والخير،والإحسان..

ولهذا كانت طاعة الوالدين- وهما فى المقام الأول من أولى الأمر- قائمة على سنن المعروف،فإن دعوا إلى منكر،فلا طاعة لهما،وفى هذا يقول الله تعالى:«وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» (١٥:لقمان).

فالولاية إذا لم تكن ولاية راشدة حكيمة،مستقيمة مع العدل والإحسان كان لمن تحت ولايتها أن يراجعوها،وأن ينصحوا لها،وأن يعملوا على تبصرها بالطريق القويم،الذي فيه خير الجماعة كلها..

فإن كان خلاف بين أولى الأمر،وبين من فى ولايتهم،ولم يلتقوا عنده على كلمة سواء..كان الحكم بينهم فى هذا،كتاب الله وسنّة رسول الله،فذلك هو الميزان العدل،الذي توزن به الأمور،وما يقضى به هنا كان هو الحق والخير،وكان التزامه أمرا واجبا..من أباه،وخرج عليه،كان متعدّيا حدود الله،آثما ظالما..تجرى عليه أحكام الآثمين الظالمين..

وفى قوله تعالى:«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ما يشير إلى احتمالات النزاع المتوقعة بين أولى الأمر ومن فى ولايتهم،وأن ذلك أمر غير مستبعد،بين الناس والناس.

فإذا وقع نزاع فى أمر ما،كان ردّه إلى حكم الله ورسوله أمرا واجبا على المؤمنين،وكان الله سبحانه وتعالى هو وليّهم جميعا،وكانت شريعته لهم،هى الدستور الواجب اتباعه،والاحتكام إليه فيما يقع بينهم من خلاف..

فمن كان مؤمنا بالله واليوم الآخر،استقام على شرع الله،ووقف عند حدوده،وخضع لحكمه.

وفى قوله تعالى:«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» إشارة إلى أن الرجوع عند الخلاف إلى ما قضى به كتاب الله وسنة رسوله،هو الطريق المأمون،الذي يسلم المختلفين إلى يد الوفاق والسلام،حيث كان احتكامهم إلى أحكم الحاكمين،الذي يحكم بين عباده بالحق،فلا ميل مع هوى،ولا محاباة لكبير أو عظيم،لأن الخلق خلقه،والناس عبيده،لا تفاضل بينهم عنده إلا بالتقوى![٤٤٣٢]

٤٤. الاستجابة لله وللرسول

قال تعالى:{ يا أيُّها الّذين آمنُواْ استجيبُواْ للّه وللرّسُول إذا دعاكُم لما يُحْييكُمْ واعْلمُواْ أنّ اللّه يحُولُ بيْن الْمرْءِ وقلْبه وأنّهُ إليْه تُحْشرُون (٢٤) واتّقُوا فتْنةً لا تُصيبنّ الّذين ظلمُوا منْكُمْ خاصّةً واعْلمُوا أنّ اللّه شديدُ الْعقاب (٢٥) } سورة الأنفال.

يأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بالاسْتجابة إلى دعْوته تعالى،وإلى دعْوة رسُوله ﷺ التي أمرهُ اللهُ بإبْلاغها إليْهمْ،لأنّها تُزكّي نُفُوسهُمْ وتُطهّرُها،وتُحْييها بالإيمان،وترْفعُها إلى مراتب الكمال فتحْظى برضا الله،ثُمّ يُعْلمُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بأنّهُ قائمٌ على قُلُوب العباد يُوجّهُها كيْف يشاءُ،فيحُولُ بيْن المرْءِ وبيْن قلْبه،فيُميتُ الإحْساس والوجْدان والإدْراك فيه،فتُشلُّ

[٤٤٣٢] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٢١)

الإرادة،ويفْقدُ الإنْسان سيْطرتهُ على أعْماله،ويتْبعُ هواهُ،فلا تعُودُ تنْفــعُ فِيــه المــواعِظُ والعِبرُ.واللهُ تعالى هُو وحْدهُ القادِرُ على أنْ يُنْقِذهُمْ مِمّا تردّوْا فِيه،إِذا اتّجهُوا إلى الطّرِيقِ المُسْتقِيمِ.

ثُمّ يحْشُرُ اللهُ العِباد إِليْهِ يوْم القِيامةِ لِيُحاسِبهُمْ علــى أعْمــالِهِمْ،ويجْزِيهِمْ عليْهــا بِمــا يسْتحِقُّون.

يُحذِّرُ اللهُ تعالى المُؤْمِنِين مِنْ وُقُوعِ البلاءِ والفِتنِ بيْنهُمْ إِذا لمْ يقُومُوا بِواجِبِهِمْ نحْو دِينِهِم وجماعتِهِمْ فِي الجِهادِ،والأمْرِ بِالمعْرُوفِ والنّهْيِ عنِ المُنْكرِ،وفِي الضّــرْبِ علــى أيْــدِي المُفْسِدِين،وفِي النُّصْحِ للهِ ولِرسُولِهِ ولِلْمُسْلِمِين،وفِي إِطاعةِ أُوْلِي الأمْرِ.ويُنبِّهُهُمْ تعالى إِلى أنّ العِقاب الذِي يُنْزِلُهُ اللهُ بِالأُممِ المُقصِّرةِ بِالقِيامِ بِواجِباتِها لا يُصِيبُ السّيِّيء وحْدهُ،وإِنّما يعُمُّ بِهِ المُسِيء وغيْرهُ،ويُعْلِمُهُمْ أنّهُ شدِيدُ العِقابِ لِلأُممِ التِي تُخــالِفُ سُــننهُ وهُــدى دِينِهِ،وتُقصِّرُ فِي درْءِ الفِتنِ،وفِي التّعاوُنِ على دفْعِها،والقضاءِ عليْها [٤٤٣٣].

[٤٤٣٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٨٥، بترقيم الشاملة آليا)

٤٥. الإخلاص:

عَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه،مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّه؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا،وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً،فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ،قَالَ:وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا،فَقَالَ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤٤٣٤]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا شَيْءَ لَهُ» فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا شَيْءَ لَهُ»،ثُمَّ قَالَ:«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[٤٤٣٥]

وقال بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ،" عِبَادَ الرَّحْمَنِ،إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْفَرِيضَةَ الْوَاحِدَةَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ أَضَاعَ مَا سِوَاهَا،فَمَا زَالَ يُمَنِّيهِ الشَّيْطَانُ فِيهَا وَيُزَيِّنُ لَهُ حَتَّى مَا يَرَى شَيْئًا دُونَ الْجَنَّةِ،فَقَبْلَ أَنْ تَعْمَلُوا فَانْظُرُوا مَاذَا تُرِيدُونَ بِهَا،فَإِنْ كَانَتْ خَالِصَةً لِلَّهِ فَأَمْضُوهَا،وَإِنْ كَانَتْ لِغَيْرِ اللهِ فَلَا تَشُقُّوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ،فَلَا شَيْءَ لَكُمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا،فَإِنَّهُ قَالَ:{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:١٠] "[٤٤٣٦]

وقال تعالى:{ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة:٥]

وقدْ تفرّق هؤلاء واختْلفوا بغْياً وعدْواناً،ولمْ يؤْمروا بالتّفرق والاختْلاف،وإنّما أمروا بما يصْلح دينهمْ ودنْياهمْ،وبما يحقّق لهم السّعادة في معاشهمْ ومعادهمْ:منْ إخْلاصٍ للّه في

[٤٤٣٤] - صحيح البخاري (١/ ٣٦)(١٢٣)

[ش (غضبا) انتقاما حالة الغضب.(حمية) محاماة عن العشيرة.(كلمة الله) كلمة التوحيد ودعوة الإسلام.(العليا) العالية فوق كل ملة ومذهب]

[٤٤٣٥] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٨٦)(٤٣٣٣) صحيح

[٤٤٣٦] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٢٣٢) وتهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٨٠٠)(١١٢٩) وشعب الإيمان (٩/ ١٧٩)(٦٤٥٢) صحيح مقطوع

السّرّ والعلن،وتطْهير أعْمالهمْ من الشّرْك به،واتّباع ملّة إبْراهيم الحنيفيّة السّمْحاء المنْحرفة عن الشّرْك،وإقامة الصّلاة وأدائها حقّ الأداء،ودفْع زكاة أمْوالهمْ...وهذا هو الدّين الحقّ الذي جاء في الكتب القيّمة المسْتقيمة التي لا عوج فيها.[٤٤٣٧]

أي أن أهل الكتاب الذين دعوا إلى الإيمان بشريعة الإسلام،لم يدعوا إلى أمر لا يعرفونه،و لم يؤمروا بأمر لم تأمرهم به شريعتهم التي هم بها يؤمنون..

إنهم ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين،لا يعبدون إلها غيره «حنفاء» أي مائلين عن أي طريق غير طريق الله..وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

فهذا هو شرع الله،وتلك أحكام شريعته لكل المؤمنين بشرائع السماء..إنها جميعا تقوم على هذه الأصول الثابتة:وأولها الإيمان بالله وحده،إيمانا خالصا من كل شرك،مبرأ من كل ما لا يجعل لله سبحانه وتعالى التفرد بالخلق والأمر.ثم إقام الصلاة،التي هى مظهر الولاء لله،وآية الخضوع لجلاله وعظمته..

ثم إيتاء الزكاة،التي هى أثر من آثار الإيمان بالله،الذي من شأنه أن يقيم المؤمنين بالله على التوادّ والتراحم،والتعاطف فيما بينهم،كما يقيمهم الولاء لله،والخضوع لجلاله وعظمته،كيانا واحدا فى محراب الصلاة له..وإذا كان هذا هو ما تدعو إليه الشرائع السماوية جميعا،وإذا كان هذا ما تدعو إليه شريعة الإسلام- فإن الذي يفرق بين هذه الشرائع وبين شريعة الإسلام،هو جائر عن طريق الحق،معتد على حدود الله..إذ كانت شرائع الله كلها- سابقها ولا حقها- حرم الله وحدوده التي حدها لعباده:«وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..ولهذا كانت دعوة الإسلام قائمة على الإيمان بشرائع الله كلها،وبرسل الله كلهم:«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ.لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (١٣٦:البقرة) قوله تعالى:«وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»..أي الدين القيم،أي المستقيم،أو دين الملة أو الأمة المستقيمة على الحق القائمة بالقسط- فكل من خرج على هذا الدين فهو على غير دين الله،كما يقول سبحانه:«إِنَّ

[٤٤٣٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦٠١٢، بترقيم الشاملة آليا)

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» (١٥٩:الأنعام) ومن معاني «الدّين» هنا،دين الله،وهو الإسلام..والقيّمة:مذكّر القيّم،بمعنى المستقيم،كما يقول تعالى:«ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» (٣٦:التوبة).[٤٤٣٨]

وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق:عبادة الله وحده،وإخلاص الدين له،والميل عن الشرك وأهله،وإقامة الصلاة،وإيتاء الزكاة:«وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»..عقيدة خالصة في الضمير،وعبادة لله،تترجم عن هذه العقيدة،وإنفاق للمال في سبيل الله،وهو الزكاة..فمن حقق هذه القواعد،فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب،وكما هو في دين الله على الإطلاق.دين واحد.وعقيدة واحدة،تتوالى بها الرسالات،ويتوافى عليها الرسل..دين لا غموض فيه ولا تعقيد.وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف،وهي بهذه النصاعة،وبهذه البساطة،وبهذا التيسير.فأين هذا من تلك التصورات المعقدة،وذلك الجدل الكثير؟[٤٤٣٩]

---

٤٦. الاستعانة بالضعفاء:

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[٤٤٤٠]

(" هَلْ تُنْصَرُونَ ") أَيْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ (" وَتُرْزَقُونَ ") أَيِ الْأَمْوَالَ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِهَا (إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟ ") أَيْ:إِلَّا بِبَرَكَةِ وُجُودِ ضُعَفَائِكُمْ وَوُجُودِ فُقَرَائِكُمْ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْأَقْطَابِ وَالْأَوْتَادِ لِثَبَاتِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ،وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ النَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ،وَقَدَّرَ تَوْسِيعَ الرِّزْقِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ بِبَرَكَةِ الْفُقَرَاءِ،فَأَكْرِمُوهُمْ وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ،فَإِنَّهُمْ أَهْلُ سُلُوكِ الْمَحَبَّةِ عَلَى أَضْيَقِ الْمَحَجَّةِ،وَمُلُوكُ الْجَنَّةِ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَعَزَّةِ.قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:قَوْلُهُ إِنَّ

[٤٤٣٨] - التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٤٣)

[٤٤٣٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٩١٠)

[٤٤٤٠] - صحيح البخاري (٤/ ٣٦)(٢٨٩٦)

[ش (رأى) ظن.(فضلا) زيادة منزلة بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك.(بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم]

لَهُ فَضْلًا أَيْ شَجَاعَةً وَكَرَمًا وَسَخَاوَةً،فَأَجَابَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ تِلْكَ الشَّجَاعَةَ بِبَرَكَةِ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ،وَتِلْكَ السَّخَاوَةُ أَيْضًا بِبَرَكَتِهِمْ،وَأَبْرَزَهُ فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ لِيَدُلَّ عَلَى مَزِيدِ التَّعْزِيرِ وَالتَّوْبِيخِ[4441]

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:رَأَى سَعْدٌ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّمَا نُصِرَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِضُعَفَائِهِمْ وَبِدَعْوَتِهِمْ وَبِصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[4442]

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:رَأَى سَعْدٌ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضُعَفَائِهِمْ وبِصَلَاتِهِمْ ودَعْوَتِهِمْ وإِخْلَاصِهِمْ»[4443]

وفي المبسوط:" أَلَا تَرَى أَنَّ جَيْشًا آخَرَ لَوْ دَخَلُوا دَارَ الْحَرْبِ شَرَكُوهُمْ فِي تِلْكَ الْغَنِيمَةِ وَهَذَا عِنْدَنَا فَأَمَّا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – لَا شِرْكَةَ لِلْمَدَدِ إذَا لَحِقَ الْجَيْشَ بَعْدَ الْإِصَابَةِ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ الْأَخْذُ وَالْمِلْكُ يَثْبُتُ بِنَفْسِ الْأَخْذِ وَمَا قَبْلَ الْإِحْرَازِ بِدَارِ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ سَوَاءٌ وَعِنْدَنَا السَّبَبُ هُوَ الْقَهْرُ وَتَمَامُ الْقَهْرِ بِالْإِحْرَازِ فَإِذَا شَارَكَ الْمَدَدُ لِلْجَيْشِ فِي الْإِحْرَازِ الَّذِي بِهِ يَتِمُّ السَّبَبُ يُشَارِكُونَهُمْ فِي تَأَكُّدِ الْحَقِّ بِهِ كَمَا إذَا الْتَحَقُوا بِهِمْ فِي حَالَةِ الْقِتَالِ بَعْدَمَا أَخَذُوا بَعْضَ الْأَمْوَالِ وَهَذَا؛لِأَنَّ اجْتِمَاعَ الْمُحَارِبِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ لِلْمُحَارَبَةِ سَبَبُ الشِّرْكَةِ فِي الْمُصَابِ بِدَلِيلِ أَنَّ الرِّدْءَ يَسْتَوِي بِالْمُبَاشِرِ لِلْقِتَالِ وَقَدْ سَأَلَ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ:أَرَأَيْت الرَّجُلَ يَكُونُ حَامِيَةً لِقَوْمٍ وَآخَرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ السِّلَاحِ أَيَشْتَرِكَانِ فِي الْغَنِيمَةِ فَقَالَ – ﷺ –:«إنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفَائِكُمْ» ؛وَلِأَنَّ دُخُولَ دَارِ الْحَرْبِ سَبَبٌ لِقَهْرِ الْمُشْرِكِينَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إلَّا ذُلُّوا وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْوَاطِئَ مَوْطِئَ الْعَدُوِّ بِمَنْزِلَةِ النَّيْلِ فِي الثَّوَابِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا} [التوبة:١٢٠] الْآيَةُ فَكَذَلِكَ فِي الشِّرْكَةِ فِي الْمُصَابِ يَجْعَلُ الْوَاطِئَ مَوْطِئَ الْعَدُوِّ عَلَى قَصْدِ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ النَّيْلِ مِنْهُمْ لِمَا فِيهِ مِنْ الْكَبْتِ وَالْغَيْظِ لَهُمْ وَلَا يَدْخُلُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ سُوقِ الْعَسْكَرِ وَالْأَسِيرُ الْمُنْقَلِبُ

[4441] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٢٧٤)

[4442] – مسند سعد بن أبي وقاص (ص:١٠٥)(٥١) صحيح

[4443] – المسند للشاشي (١/ ١٣٢)(٧٠) صحيح

مِنْهُمْ وَالَّذِي أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ إذَا الْتَحَقَ بِالْجَيْشِ لِأَنَّ قَصْدَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ هُوَ الْحَرْبَ بَلْ قَصْدُ بَعْضِهِمْ التِّجَارَةُ وَقَصْدُ بَعْضِهِمْ التَّخَلُّصُ فَلَا يَسْتَحِقُّونَ الشَّرِكَةَ إلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا فَيَظْهَرُ حِينَئِذٍ بِفِعْلِهِمْ أَنَّ قَصْدَهُمْ هُوَ الْقِتَالُ."[4444]

---

٤٧. الدعاء قبل وأثناء وبعد المعركة :

عَنْ مُعَاذٍ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:" لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ،وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ،فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ عِبَادَ اللهِ "[4445]

وقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتنِي،اللَّهُمَّ ائْتِنِي مَا وَعَدْتنِي،اللَّهُمَّ إنَّك إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ فَلا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ أَبَدًا،فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُو حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}[4446].

وقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ،نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ،وَهُمْ ثَلاَثُ مِئَةٍ وَنَيِّفٌ،وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ،فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ،ثُمَّ قَالَ:اللَّهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي،اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ أَبَدًا،قَالَ:فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ،قَالَ:فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،ثُمَّ قَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ.[4447]

[4444] - المبسوط للسرخسي (١٠/ ٣٥)

[4445] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٣٧٠)(٢٢٠٤٤) حسن لغيره

[4446] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣)٥٨ - (١٧٦٣)ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٥/ ٢٩٧)(٣٠١٩٩)

[4447] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٣١٥)(٣٧٨٣٩) صحيح

وعَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ،قَالَ:كَانَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى الْعَرِيشِ،قَالَ:فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو،يَقُولُ:اللَّهُمَّ انْصُرْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ،فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ،فَوَاللهِ لَيُنْجِزَنَّ لَكَ الَّذِي وَعَدَكَ[٤٤٤٨].

وقَالَ:اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ،اللَّهُمَّ فَأَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ[٤٤٤٩]

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها،والخلوص واللجوء لله وحده،والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛لكي يترل نصره.ويبقى مشهد نبيه،وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله،يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه،يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات،وفي مثل هذه المواطن،حيث تناط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة.[٤٤٥٠]

لقد شفع الرسول ﷺ لهذه العصابة المؤمنة في هذه الساعة الحاسمة الدقيقة،بالكلمة الوجيزة التي تجلّت فيها الثقة والاضطراب والسكينة والافتقار جنبا لجنب،فكانت أدقّ تعريف بهذه الأمة وأدق تحديد لمركزها ومكانتها بين الأمم،وقيمتها وغنائها في هذا العالم،والثغر الذي ترابط عليه،وهو الدعوة إلى الله وإخلاص الدين والعبادة له.

وقد أثبت الانتصار الرائع المعجز الذي أبطل كلّ تجربة،صدق هذه الكلمة ودقّتها،وأنّها كانت تصويرا دقيقا لهذه الأمّة

ولّما أجاب الله دعاء الرسول ﷺ وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم- على تفاوت واضح بين العدد والعدد- وبقائهم،فكان بقاء المسلمين مشروطا بقيام حياة العبودية بهم والدعوة إلى التوحيد الخالص،فلو انقطعت الصلة بينهم وبين الدعوة إلى التوحيد الخالص،وعبادة الله تعالى ورواجها وازدهارها في العالم،لم يبق على الله لهم حقّ وذمة،وأصبحوا كسائر الأمم،خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون.فكانت الدعوة إلى

[٤٤٤٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٣١٩)(٣٧٨٤٣) صحيح

[٤٤٤٩] -الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٩/ ٣٨٥، بترقيم الشاملة آليا) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٣٥)

[٤٤٥٠] -السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص:٤٠٨) وانظر:التربية القيادية (٣/ ٣٦)

الله وحده وعبادته وتنفيذ أحكامه وشرائعه في العالم قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ودورها في العالم.[4451]

---

٤٨. الصلاح وعدم الفساد في الأرض:

قال تعالى:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:١٠٥]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَتْمِه وَقَضَائه لعبَاده الصَّالحينَ بالسَّعَادَة،في الدُّنْيَا والآخرَة،وَورَاثَة الأَرْضِ في الدُّنْيَا والآخرَة،فَقَالَ تَعَالَى:إِنَّهُ قَضَى في الكُتُبِ التي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُله (الزَّبُورِ) كَمَا قَضَى في اللَّوْحِ المَحْفُوظ وَهُوَ أُمُّ الكتَاب (الذِّكْر) أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها الصَّالحُونَ منْ عبَاده؛وَقَدْ جَعَلَ سُنَّةً وَمنْهَاجاً.(والصَّالحُونَ الذين عَنَاهُم اللهُ تَعَالَى هُمُ الَّذينَ جَمَعُوْا الإِيْمَانَ والعَمَلَ الصَّالحَ،فإذَا اجْتَمَعَ إِيْمَانُ القَلْب،وَنشاطُ العَمَلِ في أُمَّةٍ فَهِيَ الوَارِثَةُ للأَرْضِ.وَهَذَا وَعْدٌ منَ الله،وَلَنْ يُخْلفَ اللهُ وَعْدَهُ أبداً)[4452]..

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها،وتنميتها وتحويرها،واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها،واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة،والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه في هذه الأرض.منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح.وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج،وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته.في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود.ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان،ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة.فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

[4451] – السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص:٣٠٨)

[4452] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٤٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة.وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة.وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة.وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا..ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق.والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين،الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح.فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ.ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح.وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان،وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح،وإلى عمارة الأرض،والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم،وهو العمل الصالح،والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله،وتجري سنته:«أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ»..فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون..[٤٤٥٣]

---

٤٩. تمني الشهادة في سبيل الله :

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ»[٤٤٥٤]

[٤٤٥٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣١٠٦)

[٤٤٥٤] - صحيح البخاري (٤/ ١٧)(٢٧٩٧)

[ش (لا تطيب نفوسهم) يسيئهم.(أن يتخلفوا عني) لا يخرجوا معي ويقعدوا خلافي في المدينة لعدم توفر النفقة لديهم أو السلاح أو العتاد.(ما أحملهم عليه) من مركب وغيره.(سرية) قطعة من الجيش.(لوددت) أحببت ورغبت]

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ،وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ حَمُولَةً،وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ،وَيَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي،وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَقُتِلْتُ،ثُمَّ أُحْيِيتُ ثُمَّ قُتِلْتُ،ثُمَّ أُحْيِيتُ» [٤٤٥٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي،لَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَتَخَلَّفَ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،تَخْرُجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ مَا يَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي،وَوَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَحْيَا،فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَحْيَا فَأُقْتَلُ» [٤٤٥٦]

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ،قَالَ:هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا،وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُهُ الْمُسْلِمُ فِي سَبِيلِ اللهِ،ثُمَّ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهَا إِذَا طُعِنَتْ،تَفَجَّرُ دَمًا،اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ،وَالْعَرْفُ عَرْفُ الْمِسْكِ» وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ،لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي،وَلَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَقْعُدُوا بَعْدِي» [٤٤٥٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا،وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ،وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَخْرُجُونَ،وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ،أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي،وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ،ثُمَّ أَحْيَا فَأُقْتَلُ»،قَالَ:ذَلِكَ ثَلَاثًا" [٤٤٥٨]

وفي فتاوى السبكي:

[٤٤٥٥] - صحيح البخاري (٤/ ٥٣)(٢٩٧٥)

[٤٤٥٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٣٨)(٤٧٣٦) صحيح

[٤٤٥٧] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٧)١٠٦ - (١٨٧٦)

[ش (كهيئتها) الضمير في هيئتها يعود على الجراحة(العرف عرف المسك) العرف هو الريح أصل العرف الرائحة مطلقا وأكثر استعماله في الرائحة الطيبة]

[٤٤٥٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٣٩)(٤٧٣٧) صحيح

(سُؤَالٌ) مِنْ الشَّيْخِ الصَّالِحِ فَرَجٍ الْمُقِيمِ بِقَرْيَةِ السَّاهِلِيَّةِ مِنْ الْغَوْرِ أَرْسَلَهُ إلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ فِي سَنَةِ الطَّاعُونِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ يَشْتَمِلُ عَلَى أَسْئِلَةٍ:السُّؤَالُ فِي الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا حَقِيقَتُهَا.

(أَجَابَ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا نَصُّهُ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَابُ أَنَّهَا حَالَةٌ شَرِيفَةٌ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ عِنْدَ الْمَوْتِ لَهَا سَبَبٌ وَشَرْطٌ وَنَتِيجَةٌ عُرِفَتْ مِنْ نَصِّ الشَّارِعِ عَلَى مَحَالِّهَا وَآثَارِهَا وَاسْتُنْبِطَ مِنْ ذَلِكَ عِلَلَهَا الْمُوجِبَةِ لِضَبْطِهَا وَأَسْبَابِهَا وَشُرُوطِهَا،وَبَيَانُ ذَلِكَ بِصُوَرٍ:

(الصُّورَةُ الْأُولَى) وَهِيَ أَعْلَاهَا الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٧٤] وَقَالَ تَعَالَى فِي قَتْلَى بَدْرٍ {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ} [البقرة:١٥٤] وَقَالَ تَعَالَى فِي قَتْلَى أُحُدٍ {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩] {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [آل عمران:١٧٠] وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة:١١١] وَقَالَ تَعَالَى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء:١٠٠] وَقَالَ تَعَالَى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} [الأحزاب:٢٣] وَقَالَ تَعَالَى {وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء:٦٩] وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - «مَا عَبْدٌ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى» وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعْت النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ «وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْت أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ،ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ».

وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - «وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى اللَّوْنُ دَمٌ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ» وَقَالَ - ﷺ - «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»،وَقَالَ - ﷺ - «مَا أَحَدٌ يُحِبُّ

أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدَ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ» وَقَالَ – ﷺ – «وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» وَقَالَ – ﷺ – «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ.

وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ مَعَ قَوْلِهِ – ﷺ – لِعَلِيٍّ لَمَّا وَجَّهَهُ إلَى خَيْبَرَ «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ» فَرَأَيْنَا قَوْلَهُ – ﷺ – ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُشِيرُ إلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقِتَالِ إنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ هِدَايَةُ الْخَلْقِ وَدُعَاؤُهُمْ إلَى التَّوْحِيدِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَتَحْصِيلُ ذَلِكَ لَهُمْ وَلِأَعْقَابِهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ فَإِنْ أَمْكَنَ ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْمُنَاظَرَةِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ.

وَمِنْ هُنَا نَأْخُذُ أَنَّ مِدَادَ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ.

وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ إلَّا بِالْقِتَالِ قَاتَلْنَا إلَى إحْدَى ثَلَاثِ غَايَاتٍ إمَّا هِدَايَتُهُمْ وَهِيَ الرُّتْبَةُ الْعُلْيَا وَإِمَّا أَنْ نُسْتَشْهَدَ دُونَهُمْ وَهِيَ رُتْبَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ فِي الْمَقْصُودِ وَلَكِنَّهَا شَرِيفَةٌ لِبَذْلِ النَّفْسِ فَهِيَ مِنْ حَيْثُ بَذْلُ النَّفْسِ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ حَيْثُ إنَّهَا وَسِيلَةٌ لَا مَقْصُودٌ مَفْضُولَةٌ وَالْمَقْصُودُ إنَّمَا هُوَ إعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.وَإِمَّا قَتْلُ الْكَافِرِ وَهِيَ الرُّتْبَةُ الثَّالِثَةُ وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً؛لِأَنَّهَا تَفْوِيتُ نَفْسٍ يُتَرَجَّى أَنْ تُؤْمِنَ وَأَنْ تُخْرِجَ مِنْ صُلْبِهَا مَنْ يُؤْمِنُ وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ بِإِصْرَارِهِ عَلَى الْكُفْرِ فَلَمَّا بَذَلَ الشَّهِيدُ نَفْسَهُ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ إلَيْهِ وَبَاعَهَا لِلَّهِ تَعَالَى طَلَبًا لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فَاقْتَطَعَ دُونَهَا وَيُعِينُهُ تَعَالَى مَا يَتَحَمَّلُ الْمُتَحَمِّلُونَ مِنْ أَجْلِهِ وَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِمَّا يَتَحَمَّلُهُ الشَّهِيدُ جَازَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ بِمَا تَقْصُرُ عُقُولُ الْبَشَرِ عَنْهُ.

وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ الدُّنْيَا حَتَّى أَشْهَدَهُ مَا لَهُ مِنْ الْكَرَامَةِ جُمْلَةً وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْ الْعَقْلُ وَالطَّرْفُ تَفْصِيلَهَا فَيَرَى بِعَيْنِهِ مِنْ حَيْثُ الْإِجْمَالِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ شَهِيدًا وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٌ وَقِيلَ:إنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ أَوْ أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ؛لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَشْهَدُهُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَشْهَرُ وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ

فَهِيَ حَالَةٌ تَحْصُلُ لَهُ شَرِيفَةٌ وَلِهَذَا قُلْنَا فِي حَدِّ حَقِيقَتِهَا:إنَّهَا حَالَةٌ شَرِيفَةٌ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ وَلَوْ جَزَمْنَا بِأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ،قُلْنَا فِي الْعَبْدِ بِأَنَّ شُهُودَهُ لِلْكَرَامَةِ حَالَةٌ تَحْصُلُ مِنْهُ فِي بَصَرِهِ وَقَلْبِهِ،وَلَكِنَّا قُلْنَا لَهُ يَصِحُّ عَلَى كَلَا الْقَوْلَيْنِ فَإِنْ شُهُودَ مَلَائِكَةِ الرِّضَا لَهُ حَالَةٌ حَاصِلَةٌ لِأَجْلِهِ إلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ أَعْلَى وَأَكْمَلُ وَأَعْظَمُ لِمَا فِيهِ مِمَّا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ مِنْ الْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْبَهْجَةِ النُّورَانِيَّةِ وَفِي الْبَصَرِ مِنْ رُؤْيَةِ الْجَنَّةِ وَكَأَنَّهُ أَوَّلُ قَبْضِ الثَّمَنِ الَّذِي بَاعَ الشَّهِيدُ بِهِ نَفْسَهُ وَحَصَلَ ذَلِكَ فِي مُقَابَلَةِ شَيْئَيْنِ:أَحَدُهُمَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ؛لِأَنَّهُ يُشَجِّعُ غَيْرَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مِثْلِهِ وَيَخْذُلُ الْكُفَّارُ وَيُضْعِفُ نُفُوسَهُمْ وَرُبَّمَا يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ.

وَالثَّانِي مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْأَلَمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ فَوَاتِ نَفْسِهِ وَتَحَقُّقِهِ لِذَلِكَ قَبْلَ خُرُوجِهَا فَإِنَّ حَتْفَ أَنْفِهِ لَا يَيْأَسُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إمَّا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ فَجْأَةً أَوْ بِأَمْرَاضٍ يُتَرَجَّى مَعَهَا الْعَافِيَةُ أَوْ يَغِيبُ عَقْلُهُ حَتَّى تَخْرُجَ رُوحُهُ،وَالشَّهِيدُ قَدْ تَذَرَّعَ أَسْبَابَ الْمَوْتِ فِي حَالِ حُضُورِ عَقْلِهِ وَأَعْرَضَ عَنْ نَفْسِهِ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى،وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ فَضْلُ هَذِهِ الصُّورَةِ عَلَى مَا بَعْدَهَا؛لِأَنَّ غَيْرَهُ مِنْ الشُّهَدَاءِ قَدْ لَا يُشَارِكُهُ إلَّا فِي الْأَلَمِ فَأَنَّى يَكُونُ مِثْلَهُ وَإِنْ سَاوَاهُ فِي بَعْضِ الْمَعَانِي وَصَدَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّهِيدِ وَالِاسْمُ يَشْتَرِكُ فِيهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَدْنَاهَا فَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ:

أَكُلُّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً...وَنَارٍ تُوقَدُ بِاللَّيْلِ نَارًا

وَلَكِنَّ فَضْلَ اللَّهِ وَاسِعٌ قَدْ يَرْفَعُ الصَّغِيرَ إلَى دَرَجَةِ الْكَبِيرِ أَوْ يُدْنِيهِ مِنْهُ تَفَضُّلًا فَالشُّهَدَاءُ كُلُّهُمْ هَذَا وَالَّذِينَ يَأْتِي ذِكْرُهُمْ يَشْتَرِكُونَ فِي رُؤْيَةِ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي حُضُورِ مَلَائِكَةِ الرِّضَا لَهُمْ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَسْبَابُ لِاشْتِرَاكِ الْكُلِّ فِي الْأَلَمِ وَالْيَأْسِ مِنْ الْحَيَاةِ لِوَارِدٍ عَلَى النَّفْسِ مُمَلِّكٌ لَهَا فَلِذَلِكَ ذَكَرْنَا الْحَدَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي حَقِيقَتِهَا لِيَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْجَمِيعِ فَالْحَقِيقَةُ وَاحِدَةٌ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ وَاحِدٌ وَالصُّورَةُ مُخْتَلِفَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ تَفَاوُتًا كَثِيرًا أَعْلَى وَأَدْنَى وَأَوْسَطَ.

وَأَمَّا قَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء:١٠٠] الْآيَةَ.فَلَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ لِأَمْرَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْهِجْرَةِ لَا فِي الْجِهَادِ،وَالثَّانِي أَنَّهُ

فِيهِ وُقُوعُ الْأَجْرِ لَا الِاسْمِ.وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ شَخْصًا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لِقَصْدِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْقِتَالِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ كَمَا فِي الْمُهَاجِرِ وَهَلْ هُوَ كَالْمُجَاهِدِ حَقِيقَةً أَوْ دُونَهُ؟ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الْكَلَامِ فِيهِ،وَلَكِنْ نَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُسَمَّى شَهِيدًا وَلَا أَنَّهُ تَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْحَالَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لِلشَّهِيدِ مِنْ شُهُودِهِ الْكَرَامَةَ قَبْلَ مَوْتِهِ وَنَحْوَهَا؛لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ لَمْ تَرِدْ فِيهِ أَوْ تُسَمَّى سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ،وَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهَا لِلْمَقْتُولِ ظُلْمًا وَالْمَطْعُونِ وَالْمَبْطُونِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَأْتِي ذِكْرُهُ وَلِوُرُودِ النَّصِّ بِإِطْلَاقِ الِاسْمِ،وَدَعْ يَكُونُ الْمَيِّتُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ أَكْثَرَ أَجْرًا إِنْ ثَبَتَ ذَلِكَ فَخَوَاصُّ الشَّهِيدِ لَا نُثْبِتُهَا إِلَّا لِمَنْ وَرَدَ النَّصُّ بِإِطْلَاقِهَا عَلَيْهِ سَوَاءٌ أَكَانَ أَكْثَرَ أَجْرًا أَمْ لَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوَسَائِلَ لَهَا حُكْمُ الْمَقَاصِدِ وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ فِي رُتْبَتِهَا فَالْمُجَاهِدُ الَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ اسْمُ الشَّهِيدِ وَالْخَاصَّةُ الْحَاصِلَةُ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَجْرُ الْحَاصِلُ فِي الْآخِرَةِ،وَالَّذِي خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ وَمَاتَ قَبْلَ بُلُوغِهَا يُشَارِكُهُ فِي أَصْلِ أَجْرِ الْجِهَادِ وَفَضْلِ الشَّهَادَةِ بِلَا شَكٍّ بِالْقِيَاسِ وَبِالْأَوَّلِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ الْعَامَّةِ فِي ذَلِكَ،وَأَمَّا مُسَاوَاتُهُ لَهُ فِي الْأَجْرِ فَفِيهِ نَظَرٌ قَدْ يُقَالُ:وَقَدْ يُتَوَقَّفُ فِيهِ وَلَا نَجْزِمُ بِالْمَنْعِ؛لِأَنَّ فَضْلَ اللَّهِ وَاسِعٌ،وَأَمَّا وُقُوعُ اسْمِ الشَّهِيدِ عَلَيْهِ فَالظَّاهِرُ الْمَنْعُ؛لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ لَا تُؤْخَذُ بِالْقِيَاسِ وَأَمَّا ثُبُوتُ تِلْكَ الْحَالَةِ لَهُ فَالْأَمْرُ فِيهَا مُحْتَمَلٌ مِنْ بَابِ الْأَجْرِ الْمُرَتَّبِ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ اسْمُ سَبَبِهَا.وَالْكَلَامُ فِيمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ مِنْ قَلْبِهِ صَادِقًا كَالْكَلَامِ فِي ذَلِكَ،وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ سَأَلَ وَتَعَاطَى بَعْضَ السَّبَبِ أَعْلَى مِمَّنْ سَأَلَ فَقَطْ وَعُمَرُ حَصَلَ لَهُ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا سُؤَالُهُ الشَّهَادَةَ الْعُلْيَا وَالثَّانِي حُصُولُ الشَّهَادَةِ بِالْقَتْلِ حَقِيقَةً فَلَهُ أَجْرُ الثَّانِيَةِ حَقِيقَةً عَلَيْهَا وَلَهُ أَجْرُ الْأُولَى بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالسُّؤَالِ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا:إِنَّهُ سَأَلَ الشَّهَادَةَ الْعُلْيَا لِإِطْلَاقِ اللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ الْأَكْمَلَ لَكِنْ اكْتَفَى فِي اسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ بِحُصُولِ الِاسْمِ وَسَأَلَ الْمَوْتَ فِي بَلَدِ الرَّسُولِ - ﷺ - وَهُوَ شَيْءٌ ثَالِثٌ لِيَكُونَ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا،وَفِيهِ أَمْرٌ رَابِعٌ وَهُوَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَهُ لَمْ يَقْتُلْهُ لِأَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ بَلْ عَلَى الدِّينِ فَهُوَ كَقَتْلِ الْكَافِرِ الْمُسْلِمَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيْسَ كَمَنْ قَتَلَهُ عَدُوٌّ لَهُ ظُلْمًا عَلَى عَدَاوَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ بَيْنَهُمَا وَإِنْ صَدَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّهَادَةِ فَإِنَّ الشَّهِيدَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ - اشْتَرَكَا فِي أَنَّهُمَا إِنَّمَا قُتِلَا لِقَصْدِهِمَا إِعْلَاءَ كَلِمَةِ الدِّينِ وَإِظْهَارَ الدِّينِ وَقَاتِلُهُمَا قَصَدَ ضِدَّ ذَلِكَ وَإِخْفَاءَ دِينِ اللَّهِ فَهُوَ صَادٌّ عَلَى اللَّهِ.

وَهَذَا مَعْنًى آخَرُ لَمْ نَذْكُرْهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَيُتَنَبَّهُ لَهُ فِي الشَّهِيدِ،وَهَذَا مَعْنَى كَوْنِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ فِي طَرِيقٍ اسْتَعْمَلَهُ اللَّهُ فِيهَا نُصْرَةً لِدِينِهِ فَهُوَ عَبْدٌ سَارَ فِي طَرِيقِ سَيِّدِهِ لِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ حَتَّى غَلَبَهُ عَدُوٌّ سَيِّدِهِ لَا لِدَخَلٍ بَيْنَهُمَا بَلْ عَدَاوَةٌ لِلسَّيِّدِ أَلَيْسَ السَّيِّدُ يَغَارُ لَهُ وَاَللَّهُ أَشَدُّ غَيْرَةً وَقَالَ - ﷺ - «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِهِ صَادِقًا،ثُمَّ مَاتَ أَعْطَاهُ اللَّهُ أَجْرَ شَهِيدٍ» وَقَالَ أَيْضًا «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ».

إذَا عَرَفْت حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَسْبَابًا أَحَدُهَا:الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ،الثَّانِي - أَسْبَابٌ أُخَرُ وَرَدَتْ فِي الْحَدِيثِ سَنَذْكُرُهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.وَوَجَدْنَا فِي السَّبَبِ الْأَوَّلِ أُمُورًا لَيْسَتْ فِيهَا فَلَمَّا رَأَيْنَا الشَّارِعَ أَثْبَتَ اسْمَ الشَّهَادَةِ لِلْكُلِّ وَجَبَ عَلَيْنَا اسْتِنْبَاطُ أَمْرٍ عَامٍّ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الْجَمِيعِ وَهُوَ الْأَلَمُ بِتَحَقُّقِ الْمَوْتِ بِسَبَبٍ خَارِجٍ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْمَرَاتِبُ وَانْضَمَّ إلَى بَعْضِهَا أُمُورٌ أُخَرُ.

وَأَمَّا الشُّرُوطُ فَأُمُورٌ:أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ قِتَالُهُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ قَوْلُهُ - ﷺ - «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ؛لِأَنَّ بِهِ يَتَحَقَّقُ الْمَعْنَى الَّذِي قَدَّمْنَاهُ.وَاَلَّذِي قَاتَلَ شَجَاعَةً أَوْ رِيَاءً أَوْ حَمِيَّةً لَيْسَ قِتَالُهُ لِلَّهِ فَلَيْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهَذَا مَقْطُوعٌ بِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يُسَمَّى شَهِيدًا؛لِأَنَّ الْمَعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ ذُكِرَا فِي مَعْنَى اسْمِ الشَّهِيدِ لَيْسَا فِيهِ وَالنَّصُّ لَمْ يَرِدْ بِتَسْمِيَتِهِ وَإِنَّمَا نَحْنُ نَظُنُّهُ فِي الظَّاهِرِ شَهِيدًا لِعَدَمِ الِاطِّلَاعِ عَلَى فَسَادِ نِيَّتِهِ فَحِينَئِذٍ الشَّهِيدُ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَوْلُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:أَسْأَلُكَ شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ.

لَا يَكُونُ قَوْلُهُ فِي سَبِيلِكَ تَقْيِيدًا بَلْ إيضَاحًا وَيُحْتَمَلُ عَلَى بُعْدٍ أَنَّ كُلَّ قَتِيلٍ يُسَمَّى شَهِيدًا وَحِينَئِذٍ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ وَيَكُونُ ذِكْرُ السَّبِيلِ تَقْيِيدًا لَا دَلِيلَ عَلَى هَذَا،وَقَدْ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ الشُّهَدَاءَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:شَهِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشَهِيدٌ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ وَعَكْسُهُ،وَذَكَرُوا فِي الْقِسْمِ الثَّانِي الْمُقَاتِلَ رِيَاءً وَالْمُدْبِرَ وَالْغَالَّ مِنْ الْغَنِيمَةِ،فَأَمَّا الْمُقَاتِلُ

رِيَاءً فَلَيْسَ قِتَالُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ:إنَّهُ لَيْسَ بِشَهِيدٍ وَإِنْ حَكَمْنَا لَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَحْكَامِ الشَّهِيدِ،وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ:إنَّهُ شَهِيدٌ وَلَا أَجْرَ لَهُ.

وَأَمَّا الْمُدْبِرُ وَالْغَالُّ مِنْ الْغَنِيمَةِ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَحِبَ نِيَّتَهُمَا فِي طَلَبِ إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ عَرَضَ لَهُمَا الْإِدْبَارُ وَالْغُلُولُ وَهُمَا مِنْ الْمَعَاصِي فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُمَا أَجْرُ الشَّهِيدِ وَعَلَيْهِمَا وِزْرُ الْإِدْبَارِ وَالْغُلُولِ وَسَنُعِيدُ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَالشَّهِيدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَقُتِلَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا غَيْرَ غَالٍّ فَحُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا أَحْكَامُ الشُّهَدَاءِ لَا يُغَسَّلُ.وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَفِي الْآخِرَةِ لَهُ أَجْرُ الشُّهَدَاءِ،وَالشَّهِيدُ فِي الْآخِرَةِ لَا فِي الدُّنْيَا:الْمَطْعُونُ وَالْمَبْطُونُ وَغَيْرُهُمَا مِمَّا سَيَأْتِي يُغَسَّلُونَ وَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الشُّهَدَاءِ فِي الدُّنْيَا لَكِنَّ فِي الْآخِرَةِ لَهُمْ أَجْرَ الشُّهَدَاءِ،الشَّرْطُ الثَّانِي عَدَمُ الْغُلُولِ قَدْ ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ كَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَأَشَرْنَا إلَى التَّوَقُّفِ فِي أَنَّهُ شَرْطٌ لِلشَّهَادَةِ أَوْ لِحُصُولِ الْأَجْرِ عَلَيْهِمَا وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ أَجْرُ الْكَامِلِ.وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران:١٦١] قِيلَ:فِي التَّفْسِيرِ حَامِلًا لَهُ عَلَى ظَهْرِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [آل عمران:١٦٢] قِيلَ:فِي التَّفْسِيرِ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ مِنْ تَرْكِ الْغُلُولِ وَبِالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ بِالْكُفْرِ أَوْ بِالْغُلُولِ أَوْ بِالتَّوَلِّي عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ وَفِرَارِهِ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – عِنْدَ الْحَرْبِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:«قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ» الْحَدِيثَ.وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – وَهُوَ ابْنُ الْعَاصِ قَالَ «كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ – ﷺ – رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ:كِرْكِرَةُ فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – هُوَ فِي النَّارِ فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا».وَعَنْهُ قَالَ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – إذَا أَصَابَ غَنِيمَةً أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ فَيَجِيئُونَ بِغَنَائِمِهِمْ فَيُخَمِّسُهُ فَيَقْسِمُهُ فَجَاءَ رَجُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِزِمَامٍ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا فِيمَا كُنَّا

أَصَبْنَاهُ مِنْ الْغَنِيمَةِ قَالَ أَسَمِعْتَ بِلَالًا قَالَ نَعَمْ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاعْتَذَرَ،فَقَالَ كُنْ أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَنْ أَقْبَلَهُ عَنْك».صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وَخَبَرُ مِدْعَمٍ فِي خَيْبَرَ مَشْهُورٌ وَقَوْلُ النَّبِيِّ – ﷺ – «إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ الْغَنَائِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ تَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا».وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ «رَجُلًا تُوُفِّيَ يَوْمَ خَيْبَرَ فَذَكَرُوا لِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ صَلُّوا عَلَيْهِ فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ النَّاسِ لِذَلِكَ فَقَالَ:إنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدْنَا خَرَزًا مِنْ خَرَزِ الْيَهُودِ لَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ»،وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ «إذَا وَجَدْتُمْ الرَّجُلَ قَدْ غَلَّ فَأَحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ» فَوُجِدَ فِي مَتَاعِ غَالٍّ مُصْحَفٌ فَقَالَ سَالِمٌ بِعْهُ وَتَصَدَّقْ بِثَمَنِهِ،وَقِيلَ:إنَّ الْخُلَفَاءَ مَنَعُوا الْغَالَّ سَهْمَهُ مِنْ الْمَغْنَمِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ:الْغُلُولُ عَظِيمٌ؛لِأَنَّ الْغَنِيمَةَ لِلَّهِ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال:٤١] فَمَنْ غَلَّ فَقَدْ عَانَدَ اللَّهَ،وَإِنَّ الْمُجَاهِدِينَ تَقْوَى نُفُوسُهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاقِفِهِمْ عِلْمًا مِنْهُمْ أَنَّ الْغَنِيمَةَ تُقَسَّمُ عَلَيْهِمْ فَإِذَا غُلَّ مِنْهَا خَافُوا أَنْ لَا يَبْقَى مِنْهَا نَصِيبُهُمْ فَيَفِرُّونَ إلَيْهَا فَيَكُونُ ذَلِكَ تَخْذِيلًا لِلْمُسْلِمِينَ وَسَبَبًا لِانْهِزَامِهِمْ كَمَا جَرَى لَمَّا ظَنُّوا يَوْمَ أُحُدٍ فَلِذَلِكَ عَظُمَ قَدْرُ الْغُلُولِ،وَلَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ الْخِيَانَةِ وَالسَّرِقَةِ وَسُمِّيَ غُلُولًا؛لِأَنَّ الْأَيْدِيَ فِيهِ مَغْلُولَةٌ؛وَلِأَنَّهُ يُؤْخَذُ فِي خِفْيَةٍ وَأَصْلُهُ الْغَلَلُ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَجْرِي تَحْتَ الشَّجَرِ لِخَفَائِهِ وَمِنْهُ غِلُّ الصَّدْرِ.انْتَهَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ.

وَلَا يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِحْبَاطِهِ جِهَادَهُ وَمَنْعِهِ مِنْ دَرَجَةِ الشَّهَادَةِ لَكِنْ إذَا ثَبَتَ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُحْكَمَ لَهُ بِدَرَجَةِ الشَّهَادَةِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.وَالْفُقَهَاءُ جَعَلُوهُ شَهِيدًا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ وَلَعَلَّهُمْ أَرَادُوا مَا إذَا لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ مِنْ حَالِهِ وَكَانَ خَفِيًّا فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ مَا قَالُوهُ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ لَيْسَ بِشَهِيدٍ فِي الْآخِرَةِ فَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَمُ مِنْ النَّارِ فَصَحِيحٌ لَا شَكَّ فِيهِ لِتَصْرِيحِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ بِهِ وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ثَوَابِ الشُّهَدَاءِ بَعْدَ أَخْذِهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعَذَابِ فَفِيهِ نَظَرٌ إذَا كَانَتْ نِيَّتُهُ صَادِقَةً إلَّا أَنْ يَرِدَ نَصٌّ مِنْ الشَّارِعِ يَقْتَضِي إخْرَاجَهُ،وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ قَوْلَهُ – ﷺ – «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ» نَصًّا ضَابِطًا فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَقْصِدُهُ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ لَا فَلَا فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَقْصِدُهُ غَيْرَ إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ شَهِيدًا غَلَّ أَوْ لَمْ يَغُلَّ صَبَرَ أَوْ لَمْ يَصْبِرْ احْتَسَبَ أَوْ لَمْ يَحْتَسِبْ.هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ لِي وَإِنْ كَانَ الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ غَيْرُ الْغَالِّ أَكْمَلَ وَأَعْظَمَ أَجْرًا.وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا:تَقُولُونَ فِي مَغَازِيكُمْ فُلَانٌ قُتِلَ شَهِيدًا وَلَعَلَّهُ قَدْ أَوْقَرَ دَابَّتَهُ غُلُولًا لَا تَقُولُوا ذَلِكَ وَلَكِنْ قُولُوا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ،وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْ عُمَرَ مُحْتَمِلٌ لَأَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ لَا يُبَالِغُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ؛لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:إنَّمَا الشَّهِيدُ الَّذِي لَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ يَعْنِي الَّذِي يَمُوتُ عَلَى فِرَاشِهِ مَغْفُورًا لَهُ.وَهَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - شَدِيدٌ.

وَأَمَّا الَّذِي قِيلَ فِيهِ:مَا أَجْزَأَ أَحَدٌ مِنَّا الْيَوْمَ مَا أَجْزَأَ فُلَانٌ قَوْلَ فُلَانٍ،وَقَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ - فِيهِ «أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» وَقَتَلَ نَفْسَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - اطَّلَعَ عَلَى حَالِهِ بِنِفَاقٍ أَوْ سُوءِ خَاتِمَةٍ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ وَلِذَلِكَ قَالَ إنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُ يُشْعِرُ بِالْخُلُودِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِي مِدْعَمٍ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا لَمَّا كَانَتْ مَعْصِيَةٌ اخْتَصَّ عَذَابُهَا بِسَائِرِ الْبَدَنِ.

(الشَّرْطُ الثَّانِي) الصَّبْرُ «جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - نَعَمْ فَلَمَّا أَدْبَرَ الرَّجُلُ نَادَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ كَيْفَ قُلْتَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - نَعَمْ إلَّا الدَّيْنَ كَذَلِكَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -».هَكَذَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فَقَالَ فِيهِ «جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنْ قُتِلْتُ كَفَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ خَطَايَايَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ كَفَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَطَايَاكَ إلَّا الدَّيْنَ كَذَلِكَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ» وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَهُوَ يَدُلُّ بِطَرِيقِ الْمَفْهُومِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ

شَرْطٌ يَنْتَفِي الْحُكْمُ عِنْدَ انْتِفَائِهِ بِخِلَافِ رِوَايَةِ مَالِكٍ لَيْسَتْ صَرِيحَةً فِي الِاشْتِرَاطِ حَيْثُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابِيِّ لَا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِرِوَايَةِ مَالِكٍ فَلَا إشْكَالَ.

وَإِنْ أَخَذْنَا بِرِوَايَةِ اللَّيْثِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ:إنَّ قَوْلَهُ - ﷺ - «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» مَنْطُوقٌ وَالْمَنْطُوقُ يُقَدَّمُ عَلَى الْمَفْهُومِ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا؛لِأَنَّ الْمَوْعُودَ بِهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَكْفِيرُ الْخَطَايَا وَلَا يَلْزَمُ مِنْ انْتِفَائِهِ انْتِفَاءُ كَوْنِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَهَذَا أَصَحُّ الْأَجْوِبَةِ وَبِهِ يُعْرَفُ أَنَّ دَرَجَاتِ الشُّهَدَاءِ مُتَفَاوِتَةٌ فَالَّذِي يُقْطَعُ بِتَكْفِيرِ الْخَطَايَا لَهُ غَيْرُ الدَّيْنِ هُوَ الَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ،وَأَمَّا غَيْرُهُ فَقَدْ يُغْفَرُ لَهُ الْبَعْضُ دُونَ الْبَعْضِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ:جَوَابٌ ثَالِثٌ أَنَّ الْمَفْهُومَ يُخَصِّصُ الْعُمُومَ وَلَكِنْ لَا ضَرُورَةَ إلَى هَذَا،وَقَوْلُهُ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ؛لِأَنَّهُ قَدْ يُقْبِلُ فِي وَقْتٍ وَيُدْبِرُ فِي وَقْتٍ فَهَذَا الْحُكْمُ إنَّمَا يَثْبُتُ لِمَنْ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ إدْبَارٌ أَصْلًا.نَعَمْ قَدْ يُقَالُ إنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ مَنْصُوبَتَانِ عَلَى الْحَالِ فَالْمُعْتَبَرُ هُوَ كَوْنُهُ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ حَالَ الْقَتْلِ لَا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ،وَحِينَئِذٍ يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ بِمَا لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا إمَّا بِأَنْ يُقَالَ:إنَّهُ يُقْبِلُ بِقَلْبِهِ وَبَدَنِهِ وَنِيَّتِهِ لَا يَكُونُ لَهُ الْتِفَاتٌ إلَى مَا سِوَى ذَلِكَ لَا فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْمَآلِ أَوْ يَكُونُ تَأْكِيدًا وَهَكَذَا ذَكَرَ الصَّبْرَ مَعَهُمَا.

الظَّاهِرُ أَنَّهُ لِبَيَانِ مَا قُلْنَاهُ مِنْ الْإِقْبَالِ بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَإِنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَكُونُ مُقْبِلًا عَلَى الْعَدُوِّ بِصُورَتِهِ وَفِي قَصْدِهِ أَنْ يَنْهَزِمَ فَلَا يَكُونُ صَابِرًا وَلَوْ قُتِلَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَلَا يَكُونُ شَهِيدًا وَلَا يَكُونُ قَتْلُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَتَى كَانَ مُقْبِلًا بِصُورَتِهِ وَقَلْبِهِ فَهُوَ صَابِرٌ وَلَا يَضُرُّهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَجِدَ أَلَمًا فِي قَلْبِهِ أَوْ كَرَاهِيَةً لِلْمَوْتِ وَفِرَاقِ الْأَهْلِ لَا يَتَحَمَّلُ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى،وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي اشْتِرَاطِ الصَّبْرِ فِي الثَّوَابِ عَلَى الْمَصَائِبِ وَلَهُ هُنَاكَ وَجْهٌ وَأَمَّا هُنَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ فَالصَّبْرُ عَلَى فِعْلِهَا بِشُرُوطِهَا كَالصَّبْرِ عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَنَحْوِهِمَا وَحَسُنَ ذِكْرُهُ فِي الْجِهَادِ لِمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ مِنْ أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَحْضُرُ الصَّفَّ وَفِي قَصْدِهِ الْفِرَارُ فَلَيْسَ صَابِرًا نَفْسَهُ فَالصَّبْرُ بِهَذَا الْمَعْنَى شَرْطٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ الْحَدِيثُ وَبِغَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُشْتَرَطُ.

(الشَّرْطُ الثَّالثُ) الاحْتسَابُ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَنْوِي به وَجْهَ اللَّه وَيَعْتَدّهُ وَسيلَةً لثَوَاب اللَّه وَهَذَا حَاصلٌ بقَوْله «مَنْ قَاتَلَ لتَكُونَ كَلمَةُ اللَّه هيَ الْعُلْيَا فَهُوَ في سَبيلِ اللَّه» وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ هُنَا وَلَمْ يَذْكُرْهُ هُنَاكَ؛لأَنَّ هُنَاكَ منْ كَلَام النَّبيِّ – ﷺ – وَكَلَامُهُ – ﷺ – مُرَادٌ به حَقيقَةَ الْأَمْر فَالْمُرَادُ في سَبيلِ اللَّه ظَاهرًا وَبَاطنًا صُورَةً وَمَعْنًى وَهُنَا منْ كَلَام السَّائلِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه إنْ قُتلْتُ في سَبيلِ اللَّه فَقَدْ يَقْصدُ به صُورَةَ السَّبيلِ،وَكُلُّ مَنْ قَاتَلَ الْكُفَّارَ في صَفِّ الْمُسْلمينَ فَهُوَ في الصُّورَة في سَبيلِ اللَّه فَأَجَابَهُ النَّبيُّ – ﷺ – باشْترَاط الصَّبْر وَالاحْتسَاب ليَكُونَ في سَبيلِ اللَّه صُورَةٌ وَمَعْنًى.

(الشَّرْطُ الرَّابعُ) أَنْ يَكُونَ مُقْبلًا غَيْرَ مُدْبرٍ.وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذه الشُّرُوطَ وَلْنُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ هُنَا مَقَامَيْن:أَحَدُهُمَا كَوْنُ الْقتَال في سَبيلِ اللَّه وَهُوَ دَائرٌ مَعَ كَوْن الْقتَال لإِعْلَاء كَلمَة اللَّه وُجُودًا وَعَدَمًا سَوَاءٌ رَجَعَ الْمُقَاتلُ إلَى بَيْته مَعَ مَا نَالَ منْ أَجْرٍ وَغَنيمَة سَالمًا أَمْ لَا سَوَاءٌ اُسْتُشْهدَ أَوْ لَا دَامَ عَلَى تلْكَ الْحَالَة أَمْ لَا فَقَدْ يُقَاتلُ في سَبيلِ اللَّه لإِعْلَاء كَلمَة اللَّه بنيَّةٍ خَالصَة ثُمَّ يَتَغَيَّرُ حَالُهُ بَعْدَ ذَلكَ – وَالْعيَاذُ باللَّه.

وَهَلْ يَخْرُجُ قتَالُهُ الْمَاضي عَنْ أَنْ يَكُونَ للَّه يَنْبَني عَلَى إحْبَاط الْعَمَلِ وَالْكَلَامُ فيه مُبَيَّنٌ في غَيْرِ هَذَا الْمَوْضعِ وَالْمَقْصُودُ التَّنْبيهُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَديثَ لَمْ يَتَعَرَّضْ للشَّهَادَة وَإِنَّمَا تَعَرَّضَ لحُكْم الْقتَال.

الْمَقَامُ الثَّاني كَوْنُ الْمَقْتُول شَهيدًا تُكَفَّرُ خَطَايَاهُ،وَقَدْ تَعَرَّضَ الْحَديثُ الثَّاني الَّذي فيه تَكْفيرُ الْخَطَايَا لذَلكَ فَأَفْهَم الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ لئَلَّا يَخْتَلطَ عَلَيْكَ،وَقَدْ يَنْتَهي الْقتَالُ في سَبيلِ اللَّه إلَى الْقَتْلِ عَلَى تلْكَ الصِّفَة وَقَدْ لَا يَنْتَهي إلَى ذَلكَ بأَسْبَاب كَثيرَة.وَقَدْ تَلَخَّصَ أَنَّ كُلَّ مَنْ قُتلَ منْ الْمُسْلمينَ في حَرْب الْكُفَّار بسَبَب منْ أَسْبَاب الْقتَال قَبْلَ انْقضَاء الْحَرْب فَهُوَ شَهيدٌ في أَحْكَامِ الدُّنْيَا لَا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْه فَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلكَ صَابرًا مُحْتَسبًا مُقْبلًا غَيْرَ مُدْبرٍ فَهُوَ شَهيدٌ في الْآخرَة أَيْضًا.

وَقَدْ لَا يَحْصُلُ منْهُ قتَالٌ بَلْ يَكُونُ مُتَهَيِّئًا لَهُ فَكَثيرًا مَا يَتَّفقُ ذَلكَ لمَنْ يَكُونُ في الصَّفِّ فَهَذَا شَهيدٌ مَحْمُودٌ وَإِنْ لَمْ يَصْدُقْ عَلَيْه أَنَّهُ قَاتَلَ بالْفعْلِ بَلْ بالْقُوَّة وَالشَّهَادَةُ بالْحُكْم بالظَّاهرِ في هَذَا الْمَعْنَى الَّذي شَرَحْنَاهُ وَفي الْمَعْنَى الْبَاطنِ هيَ شَهَادَتُهُ بقَلْبه وَبَصره

كَرَامَةُ اللَّه لَهُ وَشَهَادَةُ الْمَلَائكَة لَهُ بحُضُورهمْ عنْدَهُ عَلَى هَيْئَة الْإِكْرَام وَشَهَادَته لَهُ بالْخَيْر وَإِكْرَامه لَهُ كَمَا حَصَلَ لبَعْض الشُّهَدَاء منْ تَظْليله بأَجْنحَتهمْ بَعْدَ الْمَوْت حَتَّى رُفعَ وَشَهَادَةُ الدَّم عَلَيْه وَتَأَهَّلَ لهَذه الْكَرَامَة بأَنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَوَلَدَهُ وَكُلَّ مَنْ يُحبُّهُ للَّه تَعَالَى وَلنُصْرَة دينه وَإِعْلَاء كَلمَته وَإِعْزَاز الْإِسْلَام وَأَهْله وَخذْلَان الْكُفْر وَأَهْله وَتَحَمُّل الْمَشَاقِّ في ذَلكَ كُلِّه وَتَجَرُّؤُ عَدُوِّ اللَّه عَلَيْه تَجَرُّؤٌ عَلَى اللَّه وَصَدًّا لَهُ عَنْ إعْلَاء كَلمَة اللَّه وَقَطْعًا لسَبيله،وَالْجنَايَة عَلَى عَبيده فَجَازَاهُ اللَّهُ عَلَى هَذه الْميتَة بحَيَاة الْأَبَد وَجَعَلَهُ حَيًّا بَاقيًا مَرْزُوقًا فَرحًا مُسْتَبْشرًا آمنًا.

وَاخْتصَارُ هَذَا الَّذي يُكْتَبُ في الْفَتْوَى أَنَّ الشَّهَادَةَ في سَبيل اللَّه حَقيقَتُهَا مَوْتُ الْمُسْلم في حَرْب الْكُفَّار بسَبَب منْ أَسْبَاب قتَالهمْ قَبْلَ انْقضَاء الْحَرْب صَابرًا مُحْتَسبًا مُقْبلًا غَيْرَ مُدْبر،وَيُغْني عَنْ هَذه الْأَلْفَاظ الْأَرْبَعَة قَاصدًا إعْلَاءَ كَلمَة اللَّه تَعَالَى وَشَرَفَهَا لبَذْل نَفْسه للَّه في إعْلَاء كَلمَته وَقَتْل عَدُوٍّ للَّه لَهُ دُونَ الْوُصُول دُونَ ذَلكَ؛وَأَمَّا بَقيَّةُ الصُّوَر فَشَارَكَتْ هَذه الصُّوَرَ في بَعْض هَذه الْمَعَاني كَمَا سَنُبَيِّنُهُ.

وَأَمَّا النَّتيجَةُ فَقَدْ بَيَّنَّا بَعْضَهَا فيمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَاتُ وَالْأَحَاديثُ وَفي صَحيح مُسْلم عَنْ النَّبيِّ - ﷺ - «يُغْفَرُ للشَّهيد كُلُّ ذَنْب إلَّا الدَّيْنَ» وَفيه أَيْضًا «الْقَتْلُ في سَبيل اللَّه يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْء إلَّا الدَّيْنَ» وَفيه «أَرْوَاحُهُمْ في جَوْف طَيْر خُضْر لَهَا قَنَاديلُ مُعَلَّقَةٌ بالْعَرْش تَسْرَحُ منْ الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَ،ثُمَّ تَأْوي إلَى تلْكَ الْقَنَاديل» وَأَحَاديثُ كَثيرَةٌ في هَذَا الْمَعْنَى فَأَمَّا الدَّيْنُ فَقَالَ النَّوَويُّ في شَرْح مُسْلم أَمَّا قَوْلُهُ - ﷺ - " إلَّا الدَّيْنَ " فَفيه تَنْبيهٌ عَلَى جَميع حُقُوق الْآدَميِّينَ وَإِنَّمَا تُكَفَّرُ حُقُوقُ اللَّه تَعَالَى،وَأَمَّا قَوْلُهُ - ﷺ - " نَعَمْ "،ثُمَّ قَالَ " إلَّا الدَّيْنَ " فَمَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أُوحيَ به إلَيْه في الْحَال هَذَا كَلَامُ النَّوَويِّ - رَحمَهُ اللَّهُ -.

وَقَالَ ابْنُ عَبْد الْبَرِّ في الاسْتذْكَار في هَذَا الْحَديث:إنَّ الْقَتْلَ في سَبيل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الشَّرْط الْمَذْكُور لَا يُكَفِّرُ تَبَاعَات الْآدَميِّينَ وَإِنَّمَا يُكَفِّرُ مَا بَيْنَ الْعَبْد وَرَبِّه منْ كَبيرَة أَوْ صَغيرَة؛لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَثْن إلَّا الدَّيْنَ الَّذي هُوَ منْ حُقُوق بَنَى آدَمَ وَيَشْهَدُ لَهُ حَديثُ جَابر - رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبيِّ - ﷺ - «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ منْ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّةَ وَأَحَدٌ منْ أَهْل

النَّارِ يَتْبَعُهُ بِمَظْلِمَةٍ» وَذَكَرَ أَحَادِيثًا كَثِيرَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى،ثُمَّ قَالَ:وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ الْفِقْهِ أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ عَلَى الْمَيِّتِ بَعْدَهُ فِي الدُّنْيَا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ:هَذَا كُلُّهُ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي الدَّيْنِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَاتِ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ {بَرَاءَةٌ} [التوبة:١] وَفِيهَا الزَّكَاةُ قَالَ – ﷺ – حِينَئِذٍ «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ عِيَالًا فَعَلَيَّ» فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَقَدْ أُدَانَ دَيْنًا فِي مُبَاحٍ وَلَمْ يَقْدِرْ إلَى أَدَائِهِ فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُؤَدِّيَ عَنْهُ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ أَوْ مِنْ الصَّدَقَاتِ كُلِّهَا إنْ جَوَّزَ وَضْعَهَا فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ،وَمِنْ الْفَيْءِ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ:قَوْلَهُ – ﷺ – «وَعَلَيَّ قَضَاؤُهَا» يُحْتَمَلُ إذَا لَمْ يَتْرُكْ مَالًا وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ عُمُومُهُ وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ الْمَيِّتَ الْمُسْلِمَ كَانَ قَدْ وَجَبَتْ لَهُ حُقُوقٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنْ الْفَيْءِ وَغَيْرِهِ لَمْ يَصِلْ إلَيْهَا فَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُؤَدِّيَ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ دَيْنَهُ وَيُخْلِصَ مَالَهُ لِوَرَثَتِهِ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ الْغَرِيمُ أَوْ السُّلْطَانُ وَقَعَ الْقِصَاصُ بَيْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ يُحْبَسْ عَنْ الْجَنَّةِ بِدَيْنٍ لَهُ مِثْلُهُ عَلَى غَيْرِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ أَوْ عَلَى غَرِيمٍ جَحَدَ وَلَمْ يَثْبُتْ مَا عَلَيْهِ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الدَّيْنِ أَكْثَرَ مِمَّا لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ أَوْ عَلَى الْغَرِيمِ وَلَمْ تَفِ بِذَلِكَ حَسَنَاتُهُ فَيُحْبَسُ عَنْ الدَّيْنِ بِسَبَبِهِ وَمُحَالٌ أَنْ يُحْبَسَ عَنْ الْجَنَّةِ مَنْ لَهُ مَالٌ يَفِي بِمَا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطَانٍ أَوْ غَيْرِهِ.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ حَسَنٌ فِيمَنْ لَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ نَظِيرُ الَّذِي عَلَيْهِ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ كَذَلِكَ وَفِي زَمَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – حُكْمٌ مُبْتَدَأٌ،وَالَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ تَنْبِيهٌ حَسَنٌ فِيمَنْ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ،وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَنَبَّهَ الْأَئِمَّةُ الْعَادِلُونَ لِذَلِكَ بَلْ وَالْقُضَاةُ الَّذِينَ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ الزَّكَاةُ وَمِنْهَا سَهْمُ الْغَارِمِينَ.

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:هَذَا فِيمَنْ لَهُ مَا عَلَيْهِ مِنْ الدَّيْنِ وَأَتْلَفَهُ عَلَى رَبِّهِ عَنْ عِلْمٍ أَوْ ذِمَّةٍ وَمَلَّاهُ وَاسْتَدَانَهُ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ وَتَحْذِيرٍ أَوْ فَسَدَ بِهِ الْمَرْءُ فَسَارِعْ فِي إتْلَافِ مَالٍ بِهَذَا الْوَجْهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ قَوْلِهِ «مَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ».

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَذِكْرُهُ الدَّيْنَ تَنْبِيهٌ عَلَى مَا فِي مَعْنَاهُ مِنْ الْغَصْبِ وَأَخْذِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلِ الْعَمْدِ وَجِرَاحَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ التَّبَاعَاتِ لَكِنْ هَذَا إذَا امْتَنَعَ مِنْ أَدَاءِ الْحُقُوقِ مَعَ تَمَكُّنِهِ

أَمَّا إِذَا لَمْ يَجِدْ الْمَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ سَبِيلًا فَالْمَرْجُوُّ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا صَدَقَ فِي قَصْدِهِ وَصَحَّتْ نِيَّتُهُ أَنْ يُرْضِيَ اللَّهُ تَعَالَى خُصُومَهُ عَنْهُ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ مَنْسُوخٌ؛لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الدُّنْيَوِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُنْسَخُ وَالْحَدِيثُ إِنَّمَا تَعَرَّضَ لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ.

وَقَالَ أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْأَئِمَّةِ قَضَى دَيْنَ مَنْ مَاتَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ بَعْدَ النَّبِيِّ – ﷺ – فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَانَ خَاصًّا بِهِ – ﷺ – وَفِي النَّوَادِرِ أَنَّ التَّشْدِيدَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الدَّيْنِ كُلَّهَا مَنْسُوخَةٌ إلَّا مَنْ أَدَانَ فِي سَرَفٍ أَوْ فَسَادٍ،وَذُكِرَ نَحْوُهُ هَذَا عَنْ ابْنِ شِهَابٍ وَاسْتُدِلَّ بِأَنَّهُ «قِيلَ:لِلنَّبِيِّ – ﷺ –:فَمَنْ لَنَا بَعْدَكَ قَالَ يَأْخُذُ اللَّهُ الْوُلَاةَ لَكُمْ بِمِثْلِ مَا يَأْخُذُكُمْ بِهِ».هَذَا كَلَامُ الْمَالِكِيَّةِ وَلَمْ يَذْكُرْ أَصْحَابُنَا قَضَاءَ دَيْنِ مَنْ مَاتَ قَادِرًا وَإِنَّمَا ذَكَرُوا قَضَاءَ دَيْنِ الْمَيِّتِ الْمُعْسِرِ وَأَنَّهُ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ – ﷺ – وَقِيلَ:كَانَ يَقْضِيهِ تَكَرُّمًا لَا وُجُوبًا،وَهَلْ عَلَى الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُ قَضَاءُ دَيْنِ الْمُعْسِرِينَ مِنْ مَالِ الْمَصَالِحِ؟ فِيهِ وَجْهَانِ.

وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ يُسَاعِدُ الْمَالِكِيَّةَ،وَأَيًّا مَا كَانَ فَالْإِرْضَاءُ بِالْحَسَنَاتِ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ فَيَقْتَضِي تَارَةً تَأَخُّرَ دُخُولِ الشَّهِيدِ الْجَنَّةَ حَتَّى يَرْضَى خَصْمُهُ وَلَا يَمْتَنِعُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَنْعَمَ رُوحُهُ فِي غَيْرِ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى،نَعَمْ إذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ خَصْمِهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ وَاقْتَضَى ذَلِكَ دُخُولَ النَّارِ،هَلْ نَقُولُ إنَّهُ يَدْخُلُ وَإِنْ كَانَ شَهِيدًا وَإِذَا دَخَلَ وَلَمْ يَرْضَ صَاحِبُهُ إلَّا بِالدَّيْنِ كَيْفَ يَكُونُ الْحُكْمُ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرْضِي خَصْمَهُ بِمَا شَاءَ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ هَكَذَا حُكْمُ تَبِعَاتِ الْآدَمِيِّينَ.

أَمَّا حُقُوقُ اللَّهِ تَعَالَى فَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهَا تُغْفَرُ كُلُّهَا بِالشَّهَادَةِ وَلَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ فَالْمُعْتَقَدُ ذَلِكَ لَكِنَّا لَانَقْطَعَ بِعَدَمِ دُخُولِهِ النَّارَ لِأَمْرَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنَّ دَلَالَةَ الْعُمُومِ ظَنِّيَّةٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ،وَالثَّانِي أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ الشَّهَادَةَ سَبَبٌ قَوِيٌّ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ النَّارِ كَقَوْلِهِ «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» وَنَحْوُهُ مِنْ الْأَحَادِيثِ وَمَعْنَاهُ مَا لَمْ يُعَارِضْ مُعَارِضٌ فَقَدْ تُعَارِضُ كَبَائِرُ أُخْرَى عَظِيمَةٌ تَمْنَعُ الْبِدَارَ إلَى ذَلِكَ هَذَا بِدُونِ مَظَالِمِ الْعِبَادِ أَمَّا مَعَ مَظَالِمِ الْعِبَادِ فَظَنُّ النَّجَاةِ مِنْ النَّارِ أَضْعَفُ وَإِنْ كَانَ

يَقْوَى فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ إرْضَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ خُصُومَ الشَّهِيدِ وَنَقْطَعُ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَعِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِآدَمِيٍّ.

(فَرْعٌ) جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ «مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ تَمَنِّي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ» وَفِيهِ أَيْضًا «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» وَاَلَّذِي نَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ مَرْتَبَةَ الشُّهَدَاءِ لِقَصْدِهِ وَسُؤَالِهِ وَعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ الْوُصُولِ إلَيْهَا وَلِلْمَرْءِ فِيمَا يَنْوِيهِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ:أَحَدُهَا أَنْ يُمْكِنَهُ الْفِعْلُ فَيُؤْجَرُ عَلَى نِيَّتِهِ أَجْرًا دُونَ أَجْرِ الْفِعْلِ.الثَّانِيَةُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لَهُ عَادَةٌ بِهِ فَكُتِبَ لَهُ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ - ﷺ - «إذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا» وَذَلِكَ؛لِأَنَّ الْعُذْرَ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْمَرَضِ أَوْ السَّفَرِ هُوَ الَّذِي مَنَعَهُ.الثَّالِثَةُ أَنْ لَا تَصِلَ قُدْرَتُهُ إلَيْهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّ طَالِبَ الشَّهَادَةِ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهَا فَقَدْ فَعَلَ مَا فِي وُسْعِهِ فَإِذَا قُطِعَ عَنْهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ سَعَةِ فَضْلِهِ ذَلِكَ لَكِنَّهُ لَا يُسَمَّى شَهِيدًا فِي الْعُرْفِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُسَمَّى حَتَّى لَوْ حَلَفَ حَالِفٌ لَيُصَلِّيَنَّ عَلَى شَهِيدٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ بَرَّ.

وَالْكَلَامُ فِي هَذَا كَالْكَلَامِ فِي «أَنَّ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص:١] تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ،وَهَذِهِ الصُّورَةُ لَمْ يَحْصُلْ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِي الصُّورَةِ الْأُولَى فَإِلْحَاقُهَا بِهَا إنَّمَا هُوَ بِالنَّصِّ لَا بِالْقِيَاسِ وَلَا بِمَعْنًى جَامِعٍ غَيْرِ الِاشْتِرَاكِ النِّيَّةِ،وَنِيَّةُ الْمَرْءِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ.وَقَدْ كَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ:اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ وَوَفَاةً بِبَلَدِ رَسُولِكَ - ﷺ -.كَذَا رَوَاهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَهِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ فِي مَدِينَةِ رَسُولِكَ - ﷺ -وَهُوَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الشَّهَادَةُ فِي الْمَدِينَةِ كَمَا وَقَعَ وَالْأَوَّلُ لَا يَقْتَضِي فِي الْمَدِينَةِ إلَّا الْوَفَاةَ وَقَدْ تَتَقَدَّمُ الشَّهَادَةُ فِي غَيْرِهَا وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْئُولُ الشَّهَادَةَ فِي الْجِهَادِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ طَعْنَ أَبِي لُؤْلُؤَةَ قَائِمًا مَقَامَهَا،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ مُطْلَقَ الشَّهَادَةِ فَحَصَلَ مَا سَأَلَهُ بِحَقِيقَتِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ شَهِيدٌ حَقِيقَةً فَقَدْ قَالَ - ﷺ - «فَمَا عَلَيْكَ إلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ» وَالْمُرَادُ بِالشَّهِيدِ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَفِي رِوَايَةٍ شَهِيدَانِ وَالْمُرَادُ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَشَهَادَتُهُ -

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَقِيقِيَّةٌ بِطَعْنِ أَبِي لُؤْلُؤَةَ لَهُ وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَادَاتِ تَالِيَةً لِشَهَادَةِ الْحَرْبِ؛لِأَنَّهَا فِي مَعْنَاهَا فَإِنَّ أَبَا لُؤْلُؤَةَ كَافِرٌ مَجُوسِيٌّ إنَّمَا قَتَلَ عُمَرًا لِقِيَامِ عُمَرَ فِي دِينِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ قِيَامِ الْمُجَاهِدِينَ فَكَانَ فِي مَعْنَى الصُّورَةِ الْأُولَى سَوَاءٌ وَيَحْصُلُ لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَجْرُ سُؤَالِهِ الشَّهَادَةَ وَمَعَ ذَلِكَ غُسِّلَ وَصُلِّي عَلَيْهِ وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الشُّهَدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّمَا هُوَ شَهِيدٌ فِي الْآخِرَةِ.وَبَقِيَ هُنَا بَحْثَانِ (أَحَدُهُمَا) اسْتَشْكَلَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ سُؤَالَ الشَّهَادَةِ وَهِيَ قَتْلُ الْكَافِرِ لِلْمُسْلِمِ وَقَتْلُ الْكَافِرِ لِلْمُسْلِمِ مَعْصِيَةٌ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:أَحَدُهُمَا أَنَّ الشَّهَادَةَ قَدْ تَحْصُلُ فِي الْحَرْبِ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْقِتَالِ غَيْرِ تَعَمُّدِ الْكَافِرِ أَوْ قَتْلِهِ.

وَالثَّانِي أَنَّ الشَّهَادَةَ لَهَا جِهَتَانِ:إحْدَاهُمَا حُصُولُ تِلْكَ الْحَالَةِ الشَّرِيفَةِ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ الْمَسْئُولَةُ وَالثَّانِيَةُ قَتْلُ الْكَافِرِ وَهُوَ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَقْتُولٌ مِنْهُ فِي حِينِ جَاءَ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ.(الْبَحْثُ الثَّانِي) التَّمَنِّي بِمِثْلِ ذَلِكَ جَائِزٌ بَلْ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى قَدَّمْنَا تَمَنِّي الشَّهِيدِ فِي الْآخِرَةِ أَنْ يَرْجِعَ إلَى الدُّنْيَا وَهُوَ دَلِيلٌ لِجَوَازِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مُسْتَحِيلًا وَإِنَّمَا يَمْتَنِعُ التَّمَنِّي فِي مِثْلِ قَوْلِهِ {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء:٣٢] وَفِي الْأَحْكَامِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَوْلَا أَنَّ التَّمَنِّي حَرَامٌ لَتَمَنَّيْنَا هَذَا هَكَذَا يَعْنِي فِي أَنَّ الْعَرَبَ يَسْتَرِقُونَ فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَمَنَّى أَنَّ الْخَمْرَ لَمْ يُحَرَّمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ.(الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ) الطَّاعُونُ نَسْأَلُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ:الْمَطْعُونُ وَالْمَبْطُونُ وَالْغَرِقُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ أَخِي أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فَنَاءَ أُمَّتِي قَتْلًا فِي سَبِيلِكَ بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ «أَنَّهُ وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنْ الْجِنِّ».وَفِي رِوَايَةٍ فِي غَيْرِ الْمُسْتَدْرَكِ «إنَّمَا وَخْزٌ مِنْ الشَّيْطَانِ» وَالْوَخْزُ طَعْنٌ لَيْسَ بِنَافِذٍ.وَبِهَذَا تَبَيَّنَ مُشَارَكَتُهُ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛لِأَنَّهُ قَتْلٌ مِنْ كَافِرٍ لِمُسْلِمٍ بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفَّارِ؛لِأَنَّهُ الشَّيْطَانُ وَالشَّيْطَانُ إنَّمَا يُعَادِي الْمُسْلِمَ عَلَى

الْإِسْلَامِ فَكَانَ ذَلِكَ فِي مَعْنَى طَعْنِ أَبِي لُؤْلُؤَةَ لِعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ فِي حُكْمِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الشَّهِيدِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّمَا هُوَ شَهِيدٌ فِي الْآخِرَةِ وَيَحْصُلُ لَهُمْ تِلْكَ الْحَالَةُ الشَّرِيفَةُ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهَا.

وَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالْحَدِيثَانِ اللَّذَانِ ذَكَرْنَاهُمَا مِنْ مُسْلِمٍ فِي تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ لَيْسَ فِيهِ لَفْظٌ وَإِنَّمَا وَرُتْبَةُ الْقَتْلِ فِي الْجِهَادِ،نَعَمْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا «يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كُلَّ ذَنْبٍ إلَّا الدَّيْنَ» وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لِلْعَهْدِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي اسْمِ الشَّهِيدِ وَهُوَ شَهِيدٌ فَدَخَلَ الْخَمْسَةُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَهُوَ الْمُعْتَقَدُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْأَحَادِيثِ تُشْعِرُ بِهِ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا الِاحْتِمَالَ نَفْيًا لِلْقَطْعِ وَإِذَا كُنَّا لَا نَقْطَعُ فِي شَهِيدِ الْمَعْرَكَةِ فَفِي هَذَا أَوْلَى.وَفِي دُعَاءِ النَّبِيِّ - ﷺ - بِذَلِكَ فِي الطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ تَأْيِيدٌ لِمَا قُلْنَاهُ فِي جَوَابِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ،وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمْ يَدْعُ بِذَلِكَ ابْتِدَاءً وَإِنَّمَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ.وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّ «الطَّاعُونَ وَخْزٌ» ؛وَوَقَعَ لِلسَّلَفِ خِلَافٌ فَرُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ أَنَّهُ وَخْزٌ فَقَالَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ:إنَّهُ رَحْمَةُ رَبِّكُمْ وَدَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ وَمَوْتُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ.وَأَمَّا أَنَّهُ هَلْ يُشْتَرَطُ فِي الْمَطْعُونِ الرِّضَا أَوْ الصَّبْرُ"[4459]

---

٥٠. حب الشهادة في سبيل الله :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ،فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي،وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ،قَالَ:فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ،قَالَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ،فَقَالَ:«إِنَّ لَنَا طَلِبَةً،فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»،فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ،فَقَالَ:«لَا،إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»،فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ،وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ

[4459] - فتاوى السبكي (٢/ ٣٣٩)

إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»،فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»،قَالَ:- يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ:- يَا رَسُولَ اللهِ،جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:بَخٍ بَخٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا،قَالَ:«فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»،فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ،فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ،ثُمَّ قَالَ:لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ،قَالَ:فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ"[4460]

وَفِيهِ ثُبُوتُ الْجَنَّةِ لِلشَّهِيدِ وَفِيهِ الْمُبَادَرَةُ بِالْخَيْرِ،وَأَنَّهُ لَا يُشْتَغَلُ عَنْهُ بِحُظُوظِ النُّفُوسِ،وَفِيهِ جَوَازُ الِانْغِمَاسِ فِي الْكُفَّارِ وَالتَّعَرُّضِ لِلشَّهَادَةِ،وَهُوَ جَائِزٌ لَا كَرَاهَةَ فِيهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.[4461]

[4460] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٩)١٤٥ - (١٩٠١)

[ش (بسيسة) قال القاضي هكذا هو في جميع النسخ قال والمعروف في كتب السيرة بسبس بن عمرو ويقال ابن بشر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم قلت (أي الإمام النووي) يجوز أن يكون أحد اللفظين اسما له والآخر لقبا (عينا) أي متجسسا ورقيبا (عير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره قال في المشارق العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات قال ولا تسمى عيرا إلا إذا كانت كذلك وقال الجوهري في الصحاح العير الإبل تحمل الميرة جمعها عيرات (طلبة) أي شيئا نطلبه

(ظهره) الظهر الدواب التي تركب (ظهرانهم) أي مركوباتهم(حتى أكون أنا دونه) أي قدامه متقدما في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها (بخ بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منونا وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير (إلا رجاءة) هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاءة بالمد زنصب التاء وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين وكله صحيح معروف في اللغة ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها (قرنه) أي جعبة النشاب]

[4461] - طرح التثريب في شرح التقريب (٧/ ٢٠٦)

المبحث الثاني

أهم عوامل الهزيمة

١. الانحراف عن الصراط المستقيم:

سواء كان هذا الانحراف انحرافاً عقدياً،أو انحرافاً عملياً،يعني سواء كانت المعاصي في باب الاعتقاد:بالإلحاد في أسماء الله وصفاته..بالشرك الأكبر والشرك الأصغر،أو كان بالردة الكاملة باعتناق المذاهب الكافرة كالشيوعية،والقومية،والعلمانية،أو كان من باب الأعمال أي المعاصي العملية.

والمتبع للقرآن يجد أن هذا هو سبب هلاك الأمم:{ فكُلًّا أخذْنا بِذنْبِه فمِنْهُمْ منْ أرْسلْنا عليْهِ حاصِبًا ومِنْهُمْ منْ أخذتْهُ الصّيْحةُ ومِنْهُمْ منْ خسفْنا بِهِ الْأرْض ومِنْهُمْ منْ أغْرقْنا وما كان اللّهُ لِيظْلِمهُمْ ولكِنْ كانُوا أنْفُسهُمْ يظْلِمُون[٤٠]}[سورة العنكبوت] .فالأمم السابقة أخذت بسبب ذنوبها،وظلمها لأنفسها،والأدلة على هذا كثيرة،وما عليك إلا أن تقرأ كتاب ربك وستجد ذلك واضحاً،وعلى سبيل المثال:اقرأ قصة أصحاب سبأ،واقرأ قصة أصحاب السبت،واقرأ سبب إغراق قوم نوح،واقرأ سبب إهلاك قوم عاد وثمود وقوم لوط،وما حصل لقوم موسى،وما حصل لغيرهم من الأمم؛ فستجد الذنوب هي السبب في ذلك .

أولا:الانحراف العقدي وأثره:

سنضرب على الانحراف في العقيدة مثلين هما شاهد حي على أن الأمة إذا انحرفت اعتقاديا،فإنها تضعف وتذل:

الشاهد الأول من القرن الرابع الهجري:فقد شهد مداً رافضياً شديداً،فقامت دول رافضية في شرق الجزيرة في البحرين والأحساء قامت دولة القرامطة،وفي بلاد فارس والعراق دولة بني بويه،وفي بلاد الشام الحمدانيون- أبو فراس الحمداني وجماعته كانوا رافضة- وفي بلاد المغرب قامت الدولة العبيدية الإسماعيلية القرمطية،والتي تسمى زوراً وبهتاناً

بالدولة الفاطمية،ثم بعد ذلك انطلقت فأخذت مصر،ثم الحجاز.والقرامطة أهل البحـــرين وصلوا إلى الحجاز،وأخذوا في ذلك القرن الحجر الأسود وبقي عندهم اثنتان وعشـــرون سنة،ووصلوا إلى دمشق،و لم يبق من بلدان المســـلمين ســـالماً مـــن المـــد الرافضـــي إلا القليل،وأذكر لكم ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله في حوادث حصلت في ذلك الزمن ثم انظروا إلى تعليقاته رحمه الله على تلك الحوادث .

إنه مع قيام تلك الدول الضالة الرافضية تقدم النصارى من بلاد الروم،فأخذوا بعض بلاد المسلمين،وفعلوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان،يذكر الحافظ ابن كـــثير بعـــض هذه الحوادث،ثم يعلق عليها،فيقول في حوادث سنة ٣٥٩ للهجرة:'وفيها دخلت الـــروم أنطاكية فقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز،وسبوا من أهلها الشيوخ والأطفال نحواً مـــن عشرين ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون' ثم يعلق على ذلك بقوله:'وكل هذا في ذمة ملـــوك الأرض أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد قبحهم الله'.ثم يذكر أيضاً في حوادث سنة٣٥٩ هـــ أيضاً أن ملك الروم فعل أعظـــم مـــن ذلـــك في طرابلس الشام،وفي السواحل الشامية وحمص وغيرها،يقول رحمه الله:'ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر ما قدر عليه،ثم عاد إلى بلده ومعه من السبي نحـــو مائة ألف إنسان ما بين صبي وصبية وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمراض في جيشه واشتياقهم إلى أولادهم'.

تصوروا عدو من أعداء المسلمين يأتي ويأخذ مائة ألف أسير من المسلمين ولا يرجـــع إلا بسبب الأمراض التي فتكت بجيشه و لم يحاربه أحد من ملوك الرافضة الذين كانوا ملـــوك الأرض في ذلك الوقت،تذكروا ما ذكرناه في أول الموضوع أن من أسباب النصر القيادة المؤمنة،ويعلق ابن كثير على ما كان يفعله الروافض في ذلك القرن من سب الصحابة،وما يفعلونه من البدع والضلالات،فيقول في حوادث سنة ٣٥١ هـــ بعد أن ذكر غـــارات الروم وقتلهم ما لايحصى من المسلمين قال:' وفيها كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة الله على معاوية بن أبي سفيان،وكتبوا أيضا:ولعن الله من غصـــب فاطمـــة حقها-يعنون أبا بكر رضي الله عنه-،ومن أخرج العباس من الشورى -يعنـــون عمـــر

رضي الله عنه–ومن نفى أبا ذر–يعنون عثمان رضي الله عنه– 'يقول ابن كثير رحمه الله:' رضي الله عن الصحابة وعلى من لعنهم لعنة الله' .ثم تكلم قليلاً ثم قال:'ولما بلغ ذلك جميعه معز الدولة–يقصد ابن بويه وكان رافضياً– لم ينكره ولم يغيره قبحه الله وقبح شيعته من الروافض'.

انظروا إلى تعليق ابن كثير وهو المراد في هذه المحاضرة يقول:'لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكذلك سيف الدولة ابن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء،بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم،وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم،وتركهم أنبياءهم وعلماءهم،ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الإفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق،وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع،وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع' – ثم بعد ذلك صور حال المسلمين–' والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين وأهل هذه المدن–يقصد دمشق وحلب وحمص وحماة– التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الإفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعد خير الأنبياء'.

هذا نتيجة الانحراف العقائدي الذي استحوذ على هذه الأمة في القرن الرابع الهجري بل استحوذ على حكامها وقادتها في ذلك الوقت.

أما الشاهد الثاني:فأضربه لكم من عصرنا هذا:فقد هُزم العرب أمام اليهود رغم أنه لا تناسب بين العددين،ورغم ما كان يتشدق به طواغيت العصر في الشام،وفي مصر من أنهم سيلقون باليهود في البحر،وسيفعلون وسيفعلون،كان أولئك يرفعون لواء القومية،ولواء الاشتراكية،ويحاربون الإسلام وكان طاغوتهم الأكبر قد قتل سيد قطب رحمه الله قبل المعركة بسنة،ثم لما جاءت المعركة كانت إذاعاتهم ترفع النشيد الآتي تقول موجهة الخطاب لطائرات اليهود:

ميراج طيارك هرب خايف من نسر العرب
والميج علت واعتلت في الجو تتحدى القدر

هذا كانت تتغنى به إذاعة دمشق في ذلك الوقت،إذن كانت تلك الهزيمة الساحقة الـــتي أخذ فيها ما تبقى من فلسطين،وأخذت أضعاف أرض فلسطين مثل ســـيناء والجـــولان كانت بسبب تلك القيادات الفاجرة المنحرفة التي تسلطت على رقاب المسلمين،وكانت سبب من أهم أسباب الخذلان والهزيمة [٤٤٦٢].

---

٢. عدمُ الإنفاق في سبيل الله :

قال تعالى:{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِـــنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِـــرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِـــكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـــونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْـــرٌ كَـــرِيمٌ (١١) } [الحديد:٧ - ١١]

يأْمُرُ اللهُ تعالى عبادهُ بالإِيْمانِ بِهِ،وبِرسُولِهِ مُحمّد ﷺ،على الوجْهِ الأكْملِ،ويحثُّهُمْ علـــى الإِنْفاقِ فِي أوْجُهِ الطّاعاتِ،مِن المالِ الذي أعْطاهُمْ إِيّاهُ،وجعلهُ بيْن أيْدِيهِمْ على ســـبِيلِ الأمانةِ أوِ الإِعارةِ،لأنّ هذا المال كان مِنْ قبْلُ،فِي أيدِي أُناسٍ آخرِين،فصـــار إِلـــيْهِمْ،ثُمّ يمُوتُون هُمْ ويتْركُونهُ فيخْلُفُهُمْ فِيهِ غيْرُهُمْ

[٤٤٦٢] - انظر : أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي http://www.islamdoor.com/k/asbab.htm

ويُرغِّبُ اللهُ تعالى العباد فِي الإِنْفاق فِي أوْجُه الطّاعات،فيقُولُ لهُمْ:إنّ الذين آمنُوا وأنْفقُوا فِي أوْجُه الخيْر والبرِّ سيجْزيهمْ ربُّهُمْ جزاءً حسناً،وسيُؤْتيهمْ أجْراً كبيراً .
وأيُّ شيءٍ يمْنعُكُمْ من الإيْمان بالله،والرّسُولُ بيْن أظْهُركُمْ يدْعُوكُمْ إلى ذلك،ويُبيِّنُ لكُم الحُجج والبراهين على صحّة ما جاءكُمْ به،وقدْ أخذ اللهُ عليْكُمُ الميثاق،بما نصب لكُمْ من الأدلّة في الأنْفُس والآفاق،على وُجُوده ووحْدانيّته،هذا إنْ كُنْتُمْ بحاجة إلى دليل لتُؤْمنُوا (أوْ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمنُون بالدّليل إذا جاءكُمْ) .
واللهُ تعالى هُو الذي يُنْزلُ على عبْده ورسُوله مُحمّدٍ ﷺ آياتٍ واضحات،ليُخْرجكُمْ بها منْ ظُلُمات الكُفْر،إلى نُور الإيْمان،ومن الضّلالة إلى الهُدى،ومنْ رأْفته بكُمْ جعل لكُمْ عُقُولاً وأفْهاماً للتّفكُّر والتّدبُّر في آيات الله،وأرْسل إليْكُم الرُّسُل بالكُتُب منْهُ تعالى لتهْتدُوا بها إلى الإيْمان بالله،وإلى عمل الخيْر،والإنْفاق في سبيل الله،ليُدْخلكُمُ الجنّة ويُجنِّبكُمْ عذاب النّار،واللهُ عظيمُ الرأْفة بالعباد،واسعُ الرّحْمة لهُمْ .
وما لكُم يا أيُّها النّاسُ لا تُنْفقُون منْ أمْوالكم في سبيل الله؟ أتخْشوْن الفقْر إنْ أنْفقْتُمْ؟ أنْفقُوا ولا تخْشوْا شيْئاً،فإنّ الذي أنْفقْتُمْ أمْوالكُمْ في سبيله هُو مالكُ السّماوات والأرْض،وقدْ تكفّل برزْقكُمْ،وبالإخْلاف عليكُم { ومآ أنفقْتُمْ مِّن شيْءٍ فهُو يُخْلفُهُ } .ثُمّ بيّن تعالى تفاوت درجات المُنْفقين،بحسب تفاوُت أحْوالهم،فقال:إنّهُ لا يسْتوي منْ آمن،وهاجر،وأنْفق مالهُ في سبيل الله،قبْل فتْح مكّة (أوْ قبْل صُلْح الحديْبية على قوْلٍ)،مع منْ آمن،وأنْفق بعْد الفتْح،فالأوّلُون أعْظمُ درجةً عنْد الله،لأنّ المُؤْمنين قبْل الفتْح كانُوا قليلي العدد،وواجباتُهُمْ كثيرةٌ وثقيلةٌ،أمّا بعْد الفتْح فقد انْتشر الإسْلامُ،وأمن النّاسُ .واللهُ عليمٌ خبيرٌ بما يعْملُهُ العبادُ .
منْ هذا الذي يُنْفقُ مالهُ في سبيل الله،وطمعاً في مثُوبته ومرْضاته،مُحْتسباً أجْرهُ عنْد الله،فيعُدُّ اللهُ لهُ ذلك قرْضاً لله تعالى،فيُضاعفُ لهُ ذلك القرْض أضْعافاً مُضاعفةً،ويُثيبُهُ مثُوبةً كريمةً في جنّات عدْنٍ يوْم القيامة؟[٤٤٦٣]

[٤٤٦٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٦١، بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى في سورة محمد:{ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [محمد:٣٨]

إنّكُمْ يا أَيُّها المُسْلِمُون تُدعون إلى الإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ،وفي سبيلِ مُجاهدةِ أعْدائــه،وفي سبيلِ نصْرِ دينِه .ومن المُؤمنين منْ يبْخلُ بالإنْفاقِ في هذا السّبيلِ،ومنْ يبْخلْ فإنّما يضُــرُّ نفْسهُ بذلِك،لأنّهُ يحرمُها ثواب اللهِ،ويحْرمُها منْ رِضْوانِ اللهِ،واللهُ غنيٌّ عــنِ العبــادِ،وعنْ أمْوالِهِم وعنْ جهادِهِمْ،وهُمُ الفُقراءُ إلى فضْلِهِ وإحْسانِه،وإنما حثّهُمْ على الجِهادِ والبــذْلِ لينالوا الأجْر والمثوْبة .ثُمّ يقُولُ تعالى لهُم:إنّهُم إنْ كانُوا يتولّوْن عنْ طاعــةِ ربِّهِمْ،وعــنِ اتِّباعِ شرْعِهِ فإنه قادرٌ على إهْلاكِهِمْ،وعلى الإتْيانِ بقومٍ آخرين يُؤمِنُون باللهِ ويسْتجيبُون لأوامِرِهِ،ويعْملُون بشرائِعِه،ولا يكُونُون أمْثال منْ أهْلكهُمْ في البخْلِ والتّباطُؤِ عنِ الجِهــادِ[٤٤٦٤]
..

ـــــــــــــــــــــــــــــ

وقال تعالى:{ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:١٩٥]

بذل الأنْصارُ أمْوالهُمْ في سبيلِ اللهِ،ونُصْرةِ دِينِه،وأووا المُهاجِرين وساعدُوهُمْ،فلمّا أعزّ اللهُ الإسْلام،وكثُر ناصِرُوهُ،قال بعْضُ الأنْصارِ لبعْضٍ:لوْ أنّهُمْ أقْبلُوا على أمْوالِهِمْ فأصْلحُوها .فأنْزل اللهُ تعالى هذِهِ الآية .وفيها يُبيِّنُ اللهُ لهُمْ أنّ الإقامة على الأمْوالِ،وإصْلاحِها،وترْك الغزْوِ والجِهادِ والإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ ...فيه التّهْلُكةُ .فعــادُوا إلى الجِهــادِ،وإلى إنْفــاقِ أمْوالِهِمْ في سبيلِ اللهِ،وإعْلاءِ كلِمتِه،وفي وُجُوهِ الطّاعاتِ .وأخْبر اللهُ المُؤْمنين بأنّ تــرْك الجِهادِ،وترْك الإنْفاقِ فيهِ هلاكٌ ودمارٌ لمنْ لزِمهُ واعْتادهُ،فإذا بخل المُؤْمنُون،وقعدُوا عــنِ الجِهادِ ركِبهُمْ أعْداؤُهُمْ وأذلُّوهُمْ،فكأنّهُمْ إنّما ألْقوا بأيْدِيهِمْ إلى التّهْلُكةِ .ثُــمّ أمــر اللهُ

[٤٤٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

الْمُسْلِمِين بِأَنْ يُحْسِنُوا كُلّ أَعْمَالِهِمْ،وأَنْ يُجوِّدُوها،ويدْخُلُ فِي ذلك التّطوُعُ بالإنْفاقِ فِي سبيلِ الله لنشْرِ الدّعْوة ...[4465]

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ:غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:" إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا:هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "،قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:«فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ»[4466]

٣. أكلُ الربا:

قال تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)} [البقرة:٢٧٥ - ٢٨٠]

[4465] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4466] - سنن أبي داود (٣/ ١٢)(٢٥١٢) صحيح

بعْد أنْ ذكر اللهُ تعالى الإنفاق فِي سبيلِ اللهِ،والتّصدُّق على عبادِهِ،وإخْراج الزّكاة،شـــرع فِي عرْضِ حالِ أكِلِي الرِّبا،وأمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ،وأنْواعِ الشُّبُهات،فأخْبر عنْ حالِهِمْ يوْم خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ،يوْم البعْثِ والنُّشُورِ،فقال عنْهُم:إنّهُم لا يقُومُون مِنْ قُبُـــورِهِمْ إلاّ قِياماً مُنْكراً،كما يقُومُ المصْرُوعُ حال صرعِهِ وأكْلُهُمُ الرِّبا هذا قائِمٌ علـــى اسْـــتِحلالِهِمْ لهُ،وجعْلِهِ كالبيْعِ،فيقُولُون:كما يجُوزُ أنْ يبيع الإنْسانُ سلعتهُ التي ثمنُها عشرةُ دراهم على أنْ يرُدّها عليهِ عِشْرِين دِرْهماً بعْد سنةٍ،فالسّببُ فِي رأيِهِـــمْ واحِـــدٌ فِـــي كُـــلٍّ مِـــن الزِّيادتيْنِ،وهُو الأجلُ .

هذِهِ هِي حُجّةُ آكِلِي الرِّبا وهُمْ واهِمُون فِيما قالُوهُ،وقِياسُهُمْ فاسِدٌ،لأنّ البيْع فِيـــهِ مـــا يقْتضِي حِلّهُ لأنّهُ يُلاحظُ فِيهِ انْتِفاعُ المُشْترِي بالشّيْءِ انْتِفاعاً حقِيقيّاً .

أمّا الرِّبا فهُو إعْطاءُ الدّراهِم والْمِثْلِيّاتِ وأخْذُها مُضاعفةً فِي وقْتٍ آخر .فما يُؤخذُ مِـــن المدِينِ زِيادةً في رأسِ المالِ لا مُقابِل لهُ مِنْ عيْنٍ ولا عمل .فمـــنْ بلغـــهُ نَهْـــيُ اللهِ عـــنِ الرِّبا،فانْتهى عنِ الرِّبا فلهُ ما سلف مِمّا أكلهُ مِن الرِّبا قبْل التّحْرِيم،وما سبق لهُ أنْ أخـــذهُ أيّام الجاهِلِيّةِ،وأمْرُه مرْدُودٌ إلى اللهِ .ومنْ عاد إلى الرِّبا،بعْد أنْ بلغـــهُ النّهْـــيُ عنْهُ،فقـــد اسْتوْجب العُقُوبة مِن اللهِ،والخُلُود في نارِ جهنّم .الذي يتخبّطُهُ الشّيْطانُ – أي المصْـــرُوعُ .وكانت العربُ تعْتقِدُ أنّ الشيْطان يخْبِطُ الإنْسان فيصْرعُهُ.

مراحِلُ تحْرِيمِ الرِّبا فِي القُرْآنِ:

كما مرّ تحْرِيمُ الخمْرِ فِي مراحِل،كذلِك مرّ تحْرِيمُ الرِّبا فِي أرْبعِ مراحِل مُتدرِّجة:

١– فِي المرْحلةِ الأولى – قال الله تعالى فِي الآيةِ المكِّيّةِ { ومآ آتيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيرْبُـــو فـــي أمْوالِ الناس فلا يرْبُو عِند الله } أيْ إنّ الله تعالى يقُولُ فِي هذِهِ الآيةِ إنّ الرِّبا لا ثـــواب فِيهِ عِنْد الله .

٢– وفِي المرْحلةِ الثّانِية – ألْقى اللهُ تعالى على المُسْلمِين درْساً وعِبْرةً مِنْ سِـــيرةِ اليهُـــودِ الذين حرّم اللهُ عليهِمْ أكْل الرِّبا فأكلُوهُ،فعاقبهُمُ اللهُ بمعْصِيتِهِمْ .

فقدْ جاء فِي سُورةِ النِّساءِ { فبِظُلْمٍ مِّن الذين هادُواْ حرّمْنا عليْهِمْ طيِّبات أُحِلّـــتْ لهُـــمْ وبِصدِّهِمْ عن سبِيلِ اللهِ كثِيراً .} كما جاء بعْدها { وأخْذِهِمُ الربا وقدْ نُهُواْ عنْهُ وأكْلِهِمْ

أمْوال الناس بالباطل وأعْتدْنا للْكافرين منْهُمْ عذاباً أليماً .} وهذه العبْرةُ لا يكُونُ لها أثرٌ إلاّ إذا كان منْ ورائها نوْعٌ منْ تحْريم الرِّبا على المُسْلمين .و لمْ يكُنْ في هذا الموْضع نهْـــيٌ صريحٌ عن الرِّبا،ولكنّهُ ألْمح إليه .

٣- المرْحلةُ الثّالثةُ – و لمْ يجيء النّهْيُ الصّريحُ إلاّ في المرْحلة الثّالثة،و لمْ يكُنْ إلاّ نهْياً جزْئياً عن الرِّبا الفاحش الذي يتزايدُ حتّى يصير أضْعافاً مُضاعفةً .

{ يآ أيُّها الذين آمنُواْ لا تأْكُلُواْ الربا أضْعافاً مُّضاعفةً .} – المرْحلـــةُ الرابعـــةُ – وفـــي المرْحلة الرابعة والأخيرة خُتم التّشْريعُ القُرْآنيُّ كُلُّهُ بالنّهي الحاسم عنْ كُل ما يزيدُ علـــى رأس مال الدّيْن . { ياأيها الذين آمنُواْ اتقوا الله وذرُواْ ما بقـــي مـــن الربـــا إن كُنْـــتُمْ مُّؤْمنين،فإن لّمْ تفْعلُواْ فأْذنُواْ بحرْب مّن الله ورسُوله وإنْ تُبْتُمْ فلكُمْ رُؤُوسُ أمْـــوالكُمْ لا تظْلمُون ولا تُظْلمُون .} والله تعالى لا يُحبُّ الذين يُصرُّون على ارتكـــاب المُحرّمـــات وعلى تحْليلها،ولا يُحبُّ الذين لا يُنْفقُون أمْوالهُمْ في سبيله .

يُخْبرُ اللهُ تعالى عبادهُ أنّهُ يمْحقُ الرِّبا،ويُذْهبُ منْ يد آكله بركة ماله،ويُهْلكُ المال الـــذي دخل فيه الرِّبا،فلا ينْتفعُ به أحدٌ منْ بعْده،وأنّهُ يُضاعفُ ثواب الصّدقات،ويزيدُ المال الذي أُخْرجتْ منْهُ،ويُعاقبُ آكل الرِّبا يوْم القيامة .واللهُ لا يُحبُّ الكفُور المُتمادي في كُفْر ما أنْعم اللهُ به عليه منْ مال،لأنّهُ لا يُنْفقُ منْهُ في سبيله،ولا يُحبُّ الذين يُصرُّون على تحْليل المُحرّمات،ولا الذين يسْتمرُّون على ارْتكابها .

يمْدحُ اللهُ تعالى المُؤْمنين المُصدِّقين بما جـــاءهُمْ مـــنْ ربِّهمْ،المُقـــيمين الصّـــلاة،وعاملي الصّالحات والمُزكّين،ويُخْبرُ عنْهُمْ أنّهُ يحْفظُ لهُمْ أجْرهُمْ،وأنّهُمْ لا خوْف عليهمْ،ولا هُـــمْ يحْزنُون على ما فاتهُمْ في الدُّنيا.

يأمُرُ اللهُ تعالى عبادهُ المُؤْمنين،المُصدِّقين بما أمرهُمْ به،بالتّقْوى،فيقُولُ لهُمْ:اتّقُوا الله واتْرُكُوا ما لكُمْ عنْد النّاس من الرِّبا (أيْ ما يزيدُ على رُؤُوس أمْوالكُمْ) إنْ كُنتُمْ مُؤْمنين حقّـــاً بما شرع اللهُ لكُمْ منْ تحْليل البيْع،وتحْريم الرِّبا،وغيْر ذلك .

وأنْذر اللهُ تعالى الذين لا يمْتثلُون لأمْرِه مِنْ ترْكِ ما بقِي مِن الرِّبا عنْد النّاس،بحرْبٍ مِن اللهِ ورسُولِه لخُرُوجِهِمْ عنِ الشّرْعِ،وعدمِ خضُوعِهِمْ لهُ،فإنْ تابُوا فلهُمْ رُؤُوسُ أمْوالِهِمْ بِدُونِ زيادةٍ،لا يظْلِمُون بأخْذِ زِيادةٍ،ولا يُظْلمُون بوضْعِ شيءٍ مِنْ رأسِ المالِ .

فإنْ كان المدينُ مُعْسراً لا يجِدُ وفاء ديْنِــه،فإنّ الله يــأمُرُ الــدّائن بنظِرتِــه إلى حــينِ ميْسرتِه،وتمكُّنِه مِنْ دفْعِ ما عليه .وإنْ تصدّق الدّائنُ على المدينِ المُعْسرِ بشيءٍ مِــنْ رأسِ المالِ،أوْ برأسِ المالِ كُلِّه،فذلك خيْرٌ لهُ .[٤٤٦٧]

وقدْ وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ في الحثِّ على تنْفيسِ كُرْبةِ المُكْرُوبِ والتّجاوُزِ عنِ المُعْسرِ ..

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺإِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَــالَ:«مَــنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ:فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا،فَيَقُولُ:«مَا شَاءَ اللَّهُ» فَسَــأَلَنَا يَوْمًــا فَقَالَ:«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا:لاَ،قَالَ:«لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي،فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ،فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ،وَرَجُلٌ قَائِمٌ،بِيَدِهِ كَلُّــوبٌ مِــنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى:" إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُــغَ قَفَاهُ،ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ،وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا،فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ،قُلْتُ:مَا هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ،فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ،فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ،فَلاَ يَرْجِــعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ،فَعَادَ إِلَيْهِ،فَضَرَبَهُ،قُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ،أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا،فَــإِذَا اقْتَــرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا،فَإِذَا خَمَــدَتْ رَجَعُــوا فِيهَا،وَفِيهَــا رِجَــالٌ وَنِسَــاءٌ عُرَاةٌ،فَقُلْتُ:مَنْ هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَــى وَسَطِ النَّهَرِ - قَالَ يَزِيدُ،وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ:عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُــلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ،فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ،فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ،فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ،فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِــي فِيــهِ بِحَجَرٍ،فَيَرْجِــعُ كَمَــا كَانَ،فَقُلْتُ:مَا هَذَا؟ قَالاَ:انْطَلِقْ،فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْــرَاءَ،فِيهَا شَــجَرَةٌ

[٤٤٦٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٨٢، بترقيم الشاملة آليا)

عَظِيمَةٌ،وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ،وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا،فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ،وَأَدْخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا،فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ،وَنِسَاءٌ،وَصِبْيَانٌ،ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ،فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ،وَشَبَابٌ،قُلْتُ:طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ،فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ،قَالاَ:نَعَمْ،أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ،فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذْبَةِ،فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ،فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ،فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ،فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ،يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ،وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا،وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ،وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ،فَأَوْلاَدُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ،وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤْمِنِينَ،وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ،وَأَنَا جِبْرِيلُ،وَهَذَا مِيكَائِيلُ،فَارْفَعْ رَأْسَكَ،فَرَفَعْتُ رَأْسِي،فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ،قَالاَ:ذَاكَ مَنْزِلُكَ،قُلْتُ:دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي،قَالاَ:إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَو اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ "[٤٤٦٨]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:«الشِّرْكُ بِاللَّهِ،وَالسِّحْرُ،وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ،وَأَكْلُ الرِّبَا،وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ،وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[٤٤٦٩] .

[٤٤٦٨] - صحيح البخاري (٢/ ١٠٠)(١٣٨٦)

[ش (كلوب) الحديدة التي ينشل بها اللحم ويعلق ومثله الكلاب.(شدقه) جانب فمه.(يلتئم) يصح ويبرأ.(بفهر) بحجر ملء الكف.(فيشدخ) من الشدخ وهو كسر الشيء الأجوف.(تدهده) تدحرج]

[٤٤٦٩] - صحيح البخاري (٤/ ١٠)(٢٧٦٦) [ش (اجتنبوا) ابتعدوا.(الموبقات) المهلكات.(السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع.والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها.(بالحق) كالقتل قصاصا.(التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته.(قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا.(المحصنات) جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا.(الغافلات) البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور]

٤. انتشارُ الربا والزنا:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:" لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا،وَمُوكِلَهُ،وَشَاهِدَيْهِ،وَكَاتِبَهُ "

قَالَ:وَقَالَ:" مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا،إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٤٤٧٠]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:" نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَنْ تُشْتَرَى الثَّمَرَةُ حَتَّى تُطْعِمَ،وَقَالَ:إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ،فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ "[٤٤٧١]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:" مَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّبَا،إِلَّا أُخِذُوا بِالسَّنَةِ،وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرُّشَا،إِلَّا أُخِذُوا بِالرُّعْبِ "[٤٤٧٢].

---

٥. الركونُ إلى الدنيا:

قال تعالى في سورة التوبة:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) } [التوبة:٣٨ - ٤٠]

يُعاتبُ اللهُ تعالى منْ تخلّف،من الْمُؤْمنين،عنْ رسُول الله في غزْوة تبُوك،حين طابت الثِّمارُ والظِّلالُ،وكان الْوقْتُ حارّاً قائظاً،فيقُولُ تعالى لهُمْ:ما لكُمْ أيُّها الْمُؤْمنُون إذا دُعيْتُمْ إلى

[٤٤٧٠] - مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٣٥٨)(٣٨٠٩) صحيح لغيره

[٤٤٧١] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٣)(٢٢٦١) صحيح لغيره

[٤٤٧٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٣٥٦)(١٧٨٢٢) ضعيف

الجهاد في سبيلِ اللهِ تكاسلْتُمْ وتباطأْتُمْ،وملْتُمْ إلى الدّعةِ والإقامةِ في الظِّلِ وطيبِ الثِّمارِ؟ أفعلْتُمْ ذلك رضاً منْكُمْ بالْحياة الدُّنْيا بدلاً من الآخرة؟ وما قيمةُ الحياة الدُّنْيا وما متاعُها إلاّ قليلٌ بالنِّسْبةِ إلى الآخرةِ،إذْ ينْتظرُون الْمُؤْمنين رضْوانٌ مِنْ ربِّهِمْ ورحْمةٌ،وجنّاتٌ عرْضُها كعرْضِ السّماواتِ والأرْضِ .

وإذا لمْ تنْفرُوا مع الرّسُول ﷺ،ولمْ تخْرُجُوا معهُ إلى الجهادِ فإنّ الله سيُعذِّبُكُمْ عذاباً أليماً في الدُّنْيا،بزوالِ النِّعْمة وغيْرِها عنْكُمْ،وفي الآخرةِ في نارِ جهنّم،ولا يصْعُبُ على اللهِ أن يسْتبْدل قوْماً غيْركُمْ بكُمْ،يخفُّون لنُصْرةِ نبيِّه،ويُجاهدُون بأمْوالِهمْ وأنْفُسِهمْ في سبيلِ الله،فهُو قادرٌ على كُلِّ شيءٍ،وليْس في ذلك ما يضُرُّ الله،لأنّهُ الغنيُّ عنِ العبادِ،والنّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتاجُون إليْه .

يا أيُّها الْمُؤْمنُون إذا لمْ تنْصُرُوا رسُول اللهِ ﷺ فإنّ الله ناصرُهُ ومُؤيِّدُهُ وكافيه،كما تولّى نصْرهُ حين أخْرجهُ الّذين كفرُوا منْ مكّة حين هاجر،فخرج منْها هارِباً بصُحْبة صديقه وصاحبِه أبي بكْرٍ،فلجأ إلى غارٍ في جبلِ ثوْرٍ ثلاثة أيّامٍ،وخرجتْ قُريْشٌ في آثارِهما حتّى وقفُوا ببابِ الغارِ،فقال لهُ أبُو بكرٍ جزعاً:لوْ نظر أحدُهُمْ موْضع قدميْه لرآنا .فقال لهُ الرّسُولُ ﷺ:ما ظنُّك باثْنيْنِ اللهُ ثالثُهُما؟ فأنْزل اللهُ طُمأْنينتهُ وتأْييدهُ ونصْرهُ على رسُوله،وأيّدهُ بالملائكة تحْفظهُ وتحْميه (بجُنُودٍ لمْ تروْها)،وجعل كلمة الشِّرْك وأهْلهُ السُّفْلى،وجعل كلمة الإيمان (لا إله إلاّ اللهُ) هي الْعُلْيا،واللهُ عزيزٌ في انْتقامِه وانْتصارِه،وهُو منيعُ الْجانبِ لا يُضامُ،وهُو حكيمٌ في شرْعِه وتدْبيرِه ..[٤٤٧٣]

---

٦. حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت:

قال تعالى:{ قُلْ إنْ كانتْ لكُمُ الدّارُ الْآخرةُ عنْد اللّه خالصةً منْ دُونِ النّاسِ فتمنّوُا الْموْت إنْ كُنْتُمْ صادقين (٩٤) ولنْ يتمنّوْهُ أبدًا بما قدّمتْ أيْديهمْ واللّهُ عليمٌ بالظّالمين (٩٥) ولتجدنّهُمْ أحْرص النّاسِ على حياةٍ ومن الّذين أشْركُوا يودُّ أحدُهُمْ لوْ يُعمّرُ ألْف

[٤٤٧٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

سنةٍ وما هُو بِمُزحْزِحِهِ مِن الْعذابِ أنْ يُعمّــر واللّــهُ بصِــيرٌ بِمــا يعْملُــون (٩٦) } [البقرة/٩٤-٩٦]

قُلْ لهُمْ يا مُحمّدُ:إنْ كُنْتُمْ تعْتقدُون صدْقاً أنّكُمْ أوْلياء الله وأحبّاؤُهُ مِنْ دُون النّــاس،وأنّ النّار لنْ تمسّكُمْ إلاّ أيّاماً معْدُودات،وأنّ لكُمُ الجنّة وحْدكُمْ ومنْ عداكُمْ من الخلْقِ فــي النّارِ،فتمنّوُا الموْت الذي يُوصلُكُمْ إلى ذلك النّعيمِ الخالصِ الدّائمِ الذي لا يُنازعُكُمْ فيــه أحدٌ،واطْلُبُوا الموْت من الله .فإذا لمْ يتمنّوْهُ كانُوا غيْر صادقِين في إيمانِهِمْ .

ولنْ يتمنّى هؤُلاءِ الكافِرُون بك يا مُحمّدُ أنْ ينْزل بِهِم الموتُ أبداً،لأنّهُمْ مــا قــدّمتْ أيْديهِمْ،وما أسْلفتْ منْ سيِّئِ الأعْمالِ،فهُمْ يخافُون عقاب الله عليهــا،واللهُ يعْلــمُ أنّهُــمْ ظالِمُون في قوْلِهِمْ:إنّ الدّار الآخرة خالِصةٌ لهُم منْ دُونِ النّاسِ .

ولتجدنّ يا مُحمّدُ اليهُود أحْرص النّاسِ على البقاءِ فِي الحياةِ،حتّى لتجدنّهُمْ أحْرص مــن المُشْرِكِين الذين لا كِتاب لهُمْ،ولا يعْتقدُون بوُجُودِ بعْــثٍ وحشْــرٍ وحِسْــابٍ علــى الأعْمالِ،ولِذلك حصرُوا همّهُمْ في الحياة الدُّنيا أمّا اليهُــودُ فــإنّهُمْ يُؤْمنُــون بالبعْــث والحِساب،ويعْلمُون ما قدّمتْ أيْديْهِمْ مــنْ كُفْــرٍ وخُــرُوجٍ عــنْ أمْــرِ اللهِ،وقتْــلٍ لأنْبيائِه،ويعْلمُون ما ينْتظِرُهُمْ فِي الآخرةِ منْ مقْت الله وغضبه وشــديد عذابه،ولــذلك فإنّهُمْ يتمنّون أنْ يكُون بيْنهُمْ وبيْن يوْمِ القيامةِ أمدٌ بعيدٌ،وأنْ يعيشُوا دهْراً طوِيلاً لِكــيْلا يصِلُوا إلى العذابِ الذي ينْتظِرُهُمْ في الآخرةِ .

ويرُدُّ اللهُ تعالى عليْهِمْ قائلاً:ولوْ عاش أحدُهُمْ ألْف ســنة،فليْس ذلــك بِمُنْجِيــه مــن العذابِ،ما دام مُقيماً على كُفْرِهِ،ومُصِراً على الإتْيان بِالأعْمــالِ السّــيِّئةِ،واللهُ مُبْصِــرٌ ومُشاهِدٌ ما يعْملُون[٤٤٧٤] .

٧. إيثارُ الدنيا ومتاعها الزائل على الآخرة:

[٤٤٧٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠١، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَـا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ} [التوبة:٢٤]

أمر اللَّهُ تعالى رسُولهُ ﷺ بتوعُّدِ منْ آثر حُبّ القرابةِ والعشيرةِ والأهْلِ والتِّجارةِ والأمْوالِ والمساكِنِ ....على حُبِّ اللهِ ورسُولِه والجِهـادِ فِـي سـبِيلِه،بأنْ يتربّصُـوا أمْـر اللهِ فِيهِمْ،وينْتظِرُوا عِقابهُ ونكالهُ بِهِمْ،واللَّهُ تعالى لا يهْدِي الفاسِقِين الخارِجِين عـنْ طاعتِـهِ سواءِ السّبِيلِ ..[4475]

فى هذه الآية وضع للمسلمين فى مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم،واختيار ما يحبون وما يؤثرون..

---

٨. الركونُ إلى الظالمين:

قال تعالى:{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَـاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

ولا تسْتعِينُوا بِالظّالِمِين،ولا تعْتمِدُوا عليْهِمْ،ولا تعْتزُّوا بِهِمْ،ولا تسْتحْسِنُوا طرِيقتهُمْ (لا ترْكنُوا) فتكُونُوا كأنّكُمْ رضِيتُمْ بِأعْمالِهِمْ،فإِنْ فعلْتُمْ ذلِك أصابتْكُمُ النّارُ التِي هِي جزاءُ الظّالِمِين،ولنْ تجِدُوا يوْمئِذٍ منْ ينْصُرُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ .(والآيةُ عامّةٌ تشْملُ الظّـالِمِين دُون تفْرِيقٍ بيْن مُسْلِمٍ وكافِرٍ).[4476]

---

٩. تركُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ:

[4475] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

[4476] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

وهو سبب من أسباب الهلاك ونزول العذاب،يقول الله:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُون مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) } [هود:١١٦،١١٧].

لقدْ كان من الواجبِ أنْ يكُون من الأُممِ السّابقة التي أهْلكها اللهُ بظُلْمها،جماعةٌ منْهُمْ أُولُو عقْلٍ،ورأيٍ،وصلاحٍ،ينْهوْن المُفْسدين عنِ الإفْساد في الأرْضِ،ويأخُذُون على أيْديهمْ لكيْلا ينْزل بهمْ عذابُ الله،لأنّ منْ سُنّة الله أنْ لا يُهْلك قوْماً إلاّ إذا عمّ الفسادُ والظُّلْمُ أكْثرهُمْ .ولكنْ لمْ يكُنْ بيْن هؤُلاء الأقْوامِ الظّالمين إلاّ قلّةٌ من المُؤْمنين أكْثرهُمْ من الضُّعفاء الذين لا يُؤْخذُ برأْيهمْ،ولا تُسْمعُ كلمتُهُمْ،ولا يُقْبلُ أمْرُهُمْ ونهْيُهُمْ .أمّا الأكْثرُون فكانُوا من الظّالمين المُسْتكْبرين المُعاندين،فأصرُّوا على ظُلْمهمْ وكُفْرهمْ،واتّبعُوا حياة التّرف والفساد،فحال ذلك بيْنهُمْ وبيْن الانْتفاع بدعْوة الحقِّ،فبطرُوا واسْتكْبرُوا،وصدُّوا عنْ سبيلِ الله،وقدْ أغْرقُوا أنْفُسهُمْ في الجرائمِ التي ولّدها النّعيمُ والتّرفُ،واسْتسْلمُوا لها،ولذلك رجّحُوا ما أتوا به على اتِّباعِ الرُّسُلِ وطاعة الله فأهْلكهُمُ اللهُ،وتلْك سُنّةُ الله في خلْقه .

ليْس منْ سُنّة الله تعالى،ولا منْ عدْله في خلْقه،أنْ يُهْلك القُرى بشرْك أهْلها،ما دامُوا مُصْلحين في أعْمالهم الاجْتماعيّة،والعُمْرانيّة والمدنيّة،فلا يبْخسُون النّاس حُقُوقهُمْ،ولا يبْطشُون بالنّاس،ولا يُذلُّون لمُتكبِّرٍ جبّارٍ كقوْم فرْعوْن،ولا يرْتكبُون الفواحش ولا يقْطعُون السّبيل،ولا يأْتُون في ناديهمُ المُنْكر،بلْ لا بُدّ لهُمْ،ليحقّ عليْهمُ العذاب والهلاك،منْ أنْ يجْمعُوا إلى الشِّرْك الإفْساد في الأرْضِ،والاساءة في الأعْمالِ والأحْكامِ،وأنْ يفْعلُوا الظُّلْم المُدمِّر للْعُمْران .

فعنْ جريرٍ،قال:" لمّا نزلتْ:" وما كان ربُّك ليُهْلك الْقُرى بظُلْمٍ وأهْلها مُصْلحُون قال:" وأهْلُها يُنْصفُ بعْضُهُمْ بعْضًا "[4477].فالأُمّةُ التي يقعُ فيها الفسادُ بتعْبيد النّاسِ لغيْر الله بصُورةٍ منْ صُوره فيكُونُ فيها منْ ينْهضُ لدفْعه هي أُممٌ ناجيةٌ لا يأْخُذُها اللهُ بالعذاب

[4477] - مُعْجَمُ أَبِي يَعْلَى الْمَوْصِلِيِّ (٧٠) صحيح

والتّدْمير .أمّا الأُممُ التي لا يجدُ فيها الظّالمُون منْ يرْدعُهُم وينْهاهُم عــنِ الفســادِ فِــي الأرْضِ فإنّ سُنّة اللهِ تعالى تُحقُّ عليْها إمّا بهلاكِ الاسْتِئْصــالِ،وإمّا بهــلاكِ الانْحــلالِ والاخْتِلالِ؟ [4478]

وقال تعالى:{ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)} [المائدة:٧٨ - ٨١]

لعن اللهُ الذين كفرُوا منْ بني إسْرائيل في الزّبُورِ والإنْجيلِ،فقدْ لعن داوُدُ،عليْهِ السّلامُ،منْ اعْتدى منْهُمْ في السّبْتِ،أوْ لعن العاصِين المُعْتدين منْهُمْ عامّةً،وكذلك لعنهُمْ عيسى بنِ مرْيم،وسببُ ذلك اللّعْنِ هُو تماديهِمْ في العِصْيانِ،وتمرُّدُهُمْ عنْ طاعةِ اللهِ،وتماديهِمْ في الظُّلْمِ والفسادِ (بما كانُوا يعْتدُون) .

فقدْ كانُوا لا ينْهى أحدٌ منْهُمْ أحداً عنِ مُنْكرٍ يقْترفُهُ مهْما بلغ مــن القُــبْحِ والضّــررِ .والنّهيُ عنِ المُنْكرِ هُو حفاظُ الدِّينِ،وسياجُ الفضائلِ والآدابِ،فإذا تجرّأ المُسْتهْترُون على إظْهارِ فِسْقِهِمْ وفُجُورِهِمْ،ورآهُمُ الغوْغاء من النّاسِ قلّــدُوهُمْ فيــه،وزال قُبْحُــهُ مــنْ نُفُوسِهِمْ،وصار عادةً لهُمْ،وزال سُلْطانُ الــدِّينِ مــنْ قُلُوبِهِمْ،وتُركــتْ أحْكامُــهُ وراء ظُهُورِهِمْ،وفي ذلك إشارةٌ إلى فشْوِ المُنْكراتِ فيهِمْ .ويُقبِّحُ اللهُ تعالى سُوء فعْلِهِمْ،ويذُمُّهُمْ على اقْترافِ المُنْكراتِ،وإصْرارِهِمْ عليْها وسُكُوتِ الآخرين عنْها،ورضاهُمْ بها .

وترى يا مُحمّدُ كثيراً منْ بني إسْرائيل،يتولّوْن الذين كفــرُوا مــنْ مُشْــركِي العــربِ ويُحالفُونهُمْ عليْك،ويُحرِّضُونهُمْ على قتالك،وأنْت تُؤْمنُ باللهِ،وبما أنْزل اللهُ على رُسُــلِهِ وأنْبيائِهِ،وتشْهدُ لهُمْ بصِدْقِ الرِّسالةِ،وأُولئك لا يُؤْمنُون بكتابٍ ولا رسُولٍ،ولا يعْبُدُون اللهَ وحْدهُ،ولولا اتِّباعُ الهوى،وتزْيينُ الشّيْطانِ لهُمْ أعْمالهُمْ،ما فعلُوا ذلك،فبئْس مــا قــدّمُوهُ

[4478] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

لأنْفُسهِمْ فِي آخرتهِمْ من الأعْمالِ التي اسْتوْجبتْ سخط اللهِ،وعظيم غضبهِ عليْهِمْ،وسيُجْزوْن على ذلك شرّ الجزاءِ،وسيُحيط بهُمُ العذابُ،ولا يجدُون عنْهُ مصْرِفاً،ويخْلُدُون فِي النّارِ أبداً .

ولوْ كان هؤُلاءِ اليهُودُ،الذِين يتولّوْن الكافِرين منْ مُشْرِكي العربِ،يُؤْمنُون بالنّبِيِّ الذي يدّعُون اتِّباعهُ (وهُو مُوسى عليْهِ السّلامُ)،وما أُنْزِل إليْهِ مِن الهُدى والبيِّناتِ،لما اتّخذُوا أُولئِك الكافِرِين مِنْ عابدِي الأوْثانِ،أوْلِياءَ وأنْصاراً،ولكانتْ عقِيدتُهُمْ الدِّينِيّةُ صدّتْهُمْ عنْ ذلِك،ولكِنّ كثِيراً مِنْهُمْ مُتمرِّدُون فِي النِّفاقِ،خارِجُون عنْ حظِيرةِ الدِّينِ،ولا يُرِيدُون إلاّ الجاه والرِّياسة،ويسْعوْن إلى تحْصِيلِهِما بأيّةِ طرِيقةٍ كانتْ،وبأيّةِ وسِيلةٍ قدرُوا عليْها ..[4479]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ،فَيَقُولُ:يَا هَذَا،اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ،فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ،فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ "،ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} [المائدة:81]،ثُمَّ قَالَ:«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ،وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا،وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا» سنن أبي داود[4480] .

وعنْ حُذيْفة بْنِ الْيمانِ عنِ النّبِىِّ -ﷺ- قال « والّذِى نفْسِى بِيدِهِ لتأْمُرُنّ بِالْمعْرُوفِ ولتنْهوُنّ عنِ الْمُنْكرِ أوْ ليُوشِكنّ اللّهُ أنْ يبْعث عليْكُمْ عِقابًا مِنْهُ ثُمّ تدْعُونهُ فلا يُسْتجابُ لكُمْ »سنن الترمذى[4481] .

وعنْ أبى بكْرٍ الصِّدِّيقِ أنّهُ قال يا أيُّها النّاسُ إِنّكُمْ تقْرءُون هذِهِ الآية:{يا أيُّها الّذِين آمنُواْ عليْكُمْ أنفُسكُمْ لا يضُرُّكُم مّن ضلّ إِذا اهْتديْتُمْ إِلى اللّهِ مرْجِعُكُمْ جمِيعًا فيُنبِّئُكُم بِما كُنتُمْ

[4479] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 748، بترقيم الشاملة آليا)

[4480] - سنن أبي داود (4/ 121)(4336) حسن - تأطر : تعطفه عليه وتوجهه إليه

[4481] - برقم (2323) ومسند أحمد {389/5} برقم (24002) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشكل - (ج 14 / ص 467) برقم (37221) وهو حَدِيثٌ صحيح.

تعْملُون} (١٠٥) سورة المائدة وإِنِّى سمعْتُ رسُول اللّهِ -ﷺ- يقُولُ:« إِنّ النّاس إِذا رأوْا ظالِمًا فلمْ يأْخُذُوا على يديْهِ أوْشك أنْ يعُمّهُمُ اللّهُ بِعِقابٍ مِنْهُ »سنن الترمذى [٤٤٨٢].

وقال تعالى:{ يا أيُّها الّذِين آمنُوا عليْكُمْ أنْفُسكُمْ لا يضُرُّكُمْ منْ ضلّ إِذا اهْتديْتُمْ إِلى اللّهِ مرْجِعُكُمْ جمِيعًا فيُنبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تعْملُون (١٠٥) } [المائدة:١٠٥]

يأمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنين بأنْ يُصْلحُوا أنْفُسهُمْ،وأنْ يفْعلُوا الخيْر جهْد طاقتِهِمْ،لِيتقرّبُوا بِذلِك إلى اللهِ .ويُخبِرُهُمْ تعالى أنّهُ منْ أصْلح نفْسهُ وأمْرهُ مِنْهُمْ،فلا يضُرُّهُ فسادُ منْ فسد من النّاسِ،سواءٌ اكان قريباً أوْ بعيداً،"

فعنْ عُتْبة بْنِ أبِي حكِيمٍ،قال:حدّثنِي عمْرُو بْنُ جارِية اللّخْمِيُّ،حدّثنا أبُو أُميّة الشّعْبانِيُّ،قال:أتيْتُ أبا ثعْلبة الْخُشنِيّ،فقُلْتُ:يا أبا ثعْلبة كيْف تقُولُ فِي هذِهِ الآية:{لا يضُرُّكُمْ منْ ضلّ إِذا اهْتديْتُمْ} [المائدة:] ؟ قال:أما واللّهِ لقدْ سألْت عنْها خبِيرًا:سألْتُ رسُول اللهِ ﷺ،فقال:بلِ ائْتمِرُوا بِالْمعْرُوفِ وتناهوْا عنِ الْمُنْكرِ،حتّى إِذا رأيْت شُحًّا مُطاعًا،وهوًى مُتّبعًا،ودُنْيا مُؤْثرةً،وإِعْجاب كُلِّ ذِي رأْيٍ بِرأْيِهِ،فعليْك نفْسك،ودعْ أمْر الْعوامِّ،فإِنّ مِنْ ورائِكُمْ أيّامًا،الصّبْرُ فِيهِنّ مِثْلُ قبْضٍ على الْجمْرِ،لِلْعامِلِ فِيهِنّ مِثْلُ أجْرِ خمْسِين رجُلاً يعْملُون مِثْل عملِهِ،قال وزادنِي غيْرُهُ يا رسُول اللهِ،أجْرُ خمْسِين مِنْهُمْ ؟ قال:خمْسِين مِنْكُمْ. [٤٤٨٣]

فالمُؤْمِنُ لا يكُونُ مُهْتدِياً إذا أصْلح نفْسهُ،ولمْ يهْتمّ بِإِصْلاحِ غيْرِهِ،بِأنْ يأمُرُهُ بِالمعْرُوفِ،وينْهاهُ عنِ المُنْكرِ،فهذا فرْضٌ لا هوادة فِيهِ،ولكِنّ هذِهِ الفرِيضةُ تسْقُطُ إذا فسد النّاسُ فساداً لا يُرْجى معهُ تأثِيرُ الوعْظِ والإِرْشادِ . [٤٤٨٤]

---

١٠. الترف:

[٤٤٨٢]- برقم (٣٣٣٤) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وهو كما قال

[٤٤٨٣] – صحيح ابن حبان – (٢ / ١٠٩) (٣٨٥) صحيح

[٤٤٨٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)} [المؤمنون:٦٤ - ٦٧]

حتّى إذا جاء المُتْرفين منْهُمْ،المُنعّمين في الدُّنْيا،عذابُ الله وبأسُهُ ونقْمتهُ،إذا هُمْ يسْتغيثُون،ويصْرُخُون واغوثاهُ (يجْأرُون)،لشدة ما يُعانُون من الكُربِ والآلام .

ويُجيبُهُم الرّبُ سُبْحانهُ وتعالى قائلاً:لا تسْتغيثُوا فلنْ يُجيركُم اليوْم أحدٌ ممّا حلّ بكُمْ منْ سُوءِ العذابِ،سواءٌ اسْتغثْتُم وصرخْتُمْ،أو سكتُّم،ولنْ ينْصُركُم أحدٌ منْ اللهِ،فقدْ قُضِي الأمْرُ،ووجب العذابُ .

لقدْ كانتْ آياتُ اللهِ تُتْلى عليْكُم بالحقِّ،فكُنْتُمْ تسْتكْبِرُون عنْ سماعها،وتسْخرُون منْها،وتُعْرِضُون عنْها،وتُديرُون ظُهُوركُمْ إليْها ولذلك فلا عُذْر لكُم اليوْم .

وقدْ كُنْتُم تُعْرِضُون عن الإيْمانِ وأنْتمْ تسْتكْبِرُون بالبيْتِ الحرامِ،وتقُولُون:نحْن أهْلُ حرمِ اللهِ،وخُدّامُ بيْته،فلا يُظْهرُ عليْنا أحداً،ولا نخافُ أحداً،وكُنْتُم تسْمرُون حوْل البيْتِ،وتتناولُون القُرْآن بالُجرِ من القوْلِ (سامراً تهْجُرُون) ..[٤٤٨٥]

وقال تعالى:{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء:١٦]

في قراءةِ (أمرْنا) وجْهان:

(أمرْنا بالتّخْفيفِ - وهُو المشْهُورُ في قراءتها:فمنْ قائلٍ:إنّ المعْنى هُو أنّهُ إذا دنا تعلُّق إرادتنا بإهْلاك قرْية بعذاب الاسْتئْصال لما ظهر فيها من المعاصي،ولّما دنّستْ به نفْسها من الآثام،لمْ يُعاجلْها اللهُ تعالى بالعُقُوبة،بلْ يأْمُرُ مُتْرفيها بالطّاعة فإذا فسقُوا عنْ أمْرِ ربِّهمْ،وتمرّدُوا،حقّ عليْهمُ العذابُ لارْتكابهمُ الكبائر والفواحش،فيأْمُرُ اللهُ تعالى بتدْمير

[٤٤٨٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦١٧، بترقيم الشاملة آليا)

تلْك القرْية .(وخصّ اللهُ تعالى المُتْرفين بِالذِّكْرِ لِما جرتْ بِهِ العادةُ مِنْ أنّ العامّة تُقلِّدُهُمْ وتكُونُ تبعاً لهُمْ،فيما يفْعلُون) .

– ومِنْ قائِلٍ بلْ إِنّ المعْنى هُو:أنّ الله يُسخِّرُهُمْ لِفعْلِ الفواحِشِ فيسْتحِقُّون العُقُوبة .

– وأمّرْنا – بِتشْديدِ الميمِ – وقال ابْنُ عبّاسٍ إِنّ معْناها سلّطْنا شِرارها فعصوْا فيها،فإِذا فعلُوا ذلِك أهْلكهُمُ اللهُ بِالعذابِ .وهذا مِثْلُ قوْلِهِ تعالى { وكذلِك جعلْنا فِي كُلِّ قرْيةٍ أكابِر مُجرِمِيها } .

– وعنِ ابْنِ عبّاسٍ أيْضاً:إِنّ معْنى (أمرْنا مُتْرفِيها)،أكْثرْنا عددهُمْ فيُؤدّي ذلِك إِلى انْتِشارِ الفِسْقِ والفسادِ والكُفْرِ،فيُهْلِكُكُم اللهُ بِالعذابِ ..[٤٤٨٦]

وقال تعالى:{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)} [الأنبياء:١١ - ١٥]

لقدْ أهْلكْنا قُرىً وأُمماً كثِيرةً كانتْ ظالِمةً بِكُفْرِها وفسادِها،وتكْذِيبِها الرُّسُل،وأنْشأنا بعْدهُم أقْواماً آخرين،خلفُوهُم فِي الأرْضِ .ويتهكّمُ اللهُ تعالى عليهِم لِفِرارِهِمْ هرباً مِن العذابِ،ويأْمُرُ بِأنْ يُنادى عليْهِمْ:ارْجِعُوا إِلى ما كُنْتُمْ فِيهِ مِن النِّعْمةِ والسُّرُورِ،والعيْشِ الرّغِيدِ،والمساكِنِ الطّيِّبةِ،لِتُسْألُوا عمّا كُنْتُمْ فِيهِ مِن النّعِيمِ،وهلْ أدّيْتُمُ الشُّكْر عليْهِ للهِ تعالى .وما زالُوا يُردِّدُون تِلْك المقالة،وهِي الاعْتِرافُ بِالظُّلْمِ والكُفْرِ،حتّى حصدهُمُ اللهُ حصْداً،وأهْلكهُم وأخْمدا أنْفاسهُم،فلمْ يعُدْ يُسْمعُ لهُم حِسٌّ ..[٤٤٨٧]

---

١١. عدمُ الإنابة إلى الله :

[٤٤٨٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٤٦، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٤٨٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٤٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [الزمر:٥٤]

يسْتحثُّ اللهُ تعالى الذين أسْرفُوا على أنْفُسهِمْ إلى المُسارعة إلى التّوْبة،ويقُولُ لهُم:ارْجعُوا إلى ربِّكُمْ بالتّوْبة،والعملِ الصّالحِ قبْل أنْ تحِلّ بكُمْ نقمُهُ،وقبْل أنْ ينْزِل بكُمُ العذابُ،وحِينئذٍ لا تجِدُون من ينْصُرُكُمْ مِنْ بأسِ الله .ولا منْ يدْفعُ عنْكُمْ عذابهُ ..[4488]

١٢. ارتكابُ خمس فواحش:

عَنْ عَطَاءٍ،أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ،يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ،خِصَالٌ خَمْسٌ إِنْ بُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ،وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:إِنَّهُ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي [لَمْ تَكُنْ] مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَعُونَةِ [الْمُؤْنَةِ]،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَنْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَوَعْدَ [عَهْدَ] رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ،وَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ،وَإِذَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "،وَ [ثَمَّ] أَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَنْ يَتَجَهَّزَ لِسَرِيَّةٍ بَعَثَهُ عَلَيْهَا،فَأَصْبَحَ قَدِ اعْتَمَّ بِعِمَامَةٍ كَرَابِيسَ سَوْدَاءَ،فَنَادَاهُ فَأَدْنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ،ثُمَّ نَقَضَهَا فَعَمَّمَهُ [بِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ]،وَأَرْسَلَ مِنْ خَلْفِهِ أَرْبَعَ أَصَابِعَ أَوْ نَحْوَهَا،ثُمَّ قَالَ:«هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ فَاعْتَمَّ،فَإِنَّهُ أَعْرَبُ وَأَحْسَنُ»،ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺبِلَالًا أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ،فَحَمِدَ اللَّهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«خُذْ يَا ابْنَ عَوْفٍ،وَاغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،وَلَا تَعْتَدُوا وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،[فَهَذَا] عَهْدُ اللَّهِ وَسُنَّةُ نَبِيِّكُمْ» ﷺ "رواه ابن ماجة[4489] .

[4488] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

٣٦- مسند الشاميين للطبراني (٢/ ٣٩١)(١٥٥٨) حسن

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:" مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ،وَلَا فَشَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللهُ بِالْمَوْتِ،وَمَا طَفَّفَ قَوْمٌ الْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللهُ بِالسِّنِينَ،وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مَنَعَهُمُ اللهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَمَا جَارَ قَوْمٌ فِي حُكْمٍ إِلَّا كَانَ الْبَأْسُ بَيْنَهُمْ،أَظُنُّهُ قَالَ:وَالْقَتْلُ "[٤٤٩٠]

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ،وَمَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ،وَلَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ "[٤٤٩١]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنْ كَعْبٍ،قَالَ:" إِذَا رَأَيْتَ الْمَطَرَ قَدْ قَحَطَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزَّكَاةَ قَدْ مُنِعَتْ،وَإِذَا رَأَيْتَ السُّيُوفَ قَدْ عَرِيَتْ فَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى قَدْ ضُيِّعَ فَانْتَقَمَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ،وَإِذَا رَأَيْتَ الْوَبَاءَ قَدْ ظَهَرَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزِّنَا قَدْ فَشَا "[٤٤٩٢]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ،أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ،يُحَدِّثُ بِمِنًى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خِصَالٌ خَمْسٌ إِنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ،وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَأْخُذُ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بَيْنَهُمْ بِكِتَابِ اللهِ إِلَّا جَعَلَ بِأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "[٤٤٩٣]

قوله (إذا ابتليتم) على بناء المفعول والجزاء محذوف أي فلا خبر (لم تظهر الفاحشة) أي الزنا (بالسنين) أي بالقحط (منعوا القطر) منعوا على بناء المفعول والقطر بالسكون المطر وهو بالنصب مفعول ثان (لم يمطروا) على بناء المفعول (عهد الله) هو ما جرى بينهم وبين أهل الحرب

[٤٤٩٠] - السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٨٣)(٦٣٩٨) صحيح

[٤٤٩١] - شعب الإيمان (٥/ ٢١)(٣٠٤٠) حسن

[٤٤٩٢] - شعب الإيمان (٥/ ٢٢)(٣٠٤١) صحيح مقطوع

[٤٤٩٣] - شعب الإيمان (٥/ ٢٢)(٣٠٤٢) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺفَقَالَ:" كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا وَقَعَتْ فِيكُمْ خَمْسٌ،وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تَكُونَ فِيكُمْ أَوْ تُدْرِكُوهُنَّ:مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ يُعْمَلُ بِهَا فِيهِمْ عَلَانِيَةً،إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ،وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ،وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،وَمَا بَخَسَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ،وَشِدَّةِ الْمئونَةِ،وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،وَلَا حَكَمَ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ واسْتَفْقَدُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،وَمَا عَطَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بِأَسَهُمْ بَيْنَهُمْ " ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ:" يَتَجَهَّزْ "،فَغَدَا عَلَيْهِمْ وَقَدِ اعْتَمَّ،وَأَرْسَلَ عِمَامَتَهُ نَحْوًا مِنْ ذِرَاعٍ،فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقَضَ عِمَامَتَهُ بِيَدِهِ فَعَمَّمَهَا إِيَّاهُ،وَأَرْسَلَ مِنْهَا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ ثُمَّ قَالَ:" هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ " ثُمَّ سَرَّحَهُ "[4494]

وعن جَعْفَرَ،قَالَ:كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ مَالِكٍ يَعْنِي ابْنَ دِينَارٍ،وَكَانَتِ الْغُيُومُ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ وَلَا تُمْطِرُ،قَالَ:فَقَالَ مَالِكٌ:" تَرَوْنَ وَلَا تُوَافُونَ أَنْتُمْ تَسْتَبْطِئُونَ الْمَطَرَ وَأَنَا أَسْتَبْطِئُ الْحِجَارَةَ"[4495]

وفي رواية قَالَ:سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ:"مَا سَقَطَتْ أُمَّةٌ مِنْ عَيْنِ اللهِ إِلَّا ضَرَبَ اللهُ أَكَابِرَهَا بِالْجُوعِ "[4496]

ومن المعلوم أن العدو لن يستطيع أن يأخذ بعض ما في أيدي المسلمين من الأموال،أو من الأراضي،أو من غيرها إلا بعد أن يهزم المسلمون،ويستذلوا.

١٣. تركُ الجهاد في سبيل الله:

[4494] – شعب الإيمان (٥/ ٢٣)(٣٠٤٣) فيه ضعف

[4495] – شعب الإيمان (٥/ ٢٤)(٣٠٤٤) حسن

[4496] – شعب الإيمان (٥/ ٢٤)(٣٠٤٥) حسن

قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } [النساء]

يُبيِّنُ اللهُ تعالى للنّاسِ ما للْمُجاهِدين في سبيلِ الله،بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ،منْ عظيمِ الأجْرِ والمغْفِرة والدّرجاتِ الكريمةِ عنْد ربِّهِمْ،فقال تعالى:إنّ القاعدين عن الجهادِ – إذا كانُوا غيْر معْذُورين،وغيْر ذوي عِلّةٍ وضررٍ – لا يسْتوُون مع المُجاهِدين بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ،وإنّ الله فضّل المُجاهدين على القاعِدين،وخصّهُمْ بدرجاتٍ عظيمةٍ،وأجْرٍ كبيرٍ،وإنْ كان تعالى قدْ وعد القاعدين عن الجهاد عجْزاً،مع تمنِّي القُدْرةِ عليه،كما وعد المُجاهدين،بالخيْرِ والمثُوبةِ والعفْوِ والمغْفِرةِ لأنّ كُلاً منْهُمْ كامِلُ الإيمانِ،مُخْلِصٌ للهِ في العملِ .

وهذا الأجْرُ العظِيمُ الذي وعد اللهُ به المُجاهدين،وفضّلهُمْ به على القاعدين منْ ذوي الأعْذارِ،هُو درجاتٌ منْهُ،ومنازِلُ بعْضُها فوْق بعْضٍ من الكرامة،والمغْفِرةِ والرّحْمةِ،وكان اللهُ غفُوراً لِذُنُوبِ أوْلِيائِهِ الذين يسْتحِقُّون المغْفِرة،رحِيماً بأهْلِ طاعته .[٤٤٩٧]

ويمكن تفصيل المخاطر والعواقب السيئة لترك الجهاد فيما يلي:

١– ترك الجهاد كما مضى كبيرة من الكبائر؛ لأن فيه تعريض النفس لسخط الله عز وجل وعقابه في الدنيا والآخرة

قال تعالى:(إِلاّ تنْفِرُوا يُعذِّبْكُمْ عذاباً أليماً ويسْتبْدِلْ قوْماً غيْركُمْ ولا تضُرُّوهُ شيْئاً واللّهُ على كُلِّ شيْءٍ قديرٌ) (التوبة:٣٩).

وقال تعالى:(قُلْ إِنْ كان آباؤُكُمْ وأبْناؤُكُمْ وإِخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وعشِيرتُكُمْ وأمْوالٌ اقْترفْتُمُوها وتجارةٌ تخْشوْن كسادها ومساكِنُ ترْضوْنها أحبّ إِليْكُمْ من اللّهِ ورسُولِهِ وجِهادٍ فِي سبِيلِهِ فتربّصُوا حتّى يأْتِي اللّهُ بِأمْرِهِ واللّهُ لا يهْدِي الْقوْم الْفاسِقِين لقدْ نصركُمُ اللّهُ فِي مواطِن كثِيرةٍ ويوْم حُنيْنٍ إِذْ أعْجبتْكُمْ كثْرتُكُمْ فلمْ تُغْنِ عنْكُمْ شيْئاً

[٤٤٩٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

وضاقتْ عليْكُمُ الْأرْضُ بِما رحُبتْ ثُمّ ولّيْتُمْ مُدْبِرِين ثُمّ أنْزل اللّهُ سكِينتهُ على رسُولِهِ وعلى الْمُؤْمِنِين وأنْزل جُنُوداً لمْ تروْها وعذّب الّذِين كفرُوا وذلِك جزاءُ الْكافِرِين) (التوبة:٢٦).

ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الذين يهملون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بأنهم أقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله تعالى؛ فيقول: وأما الجهاد،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده،ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها،وفضلاً عن أن يفعلوها.وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها،وقلّ أن ترى منهم من يحْمرُّ وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته،ويبذل عرضه في نصرة دينه.وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء" [٤٤٩٨].

إذًا فترك الجهاد في سبيل الله سبب للهلاك في الدنيا والآخرة؛ وهذا ما يفهم من قوله تعالى:(وأنْفِقُوا فِي سبِيلِ اللّهِ ولا تُلْقُوا بِأيْدِيكُمْ إِلى التّهْلُكةِ وأحْسِنُوا إِنّ اللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) (البقرة:١٩٥).

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ،قَالَ:" قُلْنَا بَيْنَنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ فَلَوْ أَنَّا قُمْنَا فِيهَا،فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا هَمَمْنَا بِهِ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فِي الْإِقَامَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا وَتَرْكِ الْجِهَادِ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٤٤٩٩]

وقَالَ أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ،مَوْلًى لِكِنْدَةَ:«كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ،فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا،مِنَ الرُّومِ،وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ،أَوْ أَكْثَرُ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ،حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ،فَصَاحَ بِهِ النَّاسُ،وَقَالُوا:سُبْحَانَ اللَّهِ تُلْقِي بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ،عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ،إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ،فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ

[٤٤٩٨] - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٤٦)

[٤٤٩٩] - المعجم الكبير للطبراني (٤/ ١٧٦)(٤٠٦٠) صحيح

إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ،وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ،قُلْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا،مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ،وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ،فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا،فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ،يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ،وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]،فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ فِي أَمْوَالِنَا،وَإِصْلَاحَهَا،وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ،قَالَ:» وَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا،فِي سَبِيلِ اللَّهِ،حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ «[٤٥٠٠]

كما أن في ترك الجهاد إضعافًا لعقيدة الولاء والبراء؛ وذلك كما مر بنا سابقًا أن عقيدة الولاء والبراء تتناسب طردًا مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل؛ فكلما ركن العبد عن الجهاد ضعفت عقيدة الولاء والبراء وأصابها الوهن؛ وكفى بذلك خطرًا.

٢- بترك الجهاد يفشو الشرك والظلم ويعلو الكفر وأهله ويستعبد الناس بعضهم بعضًا،ولا يخفى ما في ذلك من الشقاء والتعاسة والفساد الكبير على الناس قال الله تعالى:(ولوْلا دفْعُ اللّهِ النّاس بعْضهُمْ ببعْضٍ لفسدتِ الْأرْضُ ولكنّ اللّه ذُو فضْلٍ على الْعالمين) (البقرة:من الآية٢٥١)،وقال تعالى:(ولوْلا دفْعُ اللّهِ النّاس بعْضهُمْ ببعْضٍ لهُدِّمتْ صوامِعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجِدُ يُذْكرُ فِيها اسْمُ اللّهِ كثِيراً ولينْصُرنّ اللّهُ منْ ينْصُرُهُ إِنّ اللّه لقوِيٌّ عزِيزٌ) (الحج:من الآية٤٠).

''فلولا أن الله يدفع الكافرين بجهاد المؤمنين،ويكبت الكفار ويذلهم لاعتلوا على المؤمنين،وإذا اعتلى الكافر جعل الناس يعبدونه هو من دون الله سبحانه وتعالى،وإذا عبد الناس من دون الله أحدًا فسدت حياتهم كلها؛ لأن الحياة لا تستقيم إلا إذا سارت على المنهج الذي رسمه الله؛ وهو المنهج الذي يحقق العبودية لله،ويحقق الأخلاق الرفيعة والفضائل الحميدة للبشر؛ فالذي رسم المنهج هو الله الذي خلق الحياة والأحياء العالم بما يصلحهم،أما إذا اعتلى كافر على الأرض وشرع للناس من عند نفسه فإنه لا يعلم جميع الأمور،وليس مبرأ من النقص والهوى،ولا يعلم ما الذي يصلح النفس البشرية فيتخبط

[٤٥٠٠] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٩)(٤٧١١) صحيح

خبط عشواء ويفسد الحياة كما هو الحال اليوم ونظرة على الواقع الذي يعتلي فيه كافر كافية بتقرير هذه الحقيقة،ولولا تخاذل المسلمين عن الجهاد الذي أمر الله بـه لصـلحت حياة الناس الذين يحكمون بشرع الله.لأجل هذا شرع رسول الله ﷺ الجهاد حـتى مـع الإمام الفاجر الذي لم يصل إلى درجة الكفر؛ لأن بقاء الإسلام وأهله يحكمهـم فاسـق خير لهم من أن يحكمهم كافر يحكم بغير ما أنزل الله؛ فإن الحكم بغير ما أنزل الله هـو سبب فساد الأرض''[٤٥٠١].

٣- ترك الجهاد سبب للذل والهوان،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:" لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ،وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ،لَا تَنْفَكُّ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ"[٤٥٠٢]

وهذا أمر مشاهد وبارز في عصرنا اليوم؛ حيث تسلط الكفار على بلدان المسلمين،وعاش المسلمون في مؤخرة الركب؛ يأكل الكفار خيراهم،ويتدخلون في شؤوهم،ويتسـلطون عليهم بأنواع الذلة والمهانة؛ وما ذاك إلا بتعطيـل أحكـام الله وتـرك الاحتكـام إلى شرعه،ومن ذلك تعطيل شعيرة الجهاد.

وإن الكفار لن يلتفتوا إلى حقوق المسلمين ويراجعوا حساباهم ويكفوا شـرهم بمجـرد الإدانات والشجب والكلام الأجوف،وإنما الذي يخيفهم ويجعلهم يكفون عن المسـلمين وديارهم هو الجهاد في سبيل الله تعالى الذي فيه كبت للكفر وأهله،وفيه إعزاز وكرامـة للمسلمين.

وهذا أمر يشهد له التاريخ كما يشهد له الواقع؛ فما من مكان علت فيه راية الجهاد إلا وشعر المسلمون فيه بالعزة،وخـاف أعـداء الله الكفـرة مـن تكـبيرات المجاهـدين وتضحياهم[٤٥٠٣].

[٤٥٠١] - ''أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية'' د.العلياني: (ص٢٥٢).

[٤٥٠٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٥١)(٥٠٠٧) حسن لغيره

[٤٥٠٣] - انظر إلى ما ذاقه الهندوس على أيدي المجاهدين الكشميريين، وانظر كيف تحركت قوافل اليهود للهجرة من فلسطين بعد أن عرفوا أن القتل ليس من نصيب المسلمين وحدهم، وفي أفغانستان كيف دفعت الإمبراطورية الروسية ثمناً باهظاً لعدوانها على المسلمين تفككت على إثره وتحولت إلى أمة متسولة لا تكاد تجد قوتها، ثم عادت لتدفع ثمناً

''فإذا وجـــد إحساس لدى أمة مـــا بضرورة دفع الشـــر عن نفسها،وضحت في سبيل ذلك براحتها ومتعها وثروتها ومالها،وبشهواتها النفسية،وبروحها وبكل عزيز لديها؛ فإنها لا يمكن أبدًا أن تظل أمة ذليلة مستضعفة،ولا يمكن لأية قوة مهما كانت أن تنـــال مـــن عزتها أو شرفها ويجب أن تتصف الأمة الشريفة العزيزة بأن تخفض الرأس أمام الحق،وأن تفضل الموت عن أن تخفض الرأس أمام الباطل،وإذا لم تتوافر لها القوة لإعلاء كلمة الحق ومساعدة الحق فلا بد على أقل تقدير أن تعمل للحافظ على الحق بكل شـــدة وبكـــل صلابة،وهذه أقل درجات الشرف''[٤٥٠٤].

ويقول سيد قطب رحمه الله:'' إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله! والذين يخشـــون العـــذاب والألم والاستشـــهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله،عليهم أن يتأملوا مـــاذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد،وفوقها الأخلاق والأعراض ..إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم مـــا تكلفهـــم الدينونة لغير الله وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار! وأخيرا فـــإن توحيـــد العبـــادة والدينونة لله وحده،ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كـــبيرة في صـــيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة.كـــي يوجـــه بجملتـــه إلى عمـــارة الأرض،وترقيتها،وترقية الحياة فيها.

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء ..وهي أنه كلما قـــام عبد من عبيد الله،ليقيم من نفسه طاغوتا يعبّد الناس لشخصه من دون الله ..احتاج هذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقات أولا لحمايـــة شخصه.وثانيا لتأليه ذاته.واحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده،وترتل ذكره،وتنفخ في صورته «العبدية» الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان «الألوهية» العظيمـــة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلـــة! وإطـــلاق التـــرانيم

غالياً لعدوانها على المسلمين في الشيشان.وفي البوسنة لما ولغ الكفار في دماء المسلمين وفرحت ملل الكفر بذلك لم يكبتوا ويكسروا إلا بعد نزول المجاهدين إلى أرض البوسنة.

[٤٥٠٤] – ''شريعة الإسلام في الجهاد'' للمودودي: (ص٣٤).

والتراتيل حولها.وحشد الجموع – بشتى الوسائل – للتسبيح باسمها،وإقامة طقوس العبادة لها ...!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا.لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل.وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد! وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال – وأرواح أحيانا وأعراض! – لو أنفق بعضها في عمارة الأرض،والإنتاج المثمر،لترقية الحياة البشرية وإغنائها،لعاد على البشرية بالخير الوفير ..ولكن هذه الطاقات والأموال – والأرواح أحيانا والأعراض – لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده وعبادة غيره من دونه ..وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض،والقيم والأخلاق.وفوق الذل والقهر والدنس والعار! وليس هذا في نظام أرضي دون نظام،وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات.! [٤٥٠٥]

٤- وفي ترك الجهاد تفويت لمصالح عظيمة في الدنيا والآخرة؛ منها الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في الآخرة،ومنها الحياة العزيزة في الدنيا وإقامة شرع الله عز وجل،والشهادة والغنائم والتربية الإيمانية التي لا تحصل إلا في أجواء الجهاد ومراغمة أعداء الله تعالى.

٥- إلقاء العداوة والفرقة بين المسلمين:وهذا أمر مشاهد؛ فما من وقت تركت فيه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا انشغلت بنفسها ووجه المسلمون حرابهم إلى صدور إخوانهم وانشغل بعضهم ببعض.

ونظرة أخرى إلى واقعنا المعاصر وما جرى فيه من تعطيل لشرع الله عز وجل – ومن ذلك الجهاد في سبيل الله – ترينا كيف حلّ بالمسلمين من الفرقة والتحزب والاختلاف بين المسلمين حيث انشغل بعضهم ببعض.وما ذاك إلا من الانحراف عن المنهج الحق

[٤٥٠٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٨٣)

وتعطيل هذه الشعيرة العظيمة وما ترتب عليها من تسلط الكفار على بـلاد المسـلمين وتأجيجهم نار الخلاف والفرقة والتحريش بين المسلمين،وهذه سنة الله عز وجل في كل من أعرض عن شرعه سبحانه ونسي حظًا مما ذكر به قال تعالى:(ومن الّذين قـالُوا إنّـا نصارى أخذْنا ميثاقهُمْ فنسُوا حظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فأغْريْنا بيْنهُمُ الْعداوة والْبغْضاء إلى يوْمِ الْقِيامةِ وسوْف يُنبِّئُهُمُ اللّهُ بِما كانُوا يصْنعُون) (المائدة:١٤)[٤٥٠٦].

١٤. الهزيمةُ النفسيةُ

قال تعالى:{ وإذْ قال مُوسى لِقوْمِهِ يا قوْمِ اذْكُرُوا نِعْمة اللّهِ عليْكُمْ إذْ جعل فِيكُمْ أنْبِيـاء وجعلكُمْ مُلُوكًا وآتاكُمْ ما لمْ يُؤْتِ أحدًا مِن الْعالمِين (٢٠) يا قـوْمِ ادْخُلُـوا الْـأرْض الْمُقدّسة الّتِي كتب اللّهُ لكُمْ ولا ترْتدُّوا على أدْبارِكُمْ فتنْقلِبُوا خاسِرِين (٢١) قالُوا يـا مُوسى إنّ فِيها قوْمًا جبّارِين وإنّا لنْ ندْخُلها حتّى يخْرُجُوا مِنْها فإنْ يخْرُجُوا مِنْهـا فإنّـا داخِلُون (٢٢) قال رجُلانِ مِن الّذِين يخافُون أنْعم اللّهُ عليْهِما ادْخُلُوا عليْهِمُ الْباب فـإذا دخلْتُمُوهُ فإنّكُمْ غالِبُون وعلى اللّهِ فتوكّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين (٢٣) } [المائدة/٢٠-٢٣]
واذْكُرْ يا مُحمّدُ لأهْلِ الكِتابِ،وأنْت تُبلِّغُهُمْ دعْوة ربِّهِم،ما قالـهُ مُوسـى لِقوْمِـهِ،وما ذكّرهُمْ بِهِ مِنْ أنْعُمِ اللهِ وأفْضالِه عليهِمْ،بِما جمعهُ لهُمْ مِنْ خيْرِ الدُّنْيا والآخِرةِ،لو اسْتقامُوا على الهُدى،فقدْ جعل الأنْبِياء فِيهِمْ،كُلّما هلك نبِـيٌّ قـام فِـيهِمْ نبِـيٌّ يـدْعُوهُم إلى اللهِ،ويُحذِّرُهُمْ نِقمهُ،وأنّهُ تعالى قدْ جعلهُمْ مُلُوكاً (بِمعْنى أنّ واحِدهُمْ يمْلِكُ نفْسهُ ومالـهُ وأهْلهُ – وقال ابْنُ عبّاسٍ:كان الرّجُلُ مِنْ بنِي إسْرائيل إذا كانتْ لهُ زوْجةٌ وخـادِمٌ ودارٌ سُمِّي ملِكاً) .وأنّهُ تعالى آتاهُمْ ما لمْ يُؤْتِ أحداً مِن العالمِين مِنْ أهْلِ زمانِهِمْ،فقدْ أنْـزل اللهُ عليْهِمْ المنّ والسّلْوى،وظلّلهُمْ بِالغمامِ فِي مسِيرتِهِمْ فِي صحْراءِ سِيناء .
ثُمّ أخْبر اللهُ تعالى أنّ مُوسى قال لِقوْمِهِ مُحرِّضاً إيّاهُمْ على الجِهـادِ لِلاسْـتِيلاءِ علـى الأرْضِ المُقدّسةِ (أي المُطّهرة مِنْ عِبادةِ الأوْثانِ لِما بعث اللهُ فِيها مِن الأنْبِياءِ الـدُّعاةِ إلى

[٤٥٠٦] - http://arabic.rt.com/forum/archive/index.php/t-٣٥٥٨٧.html

التّوحيدِ)،فقال لَهُمْ:يا قوْم سيرُوا إلى الأرْضِ المُقدّسةِ التي وعد اللهُ أباكُمْ إبْراهيم بــأنْ يُسْكن فيها منْ آمن منْ نسْله،ولا ترْجعُوا – بعْد الذي جئْتُكُمْ به من التّوْحيد والهُدى – إلى الوثنيّة والفسادِ في الأرْضِ المُقدّسةِ والبغْي واتِّباعِ الأهْواءِ،فإنّ في هــذا الرُّجُــوعِ خُسْراناً لكُمْ .

فاعْتذرُوا عنْ دُخُولِ البلد بأنّ فيهــا قوْمــاً جبّــارين ذوي خلــقٍ هائلة،وأجْســامٍ ضخْمة،وقُوى شديدةٍ،وأنّهُمْ لا يقْدرُون على قتالهِمْ،ولا يُمْكنُهُمُ الدُّخُولُ إليْها،مــا دام الجبّارُون فيها،فإنْ خرجُوا منْها،دخلها قوْمُ مُوْسى،وإلاّ فإنّهُمْ لا طاقة لهُمْ بقتالِ الجبّارين .

فلمّا نكل بنُو إسْرائيل عنْ إطاعة أمْرِ ربِّهِمْ،ومُتابعةِ مُوسى،حرّضهُمْ رجُلان،لله عليْهمــا نعْمةٌ عظيمةٌ،وهُما ممّنْ يخافُ اللهُ ويخْشى عقابــهُ،فقالا لقوْمهمــا:إنْ تــوكّلْتُمْ علــى الله،وتبعْتُمْ أمْرهُ،ووافقْتُمْ رسُولهُ،نصركُمْ ربُّكُمْ علــى أعْدائكُمْ،وأيّــدكُمْ وأظْفــركُمْ بهِمْ،ودخلْتُمُ البلد الذي كتب اللهُ لكُمُ السُّكْنى فيها،فلمْ ينْفعْ فيهِمْ هذا القوْلُ شيئاً .

ولكنّ بني إسْرائيل أصرُّوا على النُّكُولِ عنِ الجهادِ،وعلى مُخالفة رسُولهِمْ،فقالوُا لهُ:إنّهُمْ لنْ يدْخُلُوا البلد ما دام الجبّارُون مُقيمين فيها،فإذا أصرّ مُوسى على الجهاد فلْيذْهبْ هُــو وربُّهُ فلْيُقاتلا الجبّارين،وهُمْ ينْتظرُون نتيجة المعْركة قاعدين،حيْثُ هُمْ يُقيمُون .

فلمّا نكلُوا عنِ القتالِ،غضب عليْهِمْ مُوسى،واتّجه إلى الله بالدُّعاءِ،فقال:يا ربِّ ليْس بيْن هؤُلاءِ منْ يُطيعُني ويُجيبُني إلى تنْفيذِ ما أمرْتني به إلاّ نفْسي وأخي هارُون،فاقْضِ يا ربِّ بيْننا وبيْن هؤُلاءِ القوْمِ،الخارجين على طاعتك (الفاسقين)،بقضاءِ تقْضيه بيْننــا،فتحْكُم لنا بما نسْتحقُّ،وتحْكُم لهُمْ بما يسْتحقُّون (وقيل إنّ المعْنى هُو:إنّك إذا أخذْتهُمْ بالعقابِ على فِسْقهِمْ،وخُرُوجهِمْ عنْ طاعتك،فلا تُعاقبْنا معهُمْ) .

فلمّا دعا مُوسى عليهِم،حين نكلُوا عنِ الجهادِ،قضى اللهُ عليْهِمْ بأنْ حرّم عليهِمْ دُخُولها أربعين سنةً،يتيهُون خلالها في الأرْضِ (أيْ في صحْراءِ ســيناء)،ويبْقــوْن مُتحيِّــرين مُتردِّدين،لا يدْرُون مصيرهُمْ،ولا يهْتدُون إلى الخُرُوجِ ممّا هُمْ فيه،خلال المُدّة التي قضاها اللهُ عليْهِمْ .وخلال وُجُودهِمْ في صحْراءِ ســيناء تُــوُفِّي مُوســى وهارُونُ،عليْهِمــا

السّلامُ،وتولّى قيادة بني إسْرائيل يُوشعُ بْنُ نُون (وهُو منْ نسْلِ يُوسُف عليْه السّــلامُ) وجعلهُ اللهُ نبيّاً فيهمْ،وتُوُفّي أكْثرُ الجيلِ القديم،ونشأ في الصّحْراء والحُرّيّة جيــلٌ جديــدٌ .فلمّا انْقضت المُدّةُ التي قضاها اللهُ عليهمْ،خرج بهمْ يُوشعُ بْنُ نُون،وتوجّــه بهــمْ إلى إحْدى المُدُن فحاصرها وفتحها .ثُمّ سلّى اللهُ نبيّهُ مُوسى عليْه السّلامُ فقال لهُ:لا تأســفْ عليْهمْ،ولا تحْزنْ عليْهمْ فيما قضيْتُ عليْهمْ،فإنّهُمْ مُسْتحقُّون ذلك .وهذه القصّةُ تتضمّنُ تقْريعاً لليهُود،وبياناً لفضائحهمْ ومُخالفتهمْ أمْر ربّهمْ وأمْر رسُوله،ونكُولهمْ عنْ طاعتهما "[٤٠٥٧]

١٥. ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً :

وهذه المعاصي تؤثر تأثيراً مباشراً في هزيمة الأمة أمام أعدائها،فعن ابْنِ عُمر قال سمعْــتُ رسُول اللّه -ﷺ- يقُولُ « إذا تبايعْتُمْ بالْعينة وأخذْتُمْ أذْناب الْبقــر ورضــيتُمْ بــالزّرْع وتركْتُمُ الْجهاد سلّط اللّهُ عليْكُمْ ذُلاًّ لا ينْزعُهُ حتّى ترْجعُــوا إلى ديــنكُمْ » رواه أبــو داود[٤٠٥٨].

(إذا تبايعْتُمْ بالْعينة) قال الْجوْهريّ:الْعين بالْكسْر السّلف .وقال في الْقامُوس:وعــيّن أخذ بالْعينة بالْكسْر أيْ السّلف أوْ أعْطى بها .قال والتّاجر باع سلْعته بثمن إلى أجل ثُمّ اشْتراها منْهُ بأقلّ منْ ذلك الثّمن انْتهى .قال الرّافعيّ:وبيْع الْعينة هُو أنْ يبيع شيْئًا منْ غيْره بثمن مُؤجّل ويُسلّمهُ إلى الْمُشْتري ثُمّ يشْتريه قبْل قبْض الثّمن بثمن نقْد أقلّ منْ ذلــك الْقدْر انْتهى .وقدْ ذهب إلى عدم جواز بيْع الْعينة مالك وأبُو حنيفة وأحْمد،وجوّز ذلك الشّافعيّ وأصْحابه .كذا في النّيْل .وقدْ حقّق الْإمام ابْن الْقيّم عدم جواز الْعينة ونقل معْنى كلامه الْعلّامة الشّوْكانيُّ في النّيْل .(وأخذْتُمْ أذْناب الْبقر ورضيتُمْ بالزّرْع) حُمل هذا على الاشْتغال بالزّرْع في زمن يتعيّن فيه الْجهاد (وتركْتُمْ الْجهاد) أيْ الْمُتعيّن فعْله (

[٤٠٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٠٥٨] - برقم (٣٤٦٤) بإسناد صحيح لغيره

سلّط اللّه عليْكُمْ ذُلًّا) بضمِّ الذّال الْمُعْجمة وكسْرها أيْ صغارًا ومسْكنة ومنْ أنْــواع الذُّلّ الْخراج الّذي يُسلِّمُونهُ كُلّ سنة لمُلّاك الْأرْض .وسبب هذا الذُّلّ واللّه أعْلم أنّهُمْ لمّا تركُوا الْجهاد في سبيل اللّه الّذي فيه عزّ الْإسْلام وإظْهاره على كُلّ دين عاملــهُمْ اللّــه بنقيضه وهُو إنْزال الذِّلّة بهمْ فصارُوا يمْشُون خلْف أذْناب الْبقر بعْد أنْ كانُوا يرْكبُــون على ظُهُور الْخيْل الّتي هي أعزّ مكان .قالهُ في النّيْل .[٤٥٠٩]

١٦. التنازعُ والخصامُ على الدنيا والعلو في الأرض:

قال تعالى:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)} [الأنفـــال:٤٦ - ٤٨]

أمر اللهُ تعالى الُمؤْمنين بطاعته تعالى في الثّبات عنْد لقاءِ الأعْداءِ الُمشْــركين،وبالإخْلاص لهُ،وببذْلِ الجُهْد في القتال،وبذكْرِ الله كثيراً لتطْمئنّ النُّفُــوسُ وتهْدأ،ويُزايلــها الخــوْفُ والتّردُّدُ والقلقُ،كما أمرهُمْ بطاعة رسُولِ الله،والتزام أوامره،إنْجاحاً للْخُطّة العامّة للْجيْش في المعْركة .ثُمّ أمرهُمْ بألاّ يتنازعُوا،ولا يخْتلفُوا،لأنّ في التّنازُعِ والاخْــتلاف الفشــل والخُذْلان وضياع ما حقّقهُ الُمسْلمُون في المعْركة { وتذْهب رِيحُكُمْ } .ثُــمّ يُكــرِّرُ اللهُ تعالى أمْرهُ للْمُؤْمنين بالتزام الصّبْر،لأنّ الله مع الصّابرين

وعليْكُمْ،أيُّها الُمؤْمنُون،أنْ تمْتثلُوا لما أمركُمْ به ربُّكُمْ منْ طاعته تعالى،وطاعــة رسُــوله الكريم ﷺ،والتزامِ أوامرهما،ولا تكُونُوا كأعْدائكُمْ الُمشْركين الذين خرجُوا منْ مكّة بطراً بما أوتُوا من النّعْمة،ومُراءاةً للنّاسِ ليُعْجبُوا بهمْ،ويُثْنُوا عليْهمْ بالغنى والقُوّة والشّــجاعة

[٤٥٠٩]- عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)

..وهُمْ إنّما يقْصِدُون بخُرُوجِهِم الصّدّ عنْ سبيلِ اللهِ،ومنْع النّاسِ مِن الدُّخُول في الإسْلامِ،والحدّ منْ انْتِشارِ الإسْلامِ،واللهُ مُحِيطٌ بأعْمالِهِمْ،ولا يعْزُبُ عنْ عِلْمِهِ شيْءٌ،وسوْف يُجازِيهِمْ فِي الدُّنْيا والآخِرةِ .واذْكُرْ يا مُحمّدُ لقوْمِك إذْ زيّن الشّيْطانُ لِكُفّارِ قُريْشٍ أعْمالهُمْ بِوسْوستِهِ،وإذْ حسّن فِي أعْيُنِهِمْ ما جاؤُوا لهُ،وما همُّوا بِهِ،وأطْمعهُمْ بِأنّهُمْ منْصُورُون،وأنّهُمْ لا غالِب لهُمْ مِن النّاسِ،وطمْأنهُمْ إلى أنّهُمْ لنْ يُؤْتوْا فِي دِيارِهِمْ أثْناء غيْبتِهِمْ فِي قِتالِ المُسْلِمِين فِي بدْرٍ،لأنّهُ جارٌ لهُمْ ومُجِيرٌ،فلمّا التقى المُسْلِمُون بِالمُشْرِكِين،ورأى الشّيْطانُ ملائِكة اللهِ يحْمُون المُسْلِمِين،ولّى هارِباً { نكص على عقِبيْهِ }،وقال لأوْلِيائِهِ مِن الكُفّارِ:إنّهُ برِيءٌ مِنْهُمْ لأنّهُ يرى ما لا يروْن،إنّهُ يرى الملائِكة ينْصُرُون المُسْلِمِين،وإنّهُ يعْلمُ مِنْ عظمةِ اللهِ وقُوّتِهِ وسطْوّتِهِ،ما لا يعْلمُهُ أوْلِياؤُهُ،ولِذلِك فإنّهُ يخافُ اللهِ،ويعْرِفُ أنّه تعالى شدِيدُ العِقابِ ..[٤٥١٠]

---

١٧. أن يكون بأسنا بيننا :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ،أَنَّهُ قَالَ:جَاءَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو فِي بَنِي مُعَاوِيَةَ - وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْأَنْصَارِ - فَقَالَ:هَلْ تَدْرِي أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي مَسْجِدِكُمْ هَذَا؟ قَالَ:قُلْتُ:نَعَمْ،وَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ،فَقَالَ:هَلْ تَدْرِي مَا الثَّلَاثُ الَّتِي دَعَا بِهِنَّ فِيهِ؟ قُلْتُ:نَعَمْ،فَقَالَ:أَخْبِرْنِي بِهِنَّ،فَقُلْتُ:«دَعَا بِأَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،وَلَا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ فَأُعْطِيَهُمَا،وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَهَا».رواه مالك في الموطأ[٤٥١١]

وعَنْ سَعْدٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺأَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ،حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ،وَصَلَّيْنَا مَعَهُ،وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا،ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا،فَقَالَ ﷺ:" سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا،فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً،سَأَلْتُ رَبِّي:أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ

[٤٥١٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٥١١] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥٦٢)(٨٥٧٩) صحيح

فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا "[4512]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِأُمَّتِي أَرْبَعَةَ خِلَالٍ،فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا،وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً.سَأَلْتُهُ أَنْ لَا تَكْفُرَ أُمَّتِي صَفْقَةً وَاحِدَةً،فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ،فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ،فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ،فَمَنَعَنِيهَا»[4513]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ:صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺصَلَاةً فَأَطَالَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا،فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،صَلَّيْتَ صَلَاةً أَطَلْتَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا؟ قَالَ:«إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبٍ وَرَهَبٍ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ،وَزَوَى عَنِّي وَاحِدَةً،سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلَّطَ عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِي،وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[4514]

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[4515]

[4512] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٦)٢٠ - (٢٨٩٠)

[4513] - المعجم الأوسط (٢/ ٢٤١)(١٨٦٢) صحيح

[4514] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ١٣٧)(٢٧٩) صحيح - بالسنة : السنة : الجدب والقحط.

[4515] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩) [ش (زوى) معناه جمع (الكنزين الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

قلت:لقد أصبحنا كبني إسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم كما سورة الحشر:﴿ لا يُقاتلُونكُمْ جميعًا إِلّا فِي قُرًى مُّحصّنة أوْ مِن وراء جُدُرٍ بأْسُهُمْ بيْنهُمْ شدِيدٌ تحْسبُهُمْ جمِيعًا وقُلُوبُهُمْ شتّى ذلِك بِأنّهُمْ قوْمٌ لّا يعْقِلُون {١٤} ﴾

وقال تعالى:{ قُلْ هُو الْقادِرُ على أنْ يبْعث عليْكُمْ عذابًا مِنْ فوْقِكُمْ أوْ مِنْ تحْتِ أرْجُلِكُمْ أوْ يلْبِسكُمْ شِيعًا ويُذِيق بعْضكُمْ بأْس بعْضٍ انْظُرْ كيْف نُصرِّفُ الْآياتِ لعلّهُمْ يفْقهُون (٦٥) [الأنعام/٦٥]}

قُلْ يا مُحمّدُ لِقوْمِك،الذِين يُشْرِكُون مع اللهِ سِواهُ،ولا يشْكُرُونهُ على النِّعمِ الوفِيرةِ التِي أسْداها إِليْهِمْ:إِنّ الله هُو القادِرُ على أنْ يصُبّ عليْكُمُ العذاب مِنْ فوْقِكُمْ مِن السّماءِ،أوْ أنْ يبْعث عليْكُمُ العذاب مِنْ تحْتِ أرْجُلِكُمْ،فيخْسِف بِكُمُ الأرْض،أوْ يُزلْزِلها تحْت أقْدامِكُمْ،أوْ يخْلِط الأمْر عليْكُمْ مِن الالْتِباسِ،ويجْعلكُمْ مُلْتبِسِين شِيعاً وفِرقاً،مُتخالِفِين فِي الأهْواءِ والمشارِبِ،ويُسلِّط بعْضُكُمْ على بعْضٍ بِالعذابِ والقتْلِ .انْظُرْ يا مُحمّدُ كيْف نُبيِّنُ الآياتِ ونُوضِّحُها لعلّ هؤُلاءِ يفْهمُونها ويتدبّرُونها [٤٥١٦].

---

١٨. الغفلةُ عن أسلحتنا وأمتعتنا :

قال تعالى:{ وإِذا كُنت فِيهِمْ فأقمْت لهُمُ الصّلاة فلْتقُمْ طآئِفةٌ مِّنْهُم مّعك ولْيأْخُذُواْ أسْلِحتهُمْ فإِذا سجدُواْ فلْيكُونُواْ مِن ورآئِكُمْ ولْتأْتِ طآئِفةٌ أُخْرى لمْ يُصلُّواْ فلْيُصلُّواْ معك ولْيأْخُذُواْ حِذْرهُمْ وأسْلِحتهُمْ ودّ الّذِين كفرُواْ لوْ تغْفُلُون عنْ أسْلِحتِكُمْ وأمْتِعتِكُمْ فيمِيلُون عليْكُم مّيْلةً واحِدةً ولا جُناح عليْكُمْ إِن كان بِكُمْ أذًى مِّن مّطرٍ أوْ كُنتُم مّرْضى أن تضعُواْ أسْلِحتكُمْ وخُذُواْ حِذْركُمْ إِنّ اللّه أعدّ لِلْكافِرِين عذابًا مُّهِينًا} (١٠٢) سورة النساء

يُبيِّنُ اللهُ تعالى فِي هذِهِ الآيةِ النّصّ المُجْمل فِي الآيةِ السّابِقةِ فِي مشْرُوعِيّةِ قصْرِ الصّلاةِ،ويُبيِّنُ هُنا كيْفِيّة أداءِ صلاةِ الخوْفِ .

[٤٥١٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

والأئمّةُ مُتّفقُون على أنّ صلاة الخوْف منْسُوخةٌ منْ أسْباب تأخير الصّلاة .وفي صـــلاة الخوْف،إذا كان الرّسُولُ ﷺ في الجماعة وأمّ المُسْلمين في الصّلاة،تأْتي طائفةٌ من المُسْلمين فتأتمّ بالرّسُول وهُمْ بأسْـــلحتهمْ،وكامل عُدّتهمْ،وتُصـــلّي معـــهُ الرّكْعـــة الأُولى مـــنْ صلاته،ويستْمرُّ النّبيُّ واقفاً يُصلّي،وتُتمُّ الطائفةُ المُؤْتّمةُ به صلاتها بـــأداء الرّكْعـــة الثّانيـــة لنفْسها،وتُسلّمُ وتقُومُ إلى مكان الحراسة،وتأْتي الطّائفةُ الثّانيةُ التي لمْ تُصلّ،والتي كانتْ في مكان الحراسة،فتأتمُّ بالنّبيّ،وتُصلّي معهُ الرّكْعة الثّانية منْ صلاته،ثُمّ تُتمُّ الرّكْعة الثّانية منْ صلاتها لنفْسها وتُسلّمُ .ويُحذّرُ اللهُ المُؤْمنين منْ غدْر الكُفّار،ويُنبّهُ المُسْلمين ليأخُذُوا حذْرهُمْ وأسْلحتهُمْ،وليكُونُوا على أُهْبة الاسْتعْداد لمُقارعة الأعْـــداء إذا أرادُوا الغـــدْر بالمُسْلمين،وهُمْ في صلاتهمْ،واغْتنام الفُرْصة فيهمْ،وهُمْ مُنْشغلُون بها .

ثُمّ يقُولُ تعالى إنّهُ لا حرج إنْ كان هُناك مطرٌ،أوْ كان بالمُسْـــلمين مـــرضٌ أنْ يضـــعُوا أسْلحتهُمْ،ولكنْ عليهمْ أنْ يحْذرُوا ويحْتاطُوا لتكُون أسْلحتُهُمْ قريبةً مـــنْهُمْ لأخْـــذها إذا احْتاجُوا إلى اسْتعْمالها على عجلٍ .ويُذكّرُ اللهُ المُؤْمنين بأنّهُ وليُّهُمْ،وأنّهُ ناصرُهُمْ ومُخْزي الكافرين،وأنّهُ أعدّ للْكافرين عذابا مُهيناً يوْم القيامة ..[٤٥١٧]

---

١٩. تولي الكفار والثقة بوعودهم:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِـــالْمَوَدَّة وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّـــهِ رَبِّكُـــمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة وَأَنَا أَعْلَـــمُ بِمَـــا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُـــرُونَ (٢) لَـــنْ تَـــنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَـــتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ

[٤٥١٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

دُون اللَّه كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) } [الممتحنة:١ - ٥]

هذه الآيةُ نزلتْ فِي حاطبِ بْنِ أبي بلْتعة،وكان حاطبٌ مِنْ أهْلِ بدْرٍ،هاجر مِنْ مكّة،وترك فِيها مالهُ وولدهُ،ولمْ يكُنْ هُو مِنْ قُريشٍ .فلما أراد الرّسُولُ ﷺ فتح مكّة دعا ربّهُ الله أنْ يُعْمي الأخْبار عنْ قُريشٍ،حتّى يأْخذهُمْ على حِينِ غِرّة،فكتب حاطبٌ كتاباً إلى قُريشٍ يُعرِّفُهُمْ بِعزْمِ الرّسُولِ ﷺ على غزْوِهِمْ،وأرْسلهُ مع امْرأةٍ لِيتّخِذ عِنْدهُمْ يداً .وأعْلم اللهُ تعالى رسُولهُ بِالكِتابِ،فأرْسل الرّسُولُ عليّاً والزُّبيْر،وأمرهُما بالذّهاب إلى روْضةِ خاخٍ لِيأْتِياهُ بِالكِتابِ مِن المرْأة،فلمّا جاءاها طلبا منْها الكِتاب فأنْكرتْهُ،فهدّداها بِتجْرِيدِها مِنْ ثِيابِها لِتفْتِيشِها،فأخْرجتِ الكِتاب مِنْ ضفائِرِ شعْرِها .

وسأل الرّسُولُ حاطِباً عنِ الكِتابِ فاعْترف وقال لِلرّسُولُ إِنّهُ لمْ يفْعلْ ذلِك كُفْراً،ولا ارْتِداداً عنِ الإِسْلامِ،وإِنّما لِيتّخِذ بِهِ يداً عِنْد قُريشٍ يحْمِي بِها أهْلهُ وولدهُ ومالهُ .فقال الرّسُولُ لِلصّحابةِ إِنّهُ صدقكُمْ .وقال عُمرُ بنُ الخطّابِ دعْنِي أضْرِبْ عُنُق هذا المُنافِقِ .فقال الرّسُولُ:إِنّهُ قدْ شهِد بدْراً،وما يُدْرِيك لعلّ الله اطّلع على أهْلِ بدْرٍ فقال:اعْملُوا ما شِئْتُمْ فقدْ غفرْتُ لكُمْ .

ويأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمِنِين فِي هذِهِ الآيةِ بِأنْ لا يتّخِذوا الكُفّار أعْواناً وأنْصاراً لهُمْ يُبلِّغُونهُمْ أخْبار الرّسُولِ التِي لا ينْبغِي لِأعْدائِهِ أنْ يطّلِعُوا عليها،وقدْ كفر هؤُلاءِ الكُفّارُ بِالله وبِرسُولِهِ وبِكِتابِهِ،فكيْف بِكُمْ بعْد هذا تتّخِذُونهُمْ أنْصاراً تُسِرُّون إِليهِمْ بِما ينْفعُهُمْ،ويُضُرُّ الرّسُول والمُسْلِمِين،وقدْ أخْرجُوا الرّسُول وأصْحابهُ مِنْ بيْنِ أظْهُرِهِمْ كُرْهاً بِالتّوْحِيدِ،وإِخْلاصِ العِبادةِ لله،ولمْ يكُنْ لهُمْ ذنْبٌ يُؤاخذُون عليه غيْرُ ذلِك .فإِنْ كُنْتُمْ،يا أيّها المُؤْمِنُون،قدْ خرجْتُمْ مُجاهِدِين فِي سبِيلِي،وابْتِغاء مرْضاتِي،فلا تُولُوا أعْدائِي،ومنْ يفْعلْ هذِهِ المُوالاة،ويُفْشِ سِرّ الرّسُولِ لِأعْدائِهِ،فقدْ حاد عنْ قصْدِ الطّرِيقِ المُوصِلةِ إِلى الجنّةِ .إِنْ ظفِر بِكُمْ هؤُلاءِ الكافِرُون،الذِين تُلْقُون إِليهِم بِالمودّة،يُظْهِرُوا لكُمْ

عداوتَهُمْ،ويمُدُّوا إليكُمْ أيديهُمْ وألْسنتهُمْ بما يسُوؤُكُمْ:يُقاتلُونكُمْ ويشْتمُونكُمْ ويتمنّون لو تكْفرُون بربِّكُمْ فتكُونُوا على مثْلِ دينهِمْ،فكيْف تُسرُّون إلى هؤُلاءِ بالمودّة وهـــذه هـــي حالُهُمْ؟ ..ويرُدُّ اللهُ تعالى على ذلك الذي اعْتذر برغْبته في المُحافظة على أوْلاده وأمْواله في مكّة،بأنّ الأقارب والأوْلاد،الذين تُوالُون الكُفّار منْ أجْلهمْ،لــنْ ينْفعُــوكُمْ يــوْمَ القيامة،ولنْ يدْفعُوا عنْكُمْ شيئاً منْ عذاب الله،إنْ عصيْتُمُوهُ في الدُّنْيا،لأنّهُ سيفْصلُ بيْنهُمْ وبيْن أقاربهمْ في ذلك اليوْم العصيب .ويذْهلُ كُلُّ واحدٍ عمّنْ سواهُ،ويكُونُ لكُلِّ واحدٍ شأْنٌ يُغنيه في ذلك اليوْم،واللهُ بصيرٌ بما يعْملُهُ العبادُ .أفلا تأسّى هؤُلاء الذين يُــوادُّون الكافرين بأبيهمْ إبْراهيم،وأصْحابه المُؤْمنين،حين قالُوا لقوْمهم الذين كفرُوا بالله:إنّا بُــرآءُ منْكُمْ وممّا تعْبُدُون منْ دُون الله من الآلهة والأنْداد،وجحــدْنا مــا أنْــتُمْ عليــه مــن الكُفْر،وأنْكرْنا عبادتكُمْ ما تعْبُدُون منْ دُون الله منْ حجارةٍ وأوْثانٍ وأصْنامٍ،وقدْ أعْلنّــا الحرْب عليْكُمْ،فلا هوادة بيْننا وبيْنكُمْ،وســنبْقى علــى ذلــك حتّــى تُؤمنُــوا بــالله وتُوحّدُوهُ،وتعْبُدُوهُ وحْدهُ لا شريك لهُ،ولا صاحبة ولا ولد،وتتخلّصُوا منْ عبادة الأصْنام والأوْثان .ولكُمْ في أبيكُمْ إبْراهيم وقوْمه أُسْوةٌ حسنةٌ تتأسّوْن بها،وتعْتبرُون بهــا فــي مسْلككُمْ وعبادتكُمْ،ولا تسْتثْنُوا منْ تصرُّفات إبْراهيم التي تقْتدُون بها إلاّ اسْتغْفارهُ لأبيه الذي بقي مُقيماً على الكُفْر،فقدْ قال إبْراهيمُ لأبيه:إنّهُ سيسْتغْفرُ لهُ الله،وإنّهُ لا يسْتطيعُ أنْ ينْفعهُ بأكْثر منْ ذلك،فالأمْرُ مرْدُودٌ إلى مشيئة الله،إنْ شاء غفر وإنْ شاء عذّب .ولكــنّ هذا القوْل صدر عنْ إبْراهيم حينما وعدهُ أبُوهُ بأنّهُ سيُؤْمنُ بالله،ويتْبعُهُ فيما يعْبُدُ .فلمّــا تبيّن إبْراهيمُ أنّ عدُوٌ لله تبرّأ منْهُ .

وحينما فارق إبْراهيمُ والمُؤْمنُونُ معهُ قوْمهُمْ لجؤُوا إلى الله مُتضرِّعين قــائلين:ربّنــا إنّنــا اعْتمدْنا عليْك في جميع أُمُورنا (توكّلْنا)،ورجعْنا إليك بالتّوْبة منْ ذُنُوبنا،وإليك مصيرُنا حين تبْعثُنا منْ قُبُورنا للْعرْض والحساب .فاقْتدُوا بهمْ يا أيُّها المُؤْمنُون،وقُولُوا مثْل قوْلهمْ [٤٥١٨]

..

[٤٥١٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

٢٠. تولي المنافقين والتهاون معهم:

قال تعالى:{ فما لكُمْ فِي الْمُنافقين فئتيْنِ واللّهُ أرْكسهُم بما كسبُواْ أتُرِيدُون أن تهْدُواْ منْ أضلّ اللّهُ ومن يُضْلِلِ اللّهُ فلن تجِد لهُ سبِيلاً (٨٨) ودُّواْ لوْ تكْفُرُون كما كفرُواْ فتكُونُون سواء فلا تتّخِذُواْ مِنْهُمْ أوْلِياء حتّى يُهاجِرُواْ فِي سبِيلِ اللّهِ فإِن تولّوْاْ فخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حيْثُ وجدتّمُوهُمْ ولا تتّخِذُواْ مِنْهُمْ ولِيًّا ولا نصِيرًا (٨٩) } سورة النساء

فما لكُمْ أصْبحْتُمْ فِئتينِ فِي المُنافقين،واخْتلفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ،مع تظاهُرِ الأدِلّة عليه،فليْس لكُمْ أنْ تخْتلِفُوا فِي شأْنِهِمْ،وكيْف تفْترِقُون فِي شأْنِهِمْ وقدْ صرفهُمُ اللهُ عنِ الحقِّ الذِي أنْتُمْ عليهِ،بما كسبُوا مِنْ أعْمالِ الشِّرْكِ،واجْترحُوا مِن المعاصِي،وقدْ أرْكسهُمُ اللهُ،وجعلهُمْ يمْشُون على وُجُوهِهِمْ ناكِسِي الرُّؤُوسِ،بِسببِ إيغالِهِمْ فِي الضّلالِ،وبُعْدِهُمْ عنِ الحقِّ؟ وأنْتُمْ يا أيُّها المُؤْمِنُون ليْس بِاسْتِطاعتِكُمْ أنْ تُبدِّلُوا سُنن اللهِ،لأنّ مِنْ قضتْ سُننُ اللهِ فِي خلْقِهِ أنْ يكُون ضالاً عنْ طرِيقِ الحقِّ،فلنْ تجِد لهُ سبِيلاً يُمْكِنُ أنْ يصِل بِسُلُوكِها إلى الحقِّ .

وسبِيلُ الفِطْرةِ أنْ يعرِض الإِنْسانُ جمِيع أعْمالِهِ على سُننِ العقْلِ،ويتْبع ما يظْهرُ لهُ أنّهُ الحقِّ الذِي فِيهِ منْفعتُهُ فِي الدِّينِ والدُّنيا .وأكْثرُ ما يصُدُّ الإِنْسان عنْ سبِيلِ الفِطْرةِ هُو التّقْلِيدُ والغُرُورُ وظنُّ الإِنْسانِ أنّهُ ليْس هُناك ما هُو أكْملُ مِمّا هُو فِيهِ،وبِهذا يقْطعُ على نفْسِهِ طرِيق العقْلِ والنّظرِ فِي النّفْعِ والضّررِ،والحقِّ والباطِلِ .

وهؤُلاءِ لا يقْنعُون بِما هُمْ فِيهِ مِن الضّلالةِ والغوايةِ،بلْ يطْمعُون فِي أنْ تكُونُوا أمْثالهُمْ،وهُمْ يودُّون لكُمُ الضّلالة لِتسْتوُوا أنْتُمْ وإِيّاهُمْ فِيها،وما ذلِك إلاّ لِشِدّةِ عداوتِهِمْ وبُغْضِهِمْ لكُمْ،فلا تتّخِذُوا مِنْهُمْ أوْلِياء ونُصراء وأصدِقاء،حتّى يُؤْمِنُوا ويُهاجِرُوا إلى اللهِ ورسُولِهِ،لِيُثْبِتُوا صِدْق إِيمانِهِمْ،فإِنْ رفضُوا الهِجْرة (تولّوا) ولزِمُوا مواضِعهُمْ،وأظْهرُوا كُفْرهُمْ فخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حيْثُ وجدْتُمُوهُمْ،ولا تُوالُوهُمْ،ولا تسْتنْصِرُوا بِهِمْ على عدُوّ لكُمْ ما دامُوا كذلِك[٤٥١٩]

[٤٥١٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨١، بترقيم الشاملة آليا)

٢١. الظلمُ بكل أشكاله :

الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة فحسب،بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول،وتغير الأحوال،قال تعالى:{ ولقدْ أهْلكْنا الْقُرُون من قبْلكُمْ لّما ظلمُواْ وجـــاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالْبيِّنات وما كانُواْ ليُؤْمنُواْ كذلك نجْزي الْقوْم الْمُجْرمين} (١٣) سورة يونس يُخْبرُ اللهُّ تعالى أهْل مكّة بما أنْزلهُ من العذاب في الأقْوام السّابقة (القُـــرُون) الـــذين كذّبُوا رُسُلهُ فيما جاؤُوهُمْ به من البيِّنات الدّالّة على صدْقهمْ،وظلمُوا أنْفُســـهُمْ،وكفرُوا بربِّهمْ،فأهْلكهُمُ اللهُ لأنّهُمْ ما كانُوا ليُؤْمنُوا لوْ تركهُمُ اللهُّ،فاعْتبرُوا يا كُفّار قُريْشٍ،فكمـــا أهْلك اللهُ منْ قبْلكُمْ،كذلك يفْعلُ اللهُّ بالُمجْرمين منْكُمْ ..[٤٥٢٠]

لقد تحدثت كثير من الآيات في القرآن عن العدل،وحذرت من الظلم وعواقبــه،قال الله تعالى:{إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشـــاء والمنكـــر والبغي يعظكم الله لعلكم تذكرون} [النحل:٩٠]،عَنْ جَابرِ بْنِ عَبْد الله،أَنَّ رَسُـــولَ الله ﷺ،قَالَ:«اتَّقُوا الظُّلْمَ،فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقيَامَة،وَاتَّقُوا الشُّحَّ،فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَـــنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٤٥٢١].

وقال تعالى:{ وتلْك الْقُرى أهْلكْناهُمْ لّما ظلمُوا وجعلْنا لمهْلكهم مّوْعدًا} (٥٩) ســـورة الكهف

٤٥٢٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

٤٥٢١ - صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦)(٥٦ - (٢٥٧٨) [ش (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) قال القاضي قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلا حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد وبه فسروا قوله تعالى قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر أي شدائدهما ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات (واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم) قال القاضي يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر عنهم به في الدنيا بأنهم سفكوا دماءهم ويحتمل أنه هلاك الآخرة وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة قال جماعة الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده]

لقدْ أهْلك اللهُ الأُمم السّالفة:عاداً وثُمود وقوْم نُوحٍ وقوْم لُوط وأصْحاب الأيْكة ..ودمّــر قُراهُمْ بِسببِ كُفْرِهمْ،وعِنادهمْ،وجعل لِمهْلكِهِمْ وقْتاً مُعيّنـــاً (موْعـــداً)،لا يزيـــدُ ولا ينْقُصُ،فاحْذرُوا،أيُّها الْمُشْرِكُون،أنْ يُصِيبكُمْ ما أصابهُمْ إنْ تماديْتُمْ فِي تكْذِيبِ رسُـــولِكُمْ مُحمّد ﷺ .. [4522]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّـــى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ:ثُمَّ قَرَأَ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْـــذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود:١٠٢][4523]

وقال تعالى:{ وكمْ مِنْ قرْيةٍ أهْلكْناها فجاءها بأْسُنا بياتًا أوْ هُمْ قائِلُون (٤) فما كـــان دعْواهُمْ إِذْ جاءهُمْ بأْسُنا إِلّا أنْ قالُوا إِنّا كُنّا ظالِمِين (٥) فلنسْألنّ الّذِين أُرْسِـــل إِلـــيْهِمْ ولنسْألنّ الْمُرْسلِين (٦) فلنقُصّنّ عليْهِمْ بِعِلْمٍ وما كُنّا غائِبِين (٧) والْوزْنُ يوْمئِذٍ الْحـــقُّ فمنْ ثقُلتْ موازِينُهُ فأُولئِك هُمُ الْمُفْلِحُون (٨) ومنْ خفّتْ موازِينُهُ فأُولئِك الّذِين خسِرُوا أنْفُسهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يظْلِمُون (٩) ولقدْ مكّنّاكُمْ فِي الْأرْضِ وجعلْنا لكُمْ فِيها معايِش قلِيلًا ما تشْكُرُون (١٠) [الأعراف/٤-١٠] }

وكثِيرٌ مِن القُرى (أوِ البِلادِ) أهْلك اللهُ أهْلها،لِمُخالفتِهِمْ رُسُل ربِّهِمْ فِيمـــا جـــاؤُوهُمْ بِهِ،وتكْذِيبِهِمْ إِيّاهُمْ،فأخْزاهُمُ اللهُ فِي الدُّنيا،وسيُذِلُّهُمْ فِي الآخِرةِ،فكان مِنْهُمْ منْ جـــاءهُمْ أمْرُ اللهِ وبأْسُهُ ليلا (بياتاً) ومِنْهُمْ منْ جاءهُمْ نهاراً وهُمْ يسْترِيحُون وسط النّهارِ (قائِلُون)،وكِلا الوقْتينِ وقْتُ غفْلةٍ مِن النّاسِ ولهْوٍ،فعلى العاقِلِ ألاّ يغْترّ بِالدُّنْيا،وألاّ يأْمن غـــدْر اللّيالِي .

وحِين جاءهُمُ العذابُ لمْ يقُولُوا شيْئاً غيْر الاعْتِرافِ بِـــذُنُوبِهِمْ،وظُلْمِهِمْ فِيمـــا كـــانُوا عليْهِ،وشهِدُوا بِبُطْلانِهِ،وبِأنّهُم حقِيقُون بِهذا العذابِ الذِي نزل بِهِـــمْ،وأنّ الله تعـــالى لمْ يظْلِمْهُمْ .

[4522] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٩٩، بترقيم الشاملة آليا)

[4523] - صحيح البخاري (٦/ ٧٤)(٤٦٨٦)

[ش (ليملي) ليمهل.(لم يفلته) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.(وكذلك) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب.(أخذ ربك) إهلاكه وعذابه.(أخذ القرى) أخذ أهلها / هود ١٠٢ /]

يقُولُ تعالى:إنّهُ سيسْألُ الأُمم يوْم القيامة عمّا أجابُوا بِهِ رُسُلهُمْ فيما أرْسلهُمُ اللهُ بِهِ إليْهِم،وسيسْألُ الرُّسُل أيْضاً عمّا بلّغُوهُ إلى الأُممِ مِنْ رِسالاتِ ربِّهِمْ،وعمّا أجابهُمْ بِهِ أقْوامُهُمْ .

وسيقُصُّ اللهُ تعالى،في ذلك اليوْمِ،على الرُّسُلِ،وعلى أقْوامِهِمْ الذين أُرْسِلُوا إليْهِم،كُلّ ما وقع من الفريقيْنِ،قصصاً بِعِلْمٍ منْهُ مُحيط بِكُلِّ شيءٍ كان منْهُمْ،وما كان اللهُ غائباً عنْهُمْ في وقْتٍ من الأوْقاتِ،ولا في حالٍ من الأحْوالِ،بلْ كان يسْمعُ ما يقُولُون،ويُبْصِرُ ما يعْملُون،ويُحيطُ بما يُسِرُّون ويُعْلِنُون .واللهُ تعالى يزِنُ أعْمال العبادِ يوْم القيامة،ويُقدِّرُها بعدْلٍ تامٍّ (بالحقِّ)،فلا يظْلِمُ أحداً شيْئاً،فالذين ترْجحُ موازينُ أعْمالِهِم الصّالحة وحسناتُهُمْ (ثقُلتْ موازينُهُمْ) فأُولئك هُمُ الفائزُون بالنّجاة من العذاب (المُفْلِحُون)

أمّا الذين خفّتْ موازينُ أعْمالِهِم الصّالحةِ،ورجحتْ سيِّئاتُهُمْ بسببِ كُفْرِهِمْ،وكثْرة ما اجْترحُوهُ من السّيِّئات،فهؤُلاءِ يكُونُون قدْ خسرُوا أنْفُسهُمْ لأنّهُمْ حرمُوها السّعادة التي كانتْ مُسْتعِدّةً لها لوْ لمْ يُفْسِدُوا فِطْرتها .والمُؤْمِنُون على تفاوُتِ درجاتِهِمْ في الأعْمال،هُمُ المُفْلِحُون،فمنْ مات منْهُمْ فهُو مُفْلِحٌ،وإنْ عُذِّب على بعْضِ ذُنُوبِهِ بِمِقْدارِها،وإنّ الكافِرِين على تفاوُتِ دركاتِهِمْ هُمْ في خُسْرانٍ عظيمٍ .يمْتنّ اللهُ تعالى على عبادِه بأنْ جعل لهُمْ الأرْض قراراً يعيشُون ويسْتقِرُّون عليها،وجعل فيها جبالاً راسِياتٍ تسهِّلُ اسْتِقْرار النّاسِ عليها،فلا تمِيدُ بِهِمْ،وجعل فيها أنْهاراً،وأباح للنّاسِ التّمتُّع بمنافعها،وسخّر الرِّياح لإخْراجِ أرْزاقِهِمْ منْها،وجعل للنّاسِ ما يسبّبُون به ويتكسّبُون (معايش)،ولكنّ النّاس،مع جميعِ هذه النِّعمِ عليْهِمْ منْ ربِّهِمْ،قليلٌ منْهُمُ الشّكُورُ،واللهُ تعالى سيُحاسِبُهُمْ على كُفْرانِهِمْ بالنِّعمِ حساباً عسيراً .[4524]

---

٢٢. كثرةُ الفساد والإفساد:

[4524] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٩٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{ إِنّ اللّه يأْمُرُ بالْعدْل والإحْسان وإِيتاء ذِي الْقُرْبى وينْهــى عــنِ الْفحْشــاء والْمُنكرِ والْبغْيِ يعظُكُمْ لعلّكُمْ تذكّرُون } (٩٠) سورة النحل

إنّ الله تعالى يأْمُرُ فِي كِتابِهِ الذِي أنْزلهُ على رسُولِهِ ﷺ بالعدْلِ والإنْصــاف،ويندُبُ إلى الإحْسانِ والفضْلِ،ويأْمُرُ بصِلةِ الرّحْمِ وإعْطاءِ ذوِي القُرْبى ما هُمْ بحاجةٍ إليْه،وينْهى عنِ ارْتكابِ المُحرّمات والمُنْكرات والفواحِش،ما ظهر منْها وما بطن،ممّا يأْتِيهِ العبْــدُ ســرّاً وخفْيةً واللهُ تعالى إنّما يأْمُرُكُمْ بالخيْر،وينْهاكُمْ عنِ المُنْكرِ والشّرِّ،لعلّكُمْ تتــذكّرُون مــا أوْدعهُ اللهُ فِي الفِطْرةِ منْ وحْيٍ قويمٍ أصِيلٍ،فتعْملُوا بمُقْتضاهُ .[٤٥٢٥].

وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّــذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) } [الفجر:]

كان قوْمُ عادٍ أشدّاء،عِظام الخلقِ،وكانُوا خــارجِين عــنْ طاعــةِ الله تعالى،مُكــذِّبِين رُسُلهُ،فذكر تعالى كيْف أهْلكهُمْ ودمّرهُمْ،وجعلهُمْ أحادِيث لِيتّعِظ مُشْرِكُو العــربِ،ولا يغْترُّوا بِقُوّتِهِمْ ومالِهِمْ وعددِهِمْ .

وذكر اللهُ تعالى كيْف دمّر مدِينتهُمْ (إرم) ذات الأعْمدة الضّخْمة،(وقال بعْضُــهُمْ إنّ المقْصُود بِالعمدِ هُو عمدُ الخِيامِ لما كانتْ لهُمْ مدِينةٌ ثابِتةٌ باقِيةٌ يذْكُرُها اللهُ تعالى فِي كِتابِهِ الكرِيمِ) .

التِي لمْ يُخْلقْ فِي البِلادِ كُلِّها نظِيرٌ لها .(وهذا دلِيلٌ على أنّها مدِينةٌ عظِيمةٌ تمْتازُ بِأبْنِيــةٍ لا مثِيل لها)

أو لمْ تعْلمْ كيْف أنْزل اللهُ تعالى عِقابهُ بِثمُود،قوْمِ صالِحٍ،فأهْلكهُمْ جمِيعاً،وثمُودُ هؤُلاءِ هُمُ الذِين قطعُوا الصّخْر ونحتُوهُ فِي الوادِي،وبنوْا بِهِ القُصُور والأبْنِية العظِيمة .(وثمُودُ قبِيلــةٌ

[٤٥٢٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

عربِيّةٌ منْ سكّانِ وادِي القُرى،وتُعْرفُ مدينتُهُم اليوم بِمدائِنِ صالِحٍ) .أو لَمْ تعْلمْ كيْف أنْزل اللهُ تعالى عِقابهُ بِفرْعوْن ذي

.وهؤُلاءِ الذِين تقدّم ذِكْرُهُمْ مِنْ عادٍ وثمُود وفِرْعوْن ..قد اسْتعْملُوا سُلْطانهُمْ وقُوّتهُمْ فِي الطُّغْيانِ،والتّجاوزِ على حُقُوقِ العِبادِ .فانْتشر الفسادُ وعمّ البِلاد،وضجّ النّاسُ بِالشّكْوى مِن الظُّلْمِ .فصبّ اللهُ عليْهِمْ ألْواناً مُلْهِبةً مِن العذابِ والبلاءِ عِقاباً لهُمْ على ما أجْرمُوا .واللهُ سُبْحانهُ عالِمُ بِما يفْعلُهُ الطُّغاةُ،وهُو يرْصُدُ تصرُّفاتِهِمْ ويُراقِبُها،ولا يفُوتُهُ شيءٌ مِنْها،فأخذ هؤُلاءِ العُتاة الطُّغاة الكافِرِين أخْذ عزِيزٍ مُقْتدِرٍ ..[4526]

وقال تعالى:{ظهر الْفسادُ فِي الْبرِّ والْبحْرِ بِما كسبتْ أيْدِي النّاسِ لِيُذِيقهُم بعْض الّذِي عمِلُوا لعلّهُمْ يرْجِعُون} (٤١) سورة الروم

ظهر الفسادُ فِي العالِمِ بِالفِتنِ والحُروبِ والاضْطِراباتِ ..وذلِك بِسببِ ما اقترفه النّاسُ مِن الظُّلمِ،وانتِهاكِ الحُرُماتِ،والتّنكُّرِ لِلدِّينِ،ونِسيانِ يومِ الحِسابِ فانْطلقتِ النُّفُوسُ مِنْ عِقالِها،وعاثتْ فِي الأرضِ فساداً بِلا وازِعٍ ولا رقِيبٍ مِنْ ضمِيرٍ أوْ وُجدانٍ أو حياءٍ أو حِسابٍ لِدِينٍ،فأذاقهُم اللهُ جزاء بعضِ ما عمِلُوا مِن المعاصِي والآثامِ،لعلّهُمْ يرْجِعُون إلى الحقِّ،ويكُفُّون عنِ الضّلالِ والغِوايةِ،ويتذكّرُون يوم الحِسابِ ..[4527]

---

٢٣. كثرةُ الذنوب و المعاصي:

قال تعالى:{وعادًا وثمُود وقدْ تبيّن لكُمْ مِنْ مساكِنِهِمْ وزيّن لهُمُ الشّيْطانُ أعْمالهُمْ فصدّهُمْ عنِ السّبِيلِ وكانُوا مُسْتبْصِرِين (٣٨) وقارُون وفِرْعوْن وهامان ولقدْ جاءهُمْ مُوسى بِالْبيِّناتِ فاسْتكْبرُوا فِي الْأرْضِ وما كانُوا سابِقِين (٣٩) فكُلًّا أخذْنا بِذنبِهِ فمِنْهُم مّنْ

[4526] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

[4527] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٣٣١، بترقيم الشاملة آليا)

أرْسلْنا عليْه حاصبًا ومنْهُم مّنْ أخذتْهُ الصّيْحةُ ومنْهُم مّنْ خسفْنا به الْأرْض ومنْهُم مّنْ أغْرقْنا وما كان اللّهُ ليظْلمهُمْ ولكن كانُوا أنفُسهُمْ يظْلمُون} (٤٠)} سورة العنكبوت

يُخبرُ اللهُ تعالى عن الأُمم الُمكذّبة،وكيْف أهْلكهُمْ وانْتقم منْهُمْ بأنْواع من العذاب،فعادٌ،قومُ هُود (وكانُوا يسْكُنُون في الأحْقاف،في منْطقة حضرموت)،أهْلكهُمُ اللهُ بريح صرْصر عاتية،سخّرها عليهمْ سبْع ليال مُتواصلة فلمْ يتْرُكْ لُهمْ منْ باقية .

وثُمودُ قُومُ صالح (وكانُوا يسْكُنُون الحجْر قُرب وادي القُرى) أهْلكهُمُ اللهُ جميعاً بالصّيْحة،وبزلزلة الأرْض بهمْ،لّما عقرُوا النّاقة التي أخْرجها اللهُ لُهم،بناءً على طلبهمْ من صخْرة صمّاء .

وكانت العربُ تعرفُ مساكن قوم عاد،وقوم ثُمود،وتُمرُّ بها في ترْحالها،وترى آثار الدّمار والهلاك الذي نزل بها وبأهلها .وكان سببُ إهْلاكهمْ هُو ما زيّنهُ لُهم الشّيْطانُ منْ أعمال سيّئة،وعبادة غير الله تعالى،مع أنّهُمْ كانُوا قادرين على الإدراك والاستبْصار،والتّمييز بيْن الحقّ والباطل،ولذلك فلمْ يكُنْ لُهمْ عُذْرٌ في الغفْلة،وعدم التّبصُّر في العواقب .

واذْكُر لهؤلاء الُمغْترّين بأمْوالهمْ منْ قُريش كيف أهْلك اللهُ قارُون صاحب الأموال الكثيرة،إذْ خسف به وبداره وكُنُوزه الأرْض،كما أهْلك فرْعوْن ملك مصْر ووزيرهُ هامان،فقدْ جاءهُمْ مُوسى بالُحجج والبيّنات الدّالّة على صدْق رسالته،فاسْتكْبرُوا في الأرض بغير الحقّ،وأبوا أنْ يُصدّقُوهُ وأنْ يُؤمنُوا لهُ،ولْم يكُونُوا فائتين الله،ولا ناجين منْ عقابه،فهُو تعالى قادرٌ عليهمْ في كُلّ حين،وهُو عزيزٌ ذُو انتقام.

وقدْ أرسل اللهُ تعالى على كُلّ فئة لوناً منْ ألوان العذاب يتناسبُ مع عُتوّهمْ وجرائمهمْ:

- فقومُ عاد كانُوا يقُولُون:(منْ أشدُّ منّا قُوّةً)،فأرْسل اللهُ عليهمْ،ريحاً شديدة البُرُودة (صرْصراً)،بالغة العُنف والعُتُوّ (عاتيةً)،تحْملُ الحصْباء،وترميهمْ بها،فأهْلكتْهُمْ جميعاً .

وقومُ ثمود كذّبُوا رسُولهُم صالحاً،وهدّدُوهُ وعقرُوا النّاقة،فأرْسل اللهُ عليهمْ صيْحةً أخْمدتْ أنفاسهُمْ،ولْم تتْرُكْ منْهُمْ أحداً .

وقارُونُ طَغى وبغى وعصى الله،ومشى في الأرْضِ،مرحــاً فخســف اللهُ بــهِ وبِــدارِه الأرض،وأهلكهُ وكُنُوزهُ .
وفِرْعونُ وهامانُ وقومُهُما مِن القبطِ أغرقهُمُ اللهُ في صبيحةٍ واحدة،وكانتْ هذه العقُوبةُ جزاءً على ما اجترحُوهُ مِن الإجْرامِ،ولَمْ يظْلِمْهُمُ اللهُ فيما فعل بهِمْ،ولكنّهُمْ هُــمُ الــذين كانُوا يظْلِمُون أنفُسهُمْ بِالكُفْرِ،والبطرِ والعُتُوِّ والطُّغيانِ،فأوْصلُوها إلى العــذابِ والــبلاءِ الذي حلّ بها ..[٤٥٢٨]

ـــــــــــــــــــــــــــ

وقال تعالى:{ وما تأْتِيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إِلّا كانُوا عنْها مُعْرِضِين (٤) فقدْ كذّبُوا بِالْحقِّ لمّا جاءهُمْ فسوْف يأْتِيهِمْ أنْباءُ ما كانُوا بِهِ يسْتهْزِئُون (٥) ألمْ يروْا كمْ أهْلكْنا مِنْ قبْلِهِمْ مِنْ قرْنٍ مكّنّاهُمْ فِي الْأرْضِ ما لمْ نُمكِّنْ لكُمْ وأرْسلْنا السّــماء علــيْهِمْ مِــدْرارًا وجعلْنا الْأنْهار تجْرِي مِنْ تحْتِهِمْ فأهْلكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأنْشأْنا مِنْ بعْدِهِمْ قرْنًــا آخــرِين (٦)} [الأنعام]
وما تنْزِلُ على المُشْرِكين آيةٌ مِنْ آياتِ القُرْآنِ تلْفِتُ أنْظارهُمْ إلى ما أبْدعهُ الخــالِقُ مِــنْ صُنْعٍ فِي خلْقِهِ هذا الكوْن،ممّا يدُلُّ على وحدانيّتِه وتفرُّده بالأُلُوهيّة،وعلى صِــدْقِ مــا أرْسل بِهِ الأنْبِياء،إلاّ أعْرض عنْها هؤُلاءِ الكفــرةُ المُكذِّبُون،اسْــتِهزاءً غيْــر مُتــدبِّرين معْناها،ولا مُتفكِّرين فِي دلالتِها .وبِسببِ إعْراضِهِمْ عنِ النّظــرِ فــي الآيــات،والتّفكُّرِ فِيها،فقدْ كذّبُوا بِدِينِ اللهِ الحقِّ،لمّا جاءهُمْ بِهِ رسُولُ اللهِ مُحمّدٌ ﷺ،ولمْ يتريّثُوا،ولمْ يتدبّرُوا ما فِيهِ مِنْ خيْرٍ وهُدًى،وسيروْن عاقِبة التّكْذِيبِ والاسْتِهْزاءِ،حِين تنْزِلُ بِهِــمُ العُقُوبــاتُ العاجِلةُ،التِي أشارتْ إليْها الآياتُ:منْ نصْرِ الرّسُولِ،وإِظْهارِ دِينِ اللهِ،وإِعْــزازِ الإِسْــلامِ وأهْلِه ...
يلْفِتُ اللهُ تعالى أنْظار الكُفّارِ مِنْ قُريْش،المُكذِّبين بِآياتِ ربِّهِمْ ورُسُلِه،إلى الأُممِ العدِيدةِ التِي كذّبتْ قبْلهُمْ رُسُلها،فأهْلكهُمُ اللهُ،وكان تعالى قدْ مكّن لهُمْ فِي الأرْضِ أكْثر ممّــا مكّن لِهؤُلاءِ المُكذِّبِين،وأمدّهُمْ بِأمْوالٍ وبنِين،وجعلهُمْ أ:ثر قُوّةً وعِمارةً فِي الأرْضِ مِــنْ

[٤٥٢٨] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

هؤُلاءِ،وجعل السّماء تُمْطِرُهُمْ بِصُورةٍ مُتتالية،مطراً غزيراً (مدْراراً)،وفجّر لهُمْ مِن الأرْضِ ينابيع وأنْهاراً،اسْتِدْراجاً لهُمْ وإمْلاءً،ثُمّ أهْلكهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وخطاياهُمْ،وجعلهُمْ كأمْسِ الدّابِرِ .وجعل،مِنْ بعْدِ هؤُلاءِ الهالكِين،أجْيالاً أُخْرى (قرْناً آخرِين) لِيخْتبِرهُمْ،فعمِلُوا مِثْل أعْمالِ منْ كانُوا قبْلهُمْ،فاحذرُوا أيُّها المُخاطبُون أنْ يُصيبكُمْ مِثْلُما أصابهُمْ،فما أنْتُمْ بِأعزّ على اللهِ مِنْهُمْ،وأنْتُمْ أوْلى بِالعذّابِ ومُعاجلة العُقُوبةِ مِنْهُمْ،لوْلا لُطْفُ اللهِ وإحْسانُهُ .[٤٥٢٩]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ،حَدَّثَتْهُ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ،عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ:«لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ،فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا،قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ:أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ:«نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» صحيح البخاري[٤٥٣٠] .

وعَنْ مُجَاهِد،قَالَ:حَدَّثَنِي مَوْلًى لَنَا،أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:" إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ،حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ،وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ،عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ " مسند أحمد[٤٥٣١]

وعَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ،وَأَمْنَعُ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ» معجم الطبراني الكبير[٤٥٣٢]

[٤٥٢٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٩٤، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٥٣٠] - صحيح البخاري (٤/ ١٣٨)(٣٣٤٦) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٧)١ - (٢٨٨٠)

[ش (ويل) كلمة تستعمل للحزن والهلاك والمشقة.(ردم) سد.(حلق بإصبعه الإبهام والتي تليها) يعني جعل الإصبع السبابه في أصل الإبهام وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير والمعنى أنه لم يبق لمجيء الشر إلا اليسير من الزمن.(الخبث) الفسوق والفجور والمعاصي]

[٤٥٣١] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ٢٥٨)(١٧٧٢٠) حسن لغيره

[٤٥٣٢] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣١)(٢٣٧٩) صحيح

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَمْنَعُ مِنْهُ وَأَعَزُّ لَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ،إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»[4533]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَهُمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ،وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ».[4534]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا».[4535]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»[4536]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِرُ قَوْمًا فَيَعْمَلُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ بِالْمَعَاصِي وَلَا يَأْخُذُونَ عَلَى يَدَيْهِ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»[4537]

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ جَرِيرٍ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ وَأَعَزُّ فَيَدْهُنُونَ وَيَسْكُتُونَ فَلَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا أَصَابَتْهُمْ فِيهِ عُقُوبَةٌ»[4538]

وعَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ،تَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:«إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ»،قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ أَمَا فِي النَّاسِ يَوْمَئِذٍ

[4533] - جامع معمر بن راشد (١١/ ٣٤٨)(٢٠٧٢٣) صحيح

[4534] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣١)(٢٣٨١) صحيح

[4535] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢)(٢٣٨٢) صحيح

[4536] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢)(٢٣٨٣) صحيح

[4537] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢)(٢٣٨٤) صحيح

[4538] - المعجم الكبير للطبراني (٢/ ٣٣٢)(٢٣٨٥) صحيح

نَاسٌ صَالِحُونَ،قَالَ:«بَلَى»،قُلْتُ:فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟،قَالَ:«يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ»[٤٥٣٩]

وعَنْ مَيْمُونَةَ،زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَتْ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:«لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مُتَمَاسِكٌ أَمْرُهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا،فَإِذَا ظَهَرُوا خَشِيتُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»[٤٥٤٠]

٢٤. السخرية واللمز والتنابز بالألقاب

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عنِ السُّخرِيةِ مِنْ إِخْوانِهِم الْمُؤْمِنِينَ،وَالاسْتِهزاءِ بِهِمْ،وَاسْتِصْغَارِ شأْنِهِم،فَقَدْ يَكُونُ الْمُسْتَهزَأُ بهِ أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنهُ،وَالمُحتقرِ لهُ،فَيَظْلِمُ نَفْسَه بِتَحْقِيرِ مَنْ وَقَّرَهُ اللهُ .

كَمَا نَهى تَعَالَى النِّساءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ أنْ يَسْخَرْنَ مِنْ أَخَواتِهِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ،فَقَدْ تَكُونُ الْمُسْتَهزأُ بِها أَكرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاخِرةِ مِنْها .كَما أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنينَ بِألاَّ يَغْتَابَ بَعْضُهُم بَعْضاً،وَبِأَنْ لاَ يَعِيبَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً،وَبِأَنْ لا يَطْعَنَ بَعْضهُمْ في بَعْضٍ .وَاعْتَبَرَ تَعَالى لَمْزَ الإِنسَانِ أَخَاهُ كَلمْزِهِ نَفْسَهُ،وَطَعَنَهُ أَخَاه كَطَعْنِه في نَفْسِه،لأنَّ الْمُسْلمينَ جسَدٌ وَاحدٌ إِنِ اشتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعى لَهُ سَائرُ الجَسَدِ بالسَّهرِ وَالحمى .كَما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وأمرُ اللهِ تَعَالى الْمُؤْمنِينَ بأنْ لاَ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضاً بلَقَبٍ يَسُوؤُهُ أو يَكْرَهُهُ،كَأنْ يَقُولَ مُسْلمٌ لأخِيهِ الْمُسْلمِ:يا فَاجرُ،أَوْ يَا غَادرُ أو يَا عَدُوَّ اللهِ أو يَا مُنَافِقُ ...

وَبِئْسَتِ الصِّفَةُ،وَبِئْسَ الاسْمُ لِلْمُؤْمِنينَ أَنْ يُذكَرُوا بالفُسُوقِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ في الإِيمَانِ .وَمَن لم يَتُبْ مِنْ نَبْزِهِ أَخَاهُ الْمُؤمِنَ بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ،وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ لَمزِهِ إِخْوَتَهُ،وَمِنْ سُخْرِيَتِهِ

[٤٥٣٩] - المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ٣٢٥)(٧٤٧) صحيح لغيره

[٤٥٤٠] - المعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٢٣)(٥٥) صحيح

منْهُم ..فأولئكَ هُمُ الظَّالِمونَ الذينَ ظَلَمُوا أنفُسَهم فَأكْسَبُوها عِقَابَ اللهِ بِعِصْيَانِهِم إيَّاهُ .[4541]

٢٥. اتباعُ الشهوات:

قال تعالى:{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبيِّن لكُمْ ويهْدِيكُمْ سُنن الّذِين مِن قبْلِكُمْ ويتُوب علـيْكُمْ واللّـهُ علِيمٌ حكِيمٌ (٢٦) واللّهُ يُرِيدُ أن يتُوب عليْكُمْ ويُرِيدُ الّذِين يتّبِعُون الشّهواتِ أن تمِيلُواْ ميْلاً عظِيمًا (٢٧)} سورة النساء .

إنّ الله يُرِيدُ أنْ يُبيِّن لكُمْ،أيُّها المُؤْمِنُون،ما أحلّ لكُمْ،وما حرّم عليْكُم،وأنْ يهْـدِيكُمْ إلى سُننِ منْ كانُوا قبْلكُمْ،وطرائِقِهِمُ الحمِيدةُ،وإلى اتِّباعِ شرائِعِهِ التِي يُحِبُّها ويرْضاها،ويُرِيدُ أنْ يتُوب عليْكُم مِمّا ارْتكبْتُمْ مِن الإِثْمِ والمحارِمِ،واللهُ علِيمٌ بِما تعْملُون،حكِيمٌ فِي شـرْعِهِ وقدرِهِ .

واللهُ يُرِيدُ بِما شرعهُ لكُمْ مِن الأحْكامِ أنْ يُبيِّن لكُمْ ما فِيهِ مصالِحُكُمْ ومنـافِعكُمْ،وأنْ تهْتدُوا وتعْملُوا صالِحاً،وتتّبِعُوا شرْعهُ لِيتُوب عليْكُمْ،ويُكفِّر عنْكُمْ سيِّئاتِكُمْ،ويُرِيدُ أتْبـاعُ الشّيْطانِ الضّالُون أنْ تمِيلُوا عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ ميْلاً عظِيماً ..[4542]

٢٦. التحاكمُ إلى الطاغوت (مهما كان نوعه):

قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِـنْ قَبْلِـكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَـافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَـاءُوكَ

[4541] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4542] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١٩، بترقيم الشاملة آليا)

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)} [النساء: ٦٠ - ٦٣]

يُنْكِرُ اللهُ تعالى على منْ يدّعِي الإيمان باللهِ،وكُتُبِه ورُسُلِه،وهُو معْ ذلك يُرِيدُ أنْ يتحاكم في فصْلِ الخُصُوماتِ إلى غيْرِ كتابِ اللهِ،وسُنّةِ نبيِّه .

ويذُمُّ اللهُ تعالى الذين يعْدلُون عنْ شرْعِ اللهِ وسُنّة نبيِّه،إلى ما سواهُما من الباطِلِ (وهُو المُرادُ هُنا بالطّاغُوتِ)،وقدْ أُمرُوا بأنْ يكْفُرُوا بِه،وبحُكْمِ الجاهليّة،ولكنّ الشّيْطان يدْعُوهُمْ الى اتِّباعِه ليُضِلّهُمْ عنْ دِينِهِمْ وشرْعِهِمْ وهُدى ربِّهِمْ،ويُبْعدهُمْ عنْها

وإذا دُعِي هؤُلاءِ - الذين يدّعُون الإيمان،ثُمّ يُرِيدُون التّحاكُم إلى الطّاغُوتِ - إلى رسُولِ اللهِ للتّحاكُمِ لديْه،وفْقاً لما شرع اللهُ،استكْبرُوا وأعْرضُوا ورغِبُوا عنْ حُكْمِ رسُولِ اللهِ إعْراضاً مُتعمّداً منْهُمْ .

فكيْف يكُونُ حالُهُمْ إذا ساقتْهُمُ المقاديرُ إليك في مصائِب تحِلُّ بِهِمْ بسببِ ذُنُوبِهِمْ،واحْتاجُوا إليْك فِي ذلك،ثُمّ جاؤُوك يعْتذرُون إليْك،ويحْلِفُون باللهِ أنّهُمْ ما أرادُوا بذهابِهِمْ إلى غيْرِك،وبتحاكُمِهِمْ إلى أعْدائِك،إلا المُداراة والمُصانعة (إحْساناً وتوْفِيقاً)،لا اعْتِقاداً منْهُمْ بِصِحّةِ تِلْك الحُكُومة .

وهذا الضّرْبُ من النّاسِ هُمُ المُنافِقُون،واللهُ وحْدهُ يعْلمُ مبْلغ ما فِي قُلُوبِهِمْ من الكُفْرِ والحِقْدِ والكيْدِ،وسيجْزِيهِمْ على ذلِك،فإنّهُ لا تخْفى عليه منْهُمْ خافِيةٌ .ثُمّ يدْعُو اللهُ نبِيّهُ ﷺ إلى مُعاملتِهِمْ:

- أوْلاً:بالإعْراضِ عنْهُمْ وعدمِ الإقْبالِ عليْهِمْ بالبشاشة والتّكْرِيم،وهذا النّوعُ من المُعامُلة يُثِيرُ فِي نُفُوسِهِمُ الهواجس والشُّكُوك والظُّنُون .- ثُمّ بِالنُّصْحِ والتّذْكِيرِ بالخيْرِ،على وجْهٍ ترِقُّ لهُ قُلُوبُهُمْ،ويبْعثُهُمْ على التّأمُّلِ فيما يُلْقى إليْهِمْ من العظاتِ .- ثُمّ بالقوْلِ البلِيغِ،الذي يُؤثِّرُ فِي نُفُوسِهِمْ،كالتّوعُّدِ بالقّتْلِ،والاسْتِئْصالِ إنْ ظهر منْهُمْ نِفاقٌ،وأنْ يُخْبِرهُمْ أنّ الله عالِمٌ بِما فِي نُفُوسِهِمْ ..[٤٥٤٣]

[٤٥٤٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٣، بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى: {لا إِكْراه فِي الدِّينِ قد تَّبيّن الرُّشْدُ مِن الْغيِّ فمنْ يكْفُرْ بِالطّاغُوت ويُؤْمِن بِاللّهِ فقد اسْتمْسك بِالْعُرْوة الْوُثْقى لا انفصام لها واللّهُ سمِيعٌ عليمٌ (٢٥٦) اللّهُ ولِيُّ الّذِين آمنُواْ يُخْرِجُهُم مِّن الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ والّذِين كفرُواْ أوْلِيآؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونهُم مِّن النُّورِ إِلى الظُّلُماتِ أُوْلئِك أصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون} (٢٥٧) سورة البقرة

يأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنِين بألاّ يُكْرِهُوا أحداً على الدُّخُولِ فِي الإِسْلامِ،لأنّ الإِسْلام بيِّنٌ واضِحٌ لا يحْتاجُ إِلى أنْ يُكْره أحدٌ على الدُّخُولِ فِيهِ .والإِيمانُ إِذْعانٌ وخُضُوعٌ،ولا يكُون ذلِك بِالإِلْزامِ والإِكراه .وإِنما يكونُ بِالحُجّةِ والدّلِيلِ والبُرْهانِ،وقدْ ظهر أنّ فِي هذا الدِّينِ الرُّشْد والصّلاح،وأنّ ما خالفهُ مِن المِللِ الأخْرى غيٌّ وضلالٌ .

فمنْ كفر بِالأنْدادِ والأوْثانِ وما يدْعُو إِليهِ الشّيْطانُ مِنْ عِبادةِ كُلِّ ما يُعْبدُ مِنْ دُونِ اللهِ (أيْ ومنْ كفر بِما تكُونُ عِبادتُهُ والإِيمانُ بِهِ سبباً فِي الطُّغْيانِ والخُرُوجِ عنِ الحقِّ مِنْ عِبادةِ مخْلُوقٍ) فقدْ ثبت أمْرُهُ،واسْتقام على الطّرِيقةِ المُثْلى،وأمْسك بِأوْثقِ عُرى النّجاةِ التِي تمْنعُهُ مِن التّردِّي فِي مهاوِي الضّلالاتِ واللهُ سمِيعٌ لأقْوالِ منْ يدّعِي الكُفْر بِالطّاغُوت،والإِيمان بِاللهِ.علِيمٌ بِما يُكِنُّهُ قلْبُهُ مِمّا يُصدِّقُ هذا أوْ يُكذِّبُهُ .

اللهُ ولِيُّ الذِين آمنُوا واتّبعُوا رِضْوانهُ،فيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ والشّكِّ والرّيْبِ إِلى نُورِ الحقِّ الواضِحِ .والمُؤْمِنُ لا ولِيّ لهُ،ولا سُلْطان لأحدٍ على اعْتِقادِهِ إِلاّ اللهُ تعالى .أمّا الذِين كفرُوا فولِيُّهُمُ الشّيْطانُ،يُزيِّنُ لهُمْ ما هُمْ فِيهِ مِن الضّلالةِ والجهالةِ،ويُخْرِجهُمْ عنْ طرِيقِ الحقِّ ونُورِهِ،إِلى الكُفْرِ وظُلُماتِهِ،ويُؤدِّي بِهِمْ إِلى نارِ جهنّم لِيبْقوا فِيها خالِدِين أبداً .والنُّورُ هُو الحقُّ،والحقُّ واحِدٌ،أمّا الظُّلُماتُ وهِي الكُفْرُ فهِي أجْناسٌ ..[٤٥٤٤]

٢٧. التقدمُ على الله ورسوله ﷺ بقول أو فعل:

[٤٥٤٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

قال تعالى:{ يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تُقدِّمُوا بيْن يديِ اللّهِ ورسُولِهِ واتّقُوا اللّه إنّ اللّه سمِيعٌ علِيمٌ} (١) سورة الحجرات

يُؤدِّبُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ عِبادهُ المُؤْمنين،ويُعلِّمُهُمْ أصُول مُخاطبةِ الرّسُول ﷺ والتّعامُلِ معهُ،وتوْفِيته حقّهُ من التّوقِيرِ والاحْترامِ .فيقُولُ تعالى للْمُؤمنين:لا تُسْرِعُوا في القضاءِ في أمْرٍ قبْل أن يقْضِي لكُم فيهِ اللهُ ورسُولُهُ،وكُونُوا تبعاً لقضائِهما وأمْرِهما،ولا تتكلّمُوا في أمْرٍ قبْل أنْ يأتِي الرّسولُ على الكلامِ فيهِ،ولا تفْعلُوا فعْلاً قبْل أنْ يفْعلهُ الرّسُولُ،واتّقُوا الله يا أيُّها المُؤْمِنُون،فإنّهُ سمِيعٌ لما تقُولُون،عليمٌ بما تفْعلُون ..[٤٥٤٥]

---

٢٨. عدمُ تحكيم الرسول ﷺ في شئون حياتنا:

قال تعالى:{ فلا وربِّك لا يُؤْمِنُون حتّى يُحكِّمُوك فِيما شجر بيْنهُمْ ثُمّ لا يجِدُواْ فِي أنفُسِهِمْ حرجًا مِّمّا قضيْت ويُسلِّمُواْ تسْلِيمًا} (٦٥) سورة النساء

يُقْسِمُ اللهُ تعالى بنفْسِه الكرِيمةِ المُقدّسةِ على أنّ أولئك الذين رغبُوا عنِ التّحاكُمِ إلى الرّسُولِ،ومنْ ماثلهُمْ مِن المُنافقِين،لا يُؤْمِنُون إيماناً حقّاً (أيْ إيمان إِذْعانٍ وانْقِيادٍ) إلاّ إذا كمُلتْ لهُمْ ثلاثُ خِصالٍ:

- أنْ يُحكِّمُوا الرّسُول فِي القضايا التي يخْتصِمُون فيها،ولا يبِينُ لهُمْ فِيها وجْهُ الحقِّ .
- ألاّ يجِدُوا ضِيقاً وحرجاً ممّا يحْكُمُ بِهِ،وأنْ تُذْعِن نُفُوسُهُمْ لقضائِهِ،إذْعاناً تاماً دُون امْتِعاضٍ مِنْ قبُولِه والعملِ بِهِ،لأنّهُ الحقُّ وفِيهِ الخيْرُ .
- أنْ ينْقادُوا ويُسلِّمُوا لِذلِك الحُكْمِ،مُوقنِين بِصِدْقِ الرّسُولِ فِي حُكْمِهِ،وبِعِصْمتِهِ عنِ الخطأ ..[٤٥٤٦]

[٤٥٤٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٥٤٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

وقال تعالى محذرا:{ لا تجْعلُوا دُعاء الرّسُولِ بيْنكُمْ كدُعاء بعْضكُم بعْضًا قدْ يعْلــمُ اللّــهُ الّذين يتسلّلُون منكُمْ لواذًا فلْيحْذرِ الّذين يُخالِفُون عنْ أمْرِهِ أن تُصِيبهُمْ فتْنةٌ أوْ يُصِــيبهُمْ عذابٌ أليمٌ} (٦٣) سورة النـــــور

كان بعْضُ النّاسِ من الْمُؤْمنين يُنادي رسُول الله ﷺ بيا مُحمّــدُ،أو بيــا أبــا القاســمِ ...فنهاهُمُ اللهُ تعالى عنْ ذلك تعْظِيماً لقدْرِ الرّسُولِ وتبْجيلاً،فقال قُولُوا:يا نبيّ الله،ويــا رسُول الله .ويُحذِّرُ اللهُ تعالى الْمُنافقين الذين يتسلّلُون ويذْهبُون بدُون إذْنٍ .يلُوذُ بعْضُهُمْ ببعْضٍ،ويتدارى بعْضُهم ببعْضٍ لكيْلا يراهُم الرّسُولُ،فعيْنُ الله تراهُمْ وإنْ لمْ ترهُمْ عــيْنُ الرّسُولِ .ويُقرِّرُ اللهُ تعالى حال هؤُلاءِ وهُمْ يتسلّلُون بحذرٍ منْ مجْلسِ الرّسُولِ،ممّا يُمثِّــلُ جُبْنهُمْ عن الْمُواجهة وطلب الإِذْنِ .ويُهدِّدُ اللهُ تعالى هؤُلاءِ الْمُنافقين الذين يُخالِفُون عــنْ أمْرِ الله،ويتّبعُون نهْجاً غيْر نهْجِه،ويتســلّلُون مــن الصّــفِّ ابْتغــاء منْفعــة،أو اتِّقــاء ضررٍ،ويُحذِّرُهُمْ منْ أنْ تُصِيبهُم فتْنةٌ تخْتلُّ فيها الموازينُ،ويضطرِبُ فيها النّظــامُ،فيخْتلطُ الحقُّ بالباطِلِ،وتفْسُدُ أُمُورُ الجماعةِ وحياتُها،أو يُصِيبُهم عذابٌ أليمٌ في الدُّنْيا والآخــرةِ [٤٥٤٧]..

٢٩. تولي أعداء الله ورسوله ﷺ من الكفار والفجار

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} (١٣) سورة الممتحنة

وَبَعْدَ أَنْ نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمنِينَ عَنْ مُوَادَّة الْمُشْرِكِينَ فِي أَوَّلِ السُّورَة،عَادَ تَعَالَى فَكَرَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي آخرِهَا فَقَالَ:يَا أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ لاَ تُوَالُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ ممَّنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ،وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ منْ رَحْمَته،وَلاَ تَتَّخذُوهُمْ أَصْدقَاءَ لَكُمْ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَضُرُّ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِينَ،وَهَؤُلاَءِ الكُفَّارُ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الخَيْرِ والنَّجَاة فِي الآخرَةِ

[٤٥٤٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

لعِنَادِهِمْ،وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ،وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللهِ..كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ بَعْثِ مَوْتَاهُمْ،لأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَقِدُونَ بِبَعْثٍ وَلاَ حَشْرٍ وَلاَ حِسَابٍ [٤٥٤٨].

---

٣٠. تولي اليهود والنصارى:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) } سورة المائدة

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالاَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،وَاتِّخَاذِهِمْ حُلَفاءَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ،وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ نُصَرَاءَ وَحُلَفَاءَ وَأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَرَسُولِهِ،فَهُوَ مِنْهُمْ فِي التَّحَزُّبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ .وَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ .وَمَنْ يَتَوَلَّى أَعْدَاءُ اللهِ فَهُوَ ظَالِمٌ،وَاللهُ لاَ يَهْدِيهِ إلى الخَيْرِ .وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَلا نَصِيرٌ .

وَإِذْ كَانَتْ وَلاَيَةُ أَهْلِ الكِتَابِ لاَ يَتْبَعُها إلاَّ الظَالِمُونَ فَإِنَّكَ تَرَى الذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ (مَرَضٌ) يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالاَتِهِمْ،وَإِلَى مُوَادَّتِهِمْ فِي البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ،وَيَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَفِي مُوَالاَتِهِمْ،أَنَّهُمْ يَخْشَونَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الكَافِرِينَ بِالمُسْلِمِينَ (تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) فَتَكُونَ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ حِينَئِذٍ .فَعَسَى اللهُ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَهُ بِنَصْرِ المُسْلِمِينَ،وَيُحَقِقَ لَهُمُ الفَتْحَ وَالغَلَبَةَ،أَوْ يَتِمَّ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ كَفَرْضِ الجِزْيَةِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى،فَيُصْبِحَ الذِينَ وَالَوْا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ المُنَافِقِينَ نَادِمِينَ عَلَى مَا أَسَرُّوا

[٤٥٤٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٤١، بترقيم الشاملة آليا)

فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُوَالاَةِ هَؤُلاَءِ تَحَسُّباً لِمَا لَمْ يَقَعْ،وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ شَيْئاً،وَلاَ دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُوراً
.

لَمَّا التَجَأَ هَؤُلاَءِ المُنَافِقُونَ إلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى يُوالُونَهُمْ وَيُوادُّونَهُمْ،افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ لِعبَادِ اللهِ المُؤْمنِينَ،بَعْدَ أنْ كَانُوا يَتَسَتَّرُونَ،لاَ يَدْرِي أحَدٌ كَيْفَ حَالُهُمْ،فَتَعَجَّبَ المُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ،كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ،يُعَاضِدُونَهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمِ اليَهُودِ،فَلَمَّا جَدَّ الجدُّ أَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ مُوَالاَتِهِمْ وَمُمَالأَتِهِمْ عَلَى المُؤْمِنِينَ .وَلَمَّا اسْتَبَانَ حَالُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا:لَقَدْ هَلَكَتْ أَعْمَالُ هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ مِنْ صَلاَةٍ وَصَوْمٍ وَزَكَاةٍ وَجِهَادٍ،وَخَسِرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الثَّوَابِ .[٤٥٤٩]

---

٣١. عدمُ تحكيم شرع الله تعالى في شئون حياتنا :

قال تعالى:{ يا أيُّها الرّسُولُ لا يحْزُنك الّذين يُسارِعُون فِي الْكُفْرِ مِن الّذِين قالُواْ آمنّا بِأفْواهِهِمْ و لمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ومِن الّذِين هادُواْ سمّاعُون لِلْكذِبِ سمّاعُون لِقوْمٍ آخرِين لمْ يأْتُوك يُحرِّفُون الْكلِم مِن بعْدِ مواضِعِهِ يقُولُون إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فخُذُوهُ وإِن لّمْ تُؤْتوْهُ فاحْذرُواْ ومن يُرِدِ اللّهُ فِتْنتهُ فلن تمْلِك لهُ مِن اللّهِ شيْئًا أُوْلـئِك الّذِين لمْ يُرِدِ اللّهُ أن يُطهِّر قُلُوبهُمْ لهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ ولهُمْ فِي الآخِرةِ عذابٌ عظِيمٌ (٤١) سمّاعُون لِلْكذِبِ أكّالُون لِلسُّحْتِ فإِن جآؤُوك فاحْكُم بيْنهُم أوْ أعْرِضْ عنْهُمْ وإِن تُعْرِضْ عنْهُمْ فلن يضُرُّوك شيْئًا وإِنْ حكمْت فاحْكُم بيْنهُمْ بِالْقِسْطِ إِنّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِين (٤٢) وكيْف يُحكِّمُونك وعِندهُمُ التّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ ثُمّ يتولّوْن مِن بعْدِ ذلِك وما أُوْلـئِك بِالْمُؤْمِنِين (٤٣) إِنّا أنزلْنا التّوْراة فِيها هُدًى ونُورٌ يحْكُمُ بِها النّبِيُّون الّذِين أسْلمُواْ لِلّذِين هادُواْ والرّبّانِيُّون والأحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتابِ اللّهِ وكانُواْ عليْهِ شُهداء فلا تخْشوُاْ النّاس واخْشوْنِ ولا تشْترُواْ بِآياتِي ثمنًا قلِيلاً ومن لّمْ يحْكُم بِما أنزل اللّهُ فأُوْلـئِك هُمُ الْكافِرُون (٤٤) وكتبْنا عليْهِمْ فِيها أنّ النّفْس بِالنّفْسِ والْعيْن بِالْعيْنِ والأنف

[٤٥٤٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٢١، بترقيم الشاملة آليا)

بالأنف والأُذُن بالأُذُن والسِّنّ بالسِّنِّ والْجُرُوح قِصاصٌ فمن تصدّق به فهُو كفّـارةٌ لّـهُ ومن لّمْ يحْكُم بما أنزل اللّهُ فأُوْلـئك هُمُ الظّالمُون ﴿ ٤٥﴾ وقفّيْنا على آثارِهم بعيسـى ابْنِ مرْيم مُصدِّقًا لِّما بيْن يديْه من التّوْراة وآتيْناهُ الإنجيل فيه هُدًى ونُورٌ ومُصدِّقًا لِّما بيْن يديْه من التّوْراة وهُدًى وموْعظةً لِّلْمُتّقين ﴿ ٤٦﴾ ولْيحْكُمْ أهْلُ الإِنجيل بما أنزل اللّهُ فيه ومن لّمْ يحْكُم بما أنزل اللّهُ فأُوْلـئك هُمُ الْفاسقُون ﴿ ٤٧﴾ وأنزلْنا إليْـك الْكتـاب بالْحقِّ مُصدِّقًا لِّما بيْن يديْه من الْكتاب ومُهيْمنًا عليْه فاحْكُم بيْنهُم بما أنزل اللّهُ ولا تتّبعْ أهْواءهُمْ عمّا جاءك من الْحقِّ لكُلٍّ جعلْنا منكُمْ شرْعةً ومنْهاجًا ولوْ شاء اللّهُ لجعلكُمْ أُمّةً واحدةً ولـكن لِّيبْلُوكُمْ في ما آتاكُم فاسْتبقُوا الخيْرات إلى الله مرْجعُكُمْ جميعًا فيُنبِّـئُكُم بما كُنتُمْ فيه تخْتلفُون ﴿ ٤٨﴾ وأن احْكُم بيْنهُم بما أنـزل اللّـهُ ولا تتّبـعْ أهْـواءهُمْ واحْذرْهُمْ أن يفْتنُوك عن بعْضِ ما أنزل اللّهُ إليْك فإن تولّوْا فاعْلمْ أنّما يُريـدُ اللّـهُ أن يُصيبهُم ببعْضِ ذُنُوبهِمْ وإنّ كثيراً مِّن النّاسِ لفاسقُون ﴿ ٤٩﴾ أفحُكْم الْجاهليّة يبْغُـون ومنْ أحْسنُ من اللّه حُكْمًا لِّقوْمٍ يُوقنُون ﴿ ٥٠﴾﴾ سورة المائدة

نزلتْ هذه الآيةُ والتي بعْدها في المُنافقين،الذين يقُولُـون آمنّـا بـأفْواههمْ،ولمْ تُـؤْمنْ قُلُوبُهُمْ،وفي أعْداءِ الإسْلامِ من اليهُود،الذين كانُوا كثيري الاسْتماعِ إلى كلامِ الرّسُـولِ ﷺ،والإخْبارِ عنْهُ،لأجْلِ الكذب عليه بالتّحْريف واسْتنْباط الشُّبُهات،فهُمْ جواسيسُ بـيْن المُسْلمين لأعْدائهمْ،مهمّتُهُمْ إبْلاغُ رُؤُوسِ الكُفْرِ أعْداءِ الإسْلامِ،كُلّ مـا يقفُـون عليـه ليكُون ما يفْترُونهُ على النّبيِّ ﷺ والمُسْلمين منْ كـذبٍ مقْبُـولاً،لأنّهُمْ يـرْوُون مـا يُقالُ،ويُحرِّفُون فيه،وكان هؤُلاءِ يأتُون إلى الرّسُولِ ﷺ ليسْتمعُوا منْـهُ،ثُمّ ينْقُلُـون مـا يسْمعُونهُ منْهُ إلى الرُّؤساءِ ذوي الكيْد،الذين لمْ يأْتُوا إلى النّبيِّ ليسْتمعُوا منْهُ بآذانهمْ،إمّـا كبْراً وإمّا تمرُّداً .

ويقُومُ الرُّؤساءُ الرُّوحيُّون من اليهُود بتحْريف كلامِ التّوراة منْ بعْد أنْ وضـعهُ اللهُ فـي مواضعه،وأحْكمهُ،إمّا تحْريفاً لفْظياً،بإبْدال كلمة بكلمـة،وإمّا بإخْفائـه وكتْمانـه،وإما بالزِّيادة فيه،أوْ بالنّقْص منْهُ،وإمّا تحْريفاً معْنوِسّاً،بحمْلِ اللّفْظِ على معْنى يخْتلفُ عن المعْنى

الذي قصدهُ الشّارِعُ،ويقُولُ بعْضُهُمْ لِبعْضٍ:إنْ حكم لكُمْ مُحمّدٌ الحُكْم الذِي تُريــدُون فاقْبلُوهُ،وإنْ قضى بِغيْرِه فلا تسْتمِعُوا إليه .

(وهذِه الآيةُ نزلتْ فِي يهُوديّين زنيا بعْد هِجْرةِ الرّسُولِ ﷺ إلى المدِينــةِ بقلِيلٍ،وكــان اليهُودُ قدْ تخلّوْا عنْ تنْفِيذِ ما شرّعهُ اللهُ لهُمْ فِي التّوراةِ مِنْ رجْمِ الزُّناةِ المُحْصــنِين،فحرّفُوا حُكْم اللهِ،واصْطلحُوا فِيما بيْنهُمْ على جلْدِ الزّانِي مِئة جلْدةٍ مع صبْغِ الوجْهِ بالسّــوادِ (ويُسمُّونهُ التّحْمِيم) .فلمّا وقعتْ حادِثةُ الزِّنى،قال بعْضُ اليهُودِ لِبعْضٍ تعالُوا نتحاكمُ إلى مُحمّدٍ فإنْ حكم بِالجلْدِ،وصبْغِ الوجْهُ بِالسّوادِ،فخُذُوا ذلِك عنْهُ،واجْعلُوهُ حُجّةً بيْــنكُمْ وبيْن اللهِ،ويكُونُ نبِيٌّ مِنْ أنْبِياءِ اللهِ قدْ حكم بيْنكُمْ بِذلِك،وإنْ حكم بِالرّجْمِ فلا تتّبِعُــوهُ .فلمّا جاؤُوا إلى الرّسُولِ ﷺ سألهُمْ عمّا فِي كِتابِهِمْ فِي حُكْمِ الزُّناة،فقــالُوا نفْضــحُهُمْ ويُجْلدُون .فقال لهُمْ عبْدُ اللهِ بْنُ سلاّمٍ – وكان حبْراً مِنْ أحْبارِهِمْ ثُمّ أسْلم – كذبْتُمْ إنّ فِيهِ الرّجْم) .ومنْ أراد اللهُ أنْ يخْتبِرهُ فِي دِينِهِ فيُظْهِر الاخْتِبارُ كُفْرهُ وضلالهُ،فلنْ تمْلك لهُ يا مُحمّدُ مِن اللهِ شيْئاً،لأنّ الله لمْ يُرِدْ أنْ يُطهِّر قلْبهُ،ولا أنْ يهْدِيهُ؛ ولِهذا الضّالِّ خِــزْيٌ فِي الدُّنْيا،ولهُ فِي الآخِرةِ عذابٌ عظِيمٌ .فلا تحْزنْ يا مُحمّدُ بعْد هذا على مُسارعتِهِمْ فِي الكُفْرِ،ولا تطْمعْ فِي هِدايتِهِمْ إلى الإيمان،فإنّك لا تمْلِكُ لأحدٍ نفْعاً،وإنّما عليك البلاغُ .

وأعاد اللهُ تعالى وصْفهُمْ بِكثْرةِ السّماعِ لِلْكذِبِ،فقال:وهُمْ سمّــاعُون لِلْباكِلِ،آكّــالُون لِلْمالِ الحرامِ كالرِّبا والرّشْوةِ (السُّحْتِ)،فإذا جاؤُوك يتحاكمُون إليْك فاحْكُمْ بيْنهُمْ أوْ أعْرِضْ عنْهُمْ،فلا عليك أنْ لا تحْكُــم بيْنــهُم لأنّهُــمْ لا يقْصِــدُون،بِمجِيئِهِمْ إليــك لِلتّحاكُمِ،اتِّباعِ الحقِّ،بلْ يُرِيدُون أنْ تحْكُم لهُمْ بِما يُوافِقُ أهْواءهُمْ

(وهذا الحُكْمُ خاصٌّ بِالمُعاهدِين دُون أهْلِ الذِّمّة،فبِالنِّسْبةِ لِلمُعاهــدِين لا يجِــبُ علــى المُسْلمِين أنْ يحْكُمُوا بيْنهُم (كالأجانِبِ المُوجُودِين فِي بِلادِ المُسْــلِمِين)،وإنْ تحــاكمُوا إليْهِمْ،بلِ المُسْلِمُون مُخيّرُون فِي ذلِك حسْبما يروْن فِيهِ المصْلحة .

وأمّا أهْلُ الذِّمّة فيجِبُ الحُكْمُ بيْنهُمْ إذا تحاكمُوا إلى المُسْلِمِين،لأنّ منْ أُخِذتْ مِنْهُ الجِزْيةُ تجْرِي عليه أحْكامُ الإسْلامِ،فِي البُيُوعِ والموارِيثِ،والعُقُودِ،عدا بيْعِ الخمْرِ والخِنْزِيرِ) .

(وقال ابْنُ عبّاسٍ هذا الحُكْمُ منْسُوخٌ بِقوْلِهِ تعالى { وأنِ احكم بيْنهُمْ بِمآ أنزل اللهِ } .

ثُمّ يقُولُ تعالى لِنبِّيه ﷺ:وإذا أردْت أنْ تحْكُم بيْنهُمْ،فاحْكُمْ بِالحقِّ والعدْلِ،لأنّ الله يُحِبُّ الذين يقْضُون بالعدْلِ (المُقْسطِين) .

ويُنْكِرُ اللهُ تعالى على هؤُلاءِ مقاصِدهُمُ الزّائِفة،ونيّاتِهمُ الفاسِدة،فِي ترْكِهِمْ ما يعْتقِدُون صِحّتهُ مِن الكِتابِ الذِي بِأيْدِيهِمْ،والذِي يزْعُمُون أنّهُمْ مأمُورُون بِالتّمسُّكِ بِهِ أبـــداً،ثُمّ يخْرُجُون عنْ حُكْمِهِ إلى غيْرِهِ (القُرْآنُ والإِسْلامُ)،ممّا يعْتقِدُون بُطْلانهُ،وعدم لُزُومِه لهُمْ .فقال اللهُ تعالى لِرسُولِه ﷺ:كيْف يُحكِّمُونك فِي أمْرِ الزُّناةِ وعِنْدهُمُ التّوراة فِيها حُكْـــمُ اللهِ،وإذا أردْت أنْت أنْ تحْكُم بيْنهُمْ بِما يتّفِقُ مع شرْعِهِمْ، لمْ يقْبلُوا حُكْمك (يتولّـــوْن) لأنّهُمْ ليْسُوا مُؤْمِنِين إِيماناً صحِيحاً لا بِدِينِهِمْ،ولا بِدِينِك .

يتولّوْن مِنْ بعْدِ ذلِك – يُعْرِضُون عنْ حُكْمِك المُوافِقِ لِحُكْمِ التّوْراةِ بعْد تحْكِيمِك .

يمْدحُ اللهُ تعالى التّوْراة،فيقُولُ:إنّهُ أنْزلها وفِيها هُدىً ونُورٌ،يحْكُمُ بِها الأنْبِياء الذِين أسْلمُوا وُجُوههُمْ لِربِّهِمْ مُخْلِصِين لهُ الدِّين (وهُمْ مُوسى ومنْ جاء بعْدهُ مِنْ أنْبِياء بنِي إِسْرائِيل) بيْن اليهُودِ لا يخْرُجُون عنْ حُكْمِها،ولا يُبدِّلُونها ولا يُحرِّفُونها .ويحْكُمُ بِها العُلماءُ العُبّادُ (الرّبّانِيُّون)،والعُلماءُ (الأحْبارُ) بِما اسْتوْدعُوا (اسْتُحْفِظُوا) مِنْ كِتابِ اللهِ الذِي أُمِرُوا بِأنْ يحْفظُوهُ مِن التّبْدِيلِ،وبِأنْ يُظْهِرُوهُ،ويعْملُوا بِأحْكامِهِ،ثُمّ خاطب اللهُ تعـــالى رُؤسـاء اليهُودِ الذِين كانُوا فِي زمنْ التّنْزِيلِ فقال:كيْف لا يخافُون الله فِي الكِتْمانِ والتّبْدِيلِ،بعْـــد أنْ قصّ اللهُ تعالى عليْهِمْ سِيرة السّلفِ الصّالِحِ مِنْ بنِي إِسْرائِيل علّهُمْ يعْتبِرُون ويرْعـــوُون عنْ غيِّهِمْ .ثُمّ قال لهُمْ:وإذا كان الحالُ كذلِك أيُّها الأحْبارُ،ولا شـــكّ فـــي أنّكُـــمْ لا تُنْكِرُونهُ،فلا تخْشوا النّاس فتكْتُمُوا ما عِنْدكُمْ مِن الكِتابِ،خشْية النّاسِ،أوْ طمعاً فِي منْفعةٍ عاجِلةٍ مِنْهُ،وأخْشوْنِي أنا واقْتدُوا بِمنْ كان قبْلكُمْ مِـــن الرّبّـــانِيِّين والأحْبـــارِ،واحْفظُوا التّوْراة،ولا تعْدِلُوا عنْ ذلِك،فإِنّ النّفْع والضّرر بِيدِ اللهِ،ولا تتْرُكُوا بيان أحْكـــامِ التّـــوْراةِ لِلنّاسِ،والعملِ بِها،لِقاءِ منْفعةٍ دنْيوِيّةٍ قلِيلةٍ تأْخُذُونها مِن النّاسِ كرِشْوةٍ أوْ جاهٍ .

وكُلُّ منْ يرْغبُ عنِ الحُكْمِ بِما أنْزل اللهُ مِنْ شرْعٍ،ويُخْفِيهِ ويحْكُمُ بِغيْرِهِ (كحُكْمِ اليهُودِ فِي الزّانِييْنِ المُحْصنيْنِ بِالتّحْمِيمِ والجلْدِ،وكِتْمانِ الرّجْمِ،وقضائِهِمْ فِي بعْضِ قتْلاهمْ بِدِيـــةٍ

كاملة،وفي بعْضهِمْ بنِصْفِ دِيةٍ،معْ أنّ الله قدْ سوّى بيْن الجميعِ في الحُكْمِ)،فأُولئك هُمُ الكافِرُون الذين سترُوا الحقّ الذي كان عليهم كشْفُهُ وتبْيينُهُ للنّاسِ .

جاءتِ التّوْراةُ بشرْعةِ القِصاصِ:فالنّفْسُ تُقْتلُ بالنّفْسِ،ولكنّ اليهُود يُخالِفُون هذا الحُكْــم عمْداً وعِناداً:فقدْ كانتْ قبيلتا بنِي النّضِيرِ وبنِي قُريْظة تتحاربانِ وتتقاتلانِ،وكانتْ قبيْلة بنِي النّضِيرِ قويّةً عزيزة الجانبِ،وكان بنُو قُريْظة ضُعفاء أذلاّء،فكان النّضِــيرِيُّ إذا قتــل قُرظِّياً، لمْ يكُنْ ليقْتُل بهِ،بلْ يُعْدلُ فيهِ إلى الدِّيةِ .أمّا إذا قتل القُرظِيُّ نضِــيرِيّاً،فكان يُقْتــلُ بهِ،وفِي ذلك مُخالفةٌ لِحُكْمِ التّوْراةِ

كما خالفُوا حُكْم التّوْراةِ في ترْكِ رجْمِ الزّاني المُحْصنِ،كما أمرتْ به التّوْراةُ،وعدلُوا عنْهُ إلى الجلْدِ والتّحْمِيمِ .وقضتِ التّوْراةُ بأنْ تُفْقــأ العــيْنُ بالعيْنِ،وبــأنْ يُجْــدع الأنْــفُ بالأنْفِ،وأنْ تُصْلم الأذْنُ بالأذْنِ،وأنْ تُترع السِّنُّ بالسِّنِّ .

أمّا الجِراحُ فيتِمُّ فِيها القِصاصُ إذا كانتْ فِي مفْصلٍ،فقُتْطعُ اليدُ والرِّجْلُ والكفُّ والقــدمُ ونحْوُ ذلك أمَّا إذا كان الجُرْحُ فِي عظْمٍ وليْس فِي مفْصلٍ،فاخْتُلف فِي كيْفيّةِ التّطْبيقِ .

فمنْ عفا وتصدّق بحقّهِ فِي القِصاصِ على الجانِي،كان التّصدُّقُ كفّارةً لهُ يمْحُو اللهُ بهــا قدْراً منْ ذُنُوبهِ.

ثُمّ يقُولُ تعالى:ومنْ لمْ يحْكُمْ بما أنْزل اللهُ فِي كُتُبِهِ منْ شرْعٍ،فأولئك هُمُ الظّالمُون،لأنّهُمْ لمْ يُنْصِفُوا المظْلُوم مِن الظّالِمِ،فِي أمْرٍ أمر اللهُ بالعدْلِ والمُساواةِ فِيه بيْن جميعِ خلْقِه .

وأرْسلْنا مِنْ بعْدِ هؤُلاءِ الأنْبياءِ مِنْ بنِي إسْرائيل عيسى بْن مرْيم مُؤْمناً بالتّوْراةِ،وحاكِمــاً بما فِيها منْ أحْكامٍ،وأنْزلْنا عليْهِ الإنْجيل فِيهِ هُدًى للْحقِّ،وبيانٌ للأحْكامِ،ونُورٌ يُسْتضــاءُ بهِ فِي إزالةِ الشُّبُهاتِ،وحلِّ المُشْكلاتِ .وجاء الإنْجيل مُصدِّقاً للْتوراةِ،ومُتّبعــاً لهــا،غيْر مُخالِفٍ لما فِيها إلاّ فِي القليلِ ممّا بيّن لِبنِي إسْرائيل بعْض ما كانُوا يخْتلِفُون فيه .وجعلْنا الإنْجيل هُدًى يهْتدِي بِهِ المُتّقُون،وواعِظاً وزاجِراً لهُمْ عنِ ارْتكابِ ما حــرّم اللهُ،وعــنِ اقْترافِ المآثِمِ .

يأْمُرُ اللهُ تعالى أهْل الإنْجيلِ بأنْ يُؤْمنُوا بجميعِ ما جاء فِيهِ من الأحْكامِ،وبِـأنْ يعْملُـوا بِها،ومنْ لمْ يحْكُمُ بِما أنْزل اللهُ مِنْ شرْعٍ يُؤْمِنُ بِهِ،كان مِن الفاسِقِين الخارِجين عنْ طاعةِ اللهِ وحُكْمه .

وأنْزل اللهُ تعالى القُرْآن (الكِتاب) إليك يا مُحمّدُ بِالحقِّ والصِّـدْقِ الـذِي لا ريْـب فِيهِ،ولا شكّ فِي أنّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ،مُصدّقاً لِلْكُتُبِ السّابِقةِ المُتضمِّنةِ ذِكْرهُ ومدْحهُ،والإشارة إلى أنّهُ مُنْزلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ على عبْدِهِ ورسُولِهِ مُحمّدٍ ﷺ،فكان نُزُولهُ كما أخْبرْت بِهِ ممّا زادها صِدْقاً عِنْد حامِلِيها مِنْ ذوِي البصائِرِ،الذِين اتّبعُوا أمْر اللهِ وشرْعهُ،وصدّقُوا رُسُـلهُ .والقُرْآنُ جاء أمِيناً على الكُتُبِ السّابِقةِ،وشاهِداً عليْها بِالحقِّ والصِّحّةِ بِما بيّنهُ مِنْ حقِيقةِ أمْرِها (مُهيْمِناً عليْهِ)،ومُبيِّناً حال مِنْ خُوطِبُوا بِها:مِنْ نِسْيانِ حظٍّ عظِيمٍ مِنْهـا،وتحْرِيفِ كثِيرٍ مِمّا بقِي،أوْ تأْوِيلِهِ،والإعْراضِ عنِ العملِ بِهِ .

وبما أنّ الْرْآن جاء رقِيباً وأمِيناً وشاهِداً (مُهيْمِناً) على الكُتُبِ السّابِقةِ،التِي أنْزلهـا اللهُ على أنْبِيائِهِ،فاحْكُمْ يا مُحمّدُ بيْن أهْلِ الكِتابِ – إذا تحاكمُوا إليك – بِما أنْزل اللهُ إليك مِن الأحْكامِ،دُون ما أنْزلهُ اللهُ إليْهِمْ،لأنّ شرِيعتك ناسِخةٌ لِشرِيعتِهِمْ،ولا تتّبِع أهْـواءهُمْ ورغباتِهِمْ فِي الحُكْمِ لهُمْ بِما يسْهُلُ عليْهِمْ،ويخِفُّ احْتِمالُهُ .

ثُمّ يذْكُرُ اللهُ تعالى أنّهُ جعل لِكُلٍّ أمّةٍ مِـن النّـاسِ شـرِيعةً أوْجـب علـيهِمْ إقامـة أحْكامِها،ومِنْهاجاً وطرِيقاً فرض عليهِمْ سُلُوكهُ لِتزْكِيـةِ نُفُوسِـهِمْ (فأصْـلُ الـدِّينِ واحِدٌ،ولكِنّ الشّرائِع العملِيّة تخْتلِفُ بِاخْتِلافِ أحْوالِ البشرِ،وطِباعِهِمْ واسْتِعْدادِهِمْ) .

ولوْ شاء اللهُ أنْ يجْعل النّاس أمّةً واحِدةً،ذات شرِيعةٍ واحِـدةٍ ومِنْهـاجٍ واحِدٍ،يسِـيرُون عليْهِ،لفعل،ولكِنّهُ تعالى لمْ يشأْ،لِيخْتبِرهُمْ فِيما شرع لهُمْ،ولِيُثِيبهُمْ على طاعتِهِ،ويُعاقِبـهُمْ على معْصِيتِهِ .ويحُثُّ اللهُ تعالى النّاس على المُبادرةِ والإسْراعِ إلى طاعةِ اللهِ،واتِّباعِ شـرْعِهِ الذِي جعلهُ ناسِخاً ما قبْلهُ مِن الشرائِعِ،ويُخْبِرُهُمْ أنّ إليْـهِ مـرْجِعهُمْ ومصِـيرهُمْ يـوْم القِيامةِ،فيُخْبِرُهُمْ بِما اخْتلفُوا فِيهِ مِن الحقِّ،ويجْزِي كُلّ عامِلٍ بِعملِهِ .

قال بعْضُ رُؤساءِ اليهُودِ لِبعْضٍ:اذْهبُوا إلى مُحمّدٍ لعلّنا نفْتِنُهُ عنْ دِينِهِ .فأتوْهُ فقالُوا:يـا مُحمّدُ إنّك عرفْت أنّا أحْبارُ يهُودٍ وأشْـرافُهُمْ وسـادتُهُمْ،وإنّا إنِ اتّبعنـا يهُـودُ ولمْ

يحالفُونا،وإنّ بيْننا وبيْن قوْمنا خُصُومةً،فنُخاصِمُهُمْ إليك فتقْضِي لنا عليْهِمْ،ونُؤْمنُ لــك ونُصدِّقُك .فأبى الرّسُولُ ﷺ ذلك وأنْزل اللهُ تعالى هذه الآية فيهمْ .

وفي هذه الآية يُؤكِّدُ اللهُ تعالى على ما أمر به رسُولهُ من الحُكْمِ بيْن أهْلِ الكتــاب بمــا أنْزل اللهُ إليْه في القُرْآن،ويُحذِّرُهُ منْ أنْ يفْتنهُ اليهُودُ،ويصْرفُوهُ عنِ الحقِّ،ويأمُرُهُ بألاّ يغْترّ بهمْ،فهُمْ كذبةٌ كفرةٌ .ثُمّ يقُولُ تعالى لنبيِّه:فإنْ أعْرضُوا عنْ حُكْمــك بعْــد تحــاكُمهمْ إليْك،فاعْلمْ أنّ ذلك كائنٌ عنْ إرادة الله،ومشيئته،وحكْمته فيهمْ،أنْ يصْرفهُمْ عنِ الهُدى ليُعذِّبهُمْ ببعْضِ ذُنُوبهمْ في الحياة الدُّنْيا قبْل الآخرة،وإنّ أكْثر النّاسِ خارجُون عنْ طاعــة الله،مُخالفُون للْحقِّ . أيتولّوْن عنْ حُكْمك بما أنْزل اللهُ؟ فهلْ يُريدُون حُكْماً كحُكْــمِ الجاهليّة المبْني على التحيُّز والهوى،وترْجيح جانبِ القويِّ على الضّعيفِ؟ ومنْ أحْسنُ من الله حُكْماً،ومنْ أعْدلُ منْهُ فصْلاً؟ لمنْ عقل شرْع الله وآمن به؟[4550]

قال العلامة ابن كثير رحمه الله:" يُنْكرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّــهِ الْمُحْكَــمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،النَّاهي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سوَاهُ منَ الْــآرَاءِ وَالْــأَهْوَاءِ وَالاصْطلَاحَات،الَّتي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بلَا مُسْتَنَد منْ شَرِيعَة اللَّه،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهليَّــة يَحْكُمُونَ به منَ الضَّلَالَات وَالْجَهَالَات،ممَّا يَضَعُونَهَا بآرَائهمْ وَأَهْوَائهمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ به التَّتَارُ منَ السِّيَاسَات الْمَلَكيَّة الْمَأْخُوذَة عَنْ مَلكهمْ جنْكزْخَانَ،الَّذي وَضَعَ لَهُمُ اليَســاق (اليسق) وَهُوَ عبَارَةٌ عَنْ كتَاب مَجْمُوعٍ منْ أَحْكَامٍ قَد اقْتَبَسَهَا عَنْ شَــرَائعَ شَــتَّى،منَ الْيَهُوديَّة وَالنَّصْرَانيَّة وَالْملَّة الْإِسْلَاميَّة،وَفيهَا كَثيرٌ منَ الْأَحْكَام أَخَذَهَا منْ مُجَــرَّد نَظَــره وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ في بَنيه شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْم بكتَاب اللَّه وَسُنَّة رَسُــوله ﷺ .وَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ منْهُمْ فَهُوَ كَافرٌ يَجبُ قتَالُهُ،حَتَّى يَرْجعَ إِلَى حُكْم اللَّه وَرَسُــوله [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سوَاهُ في قَليلٍ وَلَا كَثيرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهليَّة يَبْغُونَ} أَيْ:يَبْتَغُونَ وَيُريدُونَ،وَعَنْ حُكْمِ اللَّه يَعْدلُونَ. {وَمَنْ أَحْسَنُ منَ اللَّه حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقنُونَ} أَيْ:وَمَــنْ أَعْدَلُ منَ اللَّه في حُكْمه لمَنْ عَقل عَنِ اللَّه شَرْعَهُ،وَآمَنَ به وَأَيْقَنَ وَعَلمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ

[4550] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧١١، بترقيم الشاملة آليا)

الْحَاكِمِينَ،وَأَرْحَمُ بِخُلُقِه مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا،فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ،الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ."[4551]

وقال ابن كثيررحمه الله:" فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ،وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ،فَكَيْفَ بِمَنْ تَحَاكَمَ إِلَى " الْيَاسَاقِ " وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠] " الْمَائِدَة:".وَقَالَ تَعَالَى:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥] ".[4552]

---

٣٢. الإيمانُ ببعض الكتاب والكفرُ ببعضٍ:

قال تعالى عن بني إسرائيل:{ وإذْ أخذْنا ميثاقكُمْ لا تسْفكُون دماءكُمْ ولا تُخْرجُون أنفُسكُم مِّن دياركُمْ ثُمّ أقْررْتُمْ وأنتُمْ تشْهدُون (٨٤) ثُمّ أنتُمْ هـؤُلاء تقْتُلُون أنفُسكُمْ وتُخْرجُون فريقاً مِّنكُم مِّن ديارهمْ تظاهرُون عليْهم بالإثْم والْعُدْوان وإن يأتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وهُو مُحرّمٌ عليْكُمْ إخْراجُهُمْ أفتُؤْمنُون ببعْض الْكتاب وتكْفُرُون ببعْضٍ فما جزاء من يفْعلُ ذلك منكُمْ إلاّ خزْيٌ في الْحياة الدُّنْيا ويوْم الْقيامة يُردُّون إلى أشدِّ الْعذاب وما اللّهُ بغافلٍ عمّا تعْملُون (٨٥) أُولـئك الّذين اشْتروُاْ الْحياة الدُّنْيا بالآخرة فلا يُخفّفُ عنْهُمُ الْعذابُ ولا هُمْ يُنصرُون (٨٦) } سورة البقرة

يذكِّرُ اللهُ تعالى في هذه الآية اليهُود بأهمِّ ما نهاهُمْ عنْهُ،وأخذ الميثاق عليهمْ لاجْتنابه،فيقُولُ تعالى:إنّهُ أخذ الميثاق في التّوراة على بني إسْرائيل أنْ لا يسْفك بعضُهُمْ دم بعْضٍ،وأنْ لا يُخْرج بعْضُهُم بعْضاً منْ ديارهمْ وأوْطانهمْ،وإنّ يهُود المدينة يُقرُّون بذلك،ويشْهدُون على صحّة ما جاءتْ به ديانتهمْ في ذلك،فالحجّةُ قائمةٌ عليهمْ .

[4551] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

[4552] - البداية والنهاية ط هجر (١٧/ ١٦٢)

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود:بنُو قيْنُقاع وبنُو النّضير،وهُمْ حُلفاءُ الخزْرج،وبنُو قُريْظة وهُمْ حُلفاءُ الأوْس،وكانُوا إذا وقعت الحرْبُ بيْن الأوْس والخزْرج انتصر كُلُّ فريق من اليهُود لحُلفائه،وانْضمّ إليهمْ يُقاتلُ خُصُومهمْ .وكثيراً ما كان اليهوديُّ يقْتُلُ اليهُوديَّ في الحرْب،ويُخْرجُهُ منْ بيْته،وينْتهبُ مالهُ وأثاث منْزله،وكلُّ ذلك محرّمٌ عليهمْ فعْلُهُ بنصِّ التّوراة .ولكنّهُمْ كانُوا إذا وضعت الحرْبُ أوْزارها يقُومُون بافْتكاك الأسْرى ومُفاداتهمْ،عملاً بنصِّ التّوراة،فاسْتنْكر اللهُ تعالى أفْعالهُمْ هذه،فهُمْ يقتُلُ بعْضُهُمْ بعْضاً خلافاً للنّصِّ،ولكنّهُمْ يفْتكُّون الأسْرى ويُفادُونهُمْ عملاً بنصِّ التّوراة .

ويقُولُ اللهُ تعالى لهُمْ مُسْتنْكراً تصرُفاتهمْ هذه:أفتُؤْمنُون ببعْض الكتاب وتعْملُون به،وتكْفُرُون ببعْضه وتُخالفُونهُ؟ وتوعّد اللهُ تعالى منْ يُؤْمنُ ببعْض الكتاب،ويكْفُرُ ببعْضه الآخر بالخزْي والمذلّة في الحياة الدُّنْيا،وبالعذاب الأليم الشّديد يوْم القيامة .ثُمّ يُذكِّرُهُمْ اللهُ بأنّهُ غيْرُ غافل عمّا يعْملُون.

وهؤُلاء الذين يُخالفُون أوامر التّوراة،ويعْملُون ببعْض ما جاء فيها،هُمُ الذين اسْتحبُّوا الحياة الدُّنيا،وآثروها وفضّلُوها على الآخرة،بما أهْملُوا من الشّرائع،وبما تركُوا منْ أوامرها التي يعْرفُونها (كالانتصار للحليف المُشْرك ومُظاهرته على قوْمهمْ في الدِّين والنّسب،وإخْراج أهْلهمْ منْ ديارهم ابْتغاء مرْضاة ذلك الحليف المُشْرك)،فكانُوا كمن اشْترى الحياة الدُّنيا بالآخرة .وهؤلاء لا يُخفّفُ عنْهُمُ العذابُ يوْم القيامة،ولا يجدُون لهُم ناصراً يُنْقذُهُمْ من العذاب،ولا مُجيراً يُجيرُهُمْ ..[٤٥٥٣]

---

٣٣. تضييعُ الأمانة:

[٤٥٥٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٩١، بترقيم الشاملة آليا)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ:كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:«إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» [4554]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ:«لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ،وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ». [4555]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ،قَالَ:حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺحَدِيثَيْنِ،رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ:حَدَّثَنَا:«أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ،ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ،ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ:" يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ،فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ،فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الوَكْتِ،ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ،كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ،فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ،فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ،فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ،فَيُقَالُ:إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا،وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ:مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ،وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ " وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُمْ بَايَعْتُ،لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ،وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ،فَأَمَّا اليَوْمَ:فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلاَنًا وَفُلاَنًا" [4556]

وقَالَ حُذَيْفَةُ:" أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ،وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةُ،وَلَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً،وَلَتُصَلِّيَنَّ نِسَاؤُهُمْ حُيَّضًا،وَلَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ،وَحَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ،لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ،وَلَا يُخْطَأُ بِكُمْ،وَحَتَّى تَبْقَى فِرْقَتَانِ

[4554] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٦)

[4555] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١/ ٤٢٢)(١٩٤) صحيح

[4556] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٤)(٦٤٩٧)[ش (الأمانة) الطاعة والتزام الأمر والنهي.(جذر) هو الأصل من كل شيء(علموا) أي الأمانة.(الوكت) أثر النار ونحوها.(المجل) التنفط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه أو من مس النار وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم.(منتبرا) مرتفعا.(ما أظرفه) ما أحسنه.(ما أجلده) ما أقواه وما أصبره.(مثقال) وزن.(خردل) نبت صغير الحب يضرب به المثل في الصغر.(أتى علي زمان) مر علي من قبل.(وما أبالي) لا أبحث عن حال من أبايع لثقتي بأمانته.(ساعيه) الوالي عليه يقوم بالأمانة في ولايته فينصفني ويستخرج حقي منه.(فلانا وفلانا) يعني أفرادا من الناس قلائل أعرفهم وأثق بأمانتهم.(الفربري) أحد رواة الصحيح عن البخاري رحمه الله تعالى.(أبو جعفر) هو وراق البخاري وكاتبه.(أبو عبد الله) البخاري نفسه]

تَقُولُ إِحْدَاهُمَا:مَا بَالُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؟ لَقَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؛ إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود:١١٤]،لَا يُصَلُّونَ إِلَّا ثَلَاثًا،وَتَقُولُ الْأُخْرَى:إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ كَإِيمَانِ الْمَلَائِكَةِ،مَا فِينَا كَافِرٌ وَلَا مُنَافِقٌ،حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَحْشُرَهُمَا مَعَ الدَّجَّالِ " [٤٥٥٧]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ الأَسَدِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ:أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ،وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْهُ الصَّلاَةُ،وَسَيُصَلِّي قَوْمٌ وَلاَ دَيْنَ لَهُمْ،وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ كَأَنَّهُ قَدْ نُزِعَ مِنْكُمْ،قَالَ:قُلْتُ:كَيْفَ يَا عَبْدَ اللهِ،وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا،قَالَ:يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ فَتُرْفَعُ الْمَصَاحِفُ وَيُنْزَعُ مَا فِي الْقُلُوبِ،ثُمَّ تَلاَ: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ. [٤٥٥٨]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ:«إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ،وَإِنَّ آخِرَ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ،وَلَيُصَلِّيَنَّ الْقَوْمُ الَّذِينَ لَا دِينَ لَهُمْ،وَلَيُنْتَزَعَنَّ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» قَالُوا:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَلَسْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ،وَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ:«يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ» [٤٥٥٩]

٣٤. الغلولُ:

الغلول المراد به أخذ مال المسلمين بغير حق:وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:«مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا أُلْقِيَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ،وَلَا فَشَا الزِّنَا فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ،وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا قُطِعَ عَنْهُمُ الرِّزْقُ.وَلَا حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الدَّمُ.وَلَا خَتَرَ قَوْمٌ بِالْعَهْدِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ». [٤٥٦٠] .

[٤٥٥٧] - البدع لابن وضاح (٢/ ١١٦)(١٥٣) صحيح

[٤٥٥٨] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢١/ ٢٦١)(٣٨٧٤٠) صحيح

[٤٥٥٩] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٣٦٣)(٥٩٨١) صحيح

[٤٥٦٠] - موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٦٠)(٢٦) وفيه انقطاع، وله شواهد بنحوه التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - (٢٣ / ٤٣٠) - ختر : غدر

ومن المعلوم أنه إذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنهم لن يواجهوا العدو وسيهزمون ويولون الأدبار هذا أمر لا شك فيه .. وقد حرم الله تعالى الغلول بكل صوره،قال تعالى:{ وما كان لنبيٍّ أنْ يغُلّ ومنْ يغْلُلْ يأْتِ بما غلّ يوْم الْقيامة ثُمّ تُوفّى كُلُّ نفْسٍ ما كسبتْ وهُمْ لا يُظْلمُون [آل عمران:١٦١] } يُنزِّهُ اللهُ تعالى في هذه الآية رسُولهُ الكريم عنْ أخْذ شيءٍ من المغْنم خلْسةً (عن الغُلُول)،وعن الخيانة في أداء الأمانة،فقال تعالى:ما ينْبغي لنبيٍّ أنْ يغُلّ لأنّ الله عصمهُ منْ ذلك ويُهدِّدُ اللهُ تعالى منْ يغُلُّ بأنّهُ سيأتي يوْم القيامة وهُو يحْملُ ما غلّ ليُحاسب عليه،واللهُ لا يظْلمُ أحداً منْ خلْقه .[4561]

٣٥. التلاعب بإقامة الحدود أو تركها :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ،فَقَالُوا:وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ،ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ،أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ،وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[4562].

٣٦. عدمُ التراحم:

[4561] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٤، بترقيم الشاملة آليا)

[4562] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)(٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)٨(١٦٨٨) -

[ش (أهمهم) أحزنهم وأثار اهتمامهم.(شأن..) حالها وأمرها.(المخزومية) نسبة إلى بني مخزوم واسمها فاطمة بنت الأسود وكانت سرقت حليا يوم فتح مكة.(حب) محبوب.(أتشفع في حد) تتوسل أن لا يقام حد فرضه الله تعالى والحد عقوبة مقدرة من المشرع.(الشريف) الذي له شأن في قومه بسبب مال أو نسب أو عشيرة.(الضعيف) من ليس له عشيرة أو وجاهة في قومه.(وايم الله) لفظ من ألفاظ القسم أصلها وأيمن الله فحذفت النون تخفيفا وقد تقطع الهمزة وقد توصل]

عَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا،فَقَالَ الأَقْرَعُ:إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا،فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺثُمَّ قَالَ:«مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[٤٥٦٣]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ»[٤٥٦٤]
أَيْ:مَنْ لَا يَتَعَطَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرْأَفُ بِهِمْ،وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ،وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً،وَالْمَعْنَى:أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ بِالرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ،وَالسَّابِقِينَ إِلَى دَارِ الرَّحْمَةِ،وَإِلَّا فَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.قَالَ الطِّيبِيُّ:الرَّحْمَةُ الثَّانِيَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ،وَالْأَوْلَى عَلَى الْمَجَازِ ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ الْخَلْقِ التَّعَطُّفُ وَالرِّقَّةُ،وَهُوَ لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ،وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا عَمَّنْ رَحِمَهُ ؛ لِأَنَّ مَنْ رَقَّ لَهُ الْقَلْبُ فَقَدْ رَضِيَ عَنْهُ،أَوِ الْإِنْعَامُ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَطَفَ عَلَى رَعِيَّتِهِ رَقَّ لَهُمْ وَأَصَابَهُمْ بِمَعْرُوفِهِ وَإِنْعَامِهِ[٤٥٦٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»[٤٥٦٦] .
أَيْ:لَا تُسْلَبُ الشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ،وَمِنْهُمْ نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ أَوْلَى بِالشَّفَقَةِ وَالْمَرْحَمَةِ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِهَا،بَلْ فَائِدَةُ شَفَقَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} [الإسراء:٧]،وَلِأَنَّ شَفَقَتَهُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ سَبَبٌ لِرَحْمَتِهِ تَعَالَى عَلَيْهِ لِمَا سَيَأْتِي:أَنَّ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ.(إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ):أَيْ:كَافِرٍ،أَوْ فَاجِرٍ يَتْعَبُ فِي الدُّنْيَا وَيُعَاقَبُ فِي الْعُقْبَى[٤٥٦٧]

[٤٥٦٣] - صحيح البخاري (٨/ ٧)(٥٩٩٧)

[٤٥٦٤] - صحيح البخاري (٩/ ١١٥)(٧٣٧٦)

[٤٥٦٥] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٩٩)

[٤٥٦٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٢١٣)(٤٦٦) صحيح

[٤٥٦٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١١٣)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت،قَالَ:سَمعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَعَلَى آله وَسَلَّمَ يَقُولُ:«لَيْسَ منْ أُمَّتي مَنْ لَمْ يُجلَّ كَبيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغيرَنَا وَيَعْرفْ لعَالمنَا حَقَّهُ»[٤٥٦٨]

٣٧. نقضُ العهود والمواثيق:

قال تعالى:{وأَوْفُواْ بعهْد اللّه إذا عاهدتُّمْ ولا تنقُضُواْ الأيْمان بعْد توْكيدها وقدْ جعلْتُمُ اللّه عليْكُمْ كفيلاً إنّ اللّه يعْلمُ ما تفعلُون (٩١) ولا تكُونُوا كالّتي نقضتْ غزْلها منْ بعْد قُوّة أنْكاثًا تتّخذُون أيْمانكُمْ دخلًا بيْنكُمْ أنْ تكُون أُمّةٌ هي أرْبى منْ أُمّة إنّما يبْلُوكُمُ اللّهُ به وليُبيّننّ لكُمْ يوْم الْقيامة ما كُنْتُمْ فيه تخْتلفُون (٩٢) }سورة النحل

وأوْفُوا بعهْد الله وميثاقه إذا واثقْتُمُوهُ،وعقْدهُ إذا عاقدْتُمُوهُ،فأوْجبْتُمْ على أنْفُسكُمْ حقّاً لمنْ عاقدْتُمُوهُمْ وواثقْتُمُوهُمْ عليْه (ويدْخُلُ في ذلك كُلُّ عقْد يلْتزمُ به الإنْسانُ باخْتياره) وأشْهدْتُمُ الله على الوفاء به .ولا تُخالفُوا ما عقدْتُمْ فيه الأيمان،وشدّدْتُمْ على أنْفُسكُمْ،وقدْ جعلْتُمُ الله شاهداً وراعياً عليْكُمْ في الوفاء بالعهْد،والله يعْلمُ ما يكُونُ منْكُمْ منْ وفاء وحلْف،وبرٍّ وحنْث،فيُجازيكُمْ على ما تفْعلُون .قيل إنّهُ كانتْ في مكّة امْرأةٌ مُلْتاثةُ العقْل تغْزلُ غزْلها في النّهار،ثُمّ تعُودُ فتنْقُضُهُ في اللّيْل (أنْكاثاً)،وقدْ ضرب اللهُ تعالى فعْل هذه المرْأة المُلْتاثة العقْل مثلاً للّذين ينْقُضُون عُهُودهُمْ ومواثيقهُمْ تحْقيراً لهُمْ،وتقْبيحاً لفعْلهمْ،فقال تعالى:ولا تكُونُوا يا أيُّها القوْمُ في نقْضكُمْ أيْمانكُمْ بعْد توْكيدها،وإعْطائكُمْ ربّكُمُ العُهُود والمواثيق،كمنْ تنْقُضُ غزْلها بعْد إبْرامه حماقةً وجهْلاً .إذْ تجْعلُون أيْمانكُمُ التي تحْلفُونها على أنّكُمْ مُوفُون بالعهْد الذي عاهدْتُمْ عليْه،وسيلةً للْخداع،ولغشٍّ منْ عاقدْتُمُوهُمْ ليطْمئنُّوا إليْكُمْ،وأنْتُمْ تضْمرُون الغدْر وعدم الوفاء،إذا وجدْتُمْ منْ هُو أقْوى من الجماعة التي تعاقدْتُمْ معها،وأكْثرُ عدداً،فإذا وجدْتُمْ منْ هُو أقْوى من الجماعة التي تعاقدْتُمْ معها،تحالفْتُمْ معهُ،وحنثْتُمْ بأيْمانكُمْ التي أقْسمْتُمُوها للجماعة الأُوْلى (أنْ تكُون أُمّةٌ هي أرْبى منْ أُمّة) .

[٤٥٦٨] – المسند للشاشي (٣/ ١٨٤)(١٢٧٣) حسن

واللهُ تعالى إنّما يأْمُرُكُمْ بالوفاءِ بالعُهُودِ ليخْتبِرَكُمْ ويمْتحِنكُمْ،ويبْلُو إيمانكُمْ،ويوْم القِيامةِ يُبيِّنُ لكُمْ ما اخْتلفْتُمْ فِيهِ،فيُجازِي كُلّ عامِلٍ بِعملِهِ[4569] .

وقال تعالى: {أوكُلّما عاهدُواْ عهْداً نّبذهُ فرِيقٌ مِّنْهُم بلْ أكْثرُهُمْ لا يُؤْمِنُون} (١٠٠) سورة البقرة

وكان اليهُودُ قدْ قالُوا حِينما بعث اللهُ رسُوله مُحُمّداً ﷺ:واللهِ،ما عهد إلينا في مُحمّدٍ،وما أخذ علينا مِيثاقاً .فأنْزل اللهُ هذِهِ الآية .(وقال مُفسرُون:إنّ العُهود المقْصُودة هُنا هِي عُهُودُهُمْ للنّبِيِّ ﷺ وهُو فِي المدِينة) .ومعْنى الآيةِ:إنّ اليهُود كُلّما عاهدُوا عهْداً نقضهُ (نبذهُ) فرِيقٌ مِنْهُمْ،وأكْثرُهُمْ لا يُؤْمِنُون بِما جاء بِهِ مُحمّدٌ ﷺ،ولا يُؤْمِنُون بِحُرْمةِ العُهُودِ والمواثِيقِ .[4570]

وقد أخلفوا ميثاقهم مع اللّه تحت الجبل،ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد،وأخيرا نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي - ﷺ- أول مقدمه إلى المدينة وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة،بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه وأول من عاب دينه،وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم،مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه ..

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض،يعلنها رسول اللّه - ﷺ- عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَانَتْ خُزَاعَةُ حُلَفَاءِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَتْ بَنُو بَكْرٍ،رَهْطٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حُلَفَاءً لأَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مُوَادَعَةٌ أَيَّامَ الْحُدَيْبِيَةِ،فَأَغَارَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ،فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺيَسْتَمِدُّونَهُ،فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺمُمِدًّا لَهُمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ،فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ قُدَيْدًا ثُمَّ أَفْطَرَ،وَقَالَ:لِيَصُمِ النَّاسُ فِي السَّفَرِ وَيُفْطِرُوا،فَمَنْ صَامَ أَجْزَأَ عَنْهُ صَوْمُهُ،وَمَنْ أَفْطَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ.

[4569] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4570] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

فَفَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ،فَلَمَّا دَخَلَهَا أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ:كُفُّوا السِّلاَحَ،إِلاَّ خُزَاعَةَ عَنْ بَكْرٍ،حَتَّى جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ قُتِلَ رَجُلٌ بِالْمُزْدَلِفَةِ،فَقَالَ:إِنَّ هَذَا الْحَرَمَ حَرَامٌ عَنْ أَمْرِ اللهِ،لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي،وَلاَ يَحِلُّ لِمَنْ بَعْدِي،وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً وَاحِدَةً،وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشْهِرَ فِيهِ سِلاَحًا،وَإِنَّهُ لاَ يَخْتَلِي خَلاَهُ،وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهُ،وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِلاَّ الإِذْخَرَ،فَإِنَّهُ لِبُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِلاَّ الإِذْخَرَ،وَإِنَّ أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ:مَنْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللهِ،أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ،أَوْ قَتَلَ لِذَحْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،إِنِّي وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةِ بَنِي فُلاَنٍ،وَإِنَّهَا وَلَدَتْ لِي،فَأْمُرْ بِوَلَدِي فَلْيُرَدَّ إِلَيَّ،فَقَالَ ﷺ:لَيْسَ بِوَلَدِكَ،لاَ يَجُوزُ هَذَا فِي الإِسْلاَمِ،وَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ أَوْلَى بِالْيَمِينِ،إِلاَّ أَنْ تَقُومَ بَيِّنَةٌ،الْوَلَدُ لِصَاحِبِ الْفِرَاشِ،وَبِفِي الْعَاهِرِ الأَثْلَبُ،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا نَبِيَّ اللهِ،وَمَا الأَثْلَبُ ؟ قَالَ:الْحَجَرُ،فَمَنْ عَهَرَ بِامْرَأَةٍ لاَ يَمْلِكُهَا،أَوْ بِامْرَأَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ فَوَلَدَتْ،فَلَيْسَ بِوَلَدِهِ،لاَ يَرِثُ وَلاَ يُورَثُ.وَالْمُؤْمِنُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَوَّلُهُمْ،وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،وَلاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ.وَلاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ.وَلاَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا،وَلاَ عَلَى خَالَتِهَا،وَلاَ تُسَافِرُ ثَلاَثًا مَعَ غَيْرِ ذِي مَحْرَمٍ.وَلاَ تُصَلُّوا بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،وَلاَ تُصَلُّوا بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ.[٤٥٧١]

وعَنْ أَبِي حَسَّانَ،أَنَّ عَلِيًّا،كَانَ يَأْمُرُ بِالأَمْرِ فَيُؤْتَى،فَيُقَالُ:قَدْ فَعَلْنَا كَذَا وَكَذَا،فَيَقُولُ:صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،قَالَ:فَقَالَ لَهُ الأَشْتَرُ:إِنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَدْ تَفَشَّغَ فِي النَّاسِ،أَفَشَيْءٌ عَهِدَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ عَلِيٌّ:مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺشَيْئًا خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ،إِلاَّ شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهُوَ فِي صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ سَيْفِي،قَالَ:فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ،قَالَ:فَإِذَا فِيهَا:مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ قَالَ:وَإِذَا فِيهَا:إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ،وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ،حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ،لاَ يُخْتَلَى خَلاهَا،وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا،وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا،إِلاَّ لِمَنْ أَشَارَ بِهَا،وَلاَ تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلاَّ أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ،وَلاَ يُحْمَلُ فِيهَا

[٤٥٧١] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /٣٤٠] (٥٩٩٦) صحيح

السِّلاحُ لِقِتَالٍ قَالَ:وَإِذَا فِيهَا:الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،أَلاَ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ.[4572].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺمَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ،قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا،فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّهُ مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِنَّ الإِسْلاَمَ لَمْ يَزِدْهُ إِلاَّ شِدَّةً،وَلاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ،وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،تُرَدُّ سَرَايَاهُمْ عَلَى قَعَدِهِمْ،لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ،لاَ جَلَبَ وَلاَ جَنَبَ،وَلاَ تُؤْخَذُ صَدَقَاتُهُمْ إِلاَّ فِي دِيَارِهِمْ.[4573]

وقال تعالى:{فبما نقْضِهِم مِّيثاقهُمْ وكُفْرِهِم بآياتِ اللّهِ وقتْلِهِمُ الأنْبياء بِغيْرِ حقٍّ وقوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بلْ طبع اللّهُ عليْها بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤْمِنُون إِلاّ قلِيلاً} (١٥٥) سورة النساء

فبِسببِ نقْضِ هؤُلاءِ اليهُودِ للْميثاقِ الذي واثقهُمُ اللهُ به،(إذْ أحلُّوا ما حرّم اللهُ،وحرّمُوا ما أحلّ اللهُ) .وبسببِ كُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ ومُعْجزاته الدّالّة على صدْق أنْبيائه،وبسببِ قتْلِهِمُ الأنْبياء ظُلْماً وعُدْواناً واجْتراءً على محارِمِ اللهِ،وبسببِ قوْلِهِمْ:قُلُوبُنا مُغلّفةٌ بِغطاءٍ لا يتيسّرُ معهُ وُصُولُ العِلْمِ والهُدى إليها (غُلفٌ) ...فبسببِ جميعِ ما تقدّم مِن الاعْتِداءِ والتّجاوُزِ على أوامِرِ اللهِ وحُدُودِهِ وشرْعِهِ،فعل اللهُ بِهِمْ ما فعل .ويقُولُ تعالى:إنّ قُلُوب هؤُلاءِ اليهُودِ ليْستْ مُغلّفةً،ولكنّهُ تعالى طبع عليْها بِالكُفْرِ،فلا يصِلُ إليها إلاّ قلِيلٌ مِن الإيمانِ (أوْ إنّهُ لا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إلاّ قلِيلُون)[4574]

وقال تعالى:{فبِما نقْضِهِم مِّيثاقهُمْ لعنّاهُمْ وجعلْنا قُلُوبهُمْ قاسِيةً يُحرِّفُون الْكلِم عن مّواضِعِهِ ونسُواْ حظًّا مِّمّا ذُكِّرُواْ بِهِ ولا تزالُ تطّلِعُ على خآئِنةٍ مِّنْهُمْ إِلاّ قلِيلاً مِّنْهُمُ فاعْفُ عنْهُمْ واصْفحْ إِنّ اللّه يُحِبُّ الْمُحْسِنِين} (١٣) سورة المائدة

[4572] - مسند أحمد (عالم الكتب) [١ /٣٤٢](٩٥٩) صحيح

[4573] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢ /٦٣٤] (٦٦٩٢) صحيح

[4574] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٤٨، بترقيم الشاملة آليا)

فبسبب نقْضهم الميثاق الذي أخذهُ اللهُ عليْهمْ (ومنْهُ الإيمانُ بكُلِّ نبيٍّ يُرْسلُهُ اللهُ،ونصْرُهُ وتبْجيلُهُ) اسْتحقُّوا مقْت الله وغضبهُ،حتّى قتلُوا الأنْبياء بغيْر حقٍّ،وافْتروا على مرْيم،وأساؤُوا إلى عيسى،الذي جاء لإصْلاح ما فسد منْ عقائدهم وأخْلاقهمْ،وحاولُوا قتْلهُ،فبسبب جميع ما اقْترفُوهُ منْ عقائدهم وأخْلاقهمْ،وحاولُوا قتْلهُ،فبسبب جميع ما اقْترفُوهُ منْ ذُنُوب ومعاصٍ جعل اللهُ قُلُوبهُمْ قاسيةً،فلا يتّعظُون بموْعظة لغلْظة قُلُوبهمْ وقسْوتها،وجعل أفْهامهُمْ فاسدةً فساءتْ تصرُّفاتُهُمْ في آيات الله،فأخذُوا في تحْريفها وتأويلها على غيْر ما أنْزلتْ لهُ،وحملُوها على غيْر المُراد منْها (يُحرِّفُون الكلم عنْ مواضعه) وتركُوا العمل بها رغْبةً عنْها (نسُوْا حظّاً ممّا ذُكِّرُوا به)،ولا تزالُ تكْتشفُ منْ أكْثرهمْ غدْراً ومكْراً بك وبأصْحابك (تطّلع على خائنة منْهُمْ)،فاعْفُ عنْهُمْ واصْفحْ،وهذا هُو النّصْرُ والظّفرُ،وفيه تألُّفٌ لقُلُوبهمْ،لعلّ الله أنْ يهْديهُمْ إلى الحقِّ،إنّ الله يُحبُّ المُحْسنين .(وقال ابْنُ عبّاسٍ إنّ معْنى قوْله تعالى - ونسُوا حظّا ممّا ذُكِّرُوا به - هُو أنّهُمْ نسُوا الكتاب الذي أُنْزل إليْهمْ) .[4575]

---

٣٨. الغدرُ:

عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيه كَانَ مُنَافقًا خَالصًا،وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منْهُنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منَ النِّفَاق حَتَّى يَدَعَهَا:إذَا اؤْتُمنَ خَانَ،وَإذَا حَدَّثَ كَذَبَ،وَإذَا عَاهَدَ غَدَرَ،وَإذَا خَاصَمَ فَجَرَ "[4576].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:" قَالَ اللَّهُ:ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ:رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ،وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ،وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ "[4577].

[4575] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٨٣، بترقيم الشاملة آليا)

[4576] - صحيح البخاري (١/ ١٦) (٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)(١٠٦ - (٥٨)

[ش (منافقا خالصا) قد استجمع صفات النفاق.(خصلة) صفة.(يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها.(غدر) ترك الوفاء بالعهد.(خاصم) نازع وجادل.(فجر) مال عن الحق واحتال في رده]

وعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ قَالَ:كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ،فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ:اللَّهُ أَكْبَرُ،اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدَرَ،فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:«مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ"[٤٥٧٨]

وعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ،قَالَ:«أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟» قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ:بَلَى،يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ،تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ،فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ،فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا،ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا،فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا،فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ،فَقَالَتْ:سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ،وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ،وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ،بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ،فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا،قَالَ:يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«صَدَقَتْ،صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»[٤٥٧٩]

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ،لَقِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَقَالَ:«حَدِّثْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ»،قَالَ:مَرَّتِ امْرَأَةٌ عَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلٌ فِيهِ طَعَامٌ،فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَأَصَابَهَا فَرَمَى بِهَا،فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهِيَ تُعِيدُهُ فِي مِكْتَلِهَا وَهِيَ تَقُولُ:وَيْلٌ لَكَ مِنْ يَوْمٍ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهُ،فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ

[٤٥٧٧] - صحيح البخاري (٣/ ٨٢)(٢٢٢٧)

[ش (أعطى بي) عاهد باسمي وحلف.(غدر) نقض العهد ولم يف به أو لم يبر بقسمه.(باع حرا) وهو يعلم أنه حر.(فاستوفى منه) العمل الذي استأجره من أجله]

[٤٥٧٨] - سنن أبي داود (٣/ ٨٣)(٢٧٥٩) صحيح

[٤٥٧٩] - سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٢٩)(٤٠١٠) حسن

[ش - (فتية) أي جماعة.(ياغدر) أي ياغادر.وأكثر ما يستعمل في النداء بالشتم.(يقدس الله) أي يطهرهم من الدنس والآثام.]

الظَّالِمِ.فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺحَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَقَالَ:«كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقُّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ» [٤٥٨٠]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:" إِنَّ الغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ،يُقَالُ:هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ "[٤٥٨١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ» [٤٥٨٢]

وعَنْ بِشْرِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:" إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءً يُعْرَفُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ،وَإِنَّ أَكْبَرَ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرِ عَامَّةٍ "[٤٥٨٣]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:أَلاَ إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ،أَلاَ وَلاَ غَدْرَ أَعْظَمُ مِنْ إِمَامِ عَامَّةٍ[٤٥٨٤] .

---

٣٩. الخيانةُ:

قال تعالى:{ إِنّ شرّ الدّوابِّ عنْد اللّه الّذين كفرُوا فهُمْ لا يُؤْمنُون (٥٥) الّذين عاهدْت منْهُمْ ثُمّ ينْقُضُون عهْدهُمْ فِي كُلِّ مرّةٍ وهُمْ لا يتّقُون (٥٦) فإمّا تثْقفنّهُمْ فِي الْحرْبِ

[٤٥٨٠] - السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٥٧)(٥٨٢) صحيح

[٤٥٨١] - صحيح البخاري (٨/ ٤١)(٦١٧٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٩ - (١٧٣٥)

[ش (يرفع لكل غادر لواء) قال أهل اللغة اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش ويكون الناس تبعا له قالوا فمعنى لكل لواء غادر أي علامة يشهر بها في الناس وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر لتشهيره بذلك وأما الغادر فإنه الذي يواعد على أمر ولا يفي به وذكر القاضي عياض احتمالين أحدهما نهي الإمام أن يغدر في عهوده لرعيته وللكفار أو غيرهم أو غدره للأمانة التي قلدها لرعيته والتزم القيام بها والمحافظة عليها ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم فقد غدر بعهده والاحتمال الثاني أن يكون المراد نهي الرعية عن الغدر بالإمام فلا يشقوا عليه الطاعة ولا يتعرضوا لما يخاف حصول فتنة بسببه والصحيح الأول]

[٤٥٨٢] - صحيح البخاري (٩/ ٢٥)(٦٩٦٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦١)١٤ - (١٧٣٧)

[٤٥٨٣] - مسند أحمد ط الرسالة (١٠/ ٢٦١)(٦٠٩٣) صحيح لغيره

[٤٥٨٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٤/ ١٧٦)(١١٦٦٦) ١١٦٨٩- صحيح لغيره

فشرِّدْ بِهِمْ منْ خلْفهُمْ لعلّهُمْ يذّكّرُون (٥٧) وإمّا تخافنّ مِنْ قوْمٍ خِيانةً فانْبِذْ إِليْهِمْ على سواءٍ إِنّ اللّه لا يُحِبُّ الْخائِنِين (٥٨) } سورة الأنفال

نزلتْ هذِهِ الآيةُ فِي نفرٍ مِن اليهُودِ،زعِيمُهُمْ كعْبُ بْنُ الأشْرفِ،وهُو مِنْ طواغِيتِ الكُفْرِ والكُرْهِ لِمُحمّدٍ ﷺ ولِلإِسْلامِ،وفِيها يُطمْئِنُ اللهُ تعالى رسُولهُ ﷺ إِلى أنّهُ آمِنٌ مِنْ عاقِبةِ كيْدِهِمْ،ويُبيِّنُ فِيها ما يجِبُ أنْ يفْعلهُ الرّسُولُ مع أمْثالِهِمْ مِن الخونةِ المُتربِّصِين .

يقُولُ تعالى:إِنّ شرّ المخْلُوقاتِ التِي تدِبُّ على الأرْضِ،فِي حُكْمِ اللهِ وعدْلِهِ،هُمُ الكافِرُون الذِين اجْتمعتْ فِيهِمْ صِفتانِ:

(أ) - الإِصْرارُ على الكُفْرِ،والرُّسُوخُ فِيهِ حتّى لا يُرْجى لهُمْ إِيمانٌ .

(ب) - نقْضُ العهْدِ .

وكان الرّسُولُ ﷺ حِين هِجْرتِهِ إِلى المدِينةِ،عقد مع اليهُودِ عُقُوداً،أمّنهُمْ فِيها على أنْفُسِهِمْ وأمْوالِهِمْ ودِينِهِمْ،فنقضُوا هذِهِ العُهُود،وتآمرُوا على الرّسُولِ والمُسْلِمِين .

الذِين كُلّما عاهدُوا عهْداً نقضُوهُ،وكُلّما أكّدُوا بِالأيْمانِ نكثُوهُ،وهُمْ لا يخافُون عِقاب اللهِ على شيْءٍ مِن الآثامِ ارْتكبُوهُ .

فإِذا ما لقِيتهُم يا أيُّها الرّسُولُ فِي الحرْبِ،وظفِرْت بِهِمْ،فنكِّلْ بِهِمْ،وأثْخِنْ فِيهِمْ قتْلاً،لِيخاف سِواهُمْ مِن الأعْداءِ { فشرِّدْ بِهِمْ مِنْ خلْفهُمْ }،ولِيكُونُوا عِبْرةً لِغيْرِهِمْ،لعلّهُمْ يُحاذِرُون أنْ ينْكُثُوا أيْمانهُمْ،ويخُونُوا عُهُودهُمْ،فيحِلّ بِهِمْ مِثْلُ ذلِك .

وإِذا خِفْت مِنْ قوْمٍ عاهدْتهُمْ،خِيانةً ونقْضاً لِلْعهْدِ الذِي بيْنك وبيْنهُمْ،فانْبِذْ إِليْهِمْ عهْدهُمْ،وأعْلِمْهُمْ بِأنّك نقضْت عهْدهُمْ حتّى يعْلمُوا أنّ لا عهْد بيْنك وبيْنهُمْ على السّواءِ،فتسْتوِي أنْت وإِيّاهُمْ فِي ذلِك بِدُونِ خِداعٍ ولا اسْتِخْفاءٍ .واللهُ لا يُحِبُّ الخائِنِين،حتّى ولوْ كانتِ الخِيانةُ مُوجّهةً لِلْكُفّارِ .[٤٥٨٥]

[٤٥٨٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢١٦، بترقيم الشاملة آليا)

وعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ،قَالَ:" ثَلَاثَةٌ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِيهِنَّ سَوَاءٌ:مَنْ عَاهَدْتَهُ وَفِّ بِعَهْدِهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا،فَإِنَّمَا الْعَهْدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَمَنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَحِمٌ فَصِلْهَا،مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا وَمَنِ ائْتَمَنَكَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدِّهَا إِلَيْهِ " مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا." [٤٥٨٦]

وقال تعالى:{يا أيُّها الّذين آمنُواْ لا تخُونُواْ اللّه والرّسُول وتخُونُواْ أماناتكُمْ وأنتُمْ تعْلمُون } (٢٧) سورة الأنفال

نزلتْ هذه الآيةُ في أبي لُبابة حين بعثهُ الرّسُولُ ﷺ إلى بني قُريْظة لينْزلُوا على حُكْم رسُول الله،فاسْتشار اليهُودُ أبا لُبابة – وكان حليفاً لهُمْ – فأشار عليْهمْ بالنُّزُول على حُكْم رسُول الله،ولكنّهُ أشار بيده إلى حلْقه،أيْ أنّه الذّبْح .ثُمّ شعر أنّهُ خان الله ورسُولهُ،فربط نفْسهُ في سارية المسْجد تسْعة أيّامٍ لا يذُوقُ طعاماً حتّى تاب اللهُ عليْه،فأطْلقهُ رسُولُ الله ﷺ .(وقيل أيْضاً إنّها نزلتْ في حاطب بْن أبي بلْتعة،الذي أرْسل رسالةً إلى قُريْشٍ مع امْرأةٍ يُعْلمُها فيها بأنّ الرّسُول تجهّز لغزْوهمْ يوْم فتْح مكّة) .والآيةُ عامّةٌ .

يأْمُرُ اللهُ تعالى المُؤْمنين في هذه الآية بأنْ لا يخُونُوا الله بارْتكاب الذُّنُوب،وأنْ يخُونُوا رسُولهُ بترْك سُننه،وارْتكاب معْصيته،وأنْ لا يخُونُوا أماناتهمْ في أعْمالهمْ التي ائْتمن اللهُ العباد عليها:يعْني الفرائض،وهي تشْملُ أمانة الإنْسان نحْو النّاس في تعامُله معهُمْ:كالمكْيال والميْزان،وأداء الشّهادة بالحقّ والصِّدْق،وكتْمان السِّرِّ ..إلخ .فالأمانةُ واحدةٌ ولا تبْعيض فيها،وأنْتُمْ تعْلمُون أيُّها المُؤْمنُون مساوىء الخيانة،وسُوء عاقبتها [٤٥٨٧].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحذر من الخيانة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ،فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ،وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ،فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ». [٤٥٨٨]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:الْمُؤْمِنُ يُطْوَى عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ.

[٤٥٨٦] - شعب الإيمان (٦/ ٢٠٣)(٤٠٥٣) صحيح

[٤٥٨٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٥٨٨] - صحيح ابن حبان - مخرجا (٣/ ٣٠٤)(١٠٢٩) حسن

وعَنْ سَعْد،قَالَ:الْمُؤْمنُ يُطْبَعُ عَلَى الْخلاَل كُلِّهَا غَيْرِ الْخيَانَة وَالْكَذب.[4589]

وعن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:يُطْوى الْمُــؤْمنُ عَلَــى كُــلِّ شــيءٍ إلاَّ الْخيَانَــةَ وَالْكَذبَ.[4590]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه عَلَيْه السَّلَامُ،قَالَ:«لَا يَجْتَمعُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فــي قَلْــبِ امْرِئ،وَلَا يَجْتَمعُ الصِّدْقُ وَالْكَذبُ جَميعًا،وَلَا تَجْتَمعُ الْخيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَميعًا»[4591]

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:" لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخيلٌ وَلا خَــبٌّ وَلا خَائنٌ وَلا سَيِّئُ الْمَلَكَة،وَأَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّة الْمَمْلُوكُونَ؛ إِذَا أَحْسَنُوا فيمَا بَيْــنَهُمْ وَبَيْنَ الله عَزَّ وَجَلَّ،وَفيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَوَاليهِمْ "[4592]

وعَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ الْمَكِّيِّ،قَالَ:كُنْتُ أَكْتُبُ لفُلَان نَفَقَةَ أَيْتَامٍ كَانَ وَليَّهُمْ فَغَــالَطُوهُ بِأَلْف درْهَمٍ،فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ فَأَدْرَكْتُ لَهُمْ منْ مَالهِمْ مثْلَيْهَا،قَالَ:قُلْتُ:أَقْبِضُ الْأَلْفَ الَّــذي ذَهَبُوا به منْكَ؟،قَالَ:لَا،حَدَّثَني أَبِي،أَنَّهُ سَمعَ رَسُولَ اللَّه ﷺيَقُولُ:«أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَــى مَــنِ ائْتَمَنَكَ،وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[4593]

٤٠. إيثارُ حبِّ الأشياء على حب الله ورسوله

قال تعالى:{قُلْ إِن كان آباؤُكُمْ وأبْنآؤُكُمْ وإخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وعشيرتُكُمْ وأمْــوالٌ اقْترفْتُمُوها وتجارةٌ تخْشوْن كسادها ومساكنُ ترْضوْنها أحبّ إليْكُم مِّن اللّــه ورسُــوله وجهادٍ في سبيله فتربّصُواْ حتّى يأْتي اللّهُ بأمْره واللّهُ لا يهْدي الْقوْم الْفاســقين} (٢٤) سورة التوبة

[4589] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٣/ ١٥١)(٢٦١١٦-٢٦١١٧) صحيح

[4590] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٥/ ٥٩١)(٣٠٩٧٧) صحيح لغيره

[4591] – الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (ص: ٦٣٣)(٥٣٧) صحيح

[4592] – مسند أحمد ط الرسالة (١/ ١٩١)(١٣) فيه ضعف

الخَب: الخدّاع الذي يسعى بين الناس بالفساد.–وسيئ الملكة: هو الذي يسيء صحبة المماليك.

[4593] – سنن أبي داود (٣/ ٢٩٠)(٣٥٣٤) صحيح

أمر اللهُ تعالى رسُولهُ ﷺ بتوعُّد منْ آثر حُبّ القرابةِ والعشيرةِ والأهْلِ والتِّجارةِ والأمْوالِ والمساكنِ ....على حُبِّ اللهِ ورسُوله والجهـاد فـي سـبيله،بأنْ يتربّصُـوا أمْـر اللهِ فيهِمْ،وينْتظِرُوا عقابهُ ونكالهُ بِهِمْ،واللهُ تعالى لا يهْدِي الفاسقِين الخارِجِين عـنْ طاعتـهِ سواء السّبِيلِ .[4594]

٤١. الأمرُ بالمنكر والنهي عن المعروف

قال تعالى:{ الْمُنافِقُون والْمُنافِقاتُ بعْضُهُمْ مِنْ بعْضٍ يأْمُرُون بِـالْمُنْكرِ وينْهـوْن عـنِ الْمعْرُوفِ ويقْبِضُون أيْدِيهُمْ نسُوا اللّه فنسِيهُمْ إِنّ الْمُنافِقِين هُمُ الْفاسِقُون (٦٧) وعد اللّهُ الْمُنافِقِين والْمُنافِقاتِ والْكُفّار نار جهنّم خالِدِين فِيها هِي حسْبُهُمْ ولعنهُمُ اللّـهُ ولهُـمْ عذابٌ مُقِيمٌ (٦٨) } [التوبة/٦٧،٦٨]

إنّ أهْل النفاقِ رِجالاً ونساءاً،يتشابهُون في صِفاتِهِمْ وأخْلاقِهِمْ وأعْمالِهِمْ،يأْمُرُ بعْضُـهُمْ بعْضاً بِفِعْلِ الْمُنْكرِ،كالكذبِ والخيانةِ،وإخْلافِ الوعْدِ،ونقْضِ العهْدِ ..وينْهوْن عنْ فعْـلِ الخيْرِ والمعْرُوفِ:كالجهادِ،وبذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ،ويضنُّون بالإنْفاقِ في وُجُـوهِ البِـرِّ والطّاعاتِ والإحْسانِ إلى عِبادةِ اللهِ ..وقدْ نسُوا أنْ يتقرّبُوا إلى اللهِ تعالى بِفِعْلِ مـا أمـر بِهِ،وترْكِ ما نهى عنْهُ،واتّبعُوا خُطُواتِ الشّيْطانِ،فجازاهُمُ اللهُ على ذلِك بِحِرْمـانِهِمْ مِـنْ لُطْفِهِ وتوْفِيقِهِ فِي الدُّنْيا،ومِن الثّوابِ فِي الآخِرةِ .

والمُنافِقُون هُمْ أكْثرُ النّاسِ فُسُوقاً،وخُرُوجاً عنْ طاعةِ اللهِ،وانْسِلاخاً مِن الفضائِلِ الفِطْرِيّةِ السّلِيمةِ .

وقد أعدّ اللهُ تعالى لِلْمُنافِقِين والمُنافِقاتِ والكُفّارِ نار جهنّم،ووعدهُمْ بِها علـى سُـوْءِ صنِيعِهِمْ الذِي ذكرهُ اللهُ تعالى عنْهُمْ،وسيمْكُثُون فِيها مُخلّدِين أبداً،ولهُمْ فِيها مِن الجـزاءِ

[4594] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

والعذابِ ما يكْفيهِمْ (حسْبُهُمْ)،ولعنهُمْ اللهُ،وطردهُمْ مِنْ رحْمتِه،ولهُمْ عذابٌ مُقيمٌ دائمٌ غيْر عذابِ جهنّم:كالسّمُومِ يلْفح وجوههُمْ،والحميمِ يصْهرُ ما فِي بُطُونِهِمْ .[٤٥٩٥]

وعَنْ عُبَادَةَ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺبَعَثَهُ عَلَى الصَّدَقَة،فَقَالَ:" يَا أَبَا الْوَلِيدِ اتَّقِ لَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ لَهَا ثُؤَاجٌ "،فَقَالَ:يَا رَسُولَ الله إِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ،قَالَ:" أَيْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ " قَالَ:فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا أَوْ قَالَ:عَلَى اثْنَيْنِ"[٤٥٩٦]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ،وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ،وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟»،قَالُوا:وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟،قَالَ:«نَعَمْ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ»،قَالُوا:وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟،قَالَ:«كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ،وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟»،قَالُوا:وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟،قَالَ:«نَعَمْ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ»،قَالُوا:وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟،قَالَ:«كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا،وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟»،قَالُوا:وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:" نَعَمْ،وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ،يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:بِي حَلَفْتُ،لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهِمْ حَيْرَانًا "[٤٥٩٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ،وَطَغَى نِسَاؤُكُمْ؟» قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ؟ قَالَ:«وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ سَيَكُونُ،كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟»[٤٥٩٨]

٤٢. الاستهزاءُ بدين الله أو رسله :

[٤٥٩٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٠٣، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٥٩٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٢٦٧)(٧٦٦٣) حسن لغيره

[٤٥٩٧] - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦)(٣٢) حسن لغيره

[٤٥٩٨] - البدع لابن وضاح (٢/ ١١٨)(١٥٥) والمعجم الأوسط (٩/ ١٢٩)(٩٣٢٥) حسن لغيره

قال تعالى:{ ولقدِ استُهْزِئ برُسُلٍ مِنْ قبْلك فأمْليْتُ لِلّذين كفرُوا ثُمّ أخــذْتُهُمْ فكيْــف كان عقاب (٣٢) } [الرعد/٣٢]

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَمَّا يُلاَقِيه مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِه،وَيَقُولُ لَهُ:لَقَدْ سَــخِرَتْ الأَقْــوَامُ البَائِدَةُ بالرُّسُلِ الذينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ،فَأَنْظَرَ اللهُ الذينَ كَفَرُوا،وَأَمْهَلَهُمْ مُــدَّةً مِــنَ الــزَّمَنِ (فَأَمْلَيْتُ للَّذِينَ)،ثُمَّ أَخَذَهُمْ،وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُ فَلَمْ يُفْلِتْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِه.فَكَيْــفَ كَانَ عِقَابُ اللهِ؟[4599]

وقال تعالى:{ولقدِ استُهْزِئ برُسُلٍ مِّن قبْلك فحاق بِالّذِين سخِرُواْ مِنْهُم مّا كــانُواْ بِــهِ يسْتهْزِؤُون} (١٠) سورة الأنعام

ويُسلِّي اللهُ تعالى رسُولهُ ﷺ عمّا يُلاقِيهِ مِنْ عِنادِ الكُفّارِ وتكْذِيبِهِمْ،وإِصْــرارِهِمْ علــى الباطِلِ،فيقُولُ لهُ:لقد استُهْزِئ برُسُلٍ جاؤُوا قبْلك،وسخِر مِنْهُمُ الكافِرُون مِنْ قوْمِهِمْ،ومِن العِقابِ الذِي أنْذرُوهُمْ بِهِ،فعاقب اللهُ الذِين ســخِرُوا مِــنْهُمْ فدمّرهُم،ونصــر رُسُــلهُ والمُؤْمِنِين،وكانتِ العاقِبةُ لِلْمُؤْمِنِين فِي الدّنْيا والآخِرةِ .قُلْ يا مُحمّدُ لأُولئِــك المُكــذِّبِين المُسْتهْزِئِين الجاحِدِين بِما جِئْتهُمْ بِهِ:سِيرُوا فِي الأرْضِ،وتتبّعُوا أخْبار الأُممِ التِي عاشــتْ فِيها،ثُمّ انْظُرُوا كيْف كانتْ نِهايةُ المُكذِّبِين،وعاقِبةُ بغْيِهِمْ وتكْــذِيبِهِمْ،فاعْتبِرُوا بِــذلِك المصِيرِ .[4600]

---

٤٣. الجحودُ بآياتِ الله تعالى :

قال تعالى:{ واذْكُرْ أخا عادٍ إِذْ أنْذر قوْمهُ بِالْأحْقافِ وقدْ خلتِ النُّذُرُ مِنْ بيْنِ يديْهِ ومِنْ خلْفِهِ ألّا تعْبُدُوا إِلّا اللّه إِنِّي أخافُ عليْكُمْ عذاب يوْمٍ عظِيمٍ (٢١) قالُوا أجِئْتنا لِتأْفِكنــا عنْ آلِهتِنا فأْتِنا بِما تعِدُنا إِنْ كُنْت مِن الصّادِقِين (٢٢) قال إِنّما الْعِلْمُ عِنْد اللّهِ وأُبلِّغُكُــمْ

[4599] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٤٠، بترقيم الشاملة آليا)

[4600] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٨٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

ما أُرْسِلْتُ بِهِ ولكنِّي أراكُمْ قوْمًا تجْهلُون (٢٣) فلمّا رأوْهُ عارِضًا مُسْتقْبِل أوْدِيتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بلْ هُو ما اسْتعْجلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عذابٌ ألِيمٌ (٢٤) تُدمِّرُ كُلَّ شـــيْءٍ بِأمْرِ ربِّها فأصْبحُوا لا يُرى إِلّا مساكِنُهُمْ كذلِك نجْزِي الْقوْم الْمُجْـــرِمِين (٢٥) ولقـــدْ مكّنّاهُمْ فِيما إِنْ مكّنّاكُمْ فِيهِ وجعلْنا لهُمْ سمْعًا وأبْصارًا وأفْئِدةً فما أغْنى عنْهُمْ سمْعُهُمْ ولا أبْصارُهُمْ ولا أفْئِدتُهُمْ مِنْ شيْءٍ إِذْ كانُوا يجْحدُون بِآياتِ اللّهِ وحاق بِهِمْ ما كـــانُوا بِـــهِ يسْتهْزِئُون (٢٦) ولقدْ أهْلكْنا ما حوْلكُمْ مِن الْقُرى وصرّفْنا الْآياتِ لعلّهُـــمْ يرْجِعُـــون (٢٧) فلوْلا نصرهُمُ الّذِين اتّخذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ قُرْبانًا آلِهةً بلْ ضلُّوا عنْهُمْ وذلِك إِفْكُهُمْ وما كانُوا يفْترُون (٢٨) } [الأحقاف/]

يُسلِّي اللهُ تعالى رسُوله الكريم عمّا يُلاقِيهِ مِنْ تكْذِيبِ قوْمِهِ لهُ،واسْتِهْزائِهِمْ بِهِ،ويُـــذكِّرُهُ بِقصصِ الأنبياءِ الذين قبْلهُ،فكذّبهُمْ أقْوامُهُم،واسْتهْزاؤوا بِهِمْ فجاء نصْرُ اللهِ فنجّى الرُّسُل والذين آمنُوا،وأهْلك المُجْرِمين .وهُنا يبْدأُ تعالى بِسرْدِ قِصّةِ هُود،عليه السّلامُ،مع قُومِـــهِ عاد،وقدْ كانوا يسْكُنُون الأحْقاف في منْطقةِ حضْرموْت،جنُوبيِّ الجزيرةِ العربيّة،فقدْ بعثهُ اللهُ إِليهِمْ فدعاهُم إلى عِبادةِ اللهِ وحْدهُ لا شرِيك لهُ،وذكّرهُمْ بِأنْعُمِ اللهِ عليهِم،وبِما مـــنّ عليهِمْ بِهِ من قُوّةٍ وغِنىً،وكثْرةِ عدد،وأنذرهُمْ بأسِ اللهِ الشّدِيد وعِقابهُ إن أقـــامُوا علـــى كُفْرِهِم وظُلْمِهِمْ .وقدْ أرْسل اللهُ قبْل هُود رُسُلاً آخرين دعـــوا أقْـــوامهُم إلى الإِيمـــانِ بِاللهِ،وأنْذرُوهُمْ عذاب اللهِ إنْ أصرُّوا على كُفْرِهِمْ،وحثُّوهُمْ على الإِقْلاعِ عـــنِ الشِّـــرْكِ بِاللهِ،وعلى إِفرادِهِ تعالى بِالأُلُوهِيّةِ وحْدهُ .وقال هُودٌ لقوْمِه ناصِحاً:إِنِّي أخـــافُ علـــيكُم عذاب يوْمٍ عظِيمِ الهوْلِ،هُو يوْمُ القِيامةِ إذا أصرُّوا على كفْرِهِمْ وتكْذِيبِهِمْ .فردُّوا عليـــهِ قائلين:أجئتنا لِتصْرِفنا عنْ عِبادةِ آلِهتِنا إِلى عِبادةِ ربِّك الذي تدْعُونا إليه،فعجِّلْ لنا بِـــإِنْزالِ العذابِ علينا،إِنْ كُنْت مِنْ الصّادِقين في وعِيدِك لنا (وهُو أنّ ربّك سيُنْزِلُ علينا عـــذاباً مُدمِّراً مُهْلِكاً يُبِيدُنا بِهِ إِذا ما بقِينا مُقِيمين على عِبادةِ أصْنامِنا) .

فقال لهُم هُودٌ عليهِ السّلامُ:إِنّ الله هُو الذي يعْلمُ إِنْ كُنْتُمْ تسْتحِقُّون العذاب،وهُو القادِرُ على إِنزالِهِ بِكُمِ،وهُو العالِمُ بِالوقْتِ الذي يُنزِلُهُ بِكُم إِنْ شاء،أمّا أنا فمهمّتِي هِي إِبْلاغُكُمْ ما أرْسلنِي بِهِ إِليكُم،وأنا لا أسْتطِيعُ أنْ أُعجِّل العذاب الذي تطْلُبُونهُ،ولا أقدِرُ عليه،وإِنِّي

أعْتقدُ أنّكُم قوْمٌ تجْهلُون مهمّة الرّسُول،ولذلك طلبتُمْ منّي أنْ أُعجّل لكُمُ العـذاب،كما أنّي أعتقدُ أنّكُمْ قوْمٌ تجْهلُون عظمة الله وقُدْرتهُ وشدّة بأسه،لذلك طلبتُمْ تعْجيل إنْـزال العذاب بكُمْ،والعذابُ لا يطْلُبُ عاقلٌ أنْ ينْزل به .وكان اللهُ تعالى قدْ حبس المطر عـنْ عادٍ مُدّةً من الزّمن،حتّى اشتدّ بهم العطشُ،ثُمّ أرْسل إليهمْ غُيُوماً كثيفـةً اتّجهـتْ إلى أوديتهمْ ففرح بها قوْمُ عاد،واستبْشرُوا ظنّاً منْهُمْ أنّها سحائبُ تحملُ المطر .
فقال بعْضُهُمْ لبعْضٍ:هذا سحابٌ سيُمْطرُنا .وقال لهُمُ اللهُ تعالى (أوْ قاله لهُمْ هُودٌ عليـه السّلامُ) .
بل هُو العذابُ الذي استعْجلْتُم بإنْزاله بكُم،حين قُلْتُمْ لرسُولكُم { فأْتنا بمـا تعـدُنآ إن كُنت من الصادقين } إنّهُ ريحٌ تحملُ إليكُمْ عذاباً مُهْلكاً شديد الإيلام .وهذه الرِّيحُ التي أرسلها اللهُ على قوْم عادٍ تُهلكُ وتُخرِّبُ كُلّ شيءٍ مرّتْ به بإذن ربِّها .ووصفها تعالى في آية أخْرى بأنّها { ما تذرُ من شيْءٍ أتتْ عليْه إلاّ جعلتْهُ كالرميم }
وسلّط اللهُ تعالى هذه الرِّيح العاتية على قوم عاد،فهبّتْ عليهمْ سبْع ليالٍ وثمانيـة أيّـامٍ كاملات مُتتاليات،فأهْلكتْهُمْ جميعاً،ولم تترُكْ لهُمْ في أرْضهمْ منْ باقية،ولم يعُدْ يُـرى في ديارهم إلاّ مساكنُهُمْ خاليةً لا ساكن فيها .ويُخْبرُ تعالى أنّهُ يُعاقبُ بمثْل هذه العُقُوبـة كُلّ منْ كذّب رُسُلهُ،وخالف أوامرهُ .
وقدْ مكنّا لقوم عادٍ في الدُّنيا فيما لمْ نُمكِّنْكُمْ فيه،وأعْطيناهُمْ ما لمْ نُعْطكُم مثْلهُ،ولا قريباً منْهُ،من الأمْوال الكثيرة،والأولاد،وبسْطة الأجْسام،وقُوّة الأبدان،وجعلْنا لهُـمْ أسْـماعاً وأبْصاراً،فلم يسْتعْملُوا شيئاً منْ أسْماعهمْ وأبْصارهمْ وأفْئدتهمْ فيما خُلقتْ لهُ،ولمْ ينْتفعُوا بها في الاهتداء إلى وُجود الخالق ووحْدانيته،وقُدْرته العظيمة على الخلْـق،لأنّهُمْ كـانُوا يُكذِّبُون رُسُل الله،ويُنْكرُون آياته فأنزل اللهُ تعالى بأْسهُ وعذابـهُ عليهم،وأحـاط بهـم العذابُ الذي كانُوا يسْتهزئُون به،ويسْتبْعدُون وُقُوعهُ بهمْ،فاستعْجلُوهُ .فلْيحْذرْ مُشْركُو مكّة أنْ ينْزل بهمْ ما نزل بقوْم عادٍ،إذا استمروُا على كُفْرهمْ وتكْذيبهمْ .
ولقدْ أهْلك اللهُ تعالى القُرى منْ حوْل مكّة (مثْل عادٍ وثمُود ومدْين وقوْم لُوط)،وأهْـلُ مكّة يعْرفُون منازل تلْك الأقوام،وكانُوا يمُرُّون بها وهُمْ غادُون رائحُون في أسْفارهمْ،وقدْ

أهْلك اللهُ أهْل هذه القُرى بعْد أنْ أنْذرهُمْ،وحذّرهُمْ،وضرب لهُمُ الأمثال،وبيّن لهُمْ دلائل قُدْرته لعلّهُمْ يرْجعُون عنْ غيِّهمْ وطُغْيانهمْ،فلم يرْجعُوا،و لمْ يتّعظُوا،فأخذهُمُ اللهُ أخْذ عزيزٍ مُقْتدرٍ .فهلاّ نصرهُمُ الأرْبابُ الذين اتّخذُوا عبادهُمْ قُرْبةً يتقرّبُون بها إلى الله فيما زعمُوا،حينما نزل بهمْ بأسُ الله وأمْرُهُ فأنْقذُوهُمْ ممّا نزل بهمْ؟ لكنّ هؤُلاء الأرْباب أصْنامٌ لا تضُرُّ ولا تنْفعُ وقدْ غابُوا عنْهُم،وهُمْ أحْوجُ ما يكُونُون إليهمْ .وعجْزُ هؤُلاء الأرْباب عنْ نُصْرتهمْ أثْبت لهُمْ أنّهُمْ كانُوا كاذبين في اتّخاذهمْ آلهةً،وأنّهُم يفْترُون على الله الكذب في زعْمهمْ أنّهُم يُقرِّبُونهُم إلى الله زُلْفى،ويشْفعُون لهُمْ عنْد الله تعالى [٤٦٠١].

٤٤. البطرُ في المعيشةِ:

قال تعالى:{ وقالُوا إنْ نتّبعِ الْهُدى معك نُتخطّفْ منْ أرْضنا أو لمْ نُمكِّنْ لهُمْ حرمًا آمنًا يُجْبى إليْه ثمراتُ كُلِّ شيْءٍ رزْقًا منْ لدُنّا ولكنّ أكْثرهُمْ لا يعْلمُون (٥٧) وكمْ أهْلكْنا منْ قرْيةٍ بطرتْ معيشتها فتلْك مساكنُهُمْ لمْ تُسْكنْ منْ بعْدهمْ إلّا قليلًا وكُنّا نحْنُ الْوارثين (٥٨) وما كان ربُّك مُهْلك الْقُرى حتّى يبْعث في أُمِّها رسُولًا يتْلُو عليْهمْ آياتنا وما كُنّا مُهْلكي الْقُرى إلّا وأهْلُها ظالمُون (٥٩) } [القصص/٥٧-٥٩]

يُخْبرُ اللهُ تعالى عمّا اعتذر به بعْضُ المُشْركين إلى النّبيِّ ﷺ عنْ سبب عدم إيمانهمْ برسالته،وكان منْ هؤلاء المُعتذرين الحارثُ بنُ عُثْمان بْن نوْفل بْن عبْد مُناف فقدْ جاء النّبيّ ﷺ،وقال لهُ:نحْنُ نعْلمُ أنّك على الحقِّ،ولكنّنا نخافُ إنْ اتّبْناك،وخالفْنا العرب،أنْ يُخرجُونامنْ أرضنا،ويغْلبُونا على سُلْطاننا ونحنُ قلّةٌ .ويردُّ الله تعالى على هؤلاء بقوله:إنّ الذي اعْتذرُوا به باطلٌ،لأنّ الله جعلُهُمْ في بلد آمن،وحرمٍ مُعظّمٍ آمنٍ مُنْذُ وُضع .فكيف يكُون هذا الحرمُ آمناً لهُمْ وهُمْ كُفّارٌ،مُشْركُون،ولا يكُونُ آمنا لهُمْ إذا أسْلمُوا واتّبعُوا الحقّ؟ ثُمّ يقُولُ تعالى:إنّهُ يسّر وصُول الثّمرات والأمتعة والأرْزاق منْ كُلِّ مكانٍ إلى أهل

[٤٦٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤١٠، بترقيم الشاملة آليا)

الحرمِ،وهذا كُلُّهُ بِفضْلِ اللهِ،ومنْ عِنايتِهِ،ولكنّ أكثر هؤلاءِ جهلةٌ لا يعْلمُون ما فِيهِ خيرُهُم وسعادتُهُمْ،ولِذلِك قالُوا ما قالُوا .

يُعرِّضُ اللّه تعالى بأهلِ مكّة،ويُنبِّهُهُمْ إِلى أنّهُ قدْ سبق لهُ أنْ أهلك كثيراً مِن المُدُن والقُرى،التي طغتْ وأشرتْ وكفرت بِنِعْمةِ اللهِ،فيما أنْعم بِهِ عليها،فدمّرها تدميراً،ولم يتْرُكْ أحداً منْ أهلِها حياً،ولم يعُدْ يُرى فِيها إِلاّ المساكِنُ الخرابُ المهْجُورةُ،لمْ يسْكُنها أحدٌ بعدهُمْ،إِلاّ عابرُو السّبِيلِ لفترات قصِيرةٍ،وهُمْ مارُّون مُجْتازُون بِها،وآلتْ وِراثتُها إِلى اللهِ،لأنّهُ لمْ يبْق منْ أهلها أحدٌ يُمْكِنُ أنْ يدّعِي وِراثتها،ويُخبِرُ اللهُ تعالى عنْ عدْلِهِ فيقُولُ:إِنّهُ لا يُهْلِكُ أحداً وهُو ظالِمٌ لهُ،وإِنّما يُهلِكُهُ بعد أنْ تقُوم عليه الحُجّةُ .وإِنّهُ لا يُهلِكُ القُرى حوْل مكّة بِكُفْرِهِم وظُلْمِهِم إِلاّ بعْد أن يبْعث فِي أُمِّ القُرى (مكّة) رسُولاً يدْعُوهُم إِلى اللهِ،ويُبيِّنُ لهُم سبيل الهِداية والرّشادِ،ويتلُو عليهِمْ آياتِ اللهِ،وإِنّهُ لا يُهلِكُ هذه القُرى إِلاّ وأهْلُها ظالمُون،قدْ كذّبُوا النّبِيّ،ورفضُوا اتِّباعهُ،وقبُول دعْوتِه .

(وفُهِم مِنْ هذِهِ الآيةِ أنّ رسُول الله ﷺ بُعِث إِلى النّاسِ كافّة،وليس لأهلِ مكّة خاصّةً) [٤٦٠٢]

---

٤٥. الكفرُ بآيات الله وقتل النبيين بغير حق

قال تعالى:{ إِنّ الّذِين يكْفُرُون بِآياتِ اللّهِ ويقْتُلُون النّبِيِّين بِغيْرِ حقٍّ ويقْتُلُون الّذِين يأْمُرُون بِالْقِسْطِ مِن النّاسِ فبشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ (٢١) أُولئِك الّذِين حبِطتْ أعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا والْآخِرةِ وما لهُمْ مِنْ ناصِرِين (٢٢) } [آل عمران/٢١،٢٢]

يذُمُّ اللهُ تعالى أهْل الكِتابِ الذِين ارْتكبُوا المآثِم والمحارِم بِكُفْرِهُمْ بِاللهِ وآياتِهِ،وقتلُوا الأنْبِياء والصّالِحِين الذِين يدْعُون إِلى اللهِ وإِلى اتِّباعِ الحقِّ .والمقْصُودُون فِي هذِهِ الآيةِ هُمُ اليهُودُ بنُو إِسْرائِيل،الذِين قتلُوا عدداً مِن أنْبِياءِ اللّهِ فِي يومٍ واحِدٍ اسْتِكْباراً،فعاقبهُمُ اللهُ على ذلِك بِالذِّلّةِ والصّغارِ فِي الدُّنْيا،وبشّرهُمْ بِعذابٍ أليمٍ مُهِينٍ فِي الآخِرةِ،لأنّ هذا هُو جزاءُ

[٤٦٠٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣١٩١، بترقيم الشاملة آليا)

جُرْمِهِمْ وصنيعِهِمْ .قال رسُولُ اللهِ ﷺ لأبي عُبيْدة بْنِ الجرّاحِ:" يا أبا عُبيْدة قتلــتْ بنُــو إسْرائيل ثلاثةً وأرْبعين نبياً أوّل النّهارِ في ساعةٍ واحِدةٍ .فقام مئةٌ وسبْعُون رجُلاً منْ عُبّادِ بني إسْرائيل فأمروا القتلة بالمعْرُوف،ونهوْهُمْ عنِ المُنْكرِ،فقتلُوا جميعاً منْ أخرِ ذلك اليــوْمِ فهُمْ الذين ذكر اللهُ عزّ وجلّ " (أخْرجهُ ابْنُ أبي حاتِمٍ) .ويقُــولُ تعــالى إنّ الــذين يرْتكبُون هذهِ المُنْكراتِ يُهْلِكُ اللهُ أعْمالهُمْ ويُبْطِلُها في الدُّنْيا،فلا ينالُون عليها حمْــداً،ولا ثناءً مِن النّاس .وقدْ لعنهُمُ اللهُ،وهتك أسْتارهُمْ وأبْدى ما كانُوا يُخْفُــون مِــنْ قبــائِحِ أعْمالِهِمْ،على ألْسنة أنْبِيائِهِ ورُسُلِهِ .وقدْ أعدّ لهُمْ في الآخِرةِ،العذاب الأليم والخُلُود فِــي جهنّم،ولنْ يجِدُوا لهُمْ منْ ينْصُرُهُمْ مِنْ بأسِ اللهِ [4603].

٤٦. الفشلُ والتنازعُ في الأمر

قال تعالى:{ ولقدْ صدقكُمُ اللّهُ وعْدهُ إذْ تحُسُّونهُمْ بِإِذْنِهِ حتّى إذا فشِلْتُمْ وتنــازعْتُمْ فِــي الْأمْرِ وعصيْتُمْ مِنْ بعْدِ ما أراكُمْ ما تُحِبُّون مِنْكُمْ منْ يُرِيدُ الدُّنْيا ومِنْكُمْ منْ يُرِيدُ الْآخِرة ثُمّ صرفكُمْ عنْهُمْ لِيبْتلِيكُمْ ولقدْ عفا عنْكُمْ واللّهُ ذُو فضْلٍ علــى الْمُــؤْمِنِين (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُون ولا تلْوُون على أحدٍ والرّسُولُ يدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فأثابكُمْ غمًّا بِغمٍّ لِكــيْلا تحْزنُوا على ما فاتكُمْ ولا ما أصــابكُمْ واللّــهُ خــبِيرٌ بِمــا تعْملُــون (١٥٣) } [آل عمران/١٥٢،١٥٣]

لمّا رجع النّبِيُّ ﷺ والمُسْلِمُون إلى المدِينة بعْد معْركةِ أحُدٍ قال أُناسٌ مِنْ أصْحابِ النّبِيِّ:مِنْ أيْن أصابنا هذا وقدْ وعدنا اللهُ تعالى النّصْر؟ فأنْزل اللهُ تعالى هذه الآيــة وفِيهــا يقُــولُ لِلْمُؤْمِنِين:إِنّهُ صدقكُمْ ما وعدكُمْ بِهِ مِنْ نصْــرٍ،فكُنْتُمْ تقْتُلُــونهُمْ قــتْلاً ذرِيعــاً بِــإِذْنِ اللهِ،وسلّطكُمْ عليهِمْ،حتّى إذا أصابكُمُ الضّعْفُ والفشلُ،وعصيْتُمْ أمْر الرّسُــولِ،وتنازعْتُمْ فِي الأمْرِ،(وهُو ما وقع للرُّماةِ الذِين أمرهُمُ الرّسُولُ أنْ يلْزمُوا مواقِعهُمْ فتخلّــوا عنْهــا)،وكان اللهُ قدْ أراكُمُ الظّفر،وهُو ما تُحِبُّونهُ،فكان مِنْكُمْ منْ يُرِيدُ الــدُّنيا،ويطْمعُ فِــي

[4603] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣١٥، بترقيم الشاملة آليا)

المغْنم،حين رأوْا هزيمة المُشْركين،فتركُوا مواقِعهُمْ على الجبلِ،ومنْكُمْ منْ كان يُرِيدُ الآخرة في قتاله المُشْركين لا يلْتفتُ إلى المغْنم،فثبت مكانهُ وقاتل،ثُمّ أدال اللهُ المُشْركين عليكُمْ،وجعل لهُمُ الغلبة عليْكُمْ ليخْتبركُمْ،ويمْتحن ثباتكُمْ على الإيمان،وقدْ غفر اللهُ لكُمْ ذلك الفعْل،وهُو عصْيانُ أمْرِ الرّسُول،والهربُ من المعْركة،ومحا أثرهُ منْ نُفُوسكُمْ،حينما أظْهرْتُمُ النّدم،ورجعْتُمْ إلى اللهِ،حتّى صرْتُمْ وكأنّكُمْ لمْ تفْشلُوا .ولمْ يسْمحِ اللهُ باسْتئْصالكُمْ لأنّهُ ذُو فضْلٍ على المُؤْمنين .

فقدْ صرفكُمُ اللهُ عنِ المُشْركين فأخذْتُمْ فِي الهربِ منْ أعْدائكُمْ فِي الجبال،لا تلْتفتُون إلى أحدٍ من الدهشِ والخوْف،وقدْ خلّفْتُمُ الرّسُول وراءكُمْ وهُو يدْعُوكُمْ إلى العوْدة إلى القتال،ويقُولُ:هلُمّ عِباد اللهِ أنا رسُولُ اللهِ،منْ يكرُّ فلهُ الجنّةُ،فجزاكُمُ اللهُ لفرارِكُمْ،بغمٍّ يمْلأُ نُفُوسكُمْ على ما كان منْكُمْ،وعلى ترْكِكُمْ رسُول اللهِ يُصيبُهُ ما أصابهُ،وهُو ثابتٌ دُونكُمْ،وذلك لكيْلا تهْتمُّوا وتحْفلُوا بشيءٍ فاتكُمْ،ولا بأذًى أصابكُمْ،ولتمْرُنُوا على تجرُّعِ الغُمُومِ،واحْتمالِ الشّدائد،إذْ كان ما أصاب النّبيِّ،وما لحق بنُفُوسكُمْ من النّدم،وهُو أكْبرُ عنْدكُمْ منْ كُلِّ شيءٍ:أكْبرُ من الجراحِ والقتْلِ وضياعِ المغْنمِ .واللهُ خبيرٌ بأعْمالكُمْ ومقاصدِكُمْ،وقادرٌ على مُجازاتكُمْ عليْها .[٤٦٠٤]

---

٤٧. عدم شكر النعم ولاسيما بعد النصر:

قال تعالى ذاما بني إسرائيل:{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)} [الأعراف:١٦١،١٦٢]

وبعْد أنْ أسْكنهُمْ ربُّهُمُ البلد الذي دخلُوهُ بعْد أن انْتصرُوا على العماليق،أمرهُمْ ربُّهُمْ بشُكْرِهِ،وبدُخُولِ البابِ (أيْ بابِ البلدِ) سُجّداً شُكْراً للهِ،وبأنْ يقُولُوا:حطّةٌ - (أيْ

[٤٦٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٥، بترقيم الشاملة آليا)

اللّهُمّ حُطّ عنّا خطايانا) – لِيسْتجيب اللهُ إلى دُعــائِهِمْ،فيغْفِر لهُــمْ خطاياهُمْ،ويزِيــد الحسنات لِمُحْسنِهِمْ .

فلمْ يدْخُلِ الذِين ظلمُوا مِنْهُمْ باب البلدِ سُجّداً خاشعِين كما أمرهُمْ ربُّهُمْ،بلْ دخلُــوهُ زاحِفِين على أسْتاهِهِمْ (أيْ أدْبارِهِمْ)،وبدّلُوا قوْل الله،فلمْ يقُولُوا (حِطّةٌ) وإِنّما قــالُوا ساخِرِين حِنْطةٌ،فأنْزل اللهُ تعالى على الذِين كفرُوا مِنْهُمْ بأْسهُ وعذابهُ بِســببِ فِسْــقِهِمْ وخُرُوجِهِمْ عنْ طاعةِ اللهِ .[4605]

وقال تعالى:{ وإِذْ قال مُوسى لِقوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمة اللّهِ عليْكُمْ إِذْ أنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعــوْن يسُومُونكُمْ سُوء الْعذابِ ويُذبِّحُون أبْناءكُمْ ويسْتحْيُون نِساءكُمْ وفِي ذلِكُمْ بــلاءٌ مِــنْ ربِّكُمْ عظِيمٌ (٦) وإِذْ تأذّن ربُّكُمْ لئِنْ شكرْتُمْ لأزِيدنّكُمْ ولئِنْ كفرْتُمْ إِنّ عذابِي لشــدِيدٌ (٧) وقال مُوسى إِنْ تكْفُرُوا أنْتُمْ ومنْ فِي الْأرْضِ جمِيعًا فإِنّ اللّه لغنِــيٌّ حمِيــدٌ (٨) } [إبراهيم:٦ - ٨]

واذْكُرُوا يا بنِي إِسْرائِيل حِين آذنكُمْ ربُّكُمْ،وأعْلمكُمْ بِوعْدِهِ،فقال:لئِنِ شكرْتُمْ نِعْمتِــي عليْكُمْ لأزِيدنّكُمْ مِنْها،ولئِنْ كفرْتُمْ النِّعم وسترْتُمُوها وجحــدْتُمُوها،لأُعاقِبنّكُمْ عِقابــاً شدِيداً على كُفْرِها،ولأسْلُبنّكُمْ إِيّاها .(ويُحْتملُ أنْ يكُون المعْنى لِعِبارةِ:" وإِذْ تأذّن ربُّكُمْ " هُو:وإِذْ أقْسم ربُّكُمْ بِعِزّتِهِ وجلالِهِ وكِبْرِيائِهِ) .

وقال مُوسى لِقوْمِهِ حِينما عاندُوا وجحدُوا:إِنْ كفرْتُمْ نِعم اللهِ عليْكُمْ،أنْتُمْ وجمِيعُ منْ فِي الأرْضِ،فإِنّ ذلِك لنْ يضُرّ الله شيْئاً،وإِنّهُ تعالى غنِيٌّ عنْ شُكْرِ عِبــادِهِ لــهُ،وهُو الحمِيــدُ المحْمُودُ،وإِنْ كفرهُ منْ كفرهُ،وإِنّكُمْ لا تضُرُّون،بِالكُفْرِ والجُحُودِ،إِلاّ أنْفُســكُمْ لأنّكُــمْ تحْرِمُونها بِذلِك مِنْ مزِيدِ مِن الإِنْعامِ،وتُعرِّضُونها لِعذابِ اللهِ.قصّ اللهُ تعالى خبر قوْمِ نُــوحٍ وعادٍ وثمُود،والأُممِ الأُخْرى المُكذِّبةِ،الذِين جائتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالحُججِ،والبراهِينِ القاطِعةِ على وحْدانِيّةِ اللهِ،وعلى تصرُّفِهِ المُطْلقِ بِالكوْنِ،وعلى صِدْقِ ما جاءهُمْ بِهِ الأنْبِياءُ فقال:إِنّهُــمْ

[4605] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١١٦، بترقيم الشاملة آليا)

كذّبُوا أنْبياءهُمْ،وردُّوا عليْهِمْ قوْلهُمْ بأفْواهِهِمْ،وقالُوا لهُمْ إنّهُمْ كفرُوا بما جاء به الرُّسُلُ،وإنّهُمْ لفِي شكٍّ مُثِيرٍ للرّيْبِ ممّا يدْعُونهُمْ إليْهِ .
وقِيل إنّ هذا التّعْبِير مثلٌ يُرادُ بِهِ أنّهُمْ لمْ يُؤْمِنُوا و لمْ يرُدُّوا جواباً .
(وقِيل أيْضاً إنّ معْناهُ أنّهُمْ وضعُوا أيْدِيهِمْ على أفْواهِهِمْ اسْتِغْراباً واسْتِنْكاراً) .
(وقِيل أيْضاً إنّ المعْنى هُو أنّهُمْ عضُّوا على أنامِلِهِمْ تغيُّظاً مِن الرُّسُلِ وكلامِهِمْ)[٤٦٠٦] .

٤٨. الاغترار بالعدد والعدة:

قال تعالى:{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)} [التوبة]
يُذكِّرُ اللهُ تعالى المُؤْمِنِين بِفضْلِهِ عليهِمْ،وإِحْسانِهِ إِليْهِمْ،فِي نصْرِهِ إِيّاهُمْ فِي مواقِع كثِيرةٍ (مواطِن) مِنْ غزواتِهِمْ مع رسُولِ اللهِ،وإِنّ ذلِك كُلّهُ كان مِنْ عِنْدِ اللهِ،وبِتأْيِيدِهِ وتقْدِيرِهِ،لا بِعددِ المُسْلِمِين،ولا بِعُددِهِمْ،ولا بِعصبِيّتِهِمْ،ولا بِقُوّتِهِمْ،ولا بِكثْرةِ أمْوالِهِمْ،ونبّههُمْ تعالى إِلى النّصْر هُو مِنْ عِنْدِ اللهِ،قلّ الجمْعُ أوْ كثُر .
وفِي يوْمِ حُنينٍ أعْجبت المُسْلِمِين كثْرتُهُمْ فلمْ تُفِدْهُمْ شيْئاً،فولّوا مُدْبِرِين حتّى ضاقتْ عليْهِم الأرْض على سعتِها مِنْ شِدّةِ فزعِهِمْ،فلمْ يهْتدُوا إِلى النّجاةِ سبِيلاً،و لمْ يثْبُتْ مِنْهُمْ إِلاّ عددٌ قلِيلٌ مع الرّسُولِ ﷺ،وكان ذلِك ابْتِلاءً مِن اللهِ لهُمْ على عُجْبِهِم بِكثْرتِهِمْ .(ثُمّ أنْزل اللهُ نصْرهُ وتأْيِيدهُ على رسُولِهِ،وعلى المُؤْمِنِين،لِيُعلِّمهُمْ أنّ النّصْر مِنْ عِنْدِ اللهِ وحْدهُ،وإِنْ قلّ الجمْعُ) .

[٤٦٠٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٥٨، بترقيم الشاملة آليا)

وأنْزل اللهُ تعالى الطُمأنينة علـــى رسُـــوله،وعلى المُؤْمنين الـــذين ثبتـــوا معـــهُ،فأذْهب روْعهُمْ،وأزال حيْرتهُمْ،وأعاد إليْهمْ شجاعتهُمْ،ولزم الرّسُولُ ﷺ مكانهُ،ومعهُ القلّةُ التـــي ثبتتْ من المُؤْمنين،واسْتنْصر الرّسُولُ ربّهُ،فأنْزل اللهُ جُنُوداً من الملائكة لمْ يرها المُسْـــلمُون بأبْصارهمْ،بلْ وجدُوا أثرها في قُلُوبهمْ،بما عاد إليْها منْ رباطة جأْشٍ،وشدّة بأْسٍ .وأخذ الرّسُولُ ﷺ حفْنةً منْ تُرابٍ قذفها في وجْه القوْم،فلمْ يبْق مُقاتلٌ منْ هوازنْ إلاّ ودخلـــتْ في عيْنه أوْ فمه حبّةٌ منْ تُرابٍ أشْغلتْهُ عن القتال،وتراجع الذين هربُوا من المُسْـــلمين،إلى حيْثُ كان يقفُ رسُول الله وصحْبُهُ الثّابتُون،وحملُوا على هوازن فنصرهُمُ اللهُ،وعـــذّب الذين كفرُوا،وقاتلُوا رسُول الله،فأخْزاهُمُ اللهُ وأذلّهُمْ بالقتْل والسّبْي،وهذا هُو مصيرُ القوْم الكافرين،وجزاؤُهُمْ .

ثُمّ يتُوبُ اللهُ،منْ بعْد القتْل والخزْي والتعْذيب،على منْ بقي منْ هـــوازن فيهْـــديهمْ إلى الإسْلام،وقدْ قدمُوا على رسُولُ الله ﷺ مُسْلمين،ولحقُوا به في مكّة في مكـــان يُعْـــرفُ بالجعْرانة،وذلك بعْد الموْقعة بعشْرين يوْماً،وحينئذ خيّرهُمْ رسُولُ الله ﷺ بيْن سبْيهمْ،وبيْن أمْوالهمْ،فاختارُوا سبْيهُمْ،وكانُوا ستّة آلاف أسيرٍ مـــا بـــيْن صـــبيٍّ وامْـــرأةٍ فـــردّهُمْ عليْهمْ،وقسّم الأمْوال بيْن المُقاتلين .[٤٦٠٧]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٤٦٠٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦١، بترقيم الشاملة آليا) والتفاصيل في كتابي المهذب في عوامل النصر والهزيمة

الباب الثامن والعشرون

عدم الاستسلام للعدو والقتال حتى آخر لحظة

١. لنكثه بالعهود والمواثيق:

قال تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:١٠٠]

كَانَ اليَهُودُ قَدْ قَالُوا حِينَمَا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ:وَاللهِ،مَا عَهِدَ إلينَا فِي مُحَمَّدٍ،وَمَا أَخَذَ عَلَينَا مِيثَاقاً.فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ.(وَقَالَ مُفَسِرُونَ:إنَّ العُهودَ المَقْصُودَةَ هُنَا هِيَ عُهُودُهُمْ للنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي المَدِينة).

وَمَعْنَى الآيَةِ:إنَّ اليَهُودَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَقَضَهُ (نَبَذَهُ) فَرِيقٌ مِنْهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ،وَلا يُؤْمِنُونَ بِحُرْمَةِ العُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ[٤٦٠٨].

نبذ العهود ونقض المواثيق،هو الطبيعة الغالبة على بنى إسرائيل،لا فرق فى موقفهم هذا مع الناس،أو مع الله! ذلك لأنهم لا يؤمنون بالمبادىء والقيم،ولا يتقيدون بقيد الفضيلة والشرف،لما يغلب عليهم من أثرة قاتلة،وأنانية متحكمة،يستبيحون بها كل شىء،ويترلون بها عن كل شىء،من خلق أو دين.

وفى قوله تعالى:«نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ..» حيث عدل عن التعميم إلى التخصيص،فى قوله «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» بدلا من «منهم» - فى هذا ما يشير بأن علماء القوم وأهل الذكر فيهم،هم الذين يتولّون هذا الإثم العظيم،وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم،بالخلاف عليه،والتحريف فيه،عن علم،و «كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ! ولو أن هؤلاء العلماء من بنى إسرائيل قد انتهت جريمتهم عند هذا المكر بكتاب الله والخلاف عليه،مع ما فى هذا العمل الآثم من شناعة وفظاعة لكانت مصيبتهم مصيبة واحدة،وإن غلظت وعظمت،ولكنهم إذ وقفوا من كتاب الله الذي بين أيديهم هذا الموقف،راحوا يتعاملون مع الأباطيل والتّرهات،مما كانت تلقيه الشياطين على ملك سليمان،وهى

[٤٦٠٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

خاضعة لسلطانه،من صور الأعمال الخارجة عن قوة البشر..فلقد تعلق القوم بها،وتمسّحوا بما يرجف به المرجفون عنها،من شعوذات،ابتغاء الوصول إلى شيء من تلك القوى التي تملكها الشياطين،ليتسلطوا بها على العباد،وليجنوا من ورائها الربح الماديّ الذي يحلمون به! ولهذا كثر فى بنى إسرائيل الأنبياء الكذبة،الذين طلعوا فيهم من كل ناحية،والذين حدّثت التوراة عنهم،وحذّرت منهم،ولكن القوم اتبعوا هؤلاء المتنبئين الأدعياء،وكفروا بأنبياء الله وبهتوهم.[٤٦٠٩]

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله..إنه الفسوق وانحراف الفطرة.فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات.وهي تفرض نفسها فرضا على القلب المستقيم.

فإذا كفر بها اليهود – أو غيرهم – فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة،ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون.

ثم يلتفت إلى المسلمين – وإلى الناس عامة – منددا بهؤلاء اليهود،كاشفا عن سمة من سماتهم الوبيئة..إنهم جماعة مفككة الأهواء – رغم تعصبها الذميم – فهم لا يجتمعون على رأي،ولا يثبتون على عهد،ولا يستمسكون بعروة.ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم،يكرهون أن يمنح الله شيئا من فضله لسواهم،إلا أنهم – مع هذا – لا يستمسكون بوحدة،ولا يحفظ بعضهم عهد بعض،وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا،وتخرج على ما أجمعوا:«أَوَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»..

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل،ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد،وأخيرا نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي – ﷺ – أول مقدمه إلى المدينة وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة،بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه وأول من عاب دينه،وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم،مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه..

[٤٦٠٩] – التفسير القرآني للقرآن (١/ ١١٥)

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض،يعلنها رسول الله – ﷺ – – عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَانَتْ خُزَاعَةُ حُلَفَاءِ لِرَسُولِ اللهِ – ﷺ –،وَكَانَتْ بَنُو بَكْرٍ،رَهْطٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حُلَفَاءً لأَبِي سُفْيَانَ،قَالَ:وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مُوَادَعَةٌ أَيَّامَ الْحُدَيْبِيَةِ،فَأَغَارَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ،فَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ – ﷺ – يَسْتَمِدُّونَهُ،فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – مُمِدًّا لَهُمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ،فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ قُدَيْدًا ثُمَّ أَفْطَرَ،وَقَالَ:لِيَصُمِ النَّاسُ فِي السَّفَرِ وَيُفْطِرُوا،فَمَنْ صَامَ أَجْزَأَ عَنْهُ صَوْمُهُ،وَمَنْ أَفْطَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ.

فَفَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ،فَلَمَّا دَخَلَهَا أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ:كُفُّوا السِّلاَحَ،إِلاَّ خُزَاعَةَ عَنْ بَكْرٍ،حَتَّى جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ قُتِلَ رَجُلٌ بِالْمُزْدَلِفَةِ،فَقَالَ:إِنَّ هَذَا الْحَرَمَ حَرَامٌ عَنْ أَمْرِ اللهِ،لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي،وَلاَ يَحِلُّ لِمَنْ بَعْدِي،وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً وَاحِدَةً،وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشْهِرَ فِيهِ سِلاَحًا،وَإِنَّهُ لاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ،وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهُ،وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِلاَّ الإِذْخَرَ،فَإِنَّهُ لِبُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –:إِلاَّ الإِذْخَرَ،وَإِنَّ أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ:مَنْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللهِ،أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ،أَوْ قَتَلَ لِذَحْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللهِ،إِنِّي وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةِ بَنِي فُلاَنٍ،وَإِنَّهَا وَلَدَتْ لِي،فَأْمُرْ بِوَلَدِي فَلْيُرَدَّ إِلَيَّ،فَقَالَ – ﷺ –:لَيْسَ بِوَلَدِكَ،لاَ يَجُوزُ هَذَا فِي الإِسْلاَمِ،وَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ أَوْلَى بِالْيَمِينِ،إِلاَّ أَنْ تَقُومَ بَيِّنَةٌ،الْوَلَدُ لِصَاحِبِ الْفِرَاشِ،وَبِفِي الْعَاهِرِ الأَثْلَبُ،فَقَالَ رَجُلٌ:يَا نَبِيَّ اللهِ،وَمَا الأَثْلَبُ؟ قَالَ:الْحَجَرُ،فَمَنْ عَهَرَ بِامْرَأَةٍ لاَ يَمْلِكُهَا،أَوْ بِامْرَأَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ فَوَلَدَتْ،فَلَيْسَ بِوَلَدِهِ،لاَ يَرِثُ وَلاَ يُورَثُ.وَالْمُؤْمِنُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَوَّلُهُمْ،وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،وَلاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ.وَلاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ.وَلاَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا،وَلاَ عَلَى خَالَتِهَا،وَلاَ تُسَافِرُ ثَلاَثًا مَعَ غَيْرِ ذِي مَحْرَمٍ.وَلاَ تُصَلُّوا بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،وَلاَ تُصَلُّوا بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ.[٤٦١٠]

[٤٦١٠] – صحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣/ ٣٤٠] (٥٩٩٦) صحيح

وعَنْ أَبِي حَسَّانَ،أَنَّ عَلِيًّا،كَانَ يَأْمُرُ بالأَمْرِ فَيُؤْتَى،فَيُقَالُ:قَدْ فَعَلْنَا كَذَا وَكَذَا،فَيَقُولُ:صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،قَالَ:فَقَالَ لَهُ الأَشْتَرُ:إِنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَدْ تَفَشَّغَ فِي النَّاسِ،أَفَشَيْءٌ عَهِدَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ الله – ﷺ –؟ قَالَ عَلِيٌّ:مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ الله – ﷺ – شَيْئًا خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ،إِلاَّ شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهُوَ فِي صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ سَيْفِي،قَالَ:فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ،قَالَ:فَإِذَا فِيهَا:مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا،أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ،لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ قَالَ:وَإِذَا فِيهَا:إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ،وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ،حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ،لاَ يُخْتَلَى خَلاهَا،وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا،وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا،إِلاَّ لِمَنْ أَشَارَ بِهَا،وَلاَ تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلاَّ أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ،وَلاَ يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاحُ لِقِتَالٍ قَالَ:وَإِذَا فِيهَا:الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،أَلاَ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ.[٤٦١١]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ الله – ﷺ – مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ،قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا،فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّاسُ،إِنَّهُ مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَإِنَّ الإِسْلاَمَ لَمْ يَزِدْهُ إِلاَّ شِدَّةً،وَلاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ،وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ،تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ،يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ،وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ،تُرَدُّ سَرَايَاهُمْ عَلَى قَعَدِهِمْ،لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ،دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ،لاَ جَلَبَ وَلاَ جَنَبَ،وَلاَ تُؤْخَذُ صَدَقَاتُهُمْ إِلاَّ فِي دِيَارِهِمْ.[٤٦١٢]

يسعى بذمتهم أدناهم،فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد،ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم،عن محمد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلّب،قالوا:لما فرغ أبو سبرة من السّوس خرج في جنده حتى نزل على جندى سابور،وزرّ بن عبد الله بن كليب محاصرهم؛فأقاموا عليها يغادهم ويراوحوهم القتال؛فما زالوا مقيمين عليها حتى رمى إليهم بالأمان من عسكر المسلمين،وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين،فلم يفجأ المسلمين إلاّ وأبوابها تفتح،ثمّ خرج السّرح،وخرجت الأسواق،وانبثّ أهلها،فأرسل المسلمون:أن مالكم؟

[٤٦١١] – مسند أحمد (عالم الكتب) [١/ ٣٤٢] (٩٥٩) صحيح

[٤٦١٢] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٢/ ٦٣٤] (٦٦٩٢) صحيح

قالوا:رميتم إلينا بالأمان فقبلناه،وأقررنا لكم بـالجزاء علـى أن تمتعونـا.فقـالوا:مـا فعلنا،فقالوا:ما كذبنا،فسأل المسلمون فيما بينهم؛فإذا عبد يدعى مكنفـا كـان أصـله منها؛هو الذي كتب لهم.فقالوا:إنما هو عبد،فقالوا:إنا لا نعرف حرّكم من عبدكم،قـد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه،و لم نبدّل؛فإن شئتم فاغدروا.فأمسكوا عنهم،وكتبوا بذلك إلى عمر،فكتب إليهم:إنّ الله عظّم الوفاء،فلا تكونون أوفياء حتى تفوا،ما دمتم في شـكّ أجيزوهم،وفوا لهم.فوفوا لهم،وانصرفوا عنهم"[٤٦١٣]

وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة.وذلك فرق ما بـين أخـلاق اليهـود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين.[٤٦١٤]

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ،حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،قَالَ:قَدِمَ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أُحُد نَفَرٌ مِنْ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ فِينَا إِسْلَامًا فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِـنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَا فِي الدِّينِ،وَيُقْرِئُونَا الْقُرْآنَ،وَيُعَلِّمُونَنا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ،" فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفَرًا سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ:مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ - حَلِيفَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - فَذَكَرَ الْقِصَّةَ قَالَ:وَأَمَّا مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ،وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ،وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالُوا:وَاللهِ لَا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا،وَلَا عَقْدًا أَبَدًا،فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوهُمْ "[٤٦١٥]

قال الحافظ ابن حجر في الفتح:

وفِي الحَدِيثِ أَنَّ لِلأَسِيرِ أَن يَمتَنِعَ مِن قَبُولِ الأَمانِ ولا يُمَكِّنَ مِن نَفسِهِ ولَو قُتِلَ،أَنَفَةً مِن أَنَّهُ يَجرِي عَلَيهِ حُكمُ كافِرٍ،وهَذا إِذا أَرادَ الأَخذَ بِالشِّدَّةِ،فَإِن أَرادَ الأَخذَ بِالرُّخصَةِ لَهُ أَن يَستَأمِنَ.قالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ:لا بَأسَ بِذَلِكَ.[٤٦١٦]

وفي نيل الأوطار:

[٤٦١٣] - تاريخ الرسل والملوك [٢/ ٣٥٦] قوي

[٤٦١٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٩٦)

[٤٦١٥] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٣٢٧)(٧٧٥) صحيح مرسل

[٤٦١٦] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٧/ ٣٨٤)

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَلَا أَمْكَنَهُ الْهَرَبُ أَنْ يَسْتَأْسِرَ،وَهَكَذَا تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ:" بَابُ هَلْ يَسْتَأْسِرُ الرَّجُلُ وَمَنْ لَمْ يَسْتَأْسِرْ " أَيْ هَلْ يُسْلِمُ نَفْسَهُ لِلْأَسْرِ أَمْ لَا؟.

وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَنْكَرَ مَا وَقَعَ مِنْ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورِينَ مِنْ الدُّخُولِ تَحْتَ أَسْرِ الْكُفَّارِ،وَلَا أَنْكَرَ مَا وَقَعَ مِنْ السَّبْعَةِ الْمَقْتُولِينَ مِنْ الْإِصْرَارِ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنْ الْأَسْرِ،وَلَوْ كَانَ مَا وَقَعَ مِنْ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ غَيْرَ جَائِزٍ لَأَخْبَرَ – ﷺ – أَصْحَابَهُ بِعَدَمِ جَوَازِهِ وَأَنْكَرَهُ،فَدَلَّ تَرْكُ الْإِنْكَارِ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِمَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِعَدُوِّهِ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْ الْأَسْرِ وَأَنْ يَسْتَأْسِرَ "[4617]

....

إن المشركين لا يدينون لله بالعبودية خالصة،وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله.فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله؟ إنهم لا يواجهون بالإنكار والجحود عبدا مثلهم،ولا منهجا من مناهج العبيد من أمثالهم.إنما هم يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود ابتداء..فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟

هذه هي القضية التي يثيرها هذا السؤال الاستنكاري..وهي قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته لا على حالة معينة من حالاته..

وقد يستشكل على هذا بأنه كانت للمشركين عهود فعلا وبعض هذه العهود أمر الله بالوفاء بها.وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة في المدينة.عهود مع اليهود وعهود مع المشركين.وأنه وقع عهد الحديبية في السنة السادسة للهجرة.وأن النصوص القرآنية في سور سابقة كانت تجيز هذه العهود وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة..فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذي يرد عليه الإنكار هنا،فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتى نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد؟! وهذا الاستشكال لا معنى له في ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي الذي

[4617] – نيل الأوطار (٧/ ٣٠٠)

أسلفنا الحديث عنه في مطالع هذه السورة وفي مطالع سورة الأنفال قبلها..لقد كانـــت تلك المعاهدات مواجهة للواقع في حينه بوسائل مكافئة له أما الحكم النهائي فهو أنـــه لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله..

كانت أحكاما مرحلية في طريق الحركة الإسلامية التي تستهدف ابتـــداء ألا يكـــون في الأرض شرك بالله وأن تكون الدينونة لله وحده..ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم و لم يخدع عنه أحدا.فإذا كانت الظروف الواقعية تقضي بأن يدع من يسالمونه ابتداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه وأن يوادع من يريـــدون موادعتـــه في فتـــرة مـــن الفترات.وأن يعاهد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل.فإنه لا يغفل لحظة عـــن هدفه النهائي الأخير كما أنه لا يغفل عن أن هذه الموادعات والمعاهدات مـــن جانـــب بعض المشركين موقوتة من جانبهم هم أنفسهم.وأنهم لا بد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم وأنهم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ويستديرون لمواجهته..ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر:«وَلا يَزالُونَ يُقَـــاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا»..وهي قولة الأبد التي لا تتخصـــص بـــزمن ولا بيئة! وقولة الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة! ومع اســـتنكار الأصـــل،فقد أذن الله – سبحانه – بإتمام عهود ذوي العهود الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا علـــيهم أحدا إلى مدتها،مع اشتراط أن تكون الاستقامة على العهد – في هـــذه المـــدة – مـــن المسلمين مقيدة باستقامة ذوي العهود عليها:«إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ،فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»..

وهؤلاء الذين تشير الآية إلى معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخرى غير الـــتي ورد ذكرها من قبل في قوله تعالى:«إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُـــوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَـــيْهِمْ عَهْـــدَهُمْ إِلى مُـــدَّتِهِمْ،إِنَّ اللَّـــهَ يُحِـــبُّ الْمُتَّقِينَ»..كما فهم بعض المفسرين المحدثين..فهي طائفة واحدة ذكرت أول مرة بمناسبة عموم البراءة وإطلاقها،لاستثنائها من هذا العموم.وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاته مع المشركين مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلـــق فيـــه نســـخ للحكـــم

الأول..وذكرت التقوى وحب الله للمتقين هنا وهناك بنصها للدلالة على أن الموضـــوع واحد.كما أن النص الثاني مكمل للشروط المذكورة في النص الأول.ففي الأول اشتراط استقامتهم في الماضي،وفي الثاني اشتراط استقامتهم في المستقبل.وهي دقة بالغة في صياغة النصوص – كما أسلفنا – لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين في الموضوع الواحد،كما هو ظاهر ومتعين.[٤٦١٨]

ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله:

إن الإسلام منهج واقعي للحياة،لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية.إنه يواجه الحياة البشرية – كما هي – بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعيـــة.يواجههـــا ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد.يواجهها بحلول عملية تكـــافئ واقعياتها،ولا ترفوف في خيال حالم،ورؤى مجنحة:لا تجدي على واقع الحياة شيئا! هؤلاء قوم طغاة بغـــاة معتـــدون.لا يقيمـــون للمقدســـات وزنـــا،ولا يتحرجـــون أمـــام الحرمات،ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة.يقفـــون دون الحق فيصدون الناس عنه،ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء،ويخرجونهم مـــن البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!..ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام،ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات،ويرفعون أصواتهم:انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرد المســـلمين الأخيـــار مـــن الســـلاح،بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح،ولا يتورعون عن سلاح..!

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا،لأنه يريد مواجهة الواقع،لدفعه ورفعه.يريد أن يزيل البغي والشر،وأن يقلم أظافر الباطل والضلال.ويريد أن يسلم الأرض للقـــوة الخيرة،ويســـلم القيادة للجماعة الطيبة.ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغـــاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة،وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة! إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات،ويشدد في هذا المبدأ ويصـــونه.ولكنـــه لا

[٤٦١٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٧٨)

يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات،ويؤذون الطيبين،ويقتلون الصالحين،ويفتنون المؤمنين،ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان! وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد..إنه يحرم الغيبة..ولكن لا غيبة لفاسق..فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه.وهو يحرم الجهر بالسوء من القول.ولكنه يستثني «إِلَّا مَنْ ظُلِمَ»..فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول،لأنه حق.ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه! ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة.ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة..إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم،وإلى قتالهم وقتلهم،وإلى تطهير جو الحياة منهم..هكذا جهرة وفي وضح النهار..

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة،وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات..حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله.

هذا هو الإسلام..صريحا واضحا قويا دامغا،لا يلف ولا يدور ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور.وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة،لا تتأرجح فيها أقدامهم،وهم يمضون في سبيل الله،لتطهير الأرض من الشر والفساد،ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس..هذا شر وفساد وبغي وباطل..فلا حرمة له إذن،ولا يجوز أن يتترس بالحرمات،ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة في سلام مع ضمائرهم،وفي سلام من الله..

ويمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة،وتمكين هذه القاعدة،وإقرار قلوب المسلمين وأقدامهم..يمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم،وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم:«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا»..

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم.وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل..إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم.فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل،ويرهبه كل باغ،ويكرهه كل مفسد.إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج،ومن منهج قويم،ومن نظام سليم..إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد.ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.

ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه،ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة.ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم،وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين،وتتبع هذا المنهج،وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته،ولكن الهدف يظل ثابتا..أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا.وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره،وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها..والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام،وينبهها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد،والصبر على الحرب،وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر:«وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ،فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»..

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت..والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل،فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي..يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره،وهلاكه في النهاية وبواره..مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ!

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وغرفه تحت مطارق الأذى والفتنة - مهما بلغت - هذا مصيره الذي قرره الله له..حبوط العمل في الدنيا والآخرة.ثم ملازمة العذاب في النار خلودا.

إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه،لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا.إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له.وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة.فالله رحيم.رخص للمسلم - حين يتجاوز العذاب طاقته - أن يقي نفسه بالتظاهر،مع بقاء قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان.ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي،وفي الارتداد الحقيقي،بحيث يموت وهو كافر..والعياذ بالله..

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان..ليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه،ويرتد عن إيمانه وإسلامه،ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه..وهناك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله.والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به،ويصبرون على الأذى في سبيله.فهو معوضهم خيرا:إحدى الحسنيين:النصر أو الشهادة.

وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله لا ييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان:«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ،وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا..ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق،فجاهدوا وصبروا،حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة.وكلاهما خير.وكلاهما رحمة.وفازوا بمغفرة الله ورحمته:«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..وهو هو طريق المؤمنين..[٤٦١٩]

---

٢. لا يرقبوا فينا إلا ولا ذمة:

[٤٦١٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٦٦)

هذا وقد فصلت القول في هذا الأمر الجلل في رسالتي المسماة ((تحريم الاستسلام للكفار والفجار))

قال تعالى:{ كَيْف وإن يظْهروا علَيْكمْ لا يرْقبواْ فيكمْ إلاًّ ولا ذمّةً يرْضونكم بـأفْواههمْ وتأْبى قلوبهمْ وأكْثرهمْ فاسقون} (٨) سورة التوبة

يبيّن الله تعالى الأسْباب التي تدْعو إلى أنْ لا يكون للْمشْركين عهْدٌ،ذلك لأنّهمْ أشْـركوا بالله وكذّبوا رسوله،ولأنّهمْ إذ انْتصروا على المسْلمين،وظهروا عليْهمْ،اجْتثوهمْ و لمْ يبْقوا على أحدٍ منْهمْ،و لمْ يرْقبوا في المسْلمين قرابةً،ولا عهْداً،في نقْض العهْد والميثـاق،وهؤلاء يخْدعون المؤْمنين بكلامهم المعْسول،وقلوبهمْ منْطويةٌ على كراهتهمْ،وأكْثرهمْ خـارجون عن الحقّ،ناقضون للْعهْد [٤٦٢٠].

إن شأن المشركين أن يلتزموا بالعهود ما دامت الغلبة لغيرهم،أما إذا شعروا بالقوة علـى المؤمنين فإنهم لا يراعون القرابة ولا العهد،فلا يغرنكم منهم ما يعـاملونكم بـه وقـت الخوف منكم،فإنهم يقولون لكم كلامًا بألسنتهم؛ لترضوا عنـهم،ولكن قلـوبهم تـأبى ذلك،وأكثرهم متمردون على الإسلام ناقضون للعهد.[٤٦٢١]

وقال السعدي:

أي:{ كَيْفَ } يكون للمشركين عند اللّه عهد وميثـاق { وَ } الحـال أنهـم { وإنْ يظْهروا علَيْكمْ } بالقدرة والسلطة،لا يرحموكم،و { لا يرْقبوا فيكمْ إلًّـا ولا ذمّـةً } أي:لا ذمة ولا قرابة،ولا يخافون اللّه فيكم،بل يسومونكم سوء العذاب،فهـذه حـالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم،فإنهم { يرْضونكمْ بأفْواههمْ وتأْبى قلوبهمْ } الميل والمحبة لكم،بل هم الأعداء حقا،المبغضون لكم صدقا،{ وأكْثرهمْ فاسقون } لا ديانة لهم ولا مروءة.

{ اشْتروْا بآيات اللّه ثمنًا قليلًا } أي:اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا.على الإيمان باللّه ورسوله،والانقياد لآيات اللّه.

[٤٦٢٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٤، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٦٢١] - التفسير الميسر (١/ ١٨٨)

{ فصدّوا ْ} بأنفسهم،وصدوا غيرهم { عنْ سبيله إنّهمْ ساء ما كـــانوا يعْملـــون * لا يرْقبون في مؤْمنٍ إلًّا ولا ذمّةً ْ} أي:لأجل عداوهم للإيمان { إلًّا ولا ذمّةً ْ} أي:لأجـــل عداوهم للإيمان وأهله.

فالوصف الـــذي جعلـــهميعادونكم لأجلـــه ويبغضـــونكم،هو الإيمان،فـــذبوا عـــن دينكم،وانصروه واتخذوا من عاداه لكم عدوا ومن نصره لكم وليا،واجعلوا الحكم يدور معه وجودا وعدما،لا تجعلوا الولاية والعداوة،طبيعيةتميلون بهما،حيثما مال الهوى،وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء،ولهذا:{ فإنْ تابوا ْ} عن شـــركهم،ورجعوا إلى الإيمـــان { وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فإخْوانكمْ في الدّين ْ} وتناسوا تلـــك العـــداوة إذ كـــانوا مشركين لتكونوا عباد اللّه المخلصين،وبهذا يكون العبد عبدا حقيقة.لما بين من أحكامـــه العظيمة ما بين،ووضح منها ما وضح،أحكاما وحكمًا،وحكْمًا،وحكمة قال:{ ونفصّل الْآيات ْ} أي:نوضحها ونميزها { لقوْمٍ يعْلمون ْ} فإليهم سياق الكلام،وبهـــم تعـــرف الآيات والأحكام،وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.اللهم اجعلنا من القوم الـــذين يعلمون،ويعملون بما يعلمون،برحمتـــك وجـــودك وكرمـــك [وإحســـانك يـــا رب العالمين]. [٤٦٢٢]

---

٣. أقسى العقوبات توجه لنا إن ظفروا بنا:

قال تعالى:{ إنّهمْ إن يظْهروا عليْكمْ يرْجموكمْ أوْ يعيدوكمْ في ملّتهمْ ولن تفْلحـــوا إذًا أبدًا} (٢٠) سورة الكهف

لأنّ قوْمكمْ إنْ علموا بمكانكمْ عـــذّبوكمْ،وآذوْكمْ إلى أنْ يضْـــطرّوكمْ إلى العـــوْدة في ملّتهمْ،أوْ يبْلغوا بكم الموْت رجْماً بالحجارة،وإذا وافقْتموهمْ على العوْدة إلى دينهمْ فـــلا فلاح لكمْ في الدّنْيا،ولا في الآخرة. [٤٦٢٣]

[٤٦٢٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٠)

[٤٦٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢١٦١، بترقيم الشاملة آليا)

وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم،وظهورهم عليهم،أنهم بين أمرين،إما الرجم بالحجارة،فيقتلونهم أشنع قتلة،لحنقهم عليهم وعلى دينهم،وإما أن يفتنوهم عن دينهم،ويردوهم في ملتم،وفي هذه الحال،لا يفلحون أبدا،بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.[٤٦٢٤]

وهذه طبيعة الكفار والفجار في كل زمان ومكان،عندما يظفرون بالمؤمنين يفعلون بهم الأفاعيل وهم بين أمرين أحلامهما مرٌّ فليختاروا ما عند الله تعالى،وليقاتلوا حتى آخر لحظة من حياتهم،فالجنة تنتظرهم بفارغ الصبر،وليقتدوا بالأخيار الأبرار من هذه الأمة

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيُّ،وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا،وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ»،فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالهَدَأَةِ،وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ،ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ،يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ،فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ،فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ المَدِينَةِ،فَقَالُوا:هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ،فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ وَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ،فَقَالُوا لَهُمْ:انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ [ص:٦٨]،وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ،وَلاَ نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا،قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ:أَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ لاَ أَنْزِلُ اليَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ،اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ،فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ بِالعَهْدِ وَالمِيثَاقِ،مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ،وَابْنُ دَثِنَةَ،وَرَجُلٌ آخَرُ،فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ،فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ:هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ،وَاللَّهِ لاَ أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي فِي هَؤُلاَءِ لَأُسْوَةً يُرِيدُ القَتْلَى،فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ،فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ،وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ،فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ،وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ،فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا،فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَاضٍ،أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ:أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ

[٤٦٢٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٧٣)

مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا،فَأَعَارَتْهُ،فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ قَالَتْ:فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ،فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي،فَقَالَ:تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ،وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ،وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ،وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ،وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ،وَكَانَتْ تَقُولُ:إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا،فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ،قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ:ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ،فَتَرَكُوهُ،فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا،اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا،

[البحر الطويل]

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا...عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ...يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الحَارِثِ فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا،فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ،«فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ،وَمَا أُصِيبُوا،وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ،لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ،وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ،فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ،فَحَمَتْهُ مِنْ رَسُولِهِمْ،فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا»[٤٦٢٥]

[٤٦٢٥] - صحيح البخاري (٤/ ٦٧)(٣٠٤٥)

[ش (رهط) جماعة من الرجال ما دون العشرة وقيل ما دون الأربعين.(سرية) قطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وهذه السرية تسمى سرية الرجيع وكانت في صفر سنة أربع من الهجرة والرجيع اسم لماء بين مكة وعسفان.(عينا) جاسوسا يستطلع أخبار العدو.(بالهدأة) اسم موضع.(فاقتصوا آثارهم) اتبعوها.(فدفد) موضع مرتفع أو مكان مشرف.(أعطونا بأيديكم) استسلموا لنا.(لكم العهد والميثاق) لكم منا الذمة أن لا نغدر بكم.(في سبعة) في جملة سبعة.(رجل آخر) هو عبد الله ابن طارق البلوي.(قسيهم) جمع قوس وهو ما يرمى عنه بالنبل.(فابتاع) اشترى.(موسى) سكينا صغيرة من حديد.(يستحد) من الاستحداد وهو حلق شعر العانة وهي ما ينبت حول الفرج.(فزعة) خوفة.(عرفها) رأى أثرها.(قطف) عنقود.(لموثق) لمربوط في الحديد.(ذروني) اتركوني.(الحل) خارج الحرم.(ما بي) صلاتي واستمهالي.(جزع) خوف وضجر وهو ضد الصبر.(أحصهم عددا) استأصلهم بالهلاك ولا تبق منهم أحدا.(مصرعي) موتي وهلاكي.(أوصال) جمع وصل وهو المفصل أو مجتمع العظام.(شلو) عضو أو قطعة من اللحم.(ممزع) مقطع.(مثل الظلة) السحابة المظلة.(الدبر) ذكور النحل أو الزنابير واحدة دبرة]

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ:إِنَّ أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ أَخَذُوا رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَوْا بِهِمَا مُسَيْلِمَةَ،فَقَالَ:لأَحَدِهِمَا:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟،قَالَ:إِنِّي أَصَمُّ،- ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ،وَقَالَ:لِلْآخَرِ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟،قَالَ:نَعَمْ،فَخَلَّى سَبِيلَهُ،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«صَاحِبُكَ أَخَذَ بِالْفَضْلِ وَأَنْتُ أَخَذْتَ بِالرُّخْصَةِ،عَلَامَ أَنْتَ الْيَوْمَ؟» قَالَ:أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ كَاذِبٌ"[٤٦٢٦]

وعَنِ الْحَسَنِ أَنَّ عُيُونًا لِمُسَيْلِمَةَ أَخَذُوا رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَوْهُ بِهِمَا،فَقَالَ لأَحَدِهِمَا:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله ؟ قَالَ:فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ،فَقَالَ:إِنِّي أَصَمُّ،قَالَ:مَا لَكَ إِذَا قُلْتُ لَكَ:تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله،قُلْتُ إِنِّي أَصَمُ،فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ،وَقَالَ لِلآخَرِ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله،قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:أَتَشَهَّدُ أَنِّي رَسُولُ الله،قَالَ:نَعَمْ،فَأَرْسَلَهُ،فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ الله:هَلَكْت،قَالَ:وَمَا شَأْنُك فَأَخْبَرُوهُ بِقِصَّتِهِ وَقِصَّةِ صَاحِبِهِ،فَقَالَ:أَمَّا صَاحِبُك فَمَضَى عَلَى إِيمَانِهِ،وَأَمَّا أَنْتَ فَأَخَذْتَ بِالرُّخْصَةِ.[٤٦٢٧]

وعن شُرَحْبِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّ الْأَسْوَدَ بْنَ قَيْسِ بْنِ ذِي الْخِمَارِ تَنَبَّأَ بِالْيَمَنِ فَبَعَثَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ:مَا أَسْمَعُ قَالَ:أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَرَدَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَمَرَ بِنَارٍ عَظِيمَةٍ فَأُجِّجَتْ،ثُمَّ أَلْقَى فِيهَا أَبَا مُسْلِمٍ فَلَمْ يَضُرَّهُ،قَالَ:فَقِيلَ لَهُ:انْفِهِ عَنْكَ،وَإِلَّا أَفْسَدَ عَلَيْكَ مَنِ اتَّبَعَكَ قَالَ:فَأَمَرَهُ بِالرَّحِيلِ فَأَتَى أَبُو مُسْلِمٍ الْمَدِينَةَ وَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ فَأَنَاخَ أَبُو مُسْلِمٍ رَاحِلَتَهُ بِبَابِ الْمَسْجِدِ،ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَامَ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ فَبَصُرَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ:مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ:مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ:مَا فَعَلَ الَّذِي أَحْرَقَهُ الْكَذَّابُ بِالنَّارِ قَالَ:ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْبٍ فَقَالَ لَهُ:نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ أَنْتُ هُوَ؟ قَالَ:اللَّهُمَّ نَعَمْ فَاعْتَنَقَهُ،ثُمَّ بَكَى،ثُمَّ ذَهَبَ حَتَّى أَجْلَسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ،فَقَالَ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ

[٤٦٢٦] - المراسيل لأبي داود (ص:٢٤٤)(٣٢٦) صحيح مرسل

[٤٦٢٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٧/ ٥٣٧)(٣٣٧٠٨) صحيح مرسل

يُمتْنِي حَتَّى أَرَانِي فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ،قَالَ ابْـــنُ عَيَّاشٍ:فَأَنَا أَدْرَكْتُ رِجَالًا مِنَ الْأَمْدَادِ الَّذِينَ يَمُدُّونَ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ خَوْلَانَ يَقُولُونَ لِأَمْـــدَادٍ مِنْ عَنْسٍ:صَاحِبُ الْكَذَّابِ حَرَّقَ صَاحِبَنَا بِالنَّارِ فَلَمْ تَضُرَّهُ"[٤٦٢٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٦٢٨] - كرامات الأولياء للالكائي - من شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٩/ ٢٠٤)(١٣٨) حسن

الباب التاسع والعشرون

لا بد من دفع الثمن

بيع الأنفس لله:

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١١١]

ليس الإيمان مجرد نطق باللسان،وتصديق بالقلب،وإنما هو- مع هذا- عمل بالجوارح،وابتلاء فى الأموال والأنفس..فمن صدّق قلبه ما نطق به،ومن صدق عمله ما صدّق به قلبه،فذلك هو المؤمن،الذي يقبله الله فى المؤمنين..وبين الله والمؤمنين بالله،عقد عقده معهم،وعهد عاهدهم عليه..وهو أنه- سبحانه- اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ولهم عنده فى مقابل ذلك الجنة! وما تلك الأنفس،وهذه الأموال التي اشتراها الله من المؤمنين؟ إنها من الله،وإلى الله..!

ولكن شاء فضل الله أن يجعل لعباده ملكية هذه الأنفس،وتلك الأموال،وأن يشتريها منهم،وأن يعوضهم عليها! وقدّمت الأنفس على الأموال هنا على خلاف المواضع كلها التي جاء فيها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين فى القرآن..ففى جميع المواضع ما عدا هذا الموضع قدمت الأموال على الأنفس! فما سرّ هذا؟ أو قل ما أسرار هذا؟

ونقول- والله أعلم- إن بعض السر فى هذا هو أن الله سبحانه وتعالى،هو الذي يطلب الأنفس والأموال فى هذا المقام،على حين أنه فى جميع المواضع التي ذكرت فيها الأنفس والأموال فى القرآن الكريم- كانت مبذولة من المسلمين،أو مطلوبا منهم بذلها..! ولاختلاف المقام اختلف النظم..ففى شراء الله سبحانه وتعالى ما يشترى من المؤمنين يقدم الأنفس على الأموال لأنها عند الله أكرم وأعز من المال،على حين أن المال عند الناس أعز من الأنفس،إذ يتقاتلون من أجله،مخاطرين بأنفسهم ويقتلون أنفسهم فى

سبيله! وفى اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ما ذهلوا عنه مـــن أمـــر أنفســـهم،إذ استرخصوها إلى جانب المال،على حين أنها شيء كريم عزيز عند الله.

وفى قوله تعالى:«يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن يكون له يد ظاهرة على عدوه،وبلاء مؤثّر فيه،وأنه قبل أن يقتل لا بد أن يقتل مـــن عدوه واحدا أو أكثر،حتى لا يذهب دمه هدرا،وحتى بوهن العـــدو ويضـــعف مـــن شوكته،ويكتب بدمه حرفا من كلمة النصر التي كتبها الله للمؤمنين..

وقوله تعالى:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ..وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» ؟ هو توكيد لما وعد الله المؤمنين الذين باعوه أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة،فهذا الوعد حق لا مرية فيه- كما جاء به القرآن والتوراة والإنجيل.فذلك هو وعد الله للمـــؤمنين المجاهدين،فيما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من رب العالمين..«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» ؟ وهل يخلف الله وعده،أو ينقض عهده؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

هذا وليس بيع الأنفس والأموال لله مرادا به بذلهما فى القتال فى سبيل الله ثم الوقـــوف بهما عند تلك الغاية وحدها..فإذا لم يكن بين يدى المؤمن قتال ومجاهدة للعـــدو،فهناك ميدان فسيح للجهاد فى سبيل الله فى غير ميدان القتال،فمجاهدة النفس والوقوف بهـــا عند حدود الله،هو جهاد مبرور فى سبيل الله..

والعبادات بأنواعها،وأداؤها على وجهها جهاد فى سبيل الله،والسعى فى تحصيل الـــرزق من وجوهه المشروعة،جهاد فى سبيل الله..والبر بالفقراء،والإحسان إلى اليتـــامى..هـــو جهاد فى سبيل الله.

وإذا كانت الآية الكريمة قد خصّت القتال فى سبيل الله بالذكر هنـــا،فليس ذلـــك إلا تنويها يفضل الجهاد فى ميدان القتال،إذ يمثل الصورة الكاملة التي يبذل فيها المرء كل ما يملك،ويقدم لله فيها كل ما معه من نفس ومال..

على خلاف أبواب الجهاد كلها،فإنه يبذل بعضا من كلّ،ويقدم لله بعضـــا ويســـتبقى بعضا.

وقوله تعالى:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».هو مباركة من الله سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له- مباركة بهذه الصفقة التي عقدوها مع الله،وتبشير لهم بالربح العظيم،والمغنم الجزيل الذي وراءها..إنها الجنة التي وعدهم الله بها وإنها الرضوان من رب العالمين..وذلك هو الفوز العظيم..[٤٦٢٩]

يخبر تعالى خبرا صدقا،ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة،ومعاوضة جسيمة،وهو أنه {اشْتَرَى} بنفسه الكريمة {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} فهي المثمن والسلعة المبيعة.{بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} التي فيها ما تشتهيه الأنفس،وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح،والمسرات،والحور الحسان،والمنازل الأنيقات.وصفة العقد والمبايعة،بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه،لإعلاء كلمته وإظهار دينه فـ {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} فهذا العقد والمبايعة،قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.{وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم،وأعلاها،وأكملها،وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم،وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا} أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله،{بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ} أي:لتفرحوا بذلك،وليبشر بعضكم بعضا،ويحث بعضكم بعضا.{وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} الذي لا فوز أكبر منه،ولا أجل،لأنه يتضمن السعادة الأبدية،والنعيم المقيم،والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات،وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة،فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله،وإلى العوض،وهو أكبر الأعواض وأجلها،جنات النعيم،وإلى الثمن المبذول فيها،وهو النفس،والمال،الذي هو أحب الأشياء للإنسان.وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع،وهو أشرف الرسل،وبأي كتاب رقم،وهي كتب الله الكبار المترلة على أفضل الخلق.[٤٦٣٠]

[٤٦٢٩] التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٨٩٨) -

[٤٦٣٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٥٢)

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم في مقابل ذلك الجنة،وما أعد الله فيها من النعيم لبذلهم نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه،فيَقْتلون ويُقتَلون،وعدًا عليه حقًّا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام،والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام،والقرآن المنزل على محمد ﷺ.ولا أحد أوفى بعهده من الله لمن وفَّى بما عاهد الله عليه،فأظهِروا السرور-أيها المؤمنون- ببيعكم الذي بايعتم الله به،وبما وعدكم به من الجنة والرضوان،وذلك البيع هو الفلاح العظيم.[٤٦٣١].

من بايع على هذا.من أمضى عقد الصفقة.من ارتضى الثمن ووفى.فهو المؤمن..فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا..ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا،وإلا فهو واهب الأنفس والأموال،وهو مالك الأنفس والأموال.ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة:..شر البهيمة..«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ»..كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ،يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»..

عونك اللهم! فإن العقد رهيب..وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها،قاعدون،لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض،وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد.ولا يقتلون.ولا يقتلون.ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول الله - ﷺ - فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع

[٤٦٣١] - التفسير الميسر (١/ ٢٠٤)

حياتهم و لم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم،أو يحسونها مجـــردة في مشـــاعرهم.كـــانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.لتحويلها إلى حركة منظورة،لا إلى صـــورة متأملـــة..هكـــذا أدركها عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – في بيعة العقبة الثانية.وَقَالَ مُحَمَّـــدُ بْـــنُ كَعْبٍ الْقُرَظِي وَغَيْرُهُ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ -يَعْنِي لَيْلَـــةَ العقبة -:اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ! فَقَالَ:"أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ".قَالُوا:فَمَا لَنَـــا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ:"الْجَنَّةُ".قَالُوا:رَبِح البيعُ،لَا نُقِيل وَلَا نَسْتَقِيلُ،فَنَزَلَتْ:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} الْآيَةَ...[٤٦٣٢]

هكذا..«ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»..لقد أخذوها صفقة ماضـــية نافـــذة بـــين متبايعين انتهى أمرها،وأمضي عقدها،و لم يعد إلى مرد من سبيل:«لا نقيل ولا نســـتقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة:ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد مـــن اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟».أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن..كل مؤمن على الإطـــلاق منـــذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه..إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»..«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّـــهِ كَثِيراً»..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه.ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!..بل لا بـــد أن يأخذ عليه الطريق..إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده.ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق..بل لا بد أن يقطع عليـــه

[٤٦٣٢] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤/ ٢١٨] وتفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤/ ٤٩٩] (١٧٢٧٠) صحيح مرسل

الطريق..ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله.ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!..وما دام في «الأرض» كفر.وما دام في «الأرض» باطل.وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض،والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.وإلا فليس بالإيمان،فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[٤٦٣٣].

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال.وهذه آية مدنية قطعا.ولكنها تتفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه،وأخذ الجنة عوضا وثمنا،كما وعد اللّه..وما الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء.فالنفس إلى موت،والمال إلى فوت.سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب.كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه.ينتصر – إذا انتصر – لإعلاء كلمته،وتقرير دينه،وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله،ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض،والإيمان ينتصر فيه على الألم،والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم،وانتصار العقيدة فيه على الحياة..فإذا أضيفت إلى ذلك كله..الجنة..فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ،وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

[٤٦٣٣] - صحيح مسلم- المكنز [١٢ /٤٦٣][(٥٠٤٠)]

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية:«وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآن»..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور..وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي،يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد،وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد.كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد..ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها – في حتمية لا فكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري،لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل.فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين و لم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة..وهو قليل..أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد،والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين،لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد..ولكننـــا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومـــات إنمـــا جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! - وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ:إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلـــون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن..فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعـــده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.كل مؤمن على الإطـــلاق.منـــذ كانت الرسل،ومنذ كان دين اللّه..[٤٦٣٤]

شراء الحياة الدينا بالآخرة:

وقال تعالى:{ فلْيقاتلْ في سبيل اللّه الّذين يشْرون الْحياة الدّنْيا بالآخرة ومن يقاتلْ في سبيل اللّه فيقْتلْ أو يغْلبْ فسوْف نؤْتيه أجْرًا عظيمًا} (٧٤) سورة النساء

فلْيقاتلْ في سبيل الله منْ أراد أنْ يبيع الحياة الدّنْيا،ويبْذلها،ويجْعلها ثمناً للآخرة،لأنّه يكون قدْ أعزّ دين الله،وجعل كلمة الله هي العلْيا.ومنْ يقاتلْ في سبيل الله فيظْفرْ بـــه عـــدوّه ويقْتله،أوْ يظْفرْ هو بعدوّه،فإنّ الله سيؤْتيه أجْراً عظيماً منْ عنْده.[٤٦٣٥]

ذلك هو القتال فى سبيل الله،لا يخفّ إليه،ولا يندرج به فى جماعة المجاهدين،إلا من وطّن نفسه على احتمال تبعاته،وقدّر الموت قبـــل أن يقـــدر الحياة،وشـــرى الحيـــاة الـــدنيا بالآخرة..فذلك هو الذي يحتسب له أجر المجاهدين عند الله،إن سلم،أو عطب،لأنه بـــايع الله،ووفّى بما عاهد الله عليه،ووقع أجره علـــى الله،وهـــو نيّـــة الجهـــاد،وعلى طريـــق المجاهدين،وإن لم يلتحم فى معركة،أو يشارك فى قتال..إن ذلك المجاهد هو الذي يـــدعى

[٤٦٣٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٣٦)

[٤٦٣٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٧، بترقيم الشاملة آليا)

للجهاد،ويقبل فى صفوف المجاهدين..أما أولئك المترددون،الذين يأخذون الجانب الهيّن اللّين من كل أمر،فلا مكان لهم فى هذا المقام الكريم،الذي هو مقام الرجال!! قوله تعالى:«وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» بيان كاشف لموقف المجاهد،ومكانته عند الله..فهو فى إحدى مترلتين:إما أن يقتل،فيحسب فى عداد الشهداء،وإما أن يغلب وينتصر،ويغنم..وهو فى كلا الأمرين محمود عند الله،له أجر الشهداء ومترلة المستشهدين..

وفى قوله تعالى:«فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ» إشارة إلى أن المجاهدين فى سبيل لهم العاقبة والنصر أبدا..وأن الذين استشهدوا قد كتبوا بدمائهم الزكية الطاهرة وثيقة النصر للجبهة المقاتلين فيها..فالمجاهدون إما شهداء،وإما منتصرون..ومعنى هذا ألا يتحول المجاهدون عن الجهاد،وألا يتركوا المعركة إلّا ومعهم النصر الذي وعدهم الله،وجعله جزاء معجلا لهم..ولهذا جاءت القسمة هكذا:«فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ» ولم تجىء كما يقضى به ظاهر الأمر..«فيقتل» أو يسلم![4636]

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته،ولا يغلق عنهم أبوابها.بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه،فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله فقال:{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} هذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها.

وقيل:إن معناه:فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان،الصادقون في إيمانهم {الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ} أي:يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطّنوها على جهاد الأعداء،لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتثاقلون،فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا،فيكون هذا نظير قوله تعالى:{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا} إلى آخر الآيات.وقوله:{فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا

[4636] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٣٤)

بكَافِرِينَ} وقيل:إن معنى الآية:فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة،فيكون على هذا الوجه "الذين" في محل نصب على المفعولية.

{وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} بأن يكون جهادا قد أمر الله به ورسوله،ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله.{فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} زيادة في إيمانه ودينه،وغنيمة،وثناء حسنا،وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر.[4637]

فليقاتل في سبيل الله - فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل.لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة.ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي! إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على السكان..لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات،والأسواق للمنتجات أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات! إنه لا يقاتل لمجد شخص.ولا لمجد بيت.ولا لمجد طبقة.ولا لمجد دولة،ولا لمجد أمة،ولا لمجد جنس.إنما يقاتل في سبيل الله.لإعلاء كلمة الله في الأرض.ولتمكين منهجه من تصريف الحياة.ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج،وعدله المطلق «بين الناس» مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها..في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام..

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله،بقصد إعلاء كلمة الله،وتمكين منهجه في الحياة.ثم يقتل..

يكون شهيدا.وينال مقام الشهداء عند الله..وحين يخرج لأي هدف آخر - غير هذا الهدف - لا يسمى «شهيدا» ولا ينتظر أجره عند الله،بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له..والذين يصفونه حينئذ بأنه «شهيد» يفترون على الله الكذب ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس.افتراء على الله! فليقاتل في سبيل الله - بهذا التحديد..من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة.ولهم - حينئذ - فضل من الله

[4637] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٦)

عظيم في كلتا الحالتين:سواء من يقتل في سبيل الله ومن يغلب في سبيل الله أيضا:«وَمَـــنْ يُقاتِلْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ،فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»..

بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس وإلى تعليقها بالرجاء في فضـــل الله العظيم،في كلتا الحالتين.وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل،وما ترجـــوه مـــن الغنيمـــة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله.كما يتجـــه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالـــدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالبا بمعنى يبيع) فهي خاسرة ســـواء غنمـــوا أو لم يغنموا في معارك الأرض.وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهـــو يحتوي المال - فيما يحتويه - ويحتوي سواه؟![٤٦٣٨]

متى نصر الله ؟

قال تعالى:{ أمْ حسبْتمْ أن تدْخلواْ الْجنّة ولّما يأْتكم مّثل الّذين خلوْاْ من قبْلكم مّسّتْهم الْبأْساء والضّرّاء وزلْزلواْ حتّى يقول الرّسول والّذين آمنواْ معه متى نصْر اللّـــه ألا إنّ نصْر اللّه قريبٌ} (٢١٤) سورة البقرة

يخاطب الله تعالى الذين هداهمْ إلى السّلْم،وإلى الخروج منْ ظلْمة الاخْـــتلاف،إلى نـــور الوفاق،باتّباعهمْ هدى الكتاب زمن التّنْزيل،الذين يظنّون منْهمْ أنّ انْتسابهمْ إلى الإسْـــلام فيه الكفاية لدخول الجنّة دون أنْ يتحمّلوا الشّـــدائد والأذى في ســـبيل الحقّ،وهدايـــة الخلْق،جهْلاً منْهمْ بسنّة الله تعالى في أهْل الهدى منْذ أنْ خلقهمْ.فيقول لهمْ:هلْ تحْســـبون أنّكمْ تدْخلون الجنّة قبْل أنْ تبْتلوا وتخْتبروا كما فعل بالذين منْ قبْلكمْ من الأمم الـــذين ابْتلوا بالفقْر (البأساء)،وبالأسْقام والأمْراض (الضّرّاء)،وخوّفوا وهدّدوا من الأعْداء (زلْزلوا)،وامتحنوا امْتحاناً عظيماً،واشْتدّت الأمور بهمْ حتّى تساءل الرّسول والمؤْمنـــون قائلين:متى يأْتي نصْر الله.

[٤٦٣٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٧)

وحينما تثْبت القلوب على مثْل هذه المحن المزلْزلة،حينئذٍ تتمّ كلمة الله،ويجيء نصْره الذي يدّخره لمنْ يسْتحقّه منْ عباده الذين يسْتيْقنون أنْ لا نصْر إلاّ نصْر الله.[٤٦٣٩]

أما وقد استنقذ الله سبحانه المؤمنين برحمته،وهداهم الصراط المستقيم بفضله،فقد وجب عليهم أداء أمانة هذا الدين الذي هداهم الله إليه،فالدّين ليس مجرد مفاهيم أو تصورات يتلقاها المؤمن من نصوص الشريعة،وإنما هو مع ذلك سلوك قائم فى ظل هذه المفاهيم وتلك التصورات،فالطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره،والمؤمنون مبتلون فى أموالهم وأنفسهم،ممتحنون فى إيمانهم وصبرهم،كما يقول الله تعالى:«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهدينَ منْكُمْ وَالصَّابرينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ» (٣١:سورة محمد) ويقول سبحانه «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ» (١٥٥:سورة البقرة).

فالذين آمنوا بالله واتبعوا رسول الله،معرّضون لهذا الامتحان الذي يمتحن به المؤمنون،أتباع رسل الله،فكم حمل هؤلاء الرسل وأتباعهم من أعباء،وكم لاقوا من أهوال،وكم تجرعوا من غصص،مما رهقهم به سفهاء أقوامهم من جهالات وسفاهات:«مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا» أي اضطربت مشاعرهم وتبلبلت خواطرهم،واستيأسوا وظنّوا أنهم أحيط بهم،فاستعجلوا النصر الذي وعدهم الله،كما يقول سبحانه:«كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢٨:المجادلة) وقالوا:«مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟» وكأنهم يقولون فيما يقولون:أين نصر الله الذي وعدنا به؟.

ومن آفاق الحق ومن قلوب أولياء الله الراسخين فى الإيمان،يجىء هذا المدد الكريم،يسوق بين يديه بشريات الفرج المرتقب والنصر الموعود:«أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ».

إن راية الحق لا تنكس أبدا،إذا هى شدّت إلى أيد مؤمنة مستمسكة بالحق،معتصمة بالصبر،مستعدة للبذل والتضحية،فإن المجاهدين تحت هذه الراية،إنما يجاهدون تحت راية الله،وحسبهم بالله معينا وناصرا «أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣٢ المجادلة) وقوله تعالى:«وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» أي ولما تصابوا بما

[٤٦٣٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢١، بترقيم الشاملة آليا)

أصيب به من سبقكم من المؤمنين فى الأمم الماضية من شدائد ومحن،فالمثل هنا هو الواقعة المادية،وليس الصورة اللفظية الحاكية لتلك الواقعة.[٤٦٤٠]

يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم،فهي سنته الجارية،التي لا تتغير ولا تتبدل،أن من قام بدينه وشرعه،لا بد أن يبتليه،فإن صبر على أمر الله،ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله،فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها،ومن السيادة آلتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله،بأن صدته المكاره عما هو بصدده،وثنته المحن عن مقصده،فهو الكاذب في دعوى الإيمان،فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني،ومجرد الدعاوى،حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم {مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ} أي:الفقر {وَالضَّرَّاءُ} أي:الأمراض في أبدانهم {وَزُلْزِلُوا} بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل،والنفي،وأخذ الأموال،وقتل الأحبة،وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال،وآل بهم الزلزال،إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال {الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}.

فلما كان الفرج عند الشدة،وكلما ضاق الأمر اتسع،قال تعالى:{أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.فكلما اشتدت عليه وصعبت،إذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة،والمشقات راحات،وأعقبه ذلك،الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء،وهذه الآية نظير قوله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

وقوله [تعالى:] {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} فعند الامتحان،يكرم المرء أو يهان.[٤٦٤١]

[٤٦٤٠] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٣٦)

[٤٦٤١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٦)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ،وَلَمْ يُصِبْكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ وَالِاخْتِبَارِ،فَتُبْتَلُوا بِمَا ابْتُلُوا وَاخْتُبِرُوا بِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَهُوَ شِدَّةُ الْحَاجَةِ،وَالْفَاقَةِ،وَالضَّرَّاءِ،وَهِيَ الْعِلَلُ،وَالْأَوْصَابُ؛وَلَمْ تُزَلْزَلُوا زِلْزَالَهُمْ،يَعْنِي:وَلَمْ يُصِبْهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ،وَالرُّعْبِ شِدَّةٌ وَجَهْدٌ حَتَّى يَسْتَبْطِئَ الْقَوْمُ نَصْرَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ،فَيَقُولُونَ:مَتَى اللَّهُ نَاصِرُنَا.ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ نَصْرَهُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ،وَأَنَّهُ مُعْلِيهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ،وَمُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِ،فَنَجَزَ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ،وَأَعْلَى كَلِمَتَهُمْ،وَأَطْفَأَ نَارَ حَرْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا.وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَا يَزْعُمُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ نَزَلَتْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ،حِينَ لَقِيَ الْمُؤْمِنُونَ مَا لَقُوا مِنْ شِدَّةِ الْجَهْدِ،مِنْ خَوْفِ الْأَحْزَابِ،وَشِدَّةِ أَذَى الْبَرْدِ،وَضِيقِ الْعَيْشِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ يَوْمَئِذٍ،يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب:٩] إِلَى قَوْلِهِ:{وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:١١][٤٦٤٢]

إنه مدخر لمن يستحقونه.ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية.الذين يثبتون على البأساء والضراء.

الذين يصمدون للزلزلة.الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة.الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر اللّه،وعندما يشاء اللّه.وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها،فهم يتطلعون فحسب إلى «نَصْرُ اللَّهِ»،لا إلى أي حل آخر،ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند اللّه.ولا نصر إلا من عند اللّه.

بهذا يدخل المؤمنون الجنة،مستحقين لها،جديرين بها،بعد الجهاد والامتحان،والصبر والثبات،والتجرد للّه وحده،والشعور به وحده،وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة،ويرفعها على ذواتها،ويطهرها في بوتقة الألم،فيصفو عنصرها ويضيء،ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية،فتتلألأ حتى في أعين

[٤٦٤٢] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٦٣٦)

أعدائها وخصومها.وعندئذ يدخلون في دين اللّه أفواجا كما وقع،وكما يقع في كل قضية حق،يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق،حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم،وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين..

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته.يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها،وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة،والحرص على الحياة نفسها في النهاية..وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها،وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء.كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون،المؤتمنون على راية اللّه وأمانته ودينه وشريعته.وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف..وهذا هو الطريق..

هذا هو الطريق كما يصفه اللّه للجماعة المسلمة الأولى،وللجماعة المسلمة في كل جيل.

هذا هو الطريق:إيمان وجهاد..ومحنة وابتلاء.وصبر وثبات..وتوجه إلى اللّه وحده.ثم يجيء النصر.ثم يجيء النعيم..[٤٦٤٣]

دخول الجنة يحتاج لجهاد:

قال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} (١٤٢) سورة آل عمران

ولا تحْسبوا أنّكمْ تدْخلون الجنّة قبْل أنْ يخْتبركم الله تعالى ويمحّصكمْ في الشّدائد والجهاد ليرى صدْق إيمانكمْ،ويرى منْ يسْتجيب لله،ويخْلص في طاعته،وقتال أَعْدائه،ويصْبر على مكاره الحروب[٤٦٤٤].

فيه بيان آخر للحكمة من هذا الابتلاء الذي ابتلى الله به المؤمنين،فى قتال الكافرين،وهو أن هذا الابتلاء هو الذي يكشف عن إيمان المؤمنين،وصبرهم على المكروه،واحتمالهم

[٤٦٤٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٥٥)

[٤٦٤٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٥، بترقيم الشاملة آليا)

الأذى في سبيل الله،وذلك هو الذي يميز الخبيث من الطيب،ويجعل لكلّ مكانه عند الله..فالجنة للمجاهدين الصابرين..والنار للمشركين المعاندين.[٤٦٤٥]

هذا استفهام إنكاري،أي:لا تظنوا،ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته،فإن الجنة أعلى المطالب،وأفضل ما به يتنافس المتنافسون،وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته،والعمل الموصل إليه،فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة،ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم،ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها،وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه،تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها،ولا يبالون بها،وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.[٤٦٤٦]

أَمْ حَسِبْتُمْ يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ،وَظَنَنْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ،وَتَنَالُوا كَرَامَةَ رَبِّكُمْ،وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ عِنْدَهُ؛{وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} [آل عمران:١٤٢] يَقُولُ:وَلَمَّا يَتَبَيَّنْ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ،الْمُجَاهِدُ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ،وَقَدْ بَيَّنْتُ مَعْنَى قَوْلِهِ:{وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ} [آل عمران:١٤٢] وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ،وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ بِأَدِلَّتِهِ فِيمَا مَضَى بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ وَقَوْلُهُ:{وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٢] يَعْنِي الصَّابِرِينَ عِنْدَ الْبَأْسِ عَلَى مَا يَنَالُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ مِنْ جَرْحٍ وَأَلَمٍ وَمَكْرُوهٍ،عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} [البقرة:٢١٤] «وَتُصِيبُوا مِنْ ثَوَابِي الْكَرَامَةَ وَلَمْ أَخْتَبِرْكُمْ بِالشِّدَّةِ أَبْتَلِيَكُمْ بِالْمَكَارِهِ،حَتَّى أَعْلَمَ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْكُمُ الْإِيمَانَ بِي وَالصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِيَّ»[٤٦٤٧]

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور:تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان:أسلمت وأنا على استعداد للموت.فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان،وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هي التجربة

[٤٦٤٥] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٠٤)

[٤٦٤٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٠)

[٤٦٤٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٩١)

الواقعية،والامتحان العملي.وإنما هو الجهاد وملاقاة الـــبلاء،ثم الصـــبر علـــى تكـــاليف الجهاد،وعلى معاناة البلاء.

وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى:«وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِـــنْكُمْ»..«وَيَعْلَـــمَ الصَّابِرِينَ»..فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون.إنما هو الصبر على تكـــاليف هـــذه الـــدعوة أيضا.التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان.فربما كان الجهـــاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر،ويختبر بها الإيمان.إنمـــا هنالـــك المعاناة اليومية التي لا تنتهي:معاناة الاستقامة على أفق الإيمان.والاستقرار على مقتضـــياته في الشعور والسلوك،والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني:في النفس وفي الغير،ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية.والصبر على الفترات التي يســـتعلي فيهـــا الباطـــل وينتفش ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات.والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال.والصـــبر علـــى أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدا منها،في الطريق المحفوف بالمكـــاره.طريـــق الجنة التي لا تنال بالأمانيّ وبكلمات اللسان![٤٦٤٨]

دخول الجنة يحتاج للتوكل على الله والجهاد في سبيله:

وقال تعالى:{ أمْ حسبْتمْ أن تتْركواْ ولمّا يعْلم اللّه الّذين جاهدواْ منكمْ ولمْ يتّخذواْ من دون اللّه ولا رسوله ولا الْمؤْمنين وليجةً واللّه خبيرٌ بما تعْملون} (١٦) سورة التوبة

أظننْتمْ أنْ يتْرككم الله مهْملين،لا يخْتبركمْ بأمورٍ تظْهر فيكم الصّادق من الكاذب،ليعْلم الـــذين يجاهـــدون في سبيله،ويخْلصـــون في جهـــادهمْ ونصْـــحهمْ،لله وللرّســـول وللمؤْمنين،ويكون ظاهرهمْ كباطنهمْ،في الإخْلاص لله وللرّسول،وليْس لهمْ بطانـــةٌ مـــن المشْركين،ولا روابط مع المشْركين،ولا يسرّون إليْهمْ بأسْرار المسْلمين وخططهـــمْ،والله محيطٌ بكلّ شيءٍ علْماً.

[٤٦٤٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٨٤)

وقدْ مضتْ سنّة الله أنّ التكْليف الذّي يشقّ على الأنْفس هو الــذي يمحّــص مــا في القلوب،ويطهّر السّرائر،ويكْشف مكْنونات السّرائر الخبيثة.[٤٦٤٩]

هو تنبيه للمؤمنين إلى أن الإيمان ليس مجرد عقيدة يعتقدها المؤمن،فى الله وكتبه ورسله،ثم يعيش بهذه المعاني مضمرة فى كيانه،كما تضمر الحبة فى باطن الأرض،لا يصيبها وابل أو طلّ،ولا يحركها شوق إلى كشف وجهها،ومصافحة أضواء الوجود..وإنما الإيمــان هــو وصل هذه الحقــائق بالحياة،وصــوغها فى صــورة ســلوك وأعمــال،من عبــادات ومعاملات،ومن جهاد فى سبيل الله،وحماية لراية الإيمان أن تسقطها يد البغاة المعتدين،من أهل الشرك والضلال..

فللإيمان أعباؤه وتكاليفه،وفى الوفاء بهذه الأعبــاء وتلــك التكاليف،تتحــد مواقــف المؤمنين،وتكون منازلهم ودرجاتهم.وقوله تعالى:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» اســتبعاد لهــذا الشعور الذي يداخل بعض المؤمنين من أن يكون حسبهم من إيمانهم ما تنطــوى عليــه صدورهم من حقائقه..وكلّا فإنهم مبتلون بما يكشف عن معدن هذا الإيمــان الــذي فى قلوبهم..وفى هذا يقول الله تعالى:«الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُــمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَــيَعْلَمَنَّ الْكــاذِبِينَ» (١-٣:العنكبوت)..

ففى الإيمان شريعة،وفى الشريعة أوامر ونواه،والمــؤمن مطالــب بــأن يمتثــل الأوامــر ويأتيها،ويتجنب النواهي ويحذر التلبس بها..إن الإيمان عقيدة وعمــل..وإنــه لا معتــبر لعقيدة إذا لم يزكّها العمل،ويحقق المعاني المضمرة فيها.

وفى وقوله سبحانه:«وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ» ما يكشــف عــن تبعــات المؤمنين.أي أحسبتم أيها المؤمنون أن تتركوا هكذا من غير ابتلاء واختبار،حتى يكــون ذلك موضع علم واقع منكم،من جهاد فى سبيل الله وابتلاء فى أموالكم وأنفسكم..بمعنى أنه لم يظهر منهم بعد هذا العمل،ولم يدخلوا فى تلك التجربة،ويصبروا على ما يصــيبهم منها..أما علم الله سبحانه وتعالى فهو علم شامل لكل ما وقع وما لم يقع..فالمراد بعلــم

[٤٦٤٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

الله هنا،هو علمه الواقع على حال المؤمنين فى هذا الوقت الذي يخاطبون فيه بهذا الخطاب.

وفى قوله تعالى:«وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ»..إشارة إلى أن علم الله وإن كان محيطا بكل شيء،قبل أن يقع..من المكلفين» إلا أن المكلفين لا يحاسبون على ما يقع منهم إلا بعد أن يقع..وبهذا يحاسب المكلّف على ما وقع منه فعلا،وصار علما واقعا له،بعد أن كان فى علم الله..[٤٦٥٠]

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا} من دون ابتلاء وامتحان،وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.{وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} أي:علما يظهر مما في القوة إلى الخارج،ليترتب عليه الثواب والعقاب،فيعلم الذين يجاهدون في سبيله:لإعلاء كلمته {وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} أي:وليا من الكافرين،بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم،وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله،من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي:يعلم ما يصير منكم ويصدر،فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه،ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.[٤٦٥١]

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوي قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف،أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ.وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة،مرهوبة الجانب،عزيزة الجناب.

على أن الله سبحانه وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة،إلا وعدا واحدا:هو الجنة.و لم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا:هو الصبر..فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب،آتاها الله النصر

[٤٦٥٠] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧١٤)

[٤٦٥١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣١)

وجعل يحرضها عليه ويشفي صدورها به.ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته.وإن هي إلا ستار لقدرته..

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة،وأن تنبذ عهود المشركين كافة وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا.. لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا،ولإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة،والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب،ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مضلحة.. لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير،وإعلان المفاصلة للجميع،لينكشف الذين يخبئون في قلوبهم خبيئة،ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة،يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين،في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً،وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ».

لقد كان في المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة - فئة تجيد المداورة،وتنفذ من الأسوار.وتتقن استخدام الأعذار.وتدور من خلف الجماعة،وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة،مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات.فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة،وكشفت المداخل والمسارب للأنظار.

وإنه لمن مصلحة الجماعة،ومن مصلحة العقيدة،أن تهتك الأستار وتكشف الولائج،وتعرف المداخل،فيمتاز المكافحون المخلصون،ويكشف المداورون الملتوون،ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته،وإن كان الله يعلمهم من قبل:«وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»..

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم.وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف،وتتمحص القلوب.ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات.[٤٦٥٢]

[٤٦٥٢] -في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٨٩)

الابتلاء بأشياء خمسة:

قال تعالى:{**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)**} **[البقرة:١٥٥ - ١٥٧]**

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمنينَ بأَنَّهُ سَيَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ بقَليلٍ (بِشَيءٍ) مِنْ الخَوْفِ والجُوعِ،وَبِذَهَابِ بَعْضِ المَالِ،وَبِمَوتِ بَعْضِ الأَصْحَابِ وَالأَقَارِبِ وَالأَحْبَابِ،وَبِنَقْصِ غلاَلِ المَزَارِعِ...فَمَنْ صَبَرَ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَحُكْمِه أَثَابَهُ،وَمَنْ قَنَطَ وَلَجَّ أَحَلَّ بِهِ عقَابَهُ.وَيُبَشِّرُ اللهُ الصَّابِرينَ بحُسْنِ العَاقِبَة فِي أُمُورِهِمْ

أَمَّا الصَّابِرُونَ الذينَ خَصَّهُمُ اللهُ بالبُشْرَى فَهُمُ الذينَ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ الخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللهِ،وَإِذَا نَزَلَتْ بهِمْ مُصيبَةٌ صَبَرُوا،وَتَمَسَّكُوا بقَولِهِمْ:إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِليه رَاجِعُونَ،أَيْ إِنَّهُمْ عَبيدُ اللهِ وَمُلْكُهُ،وَإِنَّهُمْ رَاجعُونَ إِليه فِي الدَّارِ الآخِرَة.يُثني اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّابِرينَ،وَيُخْبِرُ بأَنَّهُم فِي رَحْمَته،وَأَنَّهُمْ يَجدُونَ أَثَرَهَا فِي بَرْدِ قُلُوبِهِمْ عنْدَ نُزُولِ المُصيبَة،وَأَنَّهُمْ هُمُ المُهْتَدُونَ إلى طَرِيقِ الخَيْرِ،وَإِلى الحَقِّ والصَّوابِ،وَأَنَّهُمُ اسْتَسْلَمُوا لقَضَاءِ اللهِ فَلَمْ يَسْتَحْوِذِ الجَزَعُ عَلَيهِمْ.[٤٦٥٣].

الناس جميعا مبتلون فى هذه الحياة- سواء أكانوا أفرادا أو جماعات أو أمما- بشىء من الخوف والجوع- يختلف قلة وكثرة- وبنقص فى الأموال والأنفس والثمرات..فليس أحد فى هذه الدنيا بمأمن أبدا من أن تنزل به هذه النوازل،متفرقة أو مجتمعة..

والجزع فى هذه المواطن هو الذي يثقّل المصيبة،ويولّد منها مصائب،فيضاعف معها البلاء،ويعظم الألم،ويطبق اليأس،ويغلق كل باب للأمل والرجاء!.

أما الذي يلقى أحداث الحياة ومصائبها بالصبر،ويواجهها بالتسليم والرضا،عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره- فإن ذلك يهوّن عليه من وقع المصائب وإن

[٤٦٥٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

عظمت،ويمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال،ويفتح له بابا واسعا من الأمل والرجــاء فيما هو خير عند الله وأبقى:

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» فحين يــذكر المؤمن أنه- ذاتا ومالا وأهلا وولدا- ملك لله،لا يملك مثقال ذرة مما فى ملــك الله،وأن مصائر الأمور كلها إلى الله،ومردّها جميعا إليه- حين يذكر المؤمن هذا لا يأســى علــى فائت،ولا يحزن على مفقود،وتلك هى أولى بشريات المؤمنين فى هذه الــدنيا،لا يــترل الحزن ساحتهم،ولا يرهق الهمّ والكرب قلوبهم:«أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».[٤٦٥٤]

أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن،ليتبين الصادق مــن الكاذب،والجــازع مــن الصابر،وهذه سنته تعالى في عباده؛لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان،ولم يحصل معها محنة،لحصل الاختلاط الذي هو فساد،وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخــير مــن أهــل الشر.هذه فائدة المحن،لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان،ولا ردهم عن دينهم،فما كــان الله ليضيع إيمان المؤمنين،فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده {بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ} من الأعداء {وَالْجُوعِ} أي:بشيء يسير منهما؛لأنــه لــو ابــتلاهم بــالخوف كلــه،أو الجوع،لهلكوا،والمحن تمحص لا تهلك.

{وَنَقْصٍ مِنَ الأمْوَالِ} وهذا يشمل جميع الــنقص المعتــري للأمــوال مــن جــوائح سماوية،وغرق،وضياع،وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة،وقطاع الطريــق وغــير ذلك.

{وَالأنْفُسِ} أي:ذهاب الأحباب من الأولاد،والأقارب،والأصحاب،ومن أنواع الأمراض في بدن العبد،أو بدن من يحبه،{وَالثَّمَــرَاتِ} أي:الحبوب،وثمــار النخيل،والأشــجار كلها،والخضر ببرد،أو برد،أو حرق،أو آفة سماوية،من جراد ونحوه.

فهذه الأمور،لا بد أن تقع،لأن العليم الخبير،أخبر بها،فوقعت كما أخبر،فإذا وقعت انقسم الناس قسمين:جازعين وصابرين،فالجازع،حصلت له المصيبتان،فوات المحبوب،وهو وجود

[٤٦٥٤] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٧٦)

هذه المصيبة،وفوات ما هو أعظم منها،وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر،ففاز بالخسارة والحرمان،ونقص ما معه من الإيمان،وفاته الصبر والرضا والشكران،وحصل [له] السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب،فحبس نفسه عن التسخط،قولا وفعلا واحتسب أجرها عند الله،وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له،بل المصيبة تكون نعمة في حقه،لأنها صارت طريقا لحصول ما هو خير له وأنفع منها،فقد امتثل أمر الله،وفاز بالثواب،فلهذا قال تعالى:{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} أي:بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب.

فالصابرين،هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة،والمنحة الجسيمة،ثم وصفهم بقوله:{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ} وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

{قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ} أي:مملوكون لله،مدبرون تحت أمره وتصريفه،فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء،فإذا ابتلانا بشيء منها،فقد تصرف أرحم الراحمين،بمماليكه وأموالهم،فلا اعتراض عليه،بل من كمال عبودية العبد،علمه،بأن وقوع البلية من المالك الحكيم،الذي أرحم بعبده من نفسه،فيوجب له ذلك،الرضا عن الله،والشكر له على تدبيره،لما هو خير لعبده،وإن لم يشعر بذلك،ومع أننا مملوكون لله،فإنا إليه راجعون يوم المعاد،فمجاز كل عامل بعمله،فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورا عنده،وإن جزعنا وسخطنا،لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر،فكون العبد لله،وراجع إليه،من أقوى أسباب الصبر.

{أُولَئِكَ} الموصوفون بالصبر المذكور {عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ} أي:ثناء وتنويه بحالهم {وَرَحْمَةٌ} عظيمة،ومن رحمته إياهم،أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر،{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} الذين عرفوا الحق،وهو في هذا الموضع،علمهم بأنهم لله،وأنهم إليه راجعون،وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية،على أن من لم يصبر،فله ضد ما لهم،فحصل له الذم من الله،والعقوبة،والضلال والخسار،فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين،وأعظم عناء الجازعين،فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على

المصائب قبل وقوعها،لتخف وتسهل،إذا وقعت،وبيان ما تقابـــل بــــه،إذا وقعـــت،وهو الصبر،وبيان ما يعين على الصبر،وما للصابر من الأجر،ويعلم حال غير الصابر،بضد حال الصابر.وأن هذا الابتلاء والامتحان،سنة الله التي قد خلت،ولن تجد لسنة الله تبديلا وبيان أنواع المصائب.[٤٦٥٥]

لا بد من تربية النفوس بالبلاء،ومن امتحان التصميم على معركـــة الحـــق بالمخـــاوف والشدائد،وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات..لا بد من هذا الـــبلاء ليـــؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة،كي تعز على نفوســـهم بمقـــدار مـــا أدوا في ســـبيلها مـــن تكاليف.والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنـــها عند الصدمة الأولى.فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين.وكلمـــا تـــألموا في ســـبيلها،وكلما بـــذلوا مـــن أجلها..كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها.كذلك لن يدرك الآخرون قيمتـــها إلا حـــين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها..إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم:لو لم يكـــن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هـــذا الـــبلاء،ولا صـــبروا عليه..وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها،مقدرين لها،مندفعين إليها..وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى.فالشـــدائد تســـتجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المـــؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد.والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتـــدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون،والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله،أو القاعدة لهذا كله..الالتجاء إلى الله وحده حـــين تهتـــز الأســـناد كلها،وتتوارى الأوهام وهي شتى،ويخلو القلب إلى الله وحده.لا يجد سندا إلا سنده.وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات،وتتفتح البصيرة،وينجلي الأفق على مد البصـــر..لا

[٤٦٥٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٦)

شيء إلا الله..لا قوة إلا قوته..لا حول إلا حوله..لا إرادة إلا إرادته..لا ملجأ إلا إليه..وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح..
والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق:«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا:إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ»..إنا لله..كلنا..كل ما فينا..كل كياننا وذاتيتنا..لله..وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير..التسليم..التسليم المطلق..تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه بالحقيقة الوحيدة،وبالتصور الصحيح.هؤلاء هم الصابرون..الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل..وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل:«أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»..صلوات من ربهم..يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه..وهو مقام كريم..ورحمة..وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون..وكل أمر من هذه هائل عظيم[٤٦٥٦].

الابتلاء بالكفار والفجار والأذى الشديد منهم:

قال تعالى:{ لتبْلونّ في أمْوالكمْ وأنفسكمْ ولتسْمعنّ من الّذين أوتواْ الْكتاب من قبْلكمْ ومن الّذين أشْركواْ أذًى كثيرًا وإن تصْبرواْ وتتّقواْ فإنّ ذلك منْ عزْم الأمور} (١٨٦) سورة آل عمران

يسلّي الله تعالى رسوله ﷺ،ويقول له:إنّه وأصْحابه سيلْقوْن من الكفّار أذًى كثيراً في النّفْس والمال،كما لقوه منْهمْ منْ أذًى يوْم أحد،وعلى المؤْمنين أنْ يوطّنوا أنْفسهمْ عليْه،إذْ لا بدّ منْ أنْ يبْتلي الله المؤْمن في شيءٍ منْ ماله،أوْ نفْسه أو ولده أوْ أهْله...وابْتلاء المؤْمن يكون على قدْر دينه،فإنْ كان فيه صلابةٌ في دينه زيد في بلائه.ونبّه الله تعالى رسوله الكريم والمؤْمنين عنْد مقْدمهمْ إلى المدينة (وقبْل وقْعة بدْرٍ) إلى أنّهمْ سيسْمعون من اليهود ومن المشْركين أذًى كثيراً:من التّقوّل والإرْجاف،ونقْض العهود وبثّ

[٤٦٥٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٥٧)

الشّائعات،ومحاولة الإيذاء...ويأمر الله نبيّه والمؤْمنين بالصّفْح والصّبْر والعفْو حتّى يفــرّج الله،ولا يصْبر على احْتمال ذلك إلاّ أولو العزْم الأقْوياء [٤٦٥٧].

وإذ كانت الحياة الدنيا إلى زوال،وكان متاعها لعبا ولهوا وغرورا،وإذ كان متّجه العقلاء فيها إلى دار خير منها،وإلى متاع أكرم وأهنأ من متاعها- وهى الدار الآخرة- إذ كــان ذلك كذلك،فإن للدار الآخرة عملا،وللجزاء الحسن فيها ثمنا..إنها ليست أمانىّ يتمنّاهــا النّاس،ولكنها جهد،وبلاء،ومعاناة،فإذا أرادها المريــدون وطلبــها الطــالبون،فليعملوا لها،وليؤدّوا الثمن المطلوب للحصول على نعيمها،ورضــوان الله فيهــا! وقــد أرادهــا المؤمنون،وطلبوا ما عند الله للمؤمنين فيها..وإذن فليعملوا لها،وليؤدّوا مطلوبها منهم! إنه ابتلاء فى الأموال والأنفس..الأموال،يبذلونها فى سبيل الله،والأنفس،يبيعونها ابتغاء مرضاة الله..

وإنه تعرّض للأذى فى المشاعر والعواطف،بسماع الكلمات المنافقة،والأكاذيب الملفقة،من الذين كفروا ونافقوا من أهل الكتاب،ومن الذين أشركوا وضلوا من قريش وأحلافها..

إنه أذى مادىّ فى الأموال وفى الأنفس،وأذى روحىّ فى الشعور والوجدان..أذى يشتمل على المؤمن كلّه،فى مادياته ومعنوياته جميعا.

ونعم..هو أذى بالغ،وألم شديد،وامتحان قاس مرير!

ولكنّ الجزء الحسن أعظم وأشمل،وإنه لأكثر قدرا،وأثقل وزنــا..فى جانــب الإحســان والرضوان..

والصبر والتقوى،هما الزاد العتيد الذي يتزود به المؤمنــون لاجتيــاز هــذا الامتحــان القاسي،واحتمال آلامه وشدائده..«وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»..فإن الأمر جدّ ليس بالهزل.[٤٦٥٨]

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة،ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله،وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلــة علــى

[٤٦٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٧٩، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٦٥٨] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٦٥)

كثير من الناس،كالجهاد في سبيل الله،والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح،وكالأمراض التي تصيبه في نفسه،أو فيمن يحب.

{ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم،ومن الذين أشركوا أذى كثيرا} من الطعن فيكم،وفي دينكم وكتابكم ورسولكم.

وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك،عدة فوائد:

منها:أن حكمته تعالى تقتضي ذلك،ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها:أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور،لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم،ويكفر من سيئاتهم،وليزداد بذلك إيمانهم،ويتم به إيقانهم،فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر {قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله،وصدق الله ورسوله،وما زادهم إلا إيمانا وتسليما}.

ومنها:أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك،والصبر عليه إذا وقع؛لأنهم قد استعدوا لوقوعه،فيهون عليهم حمله،وتخف عليهم مؤنته،ويلجأون إلى الصبر والتقوى،ولهذا قال:{وإن تصبروا وتتقوا} أي:إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم،من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين،وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه،ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال،بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

{فإن ذلك من عزم الأمور} أي:من الأمور التي يعزم عليها،وينافس فيها،ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى:{وما يلقاها إلا الذين صبروا،وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم}.[٤٦٥٩]

لَتُخْتَبَرُنَّ بِالْمَصَائِبِ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ،يَعْنِي:وَبِهَلَاكِ الْأَقْرِبَاءِ وَالْعَشَائِرِ مِنْ أَهْلِ نُصْرَتِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [آل عمران:١٨٦] يَعْنِي:مِنَ الْيَهُودِ وَقَوْلِهِمْ {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران:١٨١] وَقَوْلِهِمْ {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة:٦٤] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا} [البقرة:٩٦] يَعْنِي النَّصَارَى،{أَذًى كَثِيرًا} [آل عمران:١٨٦] وَالْأَذَى مِنَ الْيَهُودِ مَا

[٤٦٥٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٦٠)

ذَكَرْنَا،وَمِنَ النَّصَارَى قَوْلُهُمْ:الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ،وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ كُفْـرِهِمْ بِاللَّـهِ {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا} [آل عمران:١٢٠] يَقُولُ:وَإِنْ تَصْبِرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فِـيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَتَّقُوا،يَقُولُ:وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ،فَتَعْمَلُوا فِـي ذَلِـكَ بِطَاعَتِهِ.{فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران:١٨٦] يَقُولُ:فَإِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى مِمَّا عَزَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ.وَقِيلَ:إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي فِنْحَاصٍ الْيَهُودِيِّ سَـيِّدِ بَنِـي قَيْنُقَاعَ

قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ:{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا} [آل عمران:١٨٦] قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِـي النَّبِيِّ ﷺ،وَفِي أَبِي بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّـهِ عَلَيْـهِ،وَفِي فِنْحَـاصٍ الْيَهُـودِيِّ سَـيِّدِ بَنِـي قَيْنُقَاعٍ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى فِنْحَاصٍ يَسْتَمِدُّهُ،وَكَتَبَ إِلَيْـهِ بِكِتَابٍ،وَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ:«لَا تَفْتَاتَنَّ عَلَيَّ بِشَيْءٍ حَتَّى تَرْجِعَ» فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ مُتَوَشِّـحٌ بِالسَّيْفِ،فَأَعْطَاهُ الْكِتَابَ،فَلَمَّا قَرَأَهُ قَالَ:قَد احْتَاجَ رَبُّكُمْ أَنْ نُمِدَّهُ،فَهَمَّ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ،ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ:«لَا تَفْتَاتَنَّ عَلَيَّ بِشَيْءٍ حَتَّى تَرْجِعَ» فَكَفَّ؛وَنَزَلَتْ:{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَـرٌّ لَهُـمْ} [آل عمران:١٨٠] وَمَا بَيْنَ الْآيَتَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ:{لَتُبْلَـوُنَّ فِـي أَمْـوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ} [آل عمران:١٨٦] نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي قَيْنُقَاعٍ،إِلَى قَوْلِهِ:{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَـدْ كُـذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} [آل عمران:١٨٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:يُعَزِّي نَبِيَّهُ ﷺ،قَالَ:{لَتُبْلَـوُنَّ فِـي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} [آل عمران:١٨٦] قَالَ:أَعْلَمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ سَيَبْتَلِيهِمْ فَيَنْظُرُ كَيْفَ صَبْرُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ،ثُمَّ قَالَ:{وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ مِـنْ قَـبْلِكُمْ} [آل عمران:١٨٦] يَعْنِي:الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى،{وَمِـنَ الَّـذِينَ أَشْـرَكُوا أَذًى كَـثِيرًا} [آل عمران:١٨٦] فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْمَعُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَـوْلَهُمْ:عُزَيْـرٌ ابْـنُ اللَّـهِ،وَمِنَ النَّصَارَى:الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـهِ،فَكَانَ الْمُسْـلِمُونَ يَنْصِـبُونَ لَهُـمُ الْحَرْبَ،وَيَسْـمَعُونَ إِشْرَاكَهُمْ،فَقَالَ اللَّهُ:{وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران:١٨٦] يَقُولُ:«مِنَ الْقُوَّةِ مِمَّا عَزَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ» وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْـنِ

الْأَشْرَف،وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَتَشَبَّبُ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ،فعَنِ الزُّهْرِيِّ،فِي قَوْلِهِ:{وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا} [آل عمران:١٨٦] قَالَ:" هُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَف،وَكَانَ يُحَرِّضُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي شِعْرِهِ،وَيَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ،فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ خَمْسَةُ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ،وَرَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَبْسٍ،فَأَتَوْهُ وَهُوَ فِي مَجْلِسِ قَوْمِهِ بِالْعَوَالِي؛فَلَمَّا رَآهُمْ ذُعِرَ مِنْهُمْ،فَأَنْكَرَ شَأْنَهُمْ،وَقَالُوا:جِئْنَاكَ لِحَاجَةٍ،قَالَ:فَلْيَدْنُ إِلَيَّ بَعْضُكُمْ،فَلْيُحَدِّثْنِي بِحَاجَتِهِ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ:جِئْنَاكَ لِنَبِيعَكَ أَدْرَاعًا عِنْدَنَا لِنَسْتَنْفِقَ بِهَا،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ جُهِدْتُمْ مُنْذُ نَزَلَ بِكُمْ هَذَا الرَّجُلُ فَوَاعَدُوهُ أَنْ يَأْتُوهُ عِشَاءً حِينَ هَدَأَ عَنْهُمُ النَّاسُ،فَأَتَوْهُ،فَنَادَوْهُ،فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ:مَا طَرَقَكَ هَؤُلَاءِ سَاعَتَهُمْ هَذِهِ لِشَيْءٍ مِمَّا تُحِبُّ،قَالَ:إِنَّهُمْ حَدَّثُونِي بِحَدِيثِهِمْ وَشَأْنِهِمْ "

عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَكَلَّمَهُمْ،فَقَالَ:«أَتُرْهِنُونِي أَبْنَاءَكُمْ؟ وَأَرَادُوا أَنْ يَبِيعَهُمْ تَمْرًا» قَالَ:فَقَالُوا إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ تُعَيَّرَ أَبْنَاؤُنَا فَيُقَالَ هَذَا رَهِينَةُ وَسْقٍ،وَهَذَا رَهِينَةُ وَسْقَيْنِ،فَقَالَ:«أَتُرْهِنُونِي نِسَاءَكُمْ؟» قَالُوا:أَنْتَ أَجْمَلُ النَّاسِ،وَلَا نَأْمَنُكَ،وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَمْتَنِعُ مِنْكَ لِجَمَالِكَ؟ وَلَكِنَّا نُرْهِنُكَ سِلَاحَنَا،فَقَدْ عَلِمْتَ حَاجَتَنَا إِلَى السِّلَاحِ الْيَوْمَ،فَقَالَ:«ائْتُونِي بِسِلَاحِكُمْ،وَاحْتَمِلُوا مَا شِئْتُمْ» قَالُوا:فَانْزِلْ إِلَيْنَا نَأْخُذْ عَلَيْكَ،وَتَأْخُذْ عَلَيْنَا،فَذَهَبَ يَنْزِلُ،فَتَعَلَّقَتْ بِهِ امْرَأَتُهُ وَقَالَتْ:أَرْسِلْ إِلَى أَمْثَالِهِمْ مِنْ قَوْمِكَ يَكُونُوا مَعَكَ،قَالَ:«لَوْ وَجَدَنِي هَؤُلَاءِ نَائِمًا مَا أَيْقَظُونِي» قَالَتْ:فَكَلِّمْهُمْ مِنْ فَوْقِ الْبَيْتِ،فَأَبَى عَلَيْهَا،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ يَفُوحُ رِيحُهُ،قَالُوا:مَا هَذِهِ الرِّيحُ يَا فُلَانُ؟ قَالَ:«هَذَا عِطْرُ أُمِّ فُلَانٍ امْرَأَتِهِ» فَدَنَا إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ يَشُمُّ رَائِحَتَهُ،ثُمَّ اعْتَنَقَهُ،ثُمَّ قَالَ:اقْتُلُوا عَدُوَّ اللَّهِ،فَطَعَنَهُ أَبُو عَبْسٍ فِي خَاصِرَتِهِ،وَعَلَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِالسَّيْفِ،فَقَتَلُوهُ،ثُمَّ رَجَعُوا.فَأَصْبَحَتِ الْيَهُودُ مُذْعُورِينَ،فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالُوا:قُتِلَ سَيِّدُنَا غِيلَةً،فَذَكَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ صَنِيعَهُ،وَمَا كَانَ يَحُضُّ عَلَيْهِمْ،وَيُحَرِّضُ فِي قِتَالِهِمْ،وَيُؤْذِيهِمْ،ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ صُلْحًا،فَقَالَ:فَكَانَ ذَلِكَ الْكِتَابُ مَعَ عَلِيٍّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ"[٤٦٦٠]

[٤٦٦٠] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٢٩٠)

إنها سنة العقائد والدعوات.لا بد من بلاء،ولا بد من أذى في الأموال والأنفس،ولا بـــد من صبر ومقاومة واعتزام.إنه الطريق إلى الجنة.وقد حفت الجنة بالمكاره.بينما حفت النار بالشهوات.

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره،لإنشاء الجماعة التي تحمل هــذه الدعوة،وتنــهض بتكاليفها.طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال.وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة.ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا.فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصـــبر عليها..فهم عليها مؤتمنون.

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو،بقدر ما يصـــيبهم في ســـبيلها مـــن عنـــت وبلاء،وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال.فلا يفرطوا فيها بعد ذلك،مهما تكن الأحوال.

وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة.فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة،وتنميها وتجمعها وتوجهها.

والدعوة الجديدة في حاجة إلى استثارة هذه القوى،لتتأصل جذورها وتتعمـــق وتتصـــل بالتربة الخصبة الغنية في أعماق الفطرة..

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم وهم يزاولون الحياة والجهـــاد مزاولة عملية واقعية.ويعرفوا حقيقة النفس البشـــرية وخباياهـــا.وحقيقـــة الجماعـــات والمجتمعات.وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم،مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس.ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس،ومزالق الطريق،ومســـارب الضـــلال!

ثم..لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير،ولا بد فيها من سر،يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون..فعندئذ قد ينقلب المعارضون لهـــا إليها..أفواجا..في نهاية المطاف! إنها سنة الدعوات.وما يصبر على ما فيها مـــن مشـــقة ويحافظ في ثنايا الصراع المرير على تقوى الله،فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتـــداء ولا

ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد..ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء:

«وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»..وهكذا علمت الجماعة المسلمة في المدينة ما ينتظرها من تضحيات وآلام.وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال.من أهل الكتاب من حولها.ومن المشركين أعدائها..ولكنها سارت في الطريق.لم تتخاذل،ولم تتراجع،ولم تنكص على أعقابها..لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت.وأن توفية الأجور يوم القيامة.وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.وأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور..على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو..والأرض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان.والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان.وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها،تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال..والقرآن هو القرآن..

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة،ووسائل إيذائها في سمعتها وفي مقوّماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها..ولكن القاعدة واحدة:«لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً»! ولقد حفلت السورة بصور من مكايد أهل الكتاب والمشركين وصور من دعايتهم للبلبلة والتشكيك.

أحيانا في أصول الدعوة وحقيقتها،وأحيانا في أصحابها وقيادتها.وهذه الصور تتجدد مع الزمان.وتتنوع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة،وتوجه كلها إلى الإسلام في أصوله الاعتقادية،وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية.فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى،وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق،وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق..

ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيدا للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة،وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض فتجمعت عليها وسائل الكيد

والفتنة،ووسائل الدعاية الحديثة،لتشويه أهدافها،وتمزيق أوصالها..يبقى هذا التوجيه القرآني حاضرا يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة،وطبيعة طريقها.وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق.ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى،وحين تعوي حولها بالدعاية،وحين يصيبها الابتلاء والفتنة..أنها سائرة في الطريق،وأنها ترى معالم الطريق! ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذي..تستبشر بهذا كله،لأنها تستيقن منه أنها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها من قبل.وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق.ويبطل عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى وتمضي في طريقها الموعود،إلى الأمل المنشود..في صبر وفي تقوى..وفي عزم أكيد..[٤٦٦١]

الابتلاء لكشف حقيقة الصادق من المنافق:

وقال تعالى:{ أحسب النّاس أن يتْركوا أن يقولوا آمنّا وهمْ لا يفْتنون(٢)ولقدْ فتنّا الّذين من قبْلهمْ فليعْلمنّ اللّه الّذين صدقوا وليعْلمنّ الْكاذبين} (٣) سورة العنكبوت

هلْ ظنّ النّاس أنْ نتْركهمْ وشأْنهمْ بمجرّد نطْقهمْ بالشّهادتيْن،وقوْلهمْ آمنّا بالله ورسوله،دون أنْ يبْتليهم الله،ويخْتبر صدْق إيمانهمْ:بالهجْرة،والتّكاليف الدّينْية الأخرى،والجهاد،والمصائب؟ كلاّ،فإنّ الله سبْحانه وتعالى لا بدّ منْ أنْ يبْتلي عباده المؤْمنين،بحسب ما عنْدهمْ منْ إيمانٍ..

ولقد امتحن الله المؤمنين السّالفين،وعرّضهمْ للفتْنة والاخْتبار،وغايته سبحانه وتعالى منْ هذا الابتلاء والاخْتبار هي أنْ يمحّصهم فيعْلم الذين صدقوا في دعوى الإيمان،ممّنْ همْ كاذبون في دعواهم،وليجازي كلاّ بما يسْتحقّه [٤٦٦٢].

فى هذه الآيات التي بدئت بها السورة،تقرير لما ختمت به سورة «القصص» قبلها،وهو أن الإيمان بالله،ليس مجرّد كلمة ينطق بها اللسان،وإنما هو عقيدة تسكن القلب،وعمل

[٤٦٦١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٥٦)

[٤٦٦٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

تقوم به الجوارح،وجهاد شاق متصل..وبهذا يكون للإيمـان وزنـه واعتبـاره،ويكون للمؤمنين شأنهم ومقامهم..

فالمؤمنون،الذين لقيتهم هذه الآيات في أول الدعوة الإسلامية- كـانوا فى وجـه محنـة قاسية،حيث انخلعوا عن أهليهم،وانعزلوا عن مجتمعهم،وكانوا قلة قليلة في مواجهة عاصفة عاتية،تسوق إليهم البلاء بغير حسـاب،حتى هـاجروا مـن ديـارهم،وخرجوا مـن أموالهم..فلما اجتمع لهم في موطنهم الجديد،شيء من القوة،وأذن الله لهم في القتال- كان أول لقاء لهم،مع آبائهم،وأبنائهم،وإخوتهم،فعملت سيوفهم في رقـاب المشـركين مـن أهليهم وذوى رحمهم،فما نكل أحد منهم عن أن يضرب بسـيفه مـن كـان- قبـل الإسلام- يفديه بنفسه،ويلقى الموت دونه..وقد حدّث التاريخ أن أبا بكر لقى ابنـه فى معركة بدر،وقد عرفه ابنه و لم يعرفه..فلما كان بعد زمن،ودخل ابنـه فى الإسـلام،قال لأبيه:لقد عرضت لى يوم بدر،فأعرضت عنك،فقال لـه أبـو بكر،لـو عرضـت لى يومئذ،وأمكنني الله منك،لما رددت سيفى عنك!! ولا شك أن هذه كانت تجربة ثقيلـة على نفوس المؤمنين،وقد احتملوها صابرين،وكانت آيات الله تـتترل عليهم،فتبعـث في نفوسهم المضطربة،سكنا،وتسوق إلى قلوبهم الملتهبة،بردا وسلاما.

ونجد في قوله تعالى:«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» تصـحيحا لما يقع في بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استثقال لهذا العبء الذي حملوه من الإيمان بالله..كما نجد في الآية والآيات التي بعدها إجابات قاطعة على تلك التسـاؤلات الـتي كانت تتردد في الخواطر: لم يكون الإيمان هكذا غالى الثمن،باهظ التكاليف؟ و لم يحملنـا إيماننا بالله على هذا المركب الوعر؟ ألسنا على الهدى،وعلى الصراط المستقيم؟ وهل هذا الطريق هكذا وعر المسالك،مزدحم العقبات؟

ونعم..إن الإيمان هكذا غالى الثمن،باهظ التكاليف،وإن طريقه وعـر المسـالك جـمّ العقبات!! إنه الطريق إلى الجنة،وإن طريق الجنة محفوف بالمكاره! وإن هذا البلاء الـذي يلقاه المؤمن على طريق إيمانه،هو ابتلاء له،وتمحيص لما عنده من صبر ومصـابرة..وهـل يصفّى الذهب من الغثاء الذي علق به،إلا إذا صهر بالنار؟ «وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ حَتَّـى نَعْلَـمَ

الْمُجاهِدينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ»(٣١:محمد).«ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَميزَ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» (١٧٩:آل عمران).

وهل انكشف وجه النفاق،وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء،وفي مقام التضحية والبذل؟

إن الناس جميعا على سواء في حال الأمن والعافية..فإذا كانت المحن والشدائد،فهم أنماط وأشكال،وهم معادن مختلفة،بين غث وثمين! والاستفهام في الآية الكريمة،للإنكار،والنفي..أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرون،من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين..كلّا،إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا،وحتى يبتلوا..وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان..

قوله تعالى:«وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» هكذا حكم الله في عباده..فكما امتحن الله المؤمنين في الأمم السابقة،يمتحن سبحانه الذين أسلموا،بما يفتنهم،فى دينهم مما يلقاهم من شدائد ومحن..

فمن كان صادق الإيمان،سليم العقيدة،خالص النية،أمسك إيمانه في قلبه،وثبت عليه،ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه،وألقى به لأول مسة تمسه من بلاء،وباعه بأبخس ثمن!.

- وفي قوله تعالى:«فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» - بهذا الأمر المؤكد- إعلان للمؤمنين بأنهم في وجه ابتلاء،وفي مواجهة فتن،لا بد لهم منها..إن لم تكن واقعة بهم فعلا،فإنها ستقع حتما..هكذا يجب أن يتقرر في نفوسهم من أول الطريق..فمن شاء أن يكون في المؤمنين،فليوطن نفسه على هذا،وليستعد لحمل أفدح الضربات..وإلا فليأخذ طريقا غير هذا الطريق،وأمامه أكثر من طريق فسيح.!

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا في الإسلام،ورسخت أقدامهم فيه،هم- كما شهد التاريخ- أصفى الناس جوهرا،وأكرمهم معدنا..فقد كانوا خلاصة مجتمعهم،وثاقة عزم،وقوة يقين..فاحتملوا من الشدائد والمحن ما تتصدع به الجبال الراسيات..«فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا..وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» «١٤٦:آل

عمران» ومن أجل هذا،فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد الله أكرم شهادة،وجعل ميزان الواحد منهم يعدل عشرة من غير المؤمنين،فقال تعالى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» (٦٥:الأنفال)..

وأنت ترى أن الصفة التي فرق بها القرآن بين هؤلاء المؤمنين،والمشركين،هى «الفقه»..وهو ليس ذلك العلم النظري،وإنما هو الحق الذي يملأ القلوب نورا،فيكشف لصاحبه من آيات الله،ودلائل قدرته،وعلمه،وحكمته،ما يصغر به كل شيء،إزاء عظمة الخالق وجلاله..[٤٦٦٣]

يخبر تعالى عن [تمام] حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال " إنه مؤمن " وادعى لنفسه الإيمان،أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن،ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه،فإنهم لو كان الأمر كذلك،لم يتميز الصادق من الكاذب،والمحق من المبطل،ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة،أن يبتليهم بالسراء والضراء،والعسر واليسر،والمنشط والمكره،والغنى والفقر،وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان،ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن،التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة،والشهوات المعارضة للإرادة،فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل،ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب،أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله،يعمل بمقتضى الإيمان،ويجاهد شهوته،دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا،وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات،دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

[٤٦٦٣] - التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٤٠٠)

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله،فمستقل ومستكثر،فنسأل الله تعـالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة،وأن يثبت قلوبنا علـى دينـه،فالابتلاء والامتحان للنفوس بمترلة الكير،يخرج خبثها وطيبها.[٤٦٦٤]

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر،وجهد يحتاج إلى احتمال.فلا يكفي أن يقول الناس:آمنا.وهم لا يتركون لهـذه الدعوى،حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صـافية عناصـرهم خالصـة قلوبهم.كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به – وهذا هـو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه – وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت،وسنة جارية،في ميزان اللّه سبحانه:« وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ،فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ»..

واللّه يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع مـا هـو مكشوف لعلم اللّه،مغيب عن علم البشر فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم.وهو فضل من اللّـه مـن جانب،وعـدل مـن جانب،وتربية للناس من جانب،فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره،وبمـا حققـه فعله.فليسوا بأعلم من اللّه بحقيقة قلبه!.

ونعود إلى سنة اللّه في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين.

إن الإيمان أمانة اللّه في الأرض،لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة،وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص.وإلا الذين يؤثرونهـا علـى الراحـة والدعـة،وعلى الأمـن والسلامة،وعلى المتاع والإغراء.وإنها لأمانة الخلافة في الأرض،وقيادة الناس إلى طريـق اللّه،وتحقيق كلمته في عالم الحياة.فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة،وهي من أمـر اللّـه يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء.

[٤٦٦٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٢٦)

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثم لا يجد النصير الـذي يسـانده ويدفع عنه،ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان.وهذه هي الصورة البارزة للفتنة،المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة.ولكنها ليست أعنف صور الفتنة.فهناك فتن كثيرة في صور شتى،ربما كانت أمر وأدهى.

هناك فتنة الأهل والأحياء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسـببه،وهو لا يملـك عنهم دفعا.وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم وينادونه باسم الحب والقرابة،واتقاء اللّه في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك.وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير.

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين،ورؤية الناس لهم نـاجحين مرموقين،تهتـف لهـم الدنيا،وتصفق لهم الجماهير،وتتحطم في طريقهم العوائق،وتصاغ لهم الأمجاد،وتصفو لهـم الحياة.وهو مهمل منكر لا يحس به أحد،ولا يحامي عنه أحد،ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئا.

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة،حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حولـه وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة وهو وحده موحش عريب طريد.

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام.فتنة أن يجد المـؤمن أممـا ودولا غارقة في الرذيلة،وهي مع ذلك راقية في مجتمعها،متحضرة في حياتها،يجد الفرد فيها مـن الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان.

ويجدها غنية قوية،وهي مشاقة للّه! وهنا لك الفتنة الكبرى.أكبر من هذا كله وأعنف.فتنة النفس والشهوة.وجاذبية الأرض،وثقلة اللحم والدم،والرغبة في المتاع والسـلطان،أو في الدعة والاطمئنان.وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء علـى مرتقـاه،مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس،وفي ملابسات الحياة،وفي منطق البيئة،وفي تصورات أهل الزمان! فإذا طال الأمد،وابطا نصر اللّه،كانت الفتنة أشد وأقسى.وكـان الابـتلاء أشد وأعنف.ولم يثبت إلا من عصم اللّه.وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقـة الإيمان،ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى،أمانة السماء في الأرض،وأمانة اللّه في ضـمير

الإنسان.وما باللّه – حاشا للّه – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء،وأن يؤذيهم بالفتنة.ولكنـــه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.

فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العمليـــة للمشـــاق وإلا بالاســـتعلاء الحقيقي على الشهوات،وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام،وإلا بالثقة الحقيقية في نصر اللّه أو في ثوابه،على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث،وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع.وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل.وكذلك تفعل الشـــدائد بالجماعات،فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة،وأشدها اتصالا باللّه،وثقـــة فيما عنده من الحسنيين:النصر أو الأجر،وهـــؤلاء هـــم الـــذين يســـلّمون الرايـــة في النهاية.مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن وبما بذلوا لها من الصبر على المحن وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات.والذي يبذل مـــن دمـــه وأعصابه،ومن راحته واطمئنانه،ومن رغائبه ولذاته.ثم يصبر على الأذى والحرمان يشـــعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل فلا يسلمها رخيصـــة بعـــد كـــل هـــذه التضحيات والآلام.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد اللّه.وما يشك مـــؤمن في وعـــد اللّه.فإن أبطأ فلحكمة مقدرة،فيها الخير للإيمان وأهله.وليس أحد بأغير على الحق وأهله من اللّه.وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة،ويقع عليهم البلاء،أن يكونوا هم المختارين من اللّه،ليكونوا أمناء على حق اللّه.وأن يشهد اللّه لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء:

جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ،عَنْ عَمَّتِه فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَـــتْ:أَتَيْنَـــا رَسُولَ اللهِ ﷺنَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ،فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ

حَرِّ الْحُمَّى،قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ،فَقَالَ:رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءَ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.[٤٦٦٥]..

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ،عَنْ عَمَّتِهِ،قَالَتْ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي نِسْوَةٍ وَقَدْ مَرَّ بِنِسَاءٍ،وَقَدْ عَلَّقَ فِي شَجَرَةٍ وَاضَّجَعَ تَحْتَهُ يَلْتَمِسُ بُرْدَهُ،وَهُوَ يَقْطُرُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،لَوْ دَعَوْتَ اللهَ فَكَشَفَ عَنْكَ ؟ فَقَالَ:إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.[٤٦٦٦]

وأما الذين يفتنون المؤمنين،ويعملون السيئات،فما هم بمفلتين من عذاب اللّه ولا ناجين.مهما انتفخ باطلهم وانتفش،وبدا عليه الانتصار والفلاح.وعد اللّه كذلك وسنته في نهاية المطاف:«أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ!»..فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق،ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه،وفسد تقديره،واختل تصوره.

فإن اللّه الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد.

وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة،الذي يوازن الإيقاع الأول ويعادله.فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف،فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء[٤٦٦٧] .

لا بد من مس القرح:

وقال تعالى:{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (١٤٠) سورة آل عمران

[٤٦٦٥] -مسند أحمد (عالم الكتب) [٨ /٧٤٣](٢٧٠٧٩) ٢٧٦١٩ صحيح

[٤٦٦٦] -اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة [٤ /١٢٨][٣٨٢٧] صحيح

[٤٦٦٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٤٧٠)

إنْ كنْتمْ قدْ أصابتْكمْ جراحٌ،وقتل منْكمْ رجالٌ يوْم أحدٍ،فقدْ أصاب أعْداءكمْ قريبٌ ممّا أصابكمْ،فلا ينْبغي لكمْ أنْ تقْعدوا وتتقاعسوا عن الجهاد بسبب ما أصابكمْ،فالمشْركون قدْ سبق أنْ أصابهمْ يوْم بدْرٍ مثْل ما أصابكمْ أنْتمْ في أحدٍ،فلمْ يتقاعسوا،ولمْ يقْعدوا عن الإعْداد للْحرْب ومباشرتها،وهمْ على باطلهمْ،فكيْف تتردّدون وأنْتمْ على حقٍّ،والله وعدكمْ نصْره،وجعل العاقبة لكمْ؟ ومنْ سنن الله تعالى مداولة الأيّام بيْن النّاس،فمرّةً تكون الغلبة للْباطل على الحقّ،إذا أعدّ له أهْله واحْتاطوا،وتراخى أهْل الحقّ،ومرّةً تكون الغلبة للْحقّ على الباطل.ولكنّ العاقبة تكون دائماً للْحقّ وأهْله.والله تعالى يبْتلي المؤْمنين ليعْلم الصّابرين الصّادقين منْهمْ،وليتّخذ من المؤمنين رجالاً يكْرمهمْ بالشّهادة.[٤٦٦٨]

هو عزاء آخر للمؤمنين لما أصيبوا به فى أنفسهم،ولما أصيبوا به فى أهليهم..وأنهم إن يكونوا قد أصيبوا اليوم بما يؤلم ويوجع،فقد أصابوا هم أعداءهم بما يؤلم ويوجع! ثم ليعلم المؤمنون من هذا أن طريقهم فى مسيرتهم مع الإسلام ليست كلها يوما واحدا كيوم بدر،بل إنهم سيغلبون ويغلبون،ويقتلون ويقتلون،ويصيبون ويصابون..وهكذا الدنيا..وتلك سنّة الحياة فيها..لا تدوم على وجه واحد،بل هى وجوه متقلبة متغيرة! تقبل وتدبر،وتضحك وتبكى..

وذلك هو الذي يعطى الحياة حيوية،وهو الذي يغرى الناس بالسعي والعمل،لينتقلوا من حال إلى حال،ومن وضع إلى وضع..ولو أخذ الناس بوضع ثابت مستقر- ولو كان ذلك فى أحسن حال،وأمكن وضع- لماتت فى أنفسهم نوازع التطلعات إلى المستقبل،ولخمدت فيهم جذوة الحماس للكفاح والنضال.

وقوله تعالى:«وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» بيان لحكمة الله من هذا الابتلاء..ففى هذا الابتلاء،وتحت وطأة القتال،ينكشف إيمان المؤمنين،ويعرف ما عندهم من صدق وبلاء..فيكتب لهم ما كان فى علم الله،وما وقع منهم،وهو أنهم مؤمنون مجاهدون! وفى قوله تعالى:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» إشارة إلى أن جماعة المؤمنين الذين كانوا مع النبيّ فى أحد- كانوا جميعا على درجة عالية من الإيمان،وأنّ أنزلهم درجة فى

[٤٦٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٣، بترقيم الشاملة آليا)

هذا الإيمان كان مؤهلا لأن يكون فى عداد الشهداء،ولهذا جاء قوله تعالى:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» خطابا لهم جميعا،وكان نسق النظم أن يجىء هكذا:«وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ»،ولكنّ هذا يعزل بعض المجاهدين عن أن يكونوا فى المؤمنين،الصالحين لأن يتخذ الله منهم شهداء..

وفى قوله تعالى:«وَيَتَّخِذَ» إشارة كريمة إلى هذا المقام الكريم الذي يرتفع إليه الشهداء،وأنهم خيار المؤمنين،والمصطفين منهم،ولهذا اتخذهم الله شهداء..إذ الاتخاذ أخذ عن اختبار واختيار..وفى قوله تعالى:«وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» تحريض للمسلمين على قتال المشركين،واحتمال المكروه فى سبيل إضعافهم أو القضاء عليهم،لأنهم ظالمون لأنفسهم،بصرفها عن الهدى إلى الضلال،وظالمون للإنسانية إذ هم قوى شريرة عاملة على طمس معالم الهدى وصدّ الناس عن الخير..«وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» ومن لا يحبّه الله فهو عدو لله،يجب على أولياء الله أن يعادوه،ويخلّصوه من الذي فى يديه،يرمى به نفسه،ويصيب به الناس.

وقوله تعالى:«وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ» أي من تمام حكمة هذا الابتلاء فيما بين المؤمنين والكافرين أن يمحّص الله المؤمنين بهذا الابتلاء،وينقيهم من دخائل الضعف والوهن،بملاقاة الشدائد والصبر عليها،كما أن فى هذا الابتلاء إضعافا لشوكة الكافرين وتوهينا لقوى البغي والعدوان،المتربصة بالإيمان وبالمؤمنين.[٤٦٦٩]

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر،والبر والفاجر،فيداول الله الأيام بين الناس،يوم لهذه الطائفة،ويوم للطائفة الأخرى؛لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية،وهذا بخلاف الدار الآخرة،فإنها خالصة للذين آمنوا.{وليعلم الله الذين آمنوا} هذا أيضا من الحكم أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء،ليتبين المؤمن من المنافق؛لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده،فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء،تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام،في الضراء والسراء،واليسر والعسر،ممن ليس كذلك.{ويتخذ منكم شهداء} وهذا أيضا من بعض

[٤٦٦٩] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٠٢)

الحكم،لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل،ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها،فهذا من رحمته بعباده المؤمنين،أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس،لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم،{والله لا يحب الظالمين} الذين ظلموا أنفسهم،وتقاعدوا عن القتال في سبيله،وكأن في هذا تعريضا بذم المنافقين،وأنهم مبغضون لله،ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله.[٤٦٧٠]

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة،وأصابهم القتل والهزيمة.أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير.قتل منهم سبعون صحابيا،وكسرت رباعية الرسول - ﷺ- وشج وجهه،وأرهقه المشركون،وأثخن أصحابه بالجراح..وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس،وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر،حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم:«أَنَّى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟! والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن اللّه في الأرض.يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور.فهم ليسوا بدعا في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف،والأمور لا تمضي جزافا،إنما هي تتبع هذه النواميس،فإذا هم درسوها،وأدركوا مغازيها،تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث،وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع،واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث،وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام.واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق.ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين،لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر،وفي أولها طاعة اللّه وطاعة الرسول.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا،ويوجه أبصارهم إليها هي:عاقبة المكذبين على مدار التاريخ.ومداولة الأيام بين الناس.والابتلاء لتمحيص السرائر،وامتحان قوة الصبر على الشدائد،واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين.

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال،والمواساة في الشدة،والتأسية على القرح،الذي لم يصبهم وحدهم،إنما أصاب أعدائهم كذلك،وهم

[٤٦٧٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٠)

أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفا،وأهدى منهم طريقا ومنهجا،والعاقبة بعد لهم،والـــدائرة على الكافرين.

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ،فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ،فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها،وحاضرها بماضيها،فيشير من خلال ذلك كلـــه إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم،ولم تكن معـــارفهم،ولم تكن تجاربهم – قبل الإسلام – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة.لولا هذا الإسلام – وكتابه القرآن – الذي أنشأهم به اللّه نشأة أخرى،وخلق به منهم أمة تقود الدنيا..

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله،ما كان ليقود تفكيرهم إلى الـــربط بـــين سكان الجزيرة وما جريات حياتهم فضلا علـــى الـــربط بـــين ســـكان هـــذه الأرض وأحداثها،فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا..وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة،ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمـــان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة.بل حملتهم إليها! وارتقت بهم إلى مستواها،في ربع قرن من الزمان.على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنـــواميس الكونيـــة،إلا بعـــد أجيـــال وأجيال..فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقـــة المشـــيئة الإلهية،وأنه إلى اللّه تصير الأمور..فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله،واتســـع له تصورها،ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة،فاستقامت حياتهـــا على التعامل مع سنن اللّه الثابتة والاطمئنان – بعد هذا – إلى مشيئته الطليقة! «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ»..

وهي هي التي تحكم الحياة.وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة.فما وقع منـــها في غـــير زمانكم فسيقع مثله – بمشيئة اللّه – في زمانكم،وما انطبق منها على مثل حالكم فهـــو كذلك سينطبق على حالكم.

«فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ»..فالأرض كلها وحدة.والأرض كلها مسرح للحياة البشرية.والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.

«فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»..وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض،وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك..ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة.بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه.

وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل..وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة:

إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا.ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة.وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى.وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير.وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير.

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان:«هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»..

هذا بيان للناس كافة.فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي.ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى،وتجد فيه الموعظة،وتنتفع به وتصل على هداه..طائفة «المتقين»..

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى.والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها..والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل،وبالهدى والضلال..إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل.إنما تنقص الناس الرغبة في الحق،والقدرة على اختيار طريقه..والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان،ولا يحفظهما إلا التقوى..ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات.تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق،ومن هدى،ومن نور،ومن موعظة،ومن عبرة..إنما هي للمؤمنين وللمتقين.فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة.وهما اللذان يزينان للقلب اختيار

الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة..واحتمال مشـقات الطريـق..وهـذا هـو الأمر،وهذا هو لب المسألة..لا مجرد العلم والمعرفة..فكم ممن يعلمون ويعرفـون،وهم في حمأة الباطل يتمرغون.إما خضوعا لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة،وإما خوفا مـن أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة!

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت:«وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ.إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»..لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون..عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون للّه وحده،وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى.فأنتم تسـيرون علـى منهج من صنع اللّه،وهم يسيرون على منهج من صنع خلق اللّه! ودوركم أعلى.فـأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها،الهداة لهـذه البشـرية كلـها،وهم شـاردون عـن النهج،ضالون عن الطريق.ومكانكم في الأرض أعلى،فلكم وراثة الأرض التي وعـدكم اللّه بها،وهم إلى الفناء والنسيان صائرون..فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون.وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا.فإنما هي سنة اللّه أن تصابوا وتصـيبوا،على أن تكـون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص:«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَـرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا،وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ.وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ»..

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله،قد يكـون إشـارة إلى غـزوة بدر.وقد مس القرح فيها المشركون وسلم المسلمون.وقد يكـون إشـارة إلى غـزوة أحد.وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر.حـتى هـزم المشـركون وقتـل منـهم سبعون،وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد.حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها..ثم كانت الدولة للمشركين،حينما خرج الرماة على أمر رسول اللّه – ﷺ – واختلفوا فيما بينهم.فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة.جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج،وتحقيقـا لسنة من سنن اللّه التي لا تتخلف،إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمـع

في الغنيمة.واللّه قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله،لا ينظـــرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد.وتحقيقا كذلك لسنة أخـــرى مـــن ســـنن اللّـــه في الأرض،وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكـــون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما.ومن ثم يتبين المؤمنون ويتـــبين المنـــافقون.كمـــا تتكشـــف الأخطاء.وينجلي الغبش.«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.وَتِلْـــكَ الْأَيَّـــامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ.وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»..

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها باللّه أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر اللّه أو البرم به والجموح! عندئذ يتميـــز الصـــف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيـــا الناس دخائل نفوسهم.ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلـــة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! واللّـــه ســـبحانه يعلـــم المـــؤمنين والمنافقين.واللّه سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور.ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حياة الناس،وتحول الإيمان إلى عمل ظـــاهر،وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجـــزاء.فاللّـــه ســـبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم.والرخاء في هـــذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل.والنفس المؤمنـــة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى اللّه في الحالين،وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن اللّه.

وقد كان اللّه يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابـــتلاء بالنصـــر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن اللّه الجارية في النصـــر

والهزيمة.لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة.ولتزيد طاعة للّه،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه.ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.[٤٦٧١]

لا بد من الألم:

قال تعالى:{ ولا تهنواْ في ابْتغاء الْقوْم إن تكونواْ تأْلمون فإنّهمْ يأْلمون كما تأْلمون وترْجون من اللّه ما لا يرْجون وكان اللّه عليمًا حكيمًا} (١٠٤) سورة النساء

يأْمر الله تعالى المؤْمنين بالجدّ في قتال الأعْداء،وفي طلبهمْ وينبّههمْ إلى أنّهمْ إنْ كانتْ تصيبهمْ جراحٌ،ويأْلمون منْها،فإنّ أعْداءهمْ تصيبهمْ أيْضاً جراحٌ،ويأْلمون منْها.والفارق الوحيد بيْن المؤْمن والكافر أنّ المؤْمن ينْتظر من الله المثوبة والأجْر،والنّصْر والتّأييد،وإعْلاء كلمة الله،التي وعده الله بها على لسان نبيّه،في كتابه العزيز،والكافر لا ينْتظر شيْئاً منْ ذلك،والله أعْلم وأحْكم فيما يفْرضه ويقدّره.[٤٦٧٢]

وحيث لا يزال المؤمنون هنا فى مواقع الجهاد،فقد جاء قول الله تعالى:«وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ» دعوة من الله،تستحثّ عزائم المسلمين،وتوقظ مشاعرهم للجهاد فى سبيل الله،بعد أن طال وقوفهم فى هذا المقام،وما واجهوا فيه من شدائد وأهوال..وابتغاء القوم:هو طلبهم،ولقاؤهم فى ميدان القتال..والوهن الضعف،أي ولا تضعفوا ولا تفتروا فى طلب العدو الذي يطلبكم للقتال.ونعم..إن أعباء الجهاد ثقيلة،ولكنها على نفس المؤمن أخفّ وأهون مما هى على غير المؤمنين..

فالكافرون يجدون من أهوال الحرب،وشدائدها ما يجد المؤمنون،ولكن المؤمنين يستعذبون هذا المورد،الذي يفتح لهم طريق الرحمة،ويترلهم عند الله منازل الرضوان..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ».

[٤٦٧١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٧٩)

[٤٦٧٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

فالمؤمنون فى قتالهم العدو يقاتلون وهم على شعور بأنهم إن كتب لهم النصر رجعوا بالسلامة والغنيمة،وإن كتب لهم الاستشهاد ظفروا بما عند الله للشهداء من رضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم..إنها إحدى الحسنيين للمجاهدين:النصر أو الاستشهاد..وليس للعدو إلّا واحدة منهما..وهى النصر،أو الموت على الكفر! وقد يقال:إن الكافرين يقاتلون ومعهم هذا الشعور بأنهم على الحقّ،وأنهم إنما ينتصرون لمبدأ،وأنهم إذا فاتهم النصر لم يفتهم الموت فى سبيل المبدأ! والجواب على هذا،هو أن الخطاب هنا للمسلمين،وأنهم على يقين من أمرهم وأمر عدوّهم،وأنه يكفى هنا أن يدرك المؤمنون هذه الحقيقة وأن يستحضروها،وأن يقاتلوا عدوّهم عليها،ولا عليهم ما يعتقده عدوهم فيهم أو فى نفسه! وإن أي حال يكون عليها العدوّ لن تبلغ الحال التي يكونون هم عليها،من وثاقة الإيمان بالله،والثقة فيما عنده لهم عن حسن الجزاء،وعظيم الثواب![٤٦٧٣]

لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار،أي:في جهادهم والمرابطة على ذلك،فإن وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن،وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء.بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين،فذكر شيئين:

الأول:أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم،فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم،وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك،لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام،لا من يدال مرة،ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني:أنكم ترجون من الله ما لا يرجون،فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه،بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله،وإقامة شرعه،واتساع دائرة الإسلام،وهداية الضالين،وقمع أعداء الدين،فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة،وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه

[٤٦٧٣] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٨٦)

الدنيوي إن ناله،ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية،والفوز برضـوان الله وجنته،فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته،ولهذا قال:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} كامل العلم كامل الحكمة.[٤٦٧٤]

إنهن كلمات معدودات.يضعن الخطوط الحاسمة،ويكشفن عن الشقة البعيدة،بين جبـهتي الصراع..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة..ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه..إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء..ولكن شتان بين هـؤلاء وهـؤلاء..إن المؤمنين يتوجهون إلى اللّه بجهادهم،ويرتقبون عنده جزاءهم..فأما الكفار فهم ضـائعون مضيعون،لا يتجهون للّه،ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة..

فإذا أصر الكفار على المعركة،فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا،وإذا احتمل الكفار آلامها،فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام.وما أجدرهم كـذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال،وتعقب آثارهم،حتى لا تبقى لهم قـوة،وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه.

وإن هذا لهو فضل العقيدة في اللّه في كل كفاح.فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشـقة على الطاقة،ويربو الألم على الاحتمال.ويحتاج القلب البشـري إلى مـدد فـائض وإلى زاد.هنالك يأتي المدد من هذا المعين،ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة.معركة يألم فيهـا المتقـاتلون مـن الفريقين.لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة..ولكـن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبدا،حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله.من تناقضـه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض.ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

[٤٦٧٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٩)

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار.وأن تعلم أنها إن كانت تألم،فإن عدوها كذلك يألم.

والألم أنواع.والقرح ألوان..«وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ»..وهذا هو العزاء العميق.وهذا هو مفرق الطريق..«وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»..يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب.ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح..[٤٦٧٥]

ليست العبرة بالكثرة:

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ

[٤٦٧٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١١١٢)

اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) } [البقرة]

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ إنَّ بني إسرائيلَ كَانَوا فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقيم،وَلَبِثُوا عَلَى ذَلكَ مُدَّةً منَ الزَّمَن.ثُمَّ تَضَعضَعَ أَمْرُهُمْ،وَعَبَدَ بَعْضُهُمُ الأوْثَانَ،وَضَاعَ الْمُلْكُ مِنْهُمْ.وَتَسَلَّطَ عَلَيهِمْ أَعَداؤُهُمْ،فَأَخْرَجُوهُمْ منْ ديَارِهِمْ بالقَهْرِ،فَأَرْسَلَ اللهُ إلَيْهِمْ نَبيّاً،وَأَمَرَهُ بدعْوَتهمْ إلى الله،وَإلى عبَادة رَبِّهِمْ وَتَوْحيده.فَدَعَاهُمُ النَّبيُّ،فَطَلَبُوا منْهُ أنْ يُقيمَ لَهُمْ مَلكاً يُقَاتلُونَ مَعَهُ أَعْدَاءَهُمْ.فَقَالَ لَهُمْ نَبيُّهُمْ:لَعَلَّكَمْ إنْ أقَامَ اللهُ لكُمْ مَلكاً ألاَّ تُقَاتلُوا في سَبيلِ الله،وَألاَّ تُوفُوا بمَا التَزَمْتُمْ به منَ القتَال مَعَهُ.فَقَالُوا:كيْفَ لا نُقَاتلُ في سَبيلِ الله وَقَدْ ضَاعَتْ بلادُنَا،وَسُبيَتْ ذَرارينا؟ فَلَمّا كُتبَ عَلَيهمُ القتَالُ لَمْ يُوفُوا بمَا وَعَدُوا،وَنَكَلُوا عَنِ الجهَادِ وَاللهُ عَليمٌ بالظَّالمينَ النَّاكلينَ عَن الجهَاد دفَاعاً عَنْ دينهمْ وَأَرْضهمْ وَأُمَّتهمْ.

كَانَ مُلْكُ بَني إسْرَائيلَ في سبْط يَهُوذا وَلَمَّا قَالَ لَهُم النَّبيُّ إنّ المَلكَ سَيَكُونُ طَالُوتَ،وَلَمْ يَكُنْ منْ بَيْت يَهُوذا،احْتَجُّوا عَلَى ذَلكَ،وَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَينا وَهُوَ لَيْسَ منْ بَيْت المَلك،وَلَيْسَ منَ الأغْنياء الذينَ يَسْتَطيعُونَ تَحَمُّلَ نَفقَات المُلْك؟ فَقَالَ لَهُمْ النَّبيُّ:إنَ اللهَ اصْطَفَاهُ وَاختَارَهُ عَلَيْكُمْ،وَاللهُ أَعْلَمُ منْكُمْ بـه،وَزَادَهُ علْماً وَقُوَّةً في بَدَنه،وَجَعَلَهُ أصْبَرَ منْكُمْ عَلَى الحُرُوب،وَاللهُ هُوَ الحَاكمُ الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ،وَلا يُسْأل عَمَّا يَفْعَلُ،وَهُوَ وَاسعُ العلْمِ وَالفُضْلِ،يَختَصُّ برَحْمَته مَنْ يَشَاءُ،وَهُوَ عَليمٌ بمنْ يَسْتَحقُّ المُلْكَ ممَّنْ لاَ يَسْتَحقُّهُ.

كَانَ عنْدَ بَني إسْرَائيلَ التَّوْرَاةُ وَتَابُوتُ العَهْد الذي كَانَ عنْدَهُمْ مُنْذُ مَطْلَعِ تَاريخهمْ،وَكَانَ يَرثُهُ خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفهمْ،وَكَانُوا يَتَبَرَّكُونَ به في حُرُوبهمْ.وَلَمَّا ضَلُّوا وَبَغَوْا سَلَّط اللهُ عَلَيْهمْ مَنْ سَلَبَهُمْ إيَّاهُ (وَهُمُ العَمَاليقُ الفلَسْطينيُّونَ)،وَقَدْ حَارَبُوا اليَهُودَ وَانْتَصَرُوا عَلَيهمْ،فَأَخَذُوا التَّابُوت وَنَكَّلُوا بهمْ تَنْكيلا شَديداً،فَقَالَ لَهُمْ نَبيُّهُمْ إنَّ عَلامَةَ رضَا الله عَلَى مُلْك طَالُوتَ هُوَ أنْ يَرُدَّ عليكُمُ التَّابُوتَ فَيُورثكُم رَدُّهُ عَلَيكُم السَّكينَة والطُّمَأنينَةَ.وَفي التَّابُوتَ التَّوراةُ وَبَقيَّةُ ممَّا تَرَكَ مُوسَى وَهَارُونُ وَمنْهَا بَقَايَا الأَلْوَاحِ.فَجَاءَتِ المَلاَئكَةُ تَحْملُ التَّابُوتَ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَي طَالُوتَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ.وَفي

ذَلكَ آيةٌ لبني إسْرَائيلَ عَلَى صدْق نُبُوَّة نَبيِّهمْ،وَعَلَى صدْقه فيمَا أمَرَهُمْ بــه رَبُّهُــمْ مِــنْ وُجُوب إطَاعَة طَالُوتَ،هَذا إنْ كَانُوا يُؤْمنُونَ بالله وَاليوم الآخر.

وَلَمَّا خَرَجَ طَالُوتُ بجَيْشه منَ البَلَــد مُتَّجهــاً إلى حَــرْب الأَعْــدَاء،وَكَانَ الوَقْــتُ قَائضاً،سَأَلَ بَنُو إسْرائيلَ طَالُوتَ المَاءَ،فَقَالَ لَهُمْ إنَّ اللهَ مُخْتَبرُكُمْ بنَهْرٍ سَتَمُرُّونَ به (وَهُــوَ نَهْرُ الأُرْدُنِّ عَلَى قَوْل) فَمَنْ شَــربَ منْــهُ فَــلا يُصَــاحبْني،وَمَنْ لَــمْ يَشْــرَبْ منْــهُ فَلْيُصَاحبْني،وَلَكنْ لاَ بَأسَ في أنْ يَغْترفَ الوَاحدُ غُرْفَةً بَيَديــه يَبُــلُّ بهَــا ريقَــهُ،فَتَمَرَّدَ أكْثَرُهُمْ،وَشَربُوا منَ النَّهْر،وَبَقيَ طَالُوتُ في فئة قَليلَة منْ جُنُوده،فَاجْتَازَ بهم النَّهْرَ،فَلَمَــا نَظَرَ أصْحَابُ طَالُوتَ إلى قلَّة عَدَدهمْ،وَكَثْرَة عَدُوِّهمْ،قَالُوا:إنَّهُمْ لا يَسْتَطيعُونَ مُحَارَبَــةَ جَالُوتَ وَجُنُوده لقلَّة عَدَدهمْ،فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤهُمْ،وَقَالُوا لَهُمْ:إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ،وَإنَّ النَّصْرَ منْ عنْد الله،وَلَيْسَ بكَثْرَة العَدَد وَالعُدَّة،وكثيراً مَا غَلَبَتْ قُوَّةٌ صَغيرةٌ مُؤْمنَةٌ مُخْلصَةٌ فــي قتَالهَا،فئَةً كَثيرَةَ العَدَد بإذْن الله،وَاللهُ يُؤَيِّدُ الصَّابرينَ وَيَنْصُرُهُمْ.

وَلَمّا تَقَدَّمَ المُؤْمنُون المُتَوَكِّلُونَ عَلَى الله مَعَ طَالُوتَ لقتَال جَــالُوتَ وَجُنُوده،دَعَــوا اللهَ وَرَجَوْهُ أنْ يُنْزلَ عَلَيهم الصَّبْرَ عَلَى الشِّدَّة،وَأنْ يُثَبِّتَ أقْدَامَهُم عنْدَ لقَــاء أَعْــدَائهمْ،وَأنْ يُجَنِّبَهُمُ العَجْزَ وَالفرَارَ،وَأنْ يَمُنَّ عَلَيهمْ بالنَّصْر عَلَى القَوْم الكَافرينَ.

فَهَزَمَ المُؤْمنُونَ الذينَ كَانُوا مَعَ طَالُوتَ أعْدَاءَهُمُ الكَافرينَ بإذْن الله،وَقَتَــلَ دَاوُدُ (مِــنْ جَيْش طَالُوتَ) جَالُوتَ مَلكَ الكُفَّار،وَمَنَّ اللهُ عَلَى دَاوُدَ بأنْ آتَاهُ المُلْكَ الذي كَانَ بيَــد طَالُوتَ،وَالنُّبُوَّةَ (الحكْمَةَ)،وَعَلَّمَهُ اللهُ منَ العلْم الذي اخْتَصَّهُ به،وَلَوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَــأسَ أهْل البَغْي وَالجَوْر وَالآثَام،بأهْل الصَّــلاَح وَالخَيْر،لغَلَــبَ أَهْــلَ الفَسَــاد،وَبَغَوْا عَلَــى الصَّالحينَ،وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَت الأرْضُ،فَكَانَ منْ رَحْمَة الله أنْ أذنَ للْمُصْــلحينَ بقتَال البُغَاة المُفْسدينَ.وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عبَاده وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ،وَلَهُ الحكْمَةُ وَالحُجَّــةُ عَلَى خَلْقه في جَميع أقْوَاله وَأفْعَاله.

وَهَذه القَصَصُ التي قَصَّهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبيِّه ﷺ إنَّما قَصَّها بالحَقِّ (أيْ بالوَاقع الــذي كَانَ الأمرُ عَلَيه،وَهُوَ مُطَابقٌ لمَا بَيْنَ يَدَي أهْل الكتَاب منَ الحَقِّ) لتَكُونَ للنَّبيِّ ﷺ أُسْوَةٌ

يَتأسَّى بها،وَلِتَكُونَ دَليلاً عَلَى صِدْقِ نُبُوَّته،وَلِيَعْلَمَ أنَّ الله سَيَنْصُرُهُ كَمَا نَصَرَ مَنْ جَاءَ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ،وَلِيعَلْمَ أنَّهُ مِنَ المُرْسَلِينَ الذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِه.[٤٦٧٦]

مثل آخر من بنى إسرائيل تعرضه الآية الكريمة لأنظار المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربنا الله..وفى هذا المثل يرى المسلمون صورة كريهة للمهانة والذلة تركب القوم،فإذا هم جبناء أذلّاء،لا يدفعون عن حرماتهم،ولا يردّون يد العدوّ المتسلط عليهم! إن هؤلاء الملأ من بنى إسرائيل- وهم سادة القوم وأشرافهم- هم أبناء أولئك الذين أماتهم الله ثم أحياهم،بأن أدخلهم الأرض المقدسة،وجعل لهم مقاما فيها،فلما ركبهم البغي والعدوان سلط الله عليهم من بدّد شملهم،وخرب ديارهم وأزال ملكهم،ونبذهم بالعراء فى تيه أشبه بالتيه الذي عاش فيه سلفهم..وإذ دبّ فى القوم دبيب الحياة،وتحركت فيهم أثارة من نخوة ورجولة قالوا لنبيهم:اختر لنا ملكا نجتمع إليه،ونقاتل تحت رايته،لنستعيد ملكنا،ونجتمع إلى ديارنا! ونبيهم يعلم من أمرهم ما لا يعلمون،ويرى من أنفسهم ما لا يرون..إنهم أكثر الناس أقوالا وأقلّهم أفعالا..يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم! «قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّه».فيلقاهم النبىّ بما يتوقع أن يكون منهم..«قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا؟».وتأخذهم الحميّة،وتغلب عليهم شهوة القول..فيقولون:«وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّه وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا؟»..إنهم يجدون أكثر من دافع يدفعهم إلى القتال..لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم،وشرّدوا هم وأبناؤهم..فهل يصبر على هذا الضيم أحرار الرجال؟

ولكن أين هم الرجال؟ «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

لقد فضحوا أنفسهم حين دخلوا فى هذه التجربة،وكانوا من قبل أن يطلبوا الدخول فيها،فى ستر من أمرهم،ولكن أبوا إلا أن يركبوا مراكب الرجال،فزلت أقدامهم،وعفرت وجوههم فى تراب الخزي والمهانة..إلا قليلا ممن أراد الله له السلامة والأمن،فثبت قدمه،وربط على قلبه.

[٤٦٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٥٣، بترقيم الشاملة آليا)

وتشرح هذه الآية والآيات التي بعدها ما أجملته الآية السابقة،من هذا الموقف المتخـــاذل الذي كان من هؤلاء القوم،الذين يمكرون بآيات الله،ويستخفّون بأوامره وأحكامه.

لقد اختار لهم الله ملكا يقاتلون معه،وذلك إجابة لمقترحهم الذين اقترحـــوه..فجعلـــوا يفتشون فى هذا الملك المختار من قبل الله،ويفندون الأسس التي قام عليها اختيـــاره،وفى ذلك ما فيه من جرأة على الله،وعدوان على ما يقضى به ويحكم فيه..

وليتهم إذ نظروا،وقعت أنظارهم على ما فى الإنسان من فضائل نفسية وروحية،هى التي يكون بها التفاضل والتمايز بين إنسان وإنسان..ولكنهم لم ينظروا إلا إلى مـــا أشـــربته قلوبهم من حبّ المال،الذي هو ميزان المفاضلة والفضل عندهم..فحـــين رأوا أن الملـــك المختار لم يكن أكثرهم مالا،وأوسعهم ثراء،أنكروا أن يكون ملكا عليهم،وقالوا:«أَنَّـــى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ؟».

وتلقّوا الإجابة من نبيهم مسكتة مفحمة:«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَـــيْكُمْ» ! فهـــل لهـــم أن يحتكموا على الله؟ لقد اصطفاه الله عليهم..«وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ» ثم إن هذا الذي اصطفاه عليهم قد زاده الله بسطة فى العلم والجسم،فإذا كـــان فـــيهم مـــن يفضـــله فى المال،فهو يفضلهم فى كمال الجسم وتمام العقل،وذلك مما يكمل به الملك ويجمـــل بـــه الملوك! جمال وروعة فى المظهر،وفى المخبر..معا..

«وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» يصطفى من يشاء لما يشاء،وسع فضله كل شىء،وأحاط علمه بكل شىء،فلا معقّب لحكمه،ولا منازع له فى سلطانه.«فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» ؟

لم يطمئن القوم إلى ما أخبرهم به نبيّهم عن طالوت،وأن الله قد اصطفاه لهذه المهمة،وأن عنده من مستلزمات الملك ما ليس لأحد منهم..بسطة فى العلم والجسم..ولكنهم أبوا أن يخفّوا للانضواء إليه والقتال تحت رايته..فجاءهم نبيهم بآيـــة محسوســـة،يجدونها بـــين أيديهم،أمارة على اصطفاء الله له،وهو أن يعود إليهم التابوت الذي افتقدوه مـــن زمـــن بعيد،وفى هذا التابوت سكينة واطمئنان لهم،إذ كانوا يجدون فى وجوده بينهم دلالة على

رضى الله عنهم وتأييده لهم فى القتال.وفى هذا الصندوق أيضا بعض من مخلفات موسى وهرون..

وفى هذا شاهد واقعي يشهد لصدق النبىّ،ويؤيد ما بلّغ به عن ربّه فى شأن طالوت! والتابوت هو «صندوق» يقال إنه هو الذي كان قد وضع فيه موسى حين ألقته أمه فى اليمّ،ويمكن أن يكون صندوقا من صنع موسى كان يضع فيه الألواح والعصا،وغير ذلك من آثاره وآثار هارون،وكانوا يصحبون التابوت معهم فى حروبهم،تبركا به،فلما كان القوم فى بعض حروبهم مع عدوّهم،وغلبوا على أمرهم،واستبيحت ديارهم وأموالهم،حمل أعداؤهم هذا التابوت،فيما حملوا من مال ومتاع! فكانوا بعد ذلك لا يجرءون على ملاقاة عدو! وجاءهم التابوت وما كان فيه من آثار،وعندها وجدوا السكينة،والاطمئنان..فآمنوا وصدّقوا،ورضوا بطالوت ملكا وقائدا..وهكذا يقاد القوم قسرا،بيد الآيات المعجزة القاهرة،التي تسدّ عليهم منافذ،المعاذير والعلل،التي يقيمونها بين يدى كل أمر يدعون إليه من الله!

أما والقوم قد أبوا أن يصدّقوا إلا أن يروا بأعينهم،فقد ابتلاهم الله،ووضعهم أمام تجربة حسيّة يدعوهم إليها «طالوت» الذي جاءهم بالآيات ليحملهم على التصديق به..وليس لهم بعد ذلك أن يخرجوا عن طاعته،بعد أن استيقنوا أن الله قد اصطفاه عليهم..وها هوذا يدعوهم إلى محنة قاسية، لم يكن لهم أن يتحللوا منها بحال أبدا..إنها من طالوت،وإن طالوت من الله،وشاهده فى يده!! «قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ».

هذه هى التجربة،وهذا هو الابتلاء.! فالقوم عطشى والماء بين أيديهم،وكلمة الله إليهم:«ألّا يشربوا من هذا الماء وألا يرووا ظمأهم».وفى هذا:

أولا:امتحان لإيمانهم،واستجابتهم لما يدعون إليه،وهم فى وجه تجربة أقسى وأمر،هى لقاء العدوّ الذي عرفوه وعرفوا بأسه وجبروته وبطشه بهم،وبآبائهم من قبل! وثانيا:أن ذلك رياضة لهم وتدريب على احتمال مكاره الحرب وأهوالها،وربما كان الظمأ أهون شىء فيها.

هذا بعض ما تنطوى عليه التجربة فى كيانها،ولكن القوم لا يرون إلا ما يطفو على ظاهرها،وأنها ليست إلا تحكما من طالوت،لا يمليه عليه إلا حبّ التسلط والاستبداد،وهذا ما يضاعف من كمدهم وحقدهم..ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم..إنهم يحومون حول الماء ولا يردونه،وتحترق أكبادهم ظمأ ويحرم عليهم أن يشربوا منه..«كَذلِكَ الْعَذابُ،وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ» (١٦:فصلت).

وإن القوم لعلى ما هم عليه من فساد طوية واعتلال نية..فخرجوا عن أمر نبيهم،وشربوا من النهر وعبّوا،إلا قليلا منهم ممن عافاه الله من هذه المحنة،فتجنّب النهر و لم يشرب منه! وقد اعتزل طالوت أولئك الذين شربوا،وخلص بالذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم..وحين رأى القوم عدوّهم يقودهم قائدهم الجبار «جالوت» فزعوا واضطربوا وقالوا:«لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ» ولكن قلة قليلة منهم ممن آمن بالله،ووثق بما أعده فى الآخرة لعباده المؤمنين،فآثروا الآخرة على الدنيا،وزهدوا بما فى أيديهم طمعا بما فى يد الله– هؤلاء لم يلتفوا إلى ماوراءهم من أهل وولد ومال،و لم يخفهم الموت الراصد لهم فى يد أعدائهم،فلم يهابوا العدوّ وكثرته وقوته،وأطمعهم هذا الشعور فى عدوّهم،ورأوا أنهم فى قلتهم المؤمنة الصابرة أقوى من عدوّهم الذي لا يؤمن بالله ولا يصبر على المكروه،إلا طمعا فى مغانم الدنيا ومتاعها..وإذ قال غيرهم:«لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ» قالوا هم:«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

تلك عاقبة الصابرين فى مواقع الحق،المجاهدين فى سبيل الله،على بصيرة وهدى،لا يخطئهم النصر أبدا.

وواضح من الآية الكريمة أن داود عليه السلام كان فى هذه الحرب جنديا من جنود طالوت،وأنه ببسالته وشجاعته قد تولى قتل قائد العدو جالوت،وبفعله هذا كان النصر والغلب..ثم كان من فضل الله على داود بعد هذا أن أتاه الله الملك والحكمة،وعلمه مما يشاء من علمه،فألان له الحديد،وعلمه صنعة الدروع للحرب،وجعل لصوته من حسن النغم ما جعل الحياة كلها من حوله تنسجم معه،وتستجيب له،وإذا هى معه صوت

واحد،يسبح بحمد الله رب العالمين!! وقوله تعالى:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ».

يبيّن أن هذا التدافع بين الناس..بين الخير والشر..بين الحق والباطل..

بين الأقوياء والضعفاء..بين الأغنياء والفقراء..بين الأفراد والأفراد..

وبين الجماعات والجماعات..وبين الأمم والأمم- هذا التدافع فى كل موقع من مواقع الحياة،وفى كل متجه فيها،وعلى كل مورد مواردها- هو الذي يحرك دولاب العمل على هذه الأرض،ويبعث الحياة فى كل جانب منها..ولو كان النّاس متجها واحدا،ومذهبا واحدا،وشعورا واحدا،وتفكيرا واحدا،ومترعا واحدا- لكانوا شيئا واحدا..كانوا كتلة باردة متضحمة،أشبه بجبل من الجليد،لا تطلع عليه الشمس أبدا!! فسبحان من خالف بين النّاس فجعل من هذا التخالف مادة الحياة والبناء والعمران،ولولا ذلك لفسدت الأرض وضاع الناس:«وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ».[٤٦٧٧]

يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء،وخص الملأ بالذكر،لأهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه،وذلك أهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له {ابعث لنا ملكا} أي:عيِّن لنا ملكا {نقاتل في سبيل الله} ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا،ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم،كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت،كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس،فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصا لعوائدهم،وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم،كلما مات نبي خلفه نبي آخر،فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة {قال} لهم نبيهم {هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا} أي:لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به،فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها،واعتمدوا على عزمهم ونيتهم،فقالوا:{وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا} أي:أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه،بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا،فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب

٤٦٧٧ - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٣٠٥)

علينا،فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل،ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة و لم يقوَ توكلهم على ربهم {فلما كتب عليهم القتال تولوا} فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة،وزال ما كانوا عزموا عليه،واستولى على أكثرهم الخور والجبن {إلا قليلا منهم} فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه،فحازوا شرف الدنيا والآخرة،وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله،فلهذا قال:{والله عليم بالظالمين وقال لهم نبيهم} مجيبا لطلبهم {إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا} فكان هذا تعيينا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض،ولكن أبوا إلا أن يعترضوا،فقالوا:{أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه و لم يؤت سعة من المال} أي:كيف يكون ملكا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه.ومع هذا فهو [ص:١٠٨] فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال،وهذا بناء منهم على ظن فاسد،وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال،و لم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها،فلهذا قال لهم نبيهم:{إن الله اصطفاه عليكم} فلزمكم الانقياد لذلك {وزاده بسطة في العلم والجسم} أي:فضله عليكم بالعلم والجسم،أي:بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك،لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب،حصل بذلك الكمال،ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر،فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي،حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع،قوة على غير حكمة،ولو كان عالما بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيئا {والله واسع} الفضل كثير الكرم،لا يخص برحمته وبره العام أحدا عن أحد،ولا شريفا عن وضيع،ولكنه مع ذلك {عليم} بمن يستحق الفضل فيضعه فيه،فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبيينه أن أسباب الملك متوفرة فيه،وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده،ليس له راد،ولا لإحسانه صاد.ثم ذكر لهم نبيهم أيضا آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانا طويلا وفي ذلك التابوت سكينة

تسكن بها قلوبهم،وتطمئن لها خواطرهم،وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون،فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانا.

و لما تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم،فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددا كثيرا وجما غفيرا،امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك فقال:{إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني} فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته {ومن لم يطعمه} أي: لم يشرب منه فإنه مني {إلا من اغترف غرفة بيده} فلا جناح عليه في ذلك،ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه،وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان،فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه،ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة،وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلا على الله،وتضرعا واستكانة وتبرؤا من حولهم وقوقم،وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم،فلهذا قال تعالى:{فلما جاوزه} أي:النهر {هو} أي:طالوت {والذين آمنوا معه} وهم الذين أطاعوا أمر الله و لم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا...قلتهم وكثرة أعدائهم،قالوا أي:قال كثير منهم {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} لكثرقم وعَددهم وعُددهم {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله} أي:يستيقنون ذلك،وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ،مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم،وآمرين لهم بالصبر {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله} أي:بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى،والعزيز من أعزه الله،والذليل من أذله الله،فلا تغني الكثرة مع خذلانه،ولا تضر القلة مع نصره،{والله مع الصابرين} بالنصر والمعونة والتوفيق،فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله،فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم.

ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده {قالوا} جميعهم {ربنا أفرغ علينا صبرا} أي:قو قلوبنا،وأوزعنا الصبر،وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار،وانصرنا على القوم الكافرين.

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارا،فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك،ونصرهم عليهم {فهزموهم بإذن الله وقتل داود} عليه السلام،وكان مع جنود طالوت،{جالوت} أي:باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره {وآتاه الله} أي:آتى الله داود {الملك والحكمة} أي:منَّ عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة،وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم،ولهذا قال {وعلمه مما يشاء} من العلوم الشرعية والعلوم السياسية،فجمع الله له الملك والنبوة،وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك [ص:١٠٩] لغيرهم،فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض،وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله،فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلهذا قال تعالى:{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} أي:لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى،وإظهار دينه {ولكن الله ذو فضل على العالمين} حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها،وأسباب لا يعلمونها.

ثم قال تعالى:{تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق} أي:بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور {وإنك لمن المرسلين} فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور،فدل أنه رسول الله حقا ونبيه صدقا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب،فمنها:أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه،ثم العمل به،أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم،كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم،وتحصل له الطاعة منهم،ومنها:أن الحق كلما

عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحا وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء،لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب.ومنها:أن العلم والرأي:مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات،وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها.ومنها:أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان،والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر،فالأول كما في قولهم لنبيهم {وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا} فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا،والثاني في قوله:{ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله} ومنها:أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب،والصادق من الكاذب،والصابر من الجبان،وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.ومنها:أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين،وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها."[٤٦٧٨]

ندرك قيمة هذا الدرس.وما يتضمنه من تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة،حين نستحضر في أنفسنا أن القرآن هو كتاب هذه الأمة الحي ورائدها الناصح وأنه هو مدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها.وأن الله – سبحانه – كان يربي به الجماعة المسلمة الأولى التي قسم لها إقامة منهجه الرباني في الأرض،وناط بها هذا الدور العظيم بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم.وأنه – تعالى – أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحي – الباقي بعد وفاة الرسول – ﷺ – لقيادة أجيال هذه الأمة،وتربيتها،وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به،كلما اهتدت بهديه،واستمسكت بعهدها معه،واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن،واستغزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية.وهي بصفتها هذه،مناهج الجاهلية! إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى..ولكنه دستور شامل..دستور للتربية،كما أنه دستور للحياة العملية،ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها

[٤٦٧٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٠٧)

ويربيها وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لـدن آدم – عليـه السلام – وقدمها زادا للأمة المسلمة في جميع أجيالها.تجارها في الأنفس،وتجارها في واقع الحياة.كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها،وهي تتـزود لهـا بـذلك الـزاد الضخم،وذلك الرصيد المتنوع.

ومن ثم جاء القصص في القرآن هذه الوفرة،وهذا التنوع،وهذا الإيحاء..وقصـص بـني إسرائيل هو أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم،لأسباب عدة،ذكرنا بعضها في الجـزء الأول من الظلال عند استقبال أحداث بني إسرائيل وذكرنا بعضها في هـذا الجـزء في مناسبات شتى – وبخاصة في أوله – ونضيف إليها هنا ما نرجحه..وهو أن الله – سبحانه – علم أن أجيالا من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسـرائيل،وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل فعرض عليها مزالق الطريق،مصورة في تاريخ بني إسرائيل،لتكون لها عظة وعبرة ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد الله – سبحانه – قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق! إن هـذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي.وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية،تتترل اليوم،لتعالج مسائل اليوم،ولتنير الطريق إلى المستقبل.لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود! ولن ننتفع هذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا كما كانـت الجماعـة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة..وحين نقـرأ القرآن هذا الوعي سنجد عنده ما نريد.وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق وتقـول لنا:هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه.وتقول لنا:هذا عدولكم وهذا صديق.وتقول لنـا:كـذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة.وتقول لنا حديثا طويلا مفصلا دقيقا في كـل ما يعرض لنا من الشؤون..وسنجد عندئذ في القرآن متاعا وحياة وسندرك معـنى قولـه تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ»..فهي دعـوة

للحياة..للحياة الدائمة المتجددة.لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صـــفحات التاريخ.

هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ويعد بهما الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف بسبب قيامها بدورها الكبير،بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية،ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصيب.

والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ويعرضها في اختصار كامل،ولكنــه واف.فهـــي تجربة جماعة «خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ»..فلـــم يـــنفعهم الخـــروج والفرار والحذر وأدركهم قدر الله الذي خرجوا حذرا منه..فقال لهم الله:«مُوتُوا»..«ثُمَّ أَحْياهُمْ»..لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت،ولم يبذلوا جهدا في استرجاع الحياة.وإنما هو قدر الله في الحالين.

وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال،وعلى الإنفاق في ســـبيل الله،واهب الحياة.وواهب المال.والقادر على قبض الحياة وقبض المال.

والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى..بعـــد مـــا ضـــاع ملكهم،ونهبـــت مقدساتهم،وذلوا لأعدائهم،وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم،وتعاليم نبيهم..ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة واستيقظت في قلوبهم العقيدة واشتاقوا القتال في سبيل الله.فقالوا:«لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

ومن خلال هذه التجربة – كما يعرضها الســـياق القـــرآني المـــوحي – تـــبرز جملـــة حقائق،تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل،فضلا على ما كانـــت تحملـــه للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف،ومن تخلي القوم عنـــها فوجا بعد فوج في مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة مـــن المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا..

فقد كان فيها النصر والعز والتمكين،بعد الهزيمة المنكرة،والمهانة الفاضحة،والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين.ولقد جاءت لهم بملك داود،ثم ملك سليمان – وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض،وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى..وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لا نتفاضة العقيدة من تحت الركام وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك..أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها.فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة..فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل – من ذوي الرأي والمكانة فيهم – إلى نبيهم في ذلك الزمان،يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم،الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال،وقال لهم:«هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا! » استنكروا عليه هذا القول،وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له:«وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا؟ »..

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها،وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة وكما يقول السياق بالإجمال:«فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»..ومع أن لبني إسرائيل طابعا خاصا في النكول عن العهد،والنكوص عن الوعد،والتفرق في منتصف الطريق..إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال،في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب..وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل..فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول..فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم.ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها.وهم الجنود الذين

خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة،ووقوع علامة الله باختياره لهم،ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة...!

ومع هذا فقط سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى.وضعفوا أمـام الامتحـان الأول الذي أقامه لهم قائدهم:«فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ:إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ:فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي.وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي - إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ - فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»..وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية.

فأمام الهول الحي،أمام كثرة الأعداء وقوتهم،تهاوت العزائم وزلزلت القلوب:«فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا:لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ»..وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة..اعتصمت بالله ووثقت،وقالت:«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..وهذه هي التي رجحت الكفة،وتلقت النصر،واسـتحقت العز والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة..وكلـها واضـحة في قيادة طالوت.تبرز منها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة،وعدم اكتفائـه بالتجربة الأولى،ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبـل المعركة،وفصـله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنـوده تجربة بعد تجربة و لم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة.فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص،ووعد الله الصادق للمؤمنين.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة..أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينـه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقـع الكـبير الممتـد الواصل،وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر،كانت ترى من قلتها وكثرة عـدوها مـا يـراه الآخرون الذين قالوا:«لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ»..ولكنها لم تحكم حكمهـم على الموقف.إنما حكمت حكما آخر،فقالت:«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِـإِذْنِ

اللَّه،وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..ثم اتجهت لربها تدعوه:«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين،إنما هو في يد الله وحده.فطلبت منه النصر،ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه..وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا،وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح.وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون! ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة.فالنصوص القرآنية - كما علمتنا التجربة - تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن وبقدر حاجته الظاهرة فيه.ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب،في شتى المواقف،على قدر مقسوم..

فنخلص إذن من هذا العرض العام إلى تفصيل النصوص:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ:مُوتُوا.ثُمَّ أَحْياهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ»..لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات،عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت..من - هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟....فلو كان الله يريد بيانا عنهم لبين،كما يجيء القصص المحدد في القرآن.إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها،ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها.وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئا على عبرة القصة ومغزاها..

إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة،وأسبابهما الظاهرة،وحقيقتهما المضمرة ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة.والاطمئنان إلى قدر الله فيهما.والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع،فالمقدر كائن،والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف..

يراد أن يقال:إن الحذر من الموت لا يجدي وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة،ولا يمدان أجلا،ولا يردان قضاء وإن الله هو واهب الحياة،وهو آخذ الحياة وإنه متفضل في الحالتين:حين يهب،وحين يسترد والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف

الاسترداد.وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء:«إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ.وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ».

إن تجمع هؤلاء القوم «وَهُمْ أُلُوفٌ» وخروجهم من ديارهم «حَذَرَ الْمَوْتِ»..لا يكون إلا في حالة هلع وجزع،سواء كان هذا الخروج خوفا من عدو مهاجم،أو من وباء حائم..إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئا:«فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ..مُوتُوا»..كيف قال لهم؟ كيف ماتوا؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل،لأنه ليس موضع العبرة.إنما موضع العبرة أن الفزع والجزع والخروج والحذر، لم تغير مصيرهم،ولم تدفع عنهم الموت،ولم ترد عنهم قضاء الله.وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لورجعوا لله..«ثُمَّ أَحْياهُمْ»..كيف؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟..ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل.فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل،لئلا نتيه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير..إنما الإيحاء الذي يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم.في حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم.

إن الهلع لا يرد قضاء وإن الفرع لا يحفظ حياة وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء..

إذن فلا نامت أعين الجبناء!

«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»..هنا ندرك طرفا من هدف تلك الحادثة ومغزاها وندرك طرفا من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول وفي أجيالها جميعا..ألا يقعدن بكم حب الحياة،وحذر الموت،عن الجهاد في سبيل الله.فالموت والحياة بيد الله.قاتلوا في سبيل الله لا في سبيل غاية أخرى.وتحت راية الله لا تحت راية أخرى..قاتلوا في سبيل الله:«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»..

يسمع ويعلم..يسمع القول ويعلم ما وراءه.أو يسمع فيستجيب ويعلم ما يصلح الحياة والقلوب.قاتلوا في سبيل الله وليس هناك عمل ضائع عند الله،واهب الحياة وآخذ الحياة.

والجهاد في سبيل الله بذل وتضحية.وبذل المال والإنفاق في سبيل الله يقترن في القـــرآن غالبا بذكر الجهاد والقتال.وبخاصة في تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعا،والمجاهد ينفق على نفسه،وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين في سبيل الله.وهنا تجيء الدعوة إلى الإنفاق في صورة موحية دافعة:«مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً،وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ،وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»..

وإذا كان الموت والحياة بيد الله،والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء،فكـــذلك المال لا يذهب بالإنفاق.إنما هو قرض حســـن لله،مضـــمون عنده،يضـــاعفه أضـــعافا كثيرة.يضاعفه في الدنيا مالا وبركة وســـعادة وراحـــة ويضـــاعفه في الآخـــرة نعيمـــا ومتاعا،ورضى وقربى من الله.ومرد الأمر في الغنى والفقر إلى الله،لا إلى حرص وبخل،ولا إلى بذل وإنفاق:«وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ»..

والمرجع إليه سبحانه في نهاية المطاف.فأين يكون المال والناس أنفسهم راجعون بقضـــهم وقضيضهم إلى الله:«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»..وإذن فلا فزع من الموت،ولا خوف من الفقر،ولا محيد عن الرجعة إلى الله.وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله،وليقدموا الأرواح والأموال وليستقينوا أن أنفاسهم معدودة،وأن أرزاقهم مقدرة،وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحيـــاة قوية طليقة شجاعة كريمة.ومردهم بعد ذلك إلى الله..

ولا يفوتني بعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة التي تضمنتها الآيات..أن ألم بذلك الجمال الفني في الأداء:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُـــوفٌ حَـــذَرَ الْمَوْتِ؟ »..إن في التعبير استعراضا لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان:«أَلَمْ تَرَ؟ »..وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كمـــا رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار.

ومن مشهد الألوف المؤلفة،الحذرة من الموت،المتلفتة من الذعر..إلى مشهد الموت المطبق في لحظة ومن خلال كلمة:«مُوتُوا»..كل هذا الحذر،وكل هـــذا التجمع،وكـــل هـــذه المحاولة..كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة:«مُوتُوا»..ليلقي ذلـــك في الحـــس عبـــث

المحاولة،وضلالة المنهج كما يلقي صرامة القضاء،وسرعة الفصل عند الله.«ثُمَّ أَحْياهُمْ»..هكذا بلا تفصيل للوسيلة..إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة.المتصرفة في شؤون العباد،لا ترد لها إرادة ولا يكون إلا ما تشاء..وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة.ونحن في مشهد إماتة وإحياء.قبض للروح وإطلاق..فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير:«وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ»..متناسقا في الحركة مع قبض الروح وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار.وكذلك يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد،إلى جوار التناسق العجيب في إحياء المعاني وجمال الأداء..

ثم يورد السياق التجربة الثانية،وأبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى:«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.قالَ:هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا! قالُوا:وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»..

ألم تر؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور..لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل،من كبرائهم وأهل الرأي فيهم – إلى نبي لهم.و لم يرد في السياق ذكر اسمه،لأنه ليس المقصود بالقصة،وذكره هنا لا يزيد شيئا في ايحاء القصة،وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل..لقد اجتمعوا إلى نبي لهم،وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال،وأنه في «سَبِيلِ اللَّهِ» يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم،ويقظة الإيمان في نفوسهم،وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق،وأن أعداء هم على ضلالة وكفر وباطل ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر.فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف..في سبيل الله..فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلى أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم،وثبات نيتهم،وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة،وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر:«قالَ:هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا»..

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر.فأما إذا استجبت لكم،فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها..إنها الكلمة اللائقة بني،والتأكد اللائق بني.فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه:«قالُوا:وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا؟ »..

ونجد أن الأمر واضح في حسهم،مقرر في نفوسهم..إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله.وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم.فقتالهم واجب والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال.

ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم.ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية:«فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»..

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد،والنكث بالوعد،والتفلت من الطاعة،والنكوص عن التكليف،وتفرق الكلمة،والتولي عن الحق البين..ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير.وهي - من ثم - سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر،وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر،كي لا تفاجأ بها،فيتعاظمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب،ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل.

والتعقيب على هذا التولي:«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»..وهو يشي بالاستنكار ووصم الكثرة التي تولت عن هذه الفريضة - بعد طلبها - وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة

عملية..وصمها بالظلم.فهي ظالمة لنفسها،وظالمة لنبيها،وظالمة للحق الذي خذلته وهي تعرف أنه الحق،ثم تتخلى عنه للمبطلين! إن الذي يعرف أنه على الحق،وأن عدوه على الباطل – كما عرف الملأ من بني إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا «فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه..إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم..«وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»..

«وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ:إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً.قالُوا:أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ،وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ؟ قالَ:إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ،وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ.وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ.وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»..

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة..لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه.ولقد قالوا:إنهم يريدون أن يقاتلوا «فِي سَبِيلِ اللَّهِ».فها هم أولاء ينغضون رؤوسهم،ويلوون أعناقهم،ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ويستنكرون أن يكون طالوت – الذي بعثه الله لهم – ملكا عيهم.لماذا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة.فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة!..وكل هذا غبش في التصور،كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة..

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية،وعن حكمة الله في اختياره:«قالَ:إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ،وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ.وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ.وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»..

إنه رجل قد اختاره الله..فهذه واحدة..وزاده بسطة في العلم والجسم..وهذه أخرى..والله «يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ»..فهو ملكه،وهو صاحب التصرف فيه،وهو يختار من عباده من يشاء..«وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»..ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد.وهو الذي يعلم الخير،ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها..وهي أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش،وأن تجلو عنه الغبش..ولكن طبيعة إسرائيل – ونبيها يعرفها – لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها.وهم مقبلون على معركة.ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز

قلوبهم،وتردها إلى الثقة واليقين:«وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ:إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ،فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ،وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ.إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»..

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة – التي غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى – عليه السلام – قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.وقيل:كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور..فجعل لهم نبيهم علامة من الله،أن تقع خارقة يشهدونها،فيأتيهم التابوت بما فيه «تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ» فتفيض على قلوبهم السكينة..وقال لهم:إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت،إن كنتم حقا مؤمنين..ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت،فانتهى القوم منها إلى اليقين.

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد،ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق..والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين.فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود:«فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ:إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ.فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي،وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي – إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ.فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»..

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل..إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة،عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة.وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة.هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة.الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات،وتصمد للحرمان والمشاق،وتستعلي على الضرورات والحاجات،وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها،فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء..فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه،وصموده وصبره:صموده أولا للرغبات والشهوات،وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب..واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش.ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه،ويؤثر العافية..وصحت فراسته:«فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»..

شربوا وارتووا.فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده،تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم.انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم.وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف،لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة.والجيوش ليست بالعدد الضخم،ولكن بالقلب الصامد،والإرادة الجازمة،والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية،ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها.ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى..بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت – إلى حد – ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

«فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا:لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِه»..

لقد صاروا قلة.وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته:بقيادة جالوت.إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم.ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.إنها التجربة الحاسمة.تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم،فاتصلت بالله قلوبهم وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم،غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم! وهنا برزت الفئة المؤمنة.الفئة القليلة المختارة.والفئة ذات الموازين الربانية:«قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ:كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ.وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..هكذا..«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً»..بهذا التكثير.فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.القاعدة:أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ولأنها تمثل القوة الغالبة.قوة الله الغالب على أمره،القاهر فوق عباده،محطم الجبارين،ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله:«بِإِذْنِ اللَّــهِ»..ويعللونــه بعلتــه الحقيقيــة:«وَاللَّــهُ مَــعَ الصَّابِرِينَ»..فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحــق والباطل..

ونمضي مع القصة.فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله،التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء،وتستمد قوتها كلها من إذن الله،وتستمد يقينها كله من الثقــة في الله،وأنــه مــع الصابرين..

إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة،الثابتة،التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته،مع ضــعفها وقلتها..إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة.بعد أن تجدد عهدها مــع الله،وتتجــه بقلوبها إليه،وتطلب النصر منه وحده،وهي تواجه الهول الرعيب:«وَلَمَّا بَرَزُوا لِجــالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا:رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً،وَثَبِّتْ أَقْدامَنا،وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.فَهَزَمُوهُمْ بِــإِذْنِ اللَّـــهِ،وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ،وَآتـــاهُ اللَّـــهُ الْمُلْـــكَ وَالْحِكْمَةَ،وَعَلَّمَـــهُ مِمَّـــا يَشاءُ»..هكذا..«رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً»..وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا مـــن الله يفرغه عليهم فيغمرهم،وينســكب علــيهم ســكينة وطمأنينــة واحتمــالا للــهول والمشقة.«وَثَبِّتْ أَقْدامَنا»..فهي في يده – سبحانه – يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلــزل ولا تميد.«وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..فقد وضح الموقف..إيمان تجاه كفــر.وحــق إزاء باطل.ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائــه الكــافرين.فــلا تلجلــج في الضمير،ولا غبش في التصور،ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها:«فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ»..ويؤكد النص هــذه الحقيقة:«بِإِذْنِ اللَّهِ»..ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما.وليتضح التصــور الكامــل لحقيقة ما يجري في هذا الكون،ولطبيعة القوة التي تجريه..إن المؤمنين ستار القدرة يفعــل الله بهم ما يريد،وينفذ بهم ما يختار..بإذنه..ليس لهم من الأمر شيء،ولا حول لهم ولا قوة ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته،فيكون منهم ما يريده بإذنه..وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين..إنه عبد الله.اختاره الله لدوره.وهذه منة من الله وفضل.وهو يؤدي هذا الدور المختار،ويحقق قدر الله النافذ.ثم يكرمه الله – بعد كرامــة

الاختيار – بفضل الثواب..ولولا فضل الله ما فعل،ولولا فضل الله ما أثيب..ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق..فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي،إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد.استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويبرز السياق دور داود:«وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ»..وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل.وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا..ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها،إنما تجري بحقائقها.وحقائقها يعلمها هو.ومقاديرها في يده وحده.فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم،ويفوا الله بعهدهم.ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده.وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير،ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم..وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله.فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت،ويرثه ابنه سليمان،فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود:«وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ»..وكان داود ملكا نبيا،وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى..

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا..وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة،ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية،وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية..حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى..إنها ليست المغانم والأسلاب،وليست الأمجاد والهالات..إنما هو الصلاح في الأرض،وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر:«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ.وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ»..

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار.وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج

بالناس،في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات..ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا،وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق،إلى الخير والصلاح والنماء،في نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة،لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع،فتنفض عنها الكسل والخمول،وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة،وتظل أبدا يقظة عاملة،مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء..يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة.تعرف الحق الذي بينه الله لها.وتعرف طريقها إليه واضحا.وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض.وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل،وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..

وهنا يمضي الله أمره،وينفذ قدره،ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا،ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية،التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه.وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر.ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض،وتمكين الصلاح في الحياة.إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.[٤٦٧٩]

الاعتماد على الله تعالى ثم على المؤمنين:

وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ

[٤٦٧٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥٠٩)

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)} [الأنفال:٦٤ - ٦٦]

يأْمر الله تعالى نبيّه ﷺ بحثّ المؤْمنين،وتحْريضهمْ على القتال،لدفْع عدْوان الكافرين على الإسْلام وأهْله،ولإعْلاء كلمة الله والحقّ والعدْل وأهْلها،على كلمة الباطل والظّلْم وأنْصارهما.ويخْبر الله نبيّه والمؤْمنين أنّه إذا وجد من المؤْمنين عشْرون معْتصمون بالإيمان والصّبْر والطّاعة،فإنّهمْ يغْلبون مئتيْن،وإنْ وجد منْهمْ مئةٌ يغْلبوا ألْفاً من الكفّار،لأنّهمْ قوْمٌ لا يفْقهون ما تفْقهونه أنْتمْ منْ حكْمة الحرْب،وما يراد بها منْ مرْضاة الله عزّ وجلّ،ولا ينْتظرون همْ ما تنْتظرون أنْتمْ من الحرْب:نصْراً من الله أوْ فوْزاً بالشّهادة ورضْوان الله.

ولّما نزلتْ هذه الآية شقّ ذلك على المسْلمين،فخفّف الله عنْهمْ في الآية التّالية.وفي هذه الآية يخفّف الله تعالى عن المؤْمنين،ويجْعل المسْلم الواحد في مقابلة اثْنيْن من الكفّار (بيْنما كان في الآية السّابقة الواحد بعشرةٍ)،فإذا كان عدد المسْلمين نصْف عدد عدوّهمْ،لمْ يسغْ لهم التّردّد في لقاء العدوّ،وإذا كانوا دون ذلك،لمْ يجبْ عليْهم القتال،وجاز لهمْ أنْ يتحرّزوا،فالعشرة من المؤْمنين الصّابرين يغْلبون العشْرين بإذْن الله،والله يؤيّد الصّابرين وينْصرهمْ،فالنّصْر منْ عنْد الله،وبالإيمان والطّاعة،وليْس بالعدد والعدّة.[٤٦٨٠]

المسلم..وكم حسابه فى ميدان القتال؟

السلاح ليس هو كل شىء فى القتال،وتحقيق النصر..وأعداد المقاتلين وكثرتهم،ليست هى الميزان الذي يرجح به جيش على جيش..وإنما الذي يجعل للسلاح أثره وفاعليته،ويقيم للكثرة وزنا وقدرا،هو درجة الإيمان التي يكون عليها الطرفان المتقاتلان..

فالإيمان حين يعمر قلب المؤمن،ويملك عليه مشاعره- يجعل العصا التي فى يد المؤمن أكثر مضاء،وأقوى أثرا من السيف فى يد غير المؤمن،أو من هو أضعف إيمانا منه.

ومن هنا كان من منن الله سبحانه وتعالى على نبيّه أن جعل أولياءه الذين يدفعون العدوّ عن دعوته،جندا مسلحين بالإيمان والتقوى،بعد أن تسلحوا بالسلاح،وأعدوا للعدو ما يرهبونه به،من القوة ومن رباط الخيل..وفى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ

[٤٦٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٢٥، بترقيم الشاملة آليا)

اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» إشارة إلى هؤلاء الجند الذين أقامهم الله سبحانه جنودا لنصرة النبيّ،ودفع يد الباغين عليه،المتسلطين على دعوته..

وإنه ليكفى النبيّ كفاية مطلقة أن يكون الله سبحانه وتعالى حسبه وكافيه،فهو فى ضمان وثيق من الحماية التي لا تغفل أبدا،ولا تقف لقوتها قوة أيّا كان بأسها،وكانت سطوتها..

وإذن فما تأويل قوله تعالى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» ؟ وما داعية عطف المؤمنين على لفظ الجلالة؟ وهل قوة الله سبحانه وتعالى تحتاج إلى قوة تسند وتعين؟ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا..

والجواب- والله أعلم- أن فى هذا العطف تشريفا وتكريما للمؤمنين،إذ أن في هذا العطف وصلا لهم بالله سبحانه وتعالى،وجعلهم نفحة من نفحات رحمته،وجندا من جنوده التي يدافع بها عن الحق،ويدفع بها فى وجه الباطل:«أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى إضافة المؤمنين إلى النبيّ،بمعنى:يا أيها النبيّ حسبك الله،وحسب المؤمنين،أي يكفى أن يكون الله ناصرا لك وللمؤمنين..وهذا معنى لا نرضاه،إذ يدفع عن المؤمنين هذا التكريم الذي اختصهم الله به،بل ويذهب بما جاء فى قوله تعالى:«هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ» ! وقوله تعالى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» هو تشريف للمؤمنين،ودفع لقدرهم،وأنهم- بما فى قلوبهم من إيمان- فى مترلة لا ينالها الكافرون والمشركون،وأن الواحد منهم يرجح عشرة من هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله.والأمر بتحريض النبيّ للمؤمنين على القتال،إنما جاء بعد أن أمروا بأن يعدّوا لقتال العدوّ ما استطاعوا من عدد الحرب ووسائل القتال،من سلاح،وعتاد،وخيل..وذلك بعد أن أعدّوا الرّجال الذين راضوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله،ووطنوها على الاستشهاد ابتغاء مرضاة الله..

فإذا جاء النبيّ بعد هذا يحرّض المؤمنين على القتال،ويستحثهم له،ويغريهم به،وجد قلوبا صاغية إليه،ونفوسا مستجيبة لما يندبهم له،إذ كان إنما يدعو مؤمنين استجابوا

للحرب،ويستحث جنودا أعدوا أنفسهم للحرب،ورصدوها للدفاع عن دين الله،وملئوا أيديهم بالسلاح،كما ملئوا قلوبهم بالإيمان.

وفى قوله تعالى:«فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ» - أمور..منها:

أولا:هل هذا الشرط خبر فى لفظه ومعناه..بمعنى أن المراد به الكشف عن قدر المؤمنين،وما بينهم وبين الكافرين من بعد بعيد فى القوة..

أم أنه خبر أريد به الأمر والإلزام،بمعنى أنه مطلوب من المؤمنين ديانة وشرعا،أن يثبت فى ميدان القتال لعشرة من الكافرين..فإن فرّ،أو نكل كان آثما..؟

أجمع المفسّرون على أن هذا الشرط خبر مراد به الأمر،وأن واجبا على المسلم أن يثبت للعشرة من العدوّ فى ميدان القتال،وأن يغلبهم،فإن فرّ أو نكث كان آثما،بل ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا،فقال:إن المسلم إذا لم يقتل العشرة،بل قتل هو،كان آثما،لأنه لم يحقق ما أمره الله به،وهو أن يغلب العشرة،لا أن يثبت لقتالهم وحسب!

وهذا الرأى الذي أجمع عليه المفسّرون قائم على أن هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها،وهى قوله تعالى:«الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً..».

وسنعرض لقضية القول بالنسخ،بعد هذا..

والذي نراه- والله أعلم- أن هذا الشرط هو خبر فى مبناه،ومعناه،ومفاده..وأن هذا الخبر قد جاء تعقيبا على أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ،بتحريض المؤمنين على القتال،وإغرائهم به،ليهوّن على المسلمين أمر القتال،وليخفف عنهم بعض ما يقع فى نفوسهم من تكره له،حين يرون قلّتهم وكثرة العدوّ المتربص بهم..فإذا علموا أنّهم بإيمانهم بالله،وبتأييد الله لهم،أن الواحد منهم يغلب عشرة من الكافرين،طمعوا فى أعدائهم،واستقبلوا الدعوة إلى لقائهم،على رجاء وأمل فى الظفر بهم.

وثانيا:لم كان وزن المؤمنين فى هذه الآية بحيث يغلب الواحد منهم عشرة من الكافرين..ثم كان وزنهم فى الآية التي بعدها،بحيث يغلب الواحد منهم اثنين من عدوّهم؟

يقول أكثر المفسّرين:إن ذلك كان والمسلمون قليلون،وذلك فى أول الإسلام،فكان فرضا عليهم أن يحملوا هذا العبء الثقيل،وأن يقف الواحد منهم لعشرة من العدو،ويتغلب عليهم..فلما كثر المسلمون بعد هذا،خفف الله عن المسلمين الأولين ما فرضه عليهم أول الإسلام،فبدلا من أن يلقى الواحد منهم عشرة ويغلبهم،أصبح المطلوب منه أن يصمد لاثنين فقط ويتغلب عليهم.!!

وهذا يعنى أن الآية الثانية جاءت ناسخة للحكم الذي تضمنته الآية الأولى..

والذي نقول به- والله أعلم- أن الآيتين محكمتين،لا نسخ فيهما،ولا تناسخ بينهما..وذلك أن الحكم الذي تضمنه الشرط فى الآيتين وارد فى صيغة الخبر،والمعروف عند الذين يقولون بالنسخ،أنه لا تناسخ بين الأخبار ولا يرد هذا قولهم:إن الخبر يراد به الأمر هنا،فهذا القول منهم لا حجة لهم عليه،إلا القول بأن الآيتين متناسختين،وذلك يقضى بأن يكون الحكم فيهما واردا فى غير خبر..فلزم لذلك أن يخرج الخبر عن معناه إلى معنى الطلب..

فالحجة على النسخ،هى القول بالنسخ..وإذن فلا حجة! ومن جهة أخرى..فإن القول بالنسخ يقضى بأن يكون بين الآيتين- الناسخة والمنسوخة- مسافة زمنية،بحيث يكون لتغيّر الحكم ونسخه بحكم آخر مقتض اقتضاه تغيّر الحال بامتداد الزمن..وليس هناك دليل يدل على أن فارقا زمنيا وقع بين نزول الآيتين..بل ظاهر الآيتين ينبىء عن أنهما نزلتا معا فى وقت واحد..وقد قيل إنهما نزلتا فى غزوة بدر،وقيل قبل بدء القتال..وهذا قول يقول به القائلون بالتناسخ بين الآيتين ويقررونه! فالآية الأولى:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ،إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..» هذه الآية هى إخبار عن حال المؤمنين فى الوقت الذي خوطبوا فيه بها،وأنهم يحملون من طاقات القوى الروحية والنفسية بما فى قلوبهم من إيمان وتقوى،بحيث يغلب الواحد منهم عشرة من الكافرين..إذا حقّق معنى «الصبر» الذي هو قيد للشرط.

هذا ما سمعه المسلمون يؤمئذ من خطاب الله سبحانه وتعالى لهم،فانكشف لهم منه ما أودع الله فيهم- بسبب إيمانهم- من تلك القوى العظيمة التي يجدونها معهم،وفى هذا ما يريهم فضل الله عليهم،وتكريمه لهم،وأنهم موضع لرحمة الله،ومغرس كريم لآلائه ونعمائه.. وتلك نعمة جليلة من نعم الله،وبشرى مسعدة مما يبشر الله به عباده المؤمنين..ومن تمام هذه النعمة،وكمال هذه البشرى أن تتبع النعمة بنعمة،وأن ترفد البشرى ببشرى،وهذا ما جاءت به الآية الكريمة بعد هذا:«الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» وهذا الخبر الذي تلّقّاه المسلمون من هذه الآية هو خبر على حقيقته، لم يقصد به الأمر،بأن يكلّف المسلم التغلب على اثنين من الكافرين بدلا من عشرة..بل إن هذا الخبر يثير فى نفس المسلم شعورين:

أولهما:الإحساس بأنه وإن كان فى كيانه من القوّة ما يقوم لعشرة من الكافرين،فقد عرضت له عوارض من خارج نفسه،قد أخذت من تلك القوة لحسابها،حتى تتوازن،وتحتفظ بأدنى مستوى من القوة يكون عليها المؤمن فى قتاله للكافرين..

ذلك أن هذا الضعف الذي ورد على المسلمين لم يكن مؤثّرا على تلك الجماعة التي التقى بها الإسلام على أول الطريق،والتي آمنت به إيمانا اشتمل على وجودها كلّه..فهذه،الجماعة لم تزدها صحبتها للإسلام إلّا قوة إلى قوة،ويقينا إلى يقين..وإنما جاء الضعف إليها مع أولئك الذين دخلوا فى دين الله أفواجا،فآمنوا كما آمن الناس،متابعة لرؤسائهم وأصحاب الكلمة فيهم،دون أن يتعرّفوا إلى الإسلام،وأن يخلطوا أنفسهم به،ويضيفوا وجودهم إليه..وهؤلاء كانوا معظم الأعراب الذين يقول الله سبحانه فيهم:«قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا.وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (١٤:الحجرات).

ولهذا فقد ارتدّ كثير منهم عن الإسلام،بعد وفاة الرسول ﷺ،إذ لم يك الإيمان قد دخل قلوبهم وسكن إليها.

فهؤلاء مسلمون قد دخلوا فى صفوف المسلمين،وحاربوا مع المؤمنين،فلم يكن فيهم من القوى الروحية ما يرفعهم كثيرا عن المشركين،ويجعل قوة الواحد منهم تعدل قوة رجلين من العدوّ،فضلا عن عشرة..ولهذا أضيف حسابهم إلى حساب الصفوة المختارة من المسلمين،من صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار،الذين كانت ولا تزال قوة الواحد منهم تعدل عشرة من الكافرين..وبهذا صار حساب المسلمين فى مجموعهم قائما على هذا التقدير:

الواحد منهم باثنين من عدوّهم..على حين أن أصحاب رسول الله- ﷺ- ما زال الواحد منهم يرجح فى نفسه عشرة من الكافرين..

بل وأكثر من هذا..فإن صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا على درجة واحدة فى هذه القوة..بل كان فيهم من يرجح العشرين،والثلاثين بل والمائة من العدوّ،على حين كان فيهم من يرجح الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة،أو العشرة..فإذا أضيف حساب بعضهم إلى بعض كانوا فى مجموعهم على هذا التقدير الذي أخبر القرآن الكريم به،وهو أن الواحد منهم يرجح عشرة من عدوهم..

وهذا هو السرّ فى أن المؤمنين قد لبسوا صفه واحدة،وحسبوا كيانا واحدا فى قوله تعالى:«إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»،ولم يجىء الخبر القرآنى عنهم بلفظ المفرد..هكذا:الواحد منكم يغلب عشرة..!

وهذا هو السرّ أيضا فى أن حساب المؤمنين كان فى أول الأمر محصورا فى أعداد قليلة..عشرين ومائة،على حين كان بعد ذلك مدلولا عليه بالمئة والألف..إذ كانوا فى الأول أعدادا قليلة فى مجموعهم،ثم تضاعفت هذه الأعداد،فكانت ألوفا ألوفا..

وثانى الشعورين اللذين يجدهما المسلم من قوله تعالى:«الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...» - أنّه على أية حال يكون عليها المسلمون- فى مجموعهم- من الضعف،فإنهم أرجح كفّة من عدوّهم فى مجموعه،وأن جماعتهم المقاتلة تغلب الجماعة المقاتلة لها ولو كانت مثليها فى العدد..وهذا ميزان المسلمين المقاتلين دائما،فى أي حال،بل وفى أسوأ حال..لأنهم إنما

يقاتلون فى جبهة الحق،ومن أجل قضية الحقّ..وهذا من شأنه أن يقيم فى كيانهم شعورا بأنهم إنما يقاتلون لله،وفى سبيل الله،لا لأنفسهم،ولا لدنيا يريدونها..فهم- والحال كذلك- جند من جند الله...يمدّهم الله بعونه،وتأييده،ونصره..

وهذا ما يشير إليه تعالى،فيما كان عليه المؤمنون والمشركون فى غزوة بدر،إذ يقول سبحانه:«قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ» (١٣:آل عمران).

وعلى هذا،فإن قوله تعالى:«الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» ليس مرادا به رفع حكم كان واقعا على المؤمنين،ملزما لهم،حيث كان الواحد منهم مطالبا بقتال وقتل عشرة من العدو،ثم أصبح مطالبا بقتال وقتل اثنين- بل إنه إلفات للمسلمين إلى ما أمدهم الله سبحانه وتعالى به من أنصار وأعوان،حين كثّر أعدادهم،وأنهم الآن ليسوا هم وحدهم الذين يحملون عبء الدفاع عن الدعوة الإسلامية،فى وجه عدو يملأ وجه الأرض حولهم،فقد كثرت أعداد المسلمين معهم،وإن كانوا أضعف منهم إيمانا،وصبرا على مكاره الحرب،واستبسالا فى لقاء العدوّ.

فالآية الأولى خبر،يكشف عن حال،والآية الثانية،خبر آخر يكشف عن حال أخرى.

وعلى هذا تظل الآيتين تحدثان عن حالين من أحوال المسلمين،حالهم حين يكون إيمانهم على هذا المستوي الذي كان عليه المسلمون الأولون السابقون من المهاجرين والأنصار..وحالهم حين يضعف إيمانهم فتعرض لهم عوارض الضعف والوهن فى لقاء عدوّهم.

وهذا من شأنه ألا يقطع الأمل فى نفوس المسلمين بأن ينشدوا القوة دائما،وأن يلتمسوها فى الإيمان والصبر،وأنه كلما قوى إيمانهم وصبرهم قويت شوكتهم،واشتدت على العدوّ وطأتهم،وكان حساب الواحد منهم راجحا بعشرة من العدو المقاتل لهم..

فإذا كانت جماعة من جماعات المسلمين فى صقع من أصقاع الأرض،تقاتل فى سبيل الله،وكانت فى قلة ظاهرة أمام عدوّ كثيف العدد،فإنّ لها أن تنشد المدد من الإيمان

بالله،وأن تنظر إلى نفسها على ضوء قول الله تعالى:«إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْــرُونَ صــابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» فإن هم فعلوا ذلك،وأخلصوا النية والعمل لله،حققوا هذا الوصف الذي وصف الله ســبحانه وتعالى به المؤمنين،الذين خلت نفوسهم من الضعف،والوهن..

وقد فعل المسلمون هذا فعلا،فى سيرتهم مع الإسلام،وفى انتصارهم على أعداد تكثــرهم أكثر من عشرة أضعاف.فإن كنت فى شك من هذا فاسأل التاريخ..بكم من المســلمين فتح خالد بن الوليد مملكة فارس؟ وبكم من المسلمين فتح أبو عبيدة بن الجــراح بــلاد الروم؟

وكم كانت أعداد المسلمين الذين فتح بهم عمرو بن العاص مصر؟

وبكم من المسلمين اقتحم طارق بن زياد بلاد الأندلس،واستولى على زمام الأمر فيها؟

وجواب التاريخ هنا شهادة قاطعة بأن المسلم إذا استنجد بإيمانه بالله،كان وحده كتيبــة تغلب العشرات،لا العشرة من جند العدوّ..

ونسأل:

ترى لو فهم المسلمون هاتين الآيتين- الناسخة والمنسوخة- على أنهما حكمين،ملــزمين لهما..أكان هذا الذي كان منهم،فيما يحدّث به التاريخ عنهم فى ميدان القتــال؟ وفيمــا حققوه من نصر مبين على أعدائهم الذين التقوا بهم فى أكثر من ميدان،وهم قلة قليلة فى وجه أعداد كثيرة،إذا أحصيت كان المسلم محسوبا فيها بحساب عشرات وعشرات؟.

وفى قوله تعالى فى وصف العدو المقاتل للمؤمنين:«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَــوْمٌ لا يَفْقَهُــونَ» مــا يكشف عن الفارق الذي فرق بينهم وبين المؤمنين،حتى كان المــؤمن يغلــب عشــرة منهم،وقد يكون فى هؤلاء العشرة من هو أقوى قوة،وأمتن بناء،وأشدّ ساعدا..

ذلك أن المشركين،والكافرين من أعداء المؤمنين «قَوْمٌ لا يَفْقَهُــونَ» أي لا يســكن إلى كيانهم إيمان بالله،وباليوم الآخر،فهم حين يقاتلون إنما يقاتلون على مخاطرة بحياتهم الــتي يحيونها فى الدنيا،ولا تخطر ببالهم خاطرة أن وراء هــذه الحيــاة حيــاة أخــرى أخلــد وأبقى،وأطيب وأهنأ لمن آمن واتقى...ومن هنا كان حرصهم على ما فى أيــديهم مــن

حياة حرص الشحيح على شربة ماء تقع ليده على ظمأ،فى صحراء..ومن هنا أيضا كان جبنهم فى مواقف القتال،وانحلال عزائمهم،وزيغان أبصارهم،وتطاير قلوبهم هلعا وفزعا.
هذا،على حين أن المؤمن يقاتل وهو على «فقه» بالموقف الذي يقفه،وأنه صائر بـــه إلى إحدى الحسنيين،إما النصر الذي يكتب به للإسلام عزّا،وينال به عنـــد الله أجرا،وإمـــا الاستشهاد الذي ينتقل به إلى دار خير من داره،وإلى عالم أكرم وأطيب من عالمـــه،حيث ينطلق فى رحاب الله،ينعم بما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين،فى جنة عرضـــها الســـموات والأرض أعدت للمتقين.[٤٦٨١]

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ} أي:كافيك {وَمَنِ اتَّبَعَـــكَ مِـــنَ الْمُـــؤْمِنِينَ} أي:وكافي أتباعك من المؤمنين،.وهـــذا وعـــد مـــن الله لعبـــاده المـــؤمنين المتـــبعين لرسوله،بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع،فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الـــدين والدنيا،وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

يقول تعالى لنبيه ﷺ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} أي:حثهم وأنهضـــهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشـــط هممهم،مـــن الترغيـــب في الجهـــاد ومقارعـــة الأعداء،والترهيب من ضد ذلك،وذكر فضائل الشجاعة والصبر،وما يترتب على ذلـــك من خير في الدنيا والآخرة،وذكر مضار الجبن،وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للـــدين والمروءة،وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ}

{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ} أيها المؤمنون {عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَـــةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار،.وذلك بأن الكفـــار {قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} أي:لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في ســـبيله،فهم يقـــاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها،.وأنتم تفقهون المقصود من القتال،أنه لإعلاء كلمة

[٤٦٨١] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٦٦)

الله وإظهار دينه،والذب عن كتاب الله،وحصول الفوز الأكبر عند الله،.وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال:{الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا} فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف،.{فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين،بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار،وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين – في أول الأمر – أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة،والعشرة من المائة،والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك،فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار،فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار،ولكن يرد على هذا أمران:.

أحدهما:أنها بصورة الخبر،والأصل في الخبر أن يكون على بابه،وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني:تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين،فإنه يجوز لهم الفرار،ولو أقل من مثليهم [إذا غلب على ظنهم الضرر] كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله:{الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} إلى آخرها،دليل على أن هذا أمر (٢) لازم وأمر محتم،ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد،.فهذا ظاهر في أنه أمر،وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال:إن في إتيانه بلفظ الخبر،نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر،.وهي تقوية قلوب المؤمنين،والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني:أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين،أنه حث على الصبر،وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك [فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل].[٤٦٨٢]

ويقف الفكر ليستعرض القوة التي لا راد لها،ولا معقب عليها - قوة اللّه القوي العزيز - وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة - التي تتصدى لكتائب اللّه - فإذا الفرق شاسع،والبون بعيد.وإذا هي معركة مضمونة العاقبة،معروفة النهاية،مقررة المصير..وهذا كله يتضمنه قوله تعالى:

«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»..

ومن ثم يأتي الأمر بتحريض المؤمنين على القتال - في سبيل اللّه - وقد تهيأت كل نفس،واستعد كل قلب وشد كل عصب،وتحفز كل عرق وانسكبت في القلوب الطمأنينة والثقة واليقين:«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ»..

حرضهم وهم لعدوهم وعدو اللّه كف ء،وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم وأعداء اللّه حولهم:« إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ،وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»..

فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجئ عجيب.ولكنه صادق عميق:«بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»..

فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر؟ ولكنها صلة حقيقية،وصلة قوية..إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها،وتفقه منهجها،وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها..إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلي،وأن العبودية يجب أن تكون للّه وحده بلا شريك.

وتفقه أنها هي - الأمة المسلمة - المهتدية بهدى اللّه،المنطلقة في الأرض بإذن اللّه لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده وأنها هي المستخلفة عن اللّه في الأرض الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع ولكن لتعلي كلمة اللّه وتجاهد في سبيل اللّه ولتعمر

[٤٦٨٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٥)

الأرض بالحق وتحكم بين الناس بالقسط وتقيم في الأرض مملكة اللّه التي تقوم على العدل بين الناس..وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل اللّه في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة.بينما أعداؤها «قوم لا يفقهون».قلوبهم مغلقة،وبصائرهم مطموسة وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة.إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير! وهذه النسبة..واحد لعشرة..هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون..وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي:واحد لاثنين:« الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً،فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ،وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ،وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»..

وقد فهم بعض المفسرين والفقهاء أن هذه الآيات تتضمن أمرا للذين آمنوا ألا يفر الواحد منهم من عشرة في حالة القوة،وألا يفر الواحد من اثنين في حالة الضعف..وهناك خلافات فرعية كثيرة لا ندخل نحن فيها..فالراجح عندنا أن الآيات إنما تتضمن حقيقة في تقدير قوة المؤمنين في مواجهة عدوهم في ميزان اللّه وهو الحق وأنها تعريف للمؤمنين بهذه الحقيقة لتطمئن قلوبهم،وتثبت أقدامهم وليست أحكاما تشريعية – فيما نرجح – واللّه أعلم بما يريد.[٤٦٨٣]

لا عبرة بكثرة العدد:

وقال تعالى:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)} [التوبة:٢٥،٢٦]

يذكّر الله تعالى المؤْمنين بفضْله عليهمْ،وإحْسانه إليْهمْ،في نصْره إيّاهمْ في مواقع كثيرةٍ (مواطن) منْ غزواتهمْ مع رسول الله،وإنّ ذلك كلّه كان منْ عنْد الله،وبتأييده وتقْديره،لا

[٤٦٨٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٩٦)

بعدد المسْلمين،ولا بعددهمْ،ولا بعصبيّتهمْ،ولا بقوّتهمْ،ولا بكثْرة أمْوالهمْ،ونبّههمْ تعالى إلى النّصْر هو منْ عنْد الله،قلّ الجمْع أوْ كثر.

وفي يوْم حنينٍ أعْجبت المسْلمين كثْرتهمْ فلمْ تفدْهمْ شيْئاً،فولّوا مدْبرين حتّى ضاقتْ عليْهم الأرْض على سعتها منْ شدّة فزعهمْ،فلمْ يهْتدوا إلى النّجاة سبيلاً،ولمْ يثْبتْ منْهمْ إلاّ عددٌ قليلٌ مع الرّسول ﷺ،وكان ذلك ابْتلاءً من الله لهمْ على عجْبهم بكثْرتهمْ.(ثمّ أنْزل الله نصْره وتأييده على رسوله،وعلى المؤْمنين،ليعلّمهمْ أنّ النّصْر منْ عنْد الله وحْده،وإنْ قلّ الجمْع).

وأنْزل الله تعالى الطمأنينة على رسوله،وعلىالمؤْمنين الذين ثبتوا معه،فأذْهب روْعهمْ،وأزال حيْرتهمْ،وأعاد إليْهمْ شجاعتهمْ،ولزم الرّسول ﷺ مكانه،ومعه القلّة التي ثبتتْ من المؤْمنين،واسْتنْصر الرّسول ربّه،فأنْزل الله جنوداً من الملائكة لمْ يرها المسْلمون بأبْصارهمْ،بلْ وجدوا أثرها في قلوبهمْ،بما عاد إليْها منْ رباطة جأْشٍ،وشدّة بأْسٍ.وأخذ الرّسل ﷺ حفْنةً منْ ترابٍ قذفها في وجْه القوْم،فلمْ يبْق مقاتلٌ منْ هوازنْ إلاّ ودخلتْ في عيْنه أوْ فمه حبّةٌ منْ ترابٍ أشْغلتْه عن القتال،وتراجع الذين هربوا من المسْلمين،إلى حيْث كان يقف رسول الله وصحْبه الثّابتون،وحملوا على هوازن فنصرهم الله،وعذّب الذين كفروا،وقاتلوا رسول الله،فأخْزاهم الله وأذلّهمْ بالقتْل والسّبْي،وهذا هو مصير القوْم الكافرين،وجزاؤهمْ.[٤٦٨٤]

التجربة التي وضع الله سبحانه وتعالى المسلمين إزاءها فى الآية السابقة،هى تجربة قاسية،تعالج منها النفس الشيء الكثير،من الضيق والألم،إلّا من عصم الله من عباده المؤمنين..ولهذا جاء قوله تعالى:

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ» - جاء قوله سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين،مذكّرا المسلمين بعظمة الله وقدرته،وفضله على

[٤٦٨٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦١، بترقيم الشاملة آليا)

المؤمنين من عباده..وفى هذا ما يخفّ به ميزان كل شىء يتعلّق به الإنسان،من أهل ومال وموطن..وبذلك يشتدّ عزم المؤمن،ويقوى يقينه،فيجد القدرة من نفسه على أن يجلى عنها كل ما يطوف حول إيمانه بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله،من دواعى الوهن والضعف،حين تطلع عليه الذكريات لأهله وماله ووطنه.

فلقد أيد الله المؤمنين،وأمدّهم بنصره فى مواطن كثيرة..فى بدر،وفى الخندق،وفى فتح مكة..وفى حرب اليهود،فى خيبر،وفى المدينة..

ثم فى يوم حنين..وقد كان المسلمون في عدد عديد،وعدّة ظاهرة،حتى لقد قال قائلهم:«إننا لن نغلب اليوم من قلّة» فقد كانوا فى اثنى عشر ألفا،بين راجل وفارس..

ومع هذا،فإنه ما كاد المسلمون يلتقون بهوازن فى وادي حنين قرب مكة،حتى ولّوا مدبرين،وانكشف رسول الله للعدو،ولم يثبت معه إلا عدة من ذوى قرابته،منهم علىّ بن أبى طالب،والعباس بن عبد المطلب،ونفر قليل من المؤمنين..والذي كان يرصد المعركة فى تلك اللحظة ما كان يشك أبدا فى أن الدائرة على المسلمين،وأن الهزيمة واقعة بهم،لا محالة..

لقد تبدّد جيش المسلمين،وتناثرت جموعهم،وذهبت ريحهم،وما كان لقوة فى الأرض أن تجمع هذا الكيان الممزق،وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد..

ولكن أمداد السّماء،ونفحات الحق،جاءت فى وقتها،فأحالت الهزيمة نصرا حاسما..«ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ» وفى هذا يرى المسلمون أن القوة لله،وأن النصر والعزّة للمؤمنين،وأن البلاء والخزي على الكافرين..

فمن أراد النصر والعزّة..فلا مبتغى لهما،ولا سبيل إليهما،إلا بالإيمان،ومع المؤمنين.

ومن رغب عن الإيمان،وآثر عليه الأهل والمال،فلن يلق إلا الذّلة والهوان..

وفى قوله تعالى:«ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» استدعاء لمن خذلتهم عزائمهم،وتخلى عنهم السداده والتوفيق،فمالوا إلى جانب الضالين والمشركين..فهؤلاء لا يزال الطريق إلى الله مفتوحا لهم،ولا زالت رحمة الله ومغفرته

تنتظرهم على أول الطريق،إن هم راجعوا أنفسهم،ونزعوا عما هم فيه من تردد وارتياب!

وهنا وقفة لا بد منها مع «ثمّ» وهو حرف عطف للترتيب والتراخي..وقد جاء مكـــررا ثلاث مرات فى الحديث عن يوم حنين..هكذا..

«وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ..ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَـــكِينَتَهُ عَلـــى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...»

«ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ..»

والعطف بثم هنا فى هذه المواضع الثلاثة،أفاد أمرين:

أولهما:الترتيب الزمنى فى وقوع هذه الأحداث..فقد وقع المســـلمون أولا فى اضـــطراب وذعر،والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء،و لم يكن ذلك بالميسور لهم..ثم كان الفـــرار وتولية الأدبار هما طريق النجاة..ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فرّ منهم وولّى المشركين دبره فى القتال.

وثانيهما:التغاير بين وجوه هذه الأحداث المتعاطفة،بحيث يبدو أن عنصر الزمن لا بد أن يكون عاملا هنا فى تحريك الأحداث،حتى تتغير وتبلغ الصورة التي جاءت عليها..

والذي ينظر إلى الموقعة- موقعة حنين- من الظاهر،يجد أنهـــا حـــدثا واحـــدا،متلاحم النسج،وأن ليس هناك أي فاصل زمنى يفصل بين مجريات الأمور فى هذا الحدث..فهـــى معركة واحدة،احتواها زمن واحد، لم يجاوز غدوة يوم..ولكن الذي ينظـــر إلى المعركـــة نظرا أعمق وأرحب،يجد أنها لم تكن معركة واحدة،وإنما هى معارك متصلة،بدأت بمعركة هزم فيها المسلمون،ثم انتهت بمعركة كتب الله لهم فيها النصر..

فالمعركة الأولى،لها حسابها وتقديرها،وحكمها،وهى الهزيمة المطلقة للمسلمين..فقد أحاط بهم العدوّ،وأوقع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب..الأمر الذي يسلم إلى الهزيمة التي لا مفرّ منها..

ومع هذا،فإنه ما كان للمسلمين أن يفرّوا بأيّ حال كانوا عليه،وعلى أي تقدير يقدّرونه لنتائج المعركة..فلتكن الهزيمة واقعة بهم،ولكن الذي كان يجـــب ألا يكـــون منـــهم،هو الفرار..فهذا أمر لا يصحّ أن يقع من المسلمين فى ميدان القتال،والله ســـبحانه وتعـــالى

يقول:«يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئذ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..

فأى مسلم هذا الذي تحدّثه نفسه بالفرار من المعركة،وهو يعلم حكم الله فيمن يفرّ ويولّى العدوّ دبره؟

ولكن الذي حدث،هو أن المسلمين فرّوا،وولّوا الأدبار..!

ومن هنا كان هذا الأمر منهم حدثا غريبا،ما كان ينبغى أن يكون فى ميدان القتال..!

وهذا هو بعض السرّ فى عطفه «بثم» على الحدث الذي قبله،وهو الضيق والكرب الذي ركب المسلمين فى أول القتال..وفى هذا ما يشعر بأن هذا الحدث- حدث الفرار- وإن كان قد وقع فى ميدان القتال،هو حدث مستقلّ بنفسه،منقطع الصلة بما قبله،غير مترتب عليه..وعطفه على ما قبله هو من عطف حدث على حدث،أو قصة على قصة،أو حال على حال! أما عطف قوله تعالى:«ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فهو كذلك عطف حال على حال،أو قصة على قصة..وهذا ما يشعر بأن الحدث الأول،وهو الفرار والهزيمة،أمر قد وقع،وسوّى حسابه..ثم بدأ أمر آخر،له حسابه الخاص به،وهو الممثل فى تلك المعركة الجديدة التي دخل فيها المسلمون القتال مع العدوّ،بنفوس جديدة ومشاعر جديدة،بل قل وبأشخاص غير الأشخاص ومقاتلين غير المقاتلين..إذ أنزل الله سكينته عليهم،ونزع لو كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع،وأمدّهم بجنود من عنده،كانوا ردءا لهم،ويدا قوية ضاربة معهم،فكان لهم النصر والظفر..

وأمّا عطف قوله تعالى:«ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ» فكان من عطف حال على حال،وقصّة على قصّة،وشأن على شأن،وأن الصّلة التي بينه وبين ما قبله ليست صلة سبب ومسبّب،أو علة ومعلول..ذلك أن ما كان يتوقعه المسلمون بعد فرارهم وتولّيتهم الأدبار،هو وقوع غضب الله عليهم فى الدنيا،والعذاب الأليم فى الآخرة..ولكن الذي حدث كان غير هذا،فقد عاد الله سبحانه وتعالى بفضله وإحسانه عليهم،وجاءهم برحمته ومغفرته،وتقبّل توبة التائبين منهم.

وقد جاءت رحمة الله ومغفرته إلى الذين فروا وولوا الأدبار فى هذه الصورة المتراخية- وفى هذا ما يشعر بأن مغفرة الله ورحمته ما كانت لتنال هؤلاء الفارّين أبدا،وأنها إذ نالتهم فى تلك المرّة،فإنها قد لا تنالهم بعدها..لأن الحكم المسلّط على الفارّين الذين يولّون الأدبار فى ميدان القتال هو الحكم المحكم الذي لا يردّ،وأن هذا الذي أصاب المسلمين الفارين من مغفرة ورحمة فى هذا اليوم هو استثناء من أصل،ليس من الحتم أن يقع فى كل حال تشبهه![٤٦٨٥]

ولقد كان نصر اللّه لهم في المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة.

قال ابن كثير:" وقد كانت وقعة:"حُنين" بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة،وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة،وتمهدت أمورها،وأسلم عامة أهلها،وأطلقهم رسول الله ﷺ،[٤٦٨٦] فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه،وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري،ومعه ثقيف بكمالها،وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر،وأوزاع من بني هلال،وهم قليل،وناس من بني عمرو بن عامر،وعوف بن عامر،وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعم،وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺفي جيشه الذي جاء معه للفتح،وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب،ومعه الذين أسلموا من أهل مكة،[٤٦٨٧] وهم الطلقاء في ألفين أيضا،فسار بهم إلى العدو،فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين"،فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح،انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن،فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال،وأصلتوا السيوف،وحملوا حملة رجل واحد،كما أمرهم ملكهم.فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين،كما قال الله،عز وجل وثبت رسول الله ﷺ،وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو،والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن،وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر،يثقلانها لئلا تسرع

[٤٦٨٥] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢٥)

[٤٦٨٦] - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /١٣٠]

[٤٦٨٧] - انظر صحيح البخارى- المكتز [١٠ /٣٠٨](٢٨٦٤)

السير،وهو ينوه باسمه،عليه الصلاة والسلام،ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول]:" أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله"،[٤٦٨٨] ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب...أنا ابن عبد المطلب...

عَنْ أَبِى إِسْحَاقَ.قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رضى الله عنهما – أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– لَمْ يَفِرَّ،إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً،وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا،فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ،فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– فَلَمْ يَفِرَّ،فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا،وَالنَّبِىُّ – ﷺ– يَقُولُ « أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » [٤٦٨٩].

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة،ومنهم من قال:ثمانون،فمنهم:أبو بكر،وعمر،رضي الله عنهما،والعباس وعلي،والفضل بن عباس،وأبو سفيان بن الحارث،وأيمن بن أم أيمن،وأسامة بن زيد،وغيرهم،رضي الله عنهم ثم أمر ﷺعمه العباس –وكان جهير الصوت –أن ينادي بأعلى صوته:يا أصحاب الشجرة –يعني شجرة بيعة الرضوان،التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها،على ألا يفروا عنه –فجعل ينادي بهم:يا أصحاب السمرة ويقول تارة:يا أصحاب سورة البقرة،فجعلوا يقولون:يا لبيك،يا لبيك،وانعطف الناس فجعلوا يتراجعوا إلى رسول الله ﷺ،حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع،لبس درعه،ثم انحدر عنه،وأرسله،ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ.فلما رجعت شرذمة منهم،أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة،وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره،وقال:"اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها،فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال،ثم انهزموا،فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون،وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ.[٤٦٩٠]

[٤٦٨٨] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /١٢٦]

[٤٦٨٩] – صحيح البخارى– المكنز [١٠ /٣٠٨](٢٨٦٤)– زيادة مني

[٤٦٩٠] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /١٢٥]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنِي كَثِيرُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺيَوْمَ حُنَيْنٍ،فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺوَمَا مَعَهُ إِلاَّ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،فَلَزِمْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺفَلَمْ نُفَارِقْهُ وَهُوَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ وَرُبَّمَا قَالَ:بَيْضَاءَ،أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ،فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ،وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ،وَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺيَرْكُضُ عَلَى بَغْلَتِهِ قِبَلَ الْكُفَّارِ،قَالَ الْعَبَّاسُ:وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺأَكُفُّهَا وَهُوَ لاَ يَأْلُو يُسْرِعُ نَحْوَ الْمُشْرِكِينَ،وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِغَرْزِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:يَا عَبَّاسُ،نَادِ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ،وَكُنْتُ رَجُلاً صَيِّتًا،وَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي:يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ،فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا،يَقُولُونَ:يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ،فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالْكُفَّارُ،فَنَادَتِ الأَنْصَارُ:يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ،ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ،فَنَادُوا يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ،قَالَ:فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ،ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺحَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ،ثُمَّ قَالَ:انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ،انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.،قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ،فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى،فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺبِحَصَيَاتِهِ فَمَا أَرَى حَدَّهُمْ إِلاَّ كَلِيلاً،وَأَمْرَهُمْ إِلاَّ مُدْبِرًا حَتَّى هَزَمَهُمُ اللَّهُ،قَالَ:وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺيَرْكُضُ خَلْفَهُمْ عَلَى بَغْلَتِهِ.[٤٦٩١]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ،عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ رَأَى مِنَ النَّاسِ مَا رَأَى:" يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ:يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ "،فَأَجَابُوهُ:لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ،فَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَذْهَبُ لِيَعْطِفَ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ،فَيَقْذِفُ دِرْعَهُ مِنْ عُنُقِهِ،وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَقَوْسَهُ ثُمَّ يَؤُمُّ الصَّوْتَ،حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْهُمْ مِائَةٌ،فَاسْتَعْرَضُوا النَّاسَ،فَاقْتَتَلُوا،فَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلَ مَا كَانَتْ بِالْأَنْصَارِ،ثُمَّ جُعِلَتْ آخِرًا بِالْخَزْرَجِ،وَكَانُوا صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ،وَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي رَكَائِبِهِ فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ الْقَوْمِ،فَقَالَ:" الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ ".

[٤٦٩١] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٥ /٥٢٤] (٧٠٤٩) صحيح - زيادة مني

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ،عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ رَأَى مِنَ النَّاسِ مَا رَأَى:" يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ:يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ "،فَأَجَابُوهُ:لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ،فَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَذْهَبُ لِيَعْطِفَ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ،فَيَقْذِفُ دِرْعَهُ مِنْ عُنُقِهِ،وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَقَوْسَهُ ثُمَّ يَؤُمُّ الصَّوْتَ،حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنْهُمْ مِائَةٌ،فَاسْتَعْرَضُوا النَّاسَ،فَاقْتَتَلُوا،فَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلَ مَا كَانَتْ بِالْأَنْصَارِ،ثُمَّ جُعِلَتْ آخِرًا بِالْخَزْرَجِ،وَكَانُوا صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ،وَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي رَكَائِبِهِ فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ الْقَوْمِ،فَقَالَ:" الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ "،قَالَ:فَوَاللَّهِ مَا رَجَعَتْ رَاجِعَةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأُسَارَى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺمُكَتَّفُونَ،فَقَتَلَ اللَّهُ مَا قَتَلَ مِنْهُمْ،وَانْهَزَمَ مَنِ انْهَزَمَ مِنْهُمْ،وَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالَهُمْ،وَنِسَاءَهُمْ،وَأَبْنَاءَهُمْ "[٤٦٩٢]

هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين – للمرة الأولى – جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتهم كثرتهم،وغفلوا بها عن سبب النصر الأول،فردهم اللّه بالهزيمة في أول المعركة إليه ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول اللّه – ﷺ– والتصقت به.

والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية،وبانفعالاتها الشعورية:«إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً،وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ»..

فمن انفعال الإعجاب بالكثرة،إلى زلزلة الهزيمة الروحية،إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم.إلى حركة الهزيمة الحسية،وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب..

«ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ»..وكأنما السكينة رداء يترل فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الانفعالات الثائرة.«وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها»..فلا نعلم ماهيتها وطبيعتها..وما يعلم جنود ربك إلا هو..«وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا».بالقتل والأسر والسلب والهزيمة:«وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ»..« ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ،وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب.

[٤٦٩٢] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٨٨٥) صحيح– زيادة مني

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن اللّه،والاعتماد على قوة غير قوته،لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية.حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة.إن الكثرة العددية ليست بشيء،إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة.وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة،لأن بعض الداخلين فيها،التائهين في غمارها،ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها،تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف،فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم باللّه،انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة.لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة،لا بالزبد الذي يذهب جفاء،ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح![٤٦٩٣]

المسلمون عبر التاريخ:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ،رَحِمَهُ اللَّهُ:وَرَكِبَ عُمَرُ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ هَذِهِ السَّنَةَ فِي الْجُيُوشِ مِنَ الْمَدِينَةِ،فَنَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ:صِرَارٌ.فَعَسْكَرَ بِهِ عَازِمًا عَلَى غَزْوِ الْعِرَاقِ بِنَفْسِهِ،وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ،وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَسَادَاتِ الصَّحَابَةِ،ثُمَّ عَقَدَ مَجْلِسًا لِاسْتِشَارَةِ الصَّحَابَةِ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ،وَنُودِيَ:إِنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ.وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ،فَقَدِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ،ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ،فَكُلُّهُمْ وَافَقَهُ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الْعِرَاقِ،إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ،فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ:إِنِّي أَخْشَى إِنْ كُسِرْتَ أَنْ تُضْعِفَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ،وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَبْعَثَ رَجُلًا،وَتَرْجِعَ أَنْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ.فَأَرْفَأَ عُمَرُ وَالنَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ،وَاسْتَصْوَبُوا رَأْيَ ابْنِ عَوْفٍ.فَقَالَ عُمَرُ:فَمَنْ تَرَى أَنْ نَبْعَثَ إِلَى الْعِرَاقِ؟ فَقَالَ:قَدْ وَجَدْتُهُ.قَالَ:وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ:الْأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ الزُّهْرِيُّ.فَاسْتَجَادَ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ،فَأَمَّرَهُ عَلَى الْعِرَاقِ،وَأَوْصَاهُ فَقَالَ:يَا سَعْدَ بَنِي وُهَيْبٍ،لَا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ:خَالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ.فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ،وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ،وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا

[٤٦٩٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٩٣)

بِطَاعَتِه،فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّه سَوَاءٌ ؛ اللَّهُ رَبُّهُمْ،وَهُمْ عِبَادُهُ،يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَة وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللَّه بِالطَّاعَة،فَانْظُر الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ مُنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقَنَا فَالْزَمْهُ ؛ فَإِنَّهُ الْأَمْرُ،هَذِه عِظَتِي إِيَّاكَ،إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.وَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَهُ قَالَ لَهُ:إِنَّكَ سَتُقْدِمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ،فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ وَنَابَكَ تُجْمَعْ لَكَ خَشْيَةُ اللَّه،وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّه تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ ؛ فِي طَاعَتِه وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِه،وَإِنَّمَا طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَة،وَإِنَّمَا عِصْيَانُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَة،وَلِلْقُلُوب حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً،مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ ؛ فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً،وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَة مِنْ قَلْبِه عَلَى لِسَانِه،وَبِمَحَبَّة النَّاس،فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّب،فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ،وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ،وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ،فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّه بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاس.قَالُوا:فَسَارَ سَعْدٌ نَحْوَ الْعِرَاقِ فِي أَرْبَعَة آلَافٍ ؛ ثَلَاثَة آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ،وَأَلْفٍ مِنْ سَائِرِ النَّاس.وَقِيلَ:فِي سِتَّة آلَافٍ.وَشَيَّعَهُمْ عُمَرُ مِنْ صِرَارٍ إِلَى الْأَعْوَص،وَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ خَطِيبًا هُنَالِكَ فَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ،وَصَرَفَ لَكُمُ الْقَوْلَ لِيُحْيِيَ بِه الْقُلُوبَ،فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيَهَا اللَّهُ،مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَنْتَفِعْ بِه،فَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٌ وَتَبَاشِيرُ؛فَأَمَّا الْأَمَارَاتُ فَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالْهَيْنُ وَاللِّيْنُ،وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ،وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَابًا،وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا؛فَبَابُ الْعَدْلِ الِاعْتِبَارُ،وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ،وَالِاعْتِبَارُ ذِكْرُ الْمَوْت وَالِاسْتِعْدَادُ بِتَقْدِيمِ الْأَعْمَال،وَالزُّهْدُ أَخْذُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قِبَلَهُ حَقٌّ وَالِاكْتِفَاءُ بِمَا يَكْفِيه مِنَ الْكَفَاف،فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكْفِه الْكَفَافُ لَمْ يُغْنِه شَيْءٌ،إِنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّه،وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَلْزَمَنِي دَفْعَ الدُّعَاءِ عَنْهُ،فَأَنْهُوا شَكَاتَكُمْ إِلَيْنَا،فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذْ لَهُ الْحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ..[٤٦٩٤]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٦٩٤] - تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٨٣) والبداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦١٣)

الباب الثلاثون

النصر آت بإذن الله

وجوب الثقة بوعد الله:

قال تعالى:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا } [الأحزاب:٢٢]

ولّما رأى المؤْمنون الصّادقون في إيماهم الأحزاب،يحْدقون بالمدينة،قالوا:هذا ما وعدنا الله ورسوله منْ الابتلاء والاختْبار والامتحان بالشّدائد،الذي يعْقبه النّصْر القريب.وصدق الله ورسوله في النّصْر والثّواب،كما صدق الله ورسوله في الابتلاء والاخْتبار،وما زادهمْ ذلك إلا صبْراً علضى البلاء،وتصْديقاً بتحْقيق ما وعدهمْ به الله ورسوله،وتسليماً للقضاء.[٤٦٩٥]

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف،ذكر حال المؤمنين فقال:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ} الذين تحزبوا،ونزلوا منازلهم،وانتهى الخوف،{قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} في قوله:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} فإنا رأينا،ما أخبرنا به {وَمَا زَادَهُمْ} ذلك الأمر {إِلا إِيمَانًا} في قلوبهم {وَتَسْلِيمًا} في جوارحهم،وانقيادًا لأمر الله.[٤٦٩٦]

هذه صورة من صور التأسّى برسول الله،يراها الذي ينظر إلى المؤمنين،الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه..فهؤلاء المؤمنون حين رأوا الأحزاب لم يهنوا،و لم يضعفوا،و لم ترهبهم كثرة العدوّ،و لم يفزعهم الموت المطلّ عليهم من كل مكان..فالموت في هذا الموطن هو أمنيتهم التي كانوا يتمنوها على الله،ويقدموها ثمنا لإعزاز دين الله،وإعلاء كلمة الله..ولهذا فإهم حين رأوا الأحزاب،رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم الله ورسوله به،من

[٤٦٩٥] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٦٩٦] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٦١)

الابتلاء والبلاء على طريق الجهاد في سبيل الله..فالمؤمنون دائما على طريق الجهاد،وعلى توقّع الصّدام مع العدوّ،الذي يتربص بهـــم وبدينهم،الـــدوائر وإن المـــؤمن في مرابطـــة مستمرة،لحماية دين الله،ولدفع ما يرمى به من سوء،وردّ ما يراد به من كيد..

– قوله تعالى:«وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» يمكن أن يكون من كلام المؤمنين،معطوفـــا علـــى مقول قولهم:«هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..ويمكن- وهو الأولى عندنا- أن يكون تعقيبا على قولهم،من الله سبحانه وتعالى،أو بلسان الوجود الّذى إذا سمع قولهم:«هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» !.نطق بلسان واحد:«وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

– وقوله تعالى:«وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً» فاعل الفعل «زادهم» يدلّ عليـــه الفعـــل «رأى» أي ما زادهم ما رأوه من الأحـــزاب وكثـــرة عـــددهم وعـــدقم،إلا إيمانـــا بالله،وتصديقا لوعده،وتسليما بما يقضى به الله بينهم وبين عدوّهم.[٤٦٩٧]

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة وكان الفزع الذي لقوه من العنف،بحيث زلزلهم زلزالا شـــديدا،كما قال عنهم أصدق القائلين:«هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً»..

لقد كانوا ناسا من البشر.وللبشر طاقة.لا يكلفهم اللّه ما فوقها.وعلى الرغم من ثقتـــهم بنصر اللّه في النهاية وبشارة الرسول – ﷺ- لهم،تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كلـــه إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق..على الرغم من هذا كله،فإن الهول الذي كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خـــبر حذيفـــة.والرســـول – ﷺ- يحـــس حالـــة أصحابه،ويرى نفوسهم من داخلها،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ،قَالَ:قَالَ فَتًى مِنْ أَهْـــلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ:نَعَمْ يَـــا ابْنَ أَخِي،قَالَ:فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ:" وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُهُ،قَالَ:وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَـــاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ،وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:" يَا ابْنَ أَخِي،لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ،وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«مَنْ رَجُلٌ

[٤٦٩٧] – التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٧٩)

يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ،يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ يَرْجِعَ،وَأَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ» فَمَا قَامَ مِنَّا،رَجُلٌ ثُمَّ صَلَّى هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ؟ " يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ الرَّجْعَةَ،وَأَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ،فَمَا قَامَ مِنَّا رَجُلٌ ثُمَّ صَلَّى هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ،فَيَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ الرَّجْعَةَ،أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَشِدَّةِ الْجُوعِ وَشِدَّةِ الْبَرْدِ،فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي فَقَالَ:«يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَفْعَلُونَ،وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي» فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ،وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّه تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ،مَا يُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا،وَلَا نَارًا،وَلَا بِنَاءً،فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كُنْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَقُلْتُ:مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ،فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،إِنَّكُمْ وَاللَّه مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ،لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ،وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ،وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ،وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ،وَاللَّه مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ،وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ،وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ،فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ،ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ،ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ،فَمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ،وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَيَّ أَنْ لَا أَتَحَدَّثَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي،ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ قَالَ حُذَيْفَةُ:فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَامَ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَجَّلٍ،فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلَيْهِ،وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ،ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ،وَإِنِّي لَفِيهِ،فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا صَنَعَتْ قُرَيْشٌ فَاسْتَمَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ "[٤٦٩٨]..

ومع هذا الشرط بالرجعة،ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول اللّه في الجنة،فإن أحدا لا يلبي النداء.فإذا عين بالاسم حذيفة قال:فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!..ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة..ولكن كان إلى جانب الزلزلة،وزوغان

[٤٦٩٨] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٣٤)(٢١٥) صحيح لغيره

الأبصار،وكرب الأنفاس..كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع باللّه والإدراك الذي لا يضل عن سنن اللّه والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها.ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر.ذلك أنهم صدقوا قول اللّه سبحانه من قبل:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ،مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ:مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»..

وها هم أولاء يزلزلون.فنصر اللّه إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا:«هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..«وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..«هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..هذا الهول،وهذا الكرب،وهذه الزلزلة،وهذا الضيق.وعدنا عليه النصر..فلا بد أن يجيء النصر:«وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»..صدق اللّه ورسوله في الأمارة وصدق اللّه ورسوله في دلالتها..ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر اللّه ووعد اللّه:«وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..

لقد كانوا ناسا من البشر،لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر،وضعف البشر.وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا أن يخرجوا من اطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته.فلهذا خلقهم اللّه.خلقهم ليبقوا بشرا،ولا يتحولوا جنسا آخر.لا ملائكة ولا شياطين،ولا بهيمة ولا حجرا..

كانوا ناسا من البشر يفزعون،ويضيقون بالشدة،ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة.ولكنهم كانوا - مع هذا - مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى اللّه وتمنعهم من السقوط وتجدد فيهم الأمل،وتحرسهم من القنوط..وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور.علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر،بما فيها من قوة وضعف.وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان،في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة أو زلزلنا مرة،أو فزعنا مرة،أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشـــدة والضيق..

فعلينا ألا نيأس من أنفسنا،وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى.عروة السماء.وعلينا أن نستمســـك بها لننهض من الكبوة،ونسترد الثقة والطمأنينة،ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر.فنثبـــت ونستقر،ونقوى ونطمئن،ونسير في الطريق..

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام.النمـــوذج الـــذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده،وثباته على عهـــده مـــع اللّه،فمنهم من لقيه،ومنهم من ينتظر أن يلقاه:«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَـــدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ.وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»..

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه.نموذج الذين عاهدوا اللّـــه مـــن قبـــل لا يولـــون الأدبار.ثم و لم يوفوا بعهد اللّه:«وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا»..

روى الإمام أحمد عَنْ ثَابِتٍ،قَالَ:قَالَ أَنَسٌ عَمِّي،قَالَ هَاشِمٌ:أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ،سُمِّيتُ بِهِ لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺيَوْمَ بَدْرٍ،قَالَ:فَشَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ:فِي أَوَّلِ مَشْـــهَدٍ شَـــهِدَهُ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ:غِبْتُ عَنْهُ لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْـــدُ مَـــعَ رَسُـــولِ اللهِ ﷺلَيَـــرَيَنَّ اللَّـــهُ مَـــا أَصْنَعُ.قَالَ:فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا،قَالَ:فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺيَوْمَ أُحُدٍ قَـــالَ:فَاسْـــتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ قَالَ:فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ:يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ ؟ قَالَ:وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ؟ قَالَ:فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ،فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَـــةٍ وَرَمْيَـــةٍ ؟ قَالَ:فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ:فَمَا عَرَفْتُ أَخِـــي إِلاَّ بِبَنَانِـــهِ،وَنَزَلَتْ هَـــذِهِ الآيَةُ:{رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَـــا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} قَالَ:فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ.[٤٦٩٩]

[٤٦٩٩] -مسند أحمد (عالم الكتب) [٤ /٥٠٢](١٣٠١٥) ١٣٠٤٦ صحيح

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان،في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق.لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء،وعاقبة النقض والوفاء وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة اللّه:

«لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ،وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ - إِنْ شاءَ - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»..ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد - ليرد الأمر كله إلى اللّه،ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع.فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة.إنما تقع وفق حكمة مقدرة،وتدبير قاصد.وتنتهي إلى ما شاء اللّه من العواقب.وفيها تتجلى رحمة اللّه بعباده.ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر:«إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»[٤٧٠٠]..

النصر من عند الله :

قال تعالى:{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) } [آل عمران]

وما جعل الله وعْده للْمسْلمين منْ إمْدادهمْ بالملائكة في المعْركة إلاّ بشْرى للْمؤْمنين،وتثْبيتاً لقلوبهم التي تطرّق إليها الخوْف منْ كثْرة عدد الكفّار،وقوّة استعْدادهمْ.وليْس النّصْر إلاّ منْ عنْد الله،وهو قادرٌ على أنْ ينْصر المسْلمين دون اشْتراكهمْ في القتال.

لقدْ أمر الله تعالى المسْلمين بالجهاد لما في ذلك من الحكْمة التي يراها سبْحانه وتعالى،وذلك ليسهّل إهْلاك طائفةٍ من الكافرين،فينْقص عددهمْ بالقتْل،أوْ ينْقص منْ

[٤٧٠٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٠٨)

سلْطاهمْ بالقهْر،أوْ ينْقص منْ أمْواهمْ بالغنيمة،أوْ ينْقص منْ تأْثيرهمْ في الأرْض بالهزيمة،أوْ يصْرفهمْ مهْزومين أذْلاّء فيعودوا خائبين مقْهورين لا أمل لهمْ في نصْرٍ.

ينبّه الله تعالى رسوله الكريم إلى أنّ الأمْر كلّه لله،وليْس للنّبيّ شيْءٌ من الحكْم والتّصـــرّف في أمْر العباد،غيْر ما أمره منْ إبْلاغهمْ رسالة ربّهمْ،وهو تعالى إمّا أنْ يتوب عليْهمْ ممّا همْ فيه من الكفْر،فيهْديهمْ بعْــد الضّــلالة،وإمّا أنْ يعــذّهمْ علـــى كفْــرهمْ في الــدّنيا والآخرة،ويكْبتهمْ ويذلّهمْ لأنّهمْ يسْتحقّون ذلك بسبب ظلْمهمْ.[٤٧٠١]

يستمع المسلمون بعد هذا إلى قوله تعالى:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فيستشعرون أن تلك الأمــداد العلويّــة،لا تجىء إليهم من بعيد،وإنما هى شــرارات مـــن الإيمـــان والصـــبر،تنطلق مـــن داخـــل أنفسهم،فتشتعل بنور الله،فإذا هى قوى يبلغ بها الإنسان فى ميدان القتال،ما لا يبلغ خمسة من الرجال،لا يملكون تلك القوى فى هذا الميدان! وهنا يلتفت المســلمون إلى أنفســـهم التفاتا قويّا،يفتشون عن مواطن القوة والضعف فى إيمانهم وصبرهم،حتى يكونـــوا علـــى الشرط الذي اشترطه الله عليهم،ليمدّهم بالقوة،وليمكّن لهم من عدوهم.

وتجىء آيات القرآن الكريم،لتلتقى مع هذا الشعور،الذي يفتش فيـــه المســـلمون عـــن أنفسهم،ولتكون فى مجال البصر وهم يرتـــادون مواقـــع الخـــير الـــذي يـــدنيهم مـــن التقوى،ويمكن لهم من الصبر..وإذا فى الآيات التي يتلوها الرسول عليهم بعد أن تلقاهـــا من ربّه لساعته- إذا فى هذه الآيات الدواء والشفاء،إذ يقول الله تعالى:«يا أَيُّهَـــا الَّـــذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُـــمْ وَجَنَّـــةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُـــوا فاحِشَـــةً أَوْ ظَلَمُـــوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلـــى مـــا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـــا الْأَنْهـــارُ

[٤٧٠١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤١٩، بترقيم الشاملة آليا)

خالدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» فعلى ضوء هـــذه الآيـــات الكريمـــة،يعرض المســـلم نفسه،ويطّلع على ما تكون قد انطوت عليه مما نهى الله،مما لم يكن يراه،وهـــو فى زحمـــة الأحداث المتلاحقة،التي كانت تمرّ بالمسلمين فى تلك الفترة الحرجة من حياة الإســـلام- فيعمل على تنقيتها،والخلاص منها..وقد أشرنا من قبل إلى ما فى هذه الآيات الكريمة من معانى الإحسان،وما تحمل من دواء عتيد لسقام النفوس،ومرضى القلوب![٤٧٠٢]

فوجود الملائكة بين المؤمنين هو مما يشد أزرهم،ويريهم فى أنفسهم أنهـــم أكثـــر مـــن المشركين عددا،وأقوى قوة..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا» (٤٣:الأنفال) فالمسلمون بهذا المدد الروحي يرون المشركين فى كثرتهم قلة،وبهذا يطمعون فيهم،ويثبتون لهم،علـــى حين يراهم المشركون قلة كما هم فى قلتهم،فلا يفرون من بين أيديهم،حتى تقع الواقعـــة بهم،ويقتل منهم من يقتل ويؤسر منهم من يؤسر:«لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا».

فلو أن الملائكة كانوا هم الذين قاتلوا دون المؤمنين- لما كان للمؤمنين فضـــل فى هـــذه المعركة،ولما كان لهم شرف هذا البلاء الذي أبلوه فى هذا اليوم،بل ولما كان من النبيّ هذا الحال الذي استولى عليه ساعة بدء القتال،وهو الذي تلقى وحي الســـماء بهـــذا المـــدد الملائكى..فإنه عليه الصلاة والسلام- يعلم أن هذا المدد لا يخلى المؤمنين مـــن مســـئولية حمل العبء فى لقاء المشركين،وإن كان من ورائهـــم تلـــك القـــوة الســـماوية الـــتي تظاهرهم..والله سبحانه وتعالى يقول:«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُـــمْ فَثَبِّتُـــوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ».

وقد جاءت هذه الآية فى غزوة أحد هكذا:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُـــمْ وَلِتَطْمَـــئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».(١٢٦:آل عمران) وبين الآيـــتين اختلاف فى النظم اقتضته الحال هنا وهناك.

[٤٧٠٢] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٩٤)

ففى آية بدر،جاء قوله تعالى:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى» على حين جاء هذا المقطع فى آية أحد:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ»،مقيدا هذه البشرى بأنها للمؤمنين،وقد جاءت مطلقة فى آية بدر!.

وحكمة هذا- والله أعلم- أن إطلاق البشرى فى «بدر» كان حيث لا حساب لأحد غير المسلمين فى هذه البشرى،إذ هى خالصة لهم،إذ كانوا جميعا فى وجه العدوّ صفّا واحدا،ويدا واحدة.

أما فى «أحد» فقد انقسم المسلمون على أنفسهم،وهمّت طائفتان منهم أن تفشلا،وانحاز عبد الله بن أبى بن سلول بشطر كبير من المسلمين،وكانت قولته هو وأصحابه:«لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ»..فجاءت البشرى هنا على غير إطلاقها للمسلمين جميعا،وإنما هى للذين واجهوا العدوّ فى أحد،والتحموا معه فى القتال..فكان قوله تعالى:«وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ» إشارة إلى هؤلاء المؤمنين الذين وجّهوا وجوههم إلى لقاء العدوّ،دون هؤلاء الذين نكصوا على أعقابهم.

وفى آية بدر جاء قوله تعالى:«وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» وفى آية أحد:«وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ» وذلك لأن حاجتهم فى بدر إلى مجرد الاطمئنان كانت هى مطلبهم الذي يطلبونه فى تلك الحال،وينتظرونه من الأفق الذي سيطلع منه..فالمطلوب أولا هو هذا الذي يبعث فيهم الطمأنينة،وقد جاءهم فى هذا المدد السماوي من ملائكة الرحمن..

وفى آية أحد كانوا قد عرفوا هذا الذي يطمئنهم،وعرفوا الأفق الذي يجىء منه،فلم يكن ثمّة داع يدعو إلى تقديمه فى النظم،ليفصل بين الفعل وفاعله،فجاء النظم على الأسلوب المألوف.

وفى آية بدر جاء قوله تعالى:«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وجاءت آية أحد:«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» حيث جاء الخبر مؤكدا،فى آية بدر،على حين جاء مطلقا من غير توكيد فى آية أحد..وذلك أن المسلمين فى بدر كانوا يواجهون أول وعد لله سبحانه لهم بالنّصر،فحسن أن يؤكد لهم هذا الوعد..أما فى أحد

فقد كانوا على يقين ثابت بوعد الله،الذي رأوا عزّته،وحكمته،رأى العين،فيما تحقق لهم من نصر يوم بدر..[٤٧٠٣]

وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي،وعلى تنقيتها من كل شائبة،وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة..لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب.بين قلب المؤمن وقدر اللّه.بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط.كما هي في عالم الحقيقة..

وبمثل هذه التوجيهات المكررة في القرآن،المؤكدة بشتى أساليب التوكيد،استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين،على نحو بديع،هادئ،عميق،مستنير.

عرفوا أن اللّه هو الفاعل - وحده - وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل اللّه باتخاذ الوسائل والأسباب،وبذل الجهد،والوفاء بالتكاليف..فاستيقنوا الحقيقة،وأطاعوا الأمر،في توازن شعوري وحركي عجيب!

ولكن هذا إنما جاء مع الزمن،ومع الأحداث،ومع التربية بالأحداث،والتربية بالتعقيب على الأحداث..كهذا التعقيب،ونظائره الكثيرة،في هذه السورة..

وفي هذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول - ﷺ- يعدهم الملائكة مددا من عند اللّه إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات في المعركة - حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا..ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل - من وراء نزول الملائكة - وهو اللّه.الذي تتعلق الأمور كلها بإرادته،ويتحقق النصر بفعله وإذنه.

{ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (١٢٦) سورة آل عمران

«فهو العزيز» القوي ذو السلطان القادر على تحقيق النصر.وهو «الْحَكِيمِ» الذي يجري قدره وفق حكمته.والذي يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة..

ثم يبين حكمة هذا النصر..أي نصر..وغاياته التي ليس لأحد من البشر منها شيء:« لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ»..

[٤٧٠٣] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٣)

إن النصر من عند اللّه.لتحقيق قدر اللّه.وليس للرسول – ﷺ– ولا للمجاهدين معـــه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي.كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقـــه،وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء! فلا هم أسباب هذا النصر وصـــانعوه ولا هـــم أصحاب هذا النصر ومستغلوه! إنما هو قدر اللّه يتحقق بحركـــة رجاله،وبالتأييـــد مـــن عنده.لتحقيق حكمة اللّه من ورائه وقصده:«لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا»..

فينقص من عددهم بالقتل،أو ينقص من أرضهم بالفتح،أو ينقص من سلطانهم بالقهر،أو ينقص من أموالهم بالغنيمة،أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة! «أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ»..

أي يصرفهم مهزومين أذلاء،فيعودوا خائبين مقهورين.

«أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة،وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم،فيتوب اللّه عليهم من كفرهم،ويختم لهم بالإسلام والهداية..

«أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ»..يعذبهم بنصر المسلمين عليهم.أو بأسرهم.أو بموتهم علـــى الكفر الذي ينتهي بهم إلى العذاب..جزاء لهم على ظلمهـــم بـــالكفر،وظلمهم بفتنـــة المسلمين،وظلمهم بالفساد في الأرض،وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه..إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل اللّه.

وعلى أية حال فهي حكمة اللّه،وليس لبشر منها شيء..حتى رسول اللّه – ﷺ– يخرجه النص من مجال هذا الأمر،ليجرده للّه وحده – سبحانه – فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك.

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر:من أسبابه ومن نتائجـــه! وبـــذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين،ومن البطر والعجـــب والزهـــو الذي تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شـــيء،إنما الأمر كله للّه أولا وأخيرا.

وبذلك يرد أمر الناس – طائعهم وعاصيهم – إلى اللّه.فهذا الشأن شأن اللّه وحـــده – سبحانه.شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها:طائعهم وعاصيهم سواء..وليس للنبي

- ﷺ- وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم،ثم ينفضوا أيديهم من النتائج،وأجرهم من اللّه على الوفاء،وعلى الولاء،وعلى الأداء.وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص:«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيء » فسيرد في السياق قول بعضهم:«هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيء ؟»..وقولهم:«لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا.»..ليقول لهم:إن أحدا ليس له من الأمر من شيء.لا في نصر ولا في هزيمة.إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس.وأما الأمر بعد ذلك فكله للّه.ليس لأحد منه شيء.ولا حتى لرسول اللّه..فهي الحقيقة الأصيلة في التصور الإسلامي.وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث،وأكبر من شتى الاعتبارات..[٤٧٠٤]

اليأس من إيمان الكفار:

قال تعالى:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف:١١٠]

يذكّر الله تعالى رسوله ﷺ بأنّه أرْسل رسلاً قبْله فاقْتضتْ حكْمته تعالى أنْ يتراخى نصْر الله عن الرّسل،وأنْ يتطاول عليْهم التّكْذيب منْ قوْمهمْ،حتّى إذا زلْزلت النّفوس،واسْتشْعرت القنوط واليأْس من النّجاة والنّصْر،فحينئذٍ يأْتي نصْر الله،فينجّي منْ يشاء الله إنْجاءه،ويهْلك منْ يشاء إهْلاكه،ولا يردّ أحدٌ بأْس الله وعقابه عن القوْم المجْرمين.

وفي قوْله تعالى (كذبوا) قراءتان:

الأولى - (كذّبوا) - بضمّ الكاف وتشْديد الذّال - وكذلك كانتْ تقْرؤها عائشة رضْوان الله عليْها - ومعْناها:إنّ الرّسل اسْتيْقنوا أنّ قوْمهمْ قدْ كذّبوهمْ،ولنْ يؤْمنوا لهمْ،ويئسوا منْ قوْمهم الكافرين.

[٤٧٠٤] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٧٠)

والثّانية – (كذبوا) – بضم الكاف وتخْفيف الذّال – وكذلك كان يقْرؤها ابْن عبّاسٍ – ومعْناها:إنّه لّما يئس الرّسل منْ أنْ يسْتجيب لهمْ قوْمهمْ،وظنّ قوْمهمْ أنّ الرّسل قدْ كذبوهمْ،جاء نصْر الله فأيّد الرّسل.

ففي القراءة الأوْلى:يشْعر الرّسل أنّهمْ كذّبوا منْ قبل أقْوامهمْ.

وفي القراءة الثّانية:يدْرك القوْم أنّ الرّسل كذبوهمْ بما جاؤوهمْ به.[٤٧٠٥]

استيئس:واجه اليأس،ووقع فى تصوره أن لا ملجأ،ولا نجاة،وذلك فى لقاء الأحداث،ومصادمة الشدائد..كذبوا:أي كذب عليهم،إذ لم يتحقق لهم ما وعدوا به إلى أن بلغ بهم الحال إلى هذا اليأس..وقوله تعالى:«حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا»..حتّى حرف غاية لما قبله..وهنا كلام محذوف هو الغاية التي يشير إليها هذا الحرف..والتقدير:

أن مهمة الرسل هى الوقوف فى وجه هذا الظلام الزاحف،والتصدّى لتلك القوى العاتية من قوى الشرّ والعدوان،وأنهم مطالبون بأن يثبتوا،ويصبروا،ويصابروا.فإن نصر الله آت لا ريب فيه..وهكذا يظل الرسل فى متلاطم الشدائد والمحن،حتى لقد يدخل اليأس عليهم،وتغيم الحياة فى أعينهم،ويغمّ عليهم طريق النجاة،ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم- عندئذ تهب ريح النصر،وتطلع عليهم تباشير الصباح،فتطوى جحافل الظلام،وتطارد فلوله..

وإذا دولة الباطل قد ذهبت،وذهبت آثارها،وإذا راية الحق قد علت،وخفقت أعلامها..

وفى هذا تسلية للنبيّ الكريم،وشحد لعزيمته،وتثبيت لقدمه،وتطمين لقلبه،وتأكيد للوعد الذي وعد به من ربّه فى قوله تعالى:«كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢١:المجادلة) هذا،وليس فى استيئاس الرسل،وفى إطافة الظنون بهم،وبأنهم قد كذبوا- ليس فى هذا ما ينقص من قدر الرّسل،أو يشكك فى كمال إيمانهم بربهم،واستيقانهم من صدق وعده..فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به،ولكن هناك مواقف حادّة من الضيق،وأحوال بالغة من الشدّة،تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره،وتمثّل له الحقائق

[٤٧٠٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

المحسوسة التي عايشها،ونزلت من عقله مترل اليقين،وقد قلبت أوضاعها،وتبدّلت حقائقها- عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف،يخون الإنسان يقينه،ويفلت منه زمام أمره..ثم يعود إلى موقفه،أشدّ تثبتا،وأقوى يقينا،وأرسخ قدما..إنها سحابة صيف،تغشى وجه الشمس،ثم لا تلبث حتى تزول،وتسفر الشمس عن وجه أبهى بهاء،وأضوأ ضوءا،وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة..فتلك الحال التي تمثل الرسل فى هذا الموقف،هى القمة التي تنتهى عندها طاقة الاحتمال البشرى،فى مصادمة الأحداث،ومدافعة الأهوال والشدائد..

وهى قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله..حيث تون الخطوة التالية بعدها الخلاع من عالم البشر،إلى العالم العلوىّ،وعندها تهبّ ريح النصر،وتجىء أمداد السماء.! وفى هذا ابتلاء للرسل،واستخلاص لكل ما عندهم من مذخور..من قوى الصبر والعزم والإيمان..

قوله تعالى:«فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» - إشارة إلى أن نصر الله الذي يحقق به لرسله ما وعدهم به،يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين..فإن هذا النصر إنما يمشى على جثث أعداء الرسل،الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية،ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة،حتى لكادوا يفتنونهم فى دينهم:«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (٣٢:التوبة) [٤٧٠٦]

يخبر تعالى:أنه يرسل الرسل الكرام،فيكذبهم القوم المجرمون اللئام،وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق،ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل – على كمال يقينهم،وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده – ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس،ونوع من ضعف العلم والتصديق،فإذا بلغ الأمر هذه الحال {جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ} وهم الرسل وأتباعهم،{وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

[٤٧٠٦] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٥٩)

الْمُجْرِمِينَ} أي:ولا يرد عذابنا،عمن اجترم،وتجرأ على الله {فمـــا لـــه مـــن قـــوة ولا ناصر}.[٤٧٠٧]

إنها صورة رهيبة،ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرســـل،وهم يواجهـــون الكفر والعمى والإصرار والجحود.وتمرُّ الأيام وهم يـــدعون فـــلا يســـتجيب لهـــم إلا قليل،وتكرُّ الأعوام والباطل في قوته،وكثرة أهله،والمؤمنون في عـــددهم القليلـــة وقـــوهم الضئيلة.

إنها ساعات حرجة،والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر.والرسل ينتظرون الوعد فـــلا يتحقق لهم في هذه الأرض.فتهجس في خواطرهم الهواجس..تراهم كذبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فـــوق مـــا يطيقـــه بشر.وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى:«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَـــلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ:مَتى نَصْرُ اللَّهِ؟...» ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة مـــن تصـــور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ،ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس،والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة،وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات،ومـــا يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب،ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل،ولا تبقـــى ذرة من الطاقة المدخرة..في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسمـــا فاصـــلا:«جـــاءَهُمْ نَصْرُنا،فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ،وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة اللّه في الدعوات.لا بد من الشدائد،ولا بد من الكروب،حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة.ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بهـــا الناس.يجيء النصر من عند اللّه،فينجو الذين يستحقون النجاة،ينجون من الهلاك الـــذي

[٤٧٠٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٠٧)

يأخذ المكذبين،وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون.ويحل بـــأس اللّه بالمجرمين،مدمرا ماحقا لا يقفون له،ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا.فلو كان النصر رخيصا لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئا.أو تكلفه القليل.ودعوات الحق لا يجـــوز أن تكـــون عبثا ولا لعبا.فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج،ينبغي صـــيانتها وحراســـتها مـــن الأدعياء.والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة،لذلك يشفقون أن يدّعوها،فإذا ادّعوهـــا عجزوا عن حملها وطرحوها،وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة اللّه،ولو ظنوا أن النصر لا يجيـــئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى اللّه ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحا معينـــا محـــددا في هـــذه الأرض،وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى اللّه في المجتمعات الجاهلية – والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغـــير اللّه بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان – يجب أن يوطن نفسه على أنـــه لا يقـــوم برحلة مريحة،ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنـــه يواجـــه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأســـود أبـــيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجمـــاهير ذاتهـــا علـــى أصـــحاب الـــدعوة إلى اللّه،باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى اللّه يريدون حرمانها من هـــذه الشهوات!..ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى اللّه كثيرة التكاليف،وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا.وأنه من ثم لا تنضم إليها – في أول الأمـــر – الجماهير المستضعفة،إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله،التي تؤثر حقيقة هـــذا الدين على الراحة والسلامة،وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا.وأن عدد هـــذه الصـــفوة يكون دائما قليلا جدا.

ولكن اللّه يفتح بينهم وبين قومهم بالحق،بعد جهاد يطول أو يقصر.وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين اللّه أفواجا.[٤٧٠٨]

وعد الله بنصر الرسل وأتباعهم:

قال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) } [غافر]

يقول الله تعالى،إنّه سيجْعل رسله هم الغالبين لأعْدائهمْ ومعانديهمْ،وإنّه سينْصر معهم المؤْمنين بهمْ في الحياة الدّنْيا،وذلك يكون بالطّرق التّالية:

- إمّا بجعْلهمْ غالبين على منْ كذّبهم،كما فعل بداود وسليمان ومحمّد،عليْهم السّلام.

- وإمّا بالانْتقام ممّنْ عاداهمْ وآذاهمْ،وإهْلاكه إيّاهمْ،وإنْجائه الرّسل والمؤْمنين،كما فعل بنوحٍ وهودٍ وصالحٍ وموسى ولوطٍ.

- وإمّا بالانْتقام ممّنْ آذى الرّسل بعْد وفاة الأنْبياء والرّسل،بتسْليط بعْض خلْق الله على المكذّبين المجْرمين لينْتقموا منْهمْ،كما فعل مع زكريا ويحْيى،عليْهما السّلام.

وكما أنّ الله تعالى ينْصر رسله والمؤْمنين بدعْوتهمْ في الحياة الدّنْيا،كذلك ينْصرهمْ يوْم القيامة،وهو اليوم الذي يقوم فيه الأشْهاد من الملائكة والأنْبياء والمؤْمنين،بالشّهادة على الأمم المكذّبة بأنّ الرّسل قدْ أبْلغوهمْ رسالات ربّهمْ.

ويوْم يقوم الأشْهاد بيْن يديْ ربّ العباد يؤدّون شهاداتهمْ،في ذلك اليوْم لا ينْفع أهْل الشّرْك اعْتذارهمْ لأنّ أعْذارهمْ باطلةٌ،مرْدودةٌ،ولهمْ في ذلك اليوْم اللّعْنة والطّرْد منْ رحْمة الله،ولهمْ سوء العاقبة والقرار في جهنّم،وبئْس المسْتقرّ والمأْوى.[٤٧٠٩]

وإذ يلقى الكافرون الخذلان فى جهنم،فلم يقبل منهم قول،ولم يستجب لهم دعاء- فإن شأن رسل الله،والمؤمنين بالله،غير هذا..إنهم أهل كرامة على الله فى الدنيا وفى الآخرة..إنه سبحانه وليّهم فى الدنيا وفى الآخرة..ففى الدنيا،يؤيدهم بنصره،وفى الآخرة،يؤمّنهم من

[٤٧٠٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٦٨١)

[٤٧٠٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٠٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

فزع هذا اليوم،ويترلهم منازل رحمته ورضوانه فى جنات لهم فيها نعيم مقيم..وقوله تعالى:«وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» أي يوم القيامة،حيث يقوم على الناس من يؤدى شهادته عليهم،من رسل الله،ومن جوارحهم التي تقوم شاهدة عليهم..[٤٧١٠]

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية.ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة.

وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.

إن وعد اللّه قاطع جازم:«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا..»..بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا،وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب،وفيهم من يلقى في الأخدود،وفيهم من يستشهد،وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد..فأين وعد اللّه لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل،ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور.ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان،وحيز محدود من المكان.وهي مقاييس بشرية صغيرة.فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان،ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان.ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك.وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها.فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها.وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم،قريبة الرؤية لأعينهم.ولكن صور النصر شتى.وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة..إبراهيم عليه السّلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها..أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك – في منطق العقيدة – أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار.كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار.هذه صورة وتلك صورة.وهما في الظاهر بعيد من بعيد.فأما في

[٤٧١٠] – التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٤٦)

الحقيقة فهما قريب من قريب!..والحسين – رضوان اللّه عليه – وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب،المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة.فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا.فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف،وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان اللّه عليه.يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين.من المسلمين.وكثير من غير المسلمين![٤٧١١]

وعد الله تعالى باستخلافنا في الأرض:

قال تعالى:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]

هذا وعْدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنّه سيجْعل منْ أمّته خلفاء في الأرْض،وأئمّةً للنّاس،وأنّه سيبدّلهمْ بعْد خوْفهمْ من النّاس أمْناً وحكْماً فيهمْ.وقدْ أمْضى المسْلمون عشْر سنين في مكّة يدْعون النّاس إلى الإسْلام سرّاً،وهمْ خائفون لا يؤْمرون بالقتال،حتّى أمروا بالهجْرة إلى المدينة،وأمروا بالقتال،فكانوا خائفين يمْسون بالسّلاح،ويصْبحون بالسّلاح،فصبروا على ذلك ما شاء الله.ثمّ إنّ رجلاً من الصّحابة قال:يا رسول الله أبد الدّهْر نحْن خائفون هكذا؟ ما يأتي عليْنا يوْمٌ نأمن فيه،ونضع السّلاح؟ فقال الرّسول ﷺ:لنْ تصْبروا إلاّ يسيراً حتّى يجْلس الرّجل منْكم في الملأ العظيم محْتبياً ليْستْ فيه حديدةٌ).وأنْزل الله تعالى هذه الآية.

وفي هذه الآية يقول تعالى إنّه سيسْتخْلف المؤْمنين في الأرْض،كما اسْتخلف المؤْمنين منْ قبْلهم،وسيكون لهم الأمْر.وحقّ الله على العباد أنْ يعْبدوه وحْده لا شريك له،ومنْ خرج

[٤٧١١]- في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٨٠)

بعْد ذلك عنْ طاعة ربّه،وجحد نعمه عليْه،فقدْ خرج عنْ أمْر ربّه وكفى بــذلك ذنْبــاً عظيماً.[٤٧١٢]

الخطاب هنا للمؤمنين جميعا،فى مواجهة المنافقين..وأن هؤلاء المؤمنين موعودون من الله- إذا هم صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح- أن يستخلفهم فى الأرض،أي يجعلــهم خلفــاءه عليها،ويجعل إلى أيديهم السلطان المتمكن فيها..فالإنسان هو خليفــة الله علــى هــذه الأرض،ولن يكون أهلا لهذه الخلافة إلا إذا صحّت إنسانيته،وسلمت فطرتــه.أمــا إذا انحرف،وفسد،فإنه ينزل عن هذه الخلافة،ويخلى مكانه منها،ليأخذ مكانه بين حيوانــات الأرض ودوابّها.

وقوله تعالى:«كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» - إشارة إلى من استخلفهم الله من عباده المؤمنين الصالحين،بعد أن أهلك القوم الظالمين..وهذا ما يشير إليه قوله تعــالى:«وَقــالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَــيْهِمْ رَبُّهُــمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ» (١٣- ١٤:إبراهيم)..وكذلك قوله سبحانه:«وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الــذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» (١٠٥:الأنبياء).

فالمؤمن بالله،المستقيم على طريق الحق والهدى،هو أقوى الناس قوة،وأقدرهم على جــنى أطيب الثمرات مما على هذه الأرض..وبهذا يكون له السلطان المتمكن فيها..

- قوله تعالى:«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ» أي أن المؤمنين الــذين عرفــوا حقيقة الإيمان،وأدوا ما يقتضيه الإيمان منهم،من عمل صالح- هم أهل لأن يجمعــوا إلى أيديهم الدنيا،والدين جميعا،فتكون لهم العزة،ويكون لدينهم الغلب والتمكين.وهذا مــا يشير إليه قوله تعالى:«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»..

فالمؤمنون الذين لهم العزة هنا،إنما يستمدون عزتهم من عزة الرسول،الذي يستمد عزتــه من ربه..

فهم بهذا موصولون بالله،باتباعهم رسول الله،وما أنزل إليه من ربه.

[٤٧١٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٧٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

وهيهات أن يكون لإنسان ذليل ضعيف،دين،أو أن يقوم دين لدولة فى مجتمع مريض هزيل!

والدّين الذي ارتضاه الله للمؤمنين،هو الإسلام،كما يقول سبحانه وتعالى فى آخر آيات القرآن نزولا:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» (٣:المائدة).

فالإسلام،هو الدين الذي قامت فى ظلّه الشرائع السماوية،كما يقول تعالى:

«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»..هو الدين الذي خلص كلّه للأمة الإسلامية..

كما يقول سبحانه:«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»..وكما يقول سبحانه:«وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» (١٩٣:البقرة)..

وفى قوله تعالى:«وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» إشارة إلى ما يكسبه الإيمان الحق أهله،من عزّة ومنعة وقوة،وأنهم بهذا الإيمان قد أمنوا أن يزيحهم الكافرون والمشركون والمنافقون عن دينهم،وأن يفتنوهم فيه..ومن ثمّ فإنهم يعبدون الله بقلوب خلصت من المداهنة والنفاق،والشرك..فلا يلتفتون إلى غير الله،ولا يعطون ولاءهم لسلطان غير سلطان الله.

وقوله تعالى:«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ»..أي من حدّثته نفسه بالإقلاع عن الإسلام،والعودة إلى الكفر،بعد أن لبس ثوب العزّة،وأمن الفتنة فى دينه من جور الجائرين،وظلم الظالمين- فهو من الفاسقين..أي الخارجين طوعا عن دينهم،وليس لهم ثمّة عذر..فهم كافر وفاسق معا..

وهذه الآية،تواجه المنافقين..كما قلنا- بما يسوءهم ويكبتهم،وذلك بهذا الوعد الكريم من الله بإعزاز المؤمنين،والتمكين لهم،واستخلافهم فى الأرض..وأن المنافقين إذ كانوا ينظرون إلى حال المؤمنين يومئذ،وإلى ما يعجبهم من كثرة المشركين وغلبتهم،فإن الدولة وشيكة،أن تكون للمؤمنين..

فليبادروا إلى هذا المغنم،وليأخذوا مكانهم بين المؤمنين منذ اليوم،وإلا فلن يكون لهم مكان بعد أن يفوتهم الركب،وهم بمنقطع الطريق.[٤٧١٣]

وقال السعدي:" هذا من أوعاده الصادقة،التي شوهد تأويلها ومخبرها،فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة،أن يستخلفهم في الأرض،يكونون هم الخلفاء فيها،المتصرفين في تدبيرها،وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم،وهو دين الإسلام،الذي فاق الأديان كلها،ارتضاه لهذه الأمة،لفضلها وشرفها ونعمته عليها،بأن يتمكنوا من إقامته،وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة،في أنفسهم وفي غيرهم،لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين،وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه،وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار،وكون جماعة المسلمين قليلين جدا بالنسبة إلى غيرهم،وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة،وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية،وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها،والتمكين من إقامة الدين الإسلامي،والأمن التام،بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئا،ولا يخافون أحدا إلا الله،فقام صدر هذه الأمة،من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم،فمكنهم من البلاد والعباد،وفتحت مشارق الأرض ومغاربها،وحصل الأمن التام والتمكين التام،فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة،ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة،مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح،فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله،وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين،ويديلهم في بعض الأحيان،بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

{وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ} التمكين والسلطنة التامة لكم،يا معشر المسلمين،{فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} الذين خرجوا عن طاعة الله،وفسدوا،فلم يصلحوا لصالح،ولم يكن فيهم أهلية للخير،لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره،وعدم وجود الأسباب المانعة منه،يدل على فساد نيته،وخبث طويته،لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.ودلت هذه الآية،أن

[٤٧١٣] - التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٣١٤)

الله قد مكن من قبلنا،واستخلفهم في الأرض،كما قال موسى لقومه:{وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} وقال تعالى:{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرْضِ}[٤٧١٤]

قال ابن كثير:

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ.بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ،أَيْ:أئمةَ النَّاسِ والولاةَ عَلَيْهِمْ،وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ،وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ،ولَيُبدلَنّ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ،وَقَدْ فَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ.وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ،فَإِنَّهُ لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَخَيْبَرَ وَالْبَحْرَيْنِ،وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَرْضَ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا.وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ،وَمِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ،وَهَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ وَصَاحِبُ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ -وَهُوَ الْمُقَوْقِسُ -وَمُلُوكُ عُمَانَ وَالنَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ،الَّذِي تَملَّك بَعْدَ أصْحَمة،رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَهُ.ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ،قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،فَلَمّ شَعَث مَا وَهَى عِنْدَ مَوْتِهِ،عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأَطَّدَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَمَهَّدَهَا،وَبَعَثَ الْجُيُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ صُحْبَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا،وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا.وَجَيْشًا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ،وَثَالِثًا صُحْبَةَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،إِلَى بِلَادِ مِصْرَ،فَفَتَحَ اللَّهُ لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصرى وَدِمَشْقَ ومَخَالِيفهما مِنْ بِلَادِ حَوران وَمَا وَالَاهَا،وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.ومَنّ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِأَنْ أَلْهَمَ الصِّدِّيقَ أَنِ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ الْفَارُوقَ،فَقَامَ فِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًّا،لَمْ يَدُرِ الْفَلَكُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ [عَلَيْهِمُ السَّلَامُ] عَلَى مِثْلِهِ،فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَكَمَالِ عَدْلِهِ.وَتَمَّ فِي أَيَّامِهِ فَتْحُ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا،وَدِيَارِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا،وَأَكْثَرِ إِقْلِيمِ فَارِسَ،وكَسَّر كِسْرَى وَأَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ،وَتَقَهْقَرَ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ،وقَصَّر قَيْصَرَ،وَانْتَزَعَ يَدَهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ فَانْحَازَ إِلَى قُسْطَنْطِينَةَ،وَأَنْفَقَ أموالهما في سبيل الله،كما أخبر بِذَلِكَ وَوَعَدَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ،عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَتَمُّ سَلَامٍ وَأَزْكَى صَلَاةٍ.

[٤٧١٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٧٣)

ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ،امْتَدَّتِ الْمَمَالِيكُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا،فَفُتِحَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَى أَقْصَى مَا هُنَالِكَ:الْأَنْدَلُسُ،وَقُبْرُصُ،وَبِلَادُ الْقَيْرَوَانِ،وَبِلَادُ سَبْتَةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمُحِيطَ،وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ،وَقُتِلَ كِسْرَى،وَبَادَ مُلْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ.وَفُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ،وَخُرَاسَانُ،وَالْأَهْوَازُ،وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التُّرْكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا،وَخَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ،وجُبِي الْخَرَاجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ؛وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[٤٧١٥]

فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيمَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْإِيمَانَ بِهِ،وَبِرَسُولِهِ،وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ،قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقَضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمِ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً»،قَالَ:ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ عَلَيَّ،قَالَ:فَقُلْتُ لِأَبِي:مَا قَالَ؟ قَالَ:«كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[٤٧١٦]

[٤٧١٥] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكترين الأحمر والأبيض) المراد بالكترين الذهب والفضة والمراد كترا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

[٤٧١٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٢) ٥ - (١٨٢١)

[ش (إن هذا الأمر لا ينقضي) وفي رواية لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا كلهم من قريش وفي رواية لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش قال القاضي قد توجه هنا سؤالان أحدهما أنه قد

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً عَادِلًا وَلَيْسُوا هُمْ بِأَئِمَّةِ الشِّيعَةِ الاثْنَيْ عَشَرَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ،فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِنْ قُرَيْشٍ،يَلُونَ فَيَعْدِلُونَ.وَقَدْ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ،ثُمَّ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ مُتَتَابِعِينَ،بَلْ يَكُونُ وُجُودُهُمْ فِي الْأُمَّةِ مُتَتَابِعًا وَمُتَفَرِّقًا،وَقَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ عَلَى الْوَلَاءِ،وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ،ثُمَّ عُمَرُ،ثُمَّ عُثْمَانُ،ثُمَّ عَلِيٌّ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهُمْ فَتْرَةٌ،ثُمَّ وُجِدَ مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ فِي وَقْتٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ.وَمِنْهُمُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يُطَابِقُ اسْمُهُ اسْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتَهُ،يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا،كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا.

وعَنْ سَفِينَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،يَقُولُ:«الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا»،قَالَ:أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَتَيْنِ،وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَشْرًا،وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ،وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِتًّا،قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ:قُلْتُ لِحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ:سَفِينَةُ الْقَائِلُ:أَمْسِكْ؟ قَالَ:«نَعَمْ»[٤٧١٧]

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،فِي قَوْلِهِ:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ،وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [النور:٥٥] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ،فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلَاحِ،وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ،فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ:يَا

جاء في الحديث الآخر الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا وهذا مخالف لحديث اثني عشر خليفة فإنه لم يكن في ثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي قال والجواب عن هذا أن المراد في حديث الخلافة ثلاثون سنة خلافة النبوة وقد جاء مفسرا في بعض الروايات خلافة النبوة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ولم يشترط في هذا الاثني عشر-السؤال الثاني أنه ولي أكثر من هذا العدد قال وهذا اعتراض باطل لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل لا يلي إلا اثنا عشر خليفة وإنما قال يلي وقد ولي هذا العدد ولا يضرهم كونه وجد بعدهم غيرهم ويحتمل أن يكون المراد مستحق الخلافة العادلين قال ويحتمل أن المراد من يعز الإسلام في زمنه ويجتمع المسلمون عليه]

[٤٧١٧] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٣٩٢)(٦٩٤٣) صحيح

رَسُولَ اللَّه أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائفُونَ هَكَذَا،مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فيه وَنَضَعُ فيه السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" لَنْ تَغْبُرُوا إِلَّا يَسيرًا حَتَّى يَجْلسَ الرَّجُلُ منْكُمْ في الْمَلَأ الْعَظيم مُحْتَبيًا لَيْسَتْ فيه حَديدَةٌ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا} [النور:٥٥] " إِلَى آخرِ الْآيَة فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبيَّهُ عَلَى جَزيرَة الْعَرَب فَأَمنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاحَ،ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلكَ آمنَيْنِ في إِمَارَة أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فيمَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بالنِّعْمَة فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذي كَانَ رُفعَ عَنْهُمْ،وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ،وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بهم"[4718]

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَف:خلَافَة أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،حَقٌّ في كتَابه،ثُمَّ تَلَا هَذه الْآيَةَ.

وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازب:نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ،وَنَحْنُ في خَوْف شَديد.

وَهَذه الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْله تَعَالَى:{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الأرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بنَصْرِه وَرَزَقَكُمْ منَ الطَّيِّبَات لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الْأَنْفَال:٢٦].

وَقَوْلُهُ:{كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ} كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى،عَلَيْه السَّلَامُ،أَنَّهُ قَالَ لقَوْمه:{عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلفَكُمْ في الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الْأَعْرَاف:١٢٩]،وَقَالَ تَعَالَى:{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعفُوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأرْضِ وَنُرِيَ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا منْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [الْقَصَص:٥،٦].

وَقَوْلُهُ:{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا} عَنْ رَجُلٍ،قَالَ:قُلْتُ لعَديِّ بْن حَاتمٍ:حَديثٌ بَلَغَني عَنْكَ أُحبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ منْكَ،قَالَ:نَعَمْ،لَمَّا بَلَغَني خُرُوجُ رَسُولِ الله ﷺ،فَكَرِهْتُ خُرُوجَهُ كَرَاهَةً شَديدَةً،خَرَجْتُ حَتَّى وَقَعْتُ نَاحيَةَ

[4718] - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (٨/ ٢٦٢٩)(١٤٧٧٢) حسن مرسل

الرُّومِ،وَقَالَ،يَعْنِي يَزِيدَ بِبَغْدَادَ،حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى قَيْصَرَ،قَالَ:فَكَرِهْتُ مَكَانِي ذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ كَرَاهِيَتِي لِخُرُوجِهِ،قَالَ:فَقُلْتُ:وَاللَّهِ،لَوْلَا أَتَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ،فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَضُرَّنِي،وَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَلِمْتُ،قَالَ:فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُهُ،فَلَمَّا قَدِمْتُ قَالَ النَّاسُ:عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ،عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ.قَالَ:فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ لِي:يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ،أَسْلِمْ تَسْلَمْ ثَلَاثًا،قَالَ:قُلْتُ:إِنِّي عَلَى دِينٍ،قَالَ:أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ فَقُلْتُ:أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي ؟ قَالَ:نَعَمْ،أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ،وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ ؟ قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ،قَالَ:فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا،فَتَوَاضَعْتُ لَهَا،فَقَالَ:أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلَامِ،تَقُولُ:إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ،وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ،وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ.أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟ قُلْتُ:لَمْ أَرَهَا،وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا.قَالَ:فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ،حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ،حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ،وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ،قَالَ:قُلْتُ:كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ؟ قَالَ:نَعَمْ،كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ،وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ:فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ،فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ،وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ،وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ،لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا."[4719]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ،وَالرِّفْعَةِ،وَالنَّصْرِ،وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ،فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمِ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا،لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ "[4720]

وَقَوْلُهُ: {يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ،فَقَالَ:«يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ،ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ:«يَا مُعَاذُ» قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ،ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ:«يَا مُعَاذُ» قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ،قَالَ:«هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ» قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ

[4719] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ٢٤٦)(١٨٢٦٠) ١٨٤٤٩- صحيح لغيره

[4720] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٥/ ١٤٦)(٢١٢٢٢) حسن

يَعْبُدُوهُ،وَلاَ يُشْرِكُوا به شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً،ثُمَّ قَالَ:«يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ:لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ،فَقَالَ:«هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العبَاد عَلَى اللَّه إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ:اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«حَقُّ العبَاد عَلَى اللَّه أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ».[4721]

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ} أَيْ:فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتي بَعْدَ ذَلكَ،فَقَدْ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه وَكَفَى بذَلكَ ذَنْبًا عَظيمًا.فَالصَّحَابَةُ،رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،لَمَّا كَانُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبيِّ ﷺ بأَوَامرِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ،وَأَطْوَعَهُمْ للَّه -كَانَ نَصْرُهُمْ بحَسَبِهِمْ،وَأَظْهَرُوا كَلمَةَ اللَّه في الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب،وَأَيَّدَهُمْ تَأْييدًا عَظيمًا،وَتَحَكَّمُوا في سَائرِ الْعبَاد وَالْبلَاد.وَلَمَّا قَصَّرَ النَّاسُ بَعْدَهُمْ في بَعْضِ الْأَوَامرِ،نَقَصَ ظُهُورُهُمْ بحَسَبِهِمْ،وَلَكنْ قَدْ ثَبَتَ في الصَّحيحِ عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«لَا تَزَالُ طَائفَةٌ منْ أُمَّتي ظَاهرِينَ عَلَى الْحَقِّ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ،حَتَّى يَأْتيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلكَ»[4722]

وعَنْ مُطَرِّف،قَالَ:قَالَ لي عمْرَانُ إِنِّي لأُحَدِّثُكَ بالْحَديث الْيَوْمَ ليَنْفَعَكَ اللَّهُ به بَعْدَ الْيَوْم.اعْلَمْ أَنَّ خَيْرَ عبَاد الله يَوْمَ الْقيَامَة الْحَمَّادُونَ،وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ تَزَالَ طَائفَةٌ منْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ يُقَاتلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتلُوا الدَّجَّالَ،وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَعْمَرَ طَائفَةً منْ أَهْله في الْعَشْرِ،فَلَمْ تَنْزلْ آيَةٌ تَنْسَخُ ذَلكَ،وَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى مَضَى لوَجْهِه ارْتَأَى كُلُّ امْرِئٍ بَعْدَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْتَئيَ.[4723]

[4721] - صحيح البخاري (٧/ ١٧٠)(٥٩٦٧)

[ش (آخرة الرحل) هي العودة التي يستند إليها الراكب من خلفه وهو مبالغة في شدة قربه منه]

[4722] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣)١٧٠ - (١٩٢٠)

[ش (طائفة) قال البخاري هم أهل العلم وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم قال القاضي عياض إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذاهب أهل الحديث قال الإمام النووي يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين فمنهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض(من خذلهم) يعني من خالفهم(حتى يأتي أمر الله) المراد به هو الريح التي تأتي فتاخذ روح كل مؤمن ومؤمنة]

[4723] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ٦٩٤)(١٩٨٩٥) ٢٠١٣٧- صحيح

وعَنْ أَبِي الْوَاصِلِ بْنِ عُبَيْد،قَالَ:قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي تُقَاتِلُ عَنِ الْحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَـرْيَمَ عِنْـدَ طُلُـوعِ الْفَجْـرِ بِبَيْـتِ الْمَقْدِسِ،يَنْزِلُ عَلَى الْمَهْدِيِّ،فَيُقَالُ لَهُ:تَقَدَّمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَصَلِّ لَنَا،فَيَقُولُ:إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَمِينٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "[٤٧٢٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فِي الْأَرْضِ حَكَمًا عَدْلًا،وَقَاضِيًا مُقْسِطًا،فَيُكْسَرَ الصَّلِيبَ،وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَالْقِرْدَ،وَتُوضَـعُ الْجِزْيَةُ،وَتَكُونُ السَّجْدَةُ كُلُّهَا وَاحِدَةً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[٤٧٢٥]

وكل هَذِهِ الرِّوَايَاتِ صَحِيحَةٌ،وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا.[٤٧٢٦]

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد اللّه حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله وتوجه النشاط الإنساني كله.فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صـورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى اللّه لا يبتغي به صاحبه إلا وجه اللّـه وهـي طاعة للّه واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة،لا يبقى معها هوى في النفس،ولا شـهوة في القلب،ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول اللّه - ﷺ- من عند اللّه.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسـان كلـه،بخواطر نفسـه،وخلجات قلبـه.وأشـواق روحه،وميول فطرته،وحركات جسمه،ولفتات جوارحه،وسلوكه مع ربه في أهله ومـع الناس جميعا.ويتوجه بهذا كله إلى اللّه..يتمثل هذا في قول اللّه سبحانه في الآيـة نفسـها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» والشرك مداخل وألوان،والتوجه إلى غير اللّه بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك باللّه.ذلك الإيمـان منهج حياة كامل،يتضمن كل ما أمر اللّه به،ويـدخل فيمـا أمـر اللّـه بـه تـوفير الأسباب،وإعداد العدة،والأخذ بالوسائل،والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض..أمانة الاستخلاف..فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

[٤٧٢٤] - السنن الواردة في الفتن للداني (٦/ ١٢٣٧)(٦٨٦) صحيح

[٤٧٢٥] - المعجم الأوسط (٢/ ٨٩)(١٣٤٢) صحيح

[٤٧٢٦] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٧٧)

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم..إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه اللّه للبشرية كي تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض،اللائق بخليقة أكرمها اللّه.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح،لا على الهدم والإفساد.وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة،لا على الظلم والقهر.وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري،لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات..وعدهم اللّه أن يستخلفهم في الأرض - كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم - ليحققوا النهج الذي أراده اللّه ويقرروا العدل الذي أراده اللّه ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها اللّه..فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض،وينشرون فيها البغي والجور،وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان..فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض.إنما هم مبتلون بما هم فيه،أو مبتلى بهم غيرهم،ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها اللّه آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده:«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ»..وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب،كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها.فقد وعدهم اللّه إذن أن يستخلفهم في الأرض،وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض.ودينهم يأمر بالإصلاح،ويأمر بالعدل،ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض.ويأمر بعمارة هذه الأرض،والانتفاع بكل ما أودعها اللّه من ثروة،ومن رصيد،ومن طاقة،مع التوجه بكل نشاط فيها إلى اللّه.

« وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً»..ولقد كانوا خائفين،لا يأمنون،ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول - ﷺ- إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ،فِي قَوْلِهِ:" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهَمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ،وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺوَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا

وَهُمْ خَائِفُونَ لا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ،حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاحِ،وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاحِ،فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ،ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنْ أَصْحَابِهِ،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا،مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:لَنْ تَغْبُرُوا إِلا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلأ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ"،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " إِلَى آخِرِ الآيَةِ،فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلاحَ،ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺفَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِيْنَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بِالنِّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ،وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ،وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِمْ"[٤٧٢٧].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَآوَتْهُمُ الأَنْصَارُ،رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لاَ يَبِيتُونَ إِلاَّ بِالسِّلاحِ وَلا يُصْبِحُونَ إِلاَّ فِيهِ،فَقَالُوا:تَرَوْنَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنِيْنَ مُطْمَئِنَّيْنِ لاَ نَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ ؟ فَنَزَلَتْ:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور:٥٥]".[٤٧٢٨]

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ»..الخارجون على شرط اللّه.ووعد اللّه.وعهد اللّه..

لقد تحقق وعد اللّه مرة.وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط اللّه:«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً»..لا من الآلهة ولا من الشهوات.ويؤمنون – من الإيمان – ويعملون صالحا.ووعد اللّه مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم

[٤٧٢٧] – تفسير ابن أبي حاتم [١٠ /١٩٣](١٥٥٦٨) وتفسير ابن كثير – دار طيبة [٦ /٧٩] والدر المنثور للسيوطي –موافق للمطبوع [١١ /٩٧]حسن

[٤٧٢٨] – المستدرك للحاكم مشكلا [٣ /١٦٩](٣٥١٢) صحيح – زيادة مني

القيامة.إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن.لتخلف شرط اللّه في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء،وجازت الابتلاء،وخافت فطلبت الأمن،وذلت فطلبت العزة،وتخلفت فطلبت الاستخلاف..كل ذلك بوسائله التي أرادها اللّه،وبشروطه التي قررها اللّه..تحقق وعد اللّه الذي لا يتخلف،ولا تقف في طريقة قوة من قوى الأرض جميعا.

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبألا يحسب الرسول - ﷺ- وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم:«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ.وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ»..فهذه هي العدة..الاتصال باللّه،وتقويم القلب بإقامة الصلاة.والاستعلاء على الشح،وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة.وطاعة الرسول والرضى بحكمه،وتنفيذ شريعة اللّه في الصغيرة والكبيرة،وتحقيق النهج الذي أراده للحياة:«لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال،وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

فإذا استقمتم على النهج،فلا عليكم من قوة الكافرين.فما هم بمعجزين في الأرض،وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق.وأنتم أقوياء بإيمانكم،أقوياء بنظامكم،أقوياء بعدتكم التي تستطيعون.وقد لا تكونون في مثل عدتهم من الناحية المادية.ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد اللّه في تلك الآيات.ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية،وهو يدرك شروطها على حقيقتها،قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب،أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج اللّه،وحكمت هذا النهج في الحياة،وارتضته في كل أمورها..إلا تحقق وعد اللّه بالاستخلاف والتمكين والأمن.وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة،وذلت،وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد

بها الخوف وتخطفها الأعداء.ألا وإن وعد اللّه قائم.ألا وإن شرط اللّه معروف.فمن شاء الوعد فليقم بالشرط.ومن أوفى بعهده من اللّه؟[٤٧٢٩]

الوعد بإظهار الدين:

قال تعالى:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [الصف:٩]

الله تعالى هو الذي أرْسل رسوله محمّد ﷺ بكتابٍ هو القرْآن،كفل حفْظه حتّى آخر الزّمان،فيه الهدى ودين الحقّ،وسيظْهره الله على جميع الأدْيان السّابقة،لأنّه هو الدّين الصّحيح الذي جاء بالدّعْوة الصّحيحة (التي جاءتْ بها جميع الأدْيان السّابقة) وهي دعْوة التّوْحيد والإيمان بالله وحْده لا شريك له،فبدّل النّاس،وحرّفوا فيها،فجاء الإسْلام لتصْحيح ذلك،وليعيد لدعْوة التّوْحيد صفاءها وأصالتها ولوْ كره المشْركون.[٤٧٣٠]

نور الله،هو الحق الذي يحمله رسل الله،ويبشرون به فى الناس..

أي أن هؤلاء القوم الظالمين يريدون بافترائهم الكذب،وتعمدهم له- إطفاء نور الله،وهو القرآن الكريم،وما يدعو إليه..واللام فى قوله تعالى:«ليطفئوا» هى لام العاقبة،أي يريدون الافتراء ويحملون أنفسهم عليه،ليطفئوا نور الله بأفواههم..فافتراؤهم الكذب لغاية يريدونها،هى لإطفاء نور الله..وعلى هذا المعنى جاء قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى):

أريد لأنسى ذكرها فكأنما...تمثّل لى ليلى بكل سبيل

أي أريد البعد عنها،والانفراد بنفسي فى الخلوات،لكى أنسى ذكرها،ولكن وجودها يصحبنى حيثما أكون..وفى قوله تعالى:«بأفواههم» - إشارة إلى الكذب والافتراء الذي تتفوه به أفواههم،فكأن هذه الكلمات الآثمة التي تخرج من أفواههم- هى نفثات تخرج من صدور مغيظة محنقة،ينفخون بها فى هذا المصباح الهادي،ليطفئوا نوره..قوله تعالى:«وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ»..هو تعقيب على موقف هؤلاء المفترين من

[٤٧٢٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٢٦٢)

[٤٧٣٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٦٩، بترقيم الشاملة آليا)

نور الله،ومن دينه الذي يدعو إليه رسول الله..فهذا النور سوف يبسط سلطانه على الآفاق كلها،وسيبلغ به الله سبحانه وتعالى تمام كماله،وإن كره الكافرون هذا،وإن احترقت أكبادهم حسرة وكمدا،لما سيبلغه هذا الدّين من قوة وسلطان..وتمام نور الله إنما يكون حين يطلع على آفاق الأرض جميعها،ويبسط سلطانه على كل صقع من أصقاعها.وهذا يعنى أن الإسلام سيكون يوما،هو دين الله على هذه الأرض..فذلك هو تمام نور الله الذي وعد الله سبحانه وتعالى به.

قوله تعالى:«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

أي أن الله سبحانه وتعالى،هو الذي أرسل رسوله «محمدا» بالهدى،ودين الحق،ليظهر هذا الدين،ويعليه على الدين كله،وهو ما سبقه من أديان،ولو كره المشركون هذا الظهور لدين الله..وفى هذه الآية وعد من الله سبحانه وتعالى بنصر هذا الدين،وبسط سلطانه على كل دين،لأنه الحق،الذي بلغ بالدين غاية كماله وتمامه..إنه نور الله،والله متم نوره..[4731]

يقول ابن كثير:

يَقُولُ تَعَالَى:يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ {أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} (١) أَيْ:مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ،بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ،أَوْ نُورَ الْقَمَرِ بِنَفْخِهِ،وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ،فَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ؛وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ: {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

وَالْكَافِرُ:هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ وَيُغَطِّيهِ،وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْلُ "كَافِرًا"؛لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ،وَالزَّارِعُ كَافِرًا؛لِأَنَّهُ يُغَطِّي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [الْحَدِيدِ:٢٠]

[4731] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٣٥)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} فَالْهُدَى:هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ،وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ،وَالْعِلْمِ النَّافِعِ -وَدِينُ الْحَقِّ:هِيَ الْأَعْمَالُ [الصَّالِحَةُ] (٣) الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أَيْ:عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ،كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[٤٧٣٢]

وعَنْ مَسْعُودِ بْنِ قَبِيصَةَ،أَوْ قَبِيصَةَ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ:صَلَّى هَذَا الْحَيُّ مِنْ مُحَارِبٍ الصُّبْحَ،فَلَمَّا صَلَّوْا قَالَ شَابٌّ مِنْهُمْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" إِنَّهُ سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا،وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِي النَّارِ إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ،وَأَدَّى الْأَمَانَةَ "[٤٧٣٣]

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ،بِعِزِّ عَزِيزٍ،أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ،عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ،وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ.

وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ،يَقُولُ:قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي،لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ،وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ.[٤٧٣٤]

[٤٧٣٢] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكنزين الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

[٤٧٣٣] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ١٩٤)(٢٣١٠٩) حسن لغيره

[٤٧٣٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٧٨٤)(١٦٩٥٧) ١٧٠٨٢- صحيح

وعَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّهُ سَمِعَ سُلَيْمَ بْنَ عَامِرٍ يُحَدِّثُ،أَنَّهُ سَمِعَ الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ،وَلَا وَبرٍ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ بِعِزِّ عَزِيزٍ وَبِذُلِّ ذَلِيلٍ،إِمَّا يُعِزُّهُمْ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَإِمَّا يُذِلُّهُمْ فَيُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ»[٤٧٣٥]

وعَنْ عَائِشَةَ،قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ،ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً،فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ،فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ،فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»[٤٧٣٦]

فلقد ظهر دين الحق،لا في الجزيرة وحدها،بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان.ظهر في امبراطورية كسرى كلها،وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر،وظهر في الهند وفي الصين،ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها،وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)..وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله - حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها،وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأبيض.وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله،من حيث هو دين.فهو الدين القوي بذاته،القوي بطبيعته،الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل

[٤٧٣٥] - المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٢٥٤)(٦٠١) صحيح

[٤٧٣٦] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٠)٥٢ - (٢٩٠٧) وتفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ١٣٦)

[ش (لا يذهب الليل والنهار) أي لا ينقطع الزمان ولا تأتي القيامة (فتوفى) أصله تتوفى حذفت إحدى التاءين أي تأخذ الأنفس وافية تامة]

والروح،وحاجات العمران والتقدم،وحاجات البيئات المتنوعة،من ساكني الأكـواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام،ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصـب والهـوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة،وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة،وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..«وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً»..

فوعد اللّه قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعـد البعثـة المحمدية.ووعد اللّه ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة وما يزال هـذا الـدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته.بل إنه هـو الـدين الوحيـد البـاقي قـادرا علـى العمل،والقيادة،في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليـوم! فغـير أهلـه يدركونها ويخشونها،ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب![٤٧٣٧]

لقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل،وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم.حاربوه بالاتهام:«فَلَمَّا جـاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا:هذا سِحْرٌ مُبِينٌ»..

كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد.وحاربوه بالـدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي،للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة،وبين الأوس والخزرج من الأنصار.وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تـارة.وحـاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب.

وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد اللّه بن أبي بـن سلول،ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو اللّه عبد اللّه بن سبأ.وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم.

[٤٧٣٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٦٥)

و لم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة.فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام،وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير ونـــاة ولا هدنة في جيل من الأجيال.حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق،وحاربوه في الأندلس في المغرب،وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه «الرجل المريض»..واحتاجوا أن يخلقوا أبطالا مـــزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإســـلام.فلمـــا أرادوا تحطـــيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإســـلامي صـــنعوا في تركيـــا «بطلا»!..

ونفخوا فيه.وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا في أعين مواطنيه.بطلا يستطيع إلغاء الخلافـــة،وإلغاء اللغـــة العربية،وفصـــل تركيـــا عـــن المسلمين،وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين!

وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركـــات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين،ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غـــير راية الدين.

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ.وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ»..

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة،ويرسم في الوقت ذاته صـــورة تـــدعو إلى الرثـــاء والاستهزاء!

فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم:«هذا سِحْرٌ مُبِينٌ»..ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد.وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور اللّه بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!

«وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ»..وصدق وعد اللّه.أتم نورة في حيـــاة الرســـول - ﷺ- فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختـــار.صـــورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة،تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب،ولكن حقيقة في عالم الواقع.وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإســـلام

دينا يحبونه،ويجاهدون في سبيله،ويرضى أحـدهم أن يلقـى في النـار ولا يعـود إلى الكفر.فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء.وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين.وتنبض وتنتفض قائمة – على الرغم من كل ما جـرد علـى الإسـلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد.لأن نور اللّـه لا يمكـن أن تطفئه الأفواه،ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد،في أيدي العبيد!

وإن خيل للطغاة الجبارين،وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بـالغوا هذا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر اللّه أن يظهر هذا الدين،فكان من الحتم أن يكون:«هُوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»..

وشهادة اللّه لهذا الدين بأنه «بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ» هي الشهادة.وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة.ولقد تمت إرادة اللّه فظهر هذا الدين على الدين كله.ظهـر في ذاتـه كدين،فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته.فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال.وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها،وهو الصورة الأخـيرة الكاملـة الشاملة منها،فهو هي،في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.ولقـد حرفـت تلـك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها،ونقصت من أطرافها،وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة.وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشـويه فهـي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا،لأنها جاءت في تقدير اللّه لأمـد محدود.

فهذا تحقيق وعد اللّه من ناحية طبيعة الدين وحقيقته.فأما من ناحية واقـع الحياة،فقـد صدق وعد اللّه مرة،فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان.ثم زحف زحفا سـلميا بعـد ذلك إلى قلب آسيا وإفريقية،حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلـوا في إبان الحركات الجهادية الأولى..وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة – منذ أن قضـت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يـدي «البطـل»

الذي صنعوه! – وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد،ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطـــال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها،ظاهرا بإذن اللّه على الدين كله تحقيقا لوعد اللّه،الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل،مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم اللّه لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى.وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر اللّـــه في إظهار دينه الذي أراده ليظهر،وإن هم إلا أداة.وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المـــؤمنين الواثقين بوعد ربهم،وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد اللّه مرة أخرى في واقع الحياة.بإذن اللّه[٤٧٣٨].

الوعد بإهلاك الظالمين والكافرين:

قال تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِـــي مِلَّتِنَـــا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَـــنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [إبراهيم:١٣،١٤]

ولّما عجز رؤوس الكفْر والضّلالة عنْ مقارعة الحجّة بالحجّة،عمدوا إلى تهْديـــد الرّســـل بالنّفْي والإخْراج منْ بيْن أظْهرهمْ،إنْ لمْ يعودوا في ملّتهمْ،فأوْحى الله إلى الرّسل:أنّه تعالى سيهْلك هؤلاء المكذّبين الظّالمين.وأوْحى الله تعالى إلى الرّســـل:أنّـــه سيسْـــكنهمْ أرْض الكافرين وديارهمْ منْ بعْدهمْ،وهذا جزاءٌ عادلٌ لمنْ خاف مقام ربّه،يوْم القيامـــة،وخاف ما خوّفه به ربّه،وما توعّده به من العذاب والنّكال.[٤٧٣٩]

وإذا لم يكن فى السفاهة باللسان،والتطاول بالقول،ما يقطع الرسل عـــن الـــدعوة الـــتي يدعون بها،فليكن التهديد بالرجم،أو الطرد من الوطن..

[٤٧٣٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٥)

[٤٧٣٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٧٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

ذلك ما قدّره الضالون المعاندون،وهذا ما عملوا له:-- «لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا»..هكذا يقولونها فى غير حياء،حتى لكأن الرسل غرباء عن هذه الأرض،لا حق لهم فيها مثلهم..!
- «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا»..الملّة،الدين،والعقيدة..
وعودة الرسل إلى ملّة قومهم،إنما هو باعتبارهم خارجين عليها،بالدّين الجديد الذي يدعون إليه..وهذا غاية فى الضلال والعناد،إذ يجيئهم الرسل بالهدى الذي يحمله الدين الجديد إليهم،فيدعون الرسل إلى أن يعودوا إلى دينهم الفاسد الذين يدينون به.!
- «فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ»..وإذا كان لهؤلاء الكافرين أرض،فإن لهؤلاء الرسل ربّا..وقد أوحى إليهم ربهم،وأخبرهم بأنه سيهلك هؤلاء الظالمين،الذين دفع بهم الظلم إلى أن يخرجوكم من أرضكم..
إنهم هم الذين سيخرجون من هذه الدنيا كلها..إنهم لمأخوذون بنقمة الله،وإنهم لهالكون..!
- «وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ» فأنتم أيها الرسل الذين سيرثون هذه الأرض بعد هلاك هؤلاء الظالمين،الذين أرادوا إخراجكم منها..
- «ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ» أي إنّ ذلك الجزاء الحسن وهذا النصر العظيم،إنما هو لمن خاف مقام ربّه،وخشى بأسه،فوقّره وعظّمه،واتقى حرماته،وعظم شعائره..والرسل من هذا فى المقام الأول،ثم من اقتفى أثرهم.[٤٧٤٠]
لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم،ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ} متوعدين لهم {لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} وهذا أبلغ ما يكون من الرد،وليس بعد هذا فيهم مطمع،لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها،وهذا من أعظم الظلم،فإن الله أخرج عباده إلى الأرض،وأمرهم بعبادته،وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.فمن استعان بذلك على عبادة الله حل له ذلك وخرج من التبعة،ومن استعان بذلك على

[٤٧٤٠] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٦٠)

الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصا له،و لم يحل له،فعلم أن أعـداء الرسـل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منـها.وإن رجعنـا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم،وأفراد منهم،فلأي شيء يمنعوهم حقا لهـم صريحا واضحا؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره،وينصر أولياءه،{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} بأنواع العقوبات.

{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ} أي:العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومـن تبعهم جزاء {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} عليه في الدنيا وراقب الله مراقبـة مـن يعلـم أنـه يراه،{وَخَافَ وَعِيدِ} أي:ما توعدت به من عصاني فأوجب له ذلك الانكفـاف عمـا يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله.[٤٧٤١]

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية..إن الجاهلية لا ترضـى مـن الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها.ولا تطيق أن يكون له وجـود خـارج عـن وجودها.وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها.فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمـع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل،وهذا ما لا تطيقه الجاهلية.لذلك لا يطلـب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوقم ولكن يطلبون منهم أن يعـودوا في ملتهم،وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي،وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقـى لهـم كيـان مستقل.وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله،وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه،فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى..وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة،ولا يبقى مجال لحجة ولا يسلم اللّه الرسل إلى الجاهلية..

إن التجمع الجاهلي – بطبيعة تركيبه العضوي – لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل مـن داخله،إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحسـاب التجمـع الجاهلي،ولتوطيـد جاهليته! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي،والتميع في تشكيلاته وأجهزته هـم نـاس لا يـدركون الطبيعـة العضـوية

[٤٧٤١] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٢٣)

للمجتمع.هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هـذا المجتمـع ولحساب منهجه وتصوره..لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعـد إذ نجاهم اللّه منها..

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشـر المهازيل،وإن كانوا طغاة متجبرين:« فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.وَلَنُسْـكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ.ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ».

ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائما بعد مفاصلة الرسل لقومهم..بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم اللّه منها..وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخـاص بقيادتـه الخاصة.وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحـد إلى أمـتين مختلفتين عقيدة ومنهجا وقيادة وتجمعا..عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضـرب ضـربتها الفاصلة،ولتدمر على الطواغيـت الـذين يتهـددون المـؤمنين،ولتمكن للمـؤمنين في الأرض،ولتحقق وعد اللّه لرسله بالنصر والتمكين...ولا يكـون هـذا التـدخل أبـدا والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي،عاملون من خـلال أوضـاعه وتشـكيلاته،غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة..

«فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ»..نون العظمة ونون التوكيد..كلتاهما ذات ظـل وإيقاع في هذا الموقف الشديد.لنهلكن المتجبرين المهددين،المشركين الظالمين لأنفسـهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد..«وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ»..لا محابـاة ولا جزافا،إنما هي السنة الجارية العادلة:

«ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ»..ذلك الإسكان والاسـتخلاف لمـن خـاف مقامي،فلم يتطاول و لم يتعال و لم يستكبر و لم يتجبر.وخاف وعيد،فحسب حسابه،واتقى أسبابه،فلم يفسد في الأرض،و لم يظلم في الناس.فهو من ثم يستحق الاسـتخلاف،ويناله باستحقاق.

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة – قوة الطغاة الظالمين – بالقوة الجبارة الطامة – قوة الجبار المهيمن المتكبر – فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين[٤٧٤٢].

خذلان الكافرين (١):

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)} [آل عمران: ١٠ – ١٣]

إنّ الذين كفروا بالله،وبآياته ورسله،وجحدوا ما عرفوه منْ نبوّة محمّد ﷺ،لنْ تفيدهمْ شيْئاً عنْد الله يوْم القيامة أمْوالهمْ (التي ينْذلونها في جلْب المنافع،ودفْع المضارّ) ولا أوْلادهم (الذين يتناصرون بهمْ في الدّنيا)،وسيكونون حطباً توْقد به جهنّم.

وسيكون حال هؤلاء المكذّبين وشأنهمْ (دأبهمْ) مثْل حال قوْم فرْعوْن (آل فرْعوْن)،ومنْ قبْلهمْ ممّنْ كذّبوا الرّسل فيما جاؤوهمْ به منْ آيات الله،فعاقبهم الله بذنوبهمْ،وبما ارْتكبوه منْ كفْرٍ وآثامٍ،والله شديد العذاب أليمه،لا يمْتنع عليه أحدٌ منْ خلْقه.

قلْ يا محمّد للْكافرين – وهمْ هنا اليهود –:إنّهمْ سيغْلبون في الدّنيا ويحْشرون يوْم القيامة،ويساقون إلى جهنّم،لتكون لهمْ مهْداً وفراشاً،وبئْس المهْد والفراش.(هذه الآية نزلتْ في يهود بني قيْنقاع.فبعْد أنْ نصر الله المسْلمين يوْم بدْرٍ،جمع الرّسول ﷺ يهود المدينة،وقال لهمْ:يا معْشر اليهود أسْلموا قبْل أنْ يصيبكمْ الله بما أصاب به قريْشاً.

فقالوا:يا محمّد لا يغرّنّك منْ نفْسك أنّك قتلْت نفراً منْ قريشٍ لا يعْرفون القتال،إنّك والله لوْ قاتلْتنا لعرفْت أنّا نحْن النّاس،وأنّك لمْ تلْق مثْلنا.فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي

[٤٧٤٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٧٤٦)

بعْدها،وقدْ صدق الله وعْده فقتل المسْلمون بـــني قريْظـــة،وأجْلوا بـــني النّضـــير وبـــني قيْنقاع،وفتحوا خيْبر).

ثمّ حذّرهم الله تعالى وأنْذرهمْ بألاّ يغْترّوا بكثْرة العدد والعدّة،فلهمْ فيمـــا يشـــاهدونه عبْرةٌ.فأمر رسوله بأنْ يقول للهود الذين قالوا له ما قـــالوا:إنّ الله معـــزٌّ دنيه،وناصـــرٌ رسوله،وإنّ الدّليل على ذلك ما أظْهره الله يوْم بدْرٍ،إذ التقتْ فئتان في ساحة الحرْب فئةٌ مؤْمنةٌ تقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله،ونصْر دينه،(وهم المسْلمون)،وفئةٌ أخْرى كافرةٌ (وهمْ مشْركو قريشٍ).وقدْ أرى الله تعالى المشْركين المسْلمين في مثْلي عدد المشْـــركين (أيْ قريباً منْ ألْفي مقاتلٍ) بصورةٍ جليّةٍ واضحة،وهمْ إنّما كانوا في الحقيقة ثلاثمئة وسبْعة عشر رجلاً،وكان ضلك إضْعافاً لقلوب المشْـــركين،وليهابوا المسْـــلمين،وليجْبنوا عـــنْ قتالهمْ،وكان ذلك مدداً من الله،كما أمدّهمْ بالملائكة.وقدْ أرى الله المسْلمين المشْـــركين قليلي العدد ليجْترئوا عليهمْ.

ودارت المعْركة فانْتصر جنْد الله،وأعزّ الله دينه،وقتل رؤوس الكفْر.وفي ذلك عبْرةٌ لأولي البصائر ليهْتدوا إلى حكم الله وأفْعاله وقدره الجاري بنصْر عباده المؤْمنين الذين يمْتثلون لما أوْصاهمْ به ربّهمْ بقدر طاقتهمْ،فيقاتلون ثابتين واثقين بنصْر الله [٤٧٤٣].

وهذا عرض لبعض ما يقع فى يوم البعث،وما يلقى فيه الذين كفروا بالله وباليوم الآخـــر من نكال وبلاء،حيث يدعّون إلى نار جهنّم دعّا.فلا يغنى عنهم فى ردّ هذا البلاء ما كان لهم من مال وبنين،ومن أهل وصديق،فلقد أفردوا من كل شىء،وصفرت أيديهم من كل شىء،ومنادى الحق يناديهمَ قَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَـــلَ لَكُمْ مَوْعِداً»(٤٨:الكهف)..وفى هذا ما يفتح أنظار الغافلين عن هذا اليوم،إلى ما فيه من أهوال ونكال،لأهل الزيغ والضلال،فيحذرون هذا المصير المشئوم.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى للكافرين مثلا بآل فرعون– وهم جماعة الفراعين– الذين استكثروا من الدنيا،وبلغوا من السلطان والقوة ما بلغوا،حيث استطالوا بما فى أيديهم من

[٤٧٤٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٠٤، بترقيم الشاملة آليا)

سلطان وقوة،وقال قائلهم للناس ما حكاه القرآن عنه:«أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى» (٢٤- ٢٥):النازعات.

هكذا يغرى السلطان ويغوى،إلّا من عصم الله،وقد كان فرعون مثلا بـــارزا للكفـــران بنعمة الله،والاغترار بما مكّن الله له فى الأرض.فقال تعالى:«وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتــادِ «١» الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَــذابٍ إِنَّ رَبَّــكَ لَبِالْمِرْصادِ» (١٠- ١٤:الفجر).

وقوله تعالى:«وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أي الذين سبقوا هؤلاء الفراعين فى الضلال والعتــوّ،إذ ليس هؤلاء الفراعين هم أول من حادّ الله وكفر به،فالكفر قديم فى الناس،لا يسلم منـــه جيل من أجيالهم «إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (٣٤:إبراهيم).وهـــؤلاء الكفـــرة جميعـــا- قريبهم وبعيدهم،سابقهم ولاحقهم- لن يفلتوا مـــن قبضـــة الله،ولـــن ينجـــوا مـــن عذابه..«فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ» إذ انقطع عملهم من الدنيا،وصاروا إلى الله بما اقترفوا من أوزار،يحملونها على كواهلهم إلى يوم الجزاء،حيث يترل بهم العذاب الأليم بما حملوا من كفر غليظ! وفى هذه المثل،وتلك النذر،عبرة لهؤلاء الكفـــار الـــذين أعنتوا رسول الله،واستطالوا بقوقم على ضعاف المسلمين بمكة،وسلطوا عليهم ألوانا من العذاب والنّكال..فلينظروا إلى ما نزل بمن كانوا أشدّ منهم قوة وأكثـــر بأسا،وأوســـع سلطانا..كيف أخذهم الله،فلم يغن عنهم ما كسبوا من الله شيئا. [٤٧٤٤]

يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله،الجاحدين بدينه وكتابه،قد استحقوا العقـــاب وشـــدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئا،وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم،ويقولون {نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحـــن بمعذبين} فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون {وبدا لهـــم ســـيئات مـــا كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن} وليس للأولاد والأموال قدر عند الله،إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة،كما قال تعالى {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بمـــا عملـــوا وهـــم في

[٤٧٤٤] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٤٠٨)

الغرفات آمنون} وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار،أي:حطبها،الملازمون لهـا دائمـا أبدا،وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئا،سـنته الجارية في الأمم السابقة.كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنـة العتـاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جـاءت بـه الرسـل وعاندوا،أخذهم الله بذنوبهم عدلا منه لا ظلما والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها ثم قال تعالى {قل} يا محمد {للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهـاد} وفي هـذا إشـارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار،وقد وقع كما أخبر تعالى،فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى،وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة،ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان،وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعـون يـوم القيامـة لـدار البوار،وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم،وبئس الجزاء جزاؤهم.[٤٧٤٥]

إن هذه الآيات واردة في صدد خطاب بني إسرائيل،وتهديدهم بمصير الكفـار قبلـهم وبعدهم.وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كـذلك..فهـو يـذكرهم فيهـا بمصـير آل فرعون..وكان اللّه سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بني إسرائيل.ولكن هذا لا يمنحهم حقا خاصا إذا هم ضلوا وكفروا،ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفـوا،وأن ينالوا جزاء الكافرين في الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين أنجاهم اللّـه منـهم! كذلك يذكرهم مصارع قريش في بدر – وهم كفار – ليقول لهـم:إن سـنة اللّـه لا تتخلف.وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قـريش.فالعلـة هـي الكفر.وليس لأحد على اللّه دالة،ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح!

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً،وَأُولئِكَ هُمْ وَقُـودُ النَّارِ»..

[٤٧٤٥] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٢٣)

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ولكنهما لا يغنيان شيئا في ذلك اليـــوم الـــذي لا ريب فيه،لأنه لا إخلاف لميعاد اللّه.وهم فيه:«وَقُودُ النَّارِ»..بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص «الإنسان» ومميزاته،ويصورهم في صورة الحطب والخشب وســائر «وَقُــودُ النَّارِ»..

لا بل إن الأموال والأولاد،ومعهما الجاه والسلطان،لا تغني شيا في الدنيا:«كَــدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا،فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ،وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ»..

وهو مثل مضى في التاريخ مكرورا،وقصة اللّه في هذا الكتاب تفصيلا:وهو يمثل سنة اللّه في المكذبين بآياته،يجريها حيث يشاء.فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات اللّه.

وإذن فالذين كفروا وكذبوا بدعوة محمد - ﷺ- وآيات الكتاب الــذي نزلــه عليــه بالحق،معرضون لهذا المصير في الدنيا والآخرة سواء..ومن ثم يلقن الرســول - ﷺ- أن ينذرهم هذا المصير في الدارين،وأن يضرب لهم المثل بيوم بدر القريب،فلعلهم نسوا مثــل فرعون والذين من قبله في التكذيب والأخذ الشديد:«قُلْ لِلَّــذِينَ كَفَــرُوا:سَــتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ.قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا:فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ،يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ.وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ.إِنَّ فِي ذلِــكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ»..

وقوله تعالى:«يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» يحتمل تفسيرين:فإما أن يكون ضمير «يــرون» راجعا إلى الكفار،وضمير «هم» راجعا إلى المسلمين،ويكون المعــنى أن الكفــار علــى كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين «مِثْلَيْهِمْ»..وكان هذا من تدبير اللّه حيث خيــل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة،فتزلزلت قلــوبهم وأقــدامهم.وإمــا أن يكــون العكس،ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين «مِثْلَيْهِمْ» هم - في حــين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم - ومع هذا ثبتوا وانتصروا.

والمهم هو رجع النصر إلى تأييد اللّه وتدبيره..وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد.كمــا أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم..وكان الموقف - كمــا ذكرنا في التمهيد للسورة - يقتضي هذا وذاك..وكان القرآن يعمل هنا وهنــاك..ومــا

يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة.وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة..إن وعد اللّه بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج اللّه،قائم في كل لحظة.ووعد اللّه بنصر الفئة المؤمنة - ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة.وتوقف النصر على تأييد اللّه الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ،وسنة ماضية لم تتوقف.وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن اللّه ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم اللّه،المدبر بحكمته،المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة.

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ»..ولا بد من بصر ينظر وبصيرة تتدبر،لتبرز العبرة،وتعيها القلوب.وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار!.[٤٧٤٦]

خذلان الكافرين (٢):

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)} [الأنفال:٣٦،٣٧]

لّما أصيبتْ قريْش يوْم بدْرٍ،وقتل قادة الشّرْك وزعماؤه،رجع أبو سفْيان بالعير إلى مكّة،وهي العير التي أنْقذتْها معْركة بدْرٍ،فمشى أبْناء منْ قتلوا في بدْرٍ وإخْوتهمْ وأقْرباؤهمْ إلى أبي سفْيان،ومنْ كانتْ لهمْ في العير تجارةٌ،فقالوا:يا معْشر قريْشٍ،إنّ محمّداً قدْ وتركمْ فأعينونا بهذا المال على حرْبه لعلّنا ندْرك منْه ثأْراً،بمنْ أصيب منّا.فأنْزل الله تعالى هذه الآية.

وفي هذه الآية يقول تعالى:إنّ إنْفاقكمْ المال في سبيل قتال المسْلمين،والصّدّ عنْ سبيل الله،ومنْع النّاس من الدّخول في الإسْلام لنْ يكون عليْكمْ إلاّ حسْرةً،ولنْ يجْديكمْ

[٤٧٤٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٦٣٥)

نفْعاً،فإنّكمْ ستغْلبون مرّةً أخْرى،وسيحْشركم الله يوْم القيامة إلى جهنّم،إذا ما أصْــررْتمْ على كفْركمْ،وعلى معاندة الرّسول والمؤْمنين.

إنّ الله تعالى كتب لعباده النّصْر،وكتب الحسْرة والخذْلان لأعْدائهمْ ولمنْ يقاتلــهمْ مــن الكفّار للصّدّ عنْ سبيل الله،وذلك ليميز الله الكافر الخبيث منْ أهْل الشّقاء،عن المــؤْمن الطّيّب منْ أهْل السّعادة،وليجْمع الكفْر بعْضه على بعْضٍ،ويقْذفه في جهنّم،وهؤلاء الذين يقْذفهمْ في جهنّم هم الخاسرون[٤٧٤٧].

ومن ضلالات هؤلاء المشركين أنهم ينفقون أموالهم فيما يكيدون به لأنفسهم،ويصرفونها به عن الخير،ويوردونها به موارد الهلكة والبوار.

ومن عادة العقلاء ألا ينفقوا أموالهم ألا فيما يعود عليهم منه خير،يجدونه فى أنفســهم،أو فى أهليهم،أو فى المجتمع الإنسانىّ،خاصة أو عامة.

أما أن يشترى الإنسان بماله ما يفسد حياته،ويغتال إنسانيته،ويدمّر وجوده،فــذلك هــو الذي لا يرى إلا فى عالم المجانين والحمقى.

وهؤلاء المشركون قد بذلوا أموالهم فى سخاء،وقدموها فى رضى وغبطة،ليطفئوا بها نــور الله الذي أرسله إليهم،وليخفتوا بها صوت الحق الذي بعثه الله ليؤذّن فيهم بآياته،فاشتروا بهذا المال الرجال والعتاد،وجعلوا من هذا جيشا جرارا ساروا به إلى النبىّ الكــريم يــوم بدر،يريدون القضاء عليه،وعلى الجماعة التي استجابت له،وآمنت بالله وبرسوله..

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»..هكذا فعل المشركون،وهكذا وجهوا المال الذي جعله الله فى أيديهم..«فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَــيْهِمْ حَسْــرَةً»..وفى التعبير بفعل المستقبل عما فعلوه فى الماضي،تهديد ووعيد لهم،بأن الأموال التي ســينفقونها فيما بعد على هذا الوجه الذي أنفقــوه فيهــا فى موقعــة بــدر- ســتكون علــيهم حسرة،وستجرّ عليهم الخزي والبلاء كما جرته عليهم أموالهم التي أنفقوهــا فى تلــك الموقعة..

حيث تذهب هذه الأموال من أيديهم،ثم تعود إليهم على هيئة رزايا ونكبات..

[٤٧٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١١٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

«ثُمَّ يُغْلَبُونَ» هو نذير لهم بما يلقاهم مـــن مصـــير مشـــئوم،من هـــذا المـــال الـــذي أنفقوه،وانتظروا الثمر الجنيّ الطيب منه،بالنصر على المسلمين،واستئصـــالهم،وهذا مـــا لا يكون أبدا،ولن يكون إلا الهزيمة،وسوء المنقلب للمشركين.«وَالَّذِينَ كَفَـــرُوا إِلى جَهَـــنَّمَ يُحْشَرُونَ»..وليست الهزيمة وحدها هى التي تنتظر هؤلاء المشركين،بل سيكون العـــذاب الأليم فى الآخرة هو مصير أولئك الذين يمضون فى طريقهم هذا إلى النهاية،فلا يرجعون إلى الله،ولا ويؤمنون به وبرسوله..وفى العطف «بثم» الـــتي تفيـــد التراخـــي فى قولـــه تعالى:«فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» وفى قوله سبحانه:«ثُمَّ يُغْلَبُونَ» إشـــارة إلى أن الحسرة والهزيمة قد لا يكونان بعد كل مال ينفقونه،فقد يقع للمشـــركين فى بعـــض مواقفهم من المسلمين ما يحسبونه نصرا،ويرونه وجها نافعا مثمرا لهـــذا المـــال الـــذي أنفقوه،كما كان فى موقعة «أحد»..ولكن العبرة فى هذا بالموقعة الفاصلة،التي تنكس فيها راية الشرك إلى الأبد،ويخفت صوت المشركين إلى يوم الدين..وذلك ما انتهى إليه الأمر بين المسلمين والمشركين،فقد دخل رسول الله- ﷺ- يقود جيش الإسلام- دخل علـــى الشرك فى حصنه فاتحا مظفرا،فأجلى عن البيت الحرام ما احتشـــد فيـــه مـــن أصـــنام وأنداد،وألقى بها فى مسالك مكة ودروبها،تدوسها الأقدام،وتحيلها أشلاء ممزقـــة،يمر بهـــا الناس كما يمرون بالجثث المتعفنة،يتساقط عليها الذباب،وترعى فيها الهوام والحشرات..

قوله تعالى:«لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْـــضٍ فَيَرْكُمَـــهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ».أي أن هذا الصراع الذي يقع بين الحق والباطل،ويدور بين المحقين والمبطلين،هو ابتلاء واختبار،تتبين به مواقف الناس،وتعرف به وجوههم،حيث يجتمـــع المؤمنـــون إلى المؤمنين،وينحـــاز المشـــركون إلى المشـــركين والضالين،ويوفى كلّ حسابه وجزاءه..

وفى قوله تعالى:«وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ» إشارة إلى أن مجتمع الكفر والضلال،مجتمع فاسد ليس لإنسان فيه ذاتية،يتميز فيها إنسان عن إنسان،بعقله،ومدركاته،ومشاعره،كما يتميز عقلاء الناس،كلّ بإدراكه وإحساســـه وشعوره..فهم أشبه بقطيع من الحيوان،ليس لأحدها فى حقيقته ما يميزه عـــن غـــيره،إلا

باللون أو الحجم،أما ما وراء ذلك فهى جميعها سواء فيه..ومن هنا كان التعبير القرآنى:«وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ» أي يخلط بعضه ببعض خلطا لا حساب فيه لشيء،ولا تقديم لشيء على شيء،وإنما حكمها جميعا حكم حزمة الحطب يحتويها حبل واحد..ثم كان التعبير القرآن «فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ» أي أن غاية هذا الجمع لتلك الجماعات الضالة هو إعدادها للوقود،وإلقاؤها فى جهنم.هكذا يفعل بالحطب حين يجمع،وحين يقدّم للوقود! وهكذا الخبيث من الأشياء،والنفاية من كل شيء،يلقى به..بلا حساب ولا تقدير!.[٤٧٤٨]

وقال السعدي:يقول تعالى مبينا لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم،ومبارزتهم لله ولرسوله،وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته،وأن وبال مكرهم سيعود عليهم،ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله،فقال:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي:ليبطلوا الحق وينصروا الباطل،ويبطل توحيد الرحمن،ويقوم دين عبادة الأوثان.{فَسَيُنْفِقُونَهَا} أي:فسيصدرون هذه النفقة،وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل،وشدة بغضهم للحق،ولكنها ستكون عليهم حسرة،أي:ندامة وخزيا وذلا ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا،ويعذبون في الآخرة أشد العذاب.ولهذا قال:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} أي:يجمعون إليها،ليذوقوا عذابها،وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء،والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب،ويجعل كل واحدة على حدة،وفي دار تخصه،فيجعل الخبيث بعضه على بعض،من الأعمال والأموال والأشخاص.{فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة،ألا ذلك هو الخسران المبين.[٤٧٤٩]

وفي الظلال:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،قَالَ:قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ،وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ،وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ،وَالْحُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ

[٤٧٤٨] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٠٦)

[٤٧٤٩] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٠)

مُعَاذ،وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَائِنَا،كُلٌّ قَدْ حَدَّثَ بَعْضَ الْحَدِيثِ،عَنْ يَــوْمِ أُحُد،وَقَــد اجْتَمَــعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سُقْتُ،قَالُوا:لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْر،وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ،وَرَجَعَ أَبُــو سُفْيَانَ بِعِيرِه،مَشَى عَبْدُ اللَّه بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ،وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ،وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّــةَ،فِي رِجَال مِنْ قُرَيْشٍ،فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْب وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُــرَيْشٍ تِجَارَةٌ،فَقَالُوا:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ،فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَــالِ عَلَى حَرْبِه،لَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُ ثَأْرًا مِمَّنْ أَصَابَ مِنَّا،فَفَعَلُوا،فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَــلَّ:إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه إِلَى قَوْلِه:إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ.فَلَمَّــا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِحَرْب رَسُول اللَّه ﷺبِأَحَابِيشِهَا وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ بَنِــي كِنَانَــةَ وَأَهْــلِ تِهَامَةَ،خَرَجُوا مَعَهُمْ بِالظُّعِينِ الْتِمَاسَ الْحَفِيظَةَ وَأَنْ لَا يَفِرُّوا،فَخَرَجُوا حَتَّى نَزَلُــوا يَعْــنِينَ بِبَطْنِ السَّبَخَة عَلَى شَفِيرِ وَادٍ مِمَّا يَلِي الْمَدِينَةَ.فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّه ﷺوَالْمُسْــلِمُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺلِلْمُسْلِمِينَ:" إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ بَقَرًا تُذْبَحُ،وَأَوَّلْتُهَا خَيْرًا،وَرَأَيْتُ فِيَ ذُؤَابَــةِ سَيْفِي ثَلْمًا،وَرَأَيْتُ أَنِّيَ أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَة،فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ.فَــإِنْ رَأَيْــتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَة وَتَدَعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا،فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مُقَامٍ،وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَــا قَاتَلْتُمُوهُمْ فِيهَا ".قَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَة يَوْمَ أُحُد،وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ كَانَ فَاتَهُ يَوْمُ بَدْرٍ مِمَّنْ حَضَرَهُ:يَا رَسُولَ اللَّه،اخْرُجْ بِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا،لَا يَرَوْنَ أَنَّا جَبُنَّا عَنْهُمْ،فَقَالَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ:أَقِمْ بِالْمَدِينَة وَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ،فَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ بِرَسُــول اللَّــه ﷺالَّذِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حُبُّ لِقَاءِ الْقَوْمِ،حَتَّى دَخَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺفَلَبِسَ لَأْمَتَهُ،وَذَلِكَ يَوْمُ الْجُمُعَة حِينَ فَرَغَ مِنَ الصَّلَاة،وَقَدْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ:مَالِــكُ بْنُ عَمْرٍو،أَحَدُ بَنِي النَّجَّار،فَصَلَّى عَلَيْه رَسُولُ اللَّه ﷺ،ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ،وَقَدْ نَدِمَ النَّــاسُ فَقَالُوا:اسْتَكْرَهْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّه،وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا،فَإِنْ شِــئْتَ فَاقْعُــدْ صَــلَّى اللَّــهُ عَلَيْكَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" مَا يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ،فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺفِي أَلْف رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِه حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّوْط بَــيْنَ الْمَدِينَــة وَأُحُــدٍ انْخَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ الْمُنَافِقُ بِثُلُث النَّاس،وَقَالَ:أَطَاعَهُمْ وَعَصَــانِي،قَالَ:وَمَضَــى رَسُولُ اللَّه ﷺفَذَكَرَ كَيْفِيَّةَ مَسِيرِه،قَالَ:فَصَفَّهُمْ وَلِوَاؤُهُ يَوْمَئِذٍ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِــي طَالِــبٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ غَدَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَعَ مَنْ لِوَاءُ الْقَوْمِ ؟ " قَالُوا:مَعَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخِي بَنِي عَبْدِ الدَّارِ،فَقَالَ ﷺ:" نَحْنُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ "،فَدَعَا مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ،فَأَعْطَاهُ اللِّوَاءَ،ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ خَرَجَ يَوْمَ أُحُدٍ فَدَعَا إِلَى الْبِرَازِ،فَأَحْجَمَ النَّاسُ عَنْهُ حَتَّى دَعَا ثَلَاثًا،وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ،فَقَامَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فَوَثَبَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ فَاسْتَوَى مَعَهُ عَلَى رَحْلِهِ،ثُمَّ عَانَقَهُ فَأَقْبَلَا فَوْقَ الْبَعِيرِ جَمِيعًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" الَّذِي يَلِي حَضِيضَ الْأَرْضِ مَقْتُولٌ "،فَوَقَعَ الْمُشْرِكُ وَوَقَعَ الزُّبَيْرُ عَلَيْهِ فَذَبَحَهُ بِسَيْفِهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" ادْنُ يَا ابْنَ صَفِيَّةَ،فَلَقَدْ قُمْتَ وَإِنِّي لَأَهُمُّ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ "،وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ إِحْجَامِ الْقَوْمِ عَنْهُ،ثُمَّ قَرَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالزُّبَيْرَ فَأَجْلَسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَقَالَ:" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَالزُّبَيْرُ حَوَارِيَّ ".قَالَ:وَأَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَلَى الرُّمَاةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،وَالرُّمَاةُ خَمْسُونَ رَجُلًا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ،لَا يَأْتُونَنَا مِنْ خَلْفِنَا،إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ لَا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ "،وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَوْمَئِذٍ بَيْنَ دِرْعَيْنِ.قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:فَالْتَقَوْا يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ،وَاقْتَتَلَ النَّاسُ حَتَّى حَمِيَتِ الْحَرْبُ،وَقَاتَلَ أَبُو دُجَانَةَ حَتَّى أَمْعَنَ فِي النَّاسِ،وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَصْرَهُ،وَصَدَقَهُمْ وَعْدَهُ،فَحَسُّوهُمْ بِالسُّيُوفِ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْعَسْكَرِ،وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ لَا شَكَّ فِيهَا "[٤٧٥٠].

وليس هذا الذي حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجا من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين..إنهم ينفقون أموالهم،ويبذلون جهودهم،ويستنفدون كيدهم،في الصد عن سبيل اللّه،وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين.وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين..

إن المعركة لن تكف.وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة.ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن.وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية،وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ثم لإعلاء راية اللّه حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت.

[٤٧٥٠] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٠٧٥) صحيح مرسل - أورده مختصرا

واللّه – سبحانه – ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللّه بأنها ستعود عليهم بالحسرة..إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية،وليغلبوا هم وينتصر الحق في هذه الدنيا.وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم،فتتم الحسرة الكبرى..ذلك..«لِيَميزَ اللَّهُ الْخَبيثَ منَ الطَّيِّبِ،وَيَجْعَلَ الْخَبيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ،فَيَرْكُمَهُ جَميعاً فَيَجْعَلَهُ في جَهَنَّمَ أُولئكَ هُمُ الْخاسِرُونَ»..فكيف؟

إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل ويملي له في العدوان فيقابله الحق بالكفاح والجهاد وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة..وفي هذا الاحتكاك المرير،تنكشف الطباع،ويتميز الحق من الباطل،كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل – حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ! – ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر اللّه،لأنهم أهل لحمل أماناته،والقيام عليها،وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة..عند ذلك يجمع اللّه الخبيث على الخبيث،فيلقي به في جهنم..وتلك غاية الخسران..

والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم،وكأنما هو كومة من الأقذار،يقذف بها في النار،دون اهتمام ولا اعتبار ! «فَيَرْكُمَهُ جَميعاً فَيَجْعَلَهُ في جَهَنَّمَ»..وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعا أعمق في الحس..وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير والتأثير..[٤٧٥١]

عدم الاغترار بقوة الكافرين:

قال تعالى:{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) } [آل عمران]

[٤٧٥١] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٤٥)

لا تنْظرْ إلى ما أتْرف فيه هؤلاء الكفّار من النّعْمة والغبْطة والسّرور.ولا تعْجبْ منْ تصرّفهمْ في الأسْفار للتّجارة والتّكسّب ثمّ عوْدهمْ سالمين إلى أهْليهمْ وديارهمْ.فإنّه متاعٌ قليلٌ زائلٌ،يتمتّعون به في الحياة الدّنْيا،ثمّ يكون مصيرهمْ إلى جهنّم وبئْس المسْتقرّ والمهْد.

أمّا المتّقون فلهمْ عنْد ربّهمْ جنّات تجْري الأنْهار في جنباها،وخلال أشْجارها،ويبْقوْن فيها مخلّدين أبداً،متزّلين فيها منْ عنْد الله،وما عنْد الله منْ جزاءٍ وثوابٍ ورضْوانٍ خيْرٌ للأبْرار الذين يبرّون والديْهمْ وأبْناءهمْ.[٤٧٥٢]

فى هذه المناجاة التي كانت تسبح فيها أرواح المؤمنين فى رحاب الله،وترفّ بها على مشارف الملأ الأعلى،يؤذّن فيهم بالعودة إلى عالمهم الذي يعيشون فيه،العالم الأرضى،إذ كان لا بدّ من العودة بعد هذه الرحلة المسعدة فى عالم الروح،والحق،والنور،لأن الحياة تدعوهم إليها،ليكونوا مع النّاس،وليعيشوا فى الناس! ومع ما معهم من زاد طيب تزوّدوا به فى تلك الرحلة المسعدة،فإن ما على الأرض من مفاسد وشرور،وما فى النّاس من مفسدين وأشرار،جدير به أن يغتال هذا الزاد الطيب،وأن يحرم أصحابه منه إذا لم يحذروا.

ولهذا فقد تلقّاهم الله سبحانه وتعالى بتلك اللفتة الكريمة- تلقاهم وهم يهبطون إلى هذا العالم الأرضى،ليأخذوا حذرهم من العدوّ الراصد لهم بما فى يديه من مفاتن ومفاسد،وليظلوا هكذا محتفظين بما وقع لأيديهم من خير،فى تطوافهم بالعالم العلوي،وسبحهم فيه..

وكان قوله تعالى مخاطبا نبيّه الكريم:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ» هو اليد القويّة الرّحيمة،التي تمسك على المؤمنين إيمانهم،وتثبت على طريق الحق والخير خطوهم،فلا يغريهم ما يغدو فيه الكافرون وما يروحون،من متاع الحياة وزخرفها،وما يحصّلون فيها من مال،وما يقع لأيديهم من جاه وسلطان،فذلك كله «مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».وفى خطاب النبىّ الكريم بهذا النهى ومواجهته بالتحذير مما فيه..

[٤٧٥٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

ما يلقى إلى المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم،وإشفاق متصل..إذ كان النبيّ الكريم،وهو ما هو فى صلته بربه وخشيته منه،وفى رعاية الله له،وعصمته من الزلل- يواجه بهذا التحذير،ويلفت إلى مراقبة نفسه،وحراستها،فإن غير النبيّ من المؤمنين أولى بأن يحذر ويخشى العدوّ المتربص به،إن أراد النجاة والسلامة.[٤٧٥٣]

وقال السعدي:

وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا،وتنعمهم فيها،وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات،وأنواع العز،والغلبة في بعض الأوقات،فإن هذا كله {متاع قليل} ليس له ثبوت ولا بقاء،بل يتمتعون به قليلا ويعذبون عليه طويلا هذه أعلى حالة تكون للكافر،وقد رأيت ما تؤول إليه.وأما المتقون لربهم،المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها {لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}.فلو قدر أنهم في دار الدنيا،قد حصل لهم كل بؤس وشدة،وعناء ومشقة،لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم،والعيش السليم،والسرور والحبور،والبهجة نزرا يسيرا،ومنحة في صورة محنة،ولهذا قال تعالى:{وما عند الله خير للأبرار} وهم الذين برت قلوبهم،فبرت أقوالهم وأفعالهم،فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما،وعطاء جسيما،وفوزا دائما.[٤٧٥٤]

وفي الظلال:

وتقلب الذين كفروا في البلاد،مظهر من مظاهر النعمة والوجدان،ومن مظاهر المكانة والسلطان،وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة.يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان،ويعانون الأذى والجهد،ويعانون المطاردة أو الجهاد..وكلها مشقات وأهوال،بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون!..ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة،وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء،والباطل وأهله

[٤٧٥٣] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٧٥)

[٤٧٥٤] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٦٢)

في منجاة،بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيـــدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد.

هنا تأتي هذه اللمسة:«لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ.مَتاعٌ قَلِيلٌ.ثُـــمَّ مَـــأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».متاع قليل..ينتهي ويذهب..أمـــا المـــأوى الـــدائم الخالـــد،فهو جهنم..وبئس المهاد!

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات.وخلود.وتكريم من اللّه:«جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ»..«خالِدِينَ فِيها»..«نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»..«وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ»..

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة،وهذا النصيب في كفة،أن ما عند اللّه خـــير للأبرار.وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان.وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب! إن اللّه – سبحانه – في موضع التربية،وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر،ولا يعدهم بقهر الأعداء،ولا يعـــدهم بـــالتمكين في الأرض،ولا يعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة..مما يعدهم به في مواضع أخرى،ومما يكتبه علـــى نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه.

إنه يعدهم هنا شيئا واحدا.هو «ما عِنْدَ اللَّهِ».فهذا هو الأصل في هذه الدعوة.وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية،ومن كـــل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة اللّه وقهر أعداء اللّه – حـــتى هذه الرغبة يريد اللّه أن يتجرد منها المؤمنون،ويكلوا أمرها إليه،وتتخلص قلوبهم مـــن أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء..فقط.وبـــلا مقابل من أعراض هذه الأرض،وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واســـتعلاء..ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر،ويقع التمكين،ويقع الاستعلاء..ولكن هذا لـــيس داخلا في البيعة.ليس جزءا من الصفقة.ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا.وليس فيهـــا إلا الأداء والوفاء والعطاء..والابتلاء ..على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكـــة

وعلى هذا كان البيع والشراء.و لم يمنح اللّه المسلمين النصر والـتمكين والاسـتعلاء و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية،إلا حين تجردوا هذا التجرد،ووفوا هذا الوفاء:

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ:لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺالْعَقَبَةَ،فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:اشْـتَرِطْ لِرَبِّـكَ وَاشْـتَرِطْ لِنَفْسِـكَ وَاشْـتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ،فَقَالَ ﷺ:" أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ،وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَـمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ:فَمَا لَنَا قَالَ:" الْجَنَّةُ " قَالَ:ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ.ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ:رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ،إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ،وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ،فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ،وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ،فَقَالُوا يَا أَسْـعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا،قَالَ:فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٤٧٥٥]

هكـــذا..«الجنـــة»..والجنـــة فقـــط! لم يقـــل:النصـــر والعـــز والوحدة.والقوة.والتمكين.والقيادة.والمال.

والرخاء – مما منحهم اللّه وأجراه على أيديهم – فذلك كله خـارج عـن الصـفقة!

وهكذا..ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل..لقد أخذوها صـفقة بـين متبـايعين أنهـي أمرها،وأمضي عقدها.

و لم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربى اللّه الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض،وزمام القيادة،وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كـل أطماعها،وكـل رغباتها،وكل شهواتها،حتى ما يختص منـها بالـدعوة الـتي تحملها،والمنـهج الـذي

[٤٧٥٥] – أخبار مكة للفاكهي – (٤ / ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

تحققه،والعقيدة التي تموت من أجلها.فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه،أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة[٤٧٥٦].

النصر على اليهود أكبر مجرمي الأرض:

سيقاتل المسلمون اليهود،ويهزمونهم كما هزمهم النبي - ﷺ - وأصحابه رضي الله عنهم.

هناك تفصيل مهم جدا في تفسير الإفسادين لبني إسرائيل،فعنِ الزُّهْرِىِّ قَالَ أَخْبَرَنِى سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ «تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ،هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[٤٧٥٧]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ «لَتُقَاتِلُنَّ الْيَهُودَ فَلَتَقْتُلُنَّهُمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِىٌّ فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»[٤٧٥٨]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِىُّ يَا مُسْلِمُ،هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[٤٧٥٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ،فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ،حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ،فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ:يَا مُسْلِمُ،يَا عَبْدَ اللَّهِ،هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي،فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ،إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ "[٤٧٦٠]

[٤٧٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٦٧)

[٤٧٥٧] - صحيح البخارى- المكنز (٣٥٩٣) وصحيح مسلم- المكنز (٧٥٢٢)

فتسلطون عليهم ":تمكنون منهم،يقال:تسلط:تمكن وتحكم

[٤٧٥٨] - صحيح مسلم- المكنز (٧٥١٩)

[٤٧٥٩] - صحيح البخارى- المكنز (٢٩٢٦).

[٤٧٦٠] - صحيح مسلم- المكنز - (٧٥٢٣) والسُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي (٤٥١)

وقتالنا مع اليهود على مرحلتين:

الأولى الآن،والثانية عندما يأتي الدحال فيتبعه اليهود،وبالتالي ففلسطين ستكون مقبرة لليهود الحاليين واليهود الباقين مع الدجال بإذن الله تعالى.

قال تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)} [الإسراء:٤ – ٨]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ بِأَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ،وَسَتَكُونُ لَهُمْ قُوَّةٌ وَسَيْطَرَةٌ،وَغَلَبٌ فِي الأَرْضِ،وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَجْعَلُونَ فِيهَا القُوَّةَ وَالسَّيْطَرَةَ وَسِيلَةً لِلطُّغْيَانِ،وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ،يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ مَنْ يَقْهَرُهُمْ،وَيُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً،وَيَسْتَبِيحُ حُرُمَاتِهِمْ،وَيُدَمِّرُهُمْ تَدْمِيراً.

فَإِذَا حَانَ وَقْتُ العِقَابِ،عَلَى إِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى،سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عِبَاداً مُؤْمِنِينَ مِنْ خَلْقِهِ،ذَوِي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الحُرُوبِ،فَقَهَرُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَتَرَدَّدُوا خِلاَلَ بُيُوتِهِمْ وَمَساكِنِهِمْ لاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً،وَلاَ يَخافُونَ عَلَيْهِمْ رِدَّةً.وَكَانَ وَعْدُ اللهِ وَمَا قَضَاهُ كَائِناً لاَ بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ،كَمَا قَضَى اللهُ وَأَعْلَمَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَ (العِبادِ) الذينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلُّهَا تَجْعَلُ هؤُلاَءِ مِنَ الأَقْوَامِ البَائِدَةِ (الآشُورِيِّينَ وَالكِلْدَانِيِّينَ وَالرُّومَانِ...) عَلَى اعْتِبَارِ أَنْ تِلْكَ الأَقْوَامَ سَبَقَ لَهَا أَنْ أَذَاقَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الوَيْلاَتَ،وَدَمَّرَتْ مُلْكَهُمْ،وَشَرَّدَتْهُمْ فِي الأَرْضِ.

قال النووي:" (الغرقد):نوع من شجر الشوك،معروف ببلاد بيت المقدس،وهناك يكون قتل الدجال واليهود".وقال أبو حنيفة الدينوري:"إذا عظمت العوسجة؛ صارت غرقدة".

وَلَكِّنَ الأُسْتَاذَ مُحَمَّد مُتْوَلِّي الشَّعْرَاوِيَّ يَرَى أَنَّ العِبَادَ الذينَ عَنَاهُمُ النَّصُّ هُمُ المُسْلِمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ شُعُوبِ الأَرْضِ.وَيَدْعَمُ رَأْيَهُ بِمَا خُلاَصَتُهُ:

أ – اسْتَعْمَلَت الآيَةُ تَعْبِيرَ (فَإِذَا جَاءَ)؛(وَإِذَا) ظَرَفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ،يَعْنِي أَنَّ الفِعْلَ المُحْكِيَّ عَنْهُ سَيَحْدُثُ بَعْدَ القَوْلِ الذي تَضَمَّنَ لَفْظَةَ (إِذَا جَاءَ).وَهَذا يَعْنِي أَنَّ الأَمْرَ الذي قَضَاهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَقَعُ بَعْدَ نُزُولِ الآيَةِ القُرْآنِيَّة التي أَشَارَتْ إِلَى مَا قَضَاهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقاً بِحَادِثٍ وَقَعَ قَبْلَهَا.

ب – اسْتَعْمَلَت الآيَةُ عِبَارَةَ (عِبَاداً لَنَا).وَعِبَادُ اللهِ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ،فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِي تَعْنِي أَنَّ القَوْمَ الذينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَبِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كُتُبٍ،وَمَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ وَأَنْبِيَاءٍ لِهِدَايَةِ البَشَرِ،وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ اليَوْمَ مَنْ تَجْتَمِعُ فِيهِمْ هَذِهِ الأَوْصَافُ غَيْرُ المُسْلِمِينَ.

كَمَا أَنَّ الأُمَمَ الخَالِيَةَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَها مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ عَنْهَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ الخَالِصِ.

ج – إِنَّ العِبَادَ الذينَ سَيُسَلِّطُهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ فِي المَرَّتَيْنِ،وَإِنَّ اليَهُودَ سَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى هؤُلاَءِ العِبَادِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى،ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تَعَالَى الكَرَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،بَعْدَ أَنْ يُمْعِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَسَاداً فِي الأَرْضِ وَطُغْيَاناً.وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الأُمَمِ الخَالِيَةِ بَقِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى أَسْلاَفِهَا المُؤْمِنِينَ أَيْضاً لِتَقُومَ عَنْهُمْ بِالانْتِقَامِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ.

وَيَرَى الأُسْتَاذُ مُحَمَّد مُتْوَلِّي الشَّعْرَاوِيّ أَنَّ اليَهُودَ كَانَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ فَأَكْثَرُوا الفَسَادَ زَمَنَ الرَّسُولِ – ﷺ –،وَتَآمَرُوا عَلَى الرَّسُولِ وَالمُسْلِمِينَ،فَسَلَّطَ اللهُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ،فَقَتَلُوا بَعْضَهُمْ،وَأَخْرَجُوا البَاقِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ،وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَى فِي النَّصِّ قَهْرَ اليَهُودِ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى مِنْ قِبَلِ عِبَادِ اللهِ مُتَلاَزِماً مَعَ دُخُولِ هَؤُلاَءِ العِبَادِ المَسْجِدَ الأَقْصَى،وَلاَ بِحُدُوثِ ذَلِكَ فِي أَرْضِ فِلَسْطِينَ.وَفِي الحَقِيقَةِ إِنَّ المَسْجِدَ الأَقْصَى كَانَ،حِينَمَا قَهَرَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ،تَحْتَ حُكْمِ الرُّومَانِ،وَلَمْ يَكُنْ لِلْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ سُلْطَانٌ وَلاَ كَيَانٌ مُتَمَيِّزٌ فِي ذَلِكَ الحِينِ.

ثُمَّ يَبْتَعِدُ الْمُسْلِمُونَ عَنْ دِينِهِمْ،وَيَتْرُكُونَ الأَخْذَ بِشَرِيعَتِهِمْ،وَتَتَفَرَّقُ كَلِمَتُهُمْ،فَيُدِيلُ اللهُ لِلْيَهُودِ عَلَيْهِمْ،بَعْدَ أَنْ يُمِدَّهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ،وَيَجْعَلَهُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً مِنْهُمْ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى.

ثُمَّ يَسْتَسْلِمُ اليَهُودُ إِلَى الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ،وَيَرْجِعُونَ إِلَى مَسْلَكِهِمْ القَدِيمِ فِي الإِسَاءَةِ إِلَى عِبَادِ اللهِ،وَيَسْتَطِيلُونَ عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَيَعُودُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى دِينِهِمْ،فَتَتَّحِدُ كَلِمَتُهُمْ،وَيَجْمَعُونَ قُوَاهُمْ،وَيُهَاجِمُونَ اليَهُودَ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ فَيَقْهَرُونَهُمْ،وَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ المَسْجِدَ الأَقْصَى لاَ يُنَازِعُهُمْ فِي دُخُولِهِمْ إِلَيْهِ مُنَازِعٌ (كَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي المَرَّةِ الأُولَى بَعْدَ أَنِ احْتَلُّوا فِلَسْطِينَ وَطَرَدُوا الرُّومَانَ مِنْهَا بَعْدَ أَنْ أَخْرَجُوا اليَهُودَ مِنَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ)،وَيُدَمِّرُونَ مَا يَمْلِكُهُ اليَهُودُ تَدْمِيراً شَامِلاً.

وَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى حُجَجِ الأُسْتَاذِ شَعْرَاوِي الْمُسْتَوْحَاةِ مِنَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ حَدِيثاً لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ -عَنْ مُسْتَقْبَلِ العلاَقَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ،وَمَا سَيَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَتْلِ اليَهُودِ قَتْلاً ذَرِيعاً لاَ يَبْقُونَ فِيهِ وَلاَ يَذَرُونَ،نَجِدُ أَنَّ الرَّأْيَ الذي ذَهَبَ إِلَيْهِ أُسْتَاذُنا الجَلِيلُ يَقُومُ عَلَى سَنَدٍ مَتِينٍ.فقد مرت أحاديث عديدة حول قتال المسلمين لليهود..

حَتَّى إِذَا ذَاقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيْلاَتَ القَهْرِ وَالذُّلِّ وَالغَلَبِ،رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ،فَجَمَعُوا شَمْلَهُمْ،وَأَصْلَحُوا أُمُورَهُمْ،وَاسْتَنْجَدُوا بِبَعْضِ عِبَادِ اللهِ الذِينَ لاَ يُدْرِكُونَ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ،وَفِي ذَلِكَ الحِينِ يَكُونُونَ قَدْ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ،وَتَزَايَدَ عَدَدُهُمْ،وَيَكُونَ أَعْدَاؤُهُمُ - العِبَادُ الْمُؤْمِنُونَ - قَد ابْتَعَدُوا عَنْ دِينِهِمْ،وَمَنْهَجِ شَرِيعَتِهِمْ،فَيُعَاقِبُهُمُ اللهُ،وَيُدِيلُ لِلْيَهُودِ عَلَيْهِمْ،وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَنَّ اليَهُودَ عَادُوا إِلَى اللهِ تَائِبِينَ مُخْلِصِينَ،وَالْتَزَمُوا بِمَا شَرَعَهُ لَهُمْ رَبُّهُمْ فِي كِتَابِهِمْ،وَإِنَّمَا لأَنَّ أَعَدَاءَهُمْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَعَدُوا عَنْ دِينِهِمْ،وَتَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهُمْ،فَسَلَّطَ اليَهُودَ عَلَيْهِمْ (كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ فِي الإِصْحَاحِ التَّاسِعِ مِنْ سِفْرِ تَثْنِيَةِ الاشْتِرَاعِ).وَيُقَرِّرُ اللهُ تَعَالَى هُنَا القَاعِدَةَ الثَّابِتَةَ التي لاَ تَتَغَيَّرُ أَبَداً،وَهِيَ أَنَّ عَمَلَ الإِنْسَانِ عَائِدٌ عَلَيْهِ بِنَتَائِجِهِ إِنْ خَيْراً فَخَيْراً،وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً.فَإِنْ أَحْسَنَ الإِنْسَانُ كَانَ إِحْسَانُهُ لِنَفْسِهِ.يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،فَفِي الدُّنْيَا يَدْفَعُ اللهُ عَنْهُ الأَذَى،وَيَرُدُّ كَيْدَ أَعْدَائِهِ إِلَى نُحُورِهِمْ،وَيَزِيدُهُ قُوَّةً.وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ يُثِيبُهُ عَلَى عَمَلِهِ بِالجَنَّةِ،وَيَمُنُّ عَلَيْهِ بِرِضْوَانِهِ.

فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ العِقَابِ عَلَى إِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَّةِ،فَإِنَّ الأَعْدَاءَ الذِينَ غَلَبَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْتَجْمِعُونَ قُوَاهُمْ،وَيَنْدَفِعُونَ لِعِقَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،وَالانْتِقَامِ مِنْهُمْ،وَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ المَـــرَّةَ المَسْـــجِدَ الأَقْصَـــى،وَيُذِيقُونَهُمْ أَنْوَاعـــاً مِـــنَ القَهْـــرِ وَالـــوَيْلاَتِ وَالإِذْلاَلِ،وَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلاً ذَرِيعاً،وَيُخَرِّبُونَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ مِمَّا كَـــانَ يَمْلِكُـــهُ بَنُـــو إِسْرَائِيلَ،حَتَّى لَتُرَى آثَارُ المَسَاءَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:إِنَّهُ قَدْ يَرْحَمُهُمْ،وَيَصْرِفُ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ،بَعْدَ المَرَّةِ الثَّانِيَةِ،إِذَا اسْتَفَادُوا مِنَ الدُّرُوسِ وَالعِبَرِ،وَعَادُوا إِلى طَرِيقِ الحَقِّ وَالصَّوَابِ،وَكَفُّوا عَـــنِ ارْتِكَـــابِ المَعَاصِي وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ،وَقَتْلِ الأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.وَيُهَدِّدُهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ إِنْ عَادُوا إِلَى الإِفْسَادِ،عَادَ اللهُ إِلَى الإِدَالَةِ عَلَيْهِمْ،وَتَسْلِيطِ الأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(وَقَدْ سَلَّطَ اللهُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ فَـــأَخْرَجُوهُمْ مِـــنْ جَزِيـــرَةِ العَرَبِ،وَفَرَضُـــوا عَلَـــيْهِمُ الجِزْيَّةَ،وَأَذَاقُوهُمْ وَيْلاَتِ الحُرُوبِ).وَيُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِـــأَنَّ مَصِـــيرَ الكُفَّـــارِ وَالمُفْسِدِينَ وَاحِدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ،وَهُوَ العَذَابُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،التِي تَحْصُرُهُمْ جَمِيعـــاً،وَتُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،فَلاَ يُفْلِتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.[٤٧٦١]

عودة الخلافة الإسلامية مرة أخرى:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،قَالَ:كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًـــا يَكُفُّ حَدِيثَهُ،فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ،فَقَالَ:يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ،فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ،فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا،فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُـــونُ

[٤٧٦١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١/ ٢٠٣٣) فما بعدها وتفسير الشعراوي - (/ ٢٠١٧) فما بعدها - وانظر التفاصيل في كتابي **المفصل في أحاديث الملاحم** [ص ١٣٧]- المبحث الرابع عشر -ما جاء في قتال اليهود -

مُلْكًا جَبْرِيَّةً،فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَــةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ " ثُمَّ سَكَتَ" [٤٧٦٢]

والأمة اليوم في مرحلة الملك الجبري القهري،المفروض على الأمة رغماً عنها.وسوف ترجع الخلافة الراشدة بلا ريب

وهناك تفاصيل حول هذا الموضوع ذكرها في كتابي " الأحكام الشرعية للثــورات العربية "

علو الإسلام:

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:"لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَــا بَلَــغَ اللَّيْــلُ وَالنَّهَارُ،وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الــدِّينَ،بِعِزِّ عَزِيــزٍ أَوْ بِــذُلِّ ذَلِيلٍ،عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ،وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ " وَكَانَ تَمِيمٌ الــدَّارِيُّ،يَقُولُ:" قَــدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي،لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ،وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ "[٤٧٦٣]

وقال الطحاوي:" بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جَوَابِهِ مَنْ سَأَلَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ هَلْ لَهُ مُنْتَهًى؟ عَنْ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ:أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،هَلْ لِلْإِسْلَامِ مِــنْ مُنْتَهًى؟ قَالَ:" نَعَمْ،يَكُونُ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ،أَوِ الْعَجَمِ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ خَيْــرًا أَدْخَــلَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ "،قَالَ:ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:" ثُمَّ تَقَعُ الْفِتَنُ،كَأَنَّهَا الظُّلَلُ "،فَقَالَ رَجُلٌ:كَلَّا،إِنْ شَاءَ اللهُ،فَقَالَ:" لَتَعُودُنَّ فِيهَا أَسَــاوِدَ صُــبًّا يَضْــرِبُ بَعْضُــكُمْ رِقَــابَ بَعْــضٍ " قَــالَ الزُّهْرِيُّ:الْأَسْوَدُ:الْحَيَّةُ السَّوْدَاءُ،إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَنْهَشَ ارْتَفَعَتْ،ثُمَّ انْصَبَّتْ فَقَالَ قَائِلٌ:فَقَــدْ رُوِّيتُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَدْفَعُ هَذَا الْمَعْنَى،وَذَكَرَ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِــيِّ ﷺ يَقُولُ:" لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ،وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَــذَا

[٤٧٦٢] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣٥٥)(١٨٤٠٦) صحيح

[٤٧٦٣] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ١٥٤)(١٦٩٥٧) صحيح

الدِّينَ،بعزِّ عَزِيزٍ يُعِزُّ بِهِ الْإِسْلَامَ،وَبِذُلِّ ذَلِيلٍ يَذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ " قَالَ:وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّــهُ لَــا يَنْقَطِعُ،حَتَّى يَعْمُرَ اللهُ الْأَرْضَ كُلَّهَا،بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ مِنْهُ دُونَ ذَلِكَ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ:أَنَّهُ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ فِي حَدِيثِ تَمِيمٍ عُمُومَ الْأَرْضِ كُلِّهَا،حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ إِلَّا دَخَلَهُ،إِمَّا بِالْعِزِّ الَّذِي ذَكَرَهُ،أَوْ بِالذُّلِّ الَّذِي ذَكَرَهُ فِــي هَــذَا الْحَدِيثِ،وَيَكُونُ الْمُنْتَهَى الَّذِي ذَكَرَهُ فِي حَدِيثِ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ،هُوَ الْمُنْتَهَى بِــهِ إِلَــى النَّاسِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ،وَيَدْخُلُونَ فِيهِ،وَيَكُونُونَ مِنْ أَهْلِهِ،ثُمَّ تَأْتِي الْفِتَنُ،فَتَشْغَلُ مَنْ شَــاءَ اللهُ أَنْ يَشْغَلَهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ،فَيَكُونُ مَا فِي حَــدِيثِ تَمِــيمٍ عَلَــى عُمُومِهِ بِالْمُسَاوَاةِ.وَمَا فِي حَدِيثِ كُرْزٍ عَلَى انْقِطَاعِهِ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ بِالتَّشَاغُلِ بِالْفِتْنَــةِ بَعْدَ دُخُولِهِ كَانَ فِيمَنْ عَمَّتْهُ،لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَبْلُغُهَا اللَّيْلُ.فَهَذَا أَحْسَــنُ مَــا حَضَرَنَا فِي تَأْوِيلِ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ،وَفِي الْتِئَامِ مَعْنَاهُمَا،وَفِي انْتِفَاءِ التَّضَادِ عَنْهُمَا،وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ،وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ."[٤٧٦٤]

فتح عاصمة النصارى:

قَالَ أَبُو قَبِيلٍ:كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْــنِ الْعَاصِي،وَسُــئِلَ:أَيُّ الْمَــدِينَتَيْنِ تُفْــتَحُ أَوَّلًا:الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بِصُــنْدُوقٍ لَــهُ حَلَقٌ،قَــالَ:فَــأَخْرَجَ مِنْــهُ كِتَابًا،قَالَ:فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَكْتُــبُ،إِذْ سُــئِلَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا:قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" مَدِينَــةُ هِرَقْــلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا " يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ "[٤٧٦٥]

[٤٧٦٤] - شرح مشكل الآثار (١٥/ ٤٥٧)(٦١٥٤ و٦٥١٥)

[٤٧٦٥] - مسند أحمد ط الرسالة (١١/ ٢٢٤)(٦٦٤٥) صحيح لغيره

قال الألباني:و (رومية) هي روما كما في " معجم البلدان " وهي عاصمة إيطاليا اليوم ، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد، {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} ، ومن فوائد الحديث أن فيه دليلا على أن الحديث كُتب في عهده – صلى الله عليه وسلم – خلافا لما يظنه بعض الخَرَّاصين.أ.هـ

وعَنْ أَبِي قَبِيلٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْــنِ عَمْــرو وَسُــئِلَ:أَيُّ الْمَــدِينَتَيْنِ تُفْــتَحُ أَوَّلاً قُسْطَنْطِينِيَّةُ،أَوْ رُومِيَّةُ ؟ قَالَ:فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو بِصُنْدُوقٍ لَهُ حلَقٌ فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًــا فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ،قَالَ:فَقَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ:أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ يُفْتَحُ أَوَّلاً قُسْطَنْطِينِيَّةُ،أَوْ رُومِيَّةُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:بَلْ مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلاً.[٤٧٦٦]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٤٧٦٦] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٠/ ٣١٧)(١٩٨١١) حسن

الباب الحادي و الثلاثون
صفات المثبطين والمعوقين

الفرح بعدم الجهاد:

قال تعالى:{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) } [التوبة]

ذمّ الله تعالى المنافقين الذين تخلّفوا عنْ صحْبة رسول الله ﷺ في غزْوة تبوك،وفرحوا بقعودهمْ بعْد خروجه،وكرهوا أنْ يجاهدوا معه بأمْوالهمْ وأنْفسهمْ في سبيل الله،وقال بعْضهمْ لبعْضٍ،إغْراءً لهمْ بالثّبات على المنْكر،وتثْبيطاً لعزائم الْمؤْمنين:لا تخْرجوا إلى الجهاد في الحرّ.فأمر الله نبيّه ﷺ بأنْ يقول لهمْ:إنّ نار جهنّم الّتي سيصيرون إليْها،هي أشدّ حرّاً منْ قيْظ الصّحْراء الذي فرّوا منْه.ولوْ أنّهمْ كانوا يدْركون ويعْقلون لما خالفوا وقعدوا،ولما فرحوا بقعودهمْ [4767].

تكشف هذه الآيات عن وجه أولئك المنافقين،الذين تخلّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك،وتفضح الأعذار الكاذبة التي كانوا يعتذرون بها،وترسم للنبى- ﷺ- الأسلوب الذي يعاملهم به،والموقف الذي يقفه منهم..

وفى قوله تعالى:«فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» تنديد ووعيد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله فى تلك الغزوة،وأن هذه الفرحة التي شاعت فى نفوسهم حين بدا لهم أنهم أفلتوا من هذا البلاء الذي ابتلى به المؤمنون فى هذه الغزوة..من قلّة الزاد،وبعد الشّقة،ووقدة الحرّ- هذه الفرحة لن يهنئوا طويلا بها،بل ستعقبها حسرة وندامة،وعذاب شديد.

والمخلّفون:جمع مخلّف،وهو الذي بقي خلف القوم،وترك وراءهم..

[4767] -أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣١٧، بترقيم الشاملة آليا)

وكأنه بهذا هو المتروك لا التّارك،والمخلّف لا المخلّف..وفى هذا إشارة إلى أن هؤلاء الذي تخلّفوا هم مخلّفون! قد تركهم المجاهدون،وسبقوهم إلى حظهم من الخير الذي أراده الله لهم..

والمقعد:مصدر ميمى للفعل «قعد» أي فرح المخلفون بقعودهم.و«خلاف رسول الله»:الخلاف ظرف بمعنى خلف،ووراء..ويجوز أن يكون مفعولا له،بمعنى:لأجل خلافهم لرسول الله.

وقوله سبحانه:«وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» معطوف على قوله تعالى:«فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» بمعنى فرحوا بقعودهم بعد رسول الله،وكرهوا،أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله..

وقوله تعالى:«وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» معطوف على ما قبله،من فعلات هؤلاء المخلّفين..بمعنى أنهم فرحوا بتخلفهم،وكرهوا أن يجاهدوا،وقالوا لا تنفروا فى الحرّ..وقولهم:«لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» قد يكون من حديث بعضهم إلى بعض،وتحريض بعضهم لبعض على ترك الجهاد فى الحرب،وذلك ليكثر عددهم،وتقوى جبهتهم،وليكون للمتخلف منهم وجه من العذر،بكثرة المتخلفين غيره.

وقد يكون هذا القول منهم على إطلاقه،يقولونه لكل من يلقاهم من المؤمنين،ليفتّروا به الهمم،ويكسروا العزائم،حتى لا يجتمع على دعوة النبيّ للجهاد،الجيش الذي يخرج به فى هذه الغزوة..وبهذا لا ينكشف أمر المنافقين الذين عقدوا العزم على التخلّف عن الغزو،حيث لا يخفّ أحد للجهاد،إذا صحّ ما قدّروه،وعملوا له،من إشاعة الدعوة فى الناس،بألّا ينفروا فى الحرّ.

وقوله سبحانه:«قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ» هو ردّ مفحم على هذه القولة التي تنادى بها المنافقون بقولهم:«لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ»..فإن تركهم النفير فى الحرّ يوقعهم فى حرّ أشد هولا من هذا الحرّ،الذي يعتبر بردا وسلاما إذا قيس بحر جهنم..فلو أنهم

عقلوا هذا،وفقهوه،لما اشتروا عذاب الآخرة بلفحات الهجير هذه،التي يخشون لقاءهـــا فى طريقهم إلى الجهاد..ولكنهم قوم لا يفقهون..[٤٧٦٨]

يقول تعالى مبينا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبـــالاتهم بذلك،الـــدال علـــى عـــدم الإيمان،واختيار الكفر على الإيمان.{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} وهذا قدر زائد على مجرد التخلف،فإن هذا تخلف محرم،وزيادة رضا بفعـــل المعصـــية،وتبجح به.{وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا -ولو لعذر- حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأســـف،ويحبون أن يجاهـــدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله،لما في قلوبهم من الإيمان،ولما يرجـــون مـــن فضـــل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

{وَقَالُوا} أي:المنافقون {لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} أي:قالوا إن النفير مشقة علينـــا بســـبب الحر،فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.وحذروا من الحر الذي يقـــي منه الظلال،ويذهبه البكر والآصال،على الحر الشديد الذي لا يقادر قـــدره،وهو النـــار الحامية.ولهذا قال:{قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} لما آثروا ما يفنى على مـــا يبقى،ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية،إلى المشقة الشديدة الدائمة.[٤٧٦٩]

وفي الظلال:

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض.ثقلة الحرص على الراحة،والشح بالنفقة.وقعد بهـــم ضعف الهمة وهزال النخوة،وخواء القلب من الإيمان..هؤلاء المخلفون – والتعبير يلقـــي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعا يخلف أو هملا يترك – فرحوا بالسلامة والراحة «خلاف رسول اللّه» وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد،وحسبوا أن السلامة غايـــة يحـــرص عليها الرجال! «وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..

«وَقالُوا:لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

[٤٧٦٨] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٨٥٦)

[٤٧٦٩] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٤٦)

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة،وطراوة الإرادة وكثيرون هم الـذين يشـفقون مـن المتاعب،وينفرون من الجهد،ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكـدح الكريم،ويفضـلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.

وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات.ولكـن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك،لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان،وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة:«وَقالُوا:لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ.قُـلْ:نـارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ».[٤٧٧٠]

الصد عن الجهاد في سبيل الله :

قال تعالى:{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)} [النساء:٧٢،٧٣]

وَمِنَ النَّاسِ (وَمِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ وُالجُبَنَاء وضِعَاف الإِيْمَان) مَنْ يَتَأَخَّرُ عَـنِ الخُـرُوجِ إِلَـى الجِهَاد،وَيَتَبَاطَّأُ،وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْعُدُ عَنِ الجِهَاد،وَيُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الخُرُوجِ،فَإِنْ أَصَابَت المُؤْمِنينَ مُصِيبَةٌ مِنْ قَتْلٍ وَشَهَادَة،أَوْ تَغَلَّبَ عَدُوٌّ عَلَى المُؤْمِنينَ،فَرِحَ وَعَدَّ تَخَلُّفَهُ عَنِ الجِهَادِ نِعْمَةً،إِذْ أَنْجَاهُ تَخَلُّفُهُ مِنَ المُصَابِ الذي حَلَّ بالمُسْلمِينَ،وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الأَجْرِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الشِّدَّة،وَالشَّهَادَة إِنْ قُتِلَ.وَإِذَا أَصَابَ المُسْلِمُونَ نَصْراً،وَحَقَّقُوا ظَفَراً،وَفَازُوا بِمَغْنَمٍ،(فَضْلٌ مِنَ الله)،اغْتَمَّ أَلاَّ يَكُونَ مَعَ المُؤْمِنينَ،فَيُصيبهُ سَهْمٌ مِنَ الغَنيمَـة.وَالغَنيمَـة هـيَ أَكْبَـرُ هَمِّه،وَيَقُولُ،وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ:يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ كَمَا فَازُوا،فَهُوَ قَـدْ

[٤٧٧٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٩٩)

نَسِيَ مَا يَجِبُ عَلَيهِ،مِنْ مَدِّ يَدِ العَوْنِ لِإخْوَتِهِ الْمُؤمنِينَ،وَبَذْلِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ بَذْلَــهُ مِــنْ نَفْسٍ وَمَالٍ،لِيَتِمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ.[٤٧٧١]

من أقوى دعامات الإيمان،الجهاد فى سبيل الله،إذ كان أكثر التكــاليف مشــقة علــى النفس،وأهكها للبدن والمال! ومن هنا كانت مترلة الجهاد فى الإسلام،ومقام المجاهــدين عند الله،كما كان الجهاد مطلبا أول للمؤمنين،الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه.

ومن هنا أيضا كانت عناية الله بالمجاهدين،ورسم معالم الطريق لهم،وحراســتهم مــن أن يغرّر بهم،أو يبيتوا..فكانت وصاة الله سبحانه وتعالى للمجاهدين دستورا متكاملا،لمعاناة الحرب،والتهيؤ لها،والحذر من المكيدة،والأخذ بها..

فمن ذلك،الإعداد للحرب،والأخذ بوســائل القــوة والغلــب،وفى هــذا يقــول الله تعالى:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُــونَ بِــهِ عَــدُوَّ اللَّــهِ وَعَدُوَّكُمْ» (٦٠:الأنفال) ومن ذلك أيضا،الحذر من مباغتة العدوّ عند انتهاز الغفلة مــن المؤمنين..وفى هذا يقول سبحانه:«وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْــرى لَــمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُــونَ عَــنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ..» (١٠٢:النساء) ومن ذلك أيضا الثبات فى المعركة،ومساندة المجاهــدين بعضــهم بعضــا،حتى لكــأهم جســد واحد،وكلهم أعضاء فى هذا الجسد،فلا يطلب أحدهم السلامة لنفســه،كما لا يطلــب السلامة لعضو من أعضائه بتعريض الجسد كله للتلف..

وفى هذا يقول سبحانه:«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَــفًّا كَــأَنَّهُمْ بُنْيــانٌ مَرْصُوصٌ» (٤:الصف) ويقول جل شأنه:(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّــذِينَ كَفَــرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١٥:الأنفال) وهنا فى قوله تعالى:«يــا

[٤٧٧١] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ» لفتة من لفتات السماء للمجاهدين أن يأخذوا حذرهم من عدوهم،فيكونوا دائما على تأهب واستعداد،فهى دعوة عامة إلى الحيطة والحذر،واليقظة الدائمة لملاقاة العدوّ بالقوة الرادعة،واليد المتمكنة الباطشة.

وقوله:«فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً» هو مظهر من مظاهر الحذر،حيث يتخير المجاهدون الأسلوب المناسب للقاء عدوّهم،فتارة يلقونه جماعة جماعة،وطورا يلقونه بقوتهم جميعا،حسب تقديرهم لقوة العدوّ،وللأسلوب الذي تمليه الحكمة،ويقتضيه النظر.،ويستدعيه الموقف.

وذلك الجبن،الذي قطع أواصر الأخوّة والتناصر بينه وبين أصحابه..فما على هذا الأسلوب الخسيس تقوم الصحبة بين الجماعة،التي من شأنها أن تتقاسم السرّاء والضرّاء،وأن تذوق الحلو والمرّ..أمّا أن تقف لتتحيّن الفرصة لتشارك فى السّرّاء،ولا تشارك فى الضراء،فذلك هو اللؤم الدنيء الذي تترفع عنه أدنى الحيوانات،التي إذا هاجمها عدوّ،لقيته يدا واحدة،وقوة مجتمعة![4772]

أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال:{وَإِنَّ مِنْكُمْ} أي:أيها المؤمنون {لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ} أي:يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفا وخورا وجبنا،هذا الصحيح.

وقيل معناه:ليبطئن غيرَه أي:يزهده عن القتال،وهؤلاء هم المنافقون،ولكن الأول أَولى لوجهين:

أحدهما:قوله {مِنْكُمْ} والخطاب للمؤمنين.

والثاني:قوله في آخر الآية:{كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ} فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة.وأيضا فإن هذا هو الواقع،فإن المؤمنين على قسمين:

صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد.وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد.

[4772] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٣١)

كما قال تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} إلى آخر الآيات.ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم،وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: {فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} أي:هزيمة وقتل،وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم. {قَالَ} ذلك المتخلف {قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة.ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة،التي بها يقوى الإيمان،ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران،ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب.

وأما القعود فإنه وإن استراح قليلا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة،ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: {وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ} أي:نصر وغنيمة {لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} أي:يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم،ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك،كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم،يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها،ويسعون جميعا في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم،فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط،ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.[٤٧٧٣]

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض.ثقلة الحرص على الراحة،والشح بالنفقة.وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة،وخواء القلب من الإيمان..هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعا يخلف أو هملا يترك - فرحوا بالسلامة والراحة «خلاف رسول اللّه» وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد،وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! «وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..

[٤٧٧٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٦)

«وَقالُوا:لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة،وطراوة الإرادة وكثيرون هم الـذين يشـفقون مـن المتاعب،وينفرون من الجهد،ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكـدح الكريم،ويفضـلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.

وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات.ولكـن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك،لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان،وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة:«وَقالُوا:لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ.قُـلْ:نـارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ».

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض،ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال.فكيف بهـم في حر جهنم وهي أشد حرا،وأطول أمدا؟ وإنها لسخرية مريرة،ولكنها كذلك حقيقة.فإمـا كفاح في سبيل اللّه فترة محدودة في حر الأرض،وإما انطراح في جهنم لا يعلم مـداه إلا اللّه:«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..

وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة،وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة.وإن يوما عند ربك كألف سنة مما يعدون.

«جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..فهو الجزاء من جنس العمل،وهو الجزاء العادل الدقيق.

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد – في ساعة العسرة – وتخلفوا عن الركـب في أول مرة.هؤلاء لا يصلحون لكفاح،ولا يرجون لجهاد،ولا يجـوز أن يؤخـذوا بالسـماحة والتغاضي،ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلوا عنه راضين:«فَإِنْ رَجَعَـكَ اللَّـهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ،فَقُلْ:لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا،إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ»

إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق.والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب.فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة.والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة،ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء،جناية على الصف كله،وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير..

«فَقُلْ:لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا».لماذا؟.«إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ»..

ففقدتم حقكم في شرف الخروج،وشرف الانتظام في الكتيبة،والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل.فلا سماحة في هذا ولا مجاملة:«فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ»..

المتجانسين معكم في التخلف والقعود.

هذا هو الطريق الذي رسمه اللّه تعالى لنبيه الكريم،وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدا.فليعرف أصحابها في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق..

وكما أمر اللّه رسوله - ﷺ- بألا يسمح للمتخلفين في ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا في الصفوف،كذلك أمره ألا يخلع عليهم أي ظلال من ظلال التكريم:«وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ.إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ». ولقد ذكر المفسرون حوادث خاصة عنتها هذه الآية.ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة.

فهي تقرر أصلا من أصول التقدير في نظام الجماعة المكافحة في سبيل العقيدة،هو عدم التسامح في منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق وعدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصف.ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي ولا تلين.

والنص يعلل هذا النهي في موضعه هنا «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ» وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول - ﷺ- على قبر منافق..ولكن القاعدة -

كما ذكرنا — أوسع من المناسبة الخاصة.فالصلاة والقيام تكريم.والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف في ساعة الجهاد،لتبقى له قيمته،ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون في سبيل اللّه،وبما يصبرون على البذل،ويثبتون على الجهد،ويخلصون أنفسهم وأموالهم للّه لا يتخلفون بهما في ساعة الشدة،ثم يعودون في الصف مكرمين! لا التكريم الظاهر ينالونه في أعين الجماعة،ولا التكريم الباطن ينالونه في عالم الضمير:«وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ.إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ»..والمعنى العام للآية قد سبق في السياق.أما مناسبة ورودها فتختلف.فالمقصود هنا ألا يقام وزن لأموالهم وأولادهم،لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعوري لهم.وهم لا يستحقونه لا في الظاهر ولا في الشعور.إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون[٤٧٧٤].

الخور والجبن (١):

قال تعالى:{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة:٢٤٩]

فلما خرج طالوت بجنوده لقتال العمالقة قال لهم:إن الله ممتحنكم على الصبر بنهر أمامكم تعبرونه؛ ليتميَّز المؤمن من المنافق،فمن شرب منكم من ماء النهر فليس مني،ولا يصلح للجهاد معي،ومن لم يذق الماء فإنه مني؛ لأنه مطيع لأمري وصالح للجهاد،إلا مَن ترخَّص واغترف غُرْفة واحدة بيده فلا لوم عليه.فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء،وأفرطوا في الشرب منه،إلا عددًا قليلا منهم صبروا على العطش والحر،واكتفوا بغُرْفة اليد،وحينئذ تخلف العصاة.ولما عبر طالوت النهر هو والقلة المؤمنة معه -وهم ثلاثمائة

[٤٧٧٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٥٥)

وبضعة عشر رجلا- لملاقاة العدو،ورأوا كثرة عدوهم وعدّهم،قالوا:لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء،فأجاب الذين يوقنون بلقاء الله،يُذَكِّرون إخوانهم بالله وقدرته قائلين:كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة،غلبت بإذن الله وأمره جماعة كثيرة كافرة باغية.والله مع الصابرين بتوفيقه ونصره،وحسن مثوبته.[٤٧٧٥]

الجبن والخور(٢):

قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)} [النساء:٧٧،٧٨]

كَانَ الُمؤْمنُونَ فِي بدْءِ أَمْرِ الإِسْلاَمِ،فِي مَكَّةَ،مَأْمُورينَ بالصَّلاَةِ،وَالزَّكَاةِ،وَبِمُواسَاةِ الفُقَرَاءِ،وَكَانُوا مَأْمُورينَ بالعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الُمشْرِكينَ،وَالصَّبْرِ إِلَى حِينٍ،وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ شَوْقاً إِلَى القِتَالِ،وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بالقِتَالِ،لِيَنْتَصِفُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ،وَيَشْفُوا غَلِيلَهُمْ مِنْهُمْ،وَلَمْ يَكُنِ الحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِباً لِلْقِتَالِ لأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ:مِنْهَا قِلَّةُ عَدَدِهِمْ،وَمِنْهَا كَوْنُهُمْ فِي بَلَدٍ حَرَامٍ،لِذَلِكَ لَمْ يُؤْمَرُوا بالجِهَادِ إلاَّ بَعْدَ أنْ خَرَجُوا إلى الَمدِينَةِ،وَصَارَ لَهُمْ فِيها دَارُ مَنَعَةٍ وَأَنْصَارٌ.وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ (وَهُوَ القِتَالُ) جَزِعَ بَعْضُهُمْ جَزَعاً شَدِيداً،وَخَافُوا مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ فِي مَيْدَانِ الحَرْبِ،وَقَالُوا:رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ الآنَ؟ لَوْلاَ أَخَّرْتَ فَرْضَهُ إلى وَقْتٍ آخَرَ (أو لَوْ تَأَخَّرْتَ فِي فَرْضِهِ عَلَيْنَا حَتَّى نَمُوتَ مَوْتاً طَبِيعياً حَتْفَ أُنُوفِنَا)،فَإِنَّ فِيهِ سَفْكَ الدِّمَاءِ،وَيُتْمَ الأَوْلاَدِ،وَتَأْيِيمَ النِّسَاءِ..فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:مَتَاعُ الدُّنْيَا مَهْمَا عَظُمَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الحَيَاةِ الأُخْرَى،وَحَيَاةُ النَّاسِ فِي الدُّنْيا قَصِيرَةٌ،وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِلْمُتَّقِينَ،لأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي الجَنَّاتِ،يَنْعَمُونَ بِرِضْوَانِ

[٤٧٧٥] -التفسير الميسر (١/ ٤١)

رَبِّهِمْ.وَقُلْ لَهُمْ:إِنَّهُمْ سَيُوَفَّوْن أَعْمَالَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً وَلَوْ قَلَّ،وَلَوْ كَانَ فَتيلاً.

(وَقيلَ إنَّ هَذه الآيَةَ تَتَعَلَّقُ بالأَنْصَارِ منَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ،الذينَ كَانَ بَيْنَهُمْ قتَالٌ دَائمٌ قَبْلَ الإِسْلاَمِ،فَلَمَّا دَخَلُوا الإِسْلاَمَ أَلَّفَ اللهُ بَيْنَهُمْ،وَأَمَرَهُمْ بكَفِّ أَيْديهِمْ عَنِ القتَالِ وَالعُدْوَانِ،وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ إِقَامَةَ الصَّلاَة،وَإِيتَاءَ الزَّكَاة لتَصْفُوَ نُفُوسُهُمْ،إلى أن اشْتَدَّت الحَاجَةُ إلى القتَالِ لدَفْعِ الأَذَى عَنِ المُسْلمينَ،ففَرَضَ اللهُ القتَالَ،فكَرِهَهُ المُنَافقُونَ وَالضُّعَفَاءُ).

يَخْبِرُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ بأَنَّهُمْ صَائرُونَ إلى المَوْت لاَ مَحَالَةَ،وَلاَ يَنْجُو منْهُ أَحَدٌ منْهُمْ،وَلَوْ كَانُوا مُقيمينَ في حُصُون مَبْنيَّة،قَويَّة البُنْيَان وَالتَّحْصين وَللنَّاسِ أَجَلٌ مَحْتُومٌ،ووَقْتٌ مَعْلُومٌ،لاَ يَتَقَدَّمُونَ عَنْهُ وَلاَ يَتَأَخَّرُونَ،سَواءٌ أَجَاهَدُوا وَتَعَرَّضُوا لمَخَاطرَ الحُرُوب،أَوْ قَعَدُوا في بُيُوتهمْ،فَلاَ يُقَدِّمُ الجهَادَ أَجَلاً.وَلاَ يُؤَخِّرُ القُعُودُ أَجَلاً فلمَاذَا يَكْرَهُونَ القتَالَ،وَيَجْبُنُونَ وَيَتَمَنَّوْنَ البَقَاءَ،أَلَيْسَ هَذَا بضَعْف في العَقْل وَالدِّين؟

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى شَأناً آخرَ منْ شُؤُونهمْ فيه دَلاَلَةٌ عَلى الحَمَق وَضَعْف الإِدْرَاك،وَهُوَ أَنَّهُمْ إذَا أَصَابَتْهُمْ سَنَةُ خَيرٍ وَخصْب وَرزْق كَثير،وكَثْرَة أَمْوال وَأَوْلاَد..قَالُوا:هَذه منْ عنْد الله،وَهُوَ الذي أَكْرَمَهُمْ بها،لأَنَّهُمْ يَسْتَحقُّونَ ذَلكَ منْهُ.وَإذَا أَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَدْبٌ وَنَقْصٌ في الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ أَو مَوْت أَوْلاد قَالُوا:هَذه منْ عنْدكَ،وَبسَبَب اتِّبَاعنَا لَكَ،وَإِيمَاننَا بمَا أَتَيْتَنَا به،وَتَرْكنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيه آبَاءَنَا.فَقُلْ لَهُمْ:كُلُّ مَا يُصيبُ النَّاسَ،منْ خَيْرٍ وَشَر،هُوَ منْ عنْد الله،وَبتَقْديره،اخْتبَاراً وَابْتلاءً،فَمَا لهَؤُلاءِ القَائلينَ وَكَأَنَّهُمْ لاَ يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُونَ،وَلاَ مَا يُقَالُ لَهُمْ؟[4776]

قبل أن يكتب الله القتال على المؤمنين- جهادا فى سبيل الله،وحماية لدعوة الحق التي فى أيديهم- كانت تكاليف الإسلام محدودة،ليس فيها ما يشق على النفس،إذ لم تكن دعوة الله لهم تتجاوز اجتناب المحرمات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة،كما يقول تعالى:«كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ»..

[4776] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

وإنه حين كتب الله القتال على المؤمنين،استقبله المؤمنون الذين صدق إيمانهم بصدور منشرحة،ونفوس راضية،وعدّوا ذلك نعمة من نعم الله بهم،وفضلا من أفضاله عليهم،إذ أتاح لهم فرصة مسعدة للعمل على مرضاته،والفوز بمنزلة المجاهدين،والشهداء عنده..

أما الذين فى قلوبهم ضعف أو مرض..فقد فزعوا لهذا الأمر،وطلع عليهم من جهته شبح الموت يمدّ يديه الرهيبتين لانتزاع أرواحهم! إن حرصهم على الحياة،وحبّهم للدنيا،قد مثّل لهم الموت شيئا مهولا فظيعا،لأنه يقطعهم عن الحياة التي تعّلقوا بها،وسكروا من خمرها..ورأوا فيما فرض الله عليهم من قتال أمرا لا يطاق،فقالوا- وكأنهم ينكرون على الله أن يكلفهم ما كلفهم به-:«رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ؟».إنهم يهربون من حمل تلك المسئولية،ويدافعون الأيام بالتسويف..

إنهم يتمنّون على الله أن يؤخر هذا الأمر- أمر القتال- إلى غد..وذلك الغد لن يلتقوا به أبدا..إنه كلما جاء حسبوه يومهم،وانتظروا ما بعده غدا لهم..وهكذا..لا يلتقون بالغد أبدا،ولهذا جاء قوله تعالى:«قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا» ناعيا عليهم هذا التعلّق الشديد بالحياة الدنيا،والحرص القوىّ على متاعها..ولو أنهم عقلوا لعرفوا أن متاع هذه الحياة الدنيا قليل،وإلى زوال،وأن الآخرة خير وأبقى،فمن ربح الدنيا وخسر الآخرة فذلك هو الخسران،المبين،ومن خسر الدنيا وربح الآخرة،فذلك هو الفوز العظيم.

وفى قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ» تعجّب واستنكار معا،من هؤلاء الذين وقفوا هذا الموقف المتخاذل من الدعوة إلى القتال..إنهم- وتلك حالهم- مثار للعجب والتعجب،وفيهم عبرة لمن يعتبر! وقد ذكر الله سبحانه هذا الموقف المتخاذل،من بعض النفوس المريضة،وشنّع عليه،وأخذ باللائمة أهله..فقال تعالى:«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» (٢٠:محمد).هؤلاء الذين يفزعون من الموت،ويخشون التعرض له فى مواقف الجهاد فى سبيل الله- ماذا يعصمهم من الموت؟ وإلى أين تمضى بهم الحياة؟

أليس الموت هو خاتمة المطاف لكل حيّ وإن طال أجله وامتدّ عمره؟ إذن فالموت الــذي يهرب منهم هؤلاء الجبناء هو ملاقيهم يوما،أينما كانوا..

ولو كانوا فى بروج مشيدة..فهم إن لم يموتوا بضربة سيف أو طعنــة رمــح فى ميــدان القتال،ماتوا حتف أنوفهم وهم فى بيوقم وبين أهليهم..فإن فرّوا من الموت،فإنما يفــرّون إلى الموت!! وقوله تعالى:«وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَــيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» هو تنديد لهؤلاء الجبناء الفارّين من وجه الموت،وفضح لمــوقفهم المنحرف من الرسول.«وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»..وتلك قوله حــق «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» وتلك رمية باطل وضلال،فما فيما جاءهم به الرسول ودعاهم إليه،إلّا الخير الخالص،لو أنهم استقاموا على الطريق الذي أقامهم عليه.

وقوله تعالى:«قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» هو الردّ المفحم على تلك التهمة الظالمة التي توجّه بها هؤلاء السفهاء إلى النبيّ..إنه لا يملك شيئا،الأمر كله بيد الله..فما أصابهم من خير أو شرّ فذلك بقدر مقدور قدّره الله،وأجراه على عباده..وما كان لأحد أن يغيّر أو يبدل شــيئا مما قضى الله به! وقوله تعالى:«فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» تسفيه لتلك العقول الضالة التي يعيش بها هؤلاء المنحرفون الضــالون..إنهــم لا يكــادون يفقهــون حديثا..ولو كان لهم شيء من فقه الحديث،لكان لهم فيما جاءهم به النبي من كلمــات الله،تبصرة وهدى،ولكن أنّى للعمى أن يبصروا،وللصم أن يسمعوا؟ «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

واحدة،وأن قوله تعالى:«ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَــيِّئَةٍ فَمِــنْ نَفْسِكَ» هى نفس ما تضمنه قوله تعالى:«قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وأنه إذا كان الله تعــالى قد أضاف الخير إلى نفسه،وأضاف الشــرّ إلى الإنســان،فما ذلــك إلا إعمــالا لإرادة الإنسان،وإيقاظا لوجوده،وإلا فإن الأمر كله لله،وليس للإنسان منه شــيء،وأن علــى الإنسان فى مواجهته للحياة،أن يستقلّ بإرادته،وألا يضيفها إلى الله..فإن حصّــل بتلــك الإرادة خيرا حمد الله عليه،وشكر له أن وفقه وهداه،وإن حصّل شرّا نظر إلى نفسه،فألقى باللائمة عليها،وصحح موقفه الذي أورده موارد الشر..وذلك علــى الأقــل- وإن لم

يزحزح الإنسان عما أراد الله له- يجعل الشرّ أمرا بغيضا حتى عند أهله الــذين ســاقهم قدرهم إليه..وذلك أضعف الإيمان فى مواجهة الشرّ..وبهذا يستقيم للإنسانية فى مجموعها رأى فى الخير وفى الشر،فتحتفى بالخير وترضى عنه،وتبغض الشر وتنفر منه..وبهذا يتوازن ميزان الحياة..فيكون فيها الخير والشر،والأخيار والأشرار..الأمر الذي لا تكون الحيــاة حياة إلا بهما،ولا يكون الناس ناسا إلّا معهما جميعا!! وإذا استقام فى الإنسانية أن الخــير طيّب محبوب،وأن الشرّ خبيث مكره،فإنه مطلوب من الإنسان- كل إنسان- أن يسعى جاهدا إلى تحصيل الخير والاستزادة منه،وأن ينفر جاهدا من الشرّ والتخفف منــه..وألا يستولى عليه فى حاليه هذين أي شعور بأنه مهما جدّ وجهد فلن يبلغ من جدّه واجتهاده إلا ما قدّره الله له..،وكتبه عليه..فذلك- وإن يكن الحقّ كلّ الحق- أمر غير مكشــوف له،وأن عليه أن يعمل للخير،وأن يجدّ فى تحصيله،وأن يدع المصــير الــذي هــو صــائر إليه،لتقدير الله وحكمه..«أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

وقوله تعالى:«وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا» تحديد لمهمة الرسول،وأنه ليس مسئولا عن ضلال الضالّين،وعناد المعاندين،إن عليه إلا البلاغ..«وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً» يشهد بما كان مــن الرسول من تبليغ رسالة ربه،فمن قبلها،فقد نجا وسعد،ومن أعرض عنها،فقــد هلــك وشقى..إن دعوة الرسول ليست لحسابه،وإنما هى لله،فمن أطاع الرسول فقــد أطــاع الله،ومن تولى،فما على الرسول شىء من تولّيه،وإنما حسابه على الله![٤٧٧٧]

كان المسلمون -إذ كانوا بمكة- مأمورين بالصلاة والزكاة أي:مواساة الفقراء،لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط،فإنها لم تفرض إلا بالمدينة،ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد:

منها:أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق [ص:١٨٨] عليهم؛ويبدأ بالأهم فالأهم،والأسهل فالأسهل.

[٤٧٧٧] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٣٨)

ومنها:أنه لو فرض عليهم القتال -مع قلة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم وكثرة أعدائهم- لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام،فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها ولغير ذلك من الحِكَم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال،غير اللائق فيها ذلك،وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام،كُتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك،فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفا من الناس وضعفا وخورا:{رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} ؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله،وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال،التسليم لأمر الله والصبر على أوامره،فعكسوا الأمر المطلوب منهم فقالوا:{لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} أي:هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر،وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها،فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ولا ينوء بحملها،بل يكون قليل الصبر.ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال فقال:{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} أي:التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل،فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك،فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة،وأن الآخرة خير منها،في ذاتها،ولذاتها وزمانها،فذاتها -كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه-"أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها".ولذاتها صافية عن المكدرات،بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة،فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى:{فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} وقال الله على لسان نبيه:"أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر".

وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها،فإن الدنيا منقضية،وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير،وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم وأهلها خالدون فيها،فإذا فكّر العاقل في هاتين الدارين وتصور حقيقتهما حق التصور،عرف ما هو أحق بالإيثار،والسعي له والاجتهاد لطلبه،ولهذا قال:{وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} أي:اتقى الشرك،وسائر المحرمات.{وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا} أي:فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملا موفرًا غير منقوص منه شيئًا.

ثم أخبر أنه لا يغني حذر عن قدر،وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا،فقال:{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ} أي:في أي زمان وأي مكان.{وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} أي:قصور منيعة ومنازل رفيعة،وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه،وتارة بالترهيب من عقوبة تركه،وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودُهم،وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون المعرضين عما جاءت به الرسل،المعارضين لهم أنهم إذا جاءهم حسنة أي:خصب وكثرة أموال،وتوفر أولاد وصحة،قالوا:{هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} وأنهم إن أصابتهم سيئة أي:جدب وفقر،ومرض وموت أولاد وأحباب قالوا:{هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} أي:بسبب ما جئتنا به يا محمد،تطيروا برسول الله ﷺ كما تطير أمثالهم برسل الله،كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ}.

وقال قوم صالح:{قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ}.وقال قوم ياسين لرسلهم:{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} الآية.فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم.وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه فهو داخل في هذا الذم الوخيم.قال الله في جوابهم:{قُلْ كُلٌّ} أي:من الحسنة والسيئة والخير والشر.{مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} أي:بقضائه وقدره وخلقه.{فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ} أي:الصادر منهم تلك المقالة الباطلة.{لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} أي:لا يفهمون حديثا

بالكلية ولا يقربون من فهمه،أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا،وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله،وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم. وفي ضمن ذلك مدْح من يفهم عن الله وعن رسوله،والحث على ذلك،وعلى الأسباب المعينة على ذلك،من الإقبال على كلامهما وتدبره،وسلوك الطرق الموصلة إليه.فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره،لا يخرج منها شيء عن ذلك.وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببا لشر يحدث،هم ولا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.[٤٧٧٨]

يعجب اللّه – سبحانه – من أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة،يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين.حين لم يكن مأذونا لهم في القتال للحكمة التي يريدها اللّه.فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره اللّه وهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال – في سبيل اللّه – إذا فريق منهم شديد الجزع،شديد الفزع،حتى ليخشى الناس الذين أمروا بقتالهم – وهم ناس من البشر – كخشية اللّه القهار الجبار،الذي لا يعذب عذابه أحد،ولا يوثق وثاقه أحد..«أو أشد خشية»!! وإذا هم يقولون – في حسرة وخوف وجزع – «رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ؟»..وهو سؤال غريب من مؤمن.وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين ولوظيفة هذا الدين أيضا..ويتبعون ذلك التساؤل،بأمنية حسيرة مسكينة! «لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ!» وأمهلتنا بعض الوقت،قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف! إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهورا،قد يكونون هم أشد الناس جزعا وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد،وتقع الواقعة..بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف.لا عن شجاعة واحتمال وإصرار.كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال.قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة فتدفعهم قلة الاحتمال،إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل.دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار..حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف

[٤٧٧٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٨٧)

كانت أثقل مما قدروا،وأشق مما تصوروا.فكانوا أول الصف جزعا ونكولا وانهيارا..على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم،ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ويعدون للأمر عدته،ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة،ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف.فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته..

والمتهورون المندفعون المستحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافا،ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالا وأي الفريقين أبعد نظرا كذلك! وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف،الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة.فيندفع يطلب من الرسول ﷺأن يأذن له بدفع الأذى،أو حفظ الكرامة.والرسول - ﷺ- يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار،والتربية والإعداد،وارتقاب الأمر في الوقت المقدر المناسب.فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة و لم يعد هناك أذى ولا إذلال،وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص لم يعد يرى للقتال مبررا أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة! «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً،وَقالُوا:رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ!».وقد يكون هذا الفريق مؤمنا فعلا.بدليل اتجاههم إلى اللّه في ضراعة وأسى! وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا.فالإيمان الذي لم ينضج بعد والتصور الذي لم تتضح معالمه و لم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض - وأنها أكبر من حماية الأشخاص،وحماية الأقوام،وحماية الأوطان،إذ أنها في صميمها إقرار منهج اللّه في الأرض،وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان،يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة اللّه ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته - بأي لون من ألوان الفتنة - ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه حيث هو - وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه..وإذن فلم يكن الأمن في المدينة - حتى على فرض وجوده كاملا غير مهدد - لينهي مهمة المسلمين هناك وينهى

عن الجهاد! الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاقا من الأمر والاستماع فقط إلى أمر اللّه واعتبار ه هو العلة والمعلول،والسبب والمسبب،والكلمة الأخيرة – سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له – والتصور الذي لم تتضح معالمه بعـــد ليعـــرف المؤمن مهمة هذا الدين في الأرض ومهمته هو – المؤمن – بوصفه قدرا من قدر اللّه،ينفذ به اللّه ما يشاؤه في هذه الحياة..لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف،الذي يصوره السياق القرآني هذا التصوير ويعجب منه هذا التعجيب! وينفر منه هذا التنفير.فأما لماذا لم يـــأذن اللّه للمسلمين – في مكة – بالانتصار من الظلم والرد علـــى العـــدوان ودفـــع الأذى بالقوة..وكثيرون منهم كان يملك هذا فلم يكن ضعيفا ولا مستضعفا و لم يكن عـــاجزا عن رد الصاع صاعين..مهما يكن المسلمون في ذلك الوقت قلة

أما حكمة هذا،والأمر بالكف عـــن القتال،وإقامـــة الصـــلاة وإيتـــاء الزكاة،والصـــبر والاحتمال..حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق،وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه.وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيمـــوت تحـــت وطأته..

أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها.لأننا حينئذ نتألى على اللّه ما لم يبين لنا مـــن حكمة ونفرض على أوامره أسبابا وعللا،قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقيـــة.أو قد تكون،ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها،ويعلم – سبحانه – أن فيها الخير والمصلحة..وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف.أو أي حكم في شريعة اللّه – لم يبين اللّه سببه محددا جازما حاسما – فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهـــذا الحكم أو لذلك التكليف أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف،ممـــا يدركه عقله ويحسن فيه..فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال.ولا يجزم – مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام اللّه – بأن ما رآه هو حكمة هو الحكمة التي أرادهـــا اللّه..نصا..وليس وراءها شيء،وليس من دونها شيء ! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع اللّه.ومقتضى ما بين علم اللّه ومعرفة الإنسان مـــن اخـــتلاف في الطبيعـــة والحقيقة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة..نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب..على أنه مجرد احتمال..وندع ما وراءه للّه.لا نفرض على أمره أسبابا وعللا،لا يعلمها إلا هو..و لم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح! إنها أسباب..اجتهادية..تخطىء وتصيب.وتنقص وتزيد.ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام اللّه.وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

« أ» ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة،لقوم معينين،وسط ظروف معينة.ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات،تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به.ليخلص من شخصه،ويتجرد من ذاته،ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به،محورا لحياة في نظره،ودافع الحركة في حياته..وتربيته كذلك على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج.ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته..وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفا لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي،لإنشاء «المجتمع المسلم» الخاضع لقيادة موجهة المترقي المتحضر،غير الهمجي أو القبلي.

« ب» وربما كان ذلك أيضا،لأن الدعوة السلمية أشد أثرا وأنفذ،في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة،كثارات العرب المعروفة،التي أثارت حرب داحس والغبراء،وحرب البسوس - أعواما طويلة،تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام.فلا تهدأ بعد ذلك أبدا.ويتحول الإسلام من دعوة،إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية،وهو في مبدئه،فلا تذكر أبدا!

«ج» وربما كان ذلك أيضا،اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت.فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة،هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم.إنما كان ذلك موكولا إلى

أولياء كل فرد،يعذبونه هم ويفتنونه و«يؤدبونه»! ومعنى الإذن بالقتال – في مثل هـذه البيئة – أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت..ثم يقال:هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال!

فقد كانت دعاية قريش في الموسم،في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة:إن محمدا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد،والمولى بقتل الولي..في كل بيت وكل محلة؟

« د» وربما كان ذلك أيضا،لما يعلمه اللّه من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم،ويعذبوهم ويؤذوهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص،بل من قادته..ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء؟!

«هـ» وربما كان ذلك،أيضا،لأن النخوة العربية،في بيئة قبلية،من عادها أن تثور للمظلوم،الذي يحتمل الأذى،ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم..وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة – في هذه البيئة – فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر – وهو رجل كريم – يهاجر ويخرج من مكة،ورأى في ذلك عارا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته...وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب،بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة..بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل،قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي!

«و» وربما كان ذلك أيضا،لقلة عدد المسلمين حينذاك،وانحصارهم في مكة.حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة.أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف على الحياد،من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها،حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف..ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة،إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة – حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم – ويبقى الشرك،وتنمحي الجماعة

المسلمة.و لم يقم في الأرض للإسلام نظام،ولا وجد له كيان واقعي..وهـــو ديـــن جـــاء ليكون منهج حياة،وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة.

« ز» في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قـــاهرة ملحـــة،لتجاوز هـــذه الاعتبـــارات كلها،والأمر بالقتال ودفع الأذى.لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائما – وقتها – ومحققا..هذا الأمر الأساسي هو «وجود الدعوة»..وجودها في شـــخص الداعيـــة – ﷺ- وشخصه في حماية سيوف بني هاشم،فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهـــددة بـــالقطع! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشـــم،إذا هـــي امتدت يدها إلى محمد – ﷺ- فكان شخص الداعية من ثم محميا حماية كافيـــة..وكـــان الداعية يبلغ دعوته – إذن – في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلـــي،ولا يكتمها،ولا يخفيها،ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها،في نـــدوات قـــريش في الكعبة،ومن فوق جبل الصفا وفي اجتماعات عامة..ولا يجرؤ أحد على ســـد فمـــه ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله! ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينـــه يقوله يعلن فيه بعض حقيقة دينه ويسكت عن بعضها.وحين طلبوا إليه أن يكـــف عـــن سب آلهتهم وعيبها لم يكف.وحين طلبوا إليه أن يسكت عـــن عيـــب ديـــن آبـــائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت.وحين طلبوا إليـــه أن يـــدهن فيـــدهنوا.أي أن يجاملهم فيجاملوه بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته، لم يـــدهن...وعلـــى الجملة كان للدعوة «وجودها» الكامل،في شخص رسول اللّه – ﷺ- محروسا بسيوف بني هاشم – وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة..ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة،والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها،مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة.

هذه الاعتبارات – كلها – فيما نحسب – كانت بعض ما اقتضت حكمة اللّه – معه – أن يأمر المسلمين بكف أيديهم.وإقامـــة الصـــلاة وإيتـــاء الزكـــاة..لتـــتم تربيتـــهم وإعدادهم،ولينتفع بكل إمكانيات الخطة في هذه البيئة وليقف المسلمون في انتظار أمـــر القيادة،في الوقت المناسب.وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها،فلا يكون لذواتهم فيهـــا

حظ.لتكون خالصة للّه.وفي سبيل اللّه..والدعوة لها «وجودها» وهي قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة...

وأيا ما كانت حكمة اللّه من وراء هذه الخطة،فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال:«فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ،إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً.وَقالُوا:رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ!».

وكان وجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشئ فيه حالة من الخلخلة وينشئ فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع،وبين الرجال المؤمنين،ذوي القلوب الثابتة المطمئنة المستقبلة لتكاليف الجهاد - على كل ما فيها من مشقة - بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا.ولكن في موضعها المناسب.فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية.أما الحماسة قبل الأمر،فقد تكون مجرد اندفاع وتهور يتبخر عند مواجهة الخطر!

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني:«قُلْ:مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ،وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى،وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا.أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ،وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»..

إنهم يخشون الموت،ويريدون الحياة.ويتمنون في حسرة مسكينة! لو كان اللّه قد أمهلهم بعض الوقت ومد لهم - شيئا - في المتاع بالحياة! والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل..«قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ»..متاع الدنيا كله.والدنيا كلها.فما بال أيام،أو أسابيع،أو شهور،أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير.إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلا؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام،أو أسابيع،أو شهور،أو سنين.ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل!؟

«وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى»..فالدنيا - أولا - ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة..إنها مرحلة..ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع - فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير - فهي «خَيْرٌ»..«خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى»..وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها.التقوى للّه.فهو الذي يتقى،وهو الذي يخشى.وليس الناس..الناس الذين سبق أن

قال:إنهم يخشونهم كخشية اللّه – أو أشد خشية! – والذي يتقي اللّه لا يتقي الناس.والذي يعمر قلبه الخوف من اللّه لا يخاف أحدا.فماذا يملك له إذا كان اللّه لا يريد؟

«وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا»..فلا غبن ولا ضير ولا نجس إذا فاقم شيء من متاع الدنيا.فهناك الآخرة.وهناك الجزاء الأوفى الذي لا يبقى معه ظلم ولا نجس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعا! ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه – مع هذا كله – إلى أيام تطول به في هذه الأرض! حتى وهو يؤمن بالآخرة،وهو ينتظر جزاءها الخير..وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي كانت فيها هذه الطائفة! هنا تجيء اللمسة الأخرى.اللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة،والأجل والقدر وعلاقة هذا كله بتكليف القتال،الذي جزعوا له هذا الجزع،وخشوا الناس فيه هذه الخشية!

«أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ،وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»..فالموت حتم في موعده المقدر.ولا علاقة له بالحرب والسلم.ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته.ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده..هذا أمر وذاك أمر ولا علاقة بينهما..إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل.بين الموعد الذي قدره اللّه وحلول ذلك الموعد..وليست هنالك علاقة أخرى..ولا معنى إذن لتمني تأجيل القتال.ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال! وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر..

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية..

فقد سبق أن أمرهم اللّه بأخذ الحذر.وفي مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف.وفي سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة..ولكن هذا كله شيء،وتعليق الموت والأجل به شيء آخر..إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع،وله حكمته الظاهرة والخفية،ووراءه تدبير اللّه..وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين

الموت والأجل المضروب – رغم كل استعداد واحتياط – أمر آخر يجب أن يطاع ولـــه حكمته الظاهرة والخفية،ووراءه تدبير اللّه..

توازن واعتدال.وإلمام بجميع الأطراف.وتناسق بين جميع الأطراف..

هذا هو الإسلام.وهذا هو منهج التربية الإسلامي،للأفراد والجماعات..

وبهذا ربما ينتهي الحديث عن تلك الطائفة من المهاجرين.ويبدأ الحديث عن طائفة أخرى من الطوائف المنبثة في المجتمع الإسلامي،والتي يتألف منها الصف المسلم ومن سواها..هذا وإن كان السياق لا انقطاع فيه،ولا فصل،ولا وقفة تنبىء بأن الحديث الآتي عن طائفـــة أخرى،وأن الحديث عن هذه الطائفة قد انتهى..ولكننا نمضي مـــع الاعتبـــارات الـــتي أسلفناها:«وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا:هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا:هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ! قُلْ:كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً؟! ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ.وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا.وَكَفى بِاللَّـــهِ شَهِيداً.مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ،وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً»..

إن الذين يقولون هذا القول،وينسبون ما يصيبهم من الخير إلى اللّه،وما يصيبهم من الضر إلى النبي – ﷺ- يحتمل فيهم وجوه:

الوجه الأول:أنهم يتطيرون بالنبي – ﷺ- فيظنونه – حاشاه – شؤما عليهم.يأتيهم السوء من قبله.فإن أجدبت السنة،ولم تنسل الماشية،أو إذا أصيبوا في موقعة تطيروا بالرســـول – ﷺ- فأما حين يصيبهم الخير فينسبون هذا إلى اللّه!

الوجه الثاني:أنهم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول – ﷺ- تخلصا من التكاليف التي يأمرهم بها.وقد يكون تكليف القتال منها – أو أخصها – فبدلا من أن يقولـــوا:إنهـــم ضعاف يخشون مواجهة القتال،يتخذون ذلك الطريق الملتوي الآخر! ويقولون:إن الخـــير يأتيهم من اللّه،وإن السوء لا يجيئهم إلا من قبل الرسول – ﷺ- ومن أوامره.وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر!

والوجه الثالث:هو سوء التصور فعلا لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة،وعلاقته بمشيئة اللّه.

وطبيعة أوامر النبي - ﷺ- لهم وحقيقة صلة الرسول باللّه سبحانه وتعالى..

وهذا الوجه الثالث - إذا صح - ربما يكون قابلا لأن يوسم بـه ذلـك الفريـق مـن المهاجرين الذين كان سوء تصورهم لحقيقة الموت والأجل،يجعلهم يخشون الناس كخشية اللّه أو أشد خشية.ويقولون:«رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ؟ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ!»..غير أننا ما نزال نميل إلى اعتبار المتحدث عنهم هنا طائفة أخرى..تجتمع فيها تلك الأوجه كلها أو بعضها.وهذا الوجه الثالث منها..

إن القضية التي تتناولها هذه الآيات،هي جانب من قضية كبيرة..القضية المعروفة في تاريخ الجدل والفلسفة في العالم كله باسم «قضية القضاء والقدر» أو «الجبر والاختيار»..وقد وردت في أثناء حكاية ذلك الفريق من الناس ثم في الرد عليهم،وتصحيح تصورهم.والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض..

فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم:«وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا:هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ.قُلْ:كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً؟»..إن اللّه هو الفاعل الأول،والفاعل الواحد،لكل ما يقع في الكون،وما يقع للناس،وما يقع من الناس.فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا.ولكن تحقق الفعل - أي فعل - لا يكون إلا بإرادة من اللّه وقدر.فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة،وإيقاعها بهم،للرسول - ﷺ- وهو بشر منهم مخلوق مثلهم - نسبة غير حقيقية تدل على عدم فقههم لشيء ما في هذا الموضوع.

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير بالوسائل التي أرشد اللّه إلى أنها تحقق الخير.ولكن تحقق الخير فعلا ينم بإرادة اللّه وقدره.لأنه ليست هناك قدرة - غير قدرة اللّه - تنشئ الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع.وإذن يكون تحقق الخير - بوسائله التي اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده - عملا من أعمال القدرة الإلهية.

وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء.أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء.ولكن وقوع السوء فعلا،ووجوده أصلا،لا يتم إلا بقدرة اللّه وقدر اللّه.لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث في هذا الكون غير قوة اللّه.

وفي الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند اللّه..وهذا ما تقرره الآية الأولى..

أما الآية الثانية:«ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ،وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...» فإنها تقرر حقيقة أخرى.ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى..إنها في واد آخر..والنظرة فيها من زاوية أخرى:إن اللّه – سبحانه – قد سن منهجا،وشرع طريقا،ودل على الخير،وحذر من الشر..فحين يتبع الإنسان هذا المنهج،ويسير في هذا الطريق،ويحاول الخير،ويحذر الشر..فإن اللّه يعينه على الهدى كما قال:«وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا»..ويظفر الإنسان بالحسنة..ولا يهم أن تكون من الظواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسبا..إنما هي الحسنة فعلا في ميزان اللّه تعالى..وتكون من عند اللّه.لأن اللّه هو الذي سن المنهج وشرع الطريق ودل على الخير وحذر من الشر..وحين لا يتبع الإنسان منهج اللّه الذي سنه،ولا يسلك طريقة الذي شرعه،ولا يحاول الخير الذي دله عليه،ولا يحذر الشر الذي حذره منه..حينئذ تصيبه السيئة.السيئة الحقيقية.سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معا..ويكون هذا من عند نفسه.لأنه هو الذي لم يتبع منهج اللّه وطريقه..

وهذا معنى غير المعنى الأول،ومجال غير المجال الأول..كما هو واضح فيما نحسب..

ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئا.وهي أن تحقق الحسنة،وتحقق السيئة ووقوعهما لا يتم إلا بقدرة اللّه وقدره.لأنه المنشئ لكل ما ينشأ.المحدث لكل ما يحدث.الخالق لكل ما يكون..أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث،وهذا الذي يكون..[٤٧٧٩]

التثاقل إلى الأرض:

[٤٧٧٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٦٤)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) } [التوبة]

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ،مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،عَنْ رَسُولِ اللهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ،حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ،وَكَانَ الْوَقْتُ حَارّاً قَائِظاً،فَيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ:مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ،وَمِلْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالإِقَامَةِ فِي الظِّلِ وَطِيبِ الثِّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلِكَ رِضاً مِنْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلاً مِنَ الآخِرَةِ؟ وَمَا قِيمَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلاَّ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الآخِرَةِ،إِذْ يَنْتَظِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ،وَجَنَّاتٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

وَإِذَا لَمْ تَنْفِرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ،وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الجِهَادِ فَإِنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا،بِزَوَالِ النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا عَنْكُمْ،وَفِي الآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَلاَ يَصْعُبُ عَلَى اللهِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ قَوْماً غَيْرَكُمْ بِكُمْ،يَخِفُّونَ لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ،وَيُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ،وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَضُرُّ اللهَ،لأَنَّهُ الغَنِيُّ عَنِ العِبَادِ،وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ،كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ،فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِباً بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ،فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ،وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ الغَارِ،فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكرٍ جَزِعاً:لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا.فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ:مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى

رَسُوله،وَأَيَّدَهُ بالَملائكَة تَحْفَظَهُ وَتَحْميه (بجُنُود لَمْ تَرَوْهَا)،وَجَعَلَ كَلمَةَ الشِّرْك وَأَهْلَهُ السُّفْلَى،وَجَعَلَ كَلمَةَ الإيمَان (لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ) هيَ الْعُلْيَا،وَاللهُ عَزِيزٌ في انْتقَامه وَانْتصَاره،وَهُوَ مَنيعُ الْجَانب لاَ يُضَامُ،وَهُوَ حَكيمٌ في شَرْعه وَتَدْبيره.

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الُمؤْمنينَ بالنَّفير الْعَامِّ،وَالْخُرُوج جَميعاً مَعَ الرَّسُول ﷺ إذَا دَعَاهُمْ إلَى الجهَاد في سَبيلِ الله،وَأَلْزَمَهُمْ بالخُرُوج عَلَى كُلِّ حَال في الَمنْشَط وَالَمكْرَه،وَالْعُسْر وَالْيُسْر،فَقَالَ انْفرُوا خفَافاً وَثقَالاً،وَأَغْنيَاءَ وَفُقَرَاءَ،وَرُكْبَاناً وَمُشَاةً وَأَقْويَاءَ وَضُعَفَاءَ،لأَنَّ في ذَلكَ خَيْرُ الُمؤْمنينَ في الدُّنْيا،لأَنَّهُ لاَ عزَّ للأُمَم،وَلاَ سيَادَةَ إلاَّ بالْقُوَّة الحَرْبيَّة،وَفيه أَيْضاً خَيْرُهُمْ في الدِّين لأَنَّهُ لاَ سَعَادَةَ لمَنْ لَمْ يَنْصُر الحَقَّ،وَيُقم العَدْلَ باتِّبَاع الْهُدَى وَالعَمَل بشَرْع الله.وَقَدْ نُسخَتْ هَذه الآيَةُ بقَوْله تَعَالَى {لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجدُونَ مَا يُنفقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُواْ للَّه وَرَسُوله.}[٤٧٨٠]

بعد أن بينت الآيات السابقة حكم الله فى الأشهر الحرم،وموقف المشركين من حرمات الله عامة،ومن حرمة هذه الأشهر الحرم خاصة،وما ينبغى أن يكون عليه موقف المسلمين من رعاية حرمة هذه الأشهر،مع اليقظة والحذر من خيانة المشركين وغدرهم بحرمات الله،وحرمة العقود التي بينهم وبين المسلمين..

بعد هذا،جاءت هذه الآيات تستحثّ المسلمين على الجهاد فى سبيل الله،وتنكر على المترددين والمتلبّثين ترددهم وتلبثهم فى الاستجابة لدعوة الله،والنّفر إلى الجهاد فى سبيله،فى غير تراخ أو فتور،كما يقول الله سبحانه:«انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وقوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ» الاستفهام هنا إنكارى،إذ ينكر على من آمن بالله،ولبس لباس المؤمنين به،ألّا يكون فى المجاهدين فى سبيل الله..

والنّفر إلى الحرب:السّعى إليها فى جدّ وعزم ومضاء..وأصل المادّة من النفور،وهو الصدّ عن الشيء،ومنه قوله تعالى:«وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ

[٤٧٨٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

لما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً» (٦٠:الفرقان) وعلى هذا يكون المراد بقوله تعـالى:«انْفِـرُوا خِفافاً وَثِقالًا،أي فرّوا خفافا وثقالا..ولكن الفرار من أين؟ وإلى أين؟

الفرار من حبّ الحياة،والتعلق بما للإنسان فيها من هوى إلى المال والأهـل والولـد..ثم اللّجأ إلى الله،وإلى الجهاد فى سبيل الله!! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٥٠:الذاريات).فالدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله،الذي تحمله كلمة «الفرار» هى دعوة إلى أمرين معا:

الأول:الانخلاع من سلطان الدنيا،المستولى على النفوس،وذلك لا يكون إلا بمغالبة أهواء النفس،والوقوف منها موقف العدوّ الذي يتربص للإنسان على طريق الخير،ليحول بينـه وبين الوصول إليه،فيفرّ المؤمن من دواعى الحياة الدنيا،فراره من العدوّ،الذي إن تلبّث أو فتر فى الفرار منه،هلك!! والثاني:التماس السّبل التي تخلّص الإنسان من الوقوع ليد هـذا العدوّ،الذي يحول بينه وبين الخير المدعوّ إليه من قبل ربّه،وهو الجهاد فى سبيل الله..وذلك لا يكون إلا بالفرار من وجه هذا العدوّ،واتخاذ وجهة أخرى غير الوجهة القائمة علـى سمته..وتلك هى وجهة الجهاد فى سبيل الله.

وفى قوله تعالى:«اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ» كناية عمّا يستولى على الإنسان من مشاعر الـتحير والانهزام،حين يواجه امتحانا عسيرا،لم يكن مهيّأ له من قبـل ولم يكـن علـى نيـة صادقة،وعزيمة مجتمعة لخوض غماره..

وأصل «اثَّاقَلْتُمْ» تثاقلتم،فأدغمت التاء فى الثاء،لتقـارب مخرجيهمـا،ثم جـيء بهمـزة الوصـل،حتى لا يبـدأ بحـرف سـاكن،الأمر الـذي لا تستسـغيه العربية..و«التثاقل»:التباطؤ،والتحرك فى ثقل..لأن شأن كل ثقيـل أن يكـون بطـيء الحركة..

وفى التعبير بلفظ «التثاقل» الذي يدلّ على التصنع والادعاء،مثل «تبـاكى» أي ادعـى البكاء،وتغافل أي ادّعى الغفلة- فى هذا ما يشير إلى أن هذا التثاقل من المتثاقلين،لا يستند إلى أسباب حقيقية تقوم فى نفس المؤمن بالله،وإنما هى تعلّات تقع فى بعض النفوس الـتي دخل على إيمانها شيء من الضعف والوهن..فتتلمس المعاذير،وتصطاد الذرائع التي تثقـل

خطوها عن اللحاق بركب المجاهدين.وفى تعدية الفعل «اثّاقلتم» بحرف الجر «إلى» بدلا من حرف الجرّ «على» أو «فى» إذ يقال تثاقل على الأرض،أو تثاقل فى الأرض- فى هذه التعدية بإلى كما جاء عليه النظم القرآنى،ما يحقق أمرين:

أولهما:إشارة إلى أن هؤلاء المتثاقلين إنما ينحدرون انحدارا إلى الأرض،ويهوون هويّا من عل إليها..وذلك لأنهم وهم المؤمنون بالله،هم بهذا الإيمان فى مستوى عال فى هذه الحياة التي يحياها الناس..وأنهم وهذا شأنهم،ينبغى أن تكون وجهتهم دائما إلى السماء،وأن يكون متعلّقهم بها،وآمالهم فيها..

وأن تلفّتهم إلى الأرض،وانحدارهم إليها،هو رجعة إلى الوراء،ونكوص على الأعقاب..

وثانى الأمرين:أن التثاقل إلى الأرض يفيد الاختلاط بها،والامتزاج بترابها..وأن هذا الإنسان المؤمن الذي كان يحلّق بإيمانه فوق هذا العالم الترابي،قد أصبح بهذا التثاقل فى عداد هذه الكائنات التي تدبّ على الأرض،من هوامّ وحشرات! ومن هذه الصورة التي ترتسم للمؤمن من كلمة «اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ» ما يريه المصير الذي هو صائر إليه،إن هو أمسك بنفسه مع هؤلاء المتثاقلين على الأرض،حين يدعو داعى الحق:أن حيّ على الجهاد فى سبيل الله..

وفى قوله تعالى:«أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ» إنكار على هؤلاء الذين يفاضلون بين الحياة الدنيا والآخرة،بل ويفضّلون الحياة الدنيا على الآخرة،بعد أن رأوا بأعينهم ما انكشف لهم من قوله تعالى:«اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ..»فذلك غبن فاحش لا يرضاه عاقل لنفسه،ولا يصبر عليه لحظة،إن هو وقع فيه.

ثم يجىء قوله تعالى:«فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» حقيقة كاشفة مقررّة،يجدها بين يديه من لم ينكشف لبصره أو لبصيرته ما حملت من كلمات الله إليه من عرض هذا الوضع السيء الذي هو فيه من تثاقل إلى الأرض،ومن إيثار الحياة الدنيا على الآخرة،وما على هذه الأرض على ما فى السماء! يجىء بعد هذا قوله تعالى:«إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ» - يجىء حاملا مقارع من حديد،يوقظ بها هؤلاء النيام الذين لا توقظهم العبرة ولا الموعظة الحسنة..

إنهم إن لم ينتزعوا أنفسهم من هذه الأرض التي لصقوا بها،وإن لم يخفّوا إلى القتال مسرعين،أخذهم الله بعذابه،وأنزلهم منازل الهوان والنقمة،وأقام مقامهم قوما آخرين،يجاهدون فى سبيل الله،ويأخذون هذا المقام الكريم الذي كان مهيأ لهم من قبل،فتخلّوا عنهم مختارين،حين تثاقلوا عن الجهاد،واستحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة..وإنهم بهذا قد أوقعوا الضرر بأنفسهم،وأخذوا الطريق المؤدّى بهم إلى الهلاك،ولن يضروا الله شيئا..فإن الله- سبحانه- غنىّ عن العالمين..وإن له- سبحانه- أولياء كثيرين،ينصرون دينه،ويجاهدون فى سبيله:«وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ» (٣٨:محمد).

فتلك هى سنّة الله فى عباده «لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» فهناك منحرفون ضالون يتحولون إلى طريق الحق والإيمان..وهناك مستقيمون مؤمنون ينحرفون إلى طريق الغواية والضلال..وذلك ليظل الناس فى حركة،وعمل..فمن كان على طريق الحق والتقوى،كان عليه- لكى يحتفظ بمكانه على هذا الطريق- أن يحرس نفسه من أهوائها ونزعاتها ووساوس الشيطان لها..ومن كان على شعاب الظلام والضلال،كان له- إذا شاء- أن يتحول إلى طريق النور والهدى..«وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»..ومن مظاهر قدرته،هذه الغير التي تقع بالناس،فتنقلهم من حال إلى حال،ومن أسفل إلى أعلا،ومن أعلا إلى أسفل..فليحذر الإنسان- وخاصة إذا كان على الإيمان- أن يأخذ اتجاها منحرفا عما يدعوه إليه الإيمان..فإن ذلك من شأنه أن يعرضه للخروج من الإيمان آخر الأمر،وليذكر دائما قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ».

قوله تعالى:«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فى هذه الآية الكريمة أمور:أولا:صلتها بالآيات التي قبلها..حيث تبدو الصلة غير واضحة فى ظاهر الأمر بين هذه الآية،وما جاءت به الآيات قبلها من مقررات وأحكام..

والذي يمعن النظر فى الآية الكريمة يرى أنها تطبيق مؤسس على مقررات الآيات السابقة،حيث جاء فى قوله تعالى:«إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»..فقد قررت هذه الآية فيما قررت،أن الله إذا أراد نفاذ أمر فلن تقف دونه قوة فى هذا الوجود،وأنه- سبحانه- قد أراد إعزاز دينه،وإظهاره على الدين كلّه،وأن المجاهدين الذين يجاهدون فى سبيل الله ما هم إلا أدوات عاملة فى مجال تلك الإرادة التي أرادها الله،ليكتب لهم عند الله الأجر العظيم،والمثوبة والرضوان،وأن إرادة نافذة على أي حال..

وفى قوله تعالى:«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ» شاهد قائم،رآه المسلمون رأى العين..وهو أن الله قد نصر النبىّ الكريم،وخلّصه من يد المشركين الذين كانوا له بمرصد،على كل ثنيّة،وعلى كل طريق...ولم يكن مع النبىّ الكريم قوّة ظاهرة، لم يكن إلا هو وصاحبه أبو بكر..وكانا أعزلين من كل سلاح،إلا سلاح الإيمان الذي يملأ قلبيهما،مجرّدين من كل قوة،إلا قوة الحقّ الذي فى يديهما،محرومين من كل نصير،إلا عون الله لهما،وحراسته القائمة عليهما.

ثانيا: لم يذكر النبىّ الكريم ذكرا صريحا،وإنما جاءت الإشارة إليه مضمرة فى ضمير الغائب..هكذا «إِلَّا تَنْصُرُوهُ»..وفى هذا إشارة مضيئة تشير إلى النبي الكريم،وتحيطه بهالة من نور ربانىّ،بحيث تشخص الأبصار كلّها إلى هذا النور العلوىّ الذي يفاض على النبىّ،ويحفّ به..فليس هناك من تخلّى عنه الأنصار والأعوان- فى هذا الموقف بالذات- غير النبىّ،وليس هناك أيضا من أحاطت به العناية الربانية،وحفّت به أمداد العون والنصر الإلهي- فى هذا الموطن بالذات أيضا- غير النبىّ..فكانت الإشارة إليه- فى هذا الموقف بالذات- مغنية عن كل ذكر،وكانت الإماءة إليه أبلغ من كل تصريح..

ثالثا: لم يذكر اسم الصاحب الذي صحب النبىّ فى هذه الحال،بل جاء على النسق الذي جاء عليه ذكر النبىّ..«إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا»..

وفى هذا تشريف لمقام أبى بكر- رضوان الله عليه- وتمجيد لتلك الصحبة المباركة،التي جعلت منه صاحب نبىّ،ورفيق رسول،يأخذ بنصيب طيّب من رعاية الله لنبيّه،ويستظل بما استظل به النبىّ من نصر الله وتأييده.

وأبو بكر فى هذا المقام هو القوة المادية الظاهرة،من الإنسانية كلها،التي كانت تسند النبىّ،وتشدّ أزره،وتؤنس وحدته،وتقتسم الضّراء- بل قل السّرّاء- معه! فقد كان النبىّ ﷺ- فى هذا الموقف- جبهة يحاربها الشرك كلّه،ويكيد لها المشركون كلّهم..وكان أبو بكر رضوان الله عليه،هو وحده كلمة الحقّ،والإيمان،التي أراد الله سبحانه وتعالى لها هذا المقام الكريم،إلى جانب النبىّ الكريم..

وإنه بحسب أبى بكر- رضوان الله عليه- من التكريم والتشريف أن يكون اليد الأخرى المباركة التي تحمل مع النبي الكريم رسالة السماء،ودعوة الحق،إلى حيث أراد الله لها أن تطلع بنورها،وتمنح الناس ما فيها من هدى ورحمة،وأمن وسلام..

ثالثا:فى قوله تعالى:«فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».عاد الحديث عن النبي وحده،بضمير المفرد «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها»...كما بدأ الحديث عنه وحده:«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ».وعدم ذكر أبى بكر فى هذين المقامين- البدء والختام- لا ينقص من قدر أبى بكر،ولا يزحزحه عن مقامه الكريم،الذي رفعه الله سبحانه وتعالى إليه بقوله:«إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا»..إذ لا شك أن الموقف هو موقف الرسول،وأن الرسالة هو صاحبها،والمدعوّ إليها من ربه،وإنه ليكفى أبا بكر شرفا أن ينفرد بهذا المقام الكريم،فيكون للنبىّ ردءا وعضدا،فى وقت كان النبىّ الكريم يواجه فيه وحده المشركين جميعا..والسكينة،هى الطمأنينة التي تحلّ بالقلب،فيجد الإنسان المكروب ريح الأمن،وبرد السلامة والعافية..وهى مأخوذة من السكون،أو السكن،بمعنى القرار..«وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها»..هى قوى من قوى الحق،أمدّه الله بها،فكانت عينا تحرسه،ويدا تردّ من يريد السّوء به..

وفى التعبير عن حلول السكينة قلب النبىّ بإنزالها عليه،إشارة إلى أنها مترلة من السماء،وأنها من قوى الحقّ التي أمدّ الله نبيّه بها،وليست من القوى التي يملكها الناس،ويستندون إليها..«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى» أي أن الله أبطل كيدهم،وأفسد تدبيرهم..والمراد بالكلمة هنا،الحال والشأن والأمر..بمعنى أن المشركين وقد فوّت الله عليهم ما أرادوا بالنبيّ من سوء،وأبطل ما دبروا من كيد،وما بيّتوا له من عدوان..فإن ذلك يحدّث عن ضعفهم وهوانهم،أمام تلك القوة القادرة القاهرة..وإذا كانت الكلمة تعبيرا عن إرادة المتكلم بها،وتصويرا لمشيئته التي يريد إمضاءها،فإن إنفاذ هذه الإرادة،وإمضاء تلك المشيئة،إنما يكون بحسب ما عند المتكلم من رصيد من القوى التي يحشدها وراء كلمته،ليقيم لها مكانا فى عالم الواقع المحقق..وإنه حين تبطل الكلمة،ولا تجد لها مكانا فى الواقع المحقق،يكون ذلك دليلا قائما على ضعف صاحبها،وسقوط همته..وأن كلماته التي ينطق بها ليست إلا أصواتا ضائعة فى الهواء!.

وفى التعبير عن كلمة الله بالعلوّ،إشارة إلى أن كلمات الله سبحانه،هى فى المكان المتمكن،الذي تستولى به على كل شىء،بحيث لا تقف لها قوة،ولا يحول دونها حائل..

وفى وضع ضمير الفصل «هى» بين المبتدأ والخبر فى قوله سبحانه:«وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» إشارة أخرى إلى كلمة الله،وإلى تحقيقها،وإفرادها بهذه المترلة دون غيرها من الكلام البشرى على أي مستوى..فهى وحدها هى العليا،المتفردة بهذا المقام المتمكن من العلوّ..ولهذا جاء بعدها الوصف المناسب لله سبحانه وتعالى،صاحب هذه الكلمة:«وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..فهو العزيز الذي لا عزة لأحد مع عزّته،وهو الحكيم الذي- مع ماله من عزّة مطلقة،ومن سلطان لا ينازع- يضع الأمور مواضعها القائمة على ميزان الحكمة والعدل والإحسان..أما هؤلاء المشركون،الذين يستشعرون العزّة والقوة من أنفسهم على غيرهم من الضعفاء،فإن عزّهم عزة غاشمة جهولة،وقوهم قوة عمياء حمقاء،تضرب بغير حساب،ولا تقدير! والغار الذي تشير إليه الآية الكريمة،هو غار ثور،فى أعلى جبل يقال له جبل ثور،على مسيرة ساعة من مكة،على يمين المتجه إلى المدينة.

قوله تعالى:«انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».هو دعوة عامة للمسلمين جميعا إلى الجهاد فى سبيل الله،حين تدعو دواعيه وتقوم أسبابه.

والخفاف:جمع خفيف،وهو الذي لا يعوّقه عن النّفر إلى الجهاد معوّق،مادىّ،أو نفسىّ،كالاشتغال بالحياة،وتثمير المال،ومعالجة التجارة،أو الزراعة ونحوها،أو كالحرص على الحياة،والخوف من الموت،أو الاستثقال لأعباء السّفر،ومشقّه الانتقال،والتعرض لمتاعب الطريق،وما يتعرض له المسافر من حر أو برد،أو جوع أو ظمأ..والثقال:جمع ثقيل،وهو الذي تعرض له تلك العوارض التي تثقله،وتوهن عزمه على الجهاد،وتثقل خطوه فى السعى إليه..والأمر بالنفر إلى الجهاد موجّه إلى الخفاف والثقال جميعا،من القادرين على حمل السلاح..وليست هذه العوارض المادية أو المعنوية التي تعرض للمسلم بالتي تعفيه من أن يكون فى جبهة القتال مع إخوانه المجاهدين فى سبيل الله..فهو آثم،خارج على أمر الله،إن هو لم يأخذ مكانه،ويؤدى الواجب المدعوّ إليه..

وفى قوله تعالى:«وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» توكيد لهذا الأمر بالنفرة إلى الجهاد..لا بالنفس وحسب،بل وبالمال أيضا لمن يملك المال..وقدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس،لأن المال عند من يحرص على المال،أحبّ إليه من نفسه،وهو القوة الغالبة التي تثقل الإنسان وتبطّئه عن الجهاد.

فإذا سخا بالمال،وبذله فى سبيل الله،خفّت نفسه إلى الجهاد،وانطلق من القيد الذي كان يمسك به عن أن يكون فى المجاهدين..أمّا من لا يقدر على القتال،لمرض،أو شيخوخة،أو نحو هذا،فإنه وإن رفع الله عنه الحرج إذا لم يجاهد بنفسه،فإن الحرج قائم عليه إذا هو لم يجاهد بماله،إن كان له مال..فإذا بذل المال،وأمدّ به المجاهدين،كان مجاهدا،وحسب فى المجاهدين..وفى الحديث الشريف:«من جهّز غازيا فقد غزا».

فليس لمسلم- أيّا كان حاله ووضعه فى المجتمع- أن يتخلّف عن الجهاد فى سبيل الله،فلكل إنسان مكانه فى المعركة..إذ ليست المعركة معركة سيف وحسب،بل هى معركة،سلاح،وعتاد،ومئونة..بل هى قبل ذلك كله معركة مشاعر وأحاسيس،بمعنى أن

الأمة كلها ينبغى أن تكون فى مواجهة المعركة على شعور واحد،ينتظم جميع أفرادها،هو شعور مواجهة العدوّ،والتصدّى له،وطلب الغلب عليه..فهذا الشعور هو الذي يجعل الأمة الإسلامية كلها جيشا واحدا يحمل السلاح،ويضرب فى وجه العدو..

ومناسبة هذا الآية لما قبلها أنها أشبه بالتطبيق العملي لما تكشف عنه الآيات السابقة من نصر الله سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم،وأن من كان من حزب الله فلن يغلب أبدا،ولو كان وحده..فليأخذ المسلمون مكانهم فى الجهاد فى سبيل الله،فيكونوا من حزب الله.هذا،ويلاحظ أن هذه الدعوة المشدّدة إلى القتال،واستنفار المسلمين جميعا للجهاد فى سبيل الله،إنما كانت إرهاصا بدعوة المسلمين إلى ابتلاء جديد،بلقاء عدو جديد،فى وطن جديد..وذلك فى غزوة تبوك التي كانت آخر غزوة غزاها النبىّ..كما سنعرض لها فيما بعد..إن شاء الله..[٤٧٨١]

اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة،نزلت في غزوة تبوك،إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم،وكان الوقت حارا،والزاد قليلا والمعيشة عسرة،فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم،فقال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ألا تعملون بمقتضى الإيمان،وداعي (١) اليقين من المبادرة لأمر الله،والمسارعة إلى رضاه،وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم،فـ {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرْضِ} أي:تكاسلتم،وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

{أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ} أي:ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها و لم يبال بالآخرة،فكأنه ما آمن بها.

{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} التي مالت بكم،وقدمتموها على الآخرة {إِلا قَلِيلٌ} أفليس قد جعل الله لكم عقولا تَزِنُون بها الأمور،وأيها أحق بالإيثار؟.

[٤٧٨١] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٦٩)

أفليست الدنيا –من أولها إلى آخرها– لا نسبة لها في الآخرة.فما مقدار عمـــر الإنســـان القصير جدا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها،فيجعل سعيه وكـــده وهمـــه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار،المشحونة بالأخطار.

فبأي رَأْيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم،التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين،وأنتم فيها خالدون،فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة مـــن وقـــر الإيمـــان في قلبه،ولا من جزل رأيه،ولا من عُدَّ من أولي الألباب،ثم توعـــدهم علـــى عـــدم الـــنفير فقال:{إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} في الدنيا والآخرة،فإن عـــدم الـــنفير في حـــال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب،لما فيها مـــن المضـــار الشـــديدة،فإن المتخلف،قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيه،ولم يساعد على نصر دين الله،ولا ذب عـــن كتاب الله وشرعه،ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريـــد أن يستأصـــلهم ويمحق دينهم،وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان،بل ربما فَتَّ في أعضاد من قـــاموا بجهاد أعداء الله،فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد،فقال:{إِلا تَنْفِـــرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} ثم لا يكونوا أمثالكم {وَلا تَضُرُّوهُ شَـــيْئًا} فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته،فسواء امتثلتم لأمر الله،أو ألقيتمـــوه،وراءكم ظهريا.{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا يعجزه شيء أراده،ولا يغالبه أحد.أي:إلا تنصروا رسوله محمدا ﷺ،فالله غني عنكم،لا تضرونه شيئا،فقد نصره في أقل ما يكون وأذلة {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} من مكة لمـــا همـــوا بقتله،وســـعوا في ذلك،وحرصـــوا أشـــد الحرص،فألجؤوه إلى أن يخرج.

{ثَانِيَ اثْنَيْنِ} أي:هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.{إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} أي:لما هربـــا من مكة،لجآ إلى غار ثور (١) في أسفل مكة،فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة،حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما،فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

{إِذْ يَقُولُ} النبي ﷺ {لِصَاحِبِهِ} أبي بكر لما حزن واشتد قلقه،[ص:٣٣٨] {لا تَحْـــزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} بعونه ونصره وتأييـــده.{فَـــأَنزلَ اللَّـــهُ سَـــكِينَتَهُ عَلَيْـــهِ} أي:الثبـــات

والطمأنينة،والسكون المثبتة للفؤاد،ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقـــال {لا تحـــزن إن الله معنا}

{وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} وهي الملائكة الكرام،الذين جعلهم الله حرسا لـــه،{وَجَعَـــلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى} أي:الساقطة المخذولة،فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين،في ظنهم على قتل الرسول ﷺ،وأخذه،حنقين عليه،فعملوا غايـــة مجهـــودهم في ذلك،فخذلهم الله و لم يتم لهم مقصودهم،بل ولا أدركوا شيئا منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه،وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع،فإن النصـــر علـــى قسمين:نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا،وقصدوا،ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر،فنصـــر الله إيـــاه،أن يـــرد عنـــه عدوه،ويدافع عنه،ولعل هذا النصر أنفع النصرين،ونصر الله رسوله إذ أخرجـــه الـــذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله {وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} أي كلماته القدرية وكلماته الدينية،هي العالية على كلمة غيره،التي من جملتها قوله:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّـــذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ} {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} فـــدين الله هـــو الظاهر العالي على ســـائر الأديان،بـــالحجج الواضـــحة،والآيات البـــاهرة والســـلطان الناصر.{وَاللَّهُ عَزِيزٌ} لا يغالبه مغالب،ولا يفوته هـــارب،{حَكِـــيمٌ} يضـــع الأشـــياء مواضعها،وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر،اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة،وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة،والصحبة الجميلة،وقد أجمع المسلمون على أنه هو المـــراد بهـــذه الآية الكريمة،ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ،كافرا،لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة،وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة،وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه،وثقته بوعده الصادق،وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها:أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين،مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه،فإنه مضعف للقلب،موهن للعزيمة.

يقول تعالى لعباده المؤمنين -مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا} أي:في العسر واليسر،والمنشط والمكره،والحر والبرد،وفي جميع الأحوال.

{وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي:ابذلوا جهدكم في ذلك،واستفرغوا وسعكم في المال والنفس،وفي هذا دليل على أنه -كما يجب الجهاد في النفس- يجب الجهاد في المال،حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.ثم قال:{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي:الجهاد في النفس والمال،خير لكم من التقاعد عن ذلك،لأن فيه رضا الله تعالى،والفوز بالدرجات العاليات عنده،والنصر لدين الله،والدخول في جملة جنده وحزبه.لو كان خروجهم لطلب العرض القريب،أي:منفعة دنيوية سهلة التناول.[٤٧٨٢]

إنها ثقلة الأرض،ومطامع الأرض،وتصورات الأرض..ثقلة الخوف على الحياة،والخوف على المال،والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع..ثقلة الدعة والراحة والاستقرار..ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب..ثقلة اللحم والدم والتراب..والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه:« اثاقلتم»[٤٧٨٣].وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل،يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه:«اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ»..وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل اللّه انطلاق من قيد الأرض،وارتفاع على ثقلة اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان،وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر

[٤٧٨٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٧)

[٤٧٨٣] - هذه قرأة حفص وهي أبلغ تصويرا من القراءات التي ورد فيها:«تثاقلتم» ..(السيد رحمه الله)

القيد والضرورة وتطلع إلى الخلود الممتد،وخلاص من الفناء المحدود:«أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

وما يحجم ذو عقيدة في اللّه عن النفرة للجهاد في سبيله،إلا وفي هذه العقيدة دخل،وفي إيمان صاحبها بها وهن.لذلك يقول الرسول - ﷺ - «من مات و لم يغز و لم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق».فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل اللّه خشية الموت أو الفقر،والآجال بيد اللّه،والرزق من عند اللّه.وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد:«إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ،وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً،وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»..

والخطاب لقوم معينين في موقف معين.ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في اللّه.والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده،فهو كذلك عذاب الدنيا.عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح،والغلبة عليهم للأعداء،والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء.وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب اللّه عليها الذل،فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء..

«وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ»..يقومون على العقيدة،ويؤدون ثمن العزة،ويستعلون على أعداء اللّه:

«وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً»..ولا يقام لكم وزن،ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب! «وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»..لا يعجزه أن يذهب بكم،ويستبدل قوما غيركم،ويغفلكم من التقدير والحساب! إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس،إثبات للوجود الإنساني الكريم.فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة:وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام

للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم.فهو فناء في ميزان اللّه وفي حساب الروح المميزة للإنسان.

ويضرب اللّه لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه،على نصرة اللّه لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء،والنصر من عند اللّه يؤتيه من يشاء:« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا،ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ.إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ:لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا.فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ،وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها،وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى،وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا،وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا،كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق،لا تملك لها دفعا،ولا تطيق عليها صبرا،فائتمرت به،وقررت أن تتخلص منه فأطلعه اللّه على ما ائتمرت،وأوحى إليه بالخروج،فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصدّيق،لا جيش ولا عدة،وأعداؤه كثر،وقوتهم إلى قوته ظاهرة.والسياق يرسم مشهد الرسول - ﷺ- وصاحبه:«إِذْ هُما فِي الْغارِ».والقوم على إثرهما يتعقبون،والصديق - رضي اللّه عنه - يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب،يقول له:لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه.والرسول - ﷺ- وقد أنزل اللّه سكينته على قلبه،يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له:«يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما؟».

فعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ،قَالَ:قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺوَهُوَ فِي الْغَارِ:وَقَالَ مَرَّةً:وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ،قَالَ فَقَالَ:يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا[٤٧٨٤] .

ثم ماذا كانت العاقبة،والقوة المادية كلها في جانب،والرسول - ﷺ- مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند اللّه بجنود لم يرها الناس.وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار:«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى ».

وظلت كلمة اللّه في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة:«وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا»..

[٤٧٨٤] - أخرجه الشيخان وغيرهما المسند الجامع [٩ /١١٦٨][(٧١٤١) ومسند أحمد (عالم الكتب) [١ /٧٦](١١)

وقد قرئ «وكلمة اللّه» بالنصب.ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى.لأنها تعطي معنى التقرير.

فكلمة اللّه هي العليا طبيعة وأصلا،بدون تصيير متعلق بحادثة معينة.واللّه «عزيز» لا يذل أولياؤه «حكيم» يقدر النصر في حينه لمن يستحقه.

ذلك مثل على نصرة اللّه لرسوله ولكلمته واللّه قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون.وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول اللّه إلى دليل!

وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة،لا يعوقهم معوق.ولا يقعد بهم طارئ،إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة:«انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»..

انفروا في كل حال،وجاهدوا بالنفوس والأموال،ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير،ولا تخضعوا للعوائق والتعلات.«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير،فنفروا والعوائق في طريقهم،والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار.ففتح اللّه عليهم القلوب والأرضين،وأعز بهم كلمة اللّه،وأعزهم بكلمة اللّه،وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح.

عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةَ حَتَّى بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ:أُرَانَا اسْتُنْفِرْنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا،بَنِيَّ جَهِّزُونِي.قَالُوا:يَا أَبَانَا،قَدْ غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،فَنَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ.فَأَبَى " فَجَهَّزُوهُ فَغَزَا الْبَحْرَ فَمَاتَ فِي الْبَحْرِ فَلَمْ يَجِدُوا جَزِيرَةً يَدْفِنُونَهُ فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ "[٤٧٨٥].

وعَنْ أَنَسٍ،أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ " قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ:انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا قَالَ:أَيْ بَنِيَّ،مَا أَرَى رَبَّنَا إِلَّا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا،يَا بَنِيَّ جَهِّزُونِي جَهِّزُونِي،وَقَالَ بَنُوهُ:يَرْحَمُكَ اللَّهُ،قَدْ غَزَوْتَ مَعَ

[٤٧٨٥] - الْآحَادُ وَالْمَثَانِي لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ >> أَبُو طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ >>(١٦٧٥) صحيح

النَّبيِّ ﷺحَتَّى مَاتَ،وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،وَنَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ،قَالَ:لَا،جَهِّزُونِي،فَغَزَا الْبَحْرَ فَتُوُفِّيَ،وَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُونَهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ،فَدَفَنُوهُ فِيهَا وَلَمْ يَتَغَيَّرْ "[٤٧٨٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَأَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَةِ " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " قَالَ:"أَرَى رَبَّنَا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشُبَّانًا،جَهِّزُونِي بَنِيَّ،قَالَ بَنُوهُ:يَرْحَمُكَ اللَّهُ،قَدْ غَزَوْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺحَتَّى مَاتَ،وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ،وَغَزَوْتَ مَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ،فَنَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ،فَأَبَى فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَمَاتَ،فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ،فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَدَفَنُوهُ فِيهَا"[٤٧٨٧].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَةَ،حَدَّثَنَا أَبُو رَاشِدٍ الْحَبْرانيُّ،قَالَ:وَافَيْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ جَالِسًا عَلَى تَابُوتٍ مِنْ تَوَابِيتِ الصَّيَارِفَةِ يُرِيدُ الْغَزْوَ،فَقُلْتُ:لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ،فَقَالَ:أَبَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ الْبُحُوثِ " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا " يَعْنِي:سُورَةَ التَّوْبَةِ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَعِكْرِمَةَ،وَأَبِي صَالِحٍ،وَالْحَسَنِ،وَشَمَّرِ بْنِ عَطِيَّةَ،وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ،وَالشَّعْبِيِّ،وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،قَالُوا:شُبَّانًا وَكُهُولا[٤٧٨٨].

وعن حبان بن زيد الشرعبيّ قال:نفرنا مع صَفْوان بن عمرو،وكان واليًا على حمص قِبَلَ الأفْسوس،إلى الجَرَاجمة،فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا،قد سقط حاجباه على عينيه،من أهل دمشق،على راحلته،فيمن أغار.فأقبلت عليه فقلت:يا عمِّ،لقد أعذر الله إليك! قال:فرفع حاجبيه،فقال:يا ابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالا من يحبَّه الله يبتَليه،ثم يعيده فيبْتليه،إنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله.[٤٧٨٩].وبمثل هذا الجد في أخذ

[٤٧٨٦] - مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ >> بَابُ الزَّايِ >> مَنِ اسْمُهُ زَيْدٌ >> (٢٥٢٥) صحيح – زيادة مني

[٤٧٨٧] - تفسير ابن أبي حاتم [٧ /٢٦٦](١٠٣٩٣) صحيح

[٤٧٨٨] - تفسير ابن أبي حاتم [٧ /٢٦٦](١٠٣٩٤) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤ /٢٦٨](١٦٧٥٦) صحيح

[٤٧٨٩] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤ /٢٦٤](١٦٧٤٥) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /١٥٧] حسن

" الجراجمة "،نبط الشأم،ويقال:هم قوم من العجم بالجزيرة ." الهم " (بكسر الهاء):الشيخ الكبير الفاني البالي.

كلمات اللّه انطلق الإسلام في الأرض،يخرج الناس من عبادة العبــاد إلى عبــادة اللّــه وحده،وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة.[4790]

الخوالف(١):

قال تعالى:{ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَــى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِــنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِــيمٌ (٩٠) } [التوبة]

وإذا أنْزلت سورةٌ محْكمةٌ فيها دعْوةٌ إلى الإيمان بالله،والإخْلاص في العقيدة له،وفيها ذكْرٌ للقتال،وحثٌّ على الجهاد مع رسول الله ﷺ،حاول ذوو القدْرة على الجهاد،والسّــعة في الإنْفاق،أنْ يتخلّفوا عن القيام بما أمر الله،واسْتأْذنوك في القعود مع القاعدين من العجــزة وأصْحاب الأعْذار.رضوا لأنْفسهمْ بالقعود،وبعار البقاء مع النّساء المتخلّفات في البلد،بعْد خروج الْجيْش (الْخوالف)،وقدْ طبع الله على قلوبهمْ،وختم عليْها،فالْتبســتْ علــيْهم الأمور،وأصْبحوا لا يفْقهون،ولا يعْرفون ما في الجهاد منْ خيْرٍ للنّفْس وللجماعة،ولا مــا في القعود عن الجهاد منْ مضرّةٍ للنّفْس وللجماعة،في الدّنْيا والآخرة.

إذا تخلّف الْمنافقون عن الجهاد فإنّ رسول الله ﷺ،والمــؤْمنين جاهــدوا في ســبيل الله بأمْوالهمْ وأنْفسهمْ،وهؤلاء وعــدهم الله بــالخيْرات:في الــدّنْيا بتحْقيــق النّصْــر،ومحو الْكفْر،وإعْلاء كلمة الله،والتّمتّع بالمغانم،وفي الآخرة برضا الله وجنّاته.

[4790] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٦٧)

وقدْ أعدّ الله تعالى لهؤلاء المؤْمنين المخْلصين المجاهدين بأمْوالهمْ وأنْفسهمْ،جزاءً لهمْ على إيمانهمْ وإخْلاصهمْ في طاعة الله ورسوله،جنّاتٍ تجْري الأنْهار في جنباتها،وهذا هو الفوْز العظيم.

وجاء ذوو الأعْذار إلى رسول الله ﷺ،من القبائل الّتي تعيش حوْل المدينة،يسْتأْذنونه في القعود،وأبْدوْا أعْذاراً،منْهم الصّادق،ومنْهم الكاذب،ولمْ يأْت آخرون ممّنْ قعدوا ليعْتذروا،ويبيّنوا أسْباب قعودهمْ عن الجهاد مع الرّسول،وسيصيب الذين قعدوا منْهمْ كفْراً،وجرْأةً منْهمْ على الله،عذابٌ أليمٌ [4791].

قوله تعالى:«وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ».أولو الطول:الطول:من طال الشيء بطوله،أي قدر عليه وتمكن منه..وأولوا الطول:هم أصحاب القدرة التي تمكن لهم من بلوغ ما لا يستطيع غيرهم بلوغه،بجاههم،وسلطانهم،وأموالهم..والآية الكريمة،تكشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين،وتفضح طائفة أخرى من طوائفهم،وهم أصحاب الرياسة،والسيادة،والقدرة فيهم..

هؤلاء المنافقون «إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ» أي إذا أنزل قرآن يحمل إلى المؤمنين أمرا من الله سبحانه وتعالى،يذكرهم بالإيمان بالله،ويدعوهم إلى الجهاد مع رسول الله..«اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ» أي بادر أصحاب الطول هؤلاء،إلى التحلل من هذا الأمر،بالاعتذار إلى رسول الله،واستئذانه فى أن يعفيهم من إجابة هذه الدعوة،والجهاد فى سبيل الله..

وفى قولهم «ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ» ما يكشف عن استخفافهم بأمر الله،واسترواحهم للتحلل منه،حتى ليهنؤهم المقام،وتطيب لهم الحياة،فيقعدون مع القاعدين،ويسمرون مع السامرين..وهذا ما يكشف عنه قوله تعالى:«رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» أي قد سولت لهم أنفسهم أن يكونوا مع الخوالف،ممن لا طول لهم ولا حول،من المرضى،والزّمنى،وأصحاب العاهات

[4791] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٢٢، بترقيم الشاملة آليا)

والعلل،والأطفال،والنساء،والإماء،والعبيد- رضوا أن يكونوا مع هـذه الطوائف من الناس،وهم أصحاب طول وحول، لم يكن يرضيهم أبدا أن يكون بينهم وبين هذه الطوائف أمر جامع،أو صفة مشتركة..فكيف وهم أصحاب الحول الطول يترلون إلى هذا المستوي الذي يضيفهم إلى مجتمع الصبيان والعبيد؟ ولكن هكذا أرادوا أن يكونوا،وهكذا صنعوا بأيديهم هذا الثوب الذي لبسوه..ثوب الصّغار والامتهان.وفى قوله سبحانه:«وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» إشارة إلى أنهم وقد لبسوا ثياب المهانة والخزي بهذا الموقف الذي وقفوه- لا يدركون ما وقع عليهم من ذلة وهوان،إذ كانت أعينهم فى عمى،وقلوبهم فى غفلة،وعقولهم فى ضلال.[٤٧٩٢]

وقال السعدي:

يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات،وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات:{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله.{اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ} يعني:أولي الغنى والأموال،الذين لا عذر لهم،وقد أمدهم الله بأموال وبنين،أفلا يشكرون الله ويحمدونه،ويقومون بما أوجبه عليهم،وسهل عليهم أمره،ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود {وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ}.{٨٧} قال تعالى {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} أي:كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد،هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير،ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم،فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.[٤٧٩٣]

وفي الظلال:

إنهما طبيعتان..طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء.وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء.وإنهما خطتان..

خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون.وخطة الاستقامة والبذل والكرامة.

[٤٧٩٢] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٨٦١)

[٤٧٩٣] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٤٧)

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولـــوا الطول،الـــذين يملكـــون وســـائل الجهـــاد والبذل.جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها اللّـــه لهم،وشـــكر النعمة التي أعطاها اللّه إياهم،ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النســـاء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن.دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلـــة من صغار وهوان،مادام فيها السلامة،وطلاب السلامة لا يحسون العار،فالسلامة هـــدف الراضين بالدون:«رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ»..

«وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ»..ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم،وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم.

«إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة.وإن ضـــريبة الـــذل لأفـــدح في كـــثير مـــن الأحايين.وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيـــل إليهـــا أن للكرامـــة ضـــريبة باهظـــة لا تطاق،فتختار الذل والمهانة هربا من هـــذه التكـــاليف الثقـــال،فتعيش عيشـــة تافهـــة رخيصة،مفزعة قلقة،تخاف من ظلـــها،وتفرق مـــن صداها،يحســـبون كـــل صـــيحة عليهم،ولتجدهم أحرص الناس على حياة..هؤلاء الأذلاء يؤدون ضـــريبة أفـــدح مـــن تكاليف الكرامة.إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة.يؤدونها مـــن نفوســـهم،ويؤدونها مـــن أقدارهم،ويؤدونها من سمعتهم،ويؤدونها من اطمئنانهم،وكثيرا ما يؤدونها مـــن دمـــائهم وأموالهم وهم لا يشعرون » [٤٧٩٤] ومن هؤلاء..أولئك الذين « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُـــوا مَـــعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ»..«لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»..وهم طراز آخر غير ذلك الطراز..«جاهَدُوا بِـــأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُســـهِمْ»..فنهضـــوا بتكـــاليف العقيدة،وأدوا واجب الإيمان وعملوا للعزة الـــتي لا تنـــال بـــالقعود «وَأُولئِـــكَ لَهُـــمُ الْخَيْراتُ»..

خيرات الدنيا والآخرة،في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية.وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى،ولهم رضوان اللّه الكريم «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»..الفـــلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم:«أَعَدَّ اللَّهُ لَهُـــمْ جَنَّـــاتٍ

[٤٧٩٤] - من فصل ضريبة الذل في كتاب «دراسات إسلامية».«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها»..«ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».«وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ،وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ،سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»..فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية فلهم عذرهم إن استأذنوا في التخلف،وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر.قعدوا كاذبين على اللّه والرسول.وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم.أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعل لهم مصيرا غير هذا المصير.[٤٧٩٥]

الخوالف(٢):

قال تعالى:{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) } [التوبة]

يذْكر الله تعالى في هذه الآية الأعْذار التي لا حرج على منْ قعد معها عن الجهاد،فذكر منْها ما هو ملازمٌ لبنْية الإنْسان ويمْنعه منْ مباشرة القتال،كالضعْف في البنْية الجسديّة،ومنْها ما هو عارضٌ،كالمرض الذي يمْنعه من الخروج في سبيل الله،أوْ كالفقْر

[٤٧٩٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٠١)

الذي لا يمكّنه من التّجهّز للْحرْب،واقْتناء السّلاح والْعدّة،والإنْفاق على النّفْس والعيــال خلال مدّة الجهاد.

ويذْكر الله تعالى:أنّ هؤلاء لا حرج عليْهمْ إذا قعدوا ونصحوا لله،وللرّسول وللمؤْمنين في حال قعودهمْ،و لمْ يرْجفوا بالنّاس،و لمْ يبثّوا الشّائعات المثبّطة للْهمم،فإذا الْتزمــوا بــذلك كانوا من المحْسنين،والله رحيمٌ بمنْ يقْعد وهو صاحب عذْرٍ مشْروعٍ.

جاء سبْعةٌ منْ بني مقْرنٍ منْ مزينة إلى الرّسول ﷺ وسألوه أنْ يحْملهمْ على دابّةٍ ليجاهدوا معه،وكانوا أهْل حاجةٍ،فقال لهمْ رسول الله:والله ما أجد ما أحْملكمْ عليْه.فتولّــوا عنْــه يبْكون حزْناً على أنّهمْ لا يجدون ما ينْفقونه ليذْهبوا مع الرّسول إلى الجهاد.فترلتْ هــذه الآية.

ثمّ ردّ الله تعالى الملامة وجعلها على الذين يسْتأْذنون الرّسول في القعود منْ غيْر عذْرٍ ولا ضرورةٍ،وهمْ أصحّاء أغْنياء،قادرون على الإنْفاق،ووبّخهمْ لرضاهمْ بأنْ يكونــوا مــع العجزة والمرْضى والنّساء القواعد،وقال تعالى إنّه طبع على قلوبهمْ،وختم عليْها،وأحاطتْ بهمْ خطاياهمْ وذنوبهمْ،فهمْ لا يعْلمون حقيقة أمْرهمْ في الــدّنْيا،ولا ســوء عاقبتــهمْ في الآخرة.

أخْبر الله تعالى رسوله ﷺ بأنّه إذا رجع بالجيْش إلى المدينة،فإنّ المنافقين الذين قعدوا عــن الجهاد،وهمْ أغْنياء أصحّاء،سيأْتون إليْه معْتذرين.ويأْمر الله تعالى رسوله بأنْ يقول لهمْ:لا حاجة بكم لأنْ تعْتذروا فلنْ نصدّقكمْ،ولنْ نثــق بكــمْ،لأنّ الله أعْلمنــا بــأحْوالكمْ وأخْباركْم،وسيرى الله ورسوله عملكمْ فيما بعْد،وهو الذي سيبيّن حقيقة حالكمْ:إمّــا إصْرارٌ على النّفاق،وإمّا توْبةٌ وإنابة إلى الله.أمّا قولكمْ باللّسان فلا يعْتد به مهْما أكّدْتموه بالإيمان.ثمّ يتولّى الله يوْم القيامة إخْباركمْ بأعْمالكمْ خيْرها وشرها،ويجْزيكمْ عليْهــا بمــا تسْتحقون.

إذا رجعْتمْ إلى المدينة منْ غزاتكمْ فإنّ هؤلاء الذين تخلّفوا مع الخوالف في المدينة،وقعــدوا عن الجهاد،وهمْ أغْنياء أصحّاء،سيأْتون إليْكمْ معْتذرين،وسيؤكّدون اعْتذارهمْ بالأيْمــان الكاذبة،وهمْ يرْجون أنْ تعْرضــوا عنْهمْ،وتكفّــوا عــنْ تــوْبيخهمْ،وتقْريعهمْ علــى

قعودهمْ،فأعْرضوا عنْهمْ إعْراض الاحْتقـــار والاسْتصْـــغار،لا إعْـــراض الصّـــفْح،وقبول العذْر،إنّهمْ رجْسٌ ودنسٌ مؤْذٍ للنّفوس المؤْمنة الكريمة،يجب الاحْتـــراس منْهمْ،والابْتعـــاد عنْهمْ،لكيْلاً تلْحق عدْواهمْ بالمؤْمنين.وستكون نار جهنّم مسْـــتقرّهمْ،وجزاءهمْ،ومأْواهم الأخير.وهمْ إنّما يحْلفون لكمْ لترْضوْا عنْهمْ،ولكنْ إذا خدعْتمْ أنْتمْ بأيْمانهمْ،ورضيتمْ أنْتمْ عنْهمْ،فهذا الرّضا لا ينْفعهمْ في شيءٍ،لأنّ الله لا يرْضى عن القوْم الفاسقين،الخارجين عنْ طاعته،وطاعة رسوله [٤٧٩٦].

أما أصحاب الأعذار الحقيقة فقد أغناهم الله ســبحانه وتعــالى عــن أن يقفــوا هــذا الموقف،فعذرهم لله قبل أن يعتدروا،ورفع عنهم الحرج،فى قوله تعالى:«لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ» فهؤلاء أصحاب أعذار ظاهرة،ينطق بها لسان الحال،قبل أن ينطق بها لسان المقــال..فالشــريعة الإسلامية قائمة على اليسر،ورفع الحرج عن المؤمنين،فلا إعنات فيها،ولا مشقّة أو عسر فى تكاليفهــا..«لا يُكَلِّــفُ اللَّــهُ نَفْســاً إِلَّــا وُسْــعَها.» فالضــعفاء..مــن شيوخ،وأطفال،ونساء،وعبيد وإماء،والمرضى وأصحاب العاهات المانعــة مــن الســفر والقتال- هؤلاء جميعا ومن فى حكمهم لا حرج عليهم فى أن يتخلفــوا عــن ركــب المجاهدين،«إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» أي إذا كانت قلوبهم سليمة عامرة بالإيمــان،تربط مشاعرهم بمشاعر المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله..فهــم مــع المجاهــدين بمشــاعرهم كلها.يدعون لهم بالنصر،ويتمنون لهم الغلب والسّــلامة،ويخلفونهم فى أهلــهم،ويقومون على رعاية أبنائهم وأزواجهم،وقضاء حوائجهم،ورفع الضرّ عنهم،ومواساة من أصــيب منهم فى أب،أو أخ،أو زوج،إلى غير ذلك ممّا يبعث فى نفس المجاهد الطمأنينة،ويطلق يديه كليهما،ووجوده كلّه،للعمل فى ميدان المعركة،ومواجهة العدوّ..

[٤٧٩٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

وبهذا يكون المؤمنون جميعا فى ميدان المعركة.سواء منهم من شهدها وحارب فيها،أو من تخلّف،بما معه من عذر،ونصح لله ورسوله،فى سلوكه الطيب،مع من يخلّفهم المحاربون وراءهم من أهل وولد،وفى مشاعره المتجهة إلى المجاهدين فى ميدان القتال،والدعاء لهم بالنصر وتمنّيه لهم..

وقوله تعالى:«ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» إشارة إلى أن هذا الذي يبدله المتخلفون من ذوى الأعذار،من نصح لله ورسوله،وراء جبهة القتال،هو غاية ما فى مستطاع هؤلاء المتخلفين،وهو ميدانهم الذي يكون لهم فيه عمل وإحسان..«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها».فإذا أعطى المؤمن- فى باب الإحسان- ما وسعته نفسه،فهو فى المحسنين..[4797]

يقول تعالى:{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} أي:جاء الذين تهاونوا،وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد،غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم،وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم،فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية،ويحتمل أن معنى قوله:{الْمُعَذِّرُونَ} أي:الذين لهم عذر،أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم،ومن عادته أن يعذر من له عذر.{وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} في دعواهم الإيمان،المقتضي للخروج،وعدم عملهم بذلك،ثم توعدهم بقوله:{سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} في الدنيا والآخرة.[4798]

وفي الظلال:

ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون،ولا يجد لهم الرسول - ﷺ- ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة..من جناح ولا حرج إذا هم تخلفوا عن المعركة..إنما الجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول اللّه - ﷺ- في القعود وهم أغنياء قادرون،لا يقعدهم عذر حقيقي عن الخروج..إنما الجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالف في الدور..

[4797] - التفسير القرآني للقرآن (5/ 866)

[4798] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:347)

هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج،والاستئذان في القعود،ذلك أنهم نـاكلون متثاقلون،لا يؤدون حق اللّه عليهم وقد أغناهم وأقدرهم ولا يؤدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم ولا يؤدون حق المجتمع الذي يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم..ومن ثم يختار اللّه – سبحانه – لهم هذا الوصف:«رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ»..

فهو سقوط الهمة،وضعف العزيمة،والرضا بأن يكونوا مع النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون في الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد..وهم معذورون..فأما أولئك فما هم بمعذورين! «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»..

فقد أغلق اللّه فيهم منافذ الشعور والعلم،وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك،بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم،والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب! وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة،فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة.وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر،وتطبع على القلوب والعقول.والحركة دليل الحياة،ومحرك في الوقت ذاته للحياة. ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل،وتشد العضل،وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة،وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة..وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة.

ويمضي السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف..

إن وراء حب الدعة وإيثار السلامة،سقوط الهمة،وذلة النفس،وانحناء الهامة،والتهرب من المواجهة والمصارحة:«يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ»..

وهذا من إنباء اللّه لرسوله – ﷺ– وللمؤمنين الخلص بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة.مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة.

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم،ذلك أنهم يخجلون من الظهـور بفعلتـهم هـذه عارية،ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية وهي ضعف الإيمان،وإيثار السلامة،والإشـفاق من الجهاد! «قُلْ:لا تَعْتَذِرُوا.لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ.قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ»! قل:وفروا عليكم معاذيركم.فلن نطمئن إليكم،ولن نصدقكم،ولن نأخذ بظاهر إسـلامكم كمـا كنـا نفعل.ذلك أن اللّه قد كشف لنا حقيقتكم،وما تنطوي عليه صدوركم وقص علينا دوافع أعمالكم وحدثنا عن حالكم،فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا مـن قبـل معكم.

والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى:«لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» ذو دلالة خاصة.

فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان.تصديق بالقول وائتمـان بالعقـل واطمئنـان بالقلب،وثقة من المؤمن بربه،وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه.وللتعبير القرآني دائمـا دلالته وإيحاؤه.

قل:لا تعتذروا.فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام.ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك،وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان:«وَسَيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُولُهُ»..

واللّه لا تخفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها ورسول اللّه - ﷺ- سيزن قولكم بعملكم.وعلى أساسه سيكون التعامل معكم في المجتمع المسلم.

ولن ينتهي الأمر - على كل حال - بما يجري في هذه الأرض في فترة الحياة الدنيا.فوراء ذلك حساب وجزاء،يقومان على علم اللّه المطلق بالظواهر والسرائر:«ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»..

والغيب ما غاب عن الناس علمه،والشهادة ما يشهدونه ويعرفونه.واللّه سـبحانه عـالم الغيب والشهادة بهذا المعنى.وبمعنى أشمل وأكبر.فهو سبحانه يعلم ما في هذا العالم المشهود ويعلم ما وراءه من العوالم المغيبة..

وفي قوله تعالى لأولئك المخاطبين:«فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»..إيماءة مقصـــودة.فهـــم يعلمون ما كانوا يعملون.ولكن اللّه – سبحانه – أعلم منهم بها حتى لينبئهم هـــو بهـــا! وكم من دافع خفي للعمل يخفى حتى على صاحبه وهو يفعله،واللّه أعلم به منه! وكـــم من نتيجة لهذا العمل لا يدري صاحبه وقوعها،واللّه يعلمها دون صاحبها!..والمقصود – بطبيعة الحال – هو نتيجة الإنباء.وهي الحساب والجزاء الحق على الأعمال.ولكن هـــذه النتيجة لا ينص عليها،إنما ينص على الإنباء ذاته لمناسبة هذه الإيماءة في هذا السياق.

«سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ – إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ – لِتُعْرِضُوا عَـــنْهُمْ.فَأَعْرِضُـــوا عَـــنْهُمْ،إِنَّهُمْ رِجْسٌ،وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ،جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..

وهذا إنباء آخر من اللّه سبحانه لنبيه ﷺ،عما سيكون من أمر القوم عندما يعود إليهم هو والمؤمنون الخلص معه سالمين آمنين.وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون مـــن لقـــاء الروم! فقد علم اللّه وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف باللّه لعـــل المســـلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم عفوا وصفحا ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها.

ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلا،لكن لا بمعنى العفو والصفح إنما بمعـــنى الإهمـــال والاجتناب.

معللا ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى:«فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ،إِنَّهُمْ رِجْسٌ»..

وهو التجسيم الحسي للدنس المعنوي.فهم ليسوا رجســـا – أي دنســـا – بأجســـادهم وذواتهم إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم.ولكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبـــين قذارة،وأدعى إلى التقزز والاشمئزاز،وإلى الاحتقار كـــذلك والازدراء! والقاعـــدون في الجماعة المكافحة – وهم قادرون على الحركة – الذين يقعد بهم إيثـــار الســـلامة عـــن الجهاد..

رجس ودنس.ما في ذلك شك ولا ريب..رجس خبيث يلوث الأرواح،ودنـــس قـــذر يؤذي المشاعر كالجثة المنتنة في وسط الأحياء تؤذي وتعدي! «وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ»..

وهم يحسبون أنهم يكسبون بالتخلف ويربحون بـالقعود ويجنـون السـلامة والراحـة ويحتفظون بالعافية والمال..ولكن الحقيقة أنهم دنس في الدنيا،وأنهم يضيعون نصـيبهم في الآخرة.فهي الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها..ومن أصدق من اللّه حديثا؟.

ثم يمضي السياق ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين:«يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ.فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ»..

إنهم يطلبون ابتداء من المسلمين أن يعرضوا عن فعلتهم صفحا وعفوا.ثم يتدرجون مـن هذا إلى طلب رضى المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة في المجتمع المسلم بهـذا الرضـى! ويضمنوا أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسـلامهم كمـا كـانوا يعـاملونهم ولا يجاهدونهم ويغلظون عليهم كما أمرهم اللّه في هذه السورة أن يفعلـوا محـددا بـذلك العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين فيهم.

ولكن اللّه سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين اللّه بهذا القعود الناشئ عن النفاق وأن اللّـه لا يرضى عن القوم الفاسقين.حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنـهم المسلمون!..وحكم اللّه فيهم هو الحكم.ورضا الناس - ولو كانوا هم المسـلمين - في هذه الحالة لا يغير من غضب اللّه عليهم،ولا يجديهم فتيلا.إنما السبيل إلى إرضاء اللّه هو الرجوع عن هذا الفسق،والعودة إلى دين اللّه القويم! وهكذا كشف اللّه هؤلاء القاعدين - من غير عذر - في الجماعة المسلمة وقرر العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين.كما قررها من قبل بين المسلمين والمشركين،وبين المسلمين وأهل الكتـاب.وكانـت هـذه السورة هي الحكم النهائي الأخير[٤٧٩٩].

الأعذار الكاذبة :

قال تعالى:يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِـزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا

[٤٧٩٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٣٠٩)

إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) [التوبة]

قال رجلٌ من المنافقين عنْ رؤساء المنافقين،الذين تخلّفوا عنْ غزْوة تبوك،فترل فيهمْ ما نزل من القرْآن:(إنّ هؤلاء لخيارنا وأشْرافنا،وإذا كان ما يقوله محمّدٌ حقّاً،لهمْ شرٌّ من الْحمير).فسمعه رجلٌ مسْلمٌ فقال:إنّ محمّداً لا يقول إلاّ حقّاً،ولأنْت شرٌّ من الحمار).ثمّ ذهب المسْلم إلى رسول الله يحدّثه بما جرى.فأرْسل النّبيّ إلى المنافق وسأله،وقال ما حملك على ما قلْت؟ فأخذ المنافق يحْلف بالله إنّه ما قال ذلك.وقال الرّجل المسْلم:اللّهمّ صدّق الصّادق،وكذّبْ الكاذب.فأنْزل الله هذه الآية الْكريمة.

فهؤلاء المنافقون يحْلفون لكمْ على أنّهمْ ما قالوا ما نقل عنْهمْ ممّا يورث أذى النّبيّ ليرْضوكمْ،فلا تخْبروا النّبيّ،معْ أنّ الله ورسوله أحقّ بالإرْضاء من المؤْمنين،لأنّ الله لا يخْفى عليْه شيْءٌ،ويعْلم خائنة الأعْين.وما تخْفي الصّدور.

ألا يعْلم هؤلاء المنافقون أنّ من شاقّ الله ورسوله بتعدّي حدود ما أنْزل الله،وحاربهما وخالفهما،ولمز رسول الله في أعْماله وأخْلاقه،فإنّه سيصْلى نار جهنّم،ويبْقى خالداً فيها،وهذا هو الذّل العظيم،والشّقاء الكبير.

كان المنافقون يقولون القوْل بيْنهمْ،ثمّ يقولون عسى الله أنْ لا يفْشي عليْنا سرّنا هذا بإنْزال آيةٍ على رسوله،تفْضح ما قلْناه.ويردّ الله تعالى عليْهمْ قائلاً:إنّه سيخْرج ما يحْذرون ليعْلمه الرّسول والمؤْمنون،فلْيسْتهْزئوا ما شاؤوا.

وخوْف المنافقين من الْفضيحة،ومنْ كشْف عوْراهمْ للْمؤْمنين،هما أثرٌ منْ آثار الشّكّ والارْتياب،لأنّهمْ مذبْذبون،لا همْ مع المؤْمنين الْموقنين،ولا همْ بالكافرين الجازمين بصحّة الكفْر.

حينما كان الرّسول ﷺ منْطلقاً في الطّريق إلى غــزْوة تبــوك قــال بعْــض المنــافقين لبعْضٍ:أتحْسبون جلاد بني الأصْفر (يعْني الرّوم) كقتال العرب بعْضهمْ بعْضاً،والله لكأنّنا بكمْ غداً مقرّنين في الحبال؟ وكان هــؤلاء يقولــون هــذا القــوْل إرْجافاً،وترْهيبــاً للْمسْلمين.فقال الرّسول عليْه الصّلاة والسّلام لعمّار بْــن ياســرٍ:أدْرك القــوْم فقــد احْترقوا،فاسْألْهمْ عمّا قالوا،فإنْ أنْكروا فقلْ بلى قلْتمْ كذا وكذا..فقال لهمْ عمّار ذلــك فأتوْا إلى رسول الله يعْتذرون إليْه،وقال أحدهمْ:يا رسول الله،إنّما كنّا نخوض ونلْعب.أيْ إنّهمْ لمْ يكونوا جادّين فيما يقولون،وإنّما قالوا ما قالوا للتّسلّي والتّلهّي،وفي ظــنّهمْ أنّ هذا عذْرٌ مقْبولٌ،و لمْ يعْلموا أنّ اتخاذ الدّين هزْواً ولعباً كفْرٌ محْضٌ،لأنّ الخوْض واللّعب في صفات الله،وشرْعه وآياته،المنْزّلة هو اسْتهْزاءٌ بها.

يقول الله تعالى لهؤلاء المنافقين:لا تعْتذروا عمّا قلْتمْ،فقدْ كفرْتمْ بهذا القوْل الذي اسْتهْزأْتمْ به بآيات الله.واعْتذاركمْ هو إقْرارٌ بذنْبكمْ،فإنْ يعْف الله تعالى عنْ بعْضكمْ لتوْبتهمْ،فإنّــه سيعذّب بعْضاً آخر لأنّهمْ كانوا مجْرمين بهذه المقالة الفاجرة،ولأنّهمْ ظلّوا مصرّين علــى نفاقهمْ.[٤٨٠٠]

وهذا صنف آخر من أصناف المنافقين،ووجه من وجوههم المنكرة..صنف يتخــذ مــن الاستهزاء بالنبيّ والسخرية منه،مادّة يطعم منها فى شراهة ونهم،ليشــبع بــذلك جوعــا مسعورا من الحقد على الإسلام،والشنآن له،وللرسول الذي حمل رسالته.

وقد ضبط القرآن الكريم هذه الجماعة الآثمة،وهى قائمة على هذا الإثم،تلوكه فى أفواهها المنكرة،كما تلوك الكلاب قطعا من العظم الرميم..

فكان ذلك فضحا لهم على الملأ،وخزيا متنقلا معهم فى كل مكان،ينادى عليهم بالذلــة والمهانة والصغار! يقولون- خرست ألسنتهم- عن النبي الكريم:هو «أذن» أي يعطى أذنه لكل قائل يلقى فيها ما يقول له! فكلمات النفاق الكاذبة الــتي يلقونهــا بــين يــدى النبيّ،ويحلفون عليها كذبا وزورا- هذه الكلمات يخيّل إليهم أن النبيّ الكريم- إذ يقبلــها منهم،أو يسكت عليها فلا يبهتهم بها- أنه يحمل كلماتهم الكاذبة المنافقــة تلك،محمــل

[٤٨٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٩٨، بترقيم الشاملة آليا)

الصدق،ولهذا فهم يقولون فى النبىّ هذا القول المنكر:«هو أذن» فحين آذن النبىّ الكـــريم المسلمين بغزوة تبوك،وندبهم جميعا إلى الجهاد فى سبيل الله- جاء إليه- ﷺ- كثير مـــن المنافقين يعتذرون إليه بأعذار كاذبة،وقد قبلها الـــنبىّ منـــهم،وتركهم ومـــا اختـــاروا لأنفسهم،من القعود عن الجهاد،وإيثار العافية والسلامة لأنفســـهم،على مـــا عنـــد الله للمجاهدين،من رضى ورضوان.

وماذا يكون من النبىّ- ﷺ- حيال هؤلاء المعتذرين عن الجهاد،غير الذي فعله معهم؟ إذ تركهم لشأنهم،وأعفاهم من مئونة الجهاد مع المجاهدين؟.

وماذا كان غناء أمثال هؤلاء المتكرهين للجهاد،إذا هم حملوا عليه حملا،وأخذوا به قسرا؟ أمثل هؤلاء يكون للمسلمين منهم قوة ينتفع بها فى هذا المجال؟.

إن الجهاد فى سبيل الله قربة من أعظم القربات إلى الله..والقربات إنما لكى تقع موقعهـــا من القبول عند الله سبحانه وتعالى- ينبغى أن تكون عن تطوع واختيار،وعن اســـتعداد للتضحية والفداء،بل وعن اشتهاء للتضحية والفداء! إن هؤلاء المتكرهين للحرب،المؤثرين للسلامة والعافية فى أنفسهم،على الجهاد فى سبيل الله،والاستشهاد فى سبيل الله- هـــؤلاء هم أشدّ على المجاهدين بلاء من العدو الذي يلقونه فى ميدان القتال..إن هؤلاء المنـــافقين هم صوت الهزيمة الذي يندسّ بين المجاهدين،وإنّهم لهم السلاح الخفىّ للعدوّ يضرب به فى جبهة المجاهدين..ولهذا،فقد كان ما فعله النبىّ،من عزل هذه الجماعة المثبطة،عن الجـــيش المجاهد- كان ذلك هو الحكمة فى صميمها،ولهذا جاء قوله تعالى:

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُـــونَكُمُ الْفِتْنَـــةَ وَفِـــيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ» - جاء مؤيدا لما رآه الرسول فى هؤلاء المعتذرين،حيث قبل منـــهم مـــا اعتذروا به،ولم يراجعهم فيه،ولم يدخل معهم فى جدل لا جدوى معه.ولا ينقض هـــذا التأييد السماوي لرأى النبىّ فى هؤلاء المعتذرين،ما جاء من عتاب للنبىّ من الله ســـبحانه وتعالى فى قوله جلّ شأنه:«عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّـــذِينَ صَـــدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ».فهذا العتاب،هو- فى الواقع- مدح للنبىّ،ورضى كريم عنه،على حـــين أنه فضيحة لهؤلاء المعتذرين،وكشف لنفاقهم..

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين بمـــا يكبتـــهم،ويملأ قلـــوبهم حســـرة وكمدا..فقال جلّ شأنه:«قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّـــذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ».

ففى قوله تعالى:«قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» أمور:

منها:أن النبىّ ﷺ،هو المأمور بتبليغ هذا الرد السماوي،بقوله تعالى:«قل»..وفى هذا تكريم للنبىّ،بوضع هذا السلاح السماوىّ فى يده،ليضرب به فى وجه هؤلاء الـــذين آذوه بهـــذا المنكر من القول الذي قالوه عنه..

ومنها:الإشارة إلى النبىّ الكريم بضمير الغيبة «هو» وظاهر النظم يقضى بأن يكون الـــنبىّ هو المتحدّث عن نفسه..هكذا:قل إننى أذن خير لكم» - وفى هذا إشارة إلى أن الـــذي يتولى الدفاع عن النبىّ،هو الله سبحانه وتعالى،وأنه إذا كان النبىّ فى غير محضر من هؤلاء الذين يقولون فيه هذا القول المنكر،فإن الله سبحانه وتعالى،هو وليّه،وهو الـــذي يـــدافع عنه،ويفضح المتآمرين عليه..ومنها:ما تضمن هذا الردّ من أن النبىّ هو أذن خير لهـــؤلاء المنافقين:

«قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ»..فكيف هذا،وهم فى معرض العقاب والتقريع؟.

والجواب على هذا- والله أعلم- أنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بالهدى والرحمـــة،وأنّ أذنه التي يعيبها أولئك المنافقون بتصديق ما يلقى إليها من أخبـــار،هى أذن خير،ووعـــاء رحمة،تتلقى ما يترل إليها من كلمات الله وآياته،فتنقله إلى الناس،وتؤدّيه لهم كما سمعته..

فأذن الرسول،هى وعاء خير خالص للناس جميعا،مؤمنهم وكافرهم،برّهم وفاجرهم،ذلك أن الرسول يؤذّن بكلمات ربّه التي سمعها من الرّوح الأمـــين- يـــؤذّن بهـــا فى النـــاس جميعا..فمن سمع وعقل ووعى،فقد أخذ لنفسه بحظها من هذه الخير العام وتلك الرحمـــة الشاملة،ومن أصمّ أذنيه،وأعرض عن آيات ربّه،فقد حرم نفســـه الخـــير كلّـــه،وأوردها الضلال والهلاك..

فلو أن هؤلاء المنافقين استمعوا لكلمات الله،ولم يمكروا بها،لكان لهم من ذلك الخير كلّ الخير..ولكنهم نافقوا،ومكروا،فمكر الله بهم،وحرمهم أن ينالوا من تلك النعمة شيئا..

وقوله سبحانه:«يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» بيان لقوله تعالى:«أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» يكشف عن صفات هذا الرسول الكريم،الذي يقول فيه المنافقون هذا القول المنكر..أي أنه عليه الصلاة والسلام،أذن خير للناس جميعا..يسمع كلمات الله فيصدّقها ويؤمن بها،ويسمع ما يحدّثه به المؤمنون فيصدّقهم،لأن من شأن المؤمن ألّا يكذب..

ثم هو عليه الصلاة والسلام،رحمة للمؤمنين،الذي صدّقوا الرسول وآمنوا بما جاءهم به من عند الله سبحانه وتعالى..وفى هذا تعريض بالمنافقين،بأنهم آذان سوء..لا تستمع آذانهم خيرا،وإن سمعته مجّته،وتغيّرت معالمه فيها..فلا تعرف للحق وجها،ولا تنال من الخير المحمول إليها فيه شيئا..

قوله سبحانه:«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» هو تهديد ووعيد لأولئك المنافقين،الذين يؤذون رسول الله بتلك الكلمات المنكرة،التي يصفون بها الرسول هذا الوصف الشنيع،ويتطالون بها على مقامه الكريم،فى غير حياء من دين أو خلق.

فهؤلاء قد أعدّ الله لهم عذابا أليما،انتقاما منهم لرسول الله،وجزاء وفاقا لهذا العدوان الآثم على مقامه الكريم..

قوله تعالى:«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ» هو تسفيه لموقف هؤلاء المنافقين الذي يتخذونه من المؤمنين،حين يجيئون إليهم معتذرين،عما شاع عنهم من قولهم المنكر فى رسول الله..فهم يدفعون عن أنفسهم هذا الاتهام الذي يتهمهم به المؤمنون،بالحلف كذبا أنّهم ما قالوا شيئا يمسّ رسول الله..وهم فى هذا كاذبون منافقون..لأنهم لو كانوا مؤمنين حقّا لكان أول ما يعنيهم من أمرهم،هو براءة ساحتهم عند الله،وذلك بإخلاص إيمانهم،وسلامة قلوبهم،وإخلاء ضمائرهم من النفاق الذي يموج فيها..فلو أنهم فعلوا هذا لكانوا مؤمنين حقّا،ولرضى الله عنهم ورسوله،ولما كان بهم من حاجة إلى استرضاء المؤمنين والحلف لهم،لأن المرء إذا لم يكن متّهما عند نفسه،لا يجد داعية إلى دفع اتهام هو منه برىء،كما لا يجد داعية إلى الحلف،إن هو أراد دفع هذا الاتهام..

وفى مخالفة النظم فى قوله تعالى:«وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» لما يقتضيه السياق،وهو أن يعود الضمير على الله والرسول هكذا:«يرضوهما» – فى هذه المخالفة ما يشعر بأن فى رضى الله رضى الرسول،وأن فى رضى الرسول رضى الله سبحانه وتعالى..إذ ليس فيما يرضى الله ما لا يرضى الرسول،ولا فيما يرضى الرسول ما لا يرضى الله..

ولو جاء النظم على ما يقتضيه ظاهر السياق،فجاء هكذا:«والله ورسوله أحقّ أن يرضوهما..» – لكان من معنى هذا،أن لله سبحانه وتعالى ما يرضيه من عباده،وأن للرسول– ﷺ– ما يرضيه منهم،وأن هذا الذي يرضى الله،وذلك الذي يرضى الرسول،قد يتفقان،وقد يختلفان..

أما الذي جاء عليه النظم القرآنى،فإنه لا يدع مجالا لهذا الاحتمال،بل يجعل التوافق تامّا مطلقا،بين ما يرضى الله،ويرضى رسول الله..وفى هذا– فوق أنه تكريم للرسول،وتنويه بقدره،وتشريف للرسالة الكريمة التي يحملها– هو إعجاز من القرآن،فى إحكام نظمه،وصدق أدائه،ووزن كلماته وحروفه،بمعيار لا تستطيع قوة بشريّة أن تمسك به،لدقّته،وعلوّه عن مستوى الحواس والمدركات.

ومن جهة أخرى،فإنه لو عاد الضمير على الله والرسول معا،لكان فيه إخلال بمقام الألوهية،وتسوية الخالق بمخلوق من مخلوقاته،والله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يشاركه فى جلاله بشر،ولو كان أكرم الخلق عليه!.فاقتضى هذا المقام أن يجىء الضمير مفردا،يعود إلى الله سبحانه،وكفى الرسول الكريم شرفا أن يجىء تابعا لله سبحانه فيما يرضيه..وعلى هذا جاء قوله تعالى:«وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» ولم يجىء النظم هكذا:«أن الله ورسوله بريئان من المشركين..» فهذا وذاك على سواء.

قوله تعالى:«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ» هو تهديد بعد تهديد،ووعيد بعد وعيد،لهؤلاء المنافقين الذين يحادّون الله ورسوله،ويعلنون هذه الحرب السفيهة بألسنتهم على الله ورسوله،بما يذيعون من كلمات السوء فى رسول الله..

وليس لمن يحارب الله ورسوله،إلّا أن يصلى عذاب الله،ويأخذ مكانه في جهـنّم خالـدا فيها..وذلك هو الخزي العظيم للمنافقين،حين يساقون إلى جهنّم،ويدعّون فيها دعّا،على حين تفتّح أبواب الجنات للمؤمنين،الذين أسلموا وجوههم لله،وأخلصوا دينهم لـه،فلم تحمل قلوبهم نفاقا،و لم تجر على ألسنتهم كلمة منافقة.[٤٨٠١]

{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ} فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها،فغايتـهم أن ترضوا عليهم.{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} لأن المـؤمن لا يقـدم شيئا على رضا ربه ورضا رسوله،فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غـير الله ورسوله.

وهذا محادة لله ومشاقة له،وقد توعد من حاده بقوله:{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَـادِدِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ} أي:يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله،وتجرأ على محارمه.

{فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} الذي لا خزي أشـنع ولا أفظـع منه،حيث فاتهم النعيم المقيم،وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا بالله من أحوالهم.

كانت هذه السورة الكريمة تسمى "الفاضحة" لأنها بينـت أسـرار المنافقين،وهتكـت أستارهم،فما زال الله يقول:ومنهم ومنهم،ويذكر أوصافهم،إلا أنه لم يعين أشخاصـهم لفائدتين:إحداهما:أن الله سِتِّيرٌ يحب الستر على عباده.

والثانية:أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين،الذين توجه إليهم الخطـاب وغيرهم إلى يوم القيامة،فكان ذكر الوصف أعم وأنسب،حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى:{لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَـةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا} وقال هنا {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي تخـبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم حتى تكون علانية لعباده ويكونوا عبرة للمعتبرين

[٤٨٠١] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٨٢١)

{قُلِ اسْتَهْزِئُوا} أي استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية {إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} وقد وفَّى تعالى بوعده فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ} عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم يقول طائفة منهم في غزوة تبوك "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون النبي ﷺ وأصحابه- أرغب بطونا وأكذب ألسنا وأجبن عند اللقاء" ونحو ذلك

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه ويقولون {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب

قال الله تعالى -مبينا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك- {قُلْ} لهم {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}

وقوله {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ} لتوبتهم واستغفارهم وندمهم {نُعَذِّبْ طَائِفَةً} منكم {بِأَنَّهُمْ} بسبب أنهم {كَانُوا مُجْرِمِينَ} مقيمين على كفرهم ونفاقهم

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيما يقول تعالى:{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} لأنهم اشتركوا في النفاق،فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا،وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام،الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير،فقال:{يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ} وهو الكفر والفسوق والعصيان.

{وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} وهو الإيمان،والأخلاق الفاضلة،والأعمال الصالحة،والآداب الحسنة. {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} عن الصدقة وطرق الإحسان،فوصفهم البخل.

{نَسُوا اللَّهَ} فلا يذكرونه إلا قليلا {فَنَسِيَهُمْ} من رحمته،فلا يوفقهم لخير،ولا يدخلهم الجنة،بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار،خالدين فيها مخلدين.

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} حصر الفسق فيهم،لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم،بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم،وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم،إذ كانوا بين أظهرهم،والاحتراز منهم شديد. {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} جمع المنافقين والكفار في النار،واللعنة والخلود في ذلك،لاجتماعهم في الدنيا على الكفر،والمعاداة لله ورسوله،والكفر بآياته.[٤٨٠٢]

وفي الظلال:

إن النص عام في حذر المنافقين أن يترل اللّه قرآنا يكشف خبيئتهم،ويتحدث عما في قلوبهم،فينكشف للناس ما يخبئونه.وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة في سبب نزول هذه الآيات.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ،مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ،فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ:كَذَبْتَ،وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ،لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ،وَنَزَلَ الْقُرْآنُ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ،وَهُوَ يَقُولُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ،وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:" أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ "[٤٨٠٣]

وعن محمد بن كعب وغيره قالوا:قال رجل من المنافقين:ما أرى قُرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا،وأكذبنا ألسنة،وأجبننا عند اللقاء ! فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ،فجاء إلى رسول

[٤٨٠٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٤٢)

[٤٨٠٣] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ >> سُورَةُ التَّوْبَةِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا >>(١٥٥٤٦) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٤ /١٧١] صحيح

الله ﷺوقد ارتحل وركب ناقته،فقال:يا رسول الله ﷺ،إنما كنا نخوض ونلعب ! فقال:(أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون)،إلى قوله:(مجرمين)،وإن رجليه لتنسفان الحجارة،وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ،وهو متعلق بنسْعَة رسول الله ﷺ.[4804].

وقال ابن إسحاق:وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت،أخو بني أمية بن زيد،من بني عمرو بن عوف،ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له:مُخَشّن بن حُمَيّر يشيرون إلى رسول الله ﷺوهو منطلق إلى تبوك،فقال بعضهم لبعض:أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مُقَرّنين في الحبال،إرجافا وترهيبا للمؤمنين،فقال مُخَشّن بن حُمَيّر:والله لوددتُ أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة،وإنا نَنْفَلتُ أن يترل فينا قرآن لمقالتكم هذه.وقال رسول الله ﷺ-فيما بلغني -لعمار بن ياسر:"أدرك القوم،فإنهم قد احترقوا،فسلهم عما قالوا،فإن أنكروا فقل:بلى،قلتم كذا وكذا".فانطلق إليهم عمار،فقال ذلك لهم،فأتوا رسول الله ﷺيعتذرون إليه،فقال وديعة بن ثابت،ورسول الله ﷺواقف على راحلته،فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها:يا رسول الله،إنما كنا نخوض ونلعب،[فأنزل الله،عز وجل:{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ }] فقال مُخَشّن بن حُمّير:يا رسول الله،قعد بي اسمي واسم أبي.فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُخَشّن بن حُمّير،فتسمى عبد الرحمن،وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه،فقتل يوم اليمامة،فلم يوجد له أثر "[4805].

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ " قَالَ:بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي غَزْوَتِهِ إِلَى تَبُوكَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ،فَقَالُوا:أَيَرْجُو هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَفْتَتِحَ قُصُورَ الشَّامِ وَحُصُونَهَا ؟ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ !،فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"احْتَبِسُوا عَلَى الرَّكْبِ فَأَتَاهُمْ،فَقَالَ:قُلْتُمْ كَذَا

[4804] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [14 /335](16916) حسن لغيره

[4805] - تفسير ابن كثير - دار طيبة [4 /171] وزاد المعاد [3 /466]

قُلْتُمْ كَذَا"قَالُوا:يَا نَبِيَّ اللَّهِ " إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا تَسْمَعُونَ "[٤٨٠٦]..

وعَنْ سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:"كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺفِي مَسِيرٍ وَأُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَسِيرُونَ أَمَامَهُ،فَقَالُوا:إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ هَذَا أُرَاهُ،قَالَ:مُحَمَّدٌ حَقًّا،نَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ،يَعْنُونَ النَّبِيَّ ﷺفَأَعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺالَّذِي قَالُوا،فَقَالَ:" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ " فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:مَا تَقُولُونَ ؟"قَالُوا:مَا قُلْنَا شَيْئًا " إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ "[٤٨٠٧]

إنما كنا نخوض ونلعب..كأن هذه المسائل الكبرى التي يتصدون لها،وهي ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة..كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب.«قل:أباللّه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

لذلك،لعظم الجريمة،يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر،وكفروا بعد إيمانهم الذي أظهروه،وينذرهم

بالعذاب،الذي إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح،فإنه لن يصرف عن بعضهم الذي ظل على نفاقه واستهزائه بآيات اللّه ورسوله،وبعقيدته ودينه:«بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ».

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد في استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم،يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة،وعرض الصفات الرئيسية التي تميزهم عن المؤمنين الصادقين،وتحديد العذاب الذي ينتظرهم أجمعين:« الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ،يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ،وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ.نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ.إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ.وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ،وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ،وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ».

[٤٨٠٦] - تفسير ابن أبي حاتم [٧ /٣١٤](١٠٥٥٤) صحيح مرسل

[٤٨٠٧] - تفسير ابن أبي حاتم [٧ /٣١٥] (١٠٥٥٥) صحيح مرسل

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة،وطبيعة واحدة.المنافقون في كل زمان وفي كل مكان.تختلف أفعالهم وأقوالهم،ولكنها ترجع إلى طبع واحد،وتنبع من معين واحد.سوء الطوية ولؤم السريرة،والغمز والدس،والضعف عن المواجهة،والجبن عن المصارحة.تلك سماتهم الأصيلة.أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف،والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس.وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما،ويفعلون ذلك دسا وهمسا،وغمزا ولمزا،لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون.إنهم «نسوا اللّه» فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة،ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويداروهم «فنسيهم» اللّه فلا وزن لهم ولا اعتبار.وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس،وإنهم لكذلك في الآخرة عند اللّه.وما يحسب الناس حسابا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء،الذين يجهرون بآرائهم،ويقفون خلف عقائدهم،ويواجهون الدنيا بأفكارهم،ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار.

أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس،فلا يخشون في الحق لومة لائم،وأولئك يذكرهم اللّه فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم.

«إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ»..فهم خارجون عن الإيمان،منحرفون عن الطريق،وقد وعدهم اللّه مصيرا كمصير الكفار:«وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها،هِيَ حَسْبُهُمْ».وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم.

«وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ»..فهم مطرودون من رحمته..«وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ»..[٤٨٠٨]

الإلقاء بالنفس على التهلكة :

قال تعالى:{ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:١٩٥]

بذل الأنْصار أمْوالهمْ في سبيل الله،ونصْرة دينه،وأووا المهاجرين وساعدوهمْ،فلمّا أعزّ الله الإسْلام،وكثر ناصروه،قال بعْض الأنْصار لبعْضٍ:لوْ أنّهمْ أقْبلوا على أمْوالهمْ

[٤٨٠٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٢٨٥)

فأصْلحوها.فأنْزل الله تعالى هـذه الآيـة.وفيهـا يبـيّن الله لهـمْ أنّ الإقامـة علـى الأمْوال،وإصْلاحها،وترْك الغزْو والجهاد والإنْفاق في سبيل الله...فيه التّهْلكة.فعـادوا إلى الجهاد،وإلى إنْفاق أمْوالهمْ في سبيل الله،وإعْلاء كلمته،وفي وجوه الطّاعـات.وأخْـبر الله المؤْمنين بأنّ ترْك الجهاد،وترْك الإنْفاق فيه هلاكٌ ودمارٌ لمنْ لزمـه واعْتاده،فـإذا بخـل المؤْمنون،وقعدوا عن الجهاد ركبهمْ أعْداؤهمْ وأذلّوهمْ،فكأنّهمْ إنّما ألْقـوا بأيْـديهمْ إلى التّهْلكة.ثمّ أمر الله المسْلمين بأنْ يحْسنوا كلّ أعْمالهمْ،وأنْ يجوّدوها،ويـدْخل في ذلـك التّطوع بالإنْفاق في سبيل الله لنشْر الدّعْوة.[4809]

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ:غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْـطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى الْجَمَاعَـةِ عَبْـدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَـى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّـوبَ:" إِنَّمَـا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا:هَلُمَّ نُقِيمُ فِـي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَـى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "،قَالَ أَبُو عِمْرَانَ:«فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ حَتَّـى دُفِـنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ»[4810]

وقوله تعالى:«وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِـنُوا إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».دعوة إلى البذل فى وجوه الحق والخير،وأولى هذه الوجوه ما كـان فى الجهاد فى سبيل الله،فهذا باب أجزل الله فيه الثواب لأهله،وخصهم بالمزيد مـن فضلـه ورضوانه،ولهذا اقتضت حكمة الله سبحانه أن يشـارك المجتمـع الإسـلامى كلـه فى الجهاد،كل بحسب جهده وقدرته،وذلك حتى لا يحرم أحد منه هذا الخير الكثير،بالقليـل من الجهد..

[4809] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

[4810] - سنن أبي داود (٣/ ١٢)(٢٥١٢) صحيح

فمن جهز غازيا فقد غزا،ومن أعان فى إعداد أدوات الحرب،ومئونة الجيش فقد غزا،ومن قام على خدمة من خلّف المجاهدون وراءهم من أهل وولد،فهو فى المجاهدين..وهكـــذا كل عمل يقوّى من جبهة المجاهدين هو من الجهاد المبرور المقبول عند الله.

هذا،وقد يعمل المجاهد فى أكثر من ميدان،فيجهز المجاهدين بما له،وينفق فى كل ما تحتاج إليه الحرب من سلاح ومتاع،ثم يكون هو مع المجاهدين فى ميدان القتال،وإنه على قـــدر العمل يكون الثواب.

وفى قوله تعالى:«وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» تنبيه وتحذير من هذا الشعور الحماسى الذي قد يغلب على المجاهد وهو فى ميدان المعركة،فيتحدى الموت الذي يتخطف النفوس من حوله،فيندفع متهورا يلقى الموت فى غير مبالاة.والإسلام حريص على أهلـــه ضـــنين بهم،فلا يبيع حياتهم إلا بالثمن الكريم الغالي،ولا يقتضيها هذا البيـــع إلا حيـــث تجـــب التضحية والفداء فى سبيل الله،ولا سبيل آخر غير هذا السبيل تقدم فيه النفوس قربانـــا لله وفى سبيل الله.وعلى هذا فإن واجبا على المسلم إذ يشرى نفسه ابتغاء مرضـــاة الله،وإذ يدفع بها فى مزدحم المنايا،أن يتقاضى الثمن المجزى لها،وأن يأخذ لها حقهـــا الكامـــل فى القتال،بالنكاية فى العدو،فإن قتل بعدها فقد كتب بدمه الطهور حرفا من حروف النصر للجبهة المقاتل فيها،وللجماعة المحارب معها.وفى قوله تعالى:«وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّـــهَ يُحِـــبُّ الْمُحْسِنِينَ» دعوة إلى الإحسان المطلق،الإحسان فى كل أمـــر يقـــوم عليـــه الإنســـان ويؤديه،لله أو لنفسه أو للناس..وعن هذه الدعوة إلى الإحسان المطلق تتجه دعوة خاصة إلى الإحسان فى مواطن القتال،فيقاتل المسلم على بصيرة،ولا يكن من همّه الأول أن يقتل ويستشهد فى سبيل الله،بل أن يكون مقصده النيل من العدو،والنكاية به،إذ يقتل فرسانه وشجعانه،فذلك هو المطلوب أولا،فإن قتل وهو يسعى لتحقيق هذه الغاية لم يكن مجـــرد شهيد،بل كان بطلا يحمل شهادة أعداد من الشهداء[٤٨١١]

يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله،وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله،وهـــي كل طرق الخير،من صدقة على مسكين،أو قريب،أو إنفاق على من تجب مؤنته.

[٤٨١١] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢١٧)

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله،فإن النفقة فيه جهاد بالمال،وهو فرض كالجهاد بالبدن،وفيها من المصالح العظيمة،الإعانة على تقوية المسلمين،وعلى توهية الشرك وأهله،وعلى إقامة دين الله وإعزازه،فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة،فالنفقة له كالروح،لا يمكن وجوده بدونها،وفي ترك الإنفاق في سبيل الله،إبطال للجهاد،وتسليط للأعداء،وشدة تكالبهم،فيكون قوله تعالى: {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} كالتعليل لذلك،والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين:ترك ما أمر به العبد،إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح،وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح،فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة،فمن ذلك،ترك الجهاد في سبيل الله،أو النفقة فيه،الموجب لتسلط الأعداء،ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف،أو محل مسبعة أو حيات،أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا،أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك،فهذا ونحوه،ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله،واليأس من التوبة،ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض،التي في تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعا من أنواع الإحسان،أمر بالإحسان عموما فقال: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان،لأنه لم يقيده بشيء دون شيء،فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاه،بالشفاعات ونحو ذلك،ويدخل في ذلك،الإحسان بالأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر،وتعليم العلم النافع،ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس،من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم،وعيادة مرضاهم،وتشييع جنائزهم،وإرشاد ضالهم،وإعانة من يعمل عملا والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك،مما هو من الإحسان الذي أمر الله به،ويدخل في الإحسان أيضا،الإحسان في عبادة الله تعالى،وهو كما ذكر النبي ﷺ:"أن تعبد الله كأنك تراه،فإن لم تكن تراه،فإنه يراك "

فمن اتصف بهذه الصفات،كان من الذين قال الله فيهم: {لِلَّـــذِينَ أَحْسَـــنُوا الْحُسْـــنَى وَزِيَادَةٌ} وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.[٤٨١٢]

وفي الظلال:

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال.ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال،ومركب القتال،وزاد القتال.. لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند.إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال.

وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم.إنها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمي نفسها من أهلها أو من أعدائها،إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها! ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد،والذود عن منهج اللّه وراية العقيدة، لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم،ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب.وكانوا يجيئون إلى النبي - ﷺ- يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد،الذي لا يبلغ على الأقدام.فإذا لم يجد ما يحملهم عليه «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ».. كما حكى عنهم القرآن الكريم.

من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق في سبيل اللّه.الإنفاق لتجهيز الغزاة.وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق في معظم المواضع..

وهنا يعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمون:«وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ،وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[٤٨١٣]..

[٤٨١٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٠)

[٤٨١٣] - عن أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ،مَوْلًى لِكِنْدَةَ قَالَ:كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ،فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا،مِنَ الرُّومِ،وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ،أَوْ أَكْثَرُ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ،حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ،فَصَاحَ بِهِ النَّاسُ،وَقَالُوا:سُبْحَانَ اللهِ تُلْقِي بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ،فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ،عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ،إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ،فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الإِسْلاَمَ،وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ،قُلْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا،مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ،وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ،فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا،فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ،يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ،وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة]،فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ فِي أَمْوَالِنَا،وَإِصْلاَحَهَا،وَتَرْكَنَا

والإمساك عن الإنفاق في سبيل اللّه تهلكة للنفس بالشح،وتهلكه للجماعة بالعجز والضعف.وبخاصة في نظام يقوم على التطوع،كما كان يقوم الإسلام.

ثم يرتقي بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان:«وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»..

ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام.وهي كما قال رسول اللّه – ﷺ:« أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[4814].

وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة،فإنها تفعل الطاعات كلها،وتنتهي عن المعاصي كلها،وتراقب اللّه في الصغيرة والكبيرة،وفي السر والعلن على السواء.وهذا هو التعقيب الذي ينهي آيات القتال والإنفاق،فيكل النفس في أمر الجهاد إلى الإحسان.أعلى مراتب الإيمان..[4815]

إيثار الفاني على الباقي:

قال تعالى:{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة:٢٤]

فى هذه الآية وضع للمسلمين فى مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم،واختيار ما يحبون وما يؤثرون..

الْغَزْوَ،قَالَ:وَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا،فِي سَبِيلِ اللهِ،حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ.صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١١ /٩](٤٧١١) صحيح

وعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ أَبِي جَبِيرَةَ،قَالَ:كَانَتْ لَهُمْ أَلْقَابٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺرَجُلاً بِلَقَبِهِ،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّهُ يَكْرَهُهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ} [الحجرات]،قَالَ:وَكَانَتِ الأَنْصَارُ يَتَصَدَّقُونَ وَيُعْطُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ،حَتَّى أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ،فَأَمْسَكُوا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة].صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /١٧](٥٧٠٩) صحيح

[4814] - صحيح البخارى- المكنز - (٥٠) وصحيح مسلم- المكنز - (١٠٢)

[4815] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٧)

فالإيمان فى جانب..والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار..فى جانب آخر..

وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله،وبين أهله،وماله ودياره. والاختيار هنا يمكن أن يجرّ به الإنسان بينه وبين نفسه،حين يورد على مشاعره هذين الطرفين المتنازعين فى كيانه،وأن يستعرضهما واحدا بعد الآخر،وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما،فأيهما يؤثر أن يمسك به،ويعيش معه؟

فإذا آثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن،كان على الصفة التي يتحقق بها الإيمان الذي يقبله الله منه،ويرضاه له..وإن كان العكس،وآثر الولد والأهل والمال والموطن،على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين،والجهاد فى سبيل الله،فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام،منه إلى الجبهة الموالية له..«والمرء مع من أحبّ».

وفى وصف الأموال،بأنها أموال مقترفة إشارة إلى أن المال غاد ورائح..وأنه أشبه بالمنكر،إذ كان أكثر ما يجىء المال من حصيلة الصراع بين الناس والناس.

وفى قوله تعالى:«وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها» إشارة إلى ما قد يصيب السّوق التجارية من كساد،حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشركين.

وفى قوله تعالى:«فتربصوا» تهديد ووعيد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية،على الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله..والتربص:الانتظار..ووراء هذا الانتظار ما يسوء أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نصر الله للمؤمنين،وما فتح الله عليهم به من مغانم فى الدنيا،ورضوان فى الآخرة،وجنّات لهم فيها نعيم مقيم.

ويلاحظ أن قوله تعالى:«قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ..الآية» قد انتظم كل ما تتعلق به النفوس،وتحرص عليه..وليس وراءه من أمور الدنيا ما يطلبه الإنسان،ويعلق به..

كما يلاحظ أيضا أن هذه الأمور قد جاءت فى النظم القرآنى مرتبة الدرجات..الأهمّ،فالمهم،فما هو دونه..وهذا ما يجعل المؤمن أمام تجربة ذات شعب،وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون بعض،أو يؤثرها جميعا عليه،أو يؤثر إيمانه عليها جميعا..كما أن هذه التجربة تنتظم المسلمين جميعا،لا يكاد أحد منهم يفلت من الدخول

فيها،فمن لم يكن له أب كان له ولد..ومن لم يكن له ولد،ولا والد،كان له زوج..ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له مال،ومن لم يكن له مال،ولا تجارة يخشى كسادها،كان له موطن يحنّ إليه،ودار يرنو ببصره إليها..وهكذا،فى كلمات معدودة،تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامى،وتتقلب القلوب،ويدور الصراع فى كيان كل مسلم،ثم تنجلى المعركة بعد صراع طويل أو قصير،عن سلام وعافية،أو شكّ وتردّد..ثم يجىء قوله تعالى:«وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» تعقيبا على هذا الصّراع،ممسكا بهؤلاء الشاكّين المترددين،لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد،فإمّا إلى اليمين،وإما إلى اليسار..ولله سبحانه وتعالى فى هؤلاء المترددين الشاكّين،الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذي وقفوه- لله فيهم أعداء لم يرد الله أن يهديهم،وأن يمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان..فليحذر كلّ من هؤلاء أن يكون فيمن خذلهم الله وجعلهم من أعدائه..«وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» الذين دخلوا فى دين الله،ثم مال بهم الطريق إلى ما لا يرضى الله![4816]

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله،وعلى تقديمها على محبة كل شيء،وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد،على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله،وجهاد في سبيله.وعلامة ذلك،أنه إذا عرض عليه أمران،أحدهما يحبه الله ورسوله،وليس لنفسه فيه هوى،والآخر تحبه نفسه وتشتهيه،ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله،أو ينقصه،فإنه إن قدم ما تهواه نفسه،على ما يحبه الله،دل ذلك على أنه ظالم،تارك لما يجب عليه.[4817]

وفي الظلال:

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا فإما تجرد لها،وإما انسلاخ منها.وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة..كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها

[4816] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢٣)

[4817] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٢)

القلب،ويخلص لها الحب،وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة،وهي المحركة والدافعة.فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة،على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض.فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة اللّه والطيبات من الرزق – في غير سرف ولا مخيلة – بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب،باعتباره لونا من ألوان الشكر للّه الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده،وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ – إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ – »..

وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب،إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة.وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في اللّه.فلله الولاية الأولى،وفيها ترتبط البشرية جميعا،فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك،والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين.فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ،بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى:الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها)..وفي الكفة الأخرى:حب اللّه ورسوله وحب الجهاد في سبيله.الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته.الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب،وما يتبعه من تضييق وحرمان،وما يتبعه من ألم وتضحية،وما يتبعه من جراح واستشهاد..وهو – بعد هذا كله – «الجهاد في سبيل اللّه» مجردا من الصيت والذكر والظهور.مجردا من المباهاة،والفخر والخيلاء.مجردا من إحساس

أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه.وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب..«قُلْ:إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها،وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها،وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها،أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ..فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...»

ألا إنها لشاقة.ألا وإنها لكبيرة.ولكنها هي ذاك..وإلا:«فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين:«وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ»..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده،إنما تطالب به الجماعة المسلمة،والدولة المسلمة.فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في اللّه ومقتضيات الجهاد في سبيل اللّه.

وما يكلف اللّه الفئة المؤمنة هذا التكليف،إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فاللّه لا يكلف نفسا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة اللّه بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها..لذة الشعور بالاتصال باللّه،ولذة الرجاء في رضوان اللّه،ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط،والخلاص من ثقلة اللحم والدم،والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء.فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.[٤٨١٨]

الخوف من العدو:

قال تعالى:{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) } [آل عمران]

[٤٨١٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢١٩١)

خافتْ قريشٌ أنْ يجْمع رسول الله ﷺ أهْل المدينة ممّنْ لمْ يشْتركوا في المعْركة،ويخْرج وراءهمْ،فأرْسلوا إليه بعْض ناقلي الأخْبار ليهوّلوا عليه،ليكفّ عن اللّحاق بهمْ،وقال ناقلوا الأخْبار للْمسْلمين:إنّ مشْركي قريْشٍ (النّاس) قدْ حشدوا لكمْ،وجمعوا قواهمْ،فاحْذروهمْ،واخْشوْهمْ،فلمْ يزدْ هذا القوْل هؤلاء المؤْمنين – الذين اسْتجابوا للْرسول منْ بعْد ما أصابهم القرْح وخرجوا مع رسول الله ﷺ ملبّين دعْوته،راغبين في نيْل رضْوان ربّهمْ ونصْره – إلاّ إيماناً بربهمْ،وثقةً بوعْده ونصْره وأجْره،وردّوا على مخاطبيهمْ قائلين:إنّهمْ يتوكّلون على الله،وهو حسْبهمْ.

فلمّا توكّلوا على الله كفاهم الله ما أهمّهمْ وأغمّهمْ،وردّ عنْهمْ بأس النّاس (الكافرين)،فرجعوا بنعْمةٍ من الله لمْ يمْسسْهمْ سوْءٌ،وقدْ فازوا برضْوان الله،وعظيم فضْله،والله واسع الفضْل

(خرج المسْلمون مع الرّسول إلى موْقعٍ يعْرف بحمْراء الأسد،وأرْسل إلى المشْركين رسلاً يحذّرونهمْ،فخافتْ قريْشٌ وتابعتْ سيْرها نحْو مكّة).وكان أبو سفْيان قدْ واعد رسول الله ﷺ بدْراً من العام القابل،فخرج رسول الله ﷺ بالْمسْلمين إلى بدْرٍ في الموْعد المحدّد،وتخلّفتْ قريْشٌ،فاشْترى رسول الله عيْراً مرّتْ بهمْ في الموْسم،ثمّ باعها فربح،ووزّع الرّبْح على أصْحابه،فانْقلبوا منْ غزْوة بدْرٍ الثّانية لمْ يمْسسْهمْ سوءٌ،ونالوا رضْوان الله،وحصلوا على فضْله في الرّبْح.والله عظيم الفضْل على عباده.

يبيّن الله تعالى للْمؤْمنين،أنّ الشّيْطان هو الذي يخوّفكمْ منْ أوْليائه المشْركين،ويوهمكمْ أنّهمْ ذوو بأْسٍ وقوّة،وهو الذي قال لكمْ إنّ النّاس قدْ جمعوا لكمْ فاخْشوْهمْ،فلا تخافوا أوْلياء الشّيْطان،وتوكّلوا على الله،والْجؤوا إليه إنْ كنْتمْ مؤْمنين حقّاً،فإنّه كافيكمْ إيّاهمْ،وناصركمْ عليْهمْ.وخافوه هو فهو القادر على النّصْر وعلى الخذْلان،وعلى الضّرّ والنّفْع [٤٨١٩]

[٤٨١٩] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٦، بترقيم الشاملة آليا)

هو بيان لهؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح،ولموقفهم يومئذ من عدوهم..فقد ترامت إليهم الأنباء التي أرجف بها المرجفون فيهم،من المشركين والمنافقين،ليزيدوا فى آلامهم،وليدخلوا اليأس عليهم.

ولكن ما إن دعاهم الرسول إلى ملاقاة العدو،حتى خفّوا مسرعين،متحاملين على أنفسهم،غير ملتفين إلى جراحهم التي تتفجر دما..

وقيل إن المراد بالذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم،هم المؤمنون الذين استجابوا للنبى،وخرجوا معه للقاء قريش فى بدر الثانية.

وذلك أن أبا سفيان كان قد أنذر النبىّ والمسلمين بعد معركة أحد بأنه سيلقاهم فى مثل هذا اليوم،فى بدر..ذلك أنه فى نشوة هذا النصر الذي ناله كان يرى أن أحدا لم تثأر الثأر الذي ينشده،لما أصاب قريشا فى بدر،فأراد أن يعيد معركة بدر من جديد،ليطلع عليها فى قريش بصورة غير الصورة التي وجدتهم عليها يومئذ.

وكان أبو سفيان حين جاء الموعد الذي واعد النبىّ،على غير استعداد لملاقاة النبي والمسلمين فى بدر،إذ كان العام عام جدب..فأظهر أنه يستعدّ للحرب،ويجمع لها،وبعث إلى النبىّ من يلقى إليه- كذبا- أن قريشا تجمع له أعدادا لا قبل له بها..

أما النبىّ ﷺ،فقد دعا أصحابه إليه،ونديهم للقاء القوم على الموعد الذي تواعدوا له..فاستجاب له أصحابه،وتقاعس المنافقون،وأرجفوا بالناس،وأذاعوا الفزع فى المسلمين،وقالوا فيما قالوا لهم:إن قريشا قد فعلت بكم فى أحد ما فعلت وأنتم فى كنف دوركم وبين أهليكم،فكيف يكون حالكم معها وأنتم تلقونها فى بدر؟ وأين المفرّ إذا انتصرت عليكم؟..

فترل قوله تعالى:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»

فسكنت لذلك أفئدة المؤمنين واطمأنت،وسار النبي بأصحابه حتى نزل بدرا..وخرج أبو سفيان فيمن اجتمع له،فلما علم أن النبىّ ينتظره بالمسلمين فى بدر،قفل راجعا..

وانتظر النبيّ هناك بالمسلمين أياما،حتى انفضّت السوق التي كانت تقام هناك كل عام،وباع المسلمون واشتروا،وعادوا سالمين غانمين،وفى هذا يقول الله تعالى:«فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ».

وفى قوله:«الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» نجد فى التعبير عن المرجفين بهذا القول،والمهوّلين له،بكلمة «الناس» تحقيرا لهم،وبألّا صفة لهم فى الناس إلا أنهم على صورة الآدميين،وأنهم والمشركين من قريش على مستوى واحد من الكفر والشرك،إذ عبّر عنهم القرآن بلفظ «الناس» أيضا..«إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ»..

وفى قوله تعالى:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ» إشارة عامة تشمل هؤلاء الناس،الذين أذاعوا هذا القول وأرجفوا به،فقالوا:«إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» كما تشمل المشركين من قريش،وهم:الناس الذين جمعوا لاستئصال المسلمين.فهؤلاء وهؤلاء حزب واحد..هو حزب الشيطان،أو هم الشيطان ذاته،فى إضلاله وإغوائه:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ».والضمير فى «أوليائه» يعود إلى الشيطان،وأولياؤه هم المنافقون،الذين يتولاهم الشيطان،ويتخذ منهم أعوانا على الشر والفساد..وهو الذي خوفهم الجهاد فى سبيل الله،وأراهم الموت فى صورة بشعة مخيفة،فانعزلوا عن المسلمين،ونكصوا على أعقابهم..ويجوز أن يكون المفعول به التخويف هم جماعة المؤمنين،ويكون حينئذ لمفعول به الثاني محذوفا،وتقديره:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ»..بمعنى أن هذه الأصوات المتنادية بأن الناس قد جمعوا لكم،هى من فعل الشيطان على ألسنة المنافقين وغيرهم،وهو يريد بهذا أن يخوّفكم أولياءه الكفار والمشركين،ولهذا جاء قوله تعالى:«فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ردّا على كيد الشيطان،وإفسادا لتدبيره السيء..ولهذا لم يقع هذا القول من نفوس المسلمين موقعا،بل تلقوه بالعزم والتصميم،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«فَزادَهُمْ إِيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».[٤٨٢٠].

لما رجع النبي ﷺ من "أحد" إلى المدينة،وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة،ندب أصحابه إلى الخروج،فخرجوا -على ما بهم من الجراح-

---

[٤٨٢٠] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٤٤)

استجابة لله ولرسوله،وطاعة لله ولرسوله،فوصلوا إلى "حمراء الأسد" وجاءهم من جاءهم وقال لهم:{إن الناس قد جمعوا لكم} وهموا باستئصالكم،تخويفا لهم وترهيبا،فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا بالله واتكالا عليه.{وقالوا حسبنا الله} أي:كافينا كل ما أهمنا {ونعم الوكيل} المفوض إليه تدبير عباده،والقائم بمصالحهم،وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم،وندم من تخلف منهم،فألقى الله الرعب في قلوبهم،واستمروا راجعين إلى مكة،ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم،ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة،فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم،وتقواهم عن معصيته،لهم أجر عظيم،وهذا فضل الله عليهم.

ثم قال تعالى:{إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه} أي:إن ترهيب من رهب من المشركين،وقال:إنهم جمعوا لكم،داع من دعاة الشيطان،يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم،أو ضعف.{فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} أي:فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان،فإن نواصيهم بيد الله،لا يتصرفون إلا بقدره،بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده،وأنه من لوازم الإيمان،فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله،والخوف المحمود:ما حجز العبد عن محارم الله.[٤٨٢١]

وفي الظلال:

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة.وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة..

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة:

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَحَدّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ،عَنْ أَبِي السّائِبِ مَوْلَى عَائِشَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ أَنّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺمِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ،كَانَ شَهِدَ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللّهِ قَالَ شَهِدْتُ أُحُدًا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺأَنَا وَأَخٌ لِي،فَرَجَعْنَا جَرِيحَيْنِ فَلَمّا أَذّنَ مُؤَذّنُ رَسُولِ اللّهِ ﷺبِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوّ قُلْت لِأَخِي أَوْ قَالَ لِي:أَتَفُوتُنَا غَزْوَةٌ

[٤٨٢١] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٧)

مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ؟ وَاَللَّهِ مَا لَنَا مِنْ دَابّةٍ نَرْكَبُهَا،وَمَا مِنّا إلّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺوَكُنْت أَيْسَرَ جُرْحًا،فَكَانَ إذَا غُلِبَ حَمَلْته عُقْبَةً وَمَشَى عُقْبَةً حَتّى انْتَهَيْنَا إلَى مَا انْتَهَى إلَيْهِ الْمُسْلِمُون.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللّه ﷺحَتّى انْتَهَى إلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ،فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:فَأَقَامَ بِهَا الِاثْنَيْنِ وَالثّلَاثَاءَ وَالْأَرْبِعَاءَ ثُمّ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ.

قَالَ وَقَدْ مَرّ بِهِ كَمَا حَدّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ،مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيّ،وَكَانَتْ خُزَاعَةُ،مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ عَيْبَةَ نُصْحٍ لِرَسُولِ اللّه ﷺبِتِهَامَةَ صَفْقَتُهُمْ مَعَهُ لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِهَا،وَمَعْبَدٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ فَقَالَ يَا مُحَمّدُ أَمَا وَاَللّهِ لَقَدْ عَزّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَك،وَلَوَدِدْنَا أَنّ اللّهَ عَافَاك فِيهِمْ ثُمّ خَرَجَ وَرَسُولُ اللّه ﷺبِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حَتّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ بِالرّوْحَاءِ وَقَدْ أَجْمَعُوا الرّجْعَةَ إلَى رَسُولِ اللّه ﷺوَأَصْحَابِهِ وَقَالُوا:أَصَبْنَا حَدّ أَصْحَابِهِ وَأَشْرَافَهُمْ وَقَادَتَهُمْ ثُمّ نَرْجِعُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ لَنَكُرّنّ عَلَى بَقِيّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنّ مِنْهُمْ.فَلَمّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ مَعْبَدًا،قَالَ مَا وَرَاءَك يَا مَعْبَدُ ؟ قَالَ مُحَمّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطّ،يَتَحَرّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرّقًا،قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا،فِيهِمْ مِنْ الْحَنَقِ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطّ ؛قَالَ وَيْحك مَا تَقُولُ ؟ قَالَ وَاَللّه مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتّى أَرَى نَوَاصِيَ الْخَيْلِ قَالَ فَوَاَللّه لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَهُمْ قَالَ فَإِنّي أَنْهَاك عَنْ ذَلِكَ قَالَ وَاَللّه لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ عَلَى أَنْ قُلْتُ فِيهِمْ أَبْيَاتًا مِنْ شِعْرٍ قَالَ وَمَا قُلْت ؟ قَالَ قُلْت:[ص ١٠٣]

كَادَتْ تُهَدّ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي...إذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدِى بِأُسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةٍ...عِنْدَ اللّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدْوًا أَظُنّ الْأَرْضَ مَائِلَةً...لَمّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْت:وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ...إذَا تَغَطمطت الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ
إنّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةً...لِكُلّ ذِي إرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ

مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشٍ تَنَابِلَةٍ...وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

فَثَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ.

وَمَرّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ،فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا:نُرِيدُ الْمَدِينَةَ ؟ قَالَ وَلِمَ ؟ قَالُوا:نُرِيدُ الْمِيرَةَ قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلّغُونَ عَنّي مُحَمّدًا رِسَالَةً أُرْسِلُكُمْ بِهَا إلَيْهِ وَأُحَمّلُ لَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَبِيبًا بِعُكَاظِ إذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟ قَالُوا نَعَمْ ؟ قَالَ فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنّا قَدْ أَجْمَعْنَا السّيْرَ إلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَهُمْ فَمَرّ الرّكْبُ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺوَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ فَأَخْبَرُوهُ بِالّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:حَدّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ أَنّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ لَمّا انْصَرَفَ يَوْمَ أُحُدٍ،أَرَادَ الرّجُوعَ إلَى الْمَدِينَةِ،لِيَسْتَأْصِلَ بَقِيّةَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺفَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ بْنِ خَلَفٍ:لَا تَفْعَلُوا،فَإِنّ الْقَوْمَ قَدْ حَرِبُوا،وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرُ الّذِي كَانَ فَارْجِعُوا،فَرَجَعُوا.فَقَالَ النّبِيّ ﷺوَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنّهُمْ هَمّوا بِالرّجْعَةِ وَاَلّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سُوّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذّاهِبِ". [٤٨٢٢]

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة،في تلك النفوس الكبيرة.

النفوس التي لا تعرف إلا اللّه وكيلا،وترضى به وحده وتكتفي،وتزداد إيمانا به في ساعة الشدة،وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس:«حَسْبُنَا اللَّهُ،وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد اللّه للمتوكلين عليه،المكتفين به،المتجردين له:«فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ».فأصابوا النجاة – لم يمسسهم سوء – ونالوا رضوان اللّه.وعادوا بالنجاة والرضى.«بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ»..

فهنا يردهم إلى السبب الأولى في العطاء:نعمة اللّه وفضله على من يشاء.ومع التنويه بموقفهم الرائع،فإنه يرد الأمر إلى نعمة اللّه وفضله،لأن هذا هو الأصل الكبير،الذي يرجع

[٤٨٢٢] – سيرة ابن هشام [٢ /١٠١] وهو معضل

إليه كل فضل،وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيـــل! «وَاللَّـــهُ ذُو فَضْـــلٍ عَظِيمٍ»..

بهذا يسجل اللّه لهم في كتابه الخالد،وفي كلامه الذي تتجاوب بـــه جوانـــب الكـــون كله،صورتهم هذه،وموقفهم هذا،وهي صورة رفيعة،وهو موقف كريم.

وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف،فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة.نضجت.وتناسقت.واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها.وانجلى الغبش عن تصورها.وأخذت الأمر جدا كله.وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة،التي حـــدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف.فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بـــين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس..والفارق هائل والمسافة بعيدة..لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا.أطار الغبش،وأيقظ القلوب،وثبـــت الأقدام،وملأ النفوس بالعزم والتصميم..نعم.وكان فضل اللّه عظيما في الابتلاء المرير..

وأخيرا يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفزع والجزع..إنه الشيطان يحـــاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب،وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة..ومن ثم ينبغـــي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان،وأن يبطلوا محاولته.فلا يخافوا أوليـــاءه هـــؤلاء،ولا يخشوهم.بل يخافوا اللّه وحده.فهو وحـــده القـــوي القـــاهر القادر،الـــذي ينبغـــي أن يخاف:«إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ.فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه،ويلبسهم لباس القوة والقـــدرة،ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول،وأنهم يملكون النفع والضر..ذلك ليقضـــي بهـــم لباناتـــه وأغراضه،وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد،وليخضع لهم الرقـــاب ويطـــوع لهـــم القلوب،فلا يرتفع في وجوههم صـــوت بالإنكـــار ولا يفكـــر أحـــد في الانتقـــاض عليهم،ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل،وأن يتضخم الشر،وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا،لا تقف في وجهه معارضة،ولا يصمد له مـــدافع،ولا يغلبـــه مـــن المعارضين غالب..الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا.فتحت ستار الخوف

والرهبة،وفي ظل الإرهاب والبطش،يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه! يقلبون المعروف منكرا،والمنكر معروفا،وينشرون الفساد والباطل والضلال،ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل،ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير..دون أن يجــرؤ أحــد على مناهضتهم والوقوف في وجههم،ومطاردهم وطردهم من مقام القيادة.بــل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له،وجلاء الحق الذي يطمسونه..

والشيطان ماكر خادع غادر،يختفي وراء أوليائه،وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته..ومن هنا يكشفه اللّه،ويوقفه عاريا لا يســتره ثــوب مــن كيــده ومكره.ويعرف المؤمنين الحقيقة:حقيقة مكره ووسوسته،ليكونوا منها على حــذر.فــلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم.فهم وهو أضعف من أن يخافهم مــؤمن يــركن إلى ربه،ويستند إلى قوته..إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملــك النفــع والضر.هي قوة اللّه.وهي القوة التي يخشاها المؤمنون باللّه،وهم حين يخشــونها وحــدها أقوى الأقوياء.فلا تقف لهم قوة في الأرض..لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان:«فَلا تَخافُوهُمْ.وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[٤٨٢٣]..

التواطؤ مع العدو:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْــضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّــذِينَ فِــي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُــوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)} [المائدة:٥١ - ٥٣]

ينْهى الله تعالى المؤْمنين عنْ موالاة اليهود والنّصارى،واتّخاذهمْ حلفاء لهمْ علــى أهْــل الإيمان بالله ورسوله،ويقول لهمْ إنّ منْ يتّخذهمْ نصراء وحلفاء وأوْليــاء مــنْ دون الله

[٤٨٢٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٣١)

ورسوله،فهو منْهمْ في التّحزّب على الله ورسوله والمــؤْمنين.وإنّ الله ورســوله بريئــان منْه.ومنْ يتولّى أعْداء الله فهو ظالمٌ،والله لا يهْديه إلى الخيْر.واليهود والنّصارى بعْضــهمْ أوْلياء بعْضٍ،ولمْ يكنْ للْمؤْمنين منْهمْ وليٌّ ولا نصيرٌ.

وإذْ كانتْ ولاية أهْل الكتاب لا يتْبعها إلاّ الظالمون فإنّك ترى الذين في قلوبهمْ شــكٌّ ونفاقٌ (مرضٌ) يبادرون إلى موالاتهمْ،وإلى موادّتهمْ في البــاطن والظّاهر،ويتــأوّلون في مودّتهمْ وفي موالاتهمْ،أنّهمْ يخْشون أنْ يقع أمْرٌ منْ ظفر الكافرين بالمسْلمين (تصيبنا دائرةٌ) فتكون لهمْ أيادٍ عنْد اليهود والنّصارى،فينْفعهمْ ذلك حينئذٍ.فعسى الله أنْ يــتمّ أمْــره بنصْر المسْلمين،ويحقق لهم الفتْح والغلبة،أوْ يتمّ أمْرٌ منْ عنْده كفرْض الجزْية على اليهــود والنّصارى،فيصْبح الذين والوْا اليهود والنّصارى من المنافقين نادمين على ما أســرّوا في أنْفسهمْ منْ موالاة هؤلاء تحسّباً لما لمْ يقعْ،ولمْ ينْفعْهمْ شيْئاً،ولا دفع عنْهمْ محْذوراً.

(هذه الآية والتي قبْلها نزلتا في عبادة بْن الصّامت،وعبْد الله بْن أبيّ بْــن ســلولٍ مــن الخزْرج،فقدْ كان لهما حلفاء من اليهود،فجاء عبادة إلى الرّسول ﷺ فقال:يا رســول الله لي موالٍ من اليهود كثير عددهمْ،وإني أبْرأ إلى الله ورسوله منْ ولاية يهودٍ،وأتــولّى الله ورسوله.وقال عبْد الله بْن أبيّ بْن سلولٍ:إنّي رجلٌ أخاف الدّوائر ولا أبْرأ منْ ولاية مواليّ).

لّما التجأ هؤلاء المنافقون إلى اليهود والنّصارى يوالونهمْ ويوادّونهمْ،افْتضح أمْرهمْ لعباد الله المؤْمنين،بعْد أنْ كانوا يتستّرون،لا يدْري أحدٌ كيْف حالهمْ،فتعجّب المؤْمنون منْهمْ،كيْف كانوا يظْهرون أنّهمْ من المؤْمنين،يعاضدونهمْ ويساعدونهمْ على أعْدائهم اليهود،فلمّا جدّ الجدّ أظْهروا ما كانوا يخْفون منْ موالاتهمْ وممالأتهمْ على المؤْمنين.ولّمــا اسْــتبان حــالهمْ للْمؤْمنين قالوا:لقدْ هلكتْ أعْمال هــؤلاء المنــافقين مــنْ صــلاةٍ وصــوْمٍ وزكــاةٍ وجهادٍ،وخسروا بذلك ما كانوا يرْجونه من الثّواب[٤٨٢٤].

وقوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ» هو للنــهى عــن موالاة اليهود والنصارى،وليس دعوة إلى عداوة أو قطيعة،وإنما هو نهى عــن مناصــرتهم

[٤٨٢٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٧٢١، بترقيم الشاملة آليا)

ومعاضدتهم،والوقوف إلى جانبهم،وهم على موقفهم من الإسلام ومحاربتهم له،فـذلك خيانة للمسلمين،وعدوان على الإسلام..إذ كيف يكونون هم حربا على الإسلام،ثم يكون فى المسلمين من هو على ولاء لهم،ومودة معهم؟

وقوله تعالى:«بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» أي أن اليهود أولياء لليهود،والنصارى أولياء للنصارى..وهذا أوّل ما فيه أن يجعل المسلمين أولياء للمسلمين،فلا يكون ولاء المسلم،ومناصرته ومناصحته،لغير المسلمين،فإذا لم يكن هذا الولاء،وتلك المناصحة من المسلم للمسلمين فلا أقلّ من أن يقف عند هذا الحدّ السلبي- وهو موقف آثم- فلا يتحول إلى جبهة معادية للإسلام وأهله،فيكون لها مساندا مناصحا..إن ذلك- كما قلنا- نفاق ظاهر،وكفر خفى! وقوله تعالى:«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» هو بيان للوصف الذي يكون عليه من يجعل ولاءه لغير المسلمين من أهل الكتاب المحادّين لله ورسوله،المحاربين للإسلام والمسلمين،وهو أنه من هؤلاء الظالمين،المعتدين على حق دينه،وحق أتباع دينه،بخذلانهما،ومناصرة أعدائهما..والظلم هنا شبيه بالظلم فى قوله تعالى:«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..لأن المسلم الذي يوالى أهل الكتاب،ويترك موالاة المؤمنين قد حكم بغير ما أنزل الله واتبع ما يرضى هواه،ويحقق نفعا ذاتيا له،على حساب دينه.

قوله سبحانه:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ»..«الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هم المنافقون،الذين ستروا نفاقهم بالدخول فى الإسلام،والانضواء تحت لواء المسلمين،ليتخذوا من الإسلام تجارة يتجرون بها فى سوق السحت والاختلاس..وهذا لا يكون إلا من قلب مريض،يستقبل كل ضلال،دون أن يغصّ به،أو يزورّ عنه..والمسارعة فيهم أي فى أهل الكتاب:الانغماس فيهم،ولهذا جاء اللفظ القرآنى بتعدية الفعل سارع بحرف الجرّ «فى»،بدلا من تعديته بحرف الجر «إلى» الذي يتعدى به هذا الفعل غالبا..كقوله تعالى:«وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (١٣٣) آل عمران.

وفى تعدية الفعل بحرف الجر «فى» ما يكشف عن أن هؤلاء المنافقين ينغمسون فى أهـــل الكتاب،ويدخلون فيهم دخولا كاملا،حيث يحتويهم ظرف واحد،إذ هم كيان واحـــد يألف بعضه بعضا.

وفى قوله تعالى:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ» تشهير بهؤلاء المنافقين،وفضح لهم،وأنهـــم وإن لبسوا كل أثواب التخفّى،لا يلبث أمرهم أن ينفضح وينكشف،وأنهم بمرأى مـــن الـــنبي والمؤمنين،ولهذا جاء الفعل «ترى» وكأنه يشير إليهم،ويحدّد موقفهم الذي هـــم فيـــه فى الجبهة الأخرى،جبهة أهل الكتاب..وهكذا المنافق دائما،إن لم يلتفت إليه أحد،دلّ هـــو الناس عليه،بكثرة التفاته إليهم وحذره منهم،وصدق المثل الذي يقول:«يكـــاد المريـــب يقول خذونى!» وقوله تعالى:«يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ» هو ترجمة لهذه التصوّرات المريضة،التي يعيش فيها المنافقون..فهم أبدا على خوف وقلق،لا يسكنون إلى أمـــر،ولا يقيمون على رأى،بل تراهم وأعينهم تدور هنا وهناك،يريدون أن يجمعوا بـــين الشـــيء ونقيضه،حتى إذا فاتهم هذا لم يفتهم ذاك..فهم مع المؤمنين،يخشون أن تكون الكرّة لأهل الكتاب..وهم مع أهل الكتاب يخشون أن تكون الدولة للمؤمنين..ولهذا فهم يلبســـون الإيمان ظاهرا،ثم يوادّون أهل الكتاب باطنا..وبهذا- كما تصور لهم نفوسهم المريضـــة- يحمون أنفسهم من أىّ أذى يصيبهم من أية جبهة غلبت،إذ سرعان مـــا يتحولـــون إلى الجبهة الأخرى التي كانوا قد احتفظوا بمكان لهم فيها..فهؤلاء الـــذين يـــوادّون غـــير المؤمنين،ويلقون بأنفسهم فى أهل الكتاب،ويوثّقون صلاتهم بهم،إنما يفعلون هذا ليكـــون لهم منه شفيع عند أهل الكتاب،إذا كان لهم الغلب يوما على المؤمنين،فلا يصيبهم مـــن الدائرة- وهى الهزيمة وما يلحق أصحابها من أذى- ما يصيب المؤمنين،إذا هم أصـــابتهم الدائرة التي يتوقعها المنافقون لهم.

وقوله تعالى:«فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَـــرُّوا فِـــي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» هو وعيد للمنافقين بما يملأ قلوبهم حسرة وندما،إذ جاء تدبيرهم وبـــالا عليهم وخسرانا لهم،حين قدّروا أن الدائرة ستدور على المؤمنين،فأخلوا مكـــانهم مـــن بينهم،واتخذوا أهل الكتاب أولياءهم- ثم هو وعد كريم من الله،يجىء بتلك البشـــريات

المسعدة للمؤمنين،وبأنهم هم المنتصرون،وأن الخزي والخذلان لأعدائهم،ولمن انضوى إليهم من منافقين..«فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ» الذي يمكّن للمؤمنين من أعدائهم،وقد جاء نصر الله والفتح،ودخل الناس فى دين الله أفواجا فدالت دولة الشرك،وذهبت ريح النفاق والمنافقين.

وقوله تعالى:«أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» أي تدبير من عند الله،يجىء على غير انتظار،وعلى غير عمل من المؤمنين،كأن يوقع الشقاق والخلاف بين أحلاف السوء ومجتمع الضلال،فيفضح بعضهم بعضا،ويخذل بعضهم بعضا،فإذا أولياء الأمس أعداء اليوم،يبرأ بعضهم من بعض.

وحمل هذا الوعد الكريم من الله للمؤمنين على يدى فعل الرجاء «عسى» إنما ليقيم المسلمين على رجاء وأمل فى رحمة الله بهم،وفضله عليهم،فتظل قلوبهم شاخصة إلى الله،ذاكرة له،ترقب غيوث رحمته،وفواضل نعمه..ولو جاء هذا الوعد الكريم قاطعا منجزا لما بعث فى القلوب المؤمنة تلك المشاعر المتجددة،ولما أمسك بها هذا الزمن الطويل،متشوّفة بأبصارها وقلوبها إلى غيوث رحمة الله،ومواطر أفضاله ونعمه.

وقوله تعالى:«فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» هو عرض لتلك النهاية التي ينتهى إليها أمر هؤلاء المنافقين،وما يؤول إليه عاقبة مكرهم وتدبيرهم..إنه الندم والحسرة والخسران.

قوله تعالى:«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ»..هو عرض لهؤلاء المنافقين فى معرض آخر من معارض الخزي والفضيحة،فبعد أن دعا الله سبحانه وتعالى كل ذى نظر أن ينظر إلى هؤلاء المنافقين،ويشهد كيف يتهالكون على أهل الكتاب،ويرتمون فى أحضانهم،خوفا من أوهام متسلطة عليهم- بعد أن عرضهم الله سبحانه فى هذا المعرض الفاضح،وتوعدهم بالخزي والخسران،بنصر الله المؤمنين،وبخذلان الكافرين والمنافقين- جاءت هذه الآية الكريمة،تدعو المؤمنين إلى أن يديروا النظر مرة أخرى إلى هؤلاء المنافقين،وأن يقلّبوا صفحات تاريخهم فى الإسلام،ويتتبعوا مسيرتهم معه..ثم ليصدروا حكمهم عليهم..وهنا يكثر حديث المؤمنين

عن هؤلاء المنافقين،ويلقى بعضهم بعضا بما اطلعوا عليه من نفاقهم،فتكثر فيهم القالة،ويكثر العجب والدهش من أمرهم،وإذا الفضيحة تجلجل بصوتها فى كل أفق،وتتحرك بأشباحها فى كل مكان.

وليس ما حكاه القرآن من مقولة المسلمين فيهم:«أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ» ليس هذا هو كل ما قيل فيهم..وإنما هو مضمون ما قيل،وصميم ما ينبغى أن يقال فى هؤلاء المنافقين..إذ أنهم كانوا يحلفون بالله للمؤمنين جهد أيمانهم- أي بأغلظ أيمانهم وآكدها- إنهم لمع المؤمنين،ولن يتخلّوا عنهم فى حرب أو سلم..وهذا الحلف نفسه،والمبالغة فيه هو الذي يكشف المستور من أمرهم،ويعطى الدليل على أنّهم على غير الإسلام..إذ أنهم لو كانوا مسلمين حقّا لما حلفوا وأكّدوا الحلف أنهم مؤمنون،ومع المؤمنين..فما دعاهم أحد أن يحلفوا،ولكنّ كائن النفاق الذي يعيش فى كيانهم هو الذي حملهم على أن يستروا كذبهم ونفاقهم بهذه الأيمان المؤكدة،حتى لا يفتضح ما فى قلوبهم..وهكذا المجرم،يحوم حول جريمته،يريد أن يخفى معالمها حتى ولو لم تكن هناك معالم لها..لأنه لخوفه يتصور أن كل ما كان فى مكان الجريمة من كائنات،شاهد عليه،ينادى فى الناس بالإمساك به قبل أن يفلت.وقوله تعالى:«حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» أي فسد تدبيرهم،وخاب ظنّهم،وبطل سعيهم،فكان ذلك خسران لهم أي خسران..خسروا المؤمنين الذين أصبحوا فيهم وقد افتضح أمرهم لهم،وخسروا أولياءهم من أهل الكتاب بعد أن أصابتهم الهزيمة،وعلت راية الإسلام،وعزّت كلمته..[٤٨٢٥]

وقال السعدي:

يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة،أن لا يتخذوهم أولياء.فإن بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا على من سواهم،فأنتم لا تتخذوهم أولياء،فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم،بل لا يدخرون من مجهودهم شيئا على إضلالكم،فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم،ولهذا

[٤٨٢٥] - التفسير القرآني للقرآن (٣/ ١١١٣)

قال:{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم.والتـــولي القليل يدعو إلى الكثير،ثم يتدرج شيئا فشيئا،حتى يكون العبد منهم.
{إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي:الذين وصْـــفُهم الظلم،وإليـــه يَرجعون،وعليـــه يعولون.فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك،ولا انقادوا لك.
ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم،أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم،فقال:{فَتَـــرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي:شك ونفاق،وضـــعف إيمـــان،يقولون:إن تولينـــا إيـــاهم للحاجة،فإننا {نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} أي:تكون الدائرة لليهود والنصارى،فإذا كانت الدائرة لهم،فإذا لنا معهم يد يكافؤننا عنها،وهذا سوء ظن منهم بالإسلام،قال تعالى -رادا لظنهم السيئ-:{فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} الذي يعز الله به الإســـلام علـــى اليهـــود والنصارى،ويقهرهم المسلمون {أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِندِهِ} ييأس به المنافقون من ظفر الكـــافرين من اليهود وغيرهم {فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا} أي:أضمروا {فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ} على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم،فحصل الفتح الذي نصـــر الله بـــه الإســـلام والمسلمين،وأذل به الكفر والكافرين،فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا} متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض:{أَهَؤُلاءِ الَّـــذِينَ أَقْسَـــمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُـــمْ} أي:حلفـــوا وأكـــدوا حلفهم،وغلظـــوه بـــأنواع التأكيدات:إنهم لمعكم في الإيمان،وما يلزمه مـــن النصـــرة والمحبـــة والمـــوالاة،ظهر مـــا أضمروه،وتبين ما أسروه،وصار كيدهم الذي كادوه،وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله -باطلا فبطل كيدهم وبطلت {أَعْمَالُهُمْ} في الدنيا {فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} حيث فـــاتهم مقصودهم،وحضرهم الشقاء والعذاب.[٤٨٢٦]

وفي الظلال:

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء،واتخاذهم أولياء شيء آخر،ولكنهما يختلطـــان على بعض المسلمين،الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقـــة هـــذا الـــدين ووظيفته،بوصفه حركة منهجية واقعية،تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض،وفـــق التصـــور

[٤٨٢٦] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٣٥)

الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم – من ثم – بالتصورات والأوضاع المخالفة،كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج اللّه،وتدخل في معركة لا حيلة فيها،ولا بد منها،لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده،وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة،كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها،فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق،وبين الولاء الذي لا يكون إلا للّه ورسوله وللجماعة المسلمة.ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب..بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة..وأن هذا شأن ثابت لهم،وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه،وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة.وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر..إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب،ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب،ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه،ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة،أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين،إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعا أهل دين! – ناسين تعليم القرآن كله وناسين تعليم التاريخ

كله.فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:«هــؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا»..وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبــوا المشــركين علــى الجماعة المسلمة في المدينة،وكانوا لهم درعا وردءا.وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام،وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس،وهم الذين شردوا العــرب المسلمين في فلسطين،وأحلوا اليهود محلهم،متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهــل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان..في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر،ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية،في يوغسلافيا والصــين والتركستان والهند،وفي كل مكان! ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر.ندفع بــه المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن.وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم،لا بوصفه عقيدة لا يقبل اللّه من الناس غيرها،ولا بوصفه حركة إيجابيه تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم،كما وقفت له بالأمس.الموقف الذي لا يمكن تبديله.لأنه الموقف الطبيعــي الوحيد! وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني،لنعي نحن هذا التوجيــه القرآني الصريح:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ..بَعْضُهُمْ أَوْلِيــاءُ بَعْضٍ..وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»..هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة..موجه لكل من ينطبــق عليــه ذات يــوم صفة:«الَّذِينَ آمَنُوا»..ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النــداء للــذين آمنوا،أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعــض أهــل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف،وعلاقات اقتصــاد وتعامل،وعلاقات جيرة وصحبة..وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام،بين أهل المدينة من العرب وبــين اليهــود بصــفة

خاصة..وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الـدين وأهلـه بكل صنوف الكيد التي عددها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص.

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته،لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة.ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة.المفاصلة التي لا تنهي السـماحة الخلقية.فهذه صفة المسلم دائما.ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا للّه ورسوله والذين آمنوا..الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كـل أرض وفي كل جيل.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ..بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ.وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».بعضهم أولياء بعض..إنها حقيقـة لا علاقة لها بالزمن..لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء..إنهم لن يكونوا أولياء للجماعـة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ..وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصـداق هذه القولة الصادقة..لقد ولي بعضهم بعضا في حرب محمد - ﷺ- والجماعة المسلمة في المدينة.وولي بعضهم بعضا في كل فجاج الأرض،على مدار التـاريخ..ولم تختـل هـذه القاعدة مرة واحدة ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم،في صيغة الوصف الدائم،لا الحادث المفرد..واختيار الجملة الاسمية على هـذا النحـو..بعضـهم أوليـاء بعض..ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها..فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم.والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم،يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخـر.لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية:«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»..وكان ظالمـا لنفسـه ولدين اللّه وللجماعة المسلمة..وبسبب من ظلمه هذا يدخله اللّـه في زمـرة اليهـود

والنصارى الذين أعطاهم ولاءه.ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم:«إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»..لقد كان هذا تحذيرا عنيفا للجماعة المسلمة في المدينة.ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه.فهو عنيف.نعم ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة.فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى – وبعضهم أولياء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه،وتبقى لــه عضويته في الصف المسلم،الذي يتولى اللّه ورسوله والذين آمنوا..فهذا مفرق الطريق..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منــهج الإسلام وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ثم يكون في وسعه بعد ذلــك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف – أول ما تستهدف – إقامة نظام واقعي في الأرض فريد يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصــور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم،الذي لا أرجحة فيه ولا تردد،بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس – بعد رسالة محمد – ﷺ- وبأن منهجه الذي كلفــه اللّه أن يقيم الحياة عليه،منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه اللّه ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه:الاعتقادية والاجتماعية لم يــأل في ذلك جهدا،ولم يقبل من منهجه بديلا – ولا في جزء منه صغير – ولم يخلط بينه وبــين أي منهج آخر في تصور اعتقادي،ولا في نظام اجتماعي،ولا في أحكام تشريعية،إلا مــا استبقاه اللّه في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب...

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو – وحده – الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج اللّه الذي رضيه للناس في وجه العقبات الشاقة،والتكاليف المضنية،والمقاومة العنيدة،والكيد الناصب،والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كــثير مــن الأحيان..وإلا فما العناء في أمر يغني عنــه غــيره – ممــا هــو قــائم في الأرض مــن جاهلية..سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك،أو في انحراف أهل الكتاب،أو في

الإلحاد السافر..بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي،إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة،باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية،يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح.فالدين هو الدين الأخير وحده عند اللّه.والتسامح يكون في المعاملات الشخصية،لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي ..إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن اللّه لا يقبل دينا إلا الإسلام،وبأن عليه أن يحقق منهج اللّه الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا ولا يقبل فيه تعديلا – ولو طفيفا – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر:«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»..«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»..«وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ»..«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ..بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»..وفي القرآن كلمة الفصل..ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين!

ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي كانت واقعة والتي يترل القرآن من أجلها بهذا التحذير:«فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ،يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ»..روى ابن جرير عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:جَاءَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ الْخَزْرَجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودَ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ،وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ.فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ،لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ مَوَالِيَ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ:" يَا أَبَاالْحُبَابِ مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ إِلَيْكَ دُونَهُ " قَالَ:قَدْ قَبِلْتُ.فَأَنْزَلَ اللَّهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ:فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ "[٤٨٢٧]...

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ بَدْرٍ قَالَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ يَهُودَ:آمِنُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمِ بَدْرٍ.فَقَالَ مَالِكُ بْنُ صَيْفٍ:غَرَّكُمْ أَنْ أَصَبْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ لَا

[٤٨٢٧] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥١) وفيه انقطاع

عِلْمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ،أَمَا لَوْ أَسْرَرْنَا الْعَزِيمَةَ أَنْ نَسْتَجْمِعَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ أَنْ تُقَاتِلُونَا،فَقَالَ عُبَادَةُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ،وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَلَايَتِهِمْ،وَلَا مَوْلًى لِي إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ.فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ:لَكِنِّي لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ،إِنِّي رَجُلٌ لَا بُدَّ لِي مِنْهُمْ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يَا أَبَا حُبَابٍ،أَرَأَيْتُ الَّذِيَ نَفِسْتَ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ،فَهُوَ لَكَ دُونَهُ " قَالَ:إِذَنْ أَقْبَلُ.فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ:وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ "[٤٨٢٨]..

وقال محمد بن إسحاق:فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺبنو قينقاع.فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال:فحاصرهم رسول الله ﷺحتى نزلوا على حكمه،فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول،حين أمكنه الله منهم،فقال:يا محمد،أحسن في مَوَالي.وكانوا حلفاء الخزرج،قال:فأبطأ عليه رسول الله ﷺ،فقال:يا محمد،أحسن في موالي.قال:فأعرض عنه.فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ.فقال له رسول الله ﷺ."أرسلني".وغضب رسول الله ﷺحتى رُئي لوجهه ظللا ثم قال:"ويحك أرسلني".قال:لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مَوَالي،أربعمائة حاسر،وثلاثمائة دارع،قد منعوني من الأحمر والأسود،تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر،قال:فقال رسول الله ﷺ:"هُم لك." [٤٨٢٩]..

وقال محمد بن إسحاق:فحدثني أبي إسحاق بن يَسار،عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال:لما حاربت بنو قَيْنُقَاع رسول الله ﷺ،تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ،وقام دونهم،ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ،وكان أحد بني عَوْف بن الخزرج،له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي،فجعلهم إلى رسول الله ﷺوتبرأ إلى الله ورسوله ﷺمن حلفهم،وقال:يا رسول الله،أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم،وأتولى الله ورسوله

[٤٨٢٨] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (١١٠٥٢) ضعيف جدا

[٤٨٢٩] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط،المغرب.صحيح مرسل

والمؤمنين،وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم.ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) [المائدة:٥١ - ٥٦]} [٤٨٣٠]..

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ،قَالَ:دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺعَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فِي مَرَضِهِ نَعُودُهُ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:قَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:فَقَدْ أَبْغَضَهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ،فَمَاتَ." [٤٨٣١]

فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم..غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود،و لم يجئ ذكر في الوقائع للنصارى..ولكن النص يجمل اليهود والنصارى..ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى،سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيجيء في سياق هذا الدرس)..ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في

[٤٨٣٠] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط،المغرب.وانظر:السيرة النبوية لابن هشام (٤٩/٢) وتفسير الطبري (٣٩٦،٣٩٧/١٠) صحيح مرسل

[٤٨٣١] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٢٨٠)(٢١٧٥٨) ٢٢١٠١-صحيح

العهد النبوي،ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى:«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا،وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا:إِنَّا نَصارى..إلخ»..مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك،فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى – كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار..فيما يختص بقضية المحالفة والولاء.ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة.هي:أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم وليس للمسلم ولاء إلا للّه ولرسوله وللجماعة المسلمة..ويستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر..مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف..

على أن اللّه – سبحانه – وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة،كان علمه يتناول الزمان كله،لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول اللّه – ﷺ– وملابساتها الموقوتة..وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداء النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود..وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام،فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب،قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن،وشنت عليه من الحرب والكيد،ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسن عاهلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام،عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريها في هذا إلا اليهود..

وكان اللّه – سبحانه – يعلم الأمر كله.فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة.بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها وملابساتها الموقوتة! وبغض النظر عما يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به – ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء – يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض،ما يصدق قول اللّه تعالى:«بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»..وما يحتم أن يتدرع

المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم.بل بأمره الجازم،ونهيه القاطع وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء اللّه ورسوله،وكل معسكر آخر لا يرفع راية اللّه ورسوله[4832]..

فتنة الزوجة والولد:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التغابن:14]

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ بَينِ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ أَعْدَاءٌ للإِنْسَانِ يَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِعْلِ الطَّاعَاتِ التِي تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ،وَرُبَمَا حَمَلُوهُمْ عَلَى السَّعْيِ فِي اكْتِسَابِ الحَرَامِ،واجْتِرَاحِ الآثَامِ،لِمَنْفَعَةِ أَنْفُسِهِمْ،وَقَدْ يُؤَدِّي البُغْضُ إِلَى ارْتِكَابِ الجَرَائِمِ بِحَقِّ الأَزْوَاجِ وَالآبَاءِ،فَتَكُونُ عَدَاوَةٌ حَقِيقِيَّةٌ.وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُهُ حُبُّهُ لَهُمْ،وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ،وَحِرْصُهُ عَلَى أَنْ يَكُونُوا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ فِي حَيَاتِهِ،وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فَيَرْتَكِبُ المَحْظُورَاتِ لِتَحْصِيلِ مَا يَكُونُ سَبَباً لِذَلِكَ فَيَهْلِكُ.ثُمَّ يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَلَى العَفْوِ والصَّفْحِ فَقَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الخَيْرُ للإِنْسَانِ،فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بِهِمْ وَبِهِ،وَيُعَامِلُهُ بِمِثْلِ مَا عَامَلَهُمْ،وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ تَكَرُّماً مِنْهُ.[4833]

عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ،أَنَّهُ قَالَ:جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ:«إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»[4834]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ هَرَبَ بِدِينِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ،وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ،فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ لَمْ تُنَلِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِسَخَطِ اللَّهِ،فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ،فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا وَلَدٌ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ،فَإِنْ

[4832] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط1 – ت- علي بن نايف الشحود (ص:1302)

[4833] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:5091، بترقيم الشاملة آليا)

[4834] – سنن ابن ماجه (2/ 1209)(3666) صحيح

لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ أَوِ الْجِيرَانِ» قَالُوا: كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْمَعِيشَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُورِدُ نَفْسَهُ الْمَوَارِدَ الَّتِي تَهْلِكُ فِيهَا نَفْسُهُ»[4835]

هو دعوة للذين استجابوا لله ولرسوله،فآمنوا،أن يعطوا هذا الإيمان حقّه..فإنه لا يكفى أن يؤمنوا دون أن يحرسوا هذا الإيمان من الآفات الكثيرة الّتى تعرض له،وتفسده،أو تذهب به جملة..ومن هذه الآفات،الفتنة بالزوج والولد..حيث هما اللذان يملآن إذا هو استسلم لزوجه أو ولده،وأصغى إلى ما يلقيان إليه من زور وبهتان..

ولهذا جاء قوله تعالى: «فَاحْذَرُوهُمْ» حتى يكون المؤمن دائما،على حذر،وانتباه من هذه الرياح المسمومة الّتى تهب عليه من أقرب الناس إليه..

والعداوة الّتى ترد على الإنسان من جهة الزوجة أو الولد،ليست عداوة ذاتية له،وإنما هى عداوة متولدة عن فعل يجىء من قبل الزوجة أو الولد..فإذا فعلت الزوجة فعل العدو فهى عدوّ،وإذا فعل الولد فعل العدو،فهو عدو..وإنه لا عدوّ أبلغ فى عداوته،وأشد فى كيده،وأعظم فى ضرره- ممن يحول بين المرء وبين طاعة ربه..عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ،فَقَالَ لَهُ: تَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ،وَدِينَ آبَائِكَ،فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ فَغَفَرَ لَهُ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ،فَقَالَ لَهُ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ،وَسَمَاءَكَ،فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ،فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ،فَقَالَ لَهُ: تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ،وَالْمَالِ،فَتُقَاتِلُ فَتَقْتُلُ،فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ،وَيُقْسَمُ الْمَالُ،فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[4836]

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

[4835] - الزهد الكبير للبيهقي (ص:١٨٣)(٤٣٩) فيه انقطاع

[4836] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٥٣)(٤٥٩٣) صحيح

هو دعوة إلى الرّفق فى الحذر،والتلطف فى لقاء المكروه الذي يجىء إلى المؤمن من زوجه أو ولده..فإذا كان من واجب المؤمن أن يحذر هذا العدوّ الكامن فى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده،فإن هذا العدوّ يجب أن ينظر إليه من جانب آخر على أنه صديق،وأن هذه العداوة طارئة،وأنه يمكن أن تعالج هذه العداوة بالحكمة،والحسنى،على ألا يكون ذلك على حساب الدين..وبهذا يمكن أن يبقى المؤمن على هذين العضوين الفاسدين فى جسده،وأن يطبّ لهما،وأن يعمل على إصلاحهما ما استطاع،وألا يعجّل بقطعهما إلا بعد أن يستنفد جميع وسائل العلاج،شأنهما فى هذا شأن أعزّ الأعضاء والجوارح فى الجسد..فالعفو،والصفح،والمغفرة..من المؤمن،لزوجه وولده،الواقعين فى موقع الفتنة له فى دينه- إنّما هو صبر على الأذى،واحتمال الضرّ،فى سبيل الإبقاء على علائق الودّ،ووشائج القربى التي هى من أمر الدين،ومن طبيعة الحياة..شريطة ألا يكون ذلك- كما قلنا- على حساب الدين..كما يقول سبحانه فيما بين الولد،والوالدين:«أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» (١٤،١٥ لقمان).[٤٨٣٧]

هذا تحذير من الله للمؤمنين،من الاغترار بالأزواج والأولاد،فإن بعضهم عدو لكم،والعدو هو الذي يريد لك الشر،ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد،فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد،ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي ورغبهم في امتثال أوامره،وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية،وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية،ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد،فيما هو ضرر على العبد،والتحذير من ذلك،قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم،أمر تعالى بالحذر منهم،والصفح عنهم والعفو،فإن في ذلك،من المصالح ما لا يمكن حصره،فقال:{وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لأن الجزاء من جنس العمل.فمن عفا عفا

[٤٨٣٧] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٨٧)

الله عنه،ومن صفح صفح الله عنه،ومن غفر غفر الله له،ومن عامل الله فيما يحب،وعامل عباده كما يحبون وينفعهم،نال محبة الله ومحبة عباده،واستوثق له أمره.[٤٨٣٨]

وفي الظلال:

وقد ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:" " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا "،قَالَ:فَهَؤُلاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ مَكَّةَ فَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ،فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺرَأَوُا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ فَهَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ:" وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " ".[٤٨٣٩]..وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس.

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا.فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا:نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ»

..والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا..إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية.ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفيو في ملابسات الحياة سواء.فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر اللّه.كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل اللّه!

والمجاهد في سبيل اللّه يتعرض لخسارة الكثير،وتضحية الكثير.كما يتعرض هو وأهله للعنت.وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده.فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدوا له،لأنهم صدوه عن الخير،وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا.كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه،اتقاء لما يصيبهم من جرائه،أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه،ويعجز هو

[٤٨٣٨] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦٨)

[٤٨٣٩] - تفسير ابن أبي حاتم [١٢ /٣١٦] صحيح

عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد للّه..وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات..وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة،التحذير من اللّه،لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا،والحذر من تسلل هذه المشاعر،وضغط هذه المؤثرات.ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد.وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

الأول أن اللّه يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم،فانتبهوا لهذا،وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا في الابتلاء،وتخلصوا وتتجردوا للّه.كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب! والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية،فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن اللّه.وكلا المعنيين قريب من قريب.

وقد روى الإمام أحمد عن عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي بُرَيْدَةَ،يَقُولُ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺيَخْطُبُنَا،إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ،عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ،فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:صَدَقَ اللَّهُ:{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن] نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ،فَلَمْ أَصْبِرْ،حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي فَرَفَعْتُهُمَا.[٤٨٤٠]..

فهذا رسول اللّه – ﷺ- وهذان ابنا بنته..وإنه لأمر إذن خطير.وخطر.وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس،وأودعها هذه المشاعر،لتكفكف نفسها عن التمادي والإفراط،وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو،وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكايد الأعداء! ومن ثم يلوح لها بما عند اللّه بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد،والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج.فهذه فتنةَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»..

[٤٨٤٠] – صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١٣ /٤٠٣]٦٠٣٩ ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٦٣١](٢٢٩٩٥) ٢٣٣٨٣ صحيح

ويهتف للذين آمنوا بتقوى اللّه في حدود الطاقة والاستطاعة،وبالسمع والطاعة:«فَـاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ – وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»..وفي هذا القيد:«مَا اسْتَطَعْتُمْ» يتجلى لطف اللّـه بعباده،وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته.عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَـالَ « دَعُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ،إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَـى أَنْبِيَائِهِمْ،فَـإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ،وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ »[٤٨٤١].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– فَقَالَ « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَـيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ».فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ – ثُمَّ قَالَ – ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَـا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَدَعُوهُ ».[٤٨٤٢]

فالطاعة في الأمر ليس لها حدود،ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع.أما النهي فلا تجزئة فيـه فيطلب بكامله دون نقصان.ويهيب بهم إلى الإنفاق:«وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ»..

فهم ينفقون لأنفسهم.وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم.فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم،ويعدها الخير لهم حين يفعلون.

ويريهم شح النفس بلاء ملازما.السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه والوقاية منه فضـل من اللّه:«وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»..ثم يمضي في إغـرائهم بالبـذل وتحبيبهم في الإنفاق،فيسمي إنفاقهم قرضا للّه.ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة الـتي يقرض فيها مولاه؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به،ويشكر المقـرض،ويحلم عليـه حين يقصر في شكره.وهو اللّه! «إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضـاعِفْهُ لَكُـمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ.وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ»..وتبارك اللّه.ما أكرمه! وما أعظمه! وهـو ينشـئ العبـد ثم يرزقه.ثم يسأله فضل ما أعطاه.قرضا.يضاعفه..ثم..يشكر لعبده الذي أنشـأه وأعطـاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه..! يا للّه!!!

[٤٨٤١] – صحيح البخارى- المكنز [٢٤ /٨٢] (٧٢٨٨)

[٤٨٤٢] – صحيح مسلم- المكنز [٨ /٤٢٠](٣٣٢١)

إن اللّه يعلمنا – بصفاته – كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا،ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه – سبحانه – ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة.وقد نفخ اللّه في الإنسان من روحه.فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته،ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع،ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة،حتى يلقى اللّه بما يحبه له ويرضاه.ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب،بصفة اللّه التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب:«عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»..فكل شيء مكشوف لعلمه،خاضع لسلطانه،مدبر بحكمته.كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين اللّه تراهم،وسلطانه عليهم،وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه.ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب،لتتقي اللّه وتخلص له وتستجيب.[٤٨٤٣]

الفرار من الموت (١):

قال تعالى:{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ

[٤٨٤٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٨٥)

الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)} [الأحزاب]

أمّا المنافقون فظهر نفاقهمْ،فقال معْتب بْن قشيْرٍ ما قال،وقال ضعاف الإيمان والـذين في أَنْفسهمْ ريبةٌ وشكٌ،لقرْب عهْدهمْ بالإسْلام – { الذين في قلوبهمْ مرضٌ }:{ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً }،أيْ لمْ يكنْ ما وعدنا به الله من النّصْر والظّفر بالعدوّ إلا وعْداً يغرّنا ويخْدعنا.

واذْكرْ يا محمّد حين قالتْ طائفةٌ من المنافقين (كعبد الله بْن أبيّ ابْن سلولٍ وأصْحابه):يا أهْل المدينة (يثْرب) ليْس هذا المقام،الذي تقيمونه مرابطين مع النّبيّ،بمقامٍ صالحٍ لكمْ،فارْجعوا إلى منازلكمْ لتحْموها،ولتدافعوا عنْها وعنْ عيالكمْ.واسْتأْذن فريقٌ منْهم النّبيّ ﷺ طالبين السّماح لهمْ بالعوْدة إلى منازلهمْ (وهمْ بنو حارثة)،وقالوا إنّهمْ يخافون على بيوتهم السّرّاق،وأ ن بيوتهمْ ليس لها منْ يحْميها (عوْرةٌ).

ويردّ الله تعالى على هؤلاء قائلاً:إنّ بيوتهم ليْستْ عوْرةً،ولا مهدّدةً منْ أحدٍ كما يزْعمون،وإنّما يريدون الفرار والهرب من القتال،وعدم إعانة المسْلمين في حرْبهمْ أعْداء الله.

ولوْ دخل عليهم الأعْداء منْ كلّ جانبٍ منْ جوانب المدينة،وكلّ قطْر منْ أقْطارها (وقيل بل المقْصود بيوتهمْ) وطلبوا إليهم الارْتداد عن الإسْلام،والعوْدة إلى الشّرْك،(لو سئلوا الفتْنة) لفعلوا ذلك سريعاً دون تردّد منْ شدّة الهلع والجزع،وهذا دليلٌ على ضعْف إيمانهمْ.

وكان هؤلاء المسْتأْذنون – وهمْ بنوا حارثة – قدْ هربوا من القتال يوْم أحدٍ،وفرّوا منْ لقاء العدوّ،ثمّ تابوا وعاهدوا الله على ألاّ يعودواإلى مثْلها،ولا ينْكصوا على أعْقابهمْ،ومنْ عاهد الله فإنّ الله سيسْأله عنْ عهْده يوْم القيامة،ويجْزيه به.

فقلْ يا محمّد لهؤلاء المسْتأْذنين الهاربين منْ قتال العدوّ ولقائه:إنّ الفرار من القتال لنْ ينْفعكمْ ولنْ يدْفع عنْكمْ ما قضاه الله عليْكمْ منْ موْتٍ أوْ قتْلٍ،وإذا نفعكمْ الفرار فلمْ

تقْتلوا في ساحة الحرْب،فإنّ بقاءكمْ في الدّنيا محْـدود الأجْل،ومتـاعكمْ فيهـا متـاعٌ قليلٌ،وسيأْتي الموْت في الموعد المحدّد لاً يتأخّر ولا يتقدّم.

وقلْ لهمْ:ليْس في الأرْض أحد يسْتطيع أنْ يمْنع قضاء الله منْ أنْ يصل إليكمْ،فإنْ أراد الله بكمْ شراً فلا يسْتطيع أحدٌ أنْ يردّه عنْكمْ،ولا أنْيحول دون وقوعه بكمْ:وإنْ أراد بكـمْ خيْراً ورحْمةً،فلا يسْتطيع أحدٌ أنْ يحول دون وصول ذلك إليْكمْ،فـالأمْر كلّـه بيـد الله،يصرّفه كيْف يشاء.ولنْ يجد هؤلاء المنافقون وليّاً لهمْ غير الله،ولا ناصراً يدْفع عنْهمْ ما قضاه الله،وما قدّره عليهمْ منْ سوءٍ وبلاء.

إنّ الله يعْلم حقّ العلْم الذين يقومون بتثْبيط همم النّاس عن القتال والثّبات مع رسـول الله،ويصْرفونهمْ عنْ شهود الحرب معه،ويعْلم الذين يقولون لأصْحابهمْ وعشرائهمْ:أسْرعوا إلينا،وأقبلوا على ما نحْن فيه منْ طيب المقام في الظّلال والثّمار (هلمّ إلينـا)،وهـمْ لا يحْضرون إلى معْسكر المسْلمين إلا وقْتاً قصيراً يثْبتون فيه وجودهم أمام النّاس،ثمّ يخْتفـون متسلّلين إذا غفل النّاس عنْهمْ.

وهمْ بخلاء شحيحون،لا يمدّون المؤْمنين بالنّفقة والمال،ولا يقدّمون لهم العوْن والنّصْـرة بالنّفْس.فإذا بدأت الحرْب،والتحم المقاتلون رأيْتهمْ وقد اعْتراهم الخوْف والهلع ينْظـرون إليك يا محمّد وأعْينهمْ تدور خوْفاً وفرقاً،كدوران عيْن الـذي غشـيه المـوْت،وقرب منْه،فتجْمد عيْنه ولا تطْرف.

أمّا إذا ذهب الخوْف وأسْبابه،وعاد الأمْن إلى النّفوس،فإنّهمْ يرْفعون أصْـواتهمْ،ويتكلّمون عن النّجْدة والشّهامة،والبطولات التي أظْهروهـا في ميـدان المعْركـة،وهمْ في هـذا كاذبون.وإذا ظهر المؤْمنون في الحرْب فهمْ بخلاء حريصون على ألاّ يفوتهمْ نصيبٌ مـن المغانم،فهمْ حين البأس جبناء،وحين الغنيمة أشحّاءٌ (وقيل بل المعْنى هـو:فـإذا ذهـب الخوْف بالوا في شتْمكمْ وذمّكمْ بألْسنةٍ حداد مشْحوذةٍ قاطعة).

وهؤلاء،الذين بسط الله تعالى أوْصافهمْ، لمْ يؤْمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً،و لمْ يخْلصـوا العمل لأنّهمْ أهْل نفاقٍ فأهْلك الله أعْمالهمْ،وأبْطلها،وأذْهب ثوابها وأجورها،وجعلها هباءً منْثوراً،وكان إحْباط أعْمالهمْ أمراً يسيراً على الله.

وهمْ منْ شدّة دهْشتهمْ،وضعْف إيماهمْ لا يزالون يظنّــون أنّ الأحــزاب مــنْ قــريشٍ وغطْفان.. لمْ يرْحلوا عن المدينة،وقدْ هزمهم الله ورحلوا.وإذا عاد الأحْزاب مرّةً أخْــرى لقتال المسْلمين في المدينة وحصارها،تمنّوا لوْ أنّهمْ كانوا مقيمين في البادية بين الأعــراب بعيداً عن المدينة،حتّى لا يلْحق بهمْ مكْروهٌ،ويكْتفون بالسّؤال عنْ أخْباركمْ كــلّ قــادمٍ إليهمْ منْ جهة المدينة.ولوْ أنّ هؤلاء المنافقين كانوا بيْنكمْ أثْناء القتال لما قاتلوا معكمْ إلاّ قتالاً يسيراً رياءً وخوْفاً من المعْركة،لا قتالاً يرْجون به ثواب الله في الآخرة [٤٨٤٤].

قوله تعالى:«وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُــولُهُ إِلَّــا غُرُوراً»..

العطف هنا على قوله تعالى:«وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّــهِ الظُّنُونَا» فهذه حال من تلك الأحوال التي عرضت للمسلمين يومئذ،وهى أن المنــافقين ومن في قلوبهم مرض من المؤمنين،قد كانوا من الذين ظنوا بالله ظن السوء..فكان قولهم في مواجهة هذا الابتلاء،هو الكفر الصريح:

«ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّــا غُــرُوراً»..أي أكاذيــب وأباطيل،وأمــانيّ مــن مــن الخداع،والتغرير..وهكذا تكشف الشدائد والمحن عن معــادن النــاس،وعن مطويــات الضمائر،وما تخفى الصدور..

قوله تعالى:«وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيــقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

هو معطوف على ما قبله،وهو بيان لمقولة طائفة من طوائف هؤلاء المنــافقين ومــن في قلوبهم مرض..إنهم لم يقفوا عند حدّ هذه الوساوس السوء من الظنون،بل جاوزوا هــذا إلى إذاعتها في الناس،وإلى تيئيسهم،وزعزعة إيمانهم..فينادون في الناس بهذا النداء الشيطاني المشئوم:«يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»

أي ماذا تنتظرون؟ وما متعلقكم بهذه الأماني الباطلة؟

[٤٨٤٤] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٤٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

إنكم مخدوعون..فما مقامكم فيما أنتم فيه؟ ارجعوا إلى دياركم وأهليكم،حيث الأمـــن والسلامة،وحيث الراحة من هذا العبث الذي لا شيء وراءه..

وفي ندائهم بيا أهل يثرب،دعوة إلى ردّة،يريدون بها دفع هذه المشاعر الجديدة التي عاش بها المسلمون في مجتمعهم الجديد،حيث اتخذت المدينة في ظل الإسلام اسمـــا جديـــدا،هو المدينة،بدلا من اسمها «يثرب» الذي عاشت فيه مع الكفر والشرك! إنهم يريدون بهـــذا النداء،أن يجلو عن المشاعر هذا الاسم الكريم،كما أرادوا أن يجلو عنها الدين الحنيـــف!

قوله تعالى:«وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»..

معطوف على محذوف،هو استجابة لهذه الدعوة التي دعا بها بعـــض المنـــافقين ومـــن في قلوبهم مرض،واستجاب لها بعض المنافقين ومن في قلوبهم مرض..

ودعوتهم هى:«يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»..واستجابة المستجيبين لهذه الـــدعوة كانت على أسلوبين:أسلوب الرجوع بغير استئذان من النبي،وأسلوب الرجوع بعد الإذن منه..أي أن هؤلاء الذين استجابوا لتلك الدعوة من المنافقين ومن في قلوبهم مرض كانوا فريقين:أحدهما استجاب للدعوة فورا،فلم يلتفت إلى شيء،ولم يراجع نفسه،أو يرجع إلى النبيّ..والآخر،أراد أن يدارى نفاقه ويستر ضعف إيمانه،بهذا العذر الـــذي يعتـــذر بـــه للنبى،وهو أن بيته مهدد بمن يعتدى عليه،ويهتك ستره..وهذا ما يشير إليه قولـــه تعـــالى حكاية لقولهم:«يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» أي معرضة للعدوان عليها مـــن المشـــركين أو غيرهم..

وفي قوله تعالى:«وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ» تكذيب لهذه القولة الفاجرة..إن بيوتهم ليست عورة،بل هى في حمى المسلمين جميعا،وما يجرى على بيوت المسلمين يجرى على بيوتهم..فلو دخل المشركون المدينة،لما استباحوا بيوت هؤلاء المعتذرين وحـــدهم،بل لاســـتباحوا بيـــوت المسلمين جميعها..«إن يريدون إلا فرارا» أي ما يريد هؤلاء المعتذرون إلا فرارا من هـــذا الموقف الذي هم فيه،وإلا ضنّا بأنفسهم عن أن يشهدوا القتال،وأن يكونوا في المقاتلين.

قوله تعالى:«وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِهـــا إِلَّـــا يَسِيراً».

هو بيان لضعف إيمان هؤلاء المعتذرين،وأهم يحرصون على حياهم أكثر من حرصهم على إيماهم،أو حرمات بيوهم..فلو دخل المشركون على هؤلاء المعتذرين بيوهم من كل مدخل منها،ثم دعوهم إلى الخروج منها لخرجوا منها،ونزلوا عنها لهم من غير أن يدافعوا عنها،ويؤدوا حق حرمتها عليهم..

- وفي قوله تعالى:«دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ» بالبناء للمجهول،إشارة إلى أن هؤلاء المعتذرين- لحرصهم على الحياة- يسلمون بيوهم لأى داخل عليهم،فرارا بأنفسهم..

وفي قوله تعالى:«ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» إشارة إلى أن ما يسألونه،ويطلب إليهم الخروج منه،وهو بيوهم،هو فتنة،وبلاء عظيم،أشبه بالفتنة في الدين،لأن حرمة البيوت- عند الأحرار تعدل حرمة النفس،والدين،وغيرهما من المقدسات التي يحرص عليها الأحرار..وفي هذا يقول الله تعالى:«وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» (٦٦:النساء) فقد جاء الخروج من الديار موازنا لقتل النفوس..ويقول سبحانه وتعالى:«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» (١٩١:البقرة) فمن الفتنة،الإخراج من الديار.وفي قوله تعالى:«وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً»- إشارة إلى مبادرة هؤلاء المستخفّين بالحرمات،إلى الخروج من ديارهم،وتسليمها ليد طالبيها منهم،دون إمهال أو تلبث،..وحسبهم أن ينجوا بجلدهم!! فهؤلاء الذين فتنوا في دينهم،بموقفهم المتخاذل في مواجهة العدو،ثم فرارهم من ميدان المعركة،وخروجهم من دينهم في غير تردد،هم أنفسهم أولئك الذين يترلون عن ديارهم،ويخرجون منها في غير تردد أو تلبث أيضا..

وهكذا الإنسان،فى موقفه من حرماته..إن من يفرط في أي حرمة من الحرمات،هو مستعد للتفريط فيها كلها..إنّ الحرمات،هى كيان واحد،وإن تعددت صورها،وأشكالها..

قوله تعالى:«وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا»..أي أن هؤلاء الفارين من ميدان القتال،قد نقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله عليه من قبل،حين دخلوا في دين الله..

وهذا العهد،هو أن يطيعوا الله والرسول،وأن يجاهدوا في سبيل الله،وألّا يولّوا الأدبار..وفي هذا يقول الله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١٥- ١٦:الأنفال)..فهذا هو عهد الله الذي أخذه على المؤمنين،وقد دخلوا في دين الله على هذا العهد..

وفي قوله تعالى:«وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا» - إشارة إلى أن عهد الله أشبه بكائن حيّ مجسد،وأنه يقوم في الناس مقام الرسول المبلّغ عن ربه..ولهذا فهو يسأل عمن أوفى به،ومن نكث،كما يسأل الرسل عمن آمن بهم ومن كفر،كما يقول الله تعالى:«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ» (١٠٩:المائدة)..وفي هذا تعظيم لعهد الله،وما ينبغى أن يكون له في الناس من إكبار وإجلال.

قوله تعالى:«قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

هو قطع لتلك الآمال الكاذبة التي يعيش فيها أولئك الذين فروا من ميدان القتال،ظانّين أن ذلك يحفظ عليهم حياتهم،ويرد غائلة الموت عنهم..

وهم في هذا مخدوعون،قد غطّى على أبصارهم حبّ الحياة،حتى لقد أنساهم ذلك،تلك الحقيقة الماثلة أمامهم،وأنهم مقضى عليهم بالموت المحكوم به على كل حى..

فهذا الفرار من الموت- على أي صورة من صوره،حتفا،أو قتلا- إلى أين ينتهى بهم الطريق الذي يركبونه فارين منه؟ إنه منته بهم إلى الموت حتما..

إن لم يكن اليوم فغدا،أو بعد غد..إنه آت لا شك فيه،طال الطريق أم قصر..والله سبحانه وتعالى يقول:«قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ» (٨:الجمعة) ويقول سبحانه:«أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (٧٨:النساء).- وفي قوله تعالى:«وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» - أي أن هذا الفرار لا يعصمكم من الموت الذي يترصدكم،ويتربص بكم الساعة التي تنتهى فيها آجالكم.«فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ» (٣٤:الأعراف)..

قوله تعالى:«قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

إشارة إلى أنه لا وجه يفرّ إليه هؤلاء الفارون من قضاء الله فيهم..إن ذلك الفرار سوء ظن منهم بسلطان الله وقدرته..ولو علموا بعض ما الله من علم وقدرة وسلطان،لما تحولوا عن هذا الموقف الذي هم فيه،مقدرين أن ذلك ينجيهم من الموت،ويمد لهم في آجالهم التي يخيل إليهم أن القتال،سيختصر مقامهم في هذه الدنيا،ويحصد حياتهم قبل أوانها..

وفي قوله تعالى:«مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً» - فى هذا ما يسأل عنه،وهو:إذا صح أن الإنسان يطلب معتصما يعتصم به حال الضر والسوء..فكيف يصح أن يطلب معتصما حين يراد به الخير والرحمة؟ وإذا صح أن يفر الإنسان من مواطن الخطر والشر،فهل يصح أن يفر من مواطن الخير والإحسان؟..وإذا فما تأويل قوله تعالى:«مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً» ؟.

والجواب على هذا من وجهين:

فأولا:أن الإنسان لا يملك مع أمر الله شيئا..وأن ما يساق إليه من سوء أو رحمة،هو من عند الله..وعلى هذا،فإنه إذا رأى بلاء الله واقعا به،وطلب

وفي قوله تعالى:«مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ» بيان للصورة التي يقع عليها الموت،وهو إما أن يكون موتا طبيعيا،أو في حدث من الأحداث،كالحرب وغيرها..معتصما يعتصم به،وملجأ،يلجأ إليه،من هذا البلاء،فلن يجد..كما أنه إذا أراد الله به خيرا ورحمة،فإن هذه الرحمة وذلك الخير لا بد أن يصلا إليه مهما حاول هو- عن جهل وغباء- أن يفر منهما.

وثانيا:أن تقدير الإنسان للأمور لا يقع على وجه صحيح في كل حال،فقد يفر الإنسان من أمر،ويعرض عنه،متكرها له،طالبا السلامة منه،وهو في صميمه خير له،وبركة عائدة عليه..وأن الله سبحانه،لو كان يريد به الخير لأمسكه على هذا المكروه،ولما صرفه

عنه..ولو أراد به سبحانه السوء لخلىّ بينه وبين ما يريد،فيقع في المكروه الـــذي يتوقـــع النجاة منه بإعراضه عنه،وفراره منه،وذلك بما يفوته من الخير المطوىّ فى هذا المكروه..

وهذا هو حال هؤلاء الفارّين من ميدان القتال..إنهم تكرهوا هذا الأمر،وفروا منـــه،وهو في صميمه خير ورحمة وبركة..وإذ لم يرد الله بهم خيرا،فقد خلّـــى بينـــهم وبـــين مـــا أرادوا..على حين أنه سبحانه أمسك على هذا المكروه،من أراد بهم الخير والرحمـــة مـــن عباده المؤمنين..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِـــيهِمْ خَيْـــراً لَأَسْـــمَعَهُمْ» (٢٣:الأنفال)..وفي قوله تعالى:«وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِـــيراً» – مـــا يسأل عنه أيضا،وهو:لماذا اختلف النظم،فكان خطابا في قوله تعـــالى «مَـــنْ ذَا الَّـــذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً»..

ثم كان غيبة في قوله تعالى:«وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ؟..والجواب على هذا،هو أن هذا الخطاب كان لهؤلاء المنافقين والذين فى قلـــوبهم مـــرض،وهم في حضور مع المؤمنين في ميدان القتـــال..يعيشـــون بتلـــك الخـــواطر المريضة،والمشـــاعر الكاذبة،ويديرون في كيانهم وجوه الأعذار التي يعتذرون بها للفرار من هذا الموقف..هذا هو حالهم قبل أن يفروا..فلما اجتمع لهم الرأى على الفرار،وفرّوا– كان الحكم علـــيهم غيابيا،فى مواجهة المؤمنين..فلا يستمعون هم إلى هذا الحكم،ولا يدرون ماذا يريـــد الله بهم،حتى يفجؤهم العذاب،وينزل بهم البلاء،وهم في غفلة عنه..وفي هـــذا بـــلاء فـــوق البلاء،وعذاب فوق العذاب..

قوله تعالى:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».

المعوقون:هم الذين يمسكون غيرهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال،بدءا،بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولا..فهم لم يخرجوا إلى القتال،ثم ثبّطوا غيرهم،وزينوا لهم القعود.

والقاتلون لإخوانهم هلمّ إلينا..هم الذين قعدوا عن القتـــال،و لم يخرجـــوا،ثم ســـعوا إلى تحريض الذين خرجوا إلى القتال،وزينوا لهم أن يعودوا إليهم،وأن يقعدوا معهـــم كمـــا قعدوا هم،قائلين لهم..«هَلُمَّ إِلَيْنا» – أي أقبلوا إلينا..وهلم اسم فعل أمر،يلـــزم حـــالا

واحـــــدة في الإفـــــراد والتثنيـــــة والجمـــــع والتـــــذكير والتأنيث،فيقـــــال للاثنين:هلم،وللجمع:هلم..والبأس:القتال..و«قد يعلم»..بمعنى قد علم الله..لأن علم الله سبحانه وتعالى قديم..والتعبير عن العلم بفعل المستقبل،إنما هو بالنسبة لمـــا ســـيقع مـــن أصحاب هذه المواقف الخاسرة.فهو تحذير لهم من أن يقعوا في هذا المحظور المنكر،قبل أن يقع..

والآية تكشف عن موقفين من مواقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض،الذين تخلفوا و لم يخرجوا للقتال ابتداء،أثناء هذه المواجهة التي كانت بين المسلمين،والأحزاب،على حافتى الخندق الذي أقامه المسلمون حول المدينة..

فهؤلاء الذين قعدوا، لم يقفوا عند هذا الحدّ..بل كان منهم المعوّقون،الذين أمسكوا غيرهم معهم عن الخروج،وزينوا لهم القعود مع القاعدين..

وكان منهم الذين أرادوا إفساد أمر الذين خرجوا..يلقون إليهم بمـــا يحســـبونه نصـــحا لهم،وإشفاقا عليهم،فيقولون لهم فيما يقولون:عودوا إلينا..«لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا».

- قوله تعالى:«وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».المفسرون على قول واحد،فى أن هذا المقطع من الآية،هو وصف من أوصاف هؤلاء المنافقين،الذين هـــدّدهم الله ســـبحانه وتوعـــدهم بقوله:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنـــا» وهـــو عنـــدهم،إما معطوف على صلة الموصول في قوله تعالى:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَـــوِّقِينَ مِـــنْكُمْ وَالْقـــائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ» أي الذين يعوقون غيرهم منكم،ويقولون لإخوانهم هلم إلينا،ولا يـــأتون البأس إلا قليلا..وإما أن يكون حالا من الضمير في اسم الفاعل «والقائلين».

والرأى عندنا- والله أعلم- هو أن قوله تعالى:«وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» حـــال مـــن الضمير في «إخوانهم»..وهذا الحال هو وصف كاشف لإخوان المنافقين،الذين يـــدعوهم المنافقون إليهم،ويطمعون في أن يستجيبوا لهم..فهـــؤلاء الـــذين يطمـــع المنـــافقون في استجابتهم لهم،هم من ضعاف الإيمان،الذين يعرف المنافقون موطن الضعف فيهم،ولهـــذا سماهم القرآن «إخوانهم».ضانين بأنفسهم على أن يبذلوها في سبيل الله،فهم إذ يضـــنون على المسلمين إنما يضنون على دين الله،الذي يجاهد من أجله المجاهدون..

وقوله تعالى:«فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» وصف كاشف لهؤلاء المنافقين الذين يشهدون القتال،بعد أن فضحت الآيات السابقة ما في قلوبهم من زيغ،وما في نفوسهم من مرض..فهم إذا جاء الخوف،أي حضر البأس والقتال..وقد عبر القرآن عنه بالخوف،بالإضافة إليهم،لأن القتال يطلع عليهم بما يملأ نفوسهم خوفا وهلعا..أما المؤمنون،فإنهم إذا جاء القتال قالوا:«هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً»..(٢٢:الأحزاب).

وفي إقامة الخوف مقام القتال،إشارة إلى أن المنافقين أجبن الناس،وأشدهم حرصا على الحياة،وأن مجرد ذكر كلمة الحرب عندهم تملأ قلوبهم فزعا ورعبا- فالحرب بالإضافة إليهم،خوف متجسد..

- وفي قوله تعالى:«رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» تصوير للحال التي تستولى على هؤلاء المنافقين ومن في قلوبهم مرض حين تتحرك أمامهم أشباح الحرب،وتلوح لهم جيوش العدو،فكيف يكون حالهم من الفزع والرعب،حين يلقون العدو،وتسل السيوف وتشرع الرماح؟ إنهم يموتون بصعقات الخوف،قبل أن يموتوا بضربات السيوف،وطعنات الرماح!! والخطاب هنا للنبى ﷺ..ونظرة المنافقين إلى النبي نظرة مذعورة،يائسة،تطل من أشباح مضطربة متهالكة متهاوية..«كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» ! وهذا مثل قوله تعالى:«فَإِذا أُنْزِلَتْ - وقوله تعالى:«وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً»..الإشارة هنا إلى ما يقع على أعمالهم من إحباط لها كلها،فلا ينجح لهم كيد،ولا يستقيم لهم تدبير..إنهم يكيدون لله،ويحاربون ربهم بهذه الأسلحة الباطلة،والله لا يصلح عمل المفسدين..«قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ».(٢٦:النحل) قوله تعالى:«يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا».

أي أن هذا الخوف الذي استولى على هؤلاء المنافقين من موقف القتال،وحال الحرب التي كانت متوقعة بين المسلمين وبين الأحزاب- قد لصق بهم،وصار كائنا يعيش

فيهم،ووسواسا يملأ عليهم وجودهم،ويملك تفكيرهم،حتى أنهم- وقد ذهب الأحزاب،وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا- لم يصدقوا أنهم ذهبوا،إذ ما زال شبحهم مطلا عليهم..هكذا يفعل الخوف بالجبناء،الذين يحرصون على الحياة،ويبيعون من أجلها الشرف،والمروءة،والرجولة..

- وقوله تعالى:«وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ» أي ولو فرض أن الأحزاب عادوا مرة أخرى،وأخذوا مثل هذا الموقف من المسلمين،لتمنّى هؤلاء المنافقون أن ترمى بهم الأرض في مطرح غير ما هم فيه،وأن يكونوا من سكان القفار والبوادي..

- وقوله تعالى:«يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..

كلام مستأنف،يكشف عن حال من أحوال المنافقين،وهو أنهم- لما ركبهم من خوف،يسألون عن أنباء المسلمين في جبهة القتال،لا اطمئنانا على المسلمين،ولكن استكشافا للأمر،وتعرفا على الموقف،حتى يأخذوا العدّة لأنفسهم على الوجه الذي يرونه،فإن جاءهم الأنباء بأنّ المسلمين رجحت كفتهم وهبّت عليهم ريح النصر،انحازوا إليهم،وخلطوا أنفسهم بهم..وإن كان الأمر على غير هذا،فلن يعدموا وسيلة يتوسلون بها إلى الأحزاب..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن موقف المنافقين:«الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ..فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (١٤١:النساء).

- وقوله تعالى:«وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» هو إنكار على المنافقين أن يسألوا عن أنباء هذا الموقف،وهم بمعزل عنه،وكان الأمر يقتضيهم أن يشاركوا في القتال،وأن يكونوا بين المقاتلين،إن لم يكن ذلك دفاعا عن الدين،فليكن عن الأهل والدار والوطن!! ومع هذا،فإنه لم يفت المسلمين خير كثير من تخلّف هؤلاء المتخلفين،لأنهم لو شهدوا القتال لما قاتلوا،أو قاتلوا قتال المنحرفين،الذين يطلبون السلامة لأنفسهم قبل كل شيء:«وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ» أي لو شهدوا القتال معكم «ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أي لم يكن لهم إلا قتال هزيل لا أثر له.[٤٨٤٥]

[٤٨٤٥] - التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٦٤)

وفي الظلال:

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل،والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد اللّه ووعد رسوله،وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك.وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل،وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء.

فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان! «وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ:يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»..فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف،والعودة إلى بيوتهم،بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا،لا موضع لها ولا محل،وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم..وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها،ثغرة الخوف على النساء والذراري.والخطر محدق والهول جامح،والظنون لا تثبت ولا تستقر! «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ،يَقُولُونَ:إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»..يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو.متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة،ويجردهم من العذر والحجة:«وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ»..

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار:«إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

وقد روي أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيظي إلى رسول اللّه – ﷺ- يقولون:«إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»،وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا.ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا،فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا،فنمنع ذرارينا ونساءنا.فأذن لهم – ﷺ- فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال:يا رسول اللّه لا تأذن لهم.إنا واللّه ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا..فردهم..فهكذا كان أولئك الذين يجبهم القرآن بأنهم:«إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»..

ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة.يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض.صورة نفسية داخلية لوهن

العقيدة،وخور القلب،والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شيء،ولا متجملين لشيء:

«وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها،ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها،وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً»..

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة و لم تقتحم عليهم بعد.ومهما يكن الكرب والفزع،فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع،فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها..«ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» وطلبت إليهم الردة عن دينهم «لَآتَوْها» سراعا غير متلبثين،ولا مترددين «إِلَّا قَلِيلًا» من الوقت،أو إلا قليلا منهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا! فهي عقيدة واهنة لا تثبت وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة! هكذا يكشفهم القرآن ويقف نفوسهم عارية من كل ستار..ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد.ومع من؟ مع اللّه الذي عاهدوه من قبل على غير هذا ثم لم يرعوا مع اللّه عهدا:«وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ.وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا».

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة:هم بنو حارثة،وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها.ثم عاهدوا اللّه ألا يعودوا لمثلها أبدا.فذكر لهم الذي أعطوا من أنفسهم.فأما يوم أحد فقد تداركهم اللّه برحمته ورعايته،وثبتهم،وعصمهم من عواقب الفشل.وكان ذلك درسا من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد.فأما اليوم،وبعد الزمن الطويل،والتجربة الكافية،فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة.

وعند هذا المقطع - وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع - يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهد والفرار:«قُلْ:لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.قُلْ:مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً»..

إن قدر اللّه هو المسيطر على الأحداث والمصائر،يدفعها في الطريق المرسوم،وينتهي بها إلى النهاية المحتومة.والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه،في موعده،لا يستقدم لحظة ولا يستأخر.ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارّ.فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب،في موعده القريب.وكل موعده في الدنيا قريب،وكل متاع فيها قليل ولا عاصم من اللّه ولا من يحول دون نفاذ مشيئته.سواء أراد بهم سوءا أم أراد بهم رحمة،ولا مولى لهم ولا نصير،من دون اللّه،يحميهم ويمنعهم من قدر اللّه.فالاستسلام الاستسلام.والطاعة الطاعة.والوفاء الوفاء بالعهد مع اللّه،في السراء والضراء.ورجع الأمر إليه،والتوكل الكامل عليه.ثم يفعل اللّه ما يشاء.

ثم يستطرد إلى تقرير علم اللّه بالمعوقين،الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود.ويقولون لهم:«لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا»..ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة.وهي – على صدقها – تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس.صورة للجبن والانزواء،والفزع والهلع.في ساعة الشدة.والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء.والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه.والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد..والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز:«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ:هَلُمَّ إِلَيْنا،وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا.أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ.فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ.أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ.أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا.وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ.وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..

ويبدأ هذا النص بتقرير علم اللّه المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة.الذين يدعون إخوانهم إلى القعود «وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» ولا يشهدون الجهاد إلا لماما.فهم مكشوفون لعلم اللّه،ومكرهم مكشوف.

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج:«أشحة عليكم» ففي نفوسهم كزازة على المسلمين.كزازة بالجهد وكزازة بالمال،وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء.

« فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»..

وهي صورة شاخصة،واضحة الملامح،متحركة الجوارح،وهي في الوقت ذاته مضحكة،تثير السخرية من هذا الصنف الجبان،الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار! وأشد إثارة للسخرية صورقم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن:«فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ»..فخرجوا من الجحور،وارتفعت أصواقم بعد الارتعاش،وانتفخت أوداجهم بالعظمة،ونفشوا بعد الانزواء،وادعوا في غير حياء،ما شاء لهم الادعاء،من البلاء في القتال والفضل في الأعمال،والشجاعة والاستبسال..ثم هم:«أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ»..

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان! وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل.فهو موجود دائما.وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء.وهو جبان صامت مترو حيثما كان هناك شدة وخوف.وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير،لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان! «أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ»..فهذه هي العلة الأولى.العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان،ولم تهتد بنوره،ولم تسلك منهجه.«فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ»..ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك.«وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً»..وليس هنالك عسير على اللّه،وكان أمر اللّه مفعولا..فأما يوم الأحزاب فيمضي النص في تصويرهم صورة مضحكة زرية:«يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا»..فهم ما يزالون يرتعشون،ويتخاذلون،ويخذّلون! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت،وأنه قد ذهب الخوف،وجاء الأمان! «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ»..

يا للسخرية! ويا للتصوير الزري! ويا للصورة المضحكة! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام.ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية،لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا في مصير.ولا يعلمون - حتى - ما يجري عند أهلها.إنما هم يجهلونه،ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب! مبالغة في البعد والانفصال،والنجاة من الأهوال! يتمنون هذه الأمنيات المضحكة،مع أنهم قاعدون،بعيدون عن المعركة،لا يتعرضون لها مباشرة إنما هو الخوف من بعيد! والفزع والهلع من بعيد! «وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا»..[٤٨٤٦]

الفرار من الموت (٢):

قال تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) } [الجمعة:٦ - ٨]

قلْ يا محمّد لهؤلاء اليهود:إنّكمْ إذا كنْتمْ تزْعمون أنّكمْ على حقٍّ وهدًى،وأنّ محمّداً وأصْحابه على ضلالة،فادْعوا بالموْت على الضّال من الفئتين،إنْ كنْتمْ صادقين فيما تزعمون منْ أنّكمْ أوْلياء الله وأحبّاؤه.ولا يتمنّى هؤلاء اليهود الموْت أبداً لعلْمهمْ بسوء ما يعْملون من الكفْر والظلْم والفجور،ولأنّهمْ يعْلمون لوْ أنّهمْ تمنّوا الموْت لماتوا لساعتهمْ.ولأنْزل الله بهمْ عذابه الشّديد - كما قال رسول الله ﷺ - والله عليمٌ بالظّالمين أنْفسهمْ بالكفْر والفسوق وسوء العمل،وسيعذّبهمْ عذاباً أليماً.وقلْ لهمْ:إنّ الفرار من الموْت لا يجْديهمْ نفْعاً،وإنّه سيلاقيهمْ حينما يحين أجلهمْ،لا يصْرفه عنْهمْ صارفٌ،وأيّام الحياة معْدودةٌ،وهي ستنْقضي مهْما طال أمدها،ثمّ ترْجعون بعْد الموْت إلى عالم غيْب

[٤٨٤٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٦٠٢)

السّماوات والأرْض،وعالم ما هو مشـــاهدٌ فيهـــا،فيخْبرهمْ بمـــا كـــانوا يعْملـــون في الدّنْيا،وسيجازيهمْ على أعْمالهمْ [٤٨٤٧].

الذين هادوا،هم اليهود،وأصله من الهود،وهو الرجوع برفق،وسمى اليهود يهـــودا،لأنهم رجعوا إلى الله تائبين،بعد أن عبدوا العجل،كما جاء فى قوله تعالى على لسان موســـى «وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ» (١٥٦:الأعراف)..

ثم لزمهم هذا الاسم،ولعنهم الله وهم معروفون به..

فالخطاب فى الآية الكريمة موجّه من النبي- ﷺ- إلى اليهود،بأمر ربه،ليقول لهم:إن صـــحّ ما زعمتموه،من أنكم أولياء لله من دون الناس،وأن الله سبحانه وتعالى قـــد اختصـــكم بالفضل والإحسان،حتى لقد قلتم إنكم أبناء الله وأحباؤه- إن صحّ زعمكم هـــذا،فتمنّوا الموت واطلبوه،إن كنتم صادقين فيما تزعمون..فإن هذا الموت سيصير بكم إلى الله الذي تزعمون أنكم أولياؤه وأبناؤه وأحباؤه..والولىّ إنما يشتاق إلى لقاء وليّه،والابن إنما يسعى إلى لقاء أبيه،والحبيب إنما يشوقه لقاء من أحب..فلم لا تتمنون الموت،ولا تطلبونـــه،وهو السبب الذي يصلكم اتصالا مباشرا بالله،الذي تزعمون أنكم أولياؤه وأحباؤه مـــن دون الناس! إن هذا ادعاء كاذب منكم،ونفاق تنافقون به أنفسكم،إذ لو كنتم مـــؤمنين بمـــا تزعمون،لما فزعتم من الموت،ولما حرصتم على الحياة هذا الحرص الذي جعل منكم أجبن الناس،وأشدهم فرارا من لقاء العدو..

وفى هذا يقول الله تعالى:«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَـــوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» (٩٦:البقرة)..وهذا لا يكون إلا من إنسان يرى الموت نهاية لوجوده،أو يرى أن وراء الموت أهوالا تنتظره،بما قدمت يداه من آثام..قوله تعـــالى:«وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».هو بيان للعلّة التي من أجلها يحرص اليهود على الحياة،ويفزعون من الموت،وأنهم لا يتمنون الموت أبدا،لما يعلمون من أنفسهم أنهم على ضلال،وأنهم لن يجدوا فى الآخرة إلا البلاء والهوان..شأنهم فى هذا شأن إبلـــيس

[٤٨٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٦١، بترقيم الشاملة آليا)

الذي يعلم أن مصيره إلى عذاب الله،وأنه إنما سأل الله أن ينظره،وأن يؤخر عنه العــذاب الذي توعده به،فرارا من هذا العذاب،ودفعا له من يومه إلى غده.

قوله تعالى:«قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عــالِمِ الْغَيْــبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي أن هذا الموت الذي تحذرونــه،وتفرون مــن ملاقاته،هو ملاقيكم حتما،ولن تفروا منه أبــدا..ثم إنّ وراء هــذا المــوت رجعــة إلى الله،وحسابا،وعقابا،وسترون أعمالكم المنكرة حاضرة بين أيديكم،وسيترل بكم العذاب الذي أنتم أهل له..[٤٨٤٨]

لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة،الذين ابتعث فيهم النبي الأمي،وما خصهم الله به مــن المزايا والمناقب،التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمــة الأميــة الــذين فــاقوا الأولــين والآخرين،حتى أهل الكتاب،الــذين يزعمــون أنهــم العلمــاء الربــانيون والأحبــار المتقدمون،ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهــود وكــذا النصــارى،وأمرهم أن يتعلموها،ويعملوا بما فيها،وانهم لم يحملوها و لم يقوموا بما حملوا به،أنهم لا فضيلة لهم،وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم،فهل يستفيد ذلــك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة،الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ،والبشارة به،والإيمان بما جاء به من القرآن،فهل استفاد مــن هــذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامــة الحجــة عليــه؟ فهــذا المثــل مطــابق لأحوالهم.بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق مــا جاء به.

{وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي:لا يرشدهم إلى مصــالحهم،ما دام الظلــم لهــم وصفًا،والعناد لهم نعتًا ومن ظلم اليهود وعنادهم،أنهم يعلمون أنهم على باطل،ويزعمون أنهم على حق،وأنهم أولياء الله من دون الناس.

[٤٨٤٨] – التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٤٨)

ولهذا أمر الله رسوله،أن يقول لهم:إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق،وأولياء الله: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ} وهذا أمر خفيف،فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلا على صدقهم إن تمنوه،وكذبهم إن لم يتمنوه ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك،علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده،ولهذا قال: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي من الذنوب والمعاصي،التي يستوحشون من الموت من أجلها، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء،هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم،ويفرون منه [غاية الفرار]،فإن ذلك لا ينجيهم،بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.ثم بعد الموت واستكمال الآجال،يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة،فينبئهم بما كانوا يعملون،من خير وشر،قليل وكثير.[٤٨٤٩]

وفي الظلال:

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه،ودعاؤهما معا إلى اللّه أن ينكل بالمبطل منهما..وقد خاف كل من دعاهم رسول اللّه – ﷺ– إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها،ولم يقبلوا التحدي فيها.مما يدل على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول اللّه – ﷺ– وحقية هذا الدين.

وروى الإمام أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ أَبُو جَهْلٍ:لَئِنْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ،لَآتِيَنَّهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ،قَالَ:فَقَالَ:لَوْ فَعَلَ،لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عِيَانًا،وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ،لَمَاتُوا،وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ،وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُونَ مَالاً وَلاَ أَهْلاً.[٤٨٥٠].

وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم،بما أنهم يزعمون أنهم أولياء للّه من دون الناس.فما يخيفهم إذن من الموت،ويجعلهم أجبن خلق اللّه؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند اللّه مما يلقاه الأولياء والمقربون؟! ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير

[٤٨٤٩] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦٢)

[٤٨٥٠] – مسند أحمد (عالم الكتب) [١ /٦٥٤](٢٢٢٥) صحيح

صادقين فيما يدعون،وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه،وما يرجون الثواب والقربى عليه،إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه.والذي لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق:«وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»..

وفي نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده،ويكشف لهم عن قلة الجدوى في فرارهم من الموت،فهو حتم لا مهرب منه،وما بعده من رجعة إلى اللّه،وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه:«قُلْ:إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ.ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ،فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»..وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين.تقر في الأخلاد حقيقة ينساها الناس،وهي تلاحقهم أينما كانوا..فهذه الحياة إلى انتهاء.والبعد عن اللّه فيها ينتهي للرجعة إليه،فلا ملجأ منه إلا إليه.والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة.فلا مهرب ولا فكاك.

روى الطبري في عَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ،تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ،فَجَعَلَ يَسْعَى،حَتَّى إِذَا أَعْيَى وَانْتَهَرَ دَخَلَ جُحْرَهُ،فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ:يَا ثَعْلَبُ،دَيْنِي؟ فَخَرَجَ،وَلَهُ حُصَاصٌ،فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ،فَمَاتَ"[٤٨٥١]...وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء..[٤٨٥٢]

الفرار من الموت (٣):

قال تعالى:{ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)} [آل عمران:١٤٣ - ١٤٥]

[٤٨٥١] - المعجم الكبير للطبراني [٦ /٣٦٣] (٦٧٧٩) الصواب وقفه

[٤٨٥٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٦٠)

يخاطب الله تعالى منْ شهد وقْعة أحد من المسْلمين الّــذين لمْ يشْــهدوا بــدْراً،وكانوا يتحرّقون شوْقاً للْقتال مع رسول الله ﷺ ليكون لهمْ يومٌ كيوْم بدْرٍ،وقــدْ ألحّــوا علــى الرّسول ﷺ في الخروج إلى أحدٍ ليقاتلوا المشْركين.ويقول تعالى لهؤلاء:لقدْ كنْتمْ تتمنّوْن الموْت في سبيل الله قبْل أنْ تلاقوا القوْم في ميْدان المعْركة،فها أنْتمْ تروْن ما كنْتمْ تتمنّوْن فما بالكمْ دهشْتمْ عنْدما وقع الموْت فيكمْ؟ وما بالكمْ تحْزنون وتضْعفون عنْ لقــاء مــا كنْتمْ تحبّون وتتمنّوْن؟

لّما انْهزم المسْلمون يوْم أحدٍ،وقتل منْهمْ منْ قتل،أشيع أنّ رسول الله ﷺ قدْ قتل،فحصــل ضعْفٌ في صفوف المسْلمين،وتأخّرٌ عن القتال،فأنْزل الله تعالى هذه الآيــة،وفيها يــذكّر المسْلمين بأنّ محمّداً بشرٌ قدْ سبقته رسلٌ،منْهمْ منْ مات،ومنْهمْ منْ قتل،ثمّ ينْكر الله تعالى على منْ ضعف منْهمْ،حين سماع إشاعة قتْل الرّسول،ضعْفه،فقال لهمْ:أفإنْ مات محمّدٌ،أوْ قتل،تراجعْتمْ ونكصْتمْ على أعْقابكمْ؟ ومنْ يتراجع وينْكصْ على عقبيْــه،فلنْ يضــرّ الله شيئاً،لأنّ الله غنيٌ عن العالمين،أمّا الذين امْتثلوا لأمْــر الله،وقــاتلوا عــنْ دينــه،واتّبعوا رسوله،فهؤلاء هم الشّاكرون،وسيجْزيهمْ ربّهمْ على ذلك.لا يمــوت أحــدٌ إلاّ بقــدر الله،وحتّى يسْتوْفي المدّة التي جعلها الله له أجلاً (كتاباً مؤجّلاً)،فــلا يتقــدّم عنْــه ولا يتأخّر.وإذا كان محْيا الإنْسان ومماته بإذْن الله فلا محلّ للْخوْف والجبْن،ولا عذْر في الوهن والضّعْف.

وفي هذه الآية تشْجيعٌ للْجبناء على القتال.فإنّ الإقدام والإحْجام لا ينْقصان مــنْ عمْــر الإنْسان،ولا يزيْدان فيه.ومنْ كان عمله للدّنيا فقطْ ناله منها ما قدّره الله له منْ ثوابها،ولمْ يكنْ له في الآخرة نصيبٌ.ومنْ قصد بعمله ثواب الآخرة أعْطاه الله مــنْ ثوابها،وأعْطــاه معها ما قسمه له في الدّنيا منْ نصيبٍ.والله يجْزي الشّاكرين الــذين يعْرفــون أنْعــم الله عليْهمْ،ويسْتعْملونها في الأعْمال الصّالحة.ويعْطيهم الله منْ فضْــله ورحْمتــه في الــدّنيا والآخرة بمقْدار شكْرهمْ وعملهمْ.[٤٨٥٣]

[٤٨٥٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

هو عتاب رقيق للمؤمنين الذين شهدوا القتال فى أحد،ثم تحوّل بعضهم عن موقف الموت،إلى حيث السلامة وجمع الغنائم،بعد أن لاحت بوارق النصر للمؤمنين:كما أن كثيرا منهم ترك القتال بعد أن بانت الهزيمة فى جانب المسلمين فلقد كان كثير من المسلمين الذين شهدوا أحدا،و لم يكونوا قد شهدوا بدرا- كانوا يأسفون على أن فاقم حظّهم من الجهاد فى معركة بدر،وتعرضهم للاستشهاد فى سبيل الله..فخرجوا إلى أحد على نية الاستشهاد..فلما كان من هؤلاء وهؤلاء،ما كان فى أحد،من إقبال على الغنائم،أو فرار من المعركة- كان هذا العتاب الرقيق من الله سبحانه وتعالى لهم،ليذكّرهم بأهم قالوا و لم يفعلوا،وهذا موقف لا يرضاه الله لهم،إذ يقول سبحانه:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» (٢-٣:الصف) وفى قوله تعالى:«فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» تأسيف وتنديم،لأولئك الذين فاقم الاستشهاد فى «أحد» وأهم قد ضنوا بأنفسهم عن هذا المقام الكريم،حتى لقد اكتفوا بأن يروا الموت فى غيرهم وهم ينظرون إليه من بعيد!

وحين مال المشركون على المسلمين يوم أحد،وأخذوهم بسيوفهم وسهامهم،وسقط شهداؤهم الذين كانوا إلى جوار رسول الله- تنادى المشركون أن محمدا قتل!!

وكان لهذا الخبر الكاذب وقعه على المسلمين،فاضطربت لذلك صفوفهم،ووقع كثير منهم تحت وطأة الحزن والكمد،فهام على وجهه يطلب الفرار من وجه هذا الهول الصاعق..إذ كانوا- وهم يعلمون أن محمدا ميت وأهم ميتون- غير مستعدّين،نفسيا،وهم فى معمعة المعركة،ووجودهم كله مستغرق فيها- كانوا غير مستعدين أن يتلقوا هذه الصدمة المزلزلة،وأن يصدقوها،وإن كانت حقّا،لا يمترون فيه ولا يشكّون! فكان عتاب الله لهم على ما كان منهم فى هذا الموقف،عتابا رقيقا،يحمل فى طياته الرحمة والمغفرة..فما لقيهم الله بالعتاب إلا بعد أن ردّهم إلى الحق الذي عرفوه وآمنوا به،وإن كان قد غاب عنهم،أو ذهلوا عنه فى هذا الموقف الرهيب! «وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»..وما الرّسل إلا ناس من الناس،وبشر من البشر..يموتون كما يموت سائر الناس،وقد مات الرسل جميعا،ولا بد أن يموت محمّد.

«أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ»..فكيف إذا مات محمد أو قتل تتحولون عـــن مواقفكم،وتنقلبون على أعقابكم تاركين ما دعاكم إليه،وأقامكم عليه مـــن الجهـــاد فى سبيل الله؟ إن ذلك غير مستقيم مع منطق أبدا!! «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّـــهَ شَيْئاً» فهذا حكم الله..إن من ينقلب على عقبيه فيكفر بالله بعد إيمانه،أو يـــنكص عـــن الجهاد بعد موت النبي،فلن يضر الله شيئا..إن الله غنى عن العالمين.

والعدول بالخطاب من الحضور إلى الغيبة،وصرفه عن الماضي إلى المستقبل- فيه ما فيه من لطف الله،ورحمته وإحسانه،بل ورضاه عن المسلمين الذين شهدوا أحدا،وشمولهم جميعـــا بهذا الصفح الجميل،والرضوان العظيم..وفى قوله تعالى:«وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» لطف فوق هذا اللطف،ورحمة فوق هذه الرحمة،وإحسان فوق هذا الإحســـان!! فالمســـلمون الذين شهدوا أحدا،قد تلقوا ألطاف الله هذه،بالشكر العظيم،وهم إذ يشكرون الله علـــى رحمته بهم وفضله عليهم مجزّون جزاء الشاكرين.

«فالشاكرون» هنا- وإن صح إطلاقها على كل شاكر- متجهة أولا وقبل كلّ شىء إلى هؤلاء الذين انتظمهم جيش رسول الله،فى معركة أحد! ثم كان قوله تعالى:«وَما كـــانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا» عزءا جميلا للمسلمين،وتسرية عنـــهم لمـــا أصيبوا به فى أحد.

فهؤلاء الذين استشهدوا فى سبيل الله قد ظفروا بالشهادة،دون أن ينقص ذلك من أجلهم ساعة واحدة..فما تموت نفس على أي وجه من وجوه الموت،دون أن تستوفى أجلـــها المقدور لها «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ» (٣٨:الرعد)..

«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ» (٤٩:النحل) فمن أراد ثواب الدنيا واستيفاء حظه منها،ففرّ بنفسه عن مواطن الابتلاء،فله ما أراد،دون أن يزيد ذلك من عمره شيئا..ومن أراد ثواب الآخرة،مجاهدا فى سبيل الله،يستقبل الموت ولا يستدبره،فله ما أراد،ولن ينقص ذلك من أجله شيئا!! وفى قولـــه تعـــالى:«وَسَـــنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» إشارة إلى المؤمنين الذين عرفوا هذه الحقيقة واستيقنوها،فشكروا الله على ما أقامهم به على طريق الجهاد،ونظمهم فى صفوف الشـــهداء،ووفاهم أجـــرهم،دون أن

يستقضيهم ذلك ساعة واحدة من آجالهم التي حرص عليها غيرهم،ممن نكص عن الجهاد،وارتدّ على عقبه،فرارا من الموت،الذي هو طالبه حين يستوفى أجله[٤٨٥٤].

وقال السعدي:

يقول تعالى:{وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} أي:ليس ببدع من الرسل،بل هو من جنس الرسل الذين قبله،وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره،ليسوا بمخلدين،وليس بقاؤهم شرطا في امتثال أوامر الله،بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال،ولهذا قال:{أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد،أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى:{ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا} إنما يضر نفسه،وإلا فالله تعالى غني عنه،وسيقيم دينه،ويعز عباده المؤمنين،فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه،مدح من ثبت مع رسوله،وامتثل أمر ربه،فقال:{وسيجزي الله الشاكرين}والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه،فقدُ رئيس ولو عظم،وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه،إذا فقد أحدهم قام به غيره،وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله،والجهاد عنه،بحسب الإمكان،لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس،فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم،وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر،وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه،فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت،مات ولو بغير سبب،ومن أراد بقاءه،فلو أتى من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله،وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى:{إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}.ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب

[٤٨٥٤] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٠٤)

الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم،فقال:{ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومـــن يـــرد ثواب الآخرة نؤته منها}.

قال الله تعالى:{كلا نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضـــيلا}.{وســـنجزي الشاكرين} و لم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته،وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر،قلة وكثرة وحسنا.[٤٨٥٥]

وفي الظلال:

إن لكل نفس كتابا مؤجلا إلى أجل مرسوم.ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجـــل المرسوم.فالخوف والهلع،والحرص والتخلف،لا تطيل أجلا.والشجاعة والثبات والإقـــدام والوفاء لا تقصر عمرا.فلا كان الجبن،ولا نامت أعين الجبناء.والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد! بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس،فتترك الاشتغال به،ولا تجعله في الحساب،وهي تفكر في الأداء والوفاء بالالتزام ات والتكاليف الإيمانية.وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص،كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع.وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزام اته،في صبر وطمأنينة،وتوكل على اللّه الذي يملـــك الآجـــال وحده.

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول..فإنه إذا كـــان العمـــر مكتوبا،والأجل مرسوما..فلتنظر نفس ما قدمت لغد ولتنظر نفس ماذا تريد..أتريـــد أن تقعد عن تكاليف الإيمان،وأن تحصر همها كله في هذه الأرض،وأن تعيش لهـــذه الـــدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى،وإلى اهتمامات أرفع،وإلى حياة أكبر من هـــذه الحياة؟..مع تساوي هذا الهم وذلك فيما يختص بالعمر والحياة؟! «وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها.وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها».

وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! - مع اتحاد النتيجـــة بالقيـــاس إلى العمر والأجل - والذي يعيش لهذه الأرض وحدها،ويريد ثواب الدنيا وحدها..إنما يحيا

[٤٨٥٥] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٠)

حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب.والــذي يتطلع إلى الأفق الآخر..إنما يحيا حياة «الإنسان» الذي كرمه اللّه واستخلفه وأفرده بهــذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب والذي يتطلع إلى الأفق الآخر..إنمــا يحيا حياة "الإنسان" الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يمــوت في موعــده المضروب بأجله المكتوب....«وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا».. «وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ»..الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنســان،فيرتفعون عــن مدارج الحيوان ويشكرون اللّه على تلك النعمة،فينهضون بتبعات الإيمان..

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة،وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء،وفق مــا يريدونه لأنفسهم،من اهتمام قريب كاهتمام الدود،أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنســان! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف - وهــي لا تملك شيئا في شأن الموت والحياة - إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس،في الحقــل الــذي تملكه،وتملك فيه الاختيار.فتختار الدنيا أو تختار الآخرة.وتنال مــن جــزاء اللّــه مــا تختار![٤٨٥٦]

كراهية الموت:

عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَــةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَــاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فــي قُلُــوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٤٨٥٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ:" كَيْفَ أَنْــتَ يَــا ثَوْبَــانُ،إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟ " قَالَ ثَوْبَانُ:بِأَبِي وَأُمِّي

[٤٨٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٩٠)

[٤٨٥٧] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟ قَالَ:" لَا،بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ " قَالُوا:وَمَا الْوَهَنُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ "[٤٨٥٨]

" يُوشِكُ الْأُمَمُ) أَيْ:يَقْرُبُ فِرَقُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ (" أَنْ تَدَاعَى "):حَذَفَ إِحْدَى التَّاءَيْنِ،أَيْ:تَتَدَاعَى (عَلَيْكُمْ):بِأَنْ يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُمْ وَكَسْرِ شَوْكَتِكُمْ وَسَلْبِ مَا مَلَكْتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ (كَمَا تَدَاعَى) أَيْ:تَتَدَاعَى (الْأَكَلَةُ) بِالْمَدِّ،وَهِيَ الرِّوَايَةُ عَلَى نَعْتِ الْفِئَةِ وَالْجَمَاعَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ،كَذَا رَوَى لَنَا عَنْ كِتَابِ أَبِي دَاوُدَ،وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِهِ،ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.وَلَوْ رُوِيَ الْأَكَلَةُ بِفَتْحَتَيْنِ عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ آكِلٍ اسْمِ فَاعِلٍ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ،وَالْمَعْنَى:كَمَا يَدْعُو أَكَلَةُ الطَّعَامِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (إِلَى قَصْعَتِهَا) أَيِ:الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ،فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا صَفْوًا،كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ،أَوْ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ،أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ.

(فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ):خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ،وَقَوْلُهُ:(نَحْنُ يَوْمَئِذٍ):مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ صِفَةٌ لَهَا،أَيْ:أَذَلِكَ التَّدَاعِي لِأَجْلِ قِلَّةٍ نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ (قَالَ:" بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثْرَةٌ ") أَيْ:عَدَدًا وَقَلِيلٌ مَدَدًا،وَهَذَا مَعْنَى الِاسْتِدْرَاكِ بِقَوْلِهِ:(" وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ ") بِالضَّمِّ مَمْدُودًا.

قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:(" كَغُثَاءِ السَّيْلِ "):قَالَ الطِّيبِيُّ بِالتَّشْدِيدِ أَيْضًا مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ،شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ،وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ،وَخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ،وَخُلَاصَتُهُ:وَلَكِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ،ضَعِيفِي الْحَالِ،خَفِيفِي الْبَالِ،مُشَتَّتِي الْآمَالِ،ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَهُ بِعَطْفِ الْبَيَانِ فَقَالَ:(وَلَيَنْزِعَنَّ) أَيْ:لَيُخْرِجَنَّ (اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ) أَيِ:الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ (مِنْكُمْ) أَيْ:مِنْ جِهَتِكُمْ (" وَلَيَقْذِفَنَّ ") بِضَمِّ الْيَاءِ أَيْ:وَلَيَرْمِيَنَّ أَيِ:اللَّهُ (" فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ") أَيِ:الضَّعْفَ،وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِالْوَهْنِ مَا يُوجِبُهُ ؛ وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةِ الْمَوْتِ حَيْثُ قَالَ:(قَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَمَا الْوَهْنُ) ؟ أَيْ مَا سَبَبُهُ وَمَا مُوجِبُهُ؟ قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:سُؤَالٌ عَنْ نَوْعِ الْوَهْنِ،أَوْ كَأَنَّهُ أَرَادَ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَكُونُ ذَلِكَ الْوَهْنُ (قَالَ:" حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ

[٤٨٥٨] - مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٣٣٢)(٨٧١٣) صحيح لغيره

") وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ فَكَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ،يَدْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الدَّنِيَّةِ فِي الدِّينِ مِنَ الْعَـــدُوِّ الْمُبِينِ،وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَقَدِ ابْتُلِينَا بِذَلِكَ،فَكَأَنَّمَا نَحْنُ الْمَيِّتُونَ بِمَا ذُكِرَ هُنَالِكَ.[٤٨٥٩]

كراهية الهجرة في سبيل الله :

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِـيمَ كُنْـتُمْ قَـالُوا كُنَّـا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُـورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُـورًا رَحِيمًا (١٠٠)} [النساء:٩٧ – ١٠٠]

كان في مكّة قوْمٌ قدْ أسْلموا،وأخْفوا إسْلامهمْ،فأخْرجهم المشْركون يوْم بدْرٍ معهـمْ إلى قتال المسْلمين،فأصيب بعْضهمْ،فقال المسْلمون كان أصْحابنا هؤلاء مسْـلمين،وأكرْهوا فاسْتغْفروا لهمْ.فترلتْ هذه الآية.فكتب المسْلمون إلى منْ بقي من المسْلمين المسْتخْفين في مكّة:أنّهمْ لا عذْر لهمْ،وأنّ عليْهم الهجْرة.

والآية عامّةٌ تتناول كلّ منْ أقام بيْن المشْركين،وهو قادرٌ على الهجْرة،وليس متمكّنـاً في موطنه منْ إقامة أمور دينه،فهو ظالمٌ لنفْسه،مرْتكبٌ حراماً بالإجْماع.وظلْمهمْ لأنْفسهمْ هو ترْكهم العمل بالحقّ خوْفاً من الأذى،وفقْـد الكرامـة عنْـد ذوي قرْبـاهمْ مـن المبْطلين،وهذا الاعْتذار ممّا يعْتذر به الذين يسايرون أصْحاب البدع بحجّة دفْع الأذى عنْ أنْفسهمْ بمداراة المبْطلين،وهذا لا يعْتدّ به،لأنّ الواجب يقْضي عليهمْ بإقامة الحـقّ مـع احْتمال الأذى في سبيل الله،أو الهجْرة إلى حيْث يتمكّنون منْ إقامة دينهمْ.

ومعْنى الآية:إنّ الذين تحْضرهم الوفاة،وهمْ مقيمون في أرْض الشّرْك لا يسْتطيعون إقامـة الشّعائر الدّينيّة،ولا إظْهارها (وقدْ عدّ الله تعالى هؤلاء ظالمين أنْفسهمْ بترْكهم الهجْرة إلى

[٤٨٥٩] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٦٥)

دار الأمْن والإسْلام)،فتسْألهم الملائكة الكرام: لم لبثْتمْ مقيمين في أرْض الكفْر،وتــركْتم الهجْرة؟ فيجيبون:إنّهم كانوا مسْتضْعفين في الأرْض،لا يقْدرون علـى الخـروج مـن البلد،ولا الذّهاب في الأرْض.فتقول لهم الملائكة:أليْستْ أرْض الله واسعةً فتهاجروا فيهـا إلى حيْث الأمْن والحرّيّة،والقدْرة على إظْهار الإيمان؟ ويقول تعالى:إنّ هـؤلاء الظّـالمين لأنْفسهمْ مأْواهمْ جهنّم،وساءتْ مصيراً.

واسْتثْنى الله تعالى منْ سوء المصير،الذي ينْتظر القاعدين عن الهجْرة منْ دار الشّـرْك – وهمْ لا يسْتطيعون إقامة شعائر دينهم – المسْتضْعفين الذين لا يقْدرون على التّخلّص منْ أيْدي المشْركين،والذين لوْ قدروا على التّخلّص لمـا اسْـتطاعوا الاهْتـداء إلى سـلوك الطّريق،وإيجاد السّبيل،كالعجزة والمرْضى والنّساء والمـراهقين الـذين عقلـوا.فهـؤلاء المعْذورون قدْ يتجاوز الله عنْهمْ بترْك الهجْرة منْ دار الكفْر،والله كثير العفْو والغفْران.

يحرّض الله تعالى المؤْمنين على الهجْرة،ويرغّبهمْ في مفارقة المشْركين،ويعْلمهمْ أنّ المؤْمنين حيْثما ذهبوا وجدوا أماكن أمْنٍ يلْجؤون إليها،ويتحصّنون بها من المشْـركين،ويتحرّرون فيها من الأعْداء،ويراغمونهم بها،ويجدون سعةً في الرّزْق.ومنْ يخْرج منْ بيْته بنيّة الهجْـرة فيلْقى حتْفه في الطّريق،فقدْ حصل له الثّواب عنْد الله،مثْل ثواب منْ هاجر.[٤٨٦٠]

فى هذه الآيات دعوة مشدّدة إلى محاربة الظلم والبغي والعدوان،بأسلوب غـير أسـلوب القوة،ولقاء العدوان بالعدوان،والشر بالشر،حين يكون الإنسان فى وجـه قـوة عاتيـة متسلطة،ولا قدرة له على دفعها..إن كرامة الإنسان تفرض عليه أن يدفع عن وجـوده الضيم والذل،بكل ما يملك من وسائل مادية وغير مادية،وإلا فقد باع إنسـانيّته بـثمن بخس،ودرج نفسه فى قائمة الخسيس من الحيوان.

ولن يقيم على ضيم يراد به...إلا الأذلّان:غير الحيّ والوتد
هذا على الخسف مربوط برمّته...وذا يشج فلا يرثى له أحد

[٤٨٦٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

وحين لا يجد الإنسان بين يديه القوة التي يدفع بها يد الظلم المسلّطة عليه،كان إمساك نفسه على هذا المرعى الخبيث وعدم التحول عنه،إقرارا بقبول الظلم،ونزولا على حكم الظالمين.

لهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يحرك فى نفسه كل قواه،لإنكار هذا الظلم،والتصدّى له:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»..فحيث أمكنت المسلم القوة التي يدفع بها يد الظلم والبغي،وجب عليه أن يستعمل حقه،فى الدفاع عن نفسه،وصيانة كرامته وإنسانيته..

وسلاح آخر،وضعه الإسلام فى يد المسلم حين تخلو يده من سلاح القوة،وهو الهجرة من ديار الظالمين،إلى أرض الله الواسعة،حيث يجد الإنسان وجوده وإنسانيته..وبهذا يستنقذ نفسه،ويفوّت على الظالمين إشباع شهوة الظلم والتسلط،فيه،وفى غيره من المستضعفين،حيث فتح لهم الطريق إلى الخلاص مما هم فيه من بلاء،بالهجرة والفرار من وجه الظالمين! وفى هذا الحديث الذي يدور بين الملائكة،وبين أولئك المستضعفين الذي أبوا أن يتحولوا عن مواطن الظلم- إيثارا لديارهم وأهليهم على كرامتهم وإنسانيتهم،ومعتقدهم- فى هذا الحديث مساءلة لهؤلاء الذين استضعفوا فقبلوا هذا الاستضعاف ورضوا به،واتهام لهم بتلك الجناية التي جنوها على أنفسهم،وأذلّوا بها آدميّتهم،ومحاكمة تنتهى بهم إلى عذاب السعير فى الآخرة،حيث ضاع إيمانهم فيما ضاع من آدميتهم،تحت سياط الظلم والعسف! وهذا يعنى أن المؤمن لا يصبر أبدا على الظلم،ولا يقبله،وأنه إن قبله،وصبر عليه، لم يكن فى المؤمنين..لأن المؤمن عزيز بالله،كريم على الله..

وطاعم الظلم ومستسيغه لا عزّة له ولا كرامة! فمن وجد القدرة على الهجرة والفرار من وجه الظلم والبغي،و لم يهاجر فهو آثم عند الله..لأنه فى معرض الفتنة فى دينه،وهيهات أن يسلم له دين،وهو فى هذا الموطن،الذي تنطلق منه شرارات البغي،فتحرق مادياته ومعنوياته جميعا..

وليست الهجرة هنا مقصورة على زمن معين،أو مكان معين..بل الهجرة مفتوحة فى كل زمان،وإلى كل مكان،يجد فيه المؤمن متنّفسا لمشاعره،ومنطلقا للسانه،ووجوها لسـعيه! وقوله تعالى:«إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» استثناء وارد على الحكم العام الذي حكم به الله تعالى على المستضعفين الذين سكنوا إلى الظالمين،ولم يهاجروا..فهؤلاء المستضعفون من الرجال والنساء،والولدان،لا حيلة لهم ولا قدرة معهم على الهجرة،فهم معذرون إذا لم يهاجروا،وقد أعفاهم الله من هذا العقاب الذي أخذ به القادرين على الهجرة،وقعدوا عنها.وقوله تعالى:«فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» تحريض لهؤلاء المستضعفين أن يكونوا على نيّة الهجرة دائما،وأن يعملوا لها،وأن يرصدوا أسباب القدرة عليها،فإن أمكنتهم الهجرة هاجروا..وإلا فإن الله كان غفورا رحيما،يغفر لهم ما يكون منهم من ضعف يمسّ عقيدهم،رحمة بهم من رب رحيم.[٤٨٦١]

وقال السعدي:

هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات،فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم،ويقولون لهم:{فِيمَ كُنْتُمْ} أي:على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم،وربما ظاهرتموهم على المؤمنين،وفاتكم الخير الكثير،والجهاد مع رسوله،والكون مع المسلمين،ومعاونتهم على أعدائهم.

{قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرْضِ} أي:ضعفاء مقهورين مظلومين،ليس لنا قدرة على الهجرة.وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم،ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها،واستثنى المستضعفين حقيقة.ولهذا قالت لهم الملائكة:{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} وهذا استفهام تقرير،أي:قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة،فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه،فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله،كما قال تعالى:{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي

[٤٨٦١] – التفسير القرآني للقرآن (٣/ ٨٧٧)

وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم:{فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} وهذا كما تقدم،فيه ذكر بيان السبب الموجب،فقد يترتب عليه مقتضاه،مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه،وقد يمنع من ذلك مانع.وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات،وتركها من المحرمات،بل من الكبائر،وفي الآية دليل على أن كل مَن توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل،وذلك مأخوذ من لفظ "التوفي" فإنه يدل على ذلك،لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم،لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم،وموافقته لمحله.ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة،الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه {وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا}.فهؤلاء قال الله فيهم:{فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} و "عسى" ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه،وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة،وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته،ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي،بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب.والله أعلم.وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور،كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد:{لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} وقال في عموم الأوامر:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}.وقال النبي ﷺ:"إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله:{لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً} وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.[٤٨٦٢]

وفي الظلال:

لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية – في مكة وغيرها – بعد هجرة رسول اللّه – ﷺ– وقيام الدولة المسلمة.فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا.حبستهم أموالهم ومصالحهم – حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجرا يحمل

[٤٨٦٢] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٥)

معه شيئا من ماله – أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة – حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له في الطريق..وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي،من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلا للهجرة..

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين بعد عجزهم عن إدراك الرسول – ﷺ – وصاحبه،ومنعهما من الهجرة.وبعد قيام الدولة المسلمة.وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في بدر،وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم.فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألوانا من العذاب والنكال،ويفتنوهم عن دينهم في غيظ شديد.

وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية،ومشاركة المشركين عبادهم..

وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها – متى استطاعوا – فأما بعد قيام الدولة،ووجود دار الإسلام،فإن الخضوع للفتنة،أو الالتجاء للتقية،وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام،والحياة في دار الإسلام..أمر غير مقبول.

وهكذا نزلت هذه النصوص تسمي هؤلاء القاعدين محافظة على أموالهم ومصالحهم،أو إشفاقا من مشاق الهجرة ومتاعب الطريق..حتى يحين أجلهم..تسميهم:«ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»..بما أنهم حرموها الحياة في دار الإسلام،تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة.وألزموها الحياة في دار الكفر تلك الحياة الذليلة الخانسة الضعيفة المضطهدة،وتوعدهم «جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً»..مما يدل على أنها تعنى الذين فتنوا عن دينهم بالفعل هناك! ولكن التعبير القرآني – على أسلوب القرآن – يعبر في صورة،ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار:«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ..ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ..قالُوا:فِيمَ كُنْتُمْ؟ قالُوا:كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ! قالُوا:أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً،فَتُهاجِرُوا فِيها»؟!..

إن القرآن يعالج نفوسا بشرية ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة..لذلك يرسم هذا المشهد..إنه يصور حقيقة.ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام،في علاج النفس البشرية..

ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية،وتتحفز لتصور ما فيه.وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا وتحفزا وحساسية.

وهم - القاعدون - ظلموا أنفسهم.وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم..ظالمي أنفسهم.وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها.إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه،فهذه هي اللحظة الأخيرة.

ولكن الملائكة لا يتوفونهم - ظالمي أنفسهم - في صمت.بل يقلبون ماضيهم،ويستنكرون أمرهم! ويسألونهم:فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم؟ وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا:«قالُوا:فِيمَ كُنْتُمْ؟»..

فإن ما كانوا فيه ضياع في ضياع كأن لم يكن لهم شغل إلا هذا الضياع! ويجيب هؤلاء المحتضرون،في لحظة الاحتضار،على هذا الاستنكار،جوابا كله مذلة،ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة.

«قالُوا:كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ»..كنا مستضعفين.يستضعفنا الأقوياء.كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئا.وعلى كل ما في هذا الرد من مهانة تدعو إلى الزراية وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها في لحظة الاحتضار،بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة..فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمي أنفسهم.بل يجبهونهم بالحقيقة الواقعة ويؤنبونهم على عدم المحاولة،والفرصة قائمة:«قالُوا:أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها؟!»..

إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم - إذن - على قبول الذل والهوان والاستضعاف،والفتنة عن الإيمان..إنما كان هناك شيء آخر..حرصهم على أموالهم

ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر،وهناك دار الإسلام.ويمسكهم في الضيق وهناك أرض اللّه الواسعة.والهجرة إليها مستطاعة مع احتمال الآلام والتضحيات.

وهنا ينهي المشهد المؤثر،بذكر النهاية المخيفة:«فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ،وَساءَتْ مَصِيراً»..

ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر والتعرض للفتنة في الدين والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ الضعاف،والنساء والأطفال فيعلقهم بالرجاء في عفو اللّه ومغفرته ورحمته.بسبب

عذرهم البين وعجزهم عن الفرار:«إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ،لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ،وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً»..

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان متجاوزا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين،وفي بيئة معينة..يمضي حكما عاما يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض وتمسكه أمواله ومصالحه،أو قراباته وصداقاته أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها.متى كان هناك – في الأرض في أي مكان – دار للإسلام يأمن فيها على دينه،ويجهر فيها بعقيدته،ويؤدي فيها عباداته ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة اللّه،ويستمتع بهذا المستوي الرفيع من الحياة..[٤٨٦٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

٤٨٦٣ – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١١٠٣)

الباب الثاني والثلاثون

عقوبة ترك الجهاد في سبيل الله

الاستبدال بقوم غيركم (١):

قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨]

إنّكمْ يا أيّها المسْلمون تدعون إلى الإنْفاق في سبيل الله،وفي سبيل مجاهدة أعْدائه،وفي سبيل نصْر دينه.ومن المؤمنين منْ يبْخل بالإنْفاق في هذا السّبيل،ومنْ يبْخلْ فإنّما يضرّ نفْسه بذلك،لأنّه يحرمها ثواب الله،ويحْرمها منْ رضْوان الله،والله غنيٌّ عن العباد،وعنْ أمْوالهم وعنْ جهادهمْ،وهم الفقراء إلى فضْله وإحْسانه،وإنما حثّهمْ على الجهاد والبذْل لينالوا الأجْر والمثوْبة.

ثمّ يقول تعالى لهم:إنّهم إنْ كانوا يتولّوْن عنْ طاعة ربّهمْ،وعن اتّباع شرْعه فإنه قادرٌ على إهْلاكهمْ،وعلى الإتْيان بقومٍ آخرين يؤمنون بالله ويسْتجيبون لأوامره،ويعْملون بشرائعه،ولا يكونون أمْثال منْ أهْلكهمْ في البخْل والتّباطؤ عن الجهاد.[٤٨٦٤]

{هَا أَنْتُمْ} أَيُّهَا النَّاسُ {هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [محمد:٣٨] يَقُولُ:تُدْعَوْنَ إِلَى النَّفَقَةِ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ {فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ} [محمد:٣٨] بِالنَّفَقَةِ فِيهِ،وَأُدْخِلَتْ «هَا» فِي مَوْضِعَيْنِ،لِأَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتِ التَّقْرِيبَ جَعَلَتِ الْمَكْنِيَّ بَيْنَ «هَا» وَبَيْنَ «ذَا»،فَقَالَتْ:هَا أَنْتَ ذَا قَائِمًا،لِأَنَّ التَّقْرِيبَ جَوَابُ الْكَلَامِ،فَرُبَّمَا أَعَادَتْ «هَا» مَعَ «ذَا»،وَرُبَّمَا اجْتَزَأَتْ بِالْأُولَى،وَقَدْ حَذَفَتِ الثَّانِيَةَ،وَلَا يُقَدِّمُونَ أَنْتُمْ قَبْلَ «هَا»،لِأَنَّ هَا جَوَابٌ فَلَا تُقَرَّبُ بِهَا بَعْدَ الْكَلِمَةِ وَقَالَ بَعْضُ نَحْوِيِّي الْبَصْرَةِ:جُعِلَ التَّنْبِيهُ فِي مَوْضِعَيْنِ لِلتَّوْكِيدِ وَقَوْلُهُ:{وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ} [محمد:٣٨] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَمَنْ يَبْخَلْ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ بُخْلِ نَفْسِهِ،لِأَنَّ نَفْسَهُ لَوْ

[٤٨٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

كَانَتْ جَوَادًا لَمْ تَبْخَلْ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَكِنْ كَانَتْ تَجُودُ بِهَا {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} [محمد:٣٨] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:وَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَا نَفَقَاتِكُمْ،لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ وَالْخَلْقُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ،وَأَنْتُمْ مِنْ خَلْقِهِ،فَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ،وَإِنَّمَا حَضَّكُمْ عَلَى النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ،لِيُكْسِبَكُمْ بِذَلِكَ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

قَالَ:قَالَ ابْنُ زَيْدٍ،فِي قَوْلِهِ:{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} قَالَ:«لَيْسَ بِاللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ وَأَنْتُمْ أَحْوَجُ إِلَيْهِ»

وَإِنْ تَتَوَلَّوْا أَيُّهَا النَّاسُ عَنْ هَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ،فَتَرْتَدُّوا رَاجِعِينَ عَنْهُ {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨] يَقُولُ:يُهْلِكْكُمْ ثُمَّ يَجِيءُ بِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرِكُمْ بَدَلًا مِنْكُمْ يُصَدِّقُونَ بِهِ،وَيَعْمَلُونَ بِشَرَائِعِهِ {ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨] يَقُولُ:ثُمَّ لَا يَبْخَلُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ حُدُودِ دِينِهِمْ،وَلَكِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ [ص:٢٣٣] وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

عَنْ قَتَادَةَ،{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨] يَقُولُ:«إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ كِتَابِي وَطَاعَتِي أَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ،قَادِرٌ وَاللَّهِ رَبُّنَا عَلَى ذَلِكَ،عَلَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ،وَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ»

عَنْ قَتَادَةَ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨] قَالَ:«إِنْ تَوَلَّوْا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ» حَدَّثَنِي يُونُسُ،قَالَ:أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ،قَالَ:قَالَ ابْنُ زَيْدٍ،فِي قَوْلِهِ:{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨] وَذُكِرَ أَنَّهُ عَنَى بِقَوْلِهِ:{يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨]:الْعَجَمُ مِنْ عَجَمِ فَارِسَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨] كَانَ سَلْمَانُ إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ

الَّذينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدلُوا بنَا،قَالَ:فَضَرَبَ النَّبيُّ ﷺ عَلَى مَنْكب سَلْمَانَ،فَقَالَ:«منْ هَـذَا وَقَوْمه،وَالَّذي نَفْسي بيَده لَوْ أَنَّ الدِّينَ تَعَلَّقَ بالثُّرَيَّا لَنَالَتْهُ رجَالٌ منْ أَهْل فَارسَ»

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ تَلَا هَذه الْآيَةَ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَـا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨] قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذينَ إنْ تَوَلَّيْنَـا اسْـتُبْدلُوا بنَا،ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا؟ فَضَرَبَ عَلَى فَخذ سَلْمَانَ قَالَ:«هَذَا وَقَوْمُهُ،وَلَوْ كَانَ الدِّينُ عنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رجَالٌ منَ الْفُرْس»

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ،قَالَ:نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ وَسَلْمَانُ الْفَارسيُّ إلَى جَنْب رَسُول اللَّه ﷺ تَحُـكُّ رُكْبَتُهُ رُكْبَتَهُ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَـالَكُمْ} [محمـد:٣٨] قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه وَمَن الَّذينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدلُوا بنَا ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا؟ قَالَ:فَضَـرَبَ فَخذَ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ:«هَذَا وَقَوْمُهُ»

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ تَلَا هَذه الْآيَةَ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَـا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨] قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذينَ إنْ تَوَلَّيْنَـا اسْـتُبْدلُوا بنَا،ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا؟ فَضَرَبَ عَلَى فَخذ سَلْمَانَ قَالَ:«هَذَا وَقَوْمُهُ،وَلَوْ كَانَ الدِّينُ عنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رجَالٌ منَ الْفُرْس»

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ،قَالَ:نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ وَسَلْمَانُ الْفَارسيُّ إلَى جَنْب رَسُول اللَّه ﷺ تَحُـكُّ رُكْبَتُهُ رُكْبَتَهُ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَـالَكُمْ} [محمـد:٣٨] قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه وَمَن الَّذينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدلُوا بنَا ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا؟ قَالَ:فَضَـرَبَ فَخذَ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ:«هَذَا وَقَوْمُهُ»

عَنْ مُجَاهد،{يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨] «مَنْ شَاءَ» وَقَالَ آخَرُونَ:هُـمْ أَهْـلُ الْيَمَن

قَالَ رَاشدُ بْنُ سَعْد،وَعَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ جُبَيْر،وَشُرَيْحُ بْنُ عُبَيْـد،في قَوْلـه:{وَإِنْ تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨] قَالَ:«أَهْلُ الْيَمَن» [٤٨٦٥]

وفي الظلال:

[٤٨٦٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ٢٣١)

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان،وأحس بكرامته على اللّه،وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم.ويمشي في الأرض بسلطان اللّه في قلبه ونور اللّه في كيانه ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه..وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه،ويطرد من الكنف،وتوصد دونه الأبواب.لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب.

إن الإيمان هبة ضخمة،لا يعد لها في هذا الوجود شيء والحياة رخيصة،والمال زهيد زهيد،حين يوضع الإيمان في كفة،ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه..

ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن،وهو يتلقاه من اللّه..[٤٨٦٦]

الاستبدال بقوم غيركم (٢)

قال تعالى:{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح:١٦]

قلْ يا محمّد لهؤلاء الأعْراب،الذين تخلّفوا عنْ صحْبتك إلى الحديْبية:إنّكمْ ستدعوْن إلى قتال قوْمٍ أولي قوّةٍ ونجْدةٍ وبأْسٍ،وإنّ عليْكمْ أنْ تخيّروهمْ بيْن أمْرين:إمّا السّيف وإمّا الإسْلام – وهذا حكْمٌ عامٌّ في مشْركي العرب والمرْتدّين – فإذا أطعْتمْ أمر الله ورسوله وخرجْتمْ إلى مجاهدة هؤلاء،فإنّ الله سيثيبكمْ على ذلك ثواباً جزيلاً فتنالون المغْنم في الدّنيا،والجنّة في الآخرة.أمّا إذا رفضْتم الخروج إليهم،والمبادرة إلى مجاهدتهمْ،وعصيْتمْ أمْر الله ورسوله،كما فعلْتمْ منْ قبْل،حين قعدْتمْ عن الخروج إلى الحديْبية،فإنّ الله سيعذّبكمْ عذاباً أليماً في الدّنيا والآخرة.[٤٨٦٧]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:{قُلْ} [البقرة:٨٠] يَا مُحَمَّدُ {لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ} [الفتح:١٦] عَنِ [ص:٢٦٦] الْمَسِيرِ مَعَكَ،{سَتُدْعَوْنَ إِلَى} [الفتح:١٦]

[٤٨٦٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ – ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١١٨)

[٤٨٦٧] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٤٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

قِتَالِ {قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ} [الفتح:١٦] فِي الْقِتَالِ {شَدِيدٍ} [البقرة:١٦٥] وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ أَنَّ هَؤُلَاءَ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى قِتَالِهِمْ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ:هُمْ أَهْلُ فَارِسَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،{أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء:٥] «أَهْلُ فَارِسَ»

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى،فِي قَوْلِهِ:{سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] قَالَ:«فَارِسُ وَالرُّومُ»

عَنْ قَتَادَةَ،قَالَ:قَالَ الْحَسَنُ،فِي قَوْلِهِ:{سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] قَالَ:«هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ»

عَنْ مُجَاهِدٍ،قَوْلَهُ:{أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء:٥] قَالَ:«هُمْ فَارِسُ»

عَنْ قَتَادَةَ {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] قَالَ:قَالَ الْحَسَنُ:«دُعُوا إِلَى فَارِسَ وَالرُّومِ»

وَقَالَ آخَرُونَ:هُمْ هَوَازِنُ بِحُنَيْنٍ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،وَعِكْرِمَةَ،فِي قَوْلِهِ:{سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] قَالَ:هَوَازِنُ "

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] قَالَ:«هَوَازِنُ وَثَقِيفٌ»

عَنْ قَتَادَةَ،{أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح:١٦] قَالَ:«هِيَ هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ يَوْمَ حُنَيْنٍ»

عَنْ قَتَادَةَ {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] «فَدُعُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ إِلَى هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ فَمِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ الْإِجَابَةَ وَرَغِبَ فِي الْجِهَادِ»

وَقَالَ آخَرُونَ:بَلْ هُمْ بَنُو حَنِيفَةَ

عَنِ الزُّهْرِيِّ،{أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء:٥] قَالَ:«بَنُو حَنِيفَةَ مَعَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ»

وَقَالَ آخَرُونَ:لَمْ تَأْتِ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدُ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،{سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح:١٦] لَمْ تَأْتِ هَذِهِ الْآيَةُ وَقَالَ آخَرُونَ:هُمُ الرُّومُ،عَنْ كَعْبٍ،قَالَ:{أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء:٥] قَالَ:«الرُّومُ» وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ

اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَخْبَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنَّهُمْ سَيُدْعَوْنَ إِلَى قِتَالِ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ فِي الْقِتَالِ،وَنَجْدَةٍ فِي الْحُرُوبِ،وَلَمْ يُوضَعْ لَنَا الدَّلِيلُ مِنْ خَبَرٍ وَلَا عَقْلٍ عَلَى أَنَّ الْمَعْنِيَّ بِذَلِكَ هَوَازِنُ،وَلَا بَنُو حَنِيفَةَ وَلَا فَارِسُ وَلَا الرُّومُ،وَلَا أَعْيَانٌ بِأَعْيَانِهِمْ،وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَنَى بِذَلِكَ بَعْضَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ،وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَنَى بِهِمْ غَيْرَهُمْ،وَلَا قَوْلَ فِيهِ أَصَحُّ مِنْ أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:إِنَّهُمْ سَيُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ تُقَاتِلُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تُدْعَوْنَ إِلَى قِتَالِهِمْ،أَوْ يُسْلِمُونَ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا قِتَالٍ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُوا»،وَعَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى خِلَافِ مَصَاحِفِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ،وَخِلَافًا لِمَا عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مِنَ الْقُرَّاءِ،وَغَيْرُ جَائِزٍ عِنْدِي الْقِرَاءَةُ بِهَا لِذَلِكَ تَأْوِيلُ ذَلِكَ:تُقَاتِلُونَهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يُسْلِمُوا،أَوْ حَتَّى يُسْلِمُوا

فَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ فِي إِجَابَتِكُمْ إِيَّاهُ إِذَا دَعَاكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْأُولِي الْبَأْسِ الشَّدِيدِ،فَتُجِيبُوا إِلَى قِتَالِهِمْ وَالْجِهَادِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ {يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا} [الفتح:١٦] يَقُولُ:يُعْطِكُمُ اللَّهُ عَلَى إِجَابَتِكُمْ إِيَّاهُ إِلَى حَرْبِهِمُ الْجَنَّةَ،وَهِيَ الْأَجْرُ الْحَسَنُ {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [الفتح:١٦] يَقُولُ:وَإِنْ تَعْصُوا رَبَّكُمْ فَتُدْبِرُوا عَنْ طَاعَتِهِ وَتُخَالِفُوا أَمْرَهُ،فَتَتْرُكُوا قِتَالَ الْأُولِي الْبَأْسِ الشَّدِيدِ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى قِتَالِهِمْ {كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [الفتح:١٦] يَقُولُ:كَمَا عَصَيْتُمُوهُ فِي أَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْمَسِيرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ،مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَوْا إِلَى قِتَالِ أُولِي الْبَأْسِ الشَّدِيدِ {يُعَذِّبْكُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا} يَعْنِي:وَجِيعًا،وَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ عَلَى عِصْيَانِكُمْ إِيَّاهُ،وَتَرْكِكُمْ جِهَادَهُمْ وَقِتَالَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ "[٤٨٦٨]

هذه دعوة إلى هؤلاء المخلفين،تقطع عليهم مقولتهم للمؤمنين:«بل تحسدوننا»..وهم فى هذه الدعوة مدعوون إلى قتال قوم أولى بأس شديد،وأنهم مطالبون كذلك فى هذا القتال أن يقفوا موقف المجاهدين حقّا،وهو ألا يتحولوا عن القتال إلّا إذا استسلم لهم العدوّ،ودخل فى دين الله..

[٤٨٦٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢١/ ٢٦٥)

وقد اختلف المفسّرون فى هؤلاء القوم ذوى البأس الشديد،الذين سيدعى هؤلاء المخلفون إلى قتالهم،حين يندب المؤمنون إلى قتالهم..

ويذهب كثير من المفسرين،إلى أن هؤلاء القوم هم فارس،والروم..

وهذا غير صحيح من وجهين:

أولهما:أن قتال فارس والروم لا يكون فيه قتالهم إلى أن يدخلوا فى الإسلام،بل إنه يكتفى منهم بقبول الجزية فى حال هزيمتهم،وإبائهم أن يدخلوا فى الإسلام،وإنما حكم القتال أو الإسلام هو فى حقّ العرب وحدهم،لأنهم هم الذين تقوم عليهم الحجة كاملة،بتلك المعجزة التى فى كتاب الله المعجز،الذي جاء بلسانهم..

والوجه الآخر،هو أن هؤلاء المخاطبين المخلفين،ينبغى أن تكون دعوتهم إلى قتال هؤلاء القوم بعد زمن قليل من وقت نزول هذه الآية..

حتى لا يذهب الموت بكثير منهم،إذ طال الزمن بهم،وقتال الفرس والروم جاء بعد نزول هذه الآيات،بنحو عشر سنين..

والذي يصحّ عندنا من هذه المقولات،هو القول بأن القوم ذوى البأس الشديد،هم بنو حنيفة،قوم مسيلمة الكذاب،الذين ارتدوا عن الإسلام،بعد وفاة النبي،ﷺ،وكان ذلك بعد أربع سنين من نزول هذه الآية..

وبنو حنيفة،قد ارتدّوا عن الإسلام،بعد وفاة الرسول،فندب أبو بكر- رضى الله عنه- المسلمين إلى جهادهم،وقد حاربوا جيوش المسلمين حربا قاسية،حتى لقد استشهد من المسلمين أعداد كثيرة،كان من بينهم سبعون شهيدا من القرّاء وحدهم،كما يقول ذلك أصحاب المغازي..

وهذا كله حديث عن مستقبل لم يجىء بعد،وإنما هى أحداث ومواقف سوف تقع تباعا،ابتداء من نزول هذه الآيات..[٤٨٦٩]

لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله،ويعتذرون بغير عذر،وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال،بل لمجرد الغنيمة،قال تعالى

[٤٨٦٩] - التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤١٤)

ممتحنا لهم: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} أي:سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة،وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم.{تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} أي:إما هذا وإما هذا،وهذا هو الأمر الواقع،فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام،إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم،فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية،بل إما أن يدخلوا في الإسلام،وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه،فلما أثخنهم المسلمون،وضعفوا وذلوا،ذهب بأسهم،فصاروا إما أن يسلموا،وإما أن يبذلوا الجزية،{فَإِنْ تُطِيعُوا} الداعي لكم إلى قتال هؤلاء {يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا} وهو الأجر الذي رتبه الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله،{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ} عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله،{يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين،الداعين لجهاد أهل البأس من الناس،وأنه تجب طاعتهم في ذلك.[٤٨٧٠]

وفي الظلال:

وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولوا البأس الشديد.وهل كانوا على عهد رسول اللّه - ﷺ- أم على عهود خلفائه.والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول اللّه - ﷺ- ليمحص اللّه إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة.

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية،وطريقة علاج النفوس والقلوب،بالتوجيهات القرآنية،والابتلاء ات الواقعية.وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين،وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم.

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع،فقد بين اللّه أصحاب الأعذار الحقيقة الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد،بلا حرج ولا عقاب:«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ،وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ،وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ.وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً»..

[٤٨٧٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٩٣)

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد.والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ.والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان.هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية.فمن يطع اللّه ورسوله فالجنة جزاؤه.ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره.ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه،وبين راحة القعود وما وراءه..ثم يختار![4871]

الذل والهوان:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ،وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ،لَا تَنْفَكُّ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ "[4872]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ،وَمَا نَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَّا أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،حَتَّى كَانَ هَا هُنَا بِأَخَرَةٍ،فَأَصْبَحَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ أَحَبَّ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ،وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ،وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَتَرَكُوا الْجِهَادَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ مِنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»،

وعَنْ مُجَاهِدٍ،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ:لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ وَمَا يُرَى أَحَدُنَا أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ.ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَهُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ:«أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذُلًّا،لَا يَنْزِعُهُ مِنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا أَمْرَ دِينِهِمْ»

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ بِذَلِكَ،إِلَّا أَنَّهُ قَالَ:«وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ»،وَزَادَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:" وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعَلَّقُ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ:إِنَّ هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ،وَضَنَّ عَنِّي بِمَالِهِ "[4873]

[4871] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤١٤٩)

[4872] - مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٥١)(٥٠٠٧) صحيح لغيره

[4873] - تهذيب الآثار مسند عمر (١/ ١٠٩)(١٨٠-١٨٢) صحيح

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[٤٨٧٤]

قَالَ فِي الْقَامُوس:هو التَّاجر إذا بَاعَ سِلْعَته بِثَمَنٍ إِلَى أَجَل،ثُمَّ اشْتَرَاهَا مِنْهُ بِأَقَلّ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَن،انْتَهَى.وقَالَ الرَّافِعِيّ:وَبَيْع الْعِينَة أَنْ يَبِيع شَيْئًا مِنْ غَيْره بِثَمَنٍ مُؤَجَّل،وَيُسَلِّمهُ إِلَى الْمُشْتَرِي،ثُمَّ يَشْتَرِيه قَبْل قَبْض الثَّمَن بِثَمَنٍ نَقْد أَقَلّ مِنْ ذَلِكَ الْقَدْر انْتَهَى[٤٨٧٥].

وقَالَ الْحَافِظ شَمْس الدِّين ابْن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّه:وَفِي الْبَاب حَدِيث أَبِي إِسْحَاق السُّبَيْعِيِّ عَنْ امْرَأَته " أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَة فَدَخَلَتْ مَعَهَا أُمّ وَلَد زَيْد بْن أَرْقَم،فَقَالَتْ:يَا أُمّ الْمُؤْمِنِينَ،إِنِّي بِعْت غُلَامًا مِنْ زَيْد بْن أَرْقَمَ بِثَمَانِمِائَة دِرْهَم نَسِيئَة،وَإِنِّي ابْتَعْته مِنْهُ بِسِتِّمِائَة نَقْدًا،فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَة:بِئْسَمَا اشْتَرَيْت،وَبِئْسَمَا شَرَيْت،أَخْبِرِي زَيْدًا أَنَّ جِهَاده مَعَ رَسُول اللَّه – ﷺ – قَدْ بَطَلَ إِلَى أَنْ يَتُوب " هَذَا الْحَدِيث رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيّ،وَذَكَرَهُ الشَّافِعِيّ،وَأَعَلَّهُ بِالْجَهَالَة بِحَال امْرَأَة أَبِي إِسْحَاق،وَقَالَ:لَوْ ثَبَتَ،فَإِنَّمَا عَابَتْ عَلَيْهَا بَيْعًا إِلَى الْعَطَاء،لِأَنَّهُ أَجَل غَيْر مَعْلُوم.ثُمَّ قَالَ:وَلَا يَثْبُت مِثْل هَذَا عَنْ عَائِشَة،وَزَيْد بْن أَرْقَمَ لَا يَبِيع إِلَّا مَا يَرَاهُ حَلَالًا.قَالَ الْبَيْهَقِيُّ:وَرَوَاهُ يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق عَنْ أُمّه الْعَالِيَة بِنْت أَنْفَع " أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَة مَعَ أُمّ مُحَمَّد ".وَقَالَ غَيْره:هَذَا الْحَدِيث حَسَن،وَيُحْتَجّ بِمِثْلِهِ،لِأَنَّهُ قَدْ رَوَاهُ عَنْ الْعَالِيَة ثِقَتَانِ ثَبْتَانِ:أَبُو إِسْحَاق زَوْجهَا،وَيُونُس ابْنهَا،وَلَمْ يُعْلَم فِيهَا جَرْح،وَالْجَهَالَة تَرْتَفِع عَنْ الرَّاوِي بِمِثْلِ ذَلِكَ،ثُمَّ إِنَّ هَذَا مِمَّا ضُبِطَتْ فِيهِ الْقِصَّة،وَمَنْ دَخَلَ مَعَهَا عَلَى عَائِشَة،وَقَدْ صَدَّقَهَا زَوْجهَا وَابْنهَا وَهُمَا مَنْ هُمَا،فَالْحَدِيث مَحْفُوظ.وَقَوْله فِي الْحَدِيث الْمُتَقَدِّم " مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَة فَلَهُ أَوْكَسهمَا أَوْ الرِّبَا " هُوَ مُنَزَّل عَلَى الْعِينَة بِعَيْنِهَا،قَالَهُ شَيْخنَا،لِأَنَّهُ بَيْعَانِ فِي بَيْع وَاحِد،فَأَوْكَسهمَا:الثَّمَن الْحَالّ وَإِنْ أَخَذَ بِالْأَكْثَرِ وَهُوَ الْمُؤَجَّل – أَخَذَ بِالرِّبَا.فَالْمَعْنَيَانِ لَا يَنْفَكَّانِ مِنْ أَحَد الْأَمْرَيْنِ،إِمَّا الْأَخْذ بِأَوْكَس الثَّمَنَيْنِ،أَوْ الرِّبَا،وَهَذَا لَا يَتَنَزَّل إِلَّا عَلَى الْعِينَة.[٤٨٧٦]

[٤٨٧٤] - سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤)(٣٤٦٢) صحيح

[٤٨٧٥] - عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)

[٤٨٧٦] - عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)

وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،حُمِلَ هَذَا عَلَى الاشْتِغَال بِالزَّرْعِ فِي زَمَن يَتَعَيَّن فِيهِ الْجِهَاد.[٤٨٧٧]
أَيْ:سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صَغَارًا وَمَسْكَنَة،وَمِنْ أَنْوَاع الذُّلّ الْخَرَاج الَّذِي يُسَلِّمُونَهُ كُلّ سَنَة لِمُلَّاكِ الْأَرْض،وَسَبَب هَذَا الذُّلّ وَاَللَّه أَعْلَم أَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْجِهَاد فِي سَبِيل اللَّه الَّذِي فِيهِ عِزّ الْإِسْلَام وَإِظْهَاره عَلَى كُلّ دِين،عَامَلَهُمْ اللَّهُ بِنَقِيضِهِ وَهُوَ إِنْزَال الذِّلَّة بِهِمْ،فَصَارُوا يَمْشُونَ خَلْف أَذْنَاب الْبَقَر بَعْد أَنْ كَانُوا يَرْكَبُونَ عَلَى ظُهُور الْخَيْل الَّتِي هِيَ أَعَزّ مَكَان.[٤٨٧٨]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ،قَالَ:وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الحَرْثِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«لاَ يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الذُّلَّ» عَجْلاَنَ»[٤٨٧٩]

وقال الطحاوي:"بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الذُّلِّ بِالزَّرْعِ عن أبي أُمَامَةَ،وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الْحَرْثِ،فَقَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَا دَخَلَتْ هَذِهِ بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الذُّلَّ "

فَتَأَمَّلْنَا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا فَوَجَدْنَا وِلَايَةَ خَرَاجِ الْأَرْضِينَ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهَا وَوَضْعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي يَجِبُ وَضْعُهَا فِيهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ يَتَوَلَّاهُ مِنْهُمْ أَئِمَّتُهُمْ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ فَيَضَعُونَهُ فِيمَا يَجِبُ وَضْعُهُ فِيهِ وَكَانَ مَا تَوَلَّاهُ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ لِلْمُسْلِمِينَ كَمَا تَوَلَّاهُ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَكَانَ مَنْ دَخَلَ فِيمَا يُوجِبُ الْخَرَاجَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَادَ بِهِ مَطْلُوبًا بِمَا كَانَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ طَالِبًا فَكَانَ فِي ذَلِكَ دُخُولُ الذُّلِّ عَلَيْهِمْ.وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ رِزْقِهِ،وَعَنِ انْتِقَالِ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ عَنْهُ وَعَنْ لُزُومِهِمَا مُخَالَفَتَهُ،فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" بُعِثْتُ

[٤٨٧٧] - عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)
[٤٨٧٨] - عون المعبود - (ج ٧ / ص ٤٥٣)
[٤٨٧٩] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٣)(٢٣٢١)

[ش (سكة) الحديدة التي تحرث بها الأرض.(آلة الحرث) آلات الزراعة.(هذا) إشارة إلى السكة والآلة.(أدخله الذل) وذلك أن أقبلوا على الزراعة بحيث شغلتهم عن الجهاد والقيام بما لزمهم من واجبات دينية]

بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ لِيُعْبَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِـي تَحْـتَ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ "[٤٨٨٠]

قال الألباني في الصَّحيحَة:فذكر أن تسليط الذل ليس هو بمجرد الزرع والحرث،بـل لمـا اقترن به من الإخلاد إليه والانشغال به عن الجهـاد في سـبيل الله فهـذا هـو المـراد بالحديث،وأما الزرع الذي لم يقترن به شيء من ذلك فهو المُراد بالأحاديث المُرَغِّبـة في الحرث،فلا تعارض بينها ولا إشكال.أ.هـ[٤٨٨١]

ترك الجهاد عند تعينه كبيرة من الكبائر:

وفي الزواجر:ترْك الْجهاد عنْد تعيّنه:

(الْكَبِيرَةُ التِّسْعُونَ وَالْحَادِيَةُ وَالثَّانِيَةُ وَالتِّسْعُونَ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ:تَرْكُ الْجِهَادِ عِنْدَ تَعَيُّنِهِ بِـأَنْ دَخَلَ الْحَرْبِيُّونَ دَارَ الْإِسْلَامِ أَوْ أَخَذُوا مُسْلِمًا وَأَمْكَنَ تَخْلِيصُهُ مِنْهُمْ،وَتَرْكُ النَّاسِ الْجِهَـادَ مِنْ أَصْلِهِ،وَتَرْكُ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ تَحْصِينَ ثُغُورِهِمْ بِحَيْثُ يُخَافُ عَلَيْهَا مِنْ اسْـتِيلَاءِ الْكُفَّـارِ بِسَبَبِ تَرْكِ ذَلِكَ التَّحْصِينِ).قَـالَ تَعَـالَى:{وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إلَـى التَّهْلُكَـةِ} [البقرة:١٩٥]،وَهِيَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْهَلَاكِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.وَقَالَ قَوْمٌ:التَّهْلُكَةُ مَا أَمْكَـنَ التَّحَرُّزُ عَنْهُ وَالْهَلَاكُ مَا لَمْ يُمْكِنْ التَّحَرُّزُ عَنْهُ،وَقِيلَ هِيَ نَفْسُ الشَّيْءِ الْمُهْلِكِ،وَقِيلَ هِيَ مَا تَضُرُّ عَاقِبَتُهُ.

وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ الْإِلْقَاءِ بِالْأَيْدِي إلَى التَّهْلُكَةِ،فَقِيلَ هُوَ رَاجِعٌ إلَى نَفْسِ النَّفَقَةِ وَعَلَيْـهِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورِ،وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْبُخَارِيُّ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ عَلَى أَنْ لَا يُنْفِقُـوا فِـي جِهَاتِ الْجِهَادِ أَمْوَالَهُمْ فَيَسْتَوْلِيَ الْعَدُوُّ عَلَيْهِمْ وَيُهْلِكَهُمْ،فَكَأَنَّهُ قِيلَ إنْ كُنْت مِنْ رِجَـالِ الدِّينِ فَأَنْفِقْ مَالَك فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَإِنْ كُنْت مِنْ رِجَالِ الدُّنْيَا فَأَنْفِقْ مَالَك فِي دَفْعِ الْهَلَاكِ وَالضُّرِّ عَنْ نَفْسِك؛وَقِيلَ:هِيَ الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَةِ لِأَنَّ إنْفَاقَ جَمِيعِ الْمَالِ قَدْ يُؤَدِّي إلَـى الْهَلَاكِ عِنْدَ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ إلَى الْمَأْكُولِ أَوْ الْمَشْرُوبِ أَوْ الْمَلْبُوسِ،وَقِيلَ:هِيَ السَّفَرُ إلَى

[٤٨٨٠] - شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٢)(٢٣٠ و٢٣١)

[٤٨٨١] - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١/ ٩٢٤، بترقيم الشاملة آليا) والصَّحيحَة (١١)

الْجِهَاد بِلَا نَفَقَة وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمٌ فَانْقَطَعُوا فِي الطَّرِيق،وَقِيلَ:الْمُرَادُ غَيْرُ النَّفَقَة،وَعَلَيْهِ فَقِيلَ هِيَ أَنْ يَخْلُوَا بِالْجِهَاد فَيَتَعَرَّضُوا لِلْهَلَاك الَّذِي هُوَ عَذَابُ النَّار،وَقِيلَ:هِيَ اقْتِحَامُ الْحَرْب بِحَيْثُ يُقْتَلُ مِنْ غَيْر نِكَايَة تَحْصُلُ مِنْهُ لِلْعَدُوِّ لِأَنَّهُ حِينَئِذ قَاتِلٌ لِنَفْسه تَعَدِّيًا،وَرَدَّهُ بَعْضُهُمْ وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَمَلَ عَلَى صَفِّ الْعَدُوِّ فَصَاحَ بِه النَّاسُ أَلْقَى بِيَده إِلَى التَّهْلُكَة.فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ:نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَذِه الْآيَة وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا،صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّه – ﷺ – فَنَصَرْنَاهُ وَشَهِدْنَا مَعَهُ الْمُشَاهَدَ،فَلَمَّا قَوِيَ الْإِسْلَامُ وَكَثُرَ أَهْلُهُ رَجَعْنَا إِلَى أَهْلَيْنَا وَأَمْوَالنَا نُصْلِحُهَا فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ فِي الْأَهْلِ وَالْمَال وَتَرْكَ الْجِهَاد،فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّه حَتَّى كَانَ آخِرَ غَزَاة غَزَاهَا بِقُسْطَنْطِينِيَّة فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – فَتُوُفِّيَ هُنَالِكَ وَدُفِنَ فِي أَصْلِ سُورِهَا وَهُمْ يَسْتَسْقُونَ بِه،وَلَا شَاهِدَ فِي هَذَا لِأَنَّ أَبَا أَيُّوبَ لَمْ يَقُلْ يَحِلُّ إِلْقَاءُ الْإِنْسَان نَفْسَهُ فِي الْقَتْلِ مِنْ غَيْر إِظْهَار نِكَايَة وَهَذَا هُوَ الْمُدَّعَى.

وَاسْتُدِلَّ أَيْضًا بِأَنَّ جَمَاعَةً مِنْ الصَّحَابَة أَلْقَوْا بِنُفُوسِهِمْ فِي الْعَدُوِّ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ – ﷺ –؛وَكَذَا وَقَعَ فِي زَمَنِ عُمَرَ لِرَجُلٍ فَقِيلَ أَلْقَى بِيَدِه إِلَى التَّهْلُكَة فَقَالَ كَذَبُوا {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَات اللَّه} [البقرة:٢٠٧] وَلَا شَاهِدَ لَهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ لَمْ يُلَاق الْمُدَّعَى أَيْضًا لِأَنَّ كُلَّ هَذِه الْوَقَائِعِ لَيْسَ فِيهَا أَنَّ أَحَدًا أَلْقَى بِنَفْسِه فِي الْعَدُوِّ حَتَّى قُتِلَ مَعَ عِلْمه بِأَنَّهُ لَا تَظْهَرُ مِنْهُ نِكَايَةٌ فِيهِمْ،بَلْ الظَّاهِرُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا ذَلِكَ الْإِقْدَامَ الْأَعْظَمَ إِلَّا لِإِيقَاع نِكَايَة فِي عَدُوِّهِمْ هَذَا قَصْدُهُمْ،ثُمَّ تَارَةً يَظْهَرُ مِنْ قَاصِد ذَلِكَ نِكَايَةٌ وَتَارَةً لَا،وَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَدَارَ عَلَى قَصْد النِّكَايَة فِيهِمْ لَا ظُهُورِهَا،وَقِيلَ:هِيَ إِحْبَاطُ الْإِنْفَاق فِي الْجِهَاد بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَة وَالْمِنَّة،وَقِيلَ:هِيَ الْقُنُوطُ بِأَنْ يُصِيبَ ذَنْبًا فَيَرَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ مَعَهُ عَمَلٌ فَيَنْهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي،وَقِيلَ:إِنْفَاقُ الْخَبِيث،وَقِيلَ:غَيْرُ ذَلِكَ.قَالَ الطَّبَرِيُّ:وَهِيَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ مَا ذُكِرَ؛لِأَنَّ اللَّفْظَ يَحْتَمِلُهُ؛وَمَا مَرَّ فِي قِصَّة أَبِي أَيُّوبَ رَوَاهَا بِنَحْوِهَا التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ وَلَفْظُهُ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ:«كُنَّا بِمَدِينَة الرُّوم فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنْ الرُّومِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ،فَأَمَّرُوا عَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ،وَعَلَى الْجَمَاعَة فَضَالَةَ بْنَ

عُبَيْد.فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمْ فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا سُبْحَانَ اللَّه يُلْقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَة،فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذَا التَّأْوِيلَ وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّه – ﷺ – إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا وَلِلْفُقَرَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّه {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَصَلَاحِهَا وَتَرْكَ الْغَزْوِ،فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّه حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ:«إذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَغِبْتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلَى دِينِكُمْ».وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ النِّفَاقِ».وَأَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَهْ:«مَنْ لَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ:«مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ».وَالطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ:«مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إلَّا عَمَّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَذَابِ».

تَنْبِيهٌ:عَدُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ظَاهِرٌ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ الْفَسَادِ الْعَائِدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا لَا يُتَدَارَكُ خَرْقُهُ وَعَلَيْهَا يُحْمَلُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ،فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَحَدًا تَعَرَّضَ لِعَدِّ ذَلِكَ مَعَ ظُهُورِهِ.[٤٨٨٢]

الموت على شعبة من شعب النفاق:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةِ نِفَاقٍ»[٤٨٨٣]

[٤٨٨٢] – الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٦٩)

[٤٨٨٣] – السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٦٩)(٤٢٩٠) صحيح

وَلم يحدث نَفسه من التحديث قيل بِأَن يَقُول فِي نَفسه يَا لَيْتَني كنت غازيا أَو الْمُـــرَاد وَلم ينْو الْجِهَاد وعلامته اعداد الْآلَات قَالَ تَعَالَى وَلَو أَرَادوا الْخُرُوج لأعدوا لَهُ عدَّة شُـــعْبَة بِضَم فَسُكُون قيل أشبه الْمُنَافِقين المتخلفين عَن الْجِهَاد فِي وصـــف التَّخَلُّـــف وَلَعَلَّـــه مَخْصُوص بوقته صلى الله تَعَالَى عَلَيْهِ وَسلم كَمَا روى عَن بــن الْمُبَـــارك وَالله تَعَـــالَى أعلم[٤٨٨٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ،وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَـــهُ،مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٤٨٨٥]

(وَلَمْ يُحَدِّثْ):بِالتَّشْدِيدِ ؛ أَيْ:لَمْ يُكَلِّمْ (بِهِ):أَيْ:بِالْغَزْوِ (نَفْسَهُ):بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ،أَوْ بِنَزْعِ الْخَافِضِ ؛ أَيْ:فِي نَفْسِهِ،وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ،وَالْمَعْنَى لَمْ يَعْـــزِمْ عَلَى الْجِهَادِ وَلَمْ يَقُلْ:يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مُجَاهِدًا،وَقِيلَ وَلَمْ يُرِدِ الْخُرُوجَ،وَعَلَامَتُهُ فِي الظَّاهِرِ إِعْدَادُ آلَتِهِ.قَالَ تَعَالَى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُـــدَّةً} [التوبـــة:٤٦] وَيُؤَيِّـــدُهُ قَوْلُهُ:(مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ):أَيْ:نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ ؛ أَيْ:مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ،وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ،وَقِيـــلَ:هَـــذَا كَـــانَ مَخْصُوصًا بِزَمَانِهِ – ﷺ – وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ عَامٌّ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْوِيَ الْجِهَادَ إِمَّا بِطَرِيقِ فَرْضِ الْكِفَايَةِ،أَوْ عَلَى سَبِيلِ فَرْضِ الْعَيْنِ،إِذَا كَانَ النَّفِيرُ عَامًّا،وَيُسْتَدَلُّ بِظَاهِرِهِ لِمَنْ قَالَ:الْجِهَادُ فَرْضُ عَيْنٍ مُطْلَقًا.وَفِي شَرْحِ مُسْلِمٍ لِلنَّوَوِيِّ،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:نَرَى أَنَّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ:وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ مُحْتَمَلٌ،وَقَدْ قَـــالَ غَيْرُهُ إِنَّهُ عَامٌّ.وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِـــي هَـــذَا الْوَصْفِ،فَإِنَّ تَرْكَ الْجِهَادِ أَحَدُ شُعَبِ النِّفَاقِ،وَفِيهِ أَنَّ مَنْ نَوَى فِعْلَ عِبَادَةٍ فَمَـــاتَ قَبْـــلَ فِعْلِهَا لَا يُتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الذَّمِّ مَا يُتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْوِهَا،وَقَدِ اخْتَلَفَتْ أَصْـــحَابُنَا فِيمَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا فَأَخَّرَهَا بِنِيَّةِ أَنْ يَفْعَلَهَا وَمَـــاتَ،أَوْ أَخَّـــرَ الْحَـــجَّ

[٤٨٨٤] - حاشية السندي على سنن النسائي (٦/ ٨)

[٤٨٨٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥١٧)١٥٨ - (١٩١٠)

[ش والمراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق]

كَذَلِكَ،قِيلَ:يَأْثَمُ فِيهِمَا،وَقِيلَ لَا يَأْثَمُ فِيهِمَا،وَقِيلَ:يَأْثَمُ فِي الْحَجِّ دُونَ الصَّلَاةِ اه.وَالْـأَخِيرُ مُوَافِقٌ لِمَذْهَبِنَا.[٤٨٨٦]

إن «الجهاد» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة.إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة! وليست المسألة – كما توهم بعض المخلصين – أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات فاندس في تصورات أهله – اقتباسا مما حولهم – أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن! هذه المقررات تشهد – على الأقل – بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب اللّه في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول اللّه – ﷺ- وفي مثل هذا الأسلوب..

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول اللّه – ﷺ- تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة،فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[٤٨٨٧]..

ولئن كان – ﷺ- رد في حالات فردية بعض المجاهدين،لظروف عائلية لهم خاصة،كالذي جاء في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ أُجَاهِدُ ؟ فقَالَ:لَكَ أَبَوَانِ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ."[٤٨٨٨]..لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين.ولعله – ﷺ- على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فردا فردا،كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه،ما جعله يوجهه هذا التوجيه..

فلا يقولن أحد – بسبب ذلك – إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف.وقد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق

[٤٨٨٦] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٠)

[٤٨٨٧] – صحيح مسلم– المكتز – (٥٠٤٠)

[٤٨٨٨] – صحيح البخارى– المكتز – (٥٩٧٢) وصحيح ابن حبان – (٢ / ١٦٤) (٤٢٠)

يقطع به الرؤوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين! إن اللّه – سبحانه – يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه.لأنه طريق غير طريقهم،ومنهج غير منهجهم.ليس بالأمس فقط.ولكن اليوم وغدا.وفي كل أرض،وفي كل جيل!

وإن اللّه – سبحانه – يعلم أن الشر متبجح،ولا يمكن أن يكون منصفا.ولا يمكن أن يدع الخير ينمو – مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! – فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر.ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل.ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة! هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية...هذه فطرة! وليست حالة طارئة...ومن ثم لا بد من الجهاد..لا بد منه في كل صورة..ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير.ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود.ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح.ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة..وإلا كان الأمر انتحارا.أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس.كما طلب اللّه من المؤمنين.وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..فأما أن يقدر لهم الغلب أو يقدر لهم الاستشهاد فذلك شأنه – سبحانه – وذلك قدره المصحوب بحكمته..أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم..والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل..والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة،وفي منهجها الواقعي،وفي خط سيرها المرسوم،وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية،التي لا علاقة لها بتغير الظروف.وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين – تحت أي ظرف من الظروف.ومن هذه النقط..الجهاد..الذي يتحدث عنه اللّه سبحانه هذا الحديث..الجهاد في سبيل اللّه وحده.وتحت رايته وحدها..وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «شهداء» ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم [٤٨٨٩]..

[٤٨٨٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١١٠١)

أضرار ترك الجهاد في سبيل الله:

إن ترك الجهاد مع القدرة عليه كبيرة من الكبائر....

إن ترك الجهاد علامة على النفاق،كما جاء عن المصطفى ﷺ..

وإن ترك الجهاد سبب للهلاك في الدنيا والآخرة.قال تعالى:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة:١٩٥].

وإن ترك الجهاد سبب للذل والهوان،وإن تركه ترك للدين.

وإن ترك الجهاد سبب للبلاء والضنك وسبب عذاب من الله.قال تعالى:{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التوبة:٣٩].

وإن ترك الجهاد هو الفشل الذي يعرض الأمة {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) } [المائدة:٢٠ - ٢١].

وإن ترك الجهاد سبب للفساد في الأرض وإفساد أهلها بالقضاء على دينهم {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة:٢٥١]..

فلولا أن الله يدفع الكافرين بجهاد المؤمنين ويكبت الكفار ويذلهم لأفسدوا على الناس دينهم،ولولا أن الله يدفع شبه المبطلين المخالفين من أهل البدع وأهل الشهوات بجهاد العلماء والدعاة الذين يردون عليهم بالحجة والبيان لتشوه وجه الإسلام وتهلهل وأصبح كالثوب المرقع ففسدت حياة الناس في دينهم ودنياهم.

وإن ترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة للمسلمين،منها،الأجر والثواب والشهادة في سبيل الله،والمغنم،والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد،ودفع شر الكفار وإذلالهم،ورفع شأن المسلمين وإعزازهم،وإدخال أناس في الإسلام.

إذا كان تارك الجهاد يصاب بهذه الأمور في الدنيا والآخرة فكيف بمن يقف ضد الجهاد ويحاربه ويؤذي المجاهدين بالحبس أو التضييق في الرزق أو القتل أو غير ذلك من أصناف التعذيب.[٤٨٩٠]

لقد وصل المسلمون في الأزمنة الحاضرة إلى مرحلة فاصلة،وعطلت كثير من أحكام الإسلام ومفاهيمه،وأجبر الناس جبراً،وعلى غير رضا منهم،على العيش في ظل مفاهيم غريبة عن عقيدتهم ودينهم،وأصبح الجهاد بمعناه الشرعي بعيداً عن أفكارهم وتوجهاتهم،وكل ذلك يهون ويمكن معالجته عند إدراكهم لحقيقة دينهم وحقيقة واقعهم،لكن المصيبة هي الرضا عن هذا الواقع المؤلم والاحتجاج له بالحجج الواهية المقدمة في ثياب شرعية زائفة،ولا يقل خطراً وأثراً تخريبياً عن المذاهب الهدامة،والبدع المدمرة التي يستعين مروجوها بالإضافة إلى الحديد والنار وحيل الاستعمار بشراء الفتاوى الباطلة لتتقبلها الجماهير بأقل ما يمكن من التكاليف والجهود.

إن الجهاد هو الجهاد:بذل لكل ما يمكن من الجهود في سبيل الله،ومدافعة أعداء الله وأعداء رسوله بكل ما يستطاع من القوة،قوة البدن،وقوة السلاح وقوة المال،وقوة العلم والمعرفة،على هذا استقر الإسلام يوم استقر،وبعيداً عن هذا الفهم الجامع لمعنى الجهاد نزلت بنا الكوارث،وفعلت بنا الأفاعيل.

ليس شيئاً من شعائر الإسلام يثير رعب أعداء الملة وخصوم الشريعة مثل الجهاد،وليس أمراً حرص المستعمرون وأذنابهم على تشويهه وتفريغ قلوب وعقول المسلمين منه كهذه الفريضة.وما من مناسبة استعمل فيها المسلمون كلمة الجهاد إلا وكانت ناقوس خطر يثير فيهم خليطاً من مشاعر الرهبة والغضب،يوازيه عمل دائب بشتى السبل للحد من أثر هذه الكلمة النفسي والعملي.

وفي فترة سبات طويل اجتمعت فيها أسباب كثيرة جعلت المسلمين ينظرون إلى كثير من مفردات دينهم نظرة خاطئة ويجردونها من معانيها الأصلية،ويلبسونها معاني ليست

[٤٨٩٠] - موسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ١٥٣٩)

لها،وهي في الحقيقة معانٍ تعكس ضعفهم ورضاهم بالواقع،ويتمثل فيها خداعهم لأنفسهم وتسويل الشياطين لهم.

الكفار في الإسلام لهم معنا ثلاث حالات معروفة في ديننا لا تتغير.إما أن يسلموا فلهم مالنا وعليهم ما علينا،أو يبقوا على دينهم ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.وهذا قال بعض أهل العلم بأنه خاص بأهل الكتاب،أما الكفار فإما الإسلام أو الثالثة،وهو السيف.

فوا عجباً كيف أن ذروة السنام قد درستْ آثاره فلا ترى،وطمست أنواره بين الورى،وأعتم ليله بعد أن كان مقمراً،وأظلم نهاره بعد أن كان نيّراً،وذوى غصنه بعد أن كان مورقاً،وانطفأ حسنه بعد أن كان مشرقاً،وقفلت أبوابه فلا تطرق،وأهملت أسبابه فلا ترمق،وصفدت خيوله فلا تركض،وربطت أسوده فلا تنهض،وامتدت أيدي الكفرة الأذلاء إلى المسلمين فلا تقبض،وأغمدت السيوف بعيداً عن أعداء المسلمين إخلاداً إلى حياة الدعة والأمان،وخرس لسان النفير إليهم فصاح نفيرهم في أهل الإيمان،ونامت عروس الشهادة إذ عدمت الخاطبين،وأهمل الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مخاطبين،فلا نجد إلا من طوى بساط نشاطه عنه،أو تركه جزعاً من الموت وهلعاً،أو جهل ما فيه من الثواب الجزيل،ورضي بالحياة الدنيا من الآخرة،وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

لقد وصل المسلمون في الأزمنة الحاضرة إلى مرحلة فاصلة،وعطّلت كثير من أحكام الإسلام ومفاهيمه،وأجبر الناس جبرا على العيش في ظل مفاهيم غريبة عن عقيدتهم ودينهم،وأصبح الجهاد بمعناه الشرعي بعيدا عن أفكارهم وتوجهاتهم،وكلّ ذلك يهون ويمكن معالجته عند إدراكهم لحقيقة دينهم وحقيقة واقعهم،لكن المصيبة هي الرضا عن هذا الواقع المؤلم والاحتجاج له بالحجج الواهية المقدمة في ثياب شرعية زائفة.

إن الجهاد هو بذل لكل ما يمكن من الجهود في سبيل الله ومدافعة أعداء الله وأعداء رسوله،بكل ما يستطاع من القوة؛قوة البدن وقوة السلاح وقوة المال وقوة العلم والمعرفة،على هذا استقرّ الإسلام يوم استقر،وبعيدا عن هذا الفهم الجامع لمعنى الجهاد نزلت بنا الكوارث وفعلت بنا الأفاعيل.

أيها المسلمون،ليس شيء من شعائر الإسلام يثير رعب أعداء الملة وخصوم الشريعة مثل الجهاد،وليس أمر حرص المستعمرون وأذنابهم على تشويهه وتفريـــغ قلـــوب وعقـــول المسلمين منه مثل كلمة الجهاد،إنها أوضحت خطرا يرى فيه الأعداء تهديدا لهم،فبـــذلوا جهدهم في تحريف مفهومه وحذف مناهجه لدى المسلمين الذين قبلوا هـــذا الضـــعف والمذلة.وكان ينبغي لهم أن يعلموا بأن ترك الجهاد علامة على النفاق.

إن ترك الجهاد يفوّت مصالح عظيمة للمسلمين،منها الأجر والثواب والشهادة في ســـبيل والمغنم والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد ودفع شر الكفار وإذلالهم ورفع شأن المسلمين وإعزازهم وإدخال أناس في الإسلام.

إن مواجهة الكفار وقتالهم حتم لا بد منه ما دام أن هنـــاك إســـلام وكفـــر في هـــذه الأرض،فإن حتمية المواجهة لا بد منها،ولهذا ينبغي أن نعلم بأن قتال الكفار أصل في دين الإسلام لا يمكن أن يتغير بتغير الزمان،وعليه فإن مصطلح التعايش السلمي أو مصـــطلح السلام العادل والشامل مصطلح كاذب يخالف شريعة رب العالمين.[٤٨٩١]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٤٨٩١] - موسوعة خطب المنبر - (ج ١ / ص ٣٢٨٦)

الباب الثالث والثلاثون

أبشروا أبشروا أيها المجاهدون

بالتجارة الرابحة:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف:١٠ - ١٣]

يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ باللهِ،وَالمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ،أَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى صَفْقَةٍ رَابِحَةٍ،وَتِجَارَةٍ نَافِعَةٍ،تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ العَظِيمِ،وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

وَهذِهِ الصَّفَقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا باللهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،وَتَصَدِّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ،وَمَا أَنْزَلَهَ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللهِ،وَعِزَّةِ دِينِهِ،بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ،فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ،كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ فِي الدُّنْيَا:مِنَ النَّفْسِ وَالمَالِ وَالزَّوْجِ وَالوَلَدِ،هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ المُجَاهِدِينَ فِي الآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاهَا،وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا،وَأَسْكَنَكُمْ مَسَاكِنَ طَيبَةً تَقَرُّ بِهَا العُيُونَ،وَهَذا هُوَ مُنْتَهَى مَا تَصْبُوا إِلَيهِ النُّفُوسُ،وَهُوَ الفَوْزُ الذي لاَ فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ.وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى،مَعَ الفَوْزِ فِي الآخِرَةِ،الذِي وَعَدَكُمُ اللهُ بِهِ،نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَها،وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللهِ،وَفَتْحٌ قَرِيبٌ،تَجْنُونَ مَغَانِمَهُ،وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ المُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ.[٤٨٩٢]

[٤٨٩٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٥١،بترقيم الشاملة آليا)

هو نداء من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المؤمنين،الذين استجابوا لله ولرسوله،ودانوا بهذا الدين،وهو دعوة لهم إلى تجارة تنجيهم من عذاب أليم فى الدنيا والآخرة..

قوله تعالى:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

هو بيان لهذه التجارة التي دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين إليها،وأمرهم بالاتجار فيها..وهى الإيمان بالله وبرسول الله،والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس..

ففى هذه التجارة الربح العظيم،والخير العميم،الذي يقع لأيدى المتجرين بها،لو كانوا يعلمون ما يكون لهم من ورائها،من خير..

ودعوة المؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله،هو دعوة إلى إيمان خالص من الريب،مبرأ من الشرك..فليس كل من دخل فى الإيمان كان مؤمنا حقّا..

وسمّى هذا الإيمان،وهذا الجهاد،تجارة،لأن التجارة عطاء وأخذ،وأعيان تقدّم للبيع،وثمن يؤخذ فى مقابل هذه الأعيان..والمؤمنون بالله ورسوله،يقدمون أموالا وأنفسا،ويأخذون فى مقابل ما يقدمون ما يجزيهم الله سبحانه وتعالى عليه،من رضوان،وجنات لهم فيها نعيم مقيم..وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (١١١:التوبة)..

وقوله تعالى:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..هو جواب لشرط مقدّر دلّ عليه ما فى الآية السابقة من الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله،والجهاد فى سبيله..أي إن استجبتم لهذه الدعوة التي دعيتم إليها- أيها المؤمنون- يغفر الله لكم ذنوبكم.ويسترها عليكم،فلا تروها بعد أن محاها الله،وطهّركم منها بمغفرته،ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار،وينزلكم فيها مساكن طيبة،تطيب لكم الحياة فيها،فلا تتحولون عنها أبدا..وذلك هو الفوز العظيم،الذي لا يعدله فوز،فيما عرفتم فى الحياة الدنيا..

قوله تعالى:«وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أي ولكم مع هذا الفوز العظيم بجنات النعيم فى الآخرة- رغيبة أخرى تحبونها،وتتطلعون إليها،تلك هى ما ستلقون من نصر من الله،ومن فتح قريب،بما يفتح الله لكم فى هذه الدنيا من فتوح،وما يمكّن لكم من نصر على أعدائكم..وقد حقق الله للمؤمنين ما وعدهم به من نصر وفتح،فقد انتصروا على أعدائهم من المشركين وللكافرين،وفتحوا معاقل الشرك،ودانت لهم مواطن المشركين،فيما وقع لهؤلاء المؤمنين من فتح خيبر،ومن إجلاء اليهود من المدينة،ومن فتح مكة..ثم ما تلا ذلك من فتوح لمملكتى الفرس والروم..

وقوله تعالى:«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»..هو أمر سماوى من الله سبحانه وتعالى للنبى الكريم أن يبشر المؤمنين بهذا الوعد الذي وعدهم الله إياه،وأن يكشف لهم عن مواقع هذا النصر والفتح القريب..وقد بشّر النبي الكريم أصحابه بما سيلقاهم على طريق الإسلام من نصر وفتح..وفى هذا ما يدخل الطمأنينة والرضاء على قلوب المؤمنين،ويمدّهم بأمداد السكينة والصبر على ما كانوا يعانون من شدة وضيق،وما كانوا يلقون من كيد وبلاء..[٤٨٩٣]

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين،لأعظم تجارة،وأجل مطلوب،وأعلى مرغوب،يحصل بها النجاة من العذاب الأليم،والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر،ويسمو إليه كل لبيب،فكأنه قيل:ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به،المستلزم لأعمال الجوارح،ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله فلهذا قال:{وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم،لمصادمة أعداء الإسلام،والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته،وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب،فإن ذلك،ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها،فإنه {خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} فإن فيه الخير الدنيوي،من النصر على الأعداء،والعز المنافي للذل والرزق الواسع،وسعة الصدر وانشراحه.

[٤٨٩٣] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٩٣٦)

وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه،ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة،فقال:{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} وهذا شامل للصغائر والكبائر،فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله،مكفر للذنوب،ولو كانت كبائر.

{وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ} أي:من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها،أنهار من ماء غير آسن،وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،وأنهار من خمر لذة للشاربين،وأنهار من عسل مصفى،ولهم فيها من كل الثمرات،{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي:جمعت كل طيب،من علو وارتفاع،وحسن بناء وزخرفة،حتى إن أهل الغرف من أهل [ص:٨٦١] عليين،يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي،وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة،وخيامها من اللؤلؤ والمرجان،وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان،حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها،وباطنها من ظاهرها،وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين،ولا خطر على قلب أحد من العالمين،لا يمكن أن يدركوه حتى يروه،ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به،ففي تلك الحالة،لولا أن الله خلق أهل الجنة،وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم،لأوشك أن يموتوا من الفرح،فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه،بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وتبارك الجليل الجميل،الذي أنشأ دار النعيم،وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة،التي من جملتها،أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد،ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة،المشوب نعيمها بألمها،وسرورها بترحها.وسميت الجنة جنة عدن،لأن أهلها مقيمون فيها،لا يخرجون منها أبدا،ولا يبغون عنها حولا ذلك الثواب الجزيل،والأجر الجميل،الفوز العظيم،الذي لا فوز مثله،فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة،فذكره بقوله:{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي:ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي:{نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ} [لكم] على الأعداء،يحصل به العز

والفرح،{وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} تتسع به دائرة الإسلام،ويحصل به الرزق الواسع،فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين،وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد،[إذا قام غيرهم بالجهاد] (٧) فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه،بل قال:{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي:بالثواب العاجل والآجل،كل على حسب إيمانه،وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله،كما قال النبي ﷺ:" إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،أعدها الله للمجاهدين في سبيله "[٤٨٩٤]

يبدأ بالنداء باسم الإيمان:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»..يليه الاستفهام الموحي.فالله – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب:«هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ ..»

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية،وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق.ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع:«تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»..وهم مؤمنون بالله ورسوله.فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»..وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة،يجيء في هذا الأسلوب،ويكرر هذا التكرار،ويساق في هذا السياق.فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار،وهذا التنويع،وهذه الموحيات،لتنهض بهذا التكليف الشاق،الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين:«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»..فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد..ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة،لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه،ويقره في الحس ويمكن له:«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»..وهذه وحدها تكفي.

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئا؟ ولكن فضل الله ليست له حدود:«وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ

[٤٨٩٤] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٦٠)

طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»..وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم..وحقا..«ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة.وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق.فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض،ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا،فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله،ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله – ﷺ – وعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – ليلة العقبة.عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا:قال عبد الله بن رواحة لرسول الله – ﷺ –:اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت! قال:اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم.قالوا:فإذا فعلنا ذلك،فماذا لنا؟ قال:الجنة! قالوا:ربح البيعُ،لا نُقيل ولا نستقيل! فنزلت:(إن الله اشترى من المؤمنين)،الآية[٤٨٩٥]

وعن قتادة (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) قال:" قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه".وذُكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار،ذُكر لنا أن بعضهم قال:هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا.ذُكر لنا أن رجلا قال:يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت،قال:أشترط لربي أن تعبدوه،ولا تشركوا به شيئًا،وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا:فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال:"لكم النصر في الدنيا،والجنة في الآخرة"،ففعلوا،ففعل الله".[٤٨٩٦]

[٤٨٩٥] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤/ ٤٩٩] ١٧٢٧٠ صحيح مرسل

[٤٨٩٦] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [٢٣/ ٣٦٥] صحيح مرسل

ولكن فضل الله عظيم.وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشـيء قريـب في هـذه الأرض،يناسب تركيبها البشري المحدود.وهو يستجيب لها فيبشرها بما قـدره في علمـه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض،وتحقيق منهجه وهيمنته على الحيـاة في ذلـك الجيل:«وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب.وبشر المؤمنين»..وهنا تبلـغ الصـفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله.الله الذي لا تنفد خزائنه،والذي لا ممسك لرحمته.فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة.وفوقها..فوق البيعـة الرابحـة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب..فمن الذي يدله الله علـى هـذه التجـارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب..إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلـع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان،في حدودها الضيقة الصغيرة،وفي مسـتوياتها الهابطة الواطية،وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة..هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان،ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع،ليعيش فيه،وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كـذلك..ولعلـه لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته.فهو ذاته أجر..هذا الجهاد..وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح.ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان.ولا يطيق أن يقعـد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان.فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد.كائنا مصيره فيه مـا يكون..[٤٨٩٧]

بجنة عرضها السموات والأرض (١):

قال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْـأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّـاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّـهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ

[٤٨٩٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٤٧)

(١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) } [آل عمران]

ينْدب الله تعالى المؤْمنين إلى القيام بالأعْمال الصّالحة،وإلى المسارعة في فعْل الخيْرات،لينالوا مغْفرة الله ورضْوانه،وجنّته الواسعة العريضة التي أعدّها الله لعباده المتّقين،الذين يمْتثلون أمْره.

يذْكر الله تعالى في هذه الآية صفات أهْل الجنّة فيقول:إنّهم الذين ينْفقون أمْوالهمْ في سبيل مرْضاة الله،في الرّخاء (السّراء)،وفي الشّدّة (الضرّاء)،وفي الصّحّة والمرض،وفي جميع الأحْوال،لا يشْغلهمْ أمْرٌ عنْ طاعة الله،والإنْفاق في سبيل مرْضاته،وإنّهمْ يكْتمون غيْظهمْ إذا ثار،ويعْفون عمّنْ أساء إليهمْ.والله يحبّ الذين يتفضّلون على عباده البائسين،ويواسونهمْ شكْراً لله على جزيل نعمه عليْهمْ.ومنْ صفات أهْل الجنّة أنّهمْ إذا صدر عنْهمْ فعْل قبيحٌ يتعدّى أثره إلى غيْرهمْ (كغيبة إنْسانٍ)،أو صدر عنْهمْ ذنْبٌ يكون مقْتصراً عليْهمْ (كشرْب خمْرٍ ونحْوه)،ذكروا الله تعالى ووعيده،وعظمته وجلاله،فرجعوا إلى الله تائبين،طالبين مغْفرته،ولمْ يقيموا على القبيح منْ غيْر اسْتغْفارٍ،لعلْمهمْ أنّ الله هو الذي يغْفر الذّنوب جميعاً،ولمْ يصرّوا على الذّنْب،لأنّهمْ يعْلمون أنّ منْ تاب إلى الله،تاب الله عليه،وغفر له.

والمتّقون المتمتّعون بهذه الصّفات سيجْزيهمْ ربّهمْ عليها بالمغْفرة،وبالأمْر من العقاب،ولهمْ ثوابٌ عظيمٌ في جنّاتٍ تجْري منْ تحْتها الأنْهار،وهمْ مخلّدون فيها أبداً،والجنّة خيْر ما يكافأ به المؤْمنون العاملون على أعْمالهمْ الصّالحات[٤٨٩٨].

قوله تعالى:«وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».إثارة وإغراء بالمبادرة إلى طلب المغفرة من الله،باجتناب المحرمات،وعلى رأسها الكفر والربا..فمن بادر بالتوبة،ورجع إلىّ الله من قريب،مستغفرا

[٤٨٩٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

ربه،وجد ربّا غفورا رحيما يفتح له مع خزائن رحمته أبواب جنته وما فيها من نعيم مقيم.وهذه الجنة التي وعد بها المتقون تسع النّاس،وأضعاف أضعاف الناس..

عرضها السموات والأرض..يجد فيها المؤمنون والتائبون- مهما كثر عددهم- مكانا فسيحا،لا حدّ له،حيث يسرحون ويمرحون ما شاءوا..فليخرس إذن أولئك المتنطعون والمتزمّتون،الذين يضيّقون من رحمة،أو يضيقون بها،حتى لكأنهم يرون أن ما يبسطه الله من رحمة ورضوان لعباده إنما هو مقتطع مما يمنّون أنفسهم به عند الله..وأنّه كلما كثرت أعداد المقبولين عند الله،والداخلين فى رحمته- تحيّف ذلك من نصيبهم،وأخذ الكثير من حظهم..وهذا- لا شك- سوء ظن بالله،وعدوان على مشيئته،شأنهم فى هذا شأن بنى إسرائيل،الذين أكل الحسد قلوبهم أن ينال أحد من من الله خيرا غيرهم،كما قال تعالى فيهم:«أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (٥٤:النساء) وكما قال فيهم أيضا:«قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ» (١٠٠:الإسراء).

وقوله تعالى:«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» صفة من صفات المتقين..

فمن شان التقوى أن تقيم فى كيان الإنسان عواطف الرحمة والإحسان،فلا يمسك صاحبها خيرا لنفسه خاصة،بل إن كل ما فى يده هو له وللناس..فهو ينفق منه فى كل حال..فى يسره وعسره،فى سرّائه وضرّائه،وفى سرّاء الناس وضرائهم،لا يمنع فضله عن طالبه أبدا! وقوله تعالى:«وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» بيان للصفات المكملة للتقوى،المجمّلة للمتقين،فمن اتقى الله،كان رحيما بالناس،حدبا عليهم،يلقى إساءتهم بالصفح والمغفرة،فلا يصل إليهم منه أذى،بيد أو لسان..

والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس،هم وإن كانوا فى المتقين المحسنين،إلا أنهما درجتان فى الإحسان والتقوى..فالكظم درجة،والعفو درجة أعلى من تلك الدرجة..فالذى تلقّى الإساءة وهو قادر على مقابلتها بمثلها ثم أمسك عن الردّ،وكظم فى نفسه ما أثارته الإساءة فى مشاعره من غيظ ونقمة،هو على درجة من التقوى والإحسان..أما إذا ذهب إلى أكثر من هذا،فمسح ما بصدره من غيظ ونقمة.وأظهر العفو والمغفرة،فهو على حظ

أكبر من الإحسان والتقوى..وأرفع من هذا درجة،وأعلى مقاما فى التقوى والإحسان،من دفع السيئة،لا يكظم الغيظ المتولد منها،ولا بالعفو عن المسيء،بل دفعها بالإحسان إليه..وفى هذا يقول الله تعالى:«وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» (٢٢:الرعد).

ويقول سبحانه أيضا:«أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» (٥٤:القصص).

ودفع السيئة بالحسنة إنما هو من باب الإنفاق،ولكنه إنفاق من أطيب وأعزّ ما يملك الناس:إنه إنفاق من سعة صدر،ومن كرم خلق،مما لا يرزقه إلا أهل الصبر والتقوى..وفى هذا يقول الحق جلّ وعلا:«وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».(٣٤:٣٥ السجدة).

فيما يروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه..أن جارية له كانت تقوم على وضوئه وفى يدها إبريق،فسقط الإبريق من يدها وانكسر..ونظر إليها الإمام- كرم الله وجهه- فقالت:«وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ» فقال:كظمت غيظى..ثم قالت:«وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ» فقال:«ولقد عفوت عنك» قالت:«والله يحب المحسنين» فقال:«أنت حرة لوجه الله» !!

قوله تعالى:«وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

الفاحشة:المنكر الغليظ من العمل والقول..وأكثر ما تكون فى الأعمال السيئة..وظلم النفس:يقع على كل مكروه ينالها من قبل صاحبها فيما يمسّ خاصة الإنسان من أذى،أو يتجاوزه إلى غيره من الناس..فالزنا،فاحشة،والكفر ظلم! وكلّ من الأمرين ظلم وفاحشة معا..

فهذا الصنف من الناس إذا أصاب فاحشة أو ارتكب إثما،ذكر الله،وذكر عظمة الله وجلاله،وعلمه به،وفضله عليه،وذكر لقاء ربّه،ومحاسبته بين يديه..فرجع إلى الله من

قريب،تائبا مستغفرا- هذا الصنف من الناس معدود فى المتقين من عباد الله،إذ غسل الحوبة بالتوبة،وبعد عن الله ثم عاد إليه،واقترب منه.

وفى قوله تعالى:«وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» إغراء للعصاة والمذنبين،بالتوبة والقبول إذا هم مدّوا أيديهم إليه،وطلبوا الصفح والمغفرة منه! وقوله تعالى:«وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» إشارة إلى ما تصحّ عليه توبة التائبين،وهو أنّهم إذا فعلوا المعصية لم يصرّوا على معاودتها،بل أخذتهم خشية الله،واستولى عليهم الندم..وأقبلوا على الله تائبين مستغفرين..

وقوله تعالى:«وَهُمْ يَعْلَمُونَ» يفسح العذر للذين يأتون الفاحشة عن جهل،أو خطأ،كمن يشرب خمرا وهو يظنها غير الخمر.

وقوله تعالى «أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» الإشارة هنا إلى جميع من ذكروا فى قوله تعالى:«وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..إلى قوله سبحانه:«وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» فهؤلاء الذين جاء ذكرهم فى هذه الآيات الثلاث،هم من المتقين،وهم من الذين يتلقّون هذا الجزاء الحسن من الله..جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها..

وفى قوله تعالى:«وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» مدح وتمجيد لهذا الجزاء العظيم،الذي ناله هؤلاء الذين أنعم الله عليهم،فاتقوه،وأنفقوا فى السرّاء والضراء،وكظموا الغيظ وعفوا عن الناس..ومثلهم أولئك الذين إذا فعلوا فاحشة،أو واقعوا المعصية ذكروا جلال الله وعظمته،فرجعوا إليه من قريب،باسطين يد التوبة والمغفرة..فالجزاء الذي ناله هؤلاء المحسنون المتقون،شىء عظيم رائع..وهل شىء أعظم من الجنة وأروع؟..ثم إن هذا الجزاء- وإن يكن فضلا من الله وإحسانا- هو عن إحسان كان من هؤلاء العاملين،وعن عمل من هؤلاء المحسنين:أجراه الله على أيديهم،ووفقهم إليه..وفى هذا يقول الحق سبحانه:«إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (١٣- ١٤:الأحقاف).[٤٨٩٩]

[٤٨٩٩] - التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٨٥)

أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض،فكيف بطولها،التي أعدها الله للمتقين،فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها،ثم وصف المتقين وأعمالهم،فقال:{الذين ينفقون في السراء والضراء} أي:في حال عسرهم ويسرهم،إن أيسروا أكثروا من النفقة،وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا ولو قل.

{والكاظمين الغيظ} أي:إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق،الموجب للانتقام بالقول والفعل-،هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية،بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ،ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

{والعافين عن الناس} يدخل في العفو عن الناس،العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل،والعفو أبلغ من الكظم،لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء،وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة،وتخلى عن الأخلاق الرذيلة،وممن تاجر مع الله،وعفا عن عباد الله رحمة بهم،وإحسانا إليهم،وكراهة لحصول الشر عليهم،وليعفو الله عنه،ويكون أجره على ربه الكريم،لا على العبد الفقير،كما قال تعالى:{فمن عفا وأصلح فأجره على الله}.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها،وأحسن وأعلى وأجل،وهي الإحسان،فقال [تعالى]:{والله يحب المحسنين} والإحسان نوعان:الإحسان في عبادة الخالق.[والإحسان إلى المخلوق،فالإحسان في عبادة الخالق]..

فسرها النبي ﷺ بقوله:"أن تعبد الله كأنك تراه،فإن لم تكن تراه فإنه يراك"

وأما الإحسان إلى المخلوق،فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم،ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم،فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف،ونهيهم عن المنكر،وتعليم جاهلهم،ووعظ غافلهم،والنصيحة لعامتهم وخاصتهم،والسعي في جمع كلمتهم،وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم،على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم،فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى،واحتمال الأذى،كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات،فمن قام بهذه الأمور،فقد قام بحق الله وحق عبيده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم،فقال:{والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم} أي:صدر منهم أعمال [سيئة] (٢) كبيرة،أو ما دون ذلك،بادروا إلى التوبة والاستغفار،وذكروا ربهم،وما توعد به العاصين ووعد به المتقين،فسألوه المغفرة لذنوبهم،والستر لعيوبهم،مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها،فلهذا قال:{و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}.

{أولئك} الموصوفون بتلك الصفات {جزاؤهم مغفرة من ربهم} تزيل عنهم كل محذور {وجنات تجري من تحتها الأنهار} فيها من النعيم المقيم،والبهجة والسرور والبهاء،والخير والسرور،والقصور والمنازل الأنيقة العاليات،والأشجار المثمرة البهية،والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات،{خالدين فيها} لا يحولون عنها،ولا يبغون بها بدلا ولا يغير ما هم فيه من النعيم،{ونعم أجر العاملين} عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ "عند الصباح يحمد القوم السرى" وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفرا.وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة،على أن الأعمال تدخل في الإيمان،خلافا للمرجئة،ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية،التي في سورة الحديد،نظير هذه الآيات،وهي قوله تعالى:{سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله،وهنا قال:{أعدت للمتقين} ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية،فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.[٤٩٠٠]

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات في صورة حسية حركية..يصوره سباقا إلى هدف أو جائزة تنال:«وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ»..«وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ»..سارعوا فهي هناك:المغفرة والجنة..«أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»..

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين:«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ»..فهم ثابتون على البذل،ماضون على النهج،لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء.السراء لا تبطرهم فتلهيهم.والضراء لا تضجرهم فتنسيهم.إنما هو الشعور بالواجب في كل حال والتحرر

[٤٩٠٠] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٤٨)

من الشح والحرص ومراقبة اللّه وتقواه..وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها،المحبة للمـــال بفطرهَا..ما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال،إلا دافع أقوى من شهوة المال،وربقـــة الحرص،وثقلة الشح..دافع التقوى.ذلك الشعور اللطيف العميق،الذي تشف به الـــروح وتخلص،وتنطلق من القيود والأغلال..

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه المعركة.فنحن نرى الحـــديث عن الإنفاق يتكرر فيها،كما نرى التنديد بالممتنعين والمانعين للبذل - كمـــا ســـيأتي في السياق القرآني - مكررا كذلك.مما يشير إلى ملابسات خاصة في جو الغزوة،وموقـــف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل اللّه.

«وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ»..كذلك تعمل التقوى في هـــذا الحقـــل،بنفس البواعث ونفس المؤثرات.فالغيظ انفعال بشري،تصاحبه أو تلاحقه فورة في الـــدم فهـــو إحدى دفعات التكوين البشري،وإحدى ضروراته.وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشـــفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلـــع إلى أفـــق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات.

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى.وهي وحدها لا تكفي.فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ويتحـــول الغضـــب الظـــاهر إلى حقـــد دفين..وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن..لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين..إنها العفو والسماحة والانطلاق..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه وشواظ يلفح القلب ودخان يغشى الضمير..فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب،فهو الانطلاق مـــن ذلـــك الوقر،والرفرفـــة في آفـــاق النور،والبرد في القلب،والسلام في الضمير.

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»..والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محســـنون.والـــذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون..واللّه «يُحِبُّ» المحسنين..والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير،الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضـــيء الكريم..

ومن حب اللّه للإحسان وللمحسنين،ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه.وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب..فليس هو مجرد التعبير الموحي،ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير! والجماعة التي يحبها اللّه،وتحب اللّه..والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان..هي جماعة متضامنة،وجماعة متآخية،وجماعة قوية.ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق!

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين:«وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ – وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟ – وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»..

يا لسماحة هذا الدين! إن اللّه – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم.ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا:

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين..ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين «الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»..والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها.ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها،من رحمة اللّه.ولا تجعلهم في ذيل القافلة..قافلة المؤمنين..إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة..مرتبة «المتقين»..على شرط واحد.شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته..

أن يذكروا اللّه فيستغفروا لذنوبهم،وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة،وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء..وبعبارة أخرى أن يكونوا في اطار العبودية للّه،والاستسلام له في النهاية.فيظلوا في كنف اللّه وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة،وتهيج به فورة اللحم والدم فيترو نزوة الحيوان في حمى الشهوة،وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر اللّه في حمى الاندفاع.يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه،ولا يبادر إلى طرده من رحمة اللّه حين يظلم نفسه.حين يرتكب الفاحشة..المعصية الكبيرة..وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ،وأن

نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف،وأن صلته باللّه ما تزال حية لم تذبل،وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له ربا يغفر..وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير..إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق،ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل،فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر.فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه،والحبل في يده.ما دام يذكر اللّه ولا ينساه،ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته.

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة،ولا يلقيه منبوذا حائرا في التيه! ولا يدعه مطرودا خائفا من المآب..إنه يطمعه في المغفرة،ويدله على الطريق،ويأخذ بيده المرتعشة،ويسند خطوته المتعثرة،وينير له الطريق،ليفيء إلى الحمى الآمن،ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه:ألا يجف قلبه،وتظلم روحه،فينسى اللّه..وما دام يذكر اللّه.ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي.ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي.ما دام في قلبه ذلك الندى البليل..فسيطلع النور في روحه من جديد،وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد،وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطيء ويعرف أن السوط – لا سواه – في الدار..سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا.فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية،تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب،وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة..فإنه سيعود! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه..فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة،وبجانب الثقلة رفرفة،وبجانب النزوة الحيوانية أشواقا ربانية..فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود،ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد.ما دام يذكر اللّه ولا ينساه،ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة!
عَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »[٤٩٠١].

[٤٩٠١] - سنن أبي داود - المكنز - (١٥١٦) والدعاطب (١٧٩٧) والاتحاف ٦٠٥/٨ والفتح ٩٩/١١ حسن لغيره

والإسلام لا يدعو – بهذا – إلى الترخص،ولا يمجد العاثر الهابط،ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف «الواقعية»! إنما هو يقيل عثرة الضعف،ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء،كما يستجيش فيها الحياء! فالمغفرة من اللّه – ومن يغفر الذنوب إلا اللّه؟ – تخجل ولا تطمع،وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار.

فأما الذين يستهترون ويصرون،فهم هنالك خارج الأسوار،موصدة في وجوههم الأسوار! وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى،والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها.ويفتح أمامها باب الرجاء أبدا،ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها»....هؤلاء المتقون ما لهم؟

«أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها.وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ»

فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار من المعصية.كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق في السراء والضراء،وكظم الغيظ والعفو عن الناس..إنما هم عاملون.«وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ»..المغفرة من ربهم،والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب اللّه..فهنالك عمل في أغوار النفس،وهنالك عمل في ظاهر الحياة.وكلاهما عمل،وكلاهما حركة،وكلاهما نماء.

وهنالك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق..وكما أن للنظام الربوي – أو النظام التعاوني – أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان،فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه في مطلع الحديث..فالانتصار على الشح،والانتصار على الغيظ،والانتصار على الخطيئة،والرجعة إلى اللّه وطلب مغفرته ورضاه..كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة.وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم للّه ومنهجه وشريعته.ففي هذا تكون العداوة،وفي هذا تكون المعركة،وفي هذا يكون الجهاد.[٤٩٠٢]

[٤٩٠٢] – يراجع بتوسع فصل:«سلام الضمير» في كتاب:«السلام العالمي والإسلام» ..«دار الشروق».(السيد رحمه الله)

وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد.فهو إنما يعادي للّه،ويعارك للّه،ويجاهد للّه! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق..كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابسات الخاصة التي صاحبت هذه المعركة.من مخالفة عن أمر رسول اللّه - ﷺ- ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة.ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد اللّه ابن أبيّ ومن معه.

ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولي من تولى - كما سيرد في السياق - ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى اللّه،وسؤال بعضهم:«هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيء »؟ وقول بعضهم:«لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا»..

والقرآن يتناول هذه الملابسات كلها،واحدة واحدة،فيجلوها،ويقرر الحقائق فيها،ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها..على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق.بعد ذلك يبدأ السياق في الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركة ذاتها،ولكنه ما يزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة في التصور الإسلامي،ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكن إليه هذه الحقائق.وفي هذه الفقرة يبدأ بالإشارة إلى سنة اللّه الجارية في المكذبين،ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة،إنما هو حادث عابر،وراءه حكمة خاصة..ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان.فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها.وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها:حكمة تمييز الصفوف،وتمحيص القلوب،واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ووقف المسلمين أمام الموت وجها لوجه وقد كانوا يتمنونه،ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعي!

ثم في النهاية محق الكافرين،بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين..وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة.[٤٩٠٣]

بجنة عرضها السموات والأرض (٢):

[٤٩٠٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٧٥)

قال تعالى:{ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١]

سابقوا يا أيّها المؤْمنون أقْرانكمْ في مضْمار الأعْمال الصّالحة،وقوموا بما كلّفكمْ به ربّكمْ من الواجبات،يدْخلْكمْ ربّكمْ جنّةً واسعةً عرْضها كعرْض السّماوات والأرْض،وقدْ أعدّها الله للّذين آمنوا به،وصدّقوا رسله فيما جاؤوهمْ به،وهذا الذي أهّلهم الله له هو منْ فضْله عليْهمْ،وإحْسانه إليْهمْ،والله واسع الفضْل كثير العطاء،فيعْطي منْ يشاء ما شاء كرماً وتفضّلاً.[٤٩٠٤]

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن الوجه الصحيح للدنيا،وأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر،وتكاثر فى الأموال والأولاد،وأنها فى حقيقتها أشبه بالزرع يبدو ناضرا جميلا معجبا،ثم لا يلبث أن يذبل ويصير حطاما- كان من تمام الحكمة أن يلفت الناس إلى الوجه الذي يتجهون إليه،إذا هم عرفوا من أمر الدنيا ما كشفت لهم عنه آيات الله- فكان قوله تعالى:«سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» - كان ذلك بيانا للاتجاه الصحيح الذي ينبغى أن يتجه إليه الناس،ويتنافسوا فى طلب المزيد منه،وهو العمل للدار الآخرة،وابتغاء مرضاة الله،والفوز بمغفرته،وبما أعد من نعيم فى جنات عرضها السموات والأرض،للذين يؤمنون بالله ورسله..[٤٩٠٥]

يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه،ويبين غايتها وغاية أهلها،بأنها لعب ولهو،تلعب بها الأبدان،وتلهو بها القلوب،وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا،فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب،والغفلة عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد،وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا،بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة،فإن

[٤٩٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٩٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٩٠٥] - التفسير القرآني للقرآن (١٤/ ٧٧٩)

قلوبهم معمورة بذكر الله،ومعرفته ومحبته،وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله،من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله:] {وَزِينَةٌ} أي:تزين في اللباس والطعام والشراب،والمراكب والدور والقصور والجاه.[وغير ذلك] {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} أي:كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر،وأن يكون هو الغالب في أمورها،والذي له الشهرة في أحوالها،{وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ} أي:كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد،وهذا مصداقه،وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها،فجعلها معبرا و لم يجعلها مستقرا،فنافس فيما يقربه إلى الله،واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد،نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلا بغيث نزل على الأرض،فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام،حتى إذا أخذت الأرض زخرفها،وأعجب نباته الكفار،الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وييست،فعادت على حالها الأولى،كأنه لم ينبت فيها خضراء،ولا رؤي لها مرأى أنيق،كذلك الدنيا،بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة،مهما أراد من مطالبها حصل،ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة،إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده،وأزال تسلطه عليها،أو ذهب به عنها،فرحل منها صفر اليدين،لم يتزود منها سوى الكفن،فتبا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع،ويدخر لصاحبه،ويصحب العبد على الأبد،ولهذا قال تعالى:{وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} أي:حال الآخرة،ما يخلو من هذين الأمرين:إما العذاب الشديد في نار جهنم،وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه،فتجرأ على معاصي الله،وكذب بآيات الله،وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات،وإزالة للعقوبات،ورضوان من الله،يحل من أحله (٥) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا،وسعى للآخرة سعيها.فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا،والرغبة في الآخرة،ولهذا قال:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أي:إلا متاع يتمتع به وينتفع به،ويستدفع به الحاجات،لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته،وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة،من التوبة النصوح،والاستغفار النافع،والبعد عن الذنوب ومظانها،والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح،والحرص على ما يرضي الله على الدوام،من الإحسان في عبادة الخالق،والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع،ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك،فقال:{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها،{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} أي:هذا الذي بيناه لكم،وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة،والطرق الموصلة إلى النار،وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم من أعظم منته على عباده وفضله.{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} الذي لا يحصى ثناء عليه،بل هو كما أثنى على نفسه،وفوق ما يثني عليه عباده.[٤٩٠٦]

وفي الظلال:

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق،وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار! إنما السباق إلى ذلك الأفق،وإلى ذلك الهدف،وإلى ذلك الملك العريض:«جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ»..وربما كان بعضهم في الزمن الخالي – قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون – يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز،وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية.كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب..فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود،فإن الحديث عن عرض

[٤٩٠٦] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٤١)

الجنة،والحديث عن تراءي الغرف من بعيد،يقع قطعا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة،ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقا!

فإن ما بين الأرض والشمس مثلا لا يبلغ أن يكون شيئا في أبعاد الكون يقاس! وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد،ويسابق إليه كل من يشاء.وعربونه:الإيمان باللّه ورسله.« ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ»..«وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»..وفضل اللّه غير محجوز ولا محجور.فهو مباح متاح للراغبين والسابقين.وفي هذا فليتسابق المتسابقون،لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان!

عَنْ أَبِي ذَرٍّ،أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺقَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:يَا رَسُولَ اللهِ،ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأَجْرِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ،قَالَ ﷺ:أَولَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَتَصَدَّقُونَ بِهِ،كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ،وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ،وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ،وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ.[٤٩٠٧]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ،قَالَ:قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ.قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَولَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ،إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً،وَبِكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً،وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً قَالَ:قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ يَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ:أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ،أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ وَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ،كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ.[٤٩٠٨]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلاَ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ،يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّى،وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ،وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا،وَيَعْتَمِرُونَ،وَيُجَاهِدُونَ،وَيَتَصَدَّقُونَ قَالَ « أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ،وَكُنْتُمْ خَيْرَ

[٤٩٠٧] – صحيح مسلم– المكنز [٦ /٣١٦](٢٣٧٦) وصحيح ابن حبان– ط٢ مؤسسة الرسالة [٣ /١١٩](٨٣٨)

[٤٩٠٨] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /١٩٨](٢١٤٧٣) ٢١٨٠٥ صحيح

مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ،إِلاَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ،وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ ».فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،وَنَحْمَدُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ.فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ « تَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ،وَالْحَمْدُ لِلَّهِ،وَاللَّهُ أَكْبَرُ،حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ »[٤٩٠٩] .

ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ولا يحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير..لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة.هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم،كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس.ويعاني من مقاومة الباطل وتشبثه بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة،وأوسع من هذه الأرض،وأبقى من ذلك الفناء..

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة.وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد.والفارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه!

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعليا على واقع الأرض الصغير.مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال.يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير.ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزل والأبد.وفي ملك الآخرة الواسع العريض.وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة..وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها،لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها...[٤٩١٠]

[٤٩٠٩] - صحيح البخارى- المكنز [٣ /٤٢٣](٨٤٣) وصحيح مسلم- المكنز [٤ /١٣٤](١٣٧٥) -الدثور:جمع دثر وهو المال العظيم

[٤٩١٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٣٦٧)

يا ليت قوم يعلمون:

قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) } [يس: ٢٠ – ٢٧]

وجاء رجلٌ منْ أطْراف المدينة يسْعى مسْرعاً إلى حيْث كان يجْتمع النّاس وهمْ يحاورون الرّسل،فقال لهمْ:يا قوْم اتّبعوا رسل الله إليْكمْ.

اتّبعوا الذين لا يطْلبون أجْراً على تبْليغهمْ رسالة ربّهمْ،ولا يطْلبون علوّاً في الأرْض ولا فساداً،وهمْ مهْتدون إلى سبيل الله القويم،فإذا اتّبعْتموهم اهْتديْتمْ بهداهمْ

ويبْدوا أنّ أهْل المدينة اتّهموا مواطنهم،الذي جاء يسْعى مسْرعاً ليدافع عن الرّسل،ولْينْصح قوْمه،بأنّه موالٍ للرّسل،ومؤْمنٌ بما جاؤوهمْ به،فأجابهم قائلاً:ولماذا لا يعْبد الله،ولا يخْلص العبادة له،فالله تعالى هو الذي خلقه،وإليْه يرْجع الخلْق جميعاً يوْم القيامة ليجازيهمْ على أعْمالهمْ.

وهلْ ترديدونني أنْ أعْبد آلهةً غيْر الله تعالى لا تضرّ ولا تنْفع،فإذا أراد الله الرّحْمن أنْ ينْزل بي ضرّاً لمْ تنْفعْني تلْك الآلهة شيْئاً،ولمْ تشْفعْ لي عنْده،ولمْ تنْقذْني منْ عذابه.

إنّي إنْ اتّخذْت تلْك الأصْنام آلهةً منْ دون الله،كنْت في ضلالٍ بيّنٍ،واضحٍ.

ثمّ قال الرّجل المؤْمن للرّسل الكرام:إنّي آمنْت بربّكم الذي أرْسلكمْ،واتّبعْتكمْ،فاشْهدوا لي بذلك،عنْد ربّكمْ الكّريم.

(وهناك منْ قال إنّه إنّما خاطب قوْمه،قائلاً إنّي آمنْت بربّكمْ الذي كفرْتمْ أنْتمْ به).

ويرْوى أنّ القوْم وثبوا عليْه فقتلوه،ولم يجدْ منْ يدافع عنْه بيْنهمْ،فأدْخله الله تعالى الجنّة،وأكْرمه على حسْن إيْمانه وثقته بربّه.ويقول تعالى إنّه قال له:ادْخل الجنّة جزاءً لك على ما قدّمْت منْ إيْمانٍ وعملٍ صالحٍ،وما أسْلفْت منْ إحْسانٍ.فلمّا دخلها،وعاين ما

أكْرمه الله به بسبب إيْمانه وصبْره،قال:يا ليْت قوْمي يعْلمون بما أنا فيه من النّعيم،والخيْر العميم،بسبب إيْماني بربّي،وتصْديقي بما جاء به رسله الكرام.وقدْ تمنّى أنْ يعْلم قوْمه بمـــا أكْرمه به ربّه من الجنّة،وحسْن المثوبة،ليؤْمنوا كما آمن،لعلّ الله يغْفر لهمْ،ويكْرمهمْ كما أكْرمه،فقدْ كان حريصاً على هداية قوْمه،حيّاً وميْتاً[٤٩١١].

فأى دعوة أولى من هذه الدعوة،بالقبول لها،والاحتفاء بأهلها؟ إنها دعـــوة مـــن أهـــل الهدى،الذين لا يسألون أجرا على هذا الهدى الذي،يقدمونه ويدعون إليه..فلم التمنّـــع والإعراض عن خير يبذل بلا ثمن؟ ذلك لا يكون إلا عن سفه وجهل معا..ثم يعرض هذا الوافد الجديد،نفسه عليهم،فى الزىّ الجديد الذي تزيّا،والخير الموفور الذي بين يديه مـــن تلك الدعوة..«وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِـــهِ آلِهَـــةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

أسئلة إنكارية،ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين لله،الذي فطره،والذي إليه موعده ولقاؤه مع الناس،يوم الحشر،إنه لا بد أن يكون له إله يعبده..أفيترك عبادة مـــن خلقه ورزقه،والذي يميته ثم يحييه..

ويعبد آلهة من دون الله،إن يرده الله بضر لا تغنى عنه هذه الآلهة شيئا،ولا تمد يدها لإنقاذه مما يريده الله به من ضر؟ «إِنِّي إِذاً لَفِي ضَـــلالٍ مُـــبِينٍ» !! وأي ضـــلال بعـــد هـــذا الضلال،الذي يدع فيه الإنسان حبل النجاة الممدود إليـــه،ثم يتعلـــق بـــأمواج البحـــر الصاخبة،وتيارانه المتدافعة؟.

«إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ».وهكذا يقولها صريحة مدويّة فى وجه القوم..إنها هى كلمة النجاة،وحسبه أن يمسك بها،وليكن ما يكون..!

وألا فليسمعوها عالية مدوية متحدية..إنها كلمة الحق التي يجب أن ترتفـــع فـــوق كـــل كلمة،وتعلو على كل نداء.«قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» – هذا هو الجواب الذي تلقـــاه الرجـــل المؤمن،ردّا على إقراره بالإيمان بربه..وهو الجزاء الـــذي يلقـــاه كـــل مـــؤمن صـــادق الإيمان..والقول الذي قيل لهذا المؤمن،إما أن يكون فى الحياة الدنيا،بوحي من الله سبحانه

[٤٩١١] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٦٠٥، بترقيم الشاملة آليا)

وتعالى،وإما أن يكون ذلك بعد الموت،حيث يعلم المرء مكانه من الجنة أو النار فيقال له يومئذ:«ادخل الجنة» فهى الدار التي أعدّها الله لك.

«قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» !

إنه يتمنّى لقومه أن ينالوا هذا الخير الذي ناله،بإيمانه بربه،وأن يعلموا ما أعد الله للمؤمنين من مغفرة وإكرام..وأنّى لهم أن يعلموا هذا الغيب؟

وأنّى لهم أن يؤمنوا به،وقد أنكروا ما لمسوه بحواسهم،وكذبوا ما رأوه بأعينهم؟..

هذا هو المثل،وتلك هى مواقف الشخصيات والأحداث فيه..

وعلى ضوء هذا المثل يرى المشركون الضالون،إلى أين يسير بهم كفرهم وضلالهم،وإلى أين ينتهى الإيمان بالمؤمنين الذين استجابوا لرسول الله،واستقاموا على الطريق الذي يدعوهم إليه!.

والصورة التي يصورها المثل واضحة مشرقة،لا ينقصها أن يفتقد اسم القرية فيها،ولا أن تغيب أسماء الرسل ومشخصاهم..إنها مستغنية عن كل هذا..[4912]

{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} حرصا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به،وعلم ما رد به قومه عليهم فقال [لهم]:{يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك،وشهد لهم بالرسالة،ثم ذكر تأييدا لما شهد به ودعا إليه،فقال:{اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} أي:اتبعوا من نصحكم نصحا يعود إليكم بالخير،وليس [يريد منكم أموالكم ولا أجرا على نصحه لكم وإرشاده إياكم،فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

بقي] أن يقال:فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة،ولكنه ليس على الحق،فدفع هذا الاحتراز بقوله:{وَهُمْ مُهْتَدُونَ} لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه،ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.فكأن قومه لم يقبلوا نصحه،بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل،وإخلاص الدين لله وحده،فقال:{وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي:وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة،لأنه الذي

[4912] - التفسير القرآني للقرآن (11/ 915)

فطرني،وخلقني،ورزقني،وإليه مآل جميع الخلق،فيجازيهم بأعمالهم،فالذي بيده الخلق والرزق،والحكم بين العباد،في الدنيا والآخرة،هو الذي يستحق أن يعبد،ويثنى عليه ويمجد،دون من لا يملك نفعا ولا ضرا،ولا عطاء ولا منعا،ولا حياة ولا موتا ولا نشورا،ولهذا قال:{أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ} لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه،فلا تغني شفاعتهم عني شيئا،وَلا هُمْ يُنْقِذُون من الضر الذي أراده الله بي.

{إِنِّي إِذًا} أي:إن عبدت آلهة هذا وصفها {لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} فجمع في هذا الكلام،بين نصحهم،والشهادة للرسل بالرسالة،والاهتداء والإخبار بتعيُّن عبادة الله وحده،وذكر الأدلة عليها،وأن عبادة غيره باطلة،وذكر البراهين عليها،والإخبار بضلال من عبدها،والإعلان بإيمانه جهرا،مع خوفه الشديد من قتلهم،فقال:{إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} فقتله قومه،لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به.

فـ {قِيلَ} له في الحال:{ادْخُلِ الْجَنَّةَ} فقال مخبرا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه،وناصحا لقومه بعد وفاته،كما نصح لهم في حياته:{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي} أي:بأي:شيء غفر لي،فأزال عني أنواع العقوبات،{وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} بأنواع المثوبات والمسرات،أي:لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.[٤٩١٣]

وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا،لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل،فتقدم للذبّ عنهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه،قال يا قوم اتبعوا رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم ولا يطلبون علوا في الأرض ولا فسادا،وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى سعادة الدارين.

ثم أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال:(وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟) أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذى خلقني،وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير،وإن شرا فشر.

[٤٩١٣] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٩٤)

وفي هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره،وتهديد بتخـــويفهم بـــالرجوع إلى شديد العقاب.

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حمقهم فقال:(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَـــةً إِنْ يُـــرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟) أي أأعبد من دون الله آلهـــة لا تملك من الأمر شيئا،وهو لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو،ولا تملك الآلهة دفعه عني ولا منعه.

(إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي إني إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لفى ضلال بيّن لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل،فإن إشراك من لا يخلق وليس من شأنه النفـــع والضر،بمن يخلق وهو القادر على كل شيء- خطأ ظاهر،وغلط واضح لـــدى أربـــاب الأحلام وذوى الحجا.

ثم التفت إلى الرسل وخاطبهم منيبا إلى ربه فقال:(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْـــمَعُونِ) أي إني آمنت بربكم الذي أرسلكم فاشهدوا لى بذلك عنده.

روى أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه و لم يجد من يدافع عنه.

قال قتادة:جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول:اللهم اهد قومى فـــإنهم لا يعلمـــون،فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة.

ثم ذكر مآل أمره وما قاله حين وجد النعيم والكرامة،فقال:(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ،قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) أي قال الله له:ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل وأسلفت من إحسان،فلما دخلها وعاين ما أكرمه الله بـــه لإيمانـــه وصبره قال:ليت قومى يعلمون بما أنا فيه من نعيم،وخير عميم،لإيماني بـــربي وتصـــديقى برسله وصبرى على أذى قومى،وإنما تمنى علم قومه بحاله،ليحملهم ذلك على اكتســـاب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى حظيرة الإيمان والطاعة اتباعا لسنن أوليـــاء الله الذين يكظمون الغيظ ويترحمون على الأعداء.قال ابن عباس:نصح قومه حيا بقوله:(يـــا

قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) وبعد مماته بقوله:(يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ). [٤٩١٤]

وفي الظلال:

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة.فيها الصدق.والبساطة.والحرارة.واستقامة الإدراك.وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه.وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره.سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون.وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق،وفي كفهم عن البغي،وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان.ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته.ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها..«قالَ:يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ.اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ»..

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة،وهو لا يطلب أجرا،ولا يبتغي مغنما..إنه لصادق.وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفا من اللّه؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم،وهو لا يجني من ذلك كسبا،ولا يطلب منهم أجرا؟ «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً»..«وَهُمْ مُهْتَدُونَ»..

وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم.فهم يدعون إلى إله واحد.ويدعون إلى نهج واضح.ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض.فهم مهتدون إلى نهج سليم،وإلى طريق مستقيم.

[٤٩١٤] - تفسير المراغي (٢٢/ ١٥٣)

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه،ويناشـد فـيهم الفطـرة الـتي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم:« وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَنـي وَإِلَيْـه تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخذُ منْ دُونِه آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»..إنه تساؤل الفطرة الشـاعرة بالخالق،المشـدودة إلى مصدر وجودها الوحيد..«وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني؟» وما الذي يحيد بي عن هـذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطـر؟ إن الفطـر مجذوبـة إلى الـذي فطرها،تتجه إليه أول ما تتجه،فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج علـى فطرتها.ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها.والتوجه إلى الخالق هو الأولى،وهـو الأول،وهـو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري.والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه،فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط،بلا تكلف ولا لـف ولا تعقيد! وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلـوق يرجـع إلى الخـالق في النهاية.كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل.فيقول:«وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ»..ويتساءل لم لا أعبد الذي فطرني،والذي إليه المرجع والمصير؟ ويتحدث عن رجعتهم هـم إليـه.فهـو خالقهم كذلك.ومن حقه أن يعبدوه.

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم.فيراه ضلالا بينا:«أَأَتَّخذُ منْ دُونِه آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟»..وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه،وينحرف إلى عبـادة غـير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهـة ضـعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟ «إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»..والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفـة الواضـحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين.لأن صوت الفطرة في قلبـه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب:«إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ»..وهكـذا ألقـى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة.وأشهدهم عليها.وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها.أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون!

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أهم لم يمهلوه أن قتلوه.وإن كان لا يذكر شيئا من هــذا صراحة.إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها،وعلى القوم وما هم فيه ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق،متبعا صوت الفطرة،وقذف بها في وجوه مــن يملكــون التهديد والتنكيل.نراه في العالم الآخر.ونطلع على ما ادخر اللّه له من كرامة.تليق بمقــام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد:«قِيلَ:ادْخُلِ الْجَنَّةَ.قالَ:يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِما غَفَــرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ»..وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة.ونرى الموت نقلــة من عالم الفناء إلى عالم البقاء.وخطوة يخلص بها المؤمن مــن ضــيق الأرض إلى ســعة الجنة.ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق.ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم.ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.ونرى الرجل المؤمن.وقد اطلع على ما آتاه اللّه في الجنة من المغفرة والكرامة،يذكر قومه طيب القلب رضي النفس،يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة،ليعرفوا الحق،معرفة اليقين.هذا كان جزاء الإيمان.فأما الطغيــان فكــان أهون على اللّه من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره.فهو ضعيف ضعيف:«وَما أَنْزَلْنا عَلــى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ.وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ.إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُــمْ خامِدُونَ»..ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم،تهوينا لشأنهم،وتصغيرا لقدرهم.فمــا كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم..ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهــين الذليل![٤٩١٥]

إنها ليست جنة ولكنها جنان:

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ حَارِثَةَ ابْنَ الرُّبَيِّعِ جَاءَ نَظَّارًا يَوْمَ أُحُدٍ،وَكَانَ غُلَامًا،فَأَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَوَقَعَ فِي ثُغْرَةِ نَحْرِهِ فَقَتَلَهُ،فَجَاءَتْ أُمُّهُ الرُّبَيِّعُ فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،قَدْ عَلِمْتَ مَكَــانَ حَارِثَــةَ مِنِّي،فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَسَأَصْبِرُ،وَإِلَّا فَسَتَرَى مَا أَصْنَعُ.قَالَ:«يَــا أُمَّ حَارِثَــةَ،إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ،وَلَكِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَهُوَ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى».قَالَتْ:فَسَأَصْبِرُ"[٤٩١٦]

[٤٩١٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٧٤٦)

[٤٩١٦] - المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٣١)(٣٢٣٤) صحيح - الغرب :الذى لا يعرف راميه

وعَنْ أَنَسٍ:أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ،أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي،فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ،وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ لَهَا:«هَبِلْتِ،أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَإِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى»[٤٩١٧]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:انْطَلَقَ حَارِثَةُ بْنُ عَمَّتِي نَظَّارًا يَوْمَ بَدْرٍ مَا انْطَلَقَ لِقِتَالٍ،فَأَصَابَهُ سَهْمٌ،فَقَتَلَهُ،فَجَاءَتْ عَمَّتِي أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،ابْنِي حَارِثَةُ إِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ،وَأَحْتَسِبْ،وَإِلَّا فَسَتَرَى مَا أَصْنَعُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«يَا أُمَّ حَارِثَةَ،إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى» [٤٩١٨]

عَنْ أَنَسٍ،قَالَ:كَانَ ابْنُ عَمَّتِي حَارِثَةُ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ،فَانْطَلَقَ غُلاَمًا نَظَّارًا،مَا انْطَلَقَ لِقِتَالٍ،فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ،فَجَاءَتْ عَمَّتِي أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،ابْنِي حَارِثَةُ،إِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ وَاحْتَسَبْتُ،وَإِلاَّ فَسَتَرَى مَا أَصْنَعُ،فَقَالَ:يَا أُمَّ حَارِثَةَ،إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ،وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى[٤٩١٩].

بالدرجات العلى للمجاهدين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ،وَأَقَامَ الصَّلاَةَ،وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ،جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ:«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ،أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ،فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ،فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[٤٩٢٠]

[٤٩١٧] – صحيح البخاري (٨/ ١١٧)(٦٥٦٧)

[٤٩١٨] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١٠/ ٥٢٠)(٤٦٦٤) صحيح

[٤٩١٩] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢٠/ ٣٣٣)(٣٧٨٦٨) صحيح

[٤٩٢٠] – صحيح البخاري (٤/ ١٦)(٢٧٩٠)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:قَوْلُهُ ﷺ:«فَهُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ» يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ فِي وَسَطِ الْجِنَّــانِ،فِي الْعَرْضِ،وَقَوْلُهُ «وَهُوَ أَعْلَى الْجَنَّةِ» يُرِيدُ بِهِ:فِي الارْتِفَاعِ[٤٩٢١]

وفي الحديث فضيلة ظاهرة للمجاهدين،وفيه عظم الجنة وعظم الفردوس منها،وفيه إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد إما بالنية الخالصة أو بما يوازيه مـــن الأعمــال الصالحة لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعد للمجاهدين،وقيل فيه جواز الدعاء بما لا يحصل للداعي لما ذكرته،والأول أولى والله أعلم.[٤٩٢٢]

أدنى أهل الجنة :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً،رَجُلٌ صَــرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ،وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ،فَقَالَ:أَيْ رَبِّ،قَدِّمْنِي إِلَى هَــذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَــا " وَسَــاقَ الْحَــدِيثَ بِنَحْــوِ حَــدِيثِ ابْــنِ مَسْــعُودٍ،وَلَمْ يَذْكُرْ:فَيَقُولُ:«يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ،وَزَادَ فِيــهِ:" وَيُــذَكِّرُهُ اللهُ،سَلْ كَذَا وَكَذَا،فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ،قَالَ اللهُ:هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ "،قَالَ:" ثُــمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ،فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،فَتَقُولَانِ:الْحَمْدُ لِلَّــهِ الَّــذِي أَحْيَــاكَ لَنَا،وَأَحْيَانَا لَكَ "،قَالَ:" فَيَقُولُ:مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ "[٤٩٢٣]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً رَجُلٌ صَــرَفَ اللَّــهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ،وَمَثَلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ،فَقَالَ:أَيْ رَبِّ،قَدِّمْنِي إِلَــى هَــذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا وَآكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا،قَالَ اللَّهُ لَهُ:«فَهَــلْ عَسَــيْتَ إِنْ أُعْطِيــكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟» فَيَقُولُ:لَا،وَعِزَّتِكَ فَيُقَدِّمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَتُمَثَّلُ لَهُ شَجَرَةٌ أُخْــرَى ذَاتُ ظِــلٍّ وَثَمَرَةٍ وَمَاءٍ،فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِــي ظِلِّهَــا وَآكُــلُ مِــنْ

[ش (الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات.(أوسط الجنة) أفضلها وخيرها.(أراه) أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه..) (تفجر) تنشق]

[٤٩٢١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٠/ ٤٧٣)

[٤٩٢٢] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار الفكر (٦/ ١٣)

[٤٩٢٣] - صحيح مسلم (١/ ١٧٥)٣١١ - (١٨٨)

ثَمَرِهَا،وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا،فَيَقُولُ لَهُ:«هَـلْ عَسَـيْتَ إِنْ فَعَلْـتُ أَنْ تَسْـأَلَنِي غَيْـرَهُ؟» فَيَقُولُ:لَا،وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ،فَيَبْرُزُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَـابِ الْجَنَّةِ،فَأَكُونُ تَحْتَ نِجَافِ الْجَنَّةِ فَأَنْظُرُ إِلَى أَهْلِهَا،فَيُقَدِّمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَيَرَى أَهْلَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ:هَذَا لِي فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:«تَمَنَّ»،فَيَتَمَنَّى وَيُذَكِّرُهُ اللَّهُ سَلْ مِنْ كَذَا سَلْ مِنْ كَـذَا،حَتَّى إِذَا انْقَطَعَـتْ بِـهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ لَهُ:«هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»،ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ تَبْدُرُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ فَتَقُولَانِ:لَهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ،فَيَقُولُ:مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْـلَ مَـا أُعْطِيتُ " قَالَ الصَّائِغُ فِي حَدِيثِهِ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَبَّأَكَ لَنَا وَخَبَّأَنَا لَكَ"[٤٩٢٤]

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ،قَالَ:سَمِعْتُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَرْفَعُهُ إِلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ قَـالَ:" سَـأَلَ مُوسَى رَبَّهُ،مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً،قَالَ:هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِـلَ أَهْـلُ الْجَنَّـةِ الْجَنَّةَ،فَيُقَالُ لَهُ:ادْخُلِ الْجَنَّةَ،فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ،كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّـاسُ مَنَازِلَهُمْ،وَأَخَـذُوا أَخَذَاتِهِمْ،فَيُقَالُ لَهُ:أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ:رَضِيتُ رَبِّ،فَيَقُولُ:لَكَ ذَلِكَ،وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ،فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ:رَضِيتُ رَبِّ،فَيَقُولُ:هَذَا لَكَ وَعَشَـرَةُ أَمْثَالِـهِ،وَلَكَ مَـا اشْـتَهَتْ نَفْسُـكَ،وَلَذَّتْ عَيْنُـكَ،فَيَقُولُ:رَضِـيتُ رَبِّ،قَالَ:رَبِّ،فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ:أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي،وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا،فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ،وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ،وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ "،قَالَ:وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:" {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة:١٧] الْآيَةَ.[٤٩٢٥]

بالحياة الحقيقية والسعادة الأبدية:

[٤٩٢٤] - مستخرج أبي عوانة (١/ ١٤٢)(٤٢٤)

[٤٩٢٥] - صحيح مسلم (١/ ١٧٦)٣١٢ - (١٨٩) [ش (وأخذوا أخذاقم) قال القاضي هو ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصلوه (أردت) معناه اخترت واصطفيت (غرست) معناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير (لم يخطر على قلب بشر) هنا حذف اختصر للعلم به تقديره ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته لهم (مصداقه) معناه دليله وما يصدقه]

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [آل عمران:١٦٩ - ١٧١]

يخْبر الله تعالى عن الشّهداء بأنّهمْ قتلوا في هذه الدّار،ولكنّ أرْواحهمْ حيّةٌ ترْزق عنْد الله. وقال رسول الله ﷺ:" ما منْ نفْسٍ تموت،لها عنْد الله خيْرٌ،يسرّها أنْ ترْجع إلى الدّنْيا إلا الشّهيد،فإنّه يسرّه أنْ يرْجع إلى الدّنيا فيقْتل مرّةً أخْرى ممّا يرى منْ فضْل الشّهادة ".

ويقول الله تعالى للْمؤْمنين:عليهمْ ألاّ ينْخدعوا بما يقوله المنافقون،وما يفْعلونه،فهمْ يؤْثرون الحياة الدّنيا على الآخرة،لارْتيابهمْ في البعْث والحساب في الآخرة،فالشّهداء أحْياءٌ يرْزقون عنْد ربّهمْ رزْقاً حسناً يعْلمه هو. ويكون الشّهداء في سبيل الله فرحين بما همْ فيه من النّعْمة والغبْطة،التي منّ الله بها عليهمْ،مسْتبْشرين بإخْوانهمْ الذين يقْتلون بعْدهمْ في سبيل الله،أنّهمْ يقْدمون عليْهمْ حينما يسْتشْهدون،لا يخافون ممّا أمامهمْ،ولا يحْزنون على ما تركوه في الدّنيا.وهمْ مسْتبْشرون منْ تلقّيهمْ ما يفيضه الله عليهمْ من النّعْمة والفضْل والثّواب،ومنْ يقينهمْ بأنّ الله لا يضيّع أجْر المؤْمنين الصّادقين.[٤٩٢٦]

هو تطمين للمؤمنين،وكبت وحسرة للكافرين والمنافقين..فهؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله،قد استوفوا آجالهم فى الدنيا،ولم يذهب القتل بساعة من أعمارهم،فما قتل منهم قتيل إلا بعد أن انتهى أجله المقدور له عند الله..ثم إن هؤلاء القتلى «شهداء» أي حضور، لم يغيبوا،ولم يصيروا إلى عالم الفناء والعدم،وإنما هم أحياء حياة باقية خالدة،لا يذوقون فيها الموت..وهذا هو الذي يصير إليه كل من يموت من الناس.من مؤمنين وكافرين..وهذا هو الذي يؤمن به المؤمنون بالله،فلا يرون فى الموت خاتمة الإنسان وانتهاء دوره فى الوجود،وإنما يرون الموت رحلة من عالم إلى عالم،ونقلة من دار إلى دار..من دار الفناء والزوال إلى دار البقاء والخلود،ومن عالم التكليف والابتلاء،إلى عالم الحساب والجزاء..

[٤٩٢٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٢، بترقيم الشاملة آليا)

ومن أجل هذا يستخفّ المؤمنون بالموت،ولا يكبر عليهم خطبه،لأنهم ينظرون إلى الحياة الخالدة بعده،ويعملون لها،ليسعدوا فيها،ولينعموا بنعيمها المعدّ لعباده الله الصالحين.

أما غير المؤمنين بالله،فإنهم لا يؤمنون باليوم الآخر،ولا يعتقدون أن وراء الحياة الدنيا حياة،وأنهم إذا ماتوا صاروا إلى تراب وعدم..ولهذا يشتد حرصهم على الحياة،ويعظم جزعهم من الموت،إذ كان العدم- كما يتصورن- هو الذي ينتظرهم بعده..فتتضاعف حسرتهم على من مات منهم،ويشتد حزنهم عليه،لأنهم- حسب معتقدهم- لا يلتقون به أبدا!! هذه هى الحقيقة..الأموات جميعا،ليسوا بأموات على الحقيقة،وإنما هم أحياء فى العالم الآخر..ولكن القرآن الكريم لم يكشف هذه الحقيقة كلها،ولم يظهر منها إلا ما يملأ قلوب الكافرين والمنافقين حسرة وألما،وإلّا ما يبعث فى قلوب المؤمنين العزاء والرضا،إذ ينظر هؤلاء وأولئك جميعا إلى قوله تعالى:«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً،بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» فيجدون هؤلاء القتلى أحياء فى العالم العلوي،يرزقون من نعيمه،ويطعمون من طيباته:«فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه».

فهؤلاء القتلى الذين ينظر إليهم المشركون والمنافقون نظر شماتة وتشفّ،على حين ينظر إليهم إخوانهم وأحبابهم نظرة حزن وأسى لهذه الميتة التي ماتوا عليها- هؤلاء القتلى قد أشرفوا على الدنيا من عليائهم،ينعمون بما أتاهم الله من فضله- وإنه لفضل عميم،يملأ القلوب بهجة ومسرة..فيحزن لذلك المشركون والمنافقون،ويتعزّى به،ويستبشر المؤمنون.

قوله تعالى:«وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».بيان لكمال هذا النعيم الذين ينعم به هؤلاء الشهداء،وأنهم ليسوا مجرد أحياء حياة باهتة،بل هم فى حياة قوية كاملة،بحيث تشمل عالمهم العلوىّ الذي نقلوا إليه،وعالمهم الأرضى الذي انتقلوا منه..فهم فى هذا العالم العلوىّ.

إذ ينظرون إلى أنفسهم فيجدون أنهم فى فضل من الله ونعمة،وأنهم إنما نالوا هذا الفضل وتلك النعمة بجهادهم فى سبيل الله،وباستشهادهم فى هذه السبيل- يعودون فينظرون إلى إخوانهم المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم بعد،وأنهم على طريق الجهاد والاستشهاد،فيستبشرون لذلك،وتتضاعف فرحتهم إذ سيلقى إخوانهم هذا الجزاء الذي

جوزوا هم به،وينعمون بهذا النعيم الـــذي هـــم فيه،وهـــذا مـــا يشـــير إليـــه قولـــه تعالى:«يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ»..فكما وفّى الله هؤلاء الذين استشهدوا فى سبيل الله،سيوفّى الذين لم يستشهدوا بعد أجرهم،فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين،ولا يبخس ثواب المجاهدين.[٤٩٢٧]

وقال السعدي:

هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم،وما منَّ الله عليهم به مـــن فضـــله وإحسانه،وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم،وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة،فقال:{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله} أي:في جهـــاد أعـــداء الدين،قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله {أمواتا} أي:لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا،وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها،الذي يحذر من فواته،من جبن عن القتال،وزهد في الشهادة.{بل} قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافســـون.فهـــم {أحياء عند ربهم} في دار كرامته.ولفظ:{عند ربهم} يقتضي علو درجتهم،وقربهم مـــن ربهم،{يرزقون} من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه،إلا من أنعم به عليهم،ومع هـــذا {فرحين بما آتاهم الله من فضله} أي:مغتبطين بذلك،قد قرت به عيونهم،وفرحـــت بـــه نفوسهم،وذلك لحســـنه وكثرته،وعظمتـــه،وكمال اللـــذة في الوصـــول إليه،وعـــدم المنغص،فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق،ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله:فتم لهم النعيم والسرور،وجعلوا {يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهـــم} أي:يبشر بعضهم بعضا،بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم،وأنهم سينالون ما نالوا،{ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} أي:يستبشرون بزوال المحذور عنـــهم وعـــن إخـــوانهم المستلزم كمال السرور {يستبشرون بنعمة مـــن الله وفضـــل} أي:يهـــنىء بعضـــهم بعضا،بأعظم مهنأ به،وهو:نعمة ربهم،وفضله،وإحسانه،{وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} بل ينميه ويشكره،ويزيده من فضله،ما لا يصل إليه سعيهم.وفي هذه الآيات إثبات نعيم

[٤٩٢٧] – التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٦٤٠)

البرزخ،وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم،وفيه تلاقـي أرواح أهـل الخير،وزيـارة بعضهم بعضا،وتبشير بعضهم بعضا.[٤٩٢٨]

وفي الظلال:

لقد شاء اللّه بعد أن جلا في قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل،وتحـدى مـا يبثـه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى:«لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُـوا» فقـال يتحداهم:«قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»..شاء اللّـه بعـد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتـة..أن يزيـد هـذه القلـوب طمأنينـة وراحة.فكشف لها عن مصير الشهداء:الذين قتلوا في سبيل اللّه – وليس هنالك شـهداء إلا الذين يقتلون في سبيل اللّه خالصة قلوبهم لهذا المعنى،مجردة من كل ملابسة أخـرى – فإذا هؤلاء الشهداء أحياء،لهم كل خصائص الأحياء.فهم «يُرْزَقُونَ» عند ربهـم.وهـم فرحون بما آتاهم اللّه من فضله.وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المـؤمنين.وهـم يحفلون الأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم..فهذه خصائص الأحياء:مـن متـاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير.فما الحسرة على فراقهم؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث،فوق ما نالهم من فضل اللّه،وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي ومن خلفه من إخوانه؟ والـتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة؟ ولا فواصـل ولا حـواجز بالقيـاس إلى المؤمنين،الذين يتعاملون هنا وهناك مع اللّه..؟

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور.إنها تعدّل – بل تنشـئ إنشاء – تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحيـاة وأوضـاعها،وهي موصولة لا تنقطع فليس الموت خاتمة المطاف بل ليس حاجزا بين ما قبله وما بعده علـى الإطلاق! إنها نظرة جديدة لهذا الأمر،ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين،واسـتقبالهم للحياة والموت،وتصورهم لما هنا وما هناك.«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»..والآية نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل

[٤٩٢٨] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٥٦)

اللّه،وفارقوا هذه الحياة،وبعدوا عن أعين الناس..أموات..ونص كذلك في إثبات أنهم «أَحْياءٌ»..«عِنْدَ رَبِّهِمْ».ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات،وصف ما لهم من خصائص الحياة.فهم «يُرْزَقُونَ»..ومع أننا نحن – في هذه الفانية – لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء،إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح..إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة،وما بينهما من انفصال والتئام.وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها وأننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها.لا ننتهي إلى إدراك حقيقي لها وأنه أولى لنا أن ننتظر البيان في شأنها ممن يملك البيان سبحانه وتعالى.فهؤلاء ناس منا،يقتلون،وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها،ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها.ولكن لأنهم:«قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وتجردوا له من كل الأعراض والأعراض الجزئية الصغيرة واتصلت أرواحهم باللّه،فجادوا بأرواحهم في سبيله..لأنهم قتلوا كذلك،فإن اللّه – سبحانه – يخبرنا في الخبر الصادق،أنهم ليسوا أمواتا.وينهانا أن نحسبهم كذلك،ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده،وأنهم يرزقون.فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء.ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى:«فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»..فهم يستقبلون رزق اللّه بالفرح لأنهم يدركون أنه «مِنْ فَضْلِهِ» عليهم.فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل اللّه.فأي شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم وهم مستبشرون لهم لما علموه من رضى اللّه عن المؤمنين المجاهدين:« وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ،وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم «بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ» و لم تنقطع بهم صلاتهم.إنهم «أَحْياءٌ» كذلك معهم،مستبشرون بما لهم في الدنيا والآخرة.موضع استبشارهم لهم:«أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»..وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل،ومن يقينهم بأن هذا

شأن اللّه مع المؤمنين الصادقين.وأنه لا يضيع أجر المؤمنين..فما الذي يبقى من خصائص الحياة غير متحقق للشهداء – الذين قتلوا في سبيل اللّه؟ – وما الذي يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم؟ وما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس،عن هذه الرحلة إلى جوار اللّه،مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة! إنها تعديل كامل لمفهوم الموت – متى كان في سبيل اللّه – وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم،وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم.وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها،بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة،كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة.وحيث تستقر في مجال فسيح عريض،لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة،ومن حياة إلى حياة! ووفقا لهذا المفهوم الجديد الذي أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم في قلوب المسلمين،سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة – في سبيل اللّه –.

وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن «الْمُؤْمِنِينَ» الذين يستبشر الشهداء في الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم،فيعين من هم ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم:«الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ.الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ:إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ،فَزادَهُمْ إِيماناً.وَقالُوا:حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ،وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ»..

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول – ﷺ- إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة.وهم مثخنون بالجراح.وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة.وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة،ومرارة الهزيمة،وشدة الكرب.وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا،فقل عددهم،فوق ما هم مثخنون بالجراح! ولكن رسول اللّه – ﷺ- دعاهم وحدهم.ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم – ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! – فاستجابوا..استجابوا لدعوة الرسول – ﷺ-

وهي دعوة اللّه - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهـومهم كـذلك - فاستجابوا بهذا للّه والرسول «مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ»،ونزل بهـم الضـر،وأثخنتهم الجراح.لقد دعاهم رسول اللّه - ﷺ- ودعاهم وحدهم.وكانت هذه الدعوة وما تلاهـا من استجابة تحمل إيحاءات شتى،وتومئ إلى حقائق كبرى،نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول اللّه - ﷺ- شاء ألا يكون آخر مـا تنضـم عليـه جـوانح المسـلمين ومشاعرهم،هو شعور الهزيمة،وآلام البرح والقرح فاستنهضهم لمتابعة قريش،وتعقبها،كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء،وليست نهاية المطاف.وأنهم بعد ذلـك أقويـاء،وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء،إنما هي واحدة وتمضي،ولهم الكرة عليهم،متى نفضوا عنـهم الضعف والفشل،واستجابوا لدعوة اللّه والرسول.ولعل رسـول اللّـه - ﷺ- شـاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش،وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاتـه.فمضـى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس يشعر قريشا أنها لم تنـل مـن المسـلمين منالا.وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها..[٤٩٢٩]

بالرضى الذي لا سخط بعده:

عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُـولُ لأَهْـلِ الجَنَّة:يَا أَهْلَ الجَنَّة؟ فَيَقُولُونَ:لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ،فَيَقُولُ:هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ:وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْط أَحَدًا منْ خَلْقـكَ،فَيَقُولُ:أَنَـا أُعْطِـيكُمْ أَفْضَـلَ مِـنْ ذَلكَ،قَالُوا:يَا رَبِّ،وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ:أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي،فَلاَ أَسْـخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا "[٤٩٣٠]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،هَلْ نَـرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ» قَالَ:«هَلْ تُضَارُّونَ فِـي رُؤْيَـةِ الشَّـمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ

[٤٩٢٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٨٢٨)

[٤٩٣٠] - صحيح البخاري (٨/ ١١٤)(٦٥٤٩) [ش (أحل) أنزل وأوجب]

فيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا:لَا يَا رَسُولَ الله،قَالَ:" مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدهمَا،إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ،فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ،حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَيُدْعَى الْيَهُودُ،فَيُقَالُ لَهُمْ:مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا:كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله،فَيُقَالُ:كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَد،فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا:عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا،فَاسْقِنَا،فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا،فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ،ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى،فَيُقَالُ لَهُمْ:مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا:كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله،فَيُقَالُ لَهُمْ،كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَد،فَيُقَالُ لَهُمْ:مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ:عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا،فَاسْقِنَا،قَالَ:فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا،فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ:فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ،قَالُوا:يَا رَبَّنَا،فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ،وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ،فَيَقُولُ:أَنَا رَبُّكُمْ،فَيَقُولُونَ:نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ،فَيَقُولُ:هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ:نَعَمْ،فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّه مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِه إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُود،وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً،كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ،ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِه الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ،فَقَالَ:أَنَا رَبُّكُمْ،فَيَقُولُونَ:أَنْتَ رَبُّنَا،ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ،وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ،وَيَقُولُونَ:اللهُمَّ سَلِّمْ،سَلِّمْ " قِيلَ:يَا رَسُولَ الله،وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ:" دَحْضٌ مَزِلَّةٌ،فِيه خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ،فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ،وَكَالْبَرْقِ،وَكَالرِّيحِ،وَكَالطَّيْرِ،وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ،فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ،وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ،وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ،فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه،مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّه فِي اسْتِقْصَاءِ

الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ،يَقُولُونَ:رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ،فَيُقَالُ لَهُمْ:أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ،فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ،فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ،وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ،ثُمَّ يَقُولُونَ:رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ،فَيَقُولُ:ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ،فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا،ثُمَّ يَقُولُونَ:رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا،ثُمَّ يَقُولُ:ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ،فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا،ثُمَّ يَقُولُونَ:رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا،ثُمَّ يَقُولُ:ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ،فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ:رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا "،وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ:إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:{إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٤٠]،فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ،وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ،وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ،وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ،فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ،فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا،فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ:نَهَرُ الْحَيَاةِ،فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ،أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ،أَوْ إِلَى الشَّجَرِ،مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ،وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟ " فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ،قَالَ:" فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ،يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ،وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ،ثُمَّ يَقُولُ:ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ،فَيَقُولُونَ:رَبَّنَا،أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ،فَيَقُولُ:لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا،فَيَقُولُونَ:يَا رَبَّنَا،أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ:رِضَايَ،فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ""[٤٩٣١]

[٤٩٣١] - صحيح مسلم (١/ ١٦٧)٣٠٢ - (١٨٣) [ش (ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما) معناه لا تضارون أصلا كما لا تضارون في رؤيتهما أصلا (وغبر أهل الكتاب) معناه بقاياهم جمع غابر (كأنها سراب) السراب ما يتراءى للناس في الأرض القفر والقاع المستوى وسط النهار في الحر الشديد لامعا مثل الماء يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا (يحطم بعضها بعضا) معناه لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها والحطم الكسر ة والإهلاك والحطمة اسم من أسماء النار لكونها تحطم ما يلقى فيها (فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم) معنى قولهم التضرع إلى الله تعالى في كشف هذه الشدة عنهم وأنهم لزموا طاعة سبحانه وتعالى وفارقوا في الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته سبحانه من قراباتهم

أنتم الطائفة المنصورة:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ،وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي،وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»[٤٩٣٢]

وغيرهم ممن كانوا يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم للارتفاق بهم (ليكاد أن ينقلب) هكذا هو في الأصول بإثبات أن وإثباتها مع كاد لغة كما أن حذفها مع عسى لغة ومعنى ينقلب أي يرجع عن الصواب للامتحان الشديد الذي جرى (فيكشف عن ساق) ضبط يكشف بفتح الياء وضمها وهما صحيحان وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشدة أي يكشف عن شدة وأمر مهول (طبقة واحدة) قال الهروي وغيره الطبق فقار الظهر أي صار فقارة واحدة كالصفيحة فلا يقدر على السجود لله تعالى (ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة) الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان مشهورتان وهو الصراط ومعنى تحل الشفاعة بكسر الحاء وقيل بضمها أي تقع ويؤذن فيها (دحض مزلة) الدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر ومنه دحضت الشمس أي مالت وحجة داحضة أي لا ثبات لها (فيها خطاطيف وكلاليب وحسك) أما الخطاطيف فجمع خطاف بضم الخاء في المفرد والكلاليب بمعناه وقد تقدم بيانهما وأما الحسك فهو شوك صلب من حديد (وكأجاويد الخيل والركاب) من إضافة الصفة إلى الموصوف قال في النهاية الأجاويد جمع أجواد وهو جمع جواد وهو الجيد الجري من المطي والركاب أي الإبل واحدتها راحلة من غير لفظها فهو عطف على الخيل والخيل جمع الفرس من غير لفظه (فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم) معناه أنهم ثلاثة أقسام قسم يسلم فلا يناله شيء أصلا وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص وقسم يكردس ويلقى فيسقط في جهنم قال في النهاية وتكدس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط ويروى بالشين المعجمة من الكدش وهو السوق الشديد والكدش الطرد والجرح أيضا (في استقصاء الحق) أي تحصيله من خصمه والمتعدي عليه (من خير) قال القاضي عياض رحمه الله قيل معنى الخير هنا اليقين قال والصحيح أن معناه شيء زائد على مجرد الإيمان لأن مجرد الأيمان الذي هو التصديق لا يتجزأ وإنما يكون هذا التجزؤ لشيء زائد عليه من عمل صالح أو ذكر خفي أو عمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى ونية صادقة (لم نذر فيها خيرا) هكذا هو خير بإسكان الياء أي صاحب خير (فيقبض قبضة من النار) معناه يجمع جماعة (قد عادوا حمما) معنى عادوا صاروا وليس بلازم في عاد أن يصير إلى حالة كان عليها قبل ذلك بل معناه صاروا أما الحمم فهو الفحم واحدته حممة كحطمة (في أفواه الجنة) الأفواه جمع فوهة وهو جمع سمع من العرب على غير قياس وأفواه الأزقة والأنهار أوائلها قال صاحب المطالع كأن المراد في الحديث مفتتح من مسالك قصور الجنة ومنازلها (الحبة في حميل السيل) الحبة بالكسر بزور البقول وحب الرياحين وقيل هو نبت صغير ينبت في الحشيش وحميل السيل هو ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره فعيل بمعنى مفعول فإذا اتفقت فيه حبة واستقرت على شط مجري السيل فإنها تنبت في يوم وليلة فشبه بها سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها (ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض) أما يكون في الموضعين الأولين فتامة ليس لها خبر معناها ما يقع وأصيفر وأخيضر مرفوعان وأما يكون أبيض فيكون فيه ناقصة وأبيض منصوب وهو خبرها (فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم) الخواتم جمع خاتم بفتح التاء وكسرها قال صاحب التحرير المراد بالخواتم هنا أشياء من ذهب أو غير ذلك تعلق في أعناقهم علامة يعرفون بها قال معناه تشبيه صفائهم وتلألئهم باللؤلؤ (هؤلاء عتقاء الله) أي يقولون هؤلاء عتقاء الله]

[٤٩٣٢] - صحيح البخاري (١/ ٢٥)(٧١) [ش(يفقهه) يجعله فقيها والفقه الفهم.(أنا قاسم) أقسم بينكم ما أمرت بتبليغه من الوحي ولا أخص به أحدا دون أحد.(والله يعطي) كل واحد منكم فهما على قدر ما تعلقت به إرادته سبحانه.(قائمة على أمر الله) حافظة لدين الله الحق وهو الإسلام وعاملة به.(حتى يأتي أمر الله) يوم القيامة]

وعن عُمَيْرَ بْنِ هَانِئٍ،أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:«لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ،لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ،وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» قَالَ عُمَيْرٌ:فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ:قَالَ مُعَاذٌ:وَهُمْ بِالشَّأْمِ،فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ:وَهُمْ بِالشَّأْمِ"[٤٩٣٣]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ،أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ،حَدَّثَهُ،قَالَ:سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ،عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[٤٩٣٤]

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ،قَالَ:كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ،وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ،هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ،لَا يَدْعُونَ اللهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ،فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ:يَا عُقْبَةُ،اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللهِ،فَقَالَ عُقْبَةُ:هُوَ أَعْلَمُ،وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ،قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ،لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ،حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»،فَقَالَ عَبْدُ اللهِ:أَجَلْ،«ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ،فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ،ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»[٤٩٣٥]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٩٣٣] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧)(٣٦٤١)

[٤٩٣٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٤ - (١٠٣٧)

[٤٩٣٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤)١٧٦ - (١٩٢٤)

الباب الرابع والثلاثون

آداب الجهاد في سبيل الله

المبحث الأول

آداب الجهاد المشروعة قبل خوض المعركة

يجب على الإمام أو من ينوب عنه أن يتفقد جيشه وأسلحته عند المسير إلى العدو،ويمنع المخذِّل والمرجف،وكل من لا يصلح للجهاد،ولا يستعين بكافر إلا لضرورة،ويُعد الزاد،ويسير بالجيش برفق،ويطلب لهم أحسن المنازل،ويمنع الجيش من الفساد والمعاصي،ويحدثهم بما يقوي نفوسهم ويرغبهم في الشهادة.

ويأمرهم بالصبر والاحتساب،ويقسم الجيش،ويُعيّن عليهم العرفاء والحراس،ويبث العيون على العدو،ويُنفِّل من يرى من الجيش أو السرية كالربع بعد الخمس في الذهاب،والثلث بعد الخمس في الرجوع،ويشاور في أمر الجهاد أهل الدين والرأي.

يلزم الجيش طاعة الإمام أو نائبه في غير معصية الله،والصبر معه،ولا يجوز الغزو إلا بإذنه إلا أن يفاجئهم عدو يخافون شرَّه وأذاه فلهم أن يدافعوا عن أنفسهم،وإن دعا كافر إلى البراز استحب لمن يعلم من نفسه القوة والشجاعة مبارزته بإذن الأمير،ومن خرج مجاهداً في سبيل الله فمات بسلاحه فله أجره مرتين.

ومن أهم هذه الآداب:

١) الإخلاص لله تعالى في أداء هذه الفريضة:

والإخلاص،معناه تصفية العمل من شوائب الشرك كبيره وصغيره،وهو مطلوب من المسلم في كل أعماله،كما قال تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة:٥] وقال تعالى:{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي،تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "[٤٩٣٦].

وعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ،وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا،فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٤٩٣٧].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا} [الملك:٢].قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ.قَالُوا:يَا أَبَا عَلِيٍّ،مَا أَخْلَصُهُ؟ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ:إنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ،وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ،حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا،وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ.وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ.[٤٩٣٨]

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْفُضَيْلُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْعَمَلِ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا مَأْمُورًا بِهِ،وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.وَلَا بُدَّ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ.كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠] .[٤٩٣٩]

والنصوص في هذا المعنى كثير من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف الصالح.

وهي عامّة في كل عمل يتقرب به الإنسان إلى ربه تعالى.

وقد خصّت فريضة الجهاد بالتأكيد على الحرص على إخلاص المجاهد نيته لله تعالى،لأن تسرب الرياء إلى المجاهد أسرع منه إلى غيره،ولهذا عنيت النصوص بذلك غاية العناية.

فالجهاد نفسه يرد في كتاب الله وسنّة رسوله مقيّداً بهذا القيد:(في سبيل الله).

[٤٩٣٦] – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٩)٤٦ – (٢٩٨٥)

[ش (تركته وشركه) هكذا وقع في بعض الأصول وشركه وفي بعضها وشريكه وفي بعضها وشركته ومعناه أنه غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به]

[٤٩٣٧] – صحيح البخاري (١/ ٢٠)(٥٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)١٥٥ – (١٩٠٧)

[٤٩٣٨] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩٥)

[٤٩٣٩] – اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٧٣) والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٧٦) وجامع الرسائل لابن تيمية – رشاد سالم (١/ ٢٥٧) وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ٢٩٣) ومجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣)

ويكفي أن يُساق هنا ما كان يوصي به النبي ﷺ أمراءه وجيوشه إذا جهزهم للجهاد في سبيل الله.

فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٤٩٤٠]

فالغزو ابتداءً يُراد به وجه الله تعالى،لأنه يغزو باسمه لا باسم غيره.

[٤٩٤٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا،وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً،فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ،قَالَ:وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا،فَقَالَ:«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤٩٤١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا أَجْرَ لَهُ».فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ،وَقَالُوا لِلرَّجُلِ:عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ:«لَا أَجْرَ لَهُ».فَقَالُوا:لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:الثَّالِثَةَ.فَقَالَ لَهُ:«لَا أَجْرَ لَهُ»[٤٩٤٢]

لذلك يجب على المجاهدين في سبيل الله أن يتذكروا هذا الأمر العظيم عند خروجهم حتى تكون جميع أعمالهم وحركاتهم في سبيل الله،كما قال تعالى:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)} [التوبة:١٢٠،١٢١].

٢) ومن آداب الجهاد الحفاظ على تقوى الله تعالى والازدياد منها:

وقد أمر الله بتقواه عموماً في نصوص كثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ،بل مدح التقوى وأثنى على أهلها،وجعلهم أهلاً للاهتداء بكتابه وسنة رسوله ﷺ دون غيرهم من الناس.

فأمر بها رسوله ﷺ {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } [الأحزاب:١].

[٤٩٤١] - صحيح البخاري (١/ ٣٦)(١٢٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٣)(١٥٠ - (١٩٠٤)

[ش (غضبا) انتقاما حالة الغضب. (حمية) محاماة عن العشيرة. (كلمة الله) كلمة التوحيد ودعوة الإسلام. (العليا) العالية فوق كل ملة ومذهب]

[٤٩٤٢] - سنن أبي داود (٣/ ١٤)(٢٥١٦) حسن

بل إن الله تعالى جعلها وصيته للأولين والآخرين،فأمرهم بها جميعاً،كما قال تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا } [النساء:١٣١].

وكل رسول أمر بها قومه {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء:١٠٨] و[الشعراء:١١٠] و[الشعراء:١٢٦] و[الشعراء:١٣١]و[الشعراء:١٤٤] و[الشعراء:١٥٠] و[الشعراء:١٦٣] و[الشعراء:١٧٩].

ومدح التقوى،فقال:{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأعراف:٢٦].

وقال:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:١٩٧]،وأثنى على أهلها وجعلهم أحقّ بها وأهلها،فقال:{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح:٢٦].

وقال تعالى:{الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة:١،٢].

وأمر النبي ﷺ أمراً عاماً،فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ،وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا،وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٤٩٤٣] .

وأوصى بها المجاهدين عند تشييعهم كما سبق فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا...."[٤٩٤٤] .

[٤٩٤٣] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥٥)(١٩٨٧) صحيح لغيره

[٤٩٤٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

والحد الأدنى من تقوى الله أن يأتي الإنسان بالفرائض التي فرضها الله،وأن يجتنب المعاصي التي حرّمها الله تعالى،وذلك موجب للجنة،كما ثبت في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ،وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ،وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ،أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«نَعَمْ»،[٤٩٤٥].

وعَنْ جَابِرٍ،أَنَّ نُعْمَانَ بْنَ قَوْقَلٍ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَاتِ،وَصُمْتُ رَمَضَانَ،وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ،وَأَحْلَلْتُ الْحَلاَلَ،وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا،أَفَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا.[٤٩٤٦]

وعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا،وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا،وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا،وَغَفَلَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»[٤٩٤٧].

والحدّ الأعلى للتقوى أن يصل المسلم في وَرَعه إلى ملازمة نوافل الطاعات واجتناب المكروهات،بل أن يصل إلى ترك بعض المباحات خشية من الوقوع في المكروهات أو المحرمات،كما في الحديث القدسي الذي رواه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"إِنَّ اللَّهَ قَالَ:مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ،وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ،وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ:كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ،وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ،وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا،وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا،وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ،وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ،وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ،يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ "[٤٩٤٨].

[٤٩٤٥] - صحيح مسلم (١/ ٤٤)١٦ - (١٥)

[ش (وحرمت الحرام وأحللت الحلال) قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى الظاهر أنه أراد به أمرين أن يعتقده حراما وأن لا يفعله بخلاف تحليل الحلال فإنه يكفي فيه مجرد اعتقاده حلالا]

[٤٩٤٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ١٤٨)(١٤٧٤٧) ١٤٨٠٦- صحيح

[٤٩٤٧] - المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٢٦٣)(٦٧٧) حسن لغيره

[٤٩٤٨] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٥)(٦٥٠٢)

[ش (وليا) هو العالم بدين الله تعالى المواظب على طاعته المخلص في عبادته. (آذنته بالحرب) أعلمته بالهلاك والنكال. (مما افترضت عليه) من الفروض العينية وفروض الكفاية. (كنت سمعه.ز) أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك وأوفقه

وعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ،وكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ البَأْسُ»[4949].

وفي المبسوط للسرخسي:(وَإِنَّمَا يُوصِيهِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ بِالتَّقْوَى يَنَالُ النُّصْرَةَ وَالْمَدَدَ مِنْ السَّمَاءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} [آل عمران:١٢٥] وَبِالتَّقْوَى يَجْتَمِعُ لِلْمَرْءِ مَصَالِحُ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ قَالَ – ﷺ –:«مَلَاكُ دِينِكُمْ الْوَرِعُ» وَقَالَ:«التَّقِيُّ مُلْجَمٌ» وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَانَ يُوصِيهِ سِرًّا حَتَّى لَا يَقِفَ عَلَى جَمِيعِ مَا يُوصِيهِ بِهِ غَيْرُهُ.)[4950]

والمقصود هنا بيان تذكير المجاهد بما يشرع له قبل بدئه في قتال عدوه بهذا الأمر العظيم الذي لا يصلح للجهاد من فقده.

٣) اجتماع القائد بالجيش للتشاور في الأمور المهمة قبل خوض المعركة:

ومن الآداب التي يجب مراعاتها قبل لقاء العدو اجتماع القائدة بالمجاهدين للتشاور في الأمور التي تهمهم قبل لقاء العدو،كتعيين ميدان المعركة،والموضع الذي يصلح مركزاً للقيادة،والوسائل التي يجب اتخاذها للقضاء على العدو أو ردّ عدوانه كما حصل ذلك في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها من الغزوات.

قال ابن قدامة:"يَنْبَغِي لِلْأَمِيرِ أَنْ يَرْفُقَ بِجَيْشِهِ،وَيَسِيرُ بِهِمْ سَيْرَ أَضْعَفِهِمْ،لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِمْ،وَإِنْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إلَى الْجِدِّ فِي السَّيْرِ جَازَ لَهُ فَإِنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – «جَدَّ فِي السَّيْرِ جَدًّا شَدِيدًا،حِينَ بَلَغَهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ:لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ.لِيَشْتَغِلَ النَّاسُ عَنْ الْخَوْضِ فِيهِ».وَإِنَّ ابْنَ عُمَرَ جَدَّ فِي السَّيْرِ حِينَ اسْتَصْرَخَ عَلَى صَفِيَّةَ امْرَأَتِهِ.وَلَا يَمِيلُ

لما فيه خيره وصلاحه وأعينه في المواقف وأنصره في الشدائد. (استعاذني) استجار بي مما يخاف(ما ترددت) كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه(مساءته) إساءته بفعل ما يكره]

[4949] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٣٤)(٢٤٥١) حسن

فيه عبد الله بن يزيد الرفقي وثقه ابن حبان وحسن له الترمذى وصحح له الحاكم ووافقه النووي والذهبي راجع التهذيب ٦ / ٨٢ و٨٣ ونقل ابن عدي عن السعدى:عبداللَّه بن يزيد الذي يروي عنه أبوعقيل الثقفي أحاديثه منكرة وهذا الذى حكاه السعدي لا أقف على معرفة ذلك اهـ الكامل ٤ / ٢٣٧ز

أقول:كلام السعدي ومن وافقه مردود إذ لو كان له أحاديث منكرة لذكرها ابن عدي وتناقض الذهبي في ترجمته فقال في الكاشف (٣١٠٢) حسن له ت،ووافقه ك على تصحيح حديثه وفي الديوان (٢٣٤٨) قال الجوزجاني:أحاديثه منكرة!!

[4950] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ٤)

الْأَمِيرُ مَعَ مُوَافِقِيهِ فِي الْمَذْهَبِ وَالنَّسَبِ عَلَى مُخَالِفِيهِ فِيهِمَا لِئَلَّا يَكْسِرَ قُلُوبَهُمْ،فَيَخْذُلُونَهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إلَيْهِمْ.وَيُكْثِرُ الْمُشَاوَرَةَ لِذَوِي الرَّأْيِ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران:١٥٩].وَيَتَخَيَّرُ الْمَنَازِلَ لِأَصْحَابِهِ،وَإِذَا وَجَدَ رَجُلٌ رَجُلًا قَدْ أُصِيبَتْ فَرَسُهُ،وَمَعَ الْآخَرِ فَضْلٌ،اُسْتُحِبَّ لَهُ حَمْلُهُ،وَلَمْ يَجِبْ.نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ،فَإِنْ خَافَ تَلَفَهُ،فَقَالَ الْقَاضِي:يَجِبُ عَلَيْهِ بَذْلُ فَضْلِ مَرْكُوبِهِ؛لِيُحْيِيَ بِهِ صَاحِبَهُ،كَمَا يَلْزَمُهُ بَذْلُ فَضْلِ طَعَامِهِ لِلْمُضْطَرِّ إلَيْهِ،وَتَخْلِيصُهُ مِنْ عَدُوِّهِ."[٤٩٥١]

وفي سيرة ابن هشام:"وَأَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ،فَاسْتَشَارَ النَّاسَ،وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ،فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،فَقَالَ وَأَحْسَنَ،ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،فَقَالَ وَأَحْسَنَ،ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ،وَاَللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى:{اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة:٢٤].وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ،فَوَاَلَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ،حَتَّى تَبْلُغَهُ.فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا،وَدَعَا لَهُ بِهِ.

استشارة الْأَنْصَارِ:ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ"وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ،وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَدَدُ النَّاسِ،وَأَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إنَّا بُرآء مِنْ ذمامك حَتَّى تَصِلَ إلَى دِيَارِنَا،فَإِذَا وَصَلْتَ إلَيْنَا،فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أبناءَنا ونساءَنا.فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يتخوَّف أَلَّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نَصْرَهُ إلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ،وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إلَى عَدُوٍّ مِنْ بِلَادِهِمْ.فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ:وَاَللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:"أَجَلْ":قَالَ:فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ،وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ،وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عهودَنا وَمَوَاثِيقَنَا،عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ،فَوَاَلَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ،لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فخُضته لَخُضْنَاهُ مَعَكَ،مَا تخلَّف مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ،وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا،إنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ،صُدُقٌ فِي

[٤٩٥١] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٥)

اللِّقَاء،لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيك مِنَّا مَا تَقَرُّ به عينُك،فسر بنَا عَلَى بَرَكَة اللَّه.فسُر رَسُولُ اللَّه ﷺ بقَوْلِ سَعْد،ونشَّطه ذَلكَ،ثُمَّ قَالَ:"سيرُوا وَأَبْشرُوا،فإنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَني إحْدَى الطَّائفَتَيْن،وَاَللَّه لَكَأَنِّي الْآنَ أنظر إلى مصارع القوم".[4952]

وعَنْ عُرْوَةَ،فَذَكَرَ قصَّةَ أُحُد وَإِشَارَةَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى الْمُسْلمينَ بالْمُكْث في الْمَدينَة،وَأَنَّ كَثيرًا منَ النَّاس أَبَوْا إِلَّا الْخُرُوجَ إِلَى الْعَدُوِّ قَالَ:وَلَوْ تَنَاهَوْا إِلَى قَوْل رَسُول الله ﷺ وَأَمْره كَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَلَكنْ غَلَبَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ قَالَ:وَعَامَّةُ مَنْ أَشَارَ عَلَيْه بالْخُرُوج رجَالٌ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا وَقَدْ عَلمُوا الَّذي سَبَقَ لأَهْل بَدْر منَ الْفَضيلَة،فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الْجُمُعَة وَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بالْجدِّ وَالاجْتهَاد،ثُمَّ انْصَرَفَ منْ خُطْبَته وَصَلَاته،فَدَعَا بلَأْمَته فَلَبسَهَا،ثُمَّ أَذَّنَ في النَّاس بالْخُرُوج،فَلَمَّا أَبْصَرَ ذَلكَ رجَالٌ منْ ذَوي الرَّأْي،قَالُوا:أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَمْكُثَ بالْمَدينَة،فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْنَا الْعَدُوُّ قَاتَلْنَاهُمْ في الْأَزقَّة وَهُوَ أَعْلَمُ بالله وَبمَا يُريدُ وَيَأْتيه الْوَحْيُ منَ السَّمَاء،ثُمَّ أَشْخَصْنَاهُ،فَقَالُوا:يَا نَبيَّ الله أَنَمْكُثُ كَمَا أَمَرْتَنَا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:"لَا يَنْبَغي لنَبيٍّ إذَا أَخَذَ لَامَّةَ الْحَرْب وَأَذَّنَ في النَّاس بالْخُرُوج إِلَى الْعَدُوِّ أَنْ يَرْجعَ حَتَّى يُقَاتلَ،وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الْحَديث،فَأَبَيْتُمْ إِلَّا الْخُرُوجَ،فَعَلَيْكُمْ بتَقْوَى الله وَالصَّبْر إذَا لَقيتُمُ الْعَدُوَّ وَانْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوهُ"،فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلمُونَ مَعَهُ "[4953]

فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَى النَّاس الْبَلَاءُ،بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،كَمَا حَدَّثَني عَاصمُ بْنُ عُمَرَ بْن قَتَادَةَ وَمَنْ لَا أَتَّهمُ،عَنْ مُحَمَّد بْن مُسْلم بْن عُبَيْد اللَّه بْن شهَاب الزُّهْريِّ،إلَى عُيَيْنَةَ بْن حصْن بْن حُذَيْفَةَ بْن بَدْر،وَإِلَى الْحَارث بْن عَوْف بْن أَبي حَارثَةَ الْمُرِّيِّ،وَهُمَا قَائدَا غَطَفَانَ،فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثمَار الْمَدينَة عَلَى أَنْ يَرْجعَا بمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابه،فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلْحُ،حَتَّى كَتَبُوا الْكتَابَ وَلَمْ تَقَعْ الشَّهَادَةُ وَلَا عَزيمَةُ الصُّلْح،إلَّا الْمُرَاوَضَةُ في ذَلكَ.فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ يَفْعَلَ،بَعَثَ إلَى سَعْد بْن مُعَاذ وَسَعْد بْن عُبَادَةَ،فَذَكَرَ ذَلكَ لَهُمَا،وَاسْتَشَارَهُمَا فيه،فَقَالَا لَهُ:يَا رَسُولَ اللَّه،أَمْرًا نُحبُّهُ فَنَصْنَعُهُ،أَمْ شَيْئًا

[4952] – سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢/ ١٨٨) ودلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٢٧٢) حسن

[4953] – السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٦٥)(١٣٢٨١) حسن لغيره

أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ،لَا بُدَّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ،أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ:بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ،وَاَللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ،وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إلَى أَمْرٍ مَا،فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاَللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ،لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ،وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إلَّا قِرًى أَوْ بَيْعًا،أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ،نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا! (وَاَللَّهِ) مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ،وَاَللَّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إلَّا السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:فَأَنْتَ وَذَاكَ.فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الصَّحِيفَةَ،فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الْكِتَابِ،ثُمَّ قَالَ:لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا.[٤٩٥٤]

٤) تشييع الغزاة عند خروجهم للجهاد في سبيل الله:

ومن آداب الجهاد:تشييع المقيمين – وعلى رأسهم الأمير إن كان مقيماً – الغزاة في سبيل الله،وتشجيعهم بذكر فضل الجهاد والمجاهدين وإظهار إكرامهم لحفز هممهم وهمم المقيمين على الاستعداد لقتال العدو عاجلاً أم آجلاً .فعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَأَنْ أُشَيِّعَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَأَكُفَهُ عَلَى رَحْلِهِ غُدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» [٤٩٥٥]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:"مَشَى مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ حِينَ وَجَّهَهُمْ ثُمَّ قَالَ:«انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ،اللَّهُمَّ أَعِنْهُمْ»[٤٩٥٦]

وعَنِ ابن عباس رَضِيَ الله عَنهما،قَالَ:إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَمَشَى مَعَهُمْ حَتَّى بَلَغَ بَقِيعَ الْغَرْقَدِ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ،فَقَالَ:انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ،اللَّهُمَّ أَعِنْهُمْ.وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ،قَالَ:فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى حِصْنِهِ – يَعْنِي:كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ – فَهَتَفَ أَبُو نَائِلَةَ بِهِ،فَنَزَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ،فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ:إِنَّكَ مُحَارِبٌ وَإِنَّ صَاحِبَ الْحَرْبِ لَا يَنْزِلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ،فَقَالَ لَهَا:إِنَّهُ أَبُو نَائِلَةَ،وَاللَّهِ لَوْ وَجَدَنِي نَائِمًا

[٤٩٥٤] – سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢٢٣) صحيح مرسل

[٤٩٥٥] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١٠٧)(٢٤٧٩) وسنن ابن ماجه (٢/ ٩٤٣)(٢٨٢٤) حسن

[ش – (فأكفه) قال الدميري هو أن يحرس له متاعه إذا غدا أو راح في سبيل الله.]

[٤٩٥٦] – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ١٠٧)(٢٤٨٠) حسن

مَا أَيْقَظَنِي،فَقَالَتْ:وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ فِي صَوْتِهِ الشَّرَّ،فَقَالَ لَهَا:لَوْ يُدْعَى الْفَتَى لِطَعْنَةٍ لَأَجَابَ،فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ،فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً،ثُمَّ قَالُوا:لَوْ مَشَيْنَا إِلَى شِعْبِ الْعَجُوزِ فَتَحَدَّثْنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ،فَإِنَّهُ لَا عَهْدَ لَنَا بِذَلِكَ،قَالَ:نَعَمْ،فَخَرَجُوا يَمْشُونَ.ثم إن [أبا نائلة] شَامَ يَدَهُ فِي فَوْدِ رَأْسِهِ،فَقَالَ:مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ عِطْرًا أَطْيَبَ،ثُمَّ مَشَى سَاعَةً،ثُمَّ عَادَ بمثلها حَتَّى اطْمَأَنَّ،فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي فَوْدِ رَأْسِهِ،فَأَخَذَ شَعْرَهُ،ثُمَّ قَالَ:اضْرِبُوا عَدُوَّ اللَّهِ،قَالَ:فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ،قَالَ:وَصَاحَ عَدُوُّ اللَّهِ صَيْحَةً فَلَمْ يَبْقَ حِصْنٌ إِلَّا أُوقِدَتْ عَلَيْهِ نَارٌ،قَالَ:وَأُصِيبَتْ رِجْلُ الْحَارِثِ.قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ:فَلَمَّا رَأَيْتُ السيوف لا تغني شَيْئًا،ذَكَرْتُ مِغْوَلًا فِي سَيْفِي،فَأَخَذْتُهُ فَوَضَعْتُهُ عَلَى سُرَّتِهِ،فَتَحَامَلْتُ عَلَيْهِ،حَتَّى بَلَغَ عَانَتَهُ فَوَقَعَ،ثُمَّ خَرَجْنَا فَسَلَكْنَا عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ،ثُمَّ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ،ثُمَّ عَلَى بُعَاثَ،ثُمَّ أَسْرَيْنَا فِي حَرَّةِ الْعُرَيْضِ،وَأَبْطَأَ الْحَارِثُ وَنَزَفَ الدَّمُ،فَوَقَفْنَا لَهُ،ثُمَّ احْتَمَلْنَاهُ حَتَّى جِئْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَهُوَ يُصَلِّي،فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ،فَتَفَلَ ﷺ عَلَى جُرْحِ الْحَارِثِ،فَرَجَعْنَا بِهِ إِلَى بَيْتِهِ،وَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ إِلَى رِحَالِهِمْ،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا خَافَتْ يَهُودُ لِوَقْعَتِنَا بِعَدُوِّ اللَّهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:مَنْ وَجَدْتُمُوهُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ فَاقْتُلُوهُ،فَوَثَبَ مُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ عَلَى ابْنِ سَنِينَةَ رَجُلٍ مِنْ تُجَّارِ يَهُودَ،وَكَانَ يُبَايِعُهُمْ وَيُخَالِطُهُمْ فَقَتَلَهُ،قَالَ:فَجَعَلَ حُوَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ،وَكَانَ أَسَنَّ مِنْهُ،يَضْرِبُهُ وَيَقُولُ:أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ! أَقَتَلْتَهُ؟ وَاللَّهِ لَرُبَّ شَحْمٍ فِي بَطْنِكَ مِنْ مَالِهِ،فَقَالَ:وَاللَّهِ لَقَدْ أَمَرَنِي بِقَتْلِهِ رَجُلٌ لَوْ أَمَرَنِي بِقَتْلِكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ،قَالَ:آللَّهِ لَوْ أَمَرَكَ مُحَمَّدٌ بِقَتْلَى لَقَتَلْتَنِي؟ قَالَ:نَعَمْ،وَاللَّهِ،فَقَالَ:وَاللَّهِ إِنَّ دينا بلغ بك هَذَا لَدِينٌ عَجَبٌ،فَكَانَ أَوَّلُ إِسْلَامِ حُوَيْصَةَ مِنْ قِبَلِ قَوْلِ أَخِيهِ،فَقَالَ مُحَيِّصَةُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا."[٤٩٥٧]

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ:دُعِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْخَطْمِيُّ إِلَى طَعَامٍ فَلَمَّا جَاءَ رَأَى الْبَيْتَ مُنَجَّدًا فَقَعَدَ خَارِجًا وَبَكَى قَالُوا:مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا شَيَّعَ جَيْشًا فَبَلَغَ عَقَبَةَ الْوَدَاعِ قَالَ:«أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمْ وَأَمَانَتَكُمْ وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ»،فَرَأَى رَجُلًا ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ رَقَّعَ بُرْدَةً لَهُ بِقِطْعَةِ فَرْوٍ قَالَ:فَاسْتَقْبَلَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَقَالَ بِيَدِهِ وَصَفَ

[٤٩٥٧] - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٧/ ٣٣٧)(٤٢٥٩) حسن

حَمَّادٌ بِبَطْنِ الْكَفَّيْنِ وَمَدَّ بِيَدِهِ «تَطَالَعَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا تَطَالَعَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا»،أَيْ:أَقْبَلَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا ثُمَّ قَالَ:«أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمَّا إِذَا غَدَتْ عَلَيْكُمْ قَصْعَةٌ وَرَاحَتْ أُخْرَى وَيَغْدُو أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى وَتُسْتَرُ بُيُوتُكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ»،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:أَفَلَا أَبْكِي وَقَدْ بَقِيتُ حَتَّى رَأَيْتُكُمْ تَسْتُرُونَ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟ "[٤٩٥٨]

وعَنْ أَبِي الْفَيْضِ،قَالَ:سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ الرُّعَيْنِيَّ،عَنْ أَبِيهِ،أَحْسِبُ ؛أَنَّ أَبَا بَكْرٍ شَيَّعَ جَيْشًا فَمَشَى مَعَهُمْ،فَقَالَ:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اغْبَرَّتْ أَقْدَامُنَا فِي سَبِيلِ الله،قَالَ،فَقَالَ رَجُلٌ:إِنَّمَا شَيَّعْنَاهُمْ،فَقَالَ:جَهَّزْنَاهُمْ وَشَيَّعْنَاهُمْ وَدَعَوْنَا لَهُمْ.

وعَنْ قَيْسٍ،أَوْ غَيْرِهِ،قَالَ:بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ جَيْشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يُشَيِّعُهُمْ عَلَى رَاحِلَتِهِ.

وعَنِ الشَّعْبِيِّ،قَالَ:أَتَى رَسُولُ الله ﷺ،فَقِيلَ لَهُ:قَدْ قَدِمَ جَعْفَرٌ،فَقَالَ:مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَفْرَحُ ؛بِقُدُومِ جَعْفَرٍ،أَوْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ ؟ ثُمَّ تَلَقَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَالْتَزَمَهُ،وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

وعن حَنَشَ بْنِ الْحَارِثِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:لَمَّا وَجَّهَنَا عُمَرُ إِلَى الْكُوفَةِ،مَشَى مَعَنَا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ،فَوَدَّعَنَا وَدَعَا لَنَا،ثُمَّ قَعَدَ يَنْفُضُ رِجْلَيْهِ مِنَ الْغُبَارِ،ثُمَّ رَجَعَ.

وعَنْ مُجَاهِدٍ،قَالَ:شَيَّعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا وَلَمْ يَتَلَقَّهُ.

وعَنْ قَرَظَةَ،قَالَ:شَيَّعْنَا عُمَرُ إِلَى صِرَارٍ. [٤٩٥٩]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ.فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ.فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ:إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ.فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ «مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ.إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».ثُمَّ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ.فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ.وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ.فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ».وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ:«لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً،وَلَا

[٤٩٥٨] - الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٦١)(١٠٩٤) والسنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٨٩)(١٠٢٦٨) صحيح

[٤٩٥٩] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ٢٣٠)(٣٤٣٦٨-٣٤٣٧٣) وكلها تدور بين الصحيح والحسن والصحيح المرسل

صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلَا بَعِيرًا،إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ»[٤٩٦٠].

حكم توديع المجاهدين في سبيل الله:

من السنة توديع المسافرين والمجاهدين في سبيل الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْثٍ وَقَالَ لَنَا:«إِنْ لَقِيتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا – لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا – فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ» قَالَ:ثُمَّ أَتَيْنَاهُ نُوَدِّعُهُ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ،فَقَالَ:«إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحَرِّقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا بِالنَّارِ،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ،فَإِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا»[٤٩٦١]

٥) مبايعة الجيش على الثبات وعدم الفرار:

ومن آداب الجهاد أن يبايع أمير الجيش جنده على الثبات قبيل الشروع في القتال،تذكيراً لهم بحق الله تعالى عليهم من بذل النفس في سبيله،وحضاً لهم على عدوه بعزم وتصميم وعدم تردد أو تهيّب.

فقد كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه على أمور كثيرة من أمور الإسلام،ومن ذلك البيعة على عدم الفرار من العدو:فعَنْ جَابِرٍ،قَالَ:كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةً،فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ،وَهِيَ سَمُرَةٌ،وَقَالَ:«بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ،وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ»[٤٩٦٢].

[٤٩٦٠] – موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٨)(١٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٥٢)(١٨١٤٨ و١٨١٤٩) صحيح لغيره

[٤٩٦١] – صحيح البخاري (٤/ ٤٩) (٢٩٥٤) معلقا وهو صحيح

[ش (بعث) جيش وكان أميرهم حمزة بن عمرو الأسلمي.(فلانا وفلانا) هما هبار بن الأسود ورفيقه اللذان نخسا بعير زينب بنت رسول الله ﷺ عند هجرتها فخافت فأسقطت حملها ومرضت من ذلك]

[٤٩٦٢] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٣)٦٧ – (١٨٥٦)

[ش (ألفا وأربعمائة) وفي رواية ألفا وخمسمائة وفي رواية ألفا وثلاثمائة وقد ذكر البخاري ومسلم هذه الروايات الثلاث في صحيحهما وأكثر روايتهما ألف وأربعمائة(سمرة) واحدة السمر كرجل شجر الطلح(بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت) وفي رواية سلمة أنهم بايعوه يومئذ على الموت وهو معنى رواية عبد الله بن زيد بن عاصم وفي رواية مجاشع بن مسعود البيعة على الهجرة والبيعة على الإسلام والجهاد وفي حديث ابن عمر وعبادة بايعنا على السمع والطاعة وأن لا ننازع الأمر أهله وفي رواية ابن عمر في غير صحيح مسلم البيعة على الصبر قال العلماء هذه الرواية تجمع المعاني كلها وتبين مقصود كل الروايات فالبيعة على أن لا نفر معناه الصبر حتى نظفر بعدونا أو نقتل وهو معنى البيعة على الموت أي نصبر وإن آل بنا ذلك إلى الموت لا أن الموت مقصود في نفسه وكذا البيعة على الجهاد أي والصبر فيه والله أعلم]

وعَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ الحَرَّةِ،وَالنَّاسُ يُبَايِعُونَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ،فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:عَلَى مَا يُبَايِعُ ابْنُ حَنْظَلَةَ النَّاسَ؟ قِيلَ لَهُ:عَلَى المَوْتِ،قَالَ:«لاَ أُبَايِعُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ شَهِدَ مَعَهُ الحُدَيْبِيَةَ»[٤٩٦٣]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ،قَالَ:قُلْتُ لِسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ:"عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ؟ قَالَ:عَلَى المَوْتِ "[٤٩٦٤]

وعَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ،ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ،فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ قَالَ:«يَا ابْنَ الأَكْوَعِ أَلاَ تُبَايِعُ؟"قَالَ:قُلْتُ:قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«وَأَيْضًا» فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ،فَقُلْتُ لَهُ:يَا أَبَا مُسْلِمٍ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:عَلَى المَوْتِ"[٤٩٦٥]

وعَنْ نَافِعٍ،قَالَ:قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«رَجَعْنَا مِنَ العَامِ المُقْبِلِ فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا،كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ»،فَسَأَلْتُ نَافِعًا:عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ،عَلَى المَوْتِ؟ قَالَ:«لاَ،بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ»[٤٩٦٦]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،قَالَ:«بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا،لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ»[٤٩٦٧]

قال العلماء:(قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ تَجْمَعُ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا وَتُبَيِّنُ مَقْصُودَ كُلِّ الرِّوَايَاتِ فَالْبَيْعَةُ عَلَى أن لا نفرَّ مَعْنَاهُ الصَّبْرُ حَتَّى نَظْفَرَ بِعَدُوِّنَا أَوْ نُقْتَلَ وَهُوَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ عَلَى

[٤٩٦٣] - صحيح البخاري (٥/ ١٢٥)(٤١٦٧)

[٤٩٦٤] - صحيح البخاري (٥/ ١٢٥)(٤١٦٩)

[٤٩٦٥] - صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٦٠)

[ش(خف الناس) قل الذين كانوا يبايعونه ﷺ. (أيضا) مرة أخرى]

[٤٩٦٦] - صحيح البخاري (٤/ ٥٠)(٢٩٥٨)

[ش (المقبل) الذي بعد عام صلح الحديبية. (فما اجتمع منا اثنان) ما وافق منا رجلان أنها هي التي بايعنا تحتها بل خفي مكانها علينا. قال النووي سبب خفائها أن لا يفتتن الناس بها لما جرى تحتها من الخير ونزول الرضوان والسكينة وغير ذلك فلو بقيت ظاهرة معلومة لخيف تعظيم الأعراب والجهال إياها وعبادتهم إياها فكان خفاؤها رحمة من الله تعالى. [شرح مسلم الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش.ز] (كانت رحمة من الله) أي كانت موضع رحمة الله تعالى ومحل رضوانه لنزول القرآن بذلك]

[٤٩٦٧] - صحيح البخاري (٩/ ٧٧)(٧١٩٩) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤١ - (١٧٠٩)

الْمَوْتِ أَيْ نَصْبِرُ وَإِنْ آلَ بِنَا ذَلِكَ إِلَى الْمَوْتِ لَا أَنَّ الْمَوْتَ مَقْصُودٌ فِي نَفْسِهِ وَكَذَا الْبَيْعَةُ عَلَى الْجِهَادِ أَيْ وَالصَّبْرُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ يَجِبُ عَلَى الْعَشَرَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصْبِرُوا لِمِائَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا يَفِرُّوا مِنْهُمْ وَعَلَى الْمِائَةِ الصَّبْرُ لِأَلْفِ كَافِرٍ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ وَصَارَ الْوَاجِبُ مصابرة المثلين فقط هذا مذهبنا ومذهب بن عباس ومالك وَالْجُمْهُورِ أَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَطَائِفَةٌ لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْمُعْتَبَرَ مُجَرَّدُ الْعَدَدِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ أَمْ يُرَاعَى وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرَاعَى لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ)[٤٩٦٨]

وفي تحفة المحتاج:"(وَيَأْخُذُ الْبَيْعَةَ) عَلَيْهِمْ وَهِيَ بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ الْيَمِينُ بِاَللَّهِ تَعَالَى.(بِالثَّبَاتِ) عَلَى الْجِهَادِ وَعَدَمِ الْفِرَارِ لِلِاتِّبَاعِ فِيهِمَا كَمَا صَحَّ عَنْهُ – ﷺ –"[٤٩٦٩]

٦) اتفاق الغزاة في سبيل الله على شعار يميّز المسلمين من غيرهم:

ومن آداب الجهاد أن يتفق المجاهدون على كلمة سر لا يعلمها غيرهم،تكون شعاراً لهم ليميز بعضهم بعضاً عندما تلتقي صفوفهم بصفوف عدوهم حتى لا يختلطوا بالمشركين،ويختلط المشركون بهم،لأن تمييز المسلمين عن المشركين فيه فوائد عظيمة منها:عدم استطاعة المشركين الاختلاط بهم للتجسس عليهم،أو الغدر بهم،ومنها عدم قتل المسلم أخاه المسلم خطأ منه أنه من أفراد العدو.

وغير ذلك من الفوائد،ولهذا كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه قبل أن يلتقي بهم العدو،شعاراً خاصاً بهم،فعَنْ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ،عَمَّنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:"إِنْ بَيَّتَكُمُ الْعَدُوُّ،فَقُولُوا:حم لَا يُنْصَرُونَ "[٤٩٧٠]

[٤٩٦٨] – شرح النووي على مسلم (١٣/ ٣)

[٤٩٦٩] – تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩/ ٢٣٨)

[٤٩٧٠] – سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٩٧)(١٦٨٢) صحيح

قَالَ الإِمامُ:وإِذا وَقع البياتُ،وَاخْتَلَطَ الْمُسلمُونَ بالعدو،فيجعلُ الإمامُ للْمُسلمين شعارًا يَقُولُونَهُ يتميزون به عنِ الْعَدو،رُوِي أَن رَسُول الله ﷺ،قَالَ:«إِن بيّتكُم العدوُّ،فَلْيَكُن شعارُكم حم لَا يُنصرون».

رُوِي عن ابْن عبّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:«حم» اسْم من أَسمَاء الله سُبْحانهُ وَتَعَالَى،فَكَأَنَّهُ حلف بالله تَعَالَى:أَنَّهم لَا ينْصرُونَ،وقدْ قَالَ أهل التَّفْسير مثله فِي حواميم الْقُرْآن.قَالَ أَبُو عُبيْد:كَأَن الْمَعْنى:اللهُمّ لَا يُنصرون،وَعَن أَبِي الْعبّاس أَحْمد بْن يحْيى أَنَّهُ قَالَ:هُو إِخْبار مَعْنَاهُ،واللهُ أَعْلمُ،لَا ينْصرُونَ،وَلَو كَانَ دُعَاء لَكَانَ مَجْزُومًا،وسمعتُ من يرْوِي «حُمّ»،بِضَم الْحَاء وَتَشْدِيد الْمِيم،أَي:قُضِي وقُدِّر.شرح السنة للبغوي (١١/ ٥٢)

وعَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:"غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ شِعَارُنَا:أَمِتْ أَمِتْ "[4971]

وعَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ،حَدَّثَنَا إِيَاسُ بْنُ سَلَمَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:«أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَغَزَوْنَا نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَبَيَّتْنَاهُمْ نَقْتُلُهُمْ،وَكَانَ شِعَارُنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَمِتْ أَمِتْ» قَالَ سَلَمَةُ:«فَقَتَلْتُ بِيَدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعَةَ أَهْلِ أَبْيَاتٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[4972]

وعَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:"بَارَزْتُ رَجُلًا فَقَتَلْتُهُ،فَنَفَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،سَلَبَهُ،فَكَانَ شِعَارُنَا مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ:أَمِتْ،يَعْنِي:اقْتُلْ "[4973]

وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ:«كَانَ شِعَارُ الْمُهَاجِرِينَ عَبْدَ اللَّهِ،وَشِعَارُ الْأَنْصَارِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ»[4974]

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّ شِعَارَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ كَانَ:يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ"[4975]

ويظهر من الحديثين:حديث المهلب،وحديث سلمة أن الشعار كان مما يداوَم عليه في الغزو.

٧) تنشيط المجاهدين بالأناشيد:

ومن آداب الجهاد مشاركة القائد جيشه في العمل والإعداد لقتال العدو والترويح عنهم،بترديد بعض الأناشيد الإسلامية المشجعة مع رفع الصوت بذلك،لما فيه من جلب النشاط والتشجيع على العمل والتهييج على العدو،وما ورد من كراهة رفع الصوت عند القتال لا ينافي رفع الصوت عند الإعداد.

[4971] - سنن أبي داود (٣/ ٣٣)(٢٥٩٦) صحيح

(أَمِت،أَمِت) أمر بالموت،وقوله:يا منص،ترخيم منصور،بحذف الراء والواو،والمراد التفاؤل بالنصر،مع حصول الغرض بالشعار،لأنهم جعلوا هذا اللفظ بينهم علامة يعرف بعضهم بعضاً بها،لأجل ظلمة الليل.جامع الأصول (٢/ ٥٧٣)

[4972] - سنن أبي داود (٣/ ٤٣)(٢٦٣٨) صحيح

[4973] - سنن الدارمي (٣/ ١٥٩٢)(٢٤٩٥) صحيح

[4974] - سنن أبي داود (٣/ ٣٢)(٢٥٩٥) ومصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٨/ ١٨٣)(٣٤٢٦٤) فيه ضعف

[4975] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٧٦)(٢٩٠٨) صحيح مرسل

فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ،وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعَرِ،وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ "

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ...وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ...وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إِنَّ الأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ...إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ [٤٩٧٦]

وعَنْ أَنَسٍ،قَالَ:خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةً بَارِدَةً،وَالْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ،فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمْ،قَالَ:

إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ ...فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ.

فَأَجَابُوهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ...عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.[٤٩٧٧]

قال الحافظ:(قَوله:"باب الرَّجَز فِي الحَرب ورَفع الصَّوت فِي حَفر الخَندَق"الرَّجَز بِفَتحِ الرّاء والجيم والزّاي مِن بُحُورِ الشِّعر عَلَى الصَّحِيح،وجَرَت عادَة العَرَب بِاستِعمالِهِ فِي الحَرب لِيَزِيدَ فِي النَّشاط ويَبعَث الهِمَم. وفِيهِ جَواز تَمَثُّل النَّبِيِّ ﷺ بِشِعرِ غَيره.

وفِيهِ جَواز رَفع الصَّوت فِي عَمَل الطّاعَة لِيُنَشِّط نَفسه وغَيره.

قَوله هُنا فِي حَدِيث البَراء إِنَّ العدا قَد بَغَوا عَلَينا''يَأتِي الكَلام عَلَيهِ فِي كِتاب التَّمَنِّي عَقِب كِتاب الأَحكام وكَأَنَّ المُصَنِّف أَشارَ فِي التَّرجَمَة بِقَولِهِ:"ورَفع الصَّوت فِي حَفر الخَندَق إِلَى أَنَّ كَراهَة رَفع الصَّوت فِي الحَرب مُختَصَّة بِحالَة القِتال،وذَلِكَ فِيما أَخرَجَهُ أَبُو داوُدَ مِن طَرِيق قَيس بن عَبّاد قالَ:"كانَ أَصحاب رَسُول الله ﷺ يَكرَهُونَ الصَّوت عِند القِتال.).[٤٩٧٨].

[٤٩٧٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٣٤)

[٤٩٧٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (٢٠/ ٣٨٢)(٣٧٩٦٨) صحيح

[٤٩٧٨] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٦١)

قَوْلُهُ:(يَكْرَهُونَ الصَّوْتَ عِنْدَ الْقِتَالِ) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ حَالَ الْقِتَالِ وَكَثْرَةَ اللَّغَطِ وَالصُّرَاخِ مَكْرُوهَةٌ،وَلَعَلَّ وَجْهَ كَرَاهَتِهِمْ لِذَلِكَ أَنَّ التَّصْوِيتَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ رُبَّمَا كَانَ مُشْعِرًا بِالْفَزَعِ وَالْفَشَلِ بِخِلَافِ الصَّمْتِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الثَّبَاتِ وَرِبَاطِ الْجَأْشِ.[٤٩٧٩]

٨) تقسيم الجيش تحت نقباء:

من الضروري للقائد أن يكون جيشه منضبطاً منظماً تنظيماً يمكنه من تبليغ ما يريد تبليغه إياهم بأقصى سرعة ممكنة،كما أنه قد يحتاج إلى إقناعهم بأمر ما من أمور الحرب،ويصعب إقناع كل فرد على حدة لكثرتهم،وقد يظهر بعضهم رضاه بما يأمرهم به القائد،فيظن القائد أن الجيش كله قد وافق على ذلك،مع أن بعضهم قد يكون غير راضٍ،وفي ذلك ما فيه من الخطر الذي قد يقع ممن لم يرضَ بذلك الأمر في وقت يصعب فيه تدارك الأمر،لذلك يجب أن يقسم القائد المسلم جنده إلى مجموعات طبقاً لما تقتضيه المصلحة،ويؤمر على كل مجموعة عريفاً أو نقيبا يكون مسئولاً عنهم،وعن طريقه تكون البلاغات والأوامر والمشاورة،وغير ذلك من الأمور.

ففي غزوة حُنَيْن:عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:وَزَعَمَ عُرْوَةُ،أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ،وَالمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ،أَخْبَرَاهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ،فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"أَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ،فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ:إِمَّا السَّبْيَ،وَإِمَّا المَالَ،وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ "،وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ،فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،قَالُوا:فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا،فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي المُسْلِمِينَ،فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:«أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ،وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ،فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ،وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ» فَقَالَ النَّاسُ:قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ،فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ

[٤٩٧٩] - نيل الأوطار (٧/ ٢٨٧) وعون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٢٢٩)

النَّاسُ،فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ،ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ:أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا"[٤٩٨٠].

وقال الحافظ:("باب العُرَفاء لِلنّاسِ"،بالْمُهمَلَةِ والفاء جَمع عَرِيف بوزنِ عَظِيم،وهُو القائِم بِأَمرِ طائِفَة مِنَ النّاس مِن عَرَفت بِالضَّمِّ وبِالفَتحِ عَلَى القَوم أَعرُف بِالضَّمِّ فَأَنا عارِف وعَرِيف،أَي وُلِّيت أَمر سِياسَتهم وحِفظ أُمُورهم،وسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَونِهِ يَتَعَرَّف أُمُورهم حَتَّى يُعَرِّف بِها مَن فَوقَهُ عِندَ الاحتِياج.وقِيلَ العَرِيف دُونَ المَنكِب وهُو دُونَ الأَمِير.)[٤٩٨١].

ووجه الدلالة من هذا الحديث وجود عرفاء في المعركة بمقتضى تنصيبهم قبل البدء فيها،بأن يكون لكل مجموعة منهم عريف يرعى شؤونهم ويبلغهم أوامر القائد وتعليماته ويرفع إليه ما هم في حاجة إليه.

وفي هذا الحديث الشريف تربية عملية من الرسول ﷺ لمن ولي أمور المسلمين ألا يتصرف في حقوقهم بدون إذنهم،فهو ﷺ ولي أمر المسلمين وكان أصحابه رضي الله عنهم يقدمون طاعته على رغبات أنفسهم،ويقدمون محبته على محبة أرواحهم،يتسابقون لإنفاذ أوامره،وهو ﷺ معصوم من أن يظلم أو يجور أو يتبع هوى أو شهوة،ومع ذلك يطلب من أصحابه أن يردوا سبي هوازن فيلبون طلبه،ولكنه يخشى أن يكون بعض الأفراد غير راضين،فلا يبتُّ في الأمر حتى يرد الأمر إلى عرفاء الناس الذين يستطيعون أن يعرفوا رأي كل واحد من جماعتهم،ليستيقن ﷺ أن القوم راضون غير مكرهين ولا محرجين.

[٤٩٨٠] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٠)(٢٣٠٧)

[ش (وفد) الذين يقصدون الأمراء لزيارة وغير ذلك نيابة عن قومهم. (هوازن) قبيلة من خزاعة. (سبيهم) ما أخذ منهم من النساء والأولاد. (أصدقه) الذي يوافق الحقيقة والواقع. (الطائفتين) المال أو السبي. (استأنيت بهم) انتظرت وتربصت. (بضع) من ثلاث إلى تسع. (قفل) رجع. (يطيب بذلك) يرد السبي مجانا برضا نفسه وطيب قلبه. (حظه) نصيبه من السبي. (يفيء) من الفيء وهو ما يحصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد وأصل الفيء الرجوع فكأن المال في الأصل حق المؤمنين المسلمين فرجع إليهم بعد ما حازه الكافرون بغير استحقاق. (يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم) جمع عريف وهو الذي يعرف أمر القوم وأحوالهم والغرض من ذلك التقصي عن حالهم ومعرفة الغاية من استطابة نفوسهم]

[٤٩٨١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ١٦٩) ونيل الأوطار (٨/ ٨)

فأين هذا الأدب النبوي العظيم مما يعمله من ولاّهم الله رقاب المسلمين من الزعماء الذين يغتصبون حقوق الناس بدون حق،ويعملون شتى أنواع الحيل للوصول إلى ذلك،إما في صورة قانون جائر،وإما عن طريق بطش ظالم...

٩) التورية على العدو:

إذا أراد الإمام غزو بلدة أو قبيلة في الشمال مثلاً أظهر أنه يريد جهة الجنوب مثلاً،فالحرب خدعة،وفي هذا فائدتان:

الأولى:أن خسائر الأرواح والأموال تقل بين الطرفين فتحل الرحمة محل القسوة.

والثانية:توفير طاقة جيش المسلمين من رجال وعتاد لمعركة لا تجدي فيها الخدعة.

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا،حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ،فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ،وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا،وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ،فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ،لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ،وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ»[٤٩٨٢]

فقه الحديث:دل هذا الحديث على استحباب التورية في الحرب،وإخفاء الجهة المقصودة تعمية على العَدُوّ سيما في الحروب الخاطفة للتمكن منه والله أعلم.[٤٩٨٣]

١٠) ومن آداب الجهاد اتخاذ الألوية والرايات:

واللواء أو الراية أو العلم يتخذها المجاهدون،وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش،ثم صارت تحمل على رأسه رمزاً لرفع كلمة الله التي ينضوي تحتها المؤمنون،ويشدون على أعداء الله الذين يريدون إطفاء نور الله وتحطيم راية الإسلام ورفع راية الكفر.قال تعالى:{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [الصف:٨].

[٤٩٨٢] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٨)

[ش (قلما) قل فعل ماض دخلت عليه ما ومعناه قليل. (مفازا) الموضع المهلك سمي بذلك تفاؤلا بالفوز والسلامة. (فجلى) أظهره. (ليتأهبوا) ليستعدوا. (أهبة عدوهم) الاستعداد اللازم لملاقاة عدوهم. (بوجهه) بجهته التي يريد]

[٤٩٨٣] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٠٩)

وقد كان إعطاء الرسول ﷺ الراية لأحد أصحابه،دليلاً على محبة الله ورسوله له ومحبته لله ورسوله،ولذلك كان أصحاب الرسول ﷺ يتمنى كل واحد منهم أن ينال شرفها.

ففي صحيح البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»،قَالَ:فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».فَقَالُوا:يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ،قَالَ:«فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ».فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ،فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ،فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ،فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٤٩٨٤]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ جَيْشَ الْأُمَرَاءِ قَالَ:«ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ،ثُمَّ أَخَذَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَأُصِيبَ،ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ،ثُمَّ أَخَذَهَا سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» [٤٩٨٥].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا،وَجَعْفَرًا،وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ،فَقَالَ:«أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ،ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ،ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ» وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ:«حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ،حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»[٤٩٨٦]

قال الحافظ:(وفِي هَذِه الأَحادِيث استِحباب اتِّخاذ الأَلوِيَة فِي الحَرب.وأَنَّ اللِّواء يَكُون مَعَ الأَمِير أَو مَن يُقِيمهُ لِذَلِكَ عِند الحَرب.)[٤٩٨٧].

[٤٩٨٤] - صحيح البخاري (٥/ ١٨)(٣٧٠١)

[ش (يدوكون ليلتهم) يخوضون ويتحدثون طوال ليلتهم من الدوكة وهي الخوض والاختلاط]

[٤٩٨٥] - مسند البزار = البحر الزخار (٦/ ٢١٦)(٢٢٥٧) صحيح لغيره

[٤٩٨٦] - صحيح البخاري (٥/ ١٤٣)(٤٢٦٢)

[٤٩٨٧] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٢٧)

وكما يتنافس المجاهدون في حمل راية الإسلام والانضواء تحتها،فإن عليهم أن يبتعدوا عن راية الجاهلية،أو الرايات العمياء التي لا يعرف هدفها،خشية من أن يقادوا إلى ما يسخط الله،وهم إنما يريدون وجهه ورضاه،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ،وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ،مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً،وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ،أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ،أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً،فَقُتِلَ،فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ،وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي،يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا،وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا،وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ،فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»[٤٩٨٨].

والظاهر من قوله:(يغضب لعصبية،أو يدعو إلى عصبية،أو ينصر عصبية،إنه تفسير لهذه الراية العمية،والمراد أنه لا يقاتل لإعلاء راية الإسلام وإنما لاتباع هوى أو نصر ذي هوى،فلا يدخل في ذلك من قاتل تحت راية حاكم جائر ضد احتلال عدو كافر لأرض المسلمين والسيطرة عليهم لأن الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر،كما مضى،إلا أنه يشترط في هذا الفجور ألا يصل إلى الكفر البواح،فإن كان الحاكم كافراً كفراً بواحاً عند المسلمين فيه من الله برهان فعندئذ يجب أن يبدءوا به فيقاتلوه هو وأعوانه وينصبوا من يحكم فيهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ،لأن الكافر الذي اتضح كفره قد يخدع المسلمين ويتعاون مع أعدائهم ضدهم.

ومن الكفر البواح:تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله،مثل أن يبيح لنفسه وضع قوانين تخالف أحكام الكتاب والسنّة،أو يعتقد عدم صلاح الحكم بالإسلام،وكذا من أجاز له ذلك من أعوانه ورعيته فإنه كافر بالله تعالى.

[٤٩٨٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦)٥٣ - (١٨٤٨)

[ش (ميتة جاهلية) أي على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم(عمية) هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان والميم مكسورة والياء مشددة أيضا قالوا هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور قال إسحاق بن رهويه هذا كتقاتل القوم للعصبية(لعصبة) عصبة الرجل أقاربه من جهة الأب سموا بذلك لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم أي يحيطون به ويشتد بهم والمعنى يغضب ويقاتل ويدعو غيره كذلك لا لنصرة الدين والحق بل لمحض التعصب لقومه ولهواه كما يقاتل أهل الجاهلية فإنهم إنما كانوا يقاتلون لمحض العصبية(فقتلة) خبر لمبتدأ محذف أي فقتلته كقتلة أهل الجاهلية(ولا يتحاشى) وفي بعض النسخ يتحاشى بالياء ومعناه لا يكترث بما يفعله فيها ولا يخاف وباله وعقوبته]

فعَنْ عَديٍّ بْنِ حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ.فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»،وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة:٣١]،قَالَ:«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ،وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[٤٩٨٩]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ،فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ،فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [التوبة:٣١] حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا،فَقُلْتُ:إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ،فَقَالَ:«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ،وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟"قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»"[٤٩٩٠]

١١) اللجوء إلى الله تعالى والاستغاثة به:

ومن آداب الجهاد في سبيل الله اللجوء إلى الله لدعائه والاستغاثة به وطلب نصره على الأعداء،وهذه سنة مضى عليها أولياء الله من الأنبياء والرُسل وأتباعهم،كما فعل نوح عليه السلام عندما شعر بقوة قومه المادية:{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) } [القمر] وقال تعالى:{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران:١٤٦ - ١٤٨].

وقال عن جنود طالوت:{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة:٢٥٠،٢٥١].

[٤٩٨٩] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢٧٨)(٣٠٩٥) حسن

[٤٩٩٠] - المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٩٢)(٢١٨و٢١٩) حسن

وهكذا كان النبي ﷺ يكثر من دعاء الله والاستغاثة به،وبه اقتدى أصحابه كما قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩].

وعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ،قَالَ:سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ،يَقُولُ:شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا،لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ،أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى المُشْرِكِينَ،فَقَالَ:لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ،وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ،وَعَنْ شِمَالِكَ،وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ» يَعْنِي:قَوْلَهُ ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ،اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ،فَقَالَ:حَسْبُكَ،فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:{سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر:٤٥][٤٩٩١].

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ:حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا،فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ،ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ،فَجَعَلَ يَهْتِفُ رَبَّهُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي،اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ،مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»،فَمَا زَالَ يَهْتِفُ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا مَاذًا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ،حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ،ﷺ،فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ،فَأَخَذَ رِدَاءَهُ،وَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِهِ،ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ،فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ،فَاسْتَجَابَ لَكُمْ،أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ،مُرْدِفِينَ} [الأنفال:٩]،فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ"[٤٩٩٢]

[٤٩٩١] - صحيح البخاري (٥/ ٧٣)(٣٩٥٢ و٣٩٥٣)

[ش (صاحبه) صاحب ذلك المشهد. (عدل به) من كل شيء يقابل به ويوزن من أمور الدنيا]

[٤٩٩٢] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ١١٤)(٤٧٩٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٤)٥٨ - (١٧٦٣) مطولا

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا غَزَا،قَالَ:«اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي،وَنَصِيرِي بِكَ أَحُولُ،وَبِكَ أَصُولُ،وَبِكَ أُقَاتِلُ» [٤٩٩٣]

وعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ،قَالَ:حَدَّثَنِي سَالِمٌ أَبُو النَّضْرِ،مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ،كُنْتُ كَاتِبًا لَهُ،قَالَ:كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى،حِينَ خَرَجَ إِلَى الحَرُورِيَّةِ،فَقَرَأْتُهُ،فَإِذَا فِيهِ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ،انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ،ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ:«أَيُّهَا النَّاسُ،لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ،وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ،فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا،وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَالَ:«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ،وَمُجْرِيَ السَّحَابِ،وَهَازِمَ الأَحْزَابِ،اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» [٤٩٩٤]

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،كَانَ إِذَا أَصَابَ قَوْمًا،قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ،وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» [٤٩٩٥]

١٢) ترغيب المجاهدين في قتال العدو:

قال الله تعالى:{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥)}...[الأنفال:٦٥].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺبِحَثِّ المُؤْمِنِينَ، وَتَحْرِيضِهِمْ عَلَى القِتَالِ، لِدَفْعِ عُدْوانِ الكَافِرينَ عَلَى الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، وَلإِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ وَالحَقِّ وَالعَدْلِ وَأَهْلِهَا، عَلَى كَلِمَةِ البَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَأَنْصَارِهِمَا. وَيُخْبِرُ اللهُ نَبِيَّهُ وَالمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مِنَ المُؤْمِنِينَ عِشْرُونَ مُعْتَصِمُونَ بِالإِيمَانِ

[٤٩٩٣] - مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢١٧)(٦٥٦٤) صحيح _قَوْلُهُ:أَحُولُ،يَعْنِي:أَحْتَالُ،وَالْحَوْلُ:الْحِيلَةُ،وَقِيلَ:مَعْنَاهُ:الْمَنْعُ الدَّفْعُ،وَقِيلَ:«بِكَ أَحُولُ» أَيْ:أَتَحَرَّكُ،وَالْحَوْلُ:الْحَرَكَةُ،يُقَالُ:حَالَ الشَّخْصُ:إِذَا تَحَرَّكَ،«وَبِكَ أَصُولُ» أَيْ:أَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِّ،وَيُرْوَى:«وَبِكَ أُحَاوِلُ»،أَيْ:أُطَالِبُ.شرح السنة للبغوي (٥/ ١٥٣)

[٤٩٩٤] - صحيح البخاري (٤/ ٦٣)(٣٠٢٤) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٢)٢٠ - (١٧٤٢)

[ش (الحرورية) أي لقتالهم وهم الخوارج(واسألوا الله العافية) قد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة(فإذا لقيتموهم فاصبروا) هذا حث على الصبر والقتال وهو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}

[٤٩٩٥] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٨٢)(٤٧٦٥) صحيح

وَالصَّبْرِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُمْ يَغْلِبُونَ مِئَتَيْنِ، وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الكُفَّارِ، لأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ مَا تَفْقَهُونَهُ أَنْتُمْ مِنْ حِكْمَةِ الحَرْبِ، وَمَا يُرَادُ بِهَا مِنْ مَرْضَاةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلاَ يَنْتَظِرُونَ هُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ أَنْتُمْ مِنَ الحَرْبِ: نَصْراً مِنَ اللهِ أَوْ فَوْزاً بِالشَّهَادَةِ وَرِضْوَانِ اللهِ.وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَخَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ فِي الآيَةِ التَّالِيَةِ. [٤٩٩٦]

وعَنْ حُمَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ،فَإِذَا المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ،فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ،فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالجُوعِ،قَالَ:

" اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ،فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ،

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا...عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا[٤٩٩٧]

١٣) ما يقوله المسلم إذا خاف العدو:

عَنْ صُهَيْبٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:" كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ،فَلَمَّا كَبِرَ،قَالَ لِلْمَلِكِ:إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ،فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ،فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ،فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ،إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ،فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ،فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ،فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،فَقَالَ:إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ،فَقُلْ:حَبَسَنِي أَهْلِي،وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ:حَبَسَنِي السَّاحِرُ،فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ،فَقَالَ:الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا،فَقَالَ:اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ،حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ،فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا،وَمَضَى النَّاسُ،فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ،فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي،قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى،وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ،وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ

[٤٩٩٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٢٦، بترقيم الشاملة آليا)

[٤٩٩٧] - صحيح البخاري (٤/ ٢٥) (٢٨٣٤) [ش(غداة) وقت الضحوة.(النصب) التعب.(العيش) المعتبر والباقي]

سَائِرِ الْأَدْوَاءِ،فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ،فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ،فَقَالَ:مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ،إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ،فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ،فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ:رَبِّي،قَالَ:وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ:رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ،فَجِيءَ بِالْغُلَامِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ،وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ،فَقَالَ:إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا،إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ،فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ،فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ،فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى،فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ،فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ:ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ،فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ،ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا،فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ،وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ،فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ،فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ،فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ،فَذَهَبُوا بِهِ،فَقَالَ:اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ،فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا،وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللهُ،فَقَالَ لِلْمَلِكِ:إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ،قَالَ:وَمَا هُوَ؟ قَالَ:تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي،ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قُلْ:بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ ارْمِنِي،فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي،فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ،ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ،ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ،ثُمَّ قَالَ:بِاسْمِ اللهِ،رَبِّ الْغُلَامِ،ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ،فَقَالَ النَّاسُ:آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ،فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ:أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ،قَدْ آمَنَ النَّاسُ،فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ،فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ

النِّيرَانَ،وَقَالَ:مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا،أَوْ قِيلَ لَهُ:اقْتَحِمْ،فَفَعَلُوا حَتَّى جَــاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا،فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ:يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَــى الْحَقِّ "[٤٩٩٨]

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا،قَالَ:«اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ،وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»[٤٩٩٩]

١٤) الاستنصار بالضعفاء:

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[٥٠٠٠]

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ،عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ مِنْ أَصْــحَابِ النَّبِــيِّ ﷺ،فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّــهُ هَــذِهِ الْأُمَّــةَ بِضَــعِيفِهَا،بِدَعْوَتِهِمْ وَصَــلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[٥٠٠١]

وعَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ،قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:" أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ،لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ،أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ:كُلُّ عُتُلٍّ،جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ "[٥٠٠٢]

[٤٩٩٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩) ٧٣ - (٣٠٠٥)

[ش (الأكمه) الذي خلق أعمى (بالمئشار) مهموز في رواية الأكثرين ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء وروى المنشار بالنون وهما لغتان صحيحتان (ذروته) ذروة الجبل أعلاه وهي بضم الذال وكسرها (فرجف بهم الجبل) أي اضطرب وتحرك حركة شديدة (قرقور) القرقور السفينة الصغيرة وقيل الكبيرة واختار القاضي الصغيرة بعد حكايته خلافا كثيرا (فانكفأت بهم السفينة) أي انقلبت (صعيد) الصعيد هنا الأرض البارزة (كبد القوس) مقبضها عند الرمي (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف (بالأخدود) الأخدود هو الشق العظيم في الأرض وجمعه أخاديد (أفواه السكك) أي أبواب الطرق (فأحموه فيها) هكذا هو في عامة النسخ فأحموه بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة ونقل القاضي اتفاق النسخ على هذا ووقع في بعض نسخ بلادنا فأقحموه بالقاف وهذا ظاهر ومعناه اطرحوه فيها كرها ومعنى الرواية الأولى ارموه فيها من قولهم أحميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار]

[٤٩٩٩] - سنن أبي داود (٢/ ٨٩)(١٥٣٧) صحيح

[٥٠٠٠] - صحيح البخاري (٤/ ٣٦)(٢٨٩٦)

[ش (رأى) ظن.(فضلا) زيادة منزلة بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك.(بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم]

[٥٠٠١] - سنن النسائي (٦/ ٤٥)(٣١٧٨) صحيح

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:«رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ،لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[5003]

١٥) فضل الطليعة في الحرب:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ يَوْمَ الأَحْزَابِ؟» قَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؟»،قَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»[5004]

١٦) وقت الخروج للجهاد في سبيل الله:

السنة أن يخرج الإمام بالجيش يوم الخميس،فإن كانت مصلحة أو حاجة أو عذر خرج بهم بحسبها في أي يوم.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِك،عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الخَمِيسِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخَمِيسِ»[5005]

١٧) دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال:

المقصود من الجهاد في سبيل الله تعالى:رفع راية الإسلام،وهداية الناس إلى الله،وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله،والأصل في ذلك أن يبلّغ الناس هذه الدعوة بالوسائل الممكنة ويشرح لهم محاسن الإسلام،وأنه فرض على كل الناس أن يدخلوا فيه،وأنه لا دين حق في الأرض سواه { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران:٨٥]

[5002] - صحيح البخاري (٦/ ١٥٩)(٤٩١٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٤)(١٣٨ - (٢٦٢٢)

[ش (متضعف) بكسر العين متواضع لين هين وروي بفتح العين أي يستضعفه الناس ويحتقرونه.(أقسم) حلف يمينا طمعا في كرم الله تعالى.(لأبره) لحقق له ما أقسم عليه ولأجاب طلبه ودعاءه.(جواظ) شديد الصوت في الشر متكبر مختال في مشيته]

[5003] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩١)(٤٨ - (٢٨٥٤)

[ش (رب أشعث مدفوع بالأبواب) الأشعث متلبد الشعر مغبره الذي لا يدهنه ولا يكثر غسله ومعنى مدفوع بالأبواب أنه لا يؤذن له بل يحجب ويطرد لحقارته عند الناس]

[5004] - صحيح البخاري (٤/ ٢٧) (٢٨٤٦)

[ش (القوم) المراد بنو قريظة من اليهود.(حواريا) خاصة من أصحابه وخالصا من أنصاره]

[5005] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٥٠)

مَن ابْتَغَى ديناً لاَ يَقُودُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ الكَامِلِ للهِ،وَالخُضُوعِ التَّامِّ لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،فَلاَ يُقْبَلُ مِنْهُ هَذا الدِّينُ،وَيَكُونُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ،لأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ سَلَكَ طَرِيقاً غَيْرَ مَا شَرَعَهُ اللهُ.[5006]

وقال تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:19]

يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لاَ يَقْبَلُ دِيناً مِنْ أحَدٍ غَيْرَ دَينِ الإِسْلاَمِ.وَالإِسْلاَمُ هُوَ الاسْتِسْلاَمُ الكَامِلُ للهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،واتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ،وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ،فَمَنْ لَقِيَ اللهَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيْعَتِهِ فَلا يُقْبَلُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ،وَجَاءَتِ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ،يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ اتِّبَاعَ سَبِيلِ اللهِ هذا،وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَلكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ،وَخَرَجُوا عنِ الإِسْلاَمِ الذِي جَاءَهُمْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ،وَتَفَرَّقُوا شِيَعاً وَطَوَائِفَ مُتَنَاحِرَةً مَتَقَاتِلَةً.وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ ذَلِكَ الاخْتِلافِ جَهْلاً بِحَقِيقَةِ الدِّينِ،فَالدِّينُ وَاحِدٌ لا مَجَالَ للاخْتِلاَفِ فِيهِ،وَلكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا اعْتِداءً وَظُلْماً وَبَغْياً وَتَبَاغُضاً بَيْنَهُمْ (بَغْياً بَيْنَهُمْ)،وَاتِّبَاعاً للرُّؤَسَاءِ الذينَ تَجَاوَزُوا الحُدُودَ،وَلَوْلا بَغْيُهُمْ وَنَصْرُهُمْ مَذْهَباً على مَذْهَبٍ،وَتَضْلِيلُهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ بِتُفْسِيرِ نُصُوصِ الدِّينِ بِالرَّأْيِ وَالهَوَى،وَتَأْوِيلُ بَعْضِهِ أوْ تَحْرِيفُهُ،لَمَا حَدَثَ هَذا الاخْتِلافُ.وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ الدَّالَةِ عَلَى وُجُوبِ الاعْتِصَامِ بِالدِّينِ وَوَحْدَتِهِ،فَإِنَّ اللهَ يجَازِيهِ عَلَى مَا اجْتَرَحَ مِنَ السَّيِّئاتِ،واللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ.[5007]

حكم الدعوة قبل القتال:

اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَخَل الْمُسْلِمُونَ دَارَ الْحَرْبِ فَحَاصَرُوا مَدِينَةً أَوْ حِصْنًا دَعَوُا الْكُفَّارَ إِلَى الإِْسْلاَمِ ؛لِقَوْل ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُما،قَالَ:«مَا قَاتَلَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا قَطُّ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ»[5008]،فَإِنْ أَجَابُوا كَفُّوا عَنْ قِتَالِهِمْ لِحُصُول الْمَقْصُودِ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ،أَنَّ

[5006] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٧٩،بترقيم الشاملة آليا)

[5007] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣١٣،بترقيم الشاملة آليا)

[5008] – المعجم الكبير للطبراني (١١/ ١٣٢)(١١٢٦٩) حسن

رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ،وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ،فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ،وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[٥٠٠٩] .

وَإِن امْتَنَعُوا دَعَوْهُمْ إِلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ،وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ تُقْبَل مِنْهُ الْجِزْيَةُ،وَأَمَّا مَنْ لاَ تُقْبَل مِنْهُ كَالْمُرْتَدِّينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ مِنَ الْعَرَبِ فَلاَ فَائِدَةَ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى قَبُول الْجِزْيَةِ.وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الرِّسَالَةُ لِقَطْعِ حُجَّتِهِمْ ؛لأَنَّهُ لاَ يَلْزَمُهُمُ الإِسْلاَمُ قَبْل الْعِلْمِ،وَالدَّلِيل عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَل:{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء:١٥]،وَلاَ يَجُوزُ قِتَالُهُمْ عَلَى مَا لاَ يَلْزَمُهُمْ،ولِحَدِيث سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا

[٥٠٠٩] - صحيح البخاري (١/ ١٤)(٢٥) وصحيح مسلم (١/ ٥٣)٣٦ - (٢٢)

[ش (أقاتل الناس) أي بعد عرض الإسلام عليهم. (يشهدوا) يعترفوا بكلمة التوحيد أي يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى. (عصموا) حفظوا وحقنوا والعصمة الحفظ والمنع. (إلا بحق الإسلام) أي إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا. (وحسابهم على الله) أي فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون]

ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٥٠١٠]

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:رُبَّمَا قَالَ وَكِيعٌ:عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ مُعَاذًا،قَالَ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ،قَالَ:«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[٥٠١١]،وَلأَنَّهُمْ بِالدَّعْوَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّا نُقَاتِلُهُمْ عَلَى الدِّينِ لاَ عَلَى سَلْبِ الأَمْوَالِ وَسَبْيِ الذَّرَارِيِّ،فَلَعَلَّهُمْ يُجِيبُونَ فَنُكْفَى مُؤْنَةَ الْقِتَال[٥٠١٢] .

قَال الْمَالِكِيَّةُ.وَدَعْوَةُ الْكُفَّارِ وُجُوبًا إِلَى الإِسْلاَمِ تَسْتَمِرُّ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فِي كُل يَوْمٍ مَرَّةً،فَإِذَا دُعُوا أَوَّل الثَّالِثِ قُوتِلُوا فِي أَوَّل الرَّابِعِ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ فِيهِ لأَدَاءِ الْجِزْيَةِ وَامْتِنَاعِهِمْ،وَلاَ تَجِبُ دَعْوَتُهُمْ لِلإِسْلاَمِ لاَ فِي بَقِيَّةِ الثَّالِثِ،وَلاَ فِي أَوَّل الرَّابِعِ.ثُمَّ إِنْ أَبَوْا قَبُول الإِسْلاَمِ دُعُوا إِلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي أَوَّل الْيَوْمِ الرَّابِعِ إِجْمَالاً،إِلاَّ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ تَفْصِيلِهَا

[٥٠١٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١) وانظر:الاختيار ٤ / ١١٨ وفتح القدير ٥ / ١٩٥ وما بعدها وحاشية رد المحتار ٣ / ٢٢٢،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٧٦،وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢،والمهذب ٢ / ٢٣١،وكشاف القناع ٣ / ٤٠،والمغني ٨ / ٣٦١

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

[٥٠١١] - صحيح مسلم (١/ ٥٠)٢٩ - (١٩)

[ش (وكرائم أموالهم) الكرائم جمع كريمة قال صاحب المطالع هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أي أنها مسموعة لا ترد]

[٥٠١٢] - انظر:شرح فتح القدير ٥ / ١٩٥ وما بعدها،وحاشية رد المحتار ٣ / ٢٢٣ز

بمَحَلٍّ يُؤْمَنُ فيهِ غَدْرُهُمْ لِكَوْنِهِمْ تَنَالُهُمْ فيهِ أَحْكَامُنَا،وَإِلاَّ بِأَنْ لَمْ يُجِيبُوا أَوْ أَجَابُوا وَلَكِنْ بِمَحَلٍّ لاَ تَنَالُهُمْ أَحْكَامُنَا فيهِ،وَلَمْ يَرْتَحِلُوا لِبِلاَدِنَا قُوتِلُوا وَقُتِلُوا [٥٠١٣].

وَلَوْ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ الدَّعْوَةِ أَثِمُوا لِلنَّهْيِ،وَلاَ يَضْمَنُ الْمُسْلِمُونَ شَيْئًا مِمَّا أَتْلَفُوهُ مِنَ الدِّمَاءِ وَالأَمْوَالِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ مَعَ الإِثْمِ،وَهَذَا لِعَدَمِ الْعَاصِمِ وَهُوَ الدِّينُ،أَوِ الإِحْرَازُ بِالدَّارِ،فَصَارَ كَقَتْلِ النِّسْوَانِ وَالصِّبْيَانِ[٥٠١٤] .

هَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ،وَكَذَلِكَ إِنْ وُجِدَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ دُعُوا قَبْلَ الْقِتَالِ .

أَمَّا مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ،فَإِنَّهُ لاَ تَجِبُ دَعْوَتُهُمْ ؛لأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدِ انْتَشَرَتْ وَعَمَّتْ،فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ إِلاَّ نَادِرٌ بَعِيدٌ .

ذَكَرَ ابْنُ عَابِدِينَ نَقْلاً عَنِ الْفَتْحِ:أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى غَلَبَةِ الظَّنِّ بِأَنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ[٥٠١٥] .

قَال أَحْمَدُ:إِنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْ وَانْتَشَرَتْ،وَلَكِنْ إِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ قَوْمٌ خَلْفَ الرُّومِ وَخَلْفَ التُّرْكِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَمْ يَجُزْ قِتَالُهُمْ قَبْل الدَّعْوَةِ،[٥٠١٦] لحديث سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ،وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،وَقَالَ:"إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ:ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يُجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ،فَإِنْ

[٥٠١٣] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٦ وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢ز

[٥٠١٤] - السرخسي ١٠ / ٣٠،وابن عابدين ٣ / ٢٢٣ز

[٥٠١٥] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٣ز

[٥٠١٦] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٠)

أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّه تَعَالَى وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّه تَعَالَى،فَلَا تُنْزِلْهُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِمْ،وَلَكِنْ أَنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِكُمْ،ثُمَّ اقْضُوا فِيهِمْ بَعْدُ مَا شِئْتُمْ "[٥٠١٧]

قُلْت لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ:هَلْ كَانَ مَالِكٌ يَأْمُرُ بِالدَّعْوَةِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟

قَالَ:نَعَمْ كَانَ يَقُولُ لَا أَرَى أَنْ يُقَاتَلَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يُدْعَوْا،قُلْت:وَلَا يُبَيِّتُونَ حَتَّى يُدْعَوْا؟ قَالَ:نَعَمْ،قُلْت:وَسَوَاءٌ إنْ غَزَوْنَاهُمْ نَحْنُ أَوْ أَقْبَلُوا هُمْ إلَيْنَا غُزَاةً فَدَخَلُوا بِلَادَنَا،لَا نُقَاتِلُهُمْ نَحْنُ فِي قَوْلِ مَالِك حَتَّى نَدْعُوهُمْ؟ قَالَ:قَدْ أَخْبَرْتُك بِقَوْلِ مَالِك وَلَمْ أَسْأَلْهُ عَنْ هَذَا وَهَذَا كُلُّهُ سَوَاءٌ عِنْدِي.قُلْت:وَكَيْفَ الدَّعْوَةُ فِي قَوْلِ مَالِك؟ قَالَ:لَمْ أَسْمَعْ مِنْ مَالِك فِيهَا شَيْئًا،وَلَكِنْ نَدْعُوهُمْ إلَى اللَّه وَرَسُولِه فَيُسَلِّمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ،وَذُكِرَ عَنْ مَالِك أَيْضًا أَمَّا مَنْ قَارَبَ الدَّوَابِّ فَالدَّعْوَةُ مَطْرُوحَةٌ عَنْهُمْ لِعِلْمِهِمْ بِمَا يُدْعَوْنَ إلَيْه وَمَا هُمْ عَلَيْه مِنْ الْبُغْضِ وَالْعَدَاوَةِ لِلدِّينِ وَأَهْلِه مِنْ طُولِ مُعَارَضَتِهِمْ لِلْجُيُوشِ وَمُحَارَبَتِهِمْ لَهُمْ،فَلْتُطْلَبْ غِرَّتُهُمْ وَلَا يُحْدِثُ لَهُمْ الدَّعْوَةَ إلَّا تَحْذِيرًا وَأَخْذَ الْعُدَّةِ لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْعًا لِمَا رَجَاهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ الظُّهُورِ عَلَيْهِمْ،وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ وَخِيفَ أَنْ لَا تَكُونَ نَاحِيَتُهُ نَاحِيَةَ مَنْ أَعْلَمْتُك،فَإِنَّ الدَّعْوَةَ أَقْطَعُ لِلشَّكِّ وَأَبَرُّ لِلْجِهَادِ يَبْلُغُ ذَلِكَ بِك،وَبِه مَا بَلَغَ وَبِهَا تَنَالُ عِلْمَ مَا هُمْ عَلَيْه مِنْ الْإِجَابَةِ لَك.ابْنُ وَهْب:وَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا وَإِنْ ظَنَنْت أَنَّهُ عَالِمٌ،اللَّيْثُ بْنُ سَعْد وَابْنُ لَهِيعَةَ وَعُمَيْرَةُ بْنُ أَبِي نَاجِيَةَ وَيَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد أَنَّهُ قَالَ:لَا بَأْسَ بِابْتِغَاءِ عَوْرَةِ الْعَدُوِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،لِأَنَّ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ بَلَغَتْهُمْ،وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّه بَعَثَ إلَى خَيْبَرَ فَقَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ابْنَ أَبِي الْحَقِيقِ غِيلَةً[٥٠١٨]،وَإِلَى صَاحِبِ بَنِي لِحْيَانَ مَنْ قَتَلَهُ غِيلَةً،وَبَعَثَ نَفَرًا فَقَتَلُوا آخَرِينَ إلَى جَانِبِ الْمَدِينَةِ مِنْ الْيَهُودِ مِنْهُمْ ابْنُ الْأَشْرَفِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيد:وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَأْمُرُ أُمَرَاءَ جُيُوشِه أَنْ لَا يَنْزِلُوا بِأَحَدٍ مِنْ الْعَدُوِّ إلَّا دَعَوْهُمْ،قَالَ ابْنُ يَحْيَى:وَلَعَمْرِي إنَّهُ لَحَقِيقٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يَنْزِلُوا بِأَحَدٍ مِنْ

[٥٠١٧] – سنن أبي داود (٣/ ٣٧)(٢٦١٢) صحيح وانظر المدونة ٣ / ٢

[٥٠١٨] – أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٣٤٠ – ط السلفية) من حديث البراء بن عازب

الْعَدُوِّ فِي الْحُصُونِ مِمَّنْ يَطْمَعُونَ بِهِ وَيَرْجُونَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ إلَّا دَعَوْهُ،فَأَمَّا مَنْ إنْ جَلَسْت بِأَرْضِك أَتَوْك وَإِنْ سِرْت إلَيْهِمْ قَاتَلُوك،فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُدْعَوْنَ وَلَا يُدْعَى مِثْلُهُمْ وَلَوْ طُمِعَ بِهِمْ لَكَانَ يَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَدْعُوهُمْ.قَالَ:وَأَخْبَرَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُقَاتِلُ أَحَدًا مِنْ الْعَدُوِّ حَتَّى يَدْعُوهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.قُلْت لِابْنِ الْقَاسِمِ:وَكَانَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّومِ فِي قِتَالِهِمْ وَبَيْنَ الْقِبْطِ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:وَلَا يُقَاتَلُوا حَتَّى يُدْعَوْا،وَقَالَ أَيْضًا:لَا يُبَيَّتُوا حَتَّى يُدْعَوْا.قُلْت:أَكَانَ مَالِكٌ يَرَى أَنْ يُدْعَوْا قَبْلَ أَنْ يُقَاتَلُوا وَلَا يَرَى أَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْهُمْ؟ قَالَ:نَعَمْ.[٥٠١٩] .

قَال ابْنُ قُدَامَةَ مِنَ الْحَنَابِلَةِ:إِنَّ وُجُوبَ الدَّعْوَةِ قَبْل الْقِتَال يُحْتَمَل أَنَّهُ كَانَ فِي بَدْءِ الأَْمْرِ قَبْل انْتِشَارِ الدَّعْوَةِ وَظُهُورِ الإِْسْلاَمِ،فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدِ انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ،فَاسْتُغْنِيَ بِذَلِكَ عَنِ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقِتَال .قَال أَحْمَدُ:كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو إِلَى الإِْسْلاَمِ قَبْل أَنْ يُحَارِبَ،حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ الدِّينَ وَعَلاَ الإِْسْلاَمُ،وَلاَ أَعْرِفُ الْيَوْمَ أَحَدًا يُدْعَى،قَدْ بَلَغَتِ الدَّعْوَةُ كُل أَحَدٍ،فَالرُّومُ قَدْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ وَعَلِمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُمْ،وَإِنَّمَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ فِي أَوَّل الإِْسْلاَمِ.وَلَكِنْ إِذَا دُعِيَ مَنْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ فَلاَ بَأْسَ[٥٠٢٠] .

وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ مُبَالَغَةً فِي الإِْنْذَارِ لفعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ،يَقُولُ:يَوْمَ خَيْبَرَ:«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»،فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى،فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيٌّ؟»،فَقِيلَ:يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ،فَأَمَرَ،فَدُعِيَ لَهُ،فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ،فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ،فَقَالَ:نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«عَلَى رِسْلِكَ،حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٥٠٢١]،إِلاَّ إِذَا تَضَمَّنَتْ دَعْوَتُهُمْ ضَرَرًا وَلَوْ بِغَلَبَةِ الظَّنِّ كَأَنْ يَسْتَعِدُّوا أَوْ يَتَحَصَّنُوا فَلاَ يَفْعَل .

[٥٠١٩] - المدونة (١/ ٤٩٦).

[٥٠٢٠] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١١)

[٥٠٢١] - صحيح البخاري (٤/ ٤٧)(٢٩٤٢) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢)٣٤ - (٢٤٠٦)

[ش (الراية) العلم. (فقاموا يرجون) فقام كل من الصحابة راجيا أن تعطى الراية له. (لذلك) ليفتح على يديه. (على رسلك) اتئد في السير. (بساحتهم) الساحة المكان المتسع بين دور الحي ونحوه. (رجل) المراد ما يعم الذكر والأنثى. (حمر النعم) الإبل الحمراء وكانت أنفس الأموال عند العرب]

وَلَكِنَّ دَعْوَتَهُمْ لَيْسَتْ وَاجِبَةً ؛لحديث ابْنِ عَوْنٍ،قَالَ:كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ،فَكَتَبَ إِلَيَّ «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ،وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ،وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ»،حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ،وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ"[٥٠٢٢]وَالْغَارَةُ لاَ تَكُونُ بِدَعْوَةٍ[٥٠٢٣] .وَقَيَّدَ ابْنُ الْقَيِّمِ وُجُوبَ الدَّعْوَةِ لِمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ،وَاسْتِحْبَابُهَا لِمَنْ بَلَغَتْهُ بِمَا إِذَا قَصَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ،أَمَّا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ قَاصِدِينَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَال فَلِلْمُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ دَفْعًا عَنْ نُفُوسِهِمْ وَحَرِيمِهِمْ[٥٠٢٤] .

وقال الشوكاني:"وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ تَقْدِيمِ دُعَاءِ الْكُفَّارِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْمُقَاتَلَة.

وَفِي الْمَسْأَلَة ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ:الْأَوَّلُ:أَنَّهُ يَجِبُ تَقْدِيمُ الدُّعَاءِ لِلْكُفَّارِ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ،وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالْهَادَوِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ،وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ مَعَهُمْ.وَالْمَذْهَب الثَّانِي أَنَّهُ لَا يَجِب مُطْلَقًا،وَسَيَأْتِي فِي هَذَا الْبَابِ دَلِيلُ مَنْ قَالَ بِهِ.

الْمَذْهَبُ الثَّالِثُ:أَنَّهُ يَجِبُ لِمَنْ لَمْ تَبْلُغهُمْ الدَّعْوَةُ وَلَا يَجِبُ إنْ بَلَغَتْهُمْ لَكِنْ يُسْتَحَبُّ.قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ،وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى مَعْنَاهُ،وَبِهِ يُجْمَعُ بَيْنَ مَا ظَاهِرُهُ الِاخْتِلَافُ مِنْ الْأَحَادِيثِ.وَقَدْ زَعَمَ الْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ أَنَّ وُجُوبَ تَقْدِيمِ دَعْوَةِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.وَيَرُدُّ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ الْمَذَاهِبِ الثَّلَاثَةِ،وَقَدْ حَكَاهَا كَذَلِكَ الْمَازِرِيُّ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ.قَوْلُهُ:(ثُمَّ اُدْعُهُمْ إلَى التَّحَوُّلِ) فِيهِ تَرْغِيبُ الْكُفَّارِ بَعْدَ إجَابَتِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ إلَى الْهِجْرَةِ إلَى دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ،لِأَنَّ الْوُقُوفَ بِالْبَادِيَةِ رُبَّمَا كَانَ سَبَبًا لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ الشَّرِيعَةِ لِقِلَّةِ مَنْ فِيهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ."[٥٠٢٥]

[٥٠٢٢] - صحيح البخاري (٣/ ١٤٨)(٢٥٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٦)١ - (١٧٣٠)

[ش (غارون) غافلون أي أخذهم على غرة وبغتة. (أنعامهم) هي الإبل والبقر والغنم وأكثر ما تطلق على الإبل. (مقاتلتهم) البالغين الذين هم على استعداد للقتال. (سبى ذراريهم) أخذهم سبيا ووزعهم على الغانمين بعد أن ضرب عليهم الرق. والذراري جمع ذرية وهي ههنا النساء والأولاد غير البالغين. (أصاب يومئذ جويرية) أي كانت في السبي]

[٥٠٢٣] - شرح فتح القدير ٥ / ١٩٥ وحاشية رد المحتار ٣ / ٢٢٣ ،والمهذب ٢ / ٢٣١ز

[٥٠٢٤] - الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٦) وكشاف القناع عن متن الإقناع (٣/ ٤١) ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢/ ٥٠٨)

[٥٠٢٥] - نيل الأوطار (٧/ ٢٧٢)

وقال ابن قدامة رحمه الله:''وَيُقَاتَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسُ،وَلَا يُدْعَوْنَ،لِأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْهُمْ وَيُدْعَى عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ قَبْلَ أَنْ يُحَارَبُوا أَمَّا قَوْلُهُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ:لَا يُدْعَوْنَ قَبْلَ الْقِتَالِ.فَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ؛لِأَنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ انْتَشَرَتْ وَعَمَّتْ،فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ إلَّا نَادِرٌ بَعِيدٌ.وَأَمَّا قَوْلُهُ:يُدْعَى عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ قَبْلَ أَنْ يُحَارَبُوا.فَلَيْسَ بِعَامٍّ،فَإِنَّ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ مِنْهُمْ لَا يُدْعَوْنَ،وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ،دُعِيَ قَبْلَ الْقِتَالِ،وَكَذَلِكَ إنْ وُجِدَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ،دُعُوا قَبْلَ الْقِتَالِ.

قَالَ أَحْمَدُ إنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ بَلَغَتْ وَانْتَشَرَتْ،وَلَكِنْ إنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ قَوْمٌ خَلْفَ الرُّومِ وَخَلْفَ التُّرْكِ،عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ،لَمْ يَجُزْ قِتَالُهُمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ."[٥٠٢٦]

وهذا التفريق فيه نظر،لأن المدار على بلوغ الدعوة وعدمه،والأمة التي بلغتها الدعوة الآن،قد يأتي زمان عليها لم تبلغها الدعوة فيه،ومما يدل على ضعف هذا التفريق قصة سلمان الفارسي مع قومه (وهم مجوس) كما في الترمذي ما جاء عَنْ أَبِي البَخْتَرِيِّ،أَنَّ جَيْشًا مِنْ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ كَانَ أَمِيرَهُمْ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ حَاصَرُوا قَصْرًا مِنْ قُصُورِ فَارِسَ،فَقَالُوا:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،أَلَا نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ؟ قَالَ:دَعُونِي أَدْعُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ فَأَتَاهُمْ سَلْمَانُ،فَقَالَ لَهُمْ:«إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِيٌّ،تَرَوْنَ العَرَبَ يُطِيعُونَنِي،فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلُ الَّذِي لَنَا وَعَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا،وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا دِينَكُمْ تَرَكْنَاكُمْ عَلَيْهِ وَأَعْطُونَا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ»،قَالَ:وَرَطَنَ إِلَيْهِمْ بِالفَارِسِيَّةِ،«وَأَنْتُمْ غَيْرُ مَحْمُودِينَ،وَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابَذْنَاكُمْ عَلَى سَوَاءٍ»،قَالُوا:مَا نَحْنُ بِالَّذِي نُعْطِي الجِزْيَةَ،وَلَكِنَّا نُقَاتِلُكُمْ،فَقَالُوا:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،أَلَا نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ؟ قَالَ:لَا،فَدَعَاهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا،ثُمَّ قَالَ:انْهَدُوا إِلَيْهِمْ،قَالَ:فَنَهَدْنَا إِلَيْهِمْ،فَفَتَحْنَا ذَلِكَ القَصْرَ"[٥٠٢٧]

[٥٠٢٦] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٠)

[٥٠٢٧] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١١٩)(١٥٤٨) قال الترمذي:''وَفِي البَابِ عَنْ بُرَيْدَةَ،وَالنُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ،وَابْنِ عُمَرَ،وَابْنِ عَبَّاسٍ وَحَدِيثُ سَلْمَانَ حَدِيثٌ حَسَنٌ،لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ. وَسَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَقُولُ:أَبُو البَخْتَرِيِّ لَمْ يُدْرِكْ سَلْمَانَ،لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ عَلِيًّا،وَسَلْمَانُ مَاتَ قَبْلَ عَلِيٍّ. وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ إِلَى هَذَا،وَرَأَوْا أَنْ يُدْعَوْا قَبْلَ القِتَالِ. وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:إِنْ تُقُدِّمَ إِلَيْهِمْ فِي الدَّعْوَةِ،فَحَسَنٌ،يَكُونُ ذَلِكَ أَهْيَبَ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ:لَا دَعْوَةَ اليَوْمَ وَقَالَ أَحْمَدُ:لَا أَعْرِفُ اليَوْمَ أَحَدًا يُدْعَى وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:لَا يُقَاتَلُ العَدُوُّ حَتَّى يُدْعَوْا،إِلَّا أَنْ يَعْجَلُوا عَنْ ذَلِكَ،فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَقَدْ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ"

وأرجح الأقوال – فيما يظهر – التفصيل،وهو وجوب الدعوة إلى الإسلام في حق من لم تبلغهم قبل القتال،لأنهم حينئذ لا يدرون على ماذا يقاتلون؟ وقد يفسرون مقاتلهم أنها من أجل نهب أموالهم ونحو ذلك،وإقامة الحجة واجبة لقوله تعالى:{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء:١٥].ويدل على هذا حديث بريدة:السابق

واستحباب الدعوة إلى الإسلام قبل القتال في حق من بلغتهم قبل ذلك ولم يخشَ معاجلتهم المسلمين أو فواتهم عليهم،مبالغة في الإنذار الذي قد يهدي الله به القوم،ويدل على هذا أن يهود خيبر كانوا قد بلغتهم الدعوة، فعَنْ أَبِي حَازِمٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:«لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ،يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»،قَالَ:فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا،فَقَالَ:«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ».فَقِيلَ:هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ،قَالَ:«فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ».فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ،فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ،فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ،فَقَالَ عَلِيٌّ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا،خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٥٠٢٨].

فإن كانوا قد بلغتهم الدعوة ودلّت القرائن على أنهم يبيتون للمسلمين شراً أو يجمعون جموعهم لقتال المسلمين،فالذي يظهر أنه يجب في هذه الحالة على المسلمين أن يغيروا عليهم دون إنذار سابق،لأن المسلمين على حق والكفار على باطل،والفرصة إذا سنحت للمسلمين يجب عليهم اغتنامها وعدم تفويتها فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ،خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى

[٥٠٢٨] – صحيح البخاري (٥/ ١٣٤)(٤٢١٠) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢)٣٤ – (٢٤٠٦)

مَا يَنْفَعُكَ،وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ،وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ،فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا،وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ،فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٥٠٢٩].

ولعل إغارة الرسول ﷺ على بني المُصْطَلِق وهم غارُّون – أي غافلون – من هذا الباب،لأنهم كانوا ضمن الأحابيش الذين غزوا الرسول ﷺ في غزوة أحد،كما أنهم كانوا يجمعون لقتاله قبل أن يغزوهم،وكذلك غزوة تبوك إذ كان الروم يتحفزون لغزو المسلمين.

ففي المبسوط للسرخسي:"وَلَا بَأْسَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا بِغَيْرِ دَعْوَةٍ لِمَا رُوِيَ «أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ غَافِلُونَ وَيَعُمُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ بِسَقْيٍ وَعَهِدَ إلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنْ يُغِيرُوا عَلَى أَبْنَا صَبَاحًا ثُمَّ يُحَرَّقَ» «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – إذَا أَرَادَ أَنْ يُغِيرَ عَلَى قَوْمٍ صَبَّحَهُمْ وَاسْتَمَعَ النِّدَاءَ فَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَغَارَ عَلَيْهِمْ حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ صَبَّحَ أَهْلَ خَيْبَرَ وَقَدْ خَرَجَ الْعُمَّالُ وَمَعَهُمْ الْمَسَاحِي وَالْمَكَاتِلُ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ وَلَّوْا مُنْهَزِمِينَ يَقُولُونَ:مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ،وَالْخَمِيسُ:الْجَيْشُ وَقَدْ كَانُوا وَجَدُوا فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَغْزُوهُمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَيَظْفَرُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَمِيسِ فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إنَّا إذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»"[٥٠٣٠].

وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي بِلَادِ اللَّهِ مَنْ لَا شُعُورَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ،فَيَجِبُ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَيْهِ ظَنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ،فَإِذَا كَانَتْ بَلَغَتْهُمْ لَا تَجِبُ،وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ إمَّا عَدَمُ الْوُجُوبِ،فَلِمَا فِي

[٥٠٢٩]- صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢)٣٤ - (٢٦٦٤)

[ش (المؤمن القوي خير) المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما على العدو في الجهاد وأسرع خروجا إليه وذهابا في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك (وفي كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات (احرص على ما ينفعك) معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة]

[٥٠٣٠] - المبسوط للسرخسي (١٠/ ٣١)

الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَوْف:كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنِ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ،قَدْ «أَغَارَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامُهُمْ تَسْقِي عَلَى الْمَاءِ،فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ،وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ». حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ،وَأَمَّا الِاسْتِحْبَابُ فَلِأَنَّ التَّكْرَارَ قَدْ يُجْدِي الْمَقْصُودَ فَيَنْعَدِمُ الضَّرَرُ،وَقُيِّدَ هَذَا الِاسْتِحْبَابُ بِأَنْ لَا يَتَضَمَّنَ ضَرَرًا بِأَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُمْ بِالدَّعْوَةِ يَسْتَعِدُّونَ،أَوْ يَحْتَالُونَ،أَوْ يَتَحَصَّنُونَ،وَغَلَبَةُ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ تَظْهَرُ مِنْ حَالِهِمْ كَالْعِلْمِ،بَلْ هُوَ الْمُرَادُ إِذْ حَقِيقَتُهُ يَتَعَذَّرُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا اهـ.كَلَامُ الْمُحَقِّقِ.[٥٠٣١]

ويحصل بلوغ الدعوة بانتشارها،وعلم الناس عنها في الجملة،لأن سماعهم بها يلزم الاستفسار عنها وتعلمها،وقد كان كثير من المشركين يبعثون من يأتيهم بخبرها أو يسافرون بأنفسهم لسماعها.

وقد توافرت في هذا العصر الوسائل التي يمكن تبليغ الدعوة بها إلى كافة الناس بلغاتهم:مثل الإذاعة والتلفاز،والهاتف والأشرطة المسجلة،والكتب المترجمة،والصحف والمجلات والإنترنت ... وغيرها.

ويكفي أن يبلغ زعماء الأمم تلك الدعوة ويطلب منهم أن يبلغوا قومهم وأن يدخلوا جميعاً في الإسلام،وهم الذين يتحملون بعد ذلك مسئولية قومهم إن لم يبلغوهم،كما فعل الرسول ﷺ عندما كاتب الملوك والرؤساء.فعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ:أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ،أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ:أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ،وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ،فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ،فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ،وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ،ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ،فَقَالَ:أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا،فَقَالَ:أَدْنُوهُ مِنِّي،وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ،ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ:قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ،فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.فَوَاللَّهِ

[٥٠٣١] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٦)

لَوْلاَ الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ.ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ:هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ،قَالَ:فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ:لاَ.قَالَ:فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ:لاَ قَالَ:فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.قَالَ:أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ [ص:٩] قُلْتُ:بَلْ يَزِيدُونَ.قَالَ:فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ:لاَ.قَالَ:فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ:لاَ.قَالَ:فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ:لاَ،وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا،قَالَ:وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الكَلِمَةِ،قَالَ:فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ:نَعَمْ.قَالَ:فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ:الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ،يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.قَالَ:مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ:يَقُولُ:اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ،وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ.فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ:قُلْ لَهُ:سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ،فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا.وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا القَوْلَ،فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ،فَقُلْتُ:لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ،لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ،فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ،قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ،قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ،وَسَأَلْتُكَ،هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ،فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ،فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ،فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ،وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ،فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ،وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ،فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ،وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ.وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ،فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ،وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ.وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ،فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ،وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ،فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ،وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ،لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ،فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ،وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

الَّذي بَعَثَ به دحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى،فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ،فَقَرَأَهُ فَإِذَا فيه بسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ،منْ مُحَمَّد عَبْد اللَّه وَرَسُوله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ:سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى،أَمَّا بَعْدُ،فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدعَايَةِ الإِسْلاَمِ،أَسْلمْ تَسْلَمْ،يُؤْتكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ،فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ {يَا أَهْلَ الكتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ به شَيْئًا وَلاَ يَتَّخذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا منْ دُونِ اللَّه فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلمُونَ} قَالَ أَبُو سُفْيَانَ [ص:١٠]:فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ،وَفَرَغَ منْ قرَاءَة الكتَابِ،كَثُرَ عنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَت الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا،فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حينَ أُخْرِجْنَا:لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ،إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلكُ بَنِي الأَصْفَرِ.فَمَا زِلْتُ مُوقنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ.وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ،صَاحبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ،سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حينَ قَدمَ إِيلِيَاءَ،أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ،فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَته:قَد اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ،قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ:وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ،فَقَالَ لَهُمْ حينَ سَأَلُوهُ:إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلكَ الختَانِ قَدْ ظَهَرَ،فَمَنْ يَخْتَتنُ منْ هَذه الأُمَّة؟ قَالُوا:لَيْسَ يَخْتَتنُ إِلَّا اليَهُودُ،فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ،وَاكْتُبْ إِلَى مَدَاينِ مُلْككَ،فَيَقْتُلُوا مَنْ فيهِمْ منَ اليَهُود.فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ،أُتيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ به مَلكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ:اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتنٌ هُوَ أَمْ لاَ،فَنَظَرُوا إِلَيْه،فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتنٌ،وَسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ،فَقَالَ:هُمْ يَخْتَتنُونَ،فَقَالَ هِرَقْلُ:هَذَا مُلْكُ هَذه الأُمَّة قَدْ ظَهَرَ.ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ،وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العلْمِ،وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حمْصَ،فَلَمْ يَرِمْ حمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كتَابٌ منْ صَاحبِه يُوَافقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ،وَأَنَّهُ نَبِيٌّ،فَأَذنَ هِرَقْلُ لعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحمْصَ،ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ،ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الرُّومِ،هَلْ لَكُمْ فِي الفَلاَحِ وَالرُّشْد،وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ،فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ،فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ،فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ،وَأَيِسَ منَ الإِيمَانِ،قَالَ:رُدُّوهُمْ

عَلَيَّ،وَقَالَ:إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ،فَقَدْ رَأَيْتُ،فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ،فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ "[٥٠٣٢]

قَالَ النَّوَوِيُّ:"وَفِي هَذَا الْكِتَابِ جُمَلٌ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَأَنْوَاعٌ مِنَ الْفَوَائِدِ مِنْهَا:قَوْلُهُ:"سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَجُمْهُورِ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يُبْدَأُ بِالسَّلَامِ.قُلْتُ مَا أَظُنُّ فِيهِ خِلَافًا،وَمِنْهَا دُعَاءُ الْكُفَّارِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَهُوَ وَاجِبٌ،وَالْقِتَالُ قَبْلَهُ حَرَامٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ.قُلْتُ:وَكَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْهُمَامِ مِنْ أَئِمَّتِنَا.وَقَالَ:لِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أَمَرَ بِذَلِكَ أُمَرَاءَ الْأَجْنَادِ،فَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ سُلَيْمَانَ بْنِ

[٥٠٣٢] - صحيح البخاري (١/ ٨)(٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣)٧٤ - (١٧٧٣)

[ش (ركب) جمع راكب وهم العشرة فما فوق. (بالشأم) ويقال الشام والشآم والمعروف الآن أن بلاد الشام هي سوريا والأردن وفلسطين ولبنان. (ماد فيها) صالحهم على ترك القتال فيها. (بإيلياء) بيت المقدس. (بترجمانه) هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى. (يأثروا) يرووا عني وينقلوا. (أشراف الناس) الشرف علو الحسب والمجد والمراد هنا أهل النخوة والتكبر منهم لا على كل شريف. (ضعفاؤهم) أي أكثرهم من الضعفاء وهم الفقراء والعبيد والموالي والصغار. (سخطة) كراهية له وعدم رضا به. (مدة) عهد. (قال) أي أبو سفيان. (سجال) نوب مرة لنا ومرة علينا وأصل سجال جمع سجل وهو الدلو الكبير. (ما يقول آباؤكم) أي من عبادة الأوثان ومفاسد الجاهلية. (العفاف) الكف عن المحرمات وخوارم مما لا يليق. (ليذر) ليترك. (وهم أتباع الرسل) في الغالب لا المستكبرون بغيا وحسدا. (بشاشته) نوره وحلاوته والفرح به والإنشراح. (الأوثان) جمع وثن وهو الصنم. (أنه خارج) أي سيبعث نبي بهذه الصفات. (أخلص) أصل. (تجشمت) تكلفت على خطر ومشقة. (لغسلت عن قدمه) مبالغة في خدمته واتباعه والخضوع لما جاء به. (عظيم بصرى) أميرها وبصرى بلدة من أعمل حوران في جنوب بلاد الشام. (بدعاية) بدعوة وهي كلمة الشهادة التي يدعى إلى النطق بها أهل الملل الكافرة وهي عنوان التوحيد وأصل الإسلام دين الحق والاستقامة والعزة والكرامة (مرتين) مضاعفا بعدد من يقتدي به من قومه. (توليت) أعرضت عن الإسلام ورفضت الدول فيه. (إثم الأريسيين) إثم استمرارهم على الباطل والكفر اتباعا لك والمراد بالأريسيين الأتباع من أهل مملكته وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحراث والفلاح. (كلمة سواء بيننا وبينكم) مستوية لا تختلف فيها الكتب المنزلة ولا الأنبياء المرسلون والآية من سورة آل عمران ٦٤. (الصخب) اللغط واختلاط الأصوات. (أمر أمر ابن أبي كبشة) عظم شأنه وأبو كبشة هو أحد أجداد النبي ﷺ وكانت عادة العرب إذا انتقصت إنسانا نسبته إلى جد غامض من أجداده وقيل هو أبوه من الرضاع. (بني الأفر) هم الروم وكان العرب يطلقون عليهم ذلك نسبة إلى أحد عظمائهم وقيل غير ذلك. (ابن الناطور) وفي رواية (الناطور) وهو اسم معرب معناه حارس البستان. (صاحب إيلياء وهرقل) أمير بيت المقدس من قبل هرقل. (أسقفا) لفظ معرب ومعناه عالم النصارى أو رئيسهم الديني. (خبيث النفس) مهموما. (بطارقته) جمع بطريق وهم خواص دولته وأهل مشورته. (استنكرنا هيئتك) اختلف علينا حالك وسمتك. (حزاء) كاهنا يخبر عن المغيبات. (ينظر في النجوم) يتكهن من أحوالها. (ملك الختان) وفي رواية (ملك) أي ظهر سلطان الذين يختتنون والختان قطع قلفة الذكر وكان الروم لا يختتون. (برومية) مدينة معروفة للروم وهي مقر خلافة النصارى ورئاسهتم. (حمص) بلدة معروفة من بلاد الشام. (يرم) يفارق وقيل يصل. (دسكرة) قصر حوله أو فيه منازل للخدم وأشباههم. (فحاصوا) نفروا وكروا. (حمر الوحش) جمع حمار والوحش حيوان البر. (وأيس من الإيمان) انقطع أمله منهم. (آنفا) قريبا أو هذه الساعة والآنف أول الشيء]

بُرَيْدَةَ الْآتِي،وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَفِي نَفْسِ هَذَا الْحُكْمِ شَهِيرَةٌ وَإِجْمَاعٌ،وَلِأَنَّ بِالدَّعْوَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّا نُقَاتِلُهُمْ عَلَى أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ وَسَبْيِ عِيَالِهِمْ،فَرُبَّمَا يُجِيبُونَ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ،فَلَا بُدَّ مِنْ الِاسْتِعْلَامِ.."[٥٠٣٣].

وعَنْ أَنَسٍ:«أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى،وَإِلَى قَيْصَرَ،وَإِلَى النَّجَاشِيِّ،وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى»،وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ"[٥٠٣٤].

وهكذا فعل أصحاب رسول الله صلى اله عليه وسلم،فعَنْ أَبِي وَائِلٍ ؛أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ كَتَبَ:بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى رُسْتُمٍ وَمِهْرَانَ وَمَلأِ فَارِسَ ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللَّهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ:فَإِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الإِسْلاَمَ،فَإِنْ أَقْرَرْتُمْ بِهِ فَلَكُمْ مَا لأَهْلِ الإِسْلاَمِ ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى أَهْلِ الإِسْلاَمِ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ،فَإِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الْجِزْيَةَ ، فَإِنْ أَقْرَرْتُمْ بِالْجِزْيَةِ،فَلَكُمْ مَا لأَهْلِ الْجِزْيَةِ ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى أَهْلِ الْجِزْيَةِ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ،فَإِنَّ عِنْدِي رِجَالاً تُحِبُّ الْقِتَالَ كَمَا تُحِبُّ فَارِسُ الْخَمْرَ.[٥٠٣٥]

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ:كَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى أَهْلِ فَارِسَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ:«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى رُسْتُمَ وَمِهْرَانَ،وَمَلَأِ فَارِسَ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى،أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ،فَإِنْ أَبَيْتُمْ،فَإِنَّ مَعِي قَوْمًا يُحِبُّونَ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا تُحِبُّ فَارِسُ الْخَمْرَ.وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى»[٥٠٣٦]

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ،قَالَ:بَعَثَ عُمَرُ النَّاسَ فِي أَفْنَاءِ الأَمْصَارِ،يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ،فَأَسْلَمَ الْهُرْمُزَانُ،فَقَالَ:إِنِّي مُسْتَشِيرُكَ فِي مَغَازِيَّ هَذِهِ؟ قَالَ:نَعَمْ مَثَلُهَا وَمَثَلُ مَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ مِنْ عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ مَثَلُ طَائِرٍ لَهُ رَأْسٌ وَلَهُ جَنَاحَانِ وَلَهُ رِجْلاَنِ،فَإِنْ كُسِرَ أَحَدُ الْجَنَاحَيْنِ نَهَضَتِ الرِّجْلاَنِ بِجَنَاحٍ وَالرَّأْسُ،فَإِنْ كُسِرَ الْجَنَاحُ الآخَرُ نَهَضَتِ الرِّجْلاَنِ وَالرَّأْسُ،وَإِنْ

[٥٠٣٣] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٢٥) وشرح النووي على مسلم (١٢/ ١٠٧)

[٥٠٣٤] – صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧)٧٥ – (١٧٧٤)

[٥٠٣٥] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٢٥٩)(٣٤٤٢٢) صحيح

[٥٠٣٦] – مسند ابن الجعد (ص:٣٣٥)(٢٣٠٤) صحيح

شُدِخَ الرَّأْسُ ذَهَبَتِ الرِّجْلاَنِ وَالجَنَاحَانِ وَالرَّأْسُ،فَالرَّأْسُ كِسْرَى،وَالجَنَاحُ قَيْصَرُ،وَالجَنَاحُ الآخَرُ فَارِسُ،فَمُرِ المُسْلِمِينَ،فَلْيَنْفِرُوا إِلَى كِسْرَى،- وَقَالَ بَكْرٌ،وَزِيَادٌ جَمِيعًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ - قَالَ:فَنَدَبَنَا عُمَرُ،وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ،حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَرْضِ العَدُوِّ،وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلُ كِسْرَى فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا،فَقَامَ تَرْجُمَانٌ،فَقَالَ:لِيُكَلِّمْنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ،فَقَالَ المُغِيرَةُ:سَلْ عَمَّا شِئْتَ؟ قَالَ:مَا أَنْتُمْ؟ قَالَ:نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ العَرَبِ،كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلاَءٍ شَدِيدٍ،نَمَصُّ الجِلْدَ وَالنَّوَى مِنَ الجُوعِ،وَنَلْبَسُ الوَبَرَ وَالشَّعَرَ،وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ،فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرَضِينَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ - إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ،فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ «أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ،أَوْ تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ،وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا،أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ،وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ»،فَقَالَ النُّعْمَانُ:رُبَّمَا أَشْهَدَكَ اللَّهُ مِثْلَهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَلَمْ يُنَدِّمْكَ،وَلَمْ يُخْزِكَ،وَلَكِنِّي شَهِدْتُ القِتَالَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ «إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ،انْتَظَرَ حَتَّى تَهُبَّ الأَرْوَاحُ،وَتَحْضُرَ الصَّلَوَاتُ»[٥٠٣٧]

١٨) حكم استئذان الوالدين في الجهاد:

١ - لا يجاهد المسلم تطوعاً إلا بإذن والديه؛لأن الجهاد فرض كفاية،وبر الوالدين فرض عين في كل حال.

أما إذا وجب الجهاد كما سبق فيجاهد بلا إذنهما.

٢ - كل تطوع فيه منفعة للإنسان،ولا ضرر على والديه فيه،فلا يُحتاج إلى إذنهما فيـــه كقيام الليل،وصيام التطوع ونحوهما.

[٥٠٣٧] - صحيح البخاري (٤/ ٩٧)(٣١٥٩)

[ش (أفناء) نواحي. (الأمصار) جمع مصر وهي البلد الكبير. (الهرمزان) أحد ملوك العجم. (شدخ) كسر. (كسرى) لقب ملك الفرس. (قيصر) لقب ملك الروم. (فارس) اسم للعجم المعروفين بهذا الاسم في ذاك الوقت. (ترجمان) هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى. (النوى) عجم التمر. (الوبر) هو شعر الإبل. (فقال النعمان) للمغيرة لما أنكر عليه تأخير القتال. (أشهدك) أحضرك. (مثلها) مثل هذه الوقعة. (يندمك) على التأني والصبر وفيما لقيت معه من الشدة. (و لم يخزك) من الإخزاء وهو الذل والهوان. (تهب الأرواح) جمع ريح. (تحضر الصلوات) يعني بعد زوال الشمس وذهاب شدة الحر حتى يطيب القتال ويسهل على المقاتلين]

فإن كان فيه ضرر على الوالدين أو أحدهما كجهاد التطوع فلهما منعه،ويجب عليه أن يمتنع؛لأن طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة،والتطوع ليس بواجب.

قال الله تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء:٢٣].

وقَالَ الوَلِيدُ بْنُ العَيْزَارِ:أَخْبَرَنِي قَالَ:سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ،يَقُولُ:حَدَّثَنَا صَاحِبُ – هَذِهِ الدَّارِ وَأَشَارَ إِلَى دَارِ – عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ:سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ:أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:«الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا»،قَالَ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ:حَدَّثَنِي بِهِنَّ،وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي"[5038]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قال:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ،فَقَالَ:«أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[5039]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ،أَنَّ نَاعِمًا،مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ حَدَّثَهُ،أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،قَالَ:أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقَالَ:أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ،أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ،قَالَ:«فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ:نَعَمْ،بَلْ كِلَاهُمَا،قَالَ:«فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ؟» قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»[5040]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ،وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ؟ قَالَ:«ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا»[5041]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ:«هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ؟»،قَالَ:أَبَوَايَ،قَالَ:«أَذِنَا لَكَ؟» قَالَ:«لَا»،قَالَ:«ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا،فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ،وَإِلَّا فَبِرَّهُمَا»[5042]

[5038] – صحيح البخاري (١/ ١١٢) (٥٢٧) [ش(عبد الله) هو ابن مسعود رضي الله عنه.(على وقتها) في أول وقتها.(بر الوالدين) الإحسان إليهما والقيام بخدمتهما وترك الإساءة إليهما]

[5039] – صحيح البخاري (٤/ ٥٩)(٣٠٠٤) [ش (رجل) هو جاهمة بن العباس بن مرداس.(ففيهما فجاهد) ابذل جهدك في إرضائهما وبرهما فيكتب لك أجر الجهاد في سبيل الله تعالى]

[5040] – صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٥)٦ –

[5041] – الأدب المفرد مخرجا (ص:٢١) (١٩) صحيح

[5042] – سنن أبي داود (٣/ ١٧)(٢٥٣٠) حسن

فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:هَذَا فِي جِهَادِ التَّطَوُّعِ لَا يَخْرُجُ إِلَّا بِإِذْنِ الْوَالِدَيْنِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ،فَإِنْ كَانَ الْجِهَادُ فَرْضًا مُتَعَيَّنًا فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِذْنِهِمَا وَإِنْ مَنَعَاهُ عَصَاهُمَا وَخَرَجَ،وَإِنْ كَانَا كَافِرَيْنِ فَيَخْرُجُ بِدُونِ إِذْنِهِمَا فَرْضًا كَانَ الْجِهَادُ،أَوْ تَطَوُّعًا،وَكَذَلِكَ لَا يَخْرُجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ كَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالزِّيَارَةِ،وَلَا يَصُومُ التَّطَوُّعَ إِذَا كَرِهَ الْوَالِدَانِ الْمُسْلِمَانِ،أَوْ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِإِذْنِهِمَا قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:لِأَنَّ طَاعَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا فَرْضٌ عَلَيْهِ،وَالْجِهَادُ لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ.[5043]

١٩) حكم استئذان صاحب الدَّين:

لا يتطوع بالجهاد مَدين لا وفاء له،إلا أن يستأذن من صاحب الدين،أما إذا وجب الجهاد فيخرج بلا إذنه.عَنْ أَبِي قَتَادَةَ،أَنَّهُ سَمِعَهُ،يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ،فَقَامَ رَجُلٌ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ،تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ:أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«نَعَمْ،وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ،مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ،إِلَّا الدَّيْنَ،فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»[5044]

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ:أَرَادَ بِالدَّيْنِ هُنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِذِمَّتِهِ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ،إِذْ لَيْسَ الدَّائِنُ أَحَقَّ بِالْوَعِيدِ وَالْمُطَالَبَةِ مِنْهُ مِنَ الْجَانِي وَالْغَاصِبِ وَالْخَائِنِ وَالسَّارِقِ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى جَمِيعِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ،وَأَنَّ الْجِهَادَ وَالشَّهَادَةَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ لَا يُكَفِّرُ حُقُوقَ الْآدَمِيِّينَ،وَإِنَّمَا يُكَفِّرُ حُقُوقَ اللَّهِ قُلْتُ:إِلَّا شَهِيدَ الْبَحْرِ،فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا وَالدَّيْنَ،كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ.[5045]،فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«شَهِيدُ الْبَحْرِ مِثْلُ شَهِيدَيِ الْبَرِّ،وَالْمَائِدُ فِي الْبَحْرِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ فِي الْبَرِّ،وَمَا

[5043] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٢)

[5044] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٠١) ١١٧ – (١٨٨٥) [ش (محتسب) المحتسب هو المخلص لله تعالى(إلا الدين) فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله تعالى]

[5045] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٦)

بَيْنَ الْمَوْجَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ كَقَاطِعِ الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ اللهِ،وَإِنَّ اللهَ وَكَّلَ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ إِلَّا شُهَدَاءَ الْبَحْرِ،فَإِنَّهُ يَتَوَلَّى قَبْضَ أَرْوَاحِهِمْ،وَيَغْفِرُ لِشُهَدَاءِ الْبَرِّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الدَّيْنَ،وَيَسْتَغْفِرُ لِشُهَدَاءِ الْبَحْرِ الذُّنُوبَ كُلَّهَا وَالدَّيْنَ»[٥٠٤٦]

٢٠) حكم الكافر إذا قَتل المسلم ثم أسلم وقُتل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:" يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلاَنِ الجَنَّةَ:يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَيُقْتَلُ،ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى القَاتِلِ،فَيُسْتَشْهَدُ[٥٠٤٧]،قَالَ الطِّيبِيُّ:عُدِّيَ يَضْحَكُ بِإِلَى لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الِانْبِسَاطِ وَالْإِقْبَالِ،مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ:ضَحِكْتُ إِلَى فُلَانٍ إِذَا انْبَسَطْتَ إِلَيْهِ،وَتَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ طَلْقٍ وَأَنْتَ رَاضٍ عَنْهُ.وَقَالَ النَّوَوِيُّ:وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ ضَحِكُ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَوَجِّهِينَ لِقَبْضِ رُوحِهِ،كَمَا يُقَالُ:قَتَلَ السُّلْطَانُ فُلَانًا إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِهِ اه.وَقِيلَ:هُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ يُنَزَّهُ عَنِ التَّشْبِيهِ،وَيُوكَلُ عِلْمُهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ.[٥٠٤٨]

٢١) من وصايا الخلفاء للمجاهدين :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَّرَ عَلَى الْأَجْنَادِ:يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ،وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ،ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَخَرَجَ مَعَهُ يُشَيِّعُهُ وَيُوصِيهِ،وَيَزِيدُ رَاكِبٌ،وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ يَزِيدُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ،فَقَالَ:إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ،وَلَسْتُ بِتَارِكِكَ أَنْ تَنْزِلَ،إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ،فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ،وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَغْتُمْ،يَا يَزِيدُ،إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ،فَفَلَقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ،وَسَتَمُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ فِي صَوَامِعَ

[٥٠٤٦] - المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٧٠) (٧٧١٦) ضعيف

[٥٠٤٧] - صحيح البخاري (٤/ ٢٤) (٢٨٢٦)

[ش (يضحك الله) كناية عن الرضا والقبول وإجزال العطاء وهو مثل ضربه لهذا الصنيع الذي هو مكان التعجب عند البشر أو هو ضحك يليق به سبحانه وتعالى وليس كضحك البشر.(يتوب الله على القاتل) بدخوله في الإسلام]

[٥٠٤٨] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٦٦)

لَهُمْ،احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،يَا يَزِيدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا صَغِيرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ،وَلَا بَقَرَةً،وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ "[٥٠٤٩]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ – لَمَّا بَعَثَ الْجُيُوشَ نَحْوَ الشَّامِ،يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ،فَلَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَعَهُمْ يُوَدِّعُهُمْ،حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ،ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ يَقُولُ:عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ – إِنَّ شَاءَ اللَّهُ – فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا عَلَيْهِمْ،فَإِنِ اخْتَارُوا [ص:٤٧٩] دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمُ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَلَا فِي الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ،حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ،فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ،وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ – إِنَّ شَاءَ اللَّهُ –.[٥٠٥٠]

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى مَنِ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ"أَنْ يَدْعُوَهُمْ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ،وَيُنَبِّئَهُمْ بِالَّذِي لَهُمْ فِيهِ وَعَلَيْهِمْ،وَيَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ،فَمَنْ أَجَابَهُ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ،أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ،كَانَ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ،بِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَاتِلُ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ،فَإِذَا أَجَابَ الْمَدْعُوُّ إِلَى الْإِسْلَامِ،وَصَدَقَ إِيمَانُهُ لَمْ يَكُنْ

[٥٠٤٩] – سنن سعيد بن منصور (٢/ ١٨٢) (٢٣٨٣) صحيح لغيره

[٥٠٥٠] – الأموال لابن زنجويه (٢/ ٤٧٨)(٧٥٩) صحيح لغيره

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:قَوْلُهُ:فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا، يَعْنِي مِنْ، دَارِ التَّعَرُّبِ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ، يَقُولُ:إِنْ لَمْ يُهَاجِرُوا، فَهَذَا حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرُهُ فِي الْفَيْءِ، أَنَّهُ لَمْ يَرَ لِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالْمُهَاجِرِينَ وَيُعِينُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَيُجَامِعُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ حَقًّا ثُمَّ رَوَى النَّاسُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ شُرَكَاءُ

عَلَيْهِ سَبِيلٌ،وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ حَسِيبَهُ،وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ مِمَّنْ يَرْجِعُ عَنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ "[5051]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ،قَالَ:لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ،فَقَالُوا:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ،أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ:"إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ".ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ،فَقَالَ:"أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ،اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَجْبُنُوا،وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ،فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ،فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تَحْرِقُنَّهَا،وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً،وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ،وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً،وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ،وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا،فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ".[5052]

وقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَكِبَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ هَذِهِ السَّنَةَ(١٤ هـ) فِي الْجُيُوشِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: صِرَارٌ. فَعَسْكَرَ بِهِ

[5051] - السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٣٤٩)(١٦٨٤٩) صحيح لغيره

[5052] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٥)(١٨١٢٥) صحيح لغيره

عَازِمًا عَلَى غَزْوِ الْعِرَاقِ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وسَادَاتِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ عَقَدَ مَجْلِسًا لِاسْتِشَارَةِ الصَّحَابَةِ فِيمَا عَــزَمَ عَلَيْهِ، وَنُودِيَ: إِنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ. وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ،فَقَدِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ،ثُمَّ اسْتَشَــارَهُمْ، فَكُلُّهُمْ وَافَقَهُ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الْعِرَاقِ، إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، فَإِنَّهُ قَالَ لَــهُ: إِنِّــي أَخْشَى إِنْ كُسِرْتَ أَنْ تُضْعِفَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَبْعَــثَ رَجُلًا، وَتَرْجِعَ أَنْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ.فَأَرْفَأَ عُمَرُ وَالنَّاسُ عِنْدَ ذَلِــكَ، وَاسْتَصْــوَبُوا رَأْيَ ابْــنِ عَوْفٍ. فَقَالَ عُمَرُ:فَمَنْ تَرَى أَنْ نَبْعَثَ إِلَى الْعِرَاقِ؟ فَقَالَ: قَدْ وَجَدْتُهُ.قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: الْأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ الزُّهْرِيُّ.فَاسْتَجَادَ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ، فَــأَمَّرَهُ عَلَــى الْعِرَاقِ، وَأَوْصَاهُ فَقَالَ: يَا سَعْدَ بَنِي وُهَيْبٍ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ:خَالُ رَسُولِ اللَّــهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ. فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، وَإِنَّ اللَّــهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَــوَاءٌ ؛ اللَّهُ رَبُّهُمْ، وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، فَــانْظُرِ الْــأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقَنَا فَالْزَمْهُ ؛ فَإِنَّهُ الْأَمْرُ، هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ، إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.وَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَهُ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ سَتُقْدِمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ،فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ وَنَابَكَ تُجْمَعْ لَكَ خَشْــيَةُ اللَّــهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ؛فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا طَاعَــةُ مَــنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا عِصْيَانُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْــآخِرَةِ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ ؛ فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُــونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَــانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ، فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ، فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَــبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ، فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ. [٥٠٥٣]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٥٠٥٣] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٦١٣) وتاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٨٣)

المبحث الثاني

آداب القتال أثناء المعركة

حكم الخدعة والكذب في الحرب:

يجوز في الحرب الخداع والكذب من أجل تضليل العدو،بشرط ألا يشتمل على نقض عهد،أو إخلال بأمان.

ومن الخداع أن يوهم العدو بأن جنود المسلمين كثرة كاثرة،وأسلحته قوة لا تقهر.

ومن الخداع أن الإمام إذا أراد غزو بلد في الشمال مثلاً،أظهر أنه يريد الجنوب،فالحرب خدعة.

وفي هذا الفعل فائدتان:

الأولى:أن خسائر الأموال والأرواح تقل بين الطرفين،فتحل الرحمة محل القسوة.

الثانية:توفير طاقة جيش المسلمين لمعركة لا تجدي فيها الخدعة.

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِك،قَالَ:سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا،حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ،فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيد،وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا،وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِير،فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ،لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ،وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ»[٥٠٥٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ الحَرْبَ خَدْعَةً»[٥٠٥٥]

وعَنْ عَمْرٍو،سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الحَرْبُ خَدْعَةٌ»[٥٠٥٦]

[٥٠٥٤] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨)(٢٩٤٨) [ش (قلما) قل فعل ماض دخلت عليه ما ومعناه قليل.(مفازا) الموضع المهلك سمي بذلك تفاؤلا بالفوز والسلامة.(فجلى) أظهره.(ليتأهبوا) ليستعدوا.(أهبة عدوهم) الاستعداد اللازم لملاقاة عدوهم.(بوجهه) بجهته التي يريد]

[٥٠٥٥] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٢٩)

[٥٠٥٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٤)(٣٠٣٠) وهو متواتر

وَاتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ الْخِدَاعِ مَعَ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ كَيْفَ اتَّفَقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ،أَوْ أَمَانٍ،وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ.وَقَالَ الطَّبَرِيُّ:إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ الْمَعَارِيضُ،وَحَقِيقَتُهُ لَا تَجُوزُ،وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ،لَكِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى التَّعْرِيضِ أَفْضَلُ[٥٠٥٧]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ،أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ،وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ،اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ،أَخْبَرَتْهُ،أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ،وَهُوَ يَقُولُ:«لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ:وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ:الْحَرْبُ،وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ،وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا[٥٠٥٨]

قَالَ الْخَطَّابِيُّ:هَذِهِ أُمُورٌ قَدْ يَضْطَرُّ الْإِنْسَانُ فِيهَا إِلَى زِيَادَةِ الْقَوْلِ وَمُجَاوَزَةِ الصِّدْقِ طَلَبًا لِلسَّلَامَةِ وَدَفْعًا لِلضَّرَرِ،وَقَدْ رَخَّصَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فِي الْيَسِيرِ مِنَ الْإِفْسَادِ لِمَا يُؤَمَّلُ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْإِصْلَاحِ،فَالْكَذِبُ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ اثْنَيْنِ هُوَ أَنْ يَنْمِيَ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرًا وَيُبْلِغُهُ جَمِيلًا،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمِعَهُ مِنْهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ الْإِصْلَاحَ،وَالْكَذِبُ فِي الْحَرْبِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً وَيَتَحَدَّثَ بِمَا يُقَوِّي بِهِ أَصْحَابَهُ وَيَكِيدَ بِهِ عَدُوَّهُ،وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:" «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» "،وَأَمَّا كَذِبُ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ هُوَ أَنْ يَعِدَهَا وَيُمَنِّيَهَا وَيُظْهِرَ لَهَا مِنَ الْمَحَبَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ يَسْتَدِيمَ بِذَلِكَ صُحْبَتَهَا وَيَصْلُحَ بِهِ خُلُقُهَا.قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ:لَوْ أَنَّ رَجُلًا اعْتَذَرَ إِلَى رَجُلٍ بِحَرْفِ الْكَلَامِ وَلَحْنِهِ لِيُرْضِيَهُ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا،وَقَوْلُهُ:وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ،وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا فِي مَعْنَى حَدِيثِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ الْآخَرَ لِيَسْتَقِيمَ مَعًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ.[٥٠٥٩]

نوم المجاهد بجوار سلاحه:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ،فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ،فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ،فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

[٥٠٥٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٣٥)

[٥٠٥٨] - صحيح مسلم (٤/ ٢٠١١)١٠١ - (٢٦٠٥)

[٥٠٥٩] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٥١)

وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ،فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ،وَنِمْنَا نَوْمَةً،فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا،وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ،فَقَالَ:" إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي،وَأَنَا نَائِمٌ،فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا،فَقَالَ:مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ:اللَّهُ،- ثَلاَثًا -"وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ"[٥٠٦٠]

عدم قتل غير المقاتلين:

الإسلام دين الرحمة والعدل،وهو يعم بهما - أي بالرحمة والعدل - كل الناس في حالة السلم،وفي حالة الحرب،إلا من حارب الرحمة والعدل فإن من العدل - حينئذ - في حقه أن ينال جزاءه من القتل والخزي والعذاب كما قال تعالى:(ألا تقتلوا قوماً نكثوا أيمانهم،وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة،أَتَخْشَوْنَهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم،ويُخْزِهم،ويَنْصُرْكم عليهم،ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين ويُذْهب غيظَ قلوبهم،ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم) [التوبة:١٣-١٥].

أما الكافر الذي لا يقاتل المسلمين،كالنساء والأطفال ونحوهم فإن قتلهم يعتبر ظلماً واعتداء لا يرضاه الله،وقد ورد بذلك الكتاب والسنة،وطبقه المسلمون في حروبهم.

قال تعالى:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة:١٩٠].

قال القرطبي:''قَوْلُهُ تَعَالَى:''وَقاتِلُوا''هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ،وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْقِتَالَ كَانَ مَحْظُورًا قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَوْلِهِ:''ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[فصلت:٣٤] وقوله:''فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ"[المائدة:١٣] وقوله:''وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا''[المزمل:١٠] وقوله:''لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ''[الغاشية:٢٢] وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ.فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِالْقِتَالِ فَنَزَلَ:''وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ''قَالَهُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُ.وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي

[٥٠٦٠] - صحيح البخاري (٤/ ٣٩) (٢٩١٠) [ش (قبل نجد) ناحيتها وهي ما بين الحجاز إلى الشام ومنها المدينة والطائف.(قفل) رجع.(القائلة) النوم وقت الظهيرة.(العضاه) شجر عظيم له شوك.(سمرة) شجرة.(أعرابي) هو غورث بن الحارث.(اخترط) سل.(صلتا) مصلتا بارزا ومستويا]

الْقِتَال:"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا"[الحج:٣٩].وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ،وَأَنَّ آيَةَ الْإِذْنِ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي القتال عامة لمن قاتل وَلِمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ لِلْعُمْرَةِ،فَلَمَّا نَزَلَ الْحُدَيْبِيَةَ بِقُرْبِ مَكَّةَ- وَالْحُدَيْبِيَةُ اسْمُ بِئْرٍ،فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ بِاسْمِ تِلْكَ الْبِئْرِ- فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ،وَأَقَامَ بِالْحُدَيْبِيَةِ شَهْرًا،فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ،عَلَى أَنْ تُخْلَى لَهُ مَكَّةُ فِي الْعَامِ الْمُسْتَقْبَلِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،وَصَالَحُوهُ عَلَى أَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَشْرَ سِنِينَ،وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ.فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ تَجَهَّزَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ،وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ غَدْرَ الْكُفَّارِ وَكَرِهُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ وَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ،فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ،أَيْ يَحِلُّ لَكُمُ الْقِتَالُ إِنْ قَاتَلَكُمُ الْكُفَّارُ.فَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الْحَجِّ وَإِتْيَانِ البيوت مِنْ ظُهُورِهَا،فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ وَيَكُفُّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُ،حَتَّى نَزَلَ"فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ"[التوبة:٥] فَنُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ،قَالَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَالرَّبِيعُ:نَسَخَهَا"وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً"[التوبة:٣٦] فَأُمِرَ بِالْقِتَالِ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ.وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمُجَاهِدٌ:هِيَ مُحْكَمَةٌ،أَيْ قَاتِلُوا الَّذِينَ هُمْ بِحَالَةِ مَنْ يُقَاتِلُونَكُمْ،وَلَا تَعْتَدُوا فِي قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالرُّهْبَانِ وَشَبَهِهِمْ،عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ.قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ:وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي السُّنَّةِ وَالنَّظَرِ،فَأَمَّا السُّنَّةُ فَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فَكَرِهَ ذَلِكَ،وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ،رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ.وَأَمَّا النَّظَرُ فَإِنَّ"فَاعَلَ"لَا يَكُونُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا مِنَ اثْنَيْنِ،كَالْمُقَاتَلَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ،وَالْقِتَال لَا يَكُونُ فِي النِّسَاءِ وَلَا فِي الصِّبْيَانِ وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ،كَالرُّهْبَانِ وَالزَّمْنَى وَالشُّيُوخِ وَالْأُجَرَاءِ فَلَا يُقْتَلُونَ.وَبِهَذَا أَوْصَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَى الشَّامِ،إِلَّا أَنْ يَكُونَ لهؤلاء أذائه،أَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ،وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِمْ صُوَرٌ سِتٌّ:

الْأُولَى- النِّسَاءُ إِنْ قَاتَلْنَ قُتِلْنَ،قَالَ سَحْنُونٌ:فِي حَالَةِ الْمُقَاتَلَةِ وَبَعْدَهَا،لِعُمُومِ قَوْلِهِ:"وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ"،"وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ"[البقرة:١٩١].وَلِلْمَرْأَةِ آثَارٌ عَظِيمَةٌ فِي الْقِتَالِ،مِنْهَا الْإِمْدَادُ بالأموال،ومنها التحريض عَلَى الْقِتَالِ،وَقَدْ يَخْرُجْنَ نَاشِرَاتٍ شُعُورَهِنَّ نَادِبَاتٍ مُثِيرَاتٍ مُعَيِّرَاتٍ بِالْفِرَارِ

وَذَلكَ يُبيحُ قَتْلَهُنَّ،غَيْرَ أَنَّهُنَّ إذَا حَصَلْنَ فِي الْأَسْرِ فَالاسْتِرْقَاقُ أَنْفَعُ لسُرْعَة إسْلَامهنَّ وَرُجُوعهنَّ عَنْ أَدْيَانهنَّ،وَتَعَذُّر فرَارهنَّ إلَى أَوْطَانهنَّ بخلَاف الرِّجَال.

الثَّانيَةُ– الصِّبْيَانُ فَلَا يُقْتَلُونَ للنَّهْيِ الثَّابت عَنْ قَتْلِ الذُّرِّيَّة،وَلأَنَّهُ لَا تَكْليفَ عَلَيْهِمْ،فَإنْ قَاتَلَ [الصَّبِيُّ] قُتلَ.

الثَّالثَةُ– الرُّهْبَانُ لَا يُقْتَلُونَ وَلَا يُسْتَرَقُّونَ،بَلْ يُتْرَكُ لَهُمْ مَا يَعيشُونَ به منْ أَمْوَالهمْ،وَهَذَا إذَا انْفَرَدُوا عَنْ أَهْلِ الْكُفْرِ،لقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ ليَزيدَ:"وَسَتَجدُ أَقْوَامًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حبسوا أَنْفُسَهُمْ للَّه،فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ"فَإنْ كَانُوا مَعَ الْكُفَّار في الْكَنَائس قُتلُوا.وَلَوْ تَرَهَّبَت الْمَرْأَةُ فَرَوَى أَشْهَبُ أَنَّهَا لَا تُهَاجِ.وَقَالَ سَحْنُونٌ:لَا يُغَيِّرُ التَّرَهُّبُ حُكْمَهَا.قَالَ الْقَاضي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ:"وَالصَّحيحُ عنْدي روَايَةُ أَشْهَبَ،لأَنَّهَا دَاخلَةٌ تَحْتَ قَوْله:"فَذَرْهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ".

الرَّابعَةُ– الزَّمْنَى.قَالَ سَحْنُونٌ:يُقْتَلُونَ.وَقَالَ ابْنُ حَبيب:لَا يُقْتَلُونَ.وَالصَّحيحُ أَنْ تُعْتَبَرَ أَحْوَالُهُمْ،فإن كانت فيهم أذائه قُتلوا،وَإلَّا تُركُوا وَمَا هُمْ بسَبيله منَ الزَّمَانَة وَصَارُوا مَالًا عَلَى حَالهمْ وَحَشْوَة.

الْخَامسَةُ– الشُّيُوخُ.قَالَ مَالكٌ في كتَاب مُحَمَّد:لَا يُقْتَلُونَ.وَالَّذي عَلَيْه جُمْهُورُ الْفُقَهَاء:إنْ كَانَ شَيْخًا كَبيرًا هَرمًا لَا يُطيقُ الْقتَالَ،وَلَا يُنْتَفَعُ به في رَأْيٍ وَلَا مُدَافَعَة فَإنَّهُ لَا يُقْتَلُ،وَبه قَالَ مَالكٌ وَأَبُو حَنيفَةَ.وَللشَّافعيِّ قَوْلَان:أَحَدُهُمَا– مثْلُ قَوْل الْجَمَاعَة.وَالثَّاني– يُقْتَلُ هُوَ وَالرَّاهبُ.وَالصَّحيحُ الْأَوَّلُ لقَوْل أَبي بَكْرٍ ليَزيدَ،وَلَا مُخَالفَ لَهُ فَثَبَتَ أَنَّهُ إجْمَاعٌ.وَأَيْضًا فَإنَّهُ ممَّنْ لَا يُقَاتلُ وَلَا يُعينُ الْعَدُوَّ فَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ كَالْمَرْأَة،وَأَمَّا إنْ كَانَ ممَّنْ تُخْشَى مَضَرَّتُهُ بالْحَرْب أَو الرَّأْي أَو الْمَال فَهَذَا إذَا أُسرَ يَكُونُ الْإمَامُ فيه مُخَيَّرًا بَيْنَ خَمْسَة أَشْيَاءَ:الْقَتْلُ أَو الْمَنُّ أَو الْفدَاءُ أَو الاسْترْقَاقُ أَوْ عَقْدُ الذِّمَّة عَلَى أَدَاء الْجزْيَة.

السَّادسَةُ– الْعُسَفَاءُ،وَهُمُ الْأُجَرَاءُ وَالْفَلَّاحُونَ،فَقَالَ مَالكٌ في كتَاب مُحَمَّد:لَا يُقْتَلُونَ.وَقَالَ الشَّافعيُّ:يُقْتَلُ الْفَلَّاحُونَ وَالْأُجَرَاءُ وَالشُّيُوخُ الْكبَارُ إلَّا أَنْ يُسْلمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجزْيَةَ.وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ،لقَوْله عَلَيْه السَّلَامُ في حَديث رَبَاحِ بْنِ الرَّبيعِ (الْحَقْ بخَالد بْنِ الْوَليد فَلَا يَقْتُلَنَّ

ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا).وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:اتَّقُوا اللَّهَ فِي الذُّرِّيَّةِ وَالْفَلَّاحِينَ الَّذِي لَا يَنْصِبُونَ لَكُمُ الْحَرْبَ.وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَا يَقْتُلُ حراثا،ذكره ابن المنذر."[5061]

وعلى ضوء ذلك نقول الذين لا يجوز قتلهم إذا لم يشاركوا في القتال بقول أو فعل هم:

1):النساء والصبيان.

عَنْ نَافِعٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَخْبَرَهُ:أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً،«فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»[5062].

ففي هذا الحديث دليل على عدم جواز قتل النساء والصبيان كما هو واضح.

وفي حديث الصعب بن جثامة ما قد يفهم من ظاهره ما يخالف حديث ابن عمر السابق،فعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،قَالَ:مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَبْوَاءِ،أَوْ بِوَدَّانَ،وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنَ المُشْرِكِينَ،فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ قَالَ:«هُمْ مِنْهُمْ»[5063]

وعَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ:لَوْ أَنَّ خَيْلًا أَغَارَتْ مِنَ اللَّيْلِ،فَأَصَابَتْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ:«هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ»[5064]

قال الزرقاني:"وَالْأَوْلَى الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ بِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ هُمْ مِنْهُمْ أَيْ فِي الْحُكْمِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا وَهِيَ مَا إِذَا لَمْ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى قَتْلِ الرِّجَالِ إِلَّا بِذَلِكَ وَقَدْ خِيفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِذَا أُصِيبُوا لِاخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ لَمْ يَمْتَنِعْ ذَلِكَ،وَلَيْسَ الْمُرَادُ إِبَاحَةَ قَتْلِهِمْ بِطَرِيقِ الْقَصْدِ إِلَيْهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَرْكِهِ جَمْعًا بَيْنَهُمَا بِدُونِ دَعْوَى نَسْخٍ"[5065]

[5061] - تفسير القرطبي (2/ 347)

[5062] - صحيح البخاري (4/ 61)(3014)

[5063] - صحيح البخاري (4/ 61)(3012) وصحيح مسلم (3/ 1364)26 - (1745)

[ش (بالأبواء أو بودان) موضعان بين مكة والمدينة. (يبيتون) يغار عليهم في الليل فلا يعرف رجل من امرأة. (فيصاب) بالقتل وغيره. (هم منهم) أي من المشركين فلا حرج في إصابتهم إذا كانوا مختلطين معهم ولا يمكن الوصول إلى قتل الكبار إلا بقتلهم وليس المراد قتلهم بطريق القصد إليهم]

[5064] - صحيح مسلم (3/ 1365)28 - (1745)

[5065] - شرح الزرقاني على الموطأ (3/ 18)

دل هذا الحديث على تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب،وهو أمر مجمع عليه فيما إذا لم يقاتلوا أو يختلطوا بالرجال.أما إذا قاتلت المرأة أو الصبي،أو اختلطوا بالرجال،فيجوز قتلهم عند الجمهور لما جاء في حديث الْمُرَقَّعِ بْنِ صَيْفِيٍّ،عَنْ جَدِّهِ رِيَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ:«كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ وَعَلَى مُقَدِّمَةِ النَّاسِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَإِذَا امْرَأَةٌ مَقْتُولَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ،فَجَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا قَدْ أَصَابَتْهَا الْمُقَدِّمَةُ،فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَوَقَفَ عَلَيْهَا،فَقَالَ:"هَاهْ مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ «،ثُمَّ قَالَ:"أَدْرِكْ خَالِدًا،فَلَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا "[5066]،قال الصنعاني:قوله:"ما كانت هذه تقاتل يدل على أنها إذا قاتلت قتلت،وإليه ذهب الشافعي وأبو حنيفة أيضاً.اهـ.وأما جواز قتل المرأة إذا اختلطت بالرجال المقاتلين فيدل عليه حديث البخاري عن الصعب بن جثامة أن النبي – ﷺ – سئل عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم قال:"هم منهم أخرجه الستة،فدل ذلك على جواز قتل النساء والصبيان إذا لم يمكن الوصول إلى الرجال إلا بقتلهم وقال مالك والأوزاعي:لا يجوز قتلهم حتى لو تترس أهل الحرب بهم.[5067]

وقال النووي:"أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَتَحْرِيمِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنْ قَاتَلُوا قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ يُقْتَلُونَ وَأَمَّا شُيُوخُ الْكُفَّارِ فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ رَأْيٌ قُتِلُوا وَإِلَّا فَفِيهِمْ وَفِي الرُّهْبَانِ خِلَافٌ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ لَا يُقْتَلُونَ وَالْأَصَحُّ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ قتلهم"[5068].

٢):الرهبان والشيوخ الزمنى والأجراء.

ذهب الأحناف والمالكية والحنابلة إلى أن هؤلاء كلهم لا يقتلون ما لم يقاتلوا .

قال ابن الهمام:"وَهَاهْ كَلِمَةُ زَجْرٍ،وَالْهَاءُ الثَّانِيَةُ لِلسَّكْتِ.وَإِذَا ثَبَتَ فَقَدْ عَلَّلَ الْقَتْلَ بِالْمُقَاتَلَةِ فِي قَوْلِهِ «مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ» فَثَبَتَ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّهُ مَعْلُولٌ بِالْحِرَابَةِ فَلَزِمَ قَتْلُ مَا كَانَ مَظِنَّةً لَهُ،بِخِلَافِ مَا لَيْسَ إيَّاهُ،وَبِمَنْعِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ أَوْ يَابِسِ الشِّقِّ وَنَحْوِهِ يَبْطُلُ كَوْنُ الْكُفْرِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كُفْرٌ عِلَّةً أُخْرَى،وَإِلَّا لَقُتِلَ هَؤُلَاءِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِ

[5066] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ١١٠)(٤٧٨٩) صحيح

[5067] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١١٨)

[5068] – شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٨)

الْمُصَنِّف (وَالْحَجَّةُ عَلَيْه) أَيْ عَلَى الشَّافعيِّ (مَا بَيَّنَّاهُ) يَعْني منْ عَدَمِ قَتْلِ يَابسِ الشِّقِّ،لَكنْ هَذَا الْإِلْزَامُ عَلَى أَحَد الْقَوْلَيْنِ لَهُ،فَإِنَّهُ ذَكَرَ في شَرْحِ الْوَجيز وَفي الشُّيُوخِ وَالْعُمْيَان وَالضُّعَفَاء وَالزَّمْنَى وَمَقْطُوعي الْأَيْدي وَالْأَرْجُلِ قَوْلَان:في قَوْل يَجُوزُ قَتْلَهُمْ،وَبه قَالَ أَحْمَدُ في روَايَة لعُمُوم {فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ} [التوبة:٥] وَرُويَ عَنْهُ – عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «اُقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْركينَ وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُمْ» وَلأَنَّهُمْ كُفَّارٌ وَالْكُفْرُ مُبيحٌ للْقَتْل.

وَفي قَوْلٍ لَا يَجُوزُ،وَبه قَالَ أَبُو حَنيفَةَ وَمَالكٌ وَذَكَرَ مَا ذَكَرْنَاهُ منْ الْحَديث الْمَانعِ منْ قَتْلِ الشَّيْخِ الْفَاني.قَالَ:وَالْمُقْعَدُ وَالزَّمنِ وَمَقْطُوعُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجُلَيْنِ في مَعْنَاهُ.وَعَنْ أَبي بَكْرٍ أَنَّهُ أَوْصَى يَزِيدَ بْنَ أَبي سُفْيَانَ حينَ بَعَثَهُ إلَى الشَّامِ فَقَالَ:"لَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا النِّسَاءَ وَلَا الشُّيُوخَ الْخَبَرَ انْتَهَى.وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ قَوْله تَعَالَى {فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ} [التوبة:٥] عَامٌّ مَخْصُوصٌ بالذِّمِّيِّ وَالنِّسَاء وَالصِّبْيَان،فَجَازَ تَخْصيصُ الشَّيْخِ الْفَاني،وَمَنْ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ بالْقيَاسِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فيهمْ خَبَرٌ فَكَيْفَ وَفيهمْ مَا سَمعْت،بَلْ مَا قَدَّمْنَا منْ أَنَّ النُّصُوصَ مُقَيَّدَةٌ ابْتداءً بالْمُحَاربينَ عَلَى مَا تَرْجعُ إلَيْه.وَأَمَّا حَديثُ الشُّيُوخِ فَتَقَدَّمَ أَنَّهُ ضَعيفٌ بالانْقطَاعِ عنْدَهُمْ وَبالْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ،وَلَوْ سُلِّمَ فَيَجبُ تَخْصيصُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا عَلَى أُصُولهمْ.وَأَمَّا قَوْلُ الْمُصَنِّف صَحَّ أَنَّهُ – عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – «نَهَى عَنْ قَتْلِ الصِّبْيَانِ وَالذَّرَاريِّ» فَالْمُرَادُ بالذَّرَاريِّ النِّسَاءُ منْ اسْمِ السَّبَبِ في الْمُسَبَّب.

قَالَ في الْعُرَنيِّينَ:وَفي الْحَديث «لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً وَلَا عَسيفًا» أَيْ امْرَأَةً وَلَا أَجيرًا،ثُمَّ الْمُرَادُ بالشَّيْخِ الْفَاني الَّذي لَا يَقْتُلُ هُوَ مَنْ لَا يَقْدرُ عَلَى الْقتَالِ وَلَا الصِّيَاحِ عنْدَ الْتقَاءِ الصَّفَّيْنِ وَلَا عَلَى الْإحْبَالِ لأَنَّهُ يَجيءُ منْهُ الْوَلَدُ فَيَكْثُرُ مُحَاربُ الْمُسْلمينَ،ذَكَرَهُ في الذَّخيرَة.وَذَكَرَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازيّ في كتَابِ الْمُرْتَدِّ منْ شَرْحِ الطَّحَاويِّ أَنَّهُ إذَا كَانَ كَاملَ الْعَقْلِ نَقْتُلُهُ وَمثْلُهُ نَقْتُلُهُ إذَا ارْتَدَّ،وَالَّذي لَا نَقْتُلُهُ الشَّيْخُ الْفَاني الَّذي خَرفَ وَزَالَ عَنْ حُدُود الْعُقَلَاء وَالْمُمَيِّزينَ فَهَذَا حينَئذ يَكُونُ بمَنْزِلَة الْمَجْنُون فَلَا نَقْتُلُهُ وَلَا إذَا ارْتَدَّ.قَالَ:وَأَمَّا الزَّمْنَى فَهُمْ بمَنْزِلَة الشُّيُوخِ فَيَجُوزُ قَتَلَهُمْ إذَا رَأَى الْإِمَامُ ذَلكَ كَمَا يَقْتُلُ سَائرَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا عُقَلَاءَ وَنَقْتُلُهُمْ أَيْضًا إذَا ارْتَدُّوا اهـــ.وَلَا نَقْتُلُ مَقْطُوعَ الْيَد الْيُمْنَى وَالْمَقْطُوعَ يَدُهُ وَرِجْلُهُ منْ خلَاف،وَنَقْتُلُ أَقْطَعَ الْيَد الْيُسْرَى أَوْ إحْدَى الرِّجْلَيْنِ وَإنْ لَمْ يُقَاتلْ (قَوْلُهُ

إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ) اسْتِثْنَاءٌ مِنْ حُكْمِ عَدَمِ الْقَتْلِ،وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا لِأَحَدٍ،وَصَحَّ «أَمْرُهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – بِقَتْلِ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ وَكَانَ عُمْرُهُ مِائَةً وَعِشْرِينَ» عَامًا أَوْ أَكْثَرَ وَقَدْ عَمِيَ لَمَّا جِيءَ بِهِ فِي جَيْشِ هَوَازِنَ لِلرَّأْيِ،وَكَذَلِكَ يُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْ كُلِّ مَنْ قُلْنَا إنَّهُ لَا يُقْتَلُ كَالْمَجْنُونِ وَالصَّبِيِّ وَالْمَرْأَةِ (إلَّا أَنَّ الصَّبِيَّ وَالْمَجْنُونَ يُقْتَلَانِ فِي حَالِ قِتَالِهِمَا) أَمَّا غَيْرُهُمَا مِنْ النِّسَاءِ وَالرُّهْبَانِ وَنَحْوِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ إذَا قَاتَلُوا بَعْدَ الْأَسْرِ،وَالْمَرْأَةُ الْمَلِكَةُ تُقْتَلُ،وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلْ،وَكَذَا الصَّبِيُّ الْمَلِكُ وَالْمَعْتُوهُ الْمَلِكُ،لِأَنَّ فِي قَتْلِ الْمَلِكِ كَسْرَ شَوْكَتِهِمْ.وَفِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ:لَا يُقْتَلُ الرَّاهِبُ فِي صَوْمَعَتِهِ وَلَا أَهْلُ الْكَنَائِسِ الَّذِينَ لَا يُخَالِطُونَ النَّاسَ،فَإِنْ خَالَطُوا قُتِلُوا كَالْقِسِّيسِينَ،وَالَّذِي يُجَنُّ وَيُفِيقُ يُقْتَلُ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ،وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلْ"[5069]

وفي حاشية الصاوي:"اعْلَمْ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ ثَمَانِيَةَ أَحْوَالٍ:لِأَنَّهُمَا:إمَّا أَنْ يَقْتُلَا أَحَدًا أَوْ لَا.وَفِي كُلٍّ:إمَّا بِسِلَاحٍ أَوْ غَيْرِهِ.وَفِي كُلٍّ:إمَّا أَنْ يُؤْسَرَا أَوْ لَا.فَإِنْ قَتَلَا أَحَدًا جَازَ قَتْلُهُمَا سَوَاءٌ قَاتَلَا بِسِلَاحٍ أَوْ لَا،أُسِرَا أَوْ لَا،وَإِنْ لَمْ يَقْتُلَا أَحَدًا فَإِنْ قَاتَلَا بِسِلَاحٍ جَازَ قَتْلُهُمَا أَيْضًا أُسِرَا أَوْ لَا،وَإِنْ قَاتَلَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ فَلَا يَقْتُلَا بَعْدَ الْأَسْرِ اتِّفَاقًا وَلَا فِي حَالِ الْمُقَاتَلَةِ عَلَى الرَّاجِحِ فَتَدَبَّرْ.قَوْلُهُ:[الْمُنْعَزِلَ عَنْ النَّاسِ] يُحْتَرَزُ بِهِ عَنْ رُهْبَانِ الْكَنَائِسِ الْمُخَالِطِينَ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ.وَاقْتِصَارُ الْمُصَنِّفِ عَلَى اسْتِثْنَاءِ تِلْكَ السَّبْعَةِ يُفِيدُ قَتْلَ الْأُجَرَاءِ وَالْحَرَّاثِينَ وَأَرْبَابِ الصَّنَائِعِ مِنْهُمْ،وَهُوَ قَوْلُ سَحْنُونَ،وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ:لَا يُقْتَلُونَ بَلْ يُؤْسَرُونَ،قَالَ (بْن):وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخِلَافَ لَفْظِيٌّ فِي حَالٍ،وَأَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْمَصْلَحَةِ بِنَظَرِ الْإِمَامِ.[5070]

قال ابن عبد البر:"ولا يقتل النساء ولا الصبيان ولا العجائز ولا الشيوخ الزمنى ولا المجانين ويسبون فإن كان الشيخ ذا رأي ومكر ومكيده يؤلب بذلك على المسلمين جاز قتله وإلا فلا ولا يقتل أهل الصوامع والديارات ولا يؤخذ من أموالهم إلا ما فضل عن كفايتهم وإن نصب المنجنيق على أهل الحرب توقى قتل الأسير المسلم فيهم وإن أصاب في الغارة والتبييت شيخا من الكفار أو طفلا أو امرأة لم يكن عليه شيء من ديته ولا

[5069] - فتح القدير للكمال ابن الهمام (٥/ ٤٥٣)

[5070] - حاشية الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك (٢/ ٢٧٥)

غيرها وإن أصاب مؤمنا أسيرا وهو لا يعلم كفر بعتق رقبة مؤمنة ولا بأس بقطع شجر أهل الحرب وتحريق ديارهم والغارة عليهم."[5071]

وقال ابن قدامة:"وَلَا تُقْتَلُ امْرَأَةٌ،وَلَا شَيْخٌ فَانٍ.وَبِذَلِكَ قَالَ وَمَالِكٌ،وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ.وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،وَمُجَاهِد.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَلا تَعْتَدُوا} [البقرة:١٩٠].يَقُولُ:لَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ.وَقَالَ الشَّافِعِيُّ،فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ،وَابْنُ الْمُنْذِرِ:يَجُوزُ قَتْلُ الشُّيُوخِ؛لِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ -:«اُقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ،وَاسْتَحْيُوا شَرْخَهُمْ».رَوَاهُ أَبُو دَاوُد،وَالتِّرْمِذِيُّ،وَقَالَ:حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥].وَهَذَا عَامٌّ يَتَنَاوَلُ بِعُمُومِهِ الشُّيُوخَ.

قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ:لَا أَعْرِفُ حُجَّةً فِي تَرْكِ قَتْلِ الشُّيُوخِ يُسْتَثْنَى بِهَا مِنْ عُمُومِ قَوْلِهِ: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥].وَلِأَنَّهُ كَافِرٌ لَا نَفْعَ فِي حَيَاتِهِ،فَيُقْتَلُ كَالشَّابِّ.وَلَنَا،أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ:«لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا،وَلَا طِفْلًا،وَلَا امْرَأَةً».رَوَاهُ أَبُو دَاوُد،فِي سُنَنِهِ.وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ وَصَّى يَزِيدَ حِينَ وَجَّهَهُ إلَى الشَّامِ،فَقَالَ:لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا هَرِمًا.

وَعَنْ عُمَرَ،أَنَّهُ وَصَّى سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ،فَقَالَ:لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا شَيْخًا هَرِمًا.رَوَاهُمَا سَعِيدٌ.وَلِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ،فَلَا يُقْتَلُ،كَالْمَرْأَةِ.وَقَدْ أَوْمَأَ النَّبِيُّ - ﷺ - إلَى هَذِهِ الْعِلَّةِ فِي الْمَرْأَةِ،فَقَالَ:«مَا بَالُ هَذِهِ قُتِلَتْ،وَهِيَ لَا تُقَاتِلُ».وَالْآيَةُ مَخْصُوصَةٌ بِمَا رَوَيْنَا،وَلِأَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ عُمُومِهَا الْمَرْأَةُ،وَالشَّيْخُ الْهَرِمُ فِي مَعْنَاهَا،فَنَقِيسُهُ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا حَدِيثُهُمْ،فَأَرَادَ بِهِ الشُّيُوخَ الَّذِينَ فِيهِمْ قُوَّةٌ عَلَى الْقِتَالِ،أَوْ مَعُونَةٌ عَلَيْهِ،بِرَأْيٍ أَوْ تَدْبِيرٍ،جَمْعًا بَيْنَ الْأَحَادِيثِ،وَلِأَنَّ أَحَادِيثَنَا خَاصَّةٌ فِي الْهَرِمِ،وَحَدِيثَهُمْ عَامٌّ فِي الشُّيُوخِ كُلِّهِمْ،وَالْخَاصُّ يُقَدَّمُ عَلَى الْعَامِّ،وَقِيَاسُهُمْ يَنْتَقِضُ بِالْعَجُوزِ الَّتِي لَا نَفْعَ فِيهَا.

وَلَا يُقْتَلُ زَمِنٌ وَلَا أَعْمَى وَلَا رَاهِبٌ،وَالْخِلَافُ فِيهِمْ كَالْخِلَافِ فِي الشَّيْخِ،وَحُجَّتُهُمْ هَا هُنَا حُجَّتُهُمْ فِيهِ.وَلَنَا،فِي الزَّمِنِ وَالْأَعْمَى،أَنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ،فَأَشْبَهَا الْمَرْأَةَ،وَفِي

[5071] - الكافي في فقه أهل المدينة (١/ ٤٦٦)

الرَّاهِب،مَا رُوِيَ فِي حَدِيث أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ،- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ:«وَسَتَمُرُّونَ عَلَى أَقْوَامٍ فِي الصَّوَامِعِ،قَدْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعُوهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمْ اللَّهُ عَلَى ضَلَالِهِمْ».وَلِأَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ تَدَيُّنًا،فَأَشْبَهُوا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِتَالِ.

وَلَا يُقْتَلُ الْعَبِيدُ.وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ؛لِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ -:«أَدْرِكُوا خَالِدًا،فَمُرُوهُ أَنْ لَا يَقْتُلَ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا».وَهُمْ الْعَبِيدُ؛وَلِأَنَّهُمْ يَصِيرُونَ رَقِيقًا لِلْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِ السَّبْيِ،فَأَشْبَهُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ.

(وَمَنْ قَاتَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْ النِّسَاءِ أَوْ الْمَشَايِخِ أَوْ الرُّهْبَانِ فِي الْمَعْرَكَةِ قُتِلَ) لَا نَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا وَبِهَذَا قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ،وَقَدْ جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«مَرَّ النَّبِيُّ - ﷺ - بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَقَالَ:مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ قَالَ رَجُلٌ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:وَلِمَ؟ قَالَ:نَازَعَتْنِي قَائِمَ سَيْفِي قَالَ:فَسَكَتَ» «وَلِأَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - وَقَفَ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ،فَقَالَ:مَا بَالُهَا قُتِلَتْ،وَهِيَ لَا تُقَاتِلُ».وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا نَهَى عَنْ قَتْلِ الْمَرْأَةِ إذَا لَمْ تُقَاتِلْ،وَلِأَنَّ هَؤُلَاءِ إنَّمَا لَمْ يُقْتَلُوا لِأَنَّهُمْ فِي الْعَادَةِ لَا يُقَاتِلُونَ.[٥٠٧٢]

وذهب الشافعية إلى أن هؤلاء كلهم يقتلون في أظهر القولين عندهم،من عدا المرأة والصبي.

قال ابن حجر:"(وَيَحِلُّ قَتْلُ) ذَكَرٍ (رَاهِبٍ) وَهُوَ عَابِدُ النَّصَارَى وَسُوقَةٍ.(وَأَجِيرٍ) ؛لِأَنَّ فِيهِمْ رَأْيًا وَقِتَالًا.(وَشَيْخٍ وَأَعْمَى وَزَمِنٍ لَا قِتَالَ فِيهِمْ وَلَا رَأْيَ فِي الْأَظْهَرِ) لِعُمُومِ قَوْله تَعَالَى {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة:٥] نَعَمْ الرُّسُلُ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ كَمَا اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ عَمَلُهُ - ﷺ - وَعَمَلُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ،أَمَّا ذُو قِتَالٍ أَوْ رَأْيٍ مِنْ الشَّيْخِ وَمَنْ بَعْدَهُ فَيُقْتَلُ قَطْعًا وَإِذَا جَازَ قَتْلُ هَؤُلَاءِ."[٥٠٧٣]

وهذا ما نصره ابن حزم في المُحَلَّى،وقال ابن حزم:"وَجَائِزٌ قَتْلُ كُلِّ مَنْ عَدَا مِنْ ذَكَرْنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُقَاتِلٍ،أَوْ غَيْرِ مُقَاتِلٍ،أَوْ تَاجِرٍ،أَوْ أَجِيرٍ - وَهُوَ الْعَسِيفُ - أَوْ شَيْخٍ كَبِيرٍ

[٥٠٧٢] - المغني لابن قدامة (٩/ ٣١١)

[٥٠٧٣] - تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩/ ٢٤١)

كَانَ ذَا رَأْيٍ،أَوْ لَمْ يَكُنْ،أَوْ فَلَّاحٍ،أَوْ أُسْقُفٍ،أَوْ قِسِّيسٍ،أَوْ رَاهِبٍ،أَوْ أَعْمَى،أَوْ مُقْعَدٍ لَا تُحَاشِ أَحَدًا.وَجَائِزٌ اسْتِبْقَاؤُهُمْ أَيْضًا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:٥] فَعَمَّ - عَزَّ وَجَلَّ - كُلَّ مُشْرِكٍ بِالْقَتْلِ إلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وَقَالَ قَوْمٌ:لَا يُقْتَلُ أَحَدٌ مِمَّنْ ذَكَرْنَا،وَاحْتَجُّوا بِخَبَرٍ رُوِّينَاهُ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ نَا الْمُغِيرَةُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْمُرَقَّعِ عَنْ جَدِّهِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ لِرَجُلٍ:أَدْرِكْ خَالِدًا وَقُلْ لَهُ:لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا» ....

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ:إنَّمَا نُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ،فَبَاطِلٌ؛بَلْ نَقْتُلُ كُلَّ مَنْ يُدْعَى إلَى الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ حَتَّى يُؤْمِنَ أَوْ يُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ إنْ كَانَ كِتَابِيًّا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ لَا كَمَا أَمَرَ أَبُو حَنِيفَةَ إذْ يَقُولُ:إنْ ارْتَدَّتْ الْمَرْأَةُ لَمْ تُقْتَلْ،فَإِنْ قَتَلَتْ قُتِلَتْ،وَإِنْ سَبَّ الْمُشْرِكُونَ أَهْلُ الذِّمَّةِ النَّبِيَّ - ﷺ - تُرِكُوا،وَسَبُّهُمْ لَهُ حَتَّى يُشْفُوا صُدُورَهُمْ وَيَخْزَى الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ.تَبًّا لِهَذَا الْقَوْلِ وَقَائِلِهِ.وَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ وَكِيعٍ نَا سُفْيَانُ نَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ الْقُرَظِيِّ نَا «عَطِيَّةُ الْقُرَظِيِّ قَالَ:عُرِضْتُ يَوْمَ قُرَيْظَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ،وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ،فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ» .

فَهَذَا عُمُومٌ مِنْ النَّبِيِّ - ﷺ - لَمْ يَسْتَبْقِ مِنْهُمْ عَسِيفًا،وَلَا تَاجِرًا،وَلَا فَلَّاحًا،وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا،وَهَذَا إجْمَاعٌ صَحِيحٌ مِنْهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُتَيَقَّنٌ؛لِأَنَّهُمْ فِي عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَدِينَةِ لَمْ يَخْفَ ذَلِكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا.وَمِنْ طَرِيقِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ:أَخْبَرَنَا أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ،وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ كِلَاهُمَا عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ:أَنْ لَا يَجْلِبُوا إلَيْنَا مِنْ الْعُلُوجِ أَحَدًا،اُقْتُلُوهُمْ،وَلَا تَقْتُلُوا مِنْ جَرَتْ عَلَيْهِمْ الْمُوَاسِي وَلَا تَقْتُلُوا صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً.وَمِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ ابْنِ نُمَيْرٍ نَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إلَى الْأَجْنَادِ:لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَأَنْ يَقْتُلُوا كُلَّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوَاسِي.

فَهَذَا عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لَمْ يَسْتَثْنِ شَيْخًا،وَلَا رَاهِبًا،وَلَا عَسِيفًا،وَلَا أَحَدًا إلَّا النِّسَاءَ،وَالصِّبْيَانَ فَقَطْ؛وَلَا يَصِحُّ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ خِلَافُهُ – وَقَدْ قُتِلَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ وَهُوَ شَيْخٌ هَرِمٌ قَدْ اهْتَزَّ عَقْلُهُ فَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ – ﷺ – فَقَالُوا:لِأَنَّهُ كَانَ ذَا رَأْيٍ؟ فَقُلْنَا لَهُمْ:وَمَنْ ذَا الَّذِي قَسَّمَ لَكُمْ ذَا الرَّأْيَ مِنْ غَيْرِهِ،فَلَا سَمْعًا لَهُ وَلَا طَاعَةً – وَمِثْلُ هَذِهِ التَّقَاسِيمِ لَا تُؤْخَذُ إلَّا مِنْ الْقُرْآنِ،أَوْ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – وَبِاَللَّهِ – تَعَالَى – نَتَأَيَّدُ.[٥٠٧٤]

أدلة من رأى عدم قتلهم جميعا

استدل القائلون بعدم قتل الأصناف المذكورة ما لم يقاتلوا بأدلة:

الدليل الأول:الآية القرآنية السابقة الذكر {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة:١٩٠]،قالوا:فكل من لم يقاتل و لم يبد منه ما يضر المسلمين من رأي يفيد الكفار أو تحريض أو مال ونحوه،فإنه لا يجوز قتله.

قلت:هذه من أول آيات الجهاد وقد جاء بعدها آيات تنسخها في سورة الأنفال والتوبة.

الدليل الثاني:ما ورد في بعض كتب السنة عن الرسول ﷺ وعن بعض الصحابة من النهي عن قتل بعض من ذكر.فعَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ،قَالَ:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ،فَمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ وَالنَّاسُ عَلَيْهَا،فَقَالَ:«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ،أَدْرِكْ خَالِدًا،فَقُلْ لَهُ:لَا تَقْتُلْ ذُرِّيَّةً،وَلَا عَسِيفًا».[٥٠٧٥]

واستدل بالحديث من وجهين:الوجه الأول قوله ﷺ:(ما كانت هذه لتقاتل) فجعل ﷺ العلة في النهي عن قتلها كونها لا تقاتل،وهذا يوضح معنى قوله تعالى:(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم).

الوجه الثاني:النص على العسيف،وهو الأجير،والغالب أنه لا يقاتل كالمرأة والصبي.

عَنْ خَالِدِ بْنِ الْفِزْرِ،حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ،وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً،وَلَا تَغُلُّوا،وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ،وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[٥٠٧٦]

[٥٠٧٤] – المحلى بالآثار (٥/ ٣٤٨)

[٥٠٧٥] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١١/ ١١٢)(٤٧٩١) صحيح

[٥٠٧٦] – سنن أبي داود (٣/ ٣٧)(٢٦١٤) حسن لغيره

الدليل الثالث:عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ.فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ.فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ:إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ.فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ «مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ،وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ.إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».ثُمَّ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ.فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ.وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ.فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ».وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ:«لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلَا بَعِيرًا،إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ»[٥٠٧٧]

أدلة من رأى قتلهم جميعا،ما عدا المرأة والصبي:

واستدل القائلون بقتل من عدا المرأة والصبي الذي لم يبلغ الحلم بأدلة:

الدليل الأول:

العموم الوارد في النصوص بقتل المشركين كافة،وبقتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية،كقوله تعالى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:٥].

وكذلك قوله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]

وكلاهما آخر ما نزل في الجهاد فهي ناسخة لما قبلها من آيات .

الدليل الثاني:

[٥٠٧٧] – موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٨)(١٠) وسنن سعيد بن منصور (٢/ ١٨١)(٢٣٨٣) والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٥)(١٨١٢٥)صحيح لغيره

الأمر بقتال الشيوخ نصاً،فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْقُوا شَرْخَهُمْ»[٥٠٧٨]

قوْله:«اسْتَحْيوا»،أَي:اتركوهم أَحيَاء،قَالَ الله سُبْحانهُ وَتَعَالَى:{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [الْبَقَرَة:٤٩]،أَي:يتركوهنّ أَحيَاء،وأَرَادَ بالشرخ:الصّبيان،وبالشيوخ:الشبَّان،والشرخ:جمع شارخ،وهُو الْحديث السن،وشرخ الشَّبَاب:أَوله.[٥٠٧٩]

الشَّيْخُ مَنْ اسْتَبَانَتْ فِيهِ السِّنُّ أَوْ مَنْ بَلَغَ خَمْسِينَ سَنَةً أَوْ إحْدَى وَخَمْسِينَ كَمَا فِي الْقَامُوسِ،وَالْمُرَادُ هُنَا الرِّجَالُ الْمَسَانُّ أَهْلِ الْجَلَدِ وَالْقُوَّةِ عَلَى الْقِتَالِ وَلَمْ يُردْ الْهَرَمِيَّ،وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُرِيدَ بِالشُّيُوخِ مَنْ كَانُوا بَالِغِينَ مُطْلَقًا فَيُقْتَلُ وَمَنْ كَانَ صَغِيرًا لَا يُقْتَلُ فَيُوَافِقُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الصِّبْيَانِ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُرِيدَ بِالشَّرْخِ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الشَّبَابِ فَإِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ حَسَّانُ:

إنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرِ الْأَسْوَدِ ...مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا

فَإِنَّهُ يُسْتَبْقَى رَجَاءَ إسْلَامِهِ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:الشَّيْخُ لَا يَكَادُ يُسْلِمُ وَالشَّبَابُ أَقْرَبُ إلَى الْإِسْلَامِ فَيَكُونُ الْحَدِيثُ مَخْصُوصًا بِمَنْ يَجُوزُ تَقْرِيرُهُ عَلَى الْكُفْرِ بِالْجِزْيَةِ.[٥٠٨٠]

قَالَ الشَّافِعِيُّ:"وَلَوْ جَازَ أَنْ يُعَابَ قَتْلُ مَنْ عَدَا الرُّهْبَانَ لِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ،لَمْ يُقْتَلِ الْأَسِيرُ،وَلَا الْجَرِيحُ الْمُثْبَتُ،وَقَدْ ذُفِّفَ عَلَى الْجَرْحَى بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،مِنْهُمْ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ،ذَفَّفَ عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ "[٥٠٨١]

الدليل الثالث:

عَنْ عَطِيَّةَ الْقُرَظِيِّ،قَالَ:«عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ،وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ،فَكُنْتُ مِمَّنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سَبِيلِي»[٥٠٨٢]

[٥٠٧٨] - سنن أبي داود (٣/ ٥٤)(٢٦٧٠) والمعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢١٧)(٦٩٠٢) وسنن الترمذي ت بشار (٣/ ١٩٧)(١٥٨٣) صحيح لغيره

[٥٠٧٩] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٤٨)

[٥٠٨٠] - سبل السلام (٢/ ٤٧٣)

[٥٠٨١] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٥٧)

[٥٠٨٢] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٤٦)(١٥٨٤) صحيح

وَالْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَحْصُلُ بِالْإِنْبَاتِ الْبُلُوغُ فَتَجْرِي عَلَى مَنْ أَنْبَتَ أَحْكَامُ الْمُكَلَّفِينَ وَلَعَلَّهُ إجْمَاعٌ.[٥٠٨٣]

الدليل الرابع:

إقرار النبي ﷺ قتل دريد بن الصُّمَّة وكان شيخاً كبيراً،فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيه،قَالَ:لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ،مِنْ حُنَيْنٍ،بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ،فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ،فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ،فَقَالَ أَبُو مُوسَى:وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ،قَالَ:فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ،رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُشَمٍ بِسَهْمٍ،فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ:يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ أَبُو عَامِرٍ إِلَى أَبِي مُوسَى،فَقَالَ:إِنَّ ذَاكَ قَاتِلِي،تَرَاهُ ذَلِكَ الَّذِي رَمَانِي،قَالَ أَبُو مُوسَى:فَقَصَدْتُ لَهُ فَاعْتَمَدْتُهُ فَلَحِقْتُهُ،فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى عَنِّي ذَاهِبًا،فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ:أَلَا تَسْتَحْيِي؟ أَلَسْتَ عَرَبِيًّا؟ أَلَا تَثْبُتُ؟ فَكَفَّ،فَالْتَقَيْتُ أَنَا وَهُوَ،فَاخْتَلَفْنَا أَنَا وَهُوَ ضَرْبَتَيْنِ،فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ،ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي عَامِرٍ فَقُلْتُ:إِنَّ اللهَ قَدْ قَتَلَ صَاحِبَكَ،قَالَ:فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ،فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ،فَقَالَ:يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ،وَقُلْ لَهُ:يَقُولُ لَكَ أَبُو عَامِرٍ:اسْتَغْفِرْ لِي،قَالَ:وَاسْتَعْمَلَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ،وَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ إِنَّهُ مَاتَ،فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ دَخَلْتُ عَلَيْهِ،وَهُوَ فِي بَيْتٍ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ،وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ،وَقَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَنْبَيْهِ،فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ،وَقُلْتُ لَهُ:قَالَ:قُلْ لَهُ:يَسْتَغْفِرْ لِي،فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَاءٍ،فَتَوَضَّأَ مِنْهُ،ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«اللهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ» حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ،ثُمَّ قَالَ:«اللهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ،أَوْ مِنَ النَّاسِ» فَقُلْتُ:وَلِي،يَا رَسُولَ اللهِ فَاسْتَغْفِرْ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اللهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ،وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا» قَالَ أَبُو بُرْدَةَ:إِحْدَاهُمَا لِأَبِي عَامِرٍ،وَالْأُخْرَى لِأَبِي مُوسَى"[٥٠٨٤]

قال الترمذي:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ،وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الإِنْبَاتَ بُلُوغًا،إِنْ لَمْ يُعْرَفْ احْتِلَامُهُ وَلَا سِنُّهُ،وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ،وَإِسْحَاقَ"

[٥٠٨٣] - سبل السلام (٢/ ٨٢)

[٥٠٨٤] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٤٣)١٦٥ - (٢٤٩٨)

قَالَ الشَّافعيُّ:"قُتلَ يَوْمَ حُنَيْنٍ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّة ابْنُ خَمْسينَ وَمائَة سَنَة في شجَارٍ لَا يَسْتَطيعُ الْجُلُوسَ،فَذُكرَ للنَّبيِّ ﷺ فَلَمْ يُنْكرْ قَتْلَهُ قَالَ الشَّافعيُّ:"وَقُتلَ أَعْمَى منْ بَني قُرَيْظَةَ بَعْدَ الْإِسَارِ،وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قَتْلِ مَنْ لَا يُقَاتلُ منَ الرِّجَال الْبَالغينَ إذَا أَبَى الْإِسْلَامَ وَالْجزْيَةَ ".قَالَ الشَّيْخُ:هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا الْقُرَظيُّ قَدْ ذَكَرْنَا قصَّتَهُ فيمَا مَضَى "[٥٠٨٥]

قال الطحاوي:"روي عَنْ أَبي مُوسَى ، قَالَ:"لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ منْ حُنَيْنٍ ، بَعَثَ أَبَا عَامرٍ عَلَى جَيْشٍ إلَى أَوْطَاسٍ ، فَلَقيَ دُرَيْد بْن الصِّمَّة ، فَقُتلَ دُرَيْدٌ ، وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَذَهَبَ قَوْمٌ إلَى هَذَا ، فَقَالُوا:لَا بَأْسَ بقَتْلِ الشَّيْخِ الْكَبيرِ في الْحَرْب ، وَاحْتَجُّوا في ذَلكَ بهَذَا الْحَديث ، وَبأَنَّ دُرَيْدًا قَدْ كَانَ حينَئذ في حَالِ مَنْ لَا يُقَاتلُ ،..

وعَن ابْن بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبيه ، قَالَ:كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا بَعَثَ سَريَّةً يَقُولُ:«لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا كَبيرًا» فَفي هَذَا الْحَديث الْمَنْعُ منْ قَتْلِ الشُّيُوخ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَيْضًا في حَديث مُرَقِّعِ بْن صَيْفيٍّ في الْمَرْأَة الْمَقْتُولَة «مَا كَانَتْ هَذه تُقَاتلُ» فَدَلَّ ذَلكَ أَنَّ مَنْ أُبيحَ قَتْلُهُ هُوَ الَّذي يُقَاتلُ ، وَلَكنْ لَمَّا رُويَ حَديثُ دُرَيْد هَذَا ، وَهَذه الْأَحَاديثُ الْأُخَرُ ، وَجَبَ أَنْ تُصَحَّحَ ، وَلَا يُدْفَعُ بَعْضُهَا ببَعْضٍ ، فَالنَّهْيُ منْ رَسُول الله ﷺ في قَتْلِ الشُّيُوخ في دَارِ الْحَرْب ، ثَابتٌ في الشُّيُوخِ الَّذينَ لَا مَعُونَةَ لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ منْ أَمْرِ الْحَرْب ، منْ قتَال وَلَا رَأْي وَحَديثُ دُرَيْد عَلَى الشُّيُوخِ الَّذينَ لَهُمْ مَعُونَةٌ في الْحَرْب كَمَا كَانَ لدُرَيْد ، فَلَا بَأْسَ بقَتْلهمْ وَإنْ لَمْ يَكُونُوا يُقَاتلُونَ لأَنَّ تلْكَ الْمَعُونَةَ الَّتي تَكُونُ منْهُمْ أَشَدُّ منْ كَثير منَ الْقتَال ، وَلَعَلَّ الْقتَالَ لَا يَلْتَئمُ لمَنْ يُقَاتلُ إلَّا بهَا ، فَإذَا كَانَ ذَلكَ كَذَلكَ ، قُتلُوا وَالدَّليلُ عَلَى ذَلكَ قَوْلُ رَسُول الله ﷺ ، في حَديث رَبَاحٍ أَخي حَنْظَلَةَ ، في الْمَرْأَة الْمَقْتُولَة «مَا كَانَتْ هَذه تُقَاتلُ» أَيْ:فَلَا تُقْتَلُ ، فَإنَّهَا لَا تُقَاتلُ ، فَإذَا قَاتَلَتْ قُتلَتْ ، وَارْتَفَعَت الْعلَّةُ الَّتي لَهَا مَنَعَ منْ قَتْلهَا ، وَفي قَتْلهمْ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّة للْعلَّة الَّتي ذَكَرْنَا ، دَليلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ بقَتْلِ الْمَرْأَة ، إذَا كَانَتْ أَيْضًا ذَاتَ تَدْبيرٍ في الْحَرْب كَالشَّيْخِ الْكَبيرِ

[ش (فترا منه الماء) أي ظهر وارتفع وجرى و لم ينقطع (مرمل) ورمال وهو الذي ينسج في وجهه بالسعف وغيره ويشد بشريط ونحوه يقال منه أرملته فهو مرمل]

[٥٠٨٥] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٥٧)

ذي الرَّأْيِ فِي أُمُورِ الْحَرْبِ ، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُهُ تَصْحِيحُ مَعَانِي هَذِهِ الْآثَارِ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ، عَنْ قَتْلِ أَصْحَابِ الصَّوَامِعِ

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ ، قَالَ لَا تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ فَلَمَّا جَرَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، عَلَى تَرْكِ قَتْلِ أَصْحَابِ الصَّوَامِعِ الَّذِينَ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ النَّاسِ ، وَانْقَطَعُوا عَنْهُمْ ، وَأَمِنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ ، دَلَّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ أَمِنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ نَاحِيَتِهِ ، مِنَ امْرَأَةٍ أَوْ شَيْخٍ فَانٍ ، أَوْ صَبِيٍّ كَذَلِكَ أَيْضًا ، لَا يُقْتَلُونَ ، فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الْبَابِ ، وَهَذَا قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ، وَهُوَ قِيَاسُ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَأَبِي يُوسُفَ ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ"[٥٠٨٦]

الدليل الخامس:

عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ:أَنْ لَا يَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنْ الْعُلُوجِ أَحَدًا،اُقْتُلُوهُمْ،وَلَا تَقْتُلُوا مِنْ جَرَتْ عَلَيْهِمْ الْمُوَاسِي وَلَا تَقْتُلُوا صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً.[٥٠٨٧]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَكْتُبُ إِلَى أُمَرَاءِ الْجُيُوشِ:"لَا تَجْلِبُوا عَلَيْنَا مِنَ الْعُلُوجِ أَحَدًا جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى،فَلَمَّا طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ قَالَ:مَنْ هَذَا؟ قَالُوا:غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَا تَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُوجِ أَحَدًا فَغَلَبْتُمُونِي"[٥٠٨٨].

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى الْأَجْنَادِ:لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَأَنْ يَقْتُلُوا كُلَّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوَاسِي.[٥٠٨٩]

وقد ناقش المانعون هذه الأدلة حيث قالوا:

أما الأمر بقتل الشيوخ،إذا صح،وكذا إقرار النبي ﷺ قتل دريد بن الصمة،وهو شيخ كبير فقد حملوه على الشيخ الذي يكون ذا رأي أو غيره مما يفيد به المشركين ويضر به

[٥٠٨٦] - شرح معاني الآثار (٣/ ٢٢٤)(٥١٨٢)

[٥٠٨٧] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٥١) صحيح

[٥٠٨٨] - تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٩٢) صحيح

[٥٠٨٩] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٥١) صحيح

المسلمين،قال ابن قدامة:"وَمَنْ قَاتَلَ مِمَّنْ ذَكَرْنَا جَمِيعِهِمْ،جَازَ قَتْلُهُ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – «قَتَلَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ امْرَأَةً أَلْقَتْ رَحًى عَلَى مَحْمُودِ بْنِ سَلَمَةَ».وَمَنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْمَذْكُورِينَ ذَا رَأْيٍ يُعِينُ بِهِ فِي الْحَرْبِ،جَازَ قَتْلُهُ «؛لِأَنَّ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ قُتِلَ يَوْمَ حُنَيْنٍ،وَهُوَ شَيْخٌ لَا قِتَالَ فِيهِ،وَكَانُوا خَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ،يَتَيَمَّنُونَ بِهِ،وَيَسْتَعِينُونَ بِرَأْيِهِ،فَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ – ﷺ – قَتْلَهُ.''وَلِأَنَّ الرَّأْيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعُونَةِ فِي الْحَرْبِ،وَقَدْ جَاءَ عَنْ مُعَاوِيَةَ،أَنَّهُ قَالَ لِمَرْوَانَ وَالْأَسْوَدِ:أَمْدَدْتُمَا عَلِيًّا بِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ،وَبِرَأْيِهِ وَمُكَايَدَتِهِ،فَوَاَللَّهِ لَوْ أَنَّكُمَا أَمْدَدْتُمَاهُ بِثَمَانِيَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ،مَا كَانَ بِأَغْيَظَ لِي مِنْ ذَلِكَ."[٥٠٩٠]

ويؤيد هذا المعنى أن المرأة والصبي اللذين سلم ابن حزم وغيره بتحريم قتلهما يقتلان إذا قاتلا عند الجميع.

والذي يظهر هو رجحان ما ذهب إليه أهل القول الأول،وهو عدم قتل هؤلاء جميعا،ما لم يقاتلوا بقول أو فعل،لأن دلالة ما ساقوه من الأدلة خاصة،ودلالة ما ساقه الآخرون عامة،أو محمولة على معنى خاص،وما ذكره ابن حزم عن عمر رضي الله عنه ليس منافياً لما ذكر عن أبي بكر رضي الله عنه لأن قوله:(وأن يقتلوا كل من جرت عليه المواسي) دلالته عامة وقول أبي بكر:(لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ...) دلالته خاصة،والذي يظهر من فعل السلف الصالح يؤيد هذا المذهب الله أعلم.

الحذر من جواسيس العدو:

الجاسوس المسلم

يجب على المجاهدين أن يحذروا غاية الحذر من تسلل جواسيس العدو إلى صفوفهم،لما في ذلك من كشف عوراتهم التي يترتب عليها إعداد العدو عدته على ضوئها،فإذا بدا لهم اشتباه في بعض الأفراد ممن هو في صفهم وينتَسب إليهم – أي إلى المسلمين – أو من غيرهم فالواجب متابعته والحوْلُ بينه وبين نقل المعلومات العسكرية الإسلامية إلى العدو.
ففي صحيح البخاري:"بَابُ الجَاسُوسِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة:١] التَّجَسُّسُ:التَّبَحُّثُ ثم روى ما جاء عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي

[٥٠٩٠] – المغني لابن قدامة (٩/ ٣١٢)

رَافِعٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ،وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ،قَالَ:«انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ،فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً،وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا»،فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ،فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ،فَقُلْنَا أَخْرِجِي الكِتَابَ،فَقَالَتْ:مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ،فَقُلْنَا:لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ،فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا،فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟»،قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ،وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا،وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ،فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ،أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي،وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا،وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لَقَدْ صَدَقَكُمْ»،قَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ،قَالَ:"إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا،وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "[٥٠٩١]

فقد أمر الرسول ﷺ في هذا الحديث بمتابعة المرأة وأخذ الكتاب منها،وفهم المبعوثون لذلك رضي الله عنهم أن لهم الحق في اتخاذ الوسيلة التي يتمكنون بها من الحصول عليه،ولو كان في ذلك كشف عورة المرأة،لأن المصلحة الراجحة تقتضي ذلك،وكشف عورتها تعتبر مفسدة ولكن المفسدة التي تترتب على تركها أكبر،والقاعدة تقديم أعلى المصلحتين،وارتكاب أخف المفسدتين،قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم:(وَفِي هَذَا مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِيهِ هَتْكُ أَسْتَارِ الْجَوَاسِيسِ بِقِرَاءَةِ كُتُبِهِمْ سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً وَفِيهِ هَتْكُ سِتْرِ الْمَفْسَدَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ أَوْ كَانَ

[٥٠٩١] - صحيح البخاري (٤/ ٥٩)(٣٠٠٧)

[ش (روضة خاخ) موضع بين مكة والمدينة. (ظعينة) المرأة في الهودج وقيل المرأة عامة واسمها سارة وقيل كنود. (تعادى بنا) تباعد وتجاري. (عقاصها) هو الشعر المضفور. (ملصقا) مضافا إليهم ولست منهم وقيل معناه حليفا ولم يكن من نفس قريش وأقربائهم. (يدا) نعمة ومنة عليهم. (اطلع) نظر إليهم وعلم حالهم وما سيكون منهم. (وأي إسناد هذا) أراد تعظيم هذا الإسناد وبيان صحته وقوته لأن رجاله هم العدول الثقات الحفاظ]

فِي السِّتْرِ مَفْسَدَةٌ وَإِنَّمَا يُنْدَبُ السِّتْرُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَلَا يَفُوتُ بِهِ مَصْلَحَةٌ وَعَلَى هَذَا تُحْمَلُ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي النَّدْبِ إِلَى السِّتْرِ وَفِيهِ أَنَّ الْجَاسُوسَ وَغَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ لَا يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ وَهَذَا الْجِنْسُ كَبِيرَةٌ قَطْعًا لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِيذَاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ كبيرة بلا شك لقوله تَعَالَى إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُحَدُّ الْعَاصِي وَلَا يُعَزَّرُ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ وَفِيهِ إِشَارَةُ جُلَسَاءِ الْإِمَامِ وَالْحَاكِمِ بِمَا يَرَوْنَهُ كَمَا أَشَارَ عُمَرُ بِضَرْبِ عُنُقِ حَاطِبٍ وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الْجَاسُوسَ الْمُسْلِمَ يُعَزَّرُ وَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ وَقَالَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ يُقْتَلُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ وَبَعْضُهُمْ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ)[٥٠٩٢].

وفي قصة حاطب مشروعية عفو القائد عن بعض أفراد الجيش إذا أساء متعمداً ثم ندم على إساءته واعتذر ودلت القرائن على حسن نيته وكان ذا سابقة طيبة.هذا في الجاسوس المسلم.

والذي يظهر من قصة حاطب رضي الله عنه مشروعية قتل الجاسوس المسلم،لأن النبي ﷺ أقر عمر على إرادة القتل وبين له أن المانع كونه شهد بدراً،وهو أخص من كون المانع هو الإسلام،ولو كان الإسلام هو المانع من قتله لبيّن ﷺ ذلك،و لم يعلله بأخص منه،وهذا الأخص لا يظفر به أي مسلم كان،بل هو خاص بحاطب أو من هو مثله ممن شهد بدراً،قال الحافظ في الفتح:''واستُدِلَّ بِاستِئذانِ عُمَر عَلَى قَتل حاطِب لِمَشرُوعِيَّة قَتل الجاسُوس ولَو كانَ مُسلِمًا وهُو قَول مالِك ومَن وافَقَهُ،ووجه الدَّلالَة أَنَّهُ ﷺ أَقَرَّ عُمَرَ عَلَى إِرادَة القَتل لَولا المانِع،وبَيَّنَ المانِع هُو كَون حاطِب شَهِدَ بَدرًا،وهَذا مُنتَفٍ مِن غَير حاطِب،فَلَو كانَ الإِسلام مانِعًا مِن قَتله لَما عَلَّلَ بِأَخَصّ مِنهُ."[٥٠٩٣].

ولو جعل الإسلام مانعاً من قتل الجاسوس لكان في ذلك فتح للباب لضعاف النفوس ومرضى القلوب لكشف عورات المسلمين لأعدائهم الذين لا يألون جهداً في محاولة

[٥٠٩٢] - شرح النووي على مسلم (١٦/ ٥٥)

[٥٠٩٣] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ٦٣٥)

الاطلاع على أحوال المسلمين قوةً وضعفاً ليبينوا خططهم ويعدوا عددهم على ضوء معلومات دقيقة يستطيعون بها إنزال الضرر بالمسلمين والانتصار عليهم.

والذي يظهر أن الراجح ما قاله الإمام مالك رحمه الله وهو أن يترك حكمه لاجتهاد الإمام،فإن رأى أن في قتله مصلحة قتله وإن رأى أن المصلحة في تعزريه عزره بما يراه.

قال القرطبي:"اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ،فَقَالَ مَالِكٌ وَابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ:يَجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ الْإِمَامُ.وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ:إِذَا كَانَتْ عَادَتُهُ تِلْكَ قُتِلَ،لِأَنَّهُ جَاسُوسٌ،وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ بِقَتْلِ الْجَاسُوسِ- وَهُوَ صَحِيحٌ لِإِضْرَارِهِ بِالْمُسْلِمِينَ وَسَعْيِهِ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.وَلَعَلَّ ابْنَ الْمَاجِشُونِ إِنَّمَا اتَّخَذَ التَّكْرَارَ فِي هَذَا لِأَنَّ حَاطِبًا أُخِذَ فِي أَوَّلِ فِعْلِهِ.وَاللَّهُ أَعْلَمُ.السَّادِسَةُ- فَإِنْ كَانَ الْجَاسُوسُ كَافِرًا فَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:يَكُونُ نَقْضًا لِعَهْدِهِ وَقَالَ أَصْبَغُ:الْجَاسُوسُ الحربي يُقْتَلُ،وَالْجَاسُوسُ الْمُسْلِمُ وَالذِّمِّيُّ يُعَاقَبَانِ إِلَّا إِنْ تَظَاهَرَا عَلَى الْإِسْلَامِ فَيُقْتَلَانِ."[٥٠٩٤]

الجاسوس غير المسلم.

عن إِيَاسَ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:"نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْزِلًا فَجَاءَ عَيْنُ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَتَصَبَّحُونَ،فَدَعَوْهُ إِلَى طَعَامِهِمْ،فَلَمَّا فَرَغَ الرَّجُلُ رَكِبَ عَلَى رَاحِلَتِهِ ذَهَبَ مُسْرِعًا لِيُنْذِرَ أَصْحَابَهُ،قَالَ سَلَمَةُ:فَأَدْرَكْتُهُ،فَأَنَخْتُ رَاحِلَتَهُ وَضَرَبْتُ عُنُقَهُ فَغَنَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَلَبَهُ "[٥٠٩٥].

وعَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ عَيْنٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَهُوَ فِي سَفَرٍ،فَجَلَسَ عِنْدَ أَصْحَابِهِ يَتَحَدَّثُ،ثُمَّ انْفَتَلَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اطْلُبُوهُ،وَاقْتُلُوهُ».فَقَتَلَهُ،فَنَفَّلَهُ سَلَبَهُ"[٥٠٩٦]

وعَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:جَاءَ عَيْنٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ فَلَمَّا طَعِمَ انْسَلَّ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«عَلَيَّ الرَّجُلُ اقْتُلُوهُ فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ»

[٥٠٩٤] - تفسير القرطبي (١٨/ ٥٣) وقد فصلت القول في ذلك بكتابي "الخلاصة في أحكام التجسس"

[٥٠٩٥] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٥٠)(١٦٥١٩) صحيح

[٥٠٩٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٩)(٣٠٥١)

[ش (عين) جاسوس. (انفتل) انصرف. (فقتله) أي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. (فنفله) أعطاه والنفل ما يشترطه الإمام لمن يقوم بعمل ذي خطر. (سلبه) هو كل ما يكون مع المقتول من مركب أو سلاح أو متاع]

قَالَ:«وَكَانَ أَبِي يَسْبِقُ الْفَرَسَ شَدًّا،فَسَبَقَهُمْ إِلَيْهِ فَأَخَذَهُ بِخِطَامِ رَاحِلَتِهِ فَقَتَلَهُ،فَنَفَّلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَلَبَهُ»[5097]

وعن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ،قَالَ:غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هَوَازِنَ،فَبَيْنَا نَحْنُ نَتَضَحَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ،فَأَنَاخَهُ،ثُمَّ انْتَزَعَ طَلَقًا مِنْ حَقَبِهِ،فَقَيَّدَ بِهِ الْجَمَلَ،ثُمَّ تَقَدَّمَ يَتَغَدَّى مَعَ الْقَوْمِ،وَجَعَلَ يَنْظُرُ وَفِينَا ضَعْفَةٌ وَرِقَّةٌ فِي الظَّهْرِ،وَبَعْضُنَا مُشَاةٌ،إِذْ خَرَجَ يَشْتَدُّ،فَأَتَى جَمَلَهُ،فَأَطْلَقَ قَيْدَهُ ثُمَّ أَنَاخَهُ،وَقَعَدَ عَلَيْهِ،فَأَثَارَهُ فَاشْتَدَّ بِهِ الْجَمَلُ،فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ وَرْقَاءَ،قَالَ سَلَمَةُ:وَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ فَكُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ النَّاقَةِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى كُنْتُ عِنْدَ وَرِكِ الْجَمَلِ،ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِخِطَامِ الْجَمَلِ فَأَنَخْتُهُ،فَلَمَّا وَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي،فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ،فَنَدَرَ،ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَمَلِ أَقُودُهُ عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَسِلَاحُهُ،فَاسْتَقْبَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ،فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ؟"قَالُوا:ابْنُ الْأَكْوَعِ،قَالَ:«لَهُ سَلَبُهُ أَجْمَعُ»[5098]

وفي شرح السنة:"وفيه دليلٌ على أن من دخل دَار الإسْلام من أهل الْحَرْب من غيْر أَمَان حلّ قتله،وَمن تجسّس للْكفَّار من أهل الذِّمَّة،كَانَ ذَلِك مِنْهُ نقضا للْعهد،وَإِن فعله مُسْلم،فَلَا يحلُّ قَتله،بل يُعزّر،فإِن ادّعى جَهَالَة بالْحَال،وَلم يكن مُتَّهمًا،يُتجافى عَنهُ،هَذَا قوْل الشّافعي،وَقَالَ الأوْزاعي:عاقبهُ الإمامُ عُقُوبَة مُنكِّلةً،وغرّبهُ إلى بعْض الْآفَاق،وَقَالَ أصْحاب الرَّأْي:عاقبه،وَأَطَال حَبسه،وَقَالَ مالك:ذلك إِلى اجْتِهَاد الإمام."[5099]

[5097] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٢٧)(٨٧٩٣) صحيح

[5098] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٤)٤٥ - (١٧٥٤)

[ش (نتضحى) أي نتغدى مأخوذ من الضحاء وهو بعد امتداد النهار وفوق الضحى(انتزع طلقا من حقبه) الطلق العقال من جلد والحقب حبل يشد على حقو البعير قال القاضي لم يرو هذا الحرف إلا بفتح القاف قال وكان بعض شيوخنا يقول صوابه بإسكانها أي مما احتقب خلفه وجعله في حقيبته وهي الرفادة في مؤخر القتب ووقع هذا الحرف في سنن أبي داود حقوه وفسره مؤخره قال القاضي والأشبه عندي أن يكون حقوه في هذه الرواية حجزته وحزامه والحقو معقد الإزار من الرجل وبه سمي الإزار حقوا ووقع في رواية السمرقندي رضي الله عنه في مسلم من جعبته فإن صح ولم يكن تصحيفا فله وجه بأن علقه بجعبة سهامه وأدخله فيها(وفينا ضعفة ورقة) ضبطوه على وجهين الصحيح المشهور ورواية الأكثرين بفتح الضاد وإسكامن العين أي حالة ضعف وهزال قال القاضي وهذا هو الصواب والثاني بفتح العين جمع ضعيف وفي بعض النسخ وفينا ضعف بحذف الهاء (في الظهر) أي في الإبل(يشتد) أي يعدو(فأثاره) أي ركبه ثم بعثه قائما(ورقاء) أي في لونها سواد كالغبرة(اخترطت سيفي) أي سللته(فندر) أي سقط]

[5099] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٧١)

ودل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:استدل به مالك على مشروعية قتل الحربي إذا دخل دون أمان،وقال أبو حنيفة يكون فيئاً للمسلمين،وهو قول أحمد أيضاً وقال الشافعي:إذا ادعى أنه رسول قُبِلَ منه.ثانياً:قال النووي:فيه قتل الجاسوس الحربي الكافر،وهو محل اتفاق،وأما المعاهد والذمي،فقال مالك والأوزاعي ينقض عهده بذلك،وعند الشافعية خلاف.[٥١٠٠]

وفي الفتح:"وقَد ظَهَرَ من رِوايَة عِكرِمَة الباعِث عَلَى قَتله وأَنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى عَورَة المُسلِمِينَ وبادَرَ لِيُعلِم أَصحابه فَيَغتَنِمُونَ غِرَّتهم،وكانَ فِي قَتله مَصلَحَة لِلمُسلِمِينَ.

قالَ النَّوَوِيّ فِيهِ قَتل الجاسُوس الحَربِيّ الكافِر وهُو بِاتِّفاق،وأَمّا المُعاهَد والذِّمِّيّ فَقالَ مالِك والأَوزاعِيُّ:يَنتَقِض عَهده بِذَلِكَ.وعِند الشّافِعِيَّة خِلاف.أَمّا لَو شَرَطَ عَلَيهِ ذَلِكَ فِي عَهده فَيَنتَقِض اتِّفاقًا."[٥١٠١]

وفي النيل:"وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُ الْجَاسُوسِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:فِيهِ قَتْلُ الْجَاسُوسِ لْحَرْبِيِّ الْكَافِرِ وَهُوَ بِاتِّفَاقٍ وَأَمَّا الْمُعَاهَدُ وَالذِّمِّيُّ فَقَالَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ:يُنْتَقَضُ عَهْدُهُ بِذَلِكَ.وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ خِلَافٌ.أَمَّا لَوْ شَرَطَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي عَهْدِهِ فَيَنْتَقِضُ اتِّفَاقًا.وَحَدِيثُ فُرَاتِ الْمَذْكُورُ فِي الْبَابِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ الْجَاسُوسِ الذِّمِّيِّ.وَذَهَبَتْ الْهَادَوِيَّةُ إلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ جَاسُوسُ الْكُفَّارِ وَالْبُغَاةِ إذَا كَانَ قَدْ قَتَلَ أَوْ حَصَلَ الْقَتْلُ بِسَبَبِهِ وَكَانَتْ الْحَرْبُ قَائِمَةً،وَإِذَا اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ حُبِسَ فَقَطْ"[٥١٠٢]

وعلى مجاهدي المسلمين أن يحذروا من تسلل عناصر الفساد إلى صفوفهم بإبداء الولاء لهم،وقصدهم الاطلاع على عورات المسلمين ونقلها إلى عدوهم،وقد يظهرون أنهم جواسيس للمسلمين على أعدائهم،فينقلون لهم – أي للمسلمين – معلومات مزيفة،أو ليست ذات بال،وعلى المسلمين أن يبتلوا من أراد الدخول في صفوفهم بتكليفهم بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله،لأن ذلك هو منهج الله الذي يمحص به المنتسبين إلى الإسلام،فيظهر الصادق منهم من الكاذب.كما قال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا

[٥١٠٠] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٢٤)

[٥١٠١] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٦٩)

[٥١٠٢] – نيل الأوطار (٨/ ١١)

يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [التوبة:١٦]

أَظَنَنْتُمْ أَنْ يَتْرُكَكُمُ اللهُ مُهْمَلِينَ،لاَ يَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ تُظْهِرَ فِيكُمُ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبَ،لِيَعْلَمَ الذينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِه،وَيُخْلِصُونَ فِي جِهَادِهِمْ وَنُصْحِهِمْ،لله وَللرَّسُولِ وَللمُؤْمِنِينَ،وَيَكُونُ ظَاهِرُهُمْ كَبَاطِنِهِمْ،فِي الإِخْلاَصِ للهِ وَللرَّسُولِ،وَلَيْسَ لَهُمْ بِطَانَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ رَوَابِطُ مَعَ المُشْرِكِينَ،وَلاَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ المُسْلِمِينَ وَخُطَطِهِمْ،وَاللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً.وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ التَكْلِيفَ الذِّي يَشُقُّ عَلَى الأَنْفُسِ هُو الذي يُمَحِّصُ مَا فِي القُلُوبِ،وَيُطَهِّرُ السَّرَائِرَ،وَيَكْشِفُ مَكْنُونَاتِ السَّرَائِرِ الخَبِيثَة.[٥١٠٣]

وقال تعالى:{الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [العنكبوت].

هَلْ ظَنَّ النَّاسُ أنْ نَتْرُكَهُمْ وشَأْنَهُمْ بِمُجَرَّدِ نُطْقِهِمْ بالشَّهادَتَيْنِ،وَقَوْلِهِمْ آمنَّا باللهِ وَرَسُولِه،دُونَ أَنْ يَبْتَلِيَهُم اللهُ،ويَخْتَبِرَ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ:بالهجْرَة،والتَّكَالِيفِ الدِّينْيةِ الأُخرى،والجهَاد،والمَصَائِب؟ كلاَّ،فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَليَ عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ،بحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ إيمان. وَلَقَد امتَحَنَ اللهُ المُؤمنينَ السَّالفِينَ،وَعَرَّضَهُمْ للفِتْنَة والاخْتِبَارِ،وغَايَتُهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى مِنْ هذا الابتلاءِ والاخْتبارِ هيَ أَنْ يُمَحِّصَهُم فَيَعْلَمَ الذينَ صَدَقُوا فِي دَعوى الإِيمانِ،ممَّنْ هُمْ كاذبون في دَعواهُم،وليُجَازِيَ كُلاًّ بمَا يَسْتَحِقُّهُ.[٥١٠٤]

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية الأخيرة:(وَلَقَد اخْتَبَرْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ،مِمَّنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلَنَا،فَقَالُوا مِثْلَ مَا قَالَتْهُ أُمَّتُكَ يَا مُحَمَّدُ بِأَعْدَائِهِمْ،وَتَمْكِينِنَا إِيَّاهُمْ مِنْ أَذَاهُمْ،كَمُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،فَابْتَلَيْنَاهُمْ بِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ،وَكَعِيسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،فَابْتَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَهُ بِمَنْ تَوَلَّى عَنْهُ،فَكَذَلِكَ ابْتَلَيْنَا أَتْبَاعَكَ بِمُخَالِفِيكَ مِنْ أَعْدَائِكَ {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} [العنكبوت:٣] مِنْهُمْ فِي قِيلِهِمْ آمَنَّا {وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت:٣] مِنْهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ،وَاللَّهُ عَالِمٌ

[٥١٠٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٥٢،بترقيم الشاملة آليا)

[٥١٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٢٢٤،بترقيم الشاملة آليا)

بِذَلِكَ مِنْهُمْ قَبْلَ الِاخْتِبَارِ،وَفِي حَالِ الِاخْتِبَارِ،وَبَعْدَ الِاخْتِبَارِ،وَلَكِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ:وَلَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْهُمْ فِي قِيلِهِ آمَنَّا بِاللَّهِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ مِنْهُمْ بِابْتِلَائِهِ إِيَّاهُ بِعَدُوِّهِ،لِيَعْلَمَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ أَوْلِيَاؤُهُ،عَلَى نَحْوِ مَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا مَضَى قَبْلُ.وَذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَذَّبَهُمُ الْمُشْرِكُونَ،فَفُتِنَ بَعْضُهُمْ،وَصَبَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى أَذَاهُمْ حَتَّى أَتَاهُمُ اللَّهُ بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ.) [٥١٠٥]

إعداد العيون الساهرة لجمع المعلومات عن الأعداء

وإذا كان يجب على المجاهدين في سبيل الله أن يحذروا من جواسيس العدو،ويقطعوا عليهم كل طريق إلى أخذ المعلومات العسكرية الإسلامية،فإن عليهم أن يعدوا الرجال القادرين على جمع معلومات العدو بطرق خفية لا يقدر على كشفها،اقتداء برسول الله ﷺ،الذي كان يبعث عيونه في العدو لأخذ أدق المعلومات والأسرار من أعلى مستوى فيه (مستوى القيادة.)

وهذه أمثلة لحرص القيادة النبوية على جمع أسرار العدو عن طريق عيونه الذين كان يبعثهم ﷺ.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ،قَالَ:قَالَ فَتًى مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ:يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ:نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي،قَالَ:فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ:وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ،قَالَ الْفَتَى:وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ،لَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا.قَالَ حُذَيْفَةُ:يَا ابْنَ أَخِي،وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟''يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ يَرْجِعْ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ،فَمَا قَامَ أَحَدٌ،ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ،[ص:٢٧] ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ مِثْلَهُ،فَمَا قَامَ مِنَّا رَجُلٌ،ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ:«مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ،يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ،أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»،فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ،وَشِدَّةِ الْجُوعِ،وَشِدَّةِ الْبَرْدِ،فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ

[٥١٠٥] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٣٥٧) وانظر التفاصيل في كتابي "**الخلاصة في أحكام التجسس** "

دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي،فَقَالَ:«يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ،وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا».قَالَ:فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ،وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ،لَا تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا،وَلَا نَارًا،وَلَا بِنَاءً؛فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي،فَقُلْتُ:مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؛ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ،وَلَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ،وَاخْتَلَفَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ،وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ،وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ،وَاللَّهِ مَا يَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ،وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ،وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ،فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ.ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ،فَجَلَسَ عَلَيْهِ،ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلَاثٍ،فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ.وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيَّ أَنْ لَا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي،لَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ؛قَالَ حُذَيْفَةُ:فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ،فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ،ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ؛فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ،وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ،فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ [٥١٠٦]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ،فَقَالَ رَجُلٌ:لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُ مَعَهُ،فَقَالَ حُذَيْفَةُ:أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:فَسَكَتْنَا،فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ،ثُمَّ قَالَ:«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،قَالَ:فَسَكَتْنَا،فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ،ثُمَّ قَالَ:فَسَكَتْنَا،فَقَالَ ﷺ:«قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ»،فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ،فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ،فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ،فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ،فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«لَا تَذْعَرْهُمْ»،وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ،فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ،فَلَمَّا أَتَيْتُهُ ﷺ أَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ،فَأَلْبَسَنِي

[٥١٠٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٢٦) وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٣٣)(٢١٥) صحيح

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضْلَ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا،فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ،فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ ﷺ:«قُمْ يَا نَوْمَانُ»[5107]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:«مَنْ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ»؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،فَذَهَبَ عَلَى فَرَسِهِ،فَجَاءَ بِخَبَرِهِمْ،ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةَ،فَقَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ،فَقَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ،وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»[5108]

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ يَوْمَ الأَحْزَابِ؟"قَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؟»،قَالَ الزُّبَيْرُ:أَنَا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»[5109]

وكذلك بعث ﷺ عيناً ينظر عبر أبي سفيان،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ،فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي،وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،قَالَ:لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ،قَالَ:فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ،قَالَ:فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ،فَقَالَ:«إِنَّ لَنَا طَلِبَةً،فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»،فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ،فَقَالَ:«لَا،إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»،فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ،وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»،فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»،قَالَ:- يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ:- يَا رَسُولَ اللهِ،جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ:«نَعَمْ»،قَالَ:بَخٍ بَخٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟"قَالَ:لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ،إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا،قَالَ:«فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»،فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ،فَجَعَلَ يَأْكُلُ

[5107] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٦/ ٦٧)(٧١٢٥) صحيح

[5108] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٤٤٣)(٦٩٨٥) صحيح

[5109] - صحيح البخاري (٤/ ٢٧)(٢٨٤٦) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٩)٤٨ - (٢٤١٥)

[ش(القوم) المراد بنو قريظة من اليهود. (حواريا) خاصة من أصحابه وخالصا من أنصاره]

مِنْهُنَّ،ثُمَّ قَالَ:لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ،قَالَ:فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ،ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ"[٥١١٠].

ويجب أن يكون عيون المجاهدين في سبيل الله ممن عرفوا بتقوى الله تعالى وقوة الصلة به،وبالصدق والأمانة والقدرة على أداء واجبهم،دون أن يكشف العدو عملهم،وذلك يتطلب ذكاء وحكمة بالغتين[٥١١١].

أفضل أوقات القتال:

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ،أَنَّ النُّعْمَانَ يَعْنِي ابْنَ مُقَرِّنٍ،قَالَ:«شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ،وَتَهُبَّ الرِّيَاحُ،وَيَنْزِلَ النَّصْرُ»[٥١١٢]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَزَا خَيْبَرَ،فَصَلَّيْنَا عِنْدَهَا صَلاَةَ الغَدَاةِ بِغَلَسٍ،فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَرَكِبَ أَبُو طَلْحَةَ،وَأَنَا رَدِيفُ أَبِي طَلْحَةَ،فَأَجْرَى نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فِي زُقَاقِ خَيْبَرَ،وَإِنَّ رُكْبَتِي لَتَمَسُّ فَخذَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ،ثُمَّ حَسَرَ الإِزَارَ عَنْ فَخذه حَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ فَخذ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ،فَلَمَّا دَخَلَ القَرْيَةَ قَالَ:"اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ {فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} [الصافات:١٧٧] قَالَهَا ثَلاَثًا،قَالَ:وَخَرَجَ القَوْمُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ،فَقَالُوا:مُحَمَّدٌ،قَالَ عَبْدُ العَزِيزِ:وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا:وَالخَمِيسُ – يَعْنِي الجَيْشَ – قَالَ:فَأَصَبْنَاهَا عَنْوَةً،فَجُمِعَ السَّبْيُ،فَجَاءَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ،قَالَ:«اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً»،فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ،فَجَاءَ

[٥١١٠] – صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٩)١٤٥ – (١٩٠١)

[ش (بسيسة) قال القاضي هكذا هو في جميع النسخ قال والمعروف في كتب السيرة بسبس بن عمرو ويقال ابن بشر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم قلت (أي الإمام النووي) يجوز أن يكون أحد اللفظين اسما له والآخر لقبا(عينا) أي متجسسا ورقيبا(عير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره قال في المشارق العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات قال ولا تسمى عيرا إلا إذا كانت كذلك وقال الجوهري في الصحاح العير الإبل تحمل الميرة جمعها عيرات(طلبة) أي شيئا نطلبه(ظهره) الظهر الدواب التي تركب(ظهرانهم) أي مركوباتهم(حتى أكون أنا دونه) أي قدامه متقدما في ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها(بخ بخ) فيه لغتان إسكان الخاء وكسرها منونا وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير(إلا رجاءة) هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاءة بالمد زنصب التاء وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين وكله صحيح معروف في اللغة ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها(قرنه) أي جعبة النشاب]

[٥١١١] – انظر:مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية– دار الوفاء (٢٨/ ٢٤٧)

[٥١١٢] – سنن أبي داود (٣/ ٤٩)(٢٦٥٥) صحيح

رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:يَا نَبِيَّ اللَّهِ،أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ،سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ،لاَ تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ،قَالَ:«ادْعُوهُ بِهَا» فَجَاءَ بِهَا،فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ:«خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا»،قَالَ:فَأَعْتَقَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَتَزَوَّجَهَا،فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ:يَا أَبَا حَمْزَةَ،مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ:نَفْسَهَا،أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا،حَتَّى إِذَا كَانَ بِالطَّرِيقِ،جَهَّزَتْهَا لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ،فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنَ اللَّيْلِ،فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا،فَقَالَ:«مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِهِ» وَبَسَطَ نِطَعًا،فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ،وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ،قَالَ:وَأَحْسِبُهُ قَدْ ذَكَرَ السَّوِيقَ،قَالَ:فَحَاسُوا حَيْسًا،فَكَانَتْ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"[٥١١٣]

إذا فاجأ العدو المسلمين وأغار عليهم فيجب رده وصده في أي وقت أغار فيه.

العناية بجرحى المسلمين وموتاهم:

ولا بد للمجاهدين من اصطحاب فرق كافية لخدمة المقاتلين لطهي الطعام ونقل الماء،ومداواة الجرحى،ونقلهم من المكان الذي يخشى عليهم فيه من إجهاز العدو عليهم،إلى مكان لا يخشى عليهم منهم فيه،ونقل الموتى كذلك حتى لا يمثل بهم العدو.

ويستعمل في هذه الأمور من لا يجب عليه القتال،فقد كان النساء يقمن بهذه الأعمال في عهد رسول الله ﷺ.فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:"لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ،انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ،وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ،أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ القِرَبَ،وَقَالَ غَيْرُهُ:تَنْقُلاَنِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا،ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ،ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا،ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ "[٥١١٤]

[٥١١٣] - صحيح البخاري (١/ ٨٣)(٣٧١) وصحيح مسلم (٢/ ١٠٤٣)(٨٤ - ١٣٦٥)

[ش (الغداة) الصبح. (بغلس) ظلمة آخر الليل أي مبكرا. (رديف) راكب خلفه. (فأجرى) أي مركوبه. (زقاق) هو السكة والطريق. (خربت) فتحت. (بساحة) ناحية وجهة. (فساء) قبح. (فقالوا محمد) أي جاء محمد ﷺ. (عنوة) قهرا في عنف أو صلحا في رفق فهي من الألفاظ التي تستعمل في الشيء وضده وقيل إن خيبر فتح بعضها صلحا وبعضها قهرا. (فقال له) أي لأنس. (ما أصدقها) ماذا أعطاها مهرا. (فأهدتها) زفتها. (نطعا) هو ثوب متخذ من جلد يوضع عليه الطعام أو غيره. (السويق) الدقيق. (حسيا) هو الطعام المتخذ من التمر والسمن والأقط أو الدقيق]

[٥١١٤] - صحيح البخاري (٤/ ٣٣)(٢٨٨٠) [ش (لمشمرتان) من التشمير وهو رفع الإزار. (خدم) جمع خدمة وهي موضع الخلخال من الساق وهو ما فوق الكعبين. (سوقهما) جمع ساق. (تنقزان) من النقز وهو الوثب والإسراع في المشي. (القرب) أي تثبان وهما تحملان القرب. (متونهما) ظهورهما. (أفواه القوم) من الجرحى ومن فيهم رمق]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُد انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ به عَلَيْه بحَجَفَة لَهُ،وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا شَديدَ القدِّ،يَكْسرُ يَوْمَئذ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا،وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الجَعْبَةُ منَ النَّبْلِ،فَيَقُولُ:«انْشُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ».فَأَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى القَوْمِ،فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ:يَا نَبِيَّ اللَّه،بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،لاَ تُشْرفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ منْ سهَامِ القَوْمِ،نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ،وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائشَةَ بنْتَ أَبِي بَكْرٍ،وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَان،أَرَى خَدَمَ سُوقهمَا،تُنْقزَان القرَبَ عَلَى مُتُونهمَا،تُفْرغَانه في أَفْوَاه القَوْمِ،ثُمَّ تَرْجعَان،فَتَمْلَآَنهَا،ثُمَّ تَجيئَان فَتُفْرغَانه في أَفْوَاه القَوْمِ،وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ منْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاَثًا"[٥١١٥]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك،قَالَ:«لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُد انْهَزَمَ نَاسٌ منَ النَّاسِ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْه بحَجَفَة»،قَالَ:«وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا،شَديدَ النَّزْعِ،وَكَسَرَ يَوْمَئذ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»،قَالَ:"فَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ منَ النَّبْلِ،فَيَقُولُ:انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ "،قَالَ:"وَيُشْرفُ نَبِيُّ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ،فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ:يَا نَبِيَّ الله،بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،لَا تُشْرفْ،لَا يُصبْكَ سَهْمٌ منْ سهَامِ الْقَوْمِ،نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ "،قَالَ:«وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائشَةَ بنْتَ أَبِي بَكْرٍ،وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَان،أَرَى خَدَمَ سُوقهمَا،تَنْقُلَان الْقرَبَ عَلَى مُتُونهمَا،ثُمَّ تُفْرغَانه في أَفْوَاههمْ،ثُمَّ تَرْجعَان فَتَمْلَآَنهَا،ثُمَّ تَجيئَان تُفْرغَانه في أَفْوَاه الْقَوْمِ،وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ منْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلَاثًا منَ النُّعَاسِ»[٥١١٦]

[٥١١٥] - صحيح البخاري (٥/ ٣٧)(٣٨١١) [ش(بين يدي) قدام. (مجوب به عليه) مترس عليه بنفسه يقيه من ضربات المشركين ونبالهم. (بحجفة) ترس من الجلد ليس فيها خشب. لا (شديد القد) هو السير من جلد مدبوغ والمعنى أن وتر قوسه شديد في النزع والمد. (الجعبة) الكنانة المملوءة بالنبل. (نحري دون نحرك) أقف بين يديك بحيث إذا جاء السهم يصيب نحري ولا يصيب نحرك والنحر الصدر وأسفل العنق]

[٥١١٦] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٣)١٣٦ - (١٨١١)

[ش (مجوب عليه بحجفة) أي مترس عنه ليقيه سلاح الكفار وأصل التجويب الاتقاء بالجوب كثوب وهو الترس(شديد النزع) أي شديد الرمي بالسهام(الجعبة) هي الكنانة التي تجعل فيها السهام(لا تشرف) أي لا تتشرف من أعلى موضع أي لا تتطلع(نحري دون نحرك) أي أقرب منه والنحر أعلى الصدر وموضع القلادة منه وقد يطلق على الصدر أيضا والجملة دعائية أي جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك(خدم سوقهما) الواحدة خدمة وهي الخلخال والسوق جمع ساق(على متونهما) أي على ظهورهما(من النعاس) هو النعاس الذي من الله به على أهل الصدق واليقين من المؤمنين يوم أحد فإنه

ففي هذا الحديث قيام النساء بسقي المجاهدين ونقل الماء لهم،ومثله في الحكم الطعام ونحوه.وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قيام المرأة بالتمريض ومداواة الجروح - والأصل أن يكون الجريح الذي تداويه المرأة محرماً لها،كما هو واضح في الحديث الذي يذكر نصه قريباً،ولكن إذا دعت الضرورة إلى مداواتها غير محرم فلا مانع من ذلك مع عدم المباشرة حسب الإمكان.

فعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ،فَقَالَ:«جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ،وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ،فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ،تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ،فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لاَ يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً،أَخَذَتْ حَصِيرًا فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا،ثُمَّ أَلْزَقَتْهُ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ»[٥١١٧].

وفيه جَوازُ مُعالَجَة المَرأَة الأَجنَبِيَّة الرَّجُل الأَجنَبِيّ لِلضَّرُورَة.قالَ ابن بَطّال:ويَختَصُّ ذَلكَ بِذَوات المَحارِمِ ثُمَّ بِالمُتَجالّات مِنهُنَّ لأَنَّ مَوضِعَ الجُرحِ لا يُلتَذُّ بِلَمسِهِ بَل يَقشَعِرُّ مِنهُ الجِلدُ فَإِن دَعَت الضَّرُورَة لِغَيرِ المُتَجالّات فَلَيَكُن بِغَيرِ مُباشَرَة ولا مَسٍّ.

ويَدُلُّ عَلَى ذَلكَ اتِّفاقُهُم عَلَى أَنَّ المَرأَةَ إِذا ماتَت ولَم تُوجَد امرَأَة تُغَسِّلُها أَنَّ الرَّجُلَ لا يُباشِرُ غُسلَها بِالمَسِّ بَل يُغَسِّلُها مِن وراءِ حائِلٍ فِي قَول بَعضِهِم كالزُّهرِيِّ وفِي قَول الأَكثَر تُيَمَّمُ وقالَ الأَوزاعِيُّ تُدفَنُ كَما هِيَ.قالَ ابن المُنِير:الفَرقُ بَينَ حال المُداواة وتَغسِيل المَيِّت أَنَّ الغُسلَ عِبادَةٌ والمُداوةُ ضَرُورَة والضَّرُوراتُ تُبِيحُ المَحظُورات[٥١١٨].

وعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ،قَالَتْ:«كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَنَسْقِي القَوْمَ،وَنَخْدُمُهُمْ،وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ»[٥١١٩]

تعالى لما علم ما في قلوبهم من الغم وخوف كره الأعداء صرفهم عن ذلك بإنزال النعاس عليهم لئلا يوهنهم الغم والخوف ويضعف عائمهم قال تعالى {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم}]

[٥١١٧] - صحيح البخاري (٤/ ٤٠)(٢٩١١) وصحيح مسلم (٣/ ١٤١٦)(١٠١ - (١٧٩٠)

[٥١١٨] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٨٠)

[٥١١٩] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٣)

قَالَ الإمامُ:فِي الْحدِيث دليل على جَوَاز الْخرُوج بِالنسَاء فِي الْغَزْو لنَوْع من الرِّفْق والخدمة،فإن خَافَ عَلَيْهِنَّ كَثْرَة الْعَدو وقوهم،أوْ خَافَ فتنتهُن لجمالهن،وحداثة أسنانهن،فَلَا يخرجُ بهن،وقدْ رُوِي عنِ النّبيِّ ﷺ،«أَن نِسْوةٍ خرجْن معهُ فَأمر بردِّهن».فيُشبه أَن يكود ردُّهُ إياهُن لأحد هذَيْن الْمَعْنيين.شرح السنة للبغوي (١١/ ١٣)

وقولها:ونخدمهم عام يشمل كل خدمة يحتاج إليها المجاهد في المعركة.
وعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ،قَالَتْ:«غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ،أَخْلُفُهُمْ فِي رِحَالِهِمْ،فَأَصْنَعُ لَهُمُ الطَّعَامَ،وَأُدَاوِي الْجَرْحَى،وَأَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى»[٥١٢٠].
وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،خَرَجَ النِّسَاءُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ يَتْبَعُونَهُمْ بِالْمَاءِ،فَكَانَتْ فَاطِمَةُ فِيمَنْ خَرَجَ،فَلَمَّا لَقِيَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ اعْتَنَقَتْهُ وَجَعَلَتْ تَغْسِلُ جُرْحَهُ بِالْمَاءِ فَيَزْدَادُ الدَّمُ،فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ حَصِيرٍ،فَأَحْرَقَتْهُ بِالنَّارِ فَكَمَدَتْهُ حَتَّى لَصَقَ بِالْجُرْحِ،وَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ"[٥١٢١].

هذا وليعلم أن الأصل عدم خروج المرأة مع المجاهدين،لاسيما لإرادة القتال،لما في ذلك من مخالفة المطلوب منها،وهو سترها،ففي الموسوعة الفقهية:"أَمَّا إِخْرَاجُ النِّسَاءِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ فَيُكْرَهُ فِي سَرِيَّةٍ لاَ يُؤْمَنُ عَلَيْهَا ؛لأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضَهُنَّ لِلضَّيَاعِ،وَيَمْنَعُهُنَّ الإِمَامُ مِنَ الْخُرُوجِ لِلاِفْتِتَانِ بِهِنَّ،وَلَسْنَ مِنْ أَهْل الْقِتَال لاِسْتِيلاَءِ الْخَوَرِ وَالْجُبْنِ عَلَيْهِنَّ ؛وَلأَنَّهُ لاَ يُؤْمَنُ ظَفَرُ الْعَدُوِّ بِهِنَّ،فَيَسْتَحِلُّونَ مِنْهُنَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى .
وَصَرَّحَ الْحَنَابِلَةُ بِاسْتِثْنَاءِ امْرَأَةِ الأَمِيرِ لِحَاجَتِهِ،أَوِ امْرَأَةٍ طَاعِنَةٍ فِي السِّنِّ لِمَصْلَحَةٍ فَقَطْ،فَإِنَّهُ يُؤْذَنُ لِمِثْلِهِمَا وَلَكِنْ لاَ بَأْسَ بِإِخْرَاجِ النِّسَاءِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانُوا عَسْكَرًا عَظِيمًا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ ؛لأَنَّ الْغَالِبَ السَّلاَمَةُ،وَالْغَالِبُ كَالْمُتَحَقِّقِ ."[٥١٢٢]
وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجِهَادِ،فَقَالَ:«جِهَادُكُنَّ الحَجُّ»[٥١٢٣].
دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:مشروعية مشاركة المرأة للرجال في الخروج إلى الغزو لكي تقوم بما تستطيعه من سقي المجاهدين،وتقديم الخدمات الطبية لهم،ونقل الموتى إلى

[٥١٢٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٧)١٤٢ - (١٨١٢)
[٥١٢١] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٢٩٠)(٩١٩١) صحيح
[٥١٢٢] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (١٦/ ١٣٨)
[٥١٢٣] - صحيح البخاري (٤/ ٣٢)(٢٨٧٥)
قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ أَيْ لَا جِهَادَ عَلَيْكُنَّ وَعَلَيْكُنَّ الْحَجُّ إِذَا اسْتَطَعْتُنَّ "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٧٤٤)

بلادهم،أما مشاركة المرأة في الجهاد المسلح وقتال العدو فقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها استأذنت النبي – ﷺ – في الجهاد فقال:"جهادكن الحج "ما لم يتعين الجهاد.ثانياً:قال الحافظ:وفيه جواز معالجة المرأة الأجنبية الرجل الأجنبي للضرورة.[٥١٢٤]

قال ابن قدامة:"وَلَا يَدْخُلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ النِّسَاءِ إلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ إلَّا الطَّاعِنَةُ فِي السِّنِّ،لِسَقْيِ الْمَاءِ،وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ – ﷺ – وَجُمْلَتُهُ أَنَّهُ يُكْرَهُ دُخُولُ النِّسَاءِ الشَّوَابِّ أَرْضَ الْعَدُوِّ؛لِأَنَّهُنَّ لَسْنَ مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ،وَقَلَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِنَّ فِيهِ،لِاسْتِيلَاءِ الْخَوَرِ وَالْجُبْنِ عَلَيْهِنَّ.وَلَا يُؤْمَنُ ظَفَرُ الْعَدُوِّ بِهِنَّ،فَيَسْتَحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْهُنَّ،فعن حَشْرَجَ بْنِ زِيَادٍ،عَنْ جَدَّتِه أُمِّ أَبِيه أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَادِسَ سِتِّ نِسْوَةٍ،فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَبَعَثَ إِلَيْنَا فَجِئْنَا فَرَأَيْنَا فِيهِ الْغَضَبَ فَقَالَ:«مَعَ مَنْ خَرَجْتُنَّ،وَبِإِذْنِ مَنْ خَرَجْتُنَّ؟"فَقُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْنَا نَغْزِلُ الشَّعَرَ وَنُعِينُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَمَعَنَا دَوَاءُ الْجَرْحَى،وَنُنَاوِلُ السِّهَامَ وَنَسْقِي السَّوِيقَ.فَقَالَ:«قُمْنَ».حَتَّى إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ «أَسْهَمَ لَنَا كَمَا أَسْهَمَ لِلرِّجَالِ».قَالَ:قُلْتُ لَهَا:يَا جَدَّةُ وَمَا كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ:تَمْرًا"[٥١٢٥] ..قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ:هَلْ كَانُوا يَغْزُونَ مَعَهُمْ بِالنِّسَاءِ فِي الصَّوَائِف؟ قَالَ:لَا إلَّا بِالْجَوَارِي.فَأَمَّا الْمَرْأَةُ الطَّاعِنَةُ فِي السِّنِّ،وَهِيَ الْكَبِيرَةُ،إذَا كَانَ فِيهَا نَفْعٌ،مِثْلَ سَقْيِ الْمَاءِ،وَمُعَالَجَةِ الْجَرْحَى،فَلَا بَأْسَ بِه"[٥١٢٦]

ولا ينافي ذلك أخذ الرسول ﷺ من كانت تقع عليها القرعة من زوجاته،لأنها زوجة يأخذها لحاجته إليها،فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا،فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ،قَالَ الزُّهْرِيُّ:وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا،وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ،وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا،وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ،وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ،قَالَتْ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،إِذَا أَرَادَ

[٥١٢٤] – منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٠٤)

[٥١٢٥] – سنن أبي داود (٣/ ٧٥)(٢٧٢٩) ضعيف

[٥١٢٦] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٤)

أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِه،فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا،خَرَجَ بِهَا مَعَهُ،فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا،فَخَرَجَ سَهْمِي،فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ"[5127]

قال ابن الهمام:"(قَوْلُهُ:وَلَا بَأْسَ بِإِخْرَاجِ النِّسَاءِ وَالْمَصَاحِفِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ إذَا كَانُوا عَسْكَرًا عَظِيمًا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ؛لِأَنَّ الْغَالِبَ هُوَ السَّلَامَةُ وَالْغَالِبُ كَالْمُتَحَقِّقِ،وَيُكْرَهُ إخْرَاجُ ذَلِكَ فِي سَرِيَّةٍ لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهَا؛لِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضَهُنَّ عَلَى الضَّيَاعِ وَالْفَضِيحَةِ،وَتَعْرِيضَ الْمَصَاحِفِ عَلَى الاسْتِخْفَافِ) مِنْهُمْ لَهَا...ثُمَّ الْأَوْلَى فِي إخْرَاجِ النِّسَاءِ الْعَجَائِزِ لِلطِّبِّ وَالْمُدَاوَاةِ وَالسَّقْيِ دُونَ الشَّوَابِّ،وَلَوْ احْتِيجَ إلَى الْمُبَاضَعَةِ فَالْأَوْلَى إخْرَاجُ الْإِمَاءِ دُونَ الْحَرَائِرِ (وَلَا يُبَاشِرْنَ الْقِتَالَ لِأَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ إلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ) وَقَدْ «قَاتَلَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ يَوْمَ خَيْبَرَ وَأَقَرَّهَا – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – حَيْثُ قَالَ لَمَقَامُهَا خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ» يَعْنِي بَعْضَ الْمُنْهَزِمِينَ"[5128]

وقال ابن قدامة:"فَإِنْ قِيلَ:فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يُخْرِجُ مَعَهُ مَنْ تَقَعُ عَلَيْهَا الْقُرْعَةُ مِنْ نِسَائِهِ،وَخَرَجَ بِعَائِشَةَ مَرَّاتٍ.قِيلَ:تِلْكَ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ،يَأْخُذُهَا لِحَاجَتِهِ إلَيْهَا،وَيَجُوزُ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْأَمِيرِ عِنْدَ حَاجَتِهِ،وَلَا يُرَخَّصُ لِسَائِرِ الرَّعِيَّةِ؛لِئَلَّا يُفْضِيَ إلَى مَا ذَكَرْنَا.."[5129]

وفي هذه النصوص الدالة على أن الأصل في المرأة ألا تخرج مع المجاهدين،إلا لضرورة مع الحيطة المستطاعة،ما يبين فساد ما عليه الآن كثير من جيوش الشعوب الإسلامية،التي تجند فيها المرأة في وقت السلم والحرب على السواء،لا للخدمة والإعانة التي كانت تقوم بها نساء الصحابة رضي الله عنهم،وإنما لإفسادهن وإفساد رجولة جيوش الشعوب الإسلامية،إذ يختلط النساء – وهن بدون محارم– بالرجال مدة طويلة ويختلي الرجل بالمرأة،عَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:خَطَبَ عُمَرُ،بِالْجَابِيَةِ،فَقَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا كَمُقَامِي،فَقَالَ:«احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثَلَاثًا،ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ عَلَى الْيَمِينِ،قَبْلَ أَنْ يُسْتَحْلَفَ،وَيَشْهَدَ عَلَى الشَّهَادَةِ،قَبْلَ أَنْ

[5127] – صحيح البخاري (٣/ ١٧٣)(٢٦٦١)

[5128] – فتح القدير للكمال ابن الهمام (٥/ ٤٥٠)

[5129] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢١٥)

يُسْتَشْهَدَ،فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ،فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ،فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ،وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ،وَلَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا»[5130]

وهذه إحدى المعاصي التي عاقب الله بها المسلمين الذين يرون هذا المنكر وغيره في أبنائهم وبناتهم فلا ينكرونه،فسلط الله عليهم عدوهم فأذلهم واستباح حرماتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وليعلم هؤلاء أن الإسلام يقرُّ المرأة عند الضرورة أن تقاتل كالرجال،عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا،فَكَانَ مَعَهَا،فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ،فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:«مَا هَذَا الْخِنْجَرُ؟"قَالَتْ:اتَّخَذْتُهُ إِنْ:دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ،فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ،قَالَتْ:يَا رَسُولَ اللهِ،اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا أُمَّ سُلَيْمٍ،إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ»[5131].

وإذا دعت الحاجة لخروجها،فإن الإسلام لا يمنعها من ذلك،ولكنه يصونها عن ذئاب المعاصي والفسق والفجور.

الخيلاء في الحرب:

ومن آداب الجهاد الإسلامية:الخيلاء في المعركة،أي تبختر المجاهد المسلم في ساحة القتال إشعاراً للعدو بعلو الهمة،والشجاعة،واستقبال الموت في سبيل الله برباطة جأش وسكينة نفس،وفي ذلك ما فيه من الإغاظة وإرهاب العدو،وإغاظة العدو وإرهابه عبادة يكتبها الله للمجاهدين،ويعدها من إحسانهم.

كما قال تعالى:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي

[5130] - الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٢٨٦) (١١٦) صحيح

[5131] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢)١٣٤ - (١٨٠٩)

[ش (خنجر) الخنجر سكين كبيرة ذات حدين (بقرت) أي شققت بطنه(من بعدنا) أي من سوانا(الطلقاء) هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح سموا بذلك لأن النبي ﷺ من عليهم وأطلقهم وكان في إسلامهم ضعف فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم وغيره(انهزموا بك) الباء في بك هنا بمعنى عن أي انهزموا عنك على حد قوله تعالى {فاسأل به خبيرا} أي عنه وربما تكون للسببية أي انهزموا بسببك لنفاقهم]

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة:١٢٠].

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ،عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ،وَإِيثَارِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ وَيَخُصُّ بِالعِتَابِ أَهْلَ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ،فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الأَجْرِ،لأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ وَلاَ تَعَبٌ وَلاَ مَجَاعَةٌ (مَخْمَصَةٌ)،وَلاَ يَنْزِلُونَ مَنْزِلاً يُرْهِبُ الكُفَّارَ،وَيَغِيظُهُمْ،وَلاَ يُحَقِّقُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ظَفَراً وَغَلَبَةً..إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهذِهِ الأَعْمَالِ،ثَوَابَ عَمَلٍ صَالِحٍ جَزِيلٍ،وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.[٥١٣٢]

وللخيلاء صورتان:

الصورة الأولى:إظهار التجلد للعدو،حتى ولو كان المجاهد ضعيفاً لمرض أو جوع أو عطش أو كبر أو غير ذلك،ليبدو للعدو قوياً فيهابه.يدلُّ على هذا أمر النبي صلى اله عليه وسلم أصحابه أن يسارعوا في طوافهم بالبيت عند قدومهم لأداء العمرة في عمرة القضاء،وقد قال المشركون أضعفتهم حمى يثرب،ليعلم المشركون أن الصحابة أقوياء وليسوا ضعفاء،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،فَقَالَ المُشْرِكُونَ:إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ،«وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ،وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ،وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ،أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الإِبْقَاءُ عَلَيْهِمْ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:وَزَادَ ابْنُ سَلَمَةَ،عَنْ أَيُّوبَ،عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ،قَالَ:«ارْمُلُوا» لِيَرَى المُشْرِكُونَ قُوَّتَهُمْ،وَالمُشْرِكُونَ مِنْ قِبَلِ قُعَيْقِعَانَ"[٥١٣٣]

وقوله:(ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) يدل على أن الرمل في الثلاثة أشواط كلها من الحجر إلى الحجر هو السنة،وإنما خفف الرسول ﷺ

[٥١٣٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٦،بترقيم الشاملة آليا)

[٥١٣٣] - صحيح البخاري (٥/ ١٤٢)(٤٢٥٦) وصحيح مسلم (٢/ ٩٢٣)٢٤٠ - (١٢٦٦)

[ش (لعامه الذي استأمن) عام عمرة القضاء حيث أمنته قريش حتى يدخل مكة ويعتمر. (من قبل) من جهة. (قعيقعان) جبل في مكة كانت قريش مشرفة من عليه]

وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ إظْهَارِ الْقُوَّةِ بِالْعُدَّةِ وَالسِّلَاحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِلْكُفَّارِ إرْهَابًا لَهُمْ وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ الرِّيَاءِ الْمَذْمُومِ وَفِيهِ جَوَازُ الْمَعَارِيضِ بِالْفِعْلِ كَمَا تَجُوزُ بِالْقَوْلِ قَالَ فِي الْفَتْحِ:وَرُبَّمَا كَانَتْ بِالْفِعْلِ أَوْلَى.نيل الأوطار (٥/ ٤٨)

على أصحابه فلم يأمرهم بالرمل بين الركنين،وقد بينت ذلك رواية جابر بن عبد الله لصفة طوافه ﷺ في حجة الوداع،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ:«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَمَلَ الثَّلَاثَةَ أَطْوَافٍ،مِنَ الْحَجَرِ إِلَى الْحَجَرِ»[٥١٣٤].

قال الإمام النووي رحمه الله في تعليقه على رواية جابر هذه:(فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الرَّمَلَ يُشْرَعُ فِي جَمِيعِ الْمَطَافِ مِنَ الْحَجَرِ إِلَى الْحَجَرِ وَأَمَّا حَدِيثُ بن عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ بَعْدَ هَذَا بِقَلِيلٍ قَالَ وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ فَمَنْسُوخٌ بالحديث الأول لأن حديث بن عَبَّاسٍ كَانَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ سَنَةَ سَبْعٍ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَكَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ فِي أَبْدَانِهِمْ وَإِنَّمَا رَمَلُوا إِظْهَارًا لِلْقُوَّةِ وَاحْتَاجُوا إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَيْنِ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا جُلُوسًا فِي الْحِجْرِ وَكَانُوا لَا يَرَوْنَهُمْ بَيْنَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ وَيَرَوْنَهُمْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَمَّا حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ سَنَةَ عَشْرٍ رَمَلَ مِنَ الْحَجَرِ إِلَى الْحَجَرِ فَوَجَبَ الْأَخْذُ بِهَذَا الْمُتَأَخِّرِ) [٥١٣٥]

وقول النووي رحمه الله في حديث ابن عباس أنه منسوخ بحديث جابر لا داعي له،لأنه صرح في حديث ابن عباس نفسه أنه ما منع رسول الله ﷺ من أمرهم بالرمل في الطواف كله إلا الإبقاء عليهم،ومعنى هذا أن ضعفهم كان سبباً في التخفيف عنهم،بل إنه يفهم من حديث ابن عباس شيء آخر وهو أن أمرهم بالرمل فيما دون ما بين الركنين مع ضعفهم كان من أجل إظهار قوتهم لعدوهم وإشعار العدو بأن ما توهموه من ضعف الصحابة غير صحيح،ولولا ذلك لرخص لهم في ترك الرمل أصلاً،وهو مستحب كما صرح النووي بقوله:(باب اسْتِحْبَابِ الرَّمَلِ فِي الطَّوَافِ وَالْعُمْرَةِ)[٥١٣٦].

[٥١٣٤] - صحيح مسلم (٢/ ٩٢١)٢٣٦ - (١٢٦٣)

[ش (رمل الثلاثة أطواف) هكذا هو في معظم النسخ المعتمدة وفي نادر منها الثلاثة أطواف وفي أندر منها ثلاثة أطواف فأما ثلاثة أطواف فلا شك في جوازه وفصاحته وأما الثلاثة الأطواف ففيه خلاف مشهور بين النحويين منعه البصريون وجوزه الكوفيون وأما الثلاثة أطواف كما وقع في معظم النسخ فمنعه جمهور النحويين وهذا الحديث يدل لمن جوزه]

[٥١٣٥] - شرح النووي على مسلم (٩/ ٩)

[٥١٣٦] - شرح النووي على مسلم (٩/ ٦)

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح:(ويُؤخَذ منهُ جَواز إِظهار القُوَّة بِالعدَّة والسِّلاح ونَحو ذَلِكَ لِلكُفّار إِرهابًا لَهُم،ولا يُعَدّ ذَلِكَ مِنَ الرِّياء المَذمُوم.وفِيهِ جَواز المَعارِيض بِالفعلِ كَما يَجُوز بِالقَولِ،ورُبَّما كانَت بِالفِعلِ أَولَى.)[5137]

وهذا وإن لم يكن أثناء الحرب في المعركة فإن دلالته باعتبار أن حالة الحرب كانت قائمة بين الإسلام والشرك وهذه العمرة كانت في وقت هدنة ومصالحة.

الصورة الثانية:أن يختال في مشيته أمام عدوه،ويتبختر تبختراً يظهر به عزته على العدو:{ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة:٥٤].

فعَنِ ابْنِ عَتِيكٍ الْأَنْصَارِيِّ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ،وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ،فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ فِي اللَّهِ،وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ اللَّهِ،وَإِنَّ مِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ،وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ،فَأَمَّا الْخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَتَخَيَّلَ الْعَبْدُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ،وَأَنْ يَتَخَيَّلَ عِنْدَ الصَّدَاقَةِ،وَأَمَّا الْخُيَلَاءُ الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ،فَالْخُيَلَاءُ لِغَيْرِ الدِّينِ»[5138]،وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ،أَنَّ ابْنَ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ،حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:''إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ،وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ،وَمِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللهُ،وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ،فَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ الْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ،وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ،وَالْخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ اخْتِيَالُ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عِنْدَ الْقِتَالِ،وَاخْتِيَالُهُ بِالصَّدَقَةِ،وَالْخُيَلَاءُ الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ الْخُيَلَاءُ فِي الْفَخْرِ وَالْكِبْرِ أَوْ كَالَّذِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "[5139]

وقد ذم الله تعالى ورسوله ﷺ الخيلاء في غير الحرب،كما قال تعالى:{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان:١٨].

وَلاَ تُعْرِضْ بِوجَهِكَ عَنِ النَّاسِ كِبْراً واسْتِعْلاءً،ولكِنْ أَقبِلْ عَليهِمْ بِوَجْهِكَ كُلِّه إذا كَلَّمْتَهُم،مُسْتَبْشِراً مُتَهَلِّلاً مِنْ غير كِبْرٍ وَلاَ عُتُوٍّ،وَلا تَمْشِ في الأَرْضِ مُتَبَخْتِراً،مُعْجَباً

[5137] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٣/ ٤٧٠)

[5138] – صحيح ابن حبان – مخرجا (١/ ٥٣٠)(٢٩٥) حسن

[5139] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٩/ ١٥٩)(٢٣٧٥٠) حسن

بنَفْسكَ كالجَبَّارينَ الطُّغَاة الُمتَكبِّرينَ (مَرَحاً)،بَلِ امْشِ هَوْناً مشْيَةَ الُمتَواضعينَ لله،فَيُحبَّكَ اللهُ،ويُحبَّكَ خَلْقُهُ،واللهُ تَعَالَى لا يُحبُّ الُمعْجَبَ بنَفْسه (الُمخْتَالَ) الفَخُورَ عَلى غَيْره.[5140]

فعن ابْنِ عُمَرَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِه،أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِه،لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَانُ»[5141].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:فَحَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ عَبْد اللَّه بْنِ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب،عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ مَعْبَد بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالك:أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ حينَ رَأَى أَبَا دُجَانَةَ يَتَبَخْتَرُ:إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغضُهَا اللَّه إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ .[5142]

وعَنْ خَالد بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْد الله بْنِ خَالد بْنِ سمَاك بْنِ خَرَشَةَ،عَنْ أَبيه،عَنْ جَدِّه،أَنَّ أَبَا دُجَانَةَ يَوْمَ أُحُد أُعْلمَ بعصَابَة حَمْرَاءَ،فَنَظَرَ إِلَيْه رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ يَخْتَالُ فِي مَشْيِه بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فَقَالَ:"إِنَّهَا مِشْيَةٌ يُبْغضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضعِ "[5143]

والمقصود منه تفسير الاختيال المشروع والاختيال الممنوع في حديث جابر بن عتيك.

ومشروعية الاختيال في هذا الموضع مخصصة للحظر العام الوارد في النصوص الأخرى مثل الآية السابقة { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان:١٨]، وحديث مُحَمَّد وَهُوَ ابْنُ زِيَاد،قَالَ:سَمعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ،وَرَأَى رَجُلًا يَجُرُّ إِزَارَهُ،فَجَعَلَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ برِجْله وَهُوَ أَميرٌ عَلَى الْبَحْرَيْنِ،وَهُوَ يَقُولُ:جَاءَ الْأَميرُ جَاءَ الْأَمِيرُ،قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا»[5144].

ولقد حفظ عمر بن الخطاب لمن خطر واختال على أعداء الله في المعركة حقه بعد استشهاده،فأكرم من أجل ذلك ابنه،وفضله على غيره معللاً ذلك التفضيل بتلك المزية التي يحبها الله ورسوله في ذلك المقام،عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ،أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ

[5140] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٣٦٨،بترقيم الشاملة آليا)

[5141] – الأدب المفرد مخرجا (ص:١٩٣)(٥٤٩) صحيح

[5142] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٣/ ٢٣٣) فيه جهالة

[5143] – معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٤٣٧)"٣٦٤٢ "حسن لغيره

[5144] – صحيح مسلم (٣/ ١٦٥٣)٤٨ – (٢٠٨٧)

عَنْهُ لَمَّا فَرَضَ لِلنَّاسِ فَرَضَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ،فَأَتَاهُ حَنْظَلَةُ بِابْنِ أَخٍ لَهُ فَفَرَضَ لَهُ دُونَ ذَلِكَ،فَقَالَ لَهُ:يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،فَضَّلْتَ هَذَا الْأَنْصَارِيَّ عَلَى ابْنِ أَخِي؟ فَقَالَ:«نَعَمْ،لِأَنِّي رَأَيْتُ أَبَاهُ يَوْمَ أُحُدٍ يَسْتَنُّ بِسَيْفِهِ كَمَا يَسْتَنُّ الْجَمَلُ»[٥١٤٥]

وَحَدِيثُ عُمَرَ «رأيتُ أَبَاهُ يَسْتَنُّ بسَيْفه كَمَا يَسْتَنُّ الْجَمَلُ» أَيْ يَمْرحُ ويَخْطُر بِهِ.[٥١٤٦]

عدم الخروج من معسكر المجاهدين بدون إذن الأمير:

وجوب طاعة المأمور لأميره،من الأمور البدهية في الإسلام.

ومن طاعة الأمير عدم الخروج من معسكر المجاهدين بدون إذنه،لما في ذلك من عدم الالتزام بطاعته من جهة،ولما فيه من المحاذير التي قد يلحق ضررها بالجنود الذين لم يستأذنوا،وبالجيش الإسلامي كذلك.

فقد يقع الجندي المسلم في كمين من مقاتلي العدو،فيقتلونه أو يأسرونه،وقد يعذبونه حتى يدلهم على مواقع الجيش الإسلامي،وعددهم،وما عندهم من قوة أو ضعف في العتاد،وفي ذلك ما فيه من ضرر على الجندي الذي خرج بدون استئذان وعلى أمته.

وليس الأمر كذلك إذا خرج بإذن من قائده،فإن القائد سينصحه بما يجب عليه عمله،وقد يأمر بأن يصحبه من يحميه من كمائن العدو،وغير ذلك من الأمور الاحتياطية التي لن تتوافر للفرد وحده.

ولهذا كان من أهم صفات المؤمن الدالة على قوة إيمانه،عدم ذهابه بدون إذن أميره،في الأحوال التي تستدعي ذلك،كما قال سبحانه:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور:٦٢]

هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين،أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع،أي:من ضرورته أو من مصلحته،أن يكونوا فيه جميعا،كالجهاد،والمشاورة،ونحو ذلك من الأمور

[٥١٤٥] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢٢٦)"٤٩١٨ "والجهاد لابن المبارك (ص:٧٤)"٨٧ "فيه ضعف

[٥١٤٦] - النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤١١)

التي يشترك فيها المؤمنون،فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم،فالمؤمن بالله ورسوله حقا،لا يذهب لأمر من الأمور،لا يرجع لأهله،ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم،إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده،فجعل موجب الإيمان،عدم الذهاب إلا بإذن،ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم،فقال:{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما:أن يكون لشأن من شئونهم،وشغل من أشغالهم،فأما من يستأذن من غير عذر،فلا يؤذن له.

والثاني:أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة،من دون مضرة بالآذن،قال:{فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} فإذا كان له عذر واستأذن،فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه،أو شجاعته،ونحو ذلك،لم يأذن له،ومع هذا إذا استأذن،وأذن له بشرطيه،أمر الله رسوله أن يستغفر له،لما عسى أن يكون مقصرا في الاستئذان،ولهذا قال:{وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يغفر لهم الذنوب ويرحمهم،بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.[٥١٤٧]

هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها.ثم تستقر في حياتها فتصبح تقليدا متبعا وقانونا نافذا.وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها:«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ..لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم،ولا يطيعون الله ورسوله.«وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» ..والأمر الجامع الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه،لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة.فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم.كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام.

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان،ويلتزمون هذا الأدب،لا يستأذنون إلا وهم مضطرون فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال

[٥١٤٧] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٧٦)

الجماعة،ويستدعي تجمعها له ..ومع هذا فالقرآن يدع الرأي في الإذن أو عدمه للرسول - ﷺ - رئيس الجماعة.بعد أن يبيح له حرية الإذن:«فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» ..(وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال:«عَفَا اللَّهُ عَنْكَ! لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ») ...يدع له الرأي فإن شاء أذن،وإن شاء لم يأذن،فيرفع الحرج عن عدم الإذن،وقد تكون هناك ضرورة ملحة.ويستبقي حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف.ويترك له الكلمة الأخيرة في هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه.

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة،وعدم الانصراف هو الأولى،وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي - ﷺ - للمعتذرين:«وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ.إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ..وبذلك يقيد ضمير المؤمن.فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان.[٥١٤٨]

فقد حصر الله تعالى في هذه الآية الكريمة في مطلعها المؤمنين فيمن اتصفوا بالإيمان به وبرسوله،وبعدم الذهاب بدون إذنه إذا كانوا معه على أمر جامع،كما جعل الاستئذان في وسط الآية من علامة الإيمان به وبرسوله،وجعل تعالى الرسول ﷺ مخيرا في آخر الآية في الإذن لمن شاء،مع الاستغفار لمن أذن له،لما في استئذانه من تركٍ للشأن العام الذي تعود مصلحته لعامة المسلمين،بخلاف شأنه الخاص،مهما كانت أهميته.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية:"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:مَا الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ الْإِيمَانِ،إِلَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ.{وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ} [النور:٦٢] يَقُولُ:وَإِذَا كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،{عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ} [النور:٦٢] يَقُولُ:عَلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ جَمِيعَهُمْ مِنْ حَرْبٍ حَضَرَتْ،أَوْ صَلَاةٍ اجْتَمَعَ لَهَا،أَوْ تُشَاوُرٍ فِي أَمْرٍ نَزَلَ؛{لَمْ يَذْهَبُوا} [النور:٦٢] يَقُولُ:لَمْ يَنْصَرِفُوا عَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ مِنَ الْأَمْرِ،حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَنْصَرِفُونَ يَا مُحَمَّدُ إِذَا كَانُوا مَعَكَ فِي أَمْرٍ جَامِعٍ،عَنْكَ إِلَّا بِإِذْنِكَ لَهُمْ،طَاعَةً مِنْهُمْ لِلَّهِ وَلَكَ ، وَتَصْدِيقًا بِمَا أَتَيْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي؛أُولَئِكَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

[٥١٤٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٢٦٩)

حَقًّا،لَا مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْكَ لَهُ ، بَعْدَ تَقَدُّمِكَ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَنْصَرِفَ عَنْكَ إِلَّا بِإِذْنِكَ،فَإِذَا اسْتَأْذَنَكَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِينَ لَا يَذْهَبُونَ عَنْكَ إِلَّا بِإِذْنِكَ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ يَعْنِي لِبَعْضِ حَاجَاتِهِمُ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ فِي الِانْصِرَافِ عَنْكَ لِقَضَائِهَا.{وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [آل عمران:١٥٩] يَقُولُ:وَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ بِأَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ عَنْ تَبِعَاتِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.{إِنَّ [ص:٣٨٨] اللَّهَ غَفُورٌ} [البقرة:١٧٣] لِذُنُوبِ عِبَادِهِ التَّائِبِينَ،{رَحِيمٌ} [البقرة:١٤٣] بِهِمْ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَيْهَا بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ مِنْهَا [٥١٤٩]

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى:(فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ أَنْ يَأْذَنَ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ.وَقَالَ قَتَادَةُ:قَوْلُهُ:"فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ"مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ:"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ"[التوبة:٤٣].أَيْ لِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِنْ عَلِمْتَ لَهُمْ عذرا.(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). [٥١٥٠]

ويفهم مما مضى أن استئذان الجندي للانصراف لبعض شأنه في حال اجتماع المسلمين مع أميرهم لأمور مهمة مكروه،وإن أذن له الأمير،بدليل أمر الله لرسوله بالاستغفار لمن أذن له.

والأصل في المؤمن ألا يستأذن أميره في الذهاب في تلك الحال،إلا إذا كان له عذر يقتضي الاستئذان،وهو لا يستأذن إلا إذا كان صادقا في حصول عذر له،بخلاف المنافق،فإنه ينتحل الأعذار ويكذب على قائده،من أجل أن يسوغ هربه من القيام بواجبه،بإذن أميره،كما قال تعالى:{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } [الأحزاب:١٣]

وفي المغني:"وَإِذَا غَزَا الْأَمِيرُ بِالنَّاسِ،لَمْ يَجُزْ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَلَّفَ،وَلَا يَحْتَطِبَ،وَلَا يُبَارِزَ عِلْجًا،وَلَا يَخْرُجَ مِنْ الْعَسْكَرِ،وَلَا يُحْدِثَ حَدَثًا،إلَّا بِإِذْنِهِ يَعْنِي لَا يَخْرُجُ مِنْ الْعَسْكَرِ

[٥١٤٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٧/ ٣٨٥)

[٥١٥٠] - تفسير القرطبي (١٢/ ٣٢١)

لِتَعَلُّف،وَهُوَ تَحْصِيلُ الْعَلَف لِلدَّوَابِّ،وَلَا لِاحْتِطَاب،وَلَا غَيْرِه إلَّا بِإِذْنِ الْأَمِيرِ؛لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى:{إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه} [النور:٦٢] {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} [النور:٦٢] .وَلِأَنَّ الْأَمِيرَ أَعْرَفُ بِحَالِ النَّاس،وَحَالِ الْعَدُوِّ،وَمَكَامِنِهِمْ،وَمَوَاضِعِهِمْ،وَقُرْبِهِمْ وَبُعْدِهِمْ.فَإِذَا خَرَجَ خَارِجٌ بِغَيْرِ إذْنِه،لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يُصَادِفَ كَمِينًا لِلْعَدُوِّ،فَيَأْخُذُوهُ،أَوْ طَلِيعَةً لَهُمْ،أَوْ يَرْحَلَ الْأَمِيرُ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَتْرُكَهُ فَيَهْلِكَ.وَإِذَا كَانَ بِإِذْنِ الْأَمِيرِ،لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ إلَّا إلَى مَكَانٍ آمِنٍ،وَرُبَّمَا يَبْعَثُ مَعَهُمْ مِنْ الْجَيْشِ مَنْ يَحْرُسُهُمْ وَيَطَّلِعُ لَهُمْ.

وَأَمَّا الْمُبَارَزَةُ،فَتَجُوزُ بِإِذْنِ الْأَمِيرِ،فِي قَوْلِ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ،إلَّا الْحَسَنَ،فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْهَا،وَكَرِهَهَا.وَلَنَا،أَنَّ حَمْزَةَ،وَعَلِيًّا وَعُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ،بِإِذْنِ النَّبِيِّ - ﷺ -.وَبَارَزَ عَلِيٌّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ فَقَتَلَهُ.وَبَارَزَ مَرْحَبًا يَوْمَ حُنَيْنٍ.وَقِيلَ بَارَزَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ،وَبَارَزَهُ قَبْلَ ذَلِكَ عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ فَاسْتُشْهِدَ.

وَبَارَزَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ مَرْزُبَانَ الزَّأْرَةِ فَقَتَلَهُ،وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَبَلَغَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا.وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:قَتَلْت تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَئِيسًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مُبَارَزَةً،سِوَى مَنْ شَارَكْت فِيه.

وَبَارَزَ شِبْرُ بْنُ عَلْقَمَةَ أُسْوَارًا فَقَتَلَهُ،فَبَلَغَ سَلَبُهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا،فَنَفَلَهُ إيَّاهُ سَعْدٌ وَلَمْ يَزَلْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ - ﷺ - يُبَارِزُونَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ وَبَعْدَهُ،وَلَمْ يُنْكِرْهُ مُنْكِرٌ فَكَانَ ذَلِكَ إجْمَاعًا،وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يُقْسِمُ أَنَّ قَوْلَه تَعَالَى {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج:١٩].نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ،وَهُمْ حَمْزَةُ،وَعَلِيٌّ،وَعُبَيْدَةُ،بَارَزُوا عُتْبَةَ،وَشَيْبَةَ،وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ،وَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ بَارَزْت رَجُلًا يَوْمَ حُنَيْنٍ،فَقَتَلْته.

إذَا ثَبَتَ هَذَا،فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَأْذَنَ الْأَمِيرُ فِي الْمُبَارَزَةِ إذَا أَمْكَنَ.وَبِه قَالَ الثَّوْرِيُّ،وَإِسْحَاقُ وَرَخَّصَ فِيهَا مَالِكٌ،وَالشَّافِعِيُّ،وَابْنُ الْمُنْذِرِ لِخَبَرِ أَبِي قَتَادَةَ،فَإِنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ - ﷺ - وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ مَنْ حَكَيْنَا عَنْهُمْ الْمُبَارَزَةَ،لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُمْ اسْتِئْذَانٌ.وَلَنَا أَنَّ الْإِمَامَ أَعْلَمُ بِفُرْسَانِه وَفُرْسَانِ الْعَدُوِّ،وَمَتَى بَرَزَ الْإِنْسَانُ إلَى مَنْ لَا يُطِيقُهُ،كَانَ مُعَرِّضًا نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ،فَيَكْسِرُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ،فَيَنْبَغِي أَنْ يُفَوَّضَ ذَلِكَ إلَى الْإِمَامِ،لِيَخْتَارَ لِلْمُبَارَزَةِ مَنْ يَرْضَاهُ لَهَا،فَيَكُونَ أَقْرَبَ إلَى الظَّفَرِ وَجَبْرِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ

وَكَسْرِ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.فَإِنْ قِيلَ:فَقَدْ أَبَحْتُمْ لَهُ أَنْ يَنْغَمِسَ فِي الْكُفَّارِ،وَهُوَ سَبَبٌ لِقَتْلِهِ.قُلْنَا:إذَا كَانَ مُبَارِزًا تَعَلَّقَتْ قُلُوبُ الْجَيْشِ بِهِ،وَارْتَقَبُوا ظَفَرَهُ،فَإِنْ ظَفِرَ جَبَرَ قُلُوبَهُمْ،وَسَرَّهُمْ،وَكَسَرَ قُلُوبَ الْكُفَّارِ،وَإِنْ قُتِلَ كَانَ بِالْعَكْسِ،وَالْمُنْغَمِسُ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ،لَا يَتَرَقَّبُ مِنْهُ ظَفَرٌ وَلَا مُقَاوَمَةٌ.فَافْتَرَقَا.وَأَمَّا مُبَارَزَةُ أَبِي قَتَادَةَ فَغَيْرُ لَازِمَةٍ،فَإِنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ الْتِحَامِ الْحَرْبِ،رَأَى رَجُلًا يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ مُسْلِمًا،فَضَرَبَهُ أَبُو قَتَادَةُ،فَضَمَّهُ ضَمَّةً كَادَ يَقْتُلُهُ.وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْمُبَارَزَةُ الْمُخْتَلَفُ فِيهَا،بَلْ الْمُخْتَلَفُ فِيهَا أَنْ يَبْرُزَ رَجُلٌ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَبْلَ الْتِحَامِ الْحَرْبِ،يَدْعُو إلَى الْمُبَارَزَةِ،فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْتَبَرُ لَهُ إذْنُ الْإِمَامِ،لِأَنَّ عَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ تَمْتَدُّ إلَيْهِمَا،وَقُلُوبَ الْفَرِيقَيْنِ تَتَعَلَّقُ بِهِمَا،وَأَيُّهُمَا غَلَبَ سَرَّ أَصْحَابَهُ،وَكَسَرَ قُلُوبَ أَعْدَائِهِ،بِخِلَافِ غَيْرِهِ،إذَا ثَبَتَ هَذَا،فَالْمُبَارَزَةُ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ مُسْتَحَبَّةٌ،وَمُبَاحَةٌ،وَمَكْرُوهَةٌ،أَمَّا الْمُسْتَحَبَّةُ؛فَإِذَا خَرَجَ عِلْجٌ يَطْلُبُ الْبِرَازَ،اُسْتُحِبَّ لِمَنْ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ مُبَارَزَتُهُ بِإِذْنِ الْأَمِيرِ.لِأَنَّ فِيهِ رَدًّا عَنْ الْمُسْلِمِينَ،وَإِظْهَارًا لِقُوَّتِهِمْ.وَالْمُبَاحُ؛أَنْ يَبْتَدِئَ الرَّجُلُ الشُّجَاعُ بِطَلَبِهَا،فَيُبَاحُ وَلَا يُسْتَحَبُّ؛لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ إلَيْهَا،وَلَا يَأْمَنُ أَنْ يُغْلَبَ،فَيَكْسِرَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ،إلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ شُجَاعًا وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ،أُبِيحَ لَهُ؛لِأَنَّهُ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ غَالِبٌ،وَالْمَكْرُوهُ أَنْ يَبْرُزَ الضَّعِيفُ الْمُنَّةِ،الَّذِي لَا يَثِقُ مِنْ نَفْسِهِ،فَتُكْرَهُ لَهُ الْمُبَارَزَةُ؛لِمَا فِيهِ مِنْ كَسْرِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بِقَتْلِهِ ظَاهِرًا."[5151]

قلت:وقد يعاقب الله تعالى من يخرج من جيش المسلمين،بدون إذن الأمير،بما لا يدور في ذهنه من أنواع العقاب العاجلة،مع الإثم الذي سيلقى جزاءه في الآخرة.

فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ فَأَتَيْنَا وَادِيَ الْقُرَى عَلَى حَدِيقَةٍ لِامْرَأَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«اخْرُصُوهَا» فَخَرَصْنَاهَا وَخَرَصَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ،وَقَالَ:«أَحْصِيهَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكِ،إِنْ شَاءَ اللهُ» وَانْطَلَقْنَا،حَتَّى قَدِمْنَا تَبُوكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«سَتَهُبُّ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ،فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ فَمَنْ كَانَ لَهُ

[5151] – المغني لابن قدامة (9/ 216)

بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ» فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ،فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئٍ،...»[5152]

قال النووي رحمه الله:"هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ الظَّاهِرَةُ مِنْ إِخْبَارِهِ ﷺ بِالْمَغِيبِ وَخَوْفِ الضَّرَرِ مِنَ الْقِيَامِ وَقْتَ الرِّيحِ وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى أُمَّتِهِ وَالرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالِاعْتِنَاءِ بِمَصَالِحِهِمْ وتحديرهم مَا يَضُرُّهُمْ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا وَإِنَّمَا أَمَرَ بِشَدِّ عَقْلِ الْجِمَالِ لِئَلَّا يَنْفَلِتَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى الْقِيَامِ فِي طَلَبِهِ فيلحقه ضرر الريح"[5153]

وإذا كان الرسول ﷺ قد أخبر أصحابه،بالغيب الذي إذا فعلوه حصل عليهم منه ضرر،فإن الواجب على المسلم أن يحذر مخالفته لأميره،ولو الذي لا يعلم الغيب،ولا يخرج بدون إذنه،لأن ذلك معصية قد يعاقبه الله عليها بما يشاء،مما لا يعلمه الأمير ولا المأمور.

وقد كان جابر بن عبد الله رضي الله عنه،مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،قافلا إلى المدينة بعد إحدى الغزوات،وكانت نفسه تتوق إلى زوجه،وكان حديث عهد بزواج،فلم يلب نفسه رغبتها إلا بعد أن استأذن من رسول الله ﷺ،ليسرع،فأذن له.فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:فَتَلاَحَقَ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ،وَأَنَا عَلَى نَاضِحٍ لَنَا،قَدْ أَعْيَا فَلاَ يَكَادُ يَسِيرُ،فَقَالَ لِي:«مَا لِبَعِيرِكَ؟»،قَالَ:قُلْتُ:عَيِيَ،قَالَ:فَتَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،فَزَجَرَهُ،وَدَعَا لَهُ،فَمَا زَالَ بَيْنَ يَدَيِ الإِبِلِ قُدَّامَهَا يَسِيرُ،فَقَالَ لِي:«كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ؟»،قَالَ:قُلْتُ:بِخَيْرٍ،قَدْ أَصَابَتْهُ بَرَكَتُكَ،قَالَ:«أَفَتَبِيعُنِيهِ؟"قَالَ:فَاسْتَحْيَيْتُ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا نَاضِحٌ غَيْرُهُ،قَالَ:فَقُلْتُ:نَعَمْ،قَالَ:فَبِعْنِيهِ،فَبِعْتُهُ إِيَّاهُ عَلَى أَنَّ لِي فَقَارَ ظَهْرِهِ،حَتَّى أَبْلُغَ المَدِينَةَ قَالَ:فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَرُوسٌ،فَاسْتَأْذَنْتُهُ،فَأَذِنَ لِي،فَتَقَدَّمْتُ النَّاسَ إِلَى المَدِينَةِ حَتَّى أَتَيْتُ المَدِينَةَ،فَلَقِيَنِي خَالِي،فَسَأَلَنِي عَنِ البَعِيرِ،فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ فِيهِ،فَلاَمَنِي قَالَ:وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،قَالَ لِي حِينَ اسْتَأْذَنْتُهُ:«هَلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟»،فَقُلْتُ:تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا،فَقَالَ:«هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ»،قُلْتُ:يَا رَسُولَ

[5152] - صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٥)(١١ - (١٣٩٢)

[5153] - شرح النووي على مسلم (١٥/ ٤٢)

اللَّه،تُوُفِّيَ وَالِدي أَوِ اسْتُشْهِدَ وَلِي أَخَوَاتٌ صِغَارٌ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ مِثْلَهُنَّ،فَلاَ تُؤَدِّبُهُنَّ،وَلاَ تَقُومُ عَلَيْهِنَّ،فَتَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا لِتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبُهُنَّ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ غَدَوْتُ عَلَيْهِ بِالْبَعِيرِ،فَأَعْطَانِي ثَمَنَهُ وَرَدَّهُ عَلَيَّ قَالَ الْمُغِيرَةُ هَذَا فِي قَضَائِنَا حَسَنٌ لاَ نَرَى بِهِ بَأْسًا"[٥١٥٤]

الكف عمن أظهر الإسلام أو شعاره:

الهدف الرئيس من الجهاد،هو إعلاء كلمة الله،فإذا أظهر بعض الكفار المحاربين أثناء المعركة كلمة الإسلام الشهادتين أو قال:أنا مسلم أو حياهم بتحية الإسلام،وجب على المسلمين الكف عنه وعدم قتله أو قتاله،وهذا من محاسن الإسلام الذي يوجب على المسلم،أن يكف عن عدوه،وهو في حالة غليان عليه في وقت مقارعة السيوف،وقد يكون الذي أظهر الإسلام ممن أعمل سلاحه في المسلمين،وهم يتمنون أن يشفوا صدورهم منه،ويجوز أن يكون في واقع الأمر غير معتقد ما أظهره،وإنما أراد أن يخلص نفسه من القتل،ومع ذلك أوجب الله على المسلمين العمل بالظاهر والتثبت من الحقيقة،كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء:٩٤].

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلى ضَرْبٍ آخَرَ مِنْ ضُرُوبِ القَتْلِ خَطَأً،كَأَنْ يَحْصَلَ أَثْنَاءَ سَفَرٍ،أَوْ غَزْوٍ فِي سَبِيلِ اللهِ إلى أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ،بَعْدَ أَنْ كَانَ الإِسْلاَمُ قَد انْتَشَرَ فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ،وَكَانَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يُحَاوِلُونَ الاتِّصَالَ بِإِخْوانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ،فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ لاَ يَحْسَبُوا كُلَّ مَنْ وَجَدُوهُ،فِي أَرْضِ الكُفْرِ كَافِراً،وَأَنْ يَتَرَيَّثُوا فِي الحُكْمِ عَلَيهِ حَتَّى يَفْحَصُوا أَمْرَهُ وَيَتَبَيَّنُوهُ.وَيَقُولُ تَعَالَى:إِذَا كُنْتُمْ تُجَاهِدُونَ فِي أَرْضِ الأَعْدَاءِ فَتَبَيَّنُوا،وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُسَلِّمُ عَلَيكُمْ،وَيُظْهِرَ لَكُمْ إِسْلاَمَهُ،لَسْتَ مُسْلِماً،وَتَقْتُلُونَهُ

[٥١٥٤] - صحيح البخاري (٤/ ٥١)"٢٩٦٧ "وصحيح مسلم (٣/ ١٢٢١)١١٠ - (٧١٥)

[ش (فتلاحق بي) لحقني. (ناضح) بعير يستقى عليه الماء. (أعيا) تعب. (فقار ظهره) خرزات عظام الظهر أي لي الركوب عليه. (عروس) حديث عهد بعرس ويستوي فيه الذكر الأنثى. (هذا) أي البيع بمثل هذا الشرط. (قضائنا) حكمنا]

رَغْبَةً مِنْكُمْ فِي الاسْتِحْوَاذِ عَلَى الْمَغْنَمِ مِنْهُ،فَعِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِمَا رَغِبْتُمْ فِيهِ مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا،الذي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الذي أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ،وَأَظْهَرَ لَكُمُ الإِيمَانَ،فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُصَانَعَةِ وَالتَّقِيَّةِ لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا،فَمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرِّزْقِ الحَلاَلِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا.وَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ،فِي مِثْلِ حَالِ هَذا الرَّجُلِ الذي يُسِرُّ إِسْلاَمَهُ،وَيُخْفِيهِ عَنْ قَوْمِهِ،فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ بِالعِزِّ وَالنَّصْرِ،وَهَدَاكُمْ إلى الإِسْلاَمِ،وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ،لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ مِنَ البَوَاعِثِ التِي حَفَزَتْكُمْ عَلَى فِعْلِ مَا فَعَلْتُمُوهُ. [٥١٥٥]

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين في حساب إذا خرجوا يجاهدون في سبيل الله.إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه ..وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين.وقد يكون دم مسلم عزيز،لا يجوز أن يراق.

والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة وما كان فيها من طمع في الغنيمة.ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم،فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم.ويمن عليهم أن شرع لهم حدودا وجعل لهم نظاما فلا تكون الهيجة الأولى هي الحكم الآخر.

كما كانوا في جاهليتهم كذلك ..وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم – على قومهم – من الضعف والخوف،فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين،وأن ذلك الرجل القتيل كان يخفي إسلامه على قومه،فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين.«كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ.فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.فَتَبَيَّنُوا.إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً».وهكذا يلمس المنهج القرآني القلوب لتحيا وتتحرج وتتذكر نعمة الله ..وعلى هذه الحساسية والتقوى،يقيم الشرائع والأحكام بعد بيانها وإيضاحها. [٥١٥٦]

٥١٥٥ – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٨٧،بترقيم الشاملة آليا)

٥١٥٦ – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:١٠٩٦)

وفي الآية تذكير للمؤمنين بأن نعمة الإيمان هي نعمة من الله بها عليهم،وقد كانت هذه النعمة قبل أن يمن عليهم بها مفقودة منهم،والذي من عليه بنعمة الإسلام،قادر أن يمن على عدوهم في لحظة القتال،فلا ينبغي أن يستبعد المسلمون أن يهدي الله عدوهم للإسلام في تلك اللحظة.

ولا يجوز لهم أن يتأولوا أن ذلك إنما حصل اتقاء للقتل،فالهداية بيده { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص:٥٦].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:''لَقِيَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلًا فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ،فَقَالَ:السَّلَامُ عَلَيْكُمْ،فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ،فَنَزَلَتْ:(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) وَقَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ:{السَّلَامَ} [النساء:٩٤][٥١٥٧].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:{وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:٩٤] قَالَ:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:''كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ المُسْلِمُونَ،فَقَالَ:السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ،فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ:{تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا} [النساء:٩٤] تِلْكَ الغُنَيْمَةُ قَالَ:قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ السَّلاَمَ"[٥١٥٨]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي حَدْرَدٍ قَالَ:''بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى إِضَمَ،فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ،وَمُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ بْنِ قَيْسٍ "،فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضَمَ مَرَّ بِنَا عَامِرٌ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ،لَهُ مَعَهُ مُتَيِّعٌ وَوَطْبٌ مِنْ لَبَنٍ،فَلَمَّا مَرَّ بِنَا،سَلَّمَ عَلَيْنَا،فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ،وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ،فَقَتَلَهُ بِشَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ،وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَيِّعَهُ،فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ،نَزَلَ فِينَا الْقُرْآنُ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ

[٥١٥٧] - صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٩)٢٢ - (٣٠٢٥)

[٥١٥٨] - صحيح البخاري (٦/ ٤٧)"٤٥٩١ "

[ش(ألقى إليكم السلام) نطق بالشهادتين أو حياكم بتحية الإسلام. (لست مؤمنا) أي تقولون لم يؤمن حقيقة إنما نطق بالإسلام تقية / النساء ٩٤ /. (غنيمته) تصغير غنم أي قطيع صغير من الغنم. (قال) أي عطاء. (السلام) أي بإثبات الألف]

السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:٩٤] [٥١٥٩]

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،قَالَ:خَرَجَ الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ فِي سَرِيَّةٍ،فَمَرُّوا بِرَجُلٍ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ،فَأَرَادُوا قَتْلَهُ،فقَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،فَقَالَ الْمِقْدَادُ:وَدَّ لَوْ فَرَّ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ،قَالَ:فَلَمَّا قَدِمُوا،ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -،فَنَزَلَتْ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا،وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قَالَ:الْغَنِيمَةُ،{فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} قَالَ:تَكْتُمُونَ إِيمَانَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} فَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ،{فَتَبَيَّنُوا} وَعِيدًا مِنَ اللهِ،{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [٥١٦٠].

وعن أبي ظَبْيَانَ،قَالَ:سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ،يَقُولُ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ،فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ،قَالَ:وَلَحِقْتُ أَنَا،وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ،فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ:لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ،فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي فَقَتَلْتُهُ،فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - ﷺ -،فَقَالَ:يَا أُسَامَةُ قَتَلْتُهُ،بَعْدَمَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ قَالَ:قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّمَا قَالَ مُتَعَوِّذًا،فَقَالَ:طَعَنْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا،حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. [٥١٦١]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:(وفِي الآيَة دَلِيل عَلَى أَنَّ مَن أَظهَر شَيئًا مِن عَلامات الإِسلام لَم يَحِلّ دَمه حَتَّى يُختَبَر أَمره،لأَنَّ السَّلام تَحِيَّة المُسلِمِينَ،وكانَت تَحِيَّتهم فِي الجاهِلِيَّة بِخِلافِ ذَلِكَ فَكانَت هَذِهِ عَلامَة.وأَمّا عَلَى قِراءَة السَّلَم عَلَى اختِلاف ضَبطه فالمُراد بِهِ الانقِياد وهُو عَلامَة الإِسلام لأَنَّ مَعنَى الإِسلام فِي اللُّغَة الانقِياد،ولا يَلزَم مِنَ الَّذِي ذَكَرته الحُكم بِإِسلامِ مَن اقتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ وإِجراء أَحكام المُسلِمِينَ عَلَيهِ،بَل لا بُدّ

[٥١٥٩] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٩/ ٣١٠)"٢٣٨٨١ "حسن

[٥١٦٠] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة [١٤/ ٥٨٠] (٢٩٥٤٣) فيه انقطاع

[٥١٦١] - صحيح ابن حبان- ط٢ مؤسسة الرسالة [١١/ ٥٧] (٤٧٥١) صحيح

مِنَ التَّلَفُّظ بِالشَّهادَتَينِ عَلَى تَفاصِيل فِي ذَلِكَ بَين أَهل الكِتاب وغَيرهم،واللَّهُ أَعلَمُ.)[٥١٦٢].

وقال الإمام ابن جرير عند تفسير الآية الآنفة الذكر:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة:١٠٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ ، فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ {إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''إِذَا سِرْتُمْ مَسِيرًا لِلَّهِ فِي جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ {فَتَبَيَّنُوا} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''فَتَأَنَّوْا فِي قَتْلِ مَنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ ، فَلَمْ تَعْلَمُوا حَقِيقَةَ إِسْلَامِهِ وَلَا كُفْرِهِ ، وَلَا تَعْجَلُوا فَتَقْتُلُوا مَنِ الْتَبَسَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ ، وَلَا تَتَقَدَّمُوا عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ إِلَّا عَلَى قَتْلِ مَنْ عَلِمْتُمُوهُ يَقِينًا حَرْبًا لَكُمْ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''وَلَا تَقُولُوا لِمَنِ اسْتَسْلَمَ لَكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ ، مُظْهِرًا لَكُمْ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ وَدَعْوَتِكُمْ {لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء:٩٤] فَتَقْتُلُوهُ ابْتِغَاءَ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، يَقُولُ:طَلَبَ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ عِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةً مِنْ رِزْقِهِ وَفَوَاضِلِ نِعَمِهِ ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَثَابَكُمْ بِهَا عَلَى طَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ ، فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ {كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''كَمَا كَانَ هَذَا الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَقُلْتَ لَهُ لَسْتَ مُؤْمِنًا فَقَتَلْتُمُوهُ ، كَذَلِكَ أَنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يَعْنِي:مِنْ قَبْلِ إِعْزَازِ اللَّهِ دِينَهُ بِتُبَّاعِهِ وَأَنْصَارِهِ ، تَسْتَخْفُونَ بِدِينِكُمْ كَمَا اسْتَخْفَى هَذَا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ ، وَأَخَذْتُمْ مَالَهُ بِدِينِهِ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يُظْهِرَهُ لَهُمْ حَذَرًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ.وَقَدْ قِيلَ:إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ:{كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [النساء:٩٤] كُنْتُمْ كُفَّارًا مِثْلَهُمْ.{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''فَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِإِعْزَازِ دِينِهِ بِأَنْصَارِهِ وَكَثْرَةِ تُبَّاعِهِ.وَقَدْ قِيلَ:فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْ قَتْلِكُمْ هَذَا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ ، وَأَخَذْتُمْ مَالَهُ بَعْدَ مَا أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ {فَتَبَيَّنُوا} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''فَلَا تَعْجَلُوا بِقَتْلِ مَنْ أَرَدْتُمْ قَتْلَهُ مِمَّنِ الْتَبَسَ عَلَيْكُمْ أَمْرُ إِسْلَامِهِ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ الَّذِي مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَهَدَاهُ لِمِثْلِ الَّذِي هَدَاكُمْ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ.{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:٩٤] يَقُولُ:''إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِقَتْلِكُمْ مَنْ تَقْتُلُونَ وَكَفِّكُمْ عَمَّنْ تَكُفُّونَ عَنْ

[٥١٦٢] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٨/ ٢٥٩)

قَتْلِهِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِكُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأُمُورِ غَيْرِكُمْ {خَبِيرًا} [النساء:٣٥] يَعْنِي:ذَا خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ بِهِ ، يَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ ، حَتَّى يُجَازِيَ جَمِيعَكُمْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ.[٥١٦٣].

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره:''وَالْمُسْلِمُ إِذَا لَقِيَ الْكَافِرَ وَلَا عَهْدَ لَهُ جَازَ لَهُ قَتْلُهُ،فَإِنْ قَالَ:لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ يَجُزْ قَتْلُهُ،لِأَنَّهُ قَد اعْتَصَمَ بِعِصَامِ الْإِسْلَامِ الْمَانِعِ مِنْ دَمِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ:فَإِنْ قَتَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ بِهِ.وَإِنَّمَا سَقَطَ الْقَتْلُ عَنْ هَؤُلَاءِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَتَأَوَّلُوا أَنَّهُ قَالَهَا مُتَعَوِّذًا وَخَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ،وَأَنَّ الْعَاصِمَ قَوْلُهَا مُطْمَئِنًّا،فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ عاصم كَيْفَمَا قَالَهَا،وَلِذَلِكَ قَالَ لِأُسَامَةَ:(أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.أَيْ تَنْظُرُ أَصَادِقٌ هُوَ فِي قَوْلِهِ أَمْ كَاذِبٌ؟ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ،فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُبِينَ عَنْهُ لِسَانُهُ.وَفِي هَذَا مِنَ الْفِقْهِ بَابٌ عَظِيمٌ،وَهُوَ أَنَّ الْأَحْكَامَ تُنَاطُ بِالْمَظَانِّ وَالظَّوَاهِرِ لَا عَلَى الْقَطْعِ وَاطِّلَاعِ السَّرَائِرِ."[٥١٦٤].

عدم إفساد الأموال:

ليس في الأرض من يعمل صالحاً يرضاه الله ويثيبه عليه إلا المؤمن،كما قال تعالى:{ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)} [آل عمران:٥٦،٥٧].

فَأمَّا الذينَ كَفَرُوا باللهِ وَبِرِسَالةِ المَسِيحِ فَإِنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً،فِي الدُّنيا بِالقَتْلِ وَالسَّبْيِ،وَأَخْذِ الأمْوَالِ،وَزَوَالِ المُلْكِ،وَتَسْلِيطِ الأُمَمِ عَلِيهِمْ،وَسَيُعَذِّبُهُمْ فِي الآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ،وَمَا لَهُمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَبَأْسِهِ.وَأمَّا المُهْتَدُونَ الذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَعَمِلُوا الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فَيُثِيبُهُمْ ثَوَاباً وَافِياً عَلَى أَعْمَالِهِمْ،فِي الدُّنيا بِالنَّصْرِ والظَّفَرِ،وَفِي الآخِرَةِ بِالخُلُودِ فِي جَنَّتِهِ،وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ المُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِهِ،وَلاَ يَرْفَعُ لَهُمْ قَدْراً.[٥١٦٥]

[٥١٦٣] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٧/ ٣٥١)

[٥١٦٤] - تفسير القرطبي (٥/ ٣٣٨)

[٥١٦٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٣٥٠،بترقيم الشاملة آليا)

ومهما قدم غير المؤمن من الأعمال النافعة المفيدة،فإنه لا قيمة له في ميزان الله،لعدم وجود الأساس الذي يكون العمل به صالحاً،قال تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } [النساء:١٢٤]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى عَمَلاً صَالِحاً،وَهُوَ مُطْمَئِنُ القَلْبِ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ،فَإِنَّ اللهَ يُكَافِئُهُ عَلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ بِإِدْخَالِهِ الجَنَّةَ،وَلاَ يُنْقِصُهُ شَيْئاً مِنْ عَمَلِهِ وَلَوْ كَانَ شَيْئاً بَسِيطاً جِدّاً (نَقِيراً) .[٥١٦٦]

وهم -أي المؤمنون- وحدهم الذين لا يضيع أجرهم،لأنهم وحدهم المصلحون:{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } [الأعراف:١٧٠].

إن الصيغة اللفظية:«يمسكون» ..تصور مدلولا يكاد يحس ويرى ..إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة ..الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه ..في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت ..

فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر ..إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون «الواقع» هو الحكم في شريعة الله! فهو الذي يجب أن يظل محكوما بشريعة الله! والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة وإقامة الصلاة – أي شعائر العبادة – هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة ..والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقرونا إلى الشعائر يعني مدلولا معينا.إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة،مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس.فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس،ولا تصلح بسواه ..والإشارة إلى الإصلاح في الآية:«إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» ..

يشير إلى هذه الحقيقة ..حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملا،وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين.

[٥١٦٦] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٦١٧،بترقيم الشاملة آليا)

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني ..ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص،كالذي كان يصنعه أهل الكتاب وكالذي يصنعه أهل كل كتاب،حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله ..

إنه منهج متكامل.يقيم الحكم على أساس الكتاب ويقيم القلب على أساس العبادة ..ومن ثم تتوافق القلوب مع الكتاب فتصلح القلوب،وتصلح الحياة.

إنه منهج الله،لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجا آخر،إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب![٥١٦٧]

والسبب في ذلك أنهم لا يقدمون على عمل،إلا إذا علموا أن الله تعالى قد أذن فيه أو أمر به أو سكت عنه،كما أنهم يبتعدون كل الابتعاد عن أي أمر يغضب الله فعله،ملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ،قال تعالى:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الحشر:٧].

وقد ادعى غير المؤمنين لأنفسهم الإصلاح،فكذبهم الله وأكد أنهم هم المفسدون،كما قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) } [البقرة].

فَإِذَا قِيلَ لِهؤلاءِ المُنَافِقِينَ:لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ،وَلاَ تُثِيرُوا فِيها الفِتَنَ وَالحُرُوبَ،وَلاَ تُحَرِّضُوا الأَعدَاءَ عَلَى المُؤْمنِينَ،وَلاَ تُفْشُوا أَسْرارَ المُؤْمنِينَ لأَعْدَائِهِمْ،وَلاَ تَرتَكِبُوا المَعَاصِيَ وَغَيْرَ ذلِكَ مِنْ فُنُونِ الشَّرِّ..قَالُوا:إِنَّنا نُرِيدُ الإِصْلاَحَ،فَنَحْنُ بَعِيدُونَ عَنِ الإِفْسَادِ وَشَوَائِبه.والمُفْسِدُونَ يَدَّعُونَ دَائماً أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الإِصْلاَحَ.وَلكِنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ هُمُ المُفْسِدُونَ،لأَنَّ مَا يَقُومُونَ بِهِ هُوَ عَيْنُ الفَسَادِ،وَلكِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ لا يَشْعُرونَ بِأَنَّهُ فَسَادٌ،وَلاَ يُدْرِكُونَ سُوءَ العَاقِبَةِ الذِي سَيَصِيرُون إِليهِ.[٥١٦٨]

[٥١٦٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١٨٥٨)

[٥١٦٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٨،بترقيم الشاملة آليا)

والمؤمنون يقدمون ما يحبه الله،ولو كرهته نفوسهم،لعلمهم أن الخير فيما يحبه الله قال تعالى:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١٦].

كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالإِنْفَاقِ عَلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ لِحمَايَةِ الُمجْتَمَعِ مِنْ دَاخِلِه،كَذلِكَ فَرَضَ اللهُ الجِهَادَ عَلَى الُمسْلِمِينَ،وَمُحَارَبَةَ أَعْدَاءِ الدِّينِ،لِيَكُفُّوا عَنْ الجَمَاعَةِ الُمسْلِمَةِ شَرَّ أَعْدَائِها.وَالجِهَادُ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِه بَعْضُ الأُمَّةِ سَقَطَ عَنِ البَاقِينَ،وَالجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ غَزا أَوْ قَعَدَ،فَالقَاعِدُ عَلَيهِ أَنْ يُعِينَ إِذا اسْتَعَانَ بِهِ النَّاسُ،وَأَنْ يُغيثَ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِه،وَأَنْ يَنْفِرَ إِذا اسْتُنْفِرَ.

وَيَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى:أَنَّ الجِهَادَ فِيهِ كُرْهٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الأَنْفُسِ،مِنْ تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ السَّفَرِ،إِلَى مَخَاطِرِ الحُرُوبِ وَمَا فِيهَا مِنَ جَرْحٍ وَقَتْلٍ وَأَسْرٍ،وَتَرْكٍ لِلْعِيَالِ،وَتَرْكٍ لِلتِّجَارَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالعَمَلِ..إلخ،وَلكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ الخَيْرُ لأَنَّهُ قَدْ يَعْقُبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ بِالأَعْدَاءِ،وَالاستيلاءُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ.وَقَدْ يُحِبُّ المَرْءُ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَهُ،وَمِنْهُ القُعُودُ عَنِ الجِهَادِ،فَقَدْ يَعْقُبُهُ استيلاءُ الأَعْدَاءِ عَلَى البِلادِ وَالحُكْمِ،وَاللهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُها العِبَادُ.[٥١٦٩]

فهم لا يختارون غير ما قضى الله فيه من أمرهم،هرباً من معصيته والضلال عن سبيله:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦].

وبناء على ذلك فإن المسلمين حقاً يعتبرون عمارة الأرض وإصلاحها عبادة لله تعالى،لأهم ما خلقوا إلا لذلك:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) } [الذاريات]

حياهم كلها لله،كموهم:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)} [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

[٥١٦٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٢٢٣،بترقيم الشاملة آليا)

ولا يقدمون على ما ظاهره الإفساد مما يعيبهم به المفسدون فعلاً،إلا إذا كان الله قد أذن لهم فيه،لأنه يؤدي إلى الإصلاح،بل عملهم ذلك يعتبر إصلاحاً:{ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [الحشر:٥].

إِنَّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ،وَمَا تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعٍ فَالجَمِيعُ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ،وَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلاَ حَرَجَ،وَفِيهِ نِكَايَةٌ وَخِزْيٌ وَنَكَالٌ لِلفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ.[٥١٧٠]

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها والتي تحدد سلوك المسلمين في كل شيء –ولاسيما في معاملة الأعداء في أنفسهم وأموالهم– يسأل هذا السؤال هل يجوز للمجاهدين المسلمين تدمير بيوت المحاربين وإتلاف أموالهم والتمثيل بجثثهم؟

الأصل عدم التدمير والإتلاف:

يتضح مما مضى أن الأصل عدم مشروعية التخريب والإتلاف للحيوانات والزروع والمنازل وغيرها،لأن المقصود هو القضاء على شوكة أعداء الإسلام،وشفاء صدور المؤمنين منهم،وإغاظتهم،فإذا حصل ذلك بدون تخريب ولا إتلاف كان بها،وإلا فإن للجيش الإسلامي أن يخرب ويتلف ما لا يتم الانتصار على العدو إلا بتخريبه وإتلافه،كالبيوت التي يتحصنون بها،وحرق الأشجار التي يندسون فيها،أو ما يوقع الغيظ في نفوسهم،ويجعلهم يخرجون للدفاع عنه،ليتمكن المجاهدون من قتالهم والقضاء على شوكتهم.فقد ثبت عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ وَهِيَ البُوَيْرَةُ»،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ} [الحشر:٥][٥١٧١]

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية قولين:

القول الأول:إنه ﷺ عندما قطع نخل بني النضير،عابه هؤلاء،واقموه بأنه ينهى عن الفساد ويأتيه،فترلت الآية.عن يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ،يَعْنِي بِبَنِي

[٥١٧٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٥١٧١] – صحيح البخاري (٦/ ١٤٧)"٤٨٨٤ "وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٥)٢٩ – (١٧٤٦)

النَّضِيرِ،تَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ،فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخْلِ،وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا،فَنَادَوْهُ:يَا مُحَمَّدُ،قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ،فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥][٥١٧٢]

القول الثاني:إن بعض الصحابة قطع النخل،وبعضهم توقف،ورأى أنه لا يسوغ القطع،لأنه مغنم للمسلمين،فنزلت الآية مبيحة فعل القاطعين،وتوقف الكارهين.

فعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُهُ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا} [الحشر:٥] الْآيَةُ،أَيْ لِيَغِظَهُمْ،فَقَطَعَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ النَّخْلَ،وَأَمْسَكَ آخَرُونَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَكُونَ إِفْسَادًا،فَقَالَتِ الْيَهُودُ:آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ فِي الْفَسَادِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} [الحشر:٥]

وعَنْ مُجَاهِدٍ،فِي قَوْلِهِ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥] قَالَ:نَهَى بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ بَعْضًا عَنْ قَطْعِ النَّخْلِ،وَقَالُوا:إِنَّمَا هِيَ مَغَانِمُ الْمُسْلِمِينَ،وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَصْدِيقِ مَنْ نَهَى عَنْ قَطْعِهِ،وَتَحْلِيلِ مَنْ قَطَعَهُ مِنَ الْإِثْمِ،وَإِنَّمَا قَطْعُهُ وَتَرْكُهُ بِإِذْنِهِ"

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:قَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ،وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتْ {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} [الحشر:٥] الْآيَةُ.وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ[٥١٧٣]

وعلى القول بإباحة ذلك الأحناف،والمالكيون – في قول – والشافعية،وأدلتهم واضحة فيما تقدم.

قال السرخسي رحمه الله:"وَلَا بَأْسَ بِأَنْ يُحَرِّقُوا حُصُونَهُمْ وَيُغْرِقُوهَا وَيُخَرِّبُوا الْبُنْيَانَ وَيَقْطَعُوا الْأَشْجَارَ وَكَانَ الْأَوْزَاعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – يَكْرَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِحَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي وَصِيَّةِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –:لَا تَقْطَعُوا شَجَرًا وَلَا تُخَرِّبُوا وَلَا تُفْسِدُوا ضَرْعًا وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا} [البقرة:٢٠٥] الْآيَةُ وَتَأْوِيلُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – فِي السِّيَرِ

[٥١٧٢] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥١٠) صحيح مرسل

[٥١٧٣] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٥١١) صحيح مرسل والآخير صحيح

الْكَبِيرِ «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – كَانَ أَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – بِأَنَّ الشَّامَ تُفْتَحُ لَهُ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا:إنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلَى كُنُوزِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ» فَقَدْ أَشَارَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إلَى ذَلِكَ فِي وَصِيَّتِهِ حَيْثُ قَالَ:فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَمُمَكِّنٌ لَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا فِيهَا مَسَاجِدَ فَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ تَأْتُونَهَا تَلَهِّيًا فَلَمَّا عَلِمَ أَنْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِيرَاثٌ لِلْمُسْلِمِينَ كَرِهَ الْقَطْعَ وَالتَّخْرِيبَ لِهَذَا.

ثُمَّ الدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِهِ مَا ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – «أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِ بَنِي النَّضِيرِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَادَوْهُ مَا كُنْت تَرْضَى بِالْفَسَادِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ فَمَا بَالُ النَّخِيلِ تُقْطَعُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر:٥] » الْآيَةُ وَاللِّينَةُ النَّخْلَةُ الْكَرِيمَةُ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ «وَأَمَرَ بِقَطْعِ النَّخِيلِ بِخَيْبَرَ حَتَّى أَتَاهُ عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَقَالَ:أَلَيْسَ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ لَك خَيْبَرَ فَقَالَ:نَعَمْ،فَقَالَ:إذًا تَقْطَعُ نَخِيلَك وَنَخِيلَ أَصْحَابِك فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْ ذَلِكَ» «وَلَمَّا حَاصَرَ ثَقِيفًا أَمَرَ بِقَطْعِ النَّخِيلِ وَالْكُرُومِ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ الْحُبْلَةُ لَا تَحْمِلُ إلَّا بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَا عَيْشَ بَعْدَ هَذَا» فَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّهُمْ يُذَلُّونَ بِذَلِكَ وَأَنَّ فِيهِ كَبْتًا وَغَيْظًا لَهُمْ وَقَدْ أُمِرْنَا بِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ} [التوبة:١٢٠] «وَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِنْ أَوْطَاسٍ يُرِيدُ الطَّائِفَ بَدَا لَهُ قَصْرُ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ النَّضْرِيِّ فَأَمَرَ بِأَنْ يُحَرَّقَ» وَفِيهِ يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ...حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرٌ

فَهَذِهِ الْآثَارُ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – يَقُولُ:هَذَا إذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ الْحِصْنِ أَسِيرٌ مُسْلِمٌ فَأَمَّا إذَا لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ التَّحْرِيقُ وَالتَّغْرِيقُ لِأَنَّ التَّحَرُّزَ عَنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِ فَرْضٌ وَتَحْرِيقُ حُصُونِهِمْ مُبَاحٌ وَالْأَخْذُ بِمَا هُوَ الْفَرْضُ أَوْلَى وَلَكِنَّا نَقُولُ:لَوْ مَنَعْنَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِمْ قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ وَالظُّهُورُ عَلَيْهِمْ وَالْحُصُونُ قَلَّمَا تَخْلُو عَنْ أَسِيرٍ وَكَمَا لَا يَحِلُّ قَتْلُ الْأَسِيرِ لَا يَحِلُّ قَتْلُ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ثُمَّ لَا يَمْتَنِعُ تَحْرِيقُ حُصُونِهِمْ بِكَوْنِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ فِيهَا فَكَذَلِكَ لَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ

بكَوْن الْأَسير فيهَا وَلَكنَّهُمْ يَقْصدُونَ الْمُشْركينَ بذَلكَ لأَنَّهُمْ لَوْ قَدَرُوا عَلَى التَّمْييز فعْلًا لَزمَهُمْ ذَلكَ فَكَذَلكَ إذَا قَدَرُوا عَلَى التَّمْييز بالنِّيَّة يَلْزَمُهُمْ ذَلكَ."[٥١٧٤].

وقال ابن حجر:"(وَيَجُوزُ إتْلَافُ بنَائهمْ وَشَجَرهمْ لحَاجَة الْقتَال وَالظَّفَر بهمْ) للاتِّبَاع في نَخْل بَني النَّضير النَّازل فيه أَوَّل الْحَشْر لَمَّا زَعَمُوهُ فَسَادًا رَوَاهُ الشَّيْخَان وَفي كُرُوم أَهْل الطَّائف رَوَاهُ الْبَيْهَقيُّ وَأَوْجَبَ جَمْعٌ ذَلكَ إذَا تَوَقَّفَ الظَّفَرُ عَلَيْه.(وَكَذَا) يَجُوزُ إتْلَافُهَا.(إنْ لَمْ يُرْجَ حُصُولُهَا لَنَا) إغَاظَةً وَإضْعَافًا لَهُمْ.(فَإنْ رُجيَ) أَيْ ظُنَّ حُصُولُهَا لَنَا.(نُدبَ التَّرْكُ) وَكُرهَ الْفعْلُ حفْظًا لحَقِّ الْغَانمينَ.(وَيَحْرُمُ إتْلَافُ الْحَيَوَان) الْمُحْتَرَم بغَيْر ذَبْحٍ يَجُوزُ أَكْلُهُ رعَايَةً لحُرْمَة رُوحه وَمنْ ثَمَّ مُنعَ مَالكُهُ منْ إجَاعَته وَتَعْطيشه بخلَاف نَحْو الشَّجَر.(إلَّا مَا يُقَاتلُونَ عَلَيْه) فَيَجُوزُ إتْلَافُهُ.(لدَفْعهمْ أَوْ ظَفَرٍ بهمْ) قيَاسًا عَلَى مَا مَرَّ في ذَرَاريِّهمْ بَلْ أَوْلَى.(أَوْ غَنمْنَاهُ وَخفْنَا رُجُوعَهُ إلَيْهمْ وَضَرَرَهُ) فَيَجُوزُ إتْلَافُهُ أَيْضًا دَفْعًا لهَذه الْمَفْسَدَة،أَمَّا خَوْفُ رُجُوعه فَقَطْ فَلَا يَجُوزُ إتْلَافُهُ بَلْ يُذْبَحُ للْأَكْل،وَأَمَّا غَيْرُ الْمُحْتَرَم كَخنْزير فَيَجُوزُ بَلْ يُسَنُّ إتْلَافُهُ مُطْلَقًا إلَّا إنْ كَانَ فيه عَدْوٌ فَيَجبُ"[٥١٧٥]

إذَا قَدَرَ عَلَى الْعَدُوِّ بالتَّغَلُّب عَلَيْه فَلاَ يَجُوزُ تَحْريقُهُ بالنَّار منْ غَيْر خلاَف يُعْلَمُ،لمَا روي عَنْ حَمْزَة الْأَسْلَميِّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ بَعَثَهُ في سَريَّة،وَأَمَّرَهُ عَلَيْهمْ وَقَالَ:«إنْ أَخَذْتُمْ فُلَانًا فَأَحْرقُوهُ بالنَّار» فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعُوني منْ وَرَائي،فَجئْتُ،فَقَالَ:«إنْ أَخَذْتُمْ فُلَانًا فَاقْتُلُوهُ،وَلَا تُحْرقُوهُ بالنَّار،فَإنَّهُ لَا يُعَذِّبُ بالنَّار إلَّا رَبُّ النَّار»[٥١٧٦].

فَأَمَّا رَمْيُهُمْ بالنَّار قَبْل الْقُدْرَة عَلَيْهمْ مَعَ إمْكَان أَخْذهمْ بغَيْر التَّحْريق فَلاَ يَجُوزُ ؛لأَنَّهُمْ حينَئذ في حُكْم الْمَقْدُور عَلَيْهمْ.وَأَمَّا عنْدَ الْعَجْز عَنْهُمْ بغَيْر التَّحْريق فَجَائزٌ في قَوْل أَكْثَر أَهْل الْعلْم،لفعْل الصَّحَابَة وَالتَّابعينَ في غَزَوَاتهمْ.هَذَا وَإنْ تَتَرَّسَ الْعَدُوُّ في الْحَرْب ببَعْض الْمُسْلمينَ،فَإن اضْطُررْنَا إلَى رَمْيهمْ بالنَّار فَهُوَ جَائزٌ عنْدَ الْجُمْهُور.وَمَرْجعُ ذَلكَ إلَى تَقْدير الْمَصْلَحَة الْعَامَّة.

[٥١٧٤] – المبسوط للسرخسي (١٠/ ٣١)

[٥١٧٥] – تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩/ ٢٤٥)

[٥١٧٦] – مسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ١٠٦)(١٥٣٦) حسن

وَالْحُكْمُ فِي الْبُغَاةِ وَالْمُرْتَدِّينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَالْكُفَّارِ فِي حَالِ الْقِتَالِ.[٥١٧٧]
إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ،وَلَمْ يُرْجَ حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَالإِحْرَاقُ جَائِزٌ اتِّفَاقًا.بَلْ ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى تَعَيُّنِ الإِحْرَاقِ.أَمَّا إِذَا رُجِيَ حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَلَمْ يَكُنْ فِي إِحْرَاقِهَا نِكَايَةٌ،فَإِنَّهُ مَحْظُورٌ.وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِحُرْمَتِهِ.وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي إِحْرَاقِهَا نِكَايَةٌ،وَيُرْجَى حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى كَرَاهَةِ ذَلِكَ.بَلْ صَرَّحَ الشَّافِعِيَّةُ بِنَدْبِ الإِبْقَاءِ حِفْظًا لِحَقِّ الْفَاتِحِينَ.وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى وُجُوبِ الإِبْقَاءِ.
وَإِذَا كَانَ لاَ نِكَايَةَ فِي إِحْرَاقِهَا،وَلاَ يُرْجَى حُصُولُهَا لِلْمُسْلِمِينَ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى جَوَازِهِ.وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّةِ الْكَرَاهَةُ ؛لأَنَّهُ الأَصْلُ عِنْدَهُمْ[٥١٧٨].
أَمَّا الْحَنَابِلَةُ فَالأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمُعَامَلَةُ بِالْمِثْلِ،وَمُرَاعَاةُ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَالِ.

اختلاف الفقهاء في الحرق والإتلاف:

وقد اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْحَرْقِ وَالإِتْلاَفِ،فَقَال الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ:إِذَا أَرَادَ الإِمَامُ الْعَوْدَ،وَعَجَزَ عَنْ نَقْلِ أَسْلِحَةٍ وَأَمْتِعَةٍ وَبَهَائِمَ لِمُسْلِمٍ أَوْ عَدُوٍّ،وَعَنِ الانْتِفَاعِ بِهَا،تُحْرَقُ وَمَا لاَ يُحْرَقُ،كَحَدِيدٍ،يُتْلَفُ أَوْ يُدْفَنُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ لاَ يَقِفُ عَلَيْهِ الْكُفَّارُ،وَذَلِكَ لِئَلاَّ يَنْتَفِعُوا بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ.
أَمَّا الْمَوَاشِي وَالْبَهَائِمُ وَالْحَيَوَانَاتُ فَتُذْبَحُ وَتُحْرَقُ،وَلاَ يَتْرُكُهَا لَهُمْ ؛لأَنَّ الذَّبْحَ يَجُوزُ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ،وَلاَ غَرَضَ أَصَحُّ مِنْ كَسْرِ شَوْكَةِ الأَعْدَاءِ وَتَعْرِيضِهِمْ لِلْهَلَكَةِ وَالْمَوْتِ،ثُمَّ يُحْرَقُ بِالنَّارِ لِتَنْقَطِعَ مَنْفَعَتُهُ عَنِ الْكُفَّارِ،وَصَارَ كَتَخْرِيبِ الْبُنْيَانِ وَالتَّحْرِيقِ لِهَذَا الْغَرَضِ الْمَشْرُوعِ،بِخِلاَفِ التَّحْرِيقِ قَبْل الذَّبْحِ،فَلاَ يَجُوزُ ؛لأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.وَفِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا مَا أَخْرَجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حِبَّانَ قَال:كُنْتُ عِنْدَ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ

[٥١٧٧] - حاشية ابن عابدين ٤ / ١٢٩،١٣١،٢٦٥،وفتح القدير ٤ / ٢٨٦،٢٨٨،٣٠٨ وحاشية الدسوقي ٤ / ٢٩٩،٢ / ١٧٧،١٧٨،ونهاية المحتاج ٨ / ٦١،٦٢،وبداية المجتهد ونهاية المقتصد ١ / ٤٠١،والمغني لابن قدامة ١٠ / ٨٢،٥٠٤،وبلغة السالك لأقرب المسالك ١ / ٣٥٧،ومغني المحتاج ٤ / ١٢٧،١٢٨،١٤٠،وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٠

[٥١٧٨] - فتح القدير ٤ / ٢٨٦،٢٨٧،٣٠٨،وبدائع الصنائع ٧ / ١٠٠،حاشية الدسوقي ٢ / ١٠٨،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤،وبداية المجتهد ١ / ٤٠٢،والمغني والشرح الكبير ١٠ / ٥٠٩،٥١٠،ونيل الأوطار ٧ / ٢٦٢،٢٦٦،وحاشية ابن عابدين ٤ / ١٢٩

عَنْهَا،فَأَخَذْتُ بُرْغُوثًا فَأَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ،فَقَالَتْ:سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُول:قَال رَسُول اللَّهِ ﷺ:لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ.

وَلِلْمَالِكِيَّةِ تَفْصِيلٌ،قَالُوا:يُجْهَزُ عَلَى الْحَيَوَانِ وُجُوبًا،لِلإِرَاحَةِ مِنَ التَّعْذِيبِ بِإِزْهَاقِ رُوحِهِ أَوْ قَطْعِ عُرْقُوبِهِ،أَوِ الذَّبْحِ الشَّرْعِيِّ وَيُحْرَقُ الْحَيَوَانُ نَدْبًا بَعْدَ إِتْلاَفِهِ إِنْ كَانَ الأَعْدَاءُ يَسْتَحِلُّونَ أَكْل الْمَيْتَةِ،وَلَوْ ظَنًّا،لِئَلاَّ يَنْتَفِعُوا بِهِ.فَإِنْ كَانُوا لاَ يَسْتَحِلُّونَ أَكْل الْمَيْتَةِ لَمْ يُطْلَبِ التَّحْرِيقُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا.وَالأَظْهَرُ فِي الْمَذْهَبِ طَلَبُ تَحْرِيقِهِ مُطْلَقًا،سَوَاءٌ اسْتَحَلُّوا أَكْل الْمَيْتَةِ أَمْ لاَ،لاِحْتِمَال أَكْلِهِمْ لَهُ حَال الضَّرُورَةِ.وَقِيل:التَّحْرِيقُ وَاجِبٌ،وَرَجَحَ.

وَقَال اللَّخْمِيُّ:إِنْ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ قَبْل فَسَادِهِ وَجَبَ التَّحْرِيقُ،وَإِلاَّ لَمْ يَجِبْ ؛لِأَنَّ الْمَقْصُودَ عَدَمُ انْتِفَاعِهِمْ بِهِ،وَقَدْ حَصَل بِالإِحْرَاقِ.

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَعَامَّةُ أَهْل الْعِلْمِ،مِنْهُمُ الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ:لاَ يَجُوزُ فِي غَيْرِ حَال الْحَرْبِ عَقْرُ الدَّوَابِّ وَإِحْرَاقُ النَّحْل وَبُيُوتِهِ لِمُغَايَظَةِ الْكُفَّارِ وَالإِفْسَادِ عَلَيْهِمْ،سَوَاءٌ خِفْنَا أَخْذَهُمْ لَهَا أَوْ لَمْ نَخَفْ.

وَذَلِكَ بِخِلاَفِ حَال الْحَرْبِ حَيْثُ يَجُوزُ قَتْل الْمُشْرِكِينَ وَرَمْيُهُمْ بِالنَّارِ،فَيَجُوزُ إِتْلاَفُ الْبَهَائِمِ ؛لأَنَّهُ يُتَوَصَّل بِإِتْلاَفِ الْبَهَائِمِ إِلَى قَتْل الأَعْدَاءِ.

وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].

ولما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَمَّرَ عَلَى الْأَجْنَادِ:يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى جُنْدٍ،وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جُنْدٍ،وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ عَلَى جُنْدٍ،وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى جُنْدٍ،ثُمَّ جَعَلَ يَزِيدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ،وَخَرَجَ مَعَهُ يُشَيِّعُهُ وَيُوصِيهِ،وَيَزِيدُ رَاكِبٌ،وَأَبُو بَكْرٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ،فَقَالَ يَزِيدُ:يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ وَأَمْشِيَ مَعَكَ،فَقَالَ:إِنِّي لَسْتُ بِرَاكِبٍ،وَلَسْتُ بِتَارِكِكَ أَنْ تَنْزِلَ،إِنِّي أَحْتَسِبُ هَذَا الْخَطْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَا يَزِيدُ إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ أَرْضًا يُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فِيهَا أَلْوَانُ الْأَطْعِمَةِ،فَسَمُّوا اللَّهَ إِذَا أَكَلْتُمْ،وَاحْمَدُوهُ إِذَا فَرَغْتُمْ،يَا يَزِيدُ،إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ قَوْمًا قَدْ فَحَصُوا

أَوْسَاطَ رُءُوسِهِمْ فَهِيَ كَالْعَصَائِبِ،فَفَلَقُوا هَامَهُمْ بِالسُّيُوفِ،وَسَتَمُرُّونَ عَلَى قَوْمٍ فِي صَوَامِعَ لَهُمْ،احْتَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا،فَدَعْهُمْ حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ،يَا يَزِيدُ لَا تَقْتُلْ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا صَغِيرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا دَابَّةً عَجْمَاءَ،وَلَا بَقَرَةً،وَلَا شَاةً إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ"[5179]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ:«نَهَى عَنْ قَتْلِ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[5180]
وقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[5181]
وفي سبل السلام:"هُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِ أَيِّ حَيَوَانٍ صَبْرًا وَهُوَ إمْسَاكُهُ حَيًّا ثُمَّ يُرْمَى حَتَّى يَمُوتَ وَكَذَلِكَ مَنْ قُتِلَ مِنْ الْآدَمِيِّينَ فِي غَيْرِ مَعْرَكَةٍ وَلَا حَرْبٍ وَلَا خَطَأٍ فَإِنَّهُ مَقْتُولٌ صَبْرًا وَالصَّبْرُ الْحَبْسُ."[5182] وَلأَنَّهُ حَيَوَانٌ ذُو حُرْمَةٍ فَلَمْ يَجُزْ قَتْلُهُ لِغَيْظِ الْمُشْرِكِينَ.[5183]
وقال ابن حزم:"مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥] وَقَالَ - تَعَالَى - {وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠] وَقَدْ أَحْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ - وَهِيَ فِي طَرَفِ دُورِ الْمَدِينَةِ - وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا تَصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي يَوْمٍ أَوْ غَدِهِ.
وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:لَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا حُجَّةَ فِي أَحَدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَقَدْ يَنْهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْ ذَلِكَ اخْتِيَارًا؛لِأَنَّ

[5179] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ١٨٢)(٢٣٨٣) حسن لغيره
وهذا ما ذكره الفقهاء،وهو مناسب لعصرهم،واللجنة ترى أن لقائد الجيش أن يتصرف بما يراه مصلحة للمسلين بجلب النفع والضرر في حدود القواعد العامة للشريعة
[5180] - المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤٦)(١٢٤٣٠) صحيح
[5181] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٥٠)٦٠ - (١٩٥٩)
[5182] - سبل السلام (٢/ ٥٢٦)
[5183] - فتح القدير ٤ / ٣٠٨،٣٠٩ ابن عابدين ٤ / ١٤٠،وحاشية الدسوقي ٢ / ١٨١،ونهاية المحتاج ٨ / ٦٤،والمغني ١٠ / ٥٠٦

تَرْكَ ذَلكَ أَيْضًا مُبَاحٌ كَمَا فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ،وَلَمْ يَقْطَعْ – ﷺ – أَيْضًا نَخْلَ خَيْبَرَ،فَكُلُّ ذَلكَ حَسَنٌ – وَبَاللَّه – تَعَالَى – التَّوْفيقُ.

وَلَا يَحلُّ عَقْرُ شَيْءٍ منْ حَيَوَانهمْ أَلْبَتَّةَ لَا إبلٍ،وَلَا بَقَرٍ،وَلَا غَنَمٍ،وَلَا خَيْلٍ،وَلَا دَجَاجٍ،وَلَا حَمَامٍ،وَلَا أَوَزٍّ،وَلَا برَك،وَلَا غَيْرِ ذَلكَ إلَّا للْأَكْلِ فَقَطْ،حَاشَا الْخَنَازِيرَ جُمْلَةً فَتُعْقَرُ،وَحَاشَا الْخَيْلَ فِي حَالِ الْمُقَاتَلَة فَقَطْ،وَسَوَاءٌ أَخَذَهَا الْمُسْلمُونَ،أَوْ لَمْ يَأْخُذُوهَا أَدْرَكَهَا الْعَدُوُّ وَلَمْ يَقْدرْ الْمُسْلمُونَ عَلَى مَنْعهَا،أَوْ لَمْ يُدْرِكُوهَا وَيُخَلَّى كُلُّ ذَلكَ وَلَا بُدَّ إنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَى مَنْعه،وَلَا عَلَى سَوْقه،وَلَا يُعْقَرُ شَيْءٌ منْ نَحْلهمْ،وَلَا يُغَرَّقُ،وَلَا تُحَرَّقُ خَلَايَاهُ.

وَكَذَلكَ مَنْ وَقَعَتْ دَابَّتُهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَلَا يَحلُّ لَهُ عَقْرُهَا لَكنْ يَدَعُهَا كَمَا هيَ وَهيَ لَهُ أَبَدًا مَالٌ منْ مَاله كَمَا كَانَتْ لَا يُزِيلُ ملْكَهُ عَنْهَا حُكْمٌ بلَا نَصٍّ.وَهُوَ قَوْلُ مَالكٍ،وَأَبِي سُلَيْمَانَ.

وَقَالَ الْحَنَفيُّونَ،وَالْمَالكيُّونَ:يُعْقَرُ كُلُّ ذَلكَ،فَأَمَّا الْإبلُ،وَالْبَقَرُ،وَالْغَنَمُ،فَتُعْقَرُ،ثُمَّ تُحْرَقُ،وَأَمَّا الْخَيْلُ،وَالْبغَالُ،وَالْحَميرُ فَتُعْقَرُ فَقَطْ.

وَقَالَ الْمَالكيُّونَ:أَمَّا الْبغَالُ،وَالْحَميرُ،فَتُذْبَحُ،وَأَمَّا الْخَيْلُ فَلَا تُذْبَحُ،وَلَا تُعْقَرُ،لَكنْ تُعَرْقَبُ،أَوْ تُشَقُّ أَجْوَافُهَا.

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:في هَذَا الْكَلَامِ منْ التَّخْليط مَا لَا خَفَاءَ به عَلَى ذي فَهْمٍ،أَوَّلُ ذَلكَ:أَنَّهُ دَعْوَى بلَا بُرْهَانٍ،وَتَفْريقٌ لَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَد قَبْلَهُمْ،وَكَانَتْ حُجَّتُهُمْ في ذَلكَ أَنَّهُمْ رُبَّمَا أَكَلُوا الْإبلَ،وَالْبَقَرَ،وَالْغَنَمَ،وَالْخَيْلَ إذَا وَجَدُوهَا مَنْحُورَةً فَكَانَ هَذَا الاحْتجَاجُ أَدْخَلَ فِي التَّخْليط منْ الْقَوْلَة الْمُحْتَجِّ لَهَا.

وَلَيْتَ شعْري مَتَى كَانَتْ النَّصَارَى،أَوْ الْمَجُوسُ،أَوْ عُبَّادُ الْأَوْثَان يَتَجَنَّبُونَ أَكْلَ حمَارٍ،أَوْ بَغْلٍ،وَيَقْتَصرُونَ عَلَى أَكْلِ الْأَنْعَام،وَالْخَيْلِ،وَكُلُّ هَؤُلَاء يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ،وَلَا يُحَرِّمُونَ حَيَوَانًا أَصْلًا – وَأُمَّا الْيَهُودُ،وَالصَّابئُونَ:فَلَا يَأْكُلُونَ شَيْئًا ذَكَّاهُ غَيْرُهُمْ أَصْلًا – وَهَذَا عَجَبٌ جدًّا.

وَاحْتَجُّوا فِي إبَاحَتهمْ قَتْلَ كُلِّ ذَلكَ بقَوْلِ اللَّه – تَعَالَى –:{وَلا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَيْلا إلا كُتبَ لَهُمْ به عَمَلٌ صَالحٌ} [التوبة:١٢٠].

قَالَ أَبُو مُحَمَّد:فَقُلْنَا لَهُمْ:فَاقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ،وَصِغَارَهُمْ،وَنِسَاءَهُمْ،بِهَذَا الِاسْتِدْلَالِ فَهُوَ بِلَا شَكٍّ أَغِيظُ لَهُمْ مِنْ قَتْلِ حَيَوَانِهِمْ؟ فَقَالُوا:إنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ،وَالصِّبْيَانِ.فَقُلْنَا لَهُمْ:وَهُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَهْيٌ عَنْ قَتْلِ الْحَيَوَانِ،إلَّا لِمَأْكَلِهِ،وَلَا فَرْقَ؛وَإِنَّمَا أَمَرَنَا اللَّهُ - تَعَالَى - أَنْ نَغِيظَهُمْ فِيمَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ لَا بِمَا حُرِّمَ عَلَيْنَا فِعْلُهُ.

رُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْمُقْرِي نَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو هُوَ ابْنُ دِينَارٍ - عَنْ صُهَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:«مَا مِنْ إنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْهَا.قِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهِ».

وَمِنْ طَرِيقِ مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ نَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ نَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ حَدَّثَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ «نَهَى النَّبِيُّ - ﷺ - عَنْ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنْ الدَّوَابِّ صَبْرًا»

وَمِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زُنْبُورٍ الْمَكِّيُّ نَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْهَادِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:«لَا تُمَثِّلُوا بِالْبَهَائِمِ».

وَمِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ لِأَمِيرِ جَيْشٍ بَعَثَهُ إلَى الشَّامِ:لَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إلَّا لِمَأْكَلَةٍ وَلَا تُحَرِّقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُغْرِقَنَّهُ،وَلَا يُعْرَفُ لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الصَّحَابَةِ مُخَالِفٌ.

وَأَمَّا الْخَنَازِيرُ فَرُوِّينَا مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ نَا إِسْحَاقُ هُوَ ابْنُ رَاهْوَيْهِ - نَا يَعْقُوبُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ نَا أَبِي عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ،وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ» فَأَخْبَرَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ قَتْلَ الْخِنْزِيرِ مِنْ الْعَدْلِ الثَّابِتِ فِي مِلَّتِهِ الَّتِي يُحْيِيهَا عِيسَى أَخُوهُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -.

وَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ خَبَرًا لَا يَصِحُّ،فِيهِ:أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَرْقَبَ فَرَسَهُ يَوْمَ قُتِلَ – وَهَذَا خَبَرٌ رَوَاهُ عَبَّادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُرَّةَ لَمْ يُسَمِّهِ،وَلَوْ صَحَّ لَمَا كَانَ فِيهِ حُجَّةٌ؛لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – عَرَفَ ذَلِكَ فَأَقَرَّهُ.

وَأَمَّا الْفَرَسُ فِي الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مَنْ أَرَادَ[٥١٨٤].

إتْلاَفُ الأَمْوَال:

إذَا اسْتَعَدَّ الْكُفَّارُ أَوْ تَحَصَّنُوا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنَّنَا نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنُحَارِبُهُمْ لِنَظْفَرَ بِهِمْ،وَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إلَى إتْلاَفِ أَمْوَالِهِمْ،إلاَّ إذَا غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ الظَّفَرُ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ إتْلاَفٍ لِأَمْوَالِهِمْ فَيُكْرَهُ فِعْلُ ذَلِكَ؛لِأَنَّهُ إفْسَادٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْحَاجَةِ،وَمَا أُبِيحَ إلاَّ لَهَا؛لِأَنَّ الْمَقْصُودَ كَسْرُ شَوْكَتِهِمْ،وَإِلْحَاقُ الْغَيْظِ بِهِمْ،فَإِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ حُصُولُ ذَلِكَ بِدُونِ إتْلاَفٍ،وَأَنَّهُ يَصِيرُ لَنَا لاَ نُتْلِفُهُ.[٥١٨٥]

وَأَمَّا قَطْعُ شَجَرِهِمْ وَزَرْعِهِمْ،فَإِنَّ الشَّجَرَ وَالزَّرْعَ يَنْقَسِمُ ثَلاَثَةَ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا:مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إلَى إتْلاَفِهِ كَالَّذِي يَقْرُبُ مِنْ حُصُونِهِمْ وَيَمْنَعُ مِنْ قِتَالِهِمْ،أَوْ يَسْتَتِرُونَ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،أَوْ يَحْتَاجُ إلَى قَطْعِهِ لِتَوْسِعَةِ طَرِيقٍ أَوْ غَيْرِهِ،أَوْ يَكُونُونَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِنَا فَيُفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ؛لِيَنْتَهُوا،فَهَذَا يَجُوزُ بِغَيْرِ خِلاَفٍ.

الثَّانِيَ:مَا يَتَضَرَّرُ الْمُسْلِمُونَ بِقَطْعِهِ لِكَوْنِهِمْ يَنْتَفِعُونَ بِبَقَائِهِ لِعَلُوفَتِهِمْ،أَوْ يَسْتَظِلُّونَ بِهِ،أَوْ يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِ،فَهَذَا يَحْرُمُ قَطْعُهُ؛لِمَا فِيهِ مِنَ الإِضْرَارِ بِالْمُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ:مَا عَدَا هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ مِمَّا لاَ ضَرَرَ فِيهِ بِالْمُسْلِمِينَ،وَلاَ نَفْعَ سِوَى غَيْظِ الْكُفَّارِ وَالإِضْرَارِ بِهِمْ،فَفِيهِ رِوَايَتَانِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ:

إحْدَاهُمَا:يَجُوزُ،وَبِهَذَا قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمَا،عَنْ عَبْدِ اللهِ،«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ،وَقَطَعَ،وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ»،زَادَ قُتَيْبَةُ،وَابْنُ رُمْحٍ فِي حَدِيثِهِمَا:فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر:٥][٥١٨٦]

[٥١٨٤] - المحلى بالآثار (٥/ ٣٤٥)(٩٢٤ و٩٢٥)

[٥١٨٥] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٣ز

[٥١٨٦] - صحيح البخاري (٣/ ١٠٤)(٢٣٢٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٥)٢٩ - (١٧٤٦)

وَقَدْ قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } [الحشر:٥].

إنَّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ،وَمَا تَرَكْتُمُوهُ دُونَ قَطْعٍ فَالجَمِيعُ بِإِذْنِ اللهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ،وَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَلاَ حَرَجَ،وَفِيهِ نِكَايَةٌ وَخِزْيٌ وَنكَالٌ لِلفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ[٥١٨٧].

وَالثَّانِيَةُ:لاَ يَجُوزُ [٥١٨٨].لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّهُ قَدَرَ عَلَيْهِ ابْنُ أَخِيهِ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَقَالَ:«لَعَلَّكَ حَرَقْتَ حَرْثًا؟"قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لَعَلَّكَ غَرَّقْتَ نَخْلًا؟"قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لَعَلَّكَ قَتَلْتَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا؟"قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«لِتَكُنْ غَزْوَتُكَ كَفَافًا».[٥١٨٩]

وَلِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِتْلاَفًا مَحْضًا،فَلَمْ يَجُزْ كَعَقْرِ الْحَيَوَانِ،وَبِهَذَا قَال الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ،وَأَبُو ثَوْرٍ.

وَأَمَّا الْحَيَوَانَاتُ فَلاَ خِلاَفَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهَا حَالَةَ الْحَرْبِ؛لِأَنَّ قَتْل بَهَائِمِهِمْ يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى قَتْلِهِمْ وَهَزِيمَتِهِمْ،وَصَرَّحَ الْمَالِكِيَّةُ بِأَنَّ الأَرْجَحَ وُجُوبُ حَرْقِ الْحَيَوَانَاتِ بَعْدَ قَتْلِهَا إِنِ اسْتَحَلُّوا أَكْل الْمَيْتَةِ فِي دِينِهِمْ،وَقِيل:إِنْ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا قَبْل فَسَادِهَا،وَجَبَ التَّحْرِيقُ،وَإِلاَّ لَمْ يَجِبْ؛لِأَنَّ الْمَقْصُودَ عَدَمُ انْتِفَاعِهِمْ بِهِ وَقَدْ حَصَل.[٥١٩٠]

وَأَمَّا فِي غَيْرِ حَالَةِ الْحَرْبِ:فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ عَقْرُ دَوَابِّهِمْ،لِأَنَّ فِيهِ غَيْظًا لَهُمْ وَإِضْعَافًا لِقُوَّتِهِمْ،فَأَشْبَهَ قَتْلَهَا حَال قِتَالِهِمْ.

وَيَرَى الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ ذَلِكَ مُطْلَقًا،قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ،أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ،يَقُولُ:«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا»[٥١٩١]

[ش (حرق نخل بني النضير وقطع) أي أكثر إحراقها بالنار وقطع بعضها وبنو النضير طائفة من اليهود (البويرة) موضع نخل بني النضير(لينة) هي أنواع التمر كلها إلا العجوة وقيل كرام النخل وقيل كل النخل وقيل كل الأشجار للينها وأصله لونة فقلبت الواو ياء لكسرة اللام]

[٥١٨٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠٠٩،بترقيم الشاملة آليا)

[٥١٨٨] - ابن عابدين ٣ / ٢٢٣،ومغني المحتاج ٤ / ٢٢٦،والمغني ٨ / ٤٥١،٤٥٣،٤٥٤،وكشاف القناع ٣ / ٤٨،٤٩ز

[٥١٨٩] - سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨١)(٢٦٣٠) صحيح

[٥١٩٠] - حاشية الدسوقي ٢ / ١٨١،والمغنى ٨ / ٤٥١ - ٤٥٢،وفتح القدير ٥ / ١٩٧ز

[٥١٩١] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٥٠)٦٠ - (١٩٥٩)

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد،قَالَ:حُدِّثْتُ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتْبَعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:"إِنِّي أُوصِيكَ بِعَشْرٍ:لَا تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا،وَلَا امْرَأَةً،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ،وَلَا تُغْرِقَنَّ نَخْلًا،وَلَا تَحْرِقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ،وَلَا تَجْبُنْ ".[٥١٩٢]

وعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعَثَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى الشَّامِ،فَمَشَى مَعَهُ،فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،إِلَى أَنْ قَالَ:"وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيرًا وَلَا بَقَرًا إِلَّا لِمَأْكَلٍ "[٥١٩٣]

وَلِأَنَّهُ إفْسَادٌ يَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْله تَعَالَى:{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].وَيَجُوزُ عَقْرُ الْحَيَوَانَات لِلأَكْل إِنْ كَانَت الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى ذَلِكَ،لأَنَّ الْحَاجَةَ تُبِيحُ مَال الْمَعْصُومِ،فَمَال الْكَافِرِ أَوْلَى،وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَيْهِ نَظَرْنَا:فَإِنْ كَانَ الْحَيَوَانُ لاَ يُرَادُ إِلاَّ لِلأَكْل كَالدَّجَاجِ،وَالْحَمَامِ،وَسَائِرِ الطَّيْرِ،وَالصَّيْد،فَحُكْمُهُ حُكْمُ الطَّعَامِ،لأَنَّهُ لاَ يُرَادُ لِغَيْرِ الأَكْل،وَتَقِل قِيمَتُهُ،فَأَشْبَهَ الطَّعَامَ،وَإِنْ كَانَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْقِتَال لَمْ يُبَحْ ذَبْحُهُ إِلاَّ لِلأَكْل.[٥١٩٤]

وَفِي تَغْرِيقِ النَّحْلِ وَتَحْرِيقِهِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَقْوَالٍ:

ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَعَامَّةُ أَهْل الْعِلْمِ مِنْهُمُ الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ،إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ تَغْرِيقُ النَّحْل وَتَحْرِيقُهُ،لِمَا رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد،أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ.فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ.فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ:إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ،وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ.فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ «مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ،مَا أَنَا بِرَاكِبٍ.إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».ثُمَّ قَالَ لَهُ:«إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ.فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ.وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ.فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ».وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ:«لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً،وَلَا صَبِيًّا،وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا،وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا،وَلَا تُخَرِّبَنَّ

[٥١٩٢] - مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٨٣)(٣٣١٢١) صحيح لغيره

[٥١٩٣] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٤٧)(١٨١٣٢) صحيح لغيره

[٥١٩٤] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩٠)

عَامِرًا،وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً،وَلَا بَعِيرًا،إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ.وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا،وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ،وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ»[5195].

وَلِأَنَّهُ إِفْسَادٌ فَيَدْخُل فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة:٢٠٥].

وَلِأَنَّهُ حَيَوَانٌ ذُو رُوحٍ،فَلَمْ يَجُزْ قَتْلُهُ لِغَيْظِ الْمُشْرِكِينَ.

وَمُقْتَضَى مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ إِبَاحَتُهُ؛لِأَنَّ فِيهِ غَيْظًا لَهُمْ،وَإِضْعَافًا فَأَشْبَهَ قَتْل بَهَائِمِهِمْ حَال قِتَالِهِمْ.[5196]

وَفَصَّل الْمَالِكِيَّةُ الْقَوْل فِيهِ،فَقَالُوا:إِنْ قَصَدَ بِإِتْلاَفِهَا أَخْذَ عَسَلِهَا كَانَ إِتْلاَفُهَا جَائِزًا قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتِ اتِّفَاقًا،وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ أَخْذَ عَسَلِهَا،فَإِنْ قَلَّتْ كُرِهَ إِتْلاَفُهَا،وَإِنْ كَثُرَ فَيَجُوزُ فِي رِوَايَةٍ مَعَ الْكَرَاهَةِ،وَفِي رِوَايَةٍ لاَ يَجُوزُ،وَإِنَّمَا جَازَ فِي حَال الْكَثْرَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ النِّكَايَةِ لَهُمْ.[5197]

تَحْرِيقُ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ،وَتَغْرِيقُهُ بِالْمَاءِ،وَرَمْيُهُ بِالْمَنْجَنِيقِ:

الظفر بالعدو أمر تتوق له النفس،والانتقام منه كذلك أمر يترل البرد على القلوب.

وعندما يكون الظافر صاحب حق – ولا حق سوى الإسلام – والعدو صاحب باطل – وأعظم الباطل هو الكفر – وعندما يكون هذا العدو الكافر قد عاند الحق وجحده وآذى صاحبه – المؤمن – ولم يرع في حقه عهداً ولا قرابة،عندما يكون الظافر هو المسلم المظلوم،والمظفور به هو الكافر الظالم،تكون مسوغات الانتقام في قمة الحجة والبرهان.

وهنا تتوق النفس إلى استعمال أشد الأساليب انتقاماً.

أليس للمسلم الحق أن يقتل الكافر المحارب الذي لم يأل جهداً في التنكيل بالمسلم وفتنته وإيذائه؟ وإذا كان للمسلم الحق في قتل هذا الكافر أيقتله بوسيلة سهلة،لا يذوق بها العذاب الذي أذاق المسلم ما قد يكون أشد منه؟

[5195] – موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٤٤٨)(١٠) صحيح مرسل

[5196] – ابن عابدين ٣ / ٢٢٣ز

[5197] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٨١ز

فتتجاوب العواطف طالبة قتله بأشد أساليب القتل،ولعل حر النار أشفى لقلب المسلم عندما يراها تلتهم كل جزء من أجزاء بدن عدوه الكافر،فليكن قتله بالنار،هو الشافي.

قَال ابْنُ قُدَامَةَ:إذَا قَدرَ عَلَى الْعَدُوِّ فَلاَ يَجُوزُ تَحْرِيقُهُ بِالنَّارِ بِغَيْرِ خلاَف؛لحَديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي بَعْث فَقَالَ:«إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ»،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ:«إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا،وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ،فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا».[٥١٩٨]

فَأَمَّا رَمْيُهُمْ قَبْل أَخْذهِمْ بِالنَّارِ،فَإِنْ أَمْكَنَ أَخْذُهُمْ بِدُونِهَا لَمْ يَجُزْ رَمْيُهُمْ بِهَا؛لأَنَّهُمْ فِي مَعْنَى الْمَقْدُورِ عَلَيْه،وَأَمَّا عنْدَ الْعَجْزِ عَنْهُمْ بِغَيْرِهَا فَجَائِزٌ فِي قَوْل أَكْثَرِ أَهْل الْعلْم،وَبِه قَال الثَّوْرِيُّ،وَالأَوْزَاعِيُّ،وَالْحَنَابِلَةُ،وَكَذَلِكَ لاَ يَجُوزُ عِنْدَهُمْ تَغْرِيقُ الْعَدُوِّ بِالْمَاءِ،إذَا قَدَرَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِه.[٥١٩٩]

وفِي الفتح:"واختَلَفَ السَّلَف فِي التَّحرِيق:فَكَرِهَ ذَلِكَ عُمَر وابن عَبّاس وغَيرهما مُطلَقًا سَواء كانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفر أَو فِي حال مُقاتَلَة أَو كانَ قِصاصًا،وأَجازَهُ عَلِيٌّ وخالِد بن الوليد وغَيرهما.

وقالَ المُهَلَّب:لَيسَ هَذا النَّهي عَلَى التَّحرِيم بَل عَلَى سَبِيل التَّواضُع،ويَدُلّ عَلَى جَواز التَّحرِيق فِعل الصَّحابَة،وقَد سَمَلَ النَّبِيّ ﷺ أَعيُن العُرَنِيِّينَ بِالحَدِيدِ المَحميّ،وقَد حَرَقَ أَبُو بَكر البُغاة بِالنّارِ بِحَضرَة الصَّحابَة،وحَرَقَ خالد بن الوليد بِالنّار ناسًا مِن أَهل الرِّدَّة.وأَكثَر عُلَماء المَدِينَة يُجِيزُونَ تَحرِيق الحُصُون والمَراكِب عَلَى أَهلها قالَهُ النَّوَوِيّ والأَوزاعِيُّ.

وقالَ ابن المُنِير وغَيره:لا حُجَّة فِيما ذُكِرَ لِلجَواز،لأَنَّ قِصَّة العُرَنِيِّينَ كانَت قِصاصًا أَو مَنسُوخَة كَما تَقَدَّمَ.وتَجوِيز الصَّحابِيّ مُعارَض بِمَنعِ صَحابِيّ آخَر،وقِصَّة الحُصُون والمَراكِب مُقَيَّدَة بِالضَّرُورَة إِلَى ذَلِكَ إِذا تَعَيَّنَ طَرِيقًا لِلظَّفَرِ بِالعَدُوِّ،ومِنهُم مَن قَيَّدَهُ بِأَن لا يَكُون مَعَهُم نِساء ولا صِبيان كَما تَقَدَّمَ.

[٥١٩٨] - صحيح البخاري (٤/ ٦١)(٣٠١٦)

[٥١٩٩] - المغني ٨ / ٤٤٨،٤٤٩ز

وأَمّا حَديث الباب فَظاهِر النَّهي فِيه التَّحرِيم،وهُو نَسخ لأَمرِه المُتَقَدِّم سَواء كانَ بِـــوحيٍ إِلَيه أَو باجتِهادٍ مِنهُ،وهُو مَحمُول عَلَى مَن قَصَد إِلَى ذَلكَ فِي شَخص بِعَينِه.
وقَد اُختُلفَ فِي مَذهَب مالِك فِي أَصل المَسأَلَة وفِي التَّدخِين وفِي القِصاص بِالنّارِ.
وفِي الحَدِيث جَواز الحُكم بِالشَّيءِ اجتِهادًا ثُمَّ الرُّجُوع عَنهُ،واستِحباب ذِكر الدَّلِيل عِند الحُكم لِرَفعِ الإِلباس والاستِنابَة فِي الحُدُود ونَحوها،وأَنَّ طُول الزَّمان لا يَرفَـــع العُقُوبَـــة عَمَّن يَستَحِقّها."[5200]

والذي يظهر أن علياً رضي الله عنه لم يبلغه النهي عن الإحراق بالنار للعدو الكافر،فأحرق بعض الكفار في عهده،كما ثبت أيضاً في الصحيح عَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ:أُتِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ،فَقَالَ:لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ،لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ» وَلَقَتَلْتُهُمْ،لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[5201].

ولكنه رضي الله عنه عندما بلغه كلام ابن عباس ندم ندماً يدل على رجوعه عن ذلك،فعَنْ عِكْرِمَةَ،أَنَّ عَلِيًّا،عَلَيْهِ السَّلَام أَحْرَقَ نَاسًا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ،فَقَالَ:لَمْ أَكُنْ لِأُحْرِقَهُمْ بِالنَّارِ،إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»،وَكُنْتُ قَاتِلَهُمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»،فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَام،فَقَالَ:وَيْحَ ابْنِ عَبَّاسٍ"[5202]

وفي الفتح:"قَوله:"لِنَهيِ رَسُول الله ﷺ لا تُعَذِّبُوا بِعَذابِ الله"؛أَي لِنَهيِهِ عَن القَتل بِالنّارِ لِقَولِهِ لا تُعَذِّبُوا وهَذا يَحتَمِل أَن يَكُون مِمّا سَمِعَهُ ابن عَبّاس مِنَ النَّبِيّ ﷺ،ويَحتَمِل أَن يَكُون سَمِعَهُ مِن بَعض الصَّحابَة،وقَد تَقَدَّمَ فِي "باب لا يُعَذَّب بِعَذابِ الله مِن كِتاب الجِهاد مِن حَدِيث أَبِي هُرَيرَة بَعَثَنا رَسُولُ الله ﷺ فَقالَ:إِن وجَدتُم فُلانًا وفُلانًا فَأَحرِقُوهُما الحَدِيث وفِيهِ أَنَّ النّار لا يُعَذِّب بِها إِلاَّ اللَّهُ وبَيَّنت هُناكَ اسمهما وما يَتَعَلَّق

[5200] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٥٠)
[5201] - صحيح البخاري (٩/ ١٥)(٦٩٢٢)
[5202] - سنن أبي داود (٤/ ١٢٦)(٤٣٥١) صحيح

بِشَرحِ الحَدِيث،وعِند أَبِي داوُدَ عَن ابن مَسعُود فِي قِصَّة أُخرَى أَنَّهُ لا يَنبَغِي أَن يُعَذِّب بِالنّارِ إِلاَّ رَبُّ النّار.

قَوله:"ولَقَتَلتهم لِقَولِ رَسُول الله ﷺ؛فِي رِوايَة إِسماعِيل بن عُلَيَّة عِند أَبِي داوُدَ فِي المَوضِعَينِ فَإِنَّ رَسُول الله ﷺ قالَ.

قَوله:"مَن بَدَّلَ دِينه فاقتُلُوهُ''؛زادَ إِسماعِيل بن عُلَيَّة فِي رِوايَته فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا فَقالَ:ويحَ أُمِّ ابنِ عَبّاس''كَذا عِند أَبِي داوُدَ وعِند الدّارَقُطنِيِّ بِحَذفِ أُمّ وهُو مُحتَمَل أَنَّهُ لَم يَرضَ بِما اعتَرَضَ بِهِ ورَأَى أَنَّ النَّهي لِلتَّنزِيهِ كَما تَقَدَّمَ بَيان الاختِلاف فِيهِ.وهَذا بِناء عَلَى تَفسِير ويح بِأَنَّها كَلِمَة رَحمَة فَتَوجَّعَ لَهُ لِكَونِهِ حَمَلَ النَّهي عَلَى ظاهِره فاعتَقَدَ التَّحرِيم مُطلَقًا فَأَنكَرَ ؛ويَحتَمِل أَن يَكُون قالَها رِضًا بِما قالَ،وأَنَّهُ حَفِظَ ما نَسِيَهُ بِناء عَلَى أَحَد ما قِيلَ فِي تَفسِير ويح أَنَّها تُقال بِمَعنَى المَدح والتَّعَجُّب كَما حَكاهُ فِي النِّهايَة،وكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِن قَول الخَلِيل:هِيَ فِي مَوضِع رَأفَة واستِملاح كَقَولِك لِلصَّبِيِّ ويحه ما أَحسَنَهُ حَكاهُ الأَزهَرِيّ.وقَوله مَن هُو عامٌّ تُخَصّ مِنهُ مَن بَدَّلَهُ فِي الباطِن ولَم يَثبُت عَلَيهِ ذَلِكَ فِي الظّاهِر فَإِنَّهُ تَجرِي عَلَيهِ أَحكام الظّاهِر ويُستَثنَى مِنهُ مَن بَدَّلَ دِينه فِي الظّاهِر لَكِن مَعَ الإِكراه كَما سَيَأتِي فِي كِتاب الإِكراه بَعد هَذا."[٥٢٠٣]

والراجح عدم جواز الإحراق بالنار للنهي الصريح الوارد في هذه النصوص،فليقتل العدو بما أذن الله فيه،وليصلَ نار جهنم التي أعدها الله له،والتي {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٤]

هذا في القتل ابتداءً،أما إذا حرق العدو الكافر مسلماً،فقد أشار الإمام البخاري رحمه الله إلى أنه يمكن استنباط مشروعية حرق الكافر من حديث العُرَنيِّين الذين استاقوا إبل النبي ﷺ وقتلوا راعيها،حيث قال رحمه الله:بَابٌ:إِذَا حَرَّقَ المُشْرِكُ المُسْلِمَ هَلْ يُحَرَّقُ،وروى عن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُكْلٍ،ثَمَانِيَةً،قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْغِنَا رِسْلًا،قَالَ:«مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَلْحَقُوا بِالذَّوْدِ»،فَانْطَلَقُوا،فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا،حَتَّى صَحُّوا وَسَمِنُوا،وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا

[٥٢٠٣] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (١٢/ ٢٧١)

الذَّوْدَ،وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ،فَأَتَى الصَّرِيخُ النَّبِيَّ ﷺ،فَبَعَثَ الطَّلَبَ،فَمَا تَرَجَّلَ النَّهَارُ حَتَّى أُتِيَ بِهِمْ،فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،ثُمَّ أَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ بِهَا،وَطَرَحَهُمْ بِالحَرَّةِ،يَسْتَسْقُونَ فَمَا يُسْقَوْنَ،حَتَّى مَاتُوا،قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ:قَتَلُوا وَسَرَقُوا وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ،وَسَعَوْا فِي الأَرْضِ فَسَادًا"[٥٢٠٤]

والشاهد في الحديث قوله:(ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها).

قال الحافظ: (وقد أورد المصنف في حَديث أَنس فِي قِصَّة العُرَنِيِّينَ،ولَيسَ فِيه التَّصرِيح بِأَنَّهُم فَعَلُوا ذَلِكَ بِالرِّعاءِ لَكِنَّهُ أَشارَ إِلَى ما ورَدَ فِي بَعض طُرُقه،وذَلِكَ فِيما أَخرَجَهُ مُسلم من وجه آخَر عَن أَنَس قالَ:"إِنَّما سَمَلَ النَّبِيّ ﷺ أَعيُن العُرَنِيِّينَ لأَنَّهُم سَمَلُوا أَعيُن الرِّعاء.قالَ ابن بَطّال:ولَو لَم يَرِد ذَلِكَ لَكانَ أَخَذَ ذَلِكَ مِن قِصَّة العُرَنِيِّينَ بِطَرِيقِ الأَولَى،لأَنَّهُ جازَ سَمل أَعيُنهم وهُو تَعذِيب بِالنّارِ ولَو لَم يَفعَلُوا ذَلِكَ بِالمُسلمِينَ فَجَوازه إِن فَعَلُوهُ أَولَى "[٥٢٠٥].

وفي شرح النووي (قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى حَدِيثِ الْعُرَنِيِّينَ هَذَا فَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ كَانَ هَذَا قَبْلَ نُزُولِ الْحُدُودِ وَآيَةِ الْمُحَارَبَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُثْلَةِ فَهُوَ مَنْسُوخٌ وَقِيلَ لَيْسَ مَنْسُوخًا وَفِيهِمْ نَزَلَتْ آيَةُ الْمُحَارَبَةِ وَإِنَّمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ مَا فَعَلَ قِصَاصًا لِأَنَّهُمْ فَعَلُوا بِالرُّعَاةِ مِثْلَ ذَلِكَ).[٥٢٠٦]

الخلاف في المثلة:

وأما المُمُثْلة،فالخلاف فيها كالخلاف في التحريق،وقد وردت في النهي عنها نصوص كثيرة،منها ما لم ينص فيه على الكافر،ومنها ما ورد في سياق قتال المسلمين الكفار.

وهذه طائفة من نصوص النوع الأول:

[٥٢٠٤] - صحيح البخاري (٤/ ٦٢)(٣٠١٨)

[ش (ابغنا) أعنا من الإبغاء وهو الإعانة على الطلب. (رسلا) درا من اللبن. (الصريخ) الصوت الصارخ المستغيث. (الطلب) جمع طالب وهم الذين خرجوا يطلبون هؤلاء الباغين ليمسكوا بهم. (ترجل) ارتفعت شمسه واشتد حره]

[٥٢٠٥] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٥٣)

[٥٢٠٦] - شرح النووي على مسلم (١١/ ١٥٣)

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:«مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَمَرَنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ،وَنَهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ»[٥٢٠٧].

وعَنِ الْهَيَّاجِ بْنِ عِمْرَانَ،أَنَّ عِمْرَانَ أَبَقَ لَهُ غُلَامٌ،فَجَعَلَ لِلَّهِ عَلَيْهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ،فَأَرْسَلَنِي لِأَسْأَلَ لَهُ فَأَتَيْتُ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ فَسَأَلْتُهُ،فَقَالَ:«كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ،وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ».فَأَتَيْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ»[٥٢٠٨]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ،وَيَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ»[٥٢٠٩]

وعَنْ قَتَادَةَ،أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،حَدَّثَهُمْ:أَنَّ نَاسًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا المَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَكَلَّمُوا بِالإِسْلاَمِ،فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ:إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ،وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رِيفٍ،وَاسْتَوْخَمُوا المَدِينَةَ،«فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَوْدٍ وَرَاعٍ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»،فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا نَاحِيَةَ الحَرَّةِ،كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ،وَقَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ،وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ،«فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ،فَأَمَرَ بِهِمْ فَسَمَرُوا أَعْيُنَهُمْ،وَقَطَعُوا أَيْدِيَهُمْ،وَتُرِكُوا فِي نَاحِيَةِ الحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ» قَالَ قَتَادَةُ:بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ يَحُثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنِ المُثْلَةِ"[٥٢١٠]

وفي السيل الجرار:"قوله:"وأن يقتص بضرب العنق".أقول:وجه هذا أنه كان العمل به في أيام النبوة وعدم المجاوزة له إلى غيره فكان ﷺ يأمر بضرب عنق من استحق القتل وكان الصحابة إذا رأوا رجلا يستحق القتل قال قائلهم دعني يا رسول الله أضرب عنقه حتى قيل إن القتل بغير ضرب العنق مثلة وقد ورد النهي عنها في عدة أحاديث حتى قال

٥٢٠٧ - سنن الدارمي (٢/ ١٠٣١)(١٦٩٧) صحيح

٥٢٠٨ - سنن أبي داود (٣/ ٥٣)(٢٦٦٧) صحيح

٥٢٠٩ - سنن النسائي (٧/ ١٠١)(٤٠٤٧) صحيح

٥٢١٠ - صحيح البخاري (٥/ ١٢٩)(٤١٩٢)

[ش (تكلموا بالإسلام) نطقوا بالشهادتين وأظهروا الإسلام. (أهل ضرع) أصحاب ماشية. (ريف) أرض فيها زرع وخصب]

عمران بن حصين:ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة أخرجه أحمد "[5211]

وفي الفتح:"وذَكَرَ فِيهِ حَدِيث أَنَس فِي اليَهُودِيّ والجارِيَة،وهُو حُجَّة لِلجُمهُور أَنَّ القاتِل يُقتَلُ بِما قَتَلَ بِهِ،وتَمَسَّكُوا بِقَولِهِ تَعالَى:{وإِن عاقَبتُم فَعاقِبُوا بِمِثلِ ما عُوقِبتُم بِهِ وبِقَولِهِ تَعالَى:{فاعتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ ما اعتَدَى عَلَيكُم وخالَفَ الكُوفِيُّونَ فاحتَجُّوا بِحَدِيث لا قَود إِلاَّ بِالسَّيفِ،وهُو ضَعِيف أَخرَجَهُ البَزّار وابن عَدِيّ مِن حَدِيث أَبِي بَكرَة،وذَكَرَ البَزّار الاختِلاف فِيهِ مَعَ ضَعف إِسناده.

وقالَ ابن عَدِيّ:طُرُقه كُلّها ضَعِيفَة،وعَلَى تَقدِير ثُبُوته فَإِنَّهُ عَلَى خِلاف قاعِدَتهم فِي أَنَّ السُّنَّة لا تَنسَخ الكِتاب ولا تُخَصِّصهُ،وبِالنَّهيِ عَن المُثلَة وهُو صَحِيح لَكِنَّهُ مَحمُول عِند الجُمهُور عَلَى غَير المُماثَلَة فِي القِصاص جَمعًا بَين الدَّلِيلَين."[5212]

وأما ما ورد النهي فيه عن التمثيل بالعدو الكافر،ففي صحيح مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،...»[5213]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ:"اخْرُجُوا بِسْمِ اللهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،لَا تَغْدِرُوا،وَلا تَغُلُّوا،وَلا تُمَثِّلُوا،وَلا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ،وَلا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ "[5214]

[5211] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٨٨٣)

[5212] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٢/ ٢٠٠)

[5213] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل]

[5214] - مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٤٦١)(٢٧٢٨) حسن لغيره

وعَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْس،قَالَ:ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ،قَالَ:«إِنَّ الله كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ،وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ،فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٥٢١٥].

وهو عام في كل قتل،سواءً كان للكفر أو للقصاص.

وهذه النصوص ظاهرة في النهي عن المثلة،والأصل في النهي التحريم فلا يجوز التمثيل بالكافر،بل يُكتَفى بقتله المعتاد في المعارك بضربه بالسيف أو طعنه بخنجر أو رميه بحجر أو قذيفة أو نحو ذلك،ولا يزاد على ذلك بقطع بعض أطرافه أو جذع أنفه وما أشبه ذلك.

قال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية- المسمى بجامع العلوم والحكم- :(وَالْإِحْسَانُ فِي قَتْلِ مَا يَجُوزُ قَتْلُهُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ:إِزْهَاقُ نَفْسِهِ عَلَى أَسْرَعِ الْوُجُوهِ وَأَسْهَلِهَا وَأَوْحَاهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ فِي التَّعْذِيبِ،فَإِنَّهُ إِيلَامٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ.وَهَذَا النَّوْعُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ،وَلَعَلَّهُ ذَكَرَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ،أَوْ لِحَاجَتِهِ إِلَى بَيَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ فَقَالَ:«إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ،وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ» وَالْقِتْلَةُ وَالذِّبْحَةُ بِالْكَسْرِ،أَيِ الْهَيْئَةُ،وَالْمَعْنَى:أَحْسِنُوا هَيْئَةَ الذَّبْحِ،وَهَيْئَةَ الْقَتْلِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْإِسْرَاعِ فِي إِزْهَاقِ النُّفُوسِ الَّتِي يُبَاحُ إِزْهَاقُهَا عَلَى أَسْهَلِ الْوُجُوهِ وَقَدْ حَكَى ابْنُ حَزْمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى وُجُوبِ الْإِحْسَانِ فِي الذَّبِيحَةِ،وَأَسْهَلُ وُجُوهِ قَتْلِ الْآدَمِيِّ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى الْعُنُقِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ الْكُفَّارِ:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [محمد:٤] [مُحَمَّدٍ:٤]،وَقَالَ تَعَالَى:{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الأنفال:١٢] [الْأَنْفَالِ:١٢] وَقَدْ قِيلَ:إِنَّهُ عَيَّنَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَكُونُ الضَّرْبُ فِيهِ أَسْهَلَ عَلَى الْمَقْتُولِ وَهُوَ فَوْقَ الْعِظَامِ وَدُونَ الدِّمَاغِ،وَوَصَّى دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ قَاتِلَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ كَذَلِكَ.

[٥٢١٥] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)٥٧ - (١٩٥٥)

[ش (القتلة) بكسر القاف وهي الهيئة والحالة(وليحد) يقال أحد السكين وحددها واستحدها بمعنى شحذها(فليرح ذبيحته) بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها]

وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ عن عَديَّ بْنِ ثَابت،سَمعْتُ عَبْدَ اللَّه بْنَ يَزِيدَ الأَنْصَارِيَّ،- وَهُوَ جَدُّهُ أَبُو أُمِّه - قَالَ:«نَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنِ النُّهْبَى وَالْمُثْلَة»[٥٢١٦].

وَخَرَّجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ،قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:قَالَ اللَّهُ:لاَ تُمَثِّلُوا بعبَادي.[٥٢١٧]

وَخَرَّجَ أيضاً عَنْ رَجُلٍ منْ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ أُرَاهُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ:سَمعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ:''مَنْ مَثَّلَ بذي الرُّوح،ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللهُ به يَوْمَ الْقيَامَة "[٥٢١٨].

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَتْلَ الْمُبَاحَ يَقَعُ عَلَى وَجْهَيْن:أَحَدُهُمَا قصَاصٌ،فَلَا يَجُوزُ التَّمْثيلُ فيه بالْمُقْتَصِّ منْهُ،بَلْ يُقْتَلُ كَمَا قَتَلَ،فَإِنْ كَانَ قَدْ مَثَّلَ بالْمَقْتُول،فَهَلْ يُمَثَّلُ به كَمَا فَعَلَ أَمْ لَا يُقْتَلُ إِلَّا بالسَّيْف؟ فيه قَوْلَان مَشْهُورَان للْعُلَمَاء:أَحَدُهُمَا:أَنَّهُ يَفْعَلُ به كَمَا فَعَلَ،وَهُوَ قَوْلُ مَالك وَالشَّافعيِّ وَأَحْمَدَ في الْمَشْهُور عَنْهُ وَفي الصَّحيحَيْن"عَنْ أَنَس بْنِ مَالك،قَالَ:خَرَجَتْ جَاريَةٌ عَلَيْهَا أَوْضَاحٌ بالْمَدينَة،قَالَ:فَرَمَاهَا يَهُوديٌّ بحَجَر،قَالَ:فَجيءَ بهَا إِلَى النَّبيِّ ﷺ وَبهَا رَمَقٌ،فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ:«فُلاَنٌ قَتَلَك؟''فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا،فَأَعَادَ عَلَيْهَا،قَالَ:«فُلاَنٌ قَتَلَك؟''فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا،فَقَالَ لَهَا في الثَّالثَة:«فُلاَنٌ قَتَلَك؟''فَخَفَضَتْ رَأْسَهَا،فَدَعَا به رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَتَلَهُ بَيْنَ الحَجَرَيْن"[٥٢١٩]. وَفي روَايَة عَنْ أَنَس،قَالَ:خَرَجَتْ جَاريَةٌ عَلَيْهَا أَوْضَاحٌ،فَأَخَذَهَا يَهُوديٌّ،فَرَضَخَ رَأْسَهَا،وَأَخَذَ مَا عَلَيْهَا منَ الْحُليِّ،فَأُدْركَتْ وَبهَا رَمَقٌ،فَأُتيَ بهَا رَسُولُ الله ﷺ،فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَك؟،فُلَانٌ؟»،فَقَالَتْ برَأْسهَا:لَا،قَالَ:«فُلَانٌ؟»،حَتَّى سَمَّى الْيَهُوديَّ،قَالَتْ برَأْسهَا:«نَعَمْ،فَأُخذَ فَاعْتَرَفَ،فَأَمَرَ به رَسُولُ الله ﷺ،فَرُضخَ رَأْسُهُ بحَجَرَيْن»[٥٢٢٠]

[٥٢١٦] - صحيح البخاري (٣/ ١٣٥)(٢٤٧٤)

[ش (النهبى) أخذ الشيء من أحد عيانا وقهرا. (المثلة) العقوبة في تقطيع الأعضاء كجذع الأنف والأذن وفقء العين ونحوها إلا إذا كان ذلك قصاصا]

[٥٢١٧] - مصنف ابن أبي شيبة -دار القبلة (١٤/ ٣٠٩)(٢٨٥١٥)ومسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ١٠٩)(١٧٥٦٨) فيه انقطاع

[٥٢١٨] - مسند أحمد ط الرسالة (١٠/ ١٧١)(٥٩٥٦) صحيح لغيره

[٥٢١٩] - صحيح البخاري (٩/ ٥)(٦٨٧٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٩٩)١٥ - (١٦٧٢)

(أوضاحا) جمع وضح نوع من الحلي يصنع من الفضة سميت بها لبياضها وصفائها. (رضخ) شدخ ودق. (رمق) بقية روح]

[٥٢٢٠] - السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٣٣٣)(٦٩١٨) صحيح

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ،«أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَتَلَ جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى حُلِيٍّ لَهَا،ثُمَّ أَلْقَاهَا فِي الْقَلِيبِ،وَرَضَخَ رَأْسَهَا بِالْحِجَارَةِ،فَأُخِذَ،فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُرْجَمَ حَتَّى يَمُوتَ،فَرُجِمَ حَتَّى مَاتَ»[٥٢٢١].

وَالْقَوْلُ الثَّانِي:لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ،وَأَبِي حَنِيفَةَ،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.

وَعَنْ أَحْمَدَ رِوَايَةٌ ثَالِثَةٌ:يَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَرَقَهُ بِالنَّارِ أَوْ مَثَّلَ بِهِ،فَيُقْتَلُ بِالسَّيْفِ لِلنَّهْيِ عَنِ الْمُثْلَةِ وَعَنِ التَّحْرِيقِ بِالنَّارِ نَقَلَهَا عَنْهُ الْأَثْرَمُ،وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ» خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ،[٥٢٢٢] وَقَالَ أَحْمَدُ:يُرْوَى «لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ» وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِجَيِّدٍ،وَحَدِيثُ أَنَسٍ،يَعْنِي:فِي قَتْلِ الْيَهُودِيِّ بِالْحِجَارَةِ أَسْنَدُ مِنْهُ وَأَجْوَدُ.وَلَوْ مَثَّلَ بِهِ،ثُمَّ قَتَلَهُ مِثْلَ أَنْ قَطَعَ أَطْرَافَهُ،ثُمَّ قَتَلَهُ،فَهَلْ يُكْتَفَى بِقَتْلِهِ أَمْ يُصْنَعُ بِهِ كَمَا صَنَعَ،فَيُقْطَعُ أَطْرَافُهُ ثُمَّ يُقْتَلُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:أَحَدُهُمَا:يَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلَ سَوَاءً،وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمْ وَالثَّانِي:يُكْتَفَى بِقَتْلِهِ،وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ،وَقَالَ مَالِكٌ:إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّعْذِيبِ،فُعِلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ اكْتُفِيَ بِقَتْلِهِ.وَالْوَجْهُ الثَّانِي:أَنْ يَكُونَ الْقَتْلُ لِلْكُفْرِ،إِمَّا لِكُفْرٍ أَصْلِيٍّ،أَوْ لِرِدَّةٍ عَنِ الْإِسْلَامِ،فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى كَرَاهَةِ الْمُثْلَةِ فِيهِ أَيْضًا،وَأَنَّهُ يُقْتَلُ فِيهِ بِالسَّيْفِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ جَوَازُ التَّمْثِيلِ فِيهِ بِالتَّحْرِيقِ بِالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،كَمَا فَعَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَغَيْرُهُ....

وَاخْتَارَ ابْنُ عَقِيلٍ – مِنْ أَصْحَابِنَا – جَوَازَ الْقَتْلِ بِالتَّمْثِيلِ لِلْكُفْرِ لَاسِيَّمَا إِذَا تَغَلَّظَ،وَحَمَلَ النَّهْيَ عَنِ الْمُثْلَةِ عَلَى الْقَتْلِ بِالْقِصَاصِ،وَاسْتَدَلَّ مَنْ أَجَازَ ذَلِكَ بِحَدِيثِ الْعُرَنِيِّينَ،وَقَدْ خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ،فَاجْتَوَوْهَا،فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ

[٥٢٢١] – صحيح مسلم (٣/ ١٢٩٩)١٦ – (١٦٧٢) [ش (القليب) هو البئر]

[٥٢٢٢] – سنن ابن ماجه (٢/ ٨٨٩)(٢٦٦٧) وسنن ابن ماجه (٢/ ٨٨٩)(٢٦٦٨) وسنن الدارقطني (٤/ ٦٩)(٣١٠٩ – ٣١١٣) وشرح معاني الآثار (٣/ ١٨٤)(٥٠٢٦) ومسند البزار = البحر الزخار (٩/ ١١٥)(٣٦٦٣) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٤/ ٢٤٠)(٢٨٢٩٥) من طرق ضعيفة ومرسلة حسن لغيره

الصَّدَقَة،فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»،فَفَعَلُوا،فَصَحُّوا،ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرِّعَاءِ،فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ،فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ،فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ،وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ،حَتَّى مَاتُوا"[٥٢٢٣]

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ،حَدَّثَنِي أَنَسٌ،أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً،قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ،فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ،وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ،فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:«أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ،فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا»،فَقَالُوا:بَلَى،فَخَرَجُوا،فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا،فَصَحُّوا،فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ،فَأُدْرِكُوا،فَجِيءَ بِهِمْ،فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ،وَسُمِرَ أَعْيُنُهُمْ،ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا،وقَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ فِي رِوَايَتِهِ:وَاطَّرَدُوا النَّعَمَ،وَقَالَ:وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ"[٥٢٢٤]

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،قَالَ:قَدِمَ أُنَاسٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ،فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ «فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ،بِلِقَاحٍ،وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا» فَانْطَلَقُوا،فَلَمَّا صَحُّوا،قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ،وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ،فَجَاءَ الخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ،فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ،فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِمْ،«فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ،وَأُلْقُوا فِي الحَرَّةِ،يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ».قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ:«فَهَؤُلاَءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا،وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ،وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ»[٥٢٢٥]

[٥٢٢٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٩٦)٩ - (١٦٧١)

[ش هذا الحديث أصل في عقوبة المحاربين وهو موافق لقوله تعالى {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض قال القاضي عياض رضي الله عنه واختلف العلماء في معنى حديث العرنيين هذا فقال بعض السلف كان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة فهو منسوخ وقيل ليس منسوخا وفيهم نزلت آية المحاربة(عرينة) قال في الفتح عرينة حي من قضاعة وحي من بجيلة من قحطان والمراد هنا الثاني كذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي(فاجتووها) معناه استوخموها أي لم توافقهم وكرهوها لسقم أصابهم قالوا وهو مشتق من الجوى وهو داء في الجوف(ثم مالوا على الرعاة) وفي بعض الأصول المعتمدة الرعاء وهما لغتان يقال راع ورعاة كقاض وقضاة وراع ورعاء كصاحب وصحاب(وساقوا ذود رسول الله ﷺ) أي أخذوا إبله وقدموها أمامهم سائقين لها طاردين(سمل أعينهم) هكذا هو في معظم النسخ سمل وفي بعضها سمر ومعنى سمل فقأها وأذهب ما فيها ومعنى سمر حلها بمسامير محمية وقيل هما بمعنى(وتركهم في الحرة) هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا]

[٥٢٢٤] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٩٦)١٠ - (١٦٧١) [ش (عكل) قبيلة من تيم الرباب من عدنان كذا في الفتح]

[٥٢٢٥] - صحيح البخاري (١/ ٥٦)(٢٣٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٢٩٧)١١ - (١٦٧١)

وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا المَدِينَةَ،فَاجْتَوَوْهَا،فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ،وَقَالَ:«اشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»،فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَاسْتَاقُوا الإِبِلَ،وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلَامِ،فَأُتِيَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ،وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ،وَأَلْقَاهُمْ بِالحَرَّةِ "،قَالَ أَنَسٌ:«فَكُنْتُ أَرَى أَحَدَهُمْ يَكُدُّ الأَرْضَ بِفِيهِ،حَتَّى مَاتُوا»،وَرُبَّمَا قَالَ حَمَّادٌ:«يَكْدُمُ الأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا»[٥٢٢٦].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسائيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ،«أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ،فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَوْدٍ لَهُ،فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا،فَلَمَّا صَحُّوا،ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُؤْمِنًا،وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ،فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ،فَأُخِذُوا،فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ،وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،وَصَلَبَهُمْ»[٥٢٢٧].

وَقَد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَجْهِ عُقُوبَةِ هَؤُلَاءِ،فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ فَارْتَدَّ،وَحَارَبَ،وَأَخَذَ الْمَالَ،صُنِعَ بِهِ كَمَا صُنِعَ بِهَؤُلَاءِ،وَرُوِيَ هَذَا عَنْ طَائِفَةٍ،مِنْهُمْ أَبُو قِلَابَةَ،وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:بَلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ التَّمْثِيلِ مِمَّنْ تَغَلَّظَتْ جَرَائِمُهُ فِي الْجُمْلَةِ،وَإِنَّمَا نُهِيَ عَنِ التَّمْثِيلِ فِي الْقِصَاصِ،وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَقِيلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا.وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:بَلْ نُسِخَ مَا فَعَلَ بِالْعُرَنِيِّينَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُثْلَةِ.وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:كَانَ قَبْلَ نُزُولِ الْحُدُودِ وَآيَةِ الْمُحَارَبَةِ،ثُمَّ نُسِخَ بِذَلِكَ،وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْهُمُ الْأَوْزَاعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدٍ.وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:بَلْ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِآيَةِ الْمُحَارَبَةِ،وَلَمْ يُنْسَخْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛وَقَالُوا:إِنَّمَا قَتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ،لِأَنَّهُمْ أَخَذُوا الْمَالَ؛وَمَنْ أَخَذَ الْمَالَ وَقَتَلَ،قُطِعَ وَقُتِلَ،وَصُلِبَ حَتْمًا؛فَيُقْتَلُ لِقَتْلِهِ وَيُقْطَعُ لِأَخْذِهِ الْمَالَ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ،وَيُصْلَبُ لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْجِنَايَتَيْنِ وَهُمَا الْقَتْلُ وَأَخْذُ الْمَالِ،وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ،وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.وَإِنَّمَا سَمَلَ أَعْيُنَهُمْ،لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرُّعَاةِ كَذَا خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ

[ش (عكل أو عرينة) أسماء قبائل. (فاجتووا) أصابهم الجوى وهو داء الجوف إذا استمر. (بلقاح) حي الإبل الحلوب واحدها لقوح. (سموت) فقئت بحديدة محماة. (الحرة) أرض ذات حجارة سوداء في ظاهر المدينة أي خارج بنيانها]

[٥٢٢٦] - سنن الترمذي ت شاكر (١/ ١٠٧)(٧٢) صحيح وقال الترمذي:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ،وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَنَسٍ "وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ،قَالُوا:لَا بَأْسَ بِبَوْلِ مَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ "

[٥٢٢٧] - سنن النسائي (٧/ ٩٥)(٤٠٢٨) صحيح

أَنَسٍ،وَذَكَرَ ابْنُ شِهَابٍ أَنَّهُمْ قَتَلُوا الرَّاعِيَ،وَمَثَّلُوا بِهِ،وَذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّهُمْ قَطَعُوا يَدَهُ وَرِجْلَهُ،وَغَرَسُوا الشَّوْكَ فِي لِسَانِهِ وَعَيْنَيْهِ حَتَّى مَاتَ،[٥٢٢٨] وَحِينَئِذٍ،فَقَدْ يَكُونُ قَطْعُهُمْ،وَسَمْلُ أَعْيُنِهِمْ،وَتَعْطِيشُهُمْ قِصَاصًا،وَهَذَا يَتَخَرَّجُ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ:إِنَّ الْمُحَارِبَ إِذَا جَنَى جِنَايَةً تُوجِبُ الْقِصَاصَ اسْتُوْفِيَتْ مِنْهُ قَبْلَ قَتْلِهِ،وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ.لَكِنْ هَلْ يُسْتَوْفَى مِنْهُ تَحَتُّمًا كَقَتْلِهِ أَمْ عَلَى وَجْهِ الْقِصَاصِ،فَيَسْقُطُ بِعَفْوِ الْوَلِيِّ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ عَنْهُ،وَلَكِنَّ رِوَايَةَ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ قَطْعَهُمْ مِنْ خِلَافٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَطْعَهُمْ لِلْمُحَارَبَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَطَعُوا يَدَ الرَّاعِي وَرِجْلَهُ مِنْ خِلَافٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.)[٥٢٢٩]

حكم النار الناتجة عن الأسلحة الحديثة:

وهنا يجب استدراك النار الناتجة عن استعمال الأسلحة التي لا بد للمسلمين من استعمالها،لأن أعداءهم يستعملونها،كالصواريخ والقنابل والمدافع وغيرها،إذ لو ترك المسلمون استعمالها في حال أن عدوهم يستعملها،وهي أفتك من غيرها من الأسلحة الأخرى،لكان في ذلك فتحاً لباب انتصار الكافرين على المجاهدين،وذهاب الهيبة من قلوب الكفار،وقد أمر الله المؤمنين بإعداد العدة التي ترهب عدوهم:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال:٦٠].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله:"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الْإِعْدَادُ تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ لِلْمُسْتَقْبَلِ،وَالرِّبَاطُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْحَبْلُ الَّذِي تُرْبَطُ بِهِ الدَّابَّةُ كَالْمِرْبَطِ (بِالْكَسْرِ) وَرِبَاطُ الْخَيْلِ حَبْسُهَا وَاقْتِنَاؤُهَا - وَرَابَطَ الْجَيْشُ:أَقَامَ فِي الثَّغْرِ،وَالْأَصْلُ أَنْ يَرْبِطَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ خُيُولَهُمْ،ثُمَّ سَمَّى الْإِقَامَةَ فِي الثَّغْرِ مُرَابَطَةً وَرِبَاطًا اهــ.مِنَ الْأَسَاسِ.

[٥٢٢٨] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٢/ ٧١)

[٥٢٢٩] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٣٨٢)

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَجْعَلُوا الاسْتِعْدَادَ لِلْحَرْبِ (الَّتِي عَلِمُوا أَنْ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهَا لِدَفْعِ الْعُدْوَانِ وَالشَّرِّ،وَلِحِفْظِ الْأَنْفُسِ وَرِعَايَتِهِ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالْفَضِيلَةَ) بِأَمْرَيْنِ:(أَحَدِهِمَا) إِعْدَادُ جَمِيعِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَهَا بِقَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ.(وَثَانِيهِمَا) مُرَابَطَةُ فُرْسَانِهِمْ فِي ثُغُورِ بِلَادِهِمْ وَحُدُودِهَا،وَهِيَ مَدَاخِلُ الْأَعْدَاءِ وَمَوَاضِعُ مُهَاجَمَتِهِمْ لِلْبِلَادِ،وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ جُنْدٌ دَائِمٌ مُسْتَعِدٌّ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا إِذَا فَاجَأَهَا الْعَدُوُّ عَلَى غِرَّةٍ،قَاوَمَهُ الْفُرْسَانُ،لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِمْ،وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْقِتَالِ،وَإِيصَالِ أَخْبَارِهِ مِنْ ثُغُورِ الْبِلَادِ إِلَى عَاصِمَتِهَا وَسَائِرِ أَرْجَائِهَا،وَلِذَلِكَ عَظَّمَ الشَّارِعُ أَمْرَ الْخَيْلِ وَأَمَرَ بِإِكْرَامِهَا.وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا اللَّذَانِ تُعَوِّلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعُ الدُّوَلِ الْحَرْبِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ الَّتِي ارْتَقَتْ فِيهِ الْفُنُونُ الْعَسْكَرِيَّةُ وَعَتَادُ الْحَرْبِ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ،بَلْ لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُهَا الْعُقُولُ وَلَا تَتَخَيَّلُهَا الْأَفْكَارُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ إِعْدَادَ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ يَخْتَلِفُ امْتِثَالُ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ بِهِ بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الاسْتِطَاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِحَسْبِهِ،وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ـــ ﷺ ـــ وَقَدْ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ:"أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ قَالَهَا ثَلَاثًا،وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ قَبِيلِ حَدِيثِ الْحَجُّ عَرَفَةُ بِمَعْنَى أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَعْظَمُ الْأَرْكَانِ فِي بَابِهِ،وَذَلِكَ أَنَّ رَمْيَ الْعَدُوِّ عَنْ بُعْدٍ بِمَا يَقْتُلُهُ أَسْلَمُ مِنْ مُصَاوَلَتِهِ عَلَى الْقُرْبِ بِسَيْفٍ أَوْ رُمْحٍ أَوْ حَرْبَةٍ،وَإِطْلَاقُ الرَّمْيِ فِي الْحَدِيثِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُرْمَى بِهِ الْعَدُوُّ مِنْ سَهْمٍ أَوْ قَذِيفَةِ مَنْجَنِيقٍ أَوْ طَيَّارَةٍ أَوْ بُنْدُقِيَّةٍ أَوْ مِدْفَعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا مَعْرُوفًا فِي عَصْرِهِ ـــ ﷺ ـــ فَإِنَّ اللَّفْظَ يَشْمَلُهُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ يَقْتَضِيهِ،وَلَوْ كَانَ قَيَّدَهُ بِالسِّهَامِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فَكَيْفَ وَهُوَ لَمْ يُقَيِّدْهُ،وَمَا يُدْرِينَا لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُطْلَقًا،لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ لِأُمَّتِهِ فِي كُلِّ عَصْرٍ بِحَسْبِ مَا يُرْمَى بِهِ فِيهِ – وَهُنَاكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْحَثِّ عَلَى الرَّمْيِ بِالسِّهَامِ؛لِأَنَّهُ كَرَمْيِ الرَّصَاصِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ،عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ؛لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمُسْتَطَاعِ مُوَجَّهٌ إِلَى الْأُمَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَسَائِرِ خِطَابَاتِ التَّشْرِيعِ حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا وَارِدًا فِي سَبَبٍ مُعَيَّنٍ.وَمِنْ قَوَاعِدِ الْأُصُولِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ،فَالْوَاجِبُ

عَلَى الْمُسْلمينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بنَصِّ الْقُرْآنِ صُنْعُ الْمَدَافِعِ بِأَنْوَاعِهَا وَالْبَنَادق وَالدَّبَّابَات وَالطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيد وَإِنْشَاءُ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّة بِأَنْوَاعِهَا،وَمنْهَا الْغَوَّاصَاتُ الَّتِي تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ،وَيَجبُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْفُنُون وَالصِّنَاعَات الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا صُنْعُ هَذه الْأَشْيَاء وَغَيْرِهَا مِنْ قُوَى الْحَرْب بدَلِيلِ:مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجبُ الْمُطْلَقُ إِلَّا به فَهُوَ وَاجبٌ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الصَّحَابَةَ اسْتَعْمَلُوا الْمَنْجَنِيقَ مَعَ رَسُولِ الله ـــ ﷺ ـــ فِي غَزْوَة خَيْبَرَ وَغَيْرِهَا.وَكُلُّ الصِّنَاعَات الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْمَعِيشَة منْ فُرُوضِ الْكفَايَة كَصنَاعَات آلَات الْقتَال.

وَقَدْ أَدْرَكَ بَعْضَ هَذه الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّة السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ منَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ،فَقَالَ بَعْدَ إِيرَاد بَعْضِ الْأَحَاديث الْوَارِدَة فِي الرَّمْيِ مَا نَصَّهُ:وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّمْيَ بالنِّبَال الْيَوْمَ لَا يُصيبُ هَدَفَ الْقَصْد منَ الْعَدْو،ولأَنَّهُمُ اسْتَعْمَلُوا الرَّمْيَ بالْبُنْدُق وَالْمَدَافعِ وَلَا يَكَادُ يَنْفَعُ مَعَهُمَا نَبْلٌ،وَإِذَا لَمْ يُقَابَلُوا بالْمثْلِ عَمَّ الدَّاءُ الْعُضَالُ،وَاشْتَدَّ الْوَبَالُ وَالنَّكَالُ،وَمَلَكَ الْبَسيطَةَ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالضَّلَال،فَالَّذي أُرَاهُ وَالْعلْمُ عنْدَ الله تَعَالَى تَعَيُّن تلْكَ الْمُقَابَلَة عَلَى أَئمَّة الْمُسْلمينَ،وَحُمَاة الدِّين،وَلَعَلَّ فَضْلَ ذَلكَ الرَّمْي يَثْبُتُ لهَذَا الرَّمْيِ لقيَامه مَقَامَهُ في الذَّبِّ عَنْ بَيْضَة الْإِسْلَام،وَلَا أَرَى مَا فيه منَ النَّار للضَّرُورَة الدَّاعيَة إِلَيْه إِلَّا سَبَبًا للْفَوْز بالْجَنَّة إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى،وَلَا يَبْعُدُ دُخُولُ مثْلِ هَذَا الرَّمْيِ فِي عُمُومِ قَوْله تَعَالَى:وَأَعدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ منْ قُوَّة.

وَأَقُولُ:قَدْ جَزَمَ الْعُلَمَاءُ قَبْلَهُ بعُمُومِ نَصِّ الْآيَة،قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي تَفْسيرِهَا منْهَا الرَّمْيُ الْوَارِدُ فِي الْحَديث:قَالَ أَصْحَابُ الْمَعَاني:الْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ:إِنَّ هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يُتَقَوَّى به عَلَى حَرْب الْعَدُوِّ،وَكُلَّ مَا هُوَ آلَةٌ للْغَزْو وَالْجهَاد فَهُوَ منْ جُمْلَة الْقُوَّة،ثُمَّ ذَكَرَ حَديثَ الرَّمْي وَأَنَّهُ كَحَديث الْحَجُّ عَرَفَةُ وَأَنَا لَا أَدْرِي سَبَبًا لالْتجَاء الْآلُوسِيِّ فِي الْمَسْأَلَة إِلَى الرَّأْيِ وَالاجْتهَاد،وَاكْتفَائه بدُخُول هَذه الْآلَات فِي عُمُوم نَصِّ الْآيَة بعَدَم الاسْتبْعَاد،إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْمُعَمَّمينَ فِي عَصْره حَرَّمُوا اسْتعْمَالَ هَذه الْآلَات النَّاريَّة بشُبْهَة أَنَّهَا منْ قَبِيلِ التَّعْذيب بالنَّارِ الَّذي مَنَعَهُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُشيرُ إِلَيْه قَوْلُهُ:وَلَا أَرَى مَا فيه منَ النَّارِ إلَخْ.

نَعَمْ:إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الرَّحْمَةِ قَدْ مَنَعَ مِنَ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ وَالْجَبَّارُونَ مِنَ الْمُلُوكِ بِأَعْدَائِهِمْ،كَأَصْحَابِ الْأُخْدُودِ الْمَلْعُونِينَ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ،وَلَكِنْ مِنَ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ أَنْ يُعَدَّ حَرْبُ الْأَسْلِحَةِ النَّارِيَّةِ لِلْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَنَا بِهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بِأَنْ يُقَالَ:إِنَّ دِينَنَا دِينُ الرَّحْمَةِ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَمِلَ قَتْلَهُمْ إِيَّانَا بِهَذِهِ الْمَدَافِعِ،وَأَلَّا نُقَاتِلَهُمْ بِهَا رَحْمَةً بِهِمْ،مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبَاحَ لَنَا فِي التَّعَامُلِ فِيمَا بَيْنَنَا أَنْ نَجْزِيَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَمَلًا بِالْعَدْلِ،وَجَعَلَ الْعَفْوَ فَضِيلَةً لَا فَرِيضَةً فَقَالَ:وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢:٤٠ و١٤) إِلَى أَخِرِ الْآيَاتِ.وَقَالَ:وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٦:١٢٦) أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْعَدْلِ بَلْ فَوْقَ الْعَدْلِ فِي الْأَعْدَاءِ أَنْ نُعَامِلَهُمْ بِمِثْلِ الْعَدْلِ الَّذِي نُعَامِلُ بِهِ إِخْوَانَنَا أَوْ بِمَا وَرَدَ بِمَعْنَى الْآيَةِ فِي بَعْضِ الْآثَارِ،قَاتِلُوهُمْ بِمِثْلِ مَا يُقَاتِلُونَكُمْ بِهِ؟ وَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلْعَدْلِ فِي حَالِ الْحَرْبِ،نَعَمْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ النَّهْيُ عَنْ تَحْرِيقِ الْكُفَّارِ الْحَرْبِيِّينَ بِالنَّارِ،وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْهُ،عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَ السَّلَفِ وَفُقَهَاءَ الْأَمْصَارِ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِهِ،فَأَبَاحَهُ بَعْضُهُمْ مُطْلَقًا،وَبَعْضُهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ الْحَرْبِيَّةِ كَإِحْرَاقِ سُفُنِ الْحَرْبِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ جَزَاءً بِالْمِثْلِ،وَالْجَزَاءُ أَوْلَى.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى:تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ فَمَعْنَاهُ:أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ عَتَادِ الْقِتَالِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجُنْدُ،وَمِنَ الْفُرْسَانِ الْمُرَابِطِينَ فِي ثُغُورِكُمْ وَأَطْرَافِ بِلَادِكُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ تُرْهِبُونَ بِهَذَا الْإِعْدَادِ – أَوِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالرِّبَاطِ – عَدُوَّ اللهِ الْكَافِرِينَ بِهِ،وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ،وَعَدُوَّكُمُ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ وَيُنَاجِزُونَكُمُ الْحَرْبَ عِنْدَ الْإِمْكَانِ.وَالْإِرْهَابُ:الْإِيقَاعُ فِي الرَّهْبَةِ،وَمِثْلُهَا الرَّهَبُ بِالتَّحْرِيكِ،وَهُوَ الْخَوْفُ الْمُقْتَرِنُ بِالِاضْطِرَابِ،كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ.وَكَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَمَنْ وَالَاهُمْ هُمُ الْجَامِعِينَ لِهَاتَيْنِ الْعَدَاوَتَيْنِ فِي وَقْتِ نُزُولِ الْآيَةِ عَقِبَ غَزْوَةِ بَدْرٍ،وَفِيهِمْ نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ:لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (٦٠:١) وَقِيلَ:يَدْخُلُ فِيهِمْ أَيْضًا مَنْ وَالَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ كَبَنِي قُرَيْظَةَ.وَقِيلَ:لَا،وَإِيمَانُ هَؤُلَاءِ بِاللهِ وَبِالْوَحْيِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ عَلَى

الْوَجْه الْحَقِّ الَّذي يُرْضي اللهَ تَعَالَى،وَالْيَهُودُ الَّذينَ وَالَوْهُمْ عَلَى عَدَاوَته ــ ﷺ ــ هُمُ الْمَعْنيُّونَ أَوْ بَعْضُ الْمَعْنيِّينَ بقَوْله تَعَالَى:وَآخَرينَ منْ دُونهمْ أَيْ:وَتَرْهَبُونَ به أُنَاسًا منْ غَيْر هَؤُلَاء الْأَعْدَاء الْمَعْرُوفينَ أَوْ منْ وَرَائهمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ أَيْ:لَا تَعْلَمُونَ الْآنَ عَدَاوَتَهُمْ،أَوْ لَا تَعْرفُونَ ذَوَاتهمْ وَأَعْيَانَهُمْ بَلِ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوب.قَالَ مُجَاهدٌ:هُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ،وَعَزَاهُ الْبَغَويُّ إلَى مُقَاتلٍ وَقَتَادَةَ أَيْضًا.وَقَالَ السُّدِّيُّ:هُمْ أَهْلُ فَارسَ قَالَ مُقَاتلٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْد بْنِ أَسْلَمَ:هُمُ الْمُنَافقُونَ.وَسَيَأْتي تَوْجيهُهُ،وَقَالَ السُّهَيْليُّ:الْمُرَادُ كُلُّ مَنْ لَا تُعْرَفُ عَدَاوَتُهُ،وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَامٌّ فيهمْ وَفي غَيْرهمْ منَ الْأَقْوَام الَّذينَ أَظْهَرَت الْأَيَّامُ بَعْدَ ذَلكَ عَدَاوَتَهُمْ للْمُسْلمينَ في عَهْد الرَّسُول وَمنْ بَعْده كَالرُّوم،وَعَجيبٌ ممَّنْ ذَكَرَ الْفُرْسَ في تَفْسيرهَا وَلَمْ يَذْكُر الرُّومَ الَّذينَ كَانُوا أَقْرَبَ إلَى جَزيرَة الْعَرَب،بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ مَا مَعْنَاهُ:إنَّهُ يَشْمَلُ مَنْ عَادَى جَمَاعَةَ الْمُسْلمينَ وَأَئمَّتَهُمْ منَ الْمُسْلمينَ أَنْفُسهمْ وَقَاتَلَهُمْ،كَالْمُبْتَدعَة الَّذينَ خَرَجُوا عَلَى الْجَمَاعَة وَقَاتَلُوهُمْ أَوْ أَعَانُوا أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهمْ."[٥٢٣٠]

فالنهي عن الإحراق بالنار لا يشمل مثل هذا،لأن المسلمين لم يوقدوا النار مباشرة لإحراق الكفار بها،وإنما استعملوا السلاح الذي لا مندوحة لهم عن استعماله فتسبب عنه الإحراق.وقد تكون في بلاد الكفار مواد قابلة للاشتعال،مثل البترين والغاز والكهرباء،فتصيبها قذائف المسلمين،فتشتعل النار وتدمر كل من في المساكن،فهل يجب على المسلمين الكف عن الهجوم على عدوهم خشية وقوع ذلك،حتى يهاجمهم العدو؟ كلا.ما كان الله ليكلفهم ذلك،مع وضوح جانب المفسدة في حقهم.

وقد أحسن بعض فقهاء الحنفية في حمل النهي عن المثلة بما بعد الظفر بالعدو والظهور عليهم،أما قبل ذلك فلا بأس بها.

قال في حاشية رد المحتار عل الدر المختار:"(قَوْلُهُ أَمَّا قَبْلَهُ فَلَا بَأْسَ بهَا) قَالَ الزَّيْلَعيُّ وَهَذَا حَسَنٌ وَنَظيرُهُ الْإحْرَاقُ بالنَّار،وَقَيَّدَ جَوَازَهَا قَبْلَهُ في الْفَتْح بمَا إذَا وَقَعَتْ قتَالًا كَمُبَارزٍ ضَرَبَ فَقَطَعَ أُذُنَهُ ثُمَّ ضَربَ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ثُمَّ ضَرَبَ فَقَطَعَ يَدَهُ وَأَنْفَهُ وَنَحْوَ ذَلكَ.اهـــ.وَهُوَ

[٥٢٣٠] - تفسير المنار (١٠/ ٥٣)

ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ كَافِرٍ حَالَ قِيَامِ الْحَرْبِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُمَثِّلَ بِهِ بَلْ يَقْتُلُهُ،وَمُقْتَضَى مَا فِي الِاخْتِيَارِ أَنَّ لَهُ ذَلِكَ كَيْفَ وَقَدْ عُلِّلَ بِأَنَّهَا أَبْلَغُ فِي كَبْتِهِمْ وَأَضَرُّ بِهِمْ نَهْرٌ."[5231]

عدم إنزال المحاربين على ذمة الله ورسوله أو إنزالهم على حكم الله ورسوله:

المراد بذمة الله ورسوله،بأن يقول المجاهدون المسلمون لعدوهم الكافرين:انزلوا من حصونكم واستعصامكم ومحاربتكم،ولكم عهد الله وعهد رسوله ﷺ بألا نحاربكم،أو أن الهدنة بيننا وبينكم كذا وكذا (لمدة محدودة).

والمراد بحكم الله ورسله:أن يقال لهم:انزلوا على أن ننفذ فيكم حكم الله ورسوله ﷺ.

وقد ورد النهي عن ذلك،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدِرُوا،وَلَا تَمْثُلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ،فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ،فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ،وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ،فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،فَلَا

[5231] – الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (4/ 131)

تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ،فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[٥٢٣٢].

وقد علل النبي ﷺ النهي عن الأمرين،فعلل نهيه عن إنزالهم على ذمة الله وذمة رسوله ﷺ بقوله:(فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ).

ومعنى إخفار ذمة الله وذمة رسوله نقض عهدهما،ومعنى ذلك أن المجاهدين قد يضطرون لنقض العهد لأي سبب من الأسباب،كأن يروا أن الكفار يعدون العدة لشن هجوم عليهم – مثلاً – وفي هذه الحال لهم الحق أن يبادروهم بالضربة التي تقضي على قوتهم،إما بدون إنذار إذا علموا – أي المسلمون – أن الكفار مصرون على قتالهم،وإما بإنذارهم ونبذ العهد إليهم،إذا ظهرت لهم علامات تدل على عزم الكفار على قتالهم،كما قال تعالى:{الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا

[٥٢٣٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا(في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا(ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمة(ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد(ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان(وليدا) أي صبيا لأنه لا يقاتل(ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ(ذمة الله) الذمة هنا العهد(أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرته أمنته وحميته]

هَذَا النَّهْيُ مَحْمُولٌ عَلَى التَّنْزِيهِ وَالِاحْتِيَاطِ،وَكَذَلِكَ الَّذِي قَبْلَهُ،وَالْوَجْهُ مَا سَلَفَ،وَلِهَذَا قَالَ – ﷺ –:"فَإِنَّك لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ ".وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ قَالَ:إنَّ الْحَقَّ مَعَ وَاحِدٍ،وَأَنْ لَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبًا،وَالْخِلَافُ فِي الْمَسْأَلَةِ مَشْهُورٌ مَبْسُوطٌ فِي مَوَاضِعِهِ. وَالْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ مِنْ الصَّوَابِ لَا مِنْ الْإِصَابَةِ. وَقَدْ قِيلَ:إنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يَنْتَهِضُ لِلِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى أَنَّ لَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبًا لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ إذْ ذَاكَ لَا تَزَالُ تَنْزِلُ وَيَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُخَصَّصُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ،فَلَا يُؤْمَنُ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ – ﷺ – حُكْمٌ خِلَافَ الْحُكْمِ الَّذِي قَدْ عَرَفَهُ النَّاسُ.نيل الأوطار (٧/ ٢٧٣)

قلت:قد فصلت القول في هذا الموضوع في كتابي "**الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليد** "وكتابي "**السنة النبوية وأثرها في اختلاف الفقهاء** "

تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)} [الأنفال:٥٦ - ٥٨].

الذينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَقَضُوهُ،وَكُلَّمَا أَكَّدُوا بالأَيْمَان نَكَثُوهُ،وَهُمْ لاَ يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ عَلَى شَيءٍ مِنَ الآثَامِ ارْتَكَبُوهُ.فَإِذَا مَا لَقِيتَهُم يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي الحَرْبِ،وَظَفِرْتَ بِهِمْ،فَنَكِّلْ بِهِمْ،وَأَثْخِنْ فِيهِمْ قَتْلاً،لِيَخَافَ سِوَاهُمْ مِنَ الأَعْدَاءِ {فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ}،وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ،لَعَلَّهُمْ يُحَاذِرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا أَيْمَانَهُمْ،وَيَخُونُوا عُهُودَهُمْ،فَيَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ.وَإِذَا خِفْتَ مِنْ قَوْمٍ عَاهَدْتَهُمْ،خِيَانَةً وَنَقْضاً لِلْعَهْدِ الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ،فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ،وَأَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ لاَ عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ،فَتَسْتَوِي أَنْتَ وَإِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ بِدُونِ خِدَاعٍ وَلاَ اسْتِخْفَاءٍ.وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ،حَتَّى وَلَوْ كَانَتِ الخِيَانَةُ مُوَجَّهَةً لِلْكُفَّارِ.[٥٢٣٣]

وعندئذ يكون المسلمون قد نقضوا عهدهم شرعاً،وقد يقع نقض العهد من بعض المجاهدين المسلمين،إما خطأ،وإما عمداً لسبب من الأسباب،والأصل عدم جواز ذلك،فيكون نقض العهد هذا نقضاً لعهد المسلمين أنفسهم وليس نقضاً لعهد الله ورسوله.وكذلك حكم الله ورسوله،فإن المسلمين قد يصيبوا حكم الله ورسوله فعلاً،وقد لا يصيبون ذلك،والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ،وللمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد،كما ثبت في الصحيح عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ،أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ،وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٥٢٣٤].

وما دام المسلم معرضاً للخطأ في حكم الله،فليس له أن ينزل أعداءه على حكم الله.

[٥٢٣٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢١٧،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٢٣٤] - صحيح البخاري (٩/ ١٠٨)(٧٣٥٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٢)١٥ - (١٧١٦)

[ش (حكم) أراد أن يحكم. (فاجتهد) بذل جهده لتعرف الحق. (أصاب) وافق واقع الأمر في حكم الله عز وجل (إذا حكم الحاكم فاجتهد) قال العلماء أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم فإن أصاب فله أجران أجر باجتهاده وأجر بإصابته وإن أخطأ فله أجر اجتهاده وفي الحديث محذوف تقديره إذا أراد الحاكم فاجتهد قالوا فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم فإن حكم فلا أجر له بل هو إثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك]

ولقد سن رسول الله ﷺ لأمته سنة الحيطة والحذر من الوقوع في الخطأ أو الحكم في شيء قد يكون – في واقع الأمر صواباً،وقد يكون خطأ – ثم ينسب إلى الله سبحانه وتعالى،فنبه المتخاصمين على أنه ﷺ يحكم بالظاهر له من الأمر،وقد يكون الواقع مخالفاً لذلك الظاهر،لعدم علمه ﷺ به،وإذا كان الأمر كذلك فإن حكمه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً،وعلى من غش أن يتحمل الإثم فَعن ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ،أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ،أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّهَا أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهَا،عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ،وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ،فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ،فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ،فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ،فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ،فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ،فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»[٥٢٣٥].

٥٢٣٥ – صحيح البخاري (٣/ ١٣١)(٢٤٥٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٧)٥ – (١٧١٣)

[ش (بشر) لا أعلم الغيب وبواطن الأمور إلا ما أطلعني الله تعالى عليه ويطرأ علي ما يطرأ على البشر من أعراض لا تخل في كوني رسولا كالغضب والتأثر بظاهر الكلام. (الخصم) المتخاصمون. (أبلغ) أفصح ببيان حجته. (بذلك) بما ظهر لي من الحجة. (قطعة من النار) أي فهي حرام مآل آخذه إلى النار]

دل هذا الحديث على ما يأتي:أولاً:التحذير الشديد عن الدعوى الباطلة التي يراد منها أكل أموال الناس بالباطل،لما تؤدي إليه من النار وبئس القرار،وأن المخاصمة في الباطل إثم ومعصية،وهو ما ترجم له البخاري. ثانياً:أن النبي – ﷺ – كان يحكم بين الناس بالحجة الظاهرة من بينة أو يمين تشريعاً للقضاة والحكام في كل العصور والأزمان،فإن أساس القضاء في الإسلام يعتمد على أصول ثلاث:البينة،اليمين،الإقرار،أي إقرار الشخص على نفسه بالحق الذي عليه،وهو سيّد الأدلة،ولا يجوز الحكم بغيرها حتى قال بعض أهل العلم:إن القاضي لا يحكم بعلمه،فلو علم حقيقة الأمر في القضية المعروضة عليه في مجلس القضاء لا يحكم بعلمه،وإنما يحيل القضية إلى قاض آخر،ويأتي شاهداً فيها. والدليل على أن القاضي يحكم بما يظهر له. قوله – ﷺ –:''فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له "،وإنما حكم النبي – ﷺ – بذلك ليكون الحكم بالظاهر قاعدة من قواعد القضاء الشرعي في الإسلام،لأن الحكم باليقين ليس في مقدور البشر،وحقيقة الأمر في صدق أحد الخصمين وكذب الآخر غيب لا يعلمه إلاّ الله،فلا يصلح أن يكون أساساً للقضاء. ثالثاً:أن حكم الحاكم لا يحل حراماً ولا يبيح مظلمة،فمن حكم له بشيء من حق غيره فإنه يحرم عليه أخذه ما دام يعلم أنّه حق غيره،لقوله – ﷺ –:''فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ''وبهذا أخذ الجمهور فقالوا:إن حكم الحاكم لا يحلل الحرام للمحكوم له،سواء كان ذلك في الأموال أو الأعراض،وذهب أبو يوسف ومن وافقه من أهل العلم إلى أن كل ما يقضي به الحاكم من تمليك مال،أو إزالة ملك،أو إثبات نكاح أو طلاق أو ما أشبه ذلك،فهو على ما حكم،وإن كان في الباطن على خلاف ما شهد به الشاهدان،كما أفاده العيني،ولكن حديث الباب حجة عليه. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/ ٣٦٧)

وإن أعداء الله ليحاولون أن يجدوا أي عيب في تصرف المسلمين فينسبوه إلى الإسلام نفسه،لذلك يجب الاحتياط وعدم إنزال الكفار المحاربين على ذمة الله وذمة رسوله،أو على حكم الله وحكم رسوله ﷺ.

وقد طبق ﷺ ذلك في حياته فأنزل بني قريظة على حكم سعد بن معاذ،كما ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ،بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ،فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ،فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» فَجَاءَ،فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ،قَالَ:فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ،وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ،قَالَ:«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ»[٥٢٣٦].

قَالَ الإِمامُ:فِيهِ من الْعلم أَن قوْل الرجل لصَاحبه:يَا سَيِّدي غيرُ مَحْظُور إِذا كَانَ صَاحبه خيِّرًا فَاضلا،وفِيهِ أَن قيام الرجل بيْن يَدي الرئيس الْفَاضِل،والوالي الْعَادِل،وَقيام المتعلم للْعَالم مستحبٌ غيْر مَكْرُوه،وكذلك يجوز إِقَامَة الإِمام والوالي الرِّجَال على رَأسه فِي مَوضِع الْحَرْب،ومقام الْخَوْف،فقدْ كَانَ الْمُغيرة بْن شُعْبة قَائما على رَأس النّبي ﷺ يوْم الْحُدَيبِية،وَمَعَهُ السَّيْف،وَعَلَيهِ المغفر،وَمَا رُوي عن النّبيِّ ﷺ،أنّهُ قَالَ:«منْ سرّهُ أنْ يتمثّل لهُ الرِّجالُ قِيامًا،فلْيتبوّأْ مقْعدهُ من النّار»،فَمَعْنَاه أَن يَأْمُرهُم بذلك على مَذْهَب الكبر والنخوة.وفِيهِ أَن من نزل من أهل الْكفْر على حكم رجل مُسْلِم،نفذ حُكمُه أَن وَافق الْحق.وقوْله:«لقدْ حكمت فيهم بحكم الملك»،يُريد بحكم الله عزّ وجلّ،وروى بعْضهم بحكم الْملك بفَتْح اللَّام،أَي:الْملك الّذِي نزل بالْوَحْي فِي أَمرهم،وَالْأول أصح بِدَلِيل أنّهُ يُروى أنّهُ عليْه السّلام قَالَ:«قضيْت بحُكْم الله».[٥٢٣٧]

قَالَ النَّوَوِيُّ:فيه إِكْرَامُ أَهْلِ الْفَضْلِ وَتَلَقِّيهِمْ وَالْقِيَامُ لَهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا وَاحْتَجَّ بِهِ الْجُمْهُورُ،وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ:لَيْسَ هَذَا مِنَ الْقِيَامِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ،وَإِنَّمَا ذَاكَ فِيمَنْ يَقُومُونَ

[٥٢٣٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٧)(٣٠٤٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨)٦٤ - (١٧٦٨)

[ش (نزلوا على حكمك) رضوا أن تحكم فيهم. (المقاتلة) البالغين الذين من شأنهم أن يقاتلوا. (تسبى الذرية) يؤخذ النساء والصبيان سبيا فيجعلون أرقاء ويوزعون على الغانمين المسلمين. (بحكم الملك) بالحكم الذي يريده الله تعالى]

[٥٢٣٧] - شرح السنة للبغوي (١١/ ٩٢)

عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ،وَيَتَمَثَّلُونَ قِيَامًا طُولَ جُلُوسِهِ،وَقِيلَ:لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقِيَامُ لِلتَّعْظِيمِ،بَلْ كَانَ لِلْإِعَانَةِ عَلَى نُزُولِهِ لِكَوْنِهِ وَجِعًا،وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ قِيَامَ التَّوْقِيرِ لَقَالَ:قُومُوا لِسَيِّدِكُمْ،وَيُمْكِنُ دَفْعُهُ بِأَنَّ التَّقْدِيرَ قُومُوا مُتَوَجِّهِينَ إِلَى سَيِّدِكُمْ،لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ مَا كَانُوا يَقُومُونَ لَهُ – ﷺ – لِكَرَاهِيَتِهِ لِلْقِيَامِ.(فَجَاءَ فَجَلَسَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –:إِنَّ هَؤُلَاءِ):أَيْ بَنِي قُرَيْظَةَ (نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ).قَالَ النَّوَوِيُّ:وَإِنَّمَا فَوَّضَ الْحُكْمَ إِلَى سَعْدٍ ؛ لِأَنَّ الْأَوْسَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ – ﷺ – الْعَفْوَ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ – ﷺ –:"أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ) فَرَضُوا بِهِ.(قَالَ:فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ):بِكَسْرِ التَّاءِ ؛ أَيْ مَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ الْقِتَالُ وَلَوْ بِالرَّأْيِ.(وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ) ؛ أَيِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ (قَالَ):أَيِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ).بِكَسْرِ اللَّامِ وَهُوَ اللَّهُ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:(وَفِي رِوَايَةٍ:بِحُكْمِ اللَّهِ):أَيْ أَصَبْتَ بِهِمْ وَقَضَيْتَ بِقَضَاءٍ ارْتَضَى اللَّهُ بِهِ،وَيُرْوَى بِفَتْحِهَا ؛ أَيِ الْمَلَكِ النَّازِلِ بِالْوَحْيِ وَهُوَ جِبْرِيلُ،أَوِ الَّذِي أَلْقَى الصَّوَابَ فِي الْقَلْبِ.قَالَ النَّوَوِيُّ:الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ الْمَلِكُ بِكَسْرِ اللَّامِ وَيُؤَيِّدُهُ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى.قَالَ الْقَاضِي:وَضَبَطَهُ بَعْضُهُمْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا،فَإِنْ صَحَّ الْفَتْحُ،فَالْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلُ ؛ أَيِ الْحُكْمِ الَّذِي جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى اهـــ.وَفِيهِ جَوَازُ التَّحْكِيمِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَمُهِمَّاتِهِمُ الْعِظَامِ،وَلَا يُخَالِفُ فِي هَذَا الْإِجْمَاعِ إِلَّا الْخَوَارِجُ،فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّحْكِيمَ،وَإِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي شَيْءٍ لَزِمَهُ حُكْمُهُ،وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ وَلَا لَهُمُ الرُّجُوعُ عَنْهُ بَعْدَ الْحُكْمِ"[٥٢٣٨]

وقد أخذ بعض الحنفية بظاهر الأحاديث الواردة في النهي عن إنزال الكفار على حكم الله ورسوله،وعليه محمد بن الحسن وقوفاً عند النص.

وأجاز بعضهم إنزال الكفار على حكم الله ورسوله،وعليه أبو يوسف وحملوا هذا النهي على أنه كان في وقت نزول الوحي،والأحكام تتغير ساعة فساعة،فقد يترل حكم ينسخ

[٥٢٣٨] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٤٧)

الحكم الذي أنزلوهم عليه ولو كان منصوصاً عليه،أما بعد استقرار الحكم بانتهاء الوحي وإكمال الدين فلا مانع من ذلك.

وحكم الله في هذه المسألة هو دعاؤهم إلى الإسلام،فإن أجابوا خُلِّيَ سبيلهم وإن أبوا دعوا إلى التزام الجزية،فإن أبوا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم،وعلى هذا الرأي الحنابلة أيضاً .

قال السرخسي:"فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُوهُمْ إلَى إعْطَاءِ الْجِزْيَةِ وَهَذَا عَامٌّ دَخَلَهُ الْخُصُوصُ فَالْمُرَادُ مَنْ يَقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ الْمَجُوسِ أَوْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ الْعَجَمِ فَأَمَّا الْمُرْتَدُّونَ وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ مِنْ الْعَرَبِ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَلَكِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ إلَى أَنْ يُسْلِمُوا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح:١٦] أَيْ حَتَّى يُسْلِمُوا فَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ يَجِبُ عَرْضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ إذَا امْتَنَعُوا مِنْ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ أَصْلُ مَا يَنْتَهِي بِهِ الْقِتَالُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ} [التوبة:٢٩] وَبِقَبُولِ ذَلِكَ يَصِيرُونَ مِنْ أَهْلِ دَارِنَا وَيَلْتَزِمُونَ أَحْكَامَنَا فِيمَا يَرْجِعُ إلَى الْمُعَامَلَاتِ فَيُدْعَوْنَ إلَيْهِ وَالْمُرَادُ بِالْإِعْطَاءِ الْقَبُولُ وَالِالْتِزَامُ فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتُمْ أَهْلَ حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ فَأَرَادُوكُمْ أَنْ تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا تُنْزِلُوهُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ وَبِهِ يَسْتَدِلُّ مُحَمَّدٌ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إنْزَالُ الْمُحَاصَرِينَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَبُو يُوسُفَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – يُجَوِّزُ ذَلِكَ وَيَقُولُ:كَانَ هَذَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَإِنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ وَالْحُكْمُ يَتَغَيَّرُ سَاعَةً فَسَاعَةً فَالَّذِينَ كَانُوا بِالْبُعْدِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – كَانُوا لَا يَدْرُونَ مَا نَزَلَ بَعْدَهُمْ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ اسْتَقَرَّ الْحُكْمُ وَعُلِمَ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْمُشْرِكِينَ الدُّعَاءُ إلَى الْإِسْلَامِ وَتَخْلِيَةُ سَبِيلِهِمْ إنْ أَجَابُوا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة:٥] فَإِنْ أَبَوْا فَالدُّعَاءُ إلَى الْتِزَامِ الْجِزْيَةِ فَإِنْ أَبَوْا فَقَتْلُ الْمُقَاتِلَةِ وَسَبْيُ الذُّرِّيَّةِ وَمُحَمَّدٌ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – يَقُولُ:لَا يَجُوزُ الْإِنْزَالُ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ فَإِنَّ الْحُكْمَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو يُوسُفَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – فِي قَوْمٍ وَقَعَ الظُّهُورُ عَلَيْهِمْ فَأَمَّا فِي قَوْمٍ مَحْصُورِينَ مُمْتَنِعِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى

فَلَا يَدْرِي أَنَّ الْحُكْمَ هَذَا أَوْ غَيْرُهُ وَفِي هَذَا اللَّفْظ دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ فَإِنَّهُ قَالَ:فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حُكْمُ اللَّه فِيهِمْ وَلَوْ كَانَ كُلُّ مُجْتَهِد مُصِيبًا لَكَانَ يَعْلَمُ حُكْمَ اللَّه فِيهِمْ بِالِاجْتِهَاد لَا مَحَالَةَ.

(فَإِنْ قِيلَ):فَقَدْ قَالَ:أَنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِكُمْ ثُمَّ احْكُمُوا فِيهِمْ بِمَا رَأَيْتُمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْمُجْتَهِدُ مُصِيبًا لِلْحَقِّ لَمَا أَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ عَلَى حُكْمِنَا فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْإِنْزَالِ عَلَى الْخَطَأِ وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْإِنْزَالِ عَلَى الصَّوَاب.

(قُلْنَا):نَعَمْ،نَحْنُ لَا نَقُولُ الْمُجْتَهِدُ يَكُونُ مُخْطِئًا لَا مَحَالَةَ وَلَكِنَّهُ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ الْإِصَابَةِ وَهُوَ آتٍ بِمَا فِي وُسْعِهِ فَلِهَذَا أُمِرَ بِالْإِنْزَالِ عَلَى ذَلِكَ لَا لِأَنَّهُ يَكُونُ مُصِيبًا لِلْحَقِّ بِاجْتِهَادِهِ لَا مَحَالَةَ.

وَفَائِدَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ فِيهِ شُبْهَةُ الْخِلَافِ إذَا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِنَا وَحُكْمُنَا فِيهِمْ بِمَا رَأَيْنَا وَيَتَمَكَّنُ ذَلِكَ إذَا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ فَهَذَا فَائِدَةُ هَذَا اللَّفْظ.

(قَالَ):وَإِذَا حَاصَرْتُمْ أَهْلَ حِصْنٍ أَوْ مَدِينَة فَأَرَادُوكُمْ أَنْ تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّه وَذِمَّةَ رَسُوله - ﷺ - فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّه وَلَا ذِمَّةَ رَسُوله وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ فَإِنَّكُمْ إنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ فَهُوَ أَهْوَنُ وَالْمُرَادُ بِالذِّمَّة الْعَهْدُ وَمِنْهُ سُمِّيَ أَهْلُ الذِّمَّة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة:١٠] أَيْ عَهْدًا فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ اللُّزُومِ وَمِنْهُ سُمِّيَ مَحِلُّ الِالْتِزَام مِنْ الْآدَمِيِّ ذِمَّةٌ وَالِالْتِزَامُ بِالْعَهْد يَكُونُ وَفِيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْطُوا الْمُشْرِكِينَ عَهْدَ اللَّه وَلَا عَهْدَ رَسُوله لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا يَحْتَاجُونَ إلَى النَّبْذ إلَيْهِمْ وَنَقْضِ عَهْد اللَّه وَعَهْد رَسُوله لَا يَحِلُّ وَإِلَيْه أَشَارَ بِقَوْله:وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ يَعْنِي:عَهْدَكُمْ وَعَهْدَ آبَائِكُمْ مِنْ الْمُمَالَحَة وَالصُّحْبَة الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ الْحُرْمَةَ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّة فَإِنَّكُمْ إنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ فَهُوَ أَهْوَنُ أَيْ تَنْقُضُوا يُقَالُ:أَخْفَرَ إذَا نَقَضَ الْعَهْدَ،وَخَفَرَ أَيْ عَاهَدَ وَمِنْهُ الْخَفِيرُ وَهُوَ الَّذِي يَسِيرُ النَّاسُ فِي أَمَانِهِ

سُمِّيَ خَفِيرًا لِلْمُعَاهَدَةِ مَعَ الَّذِينَ فِي أَمَانِهِ أَوْ مَعَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلنَّاسِ فِي أَنْ لَا يَقْصِدُوا مَنْ كَانَ فِي أَمَانِهِ وَهَذَا بَيَانُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.[٥٢٣٩]

وقال أبو يوسف:"إذا سَأَلَ الْكفَّار أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُوله:

وَلَو سَأَلُوا أَن يترلُوا على أَن يحكم فيهم بحكم الله تَعَالَى أَو حكم الْقُرْآن؛فَإِن الحَدِيث جَاءَ بِالنَّهْيِ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فيهم؛لأَنا لَا نَدْرِي مَا حكم الله يهم؛فَلَا يجابوا إِلَى ذَلِك،فَإِن أجابوهم وَنزل الْقَوْم على ذَلِك فَالْحكم فيهم إِلَى الإِمَام يتَخَيَّر أفضل ذَلِك للدّين وَالْإِسْلَام،إِن رأى أَن قتل الْمُقَاتلَة وَسبي الذُّرِّيَّة أفضل لِلْإِسْلَامِ وَأَهله أمضى ذَلِك فيهم على حكم سعد بن معَاذ،وَإِن رأى أَن يجعلهم ذمَّة يؤدون الْخراج أفضل لِلْإِسْلَامِ وَالدّين وَأحسن فِي توفير الْفَيْء الَّذِي يتقوى بِهِ الْمُسلمُونَ عَلَيْهِم وعَلى غَيرهم من الْمُشْركين أمضى ذَلِك الْأَمر فيهم؛أَلا ترى أَن الله عز وَجل يَقُول فِي كِتَابه الْعَزِيز {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهم صاغرون} [التَّوْبَة:٢٩]،وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو أهل الشّرك إِلَى الْإِسْلَام فَإِن أَبَوا فإعطاء الْجِزْيَة،وَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنهُ حقن دِمَاء أهل السوَاد وجعلهم ذمَّة بعد أَن ظهر عَلَيْهِم.

وَإِن أَسْلمُوا قبل أَن يمْضِي الإِمَام الحكم فيهم بِشَيْء فَهُوَ أَحْرَار مُسلمُونَ،وَكَذَلِكَ إِن دعاهم إِلَى الْإِسْلَام قبل أَن يحكم فيهم بِشَيْء من هَذِه الْوُجُوه؛فأسلموا فهم أَحْرَار مُسلمُونَ وأرضهم لَهُم وَهِي أَرض عشر،وَإِن صيرهم ذمَّة فالأرض لَهُم وَعَلَيْهَا الْخراج،وَلَو حكم فيهم بقتل الرِّجَال وَسبي الذُّرِّيَّة فَلم يمض ذَلِك فيهم حَتَّى أَسْلمُوا لم يقتلُوا وَلم تسب ذَرَارِيهمْ،وَإِن لم يسلمُوا حَتَّى قتل الرِّجَال وسبيت الذُّرِّيَّة فالأرض فَيْء إِن شَاءَ الإِمَام خمسها ثمَّ قسم مَا بَقِي مِنْهَا وَإِن شَاءَ تَركهَا على حَالهَا وَأمر واليه أَن يَدْعُو إِلَيْهَا من يعمرها وَيُؤَدِّي خراجها كَمَا يعْمل ي معطل أَرض أهل الذِّمَّة مِمَّا لَا رب لَهُ.

وَإِن سَأَلُوا يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ مِنَ أهل الذِّمَّة لم يجابوا إِلَى ذَلِك لِأَنَّهُ لَا يحل أَن يحكم أهل الْكفْر فِي حروب الْمُسلمين فِي أُمُور الدّين؛فَإِن أَخطَأ الْوَالِي وأجابهم إِلَى ذَلِك

[٥٢٣٩] - المبسوط للسرخسي (١٠/ ٧)

فَحكم فيهم بِبَعْض هَذِه الْوُجُوه لم يجز شَيْء من حكمه،وَكَذَلِكَ لَو كَانُوا سَأَلُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ قوم من الْمُسلمين أَحْرَار وهم محدودون فِي قذف لم يجز لِأَن شَهَادَة هَؤُلَاءِ لَا تجوز.

وَكَذَلِكَ الصَّبِي وَكَذَلِكَ الْمَرْأَة وَكَذَلِكَ العَبْد لَا يَنْبَغِي أَن يجابوا إِلَى أَن يحكم وَاحِد من هَؤُلَاءِ فِي حروب الدّين وَالْإِسْلَام؛فَإِن أَخطَأ الْوَالِي وأجابهم إِلَى ذَلِك لم يجز حكم وَاحِد مِنْهُم فيهم إِلَّا أَن يحكموا فيهم بِأَن يَكُونُوا ذمَّة يؤدون الْخراج فَيقبل ذَلِك مِنْهُم وَيجوز لأَنهم لَو صَارُوا ذمَّة بِغَيْر حكم قبل ذَلِك مِنْهُم.

قَالَ:وَلَو أمنتهم امْرَأَة أَو عبد يُقَاتل عرضت عَلَيْهِم أَن يسلمُوا أَو يصيروا ذمَّة وَإِن حكمُوا مُسلما ونزلوا على ذَلِك فَحكم فيهم بِأَن تقتل الْمُقَاتلَة والذرية وَالنِّسَاء؛فقد أَخطَأ الحكم وَالسّنة،فَلَا تقتل الذُّرِّيَّة وَالنِّسَاء وَتقتل الْمُقَاتلَة خَاصَّة،وَيجْعَل الذُّرِّيَّة وَالنِّسَاء سبيا.

وَإِذا حكم بقتل رجال من رِجَالهمْ وأكابرهم مِمَّن يخَاف غدره وبغيه،وَأَن يصير بَقِيَّة الرِّجَال مَعَ الذُّرِّيَّة ذمَّة فَذَلِك جَائِز،وَإِنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ وَلم يسموه فَذَلِك إِلَى الإِمَام يحكم يهم بِبَعْض هَذِه الْوُجُوه مَا رأى أَنه أفضل لِلْإِسْلَامِ وَأَهله.

وَلَا يَنْبَغِي للوالي أَن يقبل فِي الحكم مثل هَذَا مِنْهُم وَلَا يحكم صَبيا وَلَا امْرَأَة وَلَا عدا وَلَا ذِمِّيا وَلَا أعمى وَلَا محدودا فِي قذف وَلَا فَاسِقًا وَلَا صَاحب رِيبَة وَشر.

إِنَّمَا يتَخَيَّر فِي هَذَا ويقصد أهل الرَّأْي وَالدّين والفصل والموضع من الْمُسلمين وَمن كَانَت لَهُ حياطة على الدّين؛فَأَما من لَا تجوز شَهَادَته على أحد لَو شهد عَلَيْهِ وَلَا حكمه على اثْنَيْنِ لَو اخْتَصمَا إِلَيْهِ فَكيف يحكم فِي هَذَا وَمَا أشبهه؟

وَإِن نزلُوا على حكم من يختارونه من أهل الْعَسْكَر فَاخْتَارُوا رجلا موضعا لذَلِك قبل مِنْهُم ذَلِك.وَإِن اخْتَارُوا بعض من وصفناه مِمَّن لَا تجوز شَهَادَته وَلَا حكمه لم يقبل ذَلِك مِنْهُم وردوا إِلَى موضعهم الَّذي كَانُوا فِيهِ وَلَا يُرَدُّونَ إِلَى حِصْنٍ أَحْصَنَ مِنْهُ،وَلا إِلَى مَنْعَةٍ أَكْبَرَ مِنْ منعتهم إِن سَأَلُوا ذَلِك يل لَهُمْ اخْتَارُوا رَجُلا مَوْضِعًا لِلْحُكْمِ.

وَإِنْ سَأَلُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَمَّوْهُ وَرَجُلا مِنْهُمْ فَلا يُجَابُوا إِلَى ذَلِكَ وَلا يُشْرَكُ فِي الْحُكْمِ فِي الدِّينِ كَافِرٌ.وَلَوْ أَخْطَأَ الْوَالِي؛فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ فَحُكْمَا لَمْ يُنْفِذْ حُكْمُهُمَا الإِمَامُ؛إِلا فِي أَنْ يَصِيرُوا ذِمَّةً لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ يُسْلِمُوا؛فَإِنَّهُمْ لَوْ أَسْلَمُوا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ،وَلَوْ صَارُوا ذِمَّةً قَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ حُكْمٍ.وَإِنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ أَسَارَى مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ فَسَأَلُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ بَعضهم لَمْ يُجَابُوا إِلَى ذَلِكَ؛فَإِنْ أَجَابَهُمُ الإِمَامُ لَمْ يَجُزْ حُكْمُ الأَسِيرِ فِيهِمْ إِلا بِأَنْ يَصِيرُوا ذِمَّةً أَوْ يُسْلِمُوا فَلا يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ.

وَكَذَلِكَ التَّاجِرُ الْمُسْلِمُ الَّذِي مَعَهم فِي دَارِهِم،وَكَذَلِكَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَهُوَ مُقِيمٌ فِي دَارِهِمْ،وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا فِي عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ،وَهُوَ مِنْهُمْ فَلا أُحِبُّ أَنْ يُقْبَلَ حُكْمُهُ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا،مِنْ قِبَلِ عِظَمِ هَذَا الْحُكْمُ وَخَطَرِهِ وَمَا يُتَخَوَّفُ عَلَى الإِسْلامِ.

وَإِنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَضِيَ وَنَزَلُوا بِالذَّرَارِيِّ وَالأَمْوَالِ وَالرَّقِيقِ،وَمَعَهُمْ أَسْرَى مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَرَقِيقٌ مِنْ رَقِيقِهِمْ وَأَمْوَالٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ؛فَمَاتَ الرَّجُلُ الْمُحَكَّمُ قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ الْحُكْمُ فَسَأَلُوا أَنْ يُرَدُّوا إِلَى حِصْنِهِمْ وَمَأْمَنِهِمْ حَتَّى يَنْظُرُوا فِي أُمُورِهِمْ وَيَتَخَيَّرُوا مَنْ يَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِ خَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا خَلا أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ؛فَإِنَّهُمْ يُنْزَعُونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَبِيعُونَ الرَّقِيقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيُعْطُونَهُمُ الْقِيمَةَ.وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ أَهْلُ ذِمَّة مِنْ ذِمَّتِنَا أَحْرَارٌ يُنْزَعُونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ،وَإِنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْلَمُوا؛فَسَأَلُوا أَنْ يردوا مَعَهم لم يردوا معم وَلْيَنْزِعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْحُكْمَ لَا يَنْفَذُ فِيمَا بَينهم يرد الْمُسلمين إِلَى دَار الحربو الشّرك،وَرَقِيقُ ذِمَّتِنَا مِثْلُ رَقِيقِنَا.

وَلَوْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ عَبِيدٌ لَهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا؛فَسَأَلُوا رَدَّهُمْ مَعَهُمْ لَمْ يُرَدُّوا وَأُخِذُوا مِنْهُمْ بِالْقِيمَة،وَلَيْسَ لِمَنِ اسْتَعَانَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي حَرْبِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّة أَمَان فِي الْعَدو.[٥٢٤٠]

وهو مذهب قوي فيما يتعلق بالحكم،فيما فيه نص واضح لا مجال فيه للاجتهاد والخطأ والصواب،أما الأمور التي قد يبدو فيها مجال للاجتهاد والحكم فيها يحتمل أن يكون

[٥٢٤٠] – الخراج لأبي يوسف (ص:٢٢١)

صواباً وأن يكون خطأ،فالنهي فيها قائم،وكذلك ذمة الله ورسوله فإنها باقية على الحظر والله أعلم.

دعوة من أسلم من المحاربين إلى الهجرة إلى بلاد الإسلام:

خلق الله الإنسان ليعبد الله تعالى في الأرض،وجعل الأرض واسعة قسم،فيها الأرزاق،فإذا ضُيِّقَ على أحد بسبب عبادة الله في بلد،فإن عليه أن يهجر هذا البلد ويتحول منه إلى بلد آخر ينجو فيه من المضايقة والصد عن دين الله.

والمقصود هنا بيان أن من آداب الجهاد،أن يدعوا المجاهدون من أسلم من المحاربين،إلى ترك بلاد الحرب والتحول إلى بلاد الإسلام،ليؤدي شعائر دينه في أمان،وليزداد علماً بدينه من إخوانه المسلمين،ويكثر سوادهم بالجهاد في صفهم.

وقد كان رسول الله ﷺ يوصي بذلك أمراءه عندما يبعثهم للجهاد في سبيل الله،فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ،أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:«...وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ،فَاقْبَلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ،ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا،فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ...»[٥٢٤١].

هذا إذا بقيت البلاد بلاد حرب،أما إذا أصبحت دار إسلام كلها فإن الهجرة حينئذ غير واجبة،وعلى ذلك يحمل ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[٥٢٤٢].

الرفق بالأسير،والمن عليه إذا رأى الإمام فيه مصلحة:

[٥٢٤١] - صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧)٣ - (١٧٣١)

[٥٢٤٢] - صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٨)٨٦ - (١٨٦٤)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين. (الفتح) فتح مكة]

عندما يواجه المسلم الكافر في المعركة،يجب عليه أن لا تأخذه فيه رأفة بل عليه أن يترل به العذاب الذي أمره الله به والذل ليتحقق عليه – أي على عدو الله الكافر – النصر لعباد الله المؤمنين،كما قال تعالى:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)} [التوبة:١٤،١٥]

وقال:{فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:١٢]

وهذا خطاب،إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر،أو للمؤمنين يشجعهم الله،ويعلمهم كيف يقتلون المشركين،وأنهم لا يرحموهم،وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي:حاربوهما وبارزوهما بالعداوة.[٥٢٤٣]

وقوله سبحانه:«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» هو دعوة للمسلمين أن يحصدوا هذا الزرع الذي أصبحت قطوفه دانية لأيديهم،وبهذا يضاف هذا المحصول كله لهم،ويحسب من عمل أيديهم..وهذا فضل من الله عليهم،ورحمة واسعة من رحمته بهم.

ولو شاء الله سبحانه أن يهلك المشركين من غير أن يبتلى بهم المؤمنين لفعل..ولكن أين بلاء المؤمنين؟ وأين العمل الذي يضاف إليهم،ويؤجرون عليه؟

إنه من تدبير الله تعالى وحكمته،أن يبتلى الناس بعضهم ببعض،وذلك ليظهر فى كلّ إنسان ما عنده من خير أو شر،وبهذا تنكشف للناس وجوههم،وتتحدد مواقفهم.

وفى قوله تعالى:«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» إشارة إلى ما ينبغى أن يتجه إليه ضرب المؤمنين فى جبهة المشركين،وهو أن يكون فى المواطن التي تخمد بها أنفاسهم،أو تشل حركاتهم،وذلك بضرب الرءوس التي عشّش فيها الشرك،وأفرخ فيها الضلال،وضرب تلك الأيدي التي كانت تمتد بالأذى إلى المسلمين،وها هى ذى تريد القضاء عليهم.[٥٢٤٤]

[٥٢٤٣] – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣١٦)

[٥٢٤٤] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٧٩)

قال الطبري:"وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَلِّمَهُمْ كَيْفِيَّةَ قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَضَرْبِهِمْ بِالسَّيْفِ أَنْ يَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعناقِ مِنْهُمْ وَالْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ،وَقَوْلُهُ:{فَوْقَ الْأَعناقِ} [الأنفال:١٢] مُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ الرُّءُوسُ،وَمُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ فَوْقَ جِلْدَةِ الْأَعناقِ،فَيَكُونَ مَعْنَاهُ:عَلَى الْأَعناقِ وَإِذَا احْتَمَلَ ذَلِكَ صَحَّ قَوْلُ مَنْ قَالَ:مَعْنَاهُ الْأَعناقُ.وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَمِلًا مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّأْوِيلِ،لَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نُوَجِّهَهُ إِلَى بَعْضِ مَعَانِيهِ دُونَ بَعْضٍ إِلَّا بِحُجَّةٍ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهَا،وَلَا حُجَّةَ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِهِ،فَالْوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِضَرْبِ رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ وَأَعناقِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ أَصْحَابَ نَبِيِّهِ ﷺ الَّذِينَ شَهِدُوا مَعَهُ بَدْرًا وَأَمَّا قَوْلُهُ:{وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال:١٢] فَإِنَّ مَعْنَاهُ:وَاضْرِبُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ عَدُوِّكُمْ كُلَّ طَرَفٍ وَمَفْصَلٍ مِنْ أَطْرَافِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ."[٥٢٤٥]

وقال تعالى:{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [محمد:٤].

فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته وبعد ذلك يكون الأسر.والحكمة ظاهرة،لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال.وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة.وكانت الكثرة للمشركين.وكان قتل محارب يساوي شيئا كبيرا في ميزان القوى حينذاك.والحكم ما يزال ساريا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو،وتعجيزه عن الهجوم والدفاع.[٥٢٤٦]

فإذا وقع العدو في أيدي المسلمين أسيراً،فإن الأمر حينئذ يختلف عما كان عليه الحال في وقت المعركة:

فقد يكون الأسير يستحق الرفق به والمن عليه،وإطلاق سراحه،وتكون المصلحة في ذلك،والإمام الحريص على المصلحة،المجتهد في ذلك بدون شهوة واتباع هوى أولى بأن يقدر ذلك وينفذه

[٥٢٤٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ٧١)

[٥٢٤٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٠٨٦)

وقال ابن قدامة بعد ذكر الخيارات أمام المسلمين:"وَلِأَنَّ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ قَدْ تَكُونُ أَصْلَحَ فِي بَعْضِ الْأَسْرَى،فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَنِكَايَةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ،وَبَقَاؤُهُ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ،فَقَتْلُهُ أَصْلَحُ،وَمِنْهُمْ الضَّعِيفُ الَّذِي لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ،فَفِدَاؤُهُ أَصْلَحُ،وَمِنْهُمْ حَسَنُ الرَّأْيِ فِي الْمُسْلِمِينَ،يُرْجَى إسْلَامُهُ بِالْمَنِّ عَلَيْهِ،أَوْ مَعُونَتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِتَخْلِيصِ أَسْرَاهُمْ،وَالدَّفْعِ عَنْهُمْ،فَالْمَنُّ عَلَيْهِ أَصْلَحُ،وَمِنْهُمْ مَنْ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:يَجُوزُ فِي الْعَجَمِ دُونَ الْعَرَبِ،بِنَاءً عَلَى قَوْلِهِ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ.وَلَنَا،أَنَّهُ كَافِرٌ لَا يُقَرُّ بِالْجِزْيَةِ،فَلَمْ يُقَرّ بِالِاسْتِرْقَاقِ كَالْمُرْتَدِّ،وَقَدْ ذَكَرْنَا الدَّلِيلَ عَلَيْهِ،إذَا ثَبَتَ هَذَا،فَإِنَّ هَذَا تَخْيِيرُ مَصْلَحَةٍ وَاجْتِهَادٍ،لَا تَخْيِيرُ شَهْوَةٍ،فَمَتَى رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ،تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ،وَلَمْ يَجُزْ الْعُدُولُ عَنْهَا،وَمَتَى تَرَدَّدَ فِيهَا،فَالْقَتْلُ أَوْلَى.

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي أَمِيرَيْنِ؛أَحَدُهُمَا يَقْتُلُ الْأَسْرَى:وَهُوَ أَفْضَلُ.وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ.وَقَالَ إسْحَاقُ:الْإِثْخَانُ أَحَبُّ إلَيَّ،إلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْرُوفًا يَطْمَعُ بِهِ فِي الْكَثِيرِ.[٥٢٤٧]

ولا يكون هذا إلا بعد أن يتشاور مع جنده،كما فعل الرسول ﷺ مع هوازن،فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ،قَالَ:خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ،فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ،فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ المُشْرِكِينَ قَدْ عَلاَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ،فَضَرَبْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ بِالسَّيْفِ فَقَطَعْتُ الدِّرْعَ،وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ المَوْتِ،ثُمَّ أَدْرَكَهُ المَوْتُ فَأَرْسَلَنِي،فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَقُلْتُ:مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ:أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،ثُمَّ رَجَعُوا،وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ» فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَهُ،فَقُمْتُ،فَقُلْتُ:مَنْ يَشْهَدُ لِي،ثُمَّ جَلَسْتُ،قَالَ:ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَهُ،فَقُمْتُ،فَقَالَ:«مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟».فَأَخْبَرْتُهُ،فَقَالَ رَجُلٌ:صَدَقَ،وَسَلَبُهُ عِنْدِي،فَأَرْضِهِ مِنِّي،فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:لاَهَا اللَّهِ إِذًا،لاَ يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللَّهِ،يُقَاتِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فَيُعْطِيَكَ سَلَبَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«صَدَقَ،فَأَعْطِهِ».فَأَعْطَانِيهِ،فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ،فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الإِسْلاَمِ"[٥٢٤٨]

[٥٢٤٧] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢١)

[٥٢٤٨] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٤)(٤٣٢١)

هذا إذا كان السبي كثيراً أو المسلمون قد حازوا حظوظهم منه أو جمعوه ليقتسموه.

وقد يكون الأسير واحداً ويظهر للإمام عليه بوادر الخير فيبدوا له أن يطلق سراحه بدون فداء فله ذلك.

ولقد تجلّى رفق رسول الله ﷺ وحسن معاملته للأسير ثم المن عليه،لما رأى فيه من بوادر الخير،لقد تجلى ذلك في قصة ثُمامة بن أُثال،فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ،فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ،فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟''فَقَالَ:عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ،إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ،وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ،فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ،ثُمَّ قَالَ لَهُ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟''قَالَ:مَا قُلْتُ لَكَ:إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ،فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ،فَقَالَ:«مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟''فَقَالَ:عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ،فَقَالَ:«أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ،فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ،فَقَالَ:أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،يَا مُحَمَّدُ،وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ،فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ،وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ،فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ،وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ،فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ،وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ،فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ،فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ:صَبَوْتَ،قَالَ:لاَ،وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَلاَ وَاللَّهِ،لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ،حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ"[٥٢٤٩].

لقد وضع الرسول ﷺ في المسجد أسيراً ليرى بنفسه ويسمع بأذنه محاسن دين الإسلام في نبي الإسلام وحَمَلته الأولين أصحاب رسول الله ﷺ،وكان مسجده ﷺ مثابة للمصلين والمتعلمين،والمؤتمرين والمتشاورين في أمور الإسلام العامة،ومقراً للوفود الذين يقدمون على رسول الله ﷺ،لتعلم الدين الإسلامي أو تلقي الأوامر القرآنية والنبوية،لتبليغها إلى

[٥٢٤٩] - صحيح البخاري (٥/ ١٧٠)(٤٣٧٢)

[ش (نخل) وفي نسخة (نجل) أي ماء. (صبوت) ملت إلى دين غير دينك ودين آبائك]

الآخرين،كما كان ملجأ للضعفاء والمساكين والطارقين،ومنطلقاً لأولياء الله المجاهدين الذين يعقد لهم الرسول ﷺ الألوية ويبعثهم لجهاد أعداء الله من المشركين.

وكان ثمامة الأسير يشاهد ذلك:فيرى أصحاب رسول الله ﷺ حين يصطفون للصلاة،كأهم بنيان مرصوص،كما يراهم وهم يتكاتفون ويتعاونون ويتآخون فيما بينهم ويؤثر بعضهم بعضاً،ويتأمل في سرعة تنفيذهم أمر الله وأمر رسوله والطاعة الكاملة التي لا خيرة لهم فيها.فيلبون الأذان للصلاة كما يلبون النفير إلى الجهاد.

ويسمع كتاب الله وهو يتلى ويفسر بتلك المعاني الربّانية في كل جانب من جوانب الحياة.

ثم فوق ذلك يرى رسول الله ﷺ،القدوة الحسنى الذي يسبق أصحابه إلى تنفيذ ما يأمرهم به،ويبتعد كل البعد عما ينهاهم عنه،ويشاهده وهو رسول الله يترل عليه جبريل صباح مساء،يشاهده يتفقد عدوه الكافر المأسور فضلاً عن أصحابه المؤمنين،ويسأله عما عنده كل يوم ويسمع منه،ثم في آخر الأمر يطلق سراحه،فيؤثر كل ذلك في نفسه،فما يكون بينه وبين الدخول في الإسلام فعلاً إلا أن يغتسل ثم يعود فيبوح بكل المعاني التي كانت تجيش في نفسه،وهو مربوط إلى سارية المسجد فيخبر بها رسول الله ﷺ،ويختلف عنده المقياس لما يحب ويكره فيصبح أبغض الناس إليه أحبهم إليه،وأبغض الأرض إليه أحبها إليه،وهكذا الإسلام يحول الولاء في لحظة من الولاء للقبيلة أو الأرض أو الجنس أو غير ذلك،إلى الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين،وإن الكلمات التي صدرت من ثمامة وهو مربوط مثل قوله:(عندي خير) جواباً على قول الرسول ﷺ له:(ما عندك يا ثمامة؟) وقوله:(وإن تنعم تنعم على شاكر) إن تلك الكلمات لتبشر بالخير الذي كان في قلبه،وكأن رسول الله ﷺ لحظ فيها معنى قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنفال:٧٠].

وقد يرى الإمام أن المصلحة تقتضي أخذ الفداء على الأسير،وإن ادعى الإسلام بعد الأسر،بأن يفدي به أسيرين مسلمين،وهو إذا كان صادقاً في إسلامه سيجعل الله له

مخرجاً وسيعود إلى المسلمين،ولكنه مع ذلك يظهر العطف عليه ويتفقده ويعطيه حاجته من الطعام والشراب وغير ذلك،فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ،قَالَ:كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ،فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ،وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ،فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ،قَالَ:يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟"فَقَالَ:بِمَ أَخَذْتَنِي،وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ:«إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ»،ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا،فَرَجَعَ إِلَيْهِ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟"قَالَ:إِنِّي مُسْلِمٌ،قَالَ:«لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»،ثُمَّ انْصَرَفَ،فَنَادَاهُ،فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،يَا مُحَمَّدُ،فَأَتَاهُ،فَقَالَ:«مَا شَأْنُكَ؟"قَالَ:إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي،وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي،قَالَ:«هَذِهِ حَاجَتُكَ»،فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ،قَالَ:وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ،فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ،فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ،فَأَتَتِ الْإِبِلَ،فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ،فَلَمْ تَرْغُ،قَالَ:وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا،ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ،وَنَذِرُوا بِهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ،قَالَ:وَنَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ،فَقَالُوا:الْعَضْبَاءُ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَتْ:إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ،فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ:«سُبْحَانَ اللهِ،بِئْسَمَا جَزَتْهَا،نَذَرَتْ لِلَّهِ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا،لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ،وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ»،وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ:«لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٥٢٥٠].

وفي هذا الحديث فوائد:

[٥٢٥٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٢٦٢)٨ - (١٦٤١)

[ش (وأصابوا معه العضباء) أي أخذوها وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ (سابقة الحاج) أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك(لو قلتها وأنت تملك أمرك) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء(وناقة منوقة) أي مذللة(ونذروا بها) أي علموا وأحسوا بهربها]

الفائدة الأولى:رحمة الرسول ﷺ ورفقه كما هو ظاهر،وقد أشار إلى ذلك الصحابي،عندما قال:وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً.

الفائدة الثانية:حرصه ﷺ على تفقد أحوال من تحت يده ولو كان عدوه وإعطاؤه حاجته.

الفائدة الثالثة:حلمه وصبره وقد ناداه الأسير عدة مرات باسمه يا محمد دون صفته يا رسول الله وهو يجيبه في كل مرة ويأتيه ويقول له:(ما شأنك؟).

الفائدة الرابعة:أن الرجل لو أسلم قبل الأسر لما كان عليه من سبيل وأفلح كل الفلاح،الفلاح عند الله تعالى بإسلامه مطيعاً مختاراً،والفلاح من الأسر الذي حصل له بسبب أنه لم يسلم قبل ذلك.

الفائدة الخامسة:أنه إذا تعارضت مصلحتان قدم أعلاهما،فالرجل ادعى الإسلام وهو في الأسر وقبيلته قد أسرت رجلين صحابيين مجاهدين،قد ثبتا على الإسلام وجاهدا لإعلائه،ففضَّل الرسول ﷺ أن يفتديهما به،وهو إذا كان صادقاً في إسلامه سيلحق بالرسول ﷺ.

هذا مع العلم أنه كان من حق الرسول ﷺ أن يبقيه رقيقاً،وإن أسلم بعد الأسر،لأن الإسلام لا يُذهب الرق كما هو معلوم،وإن كان يحث عليه ويفتح أبوابه على مصراعيها،وفداء صحابيين حرين فيهما تلك الصفات،وهما ممن يخشى عليهما من غدر المشركين بهما،وهو لا يخشى عليه ذلك أمر لا بد منه .

وقد يرى الإمام أن المصلحة في تطهير الأرض من الأسير لخبثه وشركه الذي يظهر أنه من طبعه،فله أن يقتله ويريح البشرية منه،كما فعل ﷺ ببني قريظة الذين حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل المقاتلة وسبي الذرية،وكان ذلك هو حكم الله الذي وفق له سعد رضي الله عنه،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ،بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ،فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ،فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» فَجَاءَ،فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:إِنَّ

هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ،قَالَ:فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ،وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ،قَالَ:«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ»[5251]

وقد أثبت واقع اليهود في تاريخهم الطويل،قبل الإسلام وبعده إلى هذه الساعة،أن خير علاج ناجح لوقاية البشرية من شرهم وفسادهم وكيدهم هو هذا الحكم،عندما يكونون جماعة متكتلة منظمة،أما عندما يكونون أفراداً مشتتين في الأرض أذلاء لا تجمعهم رابطة تجعلهم متمكنين في الأرض للإفساد فيها،فإن معاملتهم تختلف عن هذا.

وإن أي أمة تتساهل في أمر اليهود حتى يتمكنوا من جمع كلمتهم وتنظيم أنفسهم في أرضها لهي – في تساهلها ذلك – تضع نهاية لوجودها،وهي لا تخلوا من أحد أمرين:

فإما أن تكون متواطئة مع اليهود للقضاء على كيان الإسلام والمسلمين،وإما أن تكون مغلوبة على أمرها،والأمر الثاني أخف لأن الأمة المغلوبة على أمرها،يمكنها في يوم من الأيام أن تثب على جرثومة الفساد فتبيدها،وإن طال الزمان وأما الأمر الأول،فهو الخطر الذي يصعب محوه إلا إذا جاء جيل آخر فصب لعائن الله على أسلافه الذين أوقعوه في شباك هذا السرطان ثم صمم على استئصاله فاستأصله.

وقد أجاد الخرقي في مختصره،إذ جمع هذه المعاني كلها بالنسبة للأسير فقال:"وَإِذَا سَبَى الْإِمَامُ فَهُوَ مُخَيَّرٌ،إنْ رَأَى قَتَلَهُمْ،وَإِنْ رَأَى مَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَطْلَقَهُمْ بِلَا عِوَضٍ،وَإِنْ رَأَى أَطْلَقَهُمْ عَلَى مَالٍ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،وَإِنْ رَأَى فَادَى بِهِمْ،وَإِنْ رَأَى اسْتَرَقَّهُمْ،أَيَّ ذَلِكَ رَأَى فِيهِ نِكَايَةً لِلْعَدُوِّ وَحَظًّا لِلْمُسْلِمِينَ فَعَلَ،وَجُمْلَتُهُ أَنَّ مَنْ أُسِرَ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ؛أَحَدُهَا،النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ،فَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ،وَيَصِيرُونَ رَقِيقًا لِلْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِ السَّبْيِ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – «نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ».مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – يَسْتَرِقُّهُمْ إذَا سَبَاهُمْ.الثَّانِي،الرِّجَالُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ الَّذِينَ يُقَرُّونَ بِالْجِزْيَةِ،فَيَتَخَيَّرُ الْإِمَامُ فِيهِمْ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ؛الْقَتْلُ،وَالْمَنُّ بِغَيْرِ عِوَضٍ،وَالْمُفَادَاةُ بِهِمْ،وَاسْتِرْقَاقُهُمْ.الثَّالِثُ،الرِّجَالُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا يُقَرُّ

[5251] - صحيح البخاري (4/ 67)(3043)

[ش (نزلوا على حكمك) رضوا أن تحكم فيهم. (المقاتلة) البالغين الذين من شأنهم أن يقاتلوا. (تسبى الذرية) يؤخذ النساء والصبيان سبيا فيجعلون أرقاء ويوزعون على الغانمين المسلمين. (بحكم الملك) بالحكم الذي يريده الله تعالى]

بالْجزْيَة،فَيَتَخَيَّرُ،الْإِمَامُ فِيهِمْ بَيْنَ ثَلَاثَة أَشْيَاءَ؛الْقَتْلُ،أَوْ الْمَنُّ،وَالْمُفَادَاةُ،وَلَا يَجُوزُ اسْترْقَاقُهُمْ.وَعَنْ أَحْمَدَ جَوَازُ اسْترْقَاقهمْ.وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافعيِّ.

وَبِمَا ذَكَرْنَا فِي أَهْلِ الْكتَابِ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ،وَالشَّافعيُّ،وَأَبُو ثَوْر.وَعَنْ مَالك كَمَذْهَبنَا.وَعَنْهُ لَا يَجُوزُ الْمَنُّ بغَيْرِ عوَضٍ؛لأَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ فيه،وَإِنَّمَا يَجُوزُ للْإِمَامِ فعْلُ مَا فيه الْمَصْلَحَةُ،وَحُكيَ عَنْ الْحَسَن،وَعَطَاء،وَسَعيد بْن جُبَيْر،كَرَاهَةُ قَتْلِ الْأَسْرَى.

وَقَالُوا:لَوْ مَنَّ عَلَيْه أَوْ فَادَاهُ كَمَا صُنعَ بأُسَارَى بَدْر.وَلأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فدَاءً} [محمد:٤].فَخَيَّرَ بَعْدَ الْأَسْر بَيْنَ هَذَيْنِ لَا غَيْرُ.وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْي:إنْ شَاءَ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ،وَإِنْ شَاءَ اسْتَرَقَّهُمْ،لَا غَيْرُ،وَلَا يَجُوزُ مَنٌّ وَلَا فدَاءٌ؛لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥].بَعْدَ قَوْله:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فدَاءً} [محمد:٤].وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْد الْعَزيز،وَعيَاضُ بْنُ عُقْبَةَ،يَقْتُلَان الْأُسَارَى.

وَلَنَا،عَلَى جَوَازِ الْمَنِّ وَالْفدَاء قَوْلُ اللَّه تَعَالَى:{فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فدَاءً} [محمد:٤].وَأَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - مَنَّ عَلَى ثُمَامَةَ بْن أُثَال،وَأَبي عَزَّةَ الشَّاعر،وَأَبي الْعَاص بْن الرَّبيع،وَقَالَ في أُسَارَى بَدْر:لَوْ كَانَ مُطْعمُ بْنُ عَديٍّ حَيًّا،ثُمَّ سَأَلَني في هَؤُلَاء النَّتْنَى،لَأَطْلَقْتهمْ لَهُ.وَفَادَى أُسَارَى بَدْر،وَكَانُوا ثَلَاثَةً وَسَبْعينَ رَجُلًا،كُلُّ رَجُلٍ منْهُمْ بأَرْبَعمائَة،وَفَادَى يَوْمَ بَدْرٍ رَجُلًا برَجُلَيْن،وَصَاحبَ الْعَضْبَاء برَجُلَيْن.

وَأَمَّا الْقَتْلُ؛فَلأَنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قَتَلَ رجَالَ بَني قُرَيْظَةَ،وَهُمْ بَيْنَ السِّتِّمائَة وَالسَّبْعمائَة،وَقَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ النَّضْرَ بْنَ الْحَارث،وَعُقْبَةَ بْنَ أَبي مُعَيْط،صَبْرًا،وَقَتَلَ أَبَا عَزَّةَ يَوْمَ أُحُد وَهَذه قَصَصٌ عَمَّتْ وَاشْتَهَرَتْ،وَفَعَلَهَا النَّبيُّ - ﷺ - مَرَّات،وَهُوَ دَليلٌ عَلَى جَوَازهَا.

وَلأَنَّ كُلَّ خَصْلَة منْ هَذه الْخصَال قَدْ تَكُونُ أَصْلَحَ في بَعْض الْأَسْرَى،فَإِنَّ منْهُمْ مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَنكَايَةٌ في الْمُسْلمينَ،وَبَقَاؤُهُ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ،فَقَتْلُهُ أَصْلَحُ،وَمنْهُمْ الضَّعيفُ الَّذي لَهُ مَالٌ كَثيرٌ،فَفدَاؤُهُ أَصْلَحُ،وَمنْهُمْ حَسَنُ الرَّأْي في الْمُسْلمينَ،يُرْجَى إسْلَامُهُ بالْمَنِّ عَلَيْه،أَوْ مَعُونَتُهُ للْمُسْلمينَ بتَخْليص أَسْرَاهُمْ،وَالدَّفْع عَنْهُمْ،فَالْمَنُّ عَلَيْه أَصْلَحُ،وَمنْهُمْ مَنْ يُنْتَفَعُ بخدْمَته،وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ،فَاسْترْقَاقُهُ أَصْلَحُ،كَالنِّسَاء وَالصِّبْيَان،وَالْإِمَامُ أَعْلَمُ بالْمَصْلَحَة،فَيَنْبَغي أَنْ يُفَوَّضَ ذَلكَ إلَيْه،وقَوْله تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْركينَ} [التوبة:٥] عَامٌّ لَا يُنْسَخُ به

الْخَاصُّ،بَلْ يَنْزِلُ عَلَى مَا عَدَا الْمَخْصُوصَ،وَلِهَذَا لَمْ يُحَرِّمُوا اسْتِرْقَاقَهُ،فَأَمَّا عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ،فَفِي اسْتِرْقَاقِهِمْ رِوَايَتَانِ؛إحْدَاهُمَا،لَا يَجُوزُ.

وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ:يَجُوزُ فِي الْعَجَمِ دُونَ الْعَرَبِ،بِنَاءً عَلَى قَوْلِهِ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ.وَلَنَا،أَنَّهُ كَافِرٌ لَا يُقَرُّ بِالْجِزْيَةِ،فَلَمْ يُقَرَّ بِالِاسْتِرْقَاقِ كَالْمُرْتَدِّ،وَقَدْ ذَكَرْنَا الدَّلِيلَ عَلَيْهِ،إذَا ثَبَتَ هَذَا،فَإِنَّ هَذَا تَخْيِيرُ مَصْلَحَةٍ وَاجْتِهَادٍ،لَا تَخْيِيرُ شَهْوَةٍ،فَمَتَى رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ،تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ،وَلَمْ يَجُزْ الْعُدُولُ عَنْهَا،وَمَتَى تَرَدَّدَ فِيهَا،فَالْقَتْلُ أَوْلَى.

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي أَمِيرَيْنِ؛أَحَدُهُمَا يَقْتُلُ الْأَسْرَى:وَهُوَ أَفْضَلُ.وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ.وَقَالَ إسْحَاقُ:الْإِثْخَانُ أَحَبُّ إلَيَّ،إلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْرُوفًا يَطْمَعُ بِهِ فِي الْكَثِيرِ.''[٥٢٥٢]

وقال السرخسي:''وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَ الرِّجَالَ مِنْ الْأَسَارَى وَلَهُ أَنْ يَسْتَبْقِيَهُمْ وَيُقَسِّمَهُمْ بَيْنَ الْجُنْدِ يَنْظُرُ أَيُّ ذَلِكَ خَيْرًا لِلْمُسْلِمِينَ فَعَلَهُ «لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَتَلَ سَبْيَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَقَسَّمَ سَبَايَا أَوْطَاسٍ» فَعَرَفْنَا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ جَائِزٌ وَالْإِمَامُ نَصَّبَ نَاظِرًا فَرُبَّمَا يَكُونُ النَّظَرُ فِي قَتْلِهِمْ لِمَعْنَى الْكَبْتِ وَالْغَيْظِ لِلْعَدُوِّ وَلِيَأْمَنَ الْمُسْلِمُونَ فِتْنَتَهُمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ النَّظَرُ فِي قِسْمَتِهِمْ لِيَنْتَفِعَ بِهِمْ الْمُسْلِمُونَ فَيَخْتَارُ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ الْأَنْفَعُ وَلِهَذَا لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِينَ قَتْلُهُمْ بِدُونِ رَأْيِ الْإِمَامِ لِأَنَّ فِيهِ افْتِيَاتًا عَلَى رَأْيِهِ إلَّا أَنْ يَخَافَ الْآسِرُ فِتْنَةً فَحِينَئِذٍ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ إلَى الْإِمَامِ وَلَيْسَ لِغَيْرِ مَنْ أَسَرَهُ ذَلِكَ لِحَدِيثِ جَابِرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ:«لَا يَتَعَاطَى أَحَدُكُمْ أَسِيرَ صَاحِبِهِ فَيَقْتُلُهُ» وَإِنْ كَانَ لَوْ قَتَلَهُ لَمْ يَلْزَمْهُ شَيْءٌ لِأَنَّ الْأَسِيرَ مَا لَمْ يُقَسِّمْ الْإِمَامُ مُبَاحُ الدَّمِ بِدَلِيلِ أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَقَتْلُ مُبَاحِ الدَّمِ لَا يُوجِبُ ضَمَانَهُ فَإِنْ أَسْلَمُوا لَمْ يَقْتُلْهُمْ لِقَوْلِهِ – ﷺ –:«فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ» وَلِأَنَّ الْقَتْلَ لِدَفْعِ فِتْنَةِ الْكُفْرِ وَقَدْ انْدَفَعَتْ بِالْإِسْلَامِ وَلَكِنَّهُ يُقَسِّمُهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ مُخَيَّرًا فِيهِمْ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْقِسْمَةِ فَإِذَا تَعَذَّرَ أَحَدُهُمَا تَعَيَّنَ الْآخَرُ وَهَذَا لِأَنَّ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ثَبَتَ فِيهِمْ بِالْأَخْذِ وَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَرِقَّاءِ وَالْإِسْلَامُ لَا يُنَافِي بَقَاءَ الرِّقِّ وَالْقِسْمَةُ لِتَعْيِينِ الْمِلْكِ لَا أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءُ الِاسْتِرْقَاقِ فَإِسْلَامُهُمْ لَا يَمْنَعُ

[٥٢٥٢] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢٠)

مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَكِنَّهُمْ ادَّعَوْا أَمَانًا فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ:قَدْ كُنَّا أَمَّنَّاهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَدَّقُونَ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ثَبَتَ فِيهِمْ فَلَا يُصَدَّقُونَ فِي إبْطَالِ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ وَقَوْلُهُمْ هَذَا إقْرَارٌ لَا شَهَادَةَ فَإِنَّهُمْ أُخْبِرُوا بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَنْ أُخْبِرَ بِمَا لَا يَمْلِكُ اسْتِئْنَافَهُ كَانَ مُتَّهَمًا فِي خَبَرِهِ فَلَا يُصَدَّقُ وَإِنْ شَهِدَ قَوْمٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عُدُولٌ عَلَى طَائِفَةٍ أُخْرَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ أَسَرُوهُمْ وَهُمْ مُمْتَنِعُونَ جَازَتْ شَهَادَتُهُمْ لِأَنَّهُ لَا تُهْمَةَ فِي شَهَادَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ إنْ كَانُوا مِنْ الْجُنْدِ فَفِي شَهَادَتِهِمْ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ الْجُنْدِ فَلَيْسَ فِي شَهَادَتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ وَإِذَا انْتَفَتْ التُّهْمَةُ فَالثَّابِتُ بِالشَّهَادَةِ كَالثَّابِتِ مُعَايَنَةً.

وَلَا يُقْتَلُ الْأَعْمَى وَلَا الْمُقْعَدُ وَالْمَعْتُوهُ مِنْ الْأَسَارَى لِأَنَّهُ إنَّمَا يُقْتَلُ مَنْ يُقَاتِلُ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَقَاتِلُوهُمْ} [البقرة:١٩٣] وَالْمُفَاعَلَةُ تَكُونُ مِنْ الْجَانِبَيْنِ وَلَمَّا «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - امْرَأَةً مَقْتُولَةً قَالَ:هاه مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ» فَعَرَفْنَا أَنَّهُ إنَّمَا يُقْتَلُ مِنْ الْأَسَارَى مَنْ يُقَاتِلُ وَالْأَعْمَى وَالْمُقْعَدُ وَالْمَعْتُوهُ لَا يُقَاتِلُونَ أَحَدًا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَارِضًا فَقَدْ انْدَفَعَ بِالْأَسْرِ فَلَا يُقْتَلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ كَالْمَرْأَةِ مِنْهُمْ إذَا قَاتَلَتْ فَأُسِرَتْ لَا تُقْتَلُ بَعْدَ ذَلِكَ."[٥٢٥٣]

وهل يجوز لغير الإمام قتل الأسير؟

الراجح عدم جواز ذلك إلا لضرورة،كأن يستعصي الأسير و لم يقدر على أخذه بدون قتله،أو أنه قد أثخن بالجراحة فلا يقدر على السير و لم يقدر المسلمون على حمله،أو أنه قد بالغ في إيذاء أهل الإسلام،ويكون في قتله زجر لأمثاله)

ففي المغني لابن قدامة:"وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا،لَمْ يَكُنْ لَهُ قَتْلُهُ،حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ الْإِمَامَ،فَيَرَى فِيهِ رَأْيَهُ؛لِأَنَّهُ إذَا صَارَ أَسِيرًا،فَالْخِيرَةُ فِيهِ إلَى الْإِمَامِ،وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ كَلَامٌ يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ قَتْلِهِ،فَإِنَّهُ قَالَ:لَا يَقْتُلُ أَسِيرَ غَيْرِهِ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَالِي.فَمَفْهُومُهُ أَنَّ لَهُ قَتْلَ أَسِيرِهِ بِغَيْرِ إذْنِ الْوَالِي؛لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ ابْتِدَاءً،فَكَانَ لَهُ قَتْلُهُ دَوَامًا،كَمَا لَوْ هَرَبَ مِنْهُ أَوْ قَاتَلَهُ.فَإِنْ امْتَنَعَ الْأَسِيرُ أَنْ يَنْقَادَ مَعَهُ،فَلَهُ إكْرَاهُهُ بِالضَّرْبِ وَغَيْرِهِ،فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ إكْرَاهُهُ،فَلَهُ قَتْلُهُ.

[٥٢٥٣] - المبسوط للسرخسي (١٠/ ٦٣)

وَإِنْ خَافَهُ أَوْ خَافَ هَرَبَهُ،فَلَهُ قَتْلُهُ أَيْضًا.وَإِنْ امْتَنَعَ مِنْ الِانْقِيَادِ مَعَهُ،لِجُرْحٍ أَوْ مَرَضٍ،فَلَهُ قَتْلُهُ أَيْضًا.وَتَوَقَّفَ أَحْمَدُ عَنْ قَتْلِهِ.وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَقْتُلُهُ،كَمَا يُذَفِّفُ عَلَى جَرِيحِهِمْ،وَلِأَنَّ تَرْكَهُ حَيًّا ضَرَرٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَتَقْوِيَةٌ لِلْكُفَّارِ،فَتَعَيَّنَ الْقَتْلُ،كَحَالَةِ الِابْتِدَاءِ إذَا أَمْكَنَهُ قَتْلُهُ،وَكَجَرِيحِهِمْ إذَا لَمْ يَأْسِرْهُ.

فَأَمَّا أَسِيرُ غَيْرِهِ،فَلَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ،إلَّا أَنْ يَصِيرَ إلَى حَالٍ يَجُوزُ قَتْلُهُ لِمَنْ أَسَرَهُ.وَقَدْ رَوَى يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ،أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَالَ:«لَا يَتَعَاطَيَنَّ أَحَدُكُمْ أَسِيرَ صَاحِبِهِ إذَا أَخَذَهُ فَيَقْتُلُهُ».رَوَاهُ سَعِيدٌ.فَإِنْ قَتَلَ أَسِيرَهُ،أَوْ أَسِيرَ غَيْرِهِ قَبْلَ ذَلِكَ،أَسَاءَ،وَلَمْ يَلْزَمْهُ ضَمَانُهُ.

وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ.وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ إنْ قَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْإِمَامَ،لَمْ يَضْمَنْهُ،وَإِنْ قَتَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ غَرِمَ ثَمَنَهُ؛لِأَنَّهُ أَتْلَفَ مِنْ الْغَنِيمَةِ مَا لَهُ قِيمَةٌ،فَضَمِنَهُ،كَمَا لَوْ قَتَلَ امْرَأَةً .

وَلَنَا،أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ،أَسَرَ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ وَابْنَهُ عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ،فَرَآهُمَا بِلَالٌ،فَاسْتَصْرَخَ الْأَنْصَارَ عَلَيْهِمَا حَتَّى قَتَلُوهُمَا،وَلَمْ يَغْرَمُوا شَيْئًا.وَلِأَنَّهُ أَتْلَفَ مَا لَيْسَ بِمَالٍ،فَلَمْ يَغْرَمْهُ،كَمَا لَوْ أَتْلَفَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْإِمَامَ،وَلِأَنَّهُ أَتْلَفَ مَا لَا قِيمَةَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْإِمَامَ،فَلَمْ يَغْرَمْهُ،كَمَا لَوْ أَتْلَفَ كَلْبًا،فَأَمَّا إنْ قَتَلَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا،غَرِمَهُ؛لِأَنَّهُ كَانَ رَقِيقًا بِنَفْسِ السَّبْيِ.[5254]

ما يقوله إذا رأى ملامح النصر:

قال الله تعالى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)} [الصافات:١٧١ – ١٧٧].

والوعد واقع وكلمة الله قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار. وذهبت سطوهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف

[5254] – المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢٥)

تصوراهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعث منها. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون. هذه بصفة عامة. وهي ظاهرة ملحوظة. في جميع بقاع الأرض. في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة. إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق، وقامت في طريقها العراقيل. ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها. ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله. والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه. الوعد بالنصر والغلبة والتمكين. هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية. سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة يترل عليها الماء .. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله. ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون .. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوهم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام. وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر. ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصـــر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد: «وَلَقَـــدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ»[٥٢٥٥].

وعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ،فَجَاءَهَا لَيْلًا،وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَوْمًـــا بِلَيْلٍ لاَ يُغِيرُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ،فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ يَهُودُ بِمَسَـــاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ،فَلَمَّـــا رَأَوْهُ قَالُوا:مُحَمَّدٌ وَاللَّه،مُحَمَّدٌ وَالخَمِيسُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«اللَّهُ أَكْبَرُ،خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّـــا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ،فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[٥٢٥٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٢٥٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧٨٨)

[٥٢٥٦] - صحيح البخاري (٤/ ٤٨) (٢٩٤٥)

-[ش (بمساحيهم) جمع مسحاة آلة من آلات الزراعة.(مكاتلهم) جمع مكتل وهو وعاء مثل القفة]

المبحث الثالث

آداب الجهاد بعد انتهاء المعركة

إظهار التجلد للعدو،ولو أحرز انتصاراً على المجاهدين المسلمين.

المسلم عزيز على عدوه الكافر في كل وقت من الأوقات،حتى ولو بدا ذلك العدو منتصراً في بعض الأحيان،فإن عاقبته الذلة والمهانة،لأنه من أولياء الطاغوت والمسلم من أولياء الله،والله عز وجل يقول:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء:٧٦].

الذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ،وَنَشْرِ دِينِه،لاَ يَبْتَغُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللهِ.أمَّا الذينَ كَفَرُوا،فَإنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوت)،الذينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الكُفْرَ،وَيُمَنِّيهِمُ النَّصْرَ.وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ،وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائه.أمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَهُمُ الأَعِزَّةُ،لأَنَّ اللهَ حَامِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ،وَلِذَلِكَ فَعَلَى المُؤْمِنِينَ،أَوْلِيَاءِ اللهِ،أنْ لاَ يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الكُفَّارَ،لأنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ.[٥٢٥٧]

وقال تعالى:{ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون:٨]

والكافر يألم كما يألم المؤمن،ولكن ألم المؤمن يخف،لأنه يرجو من ربه النصر في الدنيا والثواب في الآخرة،ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يظهر الضعف لعدوه،بل عليه أن يتجلد ويريه من نفسه القوة قال تعالى:{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:١٠٤].

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بالجدِّ فِي قِتَالِ الأَعْدَاءِ،وَفِي طَلَبِهِمْ وَيُنَبِّهُهُمْ إلى أَنَّهُمْ إنْ كَانَتْ تُصِيبُهُمْ جِرَاحٌ،وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا،فَإِنَّ أَعْدَاءَهُمْ تُصِيبُهُمْ أَيْضاً جِرَاحٌ،وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا.وَالفَارِقُ الوَحِيدُ بَيْنَ المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ أنَّ المُؤْمِنَ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ المَثُوبَةَ وَالأَجْرَ،وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ،وَإِعْلاَءَ

[٥٢٥٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٦٩،بترقيم الشاملة آليا)

كَلِمَةَ اللهِ،التي وَعَدَهُ اللهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ،فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ،وَالكَافِرِ لا يَنْتَظِرُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ،وَاللهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَفْرِضُهُ وَيُقَدِّرُهُ.[٥٢٥٨]

إنهن كلمات معدودات.يضعن الخطوط الحاسمة،ويكشفن عن الشقة البعيدة،بين جبهتي الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة ..ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه ..إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء ..ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء ..إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم،ويرتقبون عنده جزاءهم ..فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون،لا يتجهون لله،ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة ..

فإذا أصر الكفار على المعركة،فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا،وإذا احتمل الكفار آلامها،فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام.وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال،وتعقب آثارهم،حتى لا تبقى لهم قوة،وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وإن هذا لهو فضل العقيدة في الله في كل كفاح.فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة،ويربو الألم على الاحتمال.ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد.هنالك يأتي المدد من هذا المعين،ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة.معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين.لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة ..ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبدا،حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله.من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض.ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار.وأن تعلم أنها إن كانت تألم،فإن عدوها كذلك يألم.

[٥٢٥٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٩٧،بترقيم الشاملة آليا)

والألم أنواع.والقرح ألوان ..«وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ» ..وهذا هو العزاء العميق.وهذا هو مفرق الطريق ..«وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» ..يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب.ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح ..[٥٢٥٩]

وقد سبق الحديث في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ:إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ،فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ «أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ،وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ،وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الإِبْقَاءُ عَلَيْهِمْ»[٥٢٦٠] .

فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يظهروا للمشركين أنهم أقوياء،بالإسراع في الطواف في الأشواط الثلاثة التي كان العدو يرونهم فيها،وفي الشوط الرابع الذي لا يرونهم فيه راعى ضعفهم،فلم يكلفهم الإسراع فيه،كل ذلك من أجل أن يرى المشركون من جند الله قوة وجلداً.

ولقد نهى الله عباده المؤمنين عن الاستسلام وإظهار الضعف والحزن،وذكَّرهم بأنهم هم الأعلون على عدوهم،حتى في حالة نيله منهم وانتصاره عليهم،كما قال تعالى:{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) } [آل عمران:١٣٩،١٤٠].

وَلاَ تَضْعَفُوا عَنِ الجِهَادِ،وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالإِعْدَادِ،بِسَبَبِ ما أَصَابَكُمْ مِنَ الفَشَلِ وَالجِرَاحِ يَوْمَ أُحُدٍ،وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَقَدْتُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ،فَإِنَّ العَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ سَيَكُونَانِ لَكُمْ إِذَا تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ اللهِ،وَرَاعَيْتُمْ تَعَالِيمَهُ،فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

[٥٢٥٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:١١١٢)

[٥٢٦٠] - صحيح البخاري (٢/ ١٥٠)(١٦٠٢) وصحيح مسلم (٢/ ٩٢٣)٢٤٠ - (١٢٦٦)

[ش(وهنهم) أضعفهم. (حمى) مرض. (يثرب) اسم المدينة في الجاهلية. (يرملوا) يهرولوا والهرولة المشي السريع مع تقارب الخطى. (الأشواط) جمع شوط والمراد الطوفة حول الكعبة. (الركنين) اليماني والأسود. (الإبقاء عليهم) الرفق بهم]

إنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ،وَقُتِلَ مِنْكُمْ رِجَالٌ يَوْمَ أحُد،فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِمَّا أَصَابَكُمْ،فَلاَ يَنْبَغِي لَكُمْ أنْ تَقْعُدُوا وَتَتَقَاعَسُوا عَنِ الجِهَادِ بِسَبَبِ مَا أَصَابَكُمْ،فَالمُشْرِكُونَ قَدْ سَبَقَ أنْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ أَنْتُمْ فِي أحُد،فَلَمْ يَتَقَاعَسُوا،وَلَمْ يَقْعُدُوا عَنِ الإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ وَمُبَاشَرَتِهَا،وَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ،فَكَيْفَ تَتَرَدَّدُونَ وَأَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ،وَاللهُ وَعَدَكُمْ نَصْرَهُ،وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لَكُمْ؟ وَمِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى مُدَاوَلَةُ الأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ،فَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْبَاطِلِ عَلَى الحَقِّ،إذَا أَعَدَّ لَهُ أَهْلُهُ وَاحْتَاطُوا،وَتَرَاخَى أَهْلُ الحَقِّ،وَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ.وَلَكِنَّ العَاقِبَةَ تَكُونُ دَائماً لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ.وَاللهُ تَعَالَى يَبْتَلِي المُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ،وَلِيَتّخِذَ مِنَ المُؤمِنِينَ رِجَالاً يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ.[5261]

قال ابن جرير رحمه الله:"وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ تَعْزِيَةٌ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ بِأُحُدٍ،قَالَ:وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ،يَعْنِي وَلَا تَضْعُفُوا بِالَّذِي نَالَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِأُحُدٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْقُرُوحِ،عَنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ وَحَرْبِهِمْ،مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:وَهَنَ فُلَانٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَهُوَ يَهِنُ وَهْنًا:{وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران:١٣٩] وَلَا تَأْسَوْا فَتَجْزَعُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمُصِيبَةِ يَوْمَئِذٍ،فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ،يَعْنِي الظَّاهِرُونَ عَلَيْهِمْ،وَلَكُمُ الْعُقْبَى فِي الظَّفَرِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ،يَقُولُ:إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ،يَقُولُ:إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِي نَبِيِّي مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا يَعِدُكُمْ،وَفِيمَا يُنْبِئُكُمْ مِنَ الْخَبَرِ عَمَّا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُكُمْ وَأَمْرُهُمْ"[5262]

ويذكر الله المؤمنين بأن ما أصابهم يوم أحد،قد أصاب أعداءهم يوم بدر،وأصابهم شيء منه كذلك يوم أحد،وأن أيام الله التي يلتقي فيها أولياؤه وأعداؤه دولٌ بين المسلمين وبين المشركين،إذا أخذ المسلمون بأسباب النصر أدالهم على عدوهم كما حصل يوم بدر،وإذا فرطوا فيها أدال عليهم أعداءه،كما حصل يوم أحد،ليميز الله صادق الإيمان من غيره،وليختار من المؤمنين – الذين انتهت آجالهم – شهداء تكريماً لهم،كما قال

[5261] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٣٢،بترقيم الشاملة آليا)

[5262] – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٦/ ٧٦)

تعالى:{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) } [آل عمران:١٤٠].

إن الشدة بعد الرخاء،والرخاء بعد الشدة،هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس،وطبائع القلوب،ودرجة الغبش فيها والصفاء،ودرجة الهلع فيها والصبر،ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط،ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين،ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم،وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم.ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده،وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين.والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور.ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء،وتجعله واقعا في حياة الناس،وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر،وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر،ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء.فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام،وتعاقب الشدة والرخاء،محك لا يخطئ،وميزان لا يظلم.والرخاء في هذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك،ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل.والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء،وتتجه إلى الله في الحالين،وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء،والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة.لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة.ولتزيد طاعة لله،وتوكلا عليه،والتصاقا بركنه.ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة،وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس،وفيما بعد تمييز الصفوف،وعلم الله للمؤمنين:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» ..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق - إن الشهداء لمختارون.يختارهم الله من بين المجاهدين،ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد.إنما هو اختيار وانتقاء،وتكريم واختصاص ..إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة،ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم الله،ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس.يستشهدهم فيؤدون الشهادة.يؤدونها أداء لا شبهة فيه،ولا مطعن عليه،ولا جدال حوله.يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق،وتقريره في دنيا الناس.يطلب الله - سبحانه - منهم أداء هذه الشهادة،على أن ما جاءهم من عنده الحق،وعلى أنهم آمنوا به،وتجردوا له،وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق وعلى أنهم هم استيقنوا هذا،فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس،وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس ..يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون.وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت.وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال! وكل من ينطق بالشهادتين:شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.لا يقال له إنه شهد،إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها.ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلها.ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله.فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد وأخص خصائص العبودية التلقي من الله ..ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله.ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر ..

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض،كما بلغها محمد - ﷺ - فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس،والذي بلغه عنه محمد - ﷺ - هو المنهج السائد والغالب والمطاع،وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله،فهو إذن شهيد.أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها.واتخذه الله شهيدا.ورزقه هذا المقام.هذا فقه ذلك التعبير العجيب:«وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ ..».[٥٢٦٣]

ويصغي جند الله لهذه الآيات التي تثير فيهم عزة الإيمان،فينسون ما أصابهم من قتل وجراح،ويدعوهم الرسول ﷺ والدماء تسيل من أجسادهم،لملاحقة المشركين بعد انتهاء معركة أحد،فيستجيبون له ويخرجون في أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد،ليرى الناس أن به ﷺ وبأصحابه قوة،ويوحي شياطين الجن إلى شياطين الإنس،أن يبثوا إشاعات كاذبة في صفوف المؤمنين لتخويفهم من أعاد الله،فيأتيهم من يقول لهم:إن المشركين قد جمعوا لكم جموعاً لا طاقة لكم بها،فيثبتهم الله ويزدادون إيماناً على إيمانهم،فلا يخافون إلا الله،بل يعتمدون عليه ويتوكلون عليه وحده:{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)} [آل عمران:،].

بَعْدَ أن انْصَرَفَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ يَوْمَ أحُد مُتَّجِهَةً إِلَى مَكَّةَ،نَدمَتْ عَلَى الانْصِرَافِ قَبْلَ اسْتِئْصَالِ شَأفَةِ المُسْلِمينَ،وَالقَضَاءِ عَلَيْهِمْ،فَفَكَّرُوا في العَوْدَةِ إلى المَدِينَةِ.
وَعَلِمَ رَسُولُ الله ﷺ بذَلكَ،فَنَدَبَ المُسْلِمينَ لِلْخُرُوجِ وَرَاءَ المُشْرِكِينَ لِيُثْنِيَهُمْ عَنِ التَّفْكِيرِ في العَوْدَةِ،وَأمَرَ بألاَّ يَخْرُجَ مَعَهُ إلاَّ مَنْ شَهِدَ أحُداً،فَتَسَارَعَ النَّاسُ إِلَى الخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيه مِنْ جِرَاحٍ.وَقَدْ وَعَدَ اللهُ مَنْ أحْسَنَ مِنْ هَؤُلاءِ المُسْتَجيبينَ لِلْرَسُولِ ﷺ وَاتَّقَى أجْراً عَظِيماً.وَخَافَتْ قُرَيشٌ أنْ يَجْمَعَ رَسُولُ الله ﷺ أهْلَ المَدِينَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي المَعْرَكَةِ،وَيَخْرُجَ وَرَاءَهُمْ،فَأَرْسَلُوا إِلَيه بَعْضَ نَاقِلِي الأخْبَارِ لِيُهَوِّلُوا عَلَيه،لِيَكُفَّ عَنِ اللِّحَاقِ بِهِمْ،وَقَالَ نَاقِلُوا الأَخْبَارِ لِلْمُسْلِمِينَ:إنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (النَّاسَ) قَدْ حَشَدُوا لَكُمْ،وَجَمَعُوا

[٥٢٦٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٧٨٢)

قُوَاهُمْ،فَاحْذَرُوهُمْ،وَاخْشَوْهُمْ،فَلَمْ يَزِدْ هَذَا القَوْلُ هَؤُلاءِ المُؤْمِنِينَ - الذينَ اسْتَجَابُوا لِلْرَسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُلَبِّينَ دَعْوَتَهُ،رَاغِبِينَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ رَبِّهِمْ وَنَصْرِهِ - إِلاَّ إِيمَاناً بِرَبِهِمْ،وَثِقَةً بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَأَجْرِهِ،وَرَدُّوا عَلَى مُخَاطِبِيهِمْ قَائِلِينَ:إِنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ،وَهُوَ حَسْبُهُمْ.فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ كَفَاهُمُ اللهُ مَا أَهَمَّهُمْ وَأَغَمَّهُمْ،وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأسَ النَّاسِ (الكَافِرِينَ)،فَرَجَعُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ،وَقَدْ فَازُوا بِرِضْوَانِ اللهِ،وَعَظِيمِ فَضْلِهِ،وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ،وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَدْراً مِنَ العَامِ القَابِلِ،فَخَرَجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى بَدْرٍ فِي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ،وَتَخَلَّفَتْ قُرَيْشٌ،فَاشْتَرَى رَسُولَ اللهِ عِيْراً مَرَّتْ بِهِمْ فِي المَوْسِمِ،ثُمَّ بَاعَهَا فَرَبِحَ،وَوَزَّعَ الرِّبْحَ عَلَى أَصْحَابِهِ،فَانْقَلَبُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ الثَّانِيَةِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ،وَنَالُوا رِضْوَانَ اللهِ،وَحَصَلُوا عَلَى فَضْلِهِ فِي الرِّبْحِ.وَاللهُ عَظِيمُ الفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ.يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ،أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الذي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ المُشْرِكِينَ،وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَقُوَّةٍ،وَهُوَ الذي قَالَ لَكُمْ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ،فَلاَ تَخَافُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ،وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ،وَالْجَؤُوا إِلَيهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً،فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إِيَّاهُمْ،وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ.وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ القَادِرُ عَلَى النَّصْرِ وَعَلَى الخُذْلاَنِ،وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ.[٥٢٦٤]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ} [آل عمران:١٧٢] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ،قَالَتْ لِعُرْوَةَ:يَا ابْنَ أُخْتِي،كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ:الزُّبَيْرُ،وَأَبُو بَكْرٍ،لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ،وَانْصَرَفَ عَنْهُ المُشْرِكُونَ،خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا،قَالَ:«مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا،قَالَ:كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ،وَالزُّبَيْرُ"[٥٢٦٥]

[٥٢٦٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٤٦٥،بترقيم الشاملة آليا)

[٥٢٦٥] - صحيح البخاري (٥/ ١٠٢)(٤٠٧٧)

[ش (استجابوا) أطاعوا الأمر وأجابوا النداء. (القرح) الجراح. / آل عمران ١٧٢ /. (إثرهم) خلفهم وعقبهم. (فانتدب) من قولهم ندبه لأمر فانتدب أي دعاه فأجاب]

وبعد:فقد رأيتَ من هذه النصوص من الكتاب والسنة أن المؤمنين مهما أصابهم من البلاء،ومهما بدا أن عدوهم انتصر عليهم،حتى لو أصاب نبيهم بالجروح وقتل عمه حمزة وغيره من صناديد الصحابة،فإنهم هم الأعلون لا يضعفون ولا يستكينون،بل يظهرون لعدوهم القوة من أنفسهم بمطاردته وإظهاره بمظهر المهزوم في النهاية،فأين المنتسبون إلى الإسلام اليوم من هذه المعاني العالية التي سطرها الرسول ﷺ وأصحابه،وفيهم أسوة حسنة؟ إن المنتسبين إلى الإسلام اليوم ليروع غالب قادَتِهم شعوبَهم،ويدخلون عليهم الرعب من قوة أعداء الله،ويدعونهم إلى الاستسلام للكافرين ويركع غالب أولئك القادة لأولئك الأعداء ويذلون لهم،ناسين هذه المعاني الرفيعة وتلك الصفات الحميدة،في الأجداد الأوائل الذين لا يزالون يعيشون على فتات موائد جهادهم وتضحياتهم فلا حول ولا قوة إلى بالله.

الإقامة في أرض المعركة ثلاثة أيام بعد الانتصار على الأعداء:

قد ينتصر في أول المعركة أحد الخصمين،وقد يستمر له النصر إلى النهاية،وقد لا يستمر بل قد يدال عليه خصمه،وليس النصر هو أن يصاب العدو بالقتل والجروح وأخذ الأموال والغنائم فقط،بل ذلك ومعه شعور العدو بالهزيمة الساحقة التي ييأس معها من العودة إلى المحاربة،وشعور الغالب بأنه الأعلى الذي أصبح مسيطراً وبيده زمام أمر المعركة السابقة،ويأمل أن يكون له النصر كذلك في معركة لاحقة.

ومن علامة الشعور بالهزيمة الساحقة أن يولي العدو هارباً لا يدري ما خلفه،بل لا يهمه إلا أن ينجو بنفسه،وهذا ما حصل في معركة بدر بالنسبة للمشركين فإنهم ولوا فارين مدبرين لا يلوون على شيء.

لا بل إن المشركين في أحد،وكانت الغلبة في ظاهرها لهم على المسلمين،ولكنهم لم يحافظوا على ذلك الغَلَب وذلك الانتصار عندما ولوا مدبرين،والرسول ﷺ وأصحابه الذين تسيل أجسادهم دماً من جروح المعركة يتابعونهم،فكان ذلك ضرباً من الهزيمة،بخلاف المسلمين فإنهم -وإن بدا أنهم هزموا في المعركة فكان منهم سبعون قتيلاً

وجرح الكثير منهم حتى نبيهم ﷺ- مع ذلك أخذوا زمام مبادرة النصر بمتابعة المشركين،وهم على تلك الحال وفر المشركون عندما علموا بخروجهم إلى حمراء الأسد.

ولكن الرسول ﷺ وأصحابه،حافظوا على انتصارهم في غزوة بدر،فأقام ﷺ بها ثلاثاً،وكانت تلك عادته إذا غلب عدوه أقام بمكان المعركة ثلاثاً.

فعَنْ قَتَادَةَ،قَالَ:ذَكَرَ لَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِك،عَنْ أَبِي طَلْحَةَ،أَنَّ نَبِيَّ اللَّه ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَة وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ،فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ،وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالعَرْصَة ثَلاَثَ لَيَالٍ،فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ اليَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَته فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا،ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ،وَقَالُوا:مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَته،حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَة الرَّكِيِّ،فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ:«يَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ،وَيَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ،أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا،فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟''قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ:يَا رَسُولَ اللَّه،مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لاَ أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَده،مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»،قَالَ قَتَادَةُ:أَحْيَاهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ،قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا"[٥٢٦٦] .

وقال الحافظ في الفتح:"قالَ المُهَلَّب:حِكمَة الإقامَة لإراحَة الظَّهر والأَنفُس،ولا يَخفَى أَنَّ مَحِلّه إذا كانَ فِي أَمن مِن عَدُوّ وطارِق،والاقتِصار عَلَى ثَلاث يُؤخَذ مِنهُ أَنَّ الأَربَعَة إقامَة.

وقالَ ابن الجَوزِيّ:إنَّما كانَ يُقِيم لِيُظهِر تَأثِير الغَلَبَة وتَنفِيذ الأَحكام وقِلَّة الاحتِفال،فَكَأَنَّهُ يَقُول:مَن كانَت فِيهِ قُوَّة مِنكُم فَليَرجِع إلَينا.

[٥٢٦٦] - صحيح البخاري (٥/ ٧٦)(٣٩٧٦)

[ش(صناديد) جمع صنديد وهو السيد الشجاع. (طوي) هي البئر التي بنيت جدرانها بالحجارة. (خبيث) غير طيب. (مخبث) من قوله أخبث إذا اتخذ أصحابا خبثا أي زاد خبثه بإلقاء هؤلاء الخبيثين فيه. (شفة الركي) طرف البئر. (أنكم أطعتم) أي لو أنكم أطعتم. (نقمة) وفي نسخة (نقيمة) وهي المكافأة بالعقوبة]

وقالَ ابن المُنير:يُحتَمَل أَن يَكُون المُراد أَن تَقَع ضِيافَة الأَرض الَّتِي وقَعَت فِيها المَعاصِي بِإِيقاعِ الطّاعَة فِيها بِذِكرِ الله وإِظهار شِعار المُسلِمِينَ.وإِذا كانَ ذَلِكَ فِي حُكم الضِّيافَة ناسَبَ أَن يُقِيم عَلَيها ثَلاثًا لأَنَّ الضِّيافة ثَلاثَة.[٥٢٦٧].

وقال ابن القيم رحمه الله:"ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِالْعَرْصَة ثَلَاثًا،وَكَانَ إذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِمْ ثَلَاثًا») .ثُمَّ ارْتَحَلَ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا،قَرِيرَ الْعَيْنِ بِنَصْرِ اللَّه لَهُ،وَمَعَهُ الْأُسَارَى وَالْمَغَانِمُ،فَلَمَّا كَانَ بِالصَّفْرَاءِ،قَسَمَ الْغَنَائِمَ وَضَرَبَ عُنُقَ النضر بن الحارث بن كلدة،ثُمَّ لَمَّا نَزَلَ بِعِرْقِ الظَّبْيَةِ،ضَرَبَ عُنُقَ عقبة بن أبي معيط.وَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا قَدْ خَافَهُ كُلُّ عَدُوٍّ لَهُ الْمَدِينَةَ وَحَوْلَهَا،فَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَة،وَحِينَئِذٍ دَخَلَ عبد الله بن أبي الْمُنَافِقُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا."[٥٢٦٨]

مواصلة التدريب القتالي وعدم القعود عنه:

الجهاد في سبيل الله باق ما بقي في الأرض مسلم وكافر،فإذا أعد المسلمون العدة لمعركة مع عدو وانتصروا عليه،فعليهم أن يواصلوا الإعداد لمعركة أخرى مع عدو آخر،والمقصود هنا التنبيه على أنه لا يجوز للمسلمين أن يكسلوا عن التدريب والتمرين على أساليب القتال وأنواع السلاح ركوناً إلى معركة انتصروا فيها.

وقد ظن بعض المسلمين بعد أن حققوا انتصاراً على الكافرين أن أمر القتال انتهى،وأنه لا حاجة بعد ذلك إلى اقتناء السلاح وإعداد العدة،بل جاء وقت الراحة والرخاء – هذا الظن كان بعد تحقيق النصر على العدو،فكيف حال من يزعم ذلك وهو مهزوم والعدو منتصر عليه – فكذب الرسول ﷺ هذا الظن،وأمر بالاستمرار في إعداد العدة والتدريب،فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ الله أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ وَوَضَعُوا السِّلَاحَ وَقَالُوا:لَا جِهَادَ قَدْ وَضَعَت الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِوَجْهِه فَقَالَ:«كَذَبُوا الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ،وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ،وَيُزِيغُ اللهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ،وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ

[٥٢٦٧] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٨١)

[٥٢٦٨] – زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٦٨)

أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ،وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَهُوَ يُوحِي إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرُ مُلَبَّثٍ،وَأَنْتُمْ مُتَّبِعُونِي أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ،وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ»[٥٢٦٩]

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ،أَنَّ فُقَيْمًا اللَّخْمِيَّ،قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ:تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ،قَالَ عُقْبَةُ:لَوْلَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ أُعَانِيهِ،قَالَ الْحَارِثُ:فَقُلْتُ لِابْنِ شَمَاسَةَ:وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ:إِنَّهُ قَالَ:«مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ،ثُمَّ تَرَكَهُ،فَلَيْسَ مِنَّا» أَوْ «قَدْ عَصَى»[٥٢٧٠]

دفن قتلى المسلمين في مصارعهم:

والسنة أن يدفن قتلى المسلمين في مصارعهم – أي في مكان المعركة – ولا ينقلوا إلى المقبرة المعتادة،ولو كانت قريبة.

وقد ظن نساء الصحابة اللاتي قمن بالخدمة – من سقي وتمريض وغيرهما – في معركة أحد أن نقل الموتى إلى المقبرة – اعتباراً بالأصل – سنة فنقلن بعض الموتى مع الجرحى إلى المدينة،فعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ،قَالَتْ:«كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ،فَنَسْقِي القَوْمَ،وَنَخْدُمُهُمْ،وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ[٥٢٧١]»[٥٢٧٢].

[٥٢٦٩] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٣١١)(٤٣٨٦) صحيح

أذال:الإذالة:الإهانة والابتذال.=أوزراها:الأوزار:الأثقال،ومعنى «حتى تضع الحرب أوزارها» أي:ينقضي أمرها،وتخف أثقالها،ولا يبقى قتال.=يزيغ:زاغ الشيء يزيغ:إذا مال.=نواصي:جمع ناصية،وهو شعر مقدم الرأس.=عقر الدار:أصلها بالفتح،وهو محلة القوم،وأهل المدينة يقولون:عقر الدار،بالضم.جامع الأصول في أحاديث الرسول ط مكتبة الحلواني الأولى (٢/ ٥٧٠)

[٥٢٧٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٩ - (١٩١٩)

[ش (أعاينه) هكذا هو في معظم النسخ لم أعاينه بالياء وفي بعضها لم أعانه بحذفها وهو الفصيح والأول لغة معروفة سبق بيانها مرات]

[٥٢٧١] - (فَحُملَا إِلَى الْمَدِينَةِ) فِيهِ جَوَازُ نَقْلِ الْمَيِّتِ مِنْ الْمَوْطِنِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ إِلَى مَوْطِنٍ آخَرَ يُدْفَنُ فِيهِ،وَالْأَصْلُ الْجَوَازُ فَلَا يُمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ إلَّا لِدَلِيلٍ''نيل الأوطار (٤/ ١٣٧)

[٥٢٧٢] - صحيح البخاري (٤/ ٣٤)(٢٨٨٣)

فهذه الأحاديث تدل على جواز خروجهن مع الغزاة لاسيما إذا كان لهن حاجة في ذلك ولا ينافي هذا ما أخرجه البخاري وغيره من حديث عائشة أنها قالت:قلت:يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال:"لكن أفضل الجهاد حج مبرور''فإنه إنما يدل على أن أفضل الجهاد الحج المبرور وهو غير محل النزاع.السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٥٤)

فلما علم النبي ﷺ أمَرَهم أن يردوا القتلى إلى مصارعهم،فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلَى أُحُدٍ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى مَصَارِعِهِمْ»،وَكَانُوا قَدْ نُقِلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ"[5273]

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ جَاءَتْ عَمَّتِي بِأَبِي لِتَدْفِنَهُ فِي مَقَابِرِنَا،فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:«رُدُّوا القَتْلَى إِلَى مَضَاجِعِهِمْ»[5274]

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ:وَبِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ يُرَدُّ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:أَمْرُهُ بِرَدِّهِمْ كَانَ أَوَّلًا،وَأَمَّا بَعْدُ فَلَا لِمَا رُوِيَ أَنَّ جَابِرًا جَاءَ بِأَبِيهِ إِلَى الْبَقِيعِ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ اهـــ.وَهُوَ مَرْدُودٌ لِأَنَّ هَذَا الْجَمْعَ مَقْبُولٌ بَلْ مُتَعَيِّنٌ عِنْدَ أَرْبَابِ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ.[5275]

وَاتَّفَقَ الأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ يُسْتَحَبُّ دَفْنُهُ حَيْثُ قُتِل.لِمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلَى أُحُدٍ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى مَصَارِعِهِمْ.وَأَنَّهُ يُنْزَعُ عَنْهُ الْحَدِيدُ وَالسِّلاَحُ،وَيُتْرَكُ عَلَيْهِ خُفَّاهُ،وَقَلَنْسُوَتُهُ لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:"أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلَى أُحُدٍ أَنْ يُنْزَعَ عَنْهُمُ الْحَدِيدُ وَالْجُلُودُ،وَأَنْ يُدْفَنُوا فِي ثِيَابِهِمْ بِدِمَائِهِمْ.وَدَفْنُ الشَّهِيدِ بِثِيَابِهِ حَتْمٌ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ عَمَلاً بِظَاهِرِ الْحَدِيثِ،وَأَوْلَى عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ.فَلِلْوَلِيِّ أَنْ يَنْزِعَ عَنْهُ ثِيَابَهُ،وَيُكَفِّنَهُ بِغَيْرِهَا .[5276]

ولعل من حِكَم أمره ﷺ بردهم إلى مضاجعهم كون ذلك عبرة للمسلمين الذين يجيئون بعدهم،ويزورون ساحة المعركة فيتذكرون أعلام الجهاد في سبيل الله الذين حملوا على أكتافهم دعوة الإسلام،وضحوا في سبيل الله تعالى من أجل رفع راية هذا الدين،وهداية الناس له بكل ما يملكون حتى نفوسهم وروَّوا بدمائهم تلك الأرض التي مازالت شاهد صدق على البذل والتضحية.

وفيه جَوازُ مُعالَجَة المَرأَة الأَجنَبيَّة الرَّجُل الأَجنَبيّ للضَّرُورَة.قالَ ابن بَطّال:ويَختَصُّ ذَلكَ بذَوات المَحارِم ثُمَّ بالمُتَجالّات منهُنَّ لأَنَّ مَوضِعَ الجُرح لا يُلتَذُّ بلَمسه بَل يَقشَعِرُّ منهُ الجِلدُ فَإِن دَعَت الضَّرُورَة لغَير المُتَجالّات فَليَكُن بغَير مُباشَرَة ولا مَسٍّ.ويَدُلُّ عَلَى ذَلكَ اتِّفاقُهُم عَلَى أَنَّ المَرأَةَ إذا ماتَت ولَم تُوجَد امرَأَة تُغَسِّلُها أَنَّ الرَّجُلَ لا يُباشِرُ غُسلَها بالمَسِّ بَل يُغَسِّلُها من وراء حائِلٍ في قَول بَعضهم كالزُّهريِّ وفي قَول الأَكثَر تُيَمَّمُ وقالَ الأَوزاعيُّ تُدفَنُ كَما هيَ.قالَ ابن المُنير:الفَرقُ بَينَ حال المُداواة وتَغسيل المَيِّت أَنَّ الغُسلَ عبادَةٌ والمُداواةُ ضَرُورَة والضَّرُوراتُ تُبيحُ المَحظُورات.فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٨٠)

[5273] - سنن النسائي (٤/ ٧٩)(٢٠٠٤) صحيح

[5274] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢١٥)(١٧١٧) صحيح

[5275] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١٢٢١)

[5276] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢١/ ١٠)

وكذلك عندما يقف المسلم متأملاً أحداث الغزوة ومواقع حزب الله المجاهدين،وحزب الشيطان المحاربين،يأخذ في الدعاء لهؤلاء الذين اختارهم الله شهداء عنده.
وكذلك إرشاد للمسلم بأن يدفن في أي أرض يموت،ولا داعي لنقله من مكان إلى آخر فالأرض كلها أرض الله {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [لقمان:٣٤]

وإذا كانت الأرض تشهد لأهل الطاعة بطاعتهم،وعلى أهل المعاصي بعصيانهم فإن خير عمل يقدمه المؤمن – بعد الإيمان بالله – الموت في سبيله،ومضجعه الذي فاضت روحه فيه،وهو يجاهد في سبيل الله أولى به من غيره من بقاع الأرض،كما أن مرقده في ذلك الجزء الذي بلله دمه خير لهه من بقعة أخرى،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} [الزلزلة:٤]،قَالَ:«أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟»،قَالَ:قَالُوا:اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،قَالَ:«فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا،أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا»،قَالَ:«فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»[٥٢٧٧].
وأما الميت غير شهيد المعركة،فقد ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ نَقْل الْمَيِّتِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ بَعْدَ الدَّفْنِ مُطْلَقًا.وَأَفْتَى بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ بِجَوَازِهِ إِلاَّ أَنَّ ابْنَ عَابِدِينَ رَدَّهُ فَقَال نَقْلاً عَنِ الْفَتْحِ:اتِّفَاقُ مَشَايِخِ الْحَنَفِيَّةِ فِي امْرَأَةٍ دُفِنَ ابْنُهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ فِي غَيْرِ بَلَدِهَا فَلَمْ تَصْبِرْ،وَأَرَادَتْ نَقْلَهُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَسَعُهَا ذَلِكَ،فَتَجْوِيزُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ لاَ يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ .
وَأَمَّا نَقْل يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ ؛لِيَكُونَا مَعَ آبَائِهِمَا الْكِرَامِ فَهُوَ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا،وَلَمْ يَتَوَفَّرْ فِيهِ شُرُوطُ كَوْنِهِ شَرْعًا لَنَا .
وَأَمَّا قَبْل دَفْنِهِ فَيَرَى الْحَنَفِيَّةُ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِنَقْلِهِ مُطْلَقًا،وَقِيل إِلَى مَا دُونَ مُدَّةِ السَّفَرِ،وَقَيَّدَهُ مُحَمَّدٌ بِقَدْرِ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ .

[٥٢٧٧] – السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٢)(١١٦٢٩) وصحيح ابن حبان – مخرجا (١٦/ ٣٦٠)(٧٣٦٠) حسن لغيره

وَذَهَبَ جُمْهُورُ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ نَقْل الْمَيِّتِ قَبْل الدَّفْنِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرَ إِلاَّ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ.وَبِهِ قَال الأَوْزَاعِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ .وَلِأَنَّ ذَلِكَ أَخَفُّ لِمُؤْنَتِهِ،وَأَسْلَمُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ،وَأَمَّا إِنْ كَانَ فِيهِ غَرَضٌ صَحِيحٌ جَازَ .

قَال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:لاَ أُحِبُّهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ بِقُرْبِ مَكَّةَ،أَوِ الْمَدِينَةِ،أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.فَيُخْتَارُ أَنْ يُنْقَل إِلَيْهَا لِفَضْل الدَّفْنِ فِيهَا،وَقَال بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ:يُكْرَهُ نَقْلُهُ،وَقَال صَاحِبُ التَّتِمَّةِ وَآخَرُونَ:يَحْرُمُ نَقْلُهُ.

وَأَمَّا الْمَالِكِيَّةُ فَيَجُوزُ عِنْدَهُمْ نَقْل الْمَيِّتِ قَبْل الدَّفْنِ وَكَذَا بَعْدَهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ بِشُرُوطٍ هِيَ:

- أَنْ لاَ يَنْفَجِرَ حَال نَقْلِهِ
- أَنْ لاَ تُنْتَهَكَ حُرْمَتُهُ
- وَأَنْ يَكُونَ لِمَصْلَحَةٍ:كَأَنْ يُخَافَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَهُ الْبَحْرُ،أَوْ تُرْجَى بَرَكَةُ الْمَوْضِعِ الْمَنْقُول إِلَيْهِ،أَوْ لِيُدْفَنَ بَيْنَ أَهْلِهِ،أَوْ لِأَجْل قُرْبِ زِيَارَةِ أَهْلِهِ،أَوْ دَفْنِ مَنْ أَسْلَمَ بِمَقْبَرَةِ الْكُفَّارِ،فَيُتَدَارَكُ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهَا،وَدَفْنِهِ فِي مَقْبَرَةِ الْمُسْلِمِينَ.فَإِنْ تَخَلَّفَ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ الثَّلاَثَةِ كَانَ النَّقْل حَرَامًا .[٥٢٧٨]

وقال الحافظ في الفتح:"واختُلِفَ في جَواز نَقل المَيِّت من بَلَد إِلَى بَلَد،فَقيلَ:يُكرَه لِما فيه من تَأخير دَفنه وتَعريضه لِهَتكِ حُرمَته،وقِيلَ يُستَحَبّ،والأَولَى تَنزِيل ذَلِكَ عَلَى حالَتَين:فالمَنع حَيثُ لَم يَكُن هُناكَ غَرَض راجِح كالدَّفنِ فِي البِقاع الفاضِلَة،وتَختَلِف الكَراهَة فِي ذَلِكَ فَقَد تَبلُغ التَّحرِيم،والاستحباب حَيثُ يَكُون ذَلِكَ بِقُربِ مَكان فاضِل كَما نَصَّ الشّافِعِيّ عَلَى استِحباب نَقل المَيِّت إِلَى الأَرض الفاضِلَة كَمَكَّة وغَيرها.والله أَعلَم."[٥٢٧٩]

حكم دفن قتلى الكفار :

[٥٢٧٨] - الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف الكويتية (٢١/ ٩)

[٥٢٧٩] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٣/ ٢٠٧)

ينبغي دفن هؤلاء في حفرة وتسوية الأرض بها ، لكي لا يعرفهم أحد ، كما دفن الكفار في معركة بدر في قليب أي بئر من الأبيار هناك

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺسَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺرَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ -، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺصَرْعَى، فِي القَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ "[٥٢٨٠]

وعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ أَبِي يَحْيَى، حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ: " بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ، فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعْرًا، فَقَالَا: اصْعَدْ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أُطِيقُهُ، فَقَالَا: إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ، فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ إِذَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطُلِقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَةٍ أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، فَقَالَ: خَابَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالَ سُلَيْمَانُ: مَا أَدْرِي أَسَمِعَهُ أَبُو أُمَامَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَمْ شَيْءٌ مِنْ رَأْيِهِ؟ ثُمَّ انْطَلَقَ، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، وَأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ قَتْلَى الْكُفَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، كَأَنَّ رِيحَهُمُ الْمَرَاحِيضُ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا

[٥٢٨٠] - صحيح البخاري (١/ ٥٧)(٢٤٠)

بنسَاءِ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الْحَيَّاتُ، قُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِالْغِلْمَانِ يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذَرَارِي الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ شَرَفًا، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ ثَلَاثَةٍ يَشْرَبُونَ مِنْ خَمْرٍ لَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ جَعْفَرٌ، وَزَيدٌ، وَابْنُ رَوَاحَةَ، ثُمَّ شَرَفَنِي شَرَفًا آخَرَ، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ ثَلَاثَةٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَهُمْ يَنْظُرُونِي "[٥٢٨١]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: هَذِهِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَذَكَرَ الحَدِيثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَهُوَ يُلْقِيهِمْ «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» قَالَ مُوسَى: قَالَ نَافِعٌ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُنَادِي نَاسًا أَمْوَاتًا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا قُلْتُ مِنْهُمْ»[٥٢٨٢]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَتَرَاءَيْنَا الْهِلَالَ، وَكُنْتُ رَجُلًا حَدِيدَ الْبَصَرِ، فَرَأَيْتُهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَآهُ غَيْرِي، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِعُمَرَ، أَمَا تَرَاهُ؟ فَجَعَلَ لَا يَرَاهُ، قَالَ: يَقُولُ عُمَرُ: سَأَرَاهُ وَأَنَا مُسْتَلْقٍ عَلَى فِرَاشِي، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ»، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَجُعِلُوا فِي بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺحَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا»[٥٢٨٣]

[٥٢٨١] - صحيح ابن خزيمة (٣/ ٢٣٧)(١٩٨٦) صحيح

[٥٢٨٢] - صحيح البخاري (٥/ ٨٦)(٤٠٢٦)

[٥٢٨٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٢)٧٦ - (٢٨٧٣)

[ش (هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله) هذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم الظاهرة (ما أنتم أسمع لما أقول منهم) قال المازري قال بعض الناس الميت يسمع عملا بظاهر هذا الحديث ثم أنكره المازري وادعى أن هذا خاص في هؤلاء ورد عليه القاضي عياض وقال يحتمل سماعهم على ما يحتمل عليه سماع الموتى في أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع لها وذلك

وعَنْ عَائشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا أَمَرَ النَّبيُّ ﷺبِأُولَئكَ الرَّهْطِ، عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَصْحَابه، فَأُلْقُوا في الطُّوَى قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «جزَى اللَّهُ شَرًّا منْ قَوْمِ نَبيٍّ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْد، وَأَشَدَّ التَّكْذيب» قَالَ: فَقيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لقَوْلي منْهُمْ» ، أَوْ: «لَهُمْ أَفْهَمُ لقَوْلي منْكُمْ» قَالُوا: فَخَبَرُ عَائشَةَ عَنْ رَسُول اللَّه ﷺالَّذي رَوَتْهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لأَصْحَابه، إذْ قَالُوا لَهُ حينَ قَالَ مَا قَالَ لأَهْلِ الْقَليب: «أَتُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فيهَا مَا أَنْتُمْ بأَعْلَمَ بمَا أَقُولُ منْهُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بأَفْهَمَ لَهُ منْهُمْ» يُبَيِّنُ حَقيقَةَ مَا قُلْنَا منَ التَّأْويلِ في مَعْنَى قَوْله عَلَيْه السَّلَامُ: مَا أَنْتُمْ بأَسْمَعَ لمَا أَقُولُ منْهُمْ منْ أَنَّهُ مُرَادٌ به: مَا أَنْتُمْ بأَعْلَمَ، لَا أَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَ بَني آدَمَ وَكَلَامَهُمْ، قَالُوا: وَلَوْ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ النَّاسِ وَهُمْ مَوْتَى، لَمْ يَكُنْ لقَوْل اللَّه تَعَالَى، ذكْرُهُ لنَبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: {إنَّكَ لَا تُسْمعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠] ، وَلَا لقَوْله تَعَالَى: {إنَّ اللَّهَ يُسْمعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بمُسْمعٍ مَنْ في الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] مَعْنًى قَالُوا: وَفي فَسَاد الْقَوْل بأَنَّ ذَلكَ لَا مَعْنَى لَهُ، صحَّةُ الْقَوْل بأَنَّ الْأَمْوَاتَ بَعْدَ مَمَاتهمْ لَا يَسْمَعُونَ منْ كَلَامِ النَّاسِ شَيْئًا. وَالصَّوَابُ منَ الْقَوْل في ذَلكَ أَنَّ كلْتَا الرِّوَايَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺفي ذَلكَ صَحيحَةٌ ، عُدُولٌ نَقَلَتُهَا، فَالْوَاجبُ عَلَى مَا انْتَهَتْ إلَيْه، وَقَامَتْ عَلَيْه حُجَّةُ خَبَرِ الْوَاحد الْعَدْل الْإيمَانُ بهَا وَالْإقْرَارُ بأَنَّ اللَّهَ يُسْمعُ منْ شَاءَ منْ خَلْقه منْ بَعْد مَمَاته مَا شَاءَ منْ كَلَام خَلْقه منْ بَني آدَمَ وَغَيْرهمْ عَلَى مَا شَاءَ، وَيُفْهمُ مَنْ شَاءَ منْهُمْ مَا شَاءَ، وَيُنَعِّمُ مَنْ أَحَبَّ منْهُمْ بمَا أَحَبَّ، وَيُعَذِّبُ في قَبْره الْكَافرَ، وَمَنِ اسْتَحَقَّ منْهُمُ الْعَذَابَ كَيْفَ أَرَادَ، عَلَى مَا جَاءَتْ به عَنْ رَسُول اللَّه ﷺالْآثَارُ وَصَحَّتْ به الْأَخْبَارُ. وَلَيْسَ في قَوْل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لنَبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: {إنَّكَ لَا تُسْمعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبرينَ} [النمل: ٨٠] ، وَلَا في قَوْله: {إنَّ اللَّهَ يُسْمعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بمُسْمعٍ مَنْ في الْقُبُورِ} [ص:٥١٩][فاطر: ٢٢] حُجَّةٌ لمَنِ احْتَجَّ به في دَفْع مَا صَحَّتْ به الرِّوَايَةُ، عَنْ رَسُول اللَّه ﷺمنْ قَوْله لأَصْحَابه إذْ قَالُوا لَهُ في خطَابه

بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون في الوقت الذي يريد الله تعالى هذا كلام القاضي وهو الظاهر المختار الذي تقتضيه أحاديث السلام على القبور]

أَهْلِ الْقَلِيبِ بِمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ، وَلَا فِي إِنْكَارِ مَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺمِنْ قَوْلِهِ لِأَصْحَابِهِ مُخْبِرَهُمْ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ: «إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» ، إِذْ كَانَ قَوْلُهُ: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، وَقَوْلُهُ: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠] ، مُحْتَمِلًا مِنَ التَّأْوِيلِ أَوْجُهًا سِوَى التَّأْوِيلِ الَّذِي تَأَوَّلَهُ الْمُوَجِّهُ تَأْوِيلَهُ إِلَى أَنَّهُ لَا مَيِّتَ يَسْمَعُ مِنْ كَلَامِ الْأَحْيَاءِ شَيْئًا. فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى بِطَاقَتِكَ وَقُدْرَتِكَ، إِذْ كَانَ خَالِقُ السَّمْعِ غَيْرَكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ هُوَ الَّذِي يُسْمِعُهُمْ إِذَا شَاءَ، إِذْ كَانَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ} [النمل: ٨١] . وَذَلِكَ أَنَّ الْهِدَايَةَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْفِيقَ لِلرَّشَادِ بِيَدِ اللَّهِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، فَنَفَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺأَنْ يَكُونَ قَادِرًا أَنْ يُسْمِعَ الْمَوْتَى إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ، كَمَا نَفَى أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى هِدَايَةِ الضُّلَّالِ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَذَلِكَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، أَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِسْمَاعِ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، بِقَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ} [فاطر: ٢٢] ، ثُمَّ نَفَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺالْقُدْرَةَ عَلَى مَا أَثْبَتَهُ وَأَوْجَبَهُ لِنَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْمِعُهُمْ دُونَكَ، وَبِيَدِهِ الْإِفْهَامُ وَالْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ، وَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، فَبَلِّغْ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ. فَهَذَا أَحَدُ أَوْجُهِهِ ، [ص:٥٢٠] وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى إِسْمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُمُ الْأَعْمَالُ، وَخَرَجُوا مِنْ دَارِ الْأَعْمَالِ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ دُعَاؤُكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَتَبَ رَبُّكَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، لَا يُسْمِعُهُمْ دُعَاؤُكَ إِلَى الْحَقِّ إِسْمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدْ خَتَمَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا، كَمَا خَتَمَ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى مَسَاكِنِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ إِيمَانٌ وَلَا عَمَلٌ؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ امْتِحَانٍ، وَإِنَّمَا هِيَ دَارُ مُجَازَاةٍ، وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ

الْمَعَانِي. فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ مُحْتَمِلًا مِنَ الْمَعَانِي مَا وَصَفْنَا، فَلَيْسَ لِمُوَجِّهِهِ إِلَى أَنَّهُ مَعْنِيٌّ بِهِ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَيِّتٌ شَيْئًا بِحَالٍ حُجَّةٌ، إِذْ كَانَ لَا خَبَرَ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺيُصَحِّحُهُ، وَلَا فِي الْفِعْلِ شَاهِدٌ بِحَقِيقَتِهِ، بَلْ تَأْوِيلُ مُخَالِفِيهِ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَوْلَى بِالصِّحَّةِ لِمَا رُوِّينَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْهُ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ، عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ عَنْهُ الْآثَارُ. فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، وَقَوْلَهُ لَهُ: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠] ، لَمَّا كَانَ عَامًّا ظَاهِرُهُ فِي كُلِّ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَفِي جَمِيعِ الْمَوْتَى، مِنْ غَيْرِ خُصُوصِ بَعْضٍ مِنْهُمْ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْقَائِلِ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْمَعُوا فِي حَالٍ مَا هُمْ فِي الْبَرْزَخِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ الْأَحْيَاءِ أَوْلَى بِالصِّحَّةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِينَ بِإِجَازَةِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فَقَدْ ظَنَّ غَيْرَ الصَّوَابِ [ص:٥٢١]. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَ بَيَانَ مَا نَزَلَ إِلَيْنَا مِنْ كِتَابِهِ إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي قُبُورِهِمَا حِينَ يُسْأَلَانِ عَنْ دِينِهِمَا: أَنَّهُمَا يَسْمَعَانِ خَفْقَ نِعَالِ مُتَّبِعِي جَنَائِزِهِمَا إِذَا وَلَّوْا عَنْهُمَا مُدْبِرِينَ، فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢] ، وَقَوْلَهُ: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠] ، مَعْنِيٌّ بِهِ إِسْمَاعُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ جَمِيعِهَا، وَدَلِيلًا عَلَى أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: قَدْ يَسْمَعُونَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ أَوْلَى بِالصِّحَّةِ مِنْ قَوْلِ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ. فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ ذَلِكَ، إِذْ كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ: قَدْ سَمِعْتُ مِنْكَ مَا قُلْتَ، بِمَعْنَى: فَهِمْتُ عَنْكَ مَا قُلْتَ، وَاسْمَعْ مِنِّي مَا أَقُولُ، بِمَعْنَى: افْهَمْ عَنِّي مَا أَقُولُ؟ قِيلَ لَهُ: إِنْ ذَلِكَ لَوْ وَجَّهْنَاهُ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي قُلْتُهُ لَمْ يَكُنْ لِمَنْ خَالَفَ قَوْلَنَا فِي أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ السَّمَاعَ الْمَفْهُومَ حُجَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّا إِنْ قُلْنَا: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ خَفْقَ نِعَالِهِمْ، لَمْ يَخْلُ عِلْمُهُمْ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَدَثَ لَهُمْ عَنْ سَمَاعٍ مِنْهُمْ خَفْقَ نِعَالِهِمْ، أَوْ عَنْ خَبَرٍ أُخْبِرُوا بِهِ فِي قُبُورِهِمْ، وَأَيُّ ذَلِكَ كَانَ فَإِنَّهُ مُحَقِّقٌ قَوْلَنَا فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ يُسْمِعُ

مِنْ شَاءَ مِنَ الْأَمْوَاتِ مَا شَاءَ مِنْ كَلَامِ الْأَحْيَاءِ، وَيُعَرِّفُ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَيُنَعِّمُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ فِي قَبْرِهِ بِمَا شَاءَ، وَيُعَذِّبُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ كَيْفَ شَاءَ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَفِي هَذَا الْخَبَرِ أَيْضًا، أَعْنِي خَبَرَ عُمَرَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مِنَ الْحَقِّ مُوَارَاةَ جِيفَةِ كُلِّ مَيِّتٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَنْ أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، مَا وُجِدَ إِلَى ذَلِكَ السَّبِيلُ، مُؤْمِنًا كَانَ ذَلِكَ الْمَيِّتُ أَوْ كَافِرًا، وَذَلِكَ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺبِقَتْلَى مُشْرِكِي بَدْرٍ أَنْ يُجْعَلُوا فِي قَلِيبٍ، وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ بِالْعَرَاءِ مُطَرَّحِينَ، بَلْ أَمَرَ بِجِيَفِهِمْ أَنْ تُوَارَى فِي الْقَلِيبِ. فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ ﷺبِهِمْ، فَالْحَقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَنُّوا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَفْعَلُوا فِي مَنْ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَعْرَكَةِ الْحَرْبِ بِالْقَتْلِ، وَفِي غَيْرِ مَعْرَكَةِ الْحَرْبِ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ ﷺفِي قَتْلَى مُشْرِكِي بَدْرٍ فَيُوَارُوا جِيفَتَهُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَانِعٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا شَيْءَ يَشْغَلُهُمْ عَنْهُ مِنْ خَوْفِ كَرَّةِ عَدُوٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي مُشْرِكِي أَهْلِ الْحَرْبِ، فَالْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالذِّمَّةِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ بِحَيْثُ لَا أَحَدَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ مِلَّتِهِ بِحَضْرَتِهِ يَلِي أَمْرَهُ، وَحَضَرَهُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، أَحَقُّ وَأَوْلَى بِأَنْ تَكُونَ السُّنَّةَ فِيهِمْ سُنَّتُهُ ﷺفِي مُشْرِكِي بَدْرٍ فِي أَنْ يُوَارُوا جِيفَتَهُ وَيَدْفِنُوهُ وَلَا يَتْرُكُوهُ مَطْرُوحًا بِالْعَرَاءِ مِنَ الْأَرْضِ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺعَلِيًّا فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِذْ مَاتَ، فَقَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَوَارِهِ» وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺحِينَ أَذِنَ بِمِثْلِ فِعْلِهِ بِمُشْرِكِي بَدْرٍ مِنْ دَفْنِهِ إِيَّاهُمْ، فِي مَوَاطِنَ أُخَرَ، وَإِنْ كَانَ فِي إِسْنَادِهِ بَعْضُ النَّظَرِ"[٥٢٨٤]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺمَرَّ بِامْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ فَقَالَ: «مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، أَرْدَفْتُهَا خَلْفِي فَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَنِيَ فَقَتَلْتُهَا، فَأَمَرَ ﷺبِدَفْنِهَا " فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لِشَاغِلٍ شَغَلَهُمْ، أَوْ أَمْرٍ مَنَعَهُمْ مِنْهُ، لَمْ أَرَهُمْ حَرِجِينَ بِتَرْكِهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺالَّتِي كَانَ فِيهَا الْقِتَالُ، لَمْ يُذْكَرْ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ مَا ذُكِرَ عَنْهُ مِنْهُ بِبَدْرٍ وَفِيهِ أَيْضًا الْبَيَانُ أَنَّ الْمَوْتَ إِذَا كَثُرَ فِي مَوْضِعٍ بِطَاعُونٍ أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ كَثُرَ الْقَتْلُ فِي مَعْرَكَةِ حَرْبٍ وَالْتِقَاءِ زُحُوفٍ حَتَّى تَعْظُمَ مُؤْنَةُ حَفْرِ قَبْرٍ لِكُلِّ رَجُلٍ وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ، أَنَّ لِمَنْ حَضَرَهُمْ دَفْنَ الْجَمَاعَةِ الْكَثِيرَةِ مِنْهُمْ وَالْقَلِيلَةِ مِنْهُمْ فِي حَفِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، كَالَّذِي فَعَلَ

[٥٢٨٤] - تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٥١٧)(٧٤٥) فيه انقطاع

ﷺبِقَتْلَى مُشْرِكِي بَدْرٍ مِنْ جَمْعِهِ جَمِيعَهُمْ، فِي قَلِيبٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَكَذَلِكَ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺيَوْمَ أُحُدٍ بِقَتْلَى الْمُسْلِمِينَ، إِذْ فَشَا الْقَتْلُ فِيهِمْ وَكَثُرَ، دَفَنَ الثَّلَاثَةَ مِنْهُمْ وَالِاثْنَيْنِ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ "[٥٢٨٥]

التبشير بالنصر والفتح:

الطائفة من الناس التي تشترك في بعض الأمور،كالعقيدة – أي عقيدة – أو التجارة،أو الأرض،يُسَرُّ أفرادُها إذا انتصروا على عدو لهم ينافسهم في شيء أو يحاول القضاء عليهم،ويحزنون إذا انهزموا وانتصر عدوهم.

وإذا أفرز جيش منهم لمحاربة ذلك العدو،فإنهم يتطلعون لأخباره ويتابعونها،ويودون أن تأتيهم تباعاً وأولاً بأول،لما في نتائج ذلك من السرور أو الحزن،والبقاء أو الفناء.

بل إنهم ليودون أن ينتصر من هو أقرب إليهم في العقيدة أو الفكر أو غير ذلك على من هو أبعد،ويتطلعون لأخباره كما يتطلعون لأخبار جيشهم.

وكان هذا واضحاً في أول الإسلام بمكة عندما انتصرت فارس،وهم وثنيون على الروم،وهم أهل كتاب،ففرح المشركون بذلك،وأخذوا يفخرون به على المسلمين،لأن أهل فارس والمشركين من العرب أهل أوثان،والروم أهل كتاب،كالمسلمين – في الجملة – وكان المسلمون يحبون أن تنتصر الروم على فارس،لما في ذلك من الإغاظة للمشركين وإنذارهم بأن الغلبة ستكون للمسلمين عليهم من باب أولى،لأنهم أهل الكتاب الحق،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ،وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«أَمَا إِنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَ» فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ ذَلِكَ فَقَالُوا:اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا،فَإِنْ ظَهَرُوا كَانَ لَكَ كَذَا وَكَذَا،وَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا،فَجَعَلَ بَيْنَهُمْ أَجَلَ خَمْسِ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:«أَلَا جَعَلْتَهُ،أُرَاهُ» قَالَ:دُونَ الْعَشَرَةِ.قَالَ:فَظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ ذَلِكَ،فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ

[٥٢٨٥] – تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٥٢٣)(٧٤٦) حسن

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم:٢] قَالَ:فَغُلِبَتِ الرُّومُ،ثُمَّ غَلَبَتْ بَعْدُ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ،وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ "[٥٢٨٦] .

فقد بشر الله المؤمنين بأمرين:

الأمر الأول:غَلَب الروم على فارس كما مضى.

الأمر الثاني:نصر الله تعالى إياهم الذي سيفرحون به،ولذلك قَالَ سُفْيَانُ:وَسَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ ».

لذلك كان من السنة أن يبعث المنتصرون بشيراً يبشر المسلمين بالنصر.

وقد بوب البخاري في صحيحه بَابُ البِشَارَةِ فِي الفُتُوحِ وروى بسنده عن قَيْسٍ،قَالَ:قَالَ لِي جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلاَ تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ»،وَكَانَ بَيْتًا فِيهِ خَثْعَمُ،يُسَمَّى كَعْبَةَ اليَمَانِيَةِ،فَانْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةٍ مِنْ أَحْمَسَ،وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ،فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي لاَ أَثْبُتُ عَلَى الخَيْلِ،فَضَرَبَ فِي صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابِعِهِ فِي صَدْرِي،فَقَالَ:«اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ،وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»،فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا،فَكَسَرَهَا وَحَرَّقَهَا،فَأَرْسَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُبَشِّرُهُ،فَقَالَ رَسُولُ جَرِيرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ،مَا جِئْتُكَ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْرَبُ،فَبَارَكَ عَلَى خَيْلِ أَحْمَسَ وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ"[٥٢٨٧]

[٥٢٨٦] - المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٤٥)(٣٥٤٠) صحيح

[٥٢٨٧] - صحيح البخاري (٤/ ٧٥)(٣٠٧٦)

قَوْلُهُ:(ذِي الْخَلَصَةِ) بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَاللَّامِ وَالْمُهْمَلَةِ. وَحُكِيَ بِتَسْكِينِ اللَّامِ،قَالَ فِي الْقَامُوسِ:وَذُو الْخَلَصَةِ مُحَرَّكَةً وَبِضَمَّتَيْنِ:بَيْتٌ كَانَ يُدْعَى الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَةُ لِخَثْعَمَ كَانَ فِيهِ صَنَمٌ اسْمُهُ الْخَلَصَةُ،أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ مَنْبِتَ الْخَلَصَةِ،اهـــ. وَهِيَ نَبَاتٌ لَهُ حَبٌّ أَحْمَرُ.

قَوْلُهُ:(مِنْ أَحْمَسَ) بِالْمُهْمَلَتَيْنِ عَلَى وَزْنِ أَحْمَدَ،قَالَ فِي الْقَامُوسِ:الْحُمْسُ الْأَمْكِنَةُ الصُّلْبَةُ جَمْعُ أَحْمَسَ،وَبِهِ لُقِّبَ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ وَجَدِيلَةُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِتَحَمُّسِهِمْ فِي دِينِهِمْ أَوْ لِالْتِجَائِهِمْ بِالْحَمْسَاءِ وَهِيَ الْكَعْبَةُ،لِأَنَّ حَجَرَهَا أَبْيَضُ إلَى السَّوَادِ،وَالْحَمَاسَةُ:الشَّجَاعَةُ،وَالْأَحْمَسُ:الشُّجَاعُ كَالْحَمِيسِ كَذَا فِي الْقَامُوسِ.

وَفِي الْفَتْحِ:هُمْ رَهْطٌ يُنْسَبُونَ إلَى أَحْمَسَ بْنِ الْغَوْثِ بْنِ أَنْمَارٍ. قَالَ:وَفِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا أَحْمَسُ لَيْسَتْ مُرَادَةً هُنَا يُنْسَبُونَ إلَى أَحْمَسَ بْنِ ضُبَيْعَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارٍ. قَوْلُهُ:(نُصُبٌ) بِضَمِّ النُّونِ وَالصَّادِ أَيْ صَنَمٌ.

قَوْلُهُ:(كَعْبَةُ الْيَمَانِيَةِ) أَيْ كَعْبَةُ الْجِهَةِ الْيَمَانِيَةِ. قَوْلُهُ:(فَبَرَّكَ) بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ:أَيْ دَعَا لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ. قَوْلُهُ:(كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْرَبُ) بِالْجِيمِ وَالْمُوَحَّدَةِ،وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ نَزْعِ زِينَتِهَا وَإِذْهَابِ بَهْجَتِهَا. وَقَالَ الْحَافِظُ:أَحْسَبُ الْمُرَادَ أَنَّهَا صَارَتْ مِثْلَ الْجَمَلِ الْمَطْلِيِّ بِالْقَطِرَانِ مِنْ جَرَبِهِ،أَشَارَ إلَى أَنَّهَا صَارَتْ سَوْدَاءَ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ التَّحْرِيقِ.نيل الأوطار (٧/ ٢٩٥)

والمُراد منهُ قَوله فِي آخره فَأَرسَلَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ يُبَشِّرُهُ "[٥٢٨٨]

وقال ابن كثير في البداية والنهاية:''وَقَدْ بَعَثَ،عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،بَيْنَ يَدَيْهِ بَشِيرَيْنِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَحَدَهُ وَبِهِ كَفَرَ،أَحَدُهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِلَى أَعَالِي الْمَدِينَةِ،وَالثَّانِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ إِلَى السَّافِلَةِ.قَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ:فَأَتَانَا الْخَبَرُ حِينَ سَوَّيْنَا التُّرَابَ عَلَى رُقَيَّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَكَانَ زَوْجُهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَدِ احْتَبَسَ عِنْدَهَا يُمَرِّضُهَا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَقَدْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِسَهْمِهِ وَأَجْرِهِ فِي بَدْرٍ.قَالَ أُسَامَةُ:فَلَمَّا قَدِمَ أَبِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ جِئْتُهُ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْمُصَلَّى،وَقَدْ غَشِيَهُ النَّاسُ،وَهُوَ يَقُولُ:قُتِلَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ،وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ،وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ،وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ،وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ الْعَاصُ بْنُ هِشَامٍ،وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ،وَنُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ.قَالَ:قُلْتُ:يَا أَبَتِ،أَحَقٌّ هَذَا؟ قَالَ:إِي وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ.وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ،مِنْ طَرِيقِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ،عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَلَّفَ عُثْمَانَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَجَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ عَلَى الْعَضْبَاءِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبِشَارَةِ،قَالَ أُسَامَةُ:فَسَمِعْتُ الْهَيْعَةَ،فَخَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ قَدْ جَاءَ بِالْبِشَارَةِ،فَوَاللَّهِ مَا صَدَّقْتُ حَتَّى رَأَيْنَا الْأُسَارَى،وَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ بِسَهْمِهِ.»"[٥٢٨٩] .

وكانت البشارة بما يسر من الأمور التي يسارع أصحاب رسول الله ﷺ بها،بل ويكافئ من بُشِّر بما يسره المُبَشِّرَ على بشارته،وقد بوب البخاري رحمه الله لذلك فقال:''بَابُ مَا يُعْطَى البَشِيرُ وَأَعْطَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ثَوْبَيْنِ حِينَ بُشِّرَ بِالتَّوْبَةِ [٥٢٩٠]"

وقصة كعب في الصحيحين وفيها:(فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ،قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي،وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ،سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ،أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ،قَالَ:فَخَرَرْتُ سَاجِدًا،وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ،وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ،فَذَهَبَ النَّاسُ

[٥٢٨٨] - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ١٨٩)

[٥٢٨٩] - البداية والنهاية ط هجر (٥/ ١٨٢)

[٥٢٩٠] - صحيح البخاري (٤/ ٧٥)

يُبَشِّرُونَنَا،وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ،وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا،وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ،فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ،وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ،فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي،نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ،فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا،بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ،وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا،وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا،يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ،يَقُولُونَ:لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ،قَالَ كَعْبٌ:حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ،فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ،فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي،وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ،وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ،قَالَ كَعْبٌ:فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،قَالَ:رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ:«أَبْشِرْ بِخَيْرِ [ص:٧] يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»،قَالَ:قُلْتُ:أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ:«لاَ،بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ».وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ،حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ،وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ،فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».قُلْتُ:فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ،وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا،مَا بَقِيتُ.فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي،مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا،وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ،وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ:{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} [التوبة:١١٧] إِلَى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلاَمِ،أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ،فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا،فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ - شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ،فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ} [التوبة:٩٥] إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ} [التوبة:٩٦]،قَالَ كَعْبٌ:وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ،فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ،وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا

حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ،فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ:{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة:١١٨].وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ،إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا،وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا،عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ"[٥٢٩١].

وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالبشارة من حيث هي،كما في الصحيحين عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ،عَنْ جَدِّهِ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ:«يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا،وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا،وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[٥٢٩٢].

استقبال المجاهدين والترحيب بهم:

ومن حق المجاهدين في سبيل الله على من بقي من المسلمين في البلد أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ويشعروهم بالاحترام والتقدير،لما نالوه من المشقة في سبيل الله تعالى وما واجهوا من التعب والمشقة في الحروب،من الجوع والعطش ومفارقة المضاجع والظلال،ولكونهم أدوا الفرض وأسقطوه عن غيرهم،وهكذا كان السلف يعملون وعلى رأسهم أصحاب رسول الله ﷺ،وقد بوب لذلك البخاري رحمه الله فقال:"بَابُ اسْتِقْبَالِ الغُزَاةِ "[٥٢٩٣]

وروى عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ،قَالَ:ابْنُ الزُّبَيْرِ لِابْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،أَتَذْكُرُ إِذْ تَلَقَّيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَأَنْتَ،وَابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ:«نَعَمْ فَحَمَلَنَا وَتَرَكَكَ»[٥٢٩٤]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:قَالَ السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصِّبْيَانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ»[٥٢٩٥]

[٥٢٩١] - صحيح البخاري (٦/ ٣)(٤٤١٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠)٥٣ - (٢٧٦٩)

[٥٢٩٢] - صحيح البخاري (٤/ ٦٥)(٣٠٣٨) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)٧ - (١٧٣٣)

[ش (يسرا) خذا بما فيه من التيسير. (ولا تعسرا) من التعسير وهو التشديد. (بشرا) من التبشير وهو إدخال السرور. (ولا تنفرا) من التنفير أي لا تذكرا شيئا يهربون منه. (تطاوعا) تحابا وليطع كل منكما الآخر]

[٥٢٩٣] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦)

[٥٢٩٤] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦)(٣٠٨٢)

[ش (ابن الزبير) هو عبد الله رضي الله عنهما. (ابن جعفر) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما. (وتركك) لأنه ليس من بني عبد المطلب وقد حمل واحدا أمامه وواحدا خلفه]

[٥٢٩٥] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦)(٣٠٨٣)

وقد دل هذا الحديث على مشروعية استقبال القادمين من الجهاد والحج بالحفاوة والترحيب،فهو سنة من سنن سيد المرسلين،وفيه جواز رواية الصبي لأن السائب كان غلاماً.[٥٢٩٦]

وقال ابن القيم رحمه الله:فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ خَرَجَ النَّاسُ لِتَلَقِّيهِ،وَخَرَجَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ وَالْوَلَائدُ يَقُلْنَ

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ...مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ...مَا دَعَا لِلَّه دَاعِي

وَبَعْضُ الرُّوَاةِ يَهِمُ فِي هَذَا وَيَقُولُ:إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ مَكَّةَ،وَهُوَ وَهْمٌ ظَاهِرٌ ؛ لِأَنَّ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ لَا يَرَاهَا الْقَادِمُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ،وَلَا يَمُرُّ بِهَا إِلَّا إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى الشَّامِ،فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ:(«هَذِهِ طَابَةُ،وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»)"[٥٢٩٧]

هكذا كان السلف الصالح يعاملون المجاهدين في سبيل الله،يودعونهم عند سفرهم داعين لهم بالنصر والشهادة،ويكرمونهم عند قدومهم بالاستقبال والترحيب،لأن المقياس عندهم هو سبيل الله.

وكانوا إذا فرت طائفة من الجيش الإسلامي وتركته ورجعت إلى المدينة،بسبب ما رأت تلك الطائفة من كثرة العدو وغلبة ضعفها البشري عن التحمل والثبات،كانوا يستقبلون

[ش (نتلقى) نستقبله عند رجوعه من تبوك. (ثنية الوداع) التي من جهة تبوك في طريق الذاهب من المدينة إلى الشام وكانوا إذا ودعوا مسافرا خرجوا معه إليها والثنية الطريق في الجبل وقيل ما ارتفع من الأرض]

[٥٢٩٦] - منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ١٢٥)

[٥٢٩٧] - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٨١)

قال الحافظ في القتح:"فَأَنكَرَ الدّاوُدِيُّ هَذا وتَبِعَهُ ابن القَيِّم وقالَ:ثَنِيَّة الوداع مِن جِهَة مَكَّة لا مِن جِهَة تَبُوك،بَل هِيَ مُقابِلها كالمَشرِق والمَغرِب.قالَ:إلاَّ أَن يَكُون هُناكَ ثَنِيَّة أُخرَى فِي تِلكَ الجِهَة،والثَّنِيَّة ما ارتَفَعَ فِي الأَرض،وقِيلَ الطَّرِيق فِي الجَبَل.قُلت:لا يَمنَع كَونها مِن جِهَة الحِجاز أَن يَكُون خُرُوج المُسافِر إِلَى الشّام مِن جِهَتها،وهَذا واضِح كَما فِي دُخُول مَكَّة مِن ثَنِيَّة والخُرُوج منها مِن أُخرَى،ويَنتَهِي كِلاهُما إِلَى طَرِيق واحِدَة،وقَد رُوِّينا بِسَنَدٍ مُنقَطِع فِي "الحَلَبِيّات "قَول النِّسوة لَمّا قَدِمَ النَّبِيّ ﷺ المَدِينَة: طَلَعَ البَدر عَلَينا مِن ثَنِيّات الوداع"

فَقِيلَ:كانَ ذَلِكَ عِند قُدُومه فِي الهِجرَة وقِيلَ عِند قُدُومه مِن غَزوَة تَبُوك. "فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٨/ ١٢٨)

تلك الطائفة بالتأنيب ويَحثُون التراب عليهم،ويعيرونهم،فعَنْ عُرْوَةَ،قَالَ:لَمَّا أَقْبَلَ أَصْحَابُ مُؤْتَةَ تَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلمُونَ مَعَهُ فَجَعَلُوا يَحْثُونَ عَلَيْهِمُ التُّرَابَ وَيَقُولُونَ:يَا فُرَّارُ فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ،وَلَكنَّهُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ.[٥٢٩٨]

وعَنْ عَامرِ بْنِ عَبْد اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَتْ لامرأة سلمة بن هشَامِ بْنِ الْمُغِيرَة:مَا لِي لَا أَرَى سَلَمَةَ يَحْضُرُ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَ الْمُسْلمينَ،قَالَتْ:وَاللهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخرُجَ كُلَّمَا خَرَجَ صَاحَ به النَّاسُ يَا فُرَّارُ فَرَرْتُمْ فِي سَبيلِ اللهِ حَتَّى قَعَدَ فِي بَيْته فَلَمْ يَخرُجْ وَكَانَ فِي غَزَاة مُؤْتَةَ.[٥٢٩٩]

وقال ابن كثير:"قُلْتُ:لَعَلَّ طَائفَةً منْهُمْ فَرُّوا لَمَّا عَايَنُوا كَثْرَةَ جُمُوعِ الْعَدُوِّ،وَكَانُوا أَكْثَرَ منْهُمْ بِأَضْعَاف مُضَاعَفَة،فَإِنَّ الصَّحَابَةَ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،كَانُوا ثَلَاثَةَ آلَاف،وَكَانَ الْعَدُوُّ – عَلَى مَا ذَكَرُوهُ – مائَتَيْ أَلْف،وَمثْلُ هَذَا يُسَوِّغُ الْفرَارَ،عَلَى مَا قَدْ تَقَرَّرَ،فَلَمَّا فَرَّ هَؤُلَاءِ،ثَبَتَ بَاقيهُمْ،وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ،وَتَخَلَّصُوا منْ أَيْدي أُولَئِكَ،وَقَتَّلُوا منْهُمْ مَقْتَلَةً عَظيمَةً،كَمَا ذَكَرَهُ الْوَاقديُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ منْ قَبْله.

وَيُؤَيِّدُ ذَلكَ وَيُشَاكلُهُ بالصِّحَّة،مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلمٍ،حَدَّثَني صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو،عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،عَنْ أَبِيه،عَنْ عَوْف بْنِ مَالك الْأَشْجَعِيِّ قَالَ:«خَرَجْتُ مَعَ مَنْ خَرَجَ مَعَ زَيْد بْنِ حَارِثَةَ منَ الْمُسْلمينَ،في غَزْوَة مُؤْتَةَ،وَرَافَقَني مَدَديٌّ منَ الْيَمَنِ،لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفه،فَنَحَرَ رَجُلٌ منَ الْمُسْلمينَ جَزُورًا،فَسَأَلَهُ الْمَدَديُّ طَائفَةً منْ جلْده،فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ،فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَة الدَّرَقَة،وَمَضَيْنَا فَلَقينَا جُمُوعَ الرُّومِ،وَفيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ،عَلَيْه سَرْجٌ مُذَهَّبٌ وَسلَاحٌ مُذَهَّبٌ،فَجَعَلَ الرُّوميُّ يُغْرِي بِالْمُسْلمِينَ،وَقَعَدَ لَهُ الْمَدَديُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ،فَمَرَّ به الرُّوميُّ فَعَرْقَبَ

[٥٢٩٨] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٣٧٤) صحيح مرسل

[٥٢٩٩] – دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٣٧٤) صحيح مرسل

قُلْتُ قَد اخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَغَازِي فِي فِرَارِهِمْ وَانْحِيَازِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ظَهَرُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وحَدِيث أَنَس بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدٌ فَفُتِحَ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى ظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ مَا الصوابزدلائل النبوة للبيهقي محققا (٤/ ٣٧٥)

فَرَسَهُ،فَخرَّ وَعَلَاهُ،فَقَتَلَهُ،وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ،فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ،بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَخَذَ مِنْهُ السَّلَبَ.قَالَ عَوْفٌ:فَأَتَيْتَهُ فَقُلْتُ:يَا خَالِدُ،أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ:بَلَى،وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ.فَقُلْتُ:لَتَرُدَّنَّهُ إِلَيْهِ أَوْ لَأُعَرِّفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ.قَالَ عَوْفٌ:فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِيِّ وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"يَا خَالِدُ،رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ ".قَالَ عَوْفٌ:فَقُلْتُ:دُونَكَ يَا خَالِدُ،أَلَمْ أَفِ لَكَ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"وَمَا ذَاكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ،فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ:"يَا خَالِدُ،لَا تَرُدَّ عَلَيْهِ،هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي أُمَرَائِي،لَكُمْ صِفْوَةُ أَمْرِهِمْ وَعَلَيْهِمْ كَدَرُهُ» وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ غَنِمُوا مِنْهُمْ،وَسَلَبُوا مِنْ أَشْرَافِهِمْ،وَقَتَلُوا مِنْ أُمَرَائِهِمْ،وَقَدْ تَقَدَّمَ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَنَّ خَالِدًا،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:انْدَقَّتْ فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ،وَمَا ثَبَتَ فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَةٌ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ أَثْخَنُوا فِيهِمْ قَتْلًا،وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا قَدَرُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُمْ،وَهَذَا وَحْدَهُ دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَهَذَا هُوَ اخْتِيَارُ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ وَالْوَاقِدِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ،وَحَكَاهُ ابْنُ هِشَامٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ.[٥٣٠٠]

فهل بقي هذا المقياس للتكريم أو التأنيب عند المسلمين؟

لقد انعكست الأمور وانقلبت الموازين واختلت المقاييس وأصبح الخونة الجبناء الذين يبيعون الدين والأرض والشعوب للأعداء الكافرين،هم موضع التكريم وإذا خضع أحدهم لعدو المسلمين فركع له واستسلم وتآمر على شعبه ودينه وأرضه،ثم رجع إلي ذلك الشعب،رأيت غوغاء الناس وهم يركضون لاستقبال الزعيم والتصفيق له كأنهم قطعان من الحيوان،يهتفون بحياته ويثنون على خطواته،ويلقبونه بألقاب الفاتحين الأبطال،وقليل هم الذين يدركون الخيانة ويعرفون الخونة،فتراهم ينظرون إلى تلك الجموع الضائعة متعجبين مشفقين،يدعون لها بالهداية والإنابة إلى الله.

وهؤلاء القليل مغلبون على أمرهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،محاصرون من كل جانب لا يملكون أن يوصلوا إلى تلك الجموع الضائعة الخاسرة كلمة الحق عن

[٥٣٠٠] - البداية والنهاية ط هجر (٦/ ٤٣٣)

طريق أقل وسيلة للإعلام،وإذا تجرءوا فقالوا كلمة حق بأي وسيلة اتهموا بالشذوذ والتآمر على مصالح الشعب والخروج عن الصف،وقيل فيهم ما قال أعداء الله من قبل في ذوي الصلاح والهدى والدعوة إلى الله بأنهم خارجون على النظام مفسدون،يريدون القضاء على مكاسب الشعب التي حققها له القادة الأبطال:{ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى } [طه:٦٣].

وبمقدار ما تُسلط أجهزة الإعلام على أولئك الصالحين لتصفهم بكل أوصاف الذم حتى يظهروا أمام الجموع الضائعة بمظهر الشذاذ المفسدين الذين يجب نبذهم وعدم الإصغاء إلى آرائهم،بمقدار ذلك أو أكثر تكيل تلك الأجهزة المديح والثناء للأبطال المتآمرين حتى يصبحوا هم الملائكة الأبرار،الذين لا يريدون إلا الحق ولا يسلكون إلا سبيل الهداية والرشد،فيرتسم في أذهان الغوغاء أن هؤلاء الضالين المفسدين هم الهداة المهتدون،وأن أولئك المجاهدين – فعلاً – الأبرار،هم أهل الغواية والضلال.

وقد سبق هؤلاء الذين يقلبون الحقائق،فيظهرون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق،سبقهم إخوانهم الذين سجل التاريخ عليهم كل تصرفاتهم،فلحقتهم لعائن الله في الأرض وتنتظرهم نقمته في الآخرة.{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر:٢٦].

{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر:٢٩]

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا،وأعتقده نافعا.وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟! ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ويجد أن عليه واجبا أن يحذر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه.ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائنا ما كان رأي الطغاة.ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش

وتلين.يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم.وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة[٥٣٠١]

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط،ولا يتعداه إلى التعذيب والإهانة والقتل والتشريد...وممن ينالون التكريم والتعظيم أولئك العجول البشرية،الذين لا يذكرون الله إلا قليلا،بل ربما لو سألت الكثير منهم عن جهة القبلة ما دلك عليها،لعدم اتجاهه إليها،أولئك هم نجوم الرياضة وأبطالها الذين أصبحوا شغل الناس الشاغل قبل المباراة بالإعلانات عنها في جميع أجهزة الإعلام،وفي وقت المباراة بمراقبتها وتحمس كل طائفة لفريق منها،وبعد المباراة بالحديث عن البطولة والنصر،ورفع بيارق النصر والرقص في الشوارع والتصفيق وإزعاج الناس بأبواق السيارات وترديد علم المنتصر الذي يعرف به.

ومما يؤسف له أن يطلق على تلك الفرق أسماء غزوات كانت غرة في جبين التاريخ حقق المسلمون فيها انتصارات رائعة على أعدائهم،والآن تطلق على فرق عمد إلى إلهائها باللعب وتلهية الناس بها،حتى أصبحت مثل ثيران أسبانيا تتصارع ليتلهى بها الجمهور[٥٣٠٢].

وهكذا تجد التكريم والتعظيم للراقصات والمومسات اللاتي تتألق أسماؤهن وأشباههن من الرجال،ويلقبون بالألقاب الرفيعة:النجوم،الرواد العظماء،المبتكرون...وتفتح لهم أبواب الظهور،حتى يصبحوا أئمة الشعوب وقادتها في تحطيم الأخلاق والمعنويات والقضاء على الرجولة الشرف،وهكذا.

والسبب في ذلك أن المقياس عند عامة الناس انقلب من سبيل الله إلى سبيل الشيطان،فكان السلف يكرم أهل سبيل الله لأنه المقياس عندهم،وأصبح المنتسبون إلى الإسلام الآن يكرمون أهل سبيل الشيطان لأنه المقياس عندهم.

إشعار قادة البلاد المفتوحة بالتكريم تأليفاً لقلوبهم:

[٥٣٠١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٣٨٧٤)

[٥٣٠٢] - [راجع على سبيل المثال جريدة المدينة المنورة،عدد (٤٦٢٠) الصادرة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٩٩هـ وعدد (٤٢٥٨) بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣٩٩هـ وعدد (٤٦١٥) بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٣٩٩ هـ].

وينبغي أن يشعر المجاهدون في سبيل الله،أهلَ البلاد التي يتغلبون عليها ويفتحونها،بأنهم لم يفتحوا بلادهم ليذلوهم ويهينوهم،وإنما جاهدوهم لإعلاء كلمة الله تعالى وفي ذلك بركة وخير لهم،ومظهر ذلك تكريم بعض قادة البلاد،بأي نوع من أنواع التكريم التي تجعلهم يطمئنون للفاتحين ويألفونهم ويرحبون بهم،كما فعل الرسول ﷺ عندما دخل مكة،فإنه أشعر أهلها بأنه لم يأت للقضاء عليهم وتدمير بيوتهم،على رغم ما مما عملوه معه ﷺ ومع أصحابه قبل الهجرة،من الإيذاء والفتنة والتآمر .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ،فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ،فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَنَا إِلَى رَحْلِهِ،فَقُلْتُ:أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى رَحْلِي؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ،ثُمَّ لَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِيِّ،فَقُلْتُ:الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ،فَقَالَ:سَبَقْتَنِي،قُلْتُ:نَعَمْ،فَدَعَوْتُهُمْ،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:أَلَا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ،ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ،فَقَالَ:أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ،فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى الْمُجَنِّبَتَيْنِ،وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى،وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَّرِ،فَأَخَذُوا بَطْنَ الْوَادِي،وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَةٍ،قَالَ:فَنَظَرَ فَرَآنِي،فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:قُلْتُ:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،فَقَالَ:«لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ» – زَادَ غَيْرُ شَيْبَانَ – ،فَقَالَ:«اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ»،قَالَ:فَأَطَافُوا بِهِ،وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا،وَأَتْبَاعًا،فَقَالُوا:نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ،فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ،وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُئِلْنَا،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ،وَأَتْبَاعِهِمْ»،ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى،ثُمَّ قَالَ:«حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا»،قَالَ:فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ،وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا،قَالَ:فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ،أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ،لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ،ثُمَّ قَالَ:«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»،فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ،وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ،قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا،فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ،فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ،قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ» قَالُوا:لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:"قُلْتُمْ:أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ

فِي قَرْيَته؟ قَالُوا:قَدْ كَانَ ذَاكَ،قَالَ:«كَلَّا،إِنِّي عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ،هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ،وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»،فَأَقْبَلُوا إِلَيْه يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ:وَالله،مَا قُلْنَا الَّذي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بالله وَبِرَسُوله،فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانكُمْ،وَيَعْذرَانكُمْ»،قَالَ:فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ،وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ،قَالَ:وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ،فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْت،قَالَ:فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْت كَانُوا يَعْبُدُونَهُ،قَالَ:وَفِي يَد رَسُولِ الله ﷺ قَوْسٌ وَهُوَ آخذٌ بسيَة الْقَوْس،فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَم جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنه،وَيَقُولُ:{جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطلُ} [الإسراء:٨١]،فَلَمَّا فَرَغَ منْ طَوَافه أَتَى الصَّفَا،فَعَلَا عَلَيْه حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْت،وَرَفَعَ يَدَيْه فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو بمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ،[٥٣٠٣].

وعَنْ مقْسَمٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:لَمَّا كَانَت الْمُدَّةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَة وَكَانَتْ سنينَ ذَكَرَ أَنَّهَا كَانَتْ حَرْبٌ بَيْنَ بَني بَكْرٍ وَهُمْ حُلَفَاءُ قُرَيْشٍ،وَبَيْنَ خُزَاعَةَ وَهُمْ حُلَفَاءُ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَأَعَانَتْ قُرَيْشٌ حُلَفَاءَهُ عَلَى خُزَاعَةَ فَبَلَغَ ذَلكَ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ:«وَالَّذي نَفْسِي بِيَده لَأَمْنَعَنَّهُمْ ممَّا أَمْنَعُ منْهُ نَفْسِي وَأَهْلِ

[٥٣٠٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)٨٤ - (١٧٨٠)

[ش (المجنبتين) هما الميمنة والميسرة ويكون القلب بينهما(الحسر) أي الذين لا دروع لهم(فأخذوا بطن الوداي) أي جعلوا طريقهم في بطن الوادي(في كتيبة) الكتيبة القطعة العظيمة من الجيش(اهتف لي بالأنصار) أي صح بهم وادعهم لي(فأطافوا به) أي فجاءوا وأحاطوا به وإنما خصهم لثقته بهم ورفعا لمراتبهم وإظهارا لجلالتهم وخصوصيتهم(ووبشت قريش أوباشا لها) أي جمعت جموعا من قبائل شتى(ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى) فيه إطلاق القول على الفعل أي أشار إلى هيئتهم المجتمعة(فما شاء أحد منا الخ) أي لا يدفع أحد منهم عن نفسه(أبيحت خضراء قريش) كذا في هذه الرواية أبيحت وفي التي بعدها أبيت وهما متقاربتان أي استؤصلت قريش بالقتل وأفنيت وخضراؤهم بمعنى جماعتهم ويعبر عن الجماعة المجتمعة بالسواد والخضرة ومنه السواد الأعظم(فقالت الأنصار بعضهم لبعض) معنى هذا أنهم رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة وكف القتل عنهم فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائما ويرحل عنهم ويهجر المدينة فشق ذلك عليهم فأوحى الله تعالى إليه ﷺ فأعلمهم بذلك فقال لهم رسول الله ﷺ قلتم كذا وكذا قالوا نعم قد قلنا هذا(كلا) معنى كلا هنا حقا ولها معنيان أحدهما حقا والآخر النفي(هاجرت إلى الله وإليكم الخ) معناه أني هاجرت إلى الله تعالى وإلى دياركم لاستيطانها فلا أتركها ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى بل أنا ملازم لكم المحيا محياكم والممات مماتكم أي لا أحيا إلا عندكم ولا أموت إلا عندكم فلما قال لهم هذا بكوا واعتذروا وقالوا والله ما قلنا كلامنا السابق إلا حرصا عليك وعلى مصاحبتك ودوامك عندنا لنستفيد منك ونتبرك بك وتهدينا الصراط المستقيم(إلا الضن) هو الشح(بسية القوس) أي بطرفها المنحني قال في المصباح هي خفيفة الياء ولا مها محذوفة وترد في النسبة فيقال سيوي والهاء عوض عنها ويقال لسيتها العليا يدها ولسيتها السفلى رجلها]

بَيْتِي''وَأَخَذَ فِي الْجِهَازِ إِلَيْهِمْ،فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا فَقَالُوا لِأَبِي سُفْيَانَ:مَا تَصْنَعُ وَهَذِهِ الْجُيُوشُ تُجَهَّزُ إِلَيْنَا؟ انْطَلِقْ فَجَدِّدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ كِتَابًا،وَذَلِكَ مَقْدَمُهُ مِنَ الشَّامِ فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ،فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:هَلُمَّ فَلْنُجَدِّدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَنَحْنُ عَلَى أَمْرِنَا الَّذِي كَانَ،وَهَلْ أَحْدَثْتُمْ مِنْ حَدَثٍ؟''فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:لَا.فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«فَنَحْنُ عَلَى أَمْرِنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا»،فَجَاءَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ:هَلْ لَكَ عَلَى أَنْ تَسُودَ الْعَرَبَ،وَتَمُنَّ عَلَى قَوْمِكَ فَتُجِيرَهُمْ،وَتُجَدِّدَ لَهُمْ كِتَابًا؟ فَقَالَ:مَا كُنْتَ لِأَفْتَاتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرٍ،ثُمَّ دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ فَقَالَ:هَلْ لَكِ أَنْ تَكُونِي خَيْرَ سَخْلَةٍ فِي الْعَرَبِ؟ أَنْ تُجِيرِي بَيْنَ النَّاسِ،فَقَدْ أَجَارَتْ أُخْتُكِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَوْجَهَا أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ فَلَمْ يُغَيِّرْ ذَلِكَ،فَقَالَتْ فَاطِمَةُ:مَا كُنْتُ لِأَفْتَاتَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرٍ،ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ:أَجِيرَا بَيْنَ النَّاسِ قُولَا:نَعَمْ،فَلَمْ يَقُولَا شَيْئًا،وَنَظَرَا إِلَى أُمِّهِمَا وَقَالَا:نَقُولُ مَا قَالَتْ أُمُّنَا،فَلَمْ يَنْجَحْ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا طَلَبَ،فَخَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا:مَاذَا جِئْتَ بِهِ؟ قَالَ:جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ،وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا،وَلَا أُنْثَى،وَلَا ذَكَرًا،إِلَّا كَلَّمْتُهُ،فَلَمْ أَنْجَحْ مِنْهُمْ شَيْئًا قَالُوا:مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ارْجِعْ فَرَجَعَ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ قُرَيْشًا،حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ:«انْظُرُوا أَبَا سُفْيَانَ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَهُ»،فَنَظَرُوهُ فَوَجَدُوهُ،فَلَمَّا دَخَلَ الْعَسْكَرَ جَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَجَأُونَهُ،وَيُسْرِعُونَ إِلَيْهِ،فَنَادَى:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَمَقْتُولٌ،فَأُمِرَ بِي إِلَى الْعَبَّاسِ،وَكَانَ الْعَبَّاسُ لَهُ خِدْنًا وَصَدِيقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْعَبَّاسِ،فَبَاتَ عِنْدَهُ،فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ،وَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ،تَحَرَّكَ النَّاسُ،فَظَنَّ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَهُ قَالَ:يَا عَبَّاسُ مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالَ:تَحَرَّكُوا لِلْمُنَادِي لِلصَّلَاةِ قَالَ:فَكُلُّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا تَحَرَّكُوا لِمُنَادِي مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قَالَ:نَعَمْ قَالَ:فَقَامَ الْعَبَّاسُ لِلصَّلَاةِ وَقَامَ مَعَهُ،فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ:يَا عَبَّاسُ مَا يَصْنَعُ مُحَمَّدٌ شَيْئًا إِلَّا صَنَعُوا مِثْلَهُ؟ قَالَ:نَعَمْ،وَلَوْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا لَفَعَلُوا،وَإِنِّي لَأَرَاهُمْ سَيُهْلِكُونَ قَوْمَكَ غَدًا،قَالَ يَا عَبَّاسُ فَادْخُلْ بِنَا عَلَيْهِ فَدَخَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ،وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَلْفَ الْقُبَّةِ،فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِضُ عَلَيْهِ

الْإِسْلَامَ،فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْعُزَّى؟ فَقَالَ عُمَرُ مِنْ خَلْفِ الْقُبَّةِ:تَخْرَأُ عَلَيْهَا فَقَالَ:وَأَبِيكَ إِنَّكَ لَفَاحِشٌ،وَإِنِّي لَمْ آتِكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ إِنَّمَا جِئْتُ لِابْنِ عَمِّي،وَإِيَّاهُ أُكَلِّمُ قَالَ:فَقَالَ الْعَبَّاسُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِنَا،وَذَوِي أَسْنَانِهِمْ،وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا يُعْرَفُ ذَلِكَ لَهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» قَالَ:فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:أَدَارِي؟ أَدَارِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«نَعَمْ،وَمَنْ وَضَعَ سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»،فَانْطَلَقَ مَعَ الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَخَافَ مِنْهُ الْعَبَّاسُ بَعْضَ الْغَدْرِ فَجَلَّسَهُ عَلَى أَكَمَةٍ حَتَّى مَرَّتْ بِهِ الْجُنُودُ قَالَ:فَمَرَّتْ بِهِ كَبْكَبَةٌ فَقَالَ:مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ فَقَالَ:هَذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ عَلَى الْمُجَنَّبَةِ الْيُمْنَى قَالَ:ثُمَّ مَرَّتْ كَبْكَبَةٌ أُخْرَى فَقَالَ:مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ قَالَ:هُمْ قُضَاعَةُ وَعَلَيْهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ قَالَ:ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ كَبْكَبَةٌ أُخْرَى،فَقَالَ:مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ قَالَ:هَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْمُجَنَّبَةِ الْيُسْرَى قَالَ:ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ قَوْمٌ يَمْشُونَ فِي الْحَدِيدِ فَقَالَ:مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ الَّتِي كَأَنَّهَا حَرَّةٌ سَوْدَاءُ قَالَ:هَذِهِ الْأَنْصَارُ عِنْدَهَا الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْأَنْصَارُ حَوْلَهُ،فَقَالَ:أَبُو سُفْيَانَ سِرْ يَا عَبَّاسُ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ صَبَاحَ قَوْمٍ فِي دِيَارِهِمْ قَالَ:ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَكَّةَ نَادَى،وَكَانَ شِعَارُ قُرَيْشٍ يَا آلَ غَالِبٍ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا،فَلَقِيَتْهُ امْرَأَتُهُ هِنْدٌ فَأَخَذَتْ بِلِحْيَتِهِ وَقَالَتْ:يَا آلَ غَالِبٍ اقْتُلُوا الشَّيْخَ الْأَحْمَقَ،فَإِنَّهُ قَدْ صَبَأَ،فَقَالَ:وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْلِمَنَّ أَوْ لَيُضْرَبَنَّ عُنُقُكِ[٥٣٠٤]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ،جَاءَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ،فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ،فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا،قَالَ:«نَعَمْ،مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ،وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»[٥٣٠٥]

وأنت ترى أن هذا الأمر الذي أعطاه ﷺ أبا سفيان،لا يختلف عن أي دار في مكة،لأن من دخل داره أو دار غيره وأغلق الباب مشيراً بذلك إلى عدم مقاومة الرسول ﷺ

[٥٣٠٤] - مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٣٧٤)(٩٧٣٩) صحيح

[٥٣٠٥] - سنن أبي داود (٣/ ١٦٢)(٣٠٢١) صحيح

وأصحابه،فهو آمن،ولكن ذكر أبي سفيان باسمه في ذلك الموقف طيَّب نفسَه،وجعله يتعجب ويستفهم:أداري؟،أداري؟ ثم إن الرسول ﷺ لم يعطه هذا الحق إلا بعد أن أسلم،كما في رواية أبي داود:(جَاءَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ،فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ،فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا،...) الخ.

ولما كان الرسول ﷺ قد عزم على قتل بعض المشركين وعدم تأمينهم والعفو عنهم،وخشي أن يدخلوا في لفظه العام في قوله:(من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...) استثناهم وأمر بقتلهم،وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وهم:عكرمة بن أبي جهل،وعبد الله بن خطل،ومقيس بن صبابة،وعبد الله بن أبي السرح،فأما عبد الله بن خطل،فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فقتل،وأما مقيس بن صبابة فأدركوه وهو في السوق فقتلوه أيضاً،وأما عكرمة فقد فر في سفينة في البحر،ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه،وأما عبد الله بن أبي السرح،فقد اختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه،فلما دعا الرسول ﷺ الناس إلى البيعة،جاء به إلى النبي ﷺ وطلب منه النبي أن يبايعه وهو ينظر إليه و لم يبايعه ثلاث مرات،وفي الرابعة بايعه وهو غير راض عنه فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ:''لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ:''اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ:عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ،وَمِقْيَسُ بْنُ صَبَابَةَ،وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ فَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ فَأُتِيَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مِقْيَسُ بْنُ صَبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ:أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا وَقَالَ:عِكْرِمَةُ وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنْجِينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ،اللهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْجَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنِّي آتِي مُحَمَّدًا ﷺ فَأَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا،فَنَجَا فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَرْحٍ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ،فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ لِلْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللهِ بَايِعْ عَبْدَ اللهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا،كُلُّ ذَلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:"أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حِينَ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلَهُ فَقَالُوا:"مَا دَرَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ،فَهَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ فَقَالَ:"إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ عَيْنٍ "[٥٣٠٦]

قال ابن حجر:"والجَواب المُستَقيم أَن تَقُول:المَنع مُطلَقًا من خَصائِص النَّبِيّ ﷺ فَلا يَتَعاطَى شَيئًا من ذَلِكَ وإِن كانَ مُباحًا لِغَيرِهِ،ولا يُعارِض ذَلِكَ ما تَقَدَّمَ من أَنَّهُ كانَ إِذا أَرادَ غَزوة ورَّى بِغَيرِها،فَإِنَّ المُراد أَنَّهُ كانَ يُرِيد أَمرًا فَلا يُظهِرهُ كَأَن يُرِيد أَن يَغزُو جِهَة الشَّرق فَيَسأَل عَن أَمر فِي جِهَة الغَرب،ويَتَجَهَّز لِلسَّفَرِ فَيَظُنّ مَن يَراهُ ويَسمَعهُ أَنَّهُ يُرِيد جِهَة الغَرب،وأَمّا أَن يُصَرِّح بِإِرادَتِهِ الغَرب وإِنَّما مُراده الشَّرق فَلا،والله أَعلَم."[٥٣٠٧]

وقال القاري:"قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} [غافر:١٩] الْخَائِنَةُ صِفَةُ النَّظْرَةِ كَالنَّظْرَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى الْمُحَرَّمِ،وَاسْتِرَاقُ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ،كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرِّيَبِ،وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَادَ الْخَائِنَةُ مِنَ الْأَعْيُنِ لِأَنَّ قَوْلَهُ:(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ قَالَ صَاحِبُ الْمَدَارِكِ قَوْلُهُ:(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ):أَيْ:وَمَا تُسِرُّهُ مِنْ أَمَانَةٍ أَوْ خِيَانَةٍ،وَقِيلَ:هُوَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَجْنَبِيَّةٍ بِشَهْوَةٍ مُسَارَقَةً،ثُمَّ يَتَفَكَّرُ بِقَلْبِهِ فِي جَمَالِهَا،وَلَا يَعْلَمُ بِنَظْرَتِهِ وَفِكْرَتِهِ مَنْ بِحَضْرَتِهِ،وَاللَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

[٥٣٠٦] – شرح مشكل الآثار (٤/ ١٥٧)(١٥٠٦) وشرح معاني الآثار (٣/ ٣٣٠)(٥٤٧٥) ومصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (٢٠/ ٤٧٤)(٣٨٠٦٨) والسنن الكبرى للنسائي (٣/ ٤٤٣)(٣٥١٦) وسنن أبي داود (٣/ ٥٩)(٢٦٨٣) صحيح

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَمَرَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ الرِّجَالِ الْمُسَمَّيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِيهِمْ أَمْرًا مُطْلَقًا ثُمَّ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدٍ بِإِسْلَامِهِمَا فَحَقَنَ ذَلِكَ دِمَاءَهُمَا وَقُتِلَ الْآخَرَانِ عَلَى مَا قُتِلَا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ الَّذِي ثَبَتَا عَلَيْهِ فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ فِيهِمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِيهِمْ مُسْتَثْنًى مِنْ خُرُوجِهِمْ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي أَمَرَ مِنْ أَجْلِهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِيهِمْ إِلَى ضِدِّهِ،وَهُوَ الْإِسْلَامُ،فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً بِالشَّرِيعَةِ وَإِنْ لَمْ يُسْتَثْنَ بِاللِّسَانِ فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ كَذَلِكَ تَكُونُ أُمُورُ الْأَئِمَّةِ بِالْعُقُوبَاتِ مُسْتَثْنًى مِنْهَا مَا يَرْفَعُ الْعُقُوبَاتِ بِالشَّرِيعَةِ وَإِنْ لَمْ يَسْتَثْنُوا ذَلِكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ،وَبِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّوْفِيقُ"

وقال البغوي:"وَمعنى خَائِنَة الْأَعْين:أَن يُومي بِعَيْنِه خلاف مَا يظْهر،فَتكون تِلْك الْخِيَانَة من قبل الْعين،فأضيفت إِلَيْهَا،قَالَ صَاحب التَّلْخِيص:فِي تَحْرِيم خِيَانَة الْأَعْين عَلَيْهِ كالدليل على أَنَّهُ لم يكن لَهُ فِي الْحَرْب خدعة،وَلَيْسَ كَذَلِك،بل كَانَ مُبَاحا لَهُ كالتورية فِي الْغَزْو.قَالَ الإِمَامُ:أما فِي غير الْحَرْب،ومكايدة الْعَدو،كَانَ يحرم عَلَيْهِ ﷺ خَائِنَة الْأَعْين،وَهِي أَن يُشِير إِلَى مُبَاح من غير أَن يظْهره من ضرب،أَوْ قتل،أَوْ نَحوه مِمَّا يحل أَن ينْطق بِهِ،وَلَا يحرم ذَلِك على الْأمة إِلَّا فِي شرح السنة للبغوي (١١/ ٤٣)

[٥٣٠٧] – فتح الباري شرح صحيح البخاري– ط دار المعرفة (٦/ ١٥٩)

فَقَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ:أَيْ:الْخَائِنَةُ مِنْهَا وَهِيَ الَّتِي تَتَعَمَّدُ ذَلِكَ النَّظَرَ الْمُحَرَّمَ مَعَ اسْتِرَاقِهِ،حَتَّى لَا يَفْطِنَ أَحَدٌ لَهُ مَرْدُودٌ.

ثُمَّ قَالَ:وَقَدْ يُرَادُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ أَنْ يُظْهِرَ الْإِنْسَانُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ كَأَنْ يُشِيرَ بِطَرَفِ عَيْنِهِ إِلَى قَتْلِ إِنْسَانٍ،مَعَ أَنَّهُ يُظْهِرُ لَهُ الرِّضَا عَنْهُ قُلْتُ:هَذِهِ عِبَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَإِشَارَةٌ عَجِيبَةٌ،مَعَ أَنَّهَا غَيْرُ مُطَابِقَةٍ لِلْقَضِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ،وَالْحُجَّةِ الْمَسْطُورَةِ بِقَوْلِهِ:وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ أَيْ:«مِمَّنْ أُهْدِرُ دَمُهُمْ يَوْمَئِذٍ جِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ،فَشَفَعَ فِيهِ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَسَكَتَ - ﷺ- هُنَيْهَةً ثُمَّ شَفَعَ عُثْمَانُ فِيهِ،ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:(هَلَّا بَادَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى قَتْلِهِ حِينَ سَكَتُّ) فَقَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَّا أَشَرْتَ إِلَيْنَا بِقَتْلِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ:- ﷺ- (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ») وَمِنْ ثَمَّ قَالَ أَئِمَّتُنَا:مِنْ خَصَائِصِهِ - ﷺ- أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ،وَهِيَ أَنْ يُبْطِنَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ إِلَّا فِي التَّوْرِيَةِ بِالْحَرْبِ أَوْ فِيهِ،وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ وَجْهُ الاخْتِصَاصِ بِهِ - ﷺ-.ثُمَّ قَالَ:قَوْلُهُ:(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) أَيْ تُكِنُّهُ الْقُلُوبُ وَتُضْمِرُهُ الْأَفْئِدَةُ مِنْ تَوَالِي خَطِرَاتِهَا الْمُتَنَافِيَةِ،وَفِي تَرَقٍّ لِأَنَّ هَذِهِ الْخَطِرَاتِ أَقْبَحُ مِنْ تِلْكَ النَّظَرَاتِ.

قُلْتُ:لَيْسَ كَذَلِكَ،فَإِنَّ الْخَطِرَاتِ مَعْفُوٌّ عَنْهَا بِخِلَافِ النَّظَرَاتِ الْمُعْتَمَدِ بِهَا.ثُمَّ قَالَ:وَأَمَّا قَوْلُ الْكَشَّافِ:وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَادَ الْخَائِنَةُ مِنَ الْأَعْيُنِ لِأَنَّ قَوْلَهُ:(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ اهـــ.فَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ أَيْ تَفْسِيرَ خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ.بِمَا مَرَّ عَنِ الْفُقَهَاءِ،فَهُوَ وَاضِحٌ لِأَنَّ خَائِنَتَهَا حِينَئِذٍ مِمَّا تُخْفِيهِ الصُّدُورُ،فَيَكُونُ مِنْ عَطْفِ الْأَعَمِّ،وَهُوَ خِلَافُ الْأَصْلِ مِنَ التَّغَايُرِ الْحَقِيقِيِّ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ،أَوْ مِنْ تَفْسِيرِهَا بِمَا مَرَّ أَوَّلًا كَانَ مُنْدَفِعًا بِمَا قَرَّرْتُهُ مِنَ التَّرَقِّي الْمَذْكُورِ،وَبِهَذَا الْفَرْقِ الَّذِي قَرَّرْتُ بِهِ كَلَامَهُ مِنْ إِيضَاحِهِ عَلَى الْأَوَّلِ وَانْدِفَاعِهِ عَلَى الثَّانِي يُعْلَمُ مَا فِي كَلَامِ الشَّارِحِ هُنَا فَتَأَمَّلْهُ اهـــ.

وَقَدْ تَأَمَّلْنَا،فَوَجَدْنَا أَنَّ الْكَشَّافَ وَالطِّيبِيَّ إِمَامَانِ مُحَقِّقَانِ مُدَقِّقَانِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ،عَارِفَانِ بِجَوَازِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ،وَهُوَ فِي الْكِتَابِ كَثِيرٌ فَالْمُرَادُ مِنْ كَلَامِهِمَا أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر:١٩] يَعْلَمُ الْأَحْوَالَ الْمُخْتَلِفَةَ فِي الصُّدُورِ،وَحُسْنُ التَّقَابُلِ بَيْنَ الْمُتَعَاطِفِينَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَعْنَى خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ الْأَحْوَالَ

الْكَامِنَةَ الْكَائِنَةَ فِي الْأَعْيُنِ،إِذْ هِيَ ذَاتٌ فِي مُقَابَلَةِ الصَّدْرِ،وَالْعِلْمُ بِالذَّوَاتِ أَمْرٌ ظَاهِرٌ،فَتَعَلُّقُهُ بِالْأَسْقَامِ الْمَخْفِيَّةِ أَبْلَغُ وَأَفْيَدُ،وَحِينَئِذٍ يَكُونُ التَّرَقِّي مِنَ الدَّقِيقِ إِلَى الْأَدَقِّ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:٧] وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.[٥٣٠٨]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٣٠٨] – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٧٣٨)

المبحث الرابع

بعض آداب الجهاد العامة

سبق الكلام على بعض آداب الجهاد قبل المعركة –غالبا– وفي أثنائها،وبعدها.

وهذه بعض الآداب التي لا وقت لها،إذ يجوز أن تكون قبل الحرب،ويجوز أن تكون أثناءها،ويجوز أن تكون بعدها.

عدم قتل الرسل:

الناس – كل الناس – مهما حصل بينهم من نزاع،أو حروب،لا بد أن يحتاج بعضهم للاتصال بالآخرين،للتفاوض معهم،أو عرض تنازل،لعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاطعة أو الحرب أو غير ذلك.

والمسلمون أهل حق ودعوة إلى ذلك الحق،وهم حريصون على إيصال ذلك الحق إلى الناس كلهم بالوسائل السلمية،ولا يلجأون إلى القتال إلا مضطرين،عندما يقف أعداء دعوتهم في طريقها لصد الناس عنها،والْحَوْل بين الدعاة إلى الله وبين الناس،أو عندما لا ينصاعون لحكم الله تعالى بأن يدخلوا في دين الله أو يؤدوا الجزية وهم صاغرون،هنالك يكون آخر الدواء الكي،إذ على المسلمين أن يحملوا السلاح لتأديب أعداء الله،وفي هذه الحال قد يبدو للمحاربين رأي في الأمر،فيحتاجون إلى الاتصال بالمجاهدين في سبيل الله،فيرسلون منهم من يبلغ أمرهم إلى المسلمين،وهم الذين يسمون بالرسل،فإذا جاء رسول أو أكثر من المحاربين إلى المسلمين،فإنه يكون آمناً على نفسه وماله فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يتعدى عليه حتى يبلغ رسالته ويغادر آخر جزء من بلاد المسلمين.

وهذا الأدب السماوي العظيم جاء في السنة النبوية قولاً وفعلاً،وطبقه بعد الرسول ﷺ أصحابُه في كل البلدان التي جاهدوا فيها لرفع راية الإسلام.

فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ،عَنْ أَبِيهِ نُعَيْمٍ،قَالَ:سمعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ،قَالَ لِلرَّسُولَيْنِ:فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟ قَالَا:نَقُولُ:كَمَا قَالَ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"وَاللهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا "[٥٣٠٩]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،قَالَ:جَاءَ ابْنُ النَّوَّاحَةِ وَابْنُ أُثَالٍ رَسُولَا مُسَيْلِمَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ لَهُمَا:"أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ "،قَالَا:نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ،لَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ:"قَالَ:فَمَضَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ "[٥٣١٠]

وعَنْ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي رَافِعٍ،حَدَّثَهُ،أَنَّ أَبَا رَافِعٍ أَخْبَرَهُ،أَنَّهُ أَقْبَلَ بِكِتَابٍ مِنْ قُرَيْشٍ،إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِيَ الْإِسْلَامُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ،وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ،وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ،فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِي قَلْبِكَ الْآنَ،فَارْجِعْ»،قَالَ:فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ،ثُمَّ إِنِّي أَقْبَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَأَسْلَمْتُ قَالَ بُكَيْرٌ:وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ قِبْطِيًّا"[٥٣١١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ قَيْصَرَ جَارًا لِي زَمَنَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ،فَقُلْتُ لَهُ:أَخْبِرْنِي عَنْ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَيْصَرَ.فَقَالَ:إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:أَرْسَلَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى قَيْصَرَ،وَكَتَبَ مَعَهُ إِلَيْهِ كِتَابًا،يُخَيِّرُهُ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ،إِمَّا أَنْ يُسْلِمَ،وَلَهُ مَا فِي يَدَيْهِ مِنْ مُلْكِهِ،وَإِمَّا أَنْ يُؤَدِّيَ الْخَرَاجَ وَإِمَّا أَنْ يَأْذَنَ بِحَرْبٍ،قَالَ:فَجَمَعَ قَيْصَرُ بَطَارِقَتَهُ وَقِسِّيسِيهِ فِي قَصْرِهِ،وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمُ الْبَابَ،وَقَالَ:إِنَّ مُحَمَّدًا بَعَثَ إِلَيَّ يُخَيِّرُنِي إِحْدَى ثَلَاثٍ:إِمَّا أَنْ أُسْلِمَ،وَلِي مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ مِنْ مُلْكِي.وَإِمَّا أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ بِالْخَرَاجِ،وَإِمَّا أَنْ آذَنَ بِحَرْبٍ،وَقَدْ تَجِدُونَ فِيمَا تَقْرَءُونَ مِنْ كُتُبِكُمْ،بِأَنَّهُ سَيَمْلِكُ مَا

[٥٣٠٩] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٥/ ٣٦٦)(١٥٩٨٩) صحيح لغيره

[٥٣١٠] - مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٣٠٦)(٣٧٦١) صحيح لغيره

(قَاتِلًا رَسُولًا) ؛ أَيْ قَادِمًا بِالْخَبَرِ مِنْ عِنْدِ أَحَدٍ بِأَمَانٍ (لَقَتَلْتُكُمَا،قَالَ عَبْدُ اللَّهِ) ؛ أَيِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَإِنَّهُ الرَّاوِي بَلْ هُوَ الْمُرَادُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ (فَمَضَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُقْتَلُ) قَالَ الطِّيبِيُّ:مَعْنَاهُ جَرَتِ السُّنَّةُ عَلَى الْعَادَةِ الْجَارِيَةِ فَجَعَلَتْهَا سُنَّةً "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٥٦٥)

[٥٣١١] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٢٣٣)(٤٨٧٧) صحيح

تَحْتَ قَدَمَيَّ مِنْ مُلْكِي،قَالَ:فَنَخَرُوا نَخْرَةً،حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ،وَقَالُوا:نَحْنُ نُرْسِلُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ،جَاءَ فِي بُرْدَيْهِ وَنَعْلَيْهِ،بِالْخَرَاجِ؟،فَقَالَ:اسْكُتُوا إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ تَمَسُّكَكُمْ بِدِينِكُمْ وَرَغْبَتَكُمْ فِيهِ،ثُمَّ قَالَ:أَبْغُونِي رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ.قَالَ:فَجَاءُوا بِي وَكَتَبَ مَعِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا،وَقَالَ:انْظُرْ مَا سَقَطَ عَنْكَ مِنْ قَوْلِهِ،فَلَا يَسْقُطَنَّ عَنْكَ ذِكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ،وَهُمْ مُحْتَبُونَ بِحَمَائِلِ سُيُوفِهِمْ،حَوْلَ بِئْرِ تَبُوكَ،فَقُلْتُ:أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَفْسِهِ،فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الْكِتَابَ،فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ،ثُمَّ قَالَ:«مِمَّنِ الرَّجُلُ؟"قُلْتُ امْرُؤٌ مِنْ تَنُوخَ،فَقَالَ:«هَلْ لَكَ فِي دِينِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ،الْحَنِيفِيَّةِ؟"فَقُلْتُ:إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ وَعَلَى دِينِهِمْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ،قَالَ:فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،وَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَإِلَيَّ،ثُمَّ قَالَ:«وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} » قَالَ:ثُمَّ دَفَعَ الْكِتَابَ إِلَى رَجُلٍ عَنْ يَمِينِهِ،فَقُلْتُ:مَنْ هَذَا؟،فَقِيلَ:هَذَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ.فَكَتَبْتُ اسْمَهُ.فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ إِذَا فِيهِ:كَتَبْتَ تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ،فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«سُبْحَانَ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ فَأَيْنَ النَّهَارُ؟ وَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ فَأَيْنَ اللَّيْلُ؟"فَكَتَبْتُ،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّكَ رَسُولٌ،وإِنَّ لَكَ حَقًّا،وَلَكِنَّكَ جِئْتَنَا وَنَحْنُ مُرْمِلُونَ»،فَقَالَ عُثْمَانُ:أَنَا أَكْسُوهُ حُلَّةً صَفُورِيَّةً.فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ:عَلَيَّ ضِيَافَتُهُ،وَقَالَ لِي قَيْصَرُ فِيمَا قَالَ:انْظُرْ إِلَى ظَهْرِهِ فَنَسِيتُ فَلَمَّا قَضَيْتُ،قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ قَدْ أُمِرَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ظَهْرِكَ،فَدَعَانِي فَقَالَ:«تَعَالَ،فَامْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ».وَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ظَهْرِهِ،فَرَأَيْتُ الْخَاتَمَ فِي كَتِفِهِ،وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنِّي كَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَخَرَقَ كِتَابِي وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ،وَكَتَبْتُ إِلَى كِسْرَى مَلِكِ فَارِسَ فَمَزَّقَ كِتَابِي،وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ ومُلْكَهُ،وَكَتَبْتُ إِلَى قَيْصَرَ فَرَجَعَ كِتَابِي،فَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَجِدُونَ بَأْسًا مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ»[٥٣١٢]

[٥٣١٢] – الأموال لابن زنجويه (١/ ١٢٣)(١٠٤) والبداية والنهاية ط هجر (٧/ ١٧٧) حسن

وقال ابن القيم:"وَكَانَتْ تَقْدَمُ عَلَيْهِ رُسُلُ أَعْدَائِهِ،وَهُمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ،فَلَا يُهِيجُهُمْ،وَلَا يَقْتُلُهُمْ،وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ رَسُولَا مسيلمة الكذاب:وَهُمَا عبد الله بن النواحة وابن أثال،قَالَ لَهُمَا:(«فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟ قَالَا:نَقُولُ كَمَا قَالَ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا») فَجَرَتْ سُنَّتُهُ أَلَّا يُقْتَلَ رَسُولٌ.

وَكَانَ هَدْيُهُ أَيْضًا أَلَّا يَحْبِسَ الرَّسُولَ عِنْدَهُ إِذَا اخْتَارَ دِينَهُ فَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ اللِّحَاقِ بِقَوْمِهِ بَلْ يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ:أبو رافع بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ،وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ،فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ.فَقَالَ:(«إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ،وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ،ارْجِعْ إِلَيْهِمْ،فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ،فَارْجِعْ») .

قَالَ أبو داود:وَكَانَ هَذَا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي شَرَطَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ،وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا،وَأَمَّا الْيَوْمَ،فَلَا يَصْلُحُ هَذَا.انْتَهَى.

وَفِي قَوْلِهِ:(«لَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ») إِشْعَارٌ بِأَنَّ هَذَا حُكْمٌ يَخْتَصُّ بِالرُّسُلِ مُطْلَقًا،وَأَمَّا رَدُّهُ لِمَنْ جَاءَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا،فَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الشَّرْطِ،كَمَا قَالَ أبو داود،وَأَمَّا الرُّسُلُ،فَلَهُمْ حُكْمٌ آخَرُ،أَلَا تَرَاهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِرَسُولَيْ مسيلمة وَقَدْ قَالَا لَهُ فِي وَجْهِهِ:نَشْهَدُ أَنَّ مسيلمة رَسُولُ اللَّهِ.

وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ،أَنَّ أَعْدَاءَهُ إِذَا عَاهَدُوا وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى عَهْدٍ لَا يَضُرُّ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ رِضَاهُ،أَمْضَاهُ لَهُمْ،كَمَا عَاهَدُوا حذيفة وَأَبَاهُ الحسيل أَنْ لَا يُقَاتِلَاهُمْ مَعَهُ ﷺ،فَأَمْضَى لَهُمْ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُمَا:«انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ،وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ».[٥٣١٣]

وفي السيل الجرار:"وهكذا كان الأمر عند غير أهل الإسلام من ملوك الكفر فإن النبي ﷺ كان يراسلهم من غير تقدم أمان منهم لرسله فلا يتعرض لهم متعرض.

والحاصل أنه لو قال قائل:إن تأمين الرسل قد اتفقت عليه الشرائع لم يكن ذلك بعيدا وقد كان أيضا معلوما ذلك عند المشركين أهل الجاهلية عبدة الأوثان .."[٥٣١٤]

[٥٣١٣] - زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٢٥)

[٥٣١٤] - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (ص:٩٦٨)

وقال في النيل:"وَالْحَدِيثَانِ الْأَوَّلَانِ يَدُلَّانِ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِ الرُّسُلِ الْوَاصِلِينَ مِنْ الْكُفَّارِ إنْ تَكَلَّمُوا بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ فِي حَضْرَةِ الْإِمَامِ أَوْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ.وَالْحَدِيثُ الثَّالِثُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِلْكُفَّارِ كَمَا يَجِبُ لِلْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ تَقْتَضِي جَوَابًا يَصِلُ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ فَكَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ عَقْدِ الْعَهْدِ."[٥٣١٥]

وفي عون المعبود:"فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِ الرُّسُلِ الْوَاصِلِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَإِنْ تَكَلَّمُوا بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ فِي حَضْرَةِ الْإِمَامِ"[٥٣١٦]

وكان ﷺ يشتد غيظه إذا قتل الأعداء أحد رسله،فقد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب،فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني،فقتله...فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْحَارِث بْن عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ إِلَى مَلِكِ بُصْرَى بِكِتَابِهِ.فَلَمَّا نَزَلَ مُؤْتَةَ عَرَضَ لَهُ شُرَحْبِيلُ بْن عَمْرٍو الْغَسَّانِيُّ فَقَالَ:أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ:الشَّامُ.قَالَ:لَعَلَّكَ مِنْ رُسُلِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ:نَعَمْ أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَمَرَ بِهِ فَأُوثِقَ رِبَاطًا ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ صَبْرًا.وَلَمْ يُقْتَلْ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - رَسُولٌ غَيْرُهُ.وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - الْخَبَرَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَنَدَبَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَقْتَلِ الْحَارِثِ بْنِ عُمَيْرٍ وَمَنْ قَتَلَهُ.فَأَسْرَعُوا فَكَانَ ذَلِكَ سبب خروجهم إلى غزوة مؤتة.[٥٣١٧].

تأمين من طلب من المحاربين سماع كلام الله وتعلم معنى الإسلام:

وإذا طلب بعض المحاربين الكافرين الإذن له بدخول دار الإسلام أو مقابلة من يعلمه الإسلام من المجاهدين،فإن على المسلمين أن يؤمنوا من طلب ذلك ويسمعوهم كلام الله،ويشرحوا لهم معاني الإسلام ويرغبوهم فيه،ويحذروهم من محاربته لأن ذلك هو المقصود الأساس للمجاهدين،فإذا فعلوا ذلك فعليهم أن يوصلوه إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه،بأن يحموه من أي اعتداء عليه في بلاد الإسلام،أو في معسكر المسلمين

[٥٣١٥] - نيل الأوطار (٨/ ٣٧)

[٥٣١٦] - عون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٣١٤)

[٥٣١٧] - الطبقات الكبرى ط العلمية (٤/ ٢٥٥) وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٣٣٦) وفتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٧/ ٥١١) من طرق الواقدي

المجاهدين،كما قال تعالى:{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦]].

وَإِذَا اسْتَجَارَ أَحَدٌ مْنَ الْمُشْرِكِينَ (الذينَ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بقِتَالِهِمْ) بالرَّسُولِ ﷺ وَاسْتَأْمَنَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَمِّنَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ،وَيَقْرَأَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ القُرْآنَ،وَيَذْكُرَ لَهُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدِّينِ،لِيُقِيمَ عَلَيْهِ الحُجَّةَ،ثُمَ يُبْلِغَهُ مَأمَنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ،وَيُوصِلَهُ إِلَى مَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ آمْناً،لأنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَعْلَمُونَ أَمْرَ الدِّينِ،وَلَمْ يُعْرِضُوا عَنِ الإِسْلاَمِ إلاَّ عَنْ جَهْلٍ وَعَصَبِيَّةٍ،وَاغْتِرارٍ بالقُوَّةِ،وَقَدْ شَرَعَ اللهُ أَمَانَهُمْ لِيَعْلَمُوا دِينَ اللهِ،وَلِتَنْتَشِرَ الدَّعْوَةُ بَيْنَ عِبَادِهِ،وَلِهَذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعْطِي أَمَانَهُ مُسْتَرْشِداً بالآيَةِ،وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ هِدَايَةِ الكَثِيرِينَ مِنْهُمْ. [٥٣١٨]

وفيها بيان لحكم من جاء من المشركين مستجيرا بالنبيّ،طالبا الأمان منه.

ففى غير ميدان القتال،وفى حال السّلم،قد يرى بعض المشركين أن يلتقى بالنبيّ،ليعرف الدعوة الإسلامية،وليعرض على عقله وقلبه ما يدعو إليه الإسلام،وذلك حقّ له،يجب ألّا يحرم منه..ليكون إيمانه على علم،وفى غير إكراه..

ولهذا أمر الله سبحانه النبيّ الكريم أن يستجيب لدعوة من يدعوه إلى طلب الأمان فى جواره،وذلك حتى يسمع كلام الله،أي حتى يسمع ما نزل على النبي من قرآن يقرر أصول الإسلام،وأحكام شريعته،ثم إن لهذا المستأمن أن يطلب النّظرة إلى الوقت الذي يسمح له بالنظر والتدبر فيما سمع من كلام الله،وأن يجاب إلى هذا،حتى ينقطع عذره،وتقوم عليه الحجة..

فإن وجد فيما سمع ووعى من كلام الله ما يدعوه إلى الإيمان،ثم آمن..

فهو فى المؤمنين،له ما لهم وعليه ما عليهم..

وإن أصمّ الله سمعه،وأعمى بصره،وحجب بصيرته،فلم تنفذ شعاعات الهدى إلى قلبه،وآثر الضلال على الإيمان،واستحبّ العمى على الهدى،فإن له ما اختار..لا سلطان لأحد عليه،ولا سبيل لأحد أن يناله بضرّ أو أذى،فهو الآن فى ذمة النبيّ،وذمة المؤمنين

[٥٣١٨] - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢٤٢،بترقيم الشاملة آليا)

جميعا..وعلى النبيّ- صلوات الله وسلامه عليه- أن يضمن سلامته،وأن يكفل له الأمن والطمأنينة ما دام فى رحاب المسلمين..ثم إن أراد النبيّ،أو رغب هو فى أن يلحق بأهله،أجيب إلى هذا،ووكل به النبيّ من المسلمين من يقوم على حراسته،وسلامته،حتى يبلغ مأمنه،أي المكان الذي يجد فيه الأمن بين أهله وعشيرته..

ألا فلتخرس ألسنة الذين يقولون إن الإسلام دين قام على السيف وإراقة الدماء!! فهذا صنيع الإسلام مع أعدائه حين لا يكون منهم حرب معه،أو عدوان عليه..إنه سلم خالص،وإنسانيّة فى أرفع منازلها..فلا إكراه فى الدين،ولا عدوان على من يختلفون مع المسلمين اختلافا قائما على البحث والنظر.

وليس فى الدعوات دعوة تحترم العقل،وتمنحه حقه المطلق فى النظر والاختيار- كدعوة الإسلام،التي لا تفرض سلطان الحق الذي بين يديها،على أي ذى عقل،ولو كان عقلا جهولا محمّقا! ذلك أن الإسلام ليس من همّه امتداد ظلّه على مساحات ممتدة من الأرض،ولا التسلط على أعداد كثيرة من الناس،شأن الغزاة والفاتحين،فمثل هذا لا يقيم فى القلوب دينا،ولا يثبت فى الأرض عقيدة..وإنما الذي يهمّ الإسلام أولا وأخيرا،هو أن يجد العقول التي تتقبّل دعوته،والنفوس التي تستجيب لها،والقلوب التي تعمر بها..ولا عليه بعد هذا أن يقلّ أتباعه أو يكثروا،وأن تتسع دولته أو تضيق..إذ ليست دعوة الإسلام لحساب فرد أو جماعة،وإنما هى خير ممدود للناس،فمن طعم منه،واستطابه،فذلك له،ومن أعرض عنه وتحاشى الأخذ منه فليس لأحد عليه سلطان:«وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» ..

وفى قوله تعالى:«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ» إشارة داعية إلى الرفق بهؤلاء المشركين الذين جاءوا ليعرضوا الإسلام على عقولهم،فهم على جهل وجفاء،وفى ظلام جاهلية طال عليهم الأمد فيها..وإذ كان هذا شأنهم،فإن من شأن من يتولّى الاستشفاء لهم من دائهم،أن يترفق بهم،حين يراهم يعشون عن النور،ويعمون على الهدى..[٥٣١٩]

[٥٣١٩] - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٠٤)

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون،وإجارة لمن يستجيرون،حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه ..ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام الله وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله فتحول بينهم وبين الهدى،كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد وتلجئهم إلى عبادة غير الله ..ومتى حطم هذه القوى،وأزال هذه العقبات،فالأفراد – على عقيدتهم – آمنون في كنفه يعلمهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم ..هذا كله وهم يرفضون منهج الله! وفي الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان! ثم يقف ناس يرون هذا في واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج الله بتشويه هذا المنهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام في وجه السيف والمدفع في هذا الزمان وفي كل زمان![٥٣٢٠]

قال ابن قدامة:"وَمَنْ طَلَبَ الْأَمَانُ لِيَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ،وَيَعْرِفَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَجَبَ أَنْ يُعْطَاهُ،ثُمَّ يُرَدَّ إلَى مَأْمَنِه.لَا نَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا.وَبِه قَالَ قَتَادَةُ،وَمَكْحُولٌ،وَالْأَوْزَاعِيُّ،وَالشَّافِعِيُّ.وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِذَلِكَ إلَى النَّاسِ؛وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة:٦].قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:هِيَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَة.وَيَجُوزُ عَقْدُ الْأَمَانُ لِلرَّسُولِ وَالْمُسْتَأْمِنِ؛لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – كَانَ يُؤَمِّنُ رُسُلَ الْمُشْرِكِينَ.وَلَمَّا جَاءَهُ رَسُولَا مُسَيْلِمَةَ،قَالَ:«لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمَا».وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ تَدْعُو إلَى ذَلِكَ،فَإِنَّنَا لَوْ قَتَلْنَا رُسُلَهُمْ،لَقَتَلُوا رُسُلَنَا،فَتَفُوتُ مَصْلَحَةُ الْمُرَاسَلَةِ.وَيَجُوزُ عَقْدُ الْأَمَانِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُطْلَقًا وَمُقَيَّدًا بِمُدَّةٍ،سَوَاءٌ كَانَتْ طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً،بِخِلَافِ الْهُدْنَةِ،فَإِنَّهَا لَا تَجُوزُ إلَّا مُقَيَّدَةً؛لِأَنَّ فِي جَوَازِهَا مُطْلَقًا تَرْكًا لِلْجِهَادِ،وَهَذَا بِخِلَافِه.قَالَ الْقَاضِي:وَيَجُوزُ أَنْ يُقِيمُوا مُدَّةَ الْهُدْنَةِ بِغَيْرِ جِزْيَةٍ.قَالَ أَبُو بَكْرٍ:وَهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ أَحْمَدَ؛لِأَنَّهُ قِيلَ لَهُ:قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ:لَا يُتْرَكُ الْمُشْرِكُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ يُسْلِمَ أَوْ يُؤَدِّيَ.فَقَالَ أَحْمَدُ إذَا أَمَّنْته،فَهُوَ عَلَى مَا

[٥٣٢٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب–ط١ – ت– علي بن نايف الشحود (ص:٢١٧٧)

أَمَّنْته.وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ خَالَفَ قَوْلَ الْأَوْزَاعِيِّ.وَقَالَ أَبُو الْخَطَّاب:عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقِيمَ سَنَةً بِغَيْرِ جِزْيَة.وَهَذَا قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ،وَالشَّافِعِيِّ؛لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩].وَوَجْهُ الْأَوَّل،أَنَّ هَذَا كَافِرٌ أُبِيحَ لَهُ الْإِقَامَةُ فِي دَارِ الْإِسْلَام،مِنْ غَيْرِ الْتِزَام جِزْيَة،فَلَمْ تَلْزَمْهُ جِزْيَةٌ،كَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَان،وَلِأَنَّ الرَّسُولَ لَوْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُجَوِّزُ أَخْذَ الْجِزْيَة مِنْهُ،يَسْتَوِي فِي حَقِّه السَّنَةُ وَمَا دُونَهَا،فِي أَنَّ الْجِزْيَةَ لَا تُؤْخَذُ مِنْهُ فِي الْمُدَّتَيْن،فَإِذَا جَازَتْ لَهُ الْإِقَامَةُ فِي إحْدَاهُمَا،جَازَتْ فِي الْأُخْرَى،قِيَاسًا لَهَا عَلَيْهَا.وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} [التوبة:٢٩].أَيْ يَلْتَزِمُونَهَا،وَلَمْ يُرِدْ حَقِيقَةَ الْإِعْطَاء،وَهَذَا مَخْصُوصٌ مِنْهَا بِالاتِّفَاق،فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْإِقَامَةُ مِنْ غَيْرِ الْتِزَامٍ لَهَا،وَلِأَنَّ الْآيَةَ تَخَصَّصَتْ بِمَا دُونَ الْحَوْلِ،فَنَقِيسَ عَلَى الْمَحَلِّ الْمَخْصُوص..[٥٣٢١]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٣٢١] - المغني لابن قدامة (٩/ ٢٤٤)

الباب الخامس والثلاثون

شبهات حول الجهاد اليوم وردها

الشبهة الأولى -الاستدلال بكلام العز بن عبد السلام على أنه إذا كان بالمسلمين ضعف وقتالهم لا يحقق نكاية فإنه يجب عليهم ترك الجهاد

"لتفهم مراد الإمام العز بن عبد السلام لابد من نقل الكلام كاملاً دون تحريف ولا نقص أو زيادة لتفهم المسألة التي يقررها،ولا يجوز إخراج كلامه عن مراده،وإنزاله في غير ما قيل،فهو يقرر مسألة خاصة فكيف يبتر نصه ليوضع في سياق آخر يفيد خلاف ذلك وإليك كلامه:

قال العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام في مصالح الأنام:الْمِثَالُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ:التَّقْرِيرُ عَلَى الْمَعَاصِي كُلِّهَا مَفْسَدَةٌ لَكِنْ يَجُوزُ التَّقْرِيرُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ إنْكَارِهَا بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ،وَمَنْ قَدَرَ عَلَى إنْكَارِهَا مَصْلَحَة إعْزَازِ الدِّينِ بِالنِّكَايَةِ فِي الْمُشْرِكِينَ،فَإِذَا لَمْ تَحْصُلْ النِّكَايَةُ وَجَبَ الِانْهِزَامُ لِمَا فِي الثُّبُوتِ مِنْ فَوَاتِ النُّفُوسِ مَعَ شِفَاءِ صُدُورِ الْكُفَّارِ وَإِرْغَامِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ صَارَ الثُّبُوتُ هَهُنَا مَفْسَدَةً مَحْضَةً لَيْسَ فِي طَيِّهَا مَصْلَحَةٌ.[٥٣٢٢]

فمن قرأ كلام العز كاملاً علم أن الإمام لا يتحدث عما أرادوا من تعطيل جهاد الدفع أو تقييده،ولكن سياق كلامه يتحدث عن مسألة التولي يوم الزحف فقط،والتولي أيضاً يكون في جهاد الطلب لا في جهاد الدفع،لأن جهاد الدفع قد قدمنا أنه لا يشترط له شرط أبداً وهذا موطن اتفاق بين العلماء وسيأتي كلام شيخ الإسلام على هذا،علماً أن مسألة الانهزام من أمام العدو إذا بلغ العدو ضعف المسلمين ليست مسألة متفقاً عليها بين العلماء،بل هناك من قال بخلاف ما قاله العز في هذه المسألة،فالعز يوجب الفرار إذا كان العدو ضعفهم،إلا أن بعض العلماء لا يوجب ذلك بل يجيز البقاء أو الفرار،والبعض

[٥٣٢٢] - قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١١٠)

يوجب البقاء مع غلبة الظن بالغلبة،ولسنا بصدد تحقيق المسألة،ولكننا نقول بأن كلام العز على هذه المسألة ليس مسلماً على الإطلاق،فكلام العلماء المجرد يستدلُّ له ولا يستدل به على الإطلاق،رغم أنه لابد أن يقصر كلام العز على نفس الباب الذي ورد فيه،ولا يتعدى به إلى باب آخر لا علاقة له بالمسألة،وهذه بعض النصوص من العلماء تفيد خلاف كلام العز في مسألة الفرار من الزحف إذا كان العدو ضعف المسلمين،وتبين أن كلام العز في بابه غير مسلم له.

قال شيخ الإسلام:وَكَلَامُ أَحْمَدَ يَقْتَضِي الْغَزْوَ وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ مَالٌ لِلْحَجِّ لِأَنَّهُ قَالَ:فَإِنْ أَعَانَهُ اللَّهُ حَجَّ مَعَ أَنَّ عِنْدَهُ تَقْدِيمَ الْحَجِّ أَوْلَى كَمَا أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ الْجِهَادُ بِالشُّرُوعِ وَعِنْدَ اسْتِنْفَارِ الْإِمَامِ لَكِنْ لَوْ أَذِنَ الْإِمَامُ لِبَعْضِهِمْ لِنَوْعِ

مَصْلَحَةٍ فَلَا بَأْسَ،وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ،وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ،وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ.

لَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَكَانِ النَّفِيرُ إذَا نَفَرَ إلَيْهِ الْكِفَايَةُ كَلَامُ أَحْمَدَ فِيهِ مُخْتَلِفٌ وَقِتَالُ الدَّفْعِ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ كَثِيرًا لَا طَاقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ لَكِنْ يُخَافُ إنْ انْصَرَفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ عَطَفَ الْعَدُوُّ عَلَى مَنْ يُخَلَّفُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَهُنَا قَدْ صَرَّحَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مُهَجَهُمْ وَمُهَجَ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِمْ فِي الدَّفْعِ حَتَّى يَسْلَمُوا وَنَظِيرُهَا أَنْ يَهْجُمَ الْعَدُوُّ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَتَكُونَ الْمُقَاتِلَةُ أَقَلَّ مِنْ النِّصْفِ فَإِنْ انْصَرَفُوا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْحَرِيمِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قِتَالُ دَفْعٍ لَا قِتَالُ طَلَبٍ لَا يَجُوزُ الِانْصِرَافُ فِيهِ بِحَالٍ وَوَقْعَةُ أُحُدٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَالْوَاجِبُ أَنْ يُعْتَبَرَ فِي أُمُورِ الْجِهَادِ وَتَرَامِي أَهْلِ الدِّينِ الصَّحِيحِ الَّذِينَ لَهُمْ خِبْرَةٌ بِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الدُّنْيَا دُونَ الدِّينِ الَّذِينَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ النَّظَرُ فِي ظَاهِرِ الدِّينِ فَلَا يُؤْخَذُ بِرَأْيِهِمْ وَلَا بِرَاءِ أَهْلِ الدِّينِ الَّذِينَ لَا خِبْرَةَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالرِّبَاطُ أَفْضَلُ مِنْ الْمَقَامِ بِمَكَّةَ إجْمَاعًا."[٥٣٢٣].

[٥٣٢٣] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٣٩)

فدل كلام شيخ الإسلام هنا على أن مسألة التولي معلقة بجهاد الطلب وليس الـــدفع،فإن كان الجهاد جهاد دفع فقد قال لا يجوز الانصراف بحال،ويحمل عليه جميع كلام العلماء في هذا الباب.

قال ابن قدامه في المغني:وَإِذَا كَانَ الْعَدُوُّ أَكْثَرَ مِنْ ضِعْفِ الْمُسْــلِمِينَ،فَغَلَبَ عَلَــى ظَــنِّ الْمُسْلِمِينَ الظَّفَرُ،فَالْأَوْلَى لَهُمْ الثَّبَاتُ،لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ،وَإِنْ انْصَرَفُوا جَازَ،لِأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ الْعَطَبَ وَالْحُكْمُ عُلِّقَ عَلَى مَظِنَّتِهِ،وَهُوَ كَوْنُهُمْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ عَدَدِهِمْ،وَلِــذَلِكَ لَزِمَهُمْ الثَّبَاتُ إذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ النِّصْفِ،وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الْهَلَاكُ فِيهِ.وَيَحْتَمِــلُ أَنْ يَلْزَمَهُمْ الثَّبَاتُ إنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الظَّفَرُ،لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ،وَإِنْ غَلَبَ عَلَــى ظَــنِّهِمْ الْهَلَاكُ فِي الْإِقَامَةِ،وَالنَّجَاةُ فِي الِانْصِرَافِ فَالْأَوْلَى لَهُمْ الِانْصِرَافُ،وَإِنْ ثَبَتُوا جَازَ،لِأَنَّ لَهُــمْ غَرَضًا فِي الشَّهَادَةِ،وَيَجُوزُ أَنْ يَغْلِبُوا أَيْضًا وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ الْهَلَــاكُ فِــي الْإِقَامَــةِ وَالِانْصِرَافِ،فَالْأَوْلَى لَهُمْ الثَّبَاتُ،لِيَنَــالُوا دَرَجَــةَ الشُّــهَدَاءِ الْمُقْــبِلِينَ عَلَــى الْقِتَــالِ مُحْتَسِبِينَ،فَيَكُونُونَ أَفْضَلَ مِنْ الْمُوَلِّينَ،وَلِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغْلِبُــوا أَيْضًــا،فَإِنَّ اللَّــهَ تَعَــالَى يَقُولُ:{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقــرة:٢٤٩] وَلِذَلِكَ صَبَرَ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ،فَقَاتَلُوا حَتَّى أَكْرَمَهُمْ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ"[٥٣٢٤].

وجاء في مغني المحتاج قول الخطيب الشربيني عن حديثه عن هجوم الكفار على بلد مسلم بغتة:(وَإِلَّا) بِأَنْ لَمْ يُمْكِنْ أَهْلَ الْبَلْدَةِ التَّأَهُّبُ لِقِتَالٍ بِأَنْ هَجَمَ الْكُفَّارُ عَلَيْهِمْ بَغْتَةً (فَمَــنْ قُصِدَ) مِنْ الْمُكَلَّفِينَ وَلَوْ عَبْدًا،أَوْ امْرَأَةً،أَوْ مَرِيضًا أَوْ نَحْوَهُ (دَفَعَ عَــنْ نَفْسِــهِ) الْكُفَّــارَ (بِالْمُمْكِنِ) لَهُ (إنْ عَلِمَ أَنَّهُ إنْ أُخِذَ قُتِلَ) بِضَمِّ أَوَّلِهِمَا (وَإِنْ جَوَّزَ) الْمُكَلَّــفُ الْمَــذْكُورُ (الْأَسْرَ) وَالْقَتْلَ (فَلَهُ) أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَ (أَنْ يَسْتَسْلِمَ) لِقَتْلِ الْكُفَّارِ إنْ كَانَ رَجُلًا؛لِأَنَّ الْمُكَافَحَةَ حِينَئِذٍ اسْتِعْجَالٌ لِلْقَتْلِ،وَالْأَسْرَ يَحْتَمِلُ الْخَلَاصُ،هَذَا إنْ عَلِمَ أَنَّهُ إنْ امْتَنَعَ مِــنْ الِاسْتِسْلَامِ قُتِلَ،وَإِلَّا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الِاسْتِسْلَامِ.أَمَّا الْمَرْأَةُ فَإِنْ عَلِمَتْ امْتِــدَادُ الْأَيْــدِي إلَيْهَــا بِالْفَاحِشَةِ فَعَلَيْهَا الدَّفْعُ وَإِنْ قُتِلَتْ؛لِأَنَّ الْفَاحِشَةَ لَا تُبَاحُ عِنْدَ خَوْفِ الْقَتْلِ وَإِنْ لَمْ تَمْتَــدَّ الْأَيْدِي إلَيْهَا بِالْفَاحِشَةِ الْآنَ،وَلَكِنْ تَوَقَّعَتْهَا بَعْدَ السَّبْيِ اُحْتُمِلَ جَوَازُ اسْتِسْلَامِهَا ثُمَّ تَــدْفَعُ

[٥٣٢٤] - المغني لابن قدامة (٩/ ٣١٩)

إِذَا أُرِيدَ مِنْهَا،ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الرَّوْضَةِ كَأَصْلِهَا،ثُمَّ مَا مَرَّ حُكْمُ أَهْلِ بَلْدَةٍ دَخَلَهَا الْكُفَّارُ،وَأَشَارَ لِغَيْرِهِمْ بِقَوْلِهِ.[٥٣٢٥]

قال السيوطي في شرح السير الكبير:"لا بأس بالانهزام إذا أتى المسلم من العدو ما لا يطيقه،ولا بأس بالصبر أيضاً بخلاف ما يقوله بعض الناس إنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة،بل في هذا تحقيق بذل النفس في سبيل الله تعالى،فقد فعله غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم،منهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه حمي الدبر — أي الذي حمته الدبابير –،وأثنى عليه رسول الله ﷺ بذلك،فعلمنا أنه لا بأس به".[٥٣٢٦]

الشبهة الثانية - لا يجاهد إلا من هو كامل الإيمان

وما رد فضيلتكم على كلام الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني رحمه الله في قوله؛"إن آيات الإعداد مخاطبة لأصحاب الإيمان الكامل"؟

إن القول بأن قول الله تعالى:(وأعدّوا لهمْ ما اسْتطعْتمْ منْ قوّةٍ ومنْ رباط الْخيْل)،إنما تخاطب من كمل أيمانه من المؤمنين يعد من غرائب وعجائب الشيخ الألباني رحمه الله تعالى،خاصة وأن الشيخ رغم اشتغاله بالسنة وتعامله مع متونها وتتبعه لشاردها وواردها لم يأت منها بشيء يستند إليه فيما ذهب إليه،وحسب ما أذكر أنه رحمه الله قد نص على أن هذا القول لم يجده لغيره من الأولين و لم يسبقه إليه أحد من المتأخرين،وعلل ذلك بأن الأولين لم يكونوا محتاجين إليه.

وهذا يبين أن القول إنما هو محدث من قبله وفهم له ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة،بل نصوصهما وأقوال العلماء تدل على خلاف ذلك تماما ممن يجزم معها ببطلانه فقبل سرد تلك الأدلة لا بد من وقفة قليلة مع مفهوم الإيمان الكامل،الذي يزعم إن وصله المرء صار مخاطبا بآيات الجهاد والإعداد وما دام في مرتبة دونه فهو في حل منها.

[٥٣٢٥] – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٦/ ٢٣)

[٥٣٢٦] – شرح السير الكبير (١/١٢٥)

إن العلماء الذين كتبوا في مسمى الإيمان -كشيخ الإسلام- عند أهل السنة والجماعة بينوا أنه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى:أصل الإيمان:وهي الحد الأدنى منه والتي من لم يأت بها لا يمكن أن يكون مؤمنا وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ويدخل في هذه المرتبة الأعمال التي نص الشارع على أن من تركها يعد كافرا كالصلاة مثلا.

المرتبة الثانية:الإيمان الواجب:وهذه المرتبة يدخل فيها الإتيان بكل الواجبات والانتهاء عن جميع المحرمات،ومن يأت بهذه المرتبة على وجهها وإن لم يزد عليها فإنه يستحق دخول الجنة دون عقاب.

والمرتبة الثالثة:وهي الإيمان الكامل بالمستحبات:وهي المرتبة العلية التي يتسابق فيها المتسابقون بما يأتونه من النوافل والفضائل الزائدة على الواجبات.

وقد دل على هذه المراتب الثلاث قوله سبحانه:{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)} [فاطر:٣٢،٣٣]

وكل من نقص عن المرتبة الثانية أو قصر فيها فهو من أهل الوعيد،لأنه إما تارك لواجب أو مرتكب لمحرم وصاحبه من عصاة الموحدين وهو ما يسمى بالفاسق الملي.

قال شيخ الإسلام في بيان هذه المراتب:(وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ أَصْلٍ لَا يَتِمُّ بِدُونِهِ وَمِنْ وَاجِبٍ يَنْقُصُ بِفَوَاتِهِ نَقْصًا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعُقُوبَةَ وَمِنْ مُسْتَحَبٍّ يَفُوتُ بِفَوَاتِهِ عُلُوُّ الدَّرَجَةِ فَالنَّاسُ فِيهِ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمُقْتَصِدٌ وَسَابِقٌ كَالْحَجِّ وَكَالْبَدَنِ وَالْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالصِّفَاتِ فَمِنْ سَوَاءِ أَجْزَائِهِ مَا إذَا ذَهَبَ نَقَصَ عَنْ الْأَكْمَلِ وَمِنْهُ مَا نَقَصَ عَنْ الْكَمَالِ وَهُوَ تَرْكُ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فِعْلُ الْمُحَرَّمَاتِ) [٥٣٢٧]

فإذا كان المقصود بأن المرء لا يخاطب بآيات الإعداد أو الجهاد حتى يكتمل إيمانه أي:حتى يأتي بالمرتبة الثانية على أتم الوجوه وأكملها،فإن هذا لا يمكن أن يكون،وذلك

[٥٣٢٧] - مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٧)

– وكما بينا – أن الإيمان الواجب يدخل فيه القيام بكل الواجبات والانتهاء عن جميع المحرمات،وهذه الواجبات يدخل فيها الجهاد والإعداد كما يدخل فيها الصوم والحج،فإذا كان المرء تاركا للإعداد الواجب أو الجهاد العيني فإنه لم يأت بالإيمان الواجب بل هو في دائرة الوعيد كالتارك للصيام بغير عذر سواء بسواء،ولا يمكن لمثل هذا أن يكمل إيمانه إلا بأداء عبادتي الجهاد والإعداد،هذا من حيث أصل المسألة وجهة تصورها.

أما إن كان المقصود بعدم مخاطبة ناقص الإيمان بالآيات المذكورة،أن الفاسق المرتكب للمحرمات كالزنا وشرب الخمر والسرقة ونحو ذلك لا نخاطبه بالجهاد ولا بالإعداد حتى يقلع عما هو فيه من الفسق والفجور فهذا ما لا دليل عليه من الكتاب ولا السنة،وليس لأحد من المسلمين أن يسقط التكاليف الشرعية والأوامر القرآنية عن أحد بدعاوى لا تعتمد على دليل واضح جلي،وإلا لأمكن لكل أحد أن يتفلت من تلك الأوامر بأي وسيلة شاء وتحت أية ذريعة أراد.

هذا والأدلة من الكتاب والسنة على بطلان هذا القول لا تكاد تحصى:

أولها:أن الأوامر التي جاءت تأمر بالجهاد والإعداد جاءت مطلقة لم تفرق بين مؤمن ومؤمن و لم تخص تقي عن شقي ولا عدل عن فاسق بل كل من صح أن يطلق عليه اسم الإيمان – هو شامل للمراتب الثلاثة المذكورة – فهو مخاطب بها كغيرها من الأوامر،فكما لا يجوز لأحد أن يقول إن قوله تعالى:(كتب عليْكم الصّيام)،خاص بكاملي الإيمان،فكذا لا يجوز له أن يقول إن قوله تعالى:(كتب عليْكم الْقتال) خاص بهم،وما يقال في تلك الآية يقابل بمثله في هذه،ومن ذلك قوله تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات:١٥]،وهذه الآية تنص على أن المؤمنين الذين كمل إيمانهم واستحقوا التزكية من الله تعالى هم الذين آمنوا به وبرسوله و لم يشكوا أو يرتابوا في وقت من الأوقات ثم جاهدوا في سبيل ذلك الإيمان بأموالهم وأنفسهم فهؤلاء هم الذين صدقوا في أنهم مؤمنون حقا،وهذا يبين أن المرء لا يمكن أن يكون مؤمنا حق الإيمان كاملا فيه حتى يجاهد بنفسه وماله.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية:إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الكُمَّل {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أَيْ:لَمْ يَشُكُّوا وَلَا تَزَلْزَلُوا،بَلْ ثَبَتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ،وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْمَحْضُ،{وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أَيْ:وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ،{أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أَيْ:فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا:"إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ"،لَا كَبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا الْكَلِمَةَ الظَّاهِرَةَ.[٥٣٢٨].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«الْمُؤْمِنُونَ فِي الدُّنْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،ثُمَّ الَّذِي يَأْمَنُهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ،ثُمَّ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى طَمَعٍ تَرَكَهُ»[٥٣٢٩]

ومن ذلك أن المرء يحتاج إلى أعمال صالحة تذهب عنه درن السيئات وران الموبقات،والجهاد من أعظم الأبواب التي ينال بها المسلم هذه المزية كما قال سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } [الصف:١٠ - ١٤]،فالآية نصت على أن الجهاد هو أحد الطاعات التي يغفر الله بها الذنوب ويكفر الخطايا،ولم تفصل نوع تلك السيئات فقد تكون من الكبائر أو من الصغائر.

فالفاسق الذي ابتلي بارتكاب المعاصي واقتراف الآثام أولى له أن يجتهد في أداء هذه العبادة،لمحو ما سيئاته وذنوبه،وينبغي أن يحض على القيام بها لا أن يمنع منها ويجعل بينه وبينها حواجز وموانع ما أنزل الله بها من سلطان.

[٥٣٢٨] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٣٩٠)

[٥٣٢٩] - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/ ٦٠٨)(٦٤٨) حسن

وفي هذا قال شيخ الإسلام رحمه الله:وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الذُّنُوبِ فَأَعْظَمُ دَوَائِهِ الْجِهَادُ؛فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}[5330]

وأما الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ:«هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»،فَلَمَّا حَضَرَ القِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ،فَقِيلَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،الَّذِي قُلْتَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ،فَإِنَّهُ قَدْ قَاتَلَ اليَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ،فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِلَى النَّارِ»،قَالَ:فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ،فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ،إِذْ قِيلَ:إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ،وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا،فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الجِرَاحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ،فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ،فَقَالَ:«اللَّهُ أَكْبَرُ،أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»،ثُمَّ أَمَرَ بِلاَلًا فَنَادَى بِالنَّاسِ:«إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ،وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»[5331]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ»[5332]

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ،عَنْ أَبِيهِ،قَالَ:أُتِيَ سَعْدٌ بِأَبِي مِحْجَنٍ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ وَقَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ،فَأَمَرَ بِهِ إِلَى الْقَيْدِ،قَالَ:وَكَانَ بِسَعْدٍ جِرَاحَةٌ،فَلَمْ يَخْرُجْ يَوْمَئِذٍ إِلَى النَّاسِ،قَالَ:وَصَعِدُوا بِهِ فَوْقَ الْعُذَيْبِ لِيَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ،قَالَ:وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ،فَلَمَّا الْتَقَى النَّاسُ،قَالَ أَبُو مِحْجَنٍ:

كَفَى حُزْنًا أَنْ تُرْدَى الْخَيْلُ بِالْقَنَا...وَأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا

فَقَالَ لابْنَةِ خَصَفَةَ،امْرَأَةِ سَعْدٍ:أَطْلِقِينِي وَلَكِ عَلَيَّ إِنْ سَلَّمَنِيَ اللَّهُ أَنْ أَرْجِعَ حَتَّى أَضَعَ رِجْلِي فِي الْقَيْدِ،وَإِنْ قُتِلْتُ اسْتَرَحْتُمْ،قَالَ:فَحَلَّتْهُ حِينَ الْتَقَى النَّاسُ.

[5330] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢١)

[5331] - صحيح البخاري (٤/ ٧٢)(٣٠٦٢) وصحيح مسلم (١/ ١٠٥)١٧٨ - (١١١)

[ش (شهدنا) حضرنا.(خيبر) أي فتحها.(يرتاب) يشك ويرتد عن دينه.(ليؤيد) ينصر ويحمي.(الفاجر) من الفجور وهو الانطلاق في المحرمات والمعاصي]

[5332] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٤٧)(٨٨٣٤) صحيح

قَالَ:فَوَثَبَ عَلَى فَرَسٍ لِسَعْدٍ يُقَالَ لَهَا:الْبَلْقَاءُ،قَالَ،ثُمَّ أَخَذَ رُمْحًا،ثُمَّ خَرَجَ،فَجَعَلَ لاَ يَحْمِلُ عَلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْعَدُوِّ إِلاَّ هَزَمَهُمْ،قَالَ:وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ:هَذَا مَلَكٌ،لِمَا يَرَوْنَهُ يَصْنَعُ،قَالَ:وَجَعَلَ سَعْدٌ يَقُولُ:الضَّبْرُ ضَبْرُ الْبَلْقَاءِ،وَالطَّعَنُ طَعَنُ أَبِي مِحْجَنٍ،وَأَبُو مِحْجَنٍ فِي الْقَيْدِ.

قَالَ،فَلَمَّا هُزِمَ الْعَدُوَّ،رَجَعَ أَبُو مِحْجَنٍ حَتَّى وَضَعَ رِجْلَيْهِ فِي الْقَيْدِ،فَأَخْبَرَتْ بِنْتُ خَصَفَةَ سَعْدًا بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ،قَالَ:فَقَالَ سَعْدٌ:وَاللهِ لاَ أَضْرِبُ الْيَوْمَ رَجُلاً أَبْلَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى يَدَيْهِ مَا أَبْلاَهُمْ،قَالَ:فَخَلَّى سَبِيلَهُ،قَالَ:فَقَالَ أَبُو مِحْجَنٍ:قَدْ كُنْتُ أَشْرَبُهَا حَيْثُ كَانَ يُقَامُ عَلَيَّ الْحَدُّ،فَأَطْهَرُ مِنْهَا،فَأَمَّا إِذْ بَهْرَجْتَنِي فَلاَ وَاللهِ لاَ أَشْرَبُهَا أَبَدًا.[٥٣٣٣]

فهذا الصحابي كان يشرب الخمر وما منعه ذلك من أن يجاهد في سبيل الله،بل كان إقدامه على الجهاد وبلائه في القتال سببا في إسقاط الحد عنه.

ولهذا كان اختيار بعض الفقهاء منهم ابن القيم أن من ارتكب موجبا للحد في الغزو ثم أتى من الأعمال الصالحة ما يدل على صدق توبته وما يربو على ذلك الذنب أن الحد يسقط عنه كلية سواء كان في دار الحرب أو رجع إلى دار الإسلام.

وفيه يقول ابن القيم رحمه الله:(وَأَكْثَرُ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ الْحَدِّ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ إِمَّا مِنْ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ أَوْ مِنْ خَوْفِ ارْتِدَادِهِ وَلُحُوقِهِ بِالْكُفَّارِ،وَتَأْخِيرُ الْحَدِّ لِعَارِضٍ أَمْرٌ وَرَدَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ،كَمَا يُؤَخَّرُ عَنْ الْحَامِلِ وَالْمُرْضِعِ وَعَنْ وَقْتِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَرَضِ؛فَهَذَا تَأْخِيرٌ لِمَصْلَحَةِ الْمَحْدُودِ؛فَتَأْخِيرُهُ لِمَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ أَوْلَى.فَإِنْ قِيلَ:فَمَا تَصْنَعُونَ بِقَوْلِ سَعْدٍ:" وَاَللَّهِ لَا أَضْرِبُ الْيَوْمَ رَجُلًا أَبْلَى لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَبْلَاهُمْ " فَأَسْقَطَ عَنْهُ الْحَدَّ؟ قِيلَ:قَدْ يَتَمَسَّكُ بِهَذَا مَنْ يَقُولُ:لَا حَدَّ عَلَى مُسْلِمٍ فِي دَارِ الْحَرْبِ " كَمَا يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ،وَلَا حُجَّةَ فِيهِ،وَالظَّاهِرُ أَنَّ سَعْدًا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – اتَّبَعَ فِي ذَلِكَ سُنَّةَ اللَّه تَعَالَى؛فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى تَأْثِيرَ أَبِي مِحْجَنٍ فِي الدِّينِ وَجِهَادِهِ وَبَذْلِهِ نَفْسَهُ لِلَّهِ مَا رَأَى دَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ؛لِأَنَّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ الْحَسَنَاتِ غَمَرَتْ هَذِهِ السَّيِّئَةَ الْوَاحِدَةَ وَجَعَلَتْهَا كَقَطْرَةٍ بِحَاسَّةٍ وَقَعَتْ فِي بَحْرٍ،وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ شَامَ مِنْهُ مَخَايِلَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَقْتَ الْقِتَالِ؛إذْ لَا يَظُنُّ مُسْلِمٌ إصْرَارَهُ

[٥٣٣٣] – مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة (١٨/ ٢٦٥)(٣٤٤٣٥) صحيح

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ مَظِنَّةُ الْقُدُومِ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَ،وَأَيْضًا فَإِنَّهُ بِتَسْلِيمِ نَفْسِهِ وَوَضْعِ رِجْلِهِ فِي الْقَيْدِ اخْتِيَارًا قَدْ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوهَبَ لَهُ حَدُّهُ كَمَا «قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ لَهُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْت حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ،فَقَالَ:هَلْ صَلَّيْت مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:اذْهَبْ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَك حَدَّك» وَظَهَرَتْ بَرَكَةُ هَذَا الْعَفْوِ وَالْإِسْقَاطِ فِي صِدْقِ تَوْبَتِهِ،فَقَالَ:وَاَللَّهِ لَا أَشْرَبُهَا أَبَدًا،وَفِي رِوَايَةِ «أَبَدَ الْأَبَدِ» وَفِي رِوَايَةِ «قَدْ كُنْت آنَفُ أَنْ أَتْرُكَهَا مِنْ أَجْلِ جَلَدَاتِكُمْ،فَأَمَّا إذْ تَرَكْتُمُونِي فَوَاَللَّهِ لَا أَشْرَبُهَا أَبَدًا» وَقَدْ بَرِئَ النَّبِيُّ – ﷺ – مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ بِبَنِي جَذِيمَةَ،وَقَالَ:«اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْك مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ بِهِ لِحُسْنِ بَلَائِهِ وَنَصْرِهِ لِلْإِسْلَامِ."[٥٣٣٤].

وإذا كان من اعتقاد أهل السنة أن الجهاد واجب وهو ماض إلى يوم القيام مع كل بر وفاجر لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر،وهؤلاء الذين يغزى معهم ويقصدهم العلماء هم القادة والأمراء،و لم يقل قائل ممن يعتد به إن فسقهم يمنعهم من القتال أو يحرم الغزو معهم والسمع والطاعة لهم في المعروف،فكيف إذا يمنع الفاسق الذي قد يكون جنديا مغمورا في الجيش من الجهاد والغزو بدعوى أن إيمانه لم يكتمل،وأن آيات الجهاد والإعداد لا تخاطبه وهو على تلك الحال من الفسق.

قال الإمام ابن حزم رحمه الله:فَمَنْ غَزَا مَعَ فَاسِقٍ فَلْيَقْتُلْ الْكُفَّارَ وَلْيُفْسِدْ زُرُوعَهُمْ وَدُورَهُمْ وَثِمَارَهُمْ،وَلْيَجْلِبْ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَلَا بُدَّ،فَإِنَّ إخْرَاجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إلَى نُورِ الْإِسْلَامِ فَرْضٌ يَعْصِي اللَّهَ مَنْ تَرَكَهُ قَادِرًا عَلَيْهِ،وَإِثْمُهُمْ عَلَى مَنْ غَلَّهُمْ،وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ أَقَلُّ مِنْ تَرْكِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَعَوْنِهِمْ عَلَى الْبَقَاءِ فِيهِ،وَلَا إثْمَ بَعْدَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ إثْمِ مَنْ نَهَى عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَأَمَرَ بِإِسْلَامِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ [إلَيْهِمْ] مِنْ أَجْلِ فِسْقِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ لَا يُحَاسَبُ غَيْرُهُ بِفِسْقِهِ؟[٥٣٣٥]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا أن آيات الجهاد يخاطب بها كل من كان من المؤمنين سواء كان برا أو فاجرا بل والمنافقون أيضا:وَأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا يَقُولُونَ:الْفُسَّاقُ

[٥٣٣٤] – إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٤)

[٥٣٣٥] – المحلى بالآثار (٥/ ٣٥٢)

يَخرُجُونَ مِنْ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ.وَإِنَّ مَعَهُمْ إيمَانًا يَخرُجُونَ بِهِ مِنْ النَّارِ.لَكِنْ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ اسْمُ الْإِيمَانِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الثَّوَابَ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ وَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي الْخِطَابِ بِالْإِيمَانِ لِأَنَّ الْخِطَابَ بِذَلِكَ هُوَ لِمَنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ وَإِنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهُ فَإِنَّهُ إنَّمَا خُوطِبَ لِيَفْعَلَ تَمَامَ الْإِيمَانِ فَكَيْفَ يَكُونُ قَدْ أَتَمَّهُ قَبْلَ الْخِطَابِ وَإِلَّا كُنَّا قَدْ تَبَيَّنَّا أَنَّ هَذَا الْمَأْمُورَ مِنْ الْإِيمَانِ قَبْلَ الْخِطَابِ؛وَإِنَّمَا صَارَ مِنْ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ أُمِرُوا بِهِ فَالْخِطَابُ بِـ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} غَيْرُ قَوْلِهِ:{إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} وَنَظَائِرِهَا فَإِنَّ الْخِطَابَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أَوَّلًا:يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ أَظْهَرَ الْإِيمَانَ وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا فِي الْبَاطِنِ يَدْخُلُ فِيهِ فِي الظَّاهِرِ فَكَيْفَ لَا يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُنَافِقًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا.وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا يُقَالُ فِيهِ:إنَّهُ مُسْلِمٌ وَمَعَهُ إيمَانٌ يَمْنَعُهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ.لَكِنْ هَلْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ؟ هَذَا هُوَ الَّذِي تَنَازَعُوا فِيهِ فَقِيلَ:يُقَالُ مُسْلِمٌ وَلَا يُقَالُ:مُؤْمِنٌ.وَقِيلَ:بَلْ يُقَالُ:مُؤْمِنٌ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنْ يُقَالَ:إنَّهُ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ وَلَا يُعْطَى اسْمَ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ نَفَيَا عَنْهُ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ؛وَاسْمُ الْإِيمَانِ يَتَنَاوَلُهُ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إيجَابٌ عَلَيْهِ وَتَحْرِيمٌ عَلَيْهِ وَهُوَ لَازِمٌ لَهُ كَمَا يَلْزَمُهُ غَيْرُهُ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي اسْمِ الْمَدْحِ الْمُطْلَقِ؛وَعَلَى هَذَا فَالْخِطَابُ بِالْإِيمَانِ يَدْخُلُ فِيهِ " ثَلَاثُ طَوَائِفَ ":يَدْخُلُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ حَقًّا وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمُنَافِقُ فِي أَحْكَامِهِ الظَّاهِرَةِ وَإِنْ كَانُوا فِي الْآخِرَةِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَنْفِي عَنْهُ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَفِي الظَّاهِرِ يَثْبُتُ لَهُ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ الظَّاهِرُ؛وَيَدْخُلُ فِيهِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَدْخُلْ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ؛لَكِنْ مَعَهُمْ جُزْءٌ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ يُثَابُونَ عَلَيْهِ.[٥٣٣٦]

ويكفي في الرد على هذا القول التمسك بأن أصل الخطاب في كل تكليف شرعي يعتبر شاملا لكل من دخل في الإسلام من ذكر أو أنثى،ولا يستثنى من ذلك أحد إلا بدليل شرعي يخرجه.

[٥٣٣٦] - مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٠)

أما التحكم المحض والأقاويل المجردة عن مستند معتبر فهذا مترلق خطير يمكن لكل من أراد أن يتنصل من التكاليف أن يميل إليه.

لاسيما إن علمنا أن الله سبحانه قد قرع المنافقين — الذين هم في الدرك الأسفل من النار — عند تخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وشدد عليهم في ذلك،وبين أن المانع الحقيقي من تجهزهم للغزو وتأهبهم للإعداد له هو عدم الرغبة وفساد النية فقال { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) } [التوبة].

فليكن المؤمن على بينة من هذا الأمر،وحذر من مآلاته وليتشبث بما كان عليه الأولون من الصحابة ومن تبعهم ولا يغتر بأقوال الرجال وإن عظموا ما لم تكن مبنية على حجج واضحة وبراهين جلية.[٥٣٣٧]

الشبهة الثالثة -بماذا نرد على من يشترط التربية قبل الجهاد؟

إن التربية والتي نفضل أن نطلق عليها اسم (التزكية) أو (الإعداد) تمشياً مع مذهب السلف في الالتزام بالمصطلحات الشرعية،هي امتثال أمر الله تعالى والسير على منهجه في كل لحظة من لحظات عمر الإنسان حتى يلاقي العبد ربه كما قال الله تعالى:{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر:٩٩]

واليقين:كما في قول المفسرين هو الموت

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِالدَّوَامِ عَلَى عِبَادَتِهِ تَعَالَى،وَبِالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهَا حَتَّى يَحِينَ أَجَلُهُ.[٥٣٣٨]

وقوله تعالى:«وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» معطوف على ما قبله وهو قوله تعالى:«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ»..أي اجعل هذا التسبيح،وذلك

٥٣٣٧ - uuh٠٠gvhttp://www.tawhed.ws/r?i=p

٥٣٣٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٩٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

السجود،عبادتك لله،حتى آخر نفس من أنفاسك فى هذه الحياة،حيث يأتيك اليقين،وهو وعد الله الذي يشهد عنده الإنسان مشاهد الحق،وعندها يستيقن ما كان يؤمن بــه،أو ينكره،أو يشك فيه،من لقاء ربّه،ومن الحساب والجزاء..فللإنسان عند لقاء الموت صحوة يطّلع منها على ماوراء هذه الدنيا،فإذا مات،رأى عالم الحقّ عيانا..[٥٣٣٩]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:«خَيْرُ مَا عَاشَ النَّاسُ لَهُ رَجُلٌ يُمْسِكُ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله،كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ فَالْتَمَسَ الْمَوْتَ فِي مَظَانِّهِ،أَوْ رَجُلٌ فِي شُعْبَةٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَابِ،أَوْ فِي بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ،فِي غُنَيْمَــةٍ لَــهُ،يُقِيمُ الصَّلَاةَ،وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ،وَيَعْبُدُ اللهَ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ،لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»[٥٣٤٠]

وعَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِ اللَّهِ عَــزَّ وَجَــلَّ:{وَاعْبُــدْ رَبَّــكَ حَتَّــى يَأْتِيَــكَ الْــيَقِينُ} [الحجر:٩٩]،قَالَ:«الْمَوْتُ»[٥٣٤١]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:حَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ،أَنَّ أُمَّ العَلاَءِ - امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِمْ - قَدْ بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ،أَخْبَرَتْهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ طَارَ لَهُ سَهْمُهُ فِي السُّكْنَى،حِينَ أَقْرَعَتْ الأَنْصَــارُ سُــكْنَى المُهَاجِرِينَ،قَالَــتْ أُمُّ العَــلاَءِ:فَسَــكَنَ عِنْــدَنَا عُثْمَــانُ بْــنُ مَظْعُونٍ،فَاشْتَكَى،فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى إِذَا تُوُفِّيَ وَجَعَلْنَاهُ فِي ثِيَابِهِ،دَخَلَ عَلَيْنَــا رَسُــولُ اللَّــهِ ﷺ،فَقُلْتُ:رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ،فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ،فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:«وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟»،فَقُلْتُ:لاَ أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّــهِ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللَّهِ اليَقِينُ،وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ،وَاللَّهِ مَــا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِهِ»،قَالَتْ:فَوَاللَّــهِ لاَ أُزَكِّــي أَحَــدًا بَعْــدَهُ أَبَــدًا،وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ،قَالَــتْ:فَنِمْتُ،فَأُرِيــتُ لِعُثْمَــانَ عَيْنًــا تَجْرِي،فَجِئْــتُ إِلَــى رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ،فَأَخْبَرْتُهُ،فَقَالَ:«ذَاكِ عَمَلُهُ»[٥٣٤٢]

[٥٣٣٩] - التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٢٦٥)

[٥٣٤٠] - السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ١٤٤)(١١٢١٣) صحيح

[٥٣٤١] - الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ٧)(١٩) حسن

[٥٣٤٢] - صحيح البخاري (٣/ ١٨١)(٢٦٨٧)

فالعبد في إعدادٍ لنفسه للقدوم على الله تعالى وتزكية لها حتى ينتهي به مشوار الحياة ويلاقي ربه عزّ وجلّ،وعلى هذا فالتزكية ليست رأياً أو اجتهاداً يحدد سير الدعوة إلى الله تعالى ويرسم الطريق لإقامة دين الله عزّ وجلّ فحسب،بل هي أمر واجب وسبيل لابد منه لنجاة العبد وفلاحه،وهي وفق فهم السلف الصالح نتيجة طبيعية وأمر حتمي لابد منه لمن سلك طريق الحق والتحق بقافلة الإسلام العظيمة،فلا قدوم على الله تعالى يرجى منه الفلاح إلا بتزكية العبد نفسه بالسير على منهج الله عزّ وجلّ كما اخبر سبحانه {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) } [الشمس]

التربية ليست مرحلة زمنية:

والتربية ليست فترة زمنية تسبق امتثال الأمر الرباني وتطبيق الحكم الشرعي،بل هي عين امتثال الأمر الرباني وتطبيق الحكم الشرعي،ولتوضيح هذه المسألة.

هبْ أن رجلاً وصله أمر الله عزّ وجلّ بإقامة الصلاة فصارت في حقه واجبة وهو بتركها آثم بل كافر في أصح قولي أهل العلم،فقال أنا مقر بهذا الأمر وأدعو إليه،وإن كان ممن أوتى جدلاً أو صاحب قلم سيال،فسيذكر فضائل الصلاة والترغيب فيها ومحاسنها ثم يعلل عدم أدائه إياها بعدم التربية حيث أنه عاكف على تربية نفسه وتأهيلها وتهيأتها للقيام بهذا الأمر فيطلب العلم في الصلاة وأركانها ويسعى جاهداً – على قوله – أن تتسع دائرة الراغبين في أدائها وينتظر الحصول على مساجد لأداء الصلاة فيها وغيرها من الأمور والأعذار التي قد يأتي بها.

والسؤال الذي لابد منه هل هذه هي التربية ... وهل هكذا تكون تزكية النفس ؟ وهل سلف الأمة الصالح رضي الله عنهم عرفوا مثل هذه التربية ؟

لاشك ولا ريب أن هذا الفهم للتربية فهم منحرف غاية الانحراف عن منهج خير القرون،وهو هوى وضلال لا يعرفه إلا متبع لهوى نفسه،أو امرئ لا يدرك حقيقة ما يقول وهو مجانب لمنهج الحق الذي ارتضاه الله عز وجل لخلقه المؤمنين اتباع نبيه محمد

[ش (أحزني ذلك) أي قوله صلى الله عليه وسلم إشفاقا أن يكون معذبا.(عينا) عين ماء.(ذلك عمله) أي فسر العين التي تجري بأنها عمله الصالح الذي كان يعمله وهو الرباط في سبيل الله تعالى وثوابه مستمر إلى يوم القيامة]

ﷺ،ولا شك أيضا أن سلف الأمة الصالح ما عرفوا هذا النوع من التربيـــة ولا اتخـــذوه منهجاً في سيرهم إلى الله تعالى،بل لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يسأل بعضهم بعضـــاً عن آخر ما نزل على رسول الله ﷺ ليتبعوه ويعملوا به على الفور حتى ســـخر منـــهم المنافقون واستهزؤا بقولهم كما حكى الله تعالى ذلك في قوله { وَإِذَا مَا أُنْزِلَـــتْ سُـــورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِـــرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـــافِرُونَ (١٢٥) } [التوبة:١٢٤ - ١٢٦]،وكان هذا ديدن صحابة رسول الله ﷺ،ينفذون أمـــر الله عز وجل على الفور ليزكوا أنفسهم ويطهروها بمنهج الله الرشيد.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،قَالَتْ:" يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَـــاءَ المُهَـــاجِرَاتِ الأُوَلَ،لَمَّـــا أَنْـــزَلَ اللَّهُ:{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور:٣١] شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَـــاخْتَمَرْنَ بِهَـــا"[٥٣٤٣]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،أَنَّهَا قَالَتْ:" يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ،لَمَّـــا أَنْـــزَلَ اللَّهُ:{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور:٣١]،شَـــقَقْنَ أَكْنَـــفَ - قَـــالَ ابْـــنُ صَالِحٍ:أَكْثَفَ - مُرُوطِهِنَّ،فَاخْتَمَرْنَ بِهَا "[٥٣٤٤]

وما فعلته الصحابيات الجليلات والصحابة جميعا إلا دليل على فهمهم الحق ومعرفتـــهم الصائبة لمعنى التزكية والتربية لأنفسهم واستجابة لقول الله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِـــرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِـــي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِـــبُّ الْمُحْسِـــنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَـــنْ يَغْفِـــرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ

[٥٣٤٣] - صحيح البخاري (٦/ ١٠٩)(٤٧٥٨) معلقا

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يسترن الرؤوس والأعناق والصدور.والخمر جمع خمار وهو غطاء الرأس.والجيوب جمع جيب وهو شق الثوب من ناحية الرأس والمراد ما يظهر منه الصدر / النور ٣١ /.(مرطوهن) جمع مرط وهو الإزار والإزار هو الملاءة.(الحواشي)من جهة أطرافها.(فاختمرن بها) غطين وجوههن بالمروط.

[٥٣٤٤] - سنن أبي داود (٤/ ٦١)(٤١٠٢) صحيح

رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)} [آل عمران:١٣٣ - ١٣٦]

وقوله تعالى { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الحديد:٢١].

فيسارعون في تنفيذ أمر الله تعالى ويسابقون في فعل الطاعات كفعل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إذ جاء أحدهما بماله كله وجاء الآخر بنصف ماله طاعة لله ورسوله ومبادرة لفعل الخيرات،فكانت غايتهم رضوان الله تعالى وهمهم وشغلهم توحيده وإقامة دينه في الأرض لذلك سادوا فسعدوا وجاهدوا فظفروا بإحدى الحسنيين ونصروا دين الله فنصرهم الله تعالى وأعلى مكانتهم.

التربية والجهاد:

وفي هذا الوقت وقد ارتفعت راية الجهاد – ولله الحمد – في كثير من بقاع الأرض وسرت شعلة الجهاد متوقدة في قلوب كثير من شباب الإسلام حتى أغاظت أعداء الله تعالى وأقلقتهم في مضاجعهم،بدأت تعلو أصوات تعيب على المجاهدين جهادهم في سبيل الله وإثخانهم في أعداء الله وتنادي إلى منهج مبتور مرقع أسس على غير منهج السلف،وتسلك طريقا ليست طريق الأولين،سمته البارزة التي يدعو إليها وركيزته التي يعتمد عليها هي ''دعوى التربية''.

وليت تلك الأصوات المنادية بضرورة التربية اتبعت الفهم السليم وسلكت الطريق المستقيم،إذا لكان الخطب يسيرًا وان وقع الخلاف بعدها في كيفية التطبيق ولكن لّما نأوا بأنفسهم وانفردوا بفهمهم،منعزلين في ذلك عن الاستقاء الصحيح والاستدلال الصريح من أي من الوحيين،كانت نتائجه ما نرى ونعاين وآثاره ما نشعر ونعاني،وغدا في الحقيقة منهجاً للتبرير لا مسلكاً للتغيير،شعر أهله أو لم يشعروا،ولكنها الحقيقة التي لا تجحد أو ترد.

وإلا فبأي كتاب أم بأية سنة احتج هؤلاء لما يقولون؟ وكيف تعطل النصوص؟ وتــأخر الأوامر بحجة أن النفوس ليست قابلة لتطبيقها لما في القلوب من درن وما عليهــا مــن حوب وذنوب؟ وهل ثمة حجة أقبح أوأسهل في التنصل من أوامر الله وإســقاطها مــن هذه؟ وهل ألفى طغاة العصر وعتاة الدهر سلاحا أنكى في صدور أعدائهم مــن هــذا؟ وهل كل ما استحسنته عقولنا أو رضيته نفوسنا؟ نقبنا له بتكلف وتعسف مــا يــبرره لنجعله حجة في دين الله تعالى،ندفع بها في وجوه الآخرين،أهذا هو منهج السلف الــذي ندعو إليه ونوالي ونعادي عليه؟

والجهاد كما نعلم عبادة أمر الله تعالى عباده بأدائها وجعلها باقية إلى قيام الســاعة عَــنْ عَلِيٍّ وجَابِرٍ،قَالَا:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى ثَلَاثَةٍ:أَهْلُ لَــا إِلَــهَ إِلَّــا اللَّــهُ،لَا تُكَفِّرُوهُمْ بِذَنْبٍ،وَلَا تَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ بِشِرْكٍ،وَمَعْرِفَةُ الْمَقَــادِيرِ خَيْرُهَــا وَشَــرُّهَا مِــنَ اللَّهِ،وَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،مُذْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَــى آخِــرِ عِصَــابَةٍ مِــنَ الْمُسْلِمِينَ،لَا يَنْقُضُ ذَلِكَ جَوْرُ جَائِرٍ،وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ»[٥٣٤٥]

وقد تجلى لنا من قبل المفهوم الحقيقي والتصور الصحيح للتربية وفقا لــدلائل الآيــات والأحاديث والفهم المستقيم من أئمة الإسلام ونوابغه الأعلام.

وعليه فإن عبادة الجهاد هي أفضل ما يزكي العبد به نفسه وينقيها من درنها ورانها بعــد الإيمان بالله تعالى كما قال سبحانه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِــنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)} [الصف:١٠ – ١٣]

وكما ورد عن النبي ﷺ في الاحاديث الصحيحة أن الجهاد لاتعدله عبــادة وأنــه ذروة سنام الإسلام،فبه تغفر الذنوب،وإلى قمته السامقة ترتقي النفوس الزكية،فتزداد يقينا إلى يقينها وشفافية إلى شفافيتها فتظهر النفس في أحسن أحوالها،وأعلى درجاتها.

[٥٣٤٥] – المعجم الأوسط (٥/ ٩٦)(٤٧٧٥) صحيح لغيره

وحتى وإن قصد بالتربية الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله تعالى – وهـذا داخـل في مفهوم التربية وليس كل التربية – فإن الجهاد أفضل من يحقق هذا في العبد،فالمجاهد يتوقع في كل لحظة أن تغادر روحه جسده ويلقى ربه عز وجل بل هو يتوق إلى ذلك لعلمه بما أعد الله تعالى للشهداء في سبيله،ومن كانت هذه حاله فلا تسأل عن زهـده في الـدنيا وتعلقه بالدار الآخرة.

ثم لنفترض أن التربية التي ينادي بها البعض هي بالمفهوم الحق وهو الإعداد بشقيه المـادي والمعنوي،فإن هذا الإعداد مضبوط بأحكام الشرع وفق فهم بصير بالواقع،لذلك فإن هذا الإعداد إذا رجع على أصله (وهو الجهاد) بالنقض والإبطال فهـو مـن هـذه الجهـة باطل،فكل (تكملة من حيث هي تكملة إذا رجعت علـى أصـلها بالإبطـال فهـي باطلة)،وهذا كرجل يستعد للصلاة بالوضوء والسواك وقد أقيمت الصلاة وهو لا يـزال يتسوك بحجة الاستعداد للصلاة.

وقد جعل الله سبحانه الإعداد الحق فارقاً وفيصلاً بين الإيمان والنفاق فالمنافقون في عهد النبي ﷺ زعموا أنهم يريدون الخروج مـع الـنبي ﷺ للغـزو والجهـاد في سـبيل الله تعالى،فكذّبهم الله تعالى وفضح حقيقة أمرهم وجعل الإعداد للجهاد والخروج مع الـنبي ﷺ علامة على صدق الرجل من كذبه كما قال عز وجل { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّـهُ انْبِعَـاثَهُمْ فَثَـبَّطَهُمْ وَقِيـلَ اقْعُـدُوا مَـعَ الْقَاعِـدِينَ } [التوبة:٤٦]،والإعداد لأي أمر يكون بالشيء الذي يتعلق به ويتوقف عليه،فأين هذا ممن ينكر على تعلم آلة الجهاد وتعويد النفس على المشاق،وتنظيم الصفوف وتحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى؟

ومما زاد الأمر سوءًا وبعداً عن المفهوم الصحيح للإعداد والتزكية أن هذا الإعداد أصـبح حجة كل قاعد ودليل كل مثبط،وصار مرحلة زمنية مفتوحـة لا تحـدها حـدود ولا تضبطها ضوابط.

ولابد هنا من الإشارة إلى أمر مهم وهو أن دين الله مبرّؤٌ عن التناقض،وكتابه سبحانه هو الحق الذي يصدق بعضه بعضاً وقد جعل الله عزّ وجلّ التناقض والاختلاف أمـراً ثابتـاً

وحقيقة مستقرة لما سوى كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد فقال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء:٨٢].

ومن التناقض والاختلاف أنك تسمع من يتحدث عن بعد الناس عن الإسلام وغربة الإسلام بين أهله ويدعو إلى تربية طويلة الأمد حتى نصبح أهلا لتطبيق حكم الله تعالى ومهيئين له ويرفع شعار (**أقم دولة الإسلام في قلبك تقم على أرضك**) وتفهم من كلامه أنه لابد من إقامة حكم الله تعالى وإعادة دولة الإسلام على الأرض مما يعني فقدانها وغيابها عن واقعنا،ثم تسمع كلاماً يسبغ من خلاله الشرعية على الواقع،بل ويدعو إلى التزامه ومبايعة أهل الحكم في هذا الزمان وأن دولة الإسلام قائمة،والتوحيد مصون جنابه ومرفوعة رايته،حتى إذا قال قائل:فرحاً بما سمع إذا فلترفع رايات الجهاد وتنطلق جيوش الفتح تعيد سنة الأولين،نكص على عقبيه وأعلن أننا في العهد المكي فلا جهاد ولا قتال !! وحتى وإن كان هناك جهاد وقتال فأين الأمير المسلم والإمام العدل الذي تجاهد معه وتقاتل من ورائه؟

ولا يملك من آتاه الله تعالى فهماً لدينه وهداه للحق الذي أنزله على رسوله صلى عليه وسلم إلا أن يردد قول الله تعالى:{ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } [محمد:٢١]

إن الإعداد الحق للقاء الله تعالى هو بتنفيذ أوامره والتسليم له في كل شيء،وكيف يكون من يقيم على معصية ترك الجهاد المتعين بل يصدُّ عن الجهاد والإعداد،بل أكثر من ذلك يحارب الداعين إليه والحاملين أعباءه،كيف يكون مزكياً لنفسه معداً لها للقاء مولاها {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)} [الشعراء:٨٨،٨٩]

الشبهة الرابعة - بين دعاة التربية ودعاة الإرجاء

كثر الحديث عن التربية وعن الإعداد الإيماني كمرحلة تسبق الجهاد،حتى صارت هـذه التربية شرطا جديدا من شروط الجهاد وركنا من أركانه التي لم يسبق إليه فقهاء الأمة مع طول شروحهم وغزارة كتاباتهم!

ولما كنا في ظرف عصيب صارت فيه الأمة في أشد الحاجة إلى إقامة هذه الشعيرة حق الإقامة،لدفع من تكالب عليها من أعداء هذا الدين،من الكفار والطواغيت المرتدين وأذنابهم،محاولة منهم لطمس معالمه وتمييعه عند أهله،لتصبح خيراتهم لقمة سائغة لأعدائهم،أردت أن نقف على حقيقة هذا المذهب ونبين بطلانه وفساد ما عليه أصحابه،فنقول وبالله التوفيق:

من تدبر هذا الفهم السقيم للتربية يلاحظ،مع مصادمته للنصوص الصريحة الدالة على عدم تأخير واجب الجهاد إلا لأعذار محدودة،تطابقا بينه وبين عقيدة الإرجاء التي تجعل الإيمان عقيدة قلبية لا ترتبط بالعمل،فالتربية الإيمانية عند أصحابها مسائل باطنية وعقائد خبرية يتعلمها المسلم قبل العمل وبالتحديد قبل الجهاد!

أو هي شعب عملية لا تعلق لها بالجهاد ولا بإعداد العدة للقيام به!

أما عند أهل السنة فالجهاد شعبة من شعب الإيمان والتربية والمتخلف عن الجهاد ناقص الإيمان على مذهبهم وإن كان من أصحاب الأعذار لحديث نقصان العقل والدين،كما هو ناقص التربية خاصة إذا كان مفرطا في القيام بهذا الفرض الذي صار عينيا على كل مسلم.

ولسائل أن يسأل لماذا خصوا الجهاد بهذا الشرط دون غيره من الشرائع العملية كالصلاة والزكاة والصيام والحج؟

فالناظر إلى حال الكثير من حجاج المسلمين اليوم يرى أسوأ مظاهر سوء الخلق والجهل بأحكام الدين وشرائعه بل وحتى بأصول التوحيد...

فهل يقول عاقل لهؤلاء:لا تحجوا حتى تتربوا!

قطعا الجواب:لا!

وقل مثل ذلك في صلاة الجماعة وغيرها من شرائع الإسلام العملية الفردية والجماعية والتي لا تكاد تخلو من مثل هذه المظاهر فعلام تخصيص الجهاد دون غيره؟

وبأي دليل؟

ومن جهة أخرى فقد دلت سنة المصطفى ﷺ أنه كان يخرج معه للجهاد من هم حديثو عهد بالإسلام لم يستوعبوا التوحيد بعد،كما حدث في غزوة حنين لما طلب منه مسلمو الفتح أن يجعل لهم ذات أنواط كما للمشركين!

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،أَنَّ سِنَانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ الدُّؤَلِيَّ،وَهُمْ حُلَفَاءُ بَنِي الدِّيلِ أَخْبَرَهُ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ،يَقُولُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ،حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى سِدْرَةِ الْكُفَّارِ،سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ حَوْلَهَا وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ،قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ،اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اللَّهُ أَكْبَرُ،إِنَّهَا السُّنَنُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ،قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف:١٣٨]،ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:إِنَّكُمْ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ »[٥٣٤٦]

فهل قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ارجعوا ولا تجاهدوا حتى تتعلموا التوحيد،مع أنه من أوجب الواجبات؟

قطعا؛لا! إنما اكتفى عليه الصلاة والسلام بزجرهم وتعليمهم أن طلبهم هذا مناف للتوحيد الذي بعث به.و لم يمنعهم هذا من متابعة المسير للقتال.

ومثل ذلك فعل مع الرجل الذي سأله عن الإسلام أو القتال،فدله عليه الصلاة والسلام على الإسلام الذي تقبل به الأعمال،ثم أمره بالقتال لأنه تعين في حقه لالتقاء الجمعان،فاستشهد و لم يسجد لله سجدة،وأجر كثيرا على قتاله،عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:سَمِعْتُ البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،يَقُولُ:أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ

[٥٣٤٦] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٩٤)(٦٧٠٢) صحيح

بالحَدِيدِ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قَالَ:«أَسْلِمْ،ثُمَّ قَاتِلْ»،فَأَسْلَمَ،ثُمَّ قَاتَلَ،فَقُتِلَ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[٥٣٤٧].

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»[٥٣٤٨]...

وأخبار السلف في جهاد العصاة وحسن البلاء فيه مما يصعب حصره،حتى أنهم جعلوا من عقائدهم أن الجهاد ماض مع البر والفاجر إلى قيام الساعة.

فالجهاد به حفظ الدين وهو ضروري لارتفاع كلمة التوحيد..أما كونه عادلاً فهو حاجي،فيقدم الجهاد مع البر والفاجر لكونه ضرورياً على ما كان مع العادل فقط لكون هذا الوصف في الإمام حاجي.[٥٣٤٩]

فالتربية الصحيحة على هذا الدين تكون بالعمل بأحكامه وشرائعه والامتثال لأوامر الرحمن سبحانه،وبالسير على هدي نبيه،مع وجوب تعلم ما تصح به هذه الأعمال من أحكام عملية أو اعتقادية،فالمسلم يتربى بالجهاد وبالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة وحلقات الدروس وغير ذلك من أعمال البر التي تزكي الأنفس وتربيها على المعالي.وهو في تربية كلما حافظ على ذلك واجتهد فيه.

وتنقص تربيته كلما قصر وفرط في ما كلفه الله به،فكيف إذا كان الأمر متعلقا بذروة سنام الدين؟

وساحات الجهاد قد جمعت من صنوف التربية وشعب الإيمان ما لا يحصيه إلا الله،لهذا ترى المجاهدين على مر الأزمان من أحسن الناس أخلاقا وأعلاهم تربية وتمسكا بهذا الدين،كيف لا وقد تكفل الله سبحانه بهدايتهم سبله لجهادهم بأنفسهم وأموالهم في سبيله ولإعلاء كلمته،مع ما وعدهم من الفوز والنجاة في الآخرة.

[٥٣٤٧] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠)(٢٨٠٨)

[ش (رجل) هو الأصرم عمرو بن ثابت الأشهلي رضي الله عنه.(مقنع) وجهه مغطى]

[٥٣٤٨] - السنن الكبرى للنسائي (٨/ ١٤٦)(٨٨٣٢) صحيح

[٥٣٤٩] - الموسوعة العقدية - الدرر السنية (٨/ ١٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

ثم إن المقصر لا يكافأ على تقصيره بإسقاط التكاليف عنه! إنما يـدعى لجـبر تقصـيره وللاجتهاد في بقية وجوه الطاعة.فأي حرمان هذا الذي يحرم به المقصرون مـن تكفـير السيئات ورفع الدرجات عند الله عند تخلفهم عن الجهاد في سبيله؟

فمن غرائب هذا الزمان أن تصنف الصحوة اليوم إلى صنفين:صنف جهـادي وصـنف تربوي كأهما مذهبان مختلفان لا يجتمعان ولا يلتقيان أو كأن التربية تدرك بغير جهاد!!! فالحال أنها شبهات يلقيها الشيطان على القاعدين ليزين لهم بها قعـودهم عـن الجهـاد بالنفس والمال وليثبطهم عن نصرة إخوانهم القائمين بهذه الشعيرة العظيمة التي هي مقياس حياة هذه الأمة ومقياس تمسكها بهدي ربها وسنة نبيها،فكيف إذا أضاف هؤلاء القعـدة المعطلة على قعودهم ذم المجاهدين وتنقصهم والتعريض بتربيتـهم الإيمانيـة،على قـول المثل:"رمتني بدائها وانسلت".[٥٣٥٠]

الشبهة الخامسة - "أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم"

الصّوفيّة في تاريخها مع المسلمين بنت نفسها على بعض الأركان المنحرفة مـن العقائـد الزّائغة التي انتسبت للإسلام زوراً وبهتاناً،وأهمّ هذه الأركان المنحرفـة الّـتي اسـتغلّتها الصّوفية هي عقيدة الإرجاء،وهي مناقضة لتوحيد الشّرع،وعقيدة الجبر وهـي مناقضـة لتوحيد القدر،وخلاصة عقيدة الإرجاء المنحرفة أنّها تقدّم إسلاماً بـلا تكاليف،وتجعـل مناط التّكليف الإيمانيّ هو تصوّر القلب واعتقاده،وأمّا أعمال الجوارح فليست إلا مظهراً لا قيمة له في عالم الحقائق،فهي عقيدة تدفع صاحبها دوماً إلى الانتكاسة نحـو الـدّاخل (القلب) دون الاهتمام بحركة الجوارح،ولمّا كان لابد من أن تقدّم هذه العقيدة تفسـيراً لحركة الحياة وما نراه من الارتباط السنني الظاهر فإنها لجأت إلى عقيدة الجبر،وهي تفسير حركة الحياة تفسيرا غيبيّاً خرافيّاً لا وجود له في الحقيقة،وتجعل وقوع الأقدار مربوطـاً بالباطل الإرجائي،ولا قيمة للظاهر من أعمال الجوارح،وقد علم المسلم المبتدئ أن حركة

[٥٣٥٠] http://tawhed.ws/r?i=bd-qgr٤٨٣

القلوب ليست هي المؤثّر في حركة الحياة،بل المؤثّر هي حركة الجوارح،مع علمه الأكيد أن حركة الجوارح لا تقع إلا بحركة القلب (إرادات الباطن)،وحين نفسّر هذه الكلمات عن طريق المثال فإنّنا نقول:

إذا أراد الإنسان – أيّ إنسان – أن يبني بيتاً،فإن البيت لا يبنى إلاّ بحركة الجوارح،بكلّ ما يطلب هذا البيت من أركان وشروط وتحسينات،مع أن هذا الإنسان لا يمكن أن يبني البيت إلا إذا أراد ذلك،والإرادة هي حركة القلب،لكن لا يصح أن يقول قائل:إن الّذي يبني البيت هي الإرادة،بل الصّحيح أن الإرادة هي التي تنشئ العمل،الذي هو حركة الجوارح وبالعمل يبنى البيت،وكلّها من حركة الإنسان:من إرادة قلبية وعمل الجوارح،فالإنسان يريدها في قلبه،ويعملها بجوارحه،وليس هو فقط مكلّف بإرادة القلب ليقوم غيره بعمل الجوارح.

ولنعد الآن إلى العبارة المصيبة:أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم.

هذا الشّقّ من العبارة يبيّن لنا أن المكلّف بإقامة دولة الإسلام هو القلب (انتكاسة نحو الداخل)،مع أن الواجب أن نقيم دولة الإسلام بجوارحنا،أي عن طريق حركة الجوارح الّتي تؤثّر في حركة الحياة،أي أن نقيمها في الخارج،وكان لنا أن نحسن الظنّ بهذه العبارة البدعيّة الضّالّة،لو لم يأت الشّقّ الثّاني جازماً لنا أن لا نحمل معناها إلا على هذا المعنى البدعيّ الضّال،فلو قال القائل:أقيموا الدولة في قلوبكم (بإرادتكم الجازمة) لتقيموها (بجوارحكم العاملة) في أرضكم،لقلنا له صدقت،ولما عدت أن تكون هذه الكلمة مفسّرة لحركة الحياة القدرية،ولن تكون بحال من الأحوال شعاراً لمنهج شرعه صاحبه لينصح به أتباعه بسلوكه واتّباعه.

لكن الشق الثاني حدد لنا المراد بما تقدم من الفهم المنحرف،لأنّه قال:تقم على أرضكم.ولو سألناه من سيقيمها لنا على الأرض؟ فلن يكون الجواب أبداً نحن،لأننا نحن مكلّفون فقط بأن نّقيمها في قلوبنا،بل الجواب المجزوم بقوله هو:الله.وهذا الجواب مع ضلاله الشّرعي ومخالفته لأمر الله،إلا أنه للأسف يستهوي بعض النّاس حين يظنّ أن في ذلك تعظيما لشأن الله تعالى،وما دروا أنّه استخفاف بتوحيد الله سبحانه وتعالى،وهو

جواب جبريّ يناقض توحيد القدر وأوصل إليها كما تقدّم:الضلال في توحيد الشّـــرع حين جعل أن حركة الجوارح ليست هي المطلوبة في الشّريعة.بل المكلّف بـــذلك هـــو القلب وهو قول مذهب أهل الإرجاء الضّال..فالعبارة كما هي عند أصـــحابها:أقيمـــوا دولة الإسلام في قلوبكم (إرجاء بدعي) تقم لكم على أرضكم (جبر بدعيّ).

والآن أين هذا من دين الصّوفية؟.

شعار الصّوفية الذي يسعى الصّوفي الملتزم لتحقيقه،هو خروجه من إنسانيته،بتحرره مـــن الإرادة،ومن أهم الشّعارات لديهم:أريد أن لا أريد..وعامّة مجاهداتهم الباطلة تســـعى إلى هذا المقام،وهو تحرره من الطّباع الإنسيّة،وهي الّتي يحلو لهم،ولبعض من تـــأثّر بهـــم أن يسمّيها بالبهيمية:ومن أمثلتها:حبّ النّساء،شـــهوة التّملّـــك والاقتناء،حاجـــة المأكـــل والمشرب والملبس،فطرة الاجتماع والمدنيّة والعمران،وهي أمور بشرية فطرية لا يمكـــن للإنسان أن ينخلع منها،ولا أن تذهب عنه،لكن سعي الصوفيّ الدائم إلى التّحـــرر منـــها أوصله إلى الجنون،وهو الّذي لاحظه الإمام الشّافعي قديماً فيهم حين قـــال: لم يتصـــوّف رجل عاقل قط وأتت عليه صلاة العصر إلاّ وهو مجنون،فالصّوفي يسعى إلى تحرره مـــن الإرادة البشرية فيه،ولما دخلت الصّوفية إلى الإسلام فإنها حاولت أن تجـــد لهـــا الـــدّليل الإسلامي لبدعتها هذه،لتستخدمه في نشر فكرها وشعارها،فكان مذهب الجبر هو خـــير معين على ذلك،وخاصة حين صار الجبريّة،وهم الأشاعرة،هم أئمّة المسلمين في عصـــور التّخلّف والانحطاط،والأشاعرة يقولون بمذهب الكسب،وهو يعني احترام وجـــود إرادة قلبية للإنسان لكنه لا تأثير لها ولا قيمة لوجودها،أي إرادة غير مؤثّرة.

وإن شاء الله يكون في المقال القادم تفسير يوضّح أن دعاة التّصفية والتّربية،هم صـــوفية المنهج والطّريقة،بما لا يدع مجالاً للشّك عند الأخ المسلم المجاهد.

وللطّرافة فإن هذا السّلفيّ الصّوفي وهو الذي قلنا عنه في مقالات سابقة أنه سلفي مزعوم يلتقي مع الصّوفي في نقاط عمل كثيرة تجمع بين منهجيهما،ومن هذه النّقاط:

١ – الصّوفيّ شعاره:السّياسة تياسة (نسبة للتّيس وهو لفظ يطلق للدّلالة على الغباء)،والسّلفي المزعوم شعاره:من السّياسة ترك السّياسة (قالها السّلفي في بعض أشرطته)،فكلاهما يحرّم السّياسة على أتباعه،ويجعلها رجسا من عمل الشّيطان فاجتنبوه.

٢ – الصّوفيّ شعاره:كلامنا إمّا فوق السّماء،وإما تحت الأرض،ويعني بها أنّ حديث الصوفي لا ينبغي أن يكون إلاّ في أمور الغيب (فوق السّماء:كالملائكة والعرش) وتحت الأرض (القبور والأموات)،وهو يدل على أنّه لا ينبغي للصّوفي أن يتحدّث في شئون الأحياء لأنّها تشتّت الهمّة،وتفرّق القلب،وتحبّب في الحياة الدّنيا،والسّلفي المزعوم شعاره ودينه محاربة الأموات من أصحاب القبور،وأتباع البدع المنسيّة الغائبة.

٣ – شعار السّلفي المزعوم المعاصر:دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله (قالها محمد أبو شقرة،وهو سلفي مزعوم في كتابه ''هي السّلفية'')،والصوفي هو الّذي نشر في أمّتنا مقولة:قيصر هو ظلّ الله في الأرض،من أهان سلطان الله أهانه الله.

الشبهة السادسة – شبهة خطيرة للشيخ الألباني بأن الطريق من الخلاص من الحكام المرتدين هو الصبر والتربية

ورد في كتاب «شرح العقيدة الطحاوية»،ورد في المتن:''ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا،ولا ندعوا عليهم،ولا ننزع يدا من طاعتهم''.اهـ.

قال الشيخ الألباني في الهامش:قد ذكر الشارح في ذلك أحاديث كثيرة تراها مخرجة في كتابه ثم قال:" وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات فإن الله ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل.قال تعالى:(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) [الشورى:٣٠] (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) [الأنعام:١٢٩] فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم

قلت:وفي هذا بيان لطريق الخلاص من ظلم الحكام الذين هم " من جلدتنا ويتكلمــون بألسنتنا " وهو أن يتوب المسلمون إلى ربهم ويصححوا عقيدهم ويربوا أنفسهم وأهليهم على الإسلام الصحيح تحقيقا لقوله تعالى:(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد:١١] وإلى ذلك أشار أحد الدعاة المعاصرين (اا) بقولــه:" أقيمــوا دولــة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم ".وليس طريق الخلاص ما يتوهم بعض الناس وهو الثورة بالسلاح على الحكام.بواسطة الانقلابات العسكرية فإنها مع كونها من بدع العصر الحاضر فهي مخالفة لنصوص الشريعة التي منها الأمر بتغيير ما بالأنفس وكــذلك فلا بد من إصلاح القاعدة لتأسيس البناء عليها (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقــوي عزيز) [الحج:٤٠][٥٣٥١].

قلت:وهذا التعليق من الشيخ الألباني فيه مغالطات خطيرة وتلبيس شديد ولا يليق بالشيخ ولا بمن هو دونه في العلم بكثير.وبيان ذلك كما يلي:

١ – جهاد الحكام المرتدين الذين يحكمون بلدان المسلمين بغير شريعة الإســلام،وهناك فتاوى أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ في تكفــير هــؤلاء الحكام،ومما قاله الشيخ أحمد شاكر:"أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلدهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة؟ – إلى قولــه – إن الأمــر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشــمس،هي كفــر بــواح لا خفــاء فيــه ولا مداورة"[٥٣٥٢].

ومما قاله الشيخ محمد حامد الفقي:"ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبين له من كتــاب الله وسنة رسوله ﷺ،فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنــزل الله،ولا ينفعه أي اسم تسمى به،ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحــج ونحوها"[٥٣٥٣].

[٥٣٥١] – تخريج الطحاوية (ص:٦٩)

[٥٣٥٢] – عمدة التفسير لأحمد شاكر:١٧٣/٤-١٧٤.

[٥٣٥٣] – كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد:هامش ص٣٩٦ ط:أنصار السنة.

ومما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ:"إن الحكم بغير ما أنــزل الله يكون كفــرا أكبر في أحوال،الخامس منها يصف حال كثير من بلاد المسلمين الآن وصفا دقيقا – قال – فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب،والنــاس إليها أسراب إثر أسراب،يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرّهم عليه وتحتّمه عليهم.فأي كفر فوق هــذا الكفــر،وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة"[٥٣٥٤].

ويكفيك في هذا يا أخي المسلم أن تعلم أن الحادث في هذه البلاد وهو تنحية حكــم الله تعالى واختراع تشريع مخالف للحكم به بين الناس – هو نفس صورة سبب نــزول قوله تعالى:(ومنْ لمْ يحْكمْ بما أنْزل اللّه فأولئك هم الْكافرون)

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،وَعِنْدَ سَعِيدٍ رَجُلٌ يُوَقِّرُهُ،فَإِذَا هُــوَ رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ كَانَ أَبُوهُ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:قَــالَ أَبُــو هُرَيْرَةَ:كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ح،وَحَدَّثَنِي الْمُثَنَّى،قَالَ:ثنا أَبُو صَــالِحٍ كَاتِــبُ اللَّيْثِ قَالَ:ثني اللَّيْثُ،قَالَ:ثني عَقِيلٌ،عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،قَالَ:أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ مِمَّــنْ يَتْبَعُ الْعِلْمَ وَيَعِيهِ،حَدَّثَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ،أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ:بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ،وَكَانُوا قَدْ أَشَارُوا فِي صَــاحِبٍ لَهُــمْ زَنَــى بَعْــدَ مَــا أُحْصِنَ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ قَدْ بُعِثَ،وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الرَّجْمُ فِي التَّوْرَاةِ فَكَتَمْتُمُوهُ وَاصْطَلَحْتُمْ بَيْنَكُمْ عَلَى عُقُوبَةٍ دُونَهُ،فَانْطَلِقُوا فَنَسْأَلَ هَذَا النَّبِيَّ،فَإِنْ أَفْتَانَا بِمَا فُرِضَ عَلَيْنَا فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الرَّجْمِ تَرَكْنَا ذَلِكَ،فَقَدْ تَرَكْنَا ذَلِكَ فِي التَّوْرَاةِ فَهِــيَ أَحَقُّ أَنْ تُطَاعَ وَتُصَدَّقَ.فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا:يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّهُ زَنَى صَاحِبٌ لَنَا قَــدْ أُحْصِنَ،فَمَا تَرَى عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّــى قَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ،فَانْطَلَقَ يَؤُمُّ مِدْرَاسَ الْيَهُودِ حَتَّى أَتَاهُمْ،فَوَجَدَهُمْ يَتَدَارَسُونَ التَّوْرَاةَ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ،فَقَالَ لَهُمْ:«يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ،أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى مَــاذَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَدْ أُحْصِنَ؟» قَالُوا:إِنَّــا نَجِــدُهُ يُحَمَّــمُ

[٥٣٥٤] – من رسالة تحكيم القوانين.

وَيُجْلَدُ.وَسَكَتَ حَبْرُهُمْ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ.فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَمْتَهُ أَلَظَّ بِهِ النِّشْدَةَ،فَقَالَ حَبْرُهُمْ:اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدَتَنَا فَإِنَّا نَجِدُ عَلَيْهِمُ الرَّجْمَ.فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَمَاذَا كَانَ أَوَّلَ مَا تَرَخَّصْتُمْ بِهِ أَمْرَ اللَّهِ؟» قَالَ:زَنَى ابْنُ عَمٍّ مَلِكٍ فَلَمْ يَرْجُمْهُ،ثُمَّ زَنَى رَجُلٌ آخَرُ فِي أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ،فَأَرَادَ ذَلِكَ الْمَلِكُ رَجْمَهُ،فَقَامَ دُونَهُ قَوْمُهُ،فَقَالُوا:وَاللَّهِ لَا تَرْجُمُهُ حَتَّى تَرْجُمَ فُلَانًا ابْنَ عَمِّ الْمَلِكِ.فَاصْطَلَحُوا بَيْنَهُمْ عُقُوبَةً دُونَ الرَّجْمِ،وَتَرَكُوا الرَّجْمَ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«فَإِنِّي أَقْضِي بِمَا فِي التَّوْرَاةِ».فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [المائدة:٤١] إِلَى قَوْلِهِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]"[٥٣٥٥]

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،قَالَ:سَأَلَ رَجُلٌ حُذَيْفَةَ،عَنْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]،{فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة:٢٢٩]،{فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:٨٢] قَالَ:" فَقِيلَ:ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ:نِعْمَ الْإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ،إِنْ كَانَتْ لَهُمْ كُلُّ مُرَّةٍ،وَلَكُمْ كُلُّ حُلْوَةٍ،كَلَّا وَاللَّهِ لَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَهُمْ قَدْرَ الشِّرَاكِ "[٥٣٥٦]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،قَالَ:مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمٍ مَجْلُودٍ،فَدَعَاهُمْ فَقَالَ:«هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ مَنْ زَنَى؟» قَالُوا:نَعَمْ.فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ،فَقَالَ:«أَنْشُدُكَ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى،هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قَالَ:لَا،وَلَوْلَا أَنَّكَ أَنْشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ،نَجِدُ حَدَّهُ فِي كِتَابِنَا الرَّجْمَ،وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا،فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الْوَضِيعَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ،فَقُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ جَمِيعًا عَلَى التَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ مَكَانَ الرَّجْمِ.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ» فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [المائدة:٤١] إِلَى قَوْلِهِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}

[٥٣٥٥] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤١٨) صحيح

[٥٣٥٦] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤٥٩) صحيح لغيره

[المائدة:٤٤] يَعْنِي الْيَهُودَ {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة:٢٢٩] يَعْنِي الْيَهُودَ،{فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:٨٢] لِلْكُفَّارِ كُلِّهَا "[٥٣٥٧]

وعَنِ الْحَسَنِ،فِي قَوْلِهِ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤] قَالَ:«نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ،وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ»[٥٣٥٨]

وعَنْ عَلْقَمَةَ،وَمَسْرُوقٍ:أَنَّهُمَا سَأَلَا ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الرِّشْوَةِ،فَقَالَ:مِنَ السُّحْتِ.قَالَ:فَقَالَا:أَفِي الْحُكْمِ؟ قَالَ:ذَاكَ الْكُفْرُ.ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤] "[٥٣٥٩]

تَقَدَّمَ أَنَّ صُورَةَ السَّبَبِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ فِي الْعَامِّ وَقَدْ تَنْزِلُ الْآيَاتُ عَلَى الْأَسْبَابِ الْخَاصَّةِ وَتُوضَعُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهَا مِنَ الْآيِ الْعَامَّةِ رِعَايَةً لِنَظْمِ الْقُرْآنِ وَحُسْنِ السِّيَاقِ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْخَاصُّ قَرِيبًا مِنْ صُورَةِ السَّبَبِ فِي كَوْنِهِ قَطْعِيَّ الدُّخُولِ فِي الْعَامِّ[٥٣٦٠]،وهذا الأمر وهو كفر النظم الحاكمة بغير ما أنزل الله لا يخفى على الشيخ الألباني كما سيأتي كلامه في تقرير هذا.

٢ - قلت:فمن المغالطات الخطيرة التي يقع فيه البعض،تنزيل الأحاديث الواردة في حق أئمة المسلمين على هؤلاء الحكام المرتدين.فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ،فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٥٣٦١]

وعن رُزَيْقَ بْنِ حَيَّانَ،أَنَّهُ سَمِعَ مُسْلِمَ بْنَ قَرَظَةَ - ابْنَ عَمِّ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ - يَقُولُ:سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ،وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ

[٥٣٥٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤٦٠) صحيح

[٥٣٥٨] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤٦٧) صحيح

[٥٣٥٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٨/ ٤٦٧) صحيح

[٥٣٦٠] - الإتقان في علوم القرآن (١/ ١١٣)

[٥٣٦١] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٨)٥٦ - (١٨٤٩)

[ش(كره من أميره شيئا) رأى منه ما يكره وينكر في شرع الله عز وجل أو ما يسيئه هو ويكرهه.(خرج من السلطان) من طاعته.(شبرا) قدر شبر وهو كناية عن عدم الطاعة بأدنى شيء.(جاهلية) كموت أهل الجاهلية من حيث إنهم لم يعرفوا طاعة الإمام]

تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»،قَالُوا:قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ:«لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،لَا،مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ،أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ،فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ،فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ،وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»،قَالَ ابْنُ جَابِرٍ:فَقُلْتُ:- يَعْنِي لِرُزَيْقٍ - حِينَ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ:آللَّهِ،يَا أَبَا الْمِقْدَامِ،لَحَدَّثَكَ بِهَذَا،أَوْ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ مُسْلِمِ بْنِ قَرَظَةَ يَقُولُ:سَمِعْتُ عَوْفًا،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ:فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ،فَقَالَ:" إِي وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،لَسَمِعْتُهُ مِنْ مُسْلِمِ بْنِ قَرَظَةَ،يَقُولُ:سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ "[٥٣٦٢]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ،فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ،وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ،وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا:أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ:«لَا،مَا صَلَّوْا»[٥٣٦٣]

وكشف هذا التلبيس من وجهين:

الأول:هذه الأحاديث في حق الإمام المسلم لا الحاكم الكافر ولا يستدل بها في حق الحكام المرتدين لأن هؤلاء:

أ - غير مستوفين لشروط الإمامة (كالعلم الشرعي والعدالة وغيرها)[٥٣٦٤].

ب - و لم تنعقد لهم بيعة شرعية صحيحة،والبيعة لا تكون إلا إذا كانت على شرط الحكم بالكتاب والسنة،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،" كَتَبَ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ:وَأُقِرُّ لَكَ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُ "[٥٣٦٥]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ،أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ،كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ،فَكَتَبَ إِلَيْهِ:" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،أَمَّا بَعْدُ:لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ

[٥٣٦٢] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٢)٦٦ - (١٨٥٥)

[ش (فجثا على ركبتيه) يقال جثا على ركبتيه يجثو وجثى يجثى جثوا وجثيا فيها وأجثاه غيره وتجاثوا على الركب وهم جثى وجثى أي جلس عليهما]

[٥٣٦٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠)٦٢ - (١٨٥٤)

[٥٣٦٤] - راجع شروط الإمامة بالأحكام السلطانية للماوردي:ص٦.

[٥٣٦٥] - صحيح البخاري (٩/ ٩١)(٧٢٧٢)

الْمُؤْمِنِينَ،سَلَامٌ عَلَيْكَ،فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،وَأُقِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ،وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُ "[٥٣٦٦]

،وقال ابن حجر:والأَصل فِي مُبايَعَة الإمام أَن يُبايعهُ عَلَى أَن يَعمَل بالحَقِّ ويُقِيم الحُدُود ويَأمُر بالمَعرُوف ويَنهَى عَن المُنكَر،فَمَن جَعَلَ مُبايَعَته لِمالٍ يُعطاهُ دُونَ مُلاحَظَة المَقصُود فِي الأَصل فَقَد خَسِرَ خُسرانًا مُبِينًا ودَخَلَ فِي الوَعِيد المَذكُور وحاقَ بِهِ إِن لَم يَتَجاوَز الله عَنهُ[٥٣٦٧].

أما هؤلاء المرتدون فيقسمون عند توليهم الحكم على العمل بالدستور والقانون الوضعي والديمقراطية والاشتراكية وغير ذلك من الكفر.

ج – لا يقومون بواجبات الأئمة،قال الماوردي:" وَالَّذِي يَلْزَمُهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ عَشَرَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا:حِفْظُ الدِّينِ عَلَى أُصُولِهِ الْمُسْتَقِرَّةِ،وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ،فَإِنْ نَجَمَ مُبْتَدِعٌ أَوْ زَاغَ ذُو شُبْهَةٍ عَنْهُ،أَوْضَحَ لَهُ الْحُجَّةَ،وَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابَ،وَأَخَذَهُ بِمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْحُقُوقِ وَالْحُدُودِ؛لِيَكُونَ الدِّينُ مَحْرُوسًا مِنْ خَلَلٍ،وَالْأُمَّةُ مَمْنُوعَةً مِنْ زَلَلٍ.

الثَّانِي:تَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَشَاجِرِينَ،وَقَطْعُ الْخِصَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ حَتَّى تَعُمَّ النَّصَفَةُ،فَلَا يَتَعَدَّى ظَالِمٌ،وَلَا يَضْعُفُ مَظْلُومٌ.

الثَّالِثُ:حِمَايَةُ الْبَيْضَةِ وَالذَّبُّ عَنِ الْحَرِيمِ؛لِيَتَصَرَّفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ،وَيَنْتَشِرُوا فِي الْأَسْفَارِ آمِنِينَ مِنْ تَغْرِيرٍ بِنَفْسٍ أَوْ مَالٍ.

وَالرَّابِعُ:إِقَامَةُ الْحُدُودِ؛لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الِانْتِهَاكِ،وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ مِنْ إتْلَافٍ وَاسْتِهْلَاكٍ.

وَالْخَامِسُ:تَحْصِينُ الثُّغُورِ بِالْعُدَّةِ الْمَانِعَةِ وَالْقُوَّةِ الدَّافِعَةِ حَتَّى لَا تَظْفَرَ الْأَعْدَاءُ بِغِرَّةٍ يَنْتَهِكُونَ فِيهَا مُحَرَّمًا،أَوْ يَسْفِكُونَ فِيهَا لِمُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهَدٍ دَمًا.

[٥٣٦٦] – موطأ مالك ت عبد الباقي (٢/ ٩٨٣)(٣) صحيح

[٥٣٦٧] – فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (١٣/ ٢٠٣)

وَالسَّادِسُ:جِهَادُ مَنْ عَانَدَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ الدَّعْوَةِ حَتَّى يُسْلِمَ أَوْ يَدْخُلَ فِي الذِّمَّةِ؛لِيُقَامَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِي إظْهَارِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَالسَّابِعُ:جِبَايَةُ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ عَلَى مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ نَصًّا وَاجْتِهَادًا مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا عَسْفٍ.

وَالثَّامِنُ:تَقْدِيرُ الْعَطَايَا وَمَا يَسْتَحِقُّ فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْتِيرٍ،وَدَفْعُهُ فِي وَقْتٍ لَا تَقْدِيمَ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرَ.

التَّاسِعُ:اسْتِكْفَاءُ الْأُمَنَاءِ وَتَقْلِيدُ النُّصَحَاءِ فِيمَا يُفَوَّضُ إلَيْهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ وَيَكِلُهُ إلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ؛لِتَكُونَ الْأَعْمَالُ بِالْكَفَاءَةِ مَضْبُوطَةً،وَالْأَمْوَالُ بِالْأُمَنَاءِ مَحْفُوظَةً.

الْعَاشِرُ:أَنْ يُبَاشِرَ بِنَفْسِهِ مُشَارَفَةَ الْأُمُورِ،وَتَصَفُّحَ الْأَحْوَالِ؛لِيَنْهَضَ بِسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ وَحِرَاسَةِ الْمِلَّةِ،وَلَا يُعَوِّلُ عَلَى التَّفْوِيضِ تَشَاغُلًا بِلَذَّةٍ أَوْ عِبَادَةٍ،فَقَدْ يَخُونُ الْأَمِينُ وَيَغُشُّ النَّاصِحُ،وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا دَاوُد إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتْبَعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}.

فَلَمْ يَقْتَصِرْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى التَّفْوِيضِ دُونَ الْمُبَاشَرَةِ وَلَا عَذَرَهُ فِي الاتِّبَاعِ حَتَّى وَصَفَهُ بِالضَّلَالِ،وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُسْتَحَقًّا عَلَيْهِ بِحُكْمِ الدِّينِ وَمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ،فَهُوَ مِنْ حُقُوقِ السِّيَاسَةِ لِكُلِّ مُسْتَرْعٍ،قَالَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:"كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[٥٣٦٨].

فهؤلاء يحفظون الدين أم يضيعونه؟.

مما سبق ترى يا أخي المسلم أن هؤلاء الحكام لا يدخلون في مسمى (أئمة المسلمين) لا من حيث الشروط ولا البيعة ولا الواجبات.وترى أن تنزيل أحاديث الأئمة عليهم فيه مغالطة خطيرة وتلبيس.

الوجه الثاني:أنه لو افترضنا – جدلاً – تنزيل أحاديث الأئمة عليهم،فإن هذه الأحاديث مقيّدة بحديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،وَهُوَ مَرِيضٌ،قُلْنَا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ،حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ،سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:دَعَانَا

[٥٣٦٨] – الأحكام السلطانية للماوردي (ص:٤٠) والخلافة (ص:٣٦) ومآثر الإنافة في معالم الخلافة (١/ ٥٩)

النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا،وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ،إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا،عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٥٣٦٩]

فمتى وقع الحاكم في الكفر الصريح كالحكم بغير ما أنزل الله فقد سقطت طاعته وخرج عن حكم الولاية ووجب الخروج عليه كما قال القاضي عياض في شرح حديث عبادة:قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَنْعَقِدُ لِكَافِرٍ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ انْعَزَلَ قَالَ وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ وَالدُّعَاءَ إِلَيْهَا قَالَ وَكَذَلِكَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمُ الْبِدْعَةُ قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ تَنْعَقِدُ لَهُ وَتُسْتَدَامُ لَهُ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ قَالَ وَلَا تَنْعَقِدُ لِفَاسِقٍ ابْتِدَاءً فَلَوْ طَرَأَ عَلَى الْخَلِيفَةِ فِسْقٌ قَالَ بَعْضُهُمْ يَجِبُ خَلْعُهُ إِلَّا أَنْ تَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ وَحَرْبٌ"[٥٣٧٠].

مما سبق ترى يا أخي المسلم أنه لا مجال للاستدلال بالأحاديث الواردة في أئمة المسلمين في حق هؤلاء الطواغيت المرتدين وترى كذلك خطورة التلبيس الناشئ عن هذا الاستدلال الذي يترتب عليه صرف المسلمين عن جهاد الطواغيت الواجب عليهم.

[٥٣٦٩] - صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥ و٧٠٥٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[(أصلحك الله) كلمة اعتادوا أن يقولوها عند الطلب أو المراد الدعاء له بإصلاح جسمه ليعافى من مرضه.(أخذ علينا) اشترط علينا.(على السمع والطاعة) لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.(منشطنا) حالة نشاطنا.(مكرهنا) في الأشياء التي نكرهها وتشق علينا.(أثرة علينا) استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم أي ولو منعنا حقوقنا.(الأمر) الملك والإمارة.(كفرا) منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فتكون المنازعة بالإنكار عليهم.أو كفرا ظاهرا فينازعون بالقتال والخروج عليهم وخلعهم.(بواحا) ظاهرا وباديا.(برهان) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل]

[٥٣٧٠] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

٣ – وقد وقع الشيخ الألباني في هذه المغالطة في تعليقه على العقيــدة الطحاويــة،فكلام الإمام الطحاوي وكلام الشارح ابن أبي العز هو في حق الإمــام المســلم إن فســق أو جار،وليس في حق الكافر.وهذا واضح في كلام الإمام الطحاوي:(وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا،وَإِنْ جَارُوا،وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ،وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ،وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَــةً،مَا لَــمْ يَــأْمُرُوا بِمَعْصِــيَةٍ،وَنَدْعُوا لَهُــمْ بِالصَّــلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ).[٥٣٧١]

أي أئمة المسلمين فأخذ الشيخ الألباني كلامهما وأنــزله في حق حكام المسلمين – في زماننا هذا – الذين لاشك في كفر وردة معظمهم،فأحدث بذلك تلبيساً خطيراً.

والشيخ الألباني يقرُّ بكفر الأنظمة التي تحكم المسلمين بغير شريعة الإسلام ومــن ذلــك قوله:"فقد سمعت كثيراً منهم يخطب بكل حماسٍ وغيرةٍ إســلامية محمــودة ليقــرر أن الحاكمية لله وحده،ويضرب بذلك النظم الحاكمة الكافرة،وهذا شيء جميــل،وإن كنــا الآن لا نستطيع تغييره"[٥٣٧٢]هذا كلام الألباني،كذلك فإنه سكت عن تعليق الشيخ أحمد شاكر – في شرح العقيدة الطحاوية – على قول الشارح:"إن الحــاكم إن اعتقــد أن الحكم بما أنــزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله،فهــذا كفر أكبر" علق أحمد شاكر على هذا بقوله:وهذا مثل ما ابتلي به الذين درسوا القوانين الأوربية،من رجال الأمم الإسلامية،ونســائها أيضــا!! الــذين أشــربوا في قلــوبهم حبها،والشغف بها،والذب عنها،وحكموا بها،وأذاعوها،بما ربوا من تربية أساسها صــنع المبشرين الهدامين أعداء الإسلام.ومنهم من يصرح،ومنهم من يتوارى.ويكادون يكونون سواء.فإنا لله وإنا إليه راجعون [٥٣٧٣].

[٥٣٧١] – أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة –ط وزارة الأوقاف السعودية (ص:٣٧٧) وأصول الدين عند الإمام أبي حنيفة (ص:٥٦٩)والتعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص:١٦٨) والمباحث العقدية المتعلقة بالكبائر ومرتكبها في الدنيا (ص:١١٤) وشرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص:٣٧١)

[٥٣٧٢] – من كتابه الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام:ص٩٦،٩٧.

[٥٣٧٣] – شرح العقيدة الطحاوية:ص٣٢٣ و٣٢٤ ط:١٤٠٤هــ.و دروس في العقيدة – الراجحي (١٣/ ٦، بترقيم الشاملة آليا) وشرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص:٣٠٤) وشرح الطحاوية في العقيدة السلفية (٢/ ٢٦١)

فكيف يقول الشيخ:إن طريق الخلاص من هؤلاء الكافرين هو الصبر والتربية؟ مخالفاً بذلك جمهور السلف الذين قرروا أن الصبر يكون على الحاكم المسلم إن فسق أو جار أما إن كفر فيجب الخروج عليه عند القدرة إجماعاً وقد ذكرت في هذه الفقرة كلام القاضي عياض وكلام ابن حجر في هذا.وقد نقلا الإجماع على وجوب الخروج على الحاكم الكافر[5374].ومما قاله ابن حجر:"وملخصه أنه ينعزل بالكفر إجماعاً،فيجب على كل مسلم القيام في ذلك"[5375]فأيّ كلام أوضح من هذا؟.

وهذا الحكم – وهو الصبر على الحاكم المسلم الجائر والخروج على الكافر – مستفاد من الجمع بين الأحاديث الواردة في طاعة الأئمة.فالأحاديث الآمرة بالصبر على الأئمة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ،فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» متفق عليه[5376].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»،قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ،كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ:«تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ،وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[5377]

ومثل ذلك حديث وائل بن حجر وحديث أم سلمة رضي الله عنهم أجمعين.كل هذه الأحاديث يقيّدها جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ

[5374] – صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/٢٢٩ و فتح الباري:١٣/٧ و٨ و١١٦و١٢٣.

[5375] – فتح الباري:١٢/١٢٣.

[5376] – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٣)

[ش(كره من أميره شيئا) رأى منه ما يكره وينكر في شرع الله عز وجل أو ما يسيئه هو ويكرهه.(خرج من السلطان) من طاعته.(شبرا) قدر شبر وهو كناية عن عدم الطاعة بأدنى شيء.(جاهلية) كموت أهل الجاهلية من حيث إنهم لم يعرفوا طاعة الإمام]

[5377] – صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢)٤٥ – (١٨٤٣)

[ش (ستكون بعدي أثرة وأمور تنكروها) هذا من معجزات النبوة وقد وقع الإخبار متكررا ووجد مخبره متكررا وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالما عسوفا فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه والمراد بالأثرة هنا استئثار الأمراء بأموال بيت المال]

ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» متفق عليه.[٥٣٧٨]

هذا الحديث يقيّد أحاديث الصبر ويخصّصها،فإذا كفر الحاكم وجبت المنازعة والخروج.وإلى هذا التقييد أشار البخاري رحمه الله بإيراده لأحاديث الصبر كأحاديث ابن عباس وابن مسعود السابقة ثم أتبعها بحديث عبادة في نفس الباب[٥٣٧٩].

فطريق الخلاص من كفر الحكام هو الخروج عليهم بالسلاح وهذا واجب إجماعاً عند القدرة،وليس طريق الخلاص مجرد التربية،والشيخ الألباني محجوج بالإجماع الذي نقله القاضي عياض وابن حجر،وإذا وقع الحاكم في الكفر فلا ينظر إلى مفسدة الخروج عليه،إذ لا مفسدة أعظم من فتنة الكفر،قال تعالى:{وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:٢١٧].

وقد أجمع العلماء على أن حفظ الدين مقدم على حفظ النفس وغيرها من الضرورات الخمس،وقد سبق قريبا قول شيخ الإسلام ابن تيمية:"وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلْق كما قال تعالى:(والْفتْنة أكْبر من الْقتْل) أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه"[٥٣٨٠].

٤ – ما قاله الشيخ في كتابه «الحديث حجة بنفسه»[٥٣٨١] من أن ضرب الأنظمة الكافرة لا نستطيعه الآن،فإنه عند العجز عن الجهاد يجب تحصيل الاستطاعة لقوله تعالى:{وَأَعِدُّوا

[٥٣٧٨] – صحيح البخاري (٩/ ٤٧)(٧٠٥٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)(٤٢ – (١٧٠٩)

[ش (بايعنا) المراد بالمبايعة المعاهدة وهي مأخوذة من البيع لأن كل واحد من المتبايعين كان يمد يده إلى صاحبه وكذا هذه البيعة تكون بأخذ الكف(إلا أن تروا كفرا بواحا) أي جهارا من باح بالشيء يبوح إذا أعلنه(عندكم من الله فيه برهان) أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمور في ولاي تهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين]

[٥٣٧٩] – الباب الثاني من كتاب الفتن في صحيحه.

[٥٣٨٠] – مجموع الفتاوى:٣٥٥/٢٨.

[٥٣٨١] – ص:٩٧.

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال:٦٠]،وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:" وَكَمَا يَجِبُ الاسْتِعْدَادُ لِلْجِهَادِ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ فِي وَقْتِ سُقُوطِهِ لِلْعَجْزِ فَإِنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ بِخِلَافِ الاسْتِطَاعَةِ فِي الْحَجِّ وَنَحْوِهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ تَحْصِيلُهَا لِأَنَّ الْوُجُوبَ هُنَا لَا يَتِمُّ إلَّا بِهَا."[٥٣٨٢]

والقوة هي السلاح وليست التربية لحديث أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ،أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ،يَقُولُ:" {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:٦٠]،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ،أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ "[٥٣٨٣].

والشيخ الألباني قد قرّر هذا بنفسه حيث ذكر في كلامه - بعنوان «المستقبل للإسلام،قال الألباني:"في تعليقه على حديث تَمِيمٍ الدَّارِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ،بِعِزِّ عَزِيزٍ،أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ،عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ،وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ."[٥٣٨٤]

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الانتشار يستلزم أن يعود المسلمون أقوياء في معنوياتهم وماديا‌تهم وسلاحهم حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان.."[٥٣٨٥].

فعند العجز يجب إعداد القوة لا مجرد التربية.

[٥٣٨٢] - مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٥٩)

[٥٣٨٣] - صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢)١٦٧ - (١٩١٧)

[ش (وأعدوا لهم ما استطعتم) قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ألا أن القوة الرمي قالها ثلاثا هذا تصريح بتفسيرها ورد لما يحكيه المفسرون من الأقوال سوى هذا وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المثاقفة وسائر أنواع استعمال السلاح وكذا المسابقة بالخيل وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك]

[٥٣٨٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٧٨٤)(١٦٩٥٧) ١٧٠٨٢- صحيح

[٥٣٨٥] - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٣٢)

٥ - وقول الشيخ الألباني:"إن الثورة بالسلاح على الحكام وهْمٌ يتوهمه بعض النـــاس" ليس صحيحاً وليس بوهم،بل هو اتباع لسنة النبي ﷺ كما جاء عَنْ جُنَادَةَ بْـــنِ أَبِـــي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَـــدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَـــطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْـــرِنَا وَيُسْـــرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًـــا عِنْـــدَكُمْ مِـــنَ اللهِ فِيـــهِ بُرْهَانٌ»[5386].

وقال ابن كثير وَقَوْلُهُ:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّـــهِ حُكْمًـــا لِقَـــوْمٍ يُوقِنُونَ} يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَـــمِ الْمُشْـــتَمِلِ عَلَـــى كُـــلِّ خَيْرٍ،النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْـــأَهْوَاءِ وَالِاصْـــطِلَاحَاتِ،الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ،كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُـــونَ بِـــهِ مِـــنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ،مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ،وَكَمَا يَحْكُمُ بِـــهِ التَّتَـــارُ مِـــنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ،الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ اليَساق وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّـــةِ وَالنَّصْـــرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَـــا كَثِيرٍ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} أَيْ:يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ،وَعَنْ حُكْـــمِ اللَّـــهِ يَعْدِلُونَ.{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَيْ:وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِـــهِ

[5386] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش (بايعنا) المراد بالمبايعة المعاهدة وهي مأخوذة من البيع لأن كل واحد من المتبايعين كان يمد يده إلى صاحبه وكذا هذه البيعة تكون بأخذ الكف(إلا أن تروا كفرا بواحا) أي جهارا من باح بالشيء يبوح إذا أعلنه(عندكم من الله فيه برهان) أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمور في ولاي تهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين]

لِمَنْ عَقل عَنِ اللَّه شَرْعَهُ،وَآمَنَ بِهِ وَأَيْقَنَ وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ،وَأَرْحَمُ بِخُلُقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا،فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ،الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.اهـــ..[٥٣٨٧]

فكيف يقول:إن الخروج بالسلاح على حكام زماننا المرتدين وهْم.وقد نقـــل القاضـــي عياض وابن حجر الإجماع على وجوب الخروج على أمثال هؤلاء؟.

٦ - والانقلاب العسكري إنما هو نوع من أنواع الخروج المسلح على الطواغيت وهـــو واجب - كما سبق - فكيف يسمى الشيخ الواجب الشرعيّ بدعةً؟.وليس الانقـــلاب العسكري من بدع العصر الحاضر كما يقول،فقد حدث في حياة النبي ﷺ بخروج فيروز الديلمي على الأسود العنسي المتنبئ الكذاب،حتى قتل فيروز ذلك الأسود،ثُمَّ خَرَجَ قَيْسٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ،فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيْرُوزَ وَدَاوَذَيْهِ،وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ،فَقَالُوا:إِنَّـــا كُلَّنَا عَلَى حَذَرٍ،فَمَا الرَّأْيُ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ يَشْتَوِرُونَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُـــولُهُ فَأَحْضَـــرَهُمْ بَـــيْنَ يَدَيْهِ،فَقَالَ:أَلَمْ أُشَرِّفْكُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ؟ قَالُوا:بَلَى.قَالَ:فَمَاذَا يَبْلُغُنِي عَنْكُمْ؟ فَقَالُوا:أَقِلْنَا مَرَّتَنَا هَذِهِ.فَقَالَ:لَا يَبْلُغُنِي عَنْكُمْ فَأَقْتُلَكُمْ.قَالَ:فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ نَكَدْ وَهُوَ فِي ارْتِيَابٍ مِنْ أَمْرِنَا،وَنَحْنُ عَلَى خَطَرٍ،فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي ذَلِكَ إِذْ جَاءَتْنَا كُتُبٌ مِنْ عَامِرِ بْنِ شَـــهْرٍ أَمِـــيرِ هَمْدَانَ،وَذِي ظُلَيْمٍ،وَذِي كَلَاعٍ،وَغَيْرِهِمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْيَمَنِ،يَبْذُلُونَ لَنَا الطَّاعَةَ وَالنَّصْرَ عَلَـــى مُخَالَفَةِ الْأَسْوَدِ،وَذَلِكَ حِينَ جَاءَهُمْ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّهُمْ عَلَى مُصَاوَلَةِ الْأَسْـــوَدِ الْعَنْسِيِّ،فَكَتَبْنَا إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نُبْرِمَ الْأَمْرَ.قَالَ قَيْسٌ:فَدَخَلْتُ عَلَى امْرَأَتِـــهِ آزَاذَ،فَقُلْتُ:يَا ابْنَةَ عَمِّي،قَدْ عَرَفْتِ بَلَاءَ هَذَا الرَّجُلِ عِنْدَ قَوْمِكِ،قَتَلَ زَوْجَكِ،وَطَأْطَأَ فِـــي قَوْمِكِ الْقَتْلَ،وَفَضَحَ النِّسَاءَ،فَهَلْ عِنْـــدَكِ مُمَالَـــأَةٌ عَلَيْـــهِ؟ قَالَـــتْ:عَلَـــى أَيِّ أَمْـــرِهِ؟ قُلْتُ:إِخْرَاجِهِ.قَالَتْ:أَوْ قَتْلِهِ؟ قُلْتُ:أَوْ قَتْلِهِ.قَالَتْ:نَعَمْ،وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ شَخْصًا هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ،فَمَا يَقُومُ لِلَّهِ عَلَى حَقٍّ،وَلَا يَنْتَهِي لَهُ عَنْ حُرْمَةٍ،فَإِذَا عَزَمْتُمْ فَأَعْلِمُونِي أُخْبِرْكُمْ بِمَا فِي هَذَا الْأَمْرِ.قَالَ:فَأَخْرُجُ فَإِذَا فَيْرُوزُ وَدَاوَذَيْهِ يَنْتَظِرَانِي يُرِيدُونَ أَنْ يُنَاهِضُوهُ.فَمَا اسْـــتَقَرَّ اجْتِمَاعُهُ بِهِمَا حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِ الْأَسْوَدُ،فَدَخَلَ فِي عَشَرَةٍ مِنْ قَوْمِهِ،فَقَالَ لَهُ:أَلَـــمْ أُخْبِـــرْكَ

[٥٣٨٧] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

بالْحَقِّ وَتُخْبِرْنِي بِالْكِذَابَةِ؟ إِنَّهُ يَقُولُ:يَا سَوْآهْ يَا سَوْآهْ،إِنْ لَمْ تَقْطَعْ مِنْ قَيْسٍ يَدَهُ يَقْطَـعْ رَقَبَتَكَ الْعُلْيَا.حَتَّى ظَنَّ قَيْسٌ أَنَّهُ قَاتِلُهُ،فَقَالَ:إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ أَهْلِكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ،فَقَتْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَوْتَاتٍ أُمُوتُهَا كُلَّ يَوْمٍ.فَرَقَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِالانْصِرَافِ،فَخَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ:اعْمَلُوا عَمَلَكُمْ.فَبَيْنَمَا هُمْ وُقُوفٌ بِالْبَابِ يَشْتَوِرُونَ إِذْ خَرَجَ الْأَسْوَدُ عَلَيْهِمْ،وَقَدْ جَمَعَ لَهُ مِائَةً مَا بَيْنَ بَقَرَةٍ وَبَعِيرٍ،فَقَامَ وَخَطَّ خَطًّا وَأُقِيمَتْ مِنْ وَرَائِهِ،وَقَامَ دُونَهَا،فَنَحَرَهَا غَيْرَ مُحَبَّسَةٍ وَلَا مُعَلَّقَةٍ،مَا يَقْتَحِمُ الْخَطَّ مِنْهَا شَيْءٌ،فَجَالَتْ إِلَى أَنْ زَهَقَتْ أَرْوَاحُهَا.قَالَ قَيْسٌ:فَمَا رَأَيْتُ أَمْرًا كَانَ أَفْظَعَ مِنْهُ،وَلَا يَوْمًا أَوْحَشَ مِنْهُ.ثُمَّ قَالَ الْأَسْوَدُ:أَحَقٌّ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ يَا فَيْرُوزُ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْحَرَكَ فَأُتْبِعَكَ هَذِهِ الْبَهِيمَةَ.وَبَوَّأَ لَهُ الْحَرْبَةَ.فَقَالَ لَهُ فَيْرُوزُ:اخْتَرْتَنَا لِصِهْرِكَ،وَفَضَّلْتَنَا عَلَى الْأَبْنَاءِ،فَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَبِيًّا مَا بِعْنَا نَصِيبَنَا مِنْكَ بِشَيْءٍ،فَكَيْفَ وَقَدِ اجْتَمَعَ لَنَا بِكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا؟ فَلَا تَقْبَلْ عَلَيْنَا أَمْثَالَ مَا يَبْلُغُكَ،فَإِنَّا بِحَيْثُ تُحِبُّ،فَرَضِيَ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِقَسْمِ لُحُومِ تِلْكَ الْأَنْعَامِ،فَفَرَّقَهَا فَيْرُوزُ فِي أَهْلِ صَنْعَاءَ،ثُمَّ أَسْرَعَ اللِّحَاقَ بِهِ،فَإِذَا رَجُلٌ يُحَرِّضُهُ عَلَى فَيْرُوزَ وَيَسْعَى إِلَيْهِ فِيهِ،فَاسْتَمَعَ لَهُ فَيْرُوزُ،فَإِذَا الْأَسْوَدُ يَقُولُ:أَنَا قَاتِلُهُ غَدًا وَأَصْحَابِهِ،فَاغْدُ عَلَيَّ بِهِ.ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا فَيْرُوزُ،فَقَالَ:مَهْ.فَأَخْبَرَهُ فَيْرُوزُ بِمَا صَنَعَ مِنْ قَسْمِ ذَلِكَ اللَّحْمِ،فَدَخَلَ الْأَسْوَدُ دَارَهُ،وَرَجَعَ فَيْرُوزُ إِلَى أَصْحَابِهِ،فَأَعْلَمَهُمْ بِمَا سَمِعَ وَبِمَا قَالَ وَقِيلَ لَهُ،فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يُعَاوِدُوا الْمَرْأَةَ فِي أَمْرِهِ،فَدَخَلَ أَحَدُهُمْ – وَهُوَ فَيْرُوزُ – إِلَيْهَا،فَقَالَتْ:إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الدَّارِ بَيْتٌ إِلَّا وَالْحَرَسُ مُحِيطُونَ بِهِ،غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ،فَإِنَّ ظَهْرَهُ إِلَى مَكَانِ كَذَا وَكَذَا مِنَ الطَّرِيقِ،فَإِذَا أَمْسَيْتُمْ فَانْقُبُوا عَلَيْهِ مِنْ دُونِ الْحَرَسِ،وَلَيْسَ مِنْ دُونِ قَتْلِهِ شَيْءٌ،وَإِنِّي سَأَضَعُ فِي الْبَيْتِ سِرَاجًا وَسِلَاحًا.فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا تَلَقَّاهُ الْأَسْوَدُ فَقَالَ لَهُ:مَا أَدْخَلَكَ عَلَى أَهْلِي؟ وَوَجَأَ رَأْسَهُ،وَكَانَ الْأَسْوَدُ شَدِيدًا،فَصَاحَتِ الْمَرْأَةُ فَأَدْهَشَتْهُ عَنْهُ،وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَتَلَهُ،وَقَالَتْ:ابْنُ عَمِّي جَاءَنِي زَائِرًا.فَقَالَ:اسْكُتِي لَا أَبَا لَكِ،قَدْ وَهَبْتُهُ لَكِ.فَخَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:النَّجَاءَ النَّجَاءَ.وَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ،فَحَارُوا مَاذَا يَصْنَعُونَ؟ فَبَعَثَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِمْ تَقُولُ لَهُمْ:لَا تَنْثَنُوا عَمَّا كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَيْهِ.فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ فَاسْتَثْبَتَ مِنْهَا الْخَبَرَ،وَدَخَلُوا إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ فَنَقَبُوا مِنْ دَاخِلِهِ بَطَائِنَ ؛ لِيَهُونَ عَلَيْهِمُ النَّقْبُ مِنْ خَارِجٍ،ثُمَّ جَلَسَ عِنْدَهَا جَهْرَةً

كَالزَّائِرِ،فَدَخَلَ الْأَسْوَدُ فَقَالَ:وَمَا هَذَا؟ فَقَالَتْ:إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ،وَهُوَ ابْنُ عَمِّي.فَنَهَرَهُ وَأَخْرَجَهُ،فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ،فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ نَقَبُوا ذَلِكَ الْبَيْتَ فَدَخَلُوا فَوَجَدُوا فِيهِ سِرَاجًا تَحْتَ جَفْنَةٍ،فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ وَالْأَسْوَدُ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشٍ مِنْ حَرِيرٍ،قَدْ غَرِقَ رَأْسُهُ فِي جَسَدِهِ،وَهُوَ سَكْرَانُ يَغُطُّ،وَالْمَرْأَةُ جَالِسَةٌ عِنْدَهُ،فَلَمَّا قَامَ فَيْرُوزُ عَلَى الْبَابِ أَجْلَسَهُ شَيْطَانُهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ – وَهُوَ نَائِمٌ مَعَ ذَلِكَ يَغُطُّ – فَقَالَ:مَا لِي وَمَا لَكَ يَا فَيْرُوزُ؟ فَخَشِيَ إِنْ رَجَعَ أَنْ يَهْلِكَ وَتَهْلِكَ الْمَرْأَةُ،فَعَاجَلَهُ وَخَالَطَهُ،وَهُوَ مِثْلُ الْجَمَلِ،فَأَخَذَ بِرَأْسِهِ فَدَقَّ عُنُقَهُ،وَوَضَعَ رُكْبَتَيْهِ فِي ظَهْرِهِ حَتَّى قَتَلَهُ،ثُمَّ قَامَ لِيَخْرُجَ إِلَى أَصْحَابِهِ لِيُخْبِرَهُمْ،فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ بِذَيْلِهِ وَقَالَتْ:أَيْنَ تَذْهَبُ عَنْ حُرْمَتِكُمْ؟ فَظَنَّتْ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ،فَقَالَ:أَخْرُجُ لِأُعْلِمَهُمْ بِقَتْلِهِ،فَدَخَلُوا عَلَيْهِ لِيَحْتَزُّوا رَأْسَهُ،فَحَرَّكَهُ شَيْطَانُهُ فَاضْطَرَبَ،فَلَمْ يَضْبُطُوا أَمْرَهُ حَتَّى جَلَسَ اثْنَانِ عَلَى ظَهْرِهِ،وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ بِشَعْرِهِ،وَجَعَلَ يُبَرْبِرُ بِلِسَانِهِ،فَاحْتَزَّ الْآخَرُ رَقَبَتَهُ،فَخَارَ كَأَشَدِّ خُوَارِ ثَوْرٍ سُمِعَ قَطُّ،فَابْتَدَرَ الْحَرَسُ إِلَى الْمَقْصُورَةِ،فَقَالُوا:مَا هَذَا؟ مَا هَذَا؟ ! فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ:النَّبِيُّ يُوحَى إِلَيْهِ.فَرَجَعُوا،وَجَلَسَ قَيْسٌ وَدَاذَوَيْهِ وَفَيْرُوزُ يَأْتَمِرُونَ كَيْفَ يُعْلِمُونَ أَشْيَاعَهُمْ،فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الصَّبَاحُ يُنَادُونَ بِشِعَارِهِمُ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ قَامَ أَحَدُهُمْ،وَهُوَ قَيْسٌ،عَلَى سُورِ الْحِصْنِ فَنَادَى بِشِعَارِهِمْ،فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ وَالْكَافِرُونَ حَوْلَ الْحِصْنِ،فَنَادَى قَيْسٌ – وَيُقَالُ:وَبَرُ بْنُ يُحَنِّسَ – بِالْأَذَانِ:أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ،وَأَنَّ عَبْهَلَةَ كَذَّابٌ.وَأَلْقَى إِلَيْهِمْ رَأْسَهُ،فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ،وَتَبِعَهُمُ النَّاسُ يَأْخُذُونَهُمْ وَيَرْصُدُونَهُمْ فِي كُلِّ طَرِيقٍ يَأْسِرُونَهُمْ،وَظَهَرَ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ،وَتَرَاجَعَ نُوَّابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَعْمَالِهِمْ،وَتَنَازَعَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ فِي الْإِمَارَةِ،ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ،وَكَتَبُوا بِالْخَبَرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَقَدْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى الْخَبَرِ مِنْ لَيْلَتِهِ.[٥٣٨٨]

كما ذكرت في أواخر مسألة العهود والبيعات أمثلة كثيرة للخروج على الحكام بما يشبه الانقلابات العسكرية حدثت في القرون الثلاثة المفضلة.فالانقلاب ليس من بدع العصر الحاضر كما يقول الشيخ.

[٥٣٨٨] – البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٤٣٢)

٧ – ولم يقل الشيخ إن الخروج المسلح بدعة فقط،بل قال أيضاً إن الخروج المسلح مخالف لنصوص الشريعة الآمرة بتغيير ما بالأنفس { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد:١١].وليس الأمر كما قال فإن الخروج المسلح (الجهاد في سبيل الله) القيام به داخل ضمن تغيير ما بالأنفس.فإن ما أصاب المسلمين من الذل بتسلط الحكام المرتدين عليهم لم يقع إلا بسبب القعود عن الجهاد والركون إلى الدنيا وكراهية الموت.ولا خلاص للمسلمين من هذا الذل إلا بتغيير هذا،أي بالجهاد والتجافي عن دار الغرور،وهذا بالنص كما في حديثي ثوبان وابن عمر رضي الله عنهم.

عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ".الَ:قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:" أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ،تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ،وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ".قَالَ:قُلْنَا:وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:" حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "[٥٣٨٩].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِثَوْبَانَ:" كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ،إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟ " قَالَ ثَوْبَانُ:بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ،أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟ قَالَ:" لَا،بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ " قَالُوا:وَمَا الْوَهَنُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:" حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ "[٥٣٩٠]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ،وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ،سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[٥٣٩١].

وكما ترى يا أخي المسلم أن ترك الجهاد هو من أسباب ذل المسلمين وتغيير هذا يكون بالعودة إلى الجهاد.خاصة الواجب العيني منه كجهاد الطواغيت،فالجهاد داخل ضمن تغيير ما بالأنفس ليس مخالفاً كما قال الشيخ الألباني،وتغيير ما بالأنفس لا يكون بالعلم

[٥٣٨٩] – مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٨٢)(٢٢٣٩٧) صحيح

[٥٣٩٠] – مسند أحمد ط الرسالة (١٤/ ٣٣٢)(٨٧١٣) صحيح لغيره

[٥٣٩١] – سنن أبي داود (٣/ ٢٧٤)(٣٤٦٢) صحيح

والتربية فقط الذي أسماه الشيخ طريق الخلاص بل الجهاد أيضاً الذي أنكره الشيخ طريقا للخلاص.

٨ – ونحن نتفق مع الشيخ في وجوب تغيير ما بالأنفس ليرفع الله تعالى عنا ما نحن فيه من مذلة وهوان..ولكنا نختلف مع الشيخ في أمور:

* منها اعتباره الخروج المسلح (الجهاد) مخالفا لتغيير ما بالأنفس كما سبق أعلاه.

* وبالتالي قصره تغيير ما بالأنفس على العلم والتربية،..إنَّ العلم الشرعي والعدالة ليسا من شروط وجوب الجهاد،وأن الجاهل والفاسق مخاطبان بالجهاد تماما كالعالم والصالح،وأن الجهاد الواجب المتعين لا يؤجّل – عند القدرة – لتحصيل ما ليس بشرط لوجوبه،وإذا لم يمكن الجهاد إلا مع أمير فاجر أو عسكر كثير الفجور فالواجب الجهاد معهم لدفع المفسدة الأعظم مفسدة الكافرين،هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة كما قال ابن تيمية:" " وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْغَزْوُ مَعَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ؛فَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ وَبِأَقْوَامِ لَا خَلَاقَ لَهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّهُ إذَا لَمْ يَتَّفِقْ الْغَزْوُ إلَّا مَعَ الْأُمَرَاءِ الْفُجَّارِ أَوْ مَعَ عَسْكَرٍ كَثِيرِ الْفُجُورِ؛فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:إمَّا تَرْكُ الْغَزْوِ مَعَهُمْ فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ اسْتِيلَاءُ الْآخَرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَعْظَمُ ضَرَرًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَإِمَّا الْغَزْوُ مَعَ الْأَمِيرِ الْفَاجِرِ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ دَفْعُ الْأَفْجَرِينَ وَإِقَامَةُ أَكْثَرِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ؛وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ إقَامَةُ جَمِيعِهَا.فَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَكُلِّ مَا أَشْبَهَهَا؛بَلْ كَثِيرٌ مِنْ الْغَزْوِ الْحَاصِلِ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَمْ يَقَعْ إلَّا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ." " اهـ[٥٣٩٢].

كذلك فإنه إذا لم يمكن جهاد الكافرين إلا مع قوم من المبتدعة،فالواجب الجهاد معهم،ولا نقول لا نجاهد حتى يتركوا البدع بل نجاهد مع المبتدعة وندعوهم مع ذلك إلى التزام السنة قال ابن تيمية:" فَإِذَا تَعَذَّرَ إقَامَةُ الْوَاجِبَاتِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إلَّا

٥٣٩٢ – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٦)

بِمَنْ فِيهِ بِدْعَةٌ مَضَرَّتُهَا دُونَ مَضَرَّةِ تَرْكِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ:كَانَ تَحْصِيلُ مَصْلَحَةِ الْوَاجِبِ مَعَ مَفْسَدَةٍ مَرْجُوحَةٍ مَعَهُ خَيْرًا مِنْ الْعَكْسِ." [٥٣٩٣]

ولابن حزم كلام شديد في النكير على من ينهي عن جهاد الكفار مع أمير فاسق،قال:" فَمَنْ غَزَا مَعَ فَاسِقٍ فَلْيَقْتُلْ الْكُفَّارَ وَلْيُفْسِدْ زُرُوعَهُمْ وَدُورَهُمْ وَثِمَارَهُمْ،وَلْيَجْلِبْ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَلَا بُدَّ،فَإِنَّ إخْرَاجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إلَى نُورِ الْإِسْلَامِ فَرْضٌ يَعْصِي اللَّهَ مَنْ تَرَكَهُ قَادِرًا عَلَيْهِ،وَإِثْمُهُمْ عَلَى مَنْ غَلَّهُمْ،وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ أَقَلُّ مِنْ تَرْكِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَعَوْنِهِمْ عَلَى الْبَقَاءِ فِيهِ،وَلَا إثْمَ بَعْدَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ إثْمِ مَنْ نَهَى عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَأَمَرَ بِإِسْلَامِ حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ [إلَيْهِمْ] مِنْ أَجْلِ فِسْقِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ لَا يُحَاسَبُ غَيْرُهُ بِفِسْقِهِ؟" [٥٣٩٤].

قلت:فنحن نتفق مع الشيخ في أن تسلّط الكفار والظلمة علينا إنما هو بمعاصينا لقوله تعالى:{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء:٧٩].

مَا أَصَابَكَ يا ابْنَ آدَمَ،مِنْ خَيْرٍ وَحَسَنَةٍ،فَهُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيكَ،فَهُوَ الذي سَخَرَ لَكَ المَنَافِعَ التي تَتَمَتَّعُ بِهَا،وَتَحسُنُ لَدَيْكَ.وَكُلَّمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَهُوَ مِنْ نَفْسِكَ،فَإِنَّكَ بِمَا أُوتِيتَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلى العَمَلِ وَالاخْتِيَّارِ،فِي دَرْءِ المَفَاسِدِ،وَجَلْبِ المَنَافِعِ،وَتَرْجِيحِ بَعْضِ المَقَاصِدِ عَلى بَعْضٍ...قَدْ تُخْطِئُ فِي مَعْرِفَةِ مَا يَسُوؤُكَ،وَمَا يَنْفَعُكَ،لأَنَّكَ لا تَضْبُطُ إِرَادَتَكَ وَهَوَاكَ،وَلاَ تُحِيطُ بالسُّنَنِ وَالأَسْبَابِ،فَأَنْتَ تُرَجِّحُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ،إمَّا بالهَوَى،وإمَّا قَبْلَ أنْ تُحيطَ خَبَراً بِمَعْرِفَةِ النَّافِعِ والضَّارِّ،فَتَقَعُ فِيمَا يَسُوءُ. [٥٣٩٥]

هذه عقوبة قدرية لنا،ولكنا نختلف مع الشيخ في أنه قصر وسيلة دفعهم على السبب القدري بالتوبة من المعاصي والإنابة إلى الله،واستنكر الشيخ الوسيلة الشرعية لدفع الكفار – كالحكام المرتدين – تلك الوسيلة الشرعية هي الجهاد الذي أسماه الشيخ الخروج المسلَّح.

[٥٣٩٣] – مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٢)

[٥٣٩٤] – المحلى بالآثار (٥/ ٣٥٢)

[٥٣٩٥] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٧٢، بترقيم الشاملة آليا)

٩ – ومن التناقضات في كلام الشيخ الألباني أنه يدعو المسلمين للصبر على حكامهم في نفس الوقت الذي يدعوهم لجهاد الكفار المستعمرين حيث قال:"وأما الكفار المستعمرون فلا طاعة لهم بل يجب الاستعداد التام مادة ومعنى لطردهم وتطهير البلاد من رجسهم"[٥٣٩٦].والكافر المستعمر هو الكافر الأجنبي وقد بيّنت من قبل أنه لا فرق بين أن يكون الكافر المتسلط على المسلمين أجنبياً أو محلياً،إذ إن علة وجوب جهاده قائمة في الحالتين وهي وصف الكفر.كما أن الكافر المحلي صار بكفره أجنبياً عن المسلمين لقوله تعالى:{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:٤٦].

قلت:السبب في ذلك أن الشيخ ناصر رحمه الله كان مرجئا جلداً كما هو معروف عنه ومتواتر [٥٣٩٧]

١٠ – ومن التناقضات – أيضاً في كلام الشيخ – قوله في نفس الكتاب:"اعلم أن الجهاد على قسمين:الأول فرض عين،وهو صد العدو المهاجم لبعض بلاد المسلمين كاليهود الآن الذين احتلوا فلسطين.فالمسلمون جميعا آثمون حتى يخرجوهم منها"[٥٣٩٨].

بل إن الحكام المرتدين هم أيضاً عدو كافر متسلط على بلاد المسلمين وأن جهادهم – لذلك فرض عين – بل إن جهادهم مقدّم على جهاد اليهود لسببين:القرْب والرّدّة،بل إن اليهود لا يستقر لهم مقام بفلسطين إلا في كنف هؤلاء الحكام الطواغيت المرتدين الذين يحمون حدودهم ويسحقون شعوبهم.

ثم إن لنا أن نسأل الشيخ سؤالا:لماذا قال:إن طريق الخلاص من ظلم الحكام هو طريق تغيير ما بالأنفس بالعلم والتربية،ثم قال إن طريق الخلاص من اليهود هو طريق الجهاد،مع أن كلاّ من الحكام المرتدين واليهود هم كفار تسلطوا – قدرا على المسلمين بذنوبهم،فلماذا فرّق الشيخ بين أسلوبي المواجهة؟ قال عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص في مسيره لغزو الفرس –:"ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلّط علينا فرب قوم

[٥٣٩٦] – كتاب العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الألباني:ص٤٨.

[٥٣٩٧] – انظر كتابه فتنة التكفير لترى ذلك واضحا جليا

[٥٣٩٨] – العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الألباني:ص:٤٩

سلّط عليهم شرٌ منهم كما سلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجـــوس (فجاسوا خلال الدّيار وكان وعْداً مفْعولاً)'' [5399]

وعَنْ رَجُلٍ،مِنْ قُرَيْشٍ:أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ،عَهِدَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ:«عَلَيْكَ بِتَقْـــوَى اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ يَنْزِلُ بِكَ،فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ،وَأَبْلَغُ الْمَكِيدَةِ،وَأَقْوَى الْقُوَّةِ،وَلَا تَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَدَاوَةِ عَدُوِّكَ أَشَدَّ احْتِرَاسًا لِنَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ،فَإِنَّ الذُّنُوبَ أَخْوَفُ عِنْدِي عَلَى النَّاسِ مِنْ مَكِيدَةِ عَدُوِّهِمْ،وَإِنَّمَا نُعَادِي عَــدُوَّنَا وَنَسْتَنْصِـــرُ عَلَـــيْهِمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ،وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا قُوَّةٌ بِهِمْ،لِأَنَّ عَـــدَدَنَا لَـــيْسَ كَعَـــدَدِهِمْ،وَلَا قُوَّتُنَـــا كَقُوَّتِهِمْ،فَإِنْ لَا نُنْصَرْ عَلَيْهِمْ بِمَقْتِنَا لَا نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا،وَلَا تَكُونُنَّ لِعَدَاوَةِ أَحَدٍ مِـــنَ النَّـــاسِ أَحْذَرَ مِنْكُمْ لِذُنُوبِكُمْ،وَلَا أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْكُمْ لِذُنُوبِكُمْ،وَاعْلَمُوا أَنَّ عَلَـــيْكُمْ مَلَائِكَـــةَ اللهِ حَفَظَةٌ عَلَيْكُمْ،يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ فِي مَسِـــيرِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ،فَاسْـــتَحْيُوا مِنْهُمْ،وَأَحْسِـــنُوا صَحَابَتَهُمْ،وَلَا تُؤْذُوهُمْ بِمَعَاصِي اللهِ،وَأَنْتُمْ زَعَمْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَلَا تَقُولُوا أَنَّ عَدُوَّنَا شَرٌّ مِنَّا،وَلَنْ يُنْصَرُوا عَلَيْنَا وَإِنْ أَذْنَبْنَا،فَكَمْ مِنْ قَوْمٍ قَدْ سُلِّطَ – أَوْ سُخِطَ – عَلَيْهِمْ بِأَشَرَّ مِنْهُمْ لِذُنُوبِهِمْ،وَسَلُوا اللهَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ كَمَا تَسْأَلُونَهُ الْعَوْنَ عَلَى عَدُوِّكُمْ،نَسْأَلُ اللهَ ذَلِكَ لَنَا وَلَكُمْ،وَأَرْفِقْ بِمَنْ مَعَكَ فِي مَسِيرِهِمْ فَلَا تُجَشِّمْهُمْ مَسِيرًا يُتْعِبُهُمْ،وَلَا تَقْصُرْ بِهِمْ عَـــنْ مَنْزِلٍ يَرْفُقُ بِهِمْ حَتَّى يَلْقَوْا عَدُوَّهُمْ وَالسَّفَرُ لَمْ يُنْقِصْ قُوَّتَهُمْ وَلَا كُرَاعَهُمْ فَإِنَّكُمْ تَسِيرُونَ إِلَى عَدُوٍّ مُقِيمٍ جَامِّ الْأَنْفُسِ وَالْكُرَاعِ وَإِلَّا تَرْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ وَكُرَاعِكُمْ فِي مَسِـــيرِكُمْ،يَكُنْ لِعَدُوِّكُمْ فَضْلٌ فِي الْقُوَّةِ عَلَيْكُمْ فِي إِقَـــامَتِهِمْ فِـــي جِمَـــامِ الْـــأَنْفُسِ وَالْكُـــرَاعِ،وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ،أَقِمْ بِمَنْ مَعَكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً لِتَكُونَ لَهُمْ رَاحَـــةً يَجْمَعُـــونَ بِهَـــا أَنْفُسَهُمْ وَكُرَاعَهُمْ،وَيَرُمُّونَ أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتِعَتَهُمْ،وَنَحِّ مَنْزِلَكَ عَنْ قُرَى الصُّلْحِ،وَلَا يَدْخُلْهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ لِسُوقِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ،إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِهِ وَتَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ،فَلَا يُصِـــيبُوا فِيهَا ظُلْمًا،وَلَا يَتَزَوَّدُوا مِنْهَا إِثْمًا،وَلَا يَرْزَئُونَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا شَيْئًا إِلَّا بِحَقٍّ،فَإِنَّ لَهُمْ حُرْمَةً وَذِمَّةً،ابْتُلِيتُمْ بِالْوَفَاءِ بِهَا،كَمَا ابْتُلُوا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا،فَلَا تَسْتَنْصِرُوا عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِظُلْـــمِ أَهْلِ الصُّلْحِ،وَلْتَكُنْ عُيُونُكَ مِنَ الْعَرَبِ مِمَّنْ تَطْمَئِنُّ إِلَى نُصْحِهِ مِنْ أَهْـــلِ الْأَرْضِ،فَـــإِنَّ

[5399] – انظر :قصة التتار (ص:٢٩٦)

الْكَذُوبَ لَا يَنْفَعُكَ خَبَرُهُ،وَإِنْ صَدَقَ فِي بَعْضِهِ،وَإِنَّ الْغَاشَّ عَيْنٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ بِعَيْنٍ لَكَ»[٥٤٠٠]

وعَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ،فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا،وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ،وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،وَإِنَّ رَبِّي قَالَ:يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ،وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ،وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا،وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[٥٤٠١].

وهذا نص في أن العدو الكافر لا يتسلط على المسلمين إلا إذا بلغوا من الفساد مبلغا وهذا أمر قدري.فهل الواجب - إذا تسلط العدو الكافر على المسلمين - هو الاقتصار على دفع السبب القدري للعدوان (بإصلاح ما بالأنفس) أم الواجب هو دفع العدوان بما شرعه الله تعالى من الجهاد؟ وما الذي أجمع عليه سلف الأمة في هذا المقام:التربية أم وجوب الجهاد العيني؟.

وأيهما أوجب قتاله:المرتد كهؤلاء الحكام أم الكافر الأصلي كاليهود؟.

وأيهما أوجب قتاله:العدو الأقرب إلى المسلمين كهؤلاء الحكام أم الأبعد كاليهود؟.قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة:١٢٣]

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ،وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إِلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ،وَبِذلِكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ

[٥٤٠٠] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٣٠٣) فيه جهالة

[٥٤٠١] - صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥)١٩ - (٢٨٨٩)

[ش (زوى) معناه جمع (الكنزين الأحمر والأبيض) المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام (فيستبيح بيضتهم) أي جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام]

مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ،إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ،وَلِهَذَا بَـدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ،وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ،لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ.وَهَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَـوْا أُمَّـةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ،ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا.[٥٤٠٢]

١١ – وما قاله الشيخ من ضرورة إصلاح القاعدة لتأسيس البناء عليها نتفق معه في أنـه لابد من الدعوة والتربية لتكوين طائفة تقوم بالجهاد لدفع فتنـة الكافرين،أمـا الـدعوة والتربية المطلقة هكذا دون أن نضع الجهاد نصب أعيننا فأرى أنها لن تأتي بنتيجـة إذ إن عوامل الهدم والإفساد تعمل هي الأخرى وتدعمها وزارات التعليم والإعلام والأوقـاف الحكومية وتحميها أجهزة القمع البوليسي،كما أعود فأذكر بأن الاقتصار علـى التربيـة كوسيلة للإصلاح فيه حيدة عن الواجب الشرعي وهو الجهاد.وفيه مخالفة لهدى النبي ﷺ فإنه لم يسلك مسلك التربية المطلقة هكذا.وإنما دعا حتى تكونت طائفـة ذات شـوكة جاهد بها الكفار،امتثالاً لما أمره به الله تعالى عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ،أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ،قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:" أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ،مِمَّا عَلَّمَنِـي يَوْمِي هَذَا،كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ،وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ،وَإِنَّهُـمْ أَتَـتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ،وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ،وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِـي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا،وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ،فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ،إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،وَقَالَ:إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ،وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًـا لَـا يَغْسِـلُهُ الْمَاءُ،تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ،وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا،فَقُلْتُ:رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِـي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً،قَالَ:اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَـا اسْـتَخْرَجُوكَ،وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ،وَأَنْفِـقْ فَسَـنُنْفِقَ عَلَيْكَ،وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ،وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ،قَالَ:وَأَهْلُ الْجَنَّـةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ،وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْـبِ لِكُـلِّ ذِي قُرْبَـى وَمُسْلِمٍ،وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ،قَالَ:وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ:الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ،الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا،وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَـهُ طَمَـعٌ،وَإِنْ دَقَّ إِلَّـا

[٥٤٠٢] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٣٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

خَانَهُ،وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ " وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو غَسَّانَ فِي حَدِيثِهِ:«وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ»[٥٤٠٣]،ولقوله تعالى:{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } [النساء:٨٤].فجعل سبحانه وتعالى تحريض المؤمنين طريقاً لكف بأس الكافرين ودفع فتنتهم بالجهاد وهذه الآية والحديث قبلها نصّان واضحان في إفادة المراد.

نعم العلم والتربية حق وجزء من الإعداد للجهاد من أجل تكوين طائفة ذات شوكة قادرة على التمكين لدين الله تعالى في الأرض،ومع ذلك نقول:إذا اكتملت القوة المادية لطائفة مجاهدة و لم تكن على المستوى التربوي المرضي فالواجب شرعاً الجهاد معها،عملا بما استقر عند أهل السنة والجماعة من الغزو مع البر والفاجر.

[٥٤٠٣] - صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧)٦٣ - (٢٨٦٥)

[ش (كل مال نحلته عبدا حلال) في الكلام حذف أي قال الله تعالى كل مال الخ ومعنى نحلته أعطيته أي كل مال أعطيته عبدا من عبادي فهو له حلال والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك وأنها لم تصر حراما بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق (حنفاء كلهم) أي مسلمين وقيل طاهرين من المعاصي وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا فاجتالتهم وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل وقال شمر اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها (فمقتهم) المقت أشد البغض والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم (إلا بقايا من أهل الكتاب) المراد بهم الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) معناه لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك وأبتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف وينابذ بالعداوة والكفر ومن ينافق (كتابا لا يغسله الماء) معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على مر الزمان (إذا يثلغوا رأسي) أي يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز أي يكسر (نغزك) أي نعينك (لا زبر له) أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي وقيل هو الذي لا مال له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمده (لا يتبعون) مخفف ومشدد من الاتباع أي يتبعون ويتبعون وفي بعض النسخ يبتغون أي يطلبون (والخائن الذي لا يخفى له طمع) معنى لا يخفى لا يظهر قال أهل اللغة يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته وكتمته هذا هو المشهور وقيل هما لغتان فيهما جميعا (وذكر البخل أو الكذب) هكذا هو في أكثر النسخ أو الكذب وفي بعضها والكذب والأول هو المشهور في نسخ بلادنا (الشنظير) فسره في الحديث بأنه الفحاش وهو السيئ الخلق]

ومما يزيد من خطورة هذه الشبهة للشيخ الألباني أنها أصبحت مدرسة قائمة بـــذاتها لهـــا أتباع يردّدونها في كثير من بلدان المسلمين،بل صارت هذه الشبهة حجة لكل قاعد عـــن الجهاد ولكل راكن إلى الدنيا ومن هؤلاء الأتباع من يداهن الطواغيت ويشـــاركهم في برلماناتهم الشركية،أي تربية هذه التي لا تبدأ بالكفر بالطاغوت؟.قال تعالى:{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِـــالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٥٦] نفي قبل الإثبات كما في شهادة (لا إله إلا الله) وأيّ تربية هذه التي لا تبدأ بالبراءة من الكافرين،ملـــة إبـــراهيم عليـــه السلام،وقال تعالى:{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون:٦]

وأي تربية هذه التي لا تثْمر أمراً بمعروفٍ ونهياً عن منكرٍ،شرط خيْريّة هذه الأمة؟.

لقد صار للشيخ أتباع مقلدون في هذه الشبهة وغيرها وإن السلفية – مع اعتراضنا على هذه التسمية – لا ينبغي أن تكون مـــذهبا،فإنها مـــا أبـــرزت إلا لمحاربـــة التعصـــب المذهبي،فينبغي أن تكون السلفية منهجا قائما على تحري الدليل واتباعه.فالسلفية منـــهج وليست مذهبا،قال تعالى:{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَـــابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة:٤٤].

ولقد قلت – من قبل – وأكرّر هنا:إن هذه الفتنة فتنة الحكام المرتدين،تفوق فتنة خلـــق القرآن في خطرها على الأمة،ولا يليق بالشيخ الألباني أن تصدر عنه مغالطات في هـــذه المسألة.

الشبهة السابعة - اشتراط التربية قبل الجهاد

علينا أن نتكلّم عن مفهوم التّربية في الطّرح السنيّ المهتدي،كما هو مفهوم من الكتـــاب والسنّة،ثمّ بعد ذلك نرى قرب الفهم الجديد لهذا المفهوم الســـنيّ المهتـــدي.التّربيـــة في الكتاب والسنّة:

قال تعالى:(هو الّذي بعث في الْأمّيّين رسولاً منْهمْ يتْلو عليْهمْ آياته ويزكّيهمْ ويعلّمهم الْكتاب والْحكْمة وإنْ كانوا منْ قبْل لفي ضلالٍ مبينٍ) (الجمعة:٢) فهذه الآيات ومثلها الّتي في البقرة (١٢٩) وآل عمران (١٦٤)،تدلّ على أن عنوان البعثة النّبوية هي تحقيق التّزكية في نفوس أتباع الشّريعة المهديّة،والتزكية هي التطهير،وهي البراءة عن النّقائص واجتناب الرّذائل،ومجمل شريعة محمد ﷺ مجموعة في الآية السّابقة:وهي:

١ – تلاوة الحقّ على النّاس/ البلاغ.

٢ – التّزكية / التطهير / التربية.

٣ – تعليم الكتاب والسنّة / الفقه.

وقد علم الطالب المبتدئ في ديننا الحقّ أن الإسلام هو استماع الحقّ،ومعرفته والعمل به،أي:استماع – علم – عمل.وهي نفسها المذكورة في الآية تلاوة وتعليم وعمل.وقيام العلم في الإنسان دون العمل مذموم في الكتاب والسّنة،كذلك قيام العمل دون العلم مذموم في الكتاب والسنّة،وأدلة ذلك مبسوطة في كتب العلم المشتهرة.

فما هي التّزكية إذاً كما تقدم؟.إنّها ممارسة الأمر.

ومعنى ذلك أن المتبع لهدي الإسلام هو من تربّى وتزكّى بامتثاله لأمر الله تعالى،ومثاله أنّ من أراد تربية نفسه وتزكيتها فعليه أن يطبق أمر الله تعالى،ومعلوم أن كلّ أمر له أثر تربوي خاصّ به،فللصّلاة أثر تربويّ لا يحدثه الصّيام،كما للصّيام أثراً تربويا لا تحدثه الصّلاة،وللزّكاة أثر تربويّ لا يحدثه الصيام ولا الصّلاة،وهكذا.

فالتّربية تقع من الإنسان حين يمتثل أمر الله تعالى ويطبّقه في نفسه،ومع أن هذا الكلام مفهوم ومعقول ويكاد يكون من السّذاجة أن نذكره،ولكن ماذا نصنع إن طرح النّاس مفهوماً جديداً للتربية؟!!.

ما هو المفهوم البدعيّ للتّربية؟.

التّربية في أذهان بعضهم هي مرحلة تسبق تطبيق الأمر.فالمرء يحتاج إلى فترة سابقة حتّى يصل إلى مرحلة ما (اختلف عليها) فيصبح بعد ذلك مربّياً ليستحقّ بعد ذلك الدّخول في الأمر الإلهي وتطبيقه.

وسئل بعض هؤلاء القوم إلى الدّرجة التي يمكن لنا أن نسمّي عندها المسلم:مربّياً؟.
فأجاب غير مشكور:لقد شغلني هذا السؤال كثيراً،وتساءلت مرارا:ما هي الحالة الّتي ينبغي أن نسعى إليها ونتوقّف عندها حتّى نشْرع بالجهاد القتاليّ،فهديت إليه.قال هذا السّلفي المزعوم (وهو ''عدنان عرعور''):هو أن نصل إلى درجة ذلك الصّحابيّ الّذي قدم زوجته للآخر عن طيب نفس.ا.هـ.[٥٤٠٤]

وهو يشير إلى هذه الحادثة المذكورة في صحيح البخاريّ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ،فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ:إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا،فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي،وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا،فَإِذَا حَلَّتْ،تَزَوَّجْتَهَا،قَالَ:فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:لاَ حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ:سُوقُ قَيْنُقَاعٍ،قَالَ:فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ،فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ،قَالَ:ثُمَّ تَابَعَ الغُدُوَّ،فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«تَزَوَّجْتَ؟»،قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:«وَمَنْ؟»،قَالَ:امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ،قَالَ:«كَمْ سُقْتَ؟»،قَالَ:زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ -،فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:«أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»[٥٤٠٥]

فهؤلاء كما ترون يطرحون التّربية كمرحلة تسبق تطبيق الأمر الإلهي،والحقّ الّذي قدّمناه؛أن التّربية هي تطبيق الأمر الإلهيّ نفسه.
والملاحظ على هذه الطريقة من التّفكير النّقاط التّالية:
١ - أن هذا الخطاب المتقدّم يقرّ به على الإجمال أصحاب التّربية المعاصرة،فإنّهم يقولون إنّ مرحلة التّربية تتمّ عن طريق الأعمال الصّالحة من صلاة وصوم وذكر وقيام وأعمال

[٥٤٠٤] - ٧٩٣http://www.tawhed.ws/pr?i=
.html٢٦٢٦/blog-post_٠٢/٢٠٠٩.blogspot.com/١٧http://zuheer

[٥٤٠٥] - صحيح البخاري (٣/ ٥٢)(٢٠٤٨)

[ش (آخى) من المؤاخاة وهي أن يتعاقد الرجلان على التناصر والمواساة حتى يصيرا كالأخوين نسبا.(هويت) أردت وأحببت.(قينقاع) قبيلة من قبائل اليهود الذين كانوا في المدينة.(الغدو) الذهاب أول النهار إلى السوق.(أثر صفرة) أثر الطيب الذي استعمله عند الزفاف.(كم سقت) كم أعطيتها مهرا.(زنة نواة) وزنها.(أولم) اصنع وليمة وهي الطعام الذي يصنع أيام العرس]

صالحة أخرى،لكنّهم حين يكون الأمر يتعلّق بالجهاد من أجل إقامة الحق الإلهيّ في الأرض،فإنّهم ينتكسون ويقولون إن على المسلمين أن يتربوا قبل أن يجاهدوا،والسّؤال الموجّه إليهم:لو قال لكم قائل:على المسلمين أن يتربّوا قبل أن يصلّوا،أو عليهم أن يتربّوا قبل أن يصوموا،فماذا سيكون الجواب؟ قطعا سيقول السّامع:إنّ هذا الكلام يهرف به صاحبه ولا يعقل ما يقول،لأنّ الصّلاة هي نفسها تربية،وكذلك الصّيام،وكذلك الزّكاة،وجميع الأعمال الصّالحة،فلماذا يختلف الأمر حين يكون الحديث عن الجهاد؟.

أليس الجهاد هو أعظم مسالك التّربية؟.

وهل الجهاد إلا مرحلة من مراحل إعداد المرء المؤمن لدخول الجنان يوم لقاء الله تعالى؟.

أليس في الجهاد فتنة للنّفوس لتتخلّص من حبّ الدّنيا ومن الأنانيّة؟.

أليس في الجهاد يحصل أعظم درجات التّوكّل واليقين على موعود الله تعالى؟.

وعلى هذا فالتّربية بتطبيق الأمر الإلهي بالجهاد وليست هي مرحلة تسبق الجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد يقتنص بعضهم حادثة أو حوادث من ممارسات المجاهدين غير المنضبطة ليتّخذها ذريعة على قوله،فإنّه قد يقع بعض المجاهدين في بعض الأخطاء الشّرعية،وهذا أمر يقع في كلّ التّجمّعات (حتى التّجمّع من أجل صلاة الجماعة)،فيسارع هؤلاء المنفلتون من المصحّات العقلية في تضخيم الحدث،وتسويقه بين النّاس،وإشاعته عن المجاهدين حتّى ينفر النّاس منهم،وليدلّلوا بهذا الحدث أو الحوادث على صواب رأيهم أن الأمّة لم تبلغ بعد المرحلة الّتي ينبغي أن تجاهد عندها.

والجواب على هذه التّصوّرات القبيحة الّتي يقع بها هؤلاء من وجوه،أهمّها:

أولاً:من المعلوم في علوم أهل السنّة أنه قد يجمع الرّجل الواحد إيماناً وضلالاً،صلاحاً وفساداً في آن واحد،لأنّ الإيمان عندنا يتجزّأ،وعلى هذا فقد يجتمع في الرّجل المسلم المجاهد بعض الصّفات المذمومة،وهذا واقع في كلّ أطوار البشرية وفي كلّ تجمّعاتها.فما هو السّبيل الحقّ في معالجة هذه الحالة؟.

أهل الانحراف من أصحاب مفهوم التّربية العصريّة يطرحون الأسلوب التّالي وهو:أنّه ينبغي على الشّخص أن يترك الجهاد (الخير) حتى يتخلّص من الشّر.

وعلى قاعدهم هذه فإنّ من جمع ضلالاً وصلاحاً فالواجب عليه أن يترك الصّلاح فيه حتى يذهب الباطل فيه؟!!،وهو قول يكفي أن يردّه العاقل حين تصوّره له.

وأمّا الحكم الشّرعي في هذه الواقعة:فهو تثبيت الحقّ لديه ودعمه وتحذيره،مع محاولة تقويمه وإرشاده بالإقلاع عن الباطل الذي لديه.

ثانياً:لو أردنا أن نقتنص السيّئات في هذه التّجمعات التي تزعم التّربية المعاصرة أو نعدّه عليهم لملأت الكراريس والدّفاتر،وحينئذٍ فسيّئاهم تكون مضعّفة لأنّهم يزعمون التّربية بخلاف غيرهم.

ثالثاً:عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٥٤٠٦]،وعصمة الأفراد والتجمّعات من الأخطاء لن تكون في هذه الدّنيا.

٢ - أن التّربية ليست مرحلة زمنيّة ثمّ تنتهي،بل هي تزكية للنّفس حتّى الممات،ولا تتوقّف عند حدٍّ معيّن كما هي في الفكر الصّوفي المنحرف،فهؤلاء حين يتصوّرون أن إقامة الإسلام يتمّ عن طريق تربية النّفس التي تسبق هذه الإقامة هم مخالفون لأبجديّات هذا الدّين العظيم[٥٤٠٧].

الشبهة الثامنة – عمليات المجاهدين..بين المصالح والمفاسد

الجواب هو قول الله تعالى:{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٤٠]

[٥٤٠٦] - سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٥٩)(٢٤٩٩) حسن

[٥٤٠٧] - http://www.tawhed.ws/pr?i=٧٩٣

ففي هذه الآية بيان منزلة الجهاد وأن الله يدفع به عن المسلمين تسلّط الكفار وإذلالهم المسلمين وإهانتهم لشعائرهم،ودور عبادهم،أَيْ:لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِقَوْمٍ،ويكشفُ شَرّ أُنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ،بِمَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ،لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ،وَأَهْلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ.[5408]

وقال الطبري:" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْلَا دِفَاعَهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ،لَهُدِّمَ مَا ذَكَرَ،مِنْ دَفْعِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ،وَكَفِّهِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمُسْلِمِينَ عَنْ ذَلِكَ؛وَمِنْهُ كَفُّهُ بِبَعْضِهِمُ التَّظَالُمَ،كَالسُّلْطَانِ الَّذِي كَفَّ بِهِ رَعِيَّتَهُ عَنِ التَّظَالُمِ بَيْنَهُمْ؛وَمِنْهُ كَفُّهُ لِمَنْ أَجَازَ شَهَادَتَهُ بَيْنَهُمْ بِبَعْضِهِمْ عَنِ الذَّهَابِ بِحَقِّ مَنْ لَهُ قِبَلَهُ حَقٌّ،وَنَحْوُ ذَلِكَ.وَكُلُّ ذَلِكَ دَفْعٌ مِنْهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ،لَوْلَا ذَلِكَ لَتَظَالَمُوا،فَهَدَّمَ الْقَاهِرُونَ صَوَامِعَ الْمَقْهُورِينَ،وَبِيَعَهُمْ،وَمَا سَمَّى جَلَّ ثَنَاؤُهُ.وَلَمْ يَضَعِ اللَّهُ تَعَالَى دَلَالَةً فِي عَقْلٍ عَلَى أَنَّهُ عَنَى مِنْ ذَلِكَ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ،وَلَا جَاءَ بِأَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ خَبَرٌ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ،فَذَلِكَ عَلَى الظَّاهِرِ وَالْعُمُومِ،عَلَى مَا قَدْ بَيَّنْتُهُ قَبْلُ،لِعُمُومِ ظَاهِرِ ذَلِكَ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا ""[5409]

وقال الخطيب:"يبيّن أن هذا التدافع بين الناس..بين الخير والشر..بين الحق والباطل..بين الأقوياء والضعفاء..بين الأغنياء والفقراء..بين الأفراد والأفراد..وبين الجماعات والجماعات..وبين الأمم والأمم- هذا التدافع فى كل موقع من مواقع الحياة،وفى كل متجه فيها،وعلى كل مورد مواردها- هو الذي يحرك دولاب العمل على هذه الأرض،ويبعث الحياة فى كل جانب منها..ولو كان النّاس متجها واحدا،ومذهبا واحدا،وشعورا واحدا،وتفكيرا واحدا،ومنزعا واحدا- لكانوا شيئا واحدا..كانوا كتلة باردة متضحمة،أشبه بجبل من الجليد،لا تطلع عليه الشمس أبدا!! فسبحان من خالف بين النّاس فجعل من هذا التخالف مادة الحياة والبناء والعمران،ولولا ذلك لفسدت الأرض وضاع الناس:«وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» [5410].

[5408] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٤٣٥)

[5409] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٦/ ٥٧٩)

[5410] - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٣١١)

وقال السعدي:" لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى،وإظهار دينه {ولكن الله ذو فضل على العالمين} حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها،وأسباب لا يعلمونها."[5411]

وفي الظلال:"لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة،لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع،فتنفض عنها الكسل والخمول،وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة،وتظل أبدا يقظة عاملة،مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء..يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة.تعرف الحق الذي بينه الله لها.وتعرف طريقها إليه واضحا.وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض.وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل،وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..وهنا يمضي الله أمره،وينفذ قدره،ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا،ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية،التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه.وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر.ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض،وتمكين الصلاح في الحياة.إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار."[5412]

ويتضح هذا المعنى جلياً بقول الله تعالى:﴿فقاتلْ في سبيل اللّه لا تكلّف إلّا نفْسك وحرّض الْمؤْمنين عسى اللّه أنْ يكفّ بأْس الّذين كفروا واللّه أشدّ بأْساً وأشدّ تنْكيلاً﴾ (النساء:٨٤)

[5411] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٠٩)

[5412] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٥٢٠)

فإذاً لابد من مدافعة الكفار وصد عدوانهم وهذا ما يجتهد فيه المجاهدون نسأل الله لنا النصر،والمدافعة للكفار لابد منها لحفظ التوازن ولو بنسبةٍ ما،وحين تفقد هذه المدافعة فإن المد الكفري المتلبس بلبوس العولمة أو لبوس المصالح أو غيرها من الأقنعة والألبسة سيمتد دون مدافعة،وحينئذ فلن يكون لبرامج الدعوة والتعليم وغيرها من المشاريع الإسلامية خطوط مدافعة وسيصل إليها العدو مباشرة.

ومن هنا يجب أن يتفهم هذه المدافعة طلبةُ العلم ورجال الدعوة وغيرهم من الإسلاميين وأن يدركوا أن المجاهدين يشكلون لهم خط الدفاع الأول وإن اختلفوا معهم في بعض الجزئيات،والواقع الآن خير شاهد على ذلك فالبلاد التي لا يشعر العدو الصليبي أن فيها مدافعةً من قبل الإسلاميين،يتحول من ملاحقة أصحاب المدافعة إلى ملاحقة رجال الدعوة أو الإغاثة،فالعدو قد قسّم المسلمين إلى عدة خطوط وبدأ بالأهم ثم المهم،فإذا فرغ من الخط الأول وهم أصحاب الجهاد فإنه سيتجه إلى الخط الثاني وهكذا حتى يأتي على الإسلام كلّه ليفرض الإسلام الذي يريده هو،وهذا لا بد أن يفهمه أصحاب التريّث الذي يظنون أن تريّثهم واعتدالهم وإرضاء الصليبيين عنهم يمكن أن يؤمنهم من أعداء الله الذين قال الله تعالى عنهم:(ولنْ ترْضى عنْك الْيهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهمْ) (البقرة:١٢٠) وقال:﴿ما يودّ الّذين كفروا منْ أهْل الْكتاب ولا الْمشْركين أنْ يـنزّل عليْكمْ منْ خيْرٍ منْ ربّكمْ واللّه يخْتصّ برحْمته منْ يشاء واللّه ذو الْفضْل الْعظيم﴾ (البقرة:من الآية ١٠٥)[٥٤١٣].

الشبهة التاسعة -أنت تريد منا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة ليبطش بنا الحكام إذا خرجنا عليهم كما بطشوا بأهل حماة وغيرها

والجواب على هذه الشبهة أن إلقاء النفس إلى التهلكة إنما هو في ترك الجهاد في سبيل الله والإنفاق كذلك وليس العكس

[٥٤١٣] - http://www.hwazn.com/vb/showthread.php?t=٣٧٨٢٧&page=٣

قال تعالى:{ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ،قَالَ:كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ،فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ،فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،وَعَلَى الجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ،فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا:سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ.فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ،وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ،فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ،وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ،فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا،فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا.فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥]،فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا،وَتَرْكَنَا الغَزْوَ «فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ،شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ»..[٥٤١٤]

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:قُلْتُ لِلْبَرَاءِ:الرَّجُلُ يَحْمِلُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ،أَهُوَ مِمَّنْ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ:" لَا،لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ،فَقَالَ:{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} [النساء:٨٤] إِنَّمَا ذَاكَ فِي النَّفَقَةِ "[٥٤١٥]

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،قَالَ:قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:أَحْمِلُ عَلَى الْكَتِيبَةِ بِالسَّيْفِ فِي أَلْفٍ،مِنَ التَّهْلُكَةِ ذَاكَ؟ قَالَ:" لَا،إِنَّمَا التَّهْلُكَةُ أَنْ يُذْنِبَ الرَّجُلُ الذَّنْبَ ثُمَّ يُلْقِيَ بِيَدَيْهِ،ثُمَّ يَقُولَ:لَا يُغْفَرُ لِي "[٥٤١٦].

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيَّ،أَخْبَرَهُ:أَنَّهُمْ حَاصَرُوا دِمَشْقَ،فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ،فَأَسْرَعَ إِلَى الْعَدُوِّ وَحْدَهُ [ص:١٠٦] يَسْتَقْبِلُ،فَعَابَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،وَرَفَعُوا حَدِيثَهُ إِلَى عَمْرِو

[٥٤١٤] - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢١٢)(٢٩٧٢) صحيح

[٥٤١٥] - مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٤٢٧)(١٨٤٧٧) حسن

[٥٤١٦] - السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٧٨)(١٧٩٢٦) صحيح

بْنِ الْعَاصِ،وَهُوَ جُنْدٌ مِنَ الْأَجْنَادِ،فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَمْرٌو،فَرَدَّهُ،وَقَالَ لَهُ عَمْرٌو:إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:٤] وَقَالَ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ:فَهَذَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَدْ جَعَلَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ بِمِثْلِ مَا طَلَبَ ذَلِكَ الرَّجُلُ لِقَاءَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّهْلُكَةِ وَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ عَمْرٍو لَيْسَ فِيهِ إِخْبَارٌ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتِ الْآيَةُ،وَحَدِيثُ أَبِي أَيُّوبَ فِيهِ الْإِخْبَارُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ،وَفِي خَبَرِ أَبِي أَيُّوبَ التَّوْقِيفُ عَلَى السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ وَهُمْ فَلَمْ يَعْلَمُوا نُزُولَهَا،وَلَا السَّبَبَ الَّذِي أُرِيدَ بِنُزُولِهَا فِيهِ،إِلَّا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِتِلَاوَتِهِ إِيَّاهَا عَلَيْهِمْ،وَبِإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمُ السَّبَبَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ،وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ مِمَّا فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رُوِّينَاهُ عَنْهُ كَانَ مَا تَأَوَّلَهَا عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ لَهُ وَاسِعٌ،إِذْ كَانَتْ مُحْتَمِلَةً لِمَا تَأَوَّلَهَا عَلَيْهِ،وَلَوْ وَقَفَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا يُخَالِفُ ذَلِكَ لَتَمَسَّكَ بِهِ،وَلَرَدَّ تَأْوِيلَهُ إِلَيْهِ،وَلَمْ يَقُلْ فِي تَأْوِيلِهَا خِلَافَهُ،وَالَّذِي يَكُونُ مِمَّنْ يَطْلُبُ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ،وَتَأَوَّلَ فِي حَدِيثِ عَمْرٍو هَذَا مِمَّا يَطْلُبُ بِهِ النِّكَايَةَ فِي الْعَدُوِّ،وَصَاحِبُهُ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ،وَاللهُ أَعْلَمُ،الَّذِي أَرَادَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رُوِّينَاهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْبَابِ،حَتَّى تَلَا مِنْ أَجْلِهِ الْآيَةَ الَّتِي تَلَاهَا،وَهِيَ:{الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [النساء:٧٤]،وَهِيَ أَجَلُّ الْمَرَاتِبِ وَأَعْلَاهَا،وَقَدْ كَانَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ مُؤْتَةَ مِثْلُ ذَلِكَ"

فَعَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:حَدَّثَنِي أَبِي الَّذِي أَرْضَعَنِي،وَكَانَ أَحَدَ بَنِي مُرَّةَ قَالَ:شَهِدَ مُؤْتَةَ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ،فَرَأَيْتُ جَعْفَرًا حِينَ لَاحَمَهُ الْقِتَالُ،اقْتَحَمَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءَ،ثُمَّ عَقَرَهَا،وَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ،فَكَانَ أَوَّلَ رَجُلٍ عَقَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ يَوْمَئِذٍ " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:وَذَلِكَ كَانَ مِنْهُ بِحَضْرَةِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ،وَهُوَ بِحَضْرَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ،وَبِحَضْرَةِ مَنْ خَلْفَهُ فِي الْقِتَالِ،وَهُوَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الَّذِي حَمِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَسَمَّاهُ لِذَلِكَ:سَيْفَ اللهِ،وَبِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ سِوَاهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ مِنْهُ،وَلَمْ يُنْكِرُوهُ عَلَيْهِ وَمِمَّا نُحِيطُ عِلْمًا بِهِ:أَنَّهُ قَدْ تَنَاهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فِعْلِهِ فَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ،وَلَمْ يَنْهَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ

مِثْلِهِ،فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنْ أَجَلِ الْأَفْعَالِ،وَأَنَّ الثَّوَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الثَّوَابِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،وَأَنَّ تَأْوِيلَ الْآيَةِ الَّتِي تَلَوْنَاهَا كَمَا رُوِّينَاهُ،عَنْ أَبِي أَيُّوبَ فِي تَأْوِيلِهَا لَا كَمَا سِوَاهُ مِمَّا يُخَالِفُ ذَلِكَ وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ"[٥٤١٧]

وعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ أَبِي جَبِيرَةَ قَالَ:«كَانَتِ الْأَنْصَارُ يَتَصَدَّقُونَ،يُعْطُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ،فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ فَأَمْسَكُوا»،فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥][٥٤١٨]

قال الطبري:"اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ،وَمَنْ عَنَى بِقَوْلِهِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] فَقَالَ بَعْضُهُمْ:عَنَى بِذَلِكَ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:١٩٥] وَسَبِيلُ اللَّهِ:طَرِيقُهُ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَسْلُكَ فِيهِ إِلَى عَدُوِّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِجِهَادِهِمْ،وَحَرْبِهِمْ {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] يَقُولُ:وَلَا تَتْرُكُوا النَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَإِنَّ اللَّهَ يُعَوِّضُكُمْ . مِنْهَا أَجْرًا وَيَرْزُقُكُمْ عَاجِلًا

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ «تُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا مِشْقَصٌ،أَوْ سَهْمٌ،شُعْبَةُ الَّذِي يَشُكُّ فِي ذَلِكَ»

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ «لَيْسَ التَّهْلُكَةُ أَنْ يَقْتُلَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَكِنِ الْإِمْسَاكُ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

وعَنْ عِكْرِمَةَ،قَالَ " نَزَلَتْ فِي النَّفَقَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،يَعْنِي قَوْلَهُ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] "

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ،أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ " كَانَ الْقَوْمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَيَتَزَوَّدُ الرَّجُلُ،فَكَانَ أَفْضَلَ زَادًا مِنَ الْآخَرِ أَنْفَقَ الْبَائِسُ مِنْ زَادِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْ زَادِهِ شَيْءٌ أَحَبُّ أَنْ يُوَاسِيَ

[٥٤١٧] -شرح مشكل الآثار (١٢/ ١٠٥) صحيح

[٥٤١٨] - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (١/ ٣٣٢)(١٧٥٠) صحيح

صَاحِبَهُ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] "

وعَنْ عَامِرٍ،" أَنَّ الْأَنْصَارَ،كَانَ احْتَبَسَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الرِّزْقِ،وَكَانُوا قَدْ أَنْفَقُوا نَفَقَاتٍ،قَالَ:فَسَاءَ ظَنُّهُمْ وَأَمْسَكُوا.قَالَ:فَأَنْزَلَ اللَّهُ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ:وَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ سُوءَ ظَنِّهِمْ وَإِمْسَاكَهُمْ "

وعَنْ قَتَادَةَ،قَوْلُه:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ:وَكَانَ قَتَادَةُ يُحَدِّثُ أَنَّ [ص:٣١٦] الْحَسَنَ حَدَّثَهُ " أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَافِرُونَ وَيَغْزُونَ وَلَا يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ،أَوْ قَالَ:لَا يُنْفِقُونَ فِي ذَلِكَ،فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُنْفِقُوا فِي مَغَازِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "

تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٣٢٤)

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ بِقَوْلِهِ:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة:١٩٥] وَسَبِيلُهُ:طَرِيقُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ وَأَوْضَحَهُ لَهُمْ.وَمَعْنَى ذَلِكَ:وَأَنْفِقُوا فِي إِعْزَازِ دِينِي الَّذِي شَرَعْتُهُ لَكُمْ بِجِهَادِ عَدُوِّكُمُ النَّاصِبِينَ لَكُمُ الْحَرْبَ عَلَى الْكُفْرِ بِي وَنَهَاهُمْ أَنْ يُلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ،فَقَالَ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] وَذَلِكَ مَثَلٌ،وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْمُسْتَسْلِمِ لِلْأَمْرِ:أَعْطَى فُلَانٌ بِيَدَيْهِ،وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلْمُمَكِّنِ مِنْ نَفْسِهِ مِمَّا أُرِيدَ بِهِ أَعْطَى بِيَدَيْهِ.فَمَعْنَى قَوْلِهِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] وَلَا تَسْتَسْلِمُوا لِلْهَلَكَةِ فَتُعْطُوهَا أَزِمَّتَكُمْ فَتَهْلِكُوا وَالتَّارِكُ النَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ وُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ مُسْتَسْلِمٌ لِلْهَلَكَةِ بِتَرْكِهِ أَدَاءَ فَرْضِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ.وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَ أَحَدَ سِهَامِ الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ الثَّمَانِيَةِ فِي سَبِيلِهِ،فَقَالَ:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة:٦٠] إِلَى قَوْلِهِ:{وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [التوبة:٦٠] فَمَنْ تَرَكَ إِنْفَاقَ مَا لَزِمَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى مَا لَزِمَهُ كَانَ لِلْهَلَكَةِ مُسْتَسْلِمًا وَبِيَدَيْهِ لِلتَّهْلُكَةِ مُلْقِيًا.وَكَذَلِكَ الْآيِسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِذَنْبٍ سَلَفَ مِنْهُ مُلْقٍ بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:{وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}

[يوسف:٨٧] وَكَذَلِكَ التَّارِكُ غَزْوَ الْمُشْرِكِينَ وَجِهَادَهُمْ فِي حَالِ وُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي حَالِ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ،مُضَيِّعٌ فَرْضًا،[ص:٣٢٥] مُلْقٍ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ.فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا يَحْتَمِلُهَا قَوْلُهُ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَصَّ مِنْهَا شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ،فَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ:إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنِ الْإِلْقَاءِ بِأَيْدِينَا لِمَا فِيهِ هَلَاكُنَا،وَالِاسْتِسْلَامِ لِلْهَلَكَةِ،وَهِيَ الْعَذَابُ،بِتَرْكِ مَا لَزِمَنَا مِنْ فَرَائِضِهِ،فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ مِنَّا الدُّخُولُ فِي شَيْءٍ يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنَّا مِمَّا نَسْتَوْجِبُ بِدُخُولِنَا فِيهِ عَذَابَهُ.غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ،فَإِنَّ الْأَغْلَبَ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَةِ:وَأَنْفِقُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَلَا تَتْرُكُوا النَّفَقَةَ فِيهَا فَتَهْلَكُوا بِاسْتِحْقَاقِكُمْ بِتَرْكِكُمْ ذَلِكَ عَذَابِي،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَوْلِهِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:١٩٥] قَالَ " التَّهْلُكَةُ:عَذَابُ اللَّهِ " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:فَيَكُونُ ذَلِكَ إِعْلَامًا مِنْهُ لَهُمْ بَعْدَ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِالنَّفَقَةِ مَا لِمَنْ تَرَكَ النَّفَقَةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ فِي الْمَعَادِ.فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:فَمَا وَجْهُ إِدْخَالِ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ.{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} [البقرة:١٩٥] وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ أَلْقَيْتُ إِلَى فُلَانٍ دِرْهَمًا،دُونَ أَلْقَيْتُ إِلَى فُلَانٍ بِدِرْهَمٍ؟ قِيلَ:قَدْ قِيلَ إِنَّهَا زِيدَتْ نَحْوَ زِيَادَةِ الْقَائِلِ فِي الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ:جَذَبْتُ بِالثَّوْبِ،وَجَذَبْتُ الثَّوْبَ،وَتَعَلَّقْتُ بِهِ،وَتَعَلَّقْتُهُ،وَ {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون:٢٠] وَإِنَّمَا هُوَ تَنْبُتُ الدُّهْنَ.وَقَالَ آخَرُونَ:الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ:{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} [البقرة:١٩٥] أَصْلٌ لِلْكَلِمَةِ،لِأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَاقِعٌ كُنِّيَ عَنْهُ فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا،نَحْوَ قَوْلِكَ فِي رَجُلٍ:«كَلَّمْتُهُ»،فَأَرَدْتَ الْكِنَايَةَ عَنْ فِعْلِهِ،فَإِذَا أَرَدْتَ ذَلِكَ قُلْتَ:«فَعَلْتُ بِهِ» قَالُوا:فَلَمَّا كَانَ الْبَاءُ هِيَ الْأَصْلُ جَازَ إِدْخَالُ الْبَاءِ وَإِخْرَاجُهَا فِي كُلِّ فِعْلٍ سَبِيلُهُ سَبِيلُ كَلِمَتِهِ.وَأَمَّا التَّهْلُكَةُ،فَإِنَّهَا التَّفْعِلَةُ مِنَ الْهَلَاكِ"[٥٤١٩]

==============

وكذلك هذا نوع من تدليس شياطين الإنس حيث يقولون ذلك عن المؤمنين:

قال تعالى:{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ

[٥٤١٩] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣/ ٣١٢)

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) } [الأنفال:]

لّما اقْترب المسْلمون من المشْركين،ولاحظ المشْـــركون قلّـــة عـــدد المسْلمين،اسْــتخفّوا بهمْ،وظنّوا أنّهمْ هازموهمْ لا محالة،فقال بعْضهمْ لبعْضٍ:غرّ هؤلاء دينهمْ حتّى أقْدموا على قتال قريْشٍ معْ قلّة عددهمْ وكثْرة عدد عدوّهمْ.ولكنّ النّصْر ليْس بكثْرة العدد،فإنّ مـــنْ يتوكّل على الله،ويسلّم أمْره إليه،فإنّه يكون قد الْتجأ إلى جانبٍ عزيزٍ منيعٍ لا يضام.والله حكيمٌ يعْرف وضْع الأمور في مواضعها،فينْصر منْ يسْتحقّ النّصْر.

ولوْ عاينْت يا محمّد الكفّار حينما تأْتي الملائكة لقبْض أرْواحهمْ،إذاً لرأيْت أمْراً عظيمـــاً مهولاً،إذْ يضْربون (يوْم بدْرٍ) وجوههمْ بالسّيوف إذا أقْدموا،ويضْـــربون أدْبـــارهمْ إذا ولّوا،ويقولون لهمْ:ذوقوا عذاب الحريق،بسبب كفْركمْ وسوء أعْمالكمْ.

(وقال بعْض المفسّرين إنّ هذه الآية تشْمل أيْضاً حالة موافاة الملائكة الكفّار وهمْ على فراش الموْت لقبْض أرْواحهمْ،ونفوسهمْ ترْفض الخروج،لما تعْلمه ممّا ارْتكبتْه منْ شـــرورٍ ومآثم في الدّنْيا،ولما تعْلمه ممّا ينْتظرها منْ عذاب الله الشّديد في الآخرة،كما جاء في آيـــةٍ أخْرى { ولوْ ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيْـــديهمْ أخرجـــوا أنْفسكم.}

ويتابع الملائكة حديثهمْ مع الكفّار وهمْ يقْبضون أرْواحهمْ،فيقولون لهمْ:إنّ هذا العذاب الذي ينْزل بكمْ إنّما كان بسبب ما قدّمتْ أيْديكمْ،وما عملْتمْ منْ سيّئاتٍ في حيـــاتكم الدّنْيا،وإنّ الله تعالى لا يظْلم أحداً منْ خلْقه،وهو الحكم العدْل الذي لا يجوز أبداً.[٥٤٢٠]

الظرف «إذ» متعلق بالفعل «خرجوا» فى قوله تعالى:«وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِـــنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ».فالظرف هنا حال من تلك الأحوال التي تلبّس بهـــا خـــروج المشركين لقتال المسلمين فى بدر..

ففى الحال التي خرج فيها المشركون بطرا ورئاء الناس..كان هناك المنافقون والـــذين فى قلوبهم مرض يستصغرون شأن المسلمين،ويسلقوهم بألسنة حداد،ويرموهم بـــالغرور..إذ

[٥٤٢٠] - .أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:١٢١٠، بترقيم الشاملة آليا)

كيف- وهم فى هذا العدد القليل- يتصدّون لقريش،ويتعرضون لعيرها،ثم لا يقفون عند هذا،بل يخفّون للقائها فى ميدان القتال! وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض،بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم،ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا..فقال تعالى:«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فهؤلاء المسلمون- وإن كانوا قلة- قد كان لهم من التوكل على الله،والثقة فيه،ما يجعل من قلتهم كثرة،ومن ضعفهم قوة.فهم أعزّاء أقوياء،بعزّة العزيز الحكيم،وقوته..والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض:هم من كان فى المدينة من منافقى اليهود،وغيرهم.

وقوله تعالى:«وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ».إشارة إلى ما حلّ بالمشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس،من بلاء ونكال فى يوم بدر الذي خرجوا له،وهم على تلك الحال التي كانت تستولى عليهم من الزّهو والخيلاء..فهاهم أولاء يتلقّون الصفعات على وجوههم،والضربات على أدبارهم،كما يفعل بعيدهم وإمائهم..!

فأين العزّة والمنعة؟ وأين السطوة والجاه؟ لقد تعرّوا من هذا كلّه،ولبسوا ثوب الخزي والمهانة،ونزلوا إلى أسوأ مما كان عليه الأرقاء..من عبيد وإماء! وإذا كانت تلك الأيدى التي تناولتهم بالصفع على وجوههم،وتلك الأرجل التي أخذتهم بالرّكل على أدبارهم،أيديا خفيّة لا ترى،لأنها يد القوى السماوية التي سلطها الله عليهم يومئذ- فإنّ هناك أيديا شوّهت هذه الوجوه بضربات السيوف،وركلت هذه الأدبار بأزجّة الرّماح،وهى أيد رآها الناس رأى العين،وشهدوا آثارها وأفعالها فى هؤلاء السادة المتكبرين..إنها أيدى أولئك المسلمين الذين استرهبهم المشركون بزهوهم وخيلائهم،وغمزهم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض بقوارص الكلم،وسيىء القول.

وقوله تعالى:«وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» هو بيان للمصير الذي صار إليه أولئك المشركون الذين أذلّ الله كبرياءهم فى هذا اليوم،يوم بدر،وهو مصير مشئوم،يلقى بهم فى سواء الجحيم،حطبا لجهنم،ووقودا لسعيرها..وذلك الذي حلّ بالمشركين من هوان فى الدنيا،وعذاب فى الآخرة،هو جزاء لما كان منهم،وما قدّمت أيديهم من سوء..«ذلِكَ بِما

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» ! وقد اختلف فى المراد بالخطاب فى قوله تعالى:«وَلَوْ تَرى» أهو خطاب خاص للنبى؟ أم هو لكل من شهد المعركة؟ أم هو خطاب عام غير مقيد بشخص أو بوقت،بل هو لكل من يستمع إلى هذا الخطاب؟

والرأى،أنه خطاب عام لكل من استمع أو يستمع إليه.وفى قوله تعالى:«وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» – ما يسأل عنه؟

لماذا جاء التعبير بنفي الظلم عن الله بصيغة المبالغة «ظلّام» ؟ وهل إذا انتفت المبالغة فى الظلم أينتفى معها الظلم نفسه؟

والجواب– والله أعلم– أن صيغة المبالغة هنا إنما تكشف عن وجه البلاء الذي وقع بالمشركين،وأنه بلاء عظيم،وعذاب أعظم،وأن الذي ينظر إليه يجد ألا جريمة توازى هذا العقاب وتتوازن معه،فى شدّته،وشناعته،حتى ليخيّل للناظر أن القوم قد ظلموا،وأنه قد بولغ فى ظلمهم إلى أبعد حد،فجاء قوله تعالى:«وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» ليدفع هذا الوهم الذي يقع فى نفس من يرى هذا البلاء الذي حلّ بهؤلاء القوم الضّالين،وهو بلاء فوق بلاء،فوق بلاء!! قوله تعالى:«كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ».الدّأب:الحال والشأن..أي أن ما فعله الله بهؤلاء المشركين،الذين علوا فى الأرض،وبغوا،قد فعله– سبحانه– بأمثالهم ممن علوا وبغوا..ومن هؤلاء آل فرعون،ومن كان قبلهم من الطّغاة والظالمين– قد أخذهم الله بذنوبهم،ولم يعصمهم من عقاب الله،ما كانوا عليه من جبروت وقوة،فإن قوة الله لا تدفعها قوة،وبأسه لا يردّه بأس:«إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ».هذا،ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى:«كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ» هو عائد إلى المشركين،لا إلى آل فرعون..أي أن شأن المشركين كشأن آل فرعون..قد كفروا مثل كفرهم..والرأى عندنا أن هذا الوصف عائد على آل فرعون،حيث يبرز من هذا الوصف حال المشبّه به– وهم آل فرعون– على صورة كاملة،يستغنى بها عن وصف المشركين بأية صفة بعد أن ألحقوا بآل فرعون فى كل مالهم من صفات،كان الكفر أظهر ألوانها..

والسؤال هنا: لم كان حكم الله هذا واقعا على آل فرعون ومن كان قبلهم،مع أنه حكم واقع على كل جبار مفسد متكبر،سواء أكان قبل آل فرعون أو بعدهم؟

والجواب- والله أعلم- أنّ من كان قبل آل فرعون،قد وقعوا تحت هذا الحكم فعلا..أما من بعدهم،فمنهم من أخذه الله بهذا العقاب،ومنهم من ينتظر دوره مع حركة الحياة،وسير الزّمن..وهذا يعنى أن من بعد آل فرعون من الظّلمة والآثمين،وإن أخذ بعضهم بهذا العقاب،فإن آخرين- ومنهم المشركون والمنافقون الذين عاصروا النبوة- ينتظرون وقوع هذا الحكم بهم،وأن الباب قد فتح لهم ليدخلوا فيما دخل فيه الظالمون قبلهم..وفى هذا تهديد،ووعيد لمن كان على هذا الطريق،أو سيكون عليه،لينجو بنفسه،ويأخذ سبيلا غير هذه السبيل التي هو عليها.[٥٤٢١]

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أي:شك وشبهة،من ضعفاء الإيمان،للمؤمنين حين أقدموا – مع قِلَّتهم – على قتال المشركين مع كثرتهم.

{غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ} أي:أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها،ولا استطاعة لهم بها،يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعقولهم،وهم – والله – الأخِفَّاءُ عقولا الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام،فإن المؤمن المتوكل على الله،الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى،وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه،ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه،وعلم أنه على الحق،وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه،فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة،وكان واثقا بربه،مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا،.ولهذا قال {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} لا يغالب قوته قوة.{حَكِيمٌ} فيما قضاه وأجراه.

يقول تعالى:ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم،و {الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}

[٥٤٢١] – التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٦٣٤)

يقولون لهم:أخرجوا أنفسكم،ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج،لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.ولهذا قال:{وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق} أي:العذاب الشديد المحرق،ذلك العذاب حصل لكم،غير ظلم ولا جور من ربكم،وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت،وهذه سنة الله في الأولين والآخرين،فإن دأب هؤلاء المكـــذبين أي:سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم المكذبة.{كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَــذَهُمُ اللَّهُ} بالعقاب {بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} لا يعجزه أحد يريد أخذه {مَـــا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}.[٥٤٢٢]

وفي الظلال:

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل:إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة - ولكن لم تصح عقيدتهم و لم تطمئن قلوبهم - خرجوا مع النفير مزعزعين،فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة! والمنافقون والـــذين في قلـــوبهم مـــرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور،دون أن تهـــديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة،والثقـــة في الله،والتوكـــل عليه،واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحهـــا القـــوة الحقيقية..فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم،مغرورين بدينهم،واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها! إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان.ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر..فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئا وراءه والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي! الواقـــع الـــذي يشـــمل جميـــع القوى،ويوازن بينها موازنة صحيحة:«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

[٥٤٢٢] - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٣)

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة،ويقرر النتيجة،ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان.

وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض،عن العصبة المسلمة يوم بدر:«غر هؤلاء دينهم»..هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه وعدمًا الأساسية التي تملكها هي هذا الدين وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت،وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر،وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة،وللأخطار الواضحة..إنهم هم لا يعرفون مبررا لهذا التهور - كما يسمونه - وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة!..إنهم يحسبون الحياة كلها - بما فيها الدين والعقيدة - صفقة في سوق التجارة.إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى!..إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن،ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان..إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائما فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين:النصر والغلب،أو الشهادة والجنة..ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله..وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه،وأن ترى بنور الله وهداه،وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة،وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله،وأن تلقي بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين:«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»....وصدق الله العظيم..[٥٤٢٣]

===============

[٥٤٢٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٢٠٧٤)

وأما بطش الحكام بنا فهو دائم ومستمر،سواء قمنا في وجههم أم لا،وسجونهم مملوءة بالأخيار الأبرار فكم قتلوا وشردواوأسروا من المسلمين.

فالحقيقة هذا عذر أقبح من ذنب،فهل سيتكرم علينا الحكام،ويقولون لنا سنحكم بما أنزل الله وسنضع يدنا بيدكم وسنفيء إلى رشدنا ؟؟!!

هذا من سابع المستحيلات، لم يحدث هذا في التاريخ كله ولن يحدث أبدا

بل لا بد من دفع الثمن الغالي والنفيس حتى نحصل ما نريد،وإذا لم نفعل ذلك فلن يكون سوى الدمار والهلاك وغضب الله تعالى.

قال تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة:٢١٤]

قال الخازن:" هل حسبتم والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان و لم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من إتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والابتلاء والاختبار وهو قوله:وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ أي شبه الذين مضوا قبلكم من النبيين وأتباعهم من المؤمنين ومثل محنتهم مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ أي أصابهم الفقر والشدة والمسكنة وهو اسم من البؤس وَالضَّرَّاءُ يعني المرض والزمانة وضروب الخوف وَزُلْزِلُوا أي وحركوا بأنواع البلايا والرزايا وأصل الزلزلة الحركة وذلك لأن الخائف لا يستقر بل لا يزال يضطرب ويتحرك لقلقه حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء وكذا أتباعهم من المؤمنين.والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء و لم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى في الشدة فلما بلغ بهم الحال في الشدة إلى هذه الغاية واستبطئوا النصر قيل لهم أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ إجابة لهم في طلبهم.والمعنى:هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق"[٥٤٢٤]

[٥٤٢٤] - تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التتريل (١/ ١٤٣)

وقال الرازي:"بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الطَّلَبَ لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِلَّا بِاحْتِمَالِ الشَّدَائِدِ فِي التَّكْلِيفِ فَقَالَ:أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ الْآيَةِ الثَّانِي:أَنَّهُ فِي الْآيَةِ السَّالِفَةِ ما بَيَّنَ أَنَّهُ هَدَاهُمْ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ بعد تلك الْهِدَايَةِ احْتَمَلُوا الشَّدَائِدَ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ وَصَبَرُوا عَلَى الْبَلْوَى،فَكَذَا أَنْتُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ لَا تَسْتَحِقُّونَ الْفَضِيلَةَ فِي الدِّينِ إِلَّا بِتَحَمُّلِ هَذِهِ الْمِحَنِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ تَقْدِيرَ الْآيَةِ:أَمْ حَسِبْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمُجَرَّدِ الْإِيمَانِ بِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي،دُونَ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ بِكُلِّ مَا تَعَبَّدَكُمْ بِهِ،وَابْتَلَاكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ،وَأَنْ يَنَالُكُمْ مِنْ أَذَى الْكُفَّارِ،وَمِنَ احْتِمَالِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ،ومكايدة الضُّرِّ وَالْبُؤْسِ فِي الْمَعِيشَةِ،وَمُقَاسَاةِ الْأَهْوَالِ فِي مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ،كَمَا كَانَ كَذَلِكَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،وَأَمَّا الضَّرَّاءُ فَالْأَقْرَبُ فِيهِ أَنَّهُ وُرُودُ الْمَضَارِّ عَلَيْهِ مِنَ الْآلَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَضُرُوبِ الْخَوْفِ،وَعِنْدِي أَنَّ الْبَأْسَاءَ عِبَارَةٌ عَنْ تَضْيِيقِ جِهَاتِ الْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ عَلَيْهِ،وَالضَّرَّاءُ عِبَارَةٌ عَنِ انْفِتَاحِ جِهَاتِ الشَّرِّ وَالْآفَةِ وَالْأَلَمِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ:وَزُلْزِلُوا أَيْ حُرِّكُوا بِأَنْوَاعِ الْبَلَايَا وَالرَّزَايَا قَالَ الزَّجَّاجُ:أَصْلُ الزَّلْزَلَةِ فِي اللُّغَةِ مِنْ أَزَالَ الشَّيْءَ عَنْ مَكَانِهِ فَإِذَا قُلْتَ:زَلْزَلْتُهُ فَتَأْوِيلُهُ أَنَّكَ كَرَّرْتَ تِلْكَ الْإِزَالَةَ فَضُوعِفَ لَفْظُهُ بِمُضَاعَفَةِ مَعْنَاهُ،وَكُلُّ مَا كَانَ فِيهِ تَكْرِيرٌ كُرِّرَتْ فِيهِ فَاءُ الْفِعْلِ،نَحْوُ صَرَّ،وَصَرْصَرَ،وَصَلَّ وَصَلْصَلَ،وَكَفَّ،وَكَفْكَفَ،وَأَقَلَّ الشَّيْءَ،أَيْ رَفَعَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ،فإذا كرر قيل:قلقل،وفسر بعضهم زُلْزِلُوا هاهنا بِخُوِّفُوا،وَحَقِيقَتُهُ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا،وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَائِفَ لَا يَسْتَقِرُّ بَلْ يَضْطَرِبُ قَلْبُهُ،وَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْخَوْفِ الْمُقِيمِ الْمُقْعِدِ،لِأَنَّهُ يُذْهِبُ السُّكُونَ،فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ زلزلوا هاهنا مَجَازًا،وَالْمُرَادُ:خُوِّفُوا،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مُضْطَرِبِينَ لَا يَسْتَقِرُّونَ لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْخَوْفِ،ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ذَكَرَ شَيْئًا آخَرَ وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ الضُّرِّ/ وَالْبُؤْسِ وَالْمِحْنَةِ،فَقَالَ:حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَكُونُونَ فِي غَايَةِ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ وَضَبْطِ النَّفْسِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ،فَإِذَا لَمْ يَبْقَ

لَهُمْ صَبْرٌ حَتَّى ضَجُّوا،كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْغَايَةَ الْقُصْوَى فِي الشِّدَّةِ،فَلَمَّا بَلَغَتْ بِهِمُ الشِّدَّةُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَظِيمَةِ قِيلَ لَهُمْ:أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ إِجَابَةً لَهُمْ إِلَى طَلَبِهِمْ،فَتَقْدِيرُ الْآيَةِ هَكَذَا:كَانَتْ حَالُهُمْ إِلَى أَنْ أَتَاهُمْ نَصْرُ اللَّهِ وَلَمْ يُغَيِّرْهُمْ طُولُ الْبَلَاءِ عَنْ دِينِهِمْ،وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كُونُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَحَمَّلُوا الْأَذَى وَالْمَشَقَّةَ فِي طَلَبِ الْحَقِّ،فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ،لِأَنَّهُ آتٍ،وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ،وَهَذِهِ الْآيَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ:الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ [الْعَنْكَبُوتِ:١- ٣] وَقَالَ:أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آلِ عِمْرَانَ:١٤٢] وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَنَالُهُمُ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ،وَلَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ نَالَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَالنُّفُوسِ مَا لَا يَخْفَى،فَعَزَّاهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَبَيَّنَ أَنَّ حَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي طَلَبِ الدِّينِ كَانَ كَذَلِكَ،وَالْمُصِيبَةُ إِذَا عَمَّتْ طَابَتْ،وَذَكَرَ اللَّهُ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلْقَائِهِ فِي النَّارِ،وَمِنْ أَمْرِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ،وَمِنْ أَمْرِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي مُصَابَرَتِهِمْ عَلَى أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ مَا صَارَ ذَلِكَ فِي سَلْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ.[٥٤٢٥]

وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ،قَالَ:شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ،قُلْنَا لَهُ:أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا،أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ،فَيُجْعَلُ فِيهِ،فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ،وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ،وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ،حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ،لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ،وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[٥٤٢٦]

================

[٥٤٢٥] - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦/ ٣٧٧)

[٥٤٢٦] - صحيح البخاري (٤/ ٢٠١)(٣٦١٢)

[ش (متوسد بردة) جعلها وسادة له.(تستنصر) تطلب النصرة من الله تعالى.(ليتمن) من الإتمام والكمال.(هذا الأمر) وهو الإسلام.(تستعجلون) النتائج والثمرات]

ولا بد من الابتلاء والفتنة و المحن:

قال تعالى:{ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [العنكبوت:٢،٣]

أظَنَّ الناس إذ قالوا:آمنا،أن الله يتركهم بلا ابتلاء ولا اختبار؟

ولقد فتنَّا الذين من قبلهم من الأمم واختبرناهم،ممن أرسلنا إليهم رسلنا،فليعلمنَّ الله علمًا ظاهرًا للخلق صدق الصادقين في إيمانهم،وكــذب الكــاذبين؛ليميز كــلٌّ فريــق مــن الآخر.[٥٤٢٧] وقال تعالى: {أمْ حسبْتمْ أن تدْخلواْ الْجنّة ولمّا يعْلم اللّه الّذين جاهــدواْ مــنكمْ ويعْلــم الصّابرين(١٤٢) ولقدْ كنتمْ تمنّوْن الْموْت من قبْل أن تلْقوْه فقدْ رأيْتموه وأنتمْ تنظرون} (١٤٣) سورة آل عمران

يبين الله تعالى أن سبيل العزة والنصر والكرامة في الدنيا،والثواب في الآخرة،منوط بالجهاد والقتال،والصبر والتضحية،فليست الحياة العزيزة مفروشة بالورود،وليس الفوز والنصــر مجرد منحة إلهية من غير عمل وجهاد،فلا بد للفوز في الدنيا من الصــلاح والاســتقامة ونصر دين الله وإقامة العدل،ومنع الظلم،وسلوك الطرق السوية المألوفة،وتلك هي ســنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

فلا يصح لكم أيها المؤمنون أن تصابوا بداء الغرور،فتفهموا أن دخول الجنة يكون مــن غير جهاد في سبيل الله،وصبر على المعارك الرهيبة،والجهاد أنواع:

جهاد العدو الظاهر بالسلاح والإعداد لطرده من الأوطان والبلاد،وجهاد النفس بمنعهــا من الأهواء والشهوات وحملها على الطاعة والفضيلة والعمل الصــالح،وجهاد باللســان بالحرب الإعلامية الموجهة المدروسة،وجهاد حب المال عند البذل في الأعمــال العامــة النافعة،وإذا لم يعلم الله وقوع الجهاد والصبر،فذلك دليل على عدم وقوعه بالفعــل مــن المؤمنين[٥٤٢٨]

==============

[٥٤٢٧] - التفسير الميسر (١/ ٣٩٦)

[٥٤٢٨] - التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٢٤٢)

وكذلك لا بد من دفع الباطل وقذفه بالحق:

قال تعالى:{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة:٢٥١]

فهزموهم بإذن الله،وقتل داود -عليه السلام- جالوتَ قائدَ الجبابرة،وأعطى الله عز وجل داود بعد ذلك الملك والنبوة في بني إسرائيل،وعَلَّمه مما يشاء من العلوم.ولولا أن يدفع الله ببعض الناس -وهم أهل الطاعة له والإيمان به- بعضًا،وهم أهل المعصية لله والشرك به،لفسدت الأرض بغلبة الكفر،وتمكُّن الطغيان،وأهل المعاصي،ولكن الله ذو فضل على المخلوقين جميعًا.[٥٤٢٩]

وقال تعالى:{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج:٤٠]

الذين أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم،لا لشيء فعلوه إلا لأهم أسلموا وقالوا:ربنا الله وحده.ولولا ما شرعه الله من دَفْع الظلم الذي ينتفع به جميع أهل الأديان المترلة،ورد الباطل بالقتال المأذون فيه لَهُزم الحقُّ في كل أمة ولخربت الأرض،وهُدِّمت فيها أماكن العبادة من صوامع الرهبان،وكنائس النصارى،ومعابد اليهود،ومساجد المسلمين التي يصلُّون فيها،ويذكرون اسم الله فيها كثيرًا.ومن اجتهد في نصرة دين الله،فإن الله ناصره على عدوه.إن الله لَقوي لا يغالَب،عزيز لا يرام،قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم.[٥٤٣٠]

الشبهة العاشرة - هل هناك حالات يجوز فيها الخروج على الحاكم سواءً كان مسلماً أو كافراً؟

الجواب:

[٥٤٢٩] - التفسير الميسر (١/ ٤١)

[٥٤٣٠] - التفسير الميسر (١/ ٣٣٧)

أجمع العلماء قاطبة على أن الحاكم إذا ارتد سقطت طاعته ووجب الخروج عليه.

(وعلى ذلك فنحن مطالبون شرعاً بإزالة منكر هذا الحاكم أي كفره،فإن لم يندفع منكره إلا بقتاله والخروج عليه بالسيف وجب ذلك،قال القرافي في الذخيرة عند تعداده لأسباب الجهاد:" وَهِيَ أَرْبَعَةٌ السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَهُوَ مُعْتَبَرٌ فِي أَصْلِ وُجُوبِهِ وَيَتَّجِهُ أَنْ يَكُونَ إِزَالَةَ مُنْكَرِ الْكُفْرِ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ الْمُنْكَرَات وَمن علم مُنْكرا وَقدر عَلَى إِزَالَته وَجَبَ عَلَيْهِ إِزَالَتُهُ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْله تَعَالَى {وَقَاتلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فتْنَة وَيكون الدّين لله} الْبَقَرَة ١٩٣ الْفتْنَة هِيَ الْكُفْرُ لِقَوْلِه تَعَالَى {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} الْبَقَرَة ١٢١ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ سَبَبًا لَا تنقض بالنِّسْوَان وَالرُّهْبَان وَالْفَلَّاحِينَ وَالزَّمْنَى وَنَحْوِهِمْ فَإِنَّا لَا نَقْتُلُهُمْ مَعَ تَحَقُّقِ السَّبَب وَيَتَّجِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ حِرَاسَةَ الْمُسْلِمِينَ وَصَوْنَ الدِّينِ عَنِ اسْتِيلَاءِ الْمُبْطِلِينَ وَيُعَضِّدُهُ أَنَّ مَنْ أُمِنَ شَرُّهُ مِنَ النسوان وَمن ذكر أَن لَا يُقْتَلَ وَكَذَلِكَ مَنْ أَذْعَنَ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَة وَهُوَ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ رُشْد وَعبد الْوَهَّاب وَيرد عَلَيْهِ أَن ظَاهر النُّصُوص تَقْتَضِي تَرْتِيبَ الْقِتَالِ عَلَى الْكُفْر وَالشِّرْك كَقَوْله تَعَالَى {جَاهد الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} التَّوْبَة ٧٣ و{قَاتلُوا الْمُشْركين كَافَّة} التَّوْبَة ٣٦ وَقَوله - ﷺ - قَاتلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّه وَتَرْتِيبُ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْوَصْفُ لِذَلِكَ الْحُكْمِ وَعَدَمُ عِلِّيَّةِ غَيْرِه."[٥٤٣١].

٢- وأما مخالفة الشيخ لإجماع أهل العلم من السلف الصالح ومن بعدهم فإني أنقل هنا بعض النقول الدالة على ذلك:

أ - فقد نقل الحافظ في الفتح عن ابن التين قوله:" وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنَّهُ أَي الْخَلِيفَةُ إِذَا دَعَا إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَة أَنَّهُ يُقَامُ عَلَيْهِ وَاخْتَلَفُوا إِذَا غَصَبَ الْأَمْوَالَ وَسَفَكَ الدِّمَاءَ وَانْتَهَكَ هَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ أَوْ لَا انْتَهَى وَمَا ادَّعَاهُ مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَى الْقِيَامِ فِيمَا إِذَا دَعَا الْخَلِيفَةُ إِلَى الْبِدْعَةِ مَرْدُودٌ إِلَّا إِنْ حَمَلَ عَلَى بِدْعَةٍ تُؤَدِّي إِلَى صَرِيحِ الْكُفْرِ ".[٥٤٣٢]

[٥٤٣١] - الذخيرة للقرافي (٣/ ٣٨٧)

[٥٤٣٢] - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١١٦)

ب- وقال الحافظ أيضاً في الفتح (١٣٢/١٣):"...وملخصه أنه ينعزل بالكفر إجماعــاً فيجب على كل مسلم القيام في ذلك فمن قوي على ذلك فله الثواب ومن داهن فعليــه الإثم ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض".

ج- وجاء في الفتح أيضاً:وَنقل بن التِّين عَن الدَّاوُدِيِّ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ فِي أُمَــرَاءِ الْجَوْرِ أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى خَلْعِهِ بِغَيْرِ فِتْنَةٍ وَلَا ظُلْمٍ وَجَبَ وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ الصَّبْرُ وَعَنْ بَعْضِهِمْ لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِفَاسِقٍ ابْتِدَاءً فَإِنْ أَحْدَثَ جَوْرًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَدْلًا فَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ وَالصَّحِيحُ الْمَنْعُ إِلَّا أَنْ يَكْفُرَ فَيَجِبُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ "[٥٤٣٣].

د- ونقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض:" قَالَ الْقَاضِي فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْــرٌ وَتَغْيِيرٌ لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَةٌ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ الْوِلَايَةِ وَسَقَطَتْ طَاعَتُهُ وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْــلِمِينَ الْقِيَامُ عَلَيْهِ وَخَلْعُهُ وَنَصْبُ إِمَامٍ عَادِلٍ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِخَلْعِ الْكَافِرِ وَلَا يَجِبُ فِي الْمُبْتَدِعِ إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ فَــإِنْ تَحَقَّقُــوا الْعَجْزَ لَمْ يَجِبِ الْقِيَامُ وَلْيُهَاجِرِ الْمُسْلِمُ عَنْ أَرْضِهِ إِلَى غَيْرِهَا وَيَفِرَّ بِدِينِهِ."[٥٤٣٤].

ه- وقال الإمام ابن كثير بعد ما ذكر الياسق الذي وضعه جنكيز خان:" وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى،مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّــةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ،فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَــرْعًا مُتَّبَعًا،يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ،حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [ﷺ] فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَــثِيرٍ "[٥٤٣٥].

و- وقال الشوكاني بعد كلام له في كفر من يتحاكم إلى غير شرع الله:ولا شــك ولا ريب أن هذا كفر بالله سبحانه وتعالى وبشريعته التي أمر بها على لسان رسوله واختارها لعباده في كتابه وعلى لسان رسوله،بل كفروا بجميع الشرائع من عند آدم عليه الســلام إلى الآن،وهؤلاء جهادهم واجب وقتالهم متعين حتى يقبلوا أحكام الإسلام ويذعنوا لهــا

[٥٤٣٣] - فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨)

[٥٤٣٤] - شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)

[٥٤٣٥] - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٣١)

ويحكموا بينهم بالشريعة المطهرة ويخرجوا من جميع ما هم فيه من الطواغيت الشيطانية."[5436].

ز- وقال ابن عبد البر في الكافي:".." وسأل العمري العابد وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مالك بن أنس فقال:يا أبا عبد الله أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله عز وجل وحكم بغيرها فقال مالك الأمر في ذلك إلى الكثرة والقلة وقال أبو عمر جواب مالك هذا وان كان في جهاد غير المشركين فإنه يشمل المشركين ويجمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،كأنه يقول من علم أنه إذا بارز العدو قتلوه و لم ينل منهم شيئا جاز له الإنصراف عنهم إلى فئة من المسلمين و لم يجز له إباحة دمه لمن لا يقوى عليه ويمكنه ولا ينفع المسلمين بما يحاوله " "[5437].

فهذه النصوص القاطعة من أقوال أهل العلم والحاكية للإجماع على أنه يخرج على الحاكم إذا كفر تبين خطأ الشيخ الألباني فيما ذهب إليه من عدم مشروعية الخروج على الحاكم الكافر.

كما أن المتأمل في صيغة السؤال الموجه للإمام مالك رحمه الله يجد أن السائل لا يسأل عن جواز قتال من يحكم بغير ما أنزل الله،وإنما يسأل عن جواز التخلف عن قتالهم،فإذا علمنا أن السائل هو عبد الله بن عبد العزيز العمري العالم الزاهد الثقة الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر[5438]،أقول إذا علمنا ذلك،علمنا لم كان السؤال بهذه الصيغة،فالعمري العابد رحمه الله قد استقر في ذهنه أن قتال من لم يحكم بما أنزل الله مشروع بل واجب ولكنه يسأل هل من رخصة تسوغ التخلف عن هذا القتال؟ وكان رد الإمام مالك رحمه الله دقيقا أيضا فإنه أرجع الأمر للقلة والكثرة أي للقدرة أي من كان عنده قدرة لم يسعه التخلف ومن كان غير قادر فلا شيء عليه إن هو انصرف عن القتال.

كما أن في تفسير الإمام ابن عبد البر لكلام إمام دار الهجرة رضي الله عنه لفتة طيبة وهي قوله:(جاز له الانصراف) و لم يقل (وجب عليه الانصراف) مما يدل على أن القدرة

[5436] - الدواء العاجل في دفع العدو الصائل (ص:١٤) و[الدواء العاجل في دفع العدو الصائل ص:٢٥]

[5437] - الكافي في فقه أهل المدينة (١/ ٤٦٣)

[5438] - كما في تهذيب التهذيب (٣/١٩٦- ١٩٧)

ليست شرطا في صحة القتال بل هي شرط في وجوبه فمن لم يكن قادراً على الجهاد فلا شيء عليه إن هو تكلف الجهاد فجاهد حتى لو علم أنه لن يحقق النصر على العدو ما دام في ذلك مصلحة شرعية ككسر قلوب الكفار أو تجرئة قلوب أهل الإيمان أو غير ذلك.

٢- أما ما استدل به الشيخ من أن حال المسلمين تحت حكم هؤلاء الحكام يشبه حال النبي ﷺ في العصر المكي وأن الرسول ﷺ لم يقاتل أولئك الكفار في مكة؛فإن المرء ليعجب منه أشد العجب؛إذ كيف للشيخ وهو من هو علماً وتحقيقاً أن يقع في مثل هذا الاستدلال العجيب.

إذ لاشك أن الشيخ يعلم أن دين الله قد كمل وأن نعمته قد تمت وأنه قد كان في العهد المكي أحكام نسخت في العهد المدني منها أن الجهاد كان ممنوعا في العصر المكي ثم فرض في العهد المدني،ونحن مطالبون بآخر أمر النبي ﷺ فما مات عليه النبي ﷺ هو الدين إلى يوم الدين،وليس لأحد أن يعطل حكماً ثبت عن النبي ﷺ بدعوى أننا في حال يشبه العصر المكي وإلا لصح أن يقول قائل:لا نزكي ولا نصوم لأننا في حال يشبه العهد المكي وإنما فرضت الزكاة والصيام في العهد المدني.

بل إننا نضيف إلى ما سبق أنه بافتراض أن هناك شبهة في تكفير هؤلاء الحكام الذين شرعوا للناس ما لم يأذن به الله فإن ذلك لا ينبغي أن يكون مانعاً من قتالهم،ذلك أنهم ممتنعون عن تطبيق أحكام الله وقد وقع الإجماع على أن كل طائفة ذات شوكة امتنعت عن شيء من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى لو كانت مقرة بتلك الشرائع غير جاحدة لها كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدة من الفتاوى،ومن ذلك قوله رحمه الله حين سئل عن قتال التتار:" " كُلُّ طَائفَة مُمْتَنعَة عَنْ الْتزَام شَريعَة منْ شَرَائعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهرَة الْمُتَوَاترَة؛منْ هَؤُلَاء الْقَوْم وَغَيْرهمْ فَإِنَّهُ يَجبُ قتَالُهُمْ حَتَّى يَلْتزمُوا شَرَائعَهُ وَإِنْ كَانُوا مَعَ ذَلكَ نَاطقينَ بالشَّهَادَتَيْنِ وَمُلْتَزمينَ بَعْضَ شَرَائعه كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَانعي الزَّكَاةَ.وَعَلَى ذَلكَ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ بَعْدَهُمْ بَعْدَ سَابقَة مُنَاظَرَة عُمَرَ لأَبي بَكْرٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْقتَالِ عَلَى حُقُوق الْإِسْلَامِ عَمَلًا بِالْكتَابِ وَالسُّنَّة.وَكَذَلكَ ثَبَتَ عَنْ

أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:«يَخرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ،وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ،وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ،وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ،يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ،يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا،وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا،وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا،وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ»[٥٤٣٩].

فَعُلِمَ أَنَّ مُجَرَّدَ الاعْتِصَامِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ عَدَمِ الْتِزَامِ شَرَائِعِهِ لَيْسَ بِمُسْقِطٍ لِلْقِتَالِ.فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ.فَمَتَى كَانَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَالْقِتَالُ وَاجِبٌ.فَأَيُّمَا طَائِفَةٍ امْتَنَعَتْ مِنْ بَعْضِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ أَوْ الصِّيَامِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالْمَيْسِرِ أَوْ عَنْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَوْ عَنْ الْتِزَامِ جِهَادِ الْكُفَّارِ أَوْ ضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ وَمُحَرَّمَاتِهِ – الَّتِي لَا عُذْرَ لِأَحَدِ فِي جُحُودِهَا وَتَرْكِهَا – الَّتِي يَكْفُرُ الْجَاحِدُ لِوُجُوبِهَا.فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ تُقَاتَلُ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَتْ مُقِرَّةً بِهَا.وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.[٥٤٤٠]

وقال رحمه الله:" قِتَالُ التَّتَارِ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى بِلَادِ الشَّامِ وَاجِبٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩] وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ،فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ،وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٧٨] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩].

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الطَّائِفِ لَمَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ،لَكِنْ امْتَنَعُوا مِنْ تَرْكِ الرِّبَا فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ إذَا لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ الرِّبَا،وَالرِّبَا هُوَ

[٥٤٣٩] – صحيح البخاري (٦/ ١٩٧)(٥٠٥٨) وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٣)١٤٧ – (١٠٦٤)

[ش (يتمارى في الفوق) يشك الرامي في مدخل الوتر من السهم هل فيه شيء من أثر الصيد والمعنى أنهم لا تحصل لهم أية فائدة من قراءتهم مثل السهم الذي ينفذ من الصيد دون أن يتعلق به أي أثر منه]

[٥٤٤٠] – المنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص:١٢٢) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٢)

آخرُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ،وَهُوَ مَالٌ يُؤْخَذُ بِرِضَا صَاحِبِهِ،فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يَجِبُ جِهَادُهُمْ،فَكَيْفَ بِمَنْ يَتْرُكُ كَثِيرًا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَكْثَرَهَا كَالتَّتَارِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمُمْتَنِعَةَ إذَا امْتَنَعَتْ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ،فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهَا إذَا تَكَلَّمُوا بِالشَّهَادَتَيْنِ،وَامْتَنَعُوا عَنْ الصَّلَاةِ،وَالزَّكَاةِ،أَوْ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ،أَوْ حَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ،أَوْ عَنْ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،أَوْ عَنْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ،أَوْ الْخَمْرِ،أَوْ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ،أَوْ عَنْ اسْتِحْلَالِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ،أَوْ الرِّبَا،أَوْ الْمَيْسِرِ،أَوْ الْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ،أَوْ عَنْ ضَرْبِهِمْ الْجِزْيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ،وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَإِنَّهُمْ يُقَاتَلُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ. "[٥٤٤١]

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام قد نص عليه غيره من العلماء:

فقد قال النووي في شرح حديث أبي هريرة الذي فيه مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما:" وَفِيهِ وُجُوبُ قتال ما نعى الزَّكَاةِ أَوِ الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا لِقَوْلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا أَوْ عَنَاقًا وَفِيهِ جَوَازُ التَّمَسُّكِ بِالْعُمُومِ لِقَوْلِهِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَفِيهِ وُجُوبُ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَفِيهِ وُجُوبُ الزَّكَاةِ فِي السِّخَالِ تَبَعًا لِأُمَّهَاتِهَا وَفِيهِ اجْتِهَادُ الْأَئِمَّةِ فِي النَّوَازِلِ وَرَدِّهَا إِلَى الْأُصُولِ."[٥٤٤٢].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن عند حديثه عن آية الحرابة في سورة المائدة:" فَإِنْ قِيلَ:فَكَيْفَ يُقَالُ إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنَاوَلَتْ الْمُسْلِمِينَ،وَقَدْ قَالَ:{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المائدة:٣٣]؛وَتِلْكَ صِفَةُ الْكُفَّارِ؟

قُلْنَا:الْحِرَابَةُ تَكُونُ بِالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ،وَقَدْ تَكُونُ بِالْمَعْصِيَةِ،فَيُجَازَى بِمِثْلِهَا،وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة:٢٧٩].فَإِنْ قِيلَ:ذَلِكَ

[٥٤٤١] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٥٥٧) وجامع الرسائل لابن تيمية - رشاد سالم (٢/ ٢١٨) ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٤٤)

[٥٤٤٢] - شرح النووي على مسلم (١/ ٢١٢)

فِيمَنْ يَسْتَحِلُّ الرِّبَا قُلْنَا:نَعَمْ،وَفِيمَنْ فَعَلَهُ،فَقَدْ اتَّفَقَتْ الْأُمَّةُ عَلَى أَنْ مَنْ يَفْعَلُ الْمَعْصِيَةَ يُحَارَبُ،كَمَا لَوْ اتَّفَقَ أَهْلُ بَلَدٍ عَلَى الْعَمَلِ بِالرِّبَا،وَعَلَى تَرْكِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ."[٥٤٤٣].

وقال ابن قدامة في الكافي:" الأذان مشروع للصلوات الخمس دون غيرها،وهو من فروض الكفاية؛لأنه من شعائر الإسلام الظاهرة،فلم يجز تعطيله،كالجهاد،فإن اتفق أهل بلد على تركه،قوتلوا عليه،وإن أذن واحد في المصر أسقط الفرض عن أهله "[٥٤٤٤].

وقال ابن خويزمنداد:" وقال ابن خويز منداد:وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَلَدٍ اصْطَلَحُوا عَلَى الرِّبَا اسْتِحْلَالًا كَانُوا مُرْتَدِّينَ،وَالْحُكْمُ فِيهِمْ كَالْحُكْمِ فِي أَهْلِ الرِّدَّةِ،وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمُ اسْتِحْلَالًا جَازَ لِلْإِمَامِ مُحَارَبَتُهُمْ،أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذِنَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ:" فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"." [٥٤٤٥]

وقال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم:فَإِذَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ،فَإِنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ،وَآتَى الزَّكَاةَ،وَقَامَ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ،فَلَهُ مَا لِلْمُسْلِمِينَ،وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ،وَإِنْ أَخَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ،فَإِنْ كَانُوا جَمَاعَةً لَهُمْ مَنَعَةٌ قُوتِلُوا.."[٥٤٤٦].

قلت:فإذا كانت الطائفة ذات الشوكة تقاتل إذا منعت فريضة واحدة من فرائض الإسلام فإن حكامنا اليوم قد منعوا أكثر فرائض الإسلام،وإلا فليقل لنا الشيخ هل التزم حكامنا جهاد الكفار؟ وهل التزموا ضرب الجزية على أهل الكتاب؟ وهل التزموا تحريم الزنا؟ وهل التزموا أحكام القصاص والحدود والديات؟ وهل،وهل،وهل..

إن الباحث في أحوال حكامنا اليوم يجدهم قد امتنعوا عن أكثر شرائع الإسلام،وهم في أحسن أحوالهم سيقولون نحن مقرون بهذه الشرائع غير جاحدين لها،ولكن هذا الإقرار ليس مانعاً من قتالهم كما سبق بيانه في كلام شيخ الإسلام،فكيف إذا كان هؤلاء الحكام لا يقرون أصلاً بأشياء كثيرة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛فإننا على سبيل المثال نعلم يقيناً أن حكامنا لا يقرون بأحكام أهل الذمة التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله

[٥٤٤٣] - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢/ ٩٣)

[٥٤٤٤] - الكافي في فقه الإمام أحمد (١/ ١٩٩)

[٥٤٤٥] - تفسير القرطبي (٣/ ٣٦٤)

[٥٤٤٦] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٢٣٠)

ويقولون إنه لا فرق بين مسلم ونصراني فالكل أمام القانون سواء،ويقولون إن الجزية شيء قد عفا عليه الزمن وقد حل مفهوم المواطنة محل مفهوم أهل الذمة،كما أن منهم من يصف الحدود الشرعية بالوحشية ومجافاة روح العصر،وغير ذلك كثير.

ومن أجل ذلك نقول إنه ينبغي ألا يكون هناك خلاف في مشروعية الخروج على هؤلاء الحكام المجرمين الذين لم يكتفوا بتعطيل شرع الله وإلزام الناس بالتحاكم إلى قوانين وثنية،فراحوا ينكلون بالدعاة إلى الله ما بين قتل وتشريد وتعذيب وإحالة إلى مجازر وحشية يسموها بالمحاكم العسكرية وليس لهم من هدف في ذلك إلا القضاء على كل دعوة لإقامة شرع الله وتحكيم كتابه في الأرض.

نقول إنه ينبغي ألا يكون هناك خلاف في مشروعية ذلك مع مراعاة الضوابط الشرعية في الخروج من مثل قياس المصالح والمفاسد والالتزام بالأحكام الشرعية في الجهاد والله أعلم)[٥٤٤٧].

الشبهة الحادية عشرة - هل يرى المجاهدون طاعة أولي الأمر أم أنهم ينتهجون الخروج عليهم على أي حال كانوا عليه؟

الجواب:

ولي أمر المسلمين الذي تجب طاعته هو الذي يتولى أمر دين المسلمين لأن هذا هو أمر المسلمين،فليس لهم أمر غير دينهم،فبه صاروا أمة،وبه تحققت شخصية أمتهم الحضارية،وبه وجد كيانهم السياسي،أما من يتولى أمرا آخر،كالذي يحكم بالنظام الدستوري العلماني أيا كان،أو بالنظام الديمقراطي الليبرالي الغربي،أو الفكر القومي الإشتراكي،أو غير ذلك مما هو سوى النظام الإسلامي المحتكم إلى شريعة الله تعالى،فهو ولي أمر ما تولاه،ليس هو ولي أمر المسلمين،وهو يدخل في قوله تعالى { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء:١١٥].فكيف يولّى أمر أمة الإسلام،وقد تولى أمر غيرها ؟!!

[٥٤٤٧] - http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=٠e٢c٨٧١٠٦٧ec٤٧f٤

ولهذا وردت النصوص الآمرة بطاعة ولاة الأمر بقيد إقامة الدين كمـــا في حـــديث أُمِّ الْحُصَيْنِ،قَالَ:سَمِعْتُهَا تَقُولُ:حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ،قَالَتْ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا:ثُمَّ سَمِعْتُهُ،يَقُولُ:" إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ:أَسْـــوَدُ - يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ،فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا " رواه مسلم[٥٤٤٨]

وعَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ عِنْدَهُ فِـــي وَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ:أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ يُحَـــدِّثُ أَنَّـــهُ سَـــيَكُونُ مَلِـــكٌ مِـــنْ قَحْطَانَ،فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ،فَقَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ،فَإِنَّهُ بَلَغَنِـــي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ،وَلاَ تُـــؤْثَرُ عَـــنْ رَسُـــولِ اللَّـــهِ ﷺ،فَأُولَئِكَ جُهَّالُكُمْ،فَإِيَّاكُمْ وَالأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لاَ يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ،إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ،مَا أَقَامُوا الدِّينَ» رواه البخاري[٥٤٤٩]

فذكر أن الحكم بكتاب الله،أي تحكيم الشريعة،وإقامة الدين كذلك،شـــرط في صـــحة ولايتهم التي توجب طاعتهم

وقد وردت أحاديث تبين أنه إن وقع من ولي الأمر الشرعي ظلم في الرعية لايبلغ الكفر البواح أي لم يبلغ مبلغ التنكر للشريعة،ولانبذ التحاكم إليها،ولاترك إقامة الدين،وإنما هو ظلم في دنياهم،أو كما ورد في بعض الأحاديث "أثرة"،أنه لايجوز منازعته الأمـــر،لئلا يؤدي ذلك إلى ضرب وحدة الأمة،فالحفاظ على وحدتها أولى من إزالة ظلم السلطة،كما في صحيح عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ،قَالَ:دَخَلْنَـــا عَلَـــى عُبَـــادَةَ بْـــنِ الصَّـــامِتِ وَهُـــوَ مَرِيضٌ،فَقُلْنَا:حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ،بِحَـــدِيثٍ يَنْفَـــعُ اللهُ بِـــهِ سَـــمِعْتَهُ مِـــنْ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ،فَقَالَ:دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ،فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا:«أَنْ بَايَعَنَا عَلَـــى السَّـــمْعِ

[٥٤٤٨] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٨)٣٧ - (١٨٣٨) ٤

[٥٤٤٩] - صحيح البخاري (٤/ ١٧٩)(٣٥٠٠)

[ش (الأماني) جمع أمنية وهي ما يؤمله الإنسان ويرغب أن يحصل له في مستقبل الأيام.(الأمر) الخلافة والإمارة.(كبه الله) أذله وخذله وألقاه منكوسا في جهنم.(ما أقاموا الدين) أي تجب طاعتهم وعدم منازعتهم طالما أنهم يقيمون شرع الله عز وجل ويلتزمون حدوده فإن قصروا في ذلك أو تجاوزوه جازت منازعتهم وسقطت طاعتهم]

وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا،وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا،وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا،وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»،قَالَ:«إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ "[٥٤٥٠].

وإذا ظهر في السلطة الكفر البواح،فهي سلطة كافرة ليس لها طاعة،ويجب إزالتها مع القدرة،فإن كان المسلمون عاجزين وجب عليهم أن يعدوا العدة،كما قال تعالى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} [التوبة:٤٦] ومن إعداد العدة إرجاع المسلمين إلى دينهم بالدعوة الإسلامية،وتأهيل القيادات الإسلامية التي تقود الأمة إلى إيجاد كيانها السياسي الذي يتحقق به ظهور دينها في الأرض،وتقيم به شريعة الإسلام،وتحمله إلى العالم بالجهاد،ومن إعداد العدة توجيه الأمة إلى ميادين الجهاد،حيث يصبغ الله تعالى جنوده بصبغة الحق مع القوة ويضرب بهم أعداء الأمة،عندما يحشد الإسلام أجناده.

وما كان من الأحكام والقوانين التي بها تتحقق مصلحة الجماعة جماعة المسلمين فعلى جماعة المسلمين التقيد بها،حتى لو كان الحاكم كافرا،من أجل تحقق مصلحة الجماعة،وعود نفعها عليهم،لا من أجل طاعة الكافر المتغلب،فلا طاعة له ولا كرامة ولا نعمة عين،بل له السيف إن قدر عليه،وذلك كما ذكر من العلماء أن المسلمين تحت سلطة الكفار يولون قاضيا يقضي بينهم ويكون نائبا عن الجماعة،وليس نائبا عن السلطان.وأما الأحكام الخاصة فينظر كل امرئ في مصلحة نفسه،ولا تجب عليه طاعة سلطان كافر،بل يجب على المسلم البراءة منه ومن طاعته،ولو اعتقد طاعته من أجل سلطانه أثم،وإن تدين بذلك فقد يكفر والله أعلم.

وأما حديث حذيفة،فإذا جمعت الروايات تبين معناه،وأن معناه إنه سيكون في زمن فرقة،ظهور من وصفهم بالأوصاف المذكورة بين المسلمين،فسأله حذيفة فإن كان زمن

[٥٤٥٠] - صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠)٤٢ - (١٧٠٩)

[ش (بايعنا) المراد بالمبايعة المعاهدة وهي مأخوذة من البيع لأن كل واحد من المتبايعين كان يمد يده إلى صاحبه وكذا هذه البيعة تكون بأخذ الكف(إلا أن تروا كفرا بواحا) أي جهارا من باح بالشيء يبوح إذا أعلنه(عندكم من الله فيه برهان) أي حجة تعلمونها من دين الله تعالى قال النووي معنى الحديث لا تنازعوا ولا ة الأمور في ولاي قمم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين]

الفرقة هذا،فما أصنع،فقال تمسك بإمام المسلمين،كما قال في روايـــة أخـــرى عـــن أبي إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيِّ،أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي،فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّـــةٍ وَشَرٍّ،فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ،فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ» قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ:«نَعَمْ،وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟ قَـــالَ:«قَـــوْمٌ يَهْـــدُونَ بِغَيْـــرِ هَدْيِي،تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:«نَعَمْ،دُعَـــاةٌ إِلَـــى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ،مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ:«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا،وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَـــالَ:تَلْـــزَمُ جَمَاعَـــةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ،قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْـــكَ الفِـــرَقَ كُلَّهَا،وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ،حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٥٤٥١]

فهذا يفسر ذالك ويوضح معناه.أما الذين يقولون على المسلمين أن يكونوا خاضـــعين مطيعين لكل من تغلب عليهم،حتى لو كانوا شياطين في جثامين إنس،فإنما يريدون هـــدم الإسلام بالكلية،وقد غلطوا في فهم حديث واحد،وتركوا قطعيات الدين المدلول عليهـــا بنصوص كثيرة لاتحصى،من أن الله تعالى أوجب على هذه الأمـــة أن تنصـــب الإمامـــة لتحكم بالشريعة وتجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى،فكيف تؤمر بطاعة الشياطين !!

وهي إنما صارت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر،وتجاهد في الله حق جهاده،وإنما يقام هذا كله في إمامة شـــرعية،تحقق بهـــا الأمـــة شخصـــيتها الحضارية،وتقود الأمم إلى سعادة البشرية.نقول هذا إن أحسنا الظـــن بهـــؤلاء الـــذين يدندنون هذه الأيام،حول الرضا بسلطان الطاغوت،ويفتون الناس بأن الرضا بذلك هـــو

[٥٤٥١] - صحيح البخاري (٤/ ١٩٩)(٣٦٠٦) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٧٥)٥١ - (١٨٤٧)

[ش (أسأله عن الشر) أستوضحه عنه.(مخافة أن يدركني) خوفا من أن أقع فيه أو أدرك زمنه.(دخن) من الدخان أي ليس خيرا خالصا بل فيه ما يشوبه ويكدره وقيل الدخن الأمور المكروهة.(تعرف منهم وتنكر) أي ترى منهم أشياء موافقة للشرع وأشياء مخالفة له.(جلدتنا) من أنفسنا وقومنا وقيل هم في الظاهر مثلنا ومعنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم وشؤونهم وجلدة الشيء ظاهره.(جماعة المسلمين) عامتهم التي تلتزم بالكتاب والسنة.(إمامهم) أميرهم العادل الذي اختاروه ونصبوه عليهم.(تعض بأصل شجرة) أي حتى ولو كان الاعتزال بالعض على أصل شجرة والعض هو الأخذ بالأسنان والشد عليها والمراد المبالغة في الاعتزال]

دين الإسلام،حتى نادوا بالخضوع لسلطان بريمر الصليبي في العراق قاتلهم الله،بل بمشروع أمريكا الصليبي على أمتنا أخزاهم الله،أقول هذا إذا أحسنا الظن بهم،وإلا فلا أخالهم إلا قد خرجوا من عباءة الاستخبارات الأمريكية نفسها،لأنهم يؤدون نفس دور القاديانية أيام الاحتلال البريطاني !!

ومن أوضح الأحاديث التي تدل على أن سلطة الحاكم في الإسلام مقيدة حديث:قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالك:أُحَدِّثُكَ حَديثًا مَا أُحَدِّثُهُ كُلَّ أَحَد:إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ عَلَى بَاب وَنَحْنُ فيه،فَقَالَ:«الْأَئمَّةُ منْ قُرَيْش،إنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا،وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مثْلُ ذَلكَ،مَا إن اسْتُرْحمُوا رَحمُوا،وَإنْ عَاهَدُوا وَفَوْا،وَإنْ حَكَمُوا عَدَلُوا،فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلكَ منْهُمْ فَعَلَيْه لَعْنَةُ الله،وَالْمَلَائكَة،وَالنَّاس أَجْمَعينَ»[٥٤٥٢].

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود،أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ:«سَيَلي أُمُورَكُمْ بَعْدي،رجَالٌ يُطْفئُونَ السُّنَّةَ،وَيَعْمَلُونَ بالْبدْعَة،وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقيتهَا» فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّه إنْ أَدْرَكْتُهُمْ،كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ:«تَسْأَلُني يَا ابْنَ أُمِّ عَبْد كَيْفَ تَفْعَلُ؟ لَا طَاعَةَ،لمَنْ عَصَى اللَّهَ»[٥٤٥٣].والله أعلم[٥٤٥٤].

في أي شي تجب طاعة أولي الأمر؟ وفي أي شيء تجب معصيتهم؟

قال ابن تيمية:قال في رده على قول ابن طاهر الحلي:"وَأَمَّا قَوْلُهُ عَنْهُمْ ((كُلُّ مَنْ بَايَعَ قُرَشيًّا انْعَقَدَتْ إمَامَتُهُ وَوَجَبَتْ طَاعَتُهُ عَلَى جَميعِ الْخَلْقِ إذَا كَانَ مَسْتُورَ الْحَال،وَإنْ كَانَ على غاية من الفسق والكفر والنفاق)) "

أَحَدُهَا:أَنَّ هَذَا لَيْسَ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة،وَلَيْسَ مَذْهَبُهُمْ أَنَّهُ بمُجَرَّد مُبَايَعَة وَاحد قُرَشيٍّ تَنْعَقدُ بَيْعَتُهُ،وَيَجبُ عَلَى جَميعِ النَّاسِ طَاعَتُهُ.وَهَذَا وَإنْ كَانَ قَدْ قَالَهُ بَعْضُ أَهْل

[٥٤٥٢] - السنن الكبرى للنسائي (٥/ ٤٠٥)(٥٩٠٩) صحيح

[٥٤٥٣] - سنن ابن ماجه (٢/ ٩٥٦)(٢٨٦٥) صحيح

[٥٤٥٤] - http://forums.moheet.com/showthread.php?t=٤٢١٢٨٧&p=١٤٨٨٦٧

الْكَلَامِ فَلَيْسَ هُوَ قَوْلَ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَلْ قَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]:مَنْ بَايَعَ رَجُلًا بِغَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا ".الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الْوَجْهُ الثَّانِي:أَنَّهُمْ لَا يُوجِبُونَ طَاعَةَ الْإِمَامِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ،بَلْ لَا يُوجِبُونَ طَاعَتَهُ إِلَّا فِيمَا تَسُوغُ طَاعَتُهُ فِيهِ فِي الشَّرِيعَةِ،فَلَا يُجَوِّزُونَ طَاعَتَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ إِمَامًا عَادِلًا،وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَأَطَاعُوهُ:مِثْلَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،وَالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا أَطَاعُوا اللَّهَ،وَالْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ إِذَا أَمَرَ بِمَا هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ لَمْ تَحْرُمْ طَاعَةُ اللَّهِ وَلَا يَسْقُطْ وُجُوبُهَا لِأَجْلِ أَمْرِ ذَلِكَ الْفَاسِقِ بِهَا،كَمَا أَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ بِحَقٍّ لَمْ يَجُزْ تَكْذِيبُهُ وَلَا يَسْقُطْ وُجُوبُ اتِّبَاعِ الْحَقِّ لِكَوْنِهِ قَدْ قَالَهُ فَاسِقٌ،فَأَهْلُ السُّنَّةِ لَا يُطِيعُونَ وُلَاةَ الْأُمُورِ مُطْلَقًا،إِنَّمَا يُطِيعُونَهُمْ فِي ضِمْنِ طَاعَةِ الرَّسُولِ - ﷺ -.

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [سُورَةُ النِّسَاءِ:٥٩]،فَأَمَرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ مُطْلَقًا وَأَمَرَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [سُورَةُ النِّسَاءِ:٨٠]،وَجَعَلَ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ،فَقَالَ:{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ طَاعَةً ثَالِثَةً ؛ لِأَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ لَا يُطَاعُ طَاعَةً مُطْلَقَةً إِنَّمَا يُطَاعُ فِي الْمَعْرُوفِ[٥٤٥٥].

وقال ابن تيمية أيضا رحمه الله:(وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ وَغَيْرُ الْعَدْلِ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا عُلِمَ أَنَّهُ طَاعَةٌ كَالْجِهَادِ.).اهـ[٥٤٥٦]

وقال أيضا:(فَلَيْسَ لِأَحَدٍ إذَا أَمَرَهُ الرَّسُولُ بِأَمْرِ أَنْ يَنْظُرَ هَلْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْ لَا،بِخِلَافِ أُولِي الْأَمْرِ فَإِنَّهُمْ قَدْ يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ،فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَطَاعَهُمْ مُطِيعًا لِلَّهِ،بَلْ لَا بُدَّ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْصِيَةً لِلَّهِ،وَيَنْظُرُ هَلْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْ لَا،سَوَاءٌ كَانَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْأُمَرَاءِ،وَيَدْخُلُ فِي هَذَا تَقْلِيدُ الْعُلَمَاءِ وَطَاعَةُ أُمَرَاءِ السَّرَايَا وَغَيْرُ

[٥٤٥٥] - منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٨٦) ومختصر منهاج السنة (ص:١٠٩)

[٥٤٥٦] - مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٩٦).

ذَلِكَ،وَبِهَذَا يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ قَالَ تَعَالَى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:٣٩]).اهـ[٥٤٥٧]

ثم وازن بين كلام هذا الإمام رحمه الله وبين كلام هؤلاء.

قال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله:(وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد،وذلك مجمع عليه،كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى).اهـ[٥٤٥٨]

وقال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله:(وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه بالإجماع،وليس ما خالف الكتاب والسنة مذهبا لأحد من الأئمة،وهم أجل من أن يقال ذلك في حقهم،لتصريحهم بذلك،ونهيهم عن تقليدهم إذا استبانت السنة.)[٥٤٥٩].

وقد اتفق الأئمة الأربعة رحمهم الله على أنه إذا خالف قولهم الكتاب والسنة أنه يضرب به عرض الحائط،وكذلك يقال في مذهب الحاكم إذا خالف الشريعة.

الشبهة الثانية عشرة - يقول البعض:إن المطلوب منا اليوم هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وليس بحمل السلاح في وجه الطغاة وعندما تصبح القاعدة جاهزة يختلف الأمر

فيقال لهؤلاء:

مع تسليمنا بأنه لا بد من التربية بمعناها الشمولي ولا بد من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ولكن مع من وإلى متى ؟؟

فهل يمكن أن نربي نواة مجتمع إسلامي في ظل الظروف الراهنة والتي يسيطر بها الحكام على كل شيء ويحولونه لمصلحتهم ؟؟

فالتعليم والثقافة والإعلام وكل شيء بيدهم فكيف نربي هذا الجيل المزعوم ؟

[٥٤٥٧] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٣٩)

[٥٤٥٨] - حاشية كتاب التوحيد (ص:٢٧٧) وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص:٣٨٥)

[٥٤٥٩] - حاشية كتاب التوحيد (ص:٢٧٧)

فلن يكون هناك جيل نصر ولن تعود الخلافة ولن تسترد الحرمات أبدا

فهؤلاء الذين طرحوا هذه الفكرة لم يكونوا واقعيين بل كانوا خياليين إلى أبعد الحـــدود وكأنهم يظنون أنفسهم في مجتمعات ديموقراطية يستطيعون من خلالها تنفيذ ما يفكـــرون به.

وأبعد منهم في الخيال والشطحات من يزعم أنه سوف يصل عن طريق قبة البرلمان ولعبة الديموقراطية الوصول إلى السلطة ومن ثم تحكيم الإسلام.

كم هؤلاء واهمون وجاهلون بالواقع المر والأليم.

لقد فات هؤلاء أنه لا يوجد في بلاد الإسلام حرية ((إلا حريـــة الكفـــر والفســـوق والعصيان)) ولا ديموقراطية ولا شفافية.

وأن ما يتشدقون به ليل نهار من هذه العبارات لم يعد يخفى حتى على البهائم فكيف يخفى على البشر العقلاء ؟؟!!

فعليهم أن يراجعوا أنفسهم ويثوبوا إلى رشدهم قبل فوات الأوان

فالتربية الحقيقية لن تكون إلا في ظل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله

وأكبر مثال على ذلك إخوتنا في فلسطين فكل المنظمات الفلسطينية المزعومة قامت مـــن أجل تحرير فلسطين و لم يكن لها أي دور حقيقي في ذلك،وكذلك أكاذيب حكام العرب ومعاركهم الخلبية والمصطنعة مع اليهود كلهم لم يخيفوا العدو و لم يصيبوه بمقتل.

وإنما الذي أخاف العدو هو الاستشهاد في سبيل الله فها هو قد اســـتعمل كـــل آلات البطش للقضاء على الانتفاضة واستعان بحكام المسلمين وغيرهم فلم يجده ذلـــك ســـبيلا والانتفاضة في ازدياد مستمر

ما السر في ذلك؟ إنها التربية الجهادية من خلال الأحداث الواقعية وليس مـــن خـــلال التنظير فغدا الطفل الفلسطيني لا يخاف من الموت ولا يخاف من قوة اليهود المزعومة والتي ترعب حكام المسلمين وتجعلهم يركعون للبيت الأبيض والأسود.

والثورة السورية اليوم أكبر شاهد على هذه التربية الإيمانية الجهادية الحقيقية،لقد أعادت الناس إلى الله،وجعلتهم لا يهابون الموت في سبيل الله ،كلهم يقول بلسان الحال والمقال " الموت ولا المذلة " على الجنة رايحين بالملايين....[٥٤٦٠]

إن السبب الحقيقي الذي جعل هؤلاء يذهبون هذا المذهب هو جبنهم وخورهم أمام الحاكم المستبد الظالم الذي يفتك بهم واحدا تلو الآخر،هو حبهم للدنيا وكراهيهم للموت ففي سنن أبي داود عَنْ ثَوْبَانَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»،فَقَالَ قَائِلٌ:وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ،وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ،وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»،فَقَالَ قَائِلٌ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:«حُبُّ الدُّنْيَا،وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٥٤٦١].

وكذلك إيثارهم متاع الحياة الدنيا الرخيص على الجهاد في سبيل الله:

قال تعالى:{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة:٢٤]

قل -يا أيها الرسول- للمؤمنين:إن فَضَّلتم الآباء والأبناء والإخوان والزوجات والقرابات والأموال التي جمعتموها والتجارة التي تخافون عدم رواجها والبيوت الفارهة التي أقمتم فيها،إن فَضَّلتم ذلك على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فانتظروا عقاب الله ونكاله بكم.والله لا يوفق الخارجين عن طاعته.[٥٤٦٢].

ولرب قائل يقول:هذه الآيات تأمر بالجهاد في ظل دولة إسلامية ذات سيادة

فيقال:

[٥٤٦٠] - لقد كتبت كثيرا عن هذا الموضوع في كتابي الكبير " بحوث ومقالات عن الثورة السورية ط١

[٥٤٦١] - سنن أبي داود (٤/ ١١١)(٤٢٩٧) صحيح

(تداعى) التداعي:التتابع، أي:يدعو بعضها بعضاً فتجيب.=(الأَكَلة) :جمع آكل.=(غُثاء) الغُثَاء:ما يلقيه السّيل.

[٥٤٦٢] - التفسير الميسر (١/ ١٩٠)

هذا باطل،وإلا إذا سيطر الكفار والفجار على بلاد الإسلام فمن سيخلصنا منهم ؟
هل هو السكوت والخنوع ؟ أم الجهاد في سبيل الله ؟

وقد أمرنا الله تعالى بجهاد الكفار والمنافقين معا قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)} [التوبة:٧٣،٧٤]

يا أيها النبي جاهد كلا من الكفار والمنافقين،وعاملهم بالشدة والخشونة،إرهابا لهم،وقمعا لمحاولات اعتدائهم،ولهم عذابان:

عذاب الدنيا بالجهاد وعذاب الآخرة في جهنم.وذلك لأنهم يظهرون العداوة والتحدي،ويجاهرون بالكفر صراحة،ويهمون بالفتك برسول الله ﷺ،ويستهزئون بآيات الله وبالنبي وبالمؤمنين،ويحلفون الأيمان الكاذبة،ويتلاعبون بالدين،مظهرين الكفر بعد أن أظهروا الإسلام،وهموا بما لم ينالوا و لم يتحقق مأربهم وهو اغتيال الرسول في العقبة،بعد رجوعه من غزوة تبوك.و لم يكن لأولئك المنافقين عذر في موقفهم المعادي بالرغم من أن الله تعالى أغناهم من فضله،ورسوله أيضا بإعطائهم من الغنائم الحربية بعد أن كانوا فقراء في المدينة.

ومع كل هذا لم يبادرهم المسلمون بالقتال،وفتح الإسلام لهم باب التوبة والأمل،فإن يتوبوا من النفاق ومساوئ الأقوال والأفعال،يكن ذلك خيرا لهم وأصلح،ويفوزوا بالخير،ويقبل الله توبتهم إن صدقوا في كلامهم.وإن يتولوا عن التوبة بالإصرار على النفاق،يعذبهم الله عذابا مؤلما في الدنيا والآخرة،أما في الدنيا فهو القتل وسبي الأولاد والنساء واغتنام الأموال،والعيش في حال شديدة من القلق والخوف والهم،وما لهم في الأرض كلها من ولي يتولى أمورهم ويدافع عنهم،ولا نصير ينصرهم وينجيهم من ألوان العذاب،وهم في صف معاد للمسلمين،والمسلمون المؤمنون يوالي بعضهم بعضا ويناصره،وأما المنافقون فلا ولاية لهم ولا نصرة بينهم،لا بجلب خير لهم،ولا بدفع شر

عنهم،والآية تضمنت إحاطة علم الله بهم،وتوبيخهم على ما كانوا عليه من شرور وآثام،ومواقف وتحركات مشبوهة.[5463]

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ،وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ،ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ،وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ،فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[5464]

فهذا نص صريح في وجوب جهادهم بكل ما يستطاع وليس مداهنتهم والركون لهم فهذا يسبب غضب الله ومقته {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [هود:١١٣]

وفي سنن أبي داود عَنْ أَنَسٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[5465]

وعَنْ أَنَسٍ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[5466]

أَيْ:قَاتِلُوهُمْ،وَهُوَ بِظَاهِرِهِ يَشْمَلُ الْحَرَمَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ وَالْبَدْءَ بِالْقِتَالِ.قَالَ ابْنُ الْهُمَامِ:وَقِتَالُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ،أَوْ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَبْدَؤُونَا ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْمُوجِبَةَ لَهُ لَمْ تُقَيِّدِ الْوُجُوبَ بِبَدْئِهِمْ خِلَافًا لِمَا نُقِلَ عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَغَيْرِهَا سَوَاءٌ خِلَافًا لِعَطَاءٍ،وَلَقَد اسْتُبْعِدَ مَا عَنِ الثَّوْرِيِّ.وَتَمَسُّكُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [البقرة:١٩١] فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ نَسْخُهُ وَصَرِيحُ قَوْلِهِ - ﷺ - فِي الصَّحِيحَيْنِ:" «أُمِرْتُ

[5463] - التفسير الوسيط للزحيلي (١/ ٨٩٠)

[5464] - صحيح مسلم (١/ ٦٩) ٨٠ - (٥٠)

[ش (ثم إنها تخلف) الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن ومعنى تخلف تحدث وأما الخلوف فهو جمع خلف وهو الخالف بشر وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير هذا هو الأشهر (فترل بقناة) هكذا هو في بعض الأصول المحققة وهو غير مصروف للعلمية والتأنيث وقناة واد من أودية المدينة عليه مال من أموالها]

[5465] - سنن أبي داود (٣/ ١٠)(٢٥٠٤) صحيح

[5466] - السنن الكبرى للنسائي (٤/ ٢٦٩)(٤٢٨٩) صحيح

أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ» " الْحَدِيثَ.تُوجِبُ ابْتِدَاءَهُمْ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ،وَحَاصَرَ - ﷺ - الطَّائِفَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ،أَوْ إِلَى شَهْرٍ،وَقَدِ اسْتُدِلَّ عَلَى نَسْخِ الْحُرْمَةِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة:٥] وَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى التَّحَرُّزِ بِلَفْظِ:حَيْثُ فِي الزَّمَانِ،وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَثِيرٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ.وَقَوْلُهُ:(بِأَمْوَالِكُمْ):أَيْ:بِالتَّجْهِيزِ (وَأَنْفُسِكُمْ):أَيْ:بِالْمُبَاشَرَةِ (وَأَلْسِنَتِكُمْ):أَيْ:بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،وَقَالَ الْمُظْهِرُ:أَيْ:جَاهِدُوهُمْ بِهَا ؛ أَيْ:بِأَنْ تَذُمُّوهُمْ وَتَعِيبُوهُمْ وَتَسُبُّوا أَصْنَامَهُمْ وَدِينَهُمُ الْبَاطِلَ،وَبِأَنْ تُخَوِّفُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَخْذِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ،فَإِنْ قُلْتَ:هَذَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ تَعَالَى:{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام:١٠٨] قُلْتُ:كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ فَنُهُوا،لِئَلَّا يَكُونَ سَبُّهُمْ سَبَبًا لِسَبِّ اللَّهِ تَعَالَى،وَالنَّهْيُ مُنْصَبٌّ عَلَى الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ،فَإِذَا لَمْ يُؤَدِّ السَّبُّ إِلَى سَبِّ اللَّهِ تَعَالَى جَازَ اه.

وَفِيهِ أَنَّهُ سَبَبٌ غَالِبِيٌّ،وَعَدَمُ كَوْنِهِ سَبَبًا أَمْرٌ مَوْهُومٌ فَيَتَعَيَّنُ النَّهْيُ،لَا سِيَّمَا مَبْنَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى أُمُورِ الْغَالِبِيَّةِ،مَعَ أَنَّ حَالَةَ الِاسْتِوَاءِ،بَلْ وَقْتُ الِاحْتِمَالِ يُرَجِّحُ النَّهْيَ،نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ وَارِدًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الِابْتِدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا لِسَبِّهِمْ،أَمَّا إِذَا كَانَ الِابْتِدَاءُ مِنْهُمْ فَلَيْسَ كَذَا ؛ لِأَنَّ هَذَا الْخَوْفَ فِي الَّذِينَ غَلَبَ الْجَهْلُ وَالسَّفَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ،أَمَّا أَكْثَرُهُمْ فَيُعَظِّمُونَ اللَّهَ! وَيَقُولُونَ:{هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:١٨ - ٢٥][٥٤٦٧]

يعني يجب مجاهدتهم بكل ما يستطاع

بالمال من أجل تقوية المجاهدين وشراء السلاح وإعالة أسرهم،وباللسان في تعرية الباطل والدفاع عن حرمات الإسلام وكشف أكاذيب أعداء الإسلام،وبالأيدي من باب تغيير المنكر بالقوة وبذل الأنفس رخيصة في سبيل الله

================

[٥٤٦٧] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٥)

وإلا لن تعود الخلافة ولن نستطيع استرجاع أيا من حقوقنا المسلوبة،وسنموت همـا وغما وكمدا

وما لا يتم الواجب به فهو واجب بلا خلاف،فالخلافة واجبة بلا خلاف ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على تلك الحفنة من المرتزقة وقطاع الطرق وأعوانهم من الفساق والفجار.

فقد أمضى المجاهد البطل عماد الدين الزنكي وولده نور الدين محمود وصـلاح الـدين الأيوبي رضي الله عنهم أكثر من ستين سنة وهم يقاتلون تلك الدويلات المصطنعة،والتي كانت تحول دول وصولهم إلى مواجهة الصليبيين،و لم يمتنعوا عن قتـالهم بحجـة أهـم مسلمون،علما أن أولئك لم يكن واحد منهم يعلن تخليه عن منهج الله واستبداله بمنـاهج الكفر،وإنما والوا أعداء الله من الصليبيين من أجل لعاعة من لعاعات الدنيا

ونحن اليوم لن نستطيع أن نقدم لإخوتنا في فلسطين والعراق والشيشـان وأفغانسـتان وغيرهما من بلدان المسلمين المغتصبة شيئا،لأن الحكام يمنعون كل شيء عنهم حتى يموتوا جوعا وكمدا كما قال تعالى عن صفات المنافقين:{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون:٧]

هؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل «المدينة»:لا تنفقوا على أصحاب رسول الله من المهاجرين حتى يتفرقوا عنه.ولله وحده خزائن السـموات والأرض ومـا فيهمـا مـن أرزاق،يعطيها من يشاء ويمنعها عمَّن يشاء،ولكن المنافقين لا يفهمون أن الرزق من عند الله؛لجهلهم به سبحانه وتعالى.[٥٤٦٨]

فالطريق الصحيح والأقل تكاليف هو طريق الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولكن هذا الطريق يحتاج إلى تفاصيل من أجل آلياته وكيفية تطبيقه،حتى لا نقـع فيمـا وقعت فيه الحركة الإسلامية من قبل تركت الرؤوس العفنة الكبيرة وشغلت بـالرؤوس الصغيرة.

[٥٤٦٨] - التفسير الميسر (١/ ٥٥٥)

وكل من يساعد هؤلاء الطغاة يقتل كذلك،وكذلك يجب ضـــرب المصـــالح اليهوديـــة والأمريكية والغربية في بلاد الإسلام،واعتبار رعايا هذه الدول مهـــدوري الـــدم إن لم يعودوا لبلادهم فورا

ونحن في حالة حرب مع الغرب جملة والشرق ومع الروس والهنود ومع أمريكـــا ومـــع اليهود والنصارى

فالمعركة خطيرة جدا جدا،وليس لها من حل سوى الجهاد والعمليات الاستشهادية والتي لا يحسنها العدو أبدا.فالله تعالى يقول عنهم:{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِـــنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَـــذَابِ أَنْ يُعَمَّـــرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [البقرة:٩٦]

ولتعلمَنَّ -أيها الرسول- أن اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة أيًّا كانت هذه الحياة من الذلَّة والمهانة،بل تزيد رغبتهم في طول الحياة على رغبات المشركين.يتمنى اليهـــودي أن يعيش ألف سنة،ولا يُبْعده هذا العمر الطويل -إن حصل- من عذاب الله.والله تعـــالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها بما يستحقون من العذاب.[٥٤٦٩]

وقال عن اليهود وأعوانهم:{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُـــدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِـــأَنَّهُمْ قَـــوْمٌ لَـــا يَعْقِلُـــونَ } [الحشر:١٤]

وَيُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى جُبْنَ اليَهُودِ وَالمُنَافِقِينَ فَيَقُولُ:إنَّ اللهَ أَلْقَى فِي قُلُـــوبِهِمْ الرُّعْـــبَ فَـــلاَ يُوَاجِهُونَ المُسْلِمِينَ بِقِتَالٍ مُجْتَمِعِينَ،بَلْ يُقَاتِلونَهُمْ فِي قُرًى حَصِينةٍ،أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُـــدْرَانٍ وَهُمْ مُحَاصَرُونَ،وَعَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ.وَإِذَا رَآهُمُ الرَّائِي حَسِبَهُمْ مُتَّفِقِينَ،وَهُمْ فِي الحَقِيقَةِ مُخْتَلِفُونَ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الاخْتِلاَفِ لِمَا بَيْنَهُم مِنْ أَحْقَـــادٍ وَعَـــدَاوَاتٍ،فَهُمْ لاَ يَتَعَاضَدُونَ،وَلاَ يَتَسَانَدُونَ،وَلاَ يُخْلِصُونَ فِي القِتَالِ،وَقَدْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا لأَنَّهُمْ قَـــوْمٌ لاَ

٥٤٦٩ - التفسير الميسر (١/ ١٥)

يَعْلَمُونَ أَنَّ الوَحْدَةَ وَالتَّسَانُدَ الُمخْلِصَ هُمَا سِرُّ النَّصْرِ وَالنَّجَاحِ.[٥٤٧٠]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله:

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في «تشخيص» حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان.بشكل واضح للعيان.ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة.فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين.فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان.حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء.

وسبحان العليم الخبير! وتبقى الملامح النفسية الأخرى «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ»..«تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم،وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان،والجنس والوطن والعشيرة..

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ»..والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم،ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض،كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد.ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم إنما هو مظهر خارجي خادع.وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع.فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور،وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد،قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء،وتصادم الاتجاهات.وما صدق المؤمنون مرة،وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلاف ات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال.وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار،وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيتة المتفرقة! إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب..من المسلمين..عندما تتفرق قلوب المسلمين،فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة.فأما في غير هذه

[٥٤٧٠] – أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص:٥٠١٨، بترقيم الشاملة آليا)

الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز،وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقـــو الأهـــواء والمصالح والقلوب «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ»..«تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى»..

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين،ليهون فيها من شأن أعدائهم ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم.فهو إيحاء قائم على حقيقة وتعبئة روحيـــة تـــرتكن إلى حـــق ثابت.ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله،وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد،فلم تقف لهم قوة في الحياة.

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حـــالهم وحـــال أعـــدائهم.فهـــذا نصـــف المعركة.والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحـــادث وقـــع،وفي ســـياق التعقيب عليه،وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل،شرحا يفيد منه الذين شـــهدوا ذلـــك الحادث بعينه،ويتدبره كل من جاء بعـــدهم،وأراد أن يعـــرف الحقيقـــة مـــن العـــالم بالحقيقة![٥٤٧١]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٥٤٧١] - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص:٤٤٠٧)

الباب السادس والثلاثون

أحكام الرجوع من الجهاد

ما يقوله إذا قفل من الغزو:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلاَثَ تَكْبِيرَاتٍ،ثُمَّ يَقُولُ:«لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ،لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ،وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ،لِرَبِّنَا حَامِدُونَ.صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ،وَنَصَرَ عَبْدَهُ،وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» [٥٤٧٢]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَقْفَلَهُ مِنْ عُسْفَانَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ،وَقَدْ أَرْدَفَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ،فَعَثَرَتْ نَاقَتُهُ،فَصُرِعَا جَمِيعًا،فَاقْتَحَمَ أَبُو طَلْحَةَ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ،قَالَ:«عَلَيْكَ المَرْأَةَ»،فَقَلَبَ ثَوْبًا عَلَى وَجْهِهِ،وَأَتَاهَا،فَأَلْقَاهُ عَلَيْهَا،وَأَصْلَحَ لَهُمَا مَرْكَبَهُمَا،فَرَكِبَا وَاكْتَنَفْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَى المَدِينَةِ قَالَ:«آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى دَخَلَ المَدِينَةَ" [٥٤٧٣]

ما يفعله عند القدوم من السفر:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «كَانَ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الضُّحَى،فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ،فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ،ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ» [٥٤٧٤]

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَطْرُقُ أَهْلَهُ،كَانَ لاَ يَدْخُلُ إِلَّا غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً» [٥٤٧٥]

[٥٤٧٢] - صحيح البخاري (٨/ ٨٢) (٦٣٨٥)

[٥٤٧٣] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦)(٣٠٨٥)

[ش (مقفله) مرجعه.(عسفان) موضع على مرحلتين من مكة.(فصرعا) وقعا.(فاقتحم) من قحم في الأمر إذا رمى نفسه من غير روية.(عليك المرأة) الزمها فأصلح شأنها.(اكتنفنا) أحطنا به.(آيبون) راجعون]

[٥٤٧٤] - صحيح مسلم (١/ ٤٩٦)(٧٤ - (٧١٦)

[٥٤٧٥] - صحيح البخاري (٣/ ٧) (١٨٠٠)

البشارة بالفتوح:

عن جَرِيرَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَلاَ تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ» وَكَانَ بَيْتًا فِي خَثْعَمَ يُسَمَّى كَعْبَةَ اليَمَانِيَةِ،قَالَ:فَانْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ،وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ،قَالَ:وَكُنْتُ لاَ أَثْبُتُ عَلَى الخَيْلِ،فَضَرَبَ فِي صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابعه فِي صَدْرِي،وَقَالَ:«اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ،وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»،فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا فَكَسَرَهَا وَحَرَّقَهَا،ثُمَّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُ،فَقَالَ رَسُولُ جَرِيرٍ:وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ،مَا جِئْتُكَ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْوَفُ أَوْ أَجْرَبُ،قَالَ:فَبَارَكَ فِي خَيْلِ أَحْمَسَ،وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ"[٥٤٧٦]

استقبال الغزاة:

عَنِ الزُّهْرِيِّ،قَالَ:قَالَ السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصِّبْيَانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ»[٥٤٧٧]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ،قَالَ:" كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ،قَالَ:وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ،فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ،ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ،فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ،قَالَ:فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ،ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ "[٥٤٧٨]

الطعام عند القدوم:

[ش (لا يطرق أهله) من الطروق وهو الإتيان بالليل يعني أنه لا يدخل على أهله ليلا إذا قدم من سفر.(غدوة) من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.(عشية) من زوال الشمس إلى غروها ويطلق أيضا على ما بعد الغروب إلى العتمة والمراد هنا الأول]

[٥٤٧٦] - صحيح البخاري (٤/ ٦٢) (٣٠٢٠)

[ش (تريحني) تريح قلبي وذهني من الضلال بسببه.(ذي الخلصة) بيت أصنام كانت تعبدها دوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم.(أحمس) قبيلة من العرب.(أجوف) مجوف أي خال عن كل ما يكون في البطن والمراد أنه فني بالكلية.(أجرب) أي مطلي بالقطران من الجرب أي إنها اسودت من الإحراق]

[٥٤٧٧] - صحيح البخاري (٤/ ٧٦) (٣٠٨٣)

[ش (نتلقى) نستقبله عند رجوعه من تبوك.(ثنية الوداع) التي من جهة تبوك في طريق الذاهب من المدينة إلى الشام وكانوا إذا ودعوا مسافرا خرجوا معه إليها والثنية الطريق في الجبل وقيل ما ارتفع من الأرض]

[٥٤٧٨] - صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٥) ٦٦ - (٢٤٢٨)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ،نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً»،زَادَ مُعَاذٌ،عَنْ شُعْبَةَ،عَنْ مُحَارِبٍ،سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ «اشْتَرَى مِنِّي النَّبِيُّ ﷺ بَعِيرًا بِوَقِيَّتَيْنِ وَدِرْهَمٍ أَوْ دِرْهَمَيْنِ،فَلَمَّا قَدِمَ صِرَارًا أَمَرَ بِبَقَرَةٍ،فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا،فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَ المَسْجِدَ،فَأُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَوَزَنَ لِي ثَمَنَ البَعِيرِ»[٥٤٧٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٤٧٩] - صحيح البخاري (٤/ ٧٧) (٣٠٨٩) وانظر :موسوعة الفقه الإسلامي (٥/ ٥٢٧)

الباب السابع والثلاثون

الخلاصة في أحكام الهجرة

تَّعْرِيفُ الْهِجْرَة:

الْهِجْرَةُ لُغَةً:مُفَارَقَةُ بَلَدٍ إِلَى غَيْرِهِ،وَهِيَ اسْمٌ مِنْ هَاجَرَ مُهَاجَرَةً .

وَفِي الاصْطِلاَحِ:الانْتِقَال مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ .فَإِنْ كَانَتْ قُرْبَةً لِلَّهِ فَهِيَ الْهِجْرَةُ الشَّرْعِيَّةُ[5480] .

الأَْلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَة:

أ – دَارُ الإِْسْلاَمِ:

دَارُ الإِْسْلاَمِ:هِيَ كُل بُقْعَةٍ تَكُونُ فِيهَا أَحْكَامُ الإِْسْلاَمِ ظَاهِرَةً[5481] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْهِجْرَةِ وَدَارِ الإِْسْلاَمِ أَنَّهَا الدَّارُ الَّتِي يُهَاجِرُ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُ قُرْبَةً لِلَّهِ تَعَالَى .

ب – دَارُ الْحَرْبِ:

دَارُ الْحَرْبِ:هِيَ كُل بُقْعَةٍ تَكُونُ أَحْكَامُ الْكُفْرِ فِيهَا ظَاهِرَةً[5482] .

وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْهِجْرَةِ وَبَيْنَ دَارِ الْحَرْبِ أَنَّهَا الدَّارُ الَّتِي يُهَاجِرُ مِنْهَا الْمُسْلِمُ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

أَقْسَامُ الْهِجْرَة:

قُسِّمَتِ الْهِجْرَةُ إِلَى أَنْوَاعٍ،وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ وَهُوَ أَنَّ اسْمَ الْهِجْرَةِ يَقَعُ عَلَى أُمُورٍ:

أ – الْهِجْرَةُ الأُْولَى إِلَى الْحَبَشَةِ عِنْدَمَا آذَى الْكُفَّارُ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

ب – الْهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

[5480]– الْمِصْبَاح الْمُنِير، والقاموس الْمُحِيط، وتحرير أَلْفَاظ التَّنْبِيه للنَّوَوِيِّ ص ٣١٣، وبصائر ذَوِي التَّمْيِيز ٥ / ٣٠٥، والتعريفات للجرجاني، ومفردات الرَّاغب، والمطلع ص ٩٨، وفتح الْمُعِين لابْنِ حَجَر الهيتمي ص ٥٢

[5481] –(ر : دَارُ الإِْسْلاَمِ ف ١)

[5482] – (ر : دَارُ الْحَرْبِ ف١)

ج – الْهِجْرَةُ الثَّالِثَةُ:هِجْرَةُ الْقَبَائِلِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِتَعَلُّمِ الشَّرَائِعِ،ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى الْمَوَاطِنِ وَيُعَلِّمُونَ قَوْمَهُمْ .

د – الْهِجْرَةُ الرَّابِعَةُ:هِجْرَةُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لِيَأْتِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى مَكَّةَ .

هـــ – الْهِجْرَةُ الْخَامِسَةُ:هَجْرُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ [٥٤٨٣] .

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ الْهِجْرَةَ هِجْرَتَانِ:

الأُولَى:هِجْرَةٌ بِالْجِسْمِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ،وَهَذِهِ أَحْكَامُهَا مَعْلُومَةٌ .

الثَّانِيَةُ:الْهِجْرَةُ بِالْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَهِيَ هِجْرَةٌ تَتَضَمَّنُ (مِنْ) وَ (إِلَى)،فَيُهَاجِرُ بِقَلْبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ غَيْرِ اللَّهِ إِلَى مَحَبَّتِهِ،وَمِنْ عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ،وَمِنْ خَوْفِ غَيْرِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ إِلَى خَوْفِ اللَّهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ،وَمِنْ دُعَاءِ غَيْرِهِ وَسُؤَالِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ وَالذُّلِّ وَالاسْتِكَانَةِ لَهُ إِلَى دُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ وَالذُّلِّ وَالاسْتِكَانَةِ لَهُ [٥٤٨٤] .

ثُمَّ تَعَرَّضَ لِحَالِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ الْمُهَاجِرِ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ:وَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ هِجْرَتَانِ:هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ بِالطَّلَبِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالإِنَابَةِ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيضِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَصِدْقِ الْمَلْجَأِ وَالافْتِقَارِ فِي كُلِّ نَفَسٍ إِلَيْهِ .وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي حَرَكَاتِهِ،وَسَكَنَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ،بِحَيْثُ تَكُونُ مُوَافِقَةً لِشَرْعِهِ الَّذِي هُوَ تَفْصِيلُ مَحَابِّ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ،وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ،وَكُلُّ عَمَلٍ سِوَاهُ،فَعَيْشُ النَّفْسِ وَحَظُّهَا لاَ زَادَ الْمَعَادِ[٥٤٨٥] .

الأَحْكَامُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْهِجْرَةِ:

تَتَعَلَّقُ بِالْهِجْرَةِ أَحْكَامٌ مِنْهَا:

هِجْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَسَاسُ التَّارِيخِ الْهِجْرِيِّ:

[٥٤٨٣] – إِحْكَام الأَحْكَامِ شَرْح عُمْدَةِ الأَحْكَامِ لابْنِ دَقِيقِ الْعِيدِ ١ / ١١

[٥٤٨٤]

[٥٤٨٥] – طَرِيق الْهِجْرَتَيْنِ لابْنِ الْقَيِّمِ ص ٧

التَّارِيخُ الْهِجْرِيِّ:هُوَ تَعْرِيفُ الْوَقْتِ بِإِسْنَادِهِ إِلَى أَوَّلِ الْعَامِ الَّذِي هَاجَرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .جَاءَ فِي " الْعُقُودِ الدُّرِّيَّةِ ":سَبَبُ وَضْعِ التَّارِيخِ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِصَكٍّ مَكْتُوبٍ إِلَى شَعْبَانَ،فَقَال:أَهُوَ شَعْبَانُ الْمَاضِي أَمْ شَعْبَانُ الْقَابِل ؟ ثُمَّ أَمَرَ بِوَضْعِ التَّارِيخِ،وَاتَّفَقَتِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى ابْتِدَاءِ التَّارِيخِ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ،وَجَعَلُوا أَوَّل السَّنَةِ الْمُحَرَّمَ[٥٤٨٦] .وَرَوَى ابْنُ عَسَاكِرَ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَال:كَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ أَنَّهُ تَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكَ كُتُبٌ لَيْسَ لَهَا تَأْرِيخٌ فَأَرِّخْ .فَاسْتَشَارَ عُمَرُ فِي ذَلِكَ،فَقَال بَعْضُ الصَّحَابَةِ:أَرِّخْ بِمَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ .وَقَال بَعْضُهُمْ:بِوَفَاتِهِ .فَقَال عُمَرُ:لاَ،بَل نُؤَرِّخُ بِمُهَاجَرِهِ ؛ فَإِنَّ مُهَاجَرَهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِل،فَأُرِّخَ بِهِ[٥٤٨٧] .

الْهِجْرَةُ قَبْل فَتْحِ مَكَّةَ:

تَتَضَمَّنُ الْهِجْرَةُ قَبْل فَتْحِ مَكَّةَ مَرْحَلَتَيْنِ:مَرْحَلَةَ الإِذْنِ بِالْهِجْرَةِ،وَمَرْحَلَةَ فَرْضِ الْهِجْرَةِ:

أ – الإِذْنُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ:

قَال الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ زَمَانًا،لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ فِيهِ بِالْهِجْرَةِ مِنْهَا،ثُمَّ أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل لَهُمْ بِالْهِجْرَةِ،وَجَعَل لَهُمْ مَخْرَجًا .فَيُقَال:نَزَلَتْ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } [الطلاق:٢].فَأَعْلَمَهُمْ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَنْ قَدْ جَعَل اللَّهُ لَهُمْ بِالْهِجْرَةِ مَخْرَجًا .وَقَال تَعَالَى:{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء:١٠٠] .وَأَمَرَهُمْ بِبِلاَدِ الْحَبَشَةِ،فَهَاجَرَتْ إِلَيْهَا مِنْهُمْ طَائِفَةٌ،ثُمَّ دَخَل أَهْل الْمَدِينَةِ الإِسْلاَمَ،فَأَمَرَ رَسُول اللَّهِ ﷺ طَائِفَةً فَهَاجَرَتْ إِلَيْهِمْ،غَيْرَ مُحَرِّمٍ عَلَى مَنْ بَقِيَ تَرْكَ الْهِجْرَةِ إِلَيْهِمْ[٥٤٨٨].فَكَانَتِ الْهِجْرَةُ فِي أَوَّل الإِسْلاَمِ مَنْدُوبًا إِلَيْهَا غَيْرَ مَفْرُوضَةٍ .

[٥٤٨٦] – الْعُقُود الدُّرِّيَّة فِي تَنْقِيحِ الْفَتَاوَى الحامدية لاِبْنِ عَابِدِينَ ٢ / ٣٣٥ ط بُولاَق

[٥٤٨٧] – الشَّمَارِيخ فِي عِلْمِ التَّارِيخِ لِلسُّيُوطِيِّ ص ٢٣ وأخرجه ابن عساكر (٤٢/١)

[٥٤٨٨] – الأُمّ ٤ / ٨٣، ٨٤ ط بُولاَق

ثُمَّ أَذنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِه بِالْهِجْرَة إِلَى الْمَدِينَة،وَلَمْ يُحَرِّمْ فِي هَذَا عَلَى مَنْ بَقِيَ بِمَكَّةَ الْمُقَامَ بِهَا،وَهِيَ دَارُ شِرْك،وَإِنْ قَلُّوا بِأَنْ يُفْتَنُوا،وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ بِجِهَاد .

ثُمَّ أَذنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل لَهُمْ بِالْجِهَاد،ثُمَّ فَرَضَ بَعْدَ هَذَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُهَاجِرُوا مِنْ دَارِ الشِّرْك[٥٤٨٩].

ب – فَرْضُ الْهِجْرَة:

لَمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل الْجِهَادَ عَلَى رَسُولِه ﷺ،وَجَاهَدَ الرَّسُول ﷺ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ إِذْ كَانَ أَبَاحَهُ،وَأَثْخَنَ رَسُول اللَّه ﷺ فِي أَهْل مَكَّةَ،وَرَأَوْا كَثْرَةَ مَنْ دَخَل فِي دِينِ اللَّه عَزَّ وَجَل اشْتَدُّوا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ،فَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ أَوْ مَنْ فَتَنُوا مِنْهُمْ،فَعَذَرَ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ الْمَفْتُونِينَ،فَقَال:{مَنْ كَفَرَ بِاللَّه مِنْ بَعْد إِيمَانِه إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّه وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل:١٠٦]،وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَل جَعَل لَكُمْ مَخْرَجًا،وَفَرَضَ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَى الْهِجْرَةِ الْخُرُوجَ إِذَا كَانَ مِمَّنْ يُفْتَنُ عَنْ دِينِه وَلاَ يَمْتَنِعُ[٥٤٩٠].

وَقَال الْبَغَوِيُّ[٥٤٩١]:فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَة،أُمِرُوا بِالْهِجْرَة وَالاِنْتِقَال إِلَى حَضْرَتِه،لِيَكُونُوا مَعَهُ وَيَتَظَاهَرُوا إِنْ حَزَبَهُمْ أَمْرٌ،وَلِيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ أَمْرَ دِينِهِمْ،وَقَطَعَ اللَّهُ الْوِلاَيَةَ بَيْنَ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ،كَمَا قَال جَل ذِكْرُهُ:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال:٧٢].

وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو الْوَلِيد ابْنُ رُشْد حَيْثُ قَال:فَكَانَت الْهِجْرَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَبْل فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِهَا وَاجِبَةً مُؤَبَّدَةً،افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا الْبَقَاءَ مَعَ رَسُولِه ﷺ حَيْثُ اسْتَقَرَّ،وَالتَّحَوُّل مَعَهُ حَيْثُ تَحَوَّل،لِنُصْرَتِه وَمُؤَازَرَتِه وَصُحْبَتِه،وَلِيَحْفَظُوا عَنْهُ مَا

[٥٤٨٩] – الأُمّ ٤ / ٨٤

[٥٤٩٠] – الأُمّ ٤ / ٨٤، وانظر مَعَالِم السُّنَنِ لِلْخَطَّابِيِّ (بِهَامِشِ مُخْتَصرِ سُنَن أَبِي دَاوُد لِلْمُنْذِرِي ٣ / ٣٥٢)، وأحكام الْقُرْآن للشَّافعيِّ ٢ / ١٦

[٥٤٩١] – شَرْح السُّنَّة لِلْبَغَوِيِّ ١٠ / ٣٧٢

يَشْرَعُهُ لأُمَّته،وَيُبَلِّغُوا ذَلكَ عَنْهُ إِلَيْهِمْ،وَلَمْ يُرَخِّصْ لأَحَدٍ منْهُمْ فِي الرُّجُوعِ إِلَى وَطَنِهِ وَتَرْكِ رَسُول اللَّه ﷺ،قَالَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ - قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«يُقِيمُ الْمُهَاجِرُ بِمَكَّةَ بَعْدَ قَضَاءِ نُسُكِهِ ثَلَاثًا»[٥٤٩٢]،وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حُمَيْدٍ،أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ،يَسْأَلُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ،يَقُولُ:هَلْ سَمِعْتَ فِي الْإِقَامَةِ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ فَقَالَ السَّائِبُ:سَمِعْتُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ،يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:«لِلْمُهَاجِرِ إِقَامَةُ ثَلَاثٍ بَعْدَ الصَّدَرِ بِمَكَّةَ»،«كَأَنَّهُ يَقُولُ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا»[٥٤٩٣]

خَصَّ اللَّهُ بِهَذَا مَنْ آمَنَ منْ أَهْلِ مَكَّةَ بالنَّبِيِّ ﷺ وَهَاجَرَ إِلَيْهِ ؛ لِيُتِمَّ لَهُ بِالْهِجْرَةِ إِلَيْهِ وَالْمُقَامِ مَعَهُ وَتَرْكِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ الْغَايَةَ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي سَبَقَ لَهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ،وَهُمُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ بِالْمُهَاجِرِينَ،وَمَدَحَهُمْ بِذَلِكَ،فَلاَ يَنْطَلِقُ هَذَا الاسْمُ عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُمْ[٥٤٩٤] .

بَقَاءُ الْهِجْرَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ:

رُوِيَتْ أَحَادِيثُ ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ:

فَبَعْضُ الأَحَادِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهِجْرَةَ انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ،مِثْلِ مَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ،وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[٥٤٩٥].

وَمَا رُوِيَ أَيْضًا وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ،قَالَ:زُرْتُ عَائِشَةَ مَعَ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيِّ،فَسَأَلْنَاهَا عَنِ الهِجْرَةِ فَقَالَتْ:«لاَ هِجْرَةَ اليَوْمَ،كَانَ المُؤْمِنُونَ يَفِرُّ أَحَدُهُمْ بِدِينِهِ إِلَى

[٥٤٩٢] - صحيح مسلم (٢/ ٩٨٥)٤٤٢ - (١٣٥٢)

[٥٤٩٣] - صحيح مسلم (٢/ ٩٨٥)٤٤١ - (١٣٥٢)

[ش (للمهاجر إقامة ثلاثة) معنى الحديث أن الذين هاجروا من مكة قبل الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم عليهم استيطان مكة والإقامة بها ثم أبيح لهم إذا وصلوها بحج أو عمرة أو غيرهما أن يقيموا بعد فراغهم ثلاثة أيام ولا يزيدوا على الثلاثة]

[٥٤٩٤] - الْمقدمات الْمُمَهِّدَات لابْن رُشْد ٢ / ١٥٢

[٥٤٩٥] - صحيح البخاري (٤/ ١٥)(٢٧٨٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٧)٨٥ - (١٣٥٣)

[ش (لا هجرة) من مكة أو غيرها من البلدان التي يستطيع فيها إقامة شعائر الدين.(الفتح) فتح مكة]

اللَّه تَعَالَى،وَإِلَى رَسُوله ﷺ،مَخَافَةَ أَنْ يُفْتَنَ عَلَيْه،فَأَمَّا اليَوْمَ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ،وَاليَوْمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ حَيْثُ شَاءَ،وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»[٥٤٩٦].

وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ وعَنْ مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُود،انْطَلَقْتُ بِأَبِي مَعْبَد إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُبَايِعَهُ عَلَى الهِجْرَةِ قَالَ:«مَضَتِ الهِجْرَةُ لِأَهْلِهَا،أُبَايِعُهُ عَلَى الإِسْلاَمِ وَالجِهَادِ» فَلَقِيتُ أَبَا مَعْبَدٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ:«صَدَقَ مُجَاشِعٌ» [٥٤٩٧].

وَبَعْضُهَا الْآخَرُ يَدُلُ عَلَى أَنَّ الْهِجْرَةَ بَاقِيَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة،مِثْل مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ،وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٥٤٩٨]

وعَنِ ابْنِ السَّعْدِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتَلُ "فَقَالَ مُعَاوِيَةُ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف،وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ:إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ،وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ.وَلا

[٥٤٩٦] - صحيح البخاري (٥/ ٥٧)(٣٩٠٠ و٤٣١٢)

[ش (يفتن عليه) يعذب حتى يرجع عن دينه.(جهاد ونية) أي يجاهد أو ينوي الجهاد فيحصل له الأجر والثواب إذا لم يجاهد فعلا]

[٥٤٩٧] - صحيح البخاري (٥/ ١٥٢)(٤٣٠٧)

[٥٤٩٨] - سنن أبي داود (٣/ ٣)(٢٤٧٩) صحيح

" لَا تَنْقَطِعُ) : بِالتَّأْنِيثِ وَيُذَكَّرُ (الْهِجْرَةُ) أَيْ: مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ (حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ) أَيْ: صِحَّتُهَا بِأَنْ يُغَرْغِرَ صَاحِبُهَا.قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَرَادَ بِالْهِجْرَةِ هُنَا الِانْتِقَالَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمِنْ دَارِ الشِّرْكِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ.قُلْتُ: الْأَخِيرُ تَعْمِيمٌ يَشْمَلُ الْكُلَّ.وَقَالَ الطِّيبِيُّ: لَمْ يُرِدِ الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا انْقَطَعَتْ، وَلَا الْهِجْرَةَ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَ: وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا لِأَنَّهَا نَفْسُ التَّوْبَةِ.قُلْتُ: لَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْكَمَالِ لَا تَنْقَطِعُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الْهِجْرَةُ مِنْ مَكَانٍ لَا يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةِ حُدُودِ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً، وَفِيهِ أَنَّ كَوْنَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مَعَ كَوْنِ خُرُوجِهِ عَنْهُ مِنَ الْإِمْكَانِ مَعْصِيَةً خَاصَّةً، وَالْحَمْلُ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ لَا يُلَائِمُ الْغَايَةَ لِقَوْلِهِ: حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَالِاسْتِشْهَادُ بِالْآيَةِ غَيْرُ صَحِيحٍ.لِأَنَّهُ نَزَلَ فِي الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ أَيْ: لَمْ تَنْقَطِعْ وُجُوبًا حَتَّى يَنْقَطِعَ قَبُولُهَا.(وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ) أَيْ: صِحَّتُهَا أَوْ قَبُولُهَا (حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٢٥)

تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ،وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ،فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ،وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ "[5499]

وعَنْ أَبِي الْخَيْرِ،أَنَّ جُنَادَةَ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ حَدَّثَهُ،أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ بَعْضُهُمْ:إِنَّ الْهِجْرَةَ قَد انْقَطَعَتْ،فَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ،قَالَ:فَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،إِنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ:إِنَّ الْهِجْرَةَ قَد انْقَطَعَتْ،فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ الْهِجْرَةَ لَا تَنْقَطِعُ مَا كَانَ الْجِهَادُ "[5500].

وَقَد اخْتَلَفَ طَرَائِقُ الْفُقَهَاءِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ تِلْكَ الأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ،وَتَأْوِيلُهَا عَلَى ثَلَاثِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهُمَا:أَنَّ الْهِجْرَةَ كَانَتْ فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ مَنْدُوبًا إِلَيْهَا،ثُمَّ فُرِضَتْ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ،فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ ارْتَفَعَ وُجُوبُ الْهِجْرَةِ،وَعَادَ الأَمْرُ فِيهَا إِلَى النَّدْبِ وَالاسْتِحْبَابِ،فَهُمَا هِجْرَتَانِ:الْمُنْقَطِعَةُ هِيَ الْمَفْرُوضَةُ،وَالْبَاقِيَةُ هِيَ الْمَنْدُوبَةُ .وَهُوَ قَوْل الْحَنَفِيَّةِ وَالْخَطَّابِيِّ[5501].

وَالثَّانِي:أَنَّ الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ارْتَفَعَتْ يَوْمَ الْفَتْحِ ؛ لأَِنَّ مَكَّةَ صَارَتْ يَوْمَ الْفَتْحِ دَارَ إِسْلاَمٍ،وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ عَنْهَا قَبْل ذَلِكَ وَاجِبَةً ؛ لِكَوْنِهَا مَسَاكِنَ أَهْل الشِّرْكِ،فَمَنْ حَصَل عَلَيْهَا فَازَ بِهَا وَانْفَرَدَ بِفَضْلِهَا دُونَ مَنْ بَعْدَهُمْ .وَهَذَا هُوَ الْفَرْضُ الَّذِي سَقَطَ .أَمَّا الْهِجْرَةُ الْبَاقِيَةُ الدَّائِمَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهِيَ هِجْرَةُ مَنْ أَسْلَمَ بِدَارِ الْكُفْرِ ؛ إِذْ يَلْزَمُهُ أَنْ لاَ يُقِيمَ بِهَا حَيْثُ تُجْرَى عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْكُفَّارِ،وَأَنْ يُهَاجِرَ وَيَلْحَقَ بِدَارِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ تُجْرَى عَلَيْهِ أَحْكَامُهُمْ [5502]،إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الْهِجْرَةَ لاَ يَحْرُمُ عَلَى الْمُهَاجِرِ بِهَا الرُّجُوعُ إِلَى

[5499] - مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٢٠٦)(١٦٧١) حسن

[5500] - مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ١٤٢)(١٦٥٩٧) صحيح

[5501] - مَعَالِم السُّنَنِ لِلْخَطَّابِيِّ ٣ / ٣٥٢، ومرقاة الْمَفَاتِيح ٤ / ١٨٢، والمبسوط لِلسَّرَخْسِيِّ ١٠ / ٦

[5502] - شَرْح السُّنَّة لِلْبَغَوِيِّ ٧ / ٢٩٥، ١٠ / ٣٧٣، ومرقاة الْمَفَاتِيح شَرْح مِشْكَاة الْمَصَابِيح لِلْمَلاَ عَلِي الْقَارِّيّ ٤ / ١٨٢، والمقدمات الْمُمَهِّدَات ٢ / ١٥٣، وعارضة الأَحْوَذِيّ ٧ / ٨٨، ونيل الأَوْطَار ٧ / ٢٦، وشرح الأُبِّيّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ ٥ / ٢١١، والنووي عَلَى مُسْلِمِ ١٣ / ٨، وعمدة الْقَارِّيّ ١١ / ٣١٧، وفتح الْبَارِي ٦ / ٣٩، ٧ / ٢٢٩، والمغني لاِبْنِ قُدَامَةَ ٨ / ٤٥٦

وَطَنه إِنْ عَادَ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ كَمَا حَرُمَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُول اللَّهِ ﷺ الرُّجُوعُ إِلَى مَكَّةَ لِلَّذِي ادَّخَرَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ فِي ذَلِكَ[5503] .

وَقَدْ تَوَسَّعَ بَعْضُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْل فِي دَوَاعِي الْهِجْرَةِ الْبَاقِيَة،فَقَال:إِنَّ مُفَارَقَةَ الْأَوْطَانِ إِلَى اللَّه وَرَسُوله الَّتِي هِيَ الْهِجْرَةُ الْمُعْتَبَرَةُ الْفَاضِلَةُ الْمُمَيِّزَةُ لأَهْلهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ امْتِيَازًا ظَاهِرًا،لَكِنَّ الْمُفَارَقَةَ مِنَ الأَوْطَان بِسَبَب نِيَّة خَالِصَة لِلَّه تَعَالَى كَطَلَبِ الْعِلْمِ،وَالْفِرَارِ بِدِينه مِنْ دَارِ الْكُفْرِ وَمِمَّا لاَ يُقَامُ فِيهَا الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،وَزِيَارَة بَيْت اللَّه وَحَرَمِ رَسُول اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى وَغَيْرِهَا أَوْ بِسَبَبِ الْجِهَادِ فِي سَبِيل اللَّه بَاقِيَةٌ مَدَى الدَّهْرِ[5504] .

وَالثَّالِثُ:أَنَّ الْهِجْرَةَ الْفَاضِلَةَ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْجَنَّة،كَانَ الرَّجُل يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَيَدَعُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ،لاَ يَرْجِعُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ،انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ .أَمَّا الْهِجْرَةُ الْبَاقِيَةُ فَهِيَ هَجْرُ السَّيِّئَات[5505]حَيْثُ وَرَدَ عَنِ ابْنِ السَّعْدِيِّ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتَلُ "فَقَالَ مُعَاوِيَةُ،وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف،وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ:إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ،قَالَ:" إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ:إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ،وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِه.وَلا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَت التَّوْبَةُ،وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِب،فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْب بِمَا فِيه،وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ "[5506] .

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِك الْجَنْبِيِّ،قَالَ حَدَّثَنِي فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْد،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،فِي حَجَّة الْوَدَاع:«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ،مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ،وَأَنْفُسِهِمْ،وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِه،وَيَدِه،وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَة اللَّهِ،وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[5507] .

[5503] - الْمُقَدِّمَات الْمُمَهِّدَات لابْن رُشْد ٢ / ١٥٣

[5504] - مِرْقَاة الْمَفَاتِيح ٤ / ١٨٢، والكشاف للزَّمَخْشَرِيِّ ١ / ٢٩٤

[5505] - طَرْح التَّثْرِيب ٢ / ٢٣ - ٢٤، وعمدة الْقَارِّيّ ١١ / ٣١٨

[5506] - مسند أحمد ط الرسالة (٣/ ٢٠٦)(١٦٧١) حسن

[5507] - صحيح ابن حبان - مخرجا (١١/ ٢٠٤)(٤٨٦٢) صحيح

وعَنْ عَامِرٍ،قَالَ:سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،يَقُولُ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[5508].

هَذَا وَقَدْ صَرَّحَ ابْنُ قُدَامَةَ بِأَنَّ حُكْمَ الْهِجْرَةِ بَاقٍ لاَ يَنْقَطِعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَوْل عَامَّةِ أَهْل الْعِلْمِ[5509].

الْهِجْرَةُ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْحُكْمِ التَّكْلِيفِيِّ لِلْهِجْرَةِ بَعْدَ الْفَتْحِ عَلَى أَقْوَالٍ:

الْقَوْل الأَْوَّل:ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى التَّفْصِيل فَقَالُوا:إِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ قَادِرًا عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْكُفْرِ،وَلَمْ يَخَفِ الْفِتْنَةَ فِي الدِّينِ،فَالْهِجْرَةُ فِي حَقِّهِ غَيْرُ وَاجِبَةٍ،وَلَكِنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ ؛ لِئَلاَّ يُكَثِّرَ سَوَادَ الْكُفَّارِ،وَلِيَتَخَلَّصَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَرُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ بَيْنَهُمْ،وَلِيَتَمَكَّنَ مِنْ جِهَادِهِمْ،وَلأَِنَّهُ لاَ يُؤْمَنُ أَنْ يَمِيل إِلَيْهِمْ أَوْ يَكِيدُوا لَهُ،وَلِيُكَثِّرَ الْمُسْلِمِينَ وَيُعِينَهُمْ بِهِجْرَتِهِ إِلَيْهِمْ[5510].أَمَّا عَدَمُ وُجُوبِهَا عَلَيْهِ فَلإِِمْكَانِهِ إِقَامَةَ وَاجِبِ دِينِهِ بِدُونِ الْهِجْرَةِ[5511].قَال الإِْمَامُ الشَّافِعِيُّ:دَلَّتْ سُنَّةُ رَسُول اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنَّ فَرْضَ الْهِجْرَةِ عَلَى مَنْ أَطَاقَهَا إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَنْ فُتِنَ عَنْ دِينِهِ بِالْبَلَدِ الَّذِي يُسْلِمُ بِهَا ؛ لأَِنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لِقَوْمٍ بِمَكَّةَ أَنْ يُقِيمُوا بِهَا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ؛ مِنْهُمُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَغَيْرُهُ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ إِذْ لَمْ يَخَافُوا الْفِتْنَةَ[5512] .وَحَمَلُوا حَدِيثَ الْبَرَاءَةِ مِنْ كُل مُسْلِمٍ يُقِيمُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَنْ لاَ يَأْمَنُ عَلَى دِينِهِ فِي دَارِهِمْ[5513] .

غَيْرَ أَنَّ الشَّافِعِيَّةَ اسْتَثْنَوْا مِنْ عُمُومِ قَوْلِهِمْ بِالاِسْتِحْبَابِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ثَلاَثَ صُوَرٍ:

الأُْولَى:أَنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ رَجَا ظُهُورَ الإِْسْلاَمِ بِمُقَامِهِ فِي دَارِ الْكُفْرِ كَانَ مُقَامُهُ فِيهَا أَفْضَل .

[5508] - صحيح البخاري (٨/ ١٠٢)(٦٤٨٤)

[5509] - الْمُبْدِع لاِبْن مُفْلِح ٣ / ٣١٤، والمغني لاِبْنِ قُدَامَةَ ٨ / ٤٥٦ ط الرِّيَاض

[5510] - رَوْضَة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٢٨٢، والمهذب ٢ / ٢٢٨، وشرح مُنْتَهَى الإِْرَادَاتِ ٢ / ٩٤، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ٣٨، والمبدع ٣ / ٣١٤، والمحرر ٢ / ١٧٠، والهداية لأَِبِي الْخَطَّاب ١ / ١١٢، ومجموع فَتَاوَى ابْن تَيْمِيَّةَ ٢٨ / ٢٤٠، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ٧٧ وَمَا بَعْدَهَا، وأسنى الْمَطَالِب ٤ / ٢٠٤

[5511] - الْمُغْنِي لاِبْن قُدَامَةَ ٨ / ٤٥٧ ط الرِّيَاض، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٦٩

[5512] - الأُْمّ ٤ / ٨٤، وأحكام الْقُرْآن لِلشَّافِعِيِّ ٢ / ١٧، ١٨

[5513] - فَتْح الْبَارِي ٦ / ٣٩ ط السَّلَفِيَّة

وَالثَّانيَةُ:أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى الامْتِنَاعِ فِي دَارِ الْكُفْرِ وَالاعْتِزَال،وَلَمْ يَرْجُ نُصْرَةَ الْمُسْلِمينَ بِالْهِجْرَة،وَجَبَ عَلَيْهِ الْمُقَامُ فِي دَارِ الْكُفْرِ ؛ لأَِنَّ مَوْضِعَهُ فِيهَا دَارُ إِسْلاَمٍ،فَلَوْ هَاجَرَ لَصَارَ دَارَ الْحَرْب،وَيَحْرُمُ ذَلكَ .

وَالثَّالثَةُ:أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى قِتَال الْكُفَّارِ أَوْ دُعَائِهِمْ إِلَى الإِْسْلاَمِ،لَزِمَهُ ذَلكَ،وَإِلاَّ فَلاَ[5514] .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُسْلمُ عَاجِزًا عَنْ إِظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْكُفْرِ،فَيَحْرُمُ عَلَيْهِ الإِقَامَةُ فِيهَا،وَتَجبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ إِنِ اسْتَطَاعَهَا،فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْهِجْرَةِ فَهُوَ مَعْذُورٌ إِلَى أَنْ يَقْدِرَ[5515] .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُوبِ الْهِجْرَة فِي حَقِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا بِقَوْله تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} [النساء:٩٧ - ٩٩]،قَال ابْنُ قُدَامَةَ:وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ يَدُل عَلَى الْوُجُوب[5516] .

وَبِمَا رُوِيَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْد اللَّه،قَالَ:بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُود،فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ:فَبَلَغَ ذَلكَ النَّبيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ:«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ».قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه لِمَ؟ قَالَ:«لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا» [5517] أَيْ لاَ يَكُونُ بِمَوْضِعٍ يَرَى نَارَهُمْ وَيَرَوْنَ نَارَهُ إِذَا أُوقِدَتْ .

[5514] - تُحْفَة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٦٩، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ٧٨، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٢٨٢، وأسنى الْمَطَالِب ٤ / ٢٠٤

[5515] - الْمُهَذَّب ٢ / ٢٢٧، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ٣٨، وشرح مُنْتَهَى الإِْرَادَات ٢ / ٩٤، والمبدع ٣ / ٣١٣ وَمَا بَعْدَهَا، والمحرر ٢ / ١٧٠، ومختصر الْفَتَاوَى الْمِصْرِيَّة لابْن تَيْمِيَّةَ ص ٥٠٥، والهداية لأَِبِي الْخَطَّاب ١ / ١١٢، وروضة الطَّالِبِينَ ١٠ / ٢٨٢، ونهاية الْمُحْتَاج ٨ / ٧٨، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٦٩

[5516] - الْمُغْنِي ٨ / ٤٥٧ ط الرِّيَاض

[5517] - سنن أبي داود (٣/ ٤٥)(٢٦٤٥) وسنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٥٥)(١٦٠٤)صحيح

وَقَالُوا:إنَّ الْقِيَامَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ،وَالْهِجْرَةُ مِنْ ضَرُورَةِ الْوَاجِبِ وَتَتِمَّته،وَمَا لاَ يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلاَّ بِه فَهُوَ وَاجِبٌ .

وَاسْتَدَلُّوا عَلَى عَدَمِ وُجُوبِ الْهِجْرَةِ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا بِقَوْلِه عَزَّ وَجَل:{ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) } [النساء] .

وَذَكَرَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ حَالَةً أُخْرَى لِهِجْرَةٍ لاَ تُوصَفُ بِوُجُوبٍ وَلاَ اسْتِحْبَاب،كَمَنْ عَجَزَ عَنِ الْهِجْرَةِ إِمَّا لِمَرَضٍ أَوْ إكْرَاه عَلَى الإِْقَامَةِ أَوْ ضَعْفٍ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَشِبْهِهِمْ،فَهَذَا لاَ هِجْرَةَ عَلَيْهِ[٥٥١٨] لِقَوْل اللَّه تَعَالَى:{ إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } .

الْقَوْل الثَّانِي:لِلْحَنَفِيَّةِ وَالْخَطَّابِيِّ وَالْقَاضِي مِنَ الْحَنَابِلَةِ وَهُوَ أَنَّ الْهِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ لَيْسَتْ وَاجِبَةً،بَل هِيَ مَنْدُوبَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ،وَهِيَ الْهِجْرَةُ مِنْ أَرْضٍ يُهْجَرُ فِيهِ الْمَعْرُوفُ،وَيَشِيعُ بِه الْمُنْكَرُ أَوْ مِنْ أَرْضٍ أَصَابَ فِيه الذَّنْبَ وَارْتَكَبَ الأَْمْرَ الْفَظِيعَ[٥٥١٩] .

قَال الْمُلاَّ الْقَارِيُّ:إنَّ الْهِجْرَةَ الَّتِي هِيَ مُفَارَقَةُ الْوَطَنِ الَّتِي كَانَتْ مَطْلُوبَةً عَلَى الأَْعْيَانِ إِلَى الْمَدِينَةِ انْقَطَعَتْ،إِلاَّ أَنَّ الْمُفَارَقَةَ بِسَبَبِ الْجِهَادِ أَوْ بِسَبَبِ نِيَّةٍ صَالِحَةٍ كَالْفِرَارِ مِنْ دِيَارِ الْكُفْرِ أَوِ الْبِدْعَةِ أَوِ الْجَهْل أَوْ مِنَ الْفِتَنِ أَوْ لِطَلَبِ الْعِلْمِ بَاقِيَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ[٥٥٢٠] .

قَال ابْنُ نُجَيْمٍ:اسْتَثْنَى فِي مِعْرَاجِ الدِّرَايَةِ مِنْ نَسْخِ وُجُوبِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْفَتْحِ مَا إِذَا أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ،فَإِنَّهُ تَلْزَمُهُ الْهِجْرَةُ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ[٥٥٢١] .

الْقَوْل الثَّالِثُ:قَسَّمَ الْمَالِكِيَّةُ الذَّهَابَ فِي الأَْرْضِ قِسْمَيْنِ:هَرَبًا وَطَلَبًا .

فَالأَْوَّل يَنْقَسِمُ إِلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ:

[٥٥١٨] -الْمُغْنِي ٨ / ٤٥٧، وأسنى الْمَطَالب ٤ / ٢٠٤

[٥٥١٩] - مِرْقَاة الْمَفَاتِيح ٤ / ١٨٢، والبحر الرَّائق ١ / ٣٦٨، والمبسوط للسَّرَخْسِيِّ ١٠ / ٦، وشرح السِّيَر الْكَبِير ١ / ٩٤ ط مَطْبَعَة الإِْعْلاَنَات الشَّرْقِيَّة، ومعالم السُّنَن لِلْخَطَّابِيِّ ٣ / ٣٥٢، والفروع لاِبْن مُفْلِح ٦ / ١٨٢

[٥٥٢٠] - مِرْقَاة الْمَفَاتِيح ٤ / ١٨٢

[٥٥٢١] - الْبَحْر الرَّائق ١ / ٣٦٨

الأَوَّل:الْهِجْرَةُ وَهِيَ الْخُرُوجُ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الإِسْلاَمِ،وَكَانَتْ فَرْضًا فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ،وَهَذِهِ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ مَفْرُوضَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فَإِنْ بَقِيَ فِي دَارِ الْحَرْبِ عَصَى،وَيُخْتَلَفُ فِي حَالِهِ .

الثَّانِي:الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضِ الْبِدْعَةِ .قَال ابْنُ الْقَاسِمِ:سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُول:لاَ يَحِل لأَِحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِأَرْضٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلَفُ .قَال ابْنُ الْعَرَبِيِّ:وَهَذَا صَحِيحٌ،فَإِنَّ الْمُنْكَرَ إِذَا لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تُغَيِّرَهُ فَزُل عَنْهُ،قَال اللَّهُ تَعَالَى:{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام:٦٨].

الثَّالِثُ:الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الْحَرَامُ،فَإِنَّ طَلَبَ الْحَلاَل فَرْضٌ عَلَى كُل مُسْلِمٍ .

الرَّابِعُ:الْفِرَارُ مِنَ الأَْذِيَّةِ فِي الْبَدَنِ،وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ أَرْخَصَ فِيهِ،فَإِذَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْذُورِ .وَأَوَّل مَنْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ،فَإِنَّهُ لَمَّا خَافَ مِنْ قَوْمِهِ قَال:{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٢٦].وَقَال:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:٩٩]،وَقَال مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى:{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات:٩٩].

الْخَامِسُ:خَوْفُ الْمَرَضِ فِي الْبِلاَدِ الْوَخِمَةِ وَالْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى الأَْرْضِ النَّزِهَةِ .وَقَدْ أَذِنَ ﷺ لِلرُّعَاةِ حِينَ اسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْمَسْرَحِ فَيَكُونُوا فِيهِ حَتَّى يَصِحُّوا،فعَنْ قَتَادَةَ،أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،حَدَّثَهُمْ:أَنَّ نَاسًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا المَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَكَلَّمُوا بِالإِسْلاَمِ،فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ:إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ،وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رِيفٍ،وَاسْتَوْخَمُوا المَدِينَةَ،«فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَوْدٍ وَرَاعٍ،وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»،فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا نَاحِيَةَ الحَرَّةِ،كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ،وَقَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ،وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ،«فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي

آثَارِهِمْ،فَأَمَرَ بِهِمْ فَسَمَرُوا أَعْيُنَهُمْ،وَقَطَعُوا أَيْدِيَهُمْ،وَتُرِكُوا فِي نَاحِيَةِ الحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ»[٥٥٢٢] .

وَقَد اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ الْخُرُوجَ مِنَ الطَّاعُونِ،فَمَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ،فعن إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ،يُحَدِّثُ سَعْدًا،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:«إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا،وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا» فَقُلْتُ:أَنْتَ سَمِعْتَهُ يُحَدِّثُ سَعْدًا،وَلاَ يُنْكِرُهُ؟ قَالَ:نَعَمْ"[٥٥٢٣] وَهُوَ مَكْرُوهٌ .

السَّادِسُ:الْفِرَارُ خَوْفَ الأَذِيَّةِ فِي الْمَالِ،فَإِنَّ حُرْمَةَ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ،وَالأَهْلِ مِثْلُهُ وَأَوْكَدُ .

وَقَالُوا:وَلاَ يُسْقِطُ هَذِهِ الْهِجْرَةَ الْوَاجِبَةَ إِلاَّ تَصَوُّرُ الْعَجْزِ عَنْهَا بِكُلِ وَجْهٍ وَحَالٍ،لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) } [النساء].

قَالُوا:فَهَذَا الاسْتِضْعَافُ الْمَعْفُوُّ عَمَّنِ اتَّصَفَ بِهِ غَيْرُ الاسْتِضْعَافِ الْمُعْتَذَرِ بِهِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ وَصَدْرِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء:٩٧]،وَهُوَ قَوْلِ الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ:{ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ } فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَل قَوْلَهُمْ فِي الاعْتِذَارِ بِهِ،فَدَل عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنْ وَجْهٍ مَا،وَعَفَا عَنِ الاسْتِضْعَافِ الَّذِي لاَ يُسْتَطَاعُ مَعَهُ حِيلَةٌ وَلاَ يُهْتَدَى بِهِ سَبِيلٌ بِقَوْلِهِ { فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ } وَعَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ .فَالْمُسْتَضْعَفُ الْمَعْفُوُّ عَنْهُ فِي الْعَجْزِ عَنِ الْهِجْرَةِ هُوَ الْعَاجِزُ مِنْ كُل وَجْهٍ .فَإِذَا عَجَزَ الْمُبْتَلَى بِهَذِهِ الإِقَامَةِ عَنِ الْفِرَارِ بِدِينِهِ،وَلَمْ يَسْتَطِعْ سَبِيلاً إِلَيْهَا،وَلاَ ظَهَرَتْ لَهُ حِيلَةٌ وَلاَ قُدْرَةٌ عَلَيْهَا بِوَجْهٍ وَلاَ حَالٍ،أَوْ كَانَ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ أَوِ الْمَأْسُورِ،أَوْ كَانَ مَرِيضًا جِدًّا،أَوْ

[٥٥٢٢] - صحيح البخاري (٥/ ١٢٩)(٤١٩٢)

[ش (تكلموا بالاسلام) نطقوا بالشهادتين وأظهروا الإسلام.(أهل ضرع) أصحاب ماشية.(ريف) أرض فيها زرع وخصب]

[٥٥٢٣] - صحيح البخاري (٧/ ١٣٠)(٥٧٢٨) وصحيح مسلم (٤/ ١٧٣٨)٩٥ - (٢٢١٨)

ضَعِيفًا جِدًّا،فَحِينَئِذٍ يُرْجَى لَهُ الْعَفْوُ،وَيَصِيرُ بِمَثَابَةِ الْمُكْرَهِ عَلَى التَّلَفُّظِ بِالْكُفْرِ،وَمَعَ هَذَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ قَائِمَةٌ أَنَّهُ لَوْ قَدَرَ وَتَمَكَّنَ لَهَاجَرَ،وَعَزْمٌ صَادِقٌ مُسْتَصْحَبٌ أَنَّهُ إِنْ ظَفِرَ بِمَكِنَةٍ وَقْتًا مَا فِيهَا هَاجَرَ،وَأَمَّا الْمُسْتَطِيعُ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ وَبِأَيِّ حِيلَةٍ تَمَكَّنَ مِنْهَا فَهُوَ غَيْرُ مَعْذُورٍ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنْ أَقَامَ [٥٥٢٤] .

وَأَمَّا قِسْمُ الطَّلَبِ فَيَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ:طَلَبُ دِينٍ وَطَلَبُ دُنْيَا .

فَأَمَّا طَلَبُ الدِّينِ فَيَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهِ إِلَى تِسْعِ أَقْسَامٍ:

الأَوَّلُ:سَفَرُ الْعِبْرَةِ،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [الروم:٩] وَهُوَ كَثِيرٌ .وَيُقَالُ:إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا طَافَ الأَرْضَ لِيَرَى عَجَائِبَهَا .وَقِيلَ:لِيُنَفِّذَ الْحَقَّ فِيهَا .

الثَّانِي:سَفَرُ الْحَجِّ .وَالأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ نَدْبًا فَهَذَا فَرْضٌ .

الثَّالِثُ:سَفَرُ الْجِهَادِ وَلَهُ أَحْكَامُهُ .

الرَّابِعُ:سَفَرُ الْمَعَاشِ،فَقَدْ يَتَعَذَّرُ عَلَى الرَّجُلِ مَعَاشُهُ مَعَ الإِقَامَةِ فَيَخْرُجُ فِي طَلَبِهِ لاَ يَزِيدُ عَلَيْهِ،مِنْ صَيْدٍ أَوِ احْتِطَابٍ أَوِ احْتِشَاشٍ،فَهُوَ فَرْضٌ عَلَيْهِ .

الْخَامِسُ:سَفَرُ التِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ الزَّائِدِ عَلَى الْقُوتِ،وَذَلِكَ جَائِزٌ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ } [البقرة:١٩٨] يَعْنِي التِّجَارَةَ،وَهِيَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِهَا فِي سَفَرِ الْحَجِّ،فَكَيْفَ إِذَا انْفَرَدَتْ .

السَّادِسُ:فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ .

[٥٥٢٤] - الْمِعْيَارَ الْمُعَرَّب للونشريسي (ط دَار الْغَرْبِ الإِسْلاَمِيّ) ٢ / ١٢١ وَمَا بَعْدَهَا، وانظر فَتْح الْعَلِيّ الْمَالك لعليش ١ / ٣٧٥

السَّابعُ:قَصْدُ الْبقَاعِ،وعن قَزَعَةَ قَالَ:سَمعْتُ أَبَا سَعيد الخُدْرِيَّ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ:– وَكَانَ غَزَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ ثنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً – قَالَ:سَمعْتُ أَرْبَعًا منَ النَّبيِّ ﷺ،فَأَعْجَبْنَني،قَالَ:" لاَ تُسَافرِ المَرْأَةُ مَسيرَةَ يَوْمَيْنِ إلَّا وَمَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ،ولاَ صَوْمَ في يَوْمَيْنِ:الفطْرِ وَالأَضْحَى،وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَ الصُّبْحِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،وَلاَ بَعْدَ العَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ،وَلاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا إلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجدَ:مَسْجدِ الحَرَامِ،وَمَسْجدِ الأَقْصَى،وَمَسْجدِي هَذَا [٥٥٢٥]".

الثَّامنُ:الثُّغُورُ للرِّبَاط بهَا وَتَكْثير سَوَادهَا للذَّبِّ عَنْهَا .

التَّاسعُ:زيَارَةُ الإِخْوَان في اللَّه تَعَالَى،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،عَنِ النَّبيِّ ﷺ،" أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى،فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ،عَلَى مَدْرَجَته،مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْه،قَالَ:أَيْنَ تُريدُ؟ قَالَ:أُريدُ

[٥٥٢٥] – صحيح البخاري (٣/ ٤٣)(١٩٩٥) وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٥)٤١٥ – (٨٢٧)

(«لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ») : جَمْعُ رَحْلٍ، وَهُوَ كَوْرُ الْبَعيرِ، وَالْمُرَادُ نَفْيُ فَضيلَة شَدِّهَا وَرَبْطهَا (إلَّا إلَى ثَلَاثَة مَسَاجدَ) : قيلَ: نَفْيٌ مَعْنَاهُ نَهْيٌ أَيْ: لَا تَشُدُّوا إلَى غَيْرِهَا لأَنَّ مَا سوَى الثَّلَاثَة مُتَسَاوٍ في الرُّتْبَة غَيْرُ مُتَفَاوت في الْفَضيلَة، وَكَانَ التَّرَحُّلُ إلَيْه ضَائعًا وَعَبَثًا.وَفي شَرْحِ مُسْلمٍ للنَّوَوِيِّ قَالَ أَبُو مُحَمَّد: يَحْرُمُ شَدُّ الرَّحْلِ إلَى غَيْرِ الثَّلَاثَة وَهُوَ غَلَطٌ، وَفي الْإحْيَاء: ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاء إلَى الاسْتدْلَال به عَلَى الْمَنْعِ منَ الرِّحْلَة لزيَارَة الْمَشَاهد وَقُبُورِ الْعُلَمَاء وَالصَّالحينَ، وَمَا تَبَيَّنَ في أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلكَ، بَلِ الزِّيَارَةُ مَأْمُورٌ بهَا لخَبَرِ: («كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زيَارَة الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا») .وَالْحَديثُ إنَّمَا وَرَدَ نَهْيًا عَنِ الشَّدِّ لغَيْرِ الثَّلَاثَة منَ الْمَسَاجد لتَمَاثُلهَا، بَلْ لَا بَلَدَ إلَّا وَفيهَا مَسْجدٌ، فَلَا مَعْنَى للرِّحْلَة إلَى مَسْجدٍ آخَرَ، وَأَمَّا الْمَشَاهدُ فَلَا تُسَاوي بَلْ بَرَكَةُ زيَارَتهَا عَلَى قَدْرِ دَرَجَاتهمْ عنْدَ اللَّه، ثُمَّ لَيْتَ شعْري هَلْ يَمْنَعُ هَذَا الْقَائلُ منْ شَدِّ الرَّحْلِ لقُبُورِ الْأَنْبيَاء كَإبْرَاهيمَ وَمُوسَى وَيَحْيَى، وَالْمَنْعُ منْ ذَلكَ في غَايَة الْإحَالَة، وَإذَا جُوِّزَ ذَلكَ لقُبُورِ الْأَنْبيَاء وَالْأَوْليَاءُ في مَعْنَاهُمْ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ ذَلكَ منْ أَغْرَاضِ الرِّحْلَة، كَمَا أَنَّ زيَارَةَ الْعُلَمَاء في الْحَيَاة منَ الْمَقَاصد.(مَسْجد الْحَرَامِ) : بالْجَرِّ عَلَى الْبَدَليَّة، وَقيلَ بالرَّفْعِ وَالنَّصْب وَوَجْهُهُمَا ظَاهرٌ (وَالْمَسْجد الْأَقْصَى) : وَصَفَهُ بالْأَقْصَى لبُعْده عَنِ الْمَسْجد الْحَرَامِ، وَلَعَلَّ تَقْديمَهُ عَلَى الْمَسْجد النَّبَويِّ لتَقَدُّمه وُجُودًا (وَمَسْجدي هَذَا) : قَالَ ابْنُ الْمَلَك: يُريدُ به مَسْجدَ الْمَدينَة، وَمَزيَّةُ هَذه الْمَسَاجد لكَوْنهَا أَبْنيَةَ الْأَنْبيَاء عَلَيْهمُ السَّلَامُ وَمَسَاجدَهُمْ.قُلْتُ: وَلأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهَا في كتَابه الْقَديمِ عَلَى وَجْه التَّعْظيمِ وَالتَّكْريمِ، وَفيه إشَارَةٌ إلَى أَرْجَحيَّة الْقَوْلِ بأَنَّ الْمُرَادَ بقَوْله تَعَالَى: {لَمَسْجدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى} [التوبة: ١٠٨] هُوَ الْمَسْجدُ النَّبَويُّ، ثُمَّ مَسْجدُ قُبَاء تَابعٌ لمَسْجده، أَوْ مُلْحَقٌ به اقْتدَاءً به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ لمَا يَأْتي، وَلَعَلَّهُ إنَّمَا تَرَكَ ذكْرَهُ لأَنَّهُ ممَّا لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَيْه غَالبًا.(مُتَّفَقٌ عَلَيْه) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٥٨٩)

أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ،قَالَ:هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ:لَا،غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،قَالَ:فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ،بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ "[٥٥٢٦].

[٥٥٢٦] - صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٨)٣٨ - (٢٥٦٧)

[ش (فأرصد) أي أقعده يرقبه (على مدرجته) المدرجة هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون (تربها) أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك]

أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ) أَيْ: أَرَادَ زِيَارَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَوْ مُتَوَاخِيهِ فِي اللَّهِ وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَخَاهُ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا (فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى) أَيْ: غَيْرِ مَكَانِ الزَّائِرِ (فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ) أَيْ: أَعَدَّ وَهَيَّأَ أَوْ أَقْعَدَ فِي طَرِيقِهِ (مَلَكًا) : وَفِي النِّهَايَةِ أَيْ: وَكَّلَهُ بِحِفْظِ مَدْرَجَتِهِ يُقَالُ: رَصَدْتُهُ إِذْ قَعَدْتَ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ تَتَرَقَّبُهُ اهـ.فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤] فِيهِ تَجْرِيدٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ مُرَاقِبٌ لِلْعِبَادِ، قَالَ: الْمَدْرَجَةُ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ هِيَ الطَّرِيقُ سُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يُدْرَجُونَ عَلَيْهَا أَيْ: يَمْضُونَ وَيَمْشُونَ اهـ.وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمَدْرَجَةَ مِنَ الطَّرِيقِ مَكَانٌ مُرْتَفِعٌ يَمْشِي فِيهِ دَرَجَةً دَرَجَةً فِي الطُّلُوعِ وَالنُّزُولِ، وَمِنْهُ مَدْرَجَةُ مِنًى الَّتِي هِيَ وَصْلَةٌ إِلَى مِنًى يَعْرِفُهَا مَنْ ذَهَبَ فِي طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى عَرَفَاتِ الْهَنَا مِنْ هُنَا.(قَالَ) : اسْتِئْنَافُ جَوَابٍ لِمَنْ قَالَ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ أَيِ: الْمَلَكُ لِلزَّائِرِ.(أَيْنَ تُرِيدُ؟) : الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَجَاهُلِ الْعَارِفِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّوْرِيَةِ حَيْثُ إِنَّ مَقْصُودَهُ الْأَصْلِيَّ مَنْ تُرِيدُ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ ذِكْرَهُ وَالْإِنَاءُ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيهِ.(قَالَ) : أَيِ: الزَّائِرُ (أُرِيدُ أَخًا) أَيْ: زِيَارَةَ أَخٍ (لِي) أَيْ: مُخْتَصًّا لِي (فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ) : وَلَعَلَّ تَعْيِينَهَا عُلِمَ بِالْإِشَارَةِ.وَأَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ ؛ لِيَتَضَمَّنَ الْمَرَامَ عَلَى نَوْعٍ مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: لَا تَسْأَلْ عَنِ الْمَحَلِّ وَاكْتَفِ بِالسُّؤَالِ عَنِ الْحَالِ، فَإِنَّ هَذَا طَرِيقُ أَرْبَابِ الْحَالِ بِلَا مُحَالٍ.

قَالَ الطِّيبِيُّ، فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ هَذَا سُؤَالَهُ بِقَوْلِهِ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّ السُّؤَالَ مُتَضَمِّنٌ لِقَوْلِهِ أَيْنَ تَتَوَجَّهُ وَمَنْ تَقْصِدُ، وَلَمَّا كَانَ قَصْدُهُ الْأَوْلَى الزِّيَارَةَ ذَكَرَهُ وَتَرَكَ مَا لَا يُهِمُّهُ.قُلْتُ: هَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ لَوْ لَمْ يَقُلْ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: " {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٣] " لَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ السُّؤَالِ فِي اسْتِعْجَالِهِ إِنْكَارَ تَرْكِهِ الْقَوْمَ وَرَاءَهُ وَتَقَدُّمَهُ عَلَيْهِمْ قَدَّمَهُ فِي الْجَوَابِ، وَأَخَّرَ مَا وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْهُ.قُلْتُ: فِي كَوْنِهِ نَظِيرًا لَهُ نَظَرٌ، بَلْ مِثَالٌ لَهُ بِحَسَبِ الْمَعْنَى، وَتَوْضِيحُهُ مَا ذَكَرَهُ الْبَيْضَاوِيُّ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى} [طه: ٨٣] سُؤَالٌ عَنْ سَبَبِ الْعَجَلَةِ يَتَضَمَّنُ إِنْكَارَهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهَا انْضَمَّ إِلَيْهَا إِغْفَالُ الْقَوْمِ وَإِبْهَامُ التَّعْظِيمِ عَلَيْهِمْ، فَلِذَلِكَ أَجَابَ مُوسَى عَنِ الْأَمْرَيْنِ، وَقَدَّمَ جَوَابَ الْإِنْكَارِ ؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ {قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي} [طه: ٨٤] أَيْ: مَا تَقَدَّمَ عَنْهُمْ إِلَّا بِخُطًا يَسِيرَةٍ لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَادَةً، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ إِلَّا مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ يَتَقَدَّمُ بِهَا الرُّفْقَةُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٤]، فَإِنَّ الْمُسَارَعَةَ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِكَ وَالْوَفَاءِ بِوَعْدِكَ يُوجِبُ مَرْضَاتَكَ اهـ.

(قَالَ) أَيِ: الْمَلَكُ لِلزَّائِرِ (هَلْ لَكَ عَلَيْهِ) أَيْ: عَلَى الْمَزُورِ (مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟) : بِضَمِّ الرَّاءِ وَالْمُوَحَّدَةِ الْمُشَدَّدَةِ أَيْ: تَقُومُ بِإِصْلَاحِهَا وَإِتْمَامِهَا أَيْ: هَلْ هُوَ مَمْلُوكُكَ أَوْ وَلَدُكَ أَوْ غَيْرُهُمَا مِمَّنْ هُوَ فِي نَفَقَتِكَ وَشَفَقَتِكَ ؛ لِتُحْسِنَ إِلَيْهِ مِنْ رَبَّ فُلَانٌ الضَّيْعَةَ أَيْ: أَصْلَحَهَا وَأَتَمَّهَا.وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا أَيْ: تَقُومُ لِشُكْرِهَا؟ ثُمَّ قِيلَ: نِعْمَةٌ: مُبْتَدَأٌ، وَمِنْ زَائِدَةٌ، وَلَكَ خَبَرُهُ، وَعَلَيْهِ، مُتَعَلِّقٌ بِحَالٍ مَحْذُوفٍ أَيْ: هَلْ لَكَ نِعْمَةٌ دَاعِيَةٌ عَلَى زِيَارَتِهِ تَرُبُّهَا أَيْ: تَحْفَظُهَا وَتَتَزَيَّدُهَا بِالْقِيَامِ عَلَى شُكْرِهَا؟ وَقَالَ الطِّيبِيُّ أَيْ: هَلْ أَوْجَبْتَ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَذْهَبُ إِلَيْهَا فَتَرُبُّهَا

هِجْرَةُ الْمَرْأَةِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ:

ذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ - تَفْرِيعًا عَلَى قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ فِي حَقِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ إِظْهَارَ دِينِهِ فِي دَارِ الْكُفْرِ - إِلَى وُجُوبِهَا عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ شُرُوطِ السَّفَرِ فِي حَقِّهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِي[٥٥٢٧].

قَال الْمَالِكِيَّةُ:لَوْ أَسْلَمَتِ الْمَرْأَةُ بِدَارِ الْحَرْبِ فَإِنَّهَا تَخْرُجُ مِنْهَا مَعَ رُفْقَةٍ مَأْمُونَةٍ،فَإِنْ لَمْ تَجِدْهَا وَكَانَ يَحْصُل بِكُلٍّ مِنْ بَقَائِهَا وَخُرُوجِهَا ضَرَرٌ فَإِنْ خَفَّ أَحَدُهُمَا ارْتَكَبَتْهُ،وَإِنْ تَسَاوَيَا خُيِّرَتْ [٥٥٢٨].

وَقَال الشَّافِعِيَّةُ:تَجِبُ الْهِجْرَةُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِظْهَارَ دِينِهِ وَخَافَ فِتْنَةً فِيهِ،إِنْ أَطَاقَهَا،وَيُعَدُّ عَاصِيًا بِإِقَامَتِهِ،وَلَوْ أُنْثَى لَمْ تَجِدْ مَحْرَمًا مَعَ أَمْنِهَا عَلَى نَفْسِهَا،أَوْ كَانَ خَوْفُ الطَّرِيقِ أَقَل مِنْ خَوْفِ الإِْقَامَةِ،وَاسْتَثْنَى الشَّافِعِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ عَلَى الْقَادِرِ عَلَيْهَا مِمَّنْ لاَ يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ دِينِهِ فِي دَارِ الْكُفْرِ:مَنْ فِي إِقَامَتِهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَتَجُوزُ لَهُ الإِْقَامَةُ فِيهَا .قَال الرَّمْلِيُّ:بَل تُرَجَّحُ عَلَى الْهِجْرَةِ [٥٥٢٩]،أَخْذًا مِمَّا جَاءَ أَنَّ الْعَبَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْلَمَ قَبْل بَدْرٍ،وَاسْتَمَرَّ مُخْفِيًا إِسْلاَمَهُ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ،يَكْتُبُ بِأَخْبَارِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ

أَيْ: تَمْلكُهَا مِنْهُ وَتَسْتَوْفيهَا؟ (قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّه) أَيْ: لَيْسَ لِي دَاعِيَةٌ إِلَى زِيَارَتِه إِلَّا مَحَبَّتِي إِيَّاهُ فِي طَلَبِ مَرْضَاة اللَّه (قَالَ) أَي: الْمَلَكُ (فَإِنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه) : وَلَعَلَّ وَجْهَ التَّشْبِيه أَنَّهُ كَمَا أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ دُنْيَوِيٍّ، كَذَلِكَ الْحَقُّ أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ بَاعِث آخَرَ مِنْ عَمَلٍ أُخْرَوِيٍّ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْكَافُ لِلتَّعْليلِ، كَقَوْلِه تَعَالَى: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [البقرة: ١٩٨] قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيه فَضْلُ الْمَحَبَّة فِي اللَّه، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللَّه وَفَضِيلَةُ زِيَارَة الصَّالِحِينَ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَرَى الْمَلَائِكَةَ.قُلْتُ: رُؤْيَةُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمَلَائِكَة عَلَى صُوَرِ الْبَشَرِ أَمْرٌ وَاضِحٌ ثَبَتَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ فِي حَدِيث جِبْرِيلَ وَغَيْرِه، وَإِنَّمَا يُقَالُ هُنَا فِيه دَلِيلٌ عَلَى إِرْسَالِ اللَّه الْمَلَائِكَةَ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَمُخَاطَبَته إِيَّاهُمْ بِتَبْلِيغِ الْمَرَامِ زِيَادَةً عَلَى مَرْتَبَة الْإِلْهَامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْأُمَمِ السَّابِقَة تَحْقِيقًا لِخَتْمِ النُّبُوَّة، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣١٣٤)

.

[٥٥٢٧] - نِهَايَة الْمُحْتَاجِ ٨ / ٧٨، وكفاية الطَّالب الرَّبَّانيّ مَعَ حَاشِيَةِ الْعَدَوِيّ ٢ / ٤٥٠، والزرقاني ٢ / ٢٣٧، والمبدع ٣ / ٣١٤

[٥٥٢٨] - شَرح الزُّرْقَانيّ ٢ / ٢٣٧

[٥٥٢٩] - تُحْفَة الْمُحْتَاج وَحَاشِيَة الشرواني عَلَيْه ٩ / ٢٦٩ وَمَا بَعْدَهَا، وأسنى الْمَطَالب وَحَاشِيَة الرَّمْليّ عَلَيْه ٤ / ٢٠٤، ونهاية المحتاج ٨ / ٧٨

ﷺ،وكَانَ يُحِبُّ الْقُدُومَ عَلَيْهِ فَيَكْتُبُ لَهُ أَنَّ مَقَامَكَ بِمَكَّةَ خَيْرٌ،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،قَالَ:كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ[٥٥٣٠].

وَقَال الْحَنَابِلَةُ:إِذَا وَجَبَتِ الْهِجْرَةُ لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى إِظْهَارِ الدِّينِ وَإِطَاقَتِهَا،فَلاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الرَّجُل وَالْمَرْأَةِ،وَلَوْ كَانَتْ فِي عِدَّةٍ بِلاَ رَاحِلَةٍ وَلاَ مَحْرَمٍ .

وَفِي عُيُونِ الْمَسَائِل وَالرِّعَايَتَيْنِ:إِنْ أَمِنَتْ عَلَى نَفْسِهَا مِنَ الْفِتْنَةِ فِي دِينِهَا لَمْ تُهَاجِرْ إِلاَّ بِمَحْرَمٍ كَالْحَجِّ .وَزَادَ فِي الشَّرْحِ وَشَرْحِ الْهِدَايَةِ لِلْمَجْدِ:وَإِنْ لَمْ تَأْمَنْهُمْ فَلَهَا الْخُرُوجُ حَتَّى وَحْدَهَا[٥٥٣١] .

أَمَّا الْحَنَفِيَّةُ:فَقَدْ نَصُّوا عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَسْلَمَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ أَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً أَسِيرَةً – كَانَ لَهَا أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ بِدُونِ مَحْرَمٍ ؛ لأَِنَّهَا لاَ تَقْصِدُ سَفَرًا،وَإِنَّمَا تَطْلُبُ الْخَلاَصَ حَتَّى لَوْ وَصَلَتْ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ،وَلَهُمْ مَنَعَةٌ لاَ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَتُسَافِرَ[٥٥٣٢] .

عِدَّةُ الْمُهَاجِرِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ .

نَصَّ الْحَنَفِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ:تُنْكَحُ الْمُهَاجِرَةُ الْحَائِل بِلاَ عِدَّةٍ،فَيَجُوزُ تَزَوُّجُ مَنْ هَاجَرَتْ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الإِْسْلاَمِ مُسْلِمَةً أَوْ ذِمِّيَّةً وَلاَ عِدَّةَ عَلَيْهَا .أَمَّا الْحَامِل فَلاَ يَجُوزُ تَزَوُّجُهَا حَتَّى تَضَعَ وَهَذَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ،وَقَال أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ:يَجِبُ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ لأَِنَّهَا حُرَّةٌ فَارَقَتْ زَوْجَهَا بَعْدَ الإِْصَابَةِ،وَفُرْقَتُهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ الإِْسْلاَمِ،فَتَلْزَمُهَا الْعِدَّةُ كَالْمُطَلَّقَةِ فِي دَارِنَا،وَهَذَا لأَِنَّ الْعِدَّةَ حَقُّ الشَّرْعِ،كَيْلاَ يَجْتَمِعَ مَاءُ رَجُلَيْنِ فِي رَحِمِهَا وَذَلِكَ مُحْتَرَمٌ حَتَّى يَثْبُتَ نَسَبُهُ إِلَى سَنَتَيْنِ،بِخِلاَفِ الْمُطَلَّقَةِ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَهِيَ حَرْبِيَّةٌ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَيْنَا حَيْثُ لاَ تَجِبُ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ؛ لأَِنَّ الطَّلاَقَ وَقَعَ غَيْرَ مُوجِبٍ لِلْعِدَّةِ لِكَوْنِهَا غَيْرَ مُخَاطَبَةٍ،فَلاَ يَنْقَلِبُ مُوجِبًا،وَلأَِبِي حَنِيفَةَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ

[٥٥٣٠] – الطبقات الكبرى ط دار صادر (٤/ ٣١)وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/ ٨٠) سنده واه، وقال الحافظ في " الإصابة " والصحيح أن العباس أسلم يوم بدر

[٥٥٣١] – كَشَّاف الْقِنَاع ٣ / ٤٤، والمبدع ٣ / ٣١٤، والفروع لاِبْن مُفْلِح ٦ / ١٩٧

[٥٥٣٢] – تَبْيِين الْحَقَائِقِ ٣ / ١٧٤، والبحر الرَّائق ٢ / ٣٣٨

إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الممتحنة:١٠] فَأَبَاحَ نِكَاحَ الْمُهَاجِرَةِ مُطْلَقًا فَتَقْيِيدُهُ بِمَا بَعْدَ الْعِدَّةِ زِيَادَةٌ،الزِّيَادَةُ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ،وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} ،فَمَنْ مَنَعَ فَقَدْ أَمْسَكَ وَلأَنَّهَا فُرْقَةٌ وَقَعَتْ بِتَبَايُنِ الدَّارَيْنِ فَلاَ تُوجِبُ الْعِدَّةَ كَمَا فِي الْمَسْبِيَّةِ،وَهَذَا لأَنَّ تَبَايُنَ الدَّارَيْنِ مُنَافٍ لِلنِّكَاحِ فَيَكُونُ مُنَافِيًا لأَثَرِهِ،وَالْعِدَّةُ مِنْ أَثَرِهِ،وَلأَنَّهُ لَوْ وَجَبَ لَوَجَبَ حَقًّا لِلزَّوْجِ وَلاَ حُرْمَةَ لِلْحَرْبِيِّ،وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ حَامِلاً فَلاَ نَقُول بِوُجُوبِ الْعِدَّةِ عَلَيْهَا وَلَكِنْ لاَ يَصِحُّ نِكَاحُهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا ؛ لأَنَّ فِي بَطْنِهَا وَلَدًا ثَابِتَ النَّسَبِ مِنَ الْغَيْرِ،وَذَلِكَ يَمْنَعُ النِّكَاحَ كَأُمِّ الْوَلَدِ إِذَا حَبِلَتْ مِنْ مَوْلاَهَا لاَ يُزَوِّجُهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا .وَرَوَى الْحَسَنُ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ يَصِحُّ النِّكَاحُ وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبُهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا ؛ لأَنَّهُ لاَ حُرْمَةَ لِمَاءِ الْحَرْبِيِّ فَكَانَ كَالزَّانِي وَالأَوَّل أَصَحُّ ؛ لأَنَّ نَسَبَهُ ثَابِتٌ،فَكَانَ الرَّحِمُ مَشْغُولاً بِحَقِّ الْحَمْلِ مِنَ الزِّنَا[٥٥٣٣] .

مَا يَلْحَقُ بِدَارِ الْكُفْرِ فِي الْحُكْمِ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ مِنْهَا:

أَلْحَقَ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ بِدَارِ الْحَرْبِ فِي الْحُكْمِ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ مِنْهَا عَلَى مَنْ أَطَاقَهَا وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ فِي إِقَامَتِهِ بِهَا دَارَ الْبُغَاةِ وَدَارَ الْبِدْعَةِ[٥٥٣٤] .

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ أَنَّ الْهِجْرَةَ مِنْ أَرْضِ الْحَرَامِ وَالْبَاطِل بِظُلْمٍ أَوْ فِتْنَةٍ فَرِيضَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أَنَّهُ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ،يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»[٥٥٣٥] ،وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ:لاَ يُقِيمُ أَحَدٌ فِي مَوْضِعٍ يُعْمَل فِيهِ بِغَيْرِ

٥٥٣٣ - تَبْيِين الْحَقَائِق ٢ / ١٧٧، وحاشية ابْن عَابِدِينَ ٢ / ٣٩٢، وأحكام الْقُرْآن لِلْجَصَّاص ص ٣ / ٥٣٨ – ٥٤١ وَانْظُرْ آرَاءَ الْفُقَهَاءِ فِي أَثَرِ اخْتِلاَفِ الدَّارَيْنِ عَلَى النِّكَاحِ فِي مُصْطَلَحِ (اخْتِلاَف الدَّارَيْنِ ف ٥)

٥٥٣٤ - كَشَّاف الْقِنَاع ٣ / ٤٣، وشرح مُنْتَهَى الإِْرَادَات ٢ / ٩٤، والمبدع ٣ / ٣١٤، والفروع ٦ / ١٩٧

٥٥٣٥ - صحيح البخاري (١/ ١٣)(١٩)

[ش (يوشك) يقرب.(غنم) اسم جنس يقع على الذكور والإناث جميعا وعلى الذكور وحدها والإناث وحدها.(شعف الجبال) رؤوس الجبال والمفرد شعفة.(مواقع القطر) مواضع نزول المطر.(يفر بدينه من الفتن) يهرب خوفا من أن يفتن في دينه ويخوض في الفساد مع الخائضين]

الْحَقِّ .قَال ابْنُ الْعَرَبِيِّ:فَإِنْ قِيل:فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ بَلَدٌ إِلاَّ كَذَلِكَ ؟ قُلْنَا:يَخْتَارُ الْمَرْءُ أَقَلَّهَا إِثْمًا،مِثْل أَنْ يَكُونَ بَلَدٌ بِهِ كُفْرٌ،فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ خَيْرٌ مِنْهُ،أَوْ بَلَدٌ فِيهِ عَدْلٌ وَحَرَامٌ،فَبَلَدٌ فِيهِ جَوْرٌ وَحَلاَلٌ خَيْرٌ مِنْهُ لِلْمُقَامِ،أَوْ بَلَدٌ فِيهِ مَعَاصٍ فِي حُقُوقِ اللَّهِ فَهُوَ أَوْلَى مِنْ بَلَدٍ فِيهِ مَعَاصٍ فِي مَظَالِمِ الْعِبَادِ[٥٥٣٦] .

الْهِجْرَةُ مِنْ بَلَدٍ تُجْتَرَحُ فِيهَا الْمَعَاصِي:

اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى أَقْوَالٍ:

الأَْوَّل لِلْمَالِكِيَّةِ وَهُوَ قَوْل عَطَاءٍ:وَهُوَ وُجُوبُ الْهِجْرَةِ مِنَ الأَْرْضِ الَّتِي يُعْمَل فِيهَا بِالْمَعَاصِي .وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،فِي قَوْلِهِ:" {إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} [العنكبوت:٥٦] قَالَ:إِذَا عُمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي،فَاخْرُجْ مِنْهَا "[٥٥٣٧] .

قَال ابْنُ الْقَاسِمِ:سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُول:لاَ يَحِل لأَِحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِبَلَدٍ يُسَبُّ فِيهِ السَّلَفُ[٥٥٣٨] .

(" غَنَمٌ ") أَيْ: قِطْعَةٌ مِنَ الْغَنَمِ.قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: غَنَمٌ نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، وَهُوَ اسْمٌ يَكُونُ، وَالْخَبَرُ قَوْلُهُ: " خَيْرَ مَالٍ " مُعَرَّفٌ، فَلَا يَجُوزُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالْمُسْلِمِ الْجِنْسُ، فَلَا يُعْتَبَرُ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَفَائِدَةُ التَّقْدِيمِ أَنَّ الْمَطْلُوبَ حِينَئِذٍ الِاعْتِزَالُ وَتَحَرِّي الْخَبَرِ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ اهـ.وَقِيلَ: (يَجُوزُ رَفْعُ " خَيْرُ، وَغَنَمٌ " عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ فِي " يَكُونَ " ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَذَا الْمَفَاتِيحُ (" يَتَّبِعُ ") بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِسُكُونِهَا وَفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ أَيْ: يَتَتَبَّعُ (" بِهَا ") أَيْ: مَعَ الْغَنَمِ أَوْ بِسَبَبِهَا (" شَعَفَ الْجِبَالِ ") بِفَتْحِ الشِّينِ وَالْعَيْنِ أَيْ: رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَوْ أَعَالِيهَا، وَأَحَدُهَا شَعَفَةٌ (" وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ") بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ أَيْ: مَوَاضِعَ الْمَطَرِ وَآثَارَهُ مِنَ النَّبَاتِ وَأَوْرَاقَ الشَّجَرِ، يُرِيدُ بِهَا الْمَرْعَى مِنَ الصَّحْرَاءِ وَالْجِبَالِ، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ، وَفِي تَقْدِيمِ شَعَفِ الْجِبَالِ إِشْعَارٌ بِالْمُبَالَغَةِ فِي فَضِيلَةِ الِاعْتِزَالِ عَنِ الْخَلْقِ فِي تِلْكَ الْحَالِ.(" يَفِرُّ بِدِينِهِ ") أَيْ: بِسَبَبِ حِفْظِهِ مِنَ الْفِتَنِ أَيِ الْمِحَنِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ يَهْرُبُ (" مِنَ الْفِتَنِ ") الدُّنْيَوِيَّةِ مَصْحُوبًا بِدِينِهِ لِيَتَخَلَّصَ بِإِقَامَتِهِ هُنَاكَ عَنْهَا.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٣٨٦)

والمعنى: سيأتي عن قريب زمان تسوء فيه الأحوال، وتفسد الدنيا، وتكثر المعاصي ويألفها الناس، ويزول الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويضعف الدين حتى تصبح خير حياة يحياها المسلم حياة العزلة، وخير مال يعيش عليه أن يكون له غنم يرعاها على ذرى الجبال، ويتبع بها مواضع الأمطار " يفر بدينه من - صلى الله عليه وسلم - " أي من أجل أن يهرب من الفتن.ويستفاد منه: كما قال العيني: " فضل العزلة في أيام الفتن إلاّ لمن كان له قدرة على إزالتها، فإنه يجب عليه السعي في إزالتها وجوباً عينياً، أو كفائياً أما في غير الفتنة فقد قال النووي: ذهب الشافعي والأكثرون إلى تفضيل المخالطة لما فيها من شهود شعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين.منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١/ ١٠٠)

[٥٥٣٦] - عَارِضَة الأَْحْوَذِيّ لاِبْنِ الْعَرَبِيِّ ٧ / ٨٨ وَمَا بَعْدَهَا، وانظر فَتْح الْعَلِيّ الْمَالك لعليش ١ / ٣٧٥، والمعيار للونشريسي ٢ / ١٢١

[٥٥٣٧] - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤٣٣) صحيح

الثَّانِي لِلشَّافِعِيَّةِ:وَهُوَ أَنَّ كُل مَنْ أَظْهَرَ حَقًّا بِبَلْدَةٍ مِنْ بِلاَدِ الإِْسْلاَمِ وَلَمْ يُقْبَل مِنْهُ،وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِظْهَارِهِ،أَوْ خَافَ فِتْنَةً فِيهِ،فَتَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ مِنْهُ قَال الرَّمْلِيُّ:لأَنَّ الْمُقَامَ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرِ مُنْكَرٌ،وَلأَنَّهُ قَدْ يَبْعَثُ عَلَى الرِّضَا بِذَلِكَ .نَقَلَهُ الأَْذْرَعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ صَاحِبِ الْمُعْتَمَدِ[5539] .وَيُوَافِقُهُ قَوْل الْبَغَوِيِّ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُل مَنْ كَانَ بِبَلَدٍ تُعْمَل فِيهِ الْمَعَاصِي وَلاَ يُمْكِنُهُ تَغْيِيرُهَا الْهِجْرَةُ إِلَى حَيْثُ تَتَهَيَّأُ لَهُ الْعِبَادَةُ[5540]لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام:٦٨].هُوَ قَوْل الإِْمَامِ الْقُرْطُبِيِّ فِي تَذْكِرَتِهِ .حَكَاهُ صِدِّيق حَسَن خَان فِي (الْعِبْرَةِ مِمَّا جَاءَ فِي الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ وَالْهِجْرَةِ)[5541] .

وَقَدْ ذَكَرَ الْهَيْتَمِيُّ فِي التُّحْفَةِ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا إِذَا ظَهَرَتْ فِي بَلَدٍ بِحَيْثُ لاَ يَسْتَحْيِي أَهْلُهُ كُلُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ،لِتَرْكِهِمْ إِزَالَتَهَا مَعَ الْقُدْرَةِ،فَتَجِبُ الْهِجْرَةُ مِنْهُ ؛ لأَنَّ الإِْقَامَةَ حِينَئِذٍ مَعَهُمْ تُعَدُّ إِعَانَةً وَتَقْرِيرًا لَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي،بِشَرْطِ أَلاَّ يَكُونَ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ فِي ذَلِكَ،وَأَنْ يَقْدِرَ عَلَى الاِنْتِقَال لِبَلَدٍ سَالِمَةٍ مِنْ ذَلِكَ،وَأَلاَّ يَكُونَ فِي إِقَامَتِهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ،وَأَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ الْمُؤَنُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي الْحَجِّ[5542] .

الثَّالِثُ لِلْحَنَابِلَةِ:وَهُوَ أَنَّ الْهِجْرَةَ لاَ تَجِبُ مِنْ بَيْنِ أَهْل الْمَعَاصِي[5543] .

الرَّابِعُ لِلْمُلاَّ عَلِي الْقَارِيِّ:وَهُوَ أَنَّ الْهِجْرَةَ مِنَ الْوَطَنِ الَّذِي يُهْجَرُ فِيهِ الْمَعْرُوفُ،وَيَشِيعُ فِيهَا الْمُنْكَرُ،وَتُرْتَكَبُ فِيهِ الْمَعَاصِي مَنْدُوبَةٌ[5544] .

الإِْخْلاَصُ فِي الْهِجْرَةِ:

[5538] - أَحْكَام الْقُرْآنِ لاِبْنِ الْعَرَبِيِّ ١ / ٤٨٤، وتفسير الْقُرْطُبِيّ ٥ / ٣٥٠

[5539] - أَسْنَى الْمَطَالِب وَحَاشِيَة الرَّمْلِيّ عَلَيْهِ ٤ / ٢٠٤، وتحفة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٧٠

[5540] - تُحْفَة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٧٠

[5541] - الْعِبْرَة مِمَّا جَاءَ فِي الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ وَالْهِجْرَةِ ص ٢٢٢ (ط دَار الْكُتُب الْعِلْمِيَّة ١٤٠٥ﻫ)

[5542] - تُحْفَة الْمُحْتَاج ٩ / ٢٧٠، ٢٧١

[5543] - شَرْح مُنْتَهَى الإِْرَادَات ٢ / ٩٤، وكشاف الْقِنَاع ٣ / ٣٩، وَالْمُبْدِع ٣ / ٣١٤

[5544] - مِرْقَاة الْمَفَاتِيح ٤ / ١٨٢

لَمَّا كَانَت الْهجْرَةُ تَصَرُّفًا شَرْعيًّا،لَزِمَ فِي حَقِّ مَنْ كَانَتْ مَطْلُوبَةً منْهُ أَنْ يَقُومَ بهَا قَاصدًا بذَلكَ وَجْهَ اللَّه تَعَالَى وَحْدَهُ،حَتَّى يَنَال أَجْرَهَا وَثَوَابَهَا،وَيُحَقِّقَ مَقْصدَ الشَّارِع الْحَكيمِ منْ طَلَبِهَا،فَيَكُونُ مُهَاجرًا حَقًّا[5545].وَقَدْ نَبَّهَ الْمُصْطَفَى ﷺ فيمَا جاء عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب،قَالَ:قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّات،وَإِنَّمَا لكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،فَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكحُهَا،فَهجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»[5546] .

قَال ابْنُ رَجَب:فَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ حُبًّا للَّه وَرَسُوله،وَرَغْبَةً فِي تَعَلُّمِ دينِ الْإِسْلَامِ،وَإِظْهَارِ دينه حَيْثُ كَانَ يَعْجزُ عَنْهُ فِي دَارِ الشِّرْك،فَهَذَا هُوَ الْمُهَاجرُ إِلَى اللَّه وَرَسُوله حَقًّا،وَكَفَاهُ شَرَفًا وَفَخْرًا أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ مَا نَوَاهُ منْ هجْرَته إِلَى اللَّه وَرَسُوله.وَلهَذَا الْمَعْنَى اقْتَصَرَ فِي جَوَابِ هَذَا الشَّرْط عَلَى إِعَادَته بلَفْظه؛ لأَنَّ حُصُولَ مَا نَوَاهُ بهجْرَته نهَايَةُ الْمَطْلُوب فِي الدُّنْيَا وَالْآخرَة.وَمَنْ كَانَتْ هجْرَتُهُ منْ دَارِ الشِّرْك إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ لطَلَب دُنْيَا يُصِيبُهَا،أَو امْرَأَةٍ يَنْكحُهَا فِي دَارِ الْإِسْلَام،فَهجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه منْ ذَلكَ،فَالْأَوَّلُ تَاجرٌ،وَالثَّاني خَاطبٌ،وَلَيْسَ وَاحدٌ منْهُمَا بمُهَاجر.وَفي قَوْله:«إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه» تَحْقيرٌ لمَا طَلَبَهُ منْ أَمْرِ الدُّنْيَا،وَاسْتهَانَةٌ به،حَيْثُ لَمْ يُذْكَرْ بلَفْظه.وَأَيْضًا فَالْهجْرَةُ إِلَى اللَّه وَرَسُوله وَاحدَةٌ فَلَا تَعَدُّدَ فيهَا،فَلذَلكَ أَعَادَ الْجَوَابَ فيهَا بلَفْظ الشَّرْط.وَالْهجْرَةُ لأُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَنْحَصرُ،فَقَدْ يُهَاجرُ الْإِنْسَانُ لطَلَبِ دُنْيَا مُبَاحَة تَارَةً،وَمُحَرَّمَة تَارَةً،وَأَفْرَادُ مَا

[5545] - طَرَحَ التَّثْرِيب ٢ / ٣، وجامع الْعُلُوم وَالْحكَم ص٥، وفتح الْمُبِيِّن لِشَرْحِ الأَرْبَعِينَ ص ٥٤

[5546] - صحيح البخاري (١/ ٦)(١) وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٥)١٥٥ - (١٩٠٧)

[ش(إنما الأعمال بالنيات) أي صحة ما يقع من المكلف من قول أو فعل أو كماله وترتيب الثواب عليه لا يكون إلا حسب ما ينويه.و (النيات) جمع نية وهي القصد وعزم القلب على أمر من الأمور.(هجرته) الهجرة في اللغة الخروج من أرض إلى أرض ومفارقة الوطن والأهل مشتقة من الهجر وهو ضد الوصل.وشرعا هي مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة وقصدا لإقامة شعائر الدين.والمراد بها هنا الخروج من مكة وغيرها إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.(يصيبها) يحصلها.(ينكحها) يتزوجها.(فهجرته إلى ما هاجر إليه) أي جزاء عمله الغرض الدنيوي الذي قصده إن حصله وإلا فلا شيء له والظاهر أن الحكمة من البدء بهذا الحديث التنبيه على الإخلاص وتصحيح النية من كل طالب علم ومعلم أو متعلم وأن طالب العلم عامة والحديث خاصة بمنزلة المهاجر إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم]

يُقْصَدُ بِالْهِجْرَةِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَنْحَصِرُ،فَلِذَلِكَ قَالَ:«فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ،» يَعْنِي كَائِنًا مَا كَانَ.[٥٥٤٧] .وَقَال ابْنُ عَلاَّن:مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ نِيَّةً وَقَصْدًا،فَهِجْرَتُهُ إِلَيْهِمَا ثَوَابًا وَأَجْرًا،أَوْ فَهِجْرَتُهُ إِلَيْهِمَا حُكْمًا وَشَرْعًا [٥٥٤٨] .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥٥٤٧] - جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٧٣)

[٥٥٤٨] - الْفُتُوحَات الرَّبَّانِيَّة عَلَى الْأَذْكَارِ النَّوَوِيَّةِ ١ / ٥٨

خاتمة

من فوائد (جهاد الأعداء)

(١) الجهاد من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) هو دليل على حسن الظّنّ بالله وقوّة اليقين.

(٣) الجهاد لإعلاء كلمة الله فيه عزّ الإسلام والمسلمين وقمع الشّرك وأعوانه.

(٤) لولا الجهاد لاستفحل الشّر ولفسدت الأرض.

(٥) فيه تمحيص للقلوب واختبار للنّفوس.

(٦) الشّهداء أحياء عند ربّهم يرزقون.

(٧) من أسباب التّمكين في الأرض.

(٨) الجهاد فيه إرضاء لله وإذلال ودحر للشّيطان وأعوانه.

(٩) من أفضل كسب المؤمن غنائم الجهاد.

(١٠) جهاد الأعداء والانتصار عليهم فيه شفاء لصدور المؤمنين،وإذهاب لغيظ قلوبهم.

(١١) به ينال العبد أعلى الجنان ويقرّب من عرش الرّبّ الرّحمن.

(١٢) من أسمى معاني الجهاد إعلان العبوديّة لله- عزّ وجلّ- ودحض ما سواها.

(١٣) ليس ثمّة عمل يعدل الجهاد في سبيل الله.

(١٤) من الضّرورة بمكان أن يسأل العبد ربّه الشّهادة في سبيل الله دائما.[٥٥٤٩]

انتهى الكتاب والحمد لله

[٥٥٤٩] - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٥٠٥)

أهم المصادر التي رجعت إليها

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٣٩٣)
٢. أيسر التفاسير لأسعد حومد
٣. التحرير والتنوير (١٣٩٣)
٤. التفسير القرآني للقرآن (بعد ١٣٩٠)
٥. التفسير المنير للزحيلي (معاصر)
٦. التفسير الميسر
٧. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩٨٢)
٨. تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٣٢٧)
٩. تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (٣٢٧)
١٠. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥٤٢)
١١. تفسير ابن كثير ت سلامة (٧٧٤)
١٢. تفسير الألوسي = روح المعاني (١٢٧٠)
١٣. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (١٣٧٦)
١٤. تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٣١٠)
١٥. تفسير القاسمي = محاسن التأويل (١٣٣٢)
١٦. تفسير القرطبي (٦٧١)
١٧. تفسير المراغي (١٣٧١)
١٨. تفسير المنار (١٣٥٤)
١٩. فتح القدير للشوكاني (١٢٥٠)
٢٠. في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود
٢١. أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٥٤٣)
٢٢. أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣٧٠)
٢٣. أخبار مكة للأزرقي (٢٥٠)
٢٤. أمالي ابن بشران - الجزء الأول (٤٣٠)
٢٥. أمالي ابن بشران - الجزء الثاني (٤٣٠)
٢٦. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٨٤٠)
٢٧. إتحاف المهرة لابن حجر (٨٥٢)
٢٨. الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٢٨٧)
٢٩. الآداب للبيهقي (٤٥٨)
٣٠. الأدب المفرد مخرجا (٢٥٦)

٣١. الأموال لابن زنجويه (٢٥١)

٣٢. الأموال للقاسم بن سلام (٢٢٤)

٣٣. الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٣١٩)

٣٤. الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (٣٨٥)

٣٥. الترغيب والترهيب للمنذري (٦٥٦)

٣٦. التفسير من سنن سعيد بن منصور - مخرجا (٢٢٧)

٣٧. الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (معاصر)

٣٨. الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير (١٩٧)

٣٩. الجهاد لابن أبي عاصم (٢٨٧)

٤٠. الدعاء للطبراني (٣٦٠)

٤١. الدعوات الكبير (٤٥٨)

٤٢. الزهد الكبير للبيهقي (٤٥٨)

٤٣. الزهد لأبي داود (٢٧٥)

٤٤. الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١٨١)

٤٥. السنة لأبي بكر بن الخلال (٣١١)

٤٦. السنة للمروزي (٢٩٤)

٤٧. السنن الكبرى للبيهقي (٤٥٨)

٤٨. السنن الكبرى للنسائي (٣٠٣)

٤٩. السنن الواردة في الفتن للداني (٤٤٤)

٥٠. الشريعة للآجري (٣٦٠)

٥١. الفتن لنعيم بن حماد (٢٢٨)

٥٢. المراسيل لأبي داود (٢٧٥)

٥٣. المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤٠٥)

٥٤. المسند الجامع (معاصر)

٥٥. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٨٥٢)

٥٦. المعجم الأوسط (٣٦٠)

٥٧. المعجم الصغير للطبراني (٣٦٠)

٥٨. المعجم الكبير للطبراني (٣٦٠)

٥٩. المعجم الكبير للطبراني جـ ١٣، ١٤ (٣٦٠)

٦٠. المعجم الكبير للطبراني من جـ ٢١ (٣٦٠)

٦١. المنتخب من مسند عبد بن حميد ت مصطفى العدوي (٢٤٩)

٦٢. المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها (٣٢٧)

٦٣. تاريخ المدينة لابن شبة (٢٦٢)

٦٤. تغليق التعليق (٨٥٢)
٦٥. تهذيب الآثار – الجزء المفقود (٣١٠)
٦٦. تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٣١٠)
٦٧. تهذيب الآثار مسند علي (٣١٠)
٦٨. تهذيب الآثار مسند عمر (٣١٠)
٦٩. جامع الأصول (٦٠٦)
٧٠. جامع بيان العلم وفضله (٤٦٣)
٧١. جامع معمر بن راشد (١٥٣)
٧٢. جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد (١٠٩٤)
٧٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤٣٠)
٧٤. دلائل النبوة للبيهقي محققا (٤٥٨)
٧٥. سنن أبي داود (٢٧٥)
٧٦. سنن ابن ماجه (٢٧٣)
٧٧. سنن الترمذي ت شاكر (٢٧٩)
٧٨. سنن الدارقطني (٣٨٥)
٧٩. سنن الدارمي (٢٥٥)
٨٠. سنن النسائي (٣٠٣)
٨١. سنن سعيد بن منصور (٢٢٧)
٨٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤١٨)
٨٣. شرح السنة للبغوي (٥١٦)
٨٤. شرح مشكل الآثار (٣٢١)
٨٥. شرح معاني الآثار (٣٢١)
٨٦. شعب الإيمان (٤٥٨)
٨٧. صحيح ابن حبان – مخرجا (٣٥٤)
٨٨. صحيح ابن خزيمة (٣١١)
٨٩. صحيح البخاري (٢٥٦)
٩٠. صحيح مسلم (٢٦١)
٩١. عشرة النساء للإمام للنسائي – الطبعة الثالثة
٩٢. فضائل الأوقات للبيهقي (٤٥٨)
٩٣. فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم الأصبهاني (٤٣٠)
٩٤. فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢٤١)
٩٥. فوائد تمام (٤١٤)
٩٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨٠٧)

٩٧. مستخرج أبي عوانة (٣١٦)
٩٨. مسند أبي داود الطيالسي (٢٠٤)
٩٩. مسند أبي يعلى الموصلي (٣٠٧)
١٠٠. مسند أحمد (عالم الكتب)
١٠١. مسند أحمد ط الرسالة (٢٤١)
١٠٢. مسند ابن الجعد (٢٣٠)
١٠٣. مسند البزار = البحر الزخار (٢٩٢)
١٠٤. مسند الحميدي (٢١٩)
١٠٥. مسند الروياني (٣٠٧)
١٠٦. مسند الشاميين للطبراني (٣٦٠)
١٠٧. مصنف ابن أبي شيبة –دار القبلة
١٠٨. مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٢١١)
١٠٩. معجم ابن الأعرابي (٣٤٠)
١١٠. معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤٣٠)
١١١. مكارم الأخلاق للخرائطي (٣٢٧)
١١٢. مكارم الأخلاق للطبراني (٣٦٠)
١١٣. موسوعة السنة النبوية(لي)
١١٤. موطأ مالك ت عبد الباقي (١٧٩)
١١٥. الإصابة في معرفة الصحابة
١١٦. تقريب التهذيب
١١٧. تهذيب التهذيب
١١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة
١١٩. آصرة العقيدة هي الأساس
١٢٠. الأحكام الشرعية لشهداء الثورات العربية ط٣
١٢١. الأدلة الشرعية في جوازالعمليات الاستشهادية ط١
١٢٢. الخصال الموجبة لظل العرش ط ٣
١٢٣. الخلاصة في أحاديث الطائفة المنصورة
١٢٤. الخلاصة في أحكام أهل الذمة والمستأمنين
١٢٥. الخلاصة في أحكام الأسرى
١٢٦. الخلاصة في أحكام الانتحار
١٢٧. الخلاصة في أحكام التترس
١٢٨. الخلاصة في أحكام التجسس ط١
١٢٩. الخلاصة في أحكام التقية

١٣٠. الخلاصة في أحكام الجمعة
١٣١. الخلاصة في أحكام الشهيد
١٣٢. الخلاصة في أحكام دفع الصائل
١٣٣. الخلاصة في أهداف القتال في الإسلام
١٣٤. الخلاصة في بيان رأي شيخ الإسلام ابن تيمية بالرافضة
١٣٥. الخلاصة في حكم الاستعانة بالكفار في القتال معدلة
١٣٦. الخلاصة في فضائل الأعمال
١٣٧. الخلاصة في فضائل الجهاد في سبيل الله
١٣٨. الرد على بيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين حول عمليات الاختطاف
١٣٩. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ط٢
١٤٠. المفصل في أحاديث الفتن
١٤١. المفصل في أحاديث الملاحم
١٤٢. المفصل في تخريج حديث افتراق الأمة
١٤٣. المفصل في شرح الشروط العمرية
١٤٤. المفصل في شرح حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا
١٤٥. المفصل في عوامل النصر والهزيمة
١٤٦. المفصل في فقه الجهاد – ط٢
١٤٧. المهذب في عوامل النصر والهزيمة
١٤٨. المهذب في فضائل الجهاد في سبيل الله
١٤٩. المهذب في فضائل الشام
١٥٠. المهذب في فقه الجهاد وفضائله
١٥١. المهذب في فقه السياسة الشرعية
١٥٢. جزاء الشهداء يوم القيامة
١٥٣. ذم المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله
١٥٤. مراحل تشريع القتال في الإسلام
١٥٥. مشروعية المشاركة في المجالس التشريعية والتنفيذية المعاصرة
١٥٦. معالم في الطريق بتحقيقي
١٥٧. من مخازي الرافضة عبر التاريخ- وسط
١٥٨. موقف القرآن الكريم من اليهود والنصارى مهذبة ومعدلة
١٥٩. هل تخلى الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟
١٦٠. هل يعتبر الفراعنة بمصرع من سبقهم؟
١٦١. وجوب تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل شيء من أحوالنا
١٦٢. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام

١٦٣. الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ٤٦٣

١٦٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤٦٣)

١٦٥. التيسير بشرح الجامع الصغير (١٠٣١)

١٦٦. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم

١٦٧. المنتقى شرح الموطإ (٤٧٤)

١٦٨. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١٠٥٧)

١٦٩. سبل السلام (١١٨٢)

١٧٠. شرح الزرقاني على الموطأ (١١٢٢)

١٧١. شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩٢٣)

١٧٢. شرح النووي على مسلم (٦٧٦)

١٧٣. شرح صحيح البخارى لابن بطال (٤٤٩)

١٧٤. طرح التثريب في شرح التقريب (٨٠٦)

١٧٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨٥٥)

١٧٦. عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٣٢٩)

١٧٧. فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله (معاصر)

١٧٨. فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري

١٧٩. فيض القدير (١٠٣١)

١٨٠. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠١٤)

١٨١. معالم السنن (٣٨٨)

١٨٢. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري

١٨٣. نيل الأوطار (١٢٥٠)

١٨٤. الفتاوى الفقهية الكبرى (٩٧٤)

١٨٥. الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (معاصر)

١٨٦. الموسوعة الفقهية الكويتية – وزارة الأوقاف الكويتية

١٨٧. فتاوى الشبكة الإسلامية

١٨٨. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

١٨٩. فتاوى واستشارات الإسلام اليوم

١٩٠. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١٣٨٩)

١٩١. فتاوى يسألونك (معاصر)

١٩٢. فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك (١٢٩٩)

١٩٣. مجلة مجمع الفقه الإسلامي

١٩٤. مجموع فتاوى ابن باز (١٤٢٠)

١٩٥. موسوعة الفقه الإسلامي (معاصر)

١٩٦. موقع الإسلام سؤال وجواب
١٩٧. أحكام المجاهد بالنفس في سبيل الله عز وجل في الفقه الإسلامي (معاصر)
١٩٨. الروضة الندية شرح الدرر البهية ط المعرفة (١٣٠٧)
١٩٩. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (١٢٥٠)
٢٠٠. الفقه على المذاهب الأربعة (١٣٦٠)
٢٠١. المحلى بالآثار (٤٥٦)
٢٠٢. المرأة بين الفقه والقانون (١٣٨٤)
٢٠٣. الأشباه والنظائر - حنفي
٢٠٤. البحر الرائق شرح كتر الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٩٧٠)
٢٠٥. الجوهرة النيرة على مختصر القدوري (٨٠٠)
٢٠٦. الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (١٢٥٢)
٢٠٧. المبسوط للسرخسي (٤٨٣)
٢٠٨. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٥٨٧)
٢٠٩. تبيين الحقائق شرح كتر الدقائق وحاشية الشلبي (٧٤٣)
٢١٠. فتح القدير للكمال ابن الهمام (٨٦١)
٢١١. مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١٠٧٨)
٢١٢. التاج والإكليل لمختصر خليل (٨٩٧)
٢١٣. الذخيرة للقرافي (٦٨٤)
٢١٤. الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (١٢٣٠)
٢١٥. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١١٢٦)
٢١٦. الكافي في فقه أهل المدينة (٤٦٣)
٢١٧. المدونة (١٧٩)
٢١٨. بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٥٩٥)
٢١٩. شرح مختصر خليل للخرشي (١١٠١)
٢٢٠. منح الجليل شرح مختصر خليل (١٢٩٩)
٢٢١. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (٩٥٤)
٢٢٢. أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٩٢٦)
٢٢٣. الأم للشافعي (٢٠٤)
٢٢٤. الحاوي الكبير (٤٥٠)
٢٢٥. المجموع شرح المهذب (٦٧٦)
٢٢٦. تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي (٩٧٤)
٢٢٧. حاشية البجيرمي على الخطيب = تحفة الحبيب على شرح الخطيب (١٢٢١)
٢٢٨. حاشية الجمل على شرح المنهج = فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (١٢٠٤)

٢٢٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين (٦٧٦)
٢٣٠. فتح العزيز بشرح الوجيز = الشرح الكبير للرافعي (٦٢٣)
٢٣١. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٩٧٧)
٢٣٢. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١٠٠٤)
٢٣٣. نهاية المطلب في دراية المذهب (٤٧٨)
٢٣٤. الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٩٦٨)
٢٣٥. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٨٨٥)
٢٣٦. الشرح الكبير على متن المقنع (٦٨٢)
٢٣٧. الفروع وتصحيح الفروع (٧٦٣)
٢٣٨. الكافي في فقه الإمام أحمد (٦٢٠)
٢٣٩. المغني لابن قدامة (٦٢٠)
٢٤٠. عمدة الفقه (٦٢٠)
٢٤١. كشاف القناع عن متن الإقناع (١٠٥١)
٢٤٢. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (١٢٤٣)
٢٤٣. أحكام أهل الذمة (٧٥١)
٢٤٤. الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (٤٥٨)
٢٤٥. الأحكام السلطانية للماوردي (٤٥٠)
٢٤٦. شرح السير الكبير (٤٨٣)
٢٤٧. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (معاصر)
٢٤٨. السيرة النبوية لابن كثير (٧٧٤)
٢٤٩. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٩٤٢)
٢٥٠. سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (٢١٣)
٢٥١. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة
٢٥٢. أخبار الدولة العباسية (ق ٣)
٢٥٣. البداية والنهاية ط هجر (٧٧٤)
٢٥٤. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣١٠)
٢٥٥. الحسبة لابن تيمية ت الشحود (٧٢٨)
٢٥٦. الصارم المسلول على شاتم الرسول (٧٢٨)
٢٥٧. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٧٢٨)
٢٥٨. مجموع الفتاوى (٧٢٨)
٢٥٩. مختصر منهاج السنة (٧٢٨)
٢٦٠. منهاج السنة النبوية (٧٢٨)

٢٦١. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٧٥١)
٢٦٢. زاد المعاد في هدي خير العباد (٧٥١)
٢٦٣. طريق الهجرتين وباب السعادتين (٧٥١)
٢٦٤. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (٧٥١)
٢٦٥. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٧٥١)
٢٦٦. المكتبة الشاملة ٣

الفهرس العام